البحر المحيط

في

تفسير ...

لأبي حيان الأندلسي

تحقيق وتعليق

الشيخ علي محمد معوض — الشيخ عادل أحمد عبد الموجود

د. زكريا عبد المجيد النوقي — د. أحمد النجولي الجمل

تفسير ابن عطية

المحرر الوجيز

في

تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

المجلد الأول

تحقيق وتعليق

الرحالة الفاروق | عبد الله بن إبراهيم الأنصاري
السيد عبد العال السيد إبراهيم | محمد الشافعي الصادق العناني

مطبوعات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
إدارة الشؤون الإسلامية - دولة قطر

الطبعة الثانية
الدوحة ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

طبعة جديدة
بصف وإخراج جديد

التنفيذ الطباعي
في مطابع دار الخير

للمراسلة: دمشق - سوريا - حلبوني - جادة الشيخ تاج
هاتف المكتب: ٠١١/٢٢٤٥٨٢٢ - تلفاكس: ٠١١/٢٢٢٢٦٩٤
هاتف المكتبة: ٠١١/٢٢٢٨٠٧٤ ص.ب: ١٣٤٩٢
E-mail: abualkhair@mail.sy
Website: www.Daralkhair.com

بيروت - لبنان - فردان - جنوب سيّار الدرك - بناء الشامي
هاتف: ٠١/٨١٠٥٧١ - تلفاكس: ٠١/٨٦٥٦٩٧
ص.ب: ١١٣/٥٦٣٠ - الرمز البريدي: ١١٠٣/٢٠٦٠

دار الخير

فهرس الموضوعات

تفسير سورة البقرة

* * *

فهرس الموضوعات

تفسير سورة آل عمران

تفسير سورة النساء

* * *

فهرس الموضوعات

تفسير سورة المائدة

تفسير سورة الأنعام

تفسير سورة الأعراف

* * *

فهرس الموضوعات

تفسير سورة الأنفال

تفسير سورة التوبة

تفسير سورة يونس عليه السلام

تفسير سورة هود عليه السلام

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

تفسير سورة يوسف عليه السلام

تفسير سورة الرعد

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام

تفسير سورة الحجر

تفسير سورة النحل

تفسير سورة الإسراء

تفسير سورة الكهف

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

تفسير سورة مريم

تفسير سورة طه

تفسير سورة الأنبياء

تفسير سورة الحج

تفسير سورة المؤمنون

تفسير سورة النور

تفسير سورة الفرقان

تفسير سورة الشعراء

تفسير سورة النمل

تفسير سورة القصص

تفسير سورة العنكبوت

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع — الصفحة

تفسير سورة الروم

تفسير سورة لقمان

تفسير سورة السجدة

تفسير سورة الأحزاب

تفسير سورة سبأ

تفسير سورة فاطر

تفسير سورة يس

تفسير سورة الصافات

تفسير سورة صَ

تفسير سورة الزمر

تفسير سورة غافر

تفسير سورة فصّلت

تفسير سورة الشورى

تفسير سورة الزخرف

تفسير سورة الدخان

تفسير سورة الجاثية

تفسير سورة الأحقاف

تفسير سورة محمد

تفسير سورة الفتح

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

تفسير سورة الحجرات

تفسير سورة قٓ

تفسير سورة الذاريات

تفسير سورة الطور

تفسير سورة النجم

تفسير سورة القمر

تفسير سورة الرحمن

تفسير سورة الواقعة

تفسير سورة الحديد

تفسير سورة المجادلة

تفسير سورة الحشر

تفسير سورة الممتحنة

تفسير سورة الصف

تفسير سورة الجمعة

تفسير سورة المنافقون

تفسير سورة التغابن

تفسير سورة الطلاق

تفسير سورة التحريم

تفسير سورة الملك

تفسير سورة القلم

تفسير سورة الحاقة

تفسير سورة المعارج

تفسير سورة نوح

تفسير سورة الجن

تفسير سورة المزمل

تفسير سورة المدثر

تفسير سورة القيامة

تفسير سورة الإنسان

تفسير سورة المرسلات

تفسير سورة النبأ

تفسير سورة النازعات

تفسير سورة عبس

تفسير سورة التكوير

تفسير سورة الانفطار

تفسير سورة المطففين

تفسير سورة الانشقاق

تفسير سورة البروج

تفسير سورة الطارق

تفسير سورة الأعلى

تفسير سورة الغاشية

تفسير سورة الفجر

تفسير سورة البلد

تفسير سورة الشمس

تفسير سورة الليل

تفسير سورة الضحى

تفسير سورة الشرح

تفسير سورة التين

تفسير سورة العلق

تفسير سورة القدر

تفسير سورة البينة

تفسير سورة الزلزلة

تفسير سورة العاديات

تفسير سورة القارعة

تفسير سورة التكاثر

تفسير سورة العصر

تفسير سورة الهمزة

تفسير سورة الفيل

تفسير سورة قريش

تفسير سورة الماعون

تفسير سورة الكوثر

تفسير سورة الكافرون

تفسير سورة النصر

تفسير سورة المسد

تفسير سورة الإخلاص

تفسير سورة الفلق

تفسير سورة الناس

* * *

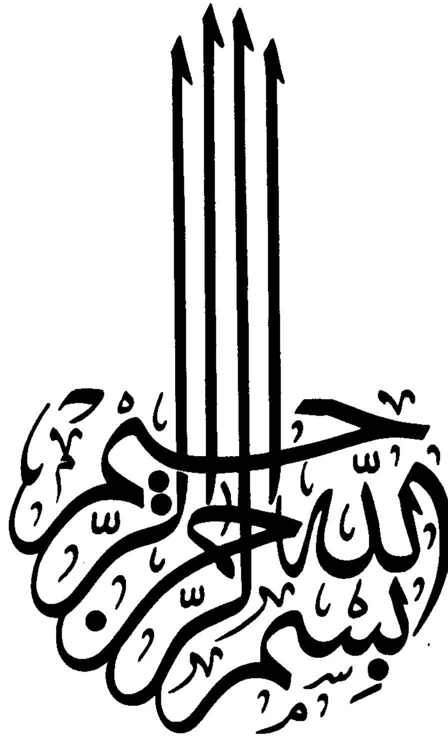
بسم الله الرحمن الرحيم

«تفسيرُ ابن عطية خيرٌ من تفسير الزمخشري، وأَصح نقلاً وبحثاً، وأَبعد عن البدع. . . . . . بلْ هو خير منه بكثير، بل لعله أَرجح هذه التفاسير».

(ابن تيمية)

«لمَّا رجع النَّاسُ إِلى ٱلتَّحقيق والتَّمحيص، وجاءَ أَبو محمد عبد الحق بن عطية من المتأَخرين بالمغرب، فلَخَّص تلك التفاسير كلها، وتَحَرَّى ماهو أَقرب إِلى الصحة منها».

(ابن خلدون)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الولي المنعم، والصلاة والسلام على النبي وآله وصحبه وسلم. أما بعد. .

فهذا هو الإصدار الثاني لتفسير ابن عطية، بعد نفاد طبعته الأولى، ورغبة العلماء وطلبة العلم في الحصول عليه. وقد حافظت هذه الطبعة الجديدة على عمل المحققين الأربعة دون تدخل إلا ما اقتضته الضرورة من تصحيح لخطأ طباعي، أو تصحيف وقع في الطبعة الأولى في مواضع قليلة، أو حكم بالحاشية على بعض الأحاديث دون استيفاء ذلك.

ومن المهم تنبيه القارىء إلى أن ابن عطية ذكر القراءات السبعة والشاذة، ونبه على الشاذة، فينبغي التفطن لذلك، لأن القراءة الشاذة لا يجوز القراءة بها. وتوجد أقوال وأخبار ليست صحيحة، وقد نبه ابن عطية على بعضها، وترك البعض الآخر، ولن يفوت القارىء اللبيب إدراك ذلك، فإن هذا التفسير إنما ينتفع به أهل العلم وطلبته.

ومما يشدّ الانتباه أن ثمة تطوراً حدث في المشرق والمغرب في الوقت نفسه في القرن السادس الهجري في حركة التفسير؛ تمثّل في تفسير ابن عطية (ت ٥٤١ هـ) في الأندلس، وتفسير عبد الصمد الغزنوي (ت ٥٥٧ هـ) في المشرق. وقد أثر هذا التطور على المفسرين اللاحقين في القرون التالية، مما يستدعي تتبع هذه الظاهرة بالبحث والدراسة، بعد أن قامت الوزارة بنشر التفسيرين المذكورين.

ولا شك أن العلماء المحققين الأفاضل بذلوا جهوداً كبيرة جداً في التحقيق لهذا السفر النفيس، بغية توطئته للقارىء المعاصر. فجزاهم الله خير الجزاء عن خدمتهم لكتاب الله تعالى.

وقد عزمت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، وبتوجيه كريم من سمو الأمير الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني حفظه الله، على المضي في إحياء التراث الإسلامي، وتبني الأعمال العلمية المتميزة لاستكمال المكتبة الإسلامية في جوانبها المعتددة.

وهي إذ تنهض بهذا العبء، لتأمل من العلماء المحققين لكتب التراث التي لا تزال مخطوطة أن يعرّفوها بأعمالهم الجديدة، وسوف يلقون كل ترحيب وتعضيد.

ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يسدد خطىٰ الجميع، ويثيب جميع العاملين، إنه نعم المولى ونعم النصير.

إدارة الشؤون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، علَّم القرآن، خلق الإنسان، علَّمه البيان، والصلاة والسلام على رسوله الأَمين، هَدَى الحائر، وأَرشد الضال، وأُعْطِيَ جوامع الكَلِم وَفَصْلَ الخطاب، وترك فينا ما إن تمسكنا به لن نضل أَبداً: كتاب الله، وسنة نبيه.

نحمده سبحانه أَن أَنعم علينا بنعمة الإِيمان، ونشكره وحده أَن هدانا لهذا العمل، وما كنا لنهتديَ لولا أَن هدانا الله، وإِنها لنعمة كبرى، أَن يُيَسِّر الله لنا خدمة كتابه العزيز، وأَن يجعلنا ممن يتعلمون القرآن ويُعلِّمونه، وممن يسهمون بجهودهم في سبيل الأُمة الإسلامية المجيدة.

وليس من شك في أَن الله سبحانه وتعالى قد اختص هذه الأُمة بفضله، ومنحها الخير الدائم، حين أَنزل هذا الكتاب العزيز دستوراً ومنهاجاً، وهداية وبشارة، وشفاءً ورحمة، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[1]. ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

ولقد عاش المسلمون في ظلال هذا الكتاب سادة أَعزة، وإِخوة أَحبة، وَكَوَّنوا مجتمعاً فريداً في مبادئه وقِيَمِهِ ومُثُلِهِ، وكانوا على هذا يعتصمون به من المحن، ويتغلبون به على الفتن، ويرجعون إِليه في أُمور دينهم ودنياهم، وكانوا دائماً بفضله خير الأُمم. إنه كتاب حق ونور، وَصَفَه مُبَلِّغُهُ الصادق ﷺ فقال:

(كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأُ مَنْ قبلكم، وخبر مابعدكم، وحُكْمُ مابينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، مَنْ تركه تجبُّراً؛ قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيرِه، أَضَلَّه الله. وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم.

(١) سورة الإسراء: الآية: ٩.

(٢) سورة الإسراء: الآية: ٨٢.

هو الذي لاتزيغ به الأَهواءُ، ولاتتشعب معه الآراءُ، ولايشبع منه العلماءُ، ولا يملُّه الأَتقياءُ. مَن علِمَ علمَه سبق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن اعتصم به فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم).

ثم خَلَفَ من بعد الآباءِ أَبناءٌ تركوا هذا الكتاب، فَضَلَّتْ بهم الطرق، وعَمِيَت عليهم الدروب، وأَصبحوا وراءَ الأُمم، حضارة ومعرفة. ولولا بقية من المؤمنين الصادقين ظلت متعلقة به، مسترشدة بتعاليمه، متمسكة بمبادئه، لضاعت هذه الأُمة الإسلامية في زحام الحياة.

نعم، لولا القرآن يُتْلىٰ ويدرس بين هذه الأمة، لَكُتب عليها الفناءُ كما كُتِب على غيرها، لكنه ـ ولله الحمد ـ ظل على الأيام منارة هداية ومعرفة، وأُسلوب حياة قوية متينة، وستبقى هذه الأمة في ظلال هذا الكتاب الخالد، برغم الأَعداءِ وما يكيدون، وبرغم الصراع العنيف بين المذاهب والآراءِ، مصداقاً لقول الله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(١).

إننا نعيش بين أَبعاد للزمن ثلاثة، نعيش بين الأَمس واليوم والغد، ويومنا هو وليدُ أَمسنا، وغَدُنَا وليدُ يومنا، ولن نستطيع أَن نخرج على حدود هذه الأَبعاد الزمنية، لانستطيع أَن نعيش خارج الزمن بماضيه وحاضره ومستقبله، فنحن جزءٌ منه، وهو بأَبعاده جزءٌ منا، وإذا كان الحاضر يبدو أَقوى في مشاعرنا وأَفكارنا وحواسنا لأَننا نحياه، فإن الماضي يبقى بقوته وراءَ الأَحداث، واضح التأثير، قويَّ التوجيه، لأَننا نتاجه، وأَثر من آثاره، ومن هنا كان علينا أَن نجمع إلى يومنا أَمسنا، وأَن نرجع إلى ماضينا نأخذ منه الخبرة والتجربة، ونستمد منه الأَصالة والقوة، في كل ما نحتاج إليه من علم ومعرفة، حتى نصل إلى الغد في أَمان.

لابد أَن نربط الماضي بالحاضر، وأَن نعيد إحكام الصلة بين أَبعاد الزمن الثلاثة، لنرجع كما كنا في ماضينا: عِلْماً ومعرفة، وسيادة وعزة، ومنعة وقوة، وتقدماً وازدهاراً، لاسبيل أَمامنا غير هذا، وإذا تركنا ماضينا؛ ضاع منا حاضرنا، وضاع منا غدنا، وليس هناك أُمة من الأُمم تعيش بدون ماضٍ وغد.

---

(١) سورة الحجر: الآية: ٩.

من هنا كان إيماننا بإحياء التراث الإسلامي، ومن هنا كان رجوعنا إلى هذه الذخائر التي تركها لنا الآباءُ ميراثاً على الزمن، وإنه لخيرٌ لنا أَن ننفق من ميراثنا، وأَن نجعل منه رصيداً نزيد عليه، وننَمِّيه، بدلاً من أَن نستجدي الأَغنياءَ بالمعرفة والحضارة اليوم. لماذا نتسول المعرفة وعندنا منها زاد لايفنى؟ لماذا نعيش فقراءَ ونحن الأَغنياءُ في كل شيءٍ؟ لماذا؟

نحن لاننادي بأَن نترك علم الآخرين لهم، وإنما ننادي بأَن نجعل من علم آبائنا أَساساً لمعرفتنا وحضارتنا، ثم نضيف إلى ذلك كل جديد ونافع من علوم غيرنا. هكذا فعل آباؤنا من قبل، وهكذا يجب أَن نفعل اليوم.

إنَّ التراث الإسلامي ذخيرة غنية برصيد من الفكر والرَّأي والعلم لا مثيل له، وعلينا أَن نرجع إلى هذه الكنوز، لنزيل عنها غبار النسيان، وضباب الزمن، ولنخرجها إلى الدنيا مجلوة زاهية ناضرة حية، كما هي في جوهرها وحقيقتها. وإن خير مافي هذا التراث جانبه الروحي المشرق بصفاءِ اليقين ونور الإيمان، وخير مافي هذا الجانب الروحي دراسات القرآن وعلومه. ونحن اليوم أَحوج الناس إلى هذا الجانب الروحي، لنروي ظمأَنا، ونداوي جروحنا. أَرواحنا ظمأَى إلى نور الله، ونور الله في كتابه وفي كتب الدارسين لكتابه. فليعقل العاقلون منا هذه الحقيقة.

لهذا كله عدنا إلى تراثنا، واستخرجنا منه درة فريدة غالية، وجوهرة ثمينة نادرة، هي هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم إلى أَبناءِ الإسلام في كل مكان، وهو كتاب اجتمعت فيه عدة ميزات، تجعله جديراً بالعناية والاهتمام.

فهو من كتب التراث التي أَشرنا إلى أَثرها في تحقيق غاياتنا وأَهدافنا إذا وصلنا بها بين ماضينا وحاضرنا، وجعلناهما درب طريق إلى الغد المأْمول.

وهو كتاب يَشْرفُ بموضوعه. وشرفُ العلم على قَدْرِ شرف المعلوم، ويكفي أَن موضوعه كتاب الله الذي لايأْتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وهو كتابُ واحدٍ من علماءِ الأَندلس ـ الفردوس المفقود ـ يُرينا صورة صادقة لأَمجاد أُمتنا في هذه البقاع الغالية، ويثْبِتُ لنا أَن الحضارة العربية كانت دائماً حضارة علم ومعرفة، وبحث ودراسة حيثما حلت، وأَينما كانت.

ومن توفيق الله أَن تلتقي اليوم جهود مشرقنا العربي، ومغربنا العربي على إخراج هذا الكتاب في ثوب قشيب من التحقيق والتدقيق والتعليق، برغم مابيننا من بُعْدِ الزمان والمكان، وبرغم ماحاولته معنا أُمم الحضارة الحديثة من تمزيق لوحدتنا، وتفريق لكلمتنا، وتشتيت لجموعنا، وتشكيك في إرادتنا وعزيمتنا ـ على مدى قرون وقرون.

ولكن، ها نحن أُولاءِ نعود، نعود من جديد كما كنا: أُمة واحدة، فِكْرُها واحد، وأَملها واحد، ومنهجها في الحياة واحد، وهو منهج الحق والخير والكمال، ذلك لأَن الماضي يجمع بيننا، والحاضر يوثق من صلاتنا، والمستقبل يمنحنا أَقوى مافي الحياة، يمنحنا الأَمل في أَن نصبح قوة مؤثرة في تاريخ الإنسانية، عاملة في سبيل الرخاءِ والأَمان والسلام لكل أَبناءِ البشرية.

لقد التقت رغبة صاحب السمو:

الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر المفدى

ورغبة أخيه:

حضرة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني ملك المملكة المغربية

التقت الرغبتان في ميدان العلم والشرف على إخراج هذا الكتاب، وتقديمه هدية إلى أَبناءِ الأمة الإسلامية، هدية غالية بهيَّة الرُّواءِ، سنيَّة الإشراق، وتَذْكِرَةً لِفِكْرٍ من تراث الأَندلس العظيم..

والتقت في رعايتهما وبتأْييدهما نخبة من رجال العلم في المغرب العربي، وفي المشرق العربي لتحقيق هذه الرغبة السامية، خدمة للأُمة الإسلامية في حاضرها، ومستقبلها، وخدمة للقرآن العزيز الذي كان ولازال مرشدها، وهاديها، ومجدد شبابها على مَرِّ الأَيام.

ونتيجة لهذه الرغبة السامية، ولهذا اللقاءِ الأَخوي بين علماءِ المغربِ والمشرق في الأُمة العربية الناهضة؛ كان هذا السفر الذي نقدمه بكل فخر واعتزاز، آملين من ورائه أَن يكون لنا عند الله ذخراً، وأَن يكون لأُمتنا زاداً من المعرفة والخير.

وقد اشترك في تحقيق هذا التفسير والتعليق عليه، وإخراجه في هذه الصورة المشرقة:

من المغرب العربي:

الأستاذ: الرحالي الفاروق.

رئيس المجمع العلمي بمراكش.

ومن المشرق العربي:

الشيخ: عبد الله إبراهيم الأنصاري.

مدير الشؤون الدينية بوزارة التربية والتعليم بدولة قطر.

الأستاذ: السيد عبد العال السيد إبراهيم.

رئيس التوجيه التربوي بوزارة التربية والتعليم بدولة قطر.

الأستاذ: محمد الشافعي صادق.

م. مدير شؤون القرى بوزارة التربية والتعليم بدولة قطر.

والله يشهد أَن المهمة كانت شاقة وعسيرة، فالمخطوط قديم، وكتابته كانت في صورة بعيدة عن الخط العربي المأْلوف لنا في هذه الأَيام، والنسخ المتوفرة لدينا قليلة في مجال التحقيق والتمحيص. كانت المهمة لهذا صعبة، تقصر دونها الهمم، وتعجز عنها العزائم، لكن الرغبة في خدمة كتاب الله العزيز تُهوِّن كل صعب، وتُيَسِّر كل عسير، فخير مافي حياتنا هو كتاب الله، وخير أَعمالنا هو ما اتصل بهذا الكتاب.

والدارسون للتراث العربي يعرفون أَن هذا الكتاب قد نال من العناية ماهو جدير به، وليس هناك من كتاب نال من اهتمام العلماءِ والمحققين ماناله القرآن الكريم، ولقد أَقبل عليه العلماءُ، واتصلت به الجموع بعد الجموع، على الرَّغم من تنوع المعارف، واختلاف المذاهب. ولقد ظل مقصد الباحثين من رجال التفسير والتأْويل، وأَرباب الفصاحة واللغة، ورواة الحديث والآثار، والدارسين من رجال الفقه والأَحكام، والعلماءِ من أَهل الفلسفة والكلام، وسيظل إِلى الأَبد: مؤئل كل قاصد، وغاية كل باحث، ومرجع كل دارس، وأَمل كل عالم، ونهاية كل طالب، وريَّ كل ظامىءٍ، وشبع كل جائع، إنه مائدة الله، وقد التقينا على هذه المائدة، فكانت لنا خير زاد.

وعملنا هذا جهد متواضع، نسهم به في خدمة كتابنا العزيز، ونقدمه بين أَيدينا إلى ربنا، تكفيراً عما قدمنا من ذنوب، وستراً لما فينا من عيوب، ونسأَله سبحانه أَن يجعله

بريئاً من كل نقيصة، صافياً من كل شائبة، خالصاً من كل شبهه، محققاً لغايته، موصلاً لأَهدافه، نافعاً لكل راغب في البحث والدراسة والعلم.

وسنقدم لك بعد هذا، أَيها القارىءُ العزيز:

ـ تعريفاً موجزاً بمؤلف هذا التفسير، القاضي أَبي محمد عبد الحق بن عطية الغرناطي.

ـ وتوضيحاً لمنهجه في التفسير والتأْويل، مع بيان قيمة هذا التفسير ومنزلته بين كتب التفسير الأُخرى.

ـ ثم فكرة موجزة عن الخط الذي سرنا عليه في عملنا، والجهد الذي بذلناه ليخرج لك هذا الكتاب في صورة، نرجو ـ إِن شاءَ الله ـ أن تكون دقيقة ناضجة مشرقة.

وماندعي لأَنفسنا الكمال، فما نحن إلا بشر من الناس، تجري علينا سنة الله في خلقه، فيثبت منا القلم أَو يزل، ويحضر منا الفهم أَو يغيب، ويصاحبنا التوفيق أَو يجانبنا، فليكن القارىءُ معنا على هذه القاعدة، حتى يتقبل منا هفواتنا، ويغفر لنا زلاتنا. والله من وراءِ القصد، يقول الحق، وهو يهدي السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

التعريف بالمؤلف

نسبه:

هو الإمام القاضي، والفقيه الحافظ، أَبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عبد الرؤوف بن عبد الله بن تمام بن عطية ـ الداخل إلى الأَندلس ـ ابن خالد بن خُفاف المحاربي، صاحب هذا التفسير العظيم:

(المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)

وهو التفسير الذي أَجمع المؤرخون والعلماءُ على أَنه غاية في الصحة والدقة، ونهاية في التنقيح والتحرير، إن ذلك لهو أَصدق دليل على إمامة هذا العالم الكبير وأَمانته، وعلى وعيه وفهمه وفطنته.

ولقد اختلف المؤرخون في سلسلة نسبه، ولعل السبب في هذا الاختلاف هو ميل بعضهم إلى الاختصار، وميل الآخرين إلى الإطالة والتفصيل، حسب مقتضى الحال، وأَمثلة هذا الاختلاف كثيرة، نكتفي منها بأَمثلة قليلة:

ـ قال أَبو حيان رحمه الله في الصفحة التاسعة من الجزءِ الأَول من تفسيره:

«هو أَبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأَندلسي المغربي الغرناطي» ا. هـ.

ـ ولكنه عاد في الصفحة العاشرة فقال:

«ولد أَبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عبد الرؤوف بن عبد الله بن تمام بن عطية المحاربي، من أَهل غرناطة، سنة إحدى وثمانين وأَربعمائة، بِلُرْقَة. وتوفي في الخامس والعشرين من رمضان، سنة إحدى وأَربعين وخمسمائة. هكذا ذكره القاضي ابن أَبي حمزة» اهـ.

ـ وقال ابن فرحون في كتابه «الديباج المذهب»: «عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن أَسلم بن مكرم المحاربي، يكنى أَبا محمد، من ولد زيد بن محارب. ولد سنة إِحدى وثمانين وأَربعمائة، وتوفي سنة ست وأَربعين وخمسمائة» ا. هـ.

ـ وفي «بغية الوعاة» للحافظ السيوطي:

«عبد الحق بن غالب بن عبد الرحيم ـ وقيل عبد الرحمن ـ بن غالب بن تمام بن عبد الرؤُوف بن تمام بن عطية الغرناطي، صاحب التفسير، الإمام أَبو محمد» ا. هـ.

ـ وفي «بغية الملتمس» لابن عميرة الضبي:

«عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عبد الرؤُوف بن عبد الله بن تمام بن عطية بن مالك بن عطية بن مالك بن خالد بن خُفاف بن غالب بن عطية المحاربي ـ أَبو محمد». ا. هـ.

ـ وفي «المعجم» لابن الأَبار:

«من اسمه عبد الحق ـ عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عبد الرؤُوف بن عبد الله بن تمام بن عطية ـ الداخل إلى الأَندلس ـ ابن خالد بن خُفاف المحاربي ـ كذا نسب ابن بشكوال (غالباً) جد والده، وإنما هو: غالب بن عبد الرؤُوف بن تمام بن عبد الله بن تمام بن عطية بن خالد بن عطية ـ وهو الداخل ـ ابن خالد بن خُفاف بن أَسلم بن مكرم المحاربي، محارب قيس ـ أَبو محمد ـ من أَهل غرناطة». اهـ.

ومن هنا يظهر لنا أَن الاختلاف في نسبه يتناول بعض أَجداده، وبخاصة جد والده، أَهو عبد الرؤُوف أَم تمام بن عبد الرؤُوف؟ ويتناول اسم جده، أَهو عبد الرحمن أَم عبد الرحيم؟ ويتناول اسم جده الداخل إلى الأَندلس، أهو عطية بن مالك أَم عطية بن خالد؟ ـ وصاحب «بغية الملتمس» ص٣٧٦ هو الذي ذكر من أَجداده (عطية بن مالك)، ثم (عطية بن خالد المحاربي)، وزاد بعض المؤرخين في السلسلة أَن خُفاف هو (ابن أَسلم بن مكرم المحاربي)، وأَن (عطية الداخل) هو والد خالد وليس ابنه، معترضاً بذلك على ابن بشكوال.

على أَن الذي نرتاح إليه، هو ماجاءَ في نسخة خطية من تفسير ابن عطية موجودة في دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، وجاءَ في صفحتها الأُولى:

«قال الشيخ الفقيه، الإمام الأَجل، الحافظ الأَكمل، القاضي الأَعدل، أَبو محمد عبد الحق، ابن الفقيه الحافظ أَبي بكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن

عبد الرؤُوف بن تمام بن خالد بن عطية ـ وهو الداخل إلى الأَندلس ـ ابن خالد بن خُفاف بن أَسلم بن مكرم المحاربي، من ولد زيد بن محارب بن خصفة[1] بن قيس بن عيلان. من أَهل غرناطة».

ويتفق مع هذا المصدر ماجاءَ في «الديباج المذهب»، وفي «المعجم» لابن الأَبار. ويظهر من هذه المصادر الثلاثة:

اـ أَن نسبه الحقيقي هو مارجحناه، وأَن أُسرته كانت ذات مكانة ملحوظة في غرناطة.

ب ـ أَنه عربي الأَصل، ومن قبيلة عدنان، لأَن قيس بن عيلان هو: «إِلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان».

أَما تاريخ ميلاده فقد أَجمع المؤرخون على أَنه كان سنة (٤٨١هـ/ ١٠٨٨م)[2] لكنهم اختلفوا في تاريخ وفاته.

ـ فأَبو حيان يقول: «توفي في الخامس والعشرين من رمضان سنة إِحدى وأَربعين وخمسمائة، هكذا ذكره القاضي ابن أَبي حمزة».

ـ وفي «الأَعلام» للزركلي ٤/ ٥٣ أَنه توفي سنة ٥٤٢هـ. ثم يقول: «وقيل في تاريخ وفاته سنة ٥٤١، و٥٤٦هـ».

ـ وفي «بغية الملتمس» ص٣٧٦. أَنه توفي سنة ٥٤٢هـ. وقيل: سنة ٥٤١هـ.

ـ وفي «المعجم» لابن الأَبار ص٢٩٥. أَنه توفي في منتصف رمضان سنة ٥٤١هـ، ثم قال: «وحكى ابن بشكوال وابن خير أَنه توفي سنة اثنتين وأَربعين، والأَول قول ابن حميد، وابن عياد، وغيرهما، وهو الصحيح»

ومن العجيب أَن ابن بشكوال كان معاصراً له، لكنه أَخطأَ في تاريخ وفاته، كما أَخطأَ في سلسلة نسبه.

---

(١) خصفة: (بالخاء المعجمة، وتقديم الصاد على الفاء) كما في (الديباج) وفي (لسان العرب) هي قبيلة من محارب. أما في (الإِحاطة) فقد وردت كلمة (حفصة) بالحاء المهملة وتقديم الفاء على الصاد.

(٢) بغية الملتمس (ص٣٧٦) والديباج المذهب (ص١٧٥) وكشف الظنون (٢/ ٥٢٣) وبغية الوعاة (ص٢٩٥) والأعلام (٤/ ٥٣) ونفح الطيب (٣/ ٢٨٠).

ـ وفي «الديباج المذهب» ـ ص١٧٤ ـ ١٧٥ أنه توفي سنة ٥٤٦هـ بمدينة «الورقة».

وأقرب الأقوال إلى الصواب ـ كما يبدو من اتفاق أكثر المراجع ـ هو القول بوفاته سنة ٥٤١هـ.

نشأته وحياته:

كانت نشأته علمية بكل معاني هذه الكلمة، فقد ولد وتربى في بيت علم وفضل، ولقد كانت أسرته أسرةً عربية كريمة، جمعت بين أصلين من أصول التفوق، وهما: عراقة الأصل، وكرامة العلم.

ولقد قال «ابن فرحون» عن جدهم الداخل إلى الأندلس: «إنه نسل كثيراً لهم قدر وفضل».

وفي «نفح الطيب» وصف لهذه الأسرة بأن رجالها من أعيان غرناطة.

ووالده هو: الإمام الحافظ، أبو بكر غالب بن عطية، فقيه، ومحدث، وزاهد. أخذ عن أعلام الأندلس، كالحافظ أبي علي الجياني الغساني، ورحل إلى المشرق سنة ٤٦٩هـ. وأخذ عن علمائه، كأبي عبد الله الحسين بن علي بن الحسين الطبري الشافعي. نزيل مكة.

وفي رعاية هذا العالم الفقيه نشأ الوليد عبد الحق، ولا غرابة أن يشبه الفرع أصله، وأن يكون الابن مثل أبيه فضلاً وعلماً.

بِـأَبِـهِ اقتـدى عـدي فـي الكـرم ومَـنْ يُشَـابِـهْ أَبَـه فمـا ظَلَـمْ

كان الناس يفدون إلى رحاب والده، فيتعلمون، والوليد الصغير يرى ذلك كله فيتأثر به، وينمو وجوُّ العلم وطلابه يحيط به، فيتعلق بهذه الحياة العلمية، ويدفعه إليها طموح فطر عليه، ويعينه على تحقيق رغباته رعاية واسعة من الوالد الفاضل، الذي اختار له الأساتذة، وساعده حتى في تأليف تفسيره.

فهو فرع في شجرة مورقة، امتدت غصونها، وكثرت أوراقها، ونضجت ثمارها، فأوى إلى ظلها كثيرون، ونعم بخيراتها طلاب العلم في أماكن كثيرة.

ومن أساتذته أبو علي الغساني، وأبو علي الصدفي، وأبو محمد عبد الجبار بن

سليمان، والفقيه أَبو محمد القيرواني، وأَبو جعفر بن القليعي. وغيرهم.

وكان رحمه الله غاية في الذكاءِ والدهاءِ، شغوفاً بالتقييد واقتناءِ الكتب، مولعاً باكتساب العلوم والمعارف، ولهذا رحل إِلى كل عواصم الأَندلس وحواضرها، يلتقي بالعلماءِ، ويأْخذ عن الشيوخ، ويراسلهم في كل مكان إِذا عجز عن الالتقاءِ بهم، وكان يسأَلهم الإِجازة العلمية حتى كوَّن نفسه أَحسن تكوين.

هذه النشأَة الأَصيلة، وهذه الرغبة القوية في التحصيل والتفوق، كانتا سبباً من أَسباب نبوغه وشهرته، واحتلاله مكانة عالية، حتى عرفه القاصي والداني، وأَثنى عليه كل من عرفه أَو اطلع على مؤلفاته وآثاره.

وكان ـ رحمه الله ـ من أَفاضل أَهل السنة والجماعة، تولى القضاءَ بمدينة (المُرْيَة)[1] بالأَندلس، فتوخى الحق، وعدل في الحكم، وأَعز الخطة. ويذكر أَنه كان قد قصد (مرسية) ليتولى قضاءَها فصُدَّ عنها، واعتُدِيَ عليه، وصُرِفَ عنها إِلى (لورقة)[2].

والدارس لحياة ابن عطية يجد فيها أَلواناً من الجهاد في سبيل مجده ومكانته العلمية، وفي سبيل أُمته وعقيدته. فقد جاهد في سبيل العلم حتى وصل فيه إِلى أَعلى مكانة، وجاهد في ميدان القتال ضد أَعداءِ الدين والوطن، لأَن أَيام المرابطين كانت أَيام معارك وحروب دامية، وكان ابن عطية ممَّنْ حملوا السيف، واشتركوا في كثير من الغزوات، وكان يُكْثِر من التَّغَيُّب عن أَهله وبلده. وكان والده قد كبر في السن، وكف بصره، وقد طال غياب (عبد الحق) عنه في إِحدى الغزوات، مما أَثار في نفس الشيخ الضرير نوازع الحنين والشوق، وحرك في قلبه عواطف الأُبوة؛ فكتب إِليه أَبياتاً كلها رقة وشوق وحنان، ولمَّحَ له فيها إِلى حاجته إِلى رعايته ـ قال:

يا نازحَ الدار لم تحفِلْ بِمَنْ نَزَحَتْ ... دموعَه طارقاتُ الهم والفكر
غيّبْتَ شخصك عن عيني فما أَلِفَتْ ... من بعد مرآك غيْرَ الدمع والسهر
قد كان أَولى جهاد في مواصلتي ... لا سيَّما عند ضعف الجسم والكبر
اعتلَّ سمعي، وجال الضُّرُّ في بصري ... بالله كن أَنت لي سمعي، وكن بصري

(١) مثل: (غُنْيَة) كما في القاموس. ولكن في معجم البلدان أنها بفتح الميم وكسر الراء وتشديد الياء.
(٢) لورقة: بالضم، حِصْنٌ بالمغرب. قاله في القاموس.

ومع هذه العواطف الجياشة، وأَمام هذا النداءِ الأَبوي كان ابن عطية يتحمل كل شيءٍ في سبيل أَداءِ واجبه الديني، وكان يتحمل في سبيل عقيدته، لأَن الحروب كانت ضد أَعداءِ الإِسلام والمسلمين الذين تكالبوا على الأَندلس في فترة خطيرة من فترات العدوان على الإِسلام.

وإِلى جانب ذلك، جاهد بقلمه، وكتب رسائل إِلى بعض الأُمراءِ يحثهم فيها على نجدة البلاد التي احتلها الأَعداءُ، ويُهيب بهم أَن ينقذوا الأَبرياءَ من الناس من ظلم الغزاة، وقسوة المعتدين. وكان دائماً يحث على الجهاد المقدس، ويلهب الحماس في النفوس بما يُضَمِّنُهُ رسائلَهُ من أَشعار حماسية، يترنم فيها بالبطولات.

بكل هذا الذي أَشرنا إِليه ـ من بحث عن العلم وسعي إِليه، ومن حب للمعرفة واقتناءِ الكتب، ومن جهاد في سبيل دينه بقلمه وسيفه ودمه ـ استطاع ابن عطية أَن يصل إِلى مكانة كبيرة في مجتمعه. وانتهى به الأَمر إِلى تولي القضاءَ. وللقضاءِ آنذاك منزلة عالية، ولم يكن يتولاه إِلا من هو أَهل له، علماً وفضلاً وخلقاً.

ومما يُرْوَى عنه أَنه حين تولى قضاءَ (المرية) دخل على أَهله الدار، وعيناه تدمعان تأَثراً لمفارقة الوطن والولد، ورأَته ابنته (أُم الهناءِ) على هذه الصورة فأَنشدت متمثلة:

يا عين صار الدَّمْعُ عندك عادةً ... تبكين في فرحٍ وفي أَحزان

وهذا يدل على أَنه أَثّر في أَهل بيته، وحملهم على حب الشعر، والاستشهاد به.

ولم يُعْرَف عن ابن عطية أَنه تولى قضاءَ مدينة أُخرى غير (المرية) إِلا أَنه فيما رُوي، قصد (مرسية) ليتولى قضاءَها فَصُدَّ عنها إِلى (لورقة) ـ كما ذكرنا من قبل ـ لكن (المقري) في كتابه «نفح الطيب» ذكر أَنه قصد إِلى (ميورقة) بدلا من (مرسية)، إِلا أَننا نرجح أَنه فعلاً كان يقصد (مرسية). وقد ظن (ابن سعيد) أَنه تولى قضاءَ (غرناطة)، وهذا خطأٌ، فالواضح أَن الذي تولى قضاءَها هو والده، أَما هو فقد توفي بعد أَن صدّ عن (مرسية) بوقت قليل، فلم تكن أَمامه فرصة لأَن يتولى قضاءً آخر.

مكانته:

على الرغم من أَن تفسير ابن عطية لم يطبع إِلى اليوم؛ فإِن الرجل كان صاحب مكانة علمية مرموقة في عصره، وبعد عصره، ولا نجد إِجماعاً بين العلماءِ والشيوخ،

كإجماعهم على تقديمه، وكلهم يعترفون بفضله، ويجعلونه صاحب مدرسة في التفسير. وهذه هي بعض الآراءِ التي قيلت فيه، ننقلها كما ذكرها أَصحابها:

ـ أثنى عليه (أَبو حيان) صاحب «البحر المحيط»، ورجَّحَه على غيره، كما جاءَ في «كشف الظنون»: «أَثنى عليه أَبو حيان، وقال: هو أَجَلُّ مَنْ صَنَّفَ في علم التفسير، وأَفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير».

ـ وقال عنه (الزركلي) في «الأَعلام»: «مفسر، فقيه، أَندلسي، من أَهل غرناطة، عارفٌ بالأَحكام والأَحاديث، له شعر، ولي قضاءَ المُرْيَة».

ـ وجاءَ في «بغية الملتمس»: «فقيه، حافظ، محدّث مشهور، أَديب، نحوي، شاعر بليغ، كاتب، أَلف في التفسير كتاباً ضخماً، أَربى فيه على ما تقدم، أَخبرني به عنه شيخي القاضي أَبو القاسم عبد الرحمن بن محمد، قرأَ عليه جميعه بالمرية».

ـ وقال عنه (ابن الأَبار) في «المعجم»: «أَحد رجالات الأَندلس الجامعين إِلى الفقه، الحديث والتفسير والأَدب، وبيته عريق في العلم».

ـ وجاءَ في «طبقات المفسرين» للسيوطي: «الإمام الكبير، قدوة المفسرين».

ـ وقال (ابن خاقان) في «قلائد العقيان» يصف علمه وفضله، ويصور جانباً من هذه الشخصية الفريدة: «فتى العمر، كهل العلماءِ، حديث السن، قديم السنا، لبس الجلالة بُرداً ضافياً، وورد ماءَ الأَصالة صافياً، وأَوضح للفضل رسماً عافياً، سما إِلى رتب الكهول صغيراً، وشن كتيبة ذهنه على العلوم مغيراً، فسباها معنى وفضلا، وحواها فرعاً وأَصلاً، وله أَدب يسيل رضراضاً، ويستحيل أَلفاظاً مبتدعة وأَغراضاً».

ثم قال: «نبعة دوح العلاءِ، ومحرز ملابس الثناءِ، فذ الجلالة، وواحد العصر والأَصالة، وقارٌ كما رسا الهضب، وأَدبٌ كما اطرد السلسل العذب، وَشِيَمٌ تتضاءَل لها قطع الرياض، وتبادر الظن به إِلى شريف الأَغراض، سابَقَ الأَمجاد فاستولى على الأَمد بعبابه، ولم ينض ثوب شبابه، أَدمن التعب في السؤدد جاهداً، فتى تناول الكواكب قاعداً، وما اتكل على أَوائله، ولا سكن إِلى راحات بُكره وأَصائله، آثاره في كل معرفة، عَلَمٌ في رأسه نار، وطوالعه في آفاقها صبح أَو منار».

ـ وقال عنه (السيوطي): «كان يتوقد ذكاءً». وقال: «كان فاضلاً من بيت علم وجلالة، غاية في توقد الذهن، وحسن الفهم، وجلالة التصرف».

آثاره وتلاميذه:

أَهم ما يمتاز به ابن عطية هو تنوع الثقافة. ويعتبر فكره نتيجة لهذه الثقافة المتنوعة الغزيرة. ونوجز القول عن آثاره فيما يأتي:

١ـ أَلَّف كتابه العظيم في تفسير القرآن الكريم، وهو الذي عرف بين الناس باسم: «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز». وقد أفردنا له فصلاً خاصاً نوضح فيه منهجه وميزاته.

٢ـ ينسب بعض الباحثين له مؤلفات أُخرى، ومن هذه المؤلفات كتاب في (الأَنساب) ينتقد فيه كتاباً لبعض المعاصرين. ذكر ذلك (ابن الأَبار) في كتابه «المعجم». ومنها كتاب صغير اسمه (البرنامج) أَو (الفهرسة)، ولا يزال مخطوطاً، وقد ترجم فيه لشيوخه الذين أَخذ عنهم، وأَولهم والده (غالب بن عطية).

وعلى كلٍّ فمؤلفاته قليلة، ولعلها قد ضاعت بفعل الزمن، وبسبب الأَحداث التي توالت على بلاد الأَندلس.

٣ـ ومن آثاره، أشعار جيدة، ورسائل لا تقل عنها جودة. وقد روى (ابن خاقان)، من شعره ما يدل على تمكن. ومن ذلك قوله:

وليلةٍ جُبْتُ فيها الجزعَ مُرتدياً ... بالسيف أَسحبُ أَذيالاً من الظُّلَم
والنجمُ حيرانُ في بحر الدجى غَرِقٌ ... والبرق في طيلسان اللَّيل كالعلم
كأَنما الليلُ زَنْجِيٌّ، بكاهله ... جُرْحٌ فيثعَب أَحياناً له بِدَم

ومن شعره قوله يندب عهد شبابه:

سقياً لعهد شباب ظلْت أَمرح في ... ريعانه، وليالي العيش أَسحارُ
أَيام روض الصبا لم تذو أَغصنه ... ورونق العمر غضٌّ والهوى جارُ
مضى وأَبقى بقلبي منه نار أَسى ... كُوني سلاماً وبرداً فيه يانارُ

إلى أن يقول:

وقـارعتنـي الليـالـي فـانثَنَـتْ كِسَـراً عـن ضيْغَـمٍ مـالَـه نـابٌ وأَظفـارُ
إلا سـلاح خـلال أُخلصـت فلهـا فـي منهـل المجـد إيـرادٌ وإصـدارُ
أَصبو إلى خفض عيشٍ روضُه خضِلٌ أَو ينثنـي بـي عـن العليـاءِ إقصـارُ

وهو شعر واضح الجودة، ويدل على قدرة لغوية، لكنه بالقطع لا يجعله واحداً من الشعراءِ المعروفين، بل هو أَقرب إلى النظم ورصف الكلمات دون التعبير عن المشاعر الجياشة في عبارات عذبة رقيقة سلسة. ومع هذا فحسبه أَنه برز في ميادين اللغة والأَدب، والقراءَات والفقه، وأَضاف إليها القضاءَ ومكانته.

أَما تلاميذه، فهم صفوة من العلماءِ والشيوخ، ولقد انتفع بعلمه خلق كثير، وكان مَقْصداً يفدُ إليه الطلاب. ومن أَشهر تلاميذه:

- الإمام أَبو القاسم عبد الرحمن بن حبيش.
- الإمام أَبو بكر محمد بن أَبي حمزة المرسي.
- الإمام أَبو جعفر أحمد بن مضاءِ اللخمي.
- الإمام أَبو بكر محمد بن خير الأَشبيلي.
- الفيلسوف أَبو بكر بن طفيل القيسي، صاحب رسالة (حي بن يقظان) المشهورة.

وللحقيقة وحدها نقول:

إن ابن عطية كان نابغة بمقاييس النبوغ في عصره؛ لأَنه أَحاط بكل العلوم المعروفة في زمانه، وكان على جانب كبير من الثقافة وتنوع المعارف. وقد أَهَّلَهُ ذلك لسُمْعَة علمية ظلت باقية على الزمن، حتى وصلت إلينا مع آثاره وعلى يد تلاميذه.

وهكذا كان ابن عطية عَلَماً في حياته، وعَلَماً بعد وفاته.

* * *

مَنْهَجُهُ فِي ٱلتَّفْسِيرِ

هذا التفسير الذي نعتز بتقديمه اليوم إلى الباحثين والدارسين والراغبين في المعرفة، من أَبناءِ الناطقين بالضاد، هو المعروف بين الناس باسم «تفسير ابن عطية»، وهو كما عرف بين أَصحاب الدراسات القرآنية: «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز».

ولقد ظل هذا التفسير حبيساً في مخطوطاته قرابة أَلف عام إلا قليلا، وظل الناس يتشوقون إليه بعد أَن عرفوه من خلال دراساتهم لكتب التفسير المختلفة. حتى شاءَ الله أَن تجتمع الهمم، وأَن تتضافر الجهود ليخرج إلى الوجود في هذا الثوب الرائع المشرق إن شاءَ الله.

والحديث عن التفسير والمفسرين حديث طويل، يمكن فيه أَن نتتبع مناهج البحث، وطرق العرض والتأويل عند الكثيرين، لكن هذا يخرج بنا عن الغاية التي قصدنا إليها في هذا التعريف. فنحن نريد أَن نوضح المنهج الذي وضعه ابن عطية لنفسه حين وجهها لهذا العمل الجليل، ونريد أَن نبين مدى التزامه بهذا المنهج طوال عمله الذي استغرق منه ـ كما يقول ـ صفوة عمره، وبعد ذلك نتحدث عن منزلة هذا التفسير وقيمته في مجال خدمة القرآن، وآراءِ العلماءِ والباحثين فيه، وما كان له من أَثر في المفسرين، وأَصحاب علوم القرآن من بعده.

والحقيقة أَن ابن عطية قد وضع لنفسه منذ البداية منهجاً كاملاً، ورسم لها طريقاً واضح المعالم، وحاول دائماً أَن يكون ملتزماً، وأَن يسير في حدود هذا الطريق. ولم يخرج ـ فيما رأَينا ـ عن منهجه إلا في مواقف نادرة، وهي ـ لندرتها ـ لا تعتبر إخلالاً منه بمنهجه، ولكنها طبيعة البحث الذي يمتد مع صاحبه سنوات طويلة، تتغير فيها الظروف والملابسات، وربما حُمل الباحث على الخروج بعض الشيءِ عن الخطوط التي رسمها لنفسه، وهذا أَمر مقبول في عصرٍ كان البحث العلمي فيه يعتمد على مجرد جهد فردي، وذاكرة واعية، وحافظة لاقطة، وكان التدوين يستند إلى قدرة فردية ناضجة، ولكنها ـ مهما كانت ـ ليست كافية لتحديد المعالم، والتزام المنهج. ونحن اليوم نعتمد

على أُصول ومدونات ومخطوطات مصورة، ومراجع لا حصر لها، وأَشرطة وأَفلام مسجلة، نعتمد على ذلك وعلى أَكثر منه عند القيام بالبحوث العلمية، ويضاف إِليه تعاون ومشاركة بين كثير من الجهود، ومع ذلك يَنِدُّ بنا القلم أَحياناً أَو يضل، ويعزب عن الفكر ما هو في حاجة إِليه من التدقيق. فما بالنا بهؤلاءِ العلماءِ الذين اعتمدوا على أَنفسهم، وعلى بعض مخطوطات من الكتب القليلة؟ الحق أَن جهودهم تستحق كل تقدير وإِعجاب.

وميزة ابن عطية لا تقف عند وضع منهج كامل، أَو تخطيط دقيق لعمله عندما أَقبل على تفسير القرآن الكريم، بل ميزته في أَنه ـ إِلى جانب ذلك ـ كان رائداً في هذا المجال، رسم للمفسرين من بعده طريقة مثلى، ووضع لهم خطة منهجية دقيقة، وجعل من التفسير عِلْماً يستند إِلى قواعد ومبادىء قائمة على الدقة والاستقصاءِ والترتيب وحسن العرض.

أسس المنهج:

ونحن لا نتكلف حين نحاول توضيح منهج ابن عطية في تفسيره؛ لأَن الرجل حدثنا بنفسه عن منهجه هذا في مقدمة تفسيره، وهذه هي أَهم الخطوط والأُسس التي رأَينا أَن نشير إِليها في هذا المجال:

أولاً: بدأَ بالاستعداد لهذا العمل الكبير، فهو يرى أَنه يجب على كل من يريد أن يدخل ميدان التفسير أَن يأْخذ من العلوم كلها، وأَن يُعد نفسه إِعداداً علمياً كاملاً، حتى يكون أَهلاً لهذه المهمة الجليلة، لأَنها فوق طاقة الإِنسان العادي، يقول: «إِني لما رأَيت العلوم فنوناً، وحديث المعارف شجوناً، وسلكت فإِذا هي أَودية، وفي كلٍّ للسلف مقامات حسان وأَندية، رأَيت أَن الوجه لمن تشزَّن[1] للتحصيل، وعزم على الوصول أَن يأْخذ من كل علم طرفاً خياراً. . .» ثم يقول: «إِنه حرم نفسه النوم والراحة، حتى يرتقي هذا النجد، ويبلغ هذا المجد، ثم جرى في هذا المضمار حتى تصبب عرقاً، وحاز من العلوم ما قسم له».

(١) تَشَزَّنَ: تَهَيَّأَ واستعد.

فقضيته الأُولى هي كثرة المعارف، ولهذا توزع الناس فنال كل واحد نصيباً. وعلى الباحث أَن يأْخذ من كل طرف بمقدار. وقد أَنفق هو صدر عمره في ذلك حتى وصل إِلى ما يريد، وكانت هذه هي الخطوة الأُولى.

أَما خطوته الثانية فكانت اختيار علم واحد من علوم الشرع، يستنفد فيه كل طاقاته، ويُحَصِّل فيه كل ما يستطيع، «حتى يضبط أُصوله، ويُحطم فصوله، ويلخص ما هو منه أَو يؤول إِليه، ويفي بدفع الاعتراضات عليه». و«حتى يكون لأَهل ذلك العلم كالحصن المشيد، والذخر العتيد، يستندون فيه إِلى أَقواله، ويحتذون على مثاله».

وقد رأَى أَن يختار علم كتاب الله، لأَنه «هو العلم الذي جعل للشرع قواماً، واستعمل سائر المعارف خداماً»، «وهو عنصرها النمير، وسراجها الوهاج، وقمرها المنير».

وهكذا، استعد ابن عطية لعمله، وتزود من العلوم كلها بزاد، ثم تفرغ لعلم واحد منها هو تفسير كتاب الله، وتفرغ له طول عمره، «فثنيتُ إِليه عنان النظر، وأَقطعتُه جانب الفِكَر، وجعلتُه فائدة العمر».

لكنه حين مضى في الشوط طويلاً، رأَى أَن ما فيه من معارف ونكت وفوائد، تغلب قوة حفظه، وأَنه عاجز عن أَن يحتفظ بها في ذهنه، ففرغ إِلى كتابة ما يصطفيه من الآراءِ ويختاره. وهنا يجدر بنا أن نشير إلى أنه اعتمد على كثير من المصادر في أهم العلوم التي رأى أَن تكون موضع اهتمامه وعنايته في تفسيره، وهي:

كتب التفسير: واعتمد منها على: تفسير «الإمام أَبي جعفر محمد بن جرير الطبري» المسمى: «جامع البيان في تفسير القرآن»، وتفسير «أَبي بكر محمد بن الحسن النقاش» المسمى: «شفاءُ الصدور»، وتفسير «أَبي العباس أَحمد بن عمار المهدوي». المسمى: «التحصيل لفوائد كتاب التفصيل، الجامع لعلوم التنزيل»، وتفسير «أَبي محمد مكي بن أَبي طالب»، وهو مخطوط كبير مفقود، وغيرهم من أئمة التفسير.

كتب القراءات: ونخص بالذكر منها: كتب أَبي عمر الداني، وهي كتب كثيرة، وكتاب «الحجة» لأَبي علي الفارسي، وكتاب «المحتسب» لأبي الفتح بن جني.

كتب اللغة والنحو: واعتمد منها على كثير من الكتب، وبخاصة كتب الخليل بن

أَحمد، وسيبويه، وأَبي عبيدة معمر بن المثنى، وأَبي علي الفارسي، والفراءِ، والزجاج، والمبرد، وثعلب.

وإِلى جانب ذلك اعتمد على كتب كثيرة في (الحديث)، مثل «البخاري، وصحيح مسلم، والترمذي، والنسائي».

وفي (الفقه): اعتمد على الموطأ للإِمام الكبير مالك بن أَنس، وعلى غيره من كتب الفقه في المغرب، وبخاصة فقه المالكية.

وفي (التوحيد): رجع إِلى كتب القاضي أَبي بكر الباقلاني، وكتب الأَشعري والجويني.

وهكذا رجع ابن عطية في كل علم إِلى أَهم مصادره الأَصيلة، على أَن اعتماده على هذه الكتب لم يكن اعتماد الناقل فقط، وإِنما كان يذكر آراءَ المؤلفين والعلماءِ، وينسب الرأْي لصاحبه في أَكثر الأَحيان، وقد يذكر الرأْي ولا ينسبه في بعض الأَحيان، ثم يناقش الآراءَ إِذا لم يكن موافقاً عليها، ويُثْبتُ ما يراه فيها من قوة وصحة، أَو من ضعف وشذوذ. فشخصيته واضحة في كل ما نقله أَو علق عليه.

ثانياً: الأَساس الثاني في منهج ابن عطية، أَنه جعل من تفسيره كتاباً «جامعاً لكل العلوم» وقد أَراد بهذا أَن يجعل التفسير في المقام الأَول بين علوم العربية، فهو ليس علماً مثل غيره، بل هو قمتها، وفيه كل ما فيها.

فيه - إِلى جانب المعاني - اللغة والنحو، والقراءَات والفقه، والأَحاديث وعلم الكلام. وكأَنما كان يهدف إِلى «التفسير الجامع»، مع الدقة والتركيز. فإِذا كان بعض المفسرين قد اهتموا باللغة، وبعضهم قد اهتم بالأَحكام، وبعض ثالث قد أَكثر من مسائل الفلسفة وعلوم الكلام، إِلى غير هذا من الاتجاهات؛ فإِن ابن عطية قد جمع كل ذلك في تفسيره.

ولقد تنبه لهذه الحقيقة صاحب «كشف الظنون» حين تحدث عن المفسرين قبل ابن عطية فقال:

«ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا في شيء من العلوم، ومنهم من ملأَ كتابه بما غلب عليه طبعه من الفن»، ويضرب الأَمثلة لذلك حين يقول: «فالنحوي تراه ليس له إِلا

الإعراب، وتكثير الأوجه المحتملة فيه وإن كانت بعيدة، وينقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته، كالزجَّاج والواحدي في البسيط، وأبي حيان في «البحر والنهر». والإخباري ليس له شغل إلا القصص، والإخبار عمن سلف، سواء كانت صحيحة أو باطلة. والفقيه يكاد يسرد الفقه جميعاً، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تَعَلُّق لها بالآية أصلاً، والجواب عن الأدلة للمخالفين كالقرطبي. وصاحب العلوم العقلية ـ خصوصاً الإمام الرازي ـ قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة»(١).

وهو ينتقد هؤلاء جميعاً وغيرهم من المبتدعين، قائلاً: «كأن القرآن أُنزل لأجل هذا العلم لا غير، مع أن فيه تبيان كل شيء».

ولم يكن صاحب «كشف الظنون» وحده هو الذي تنبه إلى هذا العيب في أساليب المفسرين، لكنه كان واضحاً عن غيره في ذكر ما أراد ـ وهذه الحقيقة يراها كل من له صلة بعلم التفسير ـ وفضلاً عما ذكره من أن في القرآن تبيان كل شيء، فإن الباحث عن تأويل آية يحتاج إلى أن يرجع إلى أكثر من تفسير حتى يستطيع أن يعرف الحقائق كلها من قراءات ولغة وحكم وفقه . . . إلخ.

* من هذا تتضح لنا القيمة الكبرى لمنهج ابن عطية، الذي جمع في تفسيره كل شيء دون أن يطغى جانب على جانب، ودون أن يُطيل إطالة مملة، وبهذا أجاد وأفاد.

* **ثالثاً**: رأى ابن عطية أن يسقط القصص التي ملأت كتب المفسرين قبله. وهذه نقطة جديرة بالنظر والتقدير، فلقد امتلأت كتب التفسير بأقاصيص لا سند لها، ولا داعي إليها؛ لأن فهم الآيات لا يتوقف عليها. والقضية هنا قضية كبيرة، هي قضية الإسرائيليات التي تعتمد على الأساطير المتناقضة والخرافات الزائفة، والتي تسربت إلى كتب التفسير لأسباب شتى، ليس هنا مجال الحديث عنها.

وابن عطية صاحب فضل كبير في هذه القضية؛ لأنه أعرض عن ذكر أكثر هذه القصص، بل لقد عاب على المفسرين قبله عنايتهم بها، وبخاصة ابن جرير الطبري، وإذا ذكر ابن عطية واحدة من هذه القصص فإنه يرويها بصيغة التضعيف، أو يقول: ومن قصص هذه الآيات. وقد يُظهر ما فيها من زيف، وهو عادة لا يذكرها إلا عند الضرورة، إذ قد تحتاج الآية إليها في نظره، وكثيراً ما تراه يقول: «وهناك قصص أُخرى

---

(١) كشف الظنون (١/ ٢٢٨).

أَعرضتُ عن ذكرها لضعفها». وقد وَضَّحَ هو مذهبه في هذا فقال: «لا أذكر من القصص ما لاتَنْفَكُّ الآية إلا به»، والأَمثلة على ذلك كثيرة ستجدها في التفسير، متكررة بصورة تدل على نفور الرجل من الإسرائيليات في وقت كانت فيه مسيطرة على فكر المفسرين.

وقد عرف العلماءُ لابن عطية هذا الفضل وقدروه حق قدره، وأَولهم العلامة ابن خلدون ـ قال في نهاية حديث له عن الإسرائيليات: «وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملؤوا كتب التفسير بهذه المنقولات. وأصلها ـ كما قلناه ـ عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك، إلا أنهم بَعُدَ صيتهم وعظمت أقدارهم؛ لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة، فتُلُقيت بالقبول من يومئذ[١]. فلما رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص، وجاءَ أَبو محمد بن عطية من المتأَخرين بالمغرب، فلخَّص تلك التفاسير كلها، وتحرى ما هو أَقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك في كتاب مُتَداول بين أَهل المغرب والأَندلس، حسن المنحى».

فابن عطية ـ بهذا ـ باحث علمي بمعنى الكلمة، يحقق ويدقق، ويختار صحيح الروايات، ويترك ضعيف الأَسانيد البعيدة عن العقل والدين، وعمله في زمنه عمل جدير بكل الإعجاب والتقدير.

رابعاً: يتَّصل بما سبق من ميله إلى الدقة والتحقيق أَنه كان يقف من آراءِ العلماء في المعاني موقف الناقد، فهو لا يثبت من أَقوالهم هذه إلا ما نُسب إليهم على الأُصول التي تَلَقَّى بها السلف الصالح كتاب الله تعالى، وهي أَصول بريئة من إلحاد أَهل القول بالرموز، نقية من كلام أَهل القول بعلم الباطن، قال: «وأَثبت أَقوال العلماء في المعاني منسوبة إليهم على ما تَلَقَى السلف الصالح ـ رضوانُ الله عليهم ـ كتاب الله تعالى من مقاصده العربية، السليمة من إلحاد أَهل القول بالرموز واللغز، وأَهل القول بعلم الباطن، وغيرهم، فمتى وقع لأَحد من العلماء الذين قد حازوا حسن الظن بهم لفظ ينحو إلى شيءٍ من أَغراض الملحدين، نبَّهتُ عليه». وهذا خير ما يمكن أَن يَصْنعه باحث في كتابه، بل هو من أَهم صور التحقيق والتمحيص العلمي، وكم رأَينا علماءَ أَجلاءَ يُفسرون كتاب الله، ولا يتورعون عن نقل كل كلام يعرض لهم دون تمحيص أَو تحقيق، أَما ابن عطية، فمبدؤه الأَول أَن ينقل الآراءَ ـ حين ينقل ـ منسوبة إلى العلماء

(١) هذه العبارة لم تكن موجودة في الطبعة السابقة، وأضفناها ليتم الكلام ويحسن.

على الأصول السليمة، إيماناً منه بأن كتاب الله لا بد أن يبقى في معانيه صافياً نقياً.

ويزيد من دقته وأمانته حين يقول: إنه إذا وقع له رأي منسوب إلى واحد من العلماء الذين يحسن الظن بهم، أو ثبتت ثقته بهم، وليس عليهم مطعن في عقيدة، وكان في هذا الرأي شيءٌ من أغراض الملحدين ـ ذكره ونبَّه عليه ـ فهي الأمانة العلمية الكاملة، وضعها ابن عطية هدفاً ثابتاً له، والتزمه في تفسيره.

إننا حين نريد أن نعرف رأي ابن عطية في إخراج ألفاظ القرآن عن ظاهرها، والالتجاء إلى الرموز، والمعنى الباطني؛ يحسن أن نرجع إلى عبارته، لنراه يصف هذا العمل بأنه «إلحاد»، والقرآن عنده كتاب بيان واضح، فليس فيه رموز ولا باطن، الألفاظ فيه على المعنى الظاهر، إن الهدى والإرشاد لا يُبْنَيَانِ على إلغاز وإبهام، وإنما لجأ إلى هذا من يقصدون إلى أهداف بعيدة قد تضر بالدين، بل هي في الحقيقة تعمل على هدم العقيدة الإسلامية التي امتازت بما فيها من وضوح وصدق، والتقاءٍ مع الفطرة، ويكفي أن من أسماءِ القرآن الكريم. «الفرقان» لأنه يفرق بين الحق والباطل، وهذه التفرقة لا تأتي مع اللبس والإلغاز والإبهام.

خامساً: ثم يأتي الأساس الذي يُعدّ صُلب المنهج وجوهره، وقد حدده في قوله: «وسردت التفسير في هذا التعليق بحسب رتبة ألفاظ الآية، من: حكم، أو نحو، أو لغة، أو معنى، أو قراءة».

وفي هذا الأساس عدة نقاط تحتاج إلى توضيح وبيان:

١ـ إنه عندما يتعرض لتفسير آيات الكتاب الكريم، يذكر كل ما يتعلق بالألفاظ «على حسب ترتيبها»، ولا ينتقل من أمر إلى غيره إلا بعد أن يستقصي ما فيه من آراءٍ، ويذكر رأيه إن شاءَ، فهو حريص كل الحرص على أن يسير مع الألفاظ بالترتيب الذي وردت به في الآيات، حتى لا يقع فيما وقع فيه غيره من المفسرين الذين لا يتتبعون الألفاظ، بل ينتقلون بينها بدون ترتيب، فإن هذا في نظره: «مُفَرق للنظر، مُشَعبٌ للفِكر».

٢ـ ومن هذا يتضح أنه كان صاحب قدرة على التنظيم والتنسيق وحسن العرض، فهو لا يخلط بين نقاط البحث، بل تراه ينشط للقول في المعنى، حتى إذا انتهى مما يريد، ووفَّى النقطة حقها من البحث، انتقل إلى الإعراب، فإذا ما فرغ منه تكلم عن القراءَات، ولا نقول: إنه يلتزم الترتيب الذي ذكرناه، بل نقول: إنه كان يراعي الترتيب والتنسيق، فلا تجد في كلامه اضطراباً، بل هو النظام، وحسن العرض، وتوفية كل

نقطة حقها قبل الانتقال إلى غيرها، مما نراه نادراً في كلام المؤلفين في عصره.

٣ـ قلنا إنه جمع بين مختلف الفنون والعلوم، ولكنه ميَّز بين هذه العلوم، فلم يعطها قدراً واحداً من العناية، بل نراه قد عُني بالنحو واللغة أَشد العناية، وأَصبح تفسيره بهذا حجة في هذا الميدان. والحق أَن أَهم الأَركان التي يجب أَن تنال عناية المفسرين هي «اللغة العربية» بما فيها من إعراب للكلمات، وبيان لمواقعها، وتوضيح للاتصال بينها، وتصريف للمشتقات منها. وكل من قصد إلى تفسير القرآن بغير هذا السلاح، فهو بعيد عن التحقيق والدقة والفهم السليم، ولهذا ترى ابن عطية يخصص في مقدمته باباً عنوانه: «باب في فضل تفسير القرآن، والكلام على لغته، والنظر في إعرابه ودقائق معانيه». وقال في هذا الباب: «إعراب القرآن أَصل في الشريعة، لأَن بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع». وهو يؤكد أَن الإعراب هو الفهم الدقيق، ويَرْوي في ذلك الأَحاديث والآثار، ومن ذلك ما رواه من قوله صلى الله عليه وسلم: (أَعربوا القرآن، والتمسوا غرائبه، فإن الله يحب أَن يُعرب). وابن عطية يرى أَن الصلة وثيقة بين الفهم للقرآن، وبين الإدراك الصحيح لأَشعار العرب، ولهذا يروي كثيراً جداً من الشواهد العربية ليدلل بها على فهمه للمعاني، وعلى إعرابه للمفردات، وعلى بيان ما يرى من اشتقاق وتصريف، ويروى عن ابن عباس أَن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: أَي علم القرآن أفضل؟ فقال النبي عليه السلام: (عربيته، فالتمسوها في الشعر). وقد أجاد ابن عطية في هذا الميدان، ودلل على باع طويل في العربية. وأَمامك التفسير وستجد فيه من وجوه الإعراب ما يؤكد كلامنا، وإن شئت فارجع إلى تفسير «بسم الله الرحمن الرحيم» وانظر ما نقله من آراءِ البصريين والكوفيين في إعراب كلمة (بسم)، أَو فارجع إلى ما ذكره عن اشتقاق كلمة (الملائكة) أَو كلمة (الشياطين)، وما نقله من آراءِ اللغويين في ذلك، وكيف يفضل بعض الآراء على بعض عندما وردت هاتان الكلمتان في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]. وفي قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾[2].

غير أننا نلاحظ هنا أنه دائماً يُفَضلُ آراءَ سيبويه، فتراه بعد أَن يعرض الآراءَ يقول: «والصحيح قول سيبويه».

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٦.

٤ـ والنقطة الرابعة: أَنه يهتم جداً بذكر كل القراءات، ويورد منها الصحيح والشاذ، وقد كان ابن عطية واضحاً جداً في هذا المجال حين قال في مقدمته: «وقصدت إيراد جميع القراءات، مستعملها وشاذها، واعتمدت تبيين المعاني، وجميع محتملات الأَلفاظ».

فهو يذكر القراءَات الصحيحة، ويذكر القراءَات الشاذة، لكنه دائماً ينبه على شذوذها، ولقد زاد من توضيح الأَمر حين بَيَّنَ الفرق بين القراءَة الصحيحة والقراءَة الشاذة بقوله: «ومضت الأَعصار والأَمصار على قراءَة السبعة، وبها يُصَلَّى، لأَنها ثبتت بالإجماع، وأَما شاذُّ القراءَات فلا يُصلَّى به، لأَنه لم يُجْمِع الناس عليه».

فالفرق عنده هو الإجماع وعدمه.

ثم يبين لنا السبب في روايته للقراءَة الشاذة فيقول: «وإنما أَذكره في هذا الكتاب لئلا يُجْهَلْ».

والمهم أَنه لم يقف عند حدود الإِشارة إلى القراءَة الشاذة أَو تضعيفها، بل نراه في كثير من الأَحيان يعلل وينقد، ويستند في رده لها إلى قواعد اللغة، أَو قواعد النحو، غير مُكْتَفٍ بعدم الإجماع، والأَمثلة على ذلك كثيرة، وستراها في الكتاب، فلا حاجة إلى التمثيل هنا.

٥ـ النقطة الخامسة هي مذهبه الفقهي، وابن عطية كان مالكي المذهب، ولكنه كان غير متعصب لمذهبه، بل كان يتحرى الحقيقة، ويخضع للدليل عند ذكر الأَحكام الفقهية، ومن ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾(١) فقد تعرض لذكر الخلاف القائم بين أَئمة المذاهب في مسأَلة من تزوج امرأَة في عدتها، ودخل بها، وذكر سنداً خاصاً إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفيد أن الجاهل بالحكم لا يتأَبد عليه التحريم. وكان يذكر آراءَ أَبي حنيفة والشافعي، ويَرُدُّ الرأْي الذي لا يرتضي حجته، أَو لا يقبل دليله، وبخاصة مذهب أَبي داود الظاهري الذي ساد في الأَندلس فترة من الزمن، ومع هذا فابن عطية لا يُكثر من ذكر الأَحكام الفقهية، ولا يناقشها إلا في مواقف قليلة.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٣٥.

سادساً: الأساس السادس في منهج ابن عطية هو وضوح شخصيته في تفسيره، ولقد كان له دور بارز، وله رأيه الذي يثبته بوضوح وقوة.

نعم هو ينقل آراءَ السابقين، ويعتمد على المأثور في التفسير، وأَول الآثار التي ينقلها هي: الأَحاديث النبوية، ثم أقوال الصحابة والتابعين، وكبار العلماء المعروفين، كعلي بن أبي طالب، وابن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأُبي بن كعب، وسعيد بن جبير، والضحاك، وعكرمة، وقتادة، وأَبي العالية، والسدّي، والحسن بن أَبي الحسن، ومجاهد بن جبر، وغيرهم، لكنه لا يذكر الأَسانيد، قصداً إلى عدم الإطالة، تحقيقاً لمبدئه في «محرره الوجيز»، وإذا كثرت الآراءُ اختار ورجَّح. وكان دائماً يقف عند الأَحاديث وكل ما يُنقَل عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ويظهر أنه كان ينقل هذه الأَحاديث الشريفة عن كتب التفسير السابقة، ولهذا نراه في بعض المواقف ينقل أَحاديث ضعيفة، أَو موضوعة، دون تحقيق منه أَو تعليق عليها.

لكن هذا كله لم يقلل من دوره في الكتاب، فهو واضح الشخصية كما قلنا، وهو يبدي رأيه في كثير من المواقف معتمداً على جهده: «كل ذلك بحسب جهدي، وما انتهى إليه علمي». وجهده وعلمه في الاختيار أَو الترجيح أَو التوفيق بين الآراءِ المختلفة ـ يظهران في اعتماده على: اللغة، أَو المنطق والعقل، أَو الأَحاديث النبوية كما قلنا.

ثم يظهر علمه وجهده في الرأَي الجديد الذي يخرج به مخالفاً للمفسرين قبله. وأَكثر آرائه الجديدة، لها وجاهتها ودقتها ووقعها في النفوس والعقول. وسترى ذلك في مواضع كثيرة من هذا التفسير العظيم.

سابعاً: من الملاحظات الجديرة بالبحث والتأَمل أَن ابن عطية لم يتجه في تفسيره إلى أَسرار البلاغة القرآنية، ولم يكثر من إيراد وجوه الإعجاز البياني، كما فعل الزمخشري مثلاً.

ولعل السر في ذلك أَن أَهل المغرب عموماً برعوا في علوم اللسانيات، واهتموا بالدراسات اللغوية، لكنهم لم يبرزوا في علوم البيان كأَهل الشرق. وابن عطية واحد منهم.

وابن عطية يميل إلى تضييق مجال المجاز في القرآن، ويحرص على التزام الحقيقة، وكل لفظة يمكن حملها على الحقيقة لا داعي عنده إلى إخراجها عن ذلك إلى ميدان التجوز. ولبعض الباحثين المعاصرين آراءٌ قد تتهم ابن عطية بالعجز عن فهم أسرار البلاغة، وبالخلط أحياناً بين الاستعارة والتشبيه، لكن هذا الكلام غير وارد بالنسبة إلى عالم كبير له هذا الباع الطويل في مجال اللغة والقراءَات والأحكام ـ إنما هو مبدأٌ التزمه الرجل، وليس تقصيراً أو عجزاً.

كذلك نلاحظ أنه قليل الميل إلى سرد آراءِ الفلاسفة والحكماءِ، وإنما يأخذ منها بطرف، وعندما ينقل عن علماء الكلام فإنه يكون واضحاً محدداً، لا ينقل الآراءَ بأسلوب يخل بجوهرها، بل يحرص على الاحتفاظ بالصورة الأصلية للرأي، ويقدمها في دقة. وكان واضح الالتزام بمذهب أهل السنة، لكنه ـ في بعض الأحيان ـ كان يميل إلى رأي غيرهم، أو على الأقل يضع الرأي المخالف موضع التقدير، ولقد قيل عنه إنه يميل إلى المعتزلة، ويأخذ بآرائهم، وهذا قول مردود، ناقشناه في موضعه من هذا التقديم، وبينا رأينا فيه بصراحة.

ثامناً: لعله من الملائم هنا أن نثبت حقيقة وضحت لنا في أثناء عملنا بهذا التفسير، وهي أن ابن عطية عندما يتعرض لنقطة لا يتركها حتى يوفيها حقها من البحث والاستقصاء، ومهما كان البحث الذي يتعرض له فهو دائماً عالم مطلع ملم بالآراءِ المختلفة.

ارجع إلى تفسيره لقول الله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾(١)، وسترى أنه بدأ فيه بالقراءَات فأفاض فيها وأجاد، وذكر العلل اللغوية، وسَرَدَ الروايات، وناقشها مناقشة لغوية وعقلية، وأثبت تبحره في علم القراءَات، ثم أثبت قدرته اللغوية حين نقل المعاني المختلفة لكلمة (الدين)، وقال: إنها تأتي في كلام العرب على أنحاءَ، منها: «الملَّة ـ وحظُّ الرجل في أقواله وأعماله واعتقادته ـ والعادة ـ وسيرة الملك ـ والجزاءُ ـ والذلُّ ـ والسياسة ـ والحال ـ والداءُ». ـ وكان كلما ذكر نحواً من هذه الأنحاء استشهد عليه من كتاب الله تعالى، ومن كلام الرسول ﷺ، ومن أشعار

(١) سورة الفاتحة: الآية ٣.

العرب وآثارهم. وكثيراً ما ساق على المعنى الواحد أكثر من شاهد، وعلَّق على الشواهد، وأَبان عن موضع الاستشهاد، وكثيراً ما ينسب الأَشعار والآثار لأَصحابها، مع حرص على التنسيق والتتابع. وبعد ذلك كله تراه يختار المعنى المناسب، ويدلل على اختياره، ومثل هذا تراه أيضاً في توضيح معنى (الهداية) عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[(١)]. فهو يذكر احتمالات اللفظ في اللغة، ويدلل على كل احتمال، ويستشهد له في استقصاء يدل على تبحر في العلم، وعلى اطلاع واسع، حتى لربما ظن بعض القارئين لتفسيره أنه يحاول أَن يثبت قدراته في مجالات العلوم المختلفة، فهو نوع من استعراض العضلات، إن صح هذا التعبير عن رجل يتعرض لعمل عظيم هو تفسير كتاب الله تعالى.

غير أَن الإنصاف يقتضي أَن ننفي هذا الظن، وأَن نقول: إن الرجل يعطي القارىءَ فوائد في العلوم المختلفة، وإن الطريق لم يضل به أبداً.

لقد كان ابن عطية دائماً مفهوماً، محدد الخطوات، واضح العبارات، جامعاً كل قول إلى رفيقه، فاصلاً بين الآراءِ بما يوضح حدود كل رأْي، وحسبك منه هذا إلى جانب علمه، لتعترف له بما هو جدير به من العلم والدقة والتنسيق والاستقصاء في البحث.

تاسعاً: ابن عطية يميل إلى تفسير القرآن بالقرآن، أَو على الأَقل يختار الرأْي الذي يؤيده القرآن، راجع تفسيره لقول الله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾[(٢)]، تجده يقول: «و(المغضوب عليهم) اليهود ـ و(الضالين) النصارى» ونسب هذا الرأي لأصحابه، ثم قال: «وذلك بيِّن من كتاب الله تعالىٰ، لأَن ذكر غضب الله على اليهود متكرر فيه، كقوله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[(٣)]، وكقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾[(٤)].

---

(١) سورة الفاتحة: الآية ٥.
(٢) سورة الفاتحة: الآية ٧.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١١٢.
(٤) سورة المائدة: الآية ٦٠.

وهكذا يمضي فيدلل على اختياره بكتاب الله تعالى، ويقرن الدليل بالدليل، ويتبع الحجة بحجة أخرى.

ولقد سبق أن أَشرنا إلى أنه كان يقف عند الحديث النبوي. فلا يأْخذ برأي بعد قول رسول ﷺ.

عاشراً: ومما يذكر لابن عطية أَنه كان يفسر آيات الجهاد تفسير البطل الذي خبر الحروب وذاق قسوة المعارك، وقد عرفنا من حياته أَنه واحد من العلماء المجاهدين، جمع بين فضيلتي الجهاد بالقلم، والجهاد بالسيف في الميدان.

آراء العلماء في تفسيره:

أَجمع العلماءُ على أَن تفسير ابن عطية فريد بين التفاسير المختلفة، وكلهم أَقروا بفضله، واعترفوا بعلمه، ولا نظن أَن هناك إجماعاً على وجود كثير من القيم الفنية والعلمية في واحد من التفاسير كهذا التفسير، مع أن هؤلاء العلماء يمثلون مذاهب مختلفة، وعقليات متباينة، والحق دائماً واضح منير.

وهذه بعض الآراء ننقلها لك عن أصحابها حتى تتأكد من صحة ما ذهبنا إليه:

١ ـ نقل صاحب «كشف الظنون» عن أَبي حيان رأيه في تفسير ابن عطية فقال:

«وقد أَثنى عليه أبو حيان وقال: هو أَجلُّ مَن صنف في علم التفسير، وأَفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير»[١].

ومن العجيب أَنك حين ترجع إلى تفسير أَبي حيان تجده دائماً يتتبع أقوال ابن عطية في الإعراب واللغة، ويعلق عليها بالنقد، لكنه ـ مع ذلك ـ لم يقل إلا الحق الذي يمليه عليه ضميره، والذي حمله على استخدام كلمتي: (أَجلُّ ـ وأَفضل).

٢ ـ وقال صاحب «بغية الملتمس» بعد أن ذكر اسمه ونسبه:

أَلفَّ في التفسير كتاباً ضخماً، أربى فيه على كل متقدم، أخبرني به عنه شيخي القاضي أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد، قرأ عليه جميعه بالمرية»[٢].

---

(١) كشف الظنون (٣/ ١٦)، وكلام أبي حيان في البحر المحيط (١/ ١٠).
(٢) بغية الملتمس ٣٧٦.

٣ـ ويقول أبو حيان عندما قارن بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشري:

«وكتاب ابن عطية أنقل، وأَجمع، وأَخلص ـ وكتاب الزمخشري أَلخص وأَغوص»[(١)].

٤ـ وقال ابن خلدون في «مقدمته»:

«وجاء أبو محمد عبد الحق بن عطية من المتأخرين بالمغرب، فلخص تلك التفاسير كلها، وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأَندلس، حسن المنحى»[(٢)].

٥ـ ويعقد ابن تَيْمية رحمه الله مقارنة بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشري في «فتاويه» فيقول:

«وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري، وأَصح نقلاً، وبحثاً، وأَبعد عن البدع، وإِن اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعله أَرجح هذه التفاسير»[(٣)].

أثره في المفسرين بعده:

إن أَبلغ دليل على قيمة تفسير ابن عطية أَنه ترك آثاراً واضحة في مناهج المفسرين بعده، ومن الطبيعي أَن يكون تأثر المفسرين من أَبناءِ المغرب العربي أقوى من تأثر زملائهم في المشرق العربي.

وأَهم من تأَثر به أَربعة، هم:

١ـ أَبو عبد الله محمد بن أَحمد الأَنصاري القرطبي المتوفى سنة ٦٧١هـ. فقد ظهر تأَثره بابن عطية واضحاً في كتابه: «الجامع لأَحكام القرآن»، فالمتتبع لهذا التفسير الجليل يرى أَنه يكاد يسير في خط ابن عطية، بمعنى أَنه التزم نفس المنهج الذي وضع أُسسه ابن عطية.

---

(١) كشف الظنون ٣/ ١٦.

(٢) مقدمة ابن خلدون ٣٤٨.

(٣) فتاوى ابن تيمية ٢/ ١٩٤.

قال الإمام ابن خلدون رحمه الله في المقدمة:

«وقد تتبع القرطبي في تفسيره ابن عطية، وسار على منهجه وطريقته. والقرطبي نفسه يضع لنفسه خطوطاً في مقدمة تفسيره ترينا أنه سلك طريق ابن عطية، ولم نجد اختلافاً بين الرجلين إلا في عناية القرطبي بتخريج الأحاديث النبوية، لكنه إلى جانب هذه الميزة أكثر من الإسرائيليات على عكس ابن عطية، فكانت هذه عليه لو كنا في مجال الموازنة والمقارنة، ويبقى لابن عطية فضل السبق».

ب ـ أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي المتوفى سنة ٧٤٥هـ فقد تأثر كثيراً بابن عطية في تفسيره المسمى «البحر المحيط».

وأبو حيان يعترف في مقدمته لتفسيره بأنه اعتمد على إمامين كبيرين من أئمة التفسير، هما الزمخشري وابن عطية، وقال عنهما: «إنهما أجل من صنف في علم التفسير، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير». والمنهج الذي سلكه أبو حيان يكاد يشابه منهج ابن عطية، ولكنه عني عناية كبيرة بنقل آراءِ ابن عطية والتعقيب عليها، فلا تكاد تمر مسألة في اللغة والنحو، أو في القراءات إلا وينقل رأي ابن عطية فيها، لكنه يتتبعه في أكثر النقاط بالتعليق وبالنقد، وله في ذلك نكات لطيفة، ونظرات صائبة، لكنه في بعض الأحيان يكون متجنياً، ويبدو وكأن جُل همه هو إظهار نواحي الخطأ في كلام ابن عطية، وقد أشرنا في ذيل الصفحات إلى كثير من هذه النقاط التي تَعَقَّبَ فيها أبو حيان ابن عطية بالنقل والنقد والمخالفة.

ولقد عني بعض العلماء بجمع آراءِ أبي حيان التي عقب فيها على أقوال ابن عطية والزمخشري في كتب خاصة، ومن أشهرها كتاب: «المحاكمات بين أبي حيان وابن عطية والزمخشري». وهو فيما نعلم لا يزال مخطوطاً إلى اليوم.

جـ ـ الشيخ العارف بالله أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري المتوفى سنة ٨٧٥هـ. فقد اختصر تفسير ابن عطية في كتاب له سماه: «الجواهر الحسان في تفسير القرآن». وهذا واضح صريح في كتابه هذا. في المقدمة، وفي الخاتمة.

قال في المقدمة:

«فإني قد جمعت لنفسي ولك في هذا المختصر ما أرجو أن يُقِرَّ الله به عيني وعينك،

فقد ضمَّنتُه ـ بحمد الله ـ المهمَّ مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية، وزدته فوائد جمة من غيره من كتب الأئمة، وثقات أعلام هذه الأُمة».

ثم قال في الخاتمة:

«وقد استوعبت بحمد الله مهمات ابن عطية، وأَسقطت كثيراً من التكرار، وما كان من الشواذ في غاية الوهى، وزدت من غيره جواهر ونفائس لا يستغنى عنها».

وهذا الكلام يوضح نقطتين:

الأولى: أَن الثعالبي اعتمد كثيراً على تفسير ابن عطية.

الثانية: أَنه زاد عليه بالتعليق، ونقل آراءَ أُخرى لأئمة العلماء في مختلف العلوم والفنون. لكن الرجل كان منصفاً إذ دافع عن ابن عطية في كثير من الآراءِ.

وقد صرح بذلك كله الشيخ أَحمد بابا السوداني في: «نيل الابتهاج» في ترجمة الثعالبي نقلاً عن شيخه السخاوي وغيره.

د ـ وذكر شمس الدين الداودي في طبقات المفسرين في: «ترجمة عبد الكبير بن محمد بن عيسى أَبي محمد الغافقي المرسي» أَنه صنَّف تفسيراً جمع فيه تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشري.

ولسنا نحاول أَن نزيد من الثناء على تفسير ابن عطية، أَو الدفاع عنه، فإنه ليس موضع الاتهام، ولم يقلل أَحد أَبداً من قيمته، لكننا نحب أَن نبين الحقائق وأَن ننسب الفضل لأَصحابه. والتفسير بين أيديكم، وهو حجة واضحة على أَن هذا الرجل قد أَعد عدته، وشحذ همته، وبذل جهده وطاقته في تفسيره هذا، وكان على مستوى العمل الذي تعرض له، وجاءَ فيها بالجديد المبدع.

عقيدة ابن عطية من خلال تفسيره:

أَثار بعض العلماء جدلاً حول مذهب ابن عطية، وذهبوا إلى أَنه يميل أَحياناً إلى مذهب المعتزلة، وقد يختاره على مذهب أَهل السنة ولو في بعض الأُمور.

١ـ ومن الذين تكلموا في هذا الموضع ـ من أَجلة العلماء ـ شيخ الإسلام أَحمد بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ وقد ذكر رأيه هذا في كتابه: «مقدمة في أُصول التفسير ـ ص٢٣» قال: «تفسير ابن عطية وأَمثاله أَتبع للسنة والجماعة، وأَسلم من البدعة من تفسير الزمخشري، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأْثورة عنهم على

وجهه؛ لكان أَحسن وأَجمل، فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري، وهو من أَجل التفاسير وأعظمها قدراً، ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال، ويذكر ما يزعم أَنه قول المحققين، وإنما يعني بهم طائفة من أَهل الكلام الذين قرروا أُصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أُصولهم، وإن كان أقرب إلى السنة مَن المعتزلة»ا. هـ. وواضح أَن ابن تيمية رحمه الله يذكر هنا ثلاث حقائق فيما يرى:

الأولى: أَن تفسير ابن عطية أَتبع للسنة والجماعة، وأَسلم من البدع من تفسير الزمخشري. وهذا الكلام يغمز ابن عطية بالاعتزال لكنه يخفف من اعتزاله، ويجعله أَقرب إلى أَهل السنة بالنسبة إلى الزمخشري، فهو قُرْبٌ نسبي.

الثانية: أَنه ينقل عن الطبري، ولكنه يترك ما نقله ابن جرير عن السلف فلا يحكيه، ولو أَنه ذكر كلامهم هذا لكان تفسيره أَحسن وأَجمل. ولسنا نظن أَن ابن عطية كان مُلْزَماً بنقل كل كلام السلف الذي نقله ابن جرير الطبري، فلكلٍّ أُسلوبه، وقد كان ابن جرير ينقل كل الآراءِ، ويُرَجح بعضها على بعض أحياناً، وفي أحياناً أُخرى يتركها بدون ترجيح، أَما ابن عطية فلا يختار هذا الأُسلوب ـ إنه صاحب منهج يقوم على مبادىءَ، ومن مبادئه أَلا ينقل إلا ما يطمئن إلى صحته، ويرى أَنه يتفق مع العقل. فنقد ابن تيمية غير وارد، وهل معنى أَن يكون ابن عطية من أَهل السنة والجماعة أن يتقبل كل صغيرة وكبيرة، وأَن يسلِّم بكل ما يقوله علماءُ المذهب دون أَن يكون له رأي شخصي؟ إن هذا يلغي شخصيته، ويلغي شخصية كل عالم يريد أَن ينصف نفسه ويحترم عقله. وإذا كان ابن تيمية في زمانه يتقبل هذا الرأْي ويؤمن به، فما أَحسبنا في هذه الأَيام نرضى لأَنفسنا بأَن نسلم للسابقين بكل قول، حتى ولو لم تقبله عقولنا، وهذا هو ما فعله ابن عطية على الرغم من تقدمه الكبير في الزمن علينا.

الثالثة: تكشف عن الغاية الحقيقية من كلام ابن تيمية، إنه يعيب على ابن عطية أَنه في بعض الأحيان يميل إلى آراءِ جماعة من علماء الكلام يسيرون على نهج المعتزلة في استدلالاتهم، وهو صاحب مذهب، وله مطلق الحرية في أَن يأخذ يما يرى، لكننا نؤمن أيضاً بأَن ابن عطية صاحب رأي، وله أيضاً مذهبه ـ إنه يؤمن بالنقل وبالعقل معاً ـ فإن اتفق في معقوله مع علماء المعتزلة في بعض الأمور، فإن هذا لا ينهض دليلاً على أنه واحد منهم، لأَنه في كل آرائه الأُخرى يناقضهم، ويعيب عليهم، ويرد عليهم

حججهم، فلماذا إذاً نتمسك بنقطة أو نقطتين، ونجعل منهما أساساً للحكم على مذهب الرجل، ونترك مئات النقاط والآراءِ التي يخالفهم فيها؟ إن الحكم بمثل هذا حكم غير عادل في ميزان الإنصاف والحقائق.

٢ـ وهناك عالم جليل آخر أثار هذه النقطة، واتهم ابن عطية بأنه أخطر على المبتدئين من الزمخشري، لأن الزمخشري معروف المذهب، والناس يتناولون كلامه على حذر، أما ابن عطية فغير مشهور باعتزال كالزمخشري، ومن هنا كانت خطورته على المتعلمين. هذا العالم هو شيخ الإسلام أحمد بن حجر المتوفى سنة ٩٧٣هـ ـ وقد ذكر هذا الكلام في كتابه «الفتاوى الحديثة» وقد جاءَ فيه سؤال وجواب أما السؤال فهو: هل في تفسير ابن عطية اعتزال؟ وأما الجواب فكان: نعم فيه شيءٌ كثير، ثم نقل عن (ابن عرفة) ما أشرنا إليه من أن ابن عطية أشد خطراً على المبتدئين من الزمخشري.

٣ـ وقال بعض الباحثين: «من تأمل تفسيره لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[1] أدرك أنه يميل إلى ما تميل إليه المعتزلة، أو أنه يقدر ما تذهب إليه المعتزلة في مسألة الرؤية، وإن كان يحترم مع ذلك رأي الجمهور، أي أهل السنة والجماعة».

وأبسط ما يقال في الرد على مثل هذا الكلام أن ابن عطية ذكر في تفسير (الزيادة) في هذه الآية قولين:

القول الأول: أن الزيادة هي النظر إلى الله عز وجل. وأيده بأنه رُوِيَ فيه حديث عن النبي ﷺ ـ رواه صهيب ـ وبأنه رُوِيَ عن أبي بكر، وحذيفة، وأبي موسى الأشعري.

القول الثاني: أن الزيادة هي تضعيف الحسنات إلى سبعمائة ضعف.

ثم قال ابن عطية تعقيباً على القولين: «وهذا قول يعضده النظر، ولولا عظم القائلين بالأول لترجح هذا القول». هذا هو كل ما أُخذ على ابن عطية.

والباحث المدقق يرى:

١ـ أن ابن عطية لم يُرَجح القول الثاني، بل أعطى كل قول حقه، فالأول مروي عن عظماء، علينا لهم حق الاستماع والتقدير. والثاني يعضده العقل والفكر. ولكن أيهما

(١) سورة يونس: الآية ٢٦.

أَخذ به ابن عطية؟ لم يقطع، ولم يقل، بل قال: «لولا عظم القائلين بالقول الأَول لترجح هذا القول». فترجيحه لم يتم لأَن القائلين بالرأْي الأَول أَعظم.

ب ـ أَن القول الثاني مروي عن ابن عباس، والحسن البصري، ومجاهد وقتادة، فهل نقول: إن هؤلاء من المعتزلة أَيضاً؟

جـ ـ وقف ابن عطية من المعتزلة موقفاً صريحاً واضحاً في كل النقاط المعروفة بأَنها موضع خلاف بين أَهل السنة وبين المعتزلة، وكان دائماً ينصر رأْي أَهل السنة، ويعيب على المعتزلة بعبارات فيها طعن وغمز وتجريح، ونذكر منها هذه الأَمثلة:

١ـ قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[(١)]: «وثبت بنص هذه الآية القوة لله، بخلاف قول المعتزلة في نفيهم معاني الصفات القديمة».

٢ـ وقال عند تفسير قوله تعال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[(٢)]. «وفي قوله تعالى: «أُعِدَّتَ» ردٌّ على من قال: إن النار لم تخلق حتى الآن، وهو القول الذي سقط فيه منذر بن سعيد» وتأمل قوله: «سقط فيه» لتعلم مقدار نفوره من مذهب منذر بن سعيد هذا، وهو واضح الاعتزال.

٣ـ وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(٣)] ـ «معنى (وكان من الكافرين) أي في علم الله تعالى أَنه سيكفر، لأَن الكافر حقيقة، والمؤمن حقيقة هو الذي قد علم الله منه الموافاة».

٤ـ وعند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾[(٤)] قال: «وفي قوله: «مني» إشارة إلى أَن أَفعال العباد خلق لله تعالى».

٥ـ وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾[(٥)]. قال: «ويصح أَن تكون الملاقاة هنا بالرؤية التي عليها أهل السنة، وورد بها

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٥.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٤.
(٣) سورة البقرة: الآية ٣٤.
(٤) سورة البقرة: الآية ٣٨.
(٥) سورة البقرة: ٤٥ـ٤٦.

متواتر الحديث». فتأمل قوله: «وورد بها متواتر الحديث».

٦ ـ وعند تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾(١) يثبت صفة الحياة لله على مذهب أَهل السنة والجماعة، ثم يقول: «وذكر الطبري عن قوم أَنهم قالوا: لله حياة لا بحياة». وَيُعَقِّبُ على ذلك بقول: «وهذا قول المعتزلة، وهو قول مرغوب عنه».

٧ ـ وعند تفسير قوله الله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾(٢) يذكر رأي أَهل السنة فيقول: «أَجمع أَهل السنة على أَن الله عز وجل يُرى يوم القيامة. . . . إلخ»، وبعد أَن ينسب القول لأَهله من السلف يقول: «والوجه أَن يبين جواز ذلك عقلاً، ثم يستند إلى وقوع السمع بوقوع ذلك الجائز، واختصار تبيين ذلك أَن يعتبر بعلمنا الله عز وجل، فمن حيث جاز أَن تعلمه لا في مكان، ولا متحيزاً، ولا مقابلاً، ولم يتعلق علمنا بأَكثر من الوجود ـ جاز أَن نراه غير مقابل، ولا محازى، ولا مكيف، ولا محدود». وهو بهذا ينتقض دليل المعتزلة القائلين بأَن الرؤية تقتضي مقابلة وتحيزاً وزماناً ومكاناً. . . إلخ.

ثم يمضي في هدم رأي المعتزلة فيقول: «ثم ورد الشرع بذلك، وهو قوله عز وجل: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾(٣) ـ وتعدية النظر بإلى إنما هو في كلام العرب لمعنى الرؤية لا لمعنى الانتظار على ما ذهبت إليه المعتزلة، ومنه قول النبي ﷺ ـ فيما صحَّ عنه وتواتر وكثر نقله ـ (إنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر). . . إلخ ما قال.

وكلامه هنا طويل، ومدعم بالحجج النقلية والعقلية، وهو موجود في موضعه في التفسير في سورة الأنعام.

فهل بعد هذا كله ـ وهو غيض من فيض كما يقولون، أَو نقطة من بحر ـ هل بعد هذا يقال: إنه يميل إلى رأي المعتزلة؟

الحق أَن ابن عطية كان على مذهب أَهل السنة والجماعة، ولكن عن اقتناع لا عن تقليد، وعن فهم لا عن تسليم.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.
(٣) سورة القيامة: الآية ٢٢ـ ٢٣.

منهجنا في هذا التحقيق

حين بدأ العمل في تحقيق هذا التفسير الجليل، كان الهدف الأَول هو البحث عن النسخ الخطية التي يمكن الرجوع إليها، وقد أُتيحت لنا فرصة الاعتماد على بعض النسخ المخطوطة، لكنها كلها تعرضت لأَضرار، كثيرة أَو قليلة، واحتاجت منا إلى جهود واضحة حتى نصل إلى الأصل الذي لا نشك في أَنه عمل ابن عطية.

وأهم النسخ التي يمكن الإشارة إليها هي:

١ـ نسخة كاملة مصورة من تونس، بخط مغربي.

٢ـ النسخة الملكية التي قسمت تفسير ابن عطية إلى أَربعة أَجزاءٍ، الجزءُ الأَول ينتهي إلى قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾[1]. وقد أُرخ بيوم السبت الخامس والعشرين من صفر الخير عام تسعة وتسعين ومائة وألف ـ وهو تحت رقم (٨٥٣١) ـ وعدد صفحاته (٥٨٩).

٣ـ النسخة الناصرية الموجودة بالخزانة العامة ضمن مخطوطات الأَوقاف بالمملكة المغربية، رقم (٨٨٠) ـ والجزءُ الأَول منها يصل إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2]، وهو تحت رقم (١٣٢٧)ـ وعدد صفحاته (٢٩٨).

٤ـ النسخة الناصرية الموجودة كذلك بالخزانة العامة ضمن مخطوطات الأَوقاف بالمملكة المغربية تحت رقم (١٨٦)، والجزءُ الأَول منها يبلغ إلى قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾[3]. وهو تحت رقم (٢٣١)ـ وعدد صفحاته (٣٦٢).

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٥.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٩٦.
(٣) سورة النساء: الآية ١٧٦.

٥ـ النسخة اليوسفية، وينتهي الجزءُ الأَول منها بانتهاءِ سورة البقرة وهو تحت رقم (١٧٣)، وعدد صفحاته (٢٠٢).

٦ـ نسخة المكتبة العامة بالعرائش، وينتهي الجزء الأول منها بانتهاء سورة البقرة كذلك، وليس له رقم، وعدد صفحاته(٣٩١).

والنسخة التي جُعلت أَساساً للإخراج، وكان الاعتماد الأَول عليها، هي النسخة الناصرية التي تنتمي للأَوقاف، لأَنها مع ما أَصابها من أَضرار كانت أقرب النسخ إلى السلامة، أَما بقية النسخ فقد كانت مساعدة ومعينة عند البحث.

فإن صادف المرءُ الصواب فهذا من فضل الله وعطائه، وإلا فالمركب صعب غير ذلول، والإنسان موضع الضعف والقصور، وعلى الله قصد السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وقد قصدنا في منهج عملنا أَن نحقق ما يأتي:

أولاً: الوصول بقدر الإمكان إلى الأصل الذي نطمئن إليه، والذي نثق أَنه كلام ابن عطية. والخطة الغالبة في هذا أَنه إذا اختلفت النسخ، وكانت كلها تمس الموضوع، أَن نشير إلى ما فيها من كلمات بلفظ «وفي بعض النسخ» من دون أَن تضاف، ولا أَن توصف بصفات، وأَن يعتبر ما زيد فيها من العبارات، ويتجاوز عما كان من النقص.

ثانياً: عُنينا بضبط الكلمات التي نراها مظنَّةً للتحريف أَو الخطأ عند النطق، وهدفنا من هذا أَن نساعد القارىءَ على نطق العبارة في صورتها الصحيحة من أَول الأَمر، وراعينا أَن نساعد القارىءَ على ذلك بالفواصل، وعلامات الترقيم، والرجوع من أَول السطر، والفصل بين العبارات والجمل المنقولة، والآراءِ المنسوبة لأَصحابها، بحيث يستقل كل كلام عن غيره، وبحيث يعرف القارىءُ كلام ابن عطية من كلام العلماءِ الذين ينقل عنهم، وفي هذا المجال كنا نضع هذه العبارة دائماً في أَول السطر: «قال القاضي أَبو محمد رحمه الله». لندل على أَن الكلام التابع لها إنما هو من كلام ابن عطية الذي يريد به التعليق أَو النقد أَو أَي شيءٍ آخر.

وتحقيقاً لهذه الفائدة وضعنا الآيات القرآنية التي يذكرها المؤلف للاستشهاد بها بين هاتين العلامتين [] ـ ووضعنا الأَحاديث النبوية بين هاتين العلامتين() أَما الآثار التي

نرى لها أَهمية فقد نضعها بين علامتي التنصيص «» ـ وكذلك بعض الأقوال المنسوبة لأَصحابها.

ثالثاً: راعينا ضبط الآيات القرآنية كلها بالشكل، أما الآيات المفَسَّرَةُ فهي منقولة من المصحف الكريم مع الأَرقام، وقد وضعناها بين هاتين العلاميتن ﴿ ﴾. وأَما الآيات التي تأتي للاستشهاد فنشير في أَسفل الصفحات إلى رقم الآية، والسورة التي ذكرت فيها، حتى يسهل الرجوع إليها في موضعها من هذا التفسير أو من غيره لمن يريد ذلك.

رابعاً: أَما الأَحاديث النبوية فقد حرصنا على تخريجها، وقد نذكر بعض روايات أخرى ورد بها الحديث غير الرواية التي ذكرها المؤلف، وقد نكمل الحديث إذا كان المؤلف قد ذكر جزءًا منه، استكمالاً للفائدة، وتسهيلاً على من يريد الرجوع إلى الحديث في مصادره الأَصلية.

خامساً: الأَبيات الشعرية ضبطناها بالشكل، ونسبناها إلى قائلها إذا أَغفل ابن عطية النسبة، وقد نشير إلى بعض الأَبيات السابقة أَو التالية للبيت الذي استشهد به المؤلف، ونكمل أَيضاً البيت إذا كان قد ذكر نصفه، وقد نشير إلى اختلاف في رواية بعض الأَلفاظ في البيت. ثم حرصنا على التعريف بالقائل إذا كان اسمه يرد لأَول مرة، وحرصنا على شرح بعض الكلمات الغامضة أَو التراكيب الصعبة، حتى لا نلجىءَ القارىءَ إلى الاعتماد على مراجع لغوية، وقد نذكر المرجع الذي اعتمدنا عليه، وقد نتركه خشية الإطالة. وكتب اللغة والمعاجم اليوم كثيرة، لكن أَهم المراجع التي اعتمدنا عليها هي: «اللسان، والقاموس المحيط، والصحاح، والمعجم الوسيط».

سادساً: حققنا أَسماءَ الأَماكن والأَعلام من رجال الفقه والكلام، واللغة والنحو، والقراءَات، وغيرهم ممن ذكرهم المؤلف، وكذلك أَسماءَ الشعراءِ، وضبطناها بالشكل إن احتاجت، ونبهنا على من يكون في اسمه شيءٌ من تحريف الرواة، وَعَرَّفْنَا بالمشهورين من كل هؤلاءِ عند ذكر الواحد منهم لأَول مرة.

سابعاً: قمنا بالتعليق الخفيف على كلام المؤلف في بعض الموضوعات، وهدفنا من ذلك:

- توضيح المعنى إذا رأَينا فيه شيئاً من غموض.

ـ ربط الكلام ببعضه إذا طال الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه مثلاً.

ـ الإشارة إلى ما قد يبدو من تناقض في كلام المؤلف، كأَن يروي بيت الشعر بروايتين مختلفتين في موضعين متباعدين، وكذلك في بعض الأقوال والآثار التي استشهد بها.

ـ تسجيل بعض آراءٍ، نرى أَنها جديرة بالنظر، وخصوصاً للمفسرين الذين استفادوا من ابن عطية كالقرطبي، وأَبي حيان، وابن كثير، واستعملنا في ذلك بعض الرموز اختصاراً للكتابة وهي:

[الطاءُ ـ والقاف ـ والكاف ـ والحاءُ ـ والخاءُ] هكذا: [(ط)(ق)(ك)(ح)(خ)]

وهي على الترتيب تشير إلى:

[الطبري ـ القرطبي ـ ابن كثير ـ أبو حيان ـ مختصر ابن عطية] رحمهم الله جميعاً.

وكل مالم يُنسب إلى قائله لا بالرموز ولا بالتصريح فهو مما اتفق لنا، ونسأل الله التوفيق.

ثامناً: أعددنا فهارس مختلفة رأَينا أَن ينتهي بها الكتاب ـ إن شاءَ الله ـ في جزءٍ مستقل أَو أَكثر، وهي تسعة فهارس:

١ـ الأَبواب والموضوعات.

٢ـ الأَعلام.

٣ـ البلدان والأَماكن.

٤ـ الأَحاديث النبوية.

٥ـ الآثار السلفية.

٦ـ الكتب.

٧ـ الأَمثال والأَقوال.

٨ـ الغزوات وأَيام العرب.

٩ـ الشواهد الشعرية.

وأخيراً نسأل القارىء الكريم أَن يتقبل عملنا بصدر رحب، وأَن يتسامح في هفواتنا، فالإنسان كما قلنا موضع الضعف والتقصير.

غفر الله لنا أَخطاءَنا، وأَثابنا بنياتنا، وتقبل منا عملنا الذي قصدنا به وجهه الكريم. منه نرجو العون والسداد، وهو ولي التوفيق في المبدأ والمعاد.

وآخر دعوانا أَن الحمد لله رب العالمين... وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الدوحة في غرة محرم الحرام ١٣٩٨هـ

الموافق ١١ ديسمبر ١٩٧٧م

المحققون

الرحالي الفاروق	عبد الله بن إبراهيم الأنصاري
السيد عبد العال السيد	محمد الشافعي صادق

نغلى

صورة لصفحة من النسخة التونسية المساعدة توضح آخر سورة البقرة وأول سورة آل عمران.

صورة لآخر صفحة من النسخة المساعدة وعليها تاريخ نسخها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة كتاب التفسير ومقدمته

وهي تشتملُ على أَنواعٍ من علومِ القرآن: كالقول في فضائله، وتأْويلِ آياته، وكجمعه وإعجازه وعربيَّته، وكتفسير الأَحرُف السبعة الواردة في شأْنه.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

قال الراغبُ الأَصبهاني[(١)] في مقدمة تفسيره:

«أَشرف صناعة يتعاطاها الإنسان، تفسيرُ القرآن وتأْويلُه، وذلك أَن الصناعات إنما تشرفُ بأَحد ثلاثة أشياء:

١ـ إما بشَرَفِ موضوعاتها، نحو أَن يُقال: الصياغة أَشرفُ من الدباغة، لأَن موضوعَها وهو الذهبُ والفضةُ ـ أَشرفُ من جلد الميتة، الذي هو موضوع الدباغة.

٢ـ وإما بشرَفِ أَغراضها، كصناعةِ الطب التي غرضُها إفادةُ الصحة؛ فإنها أَشرف من صناعة الكناسة التي غرضها تنظيفُ المستراح. فإذا ثبت ذلك؛ فصناعة التفسير قد حصل لها الشرف من الجهات الثلاثة.

٣ـ وهو أَن موضوعَ التفسير كلامُ الله الذي هو ينبوع كلِّ حكمة، ومعدِنُ كل فضيلة. وصورةُ فعله، إظهارُ خفِيَّات ما أَودعه مُنَزِّلُهُ مِن أَسرار ليدَّبَّروا آياتِه، وليتَذَكر أُولو الأَلباب.

ـ وغرضه التمسكُ بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا فناءَ لها. ولهذا عظَّم الله محله بقوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[(٢)].

قيل: هو تفسير القرآن. ا.هـ[(٣)].

---

(١) هو الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الأصبهاني أو الأَصفهاني المعروف بالراغب، أديب من الحكماء العلماء من أَهل أصبهان، سكن بغداد، واشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالي. توفي سنة ٥٠٢هـ.

من كُتبه: «جامع التفاسير ـ محاضرات الأدباء ـ حل متشابهات القرآن وغيرها». (الأعلام للزركلي ٢/ ٢٧٩).

(٢) من الآية رقم (٢٦٩) سورة البقرة.

(٣) أي انتهى كلام الراغب الأصبهاني.

ـ ثم المنهج السليم للتفسير: أَن يتناول المفسِّرُ الآياتِ التي يُفسِّرُ بعضُها بعضاً، ولا ينبغي له أَن يبني حكماً، أَو يقررَ رأياً، أَو يكشفَ معنى، إلا بعد استيفاء هذا المعنى وهو:

تفسير القرآن بالقرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي بَرَأَ النَّسَم(١)، وأفاض النِّعَم(٢)، ومنح القِسَم(٣)، وسنَّى من توحيده وعبادته العِصم(٤). ذي العِزَّة القاهرة، والقدرة الباهرة، والآلاء المتظاهرة(٥)، الذي أوجدنا بعد العدم، وجعلنا الخِيار الوَسَط(٦) من الأمم، وَخَوَّلنا(٧) عَوارِفَ لا تُحْصى، وهدانا شِرْعَةً(٨) رمت بنا من رضوانه إلى الغرض الأقصى.

أنزل إلينا القرآن العزيز، وَعَدَ فيه وبَشَّر، وأَوْعَدَ وحذَّر، ونهى وأمر، وأَكْمَل فيه الدِّين، وَجعله الوسيلة النّاجعة، والحبل المتين، وَيَسَّره للذِّكر، وخلَّده غابر الدَّهر، عصمَةً للمعتصمين، ونوراً ساطعاً في مشكلات المُخْتَصِمين، وحجَّةً قائمة على

---

(١) (برأ) بمعنى خلق ـ يقال: برأ الله الخلق بَرْءاً وبُروءاً: خلقهم، فهو بارىءٌ. و(النَّسَم): الخلق ـ يكون للكبير وللصغير. ويكون لكل من في جوفه روح من الدواب وغيرها ـ لسان العرب مادة (نسم ١٦/ ٥٣). وفي لسان العرب مادة (برأ) ١/ ٢٢: قيل: ولهذه اللفظة من الاختصاص بخلق الحيوان ما ليس لها بغيره من المخلوقات، وقلما تستعمل في غير الحيوان، فيقال: برأ الله النسم، وخلق السموات والأرض.

(٢) (أفاض) ـ يقال: أفاض الله الخير أي كثره ـ و(النِّعم): جمع نعمة، وهي المنُّ والعطاء.

(٣) (منح): وهب، والقسم ـ بكسر القاف ـ: الحظُّ والنصيب من الخير ـ والجمع أقسام.

(٤) (سنَّى): هيَّأ وسهَّل ويسرَّ ـ والعِصَم جمع عصمة ـ يقال: عصم الله فلاناً من الشر أو الخطإ عصمة: حفظه ووقاه ومنعه. وكلمة (من) في قوله: ـ (من توحيده) للتعليل ـ والمعنى أن الله هيأ وسهّل للإنسان العصمة من الوقوع في الشر بفضله وتوفيقه، وبسبب توحيده وعبادته. يقال: سنَّيت الشيء: أي هيأته ـ ومنه أخذت (المسنَّيات). وأنشد معاوية رضي الله عنه:

وأعلم علماً ليس بالظنّ أنّه ... إذا الله سنَّى عقد شيء تيسَّرا

(٥) (المتظاهرة): التي يظاهر بعضها بعضا ـ أي يساعد بعضها بعضا في التدليل على فضل الله.

(٦) (الخيار): ـ المختار المنتقى ـ (للمفرد والمذكر وفروعهما). و(الوسط): العدل والخير يوصف به المفرد وغيره ـ وفي التنزيل: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) أي عدولاً أو خياراً.

(٧) خوَّله الشيء: أي أعطاه إياه متفضلا. (العوارف): جمع (عارفة) وهي الإحسان.

(٨) (الشِّرعَةُ): الطريق، والمذهب المستقيم ـ قال تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً).

العالم، ودعوةً شاملة لفرق بني آدم. كَلامَهُ(١) الَّذي أعجز الفُصحاء، وأَخرس البُلَغاء، وشرَّف العلماء. له الحمد دائباً، والشُّكر واصباً(٢)، لا إله إلاّ هو ربُّ العرش العظيم.

وأفضل الصلاة والتسليم على رسوله محمد الكريم، صفوته من العباد، وشفيع الخلائق في المعاد، صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، الناهض بأعباء الرسالة والتبليغ الأعصم(٣)، والمخصوص بشرف السعاية في الصلاح الأعظم، صلى الله عليه وعلى آله صلاةً مستمرة الدوام، جديدة على مر الليالي والأيام.

وبعد ـ أرشدني الله وإياك ـ فإني لما رأيت العلوم فنوناً، وحديث المعارف شجوناً، وسلكت فإذا هي أودية، وفي كلٍّ للسلف مقامات حسان وأندية، رأيت(٤) أن الوجه لمن تشوق(٥) للتحصيل، وعزم على الوصول؛ أن يأخذ من كل طرف خياراً، ولن يذوق النوم ـ مع ذلك ـ إلاَّ غرارا(٦)، ولن يرتقي هذا النجد، ويبلغ هذا المجد، حتى ينضي مطايا(٧) الاجتهاد، ويصل التأويب بالإسآد(٨)، ويطعم الصبر(٩) ويكتحل بالسهاد، فجريت في هذا المضمار صدر العمر طلقاً، وذهبت(١٠) حتى تفسخت أينا(١١)، وتصبَّبت عرقا، إلى أن انتهج بفضل الله عملي، وحزت من ذلك ما قسم لي،

(١) (كلامه) بدل من (القرآن) في قوله: (أنزل إلينا القرآن العزيز).
(٢) أي: دائماً، كقوله تعالى: (وله الدين واصباً).
(٣) اسم تفضيل، أو بمعنى العاصم، وفي بعض النسخ الأعم.
(٤) من الرأي والاعتقاد.
(٥) وفي بعض النسخ (تشزَّن)، ومعناه: (تجهز وتهيأ). وفي الحديث أنه ﷺ قرأ سورة(ص) فلما بلغ السجدة (تشزَّن) الناس للسجود، فقال ﷺ: «إنما هي توبة نبي، ولكني رأيتكم تشزَّنتم» (أي تهيأتم للسجود. فسجد فسجدوا. اهـ.
(٦) قليلا ـ ومنه قول الشاعر:

لا أذوق النـــوم إلا غـــراراً ... مثل حسو الطيَّر من ماء الثِّماد

والثِّماد: الماء القليل.
(٧) (ينضي): يتعب ويهزل أي يجعلها هزيلة ـ و(المطايا) جمع مطية: الراحلة من الدواب.
(٨) التَّأويب: سير النهار كله إلى الليل ـ و(الإسآد): يقال (أسآد) السير: أدابه، وأكثر ما يستعمل ذلك في مشي الليل ـ والجملة تفيد معنى مواصلة البحث والاطلاع.
(٩) (الصَّبر): عصارة شجر مرّ، وهو بفتح فكسر جمعه صبور، والواحدة صبرة.
(١٠) وفي بعض النسخ (وأدمنت).
(١١) (الأين): الإعياء والتعب.

ثم رأيت أنَّ من الواجب على من احتبى[(١)] وتخير من العلوم واجتبى، أن يعتمد على علم من علوم الشرع، يستنفد فيه غاية الوسع، يجوب آفاقه، ويتتبع أعماقه، ويضبط أصوله، ويحكم فصوله، ويلخص ما هو منه، أو يؤول إليه، ويفي بدفع الاعتراضات عليه، حتى يكون لأهل العلم كالحصن المشيد، والذخر العتيد، يستندون إليه في أقواله، ويحتذون على مثاله.

فلما أردت أن أختار لنفسي، وأنظر في علم أعد أنواره لظلم رمسي؛ سَبَرْتُها[(٢)] بالتنويع والتقسيم، وعلمت أن شرف العلم على قدر شرف المعلوم، فوجدت أمتنها حبالا، وأرسخها جبالا، وأجملها آثاراً، وأسطعها أنواراً: علم كتاب الله جلَّت قدرته، وتقدّست أسماؤه، الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)[(٣)] الذي استقل بالسُّنَّة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، هو العلم الذي جعل للشرع قواماً[(٤)]، واستعمل سائر المعارف خداماً، منه تؤخذ مبادئها، وبه تعتبر نواشئها[(٥)]، فما وافقه منها نصع[(٦)] وما خالفه رفض ودفع، فهو عنصرها النمير، وسراجها الوهاج، وقمرها المنير. وأيقنت[(٧)] أنه أعظم العلوم تقريباً[(٨)] إلى الله تعالى، وتخليصاً للنيات، ونهياً عن الباطل، وحضاً على الصالحات، إذ ليس من علوم الدنيا[(٩)] فيختل حامله من

---

(١) (احتبى) تمكن من العلوم تمكن الحبوة من صاحبها.

(٢) السَّبْرُ: عبارة عن حصر أوصاف المحل واختيار ما يصلح أن يكون علة وما لا يصلح، وهو لقب لمسلك من مسالك العلة عند علماء الأصول، ويقال: السبر والتقسيم.

(٣) من الآية (٤٢) من سورة فصِّلت ـ وذكرها هنا اقتباس.

(٤) (قِواماً) قوام كل شيء أعماده ونظامه.

(٥) جمع ناشئة، والمراد أن كل ما ينشأ من الأحكام والفروع، فإنَّما يعتبر بهذا العلم.

(٦) وفي بعض النسخ (بضع) أي: قبل وسمع، من قولهم: بضع الكلام بضوعا فهمه.

(٧) معطوفة على قوله: (فوجدت. .).

(٨) مصدر: قرّبه ـ تقريباً.

(٩) أي ليس من العلوم التي تؤدي إلى المخاتلة والمخادعة في الدنيا. هذا واعلم أن من صرف عنايته إلى الكتاب والسنة اكتفى بهما عن غيرهما، وأرياه الخير والشر وأسبابهما حتى كأنه يعاين ذلك عياناً، وإذا تبصرت في أحوال العالم وتأملت في أخبار الأمم، وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته، طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنة، ورأيته بتفاصيل ما أخبر الله به، وعلمت من آياته في الآفاق ما يدلك دلالة قاطعة على أن القرآن حق، وأن الرسول حق، فالتاريخ كله تفصيل لجزئيات ما عرفنا الله ورسوله به من الأسباب الكلية للخير والشر.

منازلها صيدا[١]، ويمشي في التلطف لها رويداً. ورجوت أنّ الله تعالى يحرِّم على النار فكرا عمرته ـ أكثر عمره ـ معانيه[٢]، ولساناً مرن على آياته ومثانيه، ونفساً ميَّزت براعة رصفه ومبانيه، وجالت صوامها[٣] في ميادينه ومغانيه. فثنيت إليه عنان النظر، وأقطعته جانب الفكر، وجعلته فائدة العمر. وما ونيت ـ علم الله ـ إلاّ عن ضرورة بحسب ما يلم في هذه الدار من شغوب[٤] ويمس من لغوب. أو بحسب تعهُّد نصيب من سائر المعارف. فلما سلكت سبيله بفضل الله ذللا[٥] وبلغت فيه من اطِّراد الفهم أملا، رأيت أن نُكتَهُ وفوائده تغلب قوة الحفظ وتفدح، وتسنح لمن يروم تقييدها في فكره وتبرح، وأنَّها قد أخذت بحظها من الثقل، فهي تتفصَّى[٦] من الصدر تفصّي الإبل من العقل[٧]. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[٨] قال المفسرون: أي عِلْمَ معانيه والعمل بها، وقد قال النبي ﷺ: «قيِّدوا العِلْمَ بالكتاب»[٩] ففزعتُ إلى تعليق مايتَنَخَّلُ[١٠] لي

---

(١) (يختل) بالخاء المعجمة ـ من ختل الذئب الصيد: تخفى له فهو خاتل وختول. ويقال: ختله ختلا وختلانا: خدعه عن غفلة.

(٢) (معاني) فاعل الفعل (عمر) في قوله: (عمرته) وقوله: ـ أكثر عمره ـ اعتراض.

(٣) (صوامها): المراد(خيلها) ـ ولا يخفى ما في ذلك من التَّجوز ـ وفي بعض النسخ (سومها) ـ واختاره بعض المحققين في النسخ المطبوعة حديثاً.

(٤) حدا به إلى هذا موافقة(لغوب) الآتية، وقد يقال: حكي عن الفراء أن كل ما كان من الثلاثي متعدياً فالفعل والفعول جائزان في مصدره.

(٥) جمع ذلول، والذَّلول: السَّهل، ومنه قوله تعالى في سورة النحل: (فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلا).

(٦) تفصّى: تتخلص وتفلت ـ يقال: تفصى من الشيء، وعنه ـ ويقال: تفصى من الديون، وتفصى اللحم عن العظم ـ ويقال: ما كدت أتفصى منه: أتخلص منه ـ وقد نظر المؤلف بعبارته هذه إلى ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «تعاهدوا القرآن، فو الذي نفسي بيده لهو أشدّ تفصياً من الإبل في عقلها» عمدة القارىء ٢٠/ ٤٩.

(٧) العقل: مصدر عقلَ ـ يقال: عقل البعير عقلا ـ أي ضمَّ رسغ يده إلى عضده، وربطهما معاً بالعقال ليبقى باركاً ـ ويمكن ضبطها بضم العين والقاف (العقل) ـ على أنها جمع عقال، ويكون المعنى أن الإبل تتخلص من القيود التي تمنعها من الحركة.

(٨) من الآية (٥) من سورة المزمل.

(٩) رواه الطبراني وأبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً، ونحوه ما رواه الترمذي في العلم عن أبي هريرة مرفوعاً «استعن بيمينك» أي اكتب. وقد صحت أحاديث في الأمر بكتابة الحديث منها حديث: (اكتبوا لأبي شاه) وهو في الصَّحيحين.

(١٠) نخل الشيء ينخله نخلا، وتنخله، وانتخله: صفاه واختاره ـ يقال: (تنخلت ما في هذا الكتاب) أي اخترت أجوده.

في المناظرة من علم التفسير، وترتيب المعاني، وقصدت أن يكون جامعاً وجيزاً، لا أذكر من القصص إلاّ ما لاتنفكُّ الآية إلاّ به، وأثبتُّ أقوال العلماء في المعاني منسوبة إليهم، على ما تلقى السلف الصالح رضوان الله عليهم كتاب الله تعالى من مقاصده العربية، السليمة من إلحاد أهل القول[(١)] بالرموز، وأهل القول بعلم الباطن،[(٢)] وغيرهم، فمتى وقع لأحد من العلماء الذين قد حازوا حسن الظن بهم لفظ ينحو إلى شيءٍ من أغراض الملحدين نبَّهت عليه.

وسردت التفسير في هذا التعليق بحسب رتبة ألفاظ الآية: من حكم، أو نحو، أو لغة، أو معنى، أو قراءة، وقصدت تتبُّع الألفاظ حتى لا يقع طفر[(٣)] كما في كثير من كتب المفسرين.

ورأيتُ أنَّ تصنيف التفسير كما صنع المهدوي[(٤)] رحمه الله مفرِّقٌ للنظر، مشعِّب للفكر، وقصدت إيراد جميع القراءات مستعملها وشاذها، واعتمدت تبيين المعاني وجميع محتملات الألفاظ، كل ذلك بحسب جهدي، وما انتهى إليه علمي، وعلى غاية من الإيجاز وحذف فضول القول. وأنا أسأل الله جلَّت قدرته أن يجعل ذلك كله لوجهه، وأن يبارك فيه وينفع به، وأنا وإن كنت من المقصّرين، فقد ذكرت في هذا الكتاب كثيراً من علم التفسير، وحملت خواطري فيه على التعب الخطير، وعمرت به

---

(١) كأنه يريد ما قيل في فواتح السور، وفي بعض الآيات من الرموز والإشارات.

(٢) قال بعض الأئمة: «والملحدون في زماننا هم الباطنية الذين يدعون أنَّ للقرآن ظاهراً وباطناً، وأنهم يعلمون الباطن، فأحالوا بذلك الشريعة، لأنهم تأولوا بما يخالف العربية التي نزل بها القرآن». وقد أشبع الكلام على الباطنية ومن حذا حذوهم أبو إسحق الشاطبيُّ في (الموافقات)، والإمام الغزالي، ونصه في (الإحياء): «ومن الطامات صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة، إلى أمور باطنة، لا يسبق منها إلى الأفهام شيءٌ، فهذا حرام، وضرره عظيم،فإن الألفاظ إذا صرفت عن ظواهرها بغير اعتصام من عقل أو نقل؛ اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، وسقط منفعة كلام الله وكلام رسوله»، وهذا معنى قوله ﷺ: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»، وقد عدّ(ق) في تفسيره هذا من التفسير بالرأي المتوعد عليه. ولا يدخل في هذا استنباط العالم بفهمه من الكتاب والسنّة، لحديث عليّ رضي الله عنه: «أو فهم أعطيه رجلٌ مسلم». ولفهم ابن عباس رضي الله عنهما من سورة النصر قرب وفاة النبي ﷺ.

(٣) أي الوثب والقفز، والمراد عدم تتبع ألفاظ الآيات.

(٤) هو أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي، أصله من المهدية من بلاد أفريقية، وتفصيله وتفسيره يسمى بـ(التفصيل الجامع لعلوم التنزيل)، اختصره وسماه(التحصيل)، توفي سنة ٤٣٠ هـ.

زمني، واستفرغت فيه منني[١] إذ كتاب الله تعالى لا يتفسَّر[٢] إلا بتصريف جميع العلوم فيه. وجعلته ثمرة وجودي، ونخبة مجهودي. فليستصوب للمرء اجتهاده، وليعذر في تقصيره وخطئه، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ولنقدّم بين يدي القول في التفسير أشياء قد قدَّم أكثرها المفسرون، وأشياء ينبغي أن تكون راسخة في حفظ الناظر في هذا العلم، مجتمعة لذهنه.

* * *

---

(١) جمع منَّة، وهي القوة.

(٢) وفي بعض النُّسخ الخاصَّة: لا يفسرّ.

باب
ما ورد عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وعن الصَّحابة ونبهاء العلماء رضي الله عنهم في فضل القرآن المجيد وصورة الاعتصام به[١]

قال رسول الله ﷺ: «إنَّهُ ستكون فتنٌ كقِطَعِ اللَّيلِ المُظلِم». قيل: فما النَّجاة منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله تعالى، فيه: نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو فصل ليس بالهزل، من تركه تجبُّراً قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله، وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يملّه الأتقياء، من علم علمه سبق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن اعتصم به هدي إلى صراط مستقيم»[٢]، وقال أنس في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[٣] قال: هي القرآن. وقال رسول الله ﷺ: «من أراد علم الأولين

---

(١) مما ينبغي أن يعلم أنه لا يتمُّ لصاحب القرآن من الأجر الموعود به في الأحاديث الصَّحيحة، حتى يفهم معانيه، ويدرك مقاصده، فإنَّ ذلك هو الثَّمرة من قراءته، والغاية من تلاوته، لينتفع به علماً وعملاً، وأما الذي يتلوه وهو جاهل بأحكامه وشرائعه فمثله كمثل الحمار يحمل أسفاراً، انظر تفسير (ق).

ويحكى عن الإمام أحمد رضي الله عنه أنَّه رأى ربَّه في المنام، فقال: يا ربِّ، بأيِّ شيء يتقرَّبُ العبد إليك؟ قال: بتلاوة كلامي يا أحمد. قال: (فهم المعنى أو لم يفهم يا رب؟ قال: فهم المعنى أو لم يفهم). إلا أن هذه قضية منامية والأحكام لا تثبت بمثل ذلك.

وقد قال الله تعالى: ﴿كتابٌ أنزلناه إليك مباركٌ ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾. ﴿أفلا يتدبَّرون القرآن﴾.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يأخذون القرآن عن فهم وعلم.

(٢) رواه الدّارميُّ في مسنده، والترمذي في جامعه وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات. قال ابن كثير: لم ينفرد حمزة بروايته، بل رواه محمد بن إسحق عن محمد بن كعب القرظي، كما رواه الإمام أحمد، على أنّ له شاهداً عن ابن مسعود رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه: «فضائل القرآن». وألفاظ الحديث تختلف باختلاف الروايات فتزيد وتنقص.

(٣) من الآية (٢٥٦) من سورة البقرة.

والآخرين فليثوِّر القرآن»[١]. وقال رسول الله ﷺ: «اتلُوا هذا القرآن، فإن الله يأجركم بالحرف منه عشر حسنات، أما إني لا أقول ألم حرف، ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرفٌ»[٢] وروي عنه ﷺ أنه قال في آخر خطبة خطبها وهو مريض: «أيها الناس، إني تاركٌ فيكم الثَّقلين[٣]، إنَّه لن تعمى أبصاركم، ولن تضلَّ قلوبكم، ولن تزلَّ أقدامكم، ولن تقصر أيديكم[٤]، كتاب الله سبب بينكم وبينه، طرفه بيده، وطرفه بأيديكم، فاعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وأحلُّوا حلاله، وحرِّموا حرامه، ألا وعترتي وأهل بيتي هو الثقل الآخر، فلا تسبعوهم[٥] فتهلكوا»[٦].

وقيل لجعفر بن محمد الصادق: لم صار الشعر والخطب يملُّ ما أعيد منها والقرآن لا يمل؟ فقال: «لأن القرآن حجةٌ على أهل الدهر الثاني، كما أنه حجةٌ على أهل الدهر الأول، فكلُّ طائفة تتلقاه غضاً جديداً، ولأن كلَّ امرىءٍ في نفسه متى أعاده وفكر فيه،

---

(١) يقال: ثوِّر القرآن: بحث عن علمه ومعانيه. ورويت هذه الجملة في الإحياء على أنها من كلام ابن مسعود.

(٢) رواه التِّرمذيُّ، وأبو نعيم، والخطيب، والديلمي، عن ابن مسعود رضي الله عنه بألفاظ مختلفة، ولفظ الترمذي: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشرة أمثالها، لا أقول ألـم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

(٣) تثنية (ثقل) كقمر، والثَّقل: الشَّيء النَّفيس الخطير، أو ما يستثقل على جهة التَّعظيم، لأنَّ الحقَّ ثقيل على النَّفس إلاّ من وفقه الله تعالى.

(٤) يظهر والله أعلم أنَّ هنا حذفاً تقديره: «ما تمسَّكْتُمْ بهما».

(٥) أي فلا تسبوهم، ويقال سبع فلان فلانا: شتمه ووقع فيه.

(٦) انظر رواية الإمام مسلم عن زيد بن أرقم في فضائل علي رضي الله عنه. ورواية مسلم والترمذي عن أنس «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما». ورواية الإمام أحمد في مسنده والطبراني في الكبير: «إني تارك فيكم خليفتين: كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض». ورواية النسائي في سننه «إني قد تركت فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض».

أما رواية ابن عطية فتتفق مع رواية أبي حيان في نص الحديث ـ انظر البحر المحيط ١/ ١٢. وفي صحيح ابن حبان ص١٢٢ حديث مروي عن أبي شريح الخزاعي، وفيه: «أليس تشهدون أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟ قالوا نعم. قال: فإن هذا القرآن سبب. طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده بداً».

تلقّى منه في كل مرة علوماً غضة، وليس هذا كلُّه في الشعر والخطب».

وقيل لمحمد بن سعيد: ما هذا التَّرْديد للقصص في القرآن؟. فقال: ليكون لمن قرأ ما تيسر منه حظٌ في الاعتبار.

وروي عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن فرأى أنَّ أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظَّم الله»(١).

وقال ﷺ: «ما من شفيع أفضل عند الله تعالى من القرآن، لا نبي ولا ملك»(٢).

وقال ﷺ: «أفضلُ عِبادة أمَّتي القرآنُ»(٣).

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: «من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوَّة بين جنبيه، إلا أنه لا يوحى إليه»(٤).

وحدَّث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ مائة آية، كُتبَ من القانتين، ومَنْ قرأ مائتيْ آيةٍ لم يُكْتَبْ من الغافلين، ومَنْ قرأ ثلاثمائة آية، لم يحاجّه القرآن»(٥).

---

(١) رواه أبو القاسم الطبراني عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً.

(٢) رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلاً. قاله الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء.

(٣) رواه أبو نعيم في «فضائل القرآن» من حديث النعمان بن بشير وأنس، وإسنادهما ضعيف.

(٤) حديث عبد الله بن عمرو هذا رواه أبو القاسم الطبراني مرفوعاً، ورواه الغزالي في الإحياء موقوفاً، ورواه وكيع بن الجراح في تفسيره عن إسماعيل بن رافع عن رجل لم يسمه عن عبد الله بن عمرو بلفظ: «من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه، غير أنه لا يوحى إليه»، انظر ابن (ك) لدى قوله تعالى: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾.

(٥) نقل(خ) عن الشيخ يحيى النووي أنه قال: روينا في كتاب ابن السني عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ خمسين آية لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ مائتي آية لم يحاجه القرآن يوم القيامة»، وفي رواية: «من قرأ أربعين آية» بدل (خمسين)، وفي رواية(عشرين آية)، وفي رواية عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «من قرأ عشر آيات لم يكتب من الغافلين». وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين». أي المالكين قنطاراً أي مالاً كثيراً، والمراد كثرة الأجر، كما أن المراد بالقيام قيام الليل. وروى الدارمي والحاكم وصححه أن النبي ﷺ قال: «من صلى في ليلة بمائتي آية فإنه يكتب من القانتين المخلصين»، وبهذا يعلم أنه وقع تقديم وتأخير في الحديث، واتفق أبو حيان مع ابن عطية في نص الحديث. والله أعلم.

وروى ابنُ عبّاس عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «أشرافُ أمّتي حَمَلَةُ القرآن»(١).

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾(٢) الآية، فقال: سابقكم سابق، ومقتصدكم ناج، وظالمكم مغفور له(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «ألا إنَّ أصْفَرَ البيوت بَيْتٌ صَفِر مِنْ كتابِ الله»(٤).

وروى أنس بن مالك أنَّ رسول الله ﷺ قال: «القرآن شافعٌ مشفَّعٌ، وماحلٌ مصدَّقٌ، من شفع له القرآن نجا، ومن محل به القرآن يوم القيامة كبَّه الله لوجهه في النار. وأحقُّ من شفع له القرآن أهله وحملته، وأولى من محل به من عدل عنه وضيَّعهُ»(٥).

وقال ﷺ: «إنَ الّذي يتعاهد القرآن ويشْتَدُّ عليه، له أجران، والذي يقرأ القرآن وهو خفيف عليه، مع السَّفَرَةِ، الكرام البَرَرَةِ»(٦).

وقال ابن مسعود: ملَّ أصحاب رسول الله ﷺ ملَّةً، فقالوا: يا رسول الله حدِّثنا، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ

---

(١) رواه أبو القاسم الطبراني، عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً.

(٢) من الآية (٣٢) من سورة فاطر.

(٣) رواه ابن أبي شيبة، والبيهقي موقوفاً، ورواه العقيلي، وابن مردويه، والبيهقي في البعث من وجه آخر مرفوعاً.

(٤) رواه الحاكم، عن ابن مسعود موقوفاً، وقال: رفعه بعضهم، قاله الحافظ المنذري. وأسنده أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري في كتاب «الرد على من خالف مصحف عثمان» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ في أثناء حديث طويل: «وإنّ أصفر البيوت البيت الصفر من كتاب الله». وروى الترمذي، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «إنّ الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب». ولفظ الحديث عند ابن عطية متفق مع لفظه عند أبي حيان.

(٥) رواه ابن حبان، عن جابر، كما قاله المنذري، ونحوه ما أخرجه البزار عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إن هذا القرآن شافعٌ مشفع، من اتبعه قاده إلى الجنة، ومن تركه أو أعرض عنه دحَّ في قفاه إلى النار» والدّح: الدفع بعنف والماحل: الخصم والمنازع، وقيل: الماحل: الساعي المصدَّق، من قولهم: محل بفلان إذا سعى به إلى السلطان.

(٦) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، بلفظ: الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ وهو يشتد عليه له أجران»، وفي لفظ: «وهو يَتَتَعْتَعُ فيه، وهو عليه شاق». انظر: صحيح مسلم ٢/ ١٩٥ ـ وسنن الدارمي ٤٢٩، وسنن أبي داود ٢/ ٧٠ وصحيح الترمذي ١١/ ٢٩ ـ وتيسير الوصول ١/ ٨٣ ـ وسنن الطيالسي ٦/ ٢١٠.

﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[١] الآية، ثم ملُّوا ملَّة أخرى، فقالوا: يا رسول الله قصَّ علينا، فأنزل الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْءَانَ﴾[٢].

وروى عثمانُ بنُ عفّان رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أَفضلُكُمْ مَنْ تعلَّم القرآنَ وعلَّمه»[٣].

وقال عبد الله بن مسعود: إنّ كلَّ مؤدِّبٍ يحبُّ أن يؤتىٰ أدبه، وإنَّ أدبَ الله القرآن[٤].

ومرَّ أعرابيٌّ على عبد الله بن مسعود وعنده قوم يقرؤون القرآن، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ فقال له ابن مسعود: يقتسمون ميراثَ محمد ﷺ.

ومرَّت امرأةٌ على عيسى بن مريم عليه السلام فقالت: «طوبى لبطن حملك، ولثديين رضعتهما» فقال عيسى: «طوبى لمن قرأ كتاب الله، واتَّبع ما فيه». وقال محمدُ بن كعب القرظي[٥] في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾[٦] قال: هو القرآن.

وقال بعض العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾[٧] قال: الإسلام والقرآن.

---

(١) من الآية (٢٣) من سورة الزمر.

(٢) من الآية (٣) من سورة يوسف ـ والحديث رواه . . (ط) في تفسيره عن ابن عبّاس، وابن مردويه عن ابن مسعود، وأبو عبيد في (فضائل القرآن).

(٣) رواه البخاريُّ، وأبو داود، والتِّرمذيُّ. وفي رواية: (خيركم)، وإنما كان المعلم والمتعلم أفضل لما جمعا من النفع القاصر والنفع المتعدي. انظر مسند الإمام أحمد ٢/ ٣٣١ ـ وعمدة القارىء ٢٠/ ٤٢.

(٤) رواه الدارمي في سننه بلفظ: «ليس من مؤدِّب إلا وهو يحب أن يؤتى أدبه، وإن أدب الله القرآن». وروى الدارمي عنه أيضاً: «إن هذا القرآن مأدبة الله، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم». وروى الحاكم في المستدرك، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن هذا القرآن مأدبة الله، فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم». وحديث: «كل مؤدب يحب أن تؤتى مأدبته، ومأدبة: الله تعالى القرآن، فلا تهجروه» رواه البيهقي في «الشعب» عن سمرة بن جندب. وقوله(فلا تهجروه) أي: عليكم بتلاوته، وتفهم معانيه، والعمل بأحكامه.

(٥) هو أبو حمزة المدني، يروي عن عائشة، وأبي هريرة. قال بعضهم: ما رأيت أعلم بتأويل القرآن من القرظي. توفي سنة ١٢٠هـ وذهب بعضهم إلى أنَّه ولد سنة ٤٠هـ ومات سنة ١٠٨ هـ ـ الإصابة ١٩٧/٦.

(٦) من الآية (١٩٣) ـ من سورة آل عمران.

(٧) من الآية (٥٨) من سورة يونس.

وقيل لعبد الله بن مسعود: إنَّك لتقلُّ الصوم. فقال: إنَّه يمنعني عن قراءة القرآن، وقراءته أحبُّ إليَّ منه[١].

وقال قوم من الأنصار لرسول الله ﷺ: ألم تر يا رسول الله ثابت بن قيس، لم تزل داره البارحة تزهر فيها وحولها أمثال المصابيح؟ فقال لهم: «فَلَعَلَّهُ قرأ سورة البقرة». فسئل ثابت بن قيس، فقال: نعم، قرأت سورة البقرة[٢]. وفي هذا المعنى حديث صحيح، عن أسيد بن حضير[٣]، في تنزُّل الملائكة في الظُّلَّة لصوته بقراءة البقرة[٤].

وذكر أبو عمرو الدّانيُّ[٥] عن عليٍّ الأثرم[٦] قال: كنت أتكلَّم في الكِسائيِّ[٧]،

---

(١) أي قراءة القرآن أحبُّ إليّ من الصوم.

(٢) قال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا عباد بن عباد، عن جرير بن حازم، عن عمِّه جرير بن يزيد، أنَّ أشياخ أهل المدينة حدَّثوه، أن الرسول ﷺ قيل له: ألم تر ثابت بن قيس بن شماس، لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح؟، قال: «فلعله قرأ سورة البقرة». قال: فسألت ثابتاً فقال: قرأت سورة البقرة. قال ابن كثير: هذا إسناد جيد، إلا أن فيه إبهاماً، ثمَّ هو مرسل. وثابت بن قيس هو خطيب الأنصار، شهد أحداً وما بعدها، وقتل يوم اليمامة شهيداً ـ أسد الغابة ١/ ٢٧٣.

(٣) هو أسيد بن حضير بن سماك بن الأوس الأنصاري. أسلم بعد العقبة الأولى، وآخى الرسول ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة، وكان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن ـ روى عنه كعب بن مالك، وأبو سعيد الخدري، وأنس بن مالك. توفي سنة ٢٠ من الهجرة. أسد الغابة ١/ ١١٨.

(٤) قال إمام المحدثين، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في جامعه الصحيح: وقال الليث، وحدثني يزيد بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى لا يراها، فلما أصبح، حدَّث النَّبيَّ ﷺ بذلك، فقال: «اقرأ يا بن حضير»: مرتين. قال: قد أشفقت يا رسول الله على يحيى، وكان منها قريباً، فرفعت رأسي وانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، قال: «وتدري ما ذاك»؟ قال: لا، قال: «تلك الملائكة، دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم» اهـ. أي لا تتوارى الملائكة من الناس.

(٥) أبو عمرو الداني: هو عثمان بن سعيد بن عثمان، المقرىء المعروف بابن الصيرفي، أحد كبار الأئمة في القراءات، طلب العلم في القيروان ومكة والقاهرة والمدينة، وعاد إلى قرطبة، واستوطن دانية حتى توفي بها سنة ٤٤٤ هـ، ومن أشهر كتبه: (التيسير في القراءات السبع) و (المقنع في رسم القرآن). ولا يرد في هذا التفسير إلا مقيداً، وإذا أطلق فهو ابن العلاء البصريُّ.

(٦) هو علي بن المغيرة أبو الحسن الأثرم، صاحب النحو والغريب واللغة، سمع أبا عبيدة معمر بن المثنى، وأبا سعيد الأصمعي. وكان من جملة رواة اللغة ببغداد، ومن مؤلفاته كتاب (النوادر) وكتاب (حديث الغريب) توفي سنة ٢٣٢ هـ.

(٧) هو أبو الحسن عليُّ بن حمزة النحوي المقرىء، وقيل له الكسائي من أجل أنه أحرم في كساء. قرأ على=

وأقع فيه، فرأيته في المنام وعليه ثياب بيضٌ، ووجهه كالقمر، فقلت: يا أبا الحسن، ما فعل الله بك؟ فقال: «غفر لي بالقرآن».

وقال عقبة بن عامر[١]: عهد إلينا رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال: «عليكم بالقرآن[٢]».

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص[٣]: إنَّ من أشراط[٤] الساعة أن يبسط القول، ويخزن الفعل، ويرفع الأشرار، ويوضع الأخيار، وأن تقرأ المثناة[٥] على رؤوس الناس لا تغير، قيل: وما المثناة؟ قال: ما استكتب من غير كتاب الله، قيل له: فكيف بما جاء من حديث رسول الله ﷺ؟ قال: ما أخذتموه عمَّن تأمنونه على نفسه ودينه فاعقلوه، وعليكم بالقرآن فتعلموه، وعلموه أَبْناءَكُمْ، فإنَّكم عنه تُسْأَلُون، وبه تُجْزَون، وكفى به واعظاً لمن عقل.

وقال رجل لأبي الدرداء: إنَّ إخواناً لك من أهل الكوفة يقرئونك السَّلام، ويأمرونك أن توصيهم. فقال: أَقْرِئهُمُ السَّلام، ومرهم فليعطوا القرآن خزائمهم[٦]،

= حمزة بن حبيب الزيات وتوفي سنة ١٨٩هـ.

(١) عقبة بن عامر ـ صحابي مشهور، روى عن النَّبيِّ ﷺ، وهو واحد ممَّن اشتركوا في جمع القرآن، وكان من أحسن الناس صوتاً به، وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين. توفي سنة ٥٨هـ الإصابة ٣/ ٢٥٠.

(٢) في حديث جابر في حجة الوداع: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله»، وجابر رضي الله عنه أعلم بحجة الوداع، إذ كان يقود راحلة النبي ﷺ.

(٣) قول عبد الله بن عمرو هذا أخرجه ابن أبي شيبة إلى قوله: «ما استكتب من غير كتاب الله».

(٤) أشراط الساعة: علاماتها ـ وأشراط الشيء: أوائله، قال بعضهم: ومنه أشراط الساعة، وذكرها النبي ﷺ. والاشتقاقان متقاربان؛ لأنَّ علامة الشَّيء أوَّله، ومشاريط الأشياء أوائلها كأشراطها. ١هـ ـ اللِّسان ٩/ ٢٠٣ ـ مادة (شرط).

(٥) المثناة واحد مثاني، وفي لسان العرب: «وأما قول عبد الله بن عمرو: من أشراط الساعة: أن توضع الأخيار، وترفع الأشرار، وأن يقرأ فيهم بالمثناة على رؤوس الناس، ليس أحدٌ يغيّرها، قيل: وما المثناة؟ قال: ما استكتب من غير كتاب الله. كأنه جعل ما استكتب من كتاب الله مبدأ وهذا مثنى. قال أبو عبيدة: سألت رجلاً من أهل العلم بالكتب الأول قد عرفها وقرأها، عن المثناة، فقال: إن الأحبار والرهبان من بني إسرائيل من بعد موسى، وضعوا كتاباً فيما بينهم على ما أرادوا من غير كتاب الله، فهو المثناة» اهـ.

(٦) المعنى: ينقادون له، ويطيعون أمره، ومنه قولهم: أطيعوا الله وعزائمه، وأعطوا القرآن خزائمه. =

فإنه يحملهم على القصد والسهولة، ويجنِّبهم الجور والحزونة.

وقال رجل لعبد الله بن مسعود: أوصني. فقال: إذا سمعت الله يقول: [ياأيها الذين آمنوا] فأرعها سمعك، فإنه خيرٌ يأمر به، أو شرٌّ ينهى عنه.

وروى أبو هريرة أنَّ رسول الله ﷺ سئل عن أحسن الناس قراءةً، أو صوتاً بالقراءة، فقال: (هو الَّذي إذا سمعته رأيته يخشى الله تعالى)(١).

وقال ﷺ: «اقرؤُوا القرآن قبل أن يجيء قوم يقيمونه كما يقام القدح، ويضيعون معانيه، يتعجَّلون أجره ولا يتأجَّلونه»(٢).

ويروى أن أهل اليمن لما قدموا أيام أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، سمعوا القرآن، فجعلوا يبكون، فقال أبو بكر رضي الله عنه: هكذا كنَّا، ثم قست القلوب(٣).

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾(٤) فأنَّ أنَّةً عيد منها عشرين يوماً.

وقال الحسن ابن أبي الحسن البصري: إنكم اتخذتم القرآن مراحل، وجعلتم الليل جملا تركبونه فتقطعون به المراحل، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل إليهم من ربهم، فكانوا يتدبَّرونها بالليل وينفِّذونها بالنهار.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: أنزل عليكم القرآن لتعملوا به، فأخذتم درسه عملا، إن أحدهم ليتلو القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً، وقد أسقط العمل به.

= وخزائم جمع خزامة. اللسان ١٥/ ٦٥.. والخزامة: حلقة من الشعر توضع في ثقب البعير يشد بها الزمام فينقاد. «المعجم الوسيط».

(١) أخرجه أبو بكر البزار، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. والأشبه به ما رواه ابن ماجه عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله».

(٢) أخرجه الإمام أحمد، وأبو داود، عن جابر بن عبد الله بلفظ: «اقرؤوا القرآن، وابتغوا به الله عز وجل، من قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامة القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه». اهـ. واللفظ يزيد وينقص. قال المناوي: وسكت عنه أبو داود فهو صالح.

(٣) وكان أبو بكر رضي الله عنه بكّاء إذا قرأ القرآن.

(٤) الآيتان (٧ـ٨) من سورة الطور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله[١]:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[٣] أي علم معانيه، والعمل به، والقيام بحقوقه ـ ثقيلٌ، فمال الناس إلى المُيسَّر، وتركوا الثقيل، وهو المطلوب منهم.

وقيل ليوسف بن أسباط[٤]: بأي شيء تدعو إذا ختمت القرآن؟ فقال: أستغفر الله من تلاوتي، لأني إذا ختمته، ثم تذكرت ما فيه من الأعمال، خشيت المقت، فأعدل إلى الاستغفار والتسبيح.

وقرأ رجل من القرآن على بعض العلماء، قال: فلما ختمته أردت الرجوع إلى أوَّله، فقال لي: اتخذت القراءة عليَّ عملاً؟ اذهب فاقرأه على الله تعالى في ليلك، وانظر ماذا يفهمك منه فاعمل به.

* * *

---

(١) هذا هو التعبير الذي استقرَّ عليه رأينا في كل موضع أعلن المؤلف فيه عن رأيه.

(٢) الآية رقم (١٧) من سورة القمر وتكررت في نفس السورة تحت الأرقام (٢٢ـ٣٢ـ٤٠).

(٣) الآية رقم (٥) من سورة المزمّل.

(٤) هو ابن واصل الشيباني أبو محمد الكوفي، نزل قرية بين حلب وأنطاكية، وكان من عبّاد أهل الشام وقرائهم، وكان من خيار أهل زمانه، وكان لا يأكل إلا الحلال، فإن لم يجده استف التراب، توفي سنة ١٩٥هـ. قاله الحافظ ابن حجر في (تهذيب التهذيب).

باب
في فضل تفسير القرآن والكلام على لغته والنظر في إعرابه ودقائق معانيه

وروى ابن عباس: أن رجلاً سأل النبي ﷺفقال: أيُّ علم القرآن أفضل؟ فقال النبي ﷺ: «عربيته، فالتمسوها في الشعر»(١). وقال أيضاً ﷺ: «أعربوا القرآن، والتمسوا غرائبه. فإنَّ الله يحب أن يعرب(٢)».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

إعراب القرآن أصلٌ في الشريعة، لأنَّ بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع(٣).

وقال أبو العالية في تفسير قوله عز وجل ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(٤) . قال: الحكمة الفهم في القرآن. وقال قتادة: الحكمة القرآن والفقه فيه. وقال غيره: الحكمة تفسير القرآن. وذكر عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه جابر بن عبد الله، فوصفه بالعلم، قال له رجلٌ: جعلت فداك، تصف جابراً بالعلم وأنت أنتَ؟ قال: إنه كان يعرف تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾(٥) .

---

(١) يشهد لذلك ما رواه ابن الأنباري، عن أبي بكر الصديق، قال: لأن أُعرب آية من القرآن أحبُّ إلي من أن أحفظ آية. وما رواه أيضاً عن عبد الله بن بريدة، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: لو أني أعلم إذا سافرت أربعين ليلة أعربت آية من كتاب الله لفعلت. وما رواه أيضاً من طريق الشعبي قال: قال عمر: من قرأ القرآن فأعربه، كان له عند الله أجر شهيد.. وأخرج السلفي من حديث ابن عمر مرفوعاً: أعربوا القرآن يدلكم على تأويله وروى البيهقي في (الشعب) عن مالك قال: لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلاّ جعلته نكالا.

(٢) رواه أبو يَعْلىٰ، والبيهقي، من حديث أبي هريرة مرفوعاً، والضمير المستتر للقرآن، والإعراب: البيان، ولنظام الدين النيسابوري تفسير سمّاه: (غرائب القرآن، ورغائب الفرقان).

(٣) بمعنى أن معرفة القرآن تتوقَّف على معرفة اللغة والإعراب. قال ابن عباس: إذا أشكل عليكم شيء من القرآن فالتمسوه في الشعر، فإنه ديوان العرب. فما كان موجباً للعمل، جاز أن يستدل عليه بالآحاد، وبالبيت، والبيتين من الشعر، وما كان موجباً للعلم، فلا يستدل عليه بمثل ذلك.

(٤) من الآية (٢٦٩) من سورة البقرة.

(٥) من الآية (٨٥) من سورة القصص.

وقال الشعبي: رحل مسروق إلى البصرة في تفسير آيةَ، فقيل له: إن الذي يفسرها رحل إلى الشام، فتجهز ورحل إليه حتى علم تفسيرها.

وقال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرؤون القرآن ولا يعرفون تفسيره، كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً، وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعةٌ لا يدرون ما في الكتاب. ومثل الذي يعرف التفسير، كمثل رجل جاءهم بمصباح، فقرؤوا ما في الكتاب.

وقال ابن عباس: الذي يقرأ ولا يفسر، كالأعرابي الذي يهذُّ(١) الشِّعر.

وقال مجاهد: أحبُّ الخلق إلى الله أعلمهم بما أنزل.

وقال الحسن: والله ما أنزل اللهآية إلا أحبَّ أن يعلم فيما أنزلت، وما يعني بها(٢).

وقال النبي ﷺ: «لا يفقه الرجل كلَّ الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة»(٣).

وقال الحسن: أهلكتهم العجمة، يقرأ أحدهم الآية فيعي بوجوهها حتى يفتري على الله فيها.

وكان ابن عباس يبدأ في مجلسه بالقرآن، ثم بالتفسير(٤)، ثم بالحديث.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما من شيءٍ إلا وعلمه في القرآن، ولكن رأي الرجل يعجز عنه.

* * *

---

(١) الهذّ: السرد والإسراع، يقال: هذّ قراءته: أسرع فيها، وهذّ الحديث: سرده.

هذا نص في طلب تعلم علم أسباب النزول.

أخرجه ابن سعد في الطبقات، وأبو نعيم في الحلية، عن أبي قلابة، قال: قال أبو الدرداء: لاتفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها. وهو كما ترى حديث موقوف، إلا أنه يمكن أن يرفعه بعض الرواة، ثم إنه يجب حمل القرآن على أحسن الوجوه، بأن يحمل على أحسن معانيه، أو بأن يعمل بأحسن ما فيه، كالعزائم دون الرخص، أو العفو دون الانتقام، وقد قالوا ـ كما في كتاب الإشارة لابن عبد السلام ـ: من قال في القرآن برأيه فأصاب لم يؤجر، وإن أخطأ كان عليه وزر.

وعند ابن سعد بإسناد صحيح أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سلوني عن التفسير فإني حفظت القرآن وأنا صغير.

باب
ما قيل في الكلام في تفسير القرآن والجرأة عليه ومراتب المفسرين

روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «ما كان رسول الله ﷺ يفسر من كتاب الله إلا آياً بعدد، علَّمه إياهن جبريل»(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا الحديث: في مغيبات القرآن، وتفسير مجمله، ونحوهما، مما لا سبيل إليه إلاَّ بتوقيف من الله تعالى، ومن جملة مغيباته ما لم يُعْلِمِ الله به، كوقت قيام الساعة ونحوه، ومنها ما يستقرأ من ألفاظه كعدد النفخات في الصور، وكرتبة خلق السموات والأرض(٢).

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»(٣).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا، أن يسأل الرجل عن معنى في

(١) أخرجه أبو بكر البزّار، وهو حديث منكر، قاله الحافظ ابن كثير، وكذلك طعن فيه ابن جرير، وقد اختلف العلماء: أفسَّر النبي ﷺ جميع القرآن أم فسّر القليل منه؟ فعلى الأول ابن تيمية وأتباعه، وعلى الثاني السيوطي وأنصاره. والحق أنه بيّن الكثير، ولم يبيّن الجميع، لاختلاف الصحابة في تأويل بعض الآيات، ولما رواه ابن جرير عن ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله.

(٢) هذا تأويل صحيح لو كان الحديث صحيحاً. وقد سبق أن نقلنا أنه منكر، أو مطعون فيه.

(٣) رواه أبو داود والترمذي، والنسائي من حديث (سهيل ابن أبي حزم)، وقال الترمذي: غريب. وقد تكلم بعض أهل العلم في (سهيل). وإنما كان المتكلم برأيه مخطئا، لأنه تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به. وحديث: «من قال في القرآن برأيه، أو بغير علم، فليتبوأ مقعده من النار» رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأمّا ما يقال: من أنَّ من فسر القرآن برأيه فقد كفر. فلا يعرف حديثاً عن النبي ﷺ. واعلم أن الرأي نوعان: أحدهما جار على كلام العرب، ومناسب للدلائل الشرعية، وهذا غير مذموم، بل لا يمكن إهماله، وثانيهما رأي لا يجري على موافقة العرب، ولا على قواعد الشرع، وهذا هو الرأي المذموم الذي يرد، ولا يقبل بحال. ومثل القرآن حديث النبي ﷺ، في امتناع تفسيره بالرأي الذي لا يرجع إلى الشرع، ولا إلى كلام العرب. روي عن الإمام أحمد أنه سئل عن حرف من الحديث فقال: سلوا أصحاب الغريب، فإني أكره أن أتكلم في قول رسول الله ﷺ بالظن. وسئل الأصمعي عن حديث (الجار أحق بِصَقَبِهِ) فقال: أنا لا أفسر حديث رسول الله، ولكن العرب تزعم أن الصَّقب اللزيق، والله أعلم.

كتاب الله، فيتسور عليه برأيه، دون نظر فيما قال العلماء، واقتضته قوانين العلوم، كالنحو والأصول. وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته، والنحاة نحوه، والفقهاء معانيه، ويقول كلٌّ واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر، فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرد رأيه(١). وكان جلَّة من السلف، كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبي، وغيرهما، يعظمون تفسير القرآن، ويتوقفون عنه تورعاً واحتياطاً لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم. وكان جلَّة من السلف، كثير عددهم، يفسرونه وهم أبقوا(٢) على المسلمين في ذلك، رضي الله عنهم.

فأما صدر المفسرين، والمؤيد فيهم، فعليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ويتلوه عبد الله بن عباس(٣) رضي الله عنهما، وهو تجرَّد للأمر وكمَّله وتتبَّعه، وتبعه العلماء عليه، كمجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهما. والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقال ابن عباس: ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب، وكان علي بن أبي طالب يثني على تفسير ابن عباس، ويحض على الأخذ عنه، وكان عبد الله بن مسعود يقول: نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس، وهو الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: «اللهم فقهه في الدين»(٤)، وحسبك بهذه الدعوة. وقال عنه علي بن أبي طالب: ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق.

ويتلوه عبد الله بن مسعود، وأبيُّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وكل ما أخذ عن الصحابة فحسن متقدم. ومن المبرّزين في التابعين: الحسن ابن أبي الحسن، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعلقمة. قرأ مجاهد على ابن عباس قراءة تفهُّم ووقوف عند كل آية. ويتلوهم عكرمة، والضحاك بن مزاحم، وإن كان لم يلق ابن عباس، وإنما أخذ عن ابن جبير، وأما السدي(٥) رحمه الله فكان

---

(١) هذا المعنى معقول ومفهوم وضروري.

(٢) من قولهم: أبقى عليه أشفق عليه ورحمه.

(٣) هو أكثر الصحابة تفسيراً، حتى جمع عنه تفسير كامل، وأصح طرق ابن عباس طريق علي بن أبي طلحة، وعليها اعتمد البخاري رحمه الله.

(٤) رواه البخاري، وفي رواية عند الترمذي: (أنه دعا له بإيتاء الحكمة)، وفي رواية عند البغوي في معجم الصحابة: «اللهم فقهه في الدين، وعلّمه تأويل الكتاب». وقد تحققت إجابة دعوته ﷺ، فكان ابن عباس بحر العلم، وحبر الأمة، ورئيس المفسرين، وترجمان القرآن، وله فهم خاص.

(٥) هو إسماعيل بن عبد الرحمن ابن أبي كريمة السدّي، نسبة إلى سدَّة مسجد الكوفة، كان يبيع بها =

عامر[١] الشعبي يطعن عليه، وعلى أبي صالح[٢]، لأنه كان يراهما مقصرين في النظر. ثم حمل تفسير كتاب الله تعالى عدول كلِّ خلف. وألف الناس فيه: كعبد الرزّاق، والمفضل[٣]، وعلي ابن أبي طلحة، والبخاريُّ، وغيرهم.

ثم إن محمد بن جرير الطبري[٤] رحمه الله، جمع على الناس أشتات التفسير، وقرَّب البعيد، وشفا في الإسناد. ومن المبرزين في المتأخرين أبو إسحق الزَّجاج، وأبو علي الفارسي، فإن كلامهما منخول[٥].

وأما أبو بكر النقاش، وأبو جعفر النحاس[٦]، فكثيراً ما استدرك الناس عليهما، وعلى سننهما مكي بن أبي طالب[٧]، وأبو العباس المهدوي متقن التأليف، وكلُّهم مجتهد مأجور، رحمهم الله، ونضَّر وجوههم.

* * *

= المقانع، يروي عن أنس، وابن عباس، وتوفي سنة ١٢٧هـ.

(١) عامر بن شرحبيل الإمام الهلم، أبو عمرو الكوفي، أحد قضاة العدل في زمن عمر بن عبد العزيز، وأدرك خمسمائة من الصحابة، قال ابن عيينة: كان الناس يقولون: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه. توفي سنة ١٠٣هـ.

(٢) اسمه (باذام)أو (باذان) مولى أم هانىء بنت أبي طالب، يروي عن علي وابن عباس. قال زكرياء ابن أبي زائدة: كان الشعبي يمر بأبي صالح، فيأخذ بأذنه فيهزها ويقول: ويلك، تفسر القرآن وأنت لا تحفظ القرآن. وقال عبد الله بن حبيب ابن أبي ثابت: سمعت الشعبي، وقيل له: إن السدي قد أعطي حظاً من علم القرآن فقال: قد أعطي حظاً من الجهل بالقرآن.

(٣) هو ابن سلمة بن عاصم، أبو طالب اللغوي، له تفسير يسمى «ضياء القلوب»، وله ترجمة واسعة. توفي سنة ٣٠٠هـ.

(٤) قال السيوطي في الإتقان كتاب ابن جرير الطبري أجلُّ التفاسير وأعظمها، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، وللإعراب والاستنباط، وبذلك فقد فاق تفاسير الأقدمين، وقال الإمام النووي رحمه الله: أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري وهو كذلك لاحتوائه على أفكار حرة، وأنظار سديدة، قد يثور فيها أحياناً على بعض الآراء السلفية، كما قال في بعض وثباته على رأي الضحاك وهذا القول مما يضحك منه. وهو في طبقة الترمذي والنسائي.

(٥) منخول: أي اختاره صاحبه ـ يقال: انتخلت الشيء: استقصيت أفضله، وتنخلته: تخيرته.

(٦) النقّاش: هو محمد بن الحسن الموصلي المتوفّىٰ سنة ٣٥١هـ. والنحاس: هو أبو جعفر النحاس النحوي المصري توفي سنة ٣٣٨هـ.

(٧) هو أبو محمد القيسي النحوي المقرىء، أصله من القيروان، وسكن قرطبة، وسمع بمكة ومصر، وكان متبحراً في علوم القرآن والعربية، صنف: (إعراب القرآن، والموجز في القراءات، والهداية في التفسير) توفي سنة ٤٣٧هـ.

باب
معنى قول النبي ﷺ «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه[1]»

اختلف الناس في معنى هذا الحديث اختلافاً شديداً، فذهب فريق من العلماء إلى

---

(١) هذا الحديث الشريف ورد من عدة طرق، أنافت على عشرين طريقاً. كما في (الإتقان) للسيوطي رحمه الله، وعدّه أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله حديثاً متواتراً ـ ومما أخرجه الشيخان من طرقه، ما وقع من عمر بن الخطاب، حيث لبب هشام بن حكيم رضي الله عنهما، وانطلق به يقوده إلى النبي ﷺ، وقوله: يا رسول الله، سمعت هشاماً يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها، فاستقرأه النبي ﷺ فقرأ، فقال عليه السلام: «هكذا أنزلت»، ثم استقرأ عمر فقرأ، فقال له عليه السلام «هكذا أنزلت»، ثم قال صلوات الله عليه وسلامه: «إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه» أي: فاقرؤوا الميسور لكم مما سمعتموه مني، رحمة لكم ـ وزيد ـ في رواية أبي داود ـ كلها شاف كاف، وفي حديث أبيّ بن كعب عند مسلم والترمذي: «إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف، فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا»، وعلة إنزال القرآن على ذلك، هو التيسير والتسهيل على هذه الأمة، لأنه يصعب على المرء أن يتحول من لغته إلى لغة غيره، كما قال ﷺ: «فاقرؤوا ما تيسر منه» ولتكون معانيه مشتركة، فتفهمه قبائل العرب؛ إذ هو للناس جميعاً.

واعلم أنهم اختلفوا في الأحرف السبعة، فقالت فرقة: ليس ذلك في الألفاظ والحروف، ثم اختلفوا، فمن قائل: هي في المعاني: كالوعد والوعيد، والأمر والنهي، والحلال والحرام، والمحكم والمتشابه، والقصص والأمثال، ثم اختلف القائلون بهذا في تعيين السبع من هذه المعاني ـ ومن قائل: هي في اختلاف اللفظ واتحاد المعنى، مثل: أقبل وأسرع وعجّل، وهلمّ وتعال، ومثل: أنظرونا وأمهلونا وأخّرونا وأنسئونا ـ ومن قائل: هي في صفة التلاوة من: إظهار، وإدغام، وتفخيم، وترقيق، ومدّ، وإمالة، لأن العرب اختلفت لغاتها في هذه الوجوه، فيسّر الله تعالى على الناس أن يقرأ كل واحد بلغته ـ ومن قائل: هي في تبديل خواتم الآيات، كجعل (سميع بصير) مكان(غفور رحيم)، وهذا القول فاسد، لأنه استقر الإجماع على منع التغيير في القرآن. ولو شدّد إنسان ما هو مخفف، لبادر الناس إلى الإنكار عليه، فكيف بتبديل كلمات كثيرة، ويأتي عن القاضي أبي بكر الباقلاني: أن ذلك كان في أول الأمر ثم نسخ ـ وكذلك القول الأول لأنه قد أشير في الحديث إلى القراءة بحرف بدل حرف، وقد أجمع المسلمون على منع إبدال آية حكم بآية أخرى.

وقالت فرقة أخرى: السبعة الأحرف هي (الألفاظ والحروف)، ثم اختلفوا، فمن قائل: يكون الاختلاف فيها بتغيير كلمة بغيرها، أو بزيادة حرف، ونقصانه، أو باختلاف الإفراد والجمع، أو الخبر والأمر، أو بتغيير إعراب الكلمة، أو بالتقديم والتأخير، أو باختلاف في لغات الحرف الواحد، وتصريف الفعل، فمنه ما يختلف لفظاً ومعنى، ومنه ما يختلف لفظاً لا معنى، وكل هذه أثبتها عثمان=

أنَّ تلك الحروف السبعة، هي فيما يتفق أن يقال على سبعة أوجه فما دونها[1]، كتعال، وأقبل، وإليَّ، ونحوي، وقصدي، واقرب، وَجِيء. وكاللغات التي في (أفّ). وكالحروف التي في كتاب الله فيها قراءات كثيرة، وهذا قول ضعيف.

قال ابن شهاب في كتاب مسلم[2]: بلغني أن تلك السبعة الأحرف إنما هي في الأمر الذي يكون واحداً لا يختلف في حلال ولا حرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كلام محتمل.

وقال فريق من العلماء: إن المراد بالسبعة أحرف معاني كتاب الله تعالى، وهي: أمرٌ ونهيٌ، ووعدٌ ووعيدٌ، وقصص ومجادلة، وأمثال، وهذا أيضاً ضعيف، لأن هذه لا تسمى أحرفاً، وأيضاً فالإجماع أن التوسعة لم تقع في تحريم حلال، ولا تحليل حرام، ولا في تغيير شيءٍ من المعاني المذكورة.

= والصحابة رضوان الله عليهم، وإنما أسقطوا من تلك الأحرف ما لم يتواتر. قال الباجي: ولا سبيل إلى تغيير حرف من تلك الحروف التي في المصحف، واستدل بأن عثمان والصحابة حرقوا المصاحف ما عدا مصحف عثمان رضي الله عنه، ولو كان فيها شيء من بقية تلك الأحرف التي أنزل عليها القرآن لم يحرقوها، وأيضاً حرقوها لأنها كانت على غير ترتيب المصحف المتفق على ترتيبه.

والظاهر حمل الحديث على أنه ﷺ أراد اللغات والقراءات، ولكن أيكون المراد قراءات سبع في كلمة واحدة أم المراد والإشارة إلى تردد سبع لغات في سائر الكلمات؟ قال أبو عبيد رحمه الله: وليس معنى تلك السبعة، أن يكون الحرف الواحد يقرأ على سبعة أوجه، وهذا شيء غير موجود، ولكنه عندنا أنه نزل بسبع لغات متفرقة في جميع القرآن من لغات العرب اهـ.

ولنا أن نسأل: هل الأحرف السبعة التي يقرأ بها الناس اليوم هي الأحرف السبعة المذكورة في الحديث أو هي حرف واحد منها؟ والأول هو ظاهر قول الباقلاني وغيره، وأن المراد بالأحرف السبعة أحرف القراءات السبع، وقراءة يعقوب داخلة في ذلك، لأنه أخذها عن أبي عمرو ـ وبذلك يظهر التيسير والتسهيل الذي هو سبب نزوله عليها ـ وتظهر معجزة قوله تعالى: ﴿إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون﴾ لأن هذه القراءات محفوظة مع مرور مئات السنين ـ وأما قول من قال: إنها واحد من الأحرف السبعة فيرد عليه، أنها لو كانت كذلك للزم أن توجد بقية الأحرف السبعة، وإن لم تحفظ، لاقتضاء الآية ذلك، وعلى هذا القول كثير من القراء والأئمة، والله أعلم.

(١) أي فيما (يختلف لفظه ويتحد معناه) كتعال إلخ.

(٢) أي في صحيح مسلم، ونصُّه في ترجمة حديث (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف): قال ابن شهاب: بلغني أن تلك السبعة الأحرف إنما هي في الأمر الذي يكون واحداً، لا يختلف في حلال ولا حرام ـ أي أن تلك القراءات قد تكون في كلمة واحدة ولكن لا يتغير معناها من حلال إلى حرام وعكسه، كمالك يوم الدين بالمد وعدمه، وكالصراط بالصاد والسين والمعنى في الكل واحد وكاف، فإن فيها سبع قراءات ما بين متواترة وشواذ، وكثيراً من اللغات» اهـ.

وحكى صاحب (الدلائل)[(١)] عن بعض العلماء ـ وقد حكى نحوه القاضي أبو بكر ابن الطيب[(٢)] ـ قال[(٣)]: تدبَّرت وجوه الاختلاف في القراءة، فوجدتها سبعة، منها ما تتغيَّرُ حركته، ولا يزول معناه ولا صورته، مثل: [هنَّ أطهر] و(أطهر)[(٤)]، ومنها ما لا تتغير صورته ويتغير معناه، مثل: [ربَّنا باعد] و(باعد)[(٥)]، ومنها ما تبقى صورته، ويتغير معناه باختلاف الحروف، مثل: ﴿نُنشِزُهَا﴾[(٦)] و(ننشرها)، ومنها ما تتغير صورته ويبقى معناه، كقوله: ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[(٧)]، و(كالصوف المنفوش)، ومنها ما تتغير صورته ومعناه. مثل: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾[(٨)] [وطَلْع مَنْضودٍ][(٩)]، ومنها بالتقديم والتأخير، كقوله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾[(١٠)]، (سكرة الحقِّ بالموت)، ومنها بالزيادة والنقصان، كقوله: ﴿تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾[(١١)]، و(أنثى).

---

(١) هو قاسم بن ثابت الذي يأتي ذكره فيما بعد، وهو قاسم بن ثابت بن حزم بن عبد الرحمن السرقسطي العوفي. قال السيوطي في (البغية): ألَّف (الدلائل) في شرح الحديث، وبلغ فيه الغاية من الإتقان، ومات قبل إكماله فأكمله أبوه بعده، وكان عالماً بالفقه والحديث، متقدماً في النحو والغريب والشعر، طلب للقضاء فامتنع، مات بعد ثلاثة أيام من طلبه، توفي سنة ٣٠٢ هـ بسرقسطة، ومات أبوه ثابت سنة ٣١٤هـ، عن خمس وتسعين سنة.

(٢) هو محمد بن الطيب أبو بكر القاضي، المعروف بابن الباقلاني، المتكلم على مذهب الأشعري، من أهل البصرة، سكن بغداد وسمع بها الحديث ـ وكان أعرف الناس بعلم الكلام ـ وله التصانيف الكثيرة في الرد على المخالفين من رافضة، ومعتزلة، وخوارج ـ وكان ورده كل ليلة عشرين ترويحة ما تركها في حضر ولا سفر ـ وقد اشتهر بمناظراته التي يحق أن تسطر بماء الذهب. توفي سنة٤٠٣ هـ.

(٣) قال: أي صاحب الدلائل.

(٤) من قوله تعالى في الآية (٧٨) من سورة هود [هؤلاء بناتي هنَّ أطهر لكم] وقد قرأ الحسن البصري، وعيسى بن عمر بالنصب، ووجهه أن (هؤلاء) مبتدأ، و(بناتي) خبر، و(هنّ) ضمير فصل و(أطهر) حال. وأنكر ذلك الخليل وسيبويه قائلين: إن ضمير الفصل يكون بين كلامين ولا يتم المعنى إلا بما بعده. وفي مجالس ثعلب: قال ابن خالويه: وقال أبو عمرو بن العلاء: «من قرأ (هن أطهر) بالفتح فقد تربع في اللحن».

(٥) في قوله تعالى من الآية رقم (١٩) في سورة سبأ: [فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا].

(٦) من الآية رقم (٢٥٩) من سورة البقرة: [وانظُرْ إلى العِظام كَيْفَ نُنْشِزُها، ثُم نَكْسُوهَا لَحْما].

(٧) من الآية رقم (٥) من سورة القارعة: [وَتَكُونُ الجبالُ كَالْعِهْن المَنْفُوش] والعهن: هو الصوف المصبوغ.

(٨) الآية رقم (٢٩) من سورة الواقعة ـ الطلح هو الموز، أو شجر عظامٌ كثير الشوك.

(٩) هذه القراءة وما بعدها من شواذ القراءات.

(١٠) من الآية رقم (١٩) من سورة ق.

(١١) من الآية رقم (٢٣) من سورة ص.

وذكر القاضي أبو بكر ابن الطيب في معنى هذه السبعة الأحرف حديثاً عن النبي ﷺ قال: (إن هذا القرآن من سبعة أبواب، على سبعة أحرف: نهي وأمر، وحلال وحرام، ومحكم ومتشابه وأمثال، فأحلّوا حلاله، وحرّموا حرامه، وائتمروا بأوامره، وانتهوا بنواهيه، واعتبروا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه)(١). قال القاضي: فهذا تفسيرٌ منه ﷺ للأحرف السبعة، ولكن ليست هذه التي أجاز لهم القراءة بها على اختلافها، وإنما الحرف في هذه بمعنى الجهة والطريقة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾(٢) أي على وجه وطريقة، هي ريبٌ وشك، فكذلك معنى هذا الحديث على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك.

وذكر القاضي أيضاً أن أبيّاً رضي الله عنه روىٰ عن النبي ﷺ أنه قال: «ياأبيُّ: إني أقرئت القرآن على حرفٍ أو حرفين، ثمّ زادني الملك حتى بلغ سبعة أحرف، ليس منها إلا شاف كافٍ، إن قلت: غفور رحيم، سميع عليم، أو عليم حكيم، ما لم تختم عذاباً برحمة، أو رحمةً بعذاب(٣). وقد أسند ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، وذكر من كلام ابن مسعود نحوه.

قال القاضي ابن الطيب: وهذا أيضاً سبعة، غير السبعة التي هي وجوه وطرائق، وغير السبعة التي هي قراءات ووسّع فيها وإنما هي سبعة أوجه من أسماء الله تعالى، وإذا ثبتت هذه الرواية(٤) حمل على أن هذا كان مطلقاً ثم نسخ، فلا يجوز للناس أن يبدلوا أسماء الله في موضع بغيره، مما يوافق معناه أو يخالفه.

قال القاضي: وزعم(٥) قوم: أنّ كل كلمة تختلف القراءة فيها فإنها على سبعة

---

(١) رواه ابن جرير الطبري عن أبيّ بن كعب، وابن مسعود. والأبواب السبعة من الجنة هي المعاني التي فيها من الأمر والنهي وغير ذلك، والتي إذا عمل بها العامل وانتهى إلى حدودها المنتهي استوجب الجنة.

(٢) من الآية رقم (١١) في سورة الحج.

(٣) رواه أبو داود، عن أبي بن كعب، رضي الله عنه، وفيه (ما لم تخلط آية عذاب برحمة، أو آية رحمة بعذاب. وقوله في آخر الحديث: «إن قلت غفور رحيم..» خطاب للنبي ﷺ؛ يعني أي ذلك قلت يكفيك ولا يضرك. وهذا الحديث يفيد أنه كما وقع الترخيص في اللغات وقع في خواتم الآيات، بما يناسب المقام من أسماء الله تعالى، وهو شيء منسوخ.

(٤) أي رواية أبيّ بن كعب رضي الله عنه.

(٥) هذا الزعم بعيد، وما قاله الآخرون من أن ذلك يكون في بعض الكلمات لا في كل الكلمات هو الحق إن=

أوجه، وإلا بطل معنى الحديث. قالوا: وتعرف بعض الوجوه بمجيء الخبر به، ولا يعرف بعضها إذا لم يأت به خبر.

قال: وقال قوم: ظاهر الحديث يوجب أن يوجد في القرآن كلمة أو كلمتان تقرآن على سبعة أوجه، فإذا حصل ذلك تمَّ معنى الحديث قال القاضي أبو بكر بن الطيب: وقد زعم قوم أن معنى الحديث أنه أنزل على سبع لغات مختلفات(١)، وهذا باطلٌ، إلاّ أن يريد الوجوه المختلفة التي تستعمل في القصة الواحدة، والدليل على ذلك: أن لغة عمر بن الخطاب، وأبيٍّ بن كعب، وهشام بن حكيم، وابن مسعود: واحدة، وقراءتهم مختلفة، وخرجوا فيها إلى المناكرة، فأما الأحرف السبعة التي صوَّب رسول الله ﷺ القراءة بجميعها، وهي التي راجع فيها فزاده، وسهَّل عليه لعلمه تعالى بما هم عليه، من اختلافهم في اللغات؛ فإنها سبعة أوجه، وسبع قراءات مختلفات وطرائق يقرأ بها على اختلافها في جميع القرآن أو معظمه، حسبما تقتضيه العبارة في قوله: (أنزل القرآن)، فإنما يريد به الجميع، أو، المعظم، فجائز أن يُقرأ بهذه الوجوه على اختلافها. ويدل على ذلك قول الناس: حرف أبيٍّ، حرف ابن مسعود. ونقول في الجملة: إن القرآن منزّل على سبعة أحرف من اللغات، والإعراب، وتغيير الأسماء والصور، وإن ذلك

= شاء الله، ويأتي ذلك عن القاضي أبي بكر رحمه الله.

(١) اعلم أن القاضي أبا بكر رضي الله عنه اعترض تفسير الحديث بسبع لغات، وفسره بسبع قراءات، مستدلا على ذلك بأن لغة عمر، وأبي، وابن مسعود واحدة، ومع ذلك اختلفت قراءاتهم، وناقشه القاضي أبو محمد ـ بأن اختلاف الوجوه والقراءات تابع لاختلاف اللغات، واختلاف اللغات ليس اختلافاً شديد التباين، بحيث يجعل بعضهم بعيداً عن لغة الآخر، وجاهلا بها، وإن كانت قد تختلف في الجملة ـ وبأننا لو فرضنا أنهم من قبيلة واحدة، ولغتهم واحدة، ما كان ذلك حجة على من قال: القرآن أنزل على سبع لغات، لأن المناكرة لم تكن من حيث اللغة، وإنما كانت من حيث القراءة، ولربما أقرأه النبي ﷺ خلاف لغته ـ وبأن أهل العلم (كأبي عبيدة) ذهبوا إلى أن معنى الحديث أنه أنزل على سبع لغات. ويمكن أن يجاب عن القاضي أبي بكر بأنه إنما أنكر أن يقصد النبي ﷺ عد اللغات التي تختلف وتتباين، وأثبت قصد النبي ﷺ عد الوجوه والطرائق المختلفة في كتاب الله تعالى، مرة من جهة اللغة، ومرة من جهة الإعراب، ومرة من جهة أخرى ويجوز أن يقصد النبي ﷺ عد الجهات التي اختلفت باختلاف اللغات، ويجوز أن يقصد النبي ﷺ عد اللغات التي نزل القرآن بلسانها، وهي قبائل مضر فجعلها سبعة، وهذا القول أكثر توسعة للنبي ﷺ، لأن وجوه القراءات على هذا القول تبقى غير محصورة في سبعة، فعسى أن الملك أقرأه أكثر من سبعة وجوه. هذا حاصل اعتراض القاضي أبي بكر، ومناقشة القاضي أبي محمد، رحمهما الله.

مفترق في كتاب الله، ليس بموجود في حرف واحد وسورة واحدة، يقطع[١] على اجتماع ذلك فيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

انتهى ما جمعت من كلام القاضي أبي بكر رضي الله عنه، وإطلاقه البطلان على القول الذي حكاه فيه نظر، لأن المذهب الصحيح الذي قرره آخراً من قوله: «ونقول في الجملة» ـ إنما صح وترتَّب من جهة اختلاف لغات العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، وهو اختلاف ليس بشديد التباين حتى يجهل بعضهم ما عند بعض في الأكثر، وإنما هو أن قريشاً استعملت في عباراتها شيئاً، واستعملت هذيل شيئاً غيره في ذلك المعنى، وسعد[٢] بن بكر غيره، والجميع كلامهم في الجملة ولغتهم، واستدلال القاضي رضي الله عنه بأن لغة عمر، وأبيّ، وهشام، وابن مسعود واحدة، فيه نظر، لأن ما استعملته قريش ومنهم عمر، وهشام، وما استعملته الأنصار ومنهم أبيّ، وما استعملته هذيل ومنهم ابن مسعود قد يختلف، ومن ذلك النحو من الاختلاف هو الاختلاف في كتاب الله سبحانه، فليست لغتهم واحدة في كل شيء، وأيضاً فلو كانت لغتهم واحدة بأن نفرضهم جميعاً من قبيلة واحدة، لما كان اختلافهم حجة على من قال: إن القرآن أُنزل على سبع لغات؛ لأن مناكرتهم لم تكن لأن المنكر سمع ما ليس في لغته فأنكره، وإنما كانت لأنه سمع خلاف ما أقرأه النبي ﷺ، وعساه قد أقرأه ما ليس من لغته واستعمال قبيلته، فكأن القاضي رحمه الله إنما أبطل أن يكون النبي ﷺ قصد في قوله: (على سبعة أحرف) عدَّ اللغات التي تختلف بجملتها، وأن تكون سبعاً متباينة، لسبع قبائل تقرأ كلُّ قبيلة القرآن كله بحرفها، ولا تدخل عليها لغة غيرها. بل قصد النبي ﷺ عنده عدَّ الوجوه والطرائق المختلفة في كتاب الله، مرَّةً من جهة لغة، ومرَّةً من جهة إعراب، وغير ذلك، ولا مرية أن هذه الوجوه والطرائق إنما اختلفت لاختلاف في العبارات بين الجملة التي نزل القرآن بلسانها، وذلك يقال فيه اختلاف لغات، وصحيح أن يقصد عليه السلام عدَّ الأنحاء والوجوه التي اختلفت في القرآن بسبب اختلاف عبارات اللغات، وصحيحٌ أن

---

(١) وفي بعض النسخ الخاصة: (وجوداً يقطع باجتماع ذلك فيها).

(٢) في قبائل العرب سعود كثيرة، منهم: (سعد تميم، وسعد قيس، وسعد بكر، وسعد العشيرة وغيرهم)، وفي المثل: بكل واد بنو سعد.

يقصد عدَّ الجماهير والرؤوس من الجملة التي نزل القرآن بلسانها، وهي قبائل مضر فجعلها سبعة، وهذا القول أكثر توسعة للنبي عليه السلام، لأن الأنحاء تبقي غير محصورة، فعسى أن الملك قد أقرأه بأكثر من سبعة طرائق ووجوه.

قال القاضي في كلامه المتقدم: فجائز أن يقرأ بهذه الوجوه على اختلافها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والشرط الذي يصح به هذا القول هو أن تروى عن النبي عليه السلام، ومال كثير من أهل العلم كأبي عبيد وغيره، إلى أن معنى الحديث المذكور أنه أنزل على سبع لغات لسبع قبائل انبثَّ[(١)] فيه من كل لغة منها، وهذا القول[(٢)] هو المتقرر من كلام القاضي رضي الله عنه، وقد ذكر[(٣)] بعضهم قبائل من العرب روماً منهم أن يُعَيِّنوا السبع التي يحسن أن تكون مراده عليه السلام، نظروا في ذلك بحسب القطر، ومن جاور منشأ النبي عليه السلام، واختلفوا في التسمية وأكثروا، وأنا ألخص الغرض جهدي بحول الله، فأصل ذلك وقاعدته قريش[(٤)]، ثم بنو سعد بن بكر، لأن النبي عليه السلام قرشي، واسترضع في بني سعد، ونشأ فيهم، ثم ترعرع وعقَّت[(٥)] تمائمه، وهو يخالط في اللسان كنانة، وهذيلا، وثقيفاً، وخزاعة، وأسداً، وضبّة، وألفافها[(٦)] لقربهم من مكة وتكرارهم عليها، ثم بعد هذه تميماً وقيساً ومن انضاف إليهم وسط جزيرة العرب، فلما بعثه الله تعالى، ويسَّر عليه أمر الأحرف، أنزل عليه القرآن بلغة هذه الجملة المذكورة، وهي التي قسَّمها على سبعة لها السبعة الأحرف، وهي اختلافاتها في العبارات حسبما تقدم.

قال ثابت بن قاسم: لو قلنا: من هذه الأحرف لقريش، ومنها لكنانة، ومنها لأسد، ومنها لهذيل، ومنها لتميم، ومنها لضبّة وألفافها، ومنها لقيس، لكان قد أتى على قبائل

---

(١) أي انتشر في القرآن من كل لغة منها ـ يقال انبث الشيء تفرق وانتشر.

(٢) يفهم من هذا أن مختار ابن عطية تبعاً لأبي عبيد هو أن الأحرف السبعة معناها اللغات وأما الإمام الطبري فقد ذهب إلى أن المراد بها المعاني المتقاربة في الألفاظ المختلفة.

(٣) هذا الكلام تأييد لما اختاره من تفسير الأحرف السبعة باللغات المختلفة، وذلك أنهم ما حاولوا تعيينها بتعيين قبائلها حتى تأولوا الحديث على ذلك.

(٤) في صحيح مسلم عن جابر: (الناس تبع لقريش في الخير والشر).

(٥) بالقاف. كناية عن كونه نشأ معهم حتى شب وقوي فيهم ـ انظر لسان العرب مادة عقق.

(٦) أي حلفاءها يقال: فلان لفيف أي صديقه.

مضر في مراتب سبعة تستوفي[١] اللغات التي نزل بها القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا نحو ما ذكرناه[٢]، وهذه الجملة هي التي انتهت إليها الفصاحة، وسلمت لغاتها من الدخل[٣]، ويسرها الله لذلك ليظهر آية نبيه بعجزها عن معارضة ما أنزل عليه، وسبب سلامتها أنها في وسط جزيرة العرب، في الحجاز، ونجد، وتهامة، فلم تطرقها الأمم، فأما اليمن وهو جنوبي الجزيرة، فأفسدت كلام عربه خلطة الحبشة والهنود، على أن أبا عبيد القاسم بن سلام[٤] وأبا العباس المبرد[٥]، قد ذكرا أن عرب اليمن من القبائل التي نزل القرآن بلسانها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذلك عندي إنما هو فيما استعملته عرب الحجاز من لغة اليمن، كالعرم والفتَّاح[٦]، فأما ما انفردوا به (كالزَّخيخ والقلُّوب)[٧] ونحوه، فليس في كتاب الله منه شيءٌ، وأما ما والى العراق من جزيرة العرب، وهي بلاد ربيعة وشرقي الجزيرة فأفسدت لغتها مخالطة الفرس والنبط[٨] ونصارى الحيرة وغير ذلك.

وأما الذي يلي الشام، وهو شمال الجزيرة، وهي بلاد آل جفنة[٩] وابن الرافلة[١٠]

---

(١) وفي بعض النسخ الخاصة (تستوعب).

(٢) اعلم أن الذين فسروا الأحرف السبعة باللغات، منهم من حصرها في قبائل مضر السبعة. ومنهم من لم يحصرها في ذلك، فقوله: (وهذا نحو ما ذكرناه) أي قريب منه، والله أعلم.

(٣) أي الفساد والعيب. والدخل (بسكون الخاء المعجمة وبفتحها) يقال: في هذا الأمر دخل ودغل.

(٤) من علماء الحديث والفقه، وهو أول من صنف في غريب الحديث ـ توفي سنة ٢٢٢هـ.

(٥) من أئمة اللغة والنحو ـ من أشهر كتبه (الكامل). توفي سنة ٢٨٥هـ. وفيات الأعيان.

(٦) العرم: هو السيل الذي لا يقاوم ـ والفتَّاح: هو القاضي.

(٧) الزخيخ: شدة بريق الجمر، يقال: زخ الجمر برق، والقلوب كسنَّور وتنُّور: الذئب. وهما من لغة اليمن.

(٨) جيل من العجم نزل بين العراقين.

(٩) جفنة: قبيلة من اليمن، وآل جفنة: رهط ملوك الغساسنة.

(١٠) هو مالك بن رافلة بن أراش، قتله قطبة بن قتادة الذي كان على ميمنة جيش المسلمين في غزوة مؤتة، وقال عند ذلك:

طعنت ابن رافلة بن الأرا ... ش برمح مضى فيه ثم انحطم
ضربت على جيده ضربة ... فمال كما مال غصن السلم
وسقنا نساء بني عمه ... غداة رقوقين سوق النَّعم =

وغيرهم، فأفسدتها مخالطة الروم وكثير من بني إسرائيل، وأما غربي الجزيرة فهي جبال تسكن بعضها هذيلٌ وغيرهم، وأكثرها غير معمور، فبقيت القبائل المذكورة سليمة اللغات، لم تكدِّر صفو كلامها أمةُ العجم، ويقوِّي هذا المنزع[(١)] أنه لما اتسع نطاق الإسلام، وداخلت الأمم العرب، وتجرَّد أهل المصرين: البصرة والكوفة، لحفظ لسان العرب وكتب لغتها، لم يأخذوا إلا عن هذه القبائل الوسيطة المذكورة ومن كان معها، وتجنبوا اليمن والعراق والشام، فلم يكتب عنهم حرف واحد، وكذلك تجنبوا حواضر الحجاز: مكة والمدينة والطائف، لأن السبي والتجار من الأمم كثروا فيها فأفسدوا اللغة، وكانت هذه الحواضر في مدة النبي ﷺ سليمة، لقلة المخالطة، فمعنى قول النبي ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» أي فيه عبارات سبع قبائل، بلغة جملتها نزل، فيعبر عن المعنى فيه بعبارة قريش، ومرة بعبارة هذيل، ومرة بغير ذلك، بحسب الأفصح والأوجز في اللفظة، ألا ترى أن (فطر) معناها عند غير قريش (ابتدأ خلق الشيء وعمله) فجاءت في القرآن، فلم تتجه لابن عباس حتى اختصم إليه أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، قال ابن عباس ففهمت حينئذ موقع قوله تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(٢)] وقال أيضاً: ما كنت أدري معنى قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾[(٣)] حتى سمعت بنت ذي جدن[(٤)] تقول لزوجها: تعال أفاتحك أي أحاكمك، وكذلك قال عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾[(٥)] فوقف به فتى فقال: إن أبي يتخوفني حقي. فقال عمر: الله أكبر، أو يأخذهم على تخوف، أي على تنقُّص لهم. وكذلك اتفق لقطبة[(٦)] بن مالك إذ سمع النبي ﷺ يقرأ في

= (والرقوقين) اسم موضع. ويروى (رقوفين) بالفاء في الثاني، انظر سيرة ابن هشام.

(١) أي المذهب، وهو النظر إلى لغات القبائل البعيدة عن الأعاجم، والتي كانت تقيم وسط الجزيرة، لا في أطرافها شرقاً وجنوباً وشمالاً.

(٢) من الآية رقم (١) في سورة فاطر، وبضم الراء من الآية رقم ١١ في سورة الشورى.

(٣) من الآية رقم (٨٩) في سورة الأعراف.

(٤) ذو جدن قيل من أقيال حمير، وهو أول من غنى باليمن. وفي (الجامع لأحكام القرآن) حتى سمعت بنت ذي يزن.

(٥) من الآية رقم (٤٧) في سورة النحل.

(٦) قطبة بن مالك الثعلبي: صحابي يروي عنه ابن أخيه زياد بن علاقة، كان يصلي مع النبي ﷺ صلاة الفجر، وقرأ فيها ﷺ بسورة (ق)، فلما بلغ (والنخل باسقات) جعل قطبة يرددها ولا يدري معناها.

الصلاة ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾[(١)] ، ذكره مسلم في باب القراءة في صلاة الفجر، إلى غير هذا من الأمثلة، فأباح الله تعالى لنبيه هذه الحروف السبعة ـ وعارضه[(٢)] بها جبريل في عرضاته على الوجه الذي فيه الإعجاز، وجودة الرّصف، ولم تقع الإباحة في قوله عليه السلام: «فاقرؤوا ما تيسر منه»، بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن، وكان معرضاً أن يبدِّل هذا وهذا، حتى يكون غير الذي نزل من عند الله، وإنما وقعت الإباحة في الحروف السبعة للنبي عليه السلام ليوسع بها على أمته، فقرأ مرة لأبيٍّ بما عارضه به جبريل صلوات الله عليهما، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضاً، وفي صحيح البخاري[(٣)] عن النبي ﷺ، قال: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف». وعلى هذا تجيء قراءة عمر بن الخطاب لسورة الفرقان، وقراءة هشام بن حكيم لها، وإلاّ فكيف يستقيم أن يقول النبي ﷺ في كل قراءة منهما، وقد اختلفتا: «هكذا أقرأني جبريل»؟ هل ذلك إلا لأنه أقرأه بهذه مرة وبهذه مرة؟ وعلى هذا يحمل قول أنس بن مالك حين قرأ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[(٤)] فقيل له: إنما نقرأ (وأقوم)، فقال أنس:[(٥)] (أصوب وأقوم وأهيأ) واحد، فإنما معنى هذا أنها مروية عن النبي ﷺ، وإلاّ فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[(٦)] .

ثم إن هذه الروايات الكثيرة لمّا انتشرت عن رسول الله ﷺ، وافترق الصحابة في البلدان، وجاء الخلف، وقرأ القرآن كثير من غير العرب، ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة بن اليمان رضي الله عنه[(٧)]، وذلك أنهم اجتمعوا في غزوة أرمينية فقرأت

---

(١) من الآية رقم (١٠) في سورة ق.

(٢) يشير بهذا إلى معنى حديث عمر بن الخطاب، وهشام بن حكيم، واختلافهما في قراءة سورة الفرقان.

(٣) أي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) الآية رقم (٦) من سورة المزمل.

(٥) أنس بن مالك بن النضر الخزرجي، كان خادم الرسول، وأكثر من الرواية عنه، شهد الفتوح ـ وتوفي بالبصرة سنة(٩١) هـ.

(٦) الآية رقم (٩) من سورة الحجر.

(٧) قال أبو عبد الله البخاري في جامعه الصحيح: حدثنا موسى بن إسماعيل، قال: حدثنا إبراهيم، قال: حدثنا ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان بن عفان رضي الله عنهما،=

كلُّ طائفة بما روي لها، فاختلفوا، وتنازعوا، حتى قال بعضهم لبعض: أنا كافرٌ بما تقرأ به، فأشفق حذيفة مما رأى منهم، فلما قدم حذيفة المدينة فيما ذكر البخاري وغيره، دخل إلى عثمان بن عفان قبل أن يدخل بيته فقال: أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك، قال فيما ذا؟ قال في كتاب الله، إني حضرت هذه الغزوة، وجمعت ناساً من العراق، ومن الشام، ومن الحجاز، فوصف له ما تقدم، وقال: إني أخشى عليهم أن يختلفوا في كتابهم كما اختلفت اليهود والنصارى. قال عثمان رضي الله عنه: أفعل. فتجرَّد للأمر، واستناب الكفاة العلماء الفصحاء في أن يكتبوا القرآن، ويجعلوا ما اختلفت القراءة فيه على أشهر الروايات عن رسول الله ﷺ، وأفصح اللغات، وقال إذا اختلفتم في شيء فاكتبوه بلغة قريش[1]، فمعنى هذا إذا اختلفتم فيما روي، وإلا فمحالٌ أن يحيلهم على اختلاف من قبلهم، لأنه وضعُ قرآن. فكتبوا في القرآن من كلِّ اللغات السبع، مرَّةً من هذه، ومرَّةً من هذه، وذلك مقيد بأن الجميع مما روي عن النبي ﷺ وقرئ عليه، واستمر الناس على هذا المصحف المتخيَّر، وترك ما خرج عنه مما كان كتب[2] سداً

= وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين. أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف النصارى واليهود، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف فننسخها ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما أنزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق، قال ابن شهاب: وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت أنَّه سمع زيد بن ثابت قال: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ فألحقناها في سورتها في المصحف. انتهى.

وحذيفة بن اليمان هو. أبو عبد الله العبسي ـ توفي سنة ٣٦ هـ.

(١) لأن القرآن نزل بها، قال أبو عمر بن عبد البر: قول من قال إن القرآن نزل بلغة قريش معناه عندي في الأغلب، لأن غير لغة قريش موجودة في صحيح القراءات، كتحقيق الهمز، وقريش لا تهمز. وتقدم قول ابن عطية في معنى قول النبي ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» أي في عبارة سبع قبائل بلغة جملتها نزل القرآن.

(٢) وفي بعض النسخ الخاصة هنا زيادة «كقراءة عمر بن الخطاب (فامضوا إلى ذكر الله) ونحوها» وهي من الآية رقم (٩) من سورة الجمعة.

للذريعة، وتغليباً لمصلحة الألفة، وهي المصاحف التي أمر عثمان بن عفان رضي الله عنه أن تحرق أو تخرق، فأما ابن مسعود فأبى أن يزال مصحفه فترك، ولكن أبى العلماء قراءته سداً للذريعة، ولأنه روي أنه كتب فيه أشياء على جهة التفسير، فظنها قومٌ من التلاوة فتخلط[1] الأمر فيها، ولم يسقط فيما ترك معنى من معاني القرآن لأن المعنى جزءٌ من الشريعة، وإنما تركت ألفاظ معانيها موجودة في الذي أثبت.

ثم إن القرَّاء في الأمصار تتبعوا ما روي لهم من اختلافات، لاسيما فيما[2] وافق خطَّ المصحف، فقرؤوا بذلك حسب اجتهاداتهم، فلذلك ترتَّب أمر القرَّاء السبعة وغيرهم، رحمهم الله، ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة، وبها يصلَّى، لأنها ثبتت بالإجماع، وأما شاذُّ القراءات فلا يصلَّى به، وذلك لأنه لم يجمع الناس عليه. أما أنَّ المرويَّ منه عن الصحابة رضي الله عنهم، وعن علماء التابعين لا يعتقد[3] فيه إلاّ أنهم رووه، وأما ما يؤثر عن أبي السمال[4] ومن قاربه فلا يوثق به، وإنما أذكره في هذا الكتاب لئلا يجهل، والله المستعان.

وكان المصحف غير مشكول، ولا منقوط، وقد وقع لبعض الناس خلاف في بعض ما ذكرته في هذا الباب، ومنازعات، اختصرت ذلك كراهة التطويل، وعوَّلت على الأسلوب الواضح الصحيح، والله المرشد للصواب برحمته.

* * *

(١) لعله (فاختلط)، وفي بعض النسخ الخاصة (فتخلف)، ولا يظهر له معنى صحيح.

(٢) اعلم أن القراءات الموجودة في العرضة الأخيرة، هي أبعاض القرآن، فما أمكن جمعه منها بالخط جمعوه بالخط في المصاحف المكتوبة، حيث لم يكن في خط الصحابة شكل ولا نقط، ولذلك تمكنوا من الجمع بالخط بين (فتبينوا) و(فتثبتوا) وبين (ينشركم) و(يسيركم) وبين (ننشزها) و(ننشرها)، إلى غير ذلك من القراءات المتواترة، وأما ما لم يمكن جمعه بالخط فوزعوه على المصاحف. انظر كيفية الرسم في تلك المصاحف في الكتب التي عنيت بهذا الشأن، وأقر بها كتاب «المقنع» للداني في رسم القرآن.

(٣) والصحيح إجراؤه مجرى خبر الآحاد، كما في دواوين الأصول، والفرق بين القراءة والرواية، واضح عند أرباب الدراية.

(٤) هو قعنب ابن أبي قعنب العدوي البصري، له اختيار في القراءة شاذ عن العامة، توفي في حدود الستين ومائة.

باب
ذكر جمع القرآن وشكله ونقطه وتحزيبه وتعشيره

كان القرآن في مُدَّةِ النبي ﷺ متفرقاً في صدور الرجال، وقد كتب الناس منه في صحف وفي جريد وظُرر[١]، وفي لِخاف، وفي خزف، وغير ذلك، فلما استحرَّ القتل[٢] بالقراء يوم اليمامة[٣]، أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر الصدِّيق رضي الله

---

(١) الظرر بالظاء المشالة: الحجر المدور المحدد، كاللخاف، جمعه ظرار.

(٢) أي اشتد كثر ـ واعلم أن القرآن العظيم جمع مرتين: مرة على يد أبي بكر الصديق بإشارة من عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، خشية أن يذهب منه شيء بموت من تلقاه عن رسول الله ﷺ، وكان ذلك بسبب حرب اليمامة التي أثارها مسيلمة الكذاب وأصحابه من بني حنيفة، ومن المرتدين الذي التفوا حوله، وفي هذه الحرب قتل من القراء عدد كبير، وكان هذا الجمع الأول من الصحف، وعلى يد زيد بن ثابت الأنصاري، رضي الله عنه، لنشاطه وحماسه ـ ولأنه كان يحفظ القرآن كله ـ ولأنه كان كاتب الوحي لرسول ﷺ ـ ولأنه كان يجمع بين اللغة العربية والعبرية ـ فالشيخان رضي الله عنهما سبقا إلى جمع القرآن كما ذكرنا ـ والمرة الثانية كانت على يد عثمان بن عفان، وكانت بإشارة حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما ـ وكانت في المصحف، وعلى يد زيد بن ثابت وأصحابه الثلاثة، فجمع عثمان رضي الله عنه الناس على قراءة واحدة حتى لا يختلفوا في القرآن، وقد ذكر الإمام البخاري رحمه الله الجمعين معاً في جامعه الصحيح ـ وكان ذلك من مناقب عثمان رضي الله عنه ـ ومن باب المصالح المرسلة، وكل ما أحدثه السلف الصالح فهو من هذا القبيل، لا يتخلف عنه بوجه، ولا يكون مخالفاً لغرض الشارع، كيف وهو يقول: ـ (ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن) ـ و(ولا تجتمع أمتي على ضلالة) ـ وإيضاح هذا أن جمع المصحف لم يكن في عهد رسول الله ﷺ ـ للاستغناء عنه بالحفظ في الصدور ـ ولأنه لم يقع في القرآن اختلاف يخاف بسببه الاختلاف في الدين، وإنما وقعت فيه نازلتان أو ثلاث، كحديث عمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم، رضي الله عنهما ـ وكقصة أبيّ بن كعب مع عبد الله بن مسعود، رضي الله عنهما، وفيه قال عليه الصلاة والسلام: «لاتماروا في القرآن، فإن المراء فيه كفر فحاصل الأمر أن جمع المصحف كان مسكوتاً عنه في زمن النبي ﷺ، ثم لما وقع الاختلاف في القرآن، وكثر حتى كان أحدهم يقول لصاحبه: أنا كافر بما تقرأ به، والنبي ﷺ غائب عن المسلمين، صار جمع المصحف واجباً أكيداً، ورأياً سديداً، في واقعة لم يتقدم بها عهد، ولم يكن فيه مخالفة للشرع، وإلا لزم أن يكون النظر في كل واقعة لم تحدث في الزمن المتقدم بدعة، وهو باطل باتفاق ـ وقد استغرقت مدة نسخ المصاحف العثمانية خمس سنين، من خمس وعشرين إلى ثلاثين ـ انظرتفسير (ط) رحمه الله.

(٣) هي بلاد بني حنيفة، وهي من بادية الحجاز.

عنهما بجمع القرآن، مخافة أن يموت أشياخ القراءة، كأبيٍّ، وزيد، وابن مسعود، فيذهب، فندبا إلى ذلك زيد بن ثابت فجمعه غير مرتب السور بعد تعب شديد منه، رضي الله عنه، وروي أن في هذا الجمع سقطت الآية من آخر براءة[١]، حتى وجدها عند خزيمة بن ثابت. وحكى الطبري: أنه إنما سقطت له في الجمع الأخير، والأول أصح، وهو الذي حكى البخاري، إلا أنه قال فيه: مع أبي خزيمة الأنصاري، وقال: إن في الجمع الثاني فقد زيد آية من سورة الأحزاب ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ فوجدها مع خزيمة بن ثابت، وبقيت الصحف عند أبي بكر، ثم عند عمر بن الخطاب بعده، ثم عند حفصة بنته[٢] في خلافة عثمان، وانتشرت في خلال ذلك صحف في الآفاق كتبت عن الصحابة، كمصحف ابن مسعود، وما كتب عن الصحابة بالشام، ومصحف أبيٍّ، وغير ذلك، وكان في ذلك اختلاف حسب السبعة الأحرف التي أنزل القرآن عليها، فلما قدم حذيفة من غزوة أرمينية[٣]، حسبما قد ذكرنا[٤]، انتدب عثمان[٥] لجمع المصحف، وأمر زيد بن ثابت بجمعه، وقرن بزيد فيما ذكر البخاري ثلاثة من قريش: سعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعبد الله بن الزبير. وكذلك ذكر الترمذي، وغيرهما، وقال الطبري فيما روى: إنه قرن بزيد أبان بن سعيد بن العاص وحده، وهذا ضعيف، وقال الطبري أيضاً: إن الصحف التي كانت عند حفصة جعلت إماماً في هذا الجمع الأخير، وروي أن عثمان رضي الله عنه قال

---

(١) هي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨ـ١٢٩].

(٢) أي لأنها كانت وصيته من أولاده على أوقافه وتركته، وظلت عندها حتى أخذها أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه كما سيذكره ابن عطية.

(٣) هي في شرق الجمهورية التركية، وقريبة من الحدود العراقية.

(٤) أي في صفحة ٣٤.

(٥) أي استجاب عثمان لذلك، وأمر بإحضار الصحف التي كتبت في عهد أبي بكر رضي الله عنه من عند حفصة، فجيء بها، وأحضر أربعة من خيار الأصحاب المهرة في القراءة والكتابة، وكلهم قرشيون إلا زيد بن ثابت فإنه أنصاري، وأمرهم بكتابة المصحف من تلك الصحف، وقد اشترك مع هذه اللجنة جماعة، منهم: مالك بن أبي عامر جد الإمام مالك رضي الله عنه، وعبد الله بن عباس، وأبيُّ بن كعب، وأنس بن مالك رضي الله عنهم ـ فقد كتب المصحف بعلم الصحابة وإجماعهم على ما كتبوه فيه، وفق الترتيب الذي قرأه النبي ﷺ على جبريل في العام الأخير الذي توفي فيه.

لهم: إذا اختلفتم في شيء فاجعلوه بلغة قريش، فاختلفوا في التابوه والتابوت، قرأه زيد بن ثابت بالهاء، والقرشيون بالتاء، فأثبته بالتاء، وكتب المصحف على ما هو عليه غابر الدهر(١)، ونسخ عثمان منه نسخاً(٢)، ووجه بها إلى الآفاق، وأمر بما سواها من المصاحف أن تحرق(٣) أو تخرق، تروى بالحاء غير منقوطة، وتروى بالخاء على معنى ثم تدفن، ورواية الحاء غير منقوطة أحسن.

قال القاضي أبو بكر بن الطيب: وترتيب(٤) السور اليوم هو من تلقاء زيد ومن

(١) أي إلى آخر الدهر، وغابر يطلق على الباقي والماضي فهو من الأضداد.

(٢) الذي تميل إليه النفس أنها سبعة، أرسل إلى مكة واحداً، وإلى اليمن واحداً، وإلى البحرين واحداً، وإلى البصرة واحداً، وإلى الكوفة واحداً، وإلى الشام واحداً، وأمسك بالمدينة واحداً، وأمر بتحريق ما عداها جمعاً للكلمة ومنعاً للالتباس.

(٣) بالتخفيف والتشديد على المبالغة، والتخريق التمزيق، وبعد أن تمزق تدفن احتراماً للحروف والكلمات، ولقد وافق الصحابة رضوان الله عليهم على الأمر بالتحريق أو التمزيق بعد جمع المصحف الإمام، وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بل قال: لو وليت لفعلت في المصاحف الذي فعله عثمان، كما رواه أبو عبيد في كتاب «فضائل القرآن»، وهؤلاء هم الخلفاء الراشدون، وقد قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ»، إلا ما كان من عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فإنه خالف ذلك واحتفظ بمصحفه، ولعل مرد ذلك إلى التأثر والانفعال الذي أصابه من جراء تنحيته عن لجنة جمع القرآن مع ماله من الأسبقية والأقدمية، كما يشير إلى ذلك قوله: «وكيف تأمرني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت وقد قرأت القرآن من فم رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة، وإن زيد بن ثابت ليأتي مع الغلمان له ذؤابتان، والله ما نزل من القرآن شيء إلا وأنا أعلم في أي شيء نزل، وما أحد أعلم بكتاب الله مني، وما أنا بخيركم، ولو أعلم مكاناً تبلغه الإبل أعلم بكتاب الله مني لأتيته» وإلاً ما كان من الناقمين عليه لغرض في نفوسهم، ولمرض في قلوبهم، على أنه لا داعي إلى تأثر ابن مسعود رضي الله عنه، لأن زيد بن ثابت اختير كذلك حتى في الجمع الأول، فقد اختاره أبو بكر وعمر من قبل لنشاطه وشبابه، وأيضاً فإن مثل هذا العمل الشاق فيه إرهاق، وذلك مما يتحمله الشباب دون الشيوخ.

(٤) الظاهر كما للبيهقي والسيوطي وغيرهما، أن ترتيب السور توقيفي عن النبي ﷺ باستثناء الأنفال وبراءة، استناداً إلى حديث ابن عباس الذي رواه الإمام أحمد، وأصحاب السنن، ونصه: قال (أي ابن عباس): قلت لعثمان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطول؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذ نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: «ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا». وكانت الأنفال من أوائل ما أنزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فلذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما (بسم الله الرحمن الرحيم) فوضعتها في السبع=

كان معه، مع مشاركة من عثمان رضي الله عنه في ذلك، وقد ذكر ذلك مكي رحمه الله في سورة براءة، وذكر أن ترتيب الآيات في السور، ووضع البسملة في الأوائل هو من النبي ﷺ، ولمَّا لم يأمر بذلك في أول براءة تركت بلا بسملة. هذا أحد ما قيل في براءة، وذلك مستقصى في موضعه موفًى إن شاء الله تعالى.

وظاهر الآثار أن السبع الطُّوَل(١)، والحواميم، والمفصّل كان مرتباً في زمن النبي ﷺ، وكان في السور ما لم يرتب، فذلك هو الذي رتِّب وقت الكتب.

وأما شكل المصحف ونقطه، فروي أن عبد الملك بن مروان أمر به(٢) وعمله، فتجرد لذلك الحجاج بواسط، وجدَّ فيه وزاد تحزيبه، وأمر وهو والي العراق الحسن(٣) ويحيى بن يَعمُر(٤) بذلك، وألف إثر ذلك كتاباً في القراءات، جمع فيه ما روي من اختلاف الناس فيما وافق الخط، ومشى الناس على ذلك زمناً طويلاً إلى أن ألف ابن مجاهد(٥) كتابه في القراءات.

وأسند الزبيدي(٦) في الطبقات إلى المبرد أن أول من نقط المصحف أبو الأسود

= الطول اهـ. وهذا في المصاحف الرسمية القائمة على العرضة الأخيرة، لا في المصاحف الشخصية كمصحف ابن مسعود رضي الله عنه. انظر صحيح البخاري في باب تأليف القرآن.

(١) الطُّوَل جمع طولى كأُخَر وأخرى، والسبع الطول هي: البقرة وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والتوبة، والحواميم جمع غير قياسي فالأولى جمعه على ذوات حاميم.

(٢) هذا طور جديد دخل على المصاحف العثمانية، ونوع من التحسين والابتكار، قال الإمام النووي: نقط المصحف وشكله مستحب، لأنه صيانة له من اللحن والتحريف اهـ ولا ينافي النقط تجريد القرآن كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: جردوا القرآن، ولا تخلطوه بشيء، رواه أبو عبيد القاسم بن سلام، لأنه لاصورة له، حتى يتوهم لأجلها ما ليس بقرآن قرآناً، وأما كتابة الأعشار والأخماس، وأسماء السور، وأعداد الآيات فيه، فمكروه خشية أن يختلط ما ليس قرآناً بقرآن. وأما إشراف الحجاج بن يوسف الثقفي على نقط المصحف وشكله فيعتبر في حد ذاته عملاً عظيماً لا سبيل إلى جحده وإنكاره كيفما كانت نيته وعمله.

(٣) أي البصري.

(٤) هو أبو سعيد يحيى بن يعمر القيسي العدواني من التابعين، وكان عالماً بالقرآن والنحو، وكان شيعياً يتشيع تشيعاً حسناً، يقول بتفضيل آل البيت من دون تنقيص لأحد من الصحابة، توفي سنة ١٢٩هـ، ويعمر بفتح الياء والميم بينهما عين ساكنة.

(٥) هو أحمد بن موسى بن العباس، أبو بكر بن مجاهد البغدادي، إمام جليل في علم القراءة، وهو أول من سبع السبعة مات سنة ٣٢٤هـ.

(٦) هو محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج أبو بكر الزبيدي الأشبيلي النحوي، صاحب طبقات =

الدؤلي[١]، وذكر أيضاً أن ابن سيرين كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر، وذكر أبو الفرج[٢] أن زياد بن أبي سفيان أمر أبا الأسود بنقط المصحف.

وذكر الجاحظ[٣] في كتاب الأمصار أن نصر بن عاصم[٤] أول من نقط المصاحف، وكان يقال له نصر الحروف.

وأما وضع الأعشار فيه فمر بي في بعض التواريخ أن المأمون العباسي أمر بذلك، وقيل: إن الحجاج فعل ذلك، وذكر أبو عمرو الداني عن قتادة أنه قال: بدؤوا[٥] نقطوا، ثم خمسوا، ثم عشروا[٦]، وهذا كالإنكار[٧].

* * *

= النحويين، توفي سنة ٣٧٩ هـ.

(١) اسمه ظالم بن عمرو الدؤلي البصري، من سادات التابعين، وشهد مع عليّ وقعة صفين، وهو أول من وضع النحو، وأوّل من نقط المصاحف، توفي في طاعون الجارف سنة ٦٩هـ.

(٢) هو علي بن الحسين بن محمد الأصبهاني، صاحب الأغاني، المولود بأصبهان سنة ٢٨٤هـ. هذا، ولقد تردد نقط المصحف بين هؤلاء الأفاضل ـ أبو الأسود الدؤلي ـ ويحيى بن يعمر ـ ونصر بن عاصم، ولا يبعد أن يكون الجميع قد أسهم في هذا العمل المبتكر الجليل، والله أعلم وعلمه أتم.

(٣) هو أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني، أصابه الفالج في آخر عمره، وكان يقول: اصطلحت على جسدي الأضداد، فإن أكلت بارداً أخذ برجلي، وإن أكلت حاراً أخذ برأسي، وله التصانيف المفيدة ككتاب البيان والتبيين، وكتاب الحيوان، وهو من رؤوس المعتزلة تنسب إليه الطائفة الجاحظية من المعتزلة، توفي سنة ٢٥٥ هـ بالبصرة.

(٤) هو نصر بن عاصم الليثي النحوي، كان فقيهاً، عالماً بالعربية، من قدماء التابعين، وكان يسند إلى أبي الأسود الدؤلي في القرآن والنحو، وقيل: أخذ النحو عن يحيى بن يعمر، وأخذ عنه أبو عمرو بن العلاء، فهو من أصحاب أبي الأسود ويحيى بن يعمر. توفي سنة ٨٩هـ.

(٥) يعني أن أول ما أحدثوا النقط، ثم أحدثوا غيره، كالتخميس، والتعشير ـ قال أبو عمرو الداني: أطبق المسلمون في سائر الآفاق على جواز ذلك، واستعماله في الأمهات وغيرها، والحرج والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله.

(٦) التعشير وضع علامة بعد كل عشر آيات.

(٧) وفي بعض النسخ الخاصة وهذا كالابتكار وهو أنسب.

باب
في ذكر الألفاظ التي في كتاب الله وللغات العجم بها تعلق

اختلف الناس[١] في هذه المسألة، فقال أبو عبيدة وغيره: إن في كتاب الله تعالى من كل لغة. وذهب الطبري وغيره إلى أن القرآن ليس فيه لفظة إلاَّ وهي عربية صريحة، وأن الأمثلة والحروف التي تنسب إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت اللغتان، فتكلمت بها العرب والفرس أو الحبشة بلفظ واحد، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾، قال ابن عباس: نشأ بلغة الحبشة: قام من الليل.

ومنه قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾[٢]، قال أبو موسى الأشعري: كفلان: ضعفان من الأجر بلسان الحبشة. وكذلك قال ابن عباس في القسورة: إنه الأسد بلغة الحبشة. إلى غير هذا من الأمثلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي أقوله: إن القاعدة والعقيدة هي أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، فليس فيه لفظة تخرج عن كلام العرب فلا تفهمها إلاَّ من لسان آخر، فأما هذه الألفاظ وما جرى مجراها، فإنه كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات وبرحلتي قريش، كسفر مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، إلى الشام، وكسفر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكسفر عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة، وكسفر الأعشىٰ إلى الحيرة، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة في اللغة، فعلقت[٣] العرب بهذا كله ألفاظاً أعجمية، غيرت بعضها بالنقص من حروفها، وجرت إلى تخفيف ثقل العجمة، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها، حتى جرت مجرى العربي الصريح، ووقع بها

---

(١) اعلم أنه لا خلاف بين الأئمة في أنه ليس في القرآن كلام مركب على أسلوب غير عربي، ولا خلاف في أنه يوجد في القرآن أعلام أعجمية كإسرائل، وجبريل، وعمران، ونوح ولوط، وإنما الخلاف: هل يوجد فيه ألفاظ غير أعلام مفردة من غير كلام العرب؟ فمن قائل: نعم، ومن قائل: لا، وما يوجد فيه مما ينسب إلى بعض اللغات فهو من توافق اللغات.

(٢) من الآية (٢٨) من سورة الحديد.

(٣) أي علمت.

البيان، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن، فإن جهلها عربي مَّا فلجهله الصريح ما في لغة غيره، كما لم يعرف ابن عباس معنى فاطر، إلى غير ذلك. فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ، أنها في الأصل أعجمية، لكن استعملتها العرب وعربتها، فهي عربية بهذا الوجه، وما ذهب إليه الطبري من أن اللغتين اتفقتا في لفظة لفظة فذلك بعيد، بل إحداهما أصل[١] والأخرى فرع في الأكثر، لأنا لا ندفع أيضاً جواز الاتفاق قليلاً شاذاً[٢].

* * *

(١) أي أصل في كلام العجم، وفرع من كلام العرب، وقد انتقد بعضهم ذلك قائلاً: ليس هذا بأولى من العكس، وذلك لأن العرب إما أن تكون قد تخاطبت بتلك اللفظة أو لا، فإن كان الأول فهي من كلامهم، إذ لا معنى للغتهم وكلامهم إلا أنهم يتخاطبون بذلك بينهم، ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم، وهذا قول أبي عبيدة.

وإن لم تكن العرب تخاطبت بها، ولا عرفتها، فقد استحال أن يخاطبهم الله بما لايعرفون، وحينئذ لا يكون القرآن عربياً مبيناً، ولا يكون مخاطباً لقومه بلسانهم، انظر (ق).

(٢) يعني أننا لا نمنع التوافق ولكن على جهة القلة والشذوذ، والأكثر هو أن تكون الكلمة أصيلة في كلام غير العرب، ودخيلة في كلام العرب، وقد علمت مناقشة هذا الكلام.

نبذة مما قاله العلماء في إعجاز القرآن

اختلف الناس في إعجاز القرآن، بم هو؟ فقال قوم: إن التحدِّي وقع بالكلام القديم الذي هو صفات الذات، وإن العرب كلِّفت في ذلك ما لا يطاق، وفيه وقع عجزها. وقال قوم: إن التحدي وقع بما في كتاب الله تعالى من الأنباء الصادقة، والغيوب المسرودة، وهذان القولان إنما يرى العجز فيهما مَنْ قد تقررت الشريعة ونبوَّة محمد ﷺ في نفسه. وأما من هو في ظلمة كفره فإنما يتحدى فيما يبين له ـ بينه وبين نفسه ـ عجزه عنه، وأن البشر لا يأتي بمثله، ويتحقق مجيئه من قبل المتحدي.

فكفار العرب لم يمكنهم قط أن ينكروا أن رصف القرآن ونظمه وفصاحته متلقًّى من قبل محمد ﷺ، فإذا تُحُدِّيت إلى ذلك وعجزت فيه، علم كلُّ فصيح ضرورة أن هذا نبي يأتي بما ليس في قدرة البشر الإتيان به، إلا أن يخص الله تعالى من يشاء من عباده، وهذا هو القول الذي عليه الجمهور والحذّاق، وهو الصحيح في نفسه[(١)]، وإن التحدي إنما وقع بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه، ووجه إعجازه: أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كلِّه علماً، فإذا ترتَّبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أيَّ لفظة تصلح[(٢)] أن تلي الأولى، وتبيَّن المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معه الجهل والنسيان والذُّهول، ومعلومٌ ضرورةً أن بشراً لم يكن قطُّ محيطاً. فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا النظر

---

(١) إذ هو الذي يحكم به العقل المجرد، وهو الذي تقبله طبيعة الكفر المشرد، فالتحدي واقع ببلاغة القرآن، وفصاحته، وجزالته، وبدقة تصويره، وتشخيصه للمعاني، وتأثيره في النفوس الناطقة، وواضح أن بلاغة القرآن هي في أعلى درجات الإحسان، وفي أرفع مراتب الإيجاز والبيان، لأن مُنَزِّله محيط بجميع جوانب الكلام ومواضعه.

(٢) إذ لكل كلمة مع صاحبتها مقام، ومعلوم أن وضع الشيء في موضعه الخاص، وفي مكانه الدقيق، شيء تتفاوت فيه الملكات والقرائح، والله سبحانه وتعالى مطلع على جميع المقتضيات والخصوصيات التي تتناسب والمقامات، وجميع ما تؤتيه الكلمات من ألوان الإيقاعات وأفنان التأثيرات، وهذا شيء موجود في آياته، وفي كل سورة من سوره، وللناس أذواق، منها ما يتلمس الجمال في موضعه، ويميزه بطبعه، والله جميل في الذات والصفات، وفي صنع الكائنات، والقرآن جميل في الكلمات والحركات، وفي التصوير والتشخيصات.

يبطل قول من قال: إن العرب كان في قدرتها أن تأتي بمثل القرآن، فلما جاء محمد ﷺ صرفوا(١) عن ذلك، وعجزوا عنه.

والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة واحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة، يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقِّحها حولاً كاملا، ثم تعطى لآخر نظيره، فيأخذها بقريحة جامة(٢) فيبدل فيها وينقح، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل. وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد، ونحن تبين لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق، وجودة القريحة، ومَيْز(٣) الكلام، ألا ترى ميز الجارية نفس الأعشى(٤) وميز الفرزدق نفس جرير من نفس ذي الرمة(٥)، ونظر الأعرابي في قوله: (عز فحكم فقطع)(٦). إلى كثير من الأمثلة اكتفيت بالإشارة إليها اختصارا.

فصور قيام الحجة بالقرآن على العرب: أنه لما جاء محمد ﷺ وقال: ﴿فأتوا بسورةٍ من مثله﴾، قال كل فصيح في نفسه: وما بال هذا الكلام حتى لا آتي بمثله؟ فلما تأمله وتدبره ميَّز منه ما ميَّز الوليد بن المغيرة حين قال: «والله ما هو بالشعر، ولا هو

---

(١) معناه: أن الله سبحانه منعهم من معارضته، وصرفهم عن المجيء بمثله، وإذا فالمعجز لهم شيء خارج عن القرآن، فهم يقدرون أن يأتوا بمثله، ولكنهم منعوا وصرفوا، وهذا قول باطل، فإن الإجماع وقع على أن المعجز هو نفس القرآن وذاته، وليس أمراً آخر، وإذا كان المعجز هوالقرآن ـ فلأنه خارق للعادة بنظمه، وأسلوبه، وبفصاحة ألفاظه، وبراعة معانيه.

(٢) أي نشيطة، يقال استجم الرجل استراح ونشط.

(٣) الميز والتمييز القدرة على استنباط المعاني، وتمييز بعضها من بعض.

(٤) كان له أثر كبير في الدعاية لتزويج البنات، وقد عرف بذلك، وكان له فضل على الملحق في تزويج بناته أو أخواته.

(٥) من المعروف أن الفرزدق كان يفضل ذا الرمة على جرير في الشعر، ويأخذ من قصائده، والفرزدق هو همَّام بن غالب التميمي، الشاعر المشهور، والتابعي المعروف، توفي سنة ٢٠٧ هـ وذو الرمة لقب غيلان بن عقبة صاحب مي والخرقاء، توفي سنة ١١٧هـ، وجرير هو عطية بن حذيفة الخطفي، كان ينافسه عدة من الشعراء ولكن لم يثبت أمامه إلا الفرزدق والأخطل، ووفاته كوفاة الفرزدق.

(٦) سمع أعرابي قارئاً يقرأ ﴿فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله﴾ ﴿والله غفور رحيم﴾ فقال: ما هذا؟ فقيل له: قرآن، فقال: ما هذا بقرآن، فتنبه القارىء، فقال: ﴿والله عزيز حكيم﴾، فقال الأعرابي: (عز فحكم فقطع).

بالكهانة، ولا بالجنون». وعرف كلُّ فصيح بينه وبين نفسه أنه لا يقدر بشر على مثله، فصحَّ عنده أنه من عند الله، فمنهم من آمن وأذعن، ومنهم من حسد كأبي جهل وغيره، ففر إلى القتال، ورضي بسفك الدم عجزاً عن المعارضة، حتى أظهر الله دينه، ودخل جميعهم فيه، ولم يمت رسول الله ﷺ وفي الأرض قبيل من العرب يعلن كفره، وقامت الحجة على العالم بالعرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة، ومظنة المعارضة، كما قامت الحجة ـ في معجزة عيسى ـ بالأطباء، وفي معجزة موسى ـ بالسحرة، فإن الله تعالى إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه[1] الشهير أبرع ما يكون في زمن النبي الذي أراد إظهاره، فكان السحر في مدة موسى قد انتهى إلى غايته، وكذلك الطب في زمن عيسى، والفصاحة في مدة محمد عليهم الصلاة والسلام.

* * *

(١) أي بالوجه المشهور في زمانهم، وقد اشتهر السحر في أيام موسى عليه السلام ـ والطب في أيام عيسى عليه السلام ـ والفصاحة والبلاغة في أيام محمد عليه السلام، فآتاهم الله ما هو أبرع مما هو مشهور في زمانهم حتى تتحقق المعجزة بهم.

باب
في الألفاظ التي يقتضي الإيجاز استعمالها
في تفسير كتاب الله تعالى

اعلم أن القصد إلى إيجاز العبارة قد يسوق المتكلم في التفسير إلى أن يقول: خاطب الله بهذه الآية المؤمنين، وشرَّف الله بالذكر الرجل المؤمن من آل فرعون، وحكى الله تعالى عن أم موسى أنها قالت: (قصيه)، ووقف الله ذرية آدم على ربوبيته بقوله: ﴿ألست بربكم﴾؟ ونحو هذا من إسناد أفعال إلى الله تعالى لم يأت إسنادها بتوقيف من الشرع[(١)]، وقد استعمل هذه الطريقة المفسرون والمحدثون والفقهاء، واستعملها أبو المعالي[(٢)] في الإرشاد، وذكر بعض الأصوليين أنه لا يجوز أن يقال: «حكى الله» ولا ما جرى مجراه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على تقرير هذه الصفة له، وثبوتها مستعملة كسائر أوصافه تبارك وتعالى، وأما إذا استعمل ذلك في سياق الكلام، والمراد منه: حكت الآية أو اللفظ، فذلك استعمال عربي شائع، وعليه مشى الناس، وأنا أتحفظ منه في هذا التعليق جهدي، لكني قدَّمت هذا الباب لما عسى أن أقع فيه نادراً، واعتذاراً عمَّا وقع فيه المفسرون من ذلك.

وقد استعملت العرب أشياء في ذكر الله تعالى تحمل على مجاز كلامها، فمن ذلك قول عامر[(٣)] يرتجز بالنبي ﷺ:

---

(١) قال العارف بالله أبو عبد الله محمد بن عباد في رسائله الكبرى: «وقد رأيت في مواضع من كتبكم شيئاً أردت أن أنبهكم عليه، وهو أنكم تقولون فيها: حكى الله عن فلان، وحكى عن فلان كذا، وقد يقع مثل هذا في كلام الأئمة، وهذا عندي ليس بصواب من القول، لأن كلام الله تعالى صفة من صفاته، وصفاته تعالى قديمة، فإذا سمعنا الله تعالى يقول كلاماً عن موسى عليه السلام مثلا، وعن فرعون، أو أمة من الأمم، فلا يقال: حكى عنهم كذا، لأن الحكاية تؤذن بتأخرها عن المحكي، وإنما يقال في مثل هذا: أخبر الله تعالى، أو أنبأ، أو كلام معناه هذا مما لايفهم من مقتضاه تقدم ولا تأخر» اهـ.

(٢) هو إمام الحرمين، عبد الملك بن أبي محمد الجويني، المتوفىٰ سنة ٤٧٨هـ.

(٣) الذي في غزوة خيبر من صحيح البخاري، أن عامر بن الأكوع حدا للقوم في مسيرهم ليلاً إلى خيبر بقوله: =

فـــاغفـــر فـــداءً لـــك مـــا اقتفينـــا . . . .

وقول أم سلمة: (فعزم الله لي) في الحديث في موت أبي سلمة، وإبدال الله لها منه رسول الله[(١)]، ومن ذلك قولهم: الله يدري كذا وكذا، والدراية إنما هي التأتي للعلم بالشيء حتى يتيسر ذلك، قال أبو علي: واحتج بعض أهل النظر على هذا الإطلاق بقول الشاعر:

لاهــمَّ لا أدري وأنــت الــدَّاري[(٢)] . . . .

قال أبو علي: وهذا لا ثبت[(٣)] فيه، لأنه يجوز أن يكون من غلط الأعراب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكذلك أقول: إن الطريقة كلَّها عربيةٌ، لا يثبت للنَّظر المنخول شيءٌ منها. وقد أنشد بعض البغداديين:

لاهُــمَّ إن كنــت الــذي بعهــدي ولــم تُغَيِّــرْك الأُمــورُ بعــدي[(٤)]

وقد قال العجاج:

فـــارتـــاح ربِّـــي وأراد رحمتـــي[(٥)] . . . .

= اللهــمَّ لـــولا أنـــت مـــا اهتـــدينـــا ولا تصـــــدقنـــا ولا صلينـــا
فـــاغفـــر فـــداءً لـــك مـــا اقتفينـــا وألقيـــــن سكينـــــةً علينـــا
وثبِّـــــت الأقـــــدام إن لاقينـــا إنـــا إذا صيـــح بنـــا أتينـــا
وبـــالصيـــاح عـــوّلـــوا علينـــا

ومن الرواة من نسب هذه الأبيات إلى عامر بن الأكوع، ومنهم من نسبها إلى عبد الله بن رواحة، كما في طبقات ابن سعد، والاختلاف الذي يوجد بينها يسير، والله أعلم.

(١) أي الذي روته عن رسول الله ﷺ، وهو كما في مسند الإمام أحمد: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلفني خيراً منها إلا آجره الله في مصيبته، وخلف له خيراً منها. قالت: فلما توفي أبو سلمة قلت: من خير من أبي سلمة صاحب رسول الله ﷺ؟ قالت: ثم عزم الله لي فقلت: اللهم آجرني في مصيبتي وأخلفني خيراً منها، قالت: فتزوجت رسول الله ﷺ» اهـ. وهذا يوضح كلام ابن عطية رحمه الله. وأمُّ سلمة: هند بنت أبي أمية توفيت سنة ٥٩ هـ رضي الله عنها.

(٢) تمامه كما في لسان العرب:

. . . . كــلُّ امــرىء منــك علــى مقــدار

ويقال في الدعاء: اللهم، ولاهم. وفي رواية: يا رب. وقائله: العجَّاج بن رؤبة.

(٣) بفتح الباء، أي لا حجة فيه.

(٤) جعله تعالى ممن يجوز عليه التغيير وتعاقب الأمور، تعالى الله عن ذلك وتنزَّه.

(٥) وتمامه: =

وقال الآخر:

. . . . قــد يصبــح الله أمــام السَّــاري(١)

وقال الآخر:

يــا فقعســيُّ لــم أكلتــه؟ لمــه؟ لــو خــافـك الله عليــه حــرَّمــه(٢)

وقال أوس(٣):

أبنــي لُبَيْنــى لا أحبُكُــمُ وجــدَ الإلــه بكــم كمــا أجــد

وقال الآخر:

وإنَّ الله ذاق عقــول تيــم فلمَّــا راء خفَّتهــا قــلاهــا(٤)

= . . . . ونعمــةِ أتمَّهــا فتمَّــت

أراد نظر إلي ورحمني.

(١) روى الجاحظ في كتاب «الحيوان» عن الأصمعي أنه قال: هرب بعض البصريين من بعض الطواعين، فركب ومضى بأهله نحو سفوان، (اسم محلَّة قريبة من البصرة)، فسمع غلاماً له يحدو خلفه ويقول:

لــن يُسْبَــقَ الله علــى حمــار ولا علــى ذي ميعــةٍ طيَّــار
أو يــأتــي الحيــن علــى مقــدار قــد يصبــح الله أمــام الســاري

فكرَّ راجعاً وقال: إذا كان الله أمام الساري فلات حين مهرب ـ وفي رواية (الحتف) بدل (الحين).

(٢) وبعده: (فما أكلت لحمه ولا دمه)، قال العيني في شرح الشواهد الكبرى: لم أقف على اسم هذا الراجز، وذكروا أن الضمير المنصوب في قوله: (لم أكلته)، يرجع إلى الكلب، يعني كلباً أكله هذا الإنسان، فقال: (لو خافك الله)، فأجاز على الله سبحانه الخوف، تعالى الله عن ذلك، وهذا على عادة الجفاة من العرب ممن يجوزون أن يوصف به الله تعالى مما لا يجوز أن يوصف به، ومنهم من خرَّج هذا الرجز تخريجاً حسناً يسلم هذا الشاعر من هذه الغلطة، وهو أنه يخاطب الفقعسي ثم عدل عن خطابه إلى خطاب الله تعالى على عادة لهم في ذلك مشهورة، فقال: (لو خافك الله) وأراد(يا الله) فحذف حرف النداء كما في قوله تعالى: ﴿يوسف أيها الصديق﴾ والمعنى: لو خافك يا الله على نفسه من أن تعاقبه على جرمه لحرَّم هذا المأكول الذي حرمته ولم يقربه، وضمير (عليه) يعود إلى الفقعسي، وضمير حرَّمه يعود إلى المأكول. والفقعسي المنسوب إلى بني فقعس، ولم أكلته بسكون الميم للضرورة، ونسب صاحب «لسان العرب» في مادة (روح) هذا الرجز إلى سالم بن دارة.

(٣) هو أوس بن حجر بن مالك بن حزن، شاعر جاهلي. ولُبَيْنى: اسم امرأة.

(٤) هو ليزيد بن الصعق كما في «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي.

وبعد البيت:

رآهــا لا تطيــع لهــا أميــراً فخــلأهــا تــردد فــي خــلاهــا =

ومن هذا الاستعمال الذي يبنى الباب عليه قول سعد بن معاذ[١]: «عرق الله وجهك في النَّار».

يقول هذا للرامي الذي رماه. وقال: «خذها وأنا ابن العرقة».

وفي هذه الأمثلة كفاية فيما نحوناه، إذ النَّظير لذلك كثيرٌ موجود. وإن خرج شيءٌ من هذا على حذف مضاف فذلك متوجِّهٌ في الاستعمال الذي قصدنا الاعتذار عنه، والله المستعان.

* * *

زعم الشاعر أن الله عز وجل يذوق، وللعرب إقدام على الكلام ثقة بفهم أصحابهم عنهم. وتلك فضيلة أيضاً لهم.

(١) سعد بن معاذ بن النعمان الأنصاري الأشهلي، سيد الأوس، يكنى أبا عمرو، أسلم بالمدينة على يد مصعب بن عمير، وشهد بدراً، وأحداً، والخندق، ورمي يوم الخندق بسهم فعاش بعده شهراً ثم مات، وقد اهتز عرش الرحمن من أجل موته كما قال النبي ﷺ، وفي ذلك يقول بعض الأنصار:

وما اهتز عرش الله من أجل هالكٍ سمعنا به إلا لسعد أبي عمرو

والذي رماه هو حبان بن العرقة كما قال: خذها وأنا ابن العرقة، فقال سعد، أو قال النبي ﷺ: «عرق الله وجهه في النار»، توفي رضي الله عنه بعد الخندق بشهر سنة خمس من الهجرة النبوية.

باب
في تفسير أسماء القرآن وذكر السورة والآية

هو القرآن، وهو الكتاب، وهو الفرقان، وهو الذكر(١).

فالقرآن مصدر من قولك: قرأ الرجل إذا تلا، يقرأ قرآنا وقراءة، وحكى أبو زيد الأنصاري: وقرءًا، وقال قتادة: القرآن معناه التأليف، قرأ الرجل إذا جمع وألَّف قولاً، وبهذا فسر قتادة قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾(٢) أي تأليفه، وهذا نحو قول الشاعر(٣):

ذراعَـــي بكـــرةٍ أدمـــاءَ بكـــرٍ   هجـــان اللَّـــون لـــم تقـــرأ جنينـــا

أي: لم تجمع في بطنها ولدا، فهو أفره(٤) لها، والقول الأول أقوى، أي: القرآن مصدر من قرأ إذا تلا.

---

(١) هذه الأسماء هي الشائعة المشهورة، ومنها: التنزيل كما قال تعالى: ﴿وإنه لتنزيل ربِّ العالمين﴾ الآية، إلا أن بعضهم قد بالغ في تعداد أسماء القرآن، وذهب يجمع بين الاسم والوصف.

وفي (الكتاب) إشارة إلى جمعه في السطور، لأن الكتابة جمعٌ، وفي القرآن إشارة إلى حفظه في الصدور لأنه تلاوة واستذكار، وتلك عناية مزدوجة في صيانة نصوصه ومواده، وفي حفظ تعاليمه وشرائعه، وصدق قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

(٢) الآية (١٧) من سورة القيامة.

(٣) هو عمرو بن كلثوم، والبيت من معلقته الشهيرة، وقبله:

تـــريـــك إذا دخلـــت علـــى خـــلاء   وقـــد أمنـــت عيـــون الكـــاشحينـــا

والبكر: الفتي من الإبل، والأنثى بكرة ـ والبكر: العذراء، والجمع أبكار.

قال الأصمعي: (والأدم من الظباء بيض تعلوهن جدد، فيهن غبرة، تسكن الجبال. قال: وهي على ألوان الجبال، يقال: ظبية أدماء).

(والهجان من الإبل: البيض ـ ويستوي فيه المذكر والمؤنث والجمع. يقال: بعير هجان، وناقةٌ هجان، وإبل هجان). الصحاح.

وفي القاموس، الهجان: البيضاء الكريمة.

وروي (ذراعي عيطل) ـ والعيطل من النساء: الطويلة العنق، وكذلك من النوق والفرس اهـ. الصحاح.

(٤) في (المعجم الوسيط) فَرُهَ: خف ونشط.

ومنه(١) قول حسان بن ثابت يرثي عثمان بن عفان رضي الله عنه:

ضحُّوا بأشمط عنوان السُّجود به يقطِّع الليل تسبيحاً وقرآنا

أي قراءة.

وأما الكتاب فهو مصدر من كتب إذا جمع، ومنه قيل: كتيبة لاجتماعها، ومنه قول الشاعر:

. . . . اكتبها بأسيار(٢)

أي اجمعها.

وأما الفرقان فهو مصدر، لأنه فرَّق بين الحق والباطل، والمؤمن والكافر فرقاً وفرقاناً.

وأما الذِّكْر فسمي به لأنَّه ذكَّر به الناس آخرتهم، وإلههم، وما كانوا في غفلة عنه، فهو ذكر لهم، وقيل: سمي بذلك لأن فيه ذكر الأمم الماضية، والأنبياء، وقيل: سمي بذلك لأنه ذكرٌ وشرف لمحمد، وقومه، وسائر العلماء به.

وأما السورة(٣) فإن قريشاً كلَّها ومن جاورها من قبائل العرب: كهذيل، وسعدبن بكر، وكنانة يقولون: سورة بغير همز، وتميم كلها وغيرهم أيضاً يهمزون، فيقولون: سؤرة.

فأما من همز فهي عنده كالبقية من الشيء، والقطعة منه التي هي سؤر ـ وسؤرة من أسأر إذا أبقى، ومنه سؤر الشراب، ومنه قول الأعشى وهو ميمون بن قيس:

---

(١) ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي قراءته.

(٢) الشاعر: هو ابن دارة سالم بن مسافح، الشاعر الهجاء، والجملة من قوله:

لا تأمَنَنَّ فزارياً حللت به على قلوصك واكتبها بأسيار

والكتبة بضم الكاف والتاء الساكنة ما سدّ به حياء البغلة أو الناقة حتى لا ينزى عليها ليلا ـ ويروى على (بعيرك) بدلا من (قلوصك).

(٣) سورة القرآن فيها لغتان: مهموزة وغير مهموزة. والذين لا يهمزون، منهم من يراها بمعنى البقية من الشيء، وكأن المهموزة على هذا أصل لغيرها، والذين لا يرون ذلك يقولون: إنها شبيهة بسورة البناء من حيث أن البناء يكون قطعة قطعة حتى يكتمل، وكذلك القرآن نزل شيئاً فشيئاً حتى اكتمل، والمشبه غير المشبه به، أو أنها بمعنى الرتبة الرفيعة، وكل سورة من القرآن فمنزلتها رفيعة وشريفة.

فبانت وقد أسأرت في الفؤا د صدعاً على نأيها مستطيراً[١]

أي أبقت فيه، وأما من لا يهمز، فمنهم من يراها من المعنى المتقدم إلا أنها سهّلت همزتها، ومنهم من يراها مشبهة بسورة البناء، أي القطعة منه، لأن كل بناء فإنما يبنى قطعة بعد قطعة، وكل قطعة منها سورة، وجمع سورة القرآن سور بفتح الواو، وجمع سورة البناء سور بسكونها.

قال أبو عبيدة: إنما اختلفا[٢] في هذا، فكأن سور القرآن هي قطعة بعد قطعة حتى كمل منها القرآن، ويقال أيضاً للرتبة الرفيعة من المجد والملك سورة، ومنه قول النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر:

ألم تر أنَّ الله أعطاك سورةً ترىٰ كلَّ ملك دونها يتذبذب[٣]

فكأن الرتبة انبنت حتى كملت.

وأما الآية فهي العلامة[٤] في كلام العرب، ومنه قول الأسير الموصي إلى قومه باللغز: (بآية ما أكلت معكم حيساً[٥]). فلما كانت الجملة التامة من القرآن علامةً على صدق الآتي بها، وعلى عجز المتحدي بها سميت آية، هذا قول بعضهم وقيل: سميت آية لما كانت جملة وجماعة كلام، كما تقول العرب: جئنا بآيتنا، أي بجماعتنا وقيل: لما كانت علامة للفصل بين ما قبلها وما بعدها[٦] سميت آية، ووزن آية عند سيبويه[٧]

---

(١) قاله الأعشى يصف امرأة فارقته فأبقت في قلبه من وجدها بقية.

(٢) أي لم يختلفا إلا في الجمع. وأبو عبيدة هو عمرو بن المثنى إمام في اللغة والثقافة وله كتاب (مجاز القرآن) وغيره. توفي سنة ٢١٠هـ.

(٣) أي يتردد، والمعنى أن الله أعطاك منزلة لو رامها غيرك من الملوك وتسامى إليها بقي حائراً مضطرباً لا يستطيع أن يبلغها.

(٤) هذا أظهر الأقوال وأولاها، ويشهد له قول الله تعالى: ﴿إن آية ملكه﴾ وقوله: ﴿وآية لهم الأرض الميتة﴾ وقول النبي ﷺ: «آية المنافق ثلاث» ـ و«آية الإيمان حبّ الأنصار» ـ «وآية ما بيننا وبين المنافقين شهود العشاء». انظر (خ).

(٥) أي: بعلامة ما أكلت معكم حيسا ـ والحيس هو الطعام المتخذ من التمر والأقط والسمن ـ والأقط شيء يتخذ من اللبن المخيض، يطبخ ـ قال ابن الأعرابي: هو من ألبان الإبل خاصة ـ (اللسان) ٧/ ٣٦١ ـ ٩/ ١٢٥.

(٦) أي بحيث يحسن السكوت عليها.

(٧) قال الفيومي في المصباح: قال سيبويه: العين واو، واللام ياء، من باب شوى ولوى، قال: لأنه =

فعَلة بفتح العين، أصلها (أيِيَةَ)، تحركت الياء الأولى وما قبلها مفتوح فجاءت آية، وقال الكسائي: أصل آية (آيية) على وزن فاعلة، حذفت الياء [illegible] فيها من الإدغام ما لزم في دابة. وقال مكي في تعليل هذا الوجه: سكِّنت الأولى وأدغمت فجاءت آية على وزن دابة، ثم سهلت الياء المثقلة، وقيل: أصلها(أيّه) على وزن فعلة بسكون العين، أبدلت الياء الساكنة ألفاً استثقالاً للتضعيف، قال الفراء[1]، وحكاه أبو علي عن سيبويه في ترجمة [وكأيِّ من نبيٍّ][2]، وقال بعض الكوفيين: أصلها (أيِية) على وزن فعلة بكسر العين، أبدلت الياء الأولى ألفاً لثقل الكسر عليها وانفتاح ما قبلها.

* * *

= أكثر ممَّا عينه ولامه ياءان مثل حييت، وقد ذكر المؤلف أربعة أقوال في أصلها، فقيل: على وزن فَعَلة بفتح العين، وقيل: على وزن فاعلة، وقيل: على وزن فعْلة بسكون العين، وقيل: على فعلة بكسر العين من دون ألف، والذي في القاموس أن وزن آية فعلة بالسكون، أو فعلة بالفتح، أو فاعلة. انظره، قلت: وأهل اللغة يذكرونها في مادة (أوى) من باب شوى ولوى، كما قال سيبويه رحمه الله.

(١) اسمه يحيى بن زياد الكوفي أبو زكرياء، له كتاب في معاني القرآن، توفي سنة ٢٠٧، وفي المصباح: وقال الفراء: الأصل(آييه) على وزن فاعلة، فحذفت اللام تخفيفاً، وعلى هذا فللفراء قولان: على وزن فعلة، وعلى وزن فاعلة.

(٢) من الآية (١٤٦) من سورة آل عمران.

باب

القول في الاستعاذة[١]

قال الله عز وجل: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[٢] معناه: إذا أردت أن تقرأ، وشرعت ـ فأوقع الماضي موقع المستقبل لثبوته، وأجمع العلماء على أن قول القارئ (أعوذ بالله من الشيطان الرَّجيم) ليس بآية من كتاب الله، وأجمعوا على استحسان ذلك والتزامه في كل قراءة في غير صلاة، واختلفوا في التعوذ في الصلاة، فابن سيرين[٣]، وإبراهيم النخعي[٤]، وقوم: يتعوذون في الصلاة في كل ركعة، ويمتثلون أمر اللهِ بالاستعاذة على العموم في كل قراءة. وأبو حنيفة[٥]، والشافعي[٦]،

---

(١) اعلم أن العدو إما ظاهري وهو شيطان الإنس، وإما باطني وهو شيطان الجن، والأول يعالج أمره بالصبر، والمصانعة، والمداراة، والمقابلة بالإحسان، لعل طبعه يرجع إلى الموالاة والمصافاة، وبذلك أمرنا الله في ثلاث آيات، ولا يوجد لهن رابعة كما قال الحافظ ابن كثير، الأولى قوله تعالى: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ ـ والثانية قوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة، نحن أعلم بما يصفون﴾ ـ والثالثة قوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنَّه وليٌّ حميم﴾.

وأما الثاني فبما أنه لا يقبل مصانعة ولا إحساناً، ولا يريد إلا هلاك بني آدم لشدة عداوته، وشرة طبيعته أمرنا سبحانه بالاستعاذة منه بالله في ثلاث آيات كذلك: الأولى ﴿وإما ينزغنَّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنَّه سميع عليم﴾ والثانية: ﴿وقل ربِّ أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك ربِّ أن يحضرون﴾ والثالثة: ﴿وإمّا ينزغنَّك من الشيطان نزغٌ فاستعذ بالله إنَّه هو السميع العليم﴾. ومن قتله العدو الظاهري كان شهيداً، ومن قتله العدو الباطني كان طريداً، ومن غلبه العدو الظاهري كان مأجوراً، ومن غلبه العدو الباطني كان مأزوراً، ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه الإنسان بالذي يرى الشيطان ولا يراه الشيطان ـ ولما كان الشيطان لا يقدر على دفعه وكفه عما أراده استعاذ الإنسان منه بالذي خلقه.

(٢) الآية (٩٨) من سورة النحل.

(٣) هو (محمد بن سيرين البصري) ـ مولى أنس بن مالك، روى عنه في حروف القرآن ـ توفي سنة ١١٠ هـ.

(٤) إبراهيم النخعي بن يزيد بن قيس بن الأسود. إمام مشهور، لم يصح سماعه عن الصحابة. توفي سنة ٩٦هـ.

(٥) هو الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ـ صاحب المذهب المعروف في الفقه ـ وقد قيل: إنه كان يفضل الرأي على الحديث ـ توفي سنة ١٥٠ هـ ـ وفيات الأعيان. ٥/٤٨.

(٦) الإمام محمد بن إدريس الشافعي ـ صاحب مذهب واسع الانتشار في الفقه، مال فيه إلى الجمع =

يتعوذان في الركعة الأولى من الصلاة، ويريان أن قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة. ومالك[١] رحمه الله لا يرى التعوذ في الصلاة المفروضة، ويراه في قيام رمضان، ولم يحفظ عن النبي ﷺ أنه تعوَّذ في صلاة.

وحكى الزهراوي[٢] عن الحسن أنه قال: نزلت الآية في الصلاة، وندبنا إلى الاستعاذة في غير الصلاة، وليس بفرض. قال غيره: كانت فرضاً على النبي ﷺ وحده، ثم تأسَّينا به.

وأما لفظ الاستعاذة؛ فالذي عليه جمهور الناس وهو لفظ كتاب الله تعالى: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، وروي عن ابن عباس أنه قال: (أول ما نزل جبريل على محمد ﷺ قال له: قل يا محمد: أَستعيذُ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم. ثم قال: قل: بسم الله الرحمن الرحيم)[٣]. وروى سليمان بن سالم عن ابن[٤] القاسم رحمه الله: أن الاستعاذة «أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم، بسم الله الرحمن الرحيم».

وأما المقرئون فأكثروا في هذا من تبديل الصفة في اسم الله تعالى، وفي الجهة الأخرى[٥] كقول بعضهم: أعوذ بالله المجيد من الشيطان المريد، ونحو هذا مما لا أقول فيه: نعمت البدعة، ولا أقول: إنه لا يجوز.

ومعنى الاستعاذة: الاستجارة والتحيز إلى الشيء، على معنى الامتناع به من

= بين مذهب أهل الحديث الذي سار عليه مالك، ومذهب أهل الرأي الذي أخذ به أبو حنيفة ـ وقد تتلمذ على مالك بن أنس توفي سنة ٢٠٤هـ ـ وفيات الأعيان ٣/ ٣٠٥.

(١) هو الإمام المشهور أبو عبد الله مالك بن أنس بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي، أخذ عن نافع والزهري، توفي سنة ١٧٩هـ ـ وفيات الأعيان ٣/ ٢٨٤.

(٢) هو علي بن سليمان الزهرواي الحاسب، يكنى أبا الحسن، كان من أهل العلم بالتفسير والقراءات والفرائض، وله كتاب كبير في تفسير القرآن. حدث عنه أبو بكر المصحفي وغيره. انظر صلة ابن بشكوال.

(٣) قال الإمام(ط): حدثنا أبو كريب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمارة، حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: أول ما نزل جبريل على محمد ﷺ قال: يا محمد قل: أستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال: قل: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾، قال عبد الله: وهي أوَّل سورة أنزلها الله على محمد ﷺ بلسان جبريل.

وهذا الأثر غريب، وإنما ذكرناه ليعرف، فإن في إسناده ضعفاً وانقطاعاً اهـ. ولذلك ذكره المؤلف رحمه الله بصيغة التضعيف.

(٤) وفي بعض النسخ عن أبي القاسم.

(٥) هي صفة الشيطان، كالمريد مكان الرَّجيم.

المكروه، والكلام على المكتوبة[(١)] يجيء في (بسم الله)، فذلك الموضع أولى به.

وأما الشيطان: فاختلف الناس في اشتقاقه، فقال الحذَّاق: هو فيعال من شطن إذا بعد، لأنه بعد عن الخير ورحمة الله، ومن اللفظة قولهم: نوى شطون، أي بعيدة، قال الأعشى:

نأت بسعادٍ عنك نوى شطونٌ ... فبانت والفؤاد بها رهين[(٢)]

ومنه قيل للحبل: شطنٌ لبعد طرفيه وامتداده، وقال قوم: إن (شيطاناً) مأخوذ من شاط يشيط إذا هاج وأحرق ونحوه، إذ هذه أفعاله[(٣)] فهو فعلان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويردُّ على هذه الفرقة أن سيبويه حكى أن العرب تقول: تشيطن فلان إذا فعل أفاعيل الشياطين، فهذا يبين أنه تَفَيْعَلَ من شطن، ولو كان من شاط لقالوا: تشيَّط، ويردُّ أيضاً عليهم بيتُ أمية بن أبي الصلت[(٤)]:

أيُّما شاطن عصاه عكاه ... ثم يُلقى في السِّجن والأكبال

فهذا شاطن من شطن لاشك فيه.

وأما (الرجيم) فهو فعيل بمعنى مفعول، كقتيل، وجريح، ونحوه، ومعناه أنه رجم باللعنة والمقت وعدم الرحمة.

قال المهدوي رحمه الله: أجمع القراءُ على إظهار الاستعاذة في أول قراءة سورة الحمد، إلا حمزة فإنه أسرَّها، وروى المسيبي[(٥)]. عن أهل المدينة أنهم كانوا يفتتحون القراءة بالبسملة.

---

(١) هي كلمة (الله).

(٢) يقول: بعدت بها طريق بعيدة، وكلمة (النوى) مؤنثة، والبيت نسبه في (لسان العرب) إلى النابغة الذبياني، ونسبه ابن عطية إلى الأعشى، وهو ميمون بن قيس بن ثعلبة الأعشى من شعراء الجاهلية يعرف بصناجة العرب، والبيت موجود في ديوان النابغة، وغير موجود في ديوان الأعشى.

(٣) لأنه مخلوق من النار.

(٤) هو ابن أبي الصلت ابن أبي ربيعة، من شعراء الجاهلية، وكان ممن يذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية، وكان ممن حرَّم الخمر، ونبذ الأوثان، والتمس الدين وهو القائل:

كلُّ دينٍ يوم القيامة عند الله ... ـه إلاَّ دين الحنيفية زورُ

وقوله: (أيما شاطن) أراد أيما شيطان، وقوله: عكاه: قيَّده وأوثقه، والبيت يشير إلى ما أوتي سليمان بن داود عليهما السلام من الملك والقوة.

(٥) محمد بن إسحق بن محمد عبد الرحمن أبو عبد الله المسيبي المدني: مقرىءٌ، عالم مشهور، روى عنه مسلم، وأبو داود في كتابيهما، توفي سنة ٢٣٦هـ.

القول في تفسير
بسم الله الرحمن الرحيم

روي عن جعفر بن محمد الصادق، رضي الله عنه أنه قال: البسملة تيجان السور(١). وروي أن رجلاً قال بحضرة النبي ﷺ: تعس الشيطان، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقل ذلك، فإنَّه يتعاظم عنده، ولكن قل: بسم الله الرحمن الرحيم، فإنَّه يصغُر حتى يصير أقلَّ من ذباب(٢)».

وقال علي بن الحسين رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾(٣) قال معناه: إذا قلت: (بسم الله الرحمن الرحيم).

وروي عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال له: «كيف تفتتح الصلاة يا جابر»؟ قال: بالحمد لله رب العالمين. قال: «قل: بسم الله الرحمن الرحيم»(٤).

وروى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «أتاني جبريل، فعلمني الصلاة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، ـ يجهر بها ـ»(٥).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الحديثان يقتضيان أنها آية من الحمد، ويردُّ ذلك حديث أبيّ بن كعب الصحيح، إذ قال له النبي ﷺ: «هل لك ألاَّ تخرج من المسجد حتى تعلم سورة، ما أنزل في التَّوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان

---

(١) في (ق) أن كلام جعفر الصادق دليل على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها.

(٢) قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن عاصم قال: «سمعت أبا تميمة يحدّث عن رديف النبي ﷺ قال: عثر بالنبي ﷺ فقلت: تعس الشيطان، فقال ﷺ: لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاظم، وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب». وروى النسائي في اليوم والليلة من حديث خالد الحذاء، عن أبي تميمة، وهو الهجيمي، عن أبي المليح بن أسامة بن عمير، عن أبيه قال: «كنت رديف النبي ﷺ». فذكره، وقال: «لا تقل هكذا فإنه يتعاظم حتى يكون كالليث، ولكن قل: بسم الله، فإنه يصغر حتى يكون كالذبابة».

(٣) الآية (٤٦) من سورة الإسراء.

(٤) رواه الدار قطني، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٥) رواه الدار قطني، عن خالد بن إلياس، عن سعد ابن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة.

مثلها»؟ قال: فجعلت أبطئُ في المشي رجاء ذلك، فقال لي: «كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة»؟ قال: فقرأت: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، حتى أتيت على آخرها[١]. ويردُّه الحديث الصيحيح: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، يقول العبد ﴿الحمد لله ربِّ العالمين﴾»[٢]. ويردُّه أنه لم يحفظ عن النبي ﷺ، ولا عن أبي بكر، ولا عن عمر، ولا عن عثمان، رضي الله عنهم أنهم قرؤوا في صلاتهم (بسم الله الرحمن الرحيم)[٣]. ويردُّه عدد آيات السورة، لأن الإجماع أنها سبع آيات إلاّ ما روي عن حسين الجعفي أنها ست آيات[٤]، وهذا شاذ لا يعول عليه، وكذلك روي عن عمرو بن عبيد[٥] أنه جعل (إياك نعبد) آية، فهي على عده ثماني آيات، وهذا أيضاً شاذ، وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾[٦] هو الفصل في ذلك.

والشافعي رحمه الله يعدُّ (بسم الله الرحمن الرحيم) آية من الحمد[٧]، وكثير[٨] من قراء مكة والكوفة، ولا يعدون ﴿أنعمت عليهم﴾. ومالك رحمه الله، وأبو حنيفة، وجمهور الفقهاء والقراء لا يعدون البسملة آية.

والذي يحتمله عندي حديث جابر، وأبي هريرة ـ إذا صحّا ـ أن النبي ﷺ رأى قراءة جابر وحكايته أمرَ الصلاة قراءةً في غير الصلاة على جهة التعلم، فأمره بالبسملة لهذا، لا لأنها آية، وكذلك في حديث أبي هريرة رآها قراءة تعليم، ولم يفعل ذلك مع أبيّ لأنه

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ، والإمام أحمد، والترمذي.

(٢) رواه الإمام مسلم في مسنده الصحيح، والنسائي في سننه، والمراد بالصلاة القراءة لأن الصلاة لا تصح إلا بها.

(٣) أي كما في الصحيحين، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) هو ابن علي، بن الوليد، الجعفي، أبو عبد الله الكوفي. أحد الأعلام والزهاد، توفي سنة ٢٠٣هـ.

(٥) أبو عثمان، التميمي، البصري، كان المنصور يعتقد صلاحه توفي سنة ١٤٤هـ.

(٦) من الآية (٨٧) من سورة الحجر.

(٧) قال ابن العربي: يكفي أنها ليست من القرآن اختلاف الناس فيها، والقرآن لايختلف فيه، كما أنه لا يثبت بأخبار الآحاد، وأما كتابتها في المصحف فيحتمل أن يكون ذلك لكونها قرآناً، أو لكونها تفصل بين السور، كما روي ذلك عن الصحابة، أو للتبرك بها، كما تكتب في أوائل الكتب والرسائل، أخرج أبو داود بإسناد صحيح، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ، كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأخرجه الحاكم في المستدرك.

(٨) مربوط بما قبله، فقولهم كقول الشافعي رضي الله عنه.

قصد تخصيص السورة، ووسمها من الفضل بما لها، فلم يدخل معها ما ليس منها، وليس هذا القصد في حديث جابر وأبي هريرة، والله أعلم.

وقال ابن المبارك(١): إن البسملة آية في أول كل سورة، وهذا قول شاذ رد الناس عليه.

وروى الشعبي، والأعمش، أن رسول الله ﷺ كان يكتب: «باسمك اللهم» حتى أمر أن يكتب «بسم الله» فكتبها، فلما نزلت: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾(٢) كتب «بسم الله الرحمن»، فلما نزلت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾(٣) كتبها، وروى عمرو بن شرحبيل أن جبريل أول ما جاء النبي عليه السلام قال له: قل: «بسم الله الرحمن الرحيم»(٤)، وروي عن ابن عباس أن أول ما نزل به جبريل: «بسم الله الرحمن الرحيم»(٥)، وفي بعض طرق حديث خديجة، وحملها رسول الله ﷺ إلى ورقة، أن جبريل قال للنبي عليهما السلام: قل«بسم الله الرحمن الرحيم» فقالها، فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارىء» الحديث.

والبسملة تسعة عشر حرفاً(٦)، فقال بعض الناس: إن رواية بلغتهم أن ملائكة

---

(١) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي. أبو عبد الرحمن المروزي، أحد شيوخ الإسلام وأئمة الهدى. توفي سنة ١٨١هـ.

(٢) من الآية (١١٠) من سورة الإسراء.

(٣) هذا وفي مصنف أبي داود: قال الشعبي، وأبو مالك، وقتادة، وثابت بن عمارة: إن النبي ﷺ لم يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» حتى نزلت سورة النمل قاله: (ق).

(٤) أخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وأبو نعيم، والبيهقي، كلاهما في الدلائل، من حديث عمرو بن شرحبيل: «أن رسول الله ﷺ لما شكا إلى خديجة ما يجده عند أوائل الوحي فذهبت به إلى ورقة فأخبره، فقال له: إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا محمد، يا محمد، يا محمد، فأنطلق هارباً في الأرض. فقال: لا تفعل، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتني فأخبرني، فلما خلا ناداه: يا محمد، قل: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ حتى بلغ ﴿ولا الضالين﴾ الحديث». وعمرو بن شرحبيل هو أبو ميسرة الكوفي أحد فضلاء التابعين، يروي عن عمر، وعلي رضي الله عنهما، وتوفي في أيام عبيد الله بن زياد.

(٥) تقدم أنه حديث غريب وضعيف «انظر ص٥٦».

(٦) في (ق) روى وكيع، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود، قال: من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ «بسم الله الرحمن الرحيم» ليجعل الله له بكل حرف منها جُنَّة من كل واحد، فالبسملة تسعة عشر حرفاً على عدد ملائكة أهل النار الذين قال الله فيهم: ﴿عليها تسعة عشر﴾، وهم=

النار الذين قال الله فيهم: ﴿عليها تسعة عشر﴾ إنما ترتب عددهم على حروف «بسم الله الرحمن الرحيم»، لكل حرف ملك، وهم يقولون في كل أفعالهم: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فمن هنالك هي قوتهم، وباسم الله استضلعوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه من ملح التفسير، وليست من متين العلم[1]، وهي نظير قولهم في ليلة القدر: إنها ليلة سبع وعشرين، مراعاة للفظة هي في كلمات سورة «إنا أنزلناه»، ونظير قولهم في عدد الملائكة الذين ابتدروا قول القائل: «ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه»، فإنها بضعة وثلاثون حرفاً، قالوا: فلذلك قال النبي ﷺ: «لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها، أيهم يكتبها أول».

والباء في «بسم الله» متعلقة عند نحاة البصرة باسم تقديره: ابتدائي مستقر أو ثابت «بسم الله». وعند نحاة الكوفة بفعل تقديره: ابتدأت «بسم الله»، فـ«بسم الله» في موضع رفع على مذهب البصريِّين، وفي موضع نصب على مذهب الكوفيِّين، كذا أطلق القول قومٌ، والظاهر من مذهب سيبويه: أن الباء متعلقة باسم كما تقدم، و«بسم الله»[2] في موضع نصب متعلقة بثابت أو مستقر بمنزلة «في الدار» من قولك: «زيد في الدار»، وكسرت باءُ الجر ليناسب لفظها عملها، أو لكونها لا تدخل إلا على الأسماء، فخصت بالخفض الذي لا يكون إلا في الأسماء، وليفرق بينها وبين ما قد يكون من الحروف اسما، نحو (الكاف) في قول الأعشى:

= يقولون في كل أفعالهم: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فمن هنالك هي قوتهم وببسم الله استضلعوا، وقوله تعالى: ﴿عليها تسعة عشر﴾ هي الآية (٢٩) من سورة المدثر.

(١) من العلم ما هو من صلب العلم وصميمه، ومنه ما هو من ملح العلم ومستحسناته، ومنه ما ليس من صلبه ولا من ملحه ـ الأول كل ما تقتضيه الدلائل الشرعية الصحيحة من أحكام وأعمال ـ والثاني كل ما تستملحه النفوس، وتستحسنه العقول، من دون أن يكون منفراً، ولا معادياً للعلوم ـ كطلب مسلسلات الأحاديث التي يؤتى بها على وجوه ملتزمة في الزمان المتقدم على غير قصد، فإن العمل بتلك الأحاديث لا يتوقف على ذلك، ولكن تلك الصفة مستحسنة في العقول ـ وكالأمثلة التي عرضها المؤلف رحمه الله ـ والثالث كمثل ما انتحله الباطنية في كتاب الله تعالى من إخراجه عن ظاهره، وأن المقصود وراء هذا الظاهر، ولا سبيل إلى نيله بعقل ولا نظر، وإنما يؤخذ من الإمام المعصوم، تقليداً لذلك الإمام، واستنادهم في جملة من دعاويهم إلى علم الحروف وعلم النجوم، فإن هذا ليس من الصميم ولا من المليح.

(٢) الخبر هو «مستقر» أو«ثابت». فإذا أخفيته كان «بسم الله» في موضع رفع، وإذا أظهرته كان «بسم الله» في موضع نصب.

أتنتهــون، ولا ينهــى ذوي شطــطٍ كالطَّعن يذهب فيه الزَّيت والفتل[(١)]

وحذفت الألف من «بسم الله» في الخط اختصاراً وتخفيفاً لكثرة الاستعمال، واختلف النحاة إذا كتب «باسم الرحمن، وباسم القاهر»، فقال الكسائي، وسعيد الأخفش: يحذف الألف، وقال يحيى بن زياد: لا تحذف إلاَّ مع «بسم الله» فقط، لأن الاستعمال إنما كثر فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أما في غير اسم الله تعالى فلا خلاف في ثبوت الألف.

و«اسم» أصله «سِمو» بكسر السين أو «سُمو» بضمها، وهو عند البصريين مشتق من السمُوِّ، يقال: سما يسمو، فعلى هذا تضم السين في قولك: سمو، ويقال: سمي يسمي فعلى هذا تكسر، وحذفت الواو من سمو، وكسرت السين من «سم» كما قال الشاعر:

بســم الَّـذي فـي كـلِّ ســورةٍ سمـه[(٢)] . . . .

وسكنت السين من «بسم» اعتلالاً على غير قياس[(٣)]، وإنما استدل على هذا الأصل الذي ذكرناه بقولهم في التصغير: «سُمَيٌّ»، وفي الجمع «أسماءٌ»، وفي جمع الجمع أساميُّ، وقال الكوفيون: أصل اسمٌ واسْمٌ من (السِّمة)، وهي العلامة، لأن الاسم علامة لمن وضع له، وحذفت فاؤه اعتلالاً على غير قياس، والتصغير والجمع المذكوران يردان هذا المذهب الكوفي، وأما المعنى فيه فجيد، لولا ما يلزمهم من أن

---

(١) في بعض الروايات «هل تنتهون»، وفي بعضها «لا تنتهون»، و«الكاف» في قوله: كالطعن اسم بمعنى «مثل»، هو فاعل ينهى، والمعنى لا ينهى ذوي الشطط شيء مثل الطعن الشديد الواسع الذي يغيب في جرحه الزيت والفتائل إذا ضمّد.

(٢) قائله رؤبة بن العجاج يصف إبلا:

بســم الَّــذي فــي كــلِّ ســورة سمــه قــد وردت علــى طــريــق تعلمــه
أرســـل فيهـــا بـــازلاً يقـــرمـــه فهــو بهــا يمحــو طــريقــاً يعلمــه

وفي لسان العرب في مادة «سما» قال ابن بري: وأنشد أبو زيد لرجل من كلب:

أرســـل فيهـــا بـــازلاً يقـــرمـــه وهــو بهــا يمحــو طــريقــاً يعلمــه
بــاســم الــذي فــي كــل ســورة سمــه . . . .

(٣) كأن الأصل(اسم)، نقلت حركة الهمزة إلى السين، ثم حذفت الهمزة، ولما وصلت بالباء سكنت السين تخفيفاً.

يقال في التصغير «وسيم»، وفي الجمع «أوسام»، لأن التصغير والجمع يردان الأشياء إلى أصولها.

وقد ذكر بعض المفسرين في هذا الموضع «الاسم والمسمى»، هل هما واحد؟(١)،

---

(١) يحسن أن ننقل هنا كلام ابن القيم في هذه المسألة التي كثر فيها الخوض، وقلَّ فيها التحقيق. قال رحمه الله: اللفظ المؤلف من «الزاي، والياء، والدال» مثلا ـ له حقيقة متميزة متحصلة، فاستحق أن يوضع له لفظ يدل عليه، لأنه شيء موجود في اللسان، مسموع بالآذان ـ فاللفظ المؤلف من «همزة الوصل، والسين، والميم» عبارة عن اللفظ المؤلف من «الزاي، والياء، والدال» ـ مثلا ـ واللفظ المؤلف من «الزاي، والياء، والدال» عبارة عن الشخص الموجود في الأعيان والأذهان. وهذا هو المسمى.

واللفظ الدال عليه الذي هو «الزاي، والياء، والدال» هو الاسم ـ وهذا اللفظ أيضاً قد صار مسمى، من حيث كان لفظ «الهمزة، والسين، والميم» عبارة عنه ـ فقد بان لك أن الاسم في أصل الوضع، ليس هو المسمى، ولهذا تقول سميت هذا الشخص بهذا الاسم، كما تقول حلّيته بهذه الحلية، والحلية غير المحلى، فكذلك الاسم غير المسمى، وقد صرح بذلك سيبويه، وأخطأ من نسب إليه غير هذا، وادّعى أن مذهبه اتحادهما ـ والذي غرّ من ادعى ذلك قوله: «الأفعال أمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء»، وهذا لا يعارض نصه قبل هذا، فإنه نص على أن الاسم غير المسمى فقال: «الكلم: اسم، وفعل، وحرف». فقد صرح بأن «الاسم» كلمة، فكيف تكون الكلمة هي المسمى، والمسمى شخص؟، ثم قال بعد هذا: تقول: «سميت زيداً بهذا الاسم»، كما تقول: علمته بهذه العلامة». ـ وفي كتابه قريب من ألف موضع أن الاسم هو اللفظ الدال على المسمى ـ ومتى ذكر الخفض، أو النصب، أو التنوين، أو اللام، أو جميع ما يلحق الاسم من زيادة ونقصان، وتصغير وتكبير، وإعراب وبناء، فذلك كله من عوارض الاسم، ولا تعلق لشيء من ذلك بالمسمى أصلاً، وما قال نحوي قط، ولا عربي: إن الاسم هو المسمى. ويقولون: أجل مسمى ولا يقولون: أجل اسم، ويقولون: «مسمى هذا الاسم كذا»، ولا يقول أحد: «اسم هذا الاسم»، ويقولون: «هذا مسمى بزيد»، ولا يقولون: «هذا الرجل اسم زيد»، ويقولون: «باسم الله»، ولا يقولون: «بمسمى الله»، وقال رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء»، ولا يصح أن يقال: «لي خمس مسميات». وقال: «تسموا باسمي». ولا يصح أن يقال: «تسموا بمسمياتي» ـ وقال: «إن لله تسعة وتسعين اسما» ولا يصح أن يقال: «لله تسعة وتسعون مسمى».

وإذا ظهر الفرق بين «الاسم والمسمَّى»، بقي ها هنا «التسمية»، وهي التي اعتبرها من قال باتحاد الاسم والمسمى ـ و«التسمية» عبارة عن فعل المسمِّي، ووضعه الاسم للمسمَّى، كما أن التحلية عبارة عن فعل المحلِّي ووضعه الحلية على المحلَّى ـ فها هنا ثلاث حقائق: «اسم، ومسمى، وتسمية» ـ كحلية، ومحلًى، وتحلية، ولا سبيل إلى جعل لفظين منها مترادفين على معنى واحد، لتباين حقائقها، وإذا جعلت الاسم هو المسمى بطل واحد من هذه الحقائق الثلاث ولابد.

فإن قيل: فحلّوا لنا شبهة من قال باتحادهما ليتم الدليل، فإنكم أقمتم الدليل، فعليكم الجواب عن المعارض ـ فمنها: أن الله وحده هو الخالق، وما سواه مخلوق، فلو كانت أسماؤه غيره لكانت مخلوقة ـ وللزم ألا يكون له اسم في الأزل ولا صفة، وهذا هو السؤال الأعظم الذي قاد متكلمي الإثبات إلى أن=

فقال الطبري رحمه الله: إنه ليس بموضع للمسألة، وأنحى[1] في خطبته على المتكلمين في هذه المسألة ونحوها، ولكن بحسب ما قد تدوول[2] القول فيها، فلنقل: إن الاسم «كزيد، وأسد، وفرس» قد يرد في الكلام، يراد به الذات، كقولك: «زيد قائم» و«الأسد شجاع»، وقد يرد، ويراد به التسمية ذاتها، كقولك: «أسد ثلاثة أحرف»، ففي الأول يقال: الاسم هو المسمى، بمعنى «يراد به المسمى»، وفي الثاني: لا يراد به

= يقولوا: «الاسم هو المسمى» فما عندكم في دفعه؟ ـ والجواب: أن منشأ الغلط في هذا الباب من إطلاق اللفظة مجملة عليها ـ ولا ريب أن الله تعالى لم يزل ـ ولا يزال ـ موصوفاً بصفات الكمال المشتقة أسماؤه منها، وأسماؤه وصفاته داخلة في مسمى اسمه، وإن كان لا يطلق على الصفة أنها إله يخلق ويرزق، فليست صفاته وأسماؤه غيره، وليست هي نفسه ـ وبلاء القوم من لفظة «الغير» فإنها يراد بها معنيان: أحدهما ـ «المغاير» لتلك الذات المسماة بالله، وكل ما غاير الله مغايرة محضة بهذا الاعتبار فلا يكون إلا مخلوقاً ـ ويراد بها مغايرة الذات إذا خرجت عنها، فإذا قيل علم الله وكلام الله غيره، وعني أنه غير الذات المجردة عن العلم والكلام كان المعنى صحيحاً، ولكن الإطلاق باطل، وإذا أريد أن العلم والكلام مغاير لحقيقته المختصة التي امتاز بها عن غيره، كان باطلاً لفظاً ومعنى ـ وبهذا أجاب أهل السنة المعتزلة القائلين بخلق القرآن، وقالوا كلامه تعالى داخل في مسمى اسمه، فالله اسم للذات الموصوفة بصفات الكمال، ومن تلك الصفات صفة الكلام، كما أن علمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره غير مخلوقة ـ وإذا كان القرآن كلامه وهو صفة من صفاته فهو متضمن لأسمائه الحسنى ـ فإذا كان القرآن غير مخلوق، ولا يقال إنه غير الله، فكيف يقال إن بعض ما تضمنه ـ وهو أسماؤه ـ مخلوقة وهي غيره؟.

فقد حصحص الحق بحمد الله، وانحسم الإشكال ـ وبان أن أسماءه الحسنى التي في القرآن من كلامه، وكلامه غير مخلوق، ولا يقال فيه هو غيره ولا هو هو ـ وهذا المذهب مخالف لمذهب المعتزلة الذين يقولون: «أسماؤه تعالى غيره، وهي مخلوقة» ـ ولمذهب من ردَّ عليهم ممن يقول: «اسمه نفس ذاته لا غيره»، وبالتفصيل تزول الشُّبَه، ويتبين الصواب. والحمد لله. انتهى.

وبكلام ابن القيم رحمه الله يظهر لك أن ما أشار إليه المؤلف رحمه الله هو الحق الذي لا محيد عنه، وأن كلامه موافق لكلام ابن القيم، وإن اختلف شكل تقريرهما، وأنهما انفصلا على أن الاسم ليس هو المسمى دائماً، وليس هو غير المسمى دائماً، وهذا ما أراده الإمام مالك بقوله: ـ «ليس به، ولا هو غيره»، فلله درُّ ابن القيم، وابن عطية، رحمهما الله تعالى على هذا التحقيق. والله ولي التوفيق.

وقال العلامة الدميري في حياة الحيوان الكبرى ما نصه: قال ابن عطية: من الدليل على أن القرآن غير مخلوق، أن الله تعالى ذكر القرآن في كتابه العزيز في أربعة وخمسين موضعاً، ما فيها موضع صرَّح فيه بلفظ الخلق، ولا أشار إليه ـ وذكر الإنسان على الثلث من ذلك في ثمانية عشر موضعاً، كلها نصَّت على خلقه، وقد افترق ذكرهما على هذا النحو في قوله: ﴿الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان﴾ اهـ.

(١) أي باللائمة. راجع تفسير الطبري ـ الجزء الأول ص٤٢.

(٢) وفي بعض النسخ تردد.

المسمى، ومن ورود الأول قولك: «يارحمن، اغفر لي» وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[١]، ومن الورود الثاني قولك: «الرحمن وصف الله تعالى»، وأما «اسم» الذي هو «ألف، وسين، وميم»، فقد يجري في لغة العرب مجرى الذات، يقال: «ذات، ونفس، واسم، وعين»، بمعنى، وعلى هذا حمل أكثر أهل العلم قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، وقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾[٢]، وعضَّدوا ذلك بقول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر[٣]

وقالوا: إن لبيداً أراد التحية.

وقد يجري «اسم» في اللغة مجرى ذات العبارة، وهو الأكثر من استعماله، فمنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[٤]، على أشهر التأويلات فيه، ومنه قول النبي عليه السلام: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنَّة»[٥]، وعلى هذا النحو استعمل النحويون الاسم في تصريف أقوالهم[٦]، فالذي . .

---

(١) الآيتان رقم (١) و(٢) من سورة الرحمن.

(٢) الآيات على الترتيب: الآية رقم (١) من سورة الأعلى ـ والآية رقم (٧٨) من سورة الرحمن ـ والآية رقم (٤٠) من سورة يوسف.

(٣) قبل البيت:

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
فإن حان يوماً أن يموت أبوكما فلا تخمشا وجهاً، ولا تحلقا شعر
وقولا: هو المرءُ الذي ليس جاره مضاعاً، ولا خان الصديق، ولاغدر

ولبيد: هو أبو عقيل بن ربيعة العامري. أحد أشراف الشعراء، كان جواداً، شاعراً، وشجاعاً فاتكاً، أسلم، وتنسك، وحفظ القرآن الكريم، ولم يرو له بعد إسلامه إلا بيت واحد:

ما عاتب الحرَّ الكريم كنفسه والمرءُ يصلحه الجليس الصالح

وقيل بل هو قوله:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتَّى لبست من الإسلام سربالا

ومات سنة ٤١ هـ. بعد أن عمر وعاش ١٣٠ سنة.

(٤) من الآية (٣١) من سورة البقرة.

(٥) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وجاء تعدادها في رواية الترمذي، وابن ماجه.

(٦) حيث قالوا: الكلمة إما اسم، وإما فعل، وإما حرف. فالمراد من قولهم ذلك الكلمة والعبارة.

يتنخل[١] من هذا أن الأسماء قد تجيء يراد بها ذوات المسميات، وفي هذا يقال: الاسم هو المسمى، وقد تجيء يراد بها ذواتها نفسها لا مسمياتها، ومرَّ بي أن مالكاً رحمه الله سئل عن الاسم. أهو المسمى؟ فقال: «ليس به، ولا هو غيره»، يريد دائماً في كل موضع، وهذا موافق لما قلناه.

والمكتوبة التي لفظها (الله) أبهر أسماء الله تعالى، وأكثرها استعمالاً، وهو المتقدم لسائرها في الأغلب، وإنما تجيءُ الأُخر أوصافاً.

واختلف الناس في اشتقاقه: فقالت فرقة من أهل العلم: هو اسم مرتجل، لا اشتقاق له من فعل، وإنما هو اسم موضوع له تبارك وتعالى، والألف واللام لازمة له، لا لتعريف ولا لغيره، بل هكذا وضع الاسم. وذهب كثير من أهل العلم إلى أنه مشتق[٢] من أله الرجل[٣] إذا عبد، وتأله إذا تنسَّك، ومن ذلك قول رؤبة بن العجاج:

لله درُّ الغانيات المُدَّه ... سبَّحن واسترجعن من تألهي[٤]

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ويذرك وإلهتك﴾ على هذه القراءة، فإن ابن عباس وغيره قال: وعبادتك، قالوا: فاسم الله مشتق من هذا الفعل، لأنه الذي يألهه كل مخلوق ويعبده، حكاه النقاش في صدر سورة آل عمران. فإله فعال من هذا.

واختلف ـ كيف تعلَّل (إله) حتى جاء (الله)؟، فقيل: حذفت الهمزة على غير قياس، ودخلت الألف واللام للتعظيم على (لاه)، وقيل: بل دخلتا على (إله) ثم نقلت حركة الهمزة إلى اللام فجاء (أللاه)، ثم أدغمت اللام في اللام. وقيل: إن أصل الكلمة (لاه)، وعليه دخلت الألف واللام، والأول أقوى.

وروي عن الخليل[٥] أن أصل إله(ولاه)، وأن الهمزة مبدلة من واو كما هي في

---

(١) أي يتخلص ويتلخص.

(٢) المراد بالاشتقاق هنا المجازي، وهو ملاحظة المعاني وتقاربها، لا الحقيقي، لما فيه من الإيهام، وهو أسبقية المشتق منه على المشتق، وأسماء الله تعالى كلها قديمة.

(٣) أله بكسر اللام وفتحها، ومعناه عبد، وتأله تعبد وتنسك، واستدل المؤلف باستعمال رؤبة للمصدر في قوله تألهي. قال سيبويه: (الله) مشتق، وأصله (إلاه) فدخلت عليه الألف واللام فبقي (الإله)، ثم نقلت حركة الهمزة إلى اللام، وسقطت فبقي (أللاله)، فسكنت اللام الأولى وأدغمت، وفخم تعظيماً، لكنه يرقق مع كسر ما قبله، وما قاله سيبويه هو الصحيح.

(٤) المدَّه: المادحات، يقال مده كمدح وزناً ومعنى، والماده المادح، والجمع مدَّه وتألهي: أي تعبدي.

(٥) الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي البصري، إمام النحويين، وشيخ سيبويه، وصاحب كتاب (العين).

إشاح ووشاح، وإسادة ووسادة(١)، وقيل: إن أصل الكلمة (ولاه) كما قال الخليل، إلا أنها مأخوذة من (وله) الرجل إذا تحير، لأنه تعالى تتحير الألباب في حقائق صفاته، والفكر في المعرفة به، وحذفت الألف الأخيرة من الله لئلا يشكل بخط اللات، وقيل: طرحت تخفيفاً، وقيل: هي لغة، فاستعملت في الخط، ومنها قول الشاعر:

أقبل سيلٌ جاء من أمر الله يحرد حردَ الجنة المغلَّة(٢)

(والرحمن) صفة مبالغة من الرحمة(٣)، ومعناها أنه انتهى إلى الرحمة، كما يدل على الانتهاء سكران وغضبان(٤)، وهي صفة تختص بالله، ولا تطلق على البشر(٥). وهي أبلغ من فعيل، وفعيل أبلغ من فاعل، لأن راحماً يقال لمن رحم ولو مرة واحدة، ورحيماً يقال لمن كثر منه ذلك، والرحمن النهاية في الرحمة، وقال بعض الناس: الرحمن والرحيم بمعنى واحد، كالندمان والنديم، نعم(٦) إنهما من فعل واحد، ولكن أحدهما أبلغ من الآخر.

وأما المفسرون فعبروا عن (الرحمن الرحيم) بعبارات، فمنها: أن العرزميَّ(٧) قال: معناه الرحمن بجميع خلقه في الأمطار، ونعم الحواس، والنعم العامة، الرحيم

---

(١) الاشتقاق الأول من أله إلاهة، بمعنى عبد عبادة، والاشتقاق الثاني من وله يوله ولهاً إذا تحير.

(٢) وفي رواية كما للإمام (ط) وغيره:

وجاء سيلٌ كان من أمر الله يحرد حرد الجنة المغلة

ويحرد حرد: أي يقصد قصدها، والبيت من مشطور الرجز، ولم ينسب لقائل معروف، وفي تحقيق كتاب البيان في غريب إعراب القرآن، لابن الأنباري أنه نسب إلى قطرب بن المستنير.

(٣) قال الإمام(ق): الدليل على أنه مشتق ما خرّجه الترمذي، وصححه عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: «أنا الرحمن، خلقت الرَّحم، وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»، وهذا نص في الاشتقاق، فلا معنى للخلاف والشقاق. وقوله: انتهى إلى الرحمة، أي بلغ نهاية الرحمة.

(٤) (فعلان) في أسماء الفاعلين يقتضي الامتلاء مما اشتق منه، فغضبان إنما يستعمل في الممتلئ غضباً، وريّان في الممتلىء ريّا، وعطشان في الممتلئ عطشاً، ولا يستعمل في مطلق ما اشتق، وفعلان موجود في الأوصاف، مفقود في الأسماء كما هو معروف.

(٥) إلا على سبيل التعنت والتعصب.

(٦) (نعم) قد تأتي صدر الكلام لتأكيده، فهي بمعنى حقاً.

(٧) عبد الملك بن أبي سليمان العرزمي بتقديم الراء على الزاي ـ أبو محمد بن ميسرة الكوفي، أحد الأئمة. مات سنة ١٤٥هـ.

بالمؤمنين، بالهداية لهم، واللطف بهم، ومنها: أن أبا سعيد الخدري، وابن مسعود رويا أن رسول الله ﷺ قال: «الرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة»[١]. وقال أبو علي الفارسي: الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله، والرحيم: إنما هو من جهة المؤمنين كما قال: ﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه كلها أقوال تتعاضد، وقال عطاء الخراساني[٢]: كان الرحمن، فلما اختزل، وسمي به مسيلمة الكذاب قال الله لنفسه: ﴿الرحمن الرحيم﴾، فهذا الاقتران بين الصفتين ليس لأحد إلا لله تعالى، وهذا قول ضعيف، لأن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ كان قبل أن ينجم أمر مسيلمة، وأيضاً فتسمّي مسيلمة بهذا لم يكن مما تأصَّل وثبت. وقال قوم: إن العرب كانت لا تعرف لفظة الرحمن، ولا كانت في لغتها، واستدلوا على ذلك بقول العرب: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ؟ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ؟﴾[٣]، وهذا القول ضعيف، وإنما وقفت العرب على تعيين الإله الذي أمروا بالسجود له لا على نفس اللفظ.

واختلف في وصل الرحيم بالحمد، فروي عن أم سلمة عن النبي ﷺ (الرحيم ألحمد) تسكن الميم، ويوقف عليها، ويبتدأ بألف مقطوعة، وقرأ به قوم من الكوفيين، وقرأ جمهور الناس (الرَّحيمِ الحمد) يعرب الرحيم بالخفض، وتوصل الألف من الحمد، ومن يشأ أن يقدر أنه أسكن الميم، ثم لما وصل الألف حركتها للالتقاء، ولم يعتد بألف الوصل فذلك سائغ، والأول أخصر، وحكى الكسائي عن بعض العرب أنها تقرأ (الرحيم الحمد) بفتح الميم وصلة الألف، كأنها سكنت الميم وقطعت الألف، ثم ألقيت حركتها على الميم وحذفت، ولم ترو هذه قراءة عن أحد فيما علمت، وهذا هو نظر يحيى بن زياد في قول الله تعالى: ﴿ألم الله﴾.

---

(١) رواه الحافظ ابن مردويه من طريقين، عن إسماعيل بن عياش، عن إسماعيل بن يحيى، عن مسعر، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: إن عيسى بن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب فقال له المعلم: اكتب، فقال ما أكتب؟ قال: بسم الله، قال له عيسى: وما بسم الله؟ قال المعلم: ما أدري. قال له عيسى: الباء بهاء الله، والسين سناؤه، والميم مملكته، والله إله الالهة، والرحمن رحمن الدنيا والاخرة، والرحيم رحيم الآخرة، رواه ان جرير من طريق آخر، وهو حديث غريب.

(٢) رواه عنه الإمام (ط) رحمه الله، وعطاء هو ابن أبي مسلم أبو أيوب الخراساني، كان من خيار عباد الله، وقيل له الخراساني لأنه دخلها وأقام بها، وإلا فهو بصري. توفي سنة ١٣٥هـ. يروي عن أبي الدرداء وابن عباس، وقد ردّه ابن عبد البر ـ وأدخله البخاري في الضعفاء.

(٣) من الآية (٦٠) من سورة الفرقان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير فاتحة الكتاب

بحول الله تعالى

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾.

قال ابن عباس، وموسى بن جعفر، عن أبيه، وعلي بن الحسين، وقتادة، وأبو العالية، ومحمد بن يحيى بن حبان[1]: إنها مكية، ويؤيد هذا أن في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ والحجر مكية بإجماع[2].

وفي حديث أبيّ بن كعب: «إنها السَّبع المثاني، والسَّبع الطّول»[3] نزلت بعد الحجر بمدة، ولا خلاف أنَّ فرض الصلاة كان بمكة، وما حفظ أنه كانت قط في الإسلام صلاة بغير ﴿الحمد لله ربِّ العالمين﴾، وروي عن عطاء بن يسار، وسوادة بن زياد، والزهري محمد بن مسلم، وعبيد بن عمير[4] أن سورة الحمد مدنية.

وأما أسماؤها ـ فلا خلاف أنها يقال لها: فاتحة الكتاب، لأن موضعها يعطي ذلك، واختلف ـ هل يقال لها: أُم الكتاب؟ فكره الحسن بن أبي الحسن ذلك، فقال: أم

---

(١) بالباء هو ابن منقذ بن عمرو الأنصاري المازني، أبو عبد الله المدني توفي سنة ١٢١هـ.

(٢) ولم يكن الله ليمتن على رسوله بإيتائه فاتحة الكتاب وهو بمكة، ثم ينزلها بالمدينة، ولا يسعنا القول بأن رسول الله ﷺ أقام بمكة بضع عشرة سنة يصلي بلا فاتحة الكتاب، هذا ما لا تقبله العقول، قاله الواحدي. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ....﴾ هو من الآية ٨٧ من سورة الحجر.

(٣) أخرجه الإمام مالك في الموطأ المشهور بلفظ: (السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته) والترمذي وغيرهما، وخرج ذلك أيضاً الإمام البخاري وغيره، عن أبي سعيد بن المعلى في أول كتاب التفسير، وفي أول كتاب الفضائل بلفظ: [السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته]. والسبع الطول هي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، فقوله: والسبع الطول إلخ. رد على من يقول: إنها السبع المثاني.

(٤) هو أبو هاشم المكي الليثي، وردت الرواية عنه في حروف القرآن، يروي عن أبيه وابن عمر.

الكتاب الحلال والحرام. قال الله تعالى: ﴿ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾[١] وقال ابن عباس وغيره: يقال لها: أم الكتاب. وقال البخاري: سميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها في المصحف، وبقراءتها في الصلاة. وفي تسميتها بأم الكتاب حديث رواه أبو هريرة[٢]؛ واختلف ـ هل يقال لها أم القرآن؟ فكره ذلك ابن سيرين، وجوَّزه جمهور العلماء، قال يحيى بن يعمر: أم القرى مكة، وأم خراسان مرو، وأم القرآن سورة الحمد، وقال الحسن بن أبي الحسن: اسمها أم القرآن، وأما المثاني فقيل: سميت بذلك لأنها تثنى في كل ركعة، وقيل: سميت بذلك لأنها استثنيت لهذه الأمة فلم تنزل على أحد قبلها ذخراً لها.

وأما فضل هذه السورة فقد قال رسول الله ﷺ في حديث أبيّ بن كعب: «إنها لم ينزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الفرقان مثلها»[٣] ويروى أنها تعدل ثلثي القرآن[٤]، وهذا العدل إما أن يكون في المعاني، وإما أن يكون تفضيلا من الله تعالى لا يعلل، وكذلك يجيء عدل ﴿قل هو الله أحد﴾، وعدل ﴿إذا زلزلت﴾ وغيرها[٥].

---

(١) من الآية رقم (٧) من سورة آل عمران.

(٢) رواه الترمذي وصححه، والإمام أحمد ولفظه: (الحمد لله أم القرآن، وأمُّ الكتاب، والسبَّع المثاني)، وهذا الحديث يرد على القولين معاً.

(٣) رواه الإمام أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، ونص الترمذي: «والذي نفسي بيده ما أنزلت في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في القرآن مثلها. وإنها السبع من المثاني، والقرآن العظيم الذي أعطيته»، وقد يكون هذا الحديث سنداً لما اعتاده الناس من قراءة الفاتحة، وقد أخرج أبو الشيخ في الثواب عن عطاء قال: إذا أردت حاجة فاقرأ فاتحة الكتاب حتى تختمها تقض إن شاء الله تعالى، نقله الجلال السيوطي. وللغزالي في الانتصار ما نصه: فاستنزل ما عند ربك وخالقك من خير، واستجلب ما تؤمله من هداية وبر، بقراءة السبع المثاني المأمور بقراءتها في كل صلاة، وتكرارها في كل ركعة، وأخبر الصادق المصدوق أن ليس في التوراة ولا في الإنجيل والفرقان مثلها، قال الشيخ زروق: وفيه تنبيه بل تصريح أن يكثر منها لما فيها من الفوائد والذخائر. انتهى.

(٤) رواه عبد بن حميد في مسنده، والفريابي في تفسيره عن ابن عباس بسند ضعيف.

(٥) من الناس من يذهب إلى أن هذا من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، ومنهم الإمام أحمد، وإسحق بن راهويه، قال ابن عبد البر: السكوت في هذه المسألة أفضل من الكلام وأسلم. وحديث«قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن» رواه الإمام مالك في الموطأ، والبخاري، والترمذي، وروى الترمذي عن أنس وابن عباس قالا: قال رسول الله ﷺ: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن». ومن الناس من يؤول ذلك باعتبار المعاني التي تشتمل عليها، وقد أشار المؤلف رحمه الله إلى هذين القولين، ويشير بذلك إلى أنه لا تفاضل بين كلام الله لأنه صفة=

وروى أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «للحمد لله رب العالمين فضل ثلاثين حسنةً، على سائر الكلام»، وورد حديثٌ آخر أن النبي ﷺ قال: «من قال: لا إله إلا الله كتبت له عشرون حسنة، ومن قال: الحمد لله رب العالمين كتبت له ثلاثون حسنة»[١] وهذا الحديث هو في الذي يقولها من المؤمنين مؤتجراً طالب ثواب، لأن قوله: ﴿الحمد لله﴾ في ضمنها التوحيد الذي هو معنى لا إله إلا الله، ففي قوله توحيد وحمد، وفي قول: «لا إله إلا الله» توحيد فقط، فأما إذا أخذ بموضعهما من شرع الملة، ومحلهما من دفع[٢] الكفر والإشراك، فـ«لا إله إلا الله» أفضل، والحاكم بذلك قول النبي ﷺ: «أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله»[٣].

[الحمد] معناه: الثناء الكامل، والألف واللام فيه لاستغراق الجنس من المحامد، وهو أعم من الشكر، لأن الشكر إنما يكون على فعل جميل يسدى إلى الشاكر، وشكره حمد ما، والحمد المجرد[٤] هو ثناء بصفة المحمود من غير أن يسدي شيئاً، فالحامد من الناس قسمان: الشاكر والمثني بالصفات، وذهب الطبري إلى أن الشكر والحمد بمعنى واحد، وذلك غير مرضي[٥]. وحكي عن بعض الناس أنه قال: الشكر ثناءٌ على الله بأفضاله وإنعامه، والحمد ثناءٌ بأوصافه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أصح معنى من أنهما بمعنى واحد، واستدل الطبري على أنهما بمعنى، بصحة قولك: الحمد لله شكراً، وهو في الحقيقة دليل على

= ذاتية، وإنما التفاضل في المعاني باعتبار الأجر والثواب. والله أعلم.

(١) رواه الإمام أحمد، والحاكم، عن أبي سعيد، وأبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «إن الله اصطفى من الكلام أربعاً: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. فمن قال: سبحان الله كتبت له عشرون حسنة، وحطت عنه عشرون سيئة، ومن قال: الله أكبر مثل ذلك. ومن قال لا إله إلا الله مثل ذلك، ومن قال: الحمد لله رب العالمين كتبت له ثلاثون حسنة» ومن تمام الحديث كما في الجامع الصغير: «وحطّ عنه ثلاثون خطيئة».

(٢) وفي بعض النسخ (رفع) بالراء.

(٣) رواه أصحاب الكتب الستة، وفيه زيادة: «وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير»، والحاكم أيضاً حديث الترمذي: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين». فجنس الذكر أفضل من جنس الدعاء.

(٤) أي في غير مقابلة النعمة.

(٥) أي لأن الدليل الذي استدل به لا يشهد له، كما قال المؤلف بعد: «وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه». إلخ.

خلاف ما ذهب إليه، لأن قولك: شكراً؛ إنما خصصت به الحمد أنه على نعمة من النعم.

وأجمع السبعة، وجمهور الناس على رفع الدال من (الحمد لله)، وروي عن سفيان بن عيينة، ورؤبة بن العجاج: (الحمد لله) بفتح الدال، وهذا على إضمار فعل، وروي عن الحسن بن أبي الحسن، وزيد بن علي (الحمد لله) بكسر الدال على إتباع الأول الثاني، وروي عن ابن عبلة[1] (الحمد لله) بضم الدال واللام على إتباع الثاني الأول. قال الطبري: (الحمد لله) ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا به عليه، فكأنه قال: قولوا الحمد لله، وعلى هذا يجيء قولوا إياك. قال: وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه، كما قال الشاعر:

وأعلـمُ أننـي سـأكـون رمسـاً ... إذا سـار النَّـواعـج لا يسيـر
فقـال السـائلـون: لمـن حفـرتـم؟ ... قـال المخبـرون لهـم: وزيـر[2]

المعنى: «المحفور له وزير»، فحذف لدلالة ظاهر الكلام عليه، وهذا كثير.

وقرأت طائفة (ربَّ) بالنصب، فقال بعضهم: هو نصب على المدح، وقال بعضهم: هو على النداء، وعليه يجيء إياك.

و(الربُّ) في اللغة المعبود، والسيد المالك، والقائم بالأمور، المصلح لما يفسد منها، والملك ـ تأتي اللفظة لهذه المعاني.

فمما جاءَ بمعنى «المعبود» قول الشاعر:

أربٌّ يبـول الثَّعلبـان بـرأسـه ... لقد هان من بالت عليه الثعالب[3]

---

(١) هو إبراهيم بن أبي عبلة، بن يقظان، بن المرتحل، أبو إسماعيل المقدسي، تابعي، له حروف في القراءات، واختيار خالف فيه العامة، أخذ القراءة عن أم الدرداء الصغرى هجيمة، قال: قرأت القرآن عليها سبع مرات. ويقال: إنه قرأ على الزهري، وروى عنه وعن أبي أمامة، وروى عنه مالك بن أنس، وابن المبارك. توفي سنة ١٥٣ هـ.

(٢) جاء في كتاب(البيان والتبيين) للجاحظ الجزء الثالث صفحة ١٦٦ ما نصه: وقال الوزيري:

وأعلـم أننـي سـأصير ميتـاً ... إذا سـار النّـواعـج لا أسيـر
وقـال السـائلـون: مـن المسجَّـى؟ ... فقـال المخبـرون لهـم: وزيـر

والمسجَّى الملتف في أكفانه، والنواعج الإبل السراع، جمع ناعجة، والبيتان في (الجامع لأحكام القرآن) ١/ ١١٨ بلفظ: فقال (القائلون)، بدلا من (المخبرون).

(٣) قال في القاموس: كان غاوي بن عبد العزى سادنا لصنم لبني سليم، فبينا هو عنده إذ أقبل ثعلبان يشتدان=

ومما جاء بمعنى «السيد المالك» قولهم: رب العبيد والمماليك.

ومما جاء بمعنى «القائم بالأمور الرئيس فيها» قول لبيد:

وأهلكن يوماً ربَّ كندة وابنه ... وربَّ معدٍّ بين خبتٍ وعرعر[1]

ومما جاء بمعنى «الملك» قول النابغة:

تخبُّ إلى النُّعمان حتى تناله ... فدىً لك من ربٍّ طريفي وتالدي[2]

ومن معنى «الإصلاح» قولهم: أديمٌ مربوبٌ. أي مصلح: قال الشاعر[3]:

كانوا كسالئةٍ حمقاء إذ حقنت ... سلاءها في أديم غير مربوب

ومن معنى «الملك» قول صفوان بن أمية لأخيه يوم حنين: «لأن يربَّني رجل من قريش خير من أن يربني رجل من هوازن»[4]، ومنه قول ابن عباس في شأن عبد الله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان: «وإن كان لا بد، لأن يربَّني رجل من بني عمي أحبُّ

= حتى تسنّماه، فبالا عليه، فقال البيت، ثم قال: يا معشر سليم، لا والله لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، فكسره، ولحق بالنبي ﷺ فقال: ما اسمك؟ فقال: غاوي بن عبد العزى، فقال: بل أنت راشد بن عبد ربه.

وبان من هذا أن قائل البيت غاوي بن عبد العزى، وأن كلمة (الثّعلبان) هي تثنية (ثعلب) وفي حياة الحيوان للدّميري إثبات أنه ليس بتثنية، وإنما هو ذكر الثعالب فتكون بضم الثاء واللام.

(١) الخبت: المطمئن من الأرض فيه رمل، والخبت والعرعر هنا مكانان معينان.

(٢) بعده:

وكنت امرءاً لا أمدح الدهر سوقةً ... فلست على خير أتاك بحاسد

امتن عليه بمدحه، وجعله خيراً سيق إليه لا يحسده عليه، وهذا مما أخذ عليه والخبب ضرب من السير.

(٣) هو الفرزدق ـ من قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان، وهو في البيت يذم قوماً، ويشبههم ببدوية حمقاء، وضعت سمنها في زق غير صالح ففسد. وسلأت: معناها طبخت، يقال: سلأت السمن واستلأته، وذلك إذا طبخ وعولج. وحقنت معناه: صبّت: من حقن اللبن في السقاء يحقنه حقناً: صبّه فيه ليخرج زبده «والسلاء بالكسر ممدود»: هو السمن.

(٤) لما بلغ خبر هزيمة حنين إلى مكة سرَّ بذلك قوم، وأظهروا الشماتة، وقال قائل منهم: ترجع العرب إلى دين آبائها. وقال آخر وهو أخ صفوان لأمه: «ألا قد بطل السحر اليوم»، فقال له صفوان وهو يومئذ مشرك: «اسكت، فض الله فاك، والله لأن يربني رجل من قريش أحبّ إلي من أن يربني رجل من هوازن» انظر السيرة الحلبية.

إلي من أن يربَّني غيرهم»[١]. ذكره البخاري في سورة براءة. ومن ذلك قول الشاعر:

وكنت امرءا أفضت إليك رِبابتي وقبلك ربَّتني فضعت رَبوبُ[٢]

وهذه الاستعمالات قد تتداخل، فالرَّبُّ على الإطلاق الذي هو ربُّ الأرباب على كل جهة هو الله تعالى.

و(العالمين) جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله تعالى، يقال لجملته: عالم، ولأجزائه من الإنس والجن وغير ذلك: عالم، وبحسب ذلك يجمع على العالمين، ومن حيث عالم الزمان متبدل في زمان آخر حسن جمعها[٣]. ولفظة (العالم) جمع لا واحد له من لفظه، وهو مأخوذ من العلم والعلامة لأنه يدل على موجده. كذا قال الزَّجاج.

وقد تقدم القول في (الرحمن الرحيم).

واختلف القراء في قوله تعالى: ﴿ملك يوم الدين﴾[٤] فقرأ عاصم، والكسائي: ﴿مالك يوم الدِّين﴾. قال الفارسي: وكذلك قرأها قتادة، والأعمش. قال مكي: وروى الزهري أن رسول الله ﷺ قرأها كذلك بالألف، وكذلك قرأها أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وأُبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وطلحة، والزبير رضي الله عنهم[٥].

---

(١) بنو عمه هم «بنو أمية»، وغيرهم هم «بنو أسد»، فبنو أمية أقرب إلى ابن عباس نسباً من بني أسد، وإنما قال هذا لما كان بينه وبين ابن الزبير من سوء التفاهم.

(٢) قائله علقمة بن عبدة، ويعني أفضت إليك، وصلت إليك ربابتي بكسر الراء، فصرت أنت الذي ترُبُّ أمري وتصلحه، لما خرجت من ربابة غيرك من الملوك الذين كانوا قبلك، فضيعوا أمري، وهم الرَّبوب جمع رب، وفي رواية: «ومن قبل» وستأتي عند المؤلف، وفي اللسان: ربّه يربّه ربّاً: ملكه.

(٣) فكل قرن وجيل منها يسمى عالماً أيضاً، ومن ثم حسن جمع الأجيال والقرون من كل شيء في العالمين.

(٤) (مالك) اسم فاعل، و(ملك) صفة مشبهة أو مخفَّف من (مالك).

و﴿مالك يوم الدين﴾ هو للاستمرار الثبوتي، كما أن قوله تعالى ﴿وجاعل الليل سكناً﴾ هو للاستمرار التجدُّدي، فالاستمرار عندهم قسمان تجددي وثبوتي.

(٥) معاذ بن جبل بن عمرو، أحد الذين حفظوا القرآن على عهد النبي ﷺ، توفي سنة (١٨) هـ.

وطلحة بن عبيد الله بن عثمان، أسلم على يد أبي بكر، وكان واحداً من الستة أصحاب الشورى، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وقى النبي ﷺ بنفسه في غزوة أحد.. وقد قتله مروان بن الحكم سنة(٣٦)هـ.
=

وقرأ بقية السبعة [مَلِك يوم الدِّين] وأبو عمرو منهم يسكِّن اللام فيقرأ: [ملْك يوم الدين]، هذه رواية عبد الوارث عنه[١]. وروي عن نافع إشباع الكسرة من الكاف في (ملك) فيقرأ: [مَلِكي]، وهي لغة للعرب ذكرها المهدوي، وقرأ أبو حيوة[٢] [ملِكَ] بفتح الكاف وكسر اللام، وقرأ ابن السَّميفع[٣]، وعمر بن عبد العزيز، والأعمش، وأبو صالح السمان، وأبو عبد المالك الشامي [مالكَ] بفتح الكاف، وهذان على النداء ليكون ذلك توطئة لقوله: [إيّاك]، ورد الطبري على هذا وقال: إن معنى السورة قولوا: الحمد لله، وعلى ذلك يجيء [إياك]، و[اهدنا]، وذكر أيضاً أن من فصيح كلام العرب الخروج من الغيبة إلى الخطاب، وبالعكس، كقول أبي كبير الهذلي[٤]:

يا ويح نفسي كان جدَّةُ خالد ... وبياض وجهك للتُّراب الأعفر

وكما قال لبيد:

قامت تشكي إلى النفس مجهشة ... وقد حَمَلْتُكِ سبعاً بعد سبعينا[٥]

= والزبير بن العوام ـ أحد العشرة المبشرين بالجنة، وابن عمة النبي ﷺ، قتله عمرو بن جرموز غدراً سنة (٣٦)هـ.

(١) هو عبد الوارث بن سعيد. أبو عبيدة العنبري مولاهم البصري المتوفَّى سنة ١٨٠ هـ، قرأ القرآن وجوده على أبي عمرو بن العلاء.

(٢) حيوة بن شريح بن يزيد الحضرمي، روى القراءة عن أبيه شريح، وروى عنه البخاري توفي سنة (٢٢٠)هـ.

(٣) بالفاء وفتح السين محمد بن عبد الرحمن بن السميفع، أبو عبد الله اليماني، له اختيار في القراءة شاذ.

(٤) شاعر صحابي اشتهر بكنيته، واسمه «عامر بن الحليس»، أورده الحافظ ابن حجر في القسم الأول من الإصابة، ولم يذكر اسمه، وإنما ذكر كنيته، قاله صاحب «خزانة الأدب»، والشاهد في البيت وهوالانتقال من الغيبة إلى الخطاب واضح بقوله: «وبياض وجهك» بعد قوله: «جدة خالد» وروي «جلدة خالد».

(٥) قال لبيد بن ربيعة حين بلغ سبعاً وسبعين سنة:

قامت تشكَّي إلي النفس مجهشة ... وقد حملتك سبعاً بعد سبعينا
فإن تزادي ثلاثاً تبلغي أملا ... وفي الثلاث وفاءٌ للثمانينا

فلما بلغ مائة وعشراً قال:

أليس في مائة قد عاشها رجل ... وفي تكامل عشرٍ بعدها عمر؟

فلما جاوزها قال:

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وسؤال هذا الناس: كيف لبيد؟ =

وكقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾[١] وقرأ يحيى بن يعمر، والحسن بن أبي الحسن، وعليُّ بن أبي طالب: [مَلَكَ يومَ الدين] على أنه فعل ماض، وقرأ أبو هريرة [مليك] بالياء وكسر الكاف[٢]. وقال أبو علي: «ولم يمل أحد من القراء ألف [مالك]، وذلك جائز إلا أنه لا يقرأ بما يجوز إلا أن يأتي بذلك أثر مستفيض»[٣].

(والمُلك والمِلك) بضم الميم وكسرها، وما تصرف منهما راجعٌ كله إلى (ملك) بمعنى شدَّ وضبط، ثم يختص كل تصريف من اللفظة بنوع من المعنى. يدلك على الأصل في (ملك) قول الشاعر:

ملكت بها كفِّي فأنهرتُ فتقها[٤] . . . .

وهذا يصف طعنةً فأراد (شددت). ومن ذلك قول أوس بن حجر:

فملَّك باللِّيط الذي تحت قشرها كَغرقِئ بيض كَنَّهُ القيض من عل[٥]

أراد (شدَّد)، وهذا يصف صانع قوس ترك من قشرها ما يحفظ قلب القوس، و«الذي» مفعولٌ، وليس بصفة للِّيط. ومن ذلك قولهم: «إملاك المرأة وإملاك فلان» إنما هو ربط النكاح، كما قالوا: عقدة النكاح، إذ النكاح موضع شدٍّ وربط، فالمالك للشيء شادٌّ عليه، ضابط له، وكذلك الملك.

واحتج من قرأ (مِلك) بأن لفظة (مِلك) أعمُّ من لفظة (مالك)، إذ كل ملكٍ مالكٌ، وليس كل مالك ملكاً، والمِلك الذي يدبِّر المالك في ملكه حتى لا يتصرف إلا عن

= والشاهد في قوله: «وقد حملتك» بعد ضمير الغيبة في «مجهشة».

(١) من الآية (٢٢) من سورة يونس ـ والآية خروج من الخطاب إلى الغيبة على عكس مافي البيتين السابقين.

(٢) يتحصل مما ذكره: أن القراءات ثمان (مالك) بالألف مع كسر الكاف ونصبها و(ملك) بحذف الألف وكسر الكاف أو نصبها، وبتسكين اللام، وبإشباع الحركة لنافع، وقرأ أبو هريرة: (مليك)، وقرأ علي بن أبي طالب والحسن البصري: (ملك) على أنه فعل ماض.

(٣) قال(ح): وقرأ (مالك) بالإمالة البليغة يحيى بن يعمر، وأيوب السختياني، وقرأ بين بين قتيبة بن مهران عن الكسائي، وجهل النقل في قراءة الإمالة أبو علي الفارسي فقال: لم يمل أحد من القراء ألف (مالك). انتهى.

(٤) هو لقيس بن الخطيم وتمام البيت: يرى قائم من دونها ما وراءها.

(٥) اللِّيط: قشر كل شيء فيه صلابة ومتانة، والغرقئ: القشرة الملتصقة ببياض البيض، والقيض: القشرة العليا اليابسة على البيضة. (كنَّه) ستره، أو حفظه وحماه.

تدبير الملك، وتتابع المفسرون على سرد هذه الحجة، وهي عندي غير لازمة، لأنهم أخذوا اللفظتين مطلقتين، لا بنسبة إلى ما هو المملوك وفيه الملك، فأما إذا كانت نسبة الملك هي نسبة المالك فالمالك أبلغ ـ مثال ذلك أن نقدر مدينة آهلة عظيمة، ثم نقدر لها رجلاً يملكها أجمع، أو رجلاً هو ملكها فقط، إنما يملك التدبير والأحكام، فلا شك أن المالك أبلغ تصرفاً وأعظم، إذ إليه إجراء قوانين الشرع فيها، كما لكلِّ أحد في ملكه، ثم عنده زيادة التملك، وملك الله تعالى ليوم الدين هو على هذا الحد، فهو مالكه وملكه، والقراءتان حسنتان.

وحكى أبو علي في حجة من قرأ: ﴿مالك يوم الدين﴾ أن أول من قرأ [ملك يوم الدين] مروان بن الحكم، وأنه قد يدخل في المُلْك ما لا يدخل في المِلْك، فيقال: مالك الدنانير والدراهم والطير والبهائم، ولا يقال: ملكُها، و(مالك) في صفة الله تعالى يعم ملك أعيان الأشياء، وملك الحكم فيها. وقد قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾[1].

قال أبو بكر: الأخبار الواردة تبطل أن أول من قرأ: [ملك يوم الدين] مروان بن الحكم، بل القراءة بذلك أوسع، ولعل قائل ذلك أراد أنه أول من قرأ في ذلك العصر، أو البلد ونحوه[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي الترمذي أن النبي ﷺ، وأبا بكر، وعمر، رضي الله عنهما قرؤوا: [مَلِكِ يومِ الدين] بغير ألف، وفيه أيضاً أنهم قرؤوا ﴿مالك يوم الدين﴾ بألف.

قال أبو بكر: والاختيار عندي [مَلِكِ يومِ الدين]، لأن المِلك والمُلك يجمعهما، معنى واحد، وهو الشدُّ والربط، كما قالوا ملَكت[3] العجين أي شددته، إلى غير ذلك من الأمثلة، والملك أفخم وأدخل في المدح، والآية إنما نزلت بالثناء والمدح لله

(١) من الآية (٢٦) من سورة آل عمران.

(٢) إشارة إلى الرد على ابن شهاب الزهري القائل بذلك كما في ابن (ك)، والقراءتان مرويتان عن النبي ﷺ ومتواترتان، والله سبحانه وتعالى ملكٌ، ومالك ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ ﴿قل أعوذ بربِّ النّاس، ملك النّاس إله الناس﴾ ﴿ إنَّا نحن نرثُ الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾ ﴿إنَّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده﴾ ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار﴾ ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق﴾ ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام﴾، فكل منهما راجح في المعنى وفي اللفظ. والله أعلم.

(٣) بالتخفيف والتشديد ومعناه: أنعمت عجنه، ويقال: أملكته أيضاً.

سبحانه، فالمعنى أنه ملك الملوك في ذلك اليوم، لا مُلك لغيره، قال: والوجه لمن قرأ مالك أن يقول: إن المعنى أن الله تعالى يملك ذلك اليوم أن يأتي به، كما يملك سائر الأيام، لكن خصصه بالذكر لعظمه في جمعه وحوادثه. قال أبو الحسن الأخفش(١): «يقال ملكٌ بيّن الملك بضم الميم، ومالك بين المَلك والمِلك بفتح الميم وكسرها»(٢)، وزعموا أن ضم الميم لغةٌ في هذا المعنى. وروى بعض البغداديين: «لي في هذا الوادي مِلك ومَلك ومُلك» معنى واحد.

قال أبو علي: حكىٰ أبو بكر بن السراج، عن بعض من اختار القراءة بمَلك، أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كل شيءٍ بقوله: ﴿رب العالمين﴾، فلا فائدة في قراءة من قرأ (مالك) لأنها تكرير. قال أبو علي: ولا حجة في هذا، لأن في التنزيل أشياء على هذه الصورة، تقدَّم العامُّ ثم ذُكِر الخاصُّ كقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾(٣). فالخالق يعمُّ، وذكر المصوّر لما في ذلك من التنبيه على الصنعة ووجوه الحكمة. وكما قال تعالى: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بعد قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾(٤) والغيب يعمّ الآخرة وغيرها، ولكن ذكرها لعظمها، والتنبيه على وجوب اعتقادها، والردِّ على الكفرة الجاحدين لها. وكما قال الله تعالى: ﴿الرحمن الرحيم﴾ فذكر الرحمن الذي هو عامٌّ، وذكر الرحيم بعده لتخصيص المؤمنين به في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾(٥).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأيضاً فإن الربَّ يتصرف في كلام العرب بمعنى الملك كقوله: (ومن قبل ربَّتني فَضعْتُ رَبُوب)(٦). وغير ذلك من الشواهد، فتنعكس الحجة على من قرأ ﴿مالك يوم الدين﴾.

والجر في (ملكِ) أو (مالكِ) على كلتا القراءتين هو على الصفة للاسم المجرور قبله، والصفات تجري على موصوفيها إذا لم تقطع عنهم لذمٍّ أو مدح، والإضافة إلى

---

(١) هو سعيد بن مسعدة البصري.

(٢) قرىء قوله تعالى: ﴿قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا﴾ بالفتح والكسر والضم.

(٣) من الآية (٢٤) من سورة الحشر.

(٤) ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾: من الآية (٣) ـ و﴿بالآخرة هم يوقنون﴾: من الآية (٤) من سورة البقرة.

(٥) من الآية (٣٤) من سورة الأحزاب.

(٦) تقدم الكلام على هذا البيت، والرواية السابقة: (وقبلك ربَّتني فضعت ربوب) انظر ص٧٤من هذا المجلد.

﴿يوم الدين﴾ في كلتا القراءتين من (يا سارق الليلة أهل الدار)، اتسع في الظرف فنصب نصب المفعول به، ثم وقعت الإضافة إليه على هذا الحد، وليس هذا كإضافة قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾(١)، لأن الساعة مفعول بها على الحقيقة، أي أنه يعلم الساعة وحقيقتها، فليس أمرها على ما الكفار عليه من إنكارها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأما على المعنى الذي قاله ابن السراج، من أن معنى ﴿مالك يوم الدين﴾ أنه يملك مجيئه ووقوعه، فإن الإضافة إلى اليوم كإضافة المصدر إلى الساعة، لأن اليوم على قوله مفعول به على الحقيقة، وليس ظرفاً اتسع فيه.

قال أبو علي: ومن قرأ ﴿مالك يوم الدين﴾، فأضاف اسم الفاعل إلى الظرف المتسع فيه، فإنه حذف المفعول من الكلام للدلالة عليه تقديره: مالك يوم الدين الأحكام. ومثل هذه الآية في حذف المفعول به مع الظرف قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾(٢) فنصب الشهر على أنه ظرف، والتقدير فمن شهد منكم المصر في الشهر، ولو كان الشهر مفعولا للزم الصوم للمسافر، لأن شهادته للشهر كشهادة المقيم، وشهد يتعدى إلى مفعول، يدلك على ذلك قول الشاعر:

ويوماً شهدناه سليماً وعامراً . . . . (٣)

و(الدين) لفظ يجيء في كلام العرب على أنحاء: منها «الملة»، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(٤) إلى كثير من الشواهد في هذا المعنىٰ: وسمي حظ

---

(١) من الآية (٨٥) من سورة الزخرف.

(٢) من الآية (١٨٥) من سورة البقرة. وشهد لها ثلاثة معان: الإخبار، نحو شهد فلان عند الحاكم بكذا، أي خبره به ـ والعلم، نحو: ﴿وهو على كل شيءٍ شهيد﴾ ـ والحضور، نحو: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾، والمراد به الاحتراز من المسافر، فإنه لا يجب عليه الصوم، فهي هنا بمعنى حضر لا بمعنى شاهد ورأى، إذ لا دلالة للآية على اعتبار الرؤية في الصوم، وإنما الذي يدل على ذلك قوله ﷺ: «صوموا لرؤيته» الخ.

(٣) تمامه: (قليلاً سوى الطَّعن النهال نوافله)، ذكر في حاشية الأمير على المغني أنه لرجل من بني عامر، ولم يقف على قائله، والنهال صفة تطلق على الرماح. والنوافل الغنائم، وهي مرفوعة بقليلاً، وقوله: شهدناه: أي شهدنا فيه. ويرى المرصفي في شرح «الكامل» للمبرد: أن صواب الرواية (سوى طعن النهال) بحذف الألف واللام.

(٤) من الآية (١٩) من سورة آل عمران.

الرجل منها في أقواله وأعماله واعتقاداته «ديناً» فيقال: «فلانٌ حسن الدين»، ومنه قول النبي ﷺ في رؤياه في قميص عمر الذي رآه يجره، (قيل: فما أوَّلته يا رسول الله؟ قال: الدين)[1]. وقال علي بن أبي طالب: «محبّة العلماء دين يدان به». ومن أنحاء اللفظة الدِّين بمعنى: «العادة».

فمنه قول العرب في الريح: «عادت هَيْفُ لأديانها»[2].

ومنه قول امرىء القيس:

كدينك من أمّ الحويرث قبلها . . . . [3]

ومنه قول الشاعر:

. . . . أهذا دينه أبداً وديني؟[4]

إلى غير ذلك من الشواهد، يقال: دين ودينه أي عادة.

ومن أنحاء اللفظة الدين «سيرة الملك وملكته»[5] ومنه قول زهير:

لئن حللت بجوٍّ في بني أسد في دين عمرو وحالت بيننا فدك[6]

أراد في موضع طاعة عمرو وسيرته، وهذه الأنحاء الثلاثة لا يفسر بها قوله: ﴿مالك يوم الدين﴾.

ومن أنحاء اللفظة الدِّين: «الجزاء»، فمن ذلك قول الفند الزماني[7]:

---

(١) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري في مبحث الرؤيا.

(٢) ريح حارة تيبّس النبات، وتعطش الحيوان، وتنشف المياه، وماذكره المؤلف هو مثل من أمثال العرب.

(٣) هذا من معلقة امريء القيس، وتمامه: وجارتها أم الرَّباب بمأسل.

(٤) أوله: تقول إذا ردأت لها وضيني. والوضين: بطانٌ عريض منسوج يشد به الرحل على البعير. وقائل البيت المثقب العبدي يذكر ناقته، وبعد البيت:

أكُلَّ الدَّهر حِلٌّ وارتحال؟ أما يبقي عليَّ وما يقيني؟

(٥) يريد مملكته.

(٦) قائله زهير بن أبي سلمى المزني، من جملة قصيدة طويلة قالها لما استاق بعض بني أسد إبله وراعيه يسارا. و(فدك) قرية بخيبر، وقيل: بل قرية بناحية الحجاز فيها عين ونخيل.

(٧) اسمه أشهل بن شيبان بن ربيعة، وهو شاعر جاهلي، كان أحد فرسان ربيعة المشهورين وقبل البيت:

فلمّا صرَّح الشَّرُّ فأمسى وهو عريانُ

ولم يبق سوى العدوا ن دنَّاهم كما دانوا =

ولـــم يبـــق ســـوى العـــدوا دِنَّـــاهُـــمْ كمـــا دانـــوا

أي جازيناهم.

ومنه قول كعب بن جعيل(١):

إذا مـــارمـــونـــا رمينـــاهـــم ودنَّـــاهـــم مثـــل مـــا يقـــرضـــونـــا

ومنه قول الآخر(٢):

واعلـــم يقينـــاً أنَّ ملكـــك زائـــلٌ واعلـــم بـــأنَّ كمـــا تـــديـــن تـــدان

وهذا النحو من المعنى هو الذي يصلح لتفسير قوله تعالى: [مَلِكِ يوم الدين]، أي يوم الجزاء على الأعمال والحساب بها، كذلك قال ابن عباس، وابن مسعود، وابن جريج، وقتادة، وغيرهم، قال أبو علي: ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾(٣)، ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٤).

وحكى أهل اللغة: «دنته بفعله ديناً» بفتح الدال، و«ديناً» بكسرها: جزيته، وقيل: الدَّين: المصدر، والدين بكسر الدال: الاسم. وقال مجاهد: [مَلِكِ يومِ الدين] أي يوم الحساب مدينين محاسبين، وهذا عندي يرجع إلى معنى الجزاء.

ومن أنحاء اللفظة الدّين: «الذل»، والمدين: العبد، والمدينة: الأمة، ومنه قول الأخطل:(٥)

ربت وربا في حجرها ابن مدينة تـــراه علـــىٰ مسحـــاتـــه يتـــركَّـــلُ

أي ابن أمة، وقيل: بل أراد ابن مدينة من المدن، الميم أصلية، ونسبه إليها، كما

= قال ذلك في حرب البسوس.

(١) هو ابن قمير (تصغير قمر) بن ثعلبة. شاعر إسلامي، كان في زمان معاوية رضي الله عنه.

(٢) في مجاز القرآن لأبي عبيدة منسوب إلى ابن نفيل، وفي لسان العرب: ـ قال خويلد بن نفيل الكلابي للحارث بن أبي شمر الغساني، وكان قد اغتصب ابنته:

يـــا حـــارٌ أيقـــنْ أنَّ ملكـــك زائـــل واعلـــم بـــأن كمـــا تـــديـــن تـــدان

(٣) من الآية (١٧) من سورة غافر.

(٤) من الآية (٢٨) من سورة الجاثية.

(٥) هو غياث بن غوث التغلبي النصراني، أبو مالك، كان شاعراً موالياً لبني أمية، والمسحاة المجرفة. والجمع المساحي.

يقال: ابن ماءٍ وغيره، وهذا البيت في صفة كرمة، فأراد أنَّ أهل المدن أعلم بفلاحة الكرم من أهل بادية العرب.

ومن أنحاء اللفظة، الدين: «السِّياسة»، والديَّان«السَّائس»، ومنه قول ذي الإصبع[١]:

لاه ابن عمِّك لا أفضلت في حسبٍ   يوماً، ولا أنت ديَّاني فتخزوني

ومن أنحاء اللفظة الدين: «الحال»، قال النضر بن شميل[٢]:

سألت أعرابياً عن شيء فقال لي: و«لو لقيتني على دين غير هذه لأخبرتك». ومن أنحاء اللفظة، الدين: «الداء» عن اللحياني[٣] وأنشد:

يا دين قلبك من سلمى وقد دينا[٤]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أما هذا الشاهد فقد يتأول على غير هذا النحو، فلم يبق إلا قول اللحياني.

وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نعبد﴾ نطق المؤمن به إقرار بالرُّبوبية، وتذلُّل، وتحقيق لعبادة الله، إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك، وقدم المفعول على الفعل اهتماماً[٥]، وشأن العرب تقديم الأهم. ويذكر أن أعرابياً سبَّ آخر، فأعرض المسبوب عنه، فقال له الساب: إياك أعني، فقال الآخر: وعنك أُعرض، فقدَّما الأهم. وقرأ الفضل الرقاشي[٦] [أياك] بفتح الهمزة، وهي لغة مشهورة. وقرأ عمرو بن فائد: [إياك]

---

(١) هو ذو الإصبع العدواني ـ وديّاني: سائسي ـ فتخزوني: فتسوسني.

(٢) هو أبو الحسن محب الخليل، وأُخذ عنه، عرف بالحفظ، ونقد الرواة وأرباب السير وله كتاب: «الصفات»، كان ثقة، صاحب فقه وشَعر ورواية للحديث، ومعرفة بأيام العرب. توفي سنة (٢٠٤)هـ.

(٣) هو أبو الحسن علي بن مبارك، كان من أكابر أهل اللغة، أخذ عنه القاسم بن سلام، ولقب باللحياني لعظم لحيته وكبرها، وأخذ عن الكسائي، وأبي زيد، وأبي عمرو الشيباني، وله النوادر المشهورة.

(٤) لم نقف على قائله، ويشبهه قول الأشهب بن رميلة يمدح اسحق بن البراء الأنصاري:

ألا يا دين قلبك من سليمى   كما كنت قد تلقى من سعادا

إلى آخر القصيدة. ومعنى: (يا دين قلبك) يا داء قلبك، أو يا عادة قلبك. ومعنى (وقد دينا): أي «حمل على ما يكره».

(٥) وللاختصاص أيضاً، إذ العلل والمقتضيات لا تتزاحم ولا تتخاصم.

(٦) هو ابن عبد الصمد بن الفضل أبو العباس الرقاشي البصري الشاعر المتوفىٰ تقريباً سنة (٢٠٠) هـ. كان هو وأبو نواس يتهاجيان.

بكسر الهمزة وتخفيف الياء، وذلك أنَّه كره تضعيف الياء لثقلها، وكون الكسرة قبلها وهذا كتخفيف (رب) و(إن)(١). وقرأ أبو السَّوَّار الغنوي(٢) [هياك نعبد، وهياك نستعين] بالهاء وهي لغة(٣).

واختلف النحويون في [إياك]، قال الخليل: (إيَّا) اسم مضمر، أضيف إلى ما بعده للبيان لا للتعريف، وحكى عن العرب: «إذا بلغ الرجل الستين فإيَّاه وإيا الشَّواب»(٤)، وقال المبرد: (إيا) اسم مبهم، أضيف للتخصيص لا للتعريف. وحكى ابن كيسان عن بعض الكوفيين: أن [إيَّاك] بكماله اسم مضمر، ولا يعرف اسم مضمر يتغير آخره غيره. وحكي عن بعضهم أنه قال: الكاف والهاء والياء هي الاسم المضمر، لكنها لا تقوم بأنفسها، ولا تكون إلا متصلات، فإذا تقدمت الأفعال جعل (إيا) عماداً لها، فيقال: (إياك، وإياه، وإياي). وإذا تأخرت اتصلت بالأفعال واستغنى عن (إيا). وحكي عن بعضهم: أن (إيا) اسم مبهم يكنى به عن المنصوب، وزيدت الكاف والهاء تفرقة بين المخاطب والغائب والمتكلم، ولا موضع لها من الإعراب، فهي كالكاف في ذلك، وفي أرأيتك زيداً ما فعل.

(ونعبد) معناه: نقيم الشرع والأوامر مع تذلُّل واستكانة، والطريق المذلَّل يقال له معبّد، وكذلك البعير، وقال طرفة:

تباري عتاقاً ناجيات وأتبعت ... وظيفاً وظيفاً فوق مور معبَّد(٥)

وتكررت [إياك] بحسب اختلاف الفعلين، فاحتاج كل واحد منهما إلى تأكيد واهتمام.

و[نستعين]، معناه نطلب العون منك في جميع أمورنا، وهذا كله تبرو(٦) من

---

(١) لاعبرة بذلك فهي قراءة شاذة مردودة.

(٢) بفتح السين وتشديد الواو، عربي فصيح، أخذ عنه أبو عبيدة فمن دونه، كما في بغية الوعاة.

(٣) استدل كل من القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ١/ ١٢٧، وابن كثير في تفسيره ١/ ٤٧ ـ وصاحب الكشاف في تفسيره ١/ ٨ ـ استدل كل منهم بقول الطفيل الغنوي:

فهيّاك والأمر الذي إن تراحبت ... موارده ضاقت عليك مصادره

(٤) إضافة (إيَّا) إلى الظاهر نحو (وإيا الشواب) ونحو (دعني وإيا خالد) ـ نادر أو ضرورة.

(٥) المور: الطريق، والناجيات: السراع، وطرفة هوابن العبد الشاعر المشهور.

(٦) وفي بعض النسخ: تبرُّ.

الأصنام، وقرأ الأعمش، وابن وثّاب، والنخعي: [نِستَعين] بكسر النون، وهي لغة لبعض قريش في النون والتاء والهمزة، ولا يقولونها في ياء الغائب، وإنما ذلك في كل فعل سمي فاعله فيه زوائد، أو فيما يأتي من الثلاثي على فعل يفعل بكسر العين في الماضي، وفتحها في المستقبل، نحو علم وشرب، وكذلك فيما جاء معتل العين نحو خال يخال، فإنهم يقولون: تخال وإخال. و﴿نستعين﴾ أصله نستعون. نقلت حركة الواو إلى العين، وقلبت ياءً لانكسار ما قبلها.

والمصدر: (استعانة)، أصله (استعوان)، نقلت حركة الواو إلى العين، فلما انفتح ما قبلها وهي في نية الحركة انقلبت ألفاً، فوجب حذف أحد الألفين الساكنين، فقيل: حذفت الأولى لأن الثانية مجلوبة لمعنى فهي أولى بالبقاء، وقيل: حذفت الثانية لأن الأولى أصلية فهي أولى بالبقاء، ثم لزمت الهاءُ عوضاً من المحذوف.

وقوله تعالى (اهدنا) رغبة، لأنها من المربوب إلى الرب، وهكذا صيغة الأمر كلها، فإذا كانت من الأعلى فهي أمر.

والهداية في اللغة الإرشاد[١]، لكنها تتصرف على وجوه يعبر عنها المفسرون بغير لفظ الإرشاد، وكلها إذا تأملت رجعت إلى الإرشاد.

فالهدى يجيء بمعنى: «خلق الإيمان في القلب»، ومنه قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[٤]. وقوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ﴾[٥]. قال أبو المعالي: فهذه آيات لا يتجه حملها إلا على خلق الإيمان في القلب، وهو محض الإرشاد.

---

(١) الهداية تارة تنسب إلى الله تعالى، وتارة إلى رسوله، وتارة إلى القرآن الكريم، ثم هي تارة تثبت، وتارة تنفى عن النبي ﷺ، فإذا أثبتت فهي بمعنى الدلالة والإرشاد، وإذا نفيت فهي بمعنى التوفيق والإيصال، لأن ذلك من شأن الله تبارك وتعالى وحده، وهي في المعنى راجعة إلى معنى الإرشاد كيفما تصرفت في الكلام.

(٢) من الآية (٥) من سورة البقرة.

(٣) من الآية (٢٥) من سورة يونس.

(٤) من الآية (٥٦) من سورة القصص.

(٥) من الآية (١٢٥) من سورة الأنعام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد جاء الهدى بمعنى «الدعاء». ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[(١)]، أي داع، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٢)] وهذا يبين فيه الإرشاد، لأنه ابتداءً إرشادٌ، أجاب المدعو أو لم يجب.

وقد جاء الهدى بمعنى «الإلهام»، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[(٣)]، قال المفسرون: معناه: ألهم الحيوانات كلَّها إلى منافعها. وهذا أيضاً يبين فيه معنى الإرشاد.

وقد جاء الهدى بمعنى «البيان» من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾[(٤)]، قال المفسرون: معناه: بيَّنا لهم، قال أبو المعالي: معناه: دعوناهم. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾[(٥)] أي علينا أن نبين، وفي هذا كله معنى الإرشاد، قال أبو المعالي: وقد ترد الهداية والمراد بها «إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان، والطرق المفضية إليها». من ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾[(٦)]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾[(٧)]، معناه: فاسلكوهم إليها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الهداية بعينها هي التي تقال في طرق الدنيا، وهي ضد الضلال، وهي الواقعة في قوله تعالى: ﴿اهدنا الصِّراط المستقيم﴾. على صحيح التأويلات، وذلك يبين من لفظ الصراط، و(الهدى) لفظ مؤنث، وقال اللحياني: هو مذكر، قال ابن سيده[(٨)]: و(الهدى) اسم من أسماء النهار[(٩)]، قال ابن مقبل:

---

(١) من الآية (٧) من سورة الرعد.

(٢) من الآية (٥٢) من سورة الشورى.

(٣) من الآية (٥٠) من سورة طه.

(٤) من الآية (١٧) من سورة فصلت.

(٥) من الآية (١٢) من سورة الليل.

(٦) من الآية (٤) والآية (٥) من سورة محمد.

(٧) الآية (٢٣) من سورة الصافات، والكلمة مستعملة على سبيل التهكم والاستهزاء.

(٨) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي، كان إماماً في اللغة، وجمع في ذلك «المحكم» و«المخصص» توفي سنة (٤٥٨)هـ.

(٩) لأن الناس يهتدون فيه لمعاشهم وجميع مآربهم.

حتى استبنت الهدى والبيد هاجمةٌ   خشعن في الآل غلفاً أو يصلِّينا[١]

و(الصِّراط) في اللغة الطريق الواضح، فمن ذلك قول جرير:

أميـر المـؤمنيـن علـى صـراط   ـ إذا اعـوجَّ المـوارد ـ مستقيـم[٢]

ومنه قول الآخر:

فصدَّ عن نهج الصِّراط الواضح[٣]

وحكى النقاش: الصراط: الطريق بلغة الروم، وهذا ضعيف جداً.

واختلف القراء في الصِّراط...

فقرأ ابن كثير، وجماعة من العلماء: (السراط) بالسين، وهذا هو أصل اللفظة. قال الفارسي: ورويت عن ابن كثير بالصاد، وقرأ باقي السبعة ـ غير حمزة ـ بصاد خالصة، وهذا بدل للسين بالصاد لتناسبها مع الطاء في الإطباق فيحسنان في السمع[٤]، وحكاها سيبويه لغة. قال أبو علي: روي عن أبي عمرو «السين والصاد»، «والمضارعة بين الصاد والزاي»، رواه عنه العريان بن أبي سفيان، وروى الأصمعي عن أبي عمرو أنه قرأها بزاي خالصة. قال بعض اللغويين: ما حكاه الأصمعي في هذه القراءة خطأ منه، إنما سمع أبا عمرو يقرأ بالمضارعة فتوهمها زاياً، ولم يكن الأصمعي نحوياً فيؤمن على هذا، وحكى هذا الكلام أبو علي عن أبي بكر بن مجاهد، وقرأ حمزة بين «الصاد والزاي»، وروي أيضاً عنه أنه إنما يلتزم ذلك في المعرفة دون النكرة. قال ابن مجاهد: وهذه القراءة تكلف حرف بين حرفين، وذلك أصعب على اللسان، وليس بحرف يبنى

---

(١) هو لتميم بن أبيّ بن مقبل، من بني العجلان، وكان جاهلياً إسلامياً، رثى عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) جمع (مورد) أو (موردة) وهي مواضع الورود، والطرق الجادة، والمؤدية إلى الماء.

(٣) البيت غير منسوب، وقد ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ١/١٢٨ والطبري في تفسيره ١/٥٧.

(٤) (الصراط) بالصاد هي لغة قريش، وبها كتبت في المصحف الإمام ـ وعامة العرب يجعلونها سيناً، والزاي لغة حكاها الأصمعي، وهي لغة عذرة وكعب، وبالإشمام قرأ حمزة وهي لغة قيس، قال ابن مجاهد: وهذه القراءة تكلف حرف بين حرفين، وليس بحرف يبنى عليه الكلام، ولا هو من حروف المعجم، ولست أدفع أنه من كلام فصحاء العرب إلا أن الصاد أفصح، واعلم أن إبدال الصاد سيناً ليس على إطلاقه، وإنما يكون مع حروف معلومة وهي: «الحاء، والطاء، والعين، والقاف»، بشرط أن يكون أحد هذه الحروف متأخراً، والصاد أو السين متقدماً، نص على ذلك بعض المحققين.

عليه الكلام، ولا هو من حروف المعجم، ولست أدفع أنه كلام فصحاء العرب، إلا أن الصاد أفصح وأوسع.

وقرأ الحسن والضحاك [اهدِنا صراطاً مستقيماً] دون تعريف، وقرأ جعفر بن محمد الصادق: [اهدنا صراط المستقيم][(١)] بالإضافة، وقرأ ثابت البناني [بصِّرنا الصراط].

واختلف المفسرون في المعنى الذي استعير له الصراط في هذا الموضع، وما المراد به؟ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصراط المستقيم هنا القرآن. وقال جابر: هو الإسلام، يعني الحنيفية[(٢)]، وقال: سعته ما بين السماء والأرض. وقال محمد بن الحنفية: هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره. وقال أبو العالية[(٣)]: هو رسول الله ﷺ، وصاحباه أبو بكر وعمر[(٤)]، وذكر ذلك للحسن بن أبي الحسن فقال: صدق أبو العالية ونصح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويجتمع من هذه الأقوال كلها أن الدعوة إنما هي في أن يكون الداعي على سنن المنعم عليهم من النبيئين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، في معتقداته، وفي التزامه لأحكام شرعه، وذلك هو مقتضى القرآن والإسلام، وهو حال رسول الله ﷺ وصاحبيه[(٥)]. وهذا الدعاء إنما أمر به المؤمنون وعندهم المعتقدات، وعند كل واحد بعض الأعمال، فمعنى قولهم: «اهدنا» فيما هو حاصل عندهم: طلب التثبيت والدوام، وفيما ليس بحاصل إما من جهة الجهل به، أو التقصير في المحافظة عليه: طلب الإرشاد إليه. وأقول: إن كل داع به فإنما يريد الصراط بكماله في أقواله، وأفعاله، ومعتقداته، فيحسن على هذا أن يدعو في الصراط على الكمال من عنده بعضه، ولا يتجه أن يراد باهدنا في هذه الآية: اخلق الإيمان في قلوبنا. لأنها هداية

---

(١) أي صراط الدين المستقيم.

(٢) أخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، وصحّحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: هو دين الإسلام، وهو أوسع مما بين السماء والأرض.

(٣) أبو العالية اثنان، والمراد به في هذا المقام رفيع الرياحي.

(٤) يعني أن الصراط المستقيم هو طريق محمد ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وهذا قوي في المعنى، إلا أن تسمية أشخاصهم طريقاً فيه تجوز.

(٥) يعني أن من قال، هذه الأقوال واحد، وليس بينها منافاة ولا مخالفة.

مقيدة إلى صراط، ولا أن يراد بها ادعنا، وسائر وجوه الهداية يتجه. و﴿الصراط﴾ نصب على المفعول الثاني. و﴿المستقيم﴾: الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، والمراد أنه استقام على الحق، وإلى غاية الفلاح ودخول الجنة، وإعلال ﴿مستقيم﴾ أن أصله (مستقوم)، نقلت الحركة إلى القاف، وانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها.

و﴿صراط الَّذين﴾ بدلٌ من الأول. وقرأ عمر بن الخطاب، وابن الزبير: [صراط من أنعمت عليهم]. و﴿[الذين﴾ جمع الذي، وأصله (لذِ)، حذفت منه الياء للتنوين، كما تحذف من عمٍ وقاضٍ فلما دخلته الألف واللام ثبتت الياء والذي اسم مبهم ناقص محتاج إلى صلة وعائد، وهو مبني في إفراده وجمعه، ومعرب في تثنيته، ومن العرب[1] من يعرب جمعه فيقول في الرفع: (اللذون)، وكتب الذي بلام واحدة في الإفراد والجمع تخفيفاً لكثرة الاستعمال.

واختلف الناس في المشار إليهم بأنه أنعم عليهم، فقال ابن عباس، وجمهور المفسرين: إنه أراد صراط النبيئين، والصديقين، والشهداء، والصالحين. وانتزعوا ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[2] فالآية تقتضي أن هؤلاء على صراط مستقيم، وهو المطلوب في آية الحمد. قال ابن عباس أيضاً: المنعم عليهم هم المؤمنون. وقال الحسن بن أبي الحسن: المنعم عليهم أصحاب محمد ﷺ. وحكى مكي وغيره عن فرقة من المفسرين: أن المنعم عليهم مؤمنو بني إسرائيل، بدليل قوله تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[3] وقال ابن عباس: المنعم عليهم أصحاب موسى قبل أن يبدّلوا، وهذا والذي قبله سواء، وقال قتادة بن دعامة: المنعم عليهم الأنبياء خاصة. وحكى مكي عن أبي العالية أنه قال: المنعم عليهم: محمد ﷺ، وأبو بكر، وعمر.

---

(١) هم بنو هذيل، فيقولون في الرفع: (اللذون)، وفي النصب والجر: (الذين): ومنه قول بعضهم:
نحن اللذون صبَّحوا الصباحا ... يوم النخيل غارةً ملحاحا
(٢) الآيات (٦٦ـ٦٧ـ٦٨ـ٦٩) من سورة النساء.
(٣) من الآيات (٤٠ و٤٧ و١٢٢) من سورة البقرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد تقدم ما حكاه عنه الطبري من أنه فسر الصراط المستقيم بذلك، وعلى ما حكى مكي ينتقض الأول، ويكون الصراط المستقيم طريق محمد ﷺ، وأبي بكر، وعمر رضي الله عنهما، وهذا أقوى في المعنى، لأن تسمية أشخاصهم طريقاً تجوزٌ[(١)].

واختلف القراءُ في (الهاء) من ﴿عليهم﴾ فقرأ حمزة [عليهُم] بضم الهاء وإسكان الميم، وكذلك [لديهُم] و[إليهُم]، وقرأ الباقون في جميعها بكسر الهاء، واختلفوا في (الميم)، فروي عن نافع: التخيير بين ضمها وسكونها، وروي عنه أنه كان لا يعيب ضم الميم، فدل ذلك على أن قراءته كانت بالإسكان، وكان عبد الله بن كثير يصل الميم بواو انضمت الهاء قبلها أو انكسرت فيقرأ: (عليهمو وقلوبهمو، وسمعهمو، وأبصارهمو). وقرأ ورش الهاء مكسورة والميم موقوفة، إلا أن تلقى الميم ألفاً أصلية فيلحق في اللفظ واواً مثل قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾[(٢)]، وكان أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، والكسائي، يكسرون ويسكنون (الميم)، فإذا لقي الميم حرف ساكن اختلفوا، فكان عاصم، وابن كثير، ونافع يمضون على كسر الهاء وضم الميم ﴿عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾[(٣)] و﴿مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ﴾[(٤)] وما أشبه ذلك، وكان أبو عمرو يكسر الهاء والميم فيقول: [عليهِمِ الذِّلة] و[إليهِمِ اثنين]، وما أشبه ذلك، وكان الكسائي يضم الهاء والميم معاً [عَلَيْهُمُ الذلة]، و[من دونهُمُ امرأتين] قال أبو بكر أحمد بن موسى: وكل هذا الاختلاف في كسر الهاء وضمها إنما هو في الهاء التي قبلها كسرة أو ياءٌ ساكنة، فإذا جاوزت هذين لم يكن في الهاء إلا الضم، فإذا لم يكن قبل الميم هاءٌ قبلها كسرة أو ياءٌ ساكنة لم يجز في الميم إلا الضم أو التسكين في مثل قوله: منكم وأنتم.

---

(١) يعني أن الطبري رحمه الله حكى عن أبي العالية: أن الصراط المستقيم هو محمد ﷺ، وصاحباه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وأن مكي بن أبي طالب حكى عن أبي العالية أيضاً أن المنعم عليهم محمد ﷺ وصاحباه أبو بكر وعمر، وعلى ما حكاه مكي يبطل القول الأول الذي رواه عن فرقة المفسرين، ويكون الصراط المستقيم هو طريق محمد عليه الصلاة والسلام، وأبي بكر، وعمر رضي الله عنهما، وكون الصراط المستقيم يراد منه طريق محمد عليه السلام وصاحبيه أقوى في المعنى، لأن تسمية أشخاصهم طريقاً تجوزٌ، وإذاً فالصراط المستقيم هو طريقهم لا أشخاصهم.

(٢) من الآية (٦) من سورة البقرة.

(٣) من الآية (١١٢) من سورة آل عمران.

(٤) من الآية (٢٣) من سورة القصص.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحكى صاحب الدلائل قال: قرأ بعضهم [عليهمو] بواو وضمتين، وبعضهم بضمتين وألقى[(١)] الواو، وبعضهم بكسرتين وألحق الياء، وبعضهم بكسرتين وألقى الياء، وبعضهم بكسر الهاء وضم الميم، قال: وذلك مروي عن الأئمة ورؤساء اللغة. قال ابن جني[(٢)]: حكى أحمد بن موسى [عليهُمُو وعليهُمُ] بضم الميم من غير إشباع إلى الواو، و[عليهمْ] بسكون الميم، وقرأ الحسن، وعمرو بن فائد [عليهُمي]، وقرىء [عليهِمِ] بكسر الميم دون إشباع إلى الياء، وقرأ الأعوج [عليهِمُ] بكسر الهاء وضم الميم من غير إشباع. وهذه القراءات كلها بضم الهاء إلا الأخيرة، وبإزاء كل واحدة منها قراءة كسر الهاء فيجيء في الجميع عشر قراءات[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. واختلف القراء في الراء من (غير)، فقرأ نافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: بخفض الراء. وقرأ ابن كثير [غيرَ][(٤)] بالنصب، وروي عنه الخفض.

قال أبو علي: والخفض[(٥)] على ضربين: على البدل من (الذين)، أو على الصفة للنكرة، كما تقول: مررت برجل غيرك، وإنما وقع هنا صفة للذين لأن الذي هنا ليس بمقصود قصدهم[(٦)]، فالكلام بمنزلة قولك: إني لأمر بالرجل مثلك فأكرمه، قال:

---

(١) أسقط وطرح.

(٢) عثمان بن جني أبو الفتح النحويُّ من أحذق أهل الأدب، وأعلمهم بالنحو والتصريف، له عدة تآليف منها: «الخصائص»، و«سر الصناعة»، توفي سنة ٣٩٢ هـ.

(٣) خمسة مع ضم الهاء، وخمسة مع كسر الهاء، فخمسة ضم الهاء: عليهُمْ بسكون الميم عليهُمُ بضم الميم، عليهُمُو بإشباع الميم مضمومة، عليهُمِ بكسر الميم، عليهُمي بإشباع الميم المكسورة ـ وخمسة كسر الهاء: عليهِمْ بسكون الميم، عليهِمُ بضم الميم، عليهِمو بإشباع الميم المضمومة، عليهِم بكسر الميم، عليهِمي بإشباع الميم المكسورة، إلا أن ستة من هذه الحروف العشرة منقولة عن أئمة القراء وهي: عليهِمْ بكسر فسكون، وعليهُمْ بضم فسكون، وعليهِمو بكسر الهاء والإشباع، وعليهُمو بضم الهاء والإشباع، وعليهُمُ بضم الهاء والميم من دون إشباع، وعليهِمي بكسر الهاء والإشباع، والباقي منقول عن العرب، وليس مأثوراً عن القراء.

(٤) عبارة أبي (ح): (والجر في «غير» قراءة الجمهور، وروى الخليل عن ابن كثير النصب، وهي قراءة عمر، وابن مسعود، وعلي، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم». انتهى. وبه تعلم أن ابن كثير قرأ بالجر، وروي عنه النصب عكس ما قاله المؤلف رحمه الله.

(٥) على قراءة الخفض تكون بدلاً أو صفة، وعلى قراءة النصب تكون حالاً أو استثناءً أو مفعولاً.

(٦) أي قصد اهتمام، والاهتمام إنما يكون في الشيء المعين، والحاصل أن من نظر إلى تنكير (غير) من=

والنصب في الراء على ضربين: على الحال كأنك قلت: أنعمت عليهم لا مغضوباً عليهم، أو على الاستثناء كأنك قلت: إلا المغضوب عليهم، ويجوز النصب على: أعني، وحكي نحو هذا عن الخليل.

ومما يحتج به لمن ينصب ـ أنَّ (غير) نكرة، فكره أن يوصف بها المعرفة. والاختيار الذي لاخفاء به الكسر، وقد روي عن ابن كثير[1]، فأولى القراءتين ما لم يخرج عن إجماع قراء الأمصار. قال أبو بكر ابن السَّرَّاج[2]: «والذي عندي أن (غير) في هذا الموضع مع ما أضيف إليه معرفة». وهذا شيءٌ فيه نظر ولبس، فليفهم عني ما أقول: اعلم أن حكم كل مضاف إلى معرفة أن يكون معرفة، وإنما تنكرت (غير) و(مثل) مع إضافتهما إلى المعارف من أجل معناهما، وذلك إذا قلت: «رأيتُ غيرك»، فكل شيء سوى المخاطب فهو غيره، وكذلك إذا قلت: «رأيت مثلك» فما هو مثله لا يحصى، لكثرة وجوه المماثلة، فإنما صارا نكرتين من أجل المعنى، فأما إذا كان شيءٌ معرفة له ضد واحد وأردتَ إثباته، ونفي ضده، وعلم ذلك السامع فوصفته بغير وأضفت (غير) إلى ضده فهو معرفة، كقولك: «عليك بالحركة غير السكون»، وكذلك قوله: ﴿غير المغضوب﴾، لأن من أنعم عليه لا يعاقبه إلا من غضب عليه، ومن لم يغضب عليه فهو الذي أنعم عليه، فمتى كانت (غير) على هذه الصفة وقصد بها هذا المقصد فهي معرفة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أبقى أبو بكر (الذين) على حد التعريف، وجوّز نعتها بغير لما بينه من تعرّف (غير) في هذا الموضع، وغير أبي بكر وقف مع تنكر (غير)، وذهب إلى تقريب (الذين) من النكرة، إذ هو اسم شائع لا يختص به معين، وعلى هذا جوّز نعتها بالنكرة.

و﴿المغضوب عليهم﴾: اليهود، و﴿الضالون﴾ النصارى، هكذا قال ابن مسعود،

= دون تفصيل جعل (الذين) اسماً عاماً لتكون (غير) وصفاً لها. ومن نظر إلى أن (غير) هنا معرفة بمقتضى التفصيل الذي بيَّنه أبو بكر بن السراج رحمه الله، أبقى (الذين) على تعريفه، وما حققه ابن السراج هو الصواب الذي لا محيد عنه إن شاء الله، والله أعلم.

(١) تقدم أنه قراءة ابن كثير وأن النصب روي عنه.

(٢) هو محمد بن السري البغدادي النحوي، كان من أصحاب المبرد، وفيه ذكاء وفطنة، وقرأ عليه كتاب سيبويه، وبلغ الغاية في النحو، أخذ عنه أبو القاسم الزجاجي، والسيرافي، والفارسي، ولم تطل مدته فمات شاباً سنة ٣١٦ هـ.

وابن عباس، ومجاهد، والسُّدِّيُّ، وابن زيد، وروى ذلك عدي بن حاتم عن رسول الله ﷺ[١]، وذلك بيِّنٌ من كتاب الله تعالى، لأن ذكر غضب الله على اليهود متكرر فيه كقوله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[٢] وكقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾[٣] فهؤلاء في اليهود بدلالة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[٤]، والغضب عليهم هو من الله تعالى، وغضب الله تعالى عبارةٌ عن إظهاره[٥] عليهم محناً، وعقوبات، وذلةً، ونحو ذلك. مما يدل على أنه قد أبعدهم عن رحمته بعداً مؤكداً مبالغاً فيه. والنصارى كان محققوهم على شرعة قبل ورود شرع محمد ﷺ، فلما ورد ضلوا، وأما غير محققيهم فضلالهم متقرر منذ تفرقت أقوالهم في عيسى عليه السلام، وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[٦] قال مكي رحمه الله حكاية[٧]: دخلت (لا) في قوله: ﴿ولا الضالين﴾ لئلا يتوهم أن الضالين عطف على الذين، قال: وقيل: هي مؤكدة بمعنى غير. وحكى الطبري أن (لا) زائدة، وقال: هي هنا على نحو ما هي عليه في قول الراجز[٨]:

فما ألوم البيض ألا تسخرا ....

أراد: أن تسخر. وفي قول الأحوص[٩]:

(١) رواه الترمذي في جامعه، وأبو داود الطيالسي في مسنده، ويشهد لهذا التفسير آيات في كتاب الله تعالى تعبر بالضلال في حق النصارى، وبالغضب في حق اليهود.

(٢) من الآية (٦١) من سورة البقرة.

(٣) من الآية (٦٠) من سورة المائدة.

(٤) من الآية (٦٥) من سورة البقرة.

(٥) فالغضب صفة فعل، ويجوز أن يكون صفة ذات بمعنى إرادة ذلك.

(٦) من الآية (٧٧) من سورة المائدة.

(٧) عن غيره، وليس ذلك من بنات فكره.

(٨) تمامه. .لمَّا رأين الشَّمط القفندرا. وقائله أبو النجم العجلي، والقفندر القبيح الفاحش. قاله أبو عبيدة، وفي مجالس ثعلب، الشيب في القفا.

(٩) عبد الله بن محمد بن عاصم بن ثابت، ولقب بالأحوص لحوص كان في عينه، وكان جده عاصم بن ثابت الأنصاري يقال له حمي الدبر، وذلك أن المشركين لما قتلوه أرادوا أن يمثلوا به فحماه الله تعالى بالدبر فارتدعوا عنه حتى أخذه المسلمون فدفنوه، وكان رضي الله عنه قد عاهد الله تعالى ألا يمس مشركاً، ولا يمسه مشرك، فحماه الله تعالى منهم بعد وفاته. =

ويلحينني في اللهو ألاَّ أحبَّه ... وللَّهو داعٍ دائبٌ غير غافل

قال الطبري: يريد ويلحينني في اللهو أن أحبه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبيت الأحوص إنما معناه: إرادة ألا أحبه فـ(لا) فيه متمكنة[1].

قال الطبري: ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾[2]، وإنما جاز أن تكون (لا) بمعنى الحذف، لأنها تقدمها الجحد[3] في صدر الكلام، فسيق الكلام الأخير مناسباً للأول، كما قال الشاعر[4]:

ما كان يرضي رسول الله فعلهم ... والطَّيِّبان أبو بكر ولا عمر

وقرأ عمر بن الخطاب، وأبي بن كعب: [غير المغضوب عليهم وغير الضالين]، وروي عنهما في (الراء) النصب والخفض في الحرفين. قال الطبري: فإن قال قائل: أليس الضَّلال من صفة اليهود كما أن النصارى عليهم غضب؟ فلم خصَّ كلُّ فريقٍ بذكر شيءٍ مفرد؟ قيل: هم كذلك، ولكن وسم الله لعباده كلَّ فريق بما قد تكررت العبارة عنه، وفهم به أمره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا غير شاف، والقول في ذلك أن أفاعيل اليهود من اعتدائهم، وتعنتهم، وكفرهم، مع رؤيتهم الآيات، وقتلهم الأنبياء ـ أمور توجب الغضب في عرفنا، فسمَّى تعالى ما أحاط بهم غضباً، والنصارى لم يقع لهم شيءٌ من ذلك، إنما ضلوا من أول كفرهم، دون أن يقع منهم ما يوجب غضباً خاصاً بأفاعيلهم، بل هو الذي يعم كلَّ كافر

= والدَّبر: جماعة النحل، وقبل البيت:

ألا يالقومي قد أشطَّتْ عواذِلي ... ويَزْعُمْنَ أن أودي بِحقِّي بَاطلي

(١) أي نافية، لا زائدة.

(٢) من الآية (١٢) من سورة الأعراف.

(٣) الجحد: النفي، وكل ما سبق من الشواهد يتحقق فيه النفي إلا بيت الأحوص، فلذلك ناقشه المؤلف رحمه الله. ومحصل الكلام في (لا) أنها زائدة كما قاله الطبري، وقيل: إنها مؤكدة لئلا يتوهم أن (الضالين) معطوف على (الذين)، كما قاله مكي بن أبي طالب، وقيل: إنها بمعنى (غير) وهي قراءة عمر، وأبيّ رضي الله عنهما.

(٤) هو جرير بن عطية يهجو الأخطل وتغلب، وقبل البيت:

فما لِتغلِبَ إن عُدَّتْ مكارِمُهُم ... نَجمٌ يضيء، ولا شمسٌ ولا قَمَرُ

وإن اجتهد، فلهذا تقررت العبارة على الطائفتين بما ذكر.

وليس في العبارة بالضَّالِّين تعلق[١] للقدرية في أنهم أضلوا أنفسهم، لأن هذا إنما هو كقولهم: تهدَّم الجدار، وتحركت الشجرة، والهادم والمحرِّك غيرهما، وكذلك النصارى، خلق الله الضَّلال فيهم فضلُّوا بتكسُّبهم.

وقرأ أيوب السختياني[٢]: [الضألين] بهمزة غير ممدودة، كأنه فرَّ من التقاء الساكنين، وهي لغة. وحكى أبو زيد[٣] قال: سمعت عمرو بن عبيد يقرأ [فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جأن][٤]، فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب دأبة وشأبة. قال أبو الفتح: وعلى هذه اللغة قول كثير:

. . . . إذا ما العوالي بالعبيط احمأرّت[٥]

وقول الآخر[٦]:

ولـلأرض أمَّـا سُـودهـا فتجلَّلـت   بيـاضـاً، وأمـا بيضهـا فـادهـأمَّـت

---

(١) القدرية والمعتزلة يعتقدون أن قدرة الإنسان كافية في صدور الأفعال طاعةً أو معصية، فهو غير محتاج في صدورها عنه إلى ربه، ولذلك اشتهر عنهم أن العبد يخلق أفعاله، واعلم أن أشكل ما في علم الكلام ثلاث مسائل: مسألة كلام الله، ومسألة القدرة الاكتسابية، ومسألة الرؤية، فعليك باعتقاد الحق وترك الباطل.

(٢) هو ابن تميمة السختياني، أبو بكر البصري أحد الأئمة الأعلام، وكان يقول: من أحب أبا بكر فقد أقام الدين. ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل. ومن أحب عثمان فقد استغنى بنور الله، ومن أحب علياً فقد أخذ بالعروة الوثقى. ومن أحب الثناء على أصحاب محمد ﷺ فقد برىء من النفاق، ومن انتقص أحداً منهم فهو مبتدع مخالف للسُّنَّة والسلف الصالح، وأخاف ألا يصعد له عمل إلى السماء، توفي سنة ١٣١ هـ.

(٣) هو سعيد بن أوس بن ثابت بن النعمان بن مالك بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري، كان إماماً في النحو واللغة والأدب، روى عن أبي عمرو بن العلاء، وعمرو بن عبيد، وأبي عبيد القاسم بن سلام، وكان الأصمعي يحضر حلقته، ويقبل رأسه وله عدة تآليف: أشهرها (النوادر). توفي بالبصرة سنة ٢١٥هـ. وإذا أطلق (أبو زيد) في هذا التفسير فهو الأنصاري.

(٤) وردت في الأصل (. . . ولا جانّ) بدون همز وهذا خطأ والصحيح أنها بهمزة. وهذا ما عليه النسخ الأخرى.

(٥) هكذا يوجد في جميع النسخ، والذي في ديوان (كثير) المطبوع:

وأنـت ابـن ليلـى خيـر قـومـك مشهـداً   إذا مـا احمـأرَّت بـالعبيـط العـوامـل

من جملة قصيدة يمدح بها عبد العزيز بن مروان، فانظر ذلك. وعوالى الرماح أسنتها. وعوامل الرماح صدورها، وكُثيِّر هو ابن عبد الرحمن الخزاعي، صاحب عزَّة، المتوفىٰ سنة ١٠٥هـ.

(٦) هذا البيت من جملة قصيدة في رثاء عبد العزيز بن مروان.

وأجمع الناس على أن عدد آي سورة الحمد سبع آيات : العالمين : آية ـ الرحيم : آية ـ الدين : آية ـ نستعين : آية ـ المستقيم : آية ـ أنعمت عليهم : آية ـ ولاالضالين : آية .

وقد ذكرنا في تفسير ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ما ورد من خلاف ضعيف في ذلك .

* * *

القول في آمين

روى أبو هريرة وغيره عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا قال الإمام: ولا الضالين، فقولوا: آمين، فإن الملائكة في السماء تقول: آمين، فمن وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»(١). وروي «أن جبريل عليه السلام لما علَّم النَّبيَّ عليه السلام فاتحة الكتاب وقت نزولها فقرأها قال له: قل آمين»(٢). وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (آمين) خاتم رب العالمين، يختم به دعاء عبده المؤمن(٣). وروي «أن النبي ﷺ سمع رجلا يدعو فقال: أَوْجَبَ إن ختم، فقال له رجل: بأي شيء يختم يا رسول الله؟ قال: بآمين»(٤).

ومعنى آمين عند أكثر أهل العلم: اللهم استجب، أو أجب يا رب. ونحو هذا، قاله الحسن بن أبي الحسن وغيره، ونصَّ عليه أحمد بن يحيى ثعلب وغيره، وقال قوم: هو اسم من أسماء الله تعالى. روي ذلك عن جعفر بن محمد(٥)، ومجاهد، وهلال بن يساف(٦). وقد روي أن آمين اسم خاتم يطبع به كتب أهل الجنة التي تؤخذ بالأيمان(٧).

فمقتضى هذه الآثار أن كلَّ داع ينبغي له في آخر دعائه أن يقول: آمين. وكذلك كل قارئٍ للحمد في غير صلاة، لكن ليس بجهر التَّنزيل(٨)، وأما في الصلاة فقال بعض العلماء: يقولها كلُّ مصلٍّ من إمام وفذٍّ(٩) ومأموم قرأها أو سمعها، وقال مالك في

(١) رواه الشيخان وغيرهما.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة عن أبي ميسرة.

(٣) روى الطبراني في المعجم الكبير، وابن عدي في الكامل، عن ابن عباس أنَّ النبي ﷺ قال: «آمين خاتم رب العالمين على لسان عباده المؤمنين».

(٤) أخرجه أبو داود.

(٥) رواه ابن عباس عن النبي ﷺ، ولا يصح كما قاله أبو بكر بن العربي.

(٦) بفتح الياء أبو الحسن الكوفي الأشجعي، قاله في الخلاصة، وراجع المادة في القاموس.

(٧) روى ابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «آمين خاتم رب العالمين على عباده المؤمنين».

(٨) لأنها ليست من القرآن، فينبغي ألا يقرأ بصفة القرآن، كما ينبغي أن تكون بعد سكتة خفيفة فرقاً بينها وبينه، و(آمين) تمد لتطويل الصوت، وتقصر لكثرة الاستعمال.

(٩) أي: الفرد.

المدونة: لا يقول الإمام آمين، ولكن يقولها من خلفه ويخفون، ويقولها الفَذُّ. وقد روي عن مالك رضي الله عنه: أن الإمام يقولها أسرَّ أم جهر، وروي عنه أن الإمام لا يؤمّن في الجهر، وقال ابن حبيب: يؤمّن، وقال ابن بكير: هو مخيَّرٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا الخلاف إنما هو في الإمام، ولم يختلف في الفذ، ولا في المأموم. إلا أن ابن نافع قال في كتاب ابن حارث: لا يقولها المأموم إلا إن سمع الإمام يقول: «ولا الضالين»، وإذا كان ببعد لا يسمعه فلا يقول، وقال ابن عبدوس: يتحرى قدر القراءة ويقول: آمين.

وهي لفظة مبنية على الفتح لالتقاء الساكنين، وكان الفتح مع الياء أخفَّ من سائر الحركات، ومن العرب من يقول: آمين فيمدُّ، ومنه قول الشاعر[1]:

آمين آمين لا أرضى بواحدة ... حتى أبلغها ألفين آمينا

ومن العرب من يقول بالقصر، ومنه قول الشاعر:

تباعد منِّي فُطْحُلٌ إذْ سألْتُه ... أمِينَ فزادَ اللهُ ما بيننَا بُعْداً[2]

واختلف الناس في معنى قول النبي ﷺ: «فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة» فقيل: في الإجابة، وقيل: في خلوص النيَّة، وقيل: في الوقت[3]، والذي يترجَّح أن المعنى فمن وافق في الوقت مع خلوص النية والإقبال على الرغبة إلى الله بقلب سليم، والإجابة تتبع حينئذ لأن من هذه حاله فهو على الصراط المستقيم.

* * *

---

(١) قيس بن معاذ، مجنون ليلى العامرية. ورجح صاحب الأغاني أن اسم مجنون ليلى هو قيس بن الملوح. وفي رواية: (حتى أضيف إليها ألف آمينا).

(٢) هو لجبير بن الأضبط، كان قد سأل فطحلاً الأسدي فأعرض عنه، فدعا عليه. وفي رواية: (تباعد مني فطحل وابن أمّه)، أي أخوه، وفطحل ضبط بضمتين كهدهد، وبفتحتين كجعفر.

(٣) الحق كما قال المؤلف رحمه الله: أن الموافقة تعتبر في الزمن، وفي الإخلاص بحيث يكون القلب سالماً وجازماً، والإجابة تابعة لذلك إن شاء الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة البقرة

هذه السورة مدنية، نزلت في مدد شتى، وفيها آخر آية[١] نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، ويقال لسورة البقرة: (فسطاط القرآن) لعظمها وبهائها، وما تضمنت من الأحكام والمواعظ، وتعلَّمها عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بفقهها وجميع ما تحتوي عليه من العلوم في ثمانية أعوام[٢]، وفيها خمسمائة حكم[٣]، وخمسة عشر مثلاً، وروىٰ الحسن بن أبي الحسن أن رسول الله ﷺ قال: «أي القرآن أفضل؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: سورة البقرة»، ثم قال: «وأيها أفضل؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: آية الكرسي»[٤]، ويقال: إن آيات الرحمة والرجاء والعذاب تنتهي فيها معانيها إلى ثلاثمائة وستين معنى. وروي أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت سورة البقرة من الذِّكر الأول، وأعطيت طه والطواسين[٥] من ألواح موسى، وأعطيت فاتحة الكتاب وخواتم سورة البقرة من تحت العرش»[٦].

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «تجيء البقرة وآل عمران يوم القيامة كأنهما غيايتان بينهما شرق، أو غمامتان سودوان، أو كأنهما ظلَّةٌ من طير صواف تجادلان عن صاحبهما»[٧] وفي البخاري أنه عليه السلام قال: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[٨].

---

(١) نزلت يوم النحر في حجة الوداع كما قاله (ق).

(٢) تعلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة البقرة في اثنتي عشرة سنة، ولما ختمها نحر جزوراً شكراً لله تعالى، وفي الموطأ أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها. اهـ.

(٣) قال ابن العربي: سمعت بعض أشياخي يقول: فيها ألف أمر، وألف نهي، وألف حكم، وألف خبر.

(٤) رواه البغوي.

(٥) قال أهل اللغة: تجمع الطواسين، والطواسيم، والحواميم بذوات مضافاً إلى واحد، فيقال: ذوات طسم، وذوات طس، وذوات حم.

(٦) رواه أبو عبد الله الحاكم في المستدرك، عن معقل بن يسار رضي الله عنه.

(٧) رواه الإمام مسلم في صحيحه، عن أبي أمامة الباهلي في كتاب صلاة المسافرين وقصرها. والشرق: هو الضوء الذي يدخل من شق الباب.

(٨) هما: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى آخر السورة.

وروى أبو هريرة عنه ﷺ أنه قال: «البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشَّيطان»(١)، وروي عنه عليه السلام أنه قال: «لكل شيءٍ سنام، وسنام القرآن سورة البقرة، فيها آية هي سيدة آي القرآن، وهي آية الكرسي»(٢).

وعدد آي سورة البقرة مائتان وخمس وثمانون آية، وقيل: وست وثمانون آية، وقيل: وسبع وثمانون.

قوله تعالى:

﴿الٓمٓ ①﴾.

اختلف في الحروف التي في أوائل السور على قولين: قال الشعبي عامر بن شراحيل، وسفيان الثوري، وجماعة من المحدثين: هي: سر الله في القرآن، وهي من المتشابه(٣) الذي انفرد الله بعلمه، ولا يجب أن يتكلَّم فيها، ولكن نؤمن بها وتمرُّ كما جاءت.

---

(١) رواه الإمام مسلم، والترمذي، والنسائي، وغيرهم، من حديث سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي، عن أبي هريرة من حديث حكيم بن جبير، وفيه ضعف، وفي «الأحكام» لابن العربي المعافري ما نصه: وليس في فضلها «أي سورة البقرة» حديث صحيح إلا من طريق أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لاتجعلوا بيوتكم مقابر، وإنَّ البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله شيطان»، خرجه الترمذي. انتهى.

وفيه نظر: ففي صحيح الإمام مسلم من حديث أبي لبابة أن النبي ﷺ قال: «اقرؤوا سورة البقرة فإنَّ أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة» اهـ.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» رواه أصحاب الكتب الستة من حديث ابن مسعود، ولفظ الشيخين «في كل ليلة» بزيادة «كل»، قاله بعض شيوخنا.

(٣) الذي نعتقده وندين لله به، هو السكوت عن الكلام في مثل فواتح السور، مع الإيمان بأن لها حكمة تغيب عن عقلنا، وتبعد عن فهمنا ـ ولنا في ذلك سعة، فإن النبي ﷺ لم يبين معنى هذه الفواتح لأصحابه، وإن ما نقل عن الصحابة في ذلك قد لا يكون له سند صحيح ـ وإن العرب الذين نزل القرآن بلغتهم لم يتكلموا بشيءٍ من ذلك، ولا ينافي هذا أنهم قد يقتصرون على حرف، أو حرفين من الكلمة التي يريدون النطق بها فإنهم لم يعرفوا ذلك إلا بعد أن تقدمه ما يدل عليه، ويفيد معناه، وأين فواتح السور من هذا؟ فلم يبق إلا التفسير بالرأي المنهي عنه، وهذا ما ارتضاه كثير من الأئمة، كأبي إسحق الشاطبي، رحمه الله.

وقال الجمهور من العلماء: بل يجب أن يتكلم فيها، وتلتمس الفوائد التي تحتها، والمعاني التي تتخرج عليها، واختلفوا في ذلك على اثني عشر قولاً[١].

فقال علي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهما: الحروف المقطعة في القرآن هي اسم الله الأعظم، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها.

وقال ابن عباس أيضاً: هي أسماء الله أقسم بها.

وقال زيد بن أسلم: هي أسماء للسور.

وقال قتادة: هي أسماء للقرآن كالفرقان، والذكر.

وقال مجاهد: هي فواتح للسور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كما يقولون في أول الإنشاد لشهير القصائد: «بل ولا بل»، نحا هذا النحو أبو عبيدة والأخفش.

وقال قوم: هي حساب«أبي جاد»، لتدل على مدة ملة محمد ﷺ، كما ورد في حديث حييّ بن أخطب[٢]، وهو قول أبي العالية رفيع وغيره.

وقال قطرب وغيره: هي إشارة إلى حروف المعجم، كأنه يقول للعرب: إنما تحديتكم بنظم من هذه الحروف التي عرفتم، فقوله: ﴿ألم﴾ بمنزلة قولك: (أـ ب ـ ت ـ ث) لتدل بها على التسعة والعشرين حرفا.

وقال قوم: هي أمارة قد كان الله جعلها لأهل الكتاب أنه سينزِّل على محمد كتاباً في أول سور منه حروف مقطعة.

وقال ابن عباس: هي حروف تدل على «أنا الله أعلم»، «أنا الله أرى»، «أنا الله أفصِّل»[٣].

---

(١) سرد المؤلف رحمه الله هذه الأقوال كلها، ويوجد من بينها لابن عباس رضي الله عنهما ثلاثة أقوال.

(٢) رواه محمد بن اسحق بن يسار صاحب المغازي، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله، من طريق محمد بن السائب الكلبي، وهو ضعيف لا يحتج بما انفرد به ـ على أن الحديث نفسه يشهد بفساد هذا المعنى، انظر تفسير الشوكاني وابن (ك).

(٣) روى أبو الضحى عن ابن عباس في قوله (الم) أنا الله أعلم ـ (الر) أنا الله أرى. (ألص) أنا الله أفصّل ـ فالألف تؤدي معنى أنا، واللام يؤدي معنى الله، والميم تؤدي معنى أعلم، وهكذا.

وقال ابن جبير، عن ابن عباس: هي حروف كل واحد منها: إما أن يكون من اسم من أسماء الله، وإما من نعمة من نعمه، وإما من اسم ملك من ملائكته، أو نبي من أنبيائه.

وقال قوم: هي تنبيه كيا في النداء.

وقال قوم: روي أن المشركين لما أعرضوا[١] عن سماع القرآن بمكة نزلت ليستغربوها فيفتحوا لها أسماعهم، فيسمعون القرآن بعدها، فتجب عليهم الحجة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والصواب ما قاله الجمهور ـ أن تفسَّر هذه الحروف، ويلتمس لها التأويل، لأنَّا نجد العرب قد تكلمت بالحروف المقطَّعة نظماً لها ووضعاً، بدل الكلمات التي الحروف منها، كقول الشاعر:

قُلْنــا لهــا قِفــي فقــالــت: قــاف . . . .[٢]

أراد ـ قالت: وقفت. وكقول القائل[٣]:

بــالخَيْــرِ خَيْــراتٍ وإن شــراً فَــا ... ولا أريـــد الشَّـــر إلا أَنْ تَــــا

أراد: وإن شراً فشر، وأراد: إلا أن تشاء، والشواهد في هذا كثيرة، فليس كونها في القرآن مما تنكره العرب في لغتها، فينبغي إذا كان من معهود كلام العرب أن يُطلب تأويله ويُلْتمس وجهه.

---

(١) كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.

(٢) تمامه: (لاتحسبينا قد نسينا الإيجاف) وهو غير منسوب.

وبعده:

والنشــوات مــن معتــق صــاف ... وعــزف قينــات علينــا عــزاف

قائله: الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان عاملاً لعثمان على الكوفة، فاتهم بشرب الخمر، فأمر الخليفة بشخوصه إلى المدينة، وخرج في ركب، فنزل الوليد يسوق بهم، فقال: قلنا لها قفي إلخ البيتين. انظر شواهد الشافية والأغاني.

(٣) هو زهير كما في (ق). وقوله بالخير متعلق بمحذوف، أي أجزي بالخير خيرات. ونسبه ابن رشيق في العمدة إلى «نعيم بن أوس» يخاطب امرأته، ونسبه في «اللسان» لحكيم بن معيّة التميمي، وللقمان بن أوس بن ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن غنم.

والوقف على هذه الحروف على السكون لنقصانها، إلا إذا أخبرت عنها، أو عطفتها فإنَّك تعربها. وموضع (الٓمٓ) من الإعراب: رفعٌ على أنه خبر ابتداء مضمر، أو على أنه ابتداءٌ، أو نصبٌ بإضمار فعل، أو خفض بالقسم، وهذا الإعراب[١] يتجه الرفع منه في بعض الأقوال المتقدمة في الحروف، والنصب في بعض، والخفض في قول ابن عباس رضي الله عنهما: إنها أسماء لله أقسم بها.

قوله عز وجل:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾.

الاسم من (ذلك) الذال والألف، وقيل: الذال وحدها، والألف تقوية، واللام لبعد المشار إليه، وللتأكيد، والكاف للخطاب. وموضع (ذلك) رفعٌ كأنه خبر ابتداء[٢]، أو ابتداء وخبره بعده.

واختلف في (ذلك) هنا، فقيل: هو بمعنى هذا، وتكون الإشارة إلى هذه الحروف من القرآن، وذلك أنه قد يشار بذلك إلى حاضر تعلق به بعض الغيبة، وبهذا إلى غائب هو من الثبوت والحضور بمنزلة وقرب[٣].

وقيل: هو على بابه إشارة إلى غائب[٤]، واختلف في ذلك الغائب فقيل: ما قد كان نزل من القرآن، وقيل: التوراة والإنجيل، وقيل: اللوح المحفوظ، أي الكتاب الذي

---

(١) يعني أن من قال إنها أسماء للسور فمحلها عنده رفع على أنها خبر لمحذوف، أي: هذه (الٓمٓ) كما تقول: هذه سورة البقرة، أو على أنها مبتدأ والخبر بعده، كما تقول: زيد ذلك الرجل، أو محلها نصب، كما تقول اقرأ (الٓمٓ).

ومن قال إنها أسماء لله أقسم بها فموضعها عنده خفض، والله أعلم.

(٢) أي: هو ذلك الكتاب.

(٣) قال بعضهم: الإشارة للبعيد بذلك من باب العُرف لا من باب الوضع، ولذلك ترى العرب تستعمل كلاً من اسمي الإشارة مكان الآخر، وذلك موجود في كلامهم ومتداول بينهم قال أبو (ح): سمعت شيخنا أبا جعفر بن إبراهيم يقول: ذلك إشارة إلى الصراط في قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم: ذلك الصراط الذي سألتموه هو الكتاب. قال أبو (ح): وبهذا الذي ذكره الأستاذ يتبين وجه ارتباط سورة البقرة بسورة الحمد، وهذا القول أولى، لأنه إشارة إلى شيء سبق ذكره، لا إلى شيء لم يجر له ذكر اهـ.

(٤) ضعَّف هذا المذهب كثير من العلماء كما قاله ابن (ك).

هو القدر، وقيل: إن الله قد كان وعد نبيه أن ينزل عليه كتاباً لا يمحوه الماء، فأشار إلى ذلك الوعد[١]. وقال الكسائي: (ذلك) إشارة إلى القرآن الذي في السماء لم ينزل بعد، وقيل: إن الله قد كان وعد أهل الكتاب أن ينزل على محمد كتاباً، فالإشارة إلى ذلك الوعد، وقيل: إن الإشارة إلى حروف المعجم في قول من قال (آلمّ) حروف المعجم التي تحديتكم بالنظم منها[٢].

ولفظ (الكتاب) مأخوذ من كتبت الشيءَ إذا جمعته وضممت بعضه إلى بعض كَكُتَب[٣] الخرز ـ بضم الكاف وفتح التاء ـ وكتب الناقة.

ورفع (الكتاب) يتوجه على البدل، أو على خبر الابتداء، أو على عطف البيان.

ولا (ريب فيه) معناه: لا شك فيه، ولا ارتياب به، والمعنى: أنه في ذاته لا ريب فيه، وإن وقع ريب للكفار[٤].

وقال قوم: لفظ قوله: (لا ريب فيه) لفظ الخبر، ومعناه النهي، وقال قوم: هو عموم يراد به الخصوص، أي عند المؤمنين، وهذا ضعيف[٥]، وقرأ الزهري، وابن محيصن، ومسلم بن جندب، وعبيد ابن عمير: (فيه) بضم الهاء، وكذلك إليه وعليه، وبه، ونصله، ونوله. ما أشبه ذلك حيث وقع على الأصل، وقرأ ابن اسحق: (فيهو) بضم الهاء ووصلها بواو[٦].

و(هدى) معناه: رشاد وبيان، وموضعه من الإعراب: رفعٌ على أنه خبر (ذلك)، أو

---

(١) في صحيح الإمام مسلم أن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: «إنَّما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان».

(٢) هو قطرب وغيره كما سبق آنفاً، ويقال لحروف المعجم: حروف الهجاء، كما روي أنه قيل لأعرابي: أتقرأ القرآن؟ قال: والله ما هجوت منه حرفاً.

(٣) كتب السقاء كتباً خرزه بسيرين ـ وكتب الناقة ظأرها فخزم منخريها بشيء لئلا تشم البو، والكتبة بالضم السير يخرز به ـ أو الخرزة التي ضم السير وجهيها، الجمع كتب.

(٤) معنى نفي الريب عن الكتاب أنه ليس مظنة للريب في ذاته لعلو منزلته، وظهور معجزته، وليس معناه أنه لا يرتاب فيه أحد أصلاً.

(٥) أي لأن النفي عام، ولذلك كان (لاريب) منصوباً على التبرئة.

(٦) وقرأ ابن كثير (فيهي) بكسر الهاء ووصلها بالياء، وقرأ أبو عمرو البصري (فيه هدىً) بالإدغام.

خبر ابتداء مضمر، أو ابتداء وخبره في المجرور قبله[١]، ويصح أن يكون موضعه نصباً على الحال من (ذلك)، أو من (الكتاب)، ويكون العامل فيه معنى الإشارة، أو من (الضمير) في (فيه)، والعامل فيه معنى الاستقرار، وفي هذا القول ضعف.

وقوله[للمتقين]: اللَّفظ مأخوذٌ من وقى، وفعله اتَّقى على وزن افتعل، وأصله «للموتقيين»[٢]، استثقلت الكسرة على الياء فسكنت وحذفت للالتقاء، وأبدلت الواو تاءً على أصلهم في اجتماع الواو والتاء، وأدغمت التاء في التاء فصار «للمتقين»، والمعنى للذين يتقون الله تعالى[٣] بامتثال أوامره، واجتناب معاصيه، كان ذلك وقاية بينهم وبين عذاب الله[٤].

قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿يؤمنون﴾ معناه: يصدِّقون، ويتعدى بالباء، وقد يتعدى باللام كما قال تعالى:

---

(١) من القراء من يقف على قوله تعالى: [لا ريب]، ويبتدىء بقوله تعالى: [فيه هدى للمتقين]، كأن المعنى: ذلك الكتاب حقاً ـ والوقف على قوله تعالى: [لا ريب فيه] أولى لقوله تعالى في سورة السجدة ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال أبو (ح): والأولى جعل كل جملة مستقلة، فذلك الكتاب جملة، ولا ريب جملة، وفيه هدى للمتقين جملة، ولم تحتج إلى حرف عطف لأن بعضها آخذ بعنق بعض، فالأولى أخبرت بكمال الكتاب، والثانية أخبرت بنفي الريب عن الكتاب، والثالثة أثبتت هداية الكتاب للمتقين، وعلى ما ذكره المؤلف فجعل [هدى] خبر [ذلك]، أو خبر ابتداء مضمر أولى، لأن كون الكتاب هدى أبلغ من كونه فيه هدى، ويكون (فيه) من تمام ما قبله.

(٢) بياءين مخففتين، حذفت الكسرة من الياء الأولى لثقلها، ثم حذفت الياء للالتقاء فقوله: وسكنت أي الياء.

(٣) إنما خص الله هدايته بالمتقين ـ مع أن هداية الكتاب عامة ـ إظهاراً لكرامتهم، وإبرازاً لعبوديتهم، لأنهم هم الذين انتفعوا بمواهب الكتاب ومعارفه.

(٤) روى معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً «يا أيها النَّاس، اتخذوا تقوى الله تجارة يأتيكم الربح بلا بضاعة»، ثم قرأ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ الآية، وعن ابن عباس مرفوعاً «من سره أن يكون أكرم النَّاس فليتق الله» ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

وفي التنزيل ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾، وقد فسرت التقوى بأنواع من التفسير، وذلك كله مقبول كما للإمام (ط) رحمه الله.

﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾[١] وكما قال: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ ﴾[٢]، وبين التَّعديتين فرقٌ، وذلك أن التعدية باللام في ضمنها تعد بالباء يفهم من المعنى[٣].

واختلف القراء في همز ﴿يؤمنون﴾: فكان ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي يهمزون ﴿يؤمنون﴾ وما أشبهه مثل: يأكلون، ويأمرون، ويؤتون، وكذلك مع تحرك الهمزة مثل: يؤخركم، ويؤده، إلا أن حمزة كان يستحب ترك الهمز إذا وقف، والباقون يقفون بالهمز، وروى ورش عن نافع ترك الهمز في جميع ذلك. وقد روي عن عاصم أنه لم يكن يهمز الهمزة الساكنة، وكان أبو عمرو إذا أدرج القراءة، أو قرأ في الصلاة لم يهمز كل همزة ساكنة، إلا أنه كان يهمز حروفاً من السواكن بأعيانها ستذكر في مواضعها إن شاء الله.

وإذا كان سكون الهمزة علامة للجزم لم يترك همزها مثل: (ننسأها)، و(هيِّئْ لنا) وما أشبهه.

وقوله [بالغيب] ـ قالت طائفة: معناه يصدقون إذا غابوا وخلوا، لا كالمنافقين الذين يؤمنون إذا حضروا، ويكفرون إذا غابوا، وقال آخرون: يصدِّقون[٤] بما غاب عنهم مما أخبرت به الشرائع. واختلفت عبارة المفسرين في تمثيل ذلك فقالت فرقة: الغيب في هذه الآية الله عز وجل، وقال آخرون: القضاء والقدر. وقال آخرون: القرآن وما فيه من الغيوب. وقال آخرون: الحشر والصراط والميزان والجنة والنار. وهذه الأقوال لا تتعارض، بل يقع الغيب على جميعها[٥].

والغيب في اللغة: ما غاب عنك من أمر، ومن مطمئن الأرض الذي يغيب فيه داخله.

---

(١) من الآية (٧٣) من سورة آل عمران.
(٢) من الآية (٨٣) من سورة يونس.
(٣) أي دون العكس، فالتعدية بالباء لا تتضمن التعدية باللام.
(٤) يصدقون قولاً وفعلاً وعقداً بما غاب عنهم من الأخبار الشرعية.
والإيمان كلمة جامعة لكل ما يجب الإيمان به من المغيَّبات، وللذين آمنوا بالنبي ﷺ من دون أن يروه فضلٌ على غيرهم، كما جاء بذلك جملة من الأحاديث.
(٥) فهي من قبيل اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، كما قاله الشيخ ابن تيمية رحمه الله.

وقوله: ﴿يقيمون﴾ معناه: يظهرونها ويثبتونها[١] كما يقال: أقيمت السوق. وهذا تشبيه بالقيام من حالة خفاء قعود أو غيره، ومنه قول الشاعر[٢]:

وإذا يقال: أتيتم لم يبرحوا   حتَّى تقيم الخيل سوق طعان

ومنه قول الشاعر[٣]:

أقمنا لأهل العراقَين سوقَ الـ   ـضِراب فخَاسُوا وولَّوا جميعا

وأصل ﴿يقيمون﴾ يقومون، نقلت حركة الواو إلى القاف فانقلبت ياءً لكون الكسرة قبلها. و﴿الصلاة﴾ مأخوذة من صلَّى يصلي[٤] إذا دعا. كما قال الشاعر[٥]:

عليكِ مثلُ الذي صلَّيت فاغتمِضي   نوماً، فإنَّ لِجنبِ المرءِ مُضْطَجعا

ومنه قول الآخر[٦]:

لها حارسٌ لا يبرحُ الدَّهر بيتَها   وإن ذُبحتْ صلَّى عليها وزمزما

فلما كانت الصلاة في الشرع دعاءً انضاف إليه هيآت وقراءة سمّي جميع ذلك باسم

---

(١) أي: يذيعونها، ويحافظون على شروطها وفروضها الظاهرة والباطنة، فهي من قولهم: قام الحق أي ظهر وثبت. ومنه قول الشاعر:

وإذا يقال أتيتم لم يبرحوا   حتى تقيم الخيل سوق طعان

وقد جرت عادة الله في كتابه أنه لا يأمر بالصلاة ولا يمدح عليها إلا بلفظ الإقامة، ولم يذكر لفظ المصلي إلا في مقام المنافقين، إشارة إلى أن المصلّين كثير، والمقيمين قليل، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه (الحاج قليل والركب كثير).

(٢) هو مرار بن سعيد الفقعسي، كما في (خزانة الأدب) الجزء ٣ صفحة ٢٣٣ط بيروت.

(٣) هو أيمن بن خريم، من بني أسد، والبيت جاء في تفسير (ط) رحمه الله كذلك ـ وفي لسان العرب، وتفسير الزمخشري:

أقامت غزالة سوق الضِّرابِ   لأهل العراقين حولا قميطا

وغزالة: امرأة شبيب الخارجي الذي قتله الحجاج، فحاربته سنة كاملة. وسوق الضراب، كناية عن ميدان القتال. وخاسوا: ذلُّوا ـ ويروى (فخاموا) ومعناها: جبنوا. وقميطاً: تامّا.

(٤) صلاة، ولا يقال صلى تصلية كما في كتب اللغة.

(٥) هو الأعشى المعروف يخاطب بنته ـ وقبله:

تقول بنتي وقد قربت مرتحلا   يا رب جنِّب أبي الأوصاب والوجعا

(٦) هو الأعشى أيضاً. وذبحت: أي شق إناؤها أو ثقب. وزمزم: صوّت من بعيد تصويتاً له دوي غير واضح، ويقال: زمزم الأعجمي عند الأكل والشرب: رطن وهو مطبق فاه. وصوَّت بصوت مبهم يديره في خيشومه وحلقه، لا يحرك فيه لساناً ولا شفة.

الدعاء، وقال قوم: هي مأخوذة من الصّلا وهو عرق وسط الظهر ويفترق عند العجب فيكتنفه، ومنه أخذ المصلي في سبق الخيل لأنه يأتي مع صلوى السابق، فاشتقّت الصلاة منه، إما لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بالمصلي من الخيل، وإما لأن الراكع والساجد ينثني صلواه[١].

والقول إنها من الدعاء أحسن.

وقوله تعالى: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ كتبت (مما) متصلة، و(ما) بمعنى الذي فحقُّها أن تكون منفصلة، إلا أن الجار والمجرور كشيءٍ واحد، وأيضاً فلما خفيت نون (منْ) في اللفظ حذفت في الخط، و(الرِّزق) عند أهل السُّنَّة ما صح الانتفاع به حلالا كان أو حراماً، بخلاف قول المعتزلة: إن الحرام ليس برزق[٢]. و﴿يُنفِقُونَ﴾ معناه هنا: يؤتون ما ألزمهم الشرع من زكاة، وما ندبهم إليه من غير ذلك.

قال ابن عباس: ينفقون: يؤتون الزكاة احتساباً لها. قال غيره: الآية في النفقة في الجهاد.

قال الضحاك: هي نفقة كانوا يتقربون بها إلى الله عز وجل على قدر يسرهم. قال ابن مسعود، وابن عباس أيضاً: هي نفقة الرجل على أهله. والآية تعم الجميع، وهذه الأقوال تمثيل لا خلاف[٣].

قوله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾.

---

(١) (الصَّلا): جانب الذَّنب عن يمينه وشماله، وهما صلوان، ووسط الظهر من الإنسان والدواب، والجمع أصلاء، والمصلي من خيل السباق: الذي يتلو السّابق.

(٢) أي بناء على أن الرزق ما يملك لا ما يصح الانتفاع به، ومن ثمَّ كان الحرام عندهم ليس برزق، وعليه فمن عاش في الحرام فليس لله عليه رزق، والنصوص تأبى ذلك وتمنعه.

(٣) فإطلاق النفقة يدل على العموم، فلا فرق بين نفقة الفرض ونفقة النفل، ولا بين النفقة على الأقارب والنفقة على الأجانب، وكذلك الصلاة تشمل الفرائض والنوافل، فإن المتقين يفعلون ذلك جميعاً، و﴿من﴾ في قوله تعالى: ﴿ومما رزقناهم﴾ تبعيضية، إشارة إلى أنه ينفق من ماله ويترك لنفسه، ولعياله، وهذا هو العدل.

اختلف المتأولون[(١)] فيمن المراد[(٢)] بهذه الآية، وبالتي قبلها، فقال قوم: الآيتان جميعاً في جميع المؤمنين، وقال آخرون: هما في مؤمني أهل الكتاب، وقال آخرون: الآية الأولى في مؤمني العرب، والثانية في مؤمني أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وفيه نزلت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الأقوال لا تتعارض، فمن جعل الآيتين في صنف واحد، فإعراب (الذين) خفض على العطف، ويصحُّ أن يكون رفعاً على الاستئناف أي (وهم الَّذين)، ومن جعل الآيتين في صنفين فإعراب (الذين) رفعٌ على الابتداء، وخبره ﴿أولئك على هدى﴾.

وقوله: ﴿بما أنزل إليك﴾ يعني القرآن، ﴿وما أنزل من قبلك﴾ يعني الكتب السالفة، وقرأ أبو حيوة، ويزيد بن قطيب [بما أَنْزَل] و[ما أَنْزَل] بفتح الهمزة فيهما خاصة، والفعل على هذا يحتمل أن يسند إلى الله تعالى، ويحتمل إلى جبريل، والأول أظهر وألزم.

و﴿بالآخرة﴾[(٣)] قيل: معناه: بالدار الآخرة، وقيل: بالنشأة الآخرة.

و﴿يوقنون﴾ معناه: يعلمون علماً متمكناً في نفوسهم، واليقين أعلى درجات العلم، وهو الذي لا يمكن أن يدخله شك بوجه.

وقول مالك رحمه الله: «فيحلف على يقينه ثم يخرج الأمر على خلاف ذلك»، تجوُّز في العبارة على عرف تجوّز العرب، ولم يقصد[(٤)] تحرير الكلام في اليقين.

---

(١) أي المفسرون، فإن التأويل والتفسير شيءٌ واحد عند المحققين، ومن ثمَّ يقول أكثر علماء التفسير: القول في تأويل قوله تعالى كذا، وعلى رأسهم الإمام محمد بن جرير الطبري رحمه الله تعالى، والمؤلف رحمه الله كثيراً ما يطلق التأويل على التفسير.

(٢) أي فيمن نزلت، أفي المؤمنين جميعاً أم في مؤمني أهل الكتاب؟

(٣) ذكر الآخرة بعد قوله: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ مع أن الغيب يشمل الآخرة وغيرها ـ كان لعظمها، وللتنبيه على وجوب اعتقادها، وللرد على الكفرة الجاحدين لها.

(٤) أي لأن اليقين وهو أعلى درجات العلم لا يمكن أن يخرج على خلاف المتيقن، وإنما المراد به في عبارات الفقهاء الظن، وكما يعبر عن الظن باليقين، كذلك يعبر عن اليقين بالظن، وذلك على سبيل المجاز. قال أبو القاسم الجنيد: اليقين هو استقرار العلم، وقال أيضاً: اليقين ارتفاع الريب في مشهد الغيب.

وقوله تعالى: ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين و (أولاء) جمع (ذا)، وهو مبني على الكسر، لأنه ضعف لإبهامه على قوة الأسماء، وكان أصل البناء السكون، فحرك[١] لالتقاء الساكنين، و(الكاف) للخطاب، و(الهدى) هنا[٢] الإرشاد، و﴿أولئك﴾ الثاني ابتداءٌ، و﴿المفلحون﴾ خبره، و﴿هم﴾ فصل، لأنه وقع بين معرفتين، ويصح أن يكون ﴿هم﴾ ابتداءً و﴿المفلحون﴾ خبره، والجملة خبر ﴿أولئك﴾.

والفلح[٣]: الظفر بالبغية، وإدراك الأمل، ومنه قول لبيد[٤]:

واعقلي ـ إن كُنْتِ لمَّا تعقِلي ـ ولقدْ أفلَح من كانَ عَقَلْ

وقد وردت للعرب أشعار فيها الفلاح بمعنى البقاء كقوله:

. . . . ونرجو الفلاحَ بعد عادٍ وحِمْيَر[٥]

وكقول الأضبط:

لكلِّ همٍّ من الهموم سَعَةْ والصُّبحُ والمُسْيُ لا فلاحَ مَعَهْ[٦]

والبقاء يعقبه إدراك الأمل والظفر بالبغية، إذ هو رأس ذلك وملاكه، وحكى الخليل الفلاح على المعنيين.

---

(١) أي وكانت الحركة كسرة لما ذكره المؤلف رحمه الله.

(٢) سبق له في شرح ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أن الهدى في هذه الآية معناها خلق الإيمان في القلب، إلا أنه قال هناك: الهدى تتصرف في الكلام على وجوه وكلها ترجع إلى معنى الإرشاد، فقوله: ﴿على هدى﴾ أي على نور وبصيرة، بإرشاده تعالى وتوفيقه، وفي قوله تعالى: ﴿من ربهم﴾، دون أن يقال من أنفسهم رد على القدرية والمعتزلة.

(٣) الفلح: لغة في الفلاح.

(٤) راجع ديوانه.

(٥) هو للبيد بن ربيعة ـ وصدر البيت: نحلُّ بلاداً كلُّها حلَّ قبلنا. . .

(٦) هو الأضبط بن قريع السعدي، وبعد البيت المذكور:

فَصِلْ حبالَ البعيدِ إنْ وصلَ الـ ـحبلَ وأقصِ القريبَ إن قطعَهْ
لاتحقرنَّ الفقيرَ علَّك أن تركَع يوماً والدهرُ قد رفَعهْ
وارضَ من الدهرِ ما أتاكَ به من يرض يوماً بعيشه نَفَعَهُ
قد يجمعُ المالَ غيرُ آكله ويأكلُ المالَ غيرُ من جَمَعَهْ

ومعنى البيت الأول: إنه ليس مع كرّ الليل والنهار بقاء.

قوله عز وجل:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

معنى الكفر[١] مأخوذ من قولهم: كفر إذا غطى وستر، ومنه قول الشاعر:

. . . . في ليلة كفر النُّجوم غمامها[٢]

أي سترها، ومنه سمي الليل كافراً لأنه يغطي كل شيءٍ بسواده، قال الشاعر:

فتذكَّرا ثقلاً رثيداً بعدما ألقت ذكاء يمينها في كافر[٣]

ومنه قيل للزراع: كفَّار، لأنهم يغطون الحب.

فكفر في الدين معناه: غطى على قلبه[٤] بالرين عن الإيمان، أو غطى الحق بأقواله وأفعاله.

واختلف فيمن نزلت هذه الآية بعد الاتفاق على أنها غير عامة، لوجود الكفار قد أسلموا بعدها، فقال قوم: هي فيمن سبق في علم الله أنه لا يؤمن، أراد الله تعالى أن يعلم أنَّ في الناس من هذه حاله دون أن يعيِّن أحدٌ[٥]. وقال ابن عباس: نزلت هذه الآية في حييِّ بن أخطب، وأبي ياسر بن أخطب، وكعب بن الأشرف ونظرائهم، وقال الربيع بن أنس: نزلت في قادة الأحزاب[٦] وهم أهل القليب ببدر.

---

(١) الكفر في الدين: كفر التوحيد والإيمان، وكفر النعمة والإحسان، والمراد هنا الأول.

(٢) البيت من معلقة لبيد بن ربيعة وصدره:

يعلو طريقة متنها متواترا . . . .

(٣) هو لثعلبة بن صعيرة المازني يصف النعامة والظليم ورواحهما إلى بيضهما عند غروب الشمس، والثقل هنا: البيض المصون، والرَّثيد المنسق بعضه إلى بعض، وذكاء اسم للشمس، وألقت يمينها في كافر: عبارة عن كونها بدأت في المغيب.

(٤) في هذه الفقرة قلق فقوله (على قلبه) مربوط بالرين، وقوله(عن الإيمان) معلق بغطى والمعنى أنه غطى قلبه عن الإيمان بما كسبه من الرين.

(٥) في بعض النسخ: دون أن يعيِّن أحداً.

(٦) أي أحزاب الكفر، روى ابن جرير، وابن المنذر، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا﴾ قال: نزلت هاتان الآيتان في قادة الأحزاب، وهم الذين ذكرهم الله في هذه الآية ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا﴾ قال: فهم الذين قتلوا يوم بدر، ولم يدخل من القادة في الإسلام إلا رجلان: أبو سفيان، والحكم بن العاص.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هكذا حكي هذا القول، وهو خطأٌ، لأن قادة الأحزاب قد أسلم كثير منهم، وإنما ترتبت الآية في أصحاب القليب، والقول الأول مما حكيناه هو المعتمد عليه، وكل من عيَّن أحداً فإنما مثَّل بمن كشف الغيب ـ بموته على الكفر ـ أنه في ضمن الآية.

وقوله: ﴿سواءٌ عليهم﴾، ومعناه: معتدل عندهم[1]، ومنه قول الشاعر[2]:

وليلٍ يقول من ظلماته سواءٌ صحيحات العيون وعورها

قال أبو علي: في اللفظة أربع لغات: سوى[3] «بكسر السين»، وسواءٌ «بفتحها والمد»، وهاتان لغتان معروفتان، ومن العرب من يكسر السين ويمدُّ، ومنهم من يضم أوله ويقصره، وهاتان اللغتان أقل من تينك، ويقال: سيي بمعنى سواء كما قالوا: قيي[4] وقواء.

و﴿سواءٌ﴾ رفع على خبر إن، أو رفع على الابتداء[5] وخبره فيما بعده، والجملة خبر إن، ويصح أن يكون خبر إن ﴿لايؤمنون﴾. وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، ونافع: [آنذرتهم] بهمزة مطولة[6]، وكذلك ما أشبه ذلك في جميع القرآن، وكذلك كانت قراءة

(١) اعتدل الشيء توسط بين حالين، وتناسب، واستوى، فسواء بمعنى مستوٍ.

(٢) هو أعشى قيس، الملقب بالأعشى الأكبر.

(٣) منه قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ قرىء في السَّبع «بالكسر والضم».

(٤) القيي والقواء قفر الأرض.

(٥) الكلام محمول على المعنى، فسواء وإن كان مبتدأ في اللفظ فهو خبر في المعنى، أي «الإنذار أو عدمه سواء عليهم». كقولك: سواء عليّ أقمت أم قعدت ـ أي «قعودك أو قيامك سواء علي».

(٦) اعلم أن القراء اختلفوا في الهمزة الثانية التي هي فاء الكلمة من قوله تعالى: [أأنذرتهم] فقالون والبصري يسهلانها ويدخلان بين الهمزتين ألفاً. وورش وابن كثير يسهلانها من غير إدخال، ولورش إبدالها ألفاً فيلتقي مع سكون النون، إلا أن المدّ لازم في هذه الحالة. والباقون يحققون من غير إدخال، إلا هشاماً فله التحقيق والتسهيل مع الإدخال. ولقد طعن الزمخشري في قراءة ورش من حيث إنها تؤدي إلى الجمع بين الساكنين على غير حدّه، ولا شاهد له على ذلك.

والحق أن هذه القراءة صحيحة ومتواترة، وهذا أقوى شاهد على ذلك ـ وأيضاً فقد أجاز الكوفيون ذلك، ويكفي مذهبهم في ذلك، ومن هنا أنبّه إلى أن الزمخشري ـ سامحه الله ـ كثير الطعن في القراءات، فلا تحفل بكلامه في هذا المقام، ولا تخدعنك شقشقة الكلام. والتوفيق بيد الله تعالى.

الكسائي إذا خفف، غير أن مدَّ أبي عمرو أطول من مدِّ ابن كثير لأنه يدخل بين الهمزتين ألفاً، وابن كثير لا يفعل ذلك، وروى قالون، وإسماعيل بن جعفر، عن نافع إدخال الألف بين الهمزتين مع تخفيف الثانية، وروى عنه ورش تخفيف الثانية بين بين دون إدخال ألف بين الهمزتين، فأما عاصم وحمزة والكسائي ـ إذا حقق ـ وابن عامر، فبالهمزتين ﴿أأنذرتهم﴾، وما كان مثله في كل القرآن، وقرأ ابن عباس، وابن أبي إسحق بتحقيق الهمزتين، وإدخال ألف بينهما. وقرأ الزهري، وابن محيصن [أنذرتهم] بحذف الهمزة الأولى، وتدل [أم] على الألف المحذوفة.

وكثر مكي في هذه الآية بذكر جائزات لم يقرأ بها، وحكاية مثل ذلك في كتب التفسير عناءٌ.

والإنذار إعلام بتخويف، هذا حدُّه، وأنذرت فعل يتعدى إلى مفعولين، قال الله عز وجل ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[1] وقال: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾[2] وأحد المفعولين في هذه الآية محذوف لدلالة المعنى عليه. وقوله تعالى: ﴿أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه الخبر، وإنما جرى عليه لفظ الاستفهام لأن فيه التسوية التي هي في الاستفهام، ألا ترى أنك إذا قلت مخبراً: سواءٌ عليّ أقعدت أم ذهبت، وإذا قلت مستفهماً: أخرج زيد أم قام؟ فقد استوى الأمران عندك، هذان في الخبر، وهذان في الاستفهام، وعدم علم أحدهما بعينه، فلما عمتهما التسوية جرى على هذا الخبر لفظ الاستفهام لمشاركته إياه في الإبهام، وكل استفهام تسوية، وإن لم تكن كل تسوية استفهاماً[3].

وقوله تعالى: ﴿ختم الله﴾ مأخوذ من الختم وهو الطبع، والخاتم الطابع، وذهبت طائفة من المتأولين إلى أن ذلك على الحقيقة، وأن القلب على هيئة الكف ينقبض مع

---

(١) من الآية (١٣) من سورة فصلت.

(٢) من الآية (٤٠) من سورة النبأ.

(٣) قال أبو عبيدة في كتاب «مجاز القرآن» في هذه الآية الكريمة ـ هذا كلام هو إخبار خرج مخرج الاستفهام، وليس هذا إلا في ثلاثة مواضع هذا أحدها والثاني: «ما أبالي أقبلت أم أدبرت». والثالث: «ما أدري أوليّت أم جاء فلان». انتهى، وقد أثنى أبو (ح) رحمه الله على ما قاله ابن عطية إلا أنه ناقشه في قوله: ومعناه الخبر، انظره وتأمله. وكما يجيء الاستفهام بمعنى الخبر يأتي الخبر بمعنى الاستفهام كقوله تعالى: ﴿وتلك نعمة تمنها عليَّ أن عبَّدت بني إسرائيل﴾.

زيادة الضلال والإعراض إصبعاً إصبعاً[(١)]، وقال آخرون: ذلك على المجاز، وأن ما اخترع[(٢)] الله في قلوبهم من الكفر والضلال والإعراض عن الإيمان سماه ختماً. وقال آخرون ممن حمله على المجاز[(٣)]: الختم هنا أسند إلى الله تعالى لمَّا كفر الكافرون به، وأعرضوا عن عبادته وتوحيده، كما يقال: أهلك المال فلاناً، وإنما أهلكه سوء تصرفه فيه[(٤)]. وقرأ الجمهور ﴿وعلى سمعهم﴾، وقرأ ابن أبي عبلة [وعلى أسماعهم]، وهو في قراءة الجمهور مصدر يقع للقليل والكثير، وأيضاً فلما أضيف إلى ضمير جماعة دلَّ المضاف إليه على المراد، ويحتمل أن يريد على مواضع سمعهم فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. و(الغشاوة): الغطاء المغشِّي الساتر. ومنه قول النابغة:

هـلاَّ سـألـتِ بني ذبيـانَ مـا حَسَبي ... إذا الدخانُ تغشَّى الأشمط البَرَما[(٥)]

وقال الآخر[(٦)]:

تبعتــك إذ عينــي عليهــا غشــاوةٌ ... فلمَّا انجلت قَطَّعتُ نفسي ألومها

ورفع ﴿غشاوةٌ﴾ على الابتداء، وما قبله خبر. وقرأ عاصم فيما روى المفضل الضبي عنه ﴿غشاوةً﴾ بالنصب على تقدير: وجعل على أبصارهم غشاوةً، والختمُ ـ على هذا التقدير ـ في القلوب والأسماع، والغشاوة على الأبصار، والوقف على قوله: [وعلى سمعهم]، وقرأ الباقون (غشاوةٌ) بالرفع، قال أبو علي: وقراءة الرفع أولى؛ لأن النصب: إما أن تحمله[(٧)] على ختم الظاهر فيعترض في ذلك أنك حلت بين حرف

---

(١) إسناد الختم إلى الله تعالى جار على أن جميع الحوادث تستند إليه تعالى من حيث الخلق والإيجاد، وورود الآية الكريمة ناعية على الكفرة سوء تصرفهم وقبح سلوكهم لكون أفعالهم من حيث الكسب مستندة إليهم، والمعتزلة تكلفوا مسلك التأويل في هذا المقام، وأكثروا من القول والكلام جرياً وراء مذهبهم من أن المنع من الإيمان قبيح لا يليق به تعالى. وأهل الحق يقولون: الله خلق كل شيء، كما نطق بذلك القرآن، فهو خالق الخير والشر.

(٢) أي خلق، يقال: اخترع الله الكائنات ابتدعها من العدم، وتلك من عبارة ابن عطية رحمه الله في هذا التفسير.

(٣) المجاز الأول مجاز الاستعارة، والمجاز الثاني مجاز الإرسال، تأمل.

(٤) بمعنى أن الذي ختم على قلوبهم وعلى سمعهم هو سوء كسبهم، وفساد عقلهم.

(٥) الأشمط الذي خالطه الشيب، والبَرَمُ (بالتحريك) الذي لا يدخل مع القوم في الميسر. والنابغة اسمه زياد بن معاوية.

(٦) هو الحارث بن خالد المخزومي كما في لسان العرب. وفي رواية صحبتك بدل تبعتك.

(٧) بحيث تقول: ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وغشى على أبصارهم، على أن غشاوة مصدر نائب=

العطف والمعطوف به، وهذا عندنا إنما يجوز في الشعر، وإما أن تحمله على فعل يدل عليه ختم تقديره: وجعل على أبصارهم، فيجيء الكلام من باب:

. . . . متقلـــداً سيفـــاً ورمحـــاً[١]

وقول الآخر:

. . . . علفتهـــا تبنـــاً ومـــاءً بـــارداً[٢]

ولا تكاد تجد هذا الاستعمال في حال سعة واختيار، فقراءة الرفع أحسن، وتكون الواو عاطفةً جملةً على جملة، قال: ولم أسمع من الغشاوة فعلا مصرفاً بالواو، فإذا لم يوجد ذلك وكان معناها معنى ما اللام منه الياء من غشي يغشى بدلالة قولهم: الغشيان، فالغشاوة من غشى كالجباوة[٣] من جبيت في أن الواو كأنها بدل من الياء إذ لم يصرف منه فعل كما لم يصرف من الجباوة.

وقال بعض المفسرين: الغشاوة على الأسماع والأبصار ـ والوقف في قوله: [على قلوبهم]، وقال آخرون: الختم في الجميع، والغشاوة هي الخاتم[٤].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد ذكرنا[٥] اعتراض أبي علي على هذا القول.

وقرأ أبو حيوة [غَشْوةٌ] بفتح الغين والرفع، وهي قراءة الأعمش، وقال الثوري: كان أصحاب عبد الله يقرؤونها [غَشْيَةٌ] بفتح الغين والياء والرفع، وقرأ الحسن [غُشاوة] بضم الغين، وقرئت [غَشاوة] بفتح الغين، وأصوب هذه القراءات المقروء بها ما عليه السبعة من كسر الغين على وزن (عِمامة)، والأشياء التي هي أبداً مشتملة هكذا يجيء

= عن الفعل، وهذا إنما يكون في الدعاء لا في الخبر، وذلك ما يناسب المذهب الاعتزالي لأبي علي الفارسي الذي كان متهماً به.

(١) قائله عبد الله بن الزبعري كما في الكامل للمبرد، وأوله.

يـــا ليـــت زوجـــك قـــد غـــدا . . . .

أي وحاملا رمحا، وفي رواية: ورأيت زوجك في الوغى.

(٢) صـدره: لمَّـا حططـت الـرَّحـل عنهـا واردا . . . .

وقد قيل: إنه لذي الرمة.

(٣) بالجيم والباء من قولهم: جبى الخراج كرمى وسعى، جباية وجباوة بكسر الجيم فيهما.

(٤) في بعض النسخ هي الختم.

(٥) أي في مبحث قراءة من نصب غشاوة.

وزنها كالضمامة والعمامة والكتابة والعصابة والربابة وغير ذلك[١].

وقوله تعالى: ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ معناه: بمخالفتك يا محمد، وكفرهم بالله، استوجبوا ذلك، و[عظيم] معناه بالإضافة إلى عذاب دونه يتخلله فتور، وبهذا التخلل المتصور يصح أن يتفاضل العرضان كسوادين: أحدهما أشبع من الآخر إذ قد تخلل الآخر ما ليس بسواد.

قوله عز وجل:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

كان أصل النون أن تكسر للالتقاء، لكنها تفتح مع الألف واللام، ومن قال استثقلت كسرتان تتوالى في كلمة على حرفين فمعترض بقولهم: من ابنك ومن اسمك وما أشبهه، واختلف النحويون في لفظة [النَّاس]، فقال قوم: هي من نسي، فأصل ناس نسي قُلِب فجاء نيس، تحركت الياءُ وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً فقيل: ناس، ثم دخلت الألف واللام، وقال آخرون: ناس اسم من أسماء الجموع دون هذا التعليل دخلت عليه الألف واللام. وقال آخرون: أصل ناس أناس، دخلت الألف واللام في الأناس حذفت الهمزة فجاء الناس، أدغمت اللام في النون لقرب المخارج.

وهذه الآية نزلت في المنافقين[٢].

وقوله تعالى: ﴿من يقول آمنَّا بالله﴾ رجع من لفظ الواحد إلى لفظ الجمع بحسب لفظ [من] ومعناها، وحسن ذلك، لأن الواحد قبل الجمع في الرتبة، ولا يجوز أن

---

(١) تعليل لأرجحية الكسر، يعني أن العرب تستعمل مثل هذا الوزن في كل ما كان مشتملا على شيء كالعمامة والقلادة والكتابة وما شابه ذلك.

(٢) بدأ سبحانه سورة البقرة بذكر المؤمنين، وبيان صفاتهم لفضلهم وشرفهم، ثم أتبعهم بذكر الكافرين لأن الكفر ضد الإيمان، وضد الشيء أقرب خطوراً بالبال، وأخَّر ذكر المنافقين لأنهم جمعوا بين الإيمان ظاهراً والكفر باطناً، ولما كان المنافقون يشتبهون على الناس في أمرهم، لتلونهم، وكثرة صفات نفاقهم، أطنب سبحانه في ذكرهم بصفات متعددة، كل منها نفاق، كما أنزل فيهم سورة (براءة) وسورة (المنافقون)، وذكر منهم في سورة (النور)، والغرض من ذلك تنبيه المؤمنين ليحترزوا من مكايدهم، وليجتنبوا صفاتهم ـ والنفاق وهو من الألفاظ الإسلامية نفاق اعتقادي، ونفاق عملي، والمراد هنا الأول.

يرجع متكلم من لفظ جمع إلى توحيد، لو قلت: «ومن الناس من يقومون ويتكلم» لم يجز. وسمى الله تعالى يوم القيامة اليوم الآخر لأنه لا ليل بعده، ولا يقال يوم إلا لما تقدَّمه ليل، ثم نفى تعالى الإيمان عن المنافقين، وفي ذلك رد على الكرَّامية[١] في قولهم: «إن الإيمان قول باللسان وإن لم يعتقد بالقلب».

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿يخادعون الله﴾، فقال الحسن بن أبي الحسن: المعنى يخادعون رسول الله، فأضاف الأمر إلى الله تجوُّزا[٢] لتعلق رسوله به، ومخادعتهم هي تحيُّلُهم في أن يفشي رسول الله والمؤمنون لهم أسرارهم فيتحفظون بما يكرهونه، ويتنبهون من ضرر المؤمنين على ما يحبونه. وقال جماعة من المتأولين: بل يخادعون الله والمؤمنين، وذلك بأن يظهروا من الإيمان خلاف ما أبطنوا من الكفر، ليحقنوا دماءهم، ويحرزوا أموالهم، ويظنون أنهم قد نجوا وخدعوا وفازوا، وإنما خدعوا أنفسهم، لحصولهم في العذاب، وما شعروا لذلك.

واختلف القراء في ﴿يخدعون﴾ الثاني، فقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو [يخادعون]، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي ﴿وما يخدعون﴾، وقرأ أبو طالوت عبد السلام بن شداد، والجارود بن أبي سبرة [يُخدعون] بضم الياء[٣]، وقرأ قتادة، ومورق العجلي[٤] [يُخَدِّعون] بضم الياء وفتح الخاء وكسر الدال وشدّها، فوجه قراءة ابن كثير ومن ذكر إحراز تناسب اللفظ، وأن يسمَّى الفعل الثاني باسم الفعل الأول المسبَّب له، ويجيء ذلك كما قال الشاعر[٥]:

ألا لايَجْهلَنْ أحدٌ علينا … فنجهل فوقَ جهلِ الجاهلينا

---

(١) بفتح الكاف وتشديد الراء نسبة إلى أبي عبد الله محمد بن كرّام السجستاني ـ وقولهم هذا استندوا فيه إلى قوله تعالى: ﴿فأثابهم الله بما قالوا﴾ وإلى قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل النّاس حتى يقولوا لا إله إلا الله» وهذا منهم جمود، وترك للنظر فيما نطق به الكتاب والسُّنَّة، من اعتبار العمل مع القول والاعتقاد، وما أكثر ذلك، نسأل الله الهداية والتوفيق.

(٢) من حيث إن مخادعة الرسول مخادعة لله، ومطاوعة الرسول مطاوعة لله سبحانه وتعالى.

(٣) أي وفتح الدال على معنى وما ﴿يخدعون﴾ إلا عن أنفسهم.

(٤) بضم أوله وكسر المهملة هو ابن مشمرخ كمدحرج، يروي عن عمر وأبي ذر وأبي الدرداء، ويروي عنه مجاهد وقتادة، مات في ولاية عمر بن هبيرة.

(٥) هو عمرو بن كلثوم، والبيت من معلقته، وقوله: فنجهل المراد أننا ننتصر على كل من جهل علينا، وعبر عن ذلك بالجهل لمجانسة ما قبله، وإلا فلا يفخر عاقل بالجهل.

فجعل انتصاره جهلا، ويؤيد هذا المنزع في هذه الآية أن (فاعل) قد تجيء من واحد، كعاقبت اللص وطارقت النعل(١). وتتجه أيضاً هذه القراءة بأن ينزَّل ما يخطر ببالهم، ويهجس في خواطرهم، من الدخول في الدين، والنفاق فيه، والفكر في الأمر وضده في هذا المعنى ـ بمنزلة محاورة أجنبيَّيْن، فيكون الفعل كأنه من اثنين، وقد قال الشاعر(٢):

تذكَّر مِنْ أنَّى ومن أين شرْبُهُ ... يؤامر نَفْسَيْهِ كذي الهجمة الآبِلُ

وأنشد ابن الأعرابي(٣):

لم تدر ما. لا. ولستَ قائِلَها ... عُمرَك ما عشتَ آخر الأَبَدِ
ولم تُؤامرْ نَفْسَيْكَ مُمتَرياً ... فيها وفي أختها ولم تكدِ

وقال الآخر(٤):

يؤامر نَفْسَيْهِ وفي العَيْشِ فسحةٌ ... أيسترجعُ الذُّوبانَ أم لا يطورُها؟

وأنشد ثعلب عن ابن الأعرابي:

وكنت كذات الضِّنىءِ لم تدْرِ إذ بغَتْ ... تؤامرُ نَفْسَيْها أتسرقُ أم تزني؟(٥)

ووجه قراءة عاصم ومن ذكر أن ذلك الفعل هو خدعٌ لأنفسهم يمضي عليها تقول: خادعت الرجل بمعنى أعملت التحيُّل عليه فخدَعْتُه بمعنى: تمت عليه الحيلة، ونفذ فيه المراد، والمصدر خدع بكسر الخاء وخديعة، حكى ذلك أبو زيد، فمعنى الآية: وما ينفذون السوءَ إلا على أنفسهم وفيها.

---

(١) المطارقة: النعل المخصوفة، والخصف في النعل كالرقع للثوب.

(٢) هو الكميت كما في لسان العرب، والآبل اسم فاعل من أبل كفرح إذا أحسن رعية الإبل وقام بأمرها.

(٣) في «لسان العرب»: وأنشد الطوسي: (لم تدر ما. لا. ولست قائلها) الخ، وابن الأعرابي هو محمد بن زياد أبو عبد الله، توفي بسامرا سنة ٢٣١ هـ، وكان إليه المنتهى في معرفة لسان العرب. والطوسي ممن أخذ عنه.

(٤) ذكر ابن دريد، عن أبي عثمان صاحب معاني الشعر، أنه لرجل من بني فزارة، وقوله: يؤامر نفسيه إلخ.. فيه جعل النفس المميزة نفسين، وذلك أن النفس قد تأمر بالشيء وتنهى عنه، وهذا عند الإقدام على أمر مكروه، فجعلوا التي تأمر نفساً، وجعلوا التي تنهى كأنها نفس أخرى وعلى هذا جاء قول الشاعر، ويقال: فلان يؤامر نفسيه إذا اتجه له رأيان. والذوبان جمع ذئب يقال لصعاليك العرب ولصوصها، لأنهم كالذئبان، وأصل الذوبان بالهمز فخفف فانقلبت واوا.

(٥) يقال ضنأت المرأة تضنأ ضنئاً كثر ولدها، فهي ضانئة أي كثيرة الأولاد وهو لعبد الله بن الزبير الأسدي.

ووجه قراءة أبي طالوت أحد أمرين: إما أن يقدَّر الكلام وما يخدعون إلا عن أنفسهم، فحذف حرف الجر ووصل الفعل. كما قال تعالى: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾(١) أي من قومه، وإما أن يكون [يُخدَعُونَ] أعمل عمل ينتقضون لما كان المعنى: وما ينتقضون ويستلبون إلا أنفسهم(٢)، ونحوه قول الله تعالى ﴿لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ﴾(٣) ولا تقول: رفثت إلى المرأة، ولكن لمَّا كان بمعنى الإفضاء ساغ ذلك. ومنه قوله تعالى: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾(٤) وإنما يقال: هل لك في كذا، ولكن لمَّا كان المعنى: أجذبك إلى أن تزكى ساغ ذلك وحسن، وهو باب سنيٌّ من فصاحة الكلام. ومنه قول الفرزدق:

كيــف تــرانــي قــالبــاً مِجَنِّــي ... قــد قتــلَ اللهُ زيــاداً عنِّــي(٥)

لما كانت قتل قد دخلها معنى صرفَ، ومنه قول الآخر(٦):

إذا رضيــتْ علــيَّ بنــو قُشَيــر ... لعمــرُ اللهِ أعجبنــي رِضــاهــا

لما كانت رضيت قد تضمنت معنى أقبلت علي(٧). وأما الكسائي فقال في هذا البيت: وصَل رضي بَوَصْلِ نقيضه وهو سخط، وقد تجري أمور في اللسان مجري نقائضها(٨).

---

(١) من الآية (١٥٥) من سورة الأعراف.

(٢) والقاعدة المتعارفة أن الفعل إذا تضمن معنى فعل؛ جاز أن يعمل عمله، كما تقول طرحت بالرداء، إذا ضمنته رميت به، وإلا فـ(طرح) يتعدى بنفسه. والوجه الأول أحسن.

(٣) من الآية (١٨٧) من سورة البقرة.

(٤) من الآية (١٨) من سورة النازعات.

(٥) في بعض الروايات:

كيــف تــرانــي قــالبــاً مِجَنِّــي ... أَضْــربُ أمــري ظَهْــرَه لِبطنــي
قــد قتــل الله زيــاداً عنــي

والمراد زياد بن أبيه، وهذه الزيادة منقولة من كتاب النقائض، والشاهد أنه عدّى الفعل (قتل) بـ(عن).

(٦) قائله قحيف بن خمير، شاعر إسلامي مقل، تشبب بخرقاء التي تشبب بها ذو الرمة. وبعد البيت:

ولا تنبــو سيــوف بنــي قُشَيــر ... ولا تمضــي الأسنــة فــي صفــاهــا

(٧) لعلّ الصواب أن يقول: لما كان (رضي) قد تضمن معنى (أقبل).

(٨) بمعنى أنه يتعدى بما يتعدى به نقيضه. والقاعدة أنّ الشيء يحمل على النقيض كما يحمل على النظير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تسرون إليهم بالمودة﴾ فهو محمول على نقيضه، وهو الجهر، أو على نظيره وهو المخافتة، فيوصل بما يوصلان به، وقد قال الله تعالى: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾ ولولا ذلك=

ووجه قراءة قتادة المبالغة في الخدع، إذ هو مصير إلى عذاب الله.

قال الخليل: يقال: خادع من واحد لأن في المخادعة مهلة، كما يقال: عالجت المريض لمكان المهلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا من دقيق نظره، وكأنه يرد فاعل(١) إلى اثنين ولا بد من حيث ما فيه مهلة ومدافعة ومماطلة، فكأنه يقاوم في المعنى الذي تجيء فيه فاعل.

وقوله تعالى: ﴿وما يشعرون﴾ معناه: وما يعلمون علم تفطُّن وتهدٍّ، وهي لفظة مأخوذة من الشعار كأن الشيء المتفطَّن له شعار للنفس، والشعار: الثوب الذي يلي جسد الإنسان، وهو مأخوذ من الشعر، والشاعر المتفطن لغريب المعاني، وقولهم ليت شعري معناه: ليت فطنتي تدرك، ومن هذا المعنى، قول الشاعر:

عَقُّوا بسهمٍ فلم يشعرْ به أحدٌ ... ثم استفاؤوا وقالوا: حبَّذا الوضح(٢)

واختلف: ما الذي نفى الله عنهم أن يشعروا له(٣)؟ فقالت طائفة: وما يشعرون أن ضرر تلك المخادعة راجع عليهم لخلودهم في النار، وقال آخرون: وما يشعرون أن الله يكشف لك سرَّهم ومخادعتهم في قولهم: آمنا.

قوله عز وجل:

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

= لما جاز وصل تسرون بالباء، لأنها تتعدى بنفسها فيقال: (أسررت الحديث إسراراً) أخفيته.

(١) بابها الغالب أن تكون من اثنين بحيث يفعل كل منهما بصاحبه ما يفعله صاحبه به، مثل خاصمته، وحاربته، وقد تكون المفاعلة من واحد لكن بينه وبين غيره، نحو عاقبت اللص، فهي محمولة على الفعل الثلاثي، وبذلك يعلم أن المفاعلة إن كانت من اثنين كانت من كل واحد. وإن كانت بينهما كانت من أحدهما.

(٢) هو للمتنخل الهذلي، وهو مالك، بن عمرو، بن سويد، اللحياني. ومعنى عقُّوا: رموا بسهم نحو الهواء إشعاراً منهم أنهم قد قبلوا الدية، ورضوا بها عوضاً عن الدم. والوضح اللبن، أي قالوا: حبذا الإبل التي نأخذها بدلاً من دم قتيلنا، فنشرب لبنها.

(٣) أي يتفطنوا له.

المرضُ عبارة مستعارة للفساد الذي في عقائد هؤلاء المنافقين، وذلك إما أن يكون شكاً، وإما جحداً بسبب حسدهم، مع علمهم بصحة ما يجحدون، وبنحو هذا فسَّر المتأوِّلون. وقال قوم: المرض غمُّهم بظهور أمر رسول الله ﷺ. وقرأ الأصمعي على أبي عمرو: [مَرْضٌ] بسكون الراء، وهي لغة في المصدر. قال أبو الفتح: وليس بتخفيف، واختلف المتأولون في معني قوله: ﴿فزادهم الله مرضاً﴾ فقيل: هو دعاءٌ عليهم[1]، وقيل: هو خبر أن الله قد فعل بهم ذلك، وهذه الزيادة هي بما ينزل من الوحي، ويظهر من البراهين، فهي على هؤلاء المنافقين عمى، وكلما كذبوا زاد المرض، وقرأ حمزة [فزادهم] بكسر الزاء[2] وكذلك ابن عامر، وكان نافع يشم الزاي إلى الكسر، وفتح الباقون. و﴿أليم﴾ معناه مؤلم، كما قال الشاعر، وهو عمرو بن معدي كرب:

أمِـن ريحـانـة الـدَّاعـي السَّميـع ....

بمعنى مسمع[3].

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر [يُكذِّبون] بضم الياء وتشديد الذال، وقرأ الباقون بفتح الياء وتخفيف الذال، فالقراءة بالتثقيل يؤيدها قوله تعالى قبل: ﴿وماهم بمؤمنين﴾ فهذا إخبار بأنهم يكِّذبون، والقراءة بالتخفيف يؤيدها أن سياق الآيات إنما هي إخبار بكذبهم[4]، والتوعد بالعذاب الأليم متوجه على التكذيب، وعلى الكذب في مثل هذه النازلة إذ هو منطو على الكفر، وقراءة التثقيل أرجح.

---

(١) قال في (خ): لما تكلم ابن عطية رحمه الله على تفسير قوله تعالى: ﴿عليهم دائرة السوء﴾ قال: كل ما كان بلفظ دعاء من جهة الله تعالى فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء، لأن الله تعالى لا يدعو على مخلوقاته وهي في قبضته، ومن هذا ﴿ويل لكلِّ همزة﴾ ﴿ويلٌ للمطففين﴾ وهي كلها أحكام تامة تضمنها خبره تعالى، فكون الآية خبرية أحسن من أن تكون دعائية.

(٢) هذا هو ما يسمى بالإمالة المحضة.

(٣) التشبيه في كون فعيل بمعنى مُفْعِل. فأليم في الآية معناه مؤلم وموجع، وسميع في كلام الشاعر معناه مسمع وتمام البيت: يؤرقني وأصحابي هجوع.

والشاعر صاحب ريحانة أخت دريد بن الصمة.

(٤) أي في قولهم: ﴿آمنا﴾ فقولهم ذلك كذب وزور، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ وهم في واقع الأمر كانوا كذبة ومكذبين. فالتثقيل أرجح؛ لأن من كذَّب فقد كذب.

و﴿إذا﴾ ظرف زمان. وحكي عن المبرد أنها في قولك في المفاجأة: «خرجت فإذا زيد» ظرف مكان لأنها تضمنت جثة، وهذا مردود، لأن المعنى: خرجت فإذا حضور زيد، فإنما تضمنت المصدر كما يقتضيه سائر ظروف الزمان، ومنه قولهم: «اليوم خمرٌ، وغداً أمرٌ» فمعناه وجود خمر، ووقوع أمر، والعامل في ﴿إذا﴾ في هذه الآية: قالوا. وأصل ﴿قيل﴾ قول، نقلت حركة الواو إلى القاف فقلبت ياءً لانكسار ما قبلها، وقرأ الكسائي: قُيل وغُيض وسُيءَ وسُيئت وحُيل وسُيق وجُيء بضم أوائل ذلك كله، وروى ذلك عن ابن عامر، وروى عنه أنه كسر غيض وقيل وجيء، الغين والقاف والجيم، حيث وقع من القرآن، وضمَّ نافع من ذلك كله حرفين سُيء وسُيئت، وكسر ما بقي. وكان ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وحمزة، يكسرون أوائل هذه الحروف كلها.

والضمير في ﴿لهم﴾ عائد إلى المنافقين المشار إليهم قبل. وقال بعض الناس: الإشارة هنا هي إلى منافقي اليهود. وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه في تفسير هذه الآية: لم يجئ[1] هؤلاء بعد، ومعنى قوله: لم ينقرضوا، بل هم يجيئون في كل زمان.

و﴿لاتفسدوا في الأرض﴾ معناه: بالكفر وموالاة الكفرة، و﴿نحن﴾ اسم من ضمائر الرفع مبني على الضم إذ كان اسماً قوياً يقع للواحد المعظم، والاثنين، والجماعة، فأعطي أسنىٰ الحركات، وأيضاً فلما كان في الأغلب ضمير جماعة، وضمير الجماعة في الأسماء الظاهرة الواو أعطي الضمة إذ هي أُخت الواو.

ولقول المنافقين ﴿إنما نحن مصلحون﴾ ثلاث تأويلات: أحدها: جحد أنهم يفسدون، وهذا استمرار منهم على النفاق. والثاني: أن يقروا بموالاة الكفار، ويدَّعون

---

(١) رواه عن سلمان الفارسي رضي الله عنه ابن جرير الطبري بسنده في تفسير هذه الآية الكريمة وقال: يحتمل أن سلمان رضي الله عنه أراد بهذا أنّ الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فساداً من الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، لا أنه عنىٰ أنه لم يمض ممن تلك صفته أحد ـ قال ابن جرير: فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وتضييعهم فرائضه، وشكهم في دينه الذي لا يقبل عملٌ من أحد إلا بالتصديق به، وبمظاهرتهم أهل التكذيب بالله ورسله وكتبه على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا، فذلك إفساد المنافقين في الأرض وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها، قال ابن (ك) رحمه الله: وكذا الذي قاله حسنٌ، فإن من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء. انتهى. فهذه الآية تخاطب أهل كل زمان، يصورون الإفساد بصورة الإصلاح.

أنها صلاح من حيث أنهم قرابة توصل، والثالث: أنهم مصلحون بين الكفار والمؤمنين، فلذلك يداخلون الكفار.

و[ألا] استفتاح كلام، و[إن] بكسر الألف استئناف، و[هم] الثاني رفع بالابتداء، و[المفسدون] خبره، والجملة خبر إن، ويحتمل أن يكون فصلا، ويسميه الكوفيون العماد، ويكون المفسدون خبر إن. فعلى هذا لا موضع لـ[همُ] من الإعراب، ويحتمل أن يكون تأكيداً للضمير في (إنهم)، فموضعه نصب.

ودخلت الألف واللام في قوله: [المفسدون] لما تقدم ذكر اللفظة في قوله: [لا تفسدوا] فكأنه ضرب من العهد، ولو جاء الخبر عنهم ولم يتقدم من اللفظة ذكر لكان [ألا إنَّهم مفسدون] قاله الجرجاني.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الألف واللام تتضمن المبالغة(١) كما تقول: «زيد هو الرجل»، أي حق الرجل، فقد تستغني عن مقدمة تقتضي عهداً.

و[لكن] بجملته حرف استدراك، ويحتمل أن يراد هنا: لا يشعرون أنهم مفسدون، ويحتمل أن يراد: لا يشعرون أن الله يفضحهم، وهذا مع أن يكون قولهم إنما نحن مصلحون جحداً محضاً للإفساد، والاحتمال الأول هو بأن يكون قولهم: [إنَّما نحن مصلحون] اعتقاداً منهم أنه صلاح في صلة القرابة، أو إصلاح بين المؤمنين والكافرين.

قوله عز وجل:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

المعنى: صدِّقوا بمحمد ﷺ وشرعه، مثل ما صدق المهاجرون والمحققون من أهل يثرب، قالوا: أنكون كالذين خفَّت عقولهم؟ و[السَّفه]: الخفة والرقة الداعية إلى الخفة، يقال: «ثوب سفيه» إذا كان رقيقاً هلهل النسج، ومنه قول ذي الرمة:

مشين كما اهتزَّت رماحٌ تسفَّهت ... أعاليها مرُّ الرِّياح النَّواسم(٢)

(١) أي: حصرُ السفه والفساد في المنافقين.

(٢) يصف نساء، ويقال: «تسفهت الريح الأشجار» أمالتها، والرياح النواسم هي الرياح الضعيفة، فشبه=

وهذا القول إنما كانوا يقولونه في الخفاء، فأطلع الله عليه نبيَّه والمؤمنين، وقرر أن السفه ورقة الحلوم وفساد البصائر إنما هو في حيزهم وصفة لهم، وأخبر أنهم لا يعلمون أنهم هم السفهاء للرَّين الذي على قلوبهم.

وقال قوم: الآية نزلت في منافقي اليهود، والمراد بالناس: عبد الله بن سلام ومن أسلم من بني إسرائيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تخصيص لا دليل عليه. و[لقوا] أصله لقيُوا استثقلت الضمة على الياء فسكنت، فاجتمع الساكنان فحذفت الياء.

وقرأ ابن السميفع: [لاقوا الَّذين].

وهذه كانت حال المنافقين: إظهار الإيمان للمؤمنين، وإظهار الكفر في خلواتهم بعضهم مع بعض[1]، وكان المؤمنون يلبسونهم على ذلك لموضع القرابة، فلم تلتمس

= مشيهن باهتزاز الرماح التي تميلها نواسم الرياح.

(١) قال أبو محمد بن قتيبة: النفاق في اللغة مأخوذ من«نافقاء اليربوع» وهو جحر من جحرته يخرج منه إذا أخذ عليه الجحر الذي دخل فيه، فيقال: قد نفق ونافق. شبه بفعل اليربوع، فإنه يدخل من باب ويخرج من باب، وكذلك المنافق يدخل في الإسلام، باللفظ، ويخرج منه بالعقد، والنفاق لفظ إسلامي لم تكن العرب قبل الإسلام تعرفه، أي بالمعنى المخصوص وهو ستر الكفر وإظهار الإيمان، وإن كان أصله معروفاً عندهم، واعلم أن أبا محمد بن عطية رحمه الله تعرض في هذا المكان لعدد من المسائل المتعلقة بالنفاق والزندقة:

المسألة الأولى: أن المؤمنين كانوا يتعاملون مع المنافقين برغم نفاقهم لموضع القرابة، فلم تلتمس عليهم الشهادات، ولم يقرر نفاقهم تقريرا يوجب الحكم بقتلهم، وكان ما يظهرونه من الإيمان كافياً لحقن دمائهم وعدم التعرض لأموالهم، وكان رسول الله ﷺ يعرض عنهم ويدعهم في حالة الاشتباه.

المسألة الثانية: اختلاف أئمة الإسلام في معنى إمساك النبي ﷺ عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم. فقال مالك وأصحابه: كان ذلك لمصلحة تأليف القلوب كما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي» وقد كان ﷺ يعطي للمؤلفة قلوبهم مع علمه بسوء اعتقادهم تألُّفاً، قال المؤلف رحمه الله: نص على هذا محمد بن الجهم، والقاضي إسماعيل، والأبهري، وابن الماجشون، واستدل بقوله تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ قال قتادة: معناه: إذا هم أعلنوا النفاق.

المسألة الثالثة: قال الإمام مالك رحمه الله: النفاق في عهد النبي ﷺ هو الزندقة فينا اليوم، فيقتل الزنديق إذا شهد عليه بها دون استتابة؛ لأنه لا يظهر ما يستتاب عليه. قال مالك رحمه الله: وإنما كف=

عليهم الشهادات، ولا تقرَّر تعيُّنهم في النفاق تقرُّراً يوجب لوضوحه الحكم بقتلهم، وكان ما يظهرونه من الإيمان يحقن دماءهم، وكان رسول الله ﷺ يعرض عنهم، ويدعهم في غمرة الاشتباه، مخافة أن يتحدث عنه أنه يقتل أصحابه، فينفر الناس، حسب ما قاله عليه السلام لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين قال له في وقت قول عبد الله بن أبي بن سلول: [ليخرجن الأعزُّ منها الأذل] القصة، دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه»(١) فهذه طريقة أصحاب مالك رضي الله عنه في معنى كف رسول الله ﷺ عن قتل المنافقين، مع علمه بكفرهم في الجملة، نص على هذا محمد بن الجهم، وإسماعيل القاضي، والأبهري، وابن الماجشون، واحتج بقوله تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾(٢) وقال قتادة، معناه: إذ هم أعلنوا النفاق.

= رسول الله ﷺ عن المنافقين ليسنّ لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه إذا لم يشهد على المنافقين ـ ولم يشهد على عبد الله بن أبيّ إلا زيد بن أرقم وحده، ولا على الجلاس بن سويد إلا عمير بن سعد ربيبه، ولو شهد رجلان بنفاقه وكفره لقتل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أقوى من انفراد زيد وغيره بالشهادة أن اللفظ ليس بصريح في الكفر.

وقال الشافعي رحمه الله: السنة فيمن شهد عليه بالزندقة فجحد وأعلن الإيمان وتبرأ من كل دين سوى الإسلام أن ذلك يمنع من قتله، وبه قال أصحاب الرأي، والإمام أحمد، والطبري وغيرهم ـ قال الشافعي وأصحابه: وإنما منع رسول الله من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم، لأن ما يظهرونه يجب ما قبله. وقال الإمام الطبري: جعل الله الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولى الحكم في سرائرهم، دون أحد من خلقه، ولو كان ذلك لأحد كان أولى الناس به رسول الله ﷺ، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا، ووكل سرائرهم إلى الله، وقد كذَّب الله ظاهرهم بقوله: ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾.

قال أبو محمد بن عطية رحمه الله: ينفصل المالكية عما ألزموه من هذه الآية بأنها لم تعين أشخاصهم، وإنما جاء فيها توبيخ لكل مغموص عليه بالنفاق، وبقي لكل واحد منهم أن يقول: لم أرد بها وما أنا إلا مؤمن، ولو عُيِّنَ أحدٌ لما جبَّ كذبه شيئاً. انظر «الموطأ» في «كتاب الأقضية» في باب (القضاء فيمن ارتد عن الإسلام).

(١) أخرج هذا الحديث الشيخان: البخاري ومسلم.

(٢) الآيتان (٦٠ـ٦١) من سورة الأحزاب.

وقال مالك رحمه الله: النفاق في عهد رسول الله ﷺ هو: الزندقة فينا اليوم، فيقتل الزنديق إذا شهد عليه بها دون استتابة، لأنه لا يظهر ما يستتاب منه، وإنما كف رسول الله ﷺ عن المنافقين ليسنَّ لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه إذا لم يشهد على المنافقين. قال القاضي إسماعيل: لم يشهد على عبد الله بن أبيّ[1] إلا زيد بن أرقم وحده، ولا على الجلاس[2] بن سويد إلا عمير بن سعد ربيبه وحده، ولو شهد على أحد منهم رجلان بكفره ونفاقه لقتل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أقوى من انفراد زيد وغيره أن اللفظ ليس بصريح كفر، وإنما يفهم من قوَّته الكفر. قال الشافعي رحمه الله: السُّنَّة فيمن شهد عليه بالزندقة، فجحد وأعلن الإيمان، وتبرأ من كل دين سِوىٰ الإسلام، أن ذلك يمنع من إراقة دمه، وبه قال أصحاب الرأي والطبري وغيرهم. قال الشافعي وأصحابه: وإنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين، ما كانوا يظهرونه من الإسلام بألسنتهم مع العلم بنفاقهم، لأن ما يظهرونه يجبُّ ما قبله، فمن قال: إن عقوبة الزندقة أشد من عقوبة الكفار فقد خالف معنىٰ الكتاب والسنة، وجعل شهادة الشهود على الزنديق فوق شهادة الله على المنافقين، قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[3] قال الشافعي، وأبو حنيفة، وابن حنبل، وأهل الحديث: فالمعنى الموجب لكف رسول الله ﷺ عن قتل المنافقين مع العلم بهم أن الله تعالى نهاه عن قتلهم إذا أظهروا الإيمان، وصلُّوا، فكذلك هو الزنديق. واحتج ابن حنبل بحديث عبيد الله بن عدي بن الخيار عن رجل من الأنصار في الذي شهد عليه عند رسول الله ﷺ بالنفاق[4] فقال: «أليس يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟» قالوا: بلى، ولا شهادة له. قال: «أليس يصلي»؟ قالوا: بلى ولا صلاة له. قال: «أولئك الذين نهاني الله عنهم»، وذكر أيضاً أهل الحديث ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال فيهم: «لعلَّ الله

---

(١) انظر التفسير لدى قوله تعالى: ﴿ليخرجن الأعز منها الأذلّ﴾ في سورة (المنافقون).

(٢) بالتخفيف، انظر التفسير لدى قوله تعالى: ﴿يحلفون بالله ما قالوا، ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ الآية.

(٣) الآية (١) من سورة المنافقون.

(٤) رواه في مسنده. كما رواه الإمام مالك في موطئه. وعبيد الله بن عدي ـ كان من فقهاء قريش وعلمائها ـ توفي بالمدينة سنة ٩٥هـ.

سيخرج من أصلابهم من يؤمن بالله، ويصدِّق المرسلين، ويخلص العبادات لربِّ العالمين»[١] قال أبو جعفر الطبري في كتاب «اللطيف» في باب «المرتد»: إن الله قد جعل الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولى الحكم في سرائرهم دون أحد من خلقه، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر، لأنه حكم بالظنون، ولو كان ذلك لأحد كان أولى الناس به رسول الله ﷺ، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين، بما أظهروا، ووكل سرائرهم إلى الله، وقد كذب الله ظاهرهم في قوله تعالى: ﴿والله يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ينفصل المالكيون[٢] عما ألزموه من هذه الآية[٣] بأنها لم تعين أشخاصهم، وإنما جاء فيها توبيخ لكل مغموص[٤] عليه بالنفاق، وبقي لكل واحد منهم أن يقول: لم أرد بها، وما أنا إلا مؤمن، ولو عُيِّنَ أحد لما جبَّ كذبه شيئاً.

---

(١) رواه الإمام مسلم في مسنده الصحيح، فيما لقي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، بلفظ: «أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً».

(٢) أي يتخلصون من هذا الإلزام بأن الآية لم يكن فيها تعيين لأشخاصهم، ولا شهادة على أعيانهم، وإنما هي توبيخ لجملة المنافقين، وقد بحث الإمام (ق) رحمه الله فيما قاله ابن عطية، وقال: «هذا الانفصال فيه نظر، فإن النبي ﷺ كان يعلمهم، أو كثيراً منهم بإعلام الله تعالى إياه، وكان حذيفة بن اليمان يعلم ذلك، بإخبار النبي عليه السلام إياه»، وفي نظره نظر، فإن الانفصال مرده إلى الآية الكريمة التي شهد الله فيها أن المنافقين كاذبون من دون أن يبينهم، ولا أن يعيِّنهم ـ وقد مضى قول الإمام مالك رحمه الله: إنما كف النبي ﷺ عن المنافقين ليسُنَّ لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه إذا لم يشهد على المنافقين. وقيام الشهادة على المنافقين من باب الحكم بالظاهر، ومن شأن الشهادة التعيين للمشهود عليه، على أن العلم بهم إنما كان مستنده حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقاً في غزوة تبوك الذين هموا أن يفتكوا برسول الله ﷺ في ظلماء الليل عند عقبة هناك، عزموا على أن ينفِّروا به الناقة ليسقط عنها، فأوحى الله إليه أمرهم فأطلع ﷺ على ذلك حذيفة. فأما غير هؤلاء الأربعة عشر فقد قال الله تعالى: ﴿وممَّن حولكم من الأعراب منافقون. ومن أهل المدينة مردوا على النِّفاق، لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾ الآية وقال تعالى: ﴿لئن لم ينته المنافقون والَّذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينَّك بهم﴾ الآية ففيها دليل أنه لم يغر بهم ولم يدل على أعيانهم، وإنما كانت تذكر له صفاتهم فيتوسمها في بعضهم كما قال تعالى: ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم﴾ الآية، وفي كلام ابن (ك) رحمه الله ما يشير إلى الاعتراض على (ق). انظره.

(٣) أي قوله تعالى: ﴿والله يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون﴾.

(٤) يقال: رجل مغموص عليه، أي مطعون في دينه ومتَّهم بنفاقه.

وقوله تعالى: ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ وصلت (خلوا) بإلى وعرفها أن توصل بالباء[١] فتقول: خلوت بفلان، من حيث نزِّلت خلوا في هذا الموضع منزلة ذهبوا وانصرفوا[٢]، إذ هو فعل معادل لقوله: (لقوا).

وهذا مثل ما تقدم من قول الفرزدق:

قد قتل الله زياداً عنِّي.

لما أنزلها منزلة صرف وردَّ، وقال مكي: يقال: خلوت بفلان، بمعنى سخرت به، فجاءت إلى في الآية زوالا عن الاشتراك في الباء[٣]، وقال قوم: [إلى] بمعنى (مع) وفي هذا ضعف، ويأتي بيانه إن شاء الله في تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٤]، وقال قوم: (إلى) بمعنى (الباء)، إذ حروف المعاني يبدل بعضها من بعض، وهذا ضعيف يأباه الخليل، وسيبويه، وغيرهما.

واختلف المفسرون في المراد بالشياطين[٥]. فقال ابن عباس رضي الله عنه: هم رؤساء الكفر، وقال ابن الكلبي وغيره: هم شياطين الجن، وهذا في هذا الموضع بعيد، وقال جمع من المفسرين: هم الكهان. ولفظ «الشيطنة» الذي معناه: البعد عن الإيمان والخير، يعم جميع من ذكر والمنافقين، حتى يقدر كل واحد شيطان غيره، فمنهم الخالون ومنهم الشياطين. و[مستهزئون] معناه نتخذ هؤلاء الذين

---

(١) يقال: خلا بفلان وإليه: اجتمع به في خلوة. وتعدية خلا بالباء في هذا المعنى أكثر استعمالا.

(٢) إزالة للاشتراك كما يأتي، ومعلوم أن تضمين الأفعال أولى من تضمين الحروف.

(٣) حيث يقال: خلوت بفلان: انفردت به، وخلوت به: سخرت به. فالباء تدل على واحد من المعنيين، بخلاف إلى.

(٤) ونصه هناك: «وقد عبر عنها ابن جريج والسدي بأنها بمعنى (مع). ونعم: إن (مع) تسد في هذا المعنى مسد (إلى)، لكن ليس يباح من هذا أن (إلى) بمعنى(مع)، حتى غلط في ذلك بعض الفقهاء في تأويل قوله تعالى: ﴿وأيديكم إلى المرافق﴾ فقال: (إلى) بمعنى (مع) وهذه عجمة بل (إلى) في هذه الآية غاية مجردة، وينظر: هل يدخل ما بعد إلى فيما قبلها من طريق آخر؟اهـ.

وقوله: و(نعم) جاءت في صدر الكلام للتأكيد، فهي بمعنى و(حقا). ولعله يقرب من هذا قول الشيخ عبد القاهر الجرجاني: ليس كل ما فيه معنى الشيء حكمه حكم ذلك الشيء، بمعنى أنه فرق بين أن يكون في الشيء معنى الشيء وأن يكون الشيء الشيء على الإطلاق.

(٥) في مسند الإمام أحمد رحمه الله، عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نعوذ بالله من شياطين الإنس والجن»، فقلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين قال: «نعم».

نصائعهم[١] بإظهار الإيمان هزؤاً، ونستخف بهم، ومذهب سيبويه رحمه الله: أن تكون الهمزة مضمومة على الواو في ﴿مستهزئون﴾، وحكى عنه أبو علي أنها تخفف بين بين، ومذهب أبي الحسن الأخفش أن تقلب الهمزة ياءً قلباً صحيحاً، فيقرأ [مستهزيون]. قال ابن جني: حمل الياء الضمة تذكراً لحال الهمزة مضمومة، والعرب تعاف ياءً مضمومة قبلها كسرة، وأكثر القراء على ما ذهب إليه سيبويه، ويقال: هزىء واستهزأ بمعنى، فهو كعجب واستعجب، ومنه قول الشاعر[٢]:

ومُستعجبٍ ممَّا يرى مِن أناتنا ... ولو زَبَنَتْهُ الحربُ لم يَتَرَمْرَمِ

قوله عز وجل:

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

اختلف المفسرون في هذا الاستهزاء: فقال جمهور العلماء: هي تسمية العقوبة باسم الذنب[٣]، والعرب تستعمل ذلك كثيراً، ومنه قول الشاعر:

ألا لا يجهلــنْ أحــدٌ علينــا ... فنجهــلَ فــوق جهــلِ الجــاهلينــا

وقال قوم: إن الله تعالى يفعل بهم أفعالاً هي في تأمل البشر هزؤ[٤]، حسب ما يُروى: «إن النار تجمد كما تجمد الإهالة[٥] فيمشون عليها، ويظنونها منجاة، فتخسف بهم». وما يروى: «إن أبواب النار تفتح لهم فيذهبون إلى الخروج»[٦]، نحا هذا المنحى[٧] ابن عباس، والحسن.

---

(١) ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من شرِّ الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجهٍ» وقال: «من كان له وجهان في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار»، رواهما أبو داود في سننه.

(٢) أوس بن حجر: وقوله: زبنته الحرب: دفعته. وقوله: لم يترمرم: أي لم يتحرك.

(٣) أي يجازيهم جزاء الاستهزاء.

(٤) أي يوم القيامة.

(٥) الإهالة: ما أذيب من الشحم، أو هي الدسم الجامد.

(٦) أي فتسد الأبواب في وجوههم، وقد روي هذا عن ابن عباس من طريق أبي صالح.

(٧) وقوله تعالى: ﴿قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا﴾ يقوي هذا المنحى كما نص عليه صاحب اختصار الطبري رحمه الله.

وقال قوم: استهزاؤه بهم، هو استدراجهم من حيث لا يعلمون[١]، وذلك أنهم، بدرور نعم الله الدنيوية عليهم يظنون أنه راض عنهم، وهو تعالى قد حتَّم عذابهم، فهذا على تأمل البشر كأنه استهزاءٌ.

و﴿يمدُّهُمْ﴾ معناه: يزيدهم في الطغيان، وقال مجاهد: «معناه: يملي لهم». قال يونس بن حبيب: يقال «مدَّ في الشر، وأمدَّ في الخير»[٢]. وقال غيره: «مدَّ الشيء. ومده ما كان مثله ومن جنسه[٣]، وأمده ما كان مغايراً له»، تقول: مدَّ النهر، ومدَّهُ نهر آخر، ويقال: أمدَّه، قال اللحياني: يقال لكل شيءٍ دخل فيه مثله فكثَّره: «مدَّه يمدُّهُ مداً»، وفي التنزيل: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾[٤].

ومادة الشيء ما يمده، دخلت فيه الهاء للمبالغة.

قال ابن قتيبة وغيره: مددت الدواة وأمددتها بمعنى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يشبه أن يكون مدَدْتها جعلت إلىٰ مدادها آخر، وأمددتها جعلتها ذات مداد، مثل قَبَرَ وأقْبَرَ، وحصر وأحصَرَ، ومددنا القوم: صرنا لهم أنصاراً وأمددناهم بغيرنا، وحكى اللحياني أيضاً: أمد الأمير جنده بالخيل، وفي التنزيل ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾[٥].

---

(١) يدل لهذا التأويل حديث: «إذا رأيتم الله عز وجلّ يعطي العبد ما يحب وهو مقيمٌ على معاصيه فإنَّما ذلك منه استدراج».

(٢) الأقوال ثلاثة: الأول: قول يونس بن حبيب: مدَّ في الشر، وأمدّ في الخير، والثاني قول غيره: مدّ فيما كانت الزيادة من مثل جنسه، وأمدَّ فيما كانت الزيادة من غير جنسه، ومثال هذين القولين قوله تعالى: ﴿ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ فإنه في الشر وفي مثل جنسه، وقوله تعالى: ﴿يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة﴾ فإنه في الخير، ومن غير جنسه، والثالث قول ابن قتيبة: إنهما بمعنى واحد، وقد تكون (مدّ) لازمة ومتعدية.

(٣) (ما كان. .) في محل رفع فاعل للفعل (مدّ) الثانية.

وهذا مفهوم من قوله في المثال: (مدّ النهر ـ ومدّه نهر آخر) فـ(نهر) فاعل مدّ في (مدّه). وهو مثل النهر الذي وقع عليه المدّ، ومن جنسه. فأما إن كان الفاعل من غير جنسه قلت: (أمدّه) بالهمزة. وهذا واضح أيضاً من كلام اللحياني بعده. والآية الكريمة بعد ذلك (والبحر يمده) خير مثال.

(٤) من الآية (٢٨) من سورة لقمان.

(٥) من الآية (٦) من سورة الإسراء.

قال بعض اللغويين: ﴿ويمدهم في طغيانهم﴾ أي يمهلهم ويُلجُّهم[١]، فتحتمل اللفظة أن تكون من المد الذي هو المطل والتطويل[٢]، كما فسر في ﴿عَمَدٍ ممدَّدة﴾، ويحتمل أن تكون هي معنى الزيادة في نفس الطغيان. و«الطغيان»: الغلو وتعدي الحد، كما يقال: طغى الماء، وطغت النار، وروي عن الكسائي إمالة [طغيانهم]، و﴿يعمهون﴾: يترددون حيرة. والعمه الحيرة من جهة النظر، والعامِهُ الذي كأنه لا يبصر من التحير في ظلام، أو فلاة، أو همٍّ.

وقوله: ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المتقدم ذكرهم[٣]، وهو رفع بالابتداء، و﴿الذين﴾ خبره، و﴿اشتروا﴾ صلة للذين، وأصله اشتريوا، تحركت الياءُ وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً، فحذفت لالتقاء الساكنين، وقيل: استثقلت الضمة على الياء فسكنت، وحذفت للالتقاء، وحركت الواو بعد ذلك للالتقاء بالساكن بعدها، وخصت بالضم لوجوه، منها: أن الضمة أخت الواو وأخف الحركات عليها. ومنها: أنه لما كانت واو جماعة ضمت كما فعل بالنون في نحن. ومنها: أنها ضمت إتباعاً لحركة الياء المحذوفة قبلها. قال أبو علي: صار الضم فيها أولى، ليفصل بينها وبين واو أو، ولو، إذ هذان يحركان بالكسر[٤]. وقرأ أبو السمال، قعنب العدوي[٥]، بفتح الواو في: [اشتروا الضَّلالة]، وقرأها يحيى بن يعمر بكسر الواو، و(الضلالة) والضلال: التلف، نقيض الهدى، الذي هو الرشاد إلى المقصد.

واختلفت عبارة المفسرين عن معنى قوله: [اشتَروا الضَّلالة بالهُدى].

فقال قوم: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى[٦]، وقال آخرون: استحبوا الضلالة

---

(١) أي يزيدهم في اللجاج والعناد.

(٢) وفي بعض النسخ: المهل والتطويل.

(٣) بعد أن ذكر الله سبحانه مالهم من صفات شنيعة، ونعوت فظيعة، جاءت الإشارة لتعلن عن سوء حالهم، وبعد منزلتهم في الشر، فهي مسوقة لتقرير ما قبلها، وتبيين ما هم عليه من الجهالة والسفاهة، في أقوالهم، وأفعالهم، بإظهار سماجتها، وتصويرها بصورة لا يكاد يتعاطاه من له أدنى تمييز، فضلاً عمن له عقل وبصر ـ فأولئك تأتي بعد صفات المدح للمدح ـ وبعد صفات الذم للذم.

(٤) نحو قوله تعالى: [وأن لَّو استقاموا] وقوله تعالى: [أو ائتنا بعذاب أليم].

(٥) جاء في طبقات القراء أن اسمه قعنب بن أبي قعنب أبو السمال العدوي البصري ٢ـ٢٧.

(٦) اعلم أن الباء تدخل في العوض المأخوذ في جانب البيع ـ وعلى العوض المأخوذ في الشراء. فتقول: =

وتجنبوا الهدى[(١)]، كما قال تعالى: ﴿فاستحبوا العمى على الهدى﴾. وقال آخرون: الشراء هنا استعارة وتشبيه، لما تركوا الهدى وهو معرض[(٢)] ووقعوا بدله في الضلالة، واختاروها، شبِّهوا بمن اشتروا فكأنهم دفعوا في الضلالة هداهم، إذ كان لهم أخذه[(٣)]، وبهذا المعنى تعلق مالك رحمه الله في منع أن يشتري الرجل على أن يتخير في كل ما تختلف آحاد جنسه، ولا يجوز فيه التفاضل[(٤)].

وقال قوم: الآية فيمن كان آمن من المنافقين، ثم ارتد في باطنه وعقده، ويقرب الشراءُ من الحقيقة على هذا[(٥)].

وقوله تعالى: ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ ختم للمثل بما يشبه مبدأه في لفظة الشراء[(٦)]، وأسند الربح إلى التجارة كما قالوا: «ليل قائم، ونهار صائم»، والمعنى: فما ربحوا في تجارتهم. وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة: [فما رَبِحتْ تجاراتُهم] بالجمع.

وقوله تعالى: ﴿وما كانوا مهتدين﴾، قيل: المعنى في شرائهم هذا، وقيل: على الإطلاق، وقيل: في سابق علم الله، وكل هذا يحتمله اللفظ.

= بعت الثوب بدرهم، فالدرهم حاصل، ومأخوذ، وتقول: اشتريت الثوب بدرهم، فالدرهم متروك وغير حاصل، ومن هذا قوله تعالى: ﴿أولئك الَّذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ وقوله تعالى: ﴿أولئك الَّذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة﴾.

(١) هذه العبارة أخص من العبارة قبلها، فاستحباب الضلالة أخص من أخذ الضلالة ـ وتجنب الهدى أخص كذلك من ترك الهدى، فإنَّ تجنب الهدى عن قصد، وترك الهدى يكون عن قصد وعن غير قصد.

(٢) أي ظاهر لهم.

(٣) جواب عن سؤال وهو: كيف اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى؟ فأجاب بأنهم جعلوا مشترين للضلالة بالهدى لتمكنهم منه بتيسير أسبابه، فكان لهم أخذه، وكان كأنه في أيديهم، فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطلوه واستبدلوها به فاستعير ثبوته لتمكنهم منه، والتمكن حاصل بما شاهدوه من الآيات والمعجزات.

(٤) لما في ذلك من الضلالة والجهالة، ويعني أنه لايجوز في فقه البيوع الشراء على أن يختار المشتري في كل ما تختلف صفة آحاده ولا يجوز فيه التفاضل ـ كاللحوم.

(٥) حاصله أن الشراء إما أن يكون حقيقة، وإما أن يكون مجازاً، فالقول الأول جار على من كان آمن ثم ارتد في قلبه، وإنما كان الشراء حقيقياً لأنه دفع ثمناً كان عنده، والقريب من الشيء كهو في حكمه، والقول الثاني جار على أنه لم يؤمن من أول مرة إلا أنه كان متمكناً منه لتيسر أسبابه، والمتمكن من الشيء كأنه في يده.

(٦) أي فهو ترشيح للمجاز لأنه يناسب الشراء المستعار، ويعني أن أعمالهم سميت تجارة لمناسبة الشراء تأليفاً لجواهر النظام، والتحاماً بين أجزاء الكلام. والمثل بمعنى التشبيه.

قوله عز وجل:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾.

المَثَل والمِثْلُ والمثيلُ واحد، معناه: الشبه[1] هكذا نص أهل اللغة، والمتماثلان المتشابهان، وقد يكون مثل الشيء جرماً مثله، وقد[2] يكون ما تعقل النفس وتتوهمه من الشيء مثلا له، فقوله تعالى: ﴿مثلهم كمثل﴾، معناه: أن الذي يتحصل في نفس الناظر في أمرهم كمثل الذي يتحصل في نفس الناظر في أمر المستوقد، وبهذا يزول الإشكال الذي في تفسير قوله تعالى: [مثل الجنَّة][3]، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[4]، لأن ما يتحصل للعقل من وحدانية وأزلية، ونفي ما لا يجوز عليه ليس يماثله في شيء، وذلك المتحصل هو المثل الأعلى الذي في قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[5] وقد جاء في تفسيره: (أنه لا إله إلا الله)، ففسر بجهة الوحدانية.

وقوله: [مَثَلُهُمْ] رفع بالابتداء والخبر في الكاف، وهي على هذا اسم، كما هي في قول الأعشى:

أتنتهــون ولــن ينهــى ذوي شطــط   كالطَّعن يذهب فيه الزيتُ والفُتُلُ

ويجوز أن يكون الخبر محذوفاً[6]، تقديره: مثلهم مستقر كمثل، فالكاف على هذا

(١) الشِّبْه والشَّبَه والشَّبيه كالمثل والمثَل والمثِيل، قال أبو عبيدة: لم يسمع في فعل وفعل غير هذه الأربعة: مثل ومثل، وشبه وشبه، ونكل ونكل، وبدل وبدل، قاله صاحب لسان العرب ونقله الإمام(ق) لدى قوله تعالى: ﴿فبدل الَّذين ظلموا قولا غير الَّذي قيل لهم﴾ الآية، والغرض من ضرب الأمثال تشبيه الخفي بالجليّ، والغائب بالشاهد، وذلك لمزيد الكشف والإيضاح، ألا ترى أن الترغيب والترهيب إذا وقع كل منهما مجرداً من ضرب مثل لم يتأثر القلب به كتأثره مع ضرب المثل، ولهذا المعنى أكثر الله الأمثال في كتابه المبين كما قال: ﴿وتلك الأمثال نضربها للنَّاس لعلَّهم يتفكرون﴾.

(٢) يعني أن مثل الشيء قد يكون حسياً، وقد يكون عقلياً أي حاصلاً في العقل، وبهذا يقع التفصي من الإشكال الذي يرد في بعض المواد والأمثلة حسبما أشار إليه المؤلف رحمه الله.

(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الجنة شيء مما في الدنيا، سوى الأسماء، وأما الذوات فمتباينة. وهي من الآية ١٥ من سورة محمد.

(٤) من الآية (١١) من سورة الشورى.

(٥) من الآية (٦٠) من سورة النحل.

(٦) عبارة أبي(ح) أوضح، ونصه: ومثلهم مبتدأ والخبر في الجار والمجرور بعده، والتقدير كائن كمثل كما=

حرف، ولا يجوز ذلك في بيت الأعشى، لأن المحذوف فاعل تقديره شيءٌ كالطعن، والفاعل لا يجوز حذفه عند جمهور البصريين، ويجوز حذف خبر الابتداء إذا كان الكلام دالا عليه، وجوز أبو الحسن الأخفش حذف الفاعل وأن تكون الكاف في بيت الأعشى حرفاً.

ووحَّد [الَّذي][1] لأنه لم يقصد تشبيه الجماعة بالجماعة، وإنما المقصد أن كل واحد من المنافقين فعله كفعل المستوقد، و(الذي) أيضاً ليس بإشارة إلى واحد ولا بد، بل إلى هذا الفعل: وقع من واحد، أو من جماعة، وقال النحويون: الذي اسم مبهم يقع للواحد والجميع[2]. و[استوقد] قيل: معناه أوقد، فذلك بمنزلة عجب واستعجب بمعنى. قال أبو علي: وبمنزلة هزئ واستهزأ، وسخر واستسخر، وقرَّ واستقر، وعلا قرنه واستعلاه، وقد جاء استفعل بمعنى أفعل: أجاب واستجاب، ومنه قول الشاعر[3]:

وداع دعا يا من يُجيب إلى النَّدى   فلــم يَسْتجِبْــه عنــد ذاك مجيــبُ

وأخلف لأهله واستخلف إذا جلب لهم الماء[4]، ومنه قول الشاعر:

ومستخلفــاتٍ مــن بــلادَ تَنُــوفَــة   لِمُصفرَّةِ الأشداقِ حُمْر الحواصلِ[5]

ومنه قول الآخر:

. . . .   سقاها فروَّاها من الماء مُخْلِفُ[6]

= يقدر ذلك في سائر حروف الجر اهـ. وقد بحث مع ابن عطية في الوجه الأول، انظره.

(١) للتوحيد دليلان الأول من ناحية المعنى، والثاني من ناحية الاستعمال: وذلك أن القصد تشبيه حال المنافق بحال المستوقد، لا تشبيه الجماعة بالجماعة. فالذي كما يستعمل للواحد يستعمل للجمع كما قال الشاعر:

وإنَّ الــذي حــانــتْ بِفَلْــج دمــاؤهــم   هــمُ القــومُ كــلُّ القــومِ يــا أمَّ خــالــدِ

(٢) وفي بعض النسخ والجمع.

(٣) هو كعب بن سعد الغنوي، يرثي أخاه المغوار ـ وبعد البيت:

فقلت ادع أخرى، وارفع الصوت رفعةً   لعــل أبــا المغــوارِ منــكَ قــريــبُ

(٤) يقال: أخلف لأهله: استقى لهم ماء، وأخلف القوم: حمل إليهم الماء العذب، وهم ليس معهم ماء عذب أو يكونون على ماء ملح ـ واستخلف الرجل لأهله: استقى لهم ماء، واستخلف: استعذب الماء.

(٥) التنوفة: المفازة، والأرض الواسعة البعيدة الأطراف، أو الفلاة لا ماء بها ولا أنيس، وإن كانت معشبة، جمعها تنائف، والبيت أنشده الأصمعي لذي الرّمة، كما في أمالي القالي، ويعني أن القطا يحملن الماء في حواصلهن.

(٦) هو للحطيئة وصدر البيت: =

ومنه. أوقد واستوقد، قاله أبو زيد، وقيل: استوقد: يراد به طلب من غيره أن يوقد له على المشهور من باب استفعل، وذلك يقتضي حاجته إلى النار، فانطفاؤها مع حاجته إليها أنكى له، واختلف في [أضاءت] فقيل: يتعدى، لأنه نقل بالهمزة من ضاء، ومنه[١] قول العباس بن عبد المطلب في النبي ﷺ:

وأنت لمَّا ولدت أشرقت الأرْ ... ض وضاءتْ بنورك الأُفُق

وعلى هذا فما في قوله [ما حوله] مفعولة، وقيل: أضاءت لا تتعدى، لأنه يقال: ضاء وأضاء بمعنى، فما زائدة، وحوله ظرف.

واختلف المتأولون في فعل المنافقين الذي يشبه فعل الذي استوقد ناراً، فقالت طائفة: هي فيمن كان آمن ثم كفر بالنفاق، فإيمانه بمنزلة النار أضاءت وكفره بعد بمنزلة انطفائها وذهاب النور[٢]. وقال الحسن بن أبي الحسن وغيره: إن ما يظهر المنافق في الدنيا من الإيمان فيحقن به دمه ويحرز ماله، ويناكح ويخالط، كالنار التي أضاءت ما

= كأن دموعي سحُّ واهية الكلى ... سقاها فرواها من الماء مخلف

وبعده:

تشد العرى منها على ظهر جونة ... عسير القياد ما تكاد تصرف

المخلف: المستقي، والواهية: صفة لمحذوف أي مزادة واهية الكلى، يقول: كأن دموعي تسيل من كلى مزادة ضعيفة محمولة على ناقة عسير، فكلما هزتها كثر سيلانها، والعسير التي لا تنقاد، والكلية من المزادة رقعة مستديرة تخرز عليها تحت العروة، يقال: شرب الماء من كلية المزادة. وفي بعض النسخ من العين بدلاً من الماء.

(١) أي من ضاء المنقول منه. وقيل: إنها تكون لازمة ومتعدية.

(٢) قال ابن (ك) بعد أن قرر تشبيه المنافقين في اشترائهم الضلالة بالهدى ـ بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله، وانتفع بها انطفأت، وصار في ظلام شديد، لا يبصر شيئاً، وهو مع هذا أصم، لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لا يبصر لو كان ضياء، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك ـ فكذلك هؤلاء المنافقون، في استبدالهم الضلالة بالهدى، واستحبابهم الغي على الرشد ـ ما نصه:

«وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا، ثم كفروا، كما أخبر الله عنهم في غير هذا الموضع». ـ قال: «وقد حكى هذا الذي قلناه الرازي في تفسيره عن السدي، ثم قال (أي الرازي): والتشبيه ها هنا في غاية الصحة، لأنهم بإيمانهم أولا اكتسبوا نوراً، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك، فوقعوا في حيرة عظيمة، ولا حيرة أعظم من حيرة الدين، ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم آمنوا ثمَّ كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ فهذا القول الذي صدر به ابن عطية رحمه الله هو الظاهر، وللإمام (ط) رحمه الله نظر آخر.

حوله، فإذا مات صار إلى العذاب الأليم، فذلك بمنزلة انطفائها وبقائه في الظلمات. وقالت فرقة: إن إقبال المنافقين إلى المسلمين وكلامهم معهم كالنار، وانصرافهم إلى مردتهم، وارتكاسهم عندهم كذهابها. وقالت فرقة: إن المنافقين كانوا عند رسول الله ﷺ والمؤمنين في منزلة بما أظهروه، فلما فضحهم الله، وأعلم بنفاقهم، سقطت المنزلة، فكان ذلك كله بمنزلة النار وانطفائها. وقالت فرقة منهم قتادة: نطقهم بلا إله إلا الله والقرآن كإضاءة النار، واعتقادهم الكفر بقلوبهم كانطفائها، قال جمهور النحاة: جواب (لما) ذهب، ويعود الضمير من نورهم في هذا القول على (الذي)[١]، ويصح شبه الآية بقول الشاعر[٢]:

وإن الذي حانت بفلجٍ دماؤهم ... هم القوم كلُّ القوم يا أم خالد

وعلى هذا القول يتم تمثيل المنافق بالمستوقد، لأن بقاء المستوقد في ظلمات لا يبصر، كبقاء المنافق، على الاختلاف المتقدم. وقال قوم: جواب (لمّا) مضمر، وهو: طفئت، والضمير في نورهم على هذا للمنافق[٣]، والإخبار بهذا[٤] هو عن حال تكون في الآخرة، وهو قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾[٥] وهذا القول غير قوي.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وأبو السمال: [في ظُلْمات] بسكون اللام، وقرأ قوم: [ظلَمات] بفتح اللام[٦].

---

(١) أي على المستوقدين.

(٢) هو الأشهب بن رميلة، والبيت يستشهد به على حذف النون من الذين، وهو رثاء للقوم الذين قتلوا بفلج وهو اسم موضع.

(٣) فعلى أن جواب (لما) هو ذهب، وهو المرتضى والمعتمد يعود ضمير نورهم على المستوقدين ويكون تمثيل المنافق بالمستوقد تاماً غير ناقص، وعلى أن جوابها مضمر تقديره طفئت ـ يعود ضمير نورهم على المنافقين لأن الكلام على المستوقدين تم عند قوله: ﴿فلما أضاءت ما حوله﴾، وكان التمثيل ناقصاً.

(٤) أي بقوله تعالى: ﴿ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ لأنه على إضمار الجواب يكون خاصاً بالمنافقين.

(٥) من الآية (١٣) من سورة الحديد.

(٦) اعلم أن فُعلة (بضم الفاء) كظُلمة، وفعلة (بكسر الفاء) ككِسرة، يجوز في كل منهما ثلاث لغات: لغة الإتباع، ولغة فتح الثاني، ولغة إسكان الثاني، وأن فَعلة (بفتح الفاء) يجب فيها الإتباع نحو: تَمْرة وتَمَرات، وجَفْنة وجَفَنات.

قال أبو الفتح: في ظلمات وكسرات ثلاث لغات: إتباع الضم الضم، والكسر الكسر، أو التخفيف بأن يعدل إلى الفتح في الثاني، أو التخفيف بأن يسكن الثاني، وكل ذلك جائز حسن، فأما فعلة بالفتح فلابد فيه من التثقيل إتباعاً، فتقول تمرة وتمرات. وذهب قوم في [ظلمات] بفتح اللام إلى أنه جمع ظلم فهو جمع جمع(١).

و(الأصمُّ): الذي لا يسمع، والأبكم: الذي ينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس، وقيل: الأبكم والأخرس واحد، ووصفهم بهذه الصفات إذ أعمالهم من الخطأ وقلة الإجابة كأعمال من هذه صفته، و[صمٌّ] رفع على خبر الابتداء، فإما أن يكون ذلك على تقدير تكرار أولئك، وإما على إضمار (هم). وقرأ عبد الله بن مسعود، وحفصة أم المؤمنين رضي الله عنهما: [صماً، بكماً، عمياً] بالنصب، ونصبه على الحال من الضمير في (مهتدين)، وقيل: هو نصب على الذم، وفيه ضعف(٢)، وأما من جعل الضمير في ﴿نورهم﴾ للمنافقين لا للمستوقدين، فنصب هذه الصفات على الحال من الضمير في ﴿تركهم﴾. قال بعض المفسرين: قوله تعالى: ﴿فهم لا يرجعون﴾ إخبار منه تعالى أنهم لا يؤمنون بوجه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما كان يصح هذا أن لو كانت الآية في معيَّنين. وقال غيره: معناه فهم لا يرجعون ماداموا على الحال التي وصفهم بها، وهذا هو الصحيح، لأن الآية لم تعين، وكلهم معرض للرجوع، ومدعو إليه.

قوله عز وجل(٣):

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

---

(١) العدول إلى الفتح تخفيفاً أسهل من ادعاء جمع الجمع؛ لأن العدول إليه قد جاء في كسرات جمع كسرة، وفُعلة وفِعلة أخوان، ولأن جمع الجمع غير قياسي فلا ينبغي أن يصار إليه إلا بدليل واضح.

(٢) وجهه: أن النصب على الذم إنما يكون حيث يذكر الاسم السابق فتعدل عن المطابقة في الإعراب إلى القطع، وها هنا لم يتقدم اسم سابق تكون هذه الأوصاف موافقة له في الإعراب فتقطع، فمن أجل هذا ضعف النصب على الذم. قاله أبو (ح).

(٣) هذا مثل آخر، ضربه الله تعالى لنوع آخر من المنافقين، وهم قوم يترددون بين الحق والباطل، تارة يظهر=

﴿أو﴾، للتخيير[١]، معناه: مثِّلوهم بهذا، أو بهذا، لا على الاقتصار[٢] على أحد الأمرين. وقوله: ﴿أو كصيبٍ﴾ معطوف على ﴿كمثل الَّذي﴾ وقال الطبري: ﴿أو﴾ بمعنى[٣] (الواو).

= لهم الحق، وتارة يشكون فيه، فمثلهم في حال الشك والكفر والتردد كمثل صيب من السماء، والصيب المطر على المشهور ـ وذلك أن الناس أقسام ـ مؤمنون خلَّص، وهم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة ـ وكفار خلص، وهم المذكورون في الآيتين بعد الآيات الأربع ـ ومنافقون، وهم قسمان: مصرون، وهم أصحاب المثل الناري ـ ومترددون تارة يظهر لهم الإيمان وتارة يخبو عنهم، وهم أصحاب المثل المائي وهم أخس حالا من الذين قبلهم، وهذا المقام يشبه في الجملة ما ذكر في سورة النور من ضرب مثل المؤمن، وما جعل الله في قلبه من الهدى والنور ـ بالمصباح في الزجاجة التي كأنها كوكب دري، وهي قلب المؤمن المفطور على الإيمان المستمد من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخليط، ثم ضرب مثل الكفار الذين يعتقدون أنهم على شيء وليسوا على شيءٍ، وهم أصحاب الجهل المركب، في قوله تعالى: ﴿والَّذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآنُ ماءً حتَّى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾ الآية، ثم ضرب مثل الكفار الذين يجهلون جهلا بسيطاً، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿أو كظلمات في بحر لجيٍّ يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ﴾ الآية، فقسَّم الكفار إلى قسمين: داعية ومقلدة، وقد قسم الله المؤمنين أيضاً كما في سورة الواقعة وسورة الإنسان إلى قسمين: سابقين وهم المقربون ـ وأصحاب يمين وهم الأبرار. ويتلخص من مجموع الآيات الكريمات أن المؤمنين: مقربون وأبرار، وأن الكافرين دعاة ومقلدون ـ وأن المنافقين صنفان: منافق خالص، ومنافق فيه شعبة من النفاق، كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ «ثلاث من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهنَّ كانت فيه خصلة من النِّفاق حتى يدعها، من إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان». واستدلوا بهذا على أن الإنسان قد يكون فيه شعبة من الإيمان، وشعبة من نفاق، إما عملي كهذا الحديث وإما اعتقادي كما تدل عليه آيات سورة البقرة وغيرها. والله أعلم.

(١) قال أبو (ح) رحمه الله: المعنى الظاهر هنا لـ(أو) ـ هو التفصيل نظراً لأحوال المنافقين، فمنهم من يشبه بحال المستوقد، ومنهم من يشبه بحال الصيِّب ـ ولا ضرورة تدعو إلى كون أو للتخيير، وإن المعنى أيهما شئت مثِّلهم به ـ ولا إلى كونها بمعنى الواو كما ذهب إليه الكوفيون هنا ـ لأن التخيير إنما يكون في الأمر أو ما في معناه، والجملة هنا خبرية صرفة ـ ولأن (أو) بمعنى الواو لم يثبت عند البصريين، وما استدل به مثبت ذلك مؤول.

(٢) ومعناه أن المثلين سواء في استقلال كل واحد مهما بوجه التمثيل، فبأيهما مثلت فأنت مصيب، وإن مثلت بهما جميعاً فكذلك.

(٣) ذهب ابن جرير رحمه الله إلى أن المثل الناري والمثل المائي كلاهما مضروب لصنف واحد من المنافقين، ولذلك جعل (أو) بمعنى(الواو) مع أن المنافقين أصناف، ولهم أحوال كما ذكر الله ذلك في سورة براءة: ومنهم، ومنهم، ومنهم، يذكر أحوالهم وأوصافهم فجعل هذين المثلين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم، ولذلك وصف ابن عطية رحمه الله كلام (ط) بالعجمة وعدم الظهور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه عجمة. و﴿الصَّيِّب﴾ المطر، من صاب يصوب إذا انحط من علوٍّ إلى سفل، ومنه قول علقمة بن عبدة[1]:

كأنهم صابت عليهم سحابةٌ ... صَواعِقُها لِطيرِهِنَّ دَبيبُ

وقول الآخر[2]:

فَلَسْتَ لإِنْسيٍّ ولكنْ لِمَلأَكٍ ... تنزَّلَ من جوِّ السماء يَصُوب[3]

وأصل ﴿صيِّبٍ﴾ صيوب، اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياءً وأدغمت كما فعل في سيّد وميّت. وقال بعض الكوفيين: أصل ﴿صيِّب﴾ صويب على مثال فُعَيْل، وكان يلزمه ألا يُعَلّ كما لم يُعل طويل[4]، فبهذا يضعف هذا القول. وقوله تعالى: ﴿ظلماتٌ﴾ بالجمع إشارة إلى ظلمة الليل، وظلمة الدَّجن[5]، ومن حيث تتراكب وتتزايد جمعت، وكون الدجن مظلماً هول وغم للنفس، بخلاف السحاب والمطر إذا انجلى دجنه، فإنه سارٌّ جميل.

ومنه قول قيس بن الخطيم:

فما روضةٌ من رياض القَطَا ... كأنَّ المصابيحَ حَوْذانُها
بأحسنَ منها، ولا مُزْنةٌ ... دَلُوحٌ تكشَّفُ أدجانُها[6]

---

(١) علقمة بن عبدة: هو المعروف بالفحل، وبعد البيت:
فلا تَعْدلي بيني وبينَ مُغمرٍ ... سَقَتْكِ رَوَايا المُزْنِ حيثُ تصوبُ

(٢) اختلفوا في نسبة هذا البيت، فمنهم من نسبه إلى علقمة بن عبدة، ومنهم من نسبه إلى رجل من عبد القيس، يمدح به النعمان بن الحرث بن المنذر، وقيل: هو لأبي وجزة، يمدح به عبد الله بن الزبير.
وقبل البيت:
تعاليتَ أن تُعْزى إلى الإنس جلَّةً ... وللإنس من يعزوك فهو كذوبُ

(٣) أي يقصد إلى الأرض، هذا هو الصواب في تفسيره كما لابن هشام في شرح بانت سعاد.

(٤) مع أنه قد أعل ودخله الإدغام، وهذا هو وجه ضعف هذا القول.

(٥) يقال: دجن اليوم يدجن دجناً ودجوناً كان فيه دجن. والدَّجن السحاب والغيم والمطر الكثير والدائم، جمعه أدجان كما في البيت الثاني من بيتي قيس بن الخطيم.

(٦) وقبل البيتين:
أجِدَّ بعَمْرةَ غنيانُها ... فتهجُر أم شأنُنا شأنُها؟
فإنْ تُمْسِ شطَّت بها دارها ... وباحَ لك اليومَ هجرانُها

وبعدهما:

واختلف العلماء في (الرَّعد)، فقال ابن عباس، ومجاهد، وشهر بن حوشب، وغيرهم: هو ملكٌ يزجر السحاب بهذا الصوت المسموع، كلما خالفت سحابة صاح بها، فإذا اشتد غضبه طارت النار من فيه فهي الصواعق، واسم هذا الملك: الرعد، وقيل: الرعد ملكٌ وهذا الصوت تسبيحه، وقيل: الرعد اسم الصوت المسموع، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهذا هو المعلوم في لغة العرب، وقد قال لبيد في جاهليته:

فَجَّعني الرَّعْدُ والصواعق بالفا   رس يومَ الكريهة النُّجُد[1]

وروي عن ابن عباس أنه قال: الرعد ريح تختنق بين السحاب فتصوت ذلك الصوت، وقيل: الرعد اصطكاك أجرام السحاب[2]، وأكثر العلماء على أن الرعد ملك، وذلك صوته يسبح ويزجر السحاب[3].

واختلفوا في (البرق)، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هو مخراق حديد بيد الملك يسوق به السحاب. وقال ابن عباس: هو سوط نور بيد الملك يزجي به السحاب. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه: أن البرق ملك يتراءى. وقال قوم: البرق ماءٌ، وهذا قول ضعيف.

والصاعقة: قال الخليل: هي الوقعة الشديدة من صوت الرعد، يكون معها أحياناً قطعة نار، يقال: إنها من المخراق الذي بيد الملك، وقيل في قطعة النار: إنها ما يخرج من فم الملك عند غضبه.

= وعمرةُ من سَروات النِّساء، تَنَفَّحُ بالمِسكِ أردانُها

أجدَّ: استمر. وغنيانها استغناؤها. أم شأننا شأنها: أي أم هي على ما نحب؟. وشطت: بعدت. ورياض القطا: اسم موضع فيه نبت وماء مستدير. وقوله: كأن المصابيح إلخ.. فيه قلب. والأصل: كأن حوذانها المصابيح، والعرب تفعل ذلك، والحوذان: نبت طيب يرتفع قدر الذراع وله زهرة حمراء في أصلها صفرة. والدَّلوح: السحابة الكثيرة الماء. والأردان: ما يلي الذراعين من الكمين.

(١) قال لبيد هذا البيت وهو يرثي أخاه (إربد) ـ وكان قد احترق بصاعقة.

(٢) هو التحاكك والاصطدام فيتولد عنه ذلك الصوت القوي المزعج، وهذا من رأي الفلاسفة.

(٣) يشهد له حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي خرجه الترمذي في جامعه قال: «أقبلت يهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن الرعد ماهو؟ قال: ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله. قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال زجرة بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمره. قالوا: صدقت».

وحكى الخليل عن قوم من العرب: الساعقة بالسين. وقال النقاش: يقال: صاعقة وصعقة وصاقعة بمعنى واحد، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [من الصواقع] بتقديم القاف. قال أبو عمرو: وهي لغة تميم. وقرأ الضحاك بن مزاحم: [حذار الموت] بكسر الحاء وبألف.

واختلف المتأولون في المقصد بهذا المثل، وكيف تترتب أحوال المنافقين الموازنة لما في المثل من الظلمات ، والرعد، والبرق، والصواعق. فقال جمهور المفسرين: مثل الله تعالى القرآن بالصَّيِّب لما فيه من الإشكال عليهم، والعمى: هو الظلمات وما فيه من الوعيد، والزجر: هو الرعد، وما فيه من النور والحجج الباهرة التي تكاد أن تبهرهم هو البرق، وتخوُّفهم وروعهم وحذرهم هو جعل أصابعهم في آذانهم، وفضح نفاقهم واشتهار كفرهم وتكاليف الشرع التي يكرهونها من الجهاد والزكاة ونحوه هي الصواعق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله صحيح بيِّنٌ. وروي عن ابن مسعود أنه قال: إن رجلين من المنافقين هربا من النبي ﷺ إلى المشركين فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله، وأيقنا بالهلك فقالا: ليتنا أصبحنا فنأتي محمداً، ونضع أيدينا في يده، فأصبحا وأتياه وحسن إسلامهما، فضرب الله ما نزل بهما مثلاً للمنافقين(١). وقال أيضاً ابن مسعود: إن المنافقين في مجلس رسول الله ﷺ كانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا القرآن، فضرب الله المثل لهم، وهذا وفاق لقول الجمهور الذي ذكرناه.

وقال قوم: الرعد والبرق هما بمثابة زجر القرآن ووعيده.

و﴿محيط بالكافرين﴾ معناه: بعقابه وأخذه(٢)، يقال: أحاط السلطان بفلان إذا أخذه أخذاً حاصراً من كل جهة. ومنه قوله تعالى: ﴿وأحيط بثمره﴾(٣)، ففي الكلام حذف مضاف، و﴿يكاد﴾ فعلٌ ينفي المعنى مع إيجابه، ويوجبه مع النفي، فهنا لم يخطف البرق الأبصار، والخطف الانتزاع بسرعة. واختلفت القراءة في هذه اللفظة(٤)، فقرأ جمهور

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) الأولى: بعقابهم وأخذهم. وهو ما في (خ).

(٣) من الآية (٤١) من سورة الكهف.

(٤) جملة القراءات التي أشار إليها المؤلف رحمه الله: تسع، أفصحها وأصحها ما عليه السبعة، والقراءة=

الناس: [يَخْطَفُ أَبْصَارهُمْ] بفتح الياء والطاء وسكون الخاء على قولهم في الماضي خطِف بكسر الطاء، وهي أفصح لغات العرب، وهي قرشية. وقرأ علي بن الحسين، ويحيى بن وثاب: [يَخْطِفُ] بفتح الياء وسكون الخاء وكسر الطاء على قول بعض العرب في الماضي خطف بفتح الطاء. ونسب المهدوي هذه القراءة إلى الحسن وأبي رجاء، وذلك وهم. وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وعاصم الجحدري، وقتادة: (يَخِطِّفُ) بفتح الياء وكسر الخاء والطاء وتشديد الطاء، وهذه أصلها يختطف أدغمت التاء في الطاء وكسرت الخاء لالتقاء الساكنين. وحكى ابن مجاهد قراءة لم ينسبها إلى أحد [يَخَطِّفُ] بفتح الياء والخاء وتشديد الطاء المكسورة، قال أبو الفتح: أصلها يختطف، نقلت حركة التاء إلى الخاء، وأدغمت التاء في الطاء. وحكىٰ أبو عمر الداني عن الحسن أيضاً أنه قرأ: [يَخَطَّف] بفتح الياء والخاء والطاء وشدها، وروي أيضاً عن الحسن والأعمش بكسر الثلاثة وشد الطاء منها، وهذه أيضاً أصلها يختطف. أدغم وكسرت الخاء للالتقاء، وكسرت الياء إتباعاً. وقال عبد الوارث: رأيتها في مصحف أبي بن كعب: [يتخطف] بالتاء بين الياء والخاء، وقال الفراء: قرأ بعض أهل المدينة بفتح الياء وسكون الخاء وشد الطاء مكسورة، قال أبو الفتح: إنما هو اختلاس وإخفاءٌ فيلطف عندهم فيرون أنه إدغام، وذلك لا يجوز لأنه جمع بين ساكنين دون عذر، وحكى الفراء قراءة عن بعض الناس بضم الياء وفتح الخاء وشد الطاء مكسورة كأنه تشديد مبالغة لا تشديد تعدية. ومعنى ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾: تكاد حجج القرآن وبراهينه وآياته الساطعة تبهرهم. ومن جعل البرق في المثل الزجر والوعيد، قال: يكاد ذلك يصيبهم، و﴿كلَّما﴾ ظرفٌ[1] والعامل فيه ﴿مشوا﴾، وهو أيضاً جواب ﴿كلَّما﴾، و﴿أضاء﴾ صلة ﴿ما﴾، ومن جعل ﴿أضاء﴾ يتعدى، قدر له مفعولاً، ومن جعله بمنزلة ﴿ضاء﴾ استغنى عن ذلك، وقرأ ابن أبي عبلة: [أضا لهم] بغير همز، وهي لغة. وفي مصحف أبيّ بن كعب: [مرّوا فيه]، وفي قراءة ابن مسعود: [مضوا فيه]، وقرأ

= التي حكاها الفراء عن بعض أهل المدينة لا تجوز، كما قاله أبو الفتح بن جنّي، والباقي شذوذ تجري عليه أحكامه.

(١) أصلها (كل) ثم دخلت (ما) المصدرية الظرفية فأصبحت (كلما). كلمة تؤدي معنى الظرفية وتفيد التكرار في المعنى.

الضحاك: [وإذا أُظلِم] بضم الهمز وكسر اللام. و﴿قاموا﴾ معناه: ثبتوا؛ لأنهم كانوا قياماً، ومنه قول الأعرابي:

وقد أقامَ الدَّهرُ صَعري بعد أن أقَمْتُ صعره[١]

يريد أثبت الدهر.

ومعنى الآية فيما روي عن ابن عباس وغيره: كلما سمع المنافقون القرآن، وظهرت لهم الحجج، أنسوا ومشوا معه، فإذا نزل من القرآن ما يعمون فيه ويضلون به أو يكلفونه، قاموا أي ثبتوا على نفاقهم. وروي عن ابن مسعود أن معنى الآية: كلما صلحت أحوالهم في زروعهم ومواشيهم وتوالت عليهم النعم قالوا: دين محمد مبارك، وإذا نزلت بهم مصيبة أو أصباتهم شدة سخطوا وثبتوا في نفاقهم[٢].

وقال قوم: معنى الآية: كلما خفي عليكم نفاقهم، وظهر لكم منهم الإيمان مشوا فيه، فإذا افتضحوا عندكم قاموا. ووحد السمع لأنه مصدر، يقع للواحد والجمع. وحكى النقاش أن من العلماء من قرأ: [بأسماعهم]. وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة: [ولو شاء الله لأذهب أسماعهم وأبصارهم]، وخص الأسماع والأبصار لتقدم ذكرها في الآية، ويشبه هذا المعنى في حال المنافقين أن الله لو شاء لأوقع بهم ما يتخوفونه من الزجر والوعيد، أو لفضحهم عند المؤمنين، وسلَّط المؤمنين عليهم، وبكل مذهب من هذين قال قوم. وقوله تعالى: ﴿على كل شيءٍ قديرٌ﴾ لفظه العموم، ومعناه عند المتكلمين: على كل شيءٍ يجوز وصفه تعالى بالقدرة عليه[٣]، و﴿قدير﴾ بمعنى قادر، وفيه مبالغة، وخص هنا صفته التي هي القدرة بالذكر؛ لأنه قد تقدم ذكر فعل مضمنه الوعيد والإخافة، فكان ذكر القدرة مناسباً لذلك.

---

(١) في الصحاح: الصعر: الميل في الخد خاصة، وقد صعّر خده وصاعره: أماله من الكبر ـ وفي اللسان: ولأقيمن صعرك: أي ميلك على المثل ـ وفي حديث توبة كعب: فأنا إليه أصعر: أي أميل.

(٢) يشهد له قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج: ١١].

(٣) فيخرج المستحيل، على أن لفظ شيء محرز، لأنه بمعنى الموجود عند أهل السُّنَّة، والمستحيل غير موجود.

قوله عز وجل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢ ﴾.

﴿يا﴾ حرف نداءٍ، وفيه تنبيه، و«أي» هو المنادى، قال أبو علي: اجتلبت «أي» بعد حرف النداء فيما فيه الألف واللام لأن في حرف النداء تعريفاً، فكان يجتمع تعريفان، و«ها» تنبيه وإشارة إلى المقصود، وهي بمنزلة ذا في الواحد. و﴿الناس﴾ نعت لازم لأي. وقال مجاهد: [ياأيها النَّاسُ] حيث وقع في القرآن مكي، و﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا﴾ مدني.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

قد تقدم في أول السورة أنها كلها مدنية، وقد يجيء في المدني [يا أيُّها النَّاس]، وأما قوله في [ياأيُّها الَّذين آمنوا] فصحيح.

وقوله تعالى: ﴿اعبدوا ربَّكم﴾[1] معناه: وحِّدوه وخصُّوه بالعبادة، وذكر تعالى خلقه لهم من بين سائر صفاته، إذ كانت العرب مقرة بأن الله خلقها، فذكر ذلك حجة عليهم[2]. و(لعلَّ) في هذه الآية قال فيها كثير من المفسرين: هي بمعنى إيجاب التقوى[3]، وليست من الله تعالى بمعنى ترجٍّ وتوقع. وقال سيبويه، ورؤساء اللسان: هي على بابها، والترجي والتوقع إنما هو في حيز البشر، أي إذا تأملتم حالكم مع عبادة ربكم رجوتم لأنفسكم التقوى. و﴿لعلَّكم﴾ متعلقة بقوله: ﴿اعبدوا ربَّكم﴾، ويتجه تعلقها بخلقكم، أي لما ولد كل مولود على الفطرة فهو إن تأمله متأمل توقع له ورجا أن يكون متقيا. و﴿تتَّقون﴾ مأخوذ من الوقاية، وأصله تُوتَقِيُون، نقلت حركة الياء إلى القاف

---

(١) بعد أن ذكر سبحانه علو كتابه، ونفى الريب عن كلامه، وقسّم الخلق إلى أقسام بالإضافة إلى طاعته، أقبل سبحانه على خلقه بخطابه، والتفت إلى أمرهم بعبادته، وجعل من موجبات التعلق بذاته والشكر لنعمائه: أن خلقهم أحياء قادرين، وجعل لهم الأرض فراشاً، والسماء بناءً، وأنزل لهم من السماء ماءً، فأخرج به من أنواع الثمرات، وأصناف النباتات رزقاً ينتفعون به في حياتهم، وليكون ذلك مجازاً إلى النظر الموصّل إلى توحيده، والاعتراف بعظمته.

(٢) كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

(٣) والمعنى: لتتَّقوا.

وحذفت للالتقاء مع الواو الساكنة، وأدغمت الواو الأولى في التاء.

وقوله تعالى: ﴿الَّذي جَعَلَ﴾ نصب على إتباع[١] (الَّذي) المتقدم، ويصح أن يكون مرفوعاً على القطع، وما ذكر مكي: من إضمار أعني، أو مفعول بتتقون فضعيف. و(جعلَ) بمعنى صيَّر في هذه الآية، لتعدّيها إلى مفعولين، و﴿فراشاً﴾ معناه: تفترشونها[٢]، وتستقرون عليها، وما في الأرض مما ليس بفراش كالجبال والبحار فهو من مصالح ما يفترش منها، لأن الجبال كالأوتاد، والبحار يركب فيها إلى سائر منافعها.

و﴿السَّماء﴾ قيل: هو اسم مفرد، جمعه سماوات، وقيل: هو جمعٌ واحده سماوة. وكل ما ارتفع عليك في الهواء فهو سماء، والهواء نفسه علواً يقال له: سماءٌ، ومنه الحديث «خلق الله آدم طوله في السَّماء ستُّون ذراعاً[٣]». واللفظ من السُّمو وتصاريفه.

وقوله تعالى: ﴿بناءً﴾ تشبيه بما يفهم[٤]، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[٥]، وقال بعض الصحابة: بناها على الأرض كالقبة.

وقوله: ﴿وأنزل من السَّماء﴾ يريد السحاب، سمي بذلك تجوزاً لما كان يلي السماءَ ويقاربها، وقد سموا المطر سماءً للمجاورة، ومنه قول الشاعر:

إذا نَــزَلَ السَّمــاءُ بــأرضِ قــومٍ رَعَيناه وَإِنْ كــانــوا غِضــابــاً[٦]

---

(١) الأوضح أنه نعت للرب.

(٢) قال جار الله الزمخشري: «إن قلت: هل في قوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ دليل على أن الأرض مسطحة، وليست كروية؟ قلت: ليس فيه إلا أن الناس يفترشونها، وسواء كانت على شكل السطح، أو شكل الكرة، فالافتراش غير مستنكر، ولا مدفوع، لعظم حجمها، واتساع جرمها، وتباعد أطرافها، والمراد أن كروية الشكل لا تمنع أن تكون فراشاً لبني آدم، لأن ذلك باعتبار مجموعها، وهي في حد ذاتها واسعة الأطراف، وبعيدة الأكناف حتى كأنها مسطحة».

(٣) زيادة (في السماء) لا توجد في الروايات المشهورة، والحديث رواه الشيخان، والإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أي كالبناء المرتبط بعضه ببعض من كل جهة، المتماسك بالجاذبية التي تحفظ نظامها في مداراتها، فهي كالقبة المضروبة على الأرض. وقد جعل الله بين المقلة والمظلّة علاقة ورابطة كرابطة النكاح، بإنزال الماء منها عليها والإخراج به من بطنها أشباه النسل من ألوان الثمار وأصناف النبات، رزقاً لبني آدم.

(٥) من الآية (٤٧) من سورة الذاريات.

(٦) هذا البيت مشهور، يمثل به علماء البيان للاستخدام حيث أطلق السماء على المطر بقرينة النزول، ثم=

فتجوز أيضاً في رعيناه، فبتوسط المطر جعل السماء عشباً. وأصل (ماء) موه يدل على ذلك قولهم في الجمع: مياه وأمواه، وفي التصغير: مويْهٌ، وانطلق اسم الرزق على ما يخرج من الثمرات قبل التملك أي هي معدَّةٌ أن يصح الانتفاع بها فهي رزق[١]، وردَّ بهذه الآية بعض الناس قول المعتزلة: إن الرزق ما يصح تملكه، وليس الحرام برزق.

وواحد الأنداد: ندٌّ[٢]. وهو المقاوم والمضاهي كان مثلا أو خلافاً أو ضداً، ومن حيث قاوم وضاهى فقد حصلت مماثلة ما، وقال أبو عبيدة معمر، والمفضل: الضد: الند، وهذا التخصيص منهما تمثيل لا حصر.

واختلف المتأولون: من المخاطب بهذه الآية؟ فقالت جماعة من المفسرين: المخاطب جميع المشركين، فقوله على هذا [وأنتم تعلمون][٣] يريد العلم الخاص بأنه تعالى خلق وأنزل الماء، وأخرج الرزق، ولم تنف الآية الجهالة عن الكفار[٤]. وقيل: المراد كفار بني إسرائيل، فالمعنى: تعلمون من الكتب التي عندكم، أن الله لا ندَّ له.

= أعيد الضمير على السماء بمعنى العشب والنبات. والبيت لمعاوية بن مالك الملقب (بمعود الحكماء) بقوله في هذه القصيدة:

أعــوِّد مثلهـــا الحكمـــاء بعـــدي ... إذا مـا الحق فـي الحـدثـان نـابـا

ومعنى البيت الذي ذكره ابن عطية: إذا نزل المطر بأرض قوم فأخصبت وبقيت أرضنا جدباء، ذهبنا فرعينا أرضهم، وإن غضب أهلها لم نهتم بغضبهم لأننا أعزة وأقوياء.

(١) سبق أن قلنا إنَّ الخلاف القائم بين أهل السُّنَّة والمعتزلة منشؤه: هل الرزق ما يصح الانتفاع به أو ما يصح تملكه؟ وهذه الآية ترد على المعتزلة من حيث أنَّ الله سبحانه أطلق الرزق على ما ينتفع به في المستقبل قبل تملكه.

(٢) روى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ قال: الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفوة سوداء في ظلمة الليل ـ ومن الشرك أن تقول: لولا الله وفلان لوقع كذا ـ أو ما شاء الله وشاء فلان ـ أو والله وحياتك يا فلان، أخرج البخاري في الأدب المفرد، والنسائي وابن ماجه، عن ابن عباس قال: قال رجل للنبي ﷺ: ماشاء الله وشئت، قال: «جعلتني لله نداً، ما شاء الله وحده». وأخرج الشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: «أي الذَّنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك».

(٣) وفي قوله تعالى: ﴿وأنتم تعلمون﴾ دليل على اعتبار العلم. واستعمال العقل، واجتناب التقليد والتبعية.

(٤) لأنها إنما أثبتت شيئاً خاصاً من العلم، وهو إنعام الله عليهم بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، فلا ينافي قوله تعالى سابقاً، (ولكن لا يعلمون) ـ (ولكن لا يشعرون).

وقال ابن فورك: يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين، فالمعنى لا ترتدوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أنداداً بعد علمكم الذي هو نفي الجهل بأن الله واحد[١]

وهذه الآية تعطي[٢] أن الله تعالى أغنى الإنسان بنعمه هذه عن كل مخلوق، فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا، فقد أخذ بطرف من جعل لله نداً. عصمنا الله تعالى بفضله، وقصر آمالنا عليه بمنّه وطولهِ، لارب غيره.

قوله عز وجل[٣]:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

[الريب] الشك، وهذه الآية تقضي أن الخطاب[٤] المتقدم إنما هو لجماعة

---

(١) هذا أولى الأقوال وأحسنها، فالمراد بالناس في الآية كافة المكلفين من مؤمنين وكافرين، وطلب العبادة من المؤمنين طلب إدامتها والثبات عليها. وطلبها من الكافرين طلب إيجادها وابتدائها.

(٢) قال الإمام (ق): ولهذا قال عليه الصلاة والسلام مشيراً إلى هذا المعنى: «والله لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خيرٌ له من أن يسأل أحداً أعطاه أو منعه»، أخرجه الإمام مسلم، ويدخل في معنى الاحتطاب جميع الأشغال من الصنائع وغيرها ـ فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا، فقد أخذ بطرف من جعل لله نداً ـ وقال علماء الصوفية: بيَّن الله في هذه الآية سبيل الفقر، وهو أن تجعل الأرض وطاءً، والسماء غطاءً، والماء طيباً، والكلأ طعاماً، ولا تعبد أحداً في الدنيا من الخلق بسبب الدنيا، فإن الله عز وجل قد أتاح لك ما لابد لك منه من غير منة فيه لأحد عليك اهـ، وليس المراد من قول الصوفية أن تترك العمل، بل أن تترك التعلق والتملق، ولو أدى بك الحال إلى أن تفترش الأرض، وتتغطى بالسماء.

(٣) ﴿وإن كنتم في ريبٍ مما نزَّلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله﴾ لما ذكر سبحانه الأدلة على وحدانيته وربوبيته، ورسم الطريق إلى إثباتها، وإقامة الحجة عليها، عطف على ذلك الدلالة على نبوة محمدﷺ ورسالته، وأراهم كيف يتعرفون قضية الوحي أهو من عند الله كما يدعي أم هو من عند نفسه كما يدعون ـ بإرشادهم إلى معارضته، والإتيان بسورة من مثله.

ويعم ذلك كلَّ سورة في القرآن، طويلة كانت أم قصيرة، لأنها نكرة في سياق الشرط فتعم، كما هو مقرر في محله. فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها، وهذا هو الحق الذي لا محيد عنه، فكل (سورة) معجزة لا يستطيع البشر معارضتها. قال الإمام الشافعي رحمه الله: «لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾».

(٤) أي قوله تعالى: ﴿ياأيها النَّاس اعبدوا ربكم﴾ الآية، وسبق أنها دعوة عامة.

المشركين الذين تُحُدُّوا، وتقدم تفسير لفظ (سورة) في صدر هذا التعليق.

وقرأ يزيد بن قطيب: [أنزلنا] بألف، واختلف المتأوِّلون على من يعود الضمير في قوله: ﴿من مثله﴾، فقال جمهور العلماء: هو عائد على القرآن، ثم اختلفوا، فقال الأكثر: من مثل نظمه ورصفه وفصاحة معانيه التي يعرفونها، ولا يعجزهم إلا التأليف الذي خصَّ به القرآن، وبه وقع الإعجاز على قول حذَّاق أهل النظر[1]، وقال بعضهم: ﴿من مثله﴾ في غيوبه، وصدقه، وقدمه، فالتحدي عند هؤلاء وقع بالقدم[2]، والأول أبين، و﴿من﴾ على هذا القول زائدة، أو لبيان الجنس، وعلى القول الأول هي للتبعيض، أو لبيان الجنس. وقالت فرقة: الضمير في قوله: ﴿من مثله﴾ عائد على محمد ﷺ، ثم اختلفوا. فقالت طائفة: من أمِّيٍّ صادق مثله، وقالت طائفة: من ساحر، أو كاهن، أو شاعر مثله على زعمكم أيها المشركون. وقالت طائفة الضمير في مثله عائد على الكتب القديمة: التوراة، والإنجيل، والزبور[3].

وقوله تعالى: ﴿وادعوا شهداءكم﴾ معناه: دعاء استصراخ، والشهداء من شهدهم وحضرهم من عون ونصير، قاله ابن عباس. وقيل عن مجاهد: إن المعنى دعاء استحضار. والشهداء جمع شاهد، أي من يشهد لكم أنكم عارضتم، وهذا قول ضعيف. وقال الفراء: شهداؤكم، يراد بهم آلهتهم.

وقوله تعالى: ﴿إن كنتم صادقين﴾، أي فيما قلتم من الريب. هذا قول بعض

(١) وهذا الوجه أعني بلوغ القرآن في الفصاحة والبلاغة إلى حدٍّ خرج عن طوق البشر كافٍ وحده في الإعجاز، وقد انضم إلى ذلك وجوه أخرى، كإخباره عن الأمور الغائبة التي ظهرت كما أخبر ـ وككونه لا يملُّه السمع، لحلاوته وإن تكرر ـ وكجمعه لعلوم لم تكن معهودة لا عند العرب، ولا عند العجم ـ وكإنبائه عن الوقائع الحالية، وأحوال الأمم الماضية، والحال أن الذي أنزل عليه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، لاستغنائه عن ذلك بالوحي، ومن الوجوه المعجزة كما قاله بعض علماء الشيعة: كونه قاهراً لمن يقاومه، وغالباً على من يغالبه، ونافذاً في إزهاق من يخالفه ـ وكونه مؤثراً في إيجاد الأمة، وبناء الشريعة، ونفوذ الحكم، وثبوت الكلمة، لما جعل الله فيه من النور والهداية والحرمة ـ ومن تدبر القرآن، وجد فيه من وجوه الإعجاز، فنوناً ظاهرة، وخفية، من حيث اللفظ، ومن حيث المعنى ـ وبذلك يعلم أن القرآن أعظم المعجزات، فإنه آية باقية مدى الدهر، يشاهدها بعين الفكر كلُّ ذي حجر، وسواه من المعجزات انقضى بانقضاء وقته، فلم يبق منه إلا الخبر.

(٢) أي: وما ذكر معه.

(٣) يعني فأتوا بسورة من كتاب مثله فإنها تصدق ما فيه.

المفسرين، وقال غيره: فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة، ويؤيد هذا القول أنه قد حكي عنهم في آية أخرى ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿فإن لم تفعلوا﴾ دخلت (إن) على (لم) لأن(لم تفعلوا) معناه تركتم الفعل، فإن لا تؤثر، كما لا تؤثر في الماضي من الأفعال، و(تفعلوا) جزم بلم، وجزمت (لم) لأنها أشبهت (لا) في التبرئة في أنهما ينفيان، فكما تحذف (لا) تنوين الاسم، كذلك تحذف (لم) الحركة أو العلامة من الفعل[٢].

وقوله: ﴿ولن تفعلوا﴾ نصبت بـ(لن)، ومن العرب من يجزم بها، ذكره أبو عبيدة.

ومنه بيت النابغة على بعض الروايات:

فلن أعرِّضْ ـ أَبَيْتَ اللَّعنَ ـ بالصَّفَدِ[٣].

وفي الحديث في منامة عبد الله بن عمر (فقيل لي: لن تُرَعْ)[٤] هذا على تلك اللغة، وفي قوله: ﴿لن تفعلوا﴾ إثارة لهممهم، وتحريكٌ لنفوسهم ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهو أيضاً من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها.

وقوله تعالى: ﴿فاتقوا النَّار﴾ أمر بالإيمان وطاعة الله، خرج في هذه الألفاظ المحذرة[٥]. وقرأ الجمهور ﴿وَقودها﴾ بفتح الواو[٦]. وقرأ الحسن بن أبي الحسن،

---

(١) من الآية (٣١) من سورة الأنفال.

(٢) أي: والعامل لا يدخل في العامل، ولكن لما كانت (إن) لا تؤثر كما لا تؤثر في الماضي من الأفعال سهل دخولها على (لم)، والمعنى فإن تركتم الفعل الخ، وقد جاء في (البحر المحيط) (١ـ ١٠٦): «وفي كتاب ابن عطية تعليل غريب لعمل (لم) الجزم: قال: وجزمت (لم). . . » الخ كلام ابن عطية هنا.

(٣) وفي بعض الروايات الأخرى: (فلم أعرِّضْ أبيت اللعنَ بالصفَدِ) وأول البيت: هذا الثَّناء فإن تسمع به حسناً.

و(أبيت اللعن) نوع من التحية ـ فكأنه قال: أبيت أن تفعل ما تلعن عليه من الأمور، و(الصفد): العطاء. والنابغة هو زياد بن معاوية.

(٤) أخرجه الإمام البخاري في باب «فضل قيام الليل» ـ وفي مناقب ابن عمر ـ وأخرجه الإمام مسلم كذلك في فضائل ابن عمر، وروي الحديث بلم وبلن مجزوماً على لغة قليلة حكاها الكسائي.

(٥) اتقاء النار: كناية عن ترك العناد، وترك العناد قد يؤدي إلى الإيمان بالله والرسول، والطاعة لله والرسول، أي إذا استبنتم العجز فآمنوا وأطيعوا، اتقاءً للنار التي وقودها الناس والحجارة، والكناية باب من أبواب البلاغة، وفائدتها الإيجاز الذي هو حلية القرآن.

(٦) أي: (الواو) الأولى في (وقود).

ومجاهد، وطلحة بن مصرف، وأبو حيوة: [وقودها] بضم الواو في كل القرآن، إلا أن طلحة استثنى الحرف الذي في البروج. و«بفتح الواو» هو الحطب، و«بضمها» هو المصدر، وقد حكيا جميعاً في الحطب، وقد حكيا في المصدر. قال ابن جني: من قرأ بضم الواو، فهو على حذف مضاف، تقديره: ذو وقودها، لأن الوقود بالضم مصدر وليس بالناس. وقد جاء عنهم (الوقود) بالفتح في المصدر، ومثله: «ولعت به ولوعاً» بفتح الواو، وكله شاذ، والباب هو الضم.

وقوله: [النَّاس] عمومٌ معناه الخصوص فيمن سبق عليه القضاء بدخولها. وروي عن ابن مسعود في الحجارة، أنها حجارة الكبريت[(١)]، وخصت بذلك لأنها تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب: سرعة الاتقاد، ونتن الرائحة، وكثرة الدخان، وشدة الالتصاق بالأبدان، وقوة حرها إذا حميت.

وفي قوله تعالى: [أُعِدَّت][(٢)] رد على من قال: إن النار لم تخلق حتى الآن وهو القول الذي سقط فيه منذر بن سعيد[(٣)].

وذهب بعض المتأولين: إلى أن هذه النار المخصصة بالحجارة هي نار الكافرين

---

(١) أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود قال: إن الحجارة التي ذكرها الله في القرآن في قوله ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ حجارة من كبريت خلقها الله عنده كيف شاء.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله. وأخرج ابن جرير أيضاً عن عمرو بن ميمون مثله. وأخرج الإمام أحمد والإمام مالك والبخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم». قالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية، قال: «فإنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها»، انتهى.

(٢) أي: هيِّئت، فهي مخلوقة من الآن، وكذلك الجنة، وهذا هو رأي أهل السنة والجماعة. لأن الإعداد لا يكون إلا للموجود.

(٣) هو منذر بن سعيد القاضي الأندلسي المعروف بالبلوطي من موضع يعرف بفحص البلوط من نواحي قرطبة، يكنى أبا الحكم. كان عالماً بالقرآن، وحافظاً لما قالت العلماء في تفسيره، وأحكامه، ووجوه حلاله وحرامه، كثير التلاوة له، حاضر الشاهد لآياته، وله فيه كتب منها كتاب «الأحكام»، وكتاب «الناسخ والمنسوخ»، قال عنه أبو حيان التوحيدي في تفسيره: «البحر المحيط» ١/١٠٨، ١٠٩ ـ: «وكان معتزلياً في أكثر الأصول، ظاهرياً في الفروع، وسرى إليه ذلك القول من قول كثير من المعتزلة ـ»، ولي قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٣٣٨ هـ وتوفي سنة ٣٥٥ هـ. وكان خطيباً بليغاً، وشاعراً محسناً. انظر ترجمته في «نفح الطيب».

خاصة، وأن غيرها هي للعصاة[١]. وقال الجمهور: بل الإشارة إلى جميع النار، لا إلى نار مخصوصة، وإنما ذكر الكافرين ليحصل المخاطبون في الوعيد، إذ فعلهم كفرٌ، فكأنه قال: أعدت لمن فعل فعلكم، وليس يقتضي ذلك أنه لا يدخلها غيرهم[٢]، وقرأ ابن أبي عبلة [أعدَّها الله للكافرين].

قوله عز وجل:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

[بَشِّرْ] مأخوذ من البشَرَة، لأن ما يبشَّر به الإنسان من خير أو شرٍّ يظهر عليه أثره في بشرةِ الوجه، والأغلب استعمال البشارة في الخير، وقد تستعمل في الشر مقيدةً به، منصوصاً على الشر المبشر به، كما قال تعالى: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾، ومتى أطلق لفظ البشارة فإنما يحمل على الخير[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿وعملوا الصالحات﴾ ردُّ على من يقول إن لفظة الإيمان بمجردها تقتضي الطاعات[٤]، لأنه لو كان ذلك ما أعادها. [أنَّ] في موضع نصب ببشِّرْ، وقيل: في موضع خفض على تقدير باء الجر. و[جنَّات] جمع جنَّة، وهي بستان

---

(١) قال جار الله الزمخشري: فإن قلت: أنار الجحيم كلُّها موقدة بالناس والحجارة، أم هي نيران شتى، منها نار بهذه الصفة؟ قلت: بل هي نيران شتى: منها نار توقد بالناس والحجارة يدل على ذلك تنكيرها في قوله تعالى: ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾، ﴿فأنذرتكم ناراً تلظى﴾، ولعل لكفار الجن وشياطينهم ناراً وقودها الشياطين، كما أن لكفرة الإنس ناراً وقودها هم، جزاء لكل جنس بما يشاكله من العذاب.

(٢) من ذلك قوله تعالى: ﴿وجعلنا جهنَّم للكافرين حصيرا﴾.

(٣) نقل أبو حيان في تفسيره هذا الكلام عن ابن عطية، ثم قال: «وتقدم لنا ما يخالف كلامه من قول سيبويه وغيره، وأن البشارة أول خبر يرد على الإنسان من خير كان أو شرّ ـ قالوا: وسمي بذلك لتأثيره في البشرة، فإن كان خيراً أثّر المسرَّة والانبساط، وإن كان شراً أثر القبض والانكماش، قال تعالى: ﴿ويبشرهم ربُّهم برحمةٍ منه ورضوان﴾ وقال تعالى: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ اهـ. البحر المحيط ١/ ١١١.

(٤) أي: تكفي من دون عمل، وقد اشتهرت فرقة المرجئة بهذا الرأي، والحق أن الجنة تنال بالإيمان والعمل الصالح، كما صرحت بذلك الآيات، ورأي ابن عطية أن الإيمان وحده لا يقتضي فعل الطاعة كما هو واضح. راجع (البحر المحيط ١/ ١١١).

الشجر والنخيل، وبستان الكرم يقال له: الفردوس، وسميت جنة لأنها تجن من دخلها أي تستره، ومنه المِجَن والجَنَن[١] وجنَّ الليل.

و[من تحتها] معناه: من تحت الأشجار التي يتضمنها ذكر الجنة، وقيل: قوله [من تحتها] معناه: بإزائها كما تقول: داري تحت دار فلان. وهذا ضعيف، و[الأنهار] المياه في مجاريها المتطاولة الواسعة، لأنها لفظة مأخوذة من أنهرت أي وسَّعت، ومنه قول قيس بن الخطيم:

ملكتُ بها كفِّي فأنهرتُ فتقها ... يرى قائمٌ من دونها ما وراءها

ومنه قول النبي ﷺ: «ما أنهر الدم، وذكر اسم الله عليه فكلوه». معناه ما وسَّع الذبح حتى جرى الدم كالنهر، ونسب الجري إلى النهر وإنما يجري الماء وحده تجوُّزاً[٢]، كما قال: «واسأل القرية»، وكما قال الشاعر:

نُبِّئت أنَّ النَّار بعدكَ أوقدت ... واستبَّ بعدك يا كليبُ المجلس[٣]

وروي أن أنهار الجنة ليست في أخاديد، إنما تجري على سطح أرض الجنة منضبطة.

وقوله [كلَّما]: ظرف يقتضي الحصر.

وفي هذه الآية رد على من يقول: إن الرزق من شروطه التملك، ذكر هذا بعض الأصوليين، وليس عندي ببيِّن[٤].

---

(١) الجنن: القبر، والمجنُّ: التُّرس.

(٢) فسّر ابن عطية الأنهار بأنها «المياه في مجاريها» ـ ثم قال بعد ذلك: «ونسب الجري إلى النهر، وإنما يجري الماء وحده تجوزاً».

وجاء أبو حيان فنسب هذا الكلام لابن عطية، ثم علق عليه ناقداً له في تفسيره «البحر المحيط ١/١١٣». فقال: «وناقض قوله هذا ما شرح به الأنهار قبله بنحو خمسة أسطر». اهـ. والذي يبدو لنا أن كلام أبي حيان في تعليقه يكون صحيحاً، ويكون نظراً دقيقاً لو أن ابن عطية فسّر الأنهار بأنها (المياه وحدها) ـ لكن الحقيقة أن ابن عطية فسر الأنهار (بأنها المياه في مجاريها المتطاولة الواسعة) ثم قال: إن الذي يجري هو الماء (وحده) ـ فلا تناقض إذاً.

(٣) هو لمهلهل قاله يرثي أخاه كليباً • وقوله: «المجلس» أي «أهل المجلس». وفي رواية:

ذهب الخيار من المعاشر كلِّهم ... واستبَّ بعدك ياكليب المجلس
وتقاولوا في أمر كل عظيمة ... لو كنت حاضر أمرهم لم ينبسوا

(٤) لأن هذا الرزق في الحياة الآخرة، وكذلك القول هو في الآخرة، فلا يظهر فيه الاستدلال.

وقولهم[هذا] إشارة إلى الجنس، أي هذا من الجنس الذي رزقنا منه من قبل[(١)]، والكلام يحتمل أن يكون تعجباً، وهو قول ابن عباس. ويحتمل أن يكون خبراً من بعضهم لبعض، قال جماعة من المفسرين. وقال الحسن، ومجاهد: يرزقون الثمرة، ثم يرزقون بعدها مثل صورتها. والطعم مختلف، فهم يتعجبون لذلك، ويخبر بعضهم بعضاً. وقال ابن عباس: ليس في الجنة شيءٌ مما في الدنيا سوى الأسماء، وأما الذوات فمتباينة، وقال بعض المتأولين: المعنى أنهم يرون الثمر فيميِّرون أجناسه، حين أشبه منظره ما كان في الدنيا، فيقولون: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقول ابن عباس الذي قبل هذا يرد على هذا القول بعض الرد. وقال بعض المفسرين: المعنى هذا الذي وعدنا به في الدنيا، فكأنهم قد رزقوه في الدنيا إذ وعد الله منتجز. وقال قوم: إنَّ ثمر الجنة إذا قطف منه شيءٌ خرج في الحين في موضعه مثله، فهذا إشارة إلى الخارج في موضع المجنِي، وقرأ جمهور الناس ﴿وأُتُو﴾ بضم الهمز، وضم التاء، وقرأ هارون الأعور: [وأَتَوا] بفتح الهمزة والتاء، والفاعل على هذه القراءة الولدان والخدام، و﴿أُتُوا﴾ على قراءة الجماعة أصله أُتِيُوا ـ نقلت حركة الياء إلى التاء، ثم حذفت الياءُ للالتقاء.

وقوله تعالى: ﴿متشابهاً﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغيرهم، معناه: يشبه بعضه بعضاً في المنظر، ويختلف في الطعم، وقال عكرمة: معناه يشبه ثمر الدنيا في المنظر، ويباينه في جُلِّ الصفات، وقال قتادة: متشابهاً: معناه خياراً لا رذل[(٢)] فيه، كقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾[(٣)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه يريد متناسباً في أن كل صنف هو أعلى جنسه، فهذا تشابه ما، وقيل ﴿متشابهاً﴾ أي مع ثمر الدنيا في الأسماء، لا في غير ذلك

---

(١) لأبي حيان في «البحر المحيط ١/ ١١٥» تعليق لطيف قال فيه: «وليس ﴿هذا﴾ إشارة إلى الجنس، بل ﴿هذا﴾ إشارة إلى الرزق، وكيف يكون إشارة إلى الجنس وقد فسر قوله بعد: من الجنس الذي رزقناه من قبل، فكأنه قال: هذا الجنس من الجنس الذي رزقنا من قبل»؟ ثم قال أبو حيان: «ولعل الناقل صحف مثل بمن». يعني لعلها كانت في الأصل (مثل) فنقلها الناقل (من) ـ ويكون أصل الكلام: «هذا مثل الجنس الذي رزقنا من قبل» اهـ.

(٢) الرَّذل: الدنيءُ الخسيس. وضد الجيد، جمعه رذول، وأرذال، ورذلاء.

(٣) من الآية (٢٣) من سورة الزمر.

من هيئة وطعم، و[أزواج] جمع زوج، والمرأة زوج الرجل، والرجل زوج المرأة، ويقال في المرأة: زوجةٌ، ومنه قول الفرزدق:

وإنَّ الَّـذي يسعـى ليفسـد زوجتـي كساع إلى أُسد الشَّرى يستبيلُها[١]

وقال عمار بن ياسر في شأن عائشة رضي الله عنها: «والله إني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم». ذكر البخاري وغيره الحديث بطوله[٢]. و﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ أبلغ من طاهرة، ومعنى هذه الطهارة من الحيض والبزاق[٣]، وسائر أقذار الآدميات، وقيل: من الآثام، و«الخلود»: الدوام في الحياة، أو الملك ونحوه، وخلد بالمكان إذا استمرت إقامته فيه، وقد يستعمل الخلود مجازاً فيما يطول، وأما هذا الذي في الآية فهو أَبَديٌّ حقيقة.

قوله عز وجل:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

ذكر المفسرون أنه لما ضرب الله تعالى المثلين المتقدِّمَيْن في هذه السورة قال الكفار: ما هذه الأمثال؟ الله أجلُّ من أن يضرب هذه أمثالاً، فنزلت الآية.

وقال ابن قتيبة: إنما نزلت لأن الكفار أنكروا ضرب المثل في غير هذه السورة بالذباب والعنكبوت[٤]، وقال قوم هذه الآية مثلٌ للدنيا[٥].

---

(١) الشرى: مأسدة إلى جانب الفرات يضرب بها المثل، وقوله يستبيلها بالباء: أي يأخذ بولها في يده.

(٢) ذكره في باب «فضل عائشة» من كتاب المناقب، وفي كتاب «الفتن».

(٣) البزاق هو البصاق ـ والبزق والبصق لغتان في البزاق والبصاق.

(٤) إنما أنكروا ذلك لأنهم أخذوا بمجرد الظاهر، ولم ينظروا في المراد من الخطاب، وهذا عدم فقه منهم للغرض المقصود، ولذلك كان إذا نفي الفقه أو العلم عن قوم فذلك لوقوفهم مع ظاهر الخطاب، وعدم اعتبارهم للمراد منه، كما قال تعالى: ﴿ذلك بأنهم قومٌ لا يفقهون﴾ وإذا أثبت ذلك فهو لفهمهم مراد الله من خطابه وهو باطنه، كما قال تعالى: ﴿فأمّا الّذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربِّهم﴾ فما استنكره اليهود أو المنافقون من ضرب المثل بالمحقَّرات من الأشياء ليس موضعاً للاستنكار، من حيث أن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، فإن كان المتمثل له عظيماً كان المتمثل به عظيماً، وإن كان المتمثل له حقيراً كان المتمثل له كذلك، فعظم المثل وحقارته شيء يستدعيه حال المتمثل به، كما أشار إليه الزمخشري، ولذلك رد الله عليهم بقوله: ﴿إن الله لا يستحي﴾ الآية.

(٥) صاحب هذا القول يقول: إنه مثل ضربه الله للدنيا وأهلها، فإن البعوضة تحيا ما جاعت، فإذا سمنت=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيفٌ يأباه رصف الكلام واتساق المعنى.

و﴿يستحيي﴾ أصله يسْتَحْيِيُ. عينه ولامه حرفا علة، أعلَّت اللام منه بأن استثقلت الضمة على الياء فسكنت. وقرأ ابن كثير في بعض الطرق عنه، وابن محيصنٍ، وغيرهما: [يَسْتَحِي] بكسر الحاء، وهي لغة لتميم، نقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء فسكنت، ثم استثقلت الضمة على الياء الثانية فسكنت، فحذفت إحداهما للالتقاء(١).

واختلف المتأولون في معنى ﴿يستحيي﴾ في هذه الآية: فرجَّح الطبري أن معناه: يخشى، وقال غيره: معناه يترك، وهذا هو الأولى، ومن قال يمتنع أو يمنعه الحياء فهو يترك، أو قريب منه.

ولما كان الجليل القدر في الشاهد لا يمنعه من الخوض في نازل القول إلا الحياء من ذلك، رد الله بقوله: ﴿إنَّ الله لايستحيي﴾ على القائلين: كيف يضرب الله مثلا بالذباب ونحوه؟ أي أن هذه الأشياء ليست من نازل القول، إذ هي من الفصيح في المعنى المبلِّغ أغراض المتكلم إلى نفس السامع، فليست مما يستحى منه. حكى المهدوي أن الاستحياء في هذه الآية راجع إلى الناس، وهذا غير مرضي.

وقوله تعالى: ﴿أن يَّضرب﴾: (أن) مع الفعل في موضع نصب كأنها مصدر في موضع المفعول، ومعنى ﴿يضرب مثلاً﴾: يبين ضرباً من الأمثال، أي نوعاً، كما تقول هذا من ضرب هذا، والضريب المثيل، ويحتمل أن يكون مثل ضرب البعث، وضرب الذلة، فيجيءُ المعنى(٢) أن يلزم الحجة بمثل(٣).

= ماتت، كذلك هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل إذا امتلؤوا من الدنيا ريّاً، أخذهم الله عند ذلك ثم تلا: ﴿فلمَّا نسوا ما ذكِّروا به فتحنا عليهم أبواب كلِّ شيءٍ﴾ هكذا رواه ابن جرير، وضعف ابن عطية هذا القول، وهو كذلك، وقد ضرب رسول الله ﷺ جناح البعوضة مثلاً للدنيا في حديث سهل بن سعد «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماءٍ».

(١) قيل: المحذوف الأولى، وهي عين الكلمة، وقيل: الثانية وهي لام الكلمة ـ خلافٌ مذكور في محله.

(٢) أي معنى الآية، فمعنى ﴿أن يضرب مثلا﴾ أن يلزم الحجة بمثل.

(٣) الحياء بمعناه في اللغة لا يصح نسبته إلى الله تعالى، وكل مالا يصح نسبته إلى الله تعالى فمختلف في تأويله، منهم من قال نؤمن به إجمالا ونكل علمه إلى الله تعالى، وأهل التأويل اختلفوا في تفسير الاستحياء في الآية، والأقوال المذكورة كلها تتقارب في المعنى، وكلها من ثمرات الحياء، ثم إنه ليس=

و﴿مثلاً﴾ مفعول، فقيل: هو الأول، وقيل: هو الثاني قدِّم وهو في نية التأخير، لأن ضرب في هذا المعنى يتعدى إلى مفعولين[1].

واختلفوا في قوله: ﴿ما بعوضةً﴾ فقال قوم: ﴿ما﴾ صلة زائدة لا تفيد إلا شيئاً من تأكيد، وقيل: ﴿ما﴾ نكرة في موضع نصب على البدل لإبهامها. حكى المهدوي هذا القول عن الفراء، والزجاج، وثعلب، وقيل غير هذا مما هو تخليط دعا إليه الظن أنَّ ﴿يضرب﴾ إنما يتعدى إلى مفعول واحد، وقال بعض الكوفيين: نصب ﴿بعوضة﴾ على تقدير إسقاط حرف الجر، والمعنى: أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة. وحكي عن العرب (له عشرون ما ناقة فجملا)، وأنكر أبو العباس هذا الوجه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي يترجح أن ﴿ما﴾ صفة مخصِّصَةٌ، كما تقول: جئتك في أمر ما، فتفيد النكرة تخصيصاً وتقريباً[2]، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

سَلَعٌ ما ومثلُه عُشَرٌ ما ... عائلٌ ما وعالَت البَيقورا[3]

= انتفاء الشيء عن الله تعالى مما يدل على صحة نسبته إليه كما ذهب إليه القاضي أبو بكر الطيب رحمه الله، بل الحق أن كل أمر مستحيل على الله تعالى يصح أن ينفى عنه، وبذلك نزل القرآن وجاءت السنة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لاتأخذه سنة ولا نومٌ﴾ ﴿لم يلد ولم يولد﴾ ﴿ما اتخذ الله من ولد﴾ ﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾ فالإخبار بانتفاء هذه الأشياء هو الصدق المحض، وهو الحق المبين.

(١) ضرب، يمكن أن تفسر بذكر أو بيِّن، ويمكن أن تفسر بجعل، فالمعنى الأول يتعدى إلى واحد، والثاني إلى اثنين.

(٢) قال أبو (ح): والذي نختاره من هذه الأعاريب: أن ﴿ضرب﴾ يتعدى إلى واحد، وذلك الواحد هو ﴿مثلا﴾، لقوله تعالى: ﴿ضرب مثل﴾ ولأنه مقدم في التركيب، وصالح لأن ينتصب بيضرب، و﴿ما﴾ صفة تزيد النكرة شيوعاً، لأن زيادتها في هذا الموضع لا تنقاس، و﴿بعوضة﴾ بدل، لأن عطف البيان، مذهب الجمهور فيه أنه لا يكون في النكرات، ولأن الصفة بأسماء الأجناس لا تنقاس. اهـ.

(٣) كانت العرب إذا أرادت الاستسقاء في السنة الآزمة، جعلت النيران في أذناب البقر وأطلقوها، فتمطر السماء، لأن الله تعالى يرحمها بسبب ذلك بزعمهم. وقد قال أمية بن أبي الصلت الثقفي في ذلك:

سنة أزمة تخيَّل للنا ... س ترى للعضاة فيها صريرا
لا على كوكب بنوء ولا ... ريح جنوب ولا ترى طخرورا
ويسوقون باقر السهل للطو ... د مهازيل خشية أن تبورا
عاقدين النيران في هلب الأذ ... ناب منها لكي تهيج البحورا
سلع ما ومثله عشرٌ ما ... عائلٌ ما وعالت البيقورا =

و﴿بعوضةً﴾ على هذا مفعول ثان، وقال قوم: ﴿ما﴾ نكرة، كأنه قال: شيئاً، والآية في هذا يشبهها قول حسان بن ثابت:

فكفى بنا فضلا على من غيرُنا ... حبُّ النبي محمَّد إيَّانا[1]

وقد تقدم نظير هذا القول[2]، والشبه بالبيت غير صحيح عندي.

والبعوضة فعولة، من بعَّض إذا قطَّع اللحم، يقال بضَّع وبعَّض بمعنى، وعلى هذا حملوا قول الشاعر[3]:

لنعم البيتُ بيتُ أبي دِثارِ ... إذا ما خافَ بعضُ القومِ بعضا

وقرأ الضحاك، وإبراهيم بن أبي عبلة، ورؤبة بن العجاج (بعوضةٌ) بالرفع. قال أبو الفتح: وجه ذلك أن [ما] اسم بمنزلة الذي، أي لا يستحيي أن يضرب الذي هو بعوضة مثلا. فحذف العائد على الموصول، وهو مبتدأ، ومثله قراءة بعضهم: [تماماً على الَّذي أحسنُ]، أي على الذي هو أحسن. وحكى سيبويه: ما أنا بالذي قائلٌ لك شيئاً[4]، أي هو قائل.

وقوله تعالى ﴿فما فوقها﴾ من جعل ﴿ما﴾ الأولى صلة زائدة، فما الثانية عطف على ﴿بعوضة﴾، ومن جعل ﴿ما﴾ اسماً فـ (ما) الثانية عطف عليها.

وقال الكسائي، وأبو عبيدة، وغيرهما: المعنى فما فوقها في الصغر. وقال قتادة، وابن جريج، وغيرهما: المعنى في الكبر.

= ومعنى «عالت البيقورا» أن البقر عالت، وأن سنة الجدب أثقلتها بسبب ما حملته من الأشجار والنيران في هذه السنة ـ قال عيسى بن عمر: هذا البيت لا أدري ما معناه، ولا رأيت أحداً يعرفه.

(١) قيل: هذا البيت لكعب بن مالك، وقيل: لعبد الله بن رواحة. وقد أدخل الشاعر الباء على المفعول به، وهي لا تدخل إلا على الفاعل كقوله تعالى: ﴿وكفى بالله حسيباً﴾، وغيرنا مرفوع على تقدير من هو غيرنا بحذف صدر الصلة على حد قوله تعالى: [على الذي أحسن] ومخفوض على أن من نكرة موصوفة أي على إنسان أو قوم غيرنا.

(٢) يعني في قوله تعالى: ﴿فلما أضاءت ما حوله﴾.

(٣) هو أبو دثار الكلبي كما في كنايات الجرجاني»، وأبو دثار في البيت يعني به الظلة والكلة التي يتَّقى بها، وقوله (بعضاً) أي عضّاً ولسعاً، يقال: بعضه البعوض يبعضه بعضاً: عضه وآذاه، ولا يقال في غير البعوض.

(٤) المشهور: ما أنا بالذي قائل لك سوءاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والكل محتمل، والضمير في ﴿أنّه﴾ عائد على المثل.

واختلف النحويون في ﴿ماذا﴾[(١)] فقيل: هي بمنزلة اسم واحد بمعنى أي شيء أراد الله؟ وقيل: ﴿ما﴾ اسمٌ و﴿ذا﴾ اسم آخر بمعنى الذي، فما في موضع رفع بالابتداء، وذا خبره، ومعنى كلامهم هذا: الإنكار بلفظ الاستفهام، وقوله: ﴿مثلا﴾ نصب على التمييز، وقيل: على الحال من ﴿ذا﴾ في ﴿بهذا﴾ والعامل فيه الإشارة والتنبيه.

واختلف المتأولون في قوله تعالى ﴿يضلُّ به كثيراً ويهدي به كثيراً﴾[(٢)] فقيل: هو من قول الكافر[(٣)] ـ أي ما مراد الله بهذا المثل الذي يفرق به الناس إلى ضلالة، وإلى هدى؟ وقيل: بل هو خبر من الله تعالى[(٤)] أنه يضل بالمثل الكفار الذين يعمون به، ويهدي به المؤمنين الذين يعلمون أنه الحق، وفي هذا رد على المعتزلة في قولهم: إن الله لا يخلق الضلال.

---

(١) (ماذا) تستعمل في العربية على أوجه، منها: أن (ماذا) برمّتها استفهام، كقولك: لماذا جئت؟ ـ ومنها: أن (ما) استفهام و(ذا) موصول نحو (ماذا تفعل)؟ ومنها: غير ذلك. وهي في الآية الكريمة استفهام انكاري، وانظر لذا قول ابن مالك:

ومثل ماذا بعد ما استفهام ... أو من إذا لم تلغ في الكلام

وفي تفسير الإمام (ط) رحمه الله ما نصه: «وتأويل قوله: ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾ الذي أراد الله بهذا المثل مثلا فذا مع ما في معنى الذي وأراد صلته، وهذا إشارة إلى المثل». انتهى منه بلفظه. وما سلكه رحمه الله في هذه الآية. من جعل (ماذا) فيها اسماً موصولاً على جهة التركيب مسلك فاسد، لأنه يؤدي إلى أن المقول في الآية المذكورة ليس جملة ولا مفرداً في معناها، والصواب كما في أبي (ح) وغيره أنّ ﴿ماذا﴾ كلها استفهام على جهة التركيب مفعول مقدم بأراد. ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ وحدها استفهاماً، و﴿ذا﴾ موصولا بمعنى الذي خبره، وجملة ﴿أراد﴾ صلة، فمنصوب القول على الأول جملة ﴿أراد الله بهذا مثلا﴾ مع ضميمة المفعول المقدم ـ والمنصوب على الوجه الثاني جملة ﴿ماذا أراد الله﴾ الخ. هكذا قرره بعض الشيوخ.

(٢) جملتان جاريتان مجرى البيان والتفسير للجملتين السابقتين، المصدرتين بأمّا، والكثرة والقلة نسبية، فأهل الهداية بالقياس إلى أهل الضلال قلّة، وبالقياس إلى ذاتهم وحقيقتهم كثرة، وبهذا يجمع بين النصوص التي وصفتهم بالقلة في موضع، وبالكثرة في موضع آخر.

(٣) هذا تخليط وإلباس، وذلك أن الكلام إما أن يجري على أنه من كلام الكفار، أو من كلام الله، وأمّا أن يجري بعضه على أنه من كلام الكفار، وبعضه من كلام الله تعالى من غير دليل فإنه يكون إلباساً في التركيب، وكلام الله أعلى من ذلك، قاله أبو (ح).

(٤) هذا أشبه بنظم القرآن وأنسب، والمعنى: قل يضل به كثيراً، ويهدي به كثيراً، يوفق به، ويخذل به.

ولا خلاف أن قوله تعالى: ﴿وما يضلُّ به إلا الفاسقين﴾[1] من قول الله تعالى، ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿ويهدي به كثيراً﴾ إلى آخر الآية رداً من الله تعالى على قول الكفار: ﴿يضلُّ به كثيراً﴾.

والفسقُ: الخروج عن الشيء، يقال: فسقت الفأرة إذا خرجت من جحرها، والرُّطبة إذا خرجت من قشرها، والفسق في عرف الاستعمال الشرعي: الخروج من طاعة الله عز وجل، فقد يقع على من خرج بكفر، وعلى من خرج بعصيان، وقراءة جمهور الأمة في هذه الآية ﴿يُضِلُّ﴾ بضم الياء فيهما، وروي عن إبراهيم بن أبي عبلة أنَّه قرأ [يَضلُّ] بفتح الياء [كثيرٌ] بالرفع [ويَهدي به كثيرٌ، وما يَضِلُّ به إلا الفاسقون] بالرفع[2].

قال أبو عمرو الداني: هذه قراءة القدرية، وابن أبي عبلة من ثقات الشاميِّين، ومن أهل السنة، ولا تصح هذه القراءة عنه مع أنَّها مخالفة خط المصحف. وروي عن ابن مسعود أنه قرأ في الأولى [يُضلُّ] بضم الياء، وفي الثاني وما [يَضِلُّ] بفتح الياء [به إلا الفاسقون]، وهذه قراءة متجهة لولا مخالفتها خط المصحف المجمع عليه.

قوله عز وجل:

﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

النَّقض: ردُّ ما أبرم على أوله غير مبرم. والعهد في هذه الآية: التقدم في الشيء والوَصاية به.

واختلف في تفسير هذا العهد، فقال بعض المتأولين: هو الذي أخذه الله على بني

---

(١) نفي لتوهم من يتوهم أنه أنزل بقصد الإضلال لقوم، والهداية لقوم، أي هو هدى كما قال أولاً للمتقين، لكن الفاسقين يضلون بنظرهم إلى غير المقصود من إنزال القرآن، كما هو هدى للمتقين الذين ينظرون إلى صوب الحقيقة فيه، وهو الذي أنزل من أجله.

(٢) أي في الثلاثة ـ ويقال: هداه يهديه هدى وهدياً وهداية، فهدى هو: أي أرشده فاسترشد. لازم ومتعد.

آدم حين استخرجهم من ظهر أبيهم آدم كالذَّرِّ، وقال آخرون: بل: نصب الأدلة على وحدانية الله بالسموات والأرض وسائر الصنعة ـ هو بمنزلة العهد[١]. وقال آخرون: بل هذا العهد هو الذي أخذه الله على عباده بواسطة رسله: أن يوحدوه، وألا يعبدوا غيره. وقال آخرون: بل هذا العهد هو الذي أخذه الله تعالى على أتباع الرسل والكتب المنزَّلة: أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وألا يكتموا أمره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالآية على هذا[٢] في أهل الكتاب، وظاهر ما قبل وبعد أنها في جميع الكفار[٣]. وقال قتادة: هذه الآية هي فيمن كان آمن بالنبي عليه السلام ثم كفر به فنقض العهد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لم ينسب الطبري شيئاً من هذه الأقوال.

وكل عهد جائز بين المسلمين فنقضه لا يحلُّ بهذه الآية. والضمير في [ميثاقه] يحتمل العودة على(العهد)، أو على (اسم الله تعالى)، و(ميثاق) مفعال من الوثاقة، وهي الشدُّ في العقد والرَّبط ونحوه، وهو في هذه الآية اسم في موضع المصدر[٤]، كما قال عمرو بن شبيم:

أكفــراً بعــدَ ردِّ المــوت عَنِّــي ... وبعد عَطائِكَ المائةَ الرِّتاعا؟[٥]

أراد بعد إعطائك.

وقوله تعالى: ﴿ما أمر الله به أن يوصل﴾. [ما] في موضع نصب بيقطعون، واختلف ما الشيءُ الذي أمر بوصله، فقال قتادة: الأرحام عامة في الناس، وقال غيره: خاصةً فيمن آمن بمحمد، كأن الكفار يقطعون أرحامهم. وقال جمهور أهل العلم: الإشارة في

(١) ونقض العهود عبارة عن الإعراض عنها، وعدم النظر فيها.

(٢) أي على القول الأخير.

(٣) في هذا المقام أقوال: منها ما يدل على العموم، ومنها ما يدل على الخصوص، وهذا الاختلاف ناشىءٌ عن الاختلاف في سبب النزول، والذي يظهر هو التعميم كما قاله أبو (ح)، فكل من نقض عهد الله تناوله هذا الذم.

(٤) الذي يظهر من كلام الزمخشري وأبي البقاء أنه مصدر لا اسم، وقال أبو (ح) ولم أجد بعد البحث والمطالعة هذا الوزن في أبنية المصادر.

(٥) الرِّتاع: جمع راتعة: أي: وبعد أن أعطاه مائة من الإبل الرَّاتعة. انظر ترجمة عمرو بن شبيم في طبقات ابن سلام.

هذه الآية إلى دين الله وعبادته في الأرض، وإقامة شرائعه، وحفظ حدوده. وهذا هو الحق، والرحم جزءٌ من هذا[(١)]، و[أن] في موضع نصب بدل من [ما]، أو مفعول من أجله، وقيل: [أن] في موضع خفض بدل من الضمير في (به)[(٢)]، وهذا متَّجه.

و﴿يفسدن في الأرض﴾ يعبدون غير الله، ويجورون في الأفعال إذ هي بحسب شهواتهم، و(الخاسر): الذي نقص نفسه حظَّها من الفلاح والفوز. والخسران: النقص كان في ميزان أو غيره.

وقوله تعالى: ﴿كيف تكفرون﴾ لفظه الاستفهام، وليس به، بل هو تقرير وتوبيخ. أي: كيف تكفرون ونعمه عليكم وقدرته هذه؟ و(كيف) في موضع نصب على الحال، والعامل فيها ﴿تكفرون﴾، وتقديرها: أجاحدين تكفرون؟ أمنكرين تكفرون؟ و﴿كيف﴾ مبنية، وخصَّت بالفتح لخفته. ومن قال: إن ﴿كيف﴾ تقرير وتعجب، فمعناه: أن هذا الأمر إن عنَّ فحقه أن يتعجَّب منه لغرابته وبعده عن المألوف من شكر المنعم، و(الواو) في قوله: ﴿وكنتم﴾ واو الحال[(٣)].

واختلف في ترتيب هاتين الموتتين والحياتين، فقال ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد: فالمعنى كنتم أمواتاً معدومين قبل أن تخلقوا دارسين، كما يقال للشيء الدارس: ميِّت. ثم خلقتم وأخرجتم إلى الدنيا فأحياكم، ثم أماتكم الموت المعهود، ثم يحييكم للبعث يوم القيامة[(٤)].

وقال آخرون: كنتم أمواتاً بكون آدم من طين ميتاً قبل أن يحيا، ثم نفخ فيه الروح فأحياكم بحياة آدم، ثم يميتكم، ثم يحييكم على ما تقدم. وقال قتادة: كنتم أمواتاً في أصلاب آبائكم، فأخرجتم إلى الدنيا، فأحياكم، ثم كما تقدم. وقال غيره: كنتم أمواتاً

---

(١) أي حمل الآية على العموم في كل ما أمر به، إذ لا دليل واضح على الخصوص، وهو رأى ابن عطية.

(٢) أي: (ما أمرهم الله بوصله)، وهذا الإعراب أولى ما يحمل عليه كلام الله تعالى ـ وتقدير بدليته من ما: (ويقطعون وصل ما أمرهم الله به)، وتقدير كونه منصوباً على أنه مفعول لأجله: (ويقطعون ما أمر الله به كراهية أن يوصل).

(٣) على تقدير (قد) كما هو واضح، يعني: (وقد كنتم أمواتا).

(٤) مثل هذا قوله تعالى: ﴿ربَّنا أمتَّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ وهذا هو المراد بالآية الكريمة وهو أعدل الأقوال وأولاها للزومه للكفار، فإنهم إذا اعترفوا بالإحياء الأول لزمهم الإعتراف بالإحياء الأخير وهو البعث، ويؤيد ذلك إسناد الإماتة إلى الله آخراً.

في الأرحام قبل نفخ الأرواح، ثم أحياكم بالخروج إلى الدنيا، ثم كما تقدم.

وقال ابن زيد: إن الله تعالى أخرج نسم بني آدم أمثال الذَّرّ، ثم أماتهم بعد ذلك فهو قوله: ﴿وكنتم أمواتاً﴾. ثم أحياهم بالإخراج إلى الدنيا، ثم كما تقدم. وقال ابن عباس، وأبو صالح: كنتم أمواتاً بالموت المعهود، ثم أحياكم للسؤال في القبور، ثم أماتكم فيها، ثم أحياكم للبعث، وروي عن ابن عباس أيضاً أنه قال: وكنتم أمواتاً بالخمول، فأحياكم بأن ذكرتم وشرِّفتمْ بهذا الدين والنبي الذي جاءكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقول الأول هو أولى هذه الأقوال، لأنه الذي لا محيد للكفار عن الإقرار به في أول ترتيبه. ثم إن قوله أولاً: ﴿كنتم أمواتاً﴾ وإسناده آخراً الإماتة إليه تبارك وتعالى مما يقوي ذلك القول، وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أمواتاً معدومين، ثم للإحياء في الدنيا، ثم للإماتة فيها قوي عليهم لزوم الإحياء الآخر، وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها.

والضمير في ﴿إليه﴾ عائد على الله تعالى، أي إلى ثوابه أو عقابه، وقيل: هو عائد على الإحياء، والأول أظهر.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بضم التاء وفتح الجيم، وقرأ ابن أبي اسحق، وابن محيصن وابن يعمر، وسلام، والفيَّاض بن غزوان(١)، ويعقوب الحضرمي: [يَرجعون، وتَرجعون] بفتح الياء والتاء حيث وقع(٢).

و﴿خَلَقَ﴾ معناه: اخترع وأوجد بعد العدم، وقد يقال في الإنسان خلق بعد إنشائه شيئاً، ومنه قول الشاعر:

ولأنـت تَفْـري مـا خَلَقْـتَ وبعـ ـضُ القـوم يخلـقُ ثـم لا يفـري(٣)

---

(١) سلام بن سليمان الطويل البصري، مقرئ كبير، مات سنة ١٧١هـ. والفياض بالفاء هو ابن غزوان الضبي الكوفي، مقرىء، قال فيه الإمام أحمد: شيخ ثقة.

(٢) أي: لأنَّ (رَجَعَ) يكون متعدياً ولازماً، كما تقدم في (هدى) وأنه يكون لازماً ومتعدياً، ومن المتعدي قوله تعالى: ﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم﴾ أي: ردَّك.

(٣) هو لزهير بن أبي سلمى المزني، يمدح هرم بن سنان، يقول: إنه إذا قدر شيئاً قطعه وأمضاه، لمضاء عزمه وقوة إرادته.

ومنه قول الآخر:

مـــن كـــان يخْلُــقُ مـــا يقـــو ... ل فحيلتـــي فيـــه قليلــة[١]

و[لَكُمْ] معناه: للاعتبار، ويدل على ذلك ما قبله وما بعده من نصب. العبر: الإحياء، والإماتة والخلق، والاستواء إلى السماء، وتسويتها[٢]. وقال قوم: بل معنى [لكم] إباحة الأشياء وتمليكها، وهذا قول من يقول: إن الأشياء قبل ورود السمع على الإباحة بيّنته هذه الآية[٣]، وخالفهم في هذا التأويل القائلون بالحظر، والقائلون بالوقف. وأكثر القائلين بالحظر استثنوا أشياءَ اقتضت حالها مع وجود الإنسان الإباحة كالتنفس، والحركة، ويرد على القائلين بالحظر: كل حظر في القرآن، وعلى القائلين بالإباحة: كل تحليل في القرآن وإباحة. ويترجح الوقف إذا قدرنا نازلة لا يوجد فيها سمع، ولا تتعلق به، ومعنى الوقف: أنه استنفاد جهد الناظر فيما يحزب من النوازل. وحكى ابن فورك عن ابن الصائغ أنه قال: لم يخل العقل قط من السمع[٤]، ولا نازلة إلا وفيها سمع، أو لها به تعلق، أو لها حال تستصحب، قال: فينبغي أن يعتمد على هذا، ويغني عن النظر في حظر وإباحة ووقف. و[جميعاً] نصب على الحال.

وقوله تعالى: [ثم استوى] ثم هنا: هي لترتيب الأخبار، لا لترتيب الأمر في نفسه،

---

(١) أنشده المبرد في (الكامل) الجزء الثاني، ونسبه إلى بعض المحدثين، وقبل البيت:

لـــي حيلــــة فيمـــــن ينـ ... ـــمُّ وليس لـي فـي الكـذَّاب حيلـة

مـــن كـــان يخلـــق مـــا يقـــو ... ل فحيلتـــي فيـــه قليلـــة

ونسبهما في (معجم الأدباء) إلى منصور بن إسماعيل الشافعي أبي الحسن التميمي الفقيه الشاعر الضرير المصري. يقال: نمّ الحديث ينمُّه نماً، أي: قتَّه، والاسم: النميمة ـ والرجل نمٌّ ونمَّام أي: قتَّات ـ الصحاح.

(٢) نعمة خلقهم أحياء قادرين مرة بعد أخرى، ونعمة خلق ما يتوقف عليه بقاؤهم ويتم به معاشهم، فيمكن أن يكون معنى (لكم): (لاعتباركم) بهذه النعمة، فتوحدونه وتطيعونه، وأن يكون معناه (لأجلكم) و(لانتفاعكم) فواجب أن تشكروه وتحمدوه وحده دون غيره، وأن تتقوَّا بذلك على طاعته، وإصلاح أرضه، وواجب أن تعتبروا كذلك بالخلق والإماتة، وبالاستواء إلى السماء وتسويتها [ذلكم الله ربّكم، خالق كلِّ شيءٍ، لا إله إلا هو].

(٣) قال ابن العربي: ليس في الإخبار بهذه القدرة عن هذه الجملة ما يقتضي حظراً ولا إباحة، ولا وقفاً، وإنما جاء ذكر هذه الآية في معرض الدلالة على الوحدانية.

(٤) من السمع الإجماع.

و﴿استوى﴾: قال قوم معناه: علا دون تكييف ولا تحديد، هذا اختيار الطبري، والتقدير: علا أمره وقدرته وسلطانه، وقال ابن كيسان: معناه قصد إلى السماء، أي بخلقه واختراعه، وقيل: معناه كمل صنعه فيها، كما تقول استوى الأمر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قلق[١].

وحَكىٰ الطبريُّ عن قوم أنَّ المعنى أقبل، وضعَّفه[٢].

وحُكي عن قوم أن المستوي هو الدخان، وهذا أيضاً يأباه رصف الكلام[٣]. وقيل المعنىٰ: استولى، كما قال الشاعر[٤]:

قـد استـوى بِشـرٌ علـى العـراق ... مـن غيـر سيـفٍ وَدَم مهـراق

وهذا إنما[٥] يجيء في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[٦] والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع النقلة[٧] وحلول الحوادث، ويبقى استواء القدرة والسلطان.

و﴿سوَّاهنَّ﴾، قيل: المعنى جعلهن سواءً، وقيل: سوَّى سطوحها بالإملاس و﴿سبْعَ﴾ نصب على البدل من الضمير، أو على المفعول بسوَّى بتقدير حذف الجار من الضمير، كأنه قال: فسوى منهن سبعاً. وقيل: نصب على الحال، وقال: ﴿سوَّاهنَّ﴾ إمَّا على أن السماء جمع، وإمَّا على أنه مفرد اسم جنس، فهو دال على الجمع.

وقوله تعالى: ﴿وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾ معناه: بالموجودات، وتحقق علمه بالمعدومات من آيات آخر.

---

(١) لأن اللفظ ينبو عن الدلالة عليه.

(٢) الإقبال: هو القصد إلى خلق السماء، والقصد هو الإرادة، وذلك جائز في صفات الله تعالى، فهو كقول ابن كيسان، ومن ذلك قول الحريري: فاستوى الغلام إليه، وقد استولى الخجل عليه: أي قصد.

(٣) بعيد جداً لاختلاف الضمائر، وعوده على غير مذكور، ولا يقتضيه البيان، ولقوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾.

(٤) هو الأخطل النصراني.

(٥) قال الفراء: تقول العرب: كان فلان مقبلاً على فلان، ثم استوى إليَّ وعليَّ يشاتمني. فعليَّ وإليَّ سواءٌ. نقله عنه الإمام(ق) رحمه الله.

(٦) من الآية (٥) من سورة طه.

(٧) أي: منع الحركة وحلول الحوادث، ويعني أن هذه التأويلات إنما جاءت فراراً ممَّا تقرر في العقول من أن الله تعالى يستحيل أن يتصف بالانتقال المعهود في غيره تعالى، وأن يحل فيه حادث، أو يحل هو سبحانه في حادث.

وهذه الآية تقتضي أن الأرض وما فيها خلق قبل السماء، وذلك صحيح[(١)]، ثم دحيت الأرض بعد خلق السماء، وبهذا تتفق معاني الآيات. هذه والتي في سورة (المؤمن) وفي (النَّازعات).

قوله عز وجل:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾.

قال معمر بن المثنى: [إذْ] زائدة، والتقدير: وقال ربك. قال أبو إسحق الزجاج: هذا اجتراءٌ من أبي عبيدة، وكذلك رد عليه جميع المفسرين[(٢)]، وقال الجمهور: ليست زائدة وإنما هي معلقة بفعل مقدَّر، تقديره: واذكر إذ قال[(٣)]. وأيضاً فقوله: ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ الآية يقتضي أن يكون التقدير: وابتداءُ خلقكم إذ قال ربك للملائكة، وإضافة «ربُّ» إلى محمد ﷺ، ومخاطبته بالكاف تشريف منه له، وإظهار لاختصاصه به. والملائكة واحدها ملكٌ، أصله: ملأك على وزن مَفْعل، من لأك إذا أرسل، وجمعه ملائكة على وزن مفاعلة. وقال قوم: أصل ملكٌ مألك من ألك إذا أُرسل، ومنه قول عدي بن زيد:

أبلـغ النُّعمـان عنـي مَـأْلُكـاً ... أنَّـه قـدْ طـال حبْسِـي وانْتظـاري

واللغتان مسموعتان، لأك، وألكَ، قُلِبَتْ فيه[(٤)] الهمزة بعد اللام فجاء وزنه مَعْفَل وجمعه ملائكة، وزنه معافلة. وقال ابن كيسان[(٥)] هو من ملك يملك والهمزة فيه زائدة

---

(١) ذلك أن (ثمّ) للترتيب، وهي تدل بحكم اللغة على أن الأرض خلقت قبل السماء، إلا أن خلق السماء اكتنفه خلق الأرض أولاً، وبسطها ثانياً بإخراج الماء والمرعى وبإرساء الجبال عليها.

(٢) قالوا: كان أبو عبيدة ضعيفاً في الصناعة النحوية، وكان فيه جرأة.

(٣) الأحسن أن تكون معلقة بقوله بعد: ﴿قالوا أتجعل فيها﴾ الآية ـ لأن (إذ) إذا وقعت ظرفاً لا تكون إلا للزمان.

(٤) أي قلبت الهمزة فيه بعد اللام قلباً مكانياً، والضمير في (فيه) لمألك.

(٥) أبو الحسن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن كيسان ـ أخذ عن المبرد وعن ثعلب، توفي (٢٩٩) هـ ـ معجم الأدباء ٣٧/ ١٣٧.

كما زيدت في شمأل من شمل فوزنه فَعْأَل، ووزن جمعِه فعائلة، وقد يأتي في الشعر على أصله كما قال:

فلست لإنسِيٍّ ولكن لمَـلأَك تَنَزَّلَ من جوِّ السَّماء يَصُوبُ

وأما في الكلام فسهلت الهمزة[(١)] وألقيت حركتها على اللام أو على العين ـ في قول ابن كيسان ـ فقيل: ملك، والهاءُ في (ملائكة) لتأنيث الجموع[(٢)] غير حقيقي، وقيل: هي للمبالغة كعلاَّمة ونسَّابة، والأول أبين، وقال أبو عبيدة: الهمزة في (ملائكة) مجتلبة[(٣)] لأن واحدها ملك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا الذي نحا إليه ابن كيسان.

و﴿جاعلٌ﴾ في هذه الآية بمعنى خالق، ذكره الطبري عن أبي رَوْق[(٤)]، ويقضي بذلك تعديها إلى مفعول واحد. وقال الحسن وقتادة: ﴿جاعلٌ﴾ بمعنى فاعل. وقال ابن سابط[(٥)] عن النبي ﷺ أنه قال: إن ﴿الأرض﴾ هنا يعني بها مكة، لأن الأرض دحيت من تحتها، ولأنها مقر من هلك قومه من الأنبياء، وأن قبر نوح وهود وصالح بين المقام والركن.

و﴿خليفة﴾ معناه: من يخلف، قال ابن عباس: كانت الجن قبل بني آدم في الأرض فأفسدوا، وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم قبيلاً من الملائكة قتلهم، وألْحقَ فلَّهُمْ بجزائر البحار، ورؤوس الجبال، وجعل آدم وذريته خليفة[(٦)]. وقال الحسن: إنما سمى الله بني آدم خليفة، لأن كل قرن منهم يخلف الذي قبله، الجيل بعد الجيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ففي هذا القول يحتمل أن تكون بمعنى خالفة

(١) أي لكثرة الاستعمال، والمراد بالكلام ما سوى الشعر.

(٢) أي لتأكيد تأنيث الجمع.

(٣) أي زائدة لا أصلية.

(٤) بفتح الراء وسكون الواو، عطية بن الحارث الكوفي صاحب (التفسير) روى له أبو داود والنسائي وابن ماجه.

(٥) هو عبد الرحمن بن سابط ـ تابعي ـ قال الحافظ بن حجر: يقال: إن عبد الرحمن بن سابط هذا هو ابن عبد الله بن سابط، وإن الصحبة والرواية لأبيه عبد الله بن سابط، وبذلك جزم البغوي.

(٦) وعلى هذا فليس المراد بالخليفة آدم عليه الصلاة والسلام، بل هو وذريته، وعلى ما قاله ابن مسعود رضي الله عنه: فالمراد آدم، ومن يقوم مقامه في الحكم بين العباد بأوامر الله وأحكامه.

وبمعنى مخلوفة[1]، وقال ابن مسعود: إنما معناه: خليفة مني في الحكم بين عبادي بالحق وبأوامري، يعني بذلك آدم عليه السلام ومن قام مقامه بعده من ذريته، وقرأ زيد بن علي (خليقةً) بالقاف.

وقوله تعالى: ﴿قالوا أتجعل فيها﴾ الآية، قد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم الغيب، ولا تسبق بالقول، وذلك عام في جميع الملائكة، لأن قوله: ﴿لايسبقونه بالقول﴾ خرج على جهة المدح لهم[2]. قال القاضي أبو بكر بن الطيب: «فهذه قرينة العموم، فلا

---

(١) أي يخلف من كان قبله من الملائكة أو الجن في الأرض على ما روي فهو خالف، وعلى أنها بمعنى مفعول فهو مخلف أي جعله الله خليفة، وجاء به بعد غيره كما قال: ﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض﴾ والتاء في خليفة للمبالغة.

(٢) يظهر من هذا القول الاعتراض، وبما أن الملائكة معصومون من المعصية والاعتراض على الله تأول العلماء الآية الكريمة كما بينه الإمام ابن عطية رحمه الله، ومن أظرف وأغرب ما قيل في تأويلها: أن الملائكة كانوا حين ورود الخطاب مجملين، وكان إبليس مندرجاً في جملتهم، فورد منهم الجواب مجملاً، فلما انفصل إبليس عن جملتهم بإبائه واستكباره، انفصل الجواب إلى نوعين، فنوع: الاعتراض منه كان عن إبليس. وأنواع الطاعة والتسبيح والتقديس كان عن الملائكة، فانقسم الجواب إلى قسمين، كانقسام الجنس إلى جنسين، وناسب كلٌّ جواب من ظهر عنه. قال أبو (ح): وهذا تأويل حسنٌ، وصار شبيهاً بقوله تعالى: ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ لأن الجملة كلَّها مقولة، والقائل نوعان، فرد كل قول لمن ناسبه والله أعلم.

وترك الاعتراض على الكبراء والعظماء محمود سواء كان المعترض فيه مما يفهم أو لا يفهم، والدليل على ذلك أمور ـ أحدها: ما جاء في القرآن الكريم، كقصة موسى مع الخضر، واشتراطه عليه ألا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكرا، فكان ما قصه الله من قوله: ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾ وقول النبي ﷺ: [يرحم الله موسى لو صبر حتى يقص علينا من أخبارهما] ـ وما روي في الأخبار أن الملائكة لما قالوا: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ الآية، فرد الله عليهم بقوله: ﴿إني أعلم ما لاتعلمون﴾ أرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم، وهذا مما يشم ولا يفرك. وجاء في أشد من هذا اعتراض إبليس بقوله: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ فهو الَّذي كتب له به الشقاء إلى يوم الدين.

والثاني: ما جاء في الأخبار كحديث: «تعالوا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده». فاعترض في ذلك عمر رضي الله عنه حتى أمرهم النبي ﷺ بالخروج، ولم يكتب لهم شيئاً.

والثالث: ما عهد بالتجربة من أن الاعتراض على الأكابر ـ كما يزعم الصوفية ـ قاضٍ بحرمان الفائدة، وفاصل بين الشيخ والتلميذ، فإنَّه عندهم الداء الأكبر ـ كما يدعون ـ.

وقد قال الإمام مالك رحمه الله لأسد بن الفرات حين تابع سؤاله له: «هذه سليسلة بنت سليسلة، إن أردت هذا فعليك بالعراق»، فهدده بحرمان الفائدة منه بسبب كثرة السؤال وتتابعه. =

يصح مع هذين الشرطين إلا أن يكون عندهم من إفساد الخليقة في الأرض نبأ ومقدمة»، قال ابن زيد وغيره: «إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون ويسفكون الدماء، فقالوا لذلك هذه المقالة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا إمَّا على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه، أو من عصيان من يستخلفه الله في أرضه وينعم عليه بذلك، وإمَّا على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين جميعاً: الاستخلاف والعصيان[١] وقال أحمد بن يحيى ثعلب وغيره: إنما كانت الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء في الأرض، فجاء قولهم ﴿أتجعل فيها﴾ الآية على جهة الاستفهام المحض، هل هذا الخليفة على طريقة من تقدم من الجن أم لا؟ وقال آخرون: كان الله تعالى قد أعلم الملائكة أنه يخلق في الأرض خلقاً يفسدون، ويسفكون الدماء، فلما قال لهم بعد ذلك: ﴿إني جاعلٌ﴾ ﴿قالوا أتجعل فيها﴾ الآية على جهة الاسترشاد والاستعلام. هل هذا الخليفة هو الذي كان أعلمهم به قبل أو غيره؟

و(السَّفْكُ) صبُّ الدَّم، هذا عرفه، وقد يقال: سفك كلامه في كذا إذا سردهُ، وقراءة الجمهور بكسر الفاء[٢]، وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة و[يسفك] بضم الفاء، وقرأ ابن هرمز [وَيَسْفِكَ] بالنصب بواو الصرف[٣]، كأنه قال: من يجمع أن يفسد وأن يسفك. وقال المهدوي: هو نصب في جواب الاستفهام. والأول أحسن[٤].

= وبالجملة فالسلامة في حسن الظن والاعتقاد، وترك النقد والاعتراض، وهذا في شأن أهل العلم والفضل القائمين على صراط الدين، وسنة سيد المرسلين.

(١) هذا والذي قبله متقاربان في المعنى.

(٢) أي: في قوله تعالى (ويسفك).

(٣) أي: واو المعية. ومعنى واو الصرف أن الفعل كان يستحق وجهاً من الإعراب غير النصب، فيصرف بدخول الواو عليه عن ذلك الإعراب إلى النصب، كقوله تعالى ﴿ويعلم الذين يجادلون﴾ في قراءة من نصب، فقياسه الرفع، ولكن صرفت الواو الفعل إلى النصب فسميِّت واو الصرف.

(٤) يعني وتخريج المهدوي حسن. فالنصب بواو الصرف أحسن، والنصب بأن بعد الواو في جواب الاستفهام حسن، لأن المعنى على الجمع ولذلك تقدر الواو بمعنى مع. فإذا قلت: أتأتينا وتحدثنا، بالنصب، كان المعنى على الجمع بين الإتيان والحديث، وكذلك الآية، هذا ما عند ابن عطية رحمه الله، وناقشه أبو (ح) قائلا: «وكيف يكون أحسن وهو شيء لا يقول به البصريون، وفَسادُه مذكور في علم النحو؟» فالنصب بأن بعد الواو في جواب الاستفهام عند أبي حيان أحسن لأنه مذهب البصريين.

وقولهم: ﴿ونحن نسبِّح بحمدك﴾ قال بعض المتأولين: هو على جهة الاستفهام كأنهم أرادوا: ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ الآية أم نتغير عن هذه الحال؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يحسن مع القول بالاستفهام المحض في قولهم: [أتجعل].

وقال آخرون: معناه التمدح ووصف حالهم[1]، وذلك جائز لهم، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿إني حفيظ عليمٌ﴾، وهذا يحسن مع التعجب والاستعظام لأن يستخلف الله من يعصيه في قولهم: ﴿أتجعل﴾؟

وعلى هذا أدَّبهم بقوله تعالى: ﴿إنِّي أعلم ما لا تعلمون﴾.

وقال قوم: معنى الآية: ونحن لو جعلتنا في الأرض واستخلفتنا نسبح بحمدك، وهذا أيضاً حسن مع التعجب والاستعظام في قولهم: ﴿أتجعل﴾؟ ومعنى ﴿نسبِّح بحمدك﴾: ننزهك عما لايليق بك وبصفاتك. وقال ابن عباس، وابن مسعود: تسبيح الملائكة: صلاتهم لله، وقال قتادة: تسبيح الملائكة: قولهم: سبحان الله، على عرفه في اللغة.

و﴿بحمدك﴾ معناه: نخلط التسبيح بالحمد، ونصله به[2]، ويحتمل أن يكون قوله [بحمدكَ] اعتراضاً بين الكلامين، كأنهم قالوا: (ونحن نسبح ونقدس)، ثم اعترضوا على جهة التسليم، أي: وأنت المحمود في الهداية إلى ذلك.

و﴿نقدِّس لك﴾، قال الضحاك، وغيره: معناه: نطهر أنفسنا لك ابتغاء مرضاتك، والتقديس التطهير بلا خلاف، ومنه الأرض المقدسة أي المطهرة، ومنه بيت المقدس، ومنه القدس[3] الذي يتطهر به. وقال آخرون: ﴿ونقدِّس لك﴾ معناه: ونقدسك[4] أي: نعظمك، ونطهِّر ذكرك عما لايليق به. قاله مجاهد، وأبو صالح، وغيرهما، وقال قوم: ﴿نقدِّس لك﴾ معناه: نصلي لك، وهذا ضعيف[5].

---

(١) أي ليس معناه الاستفهام، بل التمدح ووصف حالهم، وذلك شيء جائز.

(٢) أي نقول: (سبحان الله وبحمده)، وروى أبو ذر، كما في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته: سبحان الله وبحمده».

(٣) بفتحتين: أي السطل الذي يتوضأ فيه، ويتطهر به.

(٤) أي: واللام صلة.

(٥) بل معناه صحيح كما قال الإمام (ق) فإن الصلاة تشتمل على التعظيم، والتقديس، والتسبيح، وقد كان=

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أعلم ما لا تعلمون﴾، الأظهر أن ﴿أعلم﴾ فعل مستقبل، و﴿ما﴾ في موضع نصب به، وقيل: ﴿أعلم﴾ اسم، و﴿ما﴾ في موضع خفض بالإضافة، ولا يصح الصرف فيه بإجماع من النحاة، وإنما الخلاف في أفعل إذا سمي به وكان نكرة، فسيبويه والخليل لا يصرفانه، والأخفش يصرفه.

واختلف أهل التأويل في المراد بقوله تعالى [ما لا تعلمون] فقال ابن عباس: كان إبليس ـ لعنه الله ـ قد أعجب، ودخله الكبر لما جعله الله خازن السماء الدنيا، وشرفه وقيل: بل لما بعثه الله إلى قتل الجن الذين كانوا أفسدوا في الأرض فهزمهم وقتلهم بجنده، قال ابن عباس أيضاً: واعتقد[1] أنَّ ذلك لمزية له، واستخف[2] الكفر والمعصية في جانب آدم عليه السلام، قال: فلما قالت الملائكة ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾، وهي لا تعلم أن في نفس إبليس خلاف ذلك، قال الله لهم: ﴿إِنِّي أعلم ما لا تعلمون﴾، يعني ما في نفس إبليس[3]، وقال قتادة: لما قالت الملائكة: ﴿أتجعل فيها من يُفسد فيها﴾، وقد علم الله تعالى أن فيمن يستخلف في الأرض أنبياء وفضلاء وأهل طاعة قال لهم: ﴿إِنِّي أعلم ما لا تعلمون﴾، يعني: أفعال الفضلاء من بني آدم[4].

وقوله تعالى: ﴿وعلَّم﴾ معناه: عرف. وتعليم آدم هنا عند قوم إلهام علمه ضرورة، وقال قوم: بل تعليم بقول، فإما بواسطة ملك[5]، أو بتكليم قبل هبوطه الأرض، فلا يشارك موسى عليه السلام في خاصته، وقرأ اليماني [وعلِّم] بضم العين على بناء الفعل للمفعول [آدم] مرفوعاً. وقال أبو الفتح: وهي قراءة يزيد البربري، و(آدم) أفعل مشتق من الأدمة وهي حمرة تميل إلى السواد، وجمعه أُدم، وأوادم، كحمر وأحامر، ولا

= رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «سبوح قدوس رب الملائكة والروح»، روته عائشة رضي الله عنها، كما في صحيح الإمام مسلم. وقد نسب ابن (ك) هذا الرأي إلى ابن عباس، وابن مسعود.

(١) أي إبليس لعنه الله.

(٢) وفي بعض النسخ: «واستحقب الكفر والمعصية».

(٣) علم الله من كفر إبليس وكبره وحسده مالم تعلمه الملائكة، فلما أمر الله بالسجود ظهرت طاعة الملائكة، وظهر كفر إبليس وحسده، فأبى واستكبر وكان من الكافرين.

(٤) يعني ففي ذرية آدم الأنبياء والعلماء والأصفياء، والخير يغلب الشر، والنور يطفىء الظلام، وفي أمة محمدﷺ وهي من ذرية آدم يقول الله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للنَّاس﴾ الآية. وفي حذف المتعلق قصد إلى العموم، والمعنى: إني أعلم ما لا تعلمون، مما كان ومما يكون، ومما هو كائن.

(٥) هو جبريل، وكذا هو المراد في قوله بعد ذلك: كأن الملك آدمها.

ينصرف بوجه، وقيل: آدم وزنه فاعل مشتق من أديم الأرض[1] كأن الملك آدمها وجمعه آدمون وأوادم، ويلزم قائل هذه المقالة صرفه، وقال الطبري: (آدم) فعل رباعي سمِّي به.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «خلق الله آدم من أديم الأرض كلها، فخرجت ذريته على نحوها، منهم الأبيض والأسود والأسمر، والسهل والحزن، والطيب والخبيث[2]».

واختلف المتأولون في قوله: [الأسماء]، فقال جمهور الأمة: علَّمه التسميات، وقال قوم: عرض عليه الأشخاص. والأول أبين، ولفظة [علَّم] تعطي ذلك.

ثم اختلف الجمهور في أي الأسماء علمه، فقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد: علَّمه اسم كل شيءٍ من جميع المخلوقات، دقيقها وجليلها[3]، وقال حميد الشامي[4]: علمه أسماء النجوم فقط، وقال الربيع بن خثيم[5]: علمه أسماء الملائكة فقط، وقال عبد الرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته فقط، وقال الطبري: علمه أسماء ذريته والملائكة، واختار هذا ورجحه بقوله تعالى: [ثمَّ عرضهم على الملائكة][6] وحكى النقاش، عن ابن عباس: أنه تعالى علَّمه كلمة واحدة عرف منها جميع الأسماء، وقال آخرون: علمه أسماء الأجناس كالجبال، والخيل، والأودية، ونحو ذلك، دون أن يعين ما سمته ذريته منها. وقال ابن قتيبة: علَّمه أسماء ما خلق في الأرض، وقال قوم:

---

(١) هذا هو الصحيح في اشتقاقه، قال سعيد بن جبير: إنما سمى آدم لأنه خلق من أديم الأرض أي وجهها. وإنما سمى إنساناً لأنه نسي، هكذا ذكره ابن سعد في الطبقات.

(٢) روى الترمذي عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك. والسهل والحزن، والخبيث والطيب». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. ومعنى قوله من قبضة قبضها: أن الله أمر الموكل بالأرض فتناول ذلك من بقاعها على النحو المذكور، وجاء بها فكان الخلق منها.

(٣) هذا القول أرجح الأقوال، وسنده التأكيد في قوله تعالى: «الأسماء كلَّها»، والتعميم في قول النبي ﷺ «وعلمك أسماء كل شيء» كما في صحيح البخاري.

(٤) هو ابن أبي حميد الشَّامي بمعجمة، وهناك حميد بن مسعدة البصري السامي بمهملة.

(٥) هو أبو يزيد الكوفي، تابعي جليل، أخذ القراءة عن ابن مسعود، ووردت عنه الرواية في حروف القرآن. توفي سنة (٩٠)هـ. طبقات في القراء ١/ ٢٨٣.

(٦) استدل على هذا الترجيح بقوله تعالى: [ثم عرضهم] وهو عبارة عمن يعقل وهذا الذي رجح به لا يلزم، فإنه لا ينفي أن يدخل معهم غيرهم ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب.

علمه الأسماء بلغة واحدة، ثم وقع الاصطلاح من ذريته فيما سواها، وقال بعضهم: بل علمه الأسماء لكل لغة تكلمت بها ذريته. وقد غلا قوم في هذا المعنى حتى حكى ابن جني عن أبي علي الفارسي أنه قال: علم الله تعالى آدم كل شيءٍ حتى أنه كان يحسن من النحو مثل ما أحسن سيبويه، ونحو هذا من القول الذي هو بيِّن الخطأ من جهات(١).

وقال أكثر العلماء: علمه تعالى منافع كل شيء ولما يصلح(٢). وقال قوم: عرض عليه الأشخاص عند التعليم، وقال قوم: بل وصفها له دون عرض أشخاص.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذ كلها احتمالات. قال الناس بها.

وقرأ أبيٌّ بن كعب: [ثمَّ عَرَضَهَا]، وقرأ ابن مسعود؛[ثمَّ عَرَضَهُن].

واختلف المتأولون: هل عرض على الملائكة أشخاص الأسماء أو الأسماء دون الأشخاص؟ فقال ابن مسعود، وغيره: عرض الأشخاص، وقال ابن عباس، وغيره: عرض الأسماء، فمن قال في الأسماء بعموم كل شيء قال: عرضهم أمة أمة، ونوعاً نوعاً، ومن قال في الأسماء إنها التسميات(٣) استقام على قراءة أبي: [عرضها]، ونقول في قراءة من قرأ [عَرَضَهُمْ] إنَّ لفظ الأسماء يدل على الأشخاص(٤)، فلذلك ساغ أن يقول للأسماء [عَرَضَهُمْ].

و[أَنْبِئُوني] معناه: أخبروني، والنبأ: الخبر، ومنه النبيءُ، وقال قوم: يخرج من هذا الأمر بالإنباء تكليف ما لايطاق، ويتقرر جوازه، لأنه تعالى علم أنهم لا يعلمون، وقال المحققون من أهل التأويل: ليس هذا على جهة التكليف، وإنما هو على جهة التقرير والتوقيف(٥).

وقوله تعالى: [هؤلاء] ظاهره حضور أشخاص، وذلك عند العرض على الملائكة، وليس في هذه الآية ما يوجب أن الاسم أريد به المسمى، كما ذهب إليه مكي

---

(١) لعله من جهة تشبيه آدم بسيبويه، مع أن مقام آدم غير مقام سيبويه، وطبيعة التعليم في آدم غيرها في سيبويه فتعليمه كسبي، وتعليم آدم وهبيٌّ، ومن جهة الاختلاف في القصد والغاية أيضاً.

(٢) عطف مرادف، أي علمه منفعة كل شيء وما يصلح له.

(٣) التسمية غير الاسم ـ ومعناها: العلم بأن يسمي الأشياء.

(٤) أي: لأن كل اسم له مسمى فهو يتضمنه.

(٥) الأولى: التبكيت والتعنيف.

والمهدوي، فمن قال إنه تعالى عرض على الملائكة أشخاصا استقام له مع لفظ ﴿هؤلاء﴾، ومن قال إنه إنما عرض أسماءً فقط جعل الإشارة بهؤلاء إلى أشخاص الأسماء وهي غائبة، إذ قد حضر ما هو منها بسبب، وذلك أسماؤها، وكأنه قال لهم في كل اسم لأي شخص هذا؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي يظهر أن الله تعالى علَّم آدم الأسماء، وعرض مع ذلك عليه الأجناس أشخاصاً، ثم عرض تلك على الملائكة، وسألهم عن تسمياتها التي قد تعلمها آدم. ثم إن آدم قال لهم: هذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا، و﴿هؤلاء﴾ لفظٌ مبني على الكسر، والقصر فيه لغة تميم وبعض قيس وأسد، قال الأعشى:

هؤلا ثم هؤلا كلاً اعطيـ ... ـت نعالا محذوة بنعال[1]

و﴿كنتم﴾ في موضع الجزم بالشرط، والجواب عند سيبويه فيما قبله، وعند المبرد محذوف[2] والتقدير: إن كنتم صادقين فأنبئوني. وقال ابن مسعود، وابن عباس، وناس من أصحاب النبي عليه السلام: معنى الآية: إن كنتم صادقين في أن الخليفة يفسد ويسفك[3]. وقال آخرون: صادقين في أني إن استخلفتكم سبَّحتم بحمدي، وقدَّستم لي، وقال الحسن، وقتادة: روي أن الملائكة قالت حين خلق الله آدم: ليخلق ربنا ما شاء، فلن يخلق خلقاً أعلم منا، ولا أكرم عليه، فأراد الله تعالى أن يريهم من علم آدم وكرامته خلاف ما ظنوا. فالمعنى: إن كنتم صادقين في دعواكم العلم، وقال قوم: معنى الآية: إن كنتم صادقين في جواب السؤال، عالمين بالأسماء. قالوا:

---

(١) أي: أوقعت بهم جميعاً، ويريد بذلك بني محارب حيث مشاهم الأسود على الجمر، فتساقط لحم أقدامهم، وفي رواية (بمثال) بدل بنعال.

(٢) فيه أن مذهب سيبويه المعروف هو أن الجواب محذوف، ويدل عليه ما قبله، وليس ما قبله هو الجواب، كما أن مذهب الكوفيين أن الجواب هو ما قبله، وقد عكس ابن عطية ذلك كما عكسه المهدوي ـ فتأمل.

(٣) قال في (خ): وفي النفس من هذا القول شيء، والملائكة منزهون معصومون كما تقدم، والصواب ما تقدم من التفسير عند قوله تعالى: ﴿أتجعل فيها﴾ الآية، وقال أبو (ح): الصدق هنا هو الصواب، كما أن الكذب يراد به الخطأ، أي إن كنتم مصيبين. وفي متعلق الصدق أقوال: ـ وأبعد من ذهب إلى أن الصدق هنا ضدُّ الكذب المعروف لعصمة الملائكة كما أبعد من جعل (إن) بمعنى(إذ) فأخرجها عن الشرطية إلى الظرفية.

ولذلك لم يسغ للملائكة الاجتهاد، وقالوا: سبحانك. حكاه النقاش، قال: ولو لم يشترط عليهم الصدق في الإنباء لجاز لهم الاجتهاد، كما جاز للَّذي أماته الله مائة عام، حين قال له: ﴿كم لبثت﴾، ولم يشترط عليه الإصابة، فقال ولم يصب، فلم يعنَّف، وهذا كله محتمل، وحكى الطبري أن بعض المفسرين قال: معنى ﴿إن كنتم﴾: إذ كنتم، قال الطبري: وهذا خطأ.

وإن قال قائل: ما الحكمة في قول الله تعالى للملائكة: ﴿إني جاعلٌ﴾ الآية؟، قيل: هذا امتحان لهم واختبار، ليقع منهم ما وقع، ويؤدبهم تعالى من تعليم آدم وتكريمه بما أدَّب[1]. و﴿سبحانك﴾ نصب على المصدر، قال الكسائي: نصبه على أنه منادى مضاف[2].

قال الزهراوي: موضع ﴿ما﴾ من قولهم: ﴿ما علَّمتنا﴾ نصب بعلَّمتنا[3]، وخبر التبرئة في ﴿لنا﴾. ويحتمل أن يكون موضع ﴿ما﴾ رفعاً على أنه بدل من خبر التبرئة، كما تقول: لا إله إلا الله، أي لا إله في الوجود إلا الله. و﴿أنت﴾ في موضع نصب تأكيد للضمير في ﴿إنَّك﴾ أو في موضع رفع على الابتداء، و﴿العليم﴾ خبره، والجملة خبر«إن»، أو فاصلة، لا موضع لها من الإعراب، و﴿العليم﴾ معناه العالم، ويزيد عليه معنى من المبالغة والتكثير من المعلومات في حق الله عز وجل، و﴿الحكيم﴾ معناه: الحاكم وبينهما مزية المبالغة، وقيل: معناه المحكم، كما قال عمرو بن معدي كرب:

* أمن رَيْحانَةَ الدَّاعي السميع *

أي: المسمع، ويجيء الكلام على هذا من صفات الفعل، وقال قوم: الحكيم المانع من الفساد، ومنه: حَكَمَةُ الفرس ما نعته[4]:

---

(١) يعني أن الحكمة في ذلك هو امتحانهم واختبارهم ـ بأن يسألوا ذلك السؤال ـ يجابوا بما أجيبوا به، من قوله تعالى: ﴿إني أعلم ما لاتعلمون﴾ ويؤدبوا بما أدبهم الله تعالى به ـ من تعليم آدم وتكريمه، وقوله لهم ﴿أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ وهذا كله نتيجة الدعوى والتزكية للنفس والله أعلم.

(٢) لايحفظ دخول حرف النداء عليه، ولو كان منادى لجاز دخول حرف النداء عليه ونقل لنا. قاله أبو (ح) في تفسيره «البحر المحيط» ١/١٤٧.

(٣) فيه أن ﴿ما﴾ موصولة، وأن الصلة ﴿علَّمتنا﴾، والصلة لا تعمل في الموصول. إلا أن نجعل ﴿إلا﴾ من باب الاستثناء المنقطع، و﴿ما﴾ شرطية، جوابها محذوف، والتقدير. لكن أي شيء علمتنا في المستقبل علمناه ـ وهذا فيه تكلف. قاله أبو (ح) في «البحر المحيط» ١/١٤٨.

(٤) على وزن قصبة. وفي اللسان: حَكَمَة الفرس: ما أحاط بحنكي الدابة، وسميت حكمة الدابة بذلك=

ومنه قول جرير:

أبني حنيفةَ أحكِمُوا سُفَهاءَكُم ... إنِّي أخافُ عَلَيْكُمُ أن أغْضَبا

قوله عز وجل:

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿أنبئهم﴾ معناه: أخبرهم، وهو فعل يتعدى إلى مفعولين، أحدهما بحرف جر، وقد يحذف حرف الجر أحياناً، تقول: نبّئت زيداً، قال سيبويه: معناه نبّئت عن زيد، والضمير في ﴿أنبِئْهُمْ﴾ عائد على الملائكة بإجماع، والضمير في ﴿أسمائهم﴾ مختلفٌ فيه، حسب الاختلاف في الأسماء التي علّمها آدم. قال أبو علي: كلهم قرأ ﴿أنبئهم﴾ بالهمز وضمِّ الهاء، إلا ما روي عن ابن عامر [أنبئهِم] بالهمز وكسر الهاء، وكذلك روى بعض المكيِّين عن ابن كثير، وذلك على إتباع كسرة الهاء لكسرة الباءِ، وإن حجز الساكن فحجزه لا يعتد به. قال أبو عمرو الداني: وقرأ الحسن، والأعرج: [أنبِيهم] بغير همز، قال ابن جني: وقرأ الحسن [أنْبِهم] على وزن أعطهم، وقد روي عنه [أنْبيهِمْ] بغير همز. قال أبو عمرو: وقد روي مثل ذلك عن ابن كثير من طريق القواس(١).

قال أبو الفتح: أما قراءة الحسن [أنبِهِمْ] كأعطهم، فعلى إبدال الهمزة ياءً، على أنك تقول أنْبَيْتُ كأعطيتُ، وهذا ضعيف في اللغة، لأنه بدل لا تخفيف، والبدل عندنا لا يجوز إلا في ضرورة شعر(٢).

= لأنها تذللها لراكبها، حتى تمنعها الجماح ونحوه، ومنه اشتقاق الحكمة لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأرذال.

والحكمة ناشئة عن العلم، ومن آثاره، ولذلك تذكر بعد العلم في أكثر ما جاء في القرآن كقوله؛ ﴿إنك أنت العليم الحكيم﴾.

(١) أحمد بن محمد أبو الحسن، المعروف بالقواس، إمام مكة في القراءة.

(٢) في هذا مناقشة، قال أبو (ح): وما ذكر من أنّه لا يجوز إلا في ضرورة الشعر ليس بصحيح، ثم قال: «حكى الأخفش في الأوسط أن العرب تحول من الهمزة موضع اللام ياء فيقولون: قريت، وأخطيت، =

قال بعض العلماء: إن في قوله تعالى: ﴿فلمَّا أنبأهمْ﴾ نبوّة لآدم عليه السلام إذ أمره الله أن ينبىء الملائكة بما ليس عندهم من علم الله عز وجل.

ويجوز فتح الياء من [إنِّي] وتسكينها[١]، وقال الكسائي: رأيت العرب إذا لقيت عندهم الياءُ همزة فتحوها. قال أبو علي: كان أبو عمرو يفتح ياءَ الإضافة المكسور ما قبلها عند الهمزة المفتوحة والمكسورة إذا كانت متصلة باسم أو بفعل، ما لم يطل الحرف، فإنه يثقل فتحها، نحو قوله تعالى: ﴿ولا تَفْتنِّي ألا﴾، وقوله تعالى: ﴿فاذكروني أَذْكُرْكُمْ﴾. والذي يَخفُّ: ﴿إني أرى﴾، و﴿أجْرِي إلا على الله﴾ ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿أعلم غيب السموات والأرض﴾ معناه ما غاب عنكم، لأن الله تعالى لا يغيب عنه شيءٌ، الكلُّ معلوم له[٢]، و﴿ما﴾ في موضع نصب بأعلم. قال المهدوي: ويجوز أن يكون قوله ﴿أعلم﴾ اسماً بمعنى التفضيل في العلم فتكون ﴿ما﴾ في موضع خفض بالإضافة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فإذا قُدِّر الأول اسماً فلا بد بعده من إضمار فعل ينصب ﴿غيب﴾ تقديره: إني أعلم من كلٍ، أعلم غيب، وكونها في الموضعين فعلاً مضارعاً أخصر وأبلغ[٣].

= وتوضيت» وعلّق أبو (ح) على كلام الأخفش فقال: «ودلّ ذلك على أنه ليس من ضرائر الشعر كما ذكر أبو الفتح». البحر المحيط ١/ ١٤٩.

(١) هذا ثاني موضع ذكرت فيه ياء من ياءات الإضافة المختلف فيها في القرآن، وهي ياء المتكلم، فقرأ نافع، وابن كثير، والبصري هنا بفتح الياء، والباقون بتسكينها، واتفق السبعة على السكون في قوله تعالى: ﴿ولاتفتِنِّي الا﴾، ﴿ارني أنظرْ﴾، ﴿فاتَّبعني أهْدك﴾، ﴿وترحمني أكنْ﴾، ولا تظهر علة لاختلافهم واتفاقهم إلا اتباع الرواية، وتلك سنة متبعة في القرآن.

(٢) فيه أن أحداً لا يعلم من العلم إلا ما علمه الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله به، كالأنبياء فإنهم يعلمونه تفصيلا، والأولياء فإنهم يعلمونه إجمالا، وكل من حاول ادعاء علم الغيب من كاهنٍ أو عرّاف أو منجم أو مشعوذ فهو كاذبٌ.

(٣) نقل أبو (ح) في تفسيره كلام ابن عطية عن المهدوي، ثم قال: «وما نقله ابن عطية عن المهدوي وهم، والذي ذكره المهدوي في تفسيره ما نصه ـ: ﴿وأعلم ما تبدون﴾ يجوز أن ينتصب ﴿ما﴾ بأعلم على أنه فعل، ويجوز أن يكون بمعنى عالم، أو يكون ﴿ما﴾ جراً بالإضافة، ويجوز أن يقدر التنوين في ﴿أعلم﴾ إذا قدرته بمعنى عالم، وتنصب ﴿ما﴾ به فيكون بمعنى حواج بيت الله ـ انتهى ـ ثم علق أبو (ح) فقال: «فأنت ترى أنه لم يذهب إلى أن (أفعل) للتفضيل، وأنه لم يجز الجرّ في ﴿ما﴾ والنصب وتكون أفعل اسماً، إلا إذا =

واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾. فقالت طائفة: ذلك على معنى العموم(١) في معرفة أسرارهم وظواهرهم وبواطنهم أجمع.

وحكى مكي أن المراد بقوله: ﴿ما تبدون﴾ قولهم: ﴿أتجعل فيها﴾ الآية. وحكى المهدوي أن ﴿ما تبدون﴾ قولهم: «ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق أعلم منا ولا أكرم عليه»، فجعل هذا مما أبدوه لما قالوه. وقال الزهرواي: ما أبدوه هو بدارهم بالسجود لآدم.

واختلف في المكتوم، فقال ابن عباس، وابن مسعود: المراد ما كتمه إبليس في نفسه من الكبر والكفر، ويتوجه قوله: ﴿تكتمون﴾ للجماعة والكاتم واحد في هذا القول على تجوز العرب واتساعها، كما يقال لقوم قد جنى سفيه منهم: لأنتم فعلتم كذا، أي منكم فاعله، وهذا مع قصد تعنيف، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾(٢). وإنما ناداه منهم عيينة، وقيل الأقرع، وقال قتادة: المكتوم هو ما أسره بعضهم إلى بعض من قولهم: «ليخلق ربنا ما شاء»، فجعل هذا مما كتموه لمَّا أسره، و﴿إذ﴾ من قوله: ﴿وإذْ قلنا﴾ معطوف على ﴿إذْ﴾ المتقدمة.

وقول الله تعالى، وخطابه للملائكة متقرر قديم في الأزل، بشرط وجودهم وفهمهم(٣)، وهذا هو الباب كله في أوامر الله سبحانه ونواهيه ومخاطبته، و﴿قلنا﴾ كناية العظيم عن نفسه بلفظ الجمع.

= كان بمعنى فاعل لا أفعل تفضيل، ولا يمكن أن يقال ما نقله ابن عطية عن المهدوي من جواز أن يكون أعلم أفعل بمعنى التفضيل وخفض (ما) بالإضافة البتة». البحر المحيط ١/ ١٥٠.

(١) هذا أولى الأقوال وأفضلها، وقوله تعالى: ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ نسق على جملة ﴿ألم أقل لكم﴾ الخ، وليس نسقاً على [أعلم]، إذ هو ليس داخلا تحت القول.

(٢) الآية (٤) من سورة الحجرات

(٣) نقل (ق) رحمه الله هذه العبارة بالنص عند قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ إذ قول الله هناك كقوله هنا، وفي (خ) ما ذكره (أي ابن عطية) هو عقيدة أهل السنة. ونحن ننقل هنا من كلام الأئمة إن شاء الله ما يتبين به كلامه ويزداد وضوحاً. قال ابن رشد: قوله ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق» لا يفهم منه أن لله عز وجل كلمات غير تامات، لأن كلماته هي قوله، وكلامه هو صفة من صفات ذاته يستحيل عليها النقص.

وفي الحديث دليل واضح على أن كلماته عز وجل غير مخلوقة، إذ لا يستعاذ بمخلوق، وهذا هو قول أهل السُّنَّة.

والحق أن كلام الله عز وجل صفة من صفات ذاته قديم غير مخلوق، لأن الكلام هو المعنى القائم في=

وقوله: [للملائكة] عمومٌ فيهم، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع[١] [للملائكة اسجدوا]، برفع التاء العلامة إتباعاً لضمة ثالث المستقبل. قال أبو علي: وهذا خطأٌ، وقال الزجاج: أبو جعفر من رؤساء القراءة، ولكنه غلط في هذا، قال أبو الفتح: لأن [الملائكة] في موضع جر فالتاء مكسورة كسرة إعراب، وهذا الذي ذهب إليه أبو جعفر إنما يجوز إذا كان ما قبل الهمزة حرفاً ساكناً صحيحاً، نحو قوله تعالى: [وقالت اخرج عليهنَّ][٢] والسجود في كلام العرب الخشوع والتذلل، ومنه قول الشاعر:

. . . . تري الأكم فيه سجَّداً للحوافر[٣]

= النفس، والنطق به عبارة عنه قال الله عز وجل: [ويقولون في أنفسهم] فأخبر أن القول معنى يقوم في النفس ـ وتقول: في نفسي كلام أريد أن أعلمك به، فحقيقة كلام الرجل هو المفهوم من كلامه، وأما الذي تسمعه منه فهو عبارة عنه ـ وكذلك كلام الله عز وجل القديم الذي هو صفة من صفات ذاته هو المفهوم من قراءة القارئ لا نفس قراءته التي تسمعها، لأن نفس قراءته التي تسمعها محدثةٌ لم تكن حتى قرأ بها فكانت، وهذا كله بيِّن إلا لمن أعمى الله بصيرته. انتهى بلفظه من البيان.

وقال الإمام الغزالي رحمه الله بعد كلام له نحو ما تقدم لابن رشد:

«وكما عقل قيام طلب التعلم وإرادته بذات الوالد قبل أن يخلق ولده، حتى إذا خلق ولده وعقل، وخلق الله سبحانه علما بما في قلب أبيه من الطلب صار مأموراً بذلك الطلب الذي قام بذات أبيه، ودام وجوده إل وقت معرفة ولده ـ فليعقل قيام الطلب الذي دل عليه قوله عز وجل: [فاخلع نعليك] ـ بذات الله تعالى ومصير موسى عليه السلام، سامعاً لذلك الكلام، مخاطباً به بعد وجوده، إذ خلقت له معرفة بذلك الطلب، ومعرفة بذلك الكلام القديم» انتهى من الإحياء. «وتلخيص المعتقد: أن الله عز وجل لم يزل آمراً للمعدومات بشرط وجودها، قادراً مع تأخر المقدورات، عالماً مع تأخر المعلومات. فكل ما يقتضي الاستقبال فهو بحسب المأمورات إذ المحدثات تجيء بعد أن لم تكن، وكل ما يسند إلى الله تعالى من قدرة وعلم وأمر فهو قديم لم يزل» انتهى كلامه رحمه الله.

وهذه المسألة من جملة المسائل الثلاث التي تعتبر من أصعب ما في علم الكلام.

(١) أبو جعفر بن القعقاع: من مشاهير القراء، ومن مشيخة نافع بن أبي نعيم، أحد القراء السبعة، أخذ القرآن عن عبد الله بن عباس وغيره، وقرأ بضم التاء، وقال: إنها لغة أزدشنوءة، وعلل قراءته ـ بأن العرب تستثقل الضمة بعد الكسرة ـ وبأن هذه التاء كهمزة الوصل. فكما أن الهمزة تسقط في الدرج لأنها ليست أصيلة كذلك التاء في الملائكة تسقط لكونها ليست أصيلة، فقالوا (الملائك) كما قال الأعشى في البيت الآتي، ومع ذلك تألبوا عليه وخطؤوه.

(٢) من الآية (٣١) من سورة يوسف.

(٣) صدره:

بجمـــع تضـــلُّ البلْـــق فـــي حجـــراتـــه . . . .

وقائله زيد الخيل.

وغايته وضع الوجه بالأرض.

والجمهور على أن سجود الملائكة لآدم إيماءٌ وخضوع. ذكره النقاش وغيره، ولا تدفع الآية أن يكونوا بلغوا غاية السجود، وقوله تعالى: ﴿فقعوا له ساجدين﴾ لا دليل فيه[١] لأن الجاثي على ركبتيه واقع.

واختلف في حال السجود لآدم، فقال ابن عباس: تعبَّدهم الله بالسجود لادم، والعبادة في ذلك لله. وقال علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس: إنما كان سجود تحية، كسجود أبوي يوسف عليه السلام، لا سجود عبادة. وقال الشعبي: إنما كان آدم كالقبلة[٢]. ومعنى ﴿لآدم﴾: إلى آدم[٣].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذه الوجوه كلها كرامة آدم عليه السلام، وحكى النقاش عن مقاتل أن الله إنما أمر الملائكة بالسجود لآدم قبل أن يخلقه، قال: والقرآن يرد على هذا القول، وقال قوم: سجود الملائكة كان مرتين، والإجماع يرد هذا.

وقوله تعالى: ﴿إلاَّ إبليس﴾، نصب على الاستثناء المتصل، لأنه من الملائكة على قول الجمهور، وهو ظاهر الآية، وكان خازناً وملكاً على سماء الدنيا والأرض، واسمه عزازيل: قاله ابن عباس. وقال ابن زيد، والحسن: هو أبو الجن، كما أن آدم أبو البشر، ولم يكن قط ملكاً، وقد روي نحوه عن ابن عباس أيضاً، قال: واسمه الحارث[٤]. وقال شهر بن حوشب: كان من الجن الذين كانوا في الأرض وقاتلتهم الملائكة، فسبوه صغيراً، وتعبّد وخوطب معها[٥]

حكاه الطبري عن ابن مسعود، والاستثناء على هذه الأقوال منقطع، واحتج بعض أصحاب هذا القول بأن الله تعالى قال صفة للملائكة: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا

---

(١) أي: للقول ببلوغهم غاية السجود وهو وضع الجبهة على الأرض.

(٢) ما قاله الشعبي تفسير لقول ابن عباس، فكما أن الصلاة إلى الكعبة هي عبادة لله، فكذلك الصلاة إلى آدم هي عبادة لله. وآدم قبلة.

(٣) هناك فرق بين قولك: (سجد له) و(سجد إليه)، والسجود لله طاعة وإيمان، والسجود لغيره كفر وعصيان، ويقال سجد إلى العنزة كما يقال صلى إلى الكعبة.

(٤) اسمه عزازيل بالسريانية، والحارث بالعربية.

(٥) مربوط بالفعلين قبله، فكان يتعبد معهم، وخوطب معهم في قوله تعالى: ﴿اسجدوا لآدم﴾.

﴿يُؤْمَرُونَ﴾[(١)] ورجَّح الطبري قول من قال: إن إبليس كان من الملائكة، وقال: ليس في خلقه من نار، ولا في تركيب الشهوة والنسل فيه حين غضب عليه، ما يدفع أنه كان من الملائكة. وقوله عز وجل: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[(٢)] يتخرج على أنه عمل عملهم فكان منهم في هذا، أو على أن الملائكة قد تسمى جِنا لاستتارها. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[(٣)] وقال الأعشى[(٤)] في ذكر سليمان عليه السلام.

وسخَّـر مـن جنِّ المـلائـك تسعـةً قيـامـاً لـديـه يعملـون بـلا أجـر

أو على أن يكون نسبه إلى الجنَّة كما ينسب إلى البصرة بصري، لما كان خازناً عليها.

وإبليس لا ينصرف، لأنه اسم أعجمي معرف[(٥)]. قال الزجاج: وزنه فعليل، وقال ابن عباس، والسدي، وأبو عبيدة، وغيرهم: هو مشتق من أبلس إذا أبعد عن الخير، ووزنه على هذا إفعيل، ولم تصرفه هذه الفرقة لشذوذه، وأجروه مجرى إسحق من أسحقه الله، وأيُّوب من آب يؤوب، مثل قيُّوم، من قام يقوم، ولما لم تصرف هذه ولها وزن من الاشتقاق، كذلك لم يصرف هذا وإن توجه اشتقاقه، لقلَّته وشذوذه، ومن هذا المعنى قول الشاعر العجاج:

يا صاح هَل تعرف رسماً مُكْرَسَا؟ قـال: نعـم أعْـرفـه وَأَبْلَسَـا[(٦)]

أي: تغيَّر وبعد عن العمارة والأنس به، ومثله قول الآخر:

. . . . وفـي الـوجـوه صفـرةٌ وإبْـلاس[(٧)]

---

(١) من الآية (٦) من سورة التحريم.
(٢) من الآية (٥٠) من سورة الكهف.
(٣) من الآية (١٥٨) من سورة الصافات.
(٤) هو أعشى قيس.
(٥) أي: لااشتقاق له، وقيل: إنَّه مشتق من الإبلاس، وهو اليأس، يقال: أبلس من رحمة الله إذا يئس، ولما كان عربيا وجب أن ينصرف إلا أن علة عدم صرفه هي شذوذه، وقلة نظائره، فكأنه بذلك أشبه الإسم الأعجمي.
(٦) الرسم: الأثر ـ ورسم الدار: ما كان من آثارها لاصقاً بالأرض ـ والكرس بالكسر: الأبوال والأبعار يتلبدّ بعضها على بعض. (الصحاح).
(٧) صدره:
وحضـرت يـوم خميـس الأخمـاس . . . . =

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾[1]، أي يائسون من الخير، مبعدون منه فيما يرون.

و﴿أبى﴾ معناه: امتنع من فعل ما أمر به، و﴿استكبر﴾ دخل في الكبرياء. والإباية مقدمة على الاستكبار في ظهورهما عليه، والاستكبار والأنفة مقدمة في معتقده[2]. وروى ابن القاسم، عن مالك أنه قال: بلغني أن أول معصية كانت الحسد والكبر والشح[3]. حسد إبليس آدم، وتكبر، وشح آدم في أكله من شجرة قد نهي عن قربها.

حكى المهدوي عن فرقة أن معنى ﴿وكان من الكافرين﴾ وصار[4] من الكافرين، وقال ابن فورك: وهذا خطأً ترده الأصول، وقالت فرقة: قد كان تقدم قبل من الجن من كفر فشبهه الله بهم، وجعله منهم لمَّا فعل من الكفر فعلهم. وذكر الطبريُّ عن أبي العالية أنه كان يقول: ﴿وكان من الكافرين﴾ معناه: من العاصين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتلك معصية كفر، لأنها عن معتقد فاسد صدرت.

وروي أن الله تعالى خلق خلقاً، وأمرهم بالسجود لآدم فعصوا، فأحرقهم بالنار، ثم خلق آخرين، وأمرهم بذلك فعصوا فأحرقهم، ثم خلق الملائكة فأمرهم بذلك فسجدوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والإسناد في مثل هذا غير وثيق. وقال جمهور المتأولين: معنى ﴿وكان من الكافرين﴾ أي في علم الله أنه سيكفر، لأن الكافر حقيقة، والمؤمن حقيقة هو الذي قد علم الله منه الموافاة[5].

= وهو لرؤبة بن العجاج. والإبلاس هو: الحزن والانكسار، وقد يحمل معنى اليأس والقنوط وقطع الرجاء.

(١) من الآية (٤٤) من سورة الأنعام.

(٢) يعني أن الإباية مقدمة على الاستكبار في الظاهر، والاستكبار مقدم على الإباية في الباطن.

(٣) الشح هنا: هو الحرص على الشيء والرغبة فيه.

(٤) من المعروف أن كان هي أم الأفعال، لأن كل شيء داخل تحت الكون. فتأتي بمعنى صار وبمعنى غيره، وقد فسر الآية بـ(صار) علماء اللغة. كالفيروزآبادي في القاموس، والفيومي في المصباح، وابن منظور في اللسان، وغيرهم، والمعنى: أنه آل أمره إلى الكفر ـ أو يقال: إنَّ كان على بابها، ولكن بالقياس إلى ما في علم الله تعالى.

(٥) أي موافاة الإيمان أو الكفر، وهذا صحيح، للحديث الصحيح «وإنما الأعمال بالخواتيم».

وذهب الطبري إلى أن الله أراد بقصة إبليس تقريع أشباهه من بني آدم، وهم اليهود الذين كفروا بمحمد ﷺ، مع علمهم بنبوته، ومع تقدم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم.

واختلف هل كفر إبليس جهلاً أو عناداً؟ على قولين بين أهل السنة، و لا خلاف أنه كان عالماً بالله قبل كفره، فمن قال إنه كفر جهلا قال: إنه سلب العلم عند كفره. ومن قال كفر عناداً قال: كفر ومعه علمه، والكفر عناداً مع بقاء العلم مستبعد، إلا أنه عندي جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن شاء[1].

ولا خلاف أن الله تعالى أخرج إبليس عند كفره، وأبعده عن الجنة، وبعد إخراجه قال لآدم [اسْكُنْ].

قوله عز وجل:

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾.

[اسكن] معناه: لازم الإقامة، ولفظه لفظ الأمر، ومعناه الإذن، و[أنت] تأكيد[2] للضمير الذي في [اسكن]، و[زوجك] عطف عليه، والزوج امرأة الرجل، وهذا أشهر من زوجة، وقد تقدم. و[الجنة] البستان عليه حظيرةٌ.

واختلف في الجنة التي أسكنها آدم: هل هي جنة الخلد أو جنة أعدت لهما؟ وذهب من لم يجعلها جنة الخلد إلى أن من دخل جنة الخلد لا يخرج منها. وهذا لا يمتنع. إلا أن السمع ورد أن من دخلها مثاباً لا يخرج منها[3] وأما من دخلها ابتداءً كآدم فغير مستحيل، ولا ورد سمع بأنه لا يخرج منها.

واختلف متى خلقت حواءُ من ضلع آدم عليه السلام؟ فقال ابن عباس: حين أنبأ الملائكة بالأسماء وأسجدوا له ألقيت عليه السِّنَة وخلقت حواء، فاستيقظ وهي إلى

---

(١) أي وواقع ـ كفرعون فإنه ادّعى الربوبية مع علمه بوحدانية الله وربوبيته، ـ وكأبي جهل فإنه أقام على كفره مع تحققه لَمِن رسالة محمد ﷺ وعلمه أن ما جاء به حق.

(٢) أي ليصح العطف عليه، ومثله قوله تعالى: [فاذهب أنت وربُّك].

(٣) لقوله تعالى: [وما هم منها بمخرجين].

جانبه، فقال ـ فيما يزعمون ـ: لحمي ودمي، وسكن إليها، فذهبت الملائكة لتجرب علمه، فقالوا له: يا آدم ما اسمها؟ قال: حواء، قالوا: ولم؟ قال: لأنها خلقت من شيءٍ حي، ثم قال الله له: ﴿اسكن أنت وزوجك الجنَّة﴾.

وقال ابن مسعود، وابن عباس أيضاً: لما أسكن آدم الجنة مشى فيها مستوحشاً، فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصيري[1] ليسكن إليها، ويتأنَّس بها، فلما انتبه رآها فقال: من أنت؟ قالت امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إلي.

وحذفت النون من ﴿كلا﴾ للأمر[2]، والألف الأولى لحركة الكاف[3]، حين حذفت الثانية لاجتماع المثلين، وهو حذف شاذ. ولفظ هذا الأمر بـ﴿كلا﴾ معناه الإباحة، بقرينة قوله: ﴿حيث شئتما﴾، والضمير في ﴿منها﴾ عائد على الجنَّة. وقرأ ابن وثاب والنخعي [رغْداً] بسكون الغين، والجمهور على فتحها. و﴿الرَّغد﴾ العيش الدارُّ الهنيُّ الذي لا عناء فيه، ومنه قول امرئ القيس:

بينما المرءُ تَراه نَاعِماً يأمن الأحداث في عيشٍ رَغَد

و﴿رغداً﴾ منصوب على الصفة لمصدر محذوف، وقيل: هو نصب على المصدر في موضع الحال، و﴿حيث﴾ مبنية على الضم، ومن العرب من يبنيها على الفتح، ومن العرب من يعربها حسب موضعها بالرفع والنصب والخفض، كقوله: [سنستدرجهم من حيث لا يعلمون][4] ومن العرب من يقول: (حوث).

و﴿شئتما﴾ أصله شيأتما حول إلى فعلتما، تحركت ياؤه وانفتح ما قبلها جاء (شأْتما) حذفت الألف الساكنة الممدودة للالتقاء، وكسرت الشين لتدل على الياء، فجاء

---

(١) بالتصغير هي أسفل الأضلاع، وقيل آخر من الجنب وقال أبو الهيثم: القصري هي أسفل الأضلاع، والقصيري أعلى الأضلاع ـ ثم قال: وفي كتاب أبو عبيد: القصيري هي التي تلي الشاكلة وهي ضلع الخلف.

(٢) هذا جار على مذهب الكوفيين القائلين إن الأمر معرب، ومذهب البصريين هو البناء.

(٣) أي: وحذفت الألف الأولى لحركة الكاف، واعلم أن أصل (كلْ) أُؤكل: اجتلبت الهمزة الأولى للوصل ـ والثانية فاء الكلمة، ثم حذفت الثانية لاجتماع المثلين فوليت همزة الوصل الكاف وهي متحركة، ولما زال موجب اجتلابها زالت هي بنفسها.

(٤) من الآية (١٨٢) من سورة الأعراف أو من الآية (٤٤) من سورة القلم.

(شئتما)، هذا تعليل المبرد، فأما سيبويه فالأصل عنده (شيئتما) بكسر الياء، نقلت حركة الياء إلى الشين، وحذفت الياء بعد.

وقوله تعالى: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ معناه: لا تقرباها بأكل، لأن الإباحة فيه وقعت. قال بعض الحذاق: إن الله لمَّا أراد النهي عن أكل الشجرة نهى عنه بلفظ يقتضي الأكل وما يدعو إليه، وهو القرب[(١)].

وقال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مثال بيّن في سد الذرائع، وقرأ ابن محيصن: [هذي] على الأصل، والهاء في هذه بدل من الياء. وليس في الكلام هاء تأنيث مكسور ما قبلها غير هذه، وتحتمل هذه الإشارة أن تكون إلى شجرة معينة واحدة، أو إلى جنس. وحكى هارون الأعور عن بعض العلماء قراءة [الشجرة] بكسر الشين. والشجر كل ما قام من النبات على ساق.

واختلف في هذه الشجرة التي نُهي عنها ما هي؟ فقال ابن مسعود، وابن عباس: هي الكرم، ولذلك حرِّمت علينا الخمر، وقال ابن جريج عن بعض الصحابة: هي شجرة التين، وقال ابن عباس أيضاً، وأبو مالك، وعطية، وقتادة: هي السنبلة، وحبها ككلى البقر، أحلى من العسل، وألين من الزبد). وروي عن ابن عباس أيضاً أنها شجرة العلم فيها ثمر كل شيء. وهذا ضعيف لا يصح عن ابن عباس. وحكى الطبري عن يعقوب بن عتبة أنها الشجرة التي كانت الملائكة تحنك[(٢)] بها للخلد، وهذا أيضاً ضعيف، قال: واليهود تزعم أنها الحنظلة، وتقول: كانت حلوة ومرت[(٣)] من حينئذ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس في شيء من هذا التعيين ما يعضده خبر، وإنما الصواب أن يُعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة، فخالف هو إليها وعصى في الأكل منها.

وفي حظره تعالى على آدم الشجرة ما يدل على أن سكناه في الجنة لا يدوم؛ لأن

---

(١) فيه أن النهي عن القرب لا يستلزم النهي عن الأكل، إذ قد يأكل من ثمر الشجرة من هو بعيد عنها إذا حمل إليه ذلك، فالأولى أن يقال: المنع من الأكل مستفاد من المقام، أي ولا تقرباها بالأكل، إذ الإباحة إنما وقعت فيه.

(٢) أي تأكل منها لخلدهم. يقال: احتنك الجراد الأرض أي أكل ما عليها.

(٣) يقال: مرَّ الشيء مرارة صار مراً، ضد حلا.

المخلد لا يحظر عليه شيءٌ، ولا يؤمر ولا ينهى، وقيل: إن هذه الشجرة كانت خصت بأن تحوج آكلها إلى التبرز، فلذلك نهي عنها، فلمَّا أكلها ولم تكن الجنة موضع تبرز أهبط إلى الأرض.

وقوله: [فتكونا] في موضع جزم على العطف على [لاتقربا]، ويجوز فيه النصب على الجواب، والناصب عند الخليل وسيبويه (أن) المضمرة، وعند الجرميِّ(١) الفاء.

والظالم في اللغة الذي يضع الشيء غير موضعه، ومنه قولهم: «من أشبه أباه فما ظلم(٢)». ومنه المظلومة الجلد(٣) لأن المطر لم يأتها في وقته، ومنه قول عمرو بن قميئة:

ظَلَمَ البِطَاح بها انهِلالُ حريصة فَصَفَا النِّطافُ له بُعيدَ المُقْلَعِ(٤)

والظلم في أحكام الشرع على مراتب: أعلاها الشرك، ثم ظلم المعاصي وهي مراتب.

وهو في هذه الآية يدل على أن قوله: [ولا تقربا] على جهة الوجوب لا على الندب، لأن من ترك المندوب لا يسمى ظالما، فاقتضت لفظة الظلم قوة النهي(٥).

و[أزلهما] مأخوذ من الزَّلل، وهو في الآية مجاز، لأنه في الرأي والنظر، وإنما حقيقة الزلل في القدم. قال أبو علي: [فأزلهما] يحتمل تأويلين ـ أحدهما: كسبهما الزَّلَّة(٦) ـ والآخر أن يكون من زلَّ إذا عثر(٧)، وقرأ حمزة: (فأزالهما) مأخوذ من

---

(١) بفتح الجيم: أبو عمر صالح بن إسحق، لغوي نحوي مشهور، انظر بغية الوعاة للسيوطي.

(٢) أي ما وضع الشيء في غير موضعه، لأن من شأن الولد أن يشبه أباه في دينه ونسبه وفي حياته وسببه.

(٣) المظلومة: هي الأرض التي حفر فيها بئر أو حوض ولم تحفر قط ـ والجلد هي الأرض الصلبة المستوية.

(٤) الحريصة: هي السحابة التي تقشر وجه الأرض وتؤثر فيه بمطرها من شدة وقعه، ويقال: انهل المطر أي انصب بشدة. والنطاف: جمع نطفة وهي الماء الصافي قلّ أو كثر ـ والمقلع: مصدر بمعنى الإقلاع وهو انقطاع المطر ـ والبيت في وصف المطر وأثره في الأرض ـ وظلمه للبطاح أنه جاء في غير أوانه، وانصب في غير مصبه.

(٥) إنما قال ذلك لأن كل نهي يتضمن امرأ، كما أن كل أمر يتضمن نهياً، فقوله: [لاتقربا] في ضمنه [اتركا] هذه الشجرة.

(٦) أي جعلهما يكسبان الزلة والخطيئة، وكسب يتعدى إلى واحد وإلى اثنين، وأزل واستزلَّ بمعنى واحد.

(٧) أي سقط من منزلة إلى أخرى، يقال زلَّ الرجل، والفرس كبا، وزلَّ به فرسه فسقط.

الزَّوال، كأنه المزيل لمَّا كان إغواؤه مؤدياً إلى الز وال، وهي قراءة الحسن وأبي رجاء.

ولا خلاف بين العلماء أن إبليس اللعين هو متولي إغواء آدم.

واختلف في الكيفية: فقال ابن عباس، وابن مسعود، وجمهور العلماء: أغواهما مشافهة، ودليل ذلك قوله تعالى: [وقاسمهما]، والمقاسمة ظاهرها المشافهة، وقال بعضهم: إن إبليس لمَّا دخل إلى آدم كلَّمه في حاله، فقال: يا آدم ـ ما أحسن هذا لو أن خلدا كان، فوجد إبليس السبيل إلى إغوائه. فقال: هل أدلك على شجرة الخلد، وقال بعضهم: دخل الجنة في فم الحية، وهي ذات أربع كالبختية[١] بعد أن عرض نفسه على كثير من الحيوان فلم تدخله إلا الحية، فخرج إلى حواء وأخذ شيئاً من الشجرة، وقال: انظري ـ ما أحسن هذا، فأغواها حتى أكلت، ثم أغوى آدم، وقالت له حواء: كل، فإني قد أكلت فلم يضرني، فأكل فبدت لهما سوءاتهما، وحصلا في حكم الذنب، ولعنت الحية، وردت قوائمهما في جوفها، وجعلت العداوة بينها وبين بني آدم[٢].

وقيل لحواء: كما أدميت الشجرة، فكذلك يصيبك الدم في كل شهر[٣]، وكذلك تحملين كرهاً، وتضعين كرهاً، تشرفين به على الموت مراراً، زاد الطبري والنقاش: وتكونين سفيهة، وقد كنت حليمة.

وقالت طائفة: إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعد أن أخرج منها، وإنما أغوى آدم بشيطانه وسلطانه ووساوسه التي أعطاه الله تعالى، كما قال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم[٤]»، والضمير في [عنْهَا] عائد على الشجرة في قراءة من قرأ

---

(١) البخت نوع من الإبل، وهي الإبل الخراسانية.

(٢) ولذلك أمر النبي ﷺ بقتل الحيات، وروى البخاري، ومسلم، والنسائي عن ابن مسعود رضي الله عنه. قال: كنا مع النبي ﷺ في غار بمنى. وقد أنزلت عليه: [والمرسلات عرفا] فنحن نأخذها من فيه رطبة إذ خرجت علينا حيَّة، فقال: «اقتلوها»، فابتدرناها لنقتلها فسبقتنا، فقال ﷺ: «وقاها الله شركم كما وقاكم شرها» ـ وفي مسند الإمام أحمد، عن ابن مسعود، أن النبي ﷺ قال: «من قتل حية فكأنما قتل رجلا مشركا بالله، ومن ترك حية مخافة عاقبتها فليس منا».

(٣) قيل: إن أزواج الآخرة طاهرات من الحيض والنفاس، والبول والغائط، ومن كل أذى يكون في نساء الدنيا، كما قال تعالى: [ولهم فيها أزواج مطهرةٌ] وكذلك خلقت حواء حتى عصت بالأكل من الشجرة، فلما عصت قال الله لها: إني خلقتك وسأدميك كما أدميت هذه الشجرة.

(٤) هذا حديث صحيح ـ ومن ابتلي بوسوسة الشيطان في أي عمل من أعماله فالدواء هو الإعراض عنه، وعدم الالتفات إليه، والثقة بالله، والتعوذ به.

﴿أزلَّهُما﴾، ويحتمل أن يعود على الجنة، فأما من قرأ [أزالهما]، فإنه يعود على الجنة فقط، وهنا محذوف يدل عليه الظاهر تقديره «فأكلا من الشجرة»، وقال قوم: أكلا من غير التي أشير إليها فلم يتأولا النهي واقعاً على جميع جنسها، وقال آخرون: تأولا النهي على الندب.

وقال ابن المسيب: إنما أكل آدم بعد أن سقته حواء الخمر، فكان في غير عقله[١].

وقوله تعالى: ﴿فأخرجهما ممَّا كانا فيه﴾ يحتمل وجوهاً، فقيل: أخرجهما من الطاعة إلى المعصية، وقيل: من نعمة الجنة إلى شقاء الدنيا، وقيل: من رفعة المنزلة إلى سفل مكانة الذنب[٢]، وهذا كله يتقارب. وقرأ أبو حيوة [اهبطوا] بضم الباء، ويفعل كثير في غير المتعدي وهبط غير متعد، والهبوط النزول من علو إلى أسفل.

واختلف: من المخاطب بالهبوط؟ فقال السدي وغيره: آدم وحواء وإبليس والحية[٣]. وقال الحسن: آدم وحواء والوسوسة. وقال غيره: والحية، لأن إبليس قد كان أهبط قبل عند معصيته.

---

(١) كيف يكون هذا وخمر الآخرة لا يغتال العقول، كما قال تعالى: ﴿لا فيها غول ولاهم عنها ينزفون﴾، ونقل (ق) عن ابن العربي فساد هذا القول عقلا ونقلا، والعجب من سكوت ابن عطية رحمه الله على نسبة هذا إلى سعيد بن المسيب التابعي الجليل. والحق أنه أكل ناسياً كما قال تعالى: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما﴾، ومن الملاحظ أن أبا محمد بن عطية رحمه الله جرى هنا وراء القصص الذي لا يتوقف عليه فهم الآية الكريمة. والعصمة من الله وحده.

(٢) والصواب أن إخراج آدم لم يكن إهانة له، بل لما سبق في علمه سبحانه من إكرامه وجعله «هو وأخيار ذريته» خليفة في الأرض، لعمارتها وإصلاحها بوحدانية الله وعبادته، وإقامة أحكامه بين عباده.

(٣) يرى الزمخشري أن قوله تعالى: ﴿اهبطوا منها جميعاً﴾ خطابٌ لآدم وحواء خاصة، قال: وعبر عنهما بالجمع لاستتباعهما ذرياتهما، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوٌّ﴾ قال: ويدل على ذلك قوله: ﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذي كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النَّار هم فيها خالدون﴾.

وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم، ومعنى قوله تعالى: ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ ما عليه الناس من التعادي والتباغي، وتضليل بعضهم بعضاً ـ وهذا ظاهر من حيث أن المودة والرحمة التي جعلها الله بين كل زوجين قد تتعرض لوسوسة الشيطان، فإن أصغيا له، وخدعا بوسوسته انقلب ذلك عداوة وحرباً وقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنَّ من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾.

وهناك رأي آخر، ولعله أظهر: وهو أن يعود الضمير إلى آدم وزوجه وإبليس، وهم ثلاثة قد تقدم ذكرهم، فلماذا يعود الضمير على بعضهم دون الجميع مع أن اللفظ والمعنى يقتضي ذلك؟ وأما قوله تعالى في سورة طه: ﴿قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو﴾ فهذا خطاب لاثنين، فإمَّا أن يرجع =

و﴿بعضكم لبعض عدوٌّ﴾ جملة في موضع الحال، وأفرد لفظ عدو من حيث لفظة بعض، وبعض وكل تجري مجري الواحد، ومن حيث لفظة عدو تقع للواحد والجميع. قال الله تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾[1].

و﴿لكم في الأرض مستقرٌّ﴾ أي موضع استقرار، قاله أبو العالية، وابن زيد، وقال السدي: المراد الاستقرار في القبور.

والمتاع: ما يستمتع به: من أكل ولبس وحياة وحديث وأنس، وغير ذلك، وأنشد سليمان[2] بن عبد الملك حين وقف على قبر ابنه أيوب إثر دفنه:

وقفتُ على قَبْرٍ غريبٍ بعفرةٍ   متاعٌ قليلٌ من حبيبٍ مفارق[3]

= ذلك إلى آدم وزوجه، وإمَّا أن يرجع إلى آدم وإبليس. ولم تذكر الزوجة لأنها تبع لآدم، وعلى هذا فالعداوة المذكورة للمخاطبين بالهبوط هي بين آدم وإبليس والأمر ظاهر، وأمَّا على رجوعه إلى آدم وزوجته فتكون الآية قد اشتملت على آمرين. أحدهما: أمره تعالى لآدم وزوجته بالهبوط، والثاني: إخباره بالعداوة بين آدم وزوجه وبين إبليس، ولذا أتى بضمير الجمع في الثاني دون الأول، ولا بد أن يكون إبليس داخلا في حكم هذه العداوة قطعاً لقوله تعالى: ﴿إنّ هذا عدوٌّ لك ولزوجك﴾ ولقوله تعالى: ﴿إنَّ الشيَّطان لكم عدوٌّ فاتَّخذوه عدواً﴾.

وتأمل كيف اتفقت المواضع التي فيها ذكر العداوة على ضمير الجمع دون التثنية، وأما الهبوط فتارة يذكر بلفظ الإفراد، وتارة بالتثنية، وتارة بالجمع، فحيث ورد بالإفراد كما في سورة (الأعراف) فهو لإبليس وحده. وحيث ورد بصيغة الجمع كما في سورة (البقرة) فهو لآدم وزوجه وإبليس. وحيث ورد بصيغة التثنية كما في سورة (طه) فإما أن يكون لآدم وزوجه إذ هما اللذان باشرا الأكل، وأقدما على المعصية، وإما أن يكون لآدم وإبليس إذ هما أبوا الثقلين وأصلا ذريتيهما والزوجة تبع لزوجها، فذكر حالهما ومآلهما ليكون ذلك عظة وعبرة لأولادهما، والذي يوضح أن الضمير في قوله تعالى: ﴿اهبطا منها جميعاً﴾ لآدم وإبليس أن الله سبحانه لمَّا ذكر المعصية أفرد بها آدم دون زوجه، فقال: ﴿وعصى آدم ربَّه فغوى، ثمَّ اجتباه ربه فتاب عليه وهدى، قال اهبطا منها جميعاً﴾ وهذا يدل على المخاطبين: آدم الذي عصى، وإبليس الذي زين المعصية، ودخلت الزوجة بحكم التبعية، فإن المقصود من هذه القصة: إخبار الله تعالى الثقلين بما جرى على أبويهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر، فما رآه الزمخشري أحد قولين، والذي يقويه النظر والدليل: هو ما تقدم من البيان والتفصيل، كما أشار إليه ابن القيم رحمه الله.

(١) من الآية (٤) من سورة (المنافقون).

(٢) أحد خلفاء بني آمية، كان يميل إلى العدل، ويحسن إلى العلماء، ويرجع إلى الدين والقرآن، افتتح ولايته بخير، واختتمها بخير، افتتحها برد الصلاة إلى ميقاتها الأول، وقد كان من قبله يؤخرون الصلاة عن وقتها ـ واختتمها باستخلافه لعمر بن عبد العزيز. مات بالتخمة رحمه الله سنة ٩٨هـ، وعمره تسع وثلاثون سنة. انظر التفسير عند قوله تعالى: ﴿فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار﴾.

(٣) روى الدار قطني، عن سويد بن غفلة، قال: كانت عائشة الخثعمية عند الحسن بن علي بن أبي طالب، =

واختلف المتأولون في الحين ها هنا، فقالت فرقة: إلى الموت، وهذا قول من يقول: المستقرُّ هوالمقام في الدنيا، وقالت فرقة: إلى حين: إلى يوم القيامة، وهذا قول من يقول: المستقرُّ هو في القبور، ويترتب أيضاً على أن المستقر في الدنيا أن يراد بقوله [ولكم] أي لأنواعكم في الدنيا استقرار ومتاع قرناً بعد قرن إلى يوم القيامة، والحين: المدَّة الطويلة من الدهر أقصرها في الأيمان والالتزامات سنة، قال الله تعالى: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[1]، وقد قيل: أقصرها ستة أشهر، لأن من النخل ما يثمر في كل ستة أشهر، وقد يستعمل الحين في المحاورات في القليل من الزمن. وفي قوله تعالى: [إلى حين] فائدة لآدم عليه السلام ليعلم أنه غير باق فيها، ومنتقل إلى الجنة التي وعد بالرجوع إليها، وهي لغير آدم دالة على المعاد.

وروي أن آدم نزل على جبل من جبال سرنديب[2] وأن حواء نزلت بجدة، وأن الحية نزلت بأصبهان، وقيل بميسان، وأن إبليس نزل على الأبلَّة.

قوله عز وجل:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

المعنى: فقال الكلمات، فتاب الله عليه عند ذلك، و[آدم] رفع بـ[تلقَّى] [كلمات]

= فلما أصيب عليٌّ وبويع الحسن بالخلافة، قالت لتهنك الخلافة ياأمير المؤمنين، فقال: يقتل علي وتظهرين الشماتة اذهبي فأنت طالق ثلاثاً. قال: فتلفعت بساجها، وقعدت حتى انقضت عدتها، فبعث إليها بعشرة آلاف متعة، وبقية ما بقي لها من صداقها فقالت: (متاعٌ قليلٌ من حبيب مفارق) فلما بلغه قولها بكى وقال: لولا أني أبنت طلاقها لراجعتها ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: أيُّما رجل طلق امرأته ثلاثاً عند كل طهر تطليقة أو عند رأس كل شهر تطليقة أو طلقها ثلاثا جميعا لم تحلَّ له حتى تنكح زوجاً غيره نقله (ق) عند قوله تعالى: [ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف]. والعفرة اسم قرية، وقد أطال النفس في هذه القضية صاحب وفيات الأعيان وفيه: (على قبر مقيم بقفرة) بالقاف انظره في ترجمة أبي المقدام رجاء بن حيوة الكندي.

(١) من الآية (٢٥) من سورة إبراهيم.

(٢) هي سيلان (واسمها الآن سيرى‌لانكا) وميسان: سجستان، والأبلة: موضع بالعراق والله أعلم، وطبعاً هي أقوال لا سند لها.

نصب بها، والتلقي من آدم هوالإقبال عليها، والقبول لها، والفهم، وحكى مكي قولاً أنه ألهمها فانتفع بها، وقرأ ابن كثير: [آدم] بالنصب ﴿من ربه كلماتٌ﴾ بالرفع، فالتلقي من الكلمات هو نيل آدم بسببها رحمه الله وتوبته.

واختلف المتأولون في الكلمات، فقال الحسن بن أبي الحسن: هي قولُه تعالى: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ الآية[1]، وقال مجاهد: هي أن آدم، قال: «سبحانك اللهم لا إله إلا أنت، ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت التواب الرحيم».

وقال ابن عباس: هي أنَّ آدم قال: أيْ ربِّ. ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى. قال: أيْ ربِّ. ألم تنفخ في من روحك؟ قال: بلى، قال: أي ربِّ، ألم تسكني جنتك؟ قال: بلى، قال: أرأيت إن تبت وأطعت أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم[2]. وقال عبيد بن عمير: إن آدم قال: أيْ ربِّ، أرأيت ما عصيتك فيه أشيءٌ كتبته عليَّ أم شيءٌ ابتدعته؟ قال: بل شيءٌ كتبته عليك، قال: أيْ رب. كما كتبته عليَّ فاغفر لي. وقال قتادة: الكلمات هي أن آدم قال: أيْ رب. أرأيت إن أنا تبت وأصلحت؟ قال: إذاً أدخلك الجنة. وقالت طائفة: إن آدم رأىٰ مكتوباً على ساق العرش «محمد رسول الله»، فتشفع بذلك فهي الكلمات. وقالت طائفة: إن المراد بالكلمات ندمه واستغفاره[3] وحزنه، وسماها كلمات مجازاً لما هي في خلقها، صادرة عن كلمات، وهي كن في كل واحدة منهن، وهذا قول يقتضي أنَّ آدم لم يقل شيئاً إلا الاستغفار المعهود.

وسئل بعض سلف المسلمين عما ينبغي أن يقوله المذنب فقال: يقول ما قال أبواه: ﴿ربَّنا ظلمنا أنفسنا﴾ وما قال موسى: ﴿ربِّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾[4]. وما قال يونس: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظَّالمين﴾[5].

---

(١) هذا أولى وأحسن ما تفسر به الكلمات لقوله تعالى: ﴿ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إنَّ الشيطان لكما عدوٌّ مبين، قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾.

(٢) رواه أبو عبد الله الحاكم في «فضائل الأنبياء» موقوفاً.

(٣) الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع بالفعل، والعزم على عدم العود. وتلك شروط التوبة عند أهل السنة.

(٤) من الآية (١٦) من سورة القصص.

(٥) من الآية (٨٧) من سورة الأنبياء.

[وتاب عليه] معناه: رجع به[١]، والتوبة من الله تعالى: الرجوع على عبده بالرحمة والتوفيق، والتوبة من العبد: الرجوع عن المعصية، والندم على الذنب مع تركه فيما يستأنف[٢] وإنما خص الله تعالى آدم بالذكر هنا في التلقي والتوبة، وحواء مشاركة له في ذلك بإجماع لأنه المخاطب في أول القصة بقوله: [اسكن أنت وزوجك الجنَّة]، فلذلك كملت القصة بذكره وحده، وأيضاً فلأن المرأة حرمة ومستورة، فأراد الله الستر لها، ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله: [وعصى آدم ربَّه فغوى][٣]. وروي أن الله تعالى تاب على آدم في يوم عاشوراء.

وكنية آدم أبو محمد، وقيل: أبو البشر، وقرأ الجمهور [إنه] بكسر الألف على القطع، وقرأ ابن أبي عقرب[٤] [أنه] بفتح الهمزة على معنى لأنه. وبنية [التواب] للمبالغة والتكثير.

وفي قوله تعالى: [إنَّه هو التَّوَّاب الرَّحيم]، تأكيد ـ فائدته أن التوبة على العبد إنما هي نعمة من الله لا من العبد وحده، لئلا يعجب التائب، بل الواجب عليه شكر الله تعالى في توبته عليه.

وكرر الأمر بالهبوط لما علق بكل أمر منهما حكماً غير حكم الآخر، فعلق بالأول العداوة، وعلق بالثاني إتيان الهدى، وقيل: كرر الأمر بالهبوط على جهة تغليظ الأمر وتأكيده، كما تقول لرجل: قم قم.

وحكى النقاش أن الهبوط الثاني إنما هو من الجنة إلى السماء، والأول في ترتيب الآية إنما هو إلى الأرض وهو الآخر في الوقوع، فليس في الأمر تكرار على هذا.

و[جميعاً] حال من الضمير في [اهبطوا]، وليس بمصدر، ولا اسم فاعل، ولكنه عوض منهما، دالٌّ عليهما، كأنه قال: هبوطاً جميعاً، أو هابطين جميعاً[٥].

---

(١) يقال: تاب إلى الله: رجع عن المعصية فهو تائب وتواب وتاب الله عليه: غفر له، ورجع عليه بفضله، فهو تواب على عباده، فمعنى قوله تعالى: (وتاب عليه): تفضل عليه بالتوبة والقبول.

(٢) أي مع العزم على الترك فيما يستقبل.

(٣) وقد طوي ذكر النساء المؤمنات في أكثر القرآن والسنة لأنهن تبع للرجال في الأحكام المشتركة.

(٤) هو أبو نوفل العرنجي بفتح المهملتين وسكون النون، واسمه عمرو بن مسلم من التابعين.

(٥) هذا التقدير الذي قدّره مخالف للحكم الذي أصدره، لأنه قال أولا: وجميعاً حال من الضمير في=

واختلف في المقصود بهذا الخطاب، فقيل: آدم وحواء وإبليس وذريتهم، وقيل: ظاهره العموم، ومعناه الخصوص في آدم وحواء[١]، لأن إبليس لا يأتيه هدى، وخوطبا بلفظ الجمع تشريفاً لهما، والأول أصح لأن إبليس مخاطب بالإيمان بإجماع. وإن في قوله: ﴿فإمَّا﴾ هي للشرط، دخلت (ما) عليها مؤكدة ليصح دخول النون المشددة، فهي بمثابة لام القسم التي تجي لتجيء النون[٢]. وفي قوله تعالى: ﴿منِّي﴾ إشارة إلى أن أفعال العباد خلق لله تعالى، واختلف في معنى قوله [هدى] فقيل: بيان وإرشاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصواب أن يقال: بيان ودعاء[٣]، وقالت فرقة: الهدىٰ الرسل، وهي إلى آدم من الملائكة، وإلى بنيه من البشر، هو فمن بعده.

وقوله تعالى: ﴿فمن تبع هداي﴾، شرط جوابه ﴿فلا خوفٌ عليهم﴾[٤] قال سيبويه: الشرط الثاني وجوابه هما جواب الأول في قوله: ﴿فإما يأتينكم﴾ وحكي عن الكسائي أن قوله: ﴿فلا خوف عليهم﴾، جواب الشرطين جميعاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: حكي هذا، وفيه نظر، ولا يتوجه أن يخالف سيبويه هنا، وإنما الخلاف في نحو قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾[٥]، فيقول سيبويه: جواب الشرطين. وأما في هذه الآية فالمعنى يمنع أن

= اهبطوا، فكيف يقول ثانياً: كأنه قال: هبوطاً جميعاً، أو هابطين جميعاً؟ فآخر كلامه يعارض أوله. وكونه ليس مصدراً، ولا اسم فاعل، لا يمنع أن يكون حالاً حتى يضطر إلى هذا التقدير الذي قدره، وعليه فالعبرة بأول كلامه لا بآخره، وهذه الحال من الأحوال اللازمة.

(١) وإذا كان الخطاب لآدم وحواء، فالمراد ما عليه الناس من التعادي والتباغي وتضليل بعضهم لبعض ـ والبعضية موجودة في ذريتهما، لأنه ليس كلهم يعادي كلهم، بل بعضهم يعادي بعضهم، وإن كان الخطاب لهما مع إبليس والحية فكلهم أعداء لكل بني آدم.

(٢) لا يصح توكيد إن الشرطية إلا إذا دخلت «ما» عليها وهو كثير في القرآن ﴿إما يبلغن عندك الكبر﴾ ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾ ﴿فإمَّا نذهبنَّ بك﴾ ﴿فإما ترينَّ من البشر أحداً﴾ ﴿فإمَّا يأتينكم منّي هدى﴾.

(٣) لقوله تعالى: ﴿هذا بيان للنَّاس﴾ ولقوله تعالى: ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾.

(٤) يصح أن تكون ﴿من﴾ موصولة، ويترجح ذلك بقوله تعالى: في قسمة ﴿والذين كفروا وكذَّبوا﴾ فأتي به موصولاً، ويكون قوله تعالى ﴿فلا خوف عليهم﴾ جملة هي الخبر، والشروط المبيحة لدخول الفاء في الجملة قائمة هنا.

(٥) الآيتان (٨٨ـ٨٩) من سورة الواقعة.

يكون ﴿فلا خوفٌ﴾ جواباً للشرطين، وقرأ الجحدري وابن أبي إسحق [هُدَيَّ]، وهي لغة هذيل، قال أبو ذؤيب يرثي بنيه:

سبقــوا هــويَّ واعنقــوا لهــواهــم ... فتخـرِّمـوا ولكـلِّ جنـب مصـرع [(١)]

وكذلك يقولون: عصيَّ وما أشبهه، وعلة هذه اللغة أن ياء الإضافة من شأنها أن يكسر ما قبلها، فلما لم يصح في هذا الوزن كسر الألف الساكنة أبدلت ياءً وأدغمت، وقرأ الزهري، ويعقوب، وعيسى الثقفي: [فلا خوف عليهم] نصب بالتبرئة[(٢)]. ووجهه أنه أعم وأبلغ في رفع الخوف، ووجه الرفع أنه أعدل في اللفظ لينعطف المرفوع من قوله: ﴿هم يحزنون﴾ على مرفوع. و(لا) في قراءة الرفع عاملة عمل ليس، وقرأ ابن محيصن باختلاف عنه: ﴿فلا خوفُ﴾ بالرفع وترك التنوين، وهي على أن تعمل (لا) عمل ليس، لكنه حذف التنوين تخفيفاً لكثرة الاستعمال، ويحتمل قوله تعالى: ﴿لاخوفٌ عليهم﴾، أي فيما بين أيديهم من الدنيا ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما فاتهم منها. ويحتمل أن لا خوف عليهم يوم القيامة و لا هم يحزنون فيه، ويحتمل أن يريد: أنه يدخلهم الجنة حيث لا خوف ولا حزن.

وقوله تعالى: ﴿والّذين كفروا﴾ الآية، عطف جملة مرفوعة على جملة مرفوعة، وقال: ﴿وكذَّبوا﴾ وكان في الكفر كفاية، لأن لفظة ﴿كفروا﴾ يشترك فيها كفر النعم، وكفر المعاصي، ولا يجب بهذا خلود، فبيَّن أن الكفر هنا هو الشرك بقوله: ﴿وكذَّبوا بآياتنا﴾، والآية هنا يحتمل أن يريد المتلوَّة، ويحتمل أن يريد العلامة المنصوبة، وقد تقدم في صدر هذا الكتاب القول على لفظ آية، و﴿أولئك﴾ رفع بالابتداء، و﴿أصحاب﴾ خبره، والصحبة الاقتران[(٣)] بالشيء في حالة ما في زمن ما، فإن كانت الملازمة والخلطة فهو

---

(١) يقول أبو ذؤيب الهزلي في رثاء بنيه: إنهم ماتوا قبلي، وأسرعوا لهواهم، وكنت أحب أن أموت قبلهم. ويقال: أعنق الفرس: أسرع. وتخرموا: أخذوا واحداً بعد واحد.

(٢) قراءة النصب أبلغ في المعنى، وقراءة الرفع أعدل في اللفظ. والآية تحتمل أن يكون نفي الخوف والحزن في الدنيا، وأن يكون في الآخرة، وهذا الثاني أولى وأرجح، لأن تعلق المؤمن العاقل بالآخرة أهم من تعلقه بالدنيا، والمنفي هواستيلاء الخوف عليهم، وأما أصل الخوف فحاصل، ولكنهم إذا صاروا إلى رحمته فكأنهم لم يخافوا.

(٣) والصحبة أدناها الاقتران بالشيء في زمن ما، وأعلاها المخالطة والملازمة، فالصحابة الذين خالطوا الإسلام ولازموه، ليسوا كالصحابة الذين اقترنوا بالإسلام في زمن من الأزمنة، وفي حال من الأحوال، =

كمال الصُّحبة، وهكذا هي صحبة أهل النار لها، وبهذا القول ينفك الخلاف في تسمية الصحابة رضي الله عنهم، لأن مراتبهم متباينة، أقلها الاقتران في الإسلام والزمن، وأكثرها الخلطة والملازمة، [وهم فيها خالدون] ابتداءٌ وخبر في موضع الحال.

قوله عز وجل:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١﴾.

[يا] حرف نداء مضمن معنى التَّنبيه، قال الخليل: والعامل في المنادى فعل مضمر كأنه يقول: أريد أو أدعو، وقال أبو علي الفارسي: العامل حرف نداء عصب به[١] معنى الفعل المضمر، فقوي فعمل، ويدل على ذلك أنه ليس في حروف المعاني ما يلتئم بانفراده مع الأسماء غير حرف النداء، و[بني] منادى مضاف، و[إسرائيل] هو: يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام، وهو اسم أعجمي، يقال فيه: إسرائل، وإسرائيل، وتميم تقول: اسرائين، و[إسرا] هو بالعبرانية عبد، و[إيل] اسم الله تعالى، فمعناه: عبد الله. وحكى المهدوي أن (إسرا) مأخوذ من الشد[٢] في الأسر، كأنه الذي شدَّ الله أسره، وقوَّى خلقه، وروي عن نافع، والحسن، والزهري، وابن أبي إسحق، ترك همز (إسراييل).

والذكر في كلام العرب على أنحاء، وهذا منها، ذكر القلب الذي هو ضد النسيان[٣]. والنعمة هنا اسم الجنس، فهي مفردة بمعنى الجمع، وتحركت الياء من [نعمتي] لأنها لقيت الألف واللام، ويجوز تسكينها، وإذا سكنت حذفت للالتقاء،

= والكفار الذين خالطوا النار ولازموها ليسوا كالعصاة الذين اقترنوا بها في زمن معين محدد. عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أقوام أصابتهم النار بخطاياهم فأماتتهم إماتة حتى إذا صاروا فحماً أذن في «الشفاعة».

(١) أحاط به ذلك فقوّاه فعمل.

(٢) لو قال: «من الأسر بمعنى الشد» كان إسرائيل شد الله أسره، وقوى خلقه، ومنه قوله تعالى: [نحن خلقناهم وشددنا أسرهم].

(٣) الذكر بالقلب: ضد النسيان، وباللسان: ضد الصمت، وفيه لغتان: الكسر والضم ويقال: الذكر بمعنى الشرف، كقوله تعالى: [إنَّه لذكرٌ لك ولقومك].

وفتحها أحسن لزيادة حرف في كتاب الله تعالى[١]، وخصص بعض العلماء النعمة في هذه الآية، فقال الطبريُّ: بعثة الرسل منهم، وإنزال المن والسلوى، وإنقاذهم من تعذيب آل فرعون، وتفجير الحجر. وقال غيره: النعمة هنا، أن أدركهم مدة محمد ﷺ. وقال آخرون: هي أن منحهم علم التوراة، وجعلهم أهله وحملته، وهذه أقوال على جهة المثال، والعموم في اللفظة هو الحسن. وحكى مكي أن المخاطب من بني إسرائيل بهذا الخطاب هم المؤمنون بمحمد ﷺ. لأن الكافر لا نعمة لله عليه[٢].

وقال ابن عباس، وجمهور العلماء: الخطاب لجميع بني إسرائيل في مدة النبي عليه السلام، مؤمنهم وكافرهم.

والضمير في ﴿عليكم﴾ يراد به على آبائكم، كما تقول العرب: ألم نهزمكم يوم كذا، لوقعة كانت بين الآباء والأجداد؟ ومن قال: إنما خوطب المؤمنون بمحمد ﷺ استقام الضمير في عليكم، ويجيء كُلُّ ما توالى من الأوامر على جهة الاستدامة.

وقوله تعالى: ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾. أمر وجوابه، فقال الخليل: جزم الجواب ما في الأمر من معني الشرط، والوفاء بالعهد هو التزام ما تضمن من فعل. وقرأ الزهري: ﴿أوفِّ﴾ بفتح الواو وشد الفاء للتكثير.

واختلف المتأولون في هذا العهد اليهم، فقال الجمهور: ذلك عامٌّ في جميع أوامره ونواهيه ووصاياه، فيدخل في ذلك ذكر محمد ﷺ الذي في التوراة، وقيل: العهد قوله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾[٣]. الآية: وقال ابن جريج: العهد قوله تعالى:

---

(١) وزيادة الحرف يترتب عليه زيادة الأجر ـ إذ كل حرف بعشر حسنات كما في الحديث.

(٢) النعمة نعمتان: نعمة مطلقة، ونعمة مقيدة ـ فالنعمة المطلقة هي المتصلة بسعادة الأبد، وهي نعمة الإيمان والإسلام، وهي التي أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نسأله في صلواتنا أن يهدينا صراط أهلها، ومن خصهم بها، وجعلهم أهل الرفيق الأعلى حيث يقول: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا﴾. فهذه الأصناف الأربعة هم أهل النعمة المطلقة، وإذا قيل ليس لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار فهو صحيح ـ والنعمة المقيدة كنعمة الصحة والغنى، وعافية الجسد، وبسطة الجاه، وكثرة الولد، وأمثال هذه، فهذه النعمة مشتركة بين البرِّ والفاجر، والمؤمن والكافر، وإذا قيل لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار فهو حق، فهذا فصل النزاع في هذه المسألة باختصار، وأكثر اختلاف الناس يأتي من جهتين ـ أحدهما: اشتراك الألفاظ وإجمالها. والثانية: من جهة الإطلاق والتفصيل، والله أعلم.

(٣) من الآية (٦٣) من سورة البقرة.

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[١] الآية، وعهدهم: هو أن يدخلهم الجنة. ووفاؤهم بعهد الله أمارة لوفاء الله تعالى لهم بعهدهم، لا علَّة له، لأن العلَّة لا تتقدم المعلول[٢].

وقوله: ﴿وإيَّاي فارهبون﴾ الإسم (إيا)، والياء ضمير ككاف المخاطب، وقيل: ﴿إياي﴾ بجملته هو الاسم، وهو منصوب بإضمار فعل مؤخر تقديره: وإياي ارهبوا فارهبون، وامتنع أن يقدَّر مقدماً لأن الفعل إذا تقدم لم يحسن أن يتصل به إلا ضمير خفيف فكان يجيء، وارهبون.

والرهبة يتضمن الأمر بها معنى التهديد، وسقطت الياء بعد النون لأنها رأس آية. وقرأ ابن أبي إسحق بالياء.

و﴿آمنوا﴾ معناه: صدقوا، و﴿مصدقاً﴾ نصب على الحال من الضمير في ﴿أنزلت﴾[٣] وقيل: من ﴿ما﴾، والعامل فيه ﴿آمنوا﴾، وما أنزلت كناية عن القرآن، و﴿لما معكم﴾ يعني من التوراة.

وقوله: ﴿ولا تكونوا أوَّل كافر به﴾ هذا من مفهوم الخطاب الذي المذكور فيه والمسكوت عنه حكمهما واحد، فالأول والثاني وغيرهما داخل في النهي[٤]، ولكن حذِّروا البدار إلى الكفر به، إذ على الأول كفلٌ من فعل المقتدي به[٥]، ونصب [أوَّل] على خبر كان.

---

(١) من الآية (١٢) من سورة المائدة.

(٢) بل هي مقارنة له، ولا تكون سابقة عليه، كما يقال: يجب الجلد بالزنا، والظهر بالزوال، وتحرم الخمر بالإسكار، فذلك علة للوجوب، وللحرمة، لأن الأحكام تضاف إليها، ومن ثمَّ كانت لا تفارق المعلول.

(٣) والتقدير: «بما أنزلته مصدقاً لما معكم»، والعامل: أنزلت، ويجوز أن يكون من (ما)، والعامل (آمنوا)، والتقدير: «آمنوا بالقرآن مصدقاً لما معكم».

(٤) يعني أن القصد ألا يكونوا أول كافر، ولا ثاني كافر، ولا آخر كافر، لأن النهي عن الشيء لا يكون دليلاً على إباحة ضده، وإنما حذِّروا البدار إلى الكفر لما قرره المؤلف رحمه الله، وقد احتج بعض الناس بهذه الآية على أن دليل الخطاب ليس بحجة.

(٥) قال الإمام القشيري رحمه الله: «ولاتسنوا الكفر سنة، فإنَّ وزر المبتدئين فيما يسنون أعظم من وزر المقتدين فيما يتبعون».

والكفل في اللغة: يكون بمعنى النصيب ـ وبهذا يكون معنى العبادة: إذ على أوّل من كفر نصيب من إثم المقتدي به ـ لقوله ﷺ: «ومن سنّ سنة سيئة فعليه وزرها، ووزر من عمل بها. . الخ الحديث».

قال سيبويه: أول «أفعل» لا فعل له لاعتلال فائه وعينه. قال غير سيبويه: هو أوْأل من وأل إذا نجا[1] خففت الهمزة وأبدلت واواً وأدغمت، وقيل: إنه من آل فهو [أأول] قلب فجاء وزنه «أعفل» وسهِّل وأبدل وأدغم.

ووحد ﴿كافر﴾ وهو بنيَّة الجمع؛ لأن أفعل إذا أضيف إلى اسم متصرف من فعل جاز إفراد الاسم، والمراد به الجماعة[2]، قال الشاعر:

وإذا هُمُ طعِموا فألأَمُ طاعم وإذا هُمُ جاعوا فَشَرُّ جِياع[3]

وسيبويه يرى أنها نكرة مختصرة من معرفة كأنه قال: ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾[4]. وقيل: معناه «ولا تكونوا أول فريق كافر».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد كان كفر قبلهم كفار قريش فإنما معناه: من أهل الكتاب، إذ هم منظور إليهم في مثل هذا، لأنهم حجة مظنون بهم علم.

واختلف في الضمير في ﴿به﴾ على من يعود؟ فقيل: على محمد عليه السلام، وقيل: على التوراة إذا تضمنها قوله: ﴿لما معكم﴾، وعلى هذا القول[5] يجيء ﴿أول كافر به﴾ مستقيماً على ظاهره في الأولية، وقيل: الضمير في ﴿به﴾ عائد على القرآن، إذ تضمنه قوله: ﴿بما أنزلت﴾.

واختلف المتأولون في الثمن الذي نهوا أن يشتروه بالآيات، فقالت طائفة: إن

---

(١) أي: طلب النجاة لأن وَأَلَ معناها: لجأ طلباً للنجاة.

(٢) أفعل التفضيل إذا أضيف إلى نكرة غير صفة فإنه يبقى مفرداً مذكراً، والنكرة تطابق ما قبلها ـ وإذا أضيف إلى صفة، وقد تقدم أفعل التفضيل جمع جازت المطابقة، وجاز الإفراد كما قال الشاعر:

وإذا هـمُ طعِموا فـالأم طـاعم وإذا هـمُ جـاعوا فشرُّ جِياعِ

فأفرد أولاً في (طاعم) وجمع ثانياً في (جياع). وإذا أفردت النكرة الصفة، أولت على معنى الفعل نحو: ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ أو على حذف موصوف يدل على الجمع نحو: ﴿ولا تكونوا أول حزب كافر به﴾. راجع «البحر المحيط» ١/ ١٧٧.

(٣) البيت في «البحر المحيط» ١/ ١٧٧ ـ وفي تفسير الطبري ١/ ١٩٩ ـ ولم ينسب لقائل.

(٤) مثل هذه النكرة عند سيبويه أصلها التعريف والجمع نحو: «ولا تكونوا أوّل الكافرين به» فوقع اختصار حرف التعريف، فكأنه قيل: «ولا تكونوا أول كافرين به»، ثم: ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ بحذف بناء الجمع.

(٥) أي الذي يقول: إن الضمير عائد على التوراة، وأما القولان الآخران فمتلازمان.

الأحبار كانوا يعلمون دينهم بالأجرة فنهوا عن ذلك، وفي كتبهم: «علم مجاناً كما علمت مجاناً، أي باطلاً بغير أجرة». وقال قوم: كانت للأحبار مأكلة يأكلونها على العلم كالراتب، فنهوا عن ذلك، وقال قوم: إن الأحبار أخذوا رشاً على تغيير قصة محمد عليه السلام في التوراة، ففي ذلك قال تعالى: [ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً][1] وقال قوم: معنى الآية: ولا تشتروا بأوامري ونواهي وآياتي ثمناً قليلاً، يعني الدنيا ومدتها، والعيش الذي هو نزر لا خطر له، وقد تقدم نظير قوله: [وإيَّاي فاتَّقون][2] وبين (اتَّقون)[3] و(ارهبون) فرق أن الرهبة مقرون بها وعيد بالغ.

قوله عز وجل:

﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

المعنى: ولا تخلطوا، يقال: لبست الأمر ـ بفتح الباء ـ ألبسه إذا خلطته، ومزجت بينه بمشكله وحقَّه بباطله، وأما قول الشاعر:[4]

وكتيبـــة لبَّستهـــا بكتيبـــة . . . .

فالظاهر أنه من هذا المعنى، ويحتمل أن يكون من اللباس.

---

(١) يدخل في حكم الآية من أخذ من المسلمين رشوة على إبطال حق أمرالله به، أو أثبات باطل نهى الله عنه، أو امتنع من تعليم ما علمه الله، وكتم البيان الذي أخذ الله عليه ميثاقه به. فكل من فعل شيئاً من ذلك فقد اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً، والله يقول: [وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم] وأجاز مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله أخذ الأجرة على تعليم القرآن للحديث الصحيح: «إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله» أخرجه البخاري، وهو نص يرفع الخلاف فينبغي أن يعول عليه، والمراد بالآية علماء بني إسرائيل، وشرع من قبلنا أهو شرع لنا أم لا؟: فيه خلاف.

(٢) هو قوله تعالى: [وإيَّاي فارهبون].

(٣) الأحسن ألا يقيد (ارهبون واتقون) بشيء بل ذلك أمر بخوف الله واتقائه، فيكون المعنى (ارهبون) إن لم تذكروا نعمتي ولم توفوا بعهدي، و(اتقون) إن لم تؤمنوا بما أنزلت، وإن اشتريتم بآياتي ثمناً قليلاً، ويتعلق كل بما سيق قبله، والله أعلم.

(٤) هو عنترة العبسي. بطل مشهور، وشاعر معروف، وعجز البيت:

. . . . حتَّى إذا التبست نفضت لها يدي

واختلف أهل التأويل في المراد بقوله: ﴿الحق بالباطل﴾، فقال أبو العالية: قالت اليهود: محمد نبي مبعوث، ولكن إلى غيرنا. فإقرارهم ببعثه حقٌّ، وجحدهم أنه بعث إليهم باطل. وقال الطبري: كان من اليهود منافقون، فما أظهروا من الإيمان حق، وما أبطنوا من الكفر باطل. وقال مجاهد: معناه لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام.

وقال ابن زيد: المراد بالحق التوراة، والباطل ما بدلوا فيها من ذكر محمد عليه السلام. و﴿تلبسوا﴾ جزم بالنهي، و﴿تكتموا﴾ عطف عليه في موضع جزم[1]، ويجوز أن يكون في موضع نصب بإضمار أن، وإذا قدرت أن كانت مع تكتموا بتأويل المصدر، وكانت الواو عاطفة على مصدر مقدر من تلبسوا، كأن الكلام: «ولا يكن لبسكم الحق بالباطل، وكتمانكم الحق»، وقال الكوفيون: تكتموا نصب بواو الصرف. و[الحق] يعني به أمر محمد ﷺ.

وقوله: ﴿وأنتم تعلمون﴾، جملة في موضع الحال، ولم يشهد لهم تعالى بعلم، وإنما نهاهم عن كتمان ما علموا، ويحتمل أن يكون شهادة عليهم بعلم حق مخصوص، في أمر محمد عليه السلام، ولم يشهد لهم بالعلم على الإطلاق، ولا تكون الجملة على هذا في موضع الحال[2]، وفي هذه الألفاظ دليل على تغليظ الذنب على من واقعه على علم وأنه أعصى من الجاهل[3].

و﴿أقيموا الصلاة﴾ معناه: أظهروا هيئتها وأديموها بشروطها، وذلك تشبيه بإقامة القاعد إلى حال ظهور، ومنه قول الشاعر:

وإذا يقال أتيتم لم يبرحوا ... حتى تقيم الخيل سوق طعان

وقد تقدم القول في (الصلاة).

و[الزكاة] في هذه الآية هي المفروضة، بقرينة إجماع الأمة على وجوب الأمر بها، والزكاة مأخوذة من زكا الشيء إذا نما وزاد، وسمي الإخراج من المال

---

(١) هذا أرجح الأعاريب في هذه الكلمة لأن ذلك يقتضي النهي عن كل بانفراده، وأما النصب بأن، أو بالصرف فإنه يجعل المنع منسحباً على الجمع بين الفعلين ويكون دالاً بالمفهوم على جواز التلبس بأحدهما، وذلك غير مراد.

(٢) يعني أن الجملة الثبوتية تكون معطوفة على جملة النهي، ولا تكون حالاً على هذا القول.

(٣) أي الجاهل العاصي، إذ لا يستوي العالم والجاهل أبداً في حياتهما.

زكاة[١] وهو نقص منه من حيث ينمو بالبركة، أو بالأجر الذي يثيب الله به المزكي. وقيل: الزكاة مأخوذة من التطهير، كما يقال: زكا فلان أي طهر من دنس الجرحة والإغفال، فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعل الله فيه للمساكين، ألا ترى النبي عليه الصلاة والسلام سمى ما يخرج في الزكاة أوساخ الناس[٢].

وقوله تعالى: ﴿واركعوا مع الرَّاكعين﴾ قال قوم: جعل الركوع ـ لمَّا كان من أركان الصلاة ـ عبارة عن الصلاة كلِّها، وقال قوم: إنما خص الركوع بالذكر، لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع[٣]، وقالت فرقة: إنما قال ﴿مع﴾ لأن الأمر بالصلاة أولاً لم يقتض شهود الجماعة، فأمرهم بقوله ﴿مع﴾ بشهود الجماعة. والركوع في اللغة: الانحناء بالشخص. قال لبيد:

أُخبِّرُ أخبارَ القرون الَّتي مضت ... أدبُّ كأنِّي كلَّما قمتُ راكعُ

ويستعار أيضاً في الانحطاط في المنزلة، قال الأضبط بن قريع:

ولا تُعَادِ الضَّعيفَ علَّك أن ... تركعَ يوماً والدهرُ قد رَفَعَهْ

وقوله تعالى: ﴿أتأمرون الناس﴾ خرج مخرج الاستفهام، ومعناه التوبيخ[٤]، والبر يجمع وجوه الخير والطاعات، ويقع على كل واحد منها اسم بر، و﴿تنسون﴾، معناه: تتركون كما قال الله تعالى: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾[٥].

واختلف المتأولون في المقصود بهذه الآية، فقال ابن عباس: كان الأحبار يأمرون

---

(١) أي نماء وزيادة.

(٢) رواه الإمام مسلم، ونصه: «إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس. وإنها لاتحل لمحمد ولا آل محمد».

(٣) هذا القول لا يصح، لقوله تعالى: ﴿يا مريم اقنتي لربِّك واسجدي، واركعي مع الراكعين﴾ وهو ما ارتضاه الإمام ابن عطية.

(٤) هذا تنديد بالعلماء والرؤساء الذين يأمرون غيرهم وينسون أنفسهم، والقدوة الصالحة هي التي تجمع بين القول والعمل، وهي التي تبدأ بنفسها وتنهاها عن غيها، ثم تقصد غيرها فتؤدي إليها أمر ربها، ونهي خالقها بحكمة وإخلاص. ومن شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه إذا تأثر به الآمر تأثر به المأمور، وإذا خرج من ظاهره لم يتجاوز ظاهر غيره، فالسبب إذا استمر واستقام كان له تأثير بإذن الله تعالى في النفوس، ومن هنا يدرك أن انحراف الناس في حياتهم ناتج عن عدم وجود القدوة الصالحة في الدين والدنيا، وهذا بحسب الأغلب، وإلا فقد يكون ذلك ناشئاً عن عناد.

(٥) من الآية (٦٧) من سورة (التوبة).

أتباعهم، ومقلديهم باتباع التوراة، وكانوا هم يخالفونها في جحدهم منها صفة محمد ﷺ. وقالت فرقة: كان الأحبار إذا استرشدهم أحد من العرب في اتباع محمد دلُّوه على ذلك، وهم لا يفعلونه. وقال ابن جريج: كان الأحبار يحضُّون الناس على طاعة الله، وكانوا هم يواقعون المعاصي، وقالت فرقة: كانوا يحضُّون على الصدقة ويبخلون.

وقوله: ﴿وأنتم تتلون﴾ معناه: تدرسون وتقرؤون، ويحتمل أن يكون المعنى تتبعون أي في الاقتداء به ﴿والكتاب﴾: التوراة، وهي تنهاهم عما هم عليه من هذه الصفة الذميمة.

وقوله: ﴿أفلا تعقلون﴾ معناه: أفلا تمنعون أنفسكم[(١)] من مواقعة هذه الحال المردية لكم؟، والعقل: الإدراك المانع من الخطأ، مأخوذ منه عقال البعير الذي يمنعه من التصرف، ومنه: المعقل أي موضع الامتناع.

وقوله: ﴿واستعينوا بالصَّبر[(٢)] والصلاة﴾

قال مقاتل معناه: على طلب الآخرة. وقال غيره: المعنى استعينوا بالصبر على الطاعات وعن الشهوات، على نيل رضوان الله، وبالصلاة على نيل الرضوان وحط الذنوب، وعلى مصائب الدهر أيضاً[(٣)]، ومنه الحديث، كان رسول الله ﷺ إذا كربه أمر فزع إلى الصلاة[(٤)]، ومنه ما روي أن عبد الله بن عباس نعي إليه أخوه (قثم) وهو في سفر، فاسترجع، وتنحى عن الطريق، وصلى، ثم انصرف إلى راحلته وهو يقرأ[(٥)]: ﴿واستعينوا بالصبر والصَّلاة﴾.

---

(١) إشارة إلى تعديته، ويمكن أن ينزل منزلة اللازم، وكيفما كان فهو غاية في الشناعة والقبح.

(٢) قال الإمام أحمد رحمه الله: ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً، أو بضعاً وتسعين، وهو واجب باتفاق الأمة، وقد يكون من الكمال المستحب، وذلك أن النجاح والنصر لا يأتيان إلا على أساس الصبر والالتجاء إلى الله تعالى بالصلاة والدعاء.

(٣) الآية الكريمة تقبل كل هذه المعاني، فالألف واللام الداخلة على الصبر هي للشمول والعموم، كما أن الصلاة يراد بها ما يعم الفريضة والنافلة.

(٤) رواه الإمام أحمد، وأبو داود بلفظ: «كان إذا حزبه أمر صلى»، ورواه (ط) بلفظ: «كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»، وذكره المؤلف بلفظ: «إذا كربه أمر فزع إلى الصلاة» وكربه بمعنى حزبه، أي أهمَّه وأقلقه. وانظر دعاء الكرب من كتاب الدعوات. وروى الترمذي في جامعه عن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ إذا كربه أمر قال: يا حيُّ يا قيوم برحمتك أستغيث».

(٥) رواه (ط) في تفسيره، والبيهقي في شعب الإيمان.

وقال مجاهد: الصبر في هذه الآية: الصوم، ومنه قيل لرمضان، شهر الصبر، وخص الصوم والصلاة على هذا القول بالذكر لتناسبهما في أن الصيام يمنع الشهوات، ويزهد في الدنيا. والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتخشع، ويقرأ فيها القرآن الذي يذكر بالآخرة. وقال قوم: الصبر على بابه[(١)]، والصلاة الدعاء، وتجيء هذه الآية على هذا القول مشبهة لقوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾[(٢)] لأن الثبات هو الصبر، وذكر الله هو الدعاء.

واختلف المتأولون في قوله: [وإنها لكبيرةٌ] على أي شيءٍ يعود الضمير، فقيل: على الصلاة[(٣)] وقيل: على الاستعانة التي يقتضيها قوله: [استعينوا]، وقيل: على العبادة التي يتضمنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة. وقالت فرقة: على إجابة محمد ﷺ، وفي هذا ضعف لأنه لا دليل له من الآية عليه، وقيل: يعود الضمير على الكعبة، لأن الأمر بالصلاة إنما هو إليها، وهذا أضعف من الذي قبله. وكبيرة معناه: ثقيلة شاقة[(٤)].

والخاشعون: المتواضعون المخبتون، والخشوع: هيئة في النفس، يظهر منها على الجوارح سكون وتواضع.

و[يظنون] في هذه الآية، قال الجمهور: معناه يوقنون[(٥)]، وحكى المهدوي،

---

(١) وليس بمعنى الصوم، كما قاله مجاهد، وترجمة ما أشار إليه أن الصبر يفسر بتفسيرين بمعناه المتعارف، وبمعنى الصوم، ومن ثم قيل لشهر الصوم: شهر الصبر، والصلاة كذلك فقيل الشرعية، وقيل اللغوية. والكلمة صالحة للجميع.

(٢) من الآية (٤٥) من سورة الأنفال.

(٣) هذا أقوى وأولى، لأن ضمير الغيبة يعود إلى أقرب مذكور. ولأن الصلاة عبادة، ومن أكبر العون على الثبات في الأمر. ولأنها تكبر وتصعب على النفوس، ومن أجل هذا اختاره الإمام ابن جرير رحمه الله.

(٤) جعلها كبيرة حتى قرن بها الأمر بالصبر، واستثنى الخاشعين فلم تكن عليهم كبيرة لأجل ما وصفهم به من الخوف والرجاء، وذلك ما تضمنه قوله تعالى: [الذين يظنون أنهم ملاقوا ربِّهم] فإن الخوف والرجاء يسهلان كل صعب. والمشقة في الصلاة تدخل على المكلف من جهة شدة التكليف في حد ذاته، ومن جهة المداومة عليه، وإن كان خفيفاً في نفسه، وفي مقدمة الخاشعين رسول الله ﷺ، فإنه كانت قرة عينه في الصلاة، حتى يستريح إليها من تعب الدنيا، حتى قال: «أرحنا بها يا بلال»، كما رواه الدار قطني في العلل.

(٥) العلم والمعرفة واليقين: مترادفة على معنى واحد، وهو الاعتقاد الجازم المطابق عن دليل، وقد يطلق الظن على العلم كما يطلق العلم على الظن، وهذا الاستعمال متعارف عند أهل اللغة والشرع، وعن مجاهد: كل ظن في القرآن فهو يقين، ولعله يريد الظن المتعلق بالآخرة كما قالوا.

وغيره: أن الظن هنا يصح أن يكون على بابه، ويضمر في الكلام بذنوبهم، فكأنهم يتوقعون لقاءه مذنبين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تعسف[(١)]، والظن في كلام العرب قاعدته الشك مع ميل إلى أحد معتقديه، وقد يوقع الظن موقع اليقين في الأمور المتحققة[(٢)]، لكنه لا يوقع فيما قد خرج إلى الحس، لا تقول العرب في رجل مرئي حاضر: أظن هذا إنساناً، وإنما تجد الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحس بعد كهذه الآية، وكقوله تعالى: ﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾[(٣)]، وكقول دريد بن الصمة:

فقلتُ لهم: ظُنُّوا بألفي مدجَّج ... سراتُهُمُ بالفارسي المُسَرَّد[(٤)]

وقوله تعالى: ﴿أنهم ملاقوا ربِّهم﴾ أنَّ وجملتها تسد مسد مفعولي الظن، والملاقاة هي للعقاب أو الثواب. ففي الكلام حذف المضاف. ويصح أن تكون الملاقاة هنا[(٥)] بالرؤية التي عليها أهل السنَّة، وورد بها متواتر الحديث. وحكى المهدوي أن الملاقاة هنا مفاعلة من واحد مثلُ: عافاك الله، وهذا ضعيف، لأن لقي يتضمن معنى لاقى وليست كذلك الأفعال كلها، بل فعل[(٦)] خلاف فاعل في المعنى، وملاقو أصله ملاقون

---

(١) أي تكلف بحمل الكلام على معنى لا دلالة عليه في الظاهر، والأصل عدم الإضمار في الكلام إلا إذا توقف صدقه أو صحته على ذلك.

(٢) أي الثابتة عقلاً وشرعاً.

(٣) من الآية (٥٣) من سورة الكهف.

(٤) دريد: هو ابن عبد الله بن الطفيلي، شاعر إسلامي مُقِل، من شعراء الدولة الأموية. وقوله: ظنوا بألفي مدجج، أي تيقنوا بإتيان ألفي مدجج، والمدجج اللابس للسلاح المغطى به. وبعده:

فلما عصوني كنتُ منهم وقد أرى ... غوايتهم وأنني غير مهتد

أي حيث تابعتهم ووافقتهم.

(٥) لا يلزم من اللقاء الرؤية. ألا ترى إلى الأعمى إذا حضر جمعاً ساغ له أن يقول: لقيت فلاناً، مع فقده للرؤية، والآية هناك كما تدل لأهل السنة يمكن أن تدل للمعتزلة الذين لا يعترفون برؤية الله في الآخرة، لكن ابن عطية رحمه الله ذكر رأي أهل السنة، وسكت عن رأي المعتزلة ـ فتأمل قوله بعد ذلك: «وورد بها متواتر الحديث» مما يدل على تأييده أو اختياره لهذا القول.

(٦) (فعل) تدل على الانفراد، و(فاعل) تدل على الاشتراك، وقد تكون (فعل) بمعنى (فاعل) في الدلالة على الاشتراك، ومن ذلك (لقي) فإنها تدل على الاشتراك بوضعها وخصوص مادتها، لأن كل من لقيته فقد لقيك وعلى ذلك فإننا لو جعلنا (فاعل) في الآية بمعنى (فعل) لكانت تدل على الاشتراك أيضاً. ووجه التضعيف لكلام المهدوي أن مادة لقي مجردة كانت أو غير مجردة يستحيل فيها أن تكون لواحد. =

لأنه بمعنى الاستقبال، فحذفت النون تخفيفاً، فلما حذفت تمكنت الإضافة بمناسبتها للأسماء، وهي إضافة غير محضة لأنها لا تعرِّف.

وقال الكوفيون: ما في اسم الفاعل الذي هو بمعنى المجيء من معنى الفعل يقتضي إثبات النون وإعماله، وكونه وما بعده اسمين يقتضي حذف النون والإضافة.

و﴿راجعون﴾ قيل: معناه بالموت، وقيل: بالحشر والخروج إلى الحساب والعرض ويقوِّي هذا القول الآية المتقدمة.

قوله تعالى: ﴿ثم يميتكم ثمَّ يحييكم ثمَّ إليه ترجعون﴾ والضمير في ﴿إليه﴾ عائد على الرب تعالى، وقيل: على اللقاء الذي يتضمنه ﴿ملاقو﴾.

قوله عز وجل:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ ﴾.

قد تكرر هذا النداء، والتذكير بالنعمة، وفائدة ذلك أن الخطاب الأول يصح أن يكون للمؤمنين، ويصح أن يكون للكافرين منهم. وهذا المتكرر إنما هو للكافرين بدلالة ما بعده، وأيضاً فإن فيه تقوية التوقيف، وتأكيد الحض على ذكر أيادي الله، وحسن خطابهم بقوله: ﴿فضلتكم على العالمين﴾، لأن تفضيل آبائهم وأسلافهم تفضيل لهم، وفي الكلام اتساع، قال قتادة، وابن زيد، وابن جريج، وغيرهم: المعنى على عالم زمانهم[١] الذي كانت فيه النبوة المتكررة والملك[٢]، لأن الله تعالى يقول لأمة محمد ﷺ: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾[٣].

= فكون (فاعل) من اللقاء من باب عاقبت اللص ضعيف، حيث أن هذه المادة تقتضي الاشتراك كيفما استعملت ومن أي باب كانت.

(١) هذا هو الحق والانصاف، فإن إبراهيم الخليل عليه السلام قبلهم وهو أفضل من أنبيائهم، ومحمد ﷺ بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق، وسيد ولد آدم دنيا وأخرى، وأمته أفضل الأمم، كما صرح بذلك القرآن، فذلك التفضيل يختص بعالم زمانهم، ولكل زمان عالم فهو من العامِّ الذي أريد به الخصوص.

(٢) كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً﴾.

(٣) من الآية (١١٠) من سورة آل عمران.

وقوله عز وجل: ﴿واتقوا يوماً﴾ نصب (يوماً) باتقوا على السعة والتقدير: «عذاب يوم» أو: «هول يوم» ثم حذف ذلك، وأقام اليوم مقامه، ويصح أن يكون نصبه على الظرف لا للتقوى لأن يوم القيامة ليس بيوم عمل، ولكن معناه: «جيئوا متقين يوماً». و[لاتجزي] معناه لا تغني. وقال السدي: معناه لا تقضي. ويقوِّيه قوله ﴿شيئاً﴾[(١)]، وقيل: المعنى لا تكافيء، ويقال جزى وأجزأ بمعنى واحد[(٢)].

وقد فرق بينهما قوم فقالوا: جزى بمعنى قضى وكافأ. وأجزأ بمعنى أغنى وكفى. وقرأ أبو السمال [تجزئ] بضم التاء والهمز، وفي الكلام حذف[(٣)] قال البصريون: التقدير: «لا تجزي فيه»، ثم حذف «فيه»، وقال غيرهم: حذف ضمير متصل بتجزي تقديره: «لا تجزيه»، على أنه يقبح حذف هذا الضمير في الخبر، وإنما يحسن في الصلة. وقال بعض البصريين: التقدير: «لا تجزي فيه»، فحذف حرف الجر واتصل الضمير، ثم حذف الضمير بتدريج.

وقوله تعالى: ﴿ولا يقبل شفاعة﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالتاء، وقرأ الباقون بالياء

---

(١) أي شيئاً من الحقوق.

(٢) قال الفيومي في المصباح: جزى الأمر يجزي جزاء، مثل قضى يقضي قضاء، وزناً ومعنى. وفي الدعاء جزاه الله خيراً: أي قضاه له وأثابه عليه، وقد يستعمل أجزا بالألف والهمز بمعنى جزى ونقلهما الأخفش بمعنى واحد فقال: الثلاثي من غير همز لغة الحجاز والرباعي المهموز لغة تميم، وجازيته بذنبه عاقبته عليه، وجزيت الدين قضيته، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لأبي بردة بن نيار لمَّا أمره أن يضحي بجذعة من المعز: «تجزي عنك، ولن تجزي عن أحد بعدك» قال الأصمعي: أي ولن تقضي، وأجزأت الشاة بالهمز بمعنى قضت لغة حكاها ابن القطاع، وأما أجزأ بالألف والهمز فبمعنى أغنى، قال الأزهري: والفقهاء يقولون أجزى، من غير همز، ولم أجده لأحد من أئمة اللغة ولكن إن همز أجزأ فهو بمعنى كفي. هذا لفظه، وفيه نظر، لأنه إن أراد امتناع التسهيل، فقد توقف في غير موضع التوقف، فإن تسهيل همزة الطرف وتسهيل الهمزة الساكنة قياس، فيقال أرجأت الأمر وأرجيته، وأنسأت وأنسيت، وأخطأت وأخطيت، فالفقهاء جرى على ألسنتهم التخفيف، وإن أراد الامتناع من وقوع أجزأ موقع جزى فقد نقلهما الأخفش لغتين، كيف وقد نص النحاة على أن الفعلين إذا تقارب معناهما جاز وضع أحدهما موضع الآخر، وفي هذا مقنع لو لم يوجد نقل، وأجزأ الشيء مجزأ غيره كفى وأغنى عنه، واجتزأت بالشيء اكتفيت. انتهى باختصار. وقال الشيخ حلولو في شرح جمع الجوامع جزى الثلاثي ـ إن كان بلا همز فمعناه القضاء نحو ﴿ولا تجزي نفسٌ عن نفس شيئاً﴾ أي لا تقضي، وإن كان آخره مهموزاً فمعناه الكفاية. والله أعلم.

(٣) المراد أن جملة «لا تجزي» صفة لما قبلها، والرابط بين الصفة والموصوف محذوف، واختلفوا في هذا المحذوف، وكيفما كان تقديره فالحذف في هذا المقام جائز ومقبول.

من تحت على المعنى، إذ تأنيث الشفاعة ليس بحقيقي، والشفاعة مأخوذة من الشفع وهما الاثنان، لأن الشافع والمشفوع له شفع، وكذلك الشفيع فيما لم يقسم.

وسبب هذه الآية: أن بني إسرائيل قالوا: نحن أبناء الله وأبناء أنبيائه، وسيشفع لنا آباؤنا، فأعلمهم الله تعالى عن يوم القيامة أنه لا تقبل فيه الشفاعة، ولا تجزي نفس عن نفس، وهذا إنما هو في الكافرين ـ للإجماع ـ وتواتر الحديث بالشفاعة في المؤمنين[١].

وقوله تعالى: ﴿ولا يؤخذ منها عدلٌ﴾ قال أبو العالية: العدل الفدية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعدل الشيء هو الذي يساويه قيمة وقدراً، وإن لم يكن في جنسه والعدل بكسر العين هو الذي يساوي الشيء من جنسه وفي جرمه. وحكى الطبري أنَّ من العرب من يكسر العين من معنى الفدية، فأما واحد الأعدال فبالكسر لا غير.

والضمير في قوله: ﴿ولا هم﴾، عائد على الكافرين الذين اقتضتهم الآية، ويحتمل أن يعود على النفسين المتقدم ذكرهما، لأن اثنين جمع[٢]، أو النفس للجنس، وهو جمع.

وحصرت هذه الآية المعاني التي اعتادها بنو آدم في الدنيا، فإن الواقع في شدة مع آدمي لا يتخلص إلا بأن يشفع له، أو ينصر، أو يفتدي.

وقوله تعالى: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾ أي خلَّصناكم، (وآل) أصله أهل، قلبت الهاء ألفاً كما عمل في ماءٍ، ولذلك ردها التصغير إلى الأصل فقيل: أهيلٌ ومويه، وقد قيل في (آل): إنه اسم غير أهل، أصله أول، وتصغيره أويل، وإنما نسب الفعل إلى آل فرعون وهم إنما كانوا يفعلونه بأمره وسلطانه لتوليهم ذلك بأنفسهم، وقال الطبري رحمه الله: ويقتضي هذا أنَّ من أمره ظالم بقتل أحد فقتله المأمور فهو المأخوذ به[٣].

---

(١) أجمع المفسرون على أن المراد بقوله تعالى: ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة﴾ النفس الكافرة لا كل نفس.

(٢) لحديث: «اثنان فما فوق جماعة» وفي «الكوكب الساطع»: وفي أقل الجمع مذهبان: أصحهما ثلاثة لا اثنان».

(٣) أي يقتضي نسبة الله الفعل إلى آل فرعون ـ وهم إنما كانوا يفعلون بأمره ـ أنَّ من أمره ظالم بقتل أحد فقتله المأمور فهو المأخوذ به، أي لأنه مباشر، والآمر متسبب، ولذلك أغرق الله فرعون ومن معه، أي=

وآل الرجل: قرابته وشيعته وأتباعه، ومنه قول أراكة الثقفي[(١)]:

فـلا تبـك ميتـاً بعـد ميـت أَجَنَّـهُ ... علـيٌّ وعبَّـاسٌ وآل أبـي بكـر

يعني المؤمنين الذين قبروا رسول الله ﷺ.

والأشهر في (آل) أن يضاف إلى الأسماء، لا إلى البقاع والبلاد، وقد يقال: آل مكة، وآل المدينة، و(فرعون) اسم لكل من ملك من العمالقة مصر، وفرعون[(٢)] موسى قيل: اسمه مصعب بن الريان، وقال ابن اسحق: اسمه الوليد بن مصعب، وروي أنه كان من أهل إصطخر، ورد مصر فاتفق له فيها الملك، وكان أصل كون بني إسرائيل بمصر نزول إسرائيل بها زمن ابنه يوسف عليهما السلام.

[يسومونكم] معناه: يأخذونكم به، ويلزمونكم إياه، ومنه المساومة بالسلعة، وسامه خطَّة خسف، ويسومونكم إعرابه رفع على الاستئناف. والجملة في موضع نصب على الحال، أي سائمين لكم سوء العذاب[(٣)]، ويجوز ألا تقدر فيه الحال، ويكون وصف حال ماضية، وسوء العذاب أشده، وأصعبه قال السدي كان يصرفهم في الأعمال القذرة، ويذبح الأبناء، ويستحيي النساء. وقال غيره: صرفهم على الأعمال: الحرث، والزراعة، والبناء، وغير ذلك، وكان قومه جنداً ملوكاً.

وقرأ الجمهور: [يذبِّحون] بشد الباء المكسورة على المبالغة، وقرأ ابن محيصن [يذبحون] بالتخفيف، والأول أرجح، إذ الذبح متكرر.

وكان فرعون على ما روي قد رأى في منامه ناراً خرجت من بيت المقدس فأحرقت بيوت مصر، فأولت له رؤياه: أن مولوداً من بني إسرائيل ينشأ فيخرب ملك فرعون على يديه[(٤)]، وقال ابن اسحق، وابن عباس، وغيرهما: إن الكهنة والمنجمين قالوا

= أغرق الآمر والمباشر، وقد اختلف الفكر الإسلامي في هذه المسألة على تفصيل معروف في موضعه، وفقه المالكية لخَّصه صاحب «المختصر» بقوله: «والمتسبب مع المباشر كمكره ومكره».

(١) عندهم أراكة، وابن أراكة، أما أراكة: فهو ابن عبد الله بن سفيان. شاعر محسن وأما ابن أراكة: فهو يزيد بن عمر الأشجعي ـ شاعر خبيث. وأجنه: ستره وأخفاه في التراب.

(٢) أي المذكور هنا.

(٣) عبارة أبي (ح): «يحتمل أن تكون هذه الجملة مستأنفة، وهي حكاية حال ماضية. ويحتمل أن تكون في موضع الحال، أي سائميكم، وهي حال من آل فرعون وهي أوضح وأفصح».

(٤) وقيل: إن سبب سومه بني إسرائيل سوء العذاب من تذبيح أبنائهم على ما روي في التوراة خوفه من=

لفرعون: قد أظلك زمن مولود من بني إسرائيل يخرب ملكك، وقال ابن عباس أيضاً: إن فرعون وقومه تذاكروا وعد الله لإبراهيم أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً، فأمر عند ذلك بذبح الذكور من المولودين في بني إسرائيل، ووكل بكل عشر نساء رجلاً يحفظ من يحمل منهن، وقيل: وكل بذلك القوابل.

وقالت طائفة: معنى يذبحون أبناءكم: يذبحون الرجال، ويسمون أبناءً لمَّا كانوا كذلك[١]، واستدل هذا القائل بقوله تعالى: [نساءكم].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصحيح من التأويل أن الأبناء هم: الأطفال الذكور، والنساء هم: الأطفال الإناث. وعبر عنهم باسم النساء بالمآل[٢] وليذكرهن بالاسم الذي في وقته، يستخدمن ويمتهنَّ، ونفس الاستحياء ليس بعذاب، ولكن العذاب بسببه وقع الاستحياء، و[يذبحون] بدل من [يسومون].

وقوله تعالى: [وفي ذلكم] إشارة إلى جملة الأمر، إذ هو خبر، فهو كمفرد حاضر، و[بلاءٌ] معناه: امتحان واختبار، ويكون البلاء في الخير والشر، وقال قوم: الإشارة بـ[ذلكم] إلى التنجية، فيكون البلاء على هذا في الخير، أي وفي تنجيتكم نعمة من الله عليكم، وقال جمهور الناس: الإشارة إلى الذبح ونحوه، والبلاء هنا في الشر، والمعنى: وفي الذبح مكروه وامتحان.

وحكى الطبري وغيره في كيفية نجاتهم: أن موسى عليه السلام أوحي إليه أن يسري من مصر ببني إسرائيل، فأمرهم موسى أن يستعيروا الحلي والمتاع من القبط، وأحل الله ذلك لبني إسرائيل، فسرى بهم موسى من أول الليل، فأعلم فرعون فقال: لا يتبعهم أحد حتى تيح الديكة، فلم يصح تلك الليلة بمصر ديك حتى أصبح، وأمات الله ـ

= نموهم وكثرتهم، وكانت أرض مصر قد امتلأت منهم بسبب انفساح المجال أمامهم أيام يوسف عليه السلام، ونزولهم في أفضل الأراضي، فتكاثروا، وتناسلوا، حتى خاف منهم المصريون فلما اعتلى الفراعنة ملك مصر ساموهم سوء العذاب، وأمر فرعون بذبح أبنائهم كما قصه الله علينا، وعلى ما في التوراة يكون هذا من الأنظمة الشاذة الجائرة في تحديد النسل وتنفيذه في نوع خاص.

(١) أي أن التسمية مجازية باعتبار ما كان.

(٢) أي باعتبار ما يؤول إليه أمرهن، ولأن استخدامهن وامتهانهن إنما يكون عندما يكن نساء، فعبر عن البنات بالنساء لما ذكر، واستحياؤهن ليس بعذاب، ولكنه يؤول إلى العذاب، أي إلى إرهاقهن في أعمال شاقة.

تلك الليلة ـ كثيراً من أبناء القبط، فاشتغلوا في الدفن، وخرجوا في الاتباع مشرِّقين، وذهب موسى إلى ناحية البحر حتى بلغه، وكانت عدة بني إسرائيل نيفاً على ستمائة ألف، وكان عدة فرعون[١] ألف ألف ومائتي ألف. وحكي غير هذا مما اختصرته لقلَّة ثبوته، فلما لحق فرعون موسى ظن بنو إسرائيل أنهم غير ناجين، فقال يوشع بن نون لموسى: أين أمرت؟ فقال: هكذا، وأشار إلى البحر، فركض يوشع فرسه فيه حتى بلغ الغمر ثم رجع، فقال لموسى: أين أمرت فوالله ما كذبت ولا كُذِّبت؟ فأشار إلى البحر، وأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر، وأوحى إلى البحر أن انفرق لموسى إذا ضربك، فبات البحر تلك الليلة يضطرب، فحين أصبح ضرب موسى البحر وكناه أبا خالد، فانفرق، وكان ذلك في يوم عاشوراء[٢].

قوله عز وجل:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

[فرقنا] معناه: جعلناه[٣] فرقاً، وقرأ الزهري: [فرَّقنا] بتشديد الراء، ومعنى [بكم]

---

(١) أي عدة أتباع فرعون.

(٢) ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم رسول الله ﷺ المدينة، فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: ما هذا اليوم؟ قالوا: هذا يوم صالح، نجَّى الله فيه بني إسرائيل من عدوهم. فصامه موسى، فقال رسول الله ﷺ: نحن أحق بموسى منكم، فصامه، وأمر بصومه اهـ. ففي يوم عاشوراء وقع إنجاء بني إسرائيل وإغراق فرعون وأتباعه.

(٣) أي: فصلنا بين بعضه وبعض حتى صارت فيه طرق ومسالك على عدد الأسباط الإسرائيلية. وكان ذلك بعصا [موسى] كما يشهد بذلك قوله تعالى: [أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كلُّ فرق كالطود العظيم] وهذا أصح وأقوى مما بعده. وقال في المصباح: «فرقت بين الشيء فرقاً من باب قتَل فصلت أبعاضه، وفرقت بين الحق والباطل فصلت أيضاً، هذه هي اللغة العالية وبها قرأ السبعة قوله تعالى: [فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين]، وفي لغة من باب ضرب، وقرأ بها بعض التابعين وقال ابن الأعرابي: فرقت بين الكلامين فافترقا مخفف، وفرَّقت بين العبدين فتفرقا مثقل، فجعل المخفف في المعاني والمثقل في الأعيان، والذي حكاه غيره أنهما بمعنى واحد، والتثقيل مبالغة». ثم قال: «والفرقة بالكسر من الناس وغيرهم، والجمع فرقٌ مثل سدرة وسدر، والفرق بحذف الهاء مثل الفرقة، وفي التنزيل: [فكان كلّ فرق كالطود العظيم] والجمع أفراق مثل حمل وأحمال، والفريق كذلك.

بسببكم، وقيل: لمَّا كانوا بين الفرق وقت جوازهم فكأنه بهم فرق، وقيل: معناه لكم، والباء عوض اللام، وهذا ضعيف.

و[البحر] هو بحر القلزم، ولم يفرق البحر عرضاً جزعاً[١] من ضفة إلى ضفة، وإنما فرق من موضع إلى موضع آخر في ضفة واحدة، وكان ذلك الفرق بقرب موضع النجاة، ولا يلحق في البر إلا في أيام كثيرة بسبب جبال وأوعار حائلة. وذكر العامري أن موضع خروجهم من البحر كان قريباً من برية فلسطين وهي كانت طريقهم.

وقيل: انفلق البحر عرضاً، وانفرق البحر على اثني عشر طريقاً، طريق لكل سبط، فلما دخلوها قالت كل طائفة: غرق أصحابنا، وجزعوا، فقال موسى: اللهم أعني على أخلاقهم السيئة، فأوحى الله إليه أن أدر عصاك على البحر، فأدارها فصار في الماء فتوح كالطاق يرى بعضهم بعضاً وجازوا، وجبريل ﷺ في ساقتهم على ماذيانة[٢] يحث بني إسرائيل ويقول لآل فرعون: مهلا حتى يلحق آخركم أولكم، فلما وصل فرعون إلى البحر أراد الدخول فنفر فرسه، فتعرض له جبريل بالرَّمكة[٣] فاتبعها الفرس، ودخل آل فرعون وميكائيل يحثهم، فلما لم يبق إلا ميكائيل في ساقتهم على الضفة وحده انطبق البحر عليهم فغرقوا.

و[تنظرون] قيل: معناه بأبصاركم لقرب بعضهم من بعض، وقيل: معناه ببصائركم للاعتبار، لأنهم كانوا في شغل عن الوقوف، والنظر بالأبصار، وقيل: إن آل فرعون طفوا على الماء فنظروا إليهم، وقيل: المعنى وأنتم بحال من ينظر لو نظر، كما تقول: هذا الأمر منك بمرأى ومسمع، أي بحال تراه وتسمعه إن شئت.

قال الطبري رحمه الله: وفي إخبار القرآن على لسان محمد ﷺ بهذه المغيَّبات التي لم تكن من علم العرب، ولا وقعت إلا في خفي[٤] على بني إسرائيل دليلٌ واضح عند بني إسرائيل، وقائم عليهم بنبوة محمد ﷺ. وقرأ الجمهور: [واعدنا]، وقرأ أبو عمرو

---

(١) يقال: جزعت الوادي جزعاً من باب نفع: قطعته إلى الجانب الآخر، والمراد أن الفرق كان طولا لا عرضاً.

(٢) لعلها الرَّمكة المذكورة بعد. وفي القاموس: والماذيانات ـ وتفتح ذالها ـ: مسايل الماء، أو ما ينبت على حافتي مسيل الماء، أو ما ينبت حول السواقي ـ ويقال: أمذى الفرس: أرسله يرعى في الماذيانات.

(٣) الرَّمكة: الأنثى من البراذين، والجمع رماك ورمكات وأرماك أيضاً.

(٤) وفي بعض النسخ: إلا في حقّ بني إسرائيل.

[وعدنا]، ورجحه أبو عبيد، وقال: إنَّ المواعدة لا تكون إلا من البشر(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس هذا بصحيح لأن قبول موسى لوعد الله والتزامه وارتقابه يشبه المواعدة(٢).

و﴿موسى﴾ اسم أعجمي لا ينصرف للعجمة والتعريف، والقبط على ما يُرْوىٰ يقولون للماء: مو، وللشجر: سا، فلما وجد (موسى) في التابوت عند ماء وشجر سمي موسى.

قال ابن إسحق: هو موسى، بن عمران، بن يصهر، بن قاهت، بن لاوي، ابن يعقوب، بن إسحق، بن إبراهيم الخليل.

ونصب ﴿أربعين﴾ على المفعول الثاني، ولا يجوز نصبها على الظرف في هذا الموضع، وهي فيما روي ذو القعدة وعشر ذي الحجة. وخصَّ الليالي بالذكر دون الأيام، إذ الليلة أقدم من اليوم، وقبله في الرتبة ولذلك وقع بها التاريخ(٣).

قال النقاش: وفي ذلك إشارة إلى صلة الصوم، لأنه لو ذكر الأيام لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل، فلما نص على الليالي اقتضت قوة الكلام أنه عليه السلام واصل أربعين ليلة بأيامها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: حدثني أبي رضي الله عنه، قال: سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضل الجوهري رحمه الله يعظ الناس بهذا المعنى في الخلوة

---

(١) وأما من الله فإنما هو التفرد بالوعد، وعلى هذا جاء سياق القرآن، كقوله تعالى: ﴿وعدكم وعد الحق﴾. وكقوله تعالى: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين﴾، وقد وافق أبا عبيد على هذا أبو حاتم ومكي، وإنما اتفقوا على ذلك نظراً إلى أصل المفاعلة وأنها تفيد الاشتراك في الفعل، وتكون من كل واحد من المتواعدين ونحوهما.

(٢) **ردّ لما قاله أبو عبيد، وحاصله: أن المفاعلة قد تأتي لواحد وهو كثير في كلام العرب كقولهم: داويت العليل، وعاقبت اللص، وطارقت النعل، وقد تكون هنا من اثنين بمعنى أن الله وعد موسى الوحي، وموسى وعد الله المجيء للميقات، أو يكون الوعد من الله، وقبوله كان من موسى. والقبول يشبه الوعد. ـ وقراءة الألف هي قراءة الأكثر، ولا وجه لترجيح قراءة البصري على غيرها لأن كلاً منهما متواتر، فهما في الصحة سواء، وقد سبق تخريجها على وجه صحيح مقبول، ولا غضاضة في كون الآدمي يعد الله تعالى، بمعنى أنه يعاهده ويلتزم أمره.**

(٣) قال في الكافية:

وراع فـــي تـــاريخـــك الليـــالـــي ... لسبقهـــا بليلـــة الهـــلال

بالله، والدنو منه في الصلاة ونحوه، وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب، ويقول: أين حال موسى في القرب من الله، ووصال ثمانين من الدهر من قوله ـ حين سار إلى الخضر ـ لفتاه في بعض يوم: [آتنا غداءنا]؟[(١)].

وكلُّ المفسرين على أن الأربعين كلَّها ميعاد. وقال بعض البصريين: وعده رأس الأربعين ليلة، وهذا ضعيف. وقوله: [ثمَّ اتخذتم]، قرأ أكثر السبعة بالإدغام، وقرأ ابن كثير، وعاصم في رواية حفص عنه بإظهار الذال. وثمَّ للمهلة، ولتدل على أن الاتخاذ بعد المواعدة. واتَّخذ وزنه افتعل من الأخذ، قال أبو علي: هو من [تخذ] لا من [أخذ][(٢)]، وأنشد الممزق:

وقد تخذت رجلي لدى جنب غرزها نسيفاً كأُفحوص القطاة المطرِّق[(٣)]

ونصب [العجل] باتخذتم، والمفعول الثاني محذوف: اتخذتم العجل إلهاً، واتخذ قد يتعدى إلى مفعول واحد، كقوله تعالى: ﴿يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾[(٤)]، وقد يتعدى إلى مفعولين أحدهما هو الآخر في المعنى، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾[(٥)]، وكهذه الآية وغيرها، والضمير في [بعده] يعود على موسى، وقيل: على انطلاقه للتكليم، إذ المواعدة تقتضيه، وقيل: على الوعد.

---

(١) معناه أن موسى عليه السلام مشى أربعين يوماً لمناجاة ربه، ولم يحتج فيها إلى طعام، ولما مشى إلى بشر لحقه الجوع. فقال: [آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا]، والإشارة في ذلك أنه كان طالب علم، وطالب العلم من شأنه أن يحتمل كل مشقة، ولا يبالي بصيف ولا شتاء، ولا ذل ولا جوع، ومن هذه القضية أخذ علماء الصوفية الوصال، وأن أفضله أربعون يوماً، قلنا: ويأتي عند ابن عطية في سورة الكهف أن والده حدثه عن أبي الفضل الجوهري الواعظ بمصر أنه قال في مجلس وعظه: من صحب أهل الخير عادت عليه بركتهم، هذا كلبٌ صحب قوماً صالحين فكان من بركتهم عليه أن ذكره الله في القرآن ولا يزال يتلى على الألسنة أبداً، ولذلك قيل: من جالس الذاكرين انتبه من غفلته، ومن خدم الصالحين ارتفع بخدمته.

(٢) مسألة (اتخذ) عند أبي علي الفارسي مخرَّجة على أن التاء الأولى أصلية إذ قالت العرب (تخذ) بمعنى (أخذ)، كما في بيت الممزق العبدي، وقد حصَّل أبو (ح) في المسألة أقوالا أربعة. انظره في البحر المحيط.

(٣) النسيف: أثر الكدم وأثر ركض الرجل بجنبي البعير ـ والأفحوص: مجثم القطاة لأنها تفحصه قبل أن تبيض فيه. ويقال: طرَّقت القطاة إذا حان خروج بيضها.

(٤) من الآية (٢٧) من سورة الفرقان.

(٥) من الآية (١٦) من سورة المجادلة.

وقصص هذه الآية: أن موسى ﷺ لما خرج ببني إسرائيل من مصر قال لهم: إن الله تعالى سينجيكم من آل فرعون، وينيلكم حليهم ومتاعهم الذي كان أمرهم باستعارته، وروي أنهم استعاروه برأيهم[١] فنفلهم الله ذلك بعد خروجهم، وقال لهم موسى عن الله تعالى: إنه ينزل عليَّ كتاباً فيه التحليل والتحريم والهدى لكم، فلما جازوا البحر طالبوا موسى بما قال لهم من أمر الكتاب، فخرج لميعاد ربه وحده، وقد أعلمهم بالأربعين ليلة، فعدوا عشرين يوماً بعشرين ليلة، ثم قالوا: هذه أربعون من الدهر، وقد أخلفنا الموعد، وبدأ تعنتهم وخلافهم، وكان السامري رجلا من بني إسرائيل يسمَّى موسى بن ظفر، وقيل: لم يكن من بني إسرائيل، كان غريباً فيهم، وكان قد عرف جبريل عليه السلام وقت عبرهم البحر، فقالت طائفة: أنكر هيئته فعرف أنه ملك. وقالت طائفة: كانت أم السامري ولدته عام الذبح[٢] فجعلته في غار وأطبقت عليه، فكان جبريل ﷺ يغذوه بأصابع نفسه، فيجد في إصبع لبنا، وفي إصبع عسلا، وفي إصبع سمنا، فلما رآه وقت جواز البحر عرفه فأخذ من تحت حافر فرسه قبضة تراب وألقي في روعه أنه لن يلقيها على شيء ويقول له: كن إلا كان، فلما خرج موسى لميعاده، قال هارون لبني إسرائيل: إن ذلك الحلي والمتاع الذي استعرتم من القبط لا يحل لكم، فجيئوا به حتى تأكله النار التي كانت العادة أن تنزل على القرابين، وقيل: بل أوقد لهم ناراً، وأمرهم بطرح جميع ذلك فيها، فجعلوا يطرحون، وقيل: بل أمرهم أن يضعوه في حفرة دون نار حتى يجيء موسى، وجاء السامري فطرح القبضة وقال[٣]: كن عجلا.

وقيل: إن السامري كان في أصله من قوم يعبدون البقر، وكان يعجبه ذلك[٤]، وقيل: بل كانت بنو إسرائيل قد مرت مع موسى على قوم يعبدون البقر: فقالوا يا موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، فوعاها السامري، وعلم أن من تلك الجهة يفتنون، ففتنت بنو إسرائيل بالعجل، وظلت منهم طائفة يعبدونه، فاعتزلهم هارون بمن تبعه، فجاء موسى من ميعاده فغضب حسبما يأتي قصصه في موضعه من القرآن إن

---

(١) هذا هو الأشبه بموسى عليه السلام، ويعضده ما جاء في سورة (طه)، حين قالوا: [لكنّا حملنا أوزاراً من زينة القوم] فظاهره أنهم أعلموه بما لم يتقدم له به علم، أشار إليه (خ).

(٢) أي العام الذي أمر فيه فرعون بذبح أبناء إسرائيل.

(٣) أي للحلي الذي ألقي في الحفرة، كن عجلا فكان عجلا من ذهب.

(٤) إشارة إلى بيان وجه اختيار العجل دون غيره من الحيوانات.

شاء الله، ثم أوحى الله إليه أنه لن يتوب على بني إسرائيل حتى يقتلوا أنفسهم ففعلت بنو إسرائيل ذلك.

فروي أنهم لبسوا السلاح، من عبد منهم ومن لم يعبد[١]، وألقى الله عليهم الظلام فقتل بعضهم بعضاً، يقتل الأب ابنه والأخ أخاه، فلما استحر فيهم القتل وبلغ سبعين ألفا عفا الله عنهم، وجعل من مات منهم شهيداً، وتاب على البقية، فذلك قوله ﴿ثمَّ عفونا عنكم﴾.

وقال بعض المفسرين: وقف الذين عبدوا العجل صفاً، ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم. وقالت طائفة: جلس الذين عبدوا بالأفنية، وخرج يوشع بن نون ينادي: ملعون من حل حبوته وجعل الذين لم يعبدوا يقتلونهم، وموسى في خلال ذلك يدعو لقومه، ويرغب في العفو عنهم، وإنما عوقب الذين لم يعبدوا بقتل أنفسهم على أحد الأقوال، أو بقتل قرابتهم على الأقوال الأخر لأنهم لم يغيروا المنكر حين عبد العجل، وإنما اعتزلوا، وكان الواجب عليهم أن يقاتلوا من عبده.

﴿وأنتم ظالمون﴾، مبتدأ وخبر في موضع الحال، وقد تقدم تفسير الظلم[٢].

والعفو تغطية الأثر، وإذهاب الحال الأولى من الذنب أو غيره، ولا يستعمل العفو بمعنى الصفح إلا في الذنب، وعفا عنهم عزَّ وجل، أي عمَّن بقي منهم لم يقتل. و[لعلكم]، ترجٍّ لهم في حقهم، وتوقُّع منهم، لا في حق الله عز وجل، لأنه كان يعلم ما يكون منهم.

وقوله تعالى: ﴿وإذ آتينا موسى﴾ الآية، [إذ] عطف على ما ذكر من النعم، و﴿الكتاب﴾ هو التوراة بإجماع من المتأولين، واختلف في ﴿الفرقان﴾ هنا ـ فقال الزجاج وغيره: هو التوراة كرر المعنى لاختلاف اللفظ، ولأنه زاد معنى التفرقة بين الحق والباطل، ولفظة الكتاب لا تعطي ذلك[٣]. وقال آخرون: الكتاب التوراة، والفرقان سائر الآيات التي أوتي موسى ﷺ، لأنها فرقت بين الحق والباطل. وقال آخرون:

---

(١) أي: من عبد العجل، ومن لم يعبده.

(٢) في تفسير: ﴿فتكونا من الظالمين﴾.

(٣) هذا هو الحق الظاهر لقوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين﴾. وما قاله ابن زيد ضعيف، لأن فرق البحر سبق في قوله تعالى: ﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ الآية.

الفرقان النصر الذي فرق بين حالهم وحال آل فرعون بالنجاة والغرق، وقال ابن زيد: الفرقان انفراق البحر له، حتى صار فرقاً، وقال الفراء وقطرب: معنى هذه الآية آتينا موسى الكتاب، ومحمداً الفرقان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف(١).

﴿ولعلكم تهتدون﴾ ترجٍ وتوقعٌ مثل الأول(٢)

قوله عز وجل:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

هذا القول من موسى ﷺ كان بأمر من الله تعالى، وحذف الياء في (يا قومي) لأن النداء موضع حذف وتخفيف، والضمير في ﴿اتِّخاذِكُم﴾ في موضع خفض على اللفظ، وفي موضع رفع بالمعنى، و﴿العِجْلَ﴾ لفظة عربية اسم لولد البقرة، وقال قوم: سمي عجلاً لأنه استعجل قبل مجيء موسى عليه السلام، وليس هذا القول بشيء(٣)، واختلف هل بقي العجل من ذهب؟، فقال ذلك الجمهور، وقال الحسن بن أبي الحسن: صار لحماً ودماً، والأول أصح. وتوبوا: معناه: ارجعوا عن المعصية إلى الطاعة. وقرأ الجمهور ﴿بارِئِكُمْ﴾ بإظهار الهمزة وكسرها، وقرأ أبو عمرو [بارِئْكُمْ] بإسكان الهمزة. وروي عن سيبويه اختلاس الحركة وهو أحسن، وهذا التسكين يحسن في توالي الحركات، وقال المبرد: لا يجوز التسكين مع توالي الحركات في حرف الإعراب، وقراءة أبي عمرو ﴿بارِئْكم﴾ لحن(٤).

---

(١) أي لأنه لا دليل على المحذوف، ولأن الأصل في العطف المشاركة في الحكم إذا كان العطف بالحروف المشاركة، ولأن الفرقان لا يختص بالقرآن.

(٢) المقرر عند النحاة أنه إن كان متعلق لعل محبوباً، كانت للترجي، وإن كان مكروهاً كانت للتوقع، والشكر والهداية هنا من الأمور المحبوبة، فينبغي أن يعبر هنا بالترجي. قاله أبو(ح). «البحر المحيط» ١/ ٢٠٣.

(٣) لأن العرب تطلق هذا الاسم على ولد البقر.

(٤) تلحين أبي العباس لأبي عمرو البصري لا يلتفت إليه، لأن أبا عمرو لم يقرأ إلا بما ثبت عن النبي ﷺ، ولأن لغة العرب توافقه، وقد جلب ابن عطية رحمه الله ما يكفي من الشواهد، فإنكار المبرد لها هو المنكر، لا أن الذين اعترضوا على المبرد خلطوا ما حركته إعراب بما حركته بناء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد روي عن العرب التسكين في حرف الإعراب، قال الشاعر:

إذا اعْوَجَجْنَ قُلْتُ صاحبْ قَوِّم[(١)] . . . .

وقال امرؤ القيس:

فـاليـومَ أشربْ غَيْـرَ مُسْتحقِـبٍ إثمـاً مـنَ اللهِ ولا واغـل[(٢)]

وقال آخر:

قالت سليمى: اشتر لنا سويقا[(٣)] . . . .

وقال الآخر:

. . . . وَقَـدْ بَـدَا هَنْـكِ مـنَ المِئْـزَرِ[(٤)]

وقال جرير:

. . . . ونهرُ تِيرَى وما تَعْرِفْكُمُ العربُ[(٥)]

وقال وضاح اليمن[(٦)]:

إنمـا شعـري شَهْـدٌ قـد خُلِـط بجُلْجُـلان

ومن أنكر التسكين في حرف الإعراب فحجته أن ذلك لايجوز من حيث كان علما

---

(١) تمامه: بالدَّوِّ أمثال السَّفين العوّم.

(٢) كان قد حرم على نفسه شرب الخمر حتى يأخذ الثأر، وبعد أن أخذه أصبح الخمر مباحاً في زعمه فقال: فاليوم أشرب الخ. وأشرب فعل معرب، وقد سكّن آخره. وقد جاء في اللسان: واحتقب فلان الإثم كأنه جمعه واحتقبه من خلفه، واحتقبه واستحقبه بمعنى، أي احتمله، والواغل هنا هو الذي يدخل على القوم في طعامهم وشرابهم من غير أن يدعوه.

(٣) **تمامه: وهات خبْز البرِّ أو دقيقا. ينسب هذا البيت للعُذافر الكندي، وهو من مشطور الرَّجز. انظر شرح الشافية لابن الحاجب. وفي رواية (وهات برَّ البخس أو دقيقا) والبخس الذي يزرع بماء السماء.**

(٤) أوله: «رحت وفي رجليك ما فيهما»، وهو للأقيشر الأسدي كما في خزانة الأدب.

(٥) أوله:

سيـروا بنـي العـمِّ فـالأهـواز منـزلكـم . . . .

قال في القاموس: ونهر تيرى، كضيزى، بالأهواز.

(٦) من مشاهير شعراء الغزل، تشبب بأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك، فأمر الوليد بدفنه حياً. واسمه عبد الرحمن بن إسماعيل، سمي بالوضاح لجماله.

للإعراب. قال أبو علي؟: وأما حركة البناء فلم يختلف النحاة في جواز تسكينها مع توالي الحركات.

وقرأ الزهري: باريكم بكسر الياء من غير همز[1] ورويت عن نافع، وقرأ قتادة: ﴿فأقيلوا أنفسكم﴾، وقال: هي من الاستقالة. قال أبو الفتح: اقتال هذه افتعل، يحتمل أن يكون عينها واوا، كاقتاد، ويحتمل أن يكون ياءً كاقتاس[2].

والتصريف يضعف أن يكون من الاستقالة، ولكن قتادة رحمه الله ينبغي أن يحسن الظن به في أنه لم يورد ذلك إلا بحجة عنده.

وقوله تعالى: ﴿فتاب عليكم﴾، قبله محذوف تقديره: ففعلتم، وقوله: ﴿عليكم﴾، معناه: على الباقين، وجعل الله تعالى القتل لمن قتل شهادة، وتاب على الباقين، وعفا عنهم. قال بعض الناس ﴿فاقتلوا﴾ في هذه الآية معناه بالتوبة، وإماتة عوارض النفوس من شهوة وتعنُّت وغضب[3]، واحتج بقوله عليه السلام في الثوم والبصل: «فلتمتهما طبخاً».

وبقول حسان:

. . . . قُتِلَـتَ قُتِلْـتَ فهَـاتِها لَـمْ تُقْتَـلِ[4]

وقوله تعالى: ﴿وإذ قُلْتُم يا موسى﴾، يريد السبعين الذين اختارهم موسى، واختلف

(١) هذه القراءة لها تخريجان وكلاهما شاذ، انظر أبا(ح). «البحر المحيط» ١/٢٠٧.

(٢) عبارة أبي (ح): «وقرأ قتادة فيما نقل المهدوي وابن عطية والتبريزي وغيرهم: [فأقيلوا أنفسكم]، وقال الثعلبي: قرأ قتادة: «فاقتالوا أنفسكم»، فأما فأقيلوا فهو أمر من الإقالة، وكأن المعنى إن أنفسكم قد تورطت في عذاب الله بهذا الفعل العظيم الذي تعاطيتموه من عبادة العجل، وقد هلكت، فأقيلوها بالتوبة، والتزام الطاعة، وأزيلوا آثار تلك المعاصي بإظهار الطاعات، وأما فاقتالوا أنفسكم، فقالوا: هو افتعل بمعنى استفعل، أي فاستقيلوها، والمشهور استقال لا اقتال، قال ابن جني: يحتمل أن يكون عينها واواً كاقتاد، ويحتمل أن يكون ياء كاقتاس» اهـ.

(٣) في القول الأول: القتل حقيقي بمعنى إزهاق الروح، وفي القول الثاني: القتل معنوي بمعنى إماتة الأهواء والشهوات، والأول هو الظاهر، وقال به أكثر الناس، وهناك من يقول: فاقتلوا أنفسكم، أي استسلموا لمن يقتلكم، وقد حكي أنَّ الذين لم يعبدوا العجل قتلوا الذين عبدوه صبراً واستسلاماً. فتكون الآراء في القتل ثلاثة، والأول هو الظاهر.

(٤) نص البيت كله:

إن التـي نـاولتَنـي فـرَدَدْتُها قُتِلَـتَ قُتِلْـتَ فهـاتها لَـمْ تُقْتَـلِ

في وقت اختيارهم، فحكى أكثر المفسرين أن ذلك بعد عبادة العجل، اختارهم ليستغفروا لبني إسرائيل. وحكى النقاش وغيره أنه اختارهم حين خرج من البحر، وطلب بالميعاد، والأول أصح.

وقصة السبعين أن موسى ﷺ لمَّا رجع من تكليم الله، ووجد العجل قد عبد، قالت له طائفة ممن لم يعبد العجل: نحن لم نكفر، ونحن أصحابك، ولكن أسمعنا كلام ربك، فأوحى الله إليه أن اختر منهم سبعين شيخاً، فلم يجد إلا ستين، فأوحى الله إليه أن اختر من الشباب عشرة، ففعل، فأصبحوا شيوخاً، وكان قد اختار ستة من كل سبط، فزادوا اثنين على السبعين، فتشاحوا فيمن يتأخر، فأوحى الله إليه أن من تأخر له أجر مثل من مضى، فتأخر يوشع بن نون، وطالوت بن يوفنا، وذهب موسى عليه السلام بالسبعين بعد أن أمرهم أن يتجنبوا النساء ثلاثاً ويغتسلوا في اليوم الثالث، واستخلف هارون على قومه، ومضى حتى أتى الجبل فألقي عليهم الغمام. قال النقاش وغيره: غشيتهم سحابة، وحيل بينهم وبين موسى بالنور فوقعوا سجوداً. قال السدي وغيره: وسمعوا كلام الله يأمر وينهى فلم يطيقوا سماعه، واختلطت أذهانهم، ورغبوا أن يكون موسى يسمع ويعبر لهم ففعل، فلما فرغ وخرجوا بدَّلتْ منهم طائفة ما سمعت من كلام الله، فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾[1].

واضطرب إيمانهم، وامتحنهم الله بذلك، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[2] ولم يطلبوا من الرؤية محالا، أما إنه عند أهل السُّنَّة ممتنع في الدنيا من طريق السمع ـ فأخذتهم حينئذ الصاعقة فاحترقوا وماتوا موت همود يعتبر به الغير. وقال قتادة: ماتوا وذهبت أرواحهم، ثم ردوا لاستيفاء آجالهم، فحين حصلوا في ذلك

(١) من الآية (٧٥) من سورة البقرة.

(٢) من سورة البقرة الآية: (٥٥). ومعنى «لن نؤمن لك» أي فيما جئت به من التوراة، وإلا فهم مؤمنون بموسى، يقال: آمن به وآمن له، أي أقرَّ واعترف بما جاء به من أمر خاص.

وقد اختلف الناس في جواز رؤية الله تعالى، فمنهم من أنكر ذلك في الدنيا والآخرة، ومنهم من أجازها فيهما معاً، إلا أنها لا تقع في الدنيا وتقع في الآخرة، ودليل جوازها طلب موسى عليه السلام لها، وهو لايطلب المحال، ودليل عدم وقوعها منعها وعدم الإجابة إليها ودليل وقوعها في الآخرة قوله تعالى: [وجوهٌ يومئذ ناضرة، إلى ربِّها ناظرة] وقد تكلف المعتزلة فأولوا المعنى إلى النعمة، والله الهادي إلى سواء السبيل.

الهمود جعل موسى يناشد ربه فيهم ويقول: أي ربِّ. كيف أرجع إلى بني إسرائيل دونهم فيهلكون ولا يؤمنون بي أبداً، وقد خرجوا معي وهم الأخيار؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يعني: وهم بحال الخير وقت الخروج[1] وقال قوم: بل ظن موسى عليه السلام أن السبعين إنما عوقبوا بسبب عبادة العجل، فذلك قوله: ﴿أتهلكنا﴾، يعني السبعين ﴿بما فعل السُّفهاء منا﴾؟ يعني عبدة العجل وقال ابن فورك: يحتمل أن تكون معاقبة السبعين لإخراجهم طلب الرؤية عن طريقه بقولهم لموسى: أرنا، وليس ذلك من مقدور موسى ﷺ.

و﴿جهرةً﴾ مصدر في موضع الحال، والأظهر أنها من الضمير في ﴿نرى﴾، وقيل: من الضمير في ﴿نؤمن﴾، وقيل: من الضمير في ﴿قلتم﴾[2]. والجهرة العلانية ومنه: الجهر ضد السر، وجهر الرجل الأمر كشفه.

وقرأ سهل بن شعيب، وحميد بن قيس: [جهَرَة] بفتح الهاء، وهي لغة مسموعة عند البصريين فيما فيه حرف الحلق ساكنا قد انفتح ما قبله، والكوفيون يجيزون فيه الفتح، وإن لم يسمعوه، ويحتمل أن يكون [جهرة] جمع جاهر، أيْ حتى نرى الله كاشفين هذا الأمر[3]، وقرأ عمر، وعلي رضي الله عنهما: [فأخذتكم الصَّعقة]، ومضى في صدر السورة معنى الصاعقة، والصعقة ما يحدث بالإنسان عن الصاعقة. و﴿تنظرون﴾ معناه: إلى حالكم[4].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: حتى أحالهم العذاب وأزال نظرهم.

قوله عز وجل:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

---

(١) وأما بعده فقد اضطرب إيمانهم، وذهب خيرهم، ولذلك أخذتهم الصاعقة.

(٢) وعليه فالتقدير: وإذ قلتم جهرة يا موسى، فيكون في الكلام تقديم وتأخير.

(٣) أي غير مستتر بشيء، ليقع الفرق بين الرؤية البصرية، والرؤيا المنامية، والعلم القلبي.

(٤) أي إلى ما حل بكم من الموت، وآثار الصعقة. ومدة الموت أو الصعقة كانت يوماً وليلة كما قيل.

أجاب الله تعالى فيهم رغبة موسى عليه السلام، وأحياهم من ذلك الهمود[(١)] أو الموت ليستوفوا آجالهم، وتاب عليهم، والبعث هنا الإثارة، كما قال: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۗ﴾[(٢)] وقال قوم: إنهم لمَّا أحيوا وأنعم عليهم بالتوبة سألوا موسى عليه السلام أن يجعلهم الله أنبياءَ، فذلك قوله: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾، أي أنبياء[(٣)] ﴿لعلكم تشكرون﴾، أي على هذه النعمة. والترجِّي إنما هو في حق البشر. ونزلت الألواح بالتوراة على موسى في تلك المدة، وهذا قول جماعة. وقال آخرون: إن الألواح نزلت في ذهابه الأول وحده.

وذكر المفسرون في تظليل الغمام، أن بني إسرائيل لما كان من أمرهم ما كان من القتل، وبقي منهم من بقي حصلوا في فحص التيه[(٤)] بين مصر والشام، فأمروا بقتال الجبارين فعصوا، وقالوا: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾[(٥)] فدعا موسى عليهم فعوقبوا بالبقاء في ذلك الفحص أربعين سنة يتيهون في مقدار خمسة فراسخ أو ستة. روي أنهم كانوا يمشون النهار كله وينزلون للمبيت، فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس، فندم موسى عليه السلام على دعائه عليهم، فقيل له: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[(٦)] وروي أنهم ماتوا بأجمعهم في فحص التيه، ونشأ بنوهم على خير طاعة، فهم الذين خرجوا من فحص التيه، وقاتلوا الجبارين. وإذ كان جميعهم في التيه قالوا لموسى: من لنا بالطعام؟ قال: الله . فأنزل الله عليهم المنَّ والسلوى، قالوا: من لنا من حر الشمس؟ فظلل عليهم الغمام. قالوا: بم نستصبح بالليل؟ فضرب لهم عمود نور في وسط

---

(١) الصاعقة التي أخذتهم إمَّا أنَّهم ماتوا بسببها، وإمَّا أنهم أصيبوا بغشية من شدة وقعها، والذي يظهر من قوله تعالى: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ هو الأول، وعليه فإن موسى عليه الصلاة والسلام لم يمت، وإنما غشي عليه بدليل قوله تعالى: ﴿فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾، ولا يقال: يبعد ذلك قوله تعالى: ﴿وأنتم تنظرون﴾ لأن المراد نظر الأسباب المؤثرة للموت.

(٢) من الآية (٥٢) من سورة يس.

(٣) هذا بعيد أولاً إذ لا دليل عليه، وغريب ثانياً إذ لايعرف في زمان موسى نبيٌّ سوى هارون ويوشع بن نون.

(٤) الفحص: كل موضع في الأرض يسكن، الجمع فحوص، والتيه بالفتح والكسر: جمعه أتياه، والتيه بالكسر لا غير: الصلف والتكبر.

(٥) من الآية (٢٤) من سورة المائدة.

(٦) من الآية (٢٦) من سورة المائدة.

محلتهم. وذكر مكي عمود نار. قال: من لنا بالماء؟، فأمر موسى بضرب الحجر، قالوا: من لنا باللباس؟ فأعطوا ألا يبلى لهم ثوب، ولا يخلق ولا يدرن، وأن تنمو صغارها حسب نمو الصبيان.

ومعنى ﴿ظللنا﴾ جعلناه ظللا. و﴿الغمام﴾ السحاب، لأنه يغم وجه السماء أي يستره. وقال مجاهد: هو أبرد من السحاب وأرقى وأصفى، وهو الذي يأتي الله فيه يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يأتي أمره وسلطانه وقضاؤه، وقيل: الغمام ما ابيض من السحاب، والمنُّ صمغة حلوة، هذا قول فرقة، وقيل: هو: عسل. وقيل: شراب حلو، وقيل: الذي ينزل اليوم على الشجر[١].

وقيل: المنُّ خبز الرقاق مثل النَّقيِّ[٢]، وقيل: الزَّنجبين[٣]، وقيل: الزَّنجبيل، وفي بعض الأقوال بعد. وقيل: المنُّ مصدر يعني به جميع ما منَّ الله به مجملاً. وقال النبي ﷺ في كتاب مسلم: «الكمأة» ممَّا منَّ الله به على نبي إسرائيل، وماؤها شفاء للعين» فقيل: أراد عليه السلام أن الكمأة نفسها ممَّا أنزل نوعها على بني إسرائيل، وقيل: أراد أنه لاتعب في الكمأة ولا جذاذ ولا حصاد، فهي منَّة دون تكلف من جنس مَنِّ بني إسرائيل في أنه كان دون تكلف[٤].

وروي أن المنَّ كان ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس كالثَّلج[٥] فيأخذ منه الرجل ما يكفيه ليومه، فإن ادخر فسد عليه[٦] إلا في يوم الجمعة فإنهم كانوا

---

(١) لا يخرج المن عن كونه طعاماً أو شراباً، وهو ما من الله به عليهم من النعمة التي ليس لهم فيها عمل ولا كسب، لا بالتفصيل ولا بالجملة.

(٢) أي: الخبز الرقيق من النقي، كالحواري، وهو الدقيق الأبيض، أي: لباب الدقيق.

ومنه الحديث: «ما رأى رسول الله ﷺ النقي من حين ابتعثه الله حتى قبضه».

(٣) مادة شبيهة بالعسل الأبيض. ويقال التَّرَنجبين أيضاً. في مفردات ابن البيطار: طلٌّ يقع من السماء، وهو ندى شبيه بالعسل جامد متحبب.

(٤) استدل لهذا القول العام بحديث النبي ﷺ الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه، والبخاري أيضاً بلفظ: «الكمأة من المنّ، وماؤها شفاءٌ للعين»، وفي رواية ابن عيينة عن عبد الملك بن عمير: «الكمأة من المنّ الذي أنزل على بني إسرائيل»، راجع شرح الحديث، والحديث يحتمل احتمالين كما أشار إليهما ابن عطية رحمه الله.

(٥) أي في البياض والصفاء.

(٦) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم=

يدخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم، لأن يوم السبت يوم عبادة. والمنُّ هنا اسم جمع لا واحد له من لفظه.

والسلوى طير بإجماع(١) من المفسرين قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وغيرهم، قيل: هو السماني بعينه، وقيل: طائر يميل إلى الحمرة مثل السماني، وقيل: طائر مثل الحمام تحشره عليهم الجنوب. قال الأخفش: السلوى جمعه وواحده بلفظ واحد، قال الخليل: جمع واحدته سلواة قال الكسائي: السلوى واحدة جمعها سلاوي، والسلوى اسم مقصور لا يظهر فيه الإعراب لأن آخره ألف، والألف حرف هوائي أشبه الحركة فاستحالت حركته، ولو حرِّك لرجع حرفاً آخر، وقد غلط الهذلي فقال:

وقاسمها بالله عهداً لأنتمْ ... ألذُّ من السَّلوى إذا ما نشورها(٢)

ظن السلوى العسل.

وقوله تعالى: [كلوا] الآية معناه: وقلنا: كلوا، فحذف اختصارا لدلالة الظاهر عليه، و(الطَّيِّبات) هنا قد جمعت الحلال واللذيذ.

وقوله تعالى: [وما ظلمونا] يقدَّر قبله فعصوا، ولم يقابلوا النعم بالشكر، والمعنى: وما وضعوا فعلهم، في موضع مضرة لنا، ولكن وضعوه في موضع مضرة لهم حيث لا يجب. وقال بعض المفسرين: ما ظلمونا مانقصونا، والمعنى يرجع إلى ما لخصناه.

و(القرية) المدينة، تسمى بذلك لأنها تقرت، أي اجتمعت، ومنه قريت الماء في

= تخن أنثى زوجها الدهر أبداً» قال العلماء معناه أن بني إسرائيل لما أنزل الله عليهم المن والسلوى نهوا عن ادخارهما فادخروا ففسد وَأَنْتَنَ واستمر من ذلك الوقت، يقال: خنز اللحم يخنز خنزا: أنتن.

(١) قال الإمام (ق) دعوى الإجماع لاتصح ـ لأن المؤرج وهو أحد علماء اللغة والتفسير قال: إنه العسل، واستدل ببيت الهذلي الذي سيأتي بعد، وذكر أنه كذلك في لغة كنانة لأنه يسلى به، ومنه عين سلوان. وقال الجوهري: السلوى العسل، واستشهد ببيت الهذلي أيضاً ونقل هذا كثير من الأئمة وسلموه، وإذاً فلا وجه لتخطئة الهذلي وتغليطه، لأن إجماع المفسرين هنا لا يمنع إطلاق اللغويين له بمعنى آخر.

(٢) الهذلي: هو خالد بن زهير الهذلي، وقوله: إذا ما نشورها: أي نجتنيها ونستخرجها من خليتها؛ من شار العسل يقال: اجتناها، ويقال: اشتارها، وأشارها لغة، وهذه الكلمة هي التي دلت على أن المراد بالسلوى في بيت الهذلي العسل.

الحوض: أي جمعته[١]، والإشارة بهذه إلى بيت المقدس في قول الجمهور، وقيل: إلى أريحا، وهي قريب من بيت المقدس. قال عمر بن شبة[٢]: كانت قاعدة ومسكن ملوك. ولما خرج ذرية بني إسرائيل من التيه أمروا بدخول القرية المشار إليها وأما الشيوخ فماتوا فيه. وروي أن موسى ﷺ مات في التيه، وكذلك هارون عليه السلام، وحكى الزجاج عن بعضهم أن موسى وهارون، لم يكونا في التيه[٣] لأنه عذاب، والأول أكثر. و[كلوا] إباحة، وقد تقدم معنى الرَّغد ـ وهي[٤] أرض مباركة الغلَّة، فلذلك قال: رغداً.

و﴿الباب﴾ قال مجاهد: هو باب في مدينة بيت المقدس يعرف إلى اليوم بباب حطة، وقيل: هو باب القبة التي كان يصلي إليها موسى ﷺ، وروي عن مجاهد أيضاً أنه باب في الجبل الذي كلم عليه موسى كالفرضة[٥]. و﴿سجداً﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه معناه: ركوعاً[٦] وقيل متواضعين خضوعاً لا على هيئة معينة. ـ والسجود يعم هذا كله لأنه التواضع، ومنه قول الشاعر:

ترى الأكم فيه سجَّداً للحوافر[٧].

وروي أن الباب خفض لهم ليقصر ويدخلوا عليه متواضعين.

و﴿حطةٌ﴾ فعلةٌ من حطَّ يحط ورفعه على خبر ابتداء كأنهم قالوا: سؤالنا حطة لذنوبنا، هذا تقدير الحسن بن أبي الحسن. وقال الطبري: التقدير دخولنا الباب كما أمرنا حطة، وقيل: أمروا أن يقولوها مرفوعة على هذا اللفظ. وقال عكرمة وغيره:

---

(١) لأن كل مكان اتصلت به الأبنية واتخذ قراراً يسمى قرية، وتقع على المدن وغيرها.

(٢) أبو زيد عمر بن شبه، عرف برواية النوادر والأخبار، وصنف تاريخ البصرة، وروى القراءة عن عاصم، وعن جبلة بن مالك ـ توفي سنة ٢٦٣هـ. وفيات الأعيان ٣/ ١١٤.

(٣) قال في (خ) ظاهر قوله تعالى ﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ يقوي ما قاله الزجاج رحمه الله، وهكذا قال الإمام الفخر رحمه الله.

(٤) أي: القرية: أو أرض كنعان.

(٥) فرضة الجبل ما انحدر في وسطه وجانبه.

(٦) السجود إما أن يراد به الصلاة فيكون السجود كناية عنها، وإما أن يراد به الخضوع والتواضع شكراً لله تعالى.

(٧) تقدم هذا البيت عن قوله تعالى: ﴿وإ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ الآية، والأكم الجبال الصغار، جعلها تسجد للحوافر لقهر الحوافر إياها، ولكونها لا تمتنع عليها.

أمروا أن يقولوا: لا إله إلا الله لتحط بها ذنوبهم. وقال ابن عباس: قيل لهم: استغفروا، وقولوا: ما يحط ذنوبكم. وقال آخرون: قيل لهم أن يقولوا هذا الأمر حق، كما أعلمنا، وهذه الأقوال الثلاثة تقتضي النصب، وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة (حطَّةً) بالنصب[١].

وحكي عن ابن مسعود وغيره أنهم أمروا بالسجود وأن يقولوا حطَّةٌ، فدخلوا يزحفون على أستاههم[٢] ويقولون: حنطة حبة حمراء في شعرة، ويروى غير هذا من الألفاظ. وقرأ نافع [يغفر] بالياء من تحت مضمومة، وقرأ ابن عامر [تغفر] بالتاء من فوق مضمومة، وقرأ أبو بكر عن عاصم: [ويغفر] بفتح الياء على معنى يغفر الله، وقرأ الباقون [نغفر] بالنون، وقرأت طائفة [تغفر] كأن الحطة[٣] تكون سبب الغفران.

والقراء السبعة على [خطاياكم]، غير أن الكسائي كان يميلها، وقرأ الجحدري: [تغفر لكم خطيئتكم] بضم التاء من فوق وبرفع الخطيئة وقرأ الأعمش (يغفر) بالياء من أسفل مفتوحة (خطيئتكم) نصباً، وقرأ قتادة مثل الجحدري، وروي عنه أنه قرأ بالياء من أسفل مضمومة (خطيئتكم) رفعاً، وقرأ الحسن البصري: [يغفر لك خطيئاتكم] أي يغفر الله، وقرأ أبو حيوة: [تُغفر] بالتاء من فوق مرفوعة [يغفر لكم خطيئاتُكم] بالجمع ورفع التاء، وحكىٰ الأهوازي[٤] أنه قرىء [خطأياكم] بهمز الألف الأولى وسكون الآخرة، وحكى أيضاً أنه قرىء بسكون الأولى وهمز الآخرة. قال الفراء: خطايا جمع خطية، بلا همز كهديَّة وهدايا، وركية وركايا.

وقال الخليل[٥]: هو جمع خطيئة بالهمز، وأصله [خطايىء] قدمت الهمزة على

---

(١) قال جار الله الزمخشري: الأصل في هذه الكلمة: النصب، بمعنى: حط عنا ذنوبنا حطَّةً، وإنما رفعت لتعطي معنى الثبات، قال أبو (ح): وهو حسن، ويؤكده قراءة إبراهيم بن أبي عبلة بالنصب كما روي ـ ثم إن أولى تقدير هو الأول لأن الذي يناسب تعليق الغفران عليه هو سؤال حط الذنوب لا غير ذلك من التقديرات.

(٢) ثبت في صحيح البخاري ومسلم أنهم دخلوا الباب يزحفون على أستاههم، وأنهم قالوا: حبة في شعرة، فوجب المصير إلى تفسير النبي ﷺ، واطراح ما سواه من الأقوال.

(٣) أي مقالتها لا لفظها، ومن المعلوم أن المقالة المذكورة سبب في الغفران.

(٤) أبو علي الحسن بن علي بن إبراهيم الأهوازي، إمام، محدث. توفي سنة (٤٤٦)هـ.

(٥) هذا يتطلب أربعة أعمال على رأي الخليل: خطايىء ـ ثم خطائي ـ ثم خطاءا ـ ثم خطايا ـ وعلى ما لسيبويه خمسة أعمال: خطايىء ـ ثم خطائي بهمز الياء ـ ثم خطائي ـ ثم خطاءا ـ ثم خطايا ـ والحاصل=

الياء فجاء (خطائي)، أبدلت الياء ألفاً بدلا لازماً فانفتحت الهمزة التي قبلها فجاء (خطاءًا) همزة بين ألفين، وهي من قبيلهما فكأنها ثلاث ألفات فقلبت الهمزة ياءً فجاء خطايا. قال سيبويه: أصله [خطايئ] همزت الياء كما فعل في مدائن وكتائب فاجتمعت همزتان فقلبت الثانية ياءً ثم أعلت على ما تقدم.

وقوله تعالى: ﴿وسنزيد المحسنين﴾ عدة المعنى إذا غفرت الخطايا بدخولكم وقولكم: زيد بعد ذلك لمن أحسن، وكان من بني إسرائيل من دخل كما أمر وقال: لا إله إلا الله، فقيل: هم المراد بالمحسنين هنا.

قوله عز وجل[١]:

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

روي أنهم لما جاؤوا الباب دخلوا من قبل أدبارهم القهقرى وفي الحديث[٢] أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم، وبدلوا، فقالوا حبة في شعرة، وقيل: قالوا: حنطة حبة حمراء فيها شعرة، وقيل: شعيرة، وحكى الطبري أنهم قالوا: «هطي شمقاثا أزبة»[٣]، وتفسيره ما تقدم. والرِّجز: العذاب.

= أنهما متفقان أصلاً ومختلفان عملا.

(١) استدل العلماء بهذه الآية الكريمة على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها في الشريعة لا يخلو أن يقع التعبد بلفظها أو بمعناها، فإن كان التعبد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها لذم تعالى من بدَّل ما أمره به، وإن وقع بمعناها جاز تبديلها بما يؤدي إلى ذلك المعنى، ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه. وربما يدخل فيها مسألة نقل الحديث بالمعنى، والمراد أن الظالمين بدلوا قولاً غير الذي قيل لهم ـ قولوا حطة فقالوا حنطة، وقيل لهم: ادخلوا الباب سجداً، فدخلوا على أستاههم، فلقوا من البلاء ما لقوا.

(٢) روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم، فبدلوا، فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم، وقالوا حبة في شعرة»، وأخرجه البخاري وقال: «فبدلوا وقالوا حطة حبة في شعرة». وفي غير الصحيحين: «حنطة في شعر».

(٣) هي كلمة عبرانية، وتفسيرها ما تقدم أي «حنطة حمراء».

وقال ابن زيد، ومقاتل، وغيرهما: إن الله تعالى بعث على الذين بدلوا ودخلوا على غير ما أمروا الطاعون فأذهب منهم سبعين ألفاً. وقال ابن عباس: أمات الله منهم في ساعة واحدة نيفاً على عشرين ألفاً، وقرأ ابن محيصن (رجزا) بضم الراء وهي لغة في العذاب والرجز أيضاً اسم صنم مشهور، والباء في قوله [بما] متعلقة بأنزلنا، وهي باء السبب.

و﴿يفسقون﴾ معناه يخرجون عن طاعة الله. وقرأ النخعي، وابن وثَّاب، ﴿يفسقون﴾ بكسر السين، يقال: فسق يفسُق ويفسِق بضم السين وكسرها، و﴿إذْ﴾ متعلقة بفعل مضمر تقديره: «اذكر»، و[استسقىٰ] معناه: طلب السقيا، وعرف استفعل طلب الشيء، وقد جاء في غير ذلك كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾[1]، بمعنى غني، وقولهم: استعجب بمعنى عجب، ومثَّل بعض الناس في هذا بقولهم: «استنسر البغاث»[2]، و«استنوق الجمل» إذْ هي بمعنى انتقل من حال إلى حال[3]. وكان هذا الاستسقاء في فحص التيه فأمره الله تعالى بضرب الحجر آية منه، وكان الحجر من جبل الطور على قدر رأس الشاة يُلْقى في كسر جوالق[4] ويرحل به، فإذا نزلوا وضع في وسط محلتهم، وضربه موسى.

وذكر أنهم لم يكونوا يحملون الحجر لكنهم كانوا يجدونه في كل مرحلة في منزلته من المرحلة الأولى، وهذا أعظم في الآية.

ولا خلاف أنه كان حجراً منفصلاً مربَّعاً تطرد[5] من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى ﷺ، وإذا استغنوا عن الماء ورحلوا جفت العيون.

---

(١) أي في سورة التغابن من قوله تعالى في الآية رقم (٦): ﴿فكفروا وتولَّوا، واستغنى الله، والله غنيٌّ حميدٌ﴾.

(٢) يقال: استنسر الطائر صار كالنَّسر في القوة، وفي المثل: إن البغاث بأرضنا يستنسر، أي إن الضعيف يصير قوياً بأرضنا، يضرب للَّئيم يرتفع أمره، أو معناه: من جاورنا عزَّ بنا.

(٣) وكذلك الاستسقاء، فإنه: انتقال من حال إلى حال، وفي الشرع: طلب الغيث من الله تعالى على وجه مخصوص. وعصا موسى هي مجمع الأسرار والغرائب ـ فبها وقع انفجار الحجر ـ وبها وقع انفلاق البحر ـ وبها كان قهر السحرة حتى وقعوا لها ساجدين.

(٤) أي في جانب جوالق، وهو الغرارة بالكسر، والجمع غرائر، قال الجوهري: «وأظنه معرَّبا».

(٥) أي تجري في كل جهة من جهاته الأربع ثلاث عيون على عدد أسباط بني إسرائيل ويقال: اطَّرد الماء إذا تتابع سيلانه.

وفي الكلام حذف تقديره: فضربه فانفجرت، والانفجار: انصداع شيءٍ عن شيءٍ، ومنه الفجر، والانبجاس في الماء أقل من الانفجار[١].

و﴿اثنتا﴾ معربةٌ[٢] دون أخواتها لصحة معنى التثنية، وإنما يبنى واحد مع واحد، وهذه إنما اثنان مع واحد، فلو بنيت لرد ثلاثة واحداً[٣]، وجاز اجتماع علامتي التأنيث في قوله: [اثنتا عشرة] لبعد العلامة من العلامة، ولأنهما في شيئين، وإنما منع ذلك في شيءٍ واحد نحو مسلمتات[٤] وغيره. وقرأ ابن وثاب، وابن أبي ليلى، وغيرهما: [عشرة] بكسر الشين، روي ذلك عن أبي عمرو، والأشهر عنه الإسكان، وهي لغة تميم، وهو نادر لأنهم يخفِّفون كثيراً وثقَّلوا في هذه. وقرأ الأعمش ﴿عشرة﴾ بفتح الشين، وهي لغة ضعيفة، وروي عنه كسرها وتسكينها، والإسكان لغة الحجاز. و﴿عيناً﴾ نصب على التمييز، والعين اسم مشترك، وهي هنا منبع الماء. و﴿أناس﴾ اسم جمع لا واحد له من لفظه، ومعناه هنا: كل سبط؛ لأن الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب، وهم ذرية الاثني عشر أولاد يعقوب عليه السلام، والمشرب المفعل موضع الشرب، كالمشرع موضع الشروع في الماء، وكان لكل سبط عينٌ من تلك العيون لا يتعداها.

وفي الكلام محذوف تقديره: وقلنا لهم: كلوا المن والسلوى واشربوا الماء المنفجر من الحجر المنفصل: وبهذه الأحوال[٥] حسنت إضافة الرزق إلى الله وإلا فالجميع رزقه، وإن كان فيه تكسبٌ للعبد.

---

(١) أي دونه في خروج الماء، وقيل: إن الانفجار والانبجاس بمعنى واحد، وهو ما تدل عليه اللغة.

(٢) من المعروف أن الأعداد المركبة كلها مبنية صدراً وعجزاً، ولا يستثنى من ذلك إلا اثنا عشر واثنتا عشرة، فإن الصدر فيهما معرب. وإنما لم يجعلا كنظائرهما في البناء لأن عشراً فيهما قائم مقام نون التثنية، ولو ذكرت لزم الإعراب فكذا ما يقوم مقامهما، والقول بإعرابهما هو الصحيح، ومن قال ببنائهما يرد عليه أنهما يختلفان باختلاف العوامل، وتأمل كلام ابن عطية هنا لتفهمه على ضوء هذه الحقيقة.

(٣) قوله: يبنى واحد مع واحد أي: مما لا يصح فيه معنى التثنية، ويخرج من هذا أن ما يصح فيه معنى التثنية كاثنين واثنتين يعرب، وما لا يصح فيه ذلك يبنى، وقوله: لرد ثلاثة واحداً، لعله «لرد اثنان واحداً». لأن الكلام في «اثنتا» وتأمل، والله أعلم.

(٤) وفي نسخة: «مسلمات».

(٥) أي المقدَّرة، وهي حال المن والسلوى، وحال شرب الماء المنفجر من الحجر المنفصل.

[ولا تعثوا] معناه: ولا تفرطوا في الفساد، يقال: عثي الرجل يعثى عثواً وعثي يعثى عثياً إذا أفسد أشدَّ فسادٍ، والأولى هي لغة القرآن، والثانية شاذَّة.

وتقول العرب: عثا يعثوا عثواً، ولم يقرأ بهذه اللغة لأنها توجب ضم الثاء من تعثوا، وتقول العرب: عاث يعيث إذا أفسد، وعثَّ يعثُّ كذلك، ومنه عثَّة[1] الصوف وهي السوسة التي تلحسه، و[مفسدين] حال. وتكرر المعنى لاختلاف اللفظ.

وفي هذه الكلمات[2] إباحة النعم، وتعدادها، والتقدم في المعاصي، والنهي عنها.

قوله عز وجل:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

كان هذا القول منهم في التيه، حين ملُّوا المن والسلوى، وتذكروا عيشهم الأول بمصر، وكنى عن المن والسلوى بطعام واحد، وهما طعامان لأنهما كانا يؤكلان في وقت واحد، ولتكرارهما سواءٌ أبداً[3]، قيل لهما طعام واحد، ولغة[4] بني عامر (فادع) بكسر العين، و[يخرج] جزم بما تضمنه الأمر من معنى الجزاء[5]، وبنفس الأمر على مذهب أبي عمر الجرميّ. والمفعول على مذهب سيبويه مضمر تقديره: مأكولا مما تنبت الأرض، وقال الأخفش(من) في قوله: [ممَّا] زائدة و(ما) مفعولة، وأبى سيبويه أن تكون (منْ) ملغاة في غير النفي، كقولهم: «ما رأيت من أحد». ومن في قوله: [من بقلها]، لبيان الجنس، وبقلها بدل بإعادة الحرف. والبقل كل ما تنبته الأرض من

---

(١) لأنها تفسد الصوف والثياب، وكل ما يفسد ذلك فهو عثَّة وسوسة ـ والعثة بالضم جمعها عثث.

(٢) أي: الآيات الواردة في قصة بني إسرائيل.

(٣) أي إنما سمي المن والسلوى وهما اثنان طعاما واحداً لتكرار الغذاء بهما كل يوم بحيث لا يتبدل ولا يتغير، على السواء لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر، فهو لذلك مأكل واحد.

(٤) فهي من ذوات الياء عندهم، ويجرون المعتل مجرى الصحيح.

(٥) أي سل ربك وقل له أخرج ـ يخُرج.

النَّجم[١]. والقثَّاء جمع قثَّاءة[٢]. وقرأ طلحة بن مصرِّف، ويحيى بن وثاب [قُثَّائها] بضم القاف. وقرأ ابن عباس، وأكثر المفسرين: الفوم الحنطة، وقال مجاهد: الفوم الخبز، وقال عطاءٌ وقتادة، الفوم جميع الحبوب التي يمكن أن تخبز كالحنطة والفول والعدس ونحوه، وقال الضحاك: الفوم الثوم، وهي قراءة عبد الله بن مسعود بالثاء، وروي ذلك عن ابن عباس[٣]، والثاء تبدل من الفاء كما قالوا: مغاثير ومغافير[٤] وجدثٌ وجدفٌ، ووقعوا في عاثور شر وعافور شر على أن البدل لا يقاس عليه، والأول أصح لأنها الحنطة، وأنشد ابن عباس قول أحيحة بن الجلاح:

قد كنت أغنى النَّاس شخَصاً واحداً ... وَرَد المدينةَ عن زِراعةِ فومِ

يعني حنطة، قال ابن دريد[٥]: الفوم الزرع أو الحنطة. وأزد السراة[٦] يسمون السنبل فوما.

والاستبدال طلب وضع الشيء موضع الآخر[٧] وأدنى مأخوذ عن أبي إسحق الزجاج

---

(١) أي ما نجم من النبات على غير ساق وتسطح فلم ينهض، أمَّا الشجر فهو كل ما له ساق.

(٢) القيثاء: الخيار.

(٣) منهم من قال: الفوم هو الثوم لأن الفاء تبدل ثاء، والثاء تبدل فاء لتقارب مخرجيهما ويؤيد هذا ما روي في الشواذ عن ابن مسعود وابن عباس وثومها بالثاء، كما يؤيده أنه أشبه بما بعده، فإن الثوم تشاكل البصل، ومنهم من قال: الفوم هو الحنطة والبر وجميع الحبوب التي تختبز، ورجح ابن عطية أنها الحنطة مستدلاً بقول أحيحة بن الجلاح، وبما قاله ابن دريد، وقال: إن الإبدال لا يقاس عليه، وزاد بعضهم قائلا: كيف يطلبون الثوم ولا يطلبون الخبز الذي هو الأصل؟ والله أعلم.

(٤) المغافير والمغاثير صمغ حلو كالعسل يسيل من شجر العرفط، وله رائحة كريهة، والجدث والجدف عبارة عن القبر، وفي المثل «شر الأحداث، نزول الأجداث» وعاثور وعافور بإضافتهما إلى شرٌ عبارة عن الشدة والأزمة، ويقال للرجل إذا تورط: وقع في عاثور شر وعافور شر، أي في شدة ومحنة، وقد قيل:

عاثور شر أيّما عاثور ... دبدبة الخيل على الجسور

(٥) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ـ إمام عصره في اللغة والأدب والشعر، أخذ عن أبي حاتم السجستاني، وكان حافظاً، واسع الرواية، ألف الجمهرة والاشتقاق، وتوفي سنة (٣٢١هـ).

(٦) يقال أزد شنوءة، وأزد عمان، وأزد السراة، والأسْد: لغة في الأزد.

(٧) استبدل، وتبدل: تدخل الباء فيهما على المتروك دائماً دون المأخوذ ـ مثال ذلك قوله تعالى هنا: ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالَّذي هو خير﴾ أي أتتركون الذي هو خير وتأخذون الذي هو أدنى، وقوله تعالى: ﴿ولا تتبدلوا الخبيث بالطَّيب﴾ أي لا تتركوا الطيب وتأخذوا الخبيث ـ وقوله تعالى: ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضلَّ سواء السَّبيل﴾ أي ومن يترك الإيمان ويأخذ الكفر فقد ضل سواء السبيل، وأما بدَّل وأبدل فإن الباء تدخل على المأخوذ دون المتروك، وتتعدى لواحد نحو: ﴿فمن بدَّله﴾ أي غيره (بعد=

من الدنو أي القرب(١) في القيمة، وقال عليُّ بن سليمان: هو مهموز من الدنيءِ البيِّن الدناءة، بمعنى الأخس إلا أنه خففت همزته، وقال غيره: هو مأخوذ من الدُّون أي الأحط، فأصله أدون أفعل، قلب(٢) فجاء أفلع، وقلبت الواو ألفاً لتطرفها. وقرأ زهير الكسائي(٣) [أدنأ].

ومعنى الآية: أتستبدلون البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل التي هي أدنى بالمن والسلوى الذي هو خير.؟

والوجه الذي يوجب فضل المن والسلوى على الشيء الذي طلبوه يحتمل أن يكون تفاضلها في القيمة، لأن هذه البقول لا خطر لها، وهذا قول الزجاج، ويحتمل أن يفضل المن والسلوى لأنه الطعام الذي منَّ الله به، وأمرهم بأكله، وفي استدامة أمر الله تعالى وشكر نعمته أجر وذخر في الآخرة، والذي طلبوا عارٍ من هذه الخصال، فكان أدنى في هذا الوجه، ويحتمل أن يفضل في الطيب واللذة به، فالبقول لا محالة أدنى من هذا الوجه، ويحتمل أن يفضل في حسن الغذاء ونفعه، فالمنُّ والسلوى خيرٌ لا محالة في هذا الوجه، ويحتمل أن يفضل من جهة أنه لا كلفة فيه ولا تعب، والذي طلبوا لا يجيء إلا بالحرث والزراعة والتعب، فهو أدنى في هذا الوجه، ويحتمل أن يفضل في أنه لا مرية في حلِّه وخلوصه، لنزوله من عند الله، والحبوب والأرض يتخللها البيوع(٤) والغصوب، وتدخلها الشُّبه فهي أدنى في هذا الوجه.

= ما سمعه﴾ ـ وإلى مفعولين بنفسه نحو ﴿يبدِّل الله سيئاتهم حسنات﴾ وبالباء نحو: بدلت العصيان بالتوبة، وإلى ثالث نحو ﴿وبدلناهم بجنتيهم جنّتين﴾ فالباء في الثاني داخلة على المأخوذ والثالث هو المتروك: هكذا حققه سعد الدين التفتزاني في حاشية الكشاف، ونقله بعض الأئمة.

(١) في أدنى آراء: قيل: إنه مأخوذ من الدنوّ بمعنى القرب، وقيل: من الدُّون بمعنى الأحط، وقيل: من الدَّناءة بمعنى الخسة، فالأول من دنا يدنو دنواً، والثالث من دَنُؤَ يدنؤ دناءة، وأما الثاني فلا فعل له كما في المصباح، وكيفما كان الأخذ فوجوه التفاضل بين ما هو أدنى وما هو خير على ما أشار إليه ابن عطية رحمه الله ستة ـ إمَّا في القيمة، وإمَّا في اللذة، وإمَّا في الكلفة، وإمَّا في الحلية، وإمَّا في جنس التغذية، وإمَّا في امتثال الأمر والدعوة، وكل هذه الوجوه يحصل بها الفضل للمنِّ والسلوى. والقرب: يستعمل في الزمان والمكان، وهما معنيان أصليان له، كما يستعمل في النسبة والحظوة والرعاية والقدرة.

(٢) أي قلباً مكانياً، وبذلك تطرفت الواو وقلبت ألفاً.

(٣) زهير الكسائي هو الفرقبي النحوي له اختيار في القراءة، وكان في زمن عاصم، وليس هو الكسائي الكبير أحد القراء السبعة خلافاً لمن وهم، وقراءته تشبه ما قاله الأخفش، إلا أن الهمزة خففت على قوله.

(٤) وفي بعض النسخ العيوب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويترتب الفضل للمنّ والسلوى بهذه الوجوه كلها.

وفي الكلام حذف تقديره: فدعا موسى ربه فأجابه(١) فقال لهم: [اهبطوا] وقد تقدم ذكر معنى(٢) الهبوط، وكأن القادم على قُطْرٍ مُنْصبٌ(٣) عليه، فهو من نحو الهبوط.

وجمهور الناس يقرؤون ﴿مصراً﴾ بالتنوين، وهو خط المصحف إلاَّ ما حكي عن بعض مصاحف عثمان رضي الله عنه(٤). وقال مجاهد وغيره: من صرفها(٥) أراد مصراً من الأمصار غير معيَّن، واستدلوا بما اقتضاه القرآن من أمرهم بدخول القرية، وبما تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعد التيه. وقالت طائفة: من صرفها أراد مصر فرعون بعينها، واستدلوا بما في القرآن من أن الله أورث بني إسرائيل ديار آل فرعون وآثارهم، وأجازوا صرفها، قال الأخفش: لخفتها وشبهها بهند ودعدٍ، وسيبويه لا يجيز هذا(٦)، وقال غير الأخفش: أراد المكان فصرف.

وقرأ الحسن، وأبان بن تغلب، وغيرهما: [اهبطوا مصر] بترك الصرف، وكذلك هي في مصحف أُبيّ بن كعب، وقالوا: هي مصر فرعون. قال الأعمش: هي مصر التي عليها صالح بن علي، وقال أشهب: قال لي مالك: هي عندي مصر، قريتك، مسكن فرعون.

وقوله تعالى: ﴿فإنَّ لكم ما سألتم﴾ يقتضي أنه وكلهم إلى أنفسهم. وقرأ النخعي، وابن وثَّاب: [سِألتم] بكسر السين(٧) وهي لغة. ﴿وضربت عليهم الذِّلَّة والمسكنة﴾

---

(١) هذا يجري على أن الأمر من الله لا من موسى عليه السلام.

(٢) هو النزول والانحدار، «اهبطوا مصراً» انزلوه.

(٣) أي منحدر، وفي معناه قولهم في صفة النبي ﷺ: «كأنما ينحط من صبب».

(٤) قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله: «ولا أستجيز القراءة بغير ذلك؛ لإجماع المصاحف على ذلك» أي من الأمصار.

(٥) في صرفها رأيان: قال بعضهم: المراد مصرٌ من الأمصار وهو الحق لأنه خط المصحف، وقال آخرون المراد مصر فرعون، وعلى عدم الصرف كما في مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه: هي مصر المعروفة قولاً واحداً.

(٦) لأنك لو سميت امرأة بزيد لمنعته من الصرف.

وفي الألفية: (أو زيد اسم امرأة لا اسم ذكر).

(٧) أي مع كون العين همزة لتوهم الفتح.

معناه: ألزموها، وقضي عليهم بها، كما يقال: ضرب الأمير البعث[١]، وكما قالت العرب: ضربة لازبٍ، أي إلزام ملزم ولازم، فينضاف المصدر إلى المفعول بالمعنى، وكما يقال: ضرب الحاكم على اليد، أي حجر وألزم، ومنه: ضرب الدهر ضرباته، أي ألزم إلزاماته.

و﴿الذِّلَّة﴾ فعلة من الذل، كأنها الهيئة والحال. ﴿والمسكنة﴾ من المسكين، قال الزجاج: هي مأخوذة من السكون، وهي هنا زيُّ الفقر وخضوعه[٢]، وإن وجد يهودي غني فلا يخلو من زيّ الفقر ومهانته. قال الحسن وقتادة: المسكنة الخراج، أي الجزية، وقال أبو العالية: المسكنة الفاقة والحاجة.

﴿وباءوا بغضب من الله﴾ معناه: مرُّوا متحملين له[٣]، تقول: بؤت بكذا أي تحملته، ومنه قول مهلهل لبجير بن الحارث بن عباد: «بؤ[٤] بشسع نعل كليب».

والغضب بمعنى الإرادة صفة ذات، وبمعنى إظهاره على العبد بالمعاقبة صفة فعل، والإشارة بذلك إلى ضرب الذِّلة وما بعده.

والباءُ في ﴿بأنَّهم﴾ باء السبب، وقال المهدوي: إن الباء بمعنى اللام، والمعنى: لأنهم. والآيات هنا تحتمل أن يراد بها التسع[٥] وغيرها مما يخرق العادة، وهي علامة لصدق الآتي بها، ويحتمل أن يراد آيات التوراة التي هي كآيات القرآن.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [وتَقْتُلُونَ] بالتاء على الرجوع إلى خطابهم[٦] وروي

---

(١) البعث: هو الجيش، وجمعه بعوث، والمعنى: ضرب الأمير البعث على الجند، وأجرى عليهم أي بعثوا على العدو.

(٢) فلا يوجد يهوديٌّ وإن كان غنياً ـ خالياً من هيئة الفقر ومهانته، فذلك لازم له. والذِّلَّة الهوان، والمسكنة الخضوع، والزِّيُّ بالكسر.

(٣) يعني أنهم استحقوا الغضب من الله فتحملوه وذهبوا به، فلهم البلاء في الدنيا والعذاب في الأخرى.

(٤) يقال: بؤ به، أي كن ممن يقتل به، ومنه قول مهلهل لبجير هذا. والشِّسْعُ قبال النعل أي زمامها بين الإصبع الوسطى والتي تليها ـ وكان بجير قد قتله مهلهل أخو كليب المقتول، فقال أبوه الحارث بن عباد عند ذلك: نعم الغلام، أصلح بين بني وائل وفاءً بكليب، فقيل له: إن المهلهل لمَّا قتله قال: «بؤ بشسع نعل كليب» فركب فرسه (النعامة) وتولى أمر بكر، واشتعلت الحرب من جديد بين قبائل بكر وتغلب وانهزمت تغلب، وأسر المهلهل في هذه الموقعة المعروفة: بتحلاق اللمم.

(٥) يعني المعجزات التسع التي جاء بها موسى عليه السلام.

(٦) وقرىء [يقتِّلون] بالتشديد، وهي قراءة علي رضي الله عنه، وهذه القراءة تدل على المبالغة في القتل ـ=

عنه أيضاً بالياء، وقرأ نافع بهمز [النبيئين] وكذلك حيث وقع في القرآن إلا في موضعين[١]، في سورة الأحزاب ﴿إن وهبت نفسها للنَّبيِّ إن أراد النَّبيُّ﴾ بلا مدٍّ ولا همزٍ، و﴿تدخلوا بيوت النبيِّ إلاَّ أن يؤذن لكم﴾ وإنما ترك همز هذين لاجتماع همزتين مكسورتين من جنس واحد. وترك الهمز في جميع ذلك الباقون، فأما من همز فهو عنده من أنبأ إذا أخبر، واسم فاعله منبىءٌ فقيل: نبيءٌ بمعنى منبىءٌ كما قيل: سميع بمعنى مسمع، واستدلوا بما جاء من جمعه على نُبآءَ، قال الشاعر[٢]:

يا خاتم النُّبآءِ إنَّك مرسلٌ ... بالحقِّ، كلُّ هدى الإله هداكا

فهذا كما يجمع فعيل في الصحيح كظريف وظرفاء وشبهه. قال أبو علي: زعم سيبويه أنهم يقولون في تحقير النبوة: «كان مسيلمة نُبُوَّتُهُ نُبَيِّئَةَ[٣] سوء». وكلهم يقولون: تنبَّأ مسيلمة. فاتفاقهم على ذلك دليل على أن اللام همزة.

واختلف القائلون بترك الهمز في نبيء، فمنهم من اشتق اشتقاق من هَمَزَ، ثم سهَّل الهمز، ومنهم من قال: هو مشتق من نبا ينبو إذا ظهر، فالنبي الطريق الظاهر، وكأن النبي من عند الله طريق الهدى والنجاة، وقال الشاعر[٤]:

لمَّا وردن نُبَيًا واستتب بنا ... مسحنفرٌ كخطوط السَّيح منسحل[٥]

واستدلوا بأن الأغلب في جمعه أنبياءَ، كفعيل في المعتل نحو وليٍّ وأولياء وصفيٍّ

= ويشهد لها مارواه أبو داود الطيالسي وابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كانت بنو إسرائيل يقتلون في اليوم سبعين نبياً، وفي رواية ثلاثمائة نبي في أول النهار، ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار» انتهى، والمراد أنهم لا يعبؤون بذلك العدد المقتول، ولذلك يقيمون سوق البقول والخضروات آخر النهار.

(١) المعروف أن (نافعاً) يهمز الكل، وأنَّ قالون تلميذه هو الذي أبدل الهمز بالياء في الموضعين من سورة الأحزاب ـ وفي حرز الأماني:

وجمعاً وفرداً في النبيء وفي النبو ... ءة الهمز كل غير نافع أبدلا
وقالون في الأحزاب في للنبيء مع ... بيوت النبيء الياء شدد مبدلا

(٢) هو العباس بن مرداس السلمي يمدح النبيَّ ﷺ.

(٣) بتشديد الياء، والتصغير للتحقير.

(٤) هو القطامي. واسمه: عمير بن شبيم التغلبي.

(٥) المسحنْفر: الطريق المستقيم، والبلد الواسع والمطر الكثير، ونبي اسم موضع بالشام. وفي بعض النُّسخ ـ النَّسج بدلا من السَّيح.

وأصفياء، وحكى الزهراوي أنه يقال: نبؤ إذا ظهر فهو نبيءٌ، والطريق الظاهر نبيءٌ بالهمز، وروي أنَّ رجلاً قال للنبي ﷺ: السلام عليك يا نبيء الله، وهمز، فقال له النبي ﷺ: «لست بنبيءِ الله ـ وهمز ـ، ولكني نبي الله» ـ ولم يهمز ـ: قال أبو علي: ضعِّف سند هذا الحديث. ومما يقوي ضعفه أنه ﷺ قد أنشده المادح:

ياخاتم النبآءِ.

ولم يؤثر في ذلك إنكار، والجمع كالواحد.

وقوله تعالى: [بغير الحقِّ] تعظيم[1] للشُّنعة والذنب الذي أتوه، ومعلوم أنه لايقتل نبي بحق، ولكن من حيث قد يتخيل متخيِّل لذلك وجهاً، فصرح قوله (بغير الحقِّ) عن شنعة الذنب ووضوحه، ولم يجترم[2] قطُّ نبيٌّ ما يوجب قتله. وإنما أباح الله تعالى من أباح منهم، وسلَّط عليهم، كرامةً لهم، وزيادة في منازلهم، كمثل من يقتل في سبيل الله من المؤمنين[3]» قال ابن عباس وغيره: «لم يقتل قط من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال، وكلٌّ من أمر بقتال نصر[4]»، وقوله تعالى: [ذلك] ردٌّ على الأول وتأكيد للإشارة إليه[5] والباء في (بما) باء السبب، و(يعتدون) معناه يتجاوزون الحدود، والاعتداء: تجاوز الحدّ في كل شيءٍ، وعرفه في الظلم والمعاصي.

---

(١) يعني أن قوله تعالى: [بغير الحق]، وهو قيد لازم لقتل الأنبياء، لأن النبيَّ لا يقتل بالحق، وإنما يقتل على الحق ـ فالتصريح به للتشنيع عليهم، ولتقبيح فعلهم، والشُّنْعة بالضم: القبح.

(٢) أي لم يرتكب قط ذنباً يوجب قتله.

(٣) هذه العبارة فيها قلق، ولذلك تجنبها الإمام القرطبي رحمه الله مع أن عادته غالباً نقل عبارة ابن عطية، ونص عبارة القرطبي: «فإن قيل: كيف جاز أن يخلّي بين الكافرين وقتل الأنبياء؟، قيل: ذلك كرامة لهم، وزيادة في منازلهم، كمثل من يقتل في سبيل الله من المؤمنين، وليس ذلك بخذلان لهم» انتهى.

(٤) أشار به إلى أن قوله تعالى: [ويقتلون النبيين، مخرج للمرسلين، فإن الرسول لا يقتل، لقوله تعالى: [إنا لننصر رسلنا والَّذين آمنوا في الحياة الدنيا] ولقوله تعالى: [ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين] الآية.

(٥) هذه علة بعد علة، وتأكيد لمجازاتهم بما جوزوا به من ضرب الذلة والمسكنة والمباءة بالغضب، وأنهم كانوا يعصون ويعتدون، فالعصيان فعل المناهي، والاعتداء المجاوزة في الحد المأذون فيه، قال أبو حيان: «الظاهر أن قوله: [ذلك بأنَّهم كانوا يكفرون] الخ. علة لضرب الذلة والمسكنة والرجوع بالغضب، وقوله: [ذلك بما عصوا] الخ علة للكفر والقتل، فيكون العصيان للكفر والاعتداء، فيكون قد ذكر شيئين وقابلهما بشيئين، كما ذكر أولا شيئين وهما الضرب والمباءة وقابلهما بشيئين، وهما الكفر والقتل، فجاء ذلك لفا ونشرا في الموضعين وذلك من محاسن الكلام وجودة التركيب، ويخرج بذلك عن التأكيد الذي لا يصار إليه إلاَّ عند الحاجة. وقوله (رد) أي مردود وراجع إليه.

قوله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

اختلف المتأولون في المراد بالَّذين آمنوا في هذه الآية، فقال سفيان الثوري: هم المنافقون في أمَّة محمد ﷺ، كأنه قال: إن الذين آمنوا في ظاهر أمرهم، وقرنهم[١] باليهود والنصارى والصابئين، ثم بيَّن حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم، فمعنى قوله: [من آمن] ـ في المؤمنين المذكورين ـ من حقَّق وأخلص، وفي سائر الفرق المذكورة ـ من دخل في الإيمان. وقالت فرقة: الذين آمنوا هم المؤمنون حقاً[٢] بمحمد ﷺ، وقوله: [من آمن بالله] يكون فيهم، بمعنى: من ثبت ودام، وفي سائر الفرق بمعنى من دخل فيه. وقال السدي: هم أهل الحنيفية ممَّن لم يلحق محمدا ﷺ كزيد بن عمرو بن نفيل[٣]، وقس بن ساعدة[٤] وورقة بن

(١) يريد أن القرينة على أن المراد بالذين آمنوا المنافقون هي قرنهم باليهود والنصارى والصابئين في الآية ـ ومحصَّل ما ذكره من الأقوال خمسة، قول سفيان الثوري، وقول الفرقة، وقول السدي، وقول سلمان الفارسي رضي الله عنه وقول ابن عباس رضي الله عنهما.

ثم إن باب الإيمان والتوبة مفتوح على مصراعيه أمام اليهود وغيرهم، وكلُّ من ارتكب الكبائر والقبائح إذا آمن وتاب فله ما للمؤمنين من الأجر، وعدم الخوف والحزن، وكأن الله عز وجل أراد أن يقرر بهذه الآية أن حال هذه الملة الإسلامية، وحال من قبلها من سائر الملل يرجع إلى شيء واحد، وهو أنَّ من آمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحاً، استحق ما ذكره الله من العناية والأجر، ومن فاته ذلك فاته خيرٌ كثير، وهذا الإيمان لا يتحقق إلا بالدخول في الملة الإسلامية، فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ، ولا بالقرآن فليس بمؤمن، ومن آمن بهما صار مؤمناً مسلماً، ولم يكن يهودياً، ولا نصرانياً، ولا مجوسياً. وكل من تعاطى ديناً من الأديان السماوية في وقت شرعه وقبل نسخه، وآمن بما جاء به، وعمل صالحاً، فلهم أجرهم، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون.

(٢) أي: ظاهراً وباطناً.

(٣) قال لما فارق دين قومه:

أربّاً واحداً أم ألف ربٍّ ... أدين إذا تقسمت الأمور؟
تركت اللات والعزى جميعاً ... كذلك يفعل الرجل البصير

(٤) هو ممن ضربت بحكمتهم وعقولهم الأمثال ـ قدم وفد إياد على رسول الله ﷺ فسألهم عنه، فقالوا: =

نوفل[١]، والذين هادوا كذلك ممن لم يلحق محمداً ﷺ، إلاّ من كفر بعيسى عليه السلام، والنصارى كذلك ممَّن لم يلحق محمدا ﷺ، والصابئين كذلك، وقيل: إنها نزلت في أصحاب سلمان الفارسي، وذكر له الطبري قصة طويلة، وحكاها أيضاً ابن اسحق، مقتضاها: أنه صحب عباداً من النصارى فقال له آخرهم[٢]: إن زمان نبي قد أظل، فإن لحقته فآمن به، ورأى منهم عبادة عظيمة، فلما جاء إلى النبي ﷺ وأسلم، ذكر له خبرهم، وسأله عنهم، فنزلت هذه الآية.

وروي عن ابن عبّاس أن هذه الآية نزلت في أول الإسلام، وقرر الله بها أنّ من آمن بمحمد ﷺ، ومن بقي على يهوديته ونصرانيته وصابئيته، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر فله أجره، ثم نسخ[٣] ما قرر من ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[٤]، وردت الشرائع كلها إلى شريعة محمد ﷺ.

= هلك، فقال: «كأني أنظر إليه على جمل أحمر بسوق عكاظ يقول: أيها الناس، اسمعو وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكلُّ ما هو آت آت، إنَّ في الأرض لعبرا، وإن في السماء لخبرا، أنجم تدور، وبحار لا تغور، سقف مرفوع، ومهاد موضوع، أقسم بالله قسم حق، إن لله ديناً أرضى مما أنتم عليه، ما للناس يذهبون لا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟ سبيلٌ مؤتلف، وعملٌ مختلف، وقال أبياتاً لا أحفظها». فقال أبو بكر رضي الله عنه: أنا أحفظها، فقال: هاتها. فقال:

في الذاهبين الأولـ ... ـين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... يمضي الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضي ولا ... يبقى من الباقين غابر
أيقنت أني لامحالة ... حيث صار القوم صائر

فقال: «رحم الله قساً إني لأرجو أن يبعث أمة وحده».

(١) ورقة بن نوفل هو ابن عم خديجة زوج النبي ﷺ، وكان قد استحكم في النصرانية، وكان من أمره ما ذكره البخاري وغيره في حديث بدء الوحي ـ وأنه أدرك البعثة، ولم يدرك الرسالة، وقال للنبي ﷺ: إن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً.

(٢) وفي بعض النسخ: فقال أحدهم.

(٣) ليس المراد نسخ ما وعدهم به سبحانه من الثواب والأجر على إيمانهم وعملهم الصالح، بل المراد أن جميع الأديان منسوخة بالإسلام، وقال بعضهم هذا القول لا يصح عن ابن عباس لأن النسخ لا يجوز أن يدخل الخبر الذي يتضمن الوعد، وإنما يجوز دخوله في الأحكام الشرعية التي تتبدل وتتغير بتغير المصلحة.

(٤) من الآية (٨٥) من سورة آل عمران.

﴿والذين هادوا﴾ هم اليهود، وسمُّوا بذلك لقولهم: ﴿إنَّا هدنا إليك﴾ أي: تبنا، فاسمهم على هذا من هادَ، يهودُ.

وقال الشاعر: إنِّي امرؤٌ مِنْ مَدْحِهِ هائِدُ

أي تائب، وقيل: نسبوا إلى يهودا بن يعقوب، فلما عرب الاسم لحقه التغيير كما تغير العرب في بعض ما عربت من لغة غيرها، وحكى الزهراوي: أن التهويد النطق في سكون ووقار ولين، وأنشد:

وَخُودٌ من اللائي تَسَمَّعْنَ بالضُّحى قَريضَ الرُّدافى بالغِناء المُهَوَّد[١]

قال: ومن هذا سميت اليهود. وقرأ أبو السمال ﴿هادوا﴾ بفتح الدال[٢].

﴿والنصارى﴾[٣] لفظة مشتقة من النصر، إما لأن قريتهم تسمى ناصرة، ويقال: نصرياً، ويقال: نصرتا[٤]، وإما لأنهم تناصروا، وإمَّا لقول عيسى عليه السلام: ﴿من أنصاري إلى الله﴾: قال سيبويه: واحده نصرانٌ، ونَصْرَانة كَنَدْمان ونَدْمانة وندامى، وأنشد:

فكلْتاهما خرَّت وأسْجَدَ رأسَها كما سجدتْ نَصْرانةٌ لمْ تَحَنَّفِ[٥]

وأنشد الطبري:

يظلُّ إذا دارَ العشيَّ محنَّفاً ويضْحي لديه وهو نصران شامس[٦]

---

(١) قائلُه الراعي النميري يصف ناقة. وخود: الواو فيه أصلية، وليست للعطف من (وخد) إذا أسرع. والقريض: الشعر. والرُّدافى: الحداة والأعوان لأنه إذا أعيا أحدهم خلفه الآخر، ويقال: هوَّد الرجل إذا سكن، وهوَّد إذا غنَّى وأطرب. ويقال: غناء مهوَّد.

(٢) من المهاداة، أي: مال بعضهم إلى بعض، أو تكون فاعل بمعنى فعل من الهداية، ومادة القراءة الأولى: (هاء، وواو، ودال)، ومادة القراءة الثانية: (هاء، ودال، وياء).

(٣) النصارى واحده نصراني نسبة إلى الناصرة على غير قياس، وقيل: جمع نصران كندمان وندامى، وقيل: جمع نصري كمهري ومهارى، نسبة إلى قرية اسمها نصرة. قال الفيومي في المصباح: رجل نصراني بفتح النون، وامرأة نصرانية، وربما قيل نصران ونصرانة، ويقال: هو نسبة إلى قرية اسمها نصرة، قاله الواحدي، ولهذا قيل في الواحد: نصريٌّ على القياس، والنصارى جمعه مثل مهري ومهارى، ثم اطلق النصرانيُّ على كل من تعبد بهذا الدين.

(٤) الذي في «لسان العرب» أنه يقال: نصرى ونصري وناصرة ونصورية، اسم قرية بالشام.

(٥) قائله أبو الأخزر الحماني يصف ناقتين طأطأتا رأسيهما من الإعياء، فشبه رأس الناقة برأس النصرانية إذا طأطأته في صلاتها، ويقال: سجد الرجل وأسجد، كما يقال سجد البعير وأسجد، إذا طأطأ رأسه.

(٦) كأنه يشير إلى نفاقه، وأن له ديناً بالليل وديناً بالنهار. وفي تفسير الطبري: «تراه إذا زار».

قال سيبويه: إلا أنه لا يستعمل في الكلام إلا بياء نسب[١]، قال الخليل: واحد النصارى نصري كمهري ومهارى.

والصابىء في اللغة: من خرج من دين إلى دين، ولهذا كانت العرب[٢] تقول لمن أسلم: قد صبأ، وقيل: إنما سمتهم بذلك لمَّا أنكروا الآلهة، تشبيهاً بالصابئين في الموصل الذين لم يكن لهم برٌّ إلاَّ قولهم: «لا إله إلا الله». وطائفة همزته وجعلته من صبأت النجوم إذا طلعت وصبأت ثنيَّة الغلام إذا خرجت، قال أبو علي: يقال: صبأت على القوم بمعنى طرأت، فالصابئ التارك لدينه الذي شرع له، إلى دين غيره، كما أن الصابئ على القوم تارك لأرضه ومنتقل إلى سواها، وبالهمز قرأ القراء غير نافع، فإنه لم يهمزه، ومن لم يهمز جعله من صبا يصبو إذا مال، أو يجعله على قلب الهمزة ياءً، وسيبويه لا يجيزه إلاَّ في الشعر.

وأما المشار إليهم في قوله تعالى: [والصابئين] فقال السدي: هم فرقة من أهل الكتاب، وقال مجاهد: هم قوم لا دين لهم، ليسوا بيهود ولا نصارى[٣]، وقال ابن أبي نجيح[٤]: هم قوم تركب دينهم بين اليهودية والمجوسية لا تؤكل ذبائحهم، وقال ابن زيد: هم قوم يقولون: «لا إله إلا الله»، وليس لهم عمل ولا كتاب، كانوا بجزيرة الموصل، وقال الحسن بن أبي الحسن، وقتادة: هم قوم يعبدون الملائكة، ويصلون إلى القبلة، ويصلون الخمس، ويقرؤون الزبور، رآهم زياد بن أبي سفيان فأراد وضع الجزية عنهم حتى عرف أنهم يعبدون الملائكة.

و[من] في قوله: [من آمن بالله]، في موضع نصب بدل من [الَّذين][٥] والفاء في

---

(١) يعني أن قولهم: النصارى جمع نصران ونصرانة إنما هو بحسب الأصل، وأما بحسب الاستعمال فلا يكون إلا بياء النسب، وجاءت نصرانة ونصران في الشعر للضرورة.

(٢) وفي بعض النسخ: «قريش» بدلا من «العرب».

(٣) أظهر الأقوال ما قاله مجاهد رحمه الله: وأنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم، ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه، انظر تفسير الحافظ ابن كثير.

(٤) عبد الله بن أبي نجيح ـ من موالى بني مخزوم ـ توفي سنة (١٣٢)هـ.

(٥) بحث أبو(ح) رحمه الله في إعرابها بدلا من الذين آمنوا ـ في إعرابها خبراً عن (إن) على أنها مبتدأ وما بعدها خبر ـ قال: لايتم ذلك إلا بتغاير الإيمانين. واختار أن تعرب بدلا من المعاطف التي بعد اسم إن،=

قوله: ﴿فلهم﴾ داخلة بسبب الإبهام الذي في ﴿مَنْ﴾، و﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ابتداء وخبر، في موضع خبر (إنَّ)، ويحتمل ويحسن أن تكون ﴿من﴾ في موضع رفع بالإبتداء، ومعناها الشرط، والفاء في قوله ﴿فلهم﴾ موطِّئة أن تكون الجملة جوابها، و﴿لهم أَجْرُهُمْ﴾ خبر ﴿من﴾، والجملة كلها خبر ﴿إنَّ﴾، والعائد على ﴿الَّذين﴾ محذوف لا بد من تقديره[١] وتقديره: ﴿من آمن منهم بالله﴾. وفي الإيمان باليوم الآخر اندرج الإيمان بالرسل والكتب، ومنه ينفهم[٢] ـ لأن البعث لم يعلم إلا بإخبار رسل الله عنه تبارك وتعالى. وجمع الضمير في قوله تعالى: ﴿لهم أَجْرُهم﴾، بعد أن وحد في ﴿من آمن﴾ لأن ﴿من﴾ تقع على الواحد والتثنية والجمع، فجائز أن يخرج ما بعدها مفرداً على لفظها، أو مثنى أو مجموعاً على معناه، كما قال عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾[٣]، فجمع على المعنى، وكقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾[٤] ثم قال: ﴿خالدين فيها﴾، فجمع على المعنى. وقال الفرزدق:

تعالَ فإنْ عاهَدْتَني لا تخُونُني ... نَكُنْ مثل مَنْ ياذيبُ يصطَحِبانِ

فثنَّى على المعنى. وإذا جرى ما بعد مَن على اللفظ فجائز أن يخالف به بعد على المعنى، وإذا جرى ما بعدها على المعنى فلم يستعمل أن يخالف به بعد على اللفظ، لأن الإلباس يدخل في الكلام[٥]. وقرأ الحسن: [ولا خوف] نصب على التبرئة، وأما الرفع فعلى الابتداء، وقد تقدم القول في مثل هذه الآية[٦].

وقوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾، (إذْ) معطوفة على التي قبلها، والميثاق مفعال من وثق يثق مثل ميزان من وزن يزن. و﴿الطُّور﴾ اسم الجبل الذي نوجي موسى عليه،

= انظره في «البحر المحيط» ١/ ٢٤١، ٢٤٢.

(١) أي لدلالة الكلام عليه، وإلا فالحذف بدون دلالة ممنوع.

(٢) أنكر أهل اللغة هذه المادة، وقالوا: لا يقال انفهم الأمر، وفي القاموس أنها لحن.

(٣) من الآية (٤٢) من سورة يونس.

(٤) من الآية (١٣) من سورة النساء.

(٥) انظر أبا (ح) في «البحر المحيط» ١/ ٢٤٢ فقد بحثه، ورده قال: «وليس كما ذكر، بل يجوز إذا راعيت المعنى أن تراعي اللفظ بعد ذلك، لكن الكوفيين يشترطون الفصل في الجمع بين هذين الحملين، والبصريون لا يشترطون ذلك.

(٦) عند تفسير قوله تعالى: ﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

قاله ابن عباس، وقال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، وغيرهم: الطور اسم لكل جبل، ويستدل على ذلك بقول العجاج:

دَانَـى جناحَيـه مـن الطُّـور فَمَـرّ تَقَضِّـي البـازي إذا البـازي كَسَـر[1]

وقال ابن عباس أيضاً: الطور كل جبل ينبت، وكلُّ جبل لا ينبت فليس بطور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا[2] كله على أن اللفظة عربية، وقال أبو العالية، ومجاهد: هي سريانية، اسم لكل جبل.

وقصص هذه الآية: أن موسى عليه السلام لمَّا جاء إلى بني إسرائيل من عند الله تعالى بالألواح فيها التوراة قال لهم: خذوها والتزموها، فقالوا: لا، إلا أن يكلمنا الله بها كما كلمك، فصعقوا، ثم أحيوا، فقال لهم: خذوها، فقالوا: لا، فأمر الله تعالى الملائكة فاقتلعت جبلاً من جبال فلسطين طوله فرسخ في مثله، وكذلك كان عسكرهم، فجعل عليهم مثل الظلة، وأخرج الله تعالى البحر من ورائهم وأضرم ناراً بين أيديهم، فأحاط بهم غضبه، وقيل لهم: خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيعوها وإلا سقط عليكم الجبل، وغرقكم البحر، وأحرقتكم النار، فسجدوا توبةً لله، وأخذوا التوراة بالميثاق. وقال الطبري رحمه الله عن بعض العلماء: لو أخذوها أول مرة لم يكن عليهم ميثاق، وكانت سجدتهم على شق لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفاً، فلما رحمهم الله قالوا: لا سجدة أفضل من سجدة تقبلها الله ورحم بها، فأمروا[3] سجودهم على شق واحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي لا يصح سواه، أن الله تعالى اخترع ـ وقت سجودهم ـ الإيمان في قلوبهم لا أنهم آمنوا كرهاً وقلوبهم غير مطمئنة[4]، وقد

---

(١) يقال: تقضَّى البازي: انقض، وكسر الطائر يكسر كسورا: ضم جناحيه حتى ينقض، يريد الوقوع. فإذا ذكرت الجناحين قلت: كسر جناحيه كسراً.

(٢) أي: كون الطور اسماً لجبل معين، أو لكل جبل ينبت، أو لكل جبل أنبت أو لم ينبت ـ على أن اللفظة عربية.

(٣) بالميم، أي: سلكوا فيه هذا المسلك دائماً، وفي بعض النسخ: فأقروا بالقاف.

(٤) في هذا تكلف، والحق أنهم مكرهون على هذا الإيمان، ومضطرون، كما هو ظاهر النص الكريم، وهم وإن كانوا مضطرين فاستحقاقهم للثواب بعد، إنما على عملهم، لا على التزامهم، وقد ثبت في شرعنا كما في الصحيح أن النبي ﷺ قال لمن قتل من أسلم بعد أن رأى السيف مصلتاً عليه، واعتذر عن قتله بقوله: إنما قالها خوفاً، ولم تكن عن قصد صحيح ـ قال له: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها=

اختصرت ما سرد في قصص هذه الآية، وقصدت أصحَّه الذي تقتضيه ألفاظ الآية، وخلط بعض الناس صعقة هذه القصة بصعقة السبعين.

وقوله تعالى: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوَّة﴾ في الكلام حذف تقديره: وقلنا: خذوا. و﴿آتيناكم﴾ معناه: أعطيناكم، و﴿بقوَّةٍ﴾، قال ابن عباس معناه: بجد واجتهاد، وقيل: بكثرة درس، وقال ابن زيد: معناه بتصديق وتحقيق. وقال الربيع: معناه بطاعة الله. ﴿واذكروا ما فيه﴾، أي تدبَّروه واحفظوا أوامره ووعيده ولا تنسوه ولا تضيعوه[(١)]. والضمير عائد على ﴿ما آتيناكم﴾، ويعني التوراة، وتقدير صلة (ما) واذكروا ما استقر فيه، و﴿لعلكم تتَّقون﴾، ترجّ في حق البشر.

وقوله تعالى: ﴿ثمَّ توليتم من بعد ذلك﴾ الآية، تولَّى تفعَّل، وأصله الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم، ثم استعمل في الإعراض عن الأمور والأديان والمعتقدات اتساعاً ومجازاً.

و﴿فضل الله﴾ رفع بالابتداء والخبر مضمر عند سيبويه لا يجوز إظهاره للاستغناء عنه، تقديره: فلولا فضل الله عليكم تدارككم، ﴿ورحمته﴾ عطف على ﴿فضل﴾. قال قتادة فضل الله الإسلام، ورحمته القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على أن المخاطب بقوله ﴿عليكم﴾ لفظاً ومعنى من كان في مدة محمد ﷺ، والجمهور على أن المراد بالمعنى من[(٢)] سلف، و﴿لكنتم﴾ جواب ﴿لولا﴾، و﴿من الخاسرين﴾ خبر كان، والخسران، النُّقصان.

وتوليهم من بعد ذلك إما بالمعاصي، فكان فضل الله بالتوبة والإمهال إليها، وإمَّا أن يكون توليهم بالكفر، فكان فضل الله بأن لم يعاجلهم بالإهلاك؛ ليكون من ذريتهم من يؤمن، أو يكون المراد من لحق محمداً ﷺ، وقد قال ذلك قوم، وعليه يتجه قول قتادة:

= صدقاً أم لا»؟ وقال: «إني لم أومر أن أنقِّب عن قلوب الناس».

(١) المقصود من الكتب السماوية هو تدبُّرها، والعمل بمقتضاها، لا مجرد تلاوتها وترددادها باللسان؛ فإن ذلك إعراض عنها، واطراح لها كما سيأتي هذا المعنى في قوله: ﴿نبذ فريق من الَّذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾ قال الإمام مالك رحمه الله: «قد يقرأ القرآن من لا خير فيه» فالمراد بالذكر هنا الذكر بالقلب، وهو التدبُّر أو لازمه وهو العمل، لا مجرد الذكر باللسان.

(٢) ويأتي له أن قوماً قالوا: إن المراد من حضر رسالة محمد ﷺ، وعلى هذا القول يصح ما قاله قتادة بن دعامة السدوسي البصري رحمه الله.

إن الفضل الإسلام، والرحمة القرآن، ويتجه أيضاً أن المراد بالفضل والرحمة إدراكهم مدة محمد ﷺ.

قوله عز وجل:

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

[علمتم] معناه: عرفتم، كما تقول: علمت زيدا بمعنى عرفته فلا يتعدى العلم[١] إلا إلى مفعول واحد، و[اعتدوا] معناه: تجاوزوا الحد مصرف[٢] من الاعتداء، و(في السبت) معناه: في يوم[٣] السبت، ويحتمل أن يريد في حكم السبت، و(السبت)[٤] إما مأخوذ من السُّبوت الذي هو الراحة والدَّعة، وإما من السَّبت وهو القطع، لأن الأشياء فيه سبتت وتمت[٥] خلقتها.

وقصة اعتدائهم فيه: أن الله عز وجل أمر موسى عليه السلام بيوم الجمعة، وعرَّفه فضله، كما أمر به سائر الأنبياء، فذكر موسى ذلك لبني إسرائيل عن الله، وأمرهم بالتشرع فيه[٦]، فأبوا، وتعدوه إلى يوم السبت، فأوحى الله إلى موسى أن دعهم وما اختاروا من ذلك، وامتحنهم فيه بأن أمرهم بترك العمل، وحرَّم عليهم صيد الحيتان،

(١) أي الذي معناه المعرفة.

(٢) أي مشتق، يقال: صرف الكلام اشتق بعضه من بعض.

(٣) ذلك لأنهم وإن كانوا يأخذونها في يوم الأحد فإنهم يحبسونها في يوم السبت، فقد صادوها يوم حبسوها، لا يوم أخذوها، وبذلك يكون اعتداؤهم يوم السبت، فقد خالفوا حكم الله وانتهكوا حرمة يوم السبت، وبذلك كانت حيلتهم باطلة، واستحقوا أن يكونوا قردة وخنازير.

(٤) اسم ليوم من أيام الأسبوع ومن معانيه في اللغة: الراحة ـ والدهر ـ وحلق الرأس، وضرب من سير الإبل، وهو إما مأخوذ من السبوت بمعنى الراحة، وإما من السبت الذي هو في الأصل مصدر، ومعناه القطع. كما قاله المؤلف رحمه الله.

(٥) المعروف أن الله عز وجل خلق الأشياء في ستة أيام، وقالوا: إنه سبحانه ابتدأ الخلق يوم الأحد وانتهى يوم الجمعة، وفي يوم السبت انقطع العمل وتم خلق الأشياء، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «خلق الله التربة يوم السبت»، إلا أن هذا الحديث الذي استوعب الأيام السبعة استنكره بعض الأكابر من الحفاظ، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار وليس مرفوعاً.

(٦) وفي بعض النسخ: «بالخشوع» وهي أولى وأنسب.

وشدَّد عليهم المحنة بأن كانت الحيتان تأتي يوم السبت حتى تخرج إلى الأفنية. قاله الحسن بن أبي الحسن، وقيل: حتى تخرج خراطيمها من الماء، وذلك إما بإلهام[(١)] من الله تعالى، أو بأمر لا يعلل، وإما بأن فهمها معنى الأمنة[(٢)] التي في اليوم مع تكراره حتى فهمت ذلك، ألا ترى أن الله تعالى قد ألهم الدواب معنى الخوف الذي في يوم الجمعة من أمر القيامة؟ يقضي بذلك قول النبي ﷺ: «وما من دابة إلا وهي مصيخةٌ يوم الجمعة فرقاً من الساعة»[(٣)] وحمام مكَّة قد فهم الأمنة أما أنها متصلة[(٤)] فقرب فهمها.

وكان أمر بني إسرائيل بأيلة[(٥)] على البحر، فإذا ذهب السبت ذهبت الحيتان فلم تظهر إلى السبت الآخر، فبقوا على ذلك زماناً حتى اشتهوا الحوت، فعمد رجل يوم السبت فربط حوتاً بخزمة[(٦)] وضرب له وتداً بالساحل، فلما ذهب السبت جاء وأخذه فسمع قوم بفعله فصنعوا مثل ما صنع، وقيل: بل حفر رجل في غير السبت حفيراً، فخرج إليه البحر فإذا كان يوم السبت خرج الحوت وحصل في الحفير، فإذا جزر البحر ذهب الماء من طريق الحفير وبقي الحوت، فجاء بعد السبت فأخذه، ففعل قومٌ مثل فعله، وكثر ذلك حتى صادوه يوم السبت علانية، وباعوه في الأسواق، فكان هذا من أعظم الاعتداء، وكانت من بني إسرائيل فرقة نهت عن ذلك، فنجت من العقوبة، وكانت منهم فرقة لم تعص ولم تنه، فقيل: نجت مع الناهين، وقيل هلكت مع العاصين.

---

(١) أي ألهمها أنها لا تصاد في يوم السبت.

(٢) الأمنة هي سكون القلب واطمئنانه، والمراد أنها فهمت بالتدريج وبالتكرار.

(٣) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» وأبو داود في كتاب «العلم» والنسائي في «فضائل القرآن» والترمذي في «التفسير».

(٤) أي دائمة وذلك أن الأمنة في قضية الحيتان كانت مؤقتة بيوم السبت، وفي حمام مكة كانت دائمة ومستمرة ولذلك كان فهمها سهلا وقريباً. وسياق الكلام يقتضي أن تحذف (أما) وأن تصبح العبارة (وحمام مكة قد فهم الأمنة لأنها متصلة) ـ تأمل.

(٥) (أيلة): قرية عند العقبة على شاطىء البحر.

(٦) ما يفتل من شجر الدوم ويخزم به أنف البعير، وفي القرطبي «زعم ابن رومان أنهم كانوا يأخذ الرجل منهم خيطاً ويضع فيه (وهقة) ويلقيها في ذنب الحوت ـ واللفظة بالقاف لا بالفاء كما رواها القرطبي ـ وهي حبل في طرفة أنشوطة يطرح في عنق الدابة حتى تؤخذ. وفي البحر المحيط: «خزمة» أي: حبلا من لحاء شجر تتخذ من لحائه الحبال ـ وفي اللسان: حلقة من شعر تجعل في وترة أنفه يشد بها الزمام اهـ. ولا عبرة بالمادة التي تصنع منها ـ فهي في كل بيئة تصنع من نوع مناسب ـ ولكنها توضع في أنف البعير أو كل دابة للسيطرة عليها.

و[كونوا] لفظة أمر، وهو أمر التكوين، كقوله تعالى لكل شيءٍ: [كن فيكون] ولم يؤمروا في المصير إلى حال المسخ بشيءٍ يفعلونه ولا لهم فيه تكسب، و[خاسئين] معناه: مبعدين أذلاء صاغرين كما يقال للكلب وللمطرود: إخسأ، تقول: خسأته فخسأ، وموضعه من الإعراب، النصب على الحال، أو على خبر بعد خبر.

وروي في قصصهم أن الله تعالى مسخ العاصين قردةً بالليل، فأصبح الناجون إلى مساجدهم ومجتمعاتهم، فلم يروا أحداً من الهالكين، فقالوا: إن للناس لشأناً، ففتحوا عليهم الأبواب كما كانت مغلقة بالليل، فوجدوهم قردة، يعرفون الرجل والمرأة، وقيل: إن الناجين كانوا قد قسموا بينهم وبين العاصين القرية بجدار، تبريا منهم، فأصبحوا ولم تفتح مدينة الهالكين، فتسوروا عليهم الجدار، فإذا هم قردة يثب بعضهم على بعض.

وروي عن النبي ﷺ وثبت، أن المسوخ(١) لاتنسل ولا تأكل، ولا تشرب، ولا تعيش أكثر من ثلاثة أيام(٢)، ووقع في كتاب(٣) مسلم، عنه عليه السلام: «أن أمَّة من الأمم فقدت وأراها الفأر»، وظاهر هذا أن المسوخ تنسل، فإن كان أراد هذا فهو ظن منه عليه السلام في أمر لا مدخل له في التبليغ، ثم أوحي إليه بعد ذلك أن المسوخ لا تنسل. ونظير ما قلناه نزوله عليه السلام على مياه بدر، وأمره باطراح تذكير النخل، وقد

---

(١) يقال: مسخ الله فلاناً فهو: مسخٌ ومسيخٌ والجمع مسوخ.

(٢) هذا هو قول الجمهور، ويشهد له ما أخرجه الإمام مسلم في كتاب «القدر» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنه ذكرت عند رسول الله ﷺ القردة والخنازير أهي مما مسخ فقال: «إنَّ الله لم يجعل لمسخ نسلاً ولا عقبا، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك» ـ وأما ما استدل به القاضي أبو بكر العربي، والزجاج، من حديث أبي هريرة: «فقدت أمة من بني إسرائيل لا يدري ما فعلت ولاأراها إلا الفأر ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشربه، وإذا وضع لها ألبان الشاة شربته؟». ومن حديث الضب: «أتي النبي ﷺ بضب فأبى أن يأكل منه وقال: لا أدري لعله من القرون التي مسخت»، فهذا إنما هو ظن وحدس من النبي ﷺ كما هو ظاهر من كلامه، وكان ذلك قبل أن يوحى إليه، ولما أوحى إليه قال: «إن الله لم يهلك قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلا، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك»، فهذا نص صريح في أن الذين مسخهم الله قد هلكوا، ولم يبق لهم نسل ـ وأن القردة والخنازير كانوا قبل مسخ بني إسرائيل ـ وقد ثبت كما في الصحيح أكل الضب بحضرته ﷺ، فلم ينكره. فدلَّ ذلك على صحة ما أشرنا إليه.

(٣) أي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال ﷺ: «إذا أخبرتكم برأي في أمور الدنيا فإنما أنا بشر»(١). وروي عن مجاهد في تفسير هذه الآية أنه إنما مسخت قلوبهم فقط، وردَّت أفهامهم كأفهام القردة، والأول أقوى وأظهر(٢). والضمير في (فجعلناها) يحتمل العود على المسخة والعقوبة، ويحتمل على الأمة التي مسخت، ويحتمل على القردة، ويحتمل على القرية إذ معنى الكلام يقتضيها(٣) وقيل: يعود على الحيتان، وفي هذا القول بعد.

والنَّكال: الزَّجر والعقاب، والنكل والأنكال قيود الحديد، فالنَّكال عقاب ينكل بسببه غير المعاقب عن أن يفعل مثل ذلك الفعل(٤)، قال السدي: ما بين يدي المسخة ما قبلها من ذنوب القوم، وما خلفها لمن يذنب بعدها مثل تلك الذنوب(٥)، وهذا قول جيد. وقال غيره: ما بين يديها أي من حضرها من الناجين، وما خلفها لمن يجيء بعدها، وقال ابن عباس: لما بين يديها أي من بعدهم من الناس ليحذر ويتقي، وما خلفها، لمن بقي منهم عبرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما أراه يصح عن ابن عباس رضي الله عنه، لأن دلالة ما بين اليد ليست كما في القول، قال ابن عباس أيضاً: لما بين يديها وما خلفها

---

(١) حديث تأبير النخل مروي عن رافع بن خديج، قال: قدم نبي الله ﷺ، وهم يؤبرون النخل. ويقول: يلقحون، قال: فقال: «ما تصنعون»؟ فقالوا شيئاً كانوا يصنعونه، فقال: «لو لم تفعلوا كان خيراً» فتركوها فنفضت، أو نقصت، فذكروا ذلك له، فقال ﷺ: «إنما أنا بشر إذا حدثتكم بشيء من دنياكم فإنما أنا بشر». ـ انظر صحيح ابن حيان ـ وفي رواية: «أنتم أعلم بأمر دنياكم» رواه الإمام مسلم في وجوب امتثال قوله ﷺ إلا ما قاله في الأمور الدنيوية على سبيل الظن والله أعلم.

(٢) بل قول مجاهد قول غريب وبعيد، انفرد به رحمه الله عن المفسرين، بل عن المسلمين، والحق أن المسخ كان صورياً ومعنوياً، وهذا المسخ كان في زمن داود عليه السلام.

(٣) الظاهر رجوع الضمير إلى المسخة بمعنى العقوبة، أو إلى القرية بمعنى الأمة، إذ المراد بالقرية أهلها، وأهلها هم الأمة التي مسخت، وعود الضمير على القردة أو الحيتان بعيد.

(٤) يقال: نكل عن الأمر (بالفتح والكسر): جبن وانصرف، وأنكله: دفعه وصرفه ـ ونكَّل به: عاقبه بما يردعه ويردع غيره ـ والنَّكال: العقاب أو النازلة والنِّكل: القيد، وضربٌ من اللجم، وحديد اللجام أو الزمام ـ والجمع أنكال ونكول. قال تعالى: [إن لدينا أنكالا] أي قيوداً. والمراد لازم القيود وهو المنع ـ وعلى هذا يكون المراد: جعلنا العقوبة مانعة لما بين يديها وما خلفها، والله أعلم.

(٥) قال الفراء: جعلت المسخة نكالا لما مضى من الذنوب، ولما يعمل بعدها ليخافوا المسخ بذنوبهم، والمراد ذنوب تقدمت وأهلها ما زالوا في الحياة إذ ذاك، فهم يخافون أن يفاجئهم المسخ بسبب ما مضى من ذنوبهم، والله أعلم.

أي من القرى[١]، فهذا ترتيب أجرام لا ترتيب في الزمان[٢]. و﴿موعظةً﴾ مفعلة من الاتِّعاظ والازدجار، و﴿للمتقين﴾ معناه: للذين نهوا ونجوا، وقالت فرقة: معناه لأمة محمد ﷺ. واللفظ يعم كل متَّقٍ من كل أمة.

وقوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى﴾ الآية[٣]، (إذ) عطف على ما تقدم، والمراد تذكيرهم بنقض سلفهم للميثاق، وقرأ أبو عمرو: [يَأْمُرْكُمْ] بإسكان الراء، وروي عنه اختلاس الحركة، وقد تقدم القول في مثله في (بارئكم)[٤].

وسبب هذه الآية على ما روي أنَّ رجلاً من بني إسرائيل أسنَّ، وكان له مال، واستبطأ ابن أخيه موته، وقيل: أخوه، وقيل: ابنا عمه، وقيل: ورثةٌ كثيرٌ غير معينين ـ فقتله ليرثه، وألقاه في سبط آخر غير سبط ليأخذ ديته، ويلطِّخهم بدمه، وقيل: كانت بنو إسرائيل في قريتين متجاورتين فألقاه إلى باب أحد المدينتين، وهي التي لم يقتل فيها، ثم جعل يطلبه هو وسبطه حتى وجده قتيلاً، فتعلق بالسبط أو بسكان المدينة التي وجد القتيل عندها، فأنكروا قتله، فوقع بين بني إسرائيل في ذلك لحاءٌ[٥] حتى دخلوا في السلاح. فقال أهل النُّهىٰ منهم: أنقتتل ورسول الله معنا؟، فذهبوا إلى موسى عليه السلام، فقصُّوا عليه القصة، وسألوه البيان، فأوحى الله إليه أن يذبحوا بقرة فيضرب القتيل ببعضها فيحيا ويخبر بقاتله، فقال لهم: ﴿إنَّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرةً﴾ فكان جوابهم أن قالوا: ﴿أتتخذنا هزواً﴾.

قرأ الجحدري: ﴿أيتخذنا﴾ بالياء على معنى أيتخذنا الله[٦]؟، وقرأ حمزة: [هُزْؤ]

---

(١) أي ما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى، ونحو ما قاله ابن عباس لسعيد بن جبير حيث قال: من بحضرتها من الناس يومئذ، وقد أثنى على هذا ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن وهذا ترتيب في المكان لا في الزمان.

(٢) أي في «مكان الأجرام» لا في الزمان الماضي ولا في الزمان الآتي، والله أعلم.

(٣) قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه إنَّ الله يأمركم﴾ الآية، مقدَّمٌ من حيث التلاوة واللفظ، وقوله تعالى: ﴿وإذ قتَلْتُمْ نفساً فادارأتم فيها﴾ مقدم من حيث المعنى على جميع ما ابتُدئ به في شأن البقرة ـ لأن السبب مقدم على المسَبَّب ـ ولأن المقرَّر في علم العربية أن الواو لمجرد الجمع من دون ترتيب وإنما لم تقصَّ القصة على ترتيبها لمعانٍ أشار إليها الزمخشري فارجع إليه.

(٤) سبق عند قوله تعالى: ﴿فتوبوا إلى بارئكم﴾ أن أبا العباس المبرد أنكر هذا وقال: لا يجوز، لأن الحرف حرف الإعراب، وقال: الصحيح عن أبي عمرو أنه كان يختلس الحركة ولا يسكنها. انظر هناك.

(٥) أي نزاع ومخاصمة، ومنه: «من لاحاك فقد عاداك» وفي بعض النسخ «الجاج».

(٦) أي: قال بعضهم لبعض: (أيتخذنا الله هزوا). والجحدري هو عاصم أحد القراء السبعة.

بإسكان الزاي والهمز، وهي لغة، وقرأ عاصم [هزُؤٌ] بضم الزاء والهاء والهمز، وقرأ أيضاً دون همز [هُزُواً] حكاه أبو علي، وقرأت طائفة من القراء بضم الهاء والزاي، والهمزة بين بين، وروي عن أبي جعفر، وشيبة[١] ضم الهاء وتشديد الزاي [هُزًّا].

وهذا القول من بني إسرائيل ظاهره فساد اعتقاد ممَّن قاله، ولا يصح الإيمان ممن يقول لنبي قد ظهرت معجزته، وقال: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، أتتخذنا هزؤاً، ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبي ﷺ لوجب تكفيره، وذهب قوم إلى ذلك منهم على جهة غلظ الطبع والجفاء والمعصية، على نحو ما قال القائل[٢] للنبي ﷺ في قسمة غنائم حنين: «إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله» وكما قال له الآخر: «أعدل يا محمد»، وكل محتمل[٣] والله أعلم.

وقول موسى عليه السلام: ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾، يحتمل معنيين: أحدهما الاستعاذة من الجهل في أن يخبر عن الله تعالى مستهزئاً، والآخر من الجهل كما جهلوا في قولهم ﴿أتتَّخذنا هُزُواً﴾ لمن يخبرهم عن الله تعالى.

قوله عز وجل:

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

هذا تعنُّتٌ منهم وقلَّة طواعية، ولو امتثلوا الأمر فاستعرضوا[٤] بقرة فذبحوها لقضوا

---

(١) هو ابن عمرو بن ميمون المعيصي، روى القراءة عن حماد بن سلمة عن عاصم، وروى القراءة عنه عيسى بن مهران القومسي.

(٢) هو معتب بن قشير المنافق، والآخر هو المعروف بذي الخويصرة التميمي، وأخرج حديثيهما البخاري ومسلم.

(٣) أي أن هذا القول من بني إسرائيل يحتمل الكفر ويحتمل المعصية وذلك لبعد ما بين السؤال والجواب، وفي هذا ما يدل على قبح الجهل، وأنه مفسد للدين، وعلى منع الاستهزاء بدين الله ودين المسلمين، وكل من يجب تعظيمه.

والمزاح ليس من الاستهزاء ـ فقد كان ﷺ يمزح ولا يقول إلا صدقا، وكذلك الأئمة بعده.

(٤) أي من دون بحث، ومن دون سؤال.

ما أمروا به، ولكن شدَّدوا فشدد الله عليهم. قاله ابن عباس، وأبو العالية وغيرهما.

ولغة بني عامر [ادع](١) بكسر العين، و[ما] استفهام رفع بالابتداء و[هي] خبره، ورفع [فارض] على النعت للبقرة على مذهب الأخفش، أو على خبر ابتداء مضمر تقديره لا هي فارض. والفارض: المسنَّة الهرمة التي لا تلد، قاله ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وغيرهم.

تقول فرضت(٢) تفرض بفتح العين في الماضي فروضاً، ويقال: فُرضت بضم العين، ويقال لكل ما قدم وطال أمده: فارضٌ، وقال الشاعر(٣):

يــا رُبَّ ذي ضغــنٍ علــيَّ فــارض   لــه قــروءٌ كقــروء الحــائــض

والبكر من البقر التي لم تلد من الصغر، وحكى ابن قتيبة: إنها التي ولدت ولداً واحداً، والبكر من النساء: التي لم يمسها الرجل، والبكر من الأولاد: الأول، ومن الحاجيات: الأولى. والعوان: التي قد ولدت مرة بعد مرة قاله مجاهد، والأخفش، وحكاه أهل اللغة، ومنه قول العرب: «العوان لا تعلَّمُ الخمرَةَ»(٤)، وحرب عوان: قد قوتل فيها مرتين فما زاد(٥). ورفعت عوان على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره هي عوان، وجمعها عونٌ بسكون الواو، وسمع عونٌ بتحريكها بالضم(٦). و[بين](٧) بابها أن تضاف إلى اثنين وأضيفت هنا إلى ذلك، إذ ذلك يشار به إلى المجملات، فذلك عند

---

(١) تقدم الكلام على ذلك عند قوله تعالى [فادْعُ لَنَا رَبَّكَ] الآية.

(٢) يقال: فرضت البقرة إذا أسنت، والماضي بفتح العين وضمها، والمضارع بكسرها وضمها.

(٣) أي الراجز وهو العجاج، والبيت أنشده «الجاحظ» في «الحيوان»، و«ابن منظور» في «اللسان» عن ابن الأعرابي وقوله: له قروء، أي أوقات تهيج فيها عداوته، ويقال: رجع لقرئه أي لوقته، وقوله: فارضٌ أي قديمٌ.

(٤) العوان المرأة التي تزوجت مرة بعد أخرى فهي تعرف كيف تختمر، وهو مثل يضرب للمجرب العارف.

(٥) كأنهم جعلوا الأولى بكراً، والحرب العوان هي أشد الحروب، لأن القتال يتكرر فيها ويشتد ويتصاعد.

(٦) التحريك أصل، والسكون تخفيف، وحكى أبو الحسن الأخفش عن عيسى بن عمر: أن كل اسم على ثلاثة أحرف أوله مضموم ففيه لغتان: التخفيف، والتثقيل نحو: العسر واليسر والهزء، ومما يقوي هذه الحكاية أن ما كان من المجموع على فعل نحو كتب ورسل ففيه الوجهان حتى جاء ذلك في المعتل العين الواوي نحو عون.

(٧) (بين) ظرف مبهم لا يتبين معناه إلا بإضافته إلى اثنين فصاعداً، أو ما يقوم مقام ذلك كقوله تعالى: [عوانٌ بيْنَ ذَلِكَ].

سيبويه نازل منزلة ما ذكرت[١]، فهي إشارة إلى مفرد[٢] على بابه، وقد ذكر اثنان فجاءت أيضاً (بين) على بابها.

وقوله: ﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾ تجديد للأمر، وتأكيد، وتنبيه على ترك التعنت فما تركوه، و﴿ما﴾ رفع بالابتداء و﴿لونها﴾ خبره. وقال ابن زيد، وجمهور الناس في قوله: [صفراء]، إنها كانت كلها صفراء، قال مكي رحمه الله عن بعضهم: حتى القرن والظلف، وقال الحسن بن أبي الحسن، وسعيد بن جبير: كانت صفراء القرن والظلف فقط. وقال الحسن أيضاً: صفراء معناه سوداء، وهذا شاذ لا يستعمل مجازاً إلا في الإبل[٣]، وبه فسر قول الأعشى ميمون بن قيس:

تلك خيلي منه وتلك ركابي هنَّ صفرٌ أولادها كالزَّبيب[٤]

والفقوع: نعتٌ مختص بالصفرة، كما خص أحمر بقانيءٍ، وأسود بحالك، وأبيض بناصع، وأخضر بناضر. و﴿لونها﴾ فاعل بـ﴿فاقعٌ﴾، و﴿تسرُّ النَّاظرين﴾، قال وهب بن منبه، كانت كأن شعاع الشمس يخرج من جلدها، فمعناه تعجب الناظرين، ولهذا قال ابن عباس وغيره: «الصفرة تسر النفس»، وحضَّ ابن عباس على لباس النِّعال

---

(١) وفي بعض النسخ ما ذكر.

(٢) أي: في اللفظ والصورة، وأما في المعنى فهو عبارة عن المذكور، والمذكور اثنان فكلمة (بين) لم تخرج عن بابها وهو الإضافة إلى اثنين فأكثر، و(ذلك) قائم مقام الاثنين هنا.

(٣) اعلم أن الشاذ في الاصطلاح ثلاثة أقسام ـ ما شذ في القياس دون الاستعمال، فهذا قويٌّ في نفسه يصح الاستدلال به، والثاني ما شذ في الاستعمال دون القياس، فهذا لا يستدل به، لأنه كالمفروض، والثالث ما شذ فيهما معاً، فهذا لا يعوَّل عليه لفقد أصليه. وهذا هو المراد بقول ابن عطية رحمه الله: (شاذ لا يستعمل مجازا) الخ. وقال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: الصفراء بمعنى السوداء غلط في نعوت البقر، وإنما يقال ذلك في نعوت الإبل، وإنما كان هذا التفسير شاذاً وغلطاً للتأكيد بالفقوع، وذلك نعت مختص بالصفرة، ولو أريد السواد لما أكده بذلك ـ وأيضاً كيف يصدق على اللون الأسود الذي هو أقبح الألوان أنه(يسر النّاظرين)؟

(٤) الضمير في ﴿منه﴾ يعود على الممدوح، وهو أبو الأشعث قيس بن قيس الكندي، والركاب: الإبل والواحدة: راحلة ولا واحد لها من لفظها. وقوله كالزبيب أي سود، ومن ذلك قوله تعالى ﴿جمالتٌ صفر﴾ أي سود ـ وقوله «هنَّ» أي الركاب. ومن الطريف أن صاحب الكشف قال: إن تفسير (صفر) بسود في بيت الأعشى غير ظاهر، إذ الزبيب الغالب عند العرب هو الطائفي، وهو إلى الصفرة أقرب منه إلى الحمرة.

الصُّفر[١]، حكاه عنه النقاش، وحكى نَهْيَ ابن الزبير، ويحيى بن أبي كثير عن لباس النعال السود، لأنها تهمُّ[٢]، وقال أبو العالية، والسدي: تسر الناظرين معناه في سمتها ومنظرها كلِّه، وسألوا بعد هذا كله عما هي سؤال متحيِّرين قد أحسوا بمقت المعصية.

و[البقر] جمع بقرة، ويجمع أيضاً على باقر، وبه قرأ ابن يعمر، وعكرمة، وتجمع على بقير، وبيقور[٣]، ولم يقرأ بهما فيما علمت.

وقرأ السبعة ﴿تشابه﴾ فعل ماض، وقرأ الحسن والأعرج [تشَّابهُ] بتشديد الشين وضم الهاء أصله تتشابه، وهي قراءة يحيى بن يعمر، فأدغم، وقرأ أيضاً[تشابه] بتخفيف الشين على حذف التاء الثانية، وقرأ ابن مسعود [يشَّابه] بالياء وإدغام التاء، وحكى المهدوي عن المعيطي[٤] ﴿تشبَّه﴾ بتشديد الشين والباء دون ألف، وحكى أبو عمرو الداني قراءة ﴿مُتَشَبِّهُ﴾ اسم فاعل من تَشَبَّهَ، وحكى أيضاً ﴿يَتَشَابَهُ﴾[٥].

وفي استثنائهم في هذا السؤال الأخير إنابةٌ ما، وانقياد، ودليل ندم، وحرص على موافقة الأمر، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «لولا ما استثنوا ما اهتدوا إليها أبداً»[٦]، والضمير في ﴿إنا﴾ هو اسم (إنَّ)، و(مهتدون) الخبر، واللام للتأكيد، والاستثناء اعتراض قدِّم على ذكر الاهتداء تهمماً به.

قوله عز وجل:

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

---

(١) وعنه: «من لبس نعلاً صفراء، لم يزل في سرور ما دام لابسها»، وذلك قوله تعالى: ﴿تسر الناظرين﴾.

(٢) يقال: همَّ الأمر فلاناً وأهمه أقلقه وأحزنه.

(٣) الذي في «لسان العرب» أن هذه الألفاظ المذكورة كلها أسماء للجمع، والبقر يذكَّر ويؤنث.

(٤) هو محمد المعيطي الشامي المعروف بذي الشامة، وردت عنه الرواية في حروف القرآن ـ روى هارون بن موسى، عن أبي نوح، عنه أنه كان يقرأ: [إن الباقر يشَّابه علينا]، بألف بين الباء والقاف، وتشديد الشين، ورفع الهاء.

(٥) مجموع ما ذكره من القراءات سبع بقراءة السبعة، ولا ينبغي أن يقرأ إلا بما وردت به رواية صحيحة، فإن القراءة سنَّة متبعة.

(٦) رواه ابن جرير من طريق ابن جريج مرفوعاً، وقد روي هذا الحديث بألفاظ، والمعنى واحد، وقوله: «لولا ما استثنوا» أي لو لم يقولوا إن شاء الله لما تبينت لهم أبداً.

﴿ذلولٌ﴾ مذَلّلة بالعمل والرياضة، تقول بقرة ذلول، بينة الذِّل، بكسر الذال، ورجل ذلول، بيِّن الذُّل بضم الذال[(١)] وذلول نعت لبقرة أو على إضمار هي، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي [لاذلَول] بنصب اللام[(٢)].

و﴿تثير الأرضَ﴾ معناه بالحراثة، وهي عند قوم: جملة في موضع رفع على صفة البقرة أي: لا ذلول مثيرة. وقال قوم: تثير فعل مستأنف، والمعنى إيجاب الحرث، وأنها كانت تحرث ولا تسقي[(٣)]، ولا يجوز أن تكون هذه الجملة في موضع الحال، لأنها من نكرة[(٤)].

و﴿تسقي الحَرْثَ﴾ معناه بالسانية[(٥)] أو غيرها من الآلات، والحرث: ما حرث وزُرِع. و﴿مسلَّمةٌ﴾ بناءُ مبالغة[(٦)] من السلامة، قال ابن عباس وقتادة، وأبو العالية: معناه من العيوب[(٧)] وقال مجاهد، وقتادة: معناه من الشيات والألوان، وقال قوم: معناه من العمل. و﴿لاشية فيها﴾ أي لا خلاف في لونها، هي صفراء كلها، لا بياض فيها، ولا حمرة، ولا سواد. قاله ابن زيد، وغيره. والموشى المختلط الألوان، ومنه وشي الثوب

---

(١) يقال في الدواب: ذلول ـ وفي بني آدم: ذليلٌ ـ بعير ذلولٌ أي بيِّن الذلّ بالكسر، ورجل ذليلٌ أي بين الذُّل بالضم، وذلك كله فرق لغوي بينهما، والذِّل بالكسر معناه السهولة والانقياد، والذُّل بالضم معناه الضعف والهوان، وقد يوصف الإنسان بذلول كالدابة، وذلك ما صنعه ابن عطية رحمه الله ولكن مراعاة الفرق بينهما أحسن وأفضل.

(٢) أي على أنها نافية والخبر محذوف، أي لاذلول هناك ـ وأبو عبد الرحمن هو: عبدالله بن حبيب بن ربيعة بضم المهملة وكسر التحتانية بينهما موحدة مفتوحة السلمي المقرىء الكوفي ـ عن عمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود ـ وعنه إبراهيم النخعي وسعيد بن جبير، أقرأ القرآن أربعين سنة، وإليه انتهت القراءة تجويداً وضبطاً ومات سنة ٨٥هـ وقبل سنة ٧٤هـ.

(٣) رأي غير واضح، إذ لو كانت تثير لكانت مذللة، والله سبحانه قد نفى عنها ذلك بقوله: (لاذلولٌ).

(٤) إن كان يعني بالنكرة (بقرة) فهي نكرة موصوفة، والنكرة الموصوفة يجيء منها الحال وإن عنى بها (لاذلول) فذلك هو قول الجمهور ولكن في كتاب سيبويه ما يدل على مجيء الحال من النكرة وإن كان الإتباع أفضل، أنظر تفسير أبي (ح).

(٥) السانية(بالنون): وهي الناقة التي يُستقى عليها، وفي المثل: «سير السواني سفرٌ لا ينقطع» ويقال: سنت الناقة تسنو سناوة وسناية إذا سقت الأرض.

(٦) ليس التضعيف هنا من أجل المبالغة، وإنما هو تضعيف النقل والتعدية كما هو معلوم في علم العربية. تقول: سلم زيد وإن أردت تعديته تقول سلّمته، وفرح زيد وفرَّحته، وهكذا، والله أعلم.

(٧) هذا التفسير أولى وأنسب بالمقام. وأما السلامة في العمل ومن اختلاط الألوان فقد وقع النص عليهما في الآية الكريمة.

تزيينه بالألوان، ومنه الواشي لأنه يزين كذبه بالألوان من القول، والثَّور الأَشْيه الذي فيه بلْقَةٌ. يقال: فرسٌ أبلق، وكبشٌ أخرج، وتيسٌ أبْرَق، وكلبٌ أبْقَع، وثَوْرٌ أشْيع، كل ذلك بمعنى البلقة[١].

وهذه الأوصاف في البقرة سببها أنهم شدَّدوا فشدد الله عليهم، ودين الله يسر، والتعمق في سؤال الأنبياء مذموم[٢].

وقصة[٣] وجود هذه البقرة على ما روي أن رجلا من بني إسرائيل ولد له ابن، وكانت له عجلة فأرسلها في غيضة، وقال: اللهم إني استودعتك هذه العجلة لهذا الصبي، ومات الرجل، فلمَّا كبر الصبي قالت له أمه: إن أباك كان قد استودع الله عجلة لك، فاذهب فخذها، فذهب، فلما رأته البقرة جاءت إليه حتى أخذ بقرنيها، وكانت مستوحشة فجعل يقودها نحو أمه، فلقيه بنو إسرائيل ووجدوا بقرته على الصفة التي أمروا بها.

وروت طائفة أنه كان رجل من بني إسرائيل براً بأبيه، فنام أبوه يوماً وتحت رأسه مفاتيح مسكنهما، فمر به بائع جوهر، فسامه فيه بستين ألفاً، فقال له ابن النائم: اصبر حتى ينتبه أبي، وأنا آخذه منك بسبعين ألفاً، فقال صاحب الجوهر: أنبه أباك وأنا أعطيكه بخمسين ألفاً، فدام كذلك حتى بلغه مائة ألف وانحط صاحب الجوهر إلى ثلاثين ألفاً، فقال له ابن النائم: والله لا أشتريه منك بشيءٍ، براً بأبيه، فعوَّضه الله منه أن وجدت البقرة عنده.

وقال قوم: وجدت عند عجوز تعول يتامى كانت البقرة لهم، إلى غير ذلك من اختلاف في قصتها، هذا معناه، فلما وجدت البقرة ساموا صاحبها؟، فاشتط عليهم، وكانت قيمتها على ما روي عن عكرمة ثلاثة دنانير، فأتوا به موسى عليه السلام،

---

(١) البلْقة: سواد وبياض يقال: بلق الفرس بَلَقاً وبُلقة: كان فيه سواد وبياض. فهو أبلق، وهي بلقاء وجمعه بلق، قال أبو حيان رحمه الله «وليس الأشيه مأخوذاً من (الشِّية) لاختلاف المادتين ـ وأقول: إنَّ أهل اللغة ذكروا الأشية في مادة (وشى).

(٢) في الحديث الصحيح: «وإنما أهلك من قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم»، وفي حديث سعد بن أبي وقاص المتفق عليه: «أعظم الناس جُرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم لأجل مسألته».

(٣) ذكر في هذه القصة ثلاث روايات، والذي يظهر أن ذلك مأخوذ من الإسرائيليات، وذلك مما يجوز نقله ولكن لا نصدق ولا نكذب ولا نعتمد إلا على ما روي برواية مقبولة وصحيحة.

وقالوا: إن هذا اشتط علينا، فقال لهم: أرضوه في ملكه فاشتروها منه بوزنها مرة، قاله عبيدة السلماني[(١)]، وقيل: بوزنها مرتين، وقال السدي: بوزنها عشر مرار. وقال مجاهد: كانت لرجل يبر أمه، وأخذت منه بملء جلدها دنانير، وحكى مكي أن هذه البقرة نزلت من السماء، ولم تكن من بقر الأرض، وحكى الطبري عن الحسن أنها كانت وحشية.

و[الآن] مبني على الفتح، ولم يتعرف بهذه الألف واللام، ألا ترى أنها لا تفارقه في الاستعمال؟ وإنما بُني لأنه ضمِّن معنى حرف التعريف، ولأنه واقع موقع المبهم[(٢)]، إذ معناه هذا الوقت، وهو عبارة عما بين الماضي والمستقبل، وقرئ: ﴿قالوا ٱلآن﴾ بسكون اللام وهمزة بعدها، و﴿قالوا ألان﴾ بمدة على الواو وفتح اللام دون همز، و﴿قالوا الآن﴾ بحذف الواو من اللفظ دون همز، و﴿قالوا ألآن﴾ بقطع الألف الأولى وإن كانت ألف وصل، كما تقول: يا ألله.

و﴿جئْتَ بالحقِّ﴾ معناه عند من جعلهم عصاة[(٣)]: بَيَّنْتَ لنا غاية البيان، وجئْت بالحق الذي طلبناه، لا أنه كان يجيء قبل ذلك بغير حق، ومعناه عند أبي زيد الذي حمل محاورتهم على الكفر: الآن صدقت، وأذعنوا في هذه الحال حين بين لهم أنها سليمة، وقيل: إنهم عيَّنوها مع هذه الأوصاف، وقالوا هذه بقرة فلان، وهذه الآية تعطي أن الذبح أصل في البقر، وإن نحرت أجزت[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وما كادوا[(٥)] يفعلون﴾، عبارة عن تثبطهم في ذبحها، وقلة مبادرتهم

---

(١) هو عبيدة بن عمرو بالفتح أو ابن قيس السلماني أبو عمرو الكوفي التابعي الكبير، أسلم في حياة النبي ﷺ، ولم يره، فهو من المخضرمين، أخذ القراءة عرضاً عن ابن مسعود رضي الله عنه، وعن علي، توفي سنة ٧٢هـ.

(٢) أي لوقوعه موقع اسم الإشارة إذ معناه: هذا الوقت الحاضر.

(٣) سبق عند تفسير قوله تعالى: ﴿قالوا أتتخذنا هُزوا﴾ أن من الناس من حمل قولهم هذا على الكفر، ومن الناس من حمله على المعصية، ومراد ابن عطية رحمه الله تطبيق هذه الآية على التأويلين السابقين.

(٤) في مختصر المالكية للشيخ خليل رحمه الله عاطفاً على الوجوب: «ونحر إبل، وذبح غيره إن قَدَرَ وجازا للضرورة إلا البقر فيندب الذبح».

(٥) اختلف في معنى هذه الكلمة فقال بعضهم: (كاد) من أفعال المقاربة، لها حكم سائر الأفعال في النفي والإثبات ـ وقال بعضهم: (كاد) لها شأن ليس لغيرها من الأفعال ـ فإنها إذا أثبتت نفت وإذا نفت أثبتت ـ وقال بعضهم، ومنهم ابن مالك: إذا استعملت مثبتة اقتضت نفي خبرها وإذا استعملت منفية اقتضت =

إلى أمر الله. وقال محمد بن كعب القرظي: كان ذلك منهم لغلاء البقرة وكثرة ثمنها، وقال غيره: كان ذلك خوف الفضيحة في أمر القاتل. وقيل: كان ذلك للمعهود من قلّة(١) انقيادهم، وتعنتهم على الأنبياء، وقد تقدم قصص القتيل الذي يراد بقوله تعالى: ﴿وإذ قَتَلْتُمْ نَفساً﴾، والمعنى قلنا لهم اذكروا إذْ قتَلْتُمْ، و(ادَّارَأْتُمْ) أصله: تدارأتم. وأدغمت التاء في الدال، فتعذر الابتداء بمدغم فجلبت ألف الوصل، ومعناه تدافعتم أي دفع بعضكم قتل القتيل إلى بعض. قال الشاعر:

صــادَفَ درْءُ السَّيْـلِ دَرْءًا يـدْفَعُـهُ . . . . (٢)

وقال الآخر:

مِـدْرَأٌ يـدْرَأُ الخُصُـومَ بقَـوْلٍ مثْلُ حـدِّ الصَّمْصَامَـةِ الهُنْدُوانـي

= نفيه بطريق الأولى ـ واعتذر عن مثل قوله تعالى ﴿فذبحوها وما كادوا يَفْعَلُونَ﴾، بأن هذا وارد على كلامين متباينين: أي فعلت كذا بعد أن لم أكن مقارباً له، بل كان آيساً منه فهما كلامان مقصود بهما أمران متباينان، والصحيح من هذا الخلاف أنها فعل يقتضي المقاربة ولها حكم سائر الأفعال، ونفي الخبر لم يستفد من لفظها ووضعها فإنها لم توضع لنفيه، وإنما استفيد من لوازم معناها، فإنها إذا اقتضت مقاربة الفعل لم يكن واقعاً فيكون منفياً باللزوم، وأما إن استعملت منفية فإن كانت في كلام واحد فهي لنفي المقاربة كما إذا قلت: لا يكاد البطال ينجح، وإن كانت في كلامين كما هنا اقتضت وقوع الفعل بعد أن لم يكن مقارباً بل كان آيساً منه كما قال ابن مالك رحمه الله. وبعد فسبحان من فاوت بين عباده في الإدراك والفهم، وفي المعرفة والعلم ـ قال لإبراهيم عليه الصلاة والسلام: اذبح ولدك، فتله للجبين وقال لبني إسرائيل: اذبحوا بقرة فذبحوها وما كادوا يفعلون.

(١) هذا القول يقرب من القول الأول وهو الذي يظهر والله أعلم.

(٢) وفي لسان العرب ما نصه: «وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه: صادفَ دَرْءُ السيّل درْءًا يدفَعُهْ ـ يقال للسيل ـ إذا أتاك من حيث لا تحتسبه سيلُ درءٍ، أي يدفع هذا ذاك وذاك هذا ـ ويقال: جاء السيل درءًا إذا جاء من بلد بعيد» ـ وفي تاج العروس ما نصه:

وفي حديث أبي بكر:

صــادف درْءُ السيَّـل سيـلاً يـدفعــه يمضيــه طَـوْراً وطَـوْراً يمنعــه

وروى عجز البيت بروايات منها:

. . . . يهيضــه حينــاً وحينــاً يصــدعــه

. . . . يــرفعــه حينــاً وحينــاً يضعــه

وقال ابن الأثير: وفي حديث أبي بكر والقبائل قال له دغفل: صادف.. الخ.

وفي المعجم الوسيط (مادة درأ): «وفي المثل: (صادف درء السيل درءاً يصدعه). أي: صادف الشرُّ شراً يغلبه: يضرب لمن يجد من هو أقوىٰ منه» اهـ.

والضمير في قوله [فيها] عائد على النفس، وقيل: على القتلة. وقرأ أبو حيْوةَ، وأبو السوار الغنوي: [وإذْ قَتَلْتُمْ نَسَمَةً[١] فادَّرَأْتُمْ][٢]. وقرأت فرقة: [فَتَدَارَأْتُمْ] على الأصل. وموضع(ما) نصب بمخرج والمكتوم هو أمر المقتول. وقوله: [اضْربُوهُ بِبَعْضِهَا]، آية من الله تعالى على يدي موسى عليه السلام، أن أمرهم أن يضربوا ببعض البقرة القتيل، فيحيا ويخبر بقاتله، فقيل: ضربوه: وقيل: ضربوا قبره لأن ابن عباس ذكر أنَّ أمر القتيل وقع قبل جواز البحر، وأنهم داموا في طلب البقرة أربعين سنة، وقال القرظي: لقد أُمروا بطلبها وما هي في صلب ولا رحم بَعْد. وقال السدي: ضرب باللحمة التي بين الكتفين[٣] وقال مجاهد، وقتادة، وعبيدة السلماني: ضرب بالفخذ، وقيل ضرب باللسان، وقيل: بالذنب، وقال أبو العالية: بعظم من عظامها. وقوله تعالى: [كَذَلِكَ يُحْيِي الله الْموتى] الآية، الإشارة بذلك إلى الإحياء الذي تضمنه قصص الآية، إذ في الكلام حذف تقديره فضربوه فحيي. وفي هذه الآية حضٌّ على العبرة، ودلالة على البعث في الآخرة، وظاهرها أنها خطاب لبني إسرائيل حينئذ، حُكي لمحمد ﷺ ليعتبر به إلى يوم القيامة، وذهب الطبري إلى أنها خطاب لمعاصري محمد ﷺ، وأنها مقطوعة من قوله: [اضْربُوه بِبَعْضِهَا][٤]، واستدل مالك رحمه الله بهذه النازلة على تجويز قول القتيل[٥]، وأن تقع معه القسامة.

---

(١) هكذا في النسخ التي بأيدينا، ولم يذكر أحد من المفسرين فيما علمنا (نَسَمةً) بدل (نفساً) على قراءة، ونقل أبو حيان عبارة ابن عطية هكذا: وقرأ أبو حيوة، وأبو السوار الغنوي [وإذ قَتَلتمْ نَفْساً فادَّرَأتُمْ فيها] فانظره في «البحر المحيط» ١/٢٥٩ وفي الآية نسبة ما فعله بعضهم إلى الكل وهو شائع في كلام العرب.

(٢) أي من دون ألف قبل الراء، ونقل أبو حيان أن أبا السوار قرأ (فدرأتُمْ).

(٣) لا شيء يسند هذا التعيين، فالأولى أن نبهمه كما أبهمه الله تعالى، وإذا بان لنا ما يعتمد من السنن فإننا نعتمده.

(٤) أي لا تتصل به، ولا تخاطب من يخاطبه، فهي خطاب لبني إسرائيل المعاصرين لمحمد ﷺ، والخطاب في (اضربوه ببعضها) لبني إسرائيل الحاضرين للقصة.

(٥) أي قبول قول الجريح: فلانٌ قتلني، أوْ دمي عند فلان مع القسامة، وهي أن يحلف أولياؤه خمسين يميناً، وإنما يصح هذا الاحتجاج إذا صحت القصة به وإلا فالآية لا تدل على صحة القسامة بقول القتيل قتلني فلان.

قوله عز وجل:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿قَسَتْ﴾ أي صلبت وجفَّت، وهي عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى. وقال ابن عباس: المرادُ قلوب ورثة القتيل، لأنهم حين حيي، وقال إنهم قتلوه، وعاد إلى حال موته أنكروا قتله، وقالوا: كذب. بعد ما رأوا هذه الآية العظمى لكن نفذ حكم الله تعالى بقتلهم. قال عبيدة السلماني: ولم يرث قاتل من حينئذ[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبمثله جاء شرعنا[2] وحكى مالك رحمه الله في الموطأ: أن قصة أحيحة بن الجلاح في عمه هي التي كانت سبباً ألا يرث قاتل ثم ثبَّت ذلك الإسلام، كما ثبَّت كثيراً من نوازل الجاهلية[3]. وقال أبو العالية، وقتادة، وغيرهما: إنما أراد الله قلوب بني إسرائيل جميعاً في معاصيهم وما ركبوه بعد ذلك. وقوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ الآية، الكاف في موضع رفع خبر لهي، تقديره: فهي مثل الحجارة ﴿أو أشدُّ﴾ مرتفع بالعطف على الكاف، أو على خبر الابتداء بتقدير تكرار هي، و﴿قَسْوَةً﴾ نصب على التمييز. والعرف في ﴿أوْ﴾، أنها للشك، وذلك لا يصح في هذه

---

(١) أي القاتل عمداً، والآية لا تدل على حرمان القاتل من الإرث، وإنما تدل على ذلك القصة التي جاء في آخرها فما ورث قاتل بعدها ممَّنْ قتله، ولذلك اعتمد الإمام مالك في الموطأ قضية أحيحة بن الجلاح كما قاله القاضي أبو محمد رحمه الله.

(٢) وهذا دليل على أن شرع من قبلنا شرع لنا مالم يرد ناسخ.

(٣) نص الموطأ: «وحدثني مالك، عن يحيى بن سعيد، عن عروة بن الزبير أن رجلا من الأنصار يقال له أحيحة بن الجلاح، كان له عم صغير هو أصغر من أحيحة، وكان عند أخواله، فأخذه أحيحة فقتله، فقال أخواله: كنَّا أهل ثُمِهِ وَرَمِه، حتى إذا استوى على عممه، غلبنا حق امرىء في عمه. قال عروة فلذلك لا يرث قاتل من قتل. قال مالك: الأمر الذي لا اختلاف فيه عندنا أن قاتل العمد لا يرث من دية من قتل شيئاً، ولا من ماله، ولا يحجب أحداً وقع له ميراث، وأن الذي يقتل خطأ لا يرث من الدية شيئاً، وقد اختلف في أن يرث من ماله لأنه لا يتهم على أنه قتله ليرثه، وليأخذ ماله، فأحب إلي أن يرث من ماله ولا يرث من ديته» انتهى.

الآية[١]. واختلف في معنى [أو]، هنا، فقالت طائفة: هي بمعنى الواو كما قال تعالى: ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[٢]، أي وكفوراً. وكما قال الشاعر[٣]:

نـالَ الخِـلافَـةَ أوْ كـانـتْ لـهُ قَـدَراً   كَمـا أتَـى رَبَّـه مـوسـى علـى قَـدَر

أي وكانت له. وقالت طائفة: هي بمعنى بل، كقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[٤]، المعنى بل يزيدون. وقالت طائفة: معناها التخيير، أي شبّهوها بالحجارة تصيبوا، أو بأشد من الحجارة تصيبوا[٥]. وقالت فرقة: هي على بابها في الشك، ومعناه عندكم أيها المخاطبون، وفي نظركم أن لو شاهدتم قسوتها لشككتم: أهي كالحجارة أو أشد من الحجارة؟ وقالت فرقة: هي على جهة الإبهام[٦] على المخاطب، ومنه قول أبي الأسود[٧] الدؤلي:

أُحِـبُّ محمَّـداً حُبَّـا شـديـدا   وعبَّـاسـاً وحَمْـزَةَ أوْ عَليَّـا

ولم يشكَّ أبو الأسود، وإنما قصد الإبهام على السامع، وقد عورض أبو الأسود في هذا واحتج بقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٨]، وهذه الآية مفارقة لبيت أبي الأسود، ولا يتم معنى الآية إلا بأو. وقالت فرقة: إنما أراد الله تعالى أنَّ فيهم من قلبه كالحجر، وفيهم من قلبه أشد من الحجر[٩]، فالمعنى فهي

---

(١) أي إجماعاً، لأن الشك خلاف اليقين، وهو على الله محال.

(٢) من الآية (٢٤) من سورة الإنسان.

(٣) هو جرير بن عطية يمدح عمر بن عبد العزيز.

(٤) من الآية (١٤٧) من سورة الصافات.

(٥) أي من دون جمع بينهما، بخلاف الإباحة فلك أن تجمع بينهما نحو قم أو اقعد.

(٦) أي التشكيك، والفرق بين الشك والتشكيك أن المتكلم في الشك لا يعرف التعيين وفي التشكيك يعرفه، ولكن أبهمه على السامع كقوله تعالى: [وإنَّا أوْ إياكم لَعَلى هدًى أو في ضَلالٍ مُّبين].

(٧) اسمه ظالم بن عمرو البصري وهو من أعيان التابعين، ويعتبر من الشعراء والمحدثين والنَّحويين، وهو أول من تكلم في النحو. وبعد البيت المذكور:

فـإن يـكُ حبُّهـم رشـداً أصبـهُ   وليـس بمخطئـي إنْ كـان غيَّـا

توفي سنة ٩٦هـ.

(٨) من الآية (٢٤) من سورة سبأ.

(٩) يعني أن منهم من قلبه كالحجارة، ومنهم من قلبه أقسى من الحجارة. فهي للتفصيل كما هي في قوله (أطعمتك الحلو أو الحامض). أي مرة أطعمتك الحلو ومرة الحامض، بحيث لا يخرج الإطعام عنهما، وما نسبه المؤلف رحمه الله إلى الفرقة بعد يقرب من هذا، والله أعلم.

فرقتان كالحجارة أو أشد، ومثل هذا قولك أطعمتك الحلو أو الحامض، يريد أنه لم يخرج ما أطعمته عن هذين. وقالت فرقة: إنما أراد عز وجل أنها كانت كالحجارة يُترجى لها الرجوع والإنابة كما تتفجر الأنهار ويخرج الماء من الحجارة، ثم زادت قلوبهم بعد ذلك قسوة بأن صارت في حد من لا ترجى إنابته، فصارت أشد من الحجارة فلم تخل أن كانت كالحجارة طورا أو أشد طورا، وقرأ أبو حيوة [قساوة]، والمعنى واحد.

وقوله تعالى: ﴿وإنَّ من الْحِجَارَةِ﴾ الآية معذرة للحجارة، وتفضيل لها على قلوبهم في معنى قلة القسوة. وقال قتادة: عذر الله تعالى الحجارة ولم يعذر شقيَّ بني آدم. وقرأ قتادة: [وإنْ]، مخففة من الثقيلة، وكذلك في الثانية والثالثة، وفرق بينها وبين النافية لام التأكيد في [لما]، و[ما] في موضع نصب اسم لإنَّ، ودخل اللام على اسم ﴿إنَّ﴾ لما حال بينهما المجرور، ولو اتصل الاسم بإنَّ لم يصحَّ دخول اللام لثقل اجتماع تأكيدين. وقرأ مالك بن دينار[1] [يَنْفَجِر] بالنون وياءٍ من تحت قبلها وكَسْر الجيم. ووحد الضمير في [مِنْه] حملا على لفظ [ما]. وقرأ أبي بن كعب، والضحاك [منها الأنهار] حملاً على الحجارة. والأنهار جمع نهر[2]، وهو ما كثر ماؤه جرياً من الأخاديد.

وقرأ طلحة بن مصرف [لمَّا] بتشديد الميم في الموضعين وهي قراءة غير متجهة. و﴿يَشَّقَّقُ﴾ أصله يتشقّقُ، أدغمت التاءُ في الشين، وهذه[3] عبارة عن العيون التي لم تعظم حتى تكون أنهاراً، أو عن الحجارة التي تشَّقَّق وإنْ لم يجر ماءٌ منفسح[4].

وقرأ ابن مصرف: [ينْشَقِقُ] بالنون. وقيل في هبوط الحجارة[5]: تفيؤ ظلالها،

---

(١) أبو مالك يحيى بن دينار البصري، من العلماء الزاهدين، عرف بالورع، وكان يكتب المصاحف بالأجر ـ توفي سنة (١٣١) هـ.

(٢) بفتح الهاء وسكونها والفتح أفصح.

(٣) يعني قوله تعالى: ﴿وإنَّ منها لما يشَّقَّقُ﴾، هي في العيون التي تكون دون الأنهار، أو في الحجارة التي تشقق عن ماء يسير.

(٤) أي كثير، يقال انفسح المراح: كثرت إبله، وفي بعض النسخ منسفح، والماء المنسفح هو المراق ولكنه يكون قليلا.

(٥) محصل ما أشار إليه رحمه الله في تأويل الهبوط من خشية الله خمسة أقوال: الأول: معنى هبوطها: تفيؤ ظلالها أي تقلبها من مكان إلى مكان، والثاني: يعني هبوطها: اندكاك الجبل الذي تجلى له ربه في =

وقيل: المراد الجبل[١] الذي جعله الله دكاً، وقيل: إن الله تعالى يخلق في بعض الأحجار خشية وحياة يهبط بها من علو تواضعاً.

ونظير هذه الحياة حياة الحجر المسلِّم على النبي ﷺ، وحياة الجزع الذي أنَّ لفقد النبي ﷺ. وقيل: لفظة الهبوط مجاز[٢]، وذلك أن الحجارة ـ لما كانت القلوب تعتبر بخلقها، وتخشع ببعض مناظرها ـ أضيف تواضع الناظر إليها كما قالت العرب: «ناقة تاجرة»، أي تبعث من يراها على شرائها[٣]. وقال مجاهد: «ما تردى حجر من رأس جبل، ولا تفجر نهر من حجر، ولا خرج ماءٌ منه إلا من خشية الله نزل بذلك القرآن»، وقال مثله ابن جريج، وحكى الطبريُّ عن فرقة: أن الخشية للحجارة مستعارة[٤] كما استعيرت الإرادة للجدار في قوله تعالى: [يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ][٥]، وكما قال زيد الخيل:

بِجَمْـعٍ تضـلُّ البُلْـقُ فـي حُجُـرَاتِـهِ ... ترى الأُكمَ فيه سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ[٦]

وكما قال جرير:

. . . . .الجبـــــال الخُشَّـــــعُ[٧]

= قضية موسى عليه السلام، والثالث: أن الله سبحانه يخلق في بعض الأحجار حياة وخشية يهبط بها من علو تواضعاً، كما قال الإمام مجاهد: ما تردى حجر من رأس جبل، ولا تفجر نهر من حجر، ولا نزل ماء منه إلا من خشية الله، وقد قوَّى ابن عطية رحمه الله هذا القول، والرابع: أن الهبوط مجاز عن تواضع الناظر إلى الحجارة، والخامس: أن خشية الحجارة مستعارة ومتخيلة. والله أعلم.

(١) الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، إذ جعله دكاً وخرَّ موسى صعقاً.

(٢) أي عن التواضع.

(٣) أي لما فيها من النجابة والفراهة فهي نافقة وداعية إلى الإقبال على شرائها.

(٤) أي متخيلة بمعنى أن من نظر إلى الحجر هابطاً تخيل فيه خشية الله.

(٥) أي كأنه يريد، لأنه ظهر فيه من الميل ما لو ظهر من حيٍّ لدل على إرادته الانقضاض.

(٦) زيد الخيل: هو زيد بن المهلهل الطائي، يكنى أبا مكنف، قدم على النبي ﷺ سنة ٩هـ وأسلم، وسماه زيد الخير، جعل ما ظهر من تأثر الأكم بالحوافر سجوداً لها، يعني أنه تخيل ذلك، والخيال باب واسع، وقوله: (بجمع) يتعلق بما قبله وهو:

بنـي عـامـرٍ، هـل تعـرفُـون إذَا غـدا ... أبـو مكنـف قـد شـدَّ عقـد الـدَّوابـر

والحجرات جمع حجرة: النواحي، ويقال: بلق الفرس: كان فيه سواد وبياض.

(٧) نص البيت بتمامه:

لمَّـا أتـى خَبَـرُ الـزُّبَيـر تـواضَعَـت ... سُـور المـدينـة والجبـالُ الخُشَّـعُ

وهو لجرير بن عطية يصف مقتل الزبير بن العوام حين انصرف من وقعة الجمل وقتل في الطريق، =

أي من رأى الحجر[١] هابطاً تخيل فيه الخشية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف، لأن براعة معنى الآية تختل به، بل القويُّ أن الله تعالى يخلق للحجارة قدراً ما من الإدراك تقعُ به الخشية والحركة[٢].

و﴿بغافل﴾ في موضع نصب خبر [ما]، لأنها الحجازية، يقوِّي ذلك دخول الباء في الخبر، وإن كانت الباءُ قد تجيءُ شاذة مع التميمية.

وقرأ ابن كثير: [يعملون] بالياء، والمخاطبة على هذا لمحمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ الآية. الخطاب للمؤمنين من أصحاب محمد ﷺ، وذلك أن الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحلف والجوار الذي كان بينهم. ومعنى هذا الخطاب التقرير[٣] على أمر فيه بُعْدٌ، إذ قد سلفت لأسلاف هؤلاء اليهود أفاعيل سوءٍ، وهؤلاء على ذلك السَّنَن. والفريق: اسم جمع لا واحد له من لفظه كالحزب. وقال مجاهد، والسدي: عني بالفريق هنا الأحبار الذين حرفوا التوراة في صفة محمد ﷺ.

وقيل: المراد كلُّ مَنْ حرَّف في التوراة شيئاً حكماً أو غيره، كفعلهم في آية الرجم ونحوها، وقال ابن إسحق، والربيع: عني السبعون الذين سمعوا مع موسى، ثم بدَّلوا بعد ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا القول ضعف، ومن قال إن السبعين سمعوا ما سمع موسى فقد أخطأ، وأذهب فضيلة موسى عليه السلام، واختصاصه

= والمدينة مدينة النبي ﷺ، تواضعت هي وجبالها، وخشعت حزناً لموته رضي الله عنه، أي كأنها كذلك ـ وإنّما أنّث الفعل في البيت لأن المضاف إلى المؤنث مؤنث.

(١) يعني أن الجدار المائل تخيل فيه الإرادة.

(٢) أي قدراً من الإدراك والمعرفة لائقاً بحالها وطبيعتها، فإن المعرفة أنواع، ومعرفة الإنسان غير معرفة الحيوان، ومعرفة الحيوان غير معرفة الجمادات، وكل ذلك بخلق الله تعالى فيها قوة تسمى معرفة. والله أعلم.

(٣) أي الحمل على الإقرار، والاعتراف بما فيه بُعْدٌ وهو إيمان اليهود، والمراد أن الاستفهام فيه معنى الإقرار كأنه قيل: قد طمعتم في إيمان هؤلاء وحالهم بعيد عن الإيمان. وقد تجري الهمزة مجرى الإنكار في كثير من المواضع إذا لم يكن معها نفي، فإذا جاءت مع النفي استدعت الإقرار نحو: ﴿أليس الله بكافٍ عَبْدَه﴾؟ فجوابه: بلى. وجواب (أفتطمعون): لا، على ما أشرنا إليه.

بالتكليم. وقرأ الأعمش [كَلِمَ الله]، وتحريف الشيء إمالته من حال إلى حال[١]، وذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أن تحريفهم وتبديلهم إنما هو بالتأويل، ولفظ التوراة باق، وذهب جماعة من العلماء إلى أنهم بدّلوا ألفاظاً من تلقائهم، وأن ذلك ممكن في التوراة لأنهم استحفظوها، وغير ممكن في القرآن لأن الله تعالى ضمن حفظه.

قوله عز وجل:

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾.

المعنى: وهم أيضاً إذا [لقوا] يفعلون هذا، فكيف يطمع في إيمانهم. ويحتمل[٢] أنْ يكون هذا الكلام مُسْتأنفاً مقطوعاً من معنى الطمع، فيه كشْفُ سرائرهم. وورد في التفسير أن النبي ﷺ قال: «لا يدخلنَّ علينا قَصَبَةَ المدينة إلا مؤمن»[٣]. فقال كعب بن الأشرف ووهب بن يهودا، وأشباههما: اذهبوا وتحسسوا أخبار من آمن بمحمد، وقولوا لهم آمنا، واكفروا إذا رجعتم، فنزلت هذه الآية، وقال ابن عباس: نزلت في منافقين من اليهود، وروي عنه أيضاً أنها نزلت في قوم من اليهود قالوا لبعض المؤمنين: نحن نؤمن أنه نبيٌّ، ولكن ليس إلينا، وإنما هو إليكم خاصة، فلما خلوا قال بعضهم: لم تُقِرُّون بنبُوَّته وقد كنا قبل نستفتح به؟ فهذا هو الذي فتح الله عليهم من علمه، وأصل [خلا] خَلَوَ تحركت الواو وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً. وقال أبو العالية وقتادة،: إن بعض اليهود تكلم بما في التوراة من صفة محمد ﷺ، فقال لهم كفرة الأحبار: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم • أي عرَّفكمْ من صفة محمد ـ فيحتجون عليكم إذ تُقِرُّون

(١) التحريف: تغيير الكلام عن مواضعه ومعانيه وإمالته من حال إلى حال، فهو مأخوذ من الانحراف بمعنى الميلان، والتحريف يشمل تحريف المعاني وتحريف الألفاظ، إلا أنه لا ينبغي الإفراط في أنهم قد حرَّفوا الكل أو الجُلَّ، فهناك ما قد بدِّل، وهناك ما لم يبدل ولكن التحريف والتبديل طبيعة فيهم، وكل ما يصدر عنهم موضع شك.

(٢) هذا الاحتمال أوْجه، لأن القصد فضح نفاقهم وكشف سرائرهم، ويؤيده ما ذكره ابن عطية من الأقوال في سبب نزول الآية الكريمة.

(٣) رواه ابن جرير عن ابن زيد، والقصبة: المدينة، والإضافة، بيانية.

به ولا تؤمنون به[١]؟ وقال السدي: إن بعض اليهود حكى لبعض المسلمين ما عذِّب به أسلافهم، فقال بعض الأحبار: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب، فيحتجون عليكم، ويقولون: نحن أكرم على الله حين لم يفعل بنا هذا؟، وفتح ـ على هذا التأويل ـ بمعنى: حَكَمَ.

وقال مجاهد: إن رسول الله ﷺ قال لبني قريظة: يا إخوة الخنازير والقردة. فقال الأحبار لأتباعهم: ما عرف هذا إلا من عندكم. أتحدثونهم؟ وقال ابن زيد: كانوا إذا سئلوا عن شيءٍ قالوا: في التوراة كذا وكذا، فكرهت الأحبار ذلك ونهوا في الخلوة عنه، ففيه نزلت الآية. والفتح في اللغة ينقسم أقساماً تجمعها بالمعنى التوسعة وإزالة الإبهام، وإلى هذا يرجع الحكم وغيره[٢]، والفتَّاح هو القاضي بلغة اليمن، و[يُحَاجُّوكمْ] منَ الحُجَّة وأصله من حجَّ إذا قصد، لأن المتحاجَّيْن كل واحد منهما يقصد غلبة الآخر، و[عند رَبِّكُمْ] معناه في الآخرة[٣]، وقيل (عِنْدَ) بمعنى: في ربكم ـ أي فيكونون أحق به، وقيل: المعنى: عند ذكر ربكم. وقوله تعالى: [أفَلا تَعْقِلُونَ]، قيل: هو من قول الأحبار[٤] للأتباع، وقيل: هو خطاب من الله للمؤمنين، أي: أفلا تعقلون أنَّ بني إسرائيل لا يؤمنون وهم بهذه الأحوال؟. والعقل علوم ضرورية[٥].

وقرأ الجمهور: (أولا يَعْلَمُونَ) بالياء من أسفل، وقرأ ابن محيصن (أولا تَعْلَمُونَ) بالتاءِ خطاباً للمؤمنين.

---

(١) على قول أبي العالية يكون (فتح) عليكم معناه: علَّمكم وعرَّفكم، وعلى قول السدي يكون معناه: بما حكم وقضى من تعذيبهم، وعلى قول ابن زيد يكون المعنى: بما بيَّن وأنزل، وكل هذه المعاني ترجع إلى الحكم والقضاء أو التوسعة وإزالة الإبهام.

(٢) قال الإمام ابن جرير رحمه الله: «أصل الفتح في كلام العرب القضاء والحكم، المعنى أتحدثونهم بما حكم الله به عليكم وقضاه فيكم؟ ومن حكمه تعالى وقضائه فيهم ما أخذ به ميثاقهم من الإيمان بمحمد ﷺ». انتهى.

(٣) أي عند اجتماعهم يوم القيامة، كما قال تعالى: [ثمَّ إنَّكُمْ يوم القيامة عنْدَ ربِّكُمْ تَخْتَصمون] فهو متعلق بقوله تعالى: (ليُحاجُّوكُمْ).

(٤) أي من تمام كلامهم.

(٥) هذا قول القاضي أبي بكر الباقلاَّني المالكي، وتبعه إمام الحرمين في كتابه: «الإرشاد». ومعناه أن العقل هو نفس العلوم الضرورية، أي الوجوب والاستحالة والجواز ـ واستدلوا على ذلك بأنه لا يتصف بالعقل من هو عار عن العلوم كالحجر ـ والحق أنَّ العقل نور، أو قدرة، به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية، وليس من قبيل العلوم، والله أعلم.

والذي أسرُّوه: كفرهم ـ والذي أعلنوه: قولهم: آمنا، هذا في سائر اليهود، والذي أسرَّهُ الأحبار: صفَةُ محمد ﷺ والمعرفة به، والذي أعلنوه: الجَحْدُ به، ولفظ الآية يعم الجميع. و[أمِّيُّونَ] هنا عبارة عن جَهَلَةٍ بالتوراة. قال أبو العالية، ومجاهد، وغيرهما: المعنى: ومن هؤلاء اليهود المذكورين. فالآية مُنَبِّهَة على عامتهم وأتباعهم، أيْ أنَّهم ممَّن لا يُطمع في إيمانهم، لما غمرهم من الضلال. وقيل: المراد هنا بالأُمِّيِّين قومٌ ذهب كتابهم لذنوب ركبوها فبقوا أميين. وقال عكرمة والضَّحَّاك: هم في الآية نصارى العرب، وقيل: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: هم المجوس، والضمير في [منهم] على هذه الأقوال هو للكفار أجمعين، وقول أبي العالية، ومجاهد وَجْهُ[1] هذه الأقوال، وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبلة: [أُمِيُّون] بتخفيف الميم، والأمِّيِّ في اللغة الذي لا يكتب ولا يقرأ في كتاب ـ نُسِبَ إلى الأمِّ، إما لأنه بحال أمه من عدم الكتاب، لا بحال أبيه، إذ النساء ليس من شغلهن الكتاب، قاله الطبري، وإمَّا لأنه بحالٍ ولدته أمه فيها، لم ينتقل عنها، وقيل: نُسب إلى الأُمة وهي القامة والخلقة، كأنه ليس له من الآدميين إلا ذلك، وقيل: نسب إلى الأمة على سذاجتها قبل أن تعرف المعارف، فإنها لاتقرأ ولا تكتب، ولذلك قال النبي ﷺ في العرب: «إنَّا أمَّةٌ أمِّية، لانحسب ولا نكتب»[2] الحديث، والألف واللام في [الكتاب] للعهد، ويعني به التوراة في قول أبي العالية، ومجاهد.

والأماني جمع أمْنية، وقرأ أبو جعفر، وشيبة[3]، ونافع، في بعض ما رُوي عنه [أماني] بتخفيف الياء[4]، وأصل أمْنية أُمْنُويَة على وزن . . . .

---

(١) أي أصحُّها وأظهرها، وذلك لأن الله تعالى لمَّا وصف اليهود بالعناد، وأزال الطمع عن إيمانهم بيَّن فرقهم، فالأولى هي الضالة المضلة، والثانية فرقةُ المنافقين، والثالثة فرقة المجادلين للمنافقين، والرابعة فرقة العامة الأميين.

(٢) هذا الحديث رواه الشيخان، وأبو داود، والنسائي، ويعني بالحساب حساب النجوم وسيرها، والمراد لا نحتاج في أداء عباداتنا إلى حساب، ولا إلى كتاب، وأمية الشريعة من كمالاتها ومحاسنها، إذ بذلك يتسنى لها أن تكون للناس كافة.

(٣) هو شيبة بن نصاح بن سرجس ـ مولى أم سلمة رضي الله عنها ـ كان مقرئ المدينة مع أبي جعفر وقاضيها، توفي سنة (١٣٠) هـ.

(٤) أي من دون اعتداد بحرف المد الموجود في المفرد، إذ أصل أمنية أمنوية ـ وقد ذكروا أن كل ما هو بزنة جمع الجمع يجوز تخفيف يائه وتشديدها «كالعواري، والسواري، والعلالي والأواني، والأثافي، =

(أُفعولة)[١]، ويجمع هذا الوزن على (أفاعل)، وعلى هذا يجيء تخفيف الياء، ويجمع على (أفاعيل) ـ فَعَلَى هذا يجيء أمانيي، أُدغمت الياءُ في الياء فجاء أمانيّ واختلف في معنى [أماني] فقالت طائفة: هي هنا من تمنَّى الرجل إذا ترجى[٢] فمعناه أنَّ منهم من لا يكتب ولا يقرأ، وإنما يقول بظنه شيئاً سمعه فتمنى أنَّه من الكتاب، وقال آخرون: هي من تمنى إذا تلا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾[٣] ومنه قول الشاعر:

تمنَّــى كتـــاب الله أولَ ليْلِـــهِ ... وآخِـرَهُ لاقَـى حِمَـامَ المَقَـادر[٤]

فمعنى الآية: أنهم لايعلمون الكتاب إلا سماع شيءٍ يُتْلى لا علم لهم بصحته، وقال الطبري: هي من تمنَّى الرَّجل إذا حدَّث بحديث مختلق كذب، وذكر أهل اللغة أن العرب تقول: تمنَّى الرجل إذا كذب، واختلق الحديث، ومنه قول عثمان رضي الله عنه[٥]: «ما تمنيت ولا تغنَّيتُ منذ أسلمت». فمعنى الآية أن منهم أمِّيين لا يعلمون الكتاب إلا أنهم يسمعون من الأحبار أشياءَ مختلفة يظنونها من الكتاب، [وإنْ] نافية بمعنى (ما)، والظنُّ هنا على بابه في الميل[٦] إلى أحد الجائزين.

= والأماني، والأغاني» ـ وممن ذكر هذه القاعدة الجوهري في صحاحه، وابن السكيت في إصلاحه.

(١) أي ثم أُعلت إعلال سيِّد وميِّت ـ فإذا جمعت على أفاعل كانت الياء مخففة، وإذا جمعت على أفاعيل كانت مشددة للإدغام، وعلىٰ هذا بنيت القاعدة التي أشرنا إليها آنفاً.

(٢) حاصله أقوال ثلاثة: قيل: من تمنى الرجل شيئاً إذا ترجاه وقدَّر حصوله، وقيل: من تمنى الكتاب قرأه وتلاه، وقيل: من تمنى إذا كذب واختلق، وحمْله على الأول وهو تمني القلب أوْلى، ومنهم من حمله على الثاني وهو تمني اللسان لما فيه من نوع تعلق بما قبله وهو أليق بطريق الاستثناء.

(٣) من الآية (٥٢) من سورة الحج.

(٤) البيت لحسان بن ثابت في رثاء عثمان بن عفان رضي الله عنه، ونسب إلى كعب بن مالك في رثاء عثمان أيضاً.

(٥) في لسان العرب ـ وفي حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ما تغنيتُ، ولا تمنيتُ، ولا شربتُ خمراً في جاهلية ولا إسلام»، وفي رواية: «ما تمنيت منذ أسلمتُ أي ما كذبت»، ولعل المراد بقوله ما تغنيت أي بالشعر، والله أعلم.

(٦) أي أن الظن في الآية مستعمل في بابه وهو ترجيح أحد الطرفين على الآخر إذ لا يمكن حمله على اليقين، ولا يلزم من كونه راجحاً عندهم أن يكون راجحاً في نفس الأمر. ثم إن الآية دلالة على اكتساب المعارف، فرارا من التقليد والتخمين واعتماد من لا يؤمن كذبه ـ وذم الاكتفاء بالظن في أصول الدين إذ الإيمان مؤسس على قواعد اليقين.

قوله عز وجل[(١)]:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

[الذين] في الآية يراد بهم الأحبار والرؤساءُ، قال الخليل: الويل شدة الشر: وقال الأصمعي: الويل القبوح، وهو مصدر لا فعل له، ويجمع على ويلات، والأحسن فيه ـ إذا انفصل ـ الرفعُ، لأنه يقتضي الوقوع[(٢)] ويصح النصب على معنى الدعاء[(٣)]، أي ألزمه الله ويلا.

وَيْلٌ، وَوَيْحٌ، وَوَيْسٌ، وَوَيْبٌ، تتقارب في المعنى، وقد فرق بينها قوم[(٤)]، وروى سفيان، وعطاءُ بن يسار[(٥)]، أن الويل في هذه الآية واد يجري بفناء جهنم من صديد أهل النار، وروى أبو سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه واد في جهنم بين جبلين يهوي فيه الهاوي أربعين خريفاً[(٦)]، وقال أبو عياض: إنه صهريج في جهنم. وروى عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه جبل من جبال النَّار[(٧)]، وحكى الزهراوي عن آخرين أنه باب من أبواب جهنم. و(الَّذين يكْتُبون) هم الأحبار الذين بدَّلوا التوراة، وقوله [بأيْديهم] بيانٌ لجُرمهم وإثبات لمجاهرتهم الله.

---

(١) لمَّا بيَّن سبحانه حال من يتمسكون بحبال الأماني والظنون، بيَّن حال دعاة الضلال الذين يأكلون أموال الناس بالباطل أي بالزور والكذب، على وجه الدعاء عليهم بالويل.

(٢) وقد تدخل الهاء على ويل فتصير ويلة وهي الفضيحة والبلية كما قال الشاعر:

لأمُــكَ ويلَـــةٌ وعليْـــك أُخْـرى ... فــلا شـــاة تُنيــلُ ولا بعيـــر

(٣) يريد أنه إذا لم يضف يصح رفعه على الابتداء لما فيه من معنى الدعاء، ونصبه على إضمار الفعل، وأما إذا أضيف فليس إلا النصب لأنه إذا رفع لا يكون له خبر. ويقال في التعجب ويلمّه كما قال علي رضي الله عنه: «ويْلُمّه كيلا بغير ثمن لو أن له وعاء».

(٤) إلا أنه لم يقرأ بذلك أحد.

(٥) سفيان هو أبو عبد الله الثوريُّ. وعطاء كان فقيهاً قاضياً ـ وكان والده مولى ميمونة زوج النبي ﷺ.

(٦) رواه الإمام أحمد، والترمذي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه.

(٧) رواه ابن جرير الطبري.

وفرْقٌ بين من كَتَبَ وبين من أمر، إذ المتولي للفعل أشدُ مواقعة ممَّنْ لم يتولَّه، وإن كان رأياً له، وقال ابن السراج: هو كناية عن أنه من تلقائهم دون أن ينزل عليهم[١]، وإن لم تكن حقيقة في كتب أيديهم.

والذي بدلوا هو صفة النبي ﷺ ليستديموا رياستهم ومكاسبهم، وقال ابن إسحق: كانت صفته في التوراة أسمر ربعة فردُوه آدم طويلا، وذكر السدي أنهم كانوا يكتبون كتباً يبدلون فيها صفة النبي ﷺ ويبيعونها من الأعراب، ويبثونها في أتباعهم، ويقولون: هي من عند الله. وتناسق[٢] هذه الآية على التي قبلها يُعطي أن هذا الكتب والتبديل إنما هو للأتباع الأميين الذين لا يعلمون إلا ما قرئ لهم.

والثمن ـ قيل: عَرَض الدنيا، وقيل: الرِّشا[٣] والمآكل التي كانت لهم، ووصفه بالقلة إمَّا لفنائه، وإمَّا لكونه حراماً. وكرر الويل لتكرار الحالات التي استحقوه بها[٤]، و[يَكْسِبُونَ] معناه من المعاصي والخطايا، وقيل: من المال الذي تضمنه ذِكْرُ الثمن.

وقوله تعالى [لَنْ تَمَسَّنَا النَّار] الآية، روى ابن زيد، وغيره، أن سببها أنَّ النبي ﷺ قال لليهود: «مَن أهل النار»؟ فقالوا: نحن، ثمَّ تخلفوننا أنتم، فقال لهم: «كذبتم، لقد علمتم أنَّا لا نخلفكم»، فنزلت هذه الآية[٥]. ويقال: إن السبب أنَّ اليهود قالت: إن الله تعالى أقسم أنْ يدخلهم النار أربعين يوماً عدد عبادتهم العجل، قاله ابن عباس[٦]، وقتادة، وعطاءُ.

---

(١) الذي دل على ذلك قوله تعالى: (يكتُبُون الكِتَابَ) ـ فإسناد الكتابة إليهم مفيد لذلك. وقوله تعالى: (بإيديهم) هو تأكيد بقصد التغليظ والتشنيع، وأيضاً فمباشرة العمل باليد لا يقتضي الاختلاق، ثم إن الكتابة تكتسب كما تكتسب المعارف ـ وكان الكتَّاب في العرب من أهل الطائف اكتسبوها من أهل الحيرة، وأهل الحيرة من أهل الأنبار ـ وقيل للعرب: أميون لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة وقليلة ـ وفي الحديث: «إنا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب» ـ ومن الآيات المعجزة كونه ﷺ أمياً لأنه يتلو القرآن بالنظم الذي أنزل عليه من دون زيادة ولا نقصان، وقد كان الخطيب في العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها زاد فيها أو نقص ـ فالأمية في النبي ﷺ مُعْجزة، وفي غيره مَعْجَزَة.

(٢) أي مجيئها على سنن ونظام ما قبلها يعطي ـ إلخ.

(٣) الرِّشا بكسر الراء المشدودة وبضمها جمع رشوة بالكسر والضم أيضاً.

(٤) يعني الكتابة بأيديهم، وكسب المال بالباطل، فالكتابة مقدمة، وكسب المال نتيجة.

(٥) رواه الإمام أحمد، والبخاري والنسائي، من حديث أبي هريرة بألفاظ مختلفة. انظر كتاب الجزية من البخاري.

(٦) رواه عنه ابن جرير.

وقالت طائفة: قالت اليهود: إن في التوراة أن طول جهنم مسيرة أربعين سنة، وأنهم يقطعون في كل يوم سنة، حتى يكملوها وتذهب جهنم، وقال ابن عباس[(١)] أيضاً، ومجاهد، وابن جريج، إنهم قالوا: إن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وأن الله تعالى يعذبهم بكل ألف سنة يوماً. و﴿اتَّخَذْتُمْ﴾ أصله: أتتخذتم، وزنه أفتعلتم من الأخذ، سهِّلت الهمزة الثانية لامتناع جمع همزتين فجاء أيتخذتم، فاضطربت الياء في التصريف جاءت ألفاً في ياتخذوا، وواواً في موتخذ، فبدلت بحرف جلد[(٢)] ثابت وهو التاء وأدغمت، فلما دخلت في هذه الآية ألف التقرير استغني عن ألف الوصل. ومذهب أبي علي «أن اتَّخَذْتُمْ» من تخذ لا من أخذ، وقد تقدم ذكر ذلك[(٣)].

وقال أهل التفسير: العهد من الله في هذه الآية الميثاق والموعد، وقال ابن عباس وغيره: معناه هل قلتم لا إله إلا الله، وآمنتم، وأطعتم، فتدلون[(٤)] بذلك، وتعلمون أنكم خارجون من النار؟ فعلى هذا التأويل الأول يجيء المعنى: هل عاهدكم الله على الذي تدَّعون؟ وعلى التأويل الثاني يجيءُ: هل أسلفتم عند الله أعمالا توجب ما تدَّعون؟

وقوله: ﴿فَلَنْ يُخلف اللهُ عَهْدَهُ﴾ اعتراض أثناء الكلام[(٥)].

و﴿بَلَى﴾ ردٌّ بعد النفي، بمنزلة نعم بعد الإيجاب، وقال الكوفيون: أصلها [بلْ] التي هي للإضراب عن الأول، وزيدت عليها الياءُ ليحسن الوقف عليها، وضُمِّنت الياءُ معنى الإيجاب والإنعام بما يأتي بعدها. وقال سيبويه: هي حرف مثل [بَلْ] وغيره، وهي في هذه الآية ردٌّ لقول بني إسرائيل: [لنْ تمَسَّنَا النَّارُ]، فردَّ الله عليهم، وبيَّن أن الخلود في

---

(١) رواه الطبراني، وابن جرير، وابن المنذر عنه، فالأيام المعدودة إما سبعة أيام، وإما أربعون يوماً.

(٢) أي قوي من جنس ما بعدها.

(٣) عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثمَّ اتَّخذتم العِجْلَ من بعْدِهِ وأنْتمْ ظالمونَ﴾.

(٤) يحتمل أن يكون من الإدلال بمعنى الثقة، قال في اللسان: «هو يدلُّ بفلان: «أي يثق به» ويحتمل أن يكون من الإدلال بالحجة، ويحتمل أن يكون من التدليل ـ والمعنى على كل: يتوسلون بذلك.

(٥) يريد أن قوله تعالى: ﴿أم تَقُولون على الله مالا تعْلمون﴾: معادل لقوله ﴿قل أتخذتم عنْدَ الله عَهْداً﴾ فصارت هذه الجملة بينهما اعتراضية لا محل لها من الإعراب، والمعنى: أي هذين واقع: اتخاذكم العهد عند الله، أو افتراؤكم على الله؟ وهذا الكلام خرج مخرج التردد وإن كان الله يعلم ما هو واقع، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وإنَّا أوْ إيَّاكم لَعَلَى هدىً أو في ضلال مبين﴾.

النار والجنة بحسب الكفر والإيمان. و﴿من﴾ شرط في موضع رفع بالابتداء و﴿أولئك﴾ ابتداءٌ ثان و[أصْحَاب] خبره، والجملة خبر الأول، و«الفاء» مُوَطِّئة أن تكون الجملة جواب الشرط. وقالت طائفة: السَّيِّئة: الشرك، كقوله ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾[1] والخطيئات كبائر الذنوب، وقرأ قوم ﴿خَطِيئَتُهُۥ﴾ بالإفراد، وقال قوم: السيئة الكبائر وأفرادها وهي بمعنى الجمع لما كانت تدل على الجنس، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾[2] والخطيئة: الكفر، ولفظه الإحاطة تقوِّي هذا القول، وهي مأخوذة من الحائط المحدق بالشيء. وقال الربيع بن خثيم، والأعمش، والسدي، وغيرهم: معنى الآية: مات بذنوب لم يتب منها، وقال الربيع أيضاً: مات على كفره، وقال الحسن بن أبي الحسن، والسدي: كل ما توعَّد الله عليه بالنار فهي الخطيئة المحيطة.

والخلود في هذه الآية على الإطلاق والتأبيد في المشركين، ومستعار بمعنى الطول في العصاة، وإن عُلم انقطاعه كما يقال: ملك خالد، ويدعى للملك بالخلد.

وقوله تعالى: [والَّذين آمنوا] الآية يدل هذا التقسيم على أن قوله: ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ الآية، في الكفار، لا في العصاة، ويدل على ذلك أيضاً قوله: ﴿وَأَحَاطَتْ﴾ لأن العاصي مؤمن فلم تُحِط به خطيئته، ويدل على ذلك أيضاً أن الرد كان على كفار ادعَوْا أنَّ النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة، فهم المراد بالخلود[3]، والله أعلم.

---

(١) من الآية (٩٠) من سورة النمل، وتفسير السيئة بالشرك هو ما يتعين حمل الآية عليه لما ثبت في الأحاديث الصحيحة المتواترة من أن عصاة المؤمنين لا يخلَّدون في النار، ويؤيد ذلك. نزول الآية في اليهود، كما يؤيد ذلك أن سيئة واحدة لا توجب الخلود في النار إلا إذا كانت أكبر السيئات، وهي سيئة الكفر والشرك، ولذلك قال سبحانه ﴿وأحاطت به خطيئَتُهُ﴾ أي غمرته من جميع النواحي فلم تبق له حسنة، ومن هنا يؤخذ أن الحكم المترتب على شرطين لا يثبت إلا عند وجودهما معاً، فالسيئة التي لا تحيط بحسنات الإنسان لا توجب خلوداً في النار، ويؤيد ذلك أيضاً المقابلة بقوله تعالى ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ الخ. كما سيجيء عند ابن عطية رحمه الله، فالقرائن كلها تنبىء أنَّ الآية في الكفار لا في العصاة، والله سبحانه يقول ﴿إنَّ الله لايغفر أنْ يُشْرك به، ويَغْفر ما دون ذلك لِمَن يَشَاء﴾.

(٢) من الآية (٣٤) من سورة إبراهيم ـ ومن الآية (١٨) من سورة النحل.

(٣) أتى رحمه الله بثلاث من الدلائل على أن المراد بالسيئة في الآية الكفر والشرك لا المعصية الكبيرة، وقد أشرنا إلى ذلك آنفاً. هذا وإن من شأن الإيمان إذا أفرد أن تدخل فيه الأعمال لقول النبي ﷺ: «الإيمان بضع وستون ـ أو بضع وسبعون ـ شعبة أعْلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق». وأما إذا عُطف العمل على الإيمان كما في هذه الآية فقد يقال: إن ذلك من باب عطف الخاص على العام، وقد يقال: إنهما شيئان كالفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، وقد بين حديث جبريل=

قوله عز وجل:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

المعنى: واذكروا إذْ أخذنا، وقال مكي رحمه الله: هذا هوالميثاق الذي أُخذ عليهم حين أُخرجوا من صلب آدم كالذَّر، وهذا ضعيف، وإنما هو ميثاق أُخذ عليهم وهم عقلاء في حياتهم على لسان موسى عليه السلام وغيره من أنبيائهم عليهم السلام.

وأَخذُ الميثاق قولٌ، فالمعنى قلنا لهم: ﴿لا تَعْبُدُونَ﴾، وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي [لا يَعْبُدُونَ] بالياء من أسفل، وقرأ الباقون بالتاء من فوق، حكاية ما قيل لهم، وقرأ أُبي بن كعب، وابن مسعود، [لاتَعْبُدُوا] على النهي. وقال سيبويه: ﴿لاتَعْبُدُونَ﴾ متعلق بقسم، والمعنى: وإذ استخلفناكم والله لاتعبدون. وقالت طائفة: تقدير الكلام بألا تعبدوا إلا الله، ثم حذفت الباءُ، ثم حذفت أن فارتفع الفعل لزوالها، فلا تعبدون على هذا معمول لحرف النصب[١]، وحُكي عن قطرب: أن (لاتعبدون إلا الله) في موضع الحال، أيْ أخذنا ميثاقهم موحدين[٢]، وهذا إنما يتجه على قراءة ابن كثير، ونظام الآية يدفعه مع كل قراءة[٣].

وقال قوم: ﴿لا تَعْبُدُون إلا الله﴾ نهي في صيغة خبر[٤]، ويدل على ذلك أن في قراءة

= كما في مسند الإمام أحمد أن الإيمان في القلب حيث قال النبي ﷺ: «الإسلام علانية، والإيمان في القلب».

(١) قال المبرد رحمه الله: «هذا خطأ لأن كل ما أضمر في العربية فهو يعمل عمله مظهراً»، والحق أنه ليس بخطأ، فهما وجهان صحيحان في العربية ـ وعليهما أنشد سيبويه قول طرفة بن العبد:
ألا أيُّهذا الزَّاجري أحْضُرَ الوغَى ... أنْ أشهد اللذَّات هل أنْتَ مُخْلِدِي؟

(٢) أي ملتزمين التوحيد. وقطرب هو محمد بن المستنير أبو علي ـ نحوي لغوي ـ أخذ عن سيبويه. توفي سنة(٢٠٦) هـ.

(٣) هو كذلك، فإن قوله تعالى: ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ بيان للميثاق، ومثل هذه المعاني إنما يدرك حسنُها بالذَّوق السليم، لأن مجيء الحال من المضاف إليه لا يجوز على الصحيح.

(٤) هو أبلغ من صريح الأمر والنهي كقوله تعالى: ﴿ولا يُضارَّ كاتبٌ ولا شهيدٌ﴾وكقولك: «تذهب إلى فلان=

أبي [لاتَعْبُدُوا]. والباءُ في قوله: ﴿وبالْوالِدَيْنِ﴾ قيل: هي متعلقة بالميثاق، عطفاً على الباء المقدرة أولاً على قول من قال: التقدير: بأن لا تعبدوا. وقيل: تتعلق بقوله ﴿إحساناً﴾، والتقدير: قلنا لهم: لا تعبدون إلا الله، وأحسنوا إحساناً بالوالدين، ويعترض هذا القول بأن المصدر قد تقدم عليه ماهو معمول له[١]، وقيل: تتعلق الباء بأحسنوا، المقدر، والمعنى: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، وهذا قولٌ حسن، وقدم اللفظ بالوالدين تهمماً فهو نحو قوله تعالى ﴿إيَّاكَ نَعْبدُ﴾ وفي الإحسان تدخل أنواع بر الوالدين كلِّها، ﴿وذى﴾ عطف على الوالدين و﴿القربى﴾ بمعنى القرابة، ومصدر، كالرُّجْعَى والعُقْبى، وهذا يتضمن الأمر بصلة الرحم، ﴿والْيَتَامَى﴾[٢] جمع يتيم كنديم وندامى، واليُتم في بني آدم فقْدُ الأب، وفي البهائم فقد الأم، وقال عليه السلام: «لايُتْمَ بَعْدَ بُلُوغ»[٣]. وحكى الماوردي[٤] أن اليُتْم يقال في بني آدم في فقد الأم. وهذا يتضمن الرأفة باليتامى وحيطة أموالهم. ﴿والمَسَاكِينِ﴾ جمع مسكين، وهو الذي لا شيء له،

= وتقول له كذا] وكأنه بذلك يخبر عن المسارعة إلى الامتثال والانتهاء. ويتحصل مما ذكره ابن عطية أن قوله تعالى: ﴿لاتعبدون إلا الله﴾ لا يخلو إما أن يكون حالا مقارنة، وقد تقدم ما فيه، وإما أن يكون متعلقاً بقسم، وإما أن يكون لفظه خبر ومعناه الطلب، وإما أن يكون على تقدير ألا تعبدوا فحذفت أن فارتفع الفعل، والرأي الثالث أحسن، ويؤيده قراءة أبي، وابن مسعود، والأوامر التي جاءت بعده.

(١) الصحيح هو جواز تقدم معمول المصدر عليه، انظر تفسير أبي (ح) فقد نقل كلام ابن عطية ثم قال: «وهذا الاعتراض إنما يتم على مذهب أبي الحسن في منعه تقديم مفعول نحو ضرباً زيداً، وليس بشيء، لأنه لا يصح المنع إلا إذا كان المصدر موصولا بأن ينحل لحرف مصدري والفعل، أما إذا كان غير موصول فلا يمنع تقديمه عليه، فجائز أن تقول: ضربا زيداً، وزيداً ضرباً، سواء كان العمل للفعل المحذوف العامل في المصدر، أو للمصدر النائب عن الفعل ـ فعلى اختلاف المذهبين في العامل يجوز التقديم.» اهـ. البحر المحيط ١/ ٢٨٤.

ولقد جاء في الآية الكريمة ترتيب الحقوق الواجبة، فأولها حق الله وهو توحيده وعبادته، وثانيها حقوق المخلوقين وأولهم حق الوالدين، ثم القرابة، واليتامى، والمساكين.

(٢) قال ابن السِّكِّيت: قالوا: يتامى، والأصل يتائم، فقلب ثم فتح للتخفيف.

(٣) رواه أبو داود في كتاب «الوصايا»، والبيهقي في شعب الإيمان، ولفظ الجامع الصغير: «لا يتم بعد احتلام» وهو بضم الياء وفتحها، والمشهور أن اليتيم في الآدمي من فُقد أبوه، وفي البهائم من فُقدت أمه، وإذا فقد الأبوان يقال للصغير لَطيمٌ.

(٤) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، أخذ الفقه عن أبي القاسم الصيمري، وكان من فقهاء الشافعية المعروفين، ومن كتبه «الإقناع» في المذهب ـ توفي (٤٥٠) هـ وفيات الأعيان ٢ ـ ٤٤٤.

لأنه مشتق من السكون، وقد قيل: إن المسكين هو الذي له بُلْغَةٌ(١) من العيش وهو على هذا مشتق من السَّكن، وهذا يتضمن الحض على الصدقة والمواساة، وتفقد أحوال المساكين.

وقوله تعالى: ﴿وقولوا للنَّاسِ حُسْناً﴾، أمر ـ عطف على ما تضمنه: ﴿لاتَعْبُدُونَ إلا الله﴾، وما بعده من معنى الأمر والنهي، أو على أحسنوا المقدر في قوله: ﴿وبالْوَالِدَيْنِ﴾. وقرأ حمزة، والكسائي [حَسَناً] بفتح الحاء والسين، قال الأخفش: هما بمعنى واحد كالبُخْل والبَخَل، قال الزجاجي وغيره: بل المعنى في القراءتين: وقولوا قولاً حَسَناً ـ بفتح السين ـ أو قولا ذا حُسْنٍ، بضم الحاء(٢). وقرأ قوم: [حُسْنى] مثل فُعْلى، وردَّه سيبويه لأن أفعل وفُعلى لا تجيءُ إلا معرَّفة إلا أن يزال عنها معنى التفضيل، وتبقى مصدراً كالعقبى، فذلك جائز وهو وجه القراءة بها(٣)

وقرأ عيسى بن عمر، وعطاء ابن أبي رباح. [حُسُناً] بضم الحاء والسين. وقال ابن عباس: معنى الكلام: قولوا لهم: لا إله إلا الله، ومروهم بها، وقال ابن جريج: قولوا لهم: حسناً في الإعلام بما في كتابكم من صفة محمد ﷺ. وقال سفيان الثوري: معناه مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر، وقال أبو العالية: معناه قولوا لهم الطيب من القول، وحاوروهم بأحسن ما تحبون أن تحاوروا به، وهذا حض على مكارم الأخلاق.

وحكى المهدوي عن قتادة أن قوله تعالى: ﴿وقولوا للناس حُسْناً﴾، منسوخ بآية السيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على أن هذه الأمة خوطبت بمثل هذا اللفظ في صدر الإسلام، وأما الخبر عن بني إسرائيل وماأمروا به فلا نسخ فيه، وقد تقدم القول في إقامة الصلاة(٤). وزكاتهم هي التي كانوا يضعونها وتنزل النار على ما تُقُبِّلَ،

---

(١) البلغة بالضم ما يبلغ به العيش ولا يفضل ـ والسكن بالتحريك ما يسكن إليه ويرجع له عند الحاجة.

(٢) و(حَسَناً) بفتحتين وصْفٌ للمصدر بدون وساطة، و(حُسْناً) وصف بوساطة المضاف المحذوف.

(٣) أي كونها مصدراً فقط لا رائحة فيها لمعنى التفضيل هو وجه القراءة بها في هذه الآية وهذا في حاجة إلى النقل عن العرب أنها تقول: حَسَنَ حُسْنى كما تقول رجع رجعى.

وقد علق أبو (ح) على ذلك كعادته ليثبت أن كلام ابن عطية خطأ. «البحر المحيط» ١/ ٢٨٥.

(٤) في أول سورة البقرة.

ولا تنزل على ما لم يُتقَبَّل، ولم تكن كزكاة أمة محمد ﷺ(١).

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: الزكاة التي أمروا بها طاعة الله والإخلاص.

وقوله تعالى: ﴿ثمَّ تولَّيتُمْ﴾(٢) الآية، خطاب لمعاصري محمد ﷺ، أسند إليهم تولي أسلافهم إذ هم كلهم بتلك السبيل، قال نحوه ابن عباس وغيره. و﴿ثمَّ﴾ مبنية على الفتح ولم تجر مجرى ردَّ وشدَّ لأنها لا تتصرف. وضمت التاءُ الأخيرة من ﴿توليتم﴾ لأن تاءَ المفرد أخذت الفتح، وتاءَ المؤنث أخذت الكسر، فلم يبق للتثنية والجمع إلا الضم.

و﴿قليلا﴾ نصب على الاستثناء، قال سيبويه: والمستثنى منصوب على التشبيه بالمفعول به، قال المبرد: هو مفعول حقيقة لأن تقديره استثنيت كذا، والمراد بالقليل جميع مؤمنيهم قديماً من أسلافهم، وحديثاً كابن سلام وغيره، والقلة على هذا هي في عدد الأشخاص، ويحتمل(٣) أن تكون القلة في الإيمان أيْ لم يبق حين عصوا وكفر آخرهم بمحمد ﷺ إلا إيمانٌ قليل إذْ لا ينفعهم، والأول أقوى، وقرأ قوم [إلا قليلٌ] برفع القليل، ورويت عن أبي عمرو. وهذا على بدل قليل من الضمير في ﴿تَوَلَّيتُم﴾، وجاز ذلك مع أن الكلام لم يتقدم فيه نفي؛ لأن توليتم معناه النفي، كأنه قال ثم لم تفوا بالميثاق إلا قليل(٤). والسفك صبُّ الدم وسرد الكلام، وقرأ طلحة بن مصرف، وشعيب بن أبي حمزة [لاتَسْفُكون] بضم الفاء، وقرأ أبو نهيك [لا تُسَفِّكُون] بضم التاء وكسر الفاء وتضعيفها. وإعراب ﴿لا تسفِكُون﴾ كما تقدم في ﴿لا تَعْبُدُونَ﴾. و﴿دِماءَكُمْ﴾

---

(١) قال (ق): هذا يحتاج إلى نقل، كما ثبت ذلك في الغنائم.

(٢) التولّي هو الإعراض. فقوله تعالى: ﴿وأنتم مُعْرِضون﴾، حال مؤكدة، أي والحال أنَّ من عادتكم الإعراض عن المواثيق المأخوذة عليكم.

(٣) احتمال بعيد، إذ المتبادر هو استثناء أشخاص قليلين من الفاعل الذي هو الضمير في ﴿توليتم﴾ راجع أبو (ح) في البحر المحيط. ٢٨٧/١، وقد شعر رحمه الله بذلك حيث قال: والأول أقوى، ووجه الاستثناء في الآية إظهار أن كل أمة من الأمم لا تخلو من أفراد يخلصون للحق، ويحافظون عليه بحسب معرفتهم وطاقتهم، وبيان أن وجود قليل من الصالحين في الأمة لا يدفع عنها العقاب الإلهي، ففي الحديث الصحيح: «أنهلِك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث». روته ثلاث من أمهات المؤمنين: عائشة، وأم سلمة، وزينب بنت جحش.

(٤) هذا التخريج الذي أشار إليه رحمه الله غير معروف عند النحاة لأنه ما من استثناء موجب إلا ويمكن أن يؤول إلى ما أشار إليه فتنتقض القواعد، وتنخرم الأصول.

جمع دم وهو اسم منقوص، أصله دمى وتثنيته دميان وقيل: أصله دمْي بسكون الميم، وحركت في التثنية لتدل الحركة على التغيير الذي في الواحد.

وقوله تعالى: ﴿ولا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ من ديَارِكُمْ﴾ معناه: ولا ينفي بعضكم بعضاً بالفتنة والبغي. ولما كانت ملتهم واحدة، وأمرهم واحداً، وكانوا في الأمم كالشخص الواحد، جعل قتل بعضهم لبعض، ونفي بعضهم بعضاً، قتلاً لأنفسهم ونفياً لها، وكذلك حكم كل جماعة تخاطب بهذا اللف في القول[١]. وقيل: لاتسفكون دماءكم أي لا يقتل أحد فيُقتل قصاصاً فكأنه سفك دم نفسه لمَّا تسبب في ذلك، ولا يفسد في الأرض فيُنفى فيكون قد أخرج نفسه من دياره، وهذا تأويل فيه تكلف، وإنما كان الأمر أن الله تعالى قد أخذ على بني إسرائيل في التوراة ميثاقاً، ألا يقتل بعضهم بعضا، ولا ينفيه، ولا يسترقه، ولا يدعه يُسْتَرَق إلى غير ذلك من الطاعات.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ أي خلفا بعد سلف أن هذا الميثاق أُخذ عليكم والتزمتوه، فيتجه في هذه اللفظة أن تكون من الإقرار الذي هو ضد الجحد، وتتعدى بالباء، وأن تكون من الإقرار الذي هو إبقاءُ الأمر على حاله، أي أقررتم هذا الميثاق ملتزماً، وقوله ﴿وأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾[٢] قيل: الخطاب يراد به من سلف منهم، والمعنى: وأنتم شهود، أي حضور أخذ الميثاق والإقرار. وقيل إن المراد مَنْ كان في مدة محمد ﷺ، والمعنى: وأنتم شهداءُ، أي بينة أن هذا الميثاق أُخذ على أسلافكم فمن بعدهم منكم.

قوله عز وجل:

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿هؤلاء﴾ دالة على أنَّ المخاطبة للحاضرين لا تحتمل ردّاً إلى الأسلاف،

(١) أي بهذا القول الملفوف أي المجموع والمخلوط، من دون بسط ولا تفصيل.

(٢) تأكيد للإقرار كما تقول: أقر فلانٌ شاهداً على نفسه، والمعنى: أظهرتم الالتزام بالميثاق، وشهدتم بذلك على أنفسكم قديماً وحديثاً.

قيل[1]: تقدير الكلام: يا هؤلاء، فحذف حرف النداء، ولا يحسن حذفه عند سيبويه مع المُبْهَمَات. ولا تقول: هذا أقبل. وقيل: تقديره أعني هؤلاء. وقيل: هؤلاء بمعنى الذين، فالتقدير ثم أنتم الذين تقتلون، فتقتلون صلة لهؤلاء ونحوه، قال يزيد بن مفرغ الحُمَيري:

عَـدَسْ مـا لِعَبَّـادٍ عَلَيْـك إمـارَةٌ   نَجَـوْتِ وَهَـذَا تَحْمليـنَ طَلِيـقُ[2]

وقال الأستاذ الأجل أبو الحسن[3] بن أحمد شيخنا رضي الله عنه: [هؤلاء] رفع بالابتداء و[أَنتُمْ] خبر مقدم، وتقتلون حال، بها تم المعنى، وهي كانت المقصود، فهي غير مستغنى عنها، وإنَّما جاءَت بعد أن تم الكلام في المسند والمسند إليه، كما تقول: هذا زيد منطلقاً، وأنت قد قصدت الإخبار بانطلاقه لا الإخبار بأن هذا هو زيد. وهذه الآية خطابٌ لقُريظة، والنَّضير، وبني قَيْنُقَاع وذلك أن النَّضير وقُريظة حالفت الأوس، وبني قَيْنُقاع حالفت الخزرج، فكانوا إذا وقعت الحرب بين بني قَيْلة[4] ذهبت كل طائفة من بني إسرائيل مع أحلافها، فقتل بعضهم بعضاً وأخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، وكانوا مع ذلك يفدي بعضهم أسرى بعض اتِّباعاً لحكم التوراة، وهم قد خالفوها

---

(١) فيه أربعة أقوال قيل: إنه منادى على حذف حرف النداء، وقيل: إنه منصوب بفعل محذوف وقيل: إنه بمعنى الذين، وقيل: إن أنتم خبر مقدم، وهؤلاء مبتدأ، وتقتلون حال تم بها المعنى، وأضعف هذه الأقوال الأول، ومن جعله مبتدأ وأنتم خبر فتقتلون هي محط البيان لأن معنى أنتم هؤلاء ـ أنهم على حالة أسلافهم من نقض الميثاق ـ ومن جعل هؤلاء منادى أو منصوباً فتقتلون خبر.

(٢) البيت من شواهد النحوالمشهورة، وعَدَس: اسم صوت لزجر البغل، وعبّاد: هو ابن زيّان بن أبي سفيان، وإمارة بكسر الهمزة معناها: أمر ـ وهذا: اسم موصول بمعنى الذي (على رأي الكوفيين) وهو الشاهد هنا، ويقع مبتدأ خبره طليق، أما صلة الموصول فهي (تحملين) والعائد محذوف، وتقديره: (تحملينه). ويكون تقدير الكلام: (والذي تحملينه طليق) أي مطلق. يقول الشاعر هذا الكلام لبغلته حين ركبها بعد خروجه من السجن فنفرت.

(٣) انظر ترجمته في تفسير أبي حيان في هذا المكان ـ ولما نقل أبو حيان رحمه الله ما ذكره ابن عطية عن شيخه أبي الحسن بن البادش من جَعْلِ هؤلاء مبتدأ وأنتم خبراً قال: «لا أدري ما العلة في ذلك، وفي عدوله عن جعل أنتم مبتدأ وهؤلاء خبراً إلى عكسه» انتهى. قال مختصره سيدي عبد الرحمن التعالبي رحمه الله: قلت: العلة في ذلك دخول هاء التنبيه عليه لاختصاصها بأول الكلام، ويدل على ذلك قولهم: ها أنا ذا قائماً، ولم يقولوا: أنا هاذا قائماً، قال معناه ابن هشام، فقائماً في المثال المتقدم نصب على الحال. انتهى.

(٤) قيلة: اسم أم لقبيلتي الأوس والخزرج ـ اسمها: قيلة بنت كاهل.

بالقتال والإخراج. وقرأ الحسن بن أبي الحسن [تُقَتِّلون] بضم التاء الأولى، وكسر الثانية وشدِّها على المبالغة، والديار: مباني الإقامة، وقال الخليل: محلة القوم دارهم، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي ﴿تظاهرون﴾ بتخفيف الظاء، وهذا على حذف التاء الثانية من تتظاهرون، وقرأ بقية السبعة [تظَّاهرون] بشد الظاء على إدغام التاء في الظاء، وقرأ أبو حيوة [تُظاهرون] بضم التاء وكسر الهاء، وقرأ مجاهد، وقتادة، [تظَّهَّرون] بفتح التاء وشد الظاء والهاء مفتوحة دون ألف، ورويت هذه عن أبي عمرو. ومعنى ذلك[1] على كلِّ قراءة: تتعاونون، وهو مأخوذ من الظَّهر كأن المتظاهرين يسْنُد كلُّ واحد منهما ظهره إلى صاحبه. والإثم العُهَدُ الراتبة على العبد من المعاصي[2] والمعنى بمكتسبات الإثم ـ والعدوان تجاوز الحدود والظلم. وحسن لفظ الإتيان من حيث هو في مقابلة الإخراج فيظهر التضاد المُقَبِّح لفعلهم في الإخراج[3].

وقرأ حمزة [أسْرَى تَفْدُوهم]، وقرأ نافع وعاصم والكسائي: [أُسارى تُفَادُهُمْ]، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وابن كثير: [أُسَارى تَفْدُوهُم] وقرأ قوم: [أسْرى تُفَادُوهم]. وأسارى: جمع أسير والأسير مأخوذ من الأسر وهو الشدّ. سُمِّي بذلك لأنه يؤسر أي يشد وثاقاً، ثم كثر استعماله حتى لزم، وإن لم يكن ثَمَّ ربط ولا شدّ، وأسير فعيل بمعنى مفعول ولا يجمع بواو ونون وإنما يُكسَّر على أسرى وأُسارى، والأقيس فيه أسرى، لأن فعيلا بمعنى مفعول الأصل فيه أن يجمع على فَعْلَى كقتلى وجرحى،

---

(١) يعني أن هذه القراءات وهي: ظاهر، وتظاهر، وأظهر ـ ترجع إلى معنى التعاون، وهو المراد في الآية الكريمة.

(٢) يعني ما ترتب على العبد من عهد المعاصي. والعُهَدُ: جمع: عُهْدَة.

(٣) فيكون المعنى: أنه لا يناسب من أسأتم إليهم بالإخراج من ديارهم أن تُحسنوا إليهم بالمفاداة.

تنبيه: قال بعض شيوخنا رحمهم الله تعالى: ـ هل الفادي والمفدي في موضوع الآية ـ كانا من جهة واحدة؟ بمعنى أن قريظة كانت تفدي من أسَرَته الخزرج من إخوانهم، كما أن النضير كانت تفدي من أسرته الأوس من إخوانهم ـ أو من جهتين؟ بمعنى أن قريظة كانت تفدي من يد حلفائها الأوس من أسروه من بني النضير كما أن بني النضير كانت تفدي من حلفائها الخزرج من أسروه من بني قريظة ـ أو ما هو أعم. فروح البيان على الأول وهو المأخوذ من صدر كلام ابن جرير الطبري رحمه الله حين تكلم على قوله تعالى: ﴿ثمَّ أنتم هؤلاء تقْتُلون﴾ الآية ـ والصاوي في حاشية الجلالين على الثاني، ولم نره صريحاً في كلام غيره لكن يشهد له ظاهر الآية ـ وظاهر ما نقلوه من قول العرب لليهود على جهة التعيير لهم: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟ انظر عبارته في ابن جرير ـ وكلام السدي بحسب ظاهره على الثالث ـ راجع الكشاف والبحر المحيط.

والأصل في فَعْلان أن يجمع على فَعالى بفتح الفاء، وفُعالى بضمها، كسكران وكَسْلان وسُكارى وكسالى. قال سيبويه: فقالوا في جمع كسلان: كسلى، شبَّهوه بأسرى كما قالوا: أُسارى، شبهوه بكُسالى، ووجه الشبه أن الأسر يدخل على المرء مُكرها كما يدخل الكسل، وفُعالى إنما يجيءُ فيما كأن آفة تدخل على المرء.

و﴿تُفادوهُمْ﴾ معناه في اللغة تُطلقونهم بعد أن تأخذوا عنهم شيئاً، قاله أبو علي، وفاديت نفسي إذا أطلقتها بعد أن دفعت شيئاً، فعلى هذا قد تجيء بمعنى فديت أي دفعت فيه من مال نفسي، ومنه قول العباس للنبي ﷺ: «أعطني فإني فاديت نفسي، وفاديت عقيلاً». وهما فعلان يتعديان إلى مفعولين، الثاني منهما بحرف جر، تقول: فديت زيدا بمال، وفاديته بمال، وقال قوم: هي في قراءة تفادوهم مفاعلة في أسرى بأسرى[1]، وقال أبو علي: كل واحد من الفريقين فعل: الأسر دفع الأسير، والمأسور منه دفع أيضاً إمَّا أسيراً وإما غيره، والمفعول الثاني محذوف.

وقوله تعالى: ﴿وهو مُحَرَّمٌ﴾[2]، قيل في ﴿هو﴾: إنه ضمير الأمر، تقديره: والأمر محرم عليكم، و﴿إِخْرَاجُهُمْ﴾ في هذا القول بدل من ﴿هو﴾، وقيل: ﴿هو﴾ فاصلة وهذا مذهب الكوفيين وليست، هنا بالتي هي عماد و﴿مُحَرَّمٌ﴾ على هذا ابتداءٌ و﴿إِخْراجُهُمْ﴾ خبره، وقيل: هو الضمير المقدر في محرم قُدِّم وأُظهر، وقيل: هو ضمير الإخراج تقديره: وأخراجهم محرم عليكم[3].

وقوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾[4] يعني التوراة، والذي آمنوا به فداءُ

---

(١) أي في مبادلة الأسير بالأسير، والمراد أن المفاداة هي في مبادلة الأسرى فتدفع أسيراً وتأخذ أسيراً، والفداء أن تأخذ مالاً في مقابلة الأسير.

(٢) الجملة حال من الضمير في ﴿تَخْرجُونَ﴾ أو من فريقاً أو منهما ـ وتخصيص بيان التحريم هنا بالإخراج، مع كونه قريناً للقتل عند أخذ الميثاق عليهم ـ لما يظن من التساهل في أمر الإخراج بسبب قلة خطره بالنسبة إلى القتل، وقيل: إنما خصه لما فيه من معرة الجلاء والنفي الذي لا ينقطع شره.

(٣) حاصل ما ذكره أقوال أربعة، وكلها انتقدت عليه، وإذا أردت الوقوف على وجوه الانتقاد فعليك بتفسير أبي (ح) فإنه يتتبع أنفاس «ابن عطية» ولا سيما في النواحي الإعرابية. وفي كلام ابن عطية ما يشم منه رائحة الفرق بين الفصل والعماد، وانظر التعليق عند قوله تعالى: [وَما هو بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذابِ أن يُعَمَّر].

(٤) قال المفسرون: أخذ الله تعالى على بني إسرائيل أربعة عهود: ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء أسراهم، فأعرضوا عن كل ما أمروا به، إلا الفداء، فوبخهم الله على ذلك بقوله: =

الأُسارى، والذي كفروا به قتل بعضهم بعضاً وإخراجهم من ديارهم ـ وهذا توبيخ لهم، وبيانٌ لقُبْح فعلهم.

وروي أن عبد الله بن سلام[1] مرَّ على رأس الجالوت بالكوفة وهو يفادي من النساء من لم تقع عليه العرب، ولا يفادي من وقع عليه، فقال له ابن سلام: أما إنَّه مكتوب عندك في كتابك أن تفاديهن كلَّهن. ثمَّ توعدهم عز وجل. والخزي: الفضيحة والعقوبة يقال: خزي الرجل يخزى خزيا إذا ذلَّ من الفضيحة، وخزي يخزى خزاية إذا استحيا[2]..

واختلف ما المراد بالخزي ها هنا؟ فقيل: القصاص فيمن قتل، وقيل: ضرب الجزية عليهم غابر الدهر، وقيل: قتل قريظة وإجلاء النضير[3]. و(الدُّنيا) مأخوذة من دنا يدنو، وأصل الياء فيها واو، ولكن أُبدلت فرقاً بين الأسماء والصفات[4].

و﴿أشدِّ العَذَابِ﴾ الخلود في جهنم، وقرأ الحسن، وابن هرمز [تُرَدُّونَ] بتاءٍ.

وقوله تعالى: ﴿وما اللهُ بِغَافِلٍ﴾ الآية، قرأ نافع، وابن كثير [يَعْمَلونَ] بياءٍ على ذكر الغائب[5]، فالخطاب بالآية لأمة محمد ﷺ، والآية واعظة لهم بالمعنى[6] إذ الله تعالى

= ﴿أفتؤمنُون ببعْضِ الكِتاب وتَكْفُرون ببعْض﴾؟

(١) هو عبد الله بن سلام (بالتخفيف) بن الحارث الإسرائيلي، أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة، ونزل فيه قوله تعالى: ﴿ومَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَاب﴾ وشهد له ﷺ بالجنة، وشهد مع عمر رضي الله عنه فتح بيت المقدس والجابية، مات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين للهجرة.

(٢) كلٌّ من خزي يخزَى خزياً، وخزي يخزَى خزاية من باب تعب، والفرق بينهما هو المصدر، فالخزي معناه الفضيحة، والخزاية معناها الاستحياء.

(٣) وفي بعض النسخ زيادة «وقيل: الخزي الذي تتوعد به الأمة من الناس هو غلبة العدو»

(٤) يعني أنها بذلك انسلخت عن الوصفية، فهي عَلَم على كل المخلوقات من الجواهر والأعراض الموجودة قبل الدار الآخرة. قال في القاموس: «والدنيا نقيض الآخرة، وقد تنون، وجمعها دنًى» اهـ. واستدلوا للتنوين بقول الشاعر:

إنِّي مقَسِّمُ ما ملكْتُ فجاعلٌ ... جُزءاً لآخرتي وَدُنياً تنْفَعُ

فإن ابن الأعرابي أنشده، منوناً وليس بضرورة كما لا يخفى.

(٥) في تفسير الإمام (ط) رحمه الله: وأعجب القراءتين إلى قراءة من قرأ بالياء إتباعاً لقوله ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم﴾ ولقوله ﴿ويوم القيامة يُردُّون﴾ لأن قوله ﴿وما الله بغافل عمَّا يعملون﴾ إلى ذلك أقرب منه إلى قوله ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكْفرون ببعْضٍ﴾ فإتباعه الأقرب إليه أولى من إلحاقه بالأبعد منه» اهـ.

(٦) بل هي أشد واعظ وأقواه، ونحوها قوله تعالى: ﴿ولا تحسبنَّ الله غافلا عمَّا يعملُ الظَّالمون﴾ والظلم إما=

بالمرصاد لكل كافر وعاص[١]. وقرأ الباقون بتاء على الخطاب المحتمل أن يكون في سرد الآية[٢] وهو الأظهر، ويحتمل أن يكون لأمة محمد ﷺ، فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «إن بني إسرائيل قد مضوا، وأنتم الذين تعنون بها يا أمة محمد»[٣].

قوله عز وجل:

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

جعل الله ترك الآخرة، وأخذ الدنيا مع قدرتهم على التمسك بالآخرة بمنزلةِ من أخذها ثمَّ باعها بالدنيا، وهذه النزعة صرفها مالك رحمه الله في فقه البيوع[٤]، إذ لا يجوز الشراء على أن يختار المشتري في كل ما تختلف صفة آحاده، ولا يجوز فيه التفاضل كالحجل المذبوحة[٥] وغيرها، ولا يخفف العذاب في الآخرة، ولا يُنصرون لا في الدنيا ولا في الآخرة، [والْكتاب] التوراة ونصبه على المفعول الثاني لآتينا، و[قَفَّيْنا] مأخوذ من القفا، تقول: قفَّيْتُ فلاناً بفلان إذا جئت به من قبل قفاه، ومنه قَفَا يقفو إذا اتبع، وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾[٦]، وكل رسول جاء بعد موسى فإنما جاء بإثبات التوراة والأمر بلزومها إلى عيسى عليه السلام[٧]. وقرأ

= ظلم العصيان، وإما ظلم الكفران.

(١) إذا كان عالماً بأعمالهم كما تؤكد ذلك الآية ـ وهو الحق الذي لا شك فيه، فهو بالمرصاد لمجازاتهم.

(٢) أي في سياقهم، وسياق الآية أن الخطاب لبني إسرائيل.

(٣) في بعض النسخ: «تعنون بهذا يا أمة محمد» يريد وبما يجري مجراه.

(٤) أي أنَّ مالكاً رحمه الله استعمل هذه الطريقة فيما لا يجوز من البيوع للغرر والجهل، إذْ ذلك مذموم وممنوع.

(٥) يطلق على الذكور وعلى الإناث، وعلى صغار الإبل وأولادها، وأفاد بالوصف أن القصد هو اللحم الذي لا يجوز فيه التفاضل. والله أعلم.

(٦) من الآية (٤٤) من سورة المؤمنون.

(٧) يعني أن عيسى عليه السلام ختم بني إسرائيل، وجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام كما قال تعالى=

الحسن، ويحيى بن يعمر: [بالرُّسْل] ساكنة السين[1]، ووافقهما أبو عمرو إذا انضاف ذلك إلى ضمير نحو: رسلنا ورسْلهم. و﴿البَيِّنَاتِ﴾ الحجج التي أعطاها الله عيسى، وقيل: هي آياته من إحياءٍ، وإبراءٍ، وخلْق طير، وقيل: هي الإنجيل، والآية تعم جميع ذلك. ﴿وأَيَّدْنَاهُ﴾ معناه قويناه، والأيد القوة. وقرأ ابن محيصن، والأعرج، وحميد [آيدناه][2]. وقرأ ابن كثير، ومجاهد: [روح القُدْس] بسكون الدال. وقرأ الجمهور بضم القاف والدال، وفيه لغة فتحها[3]، وقرأ أبو حيوة [بروح القُدُّوس] بواو. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: روح القدس: هو الاسم الذي به كان يُحيي الموتى. وقال ابن زيد: هو الإنجيل، كما سمى الله تعالى القرآن روحاً. وقال السدي، والضحاك، والربيع، وقتادة: روح القدس جبريل ﷺ، وهذا أصح الأقوال[4]، وقد قال النبي ﷺ لحسان بن ثابت: «اهْجُ قريشاً، ورُوحُ القدس معك»[5]، ومرة قال له: «وجبريل معك»، وقال الربيع، ومجاهد: القدس اسم من أسماء الله تعالى كالقدُّوس[6]، والإضافة على هذا إضافة الملك إلى المالك، وتوجهت لما كان جبريل عليه السلام من عباد الله تعالى، وقيل: القدس الطهارة، وقيل: القدس البركة.

و﴿كُلَّمَا﴾ ظرف، والعامل فيه ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾، وظاهر الكلام الاستفهام ومعناه التوبيخ

= إخباراً عنه: ﴿ولأحِلَّ لكُمْ بعضَ الَّذي حُرِّم عليكُم، وجئتُكم بآية من رَبِّكمْ﴾ فكذبه بنو إسرائيل، واشتد حسدهم له ـ ولذلك أيده الله بالآيات التي تدل على صدقه فيما جاء به، كما قال تعالى: ﴿وأيَّدْناهُ بِروح القُدُس﴾.

(١) التثقيل والتخفيف لغتان: الأولى لغة الحجاز، والثانية لغة تميم، وكان أبوعمرو البصري يخفف عند الإضافة إلى حرفين، ويُثقِّل عند الإضافة إلى حرف واحد.

(٢) يقال أيَّدناه (بالتشديد)، وآيدناه (بالمد)، والقراءة الأولى مشهورة، والثانية شاذة، وكلاهما من الأيد، والآد، بمعنى القوة، ونظيرهما في البناء: الذيم والذام، والعيْب والعاب.

(٣) أي الدال كصُرد، وعليه فهي لغات ثلاث.

(٤) انظر تفسير ابن (ك)، فقد بسط القول في وجوه ترجيح هذا القول من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح.

(٥) خرجه البخاري ومسلم.

(٦) بضم القاف وشد الدال، أي: الطاهر المنزَّه عن العيوب والنقائص. وكل فعُّول مفتوح الأول إلا قُدّوس وفُرّوج (فرخ الدجاجة) وذُرّوح (الذباب الهندي) كما قاله بعض أهل اللغة، ولكن جاء في صحاح الجوهري أن سيبويه كان يقول: (قدُّوس، وسبُّوح) بالفتح فيهما ـ وفي كثير من المعاجم ضبطت (فروج)، بفتح الفاء.

والتقرير[١]، ويتضمن أيضاً الخبر عنهم، والمراد بهذه الآية بنو إسرائيل. ويروى أن بني إسرائيل كانوا يقتلون في اليوم ثلاثمائة نبي، ثم تقوم سوقهم آخر النهار[٢]، وروي: سبعين نبياً ثم تقوم سوق بقْلهم آخر النهار[٣]، وفي ﴿تَهْوَىٰ﴾ ضمير حذف من صلة (ما) لطول اللفظ. والهوى أكثر ما يستعمل فيما ليس بحق، وهذه الآية من ذلك، لأنهم إنما كانوا يهوون الشهوات، وقد يستعمل في الحق، ومنه قول عمر رضي الله عنه في قصة أسرى بدر: «فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت»[٤] و﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ من الكبر، و﴿فَرِيقاً﴾ مفعول مقدم. وقرأ جمهور القراء: ﴿غُلْفٌ﴾ بإسكان اللام على أنه جمع أغلف مثل حُمْر وصُفْر والمعنى قلوبنا عليها غلف وغشاوة[٥] فهي لا تفقه[٦]. قاله ابن عباس، وقال قتادة: المعنى عليها طابع. وقالت طائفة: غلْف بسكون اللام جمع غلاف أصله غلُف[٧] بتثقيل اللام فخفِّف، وهذا[٨] قلَّ ما يستعمل إلا في الشعر. وقرأ الأعمش، والأعرج، وابن محيصن: ﴿غُلُف﴾ بتثقيل اللام[٩] جمع غلاف، ورويت عن

---

(١) وفي بعض النسخ: «والتقريع».

(٢) روى ذلك أبو داود الطيالسي ونصه: حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر، عن عبد الله بن مسعود قال: كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي، ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار. انتهى من (ك) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وضُربت عليهم الذِّلَّة والمَسْكَنَةُ وبَاءوا بغَضَبٍ من الله﴾.

(٣) لأنهم كانوا أصحاب بقول وخضروات حتى قالوا: ﴿لن نصبر على طعام واحد فادْعُ لنا ربَّك يُخرج لنا ممَّا تُنبت الأرض من بقلها﴾ الآية. وإقامتهم للسوق الذي تُباع فيه أرذلُ الأشياء آخر النهار دلالة على قلَّة مبالاتهم بما فعلوا من تقتيل الأنبياء، فكيف بالأسواق التي تباع فيها النفائس.

(٤) ومنه كذلك قول عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ: «والله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك». والحديثان خرجهما الإمام مسلم رحمه الله.

(٥) وفي بعض النسخ وغشاوات.

(٦) أي لا تفهم ما تقول ولا تعيه، إذ هو مما لايفهم، وقيل: عليها طابع، لقوله تعالى ﴿طَبَع اللهُ على قُلُوبهمْ﴾.

(٧) أي كخمار وخُمُر فهو على هذا مخَفَّف من ثقيل.

(٨) المعنى: وهذا التثقيل قلَّ أن يستعمل إلا في الشعر، كقول طرفة:

أيُّهـــا الفِتْيـــان فـــي مجلسنـــا ... جـــرِّدوا منْهـــا وراداً وشُقُـــر

فحركت لضرورة الشعر. وفي بعض النسخ: قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قل ما يستعمل الخ.

(٩) أي بتحريكها بالضم، والغرض أن (غُلف) بضم اللام جمع غلاف، وكذلك (غلْف) بسكون اللام جمع غلاف ولكنه مخفف من الأول، واستعمال المخفف أكثر، واستعمال المثقل أقل، هذا وفي بعض =

أبي عمرو، فالمعنى. هي أوعية للعلم والمعارف بزعمهم، فهي لا تحتاج إلى علم محمد. وقيل: المعنى فكيف يعْزُب عنها علم محمد ﷺ؟ فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿بل لَعَنَهُم الله بِكُفْرِهِمْ﴾، وبل في هذه الآية نقض للأول، وإضراب عنه، ثم بيَّن تعالى أن السبب في نفورهم عن الإيمان إنما هو أنهم لُعنوا بما تقدم من كفرهم واجترامهم، وهذا هو الجزاء على الذنب بأعظم منه[1]، واللعن الإبعاد والطرد. و﴿قليلاً﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره: فإيماناً قليلاً ما يؤمنون، والضمير في يؤمنون لحاضري محمد ﷺ، ويتجه قلة هذا الإيمان، إمَّا لأن من آمن بمحمد منهم قليل، فيقل لقلة الرجال، قال هذا المعنى قتادة، وإما لأن وقت إيمانهم عندما كانوا يستفتحون به قبل مبعثه قليل، إذ قد كفروا بعد ذلك، وإمَّا لأنهم لم يبق لهم بعد كفرهم غير التوحيد على غير وجهه، إذْ هُمْ مجسمون، فقد قللوه بجحدهم الرسول، وتكذيبهم التوراة، فإنما يقل من حيث لا ينفعهم كذلك، وعلى هذا التأويل يجيء التقدير: فإيماناً قليلاً[2]، وعلى الذي قبله: فوقْتاً قليلا، وعلى الذي قبله فعدداً من الرجال قليلا، و(ما) في قوله ﴿ما يؤمنون﴾ زائدة مؤكدة، و﴿قليلاً﴾ نصب بيؤمنون.

قوله عز وجل:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾.

الكتاب: القرآن، و﴿مُصدِّقٌ لما مَعَهُمْ﴾ يعني التوراة، وروي أن في مصحف أُبيّ بن

= النسخ: «وقرأ ابن عباس، والأعرج، وابن محيصن، بدل: «وقرأ الأعمش» الخ. والله أعلم.

(١) يعني أن الله سبحانه جازاهم بالطرد واللعن المتسبب عن الذنب الذي هو الكفر. والإضراب في الآية هو عن النسبة التي تضمنها قولهم: ﴿قلوبنا غلف﴾ خلقت على الفطرة متمكنة من قبول الحق، فأخبروا عنها بما لم تُخلق عليه ـ والطرد والإبعاد أعظم ما يصيب المرء في حياته.

(٢) هذا أحسن الوجوه، لأن دلالة الفعل على مصدره أقوى من دلالته على زمانه ومكانه ومفعوله وفاعله، ولموافقة قوله تعالى: ﴿فلا يُؤمِنُونَ إلا قليلا﴾.

كعب [مصدقاً] بالنصب[١]، و﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ معناه أنَّ بني إسرائيل كانوا قبل مبعث النبي ﷺ قد علموا خروجه بما عندهم من صفته وذِكْر وقته، وظنوا أنه منهم، فكانوا إذا حاربوا الأوس والخزرج فغلبتهم العرب قالوا لهم: لو خرج النبي الذي قد أظلَّ[٢] وقته لقتلناكم معه، واستنصرنا عليكم به، و﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ معناه يستنصرون[٣]، وفي الحديث: «كان رسول الله ﷺ يستفتح بصعاليك المهاجرين»[٤]، وروي أن قريظة، والنَّضير، وجميع يهود الحجاز في ذلك الوقت، كانوا يستفتحون على سائر العرب، وبسبب خروج النبي المنتظر كانت نقلتهم إلى الحجاز وسكناهم به، فإنهم كانوا علموا صُقْعَ[٥] المبعث، وما عرفوا أنه محمد عليه السلام وشرعه، ويظهر من هذه الآيات العناد منهم، وأن كفرهم كان مع معرفة ومعاندة، و﴿لَعَنَه الله﴾ معناه: إبعاده لهم وخزيهم لذلك، واختلف النحاة في جواب ﴿لمَّا﴾[٦] و﴿لمَّا﴾ الثانية في هذه الآية، فقال أبو العباس المبرد: جوابهما في قوله: ﴿كفروا﴾، وأُعيدت لمَّا الثانية لطول الكلام، ويفيد ذلك تقريراً للذنب وتأكيداً له، وقال الزجاج: لمَّا الأولى لا جواب لها، وللاستغناء عن ذلك بدلالة الظاهر من الكلام عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأنه محذوف.

وقال الفراء: جواب لمَّا الأولى في الفاء وما بعدها، وجواب لمَّا الثانية كفروا، وبيس[٧]أصله بئس سُهِّلت الهمزة ونقلت إلى الياء حركتها، ويقال في بئس: بيس،

---

(١) أي على الحال من (كتاب) لتخصيص النكرة بالصفة.

(٢) في بعض النسخ بالطاء المهملة، وفي بعضها بالظاء المشالة، وكلاهما صالح. يقال: أطلَّ الشهر وأظلَّ بمعنى قرب.

(٣) قيل: إنهم كانوا قبل مبعث النبي ﷺ يطلبون من الله النصر على أعدائهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي يجدون صفته عندهم في التوراة، فعلى ما قاله المؤلف رحمه الله كانوا يستنصرون بمخرجه ومبعثه، وعلى هذا القول كانوا يستنصرون بحقه وجاهه.

(٤) أي بفقرائهم، والمراد أنه يَسْتَنْصر بدعائهم وصلاتهم وجهادهم، وفي النسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: إنما يَنْصُرُ الله هذه الأمة بضعفائها».

(٥) الصُّقع: الناحية ـ يقال: فلان من هذا الصقع، أي من هذه الناحية.

(٦) أي: الأولى.

(٧) يلاحظ أن ابن عطية يختار التسهيل في «بئس. وبئسما» فيقول: «بيس، وبيسما» ويشرح الكلمة على هذا الوضع، هذا وفي كل من نعم وبئس أربع لغات، نعم بكسر النون وفتحها مع سكون العين، ونعم بفتح=

إتباعاً للكسرة وهي مستوفية للذم، كما أن نعم مستوفية للمدح[١]. واختلف النحويون في (بيسَمَا) في هذا الموضع، فمذهب سيبويه أن (ما) فاعلة ببيس، ودخلت عليها بيس كما تدخل على أسماء الأجناس والنكرات لمَّا أشبهتها (ما) في الإبهام، فالتقدير على هذا القول: «بيس الذي اشتروا به أنفسهم أن يكفروا»، كقولك: بيس الرجل زيد، و(ما) في هذا القول موصولة، وقال الأخفش: (ما) في موضع نصب على التمييز كقولك: بيس رجلاً زيدٌ، فالتقدير: بيس شيئاً أن يكفروا، و﴿اشْتَروا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾، في هذا القول صفة (ما)[٢]. وقال الفراء: بيسما بجملته شيءٌ واحد رُكِّب، كحبذا، وفي هذا القول اعتراض لأنه فعل يبقى بلا فاعل، و[ما] إنما تُكفُّ أبداً حروفاً[٣]. وقال الكسائي: ما واشتروا بمنزلة اسم واحد قائم بنفسه، فالتقدير: بيس اشتراؤهم أنفسهم أن يكفروا[٤]. وهذا أيضاً معترض؛ لأن بيس لا تدخل على اسم معين متعرف بالإضافة إلى الضمير. وقال الكسائي أيضاً: إن (ما) في موضع نصب على التفسير، ثم(ما) أخرىٰ مضمرة، فالتقدير: بيس شيئاً ما اشتروا به أنفسهم، و﴿أن يَكْفُرُوا﴾ في هذا القول بدل من (ما) المضمرة، ويصح في بعض الأقوال المتقدمة أن تكون ﴿أَنْ يَكْفُرُوا﴾ في موضع خفض بدلاً من الضمير في (به)، وأما في القولين الأولين فأَنْ يكْفُرُوا ابتداءٌ وخبره فيما قبله.

و﴿اشتروا﴾ بمعنى باعوا، يقال شرى واشترى بمعنى باع وبمعنى ابتاع[٥]، و﴿ما أنزل الله﴾ يعني به القرآن، ويحتمل أن يراد به التوراة، لأنهم إذا كفروا بعيسى ومحمد عليهما

= النون وكسر العين، ونعم بكسرهما، وكذلك بِئْس وبَئْس وبَئِس وبِئِس.

(١) (نِعْمَ): مستوفية لجميع أنواع المدح كما أن (بِئْس) مستوفية لجميع أنواع الذم، فإذا قلت: نعم الرجل زيد، فمعناه أن زيداً استحق المدح الذي يكون في سائر جنسه، كما أن: بئس الرجل زيد، معناه أنه استوفى الذم الذي يكون في سائر جنسه.

(٢) وأما على القول الأول فهو صلة، وأبين الأقوال المذكورة قول سيبويه والأخفش، وما سوى ذلك ضعيف، وعلى قولهما فأن يكفروا ابتداء، وخبره فيما قبله.

(٣) أي ثلاثة، كما في: «طالما، وقلما، وكثرما»، وقال أبو علي الفارسي: طالما وقلما ونحوهما أفعال لا فاعل لها مضمراً ولا مظهراً، لأن الكلام لما كان محمولا على النفي سوغ ذلك ألا يحتاج إليه، و(ما) دخلت عوضاً عن الفاعل.

(٤) وتكون (ما) مصدرية على هذا القول.

(٥) الأكثر أن شرى بمعنى باع، واشترى بمعنى ابتاع، وقد يكون العكس.

السلام فقد كفروا بالتوراة، ويحتمل أن يراد به الجميع من توراة وإنجيل وقرآن، لأن الكفر بالبعض يلزم الكفر بالكل و﴿بغياً﴾ مفعول من أجله، وقيل: نصب على المصدر(١)، و﴿أَنْ يُنَزِّل﴾ نصب على المفعول من أجله، أو في موضع خفض بتقدير: بأن يُنَزِّل(٢)، وقرأ أبو عمرو(٣)، وابن كثير: [أن يُنزِل] بالتخفيف في النون والزاي. و﴿من فضله﴾ يعني من النبوة والرسالة. ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني به محمداً ﷺ، لأنهم حسدوه لمَّا لم يكن منهم، وكان من العرب، ويدخل في المعنى عيسى ﷺ لأنهم كفروا به بغياً، والله قد تفضل عليه.

وباؤوا: معناه مضوا متحملين لما يُذْكَر أنهم باءوا به، و﴿بغَضَبٍ﴾ معناه من الله تعالى، لكفرهم بمحمد ﷺ ﴿على غضبٍ﴾ متقدم من الله تعالى عليهم، قيل: لعبادتهم العجل، وقيل: لقولهم: عُزَيْرٌ ابن الله، وقيل: لكفرهم بعيسى عليه السلام، فالمعنى: على غضبٍ قد باءَ به أسلافهم، حظُّ هؤلاء منه وافر بسبب رضاهم بتلك الأفعال وتصويبهم لها.

وقال قوم: المراد بقوله: ﴿بغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ التأكيد، وتشديد الحال عليهم، لأنه أراد غضبين مُعَلَّلَيْن بقصتين(٤). و﴿مُهِينٌ﴾ مأخوذ من الهوان، وهو ما اقتضى الخلود في النار، لأن من لا يَخُلَّد من عصاة المسلمين إنما عذابه كعذاب الذي يقام عليه الحد لا هوان فيه، بل هو تطهير له(٥). وقوله تعالى: ﴿وإذا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني اليهود أنهم إذا قيل لهم: آمنوا بالقرآن الذي أنزل الله على محمد ﷺ عليه وسلم قالوا: نؤمن بما

(١) إذا أُعرب (بغياً) مفعولا لأجله فالعامل فيه: ﴿كفروا﴾ أو ﴿اشتروا﴾، وإذا كان منصوباً على المصدر، فالتقدير: «بغَوْا بَغْياً»، وعلى أنه مصدر فقوله تعالى: ﴿أن ينزل الله﴾ مفعول لأجله كما قال المؤلف.

(٢) الأظهر تقدير حرف الجر (لاماً) أو (على) أي «لتنزيل الله» أو «على تنزيل الله».

(٣) اعلم أن أبا عمرو وابن كثير قرآا جميع المضارع مخففاً من (أنزل) في غير ما وقع الإجماع على تشديده وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُه إلاَّ بقدر مَعْلوم﴾ في سورة الحجر، إلا أن أبا عمرو شدد ﴿على أنْ ننزِّل آية﴾. في الأنعام ـ وابن كثير ﴿وننزِّلُ من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للْمؤمنين﴾ ﴿وحتَّى تُنَزِّل علينَا كِتاباً نقرؤه﴾ في الإسراء وشدد الباقون المضارع حيث وقع إلا حمزة بن حبيب الزيات وعليا الكسائي فإنهما خففا (وينزل الغيث) في آخر سورة لقمان ﴿وهو الَّذي ينزل الْغَيْثَ﴾ في سورة الشورى ـ وكلٌّ من الهمز والتشديد جاء للتعدية، والله أعلم.

(٤) وفي بعض النسخ: معللين «بمعصيتين».

(٥) عذاب الكفر هو العذاب المهين، وأما عذاب المعصية فليس بعذاب مهين، وإنما هو عذاب مُطَهِّرٌ.

أُنزل علينا، يعنون التوراة. ﴿وَمَا وَرَاءَهُ﴾. قال قتادة: أي ما بعده، قال الفراء: أي ما سواه ويعني به القرآن(١). وإذا تكلم رجل، أو فعل فعلاً فأجاد، يقال له: ما وراء ما أتيت به شيءٌ، أي ليس يأتي بعده(٢)، ووصف تعالى القرآن بأنه الحق.

و﴿مصدِّقاً﴾ حال مُؤكِّدَة عند سيبويه(٣) وهي غير متنقلة، وقد تقدم معناها في الكلام، ولم يبق لها هي إلاَّ معنى التأكيد، وأنشد سيبويه على الحال المؤكِّدة:

أنـا ابْـن دَارَةَ مَعْـرُوفـاً بِهَـا حَسَبِـي ... وهـلْ لِـدَارَةَ يـاللنَّـاسِ مِـنْ عَـار(٤)؟

و﴿لِمَا مَعَهُمْ﴾ يريد به التوراة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ الآية ردٌّ من الله تعالى عليهم في أنهم آمنوا بما أنزل عليهم، وتكذيبٌ منه لهم في ذلك، واحتجاج عليهم.

ولا يجوز الوقف على ﴿فَلِمَ﴾ لنقصان الحرف الواحد، إلا أن البزِّيَّ(٥) وقف عليه بالهاء، وسائر القراء بسكون الميم(٦). وخاطب الله من حضر محمداً ﷺ من بني إسرائيل بأنهم قتلوا الأنبياء لما كان ذلك من فعل أسلافهم.

وجاء ﴿تَقْتُلُونَ﴾ بلفظ الاستقبال، وهو بمعنى المضي لما ارتفع الإشكال بقوله: [مِنْ قَبْلُ]، وإذا لم يُشْكِلْ فجائز سوق الماضي بمعنى المستقبل، وسوقُ المستقبل بمعنى الماضي، قال الحطيئة:

شَهِـدَ الحُطَيْئَـةُ يـومَ يَلْقـى ربَّـهُ ... أنَّ الـوليـد أحـقُّ بـالعُـذْرِ(٧)

---

(١) ما قاله قتادة والفراء بمعنى واحد.

(٢) أي ليس عندك شيء سوى ذلك.

(٣) زعم سيبويه، والخليل، وجميع النحاة الموثوق بهم، أن قولك: «هو زيد قائماً» غير قولك: هو زيد معروفاً» لأن الحال في الأول يوجب أنه إن كان قائماً فهو زيد، وإذا ترك القيام فليس بزيد، فذلك القول خطأ ـ وأما قولك: «هو زيد معروفاً» فمعناه هو زيد حقاً لأنه إنما يكون زيداً إذا كان يعرف بزيد، ومثله قوله تعالى: «هو الحق مصدقاً» ـ فالقرآن هو الحق إذا كان مصدقاً لما معهم.

(٤) قائله: سالم بن دارة، ودارة اسم أمّه، وقيل: اسم أحد أجداده. ومعروفاً حال مؤكدة لجملة: أنا ابن دارة. كقوله تعالى: «مصدقاً» فهو حال مؤكدة لقوله: «وهو الحق»، ويروى: (نسبي) بدلاً من (حسبي).

(٥) هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزّة، محقّق، متْقن للقراءة، لكنه في الحديث منكر ضعيف الحديث. توفي سنة (٢٥٠) هـ.

(٦) وهذا الموقف لا يجوز إلا لقصد الاختبار أو لانقطاع النفس.

(٧) الحطيئة لقب لجرول العبسي الشاعر المشهور، وشهد بمعنى يشهد.

وفائدة سوق الماضي في موضع المستقبل الإشارة إلى أنه في الثبوت كالماضي الذي قد وقع[(١)]، وفائدة سوق المستقبل في معنى الماضي الإعلام بأن الأمر مستمر[(٢)] ألا ترى أن حاضري محمد ﷺ لمَّا كانوا راضين بفعل أسلافهم بقي لهم من قتل الأنبياء جزءٌ، و[إِنْ كُنتُم] شرطٌ، والجواب متقدم، وقالت فرقة: [إن] نافية بمعني (ما).

قوله عز وجل:

﴿ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿البيِّنات﴾: التوراة، والعصا، وفرق البحر، وغير ذلك من آيات موسى عليه السلام، وقوله: ﴿ثمَّ اتَّخذْتُمُ﴾ تدل ﴿ثمَّ﴾ على أنهم فعلوا ذلك بعد مهلة من النظر في الآيات، وذلك أعظم في ذنبهم، وقد تقدمت قصة اتخاذهم العجل، والضمير في قوله: ﴿من بعْدِهِ﴾ عائد على موسى عليه السلام، أيْ من بعده حين غاب عنكم في المناجاة، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿بعده﴾ على المجيء، وهذه الآية ترد عليهم في أنَّ من آمن بما نزل عليه لا يتخذ العِجْل، وقد تقدم ذكر أخذ الميثاق ورفع الطور.

وقولهُ ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بقُوَّة﴾، يعني التوراة، والشرع. و﴿بِقُوَّةٍ﴾ أيْ بعزم، ونشاط، وجدٍّ، ﴿واسْمَعُوا﴾ معناه هنا: وأطيعوا، وليس معناه الأمر بإدراك القول فقط[(٣)]. وقالت

(١) نحو قوله تعالى: ﴿ونُفخ في الصُّور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلاَّ من شاء الله﴾ لما كان ذلك محقق الوقوع في المستقبل، عبر عنه بالماضي الذي يدل على الوقوع.

(٢) ولذلك كانوا يحومون حول قتل رسول الله ﷺ فسحروه وسموه حتى قال ﷺ عند موته: «ما زالت أكلة خيبر تعاودني، فهذا أوان انقطاع أبهري» ـ ولقد كان في الإتيان بالفعل مستقبلاً ما يهدي إلى أن عادتهم قتل الأنبياء، لأنه إذا كان هذا النبي المكتوب عندهم في التوراة والإنجيل قد أُمروا أن يؤمنوا به وينصروه، ومع ذلك راموا قتله، فكيف من لم يتقدم لهم فيه عهد من الله، فقتله عندهم أولى. والحديث المشار إليه أخرجه البزار وغيره من حديث أبي هريرة، والقضية مذكورة في البخاري ومسلم.

(٣) يعني أن المراد سماع القلب لا سماع الأذن، وسميت الطاعة سمعاً على جهة المجاز، لأن طاعة الأمر تتوقف على سماعه، والمعنى: اعملوا بما سمعتم، والتزموه في حياتكم.

طائفة من المفسرين: إنهم ﴿قالوا سَمِعْنَا وعصَيْنَا﴾، ونطقوا بهذه الألفاظ مبالغة في التعنت والمعصية(١)، وقالت طائفة: ذلك مجاز، ولم ينطقوا بسمعنا وعصينا ولكن فعلهم اقتضاه، كما قال الشاعر:

امتــلأَ الْحَــوْضُ وَقَــالَ قَطنــي(٢) . . . .

وهذا أيضاً احتجاج عليهم في كذب قولهم: ﴿نؤمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا في قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾، التقدير: حب العجل، والمعنىٰ: جعلت قلوبهم تشربه، وهذا تشبيه ومجاز عبارة عن تمكن أمر العجل في قلوبهم(٣)، وقال قوم: إن معنى قوله: ﴿وَأُشْرِبُوا في قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ شربهم الماء الذي أَلْقى فيه موسى بُرادة العجل، وذلك أنَّه بَرَدَهُ بالمبرد ورماه في الماء، وقيل لبني إسرائيل: اشربوا من ذلك الماء، فشرب جميعهم، فمن كان يحب العجل خرجت برادة الذهب على شفتيه. وهذا قول يردُّهُ قوله تعالى: ﴿في قُلُوبِهِم﴾(٤)، وروي أن الذين تبين فيهم حب العجل أصابهم من ذلك الماء الجن(٥).

وقوله تعالى: [بِكُفْرِهِمْ] يحتمل أن تكون باء السبب، ويحتمل أن تكون بمعنى مع.

---

(١) يعني أن المفسرين اختلفوا في قوله تعالى: ﴿قالوا سَمِعْنا وعَصَيْنَا﴾. أكان ذلك بلسان المقال أم بلسان الحال؟ كما قال الشاعر:

امتــلأ الحَــوْضُ وقــال قطْنــي . . . .

(٢) تمامه:

. . . . مهــلا رُوَيْــداً قــد مــلأت بَطْنــي

من كلام بعض الماتحين، رأى حوضه قد امتلأ فقال: امتلأ حوضي، وقال: يكفيني، يُعلم بذلك الماتح لينصرف إلى دلو غيره، وهذا ما يسمى عندهم بلسان الحال، فإن الحوض لا يتكلم.

(٣) أي تغلغله في قلوبهم كما يتغلغل شرب الماء في الأعضاء حتى يصل إلى أعماقها، ولذلك شبه حبهم للعجل بشرب الماء دون الأكل، لأن الطعام يجاور الأعضاء ولا يتغلغل فيها كما يتغلغل الشراب، فالمجاز استعارة، والاستعارة مبنية على التشبيه، جعلت قلوبهم ـ لتمكن حب العجل منها ـ كأنها تشربه، ثم استعير لفظ (اشربوا) استعارة تبعية، ولا يدل قوله: [وأُشربوا] على أن غيرهم فعل بهم ذلك، بل هم الذين كسبوا ذلك، فأشربوا من الشراب كما أن (أنسيت كذا) من النسيان.

(٤) وجه الرد أن القصد من هذا السياق أنه ظهر على شفاههم ووجوههم، والمذكور في الآية أنهم أُشربوا العجل في قلوبهم.

(٥) في تفسير (ق): ورُوي أنه ما شربه أحد إلا جن، حكاه القشيري اهـ.
وفي بعض النسخ: (الجبن).

وقوله تعالى: [قُلْ بِئْسَمَا] الآية، أمر لمحمد ﷺ أن يوبخهم بأنه بئس هذه الأشياء التي فعلتم، وأمركم بها إيمانكم الذي زعمتم في قولكم: [نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنا]، و(مَا): في موضع رفع، والتقدير: بئْس الشيءُ قتل[١] واتخاذ عجل، وقول سمعنا وعصينا. ويجوز أن تكون (ما) في موضع نصب، [وإنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] شرط[٢]، وقد يأتي الشرط والشارط يعلم أن الأمر على أحد الجهتين، كما قال الله عن عيسى عليه السلام: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾[٣] وقد علم أن عيسى عليه السلام لم يقله، كذلك: [إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين]، والقائل يعلم أنهم غير مؤمنين، لكنه إقامةُ حجة بقياس بَيِّن، وقال قوم: [إنْ] هنا نافية بمنزلة (ما) كالتي تقدمت. وقرأ الحسن، ومسلم بن جندب (بهو إيمانُكمْ) برفع الهاء[٤].

وقوله تعالى: [قُلْ إنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخرة] الآية، أمر لمحمد ﷺ أنْ يوبخهم، والمعنى: إن كان لكم نعيمها وحظوتها وخيرها فذلك يقتضي حرصكم على الوصول إليها فتمنوا الموت، و[الدَّار]: اسم كانت، و[خالصةً] خبرها، ويجوز أن يكون نصب [خالصة] على الحال، و[عِنْدَ الله] خبر كان[٥]، و[مِنْ دُونِ النَّاسِ] يحتمل أن يراد بالناس محمد ﷺ ومن تبعه، ويحتمل أن يراد العموم التام[٦]، وهو قول اليهود فيما حفظ عنهم، وقرأ ابن أبي إسحق بكسر الواو من [تَمَنَّوا] للالتقاء[٧]، وحكى الأهوازي عن أبي عمرو أنه قرأ [تَمَنَّوا الموْتَ] بفتح الواو[٨]، وحكي عن غيره اختلاس الحركة في الرفع، وقراءة الجماعة بضم الواو.

وهذه آيةٌ بينة أعطاها الله رسوله محمداً ﷺ، لأن اليهود قالت: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[٩]، وشِبْهُ ذلك من القول، فأمر الله نبيه أن يدعوهم إلى تمني الموت، وأن

(١) أي: قتل الأنبياء.

(٢) والتقدير: بئس شيئاً يأمركم به إيمانكم قتل الأنبياء، واتخاذ العجل، وقول: سمعنا وعصينا.

(٣) من الآية (١١٦) من سورة المائدة.

(٤) أي ووصلها بالواو للإشباع، وهي لغة.

(٥) الظاهر أن الخبر ـ على نصبها على الحال ـ (عند)، والظرف لا يستقل معنى الكلام به وحده.

(٦) ينافيه قولهم في الآية الأخرى: [وقالوا لَنْ يَدْخُلَ الجنَّةَ إلا منْ كانَ هوداً أو نَصَارى].

(٧) تشبيهاً لها بواو [لو استطعنا].

(٨) تخفيفاً لأن الكسر والضم يثقلان مع الواو.

(٩) من الآية (١٨) من سورة المائدة.

يعلمهم أنه من تمناه منهم مات، ففعل النبيُّ ﷺ، فعلم اليهود صدقه فأحجموا عن تمَنِّيه فَرَقاً من الله لقبح أعمالهم، ومعرفتهم لكذبهم في قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ﴾، وحرصاً منهم على الحياة[١]، وقيل: إن الله منعهم من التمني، وقصرهم على الإمساك عنه، لتظهر الآية لنبيه ﷺ[٢].

والمراد بقوله: ﴿تمنوا﴾ أريدوه بقلوبكم واسألوه، هذا قول جماعة من المفسرين، وقال ابن عباس: المراد به السؤال فقط وإن لم يكن بالقلب[٣]، وقال أيضاً هو وغيره: إنما أمروا بالدعاء بالموت على أردى الحزبين من المؤمنين أو منهم[٤].

وذكر المهدوي وغيره أن هذه الآية كانت مدة حياة النبي ﷺ وارتفعت بموته[٥]. والصحيح أن هذه النازلة من موت من تمنى الموت إنما كانت أياماً كثيرة عند نزول الآية، وهي بمنزلة دعائه النصارى من أهل نجران إلى المباهلة، وقالت فرقة: إن سبب هذا الدعاء إلى تمني الموت أنَّ النبي ﷺ أراد به هلاك الفريق المكذب، أو قطع حجتهم، لا أنَّ عِلَّته قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ﴾[٦].

= وهذه الآية التي أعطيها ﷺ بالنسبة إلى اليهود مثل آية المباهلة التي أعطيها ﷺ بالنسبة إلى النصارى.

(١) أخرج البيهقي في الدلائل، من رواية الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنَّ النبي ﷺ قال لليهود: «إن كنتم صادقين فقولوا: اللهمَّ أمِتْنا، فو الذي نَفْسي بيده لا يقولها رجلٌ منكم إلا غص بريقه ومات مكانه»، فأنزل الله قوله: ﴿ولَنْ يَتَمَنَّوْهُ أبداً بما قدَّمتْ أيْديهم﴾.

(٢) هذا هو الوجه الثالث في تركهم للتمني، والأول أنهم تركوه خوفاً من الموت لأنهم لو تمنوا لماتوا، كما روي ذلك عن النبي ﷺ. والثاني أنهم تركوه خوفاً من الله تعالى لكفرهم وقبح أعمالهم، والأوجه الثلاثة أشار إليها المؤلف رحمه الله.

وهذه الآية التي أعطيها ﷺ بالنسبة إلى اليهود مثل آية المباهلة التي أعطيها ﷺ بالنسبة إلى النصارى.

(٣) المراد بالتمني هنا: التلفظ بما يدل عليه، لا مجرد خطوره بالقلب، وميل النفس إليه، فإن ذلك لا يليق في مقام المحاجة والتحدي، لأنه من ضمائر القلوب، فقوله تعالى: ﴿فَتَمنَّوا المَوْتَ﴾ معناه: فاسألوه بألسنتكم، سواء كانت معه قلوبكم أم لا. والمراد بتمنيهم الموت هنا إلزامهم الحجة، وإقامة البرهان على بطلان أباطيلهم، فلا منافاة بين ما هنا وبين النهي عن تمني الموت.

(٤) أي على أيِّ الفريقين أردى وأكذب، وهذا أبلغ في إقامة الحجة، وأسلم من المعارضة.

(٥) أكانت هذه المعجزة ـ وهي موت من تمنى الموت من اليهود ـ طيلة حياة النبي ﷺ، ولم ترتفع إلا بعد موته، أمْ كانت أياماً كثيرة عند نزول الآية الكريمة، لا طول حياة النبي ﷺ؟ الصحيح القول الثاني كما قال المؤلف. وما قاله المهدوي، وابن عطية، رحمهما الله تعالى خلاف ظاهر القرآن، فإن قوله: ﴿وَلَنْ يَتمنَّوْهُ أبداً﴾ ظاهر في استغراق مدة أعمارهم، والله أعلم.

(٦) هو كذلك، ويشير ابن عطية رحمه الله ـ بما نقله عن هذه الفرقة، وبما نقله عن ابن عباس وغيره في=

ثم أخبر تعالى عنهم بعجزهم، وأنهم لا يتمنَّوْنَهُ، و[أبَداً] ظرف زمان، وإذا كانت (ما) بمعنى الذي فتحتاج إلى عائد تقديره: قدَّمَتْهُ، وإذا كانت مع [قَدَّمَتْ] بمثابة المصدر غنيت عن الضمير، هذا قول سيبويه، والأخفش يرى الضمير في المصدرية. وأضاف ذنوبهم واجترامهم إلى الأيدي، وأسند تقديمها إليها، إذ الأكثر من كسب العبد الخير والشرَّ إنما هو بيديه، فحمل جميع الأشياء على ذلك. وقوله تعالى: [واللهُ عليمٌ بالظَّالِمِينَ] ظاهرها الخبر، ومضمنها الوعيد(١)، لأن الله عليم بالظالمين وغيرهم، ففائدة تخصيصهم حصول الوعيد.

قوله عز وجل:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

= تفسير الآية الكريمة من أنهم إنما أُمروا بالدعاء بالموت على أردى الحزبين من المؤمنين أو منهم، ويقوله سابقاً: وهي ـ أي هذه الآية ـ بمنزلة دعائه النصارى من أهل نجران إلى المباهلة ـ يشير بذلك كله إلى ما ترجح عنده في تفسير الآية، وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب ـ منهم أو من المسلمين ـ على وجه المباهلة العادلة الفاصلة، وهذا ما حققه الحافظ ابن (ك) رحمه الله في تفسيره. وأما على التأويل الآخر فإنه لا يظهر الحجة عليهم إذ لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون في دعواهم أنهم يتمنون الموت، فإنه لا ملازمة بين وجود الصدق والصلاح وبين تمني الموت، وكم من صالح لا يتمنى الموت، بل يود أن يعمر ليزداد خيره، وترتفع درجته، كما ورد في الحديث: «خيركم من طال عمره وحسن عمله».

وعلى ما فسر ابن عباس رضي الله عنهما فإنه لا يلزم عليه شيء من ذلك، بل قيل لهم كلام حق: إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس، وأنكم أبناء الله وأحباؤه وأنكم من أهل الجنة، ومن عداكم من أهل النار فباهلوا على ذلك، وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم بالموت، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة، وسميت مباهلة اليهود بتمني الموت لأن كل محق يتمنى لو أهلك الله المبطل ـ وكانت بالموت لأن الحياة عزيزة وعظيمة لما يعلمون من سوء المآل بعد الموت، وفي كلام بعض أئمة التفسير اضطراب وخلط وتلفيق. والله أعلى وأعلم.

(١) يعني أن المراد بالخبر هو التهديد والوعيد، لا ثبوت النسبة الخبرية، إذ لا فائدة في ذلك، فالله عليمٌ بالظالمين وغير الظالمين.

(وجد) في هذا المعنى تتعدى إلى مفعولين، لأنها من أفعال النفس[١]، ولذلك صح تعديها إلى ضمير المتكلم في قول الشاعر:

تَلَفَّتُّ نَحْوَ الحَيِّ حَتَّى وجَدْتُنِي   وجِعْتُ مِنَ الإصْغَاءِ ليتاً وأخْدعا[٢]

وقال النبي ﷺ في الضب: «إنه لمْ يكنْ بأرضِ قومي فَأَجِدني أعافه»[٣].

وحرصهم على الحياة لمعرفتهم بذنوبهم، وأن لا خير لهم عند الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذين أَشْرَكوا﴾[٤]، قيل: المعنى وأحرص من الذين أشركوا، لأن مشركي العرب لا يعرفون إلا هذه الحياة الدنيا، ألا ترى إلى قول امرىء القيس:

تمتَّع من الدُّنيا فإنَّك فانٍ[٥]   . . . .

والضمير في ﴿أَحَدُهُمْ﴾ يعود في هذا القول على اليهود، وقيل: إن الكلام تم في حياة ثم استؤنف الإخبار عن طائفة من المشركين أنهم يود أحدهم، وهي المجوس، لأن تشميتهم للعاطس لفظ بلغتهم معناه «عش ألف سنة»[٦]، فكأن الكلام: ومن المشركين قوم يود أحدهم، وفي هذا القول تشبيه بني إسرائيل بهذه الفرقة من

---

(١) أي أفعال القلوب، لا من أفعال الجوارح.

(٢) هو للصمة بن عبد الله القشيري، شاعر إسلامي، بدوي، مقلٌّ. من شعراء الدولة الأموية وقبله:

ولمَّا رأيتُ البِشْر قد حال بيننا   وحالتْ بناتُ الشوق في الصَّدر نُزَّعا

والبشر: جبل ـ والليث بالكسر: صفحة العنق. والأخدع: عرق في العنق.

(٣) قدِّم إلى النبي ﷺ ضبٌّ فامتنع عن أكله، فقال له خالد بن الوليد: أحرام الضبُّ يا رسول الله؟ فقال: «لا. بل إنه لم يكن. . » قال خالد: فاحتززته فأكلته ورسول الله ينظر إلي.

(٤) أفردوا بالذكر مع اندراجهم في الناس لزيادتهم عليهم بشدة الحرص. والإعراب الأول من باب عطف المفرد على المفرد، وهو محمول على المعنى، أي أحرص من الناس، ومن الذين أشركوا، والمراد بهم على هذا مشركو العرب. والإعراب الثاني من عطف الجمل، قصد به الإخبار عن طائفة من الأعاجم، وتشبيه اليهود بهم، والضمير في (أحدهم) على الأول لليهود، وعلى الثاني للمشركين، والغرض المبالغة في ذم اليهود، لحرصهم على الدنيا والبقاء فيها، مع أنهم يعتقدون ثواب الآخرة وعقابها. والإعراب الأول أليق بالمقام لأن القصة خاصة باليهود.

(٥) تمامه

. . . .   من النَّشواتِ والنِّسا الحسان

وروي: (والنشا) بالشين المفتوحة وفي ديوان امرىء القيس (والنساء الحسان).

(٦) قال في الكشاف عن ابن عباس رضي الله عنه: هو قول الأعاجم: «زي هزار سال» انتهى. وزي بالفارسية معناه عش، وهزار معناه ألف، وسال معناه عام.

المشركين. وقصد الألف بالذكر لأنها نهاية العقد في الحساب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُو بِمُزَحْزِحِهِ﴾، اختلف النحاة في (هو)، فقيل: هو ضمير الأحد المتقدم، فالتقدير: (وما أحدهم بمزحزحه)، وخبر الابتداء في المجرور، و[أَنْ يُعَمَّرَ] فاعل بمزحزحه[١]، وقالت فرقة: هو ضمير التعمير، والتقدير: (وما التعمير بمزحزحه)، والخبر في المجرور، وأن يعمر بدل من التعمير في هذا القول. وقالت فرقة: هو ضمير الأمر والشأن، وقد ردّ هذا القول بما حفظ عن النحاة من أن الأمر والشأن إنما يفسر بجملة سالمة من حرف جر.

وقد جوز أبو علي ذلك[٢] في بعض مسائله الحلبيات[٣].

وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: هو عماد[٤]، وقيل: (ما) عاملة حجازية وهو اسمها والخبر في ﴿بمزحزحه﴾. والزحزحة الإبعاد والتنحية، وفي قوله: ﴿والله بصير بما يَعْمَلونَ﴾ وعيدٌ، والجمهور على قراءة [يَعْمَلُونَ] بالياء من أسفل، وقرأ قتادة، والأعرج، ويعقوب، [تَعْمَلُون] بالتاء من فوق، وهذا على الرجوع إلى خطاب المتوعَّدين من بني إسرائيل.

وقوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ الآية، نزل على سبب لم يتقدم له ذكر فيما مضى من الآيات، ولكن أجمع أهل التفسير أن اليهود قالت: جبريل عدونا، واختلف في كيفية ذلك[٥]، فقيل: إن يهود فدك قالوا للنبي ﷺ: نسألك عن أربعة أشياء، فإن

---

(١) هذا الإعراب ينبيءُ أن (ما) تميمية، ويأتي أنه يجوز أن تكون عاملة، أي حجازية.

(٢) أي ما قالته هذه الفرقة من أن (هو) ضمير الأمر والشأن.

(٣) المسائل الحلبية اسم كتاب لأبي علي الفارسي المتوفى ببغداد سنة ٣٧٧، ولم يقل شعراً إلا ثلاثة أبيات وهي:

خضَبْتُ الشَّيبَ لمَّا كان عيْباً ... وخَضْبُ الشَّيْبِ أولى أنْ يُعَابا
ولم أخضب مخافةَ هَجْر خلٍّ ... ولا عتْباً خشيت ولا عتابا
ولكنَّ المشيبَ بدا دميماً ... فصيَّرْتُ الخضاب لهُ عقابا

(٤) قال الشيخ أبو (ح): العماد شرطه عند البصريين أن يكون متوسطا بين المبتدأ والخبر، وبعض الكوفيين يجيزون أن يتقدم مع الخبر على المبتدأ، والتقدير: (وما تعميره هو بمزحزحه)، ثم قدم الخبر مع العماد فجاء: (وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر أي تعميرة)، وقد علمت أن الراجح أنه لا يكون إلا بين شيئين، ولذلك يسمونه ضمير الفصل.

(٥) أي في سبب هذا القول، فقيل: إن سبب ذلك محاورتهم مع النبي ﷺ، وقيل: محاورتهم مع عمر بن=

عرفتها اتَّبعناك، فسألوه عن الشبه في الولد فقال: أيُّ ماءٍ علا كان الشبه له، وسألوه عن نومه فقال: تنام عيني ولا ينام قلبي، وسألوه عمن يجيئه من الملائكة فقال: جبريل، فلما ذكره قالوا: ذاك عدونا، لأنه ملك الحرب والشدائد والجدب، ولو كان الذي يجيئك ميكائيل ملك الرحمة والخصب والأمطار لاتبعناك. وقيل: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتكرر على بيت المدارس، فاستحلفهم يوماً بالذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء، أتعلمون أنَّ محمداً نبيٌّ؟ قالوا نعم، قال فلم تهلكون في تكذيبه[1]؟ قالوا صاحبه جبريل، وهو عدونا. وذكر أنهم قالوا سبب عداوتهم له: أنه حمى بخت نصر حين بعثوا قبل أن يملك من يقتله، فنزلت هذه الآية لقولهم.

وفي(جبريل) لغات: (جِبْرِيل) بكسر الجيم والراء من غير همز، وبها قرأ نافع، و(جَبْرِيل) بفتح الجيم وكسر الراء من غير همز، وبها قرأ ابن كثير، وروي عنه أنه قال: رأيت النبي ﷺ في النوم وهو يقرأ (جَبْرِيل ومِيكَال)[2]، فلا أزال أقرؤهما أبداً كذلك[3]. و(جَبْرَأْل) بفتح الجيم والراء وهمزة بين الراء واللام وبها قرأ عاصم، و [جَبرَئيل] بفتح الجيم والراء وهمزة بعد الراء وياءٍ بين الهمزة واللام، وبها قرأ حمزة والكسائي، وحكاها الكسائي عن عاصم، و(جَبْرَائِل) بألف بعد الراء ثم همزة، وبها قرأ عكرمة، و(جَبْرَائيل) بزيادة ياءٍ بعد الهمزة[4]، و(جَبْرَاييل) بياءَين، وبها قرأ الأعمش، و(جَبرَأَلّ) بفتح الجيم والراء وهمزة ولام مشددة، وبها قرأ يحيى بن يعمر، و(جَبْرَالُ) لغة فيه. و(جِبْرِينُ) بكسر الجيم والراء وياءٍ ونون، قال الطبري: هي لغة بني أسد، ولم يقرأ بها.

= الخطاب رضي الله عنه، ولكلٍّ سند. والظاهر أن أسئلة عبد الله بن سلام لم تكن سبباً لنزول الآية الكريمة، وإن تليت الآية عندها، إذ لا يلزم من تلاوتها نزولها حينئذ، والله أعلم.

(١) أي بسبب تكذيبه.

(٢) حاصل قراءة السبعة في (جبريل وميكائيل) أن حمزة والكسائي قرآا بفتح الجيم والراء وهمزة مكسورة بعدها ياء، وشعبة مثلهما إلا أنه يقرأ بدون ياء بعد الهمزة، والباقون يقرؤون (جِبريل) بكسر الجيم كقنديل، إلا ابن كثير فإنه يفتح الجيم فقط، وأما (ميكائيل) فقرأ نافع بالهمز من دون ياءٍ، والبصري وحفص بحذف الهمز والياء كميزان، والباقون بإثباتهما، وروي (ميكال) عن ابن كثير منذ رآها في النوم. ويأتي عند ابن عطية لدى قوله تعالى: [من كان عدواً لله] الآية: أن لابن كثير ثلاث قراءات.

(٣) أي مع اعتماد الرواية في ذلك، إذ لا يعتمد في مثل هذا على المنام.

(٤) نسب أبو (ح) قراءة (جبرائيل، وجبراييل) إلى ابن عباس وعكرمة، انظره.

وجبريل اسم أعجمي عرَّبته العربُ فلها فيه هذه اللغات(١)، فبعضها هي موجودة في أبنية العرب وتلك أدخل في التعريب كجبريل الذي هو كقنديل، وبعضها خارج عن أبنية الْعرب، فذلك كمثل ما عربته العرب ولم تُدخله في بناء كإبريسم وفِرند وآجرّ ونحوه(٢). وذكر ابن عباس، وغيُره: أن جَبْرَ، ومَيْكَ، وسَراف، هي كلها بالأعجمية بمعنى عبد ومملوك، وإيل: اسم الله تعالى(٣)، ويقال فيه: إل، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين سمع سجع مسيلمة: «هذا كلام لم يخرج من إل».

وقوله تعالى: ﴿فإنه نزَّلهُ على قَلْبِكَ﴾(٤) الضمير في ﴿فإنَّهُ﴾ عائد على الله عز وجل، والضمير في ﴿نزَّلهُ﴾ عائد على جبريل ﷺ، والمعنى بالقرآن وسائر الوحي، وقيل: الضمير في (إنَّه) عائد على جبريل، وفي ﴿نزَّلهُ﴾ على القرآن، وخص القلب بالذكر لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف(٥).

وجاءت المخاطبة بالكاف في ﴿قلبك﴾ اتساعاً في العبارة، إذ ليس ثمَّ من يخاطبه النبي ﷺ بهذه الكاف، وإنما يجيءُ قوله: فإنه نزله على قلبي، لكن حسن هذا إذ يحسن

---

(١) يعني أنها تصرفت فيه هذه التصرفات العشرة. قال ابن جني: العرب إذا نطقت بالأعجمي خلطت فيه اهـ.

(٢) الإبريسم بكسر السين وفتحها: الحرير معرب، والفرند بكسر الفاء: السيف وجوهره، والورد الأحمر، معرب. والآجرّ بشد الراء: الطوب الذي يبنى به، معرب.

(٣) قال أبو عبد الله البخاري: قال عكرمة: جبرا وميكا وإسراف: عبد، إيل: الله ـ وما حكاه البخاري عن عكرمة هو المشهور من قولهم أن إيل هو الله، وقد رواه سفيان الثوري عن نصيف، عن عكرمة. ورواه عبد بن حميد، عن إبراهيم بن الحكم، عن أبيه، عن عكرمة، ورواه ابن جرير بسنده عن عكرمة، وبذلك قال غير واحد من السلف. قال أبو علي الفارسي: هذا لا يستقيم من وجهين: أحدهما أن إيل لا يعرف من أسماء الله تعالى في اللغة العربية، والآخر أنه لو كان كذلك لكان آخر الاسم مجروراً أبدا، كما يقول عبد الله. ومن الناس من يقول: إيل عبارة عن عبد، والكلمة الأخرى هي اسم الله، لأن كلمة إيل لا تتغير في الجميع، وكلام العجم يقدم المضاف إليه على المضاف.

(٤) هذا القول يقوم مقام الجواب، والمعنى: من كان عدواً لجبريل فليمت غيظاً، وليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل القرآن على قلبك بإذن الله، فهو رسول الله، ومن عادى رسولا فقد عادى الرسل كلهم، كما أن من كفر برسول فيلزمه الكفر بجميع الرسل، ومن عادى جبريل فقد عادى الله، ومن عادى الله هلك. وفي الحديث: «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب». وفي الحديث أيضاً: «إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب».

(٥) ولأنه إذا صلح صلح الجسد كله كما في الحديث المشهور.

في كلام العرب أن تُحرز اللفظ الذي يقوله المأمور بالقول، ويحسن أن تقصد المعنى الذي يقوله فتسرده مخاطبة له[١]، كما تقول لرجل: قل لقومك لايهينوك، فكذلك هي الآية، ونحو من هذا قول الفرزدق:

أَلَمْ تَرَأَنِّي يومَ جَوِّ سُوَيْقَةٍ بَكَيْتُ فنادتني هُنَيْدَةُ مَالِيَا[٢]

فأحرز المعنى ونكب على نداء هنيدة: مالك؟

و﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ معناه: بعلمه وتمكينه إياه من هذه المنزلة، و﴿مُصَدِّقاً﴾ حال من ضمير القرآن[٣] في (نزّله)، و﴿ما بيْنَ يَدَيْهِ﴾: ما تقدمه من كتب الله تعالى، و﴿هدى﴾: إرشاد، و﴿البشرى﴾: أكثر استعمالها في الخير، ولا تجيء في الشر إلا مقيدة به، ومقصد هذه الآية تشريف جبريل ﷺ وذم معاديه.

وقوله تعالى: ﴿من كانَ عدُوّاً لله﴾ الآية، وعيدٌ وذمٌّ لمعادي جبريل عليه السلام، وإعلام أن عداوة البعض تقتضي عداوة الله لهم. وعداوة العبد لله هي معصيته واجتناب طاعته، ومعاداة أوليائه[٤]. وعداوة الله للعبد تعذيبه وإظهار أثر العداوة عليه.

وذكر جبريل وميكائيل وقد كان ذكر الملائكة عمهما تشريفاً لهما[٥]. وقيل: خصاً لأن اليهود ذكروهما، ونزلت الآية بسببهما، فذكرهما واجب، لئلا تقول اليهود: إنا لم نعاد الله وجميع ملائكته. وقرأ نافع (ميكائِلَ) بهمزة دون ياء. وقرأ بها ابن كثير فيما

---

(١) يعني أنه يجوز في كلام العرب للمأمور أن يقصد اللفظ بالقول، وأن يقصد المعنى فيسرده بالخطاب كما في الآية الكريمة، وكما في بيت الفرزدق.

(٢) وبعد هذا البيت:

فقلت لها: إنَّ البكاءَ لراحةٌ به يشتفي من ظنَّ ألا تلاقيا
قفي ودعينا يا هُنَيْدُ فإنَّني أرى الحيَّ قد شاموا العقيق اليمانيا

وهي أول قصيدة هجا بها الفرزدق جريراً والبعيث. و(جوّ سويقة) موضع. وفي بلاد العرب أجوية كثيرة كل جو منها يعرف بما نسب إليه.

(٣) أي على الإعراب الثاني وهو أن ضمير(فإنَّه) عائد على جبريل، وضمير (نزَّله) عائد على القرآن، وهذا الإعراب أصح من الأول، والضمير الثاني عائد على القرآن من دون تقدم ذكره إيذاناً بفخامة شأنه، لكمال شهرته ونباهته، لا سيما عند ذكر بعض صفاته.

(٤) لأن إلحاق الضرر بالله مستحيل، فالمراد بالمعادي لله من يفعل فعل المعادي من المخالفة والمعصية.

(٥) يعني أن ذكر جبريل وميكائيل بعد ذكر الملائكة هو من باب التخصيص بعد التعميم وذلك دلالة على فضلهما، ولأن اليهود قد تقول: إنا لم نعاد الله و لاجميع الملائكة، ولأن النزاع واقع فيهما فذكرهُما أهم.

روي عنه. وقرأ ابن عامر، وابن كثير أيضاً، وحمزة، والكسائي: [ميكائيل] بياء بعد الهمزة. وقرأ أبو عمرو، وعاصم ﴿ميكال﴾، ورويت عن ابن كثير منذ رآها في النوم كما ذكرنا. وقرأ ابن محيصن [ميكئل] بهمزة دون ألف، وقرأ الأعمش: [ميكاييل] بياءين.

وظهر الاسم في قوله: ﴿فإنَّ الله﴾(١)، لئلا يشكل عود الضمير.

وجاءت العبارة بعموم الكافرين لأن عود الضمير على (من) يشكل سواءٌ أفردته أو جمعته، ولو لم نبال بالإشكال وقلنا: المعنى يدل السامع على المقصد للزم تعيين قوم بعداوة الله لهم، ويحتمل أن الله قد علم أن بعضهم يؤْمن فلا ينبغي أن تطلق عليه عداوة الله للمآل(٢).

وروي أن رجلاً من اليهود لقي عمر بن الخطاب، فقال له: أرأيت جبريل الذي يزعم صاحبك أنه يجيئه؟ ذلك عدونا. فقال له عمر رضي الله عنه: ﴿مَنْ كانَ عَدُواً لله﴾ إلى آخر الآية، فنزلت على لسان عمر رضي الله عنه(٣).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الخبر ضعيف من جهة معناه(٤).

وقوله تعالى: ﴿ولقد أنْزلْنَا إلَيْكَ آيات بيِّنَاتٍ﴾، ذكر الطبري أن ابن صوريا قال للنبي ﷺ: يا محمد. ما جئت بآية بيِّنة. فنزلت هذه الآية(٥). و﴿الْفاسِقونَ﴾ هنا: الخارجون عن الإيمان، فهو فِسْق الكفر، والتقدير: وما يكفر بها أحد إلا الفاسقون، لأن الإيجاب لا يأتي إلا بعد تمام جملة النفي.

---

(١) أي جيء به ظاهراً لا ضميراً.

(٢) أي ينتقل عن العداوة بالإيمان، أي يؤول به الحال إلى الإيمان، والله تعالى إنما عاداهم لكفرهم، وفيه دلالة على أن عداوة الملائكة كفر، وأن عداوة الأولياء عداوة لله.

(٣) رواه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وسيأتي عن المؤلف التصريح بأنه خبر ضعيف.

(٤) أي الخبر الذي فيه أنَّ عمر رضي الله عنه نطق بهذا الآية في جواب من قال له من اليهود: ذلك عدونا فنزلت على لسانه، ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ أن هناك طرقاً وردت في سبب نزول الآية من دون أن تتعرض لذلك.

ولم يظهر لنا وجه الضعف من ناحية المعنى، ولذلك لم يذكره أبو حيان، والألوسي، وإنما اقتصر على القول بأن الخبر ضعيف نقلاً عن ابن عطية، وموافقات الوحي لعمر شهيرة والله أعلم.

(٥) روي ذلك عن ابن عباس من طريق ابن إسحق، كما رواه الواحدي في أسباب النزول.

قوله عز وجل:

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ﴾.

قال سيبويه: الواو واو العطف، دخلت عليها ألف الاستفهام[(١)]، وقال الأخفش: هي زائدة، وقال الكسائي: هي أوْ، وفتحت تسهيلاً، وقرأها قوم: [أوْ] ساكنة الواو فتجيء بمعنى (بلْ)[(٢)] كما يقول القائل: لأضربنك، فيقول المجيب: أوْ يكفي الله[(٣)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا كله متكلف، وأو في هذا المثال متمكنة في التقسيم، والصحيح قول سيبويه، وقرىءَ: [عَهِدُوا عَهْداً]، وقرأ الحسن، وأبو رجاءٍ: [عُوهِدوا]، و﴿عَهْداً﴾ مصدر، وقيل: مفعول بمعنى أعطوا عهداً، والنَّبْذُ: الطرح والإلقاء، ومنه: النَّبِيذ والمَنْبوذ. والفريق: اسم جمع لا واحد له من لفظه، ويقع على اليسير والكثير من الجمع، ولذلك فسرت كثرة النابذين بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾، لما احتمل الفريق أن يكون الأقل[(٤)]، و﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ في هذا التأويل حال من الضمير في ﴿أكثرهم﴾، ويحتمل الضمير العود على الفريق، ويحتمل العود على جميع بني إسرائيل، وهو أذم[(٥)] لهم، والعهد الذي نبذوه هو ما أخذ عليهم في التوراة من أمر محمد ﷺ، وفي مصحف ابن مسعود: [نَقَضَه فَرِيقٌ][(٦)].

---

(١) أي كما دخلت على الفاء في نحو: ﴿أفتطمعون أن يُؤْمنوا لكم﴾، وعلى ثم في نحو: ﴿أثمَّ إذا ما وَقَعَ﴾ الآية. والتقدير هنا: (أكفروا بالآيات البينات، وكلما عاهدوا؟) الخ أو (أينكرون فسقهم وكلما عاهدوا عهدا؟) الخ. والاستفهام إنكاري. وهذا هو الصحيح في مثل هذا التركيب.

(٢) دل على كونها بمعنى (بل) مابعدها، وهو قوله تعالى: [بَلْ أَكْثَرُهمْ لا يُؤْمِنُونَ]، ترقياً إلى الأغلظ فالأغلظ.

(٣) يأتي على الأثر أن أو في هذا المثال متمكنة في التقسيم وهو كذلك، فهي ليست كما في الآية، والله أعلم.

(٤) يعني أن الفريق يقع على القليل والكثير، ولما احتمل أن يكون النابذون للعهد أقلية بيَّن ذلك بقوله تعالى: ﴿بلْ أكثرهم لا يؤمنون﴾، فكان النابذون للعهد هم الأكثر، وكان النقض لعهد الله كفراً.

(٥) أي أشد وأكثر ذماً لهم، من عوده على الفريق.

(٦) هي قراءة مخالفة لسواد المصحف، فالأولى حملها على التفسير. قاله أبو (ح).

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾، يعني به محمداً ﷺ، و﴿مَا مَعَهُمْ﴾ هو التوراة و﴿مُصَدِّقٌ﴾ نعت لرسول، وقرأ ابن أبي عبلة [مصدِّقاً] بالنصب[(١)]. و﴿لمَّا﴾ يجب بها الشيءُ لوجوب غيره، وهي ظرف زمان[(٢)]، وجوابها في ﴿نَبَذَ﴾ الذي يجيءُ، و[الكتاب] الذي أُوتوه التوراة، و[كِتَابَ الله] مفعول بنبذ، والمراد القرآن لأن التكذيب نبْذٌ. وقيل: المراد التوراة لأن مخالفتها والكفر بما أخذ عليهم فيها نبْذٌ.

و﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مَثَل[(٣)]، لأن ما يجعل ظهرياً فقد زال النظر إليه جملة، والعرب تقول: جعل هذا الأمر وراء ظهره ودبْرَ أُذنه، وقال الفرزدق:

تَمِيمَ بن زَيْدٍ لا تكونَنَّ حاجتي بِظَهْرٍ فلا يَعْيَى عَلَيَّ جَوابُهَا[(٤)]

و﴿كأَنَّهمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ تشبيه بمن لا يعلم[(٥)]، إذْ فعلوا فعل الجاهل، فيجيءُ من اللفظ أنهم كفروا على علْم.

وقوله تعالى: ﴿واتَّبعوا ما تَتْلُو﴾ الآية، يعني اليهود، قال ابن زيد[(٦)]: المراد مَنْ كان في عهد سليمان، وقال ابن عباس: المراد من كان في عهد النبي ﷺ، وقيل الجميع[(٧)]، و﴿تَتْلو﴾ قال عطاءٌ: معناه تقرأُ من التلاوة[(٨)]، وقال ابن عباس: تتلو: تَتْبَعُ، كما

---

(١) أي على الحال.

(٢) يقال في (لمّا) هذه: حرف وجوب لوجوب، وحرف وجود لوجود. قاله أهل اللغة، وذلك لأنها تقتضي جملتين وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما.

(٣) يضرب لمن يستخف بالشيء فلا يعمل به. تقول العرب: اجعل هذا خلف ظهرك ودَبْرَ أذنك، أي اتركه وأعرض عنه.

(٤) أي لا تنسها وتجعلها وراء ظهرك، وفي بعض الروايات: فلا يخفى عليَّ جوابها، وتميم بن زيد القيني: رجل من قضاعة، كان والياً على السند. وانظر سبب قول هذا البيت في الجزء الأول من لسان العرب رقم ٣٣٧، ويروى: تميم «ابن مر»، وتميم«ابن زيد».

(٥) أي مع كونهم يعلمون من التوراة ما يجب عليهم من الإيمان بهذا النبي الكريم، ولكنهم لما لم يعملوا نزلوا منزلة من لا يعلم.

(٦) وفي بعض النسخ زيادة و «السدي».

(٧) أي جميع اليهود في أي عهد كانوا.

(٨) وقال الراغب الأصبهاني: تتلو بمعنى تكذب وتختلق، يقال: تلا عليه إذا كذب، وتلا عنه إذا صدق. ومنه: «قال عليه»، نحو: ﴿ويقولون على الله الكذب﴾، والآية تنطوي على ذم اليهود في تعاطي السحر، وإيثاره، وتبرئة سليمان عليه السلام مما نسبوه إليه، وفي الآية أنهم اتبعوا ما روته الشياطين على ملك سليمان، وأخذوا السحر وبرعوا فيه، وتركوا الحق وراءهم وزعموا أن السحر تراث عن الملائكة =

تقول: جاءَ القوم يتلو بعضهم بعضاً، وتتلو بمعنى تَلَتْ، فالمستقبل وُضِعَ موضع الماضي، وقال الكوفيون: المعنى ما كانت تتلوا[١]، وقرأ الحسن والضحاك: الشياطون بالواو، وقوله: ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أي على عهد ملك سليمان، وقيل: المعنى ـ في ملك سليمان، بمعنى في قصصه وصفاته وأخباره. وقال الطبري: اتَّبعوا بمعنى فضَّلوا[٢]، وعلى ملك سليمان أي على شرعه ونبوته وحاله.

والذي تلته الشياطين ـ قيل: إنهم كانوا يُلْقون إلى الكهنة الكلمة من الحق معها المائةُ من الباطل حتى صار ذلك علمهم، فجمعه سليمان ودفنه تحت كرسيه، فلما مات قالت الشياطين: إن ذلك كان علم سليمان، وقيل: بل كان الذي تلته الشياطين سحراً وتعليمه، فجمعه سليمان عليه السلام كما تقدم، وقيل: إن سليمان عليه السلام كان يملي على كاتبه آصف بن برخيا علمه ويَخْتَزِنُه، فلما مات أخرجته الجنُّ وكتبت بين كل سطرين سطراً من سحر، ثم نسبت ذلك إلى سليمان، وقيل: إن آصف تواطأ مع شياطين على أن يكتبوا سحراً وينسبوه إلى سليمان بعد موته، وقيل: إن الجن كتبت ذلك بعد موت سليمان واختلقته ونسبته إليه، وقيل: إن الجن والإنس حين زال ملك سليمان عنه اتخذ بعضهم السحر والكهانة علماً، فلما رجع سليمان إلى ملكه تتبع كتبهم في الآفاق ودفنها، فلما مات قال شيطان لبني إسرائيل: هل أدلكم على كنز سليمان الذي به سخِّرت له الجن والريح؟ هو هذا السحر، فاستخرجته بنو إسرائيل، وانْبثَّ فيهم، ونسبوا سليمان إلى السحر، وكفروا في ذلك حتى برَّأَهُ الله على لسان محمد ﷺ.

وروي أن رسول الله ﷺ لما ذكر سليمان في الأنبياء قال بعض اليهود: انظروا إلى محمد، يذكر سليمان في الأنبياء وما كان إلا ساحراً. وقوله تعالى: ﴿وما كَفَرَ سُلَيْمانُ﴾ تبرئة من الله تعالى لسليمان، ولم يتقدم في الآيات أن أحداً نسبه إلى الكفر ولكنها آية

= والأنبياء، والقرآن ينفي تهمة السحر عن الأنبياء والملائكة، وينسبه إلى الشياطين، والشياطين تطلق على شياطين الجن وشياطين الإنس.

(١) لا يريدون بذلك أن صلة (ما) محذوفة وتتلو خبر كانت، وإنما يريدون أن المضارع وقع موقع الماضي، كما تقول: كان زيد يقوم، فإنه إخبار بقيام زيد وهو ماض لدلالة كان عليه.

(٢) لأن من اتَّبع شيئاً فقد فضَّله على غيره، وهذا الاتِّباع نوع من أنواع قبائحهم ومخازيهم التي كانوا عليها، ولذلك كانت هذه الجملة نسقاً على الجملة قبلها وهي: ﴿ولمَّا جاءهم رسولٌ من عند الله﴾ الخ..

نزلت في السبب المتقدم أن اليهود نسبته إلى السحر[١]، والسحر والعمل به كفر[٢].

ويُقتل الساحر عند مالك كفراً، ولايستتاب كالزنديق، وقال الشافعي: يُسأل عن سحره، فإن كان كفراً استتيب منه، فإن تاب وإلا قتل. وقال مالك فيمن يعقد الرجال عن النساء: يعاقب ولا يقتل، واختلف في ساحر الذمة[٣] ـ فقيل: يقتل، وقال مالك: لا يقتل إلا إن قتل بسحره، ويضمن ما جنى، ويقتل إن جاء منه بما لم يعاهد عليه، وقرأ نافع، وعاصم، وابن كثير، وأبو عمرو، بتشديد النون من ﴿لكنَّ﴾، ونصب الشياطين. وقرأ حمزة، والكسائي، وابن عامر بتخفيف النون ورَفْع الشياطين. قال بعض الكوفيين: التشديد أحب إليَّ إذا دخلت عليها الواو، لأن المخففة بمنزلة (بَلْ)، و(بَلْ) لا تدخل عليها الواو. قال أبو علي: ليس دخول الواو عليها معنى يوجب التشديد، وهي مثقلة ومخففة بمعنى واحد، إلا أنها لا تعمل إذا خففت.

وكفر الشياطين إما بتعليمهم السحر، وإما بعلمهم به، وإما بتكفيرهم سليمان به، وكلٌّ ذلك كان. والناس المعلَّمون أتباع الشياطين من بني إسرائيل، و﴿السِّحْرَ﴾ مفعول ثان بِـ ﴿يُعَلِّمُون﴾، وموضع ﴿يُعَلِّمُون﴾ نصب على الحال، أو رفع على خبر ثان.

وقوله تعالى: ﴿وَما أُنْزِل على الملكين ببابل هاروت ومارُوت﴾. (ما) عطف على ﴿السحر﴾ فهي مفعولة[٤]، وهذا على القول بأن الله تعالى أنزل السحر على الملكين فتنةً للناس، ليكفر من اتبعه، ويؤمن من تركه، أو على قول مجاهد وغيره: إن الله تعالى

---

(١) آنفاً حيث قال اليهود: انظروا إلى محمد يذكر سليمان في الأنبياء وما كان إلا ساحراً، أي والساحر كافر، فَنِسْبَتُه إلى السحر نسبةٌ إلى الكفر، فلذلك كان قول الله تعالى: ﴿وما كَفَرَ سُلَيمانُ﴾ تبرئة له، ودلالة على أن السحر كفر. والسحر له حقيقة، وله أثر، ولا ينكر هذا إلا متعصب، كيف وهو علم يعلم ويتعلم كما في القرآن؟، وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ سُحر حتى كان يخيل له أنه يأتي الشيء ولم يكن قد أتاه، حتى شفاه الله تبارك وتعالى، وبعض الناس ينكرون هذا الحديث ولا يلتفتون إليه، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

(٢) يؤخذ من القرآن أمور ثلاثة: أن السحر كفر أو مؤدٍّ إلى الكفر، لقوله تعالى: ﴿وما كفرَ سُليمان ولكن الشيَّاطين كفروا] الآية، وأن الضرر المراد إلحاقه بالمسحور لا يتحقق إلا إذا كان قدراً مقدورا، لقوله تعالى: ﴿وما هم بضارين به من أحَد إلا بإذن الله﴾. وأن بني إسرائيل برعوا في السحر الذي أخذوه من الشياطين، لقوله تعالى: ﴿فيتعلَّمون منهما ما يُفَرِّقُون به بين المرْءِ وَزَوْجِهِ﴾.

(٣) في بعض النسخ أهل الذمة وهي أوضح.

(٤) فيه أن العطف يقتضي المغايرة.

أنزل على الملكين الشيءَ الذي يُفرق به بين المرء وزوجه دون السحر[١]، أو على القول: إنه تعالى أنزل السحر عليهما ليعلَّم، على جهة التحذير منه والنهي عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والتعليم على هذا القول إنما هو تعريف يسير بمبادئه.

وقيل إن (ما) عطف على (ما) في قوله: ﴿ما تتْلُوا﴾. وقيل: (ما) نافية، ردٌّ[٢] على قوله: ﴿ومَا كَفَر سُلَيْمانُ﴾، وذلك أن اليهود قالوا: إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر فنفى الله ذلك.

وقرأ ابن عباس، والحسن، والضحاك، وابن أَبْزي [الملكين] بكسر اللام[٣]. وقال ابن أبزي: هما داود وسليمان، وعلى هذا القول أيضاً فما نافية، وقال الحسن هما عِلجَان[٤] كانا ببابل ملكين، فما على هذا القول غير نافية، وقرأهما كذلك أبو الأسود الدُّؤَلي وقال: هما هاروت وماروت فهذا كقول الحسن. وبابل لا ينصرف للتأنيث والتعريف، وهي قطْرٌ من الأرض، واختلف أين هي؟ فقال قوم: هي بالعراق[٥] وما والاه، وقال ابن مسعود لأهل الكوفة: أنتم بين الحيرة وبابل. وقال قتادة: هي من نصيبين إلى رأس العين. وقال قوم: هي بالمغرب وهذا ضعيف[٦] وقال قوم: هي جبل دماوند[٧].

و﴿هاروت وماروت﴾ بدل من ﴿الملكَيْن﴾ على قول من قال: هما ملكان. ومن قرأ [مَلِكَيْن] بكسر اللام وجعلهما داود وسليمان، أو جعل المَلَكَيْن جبريل وميكائيل جعل هاروت وماروت بدلاً من الشياطين في قوله ﴿ولكنَّ الشَّياطين﴾، وقال: هما شيطانان.

---

(١) أي نوعاً خاصاً من السحر وهو الذي يفرق بين المجتمعين والمتحدين كالزوجين، لا السحر بمعناه العام.

(٢) أي عطف على قوله وما كفر سليمان.

(٣) قراءة شاذة. وابن أبزي هو عبد الرحمن بن أبزي الكوفي، روى عن أُبي، وعن عمر بن الخطاب.

(٤) العلج: الرجل القوي الضخم، وعلى هذا فالإنزال ليس معناه الإيحاء، بل معناه القذف في قلوبهما، والله أعلم.

(٥) على شاطىء نهر الفرات.

(٦) هو كذلك لأن هذا الاسم مشهور بالمشرق دون المغرب.

(٧) ويقال: دنباوند، ويقال: دنياوند، ويقال: نهاوند، راجع البكري في معجمه، وابن خلكان في تاريخه.

ويجيء ﴿يُعَلِّمُونَ﴾ إما على الاثنين جمع، وإما على تقدير أتْباعٍ لهذين الشيطانين اللَّذيْن هما الرأس. ومن قال: كانا علْجَيْن قال: ﴿هاروت وماروت﴾ بدل من قوله: [الملكين].

وقيل: هما بدل من الناس في قوله: ﴿يُعلِّمونَ النَّاس﴾. وقرأ الزهري [هاروتُ وماروتُ] بالرفع، ووجهه البدل من ﴿الشياطين﴾ في قوله: ﴿تتلو الشياطين﴾ أو من الشياطين الثاني على قراءة من خفف (لكنْ) ورَفَعَ، أو على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: هما هاروت وماروت. وروى من قال إنهما ملكان أن الملائكة مقتت حكام بني آدم، وزعمت أنها لو كانت بمثابتهم من البعد عن الله[(١)] لأطاعت حق الطاعة، فقال الله لهم: اختاروا ملكين يحكمان بين الناس، فاختاروا هاروت وماروت، فكانا يحكمان، فاختصمت إليهما امرأة، ففتنا بها، فراوداها فأبت حتى يشربا الخمر ويقتلا، ففعلا، وسألتهما عن الاسم الذي يصعدان به إلى السماء فعلماها إياه، فتكلمت به فعرجت فمسخت كوكباً فهي الزهرة، وكان ابن عمر يلعنها[(٢)].

---

(١) لعله تعليل لقوله: (مقتت)، أي مقتتهم بسبب بعدهم عن الله بارتكاب المعاصي والمآسي في الأرض، والحقيقة أنه لم يتضح لنا المعنى الذي يقصده المؤلف بقوله: (من البعد عن الله).

(٢) هذه الرواية غريبة وبعيدة وهي من تلفيقات اليهود وخرافاتهم، وقد أبطلها الإمام الرازي من عدة وجوه. والذي تحرر لنا في هذا المقام بعد أبحاث تناولت عدة مصادر من التفسير وغيره، هو ما حققه العلامة المرحوم القاسمي في تفسيره متجاوزا التكلفات والتعسفات التي ارتكبها بعض أئمة التفسير، ونصه: «والذي ذهب إليه المحققون، أن هاروت وماروت كانا رجلين يتظاهران بالتقوى والصلاح في بابل، وكان يعلمان الناس السحر، وبلغ حسن اعتقاد الناس بهما أن ظنوا أنهما ملكان من السماء، وما يعلمانه للناس هو بوحي من الله، وبلغ مكر هذين الرجلين ومحافظتهما على اعتقاد الناس الحسن فيهما أنهما صارا يقولان لكل من أراد أن يتعلم منهما: إنما نحن فتنة فلا تكفر، أي إنما نحن أولو فتنة نبلوك ونختبرك، أتشكر أم تكفر؟ وننصح لك ألا تكفر، يقولان ذلك ليوهما الناس أن علومهما إلهية، وصناعتهما روحانية، وأنهما لايقصدان إلا الخير كما يفعل ذلك دجاجلة هذا الزمان، قائلين لمن يعلمهم الكتابة للمحبة والبغض على زعمهم: نوصيك ألا تكتب لجلب امرأة متزوجة على رجل غير زوجها، إلى غير ذلك من الأوهام والافتراء، ولليهود في ذلك خرافات كثيرة حتى أنهم يعتقدون أن السحر نزل عليهما من الله، وأنهما ملكان جاءا لتعليمه للناس، فجاء القرآن مكذباً لهم ـ في دعواهم نزوله من السماء ـ وفي ذم السحر ومن يتعلمه أو يُعلِّمه: فقال: ﴿يعلمون النَّاس السِّحر وما أنزل على المَلَكَيْن﴾ الآية و(ما) نافية على أصح الأقوال، ولفظ (الملكين) هنا وارد حسب العرف الجاري بين الناس في ذلك الوقت، كما يرد ذكر آلهة الخير والشر في كتابات المؤلفين عن تاريخ اليونان والمصريين، وكما يرد في كلام المسلم في الرد على المسيحيين ذكر تجسد الإله وصلبه، وإن كان لا =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله ضعيف، وبعيد على ابن عمر رضي الله عنهما. وروي أن الزهرة نزلت إليهما في صورة امرأة من فارس فجرى لهما ما ذكر، فأَطْلَعَ الله الملائكة على ما كان من هاروت وماروت فتعجبوا، وبقيا في الأرض لأنهما خُيِّرا بين عذاب الآخرة وعذاب الدنيا فاختارا عذاب الدنيا، فهما في سرب من الأرض معلقين يصفقان بأجنحتهما.

= يعتقد ذلك. وقوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمونَ منهُما ما يفرِّقون به بين المرء وزوجه﴾ من قبيل التمثيل، وإظهار الأمر في أقبح صورة، أي بلغ من أمر ما يتعلمونه من ضروب الحيل وطرق الإفساد، أن يتمكنوا به من التفريق بين أعظم مجتمع كالمرء وزوجه ـ والخلاصة: أن معنى الآية من أولها إلى آخرها هكذا: إن اليهود كذبوا القرآن، ونبذوه وراء ظهورهم، واعتاضوا عنه بالأقاصيص والخرافات التي يسمعونها من خبثائهم عن سليمان وملكه، وزعموا أنه كفر، وهو لم يكفر، ولكن شياطينهم هم الذين كفروا، وصاروا يعلمون الناس السحر، ويدعون أنه أنزل على هاروت وماروت اللَّذين سموهما ملكين ولم ينزل عليهما شيء، وإنما كانا رجلين يدعيان الصلاح لدرجة أنهما كانا يوهمان الناس أنهما لايقصدان إلا الخير، ويحذرانهم من الكفر، وبلغ من أمر ما يتعلمونه منهما من طرق الحيل والدهاء أنهم يفرقون بين المجتمعين، ويحلون به عقد المتحدين ـ فأنت ترى من هذا أنّ المقام كلَّه للذم، فلا يصح أن يرد فيه مدح هاروت وماروت ـ والذي يدل على صحة ما قلناه فيهما أن القرآن أنكر نزول أي ملك إلى الأرض ليعلم الناس شيئاً من عند الله غير الوحي إلى الأنبياء، ونص نصاً صريحاً أن الله لم يرسل إلا الإنس لتعليم بني نوعهم فقال: ﴿وما أرسلْنا قَبْلَك إلا رجالا نُوحي إِلَيْهِم فَاسألوا أَهْل الذكر إنْ كُنتُم لا تَعْلَمُون﴾ وقال منكراً على من طلب إنزال الملك: ﴿وقالوا لولا أُنْزل عَلَيْه مَلَكٌ، ولوْ أنزَلْنَا ملكاً لقضي الأمْرُ ثمَّ لا يُنْظَرُون﴾ انتهى.

والقصة المذكورة لهاروت وماروت على اختلاف رواياتها غير صحيحة. قال القاضي عياض رحمه الله: «وأما ماذكره أهل الأخبار ونقله المفسرون في قصة هاروت وماروت، وما روي عن علي، وابن عباس رضي الله عنهما في خبرهما وابتلائهما، فاعلم أكرمك الله أن هذه الأخبار لم يُرْوَ منها سقيم ولا صحيح عن رسول الله ﷺ، وليس هو شيئاً يؤخذ بقياس، والذي منه في القرآن اختلف المفسرون في معناه، وأنكر ما قال بعضهم فيه كثيرٌ من السلف، وهذه الأخبار من كتب اليهود وافترائهم كما قصه الله أول الآيات». انتهى، وقال أيضاً: «وما يذكر في قصتهما مع الزهرة كله ضعيف»، وكذلك قال ابن عطية رحمه الله. وقال الحافظ ابن كثير: «وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد، والسدي، والحسن البصري، وقتادة، وأبي العالية، والزهري، والربيع بن أنس، وغيرهم ـ وقصها خلقٌ من المفسرين المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ـ وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال.» انتهى

من هذه الأقوال تعرف الصواب في هذه القصة وتستطيع أن تعرف رأي ابن عطية في عبارته التالية، وهي تقطع بضعف هذه الأسطورة.

وروت طائفة أنهما يعلمان السحر في موضعهما ذلك، وأخذ عليهما ألا يعلما أحدا حتى يقولا له: إنما نحن فتنة فلا تكفر. وهذا القصص يزيد في بعض الروايات وينقص في بعض ولا يقطع منه بشيء فلذلك اختصرته.

قوله عز وجل:

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾.

ذكر ابن الأعرابي[(١)] في الياقوتة أن [يُعَلِّمَانِ] بمعنى يعلمان ويشعران، كما قال كعب بن زهير:

تعلَّم رسول الله أنَّك مُدْركي ... وأنَّ وعيداً مِنكَ كالأخذ باليد

وحمل[(٢)] هذه الآية على أن الملكين إنما نزلا يُعلِّمان النَّاس بالسحر وينهيان عنه.

وقال الجمهور: بل التعليم على عرفه. و[لاَ تَكْفُرْ]: قالت فرقة: بتعلم السحر، وقالت فرقة: باستعماله، وحكى المهدوي أن قولهما: [إنَّما نحْنُ فتْنةٌ فلا تَكْفُرْ] استهزاءٌ، لأنهما إنما يقولانه لمن قد تحققا ضلاله. و[من] في قوله: [مِنْ أحد] زائدة بعد النفي، وقوله تعالى: [فيتعلَّمُونَ]، قال سيبويه: التقدير فهم يتعلمون، وقيل: هو معطوف على قوله: [يُعَلِّمُونَ النَّاس] ومنعه الزجاج[(٣)]، وقيل: هو معطوف على موضع

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن زياد، إمام من أئمة اللغة، وراوية ثقة لأشعار القبائل ـ كان رأساً في الكلام الغريب، كوفي المذهب ـ توفي سنة ٢٣١هـ.

(٢) عطف على قوله: ذكر ابن الأعرابي، بمعنى أنهما يقولان لمن يطلعانه على صفات السحر وكيفياته: لا تكفر باستعماله، ولا تعدل عن الغرض في إعلامك به، فإنك إنما أعلمت به لتجتنبه لا لتفعله ـ ولا يكون تعلم السحر على هذا التأويل كفراً ومعصية، بل هو من باب قول أبي نواس:

عَرفتُ الشرَّ لا للشَّرِّ لكن لِتَوقيِّهِ
فمَنِ لا يعرف الشَّرَّ من الناس يقعْ فيه

(٣) سبب المنع هو لفظ الجمع في (يُعَلِّمون)، وقد قال (فيتعلمون منهما) بالتثنية.

﴿ما يُعَلِّمان﴾ لأن قوله: ﴿وما يُعَلِّمَانِ﴾ وإن دخلت عليه ما النافية فمضمنه الإيجاب في التعليم[1]، وقيل: التقدير فيأبون فيتعلمون[2]، واختاره الزجاج.

والضمير في ﴿يُعلِّمان﴾ هو لهاروت وماروت المَلَكَيْن أو المَلِكَيْنِ العِلْجَيْنِ على ما تقدم. والضمير في ﴿مِنْهُما﴾ قيل: هو عائد عليهما، وقيل: على السحر، وعلى الذي أُنزل على الملكين.

و﴿يُفَرِّقُونَ﴾ معناه فُرقة العصمة وقيل معناه يُؤَخِّذُونَ[3] الرجل عن المرأة حتى لا يقدر على وطئها، فهي أيضاً فرقة.

وقرأ الحسن، والزهري، وقتادة [الْمَرِ] براءٍ مكسورة خفيفة، ورُوي عن الزهري تشديد الراء، وقرأ ابن أبي إسحق [المُرء] بضم الميم وهمزة، وهي لغة هذيل.

وقرأ الأشهب العقيلي [المرءِ] بكسر الميم وهمزة، ورويت عن الحسن. وقرأ جمهور الناس ﴿المَرءِ﴾ بفتح الميم وهمزة.

والزوج هنا امرأة الرجل، وكل واحد منهما زوج الآخر، ويقال للمرأة: زوجة، قال الفرزدق:

وإنَّ الـذي يَسْعَـى لِيُفْسِـدَ زَوْجَتـي كسـاعٍ إلـى أُسْـدِ الشَّـرى يَسْتَبِيلُهَـا

وقرأ الجمهور ﴿بضارِّين﴾. وقرأ الأعمش [بِضَارِّي به من أحدٍ] فقيل: حذفت النون تخفيفاً، وقيل: حذفت للإضافة إلى أحد، وحيل بين المضاف والمضاف إليه بالمجرور[4].

---

(١) لأن معناه أنهما يعلمان السحر إذ قالا للمتعلم: ﴿إنَّما نحنُ فتنةٌ فلا تكفر﴾.

(٢) إشارة إلى أنه معطوف على ما يوحيه معنى الكلام عند قوله: (فلا تكفر).

(٣) يقال: أخَّذه تأخيذا بمعنى سحره، والأخذة هي الرقية. ويقال: إن التأخيذ هو حبس الزواجر أزواجهن عن غيرهن من النساء، وقد روي أن امرأة قالت للسيدة عائشة؛ أؤاخذ جملي(تعني زوجها)؟ فقالت: نعم.

(٤) هذا ما اختاره جار الله الزمخشري، ثم استشكله بقوله: كيف الإضافة إلى (أحد) وهو مجرور بمن؟ وأجاب بأن الجار جزءٌ من المجرور ـ وناقشه أبو (ح) بأن الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف من ضرورات الشعر، وبأنه ليس هناك مضاف إليه، فإن (أحد) مشغول بمن فهو المؤثر فيه ـ وبأن جزء الشيء لا يؤثر في الشيء، و(من) مؤثر في (أحد) وعامل فيه فالأولى أنّ حذف النون للتخفيف، راجع «البحر المحيط» ١/ ٣٣٢.

و﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[١] معناه: بعلمه وتمكينه، و﴿يَضُرُّهُمْ﴾ معناه: في الآخرة، ﴿[وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ فيها أيضاً وإن نفع في الدنيا بالمكاسب، فالمُراعى إنما هو أمر الآخرة. والضمير في ﴿عَلِمُوا﴾ عائد على بني إسرائيل حسب الضمائر المتقدمة، وقيل: على الشياطين، وقيل: على المَلَكَيْنِ وهما جمع[٢]، وقال: ﴿اشْتَرَاهُ﴾ لأنهم كانوا يعطون الأُجرة على أن يعلموا، والخَلاق: النصيب والحظ، وهو هنا بمعنى الجاه والقدر. واللام في قوله ﴿لَمَنِ﴾ المتقدمة للقسم، المؤذنة بأن الكلام قسم لا شرط.

وتقدم القول في بئسما[٣]، و﴿شروا﴾ معناه: باعوا، وقد تقدم مثله، والضمير في ﴿يَعْلَمُونَ﴾ عائد على بني إسرائيل باتفاق، ومن قال: إن الضمير في ﴿عَلِمُوا﴾ عائد عليهم خرج هذا الثاني على المجاز[٤]، أي لما علموا عمل مَنْ لا يعلم، كانوا كأنهم لا يعلمون، ومن قال: إن الضمير في ﴿عَلِمُوا﴾ عائد على الشياطين أو الملكين قال: إن أولئك علموا ألا خلاق لمن اشتراه، وهؤلاء لم يعلموا، فهو على الحقيقة.

وقال مكي: الضمير في ﴿عَلِمُوا﴾ لعلماء أهل الكتاب[٥]، وفي قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ للمتعلمين منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ موضع أن رفعٌ، المعنى: ولو وقع إيمانهم، ويعني الذين اشتروا السحر، و﴿لوْ﴾ تقتضي جواباً، فقالت فرقة: جوابها ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ لأنها مصدر يقع للمضي والاستقبال، وجواب (لو) لا يكون إلا ماضياً أو بمعناه، وقال الأخفش: لا جواب لِلَوْ في هذه الآية مُظهراً ولكنه مقدر، أي: لو آمنوا لأُثيبوا. وقرأ قتادة، وأبو

(١) الإذن في الشيء من الله ضربان: أحدهما الإذن لقاصد الفعل في مباشرته، والثاني الإذن في تسخير الشيء على وجه تسخير السم في قتله من يتناوله، فإذن الله تعالى في وقوع التسخير وتأثيره من القبيل الثاني، وذلك هو المشار إليه بالقضاء ـ وعلى هذا يقال: الأشياء كلها بإذن الله وقضائه، ولايقال: الأشياء كلها بأمره ورضاه، قاله الراغب الأصبهاني.

(٢) أي والتثنية جمع.

(٣) أي لدى قوله تعالى: ﴿بئسما اشْتَرَوْا به أَنفُسَهُم أَنْ يَكْفُرُوا بما أَنْزَلَ الله﴾ الآية.

(٤) والمعنى: ولقد علم اليهود من التوراة أن من اشترى السحر لا نصيب له في الآخرة ولبئس ما باعوا به أنفسهم السحر لوكانوا يعقلون، أو لو كانوا يعملون بعلمهم، وإذا انتفى العقل انتفى العلم، لأنه من ثمرته، كما أنه إذا انتفى العمل الذي هو ثمرة العلم انتفى العلم، ونزِّل صاحبه منزلة الجاهل. والحاصل أن الضمير في (علموا) مختلفٌ فيه، والضمير في (يعلمون) متَّفق عليه.

(٥) أي الذين علموا السحر.

السمال، وابن بريدة [لَمثْوَبَةٌ] بسكون الثاء، وفتح الواو، وهو مصدر أيضاً كمشورة ومَشْورة. و﴿مثوبة﴾ رفع بالابتداء و﴿خَيْرٌ﴾ خبره، والجملة خبر ﴿أَنَّ﴾. والمثوبة عند جمهور الناس بمعنى الثواب والأجر، وهذا هو الصحيح، وقال قوم: معناه: الرجعة إلى الله، من ثاب يثوب إذا رجع، واللام فيها لام القسم[١]، لأن لام الابتداء مستغنى عنها، وهذه لا غنى عنها. وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يحتمل نفي العلم عنهم، ويحتمل أن يُراد لو كانوا يعلمون علماً ينفع. وقرأ جمهور الناس ﴿رَاعِنَا﴾ من المُراعاة بمعنى فاعلنا[٢]، أي ارعنا نرعك، وفي هذا جفاءٌ أن يخاطب به أحد نبيه، وقد حض الله تعالى على خفض الصوت عنده، وتعزيره، وتوقيره. فقال من ذهب إلى هذا المعنى: إن الله تعالى نهى المؤمنين عنه لهذه العلة، ولا مدخل لليهود في الآية على هذا التأويل، بل هو نهيٌ عن كل مخاطبة فيها استواءٌ مع النبي ﷺ. وقالت طائفة: هي لغةٌ كانت الأنصار تقولها، فقالها رفاعة[٣] بن زيد بن التابوت للنبي ﷺ ليًّا بلسانه وطعناً، كما كان يقال: اسمع غَيْرَ مسمع، فنهى الله المؤمنين أن تقال هذه اللفظة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ووقْفُ هذه اللغة على الأنصار تقصير، بل هي لغة جميع العرب، فاعل من المراعاة، فكانت اليهود تصرفها إلى الرعونة، يظهرون أنهم يريدون المراعاة، ويبطنون أنهم يريدون الرعونة التي هي الجهل.

وحكى المهدوي عن قوم أن هذه الآية على هذا التأويل ناسخةٌ لفعل قد كان مباحاً، وليس في هذه الآية شروط النسخ، لأن الأول لم يكن شرعاً متقرراً[٤].

وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وابن أبي ليلى، وابن محيصن، وأبو حيْوَة: [رَاعِناً] بالتنوين[٥] وهذه من معنى الجهل، وهذا محمول على أن اليهود كانت تقوله، فنهْيُ الله

---

(١) أي: وليست ابتدائية، والتقدير: ولو أنهم آمنوا واتقوا لأثيبوا، والله (لمثوبةٌ من عنْدِ الله خيرٌ)، الآية.

(٢) اللام الساكنة عبارة عن الياء المحذوفة للأمر.

(٣) أحد اليهود.

(٤) ذلك لأن تحريم ما هو مباح بحكم الأصل ليس بنسخ عند الأصوليين، ولذلك عرَّفوا النسخ بقولهم: رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر، والمباح بحكم الأصل والعادة الجارية قبل الشرع لا يعتبر حكماً شرعياً.

(٥) هي قراءة شاذة لا يؤخذ بها، وكذلك قراءة [راعونا] بالتنوين، وإذا نهينا عن راعنا بدون تنوين، فكيف براعناً وراعوناً بالتنوين.

تعالى المؤمنين عن القول المباح سد ذريعة[١] لئلا يتطرق منه اليهود إلى المحظور، إذ المؤمنون إنما كانوا يقولون (راعنا) دون تنوين. وفي مصحف ابن مسعود (راعوناً)، وهي شاذة، ووجهها أنهم كانوا يخاطبون النبي ﷺ كما تخاطب الجماعة، يظهرون بذلك إكباره، وهم يريدون في الباطن فاعولا من الرعونة، و[انْظُرْنا] مضمومة الألف والظَّاءِ معناها: انتظرنا وأمهل علينا، ويحتمل أن يكون المعنى تفقدنا، من النَّظر، وهذه لفظة مخلصة لتعظيم النبي ﷺ على المعنيين.

والظاهر عندي استدعاء نظر العين المقترن بتدبير الحال[٢]، وهذا هو معنى راعنا فبُدِّلَت للمؤمنين اللفظة ليزول تعلق اليهود. وقرأ الأعمش، وغيره [أنظِرنا] بقطع الألف وكسر الظاء، بمعنى أخرنا وأمهلنا حتى نفهم عنك ونتلقى منك.

ولمَّا نهى الله تعالى في هذه الآية وأمر، حضَّ بعْدُ على السمع الذي في ضمنه الطاعة[٣]، وأعلم أن لِمَنْ خالف أمره فكفر عذاباً أليماً، وهو المُؤْلِم، و[اسْمَعُوا] معطوف على [قولوا] لا على معمولها.

قوله عز وجل:

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

التقدير: ولا من المشركين، وعمَّ الذين كفروا، ثم بين أجناسهم من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان، ليبين في الألف واللام في [الَّذِينَ] أنها ليست للعهد يراد بها معين.

---

(١) سدُّ الذريعة باب من أبواب الشريعة، فكلمة (راعنا) كان المسلمون يقولونها للنبي ﷺ، وهي من المراعاة من دون أن يُقصد بها المساواة، فأخذها اليهود كرفاعة بن زيد وخاطبوا بها النبي ﷺ بقصد النقيصة، فنهى الله المؤمنين عن هذا القول وإن كان مباحاً سداً للباب على الملاعين في الألفاظ التي تحتمل السب والنقص، فالقضية من باب سد الذريعة لا من باب نسخ فعل سابق.

(٢) أي نظر البصر والبصيرة، قال أهل اللغة: نظر يتعدى إلى المبصرات بنفسه وإلى المعاني بفي، فعلى الأول معناه: تفقدنا بنظرك، وعلى الثاني معناه: انظر في أمرنا، ويقال: نظر بمعنى انتظر، ويؤيد هذا المعنى قراءة الأعمش: أنظرنا بقطع الهمزة، أي أخِّرنا وأمهلنا حتى نفهم منك ونتلقى عنك.

(٣) وهو سماع القلب ليذعن للحق، ويطيع أوامره ونواهيه.

ومعنى الآية: أن ما أمرناكم به من أنْ تعظموا نبيكم خير من الله منحكم إياه، وذلك لا يوده الكفار، ثم يتناول اللفظ كل خير غير هذا، و[أنْ] مع الفعل بتأويل المصدر، و[مِنْ] زائدة في قول بعضهم، ولما كان ود نزول الخير منتفياً قام ذلك مقام الجَحْد الذي يلزم أن يتقدم من الزائدة على قول سيبويه والخليل(١)، وأما الأخفش فيجيز زيادتها في الواجب.

وقال قوم: [مِنْ] للتبعيض لأنهم يريدون ألا ينزل على المؤمنين من الخير قليل ولا كثير، ولو زال معنى التبعيض لساغ لقائلٍ أن يقول: نريد ألا ينزل خير كامل، ولا نكره أن ينزل بعض، فإذا نفي ود نزول البعض فذلك أحرى في نزول خير كامل(٢).

والرحمة في هذه الآية عامة لجميع أنواعها التي قد منحها الله عباده قديماً وحديثاً، وقال قوم: الرحمة هي القرآن، وقال قوم: نُبوَّةُ محمد ﷺ، وهذه أجزاءُ الرحمة العامة التي في لفظ الآية.

وقوله تعالى: [ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا] الآية(٣)، النسخ ـ في كلام العرب ـ على وجهين: أحدهما النقل، كنقل كتاب من آخر، والثاني الإزالة، فأما الأول فلا مدخل له في هذه الآية، وورد في كتاب الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٤)، وأما الثاني الذي هو الإزالة فهو الذي في هذه الآية، وهو منقسم في اللغة على ضربين: أحدهما يثبت الناسخ بعد المنسوخ(٥)، كقولهم: نسخت الشمس الظل، والآخر لا يثبت كقولهم: نسخت الريح الأثر.

---

(١) يعني أن نفي ود النزول كنفي النزول مباشرة.

(٢) أي في نفي نزول خير كامل.

(٣) هذه آية عظيمة من آيات الأحكام، تتناول النسخ في شريعة الإسلام، وترد على من ينكره من اليهود وأشباههم ـ ولمعرفة الناسخ والمنسوخ مقام كبير، لِمَا يترتب على ذلك من وضع الأحكام في مواضعها، ولذلك حذَّر علماء الإسلام من الجهل به والخطأ فيه، ومن المعقول أن التبدل في الكائنات ناموس طبيعي، فهذه الخلية الإنسانية تتنقل في أطوار وأحوال كل واحد منها ينسخ ما قبلها، وإذا كان هذا النسخ موجوداً في الكائنات فكيف يستنكر إبدال حكم سابق بحكم لاحق في أمة هي في حال نمو وتدرج من أدنى إلى أرقى؟ وفوق ذلك فالله قادر على كل شيء، ومالك لكل شيء، يفعل ما يريد، ويحكم كما يشاء، فالنسخ يهيىء النفوس لما هو أرقى وأسمى.

(٤) أي: نأمر بنسخه وإثباته. وهي من الآية (٢٩) من سورة الجاثية.

(٥) أي يقوم مقامه ويحل محله.

وورد النسخ في الشرع حسب هذين الضربين. والناسخ حقيقة هو الله تعالى، ويسمى الخطاب الشرعي ناسخاً[(١)] إذْ به يقع النسخ.

وحد الناسخ عند حذَّاق أهل السنة الخطاب[(٢)] الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتاً مع تراخيه عنه[(٣)].

والنسخ جائز على الله تعالى عقلا، لأنه ليس يلزم عنه محال، ولا تغيير صفة من صفاته تعالى، وليست الأوامر معلقة بالإرادة فيلزم من النسخ أنَّ الإرادة تغيرت، ولا النسخ لِطُرُوِّ علم، بل الله تعالى يعلم إلى أي وقت ينتهي أمره بالحكم الأول، ويعلم نسخه له بالثاني.

والبداء[(٤)] لا يجوز على الله تعالى، لأنه لا يكون إلا لِطُرُوِّ علم أو لتَغَيُّر إرادة، وذلك محال في جهة الله تعالى. وجعلت اليهود النسخ والبداء واحداً، ولذلك لم يُجَوِّزوه فضلُّوا.

والمنسوخ عند أئمتنا: الحكم الثابت نفسه، لا ما ذهبت إليه المعتزلة من أنَّه مثلُ الحكم الثابت فيما يستقبل[(٥)]، والذي قادهم إلى ذلك مذهبهم في أن الأوامر مرادة[(٦)]، وأن الحُسْنَ صفة نفسية للحَسَنِ، ومراد الله تعالى حَسَنٌ، وقد قامت الأدلة على أن الأوامر لا ترتبط بالإرادة، وعلى أن الحُسْنَ والقبح في الأحكام إنما هو من جهة الشرع لا بصفة نفسية[(٧)].

---

(١) أي مجازاً لأنه سبب النسخ.

(٢) يخرج عن الخطاب القياس والإجماع، فإنهما لا ينسخان ولا ينسخ بهما ـ ويشمل الخطاب سائر الدلالات، وقوله: على وجهٍ أي مغاير للخطاب السابق، ولولا ذلك الوجه لكان الحكم السابق ثابتاً وقائماً.

(٣) قيد في الناسخ، إذ لو كان متصلا بالمنسوخ لكان بياناً لغاية الحكم لا ناسخاً له، أو لكان آخر الكلام يرفع أوله.

(٤) البَدَاء بفتح الباء والمد: اسم من بدا له في الأمر: ظهر له ما لم يظهر أولا، والفرق بين النسخ والبَدَاء أن الحكم الثاني معلوم عند الحكم الأول في النسخ، وفي البداء إنما ظهر في ثاني حال.

(٥) تعرض ابن عطية رحمه الله لمباحث جليلة لها علاقة بالنسخ، ولأقسام النسخ والنَّسْءِ لأن من الآيات ما هو من قبيل المنسوخ، ومنها ما هو من قبيل المنسوء، كما قال تعالى: [ما ننسخ من آية أو نُنسها نأت بخير منها أو مِثْلِها] والأولى بهذه المباحث علم الأصول. ولهذا لم يتكلم أبو (ح) في حقيقة النسخ كما فعل ابن عطية، وأما القرطبي فقد نقل كلام ابن عطية في الموضوع.

(٦) فقد يأمر الله بالشيء ولا يريده، وفي جمع الجوامع: «والأمر غير الإرداة خلافاً للمعتزلة».

(٧) يعني أن الحسن والقبح في الأحكام إنما يُدرك بالشرع، وليس صفة ذاتية تُدرك بمجرد العقل.

والتخصيص من العموم يوهم أنه نسخ وليس به[١]، لأن المخَصَّص لم يتناوله العموم قط، ولو ثبت قطعاً تناول العموم لشيءٍ ما ثم أُخرج ذلك الشيءُ عن العموم لكان نسخاً لا تخصيصاً، والنسخ لا يجوز في الأخبار، وإنما هو مختص بالأوامر والنواهي[٢]، ورد بعض المعترضين الأمر خبراً بأن قال: أليس معناه: واجب عليكم أن تفعلوا كذا؟ فهذا خبر، والجواب أن يقال: إن في ضمن المعنىٰ إلا أنْ أنسخه عنكم وأرفعه، فكما تضمن لفظ الأمر ذلك الإخبار، كذلك تضمن هذا الاستثناء.

وصور النسخ تختلف:

وقد ينسخ الأثقل إلى الأخف، كنسخ الثبوت لعشرة بالثبوت لاثنين[٣].

وقد ينسخ الأخف إلى الأثقل، كنسخ يوم عاشوراء والأيام المعدودة برمضان[٤].

وقد ينسخ المِثْل بمثله ثقلا وخفة، كالقبْلَة.

وقد ينسخ الشيءُ لا إلى بدلٍ، كصدقة النجوى.

والنسخ التام أن تنسخ التلاوة والحكم، وذلك كثير، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: كنا نقرأ [لا تَرْغَبُوا عَنْ آبائِكُمْ فإنَّهُ كُفْرٌ].

---

(١) كثيراً ما يتوسعون في تسمية التخصيص نسخاً، وبذلك وسَّعوا دائرة النسخ، ولو كانوا يتحرون في التسمية لما اتسع ذلك، والحق أن النسخ بمعناه الخاص قليل جداً، وقد أوضح ابن عطية رحمه الله الفرق بين التخصيص والنسخ، والنسخ في اصطلاح السلف أعم منه في اصطلاح الخلف، وهذا أبو مسلم الأصبهاني المعتزلي يُسَمِّي النسخ تخصيصاً، وقال أبو إسحق الشاطبي في الموافقات: «الذي يظهر من كلام المتقدمين أن النسخ عندهم في الإطلاق أعم منه في كلام الأصوليين، فقد يطلقون على تقييد المطلق وتخصيص العام ـ بدليل متصل أو منفصل ـ نسخاً، كما يطلقون على رفع الحكم الشرعي ـ بدليل شرعي متأخر ـ نسخاً، لأن جميع ذلك مشترك في معنى واحد وهو بيان المراد». انتهى.

(٢) الخبر الحقيقي لا يدخله نسخ سواء كان مما يتغير كإيمان زيد وكُفر عمرو أو مما لا يتغير كالإخبار بوجود الله وصفاته، وأما نسخ تلاوة الخبر، أو نسخ تكليفنا به، كما إذا كلفنا بأن نخبر بشيء ثم ورد نسخ التكليف بذلك ـ فكل من هذين جائز، لأنه من التكليف فيدخله النسخ، وكذلك الخبر الذي يتضمن الأمر فإنه يدخله النسخ، وابن عطية رحمه الله أطلق القول ولم يقيد، ونحوه قول أبي إسحق الثعلبي في تفسيره هنا حيث قال: «واعلم أن النسخ إنما يعرض للأوامر والنواهي دون الأخبار، لأن الخبر إذا نسخ صار المخبر كاذباً» انتهى.

(٣) أي نسخ قوله تعالى: ﴿إن يكن منكُمْ عشرون صابرون يَغْلبوا مائتَين﴾ الآية، بقوله تعالى: ﴿الآن خفَّف الله عنكم وعَلِمَ أن فيكم ضَعْفاً فإنْ يكن منكم مائةٌ صابرة يَغْلِبُوا مائتَيْن﴾ الآية.

(٤) نسخ صيام عاشوراء برمضان موجود في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، والأيام المعدودة في قول ابن عباس هي ثلاثة أيام من كل شهر، وكان ذلك في أول الإسلام.

وقد تنسخ التلاوة دون الحكم، كآية الرجم.

وقد ينسخ الحكم دون التلاوة، كصدقة النجوى، وكقوله تعالى: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ﴾(١)، والتلاوة والحكم حكمان، فجائز نسخ أحدهما دون الآخر، وينسخ القرآن بالقرآن، والسنة بالسنة(٢)، وهذه العبارة يراد بها الخبر المتواتر القطعي، وينسخ خبر الواحد بخبر الواحد، وهذا كله متفق عليه، وحذاق الأئمة على أن القرآن ينسخ بالسنة(٣)، وذلك موجود في قوله ﷺ: «لاوصيَّة لوارثٍ»، وهو ظاهر مسائل مالك رحمه الله، وأبى ذلك الشافعي رحمه الله، والحجة عليه من قوله ـ إسقاطه الجَلْد في حدِّ الزنا عن الثَّيِّب الذي يرْجَم، فإنه لا مسقط لذلك إلا السنةُ، فعلُ النبي ﷺ.

وكذلك حُذَّاق الأئمة على أن السنة تنسخ بالقرآن(٤). وذلك موجود في القبلة، فإن الصلاة إلى الشام لم تكن قط في كتاب الله، وفي قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾(٥) فإن رجوعهن إنما كان بصلح النبي ﷺ لقريش.

والحذَّاق على تجويز نسخ القرآن بخبر الواحد عقلاً(٦)، واختلفوا هل وقع شرعاً؟ فذهب أبو المعالي، وغيره إلى وقوعه في نازلة مسجد قباءٍ، في التحول إلى القبلة(٧)، وأبى ذلك قوم.

---

(١) من الآية (١١) من سورة الممتحنة.

(٢) نسخ هذا الحكم، وصرنا بعده لا نعطي الذين ذهبت أزواجهم إلى الكفار شيئاً، بل ننتظر، فإن عثرنا عليها استتبناها، فإن تابت وإلا قتلت، وكذلك التي فرت إلينا لا نعطي الكفار شيئاً.

(٣) يريد (والله أعلم) أن السنة المتواترة تنسخ بالسنة المتواترة.

(٤) قال مختصره رحمه الله: «ويعني بالسنة الناسخة للقرآن الخبر المتواتر القطعي، وقد أشار إلى أن هذا الحديث متواتر، ذكره عند تفسير قوله تعالى: [إذا حضر أحدكم الموْتُ] انتهى.

(٥) من الآية (١٠) من سورة الممتحنة.

(٦) المحققون على أن خبر الواحد لا ينسخ القرآن، ولا الخبر المتواتر، لأنه رفع للمقطوع به بالمظنون. وإنما قبلوا تخصيص المتواتر بالآحاد، ولم يقبلوا نسخه به، لأن الأول بيانٌ وجمعٌ، بخلاف النسخ فإنه رفع وإبطال.

(٧) روى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بينا الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة»، هذا لفظ الإمام مسلم في المساجد ومواضع الصلاة ـ وهذا الذي قاله أبو المعالي إنما يأتي على قول ابن عباس إن استقبال بيت المقدس كان بوحي متلو ـ روي عنه أنه قال أول ما نسخ من القرآن القبلة.

ولايصح نسخ نص بقياس، إذ من شروط القياس ألا يخالف نصًّا، وهذا كله في مدة النبي ﷺ. وأما بعد موته واستقرار الشرع فأجمعت الأمة أنه لانسخ، ولهذا كان الإجماع لا يَنْسَخُ ولا يُنْسَخُ، لأنه إنما ينعقد بعد النبي ﷺ، فإذا وجدنا إجماعاً يخالف نصًّا فنعلم أن الإجماع استند إلى نص ناسخ لا نعلمه نحن.

وقال بعض المتكلمين: النسخ الثابت متقرر في جهة كل أحد، علم الناسخ أو لم يعلمه، والذي عليه الحذاق أن من لم يبلغه الناسخ فهو متعبد بالحكم الأول، فإذا بلغه الناسخ طرأ عليه حكم النسخ. والحذاق على جواز نسخ الحكم قبل فعله، وهو موجود في كتاب الله تعالى في قصة الذبيح.

وقرأ جمهور الناس: ﴿مَا نَنْسخ﴾ بفتح النون، منْ نَسَخَ، وقرأت طائفة [نُنْسخ]، بضم النون، من أنسخ، وبها قرأ ابن عامر وحده من السبعة.

قال أبو علي الفارسي: ليست لغة لأنه لا يقال: نسَخَ وأنْسخ بمعنى، ولا هي للتعدية، لأن[1] المعنى يجيءُ: ما نكتب من آية، أي ما ننزل فيجيءُ القرآن كله على هذا منسوخاً، وليس الأمر كذلك، فلم يبق إلا أن يكون المعنى: ما نجده منسوخاً، كما تقول: أحمدت الرجل وأبخلته، بمعنى وجدته محموداً وبخيلا، قال أبو علي: وليس يجده منسوخاً إلا بأن ينسخه، فتتفق القراءتان في المعنى، وإن اختلفتا في اللفظ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد خرَّج قرأةُ هذه القراءة المعنى على وجهين[2]: أحدهما أن يكون المعنى: ما نكتب ونُنْزل من اللوح المحفوظ، أو ما نؤخر فيه ونترك فلا نُنْزله أي ذلك فعلنا فإنا نأتي بخير من المؤخر المتروك أو بمثله، فيجيء الضميران في ﴿مِنْها﴾ أوْ ﴿مِثْلِهَا﴾ عائدين على الضمير في [نَنْسأهَا][3].

---

(١) تعليل لقوله: «ولا هي للتعدية»، يعني أن المعنى يتغير بذلك، ويصير: ما ننسخك من آية يا محمد، وإنساخه إياها إنزالها عليه ـ فيؤول المعنى إلى أن كل آية أنزلت أتي بخير منها أو مثلها، وبذلك يصبح القرآن كله منسوخاً، وهذا غير واقع، لأنه لم ينسخ منه إلا القليل.

(٢) كلاهما الهمزة فيه للتعدية، إلا أنه من الوجه الأول مأخوذ من نسخ الكتاب بمعنى الإنزال، وفي الوجه الثاني من النَّسخ بمعنى الإزالة، تأمل.

(٣) أي عائدين على المنسوء لا على المنسوخ من اللوح المحفوظ، بخلاف ما سبق، فإن الضميرين عائدان على المنسوخ والمنسوء، لكن على هذا الوجه يبقى ﴿ما ننسخ من آية﴾ بدون جواب، إذ لا رابط يربط بين الشرط والجواب. وذلك لا يجوز. و[ننسأها] قراءة عمر بن الخطاب وابن عباس والنخعي وابن ابي رباح ومجاهد وعبيد بن عمير وابن كثير وأبي عمرو.

والمعنى الآخر: أن يكون ننسخ من النسخ بمعنى الإزالة، ويكون التقدير: ما ننسخك أي نبيح لك نسخه، كأنه لما نسخها الله أباح لنبيه تركها بذلك النسخ، فسمى تلك الإباحة إنساخاً. و﴿ما﴾ شرطية، وهي مفعولة بننسخ، و﴿نَنسَخْ﴾ جزم بالشرط. واختلف القراء في قراءة قوله: ﴿نُنسها﴾ فقرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وعاصم، وابن عامر، وجمهور من الناس ﴿نُنسِها﴾ بضم النون الأولى، وسكون الثانية، وكسر السين، وترك الهمزة، وهذه من أنسى المنقول من نَسِيَ، وقرأت ذلك فرقة كما تقدم إلا أنها همزت بعد السين، فهذه بمعنى التأخير، تقول العرب: أنسأت الدين وغيره أُنسئه إنساءً إذا أخرته. وقرأت طائفة: [أوْ نَنسها] بفتح النون الأولى، وسكون الثانية، وفتح السين، وهذه بمعنى الترك، ذكرها مكي ولم ينسبها، وذكرها أبو عبيد البكري في كتاب «اللآلي»[١] عن سعد بن أبي وقاص، وأَرَاه وهمَ. وقرأ سعد بن أبي وقاص[٢] [أوْ تُنسَها] بتاء على مخاطبة النبي ﷺ، ونون بعدها ساكنة، وفتح السين، هكذا قال أبو الفتح، وأبو عمرو الداني، فقيل لسعد: إن سعيد بن المسيب يقرؤها بنون أولى مضمومة وسين مكسورة، فقال: «إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب»، وتلا: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[٣] ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[٤].

وقرأ سعيد بن المسيب ـ فيما ذكر عنه أيضاً ـ [أو تُنْسَهَا] بضم التاء أولاً وفتح السين وسكون النون بينهما، وهذه من النسيان، وقرأ الضحاك بن مزاحم، وأبو رجاءٍ [نُنَسِّها] بضم النون الأُولى وفتح الثانية وسين مكسورة مشددة، وهذه أيضاً من النسيان، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وابن عباس، وإبراهيم النخعي، وعطاء بن أبي رباح، ومجاهد، وعبيد بن عمير، وابن كثير، وأبو عمرو [نَنسأها] بنون مفتوحة وأخرى بعدها ساكنة وسين مفتوحة وألف بعدها مهموزة، وهذه من التأخير، تقول العرب: نسأتُ الإبل عن الحوض أنسؤها نَسْأً، أي أخرتها، وكذلك يقال: أنسأ الإبل إذا زاد في ظمئها يوماً أو يومين أو أكثر من ذلك، بمعنى أخرها عن الورد.

---

(١) شرح أمالي القالي لأبي عبيد البكري الوزير المتوفى سنة ٤٨٧ هـ.
(٢) أحد العشرة المبشرين بالجنة، وواحد من الفرسان المعدودين في الفتوحات الإسلامية الأولى، روى عن النبي ﷺ كثيراً من الأحاديث، توفي سنة ٥٥ هـ.
(٣) الآية رقم (٦) من سورة الأعلى.
(٤) من الآية رقم (٢٤) من سورة الكهف.

وقرأت فرقة مثلَ هذه القراءة إلا أنها بتاءٍ مفتوحة أولاً على مخاطبة النبي ﷺ وإسناد الفعل إليه. وقرأ أبو حيوة مثل ذلك إلا أنه ضم التاء أولا. وقرأ أبي بن كعب [أَوْ نُنْسِكَ] بضم النون الأولى وسكون الثانية وسين مكسورة وكاف مخاطبة، وفي مصحف سالم مولى أبي حذيفة [أو نُنْسكها] مثل قراءة أبي إلا أنه زاد ضمير الآية. وقرأ الأعمش [ما ننسك من آية أو ننسخها نجيءْ بمثلها]، وهكذا ثبتت في مصحف عبد الله بن مسعود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه القراءات[١] لاتخلو كل واحدة منها أن تكون من النسيء أو الإنساء بمعنى التأخير، أو تكون من النسيان.

والنسيان في كلام العرب يجيء في الأغلب ضد الذكر، وقد يجيءُ بمعنى الترك، فالمعاني الثلاثة مقولة في هذه القراءات، فما كان منها يترتب في لفظه النسيان[٢] الذي هو ضد الذكر. فمعنى الآية: ما ننسخ من آية أو نقدِّر نسيانك لها فتنساها حتى ترتفع جملة وتذهب، فإنا نأتي بما هو خيرٌ منها لكم أو مثلٌ في المنفعة. وما كان من هذه القراءات يحمل على معنى الترك فإن الآية معه تترتب فيها أربعة معان: أحدها: ما ننسخ ـ على وجوه النسخ[٣] ـ أو نترك غير منزل عليك فإنا لا بد أن ننزل ـ رفقاً بكم ـ خيراً من ذلك أو مثله، حتى لا ينقص الدين عن حد كماله. والمعنى الثاني: أو نترك

---

(١) هي إحدى عشرة قراءة بدون قراءة الأعمش.

(٢) يؤيد هذا ما روي عن قتادة أنه قال: كانت الآية تنسخ بالآية، وينسي الله نبيه من ذلك شيئاً. وقبل الدخول في سياق ابن عطية رحمه الله ننقل كلام العلامة القاسمي، نقلا عن الراغب الأصبهاني: في حل الآية الكريمة ـ قال: ﴿مَا نَنسَخْ من آيةٍ﴾ أي ما نُبدل من آية بغيرها كنسخ آيات التوراة بآيات القرآن، أو ننسها، أي نذهبها من القلوب كما أخبر بقوله: ﴿وَنَسُوا حظاً مما ذكِّروا به﴾ وقرىءَ [ننْسأها] أيْ نؤخرها ونتركها بلا نسخ كما أبقي كثيراً من أحكام التوراة في القرآن ـ ﴿نأت بخير منها﴾، أي من المنسوخة المبدلة كما فعل في الآيات التي شرعت في الملة الحنيفية ما فيه من اليسر ورفع الحرج والعنت، فكان خيراً من تلك الآصار والأغلال، ﴿أومثلها﴾ أي مثل الآيات الموحدة قبل كما يرى في كثير من الايات في القرآن الموافقة لما بين يديها مما اقتضت الحكمة بقاءه واستمراره ـ قال الراغب: فإن قيل: إن الذي تُرك ولم ينسخ ليس هو مثله، بل هو هو. فكيف قال: بمثلها؟ قيل: الحكم الذي أنزل في القرآن، وكان ثابتاً في الشرع الذي قبلنا، يصح أن يقال: هو هو إذا اعتبر بنفسه، ولم يعتبر بلفظه، ويصح أن يقال: هو مثله إذا لم يعتبر بنفسه، بل بلفظه، ونحو ذلك أن يقال: ماءُ البئر هو ماء النهر إذا اعتبر جنس الماء، وتارة يقال: مثل ماء النهر إذا اعتبر قرار الماء. اهـ.

على أن إرادة العين بالمثل شائعة كما في قولهم: مثلك لا يبخل.

(٣) وهي ثلاثة: نسخ التلاوة والحكم، أونسخ أحدهما وبقاء الآخر.

تلاوته ـ وإن رفعنا حكمه ـ فيجيء النسخ على هذا رفع التلاوة والحكم(١). والمعنى الثالث: أو نترك حكمه ـ وإن رفعنا تلاوته ـ فالنسخ أيضاً على هذا رفع التلاوة والحكم، والمعنى الرابع: أو نتركها غير منسوخة الحكم ولا التلاوة، فالنسخ على هذا المعنى هو على جميع وجوهه. ويجيء الضميران في [منها] أو [مِثْلِهَا] عائدين على المنسوخة فقط(٢)، وكأن الكلام: إنْ نسخنا أو أبقينا فإنا نأتي بخير من المنسوخة أو مثلها، وما كان من هذه القراءات يحمل على معنى التأخير فإن الآية معه تترتب فيها المعاني الأربعة التي فيها الترك ـ أولها: ما ننسخ أو نؤخر إنزاله(٣). والثاني: ما ننسخ النسخ الأكمل أو نؤخر حكمه وإن أبقينا تلاوته. والثالث: ما ننسخ النسخ الأكمل أو نؤخر تلاوته وإن أبقينا حكمه. والرابع: ما ننسخ أو نؤخره مثبتاً لا ننسخه(٤)، ويعود الضميران كما ذكرنا في الترك(٥). وبعض هذه المعاني أقوى من بعض، لكن ذكرنا جميعها لأنها تحتمل، وقد قال جميعها العلماء، إمَّا نصاً، وإما إشارة فكملناها.

وقال الزجاج: إن القراءة [أو نُنْسها] بضم النون وسكون الثانية وكسر السين لا يتوجه فيها معنى الترك، لأنه لا يقال: أُنسى بمعنى ترك. وقال أبو علي، وغيره: ذلك متَّجه، لأنه بمعنى نجعلك تتركها(٦) وكذلك ضعف الزجاج أن تحمل الآية على النسيان الذي هو ضد الذكر، وقال: إن هذا لم يكن للنبي ﷺ، ولا نسي قرآناً. وقال أبو علي، وغيره: ذلك جائز، وقد وقع، ولا فرق بين أن ترفع الآية بنسخ، أو بتنسية، واحتج الزجاج بقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾(٧) أي لم نفعل، قال أبو علي: لم نذهب بالجميع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: على معنى إزالة النعمة كما توعد، وقد حكى

---

(١) أي أن قوله تعالى: (مانَنْسَخْ من آية) يحمل على ذلك، وقوله: (أو نُنْسها) يحمل على بقاء التلاوة ورفع الحكم، والمعنى الثالث كذلك إلا أن المتروك فيه الحكم والمرفوع التلاوة.

(٢) أي دون قوله: (أوْ نُنْسها) لأن النسيان بمعنى الترك، أو ترك لفظها وحكمها.

(٣) هذا ضعيف، إذ لا فائدة في تأخير ما لم يعرفه الناس ولا علموه ولا سمعوه.

(٤) أي إلى مدة.

(٥) أي على المنسوخ دون المنسوء.

(٦) وليس بمعنى نتركك.

(٧) من الآية (٨٦) من سورة الإسراء.

الطبري القول عن أقدم من الزجاج ورد عليه، والصحيح(١) في هذا أن نسيان النبي ﷺ لما أراد الله أن ينساه ـ ولم يرد أن يثبت قرآناً ـ جائزٌ.

فأما النسيان الذي هو آفة في البشر فالنبي ﷺ معصوم منه قبل التبليغ وبعد التبليغ ما لم يحفظه أحد من الصحابة، وأما بعد أن يحفظ فجائز عليه ما يجوز على البشر(٢)، لأنه قد بلَّغ وأدى الأمانة، ومنه الحديث: «حين أسقط آية، فلما فرغ من الصلاة قال: أفي القوم أُبيٌّ؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: فَلِمَ لمْ تُذكِّرني؟ قال: حسبت أنها رفعت. فقال النبي ﷺ: لم ترفع، ولكني نسيتها(٣)» ولفظة خير في الآية صفة تفضيل، والمعنى: بأنفع لكم أيها الناس في عاجل إن كانت الناسخة أخف، وفي آجلٍ إنْ كانت أثقل، وبمثلها إن كانت مستوية، وقال قوم: خير في الآية مصدر، ومن لابتداء الغاية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقلق هذا القول لقوله تعالى: [أَوْ مِثْلِهَا]، إلا أن يعطف المثل على الضمير في منها دون إعادة حرف الجر وذلك(٤) معترض.

---

(١) يشير القاضي ابن عطية رحمه الله إلى تأييد أبي علي الفارسى رحمه الله في أن النسيان جائز وواقع، ويؤكد ذلك ما سبق عن قتادة رحمه الله.

(٢) في الصحيحين، وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «إنما أنا بشر، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكِّروني». وبهذا الحديث الصحيح يرد حديث: «لاأنسى ولكن أُنسى لأسن»، وقد ذكر الإمام مالك رحمه الله في الموطأ هذا الحديث بلاغاً بغير إسناد، ونصه: «عن مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال: إني لأنسى أو انسى لأسن». فأثبت النوعين معاً. قال أبو عمر: «حديث إني لأنسى أو أُنسى لأسن»، أحد الأحاديث الأربعة في الموطأ التي لا توجد في غيره مسندة ولا مرسلة». وقال الحافظ في الفتح: «لا أصل له، فإنه من بلاغات مالك التي لم توجد موصولة بعد البحث الشديد». وقال في الشفاء: إنَّه حديث صحيح، أي من جهة المعنى، وقد ورد في الصحيح عن النبي ﷺ في ليلة القدر أنه قال: «فنسيتها أو أُنسيتها»، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سمع النبي ﷺ رجلا يقرأ في المسجد، فقال: يرحمه الله لقد أذكرني كذا وكذا، آية من سورة كذا». قال الحافظ بن حجر: «لم أقف على تعيين الآيات المذكورة». وفي رواية: زيادة كنت أسقطتها. وفي رواية أخرى: كنت أُنسيتها.

(٣) روى أبو داود، عن المسور بن يزيد المالكي أنه قال: «شهدت رسول الله ﷺ يقرأ في الصلاة فترك شيئاً لم يقرأه، فقال رجل: يا رسول الله تركت آية كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: هلا ذكرتنيها، قال: كنت أراها نسخت». وفيه أيضاً عن ابن عمر أن النبي ﷺ صلى صلاة، فقرأ فيها، فلبس عليه، فلما انصرف قال لأبي: أصليت معنا؟ قال: نعم، قال: فما منعك. اهـ وتأمل.

(٤) أي العطف من دون إعادة الجار لا يجوز، فالأحسن أنه أفعل تفضيل لا مصدر بمعنى خير من الخيور.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ﴾، ظاهره الاستفهام ومعناه التقرير[١]، والتقرير محتاج إلى معادل كالاستفهام المحض، فالمعادل هنا على قول جماعة ﴿أَمْ تريدون﴾، وقال قوم: [أم] هنا منقطعة، فالمعادل على قولهم محذوف تقديره: أم علمتم، وهذا كله على أن القصد بمخاطبة النبي ﷺ مخاطبة أمته، وأما إن كان هو المخاطب وحده فالمعادل محذوف لا غير، وكلا القولين مَرْوِيٌّ. ومعنى الآية: إن الله تعالى ينسخ ما يشاءُ، ويثبت ما يشاء، ويفعل بأحكامه ما يشاء، هو قدير على ذلك وعلى كل شيءٍ. وهذا[٢] لإنكار اليهود النسخ، وقوله: ﴿على كلِّ شَيْءٍ﴾ عموم معناه الخصوص إذ لم تدخل فيه الصفات القديمة بدلالة العقل ولا المحالات لأنها ليست بأشياء، والشيءُ في كلام العرب الموجود[٣] و﴿قديرٌ﴾ اسم فاعل على المبالغة من قدر بفتح العين يقدر بكسرها، ومن العرب من يقول: قدر بكسر العين يقدر بفتحها.

قوله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾.

الملك: السلطان، ونفوذه الأمر، والإرادة، وجَمْع الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ دال على أن المراد بخطاب النبي ﷺ خطاب أمته. والوليّ: فعيل من ولي إذا جاور ولصق، فالناصر، والمعين، والقائم بالأمر، والحافظ، كلهم مجاور بوجه ما، والنصير: فعيل من النصر، وهو أشد مبالغة من ناصر.

وقوله تعالى: ﴿أم تريدون﴾، قالت فرقة: ﴿أم﴾ رد على الاستفهام الأول فهي معادلته[٤]، وقالت فرقة: أم استفهام مقطوع من الأول، كأنه قال: أتريدون؟ وهذا

---

(١) الاستفهام هنا للتقرير، والاستفهام التقريري كما هو معلوم لا يحتاج إلى معادل، وما أكثر ذلك في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

(٢) أي قوله تعالى: ﴿ألمْ تعلمْ أن الله على كلِّ شيءٍ قدير﴾ جاء رداً لإنكار اليهود النسخ.

(٣) حساً كالأجسام، أو حكماً كالأقوال، نحو رأيت شيئاً، وقلت شيئاً، والمراد بالموجود الممكن.

(٤) سبق أن هذا ضعيف، والقول الثاني وهو أن (أم) بمعنى الهمزة فقط كذلك، والصحيح هو القول الأخير =

موجود في كلام العرب، وقالت فرقة: أم هنا بمعنى بل وألف الاستفهام، قال مكي، وغيره: وهذا يضعف، لأن أمْ لا تقع بمعنى بل إلا إذا اعترض المتكلم شكٌّ فيما يورده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس كما قال مكي رحمه الله، لأن بل قد تكون للإضراب عن اللفظ الأول لا عن معناه، وإنما يلزم ما قال على أحد مَعْنَيَيْ بل، وهو الإضراب عن اللفظ والمعنى، ونِعْمَ ما قال سيبويه: بل لترك كلام وأخذ في غيره[١]. وقال أبو العالية[٢]: إن هذه الآية نزلت حين قال بعض الصحابة للنبي ﷺ: ليت ذنوبنا جرت مجرى ذنوب بني إسرائيل بتعجيل العقوبة في الدنيا، فقال النبي ﷺ: «قد أعطاكم الله خيراً مما أعطى بني إسرائيل» وتلا ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٣]، فتجيء إضافة الرسول ﷺ إلى الأمة على هذا حسب الأمر في نفسه، وحسب إقرارهم[٤]، وقال ابن عباس رضي الله عنه: إن رافع بن حريملة اليهودي سأل النبي ﷺ تفجير عيون وغير ذلك، وقيل: إن كفار قريش سألوا النبي ﷺ أن يأتيهم بالله جهرة، وقيل: سألوه أن يأتيهم بالله والملائكة قبيلا، وقال مجاهد: سألوه أن يرد الصفا ذهباً[٥]، فقال لهم: خذوا ذلك كالمائدة لبني إسرائيل[٦] فأبوا ونكصوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فتجيء على هذه الأقوال إضافة الرسول إليهم حسب الأمر في نفسه لا على إقرارهم.

وما سئل موسى عليه السلام هو أن يرى الله جهرة. وقرأ الحسن بن أبي الحسن،

= وهو أنها منقطعة، والمنقطعة تفسر ببل والهمزة، فالمعنى بل أتريدون، وبل إضراب عما قبلها لفظاً لا معنى.

(١) إنما مدح قول سيبويه لأنه جامع للمعنيين، وهو ترك اللفظ فقط أو اللفظ والمعنى.

(٢) رواه عنه ابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) من الآية (١١٠) من سورة النساء.

(٤) حاصله أنه إن كان الخطاب للمؤمنين كما قاله أبو العالية فإن الإضافة في (رسولكمْ) تأتي على حسب ما في نفس الأمر وحسب إقرارهم، وإن كان الخطاب للكفار فإن الإضافة تأتي على حسب ما في نفس الأمر لا على حسب إقرارهم لأنهم كفار.

(٥) رواه عنه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٦) يعني أن من كفر بعد ذلك فإن الله يعذبه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين.

وغيره [سيل] بكسر السين وياءٍ، وهي لغة يقال: سلتُ أَسالُ[١]، ويحتمل أن يكون من هَمزَ أبدل الهمزة ياءً على غير قياس، ثم كسر السين من أجل الياء. وقرأ بعض القراء بتسهيل الهمزة بين الهمزة والياء مع ضم السين. وكنَّى عن الإعراض عن الإيمان والإقبال على الكفر بالتبديل. وقال أبو العالية: الكفر هنا الشدة، والإيمان الرخاء، وهذا ضعيف، إلا أن يريدهما مستعارتين أي الشدة على نفسه والرخاء لها عبارة عن العذاب أو النعيم. وأما المتعارفُ من شدة أمور الدنيا ورخائها فلا تفسر الآية به. و﴿ضَلَّ﴾ أخطأ الطريق، والسواءُ من كل شيء الوسط والمعظم، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾[٢]، وقال عيسى بن عمر: «كتبت حتى انقطع سوائي»، وقال حسان بن ثابت في رثاء النبي ﷺ على ماذكر ابن إسحق وغيره:

يـا وَيْـحَ أنْصـار النَّبـيِّ وَرَهْطِـهِ بَعْـدَ الْمَغِيـبِ فـي سـواءِ المَلْحَـدِ

وقال أبو عبيدة: هو عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو عندي وهم منه. و﴿السَّبيل﴾ عبارة عن الشريعة التي أنزلها الله لعباده، لمَّا كانت كالسبب إلى نيل رحمته كانت السبيل إليها.

وقوله تعالى: ﴿ودَّ كثيرٌ مِنْ أهلِ الْكِتابِ﴾، كثيرٌ: مرتفع بودَّ، وهو نعت لنكرة، وحذْفُ الموصوف النكرة قليل، ولكن جاز هنا لأنها صفة متمكنة ترفع الإشكال، بمنزلة فريق[٣]. قال الزهري: عني بكثير واحد، وهو كعب بن الأشرف، وهذا تحامل[٤]، وقوله: ﴿يَرُدُّونَكُمْ﴾ يرد عليه، وقال ابن عباس: المراد ابنا أخطب: حيي وأبو ياسر[٥].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي الضمن الأتباع فتجيء العبارة متمكنة. و﴿الْكِتَابُ﴾ هنا التوراة. و﴿لَوْ﴾ هنا بمنزلة (أَنْ) لا تحتاج إلى جواب، وقيل: يتقدر جوابها في ودَّ، التقدير: لو يردونكم لودوا ذلك، فود دالة على الجواب، لأن من

---

(١) من باب: خاف يخاف.

(٢) من الآية (٥٥) من سورة الصافات.

(٣) إنما كانت متمكنة لتخصصها بقوله تعالى: ﴿مِنْ أهلِ الكِتابِ﴾ وهي بمنزلة (فريق) في قوله تعالى: ﴿نَبَذَ فريقٌ من الَّذين أوتوا الكتاب﴾.

(٤) أي تكلف بعيد.

(٥) رواه عنه محمد بن إسحق.

شرطه أن يكون متأخراً عن (لو)، و﴿كُفَّاراً﴾ مفعول ثان، ويحتمل أن يكون حالاً. و﴿حسداً﴾ مفعول له[١]، وقيل: هو مصدر في موضع الحال.

واختلف في تعلق قوله: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ فقيل: يتعلق بود[٢]، لأنه بمعنى ودوا، وقيل: يتعلق بقوله ﴿حَسَداً﴾، فالوقف على قوله: ﴿كُفَّاراً﴾، والمعنى على هذين القولين: أنهم لم يجدوا ذلك في كتاب، ولاأمروا به، فهو من تلقائهم. ولفظة الحسد تعطي هذا، فجاء ﴿مِنْ عنْدِ أنفُسهم﴾ تأكيداً وإلزاماً كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾ و﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ و﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[٣]. وقيل: فيتعلق بقوله: [يَرُدُّونكم]، فالمعنى: أنهم ودوا الرد بزيادة أن يكون من تلقائهم، أيْ بإغوائهم وتزيينهم.

واختلف في سبب هذه الآية، فقيل: إن حذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر[٤]أتيا بيت المدراس، فأراد اليهود صرفهم عن دينهم[٥]فثبتا عليه، ونزلت الآية، وقيل: إنما هذه الآية تابعة في المعنى لما تقدم من نهي الله من متابعة أقوال اليهود في (راعنا) وغيره، وأنهم لا يودون أن ينزل خير، ويودون أن يردوا المؤمنين كفاراً.

و﴿الحقُّ﴾ المراد في هذه الآية: نبوة محمد ﷺ، وصحة ما المسلمون عليه. وهذه الآية من الظاهر في صحة الكفر عناداً[٦]، واختلف أهل السنة في جواز ذلك،

---

(١) أي من (ودَّ)، بمعنى أن الحامل لهم على ردكم كفاراً هو الحسد، وهذا أفضل ما فيه من الأعاريب، راجع «البحر المحيط» ١/ ٣٤٨.

(٢) اي أنهم ودوا ذلك من جهة أنفسهم، لا من جهة دينهم.

(٣) الآيات على الترتيب: من الآية (١٦٧) من سورة آل عمران. ـ ومن الآية (٧٩) من سورة البقرة. ـ ومن الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٤) حذيفة بن اليمان أبو عبد الله العبسي، توفي سنة (٣٦)هـ ـ وعمار بن ياسر بن عامر بن مالك ـ من السابقين إلى الإسلام، شهد المشاهد كلها مع الرسول، وقتل مع الإمام علي بصفين سنة (٨٧)هـ.

(٥) هكذا بالأصل، وواضح أن الضمير للمثنى.

(٦) يعني أن الكفر يكون مع معرفة الحق لقوله تعالى: [من بعد ما تَبَيَّن لهم الحقُّ]، فالمعرفة لا تمنع من الكفر حسداً وعناداً، وقد اختلف أهل السنة في ذلك على قولين: أكان كفر إبليس جهلاً أمْ عناداً؟ ولا خلاف أنه كان عالماً بالله قبل كفره، فمن قال إنه كفر جهلاً قال: إنه سلب العلم الذي كان عند كفره، ومن قال إنه كفر عناداً قال: إنه كفر ومعه علمه، قال ابن عطية: والكفر مع بقاء العلم مستبعد، إلا أنه عندي جائز لا يستحيل مع خذلان الله تعالى لمن يشاء.

=

والصحيح عندي جوازُهُ عقلاً وبُعْدُهُ وقوعاً، ويترتب في كل آية تقتضيه أن المعرفة تسلب في ثاني حال من العناد. والعفو: ترك العقوبة وهو من عفت الآثار، والصفح: الإعراض عن المذنب كأنه يولي صفحة العنق. وقال ابن عباس: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿صَٰغِرُونَ﴾[1]. وقيل بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2]، وقال قوم: ليس هذا حد المنسوخ لأن هذا في نفس الأمر كان التوقيف على مدته[3].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا على من يجعل الأمر المنتظر أوامر الشرع، أو قتل قريظة وإجلاء النضير[4]، وأما من يجعله أجل بني آدم فيترتب النسخ في هذه الآية بعينها لأنه لا يختلف أن آيات الموادعة المطلقة قد نسخت كلها، والنسخ هو مجيءُ الأمر في هذه المقيدة[5]، وقيل: مجيء الأمر هو فرض القتال، وقيل: قتل قريظة وإجلاء النضير. وقال أبو عبيدة في هذه الآية: إنها منسوخة بالقتال[6]، لأن كل آية فيها ترك القتال فهي مكية منسوخة، وحُكْمُهُ بأنَّ هذه الآية مكية ضعيف، لأن معاندات اليهود إنما كانت بالمدينة.

وقوله تعالى: ﴿إن الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾ مقتضاه في هذا الموضع وعد المؤمنين.

= وروى البيهقي في شرح الأسماء الحسنى في آخر باب قوله تعالى: ﴿وما كانوا ليؤمِنُوا إلا أن يشاء الله﴾ عن عمرو بن ذر، قال: سمعت عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يقول: «لو أراد الله ألا يعصى، لم يخلق إبليس»، ثم روى من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: «يا أبا بكر، لو أراد الله ألا يعصى ما خلق إبليس». انتهى.

(١) من الآية (٢٩) من سورة التوبة.

(٢) من الآية (٥) من سورة التوبة.

(٣) يعني أن العفو والصفح في هذه الآية محدد بمدة وهي قوله تعالى: ﴿حتَّى يأتي الله بأمره﴾، وعندما أمر بقتال الذين لا يؤمنون، أو بقتل المشركين ـ في سورة التوبة ـ كان أمر الله قد أتى، فلا ينسحب حكم النسخ على هذه الآية حينئذ.

(٤) يعني أن القول بعدم النسخ إنما يأتي على من يجعل الأمر المنتظر المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ هو أوامر الشرع بقتال الذين لا يؤمنون، أو بقتل قريظة وإجلاء النضير.

(٥) وهي: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾ إلخ أو: ﴿اقتلوا المشركين﴾.

(٦) وجه إعادة هذا الكلام هو الرد على أبي عبيدة في قوله: إن الآية مكية.

قوله عز وجل:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

قالت فرقة من الفقهاء: إن قوله تعالى: ﴿وأقيموا الصَّلاة﴾ عموم، وقالت فرقة: هو من مجمل القرآن، والمرجح أنَّ ذلك عموم من وجه، ومجمل من وجه، فعموم من حيث الصلاة الدعاءُ، فحمله على مقتضاه ممكن، وخصصه الشرع بهيئات وأفعال وأقوال[1]، ومجمل من حيث الأوقات وعدد الركعات لا يفهم من اللفظ، بل السامع فيه مفتقر إلى التفسير، وهذا كله في ﴿أقيموا الصَّلاة﴾، وأما الزكاة فمجملة لا غير[2]. قال الطبري: إنما أمر الله هنا بالصلاة والزكاة لتحط ما تقدم من ميلهم إلى قول اليهود: (راعنا) لأن ذلك نهيٌ عن نوعه، ثم أُمِرَ المؤمنون بما يحُطُّه[3]. والخير المقدم مُنْقض لأنه فعل، فمعنى ﴿تَجدوه﴾: تجدوا ثوابه وجزاءَه، وذلك بمنزلة وجوده[4]، وقوله تعالى: ﴿إنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصير﴾، خبر في اللفظ معناه الوعد والوعيد.

وقوله تعالى: [وقالوا لن يدخل الجنةَ] معناه: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقال النصارى: لن يدخلَ الجنة إلا من كان نصارى، فجمع قولهم، ودلَّ

(١) فالعموم من حيث المعنى اللغوي، والمعنى الشرعي للصلاة.

(٢) لأنه ليس فيه تقدير لنصابها، ولا تجديد لأنواعها، ولا يعرفه السامع إلا بالشرح والتوضيح.

(٣) نقله أبو (ح) رحمه الله. وقال تعقيباً عليه: «وليس له ذلك الظهور»، البحر المحيط ١/٣٤٩.

(٤) في صحيح البخاري، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم مالُ وارثه أحب إليه من ماله؟» قالوا يا رسول الله: ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: «فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر». وروىٰ ابن المبارك في رقائقه بسنده قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، مالي لا أحب الموت؟ فقال: «هل لك مال؟» قال: نعم، قال: «فقدم مالك بين يديك، فإن المرء مع ماله، إن قدَّمه أحبَّ أن يلحقه، وإن خلفه أحب التخلف».

تفريق نوعيهم على تفريق قوليهم، وهذا هو الإيجاز واللف(١)، وهود: جمع هائد، مثل عائد وعود. ومعناه التائب الراجع، ومثله في الجمع: بازل وبُزل، وحائل وحُول، وبائر وبُور، وقيل: هو مصدر يوصف به الواحد والجميع كفطر وعدل ورضا. وقال الفراء: أصله يهودي حذفت ياءاه على غير قياس. وقرأ أبي بن كعب: [إلا من كانَ يَهُودياً]، وكذبهم الله تعالى، وجعل قولهم أمنية، وقد قُطِعُوا(٢) قبل بقوله: [فتمنَّوا الْمَوْتَ]، وأُمر محمد ﷺ بدعائهم إلى إظهار البرهان(٣).

وقيل: إن الهاء في [هاتوا] أصلية من (هاتا، يهاتي) وأميت تصريف هذه اللفظة كلِّه إلا الأمر منه، وقيل: هي عوض من همزة آتي، وقيل: ها تنبيه، وألزمت همزة آتي الحذف. والبرهان: الدليل الذي يوقع اليقين(٤). قال الطبري: طلب الدليل هنا يقضي بإثبات النظر، ويردُّ على من ينفيه(٥)، وقول اليهود: [لَنْ] نفيٌ حسنت بعده [بلىٰ] إذ هي ردٌّ بالإيجاب في جواب النفي(٦)، حرف مرتجل لذلك، وقيل: هي (بل) زيدت عليها الياء لتزيلها عن حد النسق الذي في (بل).

و[أَسْلَمَ] معناه: استسلم وخضع ودَان، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل:

وأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لـه المُزْنُ تَحْمِلُ عَذْباً زُلالا(٧)

وخُص الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يرى من الإنسان وموضع الحواس، وفيه يظهر

---

(١) معنى كلام المؤلف أن الضمير في قوله تعالى: (قالوا) يعود على أهل الكتاب، ويشمل اليهود والنصارى، (وهذا لفٌّ)، ثم جاء قوله سبحانه: [إلا مَنْ كانَ هوداً أو نصارى] بتوضيح فيه (نشر) لما سبق من (لفّ)، وبهذا يتضح لك قول ابن عطية: (وهذا هو الإيجاز واللف).

(٢) أي: عجزوا لمَّا دعاهم النبي ﷺ تنفيذاً لأمر الله في قوله: (قل إنْ كانتْ لكُمُ الدَّارُ الآخرة عنْد الله خالصةً من دون النَّاس فتمنَّوا الموت إن كنتم صادقين) ـ وقد سبقت الآية وهي رقم (٩٤) من سورة البقرة.

(٣) بقوله تعالى: [قل هاتوا بُرْهَانكم إن كنتم صادقين].

(٤) أي يثبته في النفس.

(٥) وهو دليل على بطلان القول بالتقليد.

(٦) أي الإثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة.

(٧) المزن: جمع مزنة وهي السحابة البيضاء. والبيت ضمن أبيات هي:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لمن أَسْلَمَتْ ... لَـهُ الأرضُ تَحْمِلُ صَخْراً ثقالا
دَحَاهَا فلمَّا رآهَا اسْتَوَتْ ... على الماء أرسى عَلَيْهَا الجبَالا
وَأَسْلَمْتُ وجهي لمن أَسْلَمَتْ ... لَـهُ المُزْنُ تَحْمِلُ عَذْباً زُلالا
إذا هِيَ سيقَتْ إلى بَلْدةٍ ... أطاعت فَصَبَّت عليها سِجالا

العز والذل، ولذلك يقال: وجه الأمر، أي معظمه وأشرفه، قال الأعشى:

أَوَّلُ الْحُكْمَ على وَجْهِهِ ... لَيسَ قضائي بالْهوى الجائر[١]

ويصح أن يكون الوجه في هذا الآية، المقصد، ﴿وَهُو محسنٌ﴾ جملة في موضع الحال[٢]، وعاد الضمير في (له) على لفظ ﴿مَنْ﴾[٣] وكذلك في قوله: ﴿أَجْرُهُ﴾، وعاد في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المعنى، وكذلك في ﴿يَحْزَنُونَ﴾. وقرأ ابن محيصن [فَلا خَوْفُ] دون تنوين في الفاء المرفوعة، فقيل: ذلك تخفيف، وقيل: المراد فلا الخوف، فحذفت الألف واللام. والخوف: هو لما يُتَوَقَّع، والحزن: هو لما قد وقع.

وقوله تعالى: ﴿وقالت الْيَهُودُ﴾ الآية، معناه ادعى كل فريق أنه أحق برحمة الله من الآخر. وسبب نزول الآية أن نصارى نجران اجتمعوا مع يهود المدينة عند النبي ﷺ، فتسابّوا، وكفر اليهود بعيسى وبالإنجيل، وكفر النصارى بموسى وبالتوراة، وفي هذا من فعلهم كفر كل طائفة بكتابها، لأن الإنجيل يتضمن صدق موسى وتقرير التوراة، والتوراة تتضمن التبشير بعيسى وصحة نبوته، وكلاهما تضمن صدق محمد ﷺ. فعنَّفهم الله تعالى على كذبهم، وفي كتبهم خلاف ما قالوا.

وفي قوله تعالى: ﴿وهم يتْلون الْكِتابَ﴾، تنبيه لأمة محمد ﷺ على ملازمة القرآن، والوقوف عند حدوده، كما قال الحر بن قيس[٤] في عمر بن الخطاب «وكان وقَّافاً عند

---

(١) البيت من قصيدة يهجو بها علقمة بن علاثة، ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما، ومطع القصيدة:

شاقتك من قَتْله أطلالها ... بالشطِّ فالوتر إلى حاجر

(٢) قال أبو(ح) في البحر المحيط: «وقد فسر رسول الله ﷺ حقيقة الإحسان الشرعي حين سئل عن ماهيته فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وقد فسر الإحسان بالإخلاص، وفسر بالإيمان، وفسر بالقيام بالأوامر والانتهاء عن المناهي». اهـ ١/ ٣٥٢.

ويفهم من الآية أن العمل المقبول له شرطان: الإخلاص، وهو مفهوم من قوله عز وجل: ﴿بلى من أسلم وجَهْه لله﴾، والصواب، أي موافقة الشريعة، وهو مفهوم من قوله سبحانه: ﴿وهو محسنٌ﴾، فمن كان عمله خالصاً وموافقاً للشريعة كان له أجره عند ربه.

(٣) وهذا هو الأفصح، وهو أن يبدأ أولاً بالحمل على اللفظ، ثم يثنى بالحمل على المعنى. قاله أبو (ح).

(٤) الحر بن قيس هو ابن أخي عيينة بن حصن الفزاري، كان ضمن الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ عند رجوعه من تبوك، وانظر حديثه في باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ من كتاب الاعتصام من صحيح البخاري.

كتاب الله». والكتاب الذي يتلونه ـ قيل: التوراة والإنجيل، فالألف واللام للجنس، وقيل: التوراة لأن النصارى تمتثلها، فالألف واللام للعهد.

اختلف مَن المراد بقوله: ﴿لا يعلمون﴾ فقال الجمهور: عني بذلك كفار العرب؛ لأنهم لا كتاب لهم، وقال عطاءٌ: المراد أمم كانت قبل اليهود والنصارى، وقال قوم: المراد اليهود، وكأنه أعيد قولهم(1)، وهذا ضعيف. وأخبرهم تعالى بأنه ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، والمعنى بأن يثيب من كان على شيءٍ أي شَيْءٍ حق، ويعاقب من كان على غير شيءٍ. وقال الزَّجاج: المعنىٰ يريهم عياناً من يدخل الجنة ومن يدخل النار. و﴿يَوْمَ القيامةِ﴾ سُمي بقيام الناس من القبور، إذ ذلك مبدأ لجميع مافي اليوم، وفي الاستمرار بعده. وقوله: ﴿كانوا﴾ بصيغة الماضي حسن على مراعاة يوم الحكم، وليس هذا من وضع الماضي موضع المستقبل لأن اختلافهم ليس في ذلك اليوم بل في الدنيا.

قوله عز وجل:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الآية. ﴿مَنْ﴾ رفع بالابتداء و﴿أظلم﴾، خبره، والمعنى: لا أحد أظلم(2)، واختلف في المشار إليه من هذا الصنف الظالم(3) فقال ابن عباس وغيره: المراد النصارى الذين كانوا يؤذون مَنْ يصلي ببيت المقدس ويطرحون فيه الأقذار. وقال قتادة، والسدي: المراد الروم الذين أعانوا بخت نصر على تخريب بيت المقدس حين قتلت بنو إسرائيل يحيى بن زكريا عليه السلام(4). وقيل: المَعْنِيُّ بخت

---

(١) اختار الإمام (ط) رحمه الله أن الآية عامة تصلح للجميع، وليس ثمَّ دليل قاطع يعيِّن واحداً من هذه الأقوال، فالحمل على الجميع أولى.

(٢) يشير إلى أن الاستفهام ليس حقيقياً، بل هو بمعنى النفي، وذلك أبلغ دلالة على أن هذا الظلم بلغ الغاية والنهاية.

(٣) أي في المراد بقوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممَّن منعَ مساجد الله﴾ الآية.

(٤) قال أبو بكر الرازي: لا خلاف بين أهل العلم بالسير أن عهد بخت نصر كان قبل مولد المسيح عليه السلام بدهر طويل.

نصر. وقال ابن زيد: المراد كفار قريش حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام[١].

وهذه الآية تتناول كل من منع من مسجد إلى يوم القيامة، أو خرَّب مدينة إسلام لأنها مساجد وإن لم تكن موقوفة إذ الأرض كلها مسجد لهذه الأمة[٢]، والمشهور (مسجدٌ) بكسر الجيم، ومن العرب من يقول: (مسجد) بفتحها. و[أَنْ يُذْكَرَ] في موضع نصب إمَّا على تقدير حذف (من) وتسلُّط الفعل، وإما على البدل من المساجد، وهو بدل الاشتمال الذي شأن البدل فيه أن يتعلق بالمُبْدل منه، ويختص به أو يقوم به صفة، ويجوز أن تكون [أنْ] مفعولا من أجله[٣]، ويجوز أن تكون في موضع خفض على إسقاط حرف الجر، ذكره سيبويه.

ومن قال من المفسرين: إن الآية بسبب بيت المقدس جعل الخراب الحقيقي الموجود[٤]، ومنْ قال: هي بسبب المسجد الحرام جعل منع عمارته خراباً إذْ هو داع إليه. ومنْ جعل الآية في النصارى روى أنه مرَّ زمان بعد ذلك لا يدخل نصراني بيت المقدس إلا أوجع ضرباً، قاله قتادة والسدي[٥]، ومن جعلها في قريش قال: كذلك نودي بأمر النبي ﷺ أنه لا يحج مشرك[٦]. و[خائفينَ] نصب على الحال.

وهذه الآية ليست بأمر بيّن منعهم من المساجد، لكنها تطرق إلى ذلك، وبراءة فيها وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين[٧].

---

(١) هذا أرجح الأقوال كما للحافظ ابن (ك) رحمه الله، وتبعه العلامة القاسمي رحمه الله، فالآية توجه الذم إلى المشركين الذين أخرجوا رسول الله ﷺ وأصحابه من مكة، ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام، وصدوهم عنه عام الحديبية، وأي خراب أعظم من هذا؟ انظر ابن (ك). وحديث صد المسلمين عن بيت الله الحرام عام الحديبية أخرجه البخاريُّ في «باب الشروط» في «الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب»، واعتنى به رحمه الله فساقه مطولا في عدة صفحات، وهو حديث عظيم يجمع فوائد ومعاني كثيرة.

(٢) لأنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند المحققين.

(٣) بتقدير: كراهية أن يذكر.

(٤) أي الوجود في بيت المقدس من طرف البابلين أولا، ومن طرف الرومانيين ثانياً.

(٥) هذا وما بعده مرتب على قوله تعالى: [أولئك ما كانَ لهمْ أن يدْخُلُوها إلا خائفين].

(٦) أي في السنة التاسعة نودي: «ألا لا يحجَّنَّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته»، وهو حديث متفق عليه.

(٧) وعدٌ للمؤمنين بإظهارهم على المسجد الحرام، ووعيد للمشركين بإذلالهم حتى لا يدخله واحد منهم إلا=

ومَنْ جعل الآية في النصارى قال: الخِزْيُ قتل الحربي، وجزية الذمي، وقيل: الفتوح الكائنة في الإسلام كعمورية وهرقلة[١] وغير ذلك. ومن جعلها في قريش جعل الخزي غلبتهم في الفتح وقتلهم والعذاب في الآخرة لمن مات منهم كافراً، و[خزيٌ] رفع بالابتداء، وخبره في المجرور.

و[الْمَشْرِقُ] موضع الشروق، و[الْمَغْرِبُ] موضع الغروب أي هما له مِلْك[٢] وما بينهما[٣] من الجهات والمخلوقات، وخصهما بالذكر وإن كانت جملة المخلوقات كذلك لأن سبب الآية اقتضى ذلك[٤].

و[أَيْنَمَا] شرط، و[تُوَلُّوا] جزم به، والجواب في قوله: [فَثَمَّ]، والمعنى: فأينما تولوا نحوه وإليه، لأن ولَّى ـ وإن كان غالب استعمالها أدبر ـ فإنها تقتضي أنه يقبل إلى ناحية، تقول: ولَّيْتُ عن كذا وإلى كذا. وقرأ الحسن: (تولَّوا) بفتح التاء واللام[٥]، و[ثَمَّ] مبنية على الفتح وهي في موضع نصب على الظرف. و[وَجْهُ الله] معناه الذي وجهنا إليه[٦]، كما تقول: سافرت في وجه كذا أي في جهة كذا.

واختلف الناس في تأويل الوجه الذي جاء مضافاً إلى الله تعالى في مواضع من

= خائفاً، وقد أنجز الله وعده فمنعهم من دخول المسجد الحرام ونادى فيه (عام حج) أبو بكر رضي الله عنه: «ألا لا يحجَّنَّ بعد العام مشرك». وفي حق المشركين يقول الله تعالى: [إنَّما المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا] وفي حق المؤمنين يقول: [إنَّما يعْمُر مساجد الله من آمنَ بالله] الآية.

(١) عمُّورية ـ بلدة في آسيا الصغرى وكانت حصناً منيعاً من حصون الروم، فتحها (المعتصم) وخلدها هي ومعركة فتحها أبو تمام بقصيدته التي مطلعها:

السيف أصدق أنباءً من الكتب ... في حدِّه الحدُّ بين الجد واللعب

وفيها يقول:

يا يوم وقعة عمُّوريَّة انصرفت ... عنك المنى حفَّلا معْسولة الحلَبِ

أما(هرقلة) فتقع إلى الغرب من (أدنة) قرب الساحل الجنوبي لتركيا ـ جهة الشرق ـ على البحر المتوسط. وقد فتحها المأمون بنفسه.

(٢) أي بطريق الإيجاد والاختراع.

(٣) يشير إلى أن في الآية حذف معطوف أي: ولله المشرق والمغرب وما بينهما.

(٤) كما سيأتي بعد في قوله: واختلف المفسرون في سبب هذه الآية.

(٥) أي على حذف إحدى التاءين ويكون الأصل: (تتولوا).

(٦) أي الوجه الذي وجهنا إليه، بمعنى الجهة التي وجهنا إليها وهي القبلة.

القرآن، فقال الحذاق: ذلك راجع إلى الوجود، والعبارة عنه بالوجه من مجاز كلام العرب إذ كان الوجه أظهرَ الأعضاء في الشاهد وأجلَّها قدراً. وقال بعض الأئمة: تلك صفة ثابتة بالسمع، زائدة على ما توحيه العقول من صفات القديم تعالى، وضعَّف أبو المعالي هذا القول(١).

ويتجه في بعض المواضع كهذه الآية أن يراد بالوجه الجهة التي فيها رضاه وعليها ثوابه، كما تقول: تصدقت لوجه الله تعالى، ويتجه في هذه الآية خاصة أن يراد بالوجه الجهة التي وجِّهنا إليها في القبلة حسبما يأتي في أحد الأقوال. وقال أبو منصور في المقنع: يحتمل أن يراد بالوجه هنا الجاه، كما تقول: فلان وجه القوم، أي موضع شرفهم، فالتقدير: فثمَّ جلال الله وعظمته.

واختلف المفسرون في سبب هذه الآية. فقال قتادة: أباح الله لنبيه ﷺ بهذه الآية أن يصلي المسلمون حيث شاؤوا فاختار النبي ﷺ بيت المقدس حينئذ، ثم نسخ ذلك كله بالتحول إلى الكعبة(٢). وقال مجاهدٌ، والضَّحَّاك: معناها إشارة إلى الكعبة، أي حيث كنتم من المشرق والمغرب فأنتم قادرون على التوجه إلى الكعبة التي هي وجه الله الذي وجهكم إليه، وعلى هذا فهي ناسخة لبيت المقدس. وقال ابن زيد: كانت اليهود قد استحسنت صلاة النبي ﷺ إلى بيت المقدس، وقالوا: ما اهتدى إلا بنا، فلما حول إلى الكعبة قالت اليهود: ما ولاهم عن قبلتهم؟ فنزلت: [والله الْمَشْرِقُ والْمَغْرِبُ] الآية. وقال ابن عمر: نزلت هذه الآية في صلاة النافلة في السفر حيث توجهت بالإنسان دابته(٣). وقال النخعي: الآية عامة(٤)، أينما تولوا في متصرفاتكم ومساعيكم فثمَّ وجه الله، أي موضع رضاه وثوابه وجهة رحمته التي يوصل إليها بالطاعة. وقال

---

(١) قالوا: لأن فيه الجزم بإثبات صفة لله بلفظ محتمل، وهي صفة لا يدرىٰ ماهي، ولا يعقل معناها في اللسان العربي، فوجب اطراح هذا القول والاعتماد على أن المراد وجوده إذ للَّفظ دلالة على التجسيم.

(٢) وعلى أنها منسوخة فلا اعتراض من جهة كونها خبراً لأنها محتملة لمعنى الأمر، ويكون المعنى: ولوا وجوهكم نحو وجه الله، وهذه الآية تلاها سعيد بن جبير لما أمر الحجاج بقتله.

(٣) حديث ابن عمر هذا رواه الإمام مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم. وعليه فالآية نزلت في التنفل في السفر، وقد كان ﷺ كما في الصحيحين يصلي النوافل على راحلته، ويوتر عليها حيث توجهت به شرقاً وغرباً.

(٤) أي غير خاصة بالصلاة.

عبد الله بن عامر بن ربيعة: نزلت فيمن اجتهد في القبلة فأخطأ، وورد في ذلك حديث رواه عامر بن ربيعة قال: «كنا مع النبي ﷺ في سفر في ليلة مظلمة، فتحرى قوم القبلة واعملوا[(١)] علامات، فلما أصبحوا رأوا أنهم قد أخطؤوها، فعرَّفوا رسول الله ﷺ بذلك فنزلت هذه الآية[(٢)]، وذكر قوم هذا الحديث على أن النبي ﷺ لم يكن مع القوم في السفر وذلك خطأ[(٣)].

وقال قتادة أيضاً: نزلت هذه الآية في النجاشي، وذلك أنه لما مات دعا النبي ﷺ المسلمين إلى الصلاة عليه، فقال قوم: كيف يصلّى على من لم يصل إلى القبلة قط؟ فنزلت هذه الآية، أيْ أن النجاشي كان يقصد وجه الله وإن لم يبلغه التوجه إلى القبلة.

وقال ابن جبير: نزلت الآية في الدعاء لما نزلت: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ قال المسلمون: إلى أين ندعو؟ فنزلت: ﴿فأينما تولُّوا فثم وجْه الله﴾. وقال المهدوي: وقيل: هذه الآية منتظمة في معنى التي قبلها، أي لا يمنعكم تخريب مسجد من أداء العبادات، فإن المسجد المخصوص للصلاة إن خرب فثمَّ وجه الله موجود حيث توليتم[(٤)]، وقال أيضاً: نزلت الآية حين صُدَّ رسول الله ﷺ عن البيت.

و﴿واسعٌ﴾ معناه متَّسع الرحمة، ﴿عليمٌ﴾ أين يضعها. وقيل: واسع معناه هنا أنه يوسع على عباده في الحكم، دينه يُسْرٌ، عليم بالنيات التي هي ملاك العمل وإن اختلفت ظواهره في قبلةٍ وما أشبهها.

قوله عز وجل:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

---

(١) أي خطوا خطوطاً في الجهات التي صلُّوا إليها.

(٢) رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وليس إسناده بذلك ولا نعرفه إلا من حديث الأشعث السمان، وأشعث يضعف في الحديث، قال الحافظ ابن كثير: وكذلك شيخه عاصم.

(٣) لأن سائر طرق حديث عامر بن ربيعة يوجد فيها: كنا مع رسول الله ﷺ.

(٤) ما قاله المهدوي رحمه الله في مناسبة الآية لما قبلها واضح، وفي سبب نزولها راجح، والله أعلم.

قرأ هذه الآية عامة القراء: ﴿وقالوا﴾ بواو تربط الجملة بالجملة، أو تعطف على (سَعَى)(١).

وقرأ ابن عامر، وغيره: [قالوا] بغير واو. قال أبو علي(٢): وكذلك هي في مصاحف أهل الشام. وحذف هذه الواو يتجه من وجهين: أحدهما أنَّ هذه الجملة مرتبطة في المعنى بالتي قبلها فذلك يغني عن الواو(٣). والآخر أن تستأنف هذه الجملة ولا يراعى ارتباطها بما تقدم.

واختلف على من يعود الضمير في ﴿قالوا﴾؟ فقيل: على النصارى لأنهم قالوا: المسيح ابن الله وذكرهم أشبه بسياق الآية، وقيل: على اليهود لأنهم قالوا: عزير ابن الله، وقيل: على كفرة العرب لأنهم قالوا: الملائكة بنات الله(٤).

و﴿سبحانه﴾ مصدر معناه تنزيهاً له وتبرئة مما قالوا(٥)، و﴿ما﴾ رفع بالابتداء والخبر في المجرور، أو بالاستقرار المقدر، أي كل ذلك له ملك، والذي قالوا: إنَّ الله اتخذه ولداً داخلٌ في جملة ما في السموات والأرض ولا يكون الولد إلا من جنس الوالد لا من المخلوقات والمملوكات(٦).

والقنوت في اللغة الطاعة، والقنوت طول القيام في عبادة، ومنه القنوت في

---

(١) نميل إلى أن الرأي الأول أحسن مما بعده فالواو فيه عاطفة لجملة على جملة خبرية، وأما العطف على(سعى) فيؤدي إلى العطف على معطوف على الصلة، وقد فصل بينهما بجمل كثيرة، وهذا من العطف البعيد الذي ينزه القرآن عن مثله. وهذا هو رأى أبي(ح) ـ البحر المحيط ١/ ٣٦٢.

(٢) هو أبو علي الفارسي ـ ذكره أبو (ح) في البحر المحيط ١/ ٣٦٢.

(٣) والتي قبلها هي قوله تعالى: ﴿ومَنْ أظْلَمُ ممَّن مَنَعَ مساجد الله أن يُذْكر فيها اسمه وسعى في خرابها﴾، ويريد أن الربط بالضمير يغني في ملاحظة العطف عن الربط بالواو لما بين الآيتين من الملابسة، فإن الذين قالوا اتخذ الله ولداً من جملة هؤلاء الذين تقدم ذكرهم فَيُستغنىٰ عن الواو لذلك كما استغنى عنها في قوله تعالى: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النَّار هم فيها خالدون﴾، فبين الجملة الأخيرة وما قبلها ملابسة أغنت عن الواو ـ إلا أن الاستئناف على هذه القراءة أظهر، والله أعلم.

(٤) الظاهر أنه عائد على الجميع دون تخصيص، فإن كلا منهم قال ذلك، وكل من الثلاثة تقدم ذكره.

(٥) أي تبرئة له سبحانه مما يقتضيه قولهم من مجانسته سبحانه لشيء من مخلوقاته، فأضرب الله عن ذلك، وأثبت أن كل ما في السموات والأرض «ومن ذلك المسيح وعزير والملائكة» مملوكٌ ومخلوق لله.

(٦) فالبنوة والملكية لايجتمعان، وعليه فالله مخالف لخلقه وبعيد عن مجانستهم، والولد المنسوب إلى الله هو من جنسهم لا من جنسه، إذ هم الذين يحتاجون إلى من يخلفهم لبقاء نوعهم، والله عز وجل باق ودائم وغني بنفسه وذاته لا حاجة به إلى غيره.

الصلاة، فمعنى الآية: أن المخلوقات كلها تَقْنُت لله، أي تخشع وتطيع، والكفار والجمادات قنوتهم في ظهور الصنعة عليهم وفيهم(١).

وقيل: الكافر يسجد ظله وهو كاره.

و[بديع] مصروف(٢) من مُبْدِع، كبصير من مُبصر، ومثله قول عمر بن معدي كرب:

أمِـنْ رَيْحـانـة الـدَّاعـي السَّميـع(٣) . . . .

يريد المُسْمع. والمُبدع المخترع المنشئُ، ومنه أصحاب البِدَع(٤) ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صلاة رمضان: نعمت البِدْعَة هذه.

وخص السموات والأرض بالذكر لأنها أعظم ما نرى من مخلوقاته جل وعلا.

و[قَضَى] معناه: قدَّر، وقد يجيء بمعنى أمضى، ويتجه في هذه الآية المعنيان، فعلى مذهب أهل السنة قدَّر في الأزل وأمضى فيه، وعلى مذهب المعتزلة أمضى عند الخلق والإيجاد.

والأمر واحد الأمور، وليس هنا بمصدر أمر يأمر، [ويكون] رفع على الاستئناف، قال سيبويه: معناه فهو يكون، قال غيره: [يكون] عطف على [يقول]، واختاره الطبري وقرَّره(٥). وهو خطأٌ من جهة المعنى لأنه يقتضي أن القول مع التكوين والوجود(٦)،

---

(١) هذا جواب عما قد يقال: كيف هذا العموم وكثير من المخلوقات ليس بمطيع؟ فأجاب بما يدل على الطاعة من الكفار والجمادات.

(٢) أي صرف (مُفْعل) إلى (فَعيل)، والمراد أنه بمعناه إلا أنه توجد المبالغة في بديع دون مبدع.

(٣) تمامه:

. . . . يــؤرقنــي وأصْحــابــي هجــوعُ

(٤) فكل من أحدث شيئاً فقد أبدعه.

(٥) قال الطبري: «أمره للشيء بكن لايتقدم الوجود ولا يتأخر عنه، فلا يكون الشيء مأموراً بالوجود إلا وهو موجود بالأمر، ولا موجوداً بالأمر إلا وهو مأمورٌ بالوجود». انتهى. فعلى ما قال سيبويه يكون فعل الأمر وإن كان معدوماً فهو بمنزلة الموجود إذ هو عنده معلوم، وعلى ما قاله الطبري يكون مع الأمر إذ أمره للشيء بكن لا يتقدم الوجود ولايتأخر عنه، فلا يكون الشيء مأموراً بالوجود إلا وهو موجود بالأمر ولا موجوداً بالأمر إلا وهو مأمور بالوجود. راجع البحر المحيط ١/ ٣٦٤.

(٦) قال(ح) رحمه الله: «ومعنى رده أن الأمر عنده قديم والتكوين حادث، وقد نسق عليه بالفاء فهو معه أي يعتقبه فلا يصح ذلك لأن القديم لا يعتقبه الحادث». انتهى. وقد يقال: إن التعقيب غير المعية، والتعقيب في كل شيء بحسبه، ثم إن رد ابن عطية رحمه الله إنما يتم إذا كان هناك قول وأمر حقيقيان، أما إذا كان ذلك على جهة=

وتكلم أبو علي الفارسيُّ في هذه المسألة بما هو فاسد من جهة الاعتزال لا من جهة العربية.

وقرأ ابن عامر [فيكونَ] بالنصب، وضعَّفه أبو علي، وَوَجَّهَهُ ـ مع ضعفه ـ على أن يشفع له شبه اللفظ(١). وقال أحمد بن موسى في قراءة ابن عامر: هذا لحن(٢).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن الفاء لا تعمل في جواب الأمر إلا إذا كانا فعلين يطرد فيهما معنى الشرط، تقول: أكرم زيداً فيكرمك، والمعنى: إن تُكْرِمْ زيداً يكرمك، وفي هذه الآية لا يتجه هذا، لأنه يجيءُ تقديره: إن تكن تكن، ولا معنى لهذا(٣)، والذي يطرد فيه معنى الشرط هو أن يختلف الفاعلان أو الفعلان(٤)، فالأول أكرم زيداً فيكرمك، والثاني أكرم زيداً فتسود.

وتلخيص المعتقد في هذه الآية أن الله عز وجل لم يزل آمراً للمعدومات بشرط وجودها، قادراً على تأخر المقدورات، عالماً مع تأخر وقوع المعلومات، فكل ما في الآية مما يقتضي الاستقبال فهو بحسب المأمورات، إذ المحدثات تجيءُ بعد أن لم تكن، وكل ما يستند إلى الله تعالى من قدرة وعلم وأمر فهو قديم لم يزل.

ومن جعل من المفسرين (قَضَى) بمعنى أمضى عند الخلق والإيجاد فكأن إظهار المخترعات في أوقاتها المؤجَّلة قولٌ لها: (كنْ)(٥) إذ التأمل يقتضي ذلك على نحو قول الشاعر:

= المجاز ومن باب التمثيل لسرعة الأمر ونفاذه فيجوز العطف على (ويقول)، والله أعلم.

(١) يعني أنَّ وجه النصب أنَّه جوابٌ على لفظ (كن) لأنه جاء بلفظ الأمر فهو شبيه بالأمر الحقيقي، وهذا التوجيه من أبي علي الفارسي مع أنه هو الذي ضعف القراءة.

(٢) لم يقبل أبو حيان كلام أحمد بن موسى، وقال: هذا قول خطأ، لأن هذه القراءة في السبعة فهي متواترة، وابن عامر رجل عربي لم يكن ليلحن. اهـ. البحر المحيط ١/٣٦٦ ـ وأحمد بن موسى هذا هو أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد البغدادي المتوفَّىٰ سنة ٣٢٤هـ.

(٣) من شرط نصب جواب الأمر أن ينعقد منهما شرط وجزاء، نحو ائتني فأكرمك، تقديره: إنْ تأتني أكرمك، وهنا لا يصح إن يكن يكن، وإلا لزم كون الشيء سبباً لنفسه، ويمكن الجواب بأن المراد إن يكن في علم الله وإرادته يكن في الخارج فهو على حد: فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله إلخ. وقول القاضي رحمه الله: وفي هذه الآية لا يتجه هذا، يقال عليه: قد يتجه على أن يكون التقدير: إن قال له: كن يكون، لأن كن محكي بالقول، وليس مستقلاً بنفسه حتى يقدر منه فعل الشرط فقط، والله أعلم.

(٤) أو متعلقات الفعلين.

(٥) يعني أن إظهار الأشياء من العدم إلى الوجود عبر عنه بالقول وإن لم يكن هناك قول. كقول أبي النجم=

وقـالـت الأقـرَاب للبَطْـنِ الْحَـقِ[(١)] . . . .

وهذا كله يجري مع قول المعتزلة، والمعنى الذي تقتضيه عبارة (كن): هو قديم قائم بالذات[(٢)]، والوضوح التام في هذه المسألة يحتاج أكثر من هذا البسط.

وقوله تعالى: ﴿وقال الَّذينَ لا يَعْلَمُون﴾ الآية، قال الربيع، والسدي: هم كفار العرب[(٣)]، وقد طلب عبد الله بن أبي أمية وغيره من النبي ﷺ نحو هذا، فنفى عنهم العلم لأنهم لا كتاب عندهم ولا اتباع نبوة، وقال مجاهد: هم النصارى[(٤)]، لأنهم المذكورون في الآية أولا، ورجحه الطبري، وقال ابن عباس: المراد من كان على عهد رسول الله ﷺ من اليهود، لأن رافع بن حريملة قال للنبي ﷺ: أسمعنا كلام الله، وقيل: الإشارة بقوله: ﴿لايَعْلَمُون﴾ إلى جميع هذه الطوائف، لأن كلهم قال هذه المقالة أو نحوها، ويكون الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، و﴿لولا﴾ تحضيض بمعنى هلاَّ[(٥)] كما قال الأشهب بن رُميلة:

تَعـدُّون عَقْـر النِّيـب أفضـل مجـدِكـم ... بني ضَوْطَرى لولا الكَمِيَّ المُقَنَّعَا[(٦)]

= العجلي: «وقالت الأقراب للبطن الْحق» و لا قول هناك، وإنما أراد أن الظهر قد لحق بالبطن. والمراد أن الله سبحانه وتعالى عبَّر بالقول عما يريد خلقه وإيجاده وليس ثمَّ قولٌ، وهذا لا يتمشى مع قول المعتزلة الذين يقولون: أمضى عند الخلق والإيجاد.

(١) هذا صدر بيت للشاعر أبي النجم العجلي، وتمامه:

. . . . قـدمـاً فـآضـت كـالفَنيـقِ المُحنَّـقِ

والأقراب: جمع قرب (بضم الراء وبسكونها)، والقرب: الخاصرة. قال في اللسان: فرس لاحق الأقراب ـ يجمعونه، وإنما له قربان لسعته. والحق: أمرٌ، أي الصق يا بطن بالظهر وانضمر، وآضت: أي صارت كالفنيق ـ أي صارت الناقة كالفنيق ـ وهو الفحل المنعم المكرم يقال: أفنقه إذا نعمه، وجارية فنقة: أي ناعمة. والمحنق: المغيظ من الحنق وهو الغيظ والحقد، والخطاب هنا من باب التمثيل ـ لأن الأقراب لم تتكلم.

(٢) وأما لفظة (كن) فهي محدثة، ومن يعقل مدلول اللفظ وكونه يسبق بعض حروفه بعضاً لم يدخله شك في حدوثه، وإذا كان الأمر كذلك فلا قول ولا خطاب لفظياً، وإنما ذلك عبارة عن سرعة الإيجاد، فهو من مجاز التمثيل حتى كأن المعدوم موجود يقبل الأمر ويمتثله بسرعة.

(٣) رجح الحافظ (ك) هذا القول بسرد آيات تدل على عتو المشركين وعنادهم، انظره.

(٤) ونفى عنهم العلم كما نفى عن اليهود على قول ابن عباس الآتي، لأنهم لم يعملوا بمقتضاه، وقد تقرر أن الذي لا يعمل بالعلم ينزل منزلة الجاهل به.

(٥) أي: هلاّ يكلمنا الله بنبوة محمد ﷺ أو تأتينا آيةٌ دالة على نبوته.

(٦) الأشهب: هو أبو ثور، ورميلة بالراء المهملة اسم أمِّه، وقد نسب بعضهم هذا البيت إلى جرير من=

وليست هذه لولا التي تعطي منع الشيء لوجود غيره، وفرق بينهما أنها في التحضيض لا يليها إلا الفعل مظهراً أو مقدراً، وعلى بابها في المنع للوجوب[١] يليها الابتداء، وجرت العادة بحذف الخبر.

والآية هنا: العلامة الدَّالة وقد تقدم القول في لفظها[٢]. و﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ اليهود والنصارى في قول من جعل الذين لايعلمون كفار العرب ـ وهم اليهود في قول من جعل الذين لا يعلمون النصارى ـ وهم الأمم السالفة في قول من جعل الذين لا يعلمون العرب والنصارى واليهود، والكاف الأولى من ﴿كذَلك﴾ نعتٌ لمصدر مقدر. و﴿مِثْلَ﴾ نعت لمصدر محذوف، ويصح أن يعمل فيه ﴿قالَ﴾. وتشابه القلوب هنا هو في طلب ما لايصح، أو في الكفر وإن اختلفت ظواهرهم. وقرأ ابن أبي إسحق وأبو حيوة: ﴿تشَّابهَتْ﴾ بشد الشين، وقال أبو عمرو الداني: وذلك غير جائز لأنه فعل ماض.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ بيَّنَّا الآيات لِقَومٍ يُوقِنُونَ﴾ لما تقدم ذكر الذين أضلهم الله حتى كفروا بالأنبياء وطلبوا ما لا يجوز لهم، أتْبع ذلك بذكر الذين بيَّن لهم ما ينفع وتقوم به الحجة، لكن البيان وقع وتحصل للموقنين، فلذلك خصهم بالذكر، ويحتمل أن يكون المعنى: قد بينا البيان الذي هو خلق الهدى، فكأن الكلام: قد هدينا من هدينا.

واليقين إذا اتصف به العلم خصصه وبلغ به نهاية الوثاقة[٣].

وقوله تعالى: ﴿بيَّنَّا﴾ قرينة تقتضي أن اليقين صفة لعلمهم، وقرينة أخرى وهي أن الكلام مدح لهم. وأمَّا اليقين في استعمال الفقهاء إذا لم يتصف به العلم فإنه أحط من العلم لأن العلم عندهم معرفة المعلوم على ما هو به، واليقين معتقد يقع للموقن في حقه والشيءُ على خلاف معتقده، ومثال ذلك تيقن المقلد ثبوت الصانع، ومنه قول مالك رحمه الله في الموطأ في مسألة الحالف على الشيء يتيقنه والشيءُ في نفسه على

= قصيدة يهجو بها الفرزدق وقومه، وهو الصحيح، والنِّيب: جمع نابة وهي الناقة المسنَّة، ويقال للقوم إذا كانوا لايغنون غناء: (بنو ضوطرى)، وهم أيضاً حيٌّ معروف، وقيل: الضوطرى: الحمقى ـ وصححه ابن سيدة، ولولا الكمي المقنعا (لولا): بمعنى هلا، أي هلا تعدون الكميَّ المقنَّع بالسلاح.

(١) أي منع الشيء لوجوب غيره أي لوجود غيره.

(٢) في أول الكتاب عند التعرض لشرح الآية والسورة.

(٣) اليقين هو العلم الحاصل عن نظر واستدلال، ولهذا لايسمى علم الله يقيناً، ويقال: علم اليقين، وعلم يقين ـ فاليقين إذا اتصف به العلم قواه وبلغ به نهاية الوثاقة.

غير ذلك(١)، وأما حقيقة الأمر فاليقين هو الأخص، وهو ما علم على الوجه الذي لا يمكن أن يكون إلا عليه.

قوله عز وجل:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

المعنى: ﴿بَشيراً﴾ لمن آمن، و﴿نذيراً﴾ لمن كفر، وقرأ(٢) نافع وحده [ولا تسْأَلْ] بالجزم على النهي، وفي ذلك معنيان: أحدهما ـ لاتسأل على جهة التعظيم لحالهم من العذاب، كما تقول: فلان لا تسأل عنه، تعني أنه في نهاية تشهره من خير أو شر.

والمعنى الثاني(٣) روي فيه أن النبي ﷺ قال: «ليت شعري ما فعل أبواي؟» فنزلت: [ولاتُسْأَلْ](٤)، وحكى المهدوي رحمه الله أن النبي ﷺ قال: «ليت شعري أيُّ أبويَّ أحدث موتاً؟» فنزلت(٥).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خطأٌ ممن رواه أو ظنه، لأن أباه مات وهو

---

(١) يعني أن اليقين أحط من العلم بثبوت الصانع، وقد يتيقن المقلد شيئاً وهو على خلاف ذلك، ومنه قول الإمام مالك في مسألة الحالف، فقوله: «ومثال ذلك» راجع إلى قوله: «فإنه أحط من العلم»، وقوله: «ومنه قول مالك» راجع إليه وإلى أن الشيء قد يكون على خلاف ما يعتقده ويتيقنه.

(٢) ذكر الواحدي في الوسيط أن نافعاً قرأ [تسأل] بفتح التاء وجزم اللام على النهي للنبي ﷺ. وذكر أن النبي ﷺ سأل جبريل عن قبر أبيه وأمه فدله عليهما، فذهب إلى القبرين ودعا لهما وتمنى أن يعرف حال أبويه في الآخرة فنزلت الآية، وهذا ما ذكره، والذي نعتقده ونتقرب به إلى الله تعالى نجاتهما لما بيَّنه الحافظ السيوطي في مؤلفاته في هذا الموضع، فإنه قد أزال كل شبهة رضي الله عنه وأرضاه.

(٣) هذا المعنى الثاني ذكر فيه المؤلف قولين ـ الأول ما روي عن محمد بن كعب القرظي ـ والثاني ما حكاه المهدوي رحمه الله، وقد اعترض على الثاني وخطأه.

(٤) رواه عبد الرزاق، وابن جرير بسندهما عن محمد بن كعب القرظي، قال الحافظ السيوطي فيما رواه عبد الرزاق: إنه مرسل ضعيف الإسناد، وفيما رواه ابن جرير: إنه معضل الإسناد ضعيف لا تقوم بهما حجة. وقد رد ابن جرير رحمه الله ما روي عن محمد بن كعب وغيره، انظره.

(٥) ما حكاه المهدوي من رواية: «أي أبوي أحدث موتاً» هراء من القول، ولذلك اعترض عليه ابن عطية رحمه الله بلهجة حادة.

في بطن أمه، وقيل: وهو ابن شهر، وقيل: ابن شهرين، وماتت أمه بعد ذلك بخمس سنين منصرفة به من المدينة من زيارة أخواله، فهذا مما لا يتوهم أنه خفي عليه ﷺ.

وقرأ باقي السبعة ﴿ولا تُسْأَلُ﴾ بضم التاء واللام، وقرأ قوم [ولا تَسْأَلُ] بفتح التاء وضم اللام، ويتجه في هاتين القراءتين معنيان: أحدهما الخبر، أنه لا يَسْأَلُ عنهم ولا يُسْأَلُ هو عنهم، والآخر أن يراد معنى الحال كأنه قال: وغير مسئول(١) وغير سائل(٢) عنهم، عطفاً على قوله: بشيراً ونذيراً.

وقرأ أُبي بن كعب: [ومَا تسأل]، وقرأ ابن مسعود [وَلَنْ تُسأل] وهاتان القراءتان تؤيدان معنى القطع والاستئناف في غيرهما(٣).

والجحيم إحدى طبقات النار.

ويقال: رَضِي يَرْضَى رِضا ورُضاً ورِضْواناً، وحكي رضاءً ممدوداً، وقال: [مِلَّتَهُمْ] وهما ملَّتان مختلفتان بمعنى ـ لن ترضى اليهود حتى تتبع ملتهم، ولن ترضى النصارى حتى تتبع ملتهم فجمعهم(٤) إيجازاً لأن ذلك مفهوم.

والملة: الطريقة، وقد اختصت اللفظة بالشرائع والدين، وطريق ممل أيْ قد أثَّر المشي فيه(٥).

وروي أن سبب هذه الآية أن اليهود والنصارى طلبوا من رسول الله ﷺ الهدنة، ووعدوه أن يتبعوه بعد مدة خداعاً منهم، فأعلمه الله تعالى أن إعطاء الهدنة لا ينفع عندهم، وأطلعه على سر خداعهم.

---

(١) أي أنه لا يكون مسؤولاً ولا مؤاخذاً بكفر من كفر بعد التبشير والإنذار.

(٢) يعني أن علم الله بكفرهم بعد إنذارهم يغني عن سؤاله عنهم، وفي هذا ما يدل على أن أحداً لا يسأل عن ذنب أحد، ﴿ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى﴾.

(٣) قال (ح) قراءة الجمهور وقراءة أبي بن كعب تحتمل الاستئناف وهو الأظهر، وتحتمل أن تكون في موضع الحال ـ وأما قراءة ابن مسعود فيتعين فيها الاستئناف، والمعنى على الاستئناف أنك لا تسأل عن الكفار مالهم لم يؤمنوا، لأن ذلك ليس إليك، إن عليك إلا البلاغ، فكأنه قيل: لست مسؤولاً عنهم، فلا يحزنك كفرهم، وأما قراءة نافع فهي على الاستئناف ـ تأمل، والله أعلم.

(٤) استدل بعضهم على أن الكفر ملة واحدة بإفراد الملة هنا، وبقوله تعالى: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾.

(٥) طريق ممل أي مسلوك ومطروق بكثرة المشي فيه. والملة اسم من أمليت الكتاب ثم نقلت إلى الدين والشريعة باعتبار أنها يمليها النبي على الناس فيتناولونها، ومن الناس من يفرق بين الملة والدين فيقول: الملة ما دعا الله العباد إليه، والدين ما فعله العباد عن أمره.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدى الله هُوَ الْهدى﴾ أي ما أنت عليه يا محمد من هدى الله الذي يضعه في قلب من يشاء هو الهدى الحقيقي لا ما يدَّعيه هؤلاء، ثم قال تعالى لنبيه: ﴿وَلَئِن اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ﴾ الآية، فهذا شرط[١] خوطب به النبي ﷺ، وأمَّتهُ معه داخلة فيه[٢].

و﴿أهواء﴾: جمع هوى، ولما كانت مختلفة جمعت، ولو حمل على إفراد الملة لقيل: هواهم، والولي الذي يتولى الإصلاح والحياطة والنصر والمعونة، و﴿نصيرٍ﴾ بناءُ مبالغة في اسم الفاعل من نصر.

وقوله تعالى: ﴿الَّذين آتَيْنَاهُم الْكتاب﴾ الآية، ﴿الَّذين﴾ رفع بالابتداء، و﴿آتيناهم الكتاب﴾ صلته، وقال قتادة: المراد بالذين في هذا الموضع من أسلم من أمة محمد ﷺ. والكتاب على هذا التأويل التوراة، وآتيناهم: معناه أعطيناهم، وقال قوم: هذا مخصوص بالأربعين الذين وردوا مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في السفينة فأثنى الله عليهم، ويحتمل أن يراد بـ﴿الذين﴾ العموم في مؤمني بني إسرائيل والمؤمنين من العرب، ويكون الكتاب اسم الجنس، و[يتلونه] معناه: يتبعونه حق اتباعه بامتثال الأمر والنهي، وقيل: يتلونه: يقرؤونه حق قراءته، وهذا أيضاً يتضمن الاتِّباع والامتثال[٣]، و﴿يَتْلُونه﴾ ـ إذا أريد بـ﴿الذين﴾ الخصوص فيمن اهتدى ـ يصح أن يكون خبر الابتداء، ويصح أن يكون [يتلونه] في موضع الحال، والخبر ﴿أولئك﴾. وإذا أُريد بـ﴿الذين﴾ العموم لم يكن الخبر إلا ﴿أولئك﴾، و﴿يتلونه﴾ حال لا يستغنى عنها، وفيها الفائدة لأنه لو كان الخبر في [يتلونه] لوجب أن يكون كل مؤمن يتلو الكتاب حق تلاوته[٤].

و﴿حقَّ﴾ مصدر، والعامل فيه فعل مضمر وهو بمعنى أفعل، ولا يجوز إضافته إلى

---

(١) واللام مشعرة بقسم محذوف، والكلام مبني على القسم لا على الشرط، ولو بني على الشرط لدخلت الفاء في قوله تعالى: ﴿مالك من الله من وليٍّ ولا نصير﴾.

(٢) الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، لأن النبي عليه السلام معصوم من اتباع الأهواء، فالكلام من باب التغليظ والتشديد في اتباع أهل البدع والأهواء، وترك ما جاء به الكتاب والسنة من العلم، وقد نبه ابن عطية رحمه الله على هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنَّك إذاً لمن الظالمين﴾، وكان عليه أن ينبه على ذلك هنا إذ هذه أول آية توهم ما لا يجوز على النبي ﷺ.

(٣) لأن المراد يرتلون ألفاظه ويفهمون معانيه، وبفهم المعاني يكون الاتباع لمن وفقه الله تعالى.

(٤) يعني وليس كذلك سواء فسرت التلاوة بالاتِّباع والامتثال، أو بالترتيل وإدارك المعنى.

واحد معرف، وإنما جازت هنا لأن تعرف التلاوة بإضافتها إلى الضمير ليس بتعرف محض، وإنما هو بمنزلة قولهم: رجل واحد أمة، ونسيج وحده، والضمير في [به](١) عائد على الكتاب، وقيل: يعود على محمد ﷺ، لأن متبعي التوراة يجدونه فيها فيؤمنون به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل عندي أن يعود الضمير على الهدى الذي تقدم(٢)، وذلك أنه ذكر كفار اليهود والنصارى في أول الآية وحذر رسوله من اتباع أهوائهم، وأعلمه بأن هدى الله هو الهدى الذي أعطاه وبعثه به، ثم ذكر له أن المؤمنين التالين لكتاب الله هم المؤمنون بذلك الهدى المقتدون بأنواره، والضمير في ﴿يَكْفُرْ بِهِ﴾ يحتمل من العود ما ذكر في الأول(٣). و﴿أولئك همُ الخاسرون﴾ ابتداءٌ وعماد وخبر، أو ابتداء وابتداءٌ وخبر، والثاني وخبره خبر الأول. والخسران: نقصان الحظ.

قوله عز وجل(٤):

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

قرأ الحسن، وغيره [نعمتي] بتسكين الياء تخفيفاً؛ لأن أصلها التحريك كتحريك الضمائر: لك وبك، ثم حذفها الحسن للالتقاء، وفي السبعة من يحرك الياء، ومنهم من يُسَكِّنها.

وإن قدَّرنا فضيلة بني إسرائيل مخصوصة بكثرة الأنبياء وغير ذلك، فالعالمون عموم مطلق، وإن قدَّرنا تفضيلهم على الإطلاق فالعالمون عالمو زمانهم لأن أمة محمد ﷺ أفضل منهم بالنص، وقد تقدم القول على مثل هذه الآية إلى قوله: ﴿ينصرون﴾.

---

(١) في قوله: ﴿أولئك يؤمنون به﴾.

(٢) هو وإن كان محتملا لذلك فالأولى عوده على (الكتاب) لتناسب الضمائر، وعدم تنافرها، فإن تشتيت الضمائر من شأنه التعقيد والإلباس.

(٣) أي من الأقوال. والمراد بالأول الضمير في (به) من قوله: (يؤمنون به).

(٤) وجه إعادة هذه الآية مع تقدمها والله أعلم هو المبالغة في نصحهم، والحث على اتباعهم لرسول الله ﷺ حتى لا تضيع عليهم الفرصة.

ومعنى ﴿لاتنفعها شفاعةٌ﴾ أنها ليست ثمَّ ـ وليس[(١)] المعنى أنه يشفع فيهم أحد فيُرد، وإنما نفى أن تكون ثمَّ شفاعة على حد ما هي في الدنيا، وأما الشفاعة التي هي في تعجيل الحساب فليست بنافعة لهؤلاء الكفرة في خاصتهم، وأما الأخيرة التي هي بإذن من الله تعالى في أهل المعاصي من المؤمنين فهي بعد أن أخذ العقاب حقه، وليس لهؤلاء المتوعَّدين من الكفار منها شيءٌ.

والعامل في ﴿إذ﴾ فعل تقديره واذكر[(٢)] إذ، و﴿ابْتَلَى﴾ معناه اختبر[(٣)]، وإبراهيم يقال: إن تفسيره بالعربية أب رحيم[(٤)].

وقرأ ابن عامر في جميع سورة البقرة (إبْراهام). وقدِّم على الفاعل للاهتمام إذ كون الرب مبتلياً معلوم، فإنما يهتمُّ السامع بمن ابتُلي، وكون ضمير المفعول متصلا بالفاعل موجب تقديم المفعول[(٥)] فإنما بني الكلام على هذا الاهتمام.

واختلف أهل التأويل في الكلمات[(٦)]، فقال ابن عباس: هي ثلاثون سهماً هي الإسلام كله لم يتمه أحد كاملا إلا إبراهيم صلوات الله عليه، عشرة منها في براءة: ﴿التَّائبون الْعابدون﴾ الآية، وعشرة في الأحزاب: ﴿إنَّ المسليمن والمسلمات﴾، وعشرة في: ﴿سأل سائل﴾[(٧)].

---

(١) لم ينبه رحمه الله على هذا في الآية السابقة، ويغلب من صنيعه أنه لا ينبه على الشيء في أول موضع من مواضعه، ولذلك ينبغي استقراء الآيات التي تتشابه في المعنى حتى يتضح رأيه كاملاً.

(٢) وهو خطاب للنبي ﷺ، ويجوز أن يكون العامل فيه فعلاً مضمراً معطوفاً على قوله: (اذكروا) خطاب لبني إسرائيل ليتأملوا فيما يحكى عمن ينتمون إليه وهو إبراهيم عليه السلام.

(٣) التكاليف إنما وضعت للابتلاء والاختبار ليظهر في الشاهد ما سبق به العلم في الغائب، وقد سبق العلم بأن هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار، بحسب ذلك الابتلاء ـ فالاختبار من الله لإظهار ما قد علم ـ والاختبار من الظهور مالم نعلم.

(٤) وكذلك بالسريانية، وكثيرا ما يقع الاتفاق بين السريانية والعربية، أو يتقاربان في اللفظ كما قاله الإمام السهيلي رحمه الله.

(٥) قال ابن مالك رحمه الله.

وشاع نحو خاف ربَّه عمر ... وشذَّ نحو زان نوره الشَّجر

فما في الآية الكريمة مفهوم قوله: وشذ نحو زان نوره الشجر.

(٦) هذه الأشياء التي فسرت بها الكلمات إن كانت أقوالا فذلك ظاهر في تسميتها كلمات، وإن كانت أفعالا فإطلاق الكلمات عليها مجاز، لأن التكاليف الفعلية صدرت عن أوامر، والأوامر كلمات.

(٧) الذي عند المفسرين: عشرة في براءة، وعشرة في الأحزاب، وعشرة في سورة المؤمنون وفي سورة=

وقال ابن عباس أيضاً، وقتادة: الكلمات عشر خصال، خمس منها في الرأس: المضمضة والاستنشاق، وقص الشارب، والسواك، وفرق الرأس، وقيل بدل فرق الرأس: إعفاء اللحية. وخمس في الجسد: تقليم الظفر وحلق العانة، ونتف الإبط، والاستنجاء بالماء، والاختتان، وقال ابن عباس أيضاً: هي عشر خصال، ست في البدن، وأربع في الحج: الختان، وحلق العانة، ونتف الإبط، وتقليم الآظافر، وقص الشارب، والغسل يوم الجمعة، والطواف بالبيت، والسعي، ورمي الجمار، والإفاضة. وقال الحسن بن أبي الحسن: هي الخلال الست التي امتحن بها: الكوكب، والقمر، والشمس والنار، والهجرة، والختان، وقيل بدْل الهجرة: الذبح. وقالت طائفة: هي مناسك الحج خاصة. وروي أنّ الله تعالى أوحى إليه أن تطهر فتمضمض، ثم أن تطهر، فاستنشق، ثم أن تطهر، فاستاك، ثم أن تطهر، فأخذ من شاربه، ثم أن تطهر، ففرق شعره، ثم أن تطهر، فاستنجى، ثم أن تطهر، فحلق عانته، ثم أن تطهر، فنتف إبطه، ثم أن تطهر، فقلم أظافره، ثم أن تطهر، فأقبل على جسده ينظر ماذا يصنع فاختتن بعد عشرين ومائة سنة[(١)]، وفي البخاري أنَّه اختتن وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم[(٢)].

= المعارج، ولا تكمل العشرة إلا بمجموع السورتين.

(١) قال(ح) رحمه الله: والكلمات لم تبين في القرآن ماهي، ولا في الحديث الصحيح ولذلك كان للمفسرين فيها أقوال. قال شيخ التفسير الإمام (ط) رحمه الله: «ولا يجوز الجزم بشيءٍ مما ذكروه منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع، قال: ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له» اهـ. وقال في فتح القدير: وإذا لم يصح شيء عن رسول الله ﷺ ولا جاءنا من طريق تقوم به الحجة تعين تلك الكلمات لم يبق لنا إلا أن نقول: إنها ما ذكره الله سبحانه في كتابه بقوله: [قالَ إنِّي جاعلُكَ للنَّاسِ] إلى آخر الآيات، ويكون ذلك بيانا للكلمات. قال العلامة القاسمي: وعندي أنَّ الأقرب في معنى الكلمات هو ابتلاؤه بالإسلام فأسلم لرب العالمين، وابتلاؤه بالهجرة فخرج من بلده وقومه حتى لحق بالشام مهاجراً إلى الله، وابتلاؤه بالنار فصبر عليها، ثم ابتلاؤه بالختان فصبر عليه، ثم ابتلاؤه بذبح ابنه فسلَّم واحتسب كما يؤخذ ذلك من سيرته في التنزيل العزيز وسفر التكوين من التوراة، ففيهما بيان ماذكرنا في شأنه عليه الصلاة والسلام من قيامه بتلك الكلمات حق القيام، وتوفيتهن أحسن الوفاء، وهذا معنى قوله تعالى (فأتمهنَّ)، كقوله تعالى: [وإبراهيم الذي وفَّى]، والإتمام: التوفية». اهـ.

(٢) في صحيح البخاري: «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم». اهـ.

قال الراوي[١] فأوحى الله إليه: ﴿[إِنِّي جاعلك للنَّاس إماماً﴾ يأتمُّون بك في هذه الخصال، ويقتدي بك الصالحون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أقوى الأقوال في تفسير هذه الآية، وعلى هذه الأقوال كلها فإبراهيم عليه السلام هو الذي أتمَّ.

وقال مجاهد، وغيره: إن الكلمات هي أن الله عز وجل قال لإبراهيم: إني مبتليك بأمر فما هو؟ قال إبراهيم: تجعلني إماماً للناس، قال الله: نعم، قال إبراهيم: تجعل البيت مثابة، قال الله: نعم، قال إبراهيم: وأمناً، قال الله: نعم، قال إبراهيم: وترينا مناسكنا وتتوب علينا، قال الله: نعم، قال إبراهيم: تجعل هذا البلد آمناً، قال الله: نعم، قال إبراهيم: وترزق أهله من الثمرات، قال الله: نعم[٢].

قال القاضي أبو محمدَ رحمه الله: فعلى هذا القول فالله تعالى هو الذي أتم، وقد طول المفسرون في هذا، وذكروا أشياء فيها بعد فاختصرتها.

وإنما سميِّت هذه الخصال كلمات لأنها اقترنت بها أوامر هي كلمات. وروي أن إبراهيم ﷺ لما أتم هذه الكلمات، أو أتمها الله عليه؛ كتب الله له البراءة من النار، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[٣].

والإمام: القدوة، ومنه قيل لخيط البناء إمام، وهو هنا اسم مفرد، وقيل في غير هذا الموضع: هو جمع آم، وزنه فاعل أصله آمم، فيجيء مثل قائم وقيام، وجائع وجياع، ونائم ونيام. وجعل الله تعالى إبراهيم إماماً لأهل طاعته فلذلك اجتمعت الأمم على الدعوى فيه[٤]، وأعلم الله تعالى أنه كان حنيفاً، وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿ومن

---

(١) أي الذي روى ما سبق من الأمور العشرة التي أمر إبراهيم عليه السلام بالتطهر منها، ويعني أنه لما أتمها ووفىَّ بها كان جزاؤه أن جعله الله إماماً يقتدى به، وأوحى له بذلك. وفي بعض النسخ: «قال الرازي»، ويمكن أن يكون ذلك إشارة إلى أبي جعفر الرازي رحمه الله ابن عيسى بن ماهان صاحب الروايات الغريبة إذا كان قد روى ما ذكره المؤلف، والله أعلم.

(٢) قول مجاهد وغيره كالربيع بن أنس هو ما قدمناه سابقاً عن فتح القدير في بحث الكلمات اللائي أتمهن إبراهيم عليه السلام، وقد قال الإمام (ط): إن قول مجاهد ومن معه أولى بالصواب.

(٣) الآية ٣٧ من سورة النجم. هذا وقد جعل الله جزاء إبراهيم على إتمامه وتوفيته لما كلفه أمرين: جعله إماماً للناس، وبراءته من النار.

(٤) أي كلٌّ يدعيه، ويعتزي إليه، فهو إمام الجميع.

ذريتي﴾ هو على جهة الدعاء والرغبة إلى الله، أي: ومن ذريتي يارب فاجعل(١). وقيل: هذا منه على جهة الاستفهام عنهم، أي ومن ذريتي يا رب ماذا يكون(٢)؟

والذرية مأخوذة من ذرا يذْرو، أو من ذَرَى يذْري، أم من ذرَّ يذُرُّ، أَو من ذَرأ يذْرأُ، وهي أفعال تتقارب معانيها، وقد طوَّل في تعليلها أبو الفتح وشفى(٣).

وقوله تعالى: ﴿قال لا ينال عهدي﴾ أي وقال الله. والعهد فيما قال مجاهد: الإمامة، وقال السدي: النبوءة، وقال قتادة: الأمان من عذاب الله، وقال الربيع، والضحاك: العهد: الدين، دين الله تعالى. وقال ابن عباس: معنى الآية: لا عهد عليك لظالم أن تطيعه، ونصب [الظالمين] لأن العهد ينال كما يُنال(٤)، وقرأ قتادة، وأبو رجاءٍ، والأعمش: [الظَّالمون] بالرفع. وإذا أوَّلنا العهد الدين أو الأمان وأن لا طاعة لظالم، فالظلم في الآية ظلم الكفر، لأن العاصي المؤمن ينال الدين والأمان من عذاب الله، وتلزم طاعته إذا كان ذا أمر. وإذا أوَّلنا العهد النبوة والإمامة في الدين، فالظلم ظلم المعاصي فما زاد(٥).

---

(١) قال في الكشاف: ﴿ومن ذريتي﴾ عطف على الكاف ـ كأنه قال: وجاعل بعض ذريتي كما يقال: سأكرمك، فتقول: وزيداً اهـ. ومثل هذا العطف يسمى بالعطف التلقيني كقوله ﷺ: «اللهم ارحم المحلقين» قالوا: والمقصرين قال: «والمقصرين». وقد ناقش (ح) رحمه الله الإعراب الذي أعربه صاحب الكشاف وقال: الذي يقتضيه المعنى أن يكون ﴿ومن ذريتي﴾ متعلقاً بمحذوف والتقدير: واجعل من ذريتي إماماً، لأن إبراهيم عليه السلام فهم من قوله تعالى: ﴿إنِّي جاعلك للناس﴾ الاختصاص، فسأل الله أن يجعل من ذريته إماماً. اهـ.

وهذا الذي ذكره (ح) هو الذي قرره ابن عطية رحمه الله أولا.

(٢) هذا ضعيف كما هو ظاهر، فالإعراب الأول هو الذي عليه المعول كما قدمناه عن (ح).

(٣) يعني أنه في أصل الكلمة مذاهب، قيل: الذَّرْو، أو الذَّرْي، أو الذَّرّ، أو الذَّرْء، ومعانيها تتقارب، وقد شفى القول فيها أبو الفتح بن جني رحمه الله في كتابه «المحتسب».

(٤) أي لا ينال عهدي الظالمين، أو لاينال الظالمون عهدي، فلو أخر هذا التعليل وذكره بعد القراءتين معا لكان أوجه.

تنبيهان: الأول في قوله تعالى: ﴿لا ينال عهدي الظَّالمين﴾، إجابة لما طلبه إبراهيم عليه السلام، وتؤخذ هذه الإجابة من مفهوم الوصف الذي يفيد أن ذريته تنقسم إلى ظالم وغير ظالم، والظالم لا يناله عهد الله، وغير الظالم يناله.

الثاني: المراد بالعهد في هذا المقام هو النبوة والإمامة في الدين، كما يدل على ذلك السبب والسياق، وليس المراد من ذلك الإمامة الدنيوية بمعنى السلطة والملك خلافاً لمن قصر نظره على ما يعطيه اللفظ من العموم دون نظر إلى سياق الآية وسببها والله أعلم.

(٥) لأن العاصي لا يكون نبياً ولا إماماً في الدين.

قوله عز وجل:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

﴿وإذ﴾ عطف على ﴿إذ﴾ المتقدمة، و﴿البيت﴾ الكعبة، و﴿مثابةً﴾ يحتمل أن يكون من ثاب إذا رجع لأن الناس يثوبون إليها أي ينصرفون، ويحتمل أن تكون من الثواب أي يثابون هناك. قال الأخفش: دخلت الهاء فيها للمبالغة لكثرة من يثوب أي يرجع، لأنه قل ما يفارق أحد البيت إلا وهو يرى أنه لم يقض منه وطرا[١]، فهي كنسَّابة وعلاَّمة، وقال غيره، هي هاءُ تأنيث المصدر فهي مفْعلة أصلها مثْوبة نقلت حركة الواو إلى الثاء فانقلبت الواو ألفاً لانفتاح ما قبلها، وقيل: هو على تأنيث البقعة كما يقال: مقام ومقامة.

وقرأ الأعمش [مثابات] على الجمع، وقال ورقة بن نوفل في الكعبة[٢]:

مثـابـاً لأفنـاء القبـائـل كلِّهـا ... تخبُّ إليْها اليَعْمَلاتُ الطَّلائح[٣]

[وأمْناً] معناه: أن الناس يغيرون ويقتلون حول مكة وهي آمنة من ذلك، يلقى الرجل بها قاتل أبيه فلا يهيجه، لأن الله تعالى جعل لها في النفوس حرمةً، وجعلها أمناً للناس والطير والوحوش. وخصص الشرع من ذلك الخمس الفواسق على لسان النبي ﷺ.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿واتَّخِذوا﴾ بكسر الخاء

---

(١) بل يعود إليه مرة بعد أخرى، فليس هو مرة في الزمان فقط.

(٢) أي في وصفها، وورقة شيخ كبير كان على دين النصرانية، وهو ابن عم خديجة زوج النبي ﷺ، وهو الذي قال للنبي ﷺ أول الوحي: «إن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً» هذا والذي في لسان العرب وشرح القاموس في مادة (ثاب) أن البيت لأبي طالب.

(٣) وفي رواية الذوامل ـ ويقال: (هو من أفناء الناس) أي لا يدري من أي قبيلة هو، والأفناء الأخلاط واحدها فنو، واليعملات بفتح الميم جمع يعملة وهي: النجيبة من الإبل، المطبوعة على العمل، والطلائح: الإبل التي أضمرها الإعياء.

على جهة الأمر، فقال أنس بن مالك وغيره: معنى ذلك ما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: وافقت ربي في ثلاث: في الحجاب، وفي ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾[١] ـ وقلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت: ﴿واتَّخذوا من مقام إبْراهيم مصلًّى﴾[٢] فهذا أمر لأمة محمد ﷺ. وقال المهدوي: وقيل: ذلك عطف على قوله: [اذكروا] فهذا أمر لبني إسرائيل. وقال الربيع بن أنس: ذلك أمر لإبراهيم ومتبعيه فهي من الكلمات[٣] كأنه قال: إني جاعلك للناس إماماً واتخذوا، وذكر المهدوي رحمه اللهأن ذلك عطف على الأمر الذي يتضمنه قوله: جعلنا البيت مثابة، لأن المعنى ثوبوا. وقرأ نافع، وابن عامر: [واتَّخَذوا] بفتح الخاء على جهة الخبر عمن اتخذه من متبعي إبراهيم، وذلك معطوف على قوله: [وإذْ جعلنا]، كأنه قال: وإذ اتخذوا، وقيل: هو معطوف على [جعلنا] دون تقدير إذْ، فهي جملة واحدة[٤]، وعلى تقدير إذ جملتان.

واختلف في مقام إبراهيم ـ فقال ابن عباس، وقتادة وغيرهما، وخرجه البخاري: إنه الحجر الذي ارتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التي كان إسماعيل يناوله إياها في بناء البيت وغرقت قدماه فيه[٥]. وقال الربيع بن أنس: هو حجر ناولته إياه إمرأته فاغتسل عليه وهو راكب، جاءت به من شق ثم من شق فغرقت رجلاه فيه حين اعتمد عليه[٦].

---

(١) من الآية (٥) من سورة التحريم.

(٢) حديث الموافقة خرجه البخاري عن أنس بن مالك، وخرجه مسلم عن ابن عمر، وعلى ما قاله أنس بن مالك فالأمر مقطوع عما قبله، والخطاب لأمة محمد ﷺ ـ وعلى ما قاله غيره فالخطاب لبني إسرائيل على أنه معطوف على (اذكروا) أو لإبراهيم وأتباعه على أنه معطوف على معنى ﴿وإذْ جعلنا البيت مثابة للناس﴾، فهو في معنى ثوبوا واتخذوا، والأظهر أنه أمر لأمة محمد ﷺ.

(٣) أي التي ابتلى الله بها إبراهيم عليه السلام.

(٤) أي كلمة واحدة من الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم.

(٥) هذا هوالقول الصحيح كما ثبت في الصحيح، وهذا الحجر كان لا صقاً بالكعبة ثم حوله عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الموضع الذي يصلى فيه الآن، والمراد بالمقام المكان الذي فيه الحجر المسمى بذلك.

(٦) روى الطبري عن السدي: «والمقام هو الحجر الذي كانت زوجة إسماعيل وضعته تحت قدم إبراهيم حين غسلت رأسه، فوضع إبراهيم رجله عليه وهو راكب فغسلت شقه ثم رفعته من تحته وقد غابت رجله في الحجر فوضعته تحت الشق الآخر فغسلته فغابت رجله أيضاً، فجعلها الله من شعائره فقال: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلًّى﴾.

وقال فريق من العلماء: المقام: المسجد الحرام. وقال عطاء بن أبي رباح: المقام: عرفة والمزدلفة والجمار. وقال ابن عباس: مقامه: مواقف الحج كلها. وقال مجاهد: مقامه: الحرم كله، و﴿مُصلًّى﴾ موضع صلاة، هذا قول من قال: المقام الحجر، ومن قال بغيره قال: مصلى مدعى على أصل الصلاة[١].

وقوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنا﴾، العهد في اللغة على أقسام هذا منها[٢] الوصية بمعنى الأمر، و﴿أنْ﴾ في موضع نصب على تقدير بأن وحذف الخافض، قال سيبويه: إنها بمعنى أي مفسرة فلا موضع لها من الإعراب.

و﴿طهِّرا﴾ قيل: معناه ابنياه وأسساه على طهارة ونية طهارة[٣] فيجيء مثل قوله: ﴿أسس على التَّقوى﴾. وقال مجاهد: هو أمر بالتطهير من عبادة الأوثان، وقيل: من الفرث والدم[٤]، وهذا ضعيف لا تعضده الأخبار، وقيل: من الشرك.

وأضاف الله البيت إلى نفسه تشريفاً للبيت، وهي إضافة مخلوق إلى خالق ومملوك إلى مالك، و﴿للطائفين﴾ ظاهره أهل الطواف، وقاله عطاء وغيره. وقال ابن جبير: معناه للغرباء الطارئين على مكة.

[والْعاكفين] قال ابن جبير: هم أهل البلد المقيمون، وقال عطاءٌ: هم المجاورون بمكة. وقال ابن عباس: المصلون. وقال غيره: المعتكفون.

والعكوف في اللغة، اللزوم للشيء والإقامة عليه، كما قال الشاعر:

. . . . عَكْفَ النَّبيط يلعبون الفَنزجا[٥]

---

(١) أي موضع دعاءٍ على أصل الصلاة في اللغة، والأظهر فيه الصلاة الشرعية لا اللغوية والله أعلم.

(٢) هكذا في النسخ التي بين أيدينا ـ ويبدو أن في الكلام خطأً من الناسخين ـ والمعروف أن العهد إذا تعدى بإلى كما في هذه الآية كان بمعنى التوصية، ويمكن أن يراد به الأمر تجوزاً. على أن كلام المؤلف يستقيم لو حذفنا لفظة (هذا) ـ وتصبح العبارة: «العهد في اللغة على أقسام، منها الوصية بمعنى الأمر».

(٣) أي على نية الطهارة والتوحيد حالاً واستقبالاً. فيكون مثل قوله تعالى: ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ من الآية (١٠٨) من سورة التوبة.

(٤) أي لما كان يطرحه المشركون فيه من الفرث والدم في القرابين التي كانوا يتقربون بها إلى أصنامهم.

(٥) هذا عجز بيت للعجاج، يصف ثوراً عكفت حوله بقرات ـ وصدر البيت:

فهـــنَّ يعكفـــن بـــه إذا حجـــا . . . .

وعكـف معنـاهـا: أقـام حـول الشـيء، فهـو يعكـف بضـم الكـاف وبكسـرهـا ـ=

فمعناه الملازمي البيت إرادة وجه الله العظيم.

﴿والرُّكَّع السُّجود﴾ المصلون، وخص الركوع والسجود بالذكر لأنهما أقرب أحوال المصلي إلى الله تعالى. وكل مقيم عند بيت الله إرادة ذات الله[١]، فلا يخلو من إحدى هذه الرتب الثلاث: إما أن يكون في صلاة، أو طواف، فإن كان في شغل من دنياه فحال العكوف على مجاورة البيت لا يفارقه.

وقوله تعالى: ﴿وإذ قال إبْراهيم﴾ الآية، دعا إبراهيم عليه السلام لذريته وغيرهم بمكة بالأمن ورغد العيش، و﴿اجعل﴾ لفظه الأمر وهو في حق الله رغبة ودعاء، و﴿آمناً﴾ معناه من الجبابرة والمسلطين والعدو المستأصل والمثلات[٢] التي تحل بالبلاد، وكانت مكة وما يليها حين ذلك قفراً لا ماء فيه ولا نبات، فبارك الله فيما حولها كالطائف وغيره ونبتت فيها أنواع الثمرات.

وروي أن الله تعالى لما دعاه إبراهيم أمر جبريل صلوات الله عليه فاقتلع فلسطين وقيل قطعة من الأردن، فطاف بها حول البيت سبعاً وأنزلها بوجّ[٣]، فسميت الطائف بسبب ذلك الطواف[٤].

واختلف في تحريم مكة متى كان، فقالت فرقة: جعلها الله حراماً يوم خلق الله السموات والأرض، وقالت فرقة: حرمها إبراهيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول قاله النبي ﷺ في خطبته ثاني يوم الفتح[٥]، والثاني قاله أيضاً النبي ﷺ، ففي الصحيح عنه: «اللهم إن إبراهيم حرم

= والنبيط: جمع نبطي ـ وهم قوم من العجم كانوا ينزلون بين العراقين ـ والفنزج والفنزجة، هي رقصة هؤلاء العجم، إذا أخذ بعضهم بيد بعض ورقصوا. وحجا: معناها أقام ـ يقال: حجوت بالمكان أقمت به ـ والشاعر يريد أن يقول: إن الثور حين أقام بمكانه عكفت حوله هذه البقرات كأنها الأعاجم حين يرقصون ويلعبون.

(١) أي وجه الله.

(٢) جمع مثلة وهي العقوبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وقد خلت من قبلهم المثلات﴾ أي أنواع العذاب التي أصابت القرون الماضية.

(٣) بلد بالطائف، وقيل: هو الطائف، وقيل: واد بالطائف، انظر القاموس.

(٤) يعني أن الطائف قطعة من الشام ببركة دعاء إبراهيم عليه السلام.

(٥) أخرجه الشيخان وغيرهما عن ابن عباس وغيره.

مكة، وإني حرمت المدينة، ما بين لابتيها حرام[(١)]».

ولا تعارض بين الحديثين لأن الأول إخبار سابق علم الله فيها وقضائه، وكون الحرمة مدة آدم، وأوقات عمارة القطر بإيمان، والثاني إخبار بتجديد إبراهيم لحرمتها، وإظهاره ذلك بعد الدثور[(٢)].

وكل مقال من هذين الإخبارين حسن في مقامه، عظَّم الحرمة ثاني يوم الفتح على المؤمنين، بإسناد التحريم إلى الله تعالى، وذكر إبراهيم عند تحريمه المدينة مثالا لنفسه، ولا محالة أن تحريم المدينة هو أيضاً من قبل الله تعالى، ومن نافذ قضائه وسابق علمه.

و﴿مَنْ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿أَهْلَهُ﴾، وخص إبراهيم المؤمنين بدعائه[(٣)]

وقوله تعالى: [ومَنْ كَفَرَ] الآية، قال أبي بن كعب، وابن إسحق وغيرهما: هذا القول من الله عزوجل لإبراهيم. وقرؤوا ﴿فأمتِّعه﴾ بضم الهمزة وفتح الميم وشد التاء ﴿ثمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ بقطع الألف وضم الراء، وكذلك قرأ السبعة حاشا ابن عامر فإنه قرأ [فأمتعه] بضم الهمزة وسكون الميم وتخفيف التّاء [ثمّ أضطره] بقطع الألف. وقرأ يحيى بن وثاب [فأمتعه] كما قرأ ابن عامر ﴿ثمّ إضطره﴾ بكسر الهمزة على لغة قريش في قولهم: لا إخال، وقرأ أبي بن كعب [فنمتعه] [ثمَّ نضطره][(٤)] ومن شرط والجواب في فأمتعه.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما. وفي اللسان: اللابة: هي الأرض، ألبستها حجارة سود، (عن الأصمعي)، والجمع لابات.

(٢) وحاصله أنه لا منافاة بين الأحاديث التي أثبتت أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض وبين الأحاديث التي أثبتت أن إبراهيم حرمها، لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها، وأنها لم تزل حرماً آمناً عند الله من قبل بناء إبراهيم عليه السلام، كما أن رسول الله كان مكتوباً عند الله خاتم النبيئين وأن آدم لمنجدل في طينته، ومع هذا قال إبراهيم: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم﴾ الآية، وقد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه. وأجاب شيخ التفسير الإمام (ط) رحمه الله بأنها كانت حراماً، إلا أن الله لم يتعبد الخلق بذلك فلما سأله إبراهيم عليه السلام حرَّمها وتعبَّدهم بذلك، وكل من الجوابين له موضع حسن.

(٣) أي لما سبق من قوله تعالى: ﴿لاينال عهدي الظالمين﴾ فدعا هنا للمؤمنين دون الظالمين تأدباً مع الله تبارك وتعالى.

(٤) تعددت القراءات في هذا المقام، وحاصل ذلك أن قراءة السبعة، وقراءة ابن وثاب، وقراءة أبي بن=

وموضع ﴿مَنْ﴾ رفع على الابتداء والخبر[١]. ويصح أن يكون موضعها نصباً على تقدير: وأرزق من كفر، فلا تكون شرطاً. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: هذا القول هو من إبراهيم ﷺ، وقرؤوا: [فأَمْتِعه] بفتح الهمزة وسكون الميم، [ثم اضطرَّه] بوصل الألف وفتح الراء. وقرئت بالكسر، ويجوز فيها الضم. وقرأ ابن محيصن: [ثم أطَّرُهُ] بإدغام الضاد في الطاء. وقرأ يزيد بن أبي حبيب: [ثم أضطُرَّه] بضم الطاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأن إبراهيم عليه السلام دعا للمؤمنين وعلى الكافرين[٢].

و﴿قليلا﴾ معناه مدة العمر، لأن متاع الدنيا قليل، وهو نعت إمَّا لمصدر كأنه قال: متاعاً قليلا، وإمَّا لزمان كأنه قال: وقتاً قليلا، أو زمناً قليلاً.

و﴿المصير﴾ مَفعل كموضع من صار يصير، وبيس أصلها بئس، وقد تقدمت في بيسما[٣]، وأُمتِّعه معناه: أخوله الدنيا وأبقيه فيها بقاءً قليلا، لأنه فانٍ منْقض.

وأصل المتاع الزاد، ثم استعمل فيما يكون آخر أمر الإنسان أو عطائه أو أفعاله، قال الشاعر:

وقفتُ على قبرٍ غريبٍ بقفْرةٍ متاعٌ قليلٌ من حبيب مفارق[٤]

= كعب، وقراءة ابن محيصن، وقراءة يزيد بن أبي حبيب ـ هذه القراءات كلها تدل على الخبرية في الفعلين معاً ـ وأن القول من الله تعالى لإبراهيم ـ وأما قراءة ابن عباس ومجاهد وغيرهما فهي على الأمر في الفعلين معاً، ويكون القول عليها من إبراهيم عليه السلام، وهذه القراءة شاذة، ويأباها السياق، ولا يقبلها نظم الكلام، والله اعلم.

وقد خلط ابن عطية رحمه الله في عرض القراءات فتأمل.

(١) عبارة أبي حيان: «ومن يحتمل أن تكون في موضع نصب على إضمار فعل تقديره: وأرزق من كفر فأمتعه، ويكون فأمتعه معطوفاً على ذلك الفعل المحذوف ـ ويحتمل أن تكون من في موضع رفع على الابتداء إما موصولا وإما شرطاً، والفاء جواب الشرط أو الداخلة في خبر الموصول لشبهه باسم الشرط، وهو توضيح لما قاله ابن عطية رحمه الله، الذي قد يأتي أحياناً بشيء من الإجحاف والإلفاف في كلامه».

(٢) بني على قراءة الأمر، وهي قراءة ابن عباس ومن معه.

(٣) ابن عطية وأكثر علماء المغرب العربي يميلون إلى التسهيل والتخفيف، ويعدون عدم الهمز أولى من الهمز.

(٤) هذا البيت تقدم عند قوله تعالى: ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ وقد أنشده سليمان بن عبد=

ومنه تمتيع الزوجات[(١)] ويضطر الله الكافر إلى النار جزاءً على كفره.

قوله عز وجل:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

المعنى: واذكر [إذ]، و[القواعد]: جمع قاعدة وهي الأساس، وقال الفراءُ: هي الجدر، وفي هذا تجوز[(٢)]، والقواعد من النساء جمع قاعد، وهي التي قعدت عن الولد، وحذفت تاء التأنيث لأنه لا دخول للمذكر فيه، هذا قول بعض النحاة، وقد شذ حذفها مع اشتراك المذكر بقولهم: ناقة ضامر[(٣)]، ومذهب الخليل أنه متى حذفت تاء التأنيث زال الجري على الفعل وكان ذلك على النسب.

والبيت هنا الكعبة بإجماع، واختلف بعد[(٤)] رواة القصص، فقيل: إن آدم أمر ببنائه فبناه، ثم دثر ودرس حتى دلَّ عليه إبراهيم فرفع قواعده، وقيل: إن آدم هبط به من الجنة، وقيل: إنه لمَّا استوحش في الأرض حين نقص طوله وفقد أصوات الملائكة أهبط إليه وهو كالدرة، وقيل: كالياقوتة، وقيل: إن البيت كان ربوة حمراء، وقيل: بيضاء ومن تحته دحيت الأرض، وإن إبراهيم ابتدأ بناءه بأمر الله ورفع قواعده.

والذي يصح من هذا كله أن الله أمر إبراهيم برفع قواعد البيت[(٥)]، وجائزٌ قِدَمُهُ، وجائز أن كون ذلك ابتداءً، ولا يرجح شيءٌ من ذلك إلا بسند يقطع العذر.

= الملك بعد دفن ولده أيوب ـ ومن المعروف أن الوقوف على القبر آخر ما يكون من الأعمال بين الأقارب والأنساب.

(١) فإنَّه يكون في آخر الحياة الزوجية عند الطلاق.

(٢) لأن رفع القواعد معناه رفع البناء فوقها لا رفعها في نفسها، ولكن لما كانت متصلة بالبناء المرتفع كان ذلك بمثابة رفعها. والمضارع يحكي الحال الماضية استحضاراً لصورتها العجيبة.

(٣) يقال: جمل ضامر وناقة ضامر وضامرة، والجمع ضمَّر وضوامر، والضمور الهزال، وإذا حذفت التاء من الوصف المشترك فالكلام لا يجري على الفعل وإنما يجري على النسب كما قال الخليل رحمه الله.

(٤) أي أنه بعد الإجماع على أن المراد بالبيت هو، الكعبة اختلف رواة القصص في أولية البيت.

(٥) الأمر لإبراهيم ببناء البيت رواه الإمام البخاري في صحيحه من طريقين عن ابن عباس في كتاب الأنبياء.

وقال عبيد بن عمير[١]: رفعها إبراهيم وإسماعيل معاً، وقال ابن عباس: رفعها إبراهيم وإسماعيل يناوله الحجارة، وقال علي بن أبي طالب: رفعها إبراهيم وإسماعيل طفل صغير، ولا يصح هذا عن علي رضي الله عنه لأن الآية والآثار ترده.

﴿وإسماعيل﴾ عطف على إبراهيم، وقيل: هو مقطوع على الابتداء وخبره فيما بعد. قال الماوردي: إسماعيل أصله اسمع ياءَايل، وهذا ضعيف. وتقدير الكلام: يقولان: [ربَّنا تقبَّل]، وهي قراءة أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود كذلك بثبوت (يقولان)، وقالت فرقة: التقدير: وإسماعيل يقول: ربنا وحذف لدلالة الظاهر عليه، وكل هذا يدل على أن إسماعيل لم يكن طفلاً في ذلك الوقت.

وخصَّا هاتين الصفتين لتناسبهما مع حالهما، أي السميع لدعائنا والعليم بنيَّاتنا، وقولهما: اجعلنا: بمعنى صيِّرنا، تتعدى إلى مفعولين، و﴿مسلمين﴾ هو المفعول الثاني، وكذلك كانا فإنما أرادا التثبيت والدوام[٢]. والإسلام في هذا الموضع الإيمان والأعمال جميعاً. وقرأ ابن عباس، وعوف[٣]: [مسلمين] على الجمع، و(من) في قوله: ﴿ومن ذريتنا﴾، للتبعيض، وخص من الذرية بعضاً؛ لأن الله تعالى قد كان أعلمه أن منهم ظالمين. والأمة الجماعة، وحكى الطبري أنه أراد بذلك العرب خاصة، وهو ضعيف، لأنه دعوته ظهرت في العرب وفيمن آمن من غيرهم.

وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي: ﴿أرِنا﴾ بكسر الراء، قرأ ابن كثير: [أرْنا] بإسكان الراء، وقرأ أبو عمرو بين الإسكان والكسر اختلاساً، والأصل أرئينا، حذفت الياء للجزم، ونقلت حركة الهمزة إلى الراء، وحذفت تخفيفاً، واستثقل بعد من سكَّن الراء

(١) هو عبيد بن عمير بن قتادة أبو عاصم المكي من كبار التابعين، وقيل: إنه صحابي، قال الحافظ السيوطي:

وابن عمير من مجاهد أجل — كذاك من طاوس الحبر البدل
أقدم عهداً وأجل رتبة — فإنه تعزى إليه صحبة
ففي زمان المصطفى قد ولدا — وقال قوم بلقاه سعدا
بمكة قد قضى في عهد عمر — وذاك أول امرىء به ابتكر

والبدل القائم بحجة الله. وكان أول قاض بمكة على عهد عمر رضي الله عنه، توفي سنة ٦٤هـ.

(٢) يعني أنهما كانا مسلمين وإنما أرادا بالسؤال التثبيت والدوام عليه.

(٣) هوابن أبي جميلة البصري المعروف بالأعرابي، توفي سنة ١٤٦هـ.

الكسرة كما استثقلت في (فخذ)، وهنا من الإجحاف[(١)] ما ليس في (فخذ). وقالت طائفة: أرنا من رؤية البصر. وقالت طائفة: من رؤية القلب، وهو الأصح، ويلزم قائله أن يتعدى الفعل منه إلى ثلاثة مفاعيل، وينفصل بأنه يوجد معدًّى بالهمزة من رؤية القلب كغير المعدى[(٢)]، قال حطائط بن يعفر أخو الأسود بن يعفر:

أريني جواداً مات هزْلا لأنَّني ... أرى ما تَرَيْنَ، أو بخيلا مخَلَّدا[(٣)]

وقال قتادة: المناسك معالم الحج. وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت ودعا بهذه الدعوة بعث الله إليه جبريل فحج به[(٤)]، وقال ابن جريج: المناسك المذابح أي مواضع الذبح، وقال فريق من العلماء: المناسك العبادات كلها ومنه الناسك أي العابد. وفي قراءة ابن مسعود: [وأرهم مناسكهم] كأنه يريد الذرية.

---

(١) أي النقص، يعرف ذلك مما آلت إليه بعد الأصل، قال (ح) رحمه الله: وقد أنكر بعض الناس الإسكان من أجل أن الكسرة تدل على ما حذف فيقبح حذفها، لأن في إقرارها دلالة على المحذوف، وهذا ليس بشيء ـ لأن هذا الأصل مرفوض، وأصبحت الحركة كأنها حركة للراء، ولأن الإسكان نقل عن العرب في هذا الحرف، كما في قول الشاعر:

أرنا إداوة عبد الله نملؤها ... من ماء زمزم إنَّ القوم قد ظمؤوا

ولأنها قراءة متواترة فإنكارها ليس بشيء.

(٢) يعني أن (أرى) القلبية وجدت تستعمل متعدية إلى اثنين بالهمز وبدونه، وإذا كانت تتعدى بالهمز إلى اثنين فقد ثبت أن العرب تستعملها استعمالين، ومن ذلك قول حطائط بن يعفر إلخ، غير أن البيت لا يدل على ماذكره، لأن (أرى) فيه بصرية كما يفهم من متعلقاتها، ولأبي (ح) تعليق على كلام ابن عطية هنا يحسن الرجوع إليه في البحر المحيط ١/ ٣٩٠.

(٣) وبعد البيت:

ذريني أكن للمال ربا ولايكن ... لي المال ربا تحمدي غبَّه غدا

ذريني يكن مالي لعرضي وقايةً ... ففي المال عرضي قبلَ أنْ يتبدَّدَا

والأبيات خطاب لأمه وقد عاتبته على جوده. وقوله: لأنني، بفتح اللام بمعنى لعلني ـ وحطائط بن يعفر النهشلي شاعر جاهلي مقلٌ ولا عقب له، كما أن أخاه الأسود لا عقب له، ومعنى (أريني) على فهم ابن عطية: عرفيني به، أو دليني على مكانه ـ فهو لا يريد الرؤية البصرية، وقد ذكرنا أن أبا (ح) له رأي يخالف فيه هذا الكلام.

(٤) هناك آثار كثيرة عن السلف من الصحابة ومن بعدهم تتضمن أن جبريل عليه السلام أرى إبراهيم المناسك، وفي أكثرها أن الشيطان تعرض له مرات، والدعوة التي دعا بها إبراهيم هي قوله: أرنا مناسكنا.

والتوبة الرجوع، وعرفه شرعاً من الشر إلى الخير، وتوبة الله على العبد رجوعه به وهدايته له. واختلف في معنى طلبهم التوبة وهم أنبياء معصومون، فقالت طائفة: طلبا التثبيت والدوام، وقيل: أرادا من بعدهما من الذرية، كما تقول: برَّني فلان وأكرمني وأنت تريد في ولدك وذريتك، وقيل: ـ وهو الأحسن عندي(١) ـ إنهما لمَّا عرفا المناسك وبنيا البيت وأطاعا، أرادا أن يسنَّا للناس أنَّ ذلك الموقف وتلك المواضع مكان التنصل من الذنوب وطلب التوبة.

وقال الطبريُّ: إنه ليس أحد من خلق الله تعالى إلا وبينه وبين الله تعالى معان يجب أن تكون أحسن ممَّا هي(٢). وأجمعت الأمة على عصمة الأنبياء في معنى التبليغ، ومن الكبائر، ومن الصغائر التي فيها رذيلة. واختلف في غير ذلك من الصغائر، والذي أقول به: إنهم معصومون من الجميع، وإن قول النبي ﷺ: «إني لأتوب إلى الله في اليوم وأستغفره سبعين مرة»(٣)، إنما هو رجوعه من حالة إلى أرفع منها لتزيد علومه واطلاعه على أمر الله، فهو يترتب من المنزلة الأولى إلى الأخرى، والتوبة هنا لغوية(٤).

وقوله تعالى: [ربَّنا وابعث فيهم رسولا منهم] الآية، هذا هو الذي أراد النبي ﷺ بقوله: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى»(٥). ومعنى [منهم]: أن يعرفوه ويتحققوا فضله، ويشفق عليهم ويحرص، و[يتلو] في موضع نصب نعت لرسول أي تالياً عليهم، ويصح أن يكون في موضع الحال، والآيات: آيات القرآن، والكتاب: القرآن، ونسب

---

(١) هو وإن كان أحسن فهو بعيد من ظاهر الآية الكريمة، لأن قوله تعالى: [وتب علينا] معناه على ما قاله أنهما نبها بذلك الطلب على أن غيرهما ينال في تلك المواضع التوبة ويتنصل من الذنوب وهذا ليس طلباً حقيقياً وإنما هو في معنى التشريع لغيرهما بطلب التوبة في هذه المناسك، وهذا خروج عن المعنى الظاهر المتناسق مع ما قبله والله أعلم.

(٢) يعني أنه يتنقل في الدرجات والمقامات من درجة إلى ماهو أحسن منها، ومن مقام إلى ما هو أفضل منه وهكذا، وهذا ما يحبه الله تعالى في المعاني التي تكون بينه وبين عباده، فتوبة الأنبياء عبارة عن تنقلهم من مقام إلى مقام أعلى وتلك هي توبة خواص الخواص.

(٣) خرجه البخاري وغيره في كتاب الدعوات.

(٤) أي لا شرعية لأن التوبة الشرعية لا تكون إلا من الذنب، والأنبياء معصومون من الذنوب، فتوبتهم ترقيهم في الكمالات واستعلاؤهم في الدرجات.

(٥) فدعوة إبراهيم في قوله تعالى: [وابعث فيهم رسولا] الآية، وقد حقق الله هذا الدعاء، وجعله في آخر الزمان، فكانت رسالته ﷺ خاتمة للرسالات كلها.

التعليم إلى النبي ﷺ من حيث هو يعطى الأمور التي ينظر فيها ويعلم طرق النظر بما يلقيه الله إليه ويوحيه. وقال قتادة: الحكمة: السُّنَّة وبيان النبي ﷺ الشرائع(١). وروى ابن وهب عن مالك، أن الحكمة الفقه في الدين والفهم الذي هو سجية ونور من الله تعالى، و[يزكيهم] معناه: يطهِّرهم وينميهم بالخير، ومعنى الزكاة لا يخرج عن التطهير والتنمية، و[العزيز] الذي يغلب ويتمُّ مراده ولا يرد، و[الحكيم] المصيب مواقع الفعل المحكم لها.

قوله عز وجل:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

[من] استفهام في موضع رفع بالابتداء، و[يرغب] خبره، والمعنى يزهد فيها ويربأ بنفسه عنها، والملة: الشريعة والطريقة، و[سفه] من السَّفه الذي معناه الرِّقَّة والخفَّة. واختلف في نصب [نفسه] فقال الزَّجَّاج: سفه بمعنى جهِل، وعدَّاه بالمعنى(٢)، وقال غيره: سفه بمعنى أهلك. وحكى ثعلب، والمبرد: أن (سفه) بكسر الفاء يتعدى كسفَّه بفتح الفاء وشدِّها(٣)، وحكي عن أبي الخطاب أنها لغة. وقال الفراء: نصبها على التمييز(٤).

---

(١) هذا قول أكثر المفسرين، وهو الصحيح، ولا منافاة بينه وبين قول الإمام مالك: الحكمة الفقه في الدين والفهم الذي هو نور من الله تعالى، فالسنة هي التي تفقه في كتاب الله، والعمل بها هو النور، وبذلك تكون هي العلم والفهم والعمل والاتباع.

(٢) يعني أنه ضمنه معنى فعل آخر وهو (جَهِلَ) أو (أَهْلَكَ).

(٣) معناه أنَّ سفه يتعدى وهو بمعنى سفَّه بفتح الفاء وشدها، وقالوا: إن ذلك لغة، والمعنى أنه لا يرغب عن ملة إبراهيم عليه السلام إلا من جهل نفسه ولم يعرف ما فيها من الدلائل، وقد قال الله تعالى: [وفي أنفسكم أفلا تبصرون] ومن ثم كان الجهل أعظم مذمة لأنه مبدأ كل نقيصة، وذلك لأن من جهل نفسه جهل أنه مصنوع، ومن شأن ذلك أن يؤدي إلى الجهل بالصانع، والجهل بالصانع يؤدي إلى قلة المبالاة بأمره ونهيه.

(٤) تقدم أنها مفعولة على التضمين، أو على أنها لغة متعدية، وقال الفراء من الكوفيين: نصبها على التمييز، وقال البصريون: التفسير أي التمييز نكرة ولا تكون المعرفة نكرة، وقد أول ذلك أهل الكوفة، والله أعلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن السفه يتعلق بالنفس والرأي والخلق، فكأنه ميزها بين هذه، ورأيي أن هذا التعريف ليس بمحض لأن الضمير فيه الإبهام الذي في (مَنْ)، فكأن الكلام: إلاَّ من سفه نفساً[١]. وقال البصريون: لا يجوز التمييز مع هذا التعريف، وإنما النصب على تقدير حذف (في)، فلما انحذف حرف الجر قوي الفعل، وهذا يجري على مذهب سيبويه فيما حكاه من قولهم: ضرب فلان الظهر والبطن أي في الظهر والبطن.

وحكى مكي أن التقدير إلا من سفه قوله نفسه، على أن نفسه تأكيد، حذف المؤكِّد وأقيم التوكيد مقامه قياساً على النعت والمنعوت، وهذا قول متحامل[٢]. واصطفى: افتعل من الصفوة، معناه: تخيَّر الأصفى، وأبدلت التاء طاء لتناسبها مع الصاد في الإطباق[٣]. ومعنى هذا الاصطفاء أنه نبَّأه واتخذه خليلا، و﴿في الآخرة﴾ متعلق باسم فاعل مقدر من الصلاح، ولا يصلح[٤] تعلقه بالصالحين لأن الصلة لا تتقدم الموصول، هذا على أن تكون الألف واللام بمعنى الذي، وقال بعضهم: الألف واللام هنا للتعريف، ويستقيم الكلام[٥]، وقيل: المعنى إنه في عمل الآخرة لمن الصالحين، فالكلام على حذف مضاف.

وقوله تعالى: ﴿إذْ قال له ربُّه أسلم﴾، العامل في ﴿إذ﴾ اصطفيناه، وكان هذا القول من الله حين ابتلاه بالكوكب والقمر والشمس[٦]. والإسلام هنا على أتم وجوهه[٧].

---

(١) يقول الفراء: لمَّا حول الفعل من النفس إلى صاحبها خرج ما بعده مفسراً ليدل على أن السفه فيه، وكان حكمه أن يكون سفه زيد نفساً؛ لأن المفسر لا يكون إلا نكرة، ولكنه قد ترك على إضافته ونصب كنصب النكرة تشبيهاً بالمفعول به، وقال المبرد، وثعلب: سفه بالكسر متعد بنفسه، وقد تقدم هذا القول وهو الوجه وما عداه ضعيف.

(٢) أي فيه تحامل وتكلف.

(٣) ولكون مخرجهما واحداً فأتي بحرف وسط بين الحرفين.

(٤) وفي بعض النسخ ولا يصح.

(٥) أي على هذا القول، وأن (أل) للتعريف كهي في الرجل والغلام ـ يستقيم الكلام ويصح تعلق الجار والمجرور بما بعده.

(٦) يعني حين ابتلائه بذلك وإطلاعه على أمارات الحدوث فيها، وأنه لابد لها من مدبر يدبر أمرها ويسيِّر أحوالها، فعند ذلك قال الله له: أسلم، قال: ﴿أسلمت لرب العالمين﴾، ﴿إنِّي وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾.

(٧) ذلك أنه ليس كل إسلام إيماناً، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنَّا قلْ لم تؤمنوا ولكن قولوا=

وقرأ نافع وابن عامر: [وأوصى]. وقرأ الباقون: ﴿ووصَّى﴾، والمعنى واحد ـ إلا أن وصَّى يقتضي التكثير، والضمير في ﴿بها﴾ عائد على كلمته التي هي: ﴿أسلمت لربِّ العالمين﴾، وقيل: على الملة المتقدمة، والأول أصوب لأنه أقرب مذكور[١]. وقرأ عمرو بن فائد الأسواري: [ويعقوبَ] بالنصب على أن يعقوب داخل فيمن أوصى[٢]. واختلف في إعراب رفعه ـ فقال قوم من النحاة: التقدير، ويعقوب أوصى بنيه أيضاً، فهو عطف على إبراهيم. وقال بعضهم: هو مقطوع منفرد بقوله: ﴿يابني﴾ فتقدير الكلام «ويعقوب قال: يا بني»[٣]. واصطفى هنا معناه تخيَّر صفوة الأديان، والألف واللام في الدين للعهد[٤] لأنهم قد كانوا عرفوه. وكسرت إن بعد أوصى؛ لأنها بمعنى القول، ولذلك سقطت أن التي تقتضيها أوصى في قوله: أن يا بنيَّ. وقرأ ابن مسعود والضحاك: [أن يا بنيَّ] بثبوت أن.

وقوله: [فلا تموتنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون] إيجازٌ بليغ، وذلك أنَّ المقصود من أمرهم بالإسلام الدوام عليه[٥] فأتى بلفظ موجز يقتضي المقصود ويتضمن وعظاً وتذكيراً

= أسلمنا﴾ الآية. وقوله ﷺ كما في صحيح مسلم لسعد بن أبي وقاص لما قاله له: أعط فلاناً فإنه مؤمن، فقال النبي ﷺ: «أو مسلم» وفي المراصد:

ويتساوى مؤمن ومسلم ... في الصدق للزوم شرعاً فاحكم
وإن تراع فيهما المفهوما ... كان التغاير به محكوما

(١) هو ـ وإن كان أقرب مذكور ـ فإن المطلوب هو اتباع ملته لا مجرد التكلم بهذه الكلمة، فالتوصية بذلك أليق بإبراهيم، وأولى بمن بعده من الأنبياء، فإن الكلمة بعض الملة، وإبراهيم عليه السلام لا يوصي إلا بما هو أجمع للصلاح والفلاح.

(٢) كان إبراهيم عليه السلام وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحق، وكان حاضراً وقت الوصية كما استظهره الحافظ ابن كثير واستدل على ذلك بما هو واضح، وقوله تعالى: [يا بني إن الله اصطفى]، هو من مقول إبراهيم عليه السلام على قراءة النصب، وعلى قراءة الرفع إذا كان معطوفاً على إبراهيم، وأما إذا كان مستأنفاً فهو من مقول يعقوب. وهذه الآية الكريمة تدل على أنه ينبغي للمرء أن يعتني بتوصية أولاده ولاسيما فيما يتعلق بأمور الدين.

(٣) والفرق بين التقديرين: أن الأول لا إضمار فيه لأنه معطوف، ومن ثم كان هذا أظهر القولين، والثاني فيه إضمار لأنه مقطوع.

(٤) أي دون الاستغراق، لأنه أراد دين الإسلام بدليل قوله: [فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون]، وذلك قول الله تعالى: ﴿إنَّ الدين عند الله الإسلام﴾، ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾.

(٥) لأن المراد بالجملة: الزموا الإسلام وداوموا عليه إلى الموت.

بالموت، وذلك أن المرء يتحقق أنه يموت ولا يدري متى، فإذا أمر بأمر(١) لا يأتيه الموت إلا وهو عليه فقد توجه من وقت الأمر دائباً لازماً(٢). وحكى سيبويه ـ فيما يشبه هذا المعنى ـ قولهم: لا أرينك ها هنا(٣)، وليس إلى المأمور أن يحجب إدراك الآمر عنه، فإنما المقصود: إذهب وزلْ عن ها هنا، فجاء بالمقصود بلفظ يزيد معنى الغضب والكراهية. [وأنتم مسلمون] ابتداء وخبر في موضع الحال.

قوله عز وجل:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

هذا الخطاب لليهود والنصارى الذين انتحلوا الأنبياء صلوات الله عليهم، ونسبوهم إلى اليهودية والنصرانية(٤)، فرد الله عليهم وكذَّبهم وأعلمهم أنهم كانوا على الحنيفية الإسلام، وقال لهم ـ على جهة التقرير والتوبيخ ـ: أشهدتم يعقوب وعلمتم بما أوصى فتدَّعون عن علم؟ أي(٥): لم تشهدوا، بل أنتم تفترون. و[أم] تكون بمعنى ألف

---

(١) أي أمر بشيء.

(٢) أي توجه من وقت الخطاب إلى ذلك الشيء واعتنى به، وقام عليه، وترك الأشياء التي تكون سبباً للموت على غير حالة الإسلام ـ فالنهي حقيقة هو عن تعاطي الأشياء التي تتنافى مع الإسلام، إذ ربما يباغته الموت وهو على تلك الحالة. وهذه المعاني المتضامنة قد أديت بإيجاز بليغ، فليس النهي عن الموت على غير حال الإسلام لأنه ليس ذلك في مقدور الإنسان، وإنما النهي عن الكون في حالة غير حالة الإسلام، وهذا مقدور للإنسان، فالكلام من باب الكناية، وهو استعمال اللفظ في معناه لينتقل منه إلى ملزومه.

(٣) فالنهي في اللفظ للمتكلم وهو في الحقيقة للمخاطب ينهاه عن حضوره في هذا المكان، فكأنه يقول: اذهب من هذا المكان، وليس للمأمور أن يحجب إدراك الآمر عنه إلا بالذهاب عن هذا المكان. ومثل ذلك النهي عن الصلاة في المكان المغصوب، فليس النهي عنها لعينها، وإنما المراد النهي عما اقترن بها من الغصب، وكذلك الآية، فالنهي متعلق بالموت لفظا وبما يقترن به من الكفر معنى، وهذا يعرف «بالمجاز العرفي» ومن هذا الباب قوله تعالى: [ولا يصدنكم الشيْطان إنَّه لكم عدوٌّ مبينٌ].

(٤) تفسير لقوله: انتحلوا الأنبياء.

(٥) وفي بعض النسخ: أم لم تشهدوا؟

الاستفهام في صدر الكلام، لغة يمانية(١). وحكى الطبري أن ﴿أمْ﴾ يستفهم بها في وسط كلام قد تقدم صدره، وهذا منه، ومنه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَنٰهُ ﴾(٢) وقال قوم: ﴿أم﴾ بمعنى بل(٣) والتقدير: بل شهد أسلافكم يعقوب، وعلمتم منهم ما أوصى به ولكنكم كفرتم جَحْداً، ونسبتموهم إلى غير الحنيفية عناداً.

والأظهر أنها التي بمعنى بل وألف الاستفهام معاً(٤). و[شهداء]: جمع شاهد أي حاضر. ومعنى الآية: حضر يعقوب مقدِّماتُ الموت، وإلا فلو حضر الموت لما أمكن أن يقول شيئاً(٥). وقدم ﴿يعقوب﴾ على جهة تقديم الأهم، والعامل في (إذ) (شهداء). و﴿إذ قال﴾ بدل من ﴿إذ﴾ الأولى، وعبَّر عن المعبود بـ﴿ما﴾ تجربةً لهم، ولم يقل: (من) لئلا يطرق لهم الاهتداء(٦)، وإنما أراد أن يختبرهم، وأيضاً فالمعبودات المتعارفة من دون الله جمادات كالأوثان والنار والشمس والحجارة، فاستفهمهم عما يعبدون من هذه، و﴿من بعدي﴾ أي من بعد موتي. وحكي أن يعقوب حين خيِّر كما يخير الأنبياء اختار الموت وقال: أمهلوني حتى أوصي بني وأهلي، فجمعهم وقال لهم هذا فاهتدوا، و﴿قالوا نعبد إلهك﴾ الآية، فأروه ثبوتهم على الدين ومعرفتهم لله تعالى. ودخل إسماعيل في الآباء لأنه عم(٧)، وقد قال النبي ﷺ في العباس: «ردوا عليَّ أبي، إني

---

(١) استغرب أبو حيان رحمه الله هذا القول، كما استغرب ما حكاه عن الطبري من أنه يستفهم بها في وسط كلام قد تقدم صدره، والحق أن (أم) هنا منقطعة كما سيأتي عن ابن عطية نفسه في قوله: والأظهر أنها التي بمعنى (بل) وألف الاستفهام معاً. والمنقطعة لا تجيء إلا وقد تقدمها كلام كأنه قيل: بل أكنتم شهداء؟ والهمزة للإنكار، أي ما كنتم شهداء، وإنما كان اللفظ على الاستفهام والمعنى على خلافه لأن ذلك أبلغ، إذ يخرج الكلام مخرج التقدير بالحق فتلزم الحجة، أو الإنكار، فتظهر الفضيحة.

(٢) من الآية (٣٥) من سورة هود.

(٣) يشير إلى أنها للإضراب فقط بمعنى (بل).

(٤) ﴿أم كنتم شهداء﴾ أم منقطعة، والمنقطعة تقدر ببل وهمزة الاستفهام، وبعضهم يقدرها ببل وحدها، والإضراب انتقالي لا إبطالي، ومعنى الاستفهام الإنكار والتوبيخ فيئول معناه إلى النفي، أي لم تكونوا شهداء وحاضرين إذ حضر يعقوب الموت وقال لبنيه ما قال فلم تدعون اليهودية عليه؟ و(إذ)، الثانية بدل من الأولى أو ظرف لحضر، وقيل: متصلة بمحذوف تقديره: أكنتم غائبين أم كنتم شهداء؟

(٥) كما جرت العادة.

(٦) يعني أنه أراد بذلك أن يختبرهم، ولذا عبَّر بـ(ما) أيْ أيَّ شيء تعبدونه بعد موتي؟ ولو قيل (من) لكان المقصود أن يطرق لهم الاهتداء، والغاية من سؤاله تقريرهم على التوحيد والإسلام وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما.

(٧) والعرب تسمِّي العم أباً كما تسمي الجد أباً.

أخاف أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود»[(١)]، وقال عنه في موطن آخر: «هذا بقية آبائي»[(٢)] ومنه قوله عليه السلام: «أنا ابن الذبيحين»[(٣)]، على القول الشهير في أن إسحق هو الذبيح[(٤)]. وقرأ الحسن، وابن يعمر، والجحدري، وأبو رجاءٍ: [وإله أبيك]. واختلف بعد ـ فقيل: هو اسم مفرد أرادوا به إبراهيم وحده، وقال بعضهم: هو جمع سلامة، وحكى سيبويه: أب وأبون وأبين، قال الشاعر[(٥)]:

فلمَّـــا تبيَّـــنَّ أصـــواتنـــا بكيـــن وفـــدَّيننـــا بـــالأبينـــا

وقال ابن زيد: يقال: قدم إسماعيل لأنه أسن من إسحق، ﴿وإله﴾ بدل من ﴿إلهك﴾[(٦)]، وكرره لفائدة الصفة بالوحداينة[(٧)].

وقيل: ﴿إلهاً﴾ حال، وهذا قول حسن؛ لأن الغرض إثبات حال الوحدانية، ﴿ونحن له مسلمون﴾ ابتداءٌ وخبر، أي كذلك كنَّا نحن ونكون، ويحتمل أن يكون في موضع الحال، والعامل ﴿نعبد﴾، والتأويل الأول أمدح[(٨)].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المغازي، وذلك أن النبي ﷺ لمَّا وادع أهل مكة انطلق العباس إلى قريش ليدعوهم إلى الله فأبطأ عليه، فقال رسول الله ﷺ: «ردوا عليَّ أبي، فإن عم الرجل صنو أبيه، وإني أخاف أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود، دعاهم إلى الله فقتلوه، أما والله لئن ركبوها منه لأضرمنها عليهم ناراً».

(٢) رواه ابن أبي شيبة، والطبراني في الأوسط والكبير بلفظ: «احفظوني في العباس فإنه بقية آبائي».

(٣) هو حديث ضعيف، بل قال العراقي ـ كما في روح المعاني ـ: لم أقف عليه، وإنما سمي بذلك لأن جده عبد المطلب لزمه ذبح ولده عبد الله لنذر نذره ففداه بمائة من الإبل فكان ذلك سنَّة، في الدية، كما كانت قضية إسماعيل سنَّة في التضحية.

(٤) لا يوجد موضع صحيح من السنة يعتمد عليه في هذه القضية، وإنما هي إيحاءات واستنباطات من الكتاب العزيز، ومن ثم رجح جماعة من الصحابة والتابعين أنه إسماعيل، ورجح آخرون أنه إسحق، ومن أجل تعارض الأدلة توقف الجلال في الجزم بواحد منهما. وقد قال المسعودي في تاريخه الكبير: إن كان الذبيح بمنى فهو إسماعيل، لأن إسحق لم يدخل الحجاز، وإن كان بالشام فهو إسحق لأن إسماعيل لم يدخل الشام بعد حمله إلى مكة، وصوبه ابن الجوزي.

(٥) هو زياد بن واصل السلمي، قال هذا في جملة أبيات يفتخر فيها بآبائه وقومه وأمهاتهم من بني عامر، والبيت من شواهد كتاب سيبويه، يقول: لما تبين النساء أصواتنا في الحرب بكين شفقة علينا ورحمة لنا وفدَّيننا، أي كل واحدة تقول: فداكم أبي، والأبينا جمع أب، يعرب إعراب جمع التصحيح.

(٦) أي بدل نكرة موصوفة من معرفة كقوله تعالى: ﴿بالناصية، ناصية كاذبة خاطئة﴾.

(٧) وفي بعض النسخ: لإفادة.

(٨) وهو أن تكون الجملة معطوفة على قوله: (نعبد) فيكون الجواب قد أربى على السؤال، أجابوا عن سؤاله=

وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾، في موضع رفع نعت لأمَّةٍ، ومعناه: ماتت وصارت إلى الخلاء من الأرض، ويعنى بالأمة الأنبياء المذكورون، والمخاطب في هذه الآية اليهود والنصارى، أي أنتم أيها الناحلوهم اليهودية والنصرانية، ذلك لا ينفعكم، لأن كل نفس لها ما كسبت من خير وشر، فخيرهم لا ينفعكم إن كسبتم شراً[١]. وفي هذه الآية رد على الجبرية القائلين: لا اكتساب للعبد، ﴿ولا تسألون عمَّا كانوا يعملون﴾ فتنحلوهم ديناً.

وقولهم: ﴿كونوا هوداً أَوْ نصارى تَهْتدوا﴾، نظير قولهم: ﴿لن يدخل الجنَّة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾.

ونصب ﴿مِلَّةَ﴾ بإضمار فعل، أي: بل نتبع ملَّة[٢]، وقيل: نُصبت على الإغراء، وقرأ الأعرج، وابن أبي عبلة: [بل ملَّةُ] بالرفع، والتقدير: بل الهدى ملَّة، و[حنيفاً] حال[٣]، وقيل: نصب بإضمار فعل[٤] لأن الحال تقل من المضاف إليه. والحنف: الميل، ومنه الأحنف لما مالت إحدى قدميه إلى الأخرى. والحنيف في الدين: الذي مال عن الأديان المكروهة إلى الحق، وقال قوم: الحنف: الاستقامة، وسمِّي المعوج القدمين أحنف تفاؤلاً كما قيل: سليم ومفازة[٥]. ويجيءُ الحنيف في الدين المستقيم على جميع طاعات الله عز وجل، وقد خصص بعض المفسرين ـ فقال قوم: الحنيف الحاج، وقال آخرون: المختتن، وهذه أجزاء الحنف[٦]. ونفى عنه الإشراك فانتفت

= وأكدوا الجواب بقولهم: (ونحن له مسلمون).

(١) في هذا مايرد على من يتَّكل على عمل أسلافه، ويروح على نفسه بالأماني الباطلة، الكاذبة، فإنَّ من أبطأ به عمله لا يسرع به نسبه.

(٢) ويجوز أن نقدر ذلك بقولنا: بل اتبعوا ملة إبراهيم، وذلك أن قولهم: ﴿كونوا هوداً أو نصارى﴾ يتضمن معنى: اتبعوا اليهودية أوالنصرانية ـ قل: بل اتبعوا ملة إبراهيم، فيكون عطفاً على المعنى، فهذا عطف، وما ذكره ابن عطية رحمه الله حذف.

(٣) أي لازمة، لأن دين إبراهيم عليه السلام لم ينفك عن الحنيفية.

(٤) تقديره: (نتبع حنيفاً)، أي مستقيماً مائلاً إلى دين الإسلام.

(٥) أي كما يقال في اللديغ: سليم، وفي المهلكة: مفازة، للتفاؤل.

(٦) يعني أنه يوجد في الحنيفية أقوال: وكلها ترجع إلى ما سبق من معنى الاستقامة والميل إلى ملة إبراهيم عليه السلام، وقد كانوا في الجاهلية يسمون من حج واختتن حنيفاً، وذلك أنه لما تناسخت السنون وبقي من يعبد الأوثان من العرب قالوا: نحن حنفاء على دين إبراهيم، ولم يتمسكوا منه إلا بحج البيت=

عبادة الأوثان واليهودية لقولهم: عزير ابن الله، والنصرانية لقولهم: المسيح ابن الله.

قوله عز وجل:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾.

هذا الخطاب لأمة محمد ﷺ ـ علمهم الله الإيمان[1].

﴿ومَا أُنزل إلَيْنا﴾ يعني به القرآن، وصحة إضافة الإنزال إليهم من حيث هم المأمورون والمنهيون فيه.

و﴿إبراهيم وإسماعيل﴾ يجمعان بَراهيم وسَمَاعيل، هذا هو اختيار سيبويه، والخليل. وقال قوم: براهم وسماعِل، وقال الكوفيون: براهمة وسماعلة، وقال المبرد: أباره وأسامع، وأجاز ثعلب براه، كما يقال في التصغير بريْه. و﴿الأسباط﴾ هم ولد يعقوب، وهم: روبيل، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وربالون، ويشحر، ودنية بنته، وأُمُّهم ليا، ثم خلف على أختها راحيل فولدت له يوسف، وبنيامين، وولد له من سريَّتين، ذان، وتفتالى، وجاد، وأشرو. والسبط في إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد اسماعيل، فسموا الأسباط لأنه كان على كل واحد منهم سبط[2].

= والختان ـ والحنيف اليوم: المسلم.

(١) في حديث أبي هريرة عند البخاري أن النبي ﷺ قال: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، قولوا آمنا بالله» الآية.

(٢) تنبيه: وقع للإمام الكشَّاف هنا أنه فسر الأسباط بحفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثنى عشر ـ وهذا تفسير عام يشمل الأمم الإسرائيلية التي هي بمنزلة القبائل في العرب، والحق أن الأسباط هنا حفدة إسحق أولاد يعقوب، وأما المعنى الذي ذكره فمحله قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً﴾، فالأسباط هنا أبناء يعقوب، وفيما يأتي أبناء أبناء يعقوب ـ ومعلوم أن الأسباط الثاني في سورة البقرة هو الأسباط الأول المذكور فيها، وقد فسرهم صاحب (روح البيان) بما فسر به صاحب (الكشَّاف) وإن كان قد مشى في الأسباط الأول على الصواب، وكيف يكون ذلك والأسباط الثاني ذكروا في معرض التوبيخ لمن نسب لهم التهود والتنصر؟ فلو كان المراد بهم ما ذكره لكانت نسبة التهود والتنصر إليهم صحيحة، فإن التهود والتنصر في أولاد أولاد يعقوب موجودان، بل جل الأسباط بهذا=

﴿وما أُوتي موسى﴾ هو التوراة وآياته، وما أوتي عيسى هو الإنجيل وآياته، فالمعنى: إنا نؤمن بجميع الأنبياء لأن جميعهم جاء بالإيمان بالله، فدين الله واحد، وإن اختلفت أحكام الشرائع[١]، و﴿لانفرِّقُ بَيْنَ أحدٍ منهم﴾ أي: لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما تفعلون، وفي الكلام حذف تقديره: بين أحد منهم وبين نظيره[٢]، فاختصر لفهم السامع، والضمير في ﴿له﴾ عائد على اسم الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿فإن آمنوا بمثْل ما آمنتم به﴾ الآية. خطاب لمحمد ﷺ وأمته، والمعنى: إن صدقوا تصديقاً مثل تصديقكم، فالمماثلة وقعت بين الإيمانين[٣]، هذا قول بعض المتأولين.

وقيل: الباء زائدة مؤكدة، والتقدير آمنوا مثل، والضمير في ﴿به﴾ عائد كالضمير في ﴿له﴾، فكأن الكلام: فإن آمنوا بالله مثل ما آمنتم به. ويظهر عود الضمير على ﴿ما﴾. وقيل: مثل زائدة كما هي في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[٤]، وقالت فرقة: هذا من مجاز الكلام، تقول: هذا أمر لا يفعله مثلك، أي لا تفعله أنت، فالمعنى: فإن آمنوا بالذي آمنتم به، هذا قول ابن عباس، وقد حكاه عنه الطبري قراءة، ثم أسند إليه أنه قال: «لا تقولوا: فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به، فإنه لا مثل لله تعالى، ولكن قولوا: فإن آمنوا بالذي آمنتم أو بما آمنتم به».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على جهة التفسير[٥]، أي هكذا فليتأول،

= المعنى على التهود والتنصر، فكيف مع هذا يستقيم التوبيخ والتقبيح؟ نبه على ذلك بعض شيوخنا رحمهم الله تعالى.

(١) يعني أن دين الأنبياء واحد وهو الاسلام وإن اختلفت الشرائع وتنوعت المناهج، كما قال تعالى: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنْهاجا﴾ وكما قال ﷺ: «نحن معشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحدٌ».

(٢) لأن (بين) لا يتبين معناه إلا بإضافته إلى اثنين فصاعداً أو ما يقوم مقام ذلك، كقوله تعالى: ﴿عوانٌ بين ذلك﴾ ولك أن تقول: إن (أحداً) في معنى الجمع، كما تقول: المال بين القوم.

(٣) يعني أنه لامثل لله تعالى، وإنما المماثلة بين الإيمانين، وهذه التأويلات دعا إليها البعد من شبهة المشابهة والمماثلة لله تعالى، حتى قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تقولوا: [فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به]، فإنه لا مثل لله».

(٤) من الآية (١١) من سورة الشورى.

(٥) يعني أنه محمول على أنه فسر الكلام، لا أنه أنكر القراءة الظاهرة مع صحة المعنى ـ والنهي عن ذلك مبالغة في نفي التشبيه عن الله تعالى.

وحكاهما أبو عمرو الداني قراءتين عن ابن عباس[(١)] فالله أعلم.

وقوله: ﴿وإن تولَّوا﴾ أي أعرضوا، يعني به اليهود والنصارى، والشقاق: المشاقة والمحادة والمخالفة، أي في شقاق لك هم في شق وأنت في شق، وقيل: الشقاق معناه شق كل واحد وصل مابينه وبين صاحبه، ثم وعده تعالى أنه سيكفيه إياهم[(٢)]، ويغلبه عليهم، فكان ذلك في قتل بني قينقاع وبني قريظة وإجلاء النضير، وهذا الوعد وانتجازه من إعلام نبوة محمد ﷺ. و﴿السَّميع﴾ لكل قائل، ﴿العليم﴾ بما يجب أن ينفذ في عباده. و﴿صِبْغة الله﴾ شريعته وسننه وفطرته، وذلك أن النصارى لهم ماءٌ يصبغون فيه أولادهم، فهذا ينظر إلى ذلك[(٣)]، وقيل: سمي الدين صبغة استعارة من حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين كما يظهر الصبغ في الثوب وغيره[(٤)].

ونصب الصبغة على الإغراء، وقيل: بدل من ﴿ملَّة﴾، وقيل: نصب على المصدر الموكد لأن ما قبله من قوله: ﴿فقد اهتدوا﴾ هو في معنى يلبسون أو يتجللون صبغة الله، وقيل: التقدير ونحن له: مسلمون صبغة الله، فهي متصلة بالآية المتقدمة، وقال الطبري: «من قرأ برفع [ملَّةُ] قرأ برفع [صبْغَةُ]».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد ذكرتها[(٥)] عن الأعرج، وابن أبي عبلة: ﴿ونحن له عابدون﴾ إبتداء وخبر.

قوله عز وجل:

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾.

معنى الآية: قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى الذين زعموا أنهم أبناء الله

---

(١) أي: ﴿بالذي آمنتم به﴾، أو: [بما آمنتم به].

(٢) إنما كان ذلك لأن شقاقهم كان في مخالفة الحق، وهي مخالفة عظيمة توجب عداوة.

(٣) ومن هنا كان يجب على من أسلم أن يغتسل كما ثبت في السنة الصحيحة.

(٤) ومعنى هذا أنها صبغة القلب لا صبغة الظاهر، وهي صبغة الإيمان التي يظهر أثرها على المؤمن المسلم، وصبغة الله أحسن الصبغ والله يقول: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾.

(٥) أي قراءة رفع (ملَّة).

وأحباؤه وادَّعوا أنهم أولى بالله منكم لقدم أديانهم وكتبهم: ﴿أتحاجوننا في الله﴾؟ أي: أتجاذبوننا[1] الحجة على دعواكم؟ والرب تعالى واحد. وكلٌّ مجازى بعمله فأي تأثير لقدم الدين[2]، ثم وبخوا بقوله: ﴿ونحن له مخلصون﴾، أي: ولم تخلصوا أنتم فكيف تدعون ما نحن أولى به منكم؟ وقرأ ابن محيصن: [أتحاجُونَّا] بإدغام النون في النون، وخف الجمع بين ساكنين لأن الأول حرف مدٍّ ولين، فالمدُّ كالحركة، ومن هذا الباب: دابّة وشابّة، و﴿في الله﴾ معناه: في دينه والقرب منه والحظوة لديه.

وقوله تعالى: ﴿أم تقولون﴾ عطف على ألف الاستفهام المتقدمة[3]، وهذه القراءة بالتاء من فوق قرأها ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو بكر، عن عاصم: [أم يقولون] بالياء من أسفل، و[أم] على هذه القراءة مقطوعة، ذكره الطبري، وحكي عن بعض النحاة أنها ليست بالمقطوعة لأنك إذا قلت: أتقوم أم يقوم عمرو؟ فالمعنىٰ: أيكون هذا أم هذا؟.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا المثال غير جيد، لأن القائل فيه واحد والمخاطب واحد، والقول في الآية من اثنين والمخاطب اثنان غيران، وإنما تتجه معادلة ﴿أم﴾ للألف على الحكم المعنوي، كأن معنى ﴿قل أتحاجوننا﴾: أي أتحاجون محمداً أم تقولون؟

وقيل: إن ﴿أَمْ﴾ في هذا الموضع غير معادلة على القراءتين، وحجة ذلك اختلاف معنى الآيتين وأنهما ليسا قسمين، بل المحاجة موجودة في دعواهم الأنبياء عليهم السلام.

---

(١) وفي بعض النسخ: أي أتجادلوننا.

(٢) أي: كيف تدعون أنكم أولى به منا وهو رب الجميع يجازي كلا بعمله ـ ونحن أولى به منكم لإخلاصنا، والمخلص غير المشرك، فقد ادعيتم ما نحن أولى به منكم وعكستم القضية. والله أعلم.

(٣) يعني أنها معادلة للهمزة، أي متصلة. وحاصل الأقوال هنا ثلاثة: متصلة على القراءتين، ومنقطعة على القراءتين، ومتصلة على قراءة التاء دون قراءة الياء فإنها منقطعة، والذي رجحه ابن عطية فيما يبدو هو القول الثالث حيث قال: وإنما تتجه معادلة (أم) للألف على الحكم المعنوي إلى آخره. ثم إنه قرر القول الثاني تقريراً ينشرح له الصدر فقال: وحجة ذلك اختلاف معنى الآيتين وأنهما ليسا قسمين: إلى آخر ما ذكره، وكأنه رجحه ورضيه وهو الظاهر، فإن الله سبحانه قد أقامهم على موضع الانقطاع في الحجة بقوله: ﴿أم تقولون إنَّ إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى﴾، أي بل تقولون إلخ، فإن قالوا: كانوا على دين اليهودية والنصرانية كذبوا، وإن قالوا: لم يكونوا على ذلك فقد أقروا بالحق، وما بعد الحق إلا الضلال.

ووقفهم[(١)] تعالى على موضع الانقطاع في الحجة، لأنهم إن قالوا: إنَّ الأنبياء المذكورين على اليهودية والنصرانية كذبوا، لأنه قد علم أن هذين الدينين حدثا بعدهم، وإن قالوا: لم يكونوا على اليهودية والنصرانية قيل لهم: فهلموا إلى دينهم إذ تقرُّون بالحق.

وقوله تعالى: ﴿قلْ أأنتم أعْلمُ أم الله﴾؟ تقرير على فساد دعواهم، إذ لاجواب لمفطور إلا أن الله تعالى أعلم. ﴿ومن أظْلَمُ﴾ لفظه الاستفهام، والمعنى: لا أحد أظلم منهم، وإياهم أراد تعالى بكتمان الشهادة.

واختلف في الشهادة هنا، ما هي؟ فقال مجاهد، والحسن، والربيع: هي ما في كتبهم من أن الأنبياء على الحنيفية لا على ما ادعوا هم، وقال قتادة، وابن زيد: هي ما عندهم من الأمر بتصديق محمد ﷺ واتباعه، والأول أشبه بسياق معنى الآية، واستودعهم الله تعالى هذه الشهادة ولذلك قال: ﴿منَ الله﴾، فمن على هذا متعلقة، بـ﴿عِنْدَهُ﴾[(٢)]، كأن المعنى شهادة تحصلت له من الله، ويحتمل أن تتعلق ﴿من﴾ بـ[كتم]، أي كتمها من الله.

وقوله تعالى: ﴿وما الله بغافل عمَّا تعملون﴾، وعيد وإعلام أنه لا يترك أمرهم سدى، وأن أعمالهم تحصى[(٣)] ويجازون عليها، والغافل الذي لا يفطن للأمور إهمالاً منه، مأخوذٌ من الأرض الغفل، وهي التي لا علم بها[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿تلكَ أمَّةٌ﴾ الآية، كررها عن قرب لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف، أي إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازون بكسبهم فأنتم

---

(١) هذه هي اللغة الفصحى. وأوقف لغة تميم، وأنكرها الأصمعي إلا في نحو: ما أوقفك ها هنا؟ وأنت تريد: أي شأن حملك على الوقوف؟

(٢) نسبة التعلق إلى الظرف نسبة مجازية فإن العامل في الظرف هو الذي يتعلق به الجار والمجرور، ويظهر من كلام الزمخشري نسبة مجازية فإن العامل في الظرف هو الذي يتعلق به الجار والمجرور، ويظهر من كلام الزمخشري قول آخر وهو أن (من الله) في موضع الصفة لشهادة، أي شهادة كائنة من الله، كقوله تعالى: ﴿براءة من الله ورسوله﴾ والتعلق بكتم يستدعي حذفاً، والتقدير: كتم من عباد الله شهادة عنده، والله أعلم.

(٣) وفي بعض النسخ تحصل.

(٤) وفي بعض النسخ لا معلم بها.

أحرى، فوجب التأكيد، فلذلك كررها، ولترداد ذكرهم أيضاً في معنى غير الأول(١).

قوله عز وجل:

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

أَعْلَمَ الله تعالى في هذه الآية أَنهم سيقولون في شأْن تحوُّل المؤْمنين من الشام إلى الكعبة: (مَاوَلَّٰهُمْ)، والسفهاءُ هم الخفاف الأَحلام والعقول، والسَّفه: الخفة والهلهلة، ثوبٌ سفيه أَي غير متقن النَّسج، ومنه قول ذي الرُّمة:

مَشَيْنَ كَمَا اهْتَزَتْ رِمَاحٌ تَسَفَّهَتْ ... أَعَالِيَهَا مَرُّ الرِّيَاحِ النَّواسِمِ

أَي استَخَفَّهَا(٢)، وخص بقوله: (منَ النَّاس) لأَن السَّفَهَ يكون في جمادات وحيوانات، والمراد بالسفهاءِ هنا جميعُ مَنْ قال: (ماوَلَّـٰهُم)، وقالها فِرَق، واختُلف في تعيينهم ـ فقال ابن عباس: قالها الأحبار منهم، وذلك أَنهم جاؤُوا إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد: ما ولاك عن قبلتنا؟ ارجع إلينا ونؤمن بك، يريدون فتنته، وقال السدي: قالها بعض اليهود والمنافقون استهزاءً، وذلك أَنهم قالوا: اشتاق الرجل إلى وطنه.

وقالت طائفة: قالها كفار قريش، لأَنهم قالوا: ما ولاه عن قبلته؟ ما رجع إلينا إلا لعلمه أَنا على الحق، وسيرجع إلى ديننا كله، وَ(وَلاَّهُمْ) معناه صرفهم، والقبلة: فِعْلَة هيئة المقابل للشيءِ، فهي كالقِعدة والإِزْرَة(٣).

---

(١) عطف على قوله: لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف، فهي علة بعد علة، والمعنى أن تكرار هذه الآية له سببان ـ الأول ما تضمنه من التهديد والتخويف وذلك يقتضيه المقام ـ والثاني اختلاف الأقوال والسياق، فهي أولا: جاءت إثر ما حكي من وصية إبراهيم بنيه، يعني فليس لكم ثواب فعل تلك ولا عليكم عقابه ـ وثانياً: لمَّا ذكر ادعاءهم اليهودية والنصرانية لآبائهم أعاد ذلك أيضاً بقصد التأكيد والتنبيه، وهذا كله على رجوع الإشارة إلى إبراهيم ومن معه، والله أعلم فقول. ابن عطية: «ولترداد ذكراهم». أي الأنبياء.

(٢) ضد استثقلها، يقال: تسفَّهَتِ الريحُ الغصونَ، أمالتها وحركتها، فأعالي الرماح استخفتها الرياحُ. وسيأتي مزيد من شرح البيت في هذا الجزء.

(٣) الإِزْرَة هيئة الاتتزار، ومنه قولهم: لكل قوم إزرة يأتزرونها.

وجعل المستقبل موضع الماضي في قوله: ﴿سَيَقُولُ﴾ دلالة على استدامة ذلك، وأَنهم يستمرون على ذلك القول[١]، ونص ابن عباس وغيره أَن الآية نزلت بعد قولهم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ إقامة حُجَّة، أَي: له ملك المشارق والمغارب وما بينهما، و﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ إشارةٌ إلى هداية الله تعالى هذه الأُمة إلى قبلة إبراهيم. والصراط: الطريق. واختلف العلماءُ، هل كانت صلاة رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس بأَمرٍ من الله تعالى في القرآن، أَو بوحي غير مَتْلُوٍّ؟[٢]، فذكر ابن فُورك عن ابن عباس قال: أَول ما نُسخ من القرآن القبلة، وقال الجمهور: بل كان أَمر قبلة بيت المقدس بوحي غير مَتْلُوٍّ، وقال الربيع: خُيِّر رسول الله ﷺ في النواحي فاختار بيت المقدس ليستأْلف بها أَهل الكتاب، ومن قال بوحي غير مَتْلُو قال: كان ذلك ليختبر الله تعالى من آمَنَ من العرب لأَنهم كانوا يألفون الكعبة وينافرون بيت المقدس وغيره، واختلف ـ كمْ صُلِّي إلى بيت المقدس؟ ففي البخاري ستة عشر شهراً، أَو سبعة عشر شهراً[٣]، ورُوي عن أَنس بن مالك تسعة أَو عشرة أَشهر، ورُوي عن غيره ثلاثة عشر شهراً.

وحكى مكي عن إبراهيم بن إسحق أَنه قال: أَول أَمر الصلاة أَنها فرضت بمكة ركعتين في أَول النهار، وركعتين في آخره، ثم كان الإسراءُ ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة ففرضت الخمس وأَمَّ فيها جبريل عليه السلام، وكانت أَول صلاة الظهر، وَتَوَجَّه بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس، ثم هاجر النبيُّ ﷺ إلى المدينة في ربيع الأَول وتمادى إلى بيت المقدس إلى رجب من سنة اثنتين، وقيل: إلى جُمادى، وقيل: إلى نصف شعبان.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾، الكاف متعلقة بالمعنى الذي في قوله: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[٤]، أَي كما هديناكم إلى قبلة إبراهيم وشريعته كذلك جعلناكم أُمَّةً،

---

(١) الظاهر أنه ليس من وضع المستقبل موضع الماضي لبعد المجاز مع وجود السين، وإنما المراد ـ والله أعلم ـ أنهم وإن كانوا قالوا ذلك من قبل فإنهم سيستمرون في القول من بعد للخوض والإرجاف.

(٢) محصل هذا أربعة أقوال ـ قيل: إن استقبال بيت المقدس كان بوحي متلوٍّ، وقيل: بوحي غير مَتْلُوٍّ، وقيل: كان بالتخيير، فاختار ﷺ بيت المقدس، وقيل: كان باجتهاده ﷺ كما ذكره الإمام (ق) رحمه الله.

(٣) هذا هو الصحيح الثابت، وما بعده شاذ.

(٤) أي: مرتبطة بذلك ارتباطاً معنوياً.

و(أُمَّةً): مفعول ثان، ووسَطاً: نعتٌ. والأمَّةُ: القرن من الناس[١]، و(وَسَطا): معناه عذلا، رُويَ ذلك عن رسول الله ﷺ[٢]، وتظاهرت به عبارة المفسرين[٣].

والوسَط: الخيار والأعلى من الشيءِ، كما تقول: فلان وسط القوم، وواسطة القلادة أنفس حجر فيها، والأمير وسط الجيش، وكقوله تعالى: (قَالَ أَوْسَطُهُمْ)[٤]، والوَسْط بإسكان السين ظرف مبنيٌّ على الفتح[٥]، وقد جاءَ مُتَمَكناً[٦] في بعض الروايات في بيت الفرزدق:

فَجَـاءَتْ بِمَجْلُـوم كَـأَنَّ جَبِينَـهُ صَـلاءَةُ وَرْسٍ وَسْطُهَـا قَـدْ تَفَلَّقَـا[٧]

برفع الطاءِ، والضمير عائد على الصلاءَة، ورُوي بفتح الطاءِ، والضمير عائد على الجائيةِ، فإذا قلت: حفرت وسَط الدَّار أَو وَسْط الدار فالمعنى مختلف[٨].

(١) القرن: عبارةٌ عن مدة معينة في اعتبار المؤرخين والاجتماعيين، والمراد أن كل قرن من قرون هذه الأمة المحمدية محكوم له في الجملة بالعدالة والاستقامة، وأول مَنْ يدخل في ذلك قرن الصحابة رضوان الله عليهم، ومِنْ ثَمَّ خص الله هذه الأمة بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب.

(٢) رواه الإمام أحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي. وفي الآية إثبات العدالة لهذه الأمة من دون استثناءٍ، وذلك يقضي باستقامتها وجَرَيان أحوالها على الموافقة دون المخالفة، ونحو الآية قوله تعالى: (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدون بِالْحَقِّ وبِهِ يَعْدِلُونَ)، وقوله تعالى: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ) الآية، هذا ـ والله أعلم ـ من حيث المجموع لا مِنْ حيث الجميع كما يشهد لذلك حديث البخاري: (لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي ظاهرينَ على الْحَق) إلخ. وهذه الطائفة هي الأمة الوسط، كما قال الإمام البخاري في خلق أفعال العباد.

(٣) أي: أظهرته عباراتهم واتفقت عليه.

(٤) من الآية (٢٨) من سورة (القلم).

(٥) الوسْط بالتسكين هو بمعنى (بَيْنَ) يقال: جلستُ وسْطَ القوم: أَي بينهم، والوسَط بالتحريك اسم لما بين طرفي الشيءِ وهو منه، كقولك: جلستُ وسَط الدَّار، ويُنْصَبُ على الظرف اتساعاً، وليس نَصْبُه على الظرف على معنى بيْنَ، تقول: وسَط رأسه صلب لأن وسَط الرأس بعضُها، وتقول: وسَط رأسه دهن، فتنصب وسط على الظرف وليس هو بعض الرأس، ولذا قيل: كلُّ موضع صلح فيه بَيْنَ فهو بالتسكين، وإلا فبالتحريك..

(٦) أي: مُعْرَباً.

(٧) المَجْلُوم: المَحْلُوق. أراد به هَنَ المرأة، والصلاءة: مدق الطيب، والوَرْسُ: نَبْتٌ أصفر. والمؤلف يريد أن (وَسْط) ساكن السين يكون ظرفاً وغير ظرف كما رُوي ذلك في بيت الفرزدق. وفي رواية: «أتته بمجلوم كأن جبينه» إلخ. وفي رواية: رَمَتْهُ بمجْمُوشٍ. والمجموش: المحلوق بالنورة، ووسطها: نصْفُهَا، وكما أن (وَسْط) تخرج عن الظرفية كذلك (بيْن) نحو قوله تعالى: [لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنُكُم] على قراءة الرفع.

(٨) معناه على الفتح: جعلت الوسَط كلَّه حفيراً، وذلك خلاف معنى السكون.

قال بعض العلماءِ: أُمة محمد ﷺ لم تَغْلُ في الدين كما فعلت اليهود، ولا فَتَرَت كالنصارى، فهي متوسطة، فهي أَعلاها وخيرها من هذه الجهة[١].

وقول النبي ﷺ: (خير الأُمور أَوساطها[٢])أَي: خيارها.

وقد يكون العلو والخير في الشيءِ إِمَّا بأَنه أَنفَسُ جنسِه، وإِمَّا أَن يكون بين الإِفراط والتقصير، فهو خيار من هذه الجهة، و(شُهَدَاءَ): جمع شاهد.

واختلف المفسرون في المراد بالناس في هذا الموضع ـ فقالت فرقة: هم جميع الجنس. وأُمة محمد ﷺ تشهد يوم القيامة للأَنبياءِ على أُممهم بالتبليغ، وذلك أَن نوحاً تُناكره أُمته في التبليغ، فتقول له أُمة محمد: نحن نشهد لك، فيشهدون، فيقول الله لهم: كيف شهدتم على مالم تحضروا؟ فيقولون: أَيْ ربنا، جاءَنا رسولُك، ونزَل إِلينا كتابك، فنحن نشهد بما عهدت إِلينا وأَعلمتنا به، فيقول الله تعالى: صدقتم.

ورُوي في هذا المعنى حديثٌ صحيح عن النبي ﷺ[٣]، ورُوي عنه (أَن أُمته تشهد لكل نبي ناكره قومه)[٤]. وقال مجاهد: معنى الآية: تشهدون لمحمد أَنه قد بلغ الناس في مدته من اليهود والنصارى والمجوس[٥]. وقالت طائفة: معنى الآية: يشهد بعضُكم على بعض بعد الموت، كما (قال رسول الله ﷺ حين مرت به جنازة فأُثني عليها بالخير فقال: وجبت، ثم بأُخرى فأُثني عليها شراً فقال: وجبت، يعني الجنة والنار، فسُئل عن

---

(١) عبارة القرطبي في هذا الموضع: أي هذه الأمة لم تَغل غُلُو النصارى في أنبيائهم، ولا قَصَّروا تقصير اليهود في أنبيائهم ـ وعبارة أبي حيان في تفسير الوسط، «وقيل: متوسطين في الدِّين بين المُفْرط والمقصِّر، لم يتخذوا واحداً من الأنبياءِ إلهاً كما فعلت النصارى، ولا قتلوه كما فعلت اليهود»، ففيهما نِسْبَةُ الغُلُوِّ إلى النصارى، ونِسْبَةُ التقصير إلى اليهود، على عكس ما في ابن عطية تأمل.

(٢) رواه ابن السمعاني في «ذيل تاريخ بغداد» بسند مجهول، عن علي رضي الله عنه مرفوعاً، وهو عند ابن جرير في التفسير من قول مطرف بن عبد الله ويزيد بن مرة الجعفي، ورواه الديلمي بلا سند عن ابن عباس بلفظ: (خيرُ الأعمال أَوسطها)، هذا ما يتصل بلفظه كما قاله الإمام السخاوي، وأما معناه فهو صحيح وثابت في الكتاب والسنة.

(٣) رواه البخاري، والإمام أحمد، والترمذي، والنسائي.

(٤) مِمَّن رواه الإمام أحمد، عن أبي سعيد الخدري، وأبو بكر بن مردويه، عن جابر بن عبد الله.

(٥) كل ما يروى مرفوعاً أو غير مرفوع في تأويل الآية فإنه يقبل، لأن للآية عموماً تشمل به ما ذكر، وهو ما قرره المحققون في التفسير.

ذلك فقال: (أَنتم شهداءُ الله في الأَرض)[١]، وروي في بعض الطرق أنه قرأ: (لِيَكُونُوا شُهَدَاءَ علَى النَّاسِ).

وكونُ الرسول عليكم شهيداً قيل: معناه: بأَعمالكم يوم القيامة، وقيل: أَن يشهد عليكم بالتبليغ إِليكم[٢]، وقيل: عليكم بمعنى: لكُم، أَي يشهد لَكُم بالإِيمان.

وقوله تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا) الآية، قال قتادة، والسدي، وعطاءٌ، وغيرهم: القبلة هنا بيت المقدس، والمعنى: لم نجعلها حين أَمرناك بها أَولا إِلا فتنة، لنعلم من يتبعك من العرب الذين إِنما يأْلفون مسجد مكة، أَو من اليهود على ما قال الضحاك من أَن الأَحبار قالوا للنبي ﷺ: إِن بيت المقدس هو قبلة الأَنبياءِ، فإِن صليت إِليه اتبعناك، فأَمره الله بالصلاة إِليه امتحاناً لهم فلم يُؤمنوا.

وقال بعضُ من ذكر[٣] القبلة بيت المقدس: والمعنى: وما جعلنا صرف القبلة التي كنت عليها وتحويلها، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إِليه مقامه. وقال ابن عباس: القبلة في الآية الكعبة، و(كنت) بمعنى (أَنت)[٤] كقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٥]، بمعنى أَنتم، أَي: وما جعلناها وصرفناك إِليها إِلا فتنة.

وروي في ذلك أَن رسول الله ﷺ لما حول[٦] إِلى الكعبة أَكثر في ذلك اليهود

---

(١) روى ذلك البخاري، ومسلم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
تنبيه: مما يدل على أفضلية هذه الأمة ما ثبت من احتلالها لنصف الجنة ـ ففي صحيح الإمام مسلم، عن عبد الله رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال في جماعة: أَتَرْضَوْنَ أَن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قال: قلنا: نعم. قال: أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ فقلنا: نعم، فقال: والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداءِ في جلد الثور الأبيض ا.هـ. يعني والنصف الآخر من المؤمنين الآخرين.

(٢) أي من دون حاجة إلى من يشهد له بالتبليغ، فهو المدعي وهو الشهيد، بمعنى أنه ﷺ يشهد على الناس ولا يشهد عليه أحد.

(٣) أيْ: جعل القبلة هي بيت المقدس، وهم قتادة، والسدي، وعطاء، وغيرهم.

(٤) قال (ح): هذا من ابن عباس (إن صح) تفسيرُ معنى لا تفسير إعراب، لأنه يؤول إلى زيادة (كان) الرافعة للاسم، والناصبة للخبر، وهذا لم يذهب إليه أحد.

(٥) من الآية (١١٠) من سورة آل عمران.

(٦) أيْ أُمر بتحويل القبلة إلى الكعبة.

والمنافقون، وارتاب بعض المؤمنين حتى نزلت الآية، وقال ابن جريج: بلغني أن ناساً ممن كان أسلم رجعوا عن الإسلام.

ومعنى قوله تعالى (لِنَعْلَمَ) أي: ليعلم رسولي والمؤمنون به[١]، وجاءَ الإسناد بنون العظمة إذْ هُمْ حزبه وخاصته، وهذا شائع في كلام العرب، كما تقول: فَتَحَ عمر العراق وجَبَى خَراجها، وإنما فعل ذلك جنده وأتباعه، فهذا وجه التجوز إذا ورد علم الله تعالى بلفظ استقبال لأنه قديم لم يزل.

ووجه آخر وهو أن الله قد علم في الأزل من يتبع الرسول، واستمر العلم حتى وقع حدوثهم، واستمر في حين الاتِّباع والانقلاب، ويستمر بعد ذلك، والله تعالى متصف في كل ذلك بأنه يعلم[٢].

فأراد بقوله: (لِنَعْلَمَ) ذكْرَ علمه وقت مواقعتهم الطاعة أو المعصية، إذ بذلك الوقت يتعلق الثواب والعقاب، فليس معنى (لنعلم) لنبتدىءَ العلم، وإنما المعنى لنعلم ذلك موجوداً.

وحكى ابن فُورك أن معنى (لنعلم): لنثيب[٣]، فالمعنى: لنعلم في حال استحقوا فيها الثواب، وعلق العلم بأفعالهم لتقوى[٤] الحجة ويقع التثبت فيما علمه، لا مدافعة لهم فيه.

وحكى ابن فُورك[٥] أيضاً: أن معنى (لنعلم): لنميز[٦]، وذكره الطبري عن ابن عباس.

---

(١) هذا التأويل على حذف مضاف ـ أي: ليعلم رسولُنا والمؤمنون. وجاءَ مسنداً إلى الله تعالى لأنهم حزبه وخواصه، ومثل هذا الاستعمال شائع في كلام العرب، وعليه فالكلام من مجاز الحذف.

والقرينة استحالة حدوث علم الله تعالى، والقاعدة في هذا نفي استقبال العلم بعد أن لم يكن عن الله تعالى أي إحالته.

(٢) معنى هذا الوجه أنه أُريد العلم بعد وجود الاتباع والانقلاب، لأنه كما يعلمُ الله الشيءَ قبل وجوده يعلمُه بعد وجوده، ويكون العلم على هذا كناية عن التعلق، أي يتعلق علمنا بذلك وقت وجوده، أي وقت مواقعتهم الطاعة أو المعصية، ومواقعة الأمور مُدَاناتها، والعلمُ في كل ذلك مستمر لا يتغير وإن تغيرت أحوال الشيءِ المعلوم.

(٣) لأن الثواب مبني على عمل الإنسان، وعلى ما يعلمه الله منه، وقد قال تعالى: [وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ الله].

(٤) وفي بعض النسخ: (لتقوم الحجة).

(٥) بضم الفاء أبو بكر، إمام جليل فقهاً وأُصولاً وكلاماً من أصبهان. مات مسموماً سنة ٤٠٠ هـ.

(٦) من باب إطلاق السبب وإرادة المسبب، أي لنميز أهل اليقين من أهل الشك.

وحكى الطبري أيضاً أن معنى ﴿لنعلم﴾: لنرى[١]، وهذا كله متقارب، والقاعدة نفي استقبال العلم بعد أن لم يكن.

وقرأ الزهري: [لِيُعْلَم] على ما لَمْ يُسَمَّ فاعله.

و﴿يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ عبارة عن المرتد الراجع عمَّا كان فيه مِنْ إيمان أو شغل أو غير ذلك. والرجوع على العقب أَسْوَأُ حالات الراجع في مشيه عن وجهته، فلذلك شبه المرتد في الدين به[٢]، وظاهر التشبيه أنه بالمتقهقر، وهي مشية الحيران الفازع من شيءٍ قد قرب منه. ويحتمل أن يكون هذا التشبيه بالذي رد ظهره ومشى أدراجه[٣]، فإنه عند انقلابه إنما ينقلب على عقبيه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ الآية، والضمير في ﴿كَانَتْ﴾ راجع إلى القبلة إلى بيت المقدس، أو إلى التحويلة إلى الكعبة حسب ما ذكرناه من الاختلاف في القبلة، وقال ابن زيد: هو راجع إلى الصلاة التي صُلِّيت إلى بيت المقدس. وشهد الله تعالى في هذه الآية للمتبعين بالهداية، و﴿كبيرة﴾ هنا معناه: شاقة صعبة تكْبُر في الصدور، و(إنْ) هي المخففة من الثقيلة، ولذلك لزمتها اللام لتزيل اللبس الذي بينها وبين النافية[٤]، وإذا ظهر التثقيل في (إنَّ) فربما لزمت اللام وربما لم تلزم. وقال الفراءُ: (إن) بمعنى (ما) واللام بمنزلة إلا.

---

(١) العرب تضع العلم مكان الرؤية كما هنا، والرؤية مكان العلم كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾، أي: ألم تعلم. والمؤلف ـ رحمه الله ـ ذكر ستة وجوه لتأويل الآية فِراراً من حدوث العلم وتجدده إذ ذلك مستحيل على الله تعالى ـ الأول: أن المقصود بالإسناد الخواص والقرينة ظاهرة. الثاني: أن المراد تعلق العلم بالموجود. الثالث: المراد بالعلم الجزاءُ. الرابع: المراد به التمييز والفصل بين المتبع والمنقلب. الخامس: المراد بالعلم الرؤية والمعاينة. السادس: أن الفعل مبني للمفعول وهي قراءَة الزهري، أي [إلا لِيُعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرسول ومن ينقلب على عقبيه]، وهذا لا يحتاج إلى تأويل، إذ الفاعل قد يكون غير الله، وعلم الغَير حادث.

(٢) الانقلاب على العقب حقيقته الرجوع إلى خلف متقهقراً، وليس المراد هذا، وإنما المراد الرجوع من الإيمان إلى الكفر، فهو استعارة تمثيلية، بجامع قطع العمل وسواءِ الاتجاه، ووقع تمثيل هذا الرجوع بالنكوص على العَقِبَيْنِ؛ لأنه من أسوأ ما يكون في حالة المشي.

(٣) أي رجع في الطريق الذي جاءَ منه.

(٤) هذا أقوى من قول الفراء ـ الذي سيذكره بعد ذلك ـ باعتبار المعنى والإعراب، ولا يعدو أن يكون مقام هذه الآية كمقام قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرةٌ إلا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ الآية.

ولما حُوِّلَت القبلة كان من قول اليهود: يا محمد ـ إن كانت الأُولى حقاً فأَنت الآن على باطل، وإن كانت هذه حقاً فكنت في الأُولى على ضلال[1]، فوجست[2] نفوس بعض المؤمنين، وأَشفقوا على من مات قبل التحويل من صلاتهم السالفة فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾.

وخاطب الحاضرين، والمراد مَنْ حضر ومَنْ مات، لأَن الحاضر يغلب، كما تقول العرب: أَلم نقتلكم في موطن كذا؟ ومن خوطب لم يقتل ولكنه غلب لحضوره، وقرأَ الضحاك [لِيُضَيِّعَ] بفتح الضاد وشد الياءِ.

وقال ابن عباس، والبراءُ بن عازب، وقتادة، والسدي، والربيع، وغيرهم: الإِيمان هنا: الصلاة، وسمي الصلاة إِيماناً لما كانت صادرة عن الإِيمان والتصديق في وقت بيت المقدس وفي وقت التحويل[3].

ولما كان الإِيمان قطباً؛ عليه تدور الأَعمال، وكان ثابتاً في حال التوجه هنا وهنا؛ ذَكَرَهُ إِذ هو الأَصل الذي به يرجع في الصلاة وغيرها إِلى الأَمر والنهي.

ولئلا تندرج في اسم الصلاة صلاةُ المنافقين إِلى بيت المقدس، فذكر المعنى الذي هو ملاك الأَمر.

وأَيضاً فسميت إِيماناً إِذ هي من شعب الإِيمان.

---

(١) أَشار بهذا إلى سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾، وفي الصحيح عن البراء بن عازب، والترمذي، عن ابن عباس أن سبب نزول الآية سُؤَال الناس عن الذين كانوا يُصَلون إلى بيت المقدس وماتوا.

(٢) أَي: هَجَسَتْ والهواجس والهاجس ما يقع في النفس وما يخطر بالبال.

(٣) عبر بالإيمان عن الصلاة لأنه الأصل ـ ولأنه لا يمكن أن تكون صلاة بدون إيمان ـ ولأن الصلاة إيمان عملي كمافي الحديث: الإيمان بضع وسبعون شعبة ـ ولئلا يدخل في الصلاة صلاة المنافقين إلى بيت المقدس، وهذا ما أَلَم به ابن عطية رحمه الله في وجه تسمية الصلاة إيماناً، وكما سميت الصلاة إيماناً في الآية الكريمة سميت إسلاماً في حديث سعد بن أبي وقاص حيث قال: ثم أصبحت بنو أسد تعزرني على الإسلام، لقد خبْتُ إذاً وضَلَّ عملي، وكانوا وشوا به إلى عمر، قالوا: لا يحسن الصلاة، فسماها إسلاماً لأنها رأسُهُ وعماده، ثم إن قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ الآية هي أول القصة فهي متأخرة في التلاوة ومتقدمة في المعنى.

والرأفة أَعلى منازل الرحمة، وقرأ قوم: [لَرَؤُفٌ] على وزن فَعُلٌ، ومنه قول الوليد بن عقبة(١):

وَشَـرُّ الطَّـالِبِيـنَ ـ وَلا تَكُنْـهُ ـ بِقَـاتِـلِ عَمِّـهِ الـرَّؤُفُ الـرَّحِيـم

تقول العرب: رَؤُفٌ ـ ورؤُوفٌ ـ ورئِفٌ ـ كحذِر ـ وَرَأْفٌ. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: [لَرَوُفٌ] بغير همز، وكذلك سهَّل كل همزة في كتاب الله تعالى؛ ساكنةً كانت أَو متحركة.

قوله عز وجل:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

المقصد تقلب البصر، وذُكر الوجه لأَنه أَعلم وأَشرف، وهو المستعمل في طلب الرغائب، تقول: بذلت وجهي في كذا، وفعلت لوجه فلان، ومنه قول الشاعر:

رَجَعْـتُ بِمَـا أَبْتَغِـي وَوَجْهِـي بِمَـائِـهِ . . . .

وأَيضاً فالوجه يتقلب بتقلب البصر(٢)، وقال قتادة والسدي وغيرهما: كان رسول الله ﷺ يقلب وجهه في الدعاءِ إِلى الله تعالى، أَي يحوله إِلى قبلة مكة، وقيل(٣): كان يقلب ليؤذن له في الدعاءِ.

ومعنى التقلب نحو السماءِ أَن السماءَ جهة قد تعوَّدَ العالم منها الرحمة كالمطر

---

(١) وهو ابن أبي معيط، أسلم يوم الفتح هو وأخوه خالد بن عقبة، وهو من رجال قريش وشعرائها، وقد قال ذلك لمعاوية رضي الله عنه يحرضه على الأخذ بثأر عثمان، ويقول: إن شر الطالبين بثاره أن يرأف ويرحم بقتلة عثمان، والرؤف الرحيم خبر عن قوله: شر الطالبين.

(٢) ذكر أبو (ح) هذا الرأي، ثم قال: «فهو من الكناية بالكل عن الجزء، والغرض إيضاح المعاني التي ذكرها ابن عطية في نفوس السامعين» البحر المحيط ١ـ٤٢٨.

(٣) هذا أسمى وألطف مما قبله، لأنه يدل على سموه ﷺ حيث انتظر ولم يسأل حتى يُؤذن له، والمعنى: إنك تُردد وجهك وتصرف نظرك في السماء تشوقاً لنزول الوحي بالتحويل.

والأنوار والوحي، فهم يجعلون رغبتهم حيث توالت النعم. و(تَرْضَاها) معناه: تُحبها وَتَقَرُّ بها عينك.

وكان رسول الله ﷺ يحب الكعبة والتحول عن بيت المقدس لوجوه ثلاثة رُويت، فقال مجاهد: لقول اليهود: ما علم محمد دينه حتى اتَّبعنا، وقال ابن عباس: وليصيب قبلة إبراهيم عليه السلام، وقال الربيع، والسدي: وليستألف العرب بمحبتها في الكعبة، وقال عبد الله بن عمر: إنما وُجِّه رسولُ الله ﷺ وأُمته حيال ميزاب الكعبة، وقال ابن عباس، وغيره: بل وُجِّه إلى البيت كله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والميزاب: هو قبلة المدينة والشام، وهنالك قبلة أَهل الأَندلس بتقريب، ولا خلاف أَن الكعبة قبلة من كل أُفق[١].

وقوله تعالى: (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) الآية، أَمْرٌ بالتحول ونسخ لقبلة الشام.

وقيل: نزل ذلك على النبي ﷺ وهو في صلاة الظهر بعد ركعتين منها فتحول في الصلاة. وذكر أَبو الفرج[٢] أَن عباد بن نهيك كان مع رسول الله ﷺ في هذه الصلاة[٣]. وقيل: إنما نزلت الآية في غير صلاة وكانت أَول صلاة إلى الكعبة العصر، و(شَطْرَ) نصب على الظرف، ويشبه المفعول به لوقوع الفعل عليه[٤]، ومعناه: نحو وتلقاءَ[٥].

(١) وهي المراد بالمسجد الحرام، وإنما ذكر المسجد الحرام دون الكعبة إشارة إلى أنَّ الواجب استقبال جهتها لا عينها، وهذا في أهل الآفاق، وأما الحاضر فلا بد من استقبال عينها.

(٢) هو الأصفهاني صاحب الأغاني.

(٣) عباد بن نهيك الخطمي الأنصاري هو الذي أخبر بني حارثة حين وجدهم يصلون إلى بيت المقدس، أن القبلة قد حولت فأتموا الركعتين الباقيتين نحو المسجد الحرام، رجح الحافظان ابن حجر وابن عبد البر أن الذي حمل الخبر هو عباد بن بشر.

(٤) للشطر معنيان في كلام العرب ـ أولهما: النصف. ومن ذلك قولهم: شاطرتك مالي. وفي الحديث: (الطهور شطر الإيمان)، وثانيهما: القصد والجهة، كما قال الله عز وجل: (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)، وأكثر المفسرين على أن المراد بالشطر تلقاؤه وجانبه، وهو اختيار الشافعي، وقال الجبائي: وهو اختيار القاضي ـ المراد منه وسط المسجد ومنتصفه لأن الشطر هو النصف، والكعبة بقعة في وسط المسجد. وبهذه الآية استدل المالكية على أن المصلي ينظر أمامه ولا ينظر إلى موضع سجوده. وقالوا: لَوْ نظر إلى موضع سجوده، لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناءِ وهو ينافي كمال القيام المفروض. ويرى الثوري والشافعي والحسن بن حيٍّ أنه يستحب أن ينظر المصلي إلى موضع سجوده.

(٥) اسم من اللقاء، ويستعمل ظرفاً لمكان اللقاءِ، وسيأتي أن ابن مسعود رضي الله عنه قرأ: (فَوَلِّ وَجْهَكَ=

قال ابن أَحمر:

تَغْدُو بِنَا شَطْرَ جَمْعٍ وَهْيَ عَاقِدَةٌ قَدْ كارَبَ العَقْدُ مِنْ إِيفَادِهَا الحَقَبَا[١]

وقال غيره:

أَقُولُ لأُمِّ زِنْبَاعٍ أَقِيمِي صُدُورَ الْعِيسِ شَطْرَ بَنِي تَمِيمِ[٢]

وقال لقيط:

وَقَدْ أَظَلَّكُمُ مِنْ شَطْرِ ثَغْرِكُمُ هَوْلٌ لَهُ ظُلَمٌ تَغْشَاكُمُ قِطَعَا[٣]

وقال غيره[٤]:

أَلا مَنْ مُبْلِغٌ عَمْراً رسُولا وَمَا تُغْني الرسالةُ شَطْرَ عَمْرِو

(وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا) أَمر للأُمة ناسخ. وقال داوود بن أَبي هند: إِن في حرف ابن مسعود [فَوَلِّ وَجْهَكَ تِلْقَاءَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ]، وقال محمد بن طلحة: إِنَّ فيه: (فولُّوا وجوهَكُمْ قِبَلَه)، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [فَوَلُّوا وجُوهَكُمْ تلقَاءَه]. والذين أُوتوا الكتاب: اليهود والنصارى، وقال السدي: المراد اليهود، والأَول أَظهر، والمعنى: إِن اليهود والنصارى يعلمون أَن الكعبة هي قبلة إِبراهيم إِمام الأُمم، وأَن استقبالها هو الحق الواجب على الجميع اتباعاً لمحمد ﷺ الذي يجدونه في كتبهم، وقرأَ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: [عَمَّا تَعْمَلُونَ] بتاءٍ على المخاطبة، فإِما على إِرادة أَهل الكتاب أَو أُمة محمد ﷺ، وعلى الوجهين[٥] فهو إِعلام بأَن الله تعالى لا يهمل أَعمال العباد، ولا

= تِلْقَاءَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ).

(١) الشاعر هو عمرو بنَ أَحمر بن عامر الباهلي، شاعر إِسلامي يكنى أَبا الخطاب كان في عهد الدولة الأَموية، والبيت من قصيدة يهجو بها يزيد بن معاوية، فأَراد يزيد أَن يأْخذه ففر منه هارباً ولم يقدر عليه، والضمير في (تَغْدُو) للناقة، والجمع المزدلفة، ويوم جَمْع: يوم عرفة، وأَيام جمع: أَيام منى، وهي عاقدة أَي: بذنبها، للدلالة على حملها، وَكارَبَ معناه: قارب، والإِيفاد بالفاء من أَوفد إِذا أَسرع، والحَقَبُ بفتحتين حبلٌ يشد به رحل البعير إِلى بطنه أَو الحزام الذي يلي حقو البعير.

(٢) الشاعر هو أَبو زِنْبَاع الجُذامي، ونسبه في الأَغاني إِلى أَبي جندب أَخ أَبي خُراش الهذلي، ونسبه الفخر الرازي إِلى ساعدة بن جُؤْية.

(٣) لقيط: هو ابن يَعْمُر الإِيادي، شاعرٌ جاهليٌ قديم مقل. والثغر: الموضع يخاف هجوم العدو منه. ومنه سُميت المدينة على شاطىء البحر: ثغراً. وجمعه: ثغور.

(٤) هو خفاف بن ندبة.

(٥) يعني إِرادة أَهل الكتاب، أَو أُمة محمد ﷺ فهو إِعلام لهم بأَن الله غير غافل عن الأَعمال ولا مهمل لها، =

يغفل عنها، وضمَّنه الوعيد، وقرأ الباقون بالياءِ من تحت.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ﴾ الآية، أعلم الله تعالى نبيه حين قالت له اليهود: راجع بيت المقدس ونؤمن بك، مخادعة منهم، أنهم لا يتبعون له قبلة، يعني جملتهم؛ لأن البعض قد اتَّبع كعبد الله بن سلام وغيره، وأنهم لا يدينون بدينه، أي فلا تصغ إليهم. والآية هنا: العلامة[١]. وجاءَ جواب (لَئن) كجواب (لو) وهي ضدها في أن (لو) تطلب المضي والوقوع و(إن)تطلب الاستقبال لأنهما جميعاً يترتب قبلهما معنى القسم، فالجواب إنما هو للقسم لا أن أحد الحرفين يقع موقع الآخر. هذا قول سيبويه[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾، لفظ خبر يتضمن الأمر، أي: فلا تركن إلى شيءٍ من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ﴾ الآية، قال السدي وابن زيد: المعنىٰ: ليست اليهود متَّبِعَةً قِبلة النصارى، ولا النصارى متبعة قِبلة اليهود، فهذا إعلام باختلافهم وتدابرهم وضلالهم، وقال غيرهما: معنى الآية: وما مَنْ أسلم معك منهم بمتبع قبلة مَن لم يُسْلم، ولا مَنْ لم يُسلم بمتبع قبلة من أسلم، والأول أظهر في الأبعاض[٣].

= وفي ضمن هذا الإعلام الوعيد.

(١) يعني العلامة والحجة الدالة على أن التوجه إلى الكعبة هو الحق.

(٢) في قوله تعالى: ﴿مَا تَبِعُوا قبلتك﴾ رأيان:

الأول: أنها جواب قسم محذوف وهو قول سيبويه.

الثاني: أنها جواب (إن) لوقوعها موقع (لو)، وهو قول الفراء والأخفش.

وابن عطية ذهب إلى قول سيبويه، وقد ناقشه أبو (ح) في البحر بالمحيط ١/ ٤٣١ فقال بعد أن أورد نص عبارته هنا: «وهذا الكلام فيه تثبيج وعدم نص على المراد لأن أوله يقتضي أن الجواب لـ (إن)، وقوله بعد: فالجواب إنما هو للقسم يدل على أن الجواب ليس لـ (إن) ـ والتعليل بعد بقوله: لأن أحد الحرفين يقع موقع الآخر لا يصلح أن يُعلل به قوله: «فالجواب إنما هو للقسم». بل يصح أن يكون تعليلا لأن الجواب لـ(إن)، وأجريت في ذلك مجرى (لو)، وأما قوله: هذا قول سيبويه فليس في كتاب سيبويه إلا أن (ما تبعوا) جواب القسم، ووضع فيه الماضي موضع المستقبل.

وهذه المناقشة من أبي (ح) إنما ترتبت على قول ابن عطية في إحدى النسخ: «لأن أحد الحرفين يقع موقع الآخر» ـ والصواب هو ما جاء في بعض النسخ واعتمدناه هنا أن عبارة ابن عطية: «لا أن أحد الحرفين يقع موقع الآخر» ـ وبهذا ينتفي جانب من جوانب هذه المناقشة اللغوية.

(٣) يعني أن ما قاله السدي، وابن زيد مِن أن المراد بالأبعاض اليهود والنصارى لا مَن أسلم منهم ومن لم يسلم هو الأظهر والأليق بالسياق، وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ معجزة ظاهرة، فإننا نرى كثيراً منهم=

وقبلة النصارى مشرق الشمس، وقبلة اليهود بيت المقدس.

وقوله تعالى: (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ) الآية، خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، وما ورد من هذا النوع الذي يوهم من النبي ﷺ ظلماً متوقعاً فهو محمول على إرادة أمته، لعصمة النبي ﷺ(١)، وقطعنا أن ذلك لا يكون منه فإنما المراد من يمكن أن يقع ذلك منه، وخوطب النبي ﷺ تعظيماً للأمر.

والأَهواءُ جمع هوى، ولا يجمع على أَهوية، على أَنهم قد قالوا: ندًى وأَندية(٢) قال الشاعر:

فـي لَيْلَـةٍ مِـنْ جُمَـادى ذات أَنْـديَـةٍ ... لا يُبْصِرُ الكَلْبُ منْ ظَلْمَائها الطُّنُبَا(٣)

وهوى النفس إنما يستعمل في الأكثر فيما لا خير فيه، وقد يستعمل في الخير مُقَيَّداً به كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أَسرى بدر: «فهوي رسول الله ﷺ ما قال أَبو بكر» و(إِذاً) حرف معناه: إن تقرر ما ذُكر.

قوله عز وجل:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٩﴾.

= يتبعون دين الإسلام ولا نرى يهودياً تنصر. ولا نصرانياً تهود، وذلك حكم الله والله يحكم ما يريد.

(١) هذه الصفة هي التي توجب صرف كل آية تُوهم ما لا يجوز على النبي ﷺ، وإنما خرجت هذا المخرج للتغليط والتفظيع.

(٢) الندى ما يسقط آخر الليل من البلل وجمعه أنداء، ويجوز أندية كما في قول الشاعر:

(فـي ليلـة مـن جُمـادى ذات أنـديـة . . . .)

قال ابن الأنباري: الاختيار أن تجمع الرحى على أرحاءٍ، والقفا على أقفاءٍ، والندى على أنداءٍ لأن جمع فَعَل على أَفْعِلَة شاذ ـ وقال الزجاج أيضاً: الرحى تجمع على أرحاءٍ ولا يجوز أرحية لأن أفعلة جمع الممدود لا المقصور، وليس في المقصور شيءٌ يجمع على أَفْعِلة، ومن ثَمَّ جُمع هواءٌ بالمد على أهوية.

(٣) الشاعر هو مرة بن محكان، والبيت من قصيدة في الحماسة، وجمادى عند العرب الشتاءُ كله، سواء أكان فيها أو في غيرها من الشهور. والطُّنُب بضم النون وسكونها: حبْلٌ يشد به الخباء والسرادق ونحوهما، وجمعه أطنَابٌ.

(الَّذِينَ) في موضع رفع بالابتداءِ، والخبر (يَعْرِفُونَهُ)[١]، ويصح أَن يكون في موضع خفض نعتاً للظالمين، و(يَعْرِفُونَه) في موضع الحال.

وخص الأَبناءَ دون الأَنفس وهي أَلصق لأَن الإِنسان يمر عليه من زمنه برهة[٢] لا يعرف فيها نفسه، ولا يمر عليه وقت لا يعرف فيه ابنه. والمراد هنا معرفة الوجه ومَيْزُه لا معرفة حقيقة النسب[٣]، ولعبد الله بن سلام رضي الله عنه في هذا الموضع كلام معترض[٤] يأتي موضعه إِن شاءَ الله[٥].

والضمير في (يَعْرِفُونَه) عائد على الحق في القبلة والتحول بأمر الله إلى الكعبة. قاله ابن عباس، وقتادة، وابن جريج، والربيع.

وقال قتادة أَيضاً، ومجاهد، وغيرهما: هو عائد على محمد ﷺ[٦]، أَي يعرفون صدقه ونبُوَّته[٧].

---

(١) أورد أبو (ح) في البحر المحيط أوجهاً كثيرة في إعراب (الذين) والظاهر انعقاد الكلام من مبتدأ وخبر، واستقلاله عما قبله بحيث لا يكون من التوابع، وذلك مما يدل على اهتمام السياق بالمقام، والله أعلم.

(٢) البرهة المدة الطويلة من الزمان. وهي بضم الباء وبفتحها.

(٣) أي وجه الأبناءِ، وتمييز صورتهم لإثبات نسبهم وتحقيق بنوتهم، ويدخل في الأبناء الإناث كما تدخل في الأولاد، ولذلك كان الحبس على الأبناءِ أو الأولاد يدخل فيه البنات على مذهب مالك رحمه الله، ومنهم من يفرق بين الذكور والإناث، ولكل وجهة هو مُوَلِّيها.

(٤) رُوي كما في (ق) أن عمر رضي الله عنه قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً ﷺ كما تعرف ابنك؟ فقال: نعم وأكثر، بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنَعْته فعرفته، وابني لا أدري ما كان من أُمه، والمراد أن معرفتي به ﷺ قطعية لأنها عن الله، ومعرفتي بابني ظنية لأني لا أدري ما كان من أُمه. ونص اعتراض المؤلف في سورة الأنعام: قال القاضي أبو محمد: وتأول ابن سلام رضي الله عنه المعرفة بالابن تحقق صحة نسبه ـ وغرض الآية إنما هو الوقوف على صورته فلا يخطىءُ الأب فيها. انتهى.

(٥) سيأتي في سورة الأنعام عند قوله تعالى: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ).

(٦) يؤيد ذلك ما ذكروه من قصة عمر مع عبد الله بن سلام رضي الله عنهما. وفي هذه الآية ما يشهد للفرق بين العلم والتصديق، فهاهم أولاء يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم ولكنهم لم يصدقوه، ومثل هذه الآية قوله تعالى في قوم فرعون: (وَجَحَدُوابِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ) وقول موسى لفرعون: (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إلا رَبُّ السَّمواتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً) ومثل هذا قصة أبي طالب، فإنه كان يعلم أن النبي ﷺ صادقٌ وبارٌ وَرَاشِدٌ لكنه لم يؤمن ولم يصدق لحكمة يعلمها الله وحده، ويجب علينا نحن الإيمان بها.

(٧) وأوصافه.

والفريق: الجماعة، وخُص لأَن منهم من أَسلم ولم يكتم، والإِشارة بالحق إِلى ما تقدم من الخلاف في ضمير (يعرفونه)، فعم الحقَّ مبالغةً في ذمهم. (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) ظاهر في صحة الكفر عناداً.

وقوله تعالى: (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)، الحقُّ رفع على إِضمار الابتداءِ، والتقدير هو الحق، ويصح أَن يكون ابتداءً والخبر مقدر بعده(1).

وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: [الحقَّ] بالنصب على أَن يعمل فيه (يَعْلَمُونَ)، ويصح نصبه على تقدير: الزم الحقَّ.

(فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)، الخطاب للنبي ﷺ، والمراد أُمته. وامترى في الشيءِ إذا شك فيه، ومنه المِراءُ لأَن هذا يشك في قول هذا، وأَنشد الطبري شاهداً على أَن الممترين شاكون: قول الأعشى:

تَـدُرُّ عَلَـى أَسْـؤُقِ الْمُمْتَـرِيـن ... رَكْضـاً إذا مـا السَّـرابُ ارْجَحَـنْ(2)

ووهم في ذلك لأَن أَبا عبيدة وغيره قالوا: الممترون في البيت هم الذين يمْرُون الخيل بأَرجلهم همزاً لتجري، كأَنهم يحتلبون الجري منها(3)، فليس في البيت معنى من الشك كما قال الطبري(4).

وقوله تعالى: (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ)، الوجهة: فعلة من المواجهة، كالقبلة، وقوله: (هُوَ)

---

(1) هذا بعيدٌ والأولى أن يكون الخبر (مِنْ رَبِّكَ).

(2) قبله:

تبـاري الـزجَـاج مغَـاويـرُهـا ... شَمـاطِيـط فـي وَهَـج كـالـدَّخَـنْ

يغمز الفرسان الأفراس بأرجلهم في شدة القيظ فتدر على أسؤقهم ركضاً إذا ارْجَحَنَّ السراب أي ارتفع وعلا. والزُّجَاجُ: جمع (زُجٌّ) وهو الحديدة التي في أسفل الرمح. والمغوار من الرجال: المقاتل الكثير الغارات على أعدائه. والشماطيط: الفرق يقال: تفرق القوم شماطيط: أي فِرَقاً، ويقال: جاءت الخيل شماطيط: أي متفرقة أرسالا. والدَّخَن: الدخان. ويقال لساق الراكب دِرَّةٌ: أي استدرار لجري الدابة. والأسْؤُق: جمع ساق. ويجمع ساق أيضاً على سوق وسيقان.

(3) أي يستخرجون ما فيها من قوة الجري.

(4) قال (ق) رحمه الله: بل معنى الشك فيه موجود لأنه يحتمل أن يختبر الفرس صاحبُه، أهو على ما عهد منه من الجري أم لا؟، لئلا يكون أصابه شيءٌ، أو يكون هذا أول شرائه فيجربه ليعلم مقدار جريه فهو في شك من أمر الفرس، ولذلك كان الاحتجاج به صحيحاً.

عائد على اللفظ المفرد في (كُلٍّ)، والمراد به الجماعات، والمعنى: لكل صاحب ملة وجهة هو موليها نفسه. قاله الربيع، وعطاءٌ، وابن عباس. وقرأ ابن عباس، وابن عامر وحده من السبعة: [هو مُوَلاها][١]. وقالت طائفة: الضمير في (هُوَ) عائد على الله تعالى، والمعنى: الله موليها إياهم، وقالت فرقة: المعنى في الآية أَن للكل ديناً وشرعاً وهو دين الله وملة محمد، وهو موليها إياهم، اتَّبعها من اتبعها، وتركها من تركها. وقال قتادة: المراد بالآية أَن الصلاة إلى الشام ثم الصلاة إلى الكعبة، لكل واحدة منهما وجهة، الله موليها إياهم.

وحكى الطبري أَن قوماً قرؤوا: [ولكلِّ وجهة] بإضافة (كلٍّ) إلى (وجهة) وخطَّأَها الطبري، وهي متجهة. أَي: فاستبقوا الخيرات كُلَّ وِجْهَةٍ ولأَكُمُوها، ولا تعترضوا فيما أَمركم بين هذه وهذه، أَي إنما عليكم الطاعة في الجميع[٢]، وقدم قوله: كُلَّ وِجْهَةٍ على الأَمر في قوله: (فَاسْتَبِقُوا) للاهتمام بالوجهة كما يُقدم المفعول، وذكر أَبو عمرو الداني هذه القراءَة عن ابن عباس رضي الله عنه.

وَسَلِمَت الواو في (وجْهَةٍ) ولم تُجَر كعِدَةٍ وزنَةٍ، لأَن وِجْهَة ظرف، وتلك مصادر فسلمت للفرق، وأَيضاً فليكْمُلَ بناءُ الهيئة كالجلسة[٣]، وقال أَبو علي: ذهب قوم إِلى أَنه مصدر شذ عن القياس فسلم، وقوم إِلى أَنه اسم ليس بمصدر، قال غير أَبي علي: وإذا أَردت المصدر قلت: جهة وقد تقال الجهة في الظرف.

وحكى الطبريُّ عن منصور[٤]أَنه قال: نحن نقرؤُها: [ولكل جعلنا قبلة يرضونها]، ثم أَمر تعالى عباده باستباق الخيرات[٥] والبدار إِلى سبيل النجاة، ثم وعظهم بذكر الحشر موعظة تتضمن وعيداً وتحذيراً.

---

(١) فتكون اسم مفعول على هذه القراءة.

(٢) توجيهه لقراءة الإضافة التي خطأها الطبري رحمه الله ـ بأنها مرتبطة بما بعدها توجيه مقبول وصحيح، وقد بيَّن ذلك في سبكه لها، كما بيَّن أنها قراءَة ابن عباس رضي الله عنه نقلا عن أبي عمرو الداني.

(٣) الوجهة: كل مكان استقبلته، وتحذف الواو فيقال: جهة كعدة وقد قيل: إن وجهة مصدر خرج عن القياس، وقيل: ظرف مكان، والجهة كذلك تكون مصدراً، وقد تكون ظرفاً.

(٤) لعله منصور بن المعتمر السلمي أبو عتاب الكوفي، صام أربعين سنة، وقام ليلها، وتوفي سنة ١٣٢هـ ونرجح ذلك لأن جرير بن عبد الحميد الضبي الكوفي يروي عنه.

(٥) استبَقَ ـ لا تتعدى لأنها بمعنى تسابق، فهي في الآية على تقدير إلى، أو على تضمين معنى الابتدار، والخيرات سائر أنواع الطاعات، ومنها المسارعة إلى الصلاة واستقبال الكعبة.

وقوله: (يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً)، يعني به البعث من القبور. ثم اتصف الله تعالى بالقدرة على كل شيءٍ مقدور عليه لتَنَاسُب الصفة مع ما ذكر من الإتيان بهم.

وقوله تعالى: (وَمِنْ حَيْثُ خرجْتَ) معناه: حيث كنت وأَنَّى توجهت من مشارق الأَرض ومغاربها، ثم تكررت هذه الآية تأكيداً من الله تعالى لأَن موقع التحويل كان صعباً في نفوسهم جداً فأَكد الأَمر ليرى الناس التَّهَمُّم به فيخف عليهم وتسكن نفوسهم إليه[١].

قوله عز وجل:

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾.

قوله تعالى: (فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ)، هو فرض استقبال القبلة على المصلين ـ وفَرْضُ المصلي ما دام يرى الكعبة أَن يصادفها باستقباله، فإِذا غابت عنه ففرضه الاجتهاد في مصادفتها، فإِن اجتهد ثُمَّ كشف الغيب أنه أَخطأَ فلا شيءَ عليه عند كثير من العلماءِ، ورأَى مالك رحمه الله أَن يعيد في الوقت إِحرازاً لفضيلة القبلة[٢].

وقوله تعالى: (لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ) الآية، قرأَ نافع وحده بتسهيل

---

(١) تكررت الآية مع ما قبلها لتقرير نسخ استقبال بيت المقدس وتثبيت هذا الحكم في النفوس، لأن موقع التحويل كان صعباً عليهم إذ كان أول نسخ في الإسلام ـ وقد ذكر القرطبي أن قوله تعالى: (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَام وَحَيْثُمَا كنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) لمن هو مقيم بمكة، وقوله تعالى: (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَام) لمن هو في بقية الأمصار، وقوله تعالى: (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَام وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) لمن خرج في الأسفار، وبهذا تكون كل آية لها محمل خاص، وذلك أحسن من التكرار. وقيل: إن الأولى بيان لرغبته وضراعته ﷺ، والثانية بيان أن الرغبة هي الحق، والثالثة بيان أن ذلك كان لئلا يكون للناس حجة، إلا أنه وراءَ هذا التكرار الذي يوجد معه في كل مرة معنى جديد ما يوحي أنه كانت هناك جملة تستدعي هذا التكرار وهذا البيان إزالة أثرها من النفوس، فهو فلاحٌ وشفاءٌ من كل ضلال وباطل.

(٢) قال شيخ المالكية الشيخ خليل في مختصره: «وإن تبين خطأ بصلاة قَطَعَ ـ غير أعمى ومنحرف يسيراً فيستقبلانها ـ وبعدها أعاد في الوقت المختار».

الهمزة، وقرأ الباقون ﴿لِئَلا﴾ بالهمز. والمعنى: عرَّفتكم وجه الصواب في قبلتكم والحجة في ذلك لئلا[1] وقوله: ﴿لِلنَّاس﴾ عموم في اليهود والعرب وغيرهم، وقيل: المراد بالناس اليهود، ثم استثنى كفار العرب، وقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ يردُّ هذا التأويل.

وقالت فرقة: ﴿إلا الَّذِينَ﴾ استثناءٌ متصل، وهذا مع عموم لفظة الناس[2]، والمعنى أَنه لا حجة[3] لأَحد عليكم إلا الحجة الداحضة للذين ظلموا، يعني اليهود وغيرهم من كل مَنْ تكلَّم في النازلة في قولهم: مَاوَلاهُمْ استهزاءً، وفي قولهم: تحير محمد في دينه، وغير ذلك من الأَقوال التي لم تنبعث إلا من عابد وثن، أَو من يهودي، أَو من منافق. وسماها تعالى حجة وحكم بفسادها حين كانت من ظَلَمَة.

وقالت طائفة: ﴿إلاَّ الَّذين﴾ استثناءٌ منقطع، وهذا مع كون الناس اليهود فقط، فقد ذكرنا ضعف هذا القول، والمعنى: لكن الذين ظلموا[4] يعني كفار قريش في قولهم: رجع محمد إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا كله، ويدخل في ذلك كلُّ من تكلم في النازلة من غير اليهود.

وقرأَ ابن عباس، وزيد بن علي، وابن زيد: [أَلاَ] بفتح الهمزة وتخفيف اللام على معنى استفتاح الكلام، فيكون ﴿الَّذِين﴾ ابتداءً[5]، أَو على معنى الإِغراءِ بهم فيكون (الَّذين) نصباً بفعل مقدر.

---

(١) يشير بذلك إلى أن قوله تعالى: ﴿لِئَلاَّ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه معنى الكلام السابق وقوله: وجه الصواب هو قوله تعالى: (وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)، والحجة في ذلك هي قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾.

(٢) منشأ الخلاف في الاستثناءِ هو الاختلاف في معنى الحجة في الآية. أمعناها الدليل والبرهان الصحيح، أمْ معناها المحاجة والمخاصمة؟ فإن كان الأول فهو منقطع، لأن الظالمين لا حجة لهم، وإن كان الثاني فهو متصل لأن جدالهم وعنادهم لا ينقطع، ثم الاستثناءُ المتصل هو الذي اختاره الطبري رحمه الله، واقتصر عليه الزمخشري، وصدر به ابن عطية، بل ضعّف الانقطاع لبنائه على تخصيص الناس باليهود. وقوله: وقالت فرقة إلخ إيضاح لما قبله.

(٣) قال الزمخشري في الكشاف: إن قلت: أي حجة كانت تكون للمنصفين منهم لو لم يحوَّل حتى احترز من تلك الحجة، ولم يبال بحجة المعاندين؟ ـ قلت: كانوا يقولون ماله لا يُحَوَّل إلى قبلة أبيه إبراهيم كما هو مذكور في نعته في التوراة؟

(٤) أي لكن الذين ظلموا ليست لهم حجة، وإنما لديهم شُبهة.

(٥) والخبر ـ على هذا ـ قوله تعالى: ﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلا تخشَوهُمْ وَاخشَوْنِي﴾ الآية، تحقير لشأنهم، وأمْر باطراح أَمرهم ومراعاة أَمر. ، وقوله: (وَلأُتِمَّ) عطف على قوله: (لئلا)[١]، وقيل: هو مقطوع في موضع رفع بالابتداءِ، والخبر مضمر بعد ذلك، التقدير: لأُتِمَّ نعمتي عليكم عرفتكم قبلتي ونحوه[٢]. (وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) ترج في حق البشر، والكاف في قوله (كَمَا) رد على قوله: (لأُتِمَّ)[٣] أَي إتماماً كما، وهذا أَحسن الأَقوال، أَي لأُتِم عليكم في بيان سنَّة إبراهيم عليه السلام ﴿كمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولا منْكمْ﴾ إجابةً لدعوته في قوله: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾[٤] الآية، وقيل: الكاف من (كما) ردٌّ على (تَهْتَدُونَ) أي اهتداءً كما، وقيل هو في موضع نصب على الحال. وقيل: هو في معنى التأْخير متعلق بقوله: (فَاذْكُرُونِي)[٥].

وهذه الآية خطاب لأُمة محمد ﷺ، وهو المعنى بقوله: ﴿رسُولاً مِنكُمْ﴾، و﴿يَتْلُو﴾ في موضع نصب على الصفة، والآيات: القرآن، و﴿يُزَكِّيكُمْ﴾: يطهركم من الكفر وينميكم بالطاعة، و﴿الكتاب﴾ القرآن، و﴿الحِكْمَة﴾ ما يُتلقى عنه عليه السلام من سنَّة وفقه ودين.

و(مَا لمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) قصصَ مَنْ سَلَف، وقصص ما يأْتي من الغيوب.

قوله عز وجل:

﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

---

(١) هذا هو الظاهر، وما بعده غير واضح.

(٢) عبارة أبي حيان: وقيل: تتعلق اللام بفعل مُؤخر. التقدير: ولأتِمَّ نِعْمَتي عليكم عَرَّفْتكم قِبْلَتي. وهذا نفس ما قاله ابن عطية في إعراب ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ الآية.

(٣) أي راجع إليه ومتعلق به، والتعلق به هو الظاهر.

(٤) من الآية (١٢٩) من سورة البقرة.

(٥) يخدش هذا وجودُ الفاءِ فإن ما بعد الفاءِ لا يعمل فيما قبلها، ولولا ذلك لكان الكلام حسناً.

قال سعيد بن جبير: معنى الآية: اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة، أي اذكروني عند كل أموركم فيحملكم خوفي على الطاعة فأذكركم حينئذ بالثواب.

وقال الربيع، والسدي: المعنى: اذكروني بالدعاءِ والتسبيح ونحوه[١]، وفي الحديث: (إن الله تعالى يقول: ابن آدم: اذكرني في الرخاءِ أذكرك في الشدة)[٢]، وفي حديث آخر: (إن الله تعالى يقول: وإذا ذكرني عبدي في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم)[٣]، وروي: (إن الكافر إذا ذكر الله ذكره الله باللعنة والخلود في النار)، وكذلك العصاة يأخذون بحظ من هذا المعنى[٤]، وروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: (قل للعاصين لا يذكروني).

(وَاشْكُرُوا لِي) واشكروني بمعنى واحد، ولي: أشهر وأفصح مع الشكر[٥]. ومعناه: نعمي وأيادِيَّ، وكذلك إذا قلت: شكرتك فالمعنى: شكرتُ صنيعك وذكرته، فحذف المضاف إذ معنى الشكر ذكر اليد وذكر مسديها معاً، فما حذف من ذلك فهو اختصار لدلالة ما بقي على ما حذف.

و(تَكْفُرُونَ) أي نعمي وأيادي[٦]، وانحذفت نون الجماعة للجزم وهذه نون

---

(١) ليس الذكر وفضله محصوراً في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحو ذلك، بل كل عامل بطاعة الله فهو ذاكره تعالى، كما قاله سعيد بن جبير رضي الله عنه، وكما قال ابن عطية في تفسيره: اذكروني عند كل أموركم.

(٢) نحوه حديث: (تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة) أخرجه الإمام أحمد وغيره.

(٣) رواه البخاري والإمام أحمد.

(٤) روى ابن أبي حاتم بسنده إلى مكحول الأزدي قال: قلت لابن عمر: أرأيت قاتلَ النفس وشاربَ الخمر والزاني يذكر الله وقد قال الله تعالى: (فاذكروني أذكُرْكُمْ) فقال: إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته حتى يسكت.

(٥) أنكر الأصمعي (شكرتُه)، وكل مافي القرآن يوافقه: (أنِ اشْكُرْ لي وَلِوَالِدَيْكَ، إليَّ المَصِيرُ) وذكر أبو (ح) أنه من الأفعال التي ذُكر أنها تتعدى بحرف جرٍّ تارة، وتتعدى بنفسها تارة، كما قال عمرو بن لجاء التميمي:

هُــم جَمَعــوا بُــؤسـي وَنُعْمـي عليكــم ... فهــلاَّ شَكَــرْتَ القَــوْمَ إذْ لَــمْ تُقَــابِــلِ

(٦) يشير إلى أن المراد بالكفر كفر النعمة لا كفر الإيمان (وَمَنْ يَكْفُرْ بالإيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) وقوله: «ولو كان نهياً عن الكفر». أي أن المراد بالكفر كفر النعمة فلذا قيل: (وَلا تَكْفُرُونِ)، ولو كان كفر الإيمان لقيل: ولا تكفروا بي، وقوله: «وهذه نون المتكلم». أي: نون الوقاية التي تصحب ياء المتكلم.

المتكلم، وحذفت الياءُ التي بعدها تخفيفاً لأنها رأس آية، ولو كان نهياً عن الكفر ضِدَّ الإيمان لكان (ولا تكفروا) بغير النون.

و(يَا) حرف نداءٍ، و(أَي) منادى، و(ها) تنبيه، وتجلب (أَي) فيما فيه الألف واللام، لأَن في حرف النداءِ تعريفاً مّا فلو لم تجلب (أي) لاجتمع تعريفان. وقال قوم: الصبر: الصوم، ومنه قيل لرمضان: شهر الصبر. وتقدم معنى الاستعانة بالصبر والصلاة[١]. واختصاره[٢] أنهما رادعان عن المعاصي.

وقوله تعالى: (إِنَّ الله مَعَ الصَّابِرينَ) معناه: بمعونته وإِنجاده، فهو على حذف مضاف[٣]، كما قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: (اهجُهُمْ ورُوح القدس معك). وكما قال: (ارمُوا وأَنا مع بني فلان) الحديث[٤].

وقوله تعالى: (وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ في سَبيلِ الله) الآية. سببها أَن الناس قالوا فيمن قتل ببدر وأُحد: مات فلان، مات فلان. فكره الله أَن تحط منزلة الشهداءِ إِلى منزلة غيرهم فنزلت هذه الآية، وأَيضاً فإِن المؤمنين صعب عليهم فراق إِخوانهم وقراباتهم فنزلت الآية مسلِّية لهم، تعظِّم منزلة الشهداءِ، وتخبر عن حقيقة حالهم، فصاروا مغبوطين لا محزوناً لهم، ويَبينُ ذلك من حديث أُم حارثة في السير[٥].

والفرق بين الشهيد وغيره إِنما هو الرزق[٦]، وذلك أَن الله تعالى فضلهم بدوام

---

(١) عند تفسير قوله تعالى: (واسْتَعِينُوا بِالصبْرِ وَالصَّلاةِ).

(٢) أي اختصار ما تقدم من معنى الاستعانة بالصبر والصلاة.

(٣) والتقدير: إن معونة الله مع الصابرين.

(٤) أخرجه البخاري، ونص الحديث: «عن سلمة بن الأكوع قال: مر النبي ﷺ على نفر من أسلم يتناضلون أي يترامون فقال: ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان، قال: فأمسك أحد الفريقين أيديهم، فقال رسول الله ﷺ: مالكم لا ترمُون؟ قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ قال النبي ﷺ: ارموا فأنا معكم كلكم»ا.هـ.

(٥) رواه البخاري في غزوة بدر عن أنس بن مالك. وأم حارثة هِي الرُّبَيِّع ـ بالتصغير ـ بنت النضير، وحارثة هو ابن سراقة الأنصاري، قتل في بدر. وقوله: في السير ـ أي في المغازي.

(٦) يعني أنهم يرزقون من حين استشهادهم من مطاعم الجنة، على أنه قد ورد العموم في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن الشافعي، عن مالك، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة). فقد عم المؤمنين، وأنهم يرزقون في البرزخ من رزق الجنة، ولكن لا مانع أن يخص الشهداءُ بقدر لا يناله غيرهم، والله أعلم. =

حالهم التي كانت في الدنيا فرزقهم، وروي عن النبي ﷺ في ذلك أن أرواح الشهداءِ في حواصل طير خضر تعلُق من ثمر الجنة[١]، وروي أنهم في قناديل من ذهب، إلى كثير من هذا ولا محالة أنها أحوال لطوائف[٢]، أو للجميع في أوقات متغايرة وجمهور العلماء على أنهم في الجنة، ويؤيده قول النبي ﷺ لأم حارثة: (إنه في الفردوس الأعلى)، وقال مجاهد: هم خارج الجنة، ويَعْلُقون من شجرها.

و(أَمواتٌ) رفع بإضمار الابتداءِ، والتقدير: هم أَمواتٌ، ولا يجوز إِعمال القول فيه، لأنه ليس بينه وبينه تناسب، كما صح قولك: قلت كلاماً وحجة.

وقوله: ﴿ولَكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾، أَي قبل أَن نشعركم[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ الآية. أَمر تعالى بالاستعانة بالصبر والصلاة وأَخبر أنه مع الصابرين[٤]، ثم اقتضت الآية بعدها من فضل الشهداء ما يقوي الصبر عليهم ويخفف المصيبة، ثم جاءَ بعد ذلك من هذه الأُمور التي لا تُتلقى إِلا بالصبر، أَشياءُ تعلم أَن الدنيا دار بلاءٍ ومِحَنٍ، أَي فلا تنكروا فراق الإِخوان والقرابة، ثم وعد الصابرين آخراً.

وقال عطاءٌ، والجمهور، إِن الخطاب في هذه الآية لأُمة محمد ﷺ، وقيل: الخطاب لقريش وحل ذلك بهم، فهي آية للنبي ﷺ[٥].

= حديث: (إنما نسمة المؤمن) خرجه الإمام في الموطأ.

(١) روى ذلك الإمام مسلم وغيره، وقوله تعلق بضم اللام أي تأكل، يقال: علقت البهيمة الشجر علقاً: أكلت من ورقه.

(٢) معناه أن المنعَّمين يكونون على جهات مختلفة بحسب مقاماتهم وتفاوتهم في أعمالهم وبهذا يجمع بين الأحاديث والأخبار في هذا الموضوع.

(٣) وقد أشعرهم الله بحياتهم في سورة البقرة هنا وفي سورة آل عمران، وذلك أن حياتهم أمر لا يدرك إلا بالوحي، ولا يدرك بالعقل، وقد جاءَ الوحي بحياتهم، فحياتهم روحية كما يشير إلى ذلك حديث: (إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر)، ففيه تفسير الحياة بأنها حياة روحية.

(٤) لفظ المعية جاءَ في كتاب الله عاماً كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾ وقوله: (وهو معهم أينما كانوا) وجاء خاصّاً كقوله هنا: ﴿إِنَّ الله مَعَ الصَّابِرينَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنونَ﴾ ولا يمكن أن تحمل عَلَى المخالطة مع الناس فهي ـ في العام ـ تحمل على العلم والقدرة والسلطان ـ وفي الخاصِ على المعونة والنصرة والتأييد.

(٥) يعني أن الله سبحانه قد استجاب دعاءَ نبيه عليه السلام في قريش الذين حل بهم البلاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأَول أظهر.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ﴾ معناه: لنمتحننكم، وحركت الواو لالتقاءِ الساكنين، وقيل: الفعل مبنيٌّ وهو مع النون الثقيلة بمنزلة خمسة عشر.

والخوف: يعني من الأعداءِ في الحروب، والجوع: الجدب والسَّنَة، وأَما الحاجة إلى الأَكل فإنما اسمها الغرث، وقد استعمل فيه المحدثون الجوع اتساعاً[1]، ونقص الأَموال: بالجوائح والمصائب. والأَنفس: بالموت والقتل. والثمرات: بالعاهات ونزع البركة.

فالمراد: بشيءٍ من هذا، وشيءٍ من هذا[2]، فاكتفي بالأَول إيجازاً ولذلك وحَّد. وقرأ الضحاك [بأَشياءَ] على الجمع، والمعنى قريب بعضه من بعض.

وقال بعض العلماءِ: إنما المراد في هذه الآية مُؤَن الجهاد وكلفه، فالخوف من العدو، والجوع به وبالأَسفار إليه، ونقص الأَموال بالنفقات فيه، والأَنفس بالقتل، والثمرات بإِصابة العدو لها، أَو بالغفلة عنها بسبب الجهاد.

ثم وصف تعالى الصابرين الذين بشرهم بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ الآية، وجعل هذه الكلمات ملجأً لذوي المصائب[3]، وَعُصْرَةً[4] للْمُمْتَحَنِينَ، لِمَا جمعت من المعاني المباركة وذلك: توحيد الله، والإِقرار له بالعبودية، والبعث من القبور.

وقال سعيد بن جبير: لم يعط هذه الكلمات نبي قبل نبينا، ولو عرفها يعقوب لما قال: يا أَسفى على يوسف، وروي أَن مصباح رسول الله ﷺ انطفأَ ذات ليلة فقال:

---

(١) الذي في المعاجم أن الجوع: ضد الشبع ـ أو هو خلو البطن من الطعام، وأن المجاعة هي عام الجدب. ومثلها المجْوَعة، وفيها أيضاً أن الغرث هو الجوع، وفي المثل: (غرثان فاربكوا له) أي: اصنعوا له طعاماً. وفي المثل: (تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها).

(٢) أي: بقليل من هذا وقليل من هذا، فالتعبير بشيءٍ يوحي بالقلة، وكل ما آذى المؤمن ـ وإن قل ـ فهو مصيبة وبلاء.

(٣) في الآية الكريمة إشارة إلى أن الدنيا دار محنة وبلاء، وأن علاج ذلك هو الصبر، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، وإذا كان ذلك جبرَ الله مصيبته، وأحسن عاقبته، وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه. وروى الترمذي بسند ضعيف عن ابن مسعود رضي الله عنه: (من عزى مصاباً فله مثل أجره).

(٤) العُصْرة: هي الملجأ. فهو عطف مرادف.

(إِنَّا لله وإِنا إِليه راجعون)، فقيل: أَمصيبة هي يا رسول الله؟ قال: (نعم. كل ما آذى المؤمن فهي مصيبة)[١].

وقوله تعالى: (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ) الآية، نِعَمٌ من الله على الصابرين المسترجعين. وصلوات الله على عبده: عفوهُ ورحمتهُ، وبركتهُ، وتشريفهُ إِياه في الدنيا والآخرة، وكرر الرحمة لمَّا اختلف اللفظ تأكيداً، وهي من أَعظم أَجزاءِ الصلاة منه تعالى.

وشهد لهم بالاهتداءِ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قرأَ هذه الآية: «نعم العِدْلان، ونعم العلاوة[٢]». أَراد بالعِدْلَين الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الاهتداءَ.

قوله عز وجل:

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾.

(الصَّفَا والْمَرْوَة): جُبَيْلان بمكة.

والصفا: جمع صفاة، وقيل هو: اسم مفرد جمعه صفي وأَصفاءُ، وهي الصخرة العظيمة، قال الراجز[٣]:

---

(١) المصيبة ـ إما أن تكون من كسب الإنسان كما قال تعالى: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ). وإما أن تكون لمجرد الابتلاء ورفع الدرجات وذلك في حق الأنبياء والأولياءِ ـ والمصيبة بالعدل، والنعمة بالفضل.

(٢) ذكره البخاري في صحيحه، والعلاوة ما يوضع بين العِدْلين، والعِدْل نصف الحمل على أحد شقَّي الدابة، والاثنان عِدْلان ـ ضرب ذلك مثلاً لقوله تعالى: (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) فالصلاة: عِدْل، والرحمة: عدل، وأُولئك هُم المهتدون: علاوةٌ، لَمَّا كانت الهِداية صفة للمذكورين ومن نوع العِدْلين.

(٣) هو الأخيل الطائي أبو المقدام بن عبيد بن الأعثم بن قيس ـ وأول الرجز:
كأَنَّ مَتْنيَّ مِنَ النَّفي . . . مَوَاقعُ الطَّير عَلى الصُّفِيِّ . . . مِنْ طولِ إشْرَافي عَلى الطَّويّ

والنفي: ما تطاير من الماءِ عند الرشاءِ على ظهر الماتح ـ شبه الماءَ وقد وقع على متن المُسْتَقِي بِذَرْق الطائر على الصفي، جمع صفا.

. . . . مَــوَاقِــعُ الطَّيْــرِ عَلَــى الصُّفِــيِّ

وقيل: من شروط الصفا البياض والصلابة.

والمروة: واحدة المرو، وهي الحجارة الصغار التي فيها لِينٌ.

ومنه قول الذي أصاب شاته الموت من الصحابة: (فذكَّيتها بمَرْوَة[١])، ومنه قول الأمين: أَخرجني إلى أَخي، فإن قتلني فمروةٌ كسرت مروة، وصمصامة قطعت صمصامة[٢]، وقد قيل في المرْو: إنها الصلاب، قال الشاعر[٣]:

وَتَــوَلَّــى الأَرضَ خُفًّــا ذابــلاً ... فَــإذا مــا صــادَفَ الْمَــرْوَ رَضَــحْ

والصحيح أَن المرو الحجارة صليبها ورخوها الذي يتشظى[٤] وترقُّ حاشيته وفي هذا يقال المرو أَكثر، وقد يقال في الصليب، وتأَمل قول أَبي ذؤَيب:

حَتَّــى كَــأَنِّــي لِلْحَــوَادِثِ مَــرْوَةٌ ... بِصَفَــا الْمُشَقَّــرِ كُــلَّ يَــوْم تُقْــرَع[٥]

وجبيل الصفا بمكة صليب، وجبيل المروة إلى اللِّين ماهق[٦]، فبذلك سُمِّيَا.

قال قوم: ذكِّر الصفا لأَن آدم وقف عليه، ووقفت حواءُ على المروة فَأُنِّثَتْ لذلك.

---

(١) أيْ بحجارة رقيقة حادَّة كالسكين. ومعنى ذكَّيْتُهَا: ذبحتُهَا ـ قال تعالى ـ: (وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إلا مَا ذَكَّيْتُمْ).

(٢) في تاريخ الخلفاء للسيوطي: أسند الصولي أن الأمين قال لكاتبه: اكتب: من عبد الله محمد أمير المؤمنين إلى طاهر بن الحسين، سلام عليك، أما بعد، فإن الأمر قد خرج بيني وبين أخي إلى هتك الستور، وكشف الحرم، ولستُ آمناً أن يطمع في هذا الأمر السحيق البعيد لشتات أُلْفَتِنَا، واختلاف كلمتنا، وقد رضيت أن تكتب لي أماناً لأخرج إلى أخي، فإن تفضل عليَّ فأهلٌ لذلك، وإن قتلني فمروة كسرت مروة، وصمصامة قطعت صمصامة، ولأن يفترسني السبع أحب إلي من أن ينبحني الكلب ا.هـ.

(٣) هو الأعشى قيس بن ميمون، يصف ناقته بالقوة على السير، وفي رواية:

وتولَّى الأرضَ خُفَّاً مُجْمِراً

ويقال: أجمر الرجل أو البعير أسرع في السير ـ وروي أيضاً: خُفّاً زائلاً. ورضح معناه: دقَّ وكسر، ويقال: رضحه رضحاً: دقَّه بحجر وكسره، فهو مرضوح ورضيح. يقال: رضح الحصى والنوى.

(٤) أي يتطاير شظايا، والشظيَّة الفِلقة من الشيء.

(٥) المُشَقَّر: موضع ببلاد العرب، أو حصن عظيم لعبد قيس، ويروى: بصفا المشرق، وهو سوق بالطائف أو مسجد الخيف بمنى، وخَصَّهُ لكثرة مرور الناس به، فهم يقرعون حجارته عند مرورهم.

(٦) أبيض اللون.

وقال الشعبي: كان على الصفا صنم يدعى إسافا وعلى المروة صنم يدعى نائلة فاطرد ذلك في التذكير والتأنيث، وقدم المذكر.

و(مِنْ شَعَائِرِ اللهِ) معناه: من معالمه ومواضع عبادته(١)، وهي جمع شعيرة أو شعارة. وقال مجاهد: ذلك راجع إلى القول، أي مما أشعركم الله بفضله، مأخوذ من شعرت إذا تحسست(٢)، وشعرت مأخوذ من الشِّعار وهو ما يلي الجسد من الثياب، والشِّعار مأخوذ من الشعر.

ومن هذه اللفظة هو الشاعر(٣).

و(حَجَّ) معناه: قصد وتكرر، ومنه قول الشاعر(٤):

وَأَشْهَدُ مِنْ عَوْفٍ حُلُولا كثيرة ... يَحُجُّونَ بَيْتَ الزِّبْرِقَانِ المُزَعْفَرَا

ومنه قول الآخر(٥):

يَحُج مَأْمُومَةً في قَعْرِهَا لجَف ... .

و(اعْتَمَرَ) زار وتكرر، مأخوذ من عمرت الموضع.

والجناح: الإثم والميل عن الحق والطاعة. ومن اللفظة الجناح لأنه في شق، ومنه قيل للخباءِ: جناح لتمايله وكونه كذي أجنحة، ومنه: ﴿ ۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾(٦).

---

(١) يعني أنهما من مناسك الحج. قال (ح): وليس الجبلان لذاتهما من شعائر الله، بل ذلك على حذف مضاف، أي أن طواف الصفا والمروة. ومعنى من شعائر الله: معالمه، وإذا قلنا: معنى من شعائر الله: من مواضع عبادته فلا يحتاج إلى حذف مضاف في الأول، بل يكون ذلك في الجر. (البحر المحيط ١ ـ ٤٥٦).

(٢) يقال: تحسَّسْتُ الشيْءَ إذا تطلبته. ورجل حسَّاس للأخبار كثير العلم بها.

(٣) لأنه مأخوذ من شعرت إذا فطنت وعلمت ـ لفطنته وعلمه، ومنْ ثَمَّ كان من شروط الشِّعر القصد، فإذا لم يقصده فكأنه لم يشعر به.

(٤) هو المخبل السعدي، وفي رواية بدل (بيت) سِبَّ ـ والسِّبُّ بالكسر العمامة، والمراد أنهم يترددون إليه مرة بعد أُخرى لسؤدده، والحُلول: جمع حالٍّ بمعنى الجموع الكثيرة.

(٥) هو عذار بن درة الطائي، ونص البيت:

يَحُجُّ مَأْمُومَةً في قعْرِهَا لَجَفٌ ... فاسْتُ الطَّبِيبِ قَذَاهَا كَالْمَغَارِيدِ

والمأمومة: الشجة التي تبلغ أم الرأس، واللَّجَف: الخسف والحفر، يصف الشاعر طبيباً يعالج شجة بعيدة القعر فهو يجزع من هولها حتى أن القذى يتساقط من استه كالمغاريد: جمع مغرود.

(٦) من الآية (٦١) من سورة الأنفال.

و﴿يطَّوَّفَ﴾ أصله يَتَطَوَّف(١)، سُكِّنت التَّاءُ وأُدغمت في الطاءِ، وقرأَ أبو السمال: [أَن يطَّاف]، وأَصله يطتوف، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فانقلبت أَلفاً فجاءَ يَطْتَاف، أُدغمت التَّاءُ بعد الإِسكان في الطاءِ على مذهب من أَجاز إِدغام الثاني في الأَول كما جاءَ في (مُدَّكر)، ومن لم يُجز ذلك قال: قلبت التاءُ طاءً، ثم أُدغمت الطاءُ في الطاءِ، وفي هذا نظر، لأَن الأَصلي أُدغم في الزائد، وذلك ضعيف(٢).

وروي عن ابن عباس، وأَنس بن مالك، وشهر بن حوشب أَنهم قرؤُوا: [أَلا يطَّوفَ] وكذلك في مصحف عبد الله بن مسعود، وأُبي بن كعب [أَلا يَطَّوف(٣)]، وقيل: [أَلا يَطُوفَ] بضم الطاءِ وسكون الواو(٤).

وقوله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ خبر يقتضي الأَمر بما عهد من الطواف بهما، وقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾، ليس المقصد منه إِباحة الطواف لمن شاءَه لأَن ذلك بعد الأَمر لا يستقيم، وإِنما المقصد منه رفعُ ما وقع في نفوس قوم من العرب من أَن الطواف بينهما فيه حرج، وإِعلامهم أَن ما وقع في نفوسهم غير صواب.

واختلف في كيفية ذلك(٥). فروي أَن الجن كانت تعزف وتطوف بينهما في الجاهلية، فكانت طائفة من تهامة لا تطوف بينهما في الجاهلية لذلك، فلما جاءَ الإِسلام تحرجوا من الطواف(٦)، وروي عن عائشة رضي الله عنها (أَن ذلك في الأَنصار، وذلك أَنهم كانوا يُهِلُّون لمناة التي كانت بالمشلل حذْو قُدَيْد، ويعظمونها،

---

(١) ومثله قراءة [يطَّوع] على أنه فعل مستقبل.

(٢) على هذا اقتصر أبو حيان رحمه الله وهو الظاهر.

(٣) خرجت هذه القراءة على زيادة (لا)، نحو قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ قال (ح) رحمه الله: ولا يلزم أن تكون زائدة لأن رفع الجناح في فعل الشيء هو رفع في تركه إذ هو تخيير بين الفعل والترك نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ فعلى هذا تكون (لا) نافية، وتكون قراءَة الجمهور فيها رفع الجناح في فعل الطواف نصّاً، وفي هذه رفع الجناح في ترك الطواف نصّاً، وكلتا القراءتين تدل على التخيير بين الفعل والترك. انتهى. البحر المحيط ١ ـ ٤٥٦، ٤٥٧.

(٤) عبارة (ح): وقرأ أبو حمزة: [أَنْ يطوف بهما] من طاف يطوف وهي قراءة ظاهرة.

(٥) يعني أنه اختلف في كيفية التحرج لاختلاف الروايات، ومجموعها يدل على أن طوائف من العرب تحرَّجوا من السعي بين الصفا والمروة لعدة أسباب، فنزلت الآية فيهم كلهم والله أعلم.

(٦) رواه السدي كما للواحدي في أسباب النزول.

فكانوا لا يطوفون بين إساف ونائلة إجلالا لتلك، فلما جاءَ الإِسلام تحرجوا فنزلت هذه الآية)[١]. وروي عن الشعبي أَن العرب التي كانت تطوف هنالك، كانت تعتقد ذلك السعي إِجلالاً لإساف ونائلة، وكان الساعي يتمسح بإِساف، فإِذا بلغ المروة تمسح بنائلة، وكذلك حتى تتم أَشواطه فلما جاءَ الإِسلام كرهوا السعي هنالك إِذ كان بسبب الصنمين[٢] واختلف العلماء في السعي بين الصفا والمروة[٣].

فمذهب مالك والشافعي أَن ذلك فرض ركن من أَركان الحج لا يجزي تاركه أَو ناسيه إِلا العودة، ومذهب الثوري وأَصحاب الرأْي أَن الدم يجزي تاركه، وإِن عاد فحسن، فهو عندهم نَدْبٌ.

وروي عن أَبي حنيفة: إِن ترك أَكثر من ثلاثة أَشواط فعليه دم، وإِن ترك ثلاثة فأَقل فعليه لكل شوطٍ إِطعام مسكين. وقال عطاءٌ: ليس على تاركه شيءٌ لا دم ولا غيره، واحتج عطاءٌ بما في مصحف ابن مسعود: [أَلا يطَّوف بهما]، وهي قراءَة خالفت مصاحف الإِسلام، وقد أَنكرتها عائشة رضي الله عنها في قولها[٤] لعروة حين قال لها: أَرأَيت قول الله: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، فما نرى على أَحد شيئاً أَلا يطوف

---

(١) رواه البخاري ومسلم. وحذْو: إزاء ومقابل ـ وقُدَيْد: موضع على الطريق من مكة إلى المدينة.

(٢) أقرب الروايات هي التي تقول: إن سبب التحرج هو ما كان في الجاهلية من السعي بينهما لوجود صنمين عليهما فكرهوا أن يطوفوا كما كانوا في الجاهلية، وذلك ما رواه الإمام البخاري عن أنس بن مالك.

(٣) قوله تعالى: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ كلامٌ يعطي معنى الإذن، وأما كونه واجباً فمأخوذ من قوله تعالى: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ الله) أو من دليل آخر فيكون التنبيه هنا على مجرد الإذن الذي يلزم الواجب من جهة مجرد الإقدام مع قطع النظر عن جواز الترك أو عدمه، مثال ذلك أن يجاب سائل فاتته صلاة الظهر مثلاً وظن أنه لا يجوز قضاؤها عند الغروب فقيل له: لا جناح عليك إن صليتها في هذا الوقت، فالغرض من الطواف بهما لمكان إسافٍ ونائلة، لا إلى نفس الطواف بهما فإنه من شعائر الله، أيْ من مناسك الحج المقصودة. ولنا أن نحمله على خصوص السبب فيكون المراد منه الطلب والوجوب، ويكون قوله في الآية: ﴿مِنْ شَعَائِرِ الله﴾ قرينةٌ صارفة للفظ (لا جناح) عن مقتضاه في أصل الوضع والله أعلم.

(٤) لفظ البخاري: عن عروة قال: سألْتُ عائشة رضي الله عنها فقلتُ لها: أَرأيت قولَ الله تعالى: (فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطوفَ بِهِمَا) فوالله ما على أحد جناح ألا يطوف بالصفا والمروة، قالت بيسما قلت يا بن أُختي، إن هذه لو كانت كما أَوَّلْتَها عليه ـ كانت: ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْهِ ألا يطَّوَّفَ بهما﴾، ولكنها أنزلت في الأنصار. كانوا قبل أن يُسْلموا يُهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل، فكان مَنْ أَهَلَّ يتحرج أَنْ يطوف بالصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، قالوا: يارسول الله: إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفا والْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ الله﴾ الآية.

بهما. قالت: «يا عُرَيَّةَ[(١)] كلا، لو كان ذلك لقال: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما».

وأيضاً فإن ما في مصحف ابن مسعود يرجع إلى معنى (أَنْ يَطَّوَّفَ) وتكون (لا) زائدة صلة في الكلام[(٢)] كقوله: ﴿مَامَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ﴾، وكقول الشاعر[(٣)]:

مَا كَانَ يَرْضَى رَسُولُ اللهِ فِعْلَهُمُ   والطَّيِّبَانِ أَبُو بكرٍ وَلاَ عُمَرُ

أَي: وعمر.

وكقول الآخر[(٤)]:

وَمَا أَلُومُ الْبِيضَ أَلا تَسْخَرا   . . . .

ومذهب مالك وأصحابه في العمرة أنها سنة، إلا ابن حبيب فإنه قال بوجوبها.

وقرأ قوم من السبعة وغيرهم: [وَمَنْ يَطَّوَّعْ] بالياءْ من تحت على الاستقبال والشرط، والجواب في قوله: (فإن).

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمر، وعاصم: ﴿تَطَوَّع﴾ على بابه في المضي فـ(مَنْ) على هذه القراءَة بمعنى الذي. ودخلت الفاءُ في قوله: (فإنَّ) للإبهام الذي في (مَنْ). حكاه مكي، وقال أبو علي: يحتمل (تَطَوَّعَ) أن يكون في موضع جزم و(مَنْ) شرطية، ويحتمل أن تكون (مَنْ) بمعنى الذي والفعل صلة لا موضع له من الإعراب، والفاءُ مُؤْذِنَة أَنَّ الثاني وجب لوجوب الأول.

ومَنْ قال بوجوب السعي قال: معنى ﴿تَطَوَّع﴾ أي زاد براً بعد الواجب فجعله عامّاً في الأعمال، وقال بعضهم: معناه: من تطوع بحجٍّ أو عمرة بعد حَجَّة الفريضة.

ومَنْ لم يوجب السعي قال: المعنى تطوع بالسعي بينهما. وفي قراءَة ابن مسعود: [فَمَن تطوع بخير].

---

(١) تصغير (عُرْوَة) للعطف والحنان.

(٢) قد لا يقول بذلك عطاء، فهي عنده نافية، ويدل لذلك ما قالته عائشة رضي الله عنها حيث قالت لعروة: لو كانت الآية كما أوّلتها لكانت [ألا يطَّوَّفَ بهمَا].

(٣) هو جرير بن عطية. قد تقدم.

(٤) هو أبو النجم العجلي وقد تقدم هذا الرجز وتمامه:

. . . .   لَمَّا رَأَيْنَ الشَّمَطَ القَفَنْدَرَا

ومعنى (شاكر): أَي يبذل الثواب والجزاءَ[١]، (عَليمٌ) بالنيات والأَعمال، لا يضيع معه لعامل برٍّ - ولا غيره - عَمَلٌ.

وقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ) الآية، المراد بالذين: أَحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أَمر محمد ﷺ، قال الطبري: وقد روي أَن معينين منهم سأَلهم قوم من أَصحاب النبي ﷺ عما في كتبهم من أَمره، فكتموا، فنزلت.

وتتناول الآية بعد، كلَّ من كتم علماً من دين الله يحتاج إِلى بثه، وذلك مفسر في قول النبي ﷺ: (مَنْ سُئِلَ عن علم فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يوم القيامة بِلِجَام من نار)[٢]. وهذا إِذا كان لا يخاف ولا ضرر عليه في بثه، وهذه الآية هي التي أَراد أَبو هريرة رضي الله عنه في قوله: (لولا آية في كتاب الله ما حدثتكم حديثاً)[٣]، وقد ترك أَبو هريرة ذلك[٤] حين خاف فقال: (حَفظْتُ عن رسول الله ﷺ وعَاءَيْنِ، أَما أَحدهما فبثثته، وأَما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم)[٥]، وهذه الآية هي التي أَراد عثمان رضي الله عنه في قوله: «لأَحدثنكم حديثاً لولا آية في كتاب الله ما حدثتكموه[٦]». ومَنْ روى في كلام عثمان: «لولا أنه في كتاب الله». فالمعنى غير هذا.

و(الْبيِّنَاتِ والْهُدَى) أَمر محمد ﷺ. ثم يعم بعد كل ما يُكْتَم مِنْ خير.

وقرأَ طلحة بن مصرف: [مِنْ بَعْدِ مَا بيَّنَهُ] على الإِفراد.

و(في الْكِتَابِ) يراد به التوراة والإِنجيل بحكم سبب الآية، وأَنها في أَمر محمد ﷺ،

---

(١) يعني أن وصفه تعالى بذلك من باب المجاز والتوسع لأن الله هو المنعم، ولا نعمة لأحد عليه.

(٢) رواه الإمام أحمد، وأبو داوود، وابن ماجه، والترمذي وحسَّنه، والحاكم وصحَّحه من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

(٣) رواه البخاري في صحيحه.

(٤) أي التحديث.

(٥) في البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم.

(٦) في صحيح الإمام مسلم: عن حمران مولى عثمان قال: سمعت عثمان بن عفان وهو بفناء المسجد فجاءَه المؤذن عند العصر فدعا بوضوء فتوضأ ثم قال: والله لأحدثنكم حديثاً لولا آية في كتاب الله ما حدثتكم - إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا يتوضأ رجل مسلم فيحسن الوضوء فيصلي صلاة إلا غفر الله له ما بينه وبين الصلاة التي تليها).

ثم يدخل القرآن مع تعميم الآية، وقد تقدم معنى اللعنة، واختلف في اللاعنين ـ فقال قتادة، والربيع: الملائكة والمؤمنون، وهذا ظاهر واضح جار على مقتضى الكلام(١).

وقال مجاهد، وعكرمة: هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجدب بذنوب علماءِ السوءِ الكاتمين فيلعنونهم(٢)، وذُكِرُوا بالواو والنون كمَنْ يَعْقِل، لأَنهم أُسند إليهم فعلُ مَن يعقل، كما قال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾(٣). وقال البراءُ بن عازب: اللاعنون كلُّ المخلوقات ما عدا الثقلين الجن والإِنس، وذلك أَن النبي ﷺ قال: (إِن الكافر إِذا ضُرِبَ في قبره فصاح؛ سمعه الكلُّ إِلا الثقلين فلعنه كل سامع)(٤). وقال ابن مسعود: المراد بهم ما قال النبي ﷺ: (إِنَّ كلَّ مُتلاعِنَيْنِ إِن استحقا اللعنة وإِلا انصرفت على اليهود(٥)، وهذه الأَقوال الثلاثة(٦) لا يقتضيها اللفظ، ولا تثبت إِلا بسند يقطع العذر.

ثم استثنى الله تعالى التائبين، وقد تقدم معنى التوبة.

﴿وأَصْلَحُوا﴾ في أَعمالهم وأَقوالهم ﴿وبيَّنُوا﴾، قال مَنْ فسر الآية على العموم: معناه بينوا توبتهم بمبرز العمل والبروع فيه(٧)، ومن فسَّرها على أَنها في كاتمي أَمر محمد قال: المعنى بيَّنوا أَمر محمد ﷺ فتجيءُ الآية فِيمن أَسلم من اليهود والنصارى، وقد تقدم معنى توبة الله على عبده، وأَنها رجوعه به عن المعصية إِلى الطاعة.

---

(١) لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ والمَلَائِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، والناس هم المؤمنون إذ لا اعتداد بغيرهم.

(٢) ما قاله مجاهد وعكرمة رواه ابن ماجه مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وهل ذلك يقطع العذر؟ ينظر في سنده.

(٣) ولم يقل: «ساجدات». وهي من الآية (٤) من سورة (يوسف).

(٤) الحديث مروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه ـ انظر (عمدة القاري) ٨/ ١٤٢.

(٥) معناه أنه إذا لعن الرجل الآخر فإن اللعنة إذا لم تجده أهلا لها ولا للّذي تكلم بها فإنها تقع على اليهود الذين كتموا ما أنزل الله من البينات والهدى، وفي (مجمع البيان) عن ابن مسعود: (إذا تلاعن الرجلان رجعت اللعنة على المستحق لها، فإن لم يستحقها واحد منهما رجعت على اليهود الذين كتموا ما أنزل الله) ١/ ٢٤١.

(٦) قول مجاهد، وقول البراءِ بن عازب، وقول ابن مسعود.

(٧) قال ابن قتيبة: أي بيَّنوا توبتهم بالإخلاص والعمل، وقال الإمام ابن العربي: سألت شيخنا الإمام أبا منصور الشيرازي الصوفي عن قوله تعالى: ﴿إلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ ما بينوا؟ قال: أَظهروا أفعالهم للناس بالصلاح والطاعات ـ قلت: ويلزم ذلك؟ قال: نعم، لتثبت أمانته، وتصح إمامته، وتُقبل شهادته، قال ابن العربي: وليقتدي به غيره اهـ. وما أشار إليه ابن عطية رحمه الله من هذا التفصيل في التفسير كأنه جوابٌ عن اعتراض الإمام الطبري رحمه الله لهذا التفسير الذي أشار إليه ابن قتيبة والإمام الشيرازي وابن العربي.

قوله عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) الآية، محكمة في الذين وافوا(١) على كفرهم، واختلف في معنى قوله: (والنَّاسِ أَجْمَعِينَ) وهم لا يلعنون أنفسهم ـ فقال قتادة، والربيع: المراد بالناس: المؤمنون خاصة. وقال أبو العالية: معنى ذلك في الآخرة، وذلك أن الكفرة يلعنون(٢) أنفسهم يوم القيامة. وقالت فرقة: معنى ذلك أن الكفرة يقولون في الدنيا: لعن الله الكافرين، فيلعنون أنفسهم من حيث لا يشعرون.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [والمَلائِكَةُ والنَّاسُ أَجْمَعُون] بالرفع على تقدير: يلعنهم الله(٣).

واللعنة في هذه الآية تقتضي العذاب(٤) فلذلك قال: (خَالِدِينَ فِيهَا)، والضمير عائد على اللعنة، وقيل: على النار، وإن كان لم يجر لها ذكر لثبوتها في المعنى، ثم أعلم

---

(١) أي: ماتوا على كفرهم، فقد أصبحوا بذلك ملعنة تُصَبُّ عليهم اللعنة من كل مصدر.

(٢) لقوله تعالى: (ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً).

(٣) قراءة الحسن هذه مخالفة لما في المصاحف، وقد خرجها المعربون تخريجات كثيرة فقيل: إنه معطوف على موضع اسم الله، لأنه عندهم في موضع رفع على المصدر، وقدَّروه: على أن لعنهم الله أو أن يلعنهم الله.

وقيل: إنه على إضمار فعل لمَّا لم يمكن العطف، والتقدير: وتلعنهم الملائكة.

وقيل: إنه معطوف على لعنة الله على حذف مضاف، أي: (ولعنة الملائكة). فلمَّا حذف المضاف أعرب بإعرابه نحو: واسأل القرية.

وقيل: إنه مبتدأ حذف خبره لفهم المعنى، والتقدير: (والملائكة والناس أجمعون يلعنونهم) راجع البحر المحيط ١/ ٤٦٣.

(٤) لأن السياق لم يذكر عذاباً آخر غير هذه اللعنة العامة، وَعَدَّها عذاباً لا يُخفف عنهم ولا يُمْهَلون فيه، وإنه لعذاب دونه كل عذاب أن تطاردهم اللعنة في الأرض وفي السماء.

تعالى برفع وجوه الرفق عنهم لأن العذاب إذا لم يخفف ولم يؤخر فهو النهاية.

و(يُنْظَرُونَ) معناه يُؤخرون عن العذاب، ويحتمل أن يكون من النظر نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾(١) والأول أظهر لأن النظر بالعين إنما يُعَدَّى بإلى إلا شاذًّا في الشعر.

وقوله تعالى (وَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحدٌ لا إِلٰه إِلا هُوَ) الآية إعلام بالوحدانية، وواحد في صفة الله تعالى معناه نفي المثيل والنظير والنِّد. وقال أبو المعالي: هو نفي التبعيض والانقسام. وقال عطاءٌ: لما نزلت هذه الآية بالمدينة قال كفار قريش بمكة: ما الدليل على هذا؟ وما آيته وعلامته؟ وقال سعيد بن المسيب: قالوا: إن كان هذا يا محمد، فأْتِنَا بآية من عنده تكون علامة الصدق، حتى قالوا: اجعل لنا الصفا ذهباً، فقيل لهم: ذلك لكم، ولكن إن كفرتم بعد ذلك عذبتم، فأشفق رسول الله ﷺ وقال: دعني أدعهم يوماً بيوم، فنزل عند ذلك قوله تعالى: (إِنَّ في خَلْقِ السَّمٰواتِ والأَرضِ) الآية(٢).

ومعنى (في خلق السَّمٰواتِ): في اختراعها وإنشائها، وقيل: المعنى إنَّ في خلقة أي هيئة السموات والأرض(٣). (واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهار) معناه أن هذا يخلُف هذا، وهذا يخلف هذا، فهما خلفة كما قال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾(٤).

وكما قال زهير:

بِهـا العِيـنُ والآرامُ يَمْشِيـنَ خِلْفَـةً   وأَطْلاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجثم(٥)

---

(١) من الآية (٧٧) من سورة آل عمران.

(٢) رَوَى ذلك الحافظ أبو بكر بن مردويه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

(٣) أي: من حيث ارتفاعها بغير عمد من تحتها، ولا علائق من فوقها، مع مافيها من الشمس والقمر والنجوم السائرة والكواكب الزاهرة، وآية الأرض ما فيها من بحار وأنهار وجبال وأشجار وغير ذلك من الحيوانات المختلفة المتفرقة.

(٤) من الآية (٦٢) سورة الفرقان.

(٥) العينُ: جمع عيناءَ، وهي واسعة العين، والآرام: جمع رئم وهو الأبيض الخالص، وقوله: خلفةً. أي: قطيعاً بعد قطيع، والأطْلاءُ: جمع طَلا وهم أولاد الظباءِ الصغار. والمعنى: إذا ذهب فوج جاء فوج آخر.

وقال الآخر:

وَلَهَـــا بـــالمَـــاطِـــرونَ إذا أَكَـــلَ النَّمْـــلُ الـــذي جَمَعَـــا
خِلْفَـــــة حتـــى إذا ارْتَبَعَـــتْ سَكَنَـــتْ مِـــنْ جِلَّـــقٍ بِيَعَـــا[١]

ويحتمل أيضاً الاختلاف في هذه الآية أن يراد به اختلاف الأوصاف[٢] والليل جمع ليلة، وتجمع ليالي، وزيدت فيها الياءُ كما زيدت في كراهية ورفاهية.

والنهار يجمع على نُهُر وأَنهِرَةٍ، وهو من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، يقضي بذلك قول النبي ﷺ لعدي بن حاتم: (إنما هو بياض النهار وسواد الليل)[٣]، وهذا هو مقتضى الفقه في الأيمان ونحوها، فأما على ظاهر اللغة وأخذه من السَّعَةِ[٤] فهو من وقت الإسفار إذا اتسع وقت النهار كما قال:

مَلَكْتُ بِهَـا كَفِّـي فَـأَنْهَـرْتُ فَتْقَهَـا يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا[٥]

وقال الزَّجَّاج في كتاب الأنواءِ: أول النهار ذرور الشمس[٦]، قال: وزعم النضر بن شميل أن أول النهار ابتداءُ طلوع الشمس، ولا يعد ما قبل ذلك النهار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقول النبي ﷺ هو الحكم[٧].

(والفُلْكِ) السفن، وإفراده وجمعه بلفظ واحد، وليست الحركات تلك بأعيانها، بل

---

(١) القائل هو يزيد بن معاوية، والماطرون: بلدة بالشام، وخلفة الشجر: ثمر يخرج بعد الثمر الكثير.

(٢) أي من النور والظلمة والطول والقصر.

(٣) في صحيح الإمام مسلم عن عدي بن حاتم قال: لما نزلت (حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَض مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْر) قال عدي: يارسول الله إني أجعل تحت وسادتي عقالين، عقالاً أبيض، وعقالاً أسود، أعرف بهما الليل من النهار. فقال رسول الله ﷺ: (إن وسادك لعريض، إنما هو سواد الليل وبياض النهار). فهذا الحديث يقضي أن النهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

(٤) يعني أن النهار مأخوذ من السَّعة، لاتساع وقته.

(٥) البيت لقيس بن الخطيم يصف طعنة. فأنهرت فتقها: أي وسعت فتقها.

(٦) يقال: ذرَّ قرن الشمس إذا طلع.

(٧) أي في قوله لعدي بن حاتم. وقد أحال ابن عطية لدى قوله تعالى: (حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ) لمَّا صحَّح القول بأن النهار من طلوع الفجر ـ على ذكر حجته هنا.

كأنه بنى الجمع بناءً آخر، يدل على ذلك توسط التثنية في قولهم: فُلْكَان[١]، والفُلك المفرد. مذكَّر، قال الله تعالى: ﴿فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾[٢].

و(ما يَنفَعُ النَّاسَ) هي التجارات وسائر المآرب التي يُركب لها البحر من غزو وحج. والنعمة بالفلك هي إذا انتُفِع بها، فلذلك خص ذكر الانتفاع، إذ قد تجري بما يضر.

(وَمَا أَنْزَلَ الله مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ) يعني به الأمطار التي بها إنعاش العالم، وإخراج النبات والأرزاق.

(وَبَثَّ) معناه: فَرَّقَ وَبَسَطَ[٣]، و(دَابَّةٍ) تجمع الحيوان كله، وقد أَخرج بعض الناس الطير من الدواب، وقال الأعشى:

. . . . دَبِيبَ قَطَا البَطْحَاءِ في كُلِّ مَنْهَلِ[٤]

وقال علقمة بن عبدة:

. . . . صَـوَاعِقها لطَيْـرِهِـنَّ دَبِيـبُ[٥]

(وَتَصْرِيفِ الرِّيَاح) إرسالها عقيماً، وملقحة، وصِرّاً، ونصْراً، وهلاكاً، ومنه إرسالها جنوباً وشمالاً، وغير ذلك. والرياح: جمع ريح، وجاءَت في القرآن: مجموعة مع الرحمة، مفردةً مع العذاب، إلا في يونس في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[٦] وهذا أَغلب وقوعها في الكلام.

---

(١) أي بين المفرد والجمع، فيقال: فُلْك، وفُلكان، وفُلْك.

(٢) من الآية (١١٩) من سورة الشعراء. ويس رقم ٤١..

(٣) يعني أنه جعلها متفرقة في مواضع مختلفة.

(٤) صدره:

نيـافٌ كغصْـن البَـان تـرتـجُّ إن مَشَـتْ . . . .

والنياف: هي الطويلة الفارغة. والقطاة: طائر في حجم الحمام، والبطحاء: مسيل الماء من الوادي وقد تناثر فيه الحصى الدقيق، والمنهل: مورد الماء.

(٥) صدره:

كـأنَّهُـم صَـابَـتْ عَلَيْهِـمْ سَحَـابَـةٌ . . . .

يقول: أصابتها الصواعق فلم تقدر على الطيران من الفزع فجعلت تدب طلباً للنجاة.

(٦) من الآية (٢٢) من سورة يونس.

وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا هبت الريح يقول: اللّهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لأن ريح العذاب شديدة ملتئمة الأجزاءِ، كأنها جسم واحد، وريح الرحمة ليِّنَةٌ متقطعة(٢)، فلذلك هي رياح، وهو معنى نشرَ. وأُفردت مع الفلك، لأن ريح إجراءِ السفن إنما هي واحدة متصلة، ثم وصفت بالطيب(٣)، فزال الاشتراك بينها وبين ريح العذاب، وهي لفظة من ذوات الواو، يقال: ريح وأرواح، ولا يقال: أرياح، وإنما قيل: رياح من جهة الكسرة وطلب تناسب الياءِ معها.

وقد لحن في هذه اللفظة عمارة بن عقيل بن بلال(٤)، فاستعمل الأرياح في شعره، ولحن في ذلك، وقال له أبو حاتم(٥): إن الأرياح لا تجوز، فقال: أما تسمع قولهم: رياح؟ فقال أبو حاتم: هذا خلاف ذلك، فقال: صدقت ورجع.

وأَما القراءُ السبعة فاختلفوا، فقرأ نافع: الرياح في اثني عشر موضعاً: هنا، وفي الأعراف: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾، وفي إبراهيم: ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾، وفي الحجر: ﴿ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾، وفي الكهف: ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ﴾، وفي الفرقان: ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ﴾، وفي النمل: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾، وفي الروم موضعين، وفي فاطر، وفي الجاثية، وفي عسق: (يُسْكِنِ الرِّيَاح)(٦)، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر موضعين من هذه بالإفراد:

---

(١) رواه الإمام الشافعي رحمه الله في كتابه الأم بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما هبت الريح إلا جثا النبي ﷺ على ركبتيه وقال: (اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً، اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً).

ومصداق هذا الحديث قول الله تعالى: (وَمِنْ آياتِهِ أنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ) الآية، وقول الله تعالى: (فَأرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ريحاً صَرْصَراً) وقوله تعالى: (وَفي عَادٍ إذْ أرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ). وكان ﷺ خُلُقُه القرآن.

(٢) أي تأتي من ها هنا وها هنا، ولهذا قيل لها: رياح، وذلك هو معنى: نَشَر، لأن الرياح تنشر السحاب.

(٣) في قوله تعالى: (وَجَرَيْنَ بهِمْ بريحٍ طَيِّبَةٍ).

(٤) عمارة بن عقيل كان شاعراً مفلقاً، وجاء من البادية إلى الحاضرة ودينه صحيح، ومدح الخلفاء والوزراء والأشراف فكسب مالاً عظيماً، ثم انصرف إلى البادية إلا أنه لم يرجع بدينه كما كان لاجتماعه في الحاضرة بأهل البدعة والفساد.

(٥) هو سهل بن محمد السجستاني المتوفى سنة ٢٥٥هـ.

(٦) أرقام الآيات في هذه المواضع هي على الترتيب كما يأتي: الأعراف (٥٧) ـ إبراهيم (١٨) ـ الحجر=

في إبراهيم، وفي عسق، وقرؤوا سائرها كقراءة نافع، وقرأ ابن كثير بالجمع في خمسة مواضع: هنا، وفي الحجر، وفي الكهف، وفي الروم الحرف الأول، وفي الجاثية: (وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ)، وباقي ما في القرآن بالإفراد.

وقرأ حمزة بالجمع في موضعين، في الفرقان، وفي الروم الحرف الأول[1]، وأفرد سائر ما في القرآن، وقرأ الكسائي كحمزة، وزاد عليه في الحجر، (الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ).

ولم يختلفوا في توحيد ما ليس فيه ألف ولام.

(والسَّحَابِ): جمع سحابة، سمي بذلك لأنه ينسحب، كما قالوا: حَبًا لأنه يحبو، قاله أبو علي الفارسي[2]. وتسخيره: بعثه من مكان إلى آخر.

فهذه آيات أن الصانع موجود، والدليل العقلي يقوم أن الصانع للعالم لا يمكن أن يكون إلا واحداً، لجواز اختلاف الاثنين فصاعدا[3].

قوله عز وجل:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾.

ذكر الله تعالى الوحدانية، ثم الآيات الدالة على الصانع، الذي لا يمكن أن يكون إلا واحداً، ثم ذكر في هذه الآية الجاحدين الضالين تعجُّباً من سوءِ ضلالهم مع الآيات ـ

= (٢٢) ـ الكهف (٤٥) ـ الفرقان (٤٨) ـ النمل (٦٣) ـ الروم (٤٦ و٤٨) ـ فاطر (٩) ـ الجاثية (٥) ـ حم عسق (٣٣).

(١) القراءة الأولى يعني (الرياح).

(٢) الحَبَا: السحاب المتراكم القريب من الأرض.

(٣) في الآية إشارة إلى طريق معرفة الله سبحانه وتعالى، وهي النظر والاستدلال، ولذلك لم يقتصر سبحانه على ذكر التوحيد المطلق، بل قرن ذلك بالنظر والاعتبار في آيات الكون فقال: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) الآية، وما خلق الله الخلق إلا ليُعرف ويُعبد، ويأتي للإمام ابن عطية رحمه الله عند قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ الله) الآية، حكاية الإجماع على بطلان التقليد في العقائد.

لأَن المعنى: إِنَّ في هذه الأُمور لآياتٍ بينة، ومن الناس ـ مع ذلك البيان ـ من يتخذ.

وخرج (يَتَّخِذُ) مُوَحَّداً على لفظ (مَنْ) والمعنى جمعه. و(مِنْ دُونِ) لفظ يعطي غيبة ما تضاف إِليه (دون) عن القضية التي فيها الكلام(١) وتفسير (دون) بسوى، أَو بغير، لا يطرد.

والند: النظير والمقاوم والموازي، كان ضدّاً، أَو خلافاً، أَو مثلاً، إِذا قاوم من جهة فهو منها نِدٌّ.

وقال مجاهد، وقتادة: المراد بالأَنداد الأَوثان. وجاءَ ضميرها في (يُحِبُّونَهُمْ) ضمير مَنْ يعقل، لمَّا نُزِّلت بالعبادة منزلة مَنْ يعقل، وقال ابن عباس، والسدي: المراد بالأَنداد الرؤَساءُ المتبعون، يطيعونهم في معاصي الله تعالى. و(يُحِبُّونَهُمْ) في موضع نصب نعت للأَنداد، أَو على الحال من المضمر في (يَتَّخِذُ)، أَو يكون في موضع رفع نعت لـ(مَنْ)، وهذا على أَن تكون (مَنْ) نكرة.

والكاف من (كحُبِّ) في موضع نصب نعت لمصدر محذوف، وحب: مصدر مضاف إِلى المفعول في اللفظ، وهو على التقدير مضاف إِلى الفاعل المضمر، تقديره: كحبهم. أَي يُسَوُّون بين محبة الله ومحبة الأَوثان(٢).

ثم أَخبر أَن المؤمنين أَشد حباً لله لإِخلاصهم وتيقنهم الحق(٣).

وقوله تعالى: (وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)، قرأَ نافع، وابن عامر بالتاءِ من فوق(٤)، و(أَنَّ) بفتح الأَلف، و(أَنَّ) الأُخرى كذلك عطف على الأُولى، وتقدير ذلك: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤْيتهم للعذاب، وفزعهم منه، واستعظامهم له، لأَقروا

---

(١) تقول: فعلت كذا من دون فلان، ففلان غائب عن هذا الفعل وخارج منه، كما تقول: قام القوم دون زيد، فزيد خارج من القيام وغائب عنه، إلا أن (دون) في الآية بمعنى (غير) فإن المشركين يتخذون الله كما يتخذون الأنداد، ويحبون الله كما يحبون الأنداد، فليس الله سبحانه وتعالى خارجاً عن اتخاذهم له معبوداً ومحبوباً. تأمل.

(٢) أصل العبادة ـ محبة الله المقرونة بغاية الخضوع والإجلال ـ وأن يكون الحب كله لله فلا يحب العابد معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه كما يحب أنبياءَه وملائكته وأولياءَه، فمحبته لهم من تمام محبته لله. وليست محبة معه كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله.

(٣) حب المؤمنين لله أشد من حب المشركين لأندادهم، لأن حبهم كلَّه لله، وحبّ المشركين موزع بين الله والأنداد، فهم يعدلون بينه وبينهم لقلة عقلهم وشدة جهلهم.

(٤) والباقون من السبعة كلهم قرؤوا بياءِ الغيبة.

أَن القوة لله، فالجواب مضمر على هذا النحو من المعنى، وهو العامل في (أَنَّ).

وتقدير آخر: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤْيتهم للعذاب، وفزعهم منه، لعلمت أَن القوة لله جميعاً، وقد كان النبي ﷺ علم ذلك، ولكن خوطب، والمراد أُمته، فإِنَّ فيهم من يحتاج إِلى تقوية علمه بمشاهدة مثل هذا.

وتقدير ثالث: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤْيتهم للعذاب ـ لأَن القوة لله ـ لعلمت مبلغهم من النكال، ولاستعظمت ما حل بهم، فاللام مضمرة قبل ﴿أَنَّ﴾ فهي مفعول من أَجله، والجواب محذوف مقدر بعد ذلك، وفي حذف جواب (لوْ) مبالغة، لأَنك تدع السامع يسمو به تخيله[١]، ولو شرحت له، لوطنت نفسه إِلى ما شرحت.

وقرأَ الحسن، وقتادة، وشيبة، وأَبو جعفر: [ترى] بالتاء من فوق، وكسر الهمزة من [إِنَّ]، وتأْويل ذلك: ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب، لاستعظمت ما حل بهم، ثم ابتدأَ الخبر بقوله: إِن القوة لله.

وتأْويل آخر: ولو ترى الذين ظلموا إِذ يرون العذاب يقولون: إن القوة لله جميعاً لاستعظمت حالهم.

وقرأَ حمزة، والكسائي، وأَبو عمرو، وعاصم، وابن كثير (يرى) بالياءِ من أَسفل وفتح الأَلف من (أَنَّ). تأْويله: ولو يرى في الدنيا الذين ظلموا حالهم في الآخرة، إِذ يرون العذاب، لعلموا أَن القوة لله.

وتأْويل آخر، روي عن المبرد والأَخفش: ولو يرى ـ بمعنى يعلم ـ الذين ظلموا إِذ يرون العذاب، أَن القوة لله جميعاً، لاستعظموا ما حل بهم، فـ(يَرى) عامل في (أَنَّ) وسدت مسد المفعولين.

وقال أَبو علي: [٢] الرؤْية في هذه الآية رؤْية البصر، والتقدير في قراءَة الياءِ وَلَوْ يَرى الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنَّ القُوَةَ للهِ جَمِيعاً وحذف جواب (لو) للمبالغة، ويعمل في (أَنَّ) الفعل الظاهر، وهو أَرجح من أَن يكون العامل فيها مقدراً.

---

(١) أي يذهب به كل مذهب، وحذف الجواب لهذا المعنى كثير في القرآن، وفي كلام العرب.

(٢) الفرق بين ما للمبرد والأخفش، وبين ما لأبي علي الفارسي أن الرؤية عند الأولين علمية وعند الثاني بصرية.

ودخلت (إذْ) وهي لِمَا مضى في أثناءِ هذه المستقبلات تقريباً للأمر، وتصحيحاً لوقوعه، كما يقع الماضي موقع المستقبل في قوله تعالى:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ و﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾[1] ومنه قول الأشتر النخعي:

بَقَّيْتُ نَفْسِي وانحَرَفْتُ عَن العُلا ... ولَقِيتُ أضْيَافِي بوجه عَبُوسِ[2]

وقرأت طائفة [يَرَي] بالياءِ من أسفل، وكسر الألف من (إنَّ)، وذلك إما على حذف الجواب وابتداءِ الخبر، وإما على تقدير: لقالوا: إن القوة لله جميعاً.

وقرأ ابن عامر وحده: [يُرون] بضم الياءِ، والباقون بفتحها. وثبتت بنص هذه الآية القوة لله، بخلاف قول المعتزلة، في نفيهم معاني الصفات القديمة[3].

وقالت طائفة: (الذين اتُّبِعوا) كلُّ مَن عُبد من دون الله، وقال قتادة: هم الشياطين المُضِلُّونَ، وقال الربيع، وعطاءٌ: هم رؤَساؤُهم. ولفظ الآية يعم هذا كله.

و(إذْ) يحتمل أن تكون متعلقة بـ(شَدِيدُ الْعَذَاب)، ويحتمل أن يكون العامل فيها اذكر.

و(الَّذين اتَّبَعوا) ـ بفتح الباءِ ـ هم العبدة لغير الله، والضَّالُّون المقلدون لرؤَسائِهم أو للشياطين. وتبرِّيهم هو بأن قالوا: إنا لم نُضِلَّ هؤلاءِ، بل كفروا بإرادتهم، وتَعَلَّقَ العقاب على المتبعين بكفرهم، ولم يتأت ما حاولوه من تعلق ذنوبهم على المضلين[4]. وقرأ مجاهد بتقديم الفعل المسند إلى المتبعين للرؤَساءِ، وتأخير المسند إلى المتَّبَعين.

والسبب في اللغة: الحبل الرابط الموصل، فيقال في كل ما يُتَمَسَّك به فَيَصِل بين شيئين. وقال ابن عباس: الأَسباب هنا الأَرحام. وقال مجاهد: هي العهود، وقيل:

---

(١) من الآية (٥٠) من سورة (الأعراف) ـ من الآية (١) من سورة النحل.

(٢) الأشتر هو مالك بن الحارث من أنصار علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وروي البيت: بقيتُ وفْري: قال (ح) ـ لأنه علق ذلك على مستقبل هو قوله:

إنْ لَمْ أَشُنَّ على ابنِ هند غَارَةً ... لَمْ تَخْلُ يَوْماً مِنْ نهابِ نُفُوسِ

(٣) لأنهم يقولون: قادر بدون قدرة، والقوة والقدرة شيءٌ واحد.

(٤) يعني أن العقاب يتعلق بالضالين ولا يحمله عنهم غيرهم ـ وإن كان على المضلين عقاب الإضلال قال سبحانه: (رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّار، قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ).

المَوَدَّات[1]، وقيل: المنازل التي كانت لهم في الدنيا. وقال ابن زيد، والسدي: هي الأعمال[2] إذ أعمال المؤمنين كالسبب في تنعيمهم، فتقطعت بالظالمين أعمالهم.

وقوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا) الآية، وقال الأتباع الذين تُبُرِّئَ منهم: لو رُددنا إلى الدنيا حتى نعمل صالحاً ونتبرأ منهم، والكرَّة العودة إلى حال قد كانت. ومنه قول جرير[3]:

وَلَقَـدْ عَطَفْـنَ عَلَـى فَـزَارَةَ عَطْفَـةً ... كَـرَّ المَنِيـحِ، وَجُلْـنَ ثَـمَّ مَجَـالا[4]

والمَنِيحُ هنا أحد الأغفال من سهام الميسر[5]، وذلك أنه إذا خرج من الربابة[6] رد لفوره لأنه لا فرض فيه، ولا حكم عنه.

والكاف من قوله: (كمَا) في موضع نصب على النعت، إما لمصدر أو لحال[7] تقديرها: متبرئين كما، والكاف من قوله: (كذَلِكَ يُريهم)، قيل: هي في موضع رفع على خبر ابتداءٍ تقديره: الأمر كذلك، وقيل: هي كاف تشبيه مجردة، والإشارة بذلك إلى حالهم وقت تمنيهم الكرَّة.

والرؤْية في الآية هي من رؤْية البصر، ويحتمل أن تكون من رؤْية القلب.

و(أَعْمَالَهُمْ) قال الربيع، وابن زيد: المعنى: الفاسدة التي ارتكبوها فوجبت لهم بها النار، وقال ابن مسعود، والسدي: المعنى: الصالحة التي تركوها ففاتتهم الجنة، ورويت في هذا القول أحاديث. وأُضيفت هذه الأعمال إليهم من حيث هم مأمورون بها، وأما إضافة الفاسدة فمن حيث عملوها.

---

(١) أي الصِّلات والعلائق، وإنما تقطعت لأنها لغير الله وفي غير ذات الله.

(٢) لقوله تعالى: (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً).

(٣) لعله كان: ومنه قول الأخطل يهجو جريراً، ويفتخر على قيس، فإن البيت للأخطل، وحوَّله النساخ إلى جرير. وقد نسب في تفسير الطبري إلى الأخطل ٢/ ٤٤.

(٤) أي رجعن رجوعاً مثل رجوع المَنِيح وهو سهم من سهام الميسر مما لا نصيب له إلا أن يمنح صاحبه شيئاً، والتشبيه بالمنيح من جهة أنه يُرجى لصاحبه المغنم في الكرة الثانية.

(٥) الأغفال جمع غُفْل كقفْل: ما لا علامة فيه من القداح.

(٦) الربابة: السهام المجموعة، أو شيءٌ تجمع به السهام.

(٧) لا حاجة إلى تقدير هذه الحال لأنها إذ ذاك تكون حالاً مؤكِّدة، والحال المؤكِّدة تكون ملفوظاً بها لا مقدرة، وأيضاً لا يصح أن تكون الكاف الداخلة على ما المصدرية نعتاً لها لأن هذه الحال صفة للفاعل، والكاف الداخلة على ما المصدرية صفة للفعل. قاله (ح)، وهو واضح.

و(حَسَرَاتٍ) حال على أَن تكون الرؤية البصرية، ومفعول على أَن تكون قلبية، والحسرة أَعلى درجات الندامة والهَم بما فات، وهي مشتقة من الشيءِ الحسير الذي قد انقطع وذهبت قوته كالبعير والبصر، وقيل: من حَسَرَ إذا كَشَفَ[١]، ومنه قول النبي ﷺ: (يحسر الفرات عن جبل من ذهب)[٢].

قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

الخطاب عامٌّ، و(ما) بمعنى الذي، و(حَلالاً) حال من الضمير العائد على (مَا). وقال مكي: نعتٌ لمفعول محذوف تقديره: شيئاً حلالاً، وهذا يبعد[٣]، وكذلك مقصد الكلام لا يعطي أَن يكون (حلالاً) مفعولاً بـ(كلوا). تأمل.

و(طَيِّباً) نعتٌ، ويصح أَن يكون (طَيِّباً) حالا من الضمير في (كُلُوا) تقديره: مستطيبين[٤]. والطَّيبُ عند مالك: الحلال فهو هنا تأْكيد لاختلاف اللفظ، وهو عند الشافعي المستلذ[٥]، ولذلك يمنع أَكل الحيوان القذر وكل ما هو خبيث.

و(خُطُوَاتِ) جمع خطوة، وهي ما بين القدمين في المشي، فالمعنى: النهي عن اتباع الشيطان وسلوك سبله وطرائقه، قال ابن عباس: خطواته: أَعماله، قال غيره:

---

(١) يقال: حسر عن ذراعه إذا كشف، ومنه الحاسر في الحرب الذي لا درع معه، والانحسار: الانكشاف.

(٢) خرجه البخاري ومسلم في الفتن، والترمذي وأبو داود في الملاحم بلفظ: (يوشك الفرات أن يحسر)، وبلفظ: (يحسر الفرات عن كنز من الذهب)، وفي رواية: (عن جبل من ذهب)، وفي آخره: (فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً) أي لِمَا ينشأ عن ذلك من الفتنة والقتال.

(٣) وجه البعد كما قاله (ح) رحمه الله: أن الصفة عامةٌ، وإذا كانت كذلك فلا يحذف الموصوف وتنوب عنه الصفة، وذلك أن الحلال يوصف به المأكول وغير المأكول. البحر المحيط ١/ ٤٧٨.

(٤) فيه عدم المطابقة بين الحال وبين الضمير، فإن طيِّباً مفرد والضمير جمع، واختلاف المعاني بين طيّب ومستطيبين فإن الأول صفة للأكل والثاني صفة للآكل.

(٥) وعليه فهو صفة مخصصة لأنه مغاير لما قبله.

آثاره[١] قال مجاهد: خطاياه، قال أَبو مجلز[٢]: هي النذور في المعاصي، قال الحسن: نزلت فيما سَنُّوه من البَحيرة والسائبة ونحوه، قال النقاش: نزلت في ثقيف وخزاعة وبني الحارث بن كعب[٣].

وقرأَ ابن عامر، والكسائي: (خُطُوَاتِ) بضم الخاءِ والطاءِ، ورويت عن عاصم، وابن كثير بخلاف، وقرأَ الباقون بسكون الطاءِ، فإمَّا أَرادوا ضم الطاءِ وخففوها إذ هو الباب في جمع فُعْلة كَغُرْفَة وغُرُفَات، وإما أَنهم تركوها في الجمع على سكونها في المفرد. وقرأَ أَبو السمال: [خَطَوَات] بفتح الخاءِ والطاءِ. وروي عن علي بن أَبي طالب، وقتادة، والأَعمش، وسلام[٤]: [خُطُؤَات] بضم الخاءِ والطاءِ وهمزة على الواو، وذهبوا بهذه القراءَة إِلى أَنها جمع خطأَة من الخطأ لا من الخطْو.

وكل ما عدا السنن والشرائع من البدع والمعاصي فهي خطوات الشيطان.

و(عَدُوٌّ) يقع للمفرد والتثنية والجمع.

وقوله تعالى: (إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ) الآية، (إنما) تصلح للحصر، وقد تجيءُ غير حاصرة بل للمبالغة[٥]، كقولك: إنما الشجاع عنترة. كأَنك تحاول الحصر أَو توهمه، فإنما يعرف معنى (إنما) بقرينة الكلام الذي هي فيه، فهي في هذه الآية حاصرة. وأَمر الشيطان إما بقوله في زمن الكهنة وحيث يُتَصَوَّرُ وإما بوسوسته، فإذا أُطيع نفذ أَمره.

والسوءُ: مصدر من ساءَ يسوءُ، وهي المعاصي وما تسوءُ عاقبته[٦]، و(الفَحْشَاءِ) قال السدي: هي الزنا، وقيل: كل ما بلغ حدّاً من الحدود، لأَنه يتفاحش حينئذٍ، وقيل:

---

(١) يأتي عند ابن عطية أن كل ما عد السنن والشرائع من البدع والمعاصي فهي خطوات الشيطان. فاللفظ عام لا يقصر على شيءٍ بخصوصه.

(٢) اسمه: لاحق بن حميد السدوسي البصري، وردت عنه الرواية في حروف القرآن، وتوفي سنة (١٠٦) هـ.

(٣) أي فيما حرَّموه من الأنعام إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(٤) هو سلام بن سليمان الطويل، أبو المنذر المزني البصري، مقرىء ثقة ـ توفي سنة (١٧١) هـ وقد رفض أبو الفتح هذه القراءة، وقال هي غلط.

(٥) يعني أن الحصر تارةً يكون حقيقياً، وتارة يكون ادعائياً، ويرجع في ذلك إلى القرائن المحيطة بالمقام.

(٦) يعني أن كلمة السوءِ تشمل سائر المعاصي، لأن المعنى: إنما يأمركم بالأفعال السيئة، وسميت سوءًا لأنها تسوءُ صاحبها بسوءِ عاقبته.

هي ما تفاحش ذكره، وأصل الفحش قبح المنظر كما قال امرؤُ القيس:

وجِيدٍ كَجِيدِ الرِّئْم لَيْسَ بِفَاحِشٍ إذا هِــيَ نَصَّتْــهُ ولا بِمُعَطَّــلِ[١]

ثم استعملت اللفظة فيما يستقبح من المعاني. والشرع هو الذي يُحَسن ويُقبِّح، فكلُّ ما نهت عنه الشريعةُ فهو من الفحشاءِ.

و(مَالا تَعْلَمُونَ) قال الطبري: يريد به ما حرَّموا من البَحيرة والسائبة ونحوها وجعلوه شرعاً. وقوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ)، يعني كفار العرب، وقال ابن عباس: نزلت في اليهود، وقال الطبري: الضمير في (لَهُمْ) عائد على (الناس) من قوله: (يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا)، وقيل: هو عائد على (مَنْ) في قوله: (وَمِنَ النَّاس مَنْ يَتَّخذُ مِنْ دُونِ الله أَنْدَاداً)[٢].

و(اتَّبِعُوا) معناه بالعمل والقبول. و(مَا أَنْزَلَ الله) هو القرآن والشرع. و(أَلْفَيْنَا) معناه وجدنا، قال الشاعر[٣]:

فَــأَلْفَيْتُــهُ غيــر مُسْتَعْتِــبٍ ولا ذَاكِــرِ الله إلاَّ قَلِيــلا

والأَلف في قوله: (أَوَلَوْ) للاستفهام، والواو لعطف جملة كلام على جملة، لأَن غاية الفساد في الالتزام أَن يقولوا: نتبع آباءَنا ولو كانوا لا يعقلون، فقُرِّروا على التزامهم هذا، إذ هذه حال آبائِهم.

وقوة أَلفاظ هذه الآية تعطي إِبطال التقليد، وأَجمعت الأُمة على إبطاله في العقائد[٤].

وقوله تعالى: (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا) الآية، المراد تشبيه واعظ الكافرين وداعيهم، والكافرين الموعوظين، بالراعي الذي ينعق بالغنم أَو الإبل فلا تسمع إِلا دعاءَه ولا تفقه ما يقول، هكذا فسر ابن عباس، وعكرمة، والسدي، وسيبويه، فذكر تعالى بعض هذه

---

(١) الريم: ولد الظبية، قيل: إذا كان خالص البياض وليس بفاحش: يعني ليس بشديد الطول كريه المنظر. ونصَّته: مدَّته وأبرزته، والمعطَّل: الخالي من الحلي.

(٢) والمعنى أنه ﷺ دعاهم من الكفر إلى الإيمان، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الله مرة بعد مرة، فكان من آكد متمسكاتهم التَّأسي بالآباء، وذلك من اتباع الأهواء.

(٣) هو أبو الأسود الدؤلي كما في الكتاب لسيبويه مستشهداً به على حذف التنوين من (ذاكر) لالتقاء الساكنين.

(٤) من الناس من ذكر الخلاف في ذلك، كالإمام ابن العربي المعافري.

الجملة وبعض هذه، ودل المذكور على المحذوف، وهذه نهاية الإيجاز[١].

والنعيق: زجر الغنم والصياح بها، قال الأَخطل:

انعـق بضَـأْنِـكَ يـا جـريـر فـإنمـا   مَنَّتكَ نَفْسُك في الخَلاءِ ضَلالا[٢]

وقال قوم: إنما وقع التشبيه براعي الضأن لأنها من أَبلد الحيوان، فهي تحمق راعيها، وفي المثل: «أَحمق من راعي ضأْن ثمانين»[٣]

وقد قال دُرَيد لمالك بن عوف في يوم هوازن: «راعي ضأْن والله»[٤]، وقال الشاعر:

أَصْبَحْتُ هُزْءًا لِرَاعِي الضَّان يَهْزأُ بي   مَاذَا يَريبُك مِني رَاعِي الضَّان؟[٥]

فمعنى الآية أَن هؤُلاءِ الكفرة يمر الدعاءُ على آذانهم صفحاً يسمعونه ولا يفقهونه، إذ لا ينتفعون بفقهه[٦].

وقال ابن زيد: المعنى في الآية: وَمَثل الذين كفروا في اتباعهم آلهتهم وعبادتهم إياها، كَمَثل الذي ينعق بما لايسمع منه شيئاً، إلا دوياً غير مفيد، يعني بذلك الصدى الذي يستجيب من الجبال.

ووجه الطبري في الآية معنى آخر وهو أَن المراد: ومثل الكافرين في عبادتهم آلهتهم، كمثل الذي ينعق بشيءٍ بعيدٍ منه، فهو لا يسمع من أَجل البعد، فليس للناعق من ذلك إلا النداءَ الذي يُتعبه ويُنصبه، فإنما شبه في هذين[٧] التأْويلين الكفار بالناعق،

---

(١) يعني أنه حذف الداعي من الأول لدلالة المدعوِّ عليه، وحذف المنعوق به من الثاني لدلالة الناعق عليه.

(٢) يريد: صح بغنمك يا جرير، واكتف بهذا عن المفاخر فلست لها أهلاً، وإنما أنت من رعاة الغنم.

(٣) هذا التفسير خاص بالضأن، والأول عام في الضأن وغيره.

(٤) دريد هو: ابن الصِّمة، قال لمالك بن عوف، لما جاءَ إلى قتال المسلمين، وقد أمر هوازن أن يحملوا معهم أموالهم ونساءَهم، أَمِنْتَ أن تكون عليك، راعي ضأن والله، لا صحبتُك. وقصة حرب هوازن التي قصدت بها النبي ﷺ معروفة، وقد سألت (دريد بن الصمة) الرياسة عليها، وكان قد بلغ العشرين بعد المائة. وكلام دريد فيه تجهيل لمالك، وبيان أنه لا يصلح للقيادة. وإنما هو راعي ضأن.

(٥) الشاعر هو: أُمية بن الأسكر الليثي، أدرك الجاهلية والإسلام، وفي رواية:

أصبحت قـرداً لـراعـي الضـأن يسخـر بـي   . . . .

(٦) ومعنى ذلك: أنه وقع تشبيه الداعي بالناعق، والكافر بالبهائم، وذلك خلاف ما يأتي عن ابن زيد والطبري.

(٧) أي تأويل ابن زيد وتأويل الطبري.

والأَصنام بالمنعوق به، وشُبهوا في الصمم والبكم والعمي بمن لاحسة له، لمَّا لم ينتفعوا بحواسهم، ولا صرفوها في إدراك ما ينبغي، ومنه قول الشاعر:

. . . . أَصَـمُّ عَمَّـا سَـاءَهُ سَمِيـعُ[١]

ولما تقرر فقدهم لهذه الحواس قضي بأَنهم لا يعقلون، إذ العقل ـ كما قال أَبو المعالي وغيره ـ علومٌ ضرورية تعطيها هذه الحواس، إذ لابد في كسبها من الحواس. وتأَمل[٢].

قوله عز وجل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾.

الطيِّب هنا يجمع الحلال والمستلذ، والآية تشير بتبعيض (مِنْ) إلى أن الحرام رزق[٣]. وحضَّ تعالى على الشكر، والمعنى في كل حالة، و(إن) شرط، والمراد بهذا الشرط التثبيت وهز النفس، كما تقول: افعل كذا إن كنت رجلاً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾، (إنَّمَا) هنا حاصرة. و(الْمَيْتة) نصب بـ(حَرَّمَ)، وقرأ أَبو جعفر بن القعقاع [المَيِّتَةَ] بالتشديد. قال الطبري، وجماعة من اللغويين:

---

(١) (أصمُّ عَمَّا ساءَه سميعُ) مثَل من الأمثلة العربية، أي أصمُّ عن القبيح الذي يغمه، سميع للأمر الذي يسره. وفي معناه: حلمي أصم وأُذني غير صمَّاء. أي أُعرض عن الخنا والفحش بحلمي وإن سمعتهُ أُذني ـ وهو غير منسوب في اللسان ـ مادة «صمم».

(٢) المراد هنا العقل المكسوب دون المطبوع لأنه حاصل لهم، ولما كان الطريق لاكتساب العقل هو الاستعانة بهذه الحواس، كان إعراضهم عنها فقْداً للعقل المكتسب، ومِنْ ثَمَّ قيل:
مَنْ فقد حسّاً فَقَدْ فَقَدَ عقلاً.

(٣) وهو مذهب أهل السنة كما قال ابن السبكي في جمع الجوامع: والرزق ما ينتفع به ولو كان حراماً. والذين يقولون إن الحرام ليس رزقاً يجعلون المعنى في الآية: كلوا من مستلذات ما رزقناكم، ويكون الأمر بذلك دفعاً لما يتوهم من أن التنوع في المآكل والتَّفَنُّن في الطيبات ممنوع، فكان تخصيص الطيبات بالذكر لهذا المعنى عندهم.

التشديد والتخفيف من ميِّت وميْت لغتان. وقال أَبو حاتم، وغيره: ما قد مات فيقالان فيه، وما لم يمت فلا يقال فيه مَيْت بالتخفيف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هكذا هو استعمال العرب، ويشهد بذلك قول الشاعر(١):

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ ... إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ

استراح: من الراحة، وقيل: من الرائحة. ولم يقرأ أَحد بتخفيف ما لم يمت، إِلا ما روى البزي عن ابن كثير [وَمَا هُوَ بِمَيْتٍ](٢) والمشهور عنه التثقيل، وأَما قول الشاعر: (٣)

إِذَا مَا مَاتَ مَيْتٌ مِنْ تَمِيمٍ ... فَسَرَّكَ أَنْ يَعِيشَ فَجِيءْ بِزَادِ

فالأَبلغ في الهجاءِ أَن يريد الميِّت حقيقة، وقد ذهب بعض الناس إِلى أَنه أَراد من شارف الموت، والأَول أَشهر. وقرأَ قوم: [الميتةُ] بالرفع على أَن تكون (ما) بمعنى الذي وإِنَّ عاملة.

وقرأَ أَبو عبد الرحمن السلمي: [حُرِّمَ] ـ على ما لم يُسَمّ فاعله، ورفع ما ذكر تحريمه، فإِن كانت ما كافة، فالميتة مفعول لم يسم فاعله، وإِن كانت بمعنى الذي فالميتة خبر.

ولفظ الميتة عموم، والمعنى مخصص(٤) لأَن الحوت والجراد لم يدخل قط في هذا العموم(٥). والميتة: ما مات دون ذكاة مما له نفس سائلة، والطافي من الحوت، جَوَّزَهُ

---

(١) هو عدي بن رعلاءَ الغساني، كما في معالم الاهتداء، شرح شواهد قطر الندى.

(٢) ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ من الآية (١٧) من سورة إبراهيم.

(٣) هو يزيد بن الصعق الكلابي، أو أبو المهوس الأسدي، يهجو بني تميم بحب الطعام. وبعد البيت:

بِخُبْزٍ أَوْ بِتَمْرٍ أَوْ بِسَمْنٍ ... أَوِ الشَّيْءِ المُلَفَّفِ فِي البِجَادِ

تَرَاهُ يُطَوِّفُ الآفَاقَ حِرْصاً ... لِيَأْكُلَ رَأْسَ لُقْمَانَ بنِ عَادِ

(٤) هذا رأي ابن عطية، وقد ناقشه فيه (ح) ويخصص عموم الآية حديث الإمام أحمد، وابن ماجه، والدارقطني، عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: (أُحلت لنا ميتتان: الحوت والجراد، ودمان: الكبد والطحال). وعليه فالمراد بالميتة في الآية ميتة البر.

(٥) بحسب الإرادة لأن المخصص دل على أنه لم يرد دخوله في اللفظ العام، وإن كان اللفظ يشمله بحسب الدلالة.

مالك وغيره، ومنعه العراقيون. وفي الميت دون تسبيب من الجراد خلاف. منعه مالك، وجمهور أَصحابه، وجوزه ابن نافع، وابن عبد الحكم. وقال ابن وهب: إِن ضم في غرائر فضمه ذكاته. وقال ابن القاسم: لا، حتى يُصنع به شيءٌ يموت منه[١] كقطع الرؤُوس والأَجنحة والأَرجل، أَو الطرح في الماءِ، وقال سحنون: لا يطرح في ماءٍ بارد، وقال أَشهب[٢]: إِن مات مِنْ قَطْعِ رِجْلٍ أَو جناح لم يؤكل لأَنها حالة قد يعيش بها وينسل.

(والدَّم) يراد به المسفوح، لأَن ما خالط اللحم فغير محرم بإِجماع. وفي دم الحوت المزايل للحوت اختلاف، روي عن القابسي[٣] أَنه طاهر، ويلزم عن طهارته أَنه غير محرم.

وخص ذكر اللحم من الخنزير ليدل على تحريم عينه؛ ذُكِّيَ أَو لم يُذك، وليعم الشحم وما هنالك من الغضاريف وغيرها[٤]، وأَجمعت الأُمة على تحريم شحمه[٥].

---

(١) قال الشيخ خليل رحمه الله في مختصر المالكية: وافتقر لما يموت به نحو الجراد.

(٢) ابن نافع هو: أبو عبد الله أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع. وابن عبد الحكم هو: أبو محمد عبد الله بن الحكم. وابن وهب هو: أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم. وسحنون هو: أبو سعيد عبد السلام بن سعيد. وأشهب هو: أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز. وكلهم من فقهاء المالكية المصريين الذين عرفوا بالإمامة في الفقه.

(٣) هو أبو الحسن عليّ بن محمد بن خلف، من أئمة الحديث. توفي سنة ٤٠٣ هـ.

(٤) كل من اللحم والشحم والغضروف اسم خاص إذا أُطلق لا يدخل فيه الآخر ولا يدل عليه، فتخصيص اللحم بالذكر تخصيص له بالحكم، إلا أننا نقول: إن الشحم تابع للحم ومن هنا يشمله، بخلاف اللحم فإنه غير تابع للشحم، ولهذا كان ذكر اللحم ينوب عن ذكر الشحم، قال الإمام مالك رحمه الله: من حلف لا يأكل لحماً فأكل شحماً يحنث، ومن حلف لا يأكل شحماً فأكل لحماً لا يحنث، وقد حرم الله على بني إسرائيل الشحوم فلم يدخل في تحريمها عليهم اللحوم. قول بعض المحققين في قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَي مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِير فإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ الضمير في قوله: (فإِنَّهُ) عائد على (خِنْزِير) ليفيد تحريم سائر أجزائه، وقد اعْتُرِضَ بأن الكلام إذا كان فيه مضاف ومضاف إليه عاد الضمير إلى المضاف دون المضاف إليه لأنه هو المُحَدَّث عنه، إلا أننا نقول: إعادته على المضاف إليه هنا أولى من حيث المعنى، لأن تحريم اللحم استفيد من قوله أو لحم خنزير، فلو عاد الضمير عليه كان الكلام خالياً من فائدة التأسيس، ونظير ذلك في عود الضمير على المضاف إليه قوله تعالى: ﴿واشْكُروا نِعْمَةَ اللهِ إن كُنْتُمْ إياه تَعْبُدُون﴾ وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَار يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ وعليه فالقاعدة المذكورة أغلبية.

(٥) يخالف داود الظاهري في هذا، اللهم إلا إذا كان خلافه غير معتد به عند ابن عطية تبعاً لإمام الحرمين. انظر (ح).

وفي خنزير الماءِ كراهية، أَبَى مالك أَن يجيب فيه، وقال: أَنتم تقولون: خنزيراً. وذهب أَكثر اللغويين إِلى أَن لفظة الخنزير رباعية، وحكى ابن سيدة[١] عن بعضهم أَنه مشتق من خزر العين لأَنه كذلك ينظر، فاللفظة على هذا ثلاثية.

(وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ) قال ابن عباس، وغيره: المراد ما ذبح للأَنصاب والأَوثان، و(أُهلَّ) معناه: صِيحَ، ومنه استهلال المولود، وجرت عادة العرب بالصياح باسم المقصود بالذبيحة، وغلب ذلك في استعمالهم حتى عُبِّرَ به عن النية التي هي علة التحريم[٢]، أَلَا ترى أَن عَلِيَّ بن أَبي طالب رضي الله عنه راعى النية في الإِبل التي نحرها غالبٌ أَبو الفرزدق، فقال: إِنها مما أُهل به لغير الله، فتركها الناس[٣] ورأَيت في أَخبار الحسن بن أَبي الحسن أَنه سُئِل عن امرأَة مترفة صنعت لِلُعَبِهَا[٤] عرساً، فذبحت جزوراً، فقال الحسن: لا يحل أَكلها، فإِنها إِنما ذبحت لصنم. وفي ذبيحة المجوسي اختلاف، ومالك لا يجيزها البتَّة. وذبيحة النصراني واليهودي جائزة. واختلف فيما حرم عليهم كالطريفة والشحم وغيره بالإِجازة والمنع[٥]. وقال ابن حبيب؛ ما حُرِّم عليهم بالكتاب فلا يحل لنا من ذبحهم، وما حرموه باجتهادهم فذلك لنا حلال. وعند مالك كراهية فيما سمى عليه الكتابي المسيح أَو ذبحه لكنيسته، ولا يبلغ بذلك التحريم.

---

(١) هو الحافظ أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيدة: صاحب كتاب المخصص في اللغة توفي سنة ٤٥٨ هـ.

(٢) يعني أن العبرة بالقصد سواءٌ وجد الإهلال والصياح أم لا، فأبو الفرزدق لما كان قصده بالنحر التباهي والتفاخر، نهى علي رضي الله عنه عن أكلها.

(٣) والذي يُروى في هذه القصة أن (غالباً أبا الفرزدق) فاخر (سُحَيْم بن وَثيل الرياحي) في الطعام، فنحر مائة ناقة، ونحر سحيم ثلاثمائة ناقة وقال للناس: شأنكم بها، فقال علي بن أبي طالب: إنَّها مما أُهِل به لغير الله، فتركها الناس حتى أكلتها الوحوش والطيور. ومثل ذلك في الحكم ما يقع للمعتقدين للأموات من الذبح على قبورهم، فإنه مما أُهل به لغير الله.

(٤) اللُّعبة كالتمثال والدمية. والحاصل أن ذبيحة الأصنام والأوثان لا تؤكل، ويدخل في ذلك ما ذكره المؤلف عن الحسن بن أَبي الحسن، وما يذبح على القبور والأموات عن قصد، لأن ذلك بمثابة الأصنام ولا سيما التي يصاح عليها بأنها ذبيحة فلان. والمعوّل عليه هو النية والقصد.

(٥) قال في المدونة: وما ذبحه اليهود فأصابوه فاسداً عندهم لحال الرئة وشبهها التي يحرمونها في دينهم، فمرة أجاز مالك أكلها، ثم كرهه وقال: لا تؤكل. انتهى. قال ابن ناجي في شرحها: اختلف في المسألة على ثلاثة أقوال: الجواز، والكراهة، وكلاهما لمالك فيها، والتحريم لظاهر قول ابن القاسم كما هو ظاهر العتبي عن ابن كنانة. وقد اعتمد بعضهم الحرمة لما ذكره الشيخ عبد الحق الإسلامي الذي له مزيد اطلاع على كتب اليهود، من عوامل التحريم.

وقوله تعالى: (فَمَنِ اضْطُرَّ) الآية ـ ضمت النون للالتقاءِ إتباعاً للضمة في الطاءِ حسب قراءَة الجمهور، وقرأَ أَبو جعفر، وأَبو السمال: [فَمَنِ اضْطِرَّ] بكسر الطاءِ، وأَصله (اضطُرِر) فلما أُدغم نقلت حركة الراءِ إِلى الطاءِ. وقرأَ ابن محيصن: [فَمَنِ اطُّرَّ] بإِدغام الضاد في الطاءِ، وكذلك حيثما وقع في القرآن.

ومعنى اضطر: ضَمَّه عُدْمٌ وَغَرْثٌ[١]، هذا هو الصحيح الذي عليه جمهور العلماءِ والفقهاءِ. وقيل: معناه أُكره وغُلب على أَكل هذه المحرمات.

و(غَيْرَ بَاغٍ) في موضع نصب على الحال، والمعنى فيما قال قتادة، والربيع، وابن زيد، وعكرمة وغيرهم: غير قاصد فساد وتعد، بأَن يجد عن هذه المحرمات مندوحة ويأْكلها، وهؤلاءِ يجيزون الأَكل منها في كل سفر مع الضرورة، وقال مجاهد، وابن جبير، وغيرهما: المعنى غير باغ على المسلمين وعادٍ عليهم[٢]، فيدخل في الباغي والمعادي قطاع السبل، والخارج على السلطان، والمسافر في قطع الرحم والغارة على المسلمين وما شاكله، ولغير هؤلاءِ هي الرخصة. وقال السدي: (غَيْرَ بَاغٍ) أَي غير متزيد على حد إِمساك رمقه، وإِبقاءِ قوته، فيجيءُ أَكله شهوة ـ (وَلا عَادٍ) أَي متزود[٣].

قال مالك رحمه الله: يأْكل المضطر شبعه، وفي الموطأ ـ وهو لكثير من العلماءِ ـ أَنه يتزود إِذا خشي الضرورة فيما بين يديه من مفازة وقفر.

وعادٍ معناه: عائِد[٤]، فهو من المقلوب كشاكي السلاح، أَصله شائك، وكهار أَصله هائر، وكلاث أَصله لائث.

---

(١) أي أخذه وألجأه فقر وجوع، والعبارة مجاز، ويعني أن الصحيح في تفسير الاضطرار هو إلجاءُ الفقر والجوع إلى هذه المحرمات، والقول بأن معنى الاضطرار هو الإكراه على أكل هذه المحرمات غير صحيح ولا قوي. والحقُّ أن بناءَ الفعل للمفعول يدل على مطلق الضرورة؛ سواء كان بجوع أو إكراه، في حضر أو سفر.

(٢) هذا هو الظاهر، ونحو الآية قوله تعالى: (فَمَنِ اضطر في مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْم) وأما آية الأنعام ففيها إحالة على هاتين الآيتين لأن تفصيل المحرم فيهما، وبهذا تكون آيات إباحة هذه المحرمات للمضطر كلها مقيدة بعدم ارتكاب الإثم.

(٣) أي من الميتة، وقال مالك رحمه الله: يأكل المضطر حتى يشبع، ويتزود منها إن اقتضته الضرورة، وهذا هو الأصح.

(٤) عاد اسم فاعل من عدا، وليس اسم فاعل من عَادَ فيكون مقلوباً أو محذوفاً من باب شاك ولاث، لأن القلب لا يصار إليه إلا لموجب، ولا موجب هنا لادعاءِ القلب. قاله (ح) رحمه الله.

وباغ أَصله باغي، استثقلت الكسرة على الياءِ فسكنت، والتنوين ساكن، فحذفت الياءُ، والكسرة تدل عليها، ورفع الله الإِثم لما أَحل الميتة للمضطر، لأَن التحريم في الحقيقة متعلقه التصرف بالأَكل، لا عين المحرم، ويطلق التحريم على العين تجوزاً.

ومنع قوم التزود من الميتة وقالوا: لما استقلت قوة الآكل صار كمن لم تصبه ضرورة قبل.

ومن العلماءِ مَنْ يرى أَن الميتة من بني آدم والخنزير لا تكون فيها رخصة اضطرار لأَنهما لا تصح فيهما ذكاة بوجه، وإِنما الرخصة فيما تصح الذكاة في نوعه(١).

وقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ) الآية قال ابن عباس، وقتادة، والربيع، والسدي: المراد أَحبار اليهود، الذين كتموا أَمر محمد ﷺ، و(الكتاب): التوراة والإِنجيل، والضمير في (به) عائد على الكتاب، ويحتمل أَن يعود على (ما) وهو جزءٌ من الكتاب فيه أَمر محمد ﷺ، وفيه وقع الكتم لا في جميع الكتاب، ويحتمل أَن يعود على الكتمان.

والثمن القليل: الدنيا والمكاسب، ووصف بالقلة لانقضائه ونفاده، وهذه الآية؛ وإِن كانت نزلت في الأَحبار، فإِنها تتناول من علماءِ المسلمين مَنْ كتم الحق مختاراً لذلك لسبب دنيا يصيبها(٢).

---

(١) كون الأكل من الميتة رخصة هو الصحيح، ومن الناس من رأى ذلك عزيمة، واستدل بقول مسروق: إن ترك المضطر الأكل من الميتة حتى مات دخل النار لأنه كمن قتل نفسه، والله يقول (وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ الله كَان بِكُمْ رَحِيماً) الآية.

(٢) لأن الاعتداد بعموم لفظها لا بخصوص سببها، ومن هنا ينبغي للعلماءِ والقائمين على التعليم عموماً أن يبتعدوا عن أخذ الهدايا والرشا من الطلبة والمتعلمين، وقد قال الله تعالى لنبيه: (قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلا المَوَدَةَ في القُرْبَى) وفي سنن أَبي داود، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: عَلَّمْتُ ناساً من أهل الصفة الكتاب والقرآن وأَهدى إلي رجل منهم قوساً فقلت: ليست بمال وأرمي عليها في سبيل الله، لآتين رسول الله ﷺ فلأسأَلنه، فأتيته فقلت: يا رسول الله! رجل أهدى إلي قوساً فيمن كنت أُعلمه الكتاب والقرآن، وليست بمال وأرمي عليها في سبيل الله، قال: «إن كنت تحب أن تُطَوَّقَ طوقاً من نار فاقبلها»وفي رواية؛ قلت: ما ترى فيها يا رسول الله؟ قال: «جمرةٌ بين كَتِفَيْكَ تقلدتها أو تعلقتها».
وروى الطبراني في معجمه الأوسط عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «علماءُ هذه الأمة رجلان، رجل آتاه الله علماً فبذله للنَّاس ولم يأخذ عليه طَعماً، ولم يشتر به ثمناً قليلاً، فذلك يُصَلِّي عليه طير السماء وحيتان الماء ودواب الأرض والكرام الكاتبون، يقدم على الله سيداً شريفاً حتى يرافق=

وذكرت البطون في أكلهم المؤدي إلى النار، دلالة على حقيقة الأكل، إذ قد يستعمل مجازاً في مثل: أكل فلانٌ أرضي ونحوه، وفي ذكر البطن أيضاً تنبيه على مذمتهم، لأنهم باعوا آخرتهم بحظهم من المطعم، الذي لا خطر له، وعلى هُجْنتهم بطاعة بطونهم. وقال الربيع، وغيره: سمي مأكولهم ناراً لأنه يؤول بهم إلى النار[1]، وقيل: معنى الآية: إن الله تعالى يعاقبهم على كتمانهم بأكل النار في جهنم حقيقة.

وقوله تعالى: (وَلا يُكَلِّمُهُمُ)، قيل: هي عبارة عن الغضب عليهم، وإزالة الرضى عنهم، إذ في غير موضع من القرآن ما ظاهره أن الله تعالى يكلم الكافرين كقوله: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[2] ونحوه، فتكون هذه الآية بمنزلة قولك: فلان لا يكلمه السلطان، ولا يلتفت إليه، وأنت إنما تعبر عن انحطاط منزلته لديه. وقال الطبري وغيره: المعنى: ولا يكلمهم بما يحبون، وقيل: المعنى: لا يرسل إليهم الملائكة بالتحية.

(ولا يُزَكِّيهِمْ) معناه: ولا يطهرهم من موجبات العذاب، وقيل: المعنى لا يسميهم أزكياءَ. و(أَلِيمٌ) اسم فاعل بمعنى مؤلم.

قوله عز وجل:

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

= المرسلين، ورجل آتاه الله علماً في الدنيا فضن به على عباد الله، وأخذ عليه طعماً، واشترى به ثمناً قليلاً، فذلك يأتي يوم القيامة مُلَجماً بلجام من نار، وينادي منادٍ على رؤوس الأشهاد: هذا فلان بن فلان آتاه الله علماً في الدنيا فضَنَّ به على عباد الله، وأخذ عليه طعماً، واشترى به ثمناً قليلاً، ثم يعذب حتى يفرغ من الحساب» انتهى.

(١) والتعبير عن الشيء بما يؤول إليه وارد بكثرة في القرآن والشعر العربي، ومن ذلك قول الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً).

(٢) من الآية (١٠٨) من سورة المؤمنون.

لمَّا تركوا الهدى وأَعرضوا عنه ولازموا الضلالة وتكسبوها ـ مع أَن الهدى ممكن لهم ميسر ـ كان ذلك كبيع وشراءٍ، وقد تقدم[(١)] إِيعاب هذا المعنى[(٢)]. ولما كان العذاب تابعاً للضلالة التي اشتروها، وكانت المغفرة تابعة للهدى الذي اطرحوه أُدخلا في تجوز الشراءِ.

وقوله تعالى: (فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّار) قال جمهور المفسرين: (ما) تعجب[(٣)]، وهو في حيز المخاطبين[(٤)]، أَي هم أَهل أَن تعجبوا منهم ومما[(٥)] يطول مكثهم في النار. وفي التنزيل[(٦)] ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ و﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾[(٧)] وبهذا المعنى صدر أَبو علي، وقال قتادة، والحسن، وابن جبير، والربيع: أَظهر التعجب من صبرهم على النار لما عملوا عمل من وطن نفسه عليها. وتقديره: ما أَجرأَهم[(٨)] على النار إِذ يعملون عملا يؤدي إِليها. وقيل: (ما) استفهام، معناه: أَي شيءٍ صبرهم على النار؟ ذهب إِلى ذلك معمر بن المثنى[(٩)]، والأَول أَظهر[(١٠)].

ومعنى (أَصبرهم) في اللغة: أَمرهم بالصبر، ومعناه أَيضاً: جعلهم ذوي صبر[(١١)]، وكلا المعنيين متجه في الآية على القول بالاستفهام. وذهب المبرد في باب التعجب من

---

(١) أي في أول سورة البقرة عند قوله تعالى: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ).

(٢) إيعاب هذا المعنى: أي جمعه واستيفاؤه.

(٣) لأن التعجب استعظام أمر خَفِي سببه، وهذا المعنى مستحيل على الله تعالى، فلذا كان التعجب مصروفاً إلى الخلق وفي حَيِّزهم.

(٤) أي الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة.

(٥) أي: ومِنْ طول مكثهم في النار، فما مصدرية.

(٦) تأييد لكون (ما) تعجبية.

(٧) الآية (١٧) من سورة عبس ـ ومن الآية (٣٨) من سورة مريم.

(٨) هذا يدل على أن (أصبر) تأتي بمعنى (أجرأ) وهي لغة يمنية ـ حكى الفراءُ عن الكسائي أنه قال: أخبرني قاضي اليمن أَنه اختصم إليه رجلان فحلف أحدهما على حق صاحبه، فقال له الآخر: ما أصبرك على الله، أي ما أجراك عليه.

(٩) هو أبو عبيدة، اللغوي المشهور.

(١٠) وهو كون (ما) تعجبية، قال (ح): وهو قول الجمهور من المفسرين. البحر المحيط ١ـ٤٩٤.

(١١) ولا تكون (أصْبر) بمعنى (صبر) أي (حبس واضطر) كما قال المبرد في (المقتضب)، فإن المعروف أن الهمزة إنما تكون للنقل أي: جَعَلَه ذا صبر.

«المقتضب» إلى أن هذه الآية تقرير واستفهام لا تَعَجُّب، وأَن لفظة أَصْبرَ بمعنى اضطر وحبس، كما تقول: أَصبرت زيداً على القتل، ومنه نَهْيُ النبي ﷺ أَن تصبر البهائم(١)، قال ومثله قول الشاعر:

قُلْتُ لَهَا أُصْبِرُهَا دَائِباً أَمْثَالُ بِسْطَام بن قَيْسٍ قَلِيلْ(٢)

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

الضبط عند المبرد بضم الهمزة وكسر الباءِ، ورُدَّ عليه في ذلك، فإنها لا يُعرف في اللغة أُصبِر بمعنى صبر، وإنما البيت أَصبُرها بفتح الهمزة وضم الباءِ، ماضيه صبر، ومنه المصبورة، وإنما يرد قول أَبي العباس على معنى: أَجعلها ذات صبر.

وقوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ) الآية، المعنى: ذلك الأَمر، أَو الأَمر ذلك، بأَن الله نزل الكتاب بالحق، فكفروا به، والإشارة على هذا إلى وجوب النار لهم، ويحتمل أَن يقدر: فعلنا ذلك، ويحتمل أَن يقدر: وجب ذلك، ويكون (الكتاب) جملة القرآن على هذه التقديرات. وقيل: إن الإشارة بالكتاب إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ الآية(٣)، أَي: وجبت لهم النار بما قد نزله الله في الكتاب من الخبر

(١) روى البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه دخل دار الحكم بن أيوب فإذا قوم قد نصبوا دجاجة يرمونها، فقال أنس: نهى رسول الله ﷺ أن تصبر البهائم، وهو أن يمسك من ذوات الروح شيء حيٌ ثم يُرمى بشيءٍ حتى يموت. وفي الصحيحين، وغيرهما أن النبي ﷺ لعن فاعل ذلك، لأنه تعذيب للحيوان، وإتلاف لنفسه، وتضييع لماليته، وتفويت لذكاته إن كان مما يُذكى.

(٢) البيت للحطيئة. وكنيته أبو مليكة، واسمه جرول العبسي. قال الجوهري: بسطام ليس من أسماء العرب، وإنما سمى قيس بن مسعود ابنه بسطاماً بكسر الباءِ باسم ملك من ملوك فارس، كما سموا قابوس ودختنوس، والذي في «لسان العرب» «وتاج العروس»:

قلتُ لها أَصبِرُها جاهداً وَيْحَكِ أمثالُ طريفٍ قليلْ

وفي «مجموعة شعر الحطيئة» الصادرة عن مكتبة صادر ببيروت أنه قال يمدح طريف بن دفاع:

قلتُ لها أُصبرها صادقاً ويحك: أمثال طريف قليل
قد يقصر الماجد عن فِعْله وينفس الجودَ عليه البخيل
ذاك فتى يبذُل ذا قدره لا يفسد اللحم لديه الصلول
بلغه صالح سعي الفتى عز تليد وعنان طويل

(٣) من الآية (٦) من سورة البقرة.

به، والإشارة بـ(ذَلِكَ) ـ على هذا ـ إلى اشترائهم الضلالة بالهدى(١)، أي ذلك بما سبق لهم في علم الله وورد إخباره به. و(بِالْحَق) معناه: بالواجب، ويحتمل أن يراد بالأخبار الحق أي الصادقة(٢)، والذين اختلفوا في الكتاب؛ قال السدي: هم اليهود والنصارى، لأن هؤلاءِ في شق. وهؤلاءِ في شق، ويظهر أن الشقاق سميت به المشادة والمقاتلة ونحوه، لأن كل واحد يشق الوصل الذي بينه وبين مُشَاقه. وقيل: إن المراد بالذين اختلفوا كفار العرب، لقول بعضهم: هو سحر، وبعضهم: هو أَساطير، وبعضهم: هو مفترى، إلى غير ذلك، وشقاق هذه الطوائف إنما هو مع الإسلام وأهله. و(بعيد) هنا معناه: من الحق والاستقامة.

وقوله تعالى: (لَيْسَ الْبِرَّ) الآية، وقرأ أكثر السبعة برفع الراءِ، والبر اسم ليس، قال أبو علي: ليس بمنزلة الفعل فالوجه أن يليها الفاعل ثم المفعول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

مذهب أبي علي أن (ليس) حرف، والصواب الذي عليه الجمهور أنها فعل. وقرأ حمزة، وعاصم في رواية حفص: (لَيْسَ البِرَّ) بنصب الراءِ، وجعل (أَنْ تُوَلُّوا) بمنزلة المضمر، إذ لا يوصف كما لا يوصف المضمر، والمضمر أولى أن يكون اسماً يخبر عنه(٣).

وفي مصحف أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود: (لَيْسَ الْبِرَّ بِأَنْ تُوَلُّوا)، وقال الأعمش: إن في مصحف عبد الله: (لا تَحْسَبَنَّ الْبِرَّ)(٤).

وقال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: الخطاب بهذه الآية للمؤمنين، فالمعنى: ليس البر الصلاة وحدها، وقال قتادة، والربيع: الخطاب لليهود والنصارى، لأنهم اختلفوا في التوجه والتَّولِّي، فاليهود إلى بيت المقدس، والنصارى إلى مطلع الشمس، وتكلموا في تحويل القبلة، وفضلت كل فرقة توليها، فقيل لهم: ليس البر ما أنتم فيه،

---

(١) واشتراؤهم ذلك هو الذي أوجب لهم النار، فلا منافاة بينه وبين قوله قبلُ: أي وجبت لهم النار بما قد نزله الله في الكتاب.

(٢) توضيح لقوله: الحق.

(٣) توضيح ذلك أنَّ (إنَّ وصِلَتَهَا) شبيهة عندهم بالمضمر في كونها لا توصف كما لا يوصف المضمر، وكأنه قد اجتمع هنا مظهر ومضمر، وإذ اجتمعا فالمضمر هو الاسم لأنه أعرف المعارف.

(٤) على ما قاله الأعمش يكون في مصحف عبد الله قراءتان: (لَيْسَ البِرَّ بأنْ تُوَلُّوا) (وَلا تَحْسَبَنَّ الْبِرَّ).

ولكن البر من آمن بالله. قرأ قوم: (ولكنَّ البِرَّ) بشد النون ونصب البر. وقرأ الجمهور: (ولَكن الْبِرُّ)[١] والتقدير: ولكن البرُّ برُّ مَنْ. وقيل: التقدير: ولكن ذو البر مَنْ، وقيل: البرّ بمنزلة اسم فاعل تقديره ولكن البارُّ مَنْ، والمصدر إذا نُزِّل منزلة اسم الفاعل فهو ولا بد محمول على حذف مضاف كقولك: رجل عدل ورضى[٢].

والإيمان: التصديق، أي صدَّق بالله تعالى، وبهذه الأُمور كلها حسب مخبرات الشرائع.

وقوله تعالى: (وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ) الآية، هذه كلها حقوق في المال سوى الزكاة، وبها كمال البر[٣]، وقيل: هي الزكاة. و(آتى) معناه: أعطى، والضمير في (حُبِّه) عائد على المال[٤]، فالمصدر مضاف إلى المفعول، ويجيءُ قوله: (عَلَى حُبِّهِ) اعتراضاً بليغاً أثناءَ القول[٥]. ويحتمل أن يعود الضمير على الإيتاءِ، أي في وقت حاجة من الناس وفاقة، فإيتاءُ المال حبيب إليهم، ويحتمل أن يعود على اسم الله تعالى من قوله: (مَنْ آمَنَ بِالله)، أي من تصدق محبة في الله تعالى وطاعته، ويحتمل أن يعود على الضمير المستكن في (آتى)، أي: على حبِّه المال، فالمصدر مضاف إلى الفاعل. والمعنى المقصود أن يتصدق المرءُ في هذه الوجوه وهو شحيح صحيح يخشى الفقر ويَأْمُلُ الغنى، كما قال ﷺ[٦]، والشح في هذا الحديث هو الغريزي الذي في قوله

---

(١) أي بتخفيف النون ورفع البر.

تنبيه: في تكملة الإمام السيوطي رحمه الله هنا ما نصه: وقرىء بفتح الباء أي البارّ. انتهى.

وهذه القراءة لا وجود لها فيما نعلم لا في المتواتر ولا في الشواذ، وقد قال المبرد: لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت: ولكن البر بفتح الباء، فلو كانت تلك القراءة موجودة ما قال المبرد هذا الكلام، والكمال لله تعالى ـ أفاده بعض شيوخنا.

(٢) يلاحظ أن هذا القول راجع إلى القول الأول. تأمل.

(٣) روى الترمذي، وابن ماجه، والدارقطني، عن فاطمة بنت قيس قالت: قال رسول الله ﷺ: (في المال حق سوى الزكاة).

(٤) هذا أقوى وأصح لأنه أقرب مذكور، وحاصل الآراء في عود الضمير: المال، أو الإيتاء، أو الله، أو المعطي للمال.

(٥) يعني أنه وقع اعتراضاً وفصلاً بين المفعولين، وهو فصل بليغ لدلالته على أنه آثر غيره بشيء محبوب ومرغوب فيه، والإيثار من أعلى صفات الإيمان، ونظير هذه الآية قوله تعالى: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ) الآية.

(٦) رواه الشيخان، عن أبي هريرة، ولفظ مسلم: (أيُّ الصدقة أعظم؟ قال: أن تصدق وأنت صحيح شحيح=

تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾(١). وليس المعنى أن يكون المتصدق متصفاً بالشح الذي هو البخل.

و(ذَوِي الْقُرْبَى) يراد به قرابة النَّسَب. واليُتْم في الآدميين من قبل الأب قبل البلوغ. وقال مجاهد، وغيره: ابن السبيل المسافر لملازمته السبيل، وهذا كما يقال: ابن ماءٍ؛ للطائر الملازم للماءِ، ومنه قول النبي ﷺ: (لا يدْخُل الجَنَّةَ ابنُ زِنَا)(٢) أي: الملازم له، وقيل: لمَّا كانت السبيل تُبْرزه، شُبِّهَ ذلك بالولادة، فنسب إليها. وقال قتادة: ابن السبيل: الضيف.

(وَفِي الرِّقَابِ) يراد به العتق وفك الأَسرى وإعطاءُ أَواخر الكتابات. (وأَقَامَ الصَّلاةَ) أَتمها بشروطها. وذكر الزكاة هنا دليلٌ على أَن ما تقدم ليس بالزكاة المفروضة، (والْمُوفُونَ) عطف على (مَنْ) في قوله: (مَنْ آمَنَ)، ويحتمل أَن يُقَدَّر: وهُمُ الموفون.

(والصَّابِرِينَ) نصب على المدح، أَو على إضمار فعل، وهذا مهيع(٣) في تكرار النعوت. وفي مصحف عبد الله بن مسعود: (والْمُوفِينَ) على المدح، أَو على قطع النعوت. وقرأَ يعقوب، والأعمش، والحسن: (والْمُوفُونَ والصَّابِرونَ). وقرأَ الجحدري: (بِعُهُودِهِمْ).

و(الْبَأْسَاءِ) الفقر والفاقة، (والضَّرَّاءِ) المرض ومصائب البدن، (وَحِينَ الْبَأْس) وقت

= تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تُمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان). وروى النسائي عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: (مثل الذي يُنفق أو يتصدق عند موته، مَثَلُ الذي يُهدي بعد ما يشبع).

(١) من الآية (٢٨) من سورة النساء.

(٢) رواه النسائي، وابن حبان، وأبو نعيم في الحلية، من حديث أبي هريرة، وزعم ابن الجوزي رحمه الله أنه حديث موضوع، وقال الحافظ ابن حجر: فسره العلماء على تقدير صحته بما إذا عمل بعمل أبويه، واتفقوا على أن الحديث لا يحمل على ظاهره، وقيل: إن واظب على ذلك، وهو ما أشار إليه ابن عطية رحمه الله بقوله: أي الملازم له.

(٣) أي طريق مألوف وموجود في كلام العرب لا مطعن فيه لأحد، قال أبو علي الفارسي: إذا كثرت الصفات في معرض المدح والذم فالأحسن أن تخالف بإعرابها، ولا تُجْعَل كلها جارية على موصوفها لأن هذا الموضع من مواضع الإطناب في الوصف والإبلاغ في القول، فإذا خولف في إعراب الأوصاف كان المقصود أكمل، لأن الكلام عند الاختلاف يصير كأنه أنواع من الكلام وضروب من البيان، وعند الاتحاد في الإعراب يكون وجهاً واحداً، أو جملة واحدة. ا.هـ.

شدة القتال، هذا قول المفسرين في الألفاظ الثلاثة، وتقول العرب: بَئس الرجل إذا افتقر، وبَؤُس إذا شجع.

ثم وصف تعالى أَهل هذه الأفعال البَرَّة بالصدق في أُمورهم. أَي: هُمْ عند الظن بهم، والرجاءِ فيهم، كما تقول: صدقني المال، وصدقني الرمح، ومنه: عود صَدْقٌ[1]، وتحتمل اللفظة أَيضاً صدق الأخبار، ووصفهم الله تعالى بالتُّقى، والمعنى: هم الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية من العمل الصالح.

قوله عز وجل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾.

(كُتِبَ) معناه: فُرض وأُثبت، والكَتْبُ مستعملٌ في الأُمور المخلدات الدائمة كثيراً. وقيل: إن (كُتِبَ) في مثل هذا؛ إخبار عما كُتِبَ في اللوح المحفوظ وسبق به القضاءُ.

وصورةُ فَرْضِ القصاص هو أَن القاتل فُرض عليه ـ إذا أَراد الولي القتل ـ الاستسلامُ لأَمر الله، والانقياد لقصاصه المشروع، وأَن الولي فُرض عليه الوقوف عند قتل قاتل وليِّه، وتركُ التعدي على غيره كما كانت العرب تتعدى، وتقتل بقتيلها الرجل من قوم قاتله. وأَن الحكام وأُولي الأَمر فُرض عليهم النهوض بالقصاص، وإقامة الحدود، وليس القصاص بلزام ـ إنما اللزام أَلا يتجاوز القصاص إلى اعتداءٍ، فأَما إذا وقع الرضى، بدون القصاص، من دية أَو عفو، فذلك مباح. فالآية مُعْلِمَةٌ أَن القصاص هو الغاية عند التشاح.

(والقِصَاصُ) مأْخوذ من قص الأَثر، فكأَن القاتل سلك طريقاً من القتل فقص أَثره فيها، ومشى على سبيله في ذلك.

و(الْقَتْلَى) جمع قتيل، لفظ يُؤنث تأْنيث الجماعة، وهو مما يدخل على الناس

---

(١) العود: البعير المُسِنُّ وصَدْقٌ على وزن فَلْسٍ أي صلب.

كرهاً، فلذلك جاءَ على هذا البناءِ، كَجَرْحَى وَزَمْنَى وحَمْقَى وَصَرْعَى وَغَرْقَى[(١)].

واختلف في سبب هذه الآية؛ فقال الشعبي: إن العرب كان أَهل العزة منهم والمنعة، إذا قُتِلَ منهم عبدٌ قتلوا به حراً، وإذا قُتلت امرأَة قتلوا بها ذكراً، فنزلت الآية بذلك، ليعلم الله تعالى بالسويَّة، ويذهب أَمر الجاهلية.

وحُكي أَن قوماً من العرب تقاتلوا قتال عُمِّية[(٢)]، ثم قال بعضهم: نقتل بعبيدنا أَحراراً فنزلت الآية.

وقيل: نزلت بسبب قتال وقع بين قبيلتين من الأَنصار، وقيل: من غيرهم، فقتل هؤلاءِ من هؤلاءِ رجالا، وعبيداً ونساءً، فأَمر رسول الله ﷺ أَن يُصْلَحَ بينهم، ويقاصهم بعضهم ببعض بالديات على استواءٍ: الأَحرار بالأَحرار، والنساء بالنساءِ والعبيد بالعبيد.

وروي عن ابن عباس أَن الآية نزلت مقتضية أَلا يُقْتل الرجل بالمرأَة، ولا المرأَة بالرجل، ولا يدخل صنف على صنف، ثم نسخت بآية المائدة ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾[(٣)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله.

هكذا رُوِيَ، وآية المائدة إنما هي إخبار عما كتب على بني إسرائيل، فلا يترتب النسخ إلا بما تُلُقِّي عن رسول الله ﷺ، من أَن حكمنا في شرعنا مثل حكمهم.

ورُوي عن ابن عباس فيما ـ ذكر أَبو عبيد ـ وعن غيره: أَن هذه الآية محكمة، وفيها إجمالٌ فسرته آية المائدة[(٤)]، وأَن قوله هنا: ﴿الحُرِّ بِالحُرِّ﴾ يعم الرجال والنساءَ، وقاله مجاهد.

---

(١) يعني أن هذا البناء الخاص يدل على ما يقع كرهاً من دون اختيار كالقتل والمرض.

(٢) العُمِّية والعِمِّية بتشديد الميم: الكبر أو الضلال، ويقال: قتل عمياً لم يدر من قتله وقال في اللسان: العمياء والعَماية والعُمِّية كلُّه: الغواية واللجاجة في الباطل.

(٣) الآية (٤٥) من سورة المائدة تقول: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ . . . الخ والذي يظهر ـ كما قاله بعض المفسرين المتأخرين، وكما تشير إليه عبارات المتقدمين ـ أن موضع هذه الآية غير موضع ﴿النَّفْسَ بالنَّفْسِ﴾ وأن آية البقرة مجالها الاعتداء الجماعي، وآية ﴿أنَّ النَّفْسَ بالنَّفْسِ﴾ مجالها الاعتداء الفردي، أي اعتداء فرد معين على فرد معين، أو أفراد معينين على فرد أو أفراد معينين كذلك. وأما الاعتداء الجماعي فميزان القصاص فيه هو أن الحُر بالحُر والعَبد بالعبد والأنثى بالأنثى، ولا شيء غير ذلك في مثل هذه الحالة. والله أعلم.

(٤) الإجمال الذي فسرته؛ هو أن القصاص يكون في النفس وفي الأطراف.

وقال مالك رحمه الله: أَحسن ما سمعت في هذه الآية أنه يراد بها الجنس، الذكر والأُنثى فيه سواءُ، وأَعيد ذِكْرُ الأُنثى تأْكيداً وتهمُّماً بإذهاب أَمر الجاهلية.

وروي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وعن الحسن بن أَبي الحسن: أَن الآية نزلت مُبَيِّنَةً حكم المذكورين، ليدل ذلك على الفرق بينهم وبين أَن يَقْتُل حرٌّ عبداً، أَو عبدٌ حراً، أَو ذَكَرٌ أُنثى، أَو أُنثى ذكراً، وقالا: إنه إذا قتل رجل امرأَة، فإن أَراد أَولياؤُها قتلوا صاحبهم، ووفَّوْا أَولياءَه نصف الدية منه[1]، وإن أَرادُوا اسْتَحْيَوْهُ وأَخذوا منه دية المرأَة. وإذا قتلت المرأَة رجلاً فإن أَراد أَولياؤُه قتلوا وأَخذوا نصف الدية، وإلا أَخذوا دية صاحبهم واستحْيَوْها. وإذا قتل الحر العبد فإن أَراد سيد العبد قتل، وأَعطى دية الحر، إلا قيمة العبد، وإن شاءَ استحيا وأَخذ قيمة العبد ـ هذا مذكور عن علي رضي الله عنه، وعن الحسن، وقد أُنكر ذلك عنهما أَيضاً.

وأَجمعت الأُمة على قتل الرجل بالمرأَة، والمرأَة بالرجل، والجمهور لا يرون الرجوع بشيءٍ، وفرقة ترى الاتِّباع بفضل الديات. قال مالك والشافعي: وكذلك القصاص بينهما فيما دون النفس. وقال أَبو حنيفة: لا قصاص بينهما فيما دون النفس، وإنما هو في النفس بالنفس. وقال النخعي، وقتادة، وسعيد بن المسيّب، والشعبي، والثوري، وأَبو حنيفة، ومحمد بن الحسن، وأَبو يوسف: يقتل الحر بالعبد. وقال مالك رحمه الله، وجمهور من العلماءِ: لا يقتل الحر بالعبد، ودليلهم إجماعُ الأُمة على أن العبد لا يقاوم الحر فيما دون النفس، فالنفس مقيسة على ذلك. وأَيضاً فالإجماع فيمن قَتَلَ عبداً خطأً أَنه ليس عليه إلا القيمة، فكما لم يشبه الحر في الخطأ، لم يشبهه في العمد. وأَيضاً فإن العبد سلعة من السلع يباع ويشترى وإذا قتل الرجل ابنه فإن قصد إلى قتله مثل أَن يضجعه ويذبحه أَو يصبره[2] مما لا عذر فيه، ولا شبهة في ادعاءِ الخطأ، فإنه يقتل به قولاً واحداً في مذهب مالك. وإن قتله على حد ما يرمى أَو يضرب فيقتله، ففيه في المذهب قولان: يقتل به، ولا يقتل وتغلظ الدية.

وقوله تعالى: (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ) فيه أَربع تأْويلات.

---

(١) لأن نفس الرجل ليست كنفس المرأة، وهذا على ما فهمناه من الفرق في الآية الكريمة، إلا أنه قد أنكر ذلك عنهما كما سيذكره ابن عطية رحمه الله بعد قليل.

(٢) أي يحبسه ويقتله.

أَحدها أَن (مَنْ) يراد بها القاتل، و(عُفِيَ) يتضمن عافياً هو ولي الدم، و(الأَخ) هو المقتول. ويصح أَن يكون هو الولي على هذا التأويل، وهي[١] أُخوة الإسلام، و(شَيْءٌ) هو الدم الذي يُعفى عنه، ويرجع إلى أَخذ الدية، هذا قول ابن عباس وجماعة من العلماءِ، والعفو على هذا القول في بابه[٢]. والضميران راجعان على (مَنْ) في كل تأويل.

والتأْويل الثاني ـ وهو قول مالك ـ أَن (مَنْ) يراد بها الولي[٣]، و(عُفِيَ) بمعنى يُسِّرَ، لا على بابها في العفو، و(الأَخ) يراد به القاتل، و(شَيْءٌ) هي الدية، والأُخوة على هذا أُخوة الإسلام، ويحتمل أَن يراد بالأَخ على هذا التأويل المقتول، أَي يُسِّر له من قِبل أَخيه المقتول وبسببه، فتكون الأُخوة أُخوة قرابة وإسلام. وعلى هذا التأْويل قال مالك رحمه الله: إن الولي إذا جنح إلى العفو على أَخذ الدية، فإن القاتل مُخَيَّر بين أَن يعطيها أَو يسلم نفسه، فمرة تيسر ومرة لا تيسر. وغير مالك يقول: إذا رضي الأَولياءُ بالدية فلا خيار للقاتل بل تلزمه[٤]، وقد رُوي أَيضاً هذا القول عن مالك، ورجحه كثير من أَصحابه.

والتأْويل الثالث أَن هذه الأَلفاظ في المعنيين الذين نزلت فيهم الآية كلها، وتساقطوا الديات فيما بينهم مقاصة، حسب ما ذكرناه آنفاً، فمعنى الآية: فمن فضل له من الطائفتين على الأُخرى شيءٌ من تلك الديات. ويكون (عفي) بمعنى فضل، من قولهم: «عفا الشيءُ إذا كثر»[٥] أَي أَفضلت الحال له أَو الحساب أَو القدر.

والتأْويل الرابع هو على قول علي رضي الله عنه، والحسن بن أَبي الحسن في الفضل بين دية المرأَة ودية الرجل، والحر والعبد، أَي من كان له ذلك الفضل، فاتباع

(١) أي الأخوة المفهومة من (أخيه)، وفي ذلك دلالةٌ على أن القاتل لم يقطع بقتله أُخُوَّةَ الإسلام ولم يخرج بذلك عن ساحة الإيمان.

(٢) يعني أن العفو في باب الجنايات معروف ومشهور، وهو إسقاط ما وجب لك من الحق.

(٣) قال الإمام مالك رحمه الله في الموطأ: تفسير الآية فيما نرى والله أعلم أنه من أعطي من أخيه شيء من العقل فليتبعه بالمعروف وليؤد إليه بالإحسان ا. هـ.

(٤) يضعف هذا القول أن عُفي بمعنى يُسِّر لم يثبت.

(٥) ومنه قوله تعالى: (حَتَّى عَفَوَا) أي كثروا وزادُوا، ويكون ذلك في الحال، أو في الحساب، أو في القدر.

بالمعروف. و(عُفِي) في هذا الموضع أيضاً بمعنى فضل، وكأن الآية مِنْ أولها[1] بينت الحكم، إذا لم تتداخل الأنواع، ثم الحكم إذا تداخلت، و(شَيءٌ) في هذه الآية مفعول لم يُسَمَّ فاعله، وجاز ذلك. و(عُفِي!)[2] لا يتعدى الماضي الذي بُنيت منه ـ من حيث يقدر (شيءٌ) تقدير المصدر، كأن الكلام: عُفي له من أخيه عفوٌ، و(شَيءٌ) اسم عام لهذا وغيره ـ أو من حيث تقدر عُفي بمعنى[3] ترك، فتعمل عملها، والأول أجود، وله نظائر في كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾[4] قال الأخفش: التقدير لا تضرونه ضرّاً، ومن ذلك قول أبي خراش:

فَعَارِيتُ شَيْئاً والدَّرِيسُ كَأَنَّما ... يُزعزعه وِرْدٌ مِنَ المُوم مُردمُ[5]

وقوله تعالى: (فَاتِّبَاعٌ) رفع على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: فالواجب والحكم اتباع، وهذا سبيل الواجبات كقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾[6] وأما المندوب إليه فيأتي منصوباً كقوله تعالى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾[7]، وهذه الآية حضٌّ من الله تعالى على

---

(١) هو قوله تعالى (يأيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ القِصَاصُ في القَتْلَى) ثم قال عند تداخل الأنواع: (الحُرُّ بالحُرِّ والعَبْدُ بالعَبْدِ والأنثى بالأنثى).

(٢) الواو للحال، وقوله: «مِنْ حَيْثُ يُقدر شيءٌ تقدير المصدر» متعلق بقوله قبله: «وجاز».

(٣) زعم الزمخشري في الكشاف أن هذا لم يثبت، وقد قال أهل اللغة في حديث: (وأعفوا اللحى). يصح أن يكون من الثلاثي والرباعي. وانظر ابن عطية عند تفسير قوله تعالى: (فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ).

(٤) من الآية (٥٧) من سورة (هود) وشيءٌ معناه المصدر، لأن (ضرَّ) إنما يتعدى إلى واحد، ومن ذلك قوله الله أيضاً: (إنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً).

(٥) البيت لأبي خراش الهُذَلِي، ونصُّه كما في الأغاني ولسان العرب:

غَارَرْتُ شَيْئاً والدَّرِيس كأنما ... يُزَغْزِعه وعك مِنَ المُوم مُرْدِمُ

ومعناه: تلبثت أو تنبهت، وفي شرح القاموس ما نصه: هكذا ذكره صاحب اللسان هنا أي في الغين المعجمة، والصواب ذكره في العين المهملة. ونصه هناك (وعارَرْتُ: تمكَّثْتُ) نقله الصاغاني ولم يَعْزُه، وهو قول الأخفش: وقرأت في شرح ديوان الحماسة في شرح قول أبي خراش الهذلي:

فعارَيْتَ شيئاً والرُّداءُ كأنَمَا ... يُزعزعه وِرْدٌ من المُوم مُرْدِمُ

قال أبو سعيد السكري شارح الديوان: يُرْوى: فَعَارَرْتُ ومعناه: تحرنت قليلاً، ومَنْ قال: عارَيْتُ أي انصرفت قليلاً، ويقال: تعار الرجل إذا انتبه، والوِرْدُ: الحِمى، والدريس: الثوبُ البالي. والموم: المراد به هنا البرسام ؟ـ قال في اللسان: والموم: الحمى مع البرسام وهو ذات الجنب وهو التهاب في الغشاء المحيط بالرئة، ومردم معناه: دائم، فأردمت عليه الحمى وهي مردم: دامت ولم تفارقه.

(٦) من الآية (٢٢٩) من سورة البقرة.

(٧) من الآية (٤) من سورة محمد.

حسن الاقتضاءِ من الطالب، وحسن القضاءِ من المؤَدي، وقرأَ ابن أَبي عبلة [فَاتِّبَاعاً] بالنصب[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ذَلك تخفيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، إِشارة إِلى ما شرعه لهذه الأُمة من أَخذ الدية، وكانت بنو إِسرائيل لا دية عندهم، إِنما هو القصاص فقط.

والاعتداءُ المُتَوَعَّد عليه في هذه الآية هو أَن يأْخذ الرجل دية ولِيِّه ثم يقتل القاتل بعد سقوط الدَّم[(٢)]. واختلف في العذاب الأَليم الذي يلحقه؛ فقال فريق من العلماءِ منهم مالك: هو كمن قتل ابتداءً، إن شاءَ الوليُّ قتله، وإِن شاءَ عفا عنه، وعذابه في الآخرة. وقال قتادة، وعكرمة، والسدي وغيرهم: عذابه أَن يقتل البتة، ولا يُمَكِّن الحاكم الولي من العفو، وروي عن النبي ﷺ أَنه قال: (نقسم أَلا يعفى عن رجل عفا عن الدم، وأَخذ الدية ثم عدا فقتل)[(٣)] وقال الحسن: عذابه أَن يرد الدية فقط، ويبقى إِثمه إِلى عذاب الآخرة. وقال عمر بن عبد العزيز: أَمره إِلى الإِمام يصنع فيه ما رأَى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ في الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ نحوه[(٤)] قول العرب في مثل: «القتل أَوقى للقتل»، ويروى: أَبقى (بباءٍ وقافٍ)، ويروى: أَنفى (بنون وفاءٍ)[(٥)]. والمعنى أَن القصاص

(١) وكان سنده في هذه التفرقة هو أن الجملة الاسمية آكد وأقوى من الجملة الفعلية.

(٢) الاعتداء وتجاوز الحد يشمل هذا وغيره، والمعنى أن من اعتدى وتجاوز هذا التشريع بأن قتل غير القاتل أو قتل أكثر من واحد، أو عفا وأخذ الدية ثم قتل فله عذاب أليم، وإن كانت الآثار تخصص بالذكر هذا الأخير.

(٣) في تفسير الإمام (ط) رحمه الله: حدثني القاسم بن الحسن قال: حدثنا الحسين قال: حدثني الحجاج قال: قال ابن جريج: أَخبرني إسماعيل بن أُمية عن الليث ـ غير أنه لم ينسبه وقال ـ ثِقَة ـ (أن النبي ﷺ أوجب بِقَسَم أو غيره ألا يعفي عن رجل عفا عن الدم وأخذ الدية ثم عدا فقتل) انتهى. وروى أبو داود، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «لا أُعفي من قتل بعد أخذ الدية»، وهذا دعاءٌ عليه أي لا كثر ماله ولا استغنى، وقال قتادة: وذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أُعافي رجلاً قتل بعد أخذ الدية».

(٤) عبارة القرآن جمعت الحسنى من فصاحة وبلاغة ودلالة، ولا وجه للمفاضلة بينها وبين الكلمة العربية فإن هذه الكلمة وإن كان لها فضل؛ فهو باعتبار حسنها، وفي الآية الكريمة إيحاء بالعدالة والإنسانية حيث عبر بالقصاص، وبأولي الألباب فإنما تكون الحياة في القصاص إذا تحقق العدل وأمن الناس بالأمر، وأما إذا كان الجهل والجور فلا حياة في القصاص، ومن ذلك نعلم أن إقامة ميزان العدل في الحدود والحقوق؛ من شأنه أن يقلل بالجرائم الاجتماعية والضغائن البشرية، وذلك هو سبيل الأمن وطريق النهوض. وفي كتب البلاغة بيان لما في التعبير القرآني من بلاغة.

(٥) رويت هذه الكلمة بروايات كثيرة منها: «القتل أبقى للقتل» ومنها «القتل أوقى للقتل»، ومنها «القتل=

إذا أُقيم وتحقق الحكم به ازدجر من يريد قتل أَحد مخافة أَن يقتص منه فحييا بذلك معاً. وهذا الترتيب مما سبق لهما في الأزل[1]. وَأَيضاً فكانت العرب ـ إذا قتل الرجل الآخر ـ حمي قبيلاهما وتقاتلوا، وكان ذلك داعية إلى موت العدد الكثير، فلما شرع الله القصاص قنع الكل به، ووقف عنده، وتركوا الاقتتال، فلهم في ذلك حياة.

وخص أُولي الأَلباب بالذكر، تنبيهاً عليهم، لأَنهم العارفون القابلون للأَوامر والنواهي، وغيرهم تبع لهم.

و(تَتَّقُونَ) معناه: القتل فتسلمون من القصاص، ثم يكون ذلك داعية لأَنواع التقوى في غير ذلك فإن الله تعالى يُثيب على الطاعة بالطاعة. وقرأَ أبو الجوزاءِ أَوس بن عبد الله الرَّبعي: [وَلَكُمْ في القَصَص][2] أَي في كتاب الله الذي شرع فيه القصاص وحكمه. ويحتمل أَن يكون مصدراً كالقصاص، أَي أَنه قص أَثر القاتل قصصاً، فقُتل كما قَتل.

وقوله تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ) الآية، كأَن الآية متصلة بقوله: (يَأَيها الَّذِينَ آمَنُوا)، فلذلك سقطت واو العطف[3]، و(كُتِبَ) معناه فُرض وأُثبت. وقال بعض أَهل العلم: الوصية فرض. وقال قوم: كانت فرضاً ونسخت، وقال فريق: هي مندوب إِليها. و(كُتِب) عامل في رفع (الوَصِيَّةُ) على المفعول الذي لم يسم فاعله في بعض التقديرات[4] وسقطت علامة التأْنيث من (كُتِبَ) لطول الكلام فَحَسُنَ سقوطها. وقد حكى سيبويه: «قام امرأَة»، ولكن حُسْنُ ذلك إِنما هو مع طول الحائل.

= أنفى للقتل»، ومنها «القتل أتقى للقتل». والظاهر أن هذه الروايات نشأت عن التصحيف أو التحريف الذي حدث في نقط النون والفاء في كلمة ـ أنفى ـ وكل هذه التغييرات جاءت في نقط هذين الحرفين، ومثل هذا واقع ومشهور وبخاصة في العصور الأولى التي لم يكن فيها نقط، أو كان فيها نقط جديد مستحدث، أو نقط غير ملتزم، ومهما يكن من أمر فالرواية المشهورة المتعارفة هي «القتل أنفى للقتل»، وما سواها منه ما هو قريب من معناها، ومنه ماهو بعيد منها، والله أعلم.

(١) يعني أنه لا منافاة بين هذا المعنى (وهو ترتب الحياة على القصاص بسبب أن من يريد القتل ينزجر مخافة الاقتصاص منه) وبين ما في علم الله. فإن هذا مما سبق به علم الله في الأزل.

(٢) قراءة منكرة والمعنى ضعيف. قال أبو جعفر النحاس: هي قراءة شاذة، وأبو الجوزاء روى عن عائشة وأبي هريرة توفي سنة ٨٣هـ.

(٣) الجملة مستأنفة، وهي ظاهرة الارتباط بما قبلها، لأن مَنْ أشرف على أن يقتص منه فقد حضره الموت؛ أي أسبابه. ولا ضرورة تدعو إلى أنَّ (كُتِبَ) أصله العطف على ما قبله، وأن الواو حذفت لطول الكلام واتصاله.

(٤) وفي بعضها يكون العامل في الرفع هو الابتداء.

ولا يصح عند جمهور النحاة أَن تعمل الوصية في (إذَا) لأَنها في حكم الصلة للمصدر الذي هو (الْوَصيَّة)، وقد تقدمت فلا يجوز أَن يعمل فيها متقدمة[١] ويتَّجِهُ في إعراب هذه الآية أَن يكون (كُتِبَ)[٢] هو العامل في (إذا)، والمعنى توجه إِيجابُ الله عليكم ومقتضى كتابه إذا حضر، فعبر عن توجه الإِيجاب بـ (كُتِبَ) لينتظم إلى هذا المعنى أنه مكتوب في الأَزل. و(الوَصِيَّةُ) مفعول لم يسم فاعله بـ(كُتِبَ). وجواب الشرطين: (إذا) و(إن). مُقَدَّرٌ[٣] يدل عليه ما تقدم من قوله: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ)، كما تقول: شكرت فعلك إن جئتني إذا كان كذا.

ويتجه في إعرابها أَن يكون التقدير: كتب عليكم الإِيصاءُ، ويكون هذا الإِيصاءُ المقدر الذي يدل عليه ذكر الوصية بعد هو العامل في (إذا)، وترتفع (الوصية) بالابتداءِ، وفيه جواب الشرطين[٤] على نحو ما أَنشد سيبويه:

مَنْ يَفعَلِ الصَّالِحَاتِ الله يحفَظُهَا[٥] . . . .

(١) أي لأنه مصدر وموصول، ولا يتقدم معمول الموصول عليه عند جمهور النحاة، ويأتي مقابله عند أبي الحسن الأخفش وهو الإعراب الثالث.

(٢) أعرب ابن عطية رحمه الله هذه الآية الكريمة بثلاثة إعرابات كلها متجهة عنده.
الأول: أن (كتب) عامل في (إذا) على أنها ظرف، وفي (الوصية) على أنها مفعول لم يسم فاعله.
الثاني: أن يكون تقدير الآية كُتب عليكم الإيصاء إذا حضر أحدكم الموت فنائب الفاعل هو الإيصاءُ الذي دلت عليه الوصية. و(إذا) معمولة لهذا الإيصاءِ المقدر، و(الوصية) ترتفع بالابتداءِ.
الثالث: أن تكون (الوصية) مرتفعة بكتب على أنها مفعول لم يسم فاعله، و(إذا) معمولة للوصية على مذهب الأخفش، فإنه يجيز تقديم المعمول على الموصول بشرطين. والأول أوجه هذه الآراء.

(٣) في كلامه تناقض كما قاله مفسر الأندلس (ح)، لأنه قال: العامل في (إذا). (كُتِبَ)، وإذا كانت كذلك فقد تمحضت للظرفية، ثم قال: وجواب الشرطين إلخ، وإذا كانت شرطية فالعامل فيها الجواب أو الفعل بعدها، ولا يجوز أن يعمل فيها ما قبلها إلا على من يجيز تقديم جواب الشرط عليه، ولا يُتأول عليه كلام ابن عطية لأنه قال: الجواب مقدر، والمقدر غير الملفوظ به.

(٤) فيه ما سبق من البحث وليس جائزاً أن يكون الشيءُ شرطاً وغير شرط في وقت واحد. ثم إن كل شرط يقتضي جواباً على حدته، والشيءُ الواحد لا يكون جواباً لشرطين.

(٥) في بعض النسخ: الصالحات. وفي بعضها: الحسنات. والذي في كتاب سيبويه:
مَــنْ يَفْعَــلِ الْحَسَنَــاتِ اللهُ يَشْكُــرهَــا والشَّــرُّ بــالشَّــرِ عِنْــدَ اللهِ مِثْــلان
وهو المعروف والمحفوظ، وزعم الأصمعي أن الرواية:
مــن يَفْعَــلِ الْخَيْــرَ فــالــرَّحمــن يَشْكُــرُهُ . . . . =

أَو يكون رفعها بالابتداءِ بتقدير: فَعَلَيْهِ الوصيةُ، أَو بتقدير الفاءِ فقط، كأَنه قيل: فالوصية للوالدين.

ويتجه في إِعرابها أَن تكون (الوصية) مرتفعة بـ(كُتِبَ) على المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله، وتكون (الوَصِيَّةُ) هي العامل في (إِذا)، وهذا على مذهب أَبي الحسن الأَخفش، فإِنه يُجيز أَن يتقدم ما في صلة الموصول بشرطين هما في هذه الآية، أَحدهما: أَن يكون الموصول ليس بموصولٍ مخضٍ، بل يشبه الموصول، وذلك كالأَلف واللام حيث توصل[1]، أَو كالمصدر، وهذا في الآية مصدر وهو (الوَصِيَّة)، والشرط الثاني: أَن يكون المتقدم ظرفاً، فإِن في الظرف يسهل الاتساع، و(إِذا) ظرف، وهذا رأْي أَبي الحسن في قول الشاعر:

تَقُــولُ وَصَكَّــتْ وَجْهَهَــا بِيَمِينِهــا أَبَعْلِي هَذَا بالرَّحَا المُتَقَاعِسُ؟[2]

فإِنه يرى أَن (بالرَّحا) متعلق بقوله: (المتقاعس) كأَنه قال: أَبعلي هذا المتقاعس بالرحا. وجواب الشرطين في هذا القول كما ذكرناه في القول الأَول.

وفي قوله تعالى: (إِذَا حَضَرَ)، مجاز، لأَن المعنى، إِذا تخوف وحضرت علاماته. والخير في هذه الآية: المالُ.

واختلف موجبو الوصية في القدر الذي تجب منه[3] ـ فقال الزهري، وغيره: تجب فيما قَلَّ وفيما كثر، وقال النخعي: تجب في خمسمائة درهم فصاعداً، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وقتادة: في أَلف فصاعداً.

= والشاهد في حذف الفاءِ من الجملة الاسمية للضرورة. والبيت قيل: لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت، وقيل: لكعب بن مالك وقبله:

فَــإِنَّمَــا هَــذِهِ الــدُّنْيَــا وَزَهْــرتهــا كَــالــزَّادِ لابُــدَّ يَــوْمــاً أَنَّــه فَــانــي

(١) أي بالصفات كما في قول الشاعر:
أَبَعْلِي هَذَا بِالرَّحا المُتَقَاعِسُ؟

(٢) هو نعيم بن الحارث بن يزيد السعدي، قال هذا لما مرت به امرأة كان قد تزوجها ولم يدخل بها، مرت به وهو يطحن فقالت محتقرة له: أَبَعْلِي هذا. . .الخ، والمتقاعس الذي يخرج صدره ويدخل ظهره، وذلك شكل من يطحن بالرحا.

(٣) القدر الذي تجب فيه الوصية يختلف باختلاف الأعراف، واختلاف الأعراف باختلاف الأعصار، فقد يكون المبلغ كثيراً في عصر وقليلاً في عصر آخر، وهذا سبب اختلاف العلماء في الحد الذي تجب فيه الوصية.

واختلف العلماءُ في هذه الآية، فقال فريق: هي محكمة، ظاهرها العموم، ومعناها الخصوص، في الوالدين اللَّذِين لا يرثان، كالكافرَيْن والعبدَيْن، وفي القرابة غير الوارثة[١]، وقال ابن عباس، والحسن، وقتادة: الآية عامة[٢]، وتقرر الحكم بها برهة، ونسخ منها كل من يرث بآية الفرائض، وفي هذه العبارة يدخل قول ابن عباس، والحسن وغيرهما: أنه نُسخ منها الوالدان وثبت الأَقربون الذين لا يرثون. وَبَيَّنَ أن آية الفرائض في سورة النساءِ ناسخة لهذه؛ للحديث المتواتر: (إن الله قد أَعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث)[٣]. وقال ابن عمر، وابن عباس أَيضاً، وابن زيد: الآية كلها منسوخة، وبقيت الوصية ندباً، ونحو هذا قول مالك رحمه الله، وقال الربيع بن خُثَيْم[٤]، وغيره: لا وصية لوارث. وقال عزْرة[٥] بن ثابت للربيع بن خُثَيْم: أَوص لي بمصحفك، فنظر الربيع إِلى ولده وقرأَ: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾[٦] ونحو هذا صنع ابن عمر رضي الله عنه[٧]. وقال بعض أَهل العلم: إِن الناسخ لهذه الآية هي السُّنةُ المتواترة في الحديث المذكور قبْل، وقد تقدم توجيه نسخ السنة للكتاب في

(١) اختلف؛ الآية محكمة أم منسوخة؟ فذهب بعض العلماء إلى أنها محكمة، وهي وإن كان ظاهرها العموم فهي خاصة بمن لا يرث. وذهب كثير من الناس إلى أنها منسوخة بآية المواريث مع قوله ﷺ: (لا وصية لوارث). وذهب فريق من الناس إلى أنه نسخ الوجوب وبقي الندب، ومن هذا الفريق الإمام مالك، والإمام الشافعي رحمهما الله تعالى، وهذه هي الأقوال التي عرضها ابن عطية رحمه الله. فَمَنْ وَرَّثته آيات الميراث فلا وصية له، ومَنْ لم تُورثه بقي نص الوصية شاملاً له، على الوجوب أو الندب قولان، والظاهر الثاني.

(٢) أي فيمن يرث وفيمن لا يرث.

(٣) رواه أصحاب السنن، وغيرهم ـ وقد صححه بعض أهل الحديث، وروي من غير وجه، وقد نص الإمام الشافعي رحمه الله في الرسالة على أن هذا المتن متواتر، وأنه نقل كافة عن كافة، وذلك أقوى من نقل واحد، ومضى عليه إجماع المسلمين.

(٤) بالتصغير كما قاله الإمام النووي رحمه الله، وضبطه صاحب الخلاصة بفتح المعجمة والمثلثة بينهما ياءٌ ساكنة، وهو أبو يزيد الثوري الكوفي، قال له ابن مسعود رضي الله عنه: لو رآك النبي ﷺ لأحبك، توفي سنة ٦٤هـ.

(٥) هو ابن ثابت بن أبي زيد الأنصاري البصري، وهو بسكون الزاي كما في الخلاصة.

(٦) من الآية (٧٥) من سورة الأنفال.

(٧) روى شيخ المفسرين الإمام الطبري رحمه الله، عن نافع: أن ابن عمر لم يوص، وقال: أما مالي فالله أعلم ما كنت أصنع فيه في الحياة، وأما رباعي فما أُحب أن يشرك ولدي فيها أحد.

تفسير قوله تعالى: (مَا نَنسَخْ مِنْ آية)[(١)] وقال قوم من العلماءِ: الوصية للقرابة أَولى، فإن كانت لأَجنبي فمعهم، ولا تجوز لغيرهم مع تركهم، وقال الناس حين مات أَبو العالية[(٢)]: عجباً له، أَعتقته امرأة من رياح، وأَوصى بماله لبني هاشم. وقال الشعبي: لم يكن ذلك له ولا كرامة. وقال طاووس: إذا أَوصى لغير قرابته ردت الوصية إِلى قرابته، ونُقِضَ فعله. وقاله جابر بن زيد، وقال الحسن، وجابر بن زيد أَيضاً، وعبد الملك بن يعلى: يبقى ثلث الوصية حيث جعلها، ويُرَدُّ ثلثاها إِلى قرابته. وقال مالك رحمه الله، وجماعة من العلماءِ: الوصية ماضية حيث جعلها الميت.

و(الأَقربون): جمع أَقرب. و(بِالْمَعْرُوفِ) معناه: بالقصد الذي تعرفه النفوس دون إِضرار بالورثة ولا تنزير[(٣)] للوصية. و(حَقًّا) مصدر مؤكد[(٤)]، وخُص المتقون بالذكر تشريفاً للرتبة ليتبارى الناس إِليها.

قوله عز وجل:

﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾.

الضمير في (بَدَّلَهُ) عائد على الإِيصاءِ وأَمر الميت، وكذلك في (سَمِعَهُ)، ويحتمل أَن يعود الذي في (سَمِعَهُ) على أَمر الله تعالى في هذه الآية، والقول الأَول أَسبق للناظر، لكن في ضمنه أَن يكون المبدل عالماً بالنهي عامداً لخلافه. والضمير في (إِثْمُه) عائد

(١) وهو أن الكل حكم الله تعالى ووحْيُه وإن اختلفت الأسماء.

(٢) هو رفيع بن مهران الرياحي البصري، مخضرم، صلى خلف عمر، ودخل على أبي بكر رضي الله عنهما، ومات سنة ٩٠هـ. وإنما أوصى لبني هاشم لصحبته ابن عباس وتعليمه إياه. وإلحاقه بدرجة العلماء في الدنيا والآخرة، فنظر إلى هذه الناحية المعنوية، وهي أولى من الناحية المادية إذ معتقته غايتها أنها ألحقته بأحرار الدنيا فكفاها ثواب عتقها، والله أعلم.

(٣) أي تقليل للوصية، كمن أوصى بدرهم وهو غني ثري فهذا ليس من الوصية بالمعروف.

(٤) أي لمضمون الجملة، فمعناه: حق ذلك حقاً، ويجوز أن يكون مصدراً من معنى كتب، كقعدت جلوساً.

على التبديل، و﴿سمِيع عَلِيمٌ﴾ صفتان لا يخفى معهما شيءٌ من جَنَف المُوصين وتبديل المتعدين. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر، عن عاصم: [مِنْ مُوَصٍّ] بفتح الواو وتشديد الصاد، وقرأ الباقون بسكون الواو.

والجَنَفُ: الميل، وقال الأعشى:

تَجَانَفُ عن حَجْرِ اليَمَامَةِ نَاقَتِي ... ومَا قَصَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا لِسِوَائكا[١]

وقال عامر الرام الخضري المحاربي:

هُمُ المَولَى وَقَدْ جَنَفُوا عَلَيْنَا ... وإنَّا مِنْ عَدَاوَتِهِمْ لَزُور[٢]

ومعنى الآية على ما قال مجاهد: مَن خشي أن يحيف الموصي ويقطع ميراث طائفة، ويتعمد الإِذاية[٣] أو يأتيها دون تعمد، وذلك هو الجنف دون إثم، وإذا تعمد فهو الجنف في إثم، فالمعنى: مَن وعظه في ذلك ورده عنه، فأصلح بذلك ما بينه وبين ورثته، وما بين الورثة في ذاتهم فلا إثم عليه. (إِنَّ اللهَ غَفُورٌ) عن الموصي إذا عملت فيه الموعظة، ورجع عما أراد من الإذاية (رَحِيمٌ) بِهِ.

---

(١) في اللسان وغيره: (جو اليمامة)، وبلاد الجو تنسب إليها فيقال: (جو اليمامة) وفي رواية: (جل اليمامة)، أي عن جل أهل اليمامة. والبيت للأعشى يمدح هودة بن علي الحنفي في قصيدة طويلة. والجنف والتجانف: الجَوْرُ والمَيلُ. وقد قالوا: حَجْرُ اليمامة: قَصَبَتُهَا أو سوقها.

(٢) هو عامر الخصفي المحاربي. قاله أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون في التعليق على المفضليات بعد ذكر قصيدته الميمية التي أولها:

مَنْ مُبْلِغٌ سَعْدَ بْنَ نُعْمَانَ مَالُكا ... وَسَعْدَ بْنَ ذبْيَانَ الَّذي قَدْ تَخَتَّمَا

ولم نجد له ترجمة ولا ذكراً في غير هذا الموضع، وهو من بني محارب بن خصفة العدناني. وفي «المؤتلف» للآمدي ١٥٤: عامر بن الظرب المحاربي، إسلامي وهو غير هذا يقيناً، وغير عامر بن الظرب العدواني حكيم العرب. انتهى. وقال أبو عمر بن عبد البر في «الاستيعاب» عامر الرامي، ويقال الرَّام أخو الخضر، والخضر قبيلة في قيس عيلان (وهم بنو مالك بن طريف بن خلف بن محارب بن نصفة بن قيس عيلان)، يقال لهم: الخضر، روى محمد بن إسحق، عن منظور، عن عامر الرَّام أخي الخضر قال: أنا بأرض محارب إذ أَقْبَلَتْ رايات، وإذا رسول الله ﷺ، فذكر الحديث، انتهى. وقال أبو عبيدة: المولى ـ في البيت ـ بمعنى الموالي، أي أبناءُ العم، فهو من وضع الواحد موضع الجمع، وفي خلاصة الخزرجي: عامر الرَّام صحابِيٌّ: له حديث رواه أبو منظور عن عمه عنه.

(٣) لفظ (الإذاية) لفظ غير صحيح في القياس العربي، والذي في اللسان: الأذى: كل ما تأذيت به. آذاه يؤذيه أذى وأذاة وأذيَّة، وكذلك استعملت لفظة (إيذاء). ويلاحظ أن لفظة (الإذاية) موجودة في كل النسخ الخطية، وفي البحر المحيط، ويظهر أنها كانت شائعة على الألسنة في المغرب العربي.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة والربيع: معنى الآية: من خاف، أَي علم ورأَى وأَتى علمه عليه بعد موت الموصي[1] أَن الموصي حاف وجنف وتعمد إِذاية بعض ورثته، فأَصلح ما وقع بين الورثة من الاضطراب والشقاق فلا إِثم عليه، أَي لا يلحقه إِثم المُبَدِّل المذكور قبلُ وإِن كان في فعله تبديل ما ولابد، ولكنه تبديل لمصلحة، والتبديل الذي فيه الإِثم إِنما هو تبديل الهوى، وقرأَ عبد الله بن عمر: (فَلا ثْمَ) عليه بحذف الأَلف.

و(كُتِبَ) معناه فُرِضَ. و(الصِّيَامُ) في اللغة: الإِمساك وترك التنقل من حال إِلى حال، ومنه قول النابغة:

خَيْـلٌ صِيَـامٌ وخَيْـلٌ غَيـر صـائِمَـةٍ   تَحْتَ العَجَاجِ، وخَيْلٌ تعلُكُ اللُّجُمَا

أَي: خيل ثابتة ممسكة[2] ومنه قول الله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾[3] أَي: إِمساكاً عن الكلام، ومنه قول امرىءِ القيس:

كَـأَنَّ الثُّـرَيـا عُلِّقَـتْ فـي مَصَـامِهَـا   . . . .[4]

أَي في موضع ثبوتها وإِمساكها، ومنه قوله[5]:

فَـدَعْ ذَا وَسَـلِّ الْهَـمَّ عَنْـكَ بِجَسْـرَةٍ   ذَمُـول إذا صَـامَ النَّهَـارُ وهَجَّـرَا

أَي: وقفت الشمس عن الانتقال وثبتت.

---

(١) إنما أُطلق الخوف على العلم لأن الإنسان لا يخاف شيئاً حتى يعلم أنه مما يخاف منه، فهو من إطلاق المسبب على السبب مجازاً.

(٢) أي: عن الجري والحركة.

(٣) من الآية (٢٦) من سورة مريم.

(٤) تمامه:

. . . .   بِـأَمْـرَاسِ كَتَّـانٍ عَلَـى صُـمِّ جَنْـدَلِ

مصامها: موضعها ومكانها، وفي رواية (مصابها) والمعنى واحد، وأمراس كتان هي: حبال محكمة الفتل مصنوعة من الكتان وهو النبات المعروف. وصم جندل: أي حجارة صمَّاء.

(٥) أي امرىء القيس، والبيت من معلقته المشهورة التي قالها عند ذهابه إلى قيصر ملك الروم يستجير به، وأولها:

سَمَـا لَـكَ شَـوْقٌ بَعْـدَ مَـا كَـانَ أَقْصـرَا   وَحَلَّـتْ سُلَيْمَـى بَطْـنَ ظَبْـيٍ فَعَـرْعَـراً

وقد روي البيت: «فدعها وسلّ الهمَّ إلخ» ـ والجسرة: الناقة العظيمة، والذمول: التي تسير سيراً ليناً.

والصيام في الشرع: إمساك عن الطعام[(١)] والشراب مقترنة به قرائن، من مراعاة أوقات وغير ذلك، فهو من مجمل القرآن في قول الحذاق، والكاف من قوله: (كما) في موضع نصب على النعت تقديره: كتْباً كَمَا، أو صَوْماً كَمَا[(٢)]، أو على الحال، كأن الكلام: كُتب عليكم الصيام مشبهاً ما كتب على الذين من قبلكم.

وقال بعض النحاة: الكاف في موضع رفع على النعت للصيام، إذ ليس تعريفه بمحض لمكان الإجمال الذي فيه مما فسرته الشريعة، فلذلك جاز نعته بِكَما، إذ لا تنعت بها إلا النكرات، فهو بمنزلة: «كُتب عليكم صيامٌ» وقد ضعف هذا القول[(٣)]. واختلف المتأولون في موضع التشبيه[(٤)]، فقال الشعبي وغيره: المعنى: كتب عليكم رمضانُ كما كتب على النصارى، قال: فإنه كتب عليهم رمضان فبدلوه لأنهم احتاطوا له، بزيادة يوم في أوله، ويوم في آخره، قرناً بعد قرن، حتى بلغوه خمسين يوماً، فصعب عليهم في الحر فنقلوه إلى الفصل الشتوي. قال النقاش: وفي ذلك حديث عن دغفل بن حنظلة، والحسن البصري، والسدي[(٥)]. وقيل: بل مرض ملك من ملوكهم، فنذر إن برئَ أن يزيد فيه عشرة أيام، ثم آخر سبعة، ثم آخر ثلاثة، ورأوا أن الزيادة فيه حسنة بإزاءِ الخطأ في نقله[(٦)]. وقال السدي، والربيع: التشبيه هو أنه من الإفطار إلى مثله، لا يأكل ولا يشرب ولا يطأُ، فإذا حان الإفطار فلا يفعل هذه الأشياءَ من نام، وكذلك كان في النصارى أولاً، وكان في أول الإسلام، ثم نسخه الله بسبب عمر وقيس بن صرمة بما يأتي من الآيات في ذلك[(٧)] وقال عطاءٌ: التشبيه؛ كتب عليكم الصيام ثلاثة أيام من كل شهر.

---

(١) أي: وعن غير ذلك من كل ما يخل بالصيام من أنواع الشهوات والمحرمات.

(٢) في هذا بُعْد، من حيث تشبيه الصوم بالكتابة، لأن تشبيه الصوم بالكتابة لا يصح إن كانت مصدرية، وإن كانت موصولة ففيه تشبيه الصوم بالمصوم، وهو لا يصح إلا على تأويل بعيد ـ البحر المحيط ٢ـ٢٩.

(٣) نحو هذا ما قيل في قوله تعالى: (وَآيَةٌ لَهُم اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ) وهو خلاف ما تقرر في النحو من وجوب التوافق بين النعت والمنعوت، ولذا حكم ابن عطية رحمه الله بضعف هذا القول.

(٤) يعني في عدده ووقته، أو في فرضه ووجوبه، أو في صفته وكيفيته. أو في مطلق الصوم وعمومه.

(٥) رواه البخاري في التاريخ والطبراني.

(٦) يعني أنهم اعتبروا الزيادة فيه شافعة لهم في نقله عن وقته بسبب الحرارة.

(٧) عند قوله تعالى: (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَام الرَّفَثُ إلى نِسَائِكُمْ) الآية. وقيس هذا موضع خلاف في اسمه: قيل: اسمه قيس بن صرمة، وقيل: أبو قيس بن صرمة، وقيل: صرمة بن قيس. راجع (الإصابة وأسد الغابة).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي بعض الطرق: ويوم عاشوراءَ، كما كتب على الذين من قبلكم ثلاثة أَيام من كل شهر ويوم عاشوراءَ، ثم نسخ هذا في هذه الأُمة بشهر رمضان، وقالت فرقة: التشبيه كتب عليكم كصيام بالإِطلاق، أَي: قد تقدم في شرع غيركم، فالَّذين عام في النصارى وغيرهم. و(لَعَلَّكُمْ) ترجٍّ في حقهم، و(تَتَّقُون) قال السدي: معناه تتقون الأَكل والشرب والوطءَ بعد النوم على قول من تأَول ذلك(١). وقيل: تتقون على العموم لأَن الصيام كما قال عليه السلام جُنَّة ووجاءٌ(٢) وسبب تقوى لأَنه يميت الشهوات. و(أَيَّاماً) مفعول ثان بـ(كُتِبَ) قاله الفراءُ، وقيل: هي نصب على الظرف، وقيل: نصبها بالصيام، وهذا لا يحسن إلا على أَن يعمل الصيام في الكاف من (كَمَا) على قول من قدر صوماً كما، وإِذا لم يعمل في الكاف قبح الفصل بين المصدر وبين ما عمل فيه ـ بما عمل فيه غيره، وذلك إِذا كان العامل في الكاف (كُتِبَ). وجوَّز بعضهم أَن يكون (أَياماً) ظرفاً يعمل فيه الصيام. و(مَعْدُودَاتٍ)(٣) قيل: رمضان، وقيل: الثلاثة الأَيام(٤).

وقوله تعالى: (فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ) التقدير: فأَفطر فعدة من أَيام أُخر، وهذا يسمونه فحوى الخطاب(٥).

---

(١) كانوا في أول الإسلام إذا حان الإفطار يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنع عليهم الأكل والشرب، ثم إن رجلاً من الأنصار كان يعمل صائماً حتى أمسى، فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح فأصبح صائماً، فرآه رسول الله ﷺ وقد جهد جهداً شديداً: فقال: (مالي أراك قد جهدت جهداً شديداً) قال: يا رسول الله، إني عملت أمس فجئت حين جئت فألقيت نفسي فنمت فأصبحت حين أصبحت صائماً. وكان عمر رضي الله عنه قد أصاب من النساء بعد ما نام فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله قوله: (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلى نِسَائِكُمْ) الآية.

(٢) كلاهما في الصحيح في حديث أبي هريرة: (الصيام جُنة)، وفي حديث ابن مسعود: (ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاءٌ).

(٣) في قوله تعالى: (كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) وفي قوله: (أَيَّاماً مَعْدُودَات) تسهيل على المكلفين بالصيام وتطييب نفوسهم فإن العمل الشاق إذا عم وشمل المتقدمين والمتأخرين وكانت أيامه معدودة سهل قبوله وتَلَقِّيه، وَمِنْ ثَمَّ وقع النهي عن سرد الصيام ووصله.

(٤) أي من كل شهر، وسبق أن ذلك نسخ بشهر رمضان.

(٥) وهو ما يفهم من الكلام قطعاً، ومثل هذه الآية قوله تعالى: (فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ=

واختلف العلماءُ في حد المرض الذي يقع به الفطر؛ فقال قوم: متى حصل الإنسان في حال يستحق بها اسم المرض صح الفطر قياساً على المسافر أنه يفطر لعلة السفر، وإن لم تدعه إلى الفطر ضرورة، وقاله ابن سيرين. وقال جمهور من العلماءِ: إذا كان به مرض يؤذيه ويؤلمه أَو يخاف تماديه، أَو يخاف من الصوم تزيده، صح[1] له الفطر، وهذا مذهب حذاق أَصحاب مالك وبه يناظرون، وأَما لفظ مالك فهو: المرض الذي يشق على المرءِ ويتبلغ[2] به. وقال الحسن: إذا لم يقدر من المرض على الصلاة قائماً أَفطر، وقالت فرقة: لا يفطر بالمرض إلا مَنْ دعته ضرورة المرض نفسه إلى الفطر، ومتى احتمل الضرورة معه لم يفطر، وهذا قول الشافعي رحمه الله.

واختلف العلماءُ في الأَفضل من الفطر والصوم في السفر، فقال قوم، والشافعي، ومالك ـ في بعض ما روي عنه ـ الصوم أَفضل لِمَن قَوِيَ، وجُلُّ مذهب مالك التخيير، وقال ابن عباس، وابن عمر، وغيرهما: الفطر أَفضل. وقال مجاهد، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهما: أَيسرهما أَفضلهما، وكره ابن حنبل وغيره الصوم في السفر، وقال ابن عمر: مَن صام في السفر قضى في الحضر وهو مذهب عمر رضي الله عنه[3].

ومذهب مالك؛ في استحبابه الصوم لمن قدر عليه، وتقصير الصلاة حسن. لأَن الذمة تبرأُ في رخصة الصلاة وهي مشغولة في أَمر الصيام، والصواب المبادرة بالأَعمال[4]، وقال ابن عباس رضي الله عنه: الفطر في السفر عَزْمَة، وذهب أَنس بن

= فَفِدْيَةٌ) الخ، أي: فَحَلَق لإزالة الأذى ففدية، وهذا هو ما يسمى بفحوى الخطاب عند أكثر الأصوليين.

(١) أي: جاز له الفطر.

(٢) أي يشتد عليه وفي بعض النسخ (ويبلغ به) والمراد يجهد به، وقد لخص شيخ المالكية المذهب في مختصره بقوله: وبمرض، أي وجاز فطرٌ بمرض خاف زيادته أو تماديه، ووجب إن خاف هلاكاً أو شديد أذى. فإذا خاف الزيادة من المرض أو تماديه جاز له الفطر، وإذا خاف الهلاك والأذى وجب عليه الفطر.

(٣) على مذهب عمر وابنه جاء قول القائل:

إن الصِّيـام لا يجـوز فـي السفـر ... وَمَـنْ يَصُـمْ فيـه قضـى مهْمَـا حَضَـر
حُجَّتُنَـا حـديـث أفضـل البَشَـر ... (لَيْـسَ مِـنَ الْبـرِّ الصِّيَـامُ فـي السَّفَـرْ)

(٤) يعني أن مذهب مالك في تفضيل الصوم على الفطر وتفضيل القصر على الإتمام حسن، لأن الذمة تبرأُ بقصر الصلاة وتبقى مشغولة بالفطر، والمطلوب هو المسابقة إلى الخير وأعمال البر، وهذا ثناءٌ من ابن عطية رحمه الله على نظرية المذهب المالكي.

مالك إلى الصوم وقال: إنما نزلت الرخصة ونحن جياع، نروح إلى جوع، ونغدو إلى جوع. والسفر سفر الطاعة، كالحج والجهاد بإجماع، ويتصل بهذين سفرُ صِلَةِ الرَّحم وطلب المعاش الضروري، وأَما سفر التجارة والمباحات فمختلف فيه بالمنع والجواز، والقول بالجواز أَرجح. وأَما سفر المعاصي فمختلف فيه بالجواز والمنع، والقول بالمنع أَرجح. ومسافة سفر الفطر عند مالك حيث تقصر الصلاة. واختلف في قدر ذلك؛ فقال مالك: يوم وليلة[١]، ثم رجع فقال: ثمانية وأَربعون ميلاً، وروي عنه: يومان، وروي عنه في العتبية: خمسة وأَربعون ميلا، وفي المبسوط: أَربعون ميلا، وفي المذهب: ستة وثلاثون ميلاً، وفيه: ثلاثون. وقال ابن عمر، وابن عباس، والثوري: الفطر في سفر ثلاثة أَيام، وفي غير المذهب يقصر في ثلاثة أَميال فصاعداً.

وقوله تعالى: (فَعِدَّةٌ)، مرفوع على خبر الابتداءِ تقديره: فالحكم أَو فالواجب عدة، ويصح أَن يرتفع على ابتداءِ والخبر بعده، والتقدير: فعدة أَمْثَل له، ويصح: فعليه عدة. واختلف في وجوب تتابعها على قولين[٢]، و(أُخَرَ) لا ينصرف عند سيبويه لأنه معدول عن الألف واللام، لأن هذا البناء إنما يأْتي بالأَلف واللام كما تقول: الفضل والكبر اجتمع فيه العدل والصفة. وجاءَ في الآية (أُخر) ولم يجئْ أُخرى لَئلا تشكل بأَنها صفة للعدة، والباب أَن جمع مالا يعقل يجري في مثل هذا مجرى الواحدة المؤنثة[٣]، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾[٤]، إلى غير ذلك.

وقرأَ جمهور الناس: (يُطِيقُونَهُ) بكسر الطاءِ وسكون الياءِ، والأَصل: يطوقونه، نقلت حركة الواو إلى الطاءِ وقلبت ياءً لانكسار ما قبلها، وقرأَ حميد: [يَطْوِقُونَهُ]، وذلك على الأَصل والقياس الإعلال. وقرأَ ابن عباس [يُطَوَّقُونَهُ] بمعنى يكلفونه، وقرأَت عائشة، وطاووس، وعمر بن دينار: [يَطَّوقونه] بفتح الياءِ وشد الطاءِ مفتوحة.

---

(١) المراد أنها أربعٌ وعشرون ساعة، والمشهور عند المالكية أنها أربعة برد وهي ستة عشر فرسخاً وتقدر بـ ٨٥ كيلوا متراً تقريباً.

(٢) ليس في الآية ما يدل على وجوب التتابع في القضاءِ.

(٣) وإنما لم يجر هنا كذلك خوفاً من الإلباس وإيهام أنها صفة للعدة لا للأيام، والقاعدة أن جمع مالا يعقل يجوز وصفه بوصف الواحدة المؤنثة، ووصفه بجمعها، فمن الأول: إلا أياماً معدودة، ومن الثاني: إلا أياماً معدودات.

(٤) من الآية (١٠) من سورة سبأ.

وقرأت فرقة: [يُطيَّقونه] بضم الياءِ وفتح الطاءِ وشد الياءِ مفتوحة، وقرأ ابن عباس: [يَطَّيَّقونه] بفتح الياءِ وشد الطاءِ المفتوحة وشد الياءِ المفتوحة بمعنى يتكلفونه، وحكاها النقاش[(١)] عن عكرمة، وتشديد الياءِ في هذه اللفظة ضعيف[(٢)].

وقرأ نافع، وابن عامر من طريق ابن ذكوان: [فِدْيَةُ طَعَام مَسَاكِينَ] بإضافة الفدية. وقرأ هشام عن ابن عامر: [فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ] بتنوين الفدية. وقرأ الباقون: (فِدْيَةٌ) بالتنوين (طَعَام مِسْكِين) بالإفراد، وهي قراءَة حسنة لأَنها بينت الحكم في اليوم. وجمع[(٣)] المساكين لا يدري كم منهم في اليوم إلا من غير الآية. وقال أَبو علي: فإن قلت: كيف أَفردوا المسكين والمعنى على الكثرة لأَن الذين يطيقونه جمع، وكل واحد منهم يلزمه مسكين، فكأَن الوجه أَن يجمعوا كما جمع المطيقون؟ فالجواب أَن الإِفراد حسن، لأَنه يفهم بالمعنى أَن لكل واحد مسكيناً[(٤)]. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾[(٥)] فليست الثمانون متفرقة في جميعهم، بل لكل واحد ثمانون.

واختلف المتأَولون في المراد بالآية[(٦)].

---

(١) وفي بعض النسخ: وحكاها النقاش، وأبو عمرو الداني عن عكرمة.

(٢) ذكر أربع قراءات: اثنتان بالواو المشددة، واثنتان بالياء المشددة، وقراءة الجمهور، وقراءة حميد، فالمجموع ست قراءات، وحكم ابن عطية على قراءة الياء المشددة بالضعف، قال (ح): وإنما ضعفوا ذلك لأنهم فهموا أن الفعل على وزن تفعل فأشكل ذلك عليهم، وليس كما فهموا، وإنما هو على وزن (تفعيل) من الطوق فأصله تطيْوِقون اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداها بالسكون فأبدلت الواو ياءَ وأُدغمت فيها الياءُ فقيل: (تطيقون) فهذا توجيه هذه القراءة وهو توجيه واضح. البحر المحيط ٢ـ٣٥.

(٣) يعني أنه لا يعرف على قراءة الجمع مقدار المساكين في اليوم من نفس الآية، وإنما يعرف ذلك من السنة.

(٤) حاصله أن قراءة (مساكين) فيها مقابلة الجمع بالجمع، وقراءة (مِسْكِين) روعي فيها إفراد العموم.

(٥) من الآية (٤) من سورة النور.

(٦) كان الحكم عندما فرض الصيام في أول الإسلام أن من أراد أن يصوم صام، ومن أراد أن يطعم أطعم، ثم وقع النسخ بقوله تعالى: (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) وهذا هو القول الأول من الأقوال المعروضة في معنى الآية، وقيل: إنها محكمة وهي في الشيوخ والعجز الذين يطيقون الصوم بتكلف، وقيل: إنها في الشيوخ والعجز الذين يطيقون وأفطروا ثم نسخت، وقيل: إنها في الذين لا يستطيعون الصيام من الشيوخ والعجائز فهي إذا محكمة إلا أن الفدية تجب عليهم، وقيل: لا تجب بل تستحب، وقيل: إنها فيمن يدركه رمضان وعليه رمضان سابق فقد كان يطيق الصوم في تلك المدة وتركه فعليه=

فقال معاذ بن جبل، وعلقمة، والنخعي، والحسن البصري، وابن عمر، والشعبي، وسلمة بن الأكوع، وابن شهاب: كان فرض الصيام هكذا على كل الناس، من أراد صام، ومن أراد أطعم مسكيناً وأفطر، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: (فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) وقالت فرقة: وعلى الذين يطيقونه[1]: أي على الشيوخ والعجز الذين يطيقون لكن بتكلف شديد، فأباح الله لهم الفدية والفطر، وهي محكمة عند قائلي هذا القول، وعلى هذا التأويل تجيءُ قراءَة (يَطُوقُونَه، ويُطَوَّقُونَه).

وقال ابن عباس: نزلت هذه الرخصة للشيوخ والعجز خاصة، إذا أفطروا وهم يطيقون الصوم، ثم نسخت بقوله تعالى: (فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ) فزالت الرخصة، إلا لِمَنْ عجز منهم، وقال السدي: (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ) أي: على الذين كانوا يطيقونه وهم بحالة الشباب، ثم استحالوا بالشَيخ فلا يستطيعون الصوم، وهي عنده محكمة، ويلزم الشيوخ عنده الفدية إذا أفطروا، ونحوه عن ابن عباس. وقال مالك: لا أرى الفدية على الشيخ الضعيف واجبة، وتستحب لمن قدر عليها، والآية عنده إنما هي

= الفدية لتفريطه. فهذه جملة الأقوال، وملخصها يرجع إلى قولنا أهي منسوخة كما قال الجمهور أم محكمة في الشيوخ والعجائز، ويلتحق بذلك الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو على ولديهما؟ وهذا أحسن من تقدير (لا). قبل (يُطِيقُونه) لأن حذف (لا)، خاص بمواقع القسم، ولموافقة الإثبات لسنة التشريع في الأمور الشاقة على النفوس مثل: الخمر، والربا، والقتال، فكان التخيير بين الصوم والإطعام ثم أفضلية الصوم مع التخيير، ثم تحتيم الصوم بقوله تعالى: (فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهرَ فَلْيَصُمْهُ).

(١) الإطاقة: هي القدرة على الفعل بمشقة فادحة، فقوله تعالى: (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ) ليس ظاهره مراداً، فقد صرحت الآثار عن الصحابة والتابعين أن موضوع الآية على أنها محكمة فيمن لا يستطيعون الصوم أصلاً، لا في الحاضر ولا في المستقبل، وهم الذين عليهم فديةُ إطعام مسكين عن كل يوم إذا قدروا على الفدية، وأما المرضى الذين يقدرون على قضائه مستقبلا فلا فدية عليهم. والمراد بالمشقة المشقة الجسمية لا الفكرية والعقلية إذ لم يُؤثَر عن أحد ممن سلف ما سمي بالمشقة الفكرية، فمن قال: إن مَن قام بعلم فكري شاق كامتحان له، أن يفطر؛ ليس بمصيب، بل الحقيقة هي أن الصوم لا يعوق التفكير ولا يُبطِئُ الفهم، بل يصفي القلب ويدفع بصاحبه إلى التفكير المستقيم، فإن استقامة الفكر في استقامة القلب، وسلامة التفكير في طهارة القلب وسمو الروح، ومِنْ ثَمَّ كان السلف الصالح يلجؤون إلى الصوم لتصفية مرآتهم، واستنارة قلوبهم، وارتقاء مداركهم، فالصوم إنما يضعف صاحبه عن علاقات الجسم، وأما الروح فإنه يقوي مدراكها، ويصقل مرآتها؛ ففي الإنسان عنصران: جسمي وروحي، فالصُّوم يغلب الروح على الجسم، وإذا غلبت كان إدراكها خيراً من إدراك الممتلئ طعاماً وشراباً، والله أعلم.

فيمن يدركه رمضان وعليه صوم من المتقدم، فقد كان يطيق في تلك المدة الصوم فتركه فعليه الفدية[١]، وقال الشافعي وأبو حنيفة: على الشيخ العاجز الإطعام، وحكى الطبري عن عكرمة أنه كان يقرؤها: (وَعَلَى الَّذينَ يُطِيقُونَهَ فَأَفْطَرُوا). ومذهب مالك رحمه الله، وجماعة من العلماءِ أَن قدر الفدية مُدٌّ لكل مسكين، وقال قوم: قوت يوم، وقال قوم: عشاءٌ وسحور، وقال سفيان الثوري: نصف صاع من قمح، أَو صاع من تمر أَو زبيب.

والضمير في (يُطِيقُونَهُ) عائد على الصيام، وقيل: على الطعام، وهو قول ضعيف[٢].

واختلف في الحامل؛ فقال ابن عمر، وابن عباس: تفدي وتفطر ولا قضاءَ عليها. وقال الحسن، وعطاءٌ، والضحاك، والزهري، وربيعة، ومالك: تقضي الحامل إذا أَفطرت، ولا فدية عليها. وقال الشافعي، وأَحمد بن حنبل، ومجاهد: تقضي وتفدي إذا أَفطرت، وكذلك قال مالك في المرضع: إنها إذا أَفطرت تقضي وتفدي، هذا هو المشهور، وقال في مختصر ابن عبد الحكم: لا إطعام على المرضع.

وقوله تعالى: (فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ) الآية، قال ابن عباس، وطاوس، وعطاءٌ، والسدي، المراد من أَطعم مسكينين فصاعدا[٣] وقال ابن شهاب: من زاد الإطعام مع الصوم، وقال مجاهد: من زاد في الإطعام على المد.

و(خَيْرٌ) الثاني صفة تفضيل، وكذلك الثالث، وخير الأَول قد نزل منزلة: مالا أَو نفعاً. وقرأَ أُبي بن كعب: (والصَّوْمُ خَيْرٌ لَكُمْ) بدل: (وَأَنْ تَصُومُوا)، وقوله تعالى: (إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) يقتضي الحضَّ على الصوم، أَي فاعلموا ذلك وصوموا.

---

(١) هذا هو رأي الإمام مالك رحمه الله في الآية، وما أشار إليه ابن عطية رحمه الله من قول الإمام مالك؛ هو قول شيخ المالكية في مختصره: «ووجب إطعام مُدِّه عليه الصلاة والسلام لمفرط في قضاءِ رمضان لمثله عن كل يوم مسكين» ا. هـ.

(٢) لتأخر معاد الضمير، وليس المحل لذلك.

(٣) أي: بالتطوع، ويعني أنه زاد على ما وجب في المساكين، أو في الطعام تطوعاً، بأن أَطعم عن كل يوم أكثر من واحد، أو أعطى أكثر من مد لكل مسكين، أو جمع بين الصوم والإطعام، أو جمع بين الخبز واللحم والإدام.

قوله عز وجل:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

الشهر: مشتق من الاشتهار، لأنه مشتهر، لا يتعذر علمه على أحد يريده. ورمضان عَلِقَهُ الاسم من مدة كان فيها في الرمض وشدة الحر[١]. وكان اسمه قبل ذلك ناتقاً[٢]، كما سمي ربيع من مدة الربيع، وجمادى من مدة الجمود. وكره مجاهد أن يقال: رمضان، دون أن يُقال: شهر رمضان، كما قال الله تعالى، وقال: لعل رمضان اسم من أَسماءِ الله عز وجل، وقرأ جمهور الناس: (شَهْرُ) بالرفع، ووجهه خبر ابتداءٍ، أي ذلكم شهرُ، وقيل: بدل من الصيام، وقيل: على الابتداءِ وخبره: (الَّذي أُنْزِلَ فيهِ القُرْآنُ)، وقيل: ابتداءٌ وخبره: (فَمَنْ شَهِدَ)[٣]، و(الَّذي أُنْزِلَ) نعتٌ له. فمن قال: إن الصيام في قوله: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ) هي ثلاثة أَيام وعاشوراءُ، قال: ها هنا بالابتداءِ، ومن قال: إن الصيام هنالك هو رمضان وهو الأَيام المعدودة؛ قال هنا بخبر الابتداءِ أَو بالبدل من (الصِّيام). وقرأَ مجاهد، وشهر بن حوشب: [شَهْرَ] بالنصب، ورواها أَبو عمارة، عن حفص، عن عاصم، ورواها هارون عن أَبي عمرو، وهي على الإِغراءِ، وقيل: نصب بـ(تَصُومُوا)[٤] وقيل: نصب على الظرف. وقرأَت فرقة بإِدغام الراءِ في

---

(١) يقال: إنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها فوافق هذا الشهر أيام الحر فقيل له: رمضان.

(٢) يقال صام ناتقاً أي شهر رمضان، وإنما سمي ناتقاً لأنه كان ينتقهم أي ينطقهم لشدته عليهم وفي بعض النسخ ناثراً.

(٣) الفاء زائدة على قول الأخفش، وعلى قول غيره ليست زائدة لوصف الشهر بالذي، فدخلت الفاء فيه كما تدخل في نفس خبر الذي، ومثل هذا قول الله تعالى: (قُلْ إِنَّ المَوْتَ الَّذي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ) والضمير الذي يربط بين المبتدأ والخبر هو وضع الظاهر موضع المضمر بقصد التفخيم، أي: فمن شهده منكم فليصمه.

(٤) أي من قوله تعالى: (وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ) إلا أن فيه الفصل بين صلة أن ومعمولها بالخبر.

الراءِ، وذلك لا تقتضيه الأصول لاجتماع الساكنين فيه[١].

واختلف في إنزال القرآن فيه، فقال الضحاك: أُنزل في فرضه وتعظيمه والحض عليه، وقيل: بُدِئَ بنزوله فيه على النبي ﷺ، وقال ابن عباس فيما يُؤثر[٢]: أُنزل إلى السماءِ الدنيا جملة واحدة ليلة أربع وعشرين من رمضان، ثم كان جبريل ينزله رَسَلاً رَسَلاً[٣] في الأوامر والنواهي والأسباب. وروى واثلةُ بن الأسقع عن النبي ﷺ أنه قال: (نزَلَتْ صُحُفُ إبْرَاهِيمَ أولَ ليلة مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، والتوراة لستٍّ مَضَيْنَ مِنْهُ، والإنْجيلُ لثلاث عشرة، والقرآن لأربع وعِشْرين)[٤].

وترك ابن كثير همزة القرآن مع التعريف والتنكير حيث وقع، وقد قيل: إن اشتقاقه على هذه القراءَة من قَرَنَ وذلك ضعيف.

و(هُدًى) في موضع نصب على الحال من القرآن، فالمراد أن القرآن بجملته من محكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ. هدًى، ثم شُرِّفَ بالذكر والتخصيص (البينات) منه، يعني الحلال والحرام والمواعظ والمحكم كله. فالألف واللام في (الهدَى) للعهد، والمراد الأول[٥] (الفرْقَان) المفرق بين الحق والباطل. و(شَهِدَ) بمعنى حَضَرَ[٦]، و(الشَّهْرَ) نُصِبَ على الظرف، والتقدير من حضر المصر في الشهر، وقرأ الحسن،

---

(١) أي على مذهب أكثر البصريين، وأما على مذهب غيرهم فهو جائز، فإن صح النقل عنهم وجب المصير إليه. وهذا في الحرف الصحيح كما هنا، وأما في حرف العلة كما في قولك: هذا ثوب بكر فجائز اتفاقاً.

(٢) أي فيما يروى عن النبي ﷺ مباشرة أو بواسطة.

(٣) رَسَلاً بفتح الراء والسين: القطعة، والجماعة من الناس، يقال: جاءت الخيل والإبل أرسالاً، رَسَلاً بعد رسل، فالجمع: أرْسَالٌ.

(٤) يشير بهذا الحديث إلى أن سائر الكتب السماوية أُنزلت في رمضان، فلا مفهوم للقرآن. وواثلة بن الأسقع ليثي من أهل الصفة شهد تبوك، وهو آخر من مات من الصحابة، وقد شهد فتح دمشق وحمص، وروى عن النبي ﷺ، وعن أبي هريرة، وعن أم سلمة. وتوفي سنة ٨٣هـ. وقيل ٨٥هـ.

(٥) وهو جملة القرآن من محكم ومتشابه إلى آخره.

(٦) شهد لها معان: الحضور كما هنا، والإخبار كما في نحو: شهد عند الحاكم بكذا، أي أخبره به، والعلم كما في قوله تعالى: (شَهِدَ اللهُ أنَّهُ لا إلهَ إلا هُوَ والْمَلائِكَةُ وَأُولوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ). فشهد هنا معناها: حضر، وليس معناها شاهد ورأى، فلا دلالة في الآية على اعتبار الرؤية في الصوم، لأن الحضور في الشهر أعم من أن يكون ثابتاً بالرؤية أو بالحساب. والمراد بالحضور الاحتراز عن المسافر، ودليل وجوب الصوم والرؤية قوله ﷺ: (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته).

وعيسى الثقفي، والزهري، وأَبو عبد الرحمن السلمي، وأَبو حيوة: [فَلِيَصمْه] بتحريك اللام، وكذلك قرؤُوا لامَ الأَمر في جميع القرآن على أَصلها الذي هو الكسر. وقال علي ابن أَبي طالب، وابن عباس، وعبيدة السلماني: ﴿مَنْ شَهِدَ﴾ أَي من حضر دخول الشهر، وكان مقيماً في أَوله فليكمل صيامه، سافر بعد ذلك أَو أَقام، وإِنما يفطر في السفر من دخل عليه رمضان وهو في سفر[١]. وقال جمهور الأُمة: من شهد أَول الشهر أَو آخره فليصم ما دام مقيماً. وقال أَبو حنيفة وأَصحابه: من شهد الشهر بشروط التكليف غير مجنون ولا مُغْمَى عليه فليصمه، ومن دخل عليه رمضان وهو مجنون، وتمادى به طول الشهر، فلا قضاءَ عليه، لأَنه لم يشهد الشهر بصفة يجب بها الصيام، ومن جُنَّ أَول الشهر أَو آخره فإنه يقضي أَيام جنونه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ونَصْبُ الشهرِ على هذا التأْويل هو على المفعول[٢] الصريح بِشَهِدَ وقوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾، بمنزلة: أَو مُسَافراً فلذلك عطف على اسم. وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع، ويحيى بن وثَّاب، وابن هرمز، وعيسى بن عمر: [الْيُسُرَ، والْعُسُرَ][٣] بضم السين،

---

(١) قال (ك): وهذا القول غريب، نقله أبو محمد بن حزم في كتابه «المحلى» عن جماعة من الصحابة والتابعين، وفيما حكاه عنهم نظر، والله أعلم فإنه قد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه خرج في شهر رمضان لغزوة الفتح فسار حتى بلغ الكديد ثم أفطر وأمر الناس بالفطر. أخرجه صاحبا الصحيح.

(٢) أي لا على الظرفية، ونحوه قولهم: شهدت الجمعة.

(٣) ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ الإرادة جاءت في الشريعة على معنيين: الإرادة الكونية القدرية التي تتعلق بكل مراد، فما أراد الله أن يكون كان، وما لم يرد أن يكون فلا سبيل إلى كونه، والإرادة الأمرية الشرعية التي تتعلق بطلب إيقاع المأمور به وعدم إيقاع المنهي عنه. ومعنى هذه الإرادة أنه يُحِبُّ فعل ما أمر به ويرضاه، ويحب أن يفعله المأمور ويرضاه منه، فمن المعنى الأول قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَه يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾ وقوله تعالى في حكاية نوح عليه السلام: ﴿وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُم﴾ وقوله تعالى: (وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَااقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾. ومن المعنى الثاني قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ الآية، وقوله تعالى: (يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ) إلى قوله: (يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾). ولأجل عدم التنبه للفرق بين الإرادتين وقع الغلط في المسألة. فربما نفى بعض الناس الإرادة عن الأمر والنهي مطلقاً، وربما نفاها بعضهم عما لم يؤمر به =

والجمهور بسكونه، وقال مجاهد، والضحاك بن مزاحم: اليسر: الفطر في السفر، والعسر: الصيام في السفر ـ والوجه عموم اللفظ في جميع أُمور الدين[١]، وقد فسر ذلك قولُ النبي ﷺ: (دينُ الله يُسْر)[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ معناه: وليكمل من أفطر في سفره أَو في مرضه عدة الأَيام التي أَفطر فيها، وقرأَ أَبو بكر، عن عاصم، وأَبو عمرو في بعض ما روي عنه: [ولِتُكَمِّلُوا] بتشديد الميم، وقد روي عنهما التخفيف كالجماعة[٣]، وهذه اللام متعلقة: إما بـ(يُريدُ) فهي اللام الداخلة على المفعول كالذي في قولك: ضربت لزيد، والمعنى: ويريد إِكمال العدة، وهي مع الفعل مقدرة بأَن، كأَن الكلام: ويريد لأَن تكملوا[٤]، هذا قول البصريين، ونحوه قول أَبي صخر:

أُريـدُ لأَنْسَـى ذِكْـرَهَـا فَكَـأَنَّمَـا[٥] . . . .

وإما بفعل مضمر بعد، تقديره: ولأَن تكملوا العدة رخص لكم هذه الرخصة، وهذا قول بعض الكوفيين. ويحتمل أَن تكون هذه اللام لام الأَمر، والواو عاطفة جملة كلام على جملة كلام[٦].

وقوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ﴾، حض على التكبير في آخر رمضان، واختلف الناس في

= مطلقاً وأثبتها في الأمر مطلقاً، ومن عرف الفرق بين الموضعين لم يلتبس عليه شيءٌ من ذلك. انتهى. من (الموافقات) باختصار.

(١) أي الدنيوية والأخروية، ويندرج في ذلك الفطر في السفر، والصيام فيه، وكأن من فسر اليسر والعسر بذلك، إنما أراد التمثيل لأن الآية جاءت في سياق ما قبلها.

(٢) رواه الإمام أحمد، وأبو بكر بن مردويه بلفظ: «إنَّ دِينَ اللهِ في يُسْر».

(٣) فَعَّل وأَفْعَل كثيراً ما يستعمل أحدهما موضع الآخر، ومن ذلك قوله تعالى ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾.

(٤) لو قال: وهي مع الفعل مقدر (أن) بعدها. يدل على ذلك قوله: «فكأن الكلام: ويريد لأن تكملوا العدة، فأظهر أن بعد اللام» قال (ح).

(٥) تمامه:

. . . . تَمَثَّـلُ لِـي لَيْلَـى بِكُـلِّ طَـرِيـقِ

وهو لأبي صخر كثير بن عبد الرحمن الخزاعي.

(٦) قال (ح): لم يذكر هذا الوجه غير ابن عطية، وقد ناقشه وضعفه. وقوله: «والواو عاطفة جملة كلام على جملة كلام» يشير إلى أنه كان اللام لام الأمر فالعطف من باب عطف الجمل، وأما على الإعراب الأول فهو من باب عطف المفردات.

حدِّه، فقال ابن عباس: يُكَبِّرُ المرءُ مِنْ رُؤْيَةِ الْهِلالِ إِلى انقضاءِ الخطبة، ويمسك وقت خروج الإمام، وَيُكبِّرُ بتكبيره. وقال قوم: يُكَبِّرُ من رؤية الهلال إلى خروج الإمام إلى الصلاة. وقال سفيان: هو التَّكْبير يوم الْفطر. وقال مالك: هو من حين يخرج الرجل من منزله إلى أن يخرج الإمام[١].

ولفظه عند مالك وجماعة من العلماءِ: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر. ثلاثاً، ومن العلماءِ مَن يكبر ثم يهلل ويسبح أثناءَ التكبير، ومنهم من يقول: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلا، وقد قيل غير هذا، والجميع حسن واسع مع البداءَة بالتكبير.

و(هَدَاكُمْ) قيل: المراد لمَا ضل فيه النصارى من تبديل صيامهم. وتعميم الهدى جيد. (وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) تَرَجٍّ في حقِّ الْبشر، أي: على نعمة الله في الهدى.

وقوله تعالى: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي) الآية، قال الحسن بن أبي الحسن: سببها أن قوماً قالوا للنبي ﷺ: أقريبٌ ربُّنَا فنُنَاجيه أم بعيد فَنُنَاديه؟[٢] فنزلت. وقال عطاء: لما نزلت: (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)[٣] قال قوم: في أي ساعة ندعو؟ فنزلت (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ) وقال مجاهد: بل قالوا: إلى أين ندعو؟ فنزلت هذه الآية، وقال قتادة: بل قالوا: كيف ندعو؟ فنزلت (وَإِذا سَأَلَكَ عِبَادي)، رُوِيَ أَنَّ المشركين قالوا لما نزل: (فَإِنِّي قَرِيبٌ)، كيف يكون قريباً مَنْ بيننا وبينه ـ على قولك ـ سبع سموات في غلظ سمك كل واحدة خمسمائة عام وفيما بين كل سماءٍ مثل ذلك؟ فنزلت (أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)، أي فَإِنِّي قريب بالإجابة والقدرة. وقال قوم: المعنى: أُجيب إن شئت[٤]، وقال قوم: إن الله تعالى يجيب كل الدعاءِ، فإما أن تظهر

---

(١) هو قول شيخ المالكية في مختصره: «وخروجٌ بعد الشمس، وتكبيرٌ فيه حينئذ لاقبله، وصحيح خلافه وجهر به، وهل لمجيءِ الإمام أو لقيام الصلاة؟ تأويلان، ثم قال: ولفظه وهو: الله أكبر ثلاثاً، وإن قال ـ بعد تكبيرتين ـ لا إله إلا الله، ثم تكبيرتين ولله الحمد فحسن». انتهى.

(٢) يحتمل أن يكون السؤال عن القرب والبعد، ويحتمل أن يكون عن إجابة الدعاء، ويحتمل أن يكون السؤال عما هو أعم وهو الظاهر.

(٣) من الآية (٦٠) من سورة غافر.

(٤) يعني أن إجابة الدعاء مقيدة بالمشيئة والإرادة لقوله تعالى: (فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ). ولا تكون في كل دعاءٍ، وقيل: إنها تكون في كل دعاءٍ إلا أنها تارة تكون في الدنيا وتارة في الآخرة بادخار الأجر =

الإجابة في الدنيا، وإما أن يُكفَّر عنه، وإما أن يُدَّخر له أجر في الآخرة، وهذا بحسب حديث الموطأ: (ما مِنْ دَاعٍ يَدْعُو إلا كان بين إحدى ثلاثٍ) الحديث[١]. وهذا إذا كان الدعاءُ على مايجب دون اعتداءٍ، فإن الاعتداءَ في الدعاءِ ممنوع، قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[٢] قال المفسرون: أي في الدعاءِ، والوصف بمجاب الدعوة وصف بحسن النظر، والبعد عن الاعتداءِ، والتوفيق من الله تعالى إلى الدعاء في مقدور. وانظر أنَّ أفضل البشر المصطفى محمداً ﷺ قد (دعا أن لا يجعل بأس أُمته بينهم). الحديث[٣] فَمُنِعَهَا إذ كان القدر سبق بغير ذلك.

وقوله تعالى: (فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي) قال أبو رجاءٍ الخرساني: معناه: فليدعوا لِي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

المعنى: فليطلبوا أن أُجيبهم، وهذا هو باب استفعل، أي طلب الشيءَ إلا ما شذ مثل استغنى الله.

= أو تكفير الذنب كما في حديث الموطأ، وللدعاءِ شروط وأحوال وأوقات ينبغي اعتبارها وتحقيقها.

(١) نص ما في الموطأ سنداً ومتناً: (وحدثني عن مالك، عن زيد بن أسلم أنه كان يقول: ما من داع يدعو إلا كان بين إحدى ثلاث: إما أن يُستجاب له، وإما أن يُدخر له، وإما أن يكفر عنه). انتهى. قال أبو عمر بن عبد البر: مثل هذا يستحيل أن يكون رأياً واجتهاداً وإنما هو توقيف وخبر محفوظ عن النبي ﷺ، ثم أخرج من حديث جابر أن النبي ﷺ قال: (دعاءُ المُسْلِم بين إحدى ثلاثٍ) الخ.

(٢) من الآية (٥٥) من سورة الأعراف.

(٣) في الموطأ: (وحدثني عن مالك عن عبد الله بن عبد الله بن جابر بن عتيك أنه قال: جاءنا عبد الله بن عمر في بني معاوية وهي قرية من قرى الأنصار فقال: هل تدرون أين صلى النبي ﷺ من مسجدكم هذا؟ فقلت له: نعم، وأشرت له إلى ناحية منه، فقال: هل تدري ما الثلاث التي دعا بهن فيه؟ فقلت: نعم، قال: فأخبرني بهن، فقلت: دعا بألا يظهر عليهم عدوّاً من غيرهم، ولا يهلكهم بالسنين فأعطيهما، ودعا بألا يجعل بأسهم بينهم فمُنعها، قال: صدقت، قال ابن عمر: فلن يزال الهرج إلى يوم القيامة). انتهى.

وفي صحيح البخاري أن عمرو بن دينار قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: لما نزل على رسول الله ﷺ: (قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ) قال: أعوذ بوجهك، فلما نزلت: (أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُم) قال: أعوذ بوجهك.

فلما نزلت: (أَوْ يلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأسَ بَعْضٍ) قال: هاتان أهون أو أيسر، يعني أن عذاب الناس أهون من عذاب الله على الكفر. وروى الإمام مسلم حديث: (سألت ربي ألا يجعل بأس أُمّتي بينهم فمنعنيها).

وقال مجاهد، وغيره: المعنى: فليستجيبوا لي، فيما دعوتهم إليه من الإيمان، أي بالطاعة والعمل[١]. ويقال: أجاب واستجاب بمعنى، ومنه قول الشاعر[٢]:

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إلى النَّدى ... فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذاك مُجِيبُ

أي لم يجبه.

وقوله تعالى: (وَلْيُؤْمِنُوا بِي) قال أبو رجاءٍ: في أني أجيب دعاءَهم، وقال غيره: بل ذلك دعاءٌ إلى الإيمان بجملته[٣].

وقرأ الجمهور: (يَرْشُدُونَ) بفتح الياء وضم الشين، وقرأ قوم بضم الياءِ وفتح الشين، وروي عن ابن أبي عبلة، وأبي حيوة: فتح الياء وكسر الشين باختلاف عنهما، قرآ هذه القراءة والتي قبلها[٤].

قوله عز وجل:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

لفظة (أُحلَّ) تقتضي أنه كان محرماً قبل ذلك[٥]، و(لَيْلَةَ) نصب على الظرف، وهي

---

(١) ما قاله مجاهد وغيره ظاهر ومعقول، والمعنى أن استجابة الله للعبد مرتبطة باستجابة العبد لله فيما أمره به، وفيما نهاه عنه، وهذا أحسن وأفضل وإن كان الدعاء قد يكون من غير المستجيب لحكم الله.

(٢) هو كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبا المغوار، وبعده:

فَقُلْتُ: ادعُ أخرى وارْفعِ الصَّوتَ جَهرَةً ... لَعَلَّ أَبَا الْمِغْوارِ مِنْكَ قَرِيبُ

(٣) هذا أولى وأظهر.

(٤) يعني أن ابن أبي عبلة، وأبا حيوة قرآ بضم الياء وفتح الشين، وبفتح الياء وكسر الشين.

(٥) ثم أباح الله الجماع والأكل والشرب في جميع الليل رحمة ورخصة ورفقاً بالعباد، وذلك بسبب عمر بن الخطاب ومن صنع صنعه، وبسبب صرمة بن قيس رضي الله عن الجميع، وروى البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله (عَلِمَ الله أَنَّكُمْ كُنتُم تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ) انتهى. واخْتَانَ: أبلغ مِنْ خَانَ، كما أن اكتسب أبلغ من كسب.

اسم جنس فلذلك أُفردت، ونحوه قول عامر الرام الخضري المحاربي:

هُـمُ المَـولـى وقَـدْ جَنَفُـوا عَلَيْنَـا ... وإنَّـا مِـنْ عَـدَاوَتِهِـمْ لَـزُورُ(١)

و﴿الرَّفَثُ﴾ كنايةٌ عن الجماع، لأَن الله تعالى كريم يكنى(٢)، قاله ابن عباس، والسدي. وقرأ ابن مسعود [الرُّفُوث]. و﴿الرَّفَثُ﴾ في غير هذا ما فَحُش من القول، ومنه قول الشاعر:

. . . . عَـنِ اللَّغَـا وَرَفَـثِ التَّكَلُّـم(٣)

وقال أَبو إِسحق: الرفث كل ما يأْتيه الرجل مع المرأَة من قبلة ولمس وجماع.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

أَو كلام في هذه المعاني(٤)، ومنه قول النبي ﷺ: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفثْ ولَمْ يَفْسقْ خَرَجَ مِنْ خَطَايَاه كَيَوْم وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»(٥).

وسبب هذه الآية فيما قال ابن عباس، وغيره: أَن جماعة من المسلمين اختانوا

---

(١) قال أبو عبيدة: العرب تضع الواحد موضع الجمع كما قال عامر الخصفي:

هُـمُ المَـوْلَـى وَقَـدْ جَنَفُـوا عَلَيْنَـا ... وَإنَّـا مِـنْ عَـدَاوَتِهِـمْ لَـزُورُ

أيْ: هم الموالي.

ويقال له عامر الرام، وعامر الرامي الخضري الخصفي المحاربي الصحابي الشاعر، ذكر له أبو عمر والحافظ حديثاً عن النبي ﷺ. وذكر له صاحب المفضليات قصيدة أولها:

مَـن مُبْلـغ سعْـدَ بـن نعمـان مـألكـاً ... وَسَعْـد بـن ذبْيـان الـذي قـد تَخَتَّمَـا

وسمي بذلك لأنه كان ماهراً في الرماية.

(٢) والكناية عما يستقبح ذكره بما يستحسن لفظه من سنن العرب كما للثعالبي في فقه اللغة.

والرفث كما قال أبو إسحق كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من المرأة.

وقد نقل عن ابن عباس أن الرَّفث الذي نهى الله عنه ما خُوطبت به المرأة، وإنما عدي الرفث بإلى في الآية لأنه بمعنى الإفضاء، فلما كنت تعدي أفضيت بإلى، كقولك إلى المرأة. جئت بإلى مع الرفث إيذاناً وإشعاراً بأنه بمعناه.

(٣) البيت للعجاج أو رؤبة. والبيت بتمامه:

وَرُبَّ أسْـرَابِ حَجيـجٍ كُظَّـمِ ... عَـنِ اللَّغَـا وَرَفَـثِ التَّكَلُّـمِ

واللغا: بالباطل. والكظم: الساكتون.

(٤) قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس أن نافعاً أخبره، أن عبد الله بن عمر كان يقول: الرفث إتيان النساء والتكلم بذلك للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم.

(٥) أخرجه البخاري ومسلم.

أَنفسهم، وأَصابوا النساءَ بعد النوم أَو بعد صلاة العشاءِ على الخلاف[١]. منهم عمر بن الخطاب، جاءَ إِلى امرأَته فأَرادها فقالت له: قد نمت فظن أَنها تعتل فوقع بها، ثم تحقق أَنها قد كانت نامت، وكان الوطءُ بعد نوم أَحدهما ممنوعاً. وقال السدي: جرى له هذا في جارية له، قالوا: فذهب عمر فاعتذر عند رسول الله ﷺ، وجرى نحو هذا لكعب بن مالك الأَنصاري، فنزل صدر الآية فيهم[٢]، فهي ناسخة للحكم المتقرر في منع الوطءِ بعد النوم.

وحكى النحاس، ومكِّي أَن عمر نام، ثم وقع بامرأَته[٣]، وهذا عندي بعيد على عمر رضي الله عنه. وروي أَن صرمة بن قيس، ويقال: صرمة بن مالك، ويقال: أَبو أَنس قيس بن صرمة[٤] نام قبل الأَكل فبقي لذلك دون أَكل حتى غشي عليه في نهاره

---

(١) فقد كان الصوم واجباً في أول الإسلام حتى في الليل من بعد العشاء أو من بعد النوم. روى الطبري عن طريق عطية عن ابن عباس قال: كان الناس أول ما أسلموا إذا صاموا يطعمون من الطعام فيما بين المساء والعتمة، فإذا صلُّوا العتمة حرم عليهم الطعام حتى يُمْسُوا من الليلة القابلة.

(٢) كعب بن مالك هو أحد الذين شهدوا بيعة العقبة، وقد شهد أحداً وغيرها لكنه تخلف عن بدر، وعن تبوك، فهو واحد من الثلاثة الذين ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ثم تاب الله عليهم، وقد اختلف المؤرخون في تاريخ وفاته رضي الله عنه. هذا وآخر الآية نزل في صرمة بن قيس الأنصاري الذي غشيَ عليه بسبب عدم الأكل والشرب بعد ما نام.

(٣) هذه الرواية تثبت أن عمر رضي الله عنه هو الذي نام، وهذا بعيد كما قال ابن عطية لأن المباشرة بعد النوم كانت حراماً، فلا يليق ذلك بعمر. فالرواية السابقة هي الصواب، وهي أن امرأته نامت وهو رضي الله عنه لم يصدقها ظناً منه أنها إنما اعتذرت بالنوم.

(٤) اسم الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ﴾ فيه اختلاف كثير، انظر ابن حجر في قيس بن صرمة. وفي صرمة بن قيس من «الإصابة». وقال أبو عمر بن عبد البر في «الاستيعاب» بعد أن ذكر قول ابن عباس: أن رسول الله ﷺ أقام بمكة بعد المبعث ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة عشر سنين مانصه: ويشهد لصحة ذلك قول أبي قيس صرمة بن قيس الأنصاري:

ثَـوى فـي قُـرَيْـشٍ بضْـعَ عَشْـرَةَ حِجَّـةً ... يُـذَكـر لَـوْ يُلْفـي صَـديقـاً مُـوَاتيـا
وَيَعْـرِض فـي أَهْـلِ المَـواسِـمِ نَفْسَـهُ ... فَلَـمْ يَـرَ مَـنْ يُـؤوي وَلَـمْ يَـرَ داعيـا
فَلَمَّـا أَتَـانَـا واسْتَقَـرَّتْ بِـهِ النَّـوى ... وَأَصْبَـحَ مَسْـرُوراً بطَيْبَـةَ رَاضيـا
وَأَصْبَـحَ لا يَخْشَـى ظُـلامَـةَ ظَـالِـمٍ ... بَعِيد ولا يَخْشى مِنَ النَّاس بـاغيـا
بَـذَلْنَـا لَـهُ الأمْـوَالَ مِـنْ حِـلِّ مَـالِنَـا ... وَأَنفُسَنَـا عِنْـدَ الـوَغَـى والتَّـآسِيـا
نُعَـادي الَّـذي عَـادى مِـنَ النَّـاس كُلِّهِـم ... جَميعـاً وإِنْ كَـانَ الحَبِيـبَ المُـواتِيَـا
وَنَعْلَـمُ أَنَّ اللهَ لا شَـيءَ غَيْـرُهُ ... وأَنَّ كِتَـابَ اللهِ أَصْبَـحَ هَـادِيَـا

قال أبو عمر: روينا هذه الأبيات من طرق، عن سفيان بن عُيينة، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، ثم ذكر أكمل الروايات في هذه الأبيات.

المقبل، فنزل فيه من قوله تعالى: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا).

واللباس: أَصله في الثياب، ثم شبه التباس الرجل بالمرأة وامتزاجهما وتلازمهما بذلك[١]، كما قال النابغة:

إِذَا مَـا الضَّجِيـعُ ثَنَـى جِيـدَهَـا ... تَـدَاعَـت فَكَـانَـتْ عَلَيْـهِ لِبَـاسَـا[٢]

وقال النابغة أَيضاً:

لَبِسْـتُ أُنَـاسَـاً فَـأَفْنَيْتُهُـم ... وأَفْنَيْـتُ بَعْـدَ أُنَـاسٍ أُنَـاسَـا[٣]

فشبه خلطته لهم باللباس. نحا هذا المنحى في تفسير اللباس الربيع، وغيره. وقال مجاهد، والسدي: لباس: سكن، أَي يسكن بعضهم إِلى بعض.

وإِنما سميت هذه الأَفعال اختياناً لعاقبة المعصية وجزائها، فراكبها يخون نفسه ويؤذيها.

و(تَابَ عَلَيْكُمْ) معناه: من المعصية التي واقعتموها، (وَعَفَا عَنْكُمْ) يحتمل أَن يريد عن المعصية بعينها، فيكون ذلك تأْكيداً وتأْنيساً بزيادة على التوبة، ويحتمل أَن يريد عفا عما كان أَلزمكم من اجتناب النساءِ فيما يُؤتنف بمعنى تركه لكم[٤]. كما تقول: شيءٌ معْفُوٌّ عنه أَي متروك.

قال ابن عباس، وغيره: (بَاشِرُوهُنَّ) كناية عن الجماع مأْخوذ من البشرة[٥]، وقد ذكرنا لفظة الآن[٦] في ماضي قصة البقرة، (وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ)، قال ابن عباس،

---

(١) فالتشبيه من حيث التباسهما واشتمال أحدهما على صاحبه، كما أن اللباس يشتمل على لابسه. ويصح أن يكون التشبيه من حيث إن أحدهما يستر الآخر، ويسكن إلى الآخر كما قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)، وأيّاً ما يكون فالتشبيه صورة رائعة من بلاغة القرآن.

(٢) هو النابغة الجعدي، كنيته أبو ليلى. واسمه عبد الله بن قيس، والضجيع: المضاجع للمرأة، وهي له لباسٌ وفراشٌ. ومعنى (تداعت): سقطت عليه، أو أقبلت عليه برغبة، وفي رواية: (تَثَنَّتْ).

(٣) يقال: لبست أناساً بمعنى: تمليت بهم زمناً، كما يقال: لبست امرأةً بمعنى تمتعت بها.

(٤) بمعنى أنه خفف وسهَّل عليكم في هذا الأمر وتركه لكم، وهذا هو المناسب لسماحة الدين ورفع الحرج عن أهله.

(٥) فالمباشرة إلصاق البشرة بالبشرة وذلك كناية عن الجماع.

(٦) الآن: عبارة عن الوقت الذي أنت فيه. وقد يقع على الماضي القريب، والمستقبل القريب تنزيلاً =

ومجاهد، والحكم بن عتيبة، وعكرمة، والحسن، والسدي، والربيع، والضحاك، معناه: وابتغوا الولد[١]. وروي أيضاً عن ابن عباس وغيره أن المعنى وابتغوا ليلة القدر، وقيل: المعنى: ابتغوا الرخصة والتوسعة. قاله قتادة، وهو قول حسن. وقرأ الحسن ـ فيما روي عنه ـ ومعاوية بن قرة: واتَّبعوا من الاتِّبَاع، وجوزها ابن عباس، ورجح ابتغوا من الابتغاءِ.

(وكلُوا واشْربُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ) نزلت بسبب صرمة بن قيس، و(حتى) غاية للتبين، ولا يصح أَن يقع التبين لأَحد ويحرم عليه الأَكل إلا وقد مضى لطلوع الفجر قدر، و(الْخَيْطُ) استعارة وتشبيه[٢] لرقة البياض أَولا ورقة السواد الحافِّ به، ومن ذلك قول أَبي دُوَاد[٣]

فَلَمَّــا بَصَــرْنَ بِــهِ غَــدْوَة ... وَلاحَ مِــنَ الْفَجْــرِ خَيْــطٌ أَنَــارَا

ويروى (فَنَارا). وقال بعض المفسرين: الخيط: اللون، وهذا لا يطرد لغة، والمراد فيما قال جميع العلماءِ: بياض النهار وسواد الليل، وهو نص قول النبي ﷺ لعدي بن حاتم في حديثه المشهور[٤]، و(مِنَ) الأُولى لابتداءِ الغاية، والثانية للتبعيض،

= للقريب منزلة الحاضر وهو المراد هنا، وعليه: فالآن متعلقة بقوله: (بَاشِرُوهُنَّ)، وإذا قلنا: إنها للوقت الحاضر فهي متعلقة بمعنى ما قبلها، والتقدير: فالآن قد أبحنا لكم أن تباشروهن.

(١) جعل الله لنا شهوة النكاح لبقاء النوع الإنساني، وشهوة الطعام لبقاء الشخص الإنساني إلى أجل مسمى. فحقُّ الإنسان أن يتحرى بالنكاح ما جعل الله له على حسب ما يقتضيه العقل والدين، ومتى تحرى به حفظ النفس وتحصين النفس على الوجه المشروع؛ فقد ابتغى ما كتب الله له، وهو الولد.

(٢) قوله: استعارة وتشبيه مشكل، وقد وضح صاحب «الكشاف» هذا فقال: «فإن قلت: أهذا من باب الاستعارة أم من باب التشبيه؟ قلت: من الفجر، أخرجه من باب الاستعارة، كما أن قولك: رأيت أسداً مجاز، فإذا زدت «من فلان» رجع تشبيهاً، فإن قلت: فلم زِيدَ «من الفجر» حتى كان تشبيهاً، وهلا اقتصر به على الاستعارة التي هي أبلغ من التشبيه وأدخل في الفصاحة؟ قلت: لأن من شرط المستعار أن يدل عليه الحال أو الكلام، ولو لم يذكر «من الفجر» لم يعلم أن الخيطين مستعاران، فزِيدَ «من الفجر» فكان تشبيهاً بليغاً، وخرج من أن يكون استعارة». ا.هـ.

(٣) أبو دُواد، بدالين مهملتين أولاهما مضمومة بعدها واو، شاعر جاهلي، واسمه جارية بن الحجاج الإيادي، والرواية الموجودة عند الأكثر.

فَلَمَّــا أَضَــاءَت لَنَــا سُــدفَــةٌ ... وَلاحَ مِــنَ الصُّبْــحِ خَيْــطٌ أَنَــارَا

والسُّدفة: اختلاط الضوء والظلمه كوقت ما بين صلاة الفجر إلى أول الإسفار.

(٤) روى البخاري، ومسلم عن عديٍّ بن حاتم قال: لما نزلت: (حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ) قال عدي: يا رسول الله، إني أجعل تحت وسادتي عقالين: عقالاً أبيض، وعقالاً =

و(الفَجْر) مأخوذ من تفجر الماءِ لأَنه يتفجر شيئاً بعد شيءٍ.

وروي عن سهل بن سعد[١]، وغيره من الصحابة أَن الآية نزلت إلا قوله: (مِنَ الفَجْر) فصنع بعض الناس خيطين أَبيض وأَسود، فنزل قوله تعالى: (مِنَ الفَجْر)[٢] ـ وروي أَنه كان بين طرفي المدة عام من رمضان إِلى رمضان تأَخر البيان إِلى وقت الحاجة[٣]. وعدي بن حاتم جعل خيطين على وسادة وأَخبر النبي ﷺ فقال له: (إن وسادك لعريض)، وروي أَنه قال له: (إنك لعريض القفا)، ولهذه الأَلفاظ تأْويلان[٤].

واختلف في الحد الذي بِتَبَيُّنِهِ يجب الإمساك، فقال الجمهور ـ وبه أَخذ الناس، ومضت عليه الأَمصار والأَعصار، ووردت به الأَحاديث الصحاح ـ ذلك الفجر المعترض الآخذ في الأُفق يمنة ويسرة، فبطلوع أَوله في الأُفق يجب الإِمساك وهو مقتضى حديث ابن مسعود وسَمُرة بن جندب[٥].

= أسود، أعرف الليل من النهار، فقال رسول الله ﷺ: (إنَّ وسَادَكَ لَعَرِيضٌ، إنَّمَا هَوَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَار).

(١) هو سهل بن سعد بن مالك الأنصاري، صحابي مشهور، روى عن النبي ﷺ، ومات سنة (٩١) هـ.

(٢) أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: أُنزلت: (وكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الخَيْطُ الأبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأسْوَدِ) ولم ينزل: (مِنَ الْفَجْر)، فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبيَّن له رؤيتهما فأنزل الله (مِنَ الفَجْر) فعلموا أنه يعني الليل والنهار وزال الالتباس.

(٣) يعني أنه كان بين نزول قوله تعالى: (وكُلُوا واشربوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأسْوَدِ) ونزول قوله تعالى: (مِنَ الْفَجْر) عام من رمضان إلى رمضان.

(٤) قال (ك): ومعنى قوله: إن وسادك لعريض أي إن كان يسع الخيطين المرادين من هذه الآية، فيقتضي أن يكون بعرض المشرق والمغرب، ولفظ (إنك لعريض القفا) فسره بعضهم بالبلادة، وهو ضعيف، بل يرجع هذا اللفظ إلى لفظ (إن وسادك لعريض) لأنه إذا كان وسادُه عريضاً فقفاه أيضاً عريض، والله أعلم.

(٥) لفظ حديث سَمُرَة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يمنعنكم من سحوركم أذان بلال، ولا الفجر المستطيل، ولكن الفجر المستطير في الأفق). ولفظ حديث ابن مسعود، عن عامر بن مطر، قال: (أتيت عبد الله بن مسعود في داره فأخرج فضلاً من سحوره فأكلنا منه، ثم أقيمت الصلاة فخرجنا فصلينا)، انظر تفسير الإمام (ط) رحمه الله وصحيح الإمام مسلم. وفي أسد الغابة لابن الأثير: روى وكيع، عن مسعر، عن جبلة بن سحيم، عن عامر بن مطر قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ، ثم قمنا إلى الصلاة، كذا قاله سهل بن زنجلة، ورواه غيره عن وكيع، قال: تسحرنا مع ابن مسعود وهو الصحيح. أخرجه أبو نعيم، وأبو موسى. وسمرة بن جندب أحد الصحابة الحافظين عن رسول الله ﷺ، وكان من

وروي عن عثمان بن عفان، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس وطلق بن علي[١]، وعطاءِ بن أَبي رباح، والأَعمش، وغيرهم: أَن الإِمساك يجب بتبيُّن الفجر في الطرق، وعلى رؤُوس الجبال، وذُكِرَ عن حذيفة أَنه قال: تسحرت مع رسول الله ﷺ وهو النهار إِلا أَن الشمس لم تطلع، وروي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَنه صلَّى الصبح بالناس ثم قال: «الآن تبين الخيط الأَبيض من الخيط الأَسود». قال الطبري: «ومما قادهم إِلى هذا القول أَنهم يرون أَن الصوم إِنما هو في النهار، والنهار عندهم من طلوع الشمس، لأَن آخره غروبها فكذلك أَوله طلوعها».

وحكى النقاش، عن الخليل بن أَحمد أَن النهار من طلوع الفجر، ويدل على ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾[٢].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والقول في نفسه صحيح وقد ذكرت حجته في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[٣] وفي الاستدلال بهذه الآية نظر[٤]. ومَنْ أَكل وهو يشك: هل طلع

= حلفاء الأنصار، وقد خرج للحرب مع رسول الله ﷺ وهو شاب صغير فمنعه رسول الله ﷺ، ثم أذن له بعد صراعه مع شاب آخر صغير السن مثله ـ قيل إنه مات سنة (٥٩) هـ.

(١) هو طلق بن علي بن طلق بن عمرو، صحابي مشهور، اشترك مع الصحابة في بناء المسجد.

(٢) من الآية (١١٤) من سورة هود.

(٣) من الآية (١٦٤) من سورة البقرة، وقد سبق ذلك، ونصه هناك: وقال الزجاج في كتاب الأنواء: أول النهار ذرور الشمس، قال: وزعم النضر بن شميل أن أول النهار ابتداءُ طلوع الشمس ولا يعد ما قبل ذلك من النهار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقول النبي ﷺ هو الحكم ا.هـ. ويعني بذلك ما قاله النبي ﷺ في تفسير الخيط الأبيض والخيط الأسود: إنما هو بياض النهار وسواد الليل. فهذا قاض أن النهار من طلوع الفجر لا من طلوع الشمس، والله أعلم.

(٤) قال ابن عطية عند قوله تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَي النَّهَار وَزُلَفاً مِنَ اللَّيلِ): لم يختلف أحد أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة. واختلف في طرفي النهار وزلف الليل فقيل: الطرف الأول: الصبح، والثاني: الظهر والعصر، والزُّلف: المغرب والعشاء، قاله مجاهد ومحمد بن كعب القرظي، وروي أن النبي ﷺ قال في المغرب والعشاء: هما زلفتا الليل. وقيل: الطرف الأول: الصبح، والثاني: العصر ـ قاله الحسن، وقتادة، والضحاك، والزُّلف: المغرب والعشاء، وليست الظهر في هذه الآية على هذا القول بل هي في غيرها. وقيل: الطرفان: الصبح والمغرب قاله ابن عباس أيضاً، والزُّلف: العشاء وليست الظهر والعصر في الآية. وقيل: الطرفان: الظهر والعصر، والزُّلف: المغرب والعشاء والصبح.=

الفجر أَم لم يطلع؟ فعليه عند مالك القضاءُ[١].

وقوله تعالى (ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيام إِلى الليلِ) أَمر يقتضي الوجوب، و(إِلى) غاية، وإِذا كان ما بعدها من جنس ما قبلها فهو داخل في حكمه، كقولك: اشتريت الفدان إِلى حاشيته، وإِذا كان من غير جنسه كما تقول: اشتريت الفدان إِلى الدار لم يدخل في المحدود ما بعد إِلى.

ورأَت عائشة رضي الله عنها أَن قوله: (إِلى اللَّيل) يقتضي النهي عن الوصال[٢]، وقد واصل النبي ﷺ ونهى الناس عن الوصال، وقد واصل جماعة من العلماءِ.

وقد تقدم أَن هذه الآية نسخت الحكم الذي في قوله: (كما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) على قول من رأَىٰ التشبيه في الامتناع من الوطءِ والأَكل بعد النوم في قول بعضهم، وبعد صلاة العشاءِ في قول بعضهم.

والليل الذي يتم به الصيام مغيب قرص الشمس، فمن أَفطر وهو شاك هل غابت الشمس، فالمشهور من المذهب أَن عليه القضاءَ والكفارة، وفي ثمانية أَبي زيد: عليه القضاءُ فقط قياساً على الشاك في الفجر، وهو قول جماعة من العلماء[٣]، وقال إِسحق والحسن: لا قضاءَ عليه كالناسي عنده.

وقوله تعالى: (وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وأَنْتُمْ عَاكِفُونَ في الْمَسَاجِدِ) قالت فرقة: المعنى: لا تجامعوهن، وقال الجمهور: ذلك يقع على الجماع فما دونه مما يُتلذذ به من النساءِ،

= قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأن هذا القائل راعى جهر القراءة أي وسريتها، قال: والأول أحسن هذه الأقوال عندي. ورجح الطبري أن الطرفين الصباح والمغرب، وأنه الظاهر، إلا أن عموم الصلوات الخمس بالآية أولى، انتهى، وتأمل وجه اعتراضه الاستدلال بهذه الآية مع أن أكثر الأقوال متظاهرة على أن الطرف الأول من النهار هو الصبح.

(١) هذا مفهوم قوله تعالى: (حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ) أيْ حتى يتحقق.

(٢) وذلك ما ورد في الأحاديث الصحيحة كحديث البخاري ومسلم عن أنس بن مالك، وفيه لما قالوا له: إنك تواصل: (إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إِنِّي أَبِيتُ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي).

(٣) هذا هو المعتمد، قال شراح المختصر الخليلي عند قوله: «وكأكله شاكاً في الفجر». وأولى في الغروب، وهو مثال لما يجب فيه القضاء، ومحله إن لم يتبين أنه أكل قبل الفجر أو بعد الغروب، وإلا فلا قضاء عليه عند المالكية، وهو ماتدل عليه الآية الكريمة، لأن الله قال: (حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ) وقد تبين أنه أكل قبل الفجر أو بعد الغروب.

و(عَاكِفُونَ) ملازمون، يقال: عكف على الشيءِ إذا لازمه مقبلاً عليه، قال الراجز:

. . . . عكـف النبيـط يلعبـون الفنـزجـا[1]

وقال الشاعر:

وَظَـلَّ بَنَـاتُ اللَّيـل حَـوْلِـي عُكَّفـاً   عُكُـوفَ البَـوَاكِـي بَيْنَهُـنَّ صَـرِيـعُ[2]

وقال أَبو عمرو، وأَبو حاتم: قرأَ قتادة: [عَكِفُونَ] بغير أَلف، والاعتكاف سُنَّة. وقرأَ الأعمش: [في المسْجِدِ] بالإفراد، وقال: هو المسجد الحرام.

قال مالك رحمه الله وجماعة معه: لا اعتكاف إلا في مساجد الجمعات، وروي عن مالك أَيضاً أَن ذلك في كل مسجد، ويخرج إلى الجمعة كما يخرج إلى ضروري أَشغاله، وقال قوم: لا اعتكاف إلا في أَحد المساجد الثلاثة التي تُشَدُّ المطِيُّ إليها، وقالت فرقة، لا اعتكاف إلا في مسجد نبي[3]. وقال مالك: لا يعتكف أَقل من يوم وليلة، ومن نذر أَحدهما لزمه الآخر. وقال سحنون: من نذر اعتكاف ليلة لم يلزمه شيءٌ، وقالت طائفة: أَيهما نذر اعتكفه ولم يلزمه أَكثر.

وقال مالك: لا اعتكاف إلا بصوم، وقال غيره: يعتكف بغير صوم. ورُوي عن عائشة أَنه يُعتكف في غير مسجد[4]، و(تلك) إشارة إلى هذه الأَوامر والنواهي. والحدود: الحواجز بين الإباحة والحظر، ومنه قيل للبواب حداد لأَنه يمنع، ومنه الحادّ لأَنها تُمنع من الزينة[5].

والآيات: العلامات الهادية إلى الحق، و(لَعَلَّهُمْ) تَرَجٍّ في حقهم، وظاهر ذلك

---

(١) هو للعجاج، وقد تقدم صدر هذا البيت ومعناه عند قوله تعالى: (وَعَهِدْنَا إِلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ).

(٢) هو للطِّرِمَّاح بن حكيم. وَبَنَاتُ اللَّيلِ: الهموم. والصريع: المجنون.

(٣) هذا القول موافق لما قبله، لأن المساجد الثلاثة مساجد الأنبياء، فالمسجد الحرام مسجد إبراهيم عليه السلام، ومسجد المدينة مسجد محمد ﷺ، والمسجد الأقصى مسجد سليمان عليه السلام.

(٤) وذلك أن النهي عن الشيء مقيداً بحال لها متعلق، لا يدل على أن تلك الحال إذا وقعت من المنهيين يكون ذلك المتعلق شرطاً في وقوعها، ونظير ذلك: «لا تضرب زيداً وأنت راكب فرساً» فلا يلزم من هذا أنك متى ركبت فلا يكون ركوبك إلا فرساً، فالاستدلال بالآية على لزوم الاعتكاف في المسجد ضعيف. وذكر المساجد ملصقة بالاعتكاف إنما هو لأن الاعتكاف لا يكون غالباً إلا فيها.

(٥) المرأة الحادُّ والمُحِدَّة: التي تترك الزينة بعد زوجها للعدة. قاله ابن دريد.

عموم، ومعناه خصوص فِيمَنْ يسَّره الله للهدى بدلالة الآيات التي تتضمن أن الله يُضل من يشاءُ.

قوله عز وجل:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾.

الخطاب لأُمة محمد ﷺ، والمعنى: لا يأْكل بعضكم مال بعض، فأُضيفت الأَموال إلى ضمير المنهي لمَّا كان كلُّ أَحد منهياً ومنهياً عنه[١]، وكما قال الله تعالى: ﴿ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾[٢].

ويدخل في هذه الآية القمار والخداع والغصوب وجحد الحقائق وغير ذلك، ولا يدخل فيه الغبن في البيع مع معرفة البائع بحقيقة ما بيع لأَن الغبن كأَنه وَهبه[٣].

وقال قوم: المراد بالآية: ولا تأْكلوا أَموالكم بينكم بالباطل أَي في الملاهي والقيان، والشرب والبطالة، فتجيءُ على هذا إِضافة المال إِلى ضمير المالكين.

وقوله تعالى: (وَتُدْلُوا بِهَا) الآية، يقال: أَدلى الرجل بالحجة، أَو بالأَمر الذي يرجو

---

(١) الإضافة في قوله: (أَمْوَالَكُمْ) يحتمل أن تكون حقيقة، بمعنى: لا تأكلوا أموالكم المملوكة لكم بالباطل، أي بالمعاصي والملاهي، فيكون الخطاب للمالكين، ويحتمل أن تكون مجازية للملابسة، أي لا يأكل بعضكم مال بعض بالغصب والنهب والغش والخداع والربا وكل ما حرمه الشرع ولم يأذن به، فهذه الآية الكريمة عامة في الأشخاص وفي الأموال، وبهذا ينتفي الباطل في سائر المعاملات المالية وغير المالية.

وإنما قال على الوجه الثاني: (أَمْوَالَكُمْ) لأن آكل مال أخيه بالباطل كالآكل مال نفسه بالباطل و(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ).

(٢) أي كما قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ من الآية (٨٥) من سورة البقرة.

(٣) هذا صحيح إذا كان عارفاً بحقيقة ما بيع، كما إذا باع حجراً كريماً وعرف أنه ياقوتة مثلاً. وقوله قبل ذلك «وجحد الحقائق» يريد به الحقوق جمع حق، وإلا فالحقائق جمع حقيقة وهي لا تلائم التعبير هنا.

النجاح به، تشبيهاً بالذي يرسل الدلو في البئر يرجو بها الماءَ.

قال قوم: معنى الآية[١]: تُسارعون في الأَموال إِلى المخاصمة إِذا علمتم أَن الحجة تقوم لكم، إِما بأَلا تكون على الجاحد بينة، أَو يكون مال أَمانة، كاليتيم ونحوه، مما يكون القول فيه قوله، فالباءُ في (بِهَا) باءُ السبب.

وقيل معنى الآية: ترشوا بها على أَكل أَكثر منها، فالباءُ إِلزاق مجرد[٢]، وهذا القول يترجح لأَن الحكام مظنة الرشا، إِلا من عُصِمَ وهو الأَقل، وأَيضاً فإِن اللفظتين متناسبتان: تُدْلُوا مِنْ أَرسل الدلو، والرشوة من الرشاءِ، كأَنها يمد بها لتقضى الحاجة.

و(تُدْلُوا) في موضع جزم عطفاً على (تأْكلوا)، وفي مصحف أُبي: [ولا تُدْلُوا] بتكرار حرف النهي، وهذه القراءَة تؤيد جزم (تُدْلُوا) في قراءَة الجماعة.

وقيل: (تُدْلُوا) في موضع نصب على الظرف، وهذا مذهب كوفي، أَن معنى الظرف هو الناصب[٣]، والذي ينصب في مثل هذا عند سيبويه (أَن) مضمرة[٤].

والفريق: القطعة والجزءُ و(بالإِثْم) معناه: بالظلم والتعدي، وسُمي ذلك إِثماً لما كان الإِثم معنى يتعلق بفاعله، و(أَنتم تَعْلَمُونَ) أَي أَنكم مبطلون آثمون، وهذه مبالغة في المعصية والجرأَة.

وقوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ)، الآية، قال ابن عباس، وقتادة، والربيع،

---

(١) أي قوله تعالى: (وتدْلُوا بِها إلى الحُكّام لِتَأكُلوا فريقاً مِنْ أمْوال النّاسِ بِالإثْم وأنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

(٢) أي: إلصاق مجرد عن السببية.

(٣) قال (ح): لم يقم دليل قاطع من لسان العرب على أن الظرف ينصب فنقول به. وأما إعراب الأخفش هنا أن (تدلوا) منصوب على جواب النهي وتجويز الزمخشري ذلك فتلك مسألة: لا تأكل السمك وتشرب اللبن بالنصب، وقد قال النحاة: إذا نصبت كان الكلام نهياً عن الجمع بينهما، وهذا المعنى لا يصح في الآية لأن النهي عن الجمع بينهما لا يستلزم النهي عن كل منهما على انفراده، والنهي عن كل واحد منهما يستلزم النهي عن الجمع بينهما، لأن في الجمع بينهما حصول كل واحد منهما عنه ضرورة. أما ترى أن أكل المال بالباطل حرام، سواء أفرد أم جمع مع غيره من المحرمات؟، وأيضاً قوله: (لتأكلوا) علة لما قبلها، فلو كان النهي عن الجمع لم تصلح العلة له لأنه مركب من شيئين لا تصلح العلة أن يترتب على وجودهما، بل إنما يترتب على وجود أحدهما.

(٤) كما في قول الشاعر:

لا تَنْـهَ عَـنْ خُلُـقٍ وَتَـأتِـيَ مِثْلَـهُ ... عَـارٌ عَلَيْـكَ إذَا فَعَلْـتَ عَظِيـمُ

وغيرهم: نزلت على سؤال قوم من المسلمين النبيَّ ﷺ عن الهلال. وما فائدة محاقه وكماله ومخالفته لحال الشمس؟

وجُمعَ وهو واحد في الحقيقة من حيث كونه هلالاً في شهر غير كونه هلالاً في الآخر، فإنما جمع أَحواله[١] من الهلالية[٢]، والهلال ليلتان بلا خلاف ثم يُقْمِر[٣]، وقيل: ثلاث، وقال الأصمعي: هو هلال حتى يُحَجّر ويستدير له كالخيط الرقيق[٤]، وقيل: هو هلال حتى يبهر بضوئه السماءَ وذلك ليلة سبع.

وقوله: ﴿مَواقيت﴾ معناه: لمَحلِّ[٥] الديون وانقضاءِ العدد والأَكرية وما أَشبه هذا من مصالح العباد[٦]، ومواقيت الحج أَيضاً يُعرف بها وقتُه وأَشْهُرُه.

---

(١) يعني أن جمعه باعتبار أحواله واختلاف زمانه تنزيلاً لاختلاف الأوقات منزلة اختلاف الذوات.

(٢) أي من صفاته الهلالية في كل شهر، أو في كل ليلة.

(٣) اختلف في تسميته هلالاً بعد ليلتين، فقيل: يُسمى هلالاً ثلاث ليال، وبعدها يسمى قمراً، وقيل يسمى هلالاً إلى سبع ليال ثم يكون قمراً.

(٤) تفسير لما قبله.

(٥) المحِلّ (بكسر الحاءِ) أجل الدين.

(٦) أشار بهذا إلى قوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ على حذف مضاف، أي: لمصالحهم ومقاصدهم، فالحكمة في زيادة الأهلة ونقصانها واختلاف تشكلاتها ما يتعلق بها من مصالح الدنيا والدين. وفي الآية دلالةٌ على أن الصوم لا يثبت بالعدد، بل بالهلال لأنه سبحانه نص على أن الأهلة هي المعتبرة في المواقيت، ولذلك اختلف حالها عن حال الشمس.

تنبيه: السؤال كان عن السبب في التشكلات والتغيُّرات النورية حيث قالوا: ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يعظم ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان ولا يكون على حال واحدة؟ ولما كان ذلك مبنياً على أُمور عقلية خفية تدرك من علم الفلك والهيئة. والشريعة إنما جاءَت لتعلم الناس ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، لا لتعلم علوم الفلك والطبيعة أجابهم إلى ما هو خير من طلبهم، ونبههم إلى أن السؤال عن الغاية والفائدة هو أليق بحالهم، ولو كان ما طلبوه مما يُقصد شرعاً لأجابهم إليه، وهذا الجواب يسمى عند علماء البيان بالأسلوب الحكيم، وهو تلقي السائل بغير ما يتطلب، والمخاطب بغير ما يترقب رعاية لمصلحته، وتحقيقاً لما يتوقف عليه في حياته. ونص القزويني في تلخيص المفتاح في هذا الموضوع: «ومن خلاف المقتضى تلقي (المخاطب) بغير ما يترقب، بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد كقول القبعثري للحجاج ـ وقد قال له متوعداً ـ لأحملنك على الأدهم: (مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب). أي مَنْ كان مثل الأمير في السلطان وبسطة اليد، فجدير بأن يصفُد لا أن يُصْفَد ـ أو السامع بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهاً على أنه الأولى بحاله أو المهم له. كقوله تعالى: ﴿يسألونك عن الأهلَّةِ قُلْ: هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجّ﴾. قال سعد الدين التفتازاني رحمه الله بعد ذكر سبب الآية ما نصه: والأليق بحالهم أن=

و(مَواقِيتُ) لا ينصرف، لأَنه جمع لا نظير له في الآحاد، فهو جمع ونهاية جمع، إِذ ليس يجمع. وقرأ ابن أَبي إِسحق: [والحِجِّ] بكسر الحاءِ في جميع القرآن. وفي قوله: (حِجُّ الْبَيْتِ) في آل عمران، قال سيبويه: الحَجُّ كالرَّد والشَّد، والحِجُّ كالذِّكْر فهما مصدران بمعنى، وقيل: الفتح مصدر، والكسر الاسم.

وقوله تعالى (وَلَيْسَ الْبِرُّ) الآية[1]، قال البراءُ بن عازب، والزهري، وقتادة: سببها

= يسألوا عن ذلك، أي عن الغرض والحكمة، لأنهم ليسوا ممن يطلعون بسهولة على دقائق علم الهيئة، ولا يتعلق لهم به غرض» ا.هـ. وهذه كلمة نابية في حق الصحابة رضوان الله عليهم، كيف وهم قادرون على إدراك ذلك وأكثر منه لفرط ذكائهم وسلامة فطرتهم وصفاء سريرتهم ـ فقد قال الإمام القرافي رحمه الله في كتاب الفروق: «أصحاب رسول الله ﷺ كانوا بحاراً في العلوم على اختلاف أنواعها من الشرعيات والعقليات والحسابيات والسياسيات والعلوم الباطنة والظاهرة، حتى يروى أن علياً رضي الله عنه جلس عند ابن عباس في الباءِ من (بِسْمِ اللهِ) من العشاء إلى أن طلع الفجر، مع أنهم لم يدرسوا ورقةً ولا قرؤوا كتاباً، ولا تفرغوا من الجهاد وقتال الأعداء، ومع ذلك كانوا على هذه الحالة حتى قال بعض الأصوليين: لو لم يكن لرسول الله ﷺ معجزة إلا أصحابه لكفوه في إثبات نبوته» اهـ. وقال أيضاً: من نوادر المسائل الفقهية التي يدخل فيها الحساب المسألة المحكية عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك أن رجلين كان لأحدهما خمسةُ أرغفة وللآخر ثلاثة أرغفة، فجلسا يأكلان فأكل معهما ثالث ثم بعد الفراغ من الأكل دفع لهما ثمانية دراهم وقال: اقسما هذه الدراهم ـ على قدر ما أكلته ـ لكما. فقال صاحب الثلاثة: إنه أكل نصف أكله من أرغفتي ونصف أكله من أرغفتك فأعطني النصف من الدراهم، فقال له الآخر: لا أعطيك إلا ثلاثة دراهم لأن لي خمسة أرغفة، ولك ثلاثة أرغفة فآخذ خمسة دراهم، وتأخذ أنت ثلاثة دراهم، فحلف صاحب الثلاثة لا يأخذ إلا ما حكم به الشرع فترافعا إلى علي رضي الله عنه فحكم لصاحب الثلاثة بدرهم واحد ولصاحب الخمسة بسبعة دراهم فشكا من ذلك صاحب الثلاثة، فقال له علي رضي الله عنه: الأرغفة ثمانية، وأنتم ثلاثة، أكل كل واحد منكم ثلاثة أرغفة إلا ثلثاً بقي لك ثلث من أرغفتك أكله صاحب الدراهم، وأكل صاحبك من أرغفته ثلاثة إلا ثلثاً وهي خمسة يبقى له رغيفان وثلث، وذلك سبعة أثلاث أكلها صاحب الدراهم فأكل لك ثلثاً، وأكل له سبعة أثلاث، فلك درهم وله سبعة دراهم. فهذه مسألة من دقيق الحساب أدركها رضي الله عنه بمجرد الالتفات إليها، وكم له رضي الله عنه من جواب خاص في مسائل من الفرائض والمساحات كمسألة حفر البئر المشهورة. ومن هنا كان من الواجب طلب العلوم والاطلاع عليها، فإن كثيراً من مسائل الحياة لا تعلم إلا بالعمليات الحسابية والهندسية الدقيقة. والله أعلم.

(١) لما ذكر الله سبحانه وقت الإحرام الذي هو من فوائد الأهلة بقوله: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ) استطرد منه إلى ذكر ما كانوا يفعلونه في الحج بقوله: (وَلَيْسَ البِرُّ بِأَن تَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهورِهَا)، وهذا الاستطراد موجود في كتاب الله عز وجل، ومن ذلك قوله تعالى: (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً، واتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلا) أمر الله نبيه ﷺ بتقواه، واتباع ما أُوحي إليه والتوكل=

أن الأَنصار كانوا إِذا حجوا أَو اعتمروا يلتزمون تشرعاً أَلا يحول بينهم وبين السماءِ حائل، فكانوا يتسنمون ظهور بيوتهم على الجدران، وقيل: كانوا يجعلون في ظهور بيوتهم فتوحاً يدخلون منها، ولا يدخلون من الأَبواب، وقيل غير هذا مما يشبهه فاختصرته، فجاءَ رجل منهم فدخل من باب بيته فَعُيِّرَ بذلك فنزلت الآية(١).

وقال إِبراهيم: كان يفعل ما ذكر قوم من الحجاز. وقال السدي: ناس من العرب، وهم الذين يسمون الحمس. قال: فدخل النبي ﷺ باباً ومعه رجل منهم، فوقف ذلك الرجل(٢)، وقال: «إِني أَحمس» فقال له النبي ﷺ: «وأنا أحمس» فنزلت الآية. وروى الربيع أن النبي ﷺ دخل وخلفه رجل أَنصاري فدخل وخرق عادة قومه، فقال له النبي ﷺ: «لم دخلت وأَنت قد أَحرمت؟» قال: دخلت أَنت فدخلت بدخولك، فقال له النبي ﷺ: «إِني أَحمس» أَي من قوم لا يدينون بذلك، فقال الرجل: «وَأنا ديني دينك» فنزلت الآية. وقال أَبو عبيدة(٣): الآية ضرب مثل، المعنى: ليس البر أَن تسأَلوا الجهال، ولكن اتقوا واسأَلوا العلماءَ، فهذا كما يقال: أَتيت هذا الأَمر من بابه. وقال

= عليه دون غيره، ثم اتبع ذلك بقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ﴾. ويعني أن الإنسان ليس له إلا قلب واحد، وأن القلب ليس له إلا وجهة واحدة، فإن لم يتجه إلى تقوى ربه، واتباع وحيه، والتوكلِ عليه، ولم يفرد ربه بذلك، انصرف عنه إلى غيره، ثم استطرد من ذلك أن الله لم يجعل زوج الرجل أمه، ولم يجعل دعِيَّه ابنه، وهذا من الوحي الذي يجب اتباعه ظاهراً والإيمان به باطناً، فانظر ما أحلى هذا الاستطراد وما أحسنه.

(١) روى البخاري، وغيره، عن أبي إسحق قال: سمعت البراء رضي الله عنه يقول: نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حجوا فجاؤوا لم يدخلوا من قِبَل أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه فكأنه عُيِّر بذلك فنزلت: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ﴾ الآية، وجاء في بعض الروايات تعيين الرجل وأنه قطبة بن عامر الأنصاري.

(٢) أي لم يدخل الباب لأنه من الحمس، وهذا على ما قاله السدي. وهناك قول آخر وهو أنهم لا يدينون بهذا الدين، وهو ترك الدخول من باب البيت كما يأتي عند ابن عطية في قول النبيﷺ للأنصاري: (إني أحمس)، أي من قوم لا يدينون بذلك.

ففي الحمس قولان ـ قيل: إنهم يفعلون ذلك، وقيل: إنهم لا يدينون بذلك. وإنما سموا حمساً لتشددهم في دينهم، والحماسة الشدة، والحمس جمع أحمس وحمساء.

(٣) الآية حملت على معنى حقيقي ومعنى مجازي في إتيان البيوت من أبوابها، والمعنى الحقيقي هو ما شرح به ابن عطية أولاً، ونقله عن البراء بن عازب، وقتادة، والزهري، والسدي، والربيع بن أنس، وقد أشار بقوله: «وقال أبو عبيدة» إلى حمل الآية على المعنى المجازي.

غير أَبي عبيدة: المعنى: ليس البر أَن تَشِذُّوا في الأَسئلة عن الأَهلة وغيرها، فتأْتون الأُمور على غير ما يجب[1]، وهذا يحتمل، والأَول أَسدُّ[2]. وَأما ما حكاه المهدوي، ومكي عن ابن الأَنباري من أَن الآية مثل في جماع النساءِ[3] فبعيد مُغَيِّر نمط الكلام. وقرأَ ابن كثير، وابن عامر، والكسائي، ونافع بخلاف عنه: [البيوت] بكسر الباءِ. وقرأَ بعض القراءِ: [ولِكنَّ البرَّ] بتشديد نون [لكنَّ] ونصب [البر]، وقد تقدم القول على ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بالله﴾، ﴿واتقوا﴾ معناه: اجعلوا بينكم وبين عقابه وقاية، و﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ترج في حق البشر، والفلاح: درك البغية.

وقوله تعالى: ﴿وقَاتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ﴾ الآية، هو أَول آية نزلت في الأَمر بالقتال، قال ابن زيد، والربيع: معناها: قاتلوا من قاتلكم، وكُفُّوا عمَّن كف عنكم، ولا تعتدوا في قتال من لم يقاتلكم، وهذه الموادعة منسوخة بآية براءَة[4] وبقوله: ﴿وَقَاتِلُوا المُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾.

وقال ابن عباس، وعمر بن عبد العزيز، ومجاهد: معنى الآية: قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلكم، ولا تعتدوا في قتل النساءِ والصبيان والرهبان وشبههم، فهي

---

(١) يعني أن إتيان البيوت من ظهورها كناية عن العدول عن الطريق الصحيح. وإتيانها من أبوابها كناية عن التمسك بالطريق الصحيح، وذلك أن الاستدلال بالعلوم على المظنون هو الطريق المستقيم، وقد ثبت أن الصانع حكيم لا يفعل إلا الصواب، وقد عرفنا أن اختلاف أحوال القمر في نوره من فعله، فيعلم أن فيه مصلحة وحكمة وذلك هو الطريق الصحيح، أما أن نستدل بعدم علمنا بما فيه من الحكمة على أن فاعله ليس بحكيم فهو استدلال بالمجهول على المعلوم، فالمعنى أنكم لما لم تعلموا حكمته في اختلاف القمر صرتم شاكين في حكمة الخالق فقد أتيتم البيت من ظهره لا من بابه، وهذا غير ما يجب، فإن الواجب هو أن تستدلوا بالمعلوم على المجهول، لا بالمجهول على المعلوم. قال معناه (ح).

(٢) هو ما قاله أبو عبيدة: اطلبوا البر من أهله ووجهه، ولا تطلبوه من الجهلة المشركين فمن أتى البيت من بابه فقد أصاب، ومن أتاه من خلفه فقد أخطأ.

(٣) أي لا تأتُوا النساءَ في أدْبَارهن بل في قبلهن.

(٤) هي قوله تعالى: ﴿فإذا انسَلَخَ الأشهُرُ الحُرُمُ فاقتُلُوا المُشرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهم﴾، وبقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا المُشْرِكِين كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾، وهو من الآية ٣٦ من سورة التوبة. وقيل إن أول آية نزلت في الأمر بالقتال هي قوله تعالى: (أذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا) والقول الأول أظهر لأن آية الإذن نزلت في القتال عامة لمن قاتل ولمن لم يقاتل، وذلك أن النبي ﷺ خرج هو وأصحابه عام الحديبية وصُد عن البيت وصُولح على أن يرجع إليه من السنة القابلة، فلمَّا عاد ﷺ خاف المسلمون غدر الكفار وكرهوا القتال في الحرم فنزلت الآية، أي: يحل لكم القتال إن قاتلكم الكفار.

محكمة على هذا القول، وقال قوم: المعنى: لا تعتدوا في القتال لغير وجه الله، كالحمية وكسب الذكر[١].

قوله عز وجل:

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.

قال ابن إسحق وغيره: نزلت هذه الآية في شأن عمرو بن الحضرمي وواقد، وهي سرية عبد الله بن جحش[٢]. و(ثَقِفْتُمُوهُمْ) معناه: أحكمتم غلبهم، ولقيتموهم قادرين عليهم، يقال: رجل ثقْف لقْف[٣]، إذا كان محكماً لما يتناوله من الأُمور، و(أَخْرِجُوهُمْ) قال الطبري: الخطاب للمهاجرين، والضمير لكفار قريش.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

بل الخطاب لجميع المؤمنين، ويقال: أَخرجوكم إذا أَخرجوا بعضهم الأَجَلَّ قدراً. وهم النبي ﷺ والمهاجرين.

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ) أي: الفتنة التي حملوكم عليها، وراموكم بها على الرجوع إلى الكفر، أشد من القتل.

---

(١) يشهد لذلك حديث الصحيحين:

عن أبي موسى الأشعري قال: سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل ويقاتل حميَّة، ويقاتل رياءً ـ أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله).

(٢) عمرو بن الحضرمي هو: عمرو بن عبد الله الحضرمي ابن عباد، وقد كان له إخوة مشهورون، وواقد بن عبد الله التميمي بن مناة بن عويم بن ثعلبة بن يربوع بن حنظلة. وعبد الله بن جحش الأسدي من كبار الصحابة، وهو أخو زينب بنت جحش أم المؤمنين، وقد سماه النبي ﷺ (أمير المؤمنين) فهو أول من حمل هذا اللقب في الإسلام، والقصة أن (واقداً) رمى (عمرو بن الحضرمي) فقتله، ولهذا كانت بنو اليربوع تفتخر بأن منها أول من قتل قتيلاً من المشركين في الإسلام، وقد مات (واقد) هذا في أول خلافة عمر رضي الله عنه.

(٣) ثقْف لقْف ـ بسكون القاف وبكسرها في الكلمتين.

قال مجاهد: أَي من أَن يُقتل المؤمن، فالقتل أَخف عليه من الفتنة. قال غيره: بل المعنى: الفتنة التي فعلوا أَشد في هتك حُرمات الحق من القتل الذي أُبيح لكم أَيها المؤمنون أَن توقعوه بهم.

ويحتمل أَن يكون المعنى: والفتنة أَي الكفر والضلال، الذي هم فيه أَشد في الحَرَمِ، وأَعظم جرْماً من القتل الذي عيروكم به في شأْن ابن الحضرمي(١).

وقوله تعالى (وَلا تُقَاتِلوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَام) الآية، قال الجمهور: كان هذا ثم نسخ، وأُمر بالقتال في كل موضع. قال الربيع: نسخه: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾. وقال قتادة: نسخه قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾(٢) وقال مجاهد: الآية محكمة، ولا يجوز قتال أَحد في المسجد الحرام إلا بعد أَن يقاتل(٣). وقرأَ حمزة، والكسائي، والأَعمش: [وَلا تَقْتُلوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَام حَتى يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكمْ فَاقْتُلُوهُمْ] بالقتل في الأَربعة(٤)، ولا خلاف في الأَخيرة أَنها (فَاقْتُلوهُمْ)، والمعنى على قراءَة حمزة، والكسائي، والأَعمش: فإن قتلوا منكم فاقتلوهم أَيها الباقون، وذلك كقوله تعالى: [قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كثيرٌ فَمَا وَهَنُوا](٥) أَي: فما وهن الباقون.

والانتهاءُ في هذه الآية: هو الدخول في الإِسلام، لأَن غفران الله ورحمته إنما تكون مع ذلك(٦).

---

(١) بمعنى أن الضلال والكفر الذين هم فيه أعظم من قتل المشركين في الشهر الحرام كما فعل واقد بن عبد الله الصحابي مع عمرو بن الحضرمي (لأنه قتله في رجب وهو شهر حرام)، وإن كان القتل في الأشهر الحرم غير جائز أصلاً.

(٢) قوله تعالى: (وَقَاتِلوُهُمْ حَتى لا تَكُون فِتْنَة) من الآية (٣٩) من سورة الأنفال وقوله تعالى: (فإذا انْسَلَخَ. . .) الخ من الآية (٥) من سورة التوبة.

(٣) هذا هو الحق، وهو الذي رجحه الفخر الرازي، وقول النبي ﷺ: (وإنما أُحلت لي ساعة من النهار، ولم تحل لأحد من بعدي)، يُقَوي قول مجاهد، وذلك أن حرمة المسجد الحرام لذاته، وحرمة سائر الحرم من أجله، فالآية الكريمة بمثابة الاستثناء من قوله تعالى: (وَاقْتُلوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ).

(٤) متعلق بقوله: وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش أي: قرؤوا بالقتل أي بحذف الألف، وهذه القراءة نص في أن الكافر إذا التجأ إلى الحرم لا يقتل، ويأتي ذلك على القراءة الأخرى لأنها تنهى عن القتال المؤدي إلى القتل.

(٥) من الآية (١٤٦) من سورة آل عمران.

(٦) لقوله تعالى: (قُلْ للَّذين كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ)، وفي قوله تعالى: (فَإِنْ انْتَهَوا فَإِنَّ اللهَ=

وقوله تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتى لا تَكونَ فِتْنَةٌ) أمر بالقتال لكل مشرك في كل موضع، على قول من رآها ناسخة[١]، ومن رآها غير ناسخة قال: المعنى: قاتلوا هؤلاءِ الذين قال الله فيهم: (فَإِنْ قَاتَلوكُمْ)، والأول أظهر، وهو أمر بقتال مطلق، لا بشرط أن يبدأ الكفار، دليل ذلك قوله: (وَيَكُونَ الدينُ للهِ)، والفتنة هنا: الشرط وما تابعه من أذى المؤمنين، قاله ابن عباس، وقتادة، والربيع، والسدي، و(الدينُ) هنا الطاعة والشرع. وقال الأعشى ميمون بن قيس:

هـو دانَ الـرِّبَـابَ إِذْ كـرِهَـوا الـديْـ ـــن دِرَاكـــا بِغَـــزوَةٍ وَصِيَـــالِ[٢]

والانتهاءُ في هذا الموضع يصح مع عموم الآية في الكفار أن يكون الدخول في الإِسلام، ويصح أن يكون أداءَ الجزية.

وسمي ما يُصنع بالظالمين عدواناً من حيث هو جزاءُ عدوان، إِذ الظلم يتضمن العدوان، والعقوبة تسمى باسم الذنب في غير ما موضع[٣] والظالمون: هم ـ على أحد التأويلين ـ مَنْ بدأَ بقتال، وعلى التأويل الآخر مَن بقي على كفر وفِتنةٍ.

وقوله تعالى: (الشهْر الحَرَام بِالشهْر الْحَرَام) الآية. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومِقسَم[٤] والسدي، والربيع، والضحاك، وغيرهم: نزلت في عمرة القضية[٥]

= غَفُورٌ رَحِيمٌ) دلالة على قبول توبة القاتل عمداً، إذ الكفر أعظم إثماً وقد قبل الله توبته.

(١) لقوله تعالى: (فَإِنْ قَاتَلوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ).

(٢) من قصيدته المشهورة التي قالها يمدح فيها الأسود بن المنذر اللخمي ومطلعها:

مَـــا بُكَـــاءُ الكَبِيـــر بِـــالأطْـــلال وَسُـــؤَالـــي فَهَـــلْ تَـــرُدُّ سُـــؤَالِـــي؟

وبعد البيت:

ثُـــمَّ دَانَـــتْ بَعْـــدُ الـــرِّبَـــابُ وَكَـــانَـــتْ كَعَـــذَابٍ عُقُـــوبَـــةُ الأقْـــوَالِ

والمعنى: أن هذا الممدوح حمل الرباب على الطاعة حين كرهوا الطاعة. والرباب قبيلة أو أحياء من ضبَّة، وفي اللسان: (دان الرباب: يعني أذلها، ثم دانت بعد الرباب، أي ذلت له وأطاعته) والمعنى واحد.

(٣) أي على سبيل المشاكلة كقوله تعالى: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا).

(٤) كمنبر، وهو ابن بَجْدَة، أو ابن بجْرة مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل وكان أيضاً يسمى مولى ابن عباس لكثرة صحبته له ولزومه إياه. توفي سنة ١٠١هـ.

(٥) مصدر بمعنى القضاءِ. ومن المعروف أن النبي ﷺ ذهب إلى مكة للعمرة ثلاث مرات.

وعام الحديبية، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج معتمراً حتى بلغ الحديبية سنة ست، فصدَّه كفار قريش عن البيت، فانصرف، ووعده الله أنه سيدخله عليهم فدخله سنة سبع، فنزلت الآية في ذلك، أَي: الشهر الحرام الذي غلبكم الله فيه وأَدخلكم الحرم عليهم، بالشهر الحرام الذي صدُّوكم فيه.

ومعنى ﴿الحُرُماتُ قِصاص﴾ على هذا التأويل أَي: حرمة الشهر، وحرمة البلد، وحرمة المحرمين حين صددتم بحرمة البلد والشهر والقِطَان حين دخلتم.

وقال الحسن بن أَبي الحسن: نزلت الآية في أَن الكفار سأَلوا النبي ﷺ: هل يقاتل في الشهر الحرام؟ فأَخبرهم أنه لا يقاتل فيه، فهموا بالهجوم عليه فيه، وقَتْلِ من معه حين طمعوا أَنه لا يُدافع فيه، فنزلت: ﴿الشَّهْرُ الحَرَامُ بالشَّهْرِ الْحَرَام والْحُرُمَاتُ قِصاصٌ﴾ أَي هو عليكم في الامتناع من القتال أَو الاستباحة بالشهر الحرام عليهم في الوجهين، فأَيَّةَ[١] سلكوا فاسلكوا. ﴿والحُرُمَاتُ﴾ على هذا جمع حُرمَة عموماً: النفس، والمال، والعرض، وغير ذلك[٢]. فأَباح الله بالآية مدافعتهم. والقول الأَول أَكثر[٣].

وقالت فرقة: قوله: ﴿والحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ مقطوع مما قبله[٤]، وهو ابتداءُ أَمرٍ كان في أَول الإِسلام أَن من انتهك حرمتك[٥] نِلْتَ منه مثل ما اعْتُديَ عليك به، ثم نسخ ذلك بالقتال.

وقالت طائفة: ما تناول من الآية التعدي بين أُمة محمد والجنايات ونحوها لم ينسخ، وجائز لمن تُعُدِّيَ عليه في مال أَو جرح أَن يتعدى بمثل ما تُعُدِّي عليه به إذا خفي[٦] ذلك له

---

(١) بمعنى أي مسلك سلكوا فاسلكوه، لأن الإضافة لازمة (لأي) إما لفظاً وإما معنى، والأفصح استعمالها بلفظ واحد للمذكر وللمؤنث لأنها اسم، والاسم لا تلحقه هاءُ التأنيث الفارقة بين المذكر والمؤنث كما في المصباح.

(٢) يعني أن (أل) في (الحُرُمَاتِ) على ماقاله الحسن بن أبي الحسن البصري هي للعموم، بمعنى أن كل حرمة يجري فيها القصاص فتدخل النفس والمالُ والعِرض والحرماتُ السابقة وغيرُها، وعلى السبب الأول كما قاله ابن عباس ومنه معه تكون (أل) للعهد.

(٣) هو ما قاله ابن عباس ومن معه. وقد عبَّر بعض المفسرين عن ذلك بقوله: والقول الأول أشهر.

(٤) أي أَنه لا يتعلق بأمر الحج، وإنما هو في أمر آخر.

(٥) إذا كان من الكفار.

(٦) أي إذا كان ذلك لا يؤَدي إلى فتنة واصطدام.

وليس بينه وبين الله في ذلك شيءٌ، قاله الشافعي، وغيره وهي روايةٌ في مذهب مالك[١].

وقالت طائفة ـ منهم مالك ـ: ليس ذلك له[٢]، وأُمور القصاص وقْفٌ على الحكام[٣]. والأَموال يتناولها قول النبي ﷺ: (أَدِّ الأَمانة إِلى من ائْتَمَنَك، ولا تخن من خانك)[٤]. وقرأَ الحسن ابن أَبي الحسن: (وَالحُرْمَات) بسكون الراءِ.

وقوله تعالى: (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) الآية. اختلف في نسخ هذه الآية حسب ما تقدم، وسُمِّي الجزاءُ على العدوان عدواناً كما قال: (الله يَسْتَهْزِىءُ بهمْ) إِلى غير ذلك[٥] (واتَّقُوا الله) قيل: معناه في أَلا تعتدوا. وقيل: في أَلا تزيدوا على المثل.

وقال ابن عباس: نزلت هذه الآية وما هو في معناها بمكة والإِسلام لم يُعَزّ، فلما هاجر رسول الله ﷺ وعزَّ دينه أُمر المسلمون برفع أُمورهم إِلى حكامهم، وأُمروا بقتال الكفار[٦]، وقال مجاهد: بل نزلت هذه الآية بالمدينة بعد عمرة القضاءِ، وهي في التدريج في الأَمر بالقتال.

---

(١) بل هي الرواية المشهورة عند المالكية، وتُعرف عندهم بمسألة الظفر، وقد أشار إليها شيخ المالكية في مختصره في كتاب «الشهادات» بقوله: وإن قدر على شيئِه فله أخذه إن يكن غير عقوبة، وأَمِنَ فتنةً ورذيلةً، فهي عندهم في الأموال، وأما العقوبات فإنما يتولاها الحاكم الشرعي، وانظر حديث هند: (خُذي ما يكفيك وولدك) في كتاب المظالم من صحيح البخاري.

(٢) هذه رواية معروفة عند المالكية ولكنها ضعيفة، وقد أشار إليها شيخ المالكية في مختصره في باب «الوديعة» بقوله: وليس له الأخذ منها لمن ظلمه بمثلها.

(٣) يأتي ذلك حتى على الرواية الأولى المشهورة عند المالكية، وأما الرواية الأخرى فسواءٌ فيها أمور القصاص وأُمور الأموال.

(٤) هذا الحديث أخرجه أبو داود، والترمذي، والدارقطني، وغيرهم عن جماعة من الصحابة، وهو حديث مُتكَلَّم فيه، إلا أنه بمجموع طُرقه يقوى ويكون حسناً، ومِنْ ثَمَّ حكاه الإِمام الترمذي بقوله: «حديث حسن غريب»، وقد أجاب الإِمام ابن رشد عن قوله ﷺ: (ولا تخُنْ مَنْ خَانَكَ) بأن معناه: ولا تأخذ أكثر من حقك فتكون خائناً، وأما من أخذ حقه فليس بخائن، ويؤيد الرواية المشهورة قول الله تعالى: (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)، ومن هذا ما إذا كان شخصان لكل منهما حق على الآخر، فجحد أحدهما صاحبه فللآخر أن يجحده فيما يعادل حقه، إذ يجب حفظ المال وصيانته بكل ما يمكن من الوسائل، وقد قال الله تعالى: (وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ الله لَكُمْ قِيَاماً).

(٥) أي للمقابلة كما قال الله تعالى بعد قول المنافقين: (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهزِؤونَ، اللهُ يَسْتَهْزِىء بِهِمْ) من الآيتين (١٤، ١٥) من سورة البقرة، وكما قال تعالى: (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ واللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ).

(٦) معنى ذلك أن هذه الآية نُسخت بآيات قتال الكفار التي نزلت بعدها.

قوله عز وجل:

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾

سبيل الله هنا: الجهاد، واللفظ يتناول ـ بعد ـ جميع سبله[١].

وقال أَبو عبيدة، وقومٌ: الباءُ في قوله: (بِأَيْدِيكمْ) زائدةٌ. التقدير: «تُلقُوا أَيْدِيَكُمْ»[٢].

وقال الجمهور: ذلك ضرب مثل. تقول: أَلقى فلان بيده في أَمر كذا إِذا استسلم، لأَن المستسلم في القتال يلقي سلاحه بيده، فكذلك فِعْل كلِّ عاجز في أَي فعل كان، ومنه قول عبد المطلب: «والله إِن إِلقاءَنا بأَيدينا إِلى الموت لعجز»[٣].

وقال قوم: التقدير: لا تُلْقوا أَنفسكم بأَيديكم[٤]، كما تقول: لا تفسد حالك برأْيك.

و(التَّهْلُكة) بضم اللام مصدر من هلك. وقرأَ الخليل: [التَّهْلِكة] بكسر اللام[٥]، وهي مفعِلَةَ من هَلَّكَ بشد اللام.

وروي عن أَبي أَيوب الأَنصاري[٦] أَنه كان على القسطنطينية فحمل رجلٌ على عسكر العدوِّ، فقال قوم: أَلقى بيده إِلى التهلكة، فقال أَبو أَيوب: لا. إِن هذه الآية

(١) بمعنى أن اللفظ عام يتناول سائر القربات والطاعات، ومن أهمها صرف الأموال في جهاد الأعداءِ، فهي شاملة بلفظها لجميع ما ذُكر فيها من الأقوال.

(٢) أي أنفسكم، فعبر بالبعض عن الكل.

(٣) انظر سيرة ابن هشام في كلام على حفر زمزم، ففيها زيادة على ما ذكروه هنا.

(٤) فالمفعول محذوف تقديره: «أنفسكم».

(٥) قال جار الله الزمخشري: يجوز أن يكون أصلها التهلكة كالتجربة والتبصرة، ثم أُبدلت من الكسرة ضمة، ولا حاجة إلى هذا ما دام كتاب الله يثبتها، وقد أشارت بعض المعاجم إلى أن التهلكة مثلثة اللام.

(٦) حديث أبي أيوب الأنصاري رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي وغيرهم، وهو خالد بن زيد بن ثعلبة الأنصاري، نزل عليه النبي ﷺ عند هجرته إلى المدينة، ومات رضي الله عنه غازياً بأرض الروم، أي قسطنطينية، وقبره هناك مشهور، توفي سنة ٥٢ هـ. =

نزلت في الأنصار حين أرادوا ـ لمَّا ظهر الإسلام ـ أن يتركوا الجهاد، ويعمروا أموالهم، وأما هذا فهو الذي قال الله فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾[١].

وقال حذيفة بن اليمان، وابن عباس، والحسن، وعطاءُ، وعكرمة، وجمهور الناس: المعنى: لا تلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة في سبيل الله، وتخافوا العَيْلة، فيقول الرجل: ليس عندي ما أُنفق.

وقال قوم: المعنى، لا تقنطوا من التوبة.

وقال البراءُ بن عازب، وعبيدة السلماني: الآية في الرجل يقول: قد بلغت في المعاصي، فلا فائدة في التوبة، فينهمك بعد ذلك[٢].

وقال زيد بن أسلم: المعنى: لا تسافروا في الجهاد بغير زاد، وقد كان فعل ذلك قوم فأداهم ذلك إلى الانقطاع في الطريق، أو الكون عالة على الناس.

وقوله: (وأحسنوا) قيل: معناه: في أعمالكم بامتثال الطاعات[٣]، وروي ذلك عن بعض الصحابة.

وقيل: المعنى: وأحسنوا في الإنفاق في سبيل الله، وفي الصدقات، قاله زيد بن أسلم.

وقال عكرمه: المعنى: وأحسنوا الظن بالله[٤].

---

(١) فالآية عند أبي أيوب الأنصاري في ترك الجهاد، وإنكاره رضي الله عنه عليهم ليس إنكاراً لعموم الآية، وإنما هو للرد على من زعم أنها نزلت في قتال الواحد للجماعة من الأعداء، والله أعلم. ويقال في معنى الآية، لا تركبوا الأخطار التي دلت العادة على أنها مهلكة، والإلقاءُ بالنفس إلى الهلاك في غير الجهاد يسمى إبسالا. وقوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ)... الخ من الآية (٢٠٧) من سورة البقرة.

(٢) فالآية في اليأس من قبول التوبة.

(٣) الآية عامة تشمل سائر أقوال المفسرين، لأن حذف المعمول يؤذن بالعموم. لأن الله كتب الإحسان على كل شيء.

(٤) جاءت في حسن الظن بالله أحاديث صحيحة، منها ما في صحيح مسلم عن جابر قال: (سمعت النبي ﷺ قبل وفاته بثلاثة أيام يقول، لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله). ومنها حديث: (أنا عند ظن عبدي بي). حديث متفق عليه من طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً عن الله عز وجل، ومنها حديث سالم بن عامر، عن أبي هريرة عند البيهقي: (يا أَيُّهَا النَّاسُ، أَحْسِنُوا الظَّنِ بِرَبِّ العَالَمِين، فَإِنَّ الرَّب عِنْدَ ظَن عبده).

وقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ والْعُمْرَةَ لله﴾ قال ابن زيد، والشعبي، وغيرهما: إِتمامهما أَلا يفسخا، وأَن تُتمهما إِذا بَدَأْت بهما. وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: إِتمامهما أَن تحرم بهما من دُوَيْرة أَهلك[١]، وفعله عمران بن حصين. وقال سفيان الثوري: إِتمامهما أَن تخرج قاصداً لهما، لا لتجارة، ولا لغير ذلك، ويؤيد هذا قوله: ﴿لله﴾ وقال قتادة، والقاسم بن محمد: إِتمامهما أَن تحرم بالعمرة وتقضيها في غير أَشهر الحج، وأَن تتم الحج دون نقص ولا جبر بدم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا مبني على أَن الدم في الحج والعمرة جبرُ نقص، وهو قول مالك وجماعة من العلماءِ. وأَبو حنيفة وأَصحابه يرون أَن كثرة الدم كمالٌ وزيادة، وكلما كثر عندهم لزوم الدم فهو أَفضل، واحتجوا بأَنه قيل للنبي ﷺ: ما أَفضل الحج؟ فقال: ٱلعج والثج[٢] ومالكُ ومَنْ قال بقوله يراه ثَجَّ التطوع. وقالت فرقة: إِتمامهما أَن تفرد كل واحدة من حجة وعمرة ولا تقرن، وهذا على أَن الإِفراد أَفضل. وقالت فرقة: القِرَانُ أَفضل وذلك هو الإِتمام عندهم. وقال ابن عباس، وعلقمة، وإِبراهيم، وغيرهم: إِتمامهما أَن تقضي مناسكهما كاملة بما كان فيهما من دماءٍ.

وفروض الحج: النِّيَّةُ، والإِحرام، والطواف المتصل بالسعي، والسعيُ بين الصفا والمروة عندنا، خلافاً لأَبي حنيفة، والوقوف بعرفة، والجمرةُ على قول ابن الماجشون.

وأَما أَعمال العمرة: فَنِيَّةٌ وإِحرامٌ وطوافٌ وسعيٌ، واختلف في فرض العمرة.

فقال مالك رحمه الله: هي سنة واجبة[٣] لا ينبغي أَن تُترك كالوتر، وهي عنده مرة

---

(١) المراد قبل المواقيت التي وقتها رسول الله ﷺ. فيحسن أن يحرم وهو في داره وبين أهله.

(٢) يقال: ثَجَّ الماءُ والدمُ ثَجّاً وثُجُوجاً: سال، فهو ثَجَّاج ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾ والعَجُّ: رفع الصوت بالتلبية، والثَّج: إسالة دماءِ الهدايا. والحديث رواه الإمام الترمذي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهو حديث غريب ولكنه للترغيب.

(٣) أي مؤكدة، ولا تدل الآية على وجوبها، لأن الله إنما قرنها بالحج في وجوب الإتمام لا في وجوب الابتداء بها. وابتدأ الصلاة والزكاة فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، وابتدأ بإيجاب الحج فقال: ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ الآية، وعند ما ذكر العمرة أمر بإتمامها لا غير، ويشهد لذلك أيضاً حديث=

واحدة في العام[١] وهذا قول جمهور أَصحابه.

وحكى ابن المنذر[٢] في «الإِشراف» عن أَصحاب الرأْي أَنها عندهم غير واجبة.

وحكى بعض القرويين والبغداديين عن أَبي حنيفة أَنه يوجبها كالحج، وبأَنها سُنَّة. قال ابن مسعود وجمهور من العلماءِ، وأَسند الطبري النص على ذلك عن رسول الله ﷺ. ورُوِي عن علي بن أَبي طالب، وابن عباس، وابن عمر، والشافعي، وأَحمد، وإِسحق، والشعبي، وجماعة تابعين أَنها واجبة كالفرض[٣]، وقاله ابن الجهم من المالكيين. وقال مسروق: الحج والعمرة فرض، نزلت العمرة من الحج منزلة الزكاة من الصلاة.

وقرأَ الشعبي، وأَبو حيوة: [العمرةُ لله] برفع العمرة على القطع والابتداءِ. وقرأَ ابن أَبي إِسحق: [الحِجَّ] بكسر الحاء، وفي مصحف ابن مسعود: [وَأَتِمُّوا الْحَجَّ والْعُمْرَة إِلى الْبَيْتِ لله]، وروي عنه: [وَأَقيمُوا الحَجَّ والعُمْرَةَ إِلى البَيْت]، وروي غير هذا مما هو كالتفسير[٤].

وقوله تعالى: (فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ)[٥]، قال علقمة، وعروة بن

= جابر بن عبد الله، عند الترمذي، والدارقطني: (أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الصلاة والزكاة والحج أواجب هو؟ قال: نعم، فسأله عن العمرة أواجبة هي؟ فقال: لأن تعتمر خيرٌ لك). ويشهد لذلك أيضاً قراءة الشعبي، وأبي حَيْوة: (والعُمْرَةُ للهِ) برفع التاءِ في العمرة. وقراءة الجماعة تدل على وجوب الإِتمام ليس إلا، والذين يقولون بالوجوب يقولون: الأمر بإتمامها أمر بها، ويستدلون ببعض الأحاديث، والجمع بين الأدلة هو أن العمرة بعد الشروع فيها واجبة، وقبل الشروع فيها غير واجبة.

(١) يعني أنها لا تكرر في العام. وفي الحديث: (دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة)، أي في أشهره، وقد كانوا في الجاهلية لا يقيمونها في أوقات الحج.

(٢) هو أبو بكر محمد بن إبراهيم النيسابوري، كان فقيهاً عالماً. صنَّف في اختلاف العلماء كتباً لم يصنف مثلها؛ منها كتاب «الإشراف في مذاهب الأشراف» وهو كتاب كبير يدل على كثرة اطلاعه على مذاهب الأئمة، وكانت وفاته كما في «شذرات الذهب» سنة ٣١٦هـ.

(٣) يريد كالحج.

(٤) يعني أن ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه من باب التفسير للآية، لمخالفته لسواد المصحف الذي أجمع عليه المسلمون.

(٥) قال ابن عطية رحمه الله عند قوله تعالى: (لِلفُقَرَاءِ الَّذينَ أُحْصِرُوا في سَبِيلِ اللهِ) الآية: وذهب بعض اللغويين إلى أن أُحصر وحُصِر بمعنى واحد من الحَبْس والمنع، سواء كانَ ذلك بعَدُوٍّ أو مرض ونحوه من الأعذار، حكاه ابن سيده، وغيره. وفسر السدي هنا الإِحصار بأنه بالعدو، وذهب بعضهم إلى أن=

الزبير، وغيرهما: الآية فيمن أُحصر بالمرض لا بالعدو. وقال ابن عباس وغيره بعكس ذلك، والمشهور من اللغة: أُحصر بالمرض وحُصِر بالعدو، وفي «المجْمَل» لابن فارس: حُصِرَ بالمرض وأُحْصِرَ بالعدو. وقال الفراءُ: هما بمعنى واحد في المرض والعدوّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والصحيح أَن (حُصر) إنما هي فيما حاط[1] وجاور، فقد يحصر العدو والماءُ ونحوه، ولا يحصر المرض. وأَحصر معناه: جعل الشيءَ ذا حصر[2] كأَقْبَرَ وأَحْمى[3] وغير ذلك، فالمرض والماءُ والعدو وغير ذلك قد يكون محصراً لا حاصراً، أَلا ترى أَن العدوَّ كان محصراً في عام الحديبية؟ وفي ذلك نزلت هذه الآية عند جمهور أَهل التأْويل. وأَجمع جمهور الناس على أَن المحْصَر بالعدو يحل حيث أُحْصِر ويَنحر هَديه إن كان ثَمّ هدي ويحلق رأْسه. وقال قتادة، وإبراهيم: يبعث بهديه إن أَمكنه، فإذا بلغ محله صار حلالا، ولا قضاءَ عليه عند الجميع، إلا أَن يكون ضرورة فعليه حَجَّة الإسلام. وقال ابن الماجشون: ليست عليه حَجَّة الإسلام وقد قضاها حين أُحصر، وهذا ضعيف لا وجه له. وقال أَشهب: يُهدي المحْصَر بعدوٍّ هدياً من أَجل الحصر. وقال ابن القاسم: لا يُهدي شيئاً إلا إن كان معه هدي فأَراد نحره، ذكره ابن أَبي زيد، وقال عطاءٌ وغيره: المحْصَر بالمرض كالمحْصر بالعدوِّ.

وقال مالك وجمهور من العلماءِ: المُحْصر بالمرض لايحله إلا البيت، ويقيم حتى

= أُحْصر إنما يكون بالمرض والأعذار، وحُصر بالعدوّ، وعلى هذا فسر ابن زيد وقتادة، ورجحه الطبري، وتأول في هذه الآية أنهم حابسوا نفسهم بربقة الدين وقصد الجهاد وخوف العدو إذا أحاط بهم الكفر، فصار خوف العدو عذراً أُحصِروا به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هذا متجه كأن هذه الأعذار أحصرتهم أي جعلتهم ذوي حَصَر كما قالوا: قبَره أي أدخله في قبره، وأقبره: جعله ذا قبر، فالعدو وكل محيط محصر، والأعذار المانعة تُحصِر ـ بضم التاءِ وكسر الصاد ـ أي تجعل المرءَ كالمحاط به. انتهى.

(١) يريد: فيما أحاط بالشيء وجاوره وضيَّق عليه، فالعدو هنا حاصِر لا مُحْصر، وقد يكون العدو مخصراً لا حاصِراً كما في قضية الحديبية، فإن العدو لم يكن محيطاً بالمسلمين ولكنه كالمحيط بهم.

(٢) أي جعله يحصر نفسه.

(٣) أقبر فلاناً جعل له قبراً، وأحمى المكان جعله حِمَى.

يفيق وإن أَقام سنين، فإذا وصل البيت بعد فوت الحج قطع التلبية في أَوائل الحرم وحل بعمرة، ثم تكون عليه حجة قضاءٍ، وفيها يكون الهدي، وقيل: إن الهدي يجب في وقت الحصر أَولاً[١]. ولم ير ابن عباس مَنْ أَحْصَره المرض داخلاً في هذه الآية، وقال: إن المريض إن لم يكن معه هَدْي حل حيث حُبس، وإن كان معه هَدي لم يحل حتى يبلغ الهدي محله ثم لا قضاءَ عليه. قال: وإنما قال الله: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾، والأَمن إنما هو من العدو فليس المريض في الآية.

وما في موضع رفع، أَي فالواجب، أَو فعليكم ما استيسر، ويحتمل أَن تكون في موضع نصب، أَي فانحروا، أَو فاهدوا.

وما استيسر ـ عند جمهور أَهل العلم ـ: شاةٌ، وقال ابن عمر، وعروة بن الزبير: ما استيسر: جَمَلٌ دون جَملٍ، وبقرةٌ دون بقرة.

وقال الحسن: أَعلى الهدي بَدَنَةٌ، وأَوسطه بقرة، وأَخسه شاةٌ.

و(الهَدْي): جمع هَدْيَةٍ كجَدْيَةِ السرج، وهي البراد جمعها جَدْي[٢]. ويحتمل أَن يكون الهدي مصدراً سُمِّي به كالرَّهْن ونحوه، فيقع للإفراد ولِلْجمع. وقال أَبو عمرو بن العلاءِ: لا أَعرف لهذه اللفظة نظيراً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾ الآية، الخطاب لجميع الأُمة: مُحْصَرٌ ومُخْلى[٣]: ومن العلماءِ مَنْ يراها للمُحْصَرين خاصَّةً.

---

(١) قال عزُّ الدين بن عبد السلام ـ في قواعد الأَحكام ـ ما ذكره مالك، والشافعي من أن التحلل يكون بحصر العدوِّ دون حصر العذر والمرض لا نظير له في الشريعة السَّمْحة التي قال الله فيها: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. فإنَّ من انكسرت رجله وتعذر عليه أن يعود إلى الحج والعمرة يبقى في بقية عمره حاسر الرأس متجرداً من اللباس ممنوعاً من النكاح والطيب وقلم الأظافر وحلق الشعر، وهذا بعيد من رحمة الشارع ورفقه ولطفه بعباده اهـ.

وهذا تأييد لكون التحلل كما يكون في حصر العدوِّ يكون في إحصار الأعذار والأمراض. والله أعلم.

(٢) جَذْية السرج هي رفادته، أي دعامته من لبد أو أديم تستبطن دفّتي السرج والرحل.

(٣) يشير بهذا إلى أن الآية معطوفة على قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ كما قال الإمام ابن جرير رحمه الله. وقال (ك): هو معطوف على قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ فإن النبي ﷺ ـ عام الحديبية ـ حلق ونحر خارج الحرم، وقد تصرف ابن عطية رحمه الله في هذا المحل تصرفاً لائقاً.

ومحل الهدي حيث يحل نحره، وذلك لِمَنْ يُحْصَر بمِنى، ولمن أُحْصِرَ بعدوٍّ حيث أُحصر إذا لم يمكن إرساله.

وأَما المريض فإن كان له هَدْي فيرسله إلى محله.

والترتيب[١]: أَن يرمي الحاج الجمرة، ثم ينحر، ثم يحلق، ثم يطوف طواف الإفاضة، فإن نحر رجلٌ قبل الرمي أَو حلق قبل النحر فلا حرج حسب الحديث ولا دم. وقال[٢] قوم: لا حرج في الحج ولكن يهريق دماً. وقال عبد الملك بن الماجشون ـ من أصحابنا ـ: إذا حلق قبل أَن ينحر فلْيهد. وإن حلق رجل قبل أَن يرمي فعليه دم قولاً واحداً في المذهب[٣]. قال ابن المواز[٤]، عن مالك: ويمرُّ المُوسَى على رأسه بعد الرمي، ولا دم في ذلك عند أَبي حنيفة وجماعة معه. وقرأَ الزهري، والأَعرج، وأَبو حيوة: [الهدِيُّ] بكسر الدال وشد الياءْ في الموضعين واحدته هدية، ورويت هذه القراءَة عن عاصم.

وقوله تعالى: (فَمَن كان مِنْكُمْ مَرِيضاً) الآية، والمعنى: فحلق لإزالة الأذى، فَفِدْيَة، وهذا هو فحوى الخطاب عند أَكثر الأُصوليين.

ونزلت هذه الآية في كعب بن عجرة[٥] حين رآه رسول الله ﷺ ورأْسُهُ يتناثر قَمْلاً فأَمره بالحِلاق، ونزلت الرخصة.

و(فِدْيَةٌ) رفع على خبر الابتداءِ.

والصيام عند مالك، وعطاءٍ، ومجاهد، وإبراهيم، وغيرهم، وجميع أَصحاب مالك: ثلاثة أَيام. والصدقة: ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع، وذلك مُدَّان بِمُدِّ

(١) أي ترتيب ما يفعل يوم النحر، فإذا خالف هذا الترتيب فلا حرج كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وفي حديث ابن عباس.

(٢) في بعض النسخ وقال أصحاب الرأي.

(٣) قال الشيخ خليل رحمه الله عاطفاً على ما فيه الدم: وتقديم الحلق أو الإفاضة على الرمي لا إن خالف في غير. انتهى. واعترض عليه بأن الواجب في تقديم الحلق على الرمي الفدية لا الدم؛ لوقوعه قبل شيءٍ من التحلل، والقاعدة عند الفقهاء أن الدم إنما ينصرف للهَدْي.

(٤) هو محمد بن سعيد الموثق أبو عبد الله القرطبي. كان من علماء المذهب المالكي ـ راجع الديباج ٢٦٥.

(٥) صحابي جليل، روى عن النبي ﷺ، وعن عمر بن الخطاب، كان مع النبي ﷺ في عمرة الحديبية، وهو الذي نزلت فيه الفدية، قيل إنه توفي سنة (٥١) هـ. الإصابة ٥ ـ ٣٠٤.

النبي ﷺ[(١)]، والنسكُ: شاة بإجماع، ومن ذبح أَفضل منها فهو أَفضل.

وقال الحسن بن أَبي الحسن، وعكرمة: الصيام عشرة أَيام، والإِطعام عشرة مساكين. وقرأَ الزهري: [أَو نسْك] بسكون السين. وقال سعيد بن جبير، ومجاهد: النسك: شاةٌ، فإِن لم يجدها فقيمتها يُشترى بها طعامٌ فيُطْعمُ منه مُدَّان لكل مسكين، فإِن لم يجد القيمة عرفها، وعرف ما يشتري بها من الطعام، وصام عن كل مُدَّيْن يوماً.

قال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: ذلك كله حيث شاءَ[(٢)]، وقاله إِبراهيم، وهو مذهب مالك وأَصحابه، إِلا ابن الجهم فإِنه قال: لا يكون النسك إِلا بمكة. وقال عطاءٌ ـ في بعض ما روي عنه ـ وأَصحاب الرأْي: النسك بمكة، والصيام والإِطعام حيث شاءَ. وقال الحسن بن أَبي الحسن وطاووس وعطاءٌ أَيضاً، ومجاهد، والشافعي: النسك والإِطعام بمكة، والصيام حيث شاءَ. والمفتدي مخير في أَي هذه الثلاثة شاءَ، وكذلك قال مالك وغيره في كل ما في القرآن، أَو فإِنه على التخيير.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ قال علقمة، وعروة: المعنى: إِذا برئتم من مرضكم، وقال ابن عباس، وقتادة، وغيرهما: إِذا أَمنتم من خوفكم من العدو المحْصِر، وهذا أَشبه باللفظ، إِلا أَن يُتَخَيَّلَ الخوف من المرض، فيكون الأَمن منه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلى الْحَجِّ﴾ الآية.

قال عبد الله بن الزبير، وعلقمة، وإِبراهيم: الآية في المحْصَرِينَ دون المخَلَّى سبيلهم. وصورة المتمتع عند ابن الزبير أَن يُحصَرَ الرجلُ حتى يفوته الحج، ثم يصل إِلى البيت، فيحل بعمرة، ويقضي الحج مِنْ قابلٍ، فهذا قد تمتَّع بما بين العمرة إِلى حج القضاءِ. وصورة المتمتع المحصَرِ عند غيرِه أَن يُحْصَرَ فيحل دون عمرة ويؤخرها حتى يأْتِيَ مِنْ قابلٍ فيعتمر في أَشهر الحج ويَحُجَّ من عامه.

وقال ابن عباس، وجماعة من العلماءِ: الآية في المُحْصَرِينَ وغيرِهم ممن خلي سبيله. وصورة المتمتع أَن تجتمع فيه ستة شروط: أَن يكون معتمراً في أَشهر الحج،

---

(١) قال الشيخ خليل في مختصره: والفدية فيما يترفه به أو يزيل أذى، ثم قال: وهي نسك بشاءٍ فأعلى، أو إطعام ستة مساكين لكلٍ مُدَّان كالكفارة، أو صيام ثلاثة أيام ولو أيام مِنىً.

(٢) بمكة أو بغيرها، قال شيخ المالكية في مختصره: ولم تختص بزمان أو مكان. انتهى. فالفدية ليست كالهَدْي الذي لا يكون إلا بمكة ويوم النحر.

وهو من غير حاضري المسجد الحرام، ويحل(١)، وينشىءُ الحج من عامه ذلك، دون رجوع إلى وطنه، أَو ما ساواه بُعْداً. هذا قول مالك وأَصحابه.

واختُلف لم سُمِّيَ مُتَمَتِّعاً؟ ـ فقال ابن القاسم: لأَنه تمتع بكل ما لا يجوز للمحرم فِعْلُه، من وقت حله في العمرة إلى وقت إنشائه الحج(٢)، وقال غيره: سُمِّي متمتعاً لأَنه تمتع بإِسقاط أَحد السفرين، وذلك أَن حق العمرة أَن تقْصَدَ بسفر، وحق الحج كذلك، فلما تمتع بإِسقاط أَحدهما أَلزمه الله هدْياً، كالقارن الذي يجمع الحج والعمرة في سفر واحد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذه شِدَّةٌ على القادِم مكة من سائر الأَقطار لما أَسقط سفراً، والمكي لا يقتضي حاله سفراً، في عمرة ولا حج، لأَنه في بقعة الحج. فلم يُلْزَمْ شيئاً لأَنه لم يُسْقِطْ شيئاً، ومن قال إِن اسم التمتع وحكمه إِنما هو من جهة التمتع بالنساءِ والطيب وغير ذلك، فيرد عليه أَنه يستغرق قوله: [فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلى الْحَجِّ] المكي وغيره على السواءِ في القياس، فكيف يشتد مع ذلك على الغريب الذي هو أَعذر، ويُلْزَمُ هدياً ولا يُفْعَلُ ذلك بالمكي؟ فيترجح بهذا النظر أَن التمتع إِنما هو من أَجل إِسقاط أَحد السفرين. إِلا أَن أَبا عبيد قال ـ في كتاب الناسخ والمنسوخ له ـ: إِن العمرة في أَشهر الحج ممنوعة للمكي، لا تجوز له، ورخص الله تعالى للقادم، لطول بقائه محرماً، وقرن الرخصة بالهدي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذه شدة على أَهل مكة، وبهذا النظر يحسن أَن يكون التمتع من جهة استباحة مالا يجوز للمحرم، لكنه قول شاذ لا يعَوَّل عليه.

وجُلُّ الأُمة على جواز العمرة في أَشهر الحج للمكي، ولا دمَ عليه، وذكر أَبو عبيد القولين عن ابن عمر، واستند إِليه في الذي وافقه، وقد حكاه الطبري عن ابن عباس

---

(١) إنما كان من شرط المتمتع أن يحل في أشهر الحج لأنها مدة يملكها الحج، فمن كان محرماً فيها فحقه أن يصل الإحرام إلى الحج، فلما حل وجب عليه الدم.

(٢) بيان ذلك أنه يتمتع لكل ما يمنع منه المحرم من طيب ونساءٍ وغير ذلك. وقيل: إن وجه ذلك أنه أسقط سفراً لأن كلاً من الحج والعمرة يستحق سفراً. والتعليل الأول في نظر ابن عطية ضعيف كما يأتي له، وإن كان غيره يعتبره ويعتَدُّ به.

وقال: إنه قال: يا أَهل مكة، لا مُتْعَةَ لكم، إن الله قد أَحلها لأَهل الآفاق، وحرَّمها عليكم، إنما يَقْطَعُ أَحدكم وادياً ثم يُحرم بعمرة، فمعنى هذا أَنهم متى أَحرموا داموا إلى الحج.

وقال السدي: المتمتع هو الذي يفسخ الحج في العمرة(١)، وذلك لا يجوز عند مالك. وفي صحيح مسلم حديث سُراقة بنِ مالك. قال: (قلت: يا رسول الله. فَسْخُ الحج في العمرة؛ أَلنا خاصة أَم للأَبد؟ فقال: بل لأَبد أَبد)(٢)

وإنما شرط في المتمتع أَن يحل في أَشهر الحج، لأَنها مدة يملكها الحج، فمن كان فيها محرماً فحقه أَن يصل الإحرام إلى الحج. وفي كتاب مسلم إيعاب الأَحاديث في هذا المعنى، ومذهب عمر، وقول أَبي ذر: أَن متعة النساءِ ومتعة الحج خاصتان لأَصحاب النبي ﷺ. وقال طاووس: «من اعتمر في غير أَشهر الحج ثم أَقام حتى حج من عامه فهو متمتع». وقال الحسن بن أَبي الحسن: «من اعتمر بعد يوم النحر في بقية

---

(١) وإنما فسخ النبي ﷺ الحج في العمرة ليريهم أن العمرة في أشهر الحج لا بأس بها، وكان ذلك له ولمن معه بخاصة، لأن الله سبحانه قد أمر بإتمام الحج والعمرة كل من دخل فيهما أمراً مطلقاً، ويجب ألا يخالف ظاهر الكتاب، إلا إلى ما لا إشكال فيه من كتاب ناسخ أو سنة مبيِّنة، وفسخ الحج في العمرة، وإرداف العمرة على الحج كلاهما ممنوع عند الإمام مالك رحمه الله. وعليه فالأقسام خمسة: إفراد، وَتَمَتُّعٌ، وقِران، وللإنسان أن يؤدي الحج أو العمرة بأي نوع من هذه الأنواع الثلاثة، إلا أنَّ الأفضل عند المالكية هو الإفراد. وأما فسخ الحج في العمرة، وإرداف العمرة على الحج فهما ممنوعان عند المالكية، وإرداف الحج على العمرة بعد الفراغ منها تمتع، وقبل الفراغ منها قران. وأما إرداف العمرة على الحج في وادي العقيق لمَّا قال له ﷺ: (قل: عمرة في حجة) فخصوصية كفسخ أصحابه الحج إلى العمرة، وكل ذلك كان إزالة لمَا تقرر في نفوسهم من أن العمرة في وقت الحج من أفجر الفجور.

(٢) سراقة بن مالك صحابي مشهور، وهو صاحب القصة المعروفة في الهجرة النبوية الكريمة. وفي حديث جابر الطويل في كتاب «مسلم» أن النبي ﷺ قال: (لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي وجعلتها عمرة، فقام سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله أَلِعَامِنا هذا أم لأَبدٍ؟ فشبَّك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى وقال: دخلت العمرة في الحج. مرتين، لا، بل لأَبد أبد.

وفي سنن النسائي قال سراقة: يا رسول الله. أرأيت عمرتنا هذه؛ لِعَامنا هذا أو لِلأبد؟ قال: هي للأبد. وفي رواية أُخرى: أَلنا خاصة أم لأبد؟ قال: بل لأبد. وفي رواية: يا رسول الله! أفسخ الحج لنا خاصة أم للناس عامة؟ قال: بل لنا خاصة.

وهذا رد على أهل الجاهلية الذين كانوا يقولون: «إذا برأ الدَّبَر، وعفا الأثر، وانسلخ صفر حلَّت العمرة لمن اعتمر».

العام فهو متمتع». وهذان القولان شاذان لم يوافقهما أحد من العلماءِ. وقد تقدم القول فيما استيسر من الهدي[١].

قوله عز وجل:

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾.

قوله: (لَمْ يَجِدْ) إما بعدم المال، وإما بعدم الحيوان[٢] ـ و(في الْحَجِّ) قال عكرمة، وعطاءٌ: له أَن يصومها في أَشهر الحج، وإن كان لم يحرم بالحج، وقال ابن عباس، ومالك بن أَنس: له أَن يصومها منذ يُحرم بالحج. وقال عطاءٌ أيضاً، ومجاهد: لا يصومها إلا في عشر ذي الحجة. وقال ابن عمر، والحسن، والحَكَم: يصوم يوماً قبل يوم التروية، ويوم التروية، ويوم عرفة، وكلهم يقول: لا يجوز تأْخيرها عن عشر ذي الحجة، لأَن بانقضائه ينقضي الحج. وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وابن عمر، ومالك بن أَنس وجماعة من أَهل العلم: من فاته صيامها قبل يوم النحر، فله صيامها في أَيام التشريق، لأَنها من أَيام الحج. وقال قوم: له ابتداءُ تأْخيرها إلى أَيام التشريق، لأَنه لا يجب عليه الصيام، إلا بأَلا يجد يوم النحر هدياً.

وقوله تعالى (وَسَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ) قال مجاهد، وعطاءٌ، وإبراهيم: المعنى إذا رجعتم من مِنى، فمن بقي بمكة صامها، ومن نهض إلى بلده صامها في الطريق. وقال قتادة والربيع: هذه رخصة من الله تعالى، والمعنى: إذا رجعتم إلى أَوطانكم، فلا يجب على أَحد صومُ السبعة إلا إذا وصل وطنه ـ إلا أن يتشدد أحد كما يفعل من يصوم في السفر

(١) في نفس هذه الآية عند قوله تعالى: (فَإِنْ أُحْصِرْتُم فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ).

(٢) مفعول (يجد) محذوف لفهم المعنى، والتقدير كما وضح ابن عطية: فمن لم يجد ما استيسر من الهدي، أو لم يجد الثمن.

في رمضان. وقرأ زيد بن علي: [وَسَبْعَةً] بالنصب. أي: وصوموا سبعة[(١)]، ولمَّا جاز أَن يتوهمَ مُتَوَهِّمٌ التخيير[(٢)] بين ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إِذا رجع، أُزيل ذلك بالجملة من قوله تعالى: ﴿تلك عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾[(٣)] قال الحسن بن أَبي الحسن: المعنى: كاملة في الثواب كمن أَهدى، وقيل: كاملة في الثواب كمن لم يتمتع، وهذا على أَن الحج الذي لم تكثر[(٤)] فيه الدماءُ أَخلص وأَفضل، خلافاً لأَبي حنيفة. وقيل: كاملة: توكيد. كما تقول: كتبت بيدي. وكقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾[(٥)] وقيل: لفظها الإِخبار ومعناها الأَمر. أَي: أَكملوها فذلك فرضها.

وقال الأُستاذ الأَجل أَبو الحسن علي بن أَحمد[(٦)]: المعنى: تلك كاملةٌ، وتكرر الموصوف تأْكيداً، كما تقول: زيد رجلٌ عاقلٌ[(٧)].

---

(١) أخرجه الزمخشري بأنه عطف على محل ثلاثة أيام. كأنه قيل: فصيامٌ ثلاثة أيام، كقولك: أو إطعامٌ في يوم ذي مسغبة يتيماً. قال (ح) بعد أن روى كلام الزمخشري: «وخرجه الحوفي وابن عطية على إضمار فعل» ثم قال: «وهو التخريج الذي لا ينبغي أن يُعدل عنه لأنا قد قررنا أن العطف على المحلِّ لا بد فيه من المحرز». راجع البحر المحيط ٢ ـ ٧٩.

(٢) بأن يظن أن (الواو) بمعنى (أو) فيكون كأنه قال: فصيام ثلاثة أيام في الحج أو سبعة إذا رجعتم لأنه إذا استعمل (أو) بمعنى (الواو) جاز أن يستعمل (الواو) بمعنى (أو) كقوله تعالى: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاث وَرُبَاعَ﴾ فالواو هنا بمعنى (أو).

(٣) قال ابن عرفة: «مذهب العرب إذا ذكروا عددين أن يُجملوهما» كما قال الفرزدق:

ثَــلاثٌ واثْنَتَــان فَهُــنَّ خَمْــسٌ ... وَسَــادسَــةٌ تَمِيــل إلــى شَمــام

وكقول النابغة:

تَــوَهَّمْــتُ آيَــاتٍ لهــا فَعَــرَفْتُهَــا ... لِسِتَّــةِ أعْــوَام وذا العَــامُ سَــابِــعُ

وقد حسَّن الزمخشري هذا القول بأن قال: «فائدة الفذلكة في كل حساب أن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلاً ليحاط به من جهتين فيتأكد العلم».

(٤) وفي بعض النسخ: «لم تكن».

(٥) من الآية (٢٦) من سورة النحل.

(٦) تقدمت الإشارة إليه في المجلد الأول ص ٢٧٣ من هذا الكتاب، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾، وهو من علماء غرناطة، برع في اللغة والشريعة، واهتم بدراسة كثير من كتب النحو وبخاصة كتاب سيبويه. توفي سنة ٥٣٨هـ.

(٧) رأي الأستاذ أبو الحسن كما نقله (ح) بنصه:
«أتى بعشرة توطئة للخبر بعدها، لا أنها هي الخبر المستقل به فائدة الإسناد، فجيءَ بها للتوكيد، كما تقول: «زيدٌ رجل صالح» البحر المحيط ٢ ـ ٧٩.

وقوله تعالى: (ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ) الآية، الإشارة إلى التمتع وهديه وحكمه، وهذا على قول من يرى أن المكي لا تجوز له المتعةُ في أشهر الحج. فكأن الكلام: ذلك الترخيص، ويتأيد هذا بقوله: (لِمَنْ) لأن اللام أبداً إنما تجيءُ مع الرُّخص، تقول: لك أن تفعل كذا، وأما مع الشدة فالوجه أن تقول: عليك. وأما من يرى أن المكيَّ يعتمر، ولا دم عليه، لأنه لم يسقط سفراً، فالإشارة بـ (ذَلك) ـ على قوله ـ هي إلى (الهدي)، أي ذلك الاشتداد الإلزام.

واختلف الناس في (حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الحَرَام) بعد الإجماع على أهل مكة وما اتصل بها. وقال الطبري: بعد الإجماع على أهل الحرم، وليس كما قال ـ فقال بعض العلماءِ: من كان حيث تجب الجمعة عليه بمكة فهو حضري، ومن كان أبعد من ذلك فهو بدوي. فجعل اللفظة من الحضارة والبداوة. وقال بعضهم: من كان بحيث لا تقصر الصلاة إلى مكانه، فهو حاضر أي مشاهد، ومن كان أبعد من ذلك فهو غائب. وقال عطاءُ بن أبي رباح: مكة وضجنان[1] وذو طوى وما أشبهها حاضرو المسجد الحرام. وقال ابن عباس ومجاهد: أهل الحرم كُلِّهِ حاضرو المسجد الحرام. وقال ابن عباس ومجاهد: أهل الحرم كُلِّهِ حاضرو المسجد الحرام. وقال مكحول[2]، وعطاءٌ: من كان دون المواقيت من كل جهة حاضرو المسجد الحرام. وقال الزهري: من كان على يوم أو يومين فهو من حاضري المسجد الحرام[3].

ثم أمر تعالى بتقواه على العموم، وحذر من شديد عقابه.

وقوله تعالى: (الْحَج أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ). في الكلام حذف تقديره: أشهر الحج أشهر. أو: وقت الحج أشهر. أو: وقت عمل الحج أشهر[4] والغرض إنما هو أن يكون

---

(١) قال الأزهري: أما (ضجن) فلم أسمع فيه شيئاً غير جبل بناحية تهامة يقال له: ضَجْنَان وجاء في اللسان: ضجنان: جبيل بناحية مكة.

(٢) هو عبد الله مكحول بن عبد الله الشامي: قيل: لم يكن في زمانه أبصر منه بالفُتيا. توفي سنة ١١٣ هـ (٤ ـ ٣٦٨ وفيات الأعيان).

(٣) حاضر الشيء: القريب منه، ومنه قوله تعالى: (واسْأَل الْقَرْيَةَ الَّتي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْر) أي قريبة منه، والقريب كالحاضر. وفي «المعجم الوسيط»: «وخلاف البادية، وهي: المدن والقرى والريف».

(٤) والحذف إما في المبتدأ كما قدر ابن عطية، أو في الخبر: ويكون التقدير الحج حجُّ أشهر معلومات.

الخبر عن الابتداءِ هو الابتداءُ نفسه[١] والحج ليس بالأَشهر، فاحتيج إِلى هذه التقديرات. ومن قدَّر الكلام: الحج في أَشهر فيلزمه مع سقوط حرف الجر نصب الأَشهر، ولم يقرأْ بنصبها أَحد[٢].

وقال ابن مسعود، وابن عمر، وعطاءٌ، والربيع، ومجاهد والزهري: أَشهر الحج: شوال وذو القعدة وذو الحجة كله. وقال ابن عباس، والشعبي، والسدي، وإِبراهيم: هي: شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة، والقولان لمالك رحمه الله، حكى الأَخير ابن حبيب.

وجمعَ على هذا القول الأَخير الاثنان وبعض الثالث[٣]، كما فعلوا في جمع عشر فقالوا: عشرون لعَشْرين ويومين من الثالث[٤]، وكما قال امرؤُ القيس:

. . . . ثـلاثيـن شَهْـراً فـي ثـلاثـة أَحـوال[٥]

فمن قال: إِن ذا الحجة كلَّه من أَشهر الحج، لم ير دَماً فيما يقع من الأَعمال بعد يوم النحر، لأَنها في أَشهر الحج، وعلى القول الآخر ينقضي الحج بيوم النحر ويلزم الدَّمُ فيما عمل بعد ذلك[٦].

وقوله تعالى: (فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ) أَي من أَلزمه نفسه[٧]، وأَصل الفرض: الحزُّ

---

(١) أي في المعنى لأن الوقت هو الشهر، وليس الحج شهراً.

(٢) الذي عند البصريين أن ظرف الزمان إذا كان نكرة خبراً عن مصدر يجوز رفعه إتباعاً، وعليه فلا يلزم نصبه.

(٣) هذا من باب إطلاق الكلِّ على البعض، وهذا شائع في لغة العرب، تقول: رأَيْتُك سنة كذا، وإنما رأيته في يوم منها مثلاً.

(٤) في لسان العرب، قال الليث: قلت للخليل: ما معنى العشرين؟ قال جماعة عشر، قلت فالعشر كم يكن؟ قال: تسعة أيام، قلت: فعشرون إنما عشران ويومان قال: لمَّا كان من العشر الثالث يومان جمعته بالعشرين. قلت: وإن لم يستوعب الجزء الثالث؟ قال: نعم. ألا ترى إلى قول أبي حنيفة: إذا طلقها تطليقتين وعشر تطليقة فإنه يجعلها ثلاثاً وإنما من الطلقة الثالثة فيه جزءٌ فالعشرون هذا قياسه. اهـ.

(٥) البيت هو:

وَهَـلْ يَنْعَمَـنَ مَـنْ كَـانَ أَحْـدَثُ عَهْـدِهِ ثَـلاثِيـنَ شَهْـراً فـي ثَـلاثَـةِ أَحْـوَالِ

وانظر ابن عطية عند قوله تعالى: (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ).

(٦) أشار بهذا إلى ثمرة الخلاف في أشهر الحج، هل هي: ثلاثة أشهر كاملة، أو شهران وعشر ذي الحجة.

(٧) وقال ابن عباس رضي الله عنه: فرض فيهن الحج: أي أحرم به فيهن، ومآل القولين واحد. وفي=

الذي يكون في السهام والقسي وغيرها، ومنه فرضة النهر والجبل، فكأن من التزم شيئاً ـ وأثبته على نفسه ـ قد فرضه.

وفَرْضُ الحج هو بالنِّية، والدخول في الإِحرام، والتلبية تبع لذلك. و(مَنْ) رفع بالابتداءِ، ومعناها الشرط، والخبر قوله: (فَرَضَ) لأَن (مَنْ) ليست بموصولة، فكأنه قال: «فرجل فرض». وقوله: (فَلا رَفَثَ) يحتمل أَن يكون الخبر، وتكون (فرض) صفة[(١)].

وقوله تعالى (فِيهِنَّ). ولم يجيء الكلام «فَرَضَ فِيهَا». فقال قوم: هما سواءٌ في الاستعمال. وقال أَبو عثمان المازني[(٢)]. الجمع الكثير لما لا يعقل يأتي كالواحدة المؤنثة، والقليل ليس كذلك، تقول: الأَجذاع انكسرن، والجذوع انكسرت[(٣)]. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ ثم قال: منها.

وقرأَ نافع: ﴿فَلا رَفَثَ ولا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ﴾[(٤)] بنصب الجميع، وهي قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: [فلا رفثٌ ولا فسوقٌ ولا جدالَ] بالرفع في الاثنين ونصب الجدال. وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع بالرفع في الثلاثة. ورويت عن عاصم في بعض الطرق[(٥)].

= «المعجم الوسيط»: فرض الشيءَ ـ فيه ـ فرضاً: حزَّ فيه حزّاً، يقال: فرض الأمر: أوجبه، يقال: فرضه عليه: كتبه عليه، وله: خصَّه به، وفي التنزيل العزيز ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ﴾.

(١) هذا أظهر مما قبله وأفيد. قال (ح): وهذه الجملة في موضع جواب الشرط إن كانت (مِنْ) شرطية، وفي موضع الخبر إن كانت (مِنْ) موصولة، وعلى كلا التقديرين لا بد من رابطٍ يربط بين الجملة الشرطية أو الجملة الخبرية فيجب تقديره. انظره.

(٢) هو أبو عثمان بكر بن محمد المازني النحوي البصري المشهور، كان إماماً في النحو والأدب، أخذ عن أبي عبيدة الأصمعي والأخفش، وهو أُستاذ للمبرد، وقد قيل عنه: لم يكن أحد بعد سيبويه أعلم بالنحو من المازني، توفي سنة (٢٤٩هـ).

(٣) قوله: «الأجذاع انكسرن» عائد على الجمع القليل، وقوله «والجذوع انكسرت» عائد على الجمع الكثير، فهو لف ونشر غير مرتب.

(٤) من الآية (٣٦) من سورة التوبة.

(٥) قال الإمام ابن العربي في أحكامه: قوله تعالى: ﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ﴾ أراد نفيَه مشروعاً لا موجوداً، فإنا نجد الرفث فيه ونشاهده، وخبر الله لا يقع بخلاف مخبره اهـ، وقال غيره: الآية بمعنى النهي. وقراءة ابن كثير وأبي عمرو برفع ﴿رفث وفسوق﴾ إنما هي بالرفع مع التنوين كما نص عليه (ح) في البحر المحيط.

و(لا) بمعنى ليس في قراءَة الرفع(١)، وخبرها محذوف على قراءَة أَبي عمرو(٢)، و(في الْحَجِّ) خبر (لا جدال). وحَذْفُ الخبر هنا هو مذهب أَبي علي. وقد خولف في ذلك، بل (في الْحَجِّ) هو خبر الكل، إِذ هو في موضع رفع في الوجهين(٣) لأَن (لا) إِنما تعمل على بابها فيما يليها، وخبرها مرفوع باق على حاله من خبر الابتداءِ(٤). وظن أَبو علي أَنها بمنزلة ليس في نصب الخبر، وليس كذلك، بل هي والاسم في موضع الابتداءِ يطلبان الخبر، و(في الحَجِّ) هو الخبر في قراءَة كلها بالرفع، وفي قراءَة كلها بالنصب(٥).

والتحرير: أَن (في الْحَجِّ) في موضع نصب بالخبر المقدر، كأَنك قلت: «موجود في الحج»، ولا فرق بين الآية وبين قولك: زيد في الدار.

وقال ابن عباس، وابن جبير، والسدي، وقتادة، ومالك، ومجاهد، وغيرهم: الرَّفث: الجماع. وقال عبد الله بن عمر، وطاوس، وعطاءٌ، وغيرهم: الرفث: الإِعرابة والتعريب(٦)، وهو الإِفحاش بأَمر الجماع عند النساءِ خاصة، وهذا قول ابن عباس أَيضاً، وأَنشد وهو محرم:

---

(١) قال (ح): «وهذا الذي جوزه وجزم به ابن عطية ضعيف لأن إعمال لا عمل (ليس) قليل جداً لم يجيء منه في لسان العرب إلا ما لا بال له، والذي يحفظ من ذلك قوله:

تعَزَّ فلا شَيْءٌ عَلى الأرضِ باقِياً ... ولا وزَرٌ مِمَّا قَضى اللهُ واقِيا

وقول النابغة الجعدي:

وَحَلَّت سَواد القَلْب لا أنا باغِياً ... سِوَاها ولا في حُبِّهَا مُتَرَاخِياً

(٢) قال(ح) تعقيباً على ذلك: «وقد نصَّ الناسُ على أن خبر كان وأخواتها ومنها (ليس) لا يجوز حذفه لا اختصاراً ولا اقتصاراً، ثم ذكروا أنه قد حذف خبر ليس في الشعر في قوله:

. . . . يرجو جوارك حين ليس مجير

على طريق الضرورة أو الندور، وما كان كذلك فلا يحمل القرآن عليه.

(٣) يعني بهما كونها بمعنى ليس، وكونها مبنية مع (لا)، قال (ح) وهذا لا يصح لأنها إذا كانت بمعنى ليس احتاجت إلى خبر منصوب، وإذا بنيت مع (لا) احتاجت إلى خبر مرفوع. انظره.

(٤) هذا تعليل لكون (في الحَجِّ) خبر للكل إذْ هِي في موضع رفع في الوجهين على ما ذهب إليه. وذلك لا يجوز لأنها إذا كانت بمعنى (ليس) كان خبرها في موضع نصب. ولا يناسب هذا التعليل إلا كونها تعمل عمل (إن) فقط على مذهب سيبويه.

(٥) ظنُّ أبي علي صحيح، والدليل على ذلك أن العرب جاءت بخبر (لا) التي بمعنى (ليس) منصوباً في أشعارها فدل ذلك على أن ما فهمه أبو علي صحيح، أنظر أبا حيان في مناقشاته لابن عطية.

(٦) يقال عرب وأعرب إذا أفحش في القول، ومنه لا تحل العرابة للمحرم.

وَهُـــنَّ يَمْشِيـــنَ بِنـــا هَمِيســـاً إِن تصْـــدق الطَّيْـــرُ نَنِـــكْ لَمِيســـا

فقيل له: ترفث وأنت محرم؟ فقال: إنما الرفث ما كان عند النساءِ(١). وقال قوم: الرفث الإفحاش بذكر النساءِ، كان ذلك بحضرتهن أَم لا. وقد قال ابن عمر للحادي: لا تذكر النساءَ، وهذا يحتمل أَن تحضر امرأَة فلذلك نهاه، وإنما يقوي القول من جهة ما يلزم من توقير الحج.

وقال أَبو عبيدة: الرفث اللَّغا من الكلام وأَنشد:

. . . . عَـــنِ اللَّغـــا وَرَفـــثِ التكلـــم(٢)

ولا حجة في البيت، وقرأَ ابن مسعود: [وَلا رفوث].

وقال ابن عباس، وعطاءٌ، والحسن، وغيرهم: الفسوق: المعاصي كلها لا يختص بها شيءٌ دون شيءٍ.

وقال ابن عمر، وجماعة معه: الفسوق: المعاصي في معنى الحج كقتل الصيد وغيره(٣).

وقال ابن زيد، ومالك: الفسوق: الذبح للأَصنام. ومنه قول الله تعالى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾(٤).

وقال الضحاك: الفسوق: التنابز بالأَلقاب، ومنه قول الله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ﴾(٥).

وقال ابن عمر أَيضاً، ومجاهد، وعطاءٌ، وإبراهيم: الفسوق: السباب. ومنه قول النبي ﷺ: (سِباب المسْلم فُسوقٌ وَقِتَاله كُفرٌ)(٦).

---

(١) قول ابن عباس رضي الله عنه: (ننك لميسا) صريح في الجماع مع أن مثل ذلك يكنى عنه لقبحه، ولكنه لما جاءَ بقصد البيان والفرق بين ما يكره وما لا يكره سهل أمره، وكأنه رأى مظنة ذلك الاعتقاد فنفاه بذلك القول الصريح بياناً لمعنى قوله تعالى: (فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ) الآية، ومتى كان الشيء للبيان كان مطلوباً غير محظور. وقد سبق ذكر هذا الشاهد.

(٢) تقدم هذا البيت بتمامه مع بيان معناه، وهو للعجاج.

(٣) على ما قاله ابن عباس ومن معه، وابن عمر ومن معه يكون الفسوق جمعاً لا مصدراً، وعلى ما قال غيرهما يكون مصدراً لا جمعاً.

(٤) من الآية (١٤٥) من سورة الأنعام.

(٥) من الآية (١١) من سورة الحجرات.

(٦) هذا الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي. ورواه أحمد في مسنده.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعموم جميع المعاصي أَولى الأَقوال.

وقال قتادة، وغيره: الجدال هنا: السباب.

وقال ابن مسعود، وابن عباس، وعطاءٌ، ومجاهد: الجدال هنا: أَن تماري مسلماً حتى تغضبه.

وقال مالك، وابن زيد: الجدال هنا: أَن يختلف الناس أَيهم صادف موقف إِبراهيم عليه السلام، كما كانوا يفعلون في الجاهلية، حين كانت قريش تقف في غير موقف سائر العرب، ثم يتجادلون بعد ذلك.

وقال محمد بن كعب القرظي: الجدال: أَن تقول طائفة: حجُّنا أَبرُّ من حجكم، وتقول الأُخرى مثل ذلك.

وقالت فرقة: الجدال هنا: أَن تقول طائفة: الحج اليوم، وتقول طائفة: بل الحج غداً، وقيل: الجدال كان في الفخر بالآباءِ.

وقال مجاهد، وجماعة معه: الجدال: أَن تُنْسِىءَ العرب الشهور حسب ما كان النسيءُ عليه، فقرر الشرع وقت الحج وبيَّنه وأَخبر أَنه حتم لا جدال فيه، وهذا أَصح الأَقوال وأَظهرها.

والجدال مأْخوذ من الجدل وهو الفتل، كأَن كل مجادل يفاتل[1] صاحبه، وأَما ما كان النسيءُ عليه، فظاهر سِير ابن إِسحق وغيرها من الدواوين، أَن الناسىء كان يحل المحرم لئلا تتوالى على العرب ثلاثة أَشهر لا إِغارة فيها، ويحرم صفر، وربما سموه المحرم، وتبقى سائر الأَشهر بأَسمائها حتى يأْتي حجُّهم في ذي الحجة على الحقيقة.

وأَسند الطبري عن مجاهد أَنه قال: كانوا يُسقطون المحرم ثم يقولون: صفران لصفر وشهر ربيع الأَول، ثم كذلك ينقلون أَسماءَ الشهور، ويتبادل وقت الحج في الحقيقة لكنه يبقى في ذي الحجة بالتسمية لا في حقيقة الشهر. قال: فكان حج أَبي بكر سَنَةَ تِسْعٍ في ذي القعدة على الحقيقة[2]، ثم حج رسول الله ﷺ سنة عشر في ذي الحجة

(١) أي يخاتله ويخادعه.

(٢) هذا قول مجاهد، وقد رده الحافظ ابن كثير، والقسطلاني بقوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِ الأَكْبَرِ﴾.
=

على الحقيقة، وقال: (إن الزمان قد استدار) ـ الحديث[1] ـ ونزلت: (وَلا جِدالَ فِي الْحَجِّ) أي قد تبين أمره فلا ينتقل شهر البتة أبداً.

وقوله تعالى: (وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمه الله) المعنى: فَيُثيب عليه، وفي هذا تحضيض على فعل الخير.

وقوله تعالى: (وَتَزَوَّدُوا) الآية، قال ابن عمر، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد، نزلت الآية في طائفة من العرب كانت تجيءُ إلى الحج بلا زاد، ويقول بعضهم: نحن المتوكلون، ويقول بعضهم: كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا؟ فكانوا يبقون عالة على الناس، فَنُهوا عن ذلك، وأُمروا بالتزود.

وقال بعض الناس: تزودوا الرفيق الصالح، وهذا تخصيص ضعيف، والأَولى في معنى الآية: «وتزودوا لمعادكم من الأعمال الصالحة»[2].

وفي قوله تعالى: (فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) حض على التقوى.

وخُصَّ أُولو الألباب بالخطاب، ـ وإن كان الأمر يعم الكل ـ لأنهم الذين قامت

= وقد نودي بهذا في حجة أبي بكر، فلو لم يكن حجه في ذي الحجة لما قال تعالى: (يَوْمَ الْحَجِّ الأكْبَرِ).

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، والإمام أحمد، عن أبي بكرة الثقفي، ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم: (إن الزمان قد استدار كهيئته) الخ أن السنة قد عاد الحج فيها إلى ذي الحجة بسبب استدارتها. فحجة الوداع كانت على حساب السنة التي استقامت ورجعت إلى الأصل الموضوع يوم خلق الله السموات والأرض، وهذا من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم إذ أخبر بأمر دقيق وهو مسامته رأس الحمل لأول قسم من أقسام الفلك الأطلس وهو نقطة الاعتدال الربيعي، فأخبر صلى الله عليه وسلم بذلك في الزمان الذي وقعت فيه المسامتة المذكورة، فصار الأمر من ذلك الوقت ـ في عدة الشهور وفي تحريم ما هم محرم منها على ما سبق في كتاب الله من العدد والتوالي لا على ما كانت تفعله العرب من فعلهم تحريم بعضها بالنسيء عن بعض، والله أعلم.

(٢) قيل: المراد بالزاد الزاد الظاهر، وهو سبب النزول كما قاله ابن عمر، وعكرمة وغيرهما، وقيل: المراد الزاد الباطن، وقال ابن عطية: وهذا هو الأولى في معنى الآية، أي لأنه المناسب، فقد جمعت الآية الزاد الظاهر والزاد الباطن، وذلك من زينة القرآن الباطنة المضافة إلى زينة ألفاظه الظاهرة، وقوله تعالى: (فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى) معناه: اتقاء كل ما فيه إثم، ومن ذلك إراقة ماء الوجه، والتطلع إلى ما في أيدي الناس، مع التملق والتذلل لهم والاعتماد عليهم، وكالتساهل في أداء الصلوات وعدم التحري في المأكولات، فعلى المرء أن يرضى بحاله، وألا يتبع هوى نفسه، حتى يكون العمل لله لا لغيره، فإذا أوجب الله عليك أمراً فافعل ما دام في وسعك أن تفعل، وإذا أسقطه عنك فاتركه ولا تحرص.

عليهم حجة الله، وهم قابِلو أَوامره، والناهضون بها، وهذا على أَن اللب لب[١] التجارب، وجودة النظر، وإِن جعلناه لب التكليف فالنداءُ بأُولي الأَلباب عام لجميع المكلفين.

واللب: العقل. تقول العرب: لَبُبْتُ، بضم الباءِ الأُولى أَلُبُّ، بضم اللام، حكاه سيبويه، وليس في الكلام فَعُلَ يَفعُل بضم العين فيهما غير هذه الكلمة[٢].

وقوله تعالى: (لَيسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ) الآية. الجُنَاح أَعم من الإِثم، لأَنه فيما يقتضي العقاب، وفيما يقتضي العتاب والزجر، و(تَبْتَغُوا) معناه: تطلبون بمحاولتكم.

وقال ابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وعطاءٌ: إِن الآية نزلت لأَن العرب تحرجت لما جاءَ الإِسلام أَن يحضروا أَسواق الجاهلية كعكاظ وذي المجاز ومجنَّة، فأَباح الله تعالى ذلك. أَي: لا دَرَكَ في أَن تتجروا وتطلبوا الربح[٣].

وقال مجاهد: كان بعض العرب لا يتجرون مذ يُحْرمون، فنزلت الآية في إِباحة ذلك.

وقال ابن عمر: فيمن أُكري ليَحج؛ حجه تام، ولا حرج عليه في ابتغاءِ الكِراءِ.

وقرأَ ابن[٤] عباس، وابن مسعود، وابن الزبير [لَيْس عَلَيْكمْ جُنَاح أَن تَبْتَغُوا فضلاً من رَبِّكُمْ] «في مواسم الحج».

وقوله تعالى: (فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِن عَرَفَاتٍ) أَجمع أَهل العلم على تمام حجّ من وقف بعرفة بعد الزوال وأَفاض نهاراً قبل الليل، إِلا مالك بن أَنس فإِنه قال: لا بد أَن يأْخذ من الليل شيئاً. وأَما من وقف بعرفة باللَّيل فلا خلاف بين الأُمة في تمام حجّهِ. وأَفاض القوم أَو الجيش إِذا اندفعوا جملة، ومنه: أَفاض الرجل في الكلام، ومنه: فاض الإِناءُ وأَفضته، ومنه: المفيض في القداح. والتنوين في (عرفات) على حده في «مسلمات»

---

(١) اللُّبُّ هو العقل، والعقل إما تجريبي وإما تكليفي، فإن نظرنا إلى المعنى الأول فأولو الألباب خصوص، وإن نظرنا إلى المعنى الآخر فأولو الألباب عموم.

(٢) أي مضاعفاً، وهذا هو الوصف الذي يجعل هذه الكلمة لا نظير لها في اللغة العربية، ولعلَّ هذا القيد سقط من الكلام. انظر القاموس والمصباح.

(٣) أي في أيام الحج، اللهم إلا إذا كانت التجارة هي القصد فإن الفرض يسقط والثواب ينقص، انظر البخاري في باب التجارة في المواسم والبيع في أسواق الجاهلية. وقد كانت هذه الأسواق تقام في أشهر الحج. ومعنى قوله: لا درك: لا تبعَةَ. يقال: ما لحقك من درَك (بفتح الراء وسكونها) فَعَلَيَّ خلاصه.

(٤) الأحسن أن تكون هذه القراءة تفسيراً لأنها تخالف سواد المصحف الذي أجمعت عليه الأمة.

الكسرة مقابلة للياءِ في مسلمين، والتنوين مقابلٌ للنون. فإذا سميت به شخصاً ترك، وهو معرف على حده قبل أن تسمي به.

فإن كان عرفات اسماً لتلك البقعة كلها فهو كما ذكرنا، وإن كان جمع عرفة فهو كمسلمات دون أن يسمى به[١]. وحكى سيبويه كسر التاءِ من (عرفاتِ) دون تنوين في حالة النصب والخفض مع التعريف. وحكى الكوفيون فتحها في حالة النصب والخفض تشبيهاً بتاءِ فاطمة وطلحة. وسميت تلك البقعة عرفات، لأن إبراهيم عرفها حين رآها على ما وصفت له. قال السدي، وقال ابن عباس: سميت بذلك لأن جبريل عليه السلام كان يقول لإبراهيم عليه السلام: هذا موضع كذا فيقول: قد عرفت، وقيل: سميت بذلك لأن آدم عرف بها حواءَ حين لقيها هناك، والظاهر أنه اسم مرتجل كسائر أسماءِ البقاع.

وعرفة هي نعمان الأَراك[٢]. وفيها يقول الشاعر:

تَـزَوَّدْت مِـنْ نَعْمَـانَ عُـودَ أَرَاكَـةٍ   لِهِنْـدٍ ولكـن مَـنْ يُبَلِّغُـهُ هِنْـدا[٣]

و(المَشْعَرِ الْحَرَام) جمع كله، وهو ما بين جبلي المزدلفة من حدِّ مفضى مأزمَي عرفة[٤] إلى بطن محسر. قال ذلك ابن عباس، وابن جبير، والربيع، وابن عمر، ومجاهد: فهي كلها مشعر، إلا بطن محسِّر، كما أَن عرفة كلها موقف، إلا بطنَ عَرُنَة بفتح الراءِ وضمها.

---

(١) فعرفات اسم في لفظ الجمع فلا يجمع، وقول الناس: نزلنا بعرفة شبيهٌ بمولد، وليس بعربي محض، وهي معرفة وإن كانت جمعاً، لأن الأماكن لا تزول فصار كالشيء الواحد، وفي المصباح: ويعرب (عرفات) إعراب (مسلمات ومؤمنات)، والتنوين يشبه تنوين المقابلة كما في باب (مسلمات)، وليس بتنوين صرف لوجود مقتضى المنع من الصرف، وهو العَلَمية والتأنيث، ولهذا لا يدخلها الألف واللام، وبعضهم يقول: عرفة هي الجبل، وعرفات جمع عرفة تقديراً لأنه يقال: وقفت بعرفة كما يقال: بعرفات اهـ.

(٢) قال في المصباح: الأراك: موضع بعرفة من جهة الشام، وقال أيضاً: ونَعمان الأراك بفتح النون وادٍ بين مكة والطائف ويخرج إلى عرفات، وقال الأزهري، نَعمان اسم جبل بين مكة والطائف، وهو وَجّ الطائف، وَوَجّ الطائف: بلد الطائف. والوَجّ في الأصل: ضرب من الأودية، ذكره في الصحاح.

(٣) هو لابن أبي ربيعة كما في ديوانه. وفي رواية (تخيرت) (بدل تزودت).

(٤) المَأزم بوزن مَسْجِد: الطريق الضيق بين الجبلين، ويقال للموضع الذي بين عرفة والمشعر مأزماً وثُنِّي المأزم لمكان الجبلين وإلا فهو واحد.

رُوِي عن النبي ﷺ أنه قال: (عرفة كلُّها موقف إلا بطن عَرنة، والمزدلفة كلها مشعر، وارتَفِعُوا عن بطن محسر)[١]. وذكر هذا عبد الله بن الزبير في خطبته، وفي المزدلفة قرن قزح الذي كانت قريش تقف عليه.

وذِكْرُ الله تعالى عند المشعر الحرام نَدْبٌ عند أَهل العلم. وقال مالك: من مرَّ به ولم ينزل فعليه دم. وقال الشافعي: من خرج من مزدلفة قبل نصف الليل فعليه دم، وإن كان بعد نصف الليل فلا شيءَ عليه. وقال الشعبي، والنخعي: من فاته الوقوف بمزدلفة فاته الحج. وقوله: (واذْكُرُوه كَمَا هَدَيٰكُمْ) تعديد للنعمة، وأَمر بشكرها، ثم ذكَّرهم بحال ضلالهم ليظهر قدر الإنعام، والكاف في (كَمَا) نعت لمصدر محذوف و(ما) مصدرية أو كافة[٢]، و(إن) مخففة من الثقيلة، ويدل على ذلك دخول اللام في الخبر، هذا قول سيبويه. وقال الفراءُ: هي النافية[٣] بمعنى (ما) واللام بمعنى (إلا) والضمير في (قَبْلِهِ) عائد على الهدى.

قوله عز وجل:

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

قال ابن عباس، وعائشة، وعطاءٌ، ومجاهد، وغيرهم: المخاطب بهذه الآية

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ، قال أبو عمر بن عبد البر: هذا الحديث يتصل من حديث جابر بن عبد الله، ومن حديث ابن عباس، ومن حديث علي بن أبي طالب. وأكثر الآثار ليس فيها استثناء بطن عرنة من عرفة، وبطن محسر من المزدلفة.

(٢) أي كفّت الكاف عن العمل، وكونها مصدرية أولى، أيْ كهدايته، والفرق بين المصدرية والكافة أن (ما) المصدرية تكون هي وما بعدها في موضع جر إذ يَنْسَبِكُ منها مع الفعل مصدر، والكافة لا يكون فيها ذلك إذ لا عمل لها البتَّةَ.

(٣) ومعناها: ما كنتم مِنْ قبل الهدى إلا ضالين، والهداية هداية الإيمان، والضلال ضلال الكفر.

قريش، ومَنْ ولدت، وهُمُ الحمس، وذلك أَنهم كانوا يقولون: نحن قطين الله[١] فينبغي لنا أَن نعظم الحرم، ولا نعظم شيئاً من الحل، فسنوا شق الثياب في الطواف إلى غير ذلك، وكانوا مع معرفتهم وإِقرارهم أَن عرفة هي موقف إِبراهيم، لا يخرجون من الحرم، ويقفون بجمع، ويفيضون منه، ويقف الناس بعرفة. فقيل لهم أَن يفيضوا مع الجملة[٢].

(ثم) ليست في هذه الآية للترتيب، إنما هي لعطف جملة كلام على جملة هي منها منقطعة، وكان رسول الله ﷺ من الحمس، ولكنه كان يقف مذ كان بعرفة هدايةً من الله.

وقال الضحاك: «المخاطب بالآية جملة الأُمة، والمراد بالناس إِبراهيم عليه السلام كما قال: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ) وهو يريد واحداً»[٣]، ويحتمل على هذا أَن يؤمروا بالإِفاضة من عرفة، ويحتمل أَن تكون إِفاضة أُخرى، وهي التي من المزدلفة فتجيءُ (ثُمَّ) على هذا الاحتمال على بابها[٤]، وعلى هذا الاحتمال عوَّل الطبري. وقرأَ سعيد بن جبير: [النَّاسي][٥] وتأويله آدم عليه السلام، ويجوز عند بعضهم تخفيف الياءِ فيقول: الناس كالقاض والهاد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

أَما جوازه في العربية فذكره سيبويه، وأَما جوازه مقروءًا به فلا أَحفظه[٦].

وأَمر تعالى بالاستغفار لأَنها مواطنه، ومظانُّ القبول، ومساقط الرحمة، وفي

---

(١) الحمس: هم سكان الحرم، والقطين: جمع قاطن أي ساكن. وقطين الله: ساكن حرمه.

(٢) أي مع الناس، أي من عرفة، وعلى هذا فَثُمَّ ليست للترتيب، وإذا كانت الإفاضة من مزدلفة فَثُمَّ للترتيب على ما قرره ابن عطية رحمه الله. وقوله تعالى: (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاس) دعوة إلى المساواة والاندماج في الجماعة ونَبْذِ الفوارق بين الناس، فالمسلمون يلتقون في هذا المؤتمر الإسلامي الشامل إخواناً متساوين مستغفرين من الكِبر والكبيرة، ومن الصلف والأنانية.

(٣) هو نعيم بن مسعود الأشجعي، وقوله تعالى: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ) من الآية (١٧٣) من سورة آل عمران.

(٤) أي احتمال الإفاضة من المزدلفة، وبابها أنها للترتيب.

(٥) مأخوذ من قوله تعالى: (فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً).

(٦) قال(ح) قد حفظه غيره، ثم نقل عن أبي العباس المهدوي أن سعيد بن جبير قرأ (النَّاسي) بالياءِ، و(الناسِ) بالكسر من دون ياءٍ، وهي قراءة شاذة تدل على أن الإفاضة من عرفة شرع قديم. والحقيقة كما ذكرَ (ح) أيضاً أن سيبويه لم يجز (الناسي) عربية إلا في الشعر فقط لا مطلقاً كما يفهم من كلام ابن عطية.

الحديث[١] أَن رسول الله ﷺ: خطب عشِيَّة عرفة فقال: (أَيها الناس: إِن الله تطول عليكم في مقامكم هذا فقبل من محسنكم، ووهب مسيئكم لمحسنكم، إِلا التبعات فيما بينكم، أَفيضوا على اسم الله). فلما كان غداة جمع؛ خطب فقال: (أَيها الناس إِن الله تطول عليكم فعوض التبعات من عنده).

وقالت فرقة: المعنى: واستغفروا الله من فعلكم الذي كان مخالفاً لسنة إِبراهيم في وقوفكم بقزح[٢] من المزدلفة.

وقوله تعالى: (فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ) الآية، قال مجاهد: المناسك الذبائح وهراقة الدماءِ. والمناسك عندي: العبادات في معالم الحج ومواضع النسك فيه. والمعنى: إِذا فرغتم من حجكم، الذي هو الوقوف بعرفة، فاذكروا الله بمحامده، وأثنوا عليه بآلائه عندكم، وخُصَّ هذا الوقت بالقضاءِ لما يقضي الناس فيه مناسكهم في حين واحد، وما قبل وبعد فهو على الافتراق، هذا في طواف، وهذا في رميٍ، وهذا في حلاق، وغير ذلك.

وكانت عادة العرب ـ إِذا قضت حجَّها ـ تقف عند الجمرة، فتتفاخر بالآباءِ، وتذكر أَيام أَسلافها من بسالة وكرم وغير ذلك، فنزلت الآية ليُلْزِمُوا أَنفسهم ذكر الله تعالى[٣] أَكثر من التزامهم ذكر آبائهم بأَيام الجاهلية، هذا قول جمهور المفسرين. وقال ابن عباس، وعطاءٌ: معنى الآية: اذكروا الله كذكر الأَطفال آباءَهم وأُمهاتهم، أَي: فاستغيثوا[٤] به، والجؤوا إِليه كما كنتم تفعلون في حال صغركم بآبائكم. وقالت

(١) رواه ابن جرير الطبري في التفسير عن ابن عمر.

(٢) جبل بالمزدلفة كانت تقف عليه قريش.

(٣) قال الإمام النووي رحمه الله: «المراد من الذكر حضور القلب، فينبغي أن يكون هو مقصود الذاكر، ويحرص على تحصيله، ويتدبر ما يذكر ويتعقل معناه، فالتدبر في الذكر مطلوب كما هو مطلوب في القراءة لاشتراكهما في المعنى المقصود».

وقال أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري:

«ولا مطمع للذاكر في درك حقائق الذكر إلا بإعمال الفكر فيما تحت ألفاظ الذكر من المعاني، وليرفع خطرات نفسه عن باطنه راجعاً إلى مقتضى ذكره حتى يغلب معنى الذكر على قلبه» انتهى من مختصر ابن عطية رحمه الله.

(٤) وفي بعض النسخ: «فاستعينوا به».

طائفة: معنى الآية: اذكروا الله وعظموه وذُبُّوا عن حرمه، وادفعوا من أراد الشرك والنقص في دينه ومشاعره، كما تذكرون آباءكم بالخير، إذا غض أحد منهم وتحمون جوانبهم، وتذُبون عنهم.

وقرأ محمد بن كعب القرظي: [كذكركم آباؤُكم]، أي اهتبلوا بذكره كما يهتبل المرءُ بذكر ابنه، فالمصدر على هذه القراءَة مضاف إلى المفعول(١)، و(أَشدَّ) في موضع خفض عطفاً على (ذِكْرِكُمْ)، ويجوز أن يكون في موضع نصب؛ التقدير: أَو اذكروه أَشد ذكراً.

وقوله تعالى: (فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ) الآية(٢). قال أَبو وائل، والسدي، وابن زيد: كانت عاداتهم في الجاهلية أَن يدعوا في مصالح الدنيا فقط، إذ كانوا لا يعرفون الآخرة، فَنُهوا عن ذلك الدعاءِ المخصوص بأَمر الدنيا(٣)، وجاءَ النهي في صيغة الخبر عنهم.

والخَلاق: النصيب والحَظ، و(من) زائدة لأَنها بعد النفي، فهي مستغرقة لجنس الحظوظ.

وقال قتادة: حسنة الدنيا: العافية في الصحة وكفاف المال، وقال الحسن بن أَبي الحسن: حسنة الدنيا: العلم والعبادة. وقال السدي: حسنة الدنيا: المال، وقيل: حسنة الدنيا: المرأَة الحسناءُ(٤)، واللفظة تقتضي هذا كله، وجميع محاب الدنيا.

---

(١) والفاعل آباؤكم، والتقدير: اذكروا الله كما يذكركم آباؤكم.

(٢) لما كان الدعاءُ نوعاً من أنواع الذكر ذكره بعد إرشاد عباده إلى ذكره سبحانه وتعالى، وكأنه يقول: بعد قضاء مناسككم وعبادتكم، اذكروا الله ذكراً كثيراً وادعوه دعاءً شاملاً، لا دعاءً خاصاً بالدنيا.

(٣) أي بالدنيا، وليس المراد أنه يريد من الناس أن يتركوا أمر الدنيا لأنهم يعيشون فيها، ولكنه سبحانه يريد من الناس أن يعملوا لهذه الدنيا، ولما هو أكبر منها حتى لا يحصرو نشاطهم فيها، بل عليهم أن يزاولوا الخلافة في الحياة الدنيا، وأن يرفعوا مستواهم إلى الأفق الأعلى، وإلى الحياة الأخرى.

(٤) اختلفت أقوال المفسرين في الآية؛ فقيل: الحسنة في الدنيا: العلم والعبادة، وفي الآخرة: الجنة والمغفرة، وقيل: المال وحسن المآل، وقيل: المرأة الصالحة والحور العين، وقيل: العافية. والصحيح الحمل على العموم فإن النكرة في سياق الطلب عامة، فكأنه يقول: أعطني كل حالة حسنة في الدنيا والآخرة. قال الإمام النووي: «وأظهر الأقوال في تفسير الحسنة أنها في الدنيا العافية والعبادة، وفي الآخرة الجنة والمغفرة»، وقيل: الحسنة: نعيم الدنيا ونعيم الآخرة. روى الإمام مسلم، والترمذي والنسائي عن ثابت، عن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد جهد فصار مثل الفرخ، فقال له النبي ﷺ: هل كنت تدعو الله بشيءٍ أو تسأله إياه؟ قال: نعم: كنت أقول: اللهم ما كنت=

وحسنة الآخرة: الجنة بإجماع. (وَقِنَا عَذَابَ النَّار) دعاءٌ في ألا يكونَ المرءُ ممن يدخلها بمعاصيه، وتخرجه الشفاعة، ويحتمل أَن يكون دعاءً مؤكداً لطلب دخول الجنة، لتكون الرغبة في معنى النجاة، والفوز من الطرفين، كما قال أَحد الصحابة للنبي ﷺ: «أَنا إِنما أَقول في دعائي: اللهم أدخلني الجنة، وعافني من النار. ولا أَدري ما دَنْدَنَتُكَ ولا دَنْدَنَة معاذ؟» فقال له رسول الله ﷺ: (حولها نُدَنْدِنْ)[١].

وقوله تعالى: (أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا) الآية. وَعْدٌ على كسب الأعمال الصالحة في صيغة الإخبار المجرد[٢]، والربُّ تعالى سريع الحساب لأَنه لا يحتاج إلى عقد، ولا إلى إعمال فكر، وقيل لعلي بن أَبي طالب رضي الله عنه: كيف يحاسب الله الخلائق في يوم؟ فقال: كما يرزقهم في يوم، وقيل: الحساب هنا المجازاة، كأَن المجازي يعد أَجزاءَ العمل ثم يجازي بمثلها[٣]، وقيل: معنى الآية: سريع مجيءُ يوم الحساب، فالمقصد بالآية الإنذار بيوم القيامة، وأَمر الله تعالى عباده بذكره في الأَيام المعدودات، وهي الثلاثة التي بعد يوم النحر. وهي أَيام التشريق[٤]، وليس يوم النحر من المعدودات، ودل على ذلك إجماع الناس على أَنه لا يَنْفِر أَحد يوم القر وهو ثاني

= معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله لا تطيقه ولا تستطيعه أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار. قال: فدعا الله به فشفاه. ومعنى قوله: «مثل الفرخ» أنه ضعف ونحل جسمه وخفي كلامه، وتشبيهه له بالفرخ يدل على أنه تناثر أكثر شعره، وفي هذا الحديث النهي عن الدعاءِ بتعجيل العقوبة، وفضلُ الدعاءِ باللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، فقد أرشده صلى الله عليه وسلم إلى أحسن ما يقال لأنها من الدعوات الجوامع التي تتضمن خير الدنيا والآخرة، ومن دعاء موسى عليه السلام: «أنت وليُّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنَّا هُدْنَا إليك» وقد كان أكثر ما يقول النبي ﷺ: (اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) كما في الصحيح.

(١) أي حول مقالتك نُدندن، والمعنى أن كلامنا قريب من كلامك، والدَّنْدَنَةُ كلام غير مفهوم. والحديث خرَّجه أبو داود، وابن ماجه.

(٢) الظاهر رجوع الجملة إلى الفريقين فريق الإسلام وفريق الكفر بدليل قوله: (واللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ) فإن سرعة الحساب لا تختص بالمؤمنين.

(٣) أي بسرعة.

(٤) وهي أيام منىً، وأيام الرمي، أما الأيام المعلومات المذكورة في قوله تعالى: (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ) فهي أيام النحر، والأيام المعدودات المذكورة هنا هي أيام التشريق، ويقال لليوم الأول من أيام التشريق: يوم القر لأن الناس يقرون في منىً للنحر.

يوم النحر[١]، فإن يوم النحر من المعلومات، ولو كان يوم النحر من المعدودات لساغ أن ينفِر من شاءَ متعجلاً يوم القر لأنه قد أخذ يومين من المعدودات. وحكى مكي، والمهدوي، عن ابن عباس أنه قال: المعدودات هي أيام العشر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا إما أن يكون من تصحيف النسخة، وإمَّا أن يريد العشر الذي بعد يوم النحر وفي ذلك بُعدٌ.

والأيام المعلومات: هي يوم النحر ويومان بعده، لإجماعهم على أنه لا ينحر أحد في اليوم الثالث. والذكر في المعلومات إنما هو على ما رَزَقَ الله من بهيمة الأنعام. وقال ابن زيد: المعلومات عشر ذي الحجة وأيام التشريق، وفي هذا القول بعد.

وجعل الله الأيام المعدودات أيام ذكر الله، وقد قال النبي ﷺ: (هِيَ أَيَّامُ أكل وشُرب وذِكر الله)[٢].

ومن جملة الذكر التكبير في أثر الصلوات. واختُلف في طرفي مدة التكبير[٣].

فقال عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب وابن عباس:

يُكبِّر من صلاة الصبح من يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق.

وقال ابن مسعود، وأبو حنيفة: يُكبر من غداة عرفة إلى صلاة العصر من يوم النحر.

وقال يحيى بن سعيد: يُكبر من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الظهر من آخر أيام التشريق.

وقال مالك: يُكبر من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، وبه قال الشافعي.

وقال ابن شهاب: يكبر من الظهر يوم النحر إلى العصر من آخر أيام التشريق.

---

(١) يقال: نَفَر الحاج مِن مِنىً إلى مكة، وللحاج نَفْران فالأول هو اليوم الثاني من أيام التشريق، والنَّفْر الثاني هو اليوم الثالث منها.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ومسلم في صحيحه.

(٣) أي في بدايته ونهايته، وقد ذكر من ذلك أقوالاً ثمانية، وأيام عرفة والنحر والتشريق كلها صالحة للذكر، ومن جملة الذكر التكبير، ومن خواص التكبير ما رواه ابن السُّنِّي بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: إذا رأيتم الحريق فكبِّروا، فإن التكبير يطفئه. انتهى من حلية النووي.

وقال سعيد بن جبير: يُكبر من الظهر يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق.

وقال الحسن بن أبي الحسن: يكبر من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الظهر يوم النفر الأول. وقال أبو وائل: يكبر من صلاة الظهر يوم عرفة إلى صلاة الظهر يوم النحر.

ومشهور مذهب مالك أنه يُكبِّر إثر كل صلاة ثلاث تكبيرات. وفي المذهب رواية أنه يقال بعد التكبيرات الثلاث: لا إله إلا الله، والله أكبر، ولله الحمد.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ في يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ الآية. قال ابن عباس، والحسن، وعكرمة، ومجاهد: المعنى: من نَفَر في اليوم الثاني من الأيام المعدودات فلا حرج عليه، ومن تأخر إلى الثالث فلا حرج عليه، فمعنى الآية: كل ذلك مُباح، وعبَّر عنه بهذا التقسيم اهتماماً وتأكيداً إذ كان من العرب من يذم المتعجل وبالعكس[1] فنزلت الآية رافعة للجناح في كل ذلك.

ومن العلماءِ من رأى أن التعجل إنما أُبيح لمن بعُدَ قُطْره لا للمكي والقريب إلا أن يكون له عذر، قاله مالك، وغيره. ومنهم من رأى أن الناس كلهم مباح لهم ذلك. قاله عطاءٌ وغيره. وقال علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وإبراهيم: معنى الآية: من تعجل فقد غفر له، ومن تأخر فقد غُفر له، واحتجوا بقوله عليه السلام: «مَنْ حَجَّ هذا البيت فَلَم يرفُث ولم يفسق خَرج من خَطَاياه كَيوم ولدته أُمه» فقوله تعالى: ﴿لا إِثم﴾ نفي عامٌ وتبرئة مطلقة.

وقال مجاهد أيضاً: معنى الآية: من تعجل أو تأخر فلا إثم عليه إلى العام القابل، وأُسند في هذا القول أثر.

وقال أبو العالية: المعنى في الآية: لا إثم عليه لمن اتَّقى بقية عمره، والحاجُّ مغفور له البتة.

وقال أبو صالح وغيره: معنى الآية: لا إثم عليه لمن اتقى قتل الصيد وما يجب عليه تجنبه في الحج.

---

(١) أي وكان منهم من يذم المتأخر، وقوله تعالى: ﴿فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ مُشاكل لما قبله، فلا يقال: إنما ينفى الإثم عن المقصر لا عن من أثم في العمل، وأيضاً فإن المبرور المأجور يجوز في المعنى نَفي الإثم عنه، والله أعلم.

وقال أيضاً: لمن اتقى في حجه فأتى به تامّاً حتى كان مبروراً.

واللام في قوله: ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾، متعلقة إمّا بالغفران على بعض التأويلات، أو بارتفاع الإثم في الحج على بعضها[1]. وقيل: بالذكر الذي دل عليه قوله: ﴿وَاذْكُرُوا﴾، أي الذكر لمن اتقى، ويسقط رمي الجمرة الثالثة عمَّن تعجل[2].

وقال ابن أبي زمنين: يرميها في يوم النفر الأول حين يريد التعجيل.

قال ابن المواز: يرمي المتعجل في يومين بإحدى وعشرين حصاة، كل جمرة بسبع حصيات فيصير جميع رميه بتسع وأربعين حصاة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لأنه قد رمى جمرة العقبة بسبع يوم النحر، قال ابن المواز: ويسقط رمي اليوم الثالث.

وقرأ سالم بن عبد الله: [فَلا اثْم عَلَيهِ] بوصل الألف. ثم أمر تعالى بالتقوى، وذكَّر بالحشر والوقوف بين يديه[3].

قوله عز وجل:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾.

قال السدي: نزلت في الأخنس بن شريق، واسمه أُبي، والأخنس لقب، وذلك أنه جاءَ إلى النبي ﷺ فأظهر إسلامه، وقال: الله يعلم أني صادق، ثم هرب بعد ذلك، فمر

(١) هذا هو الظاهر لفظاً ومعنى، أما لفظاً فلقربه منه. وأما معنى فلأن من لم يتّق لا يرتفع الإثم عنه، والظاهر أيضاً أن مفعول (اتّقى) المحذوف هو الله كما جاء مُصَرَّحاً به في مصحف عبد الله.

(٢) لو قال: ويسقط عن المتعجل رمي الجمار في يوم الثالث لكان ظاهراً والله أعلم.

(٣) أي ليكون ذلك حافزاً على التقوى. والحشر من وقت خروج الناس من قبورهم إلى انتهاء موقفهم بين يدي الله عز وجل.

بقوم من المسلمين، فأَحرق لهم زرعاً، وقتل لهم حمُراً، فنزلت فيه هذه الآيات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ما ثبت قط أَن الأَخنس أَسلم[١].

وقال ابن عباس: نزلت في قوم من المنافقين تكلموا في الذين قُتلوا في غزوة الرجيع: عاصم بن ثابت، وخُبيب، وابن الدثنة، وغيرهم، وقالوا: ويح هؤلاءِ القوم، لاهم قعدوا في بيوتهم، ولا أَدوا رسالة صاحبهم، فنزلت هذه الآيات في صفات المنافقين، ثم ذكر المستشهدين في غزوة الرجيع في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾ الآية.

وقال قتادة، ومجاهد، وجماعة من العلماءِ: نزلت هذه الآيات في كل مبطِنٍ كُفْر أَو نفاق، أَو كذب، أَو إِضرار، وهو يظهر بلسانه خلاف ذلك. فهي عامة[٢]، وهي تشبه ما

---

(١) اعترض كلامه الحافظ ابن حجر في «الإصابة» وقال بعد أن نقل قول ابن عطية: «ما ثبت قط أن الأخنس أسلم. قلت: قد أثبته في الصحابة من تقدم ذكره، ولا مانع أن يسلم ثم يرتد، ثم يرجع إلى الإسلام». انتهى. وأشار بقوله: «من تقدم ذكره»، إلى قوله قبل: ثم أسلم الأخنس فكان من المؤلفة وشهد حنيناً. ومات في أول خلافة عمر. ذكره أبو موسى عن ابن شاهين. وذكره ابن فتحويه عن الطبري، وذكر الذهبي في «الزهريات» بسند صحيح، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، «أن أبا سفيان، وأبا جهل، والأخنس اجتمعوا ليلاً يسمعون القرآن سراً فذكر القصة، وفيها أن الأخنس أتى أبا سفيان فقال: ما تقول؟ قال: أعرف وأُنكر، قال أبو سفيان: فما تقول أنت؟ قال: أُراه الحق. انتهى. وفي الأخنس نزل قوله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلافٍ مَهِينٍ، هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيم﴾ إلى قوله ﴿زَنِيم﴾ و: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾.

وقال ابن زكرى في حاشية البخاري في باب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَام﴾ من كتاب «المظالم»بعد أن ذكر أنها نزلت في الأخنس بن شُريق: كان منافقاً حلو الكلام، يحلف للنبي ﷺ أنه مؤمن به، ومحب له فيدني مجلسه، فأكذبه الله في ذلك ما نصه. وفي السيرة أنه قتل يوم بدر كافراً. وصدَّر ابن عطية بنحو ذلك عن السدي، ثم قال: ما ثبت قط أن الأخنس أسلم، وقد عدَّه صاحب القاموس وتلميذه ابن حجر في الصحابة وأنه أسلم بعد ذلك، وعلى هذا فالآية نزلت في غيره من المنافقين كابن أُبي. انتهى. ولقب بالأخنس لأنه رجع ببني زهرة من بدر فقيل: خنس الأخنس. والمهم أن كثيراً من المحدثين أثبتوه في الصحابة، ولعله ـ كما قيل ـ أسلم ثم ارتد ثم رجع إلى الإسلام، والله أعلم.

(٢) يعني أنها علامة في المؤمنين والمنافقين، وذلك يوجب الاحتياط في أُمور الدين والدنيا، واستبراء أحوال الناس في المحاكم، وإن كان العمل بالظاهر هو الأمر المسنون، وهذه الآية تناسب في معناه قول الله سابقاً: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ كما أن قوله تعالى: =

ورد في الترمذي أَن في بعض كتب الله تعالى: «إِن من عباد الله قوماً أَلسنتهم أَحلى من العسل، وقلوبهم أَمر من الصبر، يلبسون للناس جلود الضأْن من اللين، يجترون الدنيا بالدين، يقول الله تعالى: أَبِي يغترون؟ وعلي يجترئون؟ حلفت لأَسَلِّطن عليهم فتنة تدع الحليم منهم حيران»[١].

ومعنى: (ويُشْهِدُ الله) أَي يقول: الله يعلم أَني أَقول حقًّا.

وقرأَ أَبو حيوة، وابن محيصن: [وَيَشْهَدُ الله] بإِسناد الفعل إِلى الله[٢]. المعنى: يعجبك قوله والله يعلم منه خلاف ما قال. والقراءَة التي للجماعة أَبلغ في ذمه لأَنه قوي على نفسه التزام الكلام الحسن، ثم ظهر من باطنه خلافه، وما في قلبه مختلف بحسب القراءَتين، فعلى قراءَة الجمهور: هو الخير الذي يظهر، أَي هو في قلبه بزعمه. وعلى قراءَة ابن محيصن، هو الشر الباطن.

وقرأَ ابن عباس: [والله يشْهَد على مَا في قَلْبه]. وقرأَ أُبي وابن مسعود: [وَيَسْتَشْهِدُ الله على ما في قَلْبِه].

والأَلد: الشديد الخصومة، الصعب الشكيمة، الذي يلوي الحجج في كل جانب، فيشبه انحرافه المشي في لَدِيدَي الوادي[٣]، ومنه: لديد الفم، واللدود. ويقال: منه لَدِدْتُ «بكسر العين» أَلد. وهو ذم، ومنه قول النبي ﷺ: «أَبغض الرجال إِلى الله الأَلد الخصم»[٤] ويقال: لَدَدته بفتح العين، أَلُدُّه بضمها إِذا غلبته في الخصام، ومن اللفظة قول الشاعر:

إِنَّ تحت الأَحجار حَزْماً وعزْماً وخَصِيماً أَلَدَّ ذَا مِغْلاق[٥]

= (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يشْري نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ) تلائم قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار).

(١) انظر تفسير (ط) رحمه الله، فقد رواه بألفاظ مختلفة، وبتقديم وتأخير، والمعنى واحد.

(٢) يشهد لها قراءة ابن عباس، وقول الله تعالى: (واللهُ يَشْهَدُ إِنَّ المُنَافِقِينَ لَكَاذِبُون) ويشهد لقراءة الجماعة قراءة أُبي وابن مسعود.

(٣) لدِيدَا كلِّ شيءٍ جانباه، ومنه: لديدا الوادي، واللَّديد واللَّدُود: ما يُصب في جانبي الفم من الدواء.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

(٥) البيت للمهلهل يذكر امرأته بنت المحلل بن ثعلبة. ورجل مِغلاق: إذا كان الرهن يغلق على يديه، والمغلاق أيضاً سهم في الميسر أو السهم السابع بمضعف الميسر، والجمع مغاليق. ويروى البيت بالعين المهملة، ومنه رجل مِعْلق خصيم يتعلق بالحجج.

والخصام ـ في الآية ـ مصدر خاصَمَ، وقيل: جمع خَصم ككلب وكلاب، فكأن الكلام: وهو أشد الخصماءِ وألَدُّهُمْ.

و(توَلَّى) و(سَعى) تحتمل جميعاً معنيين؛ أحدهما: أن تكونا فعل[1] قلب، فيجيءُ (تَوَلَّى) بمعنى ضَلَّ، وغضب، وأنف في نفسه، فسعى بحيله وإدارته الدوائر على الإسلام، ومن هذا السعي قول الله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ومنه: ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾[2]، ومنه قول الشاعر:

أَسْعَى عَلَى جُلِّ بَنِي مَالِكٍ ... كل امرِئٍ في شأنِهِ سَاعِ[3]

ونحا هذا المَنْحَى في معنى الآية ابنُ جريج، وغيره. والمعنى الثاني: أن تكونا فعل شخص فيجيءُ (تولى) بمعنى أدبر ونهض عنك يا محمد، و(سَعَى) يجيءُ معناها بقدميه، فقطع الطريق وأفسدها. نحا هذا المنحى ابن عباس، وغيره. وكلا السعيين فساد.

وقوله تعالى: (وَيُهْلِكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ) قال الطبري: المراد الأخنس في إحراقه الزرع، وقتله الحُمر[4]. وقال مجاهد: المراد أن الظالم يفسد في الأرض فيمسك الله المطر فيهلك الحرث والنسل[5]. وقيل: المراد أن المفسد يقتل الناس فينقطع عمار

---

(١) أي: من عمل القلب، فالسعي يمكن أن يراد به السعي بالقدمين إلى ما هو فساد، ويمكن أن يكون المراد به قصد الفساد كالتدبير على المسلمين بما يضرهم وإعمال الحيل عليهم، وإن لم يكن سعي بالقدمين، وكلٌّ ذلك فساد.

(٢) أي العمل بالقلب والآية الأولى رقم (٣٩) من سورة النجم والثانية رقم (١٩) من سورة الإسراء.

(٣) هو أبو قيس بن الأسلت.

والبيت من جملة قصيدة قالها لمَّا أنكرته امرأته بعد أن غاب عنها مدة في حرب بُعاث وتغير فضعف وشحب، وأول القصيدة:

قَالَتْ ولَم تَقْصِدْ لِقِيلِ الخَنَى ... مَهْلاً فَقَدْ أَبْلَغْتَ أَسْمَاعِي
واسْتَنْكَرت لَوْناً لَهُ شَاحِباً ... والحَرْبُ غُولٌ ذَاتُ أَوْجَاعِ

قاله في «الخزانة ـ الجزء الثاني ـ عدد ٤٤٨» نقلاً عن الأغاني.

(٤) يعني أن المعنى به ابتداءً الأخنس بن شريق الثقفي، وإن كانت تشمل كلَّ من يقصد قصده ويعمل عمله، فالعبرة باللفظ لا بالسبب.

(٥) كولاة السوء الذين ينشرون الفساد في الأرض ويتسببون بذلك في إهلاك الزرع والنسل بانحباس المطر، فإن الظلم يحبسه ويرفع بركته.

الزرع والمنسلون. وقال الزجّاج: يحتمل أن يراد بالحرث النساءُ وبالنسل نسلهن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر أن الآية عبارة عن مبالغة[1] في الإفساد إذ كل فساد في أُمور الدنيا فعلى هذين الفصلين يدور.

وأكثر القراءِ على أن (يُهْلك) بضم الياءِ وكسر اللام وفتح الكاف عطفاً على: (ليفْسدَ)، وفي مصحف أُبي بن كعب: [وليُهْلِك]. وقرأ قوم: [ويهلكُ] بضم الكاف، إما عطفاً على (يعْجبكَ)، وإما على (سعى) لأنها بمعنى الاستقبال، وإما على القطع والاستئناف. وقرأ الحسن وابن أبي إسحق، وأبو حيوة، وابن محيصن: [وَيَهْلك] بفتح الياءِ وكسر اللام وضم الكاف ورفع [الحرثُ والنسلُ]. وكذلك رواه ابن سلمة عن ابن كثير. وعبد الوارث عن أبي عمرو. وحكى المهدوي أن الذي روى حماد بن سلمة عن ابن كثير إنما هو: [وَيُهلِكُ] بضم الياءِ والكاف [الحرثَ] بالنصب. وقرأ قوم [ويَهلَك] بفتح الياءِ واللام ورفع [الحرثُ]، وهي لغة هلَك يهلك تلحق بالشواذ، كَركَن يرْكن[2].

والحرث ـ في اللغة ـ شق الأرض للزراعة ويسمى الزرع حرثاً للمجاورة والتناسب، ويدخل سائر الشجر والغراسات في ذلك حملاً على الزرع، ومنه قوله عز وجل: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾[3] وهو كرْمٌ على ماورد في التفاسير.

وسمي النساءُ حرثاً على التشبيه. والنَّسْل: مأْخوذ من نَسَل ينسل إذا خرج متتابعاً، ومنه نِسال الطائر؛ ما تتابع سقوطه مِنْ ريشه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[4] ومنه قول امرىء القيس:

---

(١) الواقع أن الإفساد شامل لفساد الدين وفساد الدنيا وقوله تعالى: (وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ والنَّسْلَ) داخل فيما قبله، وإنما خصهما بالذكر لأنهما أعظم ما يحتاج إليهما في العمران، فإفسادهما غاية في الإفساد، وإهلاك الحرث والنسل شامل للهلاك الحسي والمعنوي، كإضعاف الحرث والنسل وتحديدهما لغير مصلحة محققة، وكإهمال الفلاحين والمنتجين وقلة العناية بهم.

(٢) جملة القراءات التي عرضها ابن عطية رحمه الله خمس: وَيُهْلِكَ، وَلِيُهْلِكَ، وَيُهْلَكُ، ويَهْلِكُ، ويُهْلِكُ. وهناك قراءة سادسة ذكرها الزمخشري عن الحسن وهي بالبناء للمفعول، والحجة هي قراءة الجماعة، وإن كان لغيرها مخارج في العربية.

(٣) من (الآية (٧٨) من سورة الأنبياء.

(٤) من الآية (٩٦) من سورة الأنبياء.

. . . . فسُلي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكِ تَنسَلِ[١]

و(لا يُحِبُّ) معناه: لا يحبه مِن أَهل الصلاح، أَو لا يحبه ديناً وإلا فلا يقع إلا ما يحب الله تعالى وقوعه، والفساد واقع، وهذا على ما ذهب إليه المتكلمون من أَن الحب بمعنى الإرادة[٢].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والحب له على الإرادة مزية إيثار، فلو قال أَحد: إن الفساد المراد تنقصه مزية الإيثار لصح ذلك، إذ الحب من الله تعالى إنما هو لِمَا حسن من جميع جهاته.

وقوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ الله) الآية. هذه صفة الكافر والمنافق الذاهب بنفسه زهواً. ويكره للمؤمن أَن يوقعه في الحرج في نحو هذا. وقال بعض العلماءِ: كفى بالمرءِ إثماً أَن يقول له أَخوه: اتق الله، فيقول له: عليك نفسك، مثلك يوصيني؟

والعزَّة هنا: المَنَعَة وشدة النفس، أَي اعتز في نفسه وانتخى[٣] فأَوقعته تلك العزة في الإثم حين أَخذته به، وأَلزمته إياه. ويحتمل لفظ الآية أَن تكون: (أَخَذَتْهُ العزَّةُ) مع الإثم فمعنى الباءِ يختلف بحسب التأْويلين[٤].

وحسْبُهُ: أَي كافيه معلقبة وجزاءً، كما تقول للرجل: كفاك ما حل بك، وأَنت تستعظم وتعظم عليه ما حل به. و(المِهَادُ) ما مَهَّدَ الرجل لنفسه كأَنه الفراش.

---

(١) صدره:
وَإِنْ كُنْتِ قَدْ سَاءَتْكِ مِنِّي خَلِيقَةٌ . . . .
وقوله: «فَسُلِّي ثيابي من ثيابك» كناية عن الطلاق، أي سقوط العصمة بينهما.

(٢) الداعي إلى هذين التأويلين اللذين سلكهما ابن عطية رحمه الله هو ما ذهب إليه أهل الكلام من أن الحب هو الإرادة، ولكن هناك فرقاً بينهما على ما هو الحق عند أهل السنة، وهو أن الحبَّ له على الإرادة مزية إيثار، وعلى هذا فلنا أن نقول، إن الله سبحانه قد يريد الشيء ولا يحبه، فالله لا يحب المعاصي، ولا قطع السبيل، وإخافة الطريق، ثم لا ننسى أن هناك فرقاً بين الإرادة الدينية الشرعية والتي هي بمعنى رضاه ومحبته، وبين الإرادة الكونية القدرية، ففرق بين ما يحبه ويرضاه، وما قدره وقضاه.

(٣) أن تعظَّم وتكَّبر من النخوة وهي العظمة.

(٤) فالبناءُ على التأويل الأول للتعدية، كأن المعنى: ألزمته العزة الإثم، والتعدية بالباء تكون في الفعل اللازم كقوله تعالى: (لَذَهَبَ اللهُ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ) أي لأذهب الله سمعهم وأبصارهم، وعلى التأويل الثاني للمصاحبة، أي أخذته مصحوبة بالإثم، أو مصحوباً بالإثم على الحال من المفعول أو الفاعل.

ومن هذا الباب(١) قول الشاعر:

. . . . تَحيَّـةُ بَيْنِهِـمْ ضَـرْبٌ وَجِيـعٌ(٢)

وقوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ) الآية تتناول كل مجاهد في سبيل الله، أَو مستشهد في ذاته، أَو مغير منكر. والظاهر من هذا التقسيم(٣) أَن تكون الآيات قبل هذه على العموم في الكافر، بدليل الوعيد في النار، ويأخذ العصاة الذين فيهم شيءٌ من هذا الخلق بحظهم من وعيد الآية. ومن قال إِن الآيات المتقدمة هي في منافقين تكلموا في غزوة الرجيع؛ قال: هذه الآية في شهداءِ غزوة الرجيع(٤).

وَمَن قال: تلك في الأَخنس قال: هذه في الأَنصار والمهاجرين المبادرين إِلى الإِيمان. وقال عكرمة، وغيره: هذه في طائفة من المهاجرين، وذكروا حديث صهيب أَنه خرج من مكة إِلى النبي ﷺ فاتبعته قريش لترده. فنثر كنانته وقال لهم: تعلمون والله إِني لمن أَرْماكم رجلاً، والله لأَرمينكم ما بقي لي سهم، ثم لأَضربن بسيفي ما بقي في

(١) أي قوله تعالى: (فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) روى الطبراني، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقول الرجل لأخيه: اتق الله، فيقول: عليك نفسك، أنت تأمرني؟ والشاعر جعل التحية ضرباً، كما أن الآية جعلت جهنم مهاداً.

(٢) هو عمرو بن معد يكرب، والبيت بتمامه:

وَخَيْـلٍ قَـدْ دَلَفْـتُ لَهَـا بِخَيْـلٍ تَحِيَّـةُ بَيْنِهِـمْ ضَـرْبٌ وَجِيـعُ

(٣) قد تستعمل (الواو) في الكلام بمعنى التقسيم نحو: الكلمة اسم وفعل وحرف، والتقسيم هنا قوله تعالى قبل: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ) الآية وقوله تعالى بعدُ: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ) ولا يبعد أن يكون السبب خاصاً والمراد عموم اللفظ.

(٤) غزوة الرجيع كانت بعد غزوة (أُحد) في صفر سنة أربع، وذلك أن النبي ﷺ بعث سرية تتألف من عشرة أنفس، وأَمَّر عليها عاصم بن ثابت الأنصاري، والغرض منها معرفة أخبار قريش، فلما كانوا في الطريق لحقهم بنو لحيان من هذيل فقتلوا منهم سبعة: أحدهم عاصم بن ثابت، وأسروا الباقين وهم: خبيب بن عدي، وزيد بن الدثِنة (بكسر المثلثة)، وعبد الله بن طارق، فأما عبد الله فقتلوه في الحين لعدم استسلامه، وأما خبيب وزيد فباعوهما إلى قريش، وقتلت قريش خبيباً بعد أن صلى ركعتين وقال أبياته المشهورة:

وَلَسْـتُ أُبَالـي حِيـنَ أُقْتَـلُ مُسْلِمـاً عَلَى أيِّ جَنْبٍ كَانَ في الله مَصْرَعِي
وَذَلِـكَ فـي ذاتِ الإِلـهِ وَإِن يَشَـأْ يُبَـارِكْ عَلَـى أَوْصالِ شِلْـوٍ مُمَـزَّعِ

وخبيب الأنصاري هذا هو أول من سنَّ الركعتين عند القتل بإقرار النبي ﷺ، وعاصم بن ثابت هذا هو الذي حمته الدبر، أي جماعة النحل عندما أرسلت قريش من يقطع من جسده فاجتمعت عليهم ذكور النحل ومنعتهم من القرب منه، رضي الله عنهم جميعاً.

يدي منه شيءٌ. فقالوا له: لا نتركك تذهب عنا غنياً، وقد جئتنا صعلوكاً، ولكن دلنا على مالكَ ونتركك، فدلهم على ماله وتركوه، فهاجر إلى النبي ﷺ فلما رآه قال له: (ربح البيعُ أَبا يحيى). فنزلت فيه هذه الآية[١].

ومن قال: قُصد بالأَول العموم قال في هذه كذلك بالعموم.

و(يَشْرِي) معناه يبيع، ومنه: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾[٢]، ومنه قول يزيد بن مفرغ الحميري:

وشَرَيْتُ بُرْداً لَيْتَني ... مِنْ بَعْدِ بُرْد كُنْتُ هَامَه[٣]

وقال الآخر:

يعْطى بِهَا ثمَناً فيَمْنعهَا ... ويقولُ صَاحِبُهُ: أَلا تشرِي[٤]

ومِن هذا تسَمَّى الشُّراة[٥] كأَنهم الذين باعوا أَنفسهم من الله تعالى.

وحكى قوم أَنه يقال: شرى بمعنى اشترى، ويحتاج إِلى هذا من تأَول الآية في صهيب لأَنه اشترى نفسه بماله ولم يبعها، اللهم إِلا أن يقال: إِن عزم صهيب على قتالهم بيعٌ لنفسه من الله تعالى فتستقيم اللفظة على معنى باع. وتأَول هذه الآية عمر بن الخطاب، وعلي بن أَبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهم في مُغَيِّري المنكر، ولذلك قال علي، وابن عباس: اقتتل الرجلان، أَي قال المغير للمفسد: اتق الله، فأَبى المفسد، وأَخذته العزة فشرى المغير نفسه من الله تعالى وقاتله فاقتتلا.

وروي أَن عمر بن الخطاب كان يجمع في يوم الجمعة شباباً من القرأَة، فيهم ابن عباس، والحُر بن قيس، وغيرهما: فيقرؤُون بين يديه ومعه، فسمع عمَرُ ابنَ عباس

---

(١) روى ذلك ابن جرير عن عكرمة، وابن مردويه عن أبي عثمان النهدي.

(٢) من الآية (٢٠) من سورة يوسف.

(٣) بُرْد: اسم غلام، وفيه أيضاً قال الشاعر:

وَشَريتُ بـرداً ولـولا مـا تَكَنَّفَني ... مِـن الحـوادث مـا بعْتُـه أبَـداً

(٤) البيت للمسيب بن علس يصف الغائص وانتخابه الدُّرة كما في شرح المقامات للشريسي، وقبل البيت:

كَجُمَانَةِ البَحْرِيِّ جَاءَ بِهَا ... غَوَّاصُهَا مِنْ لُجَّةِ البَحْر

نِصْفُ النَّهَار المَاءُ غَامِرُهُ ... وَشَرِيكُهُ بِالغَيْبِ لا يَدْري

ومعنى: ألا تشري؟: ألا تبيع؟

(٥) الخوارج أو جماعة منهم سموا أنفسهم الشراة، بمعنى أنهم باعوا أنفسهم من الله تعالى.

يقول: اقتتل الرجلان حين قرأ له هذه الآية، فسأله عما قال: ففسر له هذا التفسير، فقال له عمر: لله تلادك[1] يا بن عباس.

وقال أَبو هريرة، وأَبو أَيوب ـ حين حَملَ هشام بن عامر على الصف في القسطنطينية فقال قوم: أَلقى بيده إِلى التهلكة ـ ليس كما قالوا: بل هذا قول الله تعالى: (وِمِنَ النَّاسِ من يَشْرِي نفسَه) الآية[2].

و(ابْتِغَاءَ) مفعول من أَجله، ووقف حمزة على: (مَرْضَاتِ) بالتاءِ، والباقون بالهاءِ. قال أَبو علي: وجه وقف حمزة بالتاءِ إِما أَنه على لغة مَنْ يقول: طلحَتْ وعلقمتْ، ومنه قول الشاعر:

. . . . بـل جَـوْزُ تَيْهَـاءَ كَظَهْـر الحَجَفـتْ[3]

وإِما أَنه لما كان المضاف إِليه في ضمن اللفظة ولا بد، أَثبت التاءَ كما تثبت في الوصل، ليُعلم أَن المضاف إِليه مراد.

وقوله تعالى: (والله رؤُوفٌ بِالْعِبَادِ) ترجية تقتضي الحضَّ على امتثال ما وقع به المدح في الآية، كما أَن قوله تعالى: (فحسْبُهُ جَهَنَّم) تخويف يقتضي التحذير مما وقع به الذم في الآية.

ثم أَمر تعالى المؤمنين بالدخول في السلم. وقرأ ابن كثير، ونافع، والكسائي:

---

(١) في لسان العرب من حديث عبد الله بن مسعود ـ آل حم من تلادي ـ أي من أول ما تعلمته بمكة. شبه ذلك بتلاد المال.

(٢) يعني أنها تتضمنه، وكثيراً ما يقولون: نزلت الآية في كذا، والمراد أنها تتضمنه وإن لم تكن قد نزلت فيه بالخصوص.

(٣) الحجفت: بتقديم الحاء على الجيم، وهي التُّرس إذا كان من الجلد، ومن العرب من إذا سكت على الهاء جعلها تاء.

وقائل البيت سؤر الذئب ـ قاله يذكر محبوبته ـ وهو ضمن أبيات نذكرها لك:

مـا بـالُ عَيْـنٍ عَـنْ كَـرَاهَـا قَـد جَفَـتْ ... وَشَفَّهَـا مِـنْ حُـزنِهَـا مَـا كُلِّفَـتْ
كَـأَنَّ عُـوَّاراً بِهَـا أَو طَـرَّفَـتْ ... مُسْبلَـةً تَسْتَـنُّ لَمَّـا عـرفَـتْ
دارٌ لِلَيْلـى بعْـدَ حَـوْلٍ قَـدْ عَفَـتْ ... كَـأَنَّهَـا مهـارِقٌ قَـد زُخْـرِفَـتْ
قَـد تَبَلَّـتْ فُـؤَاده وَشَغَفَـتْ ... بَـلْ ظَهْـرُ تَيْهَـاءَ كَظَهْـرِ الحَجَفَـتْ
قَطَعْتُهَـا إذَا المهَـا تَخَـوَّفَـتْ ... مَشَارهـا إلـى ذراهـا أَهْـدَفَـتْ

[السَّلم] بفتح السين. وقرأ الباقونَ بكسرها في هذا الموضع[١] فقيل: هما بمعنى واحد يقعان للإسلام وللمسالمة. وقال أَبو عمرو بن العلاءِ: السِّلم بكسر السين: الإِسلام، وبالفتح المُسالمة، وأَنكر المبرد هذه التفرقة. ورجح الطبري حمل اللفظة على معنى الإِسلام لأَن المؤمنين لم يؤمروا قط بالابتداءِ بالدخول في المسالمة، وإِنما قيل للنبي ﷺ أَن يجنح للسلم إِذا جنحوا لها، وأَما أَن يبتدىءَ بها فلا.

واختلف ـ بعد حمل اللفظة على الإِسلام ـ مَن المخاطب؟ فقالت فرقة: جميع المؤمنين بمحمد ﷺ، والمعنى: أَمرهم بالثبوت فيه والزيادة من التزام حدوده، ويستغرق (كافة) حينئذ المؤمنين، وجميع أَجزاءِ الشرع[٢]، فتكون الحال من شيئين[٣] وذلك جائز نحو قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾[٤] إِلى غير ذلك من الأَمثلة. وقال عكرمة: بل المخاطب من آمن بالنبي من بني إِسرائيل كعبد الله بن سلام، وغيره، وذلك أَنهم ذهبوا إِلى تعظيم يوم السبت وكرهوا لحم الجمل، وأَرادوا استعمال شيءٍ من أَحكام التوراة وخلط ذلك بالإِسلام، فنزلت هذه الآية فيهم، فَكَافَّة ـ على هذا ـ لأَجزاءِ الشرع فقط. وقال ابن عباس: نزلت الآية في أَهل الكتاب. والمعنى: ياأَيها الذين آمنوا بموسى وعيسى ادخلوا في الإِسلام بمحمد كافة، فكافة ـ على هذا ـ لأَجزاءِ الشرع، وللمخاطبين. على من يرى السِّلم الإِسلام. ومن يراها المسالمة يقول: أَمرهم بالدخول في أَن يعطوا الجزية. و(كافة) معناه جميعاً، والمراد بالكافة الجماعة التي تكف مخالفيها[٥]. وقيل: إِن (كافَّةً) نعتٌ لمصدر محذوف كأَن الكلام، دخلةً كافةً فلما حذف المنعوت بقي النعت حالاً.

وتقدم القول في (خطوَاتِ) والأَلف واللام في (الشَّيْطَانِ) للجنس. و(عَدُوٌّ) يقع

---

(١) وأما في الأنفال في قوله تعالى ﴿وإنْ جَنَحُوا للسَّلْم﴾ فقرأ شعبة بكسْر السِّين، وفي سورة القتال في قوله تعالى: ﴿وَتَدْعُوا إلى السَّلْم﴾ قرأ حمزة وشعبة بالكسر.

(٢) أي جميع خلال الإيمان وشرائع الإسلام.

(٣) يعني: من ضمير الفاعل في ﴿ادْخُلوا﴾ ومن ﴿السِّلم﴾، وذلك جائز في العربية، إلا أن الأولى أن يكون من الفاعل.

(٤) من الآية (٢٧) من سورة مريم، والشاهد هو أن جملة الحال (تحمله) جاءت من ضمير الفاعل في (أتت)، ومن الضمير في (به) ـ فدل ذلك على جواز مجيء الفاعل من شيئين في العربية.

(٥) هذا باعتبار أصل الوضع، ثم صارت تستعمل عندهم بمعنى جميعاً كما قال هو ذلك آنفاً.

على الواحد والاثنين والجمع. و﴿مُبِينٌ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى أبان عداوته[١] وأن يكون بمعنى بان في نفسه أنه عدوٌّ، لأن العرب تقول: بان الأمر وأبان بمعنى واحد.

قوله عز وجل:

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾.

قرأ جمهور الناس: ﴿زَلَلْتُمْ﴾ بفتح اللام. وقرأ أبو السمال: [زَلِلْتُمْ] بكسرها. وأَصل الزَّلل في القدَم، ثم يستعمل في الاعتقادات والآراءِ وغير ذلك. والمعنى: ضللتم وعُجْتُم[٢] عن الحق.

و﴿الْبَيِّنَاتُ﴾ محمد وآياته ومعجزاته إذا كان الخطاب أَولاً لجماعة المؤمنين، وإذا كان الخطاب لأَهل الكتابين فالبيِّنات ما ورد في شرائعهم من الإِعلام بمحمد ﷺ والتعريف به.

و﴿عَزِيزٌ﴾ صفةٌ مقتضية أَنه قادر عليكم، لا تعجزونه، ولا تمتنعون منه. ﴿حَكِيمٌ﴾ أَي محكم فيما يعاقبكم به لزللكم.

وحكى النقاش أَن كعب الأَحبار لمَّا أَسلم، كان يتعلم القرآن، فأَقرأَه الذي كان يُعَلِّمُهُ «فاعلموا أَن الله غفورٌ رحيم» فقال كعب: إِنِّي لأَستنكر[٣] أَن يكون هكذا، ومر بهما رجل، فقال كعب: كيف تقرأُ هذه الآية؟ فقرأَ الرجل: (فاعْلَمُوا أَنَّ الله عزيزٌ حكيمٌ) فقال كعب: هكذا ينبغي[٤].

---

(١) بعدم امتثال الأمر بالسجود لآدم، وبقوله: ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلا قَلِيلا﴾.

(٢) يقال: عاج عن الأمر: انصرف. ويقال: ما عاج بكلام فلان: ما التفت إليه ولا اكترث به. المعجم الوسيط.

(٣) لأن فيه مقابلة الزلل بالغفران، وذلك إغراءٌ وتحريض على الزلل.

(٤) أي لأن العزة تقتضي القدرة على الانتقام. والحكمة تقتضي وضع الجزاءِ في محله.

وقوله تعالى: (هَلْ يَنْظُرُونَ) الآية. الخطاب للنبي ﷺ ـ و(هَلْ) من حروف الابتداءِ كأما، و(يَنْظُرُونَ) معناه: ينتظرون، والمراد: هؤلاءِ الذين يزلُّون[١].

والظُّلَلُ جمع ظُلَّة، وهي: ما أَظل من فوق. وقرأَ قتادة، والضحاك: [في ظِلالٍ] وكذلك روى هارون بن حاتم، عن أَبي بكر، عن عاصم هنا، وفي الحرفين في الزمر[٢]. وقال عكرمة: ظلل: طاقات. وقرأَ الحسن، وابن القعقاع، وأَبو حيوة [والملائكةِ] بالخفض عطفاً على الغمام[٣]. وقرأَ جمهور الناس بالرفع عطفاً على (الله)، والمعنى يأْتيهم حكم الله وأَمره ونهيه وعقابه إِياهم، وذهب ابن جُريج، وغيره إِلى أَن هذا التوعد هو بما يقع في الدنيا. وقال قوم: بل هو توعد بيوم القيامة[٤]. وقال قوم: قوله: (إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ) وعيدٌ بيوم القيامة وأَما الملائكة فالوعيد هو بإتيانهم عند الموت[٥].

والغمام أَرق السحاب وأَصفاه وأَحسنه، وهو الذي ظُلِّل به بنو إِسرائيل. وقال النقاش: هو ضباب أَبيض ـ وفي قراءَة ابن مسعود: [إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ والْمَلائِكَةُ في ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَام][٦].

و(قُضِي الأَمر) معناه: وقع الجزاءُ وعذب أَهل العصيان. وقرأَ معاذ بن جبل: [وَقَضَاءُ الأَمر]. وقرأَ يحيى بن يعمر: [وقُضِي الأمور] بالجمع. وقرأَ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: [تَرجِعُ] على بناءِ الفعل للفاعل. وقرأَ الباقون: (تُرجَع) على بنائه للمفعول وهي راجعة إِليه تعالى قبلُ وبعدُ، وإِنما نبه بذكر ذلك في يوم القيامة على زوال ما كان منها إِلى الملوك في الدنيا.

وقوله تعالى: (سَلْ بني إِسْرَائيل) الآية. الخطاب لمحمد ﷺ، وفيه إِباحة السُّؤال

---

(١) أي الذين يتنحوْن عن الإسلام ويستحبون العمى على الهدى.

(٢) في قوله تعالى: (لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّار، ومِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ الَّذِي يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ).

(٣) أي: في ظُلَل من الغمام ومن الملائكة.

(٤) الرأي الثاني هو الذي رجحه ابن جرير، وابن كثير، فالأقوال ثلاثة: توعُّدٌ بما يقع في الدنيا. أو توعد بما يقع يوم القيامة، أو التوعد بالإضافة إلى الله يوم القيامة، وبالاضافة إلى الملائكة يوم الموت.

(٥) أي يأتيهم أمره وحُكمه، وقد دعاه إلى ذلك كون الإتيان مستحيلاً على الله تعالى، لأنه بمعنى الحركة والانتقال.

(٦) على هذه القراءة فالظُّلل من الغمام يرجع إلى الملائكة واللهُ سبحانه وتعالى يأتي كما شاء.

لمن شاءَ من أُمته[١]: ومعنى الآية توبيخهم على عنادهم بعد الآيات البينة. وقرأَ أبو عمرو في رواية ابن عباس عنه: [اسأَل] على الأصل[٢]. وقرأَ قوم: [اسَل] على نقل الحركة إلى السين وترك الاعتداد بذلك في إبقاءِ أَلف الوصل على لغة من قال الَحْمر[٣] ومَن قرأَ (سَلْ) فإِنه أَزال أَلف الوصل، حين نقل واستغنى عنها. و(كم) في موضع نصب ـ إما بفعل مضمر بعدها[٤] لأن لها صدر الكلام تقديره: كم آتينا (آتيناهم) وإما بـ(آتيناهم).

وقوله: (مِن آيةٍ) هو على التقدير الأَول مفعول ثان لآتيناهم، وعلى الثاني في موضع التمييز. ويصح أَن تكون (كم) في موضع رفع بالابتداءِ والخبر في (آتيناهم) ويصير فيه عائد على (كَمْ) تقديره: «كم آتيناهموه». والمراد بالآية: كم جاءَهم في أَمر محمد ﷺ من آية مُعرِّفة به دالة عليه.

و(نِعْمَةَ اللهِ) لفظٌ عام لجميع إنعامه[٥] ولكن يقوي من حال النبي معهم أَن المشار إليه هنا محمد ﷺ، فالمعنى: مَن يبدل من بني إسرائيل صفة نعمة الله، ثم جاءَ اللفظ منسحباً على كل مُبَدِّلٍ نعمةَ لله تعالى.

وقال الطبري: النعمة هنا؛ الإسلام، وهذا قريب من الأَول[٦]. ويدخل في اللفظ أَيضاً كفار قريش الذين بُعِثَ محمدٌ منهم نعمة عليهم، فبدلوا قبولها والشكر عليها كفراً، والتوراة أَيضاً نعمة على بني إسرائيل، أَرشدتهم وهدتهم فبدلوها بالتحريف لها وجَحْدِ أَمر محمد ﷺ.

---

(١) أي جواز السؤال للإنكار، لا للتعلم كما يؤخذ من الآية.

(٢) هكذا في النسخ التي بأيدينا، وقرأ ابن عباس في رواية أبي عمرو عنه: اسأل على الأصل، تأمل، والله أعلم.

(٣) قال في «النهاية» في حديث: نهى ﷺ عن (الغُلوطات)، وفي رواية (الأغلوطات) قال الهروي: (الغُلوطات) تركت منها الهمزة كما تقول: جاء الأحمر وجاءَ (الَحْمَر) بطرح الهمزة.

(٤) وهذا الفعل يفسره ما بعده، وهذا من باب الاشتغال، وقد اعترضه إمام العربية (ح) بما يعلم بالوقوف عليه، كما اعترض أن تكون في موضع رفع بالابتداءِ والعائد محذوف، إذ لا يجوز ذلك في مثل هذا إلا في الضرورة، أو على وجه من الضعف. (كَمْ) استفهامية، والمراد الاستفهام التقريري لأن السؤال عن معلوم لا عن مجهول، والله أعلم.

(٥) ولا ينافي ذلك كون السياق في بني اسرائيل أو كونهم السبب في نزولها، لِمَا تقرر مِنْ أنّ الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(٦) وهو أن نعمة الله محمد ﷺ، وتبديلها تغيير صفته في كتبهم.

وقوله تعالى: (فإِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقابِ) خَبَرٌ يقتضي ويتضمن الوعيد.

والعقاب: مأخوذ من العَقِب، كان المعاقب يمشي بالمجازاة له في آثار عَقِبه.

ومنه عُقْبَةُ الراكب، وعُقْبَة القدر[١].

وقوله تعالى: (زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) المُزَيِّنُ هو خالقها ومُخْترعها وخالق الكفر[٢]. ويُزَيِّنها أَيضاً الشيطان بوسوسته وإغوائه. وقرأ مجاهد، وحميد بن قيس، وأبو حيوة: [زَيَّنَ] على بناءِ الفعل للفاعل[٣] ونصب [الحياة]. وقرأ ابن أَبي عبلة: [زُيِّنَتْ] بإظهار العلامة، والقراءَة دون علامة هي للحائل، ولكون التأنيث غير حقيقي[٤].

وخُصَّ الذين كفروا بالذكر لقبولهم التَّزيين جملةً، وإقبالهم على الدنيا، وإعراضهم عن الآخرة بسببها. والتَّزيين من الله تعالى واقع للكل، وقد جعل الله ما على الأرض زينة لها ليَبْلُوَ الخَلق أَيُّهم أَحسن عملاً، فالمؤمنون الذين هم على سنن الشرع لم تفتنهم الزينة، والكفار تملكتهم[٥] لأَنهم لا يعتقدون غيرها، وقد قال أَبو بكر الصديق رضي الله عنه ـ حين قُدِمَ عليه بالمال ـ: «اللهم إنا لا نستطيع إلا أَن نفرح بما زينت لنا».

وقوله: (ويَسْخَرونَ)، إشارة إلى كفار قريش لأَنهم كانوا يعظمون حالهم من الدنيا، ويغتبطون بها، ويسخرون من أَتباع النبي ﷺ: كبلال، وصهيب، وابن مسعود، وغيرهم. فذكر الله قبيح فعلهم، ونبَّه على خفض منزلتهم بقوله: (وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ومعنى الفَوق هنا في الدرجة والقَدْر[٦]، فهي تقتضي التفضيل، وإن لم يكن للكفار من القدر نصيب، كما قال تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾[٧]. وتحتمل الآية أَن

---

(١) العُقْبة: النوبة في الركوب، وعُقْبة القِدْر شيءٌ من المرق يردُّه مستعير القِدر فيها إذا أعادها.

(٢) ومعنى ذلك: أن الله سبحانه وتعالى وضع في النفوس محبة الدنيا والرغبة فيها، إلا أن المؤمن يتوسط، وغيره يتجاوز الحد ويشتَطُّ، ثم إن إسناد التزيين إلى الله حقيقة، وإلى غير الله مجاز، ومِنَ الناس مَنْ يعكس الأمر كالزمخشري عافانا الله جميعاً.

(٣) والفاعل هو الله تعالى، وقد تقدم ذكره في قوله: (فإنَّ الله شَديدُ العقاب).

(٤) وعدم وجود حائل مع كون التأنيث حقيقياً شرطان لازمان لوجوب التأنيث.

(٥) أي فتنتهم وسيطرت عليهم.

(٦) فهم في الجنة والكفار في النار. وهذا فضل عظيم، ودرجة عالية تقابلها درجة سفلى، ولصاحب كل درجة قدره.

(٧) قال (ح) رحمه الله: (فوق) لا تدل على التشريك في التفضيل، وإنما تدل على مطلق العلو، فإذا=

المتقين هم في الآخرة في التنعم والفوز بالرحمة فوق ما هم هؤلاءِ فيه في دنياهم، وكذلك خير مستقراً، من هؤلاءِ في نعمة الدنيا. فعلى هذا الاحتمال وقع التفضيل في أَمر فيه اشتراك(١)، وتحتمل هذه الآية أن يراد بالفوق المكان من حيث الجنة في السماءِ والنار في أَسفل السافلين فَيُعْلَم من ترتيب الأَمكنة أَن هؤلاءِ في الجنة وهؤلاءِ في النار.

وتحتمل الآيتان(٢) أَن يكون التفضيل على ما يتضمنه زعم الكفار، فإنهم كانوا يقولون: وإن كان مَعَاذٌ فلنا فيه الحظ أَكثر مما لكُم، ومنه حديث خباب مع العاصي بن وائل(٣).

وهذا كله من التحميلات(٤) حفظ لمذهب سيبويه والخليل في أَن التفضيل إِنما يجيءُ فيما فيه شركة، والكوفيون يجيزونه حيث لا اشتراك.

= أضيفت فلا يلزم أن يكون ما أُضيفت إليه فيه علو، كما أن مقابلها وهو (تحت) لا يدل على تشريك في السفلية، ولا نقول إنها مرادفة لأسفل، لأن أسفل أفعل تفضيل، يدل على ذلك استعمالها بمن في قوله تعالى: (والرَّكبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ) كما أن أعلى كذلك. انتهى. ومفهوم هذا الكلام أن منهم من جعل (فوق) مرادفة لأفعل التفضيل، أي (أعلى)، ومنهم من لم يجعلها بمعنى اسم التفضيل وإنما تدل على مجرد العلو. والله أعلم.

وقوله تعالى (أصحاب الجنة) من الآية ٢٤ من سورة (الفرقان).

(١) أي التنعيم في الدنيا والتنعيم في الأخرى.

(٢) هما: (والَّذينَ اتَّقَوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القِيَامَة) (أَصْحَابُ الجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلا).

(٣) ذكر ابن عطية في معنى التفضيل هنا أربعة آراء:

أولها: أن التفضيل في الدرجة والقدر. ويكفي أن المتقين في نعيم الجنة وأن الكفار في عذاب النار.

ثانيها: أن التفضيل بين نعيم الآخرة الذي يعيش فيه المتقون يوم القيامة، ونعيم الدنيا الذي يعيش فيه الكفار فيها.

ثالثها: أن الفوقية من حيث كون الجنة في السماء والنار في أسفل سافلين.

رابعها: أن التفضيل والفوقية من حيث زعم الكفار أن ذلك لهم في الدنيا وفي الأخرى.

(٤) أي التأويلات، والمعنى أنهم حملوا الآية هذه التحميلات حفاظاً على مذهب سيبويه والخليل، وأن التفضيل إنما يجيءُ فيما فيه شركة، وهذا من ابن عطية رحمه الله ذهابٌ إلى أن (فوق) مرادفة (لأفعل التفضيل)، وقد قدمنا عن أبي (ح) أنها لمجرد العلو بقطع النظر عن الاشتراك، وأن معنى (فوق) غير معنى (أفعل)، وتأمل، وقال الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في «الجواهر الحسان» ـ وهو مختصر ابن عطية في تفسير القرآن ـ «فإن تشوقت نفسك أيها الأخ إلى هذه الفوقية ونيل هذه الدرجة العالية، فارفض دنياك الدنية، وازهد فيها بالكلية، لتسلم من كل آفة وبلية، واقتد في ذلك بخير البرية». انتهى. ومجمل القول في الدنيا أنها آفة الخلق، في الانقطاع عن الحق.

وقوله تعالى: (والله يَرْزقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) يحتمل أَن يكون المعنى: والله يرزق هؤلاءِ الكفرة في الدنيا فلا تستعظموا ذلك، ولا تقيسوا عليه الآخرة، فإن الرزق ليس على قدر الكفر والإيمان بأَن يحسب لهذا عمله، ولهذا عمله، فيرزقان بحساب ذلك، بل الرزق بغير حساب الأعمال، والأَعمال ومجازاتها محاسبة ومعادة إذ أَجزاءُ الجزاءِ تُقابل أَجزاءَ الفعل المجازى عليه، فالمعنى أَن المؤمن ـ وإن لم يرزق في الدنيا ـ فهو فوقٌ يومَ القيامة.

وتحتمل الآية أَن يكون المعنى: إن الله يرزق هؤلاءِ المستضعفين عُلُوَّ المنزلة بكونهم فوق، وما في ضمن ذلك من النعيم بغير حساب، فالآية تنبيه على عظم النعمة عليهم، وجعل رزقهم بغير حساب من حيث هو دائم لا ينتهي فهو لا ينفد.

ويحتمل أَن يكون: (بغير حساب) صفة لرزق الله تعالى كيف يصرف إذ هُوَ جلَّت قُدْرَتُهُ لا يُنْفِقُ بِعَدٍّ، فَفَضْله كله بغير حساب.

ويحتمل أَن يكون المعنى في الآية: من حيث لا يحتسب[١] هذا الذي يشاؤه الله. كأَنه قال: بغير احتساب من المرزوقين كما قال تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[٢].

وإن اعترض معترض على هذه الآية بقوله تعالى: (عطَاءً حسَاباً) فالمعنى في ذلك: محسباً[٣]، وأَيضاً فلو كان عداً لكان الحساب في الجزاءِ والمثوبة لأَنها معادَّة[٤]. وغير الحساب في التفضل والإنعام.

قوله عز وجل:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾.

---

(١) أي من حيث لا يظن ولا يشعر، كما قال تعالى: (وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَالَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ).
(٢) من الآية (٣) من سورة (الطلاق).
(٣) أي كافياً، من أحسبه بمعنى أرضاه حتى قال حسبي، لا من حَسَبه بمعنى عدَّه.
(٤) أي في الجزاءِ المقابل للعمل حساب، وفي التفضل والإنعام المحض لا حساب.

قال أُبي بن كعب، وابن زيد: المراد بالناس: بنو آدم حين أَخرجهم الله نسماً من ظهر آدم، أي كانوا على الفطرة.

وقال مجاهد: الناس: آدم وحده[١] وقيل: آدم وحواءُ.

وقال ابن عباس، وقتادة: الناس: القرون التي كانت بين آدم ونوح، وهي عشرة، كانوا على الحق حتى اختلفوا، فبعث الله تعالى نوحاً فمَنْ بعده.

وقال قوم: الناس: نوح، ومن في سفينته، كانوا مسلمين، ثم بعد ذلك اختلفوا[٢].

وقال ابن عباس أيضاً: كان الناس أُمة واحدة كفاراً، يريد في مدة نوح، حين بعثه الله[٣].

وكان ـ على هذه الأَقوال ـ هي على بابها من المضي المنقضي، وتحتمل الآية معنى سابعاً وهو أَن يخبر عن الناس الذين هم الجنس كله أَنهم أُمة واحدة، في خلوهم عن الشرائع، وجهلهم بالحقائق، لولا مَنُّ الله عليهم وتفضله بالرسل، فـ(كان) على هذا للثبوت، لا تختص بالمضي فقط، وذلك كقوله تعالى: (وكَانَ الله غَفُوراً رَحِيماً).

والأُمة: الجماعة على المقصد الواحد، ويسمى الواحد أُمة إذا كان منفرداً بمقصد، ومنه قول النبي ﷺ في قسٍّ بن ساعدة (يُحْشَرُ يَوْمَ القِيَامَةِ أُمةً وحْدَه)[٤].

---

(١) أطلق عليه لفظ الناس لأنه أصلهم ومنشؤهم.

(٢) أي بعد موت نوح عليه السلام تفرقوا واختلفوا.

(٣) قال الحافظ ابن (ك): «القول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى، لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام فبعث الله نوحاً إليهم عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض» اهـ.
ومما يؤيد أن الناس كانوا أُمة واحدة في الإيمان قوله تعالى: (فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيينَ) وإنما بعثهم حين الاختلاف، وقراءة عبد الله: (كان الناس أُمة واحدةً فاخْتَلَفُوا فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيينَ)، والتصريح بهذا المحذوف في آية أخرى وهي قوله تعالى: (وَمَا كَانَ النَّاسُ إلا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا) والقرآن يفسر بعضه بعضاً كما هو الشأن في تفسير الإمام ابن (ك)، وكون آدم بعث إلى أولاده وقد كانوا مسلمين دلالة العقل إذ النظر الصحيح يؤدي إلى الحق لا محالة، فالناس في مبدأ الدنيا كانوا على الفطرة ومؤمنين. ثم في الآية اختلافان؛ اختلاف نشأ عنه بعث الأنبياء، واختلاف تسبَّب عن البغي والحسد والطمع في الدنيا وزينتها.

(٤) لأن مقصده انفرد عن مقصد الناس، وقسُّ بنُ ساعدة هو حكيم العرب، وقد ضربت بحكمته وعقله الأمثال، قدمت إياد على رسول الله ﷺ فسألهم عنه فقالوا: هلك. فقال: كأني أنظر إليه على جمل أحمر بسوق عكاظ يقول: أيها الناس، اسمعوا وعُوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت=

وقرأ أُبي بن كعب: [كَانَ البَشَر أُمَّةً وَاحدَةً]، وقرأ ابن مسعود: [كان الناس أمة واحدةً فاخْتَلَفُوا فَبَعَثَ]، وكل من قَدَّرَ (الناس) في الآية مؤمنين قدَّر في الكلام (فاخْتَلَفُوا)(١)، وكل من قدرهم كفاراً كانت بعثة النبيين إليهم(٢). وأول الرسل ـ على ماورد في الصحيح في حديث الشفاعة ـ نوحٌ لأن الناس يقولون له: أنت أول الرسل. والمعنى: إلى تقويم كفار، وإلا فآدم مُرسلٌ إلى بنيه يعلمهم الدين والإيمان ـ و(مُبَشِّرين) معناه: بالثواب على الطاعة، و(منذِرينَ) معناه: من العقاب على المعاصي، ونصْبُ اللفظتين على الحال.

و(الكِتَابَ) اسم الجنس، والمعنى جميع الكتب. وقال الطبري: الألف واللام في (الكِتَاب) للعَهْد، والمراد التوراة. و(ليحكم) مسند إلى (الكتاب) في قول الجمهور. وقال قوم: المعنى: ليحكم الله(٣).

وقرأ الجحدري(٤): [لِيُحْكَمَ] على بناءِ الفعل للمفعول. وحكى عنه مكي (لِنحكمَ).

= آت: إنَّ في الأرضِ لعبراً، وإنَّ في السماءِ لخبراً، أنْجُمٌ تَدور، وبحارٌ لا تغور، وسقف مرفوع، ومهاد موضوع، أُقسم الله قسَمَ حقٍّ، إن لله ديناً أرضى ممَّا أنتم عليه. مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أَرَضُوا بالمُقام فأقاموا، أم تُركوا فناموا؟، سبيل مؤتلف، وعمل مختلف. وقال أبياتاً لا أحفظها. فقال أبو بكر رضي الله عنه: أنا أحفظها، فقال: هاتها. فقال:

فـي الـذَّاهبيـنَ الأوليـن ... مِـنَ القـرون لَنَـا بَصَـائِـرْ
لمَّـا رأيـتُ مـوارداً ... لِلمَـوْتِ لَيْـسَ لَهَـا مَصَـادِرْ
وَرَأَيْـتُ قَـوْمِـي نَحْـوَهَـا ... يَمْضِـي الأكَـابِـرُ والأَصَـاغِـرْ
لا يـرْجِـعُ المـاضِـي وَلا ... يَبْقَـى مِـنَ البَـاقِيـنَ غَـابِـرْ
أيْقَنْـتُ أنِّـي لا مَحَـا ... لَـةَ حَيْـثُ صـارَ القَـوم صـائِـرْ

فقال: «رحم الله قساً إني لأرجو أن يبعث أُمةً وحده».

(١) وعليه فالفاءُ في قوله تعالى: (فَبَعَثَ) فاء الفصيحة، وهي التي تبين عن سبب محذوف، ودليل هذا المقدر قوله تعالى بعدُ: (لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيه).

(٢) أي لا يحتاج إلى تقدير، لأن بعثة النبيين كانت إليهم.

(٣) هذا هو الظاهر، ويدل على ذلك قراءة الجحدري [لنحكم] بالنون، وهي التفات من الغيبة إلى التكلم، ودعوى ابن عطية أن هذه القراءة تصحيف، مستنداً في ذلك إلى أن مكياً لم يحك ما حكاه الناس من قراءة البناء للمفعول لا تتم إذ الناقل أمين، والمثبت مقدم، ولا يلزمه أن يذكر ما ذكره غيره. والله أعلم.

(٤) هو عاصم أحد القراء السبعة، قرأ (لِيُحكَم) بالبناء للمفعول، والفاعل معلوم وهو الله تعالى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَظنه تصحيفاً لأَنه لم يُحْكَ عنه البناءُ للمفعول كما حكى الناس، والضمير في (فِيهِ) عائد على (مَا) من قوله: [فيما]، والضمير في (فيه) الثانية يحتمل العود على (الكتاب)، ويحتمل على الضمير الذي قبله، و(الذِينَ أُوتُوهُ) أَرباب العلم به والدراسة له. وخصهم بالذكر تنبيهاً منه تعالى على الشنعة في فعلهم، والقبح الذي واقعوه، و(البيِّنَاتُ): الدلالات والحجج. و(بَغْياً) منصوب على المفعول له. والبغي: التعدي بالباطل. و(هَدَى) معناه: أَرشد، وذلك خلق الإِيمان في قلوبهم، وقد تقدم ذكر وجوه الهدى في سورة (الحمد). والمراد بـ(الذين آمنوا) من آمن بمحمد ﷺ، فقالت طائفة: معنى الآية: أَن الأَمم كذب[١] بعضهم كتاب بعض فهدى الله أُمة محمد للتصديق بجميعها. وقالت طائفة: إِن الله هدى المؤمنين للحق فيما اختلف فيه أَهل الكتابين؛ من قولهم: إِن إِبراهيم كان يهودياً أَو نصرانياً. وقال ابن زيد: من قبلتهم، فإِن قبلة اليهود إِلى بيت المقدس والنصارى إِلى المشرق. ومن يوم الجمعة، فإِن النبي ﷺ قال: (هذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله له، فلليهود غدٌ وللنصارى بعد غد)[٢]، ومن صيامهم[٣] وجميع. ما اختلفوا فيه.

وقال الفراءُ: في الكلام قلْبٌ، واختاره الطبري قال: وتقديره «فهدى الله الذين آمنوا للحق مما اختلفوا فيه»، ودعاه إِلى هذا التقدير خوف أَن يَحْتَمِلَ اللفظ أَنهم اختلفوا في الحق، فهدى الله المؤمنين لبعض ما اختلفوا فيه، وعساه غير الحق في نفسه. نحا إِلى هذا الطبري في حكايته عن الفراءِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وادعاءُ القلب على لفظ كتاب الله دون ضرورة؛ يدفع إِلى ذلك عجز[٤] وسوءُ نظر، وذلك أَن الكلام يتخرج على وجهه ورصفه لأَن قوله: (فَهَدَى) يقتضي أَنهم أَصابوا

(١) يعني أنهم اختلفوا على أنبيائهم وكتبهم، وهدى الله هذه الأمة للحق فيما اختلفوا فيه.
(٢) رواه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن أبي هريرة، وأصله في الصحيح.
(٣) يعني أنهم اختلفوا فيه، فمنهم من يصوم بعض النهار، ومنهم من يصوم عن بعض الطعام.
(٤) ما قاله ابن عطية رحمه الله حَسَنٌ فإنه ينبغي أن ينزه كلام الله عن مثل هذا، حتى لا يكون طريقاً إلى تلاعب المتلاعبين وتشغيب المشاغبين.

الحق، وتمَّ المعنى في قوله: (فيه). وتبين بقوله (من الحق) جنس ما وقع الخلاف فيه.

قال المهدوي: وقدم لفظ الاختلاف على لفظ الحق اهتماماً، إذ العناية إنما هي بذكر الاختلاف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس هذا عندي بقويٍّ. وفي قراءَة عبد الله بن مسعود: [لِمَا اخْتَلَفُوا عَنْهُ مِنَ الحَقِّ] أي عن الإسلام.

و(بِإِذْنِهِ) قال الزجاج: معناه: بعلمه، وقيل: بأَمره. والإذن[1] هو العلم والتمكين، فإن اقترن بذلك أَمر صار أَقوى من الإذن بمزية.

وفي قوله تعالى: (والله يَهْدِي منْ يَشَاءُ) ردٌّ على المعتزلة في قولهم: إن العبد يستبد بهداية نفسه.

وقوله تعالى: (أَم حَسِبْتُمْ) الآية، (أَمْ) قد تجيءُ لابتداءِ كلام بعد كلام وإن لم يكن تقسيم ولا معادلة أَلف استفهام[2]. وحكى بعض اللغويين أنها قد تجيءُ بمثابة أَلف الاستفهام يُبتدأُ بها.

و(حَسِبْتُمْ) تطلب مفعولين؛ فقال النحاة: (أَنْ تَدْخُلُوا) تسُد مسد المفعولين لأَن الجملة التي بعد (أَن) مستوفاة المعنى، ويصح أَن يكون المفعول الثاني محذوفاً تقديره: «أَحسبتم دخولكم الجنة واقعاً ولَمَّا».

ولا يظهر أَن يقدر المفعول الثاني في قوله: (وَلَمَّا يَأْتِكُمْ) بتقدير: «أَحسبتم دخولكم الجنة خلواً من أَن يصيبكم ما أَصاب من قبلكم»، لأَن (خَلَوا) حال، والحال هنا إنما تأَتي بعد توفية المفعولين، والمفعولان هما الابتداءُ، والخبر قبل دخول حسب،

(١) تأييد لما قاله الزَّجاج وذلك أنك إذا قلت: أذنت في كذا، فليس يلزمك أنك أمرت. ويكون الأمر إذناً.

(٢) مراده بهذا ـ والله أعلم ـ أنها منقطعة، والمنقطعة تقدر بـ(بَلْ وهمزة الاستفهام) وبل إضراب، أي انتقال من كلام إلى كلام، والاستفهام تقرير، إلا أن قوله: «تجيء لابتداء كلام» ينافي أنها بمعنى (بل والهمزة)، فكما أن (بل) لا بد أن يأتي قبلها كلام حتى يصير في حيز عطف الجمل، فكذلك ما تضمنه معناها. والحاصل أن (أمْ) هنا؛ إما منقطعة بمعنى (بل والهمزة)، وإما متصلة بتقدير جملة قبلها كما حكاه بعض المفسرين، وإما استفهام بمعنى الهمزة كما قاله بعض اللغويين.

و(البأسَاءُ) في المال، و(الضراءُ) في البدن. و(خَلَوْا) معناه: انقرضوا، أي صاروا في خلاءٍ من الأَرض.

وهذه الآية نزلت في قصة الأحزاب، حين حَصَروا رسول الله ﷺ وأَصحابه في المدينة، هذا قول قتادة، والسدي وأكثر المفسرين. وقالت فرقة: نزلت الآية تسلية للمهاجرين الذين أُصيبت أَموالهم بعدهم في بلادهم، وفُتنوا هُمْ قبل ذلك.

و(مَثَلُ) معناه: «شبه». فالتقدير: أي شبه الذين خَلَوا[١].

والزلزلة: شدة التحريك، تكون في الأشخاص، وفي الأحوال. ومذهب سيبويه أَنَّ زَلْزَل رباعي كدَحْرَج. وقال الزجاج: هو تضعيف في زَلْ فيجيءُ التضعيف على هذا في الفاءِ.

وقرأَ الأعمش: [وَزُلْزِلُوا، ويقول الرسول] بالواو بدل حتى.

وفي مصحف ابن مسعود: [وزُلْزلوا ثم زُلْزلوا ويقول الرسول] وقرأَ نافع: (يقولُ) بالرفع. وقرأَ الباقون [يقولَ] بالنصب، فحتى غاية مجردة، تنصب الفعل بتقدير إِلى أَن. وعلى قراءة نافع كأَنها اقترن بها تسببٌ فهي حرف ابتداءٍ ترفع الفعل[٢].

وأَكثر المتأَولين على أَن الكلام إِلى آخر الآية من قول الرسول والمؤمنين، ويكون ذلك من قول الرسول على طلب استعجال النصر لا على شك ولا ارتياب[٣].

---

(١) وقوله تعالى: (مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ) بيانٌ لهذا المثل، كأنه قيل، ما ذلك المثل؟ قيل: مستهم البأساءُ والضراءُ، فليس لهذه الجملة محل إعراب لأنها تفسير لما قبلها، وفي الآية استدعاءٌ للصبر الذي هو وسيلة النصر، كما قال تعالى: (أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ) أي من الصابرين.

(٢) أي: وزلزلوا فيقول الرسول الآية، وعلى هذا فقراءة الرفع أظهر وأصح معنى لأن القول إنما كان عن الزلزلة غير منقطع منها. فالمعنى: زلزلوا حتى الرسول يقول: أي حتى هذه حاله. والنصب على الغاية ليس فيه هذا المعنى. والله أعلم.

(٣) «الذي يقتضيه النظر ـ كما قال أبو (ح) رحمه الله ـ أن الجملتين داخلتان تحت القول، وأن الجملة الأولى من قول المؤمنين. قالوا ذلك استبطاء للنصر وتضجراً لما نالهم من الشدة، والجملة الثانية من قول الرسول إجابة لهم وإعلام بقرب النصر، فتعود كل جملة لمن يناسبها. وصح نسبة المجموع بالمجموع لا نسبة المجموع لكل نوع من القائلين اهـ. وهذا الأخير أي نسبة المجموع إلى كل نوع من القائلين هو ما أشار إليه ابن عطية رحمه الله. فهذان قولان: نسبة المجموع للمجموع، ونسبة المجموع إلى كلٍّ من الرسول والمؤمنين، والقول الثالث أشار إليه ابن عطية في النهاية وهو أن: (مَتَى نَصْرُ اللهِ) مِن قول الرسول والمؤمنين و(أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ) من كلام الله تعالى.

والرسول اسم الجنس[١]، وذكره الله تعظيماً للنازلة التي دعت الرسول إلى هذا القول.

وقالت طائفة: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: حتى يقول الذين آمنوا: متى نصر الله؟ فيقول الرسول: ألا إن نصر الله قريب. فقُدِّمَ الرسول في الرتبة لمكانته، ثم قُدِّمَ قول المؤمنين لأنه المتقدم في الزمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تحَكمٌ، وحمل الكلام على وجهه غير متعذر[٢].

ويحتمل أن يكون: (أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ) إخباراً من الله تعالى مؤتنفاً بعد تمام ذكر القول.

قوله عز وجل:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِۗ﴾

السائلون: هم المؤمنون[٣]، والمعنى: يسألونك: ما هي الوجوه التي ينفقون فيها؟

---

(١) أي لا واحد بعينه، ومن المفسرين من عيَّنه بمحمد ﷺ، ويدل على ذلك سبب نزول الآية.

(٢) لله در الإمام ابن عطية رحمه الله، فإنه لا يجاري مثل هذه الأقوال، ودائماً يعقب عليها ويرميها وراء الظهر، لأنها تفتح باباً يعسر سده، وقوله: تحكُّمٌ؛ أي حكم من دون إبداء سبب يُعَيِّن ذلك، كيف وحمل الكلام على ما هو عليه مُتيسر؟

(٣) منهم عمرو بن الجموح، وكان شيخاً كبيراً، وله مال كثير، فسأل النبي ﷺ عن ذلك، وقد تضمن الجواب ما ينفقونه وهو كل خير، ولكنه بنى الكلام على ماهو أهم، وهو بيان المصرف، لأن النفقة لا يعتد بها إلا إذا وقعت موقعها كما قال الشاعر:

إنَّ الصَّنيعَةَ لا تَكُونُ صَنِيعَةً ... حتَّى يُصَابَ بهَا طَرِيقُ الْمَصْنَعِ
فَإذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً فاعْمَدْ بهَا ... للهِ أو لِذَوي القَرَابَةِ أوْ دَعِ

فيكون الكلام من الأسلوب الحكيم كما في قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ) والصنيعة: العطية، وأشار بقوله: «حَتى يُصَابَ بهَا طَرِيقُ المَصْنَعِ» إلى وضعها في موضعها اللائق بها.

وأَين يضعون ما لزم إنفاقُه؟ و﴿ما﴾ يصح أَن تكون في موضع رفع على الابتداءِ و(ذا) خبرها، فهي بمعنى الذي و﴿ينفقون﴾ صلة، وفيه عائد على (ذا) تقديره: ينفقونه. ويصح أَن تكون ﴿ماذا﴾ اسماً واحداً مركباً في موضع نصب بـ﴿يُنْفِقُون﴾ فيعري من الضمير، ومتى كانت اسماً مركباً فهي في موضع نصب، إلا ما جاءَ من قول الشاعر:

وَمَـاذَا عَسَـى الـوَاشُـونَ أَنْ يَتحَـدثـوا ... سـوى أَنْ يَقُـولـوا: إِنـني لـكِ عَـاشِـق[١]

فإن عسى لا تعمل فيما قبلها، فـ(مَاذا) في موضع رفع[٢]، وهو مركب إذ لا صلة[٣] لـ(ذا).

قال قوم: هذه الآية في الزكاة المفروضة، وعلى هذا نسخ منها الوالدان ومَنْ جرى مجراهما من الأَقربين.

وقال السدي: نزلت هذه الآية قبل فرض الزكاة، ثم نسختها الزكاة المفروضة[٤].

ووهم المهدوي على السدي في هذا فنُسِبَ إليه أَنه قال: إن الآية في الزكاة المفروضة ثم نسخ منها الوالدان.

وقال ابن جريج، وغيره: هي ندب، والزكاة غير هذا الإنفاق، فعلى هذا لا نسخ فيها.

واليتْم: فقْد الأَب قبل البلوغ، وتقدم القول في المسكين وابن السبيل.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا﴾ جزم بالشرط، والجواب في الفاءِ. وقرأ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: [يَفْعَلُوا] بالياءِ على ذكر الغائب، وظاهر الآية الخبر وهي تتضمن الوعد بالمجازاة.

---

(١) هو قيس بن الملوح ـ مجنون بني عامر ـ كما في الأغاني، وقيل: جميل ـ كما في الحماسة. وبعد البيت:

نَعَـمْ، صَـدَقَ الْـوَاشُـونَ أنْـتِ حَبِيبَـةٌ ... إلـيَّ وإن لَـمْ تَصْـفُ مِنْـكِ الْخَـلائِـقُ

وقد أنكر أبو (ح) هذا الإعراب، وقال: «لا نعرفه» انظره.

(٢) أي على أنه مبتدأ. والمعنى: أي حديث عسى الواشون أن يتحدثوا به؟ فلا يقدرون في وشايتهم على أكثر من أن يقولوا: إنني لك مُحِبٌّ وعاشق.

(٣) إنما لم تكن (لذا) صلة في البيت لأن عسى لا تقع صلة للموصول الاسمي، ومن ثم لا يجوز أن يكون (ذا) في البيت بمعنى الذي قاله أبو (ح).

(٤) فيه أنه لا دليل على نسخها، ولذا عقب الحافظ ابن (ك) عليه بقوله: وفيه نظر.

و(كُتِبَ) معناه: فُرض، وقد تقدم مثله، وهذا هو فرض الجهاد. وقرأ قوم: [كَتَبَ عَلَيْكم القَتلُ](١)، وقال عطاءُ بن أَبي رباح: فرض القتال على أَعيان أَصحاب محمد، فلما استقر الشرع وقيم به، صار على الكفاية. وقال جمهور الأُمة: أَول فرضه إِنما كان على الكفاية دون تعيين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واستمر الإِجماع على أَن الجهاد على أُمة محمد ﷺ فرض كفاية، فإِذا قام به من قام مِنْ المسلمين سقط عن الباقين، إِلا أَن ينزل العدو بساحة الإِسلام فهو حينئذ فرض عين(٢).

وذكر المهدوي، وغيره عن الثوري أَنه قال: الجهاد تطوع، وهذه العبارة عندي إِنما هي على سؤال السائل، وقد قيم بالجهاد فقيل له: ذلك تطوع(٣).

والكُره بضم الكاف: الاسم، وبفتحها المصدر، وقال قوم: الكَره بفتح الكاف ما أُكره المرءُ عليه، والكُره ما كرهه هو(٤).

وقال قوم: هما بمعنى واحد.

وقوله تعالى: (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهوا شَيْئاً) الآية(٥). قال قوم: عسى من الله

---

(١) جمعت القراءتان في قول عمر بن أبي ربيعة:
كُتِـبَ القَتْـلُ والقِتَـال عَلَيْنَـا وَعَلـى الغَـانِيَـاتِ جَـرُّ الـذُّيُـولِ

(٢) أجمع المفسرون على أن هذه الآية دالة على وجوب الجهاد وجوباً كفائياً على أصحاب النبي ﷺ، وعلى غيرهم، إلا عند الاستنفار العام أو هجوم العدو على الإسلام، ما عدا عطاء فإنه قال بوجوبه عيناً على الصحابة، وكفائياً على غيرهم.

تنبيه: سيف الجهاد والقتال هو آية العز والنصر، وبه انتشرت المبادىء والمذاهب، وأُيدت الشرائع والقوانين، وبه حمي الإسلام من عبث العابثين والمرجفين، إلا أن السيف لم يجرد للإلزام والاقناع، بل لحماية الدعوة ونصر الأتباع. ومعنى هذا أن المسلمين يجب عليهم أن ينصروا دينهم بالسيف إذا تعرض للطعن أو للهجوم.

(٣) أي تُحمل على سؤال سائل قيل له: إن ذلك تطوع في حقك، وقد قام الناس بالجهاد.

(٤) في المصباح: قال الزجاج: كل مافي القرآن من الكُره بالضم، فالفتح فيه جائز إلا قوله في سورة البقرة: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ) اهـ.

(٥) ها هنا أُمور أربعة: محبوب يوصل إلى محبوب. ومكروه يوصل إلى مكروه ومحبوب يوصل إلى مكروه، ومكروه يوصل إلى محبوب فالمحبوب الموصل إلى محبوب قد اجتمع فيه داعي الفعل من=

واجبة[١]، والمعنى: عسى أَن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة وهو خيرٌ لكم في أَنكم تَغْلبون وتظهرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات، مات شهيداً، وعسى أَن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شرٌ لكم في أَنكم تُغلبون وتذلون ويذهب أَمركم.

وفي قوله تعالى: (والله يَعْلَم) الآية قوة أَمر[٢].

وقوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهرِ الحَرَام) الآية، نزل في قصة عمرو بن الحضرمي، وذلك أَن رسول الله ﷺ بعث سرية عليها عبد الله بن جحش الأَسدي، مَقْدمه[٣] من بدر الأولى، فلقوا عمرو بن الحضرمي ومعه عثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأَخوه نوفل المخزوميان، والحكم بن كيسان، في آخر يوم من رجب، على ما ذكر ابن اسحق، وفي آخر يوم من جمادى الآخرة علىٰ ما ذكره الطبري عن السدي وغيره، والأَول أَشهر. على أَن ابن عباس قد ورد عنه أَن ذلك كان في أَول ليلة من رجب، والمسلمون يظنونها من جمادى، وأَن القتل في الشهر الحرام لم يقصدوه، وأَما على قول ابن اسحق فإِنهم قالوا: إِن تركناهم اليوم دخلوا الحرم، فأَزمعوا قتالهم، فرمى واقد بن عبد الله عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وأُسر عثمان بن عبد الله

= جهتين، والمكروه الموصل إلى مكروه اجتمع فيه داعي الترك من جهتين، والقسمان الباقيان هما معترك الابتلاء والاختبار، فالنفس تؤثر أقربهما، والعقل يؤثر أنفعهما، والقلب بين الداعيين إلى هذا مرة وذاك أُخرى. وداعي العقل والإيمان ينادي دائماً: حي على الفلاح، عند الصباح يحمد القوم السُّرى، وعند الممات يحمد العبد التقى، وعقلاء الدنيا يتحملون المشاق والمتاعب والمكاره لما يعقبها من اللذة والمنفعة وإن كانت منقطعة، لأنها جزءٌ من الدنيا المنقطعة، وفي هذا المعنى يقول أبو سعيد الضرير:

ربَّ أمــــــــر تتَّقيــــــــه ... جَــــرَّ أمْــــراً تَــــرتَضِيــــهِ
خَفِــــيَ المحْبُــــوبُ مِنْــــهُ ... وَبَــــدا المَكْــــرُوه فِيــــهِ

ويقول القائل أيضاً:

كَـرهـتُ وَكَـان الْخَيْـرُ فِيمَـا كَـرِهْتُـهُ ... وأحْبَبْـتُ أمْـراً كَـانَ فِيـه شَبَـا الْقَتْـل

وللقاضي إسماعيل:

وَمَسَــــرَّةٍ قَــــدْ أقْبَلَــــتْ ... مِــنْ حَيْــثُ تُنْتَظَــرُ المَصَــائِــبُ
فــأعجــب لمــا هــو كــائــن ... إن الــزمــان أبــو العجــائــب

(١) بمعنى أنها محققة الوقوع.

(٢) في قوله تعالى: (واللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ) الإشارة إلى المبادرة إلى ما يأمر به الله تعالى وإنْ شَقَّ، والرضى بما جرى به القضاءُ والقدر.

(٣) أي عند مقدم النبي ﷺ من بدر الأولى.

والحكم، وفر نوفل فأَعجزهم واستسهل المسلمون هذا في الشهر الحرام خوف فوتهم، فقالت قريش: محمد قد استحل الأَشهر الحرم، وعُيروا بذلك، وتوقف النبي ﷺ. وقال: ما أَمرتكم بقتال في الأَشهر الحرم، فنزلت هذه الآية.

وذكر المهدوي أَن سبب هذه الآية؛ أَن عمرو بن أُمية الضمري قتل رجلين من بني كلاب في رجب فنزلت، وهذا تخليط من المهدوي[١]. وصاحبا عمرو كان عندهما عهد من النبي ﷺ[٢]، وكان عمرو قد أَفلت من قصة بئر معونة، وذكر الصاحب بن عباد[٣]، في رسالته المعروفة بالأَسدية: أَن عبد الله بن جحش سمي أَمير المؤمنين في ذلك الوقت لكونه مُؤَمَّراً على جماعة من المؤمنين.

و(قتال) بدل عند سيبويه، وهو بدل الاشتمال[٤]. وقال الفراءُ: هو خفض بتقدير عن[٥]. وقال أَبو عبيدة: هو خفض على الجوار. وقوله هذا خطأٌ[٦]، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: [يَسْئَلُونك عَنِ الشَّهرِ الحَرَام عَنْ قِتالٍ فيهِ] بتكرير (عن) وكذلك قرأَها الربيع، والأَعمش. وقرأَ عكرمة: [عنِ الشَّهر الحَرَام قتلٍ فِيه قل قَتلٌ] دون أَلف فيهما.

---

(١) أي بين القصتين، والحق أن سبب النزول هو قصة عبد الله بن جحش، قال شيخ المفسرين أبو جعفر (ط) رحمه الله: «ولا خلاف بين أهل التأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ بسبب قتل ابن الحضرمي وقاتله». ثم روى بأسانيده عمن قال ذلك. انظره.

(٢) ولم يعلم بذلك عمرو بن أمية الضمري.

(٣) لُقِّبَ بذلك لصحبته ابن العميد في وزارته، واسمه: اسماعيل بن عباد تلميذ ابن العميد، وشيخ الشيخ عبد القاهر الجرجاني مدون علم البيان، وواضع قواعده في كتابيه العظيمين: «دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة». وقد توفي الصاحب بمدينة الري وحضر جنازته فخر الدولة بن بُوَيه وسائر القواد والأعيان، جمع بين صنعة الشعر والنثر، وفاق أقرانه فيهما إلا ما كان من الصابئي فإنه كما قال الثعالبي: كان يكتب كما يُراد، والصاحب كان يكتب كما يُريد. رُوي أنه سافر إلى بغداد فسُئِل عنها فقال: بغداد في البلاد: والأستاذ في العباد، ومراده بالأستاذ شيخه ابن العميد.

(٤) أي لأن الزمان يشتمل على ما يقع فيه من الأفعال كالقتال.

(٥) هو كقولهم: البدل على نية تكرار العامل، فالعبارتان متقارتبان، ومرجعهما إلى قول الجمهور: إنه بدل، وقد قرأ عبد الله بن مسعود وغيره: [عن قتال فيه] بتكرير (عن).

(٦) تبع ابن عطية في تخطئة الخفض بالجوار النحاس، وكذلك أبو (ح) (٢ ـ ٤٤) البحر المحيط، وهو كذلك، لأن الخفض بالجوار من مواضع الضرورة والشذوذ، ولا يجوز أن يعمد إلى ذلك في كتاب الله، ولا حتى في الكلام إذا وجدت عنه مندوحة.

والشهر في الآية اسم الجنس(١)، وكانت العرب قد جعل الله لها الشهر الحرام قِواماً، تعتدل عنده(٢)، فكانت لا تسفك دماً، ولا تغير في الأشهر الحرم، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب.

وروى جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ لم يكن يغزو فيها إلا أن يغزى(٣)، فذلك قوله تعالى: (قُلْ قِتَالٌ فيه كبير)، و(صَدٌّ) مبتدأ مقطوع مما قبله(٤)، والخبر (أَكْبر)، (والْمَسْجِدِ) معطوف على [سبيل الله]، وهذا هو الصحيح(٥).

وقال الفراءُ: (صدٌّ) عطف على (كبيرٌ) وذلك خطأٌ لأن المعنى يسوق إلى أن قوله: (وكفرٌ به) عطف أيضاً على (كبير)(٦)، ويجيءُ من ذلك أن إخراج أهل المسجد منه أكبر من الكفر عند الله، وهذا بيِّنٌ فساده(٧).

ومعنى الآية على قول الجمهور؛ إنكم يا كفار قريش تستعظمون علينا القتال في الشهر الحرام، وما تفعلون أنتم من الصد عن سبيل الله لمَن أراد الإسلام، ومن كفركم بالله وإخراجكم أهل المسجد منه ـ كما فعلوا برسول الله ﷺ وأصحابه ـ أكبر جرماً عند الله.

وقال الزهري، ومجاهد، وغيرهما قوله: (قُلْ قِتَالٌ فِيه كَبيرٌ) منسوخ بقوله: ﴿وَقَـٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ وبقوله ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٨) وقال عطاءُ: لم تنسخ، ولا ينبغي القتال في الأشهر الحرم، وهذا ضعيف(٩).

---

(١) يشمل الأشهر الحرم كلها.

(٢) القِوَام كحساب العدل والاعتدال، فقوله: تعتدل عنده (أي تستقيم) تفسير لما قبله.

(٣) روى حديث جابر ابنُ جرير في التفسير.

(٤) أي غير مقول، وغير داخل تحت القول.

(٥) فيه الفصل بين المصدر ومعموله بأجنبي وهو لا يجوز، فالأحسن أن يكون معطوفاً على الضمير في قوله: (وكُفرٌ به)، وبالمسجد الحرام، ولا يضر عدم إعادة الجار لقول ابن مالك:

وليس عندي لازماً إذ قد أتى ... في النظم والنثر الصحيح مُثبَتا

(٦) بل من الجائز أن يتم المعنى عند قوله: (وَصَدٌّ عَنْ سَبيلِ اللهِ)، أي قل: قِتَالٌ فيه كبير، وفيه صدٌّ عن سبيل الله، ثم يكون قوله: (وكُفْرٌ بِهِ) مبتدأ والخبر ما بعده.

(٧) لا يجيءُ ذلك، لأن المعنى أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام، وليس المعنى: أكبر عند الله من الكفر، فكلام ابن عطية رحمه الله هنا غير منخول.

(٨) من الآية (٣٦) من سورة التوبة ـ ومن الآية (٥) من سورة التوبة.

(٩) أصل هذا في كلام الإمام ابن جرير رحمه الله، وقد أطال في ذلك. والحق أنه لا يجوز القتال فيها إلا أن=

وقوله تعالى (الفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ) المعنى عند جمهور المفسرين: والفتنة التي كنتم تفتنون المسلمين عن دينهم حتى يهلكوا(١) أشد اجتراماً من قتلكم في الشهر الحرام. وقيل: المعنى: والفتنة أشد من أن لو قتلوا ذلك المفتون، أي: فعلكم على كل إنسان أشد من فعلنا(٢). وقال مجاهد وغيره: الفتنة هنا: الكفر، أي كفركم أشد من قتلنا أولئك.

قوله عز وجل:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾.

قوله تعالى: (وَلا يَزَالُونَ) ابتداءُ خبر من الله ـ عز وجل ـ وتحذير منه للمؤمنين من شر الكفرة، (ويرُدُّوكُمْ) نصب بـ(حتى) لأنها غاية مجردة(٣).

= يقاتلوا فيها، ولا دليل على تلك العموميات ولا في تلك الغزوات التي وقع بها الاستدلال، لأن تلك الحروب كان المشركون قد ابتدؤوا القتال فيها، وبيعة الرضوان إنما كانت نتيجة الخوف على عثمان بن عفان رضي الله عنه، فهي بيعة على الدفاع لا على الهجوم، انظر ابن القيم في «زاد المعاد» ومما يرجح أنها محكمة غير منسوخة حديث جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ لم يكن يغزو في الأشهر الحرم إلا أن يغزى، وذلك قوله: (قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ) ـ وما روي أن النبي ﷺ وَدَى ابن الحضرمي وردَّ الغنيمة والأسيرين، وأن الآيات التي وردت بعدها عامة في الأزمنة، وهذه خاصة، والعام لا ينسخ الخاص باتفاق، وأيضاً فقد جاء في سورة المائدة وهي من آخر ما نزل وليس فيها منسوخ: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلّوا شَعَائِرَ اللهِ ولا الشَّهْرَ الحَرَام) الآية ـ والبقرة من أول ما نزل.

(١) أي بحبسهم وسجنهم ومنعهم وتعذيبهم.

(٢) يعني لأن ألم الفتنة متجدد، وألم القتل ألم منقض.

(٣) جعلها الزمخشري علّةً، والتقييد بالعلة أمكن من التقييد بالغاية، لأن الفعل الصادر منهم ضد المؤمنين ـ وهو المقاتلة ـ مرتبط بعلة، فالزمان مستغرق الفعل ما دامت علة الفعل. بخلاف الغاية فإنها تقييد في الفعل دون ذكر الحامل عليه، فزمان وجوده مقيد بغايته، وفرق في القوة بين الفعل المقيد بالغاية والفعل المقيد بالعلة بين الباعث والدافع. ولا يتحقق ذلك في المقيد بالغاية.

وقوله تعالى (وَمَنْ يَرْتَدِدْ)، أي يرجع عن الإسلام إلى الكفر. قالت طائفة من العلماءِ: يُسْتتاب المرتد فإن تاب وإلا قتل. وقال عبيد بن عمير، وطاووس، والحسن: على خلاف عنه، والشافعي ـ في أحد قوليه ـ: يقتل دون أن يُسْتَتاب. ورُوِيَ نحو هذا عن أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومقتضى قولهما أنه يقال له للحين: راجع، فإن أبى قُتل. وقال عطاءُ بن أبي رباح: إن كان المرتد ابن مسلمين قُتل دون استتابة، وإن كان أسلم ثم ارتد استتيب، وذلك لأنه يجهل من فضل الإسلام ما لا يجهل ابن المسلمين.

واختلف القائلون في الاستتابة؛ فقال عمر بن الخطاب: يُستتاب ثلاثة أيام، وبه قال مالك، وأحمد، وإسحق، وأصحاب الرأي، والشافعي ـ في أحد قوليه ـ. وقال الزهري: يدعى إلى الإسلام فإن تاب وإلا قتل. وروي عن علي بن أبي طالب أنه استتاب مرتداً شهراً، فأبى فقتله. وقال النخعي، والثوري: يستتاب محبوساً أبداً. قال ابن المنذر: واختلفت الآثار عن عمر في هذا الباب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كان رضي الله عنه ينفذ بحسب جرم ذلك المرتد، أو قلة جرمه، المقترن بالرِّدة.

وحبط العمل إذا انفسد[٢] في آخره فبطل[٣].

---

(١) ما روي عن أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل، خرجه الإمام مسلم في صحيحه.

(٢) لا يقال في اللغة (انفسد) فكان عليه أن يقول (إذا فَسَدَ)، اللهم إلا إذا كان ذلك من النَّسَخَة، وهو ما يظهر، والله أعلم.

(٣) قال الإمام ابن العربي: قال علماؤنا: إنما ذكر الله الموافاة شرطاً ها هنا أي قوله: (فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِر) لأنه علّق على ذلك الخلود في النار، فمن وافى على الكفر خلّده الله في النار بهذه الآية، ومن أشرك حبط عمله، بقوله تعالى: (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) فهما آيتان مفيدتان لمعنيين وحكمين متغايرين، وما خوطب به عليه السلام فهو لأمته حتى يثبت اختصاصه به، وهذا هو مذهب الإمام مالك أن من ارتد يحبط عمله بنفس الردة حتى أن من حج ثم ارتد ثم أسلم فإنه يجب عليه إعادة الحج، ثم إن الاحباط إحباطان: إحباط إسقاط وهو إحباط الكفر للأعمال الصالحة، فلا يفيد شيءٌ منها معه، وإحباط موازنة، وهو وزن العمل الصالح بالعمل السيء، فإن رجح السَّيِّئ فإنه في هاوية، وإن رجح الصالح فهو في عيشة راضية، كلاهما معتبر، غير أنه يعتبر أحدهما بالآخر، ومع الكفر لا اعتبار البَتَّة، ومن قبيل إحباط=

وقرأ أبو السمال(١): [حبَطت] بفتح الباءِ في جميع القرآن. وقال علي بن أبي طالب، والحسن، والشعبي، والحكم، والليث، وأبو حنيفة، وإسحق بن راهويه: ميراث المرتد لورثته من المسلمين. وقال مالك، وربيعة، وابن أبي ليلى، والشافعي، وأبو ثور: ميراثه في بيت المال(٢) ـ وأجمع الناس على أن ورثته من أهل الكفر لا يرثونه إلا شذوذاً، روي عن عمر بن عبد العزيز، وعن قتادة، وروي عن عمر بن عبد العزيز خلافه(٣).

وقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنوا والَّذِينَ هَاجَرُوا) الآية. قال جندب بن عبد الله، وعروة بن الزبير، وغيرهما: لما قَتل واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي في الشهر الحرام توقَّف رسول الله ﷺ عن أخذ خُمُسه الذي وفق في فرضه له عبد الله بن جحش، وفي الأسيرين، فعنف المسلمون عبد الله بن جحش، وأصحابه، حتى شق ذلك عليهم، فتلافاهم الله عز وجل بهذه الآية(٤) في الشهر الحرام، ثم بذكرهم والإشارة إليهم في قوله: (إِنَّ الَّذِينَ آمنوا) ثم هي باقيةٌ في كل مَن فعل ما ذكر الله عز وجل.

وهاجر الرجل إذا انتقل لنقلة إقامة من موضع إلى موضع، وقصد ترك الأول إيثاراً للثاني وهي: مُفاعلة من هَجَر. ومَن قال: المهاجرة الانتقال من البادية إلى الحاضرة فقد أَوهَمَ(٥) بسبب أَن ذلك كان الأغلب في العرب، وليس أهل مكة مهاجرين على قوله.

وجاهد: مُفاعلة من جهد إذا استخرج الجهد، و(يَرْجُونَ) معناه: يطمعون(٦) ويستقربون، والرجاءُ تَنَعُّم، والرجاءُ أَبداً معه خوف ولا بد. كما أَن الخوف معه

= الموازنة ما جاء في أثر عائشة رضي الله عنها كما في الموطأ أنها قالت لأم ولد زيد بن أرقم، وقد باعت له عبداً بثمانمئة درهم إلى العطاءِ واشترته منه بستمئة درهم نقداً: أخبري زيد بن أرقم أنه أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ، ولعل زيداً رضي الله عنه كان لا يعتقد حرمة الربا، بين السيد وعبده. انظر (ق).

(١) في البحر المحيط نسب ذلك إلى (أبو السماك) بالكاف. ونسبها أيضاً هنا إلى (الحسن).

(٢) لأنه لا وراثة بين مِلَّتين.

(٣) سبب الإجماع هو الاحتفاظ بالمال في بلد الإسلام، فلا يذهب إلى أهل الكفر، فهو إما لورثته المسلمين، وإما لبيت مال المسلمين، والمال هو قوام الأمة وعماد الحياة.

(٤) أي قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَام قِتَالٍ فِيهِ) الآية.

(٥) أي كان واهِماً في قوله، يقال: أَوْهَمَ الرجل بمعنى وَهَم. وسبب وهمه أن ذلك كان هو الأغلب من حال العرب.

(٦) والطمع في رحمة الله أي في جنته لا يكون إلا بالعمل، وإلا فهو أُمنية وغرور، ولذلك أشار إلى العمل السابق وهو الإيمان والهجرة والجهاد، ورُتِّب رجاء رحمة الله على ذلك كله.

رجاء[١]، وقد يتجوز أحياناً ويجيءُ الرجاءُ بمعنى ما يقارنه من الخوف كما قال الهذلي:

إِذَا لَسَعَتْـهُ النحـلُ لـمْ يـرْجُ لسْعهـا وخَالَفَهَا في بَيْتِ نوب عَوامِلِ[٢]

وقال الأصمعي: إذا اقترن حرف النفي بالرجاءِ، كان بمعنى الخوف كهذا البيت، وكقوله عز وجل: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾[٣] المعنى: لا يخافون، وقد قيل: إن الرجاءَ في الآية على بابه، أي لا يرجون الثواب في لقائنا وبإزاءِ ذلك خوف العقاب. وقال قوم: اللفظة من الأضداد دون تجوز في إحدى الجهتين، وليس هذا بجيد. وقال الجاحظ في كتاب «البلدان»: إن معنى قوله: (لَمْ يَرْجُ لسْعَهَا) أي لمْ يَرْجُ بُرْءَ لَسْعِها وزواله، فهو يصبر عليه[٤]. وباقي الآية وعْدٌ.

وقوله تعالى: (يَسْأَلُونكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِر) الآية[٥]. السائلون: هم المؤمنون، و(الخَمر) مأخوذة من خَمَر إذا ستر، ومنه قول النبي ﷺ: (خَمِّروا الإِناءَ)[٦] ومنه: خِمار المرأة، والخَمَرُ: ما واراك من شجر وغيره، ومنه قول الشاعر:

---

(١) لأن الراجي يخاف ألا يدرك ما يتمناه، كما أن الخائف قد يكون منه رجاءُ الإدراك.

(٢) الهذلي، هو أبو ذؤيب، والنوب: النحل ـ جمع نائب لأنها ترعى ثم تنوب إلى بيتها، أي ترجع إليه. وناب بالنون بمعنى رجع. والمعنى أنه يخالفها لأخذ العسل، إذا خرجت للعمل وسَرَحت ترعى وفي رواية: (وحَالفها) في بيت نوب (عواسل)، بالحاء في الكلمة الأولى، و(السين) في الكلمة الأخيرة، والمعنى أنه يحالفها ويلازمها لأخذ العسل ولايخاف لَسْعَهَا.

(٣) من قوله تعالى: (إنَّ الَّذينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ورَضُوا بالحيَاة الدُّنْيَا واطْمَأنُّوا بِهَا والَّذينَ هُمْ عَن آيَاتِنَا غَافِلُونَ) الآية (٧) من سورة يونس.

(٤) فالرجاءُ هنا ليس معناه الخوف، بل معناه الأمل والطمع.

(٥) حرم الله الخمر بالتدريج لأن جريان العمل بالتدريج جار على المصلحة والتأنيس، ومن هنا كان نزول القرآن نجوماً في نحو عشرين سنة، ووردت الأحكام التكليفية فيها شيئاً فشيئاً، ولم ينزل جملة واحدة لئلا تنفر عنها النفوس دفعة واحدة، ويحكى عن عمر بن عبد العزيز أن ابنه عبد الملك قال له: مالك لا تنفذ الأمور؟ فو الله ما أُبالي لو أن القدور غلت بي وبك في الحق، فقال له عمر: لا تَعْجَل يا بني، فإن الله ذمَّ الخمر في القرآن مرتين، وحرمها في الثالثة. وإني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملةً فيدفعوه جملة ويكون من ذا فتنة. وسبب نزول الآية سؤال عمر ومعاذ، قالا: يا رسول الله. أفتنا في الخمر والميسر، فإنه مذهبة للعقل، مسلبة للمال.

(٦) أخرجه البخاري ومسلم، ولفظ البخاري: (خمِّروا الآنية، وأوكوا الأسقية) الخ. ولفظ مسلم: (غطوا الإناء وأوكوا السقاءَ) الخ.

أَلا يــا زيْــد والضحــاك سِيــرا فَقَــدْ جَــاوزْتُمَــا خَمَــر الطَّـريــقِ(١)

أَي: سِيرا مُدِلِّين(٢) فقد جاوزتما الوهدة التي يستتر بها الذيب وغيره، ومنه قول العجاج:

فـي لامـع العقبـان لا يَمْشـي الْخَمر . . . . (٣)

يصف جيشاً برايات غير مستخف. ومنه قولهم:

دخل فلان في غمار الناس وخمارهم(٤)، أَي: هو بمكان خافٍ، فلما كانت الخمر تستر العقل وتُغَطي عليه سُمِّيت بذلك. والخمر ماءُ العنب الذي غُلِيَ(٥) ولم

---

(١) البيت من شواهد الفراءِ في معاني القرآن، إلا أنه لم ينسبه إلى معين. و(الضحاكَ) منصوب بالعطف على محل (زيد)، أو مرفوع بالعطف على لفظ (زيد)، وقد قال ابن مالك:

وإن يكُــنْ مَصْحُــوبَ ألْ مــانُسُقَــا فَفِيــه وَجْهَــان وَرَفْــعٌ يُنْتَقَــى

(٢) المُدل: الواثق بنفسه وبسلاحه وعُدَّته.

(٣) تمامه:

. . . . يُــوَجِّــهُ الأرضَ وَيَسْتَــاقُ الشَّجَــرْ

والعقبان: جمع عقاب وهي الرايات. والخَمر بالفتح: الشجر، ويُوجِّه الأرض: أي يجعلها جهة واحدة، ويستاق الشجر: أي يقتلعه حتى تكون الأرض وجهاً واحداً لكثرته.

(٤) أي في جمعهم، أي اختلط بهم واختفى بينهم ـ وغمار ـ كما في اللسان ـ بضم الغين وبفتحها.

(٥) يقال: غَلَت القِدر، ولا يقال: غَلِيَتْ القِدر، وقد قيل في ذلك:

وَلا أقُــولُ لِقِــدْرِ القَــوْمِ قَــدْ غَلِيَــتْ وَلا أقُــولُ لِبَــابِ الــدَّار مَغْلُــوقُ

وفي الزمخشري ما نصه: والخمر ما غلي واشتد وقذف بالزبد من عصير العنب، وهو حرام، وكذلك نقيع الزبيب أو التمر الذي لم يطبخ، فإن طبخ حتى ذهب ثلثاه، ثم غلي واشتد ذهب خَبَثُه ونصيبُ الشَّيْطان، وحلَّ شُرب ما دون المُسْكر إلخ. تأمل.

وحاصل مذهب الإمام مالك رحمه الله هو قول أبي الوليد الباجي عند قول الموطأ: (قال مالك: السُّنة عندنا أن كل من شرب شراباً مُسْكراً فسكر أو لم يسكر فقد وجب عليه الحد اهـ.) ما نصُّه: «وهذا كما قال: إنَّ من شرب مسكراً أي نوع كان من الأنواع المسكرة، من عنب كان أو من غير عنب، مطبوخاً كان أو غير مطبوخ، قليلاً شرب منه أو كثيراً فقد وجب عليه الحد، سكر أو لم يسكر، هذا مذهب أهل المدينة مالك وغيره، وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة: ما خرج من النخل والكرم فقليله وكثيره حرام، ما لم يطبخ حتى يذهب ثلثاه ويبقى ثلثه، وما عدا ما يخرج من النخل والكرم فهو حلال من غير طبخ، إلا أن المسكر منه حرام. وهذه مسألة قد كان أصحاب أبي حنيفة يجحدونها ولا يرون المناظرة فيها، ويقولون: إن السائل عنها إنما يذهب إلى التشنيع والتوبيخ، وذلك أنه لطول الأمد ووصول الأدلة إليهم، وتكررها عليهم تبين لهم ما فيها، إلا أنهم ـ مع ذلك ـ يدونونها في كتبهم بألفاظ=

يطبخ وما خامر العقل من غير ذلك فهو في[(١)] حكمه.

= ليس فيها ذلك التصريح، ويتأولونها على أوجه تحقق أمرها عندهم، ولنا في هذه المسألة طريقان أحدهما: إثبات اسم الخمر لكل مسكر، والثاني: إثبات التحريم لكل مسكر، فأما الأول فإن مذهب مالك والشافعي أن اسم الخمر يقع على كل شراب مسكر من عنب كان أومن غيره، وقال أبو حنيفة: إنما الخمر اسم المسكر من عصير العنب ما لم يطبخ الطبخ المذكور، والدليل على ما نقوله ماروي عن ابن عمر أنه قال: خطب عمر على مِنْبَر رسول الله ﷺ فقال: «نزل تحريم الخمر وهي من خمسة أشياء: العنب، والتمر، والحنطة، والشعير، والعسل، والخمر ما خامر العقل». فوجه الدليل من هذا الخبر أن عمر بن الخطاب قال: إن الخمر يكون من هذه الخمسة أشياء. وعمر من أهل اللسان، فلو انفرد بهذا القول لاحتج بقوله، فكيف وقد خطب بذلك بحضرة قريش والعرب والعجم وسائر المسلمين فلم ينكر ذلك عليه؟ فثبت أنه إجماع، ووجه آخر وهو أنه قال: «والخمر ما خامر العقل»، فكل ما خامر العقل فإنه يسمى الخمر، والدليل على أن كل مسكر حرام قوله تعالى: ﴿يأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ والمَيْسِر والأنْصَابُ والأزلامُ رِجْسٌ مِن عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ في الخَمْرِ والمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ؟﴾ فلنا من الآية أدلة بيَّنَها وأنهاها إلى خمسة، وقال متصلا بذلك ما نصه: «ودليلنا من السنة ما رواه أبو داود عن أبي الفرات عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: (ما أسكر كثيره فقليله حرام). ودليلنا من جهة القياس أن هذا شرابٌ فيه شدة مطربة فوجب أن يكون قليله حراماً أصله عصير العنب والله أعلم» اهـ. فتأمل مذهب مالك رحمه الله، ومذهب أبي حنيفة، وتدبر قول ابن عطية: «ولم يطبخ»، فإن مالكا رحمه الله لا ينظر إلا إلى السكر، ومعنى قوله: «طبخ حتى ذهب منه الثلثان» أنه طبخ حتى ذهبت مائيته التي يسرع بها تغيُّره، ويحدث بها فساده، ثم إن قول عمر رضي الله عنه: «والخمر ما خامر العقل» تعريف للحكم الشرعي بمعنى أن الخمر الذي جاء تحريمه على لسان الشرع هو ما خامر العقل، والحقيقة الشرعية مقدمة على الحقيقة اللغوية إذا فرضنا أن الخمر لغة هو ما يُتّخذ من العنب، وحاصل الأمر أن الخمر محرمة بجميع أنواعها وأجناسها، اتخذت من العنب أو من غيره، لا فرق بين القليل والكثير منها، لأن العلة هي الخمرية، وليست المادة التي يحصل بها السكر كما قال ﷺ: (كل مسكر خمر، وكل خمر حرام) رواه الإمام مسلم وقال: (ما أسكر كثيره فقليله حرام). أي من دون أن تمسه النار، فعصير العنب حين يغلي ويقذف بالزبد من دون ذلك اتفق الفقهاءُ على أنه خمر.

تنبيه: اشتهر بين أهل الأدب قول ابن الرومي:

أَحَــلَّ العِـراقِـيُّ النَّبِيــذَ وَشُـرْبَــهُ ... وَقَـالَ: حَـرامَـانِ المُـدَامَـةُ والسُّكْـرُ
وَقَـال الحِجَـازِيُّ الشَّـرابَـانِ واحِـدٌ ... فَحَلَّـتْ لَنَـا مِـنْ بَيْـنِ قَـوْلَيْهِمَـا الخَمْـرُ

أراد أن الخمر نبيذ، والنبيذ حلال، فالصغرى من المالكية، والكبرى من الحنفية، إلا أن الكبرى شرطها أن تكون كلية، والحنفية يخصون ذلك بالقدر الذي لم يسكر.

(١) قال أبو عبد الله(ق): لأن العلماء أجمعوا على أن القمار كله حرام، والميسر إنما كان قماراً في الجزر خاصة، فحرم كله قياساً على الميسر فكذلك الخمر هو من ماء العنب، وما خامر العقل من غيره فهو في حكمه.

وحرِّمت الخمر بالمدينة يوم حرمت وهي من العسل، والزبيب، والتمر، والشعير، والقمح، ولم تكن عندهم خمر عنب. وأجمعت الأُمة على خمر العنب ـ إذا غلت ورمت بالزبد ـ أَنها حرام قليلها وكثيرها، وأَن الحد واجب في القليل منها والكثير. وجمهور الأُمة على أَن ما أَسكر كثيره من غير خمر العنب فمحرم قليله وكثيره، والحَد في ذلك واجب، وقال أَبو حنيفة، وسفيان الثوري، وابن أَبي ليلى، وابن شبرمة، وجماعة من فقهاءِ الكوفة: «ما أَسكر كثيره من غير خمر العنب فما لا يسكر منه حلال، وإِذا سكر أَحد منه دون أَن يتعمد الوصول إِلى حد السكر فلا حد عليه» وهذا قول ضعيف يرده النظر[١]. وأَبو بكر الصديق، وعمر الفاروق، والصحابة رضي الله عن جميعهم على خلافه.

وروي أَن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (كل مُسكر خمر، وكل خمر حرام، وما أَسكر كثيره فقليله حرام)[٢]. قال ابن المنذر في «الإِشراق»: لم يُبْق هذا الخبر مقالة لقائل، ولا حجة لمحتج.

وروي أَن هذه الآية أَول[٣] تطرق إِلى تحريم الخمر، ثم بعده: ﴿ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾[٤]. ثم قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ ثم قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ

---

(١) أي القياس على خمر العنب، وكما يرده النظر يردُّه الخبر الذي ذكره ابن عطية على الأثر وهو: (ما أَسكر كثيره فقليله حرام).

(٢) هذا رواه أصحاب السنن، وقوله: (كلُّ مُسْكِر خَمْرٌ وكلُّ خَمْر حرام) رواه الإمام مسلم، والدارقطني، ورواه الشيخان، وأصحاب السنن بلفظ: (كلُّ مُسْكِر خمر وكلُّ مُسْكِر حرام).

(٣) أي أول ما نزل في أمر الخمر وتحريمها.

(٤) من الآية (٤٣) من سورة النساء وقد جعل الله في هذه الآية الكريمة الغاية التي يزول بها حكم السكران: أن يعلم ما يقول، فمتى لم يعلم ما يقول فهو في حال سكر، وإذا علم ما يقول فقد خرج عن حكم السكر. وهذا هو حد السكران عند جمهور أهل العلم، قيل للإمام أحمد رحمه الله: بماذا يُعلم أنه سكران؟ فقال: «إذا لم يعرف ثوبه من ثوب غيره، ونعله من نعل غيره»، ويُذكر عن الإمام الشافعي رحمه الله أنه قال: «إذا اختلط كلامه المنظوم، وأفشى سره المكتوم». وقد حرم الله سبحانه السكر لشيئين ذكرهما في كتابه بقوله: (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَداوَةَ والبَغْضَاءَ في الخَمْرِ والْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)؟ فأخبر سبحانه أن الخمر يوجب المفسدة الناشئة من النفس بوساطة زوال العقل، ويمنع المصلحة التي لا تتم إلا بالعقل.

﴿وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾(١) فقال رسول الله ﷺ: «حَرُمَتِ الْخَمْر».

ولم يحفظ عن النبي ﷺ في حدٍّ الخمر إلا أنه جلد أَربعين. خرجه مسلم، وأبو داود. وروي عنه ﷺ أنه ضرب فيها ضرباً مشاعاً، وحزره أَبو بكر أَربعين سوطاً، وعمل بذلك هو، ثم عمر، ثم تهافت الناس فيها فشدد عليهم الحد وجعله كأَخف الحدود ثمانين، وبه قال مالك، وقال الشافعي بالأَربعين. وضرب الخمر غير شديد عند جماعة من العلماءِ لا يبدو إِبط الضارب. وقال مالك: الضرب كله سواءٌ لا يخفف ولا يبرح. ويجتنب من المضروب الوجه والفرج والقلب والدماغ والخواصر بإِجماع.

وقالت طائفة: هذه الآية منسوخة بقوله: (فاجْتَنِبُوهُ لَعَلكُمْ تُفْلِحُونَ)؛ يريد ما في قوله: (وَمَنَافِعُ لِلنَّاس) من الإِباحة والإِشارة إِلى الترخيص(٢).

و(الميسر) مأْخوذ من يَسر: إِذا جزر، والياسر: الجازر(٣)، ومنه قوله الشاعر:

فَلَـمْ يَـزلْ بِـكَ واشِيهـمْ ومكْـرهـم ... حتى أَشاطُوا بِغَيب لحْمَ من يَسَروا(٤)

ومنه قول الآخر:

أَقـول لهـم بـالشِّعـب إِذ يَيْسِـرونـني ... أَلم تيْأَسُوا أَني ابن فارس زَهْدَم(٥)

والجزور الذي يستهم عليه، يسمى مَيسِراً لأَنه موضع اليسر، ثم قيل للسهام مَيْسِر للمجاورة.

وقال الطبري: الميسر مأْخوذ من يَسَر لي هذا إِذا وجب وتسنى، ونسب القول إِلى

(١) الآيتان من سورة المائدة ـ الأولى رقم (٩١) والثانية رقم (٩٠).
(٢) يعني أن مرادهم بالآية المنسوخة قوله تعالى: (وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) لِمَا في ذلك من مظنة الإباحة والترخيص.
(٣) يقال الميسر للسهام المعروفة، وذلك قِمَارُ العرب، كما يقال للجزور التي ينحرونها ويُجَزِّرونها على حساب الميسر، فاسم الميسر يطلق على السهام وعلى الجزور.
(٤) هو الأخطل والبيت من قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان.
(٥) الشاعر هو: سحيم بن وثيل اليربوعي، أو: جابر بن سحيم. وقوله ييسرونني أي: يَجْزُرُونَنِي وَيَقْتَسِمُونَنِي إذ كان قد وقع عليه سباءٌ فضرب عليه بالسهام، وقوله: (ألم تيأسوا)، أي: ألم تعلموا أني ابن فارس زَهْدَم أي ابن راكب الفرس المُسَمَّى بزَهْدَم. والشعب (بكسر الشين المشدودة) مكان، واليأس بمعنى العلم. وزهدم اسم فرس مشهور، أي: أَلَم تعلموا أني ابن ذلك البطل الشجاع والفارس الذي يركب تلك الفرس. والاستفهام للتوبيخ أو للتقرير.

مجاهد، ثم جلب من نص كلام مجاهد ما هو خلاف لقوله، بل أَراد مجاهد الجزر[١].

واليسر: الذي يدخل في الضرب بالقداح، وجمعه أَيسار، وقيل: يَسَر جمع ياسر كحارس وحَرَس وأَحراس.

وسهام الميسر سبعة لها حظوظ، وفيها فروض على عدة الحظوظ، وثلاثة لا حظوظ لها، ولا فروض فيها. وهي[٢]: الفَذُّ. والتَّوأَم، والرَّقيب. والحلس. والنَّافس. والمسبل. والمعَلَّى. والثلاثة التي لا حظوظ لها: المنيح. والسَّفيح. والوَغْد. تزاد هذه الثلاثة لتكثر السهام وتختلط على الحُرْضة[٣]، وهو الضارب بها فلا يجد إلى الميل مع أَحد سبيلا.

وكانت عادة العرب أَن تضرب بهذه القداح في الشتوة وضيق الوقت وكلب البرد على الفقراءِ تشتري الجزور، ويضمن الأَيسار ثمنها ثم تنحر وتقسم على عشرة أَقسام، وأَخطأَ الأَصمعي في قسمة الجزور فذكر أَنها كانت على قدر حظوظ السهام ثمانية وعشرين قسماً وليس كذلك[٤]. ثم يضرب على العشرة الأَقسام فمن فاز سهمه بأَن يخرج من الربابة متقدماً أَخذ أَنصباءَه وأَعطاها الفقراءَ.

وفي أَحيان ربما تقامروا لأَنفسهم ثم يغرم الثمن من لم يفز سهمه، ويعيش بهذه السيرة فقراءُ الحي، ومنه قول الأَعشىٰ:

المطْعمـــو الضَّيـــفِ إذا مـــا شَتَـــوْا ... والجـاعِلُـو القـوتِ عَلَـى اليَـاسِـرِ[٥]

ومنه قول الآخر:

بِــأَيْــدِيهـم مَقْــرُومَــةٌ وَمغـالِــق ... يَعُـودُ بـأَرزاقِ العُفَـاةِ مَنِيحُهَـا[٦]

---

(١) لقوله كما في تفسير الإمام (ط) رحمه الله: وإنما سمي المَيْسر لقولهم: أيسروا وأجزروا. اهـ.

(٢) أي سهام المَيْسر السبعة، وأكثرها حظاً المُعَلى، وأقلها حظاً الفذّ.

(٣) بضم الحاء وسكون الراء: أمين المقامرين، وهو الذي يخرج السهام من الربابة بعد أن يحركها مرتين أو ثلاثاً. ويسمى أيضاً المجيل والضارب والضريب.

(٤) ذكر الأصمعي أنهم كانوا يسمون الجزور على قدر حظوظ السهام، وهي ثمانية وعشرون حظّاً. والحق أنها كانت تقسم على عدد السهام وهي عشرة، سبعة ذات حظوظ وثلاثة لا حظوظ لها، وهذا هو ما أشار إليه ابن عطية رحمه الله، وقد أصاب في اعتراضه على الأصمعي والله أعلم.

(٥) وفي رواية: (المطْعِمُ اللحم).

(٦) البيت لعمرو بن قمئة، والمقرومة الناقة التي لها قرم أي وسم بأنفها، وفي رواية بدل العفاة «العيال»، =

والمنيح في هذا البيت المستمنح، لأنهم كانوا يستعيرون السهم الذي قد أملس، وكثر فوزه فذلك المنيح الممدوح(١).

وأَما المنيح الذي هو أَحد الثلاثة الأَغفال فذلك إنما يوصف بالكر، وإِيَّاه أَراد جرير بقوله:

وَلَقَدْ عَطفنَ عَلَى فَزَارَةَ عَطْفَة ... كرَّ المَنِيح وَجلْنَ ثمَّ مَجَالا(٢)

ومن الميسر قول لبيد:

إِذَا يَسَروا لم يورثِ اليُسْرُ بَيْنَهُمْ ... فَوَاحِشَ يُنْعَى ذِكْرُهَا بالمَصَايِفِ(٣)

فهذا كله هو نفع الميسر(٤) إلا أَنه أَكل مال الغير بالباطل ففيه إِثم كبير.

وقال محمد بن سيرين، والحسن، وابن عباس، وابن المسيب، وغيرهم: كل قمار ميسر(٥)؛ من نرد وشطرنج ونحوه، حتى لعب الصبيان بالجوز.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافع لِلنَّاسِ﴾ الآية. قال ابن عباس والربيع: الإِثم فيهما بعد التحريم، والمنفعة فيهما قبله. وقالت طائفة: الإِثم في الخمر: ذهاب العقل والسباب والافتراءُ والإِذاية(٦) والتعدي الذي يكون من شاربها. والمنفعة: اللذة بها، كما قال حسان بن ثابت:

= والمغالق وصف للسهام التي يكون لها الفوز.

(١) المنيح قسمان: أحدهما قدح لا نصيب له، وثانيهما قدح يستعار تيمُّناً بفوزه، فهو مستنيح، أي مطلوب منه أن يمنح، وهذا هو المشار إليه في البيت.

(٢) البيت من قصيدة للأخطل يهجو بها جريراً، انظر ديوان الأخطل، ومطلعها:
كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ أو رَأيتَ بِوَاسِطِ

(٣) أي إذا ضَرَبُوا المَيْسِر لم يضربوها لأنفسهم بل لغيرهم، وقوله: ينعي ذكرها إلخ أي يرفع ذكرها في مجالس الصيف، وقد نسبه صاحب المفضليات إلى المرقش الأكبر من جملة قصيدة تحتوي على ١٦ بيتاً.

(٤) يعني أنه يعود على فقراءِ الحي بالنفع، ولا سيما في شدة البرد وضيق الوقت، وكان العرب يفتخرون بالميسر لهذا الغرض، ويذمون من لا يدخل فيه ويسمونه البرم.

(٥) قال الإمام مالك رحمه الله: الميسر ميسران: ميسر اللهو، وميسر القمار، فمن ميسر اللهو النرد والشطرنج والملاهي كلها، وميسر القمار ما يتخاطر الناس عليه، فكل ما قومر به فهو ميسر عند مالك وغيره من العلماء.

(٦) سبق أن نبهنا إلى أن هذه الكلمة غير فصيحة، ولا تجري على قواعد اللغة، ولكنها كانت شائعة الاستعمال في بلاد المغرب.

وَنشْــرَبهَــا فَتَتْــركُنَــا مُلــوكــاً   وَأُسْــداً لا يُنَهْنِهُنَــا اللِّقَــاءُ(١)

إلى غير ذلك من أفراحها. وقال مجاهد: المنفعة بها كسب أثمانها، ثم أعلم الله عز وجل أن الإثم أكبر من النفع وأعود بالضرر في الآخرة، فهذا هو التقدمة للتحريم.

وقرأ حمزة والكسائي: (كَثير) بالثاءِ المثلثة، وحجتهما أن النبي ﷺ: (لعن الخمر ولعن معها عشرة: بائعها ومبتاعها والمشتراة له وعاصرها والمعصورة له وساقيها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها) فهذه آثام كثيرة.

وأيضاً فجمع المنافع يحسن معه جمع الآثام، وكثير بالثاءِ المثلثة يُعطي ذلك.

وقرأ باقي القراءِ، وجمهور الناس: (كبير) بالباءِ الموحدة، وحجتها أن الذنب في القمار وشرب الخمر من الكبائر فوصفه بالكبير أليق.

وأيضاً فاتفاقهم على (أكبر) حجة لكبير ـ بالباءِ الموحدة ـ، وأجمعوا على رفض أكثر ـ بالثاءِ مثلثة ـ إلا ما في مصحف ابن مسعود، فإن فيه (قُلْ فيهمَا إثْمٌ كثير وإثمهما أكثر) بالثاءْ مثلثة في الحرفين.

وقوله تعالى: (فيهما إثم)، يحتمل مقصدين: أحدهما أن يراد في استعمالهما بعد النهي، والآخر أن تُراد خلالُ السوءِ التي فيهما.

وقال سعيد بن جبير: لما نزلت (قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ(٢) وَمَنَافِعُ للناس) كرهها قوم للإثم، وشربها قوم للمنافع، فلما نزلت ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ تجنبوها عند أوقات الصلوات، فلما نزلت: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ

---

(١) النهنهة: الكفُّ والزجر، يقال: نهنه فلاناً عن الشيء كفَّه عنه وزجره.

(٢) معنى إثم كبير: مضرة كبيرة، وعبَّر عن ذلك بالإثم الكبير لأنها تلزمه، ولقد أخبر سبحانه أن في الخمر مضرة ومنفعة، وكان القياس إذا أُريد انتفاءُ المضرة ووجود المنفعة أن يحرم الكثير ويباح القليل من الخمر، ولكن لما غلب جانب المضرة على جانب المنفعة علمنا أن الخمر يحرم قليلها وكثيرها، وهذا ما أجمع عليه علماء الإسلام، وقد تقرر في أُصول الشريعة، أن المفسدة إذا أربت على المصلحة فالحكم للمفسدة، ومِنْ ثَمَّ رتب الشارع الحدَّ على الشرب، لا على زوال العقل.

ومن مفاسدها: ذهاب العقل والدين وهما كل شيءٍ، والسباب، والافتراءُ والإفحاش والتعدي الذي يكون من شاربها، ولا تسل عن الشرور التي تنشأ عنها: كقتل النفوس. والذي أدمن عليها ربما يموت على سوءِ الخاتمة والعياذ بالله، وقد جاء أن من أدمن الخمر كعابد وثن.

﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١] قال عمر بن الخطاب: «ضيعة لك اليوم، قُرنت بالميسر والأنصاب». وقال رسول الله ﷺ: «حُرِّمَت الخَمْر». ولما سمع عمر بن الخطاب قوله تعالى: (فَهَلْ أَنتُمْ مُنتَهُونَ؟) قال: انتهينا. انتهينا.

قال الفارسي، وقال بعض أهل النظر: حرمت الخمر بهذه الآية، لأن الله تعالى قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ﴾[٢] وأخبر في هذه الآية أن فيها إثماً فهي حرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ليس هذا النظر بجيد، لأن الإثم الذي فيها هو الحرام، لا هي بعينها على ما يقتضيه هذا النظر[٣].

وقال قتادة: ذم الله الخمر بهذه الآية ولم يحرمها.

وقوله تعالى: (وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ) قال قيس بن سعد: هذه الزكاة المفروضة. وقال جمهور العلماءِ: بل هي نفقات التطوع. وقال بعضهم: نسخت بالزكاة. وقال آخرون: هي محكمة[٤] وفي المال حق سوى الزكاة.

والعفو: هو ما ينفقه المرءُ دون أن يجهد نفسه وماله، ونحو هذا هي عبارة المفسرين، وهو مأخوذٌ من عفا الشيءُ إذا كثر، فالمعنى: أنفقوا ما فضل عن حوائجكم ولم تؤذوا فيه أنفسكم فتكونوا عالة.

وروي أن النبي ﷺ قال: (مَنْ كانَ له فضلٌ فَلْيُنْفِقْهُ على نفسه، ثم على من يعول، فإن فضل شيءٌ فليتصدق به)[٥].

---

(١) قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ الخ من الآية (٤٣) من سورة النساء. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ الخ من الآية (٩٠) من سورة المائدة.

(٢) من الآية (٣٣) من سورة الأعراف.

(٣) ولا ينافي ذلك قول الشاعر:

شَرِبْتُ الإثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي ... كَذاكَ الإثْمُ يَذْهَبُ بِالعُقُول

لأن الله سبحانه لم يسمها في الآية إثماً، وإنما قال: (فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِير) فما قاله ابن عطية رحمه الله صحيح وواضح.

(٤) الظاهر أنها محكمة، وأنها في نفقة التطوع كما قرره شيخ التفسير الإمام (ط) رحمه الله.

(٥) روى أبو داود حديث (إذا كان أحدكم فقيراً فليبدأ بنفسه، فإن كان فضل فعلى عياله، فإن كان فضل=

وقال ﷺ: (خير الصدقة ما أبقت غنى)، وفي حديث آخر: (ما كان عن ظهر غنى)[(١)]. وقرأ جمهور الناس: (العفوَ) بالنصب. وقرأ أبو عمرو وحده: [العفوُ] بالرفع. واختلف عن ابن كثير[(٢)]. وهذا[(٣)] متركب على (ماذا) فمن جعل [ما] ابتداءً و[ذا] خبره بمعنى الذي، وقدَّر الضمير في (يُنْفِقُونَ) عائداً؛ قرأ [العَفْوُ] بالرفع لتصح مناسبة الجمل، ورفعه على الابتداء تقديره: العفوُ إنفاقكم أو الذي تنفقون العفو[(٤)]. ومن جعل (ماذا) اسماً واحداً مفعولاً بينفقون؛ قرأ: (قُل العفوَ) بالنصب بإضمار فعل وصح له التناسب. ورفع (العفو) مع نصب (ماذا) جائز ضعيف، وكذلك نصبه مع رفعها.

وقوله تعالى: (كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) الإشارة إلى ما تقدم تبيينه من أمر الخمر والميسر والإنفاق، وأخبر تعالى أنه يبين للمؤمنين الآيات التي تقودهم إلى الفكرة في الدنيا والآخرة، وذلك طريق النجاة لمن نفعته فكرته.

وقال مكي: معنى الآية: أنه يبين للمؤمنين آيات في الدنيا والآخرة تدل عليهما

= فعلى ذي قرابته أو ذوي رحمه، وإن كان فضل فها هنا وها هنا). وروى الإمام مسلم والنسائي عن جابر رضي الله عنه أنه قال: أعتق رجل عبداً له عن دبر، فبلغ ذلك رسول الله فقال: (ألك مال غيره؟ فقال لا. فقال: من يشتريه مني؟ فاشتراه بعضهم بثمانمائة درهم. فجاء بها رسول الله ﷺ فدفعها إليه ثم قال: إبدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل شيء عن أهلك فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيءٌ فهكذا وهكذا، يقول: فبين يديك وعن يمينك وعن شمالك)، وهو كناية عن تكثير الصدقة وتنويع جهاتها.

(١) رواه البخاري ومسلم في رواية: (خير الصدقة عن ظهر غنى) ورواية: (لا صدقة إلا عن ظهر غنى) رواها الإمام أحمد، وعلقه البخاري في الوصايا. ورواية: (خير الصدقة ما أبقت غنى) رواها الطبراني عن ابن عباس في المعجم الكبير كما في الجامع الصغير، وهي تفسير لقوله: (خير الصدقة عن ظهر غنى) كما قاله الإمام الخطابي، ورواية: (أفضل الصدقة ما ترك غنى) رواها البخاري وأحمد رحمهما الله عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يعني أنه رُوي عنه الرفع ورُوي عنه النصب.

(٣) أي اختلاف القراءتين بالرفع والنصب.

(٤) هذا أحسن مما قبله من وجهين أحدهما: أن المحدث عنه (ماذَا ينفقون) فاللائق أن يكون العفو خبراً عن الذي ينفقونه، وثانيهما، أن تقدير الخبر مصدراً؛ غير لائق، لأن السؤال ليس واقعاً عنه. واعلم أنه يجوز من دون ضعف رفع (العفو) مع نصب (ماذا)، ونصبه مع رفع (ماذا)، وإنما الذي يفوت هو حسن تناسب الجملتين في كونهما اسميتين أو فعليتين.

وعلى منزلتيهما، لعلهم يتفكرون في تلك الآيات، فقوله: (في الدُّنْيَا) متعلق[(١)] ـ على هذا التأويل ـ بالآيات، وعلى التأويل الأول وهو المشهور عن ابن عباس وغيره يتعلق (في الدنيا) بتتفكرون.

قوله عز وجل:

﴿ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾.

قوله قبل: (في الدنيا) ابتداءُ آية[(٢)]، وقد تقدم تعلقه وكون (يتفكرون) موقفاً يقوي تعلق (في الدنيا) بالآيات. وقرأ طاوس: [قل إصلاح إليهم خير][(٣)].

وسبب الآية فيما قال السدي، والضحاك، أن العرب كانت عادتهم أن يتجنبوا مال اليتيم، ولا يخالطوه في مأكل ولا مشرب ولا شيء، فكانت تلك مشقة عليهم، فسألوا عنه رسول الله ﷺ. وقال ابن عباس[(٤)]، وسعيد بن المسيب: سببها أن المسلمين؛ لمَّا نزلت ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾[(٥)] الآية، ونزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾[(٦)] تجنبوا اليتامى وأموالهم، وعزلوهم عن أنفسهم، فنزلت: (وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ)[(٧)] الآية. وقيل: إن السائل عبد الله بن رواحة، وأمر الله تعالى نبيه أن يجيب

---

(١) أي مرتبط بها، وليس المراد التعلق بالمصطلح عليه عند النحاة كما هو ظاهر.

(٢) ولذا كتبها بعض المفسرين متصلة بقوله تعالى: (وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ اليَتَامَى) قال الإمام (ق) رحمه الله: وهذه الآية متصلة بما قبلُ لأنه اقترن بذكر الأموال الأمر بحفظ أموال اليتامى.

(٣) أي إيصال الصلاح إليهم في رعاية المال وغيره، خير في الثواب من إصلاح أموالكم، وهذه الكلمة جامعة لجميع مصالح اليتيم والولي.

(٤) روى سبب النزول عن ابن عباس رضي الله عنهما، أبو داود والنسائي وغيرهما.

(٥) من الآية (١٥٢) من سورة الأنعام.

(٦) من الآية (١٠) من سورة النساء.

(٧) يؤخذ من هذه الآية جواز مخالطة الرفقاء في أسفار الحج وغيرها، فيجوز إخراج النفقات المتساوية وإن كانوا يختلفون في مقدار ما يأكلون، لأنه إذا أبيح ذلك في مال الضعيف القاصر، فكيف بالقوي البالغ؟=

بأَن من قصد الإِصلاح في مال اليتيم فهو خير، وما فعل بعد هذا المقصد من مخالطة وانبساط بعوض منه فلاحرج، ورفع الله تعالى المشقة في تجنب اليتيم ومأكله ومشربه، وأَباح الخلطة في ذلك، إِذا قصد الإِصلاح ورفق اليتيم.

مثال ذلك أَن يكتفي اليتيم ـ دون خلطة ـ بقدر ما في الشهر، فإِن دعت خلطة الولي إِلى أَن يزاد في ذلك القدر فهي مخالطة فساد، وإِن دعت إِلى الحط من ذلك القدر فهي مخالطة إِصلاح[1]. وقوله تعالى: (فَإِخْوَانُكُمْ) خبر ابتداءٍ محذوف. وقوله (والله يَعْلَمُ المُفْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ) تحذير.

والعنت: المشقة، ومنه عنت العزبة، وعقبة عنوت. أَي: شاقة، وعَنَتَ البعير إِذا انكسر بعد جبر. فالمعنى: لأَعْنَتَكُمْ في تجنب أَمر اليتامى، ولكنه خفف عنكم.

وقال ابن عباس: المعنى لأَوبقكم بما سلف من نيلكم من أَموال اليتامى.

و(عزيز): مقتضاه لا يُرَدُّ أَمره، و(حَكِيمٌ) أَي محكم ما ينفذه.

وقوله تعالى: (وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتى يُؤْمِنَّ) الآية. قرأَ جمهور الناس: (تَنكحوا) بفتح التاءِ، وقرئت في الشاذ بالضَّم كأَن المتزوج لها أَنكحها من نفسه. ونكح أَصله الجماع، ويستعمل في التزوج تجوزاً واتساعاً.

= ومن ذلك قوله تعالى في قصة أهل الكهف: (فابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ) الآية. ولولا مخالطة اليتيم لكان في ذلك ضيقٌ وحرج.

(١) المراد بقوله تعالى: (قُل إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيرٌ) والله أعلم، إصلاحٌ لأحوال اليتامى بتهذيبهم وتربيتهم، ولأموالهم بتنميتها وحفظها من دون مخالطة، فمن قدر على ذلك فهو خير له عند الله (وإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ)، قال شيخ التفسير الإمام (ط) رحمه الله: فتأويل الآية: ويسألك يا محمد أصحابُك عن أموال اليتامى وخلطهم أموالهم به في النفقة والمطاعمة والمشاربة والمساكنة والخدمة، فقل لهم: تفضلكم عليهم بإصلاحكم أموالهم من غير أخذ عوض عن أموالهم على إصلاحكم، ذلك خيرٌ لكم عند الله، وأعظم لكم أجراً لما لكم في ذلك من الأجر والثواب، وخيرٌ لهم في أموالهم في عاجل دنياهم، لما في ذلك من توافر أموالهم عليهم، وإن تخالطوهم فتشاركوهم بأموالكم وأموالهم في نفقاتكم ومطاعمكم ومشاربكم ومساكنكم، فتضموا من أموالهم عوضاً من قيامكم بأمورهم وأسبابهم وإصلاح أموالهم فهم إخوانكم، والإخوان يعين بعضهم بعضاً» اهـ. وقال الحافظ ابن (ك): فقوله (قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ) أي على حدة: (وإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ) أي: وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم فلا بأس عليكم لأنهم إخوانكم في الدين، ولهذا قال: (واللهُ يَعْلَمُ المُفْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ) أي: يعلم من قصده الإفساد والإصلاح» اهـ. وتفسير الآية بما ذكر أوفى وأولى من تداخل الجملتين.

«وقالت طائفة: المشركات هنا من يشرك مع الله إلٰهاً آخر، فلم تدخل اليهوديات ولا النصرانيات في لفظ هذه الآية ولا في معناها.

«وسببها قصة أَبي مرثد كنَّاز بن حصين[١] مع عَنَاقِ التي كانت بمكة[٢]. وقال

---

(١) اسمه كنَّاز (بالزاي وشد النون)، ابن حصين، شهد بدراً، وولده مرثد، شهد بدراً أيضاً، والذي في «الإصابة» لابن حجر «والاستيعاب» لأبي عمر في ترجمة مرثد بن أبي مرثد الغنوي ما نصه: «وأخرج أصحاب السنن من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن مرثد بن أبي مرثد كان يحمل الأسرى من مكة إلى المدينة، فذكر الحديث في نزول قوله تعالى: (الزَّانِي لا يَنْكِحُ إلا زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً). وقد تعقب ذلك أيضاً الإمام السيوطي بأن هذه القصة ليست سبباً لنزول هذه الآية، وإنما هي سبب في نزول آية النور. وسبب نزول هذه الآية كما رواه السدي عن ابن عباس رضي الله عنهما قضية عبد الله بن رواحة، وكانت له أَمة سوداء مؤمنة فأعتقها وتزوجها، فطعن عليه ناسٌ من المسلمين في ذلك فقالوا: نكح أمة، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة في أنسابهم، فنزل قوله تعالى: (وَلا تَنْكِحُوا المُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ) الآية. قال الإمام الواحدي في سبب النزول، بإسناده إلى مقاتل بن حيان. قال: نزلت في أبي مرثد الغنوي، استأذن النبي ﷺ في عَنَاق أن يتزوجها وهي امرأة مسكينة من قريش، وكانت ذات حظ من جمال، وهي مشركة وأبو مرثد مسلم فقال: يا نبي الله: إنها لتعجبني، فأنزل الله عز وجل: (وَلا تَنْكِحُوا المُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ) ثم قال: وقال الكلبي. عن أبي صالح، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً من غني يقال له مرثد بن أبي مرثد حليفاً لبني هاشم إلى مكة ليخرج ناساً من المسلمين بها أُسراءَ. فلما قدمها سمعت به امرأة يقال لها عَنَاقُ، وكانت خليلة له في الجاهلية، فلما أسلم أعرض عنها فأتته فقالت: ويحك يا مرثد ألا تخلو؟ فقال لها: إن الإسلام حال بيني وبينك، وحرَّمه علينا ولكن إن شئت تزوجتك، إذا رجعت إلى رسول الله ﷺ أستأذنه في ذلك ثم تزوجتك فقالت له: أنت تتبرم ثم استغاثت عليه فضربوه ضرباً شديداً ثم خلوا سبيله، فلما قضى حاجته بمكة انصرف إلى رسول الله ﷺ راجعاً وأعلمه الذي كان من أمره وأمر عَنَاق وما لقي في سبيلها، فقال: يا رسول الله أتحل أن أتزوجها، فأنزل الله ينهاه عن ذلك قوله: (وَلا تَنْكِحُوا المُشْرِكَاتِ) انتهى، وروى الإمام البغوي في تفسيره أن سبب نزول الآية أن مرثد بن أبي مرثد الغنوي بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين سراً، فلما قدمها سمعت به امرأة مشركة يقال لها عَنَاقُ، وكانت خليلته في الجاهلية، فأتته وقالت: يا أبا مرثد ألا تخلو؟ فقال لها ويحك يا عَنَاقُ! إن الإسلام قد حال بيننا وبين ذلك، قالت: فهل لك أن تتزوج بي، قال: نعم، ولكن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأستأمره، فقالت: أَبِي تتبرم؟ ثم استغاثت عليه فضربوه ضرباً شديداً ثم خلوا سبيله، فلما قضى حاجته بمكة انصرف إلى رسول الله ﷺ وأعلمه الذي كان من أمره وأمر عَنَاق، وقال: يا رسول الله! أيحل لي أن أتزوجها؟ فأنزل الله تعالى الآية. اهـ.» فهما قولان كما ترى، وقد يقال: إن مرثد يكنى أبا مرثد كما في رواية الإمام النووي، ويمكن أن يأتي الاشتباه من الاشتراك في الكنية والله أعلم. وتوفي مرثد بن أبي مرثد في السنة الثالثة من الهجرة كما قاله الإمام البغوي.

(٢) كقطام، بغي مشهورة بمكة، وكانت صديقة له قبل الإسلام، وطلبت منه أن يتزوجها بعد الإسلام فنزلت الآية: (والزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إلا زَانٍ أوْ مُشْرِك).

قتادة، وسعيد بن جبير: لفظ الآية العموم في كل كافرة، والمراد بها الخصوص(١) أي غير الكتابيات، وبينت الخصوص آية المائدة، ولم يتناول العموم قط الكتابيات.

وقال ابن عباس، والحسن: تناولَهُنَّ العموم ثم نسخت آية سورة المائدة بعض العموم في الكتابيات، وهذا مذهب مالك رحمه الله. ذكره ابن حبيب.

وقال: ونكاح اليهودية والنصرانية، وإن كان قد أَحله الله؛ مستثقل مذموم، وكره مالك رحمه الله تزوج الحربيات لعلة ترك الولد في دار الحرب، ولتصرفها في الخمر والخنزير، وأَباح نكاح الكتابيات عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وجابر بن عبد الله، وطلحة، وعطاءُ بن أَبي رباح، وابن المسيب، والحسن، وطاووس، وابن جبير، والزهري، والشافعي، وعوام أَهل المدينة والكوفة. ومنع مالك، والشافعي وأَبو حنيفة، والأَوزاعي، وإِسحق، نكاح المجوسية. وقال ابن حنبل: لا يعجبني. ورُويَ أَن حذيفة بن اليمان تزوج مجوسية. وقال ابن القصار. قال بعض أَصحابنا: يجب ـ على أَحد القولين أَن لهم كتاباً ـ أَن تجوز مناكحتهم. وقال ابن عباس في بعض ما روي عنه: إِن الآية عامة في الوثنيات والمجوسيات والكتابيات، وكل من كان على غير الإِسلام حرام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا هي ناسخة للآية التي في سورة المائدة، وينظر إِلى هذا قول ابن عمر في الموطأ «ولا أَعلم إِشراكاً أَعظم من أَن تقول المرأَة ربها عيسى»(٢).

---

(١) يعني أن المراد بالمشركات غير الكتابيات، والحاصل، أنه: إما عام أُريد به خاص من أول الأمر، وإما عام مخصوص، وكثيراً ما يُطْلِق المتقدمون النسخ على التخصيص.

(٢) ما قاله ابن عباس هنا وأيده ابن عطية رحمه الله هو الذي يجب الأخذ به في عصرنا هذا الذي أصبح فيه نظام الكفر مسيطراً على العالم، وأصبح للمرأة دور هام في سياسته بما لها من العصبية والتطور والثقافة، فاستولت بذلك على زوجها الضعيف المنحرف، ومن هذه الناحية أصبحت مقدرات البلاد وسياستها وأمنها تحت رحمة الأجنبيات اللاتي يتزوجن بالذين يأخذون بزمام الأمور في الدولة. وقد قال ابن حبيب: ونكاح الكتابية ـ وإن كان الله قد أحله ـ فإنه مستثقل ومذموم، وهذا على ما كان من قبل، ولو اطلعوا على حالة المسلمين من بعد ـ وقد تعددت الاعتبارات ـ لصرحوا بالحرمة، وموالاة الكافر حرام، والنكاح من أخص أسباب الموالاة، والمرأة الأجنبية اليوم تتصرف تصرفاً مطلقاً، ولها الأمر والنهي، فيمكنها أن تنقل كل ما يمكن نقله من الأسرار. وإنما أحل نكاح الكتابية لأن الرجل كان أقوى منها فلربما استولى عليها وجذبها إلى الإسلام، والحياة اليوم انعكست فالمرأة الأجنبية أقوى من=

وروي عن عمر أَنه فرق بين طلحة بن عبيد الله وحذيفة بن اليمان وبين كتابيتين وقالا: نطلق يا أَمير المؤمنين ولا تغضب، فقال: لو جاز طلاقكما لجاز نكاحكما، ولكن أُفرق بينكما صغرة قمأَة، وهذا لا يستند جيداً[١]، وأَسند منه أَن عمر أَراد التفريق بينهما فقال له حذيفة: أَتزعم أَنها حرام فأُخلي سبيلها يا أَمير المؤمنين؟ فقال: لا أَزعم أَنها حرام، ولكني أَخاف أَن تعاطوا المومسات منهن[٢]. وروي عن ابن عباس نحو هذا.

وقوله تعالى (ولأَمةٌ مُؤمِنَةٌ) إخبار أَن المؤمنة المملوكة خير من المشركة، وإن كانت ذات الحسب والمال، ولو أَعجبتكم في الحسن وغير ذلك، هذا قول الطبري وغيره.

وقال السدي: نزلت في عبد الله بن رواحة؛ كانت له أَمة سوداءُ فلطمها في غضب، ثم نَدِم فأَتى النبي ﷺ فأَخبره وقال: هي تصوم وتصلي وتشهد الشهادتين. فقال رسول الله ﷺ: «هذه مؤمنة» فقال ابن رواحة لأَعتقنها ولأَتزوجنها، ففعل، فطعن عليه ناس[٣] فنزلت الآية فيه.

ومالك رحمه الله لا يجوز عنده نكاح الأَمة الكتابية. وقال أَشهب في كتاب محمد فيمن أَسلم وتحته أَمة كتابية: إنه لا يفرق بينهما. وروى ابن وهب وغيره عن مالك أَن الأَمة المجوسية لا يجوز أَن توطأَ بملك اليمين[٤].

= الرجل فهي التي تصرفه، وتلعب به كما شاءت، والمجتمع الذي نعيش فيه شبيه بالمجتمع الجاهلي، بحيث لا يطلق عليه الإسلام إلا على سبيل التوسع والتجوز. فالرأي والمصلحة هو اجتناب نكاح الأجنبيات لهذا الاعتبار وحده، وعلى أن هناك اعتبارات أخرى، وهي أن الأجنبية تتصرف في تربية الأولاد وتطعمهم حسب طبيعة الكفر، كما أن الرغبة في الأجنبيات تؤدي إلى الزهد في المسلمات، والمصلحة الشرعية والوطنية تقضي بإيقاف هذا التيار الجارف، حتى تنتفي المخاطر شيئاً ما، وحتى يستفيد بعضنا من بعض في مجال النكاح، وأما نكاح الأجنبي للمسلمة فإنه محظور لأن الرجل أقوى من المرأة بالطبع، فيصرفها إلى دينه خصوصاً، وأن أبناءها يدعون إلى زوجها ويدينون بغير دينها، وقد منع عمر بن الخطاب رضي الله عنه حذيفة بن اليمان من تزوج الكتابية لِمَا رآه من الاعتبارات، وكفى قوله تعالى: (أُولئِكَ يدْعونَ إلى النار والله يَدْعُوا إلى الجَنَّةِ والمَغْفرَةِ بِإذْنِهِ)، وهذه العلة موجودة في كل كافر وكافرة، فتقتضي تجنب مناكحتها، لا سيما وقد جد في العصر ما لم يكن، فينبغي اعتبار ذلك لأن الأحكام تتبع المصالح، وتتبدل بتبدل العصور، والله تعالى أعلم.

(١) يريد قسراً وقهراً. وقد قال ابن كثير: وهذا الأثر غريب عن عمر. وهو ما أشار إليه ابن عطية.

(٢) أي تتناولوا الساقطات اللاتي لا شأن لهن ولا قدر.

(٣) يرون منه أنه يتزوج المشركات.

(٤) أي حين تُسْلِم وتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وأَبو حنيفة وأَصحابه يجيزون نكاح الإِماءِ الكتابيات[(١)].

وقوله تعالى: (ولا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتى يُؤْمِنُوا) الآية. أَجمعت الأمة على أَن المشرك لا يَطَأُ المؤمنة بوجه، لما في ذلك من الغضاضة على دين الإِسلام، والقراءُ على ضم التاءِ من (تُنكحوا).

وقال بعض العلماءِ[(٢)]: إِن الولاية في النكاح نص في لفظ هذه الآية، ولعبدٌ مؤمن مملوكٌ خير من مشرك حسيب، ولو أَعجبك حسنه وماله حسب ما تقدم.

وليس التفضيل هنا بلفظة (خَيْر) من جهة الإِيمان فقط لأَنه لا اشتراك من جهة الإِيمان، لكن الاشتراك موجود في المعاشرة والصحبة وملك العصمة وغير شيءِ. وهذا النظر هو على مذهب سيبويه في أَن لفظة أَفعل التي هي للتفضيل لا تصح حيث لا اشتراك، كقولك: الثلج أَبرد من النار، والنور أَضوأُ من الظلمة.

وقال الفراءُ، وجماعة من الكوفيين: تصح لفظة أَفعل حيث الاشتراك، وحيث لا اشتراك[(٣)]. وحكى مكي عن نفطويه[(٤)] أَن لفظة التفضيل تجيءُ في كلام العرب إِيجاباً للأَول ونفياً عن الثاني[(٥)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتحتمل الآية عندي أَن يكون ذكر العبد والأَمة عبارة عن جميع الناس حرهم ومملوكهم، كما قال ﷺ: (لا تمنعوا إِماءَ الله مساجد الله)[(٦)]، وكما نعتقد أن الكل

---

(١) أخذاً من هذه الآية الكريمة، فإنها قد فاضلت بين الأمة المؤمنة والمشركة في التزوج، ولولا أن نكاح الأمة المشركة جائز لما خاير الله تعالى بينهما، لأن المخايرة لا تكون إلا بين جائزين، لا بين جائز وممتنع، ولا بين متضادين، وأجاب أصحاب الإمام مالك رحمه الله بأن المخايرة بين الضدين جائزة لغة وشرعاً وقد قال الله تعالى: (أَصْحَابُ الجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلا)، وقال عمر رضي الله عنه في رسالته: «الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل». وهناك جواب آخر يأتي عند ابن عطية رحمه الله وهو أن المراد بالأمة هنا المرأة، وبالعبد الرجل إذ الكل عبيد الله وإماؤه.

(٢) هو محمد بن علي بن حسين أبو جعفر كما قاله ابن العربي.

(٣) نحو زيد أحق بماله، أي لا حق لغيره فيه، وأما نحو: «الأيِّم أحقُّ بنفسها من وليها» فمعناه أنهما مشتركان ولكن حقها آكد وأرجح.

(٤) ابن عرفة اللغوي المعروف بنفطويه.

(٥) فالبرودة في المثال السابق ثابتة للثلج ومنفية عن النار، وهكذا في غيره من الأمثلة.

(٦) رواه الشيخان وأصحاب السنن، وفي رواية زيادة (ولكن ليخرجن وهن تفلات) أي غير متبرجات ولا=

عبيد الله، وكما قال تعالى: (نِعْمَ العَبْدُ إِنَّه أَواب) فكأَن الكلام في هذه الآية (ولامرأة ولرَجل).

وقوله تعالى: (أُولَئِك)، الإشارة إِلى المشركات والمشركين، أَي أَن صحبتهم ومعاشرتهم توجب الانحطاط في كثير من هواهم مع تربيتهم النسل، فهذا كله دعاءٌ إِلى النار، مع السلامة من أَن يدعو إِلى دينه نصاً من لفظه، والله تعالى يمنُّ بالهداية ويبين الآيات، ويحض على الطاعات التي هي كلها دواع إِلى الجنة. وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: (والمغفرةُ) بالرفع على الابتداءِ.

والإِذن: العلم والتمكين فإِن انضاف إِلى ذلك أَمر فهو أَقوى من الإِذن، لأَنك إِذا قلت: أَذنت في كذا، فليس يلزمك أَنك أَمرت. و(لَعَلَّهُمْ) ترج في حق البشر، ومن تذكر؛ عمل حسب التذكر فنجا.

قوله عز وجل:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾.

ذكر الطبري، عن السدي أَن السائل ثابت بن الدحداح[1]. وقال قتادة، وغيره: إِنما سأَلوا لأَن العرب في المدينة وما والاها، كانوا قد استنوا بسنة بني إِسرائيل، في تجنب مؤاكلة الحائض ومساكنتها، فنزلت هذه الآية. وقال مجاهد: كانوا يتجنبون النساءَ في الحيض ويأْتونهن في أَدبارهن فنزلت الآية في ذلك.

و(المَحيض): مصدر كالحيض، ومثله: المقيل، من قال يقيل. قال الراعي:

= متزينات، وبيوتهن خير لهن كما في حديث ابن عمر، ويتأكد ذلك بعد ما أحدثوا من التبرج والزينة، ومِنْ ثَمَّ قالت عائشة رضي الله عنها ما قالت.

(١) ويقال: ثابت بن الدحداحة، وكنيته أبو الدحداح الأنصاري، وقد جرح يوم أُحد وبَرِىء من جرحه، ومات على فراشه رضي الله عنه مَرْجع النبي ﷺ من الحديبية، قاله في «الإصابة».

بُنِيـتْ مـرافِقُهـنَّ فـوقَ مَـزَلَّـةٍ لا يستطيـع بهـا القـرادُ مَقِيـلا(١)

وقال الطبري: المحيض: اسم الحيض، ومنه قول رُؤْبة في العيش:

إِلَيْـكَ أَشْكُـو شـدَّة المعيـش ومـرَّ أَعـوامٍ نَتفـنَ ريشـي

و﴿أَذًى﴾ لفظ جامع لأَشياءَ تُؤذِي: لأَنه دم وقذر ومُنتن، ومن سبيل البول: وهذه عبارة المفسرين للفظة.

وقوله تعالى: ﴿فَاعْتَزِلُوا﴾ يريد: جماعهن(٢) بما فسر من ذلك رسول الله ﷺ من أَن يشد الرجل إِزار الحائض ثم شأْنه بأَعلاها(٣) وهذا أَصح ما ذُهب إِليه في الأَمر، وبه قال ابن عباس، وشريح، وسعيد بن جبير، ومالك، وجماعة عظيمة من العلماءِ.

وروِي عن مجاهد أَنه قال: الذي يجب اعتزاله من الحائض الفرج وحده.

وروي ذلك عن عائشة، والشعبي، وعكرمة. وروي أَيضاً عن ابن عباس، وعبيدة السلماني أَنه يجب أَن يعتزل الرجل فراش زوجته إِذا حاضت، وهذا قول شاذ(٤). وقد وقفت على ابن عباس خالته ميمونة رضي الله عنهما وقالت له: أَرغبة عن سنة رسول الله ﷺ؟.

وقوله تعالى: ﴿ولا تَقْرَبُوهُنَّ حَتى يَطْهُرنَ﴾ قرأَ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرو، وابن عامر، وعاصم في رواية حفص عنه: ﴿يَطْهُرْنَ﴾ بسكون الطاءِ وضم الهاءِ، وقرأَ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أَبي بكر والمفضل عنه: [يَطَّهَّرْنَ] بتشديد الطاءِ والهاءِ وفتحها.

وفي مصحف أُبي، وعبد الله: [حَتَّىٰ يَتَطَهَّرْنَ]. وفي مصحف أَنس بن مالك: [ولا تَقْرَبُوا النِّساءَ في مَحِيضِهِنَّ واعْتَزِلُوهُنَّ حَتَّى يَتَطَهَّرْنَ](٥).

ورجح الطبري قراءَة تشديد الطاءِ وقال: هي بمعنى يغتَسلن، لإِجماع الجميع على

---

(١) البيت لحصين بن معاوية من بني نمير، كان يوصف براعي الإبل. وفي البيت يصف إبلاً بالسمن والملاسة. والمزلة بفتح الزاي وكسرها موضع الزلل، والقُراد للبعير كالقمل للإنسان.

(٢) أي: لا مجالستهن ومؤاكلتهن كما كان اليهود يفعلون، وقد كان النصارى يجامعونهن في الحيض، فجاء الإسلام بترك ذلك فقط، وقد فسر الآية رسول الله ﷺ بأنه يجوز التمتع بما عدا الفرج، فالنهي في الآية هو عن قربانهن بالجماع لا عن قرب منهن بالمجالسة والملامسة والمؤانسة.

(٣) في الموطأ أن النبي ﷺ قال: (لتَشُدَّ عليها إزارها ثم شأنك بأعلاها).

(٤) أي لأن السنة الثابتة بيَّنت معنى الآية، فلم يبق لقائل ما يقول.

(٥) ما في مصحف أنس بن مالك يحمل على التفسير، لا على أنه قرآن، لمخالفته للسواد وللمصحف.

أَنه حرام على الرجل أَن يقرب امرأَته بعد انقطاع الدم حتى تطْهر. قال: وإِنما الاختلاف في الطهر، ماهو؟ فقال قوم: هو الاغتسال بالماءِ، وقال قوم: هو وضوءُ كوضوءِ الصلاة، وقال قوم: هو غَسل الفرج، وذلك يُحلها لزوجها وإِن لم تغتسل من الحيضة.

ورجَّح أَبو علي الفارسي قراءَة تخفيف الطاءِ إِذ هو ثلاثي مضاد لطمثت وهو ثلاثي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله: وكل واحدة من القراءَتين تحتمل أَن يراد بها الاغتسال بالماءِ، وأَن يراد بها انقطاع الدم وزوال أَذاه.

وما ذهب إِليه الطبري من أَن قراءَة شد الطاءِ مضمنها الاغتسال، وقراءَة التخفيف مضمنها انقطاع الدم أَمر غير لازم، وكذلك ادعاؤُه الإِجماع. أَما إِنه لا خلاف في كراهية الوطءِ قبل الاغتسال بالماءِ.

وقال الأَوزاعي: من فعله تصدق بنصف دينار، ومن وطىءَ في الدم تصدق بدينار. وأَسند أَبو داود عن ابن عباس عن النبي ﷺ في الذي يأْتي امرأَته وهي حائض قال: «يتصدق بدينار أَو بنصف دينار». وقال ابن عباس: الدينار في الدم، والنصف عند انقطاعه. ووردت في الشدة في هذا الفعل[١] آثار. وجمهور العلماءِ على أَنه ذنب عظيم يتاب منه، ولا كفارة منه بمال.

وذهب مالك ـ يرحمه الله ـ وجمهور العلماءِ، إِلى أَن الطُّهر الذي يحلُّ جماع الحائض التي يذهب عنها الدم، هو تطَهُّرها بالماءِ كطهور الجنب، ولا يجزي من ذلك تيمم ولا غيره.

وقال يحيى بن بكير، وابن القرطي[٢]: إِذا طهرت الحائض وتيممت حيث لا ماءَ؛ حلت لزوجها وإِن لم تغتسل. وقال مجاهد، وعكرمة، وطاووس: انقطاع الدم يحلها لزوجها، ولكن بأَن تتوضأ.

---

(١) أي الوطء في الحيض، وحجة من لم يوجب عليه كفارة المال وأوجب عليه الاستغفار والتوبة: اضطراب الحديث عن ابن عباس، واضطراب الحديث يوجب ضعفه فلا تقوم به حجة. والذمة على البراءة، وقد رواه أصحاب السنن؛ الترمذي والنسائي وأبو داود.

(٢) هو أبو اسحق، محمد بن قاسم بن شعبان المنتسب إلى عمار بن ياسر صاحب رسول الله ﷺ، وصاحب كتاب «الزاهي» في الفقه. توفي سنة ٣٥٥ هـ وكان يعرف بابن القرطي، وابن القرطي ضبطه مُعَلق في طبقات الفقهاء للشيرازي بضم القاف وسكون الراء وطاءٍ مكسورة بعدها ياءُ النسب.

و(حتى) غاية لا غير، (ولا تقْرَبُوهنَّ) يريد بجماع، وهذا من سد الذرائع[(١)].

وقوله تعالى: (فإِذَا تَطَهَّرْنَ) الآية. القراءَة (تَطَهَّرْنَ) بتاءٍ مفتوحة وهاءٍ مشددة، والخلاف في معناه كما تقدم من التطهر بالماءِ أَو انقطاع الدم.

ومجاهد، وجماعة من العلماءِ يقولون هنا: إِنه أُريد الغسل بالماءِ ولا بد، بقرينة الأَمر بالإِتيان. وإِن كان قُرْبُهُنَّ قبل الغسل مباحاً، لكن لا تقع صيغة الأَمر من الله تعالى إِلا على الوجه الأَكمل.

(فَأْتُوهنَّ) إِباحة[(٢)]، والمعنى: من حيث أَمركم الله باعتزالهن وهو الفرج، أَو من السرة إِلى الركبتين، أَو جميع الجسد حسبما تقدم. هذا كله قول واحد. وقال ابن عباس، وأَبو رزين: المعنى من قِبَلِ الطهر لا من قِبَلِ الحيض، وقاله الضحاك وقال محمد بن الحنفية: المعنى من قِبَلِ الحلال لا من قِبَلِ الزنى، وقيل: المعنى من قِبَلِ حال الإِباحة لا صائمات ولا محرمات ولا غير ذلك.

والتوابون: الراجعون، وعرفه: من الشر إِلى الخير.

والمتطهرون. قال عطاءُ، وغيره: المعنى بالماءِ. وقال مجاهد، وغيره: المعنى: من الذنوب. وقال أَيضاً مجاهد: المعنى: من إِتيان النساءِ في أَدبارهن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَنه نظر إِلى قوله تعالى حكايةً عن قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[(٣)] وقرأَ طلحة بن مصرف: [المطَّهِّرينَ] بشد الطاءِ والهاءِ.

وقوله تعالى: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكمْ) الآية[(٤)] قال جابر بن عبد الله، والربيع: سببها أَن اليهود قالت: إِن الرجل إِذا أَتى المرأَة من دبرها في قبلها جاءَ الولد أَحول وعابت

---

(١) لأن من حام حول الحمى يُوشك أن يقع فيه، ومِنْ ثَمَّ فلا يجوز التمتع بما تحت الإزار ودون الفرج.

(٢) لأنه أمر بعد الحظر، والأمر بعد الحظر يقتضي الإباحة.

(٣) يريد ابن عطية أن مجاهداً التفت إلى هذه الآية في قوم لوط، وهي رقم (٨٢) من سورة (الأعراف).

(٤) مجاز على التشبيه بالمحارث، فشبهت النطفة التي تلقى في أرحامهن للاستيلاد بالبذور التي تلقى في المحارث للاستنبات. وقوله: (أَنَّى شِئْتُمْ)، أي من أي جهة شئتم بعد أن يكون المأتي واحداً. ولهذا قيل: الحرث موضع النبت.

على العرب ذلك، فنزلت الآية تتضمن الرد على قولهم[١]، وقالت أُم سلمة وغيرها: سببها أَن قريشاً كانوا يأْتون النساءَ في الفرج على هيئات مختلفة، فلمَّا قدموا المدينة وتزوجوا أَنصاريات أَرادوا ذلك فلم ترده نساءُ المدينة، إِذ لم تكن عادة رجالهم إِلا الإِتيان على هيئة واحدة، وهي الانبطاح، فبلغ ذلك النبي ﷺ، وانتشر كلام الناس في ذلك، فنزلت الآية مبيحة الهيئات كلها، إِذا كان الوطءُ في موضع الحرث.

و(حَرْثٌ) تشبيه لأَنهن مُزْدرع الذرية، فلفظة الحرث تعطي أَن الإِباحة لم تقع إِلا في الفرج خاصة إِذ هو المزدرع[٢].

وقوله: (أَنَّى شِئْتُم) معناه: عند جمهور العلماءِ ـ من صحابة وتابعين وأَئمة ـ أَي وجه شئتم، مقبلة ومدبرة وعلى جنب. و(أَنى) إِنما تجيءُ سؤالاً أَو إِخباراً عن أَمر له جهات، فهي أَعم في اللغة من (كيف) ومن (أَين) ومن (متى)، هذا هو الاستعمال العربي[٣].

وقد فسر الناس (أَنَّى) في هذه الآية، بهذه الأَلفاظ، وفسرها سيبويه بـ(كيف ومن أَين) باجتماعهما. وذهبت فرقة ممن فسرها بأَين إِلى أَن الوطءَ في الدبر جائز، روي ذلك عن عبد الله بن عمر[٤] وروى عنه خلافه وتكفير من فعله، وهذا هو اللائق به. ورويت الإِباحة أَيضاً عن ابن أَبي مليكة، ومحمد بن المنكدر، ورواها مالك عن يزيد بن رومان، عن سالم، عن ابن عمر، وروي عن مالك شيءٌ في نحوه، وهو الذي وقع في العتبية، وقد كذب ذلك على مالك. وروىٰ بعضهم أَن رجلاً فعل ذلك في عهد النبي ﷺ فتكلم الناس فيه فنزلت هذه الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد ورد عن رسول الله ﷺ في مصنف النسائي، وفي غيره أَنه قال: (إِتيان النساءِ

---

(١) روى قول اليهود هذا الشيخان وأبو داود والترمذي عن جابر بن عبد الله.

(٢) تأتي (ازْدَرَع) بمعنى زرع، واحترث.

(٣) أي أنها تأتي لهذه المعاني الثلاثة، فتكون: ظرفاً مكانياً بمعنى (أين) نحو: (يا مَرْيَمُ أَنَّى لكِ هذَا) أي من أين لك هذا؟ وظرفاً زمانياً بمعنى (متى) نحو: أنى جئت، أي متى جئت؟، واستفهامية بمعنى (كيف) نحو: (أَنَّى يُحْيِي هذِهِ الله بَعْدَ مَوْتِهَا) أي كيف؟ وهي في الآية لذلك كله.

(٤) وإنما نزلت الآية رخصة فيه، خرجه البخاري وغيره، وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري، وروي عنه خلاف ذلك وهو اللائق بمقامه رضي الله عنه، وأما ابن عباس فلم يرو عنه إلا التحريم.

في أَدبارهن حرام)، وورد عنه فيه أَنه قال: (ملعون من أَتى امرأَة في دبرها)[١]. وورد عنه أَنه قال: (من أَتى امرأَة في دبرها فقد كفر بما أُنزل على قلب محمد)[٢]، وهذا هو الحق المتبع، ولا ينبغي لمؤمن بالله واليوم الآخر أَن يعرج في هذه النازلة على زلة عالم بعد أَن تصح عنه، والله المرشد لا رب غيره[٣].

وقال السدي: معنى قوله تعالى: (وَقَدِّمُوا لأَنفسِكم) أَي الأَجر في تجنب ما نهيتم عنه، وامتثال ما أُمرتم به. وقال ابن عباس: هي إِشارة إِلى ذكر الله على الجماع، كما قال النبي ﷺ: (لو أَن أَحدكم إِذا أَتى امرأَته قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فقضي بينهما ولد لم يضره)[٤].

وقيل: معنى (قَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ): طلب الولد، (واتَّقُوا الله): تحذير، (واعلمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوه) خبر يقتضي المبالغة في التحذير، أَي فهو مجازيكم على البر والإِثم[٥] (وبشِّر الْمُؤْمِنِينَ) تأْنيس لفاعلي البر ومتَّبِعي سُنن الهدى.

وقوله تعالى: (وَلا تَجْعَلُوا الله عُرْضَةً) الآية (عرضَة) فُعْلة بناءً للمفعول[٦]، أَي كثيراً ما يتعرض لما ذكر، تقول: جَمَل عرضة للركوب، وفرس عرضة للجري، ومنه قول كعب بن زهير:

---

(١) رواه هو وما بعده أصحاب السنن: الترمذي والنسائي وأبو داود.

(٢) رواه أصحاب السنن، والإمام أحمد في مسنده، كما في الجامع الصغير بلفظ: (من أتى امرأة في دبرها فقد بريء مما أنزل على محمد. وأشد من هذا من أتى ذكراً في دبره، ولعل المراد الزجر والتغليظ لا حقيقة الكفر الذي هو ضد الإيمان. والله أعلم.

(٣) والغالب عدم صحة ما يروى من الإباحة في هذه النازلة، وإنما هو شيء مدسوس من أصحاب الأغراض والشهوات، وأياً ما يكون، صح أو لم يصح، فلا ينبغي للإنسان أن يعرج على مثل هذا، والآية الكريمة ظاهرة في المنع، ويكفي أنه عمل لوطي، وكلام ابن عطية يوحي بهذه المعاني.

(٤) (لو) للتمني بمعنى أن النبي ﷺ يتمنى لهم ذلك لينتفي عنهم ضرر الشيطان. والحديث أخرجه الشيخان، وأصحاب السنن عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) الضمير في قوله: (مُلاقُوه)، يجوز أن يعود على الله تعالى؛ أو على المفعول المحذوف الذي لقوله: (وقَدِّموا)، وهو في الحالية على تقدير حذف مضاف؛ أي: ملاقو جزاءه. ويجوز أن يعود على الجزاء الدال عليه معمول (قدموا) المحذوف، وفي كل هذه التقديرات ردٌّ على من ينكر البعث ـ قاله (ح) في البحر المحيط ٢ ـ ١٧٢.

(٦) فيكون عُرضة بمعنى مَعْرُوض، كالفُرقة والحُجرة والغُرفة والقبضة، قال حسَّان:

وقـال الله قـد يَسَّـرتُ جُنْـداً هـمُ الأنصـار عُـرْضتَهـا اللِّقَـاءُ

من كلِّ نضَّاخَةِ الذِّفرى إذا عَرقت   عرْضَتُهَا طَامِس الإِعْلام مجْهول[(١)]

ومقصد الآية: ولا تُعَرِّضُوا اسم الله تعالى للأَيمان به، ولا تكثروا من الأَيمان، فإن الحنث مع الإكثار، وفيه قلة رعي لحق الله تعالى.

ثم اختلف المتأَولون؛ فقال ابن عباس، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، والربيع، وغيرهم: المعنى: فيما تريدون الشدة فيه، من ترك صلة الرحم والبر والإصلاح. قال الطبري: التقدير: لأَن لا[(٢)] تَبَرُّوا ولا تَتَّقوا ولا تصلحوا. وقدَّره المهدوي: كراهة أَن تَبَرُّوا. وقال بعض المتأَولين: المعنى: ولا تحلفوا بالله كاذبين إذا أَردتم البر والتقوى والإصلاح، فلا يحتاج إلى تقدير (لا) بعد (أَن). ويحتمل أَن يكون هذا التأْويل[(٣)] في الذي يريد الإصلاح بين الناس، فيحلف حانثاً ليكمل غرضه، ويحتمل أَن يكون على ماروي عن عائشة رضي الله عنها أَنها قالت: «نزلت في تكثير اليمين بالله، نهياً أَن يحلف الرجل به براً، فكيف فاجراً»؟[(٤)] فالمعنى: إذا أَردتم لأَنفسكم البر. وقال الزجاج، وغيره: معنى الآية: أَن يكون الرجل إذا طلب منه فعل خير اعتل بالله تعالى فقال: علي يمين وهو لم يحلف[(٥)]. و(أَنْ تَبَرُّوا) مفعولٌ من أَجله، والبرُّ جميع وجوه الخير. برَّ

---

(١) النضاخة: مؤنث النضاخ يقال: عين نضاخة: فوّارة غزيرة. والذِّفرى من الإنسان والحيوان: العظم الشاخص خلف الأذن، جمعه: ذفاري، وطامس: يقال: طريق طامس: بَعيدٌ لا مسلك فيه. والبيت في وصف الفرس وهي تجري بسرعة وعرقها يسيل، وهي قوية قادرة على الجري في مثل هذا الطريق الصعب.

(٢) أي لا تجعلوا الحلف بالله مانعاً لكم من أن تبروا وتتقوا وتصلحوا، ولكن إذا حلفتم على ذلك وشبهه من أبواب البر فكفِّروا وأتوا الذي هو خير.

(٣) يريد التأويل الأخير، فهو عنده بمعنيين: المعنى الأول فيمن يحلف كاذباً للإصلاح بين الناس، والمعنى الثاني عن عائشة.

(٤) كثرة الحلف بالله منهي عنها في البر، فكيف بالفجور. وقد ذم الله سبحانه الحلاف بقوله: (وَلا تُطِع كُلَّ حَلافٍ مَهِينٍ) الآية، وأمر بحفظ الأيمان بقوله: (واحْفَظُوا أيْمَانَكُمْ).

(٥) في معرض بيان المقصود من الآية. قال القاضي عياض في «الشفاء»: وقد روينا عن عوف بن عبد الله ـ أي الكوفي الزاهد ـ أنه قال: لِيُعَظِّمْ أحدكم ربه أن يذكر اسمه في كل شيء حتى لا يقول: أخزى الله الكلب وفعل به كذا وكذا، وقد كان بعض من أدركناه من مشايخنا قلما يذكر اسم الله تعالى إلا فيما يتصل بطاعته، وكان يقول للإنسان: جزيت خيراً، وقلما يقول: جازاك الله خيراً إعظاماً لاسمه تعالى أن يمتهن في غير قربة. وحدثنا الثقة أن الإمام أبا بكر الشاسي كان يعيب على أهل الكلام كثرة خوضهم فيه تعالى وفي ذكر صفاته إجلالاً لاسمه تعالى، ويقول: «هؤلاء يتمندلون بالله عز وجل، وينزل الكلام في هذا الباب تنزيله في باب سباب النبي ﷺ على الوجوه التي فصلناها والله الموفق». ولا يخفى ما في كلام=

الرجل إذا تعلق به حكمها ونسبها، كالحاج والمجاهد والعالم وغير ذلك، وهو مضاد للإثم إذ هو الحكم اللاحق عن المعاصي و(سَمِيع) أي لأقوال العباد، (علِيم) بنياتهم، وهو مجاز على الجميع.

وأَما سبب الآية، فقال ابن جريج: نزلت في أَبي بكر الصديق إذ حلف أَن يقطع إنفاقه عن مِسْطح بن أُثاثة حين تكلم مِسطح في حديث الإفك. وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق مع ابنه عبد الرحمن في حديث الضيافة حين حلف أَبو بكر أَلا يأكل الطعام(١). وقيل نزلت في عبد الله بن رواحة مع بشير بن سعد حين حلف أَلا يكلمه(٢).

واليمين: الحلف، وأَصله أنّ العرب كانت إذا تحالفت أَو تعاهدت أَخذ الرجل يمين صاحبه بيمينه، ثم كثر ذلك حتى سمي الحلف والعهد نفسه يميناً.

قوله عز وجل:

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾.

اللغو: سقط الكلام الذي لا حكم له، ويستعمل في الهجر والرفث وما لا حكم له من الأَيمان تشبيهاً بالسقط من القول، يقال منه: لغا يلغو لغواً، ولغى يلغى لغْياً، ولغة القرآن بالواو(٣).

= أبي بكر الشاسي من المبالغة، والله سبحانه وتعالى إنما قال: (ولا تَجْعلُوا الله عُرْضَةً لأيْمَانِكُمْ).

(١) حلف أبو بكر غاضباً على ولده الذي ترك الأضياف بدون عشاء حتى جاء من عند النبي ﷺ، وقد روى الإمام البخاري رحمه الله حديث الضيافة هذا في ثلاثة مواضع، وفي كتاب الصلاة في باب «السمر مع الأهل والضيف»، وفي كتاب الأدب في باب «ما يكره من الغضب والجزع عند الضيف»، وفي «علامات النبوة». ورواه الإمام مسلم في كتاب «الأطعمة»، ورواه أبو داود وغيره كذلك. هذا وقصة مسطح في حديث الإفك معروفة.

(٢) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري، أحد الأمراء الشهداء في غزوة مؤتة، وأحد الشعراء المجيدين، شهد العقبة وكل المشاهد والغزوات مع الرسول ﷺ إلا غزوة الفتح لأنها تمت بعد استشهاده.

وبشير بن سعد الأنصاري، يكنى أبا النعمان، هو أول من بايع أبا بكر بالخلافة في سقيفة بني ساعدة، وشهد المشاهد كلها. وقد استشهد بعيْن التمر في خلافة أبي بكر رضي الله عنهما.

(٣) يعني أن هذه المادة جاءت في القرآن بالواو.

والمؤاخذة: هي التناول بالعقوبة.

واختلف العلماءُ في اليمين التي هي لغو[١]؛ فقال ابن عباس، وعائشة، وعامر الشعبي، وأَبو صالح، ومجاهد: لغو اليمين: قول الرجل في درج كلامه واستعجاله في المحاورة: لا والله، وبلى والله دون قصد لليمين[٢]. وروي أَن قوماً تراجعوا القول بينهم وهم يرمون بحضرة النبي ﷺ، فحلف أَحدهم لقد أَصبتُ وأَخطأتَ يا فلان، فإِذا الأَمر بخلاف، فقال رجل: حنث يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: (أَيمان الرماة لغوٌ، لا إِثم فيها ولا كفارة)[٣].

وقال أَبو هريرة، وابن عباس أَيضاً، والحسن، ومالك بن أَنس، وجماعة من العلماءِ: لغو اليمين ما حلف به الرجل على يقينه، فكشف الغيب خلاف ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا اليقين هو غلبة ظن، أَطلق الفقهاءُ عليه لفظة اليقين تجوزاً. قال مالك: مثله أَن يرى الرجل على بعد فيعتقد أَنه فلان، لا يشك، فيحلف ثم يجيءُ غير المحلوف عليه. وقال سعيد بن المسيب، وأَبو بكر بن عبد الرحمن، وعبد الله وعروة ابنا الزبير: لغو اليمين: الحلف في المعاصي كالذي يقسم ليشربن الخمر، أَو ليقطعن الرحم، فبره ترك ذلك الفعل، ولا كفارة عليه. وقال سعيد بن جبير مثله، إِلا أَنه قال: يُكفِّر، فأَشبه قوله بالكفارة قول من لا يراها لغواً.

وقال ابن عباس أَيضاً، وطاووس: لغو اليمين: الحلف في حال الغضب. وروى

---

(١) ذكر في تفسير يمين اللغو أقوالاً عشرة.

(٢) يعني أن اللغو في اليمين هو ما يجري في الكلام على غير عقد، وقد أسند البخاري هذا عن عائشة رضي الله عنها، وقولها معقول ومقبول، لأنها قد شهدت التنزيل. ويقال اللغو أن تحلف على الشيء ترى أنه كذلك وليس كذلك، وهذا مذهب الإمام مالك، والحق أن كل ما لا قصد فيه ولا كسب للقلب فهو من لغو اليمين بأيِّ صورة كانت، وأي حالة وقعت، واليمين إما لغو لا حكم لها، وإما غموس، وهي اليمين الكاذبة التي تغمس صاحبها في النار، وإما منعقدة على البر أو الحنث.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الصغير قال: حدثنا يوسف بن يعقوب بن عبد العزيز الثقفي قال: حدثني أبي، حدثنا سفيان بن عيينة، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده: أن النبي ﷺ مرَّ بقوم يرمون وهم يحلفون: أخطأت والله، أصبت والله، فلما رأوا رسول الله ﷺ أمسكوا. فقال: فذكره، قال الدارقطني: تفرد به يوسف بن يعقوب عن أبيه.

ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: (لا يمين في غضب)[١]. وقال مكحول الدمشقي وجماعة من العلماءِ: لغو اليمين: أن يُحَرِّم الرجل على نفسه ما أحل الله، فيقول: مالي عَلَيَّ حرام إن فعلت كذا، أو الحلال علي حرام. وقال بهذا القول مالك بن أنس، إلا في الزوجة، فإنه ألزم فيها التحريم إلا أن يخرجها الحالف بقلبه[٢]. وقال زيد بن أسلم، وابنه: لغو اليمين: دعاءُ الرجل على نفسه: أعمى الله بصره، أذهب الله ماله، هو يهودي، هو مشرك، هو لِغيَة[٣] إن فعل كذا. وقال ابن عباس أيضاً، والضحاك: لغو اليمين: هي المكفَّرَة[٤] أي إذا كُفِّرت اليمين فحينئذ سقطت وصارت لغواً، ولا يؤاخذ الله بتكفيرها والرجوع إلى الذي هو خير. وقال إبراهيم النخعي: لغو اليمين: ما حَنِثَ فيه الرجل ناسياً[٥]. وحكى عن ابن عبد البر قولاً: إن اللغو أيمان المكره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وطريقة النظر أن تتأمل لفظة اللغو ولفظة الكسب، ويحكم موضعهما في اللغة، فكسب المرءِ ما قصده ونواه، واللغو مالم يتعمده أو ما حقه لهجنته أن يسقط، فيقوي على هذه الطريقة بعض الأقوال المتقدمة ويضعف بعضها.

وقد رفع الله عز وجل المؤاخذة بالإطلاق في اللغو، فحقيقته مالا إثم فيه ولا كفارة. والمؤاخذة في الأيمان هي بعقوبة الآخرة في الغموس والمصبورة ـ وفيما ترك تكفيره مما فيه كفارة ـ وبعقوبة الدنيا في إلزام الكفارة فيضعف القول بأنها اليمين المكفرة لأن المؤاخذة قد وقعت فيها، وتخصيص المؤاخذة بأنها في الآخرة فقط تحكم.

وقوله تعالى: (ولكن يُؤاخِذكمْ بِمَا كسَبَتْ قُلُوبِكُمْ) قال ابن عباس، والنخعي

(١) رواه الدارقطني في سننه، وفي القرطبي أن مسلماً خرجه في صحيحه إلا أنه ثبت أن النبي ﷺ حلف غاضباً ألا يحمل الأشعريين ثم حملهم وكفر عن يمينه. وقد نص المالكية أن يمين الغضب لازمة اتفاقاً.

(٢) قال الشيخ خليل في مختصره: وتحريم الحلال في غير الزوجة لغو.

(٣) لِغَية بكسر الغين وفتحها أي ولد زَنية لا ولد رَشدة، وَوَلد الزنا شرُّ الثلاثة كما في الحديث.

(٤) يمين اللغو لا مؤاخذة فيها إطلاقاً. واليمين المكفَّرة فيها المؤاخذة بالكفارة، ويأتي لابن عطية رحمه الله تضعيف هذا القول من هذه الناحية.

(٥) قال الإمام ابن العربي: أما اليمين مع النسيان فلا شك في إلغانها لأنها جاءت على خلاف القصد، فهي لغو محض اهـ. ويشبهها في المعنى يمين الإكراه.

وغيرهما: ما كسب القلب: هي اليمين الكاذبة الغموس، فهذه فيها المؤاخذة في الآخرة، والكفارة إنما هي فيما يكون لغواً إذا كُفِّرَ.

وقال مالك وجماعة من العلماءِ: الغموس لا تُكَفِّر، هي أَعظم ذنباً من ذلك. وقال الشافعي، وقتادة، وعطاءُ، والربيع: اليمين الغموس تُكَفِّر، والكفارة مؤاخذة والغموس: ما قصد الرجل في الحلف به الكذب، وكذلك اليمين المصبورة، المعنى فيهما واحد، ولكن الغموس سميت بذلك لأَنها غمست صاحبها في الإِثم، والمصبورة سميت بذلك لأَنها صَبْرُها مغالبة وقوة عليها، كما يصبر الحيوان للقتل والرمي[(١)].

وقال زيد بن أَسلم قوله تعالى: (ولكن يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ) هو في الرجل يقول: هو مشرك إن فعل، أَي هذا لغو إلا أَن يعقد الإِشراك بقلبه ويكسبه.

و(غَفُورٌ حَلِيمٌ) صفتان لائقتان بما ذكر من طرح المؤاخذة، إِذْ هو باب رفق وتوسعة.

وقوله تعالى: (لِلَّذِينَ يُؤْلُون مِنْ نِسَائِهِمْ) الآية. قرأَ أُبي بن كعب، وابن عباس: [لِلَّذِينَ يُقْسِمُونَ]، و(يُؤْلُون): معناه: يحلفون، يقال: آلى يُولي إِيلاءً، والأَلية اليمين، ويقال فيها أَيضاً: أَلْوَة بفتح الهمزة وبضمها وبكسرها[(٢)].

والتربص: التأَني والتأَخر، وكان من عادة العرب أَن يحلف الرجل أَلا يطأَ امرأَته، يقصد بذلك الأَذى عند المشارة ونحوها، فجعل الله تعالى في ذلك هذا[(٣)] الحد لئلا يضر الرجل بالنساءِ، وبقي للحالف على هذا المعنى فسحة فيما دون الأَربعة أَشهر.

---

(١) اليمين الغموس واليمين المصبورة عبارة عن يمين كاذبة، إلا أن اليمين المصبورة حُمل عليها قهراً من الحاكم الشرعي، وحُبس من أجلها لأنها توجهت عليه بمقتضى الشرع فحلفها وهو كاذب. وفي الحديث ـ كما رواه أبو داود ـ: (من حلف على يمين مصبورة كاذباً فليتبوأ بوجهه مقعده من النار).

(٢) ثبت أن النبي ﷺ طلق حفصة بنت عمر، ثم راجعها بأمر من الله، وثبت في الصحيح أنه آلى من نسائه شهراً، أي حلف ألا يدخل عليهن شهراً تأديباً لهن، ولكنه ﷺ لم يظاهر لأن الظهار منكر من القول وزور.

(٣) أي أربعة أشهر، روى الإمام مالك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل ابنته حفصة كم تصبر المرأة عن زوجها؟ قالت: شهراً واثنين وثلاثة، وفي الرابع ينفذ الصبر، فجعل ذلك رضي الله عنه أجلاً للبعث، أي لغيبة الجيش المبعوث إلى العدو، وهذا مطابق لجعل الله سبحانه مدة الإيلاء أربعة أشهر، فإنه سبحانه وتعالى يعلم أن صبر المرأة يضعف بعد الأربعة، ولا تحتمل قوة صبرها أكثر من ذلك، فجعلها أجلاً للمولى وخيَّرها بعد الأربعة إن شاءت أقامت معه وإن شاءت قطعت العصمة معه.

وَاخْتُلِفَ، مَنِ المرادُ أن يلزمه حكم الإِيلاءِ؟ فقال مالك رحمه الله: هو الرجل يغاضب امرأَته فيحلف بيمين ـ يلحق عن الحِنْث فيها حكم ـ أَلا يطأَها ـ ضرراً منه ـ أَكثر من أَربعة أَشهر لا يقصد بذلك إصلاح ولد رضيع ونحوه[١]. وقال به عطاءٌ وغيره، وقال علي بن أَبي طالب، وابن عباس، والحسن بن أَبي الحسن: هو الرجل يحلف أَلا يطأَ امرأَته على وجه مغاضبة ومشارة، وسواءٌ كان في ضمن ذلك إصلاح ولد أَو لم يكن. فإن لم يكن عن غضب فليس بإيلاءٍ. وقال ابن عباس: لا إيلاءَ إلا بغضب. وقال ابن سيرين: سواءٌ كانت اليمين في غضب أَو غير غضب هو إيلاءٌ[٢]. وقاله ابن مسعود، والثوري، ومالك، والشافعي، وأَهل العراق. إلا أَن مالكاً قال: ما لم يُرد إصلاح ولد. وقال الشعبي، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، وابن المسيب: كل يمين حلفها الرجل، أَلا يطأَ امرأَته، أَو أَلا يكلمها، أَو أَن يضارها، أَو أَن يغاضبها، فذلك كله إيلاءٌ[٣]. وقال ابن المسيب ـ منهم ـ إلا أَنه إن حلف أَلا يكلم وكان يطأُ فليس بإيلاء، وإنما تكون اليمين على غير الوطءِ إيلاءً إذا اقترن بذلك الامتناع من الوطءِ.

وأَقوال من ذكرناه ـ مع سعيد ـ مسجلة[٤] محتملة ما قال سعيد، ومحتملة أَن فساد العشرة إيلاءٌ، وذهب إلى هذا الاحتمال الأَخير الطبري. وقال ابن عباس أَيضاً: لا يُسمى مولِياً إلا الذي يحلف أَلا يطأَ أَبداً، حكاه ابن المنذر. وقال مالك، والشافعي، وأَحمد، وأَبو ثور: لا يكون مولياً إلا إن زاد على الأَربعة أَشهر.

وقال عطاءٌ، والثوري، وأَصحاب الرأَي: الإِيلاءُ أَن يحلف على أَربعة أَشهر فصاعداً. وقال قتادة، والنخعي، وحماد بن أَبي سليمان، وإسحق، وابن أَبي ليلى: من حلف على قليل من الوقت أَو كثير فتركها أَربعة أَشهر فهو مولٍ، قال ابن المنذر: وأَنكر هذا القول كثيرٌ من أَهل العلم.

وقوله تعالى: (مِنْ نِسَائِهِمْ) يدخل فيه الحرائر والإِماءُ إذا تزوجن.

---

(١) لأن وطء المرضع يضر بالولد فإذا ترك وطأها لهذا الغرض فلا يكون مولياً، وفي مختصر الشيخ خليل رحمه الله: والغيلة وطء المرضع، وتجُوزُ.

(٢) هذا أصح الأقوال كما قاله ابن المنذر، وتخصيص الإيلاء بالغضب يحتاج إلى دليل.

(٣) هذا القول عام وما قبله خاص بترك الوطء.

(٤) أي مطلقة. تحتمل ما قاله سعيد، وتحتمل أن فساد العشرة إيلاءٌ.

والعبد يلزمه الإيلاءُ من زوجته. وقال الشافعي، وأَحمد وأَبو ثور: أَجله أَربعة أَشهر[(١)] وقال مالك، والزهري، وعطاءُ بن أَبي رباح، وإِسحق: أَجله شهران. وقال الحسن: أَجله مِنْ حُرَّةٍ أَربعة أَشهر، ومن أَمَةٍ زوجة شهران، وقاله النخعي. وقال الشعبي: الإِيلاءُ من الأَمة نصف الإِيلاءِ من الحُرَّة. وقال مالك، والشافعي، وأَصحاب الرأي، والأَوزاعي، والنخعي، وغيرهم: المدخول بها وغير المدخول بها سواءٌ في لزوم الإِيلاءِ فيهما. وقال الزهري، وعطاءٌ، والثوري: لا إِيلاءَ إِلا بعد الدخول. وقال مالك: ولا إِيلاءَ من صغيرة لم تبلغ، فإِن آلى منها فبلغت لزم الإِيلاءُ من يوم بلوغها. وقال عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أَبي طالب، وأَبو الدرداءِ، وابن عمر، وابن المسيب، ومجاهد، وطاووس، ومالك، والشافعي، وأَحمد، وإِسحق، وأَبو عبيد: إِذا انقضت الأَربعة الأَشهر وقف، فإِما فاءَ وإِما طلَّق، وإِلا طُلِّق عليه[(٢)]. وقال ابن مسعود، وابن عباس، وعثمان، وعليٌّ أَيضاً، وزيد بن ثابت، وجابر بن زيد، والحسن، ومسروق: بانقضاءِ الأَربعة الأَشهر دخل عليه الطلاق دون توقيف.

واختلف في الطلاق الداخل على المولي؛ فقال عثمان، وعلي، وابن عباس وابن مسعود، وعطاءٌ، والنخعي، والأَوزاعي، وغيرهم: هي طلقة بائنة لا رجعة له فيها. وقال سعيد بن المسيب، وأَبو بكر بن عبد الرحمن، ومكحول، والزهري، ومالك: هي رجعية[(٣)].

و(فَاءُوا) معناه: رجعوا، ومنه: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[(٤)] (والفيءُ): الظل الراجع عشِياً.

---

(١) الكلام عن العبد، وأجل إيلاء العبد على نصف إيلاء الحر كما قال الإمام مالك وغيره من العلماء، وقال الشافعي، والإمام أحمد، وغيرهما: أجله: أربعة أشهر. وأحكام العبيد كحياتهم كلها مشاكل.

(٢) هذا هو الرأي المنصور، والحكم المشهور الذي تدل عليه الآية الكريمة دلالة ظاهرة. والفيء إما بالوطء إن كان لا عذر له، وإما بالتكفير إن كان له عذر.

(٣) يأتي أن قوله تعالى: (وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُ بِرَدِّهِنَّ في ذلكَ إِنْ أَرَادُوا اصلاحاً) يضعف القول أنه بانقضاء الأشهر الأربعة تزول العصمة بطلقة بائنة، لأن أكثر ما تعطي الآية أن ترك الفيء في الأشهر الأربعة هو عزم الطلاق، وإذا كان ذلك فالمرأة من المطلقات اللواتي يتربصن وبعولتهن أحق بردهن. وقالوا كل طلاق أوقعه الحاكم فهو بائن إلا طلاق المولى والمُعْسر بالنفقة.

(٤) من الآية (٩) من سورة الحجرات.

وقال الحسن، وإبراهيم: إذا فاءَ المولى ووطىءَ فلا كفارة عليه في يمينه لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا متركب على أَنَّ لغو اليمين ما حلف في معصية، وترك وطءِ الزوجة معصية[١].

وقال الجمهور: إذا فاءَ كفَّر، والفيءُ عند ابن المسيب، وابن جبير: لا يكون إلا بالجماع. وإن كان مسجوناً أو في سفر مضى عليه حكم الإيلاءِ إلا أَن يطأَ، ولا عذر له ولا فيءَ بِقَول.

وقال مالك رحمه الله: لا يكون الفيءُ إلا بالوطءِ أَو بالتكفير إلا في حال العذر كالغائب والمسجون. قال ابن القاسم في المدونة: إلا أَن تكون يمينه ممَّا لا يكفرها لأَنها لا تقع عليه إلا بعد الحِنث فإن القول يكفيه ما دام معذوراً.

واختلف القول في المدونة في اليمين بالله تعالى؛ هل يكتفى فيها بالفيءِ بالقول والعزم على التكفير أَم لا بُدَّ من التكفير، وإلا فلا فيءَ؟ وقال الحسن، وعكرمة، والنخعي وغيرهم: الفيءُ من غير المعذور الجماع، ولا بد من المعذور أَن يشهد أَنه قد فاءَ بقلبه.

وقال النخعي أَيضاً: يصح الفيءُ بالقول والإشهاد فقط، ويسقط حكم الإيلاءِ، أَرأَيت إن لم ينتشر للوطءِ؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويرجع في هذا القول إن لم يطأْ إلى باب الضرر. وقرأَ أُبي بن كعب: [فَإِنْ فَاءُوا فيهِنَّ]. وَرُوِيَ عنه: [فَإِنْ فَاءُوا فِيهَا].

---

(١) إن القول بعدم الكفارة مبني على أن لغو اليمين ما حُلف على معصية، وترك وطء الزوجة معصية، ولغو اليمين لا كفارة فيها، والدليل القائم قوله تعالى: ﴿فإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فإنه لم يذكر كفارة، ربما يحتج هذا القول بقول النبي ﷺ: (من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليتركها فإن تركها كفارة). وحجة الجمهور قوله ﷺ: (من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه).

وقوله تعالى: (وإن عَزَمُوا[١] الطَّلاقَ) الآية. قال القائلون: إن بمضي الأربعة الأَشهر يدخل الطلاق، وعزيمة الطلاق هي ترك الفيءِ، حتى تنصرم الأَشهر[٢]. وقال القائلون: لا بد من التوقيف بعد تمام الأَشهر، والعزيمة: هي التطليق أَو الإِبانة وقت التوقيف حتى يطلق الحاكم، واستدل من قال بالتوقيف بقوله: (سميع)، لأَن هذا الإِدراك إِنما هو في المقولات[٣]. وقرأَ ابن عباس: [فَإِنْ عَزَمُوا السَّراح].

قوله عز وجل:

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾.

قرأَ جمهور الناس: (قُرُوءٍ) على وزن فُعول، اللام همزة. وروي عن نافع شد الواو دون همز. وقرأَ الحسن: [ثَلاثَة قَرْو] بفتح القاف وسكون الراءِ وتنوين الواو خفيفة. وحكم هذه الآية مقصده الاستبراءُ، لا أَنه عبادة، ولذلك خرجت منه من لم يُبْنَ بها، بخلاف عدة الوفاة التي هي عبادة.

---

(١) الفصيح أن يقال: عزم الشيء لأن عزم تتعدى بنفسها ودليل ذلك قوله تعالى: (وإنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ) وقوله تعالى: (وَلا تَعْزمُوا عُقْدَةَ النِّكَاح)، ومن الأمر البين أن القرآن أفصح كلام، فما ورد فيه فلا معترض عليه ولا يشك في صحته وفصاحته، قال النحاس: ومعنى عزم: عقد، لأن معناهما واحد. ولكن بعض اللغويين يجيز أن تتعدى (عزم) بنفسها ويستشهد ببيت رواه سيبويه. راجع ذلك عند تفسير قوله تعالى: (ولا تعزموا عُقْدَةَ النِّكَاح) ـ وسيأتي.

(٢) تقدير الآية عندنا: فإن فاؤوا بعدها فإن الله غفورٌ رحيم، وإن عزموا الطلاق بعدها فإن الله سميع عليم، وتقديرها عندهم: فإن فاءُوا فيها فإن الله غفور رحيم، وإن عزموا الطلاق فيها فإن الله سميع عليم. وقراءة أبي بن كعب تشهد لهم، والشاذ من القراءات يجري مجرى خبر الآحاد عندهم.

(٣) أي أن الله سبحانه سميع لِلَفظ الطلاق بعد التوقيف، وقد يقال بعد تسليم أنه في المقولات: لا يكون حجة للقول بالتوقيف، لأنه قد ضرب له أجل الإيلاء، وبين أنه عند تمامها تطلق عليه فالسمع تعلق بهذا القول، فالاحتياج إلى قول آخر بعد تمامها يفتقر إلى دليل خارج عن الآية، على أن مذهب الإمام السنوسي رحمه الله أن السمع والبصر يتعلقان بكل موجود. والحق أن صفة السمع إنما تتعلق بالأصوات لقوله تعالى: (قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ في زَوْجِهَا)، ولما نزلت هذه الآية قالت عائشة رضي الله عنها: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ»، وفي ذلك إشعار بأن السمع يتعلق بالأصوات والمقولات.

و(الْمُطَلَّقَاتُ) لفظ عموم يراد به الخصوص في المدخول بهن، ولم تدخل في العموم المطلقة قبل البناءِ، ولا الحامل، ولا التي لم تحض، ولا القاعد[١]. وقال قوم: تناولهن العموم ثم نُسِخن، وهذا ضعيف، فإنما الآية فيمن تحيض وهو عرف النساءِ، وعليه معظمهن، فأغنى ذلك عن النص عليه.

والقُرْءُ في اللغة: الوقت المعتاد تردده، وقرءُ النجم: وقت طلوعه، وكذلك وقت أُفوله. وقُرْءُ الريح: وقت هبوبها. ومنه قول الراجز:

يـا رُبَّ ذِي ضِغْـنٍ عَلَـى فَـارِضِ لَـهُ قُـرُوءٌ كَقُـرُوءِ الحَـائِـضِ

أَراد وقت غضبه[٢]. فالحيض على هذا[٣]: يسمى قُرْءًا، ومنه قول النبي ﷺ: (اتركي الصلاة أَيام إِقْرَائِك)[٤]، أَي أَيام حيضك، وكذلك على هذا النظر يسمى الطهر قُرْءًا، لأَنه وقت معتاد تردُّده، يعاقب الحيض، ومنه قول الأَعشى[٥]:

وفـي كـلِّ عـام أَنْـتَ جَـاشِـمُ غَـزْوَةٍ تشـد لأَقصـاهـا عـزيـمَ عَـزَائِكَـا
مُـوَرِّثَـةٍ مـالا وفـي الحَـيِّ رفعَـةً بِمَا ضَاعَ فِيها مِنْ قُروءِ نِسَائِكَا[٦]

أَي من أَطهارهن. وقال قوم: القرءُ مأْخوذ من قرْءِ الماءِ في الحوض، وهو جمعه، فكأَن الرحم تجمع الدم وقت الحيض، والجسم يجمعه وقت الطهر.

واختلف ـ أَيهما أَراد الله تعالى بالثلاثة التي حددها للمطلقة؟ فقال أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن عباس، والضحاك، ومجاهد، والربيع، وقتادة، وأَصحاب الرأْي، وجماعة كبيرة من أَهل العلم: المراد الحيض، فإِذا طلق الرجل امرأَته في طهر لم يطأْ فيه استقبلت حيضة، ثم حيضة، ثم حيضة. فإِذا اغتسلت من الثالثة خرجت من

---

(١) لأن لكل واحدة منها أحكاماً مخالفة لهذا الحكم بنص كتاب الله تعالى.

(٢) يعني أنه طعنه وقت غضبه فكان له دمٌ كدم الحائض، ولو قال ابن عطية: «أراد أوقات» لكان أولى. لأن التعبير في البيت جاء بصيغة الجمع: (قروء كقروء).

(٣) أي على أن القُرْءَ عبارةٌ عن الوقت المعتاد تردُّدُه.

(٤) رواه أبو داود والنسائي.

(٥) قال ذلك يمدح أميراً من أُمراء العرب إثر الغزو على المقام حتى ضاعت أيام الطهر من نسائه ولم يواقعهن فيها.

(٦) يقال: جشِم الأمر جشماً وجشامة: تكلفه على مشقة فهو: جاشمٌ، فهو يترك نساءه في أوقات تطهرهن ويتجشم مشقة الغزو التي تشد عزائمه، وتكسب المال والرفعة.

العدة. وقال بعض من يقول بالحيض: إذا طهرت من الثالثة انقضت العدة قبل الغسل، وهذا قول سعيد بن جبير وغيره. وقالت عائشة، وابن عمر، وجماعة من الصحابة والتابعين، ومَنْ بَعْدَهُمْ، منهم سليمان بن يسار، ومالك: المراد الأَطهار، فإذا طلق الرجل امرأَته في طهر لم يطأْ فيه اعتدت بما بقي منه ولو ساعة ثم استقبلت طهراً ثانياً بعد حيضة، ثم ثالثاً بعد حيضة ثانية، فإذا رأَت الدم من الحيضة الثالثة حلت للأَزواج، وخرجت من العدة. فإن طلق مطلق في طهر قد مس فيه لزمه الطلاق، وقد أَساءَ، واعتدت بما بقي من ذلك الطهر. وقال ابن القاسم، ومالك: إن المطلقة إذا رأَت أَول نقطة من الحيضة الثالثة، خرجت من العصمة، وهو مذهب زيد بن ثابت وغيره. وقال أَشهب: لا تنقطع العصمة والميراث حتى يُتحقق أَنه دم حيض لئلا يكون دفعة دم من غير الحيض.

واختلف المتأَولون في المراد بقوله: (مَا خَلَقَ) ـ فقال ابن عمر، ومجاهد، والربيع، وابن زيد، والضحاك: هو الحيض والحَمْل جميعاً[1] ومعنى النهي عن الكتمان، النهي عن الإضرار بالزوج، وإذهاب حقه. فإذا قالت المطلقة حضت ـ وهي لم تحض ـ ذهبت بحقه من الارتجاع، وإذا قالت: لم أَحض ـ وهي قد حاضت ـ أَلزمته من النفقة ما لم يلزمه فأَضرَّت به، أَو تقصد بكذبها في نفي الحيض أَلا يرتجع حتى تتم العدة ويقطع الشرع حقه، وكذلك الحامل تكتم الحمل لينقطع حقه من الارتجاع.

وقال قتادة: كانت عادتهن في الجاهلية أَن يكتمن الحمل ليُلْحقن الولد بالزوج الجديد، ففي ذلك نزلت الآية. وقال السدي: سبب الآية: أَن الرجل كان إذا أَراد أَن يطلق امرأَته سأَلها: أَبها حمل؟ مخافة أَن يضر بنفسه وولده في فراقها. فأَمرهن الله بالصدق في ذلك. وقال إبراهيم النخعي، وعكرمة: المراد بـ(مَا خَلَقَ) الحيض. وروي عن عمر، وابن عباس أَن المراد الحمل. والعموم أَرجح.

وفي قوله تعالى: (وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ) ما يقتضي أَنهن مؤتمنات على ما ذُكِر[2]، ولو

---

(١) هذا هو مايدل عليه عموم الآية، ولا وجه لقصره على أحدهما، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويأتي النص على ترجيح هذا القول في كلام ابن عطية رحمه الله.

(٢) يعني أن ما يتعلق بحيضهن وحملهن شيءٌ وكلَه الله إليهن، فهن مؤتمنات، ومن خانت الأمانة فأمرها إلى الله. وقد هدد الله في ذلك بقوله: (إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ والْيَوْم الآخِرِ).

كان الاستقصاءُ مباحاً لم يمكن كتم. وقرأ مبشر بن عبيد: [في أَرْحَامهُن] بضم الهاءِ.

وقوله: ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ﴾ الآية. أَي حق الإِيمان، فإِن ذلك يقتضي أَلا يكتمن الحق، وهذا كما تقول: إِن كنت حراً فانتصر ـ وأَنت تخاطب حراً.

وقوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً﴾. البعل: الزوج، وجمعه على بعولة شاذ لا ينقاس، لكن هو المسموع. وقال قوم: الهاءُ فيه دالة على تأْنيث الجماعة، وقيل: هي هاءُ تأْنيث دخلت على بعول، وبعول لا شذوذ فيه.

وقرأَ ابن مسعود: [بِردَّتِهِنَّ] بزيادة تاءٍ. وقرأَ مبشر بن عبيد [بردهُن] بضم الهاءِ[(١)]، ونص الله تعالى بهذه الآية على أَن للزوج أَن يرتجع امرأَته المطلقة ما دامت في العدة، والإِشارة بـ(ذلك) هي إِلى المدة، ثم اقترن بما لهم من الرد شرط إِرادة الإِصلاح دون المضارة، كما تشدد على النساءِ في كتم ما في أَرحامهن، وهذا بيان الأَحكام التي بين الله تعالى، وبين عباده في ترك النساءِ الكتمان، وإِرادة الرجال الإِصلاح، فإِن قصد أَحد بعد هذا فساداً، أَو كتمت امرأَة ما في رحمها، فأَحكام الدنيا على الظاهر والبواطن إِلى الله تعالى، يتولى جزاءَ كل ذي عمل ـ وتُضَعِّف هذه الآية قول من قال في المولى: إِن بانقضاءِ الأَشهر الأَربعة تزول العصمة بطلقة بائنة لا رجعة فيها، لأَن أَكثر ما تعطي أَلفاظ القرآن أَنَّ ترك الفيءِ في الأَشهر الأَربعة هو عزم الطلاق، وإِذا كان ذلك فالمرأَة من المطلقات اللوائي يتربصن وبعولتهن أَحق بردهن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. قال ابن عباس: ذلك في التزين والتصنع والمواتاة. وقرأَ الضحاك، وابن زيد: ذلك في حسن العشرة، وحفظ بعضهن لبعض، وتقوى الله فيه. والآية تعم جميع حقوق الزوجية[(٢)] وقوله: ﴿وللرِّجَال عَلَيْهِنَّ

---

(١) الضم هو الأصل، والكسر إنما كان لكسر ما قبله.

(٢) أي تشمل سائر الحقوق المادية والأدبية، فهي من الكلم الجامع للفوائد الجمة والمعاني الضخمة.

قال (ح): في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾: «هذا من بديع الكلام، إذا حذف شيئاً من الأول أثبت نظيره في الآخر، وأثبت شيئاً في الأول حذف نظيره في الآخر، وأصل التركيب: ولهن على أزواجهن مثل الذي لأزواجهن عليهن، فحذفت (على أزواجهن) لإثبات (عليهن)، وحذف (لأزواجهن) لإثبات (لهن).

البحر المحيط ٢ ـ ١٨٩.

دَرَجَةٌ﴾. قال مجاهد، وقتادة: ذلك تنبيه على فضل حظِّه على حظها في الجهاد والميراث وما أَشبهه. وقال زيد بن أَسلم وابنه: ذلك في الطاعة ـ عليها أَن تطيعه، وليس عليه أَن يطيعها، وقال عامر الشعبي: ذلك الصداق الذي يعطي الرجل، وأَنه يُلاعن إِن قَذَفَ، وتُحَدَّ إِن قذفت. وقال ابن عباس: تلك الدرجة إِشارة إِلى حض الرجال على حسن العشرة، والتوسع للنساءِ في المال والخلق، أَي أَن الأَفضل ينبغي أَن يتحامل على نفسه(١). وهذا قول حسن بارع. وقال ابن إِسحاق: الدرجة: الإِنفاق وأَنه قوَّام عليها. وقال ابن زيد: الدرجة: ملك العصمة وأَن الطلاق بيده: وقال حميد: الدرجة: اللِّحية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا إِن صح عنه ـ ضعيف لا يقتضيه لفظ الآية ولا معناها. وإِذا تؤملت هذه الوجوه التي ذكر المفسرون فيجيءُ من مجموعها درجة تقتضي التفضيل. و(عَزِيزٌ) لا يعجزه أَحد، و﴿حَكِيمٌ﴾ فيما ينفذه من الأَحكام والأُمور.

قوله عز وجل:

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾.

قال عروة بن الزبير، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم: نزلت هذه الآية بياناً لعدد

(١) أي يكلف نفسه ذلك، بمعنى أن الأفضل ـ وهو الرجل ـ ينبغي له أن يصبر ويتحمل، وهذا معنى لائق وفائق، وذلك أنه لا غنى للرجل عن المرأة، ولا يتم استمتاعه بها إلا إذا داراها وجاملها واحتمل أذاها، وتوسع لها في الأخلاق والمال، فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيءٍ في الضلع أعلاه فإن ذهبت تُقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فينبغي الصبر على أخلاقهن العوجاء. قال الإمام الغزالي رحمه الله: وللمرأة على الرجل أن يحسن خلقه معها، وليس معنى ذلك كف الأذى عنها، بل احتمال الأذى منها، والصبر على بطشها وغضبها اقتداءً برسول الله ﷺ فإنه كان يمزح معهن، وينزل إلى درجة عقولهن في الأعمال والأخلاق حتى روي أنه كان يسابق عائشة رضي الله عنها في العدو فسبقته يوماً ـ بعد أن كان قد سبق يوماً ـ فقال لها: هذه بتلك. والمداعبة مع المرأة هي التي تطيب قلبها وتهيء عطفها. وأفضلية الرجل على المرأة من عدة جهات كما هو ظاهر الآية. وكما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ على النِّساء بما فضَّل الله بعضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ وكما يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «وَلَوْ أَمَرْتُ أَحَداً بِالسُّجُود لِغَير الله لأَمَرْتُ المَرْأة أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا» أو كما قال.

الطلاق الذي للمرءِ فيه أَن يرتجع، دون تجديد مهر وولي، وذلك أَنهم كانوا في الجاهلية يُطَلِّقون ويرتجعون إِلى غير غاية، فقال رجل لامرأَته على عهد النبي ﷺ: لا أُؤْويك ولا أَدعك تحلين. فقالت: وكيف؟ قال: أُطلقك، فإِذا دنا مُضِي عدتك راجعتك ـ فشكت ذلك، فنزلت الآية[١].

وقال ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد وغيرهم: المراد بالآية التعريف بسُنَّة الطلاق، أَي مَن طلق اثنتين فليتق الله في الثالثة، فإِما تركها غير مظلومة شيئاً من حقها، وإِما أَمسكها محسِناً عشرتها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والآية تتضمن هذين المعنيين[٢].

والإِمساك بالمعروف: هو الارتجاع بعد الثانية إِلى حسن العشرة، والتزام حقوق الزوجية. والتَّسريح يحتمل لفظه معنيين ـ أَحدهما: تركها تتِم العدة من الثانية، وتكون أَملك لنفسها، وهذا قول السدي، والضحاك، والمعنى الآخر: أَن يطلقها ثالثة فيسرحها بذلك، وهذا قول مجاهد، وعطاء، وغيرهما ـ ويقوى عندي هذا القولُ من ثلاثة وجوه ـ أَولها: أَنه روي أَن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا رسول الله: هذا ذكر الطلقتين فأَين الثالثة؟ فقال النبي ﷺ: هي قوله: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[٣]. والوجه الثاني: أَن

---

(١) رواه مالك، والترمذي، وابن جرير، والبيهقي في سننه عن هشام بن عروة عن أبيه.

(٢) جمهرة العلماء من المالكية وغيرهم على أن الطلاق الثلاث يلزم سواء كان في مرة أو في مرات، استناداً إلى رأي عمر رضي الله عنه حيث ألزمت الثلاث في كلمة واحدة عقوبة لهم حيث استهانوا بأمر الطلاق وكثُر منهم إيقاعه جملة واحدة، فرأى عمر رضي الله عنه أن يعاقبهم بإلزامهم الثلاث حتى يكفوا عن ذلك، والذي يدل عليه الكتاب والسنة أن الطلاق مرتان، وعليه فالطلاق في الثلاث في كلمة واحدة لا يلزم، قال في «أعلام الموقعين»: «ولا يجوز في هذه الأزمنة معاقبة الناس بما عاقبهم به عمر رضي الله عنه من وجهين أحدهما أن أكثرهم لا يعلم أن جمع الثلاث حرام فكيف يعاقب من لم يرتكب حراماً عند نفسه؟، والثاني أن عقوبتهم بذلك تفتح عليهم باب التحليل الذي كان مسدوداً على عهد الصحابة، ولا يستريب أحد في أن الرجوع إلى ماكان عليه الصحابة من قبل أولى من الرجوع إلى التحليل، نقله بعض المفسرين وارتضاه». ا.هـ. وفي قوله تعالى: ﴿الطلاقُ مَرَّتان﴾ قال (ح): «هو على حذف مضاف. أي عدد الطلاق الذي يملك فيه الرجعة مرتان، والثالثة لا يملك فيها الرجعة». ـ ثم قال: «والمراد بذلك تفريق الطلاق إذا أراد أن يطلق ثلاثاً»اهـ.

(٣) رواه عبد الرزاق، والإمام أحمد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر والبيهقي، عن أبي رزين الأسدي.

التسريح من أَلفاظ الطلاق، أَلا ترى أَنه قد قرىءَ: [وَإِنْ عَزَمُوا السَّرَاحَ].

والوجه الثالث: أَن فعَّل تفعيلاً بهذا التضعيف يُعطي أَنه أَحدث فعلاً مكرراً على الطلقة الثانية، وليس في الترك إِحداث فعل يعبرعنه بالتفعيل، و(إِمْسَاكٌ) مرتفع بالابتداءِ، والخبر: أَمثل، أَو أَحسن، ويصح أَن يرتفع على خبر ابتداءٍ تقدره: فالواجب إِمساك، وقوله: (بإِحسان) معناه أَلا يظلمها شيئاً من حقها، ولا يتعدى في قول.

وقوله تعالى: (وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا) الآية، خطاب للأَزواج، نهاهم به أَن يأْخذوا من أَزواجهم شيئاً على وجه المضارة، وهذا هو الخلع الذي لا يصح إِلا بأَلا ينفرد الرجل بالضرر[(١)].

وخص بالذكر ما آتى الأَزواج نساءَهم، لأَن العرف من الناس أَن يطلب الرجل عند الشقاق والفساد ما خرج عن يده، هذا وكدهم[(٢)] في الأَغلب فلذلك خص بالذكر.

وقرأَ جميع السبعة ـ إِلا حمزة ـ [يَخَافَا] بفتح الياءِ على بناءِ الفعل للفاعل، فهذا باب (خَافَ) في التعدي إِلى مفعول واحد، وهو أَن[(٣)]، وقرأَ حمزة وحده (يُخافا) بضم الياءِ على بناءِ الفعل للمفعول، فهذا على تعدية (خاف) إِلى مفعولين أَحدهما أُسند الفعل إِليه، والآخر أَن بتقدير حرف جر محذوف[(٤)]. فموضع (أَن) خفض بالجار المقدر عند سيبويه والكسائي[(٥)] ونصب عند غيرهما لأَنه لما حذف الجار، وصل الفعل للمفعول الثاني مثل أَستغفر الله ذنباً، وأَمرتك الخير[(٦)].

---

(١) يصدق بصورتين: انفراد الزوجة بالضرر، أو اشتراكهما في الضرر، ففي هاتين الصورتين يصح الخلع اتفاقاً أو على الراجح، وأما إن انفرد الزوج بالضرر فلا أحد يجيز الخلع والافتداء.

(٢) أي قصدهم وعرفهم.

(٣) أي مع صلتها.

(٤) وجه قراءة حمزة: أنه لما بُنِي الفعل للمفعول أُسند الفعل إليه فلم يبق شيء يتعدى إليه فأما (أن) من قوله: (ألا يُقيما حُدود الله) فإن الفعل يتعدى إليه بالجار. وموضع (أن) في الآية خُفض بالخافض المقدر على قول الكسائي، ونصب على قول سيبويه، إلا أنه لما حذف الجار وصل الفعل إلى المفعول الثاني مثل: استغفر الله ذنباً، وأمرتك الخير، واستغفر الله من ذنبه، وأمرتك بالخير، فقراءة حمزة بن حبيب الزيات قراءة مستقيمة.

(٥) الذي نقله أبو علي الفارسي، وغيره: أن موضعه نصب عند سيبويه، وجر عند الكسائي.

(٦) فيه أن (استغفر) تتعدى إلى اثنين، يقال: استغفر الله ذنباً، واستغفر الله من ذنبه، وأما (خاف) فإنما تتعدى إلى واحد.

وفي مصحف ابن مسعود: [إلا أَنْ يَخَافُوا] بالياءِ وواو الجمع والضمير على هذا للحكام ومتوسطي(١) أُمور الناس.

وحرم الله تعالى على الزوج ـ في هذه الآية ـ أَن يأْخذ إلا بعد الخوف أَلا يقيما، وأَكد التحريم بالوعيد لمن تعدى الحد. وأَجمع عوام أَهل العلم على تحظير أَخذ مالها، إلا أَن يكون النشوز وفساد العشرة من قِبَلِها. قال ابن المنذر: روينا ذلك عن ابن عباس، والشعبي، ومجاهد، وعطاء، والنخعي، وابن سيرين، والقاسم بن محمد وعروة بن الزبير، والزهري، وحميد بن عبد الرحمن، وقتادة، وسفيان الثوري، ومالك، وإِسحق، وأَبي ثور.

وقال مالك رحمه الله، والشعبي، وجماعة معهما: فإِن كان مع فساد الزوجة ونشوزها فسادٌ من الزوج. وتَفَاقَمَ مَا بينهما فالفدية جائزة للزوج.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومعنى ذلك أَن يكون الزوج ـ لو ترك فساده ـ لم يزل نشوزها هي.

وأَما إِن انفرد الزوج بالفساد فلا أَعلم أَحدا يُجيز له الفدية إلا ما روي عن أَبي حنيفة أَنه قال: إِذا جاءَ الظلم والنشوز مِن قِبَله فخَالَعَتْه، فهو جائز ماض، وهو آثم لا يحل ما صنع، ولا يَرُدُّ ما أَخذ. قال ابن المنذر: وهذا خلاف ظاهر كتاب الله، وخلاف سنة رسول الله ﷺ، ولو قيل لأَحد: أَجهد نفسك في طلب الخطأ ما وجد أَمراً أَعظم من أَن ينطق القرآن بتحريم شيءٍ فيحله هو ويجيزه.

وحدود الله ـ في هذا الموضع ـ هي ما يلزم الزوجين من حسن العشرة وحقوق العصمة(٢).

---

(١) أي المتوسطين بين الناس للإصلاح وإن لم يكونوا حكاماً.

تنبيه: حكم المختلعة في العدة حكم المطلقة كما قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ وقال آخرون: تعتد بحيضة، وروي ذلك في حديث حبيبة بنت سهل الأنصاري، وفي أَحاديث أُخرى. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الخلع فسخ عصمة وليس بطلاق كما ذكره ابن المنذر في الاشراف عنه، والجمهور على القول الأول، وهناك فرقة اعتمدت ما ورد من الأحاديث في الاعتداد بحيضة.

(٢) وفي بعض النسخ: «وحقوق الصحبة».

ونازلة حبيبة بنت سهل، وقيل: جميلة بنت أبي بن سلول ـ والأول أصح[(١)] ـ مع ثابت بن قيس حين أَباح له النبي ﷺ أَخذ الفدية منها، إنما كان التعسف فيها من المرأة لأنها ذكرت عنه كل خير وأنها لا تحب البقاءَ معه.

وقوله تعالى: (فَإِن خِفْتُمْ أَلا يُقِيمَا حُدُودَ الله) المخاطبة للحكام والمتوسطين لمثل هذا الأَمر وإن لم يكن حاكماً، وترك إقامة حدود الله هو استخفاف المرأَة بحق زوجها وسوءُ طاعتها إياه. قاله ابن عباس، ومالك بن أَنس، وجمهور الفقهاءِ، وقال الحسن بن أَبي الحسن، وقوم معه: إذا قالت له لا أُطيع لك أمراً، ولا أغتسل لك من جنابة، ولا أَبر لك قسماً، حل الخلع. وقال الشعبي: (أَلا يُقِيمَا حُدُود الله) معناه: أَلا يطيعا الله، وذلك أَن المغاضبة تدعو إلى ترك الطاعة. وقال عطاءُ بن أَبي رباح: يحل الخلع والأَخذ أَن تقول المرأَة لزوجها إِني لأَكرهك ولا أُحبك، ونحو هذا.

وقوله تعالى: (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ) إباحة للفدية، وشركهما في ارتفاع الجناح، لأَنها لا يجوز لها أَن تعطيه مالها، حيث لا يجوز له أَخذه، وهي تقدر على المخاصمة فإذا كان الخوف المذكور جاز له أَن يأْخذ ولها أَن تعطي، ومتى لم يقع الخوف فلا يجوز لها أن تعطي على طلب الفراق[(٢)].

وقال ابن عمر، والنخعي، وابن عباس، ومجاهد، وعثمان بن عفان رضي الله عنه، ومالك، والشافعي، وأَبو حنيفة، وعكرمة، وقبيصة بن ذؤَيب، وأَبو ثور، وغيرهم: مباح للزوج أَن يأْخذ من المرأَة في الفدية جميع ما تملكه، وقضى بذلك عمر بن الخطاب. وقال طاوس، والزهري، وعطاءُ، وعمرو بن شعيب، والحسن، والشعبي،

---

(١) قال ابن (ك): «هو المشهور، ونص ما رواه الإمام مالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد عن عمرة بنت عبد الرحمن بن سعيد بن زرارة أنها أخبرته عن حبيبة بنت سهل الأنصاري أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، وأن رسول الله ﷺ خرج إلى الصبح فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه في الغلس، فقال رسول الله ﷺ: من هذه؟ قالت: أنا حبيبة بنت سهل، فقال: ما شأنك؟ فقالت: لا أنا ولا ثابت بن قيس لزوجها. فلما جاء ثابت بن قيس قال له رسول الله ﷺ هذه حبيبة بنت سهل (قد ذكرت ما شاء الله أن تذكر) فقالت حبيبة: يا رسول الله كل ما أعطاني عندي. فقال رسول الله ﷺ: خذ منها فأخذ منها وجلست في أهلها، وهكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن مالك» تفسير ابن كثير جـ١ ـ ٤٨٥ طبعة دار الأندلس ـ بيروت.

(٢) سبق في قصة حبيبة بنت سهل الأنصاري أنها أعطت على طلب الفراق، وقد أباح ذلك ﷺ، ومعلوم أنها لا تطلب الفراق إلا إذا كرهته.

والحكم، وحماد، وأحمد، وإسحق: لا يجوز له أن يزيد على المهر الذي أعطاها، وبه قال الربيع، وكان يقرأ هو والحسن بن أبي الحسن: [فيمَا افْتَدَتْ بِهِ مِنْهُ] بزيادة [منه] يعني: مما آتيتموهن، وهو المهر، وحكى مكي هذا القول عن أبي حنيفة، وابن المنذر أثبت(١). وقال ابن المسيب: لا أرى أن يأخذ منها كل مالها، ولكن ليدع لها شيئاً، وقال بكر بن عبد الله المزني: لا يجوز للرجل أن يأخذ من زوجته شيئاً خلعاً قليلاً ولا كثيراً قال: وهذه الآية منسوخة بقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾(٢).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف لأن الأمة مجمعة على إجازة الفدية، ولأن المعنى المقترن بآية الفدية غير المعنى الذي في آية إرادة الاستبدال(٣).

وقوله تعالى: (تِلْكَ حُدُودُ الله) الآية ـ أي هذه الأوامر والنواهي هي المعالم بين الحق والباطل، والطاعة والمعصية، فلا تتجاوزوها. ثم توعد تعالى على تجاوز الحد، ووصف المتعدي بالظلم، وهو وضع الشيء في غير موضعه، والظلم معاقَبٌ صاحبه. وهو كما قال ﷺ: (الظلم ظلمات يوم القيامة)(٤).

قوله تعالى:

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾.

---

(١) أي أثبت من (مكي) في نسبة القول إلى أبي حنيفة، وحاصله أن ابن المنذر نسب إلى أبي حنيفة القول الأول وهو جواز الفدية بجميع ما تملك، ومكي نسب إليه عدم الجواز، وابن المنذر أثبت في النقل من مكي عندهم.

(٢) من الآية (٢٠) من سورة النساء.

(٣) علل ذلك بعلتين الأولى: إجماع الأمة على جواز الافتداء والخلع عند الضرورة، والثانية أن مجال الآيتين مختلف فلا تنافي بينهما، فهذه الآية فيما يكون بين الزوجين من نشوز وعصيان، وتلك الآية عند ما يريد الرجل استبدال زوج مكان زوج، فإذا أراد أن يستبدلهما من دون معصية ولا نشوز فلا يجوز له أخذ شيء.

(٤) متفق عليه من حديث عن عمر مرفوعاً، قاله السخاوي في «المقاصد الحسنة».

قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، والسدي: هذا ابتداءُ الطلقة الثالثة، فيجيءُ التسريح المتقدم ترك المرأَة تتم عدتها من الثانية.

ومن قول ابن عباس رضي الله عنه أَن الخلع فسخ عصمة، وليس بطلاق، واحتج من هذه الآية بذكر الله تعالى الطلاقين، ثم ذِكْرُهُ الخلع، ثم ذكره الثالثة بعد الطلاقين، ولم يك للخلع حكم يعتد به. ذَكَر هذا ابن المنذر في الأَشراف عنه، وعن عكرمة[1]، وطاوس، وأَحمد، وإسحاق، وأَبي ثور ـ وذكر عن الجمهور خلاف قولهم.

وقال مجاهد: هذه الآية بيان ما يلزم المسرح. والتسريح: هو الطلقة الثالثة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقوله تعالى: (أَوَ تَسْرِيحٌ) يحتمل الوجهين: إما تركها تتم العدة، وإما إِرداف الثالثة، ثم بين في هذه الآية حكم الاحتمال الواحد[2]، إِذ الاحتمال الثاني قد علم منه أَنه لا حكم له عليها بعد انقضاءِ العدة.

و(تنكح) في اللغة جار على حقيقته في الوطء ومجاز في العقد.

واجتمعت الأَمة في هذه النازلة على اتباع الحديث الصحيح في بنت[3] سموأَل،

---

(١) عطف على المجرور قبله.

(٢) وهو إرداف الثالثة، وقد بين حكمه في هذه الآية، والاحتمال الثاني هو إتمام عدتها من الطلقة الثانية، ومن المعلوم أنه بعد انقضاء العدة لا يبقى له حكم عليها.

(٣) لعل في الكلام تقديماً وتأخيراً، والأصل: اتباع الحديث الصحيح في امرأة رفاعة بن سموأل حين تزوجها، قال الحافظ ابن حجر: رفاعة بن سموأل القرظي، له ذكر في الصحيح من حديث عائشة. قالت: جاءت امرأة رفاعة إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله: إن رفاعة طلقني فبتَّ طلاقي الحديث، وروى مالك عن المسور بن رفاعة، عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير، أن رفاعة بن سموأل طلق امرأته تميمة بنت وهب فذكر الحديث، وهو مرسل عند جمهور رواة الموطأ، ووصله ابن وهب، وإبراهيم بن طهمان، وأبو علي الحنفي ثلاثتهم عن مالك، فقالوا عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير، عن أبيه: وروى ابن شاهين من طريق تفسير مقاتل بن حيان في قوله تعالى: (فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَه مِنْ بَعْدُ حتى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَه) نزلت في عائشة بنت عبد الرحمن بن عتيك النضري، كانت تحت رفاعة بن وهب بن عتيك، وهو ابن عمها، فطلقها طلاقاً بائناً، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير فذكر القصة مطولة، قال أبو موسى: الظاهر أن القصة واحدة، قال الحافظ ابن حجر: وظاهر السياقين أنهما اثنتان. لكن المشكل اتحاد اسم الزوج الثاني عبد الرحمن بن الزبير، وأما المرأة ففي اسمها اختلاف كثير. انتهى ـ فقيل: تميمة بنت وهب، كما في رواية الموطأ، وقيل: تميمة بنت أبي عبيد، وقيل: عائشة بنت عبد الرحمن، وتميمة رويت بالتكبير والتصغير، والله أعلم.

امرأة رفاعة حين تزوجها عبد الرحمن بن الزبير[1]، وكان رفاعة قد طلقها ثلاثاً، فقالت للنبي ﷺ: إني لا أُريد البقاءَ مع عبد الرحمن، ما معه إلا مثل الهدبة، فقال لها رسول الله ﷺ: (لعلك أردت الرجوع إلى رفاعة؟؟ لا. حتى يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته)[2]. فرأى العلماءُ أَن النكاح المحل إنما هو الدخول والوطءُ وكلهم على أَن مغيب الحشفة يُحِلُّ، إلا الحسن بن أَبي الحسن فإنه قال: لا يُحل إلا الإنزال، وهو ذوق العسيلة، وقال بعض الفقهاءِ: التقاءُ الختانين يُحِلُّ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمعنى واحد، إذ لا يلتقي الختانان إلا مع المغيب الذي عليه الجمهور.

وروي عن سعيد بن المسيب أَن العقد عليها يحلها للأَول، وخُطِّئَ هذا القول لخلافه الحديث الصحيح، ويتأَول على سعيد رحمه الله أَن الحديث لم يبلغه، ولما رأَى العقد عاملاً في منع الرجل نكاح امرأَة قد عقد عليها أَبوه قاس عليه عمل العقد في تحليل المطلقة ـ وتحليل المطلقة ترخيص، فلا يتم إلا بالأَوفى، ومنع الابن شدة تدخل بأَرق الأَسباب على أَصلهم في البر والحِنث[3].

والذي يُحِلُّ عند مالك رحمه الله: النكاح الصحيح والوطءُ المباح، والمحلل إذا وافق المرأَة فلم تنكح زوجاً[4]، ولا يُحِلُّ ذلك، ولا أَعلم في اتفاقه مع الزوجة خلافاً.

---

(١) الزُّبير كأمير.

(٢) العسيلة هي الوطءُ والجماع، وإن لم يكن إنزال.

(٣) يشير بذلك إلى مناقشة القياس. وأن تحليل المطلقة ثلاثاً من باب التسهيل والترخيص، وتحريم المرأة على الابن لعقد الأب من باب التشديد والتضييق، والأول يقع بأوفى الأشياء كالوطء، والثاني بأقل الأشياء كالعقد.

(٤) يريد أن المحلِّل إذا اتفق مع المرأة فكأنها لم تنكح زوجاً غيره أي غير زوجها كما تنص الآية، والحكم أنه إذا وقع التوافق بين المحلِّل والمحلَّل له أو الزوجة فإن ذلك النكاح لا يُحل المطلقة ثلاثاً لأنه ليس نكاحاً، وإنما هي حيلة، ولا فرق بين أن يكون التواطؤ بالقول أوبالقصد، فإن المقاصد معتبرة والأعمال بالنيات، والألفاظ لا تساق تعبداً، وإنما تساق للدلالة على المعاني، فإذا ظهرت هذه المعاني ترتب عليها أحكامها ولا عبرة بالألفاظ. وقد لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلَّل له، كما روى ذلك جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم، واللعن يدل على أن الفعل حرام، وإذا كان حراماً فليس هو النكاح الذي ذكره الله بقوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ فنكاح التحليل لا يفيد شرعاً وإنما الذي يفيد نكاح الرغبة ثم الطلاق بعده، وللطلاق أسباب، وهناك من يقول بالتيسير في مسألة المطلقة ثلاثاً، ويحمل النكاح في =

وقال عثمان بن عفان: إذا قصد المحلِّل التحليل وحده لم يحل، وكذلك إن قصدته المرأة وحدها. ورخص فيه ـ مع قصد المرأة وحدها ـ إبراهيم، والشعبي إذا لم يأمر به الزوج.

وقال الحسن بن أبي الحسن: إذا هم أحد الثلاثة بالتحليل لم تحل للأول وهذا شاذٌ. وقال سالم والقاسم: لا بأس أن يتزوجها ليُحلها إذا لم يعلم الزوجان.

وقوله تعالى: (فإن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ) الآية. المعنى: إن طلقها المتزوج الثاني فلا جناح عليهما أي المرأة والزوج الأول، قاله ابن عباس، ولا خلاف فيه، والظن على بابه من تغليب أحد الجائزين. وقال أبو عبيدة: أيقنا. وقوله في ذلك ضعيف(١)، و(حُدُودَ الله) الأمور التي أمر ألا تُتعدَّىٰ.

وخص الذين يعلمون بالذكر تشريفاً لهم، وإذ هم الذين ينتفعون بما بين، أي نصب للعبرة من قول أو صنعة.

وأما إذا أردنا بالتبيين خلق البيان في القلب فذلك يوجب تخصيص الذين يعلمون بالذكر، لأن من طُبع على قلبه لم يَبِنْ له شيء(٢)، وقرأ السبعة (يُبيِّنُها) بالياء. وقرأ عاصم ـ فيما روي عنه (نُبيِّنُهَا) بالنون.

وقوله تعالى: (وإذا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ) الآية ـ خطاب للرجال لا يختص بحكمه إلا الأزواج، وذلك نهيٌ للرجل أن يطول العدة على المرأة مضارة منه لها، بأن يرتجع قرب انقضائها، ثم يطلق بعد ذلك، قاله الضحاك وغيره، ولا خلاف فيه.

ومعنى (بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ) قاربن، لأن المعنى يضطر إلى ذلك، لأنه بعد بلوغ الأجل لا خيار له في الإمساك.

= الآية على العقد، ويطعن في حديث العُسَيْلة بأن المشتكى منه كان عنيناً، فكيف تكون له عُسَيْلة، وباختلاف رواياته، وينكر لعن المحلل والمحلَّل له، ويرى أن الآية في نكاح التحليل. والمعروف ما عليه الجمهور، والله أعلم.

(١) لأنه فسر الظن باليقين لأن أحداً لا يعلم ما هو كائن، إلا الله تعالى، وإذا كان ذلك كذلك فما المعنى الذي به يوقن الرجل والمرأة أنهما إذا تراجعا أقاما حدود الله، وإنما المعنى إن ظنَّا أي: طمِعَا ورجَوا ذلك.

(٢) والذين يعلمون يعرفون أنها من عند الله فيُصَدقون بها، ويعلمون بما أودعهم الله من علمه دون الذين قد طبع الله على قلوبهم، وقضى عليهم أنهم لا يؤمنون بها ولا يصدقون أنها من عند الله، فهم يجهلون أنها من عند الله، ولذا خص القوم الذين يعلمون بالبيان دون الذين يجهلون.

ومعنى (أَمسكوهن): راجعوهن و(بِمَعْرُوف) قيل: هو الإشهاد، (ولا تُمْسِكُوهُنَّ) أَي لا تراجعوهن ضراراً، وباقي الآية بيِّنٌ.

قوله عز وجل:

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾.

المراد: آياته النازلة في الأوامر والنواهي[(١)].

وقال الحسن: نزلت هذه الآية فيمن طلق لاعباً أَو هازلاً، أَو راجع كذلك. وقالته عائشة، وقال رسول الله ﷺ: (ثلاث جِدهن جِد، وهزلهن جِد: النكاح، والطلاق، والرجعة)[(٢)]، ووقع هذا الحديث في المدونة من كلام ابن المسيب. (النكاح، والطلاق، والعتق)، ثم ذكَّر الله عباده بإنعامه عليهم بالقرآن والسنة.

و(الحِكْمَة) هي السنة المبينة على لسان رسول الله ﷺ مُراد الله فيما لم يُنَصَّ عليه في الكتاب ـ والوصف بـ(عَلِيم) يقتضيه ما تقدم من الأَفعال التي ظاهرها خلاف النية فيها كالمحلِّل والمُرْتَجع مُضَارَّة.

وقوله تعالى: (وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ). الآية خطابٌ للمؤمنين الذين منهم الأَزواج، ومنهم الأَولياءُ، لأَنهم المراد في (تَعْضُلُوهُنَّ)[(٣)].

---

(١) أي: لا تأخذوا أحكام الله على طريقة الهزء فإنها جد كلها، فمن هزل فيها فقد لزمته. قال الإمام القرطبي: ولا خلاف أن من طلق هازلاً أن الطلاق يلزمه، ولقد كان الرجل في الجاهلية يطلق أو يعتق أو ينكح، ثم يقول: كنت لاعباً ويرجع، فأنزل الله الآية، وقال النبي ﷺ: (ثلاث جدهن جد إلى آخره) إبطالاً لأمر الجاهلية، وإقراراً للأحكام الشرعية.

(٢) رواه أصحاب السنن: أبو داود، والترمذي وحسَّنه، وابن ماجه، والحاكم وصحَّحه عن أبي هريرة. والجِدُّ بالكسرة: اسم جَدَّ في الأمر جِداً ضد هزل.

(٣) الخطاب إما للأولياء كما يدل على ذلك سبب النزول، وعليه فمعنى (طَلَّقْتُمْ) أي: وإذا تسببتم في طلاقهن عندما رفعن إليكم أمرهن فلا يكن منكم عضلٌ بعد ذلك إذا أرادها وأردتم ـ وإما للأزواج ويكون معنى قوله: (فلا تَعْضُلوهُنَّ)، أي: تمنعوهن من الزواج لحمية الجاهلية كما يقع ذلك كثيراً من=

وبلوغ الأَجل في هذا الموضع تَنَاهِيه لأَن المعنى يقتضي ذلك[١]. وقد قال بعض الناس في هذا الموضع: إن المراد بـ(تَعْضُلُوهُنَّ) الأَزواج، وذلك بأَن يكون الارتجاع مضارة عضلاً عن نكاح الغير. فقوله: (أَزْوَاجَهُنَّ) على هذا يعني به الرجال إِذ منهم الأَزواج، وعلى أَن المراد بـ(تَعْضُلُوهُنَّ) الأَولياءَ، فالأَزواج هم الذين كنَّ في عصمتهم[٢].

والعضل: المنع من الزواج. وهو من معنى التضييق والتعسير كما يقال: أَعضلت الدجاجة إِذا عسر بيضها ـ والداءُ العضال العسير البرءِ.

نزلت هذه الآية في معقل بن يسار وأُخته وقيل: في جابر بن عبد الله وذلك أن رجلاً طلق أخته، وقيل بنت عمه[٣] وتركها حتى تمت عدتها، ثم أَراد ارتجاعها فغار جابر وقال: تركتها وأَنت أَملك بها ـ لا زوَّجْتُكَها أَبداً، فنزلت الآية. وهذه الآية تقتضي ثبوت حق الولي في إِنكاح وليته، وأَن النكاح يفتقر إِلى ولي، خلاف قول أَبي حنيفة: «إِن الولي ليس من شروط النكاح».

وقوله: (بِالمَعْرُوفِ) معناه: المهر والإِشهاد.

وقوله تعالى: (ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ) خِطَابٌ للنبي ﷺ، ثم رجوع إِلى خطاب الجماعة، والإِشارة في (ذَلِكَ) إِلى ترك العضل و(أَزْكَى وأَطْهَرُ) معناه، أَطيب للنفس، وأَطهر للعرض والدين، بسبب العلاقات التي تكون بين الأَزواج، وربما لم يعلمها الولي فيؤدي العضل إِلى الفساد والمخالطة على مالا ينبغي، والله تعالى يعلم من ذلك مالا يعلم البشر.

= الخلفاء والولاة غيرة على من كنَّ تحتهم من النساء أن يصرن تحت غيرهم.

(١) كما تقدم في قوله تعالى: (وإذا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ)، فإن المراد به قرب نهاية الأجل.

(٢) المعنى أنه إذا كان الخطاب للأزواج، فقوله تعالى: (أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ) مجاز باعتبار ما سيكون، وإذا كان للأولياء فهو مجاز باعتبار ما كان.

(٣) أي أُخت معقل بن يسار العزني، واسم أُخته: جُمَيْل بالتصغير، كما في القسطلاني على البخاري، وقوله: وقيل: بنت عمه ـ أي بنت عم جابر بن عبد الله الأنصاري. فهما روايتان: الرواية الأولى رواها البخاري، وأصحاب السنن وغيرهم، والرواية الثانية رواها ابن جرير، وابن المنذر عن السدي.

قوله عز وجل:

﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾.

(يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ) خبر معناه الأمر على الوجوب لبعض الوالدات، والأمر على جهة الندب لبعضهن، فأَما(١) المرأَة التي في العصمة فعليها الإِرضاع وهو عرف يلزم، إذ قد صار كالشرط، إلا أَن تكون شريفة ذات ترَفُّه فعُرْفُها أَلا ترضع، وذلك كالشرط، فإن مات الأَب ولا مال للصبي فمذهب مالك في المدونة أَن الرضاع لازم للأُم بخلاف النفقة، وفي كتاب ابن الجلاب: رضاعه في بيت المال. وقال عبد الوهاب: هو من فقراءِ المسلمين، وأَما المطلقة طلاق بينونة فلا رضاع عليها، والرضاع على الزوج إلا أَن تشاءَ هي، فهي أَحق به بأُجرة المثل، هذا مع يُسر الزوج، فإن كان معدماً لم يلزمها الرضاع إلا أَن يكون المولود لا يقبل غيرها فتجبر حينئذ على الإِرضاع، ولها أَجر مثلها في يسر الزوج، وكل من يلزمُها الإِرضاع فإن أَصابها عذر يمنعها منه عاد الإِرضاع على الأَب. وروي عن مالك أَن الأَب إذا كان معدماً ولا مال للصبي فإن الرضاع على الأُم، فإن كان بها عذر ولها مال فالإِرضاع عليها في مالها.

وهذه الآية في المطلقات(٢)، قاله السدي، والضحاك، وغيرهما، جعلها الله حدّاً عند اختلاف الزوجين في مدة الرضاع، فمن دعا منهما إلى إكمال الحولين فذلك له: وقال جمهور المفسرين: إن هذين الحولين لكل ولد(٣).

وروي عن ابن عباس أَنه قال: هي في الولد الذي يمكث في البطن ستة أَشهر، فإن مكث سبعة أَشهر فرضاعه ثلاثة وعشرون شهراً، فإن مكث ثمانية أَشهر فرضاعه اثنان

---

(١) هذا تفصيل للحكم الذي تضمنه قوله تعالى: (والوالِدَاتُ يُرْضعْنَ أَوْلادَهُنَّ).

(٢) أي لأن الغالب وقوع الخلاف بين المطلق والمطلقة في مدة الرضاع التي يلزم فيها أَداءُ الأجرة.

(٣) يفسره ما بعده مما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وسيأتي عند ابن عطية رحمه الله تقوية ما قاله جمهور المفسرين بعد ذكره ما انبنى عليه القول بالتفصيل، حيث قال: «إلا أن ذلك حكم على الإنسان عموماً»، أي سواء ولد لستة أشهر أو لسبعة أو لثمانية أو لتسعة، فالوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين.

نعم يؤخذ من مجموع قوله تعالى: (والْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ) وقوله: (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُون شَهْراً) أَنَّ أقل الحمل ستة أشهر، وهو أخذٌ قويٌ وسويٌ، والله أعلم.

وعشرون شهراً، فإن مكث تسعة أشهر فرضاعه أحد وعشرون شهراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كأن هذا القول انبنى على قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا﴾(١) إلا أن ذلك حكم على الإنسان عموماً. وسُمي العام حوْلا لاستحالة الأُمور فيه في الأغلب.

ووصفهما بكامِلَيْنِ إِذْ مما قد اعتيد تجوزاً أن يقال: في حول وبعض آخر في حولين، وفي يوم وبعض آخر مشيت يومين، وصبرت عليك في دَيْني يومين وشهرين(٢).

وقوله تعالى: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ مبنيٌّ على أن الحولين ليسا بفرض لا يُتجاوز. وقرأ السبعة: ﴿أن يُتمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ بضم الياء ونصب الرضاعة. وقرأ مجاهد، وابن محيصن، وحميد، والحسن، وأبو رجاءٍ: [تَتِمَّ الرَّضَاعَةُ] بفتح التاءِ الأُولى ورفع الرضاعة، على إسناد الفعل إليها. وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبلة، والجارود بن أبي سبرة كذلك، إلا أنهم كسروا الراءَ من [الرِّضَاعَةُ]، وهي لغة كالحَضارة والحِضارة وغير ذلك. وروي عن مجاهد أنه قرأ: [الرضعة] على وزن الفَعْلَة، وروي عن ابن عباس أنه قرأ: [أن يُكمل الرضاعة] بالياءِ المضمومة وانتزع مالك رحمه الله، وجماعة من العلماءِ من هذه الآية ـ أن الرضاعة المُحَرِّمة الجارية مجرى النسب إنما هي ما كان في الحولين(٣) لأن بانقضاءِ الحولين تمت الرضاعة، فلا رضاعة، وروي عن قتادة أنه قال: هذه الآية تضمنت فرض الإرضاع على الوالدات، ثم يُسِّر ذلك وخُفِّف بالتخيير الذي في قوله: ﴿لِمَنْ أَرَادَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول مبتدع(٤).

---

(١) وعلى هذا القول تتداخل مدة الحمل ومدة الرضاع، أي يأخذ أحدهما من الآخر. وهي من الآية (١٥) من سورة الأحقاف.

(٢) أي رفعاً للمجاز، وبياناً أن هذا التحديد تحقيقي لا تقريبي، فإن عادة العرب جارية باطلاق الحولين واليومين والشهرين على المعظم والأكثر، فإذا أريد التحقيق وصف بصفة ترفع المجاز وتقرر الواقع، ومن هذا الاستعمال قوله تعالى: (فَمَنْ تَعَجَّلَ في يَوْمَيْنِ) وإنما هو يوم وبعض يوم.

(٣) وكذا ما بعد الحولين إن قَرُب واستمر الرضاع، أما ما بعد الحولين إن بعد فلا، إذ القريب من الشيءِ له حكمه، والبعيد منه له حكم آخر.

(٤) هو كذلك، وفي بعض النسخ: وهذا قول متداع.

قوله عز وجل:

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ﴾.

﴿الْمَوْلود﴾: اسم جنس وصنف من الرجال، والرزق في هذا الحكم: الطعام الكافي.

وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ يجمع حسن القدر في الطعام وجودة الأداءِ له، وحسن الاقتضاءِ من المرأة، ثم بين تعالى أن الإنفاق على قدر غنى الزوج ومنصبها بقوله: (لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلا وُسْعَهَا)، وقرأ جمهور الناس: ﴿تُكلف﴾ بضم التاءِ، ﴿نفسٌ﴾ على ما لم يُسَم فاعله. وقرأ أبو رجاء: [تَكَلف] بفتح التاءِ بمعنى تتكلف ﴿نفسٌ﴾ فاعله. وروى عنه أبو الأشهب: [لا نُكلف] بالنون [نفساً] بالنصب. وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، وأبان، عن عاصم: [لا تُضَارُّ والدةٌ] بالرفع في الراء وهو خبر معناه الأمر(١)، ويحتمل أن يكون الأصل [لا تضارِر] بكسر الراءِ الأولى، فـ﴿والِدَةٌ﴾ مفعولٌ لم يُسَم فاعله، ويعطف (مَولودٌ) على هذا الحد في الاحتمالين(٢). وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وعاصم ﴿لاتضارَّ﴾ بفتح الرَّاءِ المشددة وهذا على النهي، ويحتمل أصله ما ذكرنا في الأولى.

ومعنى الآية ـ في كل قراءَة ـ النهيُ عن أن تُضار الوالدة زوجها المطلق بسبب ولدها، وأن يضارها هو بسبب الولد أو يضار الظئر؛ لأن لفظة نهيه تعم الظئر(٣)، وقد قال عكرمة في قوله: (لا تضَارَّ والدَةٌ) معناه: الظئر.

ووجوه الضرر لا تنحصر وكل ما ذكر منها في التفاسير فهو مثال(٤).

---

(١) أي بشرط المُضَارَّة، ومجيءُ الأمر على لفظ الخبر كثير، وقد قال الإمام ابن العربي في مثل هذا الموضوع: «النفي يعود على وجوده مشروعاً لا إلى وجوده محسوساً، فإن المُضَارَّة قد تقع من بعض الناس، وخبر الله لا يجوز أن يتخلف، فالنفي راجع إلى الحكم الشرعي لا إلى الوجود الحسي كما في قوله تعالى: ﴿لا يَمَسُّهُ إلا المُطَهَّرون﴾ إذا ذهبنا إلى أنه وارد في الآدميين وهو الصحيح، لأن المعنى: لا يمسه أحد منهم شرعاً، فإن وجد المس فعلى خلاف حكم الشرع». وهذه قاعدة أبداها ابن العربي في قولهم: الخبر بمعنى الأمر، أو بمعنى النهي فاحفظها وحافظ عليها.

(٢) هذا الاحتمال والذي قبله يجريان في قراءة الرفع وقراءة الفتح كما أشار إلى ذلك رحمه الله.

(٣) إذ المراد بالوالدة المرضعة كانت أُماً أو ظِئْراً والظِئْر: المرضعة لغير ولدها.

(٤) وكلها مدفوعة بقوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»، وهو وإن رواه الإمام مالك رحمه الله في الموطأ مرسلاً فقد قال الإمام النووي: رويناه في سنن الدارقطني وغيره من طرق متصلة. فهو حديث حسن.

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ. [لا تُضَارَر] براءَين ـ الأُولى مفتوحة. وقرأ أَبو جعفر بن القعقاع: [لا تُضَارْ] بإِسكان الراءِ وتخفيفها. وروي عنه الإِسكان والتشديد. وروي عن ابن عباس: [لا تُضَارِر] بكسر الراءِ الأُولى.

واختلف العلماءُ في معنى قوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾[1] فقال قتادة، والسدي، والحسن، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وغيرهم: هو وارث الصبي إِن لو مات[2]. قال بعضهم: وارثه من الرجال خاصة يلزمه الإِرضاع كما كان يلزم أَبا الصبي لو كان حياً، وقاله مجاهد، وعطاءٌ. وقال قتادة أَيضاً وغيره: هو وارث الصبي من كان من الرجال والنساءِ، ويلزمهم إِرضاعه على قدر مواريثهم منه. وحكى الطبري عن أَبي حنيفة، وأَبي يوسف، ومحمد بن الحسن أَنهم قالوا: الوارث الذي يلزمه إِرضاع المولود هو وليُّه ووارثه إِذا كان ذا رحم محرم منه، فإِن كان ابن عم وغيره وليس بذي رحم محرم فلا يلزمه شيءٌ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا القول تحكم[3]. وقال قبيصة بن ذؤَيب، والضحاك، وبشير بن نصر قاضي عمر بن عبد العزيز: الوارث هو الصبي نفسه، أَي عليه في ماله إِذا ورث أَباه إِرضاع نفسه. وقال سفيان رحمه الله: الوارث هو الباقي من والدَي المولود بعد وفاة الآخر منهما، ويرى مع ذلك ـ إِن كانت الوالدة هي الباقية ـ أَن يشاركها العاصب في إِرضاع المولود على قدر حظه من الميراث.

ونص هؤلاءِ الذين ذكرت أَقوالهم على أَن المراد بقوله تعالى: ﴿مِثْلُ ذَلِكَ﴾ الرزق

---

(١) الاختلاف ـ في تفسير الوارث ـ هو ما سبق من ذكر الوالدة والمولود له والولد فاحتمل أن يضاف الوارث إلى كل منهم. والظاهر في الوارث أنه وارث المولود له لعطفه عليه، ولأن المولود له وهو الأب هو المحدث عنه في جملة المعطوف عليه، والمعنى أنه إذا مات المولود له وجب على وارثه ما كان يجب عليه.

(٢) يشير إلى أنه وإن لم يكن وارثاً الآن فهو وارث باعتبار المآل، فإطلاق الوارث على وارث الصبي الحي مجاز. وفي هذا ما يدل على وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، وهو مروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعن جمهور السلف. وبه أخذ بعض أئمة المذاهب.

(٣) إنما كان تحكماً لمخالفته لنص القرآن، فالوارث ـ في الآية الكريمة ـ مطلق، والوارث عند أبي حنيفة ومن معه ـ مُقَيّد ـ وهو حكم من دون بيان وجه ولا سبب.

والكسوة، وذكر ذلك أيضاً من العلماءِ إبراهيم النخعي، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، والشعبي، والحسن، وابن عباس وغيرهم.

وقال مالك رحمه الله في «المدونة»، وجميع أصحابه، والشعبي أيضاً، والزهري، والضحاك، وجماعة من العلماءِ: بل المراد بقوله: (مِثْلُ ذَلِكَ) ألاَّ يُضار، وأما الرزق والكسوة فلا شيءَ عليه منه.

وروى ابن القاسم عن مالك أن الآية تضمنت أن الرزق والكسوة على الوارث، ثم نُسخ ذلك[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالإجماع من الأُمة ألا يضار الوارث، والخلاف ـ هل عليه رزق وكسوة أم لا؟

وقرأ يحيى بن يعمر: [وَعَلَى الْوَرَثَة مِثْلُ ذَلِكَ] بالجمع.

قوله عز وجل:

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾.

الضمير في (أرادا) للوالدين، و(فِصالا) معناه: فطاماً عن الرضاع ـ ولا يقع التشاور ولا يجوز التراضي إلا بما لا ضرر فيه على المولود، فإذا ظهر في حاله الاستغناءُ عن اللبن قبل تمام الحَوْلَيْنِ فلا جناح على الأبوين في فصله، هذا معنى الآية. وقاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد، وسفيان وغيرهم ـ وقال ابن عباس: لا جناح مع التراضي في فصله قبل الحَوْلَيْنِ وبعدهما.

---

(١) قال (ق): قال النحاس: «هذا لفظ مالك، ولم يبين ما الناسخ لها، ولا عبد الرحمن بن القاسم، ولا علمنا أن أحداً من أصحابهم بيَّن ذلك. والذي يشبه أن يكون الناسخ لها عنده والله أعلم أنه لما أوجب الله تعالى للمتوفَّىٰ عنها زوجها من مال المتوفَّىٰ نفقة حَوْلٍ والسكنى ثم نسخ ذلك ورفعه ـ نَسَخ ذلك أيضاً عن الوارث، وقال ابن عطية: ثم نسخ ذلك بالإجماع من الأمة في ألا يضار الوارث». انتهى، وقد جعل الإمام ابن العربي رحمه الله النسخ بمعنى التخصيص، وذلك بحكم أن العطف يرجع إلى أقرب مذكور، وعليه فتكون الآية مخصوصة بحكم الإضرار. والرجوع إلى الأقرب شيءٌ مجمع عليه، والخلاف فيما قبله من الرزق والكسوة، وكلام ابن عطية يحوم حول هذا المعنى، وما بحثه أبو (ح) رحمه الله لا يظهر. تأمل والله أعلم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتحرير القول في هذا، أَن فصله قبل الحولين لا يصح إلا بتراضيهما، وأَلا يكون على المولود ضرر، وأَما بعد تمامهما فمن دعا إِلى الفصل فذلك له، إِلا أَن يكون في ذلك على الصبي ضرر.

وقوله تعالى: ﴿وإِن أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا﴾ مخاطبة لجميع الناس، تجمع الآباءَ والأُمهات، أَي لهم اتخاذ الظئر مع الاتفاق على ذلك.

وأَما قوله تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ﴾ فمخاطبة للرجال خاصة إلا ـ على أَحد التأْويلين ـ في قراءَة من قرأَ [أَتَيْتمْ][1] وقرأَ الستة من السبعة: ﴿آتيْتُمْ﴾ بالمد. المعنى: أَعطيتم. وقرأَ ابن كثير [أَتَيْتُمْ] بمعنى ما جئتم وفعلتم، كما قال زهير:

ومَـا كَـانَ مِـنْ خَيْـرٍ أَتَـوْهُ فَـإِنَّمَـا ... تَـوَارَثَـهُ آبَـاءُ آبَـائِهِـمْ قَبْـلُ

قال أَبو علي: المعنى: إذا سلمتم ما آتيتم نقده أَو إِعطاءَه أَو سوقه[2]، فحُذف المضاف، وأُقيم الضمير مقامه، فكأَن التقدير: ما آتيتموه، ثم حذف الضمير من الصلة، ويحتمل اللفظ معنى آخر ـ قاله قتادة ـ وهو: إِذا سلمتم ما آتيتم من إِرادة الاسترضاع، أَي سلم كل واحد من الأَبوين ورضي، وكان ذلك عن اتفاق منهما وقصد خير وإِرادة معروف من الأَمر.

وعلى هذا الاحتمال فيدخل في الخطاب بـ﴿سَلَّمْتُمْ﴾ الرجالُ والنساءُ، وعلى التأْويل الذي ذكر أَبو علي وغيرُه فالخطاب للرجال لأَنهم الذين يعطون أَجر الرضاع. قال أَبو علي: ويحتمل أَن تكون (مَا) مصدرية، أَي إِذا سلمتم الإِتيان، والمعنى كالأَول، لكن يستغنى عن الصنعة من حذف المضاف، ثم حذف الضمير.

قال مجاهد: المعنى: إِذا سلمتم إِلى الأُمهات أَجرهن، بحساب ما أَرضعن إِلى

---

(١) قراءة [آتَيْتُمْ] بالمدّ على تأويل أبي علي الفارسي يكون الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ﴾ للرجال خاصة، وعلى تأويل قتادة الخطاب للرجال والنساء. وقراءة القصر إذا كانت (ما) بمعنى الذي فهي قراءة المد في التقدير والحذف، وإذا كانت مصدرية فلا تحتاج إلى التقدير والحذف.

(٢) قوله: أتيتم نقده أي إذا كان الأجر نقداً، وقوله: أو إعطاءه أي إذا كان عوضاً، وقوله: أو سَوْقه أي إذا كان حيواناً، والمعنى: إذا سلمتم ما أردتم إيتاءه أو إتيانه نقداً أو عوضاً أو حيواناً على حد قوله تعالى: ﴿إذا قُمْتُمْ إلى الصَّلاةِ﴾ أي إذا أردتم القيام لها.

وقت إِرادة الاسترضاع[(١)]. وقال سفيان: المعنى: إِذا سلمتم إِلى المسترضعة وهي الظئر أَجرها بالمعروف.

وباقي الآية أَمر بالتقوى، وتوقيف على أَن الله تعالى بصيرٌ بكل عمل، وفي هذا وعيد وتحذير، أَي فهو مجاز بحسب عملكم.

قوله عز وجل:

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾.

قال بعض نحاة الكوفيين: الخبر عن (الذين) متروك[(٢)]، والقصد الإِخبار عن أَزواجهم بأَنهن يتربصن. ومذهب نحاة البصرة أَن خبر [الَّذِينَ] مترتب بالمعنى[(٣)] وذلك أَن الكلام إِنما تقديره: (يتربص أَزواجهم). وإِن شئت قدرته: (وأَزواج الذين يتوفون منكم يتربصن). فجاءَت العبارة في غاية الإِيجاز، وإِعرابها مترتب على هذا المعنى المالك لها المتقرر فيها.

وحكى المهدوي عن سيبويه: أَن المعنى: «وفيما يتلى عليكم الذين يتوفون» ولا أَعرف هذا الذي حكاه، لأَن ذلك إِنما يتجه إِذا كان في الكلام لفظ أَمر بعد. مثل قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟﴾[(٤)] وهذه الآية فيها معنى الأَمر لا لفظه[(٥)]. فيحتاج مع هذا التقدير إِلى تقدير آخر يستغنى عنه إِذا حضر لفظ الأَمر ـ وحسن مجيءِ الآية هكذا أَنها توطئة لقوله: (فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ) إِذ القصد بالمخاطبة من أَول الآية إِلى آخرها الرجال الذين منهم الحكام والنظار، وعبارة المبرد والأَخفش ماذكرناه.

وهذه الآية هي في عدة المتوفى عنها زوجها، وظاهرها العموم، ومعناها

---

(١) أي معنى الآية الشريفة إذا سلمتم إلى الأمهات أو إلى المسترضعات الأجر كما قال سفيان.

(٢) أي غير موجود، لأن القصد الإخبار عن الأزواج لا عن الرجال الذين يُتَوفون.

(٣) مراده أن الخبر موجود بالمعنى لا باللفظ، والذي يصحح ذلك أحد أمرين ـ إما التقدير في أول الكلام ـ «وأَزْوَاجُ الَّذِينَ يُتَوَفَّون» ـ أو التقدير في آخره ـ «فالزوجات يتربصن أو يتربص أزواجهن بعدهن».

(٤) من الآية (٣٨) من سورة المائدة.

(٥) فقوله تعالى: (يَتَرَبَّصْنَ) خبر معناه الأمر وحاصله أن ما حكاه المهدوي من الإعراب إنما هو فيما فيه لفظ الأمر لا فيما فيه معناه.

الخصوص في الحرائر غير الحوامل، ولم يعن بالآية ما يشذ من مرتابة ونحوها(١).

وحكى المهدوي عن بعض العلماءِ: أَن الآية تناولت الحوامل، ثم نسخ ذلك بقوله ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾(٢). وعدة الحامل وضع حملها عند جمهور العلماءِ، وروي عن علي بن أَبي طالب، وابن عباس، وغيرهما: أَن تمام عدتها آخر الأَجلين(٣).

والتربص: التصبر والتأَني بالشخص في مكان أَو حال، وقد بين تعالى ذلك بقوله: (بِأَنْفُسِهِنَّ)، والأَحاديث عن النبي ﷺ متظاهرة أَن التربص بِإحْداد ـ هو الامتناع عن الزينة ولبسِ المصبوغ الجميل، والطِّيبِ ونحوه، والتزامُ المبيت في مسكنها، حيث كانت وقت وفاة الزوج. وهذا قول جمهور العلماءِ، وهو قول مالك وأَصحابه.

وقال ابن عباس، وأَبو حنيفة ـ فيما روي عنه ـ وغيرهما: ليس المبيت بمراعى، تبيت حيث شاءَت.

وقال الحسن بن أَبي الحسن: ليس الإِحداد بشيءٍ، إِنما تتربص عن الزواج، ولها أَن تتزين وتتطيب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف(٤). وقرأَ جمهور الناس: ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾ بضم الياءِ. وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: [يَتوفون] بفتح الياءِ، وكذلك روى المفضل عن عاصم، ومعناه يستوفون آجالهم(٥).

---

(١) يعني أن الآية لم تتعرض للمرتابة لندرتها وكثرة السلامة من الريبة.

(٢) من الآية (٤) من سورة الطلاق.

(٣) هو مسلك حسن، لما فيه من الجمع بين الدلائل، إلا أن السنة جاءت بخلاف ذلك.

(٤) لأنه خلاف السنة الصحيحة، ففي البخاري ومسلم عن أُم عطية أن النبي ﷺ قال: «لا تحد امرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً، ولا تلبس ثوباً مصبوغاً إلا ثوب عصب، ولا تكتحل ولاتمس طيباً إلا إذا طهرت نبذة من قسط أو أظفار». يعني لا تمس طيباً إلا نبذة. أي قطعة صغيرة من قسط وأظفار، إذا طهرت من الحيض أو النفاس.

وثوب العصب نوع من البرود الخشنة. والقسط والأظفار نوعان من البخور، وكان الحسن البصري ـ رحمه الله ـ تعلق بحديث أسماء بنت عُمَيس أنها استأذنت النبي ﷺ أن تحد على جعفر بن أبي طالب ـ وهي زوجة ـ فأذن لها ثلاثة أيام، ثم بعث إليها أن تطَهَّري واكتحلي. وهو حديث شاذ كما قاله الإمام أحمد رحمه الله.

(٥) قراءة شاذة، وهي على حذف المفعول به، وحذفه كثير في القرآن.

وجعل الله الأربعة الأشهر والعشر عبادة في العدة فيها استبراءٌ للحمل، إذ فيها تكمل الأربعون، والأربعون، والأربعون، حسب الحديث الذي رواه ابن مسعود وغيره[١]، ثم ينفخ الروح.

وجعل تعالى العشر تكملة، إذ هي مظنة لظهور الحركة بالجنين، وذلك لنقص الشهور أو كمالها، ولسرعة حركة الجنين أو إبطائها، قاله سعيد بن المسيب، وأبو العالية وغيرهما.

وقال تعالى: ﴿عَشْراً﴾ ولم يقل «عَشَرَةً» تغليباً لحكم الليالي، إذ الليلة أسبق من اليوم، والأيام في ضمنها، وعشر أخف في اللَّفظ[٢]. قال جمهور أهل العلم: ويدخل في ذلك اليوم العاشر، وهو من العدة، لأن الأيام مع الليالي. وحكى منذر بن سعيد، وروي أيضاً عن الأوزاعي أن اليوم العاشر ليس من العدة بل انقضت بتمام عشر ليال. قال المهدوي: وقيل: المعنى: وعشر مدد، كل مدة من يوم وليلة.

وروي عن ابن عباس أنه قرأ: [أربعة أشهر وعشر ليالٍ].

قوله عز وجل:

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾.

أضاف تعالى الأجل إليهن إذ هو محدود مضروب في أمرهن.

والمخاطبة بقوله: ﴿فلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ عامة لجميع الناس، والتلبس بهذا الحكم هو للحكام والأولياءِ اللاصقين[٣]، والنساءِ المعتدات.

وقوله عز وجل: ﴿فِيمَا فَعَلْنَ﴾ يريد به التزوج فما دونه، من التَّزين، وإطراح الإحداد. قال مجاهد، وابن شهاب، وغيرهما: أراد ـ بما فعلن ـ النكاح لمن أحببن، إذا كان معروفاً، غير منكر[٤]. ووجوه المنكر في هذا كثيرة.

---

(١) فأربعون ثلاث مرات: هي أربعة أشهر كاملة ـ وحديث ابن مسعود في تكوين الجنين معروف ومشهور.

(٢) يعني إنما أُنث لأن المراد: «وعشر ليال» لسبق الليلة على اليوم، وبذلك قرأ ابن عباس رضي الله عنهما، أو لأن المراد «وعشر مدد»، واليوم والليلة مدة معلومة من الزمان.

(٣) أي الأقربين.

(٤) أي إذا كان يعرف شرعاً ولا ينكر، كاختيار الزوج، وتقدير الصداق، وما إلى ذلك مما يرجع إلى =

وقال بعض المفسرين: (بِالمَعْرُوفِ) معناه بالإِشهاد.

وقوله تعالى: (والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) وعيدٌ يتضمن التحذير، و(خَبِيرٌ) اسم فاعل من خبر إذا تقصى علم الشيء.

قوله عز وجل:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ﴾.

المخاطبة بهذه الآية لجميع الناس، والمباشر لحكمها هو الرجل الذي في نفسه تزويج معتدة.

والتعريض: هو الكلام الذي لا تصريح فيه، كأَنه يعرض لفكر المتكلم به[١]. وأَجمعت الأُمة على أَن الكلام مع المُعْتَدَّة بما هو نص في تزويجها، وتنبيه عليه، لا يجوز، وكذلك أَجمعت على أَن الكلام معها بما هو رَفَث، وذكر جماع، أَو تحريض عليه، لا يجوز، وجوز ما عدا ذلك.

ومن أَعظمه[٢] قرباً إلى التصريح، قول النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس: «كوني عند أُمِّ شريك، ولا تسبقيني بنفسك»[٣]. ومن المجوز قول الرجل: إنك إلى خير، وإنك لمرغوب فيك، وإني لأَرجو أَن أَتزوجك، وإن يقدر أَمر يكن ـ هذا هو تمثيل مالك، وابن شهاب، وكثير من أَهل العلم في هذا.

وجائز أَن يمدح نفسه، ويذكر مآثره على جهة التعريض بالزواج، وقد فعله أَبو جعفر محمد بن علي بن حسين، واحتج بأَن النبي ﷺ فعله مع أُم سلمة[٤].

= مصلحة نفسها، وأما العقد فلا تتولاه ـ بل هو للأولياء اللاصقين بها، وأما ما كان منكراً من القول أو الفعل كالتبرج والتَّشَوُّف إلى الرجال في العدة فللأولياء اعتراضه وإنكاره، ووجوه المنكر في هذا كثيرة كما قال ابن عطية رحمه الله.

(١) وفي بعض النسخ: «المكلم به» ـ وفي الحديث الشريف: (إن من المعاريض لمندوحة عن الكذب).

(٢) أي التعريض.

(٣) ثم قال لها ﷺ: (تلك امرأة يغشاها أصحابي، اعتَدي عند ابن أُم مكتوم فإنّه رجل أعمى، فإذا حللت فآذنينني). وحديثُ فاطمة بنت قيس رواه الإمام مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

(٤) روى الدارقطني أن النبي ﷺ دخل على أُم سلمة ـ وهي متأيمة من أبي سلمة ـ فقال: (لقد علمت أني=

والهدية إلى المعتدة جائزة، وهي من التعريض، قاله سحنون وكثير من العلماءِ. وقد كره مجاهد أن يقول: لا تسبقيني بنفسك ورآه في المواعدة سراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي على أن يتأول قول النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس، إنه على جهة الرأي لها فيمن يتزوجها، لا أنه أرادها لنفسه، وإلا فهو[١] خلاف لقوله ﷺ.

والخِطبة ـ بكسر الخاءِ ـ فعل الخاطب من كلام وقصد واستلطاف بفعل أو قول، يقال: خطبها يخطبها خَطباً وخِطبة ورجل خطّاب كثير التصرف في الخِطبة، ومنه قول الشاعر:[٢]

بَرح بالعينين خطّابُ الكُثَب ... يَقُول إني خاطِبٌ وقد كَذبْ

وإنَّما يَخْطُبُ عَسَّا مِنْ حلَبْ

والخطبة فعلة كجلسة وقعدة. والخُطبة ـ بضم الخاءِ ـ هي الكلام الذي يقال في النكاح وغيره. و(أَكنَنتُمْ) معناه: سترتم وأخفيتم. تقول العرب: كَنَنْتُ الشيءَ من[٣] الأجرام، إذا سترته في بيت أو ثوب، أو أرض ونحوه، وأَكْنَنْت الأمر في نفسي. ولم يسمع من العرب كَنَنْتُهُ في نفسي، وتقول: أَكن البيت الإنسان ونحو هذا.

فرفع الله الجناح عمن أراد تزوج المعتدة مع التعريض ومع الإكنان[٤] ونهى عن المُواعدة التي هي تصريح بالتزوج وبناءٌ عليه، واتفاق على وعد، فرخَّص ـ لعلمه تعالى

= رسول الله وخيرته، وموضعي في قومي). وكانت تلك خطبة، وروى أبو يعلى ـ في مسنده ـ عن أنس رضي الله عنه قال: لما حضرت أبا سلمة الوفاة قالت أُم سلمة: إلى من تكلني؟ فقال: اللهم إنك لأم سلمة خير من أبي سلمة فلما خطبها رسول الله ﷺ فقالت: إني كبيرة السن، فقال: (أنا أكبر منك سناً). وسند هذا الحديث جيد، والله أعلم.

(١) أي قول مجاهد، وذلك أنه خلاف قول النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس: (لا تسبقيني بنفسك). اللهم إلا إذا تأولنا ذلك بأنه ﷺ أراد أن ينظر لها من يتزوجها.

(٢) أي الراجز: والكثبة: ما قلَّ مِن طعام أو لَبَن أوغير ذلك، قال ابن الأعرابي: «يقال للرجل ـ إذا جاء يطلب القِرى بعلة الخِطبة: إنه ليخطب كُثبة» وهي بضم ففتح. والعَسُّ: القدح الكبير.

(٣) بيان للشيء، والأجرام: جمع جِرْم بكسر الجيم.

(٤) هو إضمار تزوجها في نفسه من دون تصريح ولا تعريض. فالإكنان: الإضمار في النفس، والكَنُّ: صون الشيء ومنه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بيضٌ مَكْنُونٌ﴾.

ـ بغلبة النفوس وطماحها وضعف البشر عن ملكها.

وقوله تعالى: (سَتَذْكُرُونَهُنَّ) قال الحسن: ستخطبونهن، كأَنَّه[١] قال: إن لم تنهوا. وقال غير الحسن: معناه علم الله أَنكم ستذكرون النساءَ المعتدات في نفوسكم وبأَلسنتكم لمن يخف عندكم، فنهى عن أَن يوصل إِلى التواعد معها، لما في ذلك من هنك حرمة العدة.

وقوله تعالى: (وَلَكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرّاً)، ذهب ابن عباس، وابن جبير، ومالك، وأَصحابه، والشعبي، ومجاهد، وعكرمة، والسدي، وجمهور أَهل العلم إِلى أَن المعنى: لا توافقوهن بالمواعدة والتوثق وأَخذ العهود في استسرار منكم وخفية، فـ(سِرّاً) ـ على هذا التأْويل ـ نصب على الحال، أَي مستسرين. وقال جابر بن زيد، وأَبو مجلز[٢] لاحق بن حميد، والحسن بن أَبي الحسن، والضحاك، وإِبراهيم النخعي: السر في هذه الآية الزِّنى: أَي لا تواعدوهن زنى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هكذا جاءَت عبارة هؤلاءِ في تفسير السر، وفي ذلك عندي نظر، وذلك أَن السر في اللغة يقع على الوطءِ، حلاله وحرامه، لكن معنى الكلام وقرينته ترد إِلى أَحد الوجهين، فمن الشواهد قول الحطيئة:

وَيَحْـرُمُ سِـرُّ جَـارَتِهِـمْ عليْهِـمْ ... وَيَـأْكُـلُ جارُهُـمْ أَنْـفَ الْقِصَـاعِ[٣]

فقرينة هذا البيت تُعطي أَن السر أَراد به الوطءَ حراماً، وإِلا فلو تزوجت الجارة كما يَحْسُنُ لم يكن في ذلك عار، ومن الشواهد قول الآخر:

---

(١) وفي بعض النسخ: قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه قال: إن لم تنهوا.

(٢) أبو مجلز: لاحق بن حميد السدوسي البصري، ثقة، وكان أعور، توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز.

(٣) السِّر هنا: الزنى ـ لأنه يسوقه في مقام التحريم، كما قال ابن عطية ـ فهم يراعون حرمة المجاهرة في هذا المجال ـ وكذلك يقدمون لجارهم أطيب الطعام ـ لأن المراد بأنف القصاع أول ما يؤكل منها لأن أنف كل شيء أوله، فالضيف يأكل أولا، ثم ما بقي يقدم لغيره.

ومثل هذا البيت في مجي (السِّر بمعنى الزنى قول الأعشى):

ولا تَقْـرَبَـنْ جـارةً إنَّ سِـرَّهـا ... عَلَيْـك حَـرامٌ فـانْكِحَـنْ أو تَـأبَّـدا

فالنكاح في زواج شرعي ليس حراماً.

أَخَالَتَنَا سِرُّ النِّسَاءِ مُحَرَّمٌ عَلَيَّ وتَشْهَادُ النَّدَامَى عَلَى الخَمْر
لَئِنْ لَمْ أُصَبِّحْ داهِناً ولفِيفَهَا وَنَاعِبَهَا يوماً بِرَاغِيَةِ الْبَكْرِ(١)

فقرينة هذا الشعر أنه أراد تحريم جماع النساءِ عموماً، في حرام وحلال، حتى ينال ثأره.

والآية تعطي النهي عن أن يواعد الرجل المعتدة أن يطأها بعد العدة بوجه التزويج، وأما المواعدة في الزنىٰ فمحرم على المسلم مع معتدة وغيرها.

وحكى مكي عن ابن جبير أنه قال: سراً: نكاحاً، وهذه عبارة مخلصة، وقال ابن زيد: معنى قوله: (ولَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سراً) أي: لا تنكحوهن سراً وتكتمون ذلك، فإذا حلت أظهرتموه ودخلتم بهن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فابن زيد في معنى السر مع القول الأول، أي خفْيَة. وإنما شذ في أن سمى العقد مواعدة، وذلك قلق، لأن العقد متى وقع ـ وإن كتم ـ فإنما هو في عزم العقدة(٢)، وحكى مكي عنه أنه قال: الآية منسوخة بقوله: (ولا تَعْزموا عُقْدَةَ النِّكاح).

وأجمعت الأمة على كراهية المواعدة في العدة للمرأة في نفسها وللأب في ابنته البكر، وللسيد في أمته ـ قال ابن المواز: «فأما الولي الذي لا يملك الجبر فأكرهه وإن نزل لم أفسخه». وقال مالك ـ رحمه الله ـ فيمن يواعد في العدة ثم يتزوج بعدها: «فراقها أحب إلي، دخل بها أو لم يدخل، وتكون تطليقة واحدة، فإذا حلت خطبها مع

(١) البيتان للشاعر: مرضاوي بن سعوة المهري. وقد قال قصيدة منها هذان البيتان يخاطب عجوزاً من قومه هي التي يقول لها: أخالتنا ـ والقصة أنه حدثت عداوة وخصومة بين ثلاثة بطون من قضاعة هي: (داهن ـ وناعب ـ ورئام) ـ فقد انضمت (داهن وناعب) معاً ضد (رئام)، والشاعر حين يخاطب خالته العجوز يقول لها ما معناه: إن النساء علي حرام في زواج شرعي، وفي كل لقاء غير شرعي، وكذلك يحرُم عليَّ مسامرة الندامى، وشهود مجالس الخمر معهم حتى أصبح بطنيْ (داهن وناعب) ومن لفَّ لفهما براغية البكر، أي بالعنف والشؤم هنا هو الجماع في حلال أو حرام. وأقوله: (أُصبِّح) أي أُداهمهم في الصباح، وكانت عادة العرب أن يغيروا على أعدائهم في الصباح. وجعلت راغية البكر دليلاً على الشؤم والشدة لأن رغاء ناقة صالح كان نذيراً لهم بالفناء والهلاك.

(٢) أي في معنى قوله تعالى: (وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ) ومن ثم حكى مكي رحمه الله عنه أنه قال: الآية منسوخة بقوله تعالى: (ولا تعزموا عقدة النكاح).

الخطاب». هذه رواية ابن وهب، وروى أشهب عن مالك أنه يفرق بينهما إيجاباً[١]. وقاله ابن القاسم، وحكى ابن حارث مثله عن ابن الماجشون، وزاد ما يقتضي أن التحريم يتأبد.

وقوله تعالى: ﴿إلا أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ استثناءُ منقطع، والقول المعروف: هو ما أُبيح من التعريض، وقد ذكر الضحاك، أَن من القول المعروف أَن يقول الرجل للمعتدة: احبسي علي نفسك، فإن لي بك رغبة، فتقول هي: وأَنا مثل ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي مواعدة، وإنما التعريض قول الرجل: إنكم لأَكفاءٌ كرامٌ، وما قُدِّر كان، وإنك لمعجبة، ونحو هذا.

قوله عز وجل:

﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾.

عَزَمَ العقدة: عَقدها بالإشهاد والولي، وحينئذ تسمى عقدة[٢].

وقوله تعالى: ﴿حتى يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ﴾. يريد تمام العدة، و﴿الكِتَابُ﴾ هنا هو الحد الذي جُعل، والقدر الذي رُسِم من المدة، سماه كتاباً إِذ قدره وفرضه كتاب الله تعالى، كما قال: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[٣] وكما قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[٤] ولا يحتاج عندي في الكلام إلى حذف مضاف، وقد قدر أَبو إسحق في ذلك حذف مضاف، أَي «فرض الكتاب»، وهذا[٥] على أَن جعل الكتاب القرآن.

---

(١) لأن النهي يقتضي الفساد فهو للتحريم، ووجوب الفراق أصح نظراً من الاستحباب.

(٢) أي لا تعقدوا النكاح حتى تنقضي العدة، ولا يراد به النهي عن العزم على النكاح بعد العدة لأن ذلك مباح بقوله تعالى: ﴿أو أَكْنَنْتُمْ في أَنْفُسِكُمْ﴾.

(٣) من الآية (٢٤) من سورة النساء.

(٤) من الآية (١٠٣) من سورة النساء.

(٥) أي حذف المضاف بناءً على أن المراد بالكتاب القرآن، وأما إذا أُريد به الفرض والحد الذي رسمه القرآن فلا يحتاج إلى حذف. وأبو إسحق هو الزجاج.

واختلف أَهل العلم إن خالف أَحد هذا النهي، وعزم العقدة قبل بلوغ الأَجل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَنا أُفَصِّل المسأَلة إن شاءَ الله تعالى(١).

أَما إن عقد في العدة وعثر عليه ففسخ الحاكم نكاحه، وذلك قبل الدخول ـ فقول عمر بن الخطاب وجماعة من العلماءِ: إن ذلك لا يؤبد تحريماً، وقاله مالك، وابن القاسم في «المدونة» في آخر الباب الذي يليه ضرب أَجل امرأَة المفقود. وقال الجميع: يكون خاطباً من الخُطَّاب.

وحكى ابن الجلاب ـ عن مالك ـ رواية أَن التحريم يتأَبد في العقد في العدة، وإن فسخ قبل الدخول.

وأَما إن عقد في العدة ودخل بعد انقضائها ـ فقال قوم من أَهل العلم: ذلك كالدخول في العدة يتأَبد التحريم بينهما. وقال قوم من أَهل العلم: لا يتأَبد بذلك تحريم. وقال مالك مرةً يتأَبد التحريم، وقال مرة: وما التحريم بذلك بالبين، والقولان له في «المدونة» في طلاق السنة.

---

(١) خلاصة ما فصله أنه إن عقد في العدة وفسخه الحاكم قبل الدخول فالجمهور أن ذلك لا يؤبد تحريماً، والعاقد يكون واحداً من الخطاب فيما بعد، وإن عقد فيها ودخل بعدها فقولان: بالتأبيد وعدمه، وإن عقد ودخل فيها فرأيان كذلك بالتأبيد وعدمه، والمشهور عند مالك ـ رحمه الله ـ في الصورة الثانية والثالثة التأبيد.

قال أبو (ح): «وانتصاب (عُقْدَةَ) على المفعول به لتضمين (تَعْزِمُوا) معنى ما يتعدى بنفسه فَضُمِّنَ معنى: تَنْوُوا، وقيل: انتصب (عُقْدَةَ) على المصدر، ومعنى (تعزموا): تعقدوا ـ وقيل: انتصب على إسقاط حرف الحر، أي: ولا تعزموا على عقدة النكاح ـ حكى سيبويه أن العرب تقول: ضرب زيدٌ الظهر والبطن ـ أي على الظهر والبطن، وقال الشاعر:

ولقد أبيتُ على الطَّوى وأظَلُّه حتى أنال به كريم المأكلِ

أي: وأظَلُّ عليه: فحذف (على) ووصل الفعل إلى الضمير فنصبه، وأصل الفعل أن يتعدى بِعَلَى قال الشاعر:

عَزَمْتُ عَلَى إقَامَةِ ذِي صَبَاح لأمر ما يُسَوَّد مَنْ يَسُودُ

ولعل في هذا البيت دليلاً على أن عزم تتعدى بنفسها كما تتعدى بحرف الجر، وقد سبق الحديث في هذا عند تفسير قوله تعالى: (وَإنْ عَزَمُوا الطَّلاق)، وفي ذلك رد على أكثر المحدثين الذين نصُّوا على أن عزم تتعدى بنفسها ومن الخطأ أن تتعدى بعلى ـ ولعلَّ أول من نصَّ على ذلك هوابن السكيت في كتابه العظيم «إصلاح المنطق».

وأَما إِن دخل في العدة فقول عمر بن الخطاب، ومالك، وجماعة من أَصحابه، والأَوزاعي، والليث، وغيرهم من أَهل العلم: أَن التحريم يتأَبد[١] وقول علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وابن مسعود، وإِبراهيم، وأَبي حنيفة، والشافعي، وجماعة من العلماءِ، وعبد العزيز بن أَبي سلمة، إِن التحريم لا يتأَبد[٢] ـ وإِن وطئَ في العدة ـ بل يفسخ بينهما، ثم تَعْتَدُّ منه، ثم يكون خاطباً من الخطاب.

قال أَبو حنيفة، والشافعي: تعتد من الأَول، فإِذا انقضت العدة فلا بأْس أَن يتزوجها الآخر. وحكى ابن الجلاب رواية في المذهب أَن التحريم لا يتأَبد مع الدخول في العدة، ذكرها في العالم بالتحريم المجترئ لأَنه زان، وأَما الجاهل فلا أَعرف فيها خلافاً في المذهب.

حدثني أَبو علي الحسين بن محمد الغساني مناولة[٣]، قال: نا أَبو عمر بن عبد البر[٤]،

---

(١) والحجة في ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لا يجتمعان أبداً، ففي الموطأ روى مالك، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، وعن سليمان بن يسار، أن طليحة كانت تحت رشيد الثقفي فطلقها فنكحت في عدتها، فضربها عمر رضي الله عنه وضرب زوجها بالمخفقة ضربات وفرق بينهما، ثم قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أيما امرأة نكحت في عدتها فإن كان زوجها الذي تزوجها لم يدخل بها فرق بينهما، ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول، ثم كان الآخر خاطباً من الخطاب، وإن دخل بها فرق بينهما ثم اعتدت بقية عدتها من الأول، ثم اعتدت من الآخر، ثم لا يجتمعان أبداً». قال سعيد: «ولها مهرها بما استحل من فرجها» انتهى. وقد أنكر الحافظ بن عبد البر أن تكون طليحة أسدية، قال: وإنما هي أُخت طلحة بن عبد الله التيمي، قال الحافظ بن كثير: قال البيهقي: «ذهب الشافعي رحمه الله إلى ما ذهب إليه مالك، ثم رجع عنه لقول علي: إنها تحل له»، قال: ثم إن الأثر منقطع.

(٢) وحجتهم إجماع العلماء على أنه لو زنى بالمعتدة لم يحرم عليه تزويجها فكذلك وطؤه إياها في العدة ـ وأن عمر رضي الله عنه رجع في ذلك وجعلهما يجتمعان، وذلك ما أسنده ابن عطية رحمه الله من طريق أبي عمر بن عبد البر ـ وفي اتفاق عمر وعلي رضي الله عنهما على نفي الحد عن المتعاقدين ما يدل على أن النكاح الفاسد لا يوجب الحد إلا أنه مع الجهل بالتحريم متفق عليه، ومع العلم به مختلف فيه، والله أعلم.

(٣) هو الحسين بن محمد بن أحمد، أبو علي الغساني القرطبي، إمام عصره في الحديث، له معرفة برجاله وصحيحه وسقيمه، ورحل إليه الناس من كل قطر ومكان، أخذ عن أبي عمر بن عبد البر، وأبي عبد الله بن عات، وأبي الوليد الباجي، وغيرهم، ولم تكن له رحلة، سمع عنه جماعة من أهل الأندلس وغيرهم، وحدث عنه القاضي عياض إجازة، توفي سنة ٤٢٩هجرية.

(٤) أبو عمر هو يوسف بن عبد البر، بن عبد الله، بن محمد النمري ـ شيخ علماء الأندلس، وكبير محدثيها في وقته، وأحفظ من كان فيها، وكان القاضي أبو الوليد الباجي يقول: لم يكن بالأندلس مثل أبي =

نا عبد الوارث بن سفيان[١]، نا قاسم بن أَصبغ[٢]، عن محمد بن إسماعيل[٣]، عن نعيم بن حماد[٤]، عن ابن المبارك[٥]، عن أَشعث[٦]، عن الشعبي[٧]، عن

= عمر بن عبد البر في الحديث، ويقول: أبو عمر أحفظ أهل المغرب، وألف تآليف مفيدة منها: «التمهيد، لما في الموطأ من المعاني والأسانيد»، وهو كتاب لا يأتي الزمان بمثله، وقلما يسمح بظروف بعثه، وكتاب: «الاستذكار، بمذاهب علماء الأمصار، فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار» وكتاب: «الاستيعاب، في أسماء الأصحاب»، وغير ذلك، توفي رحمه الله بشاطبة سنة ٣٦٣هـ، وقد توفي هو والخطيب البغدادي الحافظ في سنة واحدة، وكان الخطيب حافظ المشرق، وأبو عمر حافظ المغرب، رحمهما الله ونفع بعلومهما وآثارهما.

(١) هو عبد الوارث بن سفيان: أبو القاسم القرطبي الحافظ، ويعرف بالحبيب أكثر عن القاسم بن أصبغ، وكان من أوثق الناس فيه، وحمل عنه أبو عمر بن عبد البر الكثير توفي سنة ٣٩٥هـ.

(٢) هو ابن أصبغ، بن محمد، بن يوسف، أبو محمد القرطبي. سمع من شيوخ الأندلس ورحل إلى المشرق فأدرك الناس متوافرين فسمع بمكة من محمد بن إسماعيل الصائغ، وعلي بن عبد العزيز، وبالعراق من القاضي إسماعيل، ومحمد بن إسماعيل الترمذي، وبمصر من محمد بن عبد الله العمري، وروح بن الفرج المالكي، ورجع إلى الأندلس بعلم كثير، وسكن قرطبة فكان قدره بها عظيماً، وسمع منه أمير المؤمنين الناصر لدين الله وعبد الرحمن بن محمد، وولي عهده، وطال عمره فلحق الأصاغر فيه الأكابر وشارك الآباء فيه الأبناء، وهو من أئمة المالكية، وألف مؤلفات في علم الحديث، وفي أحكام القرآن توفي سنة ٣٤٠هـ.

(٣) محمد بن إسماعيل هو: ابن يوسف أبو يوسف الترمذي الحافظ الثقة المتوفّىٰ سنة ٢٨٠هـ. سمع منه قاسم بالعراق، وهو أنسب بهذا السند من محدث مكة محمد بن إسماعيل الصائغ الذي كان قد سمع منه قاسم أيضاً.

(٤) نعيم بن حماد هو: أبو عبد الله الخزاعي المروزي أحد علماء الأثر، سمع ابن المبارك وأبا حمزة السكري وطبقتهما، وصنف التصانيف العديدة، وله غلطات ومناكير مغمورة في كثرة ما روى. وامتحن بخلق القرآن فلم يجب، فحبس وقُيِّد ومات في الحبس رحمه الله سنة ٢٢٩ هـ قاله الذهبي في: «العبر في خبر من غبر».

(٥) ابن المبارك هو: عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، أبو عبد الرحمن المروزي أحد الأئمة الأعلام، وشيوخ الإسلام، قال ابن عُيَيْنَة: ابن المبارك عالم المشرق والمغرب وما بينهما توفي سنة ١٨١هـ، وله ترجمة كبيرة في الحلية.

(٦) أشعث هو: ابن سوار الكوفي، قال الذهبي في «الميزان»: قال ابن عدي: لم أجد لأشعث حديثاً منكراً، إنما يغلط في الأحاديث في الأسانيد ويخالف. قال الفلاس: توفي سنة ١٣٦هـ، وفي «العبر» أنه توفي سنة ١٤٦هـ.

(٧) الشعبي هو: عامر بن شراحيل الحميري، أبو عمرو الكوفي، الإمام العلَم، أدرك خمسمائة من الصحابة، قال ابن عُيَيْنَة: كان الناس يقولون: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه. وقال العجلي: مرسل الشعبي صحيح توفي سنة ١٠٣هـ.

مسروق[١]، قال: بلغ عمر بن الخطاب أَن امرأَة من قريش تزوجها رجل من ثقيف في عدتها، فأَرسل إِليهما ففرق بينهما، وعاقبهما، وقال: لا تنكحها أَبداً، وجعل صداقها في بيت المال، وفشا ذلك في الناس فبلغ علياً فقال: يرحم الله أَمير المؤمنين، ما بال الصداق وبيت المال، إنما جهلا فينبغي للإمام أَن يردهما إِلى السُّنة. قيل: فما تقول أَنت فيها؟ قال: لها الصَّداق بما استحل من فرجها، ويُفَرق بينهما، ولا جلد عليهما، وتكمل عدتها من الأَول، ثم تعتد من الثاني عدة كاملة ثلاثة أَقراءٍ، ثم يخطبها إِن شاءَ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فخطب الناس فقال: أَيها الناس ـ رُدُّوا الجهالات إِلى السنة.

وهذا قول الشافعي، والليث في العدة من اثنين[٢].

قال مالك، وأَصحاب الرأَي، والأَوزاعي، والثوري: عدة واحدة تكفيهما جميعاً سواءٌ كانت بالحمل أَو بالأَقراءِ أَو بالأَشهر.

وروى المدنيون، عن مالك، مثل قول علي بن أَبي طالب، والشافعي في إكمال العدتين. واختلف قول مالك رحمه الله في الذي يدخل في العدة عالماً بالتحريم مجترئاً، فمرَّةً قال: العالم والجاهل فيه سواءٌ[٣]، لا حد عليه، والصداق له لازم، والولد لاحق، ويعاقبان ولا يتناكحان أَبداً، ومرَّةً قال. العالم بالتحريم كالزاني[٤] يُحَدُّ ولا يلحق به الولد، وينكحها بعد الاستبراءِ، والقول الأَول أَشهر عن مالك رحمه الله.

وقوله تعالى: (واعْلَمُوا) إِلى آخر الآية. تحذير من الوقوع فيما نهي عنه، وتوقيف على غفره وحلمه في هذه الأَحكام التي بيَّن ووسع فيها من إِباحة التعريض ونحوه[٥].

---

(١) مسروق هو: ابن الأجدع الهمداني، أبو عائشة الكوفي الإمام القدوة، قال ابن معين: لا يسأل عن مثله، توفي سنة ٦٣هـ.

وإنما شرحنا هذا السند العشاري لتعرف قيمة الأثر في هذا الموضع الذي وضعه ابن عطية رحمه الله.

(٢) هذه المسألة تعرف بمسألة العِدَّتين ـ وهي مشهورة في مذهب الشافعية، وأما المالكية فالمشهور عندهم أن عدةً واحدة كافية.

(٣) سبق للمؤلف قوله: إنه لا خلاف في المذهب بالنسبة إلى الجاهل، وإنما الخلاف بالتأبيد وعدمه في العالم بالتحريم.

(٤) أي والزاني لا يحرم عليه نكاح المزني بها، وهذا القول له حظٌّ من النظر، وفيه إنقاذ من الخطر، والله أعلم.

(٥) يعني أنه سبحانه غفور لذنوب عباده، وذُو أناةٍ، لا يعْجَل بالعقوبة على الذنب.

قوله عز وجل:

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ ﴾[1].

هذا ابتداءُ إخبار برفع الجناح عن المطلِّق قبل البناءِ، والجماع، فرض مهراً أَو لم يفرض. ولما نهى رسول الله ﷺ عن التزوج لمعنىٰ الذوق[2] وقضاءِ الشهوة، وأَمر بالتزوج لطلب العصمة والتماس ثواب الله، وقصد دوام الصحبة ـ وقع في نفوس المؤمنين أَنَّ من طلق قبل البناءِ قد واقع جزاءً من هذا المكروه، فنزلت الآية رافعةً للجناح في ذلك إذ كان أَصل النكاح على المقصد الحسن.

وقال قوم: (لا جناح عَلَيْكُمْ) معناه: لا طلب بجميع المهر، بل عليكم نصف المفروض لمن فرض لها، والمتعة لمن لم يفرض لها.

وقال قوم: (لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ) معناه: في أَن ترسلوا الطلاق في وقت حيض، بخلاف المدخول بها.

وقال مكي: المعنى لا جناح عليكم في الطلاق قبل البناءِ، لأَنه قد يقع الجناح على المطلق بعد أَن كان قاصداً للذوق، وذلك مأْمون قبل المسيس.

والخطاب بالآية لجميع الناس.

---

(١) الظاهر أن (أو) بمعنى (الواو) ـ أي: ما لم تمسُّوهن ولا تفرضوا لهن، ووضع (أو) موضع (الواو) كثير في القرآن كقوله تعالى: (وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أو كَفُوراً) أي: وكفور، وكقوله تعالى: (وكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أو هُمْ قَائِلُون) أي: وهم قائلون، ويدل على هذا أنه تعالى عطف المفروض لها بقوله: (وإِنْ طَلَّقْتُمُوهُن مِنْ قَبْلِ أن تَمَسُّوهُنَّ وقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً) الآية، فلو كانت آية: (لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ) لبيان طلاق المفروض لها قبل المس لما كرره.

والحاصل أن المطلقة بعد الدخول والفرض لها المفروض كاملاً ـ والمطلقة قبل الدخول مع الفرض لها نصف المفروض، والمطلقة قبل الدخول والفرض لها المتعة لأنها لا شيء لها، وذلك لجبر خاطرها وتطييب نفسها، هذا التفصيل له حظ من النظر الصحيح، والله أعلم.

(٢) جاء ذلك في قوله ﷺ: (إن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات). رواه ابن جرير بسنده عن شهر بن حوشب الشامي، وروى الطبراني عن أبي موسى مرفوعاً: (لا أحب الذواقين من الرجال ولا الذواقات من النساء)، وروى الديلمي عن أبي هريرة: (تزوجوا ولا تطلقوا، فإن الله لا يحب الذواقين والذواقات).

وقرأَ أَبو عمرو، وابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾ بغير أَلف. وقرأَ الكسائي، وحمزة: [تُمَاسُّوهُنَّ] بأَلف وضم التاءِ، وهذه القراءَة الأَخيرة تعطي المَسَّ من الزوجين، والقراءَة الأُولى تقتضي ذلك بالمعنى المفهوم من المس(١)، ورجحها أَبو علي لأَن أَفعال هذا المعنى جاءَت ثلاثية على هذا الوزن: نَكَحَ وسَفَدَ وقَرَعَ وَدَقَطَ وضرب الفحل. والقراءَتان(٢) حسنتان. ﴿تَفْرِضُوا﴾ عطفاً على ﴿تَمَسُّوا﴾ وفَرْضُ المهر إِثباته وتحديده.

وهذه الآية تعطي جواز العقد على التفويض، لأَنه نكاح مقرر في الآية، مبين حكم الطلاق فيه، قاله مالك في «المدونة».

والفريضة: الصداق.

وقوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ معناه: أَعطوهن شيئاً يكون متاعاً لهن، وحَمَلَهُ ابن عمر، وعلي بن أَبي طالب، والحسن بن أَبي الحسن، وسعيد بن جبير، وأَبو قلابة، والزهري، وقتادة، والضحاك بن مزاحم ـ على الوجوب، وحَمَلَه أَبو عبيد، ومالك بن أَنس، وأَصحابه، وشُريح، وغيرهم ـ على الندب، ثم اختلفوا في الضمير المتصل بـ(مَتِّعُوا) من المراد به من النساءِ؟ فقال ابن عباس، وابن عمر، وعطاءٌ، وجابر بن زيد، والحسن، والشافعي، وأَحمد، وإِسحق، وأَصحاب الرأْي: المتعة واجبة للمطلقة قبل البناءِ والفرض، ومندوبة في غيرها(٣).

وقال مالك وأَصحابه: المتعة مندوب إِليها في كل مطلقة وإِن دخل بها، إِلا في التي لم يدخل بها وقد فرض لها، فحسبها ما فرض لها، ولا متعة لها(٤).

وقال أَبو ثور: لها المتعة ولكلِّ مطلقة.

وأَجمع أَهل العلم على أَن التي لم يفرض لها ولم يدخل بها لا شيءَ لها غير

---

(١) يقال: مَسَّ امرأته وماسَّها كما يقال: لمَسها ولامسها، إلا أن ماسَّ يدل على وقوع المَس من الجانبين بمادته وصيغته، ومسَّ يدل على ذلك بمضمونه ومفهومه.

(٢) يعني أنه لا وجه لترجيح إحدى القراءتين على الأخرى، وهما متفقتان في الحكم والمفهوم والقراءة بكل منهما.

(٣) أي غير المطلقة قبل البناء والفرض.

(٤) لقوله تعالى: ﴿وإِنْ طَلَّقْتُموهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فريضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾.

المتعة[١]. فقال الزهري: يقضي لها بها القاضي. وقال جمهور الناس: لا يقضي بها، قاله شريح، ويقال للزوج: إن كنت من المتقين والمحسنين فمتع ولم يقض عليه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا[٢] مع إِطلاق لفظ الوجوب عند بعضهم، وأَما ربط مذهب مالك، فقال ابن شعبان: المتعة بإِزاءِ غَمّ الطلاق، ولذلك ليس للمختلعة والمبارية والملاعنة متعة[٣]. وقال الترمذي، وعطاءٌ، والنخعي: للمختلعة متعة. وقال أَصحاب الرأْي: للملاعنة متعة.

وقال ابن القاسم: ولا متعة في نكاح مفسوخ[٤].

قال ابن المواز: ولا فيما يدخله الفسخ بعد صحة العقد مثل ملك أَحد الزوجين صاحبه.

وروىٰ ابن وهب، عن مالك: أَن المخيَّرة لها المتعة بخلاف الأَمة تعتق تحت العبد فتختار، فهذه لا متعة لها، وأَما الحرة تخير أَو تملك، أَو يتزوج عليها أَمة فتختار هي نفسها في ذلك كله فلها المتعة، لأَن الزوج سبب الفراق، وعليها هي غضاضة في أَلا تختار نفسها.

واختلف الناس في مقدار المتعة ـ فقال ابن عمر: أَدنى ما يجزي في المتعة ثلاثون درهماً أَو شبهها، وروي أَن ابن محيريز[٥] كان يقضي على صاحب الديوان بثلاثة

---

(١) لقوله تعالى: (لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إنْ طَلَّقْتُم النِّساء ما لم تَمَسُّوهُنَّ أو تَفرضُوا لَهُنَّ فَريضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ على المُوسع قَدَرَه وعلى المُقتر قَدرُه مَتَاعاً بِالمَعْرُوف حقاً على المُحْسِنِين). واختلف أيحكم بالمتعة أم لا؟ وسبب ذلك الاختلاف في فهم الأمر في الآية أهو للإيجاب أو للندب؟ ويروى عن الشعبي أنه سئل عن المتعة: أيحبس فيها؟ فقرأ: (على المُوسِع قَدَرَه وعَلى المُقْتِر قَدره) قال: والله ما رأيت أحداً حُبس فيها، والله لو كانت واجبة لحبس فيها القضاة، ويدل على ذلك قوله تعالى: (حَقاً عَلى المُحْسِنِين) (حَقاً عَلى المُتقِين) إذ لو كانت واجبة لوقع الحكم بها على غير المتقين، وأكثر الناس لا يتقون.

(٢) يعني أن هذا الإجماع وقع مع إطلاق بعضهم لفظ الوجوب في كل مطلقة، وأما مالك رحمه الله فقد ربط المتعة بإزاء غم الطلاق، ولذلك استثنى المرأة التي تتسبب في الطلاق.

(٣) أي لا قبل البناء ولا بعده لأنها هي التي اختارت الطلاق.

(٤) أي لقوله تعالى: (وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بالمَعْرُوفِ) ولقوله تعالى: (ومَتِّعُوهُنَّ) بعد ذكر الطلاق، وعليه فالمتعة في الطلاق لا في الفسخ.

(٥) هو عبد الله بن محيريز المكي التابعي المتوفى كما قيل في خلافة عمر بن عبد العزيز.

دنانير[١]. وقال ابن عباس: أَرفع المتعة خادم، ثم كسوة، ثم نفقة. وقال عطاءٌ: أَوسط ذلك درع وخمار وملحفة. وقال الحسن: يمتع كلٌّ على قدره ـ هذا بخادم، وهذا بأَثواب. وهذا بثوب، وهذا بنفقة، وكذلك يقول مالك بن أَنس[٢]. ومتَّع الحسن بن علي بعشرين أَلفاً وزقاق من عسل، ومتع شريح بخمسمائة درهم، وقالت أَم حميد بن عبد الرحمن بن عوف: كأَني أَنظر إِلى خادم سوداءَ متع بها عبد الرحمن بن عوف زوجه أُم أَبي سلمة. وقال أَصحاب الرأي، وغيرهم: متعة التي تطلق قبل الدخول والفرض ـ نصف مهر مثلها لا غير[٣].

وقوله تعالى: ﴿عَلَى الموسع قَدَرُهُ وعَلَى المُقْترِ قَدَرُهُ﴾ دليل على رفض التحديد. وقرأَ الجمهور: ﴿عَلَى المُوسع﴾ بسكون الواو وكسر السين بمعنى الذي أُوسع أَي اتسعت حاله. وقرأَ أَبو حيوة: [المُوَسَّع] بفتح الواو وشدِّ السين وفتحها، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وعاصم في رواية أَبي بكر [قَدْره] بسكون الدال في الموضعين. وقرأَ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم ـ في رواية حفص ـ ﴿قَدَرُه﴾ بفتح الدال فيهما. قال أَبو الحسن الأَخفش، وغيره: هما بمعنى، لغتان فصيحتان، وكذلك حكى أَبو زيد: تقول: خذ قدْر كذا وقدَر كذا بمعنى، ويُقرأُ في كتاب الله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾[٤]. وقال ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[٥] ولو حركت الدال لكان جائزاً.

و﴿المُقْتر﴾: المقل القليل المال.

و﴿مَتاعاً﴾ نصب على المصدر.

وقوله تعالى: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَي لا حَمْل فيه ولا تكلُّف على أَحد الجانبين، فهو تأْكيد لمعنى قوله: ﴿عَلَى المُوسع قَدَره وعَلَى المُقْترِ قَدَرُه﴾.

---

(١) هو من سجل اسمه فيه ليأخذ عطاءه سواء أكان من الجيش أم من غيره.

(٢) هذا أعدل الأقوال لقوله تعالى: ﴿عَلى المُوسِع قَدره وعَلى المُقتِر قَدره﴾، ولكل زمن مستواه المادي وكذلك لكل مجتمع.

(٣) يمنع هذا قوله تعالى: (عَلى المُوسع قَدره وعَلى المُقْتِر قَدره) فإن هذا النص يرفض التحديد، والله أعلم.

(٤) من الآية (١٧) من سورة الرعد.

(٥) من الآية (٦٧) من سورة الزمر.

ثم أكد تعالى النَّدب بقوله: (حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ) أي في هذه النازلة من التمتيع هم محسنون، ومن قال بأن المتعة واجبة[١]. قال: هذا تأكيد الوجوب، أي على المحسنين بالإيمان والإسلام، فليس لأحد أن يقول: لست بمحسن على هذا التأويل، و(حقاً) صفة لقوله: (مَتَاعاً) أو نصب على المصدر، وذلك أدخل في التأكيد للأمر[٢].

قوله عز وجل:

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾.

اختلف الناس في هذه الآية.

فقالت فرقة فيها مالك، وغيره: إنها مخرجة المطلقة بعد الفرض من حكم التمتيع إذ يتناولها قوله تعالى: (وَمَتِّعُوهُنَّ).

وقال ابن المسيب: نسخت هذه الآية الآية التي في الأحزاب، لأن تلك تضمنت تمتيع كل من لم يدخل بها[٣].

وقال قتادة: نسخت هذه الآية الآية التي قبلها[٤].

وقال ابن القاسم في «المدونة»: كان المتاع لكل مطلقة بقوله تعالى: (ولِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ)، ولغير المدخول بها بالآية التي في سورة الأحزاب فاستثنى الله المفروض لها قبل الدخول بهذه الآية، وأثبت للمفروض لها نصف ما فرض فقط.

وزعم زيد بن أسلم أنها منسوخة بهذه الآية، حكي ذلك في «المدونة» عن زيد بن أسلم زعماً.

---

(١) رجح الإيجاب الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله، وقد اعترضه القاضي أبو محمد رحمه الله عند قوله تعالى: (وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالمَعْرُوفِ حَقاً عَلى المُتَّقِين) انظره.

(٢) أي متاعاً ثابتاً على المحسنين، أو: حَقَّ عليهم حقاً على أنه مصدر منصوب.

(٣) سواء فرض لها أو لم يفرض لها.

(٤) ما قاله سعيد بن المسيب من نسخ آية الأحزاب لهذه الآية، وما قاله قتادة من نسخ هذه الآية، الآية التي قبلها غير ظاهر، إذ شرط النسخ غير موجود، والجمع بين الآيات ممكن، انظر (ق).

وقال ابن القاسم: إنه استثناءٌ، والتحرير يرد ذلك إلى النسخ الذي قال زيد، لأَن ابن القاسم قال: إن قوله تعالى: ﴿ولِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ﴾ عمَّ الجميع ثم استثنى الله منه هذه التي فرض لها قبل المسيس.

وقال فريق من العلماءِ ـ منهم أَبو ثور: المتعة لكل مطلقة عموماً، وهذه الآية إنما بينت أَن المفروض لها تأْخذ نصف ما فرض، ولم يعن بالآية إسقاط متعتها، بل لها المتعة ونصف المفروض.

وقرأَ الجمهور: ﴿فنصفُ﴾ بالرفع، والمعنى: فالواجب نصف ما فرضتم. وقرأَت فرقة: [فنصفَ] بنصب الفاءِ، والمعنى: فادفعوا نصف. وقرأَ علي بن أَبي طالب، وزيد بن ثابت: [فنُصفُ] بضم النون في جميع القرآن وهي لغة، وكذلك روى الأَصمعي قراءَة عن أَبي عمرو بن العلاءِ.

وقوله تعالى: ﴿إِلا أَن يَعْفونَ﴾ استثناءٌ منقطع لأَن عفوهن عن النصف ليس من جنس أَخذهن[1] و﴿يَعْفُونَ﴾، معناه: يتركن ويصفحن، ووزنه يفْعُلن[2]. والمعنى: إلا أَن يتركن النصف الذي وجب لهن عند الزوج.

والعافيات في هذه الآية كلُّ امرأَة تملك أَمر نفسها، وقال ابن عباس، وجماعة من الفقهاءِ والتابعين: ويجوز عفو البكر التي لا ولي لها[3]. وحكاه سحنون في «المدونة» عن غير ابن القاسم، بعد أَن ذكر لابن القاسم أَن وضْعَها نصف الصَّداقِ لا يجوز.

وأَما التي في حِجْر أَب أَو وصِيٍّ فلا يجوز وضعها لنصف صداقها قولاً واحداً[4] فيما أَحفظ.

واختلف الناس في المراد بقوله: ﴿أَوْ يَعْفُو الذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾.

---

(١) أشار بذلك إلى أن الواو لام الكلمة، ومثل هذه الصيغة تسند إلى الرجال وإلى النساء، فتقول: «الرجال يعفون» «والنساء يعفون»، إلا أن الواو في الأول ضمير ولام الكلمة محذوف، وفي الثاني الواو لام الكلمة والنون ضمير النسوة، وفي الأول معرب وفي الثاني مبني، وفي الأول وزنه يفْعُون وفي الثاني يفْعُلن.

(٢) أي المهملة.

(٣) لأن العفو تركٌ، والترك غير الأخذ.

(٤) لأنها محجورة، وهي لا كلام لها في تفويت شيء من مالها.

فقال ابن عباس، وعلقمة، وطاوس، ومجاهد، وشريح، والحسن، وإبراهيم، والشعبي، وأبو صالح، وعكرمة، والزهري، ومالك وغيرهم: هو الولي الذي المرأة في حِجره، فهو الأب في ابنته التي لم تملك أمرها، والسيد في أَمَتِهِ، وأما شريح فإنه جوز عفو الأخ عن نصف المهر، وقال: أنا أعفو عن مُهُورِ بَني مُرة وإن كرهن، وكذلك قال عكرمة: يجوز عفو الذي عقد عقدة النكاح بينهما، كان عماً أو أخاً أو أباً، وإن كرهت[1].

وقالت فرقة من العلماءِ: الذي بيده عقدة النكاح الزوج، قاله علي بن أَبي طالب، وقاله ابن عباس أَيضاً، وشريح أَيضاً رجع إليه، وقاله سعيد بن جبير، وكثير من فقهاءِ الأَمصار.

فعلى القول الأَول الندب لهما هو في النصف الذي يجب للمرأَة، فإما أَن تعفو هي، وإما أَن يعفو وليها، وعلى القول الثاني فالندب في الجهتين، إما أن تعفو هي عن نصفها، فلا تأْخذ من الزوج شيئاً، وإما أَن يعفو الزوج عن النصف الذي يُحط، فيؤدي جميع المهر، وهذا هو الفضل منهما، وبحسب حال الزوجين يحسن التحمل والتجمل.

ويروى أَن جبير بن مطعم دخل على سعد بن أَبي وقاص فعرض عليه ابنة له فتزوجها، فلمَّا خرج طلقها وبعث إليه بالصداق، فقيل له: لم تزوجتها؟ فقال: عَرَضَهَا عليَّ فكرهت رده ـ قيل: فلم تبعث بالصداق؟ قال: فأين الفضل؟.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله[2]:

ويحتج القائلون بأَنَّ الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج ـ بأَن هذا الولي لا يجوز له ترك شيءٍ من صداقها قبل الطلاق، فلا فرق بعد الطلاق، وأَيضاً فإنه لا يجوز له ترك شيءٍ من مالها الذي ليس من الصداق، فَمَالَهُ يترك نصفَ الصَّداق؟ وأَيضاً فإنه إذا قيل: إنه الولي، فما الذي يخصص بعض الأَولياءِ دون بعض وكلهم بيده عقدة النكاح، وإن

---

(١) معنى ذلك أن هؤلاء بعد أن اتفقوا على أن الذي بيده عقدة النكاح هو الولي ـ منهم من خصصه بالأب والسيد، ومنهم مَن عَمَّمه في كل ولي قريب أو بعيد.

(٢) ذكر ثلاثة أوجه ترجح أن الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج، وذكر أربعة أوجه تؤيد القول الآخر، وأنه الولي الحاجر إلا أن غالب هذه الأوجه مدخول.

كان كافلاً، أَو وصياً، أَو الحاكم، أَو الرجل من العشيرة؟ ويحتج من يقول: إِنه الولي الحاجر بعبارة الآية لأَن قوله: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ عبارةٌ متمكنة في الولي، وهي في الزوج قلقةٌ بعض القلق. وليس الأَمر في ذلك كما قال الطبري، ومكي من أَن المطلق لا عقدة بيده، بل نسبة العقدة إِليه باقية، من حيث كان عَقَدها قبل[1]. وأَيضاً فإِن قوله: ﴿إِلا أَنْ يَعْفُونَ﴾ لا يدخل فيه من لا تملك أَمرها، لأَنها لا عفْو لها، فكذلك لا يغبن النساءُ بعفو من يملك أَمر التي لا تملك أَمرها[2]. وأَيضاً فإِن الآية إِنما هي ندب إِلى ترك شيءٍ قد وجب في مال الزوج، يعطي ذلك لفظ العفو الذي هو الترك والاطراح، وإِعطاءُ الزوج المهر كاملاً لا يقال فيه عفو، إِنما هو انتداب إِلى فضل[3]. اللهم إِلا أَن تقدر المرأَة قد قبضته[4]. وهذا إِطار لا يعتد به. قال مكي: وأَيضاً فقد ذكر الله الأَزواج في قوله: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ ثم ذكر الزوجات بقوله: ﴿يَعْفُونَ﴾ فكيف يعبر عن الأَزواج بعد بالذي بيده عقدة النكاح؟ بل هي درجة ثالثة، لم يبق لها إِلا الولي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر[5].

وقرأَ الجمهور: ﴿أَوْ يَعْفُوَ﴾ بفتح الواو لأَن الفعل منصوب. وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [أَو يعفو الذي] بواو ساكنة. قال المهدوي ذلك على التشبيه بالأَلف[6]. ومنه قول عامر بن الطفيل:

فَمَا سَوَّدَتْني عامِرٌ عَنْ وِرَاثَةٍ ... أَبَى الله أَنْ أَسْمُو بِأُمٍّ ولا أَبِ[7]

---

(١) وقد قال الله تعالى: ﴿وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حتى يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَه﴾ فالخطاب للأزواج والزوج هو القادر على حل عقدة النكاح بالطلاق.

(٢) هو ملائم لكون المراد بمن بيده عقدة النكاح هو الزوج. تأمل.

(٣) قد يقال فيه عفو على سبيل المشاكلة والمشابهة، وهو مجازٌ من مجازات العرب.

(٤) فيكون التعبير بالعفو ظاهراً لأنه تركه لها ولم يسترجعه إلا أن هذا نادر، والنادر لا يعتد به.

(٥) وجهه والله أعلم ـ أن ذلك جاء على طريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، ومما يقوي كون المراد به الزوج إجماع أهل العلم على أنه لا يجوز للأب أن يهب شيئاً من مال بنته لا لزوج ولا لغيره، فكذلك المهر إذ لا فرق، وقد سبق هذا في قول ابن عطية، فكذلك لا يغبن النساءُ بعفو من يملك أمر التي لا تملك أمرها.

(٦) نحو «لن يخشى»: فتقدر الفتحة في (الواو) كما تقدر في (الألف).

(٧) سوده عليهم: جلعه سيِّداً ـ يقول: إنه ساد قومه لصفاته وشخصيته لا بسبب الوراثة. والشاهد في كلمة (أسمو) حيث جاءت الواو ساكنة وحقُّها أن تكون بالفتحة، ورأى المهدوي أن ذلك على تقدير الفتحة=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي عندي أنه استثقل الفتحة على واو متطرفة قبلها متحرك، لقلة مجيئها في كلام العرب، وقد قال الخليل رحمه الله: لم يجئْ في الكلام واوٌ مفتوحة متطرفة قبلها فتحة إلا في قولهم «عفوة» وهو جمع «عفو» وهو ولد الحمار، وكذلك الحركة ما كانت قبل الواو المفتوحة فإنها ثقيلة(١).

ثم خاطب تعالى الجميع نادباً بقوله: ﴿وأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى﴾ أَي: يا جميع الناس، وهذه قراءَة الجمهور بالتاءِ باثنين من فوق. وقرأَ أَبو نهيك، والشعبي: [وأَنْ يَعْفُو] بالياءِ، وذلك راجع إِلى الذي بيده عقدة النكاح.

وقرأَ الجمهور: ﴿وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ﴾، وقرأَ علي بن أَبي طالب، ومجاهد، وأَبو حيوة، وابن أَبي عبلة: [وَلا تَنَاسَوُا الفَضْلَ] وهي قراءَةٌ متمكنة المعنى، لأَنه موضع تناس لا نسيان إِلا على التشبيه(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ﴾ ندب إِلى المجاملة. قال مجاهد: الفضل إِتمام الزوج الصداق كله، أو ترك المرأَة النصف الذي لها.

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ خبر في ضمنه الوعد للمُحْسن، والحرمان لغير المحسن.

قوله عز وجل:

﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾.

الخطاب لجميع الأُمة، والآية أَمر بالمحافظة على إِقامة الصلوات في أَوقاتها بجميع شروطها.

= على الواو كما تقدر على الألف في (يخشى ويسعى) وأمثالهما، وإن كان ابن عطية قد عقب برأي آخر. تأمله.

(١) فلا خصوصية للفتحة، بل ذلك يأتي في كل حركة قبل الواو المفتوحة المتطرفة إلا أن في ذلك تفصيلاً، ذكره (ح) في البحر المحيط.

(٢) أي تشبيه التناسي بالنسيان، والجامع بينهما الترك في كلٍّ، إلا أنه في التناسي عن عمد، وفي النسيان عن ذهول.

وذكر تعالى الصلاة الوسطى ثانية، وقد دخلت قبلُ في عموم قوله: (الصلَوات) لأَنه قصد تشريفها وإِغراءَ المصلين بها. وقرأَ أَبو جعفر الرُّؤَاسي[(١)] [والصَّلاةَ الوُسْطَىٰ] بالنصب على الإِغراءِ. وقرأَ كذلك الحلواني[(٢)].

واختلف الناس في أَي صلاة هو هذا الوصف.

فذهبت فرقة إِلى أَنها الصبح، وأَن لفظ وُسطىٰ[(٣)] يراد به الترتيب لأَنها قبلها صلاتا ليل يُجهر فيهما، وبعدها صلاتا نهار يُسَرُّ فيهما، قال هذا القول علي بن أَبي طالب، وابن عباس[(٤)]، وصلى[(٥)] بالناس يوماً الصبح فقنت قبل الركوع، فلما فرغ قال: هذه الصلاة الوسطى التي أَمرنا الله أَن نقوم فيها قانتين، وقاله أَبو العالية، ورواه عن جماعة من الصحابة، وقاله جابر بن عبد الله، وعطاءُ بن أَبي رباح، وعكرمة، ومجاهد، وعبد الله بن شداد بن الهادي[(٦)]، والربيع ومالك بن أَنس. وقوَّى مالكٌ ذلك بأَنَّ الصبح لا تجمع إِلى غيرها، وصلاتا جمع قبلها وصلاتا جمع بعدها[(٧)]. وقد قال رسول الله ﷺ: (لو يعلمون مافي العَتَمَة والصُّبح لأَتوهما ولو حَبَوا)، وقال: (إِنهما أَشد الصلوات على المنافقين)[(٨)]، (وفضل الصبح لأَنها كقيام ليلة لمن شهدها،

---

(١) هو محمد بن الحسن بن أبي سارة الكوفي النحوي، إمام مشهور، روى الحروف عن أبي عمرو، وله اختيار في القراءة يروى عنه، واختيار في الوقوف، روى عنه عليٌّ بن حمزة الكسائي، وخلاد بن خالد الصيرفي.

(٢) هو أحمد بن يزيد الصفار المعروف بازداذ. أبو الحسن الحلواني، إمام كبير عارف صدوق متقن ضابط خصوصاً في قالون وهشام، توفي سنة ٢٥٠هـ.

(٣) الذي تقتضيه قواعد اللغة العربية أن (الوسطى) مؤنث الأوسط بمعنى الفُضْلى مؤنث الأفضل، وأفعل التفضيل لا يبنى إلا مما يقبل الزيادة والنقصان، وكل ما لا يكون كذلك فلا يبنى منه أفعل التفضيل، وكون الشيء وسَطاً بين شيئين يجعله صالحاً لأن يبنى منه أفعل التفضيل، فينبغي أن يكون معنى الوسطى الفضلى، لأن ذلك يرجع إلى معنى يقبل التفاوت والتفاضل.

(٤) رواه الإمام مالك عنهما في الموطأ بلاغاً.

(٥) أي ابن عباس رضي الله عنهما. وقد تفيد (الواو) في قول ابن عطية رواية عن الإمام مالك: (وصلى) أن ابن عباس قال ذلك حين صلى بالناس يوماً الصبح... الخ.

(٦) هو الليثي. ولد على عهد رسول الله ﷺ، وكان من أهل العلم، روى عن عمر وعلي وعن أبيه شداد.

(٧) قبلها صلاة المغرب والعشاء، وبعدها صلاة الظهر والعصر، وكل من الصلاتين يجمع تقديماً وتأخيراً.

(٨) هذه الأحاديث التي تتضمن فضل صلاة العشاء والصبح غير واضحة الدلالة على أنها هي الصلاة الوسطى، والحديث الأول والثاني رواه البخاري وغيره.

والعَتَمَة نصف ليلة)[١]. وقال الله: ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾[٢] فيقوي هذا كله أمر الصبح.

وقالت فرقة: هي صلاة الظهر، قاله زيد بن ثابت، ورفع فيه حديثاً عن النبي ﷺ[٣] وقاله أَبو سعيد الخدري، وعبد الله بن عمر، واحتج قائلو هذه المقالة بأَنهاأَول صلاة صلِّيت في الإِسلام فهي وسطى بذلك، أَي فُضلى، فليس هذا التوسط في الترتيب، وأَيضاً، فروي أَنها أَشق الصلوات على أصحاب النبي ﷺ لأنها كانت تجيءُ في الهاجرة وهم قد نَفِهَتْهُمْ أَعمالهم في أَموالهم[٤]، وأَيضاً فيدل على ذلك ما قالته حفصة وعائشة حين أَمْلَتَا (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاةِ الوُسْطَىٰ «وصلاة العصر»[٥] فهذا اقتران الظهر والعصر.

وقالتِ فرقة: الصلاة الوسطى صلاة العصر، لأَنها قبلها صلاتا نهار وبعدها صلاتا ليل، ورُوي هذا القول عن علي بن أَبي طالب، وابن عباس، وأَبي هريرة، وابن عمر، وأَبي سعيد الخدري، وفي مصحف عائشة رضي الله عنها: ﴿والصَّلاة الوُسْطى﴾ «وهي العصر» وهو قولها المروي عنها. وقاله الحسن البصري، وإبراهيم النخعي، وفي إِملاءِ حفصة أَيضاً: ﴿والصَّلاةُ الوُسْطى﴾ [وهي صلاة العصر]. ومن روى، [وصلاة العصر] فيتأَول أَنه عطف إِحدى[٦] الصفتين على الأُخرى وهما لشيءٍ واحد[٧] كما تقول:

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، والإمام مسلم.

(٢) من الآية (٧٨) من سورة الإسراء.

(٣) رواه ابن جرير الطبري مرفوعاً، وروى مالك في موطنه، وأبو داود الطيالسي في مسنده عن زيد بن ثابت قال: (الصلاة الوسطى صلاة الظهر) زاد أبو داود الطيالسي: «كان رسول الله ﷺ يصليها بالهجير».

(٤) أي أعيتهم وأتعبتهم أعمالهم. يقال: نَفِهت نفسُ فلان نفها: أعْيَتْ وكلَّت. فهو نافهٌ (ج) نُفَّه.

(٥) يعني أن اقتران صلاة العصر بالصلاة الوسطى دلالة على أن المراد بها الظهر إذ للقرآن معنى خاص، ويأتي أن هذه الزيادة هي من تفسير النبي ﷺ، وليست من القرآن. وقد يقال أيضاً: إن هذه الزيادة ربما تدل على أن صلاة العصر غير صلاة الوسطى، لأن العطف يقتضي المغايرة، وهذا مصادم لما قاله النبي ﷺ يوم الأحزاب.

(٦) حاصله أنه رُوى: «والصلاة الوسطى وصلاة العصر» بالعطف، وبدون عطف على أنها بدل، وروي أيضاً: «والصلاة الوُسْطى وهي العصر»، والصَّلاة الوسطى وهي صلاة العصر»، فهذه أربع روايات، وهي تتعارض فيما بينها، وحديث البراءِ بن عازب قد يدل على نسخ ذلك، فتأمل، وأياً ما يكون فإن ذلك من باب التفسير، وليس من القرآن في شيء لعدم تواتره، ولذا لم يثبت في المصحف الإمام.

(٧) فهو من عطف الصفات، لا من عطف الذوات، وكان ذلك لاختلاف اللفظين.

«جاءَني زيد الكريم والعاقل». وروي عن ابن عباس أنه قرأ: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ الوُسْطَى «صلاة العصر») على البدل، وروى هذا القول سَمُرة بن جندب عن النبي ﷺ. وتواتر الحديث عن النبي ﷺ أنه قال يوم الأحزاب: (شَغَلُونا عنِ الصَّلاةِ الوُسْطَى صَلاة العصر ملأ الله بُيوتهم وقُبورهم ناراً). وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: «كنا نرى أَنها الصبح حتى قال رسول الله ﷺ يوم الأَحزاب: (شَغَلُونَا عن الصَّلاة الوُسْطَى صَلاةِ العَصْر)، فعرفنا أَنها العصر».

وقال البراءُ بن عازب: كنا نقرأُ على عهد النبي ﷺ: «حافظوا على الصلوات وصلاة العصر»، ثم نسخها الله فقرأنا: (حَافظُوا عَلَى الصَّلَواتِ والصَّلاة الوُسْطَى)، فقال له رجل: فهي العصر؟ قال: قد أَخبرتك كيف قرأْناها وكيف نسِخت[1]، والله أَعلم.

وروى أَبو مالك الأَشعري، أَن رسول الله ﷺ قال: (الصَّلاة الوسطى صلاة العصر)[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا القول جمهور الناس، وبه أَقول والله أَعلم[3].

وقال قبيصة بن ذؤَيب: الصلاة الوسطى: صلاة المغرب لأَنها متوسطة في عدد الركعات، ليست ثنائية ولا رباعية، وأَيضاً فقبلها صلاتا سر، وبعدها صلاتا جهر.

وحكى أَبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر في شرح باب جامع الوقوت وغيره، عن فرقة، أَن الصلاة الوسطى صلاة العشاءِ الآخرة، وذلك أَنها تجيءُ في وقت نوم،

---

(١) هذا الحديث رواه الإمام مسلم، وغيره، وقد عضد به ابن عطية رحمه الله القول بأن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، وفهمه أبو عبد الله (ق) رحمه الله على أنها مبهمة غير معينة فقال: «يلزم من هذا الحديث أنه بعد أن عينت نسخ تعيينها وأُبهمت»، ثم قال: «وهذا هو الصحيح إن شاء الله لتعارض الأدلة وعدم الترجيح فلم يبق إلا المحافظة على الصلوات الخمس وأدائها في أوقاتها».

(٢) رواه ابن جرير، وقال الحافظ بن كثير: إسناده لا بأس به، ورواه أيضاً عن النبي ﷺ عبد الله بن مسعود، وسمرة بن جندب كما عند الترمذي في جامعه، وابن حبان في صحيحه.

(٣) هذا القول هو الراجح عند أهل الحديث، وهو قول الجمهور، ورجحه الإمام الطبري وأبو بكر بن العربي المعافري، وأبو محمد بن عطية، وأبو حيان الأندلسي، وشيخه الحافظ أبو محمد، وغيرهم من الأعلام، وما ذلك إلا لأنه استفاض من قول رسول الله ﷺ يوم الأحزاب، ولا قول لأحد مع قول النبي ﷺ، إلا أنه قد يقال: إذا كان قد ثبت ذلك عن النبي ﷺ فلماذا اختلف الصحابة في هذه المسألة اختلافاً واسعاً؟ وقد قدمنا عن أبي عبد الله (ق) أنه صحح أنها مبهمة لتعارض الأدلة وانعدام الترجيح، والله أعلم.

وهي أَشد الصلوات على المنافقين، ويستحب تأخيرها، وذلك شاق، فوقع التأكيد في المحافظة عليها، وأَيضاً فقبلها صلاتان وبعدها صلاتان.

وقالت فرقة: الصلاة الوسطى لم يعينها الله تعالى فهي في جملة الخمس غير معينة كليلة القدر في ليالي العشر، فعل الله ذلك لتقع المحافظة على الجميع، قاله نافع عن ابن عمر، وقاله الربيع بن خثيم.

وقالت فرقة: الصلاة الوسطى هي صلاة الجمعة، فإنها وسطى فضلاً لِمَا خُصَّت به من الجمع والخطبة، وجعلت عيداً، ذكره ابن حبيب ومكي.

وقال بعض العلماءِ: الصلاة الوسطى: المكتوبة الخمس[١]. وقوله أَولا: (عَلَى الصَّلَوَاتِ) يعم النفل والفرض، ثم خص الفرض بالذكر، ويجري مع هذا التأْويل قوله ﷺ: (شغلونا عن الصلاة الوسطى).

وقوله تعالى: (وقُومُوا لله قانِتِين) معناه: في صلاتكم، واختلف الناس في معنى قانتين ـ فقال الشعبي: معناه: مطيعين. وقاله جابر بن زيد، وعطاءٌ وسعيد بن جبير. وقال الضحاك: كل قنوت في القرآن فإنما يعنى به الطاعة، وقاله أَبو سعيد عن النبي ﷺ، وإن أَهل كل دين فهم اليوم يقومون عاصين، فقيل لهذه الأُمة: وقوموا لله مطيعين. وقال نحو هذا الحسن بن أَبي الحسن، وطاوس. وقال السدي: قانتين معناه: ساكتين[٢].

وهذه الآية نزلت في المنع من الكلام في الصلاة، وكان ذلك مباحاً في صدر الإسلام، وقال عبد الله بن مسعود: كنا نتكلم في الصلاة ونرد السَّلام ويسأَل الرجل صاحبه حاجته قال: ودخلت يوماً والنبي ﷺ يصلي بالناس فسلمت، فلم يرد علي أَحد فاشتد ذلك عليَّ، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: (إِنه لم يمنعني أن أَرد عليك إِلا أَنا أُمرنا أَن نقوم قانتين لا نتكلم في الصلاة).

---

(١) هذا غير ما سبق من أنها في جملة الخمس غير معينة، وحاصله أن من العلماء من يقول: هي واحدة من الصلوات الخمس إلا أنها مبهمة، ومنهم من يقول: هي مجموع الصلوات الخمس ولوقال: الخمس المكتوبة لكان أوضح.

(٢) القنوت يتصرف في الكلام على معان كثيرة ـ إلا أن الراجح حمله على معنى السكوت في الآية لحديث عبد الله بن مسعود، ولحديث زيد بن أرقم في الصحيحين وغيرهما، وأما القنوت بمعنى الدعاء فقد داوم عليه ﷺ في الصبح دون غيرها.

والقنوت: السكوت، قاله زيد بن أرقم وقال: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت: (وَقُومُوا لله قَانِتِينَ) فأُمرنا بالسكوت. وقال مجاهد: خاشعين، القنوت: طول الركوع والخشوع، وغض البصر، وخفض الجناح، وإحضار الخشية والفكر في الوقوف بين يدي الله تعالى.

وقال الربيع: القنوت: طول القيام وطول الركوع والانتصاب له. وقال قوم: القنوت: الدعاءُ. وقانتين معناه: داعين. روي معنى هذا عن ابن عباس.

وفي الحديث: قنت رسول الله ﷺ شهراً يدعو على رعل وذكوان، فقال قوم: معناه دعا ـ وقال قوم: معناه طوَّل قيامه، ولا حجة في هذا الحديث لمعنى الدعاءِ[1].

قوله عز وجل:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

أَمر الله تعالى بالقيام له في الصلاة، بحالة قنوت، وهو الوقار والسكينة، وهدوءُ الجوارح، وهذا على الحالة الغالبة من الأمن والطمأنينة، ثم ذكر تعالى حالة الخوف الطارئة أَحياناً، فرخص لعبيده في الصلاة رجالاً متصرفين على الأقدام، وركباناً على الخيل والإِبل[2] ونحوهما، إيماءً وإِشارة بالرأس حيث ما توجه. هذا قول جميع العلماءِ، وهذه هي صلاة الفذ الذي قد يضايقه الخوف على نفسه في حال المسايفة، أَو من سبع يطلبه، أَو عدو يتبعه، أَو سيل يحمله.

وبالجملة ـ فكل أَمر يخاف منه على روحه فهو يبيح ما تضمنته هذه الآية.

---

(١) أي بدليل قوله: يدعو على رعل وذكوان، فلو كان قنت معناه دعا لتكرر ذلك، وإنما معناه أطال القيام للدعاء على رعل وذكوان الذين قتلوا القراء ببئر معونة.

تنبيه: القيام في الفرض واجب على كل من قدر عليه فذاً كان أو إماماً، واختلفوا في المأموم إذا صلى قاعداً خلف إمام لا يستطيع القيام فقال بعضهم: إن ذلك جائز لقوله ﷺ: (إذا صلى جلوساً فصلوا جلوساً أجمعون). وهو الصحيح، وقال بعضهم: يجوز أن يصلي خلفه وهو قائم إذ كل منهما يؤدي فرضه على حسب طاقته، انظر تفسير (ق) رحمه الله.

(٢) الراكب: راكب البعير، وراكب الفرس، وقد يطلق الراكب عليهما معاً.

وأَما صلاة الخوف بالإمام وانقسام الناس فليس حكمها في هذه الآية[(١)]. وفرَّق مالك رحمه الله بين خوف العدو المقاتل، وبين خوف السبع ونحوه، بأَن استحب في غير خوف العدو الإعادة في الوقت، إن وقع الأمن، وأَكثر فقهاءِ الأَمصار على أَن الأَمر سواءٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَرِجَالاً﴾ هو جمع راجل، أَو رَجِل ـ من قولهم: رجِل الإنسان يرجل رجلاً، إذا عدم المركوب ومشى على قدميه، فَهو رَجِلٌ وراجِلٌ ـ ورجُل ـ بضم الجيم ـ وهي لغة أَهل الحجاز، يقولون: مشى فلان إلى بيت الله حافياً رجُلا ـ حكاه الطبري وغيره، ورَجْلان وَرَجِيل ورَجْل. وأَنشد ابن الأَعرابي في رجْلان:

عَلَــيَّ إذا لا قَيْــتُ لَيْلَــى بِخَلْــوَةٍ أَنَ ازْدَارَ بَيْتَ اللهِ رَجْلانَ حَافِيا[(٢)]

ويجمع على رجال ورَجْلى ورَجَالى ورُجالى ورجَّالة ورُجال ورُجَّالى ورُجْلان ورَجْلة ورجَلَة بفتح الجيم وأَرجِلة وأَراجِل وأَرَاجيل، والرَّجُل الذي هو اسم الجنس يجمع أَيضاً على رجالٍ، فهذه الآية وقوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالا﴾[(٣)] هما من لفظ الرَّجِلة أَي عدم المركوب. وقوله تعالى: ﴿شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾[(٤)] فهو جمع اسم الجنس المعروف، وحكى المهدوي عن عكرمة، وأَبي مجلز أَنهما قرآ: [فرُجَّالا] بضم الراءِ وشدِّ الجيم المفتوحة.

وعن عكرمة أَيضاً أَنه قرأَ: [فرُجالاً] بضم الراءِ وتخفيف الجيم. وحكى الطبري عن بعضهم أَنه قرأَ: [فرُجَّلا] دون أَلف على وزن فُعَّل بضم الفاءِ وشد العين[(٥)].

وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿أَو ركباناً﴾، وقرأَ بريد بن ميسرة[(٦)] [فرجَالاً فَرُكباناً] بالفاءِ.

---

(١) يأتي حكم ذلك في سورة النساء، والحاصل أن الحكم المذكور هنا هو في صلاة السيف، وفيما يأتي في صلاة الخوف.

(٢) ازداره: زاره.

(٣) من الآية (٢٧) من سورة الحج.

(٤) من الآية (٢٨٢) من سورة البقرة.

(٥) وقرىء أيضاً: ﴿فرَجْلا﴾ بفتح الراء وسكون الجيم، ومن ذلك قولهم، أغار عليهم بخيله ورَجْله، فجملة القراءات خمس.

(٦) لعلَّه بديل بن ميسرة العقيلي البصري العابد الزاهد المتوفّىٰ سنة ١٣٠هـ. ومن كلامه: من أراد بعلمه وجه الله أقبل الله عليه بوجهه، وأقبل بقلوب العباد إليه، ومن عمل لغير الله تعالى صرف عنه وجهه، =

والركبان جمع راكب، وهذه الرخصة في ضمنها بإجماع من العلماءِ أَن يكون الإنسان حيث ما توجه من السموت(١)، ويتقلب ويتصرف بحسب نظره في نجاة نفسه.

واختلف الناس ـ كم يُصلَّى من الركعات؟ فمالك رحمه الله، وجماعةٌ من العلماءِ لا يرون أَن ينقص من عدد الركعات شيئاً، بل يصلي المسافر ركعتين ولا بد.

وقال الحسن بن أَبي الحسن، وقتادة، وغيرهما: يصلي ركعة إيماءً. وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أَربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة. وقال الضحاك بن مزاحم: يصلي صاحب خوف الموت في المسايفة وغيرها ركعة، فإن لم يقدر فليكبر تكبيرتين. وقال إسحق ابن راهويه: فإن لم يقدر إلا على تكبيرة واحدة أجزأَت عنه، ذكره ابن المنذر(٢).

واختلف المتأَولون في قوله: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فاذْكُرُوا الله﴾ الآية ـ فقالت فرقة: المعنى: فإذا زال خوفكم الذي أَجاءكم(٣) إلى هذه الصلاة فاذكروا الله بالشكر على هذه النعمة في تعليمكم هذه الصلاة التي وقع بها الإجزاءُ، ولم تفتكم صلاة من الصلوات، وهذا هو الذي لم يكونوا يعلمونه. وقالت فرقة: المعنى: فإذا كنتم آمنين قبل، أَو بعد، كأَنه قال: فمتى كنتم على أَمن فاذكروا الله، أَي صلوا الصلاة التي قد علمتموها، أَي: فصلوا كما علمكم صلاة تامة. حكاه النقاش وغيره.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقوله ـ على هذا التأْويل: ﴿مَالَمْ تَكُونُوا﴾ بدل من (ما) التي في قوله، (كما)، وإلا لم يتسق لفظ الآية، وعلى التأْويل الأَول (ما) مفعولة بـ﴿علَّمَكُمْ﴾.

= وصرف قلوب العباد عنه.

(١) جمع سَمْت بمعنى الطريق ـ أي أنه في هذه الحالة لا يجب عليه سَمْتٌ معين فأينما ولى وجهه فَثَمَّ وجهُ الله.

(٢) هذا مما يدل على قيمة الصلاة عند الله، وعظيم قدرها، وأنها لا تسقط بحال من الأحوال. لا في حال الخوف، ولا في حال المرض، وأنها تُؤَدَّى ولو بتكبيرة، ولو بإشارة، وهذا فصل ما بينها وبين غيرها من سائر العبادات فإنها تسقط بالأعذار، والصلاة لا يرخص في تركها أبداً، ذلك أنه دعاءٌ وحالة الخوف أولى بالدعاء كما قال تعالى: ﴿واسْتَعينوا بِالصَّبْر والصَّلاةِ﴾. وأيضاً فهي قوة معنوية ويجب على الخائف أن يعد قوته المادية وقوته المعنوية كما قال تعالى: ﴿وَأعِدُّوا لهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أي مادية ومعنوية.

(٣) أي ألجأكم إلى الصلاة رجالاً وركباناً كيفما تَيَسَّر لكم وحيثما توجهت.

وقال مجاهد: معنى قوله: (فَإِذَا أَمِنتُمْ) فإذا خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة(١). ورد الطبري على هذا القول(٢)، وذلك فيه تحويم على المعنى كثير، والكاف في قوله (كَما) للتشبيه بين ذكر الإنسان لله ونعمة الله عليه في أن تعادلا، وكان الذكر شبيهاً بالنعمة في القدر وكفاءً لها، ومَنْ تأول (اذْكُرُوا) بمعنى صلُّوا على ماذكرناه، فالكاف للتشبيه بين صلاة العبد والهيئة التي علمه الله.

قوله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠)﴾.

﴿الذين﴾ رفع بالابتداءِ، والخبر في الجملة التي هي ﴿وَصِيَّة لأَزْوَاجِهِمْ﴾. وقرأ ابن كثير، ونافع، والكسائي، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ [وصيةٌ] بالرفع، وذلك على وجهين ـ أَحدهما: الابتداءُ، والخبر في الظرف الذي هو قوله: (لأَزْوَاجِهِمْ). ويحسن الابتداءُ بنكرة من حيث هو موضع تخصيص(٣)، كما حسُن أَن يرتفع «سلامٌ عليك». و«خيرٌ بين يديك» ـ و«أَمْتٌ في حَجَر لا فيك(٤)». لأَنها مواضع دعاءٍ، والوجه الآخر أَن تضمر له خبراً تقديره: عليهم وصيةٌ لأَزواجهم، ويكون قوله: (لأَزْوَاجِهِمْ) صفة(٥).

قال الطبري: قال بعض النحاة: المعنى: كتبت عليهم وصية، قال: وكذلك هي في قراءَة عبد الله بن مسعود.

---

(١) لأن السفر مظنة الخوف، والإقامة مظنة الأمن، والمعنى: فإذا زال خوفكم فاذكروا الله كما علمكم، أي حافظوا على شروطها وأركانها، ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة النساء: ﴿فَإِذا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصلاة﴾ الخ.

(٢) قال: إنه لم يجر ذكر للسفر في هذه الآية، ولو جرى له ذكر لقيل: «فإذا أقمتم»، بدل (فإذا أمِنتُمْ)، وأيضاً فإنه يجب أداءُ الصلاة في السفر تامة بركوعها وسجودها وقيامها، إلا أن مجاهداً رحمه الله حوم على هذا المعنى تحويماً كثيراً.

(٣) لما كان موضع تخصيص حسن الابتداء به كما حسن الابتداء بما بعده لأنها موضع دعاء. والمراد أنها وصية خاصة بالأزواج لا وصية عامة.

(٤) الأمتُ هنا: الضعف والوهن ـ قال سيبويه: «وقالوا: أمتٌ في الحجارة لا فيك، ومعناه: أبقاك الله بعد فناء الحجارة.

(٥) أي على الإعراب الأخير وهو حذف الخبر.

وقرأ أَبو عمرو، وحمزة، وابن عامر: [وصيةً] بالنصب، وذلك حمل على الفعل كأَنه قال: ليوصوا وصيةً و(لأَزْوَاجِهِمْ) ـ على هذه القراءَة ـ صفةٌ أَيضاً. قال هارون[1]: وفي حرف أُبي بن كعب [وصِيَّةٌ لأَزْوَاجِهِمْ، مَتَاعٌ] بالرفع، وفي حرف ابن مسعود: [الوصية لأَزواجهم متاعاً]. وحكى الخفاف[2] أَن في حرف أُبي [فمتاع لأَزواجهم] بدل [وصية]. ومعنى هذه الآية: أَن الرجل إِذا مات، كان لزوجته أَن تقيم في منزله سنة، ويُنْفَقُ عليها من ماله، وذلك وصية لها.

واختلف العلماءُ ـ مِمَّن هي هذه الوصية؟ ـ فقالت فرقة: كانت وصية من الله تعالى، تجب بعد وفاة الزوج. قال قتادة: كانت المرأَة إِذا توفي عنها زوجها، فلها السكنى والنفقة حولا في مال زوجها، ما لم تخرج برأْيها، ثم نسخ ما في هذه الآية من النفقة بالربع أَو الثمن الذي في سورة النساءِ، ونسخ سكنى الحول بالأَربعة الأَشهر والعشر، وقاله الربيع، وابن عباس، والضحاك، وعطاءٌ، وابن زيد. وقالت فرقة: بل هذه الوصية هي من الزوج، كانوا ندبوا إِلى أَن يوصوا للزوجات بذلك، فيتوفون على هذا القول معناه: يقاربون الوفاة، ويحتضرون، لأَن الميت لا يوصي. قال هذا القول قتادة أَيضاً، والسدي، وعليه حمل الآية أَبو علي الفارسي في الحجة[3]. قال السدي: إِلا أَن العدَّة كانت أَربعة أَشهر وعشراً، وكان الرجال يوصون بسكنى سنة، ونفقتها، ما لم تخرج، فلو خرجت بعد انقضاءِ العدة ـ الأَربعة الأَشهر والعشر ـ سقطت الوصية، ثم نسخ الله تعالى ذلك بنزول الفرائض فأَخذت ربعها أَو ثمنها، ولم يكن لها سكنى ولا نفقة، وصارت الوصايا لمن لا يرث. وقال الطبري عن مجاهد: إِن هذه الآية محكمة لا نسخ فيها، والعدة كانت قد ثبتت أَربعة أَشهر وعشراً، ثم جعل الله لهن وصية منه سكنى سبعة أَشهر وعشرين ليلة، فإِن شاءَت المرأَة سكنت في وصيتها، وإِن شاءَت خرجت، وهو قوله تعالى: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُم﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَلفاظ مجاهد رحمه الله التي حكى عنه الطبري، لا يلزم منها أَن الآية محكمة،

---

(١) هو ابن موسى القاري الأعور النحوي أبو عبد الله البصري صاحب القرآن والعربية، سمع من طاوس اليماني وثابت الباني، وكان يهودياً فأسلم، ومات في حدود ١٧٠هـ، انظر بغية الوعاة.

(٢) هو إبراهيم بن محمد أبو إسحق المكي الخفاف. قرأ على أحمد البزي.

(٣) اسم كتاب له في القراءات.

ولا نص مجاهد على ذلك، بل يمكن أنه أراد ثم نسخ ذلك بعد بالميراث(١).

وَ(مَتَاعاً) نصب على المصدر(٢). وكان هذا الأمر إلى الحول من حيث العام معلم من معالم الزَّمان، قد أخذ بحظ من الطول.

وقوله تعالى: (غير إخْراج) معناه: ليس لأَولياءِ الميِّت ووارثي المنزل إخراجها و(غير) نصب على المصدر عند الأخفش، كأَنه قال: لا إخراجاً، وقيل: نصب على الحال من الموصين(٣). وقيل: هي صفة لقوله: (متاعاً).

وقوله تعالى: (فَإِنْ خَرَجْنَ) الآية، معناه: إن الخروج إذا كان من قبل الزوجة، فلا جناح على أَحد ـ ولي أَو حاكم أَو غيره ـ فيما فعلن في أَنفسهن، من تزويج، وترك حداد، وتزين، إذا كان ذلك من المعروف الذي لا ينكر.

وقوله تعالى: (والله عَزِيزٌ) صفةٌ تقتضي الوعيد بالنقمة لمن خالف الحد في هذه النازلة، فأَخرج المرأَة، وهي لا تريد الخروج، (حَكِيمٌ)، أَي محكم لما يأمر به عباده.

وهذا كله قد زال حكمه بالنسخ المتفق عليه، إلا ما قوله الطبري مجاهداً رحمه الله. وفي ذلك نظر على الطبري رحمه الله(٤).

قوله عز وجل:

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾.

اختلف الناس في هذه الآية.

---

(١) ما قاله الإمام الطبري عن مجاهد رحمهما الله تعالى قائم وثابت، انظر صحيح البخاري في التفسير، وما قاله مجاهد اختاره الطبري، وابن تيمية، والحافظ ابن كثير، وغيرهم، وهو ما يظهر إن شاء الله، فإن الجهة منفكة، ذلك أن هذه الآية تثبت حقاً للمرأة من النفقة والسكنى حولا فلها أن تأخذ بحقها، ولها أن تتركه، والآية السابقة تثبت حقاً على المرأة، وهو أن تعتد أربعة أشهر وعشراً، ولا كلام لها في ذلك، فالعدة أربعة أشهر وعشراً، وما زاد على ذلك هو باختيار المرأة. والله أعلم.

(٢) أي: متعوهن متاعاً.

(٣) أو من الأزواج، فعلى الأول يكون التقدير: غير مخرجين لهن، وعلى الثاني يكون: غير مخرجات من مساكنهن.

(٤) ممن حكى الاتفاق القاضي عياض رحمه الله، والحق أن النسخ غير متفق عليه، فالأكثر على أنها منسوخة، والأقل على أنها محكمة، والنظر يؤيده.

فقال أَبو ثور: هي محكمة، والمتعة لكل مطلقة، دخل بها أَو لم يدخل، فرض لها أَو لم يفرض بهذه الآية.

وقال الزهري: لكل مطلقة متعة، وللأَمة يطلقها زوجها.

وقال سعيد بن جبير: لكل مطلقة متعة.

وقال ابن القاسم في إِرخاءِ الستور من «المدونة»: جعل الله تعالى المتاع لكل مطلقة بهذه الآية، ثم استثنى في الآية الأُخرى التي قد فرض لها، ولم يدخل بها، فأَخرجها من المتعة، وزعم زيد بن أَسلم أَنها نسختها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فَفَرَّ ابن القاسم من لفظ النسخ إِلى لفظ الاستثناءِ، والاستثناءُ لا يتجه في هذا الموضع، بل هو نسخ محض، كما قال زيد بن أَسلم، وإِذا التزم ابن القاسم أَن قوله: (وَلِلْمطَلَّقَاتِ) عَمَّ كلَّ مطلقة، لزمه القول بالنسخ ولابد.

وقال عطاءُ بن أَبي رباح وغيره: هذه الآية في الثُّيَّب[1] اللواتي قد جومعن، إِذ قد تقدم في غير هذه الآية ذكر المتعة للواتي لم يدخل بهن، فهذا قول بأَن التي قد فرض لها قبل المسيس لم تدخل قط في هذا العموم، فهذا يجيءُ على أَن قوله تعالى: (وإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ) مخصصة لهذا الصنف من النساءِ، ومتى قيل: إِن العموم تناولها، فذلك نسخ لا تخصيص[2].

وقال ابن زيد: هذه الآية نزلت مؤكدة لأَمر المتعة، لأَنه نزل قبل (حقاً عَلَى الْمتَّقينَ) فوجب ذلك عليهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا الإِيجاب من تأْويل الطبري لا من لفظ ابن زيد.

وقوله تعالى: (حَقًّا) نصب على المصدر، و(الْمُتَّقِينَ) هنا ظاهره أَن المراد من

(١) الثيب يطلق على الذكر والأنثى، جمع المذكر ثيبون بالواو والنون، وجمع المؤنث ثيبات، قال الفيومي في المصباح: المولدون يقولون: ثُيَّب وهو غير مسموع، وأَيضاً ففيعل لا يجمع على فُعَّل.

(٢) سبق ما في هذا الكلام عند تفسير قوله تعالى: (وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ) الآية. وحاصل ما أشار إِليه أَن العموم إذا تناول الخصوص فهو نسخ، وإذا لم يتناوله فهو تخصيص.

تلبس بتقوى الله تعالى[١]، والكاف في قوله: (كَذَٰلِكَ) للتشبيه، و(ذلك) إشارة إلى هذا الشرح، والتنويع الذي وقع في النساءِ وإلى إلزام المتعة لهن، أَي كبيانه هذه القصة يبين سائر آياته، و(لَعَلَّكُمْ) ترج في حق البشر، ومن رأَىٰ هذا المبين له رجا أَن يعقل ما يبين له.

قوله عز وجل:

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾.

هذه رؤْية القلب بمعنى: أَلم تعلم، والكلام عند سيبويه بمعنى تنبه إلى أَمر الذين، ولا تحتاج هذه الرؤْية إلى مفعولين[٢].

وقصة هؤُلاءِ فيما قال الضحاك[٣]: هي أَنهم قوم من بني إسرائيل أُمروا بالجهاد فخافوا الموت بالقتل في الجهاد، فخرجوا من ديارهم فراراً من ذلك، فأَماتهم الله ليُعَرِّفهما أَنه لا يُنَجِّيهم من الموت شيءٌ، ثم أَحياهم وأَمرهم بالجهاد بقوله: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ) الآية.

وحكى قومٌ من اليهود لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أَن جماعة من بني إسرائيل وقع فيهم الوباءُ فخرجوا فراراً منه، فأَماتهم الله فبنى عليهم سائِرُ بني إسرائيل حائطاً، حتى إذا بلِيَتْ عظامهم بعث الله حزقيل النبيَّ عليه السلام فدعا الله فأَحياهم له.

(١) ظاهر هذا أن المتعة حقٌّ على المتلبسين بالتقوى فإن الذي يقوم بهذا الحق هو المتصف بالتقوى لا غيره، وهذا مما يدل على أن المتعة غير واجبة إذ لو وجبت لوجب القضاء بها على غير المتقي، وقد تقدم كلام الشعبي والقاضي شريح.

(٢) يريد أن الرؤية هنا بمعنى الإدراك، وهي مضمنة معنى التنبه أو الانتهاء، بمعنى: ألم ينته علمك إلى الذين خرجوا؟ ويجوز أن تكون بصرية أي: ألم تنظر إلى الذين خرجوا؟ ولما كانت هذه القصة بمكان من الشهرة جعلت بمثابة الشيء المعلوم أو الشيء المُبْصر الذي يُحْمل صاحبه على الإقرار به، فالرؤية علمية أو بصرية، والاستفهام للتقرير، والقصة مشهورة عند أهل الكتاب.

(٣) أَشار إلى الاختلاف في سبب نزول الآية، فقيل: إنهم فرُّوا من الجهاد الذي أُمروا به خوفاً من الموت، وقيل: إنهم خرجوا هاربين من الطاعون فأماتهم الله ثم أحياهم، وقد ثبت في صحيح الأحاديث أنه لا يجوز الفِرار من الطاعون، كما لا يجوز الدخول إلى بلد فيه الطاعون، وقضية عمر بن الخطاب مع أبي عبيدة وعبد الرحمن بن عوف مشهورة، ويروى عن النبي ﷺ: (الفارُّ من الطاعون كالفارِّ من الزحْفِ).

وقال السدي: هم أُمة كانت قبل واسط، في قرية يقال لها: (ذاوردان) وقع بها الطاعون فهربوا منه، وهم بضعة وثلاثون ألفاً في حديث طويل. ففيهم نزلت الآية. وقال: إنهم فروا من الطاعون: الحسنُ وعمرو بن دينار. وحكى النقاش أنهم فروا من الحمى. وحكى فيهم مجاهد أنهم لما أُحيوا رجعوا إلى قومهم يعرفون لكن سحنة الموت[1] على وجههم، ولا يلبس أحد منهم ثوباً إلا عاد كفناً رميماً حتى ماتوا لآجالهم التي كتبت لهم.

وروى ابن جريج عن ابن عباس أنهم كانوا من بني إسرائيل، وأنهم كانوا أربعين ألفاً وثمانية آلاف، وأنهم أُميتوا ثم أُحيوا، وبقيت الرائحة على ذلك البسط من بني إسرائيل إلى اليوم، فأمرهم الله بالجهاد ثانية فذلك قوله: (وقَاتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ) الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا القصص كله لين الأسانيد[2]، وإنما اللازم من الآية أن الله تعالى أخبر نبيه محمداً ﷺ أخباراً في عبارة التنبيه والتوقيف عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فراراً من الموت فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم ليروا هم، وكل مَن خَلف بعدهم أن الإماتة إنما هي بيد الله لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف، ولا لاغترار مغتر. وجعل الله تعالى هذه الآية مقدمة بين يدي أمره المؤمنين من أمة محمد بالجهاد. هذا قول الطبري، وهو ظاهر رصف الآية. ولِمُوردي القصص في هذه القصة زيادات اختصرتها لضعفها.

واختلف الناس في لفظ (أُلُوف) فقال الجمهور: هي جمع ألف. قال بعضهم: كانوا ثمانين ألفاً. وقال ابن عباس: كانوا أربعين ألفاً، وقيل: كانوا ثلاثين ألفاً. وهذا كله يجري مع (أُلوف)، إذ هو جمع الكثير، وقال ابن عباس أيضاً: كانوا ثمانية آلاف، وقال أيضاً: أربعة آلاف، وهذا يضعفه لفظ (أُلوف) لأنه جمع الكثير[3]. وقال ابن زيد في لفظة (أُلوف): إنما معناها: وهم مُؤتلفون فخالفت هذه الفرقة فخرجت فِراراً من الموت وابتغاءَ الحياة، فأماتهم الله في منجاهم بزعمهم[4].

---

(١) أي: هيئة الموت وأثره.

(٢) أي: ضعيف الأسانيد. فابن عطية لا يطمئن إلى هذا القصص.

(٣) قد يستعار أحد الجمعين للآخر ويوضع موضعه، وإن كان الأصل استعمال كل واحد في موضعه كما هو معروف في علم العربية.

(٤) قال جار الله الزمخشري: هذا من بدع التفاسير.

وقوله تعالى: (فَقَالَ لَهُمُ اللهُ موتوا) الآية إنما هي مبالغة في العبارة عن فعله بهم، كأن ذلك الذي نزل بهم فعلُ منْ قيل له: مُتْ ـ فمات.

وحُكي أن ملكين صاحَا بِهِمْ: موتوا ـ فماتوا، فالمعنى قال لهم الله بواسطة الملكين. وهذا الموت ظاهر الآية، وما رُوي في قصصها أنه موت حقيقي فارقت فيه الأرواح الأجساد، وإذا كان ذلك فليس بموت آجالهم، بل جعله الله في هؤلاءِ كمرض وحادث مما يحدث على البشر(١).

وقوله تعالى: (إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ) الآية ـ تنبيه على فضل الله على هؤلاءِ القوم الذين تفضل عليهم بالنعم، وأمرهم بالجهاد، وأمرهم بألا يجعلوا الحول والقوة إلا له حسبما أمر جميع العالم بذلك، فلم يشكروا نعمته في جميع هذا، بل استبدوا وظنوا أن حولهم وسعيهم ينجيهم، وهذه الآية تحذير لسائر الناس من مثل هذا الفعل، أيْ: فيجب أن يشكر الناس فضل الله في إيجاده لهم ورزقه إياهم، وهدايته بالأوامر والنواهي، فيكون منهم الجري إلى امتثالها لا طلب الخروج عنها. وتخصيصه تعالى الأكثر دلالةٌ على الأقل الشاكر.

وقوله عز وجل:

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾.

الواو في هذه الآية عاطفة جملة كلام على جملة ما تقدم. هذا قول الجمهور، إن هذه الآية هي مخاطبة لأمة محمد ﷺ بالقتال في سبيل الله، وهو الذي ينوىٰ به أن تكون كلمة الله هي العليا حسب الحديث(٢)، وقال ابن عباس، والضحاك: الأمر بالقتال هو للذين أُحيوا من بني إسرائيل، فالواو على هذا عاطفة على الأمر المتقدم، المعنى: وقال لهم: قاتلوا ـ قال الطبري رحمه الله: ولا وجه لقول منْ قال: إن الأمر بالقتال هو للذين أُحيوا. و(سَمِيعٌ) معناه للأقوال، (عَلِيمٌ) بالنيّات.

---

(١) يعني أن هذا الموت ـ وإن فارقت فيه الأرواح الأجساد ـ فهو بمثابة الآفات والأحداث التي تصيب البشر، وليس موتاً جاءَ أجله، لأن موت الأجل لا حياة بعده في الدنيا.

(٢) سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعةً ويقاتل حميّةً ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله). رواه البخاري ومسلم.

ثم قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ﴾ الآية فدخل في ذلك المقاتل في سبيل الله، فإنه يقرض رجاءَ الثواب كما فعل عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة.

ويروى أَن هذه الآية لما نزلت قال أَبو الدحداح[١]: «يا رسول الله أَو أَن الله يريد مناالقرض؟»، قال: (نعم يا أَبا الدحداح). قال: «فإني قد أَقرضت حائطي» لحائط فيه ستمائة نخلة، ثم جاءَ الحائط وفيه أُم الدحداح فقال: «أُخرجي فإني قد أَقرضت ربي حائطي هذا»، قال: فكان رسول الله ﷺ يقول: (كَمْ مِنْ عِذق مُذَلَّلٍ[٢] لأَبي الدّحداح في الجنة)[٣].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويقال فيه أَبو الدحداحة[٤]، واستدعاءُ القرض في هذه الآية إِنما هو تأْنيس وتقريب للناس بما يفهمونه، والله هو الغني الحميد لكنه تعالى شبه إِعطاءَ المؤمن في الدنيا ما يرجو ثوابه في الآخرة بالقرض، كما شبه إِعطاءَ النفوس والأَموال في أَخذ الجنة بالبيع والشراءِ، وقد ذهبت اليهود في مدة النبي ﷺ إِلى التخليط على المؤمنين بظاهر الاستقراض، وقالوا: إِلٰهكم محتاج يستقرض، وهذا بين الفساد[٥].

---

(١) صحابي جليل، قال أبو عمر بن عبد البر: لم أَقف على اسمه ونسبه إلا أنه حليف الأنصار، فهو أنصاري بالحلف. وقال الحافظ ابن حجر: إنه عاش إلى زمن معاوية رضي الله عنهما.

(٢) من ذلك قوله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا﴾ وفي رواية: (كم مِن عذقٍ رداح، ودار فياح، لأبي الدحداح).

(٣) روى ذلك البزار، وابن أَبي حاتم، وابن جرير، من طريق حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود، ورواه الحافظ ابن مردويه، وابن جرير أيضاً من حديث زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وروى الإمام القرطبي في تفسيره حديث ابن مسعود بإسناده الخاص.

(٤) جاء في «الإصابة» (٤/ ٦٠) ـ أن الذي يقال له: أبو الدحداحة ـ اسمه (ثابت) ـ وثابت هذا جُرح في أُحد فقيل: مات بها، وقيل: انتقضت فمات بعد ذلك بمدة وهو الراجح ـ وأما صاحب الترجمة فعاش إلى زمن معاوية ـ وروى ـ فيما أخرجه أبو نعيم ـ أنه قال لمعاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من كانت الدنيا همته حرَّم الله عليه جواري...) ومعنى هذا أن أبا الدحداح المذكور هنا لا يقال له: أبو الدحداحة.

(٥) لما نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذا الَّذي يُقْرِض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ قال أبو الدحداح: إن الله كريم استقرض منا ما أعطانا، وفي رواية: قال أبو الدحداح: يستقرضنا وهو غني، فقال عليه الصلاة والسلام: (نعم ـ ليدخلكم الجنة)، وقالت اليهود: إن الله فقير ونحن أَغنياءٌ، ففهْمُ أبي الدحداح هو الفِقْه وهو الباطن المراد المقصود، وفهْمُ اليهود لم يزد على مجرد القول العربي الظاهر، ثم حملوا=

وقوله: (حَسَناً)، معناه: تطيب فيه النية، ويشبه أيضاً أن تكون إشارة إلى كثرته وجودته.

واختلف القراءُ في: تشديد العين وتخفيفها ـ ورفع الفاءِ ونصبها ـ وإسقاط الألف وإثباتها ـ من قوله تعالى: (فَيُضَاعِفَهُ)، فقرأ ابن كثير: [فَيضعّفه] برفع الفاءِ من غير ألف وتشديد العين في جميع القرآن. وقرأ ابن عامر كذلك إلا أنه نصب الفاءَ في جميع القرآن، ووافقه عاصم على نصب الفاء إلا أنه أثبت الألف (فَيُضاعِفَه) في جميع القرآن وكان أبو عمرو لا يسقط الألف من ذلك كله إلا قوله تعالى: (يُضَعف لَهَا الْعَذَاب) من سورة الأحزاب، فإنه بغير ألف كان يقرؤه. وقرأ حمزة والكسائي ونافع ذلك كله بالألف ورفع الفاءِ.

فالرفع في الفاءِ يتخرج على وجهين: أحدهما العطف على الصلة، وهو (يُقْرِضُ)، والآخر يستأنف الفعل ويقطعه. قال أبو علي: والرفع في هذا الفعل أحسن، لأن النصب إنما هو بالفاءِ في جواب الاستفهام، وذلك إنما يترتب إذا كان الاستفهام عن نفس الفعل الأول ثم يجيءُ الثاني مخالفاً له. تقول: أتقرضني فأشكرك؟ وهاهنا: إنما الاستفهام عن الذي يقرض لا عن الإقراض، ولكن تحمل قراءَة ابن عامر وعاصم في النصب على المعنى، لأنه لم يستفهم عن فاعل الإقراض إلا من أجل الإقراض، فكأن الكلام: أيقرض أحد الله فيضاعفه له.

ونظير هذا ـ في الحمل على المعنى ـ قراءَة من قرأ: [مَنْ يضْلِلِ الله فَلا هَادِي لَه، ويَذَرْهم] بجزم ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾[1] لما كان معنى قوله: (فَلا هَادِيَ لَهُ) فلا يَهْده. وهذه الأضعاف الكثيرة هي إلى السبع المائة التي رويت ويعطيها مثالُ السنبلة[2].

= استقراض الرب الغني على استقراض العبد الفقير عافانا الله من ذلك. ومن هنا نعلم أن كل ما كان من المعاني التي تقتضي تحقيق المخاطب بوصف العبودية والإقرار لله بالربوبية فذلك هو الباطن المراد الذي أنزل القرآن من أجله ـ وأما الفرقة الثالثة فقد شحت وبخلت فما أقرضت ولا تصدقت: (وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِه، واللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الفُقَرَاءُ).

(١) من الآية (١٨٦) من سورة الأعراف، وقد قُرِىءَ بالياء والنون مع الرفع، وبالياء لا غير مع الجزم.

(٢) أخرج البخاري ومسلم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ ـ فيما يرويه عن ربه عز وجل ـ قال: (إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك، فمن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة) انتهى.

وقرأ ابن كثير: [يَبْسُطُ] بالسين، ونافع بالصاد، في المشهور عنه(١). وقال الحلواني، عن قالون، عن نافع: إنه لا يبالي كيف قرأ: [بسطة ويبسط] بالسين أو الصاد.

وروى أبو قرة، عن نافع: [يَبْسُط] بالسين. وروي أن النبي ﷺ طلب منه أن يسعر بسبب غلاءٍ خيف على المدينة فقال: (إن الله هو الباسط القابض، وإني لأرجو أن ألقى الله ولا يتبعني أحد بمظلمة في نفس ولا مال)(٢).

قوله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ﴾

هذه الآية خبرٌ عن قوم من بني إسرائيل، نالتهم ذلة وغلبة عدو، فطلبوا الإذن في الجهاد وأن يؤمروا به، فلما أُمروا كعَّ(٣) أكثرهم وصبر الأقل فنصرهم الله. وفي هذا كله مثال للمؤمنين ليحذر المكروه ويقتدى بالحسن.

و(المَلأُ) في هذه الآية جميع القوم، لأن المعنى يقتضيه، وهذا هو أصل اللفظة، ويسمى الأشراف الملأ تشبيهاً(٤).

وقوله: (مِنْ بَعْدِ مُوسى) معناه: من بعد موته وانقضاءِ مدته. واختلف المتأولون في النبي الذي قيل له: ابعث ـ فقال ابن إسحق وغيره، عن وهب بن منبه: وهو شمويل بن بالي. وقال السدي: هو شمعون. وقال قتادة: هو يوشع بن نون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف، لأن مدة داود هي بعد مدة موسى بقرون من الناس، ويوشع هو

---

(١) مقابلة ما رواه أبو قرة عن نافع من قراءته بالسين.

(٢) رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة، وابن جرير، وفي هذا الحديث النهي عن التسعير، وأجاز الإمام مالك وبعض الأئمة ذلك إذا ظهرت مصلحته، وكانت له فائدة مرجوة، وأجابوا عن هذا الحديث بأنه محمول على صورتين ـ الأولى: أن يسعر الثمن ويقال: لا تبيعوا إلا به ربحتم أو خسرتم، والثانية: التسعير على الجالب ـ فهاتان الصورتان لا يجوز التسعير فيهما، وذلك محل اتفاق.

(٣) الكَعُّ: هو الجبن والضعف والتولي يوم الزحف. يقال: كعَّ فلان كعّاً، وكعوعاً، وكَعاعة.

(٤) أي: بجميع القوم، فكأنهم كل القوم.

فتى موسى، وكانت بنو إسرائيل تغلب من حاربها. وروي أنها كانت تضع التابوت الذي فيه السكينة والبقية في مأزق الحرب فلا تزال تغلب حتى عصوا، وظهرت فيهم الأحداث وخالف ملوكهم الأنبياءَ واتبعوا الشهوات. وقد كان الله تعالى قد أقام أُمورهم[١] بأَن يكون أَنبياؤُهم يسددون ملوكهم، فلما فعلوا ما ذكرنا سلَّط الله عليهم أُمماً من الكفرة فغلبوهم، وأُخذ لهم التابوت في بعض الحروب، فذل أَمرهم. وقال السدي: كان الغالب لهم جالوت وهو من العمالقة، فلما رأَوا أَنه الاصطلام[٢] وذهاب الذكر أَنف بعضهم، وتكلموا في أَمرهم حتى اجتمع ملؤُهم على أَن قالوا لنبي الوقت: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً﴾، الآية، وإنما طلبوا مِلكاً يقوم بأَمر القتال، وكانت المملكة في سبط من أَسباط بني إسرائيل يقال لهم بنو يهوذا، فعلم النبي بالوحي أَنه ليس في بيت المملكة من يقوم بأَمر الحرب، ويسَّر الله لذلك طالوت.

وقرأَ جمهور الناس ﴿نُقَاتِلْ﴾ بالنون وجزم اللام على جواب الأَمر. وقرأَ الضحاك وابن أَبي عبلة [يُقَاتِلُ] بالياءِ ورفع الفعل فهو في موضع الصفة للملك.

وأَراد النبي المذكور عليه السلام أَن يتوثق منهم فوقفهم على جهة التقرير وسَبْر ما عندهم بقوله: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ وقرأَ نافع: [عسيتم] بكسر السين في الموضعين[٣]، وفَتَح الباقون السين. قال أَبو علي: الأَكثر فتح السين وهو المشهور. ووجْه الكسر قولُ العرب: هو عَسٍ بذلك، مثل حَرٍ وشَجٍ، وقد جاءَ فعَل وفَعِل في نحو: نَقَمَ ونَقِمَ، فكذلك عسَيت وعسِيت، فإن أُسند الفعل إلى ظاهر فقياس عسيتم أَن يقال: عَسِيَ زيد مثل رضي[٤]. فإن قيل ـ فهو القياس، وإن لم يُقل فسائغٌ أَن يؤْخذ باللغتين، فيستعمل

---

(١) بمعنى جعلها قائمة على ملك ونبي، الملك يسوسهم، والنبي يرشدهم.

(٢) أي: الاستئصال والإبادة. يقال: صلَمه ـ صلماً: قطعه واستأصله، وغلب استعماله في الأنف والأذن. واصطلمه: صلَمه: يقال: اصطلمهم الدهر أو الموت أو العدو: استأصلهم وأبادهم.

(٣) الموضع الأول هو هذه الآية من سورة البقرة ـ والموضع الثاني هو قوله تعالى في الآية (٢١) من سورة محمد: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾.

(٤) المحفوظ عن العرب أنه لا تكسر السِّين إلا مع تاءِ المتكلم والمخاطب ونون النسوة. انظر أبا (ح) (٢ ـ ٢٥٥) ـ قال: «وذلك على سبيل الجواز لا الوجوب، ويفتح فيما سوى ذلك على سبيل الوجوب» ا. هـ. ثم قال أبو (ح) في البحر المحيط (٢ ـ ٢٥٥): «ودخول هل على (عسى) دليل على أن (عسى) فعلٌ خبريٌ لا إنشائي، والمشهور أن (عسى) إنشاء لأنه ترجّ، فهي نظيرة (لعلّ) ولذلك لا يجوز أن تقع صلة للموصول» ـ ثم قال: «وجواب الشرط الذي هو: ﴿إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ محذوف للدلالة عليه، =

إحداهما في موضع الأخرى كما فعل ذلك في غيره. ومعنى هذه المقالة: هل أنتم قريب من التولي والفرار إن كتب عليكم القتال؟

قوله عز وجل:

﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾.

المعنى: وأيُّ شيءٍ يجعلنا ألا نقاتل وقد وترنا[١] وأُخرجنا من ديارنا؟، وقالوا هذه المقالة وإن كان القائل لم يخرج ـ من حيث قد أُخرج من هو مثله، وفي حكمه ـ ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم لما فرض عليهم القتال ورأوا الحقيقة ورجعت أفكارهم إلى مباشرة الحرب تولوا، أي اضطربت نياتهم، وفترت عزائمهم، وهذا شان الأُمم المتنعمة المائلة إلى الدعة، تتمنى الحرب أوقات الأنفة[٢]، فإذا حضرت الحرب كعَّت وانقادت لطبعها.

وعن هذا المعنى نهى النبي ﷺ بقوله: «لا تتمنوا لقاءَ العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا»[٣].

ثم أخبر الله تعالى عن قليل[٤] منهم أنهم ثبتوا على النية الأُولى، واستمرت عزيمتهم على القتال في سبيل الله، ثم توعد الظالمين في لفظ الخبر الذي هو قوله: (واللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ). وقرأَ أُبي بن كعب: [تولوا إلا أَن يكون قليل منهم].

= وتوسط الشرط بين أجزاء الدليل على حذفه كما توسط في قوله: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ـ وخبر ﴿عَسَيْتُمْ﴾ ﴿أَنْ لا تُقَاتِلُوا﴾ ـ على المشهور أنها تدخل على المبتدأ والخبر ـ ومن ذهب إلى أن (عسى) يتعدى إلى مفعول جعل (أن لا تقاتلوا) هو المفعول ـ والواو في ﴿وَمَالَنَا أَنْ لا نُقَاتِلَ﴾ لربط هذا الكلام بما قبله» البحر المحيط (٢ ـ ٢٥٦).

(١) أي: ظلمنا. يقال: وتره: ظلمه، وفلان موتور: قتل له قتيل لم يؤخذ بثأره.

(٢) الأنفة: الحمية والغضب، وفي بعض النسخ: أوقات السَّعة وهي أولى وأنسب.

(٣) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، وفي آخره (واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف).

(٤) هذا القليل بيَّنته السنة الطاهرة بعدة أصحاب بدر، أي ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت كما سيأتي في سياق الآية.

قوله عز وجل:

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾.

قال وهب بن منبه: إنه لما قال الملأُ من بني إسرائيل لشمويل بن بالي ما قالوا، سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملِكاً ويدله عليه، فقال الله تعالى له: انظر إلى القَرَن الذي فيه الدهن في بيتك، فإذا دخل عليك رجل فنَشَّ الدهن الذي في القَرن فهو ملك بني إسرائيل[(١)]، فادْهِنْ رأسه منه، وملِّكه عليهم. قال: وكان طالوت رجلاً دباغاً، وكان من سِبْط بنيامين بن يعقوب[(٢)]، وكان سبطه لا نبوة فيه ولا ملك، فخرج طالوت في بُغَاءِ[(٣)] دابة له أَضلها فقصد شمويل عسى أَن يدعو له في أَمر الدابة أَو يجد عنده فرجاً فنَشَّ الدهن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهو دهن القدس فيما يزعمون. قال: فقام إليه شمويل فأَخذه ودهن منه رأس طالوت، وقال له: أَنت ملك بني إسرائيل الذي أَمرني الله بتقديمه، ثم قال لبني إسرائيل: (إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً)، وطالوت: اسم أَعجمي معرب، ولذلك لم ينصرف.

وقال السدي: إن الله أَرسل إلى شمعون عصاً، وقال له: من دخل عليك من بني إسرائيل فكان على طول هذه العصا فهو ملكهم، فقيس بها بنو إسرائيل فكانت تطولهم حتى مر بهم طالوت في بُغَاءِ حماره الذي كان يسقي عليه، وكان رجلاً سقاءً، فدعوه فقاسوه بالعصا، فكان مثلها، فقال لهم نبيهم ما قال.

---

(١) نَشَّ: سُمع له صوت، يقال نَشَّت القِدْرُ واللحم: صوت على المقلى، ونَشَّت الجَّرة الجديدة: صوتت كصوت الغليان عند صب الماء فيها، والقرن بتحريك الراءِ: جعبة من جلود مخروزة يجعل فيها الدهن وغيره.

(٢) أي كان من ذرية بنيامين بن يعقوب، ولم يكن في هذا السبط نبوة ولا مُلك، بل كانا في سبط يهوذا بن يعقوب، وفي سبط لاوي بن يعقوب، وبنيامين كإسرافيل شقيق يوسف بن يعقوب. قال في القاموس: ولا تقل: ابن يامين، والمعروف عند أهل الكتاب أن طالوت هو شاول.

(٣) كرُغاءِ من بغاه يبغيه بغي وبغاء، أي: طلبه، ولكن أكثر ما يستعمل في معنى الطلب: ابْتَغى، لا بَغَى.

ثم إنَّ بني إِسرائيل تعنتوا وحادوا عن أَمر الله تعالى، وجَرَوْا على سنَنهم، فقالوا: (أَنَّىٰ يَكُونُ لهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ) أي لأَنه ليس في بيت مِلك، ولا سبقت له فيه سابقة، ولم يُؤت مالاً واسعاً يجمع به نفوس الرجال حتى يغلب أَهل الأَنفة بماله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وترك القوم السبب الأَقوى وهو قدر الله وقضاؤُه السابق(١)، وأَنه مالك الملك، فاحتج عليهم نبيهم عليه السلام بالحجة القاطعة، وبين لهم مع ذلك تعليل اصطفاءِ طالوت، وأَنه بسطة في العلم، وهو ملاك الإِنسان. والجسم الذي هو معينه في الحرب وعدته عند اللقاءِ(٢).

قال ابن عباس: كان في بني إِسرائيل سبطان ـ أَحدهما للنبوة، والآخر للمُلْك، فلا يبعث نبيٌ إِلا من الواحد، ولا ملكٌ إِلا من الآخر، فلما بعث طالوت من غير ذلك قالوا مقالتهم.

قال مجاهد: معنى المُلْك في هذه الآية الإِمرة على الجيش ولكنهم قلقوا لأَن من عادة من تولى الحرب وغلب أَن يستمر ملكاً.

واصطفى: افتعل مأْخوذ من الصفوة. وقرأَ نافع (بَصْطَةً) بالصاد. وقرأَ أَبو عمرو، وابن كثير (بَسْطَةً) بالسين. والجمهور على أَن العلم في هذه الآية يراد به العموم في المعارف. وقال بعض المتأَولين: المراد علم الحرب. وأَما جسمه فقال وهب بن منبه: إِن أَطول رجل في بني إِسرائيل كان يبلغ منكب طالوت.

---

(١) يعني أنهم تعلقوا بالنسب الأضعف، ونسوا السبب الأقوى وهو إيتاءُ الله الملك لمن يشاءُ (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فالملك ملك الله، والمال مال الله، يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء، (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ).

(٢) وبذلك تكون صفة الإمامة قائمة على التوسع في العلم والقوة في الجسم باستجماع معاني الخير والشجاعة، وفضائل الإيمان والشهامة، روى الإمام مسلم، والإمام أحمد، والنسائي، أن النبي ﷺ قال: (المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحب إلى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعيف)، وفي كتاب الله عز وجل: (إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ).

قوله عز وجل:

﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾.

لما علم نبيهم عليه السلام تعنتهم وجدَالهم في الحجج تمَّمَ كلامه بالقطعيِّ[١] الذي لا اعتراض عليه وهو قوله: ﴿وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

وظاهر اللفظ أَنه من قول النبي لهم، وقد ذهب بعض المتأَولين إِلى أَنه من قول الله تعالى لمحمد ﷺ، والأَول أَظهر ـ وأُضيف ملك الدنيا إِلى الله تعالى إِضافة مملوك إِلى مالك، و(واسعٌ) معناه: وسِعت قُدرته وعلمُه كل شيءٍ.

وأَما قول النبي لهم: ﴿إِنَ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ فإِن الطبريَّ ذهب إِلى أَن بني إِسرائيل تعنتوا، وقالوا لنبيهم: وما آية مُلْك طالوت؟ وذلك على جهة سؤال الدلالة على صدقه في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن نبيهم قال لهم ذلك على جهة التغبيط والتنبيه على هذه النعمة التي قرنها الله بمُلك طالوت، وجعلها آية له دون أَن تعن بنو إِسرائيل لتكذيب نبيهم، وهذا عندي أَظهر[٢] من لفظ الآية ـ وتأويل الطبري أَشبه بأَخلاق بني إِسرائيل الذميمة، فإِنهم أَهل تكذيب وتعنت واعوجاج، وقد حكى الطبري معناه[٣] عن ابن عباس، وابن زيد، والسدي.

واختلف المفسرون في كيفية إِتيان التابوت، وكيف كان بدءُ أَمره.

فقال وهب بن منبه: كان التابوت عند بني إِسرائيل يغلبون به من قاتلهم حتى

---

(١) أي بالدليل القطعي، والحجة البالغة التي لا اعتراض عليها.

(٢) يريد: وهذا عندي هو أظهر معنى يُفهم من الآية، فهو أظهر من قول الطبري. وفيه أن لفظ الآية قد يشهد أيضاً للطبري مع كون ما قاله أشبه بأخلاق بني إسرائيل، ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وقد كان رجوع التابوت المسلوب منهم إليهم دلالة واضحة على صدقه في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً﴾ ويشير كلام ابن كثير إلى تأييد ما قاله الإمام الطبري، فانظر وتأمل.

(٣) أي حكى معنى ما ذكره مِنْ تأويل الآية عن ابن عباس، وابن زيد، والسدي.

عصَوا فغُلبوا على التابوت، وصار التابوت عند القوم الذين غلبوا فوضعوه في كنيسة لهم فيها أَصنام، فكانت الأَصنام تصبح منكسة، فجعلوه في قرية قوم فأَصاب أُولئك القوم أَوجاع في أَعناقهم.

وقيل: جعل في مخرأَة قوم، فكان يصيبهم الناسور، فلما عظم بلاؤُهم كيف كان[١] قالوا: ما هذا إِلا لهذا التابوت فلنرده إِلى بلاد بني إِسرائيل، فأَخذوا عجلة فجعلوا التابوت عليها، وربطوها ببقرتين فأَرسلوهما في الأَرض نحو بلاد بني إِسرائيل، فبعث الله ملائكة تسوق البقرتين حتى دخلتا به على بني إِسرائيل وهم في أَمر طالوت فأَيقنوا بالنصر، وهذا[٢] هو حمل الملائكة للتابوت في هذه الرواية.

وقال قتادة: والربيع: بل كان هذا التابوت مما تركه موسى عند يوشع بن نون، فجعله يوشع في البرية، ومرت عليه الدهور حتى جاءَ وقت طالوت، وكان أَمر التابوت مشهوراً عندهم في تركة موسى، فجعل الله الإِتيان به آية لمُلك طالوت، وبعث الله ملائكة حملته إِلى بني إِسرائيل. فيروى أَنهم رأَوا التابوت في الهواءِ يأْتي حتى نزل بينهم، ورُوي أَن الملائكة جاءَت به تحمله حتى جعلته في دار طالوت، فاستوسقت[٣] بنو إِسرائيل عند ذلك على طالوت.

وقال وهب بن منبه: كان قدر التابوت نحواً من ثلاثة أَذرع في ذراعين. وقرأَ زيد بن ثابت: (التَّابُوه) وهي لغته، والناس على قراءَته بالتاءِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكثر الرواة في قصص[٤] التابوت وصورة حمله بما لم أَر لإِثباته وجهاً للين إِسناده.

قوله عز وجل:

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

(١) أي سواءٌ كان في الكنيسة، أو في القرية، أو في البراز.

(٢) أي سوق الملائكة للبقرتين الجارَّتين لِعَجَلَة التابوت.

(٣) يعني أنهم استوثقوا على طالوت، أي اجتمعوا على طاعته، واستقر أمر المُلْك فيه.

(٤) كل ذلك روايات إسرائيلية لا تعتمد، ولم يثبت شيءٌ من ذلك عن طريق السنة الصحيحة.

قال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: السكينة ريح هفافة[١] لها وجه كوجه الإِنسان، ورُوي عنه أَنه قال: هي ريح خجوج، ولها رأْسان. وقال مجاهد: السكينة: لها رأْس كرأْس الهرة، وجناحان وذنب. وقال: أَقبلت السكينة والصرد وجبريل مع إِبراهيم من الشام ـ وقال وهب بن منبه عن بعض علماءِ بني إِسرائيل: السكينة: رأْس هرة ميتة كانت إِذا صرخت في التابوت بصراخ الهر أَيقنوا بالنصر. وقال ابن عباس: السكينة: طست من ذهب من الجنة، كان يغسل فيه قلوب الأَنبياءِ، وقاله السدي. وقال وهب بن منبه: السكينة روح الله يتكلم إِذا اختلفوا في شيءٍ أَخبرهم ببيان ما يريدون.

وقال عطاء بن أَبي رباح: السكينة: ما يعرفون من الآيات فيسكنون إِليها. وقال الربيع بن أَنس (سَكِينَةٌ مِن رَبِّكُمْ) أَي: رحمة من ربكم. وقال قتادة: (سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ) أَي: وقار لكم من ربكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والصحيح أَن التابوت كانت فيه أَشياءُ فاضلة من بقايا الأَنبياءِ وآثارهم، فكانت النفوس تسكن إِلى ذلك، وتأْنس به وتقوى، فالمعهود أَن الله ينصر الحق والأُمور الفاضلة عنده[٢]، والسكينة على هذا: فعيلَةٌ مأْخوذة من السكون، كما يقال: عزم عزيمة، وقطع قطيعة.

واختلف المفسرون في البقية ـ ما هي؟ فقال ابن عباس: هي عصا موسى ورضاض[٣]

---

(١) يقال: ريح هفافة: سريعة المرور في هبوبها، وريح خَجُوج: شديدة المرور في هبوبها.

(٢) إنما قال ابن عطية ذلك لأن هذه التفاسير كلها متلقاة من الإسرائيليين، ولذلك كانت التفاسير متناقضة، فالتناقض منهم وليس من هؤلاءِ الأعلام الذين نقلوها عنهم، فمرة يجعلونها حيواناً، وتارة يجعلونها جماداً، وأُخرى روحاً، ومِنْ ثَمَّ قال القاضي رحمه الله: والصحيح إلخ، فإن المعهود أن الله سبحانه ينصر الحق والأمور الفاضلة عنده. والذي ثبت في السكينة عن النبي ﷺ أنها تنزلت على بعض الصحابة عند قراءَته للقرآن كما في صحيح الإمام مسلم، وفي الصحيحين عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه أن أسيد بن الحضير بينما هو يقرأ في مربده الحديث، وفيه: فقال النبي ﷺ: (تلك الملائكة كانت تستمع لك) فأخبر ﷺ عن نزول السكينة مرَّةً. وعن نزول الملائكة مرة أُخرى، فدل ذلك على أن السكينة كانت في تلك الظُّلَّة، وأنها تنزل مع الملائكة، وقد يكون في هذا حجة لمن قال: إن السكينة روح، أو شيءٌ له روح، لأنه لا يصح استماع القرآن إلا لمن يعقل، والله أعلم.

(٣) هو دقاق الشيءِ وفُتاته، أي ما يفتت منه عند الكسر.

الأَلواح. وقال الربيع: هي عصا موسى وأُمور من التوراة. وقال عكرمة: هي التوراة والعصا ورضاض الأَلواح.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومعنى هذا ما روي من أَن موسى لما جاءَ قومه بالأَلواح فوجدهم قد عبدوا العجل أَلقى الأَلواح غضباً فتكسرت، فنزع منها ما بقي صحيحاً، وأَخذ رضاض ما تكسر فجعل في التابوت. وقال أَبو صالح: البقية عصا موسى، وعصا هارون، ولوحان من التوراة، والمنُّ ـ وقال عطية بن سعد: هي عصا موسى، وعصا هارون وثيابهما ورضاض الأَلواح.

وقال الثوري: من الناس مَنْ يقول: البقية قفيز مَنٍّ، ورضاض الأَلواح، ومنهم من يقول: العصا والنعلان. وقال الضحاك: البقية: الجهاد وقتال الأَعداءِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

أَي الأَمر بذلك في التابوت، إِما أَنه مكتوب فيه، وإِما أَن نفس الإِتيان به هو كالأَمر بذلك، وأُسند الترك إِلى آل موسى وهارون من حيث كان الأَمر مندرجاً من قوم إِلى قوم[1]، وكلُّهم آل لموسى وهارون. وآل الرجل قرابته وأَتباعه. وقال ابن عباس، والسدي، وابن زيد: حمل الملائكة هو سوقها التابوت دون شيءٍ يحمله سواها حتى وضعته بين يدي بني إِسرائيل وهم ينظرون إِليه بين السماءِ الأَرض ـ وقال وهب بن منبه، والثوري ـ عن بعض أَشياخهم ـ: حمْلُها إِياه هو سوْقُها الثورين أَو البقرتين اللتين جرَّتا العجلة، ثُمَّ قرر تعالى أَنَّ مجيءَ التابوت آية لهم إِن كانوا مِمَّن يُؤْمن ويُبصر بعين حقيقة.

قوله عز وجل:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

قبل هذه الآية متروك من اللفظ يدل معنى ما ذُكر عليه، وهو: «فاتَّفق بنو إِسرائيل على طالوت ملِكاً وأَذعنوا وتهيئوا لغزوهم عدوهم (فَلَمَّا فَصَلَ) ـ و(فَصَلَ) معناه: خرج

---

(١) الاندراج: الانقراض، والمراد أنه كلما انقرض جيل ورثه جيل آخر.

بهم من القطر وفصل حال السفر من حال الإقامة(١). قال السدي وغيره: كانوا ثمانين ألفاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا محالة أَنهم كان فيهم المؤمن والمنافق والمجد والكسلان. وقال وهب بن منبه: لم يتخلف عنه إِلا ذو عذر من صغر أَو كبر أَو مرض. واختلف المفسرون في النهر ـ فقال وهب بن منبه: لما فصل طالوت قالوا له: إِن المياه لا تحملنا(٢) فادع الله يُجْر لنا نهراً، فقال لهم طالوت: (إِن اللهَ مُبْتَلِيكُمْ) الآية. وقال قتادة: النهر الذي ابتلاهم الله به هو نهر بين الأُردن وفلسطين، وقاله ابن عباس ـ وقال أَيضاً هو والسدي: النهر نهر فلسطين ـ وقرأَ جمهور القراءِ: [بِنَهَر] بفتح الهاءِ. وقرأَ مجاهد، وحميد الأَعرج، وأَبو السمال، وغيرهم: [بنهْر] بإِسكان الهاءِ في جميع القرآن.

ومعنى هذا الابتلاءِ أَنه اختبار لهم، فمن ظهرت طاعته في ترك الماءِ علم أَنه يطيع فيما عدا ذلك، ومن غلب شهوته في الماءِ وعصا الأَمر فهو بالعصيان في الشدائد أَحرى. ورُوي أَنهم أَتوا النهر وهم قد نالهم عطش وهو في غاية العذوبة والحُسن، ولذلك رخص للمطيعين في الغُرفة ليرتفع عنهم أَذى العطش بعض الارتفاع، وليكسروا نِزاع النفس في هذه الحال إِلى الاغتراف بالأَيدي لنظافته وسهولته، وقد قال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: «الأَكف أَنظف الآنية»(٣) ومنه قول الحسن رحمه الله:

لا يَدْلِفُون إِلى ماءٍ بآنيةٍ ... إِلا اغْتِرافاً من الغُدْرانِ بالراح(٤)

---

(١) فصل تأتي بمعنى انفصل ـ يقال: فصل عن الموضوع بمعنى، انفصل وجاوزه، والباء في (بالجنود) للحال، أي: والجنود مصاحبوه.

(٢) لقلَّتها، ومنه حديث أبي داود، والترمذي، والنسائي: (إذا بلغ الماءُ قلتين لم يحمل خبثاً) أي لم يقبل حمل الخبث لكثرته. وأولى ما تفسر به القلة ما روي عن ابن عباس أنه قال:
إذا بلغ الماءُ ذنوبين لم يحمل الخبث. فجعل الذنوب مثل القُلَّة. والمراد أنهم شكوا خوف العطش وقلة الماء، والوقت وقت القيظ والصيف، والمسافة مفازة.

(٣) أي بعد غسلها كما في حديث ابن ماجه عن ابن عمر قال: (مررنا علىٰ بركة فجعلنا نكرع فيها، فقال رسول الله ﷺ: لا تكرعوا ولكن اغسلوا أيديكم ثم اشربوا فيها فإنه ليس إناءٌ أطيب من اليد). ا.هـ.

(٤) البيت للحسين بن هانئ وهو أبو نواس، ونص مافي ديوانه، (في دير حنة):

يا ديرَ حنةَ من ذات الأكَيْراح ... منْ يَصْحُ عَنْكَ، فإني لَسْتُ بالصَّاحي
رأيتُ فيكَ ظباءً لا قُرونَ لَهَا ... يلْعَبْنَ مِنَّا بِالْبَاب، وأرْوَاح =

وظاهر قول طالوت: (إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكمْ بِنَهَرٍ) هو أَن ذلك بوحي إِلى النبي، وإِخبار من النبي لطالوت. ويحتمل أَن يكون هذا مما أَلهم الله طالوت إِليه فجرب به جنده، وجعل الإِلهام ابتلاءً من الله لهم، وهذه النزعة واجب أن تقع من كل متولي حرب، فليس يحارب إِلا بالجند المطيع ـ ومنه قول معاوية: «عليٌّ في أَخبث جند وأَعصاه، وأَنا في أَصح جند وأَطوعه»، ومنه قول علي رضي الله عنه: «أَفسدتم عليَّ رأْيي بالعصيان».

وبيَّن أَن الغُرفة كافَّةٌ ضرر العطش عند الحزمة الصابرين علىٰ شظف العيش الذين هِمَمُهم في غير الرفاهية، كما قال عروة[1]:

. . . . وأَحسُو قَراحَ الْمَاءِ والمَاءُ بارِدُ

فيشبه أَن طالوت أَراد تجربة القوم.

وقد ذهب قوم إِلى أَن عبد الله بن حذافة السهمي إِنما أَمر أَصحابه بايقاد النار والدخول فيها تجربة لطاعتهم لكنه حمله مزاحه على تخشين الأَمر الذي كلفهم[2].

وقوله: (فَلَيْسَ مِنِّي) أَي ليس من أَصحابي في هذه الحرب، ولم يخرجهم بذلك عن الإِيمان. ومثل هذا قول النبي ﷺ: (مَنْ غشَّنا فليس منا، ومن رمانا بالنبل فليس منا، وليس

= يَغْتَادُهُ كُلُّ مَخفوفٍ مفَارقُهُ ... مِنَ الدِّهَانِ، عَلَيْه سحق إِمْسَاح
فـي عُصْبَةٍ لـم يـدع مِنْهُـمْ تَخَوُّفُهُم ... وُقُـوع مـا حَـذِرُوه، غَيـرَ أَشْبَـاح
لا يَـدْلِفُـونَ إِلــى مَــاءٍ بــآنِيَــةٍ ... إِلا اغْتِـرافـاً مِـن الغُـدْرَانِ بـالـرَّاح

والأكيراح: مواضع يتجول فيها النصارى. ودلف ـ من باب ضرب ـ معناها: مشى رُوَيْداً وقارب الخطو.

(١) هو ابن الورد العبسي الجاهلي، والبيت كما في «الشعر والشعراء» لابن قتيبة:
أُقَسِّـمُ جِسْمِـي فِـي جُسُّـومٍ كثيـرةٍ ... وأَحْسـو قَـرَاحَ المـاءِ والمـاءُ بَـارد
والقَراح (بفتح القاف) الماءُ الخالص الذي ليس به ما يطيبه كالعسل والتمر والزبيب، جمعه أقرحة.

(٢) عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي البدري كانت فيه دعابة معروفة. أمره النبي ﷺ على سرية، فأمرهم أن يجمعوا حطباً ويوقدوا ناراً، فلما أوقدوها أمرهم أن يدخلوا فيها، فقال لهم: ألم يأمركم رسول الله بطاعتي؟، وقال: من أطاع أميري فقد أطاعني، فقالوا: ما آمنا بالله واتبعنا رسوله إلا لننجو من النار ـ فصوب رسول الله ﷺ فعلهم، وقال: (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق). قال الله تعالى: (وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) إلا أن مزاحه رضي الله عنه خشَّن الأمر الذي كلفه إياه وصحبه، أهم في طاعة أم في عصيان؟

منا من شق الجيوب ولطَم الخُدود)(١) ـ وفي قوله: (وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ) سدُّ الذرائع، لأَن أَدنى الذوق يدخل في لفظ الطَّعم(٢)، فإذا وقع النهي عن الطَّعم فلا سبيل إلى وقوع الشرب ممن يتجنب الطَّعم، ولهذه المبالغة لم يأْت الكلام: «وَمَنْ لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ»(٣).

وقرأَ أَبو عمرو، ونافع، وابن كثير: [غَرْفَة] بفتح الغَيْنِ، وهذا على تعدية الفعل إلى المصدر، والمفعول محذوف، والمعنى: إلا من اغترف ماءً غَرفة. وقرأَ الباقون: [غُرْفَةً] بضم الغين، وهذا على تعدية الفعل إلى المفعول به، لأَن الغرفة هي العين المُغْترفة، فهذا بمنزلة: إلا من اغترف ماءً، وكان أَبو علي يرجح ضم الغين، ورجَّحه الطبريُّ أَيضاً من جهة أَن [غَرفة] بالفتح إنما هو مصدر على غير اغتراف(٤).

ثم أَخبر تعالى عنهم أَن الأَكثر شرب وخالف ما أُريد منه ـ ورُوي عن ابن عباس، وقتادة، وغيرهما أَن القوم شربوا على قدر يقينهم ـ فشرب الكفار شرب الهِيم، وشرب العاصون دون ذلك، وانصرف من القوم ستة وسبعون أَلفاً، وبقي بعض المؤمنين لم يشرب شيئاً، وأَخذ بعضهم الغُرفة. فأَما من شرب فلم يَرْو بل برَّح به العطش، وأَما من ترك الماءَ فحسنت حاله، وكان أَجلد ممن أَخذ الغُرفة.

---

(١) رواه الإمام مسلم في مسنده الصحيح.

(٢) هو بفتح الطاءِ، وهو أعم من الطُّعم بالضَّم، لأنه يشمل المائع وغيره.

(٣) يقال: طعِمت الشيءَ: ذقته، والنهي عن الذوق أبلغ من النهي عن الشرب لأن نفي الطعم يستلزم نفي الشرب، ونفي الشرب لا يستلزم نفي الطعم، قال ابن الأنباري: العرب تقول: أطعمتك الماء تريد أذقتك، وطعمت الماء أَطعمه بمعنى ذقته، قال الشاعر:

فـإن شئـت حـرَّمـت النسـاء عليكُـمُ ـ وإن شئت لم أَطعم نُقَاخاً ولا برداً

ومن هذه الآية وقع اختلاف بين أئمة الاجتهاد. آلماء ربوي أم لا؟ وعند المالكية يجوز بيعه لأجل كما في مختصرهم.

(٤) كل من الفتح والضم مرويٌّ عن النبي ﷺ ومتواتر، وكل منهما له وجه في العربية ظاهر، فلا معنى للترجيح بينهما، وإن كان قد يقال: الضم أوجه لقوله تعالى: (فَشَربوا منْه) والمشروب منه الغرفة كما قال أبو علي، ولأن المفتوح مصدر من غرف لا من اغترف، كما قال الإمام الطبري. وقوله: (إلا مَنْ اغْترفَ غُرفةً بيَده) استثناء من الجملة الأولى: (فَمَنْ شَربَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِني) وليس استثناء من الثانية: (وَمَنْ لَم يطعَمْه فإنَّهُ مِني)، والاستثناء إذا أعقب جملاً يمكن عوده إلى كل واحدة منها فإنه يتعلق بالأخيرة، فإن دلَّ دليل على تعلقه بواحدة منها كان تعلقه بها، وهنا دلَّ دليل على تعلقه بالجملة الأولى ـ وإنما قدمت الجملة الثانية على الاستثناء لشدة ارتباطها بالأولى حتى إنها لتفهم منهاولو لم تذكر فصارت كأنها لم تذكر ـ راجع «البحر المحيط» ٢ ـ ٢٦٥.

قوله عز وجل:

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾.

جاوز: فاعل من جاز يجوز، وهي مُفاعلة من اثنين في كل موضع لأن النهر وما أَشبهه كأنه يجاوز.

واختلف الناس في الذين معه كم كانوا ـ فقال البراءُ بن عازب: كنا نتحدث أَن عدة أَهل بدر كعدة أَصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ـ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وفي رواية: وثلاثة عشر رجلاً، وما جاز معه إلا مؤمن(١).

وقال قتادة: ذكر لنا أَن رسول الله ﷺ قال لأَصحابه يوم بدر: أَنتم كعدة أَصحاب طالوت(٢): وقال السدي، وابن عباس: «بل جاز معه أَربعة آلاف رجل». قال ابن عباس: «فيهم من شرب» قالا: فلما نظروا إلى جالوت وجنوده: (قالوا: لا طاقة لَنَا اليَوْمَ)، ورجع منم ثلاثة آلاف وستمائة وبضعة وثمانون، هذا نص قول السدي، ومعنى قول ابن عباس، فعلى القول الأَول(٣) قالت الجهلة: لا طاقة لنا اليوم على جهة استكثار العدو، فقال أَهل الصلابة منهم والتصميم والاستماتة: (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ) الآية. وظَنُّ لقاءِ الله ـ على هذا القول ـ يحْسُنُ أَن يكون ظنًّا على بابه، أَي: يظنون أَنهم يستشهدون في ذلك اليوم لعزمهم على صدق القتال، كما جرى لعبد الله بن حرام في أُحد، ولغيره.

وعلى القول الثاني(٤)، قال كثير من الأَربعة آلاف: لا طاقة لنا على جهة الفشل والفزع من الموت، وانصرفوا عن طالوت، فقال المؤمنون الموقنون بالبعث والرجوع إلى الله وهم عدة أَهل بدر (كَمْ مِنْ فِئَةٍ)، والظنُّ ـ على هذا ـ بمعنى اليقين، وهو فيما لم يقع بعد ولا خرج إلى الحس.

---

(١) رواه البخاري، وابن أبي شيبة، وابن جرير.

(٢) رواه ابن جرير.

(٣) هو قول قتادة والبراءِ بن عازب.

(٤) هو قول ابن عباس والسدي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وما روي عن ابن عباس من أن في الأَربعة الآلاف مَن شرب يرد عليه قوله تعالى: (هُوَ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَه).

وأَكثر المفسرين على أنه إنما جاوز النهر مَنْ لم يشرب إلا غُرفة، ومن لم يشرب جملة، ثم كانت بصائر هؤلاءِ مختلفة، فبعض كعًّ، وقليل صمَّم.

وقرأَ أُبيُّ بن كعب: [كَأَيِّنْ مِنْ فِئَة][1]، والفئة: الجماعة التي يرجع إليها في الشدائد. من قولهم: فاءَ يفيءُ إذا رجع، وقد يكون الرجل الواحد فئة تشبيهاً والملِك فئة الناس، والجبل فئة، والحصن ـ كل ذلك تشبيه[2].

وفي قولهم رضي الله عنهم: (كَمْ مِنْ فِئَةٍ) الآية، تحريض بالمثال، وحض واستشعار للصبر واقتداءٌ بمن صدق ربه ـ وإذْنُ الله هنا[3]: تمكينُه، وعِلْمُه ـ مجموع ذلك هو الإذن (والله مَعَ الصَّابرين) بنصره وتأْييده.

قوله عز وجل:

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾.

(بَرَزُوا) معناه: صاروا في البراز وهو الأَفيح من الأَرض، المتسع، وجالوت: اسم أَعجمي معرب ـ والإفراغ أَعظم الصَّبِّ، كأَنه يتضمن عموم المُفْرَغ عليه ـ والهزْم أَصله أَن يُضْرب الشيءُ فيدخل بعضه في بعض، وكذلك الجيش الذي يُرَدُّ يركب ردعه[4]، ثم قيل في معنى الغلبة: هزم ـ وكان جالوت أَميرَ العمالقة وَمَلِكَهُم، وكان فيما رُوي في ثلاثمائة أَلف فارس.

---

(١) مرادفةٌ لـ(كمْ) في التكثير، ولم يجىء تمييزها في القرآن إلا مصحوباً بمنْ.

(٢) أي بالجماعة التي يرجع إليها في الشدائد، فإن الملك فئة الناس أي مرجعهم وملجؤهم في الأزمات، والجبل فئة الناس يعتصمون به في الحرب ووقت الحاجة والضرورة. وأصل فئة فِئَيٌ، والهاءُ عوض من الياءُ.

(٣) أي في هذا المقام، وهو مقام غلبة القليل للكثير، يقال: مكَّنه من الأمر جعل له عليه سلطاناً وقُدْرة.

(٤) يقال: ركب البعير ردعه إذا سقط فدخل عنقه في جوفه ـ ويقال للقتيل: ركب ردعه إذا خرَّ لوجهه على دمه.

وروي في قصة داود وقتله جالوت أَن أَصحاب طالوت كان فيهم إِخوة داود وهم بنو إِيشى، وكان داود صغيراً يرعى غنماً لأَبيه، فلما حضرت الحرب قال في نفسه: لأَذهبن لرؤْية هذه الحرب، فلما نهض مرَّ في طريقه بحجر فناداه: يا داود خذني فبي تقتل جالوت، ثم ناداه حجر آخر، ثم آخر، ثم آخر، فأَخذها، وجعلها في مخلاته. وسار، فلما حضر الناس خرج جالوت يطلب مبارزاً، فكَعَّ الناس عنه حتى قال طالوت: من يبرز له ويقتله فأَنا أُزوجه بنتي وأُحكمه في مالي، فجاءَ داود فقال: أَنا أَبرز له وأَقتله، فقال له طالوت: فاركب فرسي، وخذ سلاحي، ففعل وخرج في أَحسن شكة، فلما مشى قليلاً رجع، فقال الناس: جبن الفتى، فقال داود: إِن كان الله لم يقتله لي ويُعِنِّي عليه لم ينفعني هذا الفرس، ولا هذا السلاح، ولكني أُحب أَن أُقاتله على عادتي قال: وكان داود من أَرمى الناس بالمقلاع، فنزل وأَخذ مخلاته فتقلدها، وأَخذ مقلاعه وخرج إِلى جالوت وهو شاك في سلاحه[1]، فقال له جالوت: أَنت يا فتى تخرج إِلي؟ قال: نعم. قال: هكذا كما يخرج إِلي الكلب؟ قال: نعم، وأَنت أَهون، قال: لأُطعمن اليوم لحمك الطير والسباع، ثم تدانيا فأَدار داود مقلاعه، وأَدخل يده إِلى الحجارة فرُوي أَنها التأَمت فصارت حجراً واحداً، فأَخذه فوضعه في المقلاع، وسمى الله وأَداره ورماه، فأَصاب به رأَس جالوت فقتله، وحز رأَسه وجعله في مخلاته واختلط الناس، وحمل أَصحاب طالوت، وكان الهزيمة ـ ثم إِن داود جاءَ يطلب شرطه من طالوت فقال له: إِن بنات الملوك لهن غرائب من المهر ولا بد لك من قتل مائتين من هؤلاءِ الجراجمة[2] الذين يؤذون الناس، وتجيئني بغلفهم، وطمع طالوت أَن يعرض داود للقتل بهذه الفزعة، فقتل داود منهم مائتين، وجاءَ بذلك وطلب امرأَته فدفعها إِليه طالوت، وعظم أَمر داود، فيروى أَن طالوت تخلى له عن الملك وصار هو الملك، ويروى أَن بني إِسرائيل غلبت طالوت على ذلك بسبب أَن داود قتل جالوت، وكان سبب الفتح ـ وروي أَن طالوت أَخاف داود حتى هرب منه فكان في جبل إِلى أَن مات طالوت، فذهبت بنو إِسرائيل إِلى داود فملكته أَمرها ـ ورُوي أَن نبي الله شمويل أَوحى الله إِليه أَن يذهب إِلى إِيشى ويسأَله أَن يعرض عليه بنيه، فيدهن الذي يشار إِليه بدهن القدس، ويجعله ملك

(١) يقال: رجل شاكي السلاح أي ذو شوكة وحِدَّة في سلاحه، وقال أهل اللغة: شاكي مقلوب شائك.

(٢) قوم من العجم بالجزيرة.

بني إسرائيل، والله أعلم ـ أيُّ ذلك كان ـ غير أنه يُقطع من ألفاظ الآية على أن داود صار ملك بني إسرائيل.

وقد رُوي في صدر هذه القصة أن داود كان يسير في مطبخة طالوت ثم كلَّمه حجر فأخذه فكان ذلك سبب قتله جالوت ومملكته وقد أكثر الناس في قصص هذه الآية، وذلك كله ليِّن الأسانيد فلذلك انتقيت منه ما تنفك به الآية، وتعلم به مناقل[١] النازلة، واختصرت سائر ذلك.

وأما الحكمة التي آتاه الله فهي النبوة والزبور، وقال السدي: آتاه الله ملك طالوت ونبوة شمعون، والذي علمه: هي صنعة الدروع، ومنطق الطير، وغير ذلك من أنواع علمه ﷺ.

قوله عز وجل:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لولا دفعه بالمؤمنين[٢] به في صدور الكفرة على مر الدهر لفسدت الأرض، لأن الكفر كان يطبقها ويتمادى في جميع أقطارها والله تعالى لا يخلي الزمان من قائم بحق، وداع إلى الله، ومقاتل عليه إلى أن جعل ذلك في أمة محمد ﷺ إلى قيام الساعة ـ له الحمد كثيراً.

قال مكي: وأكثر المفسرين على أن المعنى: لولا أن الله يدفع بمن يصلي عمن لا يصلي وبمن يتقي عمن لا يتقي لأهلك الناس بذنوبهم[٣].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس هذا معنى الآية، ولا هي منه في ورد ولا صدر ـ والحديث الذي روى ابن

---

(١) أي طرقها ومصادرها.

(٢) هذا تفسير المدفوع به، والمدفوع عند ابن عطية وهو حسن ـ وقال جار الله الزمخشري: «لولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض، ويكف بهم فسادهم لغلب المفسدون وفسدت الأرض، وبطلت منافعها، وتعطلت مصالحها، من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض» ا. هـ. وهو حسن أيضاً.

(٣) ما قاله مكي قاله النحاس والثعلبي، ولا مانع أن تكون الآية جامعة لهذه المعاني كلها وإن كان بعضها أظهر من بعض، وما ذكره ابن عطية هو المناسب للسياق.

عمر صحيح[١] وما ذكر مكي من احتجاج ابن عمر عليه بالآية لا يصح عندي، لأن ابن عمر من الفصحاءِ.

وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: [وَلَوْلا دَفْعُ الله]، وفي الحج: [إِنَّ اللهَ يَدْفَعُ]. وقرأ نافع: [وَلَوْلا دِفَاعُ الله]، وَ[إِنَّ اللهَ يُدافِعُ]. وقرأ الباقون: [وَلَوْلا دَفْعُ الله]، وَ(إِنَّ الله يُدافِعُ)، ففرقوا بينهما، والدِّفاع يحتمل أن يكون مصدر دَفَعَ ككَتَبَ كِتَاباً وَلَقِيَ لِقَاءً، ويحتمل أن يكون مصدر دَافَع كَقَاتَل قِتالاً.

والإشارة بتلك إلى ما سلف من القصص والأنباءِ. وفي هذه القصة بجملتها مثالٌ عظيم للمؤمنين ومُعْتَبَرٌ، وقد كان أصحاب محمد مُعِدِّين[٢] لحرب الكفار، فلهم في هذه النازلة معتبر يقتضي تقوية النفوس، والثقة بالله، وغير ذلك من وجوه العبرة.

قوله عز وجل:

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

(تِلْكَ) رفع بالابتداءِ و(الرُّسُلُ) خبره، ويجوز أن يكون (الرُّسُلُ) عطف بيان و(فَضَّلْنَا) الخبر، و(تِلْكَ) إشارة إلى جماعة مؤنثة اللفظ.

ونص الله في هذه الآية على تفضيل بعض الأنبياءِ على بعض[٣]، وذلك في الجملة دون تعيين مفضول، وهكذا هي الأحاديث عن النبي عليه السلام، فإنه قال: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ)[٤]، وقال: (لا تُفَضِّلُوني على موسى)[٥]. وقال: (لا ينبغي لأحد أن يقول:

---

(١) رواه ابن عدي، وابن جرير بسند ضعيف، ونصه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله ليدفع بالمسلمِ الصالح عن مائة من أهل بيته وجيرانه البلاءَ)، ثم قرأ ابن عمر: [ولولا دِفاعُ الله الناسَ بعْضَهم ببَعضٍ لَفَسَدَتِ الأرْضُ] الآية، ومراد ابن عطية أنَّ كون الحديث رواه ابن عمر صحيح، وأما احتجاجه له بالآية فليس بصحيح عنده، لأن ابن عمر من الفصحاء الذين لا يصيرون إلى ذلك التفسير الذي لا يتلاءم مع سياق الآية، ولا مع أحداث الكون في دفع الظلم والزيغ والفساد.

(٢) أي كانوا كاملي العُدَّة، فهو اسم فاعل من أعَدَّ. ومنه قول الحريري: فارتحلت رحلة المُعِدِّ.

(٣) أي: وبعض الرسل، لقوله تعالى: (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَبِيِّين عَلَى بَعْض) وقوله تعالى: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْض).

(٤) رواه الإمام مسلم، وغيره. وفي رواية في أحاديث الشفاعة (أنا سيِّد الناس يومَ القيامةِ).

(٥) وفي رواية: (لا تُخيِّرُوني) وخيَّرَ وفَضَّلَ بمعنى واحد، والحديث رواه الشيخان وغيرهما.

أَنا خير من يونس بن متَّى)[١]، وفي هذا نهيٌ شديد عن تعيين المفضول ـ لأَن يونس عليه السلام كان شاباً[٢]، وتفسخ[٣] تحت أَعباءِ النبوة، فإِذا كان هذا التوقيف فيه لمحمد ﷺ فغيره أَحرى، فربط الباب أَن التفضيل فيهم على غير تعيين المفضول ـ وقد قال أَبو هريرة: خير ولد آدم نوح وإِبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وهم أُولو العزم[٤] ـ والمُكَلَّم موسى ﷺ، وقد سئل رسول الله ﷺ عن آدم ـ أَنبيٌّ مرسل هو؟ فقال: (نعم، نبي مُكَلَّم)[٥]، وقد تأَول بعض الناس أَن تكليم آدم كان في الجنة، فعلى هذا تبقى خاصة موسى.

= تنبيه: هذه الأحاديث التي أشار إليها ابن عطية رحمه الله تعارض بظاهرها الآية الكريمة.

وأجاب أكثر العلماء عن ذلك بأن المراد لا تفضلوني مفاضلة تؤدي إلى مخاصمة أو نقيصة، أو كان ذلك على سبيل التواضع، أو قال ذلك في حق النبوة، فإن الأنبياء لا تفاضل بينهم فيها، وإنما التفاضل بالمزايا والخصائص التي منحها الله تبارك وتعالى لبعض أنبيائه ورسله، وهذا هو ما ثبت في الآية ـ لأن مراتب الكمال لا نقص فيها، ولا يلزم من تفاوتها نقيض أو ضد ـ ولذلك قال ﷺ ـ لما سئل عن خير دور الأنصار ـ: (خير دور الأنصار بنو النجار، ثم بنو عبد الأشهل، ثم بنو الحرث بن الخزرج، ثم بنو ساعدة) ثم قال: (وفي كل دور الأنصار خير). رفعاً لتوهم البعض والضد قال سعد بن عبادة: يا رسول الله «ذكرت خير دور الأنصار، فجعلنا: آخراً». فقال: (أو ليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار)؟

وأجاب بعض العلماء عن ذلك ـ كما نقله الإمام (ق) عن شيخه، وكما اختاره الإمام الشوكاني ـ بأنه لا معارضة، فالتفضيل الثابت في الآية هو من الله سبحانه وتعالى فنعتقد ذلك، ونؤمن به، وأما تفضيل العباد فهو منهي عنه في السنة، فلا نقول: فلان خير من فلان، أو فلان أفضل من فلان، لما يُتَوَهَّم من النقص، وفرق بين اعتقاد معنى التفضيل والتعبير عنه باللفظ، وتأمل ذلك مع قوله عليه السلام (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ).

(١) رواه الشيخان، وأبو داود، عن ابن عباس بلفظ: (ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى)، وبلفظ: (لا يقولن أحدكم: إني خيرٌ من يونس بن متَّى).

(٢) علة لتخصيص يونس بن متى بالذكر إذ ربما يكون التفضيل ذريعة إلى نقصه بسبب ما قصه الله عنه في كتابه، و(متَّى) بتشديد التاءِ اسم أُمه، ولم يشتهر نبي بأمه إلا عيسى ويونس كما ذكره ابن الأثير في الكامل.

(٣) رُوِيَ ـ كما في تفسير ابن أبي حاتم، ومستدرك الحاكم ـ عن وهب بن منبه أن النبي ﷺ قال: (إن للنبوة أثقالاً، وإن يونس تفسخ منها تفسخ الرُّبَعُ)، أي انسلخ منها وتجرد عنها، والمعنى أن يونس لم يستطع أن يحمل أعباء النبوة كما أن الرُّبَع «بضم الراء المشددة، وفتح الباء» وهو ولد الناقة الذي يولد في الربيع لا يستطيع أن يحمل الأثقال الكبيرة.

(٤) يعني ابن عطية أن هذا نص من أبي هريرة في التعيين.

(٥) رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه.

وقوله تعالى: (وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) قال مجاهد، وغيره: هي إشارة إلى محمد ﷺ، لأنه بعث إلى الناس كافة، وأعطي الخمس التي لم يُعطها أحد قبله[١]، وهو أعظم الناس أُمَّة، وختم الله به النبوات، إلى غير ذلك من الخُلُقِ العظيم الذي أعطاه الله، ومن معجزاته، وباهر آياته، ويحتمل اللفظ أن يراد به محمد وغيره[٢] ممن عظمت آياته، ويكون الكلام تأكيداً للأول، ويحتمل أن يريد رفع إدريس المكان العلي[٣]، ومراتب الأنبياءِ في السماءِ[٤] فتكون الدرجات في المسافة، وبقي التفضيل مذكوراً في صدر الآية فقط.

وبينات عيسى عليه السلام: هي إحياءُ الموتى، وإبراءُ الأكمه والأبرص، وخلق الطير من الطين.

وروح القدس: جبريل عليه السلام، وقد تقدم ما قاله العلماءُ فيه[٥].

قوله عز وجل:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾.

ظاهر اللفظ في قوله: (مِنْ بَعْدِهِمْ)، يعطي أنه أراد القوم الذين جاؤوا من بعد جميع الرسل، وليس كذلك المعنى بل المراد ما اقتتل الناس بعد كل نبي، فَلَفَّ الكلام لفاً، لم يفهمه السامع وهذا كما تقول: اشتريت خيلاً ثم بعتها، فجائز لك هذه العبارة، وأنت إنما اشتريت فرساً ثم بعته، ثم آخر وبعته، ثم آخر وبعته، وكذلك هذه النوازل إنما اختلف الناس بعد كل نبيٍّ. فمنهم من آمن، ومنهم من كفر بغياً وحسداً على حطام الدنيا، وذلك كله بقضاءٍ وقدر، وإرادة من الله تعالى. ولو شاءَ خلاف ذلك لكان ولكنه

---

(١) قال ﷺ: (بعثت إلى الأحمر والأسود، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأُحِلَّت لي الغنائم، وأُعطيت الشفاعة).

(٢) كموسى وعيسى.

(٣) في السماء الرابعة أو السادسة.

(٤) كما ثبت في حديث الإسراء.

(٥) عند تفسير قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى الكِتَابَ، وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بالرُّسُلِ، وَآتَيْنَا عِيسى بن مَرْيَمَ البيِّنَاتِ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ) وسبق ثَمَّةَ أَنَّه جبريل عليه السلام.

المستأثر بسر الحكمة في ذلك، الفعَّال لما يريد، فاقتتلوا بأَن قاتل المؤمنون الكافرين على مر الدهر، وذلك هو دفع الله الناس بعضهم ببعض.

قوله عز وجل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤ ﴾.

قال ابن جريج: هذه الآية تجمع الزكاة والتطوع، وهذا كلام صحيح، فالزكاة واجبةٌ، والتطوع مندوب إليه. وظاهر هذه الآية أَنها مراد بها جميع وجوه البر: من سبيل خير، وصلة رحم، ولكن ما تقدم من الآيات في ذكر القتال وأَن الله يدفع بالمؤمنين في صدور الكافرين يترجح منه أَن هذا الندب إنما هو في سبيل الله[(١)]، ويقوي ذلك قوله في آخر الآية: (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) أَي: فكافحوهم بالقتال بالأَنفس وإنفاق الأَموال ـ وندب الله تعالى بهذه الآية إلى إنفاق شيءٍ مما أنعم به، وهذا غاية التفضل فعلاً وقولاً[(٢)] ـ وحذر تعالى من الإمساك إلى أَن يجيءَ يوم لا يمكن فيه بيع ولا شراءٌ ولا استدراك نفقة في ذات الله، إذ هي مبايعة على ما قد فسرناه في قوله تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِض الله) أَوْ إذ البيع فدية[(٣)]، لأَن المرءَ قد يشتري نفسه ومراده بماله، وكأَن معنى الآية معنى سائر الآي التي تتضمن أَلا فِدية يوم القيامة ـ وأَخبر الله تعالى بعدم الخُلَّة يوم القيامة، والمعنى: خُلَّة نافعة تقتضي المساهمة كما كانت في الدنيا، وأَهل التقوى بينهم في ذلك اليوم خُلَّة ولكنه غير محتاج إليها[(٤)]، وخلة غيرهم لا تغني من الله شيئاً ـ وأَخبر تعالى أَن الشفاعة أَيضاً معدومة في ذلك اليوم. فحمل

(١) أي الجهاد، لقوله تعالى: (وَلَوْلا دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ) على ماقدمه ابن عطية رحمه الله من أن المراد بذلك دفع المؤمنين للكافرين انظر ص١٧ من هذا المجلد.

(٢) أنعم عليك فعلاً. وأمرك بالإنفاق قولاً، والمراد أنه أنعم عليك في الدنيا وفي الآخرة بما قدمته من الإنفاق في سبيل الله حسب توجيهه وأمره، وذلك غاية التفضل.

(٣) يعني أن البيع إما أن يكون بمعنى الأخذ والعطاءِ، وإما أن يكون بمعنى الخلاص والفداء، فالنفقة مبايعة أو مفاداة، والمثال واحد.

(٤) في هذه العبارة شيءٌ من القلق، وقد قال الله تعالى: (الأَخِلاءُ يَوْمَئذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُو إلا المُتَّقِين).

والخلة: الصداقة، كأنها تتخلل الأعضاء، أي تدخل خلالها، والخُلَّة: الصديق: قال الشاعر:

وكان لَها في سالف الدهْر خُلَّةٌ ... يُسارق بالطَّرْفِ الخِبَاءَ المُسَتَّرا

الطبري ذلك على عموم اللفظ وخصوص المعنى، وأَن المراد: «ولا شفاعة للكفار»، وهذا لا يحتاج إِليه، بل الشفاعة المعروفة في الدنيا وهي انتداب الشافع وتحكمه على كره المشفوع عنده مرتفعة يوم القيامة البتة، وإِنما توجد شفاعة بإِذن الله تعالى، فحقيقتها رحمة من الله تعالى لكنه شرَّف الذي أَذن له في أَن يشفع، وإِنما المعدوم مثل حال الدنيا من البيع والخُلَّة والشفاعة.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [لا بَيْع فِيه ولا خُلَّة ولا شَفَاعَةَ] بالنصب، في كل ذلك بلا تنوين وكذلك في سورة إِبراهيم: [لابَيْعَ فيهِ ولا خِلالَ] وفي الطور: [لا لغْوَ فيهَا وَلا تأْثِيمَ]، وقرأَ الباقون جميع ذلك بالرفع والتنوين.

و(الظَّالِمُونَ) واضعو الشيءِ في غير موضعه. وقال عطاءٌ بن دينار: الحمد لله الذي قال: (وَالْكافِرُون هُمُ الظَّالِمُون) ولم يقل: «الظَّالِمُون هُمُ الكَافِرُونَ»[١].

قوله عز وجل:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ ﴾.

هذه الآية سيدة آي القرآن، ورد ذلك في الحديث[٢]، وورد أَنها تعدل ثلث القرآن[٣]، وورد أَن من قرأَها أَول ليله لم يقربه شيطان[٤]، وكذلك من قرأَها أَول

---

(١) لأن الآية كما هي تعطي معنى أن كل كافر ظالم، وليس كل ظالم كافراً. ولو قال: «والظالمون هم الكافرون» لكان قد حكم على كل ظالم ـ وهو من يضع الشيء في غير موضعه ـ بالكفر.

(٢) رواه أبو عبد الله الحاكم في «المستدرك» من طريق حكيم بن جبير، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: (سورة البقرة فيها آية سيدة آي القرآن، لا تقرأ في بيت فيه شيطان إلا خرج منه: آية الكرسي). قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجوه، كذا قال، ورواه الترمذي من حديث زائدة، عن حكيم بن جبير ولفظة: (لكل شيءٍ سنامٌ وسنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيدة آي القرآن: آية الكرسي) ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير، وقد تكلم فيه شعبة وضعَّفه، قال الحافظ ابن كثير: وكذا ضعفه أحمد، ويحيى بن معين، وغير واحد من الأئمة، وتركه ابن مهدي، وكذبه السعدي.

(٣) وما ورد في حديث الترمذي وابن أبي شيبة أنها تعدل ربع القرآن ضعيف كما قاله الحافظ ابن حجر.

(٤) روى ذلك النسائي، وأبو يعلى، وابن حبان، عن أُبي بن كعب في قصة الجن الذي كان يأخذ من ثمره فأخذه فذكر له ذلك فأخبر النبي ﷺ، فقال له صدق في قوله.

نهاره. وهي متضمنة التوحيد، والصفات العُلى و(الله) مبتدأٌ و(لا إِلٰه) مبتدأٌ ثان، وخبره محذوف تقديره: «معبود» أَو «موجود»، و(إِلا هو) بدل من موضع: (لا إِلٰه)، و(الحَيُّ) صفة من صفات الله تعالى ذاتية، وذكر الطبري عن قوم أَنهم قالوا: الله تعالى حيٌّ لا بحياة، وهذا قول المعتزلة، وهو قول مرغوب عنه، وحُكي عن قوم أَنه حيٌّ بحياة هي صفة له ـ وحكي عن قوم أَنه يقال: حيٌّ كما وصف نفسه ويسلم ذلك دون أَن ينظر فيه(١).

و(القَيُّومُ) فيعول ـ من القيام أَصله: قيُوْوم، اجتمعت الياءُ والواو وسبقت إِحداهما بالسكون فأُدغمت الأُولى في الثانية بعد قلب الواو ياءً، وقيُّوم بناءُ مبالغة، أَي: هو القائم على كل أَمر بما يجب له، وبهذا المعنى فسره مجاهد، والربيع، والضحاك.

وقرأ ابن مسعود، وعلقمة، وإِبراهيم النخعي، والأَعمش: [الحَيُّ القيَّامُ] بالأَلف(٢).

ثم نفى عز وجل أَن تأْخذه سنة أَو نوم، وفي لفظ الأَخذ غلبة ما، فلذلك حسنت في هذا الموضع بالنفي ـ والسِّنة: بدءُ النعاس، وهو فتور يعتري الإِنسان وترنيق في عينيه، وليس يفقد معه كل ذهنه، والنوم هو المستقل الذي يزول معه الذهن.

والمراد بهذه الآية أَن الله تعالى لا تدركه آفة، ولا يلحقه خلل بحال من الأَحوال، فجعلت هذه مثالاً لذلك، وأُقيم هذا المذكور من الآفات مقام الجميع، وهذا هو مفهوم الخطاب كما قال تعالى:

(فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)(٣) ومما يفرق بين الوسن والنوم قول عدي بن الرقاع:

---

(١) قال أبو (ح) في «البحر المحيط» (٢ ـ ٢٧٧): وهو وصف لمن قامت به الحياة: وهو بالنسبة إلى الله تعالى صفة من صفات الذات ـ حيٌّ بحياة لم تزل، ولا تزول. وفُسِّرَ هنا بالباقي كما في قول لبيد:

فـإِمَّـا تَـرَيْـنـي الـيـوم أصبَحْـتُ سـالـمـاً ... فلسـت بـأحيـا مـن كـلابٍ وجَعْفَـرَ

أي: فلست بأبقى.

(٢) وأصله: قَيْوَام، على وزن فيعال، ففعل به ما فُعل بقيُّوم، ونسب البخاري هذه القراءة في صحيحه إلى عمر بن الخطاب، والقيُّوم والقيَّام كلاهما من صيغ المبالغة ولا يستعملان في غير المدح.

(٣) الآية عبارة عن النهي عن كل ما يؤذي الوالدين فكذلك قوله تعالى: (لا تأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ) عبارة عن نفي كل آفة عنه سبحانه كالسِّنة والنوم، ولا يلزم من نفي السنة نفي النوم، فإن النوم قد يهجم ابتداءً أي دفعة واحدة، وأيضاً فإن النوم أقوى من السنة، لأنه سلطان، وفي الصحيح: (إن الله لا ينَامُ ولا يَنْبَغي لَهُ أَنْ يَنَام). =

وَسْنَانُ أَقْصده النُّعَاس فَرنَّقَتْ   فِي عينه سِنَةٌ وليْسَ بِنَائِم[١]

وبهذا المعنى في السِّنَة فَسَّر الضحاك والسدي. وقال ابن عباس وغيره: السنة النعاس، وقال ابن زيد: الوسنان الذي يقوم من النوم وهو لا يعقل حتى ربما جرد السيف على أَهله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الذي قال ابن زيد فيه نظر، وليس ذلك بمفهوم من كلام العرب. وروى أَبو هريرة قال: (سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى على المنبر قال: وقع في نفس موسى هل ينام الله جل ثناؤُه. فأَرسل الله إِليه ملكاً فأَرقه ثلاثاً، ثم أَعطاه قارورتين في كل يد قارورة، وأَمره أَن يحتفظ بهما، قال: فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان، ثم يستيقظ فيحبس إِحداهما عن الأُخرى حتى نام نومة فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان. قال: ضرب الله له مثلاً أَن لو كان ينام لم يستمسك السماءَ والأَرض)[٢].

وقوله تعالى: (لَهُ مَا فِي السَّموات ومَا في الأَرض) أَي بالملك، فهو مالك الجميع وربه ـ وجاءَت العبارة بـ(ما) وإِن كان في الجملة من يعقل من حيث المراد الجملة والموجود.

ثم قرر ووقف تعالى من يتعاطى أَن يشفع عنده إِلا أَن يأْذن هو فيه جل وعلا[٣].

= وقوله: (فلا تَقُل لَهُمَا أُفٍّ) من الآية (٢٣) من سورة الإسراء.

(١) البيت في وصف ظبي شبَّه به امرأة وقبله:

لــولا الحيــاءُ وأَنَّ رأســي قــد عَسَــا   فيــه المشيــبُ لــزُرْتُ أُم القــاسِــم
وكــأنهــا وسْــطَ النســاءِ أعَــارهــا   عينيــه أحْــوَرُ مــن جــآذر جــاسِــم

فقوله: وسنان، صفة لقوله في البيت الذي قبله: أَحور، والترنيق: مخالطة النوم للعين، وعدي بن الرقاع شاعر إسلامي كنيته أبو داود.

(٢) هذا الحديث غير صحيح، فقد ضعفه البيهقي وغيره، وقال أبو (ح) رحمه الله: قال بعض معاصرينا: هذا حديث وضعه الحشوية، إذ المؤمن لا يتشكك في أن الله ينام أو لا ينام، فكيف بالرسل عليهم الصلاة والسلام؟ وحديث أبي هريرة هذا رواه أبو جعفر الطبري في تفسيره، وروى الزمخشري القصة في تفسيره بصورة أُخرى، وعلق عليه أبو (ح) التعليق السابق.

(٣) لعل أصل هذه الجملة: «ثم قرر تعالى وقف ـ أي منع ـ من يتعاطى أن يشفع عنده. إلا أن يأذن هو فيه جل وعلا»، والذي يتعاطى الشفاعة عنده هم الأنبياء وورثتهم. فشفاعة الآخرة ليست كشفاعة الدنيا تقع بدون إذن المشفوع عنده، بل لا يشفع أحد في الآخرة إلا بعد الإذن له، والله أعلم.

وقال الطبري: هذه الآية نزلت لمَّا قال الكفار: ما نعبد أَوثاننا هذه إلا ليقربوننا إلى الله فقال الله: (لَهُ مَا فِي السَّمَواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ) الآية، وتقرر في هذه الآية أَن الله يأذن لمن يشاءُ في الشفاعة وهم الأَنبياءُ والعلماءُ وغيرهم.

والإذن هنا راجع إلى الأمر فيما نص عليه كمحمد ﷺ إذا قيل له: (واشفع تشفع)[١] وإلى العلم والتمكين إن شفع أَحد من الأنبياءِ والعلماءِ قبل أن يؤمر ـ والذي يظهر أن العلماءَ والصالحين يشفعون فيمن لم يصل إلى النار وهو بين المنزلين، أَو وصل ولكن له أَعمال صالحة[٢]. وفي البخاري[٣] في باب بقية من أَبواب الرؤية: (إن المؤمنين يقولون: ربنا. إخواننا كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويعملون معنا، فهذه شفاعة فيمن يقرب أَمره، وكما يشفع الطفل المحبنطيءُ على باب الجنة). الحديث[٤]. وهذا إنما هو في قرابتهم ومعارفهم ـ وأَن الأَنبياءَ يشفعون فيمن حصل في النار من عصاة أُممهم بذنوب دون قربى ولا معرفة إلا بنفس الإيمان، ثم تبقى شفاعة أَرحم الراحمين في المستغرقين في الذنوب الذين لم تنلهم شفاعة الأَنبياءِ.

وأَما شفاعة محمد في تعجيل الحساب فخاصة له، وهي الخامسة التي في قوله: (وأُعطيت الشفاعة) وهي عامة للناس، والقصد منها إراحة المؤمنين، ويتعجل الكفار منها المصير إلى العذاب، وكذلك إنما يطلبها إلى الأَنبياءِ المؤمنون. والضميران في قوله: (أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) عائدان على كل من يعقل ممن تضمنه قوله: (لَهُ مَافِي السَّمَواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ) وقال مجاهد: ما بين أَيديهم: الدنيا، وما خلفهم: الآخرة،

---

(١) في حديث الشفاعة: عندما يشتد الموقف بالناس يذهبون إلى الأنبياء قصد الشفاعة لهم عند الله في تعجيل الحساب فيعتذرون، فيأتون محمداً ﷺ فيسجد تحت العرش فيقال له: يا محمد ارفع رأسك، واشفع تشفع، وسَلْ تُعْط ـ فهذا أمر بالنَّص. والشفاعة في تعجيل الحساب خاصة بالنبي ﷺ ـ والشفاعة في أهل العذاب بعامة.

(٢) ناقشه الإمام (ق) في هذا وقال: إن كيفية الشفاعة قد بينها الإمام مسلم في صحيحه بياناً شافياً، وذكر من حديث أبي سعيد الخدري، ومن حديث أنس بن مالك، ومن حديث أبي هريرة، ثم قال: دلت هذه الأحاديث على أن شفاعة المؤمنين وغيرهم إنما هي لمن دخل النار وحصل فيها، أعاذنا الله منها، فقول ابن عطية: ممَّن «لم يصل إلى النار أو وصل ولكن» دليل على أنه رحمه الله لم ينظر كتاب مسلم، أو أنه أخَذَ ذلك من أحاديث أُخر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(٣) راجعه في كتاب التوحيد عند قوله: باب قول الله تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ).

(٤) يريد بالمحبنطىء اللازق بالأرض، والحديث المراد: (إن السقط يظل مُحبنطئاً على باب الجنة).

وهذا في نفسه صحيح عند الموت، لأَن ما بين اليد هو كل ما تقدم الإِنسان، وما خلفه هو كل ما يأْتي بعده، وبنحو قول مجاهد قال السدي وغيره.

قوله عز وجل:

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: (وَلا يُحِيطُونَ بشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ) معناه: من معلوماته[1]، وهذا كقول الخضر لموسى عليهما السلام ـ حين نقر العصفور في حرف السفينة ـ «ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر»، فهذا وما شاكله راجع إِلى المعلومات لأَن علم الله تعالى الذي هو صفة ذاته لا يتبعض ـ ومعنى الآية: لا معلوم لأَحد إِلا ما شاءَ الله أَن يعلمه.

واختلف الناس في الكرسي الذي وصفه الله تعالى بأَنه وسع السموات والأَرض.

فقال ابن عباس: كرسيه: علمه، ورجحه الطبري، وقال: منه الكراسة للصحائف التي تضم العلم، ومنه قيل للعلماءِ: الكراسي، لأَنهم المعتمد عليهم، كما يقال: أَوتاد الأَرض.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه الأَلفاظ تعطي ما ذهب إِليه من أَن الكرسي العلم، قال الطبري: ومنه قول الشاعر:

تحفُّ بهم بيضُ الوجوهِ وعُصْبَةٌ   كرَاسِيُّ بالأَحْداثِ حينَ تَنُوبُ[2]

يريد بذلك علماءَ بحوادث الأُمور ونوازلها.

وقال أَبو موسى الأَشعري: الكرسي موضع القدمين، وله أَطيطٌ كأَطيط الرحل[3].

---

(١) والدليل على ذلك الاستثناء بالآية الكريمة، فإنه إنما يأتي على المعلومات لا على العلم الذي هو صفة الله تبارك وتعالى.

(٢) العصبة: الجماعة من الناس.

وتنوب: تنزل أو ترجع مرة بعد مرة. والبيت في البحر المحيط وهو غير منسوب هناك أيضاً.

(٣) روى ابن جرير الطبري بسنده، عن عبد الله بن خليفة، عن النبي ﷺ قال: (إن كرسيه وسع السموات=

وقال السدي: هو موضع قدميه، وعبارة أَبي موسى مخلصة[١] لأَنه يريد هو من عرش الرحمن كموضع القدمين في أَسرة الملوك، فهو مخلوق عظيم بين يدي العرش نسبته إِليه نسبة الكرسي إِلى سرير الملك، والكرسي هو موضع القدمين، وأَما عبارة السدي فقلقة، وقد مال إِليها منذر البلوطي[٢]، وأَوَّلَهَا بمعنى ما قدم من المخلوقات[٣] على نحو ما تأَول في قول النبي عليه السلام: (فيضَع الجبَّارُ فيها قَدَمَه)[٤]. وهذا عندي عناءٌ، لأَن التأْويل لا يضطر إِليه إِلا في أَلفاظ النبي عليه السلام، وفي كتاب الله، وأَما في عبارة مفسِّر فَلا.

وقال الحسن بن أَبي الحسن: الكرسي هو العرش نفسه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

الذي تقتضيه الأَحاديث أَن الكرسي مخلوق عظيم بين يدي العرش والعرش أَعظم منه[٥]، وقد قال رسول الله ﷺ: (ما السموات السبع في الكرسي إِلا كدراهم سبعة

= والأرض، وإنه ليقعد عليه، فما يفضل منه مقدار أربع أصابع، ثم قال بأصبعه فجمعها، وإن له أطيطاً كأطيط الرحل الجديد إذا ركب من ثقله) ا.هـ. والأطيط هو الصوت.

(١) خلاصة الآراء: قيل: إنه العرش، وقيل: إنه موضع القدمين، وروي عن ابن عباس أنه العلم، وأيده الطبري بشعر لا يعرف قائله، وأشار صاحب لسان العرب إلى رواية عمار الدهني عن ابن عباس أنه موضع القدمين، وأما العرش فإنه لا يقدر قدره، وقال: إن هذه الرواية اتفق أهل العلم على صحتها، ومن رُوي عنه أنه العِلْم فقد أبطل، وظاهرٌ أن تفسير ابن عباس رضي الله عنهما أصح التفاسير إذا صح الإسناد إليه.

(٢) ينسب إلى ناحية بالأندلس تسمى «فحص البلُّوط»، واسمه: منذر بن سعيد القاضي بالأندلس، وقد تقدم ذكر شيءٍ من حياته لدى قوله تعالى: (فَاتَّقُوا النَّار الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ والْحِجَارَةُ)، وهو أديب محق، وخطيب بليغ، وقاض من مشاهير القضاة بالأندلس، كان بصيراً بالجدل، وله كتب في القرآن، توفي ٣٥٥هـ، رقم ٣ ص٢٠٥ من الجزء الأول.

(٣) فإن السموات والأرض في جوف الكرسي، والكرسي بين يدي العرش، وموضع قدميه، أي موضع ما قدم من المخلوقات كالأرض والسموات التي في جوفه.

(٤) أي في جهنم، بمعنى أنها لا تسكن حتى يضع الله فيها قدمه، أي حتى يجعل الله فيها الذين قدَّمهم لها من شرار خلقه، فهم قدم الله من النار، كما أن المسلمين قدمه إلى الجنة، والقدم كل ما قدمت من خير أو شر.

(٥) يعني أن ما ذكره الحسن البصري خلاف ما تقتضيه الأحاديث من أن الكرسي غير العرش.

أُلقيت في ترس)[١]، وقال أَبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد أُلقيت في فلاة من الأَرض).

وهذه الآية منبئة عن عظم مخلوقات الله تعالى، والمستفاد من ذلك عظم قدرته إذ لا يؤوده حفظ هذا الأَمر العظيم.

و(يَؤُودُهُ) معناه: يثقله يقال: آدني[٢] الشيءُ بمعنى أَثقلني وتحملت منه مشقة، وبهذا فسر اللفظة ابن عباس، والحسن، وقتادة، وغيرهم.

وروي عن الزهري، وأَبي جعفر، والأَعرج ـ بخلاف عنهم ـ تخفيف الهمزة التي على الواو الأَولى، جعلوها بيْنَ بيْنَ، لا تخلص واواً مضمومة ولا همزة محققة، كما قيل في لؤْم لُوم.

و(العَلِيُّ) يراد به علو القدرة والمنزلة، لا علو المكان لأَن الله منزَّه عن التحيُّز.

وحكى الطبري عن قوم أَنهم قالوا: هو العليُّ عن خلقه بارتفاع مكانه عن أَماكن خلقه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول جهلة مُجَسِّمين[٣]، وكان الوجه أَلا يُحكى، وكذا (العَظيمُ) هي صفة بمعى عِظَم القدر والخطر، لا على معنى عظم الأَجرام.

وحكى الطبري عن قوم أَن (الْعَظِيمَ) معناه المُعَظَّم كما يقال: العتيق بمعنى المعتق، وأَنشد قول الأَعشى:

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره، عن ابن زيد، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس) قال: وقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما الكرسي في العرش إلى آخره).

(٢) يقال: آده يؤوده أوداً: أثقله، واسم المفعول مؤود، ومنه قوله تعالى: (وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا) ويقال أيضاً: وأد البنت يئدها وأداً: أثقلها بالتراب فهي موءودة ـ ومنه قوله تعالى: (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) فالمادتان ترجعان إلى معنى واحد.

(٣) الخلاف في إثبات الجهة معروف عند السلف والخلف، والأدلة من الكتاب والسنة معروفة ولكن الناشئَ على مذهب يرى غيره خارجاً عن الشرع، ولا ينظر في أدلته، ولا يلتفت إليها، والكتاب والسنة هما المعيار الذي يعرف به الحق من الباطل، ويتبين به الصحيح من الفاسد، هذا ما قاله العلامة الشوكاني، ولكن الشيءَ الذي لا خلاف فيه ولا نزاع هو قوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ).

وكَـأَنَّ الْخَمْـرَ الْعَتِيـقَ مِـنَ الإِسْـ ـفَنْـطِ مَمْـزُوجَـةً بِمَـاءِ زُلالِ[1]

وذُكر عن قوم أنهم أنكروا ذلك، وقالوا: لو كان بمعنى مُعظم لوجب أَلا يكون عظيماً قبل أَن يخلق الخلق وبعد فنائهم إذ لا مُعظِّم له حينئذ.

قوله عز وجل:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٥٦﴾.

الدين في هذه الآية: المعتقد والملَّة بقرينة قوله: (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ).

والإكراه الذي في الأحكام من الأَيمان والبيوع والهبات وغير ذلك ليس هذا موضعه، وإنما يجيءُ في تفسير قوله تعالى: (إلا مَنْ أُكْرِه وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ)[2] فإذا تقرر أَن الإكراه المنفي هنا هو في تفسير المعتقد من الملل والنحل فاختلف الناس في معنى الآية[3].

فقال الزهري: سأَلت زيد بن أَسلم عن قوله تعالى: (لا إِكْرَاهَ في الدِّين) فقال: كان رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين لا يُكره أَحداً في الدين، فأَبى المشركون إلا أَن يقاتلهم فاستأْذن الله في قتالهم فأَذن له، قال الطبري: والآية منسوخة في هذا القول.

---

(١) ممزوجة: حال، وخبر، كأن البيت بعده، والخمر المعتقة: القديمة، معروفة عند أهلها، والإسفنط ضرب من الشراب، فارسي معرب، وهو بفتح الفاء وكسرها ـ قيل: إنه من عصير العنب، وقال الأصمعي: هو اسم رومي.

(٢) من الآية (١٠٦) من سورة النحل.

(٣) الكلام إما أن يكون من باب الخبر، أي: لا يتصور فيه إكراه بعد وضوح الأدلة على التوحيد، وما يظهر أنه إكراه فليس في الحقيقة إكراهاً، وإما أن يكون بمعنى النهي ـ من باب الإنشاء ـ أي: لا تكرهوا في الدين ولا تجبروا عليه، وإذاً فالآية إما منسوخة بقوله: (جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالمُنَافِقِين)، وإما مخصوصة بأهل الكتاب الذين قبلوا الجزية. والرشد رشد الإيمان، والغي غي الكفر، وللإيمان أثره، وللكفر ضرره، ومن ثَمَّ كان الله جديراً بالإيمان، والطاغوت مستحقاً للكفران، وبذلك تعلم أن حرية العقيدة ـ بمعنى أننا لا نكره أحداً على الدخول في الإسلام ـ حق من حقوق الإنسان، وأن عدم الإكراه على الدين لا يتنافى مع شريعة الجهاد، فإنه لحماية الدعوة، وللأمن من الفتنة، فكما أن للعقيدة حرية، فكذلك للدعوة حرية، وإذا لم يكن مع الدعوة قوة لتحميها وتدافع عنها عند الاقتضاء فستكون حرية الدعوة اسماً بلا معنى، وبهذا تكون الحروب الإسلامية دفاعية لا هجومية، لأن الإسلام لا يبدأ بالعداء (فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويلزم على هذا أَن الآية مكية، وأَنها من آيات الموادعة التي نسختها آية السيف.

وقال قتادة، والضحاك بن مزاحم: هذه الآية محكمة خاصة في أَهل الكتاب الذين يبذلون الجزية ويؤدونها عن يد صغرة، قالا: «أُمر رسول الله ﷺ أَن يقاتل العربَ أَهل الأَوثان لا يقبل منهم إِلا لا إِله إِلا الله، أَو السيف»[١]، ثم أُمر فيمن سواهم أَن يقبل الجزية، ونزلت فيهم: (لا إِكْرَاهَ في الدِّين).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى مذهب مالك: أَن الجزية تقبل من كل كافر سوى قريش ـ أَي نوع كان ـ[٢] فتجيءُ الآية خاصة فيمن أَعطى الجزية من الناس كلهم لا يقف ذلك على أَهل الكتاب كما قال قتادة والضحاك.

وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير: إِنمانزلت هذه الآية في قوم من الأَوس والخزرج، كانت المرأَة تكون مقلاة لا يعيش لها ولد، فكانت تجعل على نفسها ـ إِن جاءَت بولد ـ أَن تهوده، فكان في بني النضير جماعة على هذا النحو، فلما أَجْلَى رسولُ الله ﷺ بني النضير قالت الأَنصار: كيف نصنع بأَبنائنا؟ إِنما فعلنا ما فعلنا ونحن نرى أَن دينهم أَفضلُ مما نحن عليه، وأَما إِذ جاءَ الله بالإِسلام فنكرههم عليه؟ فنزلت: (لا إِكْرَاهَ في الدين) الآية. وقال بهذا القول عامر الشعبي، ومجاهد، والحسن، إِلا أَنه قال: كان سبب كونهم في بني النضير الاسترضاع[٣].

وقال السدي: نزلت الآية في رجل من الأَنصار يقال له أَبو حصين، كان له ابنان، فقدم تجار من الشام المدينة يحملون الزيت، فلما أَرادوا الرجوع أَتاهم ابنا أَبي حصين فدعوهما إِلى النصرانية فتنصرا، ومضيا معهم إِلى الشام، فأَتى أَبوهما رسول الله ﷺ مشتكياً أَمرهما، ورغب في أَن يبعث رسول الله ﷺ من يردهما، فنزلت: (لا إِكْرَاه في

---

(١) لأنهم قاوموا الدعوة وعارضوها بكل ما عندهم من قوة.

(٢) فأهل الذمة لا يكرهون على الإسلام، ولا يصح إسلامهم بالإكراه، والآية نزلت فيهم كما أخرجه أبو داود وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أي كانوا مسترضعين في بني النضير، وقال غير الحسن: إنهم كانوا يهوداً بحكم النذر والالتزام.

الدِّين) ولم يؤمر يومئذ بقتال أَهل الكتاب ـ وقال: أَبعدهما الله، هما أَول من كفر، فوجد أَبو الحصين في نفسه على رسول الله ﷺ حين لم يبعث في طلبهما، فأَنزل الله جل ثناؤُه: (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ) الآية[١]. ثم إِنه نُسخ: (لا إِكْرَاهَ في الدِّين) فأَمر بقتال أَهل الكتاب في سورة براءَة.

والصحيح في سبب قوله تعالى: (فَلا وَرَبِّك لا يُؤْمِنُونَ) حديث الزبير مع جاره الأَنصاري في حديث السقي[٢].

وقوله تعالى: (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) معناه: بنصب الأَدلة، ووجود الرسول الداعي إِلى الله، والآيات المنيرة. والرشد مصدر من قولك: رشد ـ بكسر الشين وضمها ـ[٣] يرشد رَشَداً ورُشْداً ورَشَاداً ـ والغَي مصدر من غَوَى يغوى إِذا ضل في معتقد أَو رأي، ولا يقال الغَيُّ في الضلال على الإِطلاق ـ وقرأَ أَبو عبد الرحمن السلمي: [الرشاد] بالأَلف. وقرأَ الحسن، والشعبي، ومجاهد: [الرَّشَد] بفتح الراءِ والشين، ورُوي عن الحسن [الرُّشُد] بضم الراءِ والشين.

والطاغوت: بناءُ مبالغة من طغى يطغى، وحكى الطبري: يطغو إِذا جاوز الحد بزيادة عليه ووزنه فَعْلوت. ومذهب سيبويه أَنه اسم مفرد كأَنه اسم جنس يقع للكثير والقليل، ومذهب أَبي علي أَنه مصدر كرهبوت وجبروت، وهو يوصف به الواحد والجمع[٤]، وقلبت لامه إِلى موضع العين وعينه موضع اللام فقيل: طاغوت[٥]. وقال

---

(١) من الآية (٦٥) من سورة النساء.

(٢) اختصم الزبير بن العوام مع رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ في شريج من الحرة، أي مسيل الماءِ، من يسقي أولا ـ فقال ﷺ: (اسق يا زبير ثم أرسل الماءَ إلى جارك) فقال الأنصاري: «أَنْ كان ابنَ عمتك؟» فتلوَّن وجه النبي ﷺ، ثم قال: (اسق يا زبير، ثم احبس الماءَ حتى يبلغ الجدر، ثم أرسل الماءَ إلى جارك) فأنزل الله قوله: (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُون) الآية ـ فقد حكم ﷺ أولاً بالصلح بينهما، ولما قال الأنصاري ما قال حكم ﷺ حكماً صريحاً واستوفى للزبير حقه.

(٣) يقال رشِد بالكسر رَشَداً ورشاداً ورشْداً ـ ورشد بالفتح، ليس غير، والضم سبْقُ قلم من المؤلف. راجع القاموس واللسان.

(٤) يأتي للواحد كقوله: (وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا به) ـ وللجميع كقوله: (يُخرجُونَهُمْ مِنَ النُّور إلى الظُّلُمات) ـ ومنه قوله سبحانه: (والَّذين كَفَروا أَوْلِيَاؤهُمُ الطَّاغُوتُ).

(٥) لو قدم هذا إثر قوله: «ووزنه فعلوت لكان أحسن». والطاغوت فعلوت مثل رغبوت وجبروت وأصله طغيوت لأنه من الطغيان، ثم إن اللام قدمت إلى موضع العين فصار طيغوت، ثم قلبت الياءُ ألفاً =

المبرد: هو جمع، وذلك مردود. واختلف المفسرون في معنى الطاغوت ـ فقال عمر بن الخطاب، ومجاهد، والشعبي، والضحاك، وقتادة والسدي: الطاغوت: الشيطان ـ وقال ابن سيرين، وأَبو العالية: الطاغوت: الساحر. وقال سعيد بن جبير، ورفيع[١]، وجابر بن عبد الله، وابن جريج: الطاغوت: الكاهن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبَيِّنٌ أَن هذه أَمثلة في الطاغوت، لأَن كل واحد منها له طغيان، والشيطان أَصل ذلك كله. وقال قوم: الطاغوت: الأَصنام. وقال بعض العلماءِ: كل ما عُبد من دون الله فهو طاغوت، وهذه تسمية صحيحة في كل معبود يرضى ذلك كفرعون ونمرود ونحوه، وأَما من لا يرضى ذلك كعزير وعيسى عليهما السلام، ومن لا يعقل كالأَوثان فسميت طاغوتاً في حق العَبَدة، وذلك مجاز، إِذ هي بسبب الطاغوت[٢] الذي يأْمر بذلك ويُحَسِّنه وهو الشيطان.

وقدم تعالى ذكر الكفر بالطاغوت على الإِيمان بالله ليظهر الاهتمام بوجوب الكفر بالطاغوت[٣].

والعروة في الأَجرام هي موضع الإِمساك وشدِّ الأَيدي، و(استَمْسَكَ) معناه قبض وشدَّ يديه، و(الوُثْقَى) فُعلى من الوثاقة، وهذه الآية تشبيه. واختلفت عبارة المفسرين في الشيءِ المشبه بالعروة ـ فقال مجاهد: العروة الإِيمان. وقال السدي: الإِسلام. وقال سعيد بن جبير، والضحاك: العروة: لا إِله إِلا الله. وهذه العبارات ترجع إِلى معنى واحد[٤].

= لتحركها وانفتاح ما قبلها فصار طاغوت، ووزنها الآن بعد القلب فلعوت، وجمع طاغوت طواغيت وطواغت وطواغ على حذف الزيادة، والطواغي على العوض من المحذوف، هذا وقد جاء في تفسير «المفهر الماء من البحر» لأبي حيان أن أصله [طغووت] ثم جرى فيه القلب على ما ذكرنا. انظرها من «البحر المحيط» ٢ـ٢٨٢.

(١) هو أبو العالية الرياحي صاحب ابن عباس.

(٢) أي عبدت بسبب الطاغوت الذي هو الشيطان.

(٣) لأن التخلية مقدمة على التحلية، فالتخلي عن الطغيان قبل التحلِّي بالإيمان. وناسب ذلك أيضاً اتصاله بلفظ الغي.

(٤) إلا أنه قد ثبت في الصحيحين مرفوعاً تفسير العروة الوثقى بالإسلام في تعبير رؤيا عبد الله بن سلام، فالإسلام عروة وثيقة لا تنحل ولا تنفصم.

والانفصام: الانكسار من غير بينونة، وإذا نفي ذلك فلا بينونة بوجه، والفصم كسر بينونة[١]، وقد يجيءُ الفصم بالفاءِ في معنى البينونة، ومن ذلك قول ذي الرمة:

كَــأَنَّــهُ دُمْلُــجٌ مِــنْ فِضَّــةٍ نَبَــهٌ ... في مَلْعَبٍ من عَذارى الْحَيِّ مَفْصُومُ[٢]

ولما كان الكفر بالطاغوت والإيمان بالله مما ينطق به اللسان ويعتقده القلب حسُن في الصفات (سَمِيعٌ) من أجل النطق و(عَلِيمٌ) من أجل المعتقد.

قوله عز وجل:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

الولي: فعيل من ولي الشيءَ إذا جاوره ولزمه، فإذا لازم أَحدٌ أَحداً بنصره ووده واهتباله فهو وليُّه، هذا عرفه في اللغة. قال قتادة: (الظُّلُمَاتِ) الضلالة و(النُّور) الهدى، وبمعناه قال الضحاك، والربيع. وقال مجاهد، وعبدة بن أَبي لبابة: إنَّ قوله: (الله وليُّ الَّذِين آمَنُوا) الآية ـ نزلت في قوم آمنوا بعيسى، فلما جاءَ محمد ﷺ كفروا به، فذلك إخراجهم من النور إلى الظلمات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فكأَن هذا القول[٣] أَحرز نوراً في المعْتَقِد خرج منه إلى ظلمات، ولفظ الآية مستغن عن هذا التخصيص، بل هو مترتب في كل أُمة كافرة آمن بعضها كالعرب، ومترتب في الناس جميعاً[٤]، وذلك أَنَّ مَن آمن منهم فالله وليُّه، أَخرجه من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن كفر بعد وجود الداعي والنبي المرسل فشيطانه ومُغويه كأَنه أَخرجه من

---

(١) فالانفصام: الانكسار من دون بينونة، والانقصام: الانكسار مع البينونة ولكن الفراء يقول: الانفصام والانقصام هما لغتان وبالفاء أفصح، وقد يجيء الفصم كالقصم كما في بيت ذي الرمة.

(٢) الدُّمْلُجُ: سوار يحيط بالعضد، ومثله الدُّملوج، وجمعه: دمالج ودماليج، ونبه بفتح النون والباء: ما سقط ونُسي ولم يهتد إليه، شبه الغزال وهو نائم بسوار من فضة قد طرح ونسي، وجعله مفصوماً لأنه ينحني وينثني إذا نام.

(٣) في بعض النسخ: «هذا المُعْتَقَد» وهي أولى وأنسب: لقوله بعدها: «أحرز نوراً في المعتقد». وقد نقلها القرطبي عن ابن عطية بهذا النص: «فكأن هذا المعتقد أحرز نوراً في المعتَقِد».

(٤) لا في خصوص مَنْ آمن بعيسى عليه السلام ثم كفر بمحمد عليه السلام.

الإيمان إذ هو مُعَدٌّ وأهل للدخول فيه. وهذا كما تقول لمن منعك الدخول في أمر: أخرجتني يا فلان من هذا الأمر، وإن كنت لم تدخل فيه البتة. ولفظة الطاغوت في هذه الآية تقتضي أنه اسم جنس، ولذلك قال أولياؤهم بالجمع، إذ هي[١] أنواع، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [أولياؤُهُمُ الطَّواغيتُ] يعني الشياطين، وحكم عليهم بالخلود في النار لكفرهم[٢].

قوله عز وجل:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾.

(أَلَمْ تَرَ) تنبيه، وهي رؤية القلب[٣]. وقرأ علي بن أبي طالب: (أَلَمْ تَرْ) بجزم الراء[٤]، والذي حاج إبراهيم هو نمروذ بن كنعان بن كوش بن حام بن نوح ملك زمانه وصاحب النار والبعوضة[٥]، هذا قول مجاهد، وقتادة، والربيع، والسدي، وابن إسحق، وزيد بن أسلم[٦]، وغيرهم ـ وقال ابن جريج: هو أول ملك في الأرض، وهذا

---

(١) أي الطواغيت أنواع من الظلمات والضلالات، وأما الحق فهو واحد ولذلك أفرد النور.

(٢) من لطيف ما ذكره أبو (ح) في هذه الآية قوله في «البحر المحيط» ٢ـ٢٨٣ ما نصه: وقد تباين الإخبار في هاتين الجملتين فاستفتحت آية المؤمنين باسم الله تعالى، وأخبر عنه بأنه ولي المؤمنين تشريفاً لهم، إذ بُدِئَ في جملتهم باسمه تعالى، ولقربه من قوله. (والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ)، واستفتحت آية الكافرين بذكرهم نعياً عليهم، وتسمية لهم بما صدر منهم من القبيح. ثم أخبر عنهم بأن أولياءهم الطاغوت، ولم يصدر الطاغوت استهانة به، وأنه مما ينبغي ألا يجعل مقابلاً لله تعالى، ثم عكس الإخبار فيه. . . الخ».

(٣) أي لا رؤية البصر، ذلك أن الرؤية بمعنى الإدراك تكون بالقلب، وهي مضمنة معنى التنبيه، أي: تَنَبَّهْ إلى أمر الذي حاجَّ إبراهيم في ربه، والمُحاجَّة المجادلة والمناظرة، وهي لا تكون إلا بدليل يعرفه الخصم ويسلمه، لأن المقصود من المناظرة رد الخصم إلى الحق والصواب، ولا يكون ذلك إلا بما يعرفه، وأما رده بما لا يعرفه ولا يعترف به فهو من باب التكليف بما لا يطاق والتضييع لفائدة المناظرة. واحتجاجات القرآن كلها جاءت على هذا النمط. وفي الآية دليل الجدال والحجاج في الدين.

(٤) إجراءً للوصل مجرى الوقف.

(٥) سلطها الله عليه بأن دخلت إلى دماغه وعذبه بها مدة من الزمان يعلمها الله ثم أهلكه كما أهلك غيره من الطغاة والمتجبرين.

(٦) زيد بن أسلم بن ثعلبة بن عدي ـ ابن عم ثابت بن أقرم، ذكر أنه شهد بدراً، وإنه شهد صفين مع علي ـ الإصابة ١ـ٥٤٢.

مردود. وقال قتادة: هو أَول من تجبر، وهو صاحب الصرح ببابل[١]، وقيل: إنه ملك الدنيا بأَجمعها ونفذت فيها طينته[٢]، وهو أَحد الكافرين، والآخر بخت نصر، وقيل: إن الذي حاج إِبراهيم نمروذ بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أَرفخشد بن سام بن نوح.

وفي قصص هذه المحاجة روايتان:

إِحداهما: ذكر زيد بن أَسلم أَن النمروذ هذا قعد يأْمر للناسِ بالميرة[٣] فكلما جاءَ قوم قال: مَن ربكم وإِلهكم؟ فيقولون: أَنت. فيقول: ميروهم، وجاءَ إِبراهيم عليه السلام يمتار، فقال له: مَن ربك وإِلهك؟ قال إِبراهيم: (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)، فلما سمعها نمروذ قال: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيت)، فعارضه إِبراهيم بأَمر الشمس فبهت الذي كفر، وقال: لا تميروه، فرجع إِبراهيم إِلى أَهله دون شيءٍ، فمر على كثيب من رمل كالدقيق فقال: لو ملأْت غرارتي من هذا فإِذا دخلت به فرح الصبيان حتى أَنظر لهما، فذهب بذلك فلما بلغ منزله فرح الصبيان وجعلا يلعبان فوق الغرارتين، ونام هو من الإِعياءِ، فقالت امرأَته: لو صنعت له طعاماً يجده حاضراً إِذا انتبه، ففتحت إِحدى الغراتين فوجدت أَحسن ما يكون من الحُوَّارى[٤] فخبزته، فلما قام وضعته بين يديه، فقال: من أَين هذا؟ فقالت: من الدقيق الذي سقت، فعلم إِبراهيم أَن الله تعلى يسَّر لهم ذلك.

وقال الربيع، وغيره في هذا القصص: إِن النمروذ لما قال: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) أَحضر رجلين فقتل أَحدهما، وأَرسل الآخر، وقال: قد أَحييت هذا، وأَمتُّ هذا، فلما رد عليه بأَمر الشمس بُهت.

والرواية الأُخرى: ذكر السدي أَنه لما خرج إِبراهيم من النار[٥] أَدخلوه على المَلِك، ولم يكن قبل ذلك دخل عليه، فكلمه، وقال له: مَنْ ربك؟ قال: (رَبي الذي يُحْيِي وَيُمِيت)، قال نمروذ: (أَنَا أُحْيِي وَأُميتُ) أَنا آخذ أَربعة نفر فأُدخلهم بيتاً، ولا

---

(١) بناه إِلى السماء فأَتى الله بنيانه من القواعد كما قال سبحانه: (فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ القَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِم، وأَتَاهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ).

(٢) أي طبيعته وسياسته.

(٣) أي الطعام، قال تعالى: (ونَمِيرُ أَهْلَنَا).

(٤) بتشديد الواو المفتوحة، هو الدقيق الأَبيض الخالص.

(٥) التي أُلقِي فيها بأمر النمروذ وقال الله لها: (يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيم).

يطعمون شيئاً، ولا يسقون حتى إذا جاءوا أخرجتهم فأطعمت اثنين فحييا، وتركت اثنين فماتا، فعارضه إبراهيم بالشمس فبُهت.

وذكر الأُصوليون في هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام وصف ربه تعالى بما هو صفة له من الإحياءِ والإماتة لكنه أمر له حقيقة ومجاز ـ قصد إبراهيم عليه السلام الحقيقة، ففزع نمروذ إلى المجاز[١]، وموَّه به على قومه، فسلَّم له إبراهيم تسليم الجدل، وانتقل معه من المثال وجاءَه بأمر لا مجاز فيه، فبهت الذي كفر ولم يمكنه أن يقول: أنا الآتي بها من المشرق، لأن ذوي الأسنان يكذبونه[٢].

وقوله: (حَاجَّ)، وزنه فاعل، من الحجة، أي جاز به إياها، والضمير في (رَبِّهِ) يحتمل أن يعود على إبراهيم عليه السلام، ويحتمل أن يعود على الذي حاج، و(أَنْ)[٣] مفعول من أجله، والضمير في (آتاهُ) للنمروذ، وهذا قول جمهور المفسرين، وقال المهدوي: يحتمل أن يعود الضمير على إبراهيم (أَنْ آتاه) ملك النبوة، وهذا تحامل من التأويل[٤].

وقرأ جمهور القراءِ: (أَنَ أُحْيِي) بطرح الألف التي بعد النون من (أَنا) إذا وصلوا في

---

(١) يعني أنه جعل القتل إماتة والكفَّ عن القتل إحياء.

(٢) يريد أن المسنين من أهل مملكته يكذبونه لو ادعى ذلك، إذ يعلمون أنه مُحْدَث. والشمس كانت تطلع من المشرق قبل حدوثه، واختلف المفسرون: أذلك انتقال من دليل إلى دليل أم دليل واحد والانتقال فيه من مثال إلى مثال أوضح منه؟ إلى الرأي الأول ذهب الزمخشري، قال: «وكان الاعتراض عتيداً، ولكن إبراهيم لما سمع جوابه الأحمق لم يحاجه فيه، ولكن انتقل إلى مالا يقدر فيه على نحو ذلك الجواب ليبهته أول شيء، وهذا دليل على جواز الانتقال من حجة إلى حجة». ا. هـ. والرأي الثاني هو رأي المحققين من المفسرين، قالوا: «نحن نرى أشياء تحدث ولا يقدر أحد على إحداثها، فلا بد من قادر يتولى إحداثها وهو الله تعالى، منها الإحياءُ والإماتة، ومنها الرعد والبرق، ومنها حركات الأفلاك والكواكب، والمستدل لا يجوز له أن ينتقل من دليل إلى دليل، وكل ما فعله إبراهيم هو الانتقال من مثال إلى مثال أوضح منه».

(٣) أي لأن آتاه الله الملك، ويعني أن إيتاءه الملك أطغاه وأبطره وأورثه الكبر والكفر، ومن ثَمَّ كان الملك فتنة وبلية على صاحبه، فلو كان النمروذ بن كنعان فقيراً حقيراً مبتلى بالحاجات والضرورات لم تنزع نفسه إلى منازعة إبراهيم عليه السلام، وإلى دعواه الإحياء والإماتة، وتعرضه إلى إحراق إبراهيم بالنيران، وإنما وصل إلى هذه المعاطب والمهالك بسبب أنه ملك.

(٤) أي تكلف في التأويل، والذي دعاه إلى ذلك قوله تعالى: (لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِين) والمُلك عهد منه، وقد يقال: الملك الظالم لا يناله عهد الله، وإن كان بإرادة الله.

كل القرآن غير نافع، فإن ورشاً، وابن أَبي أُويس، وقالون رأوا إثباتها في الوصل إذا لقيتها همزة في كل القرآن مثل: (أَنا أُحيي) (أَنا أَخوك)[١] إلا في قوله تعالى: (إِن أَنَا إِلا نَذيرٌ)[٢] فإنه يطرحها في هذا الموضع مثل سائر القراءِ، وتابع أَصحابه في حذفها عند غير همزة. قال أَبو علي: ضمير المتكلم الاسم فيه الهمزة والنون[٣]، ثم إن الأَلف تلحق في الوقف كما تلحق الهاءُ أَحياناً في الوقف، فإذا اتصلت الكلمة التي هي فيها بشيءٍ سقطت الهاءُ، فكذلك هذه الأَلف، وهي مثل أَلف حيهلا وهذا مثل الأَلف التي تلحق في القوافي، فتأَمل. قال أَبو علي فإذا اتصلت الكلمة بشيءٍ سقطت الأَلف لأَن الشيءَ الذي تتصل به الكلمة يقوم مقام الأَلف، وقد جاءَت الأَلف مثبتة في الوصل في الشعر ـ من ذلك قول الشاعر:

أَنَـا شَيْـخُ العَشِيـرَةِ فَـاعْـرِفُـونِـي ... حِمِيـداً قَـدْ تَـذَرَّيْـتُ السَّنَـامَـا[٤]

وقرأَ الجمهور[٥]: (فَبُهِتَ الَّذِي) بضم الباءِ وكسر الهاءِ، يقال: بُهِتَ الرجل إِذا انقطع وقامت عليه الحجة، قال ابن سيدة: ويقال في هذا المعنى: بَهِتَ بفتح الباءِ وكسر الهاءِ، وبَهُت بفتح الباءِ وضم الهاءِ. قال الطبري: وحُكي عن بعض العرب في هذا المعنى: بَهَت بفتح الباءِ والهاءِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هكذا ضبطت اللفظة في نسخة ابن ملول[٦] دون تقييد بفتح الباءِ والهاءِ. قال ابن

(١) من الآية (٦٩) من سورة الكهف.

(٢) من الآية (١٨٨) من سورة الأعراف.

(٣) الكوفيون يقولون: الاسم هو (أنا) بكماله، وعليه فنافع في إثباته الألف جار على الأصل، ومن حذفها من القراءة إنما حذفها تخفيفاً. والفتحة دالة عليها.

(٤) قال في «خزانة الأدب»: نسب ياقوت هذا البيت إلى حميد بن محدل القضاعي وهو شاعر إسلامي، وتذرَّيْت السَّناما معناه: علوت ذروته، وحميداً بدل من النون في قوله فاعرفوني. وفي رواية: «أنا سيف العشيرة» بالفاءِ، وفي رواية: «جميعاً» بدلاً من: «حميداً».

(٥) حاصله أنه يقال: بُهت بضم الباءِ، وبَهُت بضم الهاءِ، وبَهِت بكسر الهاءِ، وبهَت بفتح الهاءِ، وقد قرىء بجميع هذه اللغات إلا أن قراءة الجمهور هي بالبناء للمفعول، وهي أفصحها وأشهرها حتى اقتصر عليها ابن قتيبة في «أدب الكاتب». ومعنى بهت: تحير ودهش ـ ويكون متعدياً ولازماً، والأكثر في اللازم الضم.

(٦) هو أحمد بن ملول التنوخي، يكنى أبا بكر، من أهل توزر ـ سمع مع سحنون، ورحل في طلب =

جني: قرأَ أَبو حيوة: [فَبَهُتَ] بفتح الباءِ وضم الهاءِ، وهي لغة في بهِت بكسر الهاءِ. قال: وقرأَ ابن السميفع: [فبَهَتَ] بفتح الباءِ والهاءِ على معنى فَبَهَتَ إِبراهيم الذي كفر، فالذي في موضع نصب، قال: وقد يجوز أَن يكون بَهَتَ بفتحهما لغة في بَهُتَ قال: وحكى أَبو الحسن الأَخفش قراءَة [فَبَهِت] بكسر الهاءِ كَخَرِقَ ودهِشَ(١) قال: والأَكثر بالضم في الهاءِ، قال ابن جني: يعني أَن الضم يكون للمبالغة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد تأَول قوم في قراءَة من قرأَ [فَبَهَتَ] بفتحهما أَنه بمعنى سبَّ وقذف، وأَن نمروذاً هو الذي سب إِبراهيم حين انقطع ولم تكن له حيلة.

وقوله تعالى: (وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَومَ الظَّالِمِينَ) إِخبار لمحمد عليه السلام وأُمته، والمعنى لا يرشدهم في حججهم على ظلمهم، لأَنه لا هدى في الظلم. فظاهره العموم، ومعناه الخصوص كما ذكرنا(٢) لأَن الله قد يهدي الظالمين بالتوبة والرجوع إِلى الإِيمان، ويحتمل أَن يكون الخصوص فيمن يوافي ظالماً.

قوله عز وجل:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾.

عطفت [أَو] في هذه الآية على المعنى(٣)، لأَن مقصد التعجيب في قوله: (أَلَمْ تَرَ

= الحديث. ثقةٌ مأمون، سمع منه كثيرٌ من الأعيان كالاكنافي وغيره، وكان فقيهاً عالماً حسن المناظرة، ناظر محمد بن عبد الحكم بمصر، وألف تآليف كثيرة، توفي بتوزر سنة ٢٦٢هـ، قاله ابن فرحون في «الديباج»، وقال القاضي عياض: في «المدارك»: إنه ألف رقائق الفضيل بن عياض، وكتاب زهد سفيان الثوري، وكتاب فضائل الأوزاعي، وكتاب فضائل طاوس اليمني، إلا أنه في النسخة المطبوعة بالمغرب ذكر بلفظ يلول بالياءِ، والمعروف ملول بالميم.

(١) خَرِق كتَعِب معناه: دَهش، فقوله: ودَهش تفسير لما قبله.

(٢) أي: لا يهديهم في حججهم عند الخصومة، ويحتمل كما قال: لا يهدي من يوافي ظالماً يوم القيامة، وهذا معنى الخصوص الذي أشار إليه.

(٣) الآية مسوقة على الآية قبلها، والتقدير: «أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِي حَاج إبراهيم في ربه ـ وإلى الَّذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها». وقيل تقديره: هل رأيت كالذي حاج إبراهيم في ربه، وهل رأيت كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها». قاله البغوي، وقوله تعالى: (مائَةَ عام) ليس منصوباً بأماته، لأن=

إلى الَّذِي حَاجَّ) يقتضي المعنى: أرأيت كالذي حاج؟ ثم جاءَ قوله: (أَو كَالَّذِي) عطفاً على ذلك المعنى[١].

وقرأ أبو سفيان بن حسين: (أَوَ كالَّذي مَرَّ) بفتح الواو وهي واو عطف دخل عليها ألف التقرير[٢]. قال سليمان بن بريدة، وناجية بن كعب[٣]، وقتادة، وابن عباس، والربيع، وعكرمة، والضحاك: الذي مر على القرية هو عزير، قال وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد بن عمير، وبكر بن مضر: هو أَرمياءُ. وقال ابن اسحق: أَرمياءُ هو الخضر، وحكاه النقاش عن وهب بن منبه، وهذا كما تراه، إلا أَن يكون اسماً وافق اسماً، لأَن الخضر معاصر لموسى، وهذا الذي مر على القرية هو بعده بزمان من سبط هارون فيما روى وهب بن منبه[٤]. وحكى مكي عن مجاهد أَنه رجل من بني إسرائيل غير مسمى، قال النقاش: ويقال: هو غلام لوط عليه السلام، واختلف في القرية أَيما هي؟ فحكى النقاش أَن قوماً قالوا: هي المؤتفكة. وقال ابن زيد: إن القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا مرَّ عليهم رجل وهم عظام تلوح فوقف ينظر فقال: أَنى يحيي هذه الله بعد موتها؟ فأَماته الله مائة عام ثم بعثه، وترجم الطبري على هذا القصص بأَنه قولٌ بأَن القرية التي مر عليها هي التي أَهلك الله فيها الذين خرجوا من ديارهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقول ابن زيد لا يلائم الترجمة لأَن الإشارة بهذه على مقتضى الترجمة هي إلى

= الإماتة سلب الحياة وهي لا تمتد، وإنما الوجه أن يضمن (أَمَاتَهُ) معنى (أَلْبَثَهُ)، فكأنه قيل: أَلْبَثَهُ الله ميتاً مائة عام، قاله ابن هشام في مغني اللبيب.

(١) والعطف على المعنى موجود في كلام العرب وإن كان لا ينقاس، ومنه قول الشاعر:

تَقِيٌّ نَقِيٌّ لَمْ يُكَثِّر غُنَيْمَةً ... بِنَهْكَةِ ذِي قُرْبَى ولا بِحَقَلَّدِ

لأن المعنى في قوله: «لم يكثر» ليس بمكثر ـ ولذلك راعى هذا المعنى فعطف عليه قوله: «ولا بحقلد».

(٢) فالهمزة للاستفهام الذي معناه التقرير. والتقدير: «وأرَأَيْتَ مثل الذي».

(٣) ناجية بن كعب الخزاعي هو صاحب هدي النبي ﷺ، وأخرج ابن أبي شيبة من طريق عروة، أن النبي ﷺ بعث ناجية الخزاعي عيناً في فتح مكة.

(٤) إن كان الخضر هو أرمياء فلا يبعد ما قاله ابن إسحق، لأن الخضر من المعمرين فيمكن أن يبقى حياً إلى هذا العصر على أحد القولين، وإن كان قد مات قبل ـ كما هو الصحيح عند المحدثين ـ فقول الإمام ابن عطية صحيح.

المكان، وعلى نفس القول[1] هي إلى العظام والأَجساد، وهذا القول من ابن زيد مناقض لأَلفاظ الآية، إذ الآية إنما تضمنت قرية خاوية لا أَنيس فيها، والإشارة بهذه إنما هي إلى القرية، وإحياؤُها إنما هو بالعمارة ووجود البناءِ والسكان. وقال وهب بن منبه، وقتادة، والضحاك، وعكرمة، والربيع: القرية بيت المقدس لما خربها بخت نصر البابلي، وفي الحديث الطويل[2] حين أَحدثت بنو إسرائيل الأَحداث وقف أَرمياءُ أَو عزير على القرية وهي كالتل العظيم وسط بيت المقدس، لأَن بخت نصر أَمر جنده بنقل التراب إليه حتى جعله كالجبل، ورأَى أَرمياءُ البيوت قد سقطت حيطانها على سقفها، والعريش سقف البيت، وكل ما يهيَّا لظل أَو يكن فهو عريش، ومنه عريش الدالية والثمار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[3].

قال السدي[4]: يقول: هي ساقطة على سقُفها، أَي سقطت السقف ثم سقطت الحيطان عليها. قال غير السدي: معناه خاوية من الناس على العروش، أَي على البيوت، وسقُفها عليها لكنها خوت من الناس، والبيوت قائمة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وانظر استعمال العريش مع علي في الحديث في قوله: (وكان المسْجد يومئذ على عريش في أَمر ليلة القدر)[5].

---

(١) أي قول أبي زيد.

(٢) الحديث الطويل عن هذه القصة رواه ابن جرير الطبري عن محمد بن إسحق صاحب السيرة عمن لا يتهم عن وهب بن منبه اليماني.

(٣) من الآية (٦٨) من سورة النحل.

(٤) أي في معنى قوله تعالى: (وَهِي خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا)، وعلى ماقاله السدي رحمه الله فـ(عَلَى عُرُوشِهَا) متعلق بـ(ـخَاوِيَة)، وعلى ما قاله غيره فهو متعلق بمحذوف، أي قائمة على عروشها، وقد أيد الثاني الإمام ابن عطية. تأمل.

(٥) نصه كما في البخاري: (عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يعتكف في العشر الأوسط من رمضان، فاعتكف عاماً حتى إذا كان ليلة إحدى وعشرين وهي الليلة التي يخرج في صبيحتها من اعتكافه قال: من كان اعتكف معي فليعتكف العشر الأواخر وقد أُريت هذه الليلة ثم أُنسيتها، وقد رأيتني أسجد في ماءٍ وطين من صبيحتها فالتمسوها في العشر الأواخر، والتمسوها في كل وتر، فمطرت السماءُ تلك الليلة، وكان المسجد على عريش فوكف المسجد فبصرت عيناي رسول الله ﷺ على جبهته أثر الماءِ والطين من صبح إحدى وعشرين).

و(خاوية) معناه: خالية، يقال: خوت الدار تخوى خواءً، ويقال خَوَيت، قال الطبري: والأَول أَفصح.

وقوله: (أَنَّى يحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) معناه: من أَي طريق؟ وبأَي سبب؟ وظاهر اللفظ السؤال عن إِحياءِ القرية بعمارة وسكان كما يقال الآن في المدن الخربة التي يبعد أَن تعمر وتسكن، فكأَن هذه تلهف من الواقف المعتبر على مدينته التي عهد فيها أَهله وأَحبته، وضرب له المثل في نفسه بما هو أَعظم مما سأَل عنه[١]، والمثل الذي ضرب له في نفسه يحتمل أَن يكون على أَن سؤاله إِنما كان عن إِحياءِ الموتى من بني آدم، أَي: أَنى يُحيي هذه الله موتاها.

وقد حكى الطبري عن بعضهم أَنه قال: كان هذا القول[٢] شكًّا في قدرة الله على الإِحياء فلذلك ضرب له المثل في نفسه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس يدخل شك في قدرة الله على إِحياءِ قرية بجلب العمارة إِليها، وإِنما يتصور الشك من جاهل في الوجه الآخر[٣] والصواب أَلا يتأَول في الآية شك.

وروي في قصص هذه الآية أَن بني إِسرائيل لما أَحدثوا الأَحداث بعث الله عليهم بخت نصر البابلي فقتلهم وجلاهم من بيت المقدس فخربه، فلما ذهب عنه جاءَ أَرمياءُ فوقف على المدينة معتبراً فقال: (أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ الله بَعْدَ مَوْتِهَا)، قال: فأَماته الله تعالى، وكان معه حمار قد ربطه بحبل جديد، وكان معه سلة فيها تين، وهو طعامه، وقيل: تين وعنب، وكان معه ركوة من خمر، وقيل: من عصير، وقيل: قلة ماءٍ هي شرابه، وبقي ميتاً مائة عام فرُوي أَنه بلي وتفرقت عظامه هو وحماره، ورُوي أَنه بلي دون الحمار، وأَن الحمار بقي حيًّا مربوطاً لم يمت ولا أَكل شيئاً ولا بليت رمته، ورُوي أَن الحمار بلي وتفرقت أَوصاله دون عزير[٤]، ورُوي أَن الله بعث إِلى تلك القرية مَنْ عمَّرها ورد إِليها جماعة بني إِسرائيل حتى كملت على رأَس مائة سنة، وحينئذ حيي

---

(١) وهو إماتته مائة عام ثم بعثه وسؤاله.

(٢) أي: (أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا).

(٣) وهو إحياءِ الموتى لا إحياءِ القرية.

(٤) هناك روايات ثلاث: بلي هو دون حماره، بلي حماره دونه، بلي الاثنان وتفرقت عظامهما وأوصالهما.

عزير، ورُوي أَن الله رد عليه عينيه وخلق له حياة يرىٰ بها كيف تعمر القرية وتُحيا من ثلاثين سنة تكملة المائة، لأَنه بقي سبعين ميتاً كله، وهذا ضعيف ترد عليه أَلفاظ الآية.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾، معناه: أَحياه، وجعل له الحركة والانتقال فسأَله الله تعالى بواسطة الملك: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾؟ على جهة التقرير، و﴿كَمْ﴾ في موضع نصب على الظرف فقال: ﴿لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، قال ابن جريج، وقتادة، والربيع: أَماته الله غدوة يوم، ثم بعث قبل الغروب فظن هذا اليوم واحداً فقال: لبثت يوماً، ثم رأَى بقية من الشمس فخشي أَن يكون كاذباً فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فقيل له: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ ـ ورأَى من عمارة القرية وأَشجارها ومبانيها ما دله على ذلك. قال النقاش: العام مصدر كالعوم، سمي به هذا القدر من الزمان، لأَنها عومة من الشمس في الفلك، والعوم كالسبح وقال تعالى: ﴿وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا معنى كلام النقاش، والعام على هذا كالقول، والقال[١]، وظاهر هذه الإِماتة أَنها بإِخراج الروح من الجسد. ورُوي في قصص هذه الآية أَن الله بعث لها ملكاً من الملوك يعمرها ويجدُّ في ذلك حتى كان كمالُ عمارتها عند بعث الله القائل: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

وقرأَ ابن كثير، وعاصم، ونافع: [لَبِثْتَ] في كل القرآن بإِظهار الثاءِ، وذلك لتباين مخرج الثاءِ من مخرج التاءِ، وذلك أَن الطاءَ والتاءَ والدال من حيِّز، والظاءَ والذال والثاءَ من حيِّز. وقرأَ أَبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بالإِدغام في كل القرآن، أَجرُوهما مجرى المِثْلين من حيث اتفق الحرفان في أَنهما من طرف اللسان وأُصول الثنايا، وفي أَنهما مهموسان[٢] قال أَبو علي: وَيُقَوِّي ذلك وقوعُ هذين الحرفين في رَوِيٍّ قصيدة واحدة.

---

(١) يعني أنه يقال: عام يعوم عوماً وعاماً، كما يقال: قال يقول قولاً وقالاً.

(٢) الحروف المهموسة عشرة يجمعها قولك: (حَثَّه شَخْصٌ فَسَكَتَ) وضدها المجْهُورة وهي تسعة عشر، والمجهورة ما يصحبها صوت قوي لقوة الاعتماد عليها، والمهموسة ما يصحبها صوت ضعيف لضعف الاعتماد عليها.

قوله عز وجل:

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

وقف في هذه الألفاظ على بقاءِ طعامه وشرابه على حاله لم يتغير، وعلى بقاءِ حماره حياً على مربطه هذا على أحد التأويلين[١]، وعلى التأويل الثاني وقف على الحمار كيف يُحيا وتجتمع عظامه، وقرأ ابن مسعود: [وهذا طعامُك وشرابُك لم يتَسَنَّه]، وقرأ طلحة بن مصرف، وغيره: [وانظر إلى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ «لمائة سنة»][٢].

قال أبو علي: واختلفوا في إثبات الهاءِ في الفعل من قوله عز وجل: (لَمْ يَتَسَنَّهْ) ـ و(اقْتَدِهْ)، و(مَا أَغْنىٰ عَنِّي مَاليَهْ)، و(سُلْطانيهُ)، (وَمَا أَدْرَاكَ ماهِيَهْ) وإسقاطها في الوصل ـ لم يختلفوا في إثباتها في الوقف ـ فقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عمر: هذه الحروف كلَّها بإثبات الهاءِ في الوصل، وكان حمزة يحذفهن في الوصل، وكان الكسائي يحذفها في (يَتَسَنَّهْ) و(اقْتَدِهْ) ويثبتها في الباقي، ولم يختلفوا في (حِسَابِيَهْ) و(كتَابِيَهْ) أنهما بالهاءِ في الوقف والوصل[٣].

و(يَتَسَنَّهْ) يحتمل[٤] أن يكون من تسنى الشيءُ إذا تغير وفسد، ومنه «الحمأُ

---

(١) وهو أن حماره بقي حيّاً في مربطه دون أكل أو شرب. والثاني وقف على كيفية حياة حماره الميت، وجمع عظامه.

(٢) أي بدل قوله (لم يتسنه).

(٣) قوله تعالى: (اقْتَدِهْ) من الآية ٩٠ من سورة الأنعام. في قوله سبحانه: (أُولئِك الَّذين هَدَى اللهُ فَبِهُداهُم اقْتَدِهْ).

وقوله: (وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ) هي الآية ١٠ من سورة القارعة.

أما قوله تعالى: (مَا أَغنَى عَنِّي مَالِيَه) ـ (هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ) ـ (إنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ) ـ (وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ) ـ (هَاؤم اقْرَؤوا كِتَابِيَهْ) ـ (يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ) فكلها في سورة الحاقة.

(٤) هذه الاحتمالات مبينة على الخلاف في هاءِ (يَتَسَنَّهْ). أهي زائدة أم أصلية من بنية الكلمة، وحاصله أن (يَتَسَنَّهْ) إما من التسَنِّي والتسنن، وإما من السنة بمعنى: الجدب، أو بمعنى: العَام وتجمع السنة على سنوات، ففي هذا كله الهاءُ هاءُ السكت، وإذا كانت السنة بمعنى العام وتجمع على سنهات فالهاءُ أصلية وبذلك قرأ أكثر السبعة.

المسنون: المصبوب على سنن الأرض، فإذا كان من (تَسَنَّنَ) فهو: (لم يَتَسَنَّنْ)، قلبت النون ياءً كما فعل في (تَظَنَّنْتُ) حتى قلت: (لم أتظن) فيجيءُ تسنَّنَ: تَسَنَّى، ثم تحذف الياءُ للجزم فيجيءُ المضارع: (لَمْ يَتَسَنَّ)[١]. ومن قرأها بالهاءِ على هذا القول فهي هاءُ السكت، وعلى هذا يحسن حذفها في الوصل.

ويحتمل (يَتَسَنَّهْ) أَن يكون من السنة وهو الجدب والقحط وما أَشبهه، يُسَمُّونَه بذلك، وقد اشتق منه فعل فقيل: (استَنُّوا)[٢]، وإذا كان هذا[٣] أَو من السنة التي هي العام على قول من يجمعها سنوات فعلى هذا أَيضاً إنها هاءُ السكت، والمعنى: لم تغير طعامَك القحوطُ والجدوب ونحوه، أَو لم تغيره السنون والأَعوام.

وأَما من قال في تصغير السنة: سُنَيْهَة، وفي الجمع: سَنَهات، وقال: أَسْنَهْتُ عند بني فلان[٤] ـ وهي لغة الحجاز ـ ومنها قول الشاعر:

وَلَيْسَـــتْ بِسَنْهَـــاءَ ولا رُجَبِيَّـــةً ولكن عرايَا في السِّنينَ الجَوائِح[٥]

فإن[٦] القراءَة على هذه اللغة هي بإِثبات الهاءِ وَلا بُدَّ، وهي لام الفعل، وفيها ظهر الجزم بلَمْ، وعلى هذا هي قراءَة ابن كثير، ونافع، وأَبي عمرو، وقد ذُكر[٧]. وقرأَ طلحة بن مصرف: (لَمْ يَسَّنَّهْ) على الإِدغام.

وقال النقاش: (لَمْ يَتَسَنَّهْ) معناه: لم يتغير، من قوله تعالى: (مِنْ ماءٍ غَيْرَ آسِن)،

---

(١) يعني أن أصله تَسَنن، ثم قلبت النون ياءً كراهة التضعيف فصار «يَتَسَنَّى»، وعليه فالأصل «تسنن» ثم تسنَّي»، ثم جاءَ المضارع بالجزم فأصبح: «لم يَتَسَنَّ»، ومن قرأها بالهاءِ على هذا فهي هاءُ السكت.

(٢) أي أجدبوا، بقلب اللام تاءً للفرق بين السنة بمعنى الجدب وبمعنى العام، ويقال: أسنوا: أتت عليهم سَنَة.

(٣) أي مِن السنة بمعنى الجدب أو من السنة بمعنى العام، أي قطع الشمس البروج الإثنى عشر.

(٤) أي أقمت عندهم سنة.

(٥) البيت لسويد بن الصامت الأنصاري، يقال: نخلة سنهاءُ، أي تحمل سنة ولا تحمل أُخرى، وَرُجَبيَّة كعُمرية، يقال: رَجَّبَ النخلة: بنى تحتها بناءً تعتمد عليه لضعفها، أو ضَمَّ أَعذاقها إلى سعفاتها وشدَّها بالخوص لئلا تنفضها الريح، وفي حديث السقيفة: «أنا جُذَيلها المحكَّك، وعُذَيقها المُرَجَّب» أو وَضع الشوك حولها خشية أن يصل إليها سارق. والجوائح: السنون الشداد التي تجتاح المال. أي تهلكه وتستأصله.

(٦) جواب قوله: «وأما من قال في تصغير السنة .... الخ».

(٧) أي ذُكر ذلك من قبل ـ حيث قال: فقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر هذه الحروف كلها بإثبات الهاءِ في الوصل.

وردَّ النحاة على هذا القول لأنه لو كان من: أَسن الماءُ لجاءَ «لَمْ يَتَأَسَّنْ».

وأَما قوله تعالى: ﴿وانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ فقال وهب بن منبه، وغيره: المعنى: وانظر إِلى اتصال عظامه وإِحيائه جزءًا جزءًا، ويُروى أَنه أَحياه الله كذلك حتى صار عظاماً ملتئمة، ثم كساه لحماً حتى كمل حماراً، ثم جاءَ ملَك فنفخ في أَنفه الروح فقام الحمار ينهق، ورُوي عن الضحاك، ووهب بن منبه أَيضاً أَنهما قالا: بل قيل له: وانظر إِلى حمارك قائماً في مربطه لم يصبه شيءٌ مائة سنة. قالا: وإِنما العظام التي نظر إِليها عظام نفسه[١]، قالا: وأَعمى الله العيون عن أَرمياءَ وحماره هذه المدة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكثر أَهل القصص في صورة النازلة تكثيراً اختصرته لعدم صحته.

وقوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ معناه: لهذا المقصد من أَن تكون آية فعلنا بك هذا[٢]، وقال الأعمش: موضع كونه آية هو أَنه جاءَ شاباً على حاله يوم مات فوجد الأَبناءَ والحفدة شيوخاً، وقال عكرمة: جاءَ وهو ابن أَربعين سنة كما كان يوم مات ووجد بنيه قد نيَّفوا على مائة سنة، وقال غير الأَعمش: بل موضع كونه آية أَنه جاءَ وقد هلك كل من يعرف فكان آية لمن كان حياً من قومه إِذ كانوا مؤمنين بحاله سماعاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي إِماتته هذه المدة ثم إِحيائه أَعظم آية، وأَمره كله آية للناس غابر الدهر لا يحتاج إِلى تخصيص بعض ذلك دون بعض.

وأَما العظام التي أُمر بالنظر إِليها فقد ذكرنا من قال: هي عظام نفسه، ومن قال: هي عظام الحمار ـ وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو: ﴿نَنْشُرها﴾ بفتح النون الأولى، وضم الشين، وبالراءِ، وقرأَها كذلك الحسن، وابن عباس، وأَبو حيوة، فمن قرأَ ﴿نُنْشِرُها﴾[٣]

---

(١) معنى ذلك أن الله أحيا منه رأسه وعينيه وأبقى سائر جسده ميّتاً، وعند ذلك نظر بعينيه إلى عظامه، وهذه الرواية شاذة، وهذا القصص أصله إسرائيلي، والإسرائيليات لا تعتمد في التفسير الصحيح.

(٢) يشير بهذا إلى أن قوله تعالى: ﴿ولِنَجْعَلَكَ آيَةً للنَّاس﴾ مربوط بفعل مقدر، أي: وفعلنا بك ذلك لنجعلك آية للناس على البعث والمعاد.

(٣) محصل ما في هذه المادة أربع قراءات: نُنْشِرها ونَنْشُرها رباعيّاً وثلاثيّاً، ونُنْشِزها ونَنْشُزها كذلك، فالنشر والإنشار بمعنى الإحياءِ، ويقال: نَشر الميت بمعنى حيي، ونَشرتُ الميت ـ لازماً ومتعدياً، وقد=

بضم النون الأولى وبالراءِ فمعناه: نُحييها ـ يقال: أَنشر الله الموتى، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾[١]، وقال الأعشى:

. . . . يَـا عَجبـاً للمَيِّـتِ النَّـاشِـرِ[٢]

وقراءَة عاصم (نَنشُرها) بفتح النون الأُولى وضم الشين يحتمل أَن يكون لغة في الإِحياءِ، يقال: نشرت الميت وأَنشرته فيجيءُ: نشَر المَيِّتُ ونشرته، كما يقال: حسرت الدابة وحسرتها، وغاض الماءُ وغِضته، ورجع زيد وَرجَعته، ويحتمل أَن يراد بها ضد الطي كأَن الموت طيٌّ للعظام والأَعضاءِ، وكأَن الإِحياءَ وجمع بعضها إِلى بعض نشر ـ وأَما من قرأَ: (نُنْشِزُها) بالزاي فمعناه: نرفعها، والنشز المرتفع من الأَرض، ومنه قول الشاعر:

تـرى الثَّعْلَـبَ الحَـولـيَّ فيهـا كـأَنَّـه إذا مـا عـلا نَشَـزاً حِصـانٌ مُجَلَّـلُ[٣]

قال أَبو علي وغيره: فتقديره: ننشزها برفع بعضها إِلى بعض للإِحياءِ، ومنه نشوز المرأَة، وقال الأَعشى:

. . . . قُضَـاعيَّـةً تَـأْتـي الْكَـوَاهِـنَ نَـاشـزاً[٤]

يقال: نشز وأَنشزته[٥].

= يكون الرباعي للإحياءِ والثلاثي للبَسْط. وأما النشز والإنشاز فمعناهما الرفع أيْ رفع بعض عظام إلى بعض، أو الارتفاع شيئاً فشيئاً على ما يأتي.

(١) الآية (٢٢) من سورة عبس.

(٢) البيت لأعشى بني ثعلبة ـ أبو بصير، وفيه يقول:

حَتَّـى يَقُـولَ النـاسُ مِمَّـا رأوْا يـا عجَبـاً للميِّـت النَّـاشِـرِ

وقبل هذا البيت قوله:

لَـوْ أَسنَـدَت ميْتـاً إلـى نَحْـرِهـا عـاشَ ولَـمْ يُنْقَـل إلـى قَـابِـرِ

والقابر: من يُدْخِلُ الميِّتَ في قبره.

(٣) هو الأخطل النصراني كما نسب «ابن قتيبة» البيت له في «تأويل مشكل القرآن»، ومُجَلَّل: مُغَطَّى، يقال: جَلَّلَ الدابة: ألبسها الجُلَّ.

(٤) البيت:

تَقَمَّـرهـا شَيْـخٌ عشـاءً فـأصْبَحَـتْ قُضـاعِيَّـةً تـأتـي الكَـواهـن نـاشـزاً

وهو في ديوان الأعشى يهجو علقمة، وقوله: تقمرها: أي تصيدها شيخ عجوز حين وقعت عليها عينه في بعض العشيات، فأصبحت في قضاعة كارهة لزوجها تأتي الكواهن رجاءَ الخلاص منه. وفي بعض الروايات: (ناشِصاً) بدل (ناشِزاً)، والكلمتان (النشوز والنشوص) بمعنى واحد.

(٥) يعني أنه لازم ومتعد، يقال: نشزت المرأة: ارتفعت عن موافقة زوجها. ويقال: نَشَز به، ومنه، =

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويقلق عندي أَن يكون معنى النشوز رفع العظام بعضها إِلى بعض، وإِنما النشوز الارتفاع قليلاً قليلاً، فكأَنه وقف على نبات العظام الرفات وخروج ما يوجد منها عند الاختراع. وقال النقاش: نُنْشِزُها معناه: نُنْبِتُهَا، وانظر استعمال العرب تجده على ما ذكرت لك، من ذلك: نشز ناب البعير، والنشز من الأَرض على التشبيه بذلك[1]. ونشزت المرأَة كأَنها فارقت الحال التي ينبغي أَن تكون عليها.

وقوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا)[2] أَي ارتفعوا شيئاً فشيئاً كنشوز الناب، فبذلك تكون التوسعة، فكأَن النشوز ضرب من الارتفاع، ويبعد في الاستعمال أَن يقال لمن ارتفع في حائط أَو غرفة: نشز. وقرأَ النخعي: [نَنْشُزُها] بفتح النون وضم الشين والزاي، ورُوي ذلك عن ابن عباس، وقتادة، وقرأَ أُبي بن كعب: (كيف نُنْشِيها) بالياءِ.

والكسوة: ما وارى من الثياب، وشبه اللحم بها، وقد استعاره النابغة للإِسلام فقال:

الْحَمْـدُ للهِ إِذْ لَـمْ يَـأْتنـي أَجَلـي ... حَتى اكْتَسَيْتُ من الإِسلام سرْبَالا[3]

ويُروىٰ أَنه كان يرى اللحم والعصب والعروق كيف تلتئم وتتواصل، وقال الطبري: المعنى في قوله: (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ) أَي: لما اتضح له عياناً ما كان مستنكراً في قدرة الله عنده قبل عيانه (قَالَ: أَعْلَمُ).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا خطأٌ لأَنه أَلزم مالا يقتضيه اللفظ، وفسر على القول الشاذ والاحتمال الضعيف.

= وعليه، فهو ناشز، وهي ناشز. وأنشزت المكان رفعته.

(١) فناب البعير يرتفع شيئاً فشيئاً، وكذلك نشوز المرأة فإنها تفارق الحالة التي كانت عليها من المعاشرة مع زوجها قليلاً قليلاً، أي في زمن موسع. ويقال: نشز الشيءُ نشزاً ونشوزاً: ارتفع. ويقال: نشز فلان: علا فوق نشز من الأرض.

(٢) من الآية (١١) من سورة المجادلة.

(٣) المحفوظ والمعروف أنه لبيد بن ربيعة العامري، وقد نسب البيت له ابن قتيبة في الشعر والشعراء. وهو البيت الوحيد الذي قاله في الإسلام.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: [أَعْلم] مقطوعة الأَلف مضمومة الميم، وقرأَ حمزة، والكسائي: [قَالَ اعْلَمْ أَنَّ الله] موصولة الأَلف ساكنة الميم، وقرأَها أَبو رجاءٍ. وقرأَ عبد الله بن مسعود، والأَعمش: [قيلَ اعْلَم].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فأَما هذه فبينة المعنى، أَي قال الملك له ـ والأُولى[١] بينة المعنى، أَي قال هو: أَنا [أَعْلَمُ أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ]، وهذا عندي ليس بإِقرار بما كان قبلُ ينكره كما زعم الطبري، بل هو قولٌ بعثه الاعتبار، كما يقول الإِنسان المؤمن إِذا رأَى شيئاً غريباً من قدرة الله: «لا إِله إِلا الله» ونحو هذا. وقال أَبو علي: معناه: أَعْلَمُ هذا الضرب من العلم الذي لم أَكن علمته.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يعني علم المعاينة.

وأَما قراءَة حمزة، والكسائي فتحتمل وجهين ـ أَحدهما: قال الملك له: اعلمْ، والآخر أَن ينزل نفسه منزلة المخاطب الأَجنبي المنفصل، فالمعنىٰ: فلما تبين له قال لنفسه: اعلم[٢]، وأَنشد أَبو علي ـ في مثل هذا ـ قول الأَعشى:

وَدِّعْ هُـرَيْـرَةَ إِنَّ الـرَّكْـبَ مُـرْتَحِـلُ . . . .[٣]

وقوله:

أَلَـمْ تَغْتَمِـضْ عَيْنَـاكَ لَيْلَـةَ أَرْمَـدَا؟ . . . .[٤]

---

(١) وهي (أَعْلَمُ) بقطع الأَلف وضم الميم الدالة على التكلم.

(٢) ومثل هذا يسميه علماءُ البيان بالتجريد، أَي تجريد المرءِ من نفسه شخصاً يخاطبه.

(٣) هذا صدر البيت، وعجزه:

. . . . وهـلْ تُطِيـقُ وَداعـاً أَيُّهـا الـرجُـلُ؟

وهو مطلع معلقته المشهورة.

(٤) هذا صدر البيت، وعجزه:

. . . . وبـتَّ كمـا بـات السَّليـمُ المسَهَّـدا

ويروى: وعادك ما عاد السليم المسَهَّدَا.

وهو مطلع قصيدة له مشهورة ـ والسليم: الملدوغ ـ يقال له ذلك على وجه التفاؤل بشفائه.

وأَمثلة هذا كثيرة. وتأَنس[(١)] أَبو علي في هذا المعنى بقول الشاعر:

تـذَكَّـرَ مـن أَنَّـى ومِـنْ أَيْـنَ شُـربـه ... يُؤَامِرُ نَفْسَيْهِ كَذي الهَجْمَةِ الأَبِلُ[(٢)]

قوله عز وجل:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

العامل في (إذ) فعل مضمر تقديره: واذكر. واختلف الناس لم صدرت هذه المقالة عن إِبراهيم عليه السلام؟[(٣)] ـ فقال الجمهور: إن إِبراهيم عليه السلام لم يكن شاكاً في إِحياءِ الله الموتى قط، وإِنما طلب المعاينة، وترجم الطبري في تفسيره فقال: وقال آخرون: سأَل ذلك ربَّه لأَنه شك في قدرة الله على إِحياءِ الموتى، وأَدخل تحت الترجمة عن ابن عباس أَنه قال: «ما في القرآن آية أَرجى عندي منها»[(٤)]، وذكر عن عطاءِ بن أَبي رباح أَنه قال: «دخل قلبَ إِبراهيم بعضُ ما يدخل قلوبَ الناس فقال: (رَبِّ أَرِني كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى)، وذكر حديث أَبي هريرة أَن رسول الله ﷺ قال: (نحن أَحق بالشَّكِّ مِنْ

(١) أي اطمأن له وسكن قلبه به، فقول الأعشى: ودِّع هريرة، وقوله: ألم تغتمض عيناك، نزل نفسه منزلة الأجنبي منها فخاطبه، وما أكثر هذا في كلام العرب، ومنه بيت الكميت.

(٢) الهَجْمَة: القطعة من الإبل فيما بين الثلاثين والمائة، والأَبِلُ كَكَتِف: العارف برعاية الإبل، ويقال له أيضاً: الآبل ـ والبيت للكميت.

(٣) اختلف العلماء في الإجابة عن هذا السؤال: أصدر عن شك أم لا؟، وجمهور المفسرين أن المسألة لم تعرض من جهة الشك وإنما كانت من قبيل الاستزادة في العلم، أي الانتقال من علم اليقين إلى عين اليقين، وطمأنينة القلب تحصل بالثاني أكثر مما تحصل بالأول، وقد قال أعلم الخلق بالحق: (رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) وحديث أبي هريرة مبني على نفي الشك عن إبراهيم عليه السلام، لا على ثبوته كما ظنه بعض الناس اغتراراً بظاهره، ولا يخفى أن مثل هذا الشك كُفْرٌ، وأن الأنبياء ليس للشيطان عليهم سلطان، قال أبو (ح): «ألفاظ الآية لا تدل على عروض شيءٍ يُشين المعتقد، لأن ذلك سؤال أنْ يُريه عياناً كيفية إحياء الموتى ـ والسؤال عن عروض شيءٍ يُشين المعتقد، لأن ذلك سؤال أنْ يُريه عياناً كيفية إحياء الموتى ـ والسؤال عن الكيفية يقتضي تيقن ما سأل عنه وهو الإحياء وتقرره والإيمان به» ا. هـ.، فالتعقيب على الإمام الطبري رحمه الله واقع موقع الصواب، والله أعلم. وقد قال ابن إسحق إن السبب في السؤال هو قضية النمروذ الذي قال. أنا أُحيي وأُميت، وما تبع ذلك من حوار. ووضح أبو (ح) ذلك فقال: لأنه لما علم ذلك بقلبه وتيقنه واستدل به على نمروذ طلب من الله تعالى رؤية ذلك» ا. هـ.

(٤) قول ابن عباس هذا خرَّجه عبد الرزاق وابن جرير ورجحه، والحاكم وصححه.

إبراهيم) (الحديث)[١]، ثم رجح الطبري هذا القول الذي يجري مع ظاهر الحديث، وقال: «إن إبراهيم لما رأى الجيفة يأكل منها الحيتان ودواب البر ألقى الشيطان في نفسه فقال: متى يجمع الله هذه من بطون هؤلاءِ».

وأَما من قال بأَن إبراهيم لم يكن شاكاً فاختلفوا في سبب سؤاله ـ فقال قتادة: إن إبراهيم رأى دابة قد توزعتها السباع فعجب وسأَل هذا السؤال، وقال الضحاك نحوه، قال: وقد علم عليه السلام أَن الله قادر على إحياءِ الموتى، وقال ابن زيد: رأَى الدابة تتقسمها السباع والحيتان لأَنها كانت على حاشية البحر. وقال ابن إسحق: بل سببها أنه لما فارق النمروذ وقد قال له: أَنا أُحيي وأُميت فكر في تلك الحقيقة والمجاز[٢] فسأَل هذا السؤال. وقال السدي، وسعيد بن جبير: بل سبب هذا السؤال أنه لما بُشِّرَ بأَن الله اتخذه خليلاً أَراد أَن يدل بهذا السؤال ليجرب صحة الخُلَّة، فإن الخليل يُدل بما لا يدل به غيره، وقال سعيد بن جبير: (وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) يريد بالخُلَّة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وما ترجم به الطبري عندي مردود[٣]، وما أَدخل تحت الترجمة مُتَأَول، فأَما قول ابن عباس: «هِيَ أَرجى آية» فمن حيث فيها الإدلال على الله تعالى ـ وسؤال الإحياءِ في الدنيا وليست مظنة ذلك، ويجوز أَن يقول: هي أَرجى آية لقوله: (أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ) أَي أَن الإيمان كاف لا يحتاج بعده إلى تنقيح وبحث، وأَما قول عطاءِ بن أَبي رباح: «دخل قلبَ إبراهيم بعضُ ما يدخل قلوب الناس» فمعناه من حب المعاينة، وذلك أَن النفوس مستشرفة إلى رؤْية ما أُخبرت به، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: (ليس الخبر كالمعاينة)[٤]، وأَما قول النبي عليه الصلاة والسلام: (نحن أَحق بالشك من إبراهيم) فمعناه أَنه لو كان شكٌّ لكنا نحن أَحق به، ونحن لا نشك، فإبراهيم عليه السلام أَحرى

(١) خرجه البخاري ومسلم. ورواه ابن ماجه، وهو في البخاري في كتاب «أحاديث الأنبياء».

(٢) أي حقيقة الإحياء والإماتة. في كلام إبراهيم عليه السلام وحجته، ومجازها الذي لجأ إليه النمروذ.

(٣) مناقشة القاضي رحمه الله للإمام الطبري مناقشة علمية صحيحة، وذلك هو ما يجب في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، انظر «الشفا» للقاضي عياض فقد بسط القول في هذا الموضوع ووفاه حقه من الدراسة الموفقة. والله أعلم.

(٤) رواه الإمام أحمد، وابن حبان عن ابن عباس مرفوعاً.

أَلا يشك، فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم[١]. والذي روي فيه عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: (ذلك محض الإيمان)[٢] إنما هو في الخواطر الجارية التي لا تثبت، وأَما الشك فهو توقف بين أَمرين لا مزية لأَحدهما على الآخر، وذلك هو المنفي عن الخليل عليه السلام.

وإحياءُ الموتى إنما ثبت بالسمع، وقد كان إبراهيم عليه السلام أَعلم به، يدلك على ذلك قوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فالشك يبعد على من ثبتت قدمه في الإيمان فقط، فكيف بمرتبة النبوة والخُلة، والأَنبياءُ معصومون من الكبائر والصغائر التي فيها رذيلة إجماعاً[٣].

وإذا تأَملت سؤاله عليه السلام وسائر أَلفاظ الآية لم تعط شكاً، وذلك أَن الاستفهام بـ﴿كَيْفَ﴾ إنما هو عن حال شيءٍ موجود متقرر الوجود عند السائل والمسؤول ـ نحو قولك: كيف علم زيد؟ وكيف نسج الثوب؟ ونحو هذا ـ ومتى قلت: كيف ثوبك؟ وكيف زيد؟ فإنما السؤال عن حال من أَحواله، وقد تكون (كيف) خبراً عن شيءٍ شأْنه أَن يُستفهم عنه بكيف نحو قولك: كيف شئت فكن، ونحو قول البخاري: كيف كان بدءُ الوحي.

و(كيف) في هذه الآية إنما هي استفهام عن هيئة الإحياءِ، والإحياءُ متقرر ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شيءٍ قد يعبِّر عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشيءِ يعلم أَنها لا تصلح، فيلزم من ذلك أَن الشيءَ في نفسه لا يصح، مثال ذلك: أَن يقول مدع: أَنا أَرفع هذا الجبل. فيقول له المكذب: أَرني كيف ترفعه. فهذه طريقة مجاز في العبارة، ومعناها تسليم جدلي، كأَنه يقول: افرض أَنك ترفعه، أَرني كيف؟ فلما كان في عبارة الخليل عليه السلام هذا الاشتراك المجازي خلص الله له ذلك، وحمله على أَن

---

(١) قال ذلك عليه الصلاة والسلام من باب الأدب، لأن إبراهيم عليه السلام بمثابة الأب.

(٢) رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة بلفظ: (جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه ـ إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال: ذلك صريح الإيمان).

ورواه عن عبد الله بن مسعود قال: (سئل النبي ﷺ عن الوسوسة فقال: تلك محض الإيمان). وإنما كانت الوسوسة محض الإيمان، لأن الشيطان إذا يئس من كفر من صح إيمانه قصده بالوسوسة ليشغل سره بحديث النفس، ويكدر عليه أفعاله، فكأن سبب الوسوسة إنما هو محض الإيمان، والله أعلم.

(٣) وقيل: العصمة ثابتة على الإطلاق في الصغائر والكبائر.

يبين الحقيقة فقال له: (أَوَ لَمْ تُؤمن قَالَ بَلَى) فكمل الأَمر، وتخلص من كل شك، ثم علل عليه السلام سؤاله بالطمأْنينة.

وقوله تعالى: (أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ) معناه: إِيماناً مطلقاً، دخل فيه فعل إِحياءِ الموتى، والواو واو حال دخلت عليها أَلف التقرير(١).

وَ[لِيَطْمَئِنَّ] معناه: ليسكن عن فكره، والطمأْنينة اعتدال وسكون على ذلك الاعتدال، فطمأْنينة الأَعضاءِ معروفة كما قال عليه السلام: (ثم اركع حتى تطمئن راكعاً) الحديث، وطمأْنينة القلب هي أَن يسكن فكره في الشيءِ المعتقد. والفكر في صورة الإِحياءِ غير محظور، كما لنا نحن اليوم أَن نفكر فيها بل هي فِكَر فيها عبر، فأَراد الخليل أَن يعاين فتذهب فكره في صورة الإِحياءِ إِذ حركه إِلى ذلك إِما أَمر الدابة المأْكولة، وإِما قول النمروذ: (أَنا أُحيي وأُميت)، وقال الطبري: معنى ليطمئن: ليوقن، وحكى نحو ذلك عن سعيد بن جبير، وحكي(٢) عنه: ليزداد يقيناً، وقاله إِبراهيم، وقتادة، وقال بعضهم: لأَزداد إِيماناً مع إِيماني.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا زيادة في هذا المعنى تُمْكن إِلا السكون عن الفكر وإِلا فاليقين لا يتبعض. ورُوي أَن الأَربعة التي أَخذ إِبراهيم هي الديك والطاوس والحمام والغراب، ذكر ذلك ابن إِسحق عن بعض أَهل العلم الأُول، وقاله مجاهد، وابن جريج، وابن زيد، وقال

---

(١) الظاهر أن الواو للعطف أُخرت عن الهمزة، وأن التقرير منسحب على الجملة المنفية فقط، كقوله تعالى: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ؟) أي: قد شرحنا لك صدرك

وكقوله تعالى: (أَوَ لم يَرَوا أَنَّا جَعَلْنَا حرماً آمناً) أي: قد جعلنا حرماً آمناً.

وكقول الشاعر:

أَلَسْتُـمْ خَيْـرَ مَـنْ رِكِـبَ المطَـايَـا ... وأَنْـدى العَـالَمِيـن بُطُـون رَاحِ؟

أي: أنتم خير من ركب إلخ. وترجح أن الواو للعطف لأنها لو كانت للحال فلا بد أن يكون في موضع نصب، وإذ ذاك لا بد لها من عامل فلا تكون الهمزة للتقرير ودخلت على الجملة الحالية ـ إنما دخلت على الجملة التي اشتملت على العامل فيها، وعلى ذي الحال، ويكون التقدير: أسألت ولم تؤمن؟ ـ راجع البحر المحيط ٢ـ٢٩٨.

(٢) يعني أن الطبري حكى عن سعيد بن جبير القولين ـ الأول: «ليطمئن قلبي: ليوقن». والثاني: «ليطمئن قلبي: ليزداد إيماناً».

ابن عباس: مكان الغراب الكُركي(١). وروي في قصص هذه الآية أن الخليل عليه السلام أَخذ هذه الطير حسبما أُمر، وذكَّاها(٢) ثم قطعها قطعاً صغاراً، وجمع ذلك مع الدم والريش، ثم جعل من ذلك المجموع المختلط جزءًا على كل جبل، ووقف هو من حيث يرى تلك الأَجزاءَ وأَمسك رؤُوس الطير في يده، ثم قال: تعالين بإذن الله(٣)، فتطايرت تلك الأَجزاءُ، وطار الدم إلى الدم، والريش إلى الريش حتى التأَمت كما كانت أَولاً وبقيت بلا رؤُوس، ثم كرر النداءَ، فجاءَته سعياً(٤) حتى وضعت أَجسادها في رؤُوسها، وطارت بإذن الله تعالى.

وقرأَ حمزة وحده: [فَصِرْهُنَّ إِلَيْكَ] بكسر الصاد(٥)، وقرأَ الباقون بضمها، ويقال: صُرت الشيءَ أَصوره بمعنى قطعته، ومنه قول رؤْبة:

صُـرْنَـا بِـهِ الحُكْـمَ وأَعيـا الْحَكَمَـا . . . . (٦)

ومنه قول الخنساءِ:

فَلَـوْ يُـلاقـي الَّـذي لاقَيْتَـهُ حَضَـنٌ لَظَلَّـت الشُّـم مِنْـهُ وهـي تَنْصَـار(٧)

---

(١) الكُركي: طائر قليل اللحم، صلب العظم، أغبر اللون، طويل العنق والرجلين، أبتر الذنب، يأوي إلى الماء أحياناً، في خده لمعات سود، وجمعه: كَراكي.

(٢) أي ذبحها ـ والذكاة اسم مصدر من ذكَّى، وفي الحديث: (ذكاة الجنين من ذكاة أُمه).

(٣) الأمر أمر تكوين لا أمر طاعة، لأن أمر الطاعة لا يكون إلا بعد وجود المأمور المتعبد.

(٤) سعياً: عدواً ـ وليس مشياً ولا طيراناً، وذلك أغرب وأقرب إلى قصد إبراهيم وإجابة دعائه.

(٥) يقال: صار يصُور صوراً، بمعنى: قطع وأمال ـ ويقال: صار يصير صيراً كذلك، أي بمعنى القطع والإمالة، وهما قراءتان من القراءات السبع المعروفة، إلا أنه إذا فسرنا المادة في الآية بالإمالة فإن كلمة (إليك) تكون متعلقة بقوله: (صُرْهُنَّ)، وإذا فسرناها بالتقطيع كانت (إليك) متعلقة بالفعل (خُذ).

(٦) جاء في اللسان: قال ابن بري: هذا الرجز الذي نسبه الجوهري للعجَّاج ليس هو للعجَّاج، وإنما هو لرؤبة يخاطب الحَكَم بن صخر وأباه صخر بن عثمان، وقبله:

أبلـغْ أَبَـا صخـر بيـانـاً مُعلمـا صخرَ بن عثمان بن عمرو وابن ما

صُرنْا بِهِ الحُكْمَ وأعْيَا الحَكَما

أي: قطعنا به ذلك. وقد روى «وعنا» بدلاً من «أعيا».

(٧) تَنصار: مضارع انصار، وانصار: مطاوع أصار ـ يقال: أصار الشيءَ فانصار، أي أماله فَمَال. فمعنى تنصار: تَنْهَدُّ وتتفرّق وتَتَقَطَّع ـ والشمّ: العالية المرتفعة. وحَضَنٌ جبلٌ في أعالي نجد، وفي المثل «أنجدَ من رأى حَضَنا» أي: دخل نجدا من رأى هذا الجبل.

أَي: تتقطع، ويقال أَيضاً: صُرت الشيءَ أَمَلْتُهُ، ومنه قول الشاعر:

يَصُور عنوقَهَا أَحوى زنيم ... لهُ صخَبٌ كما صخِبَ الْغَريمُ[1]

ومنه قول الأَعرابي في صفة نساءٍ، «هُنَّ إِلى الصبا صُور وعَن الخَنَا نور»[2]

فهذا كله في ضم الصاد. ويقال أَيضاً في هذين المعنيين «القطع والإمالة»: صِرْت الشيءَ بكسر الصاد أَصيره، ومنه قول الشاعر:

وفَرْع يَصِيرُ الجيدَ وحفٌ كأَنَّه ... على اللِّيتِ قِنْوانُ الكُروم الدَّوالحُ[3]

ففي اللفظة لغتان قُرِئَ بهما.

وقد قال ابن عباس، ومجاهد في هذه الآية: (صُرْهُنَّ) معناه: قطعهن، وقال عكرمة، وابن عباس ـ في بعض ما رُوي عنه ـ إِنها لفظة بالنبطية[4] معناها: قطعهن، وقاله الضحاك، وقال أَبو الأَسود الدُّؤَلي: هي بالسريانية، وقال قتادة: صُرهن: فصِّلهن، وقال ابن إِسحق: معناه: قطعهن، وهو الصور في كلام العرب، وقال

---

(١) البيت للشاعر المُعَلَّى بن جمال العبدي، وقد رواه ابن جرير الطبري:

وجاءَتْ خُلْعَةٌ دُهْسٌ صَفَايا ... يصُور عُنُوقَها أحوى زنيمُ

وعُنوق: جمع عَناق، وهي الأنثى من أولاد المعيز والغنم من حين الولادة إلى تمام الحول، وتجمع على أعنق وعُنُق وعُنُوق ـ وأحوى معناه: أسود ـ والزنيم: الملحق بقوم ليس منهم فكأنه فيهم لصيق زائد كالزنمة، وهو مأخوذ من زنمتي العنز وهما زائدتان في الحلق تحت لحيته.

والخلعة: بضم الخاء وكسرها خيار الشاءِ، ودُهِس العنز: تغير لونه إلى السواد فهو أدهس وهي دهساء: والجمع دُهْسٌ، والصفايا: غزيرة اللبن.

والبيت بعد ذلك في وصف ذكر المعز.

(٢) صُور: جمع أصور صوراءَ. ونُور: جمع نُوُور بالإشباع. والأصل نُوُر بضمتني كعُنُق فكرهوا الضمة على الواو فقيل: نُوْر، والنُوور المرأة النُّفور من الريبة. وفي بعض النسخ «زُور» بدلاً من «نور» من الزَّوَر وهو الميل والبعد عن الخنا.

(٣) البيت في وصف الشَّعْر ـ والفرع هو الشَّعْر التام. وهو أصلاً ما تفرع من كل شيءٍ، ومعنى «يصير الجيد» يميل الجيد ـ والوحف: الشعر الذي غزر واسودَّ ـ واللِّيت: صفحة العنق مُثَنَّاه: ليتان، وجمعه: أَلياتٌ ـ والقِنو: العذق بما فيه من الرطب. وهو بكسر القاف وضمها، وجمعه أقناء وقنوان ـ والكرم: العنب ـ وجمعه: كروم ـ ودلح: مشى بحمله غير منبسط الخطو لثقله، ودلحت السحابة: أبطأت في سيرها من كثرة الماء فهي دالحٌ ـ والجمع دُلَّحٌ ودوالحٌ.

(٤) النبط جيل من العجم منزلهم بين العراقين، سُمُّوا بذلك لكثرة النبط عندهم وهو الماءُ. ثم استعمل في أخلاط الناس وعوامهم، ومنه كلمة «نبطية» أي عامية، والواحد نبطي ونباطي مثلث النون.

عطاءُ بن أَبي رباح: فصرهن معناه: اضمُمْهن إليك[(١)]، وقال ابن زيد: معناه: اجمعهن، وروي عن ابن عباس معناه: أَوثقهن، فقد تأَول المفسرون اللفظة بمعنى التقطيع، وبمعنى الإِمالة، فقوله: (إليك) على تأْويل التقطيع متعلق بـ(ـخُذْ) وعلى تأويل الإِمالة والضم متعلق بـ(ـصُرْهُنَّ)، وفي الكلام متروك يدل عليه الظاهر تقديره: فأَملهن إِليك وقطعهن[(٢)]، وقرأَ قوم: [فصُرَّهُنَّ] بضم الصاد وشد الراءِ المفتوحة، كأَنه يقول: فشُدَّهن، ومنه صُرَّة الدنانير.

وقرأَ قوم: [فصِرَّهُنَّ] بكسر الصاد وشدِّ الراءِ المفتوحة، ومعناه: صيِّحهن من قولك: صرَّ الباب والقلم إذا صوت، ذكره النقاش[(٣)]، قال ابن جني: وهي قراءَة غريبة وذلك أَن يفعل بكسر العين في المضاعف المتعدي قليل، وإِنما بابه يفعُل بضم العين كشَد يشُدُّ ونحوه، لكن قد جاءَ منه: نَمَّ الحديث يَنِمُّه ويَنُمُّه، وهرَّ الحرب يهِرها ويهُرها[(٤)]، ومنه قول الأَعشى:

ليعْتَـورِنَّـكَ القـولُ حتَّـى تَهِـرَّه . . . .[(٥)]

إِلى غير ذلك في حروف قليلة، قال ابن جني: وأَما قراءَة عكرمة بضم الصاد فيحتمل في الراءِ الضم والفتح والكسر كمدَّ وشدَّ، والوجه ضم الراءِ من أَجل ضمة الهاءِ من بعد. قال المهدوي وغيره: وروي عن عكرمة فتح الصاد وشد الراء المكسورة، وهذا بمعنى فاحبسهن، ومن قولهم: صَرىٰ يصري إذا حبس، ومنه الشاة المصْرَاة[(٦)].

---

(١) الضم والجمع والإمالة بمعنى واحد.

(٢) أي على التأويل الثاني وهو تأويل الإمالة والضم.

(٣) حاصله أن القراءَات هنا، ستٌ: فصِرْهن إليك، فصُرهن إليك قراءَتان سبعيتان ـ فصُرَّهن إليك، فصِرَّهن إليك بضم الصاد وكسرها مع شد الراءِ فيهما ـ فصُرُّهن إليك، وصَرِّهن إليك، بضم الصاد في الأَولى وفتحها في الثانية مع شد الراءِ وضمها في الأَولى «مع احتمال فتح الراءِ وكسرها» في الثانية، وهاتان الأخيرتان رويا عن عكرمة.

(٤) هرَّ الحرب بالراءِ كرهها.

(٥) تمامه: وتَعْلَمَ أني عَنْكَ لَسْتُ بِمُلْيَم

يعتوره: يتداوله ـ يقال: اعتوروه وتعاوروه: تداولوه فيما بينهم.

وفي رواية: ليستدرجنك، والمعنى: ليبلغنك قولي من كل ناحية وليتركنك تدرج على الأرض حتى تكره الكلام وتعلم أني غير عاجز عن الانتقام.

(٦) أي: ومن هذا المعنى الشاة المصراة، ويقال صَرى الشاة إذا ترك حلبها ليكثر اللبن في ضرعها فهي محبوسة لذلك.

واختلف المتأَولون في معنى قوله: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهنَّ جزْءًا﴾ فروى أَبو حمزة عن ابن عباس أَن المعنى: اجعل جزءًا على كل ربع من أَرباع الدنيا[١]، كأَن المعنى: اجعلها في أَركان الأَرض الأَربعة، وفي هذا القول بُعْد. وقال قتادة، والربيع: المعنى: واجعل على أَربعة أَجبل[٢] على كل جبل جزءًا من ذلك المجموع المتقطع، فكما يبعث الله هذه الطير من هذه الجبال فكذلك يبعث الخلق يوم القيامة من أَرباع الدنيا وجميع أَقطارها. وقرأَ الجمهور: [جزْءًا] بالهمز. وقرأَ أَبو جعفر: [جزًّا] بشد الزاي في جميع القرآن، وهي لغة في الوقف، فأَجرى أَبو جعفر الوصل مجراه، وقال ابن جريج، والسدي: أُمر أَن يجعلها على الجبال التي كانت الطير والسباع حين تأْكل الدابة تطير إِليها وتسير نحوها وتتفرق فيها، قالا: وكانت سبعة أَجبل، فكذلك جزَّأَ ذلك المقَطَّع من لحم الطير سبعة أَجزاءٍ، وقال مجاهد: بل أُمر أَن يجعل على كل جبل يليه جزءًا. قال الطبري: معناه دون أَن تحصر الجبال بعدد، بل هي التي كان يصل إِبراهيم إِليها وقت تكليف الله إِياه تفريق ذلك فيها، لأَن الكل لفظ يدل على الإِحاطة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبعيد أَن يكلف جميع جبال الدنيا، فلن يحيط بذلك بصره، فيجيءُ ما ذهب إِليه الطبري جيداً متمكناً، والله أَعلم أَيُّ ذلك كان.

ومعنى الآية أَن إِبراهيم عليه السلام كان بحيث يرى الأَجزاءَ في مقامه، ويرى كيف التأَمت وكذلك صحت له العبرة ـ وأَمره بدعائهن وهنَّ أَموات إِنما هو لتقرب الآية منه، وتكون بسبب من حاله ويرى أَنه قصد بعرض ذلك عليه، ولذلك جعل الله تعالى سيرهن إِليه سعياً إِذ هي مشية المجِدِّ الراغب فيما يمشي إِليه، فكان من المبالغة أَن رأَى إِبراهيم جدَّها في قصده وإِجابة دعوته، ولو جاءَته مشياً لزالت هذه القرينة، ولو جاءَت طيراناً

(١) تفسير الجبل بذلك بعيد من لفظ الآية الكريمة ومُناف لمفهوم اللغة.

(٢) القول الذي يقول: إن ذلك أربعة أجبل أو سبعة أجبل لا دلالة على صحته، ولا يؤيده سياق الآية، لأن الله سبحانه قال: (على كُل جَبَل)، وكلٌّ تدل على الإحاطة والشمول، وليس جائزاً «كلُّ جبل في الدنيا» فلم يبق إلا ما قاله الإمام الطبري من أن المراد «كل جبل يعرفه إبراهيم ويصل إليه وقت تكليفه بتفريق ذلك»، وهو رأي جيد، ومتمكن، كما قاله الإمام ابن عطية، وقد روى أبو (ح) عن مجاهد قوله: العموم في كل جبل مخصص بوصف محذوف، أي: يليك، أو: بحضرتك ـ دون مراعاة عدد.

لكان ذلك على عرف أمرها، فهذا أغرب منه، ثم وقف عليه السلام على العلم بالعزة التي في ضمنها القدرة، وعلى الحكمة التي بها إتقان كل شيء.

قوله عز وجل:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾.

هذه الآية لفظها بيان مثال بشرف النفقة في سبيل الله وبحسنها، وضمنها التحريض على ذلك، وهذه الآية في نفقة التطوع، وسبل الله كثيرة، وهي جميع ماهو طاعة وعائد بمنفعة على المسلمين والمِلَّة، وأَشهرها وأَعظمها غناءً الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا.

والحبة اسم جنس لكل ما يزرعه ابن آدم ويقتاته، وأَشهر ذلك البر، وكثيراً ما يراد بالحَبِّ، ومنه قول المتلمس:

آليتَ حَبَّ العراقِ الدَّهْرَ أَطْعَمه   والحَبُّ يأْكُلُه في القرية السوس[1]

وقد يوجد في سنبل القمح ما فيه مائة حبة، وأما في سائر الحبوب فأَكثر ولكن المثال وقع بهذا القدر، وقد ورد القرآن بأَن الحسنة في جميع أَعمال البر بعشر أَمثالها، واقتضت هذه الآية أَن نفقة الجهاد حسنتها بسبعمائة ضعف، وبيَّن ذلك الحديث الصحيح.

واختلف العلماءُ في معنى قوله: (واللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) ـ فقالت طائفة: هي مُبيِّنَة ومؤكدة لما تقدم من ذكر السبع المائة، وليس ثم تضعيف فوق سبعمائة. وقالت طائفة من العلماءِ: بل هو إعلام بأَن الله تعالى يضاعف لمن يشاءُ أَكثر من سبعمائة ضعف[2]. وروي عن ابن عباس أَن التضعيف ينتهي ـ لمن شاءَ الله ـ إلى أَلفي

---

(١) هو جرير بن عبد المسيح الضبعي، وكان ملك الحيرة عمرو بن هند قد حرَّم عليه حبَّ العراق فقال: آليت، والخطاب لملك الحيرة، وعمِل الفعل بعد حذف الجار، أي على حبِّ العراق. وأطعمه: على حذف (لا) بعد القسم ـ والبيت من شواهد النحويين التي ذكروها للدلالة على جواز حذف الجار سماعاً، ولكن ذلك لم يرد إلا في الشعر للضرورة.

(٢) هذا هو الراجح ـ لقوله تعالى: (مَنْ ذَا الَّذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَه لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً) ولِمَا رواه ابن عباس: (عن النبي ﷺ فيما رواه عن ربه عز وجل أن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك فمن=

ألف[١]، وليس هذا بثابت الإسناد عنه، وقال ابن عمر: لما نزلت هذه الآية قال النبي عليه الصلاة والسلام: (ربِّ زد أُمتي، فنزلت: ﴿مَنْ ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حسناً فيضاعفه له﴾ فقال: رَبِّ زد أمتي، فنزلت: ﴿إنَّما يُوَفَّى الصَّابرون أَجْرَهم بغير حِسَابٍ﴾[٢].

و﴿سُنْبُلَة﴾ فُنْعلة من أَسبل الزرع أي أَرسل ما فيه، كما يُسبل الثوب[٣]، والجمع سنابل.

وفي قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذين﴾ حذف مضاف تقديره: مثل إِنفاق الذين، أَو تقديره: كمثل ذي حبة[٤].

وقال الطبري في هذه الآية: إن قوله: ﴿فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مائَةُ حَبَّةٍ﴾ معناه إِن وجد ذلك، وإلا فعلى أَن نفرضه[٥]، ثم أَدخل عن الضحاك أَنه قال: ﴿في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مائَةُ حَبَّةٍ﴾ معناه: كل سنبلة أَنبتت مائة حبة، فجعل الطبريُّ قول الضحاك نحو ما قال هو، وذلك غير لازم من قول الضحاك.

قال أَبو عمرو الداني: قرأ بعضهم: [مائَةَ] بالنصب على تقدير: أَنبتت مائة حبة.

وقوله تعالى: ﴿الَّذينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ الآية. لما تقدم في الآية التي قبل هذه ذكر الإِنفاق في سبيل الله على العموم بيَّن في هذه الآية أَن ذلك الحكم إِنما هو لمن لم يُتْبِع

= همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة) رواه البخاري ومسلم، وهو الذي أشار إليه ابن عطية بقوله: «وبيَّن ذلك الحديث الصحيح»، وهو حديث مشهور ذكره الإمام النووي في الأربعين ـ ولحديث ابن ماجه الذي ذكره الإمام (ق) هنا في تفسيره.

(١) جاءَ ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه كما رواه الإمام أحمد، وابن أبي حاتم، انظر ابن (ك) عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾.

وأما ابن عباس فقد ذكروا عنه ذلك ولكن لم يثبت له سند، كما قال ابن عطية وأصله للإمام (ط) رحمه الله.

(٢) رواه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن حبان في صحيحه.

(٣) أي كما يسترسل الثوب بإسباله، فقوله: «من أسبل الزرع» إشارة إلى زيادة النون، ومن اللغويين من يقول: سنْبَل الزرع فتكون أصلية.

(٤) يعني أن تقدير المضاف إما أن يكون في المشبه أو في المشبه به.

(٥) معناه: إما أن يوجد ذلك حقيقة، وإما أن يفرض فرضاً.

إِنفاقه منًّا ولا أَذى[١]. وذلك أَن المنفق في سبيل الله إِنما يكون على أَحد ثلاثة أَوجه ـ إِما أَن يريد وجه الله تعالى ويرجو ثوابه، فهذا لا يرجو من المنفق عليه شيئاً ولا ينظر من أَحواله في حال سوى أَن يراعي استحقاقه[٢]، وإِما أَن يريد من المنفَق عليه جزاءً بوجه من الوجوه فهذا لم يرد وجه الله، بل نظر إِلى هذه الحال من المنفق عليه، وهذا هو الذي متى أَخلف ظنه منَّ بإِنفاقه وآذى، وإِما أَن ينفق مضطراً دافع غرم إِما لِمَاتَّةٍ[٣] للمنفَق عليه أَو قرينة أُخرى من اعتناءِ منفق ونحوه، فهذا قد نظر في حال ليست لوجه الله، وهذا هو الذي متى توبع وحرج بوجه من وجوه الحرج آذى.

فالمن والأَذى يكشفان مِمَّن ظهرا منه أَنه إِنما كان على ما ذكرناه من المقاصد، وأَنه لم يخلص لوجه الله، فلهذا كان المن والأَذى مبطلين للصدقة من حيث بيَّن كل واحد منهما أَنها لم تكن صدقة.

وذكر النقاش أَنه قيل: إِن هذه الآية نزلت في عثمان بن عفان، وقيل: في علي بن أَبي طالب، وقال مكي: في عثمان وابن عوف[٤].

والمَنُّ: ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها ـ والأَذى: السب والتشكي، وهو أَعم من المن، لأَن المن جزءٌ من الأَذى لكنه نص عليه لكثرة وقوعه.

وذهب ابن زيد إِلى أَن هذه الآية هي في الذين لا يخرجون في الجهاد، بل ينفقون وهم قعود، وأَن الأُولى التي قبلها هي في الذين يخرجون بأَنفسهم وأَموالهم، قال:

---

(١) لأن المنَّ والأذى يبطلان الصدقة كما سيأتي في الآية بعد هذه، ومن أقوالهم: «المن أخو المن» أي الامتنان بتعديد الصنائع أي للقطع والهدم.

(٢) وما أحسن قول بعضهم:

بُثَّ الصنائِعَ لا تحفِل بموقِعِهَا ... في آمِلٍ شَكَرَ المعروفَ أو كَفَرا
فالغَيْثُ ليس يبالي حيثُ ما انسَكَبَتْ ... مِنْهُ الغَمَائِمُ تُرباً كان أو حَجَرَا

ومن المتفق عليه حديث: (أنفق أُنفق عليك).

(٣) أي لِحُرْمَةٍ أو وسيلة بينه وبين المنفق عليه كالقرابة والصداقة، أو لقرينة أُخرى كالعناية بالمنفق عليه والاهتمام بشأنه.

(٤) أي في غزوة العسرة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما حثَّ الناس على الصدقة حين أراد الخروج إليها جاءَه عبد الرحمن بأربعة آلاف فقال: يا رسول الله، كانت لي ثمانية آلاف، فأمسكت لنفسي وعيالي أربعة آلاف، وأقرضت ربي أربعة آلاف، فقال ﷺ: (بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت). وجاءَ عثمان فقال: يا رسول الله، عليَّ جهاز مَنْ لا جهاز له، فنزلت هذه الآية فيهما.

ولذا شرط على هؤلاءِ، ولم يشترط على الأولين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا القول نظر لأَن التحكم فيه باد(١).

وقال زيد بن أَسلم: «لئن ظننت أَن سلامك يثقل على من أَنفقت عليه تريد وجه الله فلا تسلم عليه»، وقالت له امرأَة: «يا أَبا أُسامة، دلني على رجل يخرج في سبيل الله حقاً فإِنهم إِنما يخرجون ليأْكلوا الفواكه، فإِن عندي أَسهماً وجعبة»(٢)، فقال لها: «لا بارك الله في أَسهمك وجعبتك فقد آذيتهم قبل أَن تعطيهم».

وضمن الله الأَجر للمنفق في سبيل الله، والأَجر الجنة، ونفى عنه الخوف بعد موته لما يستقبل، والحزن على ما سلف من دنياه، لأَنه يغتبط بآخرته.

قوله عز وجل:

﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾.

هذا إِخبار جزم من الله تعالى أَن القول المعروف وهو الدعاءُ والتأْنيس والترجية بما عند الله خير من صدقة هي في ظاهرها صدقة، وفي باطنها لا شيءَ، لأَن ذلك القول المعروف فيه أَجر، وهذه لا أَجر فيها(٣).

قال المهدوي وغيره: التقدير في إِعرابه: قول معروف أَولى، ومغفرة خير(٤).

---

(١) ذلك أن الآية تدل على أن المن والأذى يكونان من المنفِق على المنفَق عليه، سواءٌ كان المنفق مجاهداً أم غير مجاهد، وسواء كان الإنفاق في الجهاد على سبيل التجهيز والإعانة أم كان في غير الجهاد، والفرق بين المجاهد بنفسه، والمجاهد بماله تحكم بلا سبب.

(٢) أي: يخرج للجهاد حقيقة لا لغرض، والجعبة كنانة النشاب أي السهام، والجمع جعاب ككلبة وكلاب.

(٣) القول المعروف أحد الصدقتين، ومن أقوالهم: «رحم الله من أمر بمير، أو دعا بخير»، والمير: العطاءُ.

(٤) يعني أنهما جملتان ـ إحداهما خبرها محذوف، والأخرى خبرها مذكور، والأظهر أن قوله تعالى: (قولٌ معروفٌ) مبتدأ بمعنى أن (قولٌ) هو المبتدأ، و(معروفٌ) صفة سوغت الابتداء بالنكرة. وقوله: (وَمَغْفِرَةٌ) معطوف على المبتدأ، فهو مبتدأ آخر، وسوغ جواز الابتداء به وصف محذوف تقديره: =

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا ذهاب برونق المعنى، وإنما يكون المقدر كالظاهر، والمغفرة الستر للخلة وسوءِ حالة المحتاج، ومن هذا قول الأعرابي ـ وقد سأَل قوماً بكلام فصيح، فقال له قائل: ممن الرجل؟ فقال: «اللهم غفراً، سوءُ الاكتساب يمنع من الانتساب»، وقال النقاش: يقال: معناه ومغفرة للسائل إن أَغلظ أَو جفا إِذا حرم[1].

ثم أَخبر تعالى بغناه عن صدقة مَنْ هذه حاله، وعاقبة أَمره، وعن حلمه عمن يمكن أَن يوقع هذا من عبيده وإِمهالهم.

وقوله تعالى: (يأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالمن والأَذَى) الآية. العقيدة أَن السَّيئات لا تُبطل الحسنات[2]، فقال جمهور العلماءِ في هذه الآية: إِن الصدقة التي

= ومغفرة من الله أو من السائل أو من المسؤول، وقوله: (خَيْرٌ) خبر عنهما، فهما جملة واحدة، وأما ما قاله المهدوي رحمه الله فإنه يذهب برونق المعنى كما قال ابن عطية رحمه الله، وإنما المقدر كالمذكور والله أعلم.

(١) قال ابن فرحون في «الديباج المذهب» في ترجمة «أبي محمد بن وهب»: قال حسين بن عاصم: كنت عند ابن وهب فوقف على الحلقة سائل فقال: يا أبا محمد (الدرهم الذي أعطيتني بالأمس زائف)، فقال: يا هذا إنما كانت أيدينا عارية، فغضب السائل وقال: صلى الله على محمد، هذا الزمان الذي كان يُحَدِّث به أنه لا يلي الصدقات إلا المنافقون من هذه الأمة، فقام رجل من أهل العراق فلطم المسكين لطمة خرَّ منها لوجهه، فجعل يصيح: يا أبا محمد، يا إمام المسلمين، يُفعل بي هذا في مجلسك؟ فقال ابن وهب: ومن فعل هذا؟ فقال العراقي: أصلحك الله ـ الحديث الذي حدثنا به أن النبي ﷺ قال: (من حمى لحم مؤمن من منافق حمى الله لحمه من النار)، وأنت مصباحنا وضياؤنا ويغتابك في وجوهنا؟ فقال: لأحدثنك بحديث: إن النبي ﷺ قال: (يكون في آخر الزمن مساكين يقال لهم العتاة، لا يتوضؤون لصلاة، ولا يغتسلون من جنابة، يخرج الناس إلى مساجدهم وأعيادهم يسألون الله من فضله، ويخرجون يسألون الناس، يرون حقوقهم على الناس، ولا يرون لله عليهم حقاً) اهـ.

(٢) أي خلافاً للمعتزلة، وقد تمسكوا بمثل هذه الآية، والجواب عن ذلك أن الآية هي في الصدقة التي يعلم الله أنها غير مقبولة بسبب ما يكون من المن والأذى فيها، لا في الصدقة التي وقعت على وجه صحيح مقبول، فإن المن والأذى في صدقة لا يبطل صدقة غيرها، قال الإمام النووي في شرح «المهذب»: «يحرم المن بالصدقة، فلو منَّ بها بطل ثوابه للآية الكريمة، واستشكل ذلك ابن عطية بأن العقيدة أن السيئات لا تبطل الحسنات، وقال غيره: تمسك المعتزلة بهذه الآية في أصلهم، أي أن السيئة تبطل الحسنة، واستنبط العلم العراقي من هذه الآية دليلاً لقاعدة أن المانع الطارىء كالمقارن لأنه تعالى جعل طريان المن والأذى بعد الصدقة كمقارنة الرياء لها في الابتداءِ، قال: ثم إن الله ضرب مثالين أحدهما للمقارن المبطل في الابتداءِ بقوله: (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ) الآية، فهذا فيه أن الوابل الذي نزل قارنه =

يعلم الله مِنْ صاحبها أَنه يمُنُّ أَو يؤذِي فإِنه لا يتقبل صدقته، وقيل: بل جعل الله للمَلك عليها أَمارة، فهو لا يكتبها[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا أَحسن لأَن ما نتلقى نحن على المعقول من بني آدم فهو أَن المَانَّ المؤذي ينص على نفسه أَن نيته لم تكن لله عز وجل على ماذكرناه قبل[2]، فلم تترتب له

= الصفوان وهو الحجر الصلد وعليه التراب اليسير ـ فأذهبه الوابل فلم يبق محل يقبل النبات وينتفع بهذا الوابل، فكذلك الرياءُ وعدمِ الإيمان إذا قارن إنفاق المال، والثاني الطارئُ في الدوام وأنه يفسد الشيء من أصله بقوله: (أَيَوَدُّ أَحَدُكُم) الآية، فمعناها أن هذه الجنة لما تعطل النفع بالاحتراق عند كبر صاحبها وضعفه وضعف ذريته فهو أحوج ما يكون إليها يوم فقره وفاقته، فكذلك طريان المن والأذى يحبطان أجر المتصدق أحوج ما يكون إليه يوم فقره وفاقته». انتهى من «الإكليل». للسيوطي، وتأمل.

(١) أي لا تكتب ولا تثاب.

(٢) أي في شرح قوله تعالى: (الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ في سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنّاً وَلا أَذَى) حيث قال: المنفق في سبيل الله إنما يكون على أحد ثلاثة أوجه. الخ.

تنبيهان:

التنبيه الأول: قال الفضيل بن عياض: أحسن العمل أخلصه وأصوبه، وقال: إن العلم إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكون خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة، وهذا هو قوله تعالى: (الَّذي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا) (إنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرْضِ زينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا). فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، وجارياً على مقتضى أمره، وما عدا ذلك فهو مردود على صاحبه، وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: (كلُّ عمل ليس عليه أمرنا فهو رد). فالله إنما يعبد بأمره، ولا يعبد بالجهل، ولا بالآراء والأهواء.

التنبيه الثاني: قال الله تعالى: (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا، قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَن هداكم لِلإِيمَانِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)، فالمنة لله على عباده، وهم إنما يتقلبون في بحر مِنَنه ونعمه، ومحض صدقته عليهم بلا عوض منه البتة، وإن كانت أعمالهم أسباباً لما ينالونه من كرمه وجوده، فهو المنان عليهم بأن وفقهم لتلك الأسباب، وهداهم لها، وأعانهم عليها، وقبلها منهم على ما فيها، فإن العبد ناقص، والناقص لا يستطيع أن يقوم بحق الكامل على وجه التام. وإلى هذه السببية المشروعة أشار سبحانه بقوله: (ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ). ومن هنا كان احتمالك منَّة المخلوق نقصاً لأنه نظيرك. فإذا منَّ عليه استعلى عليه، ورأى الممنون عليه دونه، ومع هذا فليس ذلك في كل مخلوق، فلرسول الله ﷺ المنَّة على أُمته، وقد كان أصحابه رضوان الله عليهم يقولون: «الله ورسوله أَمَنُّ» وكذلك لا نقص في منَّة الوالد على ولده، ولا عار عليه، وقد قال ﷺ للولد: (أنت ومالك لأبيك). وقال أيضاً وقد سئل ﷺ: ما حق الوالدين على الولد؟: (هما جنتك ونارك). وكذلك منَّة =

صدقة، فهذا هو بطلان الصدقة بالمنِّ والأَذى، والمنُّ والأَذى في صدقة لا يبطل صدقة غيرها، إذ لم يكشف ذلك على النية في السليمة، ولا قدح فيها.

ثم مثل الله هذا الذي يمن ويؤذي بحسب مقدمة نيته بالذي ينفق رياءً لا لوجه الله، والرياءُ مصدر من فاعل من الرؤْية، كأَن الرياءَ تظاهر وتفاخر بَيْن من لا خير فيه من الناس. قال المهدوي: والتقدير: كإِبطال الذي ينفق رياءً.

وقوله تعالى: ﴿وَلا يُؤْمِنُ بالله وَاليَوْمِ الآخِرِ﴾ يحتمل أَن يريد الكافر الظاهر الكفر(١)، إذ قد ينفق ليقال جواد، وليثني عليه بأَنواع الثناءِ، ولغير ذلك، ويحتمل أَن يريد المنافق الذي يظهر الإيمان.

ثم مثَّل هذا الذي ينفق رياءً بصفوان عليه تراب، فيظنه الظانُّ أَرضاً منبتة طيبة، كما يظن قوم أَن صدقة هذا المرائي لها قدر أَو معنى، فإِذا أَصاب الصفوان وابل من المطر انكشف ذلك التراب، وبقي صلداً، فكذلك هذا المرائي إذا كان يوم القيامة، وحضرت الأعمال، وانكشف سره، وظهر أَنه لا قدر لصدقته ولا معنى.

فالمن والأَذى والرياءُ يكشف عن النية، فيبطل الصدقة، كما يكشف الوابل الصفا فيذهب ما ظُن أَرضاً.

وقرأَ طلحة بن مصرف: ﴿رياءَ النَّاس﴾ بغير همز، ورويت عن عاصم.

= السيد على عبده، وإذا كان هذا حال بعض المخلوقين فكيف برب العالمين الذي أسبغ النعم ظاهرة وباطنة: نعمة الإيجاد والإمداد ونعمة الهداية والتوفيق، ونعمة الرعاية والعناية، فأعمالنا ليست سبباً لمننه ونعمه، ولا لجزائه وثوابه، بل غايتها إذا بذل العبد فيها نصحه وجهده، وأوقعها على أكمل الوجوه، أن تقع شكراً له على بعض نعمه عليه. فلذلك لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، كما ثبت ذلك على النبي ﷺ، ولهذا نفى دخول الجنة بالعمل، حين قال: (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله)، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل). ولا تنافي بين الحديث والآية، إذ توارد النفي والإثبات ليس على معنى واحد، فالمنفي استحقاقها بمجرد الأعمال، وكون الأعمال ثمناً وعوضاً لها، والمثبت هو أن حكمة الله اقتضت أن يكون العمل سبباً للدلالة على مجرد الطاعة والامتثال، وإن كان العمل قليلاً وضئيلاً بالنسبة للجنة. أفاده ابن القيم رحمه الله.

(١) يؤيده قوله تعالى: ﴿واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الكَافرينَ﴾، ورجح مكي أن المراد بالمنفق المرائي المنافق، واقتصر عليه الزمخشري، وذلك أن الرياءَ من فعل المنافق الساتر لكفره، وأما الكافر فهو مباه بعلمه ومجاهر بكفره ومناصب للدين، والله أعلم.

والصفوان: الحجر الكبير الأملس، قيل: هو جمع واحدته صفوانة، وقال قوم: واحدته صفواة، وقيل: هو إفراد، وجمعه صفي، وأنكره المبرد[١]، وقال: إنما هو جمع صفا، ومن المعنى الصفواءُ[٢] والصفا. قال امرؤُ القيس:

كُمَيْتٍ يـزلُّ اللِّبْـدُ عـن حـال متْنِـه ... كَمَـا زَلَّـت الصَّفْـواءُ بـالمُتَنَـزِّلِ[٣]

وقال أَبو ذؤَيب:

حَتَّـى كَـأَنِّـي للحَـوَادِثِ مـرْوَةٌ ... بصفَـا المشقَّـر كـلَّ حيـنٍ تُقـرع[٤]

وقرأ الزهري، وابن المسيب: (صفَوان) بفتح الفاءِ، وهي لغة.

والوابل: الكثير القوي من المطر وهو الذي يسيل على وجه الأَرض.

والصلد من الحجارة الأَملس الصلب الذي لا شيءَ فيه، ويستعار للرأس الذي لا شعر فيه، ومنه قول رؤْبة:

. . . . بَـرَّاقَ أَصـلادِ الْجَبِيـنِ الأَجْلَـهِ[٥]

قال النقاش: الصلد: الأجرد بلغة هذيل.

وقوله تعالى: (لا يَقْدِرُونَ) يريد به الذين ينفقون رياءً، أَي: لا يقدرون على الانتفاع بثواب شيءٍ من إنفاقهم ذلك، وهو كسبهم ـ وجاءَت العبارة بيقدرون على معنى الذي، وقد انحمل الكلام قبلُ على لفظ الذي، وهذا هو مهيع[٦] كلام العرب، ولو انحمل أَولاً على المعنى لقبح بعدُ أَن يحمل على اللفظ.

---

(١) وقال: إنما صفي جمع صَفَا، كقَفَا وقفي، والحاصل أن الصفا جمع صفاة، والصفي جمع الصَّفا فهو جمع الجمع.

(٢) الصفواءُ: الصفاة، والصفوانة، الصفاة، أيضاً جمعا صفْوان بسكون الفاء وفتحها.

(٣) أي كما يزل النازل على الصخرة الملساءِ، ويقال: كمُتَ الفرس: كان لونه بين الأسود والأحمر: والمتن: الظهر (يذكر ويؤنث).

(٤) راجع تفسير قوله تعالى: (إنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ الله): والمشقر: حصن قديم.

(٥) البيت بتمامه:

لَمَّـا رَأتِنِـي خلـق المُمَـوَّهِ ... بَـرَّاقَ أَصْـلادِ الجَبِيـنِ الأَجْلَـهِ

المموَّه: المزيَّن بماءِ الشباب، والأصلاد: جمع صَلْد والصَّلد: هو الصُّلب الأملسَ الشديد، والصخرة العريضة الملساء، ويقال: رأسٌ أو جلد صَلْد: لا يُنبت شعراً ـ ويقال: جَلِهَ جَلَها: ضخمت جبهته، وتأخرت منابت شعر رأسه، وانحسر عن مقدم رأسه فهو أجْله وهي جلهاء.

(٦) المهيع من الطرق: البيِّن، وجمعه: مهايع.

وقوله تعالى: (وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) إما عموم يراد به الخصوص في الموافي على الكفر، وإما أن يراد به أنه لم يهدهم في كفرهم، بل هو ضلال محض، وإما أن يريد أنه لا يهديهم في صدقاتهم وأعمالهم وهم على الكفر.

وما ذكرته في هذه الآية من تفسير لغة، وتقويم معنى، فإنه مسند عن المفسرين، وإن لم تجىء ألفاظهم ملخصة في تفسير إبطال المن والأذى للصدقة.

قوله عز وجل:

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾.

من أساليب فصاحة القرآن أنه يأتي فيه ذكر نقيض ما تقدم ذكره، لتستبين حال التضاد بعرضها على الذهن، فلما ذكر الله صدقات القوم الذين لا خلاق لصدقاتهم، ونهى المؤمنين عن مواقعة ما يشبه ذلك بوجهٍ مَّا، عقَّب في هذه الآية بذكر نفقات القوم الذين تركوا صدقاتهم وهي على وجهها في الشرع[1]، فضرب لها مثلاً.

وتقدير الكلام: ومثل نفقة الذين ينفقون كمثل غراس جنة، لأن المراد بذكر الجنة غراسها. أو يقدر الإضمار في آخر الكلام، دون إضمار نفقة في أوله، كأنه قال: كمثل غارس جنة[2].

و(ابْتِغَاءَ) معناه: طلب، وإعرابه النصب على المصدر في موضع الحال[3]، وكان يتوجه فيه النصب على المفعول من أجله، لكن النصب على المصدر هو الصواب من جهة عطف المصدر الذي هو (وَتَثْبِيتاً) عليه، ولا يصح في (تَثْبِيتاً) أنه مفعول من أجله، لأن الإنفاق من أجل التثبيت.

وقال مكي في «المشكل»[4]: كلاهما مفعول من أجله وهو مردود بما بيَّناه.

---

(١) يريد تركوها على وجهها الشرعي من دون إيذاءٍ ولارياءٍ.

(٢) معناه أن المضاف إليه يقدر ولابد، إما في المشبه، وإما في المشبه به رعاية للتناسب.

(٣) أي مبتغين رضى الله، ومتثبتين على الإنفاق في طاعة الله.

(٤) هو كتاب لمكي بن أبي طالب القيرواني أصلاً، القرطبي النحوي اللغوي المقرئ. سماه «مشكل غريب القرآن»، في ثلاثة أجزاءٍ.

و(مَرْضَاتِ) مصدر من رضي يرضى. وقال الشعبي، والسدي، وقتادة، وابن زيد، وأَبو صالح: و(تثبيتاً) معناه: وتَيَقُّناً، أَي أَن نفوسهم لها بصائر متأَكدة، فهي تثبتهم على الإِنفاق في طاعة الله تثبيتاً[1]، وقال مجاهد، والحسن: معنى قوله: (وَتَثْبِيتاً) أي أَنهم يتثبتون أَين يضعون صدقاتهم، وقال الحسن: كان الرجل إِذا هم بصدقة تَثَبَّت، فإِن كان ذلك لله أَمضاه، وإِن خالطه شك أَمسك، والقول الأَول أَصوب لأَن هذا المعنى الذي ذهب إِليه مجاهد والحسن إِنما عبارته «وَتَثَبُّتاً» فإِن قال محتج: إِن هذا من المصادر التي خرجت على غير المصدر كقوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[2] وكقوله: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[3]، فالجواب أَن هذا لا يسوغ إِلا مع ذكر المصدر، والإِفصاح بالفعل المتقدم للمصدر، وأَما إِذا لم يقع إِفصاح بفعل فليس لك أن تأتي بمصدر في غير معناه، ثم تقول: أَحْمِلُه على فعل كذا وكذا لفعل لم يتقدم له ذكر، هذا مهيع كلام العرب فيما علمت.

وقال قتادة: (وَتَثْبِيتاً) معناه: وإِحساناً من أَنفسهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا نحو القول الأَول.

والجنة: البستان، وهي قطعة أَرض نبتت فيها الأَشجار حتى سترت الأَرض، فهي من لفظ الجنين والجنن والجنة وجن اللَّيل.

والربوة: ما ارتفع من الأَرض ارتفاعاً يسيراً معه في الأَغلب كثافة التراب وطيبه وتعمقه، وما كان كذلك فنباته أَحسن.

ورياض الحَزْن ليست من هذا كما زعم الطبري[4]، بل تلك هي الرياض المنسوبة إِلى نجد لأَنها خير من رياض تهامة، ونبات نجد أَعطر، ونسيمه أَبرد وأَرق، ونجد يقال له: الحزن، وقلَّما يصلح هواءُ تهامة إِلا بالليل، ولذلك قالت الأَعرابية: (زوجي كليل

(١) المراد أنه لا محرك له إلا نفسه. وهذا التفسير هو الأحسن.
(٢) من الآية رقم (٨) من سورة المزمل.
(٣) من الآية رقم (١٧) من سورة نوح.
(٤) يعني أن رياض الحزْن (وهي الأرض الغليظة الخشنة) غير رياض الرُّبا ورياض الحَزْن تعني رياض نجد التي تغنَّى بها الشعراء، وهي أجود وأطيب من رياض تهامة.

تهامة)[١]. وقال ابن عباس: «الربوة المكان المرتفع الذي لا تجري فيه الأنهار».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا إنما أراد به هذه الربوة المذكورة في كتاب الله، لأن قوله تعالى: (أَصَابَهَا وَابِلٌ) إلى آخر الآية يدل على أنها ليس فيها ماءٌ جار، ولم يرد ابن عباس أن جنس الربا لا يجري فيها ماءٌ، لأن الله تعالى قد ذكر ربوة ذات قرار ومعين.

والمعروف في كلام العرب أن الربوة ما ارتفع عما جاوره سواءٌ جرى فيها ماءٌ أو لم يجر، وقال الحسن: الربوة الأرض المستوية التي لا تعلو فوق الماءِ، وهذا أيضاً أراد أنها ليست كالجبل والظرب[٢] ونحوه.

قال الخليل: الربوة أرض مرتفعة طيبة. وخص[٣] الله بالذكر التي لا يجري فيها ماءٌ من حيث هي العرف في بلاد العرب فمثل لهم بمايحسونه كثيراً.

وقال السدي: (بِرَبْوَةٍ) أي برباوة، وهو ما انخفض من الأرض، وهذه عبارة قلقة[٤]. ولفظ الربوة هو مأخوذ من ربا يربو إذا زاد، يقال: (رُبوة) بضم الراءِ، وبها قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، ونافع، وأبو عمرو، ويقال: (رَبوة) بفتح الراءِ، وبها قرأ عاصم، وابن عامر، وكذلك خلافهم في سورة المؤمنين[٥]. ويقال: (ربوة) بكسر الراءِ، وبها قرأ ابن عباس فيما حكي عنه، ويقال: رباوة بفتح الراءِ والباءِ وألف بعدها، وبها قرأ أبو جعفر، وأبو عبد الرحمن، ويقال: رِباوة بكسر الراءِ وبها قرأ الأشهب العقيلي.

---

(١) وهي المرأة الرابعة في حديث «أم زرع» المشهور.

(٢) الجبل المنبسط المستوى، والظاهر أن المراد بالربوة أرض طيبة مستوية ومرتفعة قليلاً لا مسنمة، بحيث يستقر الماءُ عليها، وإذا نزل عليها الماءُ اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، وبهذا يجتمع كلامهم، والله أعلم.

(٣) يعني أن الربوة في كلام العرب بعامة ـ وفي بلاد العرب ـ خاصةٌ بالتي لا يجري فيها ماءٌ والقرآن هنا جاءَ على ما يحسونه في بلادهم.

(٤) أي غير ثابتة ولا مستقرة في موضعها، واللغات هنا خمس: ربوة مثلثة الراءِ، ورَباوة بفتحها وكسرها، وكلها من: ربا يربو إذا زاد، والزيادة غير الانخفاض ومن أقوالهم: وما زالت تخفضني أرض وترفعني أرض حتى وصلت إليكم.

(٥) مراده أن عاصماً، وابن عامر قرآا قوله تعالى: (كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ) وقوله تعالى في سورة المؤمنون (وَآوَيْنَاهُمَا إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) بفتح الراء، والباقون قرؤوا في الموضعين بالضم. والسورة اسمها سورة (المؤمنون).

و(آتَتْ) معناه: أَعطت، والأُكْل: بضم الهمزة وسكون الكاف الثمر الذي يؤكل، والشيءُ المأكول من كل شيءٍ يقال له: أُكل، وإِضافته إِلى الجنة إِضافة اختصاص، كسرج الدابة، وباب الدار، وإِلا فليس الثمر مما تأْكله الجنة.

وقرأَ ابن كثير[١]، ونافع، وأَبو عمرو: (أُكْلها) بضم الهمزة وسكون الكاف، وكذلك كل مضاف إِلى مؤَنث، وفارقهما أَبو عمرو فيما أُضيف إِلى مذكر مثل (أُكُله) أَو كان مضافاً إِلى غير حكني[٢] مثل (أُكُل خَمْطٍ) فثقَّل أَبو عمرو ذلك وخففاه.

وقرأَ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي في جميع ما ذكرناه بالتثقيل. ويقال: أُكُل وأُكْل بمعنى، وهو من أَكل بمنزلة الطعمة من طعم، أَي الشيءُ الذي يُطعم ويُؤكل، (وضِعْفَيْنِ) معناه: اثنين، مما يُظن بها ويُحزر من مثلها، ثم أَكد تعالى مدح هذه الربوة بأَنها إِن لم يصبها وابل فإِن الطل يكفيها، وينوب مناب الوابل، وذلك لكرم الأَرض.

والطلُّ: المستدق من القطْر الخفيف، قاله ابن عباس وغيره، وهو مشهور في اللغة، وقال قوم: الطل: الندى، وهذا تجوز وتشبيه[٣]، وقد روي ذلك عن ابن عباس. قال المبرد: تقديره: فطل يكفيها[٤]، وقال غيره: التقدير: فالذي أَصابها طل، فشبه نمو نفقات هؤلاءِ المخلصين الذين يربي الله صدقاتهم، كتربية الفلو والفصيل حسب الحديث بنمو نبات هذه الجنة بالربوة الموصوفة، وذلك كله بخلاف الصفوان الذي انكشف عنه ترابه فبقي صلداً.

وفي قوله تعالى: (والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) وعد ووعيد، وقرأَ الزهري: (يَعْمَلُونَ) بالياءِ، كأَنه يريد الناس أَجمع، أَو يريد المنافقين فقط، فهو وعد محض.

---

(١) حاصله أن نافعاً وابن كثير يقرأان بإسكان الكاف وتخفيفه في الجميع، وحمزة والكسائي وعاصم يقرؤون بضم الكاف وتثقيله في الجميع، وأما أبو عمرو فإنه يقرأ في غير ما أُضيف إلى ضمير المؤنث بالضم وفي المضاف إلى ضمير المؤنث بالإسكان نحو (فَآتَتْ أُكْلَهَا ضِعْفَيْنِ) (أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا) (تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ).

(٢) أي إلى غير ضمير.

(٣) يريد أن الندى في اللغة هو ما يسقط آخر الليل من البلل ثم شبه به وأُطلق عليه.

(٤) إنما قدر ذلك ليكون الجواب جملة، وكونه جواب الشرط هو المسوغ للابتداءِ بالنكرة.

قوله عز وجل:

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾.

حكى الطبري عن السدي أن هذه الآية مَثَلٌ آخر لنفقة الرياءِ، ورجح هو هذا القول، وحكى عن ابن زيد أنه قرأ قول الله تعالى: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى) الآية. قال: ثم ضرب في ذلك مثلاً فقال: (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ) الآية، وهذا أَبين من الذي رجح الطبري[(١)]، وليست هذه الآية بمثل آخر لنفقة الرياءِ، هذا هو مقتضى سياق الكلام.

وأَما بالمعنى في غير هذا السياق فتشبه حال كل منافق أَو كافر عمل وهو يحسب أَنه يحسن صنعاً، فلما جاءَ إِلى وقت الحاجة لم يجد شيئاً[(٢)]، وقد سأَل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَصحاب النبي ﷺ عن هذه الآية فقالوا: الله ورسوله أَعلم، فقال وهو غاضب: قولوا: نعلم أَو لا نعلم، فقال له ابن عباس: هذا مثل ضربه الله كأَنه قال: أَيود أَحدكم أَن يعمل عمره بعمل أَهل الخير فإِذا فني عمره واقترب أَجله ختم ذلك بعمل من عمل أَهل الشقاءِ، فرضي ذلك عمر[(٣)].

وروى ابن أَبي مُليكة أَن عمر تلا هذه الآية: (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ)، وقال: هذا مثل ضرب للإِنسان يعمل عملاً صالحاً حتى إِذا كان عند آخر عمره أَحوج ما يكون إِليه عَمِلَ عَمَل السوءِ[(٤)]. فهذا نظرٌ يحمل الآية على كل ما يدخل تحت أَلفاظها، وقال

---

(١) أي ما قاله ابن زيد من أن الآية الكريمة مثل للمَانّ أبيَن من كونها مثلاً آخر للمرائي.

(٢) قال الإمام (ق) رحمه الله: روي عن ابن عباس أن الآية مثل لمن عمل لغير الله من منافق وكافر، إلا أن الذي ثبت في البخاري خلاف هذا، انتهى. ويعني بما ثبت في البخاري ما أشار إليه ابن عطية بقوله: وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصحاب النبي ﷺ عن هذه الآية إلخ.

(٣) خرجه البخاري في تفسير هذه الآية عن عبيد بن عمير، قال الحافظ ابن كثير: وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية، وتبين ما فيها من المثل بعلم من أحسن العمل أولا ثم انعكس سيره فبدل بالحسنات السيئات عياذاً بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه من العمل الصالح، واحتاج إلىٰ شيء من الأول في أضيق الأحوال فلم يحصل منه شيءٌ وخانه أحوج ما كان إليه. اهـ.

(٤) هذه الرواية تدل على أن التفسير لعمر، والأولى تدل على أنه لابن عباس، ولا تنافي بين ذلك، فقد=

بنحو هذا مجاهد، وقتادة، والربيع، وغيرهم[١].

وخص النخيل والأَعناب بالذكر[٢] لشرفها وفضلها على سائر الشجر، وقرأَ الحسن: (جنات) بالجمع.

وقوله: (مِنْ تَحْتِهَا)، هو تحت بالنسبة إِلى الشجر[٣]، والواو في قوله (وأَصَابَهُ) واو الحال[٤]، وكذلك في قوله: و(لَهُ)، و(ضُعَفَاءُ) جمع ضعيف، وكذلك: ضعاف.

والإِعصار: الريح الشديدة العاصف التي فيها إِحراق لكل ما مرت عليه، يكون ذلك في شدة الحر، ويكون في شدة البرد، وكل ذلك من فيح جهنم ونفسها كما تضمن قول النبي ﷺ: (إِذا اشتد الحر فأَبردوا عن الصلاة، فإِنَّ شدة الحر من فيح جهنم، وإِن النار اشتكت إِلى ربها)[٥] الحديث بكماله، فإِما أَنه نار على حقيقة وإِلا فهو نفسها يوجد عنها كأَثرها.

قال السدي: الإِعصار: الريح والنار السموم[٦]، وقال ابن عباس: ريح فيها سموم شديدة، وقال ابن مسعود: إِن السموم التي خلق الله منها الجان جزءٌ من سبعين جزءًا من النار، يريد من نار الآخرة. وقال الحسن بن أَبي الحسن: إِعصار فيه نار: ريح فيها صر وبرد، وقاله الضحاك.

= يكون فسره عمر، ثم سأل الصحابة ففسره ابن عباس كما فسره عمر، والله أعلم.

(١) حاصل هذا ـ أن الآية مَثَل للمرائي على قول السدي، وللمَانِّ على قول ابن زيد، وقال مجاهد، وقتادة، والربيع: إنها مثل للمفرط في الطاعة، وقال عمر، وابن عباس رضي الله عنهما: إنها مثل لمن عمل أعمال الطاعات كجنة فيها من كل الثمرات فختمها بإساءَة كما أُصيبت الجنة بإعصار.

(٢) أي من بين سائر الثمرات التي تحتوي عليها الجنة.

(٣) يعني من تحت الأشجار لا من تحت الأرض التي عليها الأشجار، فإن الجنة تطلق على الشجر وعلى الأرض التي عليها الشجر، والمناسب الأول.

(٤) يعني (وقد أصابه الكبر) بتقدير (قد) كما هي العادة عند النحاة في مثل هذا.

(٥) رواه الإمام أحمد والشيخان، وأبو داود والترمذي، وابن ماجه، ونصه: (عن أبي هريرة: إذا اشتد الحرُّ فأبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم، واشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير).

(٦) السموم ريح حارة شديدة تكون في النهار وقد تكون في الليل على عكس الحرور فإنها في الليل وقد تكون في النهار.

وفي المثل ـ «إن كنت ريحاً فقد لاقَيْت إِعصاراً[(١)]» ـ والريح إِعصار لأَنها تعصر السحاب، والسحاب معصرات إِما أَنها حوامل فهي كالمعصر من النساءِ وهي التي تكون عرضة للحمل[(٢)]، وإِما لأَنها تنعصر بالرياح، وبهذا فسر عبيد الله بن الحسن العنبري القاضي.

وحكى ابن سيدة أَن المعصرات فسرها قوم بالرياح لا بالسحاب. وقال الزجاج: الإِعصار: الريح الشديدة تصعد من الأَرض إِلى السماءِ وهي التي يقال لها الزوبعة.

قال المهدوي: قيل لها إِعصار لأَنها تلتف كالثوب إِذا عصر، وهذا ضعيف[(٣)]. والإِشارة بـ(ذَٰلِكَ) إِلى هذه الأَمثال المبينة، و(لَعَلَّكُمْ) ترج في حق البشر، أَي إِذا تأَمل من يبين له هذا البيان رُجي له التفكر، وكان أَهلاً له.

وقال ابن عباس: (تَتَفَكَّرُونَ) في زوال الدنيا وفنائها، وإِقبال الآخرة وبقائها.

قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾.

هذا الخطاب هو لجميع أُمة محمد ﷺ، وهذه صيغة أَمر من الإِنفاق[(٤)]. واختلف المتأَولون ـ هل المراد بهذا الإِنفاق الزكاة المفروضة أَو التطوع؟ فقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وعبيدة السلماني، ومحمد بن سيرين: هي في الزكاة المفروضة ـ نهى الناس عن إِنفاق الرديءِ فيها بدل الجيد، وأَما التطوع فكما للمرءِ أَن يتطوع بقليل فكذلك له أَن يتطوع بنازل في القدر، ودرهم زائف خير من تمرة[(٥)]، فالأَمر على هذا القول للوجوب.

---

(١) اي لا قيت ما هو أشد منك، وهو مثل يضرب للمدلّ بنفسه إذا صَلِيَ بنار مَنْ هو أدهى منه وأشد، والجمع أعاصير، ومنه قولهم: كأنما نفخت فيها الأعاصير.

(٢) يقال: أعصرت المرأة: بلغت شبابها: راهقت العشرين، وقيل: ولدت.

(٣) بل هو صحيح، لأنه المشاهد المحسوس، فإنها تصعد عموداً ملتفاً كالثوب المعصور.

(٤) لما ذكر سبحانه وجوب الإخلاص في الإنفاق ذكر هنا ضرورة الإخلاص في الشيء المُنْفَق أيضاً، وبإخلاص الظاهر والباطن تتحقق النتيجة إن شاء الله ويضاعف ثوابه.

(٥) يعني أنه في التطوع يجوز للإنسان أن يعطي غير الطيب، لأنه قد يكون أعم نفعاً لكثرته، أو لعظم=

والظاهر من قول البراءِ بن عازب، والحسن بن أَبي الحسن، وقتادة أَن الآية في التطوع. وروىٰ البراءُ بن عازب وعطاءٌ بن أَبي رباح ما معناه أَن الأَنصار كانوا أَيام الجداد[١] يعلقون أَقناءَ التمر في حبل بين أسطوانتين في المسجد، فيأكل من ذلك فقراءُ المهاجرين، فعلق رجل حشفاً فرآه رسول الله ﷺ فقال: (بئس ما علَّق هذا)، فنزلت الآية، والأَمر على هذا القول للندب، وكذلك نُدبوا إِلى أَلا يتطوعوا إِلا بجيد مختار.

والآية تعم الوجهين[٢] لكن صاحب الزكاة يتلقاها على الوجوب، وصاحب التطوع يتلقاها على الندب.

وهؤلاءِ كلهم وجمهور المتأَولين قالوا: معنى (مِنْ طيباتِ): من جيد ومختار ما كسبتم، وجعلوا الخبيث بمعنى الرديءِ والرذالة.

وقال ابن زيد: معناه: من حلال ما كسبتم قال: وقوله: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ أَي الحرام، وقول ابن زيد: ليس بالقوي من جهة نسق الآية، لا من معناه في نفسه[٣].

وقوله: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ يحتمل أَلا يقصد به لا الجيد ولا الحلال، لكن يكون المعنى كأَنه قال: أَنفقوا مما كسبتم، فهو حضٌّ على الإِنفاق فقط، ثم دخل ذكر الطيب تبييناً لصفة حسنة في المكسوب عاماً، وتقريراً للنعمة، كما تقول: أَطعمت فلاناً من مشبع الخبز، وسقيته من مروي الماءِ[٤]، والطِّيب على هذا الوجه يعم الجودة والحل،

= خطره، وأحسن موقعاً من المسكين من الجيد لقلته، أو لصغر خطره، وقلة جدوى نفعه على من أُعطيه، وعليه فقد يكون الدرهم الزائف خيراً ممن تمرة لقلتها، انظر تفسير الإمام (ط) رحمه الله.

(١) أي جداد النخل وصرامه وهو بالمهملة والمعجمة، يقال: جذَّ النخل إذا قطعه وصرمه، وحديث البراء بن عازب خرجه الإمام الترمذي وصححه.

(٢) هذا هو الظاهر، وله من الأدلة ما يؤيده، منها أن سبب الآية كان في التطوع، ومنها أن الرديء غير محمود لا في الفرض ولا في النفل، وإنما يحرم في الفرض ويكره في النفل.

(٣) لا مانع من اعتبار الأمرين جميعاً، لأن الكسب الجيد والمختار إنما يطلق على الحلال في الحقيقة الشرعية، وإن أطلق أهل اللغة على ماهو جيد في ذاته حلالاً أم حراماً، والحقيقة الشرعية مقدمة على الحقيقة اللغوية، ويرجع إلى هذا قول ابن عطية رحمه الله فيما بعد: والطيب على هذا الوجه يعم الجودة والحل إلخ. تأمل.

(٤) روى الطبراني بسنده، عن عبد الله بن عمرو قال: قال النبي ﷺ: (من أطعم أخاه حتى يشبعه، وسقاه من الماء حتى يرويه بعده الله من النار سبع خنادق، ما بين كل خندقين مسيرة مائة عام).

ويؤيد هذا الاحتمال أن عبد الله بن مغفل قال: (ليس في مال المؤمن خبيث)(١).

و(كَسَبْتُمْ) معناه: كانت لكم فيه سعاية، إما بتعب بدَنٍ أو مقاولة في تجارة(٢). والموروث داخل في هذا، لأن غير الوارث قد كسبه(٣) إذ الضمير في (كَسَبْتُمْ) إنما هو لنوع الإنسان أو المؤمنين.

(وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ)(٤) النبات والمعادن والركاز وما ضارع ذلك.

و(تَيَمَّمُوا) تعمَدُوا وتقْصِدوا، يقال: تَيَمَّمَ الرجل كذا وكذا إذا قصده، ومنه قول امرئِ القيس:

تَيَمَّمَتِ الْعَيْنَ الَّتي عِنْدَ ضَارِجٍ ... يَفِيءُ عَلَيْهَا الظِّلُّ عَرمضها طَامي(٥)

ومنه قول الأعشى:

تيَمَّمَتْ قَيْساً وكَمْ دُونَهُ ... من الأَرض مِن مَهْمَه ذي شَزَن(٦)

---

(١) روى حديث عبد الله بن مغفل ابن حاتم كما في تفسير الحافظ ابن (ك). وفي نسخة عبد الله بن معقل. وعبد الله بن مغفل المزني من مشاهير الصحابة نقل البخاري أنه كان يكنى أبا زياد، وهو أحد البكاتين في غزوة تبوك مات سنة ٦١هـ بالبصرة. وعبد الله بن معقل مات في حدود السبعين، وهو صحابي أنصاري، شهد أُحداً مع أبيه، وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية.

(٢) في التجارة تسعة أعشار الرزق، ويقال: علموا أولادكم التجارة، ولا تعلموهم الإجارة، والإجارة هي ما فيها تعب البدن.

(٣) يريد الموروث، وهذا ما فسر به ابن عطية رحمه الله تبعاً لغيره، ويعني أنه لا فرق بين أن يكون كسبه بنفسه، أو كسبه بغيره كالوارث، ولك أن تقول: ذكرت الآية المكسوب، لأن بذله يكون أشق على النفس من غير المكسوب كالميراث، وفي ذلك إشارة إلى أن ثواب الصدقة من الحلال المكتسب أعظم من الحلال غير المكتسب.

(٤) بهذه الآية الكريمة استدل الحنفية على وجوب الزكاة من جميع ما يخرج من الأرض، وللمذاهب الأخرى تفصيل مأخوذ من السنة، والله أعلم.

(٥) قبله:

ولمَّا رأتْ أنَّ الشريعةَ هَمُّها ... وأن البياض من فرائصها دامي
تَيَمَّمَتِ الْعَيْنَ الَّتي عند ضارج ... يفيءُ عَلَيْهَا الظِّلُّ عَرْمَضَها طَامِي

والضمير في (رأت) لحمر الوحش، والشريعة مورد الماءِ المقصود، ويريد أن الحمر لما أرادت شريعة الماءِ وخافت على نفسها من الرماة، وأن تدمىٰ فرائصها من سهامهم عَدَلتْ إلى ضارج لعدم وجود الرماة على العين التي فيه، وضارج: موضع في بلاد بني عبس، والعرمض: الطحلب، والطامي: المرتفع، وفي رواية (الطلح) بدل (الظل).

(٦) أي ذي خشونة، لأن أرضه غير مستوية، وقد روي البيت: «تُيُمِّمُ قيساً» يريد الناقة.

ومنه التيمم الذي هو البدل من الوضوءِ عند عدم الماءِ، وهكذا قرأ جمهور الناس.

وروى البزي عن ابن كثير بتشديد التاءِ في أحد وثلاثين موضعاً أولها هذا الحرف[١].

وحكى الطبري أن في قراءَة عبد الله بن مسعود: «ولا تأَمَّموا الْخَبِيثَ» مِنْ أَمَمْتُ إِذا قصدت، ومنه إمام البناءِ، والمعنى في القراءَتين واحد. وقرأَ الزهري، ومسلم بن جندب[٢]: (ولا تُيَمِّمُوا) بضم التاءِ وكسر الميم، وهذا على لغة من قال: يممت الشيءَ، بمعنى قصدته.

وفي اللفظة لغات ـ منها: أَمَمْت الشيءَ خفيفة الميم الأَولى، وأَمَّمت بشدها، ويَمَّمته وتَيَمَّمْتُه. وحكى أَبو عمرو أَن ابن مسعود قرأَ: (ولا تُؤَمموا) بهمزة بعد التاءِ، وهذه على لغة من قال: أَمَّمْت مثقلة الميم، وقد مضى القول في معنى الخبيث.

وقال الجرجاني (في كتاب نظم القرآن): قال فريق من الناس: إن الكلام تم في قوله: (الخبيث). ثم ابتدأ خبراً آخر في وصف الخبيث فقال: (مِنْهُ تُنْفِقون)[٣] وأنتم لا تأخذونه إلا إذا أَغمضتم، أَي ساهلتم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَن هذا المعنى عتاب للناس وتقريع. والضمير في (مِنْهُ) عائد على (الخبيث). قال الجرجاني: وقال فريق آخر: بل الكلام متصل إلى قوله: (فِيهِ) فالضمير في (مِنْهُ) عائد على (مَا كَسَبْتُمْ) ويجيءُ (تُنْفِقُونَ) في موضع نصب على الحال وهو كقوله: أَنا أَخرج أُجاهد في سبيل الله.

---

(١) ذكرها أبو (ح) رحمه الله في كتبه، ونظمها في تفسيره، وقراءة البزي لا تجوز عند البصريين لما فيها من الجمع بين الساكنين، وليس الساكن الأول حرف مدٍّ ولين، إلا أن الأمة تلقتها بالقبول، والعلم غير محصور في البصريين، وقد كان الأصل تاءين، تاء الخطاب، وتاء الفعل، فحذفت تاءُ الخطاب في القراءة العامة لئلا يتكرر مثلان، والبزي رد الحرف المحذوف وأدغمه.

(٢) مسلم بن جندب تابعي مدني يعد من القراءِ، ومن النحاة، وهو أحد من أخذ عنه القراءة نافع بن أبي نعيم.

(٣) تقديم الجار والمجرور يفيد التخصيص، أي لا تقصدوا المال الخبيث مخصصين الإنفاق به، وقاصرين ذلك عليه، وفي ذلك تنبيه على أن المنهي عنه هو القصد للرديء من جملة ما في يده، وأما إنفاق الرديء لمن ليس له غيره، أو لمن لا يقصده فغير منهي عنه.

واختلف المتأَولون في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إلا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ فقال البراءُ بن عازب، وابن عباس، والضحاك، وغيرهم: معناه: ولستم بآخذيه في ديونكم وحقوقكم عند الناس إلا أَن تساهلوا في ذلك، وتتركوا من حقوقكم، وتكرهونه ولا ترضونه، أَي فلا تفعلوا مع الله ما لا ترضونه لأَنفسكم، وقال الحسن بن أَبي الحسن: معنى الآية: «ولستم بآخذيه لو وجدتموه في السوق يباع إلا أَن يهضم لكم من ثمنه».

ورُوي نحوه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: وهذان القولان يشبهان كون الآية في الزكاة الواجبة[١]، وقال البراءُ بن عازب أَيضاً: معناه: ولستم بآخذيه لو أُهدي لكم إلا أَن تغمضوا، أَي تستحيوا من المهدي فتقبلوا منه مالا حاجة لكم فيه، ولا قدر له في نفسه، وهذا يشبه كون الآية في التطوع، وقال ابن زيد: معنى الآية: ولستم بآخذي الحرام إلا أَن تغمضوا في مكروهه[٢].

وقرأَ جمهور الناس: ﴿إلا أَنْ تُغْمِضُوا﴾ بضم التاءِ، وسكون الغين، وكسر الميم. وقرأَ الزهري بفتح التاءِ، وكسر الميم مخففاً، وروي عنه أَيضاً: ﴿تُغَمِّضُوا﴾ بضم التاءِ وفتح الغين وكسر الميم مشددة.

وحكى مكي عن الحسن البصري: (تغمَّضوا) مشددة الميم مفتوحة، وقرأَ قتادة بضم التاءِ وسكون الغين وفتح الميم مخففاً، قال أَبو عمرو: معناه: إلا أَن يغمض لكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذه اللفظة تنتزع إما من قول العرب: أَغمض الرجل في أَمر كذا إذا تساهل فيه، ورضي ببعض حقه وتجاوز، فمن ذلك قول الطرماح بن حكيم:

لَـمْ يَفُتْنَـا بِـالـوِتْـرِ قَـوْمٌ وللضَّـ ... ـيْـم أُنَـاسٌ يَـرْضَـوْنَ بِـالإِغْمَـاضِ[٣]

---

(١) قال ابن العربي: لو كانت الآية في الفرض لما قال: ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ﴾ لأن الرديء والمعيب لا يجوز أخذه في الفرض بحال، لا مع تقدير الإغماض ولا مع عدمه، وإنما يؤخذ بإغماض ما سواه.

(٢) قال أبو (ح) بعد أن أورد هذه الأقوال: «والظاهر عموم نفي الأخذ بأي طريق، والهاء في (بآخذيه) عائدة على الخبيث، وهي مجرورة بالإضافة، وإن كانت من حيث المعنى مفعولة». البحر المحيط ٢ـ٣١٨.

(٣) الوتر ـ بفتح الواو وكسرها: الذَّحل، والظلم فيه، والذَّحْل: الحقد والعداوة والثأر، والجمع: أذحال وذحول، يقال: طلب بذحله: أي بثأره ـ وقد روي «والذُّل» بدل «وللضَّيْم»، والإغماض هنا كما يرى المؤلف هو التساهل في الحقوق، والرضا ببعضها مع التجاوز عن بعضها الآخر.

وإما أَن تنتزع من تغميض العين، لأَن الذي يريد الصبر على مكروه يغمض عنه عينيه، ومنه قول الشاعر:

إِلى كَمْ وكَمْ أَشيَاءَ مِنكَ تَرِيبُني ... أُغَمِّضُ عَنْهَا لَسْتُ عَنْهَا بذي عَمَى؟

وهذا كالإغضاءِ عند المكروه، وقد ذكر النقاش هذا المعنى في هذه الآية، وأَشار إِليه مكي ـ وإِما من قول العرب: أَغمض الرجل إِذا أَتى غامضاً من الأَمر، كما تقول: أَعْمن إِذا أَتى عمان، وأَعْرق إِذا أَتى العراق، وأَنْجد وأَغْور إِذا أَتى نجداً، والغور الذي هو تهامة، ومنه قول الجارية:

«وإِن دسر أَغمض»[1].

فقراءَة الجمهور تُخَرَّج: على التجاوز، وعلى تغميض العين، لأَن أَغمض بمنزلة غمض، وعلى أَنها بمعنى حتى تأْتوا غامضاً من التأْويل والنظر في أَخذ ذلك، إِما لكونه حراماً على قول ابن زيد، وإِما لكونه مُهدى أَو مأْخوذاً في ديْن على قول غيره.

وأَما قراءَة الزهري الأُولى فمعناها: تهضموا سومها من البائع منكم فيحطكم، قال أَبو عمرو: معنى قِراءَتي الزهري: حتى تأْخذوا بنقصان، وأَما قراءَته[2] الثانية فهذا مذهب أَبي عمرو الداني فيها، ويحتمل أَن يكون من تغميض العين.

وأَما قراءَة قتادة فقد ذكرت تفسير أَبي عمرو لها، وقال ابن جني: معناها: توجدوا قد غمضتم في الأَمر بتأولكم، أَو بتساهلكم، وجريتم على غير السابق إِلى النفوس، وهذا كما تقول: أَحمدت الرجل، وجدته محموداً، إِلى غير ذلك من الأَمثلة.

ثم نبه تعالى على صفة الغنى، أَي لا حاجة به إِلى صدقاتكم، فمن تقرب وطلب مثوبة فليفعل ذلك بماله قدر[3]، و(حَمِيدٌ) معناه: محمود في كل حال، وهي صفة ذات.

---

(١) روى أبو علي القالي في كتاب «الأمالي» قصة هذه الجارية، وهي واحدة من ثلاث بنات سألتهن أُمهن العجوز عما يحببن من الأزواج، وقالت كل واحدة ما تحبه، وجاء في كلام الثالثة وهي صغراهن: «أُريده بازل عام، كالمهند الصمصام، قرانه حبور، وبقاؤه سرور، إن دسر أغمض، وإن أخلَّ أحمض. . . الخ» والدسر هنا معناه الجماع.

(٢) هذا مقابل قوله: «وأما قراءة الزهري الأولى»، وقوله: «فهذا مذهب أبي عمرو الداني فيها» يعني أن معناها حتى تأخذوا بنقصان.

(٣) يعني أنه سبحانه وإن أمركم بالنفقة فإن ذلك لمنفعتكم ولمصلحة الفقير والغني منكم، وإلا فهو غني عن=

قوله عز وجل:

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾.

هذه الآية وما بعدها وإن لم تكن أَمراً بالصدقة فهي جالبة النفوس إلى الصدقة[(١)] ـ بين عز وجل فيها نزغات الشيطان ووسوسته وعداوته. وذكَّر بثوابه هو لا رب غيره، وذكر بتفضله بالحكمة، وأَثنى عليها، ونبَّه أَن أَهل العقول هم المتذكرون الذين يقيمون بالحكمة قدر الإنفاق في طاعة الله عز وجل وغير ذلك.

ثم ذكر علمه بكل نفقة ونذر، وفي ذلك وعد ووعيد، ثم بين الحكم في الإعلان والإخفاءِ، وكذلك إلى آخر المعنى.

والوعد في كلام العرب ـ إذا أُطلق ـ فهو في الخير، وإذا قُيد بالموعود ما هو، فقد يُقيد بالخير، وقد يقيد بالشر، كالبشارة ـ فهذه الآية مما قُيِّدَ الوعد فيها بمكروه وهو الفقر.

والفحشاءُ: كل ما فحش، وفحش ذكره[(٢)] ومعاصي الله كلها فحشاءُ، وروى حيوة

= صدقاتكم، ولذلك فمن تصدق بصدقة طيبة فليعلم أن الله غني واسع العطاء، وأنه سيجزيه عليها ويضاعفها له أضعافاً كثيرة، وأنه المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرائعه لا إله إلا الله ولا رب سواه.

(١) كأنه يشير إلى اتصال هذه الآية بما قبلها، فبعد أن رغب سبحانه في الإنفاق الطيب حذَّر من وسوسة الشيطان في ذلك، وأخبر بمغفرته وفضله وسعته وعلمه، وإيتائه الحكمة لمن يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم.

(٢) أما ما كان فاحشاً كالزنى، والفحش في الفعل وفي القول: فحش فعله وفحش قوله. وقال بعض المفسرين: «ويحتمل أن تكون الفحشاء الكلمة السيئة» كما قال الشاعر:

ولا ينطِقُ الفحشاءَ مَنْ كان مِنهُمُ ... إذا جلسوا منَّا ولا من سوائنا

وقال بعضهم: الفاحش عند العرب: البخيل ـ وقال الزمخشري: (ويأمركم بالفحشاء): ويغريكم على البخل ومنع الصدقات. اهـ ـ وعلق أبو (ح) على ذلك فقال: فتكون الجملة الثانية كالتوكيد للأولى، ثم قال: ونظرنا إلى ما شرحه الشراح في الفاحش في نحو قول الشاعر:

حتى تأوي إلى لا فاحِشٍ بَرِم ... ولا شحيح إذا أصحابُه غَنِمُوا

وقول الآخر:

عن رجل من أهل الرباط أنه قرأ [الفُقر] بضم الفاءِ، وهي لغة، وقد قال ابن عباس: في الآية اثنتان من الشيطان، واثنتان من الله تعالى.

وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: (إن للشيطان لَمَّة من ابن آدم، وللمَلك لَمَّة، فأَما لَمَّة الشيطان فإيعادُ بالشر، وتكذيب بالحق، فمن وجد ذلك فليتعوذ، وأَما لَمَّة الملك فوعد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليحمد الله)، ثم قرأ عليه السلام: (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمركُمْ) الآية[1].

والمغفرة: هي الستر على عباده في الدنيا والآخرة، والفضل: هو الرزق في الدنيا والتوسعة فيه، والنعيم في الآخرة وبِكُلٍّ قد وعد الله تعالى.

وذكر النقاش أَن بعض الناس تأْنس بهذه الآية أَن الفقر أَفضل من الغنى، لأَن الشيطان إِنما يبعد العبد من الخير وهو بتخويفه الفقر يبعد منه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس في الآية حجة قاطعة إِلا أَن المعارضة بها قوية ـ وروي أَن في التوراة: «عبدي، أَنفق من رزقي أَبسط عليك فضلي، فإِن يدي مبسوطة على كل يد مبسوطة»[2]. وفي القرآن مصداقُه وهو: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[3].

و(وَاسِعٌ) لأَنه وسع كل شيءٍ رحمة وعلماً.

ثم أَخبر تعالى عن نفسه أَنه: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ) أَي يعطيها لمن يشاءُ من عباده،

= أرَى المـوتَ يعْتَـام الكِـرام ويَصْطَفِـي عَقيلَـة مـال الفـاحـش المُتَشَـدِّدِ

فقد قالوا: الفاحش: السيئ الخلق، ولو كان هو البخيل لكان قول الشاعر الأول: «ولا شحيح» من باب التوكيد، وقيل في قول امرىء القيس:

وجيـد كجيـد الـريـم ليـس بفـاحـش . . . .

إن معناه: «ليس بقبيح. . .» راجع البحر المحيط ٢ـ٣١٩ ـ وأحسن ما قيل في تفسير الفحشاء هنا هو قول ابن عطية: «الفحشاء: كل ما فحش، وفحش ذكره، ومعاصي الله كلها فحشاء».

(١) أخرجه أبو عيسى الترمذي في حامعه وقال: حسن غريب، واللَّمَّة: الشدة، أو المس من الشيطان. ويقال: للشيطان لَمَّة، أي هَمَّة وخطرة في القلب ودُنُوٌّ.

(٢) روي ذلك عن ابن عباس.

(٣) من الآية (٣٩) من سورة سبأ.

واختلف المتأولون في الحكمة في هذا الموضع ـ فقال السدي: الحكمة: النبوة، وقال ابن عباس: هي المعرفة بالقرآن فقهِه ونسخِه ومحكمِه ومتشابهه وعربيته، وقال قتادة: الحكمة: الفقه في القرآن، قاله مجاهد، وقال مجاهد أيضاً: الحكمة: الإصابة في القول والفعل، وقال ابن زيد وأبوه زيد بن أسلم: الحكمة: العقل في الدين، وقال مالك: الحكمة: المعرفة في الدين، والفقه فيه، والاتباع له، وروى عنه ابن القاسم أنه قال: الحكمة: التفكر في أمر الله، والاتباع له، وقال أيضاً: الحكمة: طاعة الله، والفقه في الدين والعمل به، وقال الربيع: الحكمة: الخشية[1]. ومنه قول النبي عليه السلام: (رأس كل شيءٍ خشية الله تعالى)[2]. وقال إبراهيم: الحكمة: الفهم، وقال زيد بن أسلم، وقال الحسن: الحكمة: الورع.

وهذه الأقوال كلها ما عدا قول السدي قريب بعضها من بعض، لأن الحكمة مصدر من الإحكام وهو الإتقان في علم أو قول ـ وكتاب الله: حكمة ـ وسنة نبيه: حكمة، وكل ما ذكر فهو جزءٌ من الحكمة التي هي الجنس ـ وقرأ الجمهور: [وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ] على بناءِ الفعل للمفعول، وقرأ الزهري ويعقوب: [وَمَنْ يُؤْتِ] بكسر التاءِ على معنى، ومن يُؤْت الله الحكمة، فَمَنْ مفعول أول مقدم، والحكمة مفعول ثان، وقرأ الأخفش: [وَمَنْ يُؤْتِهِ الْحِكْمَةَ]، وقرأ الربيع بن خثيم [تُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ تَشَاءَ] بالتاءِ في [تُؤْتِي]، وفي [تَشَاءُ] منقوطة من فوق، [وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ] بالياءِ.

وباقي الآية تذكر بيِّنة وإقامة لهمم الغَفَلَة. والألباب: العقول، واحدها: لُبٌّ.

---

(١) روى ابن جرير عن الربيع قال: الحكمة: الخشية لأن رأس كل شيءٍ خشية الله، وقرأ (إنما يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ) وكل هذه الأقوال ترجع إلى العلم والعمل، وقلَّما يجتمع علم وعمل، وقد قسم الإمام النظار الشاطبي في (الموافقات) تحقيق المناط إلى قسمين: تحقيق المناط العام، وتحقيق المناط الخاص، وقال: يعبر عن هذا الثاني بالحكمة المشار إليها بقوله تعالى: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ) وتحقيق المناط الخاص هو النظر إلى كل مكلف حسب دلائل التكليف، وصاحب تحقيق المناط الخاص هو من أُوتي نوراً يعرف به الأشياء على حقيقتها، ويضع الدلائل في موضعها، وقد قال الله تعالى: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً) الآية.

(٢) الذي رواه البيهقي في «الدلائل» والعسكري في «الأمثال» والديلمي عن عقبة بن عامر، وعن ابن مسعود مرفوعاً: (رَأسُ الحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللهِ ورأس كل شيءٍ خشية الله)، موقوف على الربيع بن أنس كما في تفسير الإمام (ط) رحمه الله والله أعلم.

قوله عز وجل:

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾.

كانت النذور من سيرة العرب، تُكثر منها، فذكر تعالى النوعين: ما يفعله المرءُ تبرعاً، وما يفعله بعد إلزامه لنفسه، ويقال: نذر الرجل كذا إِذا التزم فعله ينذُر بضم الذال وينذِر بكسرها.

وقوله تعالى: (فَإِنَّ الله يَعْلَمُهُ) قال مجاهد: معناه: يحصيه، وفي الآية وعد ووعيد، أَي من كان خالص النية فهو مثاب، ومن أَنفق رياءً أَو لمعنى آخر مما يكشفه المنُّ والأَذى ونحو ذلك فهو ظالم، يذهب فعله باطلاً، ولا يجد ناصراً فيه، ووحد الضمير في (يَعْلَمُهُ) وقد ذكر شيئين من حيث أَراد ما ذكر أَو نص[1].

وقوله تعالى: (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ) الآية. ذهب جمهور المفسرين إِلى أَن هذه الآية هي في صدقة التطوع، قال ابن عباس: «جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها، يقال: بسبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أَفضل من سرها يقال: بخمسة وعشرين ضعفاً، قال: وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأَشياءِ كلها»[2]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويُقَوِّي ذلك قول النبي ﷺ: (صلاة الرجل في بيته أَفضل من صلاته في المسجد إلا

(١) المعروف في علم النحو أن العطف إذا كان بأو يكون الضمير مفرداً، لأن المحكوم عليه أحدهما فلا حاجة إلى التأويل بعد هذا. وعلى هذا جاء قوله تعالى: (وَإِذَا رَأَوا تِجَارَةً أو لَهْواً انْفَضُوا إليهَا).

(٢) رواه الإمام الطبري، ومثل هذا لا يقال بالرأي، وإنما يقال بالتوقيف، والآية عامة في الفرائض والنوافل، فالإخفاء أفضل فيهما معاً، قال ابن عطية رحمه الله: «ويشبه في زماننا أن يحسن التستر بصدقة الفرض فقد كثر المانع. وصار إخراجها عرضة للرياء»، وما قاله رحمه الله حق وواقع إلا أن الإمام الطبري رحمه الله روى عن ابن عباس رضي الله عنهما ما روى، وحكى الإجماع على أن إظهار الواجب أفضل، وعلى الإنسان أن ينظر إلى الظروف المحيطة به، فإن كان إظهار صدقة الفرض يشجع على إخراجها فالأمر واضح، وإلا فيعمل على إخفائها، فالإخفاء حيث تصان الكرامة وتتحرج النفس من الإعلان، والإبداء حيث تطلب الأسوة وتنفذ الشريعة، ولكل مقامه في الحياة.

المكتوبة)[١]، وذلك أن الفرائض لا يدخلها رياءٌ، والنوافل عرضة لذلك.

وقال سفيان الثوري: هذه الآية في التطوع، وقال يزيد بن أبي حبيب: إنما نزلت هذه الآية في الصدقة على اليهود والنصارى، وكان[٢] يأمر بقسم الزكاة في السر ـ وهذا مردود لا سيما عند السلف الصالح، فقد قال الطبري: أجمع الناس على أن إظهار الواجب أفضل، قال المهدوي: وقيل: المراد بالآية فرض الزكاة، وما تطوع به، فكان الإخفاءُ فيهما أفضل في مدة النبي عليه السلام، ثم ساءت ظنون الناس بعد ذلك فاستحسن العلماءُ إظهار الفرض لئلا يظن بأحد المنع، وهذا القول مخالف للآثار، ويشبهه في زمننا أن يحسن التستر بصدقة الفرض فقد كثر المانع لها وصار إخراجها عرضة للرياءِ ـ وقال النقاش: إن هذه الآية نسخها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً. . .﴾[٣] الآية.

وقوله: (فَنِعِمَّا هِيَ) ثناءٌ على إبداءِ الصدقة، ثم حكم أن الإخفاءَ خير من ذلك الإبداءِ.

واختلف القراءُ في قوله: (فَنِعِمَّا هِيَ)[٤]، فقرأ نافع في غير رواية ورش، وأبو عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر، والمفضل: [فنِعْما] بكسر النون وسكون العين. وقرأ عاصم في رواية حفص، وابن كثير، ونافع في رواية ورش: [فَنِعِمَّا] بكسر النون والعين، وقرأ ابن عامر، وحمزة والكسائي: [فَنَعِمَّا] بفتح النون وكسر العين وكلهم شدد الميم.

---

(١) رواه الشيخان، والترمذي بلفظ، (عليكم بالصلاة في بيوتكم، فإن خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة). ورواه أبو داود في سننه بلفظ: (صلاة المرء في بيته أفضل من صلاته في مسجدي هذا إلا المكتوبة). والحديث رواه زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبي ﷺ، فالنافلة في البيت أفضل منها في المسجد ولو كان فاضلاً كمسجد النبي ﷺ.

(٢) أي يزيد بن أبي حبيب.

(٣) من الآية (٢٧٤) من سورة البقرة.

(٤) مثله قوله تعالى: (إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ)، والقراءات الثلاث التي ذكرها ابن عطية كلها تشدد الميم، واللغات في هذه المادة أربع: نَعِمَ بفتح فكسر، ولك أن تطرح الكسرة فتقول: نَعْم بفتح فسكون، ونِعِم بكسرتين، ولك أن تطرح الكسرة الثانية فتقول: نِعْم بكسر فسكون، وهذه أفصح اللغات، وإن كان أصلها نَعِم بفتح فكسر، وقد قالوا: إن كل ما كان على فَعِل بفتح فكسر وثانيه حرف حلقي ففيه هذه اللغات الأربع.

قال أبو علي: من قرأ بسكون العين لم يستقم قوله، لأنه جمع بين ساكنين، الأول منهما ليس بحرف مدٍّ ولين، وإنما يجوز ذلك عند النحويين إذا كان الأول حرف مدٍّ، إذ المد يصير عوضاً من الحركة، وهذا نحو: دابة وضوالّ، وشبهه، ولعل أبا عمرو أخفى الحركة واختلسها[1]، كأخذه بالإخفاءِ في (باريكم ـ ويأمركم) فظن السامع الإخفاءَ إسكاناً للطف ذلك في السمع وخفائه.

وأما من قرأ نِعِمَّا بكسر النون والعين فحجته أن أصل الكلمة نِعم بكسر الفاءِ من أجل حرف الحلق، ولا يجوز أن يكون ممن يقول: نِعْم، ألا ترى أن من يقول: «هذا قدم ملك»، فيدغم «هؤلاءِ قوم ملك» و«جسم ماجد»[2].

وقال سيبويه: [نِعِما] بكسر النون والعين ليس على لغة من قال: [نِعْم] فأسكن العين، ولكن على لغة من قال: [نِعم] فحرك العين، وحدثنا أبو الخطاب[3] أنها لغة هزيل، وكسرها ـ كما قال ـ لعب ولو كان الذي قال: [نِعِما] ممن يقول: نِعْم بسكون العين لم يجز الإدغام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يشبه أن هذا يمتنع لأنه يسوق إلى اجتماع ساكنين. قال أبو علي: وأما من قرأ: [نَعِما] بفتح النون وكسر العين فإنما جاءَ بالكلمة على أصلها وهو نَعِم، ومنه قول الشاعر:

---

(١) أي كسر العين كسراً خفيفاً مختلساً، وهذا الجواب من أبي علي الفارسي، ثم إن ما أنكروه قد جاء عن أكثر القراء في عدة مواضع، والحق أن القراءات منقولة عن النبي ﷺ، ومتواترة، فلا ينبغي أن يتطرق الشك إليها، ومتى تطرق إلى ذلك تطرق إلى غيره.

الأمر كله راجع إلى التقاء الساكنين وعدمه، فحيث يلتقي الساكنان لا يجوز الادغام مثل: «قوم مِلك ـ وجسم ماجد». لأن الواو في (قوم) ساكنة، والسين في (جسم) ساكنة، أما في قولهم: «قدم ملك» فيجوز الإدغام لأن الدال متحركة.

(٢) يعني أن قراءة: (فَنِعِما هي) بكسرتين لها تقديران: أحدهما أنها جاءَت على لغة من يقول: (نِعم) وهي لغة هذيل، وثانيهما أن تكون جاءت على أن الأصل (نِعْم) بكسر فسكون ثم كسرت العين لالتقاء الساكنين، وهذا التقدير الثاني هو الذي قال فيه أبو الخطاب: إن كسر النون لعب. تأمل.

(٣) هو العلاء بن عبد الوهاب الأندلسي، كان من أهل العلم والأدب والذكاء والهمة العالية في طلب العلم، رحل إلى المشرق، وحدث ببغداد ودمشق، وتوفي ببلده المرية سنة ٤٥٤هـ انظر: «نفح الطيب».

مـــا أَقَلَّـــت قـــدمـــاي إنهُـــم نَعِـمَ السَّـاعـونَ فـي الأَمـر المُبِـر[(١)]

ولا يجوز أن يكون ممن يقول قبل الإدغام: [نِعْم] بسكون العين، وقال المهدوي: وذلك جائز محتمل، وتكسر العين بعد الإدغام لالتقاءِ الساكنين.

قال أَبو علي: و(ما) من قوله: (نِعِمَّا) في موضع نصب، وقوله: (هِي) تفسير للفاعل المضمر قبل الذكر، والتقدير: نعم شيئاً إبداؤُها، وقوله: والإبداءُ هو المخصوص بالمدح إلا أَن المضاف حذف، وأُقيم المضاف إليه مقامه، ويدلك على هذا قوله: (فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) أَي الإخفاءُ خير، فكما أن الضمير هنا للإخفاءِ لا للصدقات، فكذلك أولاً الفاعل هو الإبداءُ وهو الذي اتصل به الضمير فحذف الإبداءُ، وأُقيم ضمير الصدقات مقامه.

واختلف القراءُ في قوله تعالى: (وَيُكَفِّر عَنْكُمْ)، فقرأَ أَبو عمرو، وابن كثير، وعاصم في رواية أَبي بكر: (ونُكفِّرُ) بالنون ورفع الراءِ، وقرأَ نافع، وحمزة، والكسائي: [ونُكفرْ] بالنون والجزم في الراءِ، ورُوي مثل ذلك أَيضاً عن عاصم وقرأَ ابن عامر: [ويُكفِّرُ] بالياءِ ورفع الراءِ، وقرأَ ابن عباس: [وتُكفِّرْ] بالتاءِ وكسر الفاءِ وجزم الراءِ، وقرأَ عكرمة: [وتُكفَّرْ] بالتاءِ وفتح الفاءِ وجزم الراءِ، وقرأَ الحسن: [وَيُكفرْ] بالياءِ وجزم الراءِ، ورُوي عن الأَعمش أَنه قرأَ و[يُكَفِّرَ] بالياءِ ونصب الراءِ، وقال أَبو حاتم: قرأَ الأَعمش: [يُكفرْ] بالياءِ دون واو قبلها وبجزم الراءِ.

وحكى المهدوي عن ابن هرمز. أَنه قرأَ [وتَكفرُ] بالتاءِ ورفع الراءِ، وحُكي عن عكرمة وشهر بن حوشب أَنهما قرآ بتاءٍ ونصب الراءِ[(٢)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فما كان من هذه القراءَات بالنون فهي نون العظمة، وما كان منها بالتاءِ فهي الصدقة

---

(١) البيت لطرفة بن العبد وهو من قصيدة طويلة: من جملتها:

نَحْـنُ فـي المَشْتَـاةِ نَـدْعُـو الجَفَلَـى لا نَـرَى الآدِبَ فِينَـا يَنْتَقِـرْ

وفي رواية: «قدمي» بالإفراد.

والأمرُ المُبرُّ: الذي يطلب به البرُّ والتقرب إلى الله. والجفلى: الجماعة من الناس. يقال: دعاهم جميعاً إلى الطعام من غير تخصيص. الآدِبَ: هو الذي يقيم مأدبة طعام ـ وينتقر: يختار فريقاً ويخصهم بالدعوة.

(٢) ذكر عشر قراءات باعتبار قراءتي الأعمش.

فاعلة إِلا ما روي عن عكرمة بفتح الفاءِ فإِن التاءَ في تلك القراءَة إنما هي للسيئات. وما كان منها بالياءِ فالله تعالى هو المكفِّر ـ والإِعطاءُ في خفاءٍ هو المكفر أَيضاً كما ذكره مكي، وأَما رفع الراءِ فهو على وجهين: أَحدهما أَن يكون الفعل خبر ابتداءٍ تقديره: ونحن نكفر، أَو: وهي تكفر، أَعني الصدقة، أَو والله يكفر، والثاني: القطع والاستئناف، وأَلا تكون الواو العاطفة للاشتراك لكن لعطف جملة على جملة. وأَما الجزم في الراءِ فإِنه حمل للكلام على موضع قوله تعالى: (فَهُوَ خَيْرٌ) إذ هو في موضع جزم جواباً للشرط كأَنه قال: وإِن تخفوها يكن أَعظم لأَجركم، ثم عطفه على هذا الموضع، كما جاءَت قراءَة من قرأَ: [مَنْ يُضْلِلِ الله فَلا هَادِيَ لَهُ وَنَذَرْهُمْ][1] بجزم الراءِ وأَمثلة هذا كثيرة.

وأَما نصب الراءِ فعلى تقدير (أَن) وتأَمل[2]، وقال المهدوي: هو مشبه بالنصب في جواب الاستفهام، إِذ الجزاءُ يجب به الشيءُ لوجوب غيره كالاستفهام. والجزم في الراءِ أَفصح هذه القراءَات، لأَنها تؤْذن بدخول التكفير في الجزاءِ، وكونه مشروطاً إِن وقع الإِخفاءُ، وأَما رفع الراءِ فليس فيه هذا المعنى[3].

و(مِنْ) في قوله: (مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ) للتبعيض المحض[4]، والمعنى في ذلك متمكن، وحكى الطبري عن فرقة أَنها قالت: (مِنْ) زائدة في هذا الموضع، وذلك منهم خطأٌ.

---

(١) من الآية (١٨٦) من سورة الأعراف.

(٢) قال الزمخشري في «الكشاف»: «وقرأ الحسن رضي الله عنه بالياء والنصب بإضمار أن، ومعناه إن يخفوها يكن خيراً لكم وأن يكفر عنهم» اهـ. الكشاف ١ـ٣٩٧.

وقال أبو (ح): «ومن نصب الراء فبإضمار (أن)، وهو عطف على مصدر متوهم، ونظيره قراءة من قرأ: [يُحَاسِبْكُم به اللهُ فَيَغْفِرَ] بنصب الراء، إلا أنه هنا يعسر تقدير المصدر المتوهم من قوله: (فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) فيحتاج إلى تكلف، بخلاف قوله: (يُحَاسِبْكُم) فإنه يُقدَّر: تقع محاسبة فغفران». ـ ثم نقل كلام الزمخشري، وعقب عليه بما يفيد أن تقدير كلامه: «يكن خيراً لكم وتكفيراً» فيكون في موضع نصب، والذي تقررعند البصريين، بأن مثل هذا المصدر المنسبك من أن المضمرة مع الفعل المنصوب بها هو مرفوع معطوف على مصدر متوهم مرفوع تقديره من المعنى، وضرب لذلك أمثلة فارجع إليه إن شئت. البحر المحيط ٢ـ ٣٢٥ و ٣٢٦.

(٣) قد يقال: إن الرفع أبلغ وأعم، لأن التكفير المتعلق بما قبله مترتب معنى على بذل الصدقات أُبديت أو أُخفيت، وإن كان الإخفاء خيراً، وأما على الجزم فإنه يكون خاصاً بإخفاء الصدقة، ولا يمكن أن يقال: إن الذي يبدي صدقاته لا يكفر من سيئاته، على أن الرفع هو اختيار الخليل وسيبويه.

(٤) ويكون ذلك دالاً على أن المراد بالسيئات الصغائر. والله أعلم.

وقوله: (واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) وعْد ووعيد.

قوله عز وجل:

﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾.

رُوي عن سعيد بن جبير في سبب هذه الآية: أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراءِ أَهل الذمة، فلما كثر فقراءُ المسلمين قال رسول الله ﷺ: (لا تتصدقوا إلا على أَهل دينكم)، فنزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من أَهل دين الإسلام[١].

وذكر النقاش أَن النبي عليه السلام أَتي بصدقات فجاءَه يهودي فقال: أَعطني، فقال النبي ﷺ: (ليس لك من صدقة المسلمين شيءٌ) فذهب اليهودي غير بعيد، فنزلت الآية: (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ) فدعاه رسول الله ﷺ فأَعطاه، ثم نسخ الله ذلك بآية الصدقات[٢].

وروي عن ابن عباس أَنه كان ناس من الأَنصار لهم قرابات في بني قريظة والنضير، وكانوا لا يتصدقون عليهم رغبة في أَن يسلموا إذا احتاجوا فنزلت الآية بسبب ذلك.

وحكى بعض المفسرين أَن أَسماءَ بنت أَبي بكر الصديق رضي الله عنهما أَرادت أَن تصل جدَّها أَبا قحافة، ثم امتنعت من ذلك لكونه كافراً فنزلت الآية في ذلك.

وذكر الطبري أَن مقصد النبي ﷺ بمنع الصدقة إنما كان ليسلموا ويدخلوا في الدين، فقال الله: (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ).

وهذه الصدقة التي أُبيحت عليهم حسبما تضمنته هذه الآثار[٣] إنما هي صدقة

---

(١) ما ذكره ابن عطية هنا مبني على أن الآية تتصل لما قبلها من الصدقات فتكون ظاهرة في صرف الصدقات إلى الكفار، وهو ما عليه ابن عطية رحمه الله، وقيل: إن هذه الآية ابتداء كلام، والمعنى: ليس عليك أن تهديهم إلى الإتيان بما أُمروا به، والانتهاء عما نهوا عنه: كالمَنّ والأذى، والإنفاق من الخبيث، والبخل، ولكن الله يهدي من يشاء، وهو ما عليه جماعة من المفسرين، والحديث الذي روي في هذا المجال مطعون فيه فقد قال الإمام ابن العربي رحمه الله: «هذا حديث باطل».

(٢) هي قوله تعالى في سورة التوبة (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ)... الخ).

(٣) أي الآثار الأربعة السابقة.

التطوع، وأما المفروضة فلا يجزي دفعها لكافر(١)، وهذا الحكم متصور للمسلمين اليوم مع أهل ذمتهم ومع المُسْتَرقِّين من الحربِيين.

قال ابن المنذر: أجمع كل من أحفظ عنه من أهل العلم أن الذمي لا يُعطى من زكاة الأموال شيئاً، ثم ذكر جماعة ممن نص على ذلك ولم يذكر خلافاً ـ وقال المهدوي: ورخص للمسلمين أن يعطوا المشركين من قراباتهم من صدقة الفريضة بهذه الآية، وهذا مردود عندي(٢).

والهدى الذي ليس على محمد ﷺ هو خلق الإيمان في قلوبهم، وأما الهدى الذي هو الدعاءُ فهو عليه، وليس بمراد في هذه الآية، ثم أخبر تعالى أنه هو يهدي من يشاءُ أي يرشده(٣)، وفي هذا ردٌّ على القدرية وطوائف المعتزلة.

ثم أخبر أن نفقة المرءِ تأَجُراً(٤) إنما هي لنفسه، فلا يراعي حيث وقعت(٥).

ثم بيَّن تعالى أن النفقة المعتد بها المقبولة إنما هي ما كان ابتغاءَ وجه الله، هذا أحد التأويلات في قوله تعالى: (وَمَا تُنفِقُونَ إلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ)، وفيه تأويل آخر، وهو أنها شهادة من الله تعالى للصحابة أنهم إنما ينفقون ابتغاءَ وجهه، فهو خبرٌ منه لهم فيه تفضيل، وعلى التأويل إنما ينفقون ابتغاءَ وجهه، فهو خبرٌ منه لهم فيه تفضيل، وعلى التأويل الآخر هو اشتراط عليهم، ويتناول الاشتراط غيرهم من الأُمة. ونصب قوله: (ابتغاءَ) هو على المفعول من أجله.

ثم ذكر تعالى أن ثواب الإنفاق يُوفَّى إلى المنفقين، والمعنى في الآخرة ولا يبخسون

(١) لقوله ﷺ: (أُمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها على فقرائكم)، وأما عصاة المسلمين فلا خلاف أن صدقة الفرض تصرف إليهم لدخولهم في اسم المسلمين، إلا أنه إذا كان المسلم يترك أركان الإسلام من صلاة وصيام فلا تصرف إليه الصدقة حتى يتوب، انظر ابن العربي في الأحكام.

(٢) أي بالإجماع الذي ذكره ابن المنذر، وبغيره من الآثار.

(٣) أي يوفقه إلى ذلك، فالهداية المسندة إلى النبي ﷺ إن كانت مثبتة فمعناها الدعوة، وإن كانت منفية فمعناها خلق الهدى في القلب، وهذا لا يكون إلا لله عز وجل.

(٤) أي طلباً للأجر.

(٥) في يد مسلم أو كافر، برٌّ أو فاجر، مستحق أو غير مستحق، وسند هذا حديث الصحيحين في الذي تصدق ووضع صدقته في يد زانية أولا، وفي يد غني ثانياً، وفي يد سارق ثالثاً، فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت لأن المرء يثاب على قصده وابتغاء وجه الله.

منه شيئاً، فيكون ذلك البخس ظلماً لهم، وهذا هو بيان قوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ﴾[1].

والخير في هذه الآية المالُ، لأنه اقترن بذكر الإنفاق، فهذه القرينة تدل على أنه المال، ومتى لم يقترن بما يدل على أنه المال فلا يلزم أن يكون بمعنى المال نحو قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾[2] وقوله تعالى: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[3] إلى غير ذلك. وهذا الذي قلناه تحرز من قول عكرمة: «كل خير في كتاب الله فهو المال».

قوله عز وجل:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾.

هذه اللام في قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ متعلقة بمحذوف[4] تقديره: الإنفاق أو الصدقة للفقراءِ.

وقال مجاهد، والسدي، وغيرهما: المراد بهؤلاءِ الفقراءِ فقراءُ المهاجرين[5] من قريش وغيرهم، ثم تتناول الآية كل من دخل تحت صفة الفقر غابر الدهر[6]، وإنما خص فقراءَ المهاجرين بالذكر لأنه لم يكن هناك سواهم، لأَن الأَنصار كانوا أَهل أَموال وتجارة في قطرهم.

---

(١) يعني أن قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ بيان وتفسير لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ﴾ واعلم أن قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُم﴾ ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ﴾ ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ ليست من باب التكرار والتأكيد، بل لكل واحدة من هذه الآيات وصف يخصه ويميزه.

(٢) من قوله تعالى في سورة الفرقان ـ الآية (٢٤): ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾

(٣) من قوله تعالى في سورة الزلزلة ـ الآية (٧): ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾

(٤) يدل على هذا المحذوف ما سبق من ذكر الصدقة والنفقة.

(٥) وهم أهل الصفة، وكانوا نحواً من أربعمائة شخص، وكان زعيمهم أبو هريرة الصحابي الجليل، وكانوا يسكنون المسجد، ويعيشون على الناس بحكم الضرورة، ولما اتسع المسلمون وفتح الله عليهم خرجوا وملكوا.

(٦) لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب على ما عليه أكثر علماء الشريعة.

ثم بيَّن الله تعالى من أَحوال أُولئك الفقراءِ المهاجرين ما يوجب الحنو عليهم بقوله: (الذين أُحْصِرُوا في سَبِيلِ اللهِ) والمعنى: حبسوا[١] ومنعوا، وذهب بعض اللغويين إِلى أَن أُحصر وحُصِر بمعنى واحد من الحبس والمنع سواءٌ كان ذلك بعدوٍّ أَو بمرض ونحوه من الأَعذار، حكاه ابن سيدة وغيره.

وفسر السدي هنا الإِحصار بأَنه بالعدوِّ، وذهب بعضهم إِلى أَن أُحصر إِنما يكون بالمرض والأَعذار، وحُصر بالعدو، وعلى هذا فسر ابن زيد، وقتادة، ورجحه الطبري، وتأَول في هذه الآية أَنهم هم حابسو أَنفسهم بربقة الدين، وقصد الجهاد، وخوف العدو، إِذ أَحاط بهم الكفر فصار خوف العدو عذراً أُحصروا به.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا متجه كأَن هذه الأَعذار أَحصرتهم، أَي جعلتهم ذوي حصر كما قالوا: قبره أَدخله في قبره، وأَقبره جعله ذا قبر، فالعدو وكل محيط يُحصِر، والأَعذار المانعة تُحصِر بضم التاءِ وكسر الصاد أَي تجعل المرءَ كالمحاط[٢] به، وقوله: (في سَبِيلِ اللهِ) يحتمل الجهاد، ويحتمل الدخول في الإِسلام، واللفظ يتناولهما[٣].

والضرب في الأَرض: هو التصرف في التجارة، وضرب الأَرض هو المشي إِلى حاجة الإِنسان في البراز، وكانوا لا يستطيعون الضرب في الأَرض لكون البلاد كلها كفراً مطبقاً، وهذا في صدر الهجرة، فقلتهم تمنع من الاكتساب بالجهاد، وإِنكار الكفار عليهم إِسلامهم يمنع من التصرف في التجارة، فبقوا فقراءَ إِلا أَنهم من الانقباض وترك المسأَلة والتوكل على الله بحيث يحسبهم الجاهل بباطن أَحوالهم أَغنياءَ[٤].

---

(١) أي: حبسوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله كما يأتي عن الإمام (ط) رحمه الله.

(٢) خلاصة هذا أن من أهل اللغة من جعل أُحصر وحُصر بمعنى، ومنهم من فرق بينهما فجعل حُصر في العدو وأُحصر في المرض ونحوه من الأعذار، وقد ارتضى هذا الفرق ابن عطية رحمه الله، ووجهه، ومرجعه إلى أن الإحصار في منع النفس كالمرض والحصر في منع الغير كالعدو والله أعلم وقد تقدم الكلام على هذا لدى قوله تعالى: (فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ).

(٣) هذا أوضح وأقرب، قال الإمام الباجي في شرح «الموطأ»: جميع أعمال البر هي سبيل الله إلا أن هذه اللفظة إذا أُطلقت في الشرع اقتضت غزو العدو، اهـ.

(٤) ليس الجهل هنا ضد العقل بل المراد به ضد الخبرة، أي الذي لا خبرة له بأمرهم.

والتعفف: تفعل بتاءِ مبالغة، من عفَّ عن الشيءِ إذا أَمسك عنه، وتنزه عن طلبه، وبهذا فسر قتادة وغيره[١].

وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، والكسائي: [يحسِبهم] بكسر السين، وكذلك هذا الفعل في كل القرآن، وقرأَ ابن عامر، وعاصم، وحمزة: [يحسَبهم] بفتح السين في كل القرآن، وهما لغتان في (يحسب) كعهد يعهَد ويعهِد، بفتح الهاءِ وكسرها في حروف كثيرة أَتت كذلك، قال أَبو علي: فتح السين في (يحسَب) أَقيس لأَن العين من الماضي مكسورة، فبابها أَن تأْتي في المضارع مفتوحة، والقراءَة بالكسر حسنة لمجيءِ السمع به، وإِن كان شاذاً عن القياس.

و(مِنْ) في قوله: (مِنَ التَّعَفُّفِ)، لابتداءِ الغاية، أَي: من تعففهم ابتدأَت محسبته، وليست لبيان الجنس، لأَن الجاهل بهم لا يحسبهم أَغنياءَ غناءَ تعفف، وإِنما يحسبهم أَغنياءَ غنى مال، ومحسبته من التعفف ناشئة، وهذا على أَنهم متعففون عفة تامة عن المسأَلة، وهو الذي عليه جمهور المفسرين، لأَنهم قالوا في تفسير قوله تعالى: (لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً) المعنى: لا يسأَلون الناس أَلْبَتَّةَ، وتحتمل الآية معنى آخر (من) فيه لبيان الجنس سنذكره بعد[٢].

والسيما مقصورة: العلامة، وبعض العرب يقول: السيمياءُ بزيادة ياءٍ وبالمد، ومنه قول الشاعر:

. . . . لَـهُ سِيميـاءُ لا تشُـقُّ علـى الْبَصَـر[٣]

واختلف المفسرون في تعيين هذه السيمياءِ التي يعرف بها هؤلاءِ المتعففون ـ فقال مجاهد: هي التخشع والتواضع، وقال السدي، والربيع: هي جهد الحاجة وقضف[٤]

---

(١) قال أهل اللغة: عفَّ واستَعَفَّ وتَعَفَّفَ بمعنى واحد، ولعل ابن عطية رحمه الله راعى المقام فقال بكثرة التعفف، والله أعلم.

(٢) أي في قوله: «والآية تحتمل المعنيين: نفي السؤال جملة، ونفي الإلحاف فقط الخ».

(٣) الشاعر هو أُسيد بن عنقاءَ الفزاري، كما في «الأمالي»، وفي معجم الشعراء أنه لقيس بن عنقاء الفزاري، والبيت بتمامه:

غـلامٌ رمـاهُ اللهُ بـالحُسـنِ يـافِعـاً ... لـهُ سيميـاءُ لا تشُـقُّ علـى البصَـر

(٤) يقال فلان قضيف: أي نحيف وهزيل قليل اللحم والشحم.

الفقر في وجوههم، وقلة النعمة، وقال ابن زيد هي رِثَّة الحال[(١)]. وقال قوم ـ وحكاه مكي ـ: هي أَثر السجود، وهذا أَحسن، وذلك لأَنهم كانوا متفرغين متوكلين، لا شغل لهم في الأَغلب إِلا الصلاة، فكان أَثر السجود عليهم أَبداً[(٢)].

والإِلحاف والإِلحاح بمعنى واحد، وقال قوم: هو مأْخوذ مِنْ أَلحف الشيءَ إِذا غطاه وعمه بالتغطية، ومنه اللحاف، ومنه قول ابن أَحمر:

يَظَلُّ يحُفُّهُنَّ بِقَفْقَفَيْهِ ويُلْحِفُهُنَّ هَفَّافاً ثَخِيناً[(٣)]

يصف ذكر نعام يحضن بيضاً، فكأَن هذا السائل المُلِحَّ يعم الناس بسؤاله فيلحفهم ذلك. وذهب الطبري، والزجاج، وغيرهما إِلى أَن المعنى: لا يسأَلون البتة، والآية تحتمل المعنيين: نفي السؤال جملة، ونفي الإِلحاف فقط[(٤)]، أَما الأَول فعلى أَن يكون التعفف صفة ثانية لهم، ويحسبهم الجاهل بفقرهم لسبب تعففهم أَغنياءَ من المال،

---

(١) أي الهيئة، وفي بعض النسخ: «رثة الثياب»، ويقال في اللغة: رثت هيئته، ورثت ثيابه أي ضعفت وهانت، والرثة بكسر الراء.

(٢) أي بادياً عليهم على الدوام، لتفرغهم، وكثرة قيامهم، وفي كتاب الله العزيز: (سيماهُمْ في وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُود)، وهذا في الصحابة كلهم إلا أنه في هؤلاء الفقراء أكثر.

(٣) البيت لعمر بن أحمر بن العمود الباهلي ـ وقَفْقَفا الطائر والظليم: جناحاه ـ وَيُلْحِفُهُنَّ: يجعل عليهن لحافاً من الجناحين ـ والهفَّاف والهَفْهَاف: الرقيق الشفاف من الثياب، والثخين: الكثيف ـ يريد الشاعر أن هذا الظليم يحضن البيض، ويجعل عليه جناحين كاللحاف الرقيق الشفاف مع كثافته ـ وإنما كان كثيفاً لكثرة الريش مع تراكبه.

(٤) إذا ورد النفي على موصوف بصفة فإنما يتسلَّط على تلك الصفة دون متعلقها نحو: لا رجل قائم ـ فمعناه، نفي القيام مع وجود الرجل، وهذا هو الأكثر في كلامهم، وقد يتجه النفي إلى الموصوف فينتفي الوصف بانتفائه، فقولهم: لا رجل قائم معناه: لا رجل موجود فلا قيام، وهي طريقة معروفة. قال امرؤ القيس:

عَلَى لاحِبٍ لا يُهْتَدى بِمَنَارِهِ إذا سَاقَهُ العَوْدُ النُّبَاطيُّ جَرْجَرا

أي: لا منار فلا هداية به، وليس المراد أن هناك مناراً لا يهتدى به. وقال الشاعر:

لا يُفْزِعُ الأَرْنَبَ أَهْوَالُهَا ولا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ

اي: لا أرنب فلا يفزعها هول، ولا ضَبَّ فلا انجحار.

ويُخَرَّج على هذه الطريقة قوله تعالى: (لا يَسْأَلُونَ النَّاس إلْحَافاً) أي لا سؤال فلا إلحاف، ولقد أشار إلى هذه الطريقة ابن عطية رحمه الله ووضحها بقوله: أريد به التنبيه على سوء حالة من يسأل إلحافاً من الناس إلخ. والله أعلم.

وتكون (مِنْ) لابتداءِ الغاية[١]، ويكون قوله: (لايَسْأَلونَ النَّاس إلْحَافاً) لم يرد به أنهم يسألون غير إلحاف، بل أُريد به التنبيه على سوءِ حالة من يسأَل إلحافاً مِنَ الناس، كما تقول: «هذا رجل خير لا يقتل المسلمين»، فقولهم: «خير» قد تضمن أَنَّه لا يقتل ولا يعصي ولو بأَقل من ذلك، ثم نبَّهْتَ بقولك: «لا يقتل المسلمين» على قبح فعل غيره ممن يقتل، وكثيراً ما يقال مثل هذا إذا كان المنبَّه عليه موجوداً في القضية، مشاراً إليه في نفس المتكلم والسامع. وسؤال الإلحاف لم تخل منه مدة وهو مما يكره، فلذلك نبه عليه، وأَما المعنى الثاني فعلى أَن يكون التعفف داخلاً في المحسبة، أَي أَنهم لا يظهر لهم سؤال، بل هو قليل.

وبإجمال فالجاهل به مع علمه بفقرهم يحسبهم أَغنياءَ عفة، فـ(مِنْ) لبيان الجنس[٢] على هذا التأْويل، ثم نفى عنهم سؤال الإلحاف وبقي غير الإلحاف مقرراً لهم حسب ما يقتضيه دليل الخطاب، وهذا المعنى في نفي الإلحاف فقط هو الذي تقتضيه أَلفاظ السدي.

وقال الزجاج رحمه الله: المعنى: لا يكون منهم سؤال فلا يكون إلحاف[٣]، وهذا كما قال امرؤُ القيس:

عَلَى لا حِبٍ لا يُهْتَدَى بمَنَارِهِ . . . .[٤]

أَي ليس ثَمَّ مَنَارٌ فليس يكون اهتداءٌ.

---

(١) ها هنا أقوال ثلاثة ـ قيل: (من) لابتداء الغاية، وقيل: لبيان الجنس، وقيل: سببية وهو أظهر، وكونها لبيان الجنس يؤول إلى أنها سببية، إلا أنها على السببية تتعلق بـ(يَحْسَبُهُمُ)، وعلى بيان الجنس تتعلق بـ(أغنياء).

(٢) أي جنس الغنى أهو غنى عفة النفس أم غنى وجود المال؟ والغنى في الحقيقة هو غنى النفس لا غنى المال، وهذا في الجاهل بالتعفف والعالم بالفقر. والمعنى الأول في العالم بالتعفف والجاهل بالفقر، وكيفما كان الأمر فالعفة والقناعة صفة شريفة، فقد قال أهل التحقيق والتوفيق: من لم يرض باليسر فهو أسير.

(٣) هذا قول الإمام الطبري، والزجاج، وكثير من المفسرين، ووجهه أن التعفف صفة ثابتة لهم لا تفارقهم، ومجرد السؤال ينافيها.

(٤) تمامه:

. . . . إذا سَافَه العَوْدُ النباطيُّ جَرْجَرَا

واللاحب: الطريق الواضح ـ سافَه الطريق: لازمه ـ والعَوْدُ: المُسِنُّ من الإبل وفيه بقية ـ وجَرْجَر البعير: ردد صوته في حنجرته عند الضجر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

إن كان الزجاج أَراد أَلا يكون منهم سؤال البَتَّة، فذلك لا تعطيه الأَلفاظ التي بعد (لا)، وإِنما ينتفي السؤال إِذا ضبط المعنى من أَول الآية على ما قدمناه. وإِن كان أَراد: لا يكون منهم سؤال إِلحاف فذلك نص الآية.

وأَما تشبيه الآية ببيت امرئِ القيس فغير صحيح(١)، وذلك أَن قوله:

عَلَـى لا حَـبٍ لا يُهْتَـدى بِمَنَـارِهِ . . . .

وقول الآخر:

قِفْ بالطُّلُولِ الَّتي لَمْ يُعْفِهَا القِدَمُ . . . .(٢)

وقول الآخر:

وَمَـنْ خِفْـتُ مِـنْ جَـوْرِهِ فـي القَضَـاءِ ... فَمَـا خفْـتُ جَـوْرَكَ يـا عَـافِيَـة(٣)

وما جرى مجراه ترتيب يسبق منه أَنه لا يُهتدى بالمنار وإِن كان المنار موجوداً. فلا

---

(١) وجْهُهُ ـ كما أشار إليه ـ أن تركيب الآية الكريمة غير تركيب الشعراء الثلاثة ـ ففي الآية دخل النفي على الموصوف، وفي الأبيات دخل على الصفة، وكان يجب أن يكون المعنى على تشبيه الزجاج الآية ببيت امرىء القيس ـ «لا إلحاف فلا سؤال»، وهذا غير صحيح، لأنه لا يلزم من نفي الخاص نفي العام، وأما في الأبيات فإنه ينتفي الثاني بانتفاء الأول ضرورة انتفاء الخاص بانتفاء العام، والجواب كما قاله بعض المحققين: أن التشبيه في مطلق انتفاء الشيئين بصرف النظر عن خصوصية النفي. أي: لا سؤال، ولا إلحاف، كما أنه لا منار ولا هداية.

(٢) الشاعر هو زهير بن أبي سلمى، والبيت من جملة قصيدة يمدح بها هَرِم بن سنان. وهو بتمامه:

قِـفْ بـالـدِّيـار الَّـتي لَـمْ يُعْفِهَـا القِـدَمُ ... بَلَـى، وَغَيَّـرَهَـا الأرواح والـدِّيَـمُ

ولم يعفها: لم يمحها ويذهب بأثرها ـ والأرواح: جمع ريح، وهو غير قياسي ـ والدِّيَم: جمع ديمة ـ والديمة هي المطر يطول زمانه في سكون.

(٣) اختصم أبو دلامة مع رجل إلى (عافية) قاضي أبي جعفر المنصور، فادعى الرجل عليه فقال له القاضي ما تقول؟ فقال: اسمع أولاً وأنشأ يقول:

لَقَـدْ خَـاصَمَتْنـي دُهَـاة الـرِّجَـال ... وَخَـاصَمْتُهَـا سَنَـةً وافِيَـهْ
فَمَـا أَدْحَـضَ الله لـي حُجَّـةً ... ولا خَيَّـبَ الله لـي قَـافِيَـهْ
وَمَـنْ خِفْـتُ مِـنْ جَـوْرِهِ فـي القَضَـاءِ ... فَلَسْـتُ أَخَـافُـكَ يَـا عـافِيَـهْ

فغضب وقال: لأشكونك إلى أمير المؤمنين، وقال أبو دلامة: ولم تشكوني؟ قال: لأنك هجوتني. قال: والله إذن يعزلك، قال: ولم يعزلني؟ قال: لأنك لا تعرف المديح من الهجاء. انظر الأغاني.

ينتفي إلا المعنى الذي دخل عليه حرف النفي فقط، وكذلك ينتفي العَفَاءُ وإن وُجد القِدم، وكذلك ينتفي الخوف وإن وجد الجور، وهذا لا يترتب في الآية.

ويجوز أن يريد الشعراءُ أن الثاني معدوم فلذلك أدخلوا على الأول حرف النفي إذ لا يصح الأول إلا بوجود الثاني، أي ليس ثمَّ منارٌ فإذاً لا يكون اهتداءٌ بمنار، وليس ثَمَّ قدَم فإذاً لا يكون عفاءٌ، وليس ثَمَّ جورٌ فإذاً لا يكون خوف. وقوله تعالى: (لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً) لا يترتب فيه شيءٌ من هذا، لأن حرف النفي دخل على أمر عام للإلحاف وغيره، ثم خصص بقوله: (إلْحَافاً) جزءًا من ذلك العام فليس بعدم الإلحاف ينتفي السؤال، وبيت الشعر ينتفي فيه الأول بعدم الثاني إذا دخل حرف النفي فيه على شيءٍ متعلق وجوده بوجود الذي يراد أنه معدوم، والسؤال ليس هكذا مع الإلحاف، بل الأمر بالعكس إذ يعدم الإلحاف منهم ويبقى لهم سؤال لا إلحاف فيه.

ولو كان الكلام: «لا يُلحفُون الناس سؤالاً» لقَرُبَ الشَّبه بالأبيات المتقدمة. وكذلك لو كان بعد: «لا يسألون شيءٌ إذا عُدم عدم السؤال» كأنك قلت: تَكَسُّباً أو نحوه ـ لصح الشبه[1]، والله المستعان.

وقوله تعالى: (وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ) وعْدٌ محض أي يعلمه ويُحْصِيه ليجازي عليه ويثيب.

قوله عز وجل:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾.

---

(١) أي: لو كان تركيب الآية: «لا يلحفون الناس سؤالاً»، أو: «لا يسألون الناس تكسُّباً» لكان التشبيه قريباً، وقد قدمنا أن مراد الزجاج ـ رحمه الله ـ التشبيه المطلق، أي انتفاء الأمرين في الآية، وفي بيت امرىء القيس بصرف النظر عن خصوصية النفي وبذلك تندفع مناقشة ابن عطية له كما نبه على ذلك أبو (ح) وتأمل قول ابن عطية: «لا يسألون شيء إذا عدم عدم السؤال» فلعل صواب الكلام: «لا يسألون عن شيء»، أو: لا يسألون شيئاً» والله أعلم. وقوله ـ «لصح الشبه» جواب «لو» في قوله: «لو كان بعد».

قال ابن عباس رضي الله عنه: نزلت هذه الآية في علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، كانت له أَربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً، وبدرهم علانية[١]، وقال ابن جريج: نزلت الآية في رجل فعل ذلك ولم يسمِّ علياً ولا غيره، وقال ابن عباس أَيضاً: نزلت هذه الآية في علف الخيل[٢]، وقال عبد الله بن بشر الغافقي، وأَبو ذرٍّ، وأَبو أُسامة، والأَوزاعي، وأَبو الدرداءِ، قالوا: هي في علف الخيل المرتبطة في سبيل الله، وقال قتادة: هذه الآية في المنفقين في سبيل الله من غير تبذير ولا تقتير.

والآية ـ وإِن كانت نزلت في علي بن أَبي طالب ـ فمعناها يتناول كلَّ من فعل فعله، وكل مشَّاءٍ بصدقته في الظلم إِلى مظنة الحاجة[٣]. وأَما علف الخيل والنفقة عليها فإِن أَلفاظ الآية تتناولها تناولاً محكماً، وكذلك المنفق في الجهاد، المباشر له إِنما يجيءُ إِنفاقه على رتب الآية.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: كان المؤمنون يعملون بهذه الآيات من قوله: (إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ) إِلى قوله: (وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)، فلما نزلت براءَة بتفصيل الزكاة قصروا عليها. وقد تقدم القول على نفي الخوف والحزن.

والفاءُ في قوله: (فَلَهُمْ) دخلت لما في (الَّذين) من الإِبهام، فهو يشبه بإِبهامه الإِبهام الذي في الشرط، فحسنت الفاءُ في جوابه كما تحسن في الشرط، وإِنما يوجد الشبه إِذا كان (الذي) موصولاً بفعل[٤]، وإِذا لم يدخل على (الذي) عامل يغير معناه. فإِن قلت: «الذي أَبوه زيد هو عمرو» فلا تحسن الفاءُ في قولك: «فَهُوَ» ـ بل تلبس المعنى، وإِذا

---

(١) رواه ابن أبي حاتم، عن ابن جبير، عن أبيه، وابن مردويه، عن ابن عباس، وابن جرير بسند ضعيف.

(٢) في «طبقات ابن سعد» بسنده إلى عُرَيض بالتصغير المليكي أن النبي ﷺ سئل عن قوله تعالى: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم باللَّيلِ والنهار) الآية ـ من هم؟ فقال ﷺ: (هم أصحاب الخيل)، ثم قال: (إن المنفق على الخيل كباسط يده بالصدقة لا يقبضها وأبوالها وأرواثها يوم القيامة كذكي المسك) اهـ، والمراد بالخيل المربوطة في سبيل الله والتي يقاتَل عليها أعداء الله.

(٣) اعتباراً بقاعدة: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهي المعتمدة عند المحققين، قالوا: ويدخل في الآية الكريمة النفقة على الأهل، كما في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في الصحيحين: (وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى ما تجعل في فِي امرأتك).

(٤) نحو: «الذي يأتيني فله درهم»، دخلت الفاء لأنه استحق الدرهم بالإتيان، وكذلك الآية الكريمة دخلت الفاء لأن الأجر حصل بسبب الإنفاق في الليل والنهار والسر والجهار، وموضع الفاء هو التأكيد ولكن لا يلزم وجوده في كل تركيب.

قلت: «ليت الذي جاءَني جاءَني» لم يكن للفاءِ ـ مدخل في المعنى. وهذه الفاءُ المذكورة إنما تجيءُ مؤكدة للمعنى، وقد يستغنى عنها إذا لم يقصد التأْكيد كقوله بعد: (لا يَقُومُونَ).

وقوله تعالى: (الذين يأَكلون الربا) الآية. الربا: هو الزيادة، وهو مأْخوذ من: رَبَا يربو إذا نَمَا وزاد على ما كان. وغالبه ما كانت العرب تفعله من قولها للغريم: أَتقضي أَم تربي؟ فكان الغريم يزيد في عدد المال ويصبر الطالب عليه[١]، ومن الربا البيِّن التفاضل في النوع الواحد لأَنها زيادة، وكذلك أَكثر البيوع الممنوعة إنما نجد منعها لمعنى زيادة، إِما في عين مال، وإِما في منفعة لأَحدهما من تأْخير ونحوه[٢].

ومن البيوع ما ليس فيه معنى الزيادة، كبيع الثمرة قبل بُدُوِّ صلاحها، وكالبيع ساعة النداءِ يوم الجمعة، فإِن قيل لفاعلها آكِلُ رباً، فبتجوُّزٍ وتشبيه.

والربا من ذوات الواو، وتثنيته: ربَوَان عند سيبويه، ويكتب بالأَلف، قال الكوفيون: يكتب[٣] ويثنى بالياءِ لأَجل الكسرة التي في أَوله، وكذلك يقولون في

---

(١) أي يزيد المطلوب في المال ويزيد الطالب في الأجل.

(٢) قال الإمام الشاطبي رحمه الله في «الموافقات»: «وإذا كان المنع فيه إنما هو من أجل كونه زيادة على غير عوض فقد ألحقت به السنة كل ما فيه زيادة بذلك المعنى، فقال عليه الصلاة والسلام: (الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلاً بمثل سواء بسواء، يداً بيد، فمن زاد أو ازداد فقد أربى، فإذا اختلفت هذه الأصناف، فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد) ثم زاد على ذلك بيع النَّساء إذا اختلفت الأصناف، وعدَّه من الربا لأن النَّساء في أحد العوضين يقتضي الزيادة، ويدخل فيه بحكم المعنى: السلف يجر نفعاً، وذلك لأن بيع هذا الجنس بمثله في الجنس من باب بدل الشيء بنفسه لتقارب المنافع فيما يراد منها، فالزيادة على ذلك من باب إعطاء عوض على غير شيء وهو ممنوع، والأجل في أحد العوضين لا يكون عادة إلا عند مقارنة الزيادة به في القيمة، إذ لا يسلم الحاضر في الغائب إلا ابتغاء ما هو أعلى من الحاضر في القيمة وهو الزيادة، ويبقى النظر: لم جاز مثل هذا في غير النقدين والمطعومات ولم يجز فيهما؟ محل نظر يخفى وجهه على المجتهدين، وهو من أخفى الأمور التي لم يتضح معناها اليوم، فلذلك بينتها السنة، إذ لو كانت بيِّنة لوكل في الغالب أمرها إلى المجتهدين كما وكل إليهم النظر في كثير من محال الاجتهاد، فمثل هذا جار مجرى الأصل والفرع في القياس»، فتأمل.

(٣) يعجبني ما قاله الشوكاني في «فتح التقدير» في مثل هذه النقوش الكتابية من أنها أُمور اصطلاحية لا يعيب أحد على أحد فيها، وأن رسم الكلمة وجعل نقشها الكتابي على ما يقتضيه اللفظ بها هو الأول، فما كان في النطق ألفا كالصلاة والزكاة كان الأولى في رسمه أن يكون كذلك، وكون أصل هذا الألف واواً أو ياءً=

الثلاثي من ذوات الواو إذا انكسر الأول أو انضم نحو «ضحى»، فإن كان مفتوحاً نحو صفا فكما قال البصري.

ومعنى هذه الآية: الذين يكسبون الربا ويفعلونه، وقصد إلى لفظة الأكل، لأنه أقوى مقاصد الإنسان في المال، ولأنها دالة على الجشع، فأقيم هذا البعض من توابع الكسب مقام الكسب كله، فاللباس والسكنى والادخار والإنفاق على العيال وغير ذلك داخل كله في قوله: ﴿الَّذِين يَأْكُلُونَ﴾[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنه، ومجاهد، وابن جبير، وقتادة، والربيع، والضحاك، والسدي، وابن زيد: معنى قوله: ﴿لا يَقُومُونَ﴾ من قبورهم في البعث يوم القيامة، وقال بعضهم: يجعل معه شيطان يخنقه، وقالوا كلهم: يبعث كالمجنون عقوبة له وتمقيتاً عند جمع المحشر، ويُقَوِّي هذا التأويل المجمع عليه أَنَّ في قراءَة عبد الله بن مسعود: «لا يقومون يوم القيامة إلا كما يقوم المجنون»، وأَما أَلفاظ الآية فكانت تحتمل تشبيه حال القائم بحرص وجشع إلى تجارة الربا بقيام المجنون، لأَن الطمع والرغبة تستفزه حتى تضطرب أَعضاؤه، وهذا كما نقول لمسرع في مشيه مخلط في هيئة حركاته إما من فزع أَو غيره: قد جن هذا. وقد شبه الأَعشى ناقته في نشاطها بالجنون في قوله:

وَتُصْبِحُ مِن غبِّ السُّرى وَكَأَنَّمَا أَلَمَّ بِهَا من طائفِ الجِنِّ أَوْلَقُ[2]

لكن ما جاءَت[3] به قراءَة ابن مسعود، وتظاهرت به أَقوال المفسرين يضعف هذا التأويل.

= لا يخفى على من له معرفة بعلم الصرف فإن هذه النقوش هي لفهم اللفظ الذي يُدَلُّ بها عليه كيف هو في نطق من نطق به، لا لفهم أن أصل الكلمة هو كذا مما لا يجري به النطق.

(١) يعني أن القصد من الآية الكريمة هو جميع وجوه الانتفاع ولكنه وقع التعبير بالأكل لأنه أقوى وجوه الانتفاع، ولأنه أدل على معنى الحرص والجشع.

(٢) الغب من كل شيء: عاقبته ـ والسُّرى: سير عامة الليل (يذكر ويؤنث) ـ أَلَمَّ: نزل ـ والأولق: شبه الجنون، وهو أفعل لأنهم قالوا: أَلِق الرجل فهو مَأْلُوق ـ على مفعول. قاله في اللسان: وقال أيضاً: ومنه قول الشاعر:

لعَمْرُك بي من حُبِّ أسماء أولَق

وفي اللسان أيضاً: الأولق كالأفكل: الجنون ـ وقيل: الخفة من النشاط كالجنون ـ وأصله من الولق الذي هو السرعة.

(٣) حاصله أن الآية الكريمة تحتمل أن يكون القيام المشبه بقيام المجنون في الدنيا، كما شبه الأعشى نشاط ناقته بالجنون، ويحتمل أن يكون هذا القيام في الآخرة، وهذا الثاني هو المروي عن السلف الصالح، =

و(يَتَخَبَّطُهُ) يَتَفَعله من: خبط يخبط، كما تقول: تملَّكه وتعبَّده وتحمَّله.

والمس: الجنون، وكذلك الأَولق والأَلس والزؤد[١].

وقوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا) معناه عند جميع المتأولين: في الكفار[٢]، وأنه قول بتكذيب الشريعة وردٌّ عليها، والآية كلها في الكفار المربين نزلت، ولهم قيل: (فَلَهُ مَا سَلَفَ) ولا يقال ذلك لمؤمن عاص[٣] ولكن يأخذ العصاة في الربا بطرف من وعيد هذه الآية.

ثم جزم تعالى الخبر في قوله: (وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا)[٤]، وقال بعض العلماءِ في قوله: (وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ)، هذا على عموم القرآن، لأن العرب كانت تقدر على إنفاذه لأن الأخذ والإعطاءَ عندها بيع، وكل ما عارض العموم فهو تخصيص منه. وقال بعضهم: «هو من مجمل القرآن الذي فسر بالمحلل من البيع، وبالمحرم من الربا». والقول الأول عندي أصح[٥]، قال جعفر بن محمد الصادق: «حرم الله الربا ليتقارض

= وهو الذي جاءت به قراءة عبد الله بن مسعود، فيكون الاحتمال الأول ضعيفاً، وإن كانت ألفاظ الآية تقبله. ويؤخذ من الآية الكريمة أن صرع الجن بالإنس حقيقة واقعة لا يرتاب فيه إلا من تخبطه الشيطان، وقد ورد أن الشيطان يجري مجرى الدم من الإنسان.

(١) هذه الألفاظ كلها تؤدي معنى الجنون، وهي: (المسُّ): يقال: مسَّه الشيطان، فهو مَمسوس، وبه مسٌّ ـ أنشد ابن الأنباري:

أُعَلِّــل نَفْســي بمــا لا يكــونُ ... كــذي المَــسِّ جُــنَّ ولــم يخنــق

و(الألس) ـ يقال: أُلِسَ أَلْساً فهو مألوس. أي: جُنَّ ـ و(الأولق) ـ يقال: أُلِق فلان أَلْقاً وأُلاقاً: جُنَّ. و(الأولع)، جاء في اللسان: وقال عرّام: يقال بفلان من حُبِّ فلانة الأولع والأولق، وهو: شبه الجنون.

(٢) أي في ربا الجاهلية الذين قالوا فيه: (إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا) وهو فسخ الدين في الدين، يقول الطالب: إما أن تقضي وإما أن تربي، وهو الذي دل عليه قوله تعالى: (وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ) ودل عليه النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: (وربا الجاهلية مَوْضُوعٌ، وأول ربا أضعُه ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله).

(٣) بل يفسخ عقده، ويرد عمله. وإن كان جاهلاً لقول النبي ﷺ: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ).

(٤) أي أخبر خبراً جازماً للرد عليهم، وفي الآية ما يدل على أن القياس مع وجود النص فاسد، إن قلنا: إن في الآية قياس، واعلم أن حكم المستحِلِّ للربا حكم المرتد، وأما إن مارسه دون استحلال فإنه يجوز للإمام محاربته، لأن الله سبحانه قد أذن في ذلك بقوله: (فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُوله).

(٥) وهو أنه من العامّ المُخَصص، لا من المُجْمل المُبَيَّن، والفرق بينهما أن العموم يدل على إباحة البيوع في الجملة والتفصيل ما لم يخص بدليل، والمجمل لا يدل على إباحتها بالتفصيل حتى يقترن به بيان، وإن دل على الإباحة في الجملة.

الناس». وقال لبعض العلماءِ: حرمه الله لأنه مَتْلَفَةٌ للأموال مَهْلَكَةٌ للناس.

وسقطت علامة التأْنيث في قوله: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ﴾ لأَن تأْنيث الموعظة غير حقيقي وهي بمعنى: وعظ. وقرأَ الحسن: (فَمَنْ جَاءَته) بإِثبات العلامة.

وقوله: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ أَي من الربا لاتِبَاعَةَ[1] عليه منه في الدنيا ولا في الآخرة، قاله السدي وغيره، وهذا حكم من الله تعالى لمن أَسلم من كفار قريش وثقيف ومن كان يتجر هنالك، و﴿سَلَفَ﴾ معناه: تقدم في الزمن وانقضى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُ إِلى الله﴾ أَربع تأْويلات ـ أَحدها: أَن الضمير عائد على (الرِّبا)، بمعنى: وأَمر الربا إِلى الله في إِمرار[2] تحريمه أَو غير ذلك. والآخر: أَن يكون الضمير عائداً على ﴿مَا سَلَفَ﴾ أَي أَمره إِلى الله في العفو عنه وإِسقاط التبعة فيه، والثالث: أَن يكون الضمير عائداً على ذي الربا، بمعنى: أَمْره إِلى الله في أَن يثبته على الانتهاءِ أَو يعيده إِلى المعصية في الربا. والرابع: أَن يعود الضمير على المنتهي، ولكن بمعنىٰ التأْنيس له، وبسط أَمله في الخير، كما تقول: وأَمره إِلى طاعة وخير، وموضع رجاءٍ، وكما تقول: وأَمره في نمو أَو إِقبال إِلى الله وإِلى طاعته. ويجيءُ الأَمر هاهنا[3] ليس في الربا خاصة، بل وجملة أُموره.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ يعني إِلى فعل الربا، والقولِ إِنما البيع مثل الربا، وإِن قدرنا الآية في كافر فالخلود خلود تأْبيد حقيقي، وإِن لحظناها في مسلم عاص، فهذا خلود مستعار على معنى المبالغة، كما تقول العرب: «ملك خالد»: عبارة عن دوام ما، لا على التأْبيد الحقيقي.

قوله عز وجل:

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾.

(١) تباعة الأمر: عاقبته، وما يترتب عليه من أثر، يقال: لي قِبَلَ فلان تِباعة: ظلامة.
(٢) أي في استمرار تحريمه على عباده.
(٣) أي في التأويل الرابع.

﴿يَمْحَق﴾ معناه: ينقص ويذهب، ومنه محاق القمر وهو انتقاصه، ﴿وَيُرْبِي الصَّدقات﴾ معناه: ينميها ويزيد ثوابها تضاعفاً، تقول: ربت الصدقة، وأَرباها الله تعالى ورباها، وذلك هو التضعيف لمن يشاءُ، ومنه قول النبي ﷺ: (إِن صدقة أَحدكم لتقع في يد الله، فيربيها له كما يربي أَحدكم فصِيلة أَو فِلْوَهُ حتى يجيءَ يوم القيامة وإِن اللقمة لعلى قدر أُحد)[1]. وقد جعل الله هذين الفعلين بعكس ما يظنه الحريص الجشع من بني آدم، يظن الربا يغنيه وهو في الحقيقة يمحق، ويظن الصدقة تُفْقِره وهي نماءٌ في الدنيا والآخرة[2].

---

(١) ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة مرفوعاً: (من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ـ ولا يقبلُ اللهُ إلا طيباً ـ فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل) اهـ، والحديث روي في الدواوين بروايات.

والفصيل: ولد الناقة أو البقرة بعد فطامه أو فصله عن أُمه ـ والفِلْوُ والفُلُوُّ: الجحش أو المهر يُفطم، أو يبلغ السنة. جمعه أفْلاءٌ.

(٢) المرابون يظنون أن الصدقة نقصان والربا زيادة، وقد جعل الله ذلك على العكس من ظنهم فالربا نقصان، والصدقة زيادة، والربا يأتي على المال الذي خالطه فيمحق الله الجميع ويذهب ببركته.

حقائق:

الحقيقة الأولى: من الربا ما هو مُجْمَع على حرمته وهو ربا النَّساءِ، ومنه ما هو مختَلَف فيه وهو ربا الفضْل، والصحيح حرمته وفسخ ما ثبت منه، والآية الكريمة تحتمل الكل بجعل (أل) جنسية، وتحتمل خصوص ربا النَّساء بجعل (أل) عهدية، وأما الطعام بالنقدِ والنقدُ بالطعام نسيئةً فهو جائز.

الحقيقة الثانية: علة الربا في الطعام عند الإمام مالك رحمه الله الاقتيات والادخار، وهما أخص صفات الطعام، وعلة الربا في النقدين كونهما ثمنين أي وسيلتين للتبادل في البضائع والطيبات في أنحاء العالم غالباً.

الحقيقة الثالثة: بيع المصوغ والمصنوع بجنسه لا يجوز إلا بمقدار زنة حليته، وأُجرة الصياغة أو الصنعة تدفع من وجه آخر، وهناك من يجيز شراءه بما يزيد وزناً ويجعل الزيادة في مقابلة الصنعة والله أعلم.

الحقيقة الرابعة: حكم الأوراق البنكية والفلوس النحاسية حكم النقدين، بناء على أنهما سند الذهب والفضة، وعليه فلا يجوز أحد النقدين بواحد منهما لعدم وجود المناجزة، إذ أحد العِوضين حاضرٌ والآخر غائب، ولا عبرة بحضور السند، ومن الناس من يجعلها بمثابة عروض التجارة، وعليه فلا منع، والاحتياط في الدين يقضي بترجيح جانب الحرمة، والتوسعة على الناس في التعامل تقتضي العكس والله أعلم.

الحقيقة الخامسة: من مواضع الربا مسائل بيوع العينة وبيوع الآجال إذا كان التعامل في الظاهر مباحاً ولكن يمكن أن يقصد به التوصل إلى زيادة الربا، فمذهب مالك ـ رحمه الله ـ أنه يمنع ما كثر قصده بناءً على سد الذرائع، والذرائع الربوية المبنية على التهمة تتغير بتغير الأجيال والأحوال، ولا يسترسل =

وقرأ ابن الزبير: (يُمَحِّق اللهُ) بضم الياءِ وكسر الحاءِ مشددة و(يُرَبِّي) بفتح الراءِ وشد الباءِ، ورويت عن النبي ﷺ كذلك.

وقوله تعالى: (واللهُ لا يحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيم) يقتضي أَن الزجر في هذه الآية للكفار المستحِلِّين، القائلين على وجه التكذيب للشرع: (إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا)[١]. ووصف الكفار بأَثيم إما مبالغة من حيث اختلف اللفظان، وإما ليذهب الاشتراك الذي في (كفَّار) إذ قد يقع على الزارع الذي يستر الحب في الأَرض[٢]. قاله ابن فُورك[٣] قال:

= تحريمها على الدوام عند القائلين بها، والله أعلم. ومن العلماء من يُجيز هذه البيوع اعتباراً بظاهرها وتغاضياً عن باطنها.

الحقيقة السادسة: التمول المحمود هو ألا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير، وألا يكون فيه تضييق على الناس، لما في ذلك من طغيان الثروة وفساد الأخلاق والضمائر، ومن ثم حرمت الشرائع السماوية، والحكمة الأخلاقية نظام الربا في المعاملات للمقاربة بين الناس في القوة المالية، وعدم طغيان بعضهم على بعض. وبين الأخلاق والأعمال ارتباط قوي في الاسلام، فالإنسان المسلم حينما يعمل يجب أن يتصف بأخلاق الإسلام، وأن يتصور أنه ممتحن في كل نشاط يقوم به في الدنيا، ومحاسب عليه لا محالة في الأخرى، وأنه مربوط بعهد الله الذي استخلفه في الأرض.

الحقيقة السابعة: الإسلام يحارب الربا محاربة لا هوادة فيها، ولا يقيم نظامه الاقتصادي على أساسه، بل يعدُّ ذلك محقاً للمال، وعيباً من عيوب الاقتصاد، وبلاءً عظيماً على المجتمعات البشرية، إلا أن خبراء التعامل بالربا الذين تعودوا أكل لحوم الناس وعظامهم أصبحوا يصيحون به وبهذا النظام الملوث، ويبثون في نفوس الناس أنه لا يمكن أن يقوم اقتصاد مزدهر بدونه وأن الحضارة القائمة هي نتيجة هذا النظام، وذلك كله خرافة يشهد العصر الحاضر ببطلانها، وما دروا أن قبائح هذه الحضارة أكثر من محاسنها، ولو لم يكن إلا هذه الأجهزة والمؤسسات الربوية التي تسرق أموال الناس وتستغلهم استغلالاً شديداً وبعيداً من الإنسانية بمختلف الوسائل والأساليب لكفى.

الحقيقة الثامنة: المسلمون الذين يقرون نظام الربا في بلدانهم هم مخاصمون ومحاربون لله ورسوله، ومن حارب الله هلك وسقط، ولم يكن في اقتصاده زيادة ولا بركة، وإنما هناك فقر وخصاصة، وكيف يحرم الله علينا أمراً لا تتقدم الحياة البشرية بدونه؟ فهذا شيءٌ يستحيل تصوره واعتقاده، وكل من وقع في هذه الورطة فَلْيَتُبْ إلى الله جل علاه، ومن تاب تاب الله عليه، وتوبة الجماعة كتوبة الأفراد عند الله.

(١) الآية من عموم السلب لا من سلب العموم، إذ لا فرق بين الكفَّار والأثيم، والمعنى أن كل كفَّار أثيم لا يحبه الله، أي كل مقيم على الكفر مصر على الإثم.

(٢) تعليل بعيد، ووقوع ذلك على الزارع منوط بالسياق وبما يصحبه من القرائن، كقوله تعالى: (كمثل غيث أَعْجَبَ الكُفَّار نباته).

(٣) بضم الفاء: أبو بكر الأصبهاني، إمام جليل في الفقه والأصول والنحو والكلام مع الزهد والورع. توفي=

ومعنى قوله: (واللهُ لا يُحِبُّ) أي: لا يحب الكفَّار الأَثيم محسناً صالحاً بل يريده مسيئاً فاجراً، ويحتمل أَن يريد: والله لا يحب توفيق الكفَّار الأَثيم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه تأْويلات مستكرهة ـ أَما الأَول فأَفرط في تعدية الفعل، وحمَّله من المعنى مالا يحتمله لفظه، وأَما الثاني فغير صحيح المعنى، بل الله تعالى يحب التوفيق على العموم ويحببه، والمحب في الشاهد يكون منه ميل إِلى المحبوب، ولطف به، وحرص على حفظه، وتظهر دلائل ذلك. والله تعالى يريد وجود الكافر[١] على ما هو عليه وليس له عنده مزية الحب بأَفعال تظهر عليه نحو ما ذكرناه في الشاهد وتلك المزية موجودة للمؤمن[٢].

ولما انقضى ذكرهم[٣] عقب بذكر ضدهم ليبين ما بين الحالين فقال: (إِنَّ الَّذِين آمنوا) الآية، وقد تقدم تفسير مثل أَلفاظ هذه الآية، وخص الصلاة والزكاة بالذِّكر ـ وقد تَضَمَّنهُمَا عمل الصالحات ـ تشريفاً لهما، وتنبيهاً على قدرهما إِنهُمَا رأْس الأَعمال ـ الصلاة في أَعمال البدن، والزكاة في أَعمال المال.

قوله عز وجل.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾.

سبب هذه الآية أَنه كان الربا بين الناس كثيراً في ذلك الوقت، وكان بين قريش وثقيف ربا، فكان لهؤلاءِ على هؤلاءِ، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة قال في خطبته في اليوم الثاني من الفتح: (أَلا كُلُّ ربا في الجاهلية موضوع، وأَول ربا أَضعه ربا

= مسموماً سنة ٤٠٦ هـ، وبلغت تصانيفه مائة مصنف.

(١) نقل أبو (ح) هذه الجملة عن ابن عطية في البحر المحيط ٢ـ٣٣٦ هكذا: «والله تعالى يريد وجود ظهور الكافر على ماهو عليه» بزيادة لفظة (ظهور) ـ فتأمل.

(٢) الحب بمعنى الميل الطبيعي لا يليق به سبحانه، وابن فورك فسر الحب بالإرادة، وابن عطية جعله بمعنى اللطف وإظهار الدلائل، فيكون على الأول صفة ذات، وعلى الثاني صفة فعل. بهذا علق أبو (ح) على كلام ابن عطية ونقده لابن فورك.

(٣) أي ذكر الكفار: يريد المؤلف بذلك أن يبين المناسبة بين الآية الآتية وما سبقها.

العباس بن عبد المطلب) فبدأ ﷺ بعمه وأخص الناس به، وهذه من سنن العدل للإمام أَن يفيض العدل على نفسه وخاصته فيستفيض حينئذ في الناس، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، واستعمل على مكة عَتَّاب بن أَسِيد[١]، فلما استنزل أَهل الطائف بعد ذلك إلى الإسلام اشترطوا شروطاً منها ما أَعطاه رسول الله ﷺ، ومنها ما لم يعطه، وكان في شروطهم أَن كل ربا لهم على الناس فإنهم يأخذونه، وكل ربا عليهم فهو موضوع، فيروى أَن رسول الله ﷺ قرر لهم هذه، ثم ردها الله بهذه الآية كما رد صلحه لكفار قريش في رد النساءِ إليهم عام الحديبية.

وذكر النقاش رواية أَن رسول الله ﷺ أَمر أَن يكتب في أَسفل الكتاب لثقيف: (لَكُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْهِمْ)، فلما جاءَت آجال رباهم بعثوا إلى مكة للاقتضاءِ وكانت الديون لبني غِيَرة[٢]. وهم بنو عمرو بن عمير من ثقيف، وكانت لهم على بني المغيرة المخزومين، فقال بنو المغيرة: لا نعطي شيئاً. فإن الربا قد وضع، ورفعوا أَمرهم إلى عتَّاب بن أَسيد بمكة، فكتب به إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وكتب بها رسول الله ﷺ إلى عتَّاب، فعلمت بها ثقيف فكفت. هذا سبب الآية على اختصار مجموع مما روى ابن إسحق، وابن جريج، والسدي، وغيرهم، فمعنى الآية: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بترككم ما بقي لكم من ربا وصفحكم عنه.

وقوله: (إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) شرط محض في ثقيف على بابه، لأَنه كان في أَول دخولهم في الإسلام، وإذا قدرنا الآية فيمن تقرر إيمانه فهو شرط مجازي على جهة المبالغة[٣]، كما تقول لمن تريد إقامة نفسه[٤]: إن كنت رجلاً فافعل كذا.

وحكى النقاش عن مقاتل بن سليمان أنه قال: (إِنْ) في هذه الآية بمعنى (إِذْ).

---

(١) هو ابن أُمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، أسلم هو وأخوه خالد بن أَسيد يوم فتح مكة، وقد استعمله ﷺ عليها عند خروجه إلى المدينة، وقبض ﷺ وعتاب بن أَسيد عامله على مكة، انظر طبقات ابن سعد. وعتاب ـ بالتشديد كما ضبطه في «الإصابة» وأَسيد كأمير.

(٢) بنو غِيَرَة: حي من العرب، وهي كعِنبة بالغين.

(٣) حاصله أنه إن كان شرطاً فيمن هو حديث عهد بالإسلام كثقيف فهو شرط حقيقي، وإن كان فيمن طال عهده في الإسلام فهو شرط مجازي على جهة المبالغة، أو بأن يكون المعنى: وإن صح إيمانكم، يعني أن دليل صحة الإيمان وثباته امتثال ما أُمرتم به ـ قال ذلك الزمخشري، عقب عليه أبو (ح) بأن فيه دسيسة اعتزال ـ راجع البحر المحيط ٢ـ٣٣٧.

(٤) أي إثارة نفسه وتهيجها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا مردود لا يعرف في اللغة، وقال ابن فُورك: يحتمل أَنه يريد: ياأيها الذين آمنوا بمن قبل محمد من الأَنبياءِ ذروا ما بقي من الربا إِن كنتم مؤمنين بمحمد إِذ لا ينفع الأَول إِلا بهذا. وهذا مردود بما روي في سبب الآية[١].

ثم توعدهم تعالى ـ إِن لم يذروا الربا ـ بحرب من الله ورسوله، والحرب داعية القتل، وروى ابن عباس أنه يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب. وقال ابن عباس أَيضاً: من كان مقيماً[٢] على الربا لا ينزع عنه، فحقٌّ على إِمام المسلمين أَن يستتيبه، فإِن نزع وإِلا ضرب عنقه. وقال قتادة: أَوعد الله أَهل الربا بالقتل فجعلهم بهرجاً[٣] أَينما ثقفوا، ثم ردهم تعالى مع التوبة إِلى رؤُوس أَموالهم وقال لهم: (لا تَظْلِمُون) في أَخذ الربا (ولا تُظْلَمُون) في أَن يتمسك بشيءٍ من رؤُوس أَموالكم فتذهب أَموالكم. ويحتمل أَن يكون (لا تُظْلَمُونَ) في مطل، لأَن (مطل الغني ظلم) كما قال ﷺ[٤]، فالمعنى أَن يكون القضاءُ مع وضع الربا، وهكذا سنة الصلح، وهذا أَشبه شيءٍ بالصلح، أَلا ترى أَن النبي ﷺ لما أَشار على كعب بن مالك في دين ابن أَبي حدرد بوضع الشطر فقال كعب: نعم يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ، للآخر: قم فاقضه، فتلقى العلماءُ أَمره بالقضاءِ سنة في المصالحات. وقرأَ الحسن: [مَا بَقِيْ] بكسر القاف وإِسكان الياءِ وهذا كما قال جرير:

هُوَ الْخَلِيفَةُ فَارْضَوا مَارَضِيْ لَكُمْ ... مَاضِي العَزِيمَةِ مَا فِي حُكْمِهِ جَنَفُ[٥]

ووجهها أَنه شبه الياءَ بالأَلف، فكما لا تصل الحركة إِلى الأَلف فكذلك لم تصل هنا إِلى الياءِ، وفي هذا نظر.

---

(١) أي لأنه ليس فيهم من كان مؤمناً قبل الإسلام بنبي من الأنبياء، وفي الآية إشارة إلى أن الإيمان الكامل لا يجتمع مع ممارسة الربا.

(٢) أي حريصاً عليه، مداوماً على استعماله، مستحلاً له.

(٣) أي شيئاً مباحاً غير محترم.

(٤) حديث: (مطْلُ الغَنِيِّ ظُلْم). متفق عليه عن أبي هريرة، وفي لفظ لبعضهم عنه: (المطل ظلم الغني).

(٥) الجَنَف: الميل والظلم. والشاهد في قوله: (ما رضيْ) ـ بإسكان الياء، ومثله (ما بقي) في قول الشاعر:

لعَمْـرك مَـا أَخْشَـى التَّصَعْلُـكَ مـا بَقِـيْ ... علـى الأرض قَيْسِـيٌّ يَسُـوقُ الأَبَـاعِـرَا =

وقرأَ أَبو السمال: [مِنَ الرِّبُو] بكسر الراءِ المشددة وضم الباءِ وسكون الواو، وقال أَبو الفتح: شذَّ هذا الحرف في أَمرين ـ أَحدهما: الخروج من الكسر إلى الضم بناءً لازماً(١)، والآخر: وقوع الواو بعد الضمة في آخر الاسم، وهذا شيءٌ لم يأْت إلا في الفعل نحو: يغزو ويدعو ـ أَما (ذو) الطائية بمعنى الذي فشاذة جداً، ومنهم من يغير واوها إذا فارق الرفع فيقول: رأَيت ذا قام. وَوَجْه القراءَة أَنه فخَّم الأَلف فانتحى بها الواو التي الأَلف بدل منها، على حدِّ قولهم: الصلاة والزكاة، وهي بالجملة قراءَة شاذة.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، ونافع، وابن عامر، والكسائي [فأْذَنُوا] مقصورة مفتوحة الذال. وقرأَ عاصم في رواية أَبي بكر: [فآذِنُوا] ممدودة مكسورة الذال، قال سيبويه: آذنت: أَعلمت، وأَذنت: ناديت وصوَّتُّ بالإعلام، قال: وبعض يجري آذنت مجرى أَذنت. قال أَبو علي: من قال: فأْذنوا فقَصَر معناه: فاعلموا الحرب من الله، قال ابن عباس وغيره من المفسرين: معناه: فاستيقنوا الحرب من الله تعالى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي من الإذن، وإذا أَذِن المرءُ في شيءٍ فقد قرره وبنى مع نفسه عليه فكأَنه قال لهم: فقرروا الحرب بينكم وبين الله ورسوله، ويلزمهم ـ من لفظ الآية ـ أَنهم مُسْتَدْعُو الحرب والباغون لها إذ هم الآذنون بها وفيها، ويندرج في هذا المعنى الذي ذكرته عِلمُهم بأَنهم حرب، وتيقنهم لذلك. قال أَبو علي: من قرأَ فآذِنوا، فمَدَّ فتقديره: فأَعْلِمُوا من لم ينته عن ذلك بحرب، والمفعول محذوف، وقد ثبت هذا المفعول في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾(٢)، وإذا أُمروا بإعلام غيرهم عَلِموا هم لا محالة، قال: ففي إعلامهم عِلْمُهم، وليس في عِلْمِهِم إعلامهم غيرهم، فقراءَة المد أَرجح لأَنها أَبلغ وآكذ، قال الطبري: قراءَة القصر أَرجح لأَنها تختص بهم، وإنما أُمروا على قراءَة المد بإعلام غيرهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والقراءَتان عندي سواءٌ لأَن المخاطب في الآية محصور بأَنه كلُّ من لم يذَر ما بقي

(١) أي: لا عارضاً.

(٢) من الآية (١٠٩) من سورة الأنبياء.

من الربا، فإن قيل لهم: (فَأْذَنُوا) فقد عمهم الأَمر، وإن قيل لهم: [فَآذنُوا] بالمد فالمعنى أَنفسكم وبعضكم بعضاً، وكأَن هذه القراءَة تقتضي فسحاً لهم في الارتياءِ والتثبت، أَي فأَعلموا نفوسكم هذا، ثم انظروا في الأَرجح لكم: ترك الربا أَو الحرب(١).

وقرأَ جميع القراءِ: (لاَ تَظْلِمُون) بفتح التاءِ، و(لا تُظْلَمُون) بضمها(٢)، وقد مضى تفسيره، وروى المفضل عن عاصم: [لا تُظلمون] بضم التاءِ في الأُولى وفتحها في الثانية. قال أَبو علي: وتترجح قراءَة الجماعة بأَنها تناسب قوله: (فَإِنْ تُبْتُمْ) في إِسناد الفعلين إِلى الفاعل، فيجيءُ (تَظلمون) بفتح التاءِ أَشكل بما قبله.

قوله عز وجل:

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾.

حكم الله تعالى لأَرباب الربا برؤُوس أَموالهم عند الواجدين للمال، ثم حكم في ذي العسرة بالنظرة إِلى حالة اليسر، قال المهدوي: وقال بعض العلماءِ: هذه الآية ناسخة لما كان في الجاهلية من بيع من أَعسر بديْن، وحكى مكي أَن النبي ﷺ أَمر به في صدر الإِسلام(٣) فإِن ثبت فعل النبي ﷺ فهو نسخ، وإِلا فليس بنسخ.

والعسْر: ضيق الحال من جهة عدم المال، ومنه: جيش العسرة.

والنظِرة: التأْخير، والميْسرة: مصدر بمعنى اليُسر، وارتفع (ذُو عُسْرَةٍ) بكان التامة التي هي بمعنى وُجد وحَدث، هذا هو قول سيبويه، وأَبي علي، وغيرهما، ومن هنا

---

(١) وضح أبو (ح) في تفسيره: «البحر المحيط» ٢ـ٣٣٨ـ الرأي في أصل الكلمة (فأذنوا) ـ فقال: «فآذنوا أمر من آذن الرباعي، بمعنى أعلم، مثل قوله تعالى: (فقل آذنتكم على سواءٍ)، وقرأ باقي السبعة فأذنوا أمْر من أذن الثلاثي مثل قوله: (لا يَتَكَلَّمُونَ إلا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمن). ثم نقل كل ما ذكره ابن عطية عن ابن عباس وأبي علي والطبري.

(٢) يحتمل أن تكون الجملة حالاً من ضمير (لَكُمْ)، أي فلكم رؤوس أموالكم غير ظالمين ولا مظلومين، والعامل في الحال ما في حرف الجر من معنى الفعل ـ ويحتمل أن تكون استئنافية، وإخبار منه تعالى بأنهم إذا اقتصروا على رؤوس أموالهم كان ذلك هو الإنصاف.

(٣) إشارة إلى حديث رواه الدارقطني والبزار إلا أنه حديث ضعيف. انظر (ق).

يظهر أَن الأَصل الغنى ووفور الذمة، وأَن العدم طارئٌ حادث يلزم أَن يثبت، وقال بعض الكوفيين ـ وحكاه الطبري ـ بل هي كان الناقصة، والخبر محذوف تقديره: وإِن كان من غرمائكم ذو عسرة، وارتفع قوله: (فَنَظِرَةٌ) على خبر ابتداءٍ مقدر، تقديره: فالواجب نظرة، أَو فالحكم نظرة، قال الطبري: وفي مصحف أُبي بن كعب: (وَإِن كَانَ ذَا عَسْرَةٍ) على معنى: وإن كان المطلوب. وقرأ الأعمش: [وإنْ كان مُعْسِراً فَنَظِرَة] قال أَبو عمرو الداني، عن أَحمد بن موسى: وكذلك في مصحف أُبي بن كعب، قال مكي، والنقاش: وعلى هذا يختص لفظ الآية بأَهل الربا، وعلى من قرأَ: [وَإِن كَانَ ذُو] فهي عامة في جميع من عليه دين، وهذا غير لازم(١). وحكى المهدوي أَن في مصحف عثمان (فإِنْ كان) بالفاءِ (ذو عسرة) بالواو.

وقراءَة الجماعة [نَظِرة] بكسر الظاءِ، وقرأَ مجاهد، وأَبو رجاءٍ، والحسن [فنظْرة] بسكون الظاءِ، وكذلك قرأَ الضحاك، وهي لغة تميمية، وهم الذين يقولون: كرْم زيد بمعنى كرُم، ويقولون كبْد في كبد ـ وكتْف في كتف.

وقرأَ عطاءٌ بن أَبي رباح: [فَنَاظِرَة] على وزن فاعِلة، وقال الزجاج: هي من أَسماءِ المصادر، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، وكقوله تعالى: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾، وكـ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾(٢) وغيره.

وقرأَ نافع وحده: [ميسُرة] بضم السين، وقرأَ باقي السبعة، وجمهور الناس: [ميسَرة] بفتح السين، على وزن مفعَلة، وهذه القراءَة أَكثر في كلام العرب، لأَن مَفعُلة بضم العين قليل، قال أَبو علي: قد قالوا: مسرُبة ومشرُبة(٣). ولكن مفعَلَة بفتح العين أَكثر في كلامهم.

وقرأَ عطاءُ بن أَبي رباح أَيضاً ومجاهد: [فَنَاظِرْهُ إِلى مَيْسُرِهِ] على الأَمر في [نَاظِرْهُ]،

---

(١) خلاصة الرأي أن قراءة النصب تختص بديْن الربا، وقراءة الرفع تشمل ديْن الربا وغيره، قال ابن عطية: والعموم غير لازم.

(٢) الآيات بترتيبها: الآية (٢) من سورة الواقعة ـ والآية (٢٥) من سورة القيامة، ومن الآية (١٩) من سورة غافر.

(٣) المسْرَبة (بفتح الراء وضمها): الشَّعر وسط الصدر إلى البطن، والمشْرُبَة كذلك: المكان يشرب منه: والأرض ليِّنةً دائمة النبات.

وجعلا الهاءَ ضمير الغريم، وضمَّا السين من [مَيسُرهِ]، وكسرا الراءِ، وجعلا الهاءَ ضمير الغريم، فأَما [نَاظِرْهُ] ففاعِلُهُ من التأْخير، كما تقول: سامِحْهُ[١]، وأَمَّا (مَيْسُر) فشاذٌّ ـ قال سيبويه: ليس في الكلام (مَفْعُل). قال أَبو عليٍّ: يريد في الآحاد، فأَما في الجمع فقد جاءَ قول عدِيٍّ بن زيد:

أَبْلِـغِ النُّعْمَـانَ عَنِّـي مَـأْلُكـا أَنـه قـد طـال حبسـي وانتظـاري[٢]

وقول جميل:

بثينُ ـ الزمي (لا) إنَّ (لا) إن لزمْتِهِ عَلـى كَثْـرة الْـواشيـن أَي مَعُـون

فالأَول: جمع مأْلُكة، والآخر: جمع معونة، وقال ابن جنِّي: إن عِدياً أَراد مَأْلُكة فحذف، وكذلك جميل أَراد: أَي مَعُونة[٣]، وكذلك قول الآخر:

. . . . لِيَـوْم روْع أَو فَعَـالِ مَكْـرُم[٤]

أَراد مكْرُمَةً فحذف. قال: ويحتمل أَن تكون جموعاً كما قال أَبو علي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فإِن كان ميْسُر جمع ميْسُرة فيجري مجرى هذه الأَمثلة، وإِن كان قارئه أَراد به الإِفراد فذلك شاذٌّ، وقد خطَّأَه بعض الناس، وكلام سيبويه يرده.

واختلف أَهل العلم ـ هل هذا الحكم بالنظرة إِلى الميسرة واقف على أَهل الربا أَو هو منسحب على كل ذي ديْن حالٍّ؟ فقال ابن عباس، وشريح: ذلك في الربا خاصة، وأَما الديون وسائر الأَمانات فليس فيها نظرة، بل تؤَدى إِلى أَهلها[٥] ـ وكأَن هذا

---

(١) فمعنى ناظِرْهُ: سامحه، أو أخّره إلى وقت اليسر والغنى.

(٢) المألك، الرسالة، جمعه مآلك ـ والمألَكة والمألُكة ـ بفتح اللام وضمها: الرسالة أيضاً، وجمعها كذلك مآلك.

(٣) تأول أبو الفتح بن جني الأبيات على أنها آحادٌ محذوفة التاء، وقال أبو علي الفارسي: إنها جموع لا آحاد.

(٤) هو أبو الأخزر الحماني، والبيت بتمامه:

مَـروان مـرْوان أخـو اليـوم اليَمـي ليـوم رَوْع أو فَعَـالِ مكـرُم

واليوم اليمي: اليوم الشديد، واليمي مقلوب اليوم، أخر الواو وقدم الميم، ثم قلبت الواو ياءً حيث صارت طرفاً.

(٥) لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلى أَهْلِهَا﴾.

القول[١] يترتب إذا لم يكن في فقر مدقع، وأما مع الفقر والعُدم الصريح، فالحكم هي النظرة ضرورة.

وقال جمهور العلماءِ: النظرة إلى الميسرة حكم ثابت في المعسر سواءٌ كان الديْن رباً، أَو من تجارة في ذمة، أَو من أَمانة، وبذلك فسره الضحاك[٢].

وقوله تعالى: (وَأَنْ تَصَدَّقُوا) ابتداءٌ وخبره (خَيْرٌ)، وندب الله تعالى بهذه الأَلفاظ إلى الصدقة على المعسر، وجعل ذلك خيراً من إنظاره. قاله السدي، وابن زيد، والضحاك، وجمهور الناس، وقال الطبري: وقال آخرون: معنى الآية: وأَن تصدقوا على الغني والفقير خيرٌ لكم، ثم أَدخل الطبري تحت هذه الترجمة أَقوالاً لقتادة، وإبراهيم النخعي لا يلزم منها ما تضمنته ترجمته، بل هي كقول جمهور الناس، وليس في الآية مدخل للغني[٣].

وقرأَ جمهور القراءِ: [تصَّدقوا] بتشديد الصاد على الإدغام من تتصدقوا، وقرأَ عاصم: [وأَنْ تَصَدَّقُوا] بتخفيف الصاد، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: [وأَنْ تَتَصدقوا] بفك الإدغام. وروى سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب أَنه قال: «كان آخر ما أُنزل من القرآن آية الربا، وقبض رسول الله ﷺ ولم يفسرها لنا، فدعوا الربا، والريبة». وقال ابن عباس: «آخر ما نزل آية الربا»[٤].

---

(١) أي قول ابن عباس: إن التأخير خاص بديْن الربا إذا لم يكن المدين في فقر مدقع، وأما إذا كان كذلك فلا فرق بين دين الربا وغيره، ولعل ابن عباس لا يخالف في هذا، والله أعلم.

(٢) روى الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله بسنده إلى الضحاك في تفسير الآية قال: «وكذلك كل دين على مسلم، فلا يحل لمسلم له دين على أخيه يعلم منه عسرة أن يسجنه ولا يطلبه حتى ييسره الله عليه». اهـ. وذكر أبو (ح) في تفسيره ما يأتي: «جاء في فضل إنظار المعسر أحاديث كثيرة منها: (من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله)».

(٣) وإنما المهم أمر المعسر، ولذلك سيقت الآية الكريمة، وفي كلام ابن عطية هذا ردٌّ على القول بشمول الآية للغني والفقير.

(٤) هذا باعتبار النزول كما هو صريح، وأما باعتبار الحكم فقبل ذلك بكثير ـ ألا ترى إلى الآية المذكورة في وقعة أُحد: (يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)، قال المفسرون: لما نزلت سورة النصر عاش رسول الله ﷺ بعدها عاماً كاملاً، ثم نزلت: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) إلى آخر السورة، وعاش بعدها ﷺ ستة أشهر ثم نزل عليه ﷺ في حجة الوداع وهو واقف بعرفة: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) الآية، وعاش بعدها ﷺ واحداً وثمانين يوماً ثم نزلت آية الربا، ثم نزلت بعدها: (واتَّقُوا يَوْماً=

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله.

ومعنىٰ هذا عندي أَنها من آخر ما نزل[(١)]، لأَن جمهور الناس ـ ابن عباس، والسدي، والضحاك، وابن جريج، وغيرهم ـ قالوا: آخر آية نزلت قوله تعالى: (واتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلى الله).

وقال سعيد بن المسيب: بلغني أَن أَحدث القرآن بالعرش آية الدَّيْن. وروي أَن قوله: [واتَّقُوا] نزلت قبل موت النبي ﷺ بتسع ليال، ثم لم ينزل بعدها شيءٌ، وروي: بثلاث ليال، وروي أَنها نزلت قبل موته بثلاث ساعات، وأَنه قال عليه السلام: (اجعلوها بيْن آية الرِّبا وآية الدَّيْن)، وحكى مكي أَن النبي ﷺ قال: (جاءَني جبريل فقال: اجعلها على رأس مائتين وثمانين آية من البقرة).

وقوله تعالى: (واتَّقُوا) إِلى آخر الآية وعظٌ لجميع الناس، وأَمر يخص كل إِنسان[(٢)] و(يَوماً) منصوب على المفعول لا على الظرف.

وقرأَ أَبو عمرو بن العلاءِ: (تَرْجِعون) بفتح التاءِ وكسر الجيم، وقرأَ باقي السبعة (تُرْجَعُونَ) بضم التاءِ وفتح الجيم، فمثل قراءَة أَبي عمرو: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾[(٣)] ومثل قراءَة الجماعة: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[(٤)] ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى ﴾[(٥)]. والمخاطبة في القراءَتين بالتاءِ على جهة المبالغة في الوعظ والتحذير. وقرأَ الحسن: [يرجعون] بالياءِ على معنى يرجع جميع الناس. قال ابن جني: كأَن الله تعالى رَفَق بالمؤمنين على أَن يواجههم بذكر الرجعة إِذ هي مما تنفطر له القلوب، فقال لهم: (وَاتَّقُوا يَوْماً) ثم رجع

= تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلى الله ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُون)، وهي آخر آية نزلت من السماء، وعاش بعدها ﷺ واحداً وعشرين يوماً، وقيل: تسع ليال، وقيل: سبع ليال، ثم مات يوم الإِثنين ﷺ لليلتين خلتا من ربيع الأول، ونسأل الله عز وجل أن نموت على سنته ويوم موتته، وهو سبحانه أعلم وأرحم بعباده.

(١) أو آخر ما نزل من آيات البيوع.

(٢) فإنه عز وجل حذَّر فأعذر، ووعظ فأبلغ، واليوم: يوم القيامة، أي يوم اللقاء والجزاء والوفاء، وقال قوم: هو يوم الموت، والأول أقوى لقوله تعالى بعد ذلك: (ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ).

(٣) الآية (٢٥) من سورة الغاشية.

(٤) من الآية (٦٢) من سورة الأنعام.

(٥) من الآية (٣٦) من سورة الكهف.

في ذكر الرجعة إلى الغيبة رفقاً بهم[(١)]. وقرأ أُبي بن كعب: [يوماً تُرَدُّونَ] بضم التاءِ.

وجمهور العلماءِ على أن هذا اليوم المحَذَّر منه هو يوم القيامة والحساب والتوفية، وقال قوم هو يوم الموت والأول أصح بحكم الألفاظ في الآية، وفي قوله (إلى الله) مضاف محذوف تقديره: إلى حكم الله، وفضل قضائه، وقوله: (وَهُمْ) ردٌّ على معنى (كل نفس) لا على اللفظ إلا على قراءَة الحسن (يرجعون) فقوله: (وَهُمْ) ردٌّ على ضمير الجماعة في (يرجعون).

وفي هذه الآية نص على أن الثواب والعقاب متعلق بكسب الإنسان، وهذا ردٌّ على الجبرية[(٢)].

قوله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنه: نزلت هذه الآية في السَّلم خاصة، معناه أَن سَلَم أَهل المدينة كان سبب هذه الآية، ثم هي تتناول جميع المداينات إجماعاً[(٣)].

وبين تعالى بقوله: (بِدَيْنٍ) ما في قوله: (تَدَايَنتُمْ) من الاشتراك، إذ قد يقال في كلام

(١) يقول ابن جني هذا الكلام في توجيه قراءة الحسن، وهو توجيه حسن.

(٢) الجبرية طائفة لا تجعل للأعمال ارتباطاً بالجزاء البتة، وتُجَوِّز أن يعذب الله من أفنى عمره في طاعته، ويُنَعِّم من أفنى عمره في معصيته، وجوزت أن يرفع صاحب العمل القليل على من هو أعظم عملاً منه وأكثر وأفضل درجات، والكل عندهم راجع إلى محض المشيئة من غير تعليل ولا سببية ولا حكمة تقتضي تخصيص هذا بالثواب وهذا بالعقاب، والصراط المستقيم الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب: أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب، ومقتضيات لهما كاقتضاء الأسباب لمسبباتها، وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وهدايته، وأنها ليست ثمناً لجزائه وثوابه، بل غايتها ـ إذا أُحكمت ـ أن تكون شكراً لبعض نعمه، ولهذا نفى ﷺ دخول الجنة بالعمل فقال: (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله. قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته). وأثبت سبحانه دخول الجنة بالعمل كما في قوله تعالى: (ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون)، ولا تنافي بينهما، فالمنفي استحقاقها بمجرد الأعمال، وكونها ثمناً وعوضاً للجنة، والمُثْبَت هو دخولها بفضله ورحمته وإن كانت الأعمال سبباً يقتضي ذلك، والله أعلم.

(٣) سواء كانت من قرض أم ثمن بيع كالسَّلم ـ والسَّلم بيع معلوم في الذمة محصور بالصفة ـ بعين حاضرة أو ماهو في حكمها إلى أجل معلوم.

العرب: تداينوا بمعنى: جازى بعضهم بعضاً[١].

ووصفُه الأَجل بـ(مُسَمًّى) دليل على أَن الجهالة لا تجوز، فكأَن الآية رفضتها، وإذا لم تكن تسمية وحدٌّ فليس هناك أَجل ـ وذهب بعض الناس إلى أَن كتب الديون واجب على أَربابها فُرِضَ بهذه الآية، وذهب الربيع إلى أَن ذلك وجب بهذه الأَلفاظ، ثم خففه الله تعالى بقوله: (فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً)، وقال الشعبي: كانوا يرون أَن قوله: (فَإِنْ أَمِنَ)، ناسخ لأَمره بالكتب، وحكىٰ نحوه ابن جريج، وقاله ابن زيد، وروي عن أَبي سعيد الخدري، وقال جمهور العلماءِ: الأَمر بالكتب ندب إِلى حفظ الأَموال، وإِزالة الريب[٢]، وإِذا كان الغريم تقياً فما يضره الكتاب، وإِن كان غير ذلك فالكتاب ثقاف[٣] في دينه، وحاجة صاحب الحق، وقال بعضهم: إِن أَشهدت فحزم، وإِن ائتمنت ففي حل وسعة، وهذا هو القول الصحيح، ولا يترتب نسخ في هذا لأَن الله تعالى ندب إِلى الكتب فيما للمرءِ أَن يهبه ويتركه بإِجماع، فندبه إِنما هو على جهة الحيطة للناس.

ثم أَخبر تعالى أَنه سيقع الائتمان فقال: إِن وقع ذلك فَلْيُؤَدِّ ـ الآية، فهذه وصية للذين عليهم الديون، ولم يجزم تعالى الأَمر نصاً بأَلا يكتب إِذا وقع الائتمان.

وأَما الطبري رحمه الله فذهب إِلى أَن الأَمر بالكتب فرض واجب، وطوَّل في الاحتجاج، وظاهر قوله أَنه يعتقد الأَوامر على الوجوب حتى يقوم دليل على غير ذلك.

واختلف الناس في قوله تعالى (وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ)، فقال عطاءٌ وغيره: واجب على الكاتب أَن يكتب، وقال الشعبي: وعطاءٌ أَيضاً: إِذا لم يوجد كاتب سواه فواجب عليه أَن يكتب، فقال السدي: هو واجب مع الفراغ.

---

(١) ومنه قولهم: كما يَدين الفتى يُدان.

(٢) يعني أن الأمر ندب وإرشاد إلى حفظ الأموال وصيانتها، وذهب الإمام الطبري ومن معه إلى أن الأمر للوجوب، وذلك رأيه في الأمر حتى يأتي ما يدل على خلافه، والصحيح أن الأمر للإرشاد كما لابن عطية وابن العربي رحمهما الله. إذ لو كانت الكتابة واجبة ما صح أخذ الأجرة عليها، وجواز أخذ الأجرة على كتب الوثيقة لا خلاف فيه، ولو كانت واجبة ما صح إسقاطها، كما يأتي في قوله تعالى: (فَإِنْ أَمِنَ بعضكم بعضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ).

(٣) والثقاف هو الآلة التي تعض الرماح وتقبضها لتقويمها، والكتاب قابض على الدين وحافظ له كالثقاف للرماح.

وقوله تعالى: (بِالْعَدْلِ)، معناه: بالحق والمعدلة[١]، والباءُ متعلقة بقوله تعالى: (وَلْيَكْتُب)، وليست متعلقة بـ(كاتب)، لأَنه كان يلزم أَلا يكتب وثيقة إِلا العدل في نفسه، وقد يكتبها الصبي والعبد والمسخوط إِذا أقاموا فقهها، أَما المنتصبون لكتبها فلا يجوز للولاة أَن يتركوهم إِلا عدولاً مرضيين، وقال مالك رحمه الله: لا يكتب الوثائق من الناس إِلا عارف بها، عدل في نفسه، مأمون، لقوله تعالى: (وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ).

ثم نهى الله تعالى الكاتب عن الإِباية، وأَبى يأبى شاذ لم يجىءْ إلا قَلَى يَقْلَى[٢] وأبى يأبى، ولا يجيءُ فَعَلَ يفْعَلُ بفتح العين في المضارع إِلا إِذا رده حرف حلق، قال الزجاج والقول في أَبى ـ أَن الأَلف فيه أَشبهت[٣] الهمزة فلذلك جاءَ مضارعه يفعَل بفتح العين.

وحكي المهدوي عن الربيع والضحاك أَن قوله: (ولا يأْب) منسوخ بقوله: (وَلا يُضَارَّ كاتِبٌ ولا شَهِيدٌ)[٤].

والكاف من قوله: (كَمَا عَلَّمَهُ الله) متعلق بقوله (أَنْ يَكْتُبَ)، المعنى: كتْباً كما علَّمه الله، هذا قول بعضهم، ويحتمل أَن تكون (كَمَا) متعلقة بما في قوله: (وَلا يَأْبَ) من المعنىٰ، أَي كما أَنعم الله عليه بعلم الكتابة فلا يأْب هو وليفضل كما أَفضل الله عليه[٥]، ويحتمل أَن يكون الكلام على هذا المعنى تاماً عند قوله: (أَنْ يَكْتُب)، ثم يكون قوله (كما عَلَّمَهُ الله) ابتداءَ كلام، وتكون الكاف متعلقة بقوله: (فَلْيَكْتُبْ)[٦]، أَما

---

(١) بحيث لا يزيد ولا ينقص، أي لا يبدل ولا يغير، بل يكتب ما أُملي عليه من دون تصرف فيه.

(٢) في لسان العرب: «قال يعقوب: «أبى يأبى نادر» ـ وقال سيبويه: «شبهوا الألف بالهمزة في قرأ يقرأ». وقال أحمد بن يحيى: «لم يسمع من العرب فعَل يفعَل مما ليس عينه ولامه من حروف الحلق إلا أبى يأبى، وقلاه يقلاه، وغشى يغشى، وشجا يشجى».

(٣) قال في المصباح: وبناء أبى شاذ، لأن باب فعل يفعل بفتحتين أن يكون حلقي العين أو اللام، ولم يأت من حلقي الفاءِ إلا أبىٰ يأبى وعضَّ يعَضُّ في لغة وأَثَّ الشعر يأث إذا كثر والتف، وربما جاء في غير ذلك». انتهى، وحروف الحلق هي: الهمزة والهاء والحاء والخاء والعين والغين، والذي يوجب فتح العين من المضارع هو أن تكون عينه أو لامه حلقية، وأما إذا كان حرف الحلق في أوله فلا يوجب ذلك، لأنه في المضارع يسكن فيخف النطق به، وحروف الحلق إنما أوجبت الفتح لثقلها، وقال الزجاج: إن الألف في أبى ـ وهي لام الكلمة ـ أشبهت الهمزة فلذلك جاء المضارع على يفعل بفتح العين.

(٤) هذا مبني على وجوب الكتابة وحرمة الإباية.

(٥) الكاف على هذا الاحتمال تعليلية، والاحتمال الأول أحسن الاحتمالات،

(٦) غير ظاهر لوجود الفاء بعده، ولأنه لو كان متعلقاً بقوله: (فَلْيَكْتُب) لكان النظم: «فليكتب كما علمه الله»، ولايُصار إلى تقديم ما هو متأخر في المعنى.

إذا أَمكن الكتاب فليس يجب الكتب على معين، ولا وجوب الندب، بل له الامتناع، إلا إن استأجره[١]، وأَما إذا عُدِمَ الكاتب فيتوجه وجوب الندب حينئذ على الحاضر[٢]، وأَما الكتب في الجملة فندب كقوله تعالى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾[٣] وهو من باب عون الضائع.

قوله عز وجل:

﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾.

أَمر الله تعالى الذي عليه الحق بالإملاءِ[٤]، لأَن الشهادة إنما تكون بحسب إقراره، وإذا كتبت الوثيقة وأَقر بها فهو كإملاله، وأَمر الله بالتقوى فيما يمِل، ونهى عن أَن يبخس شيئاً من الحق، والبخس: النقص بنوع من المخادعة والمدافعة، وهؤلاءِ الذين أُمِروا بالإملال هم المالكون لأَنفسهم إذا حضروا.

ثم ذكر الله تعالى ثلاثة أَنواع تقع نوازلهم في كل زمن، فقال: (فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً) وكون الحق يترتب في جهات سوى المعاملات، كالمواريث إذا قسمت، وغير ذلك[٥]. والسفيه: المهلهل الرأي في المال الذي لا يُحسن الأَخذ لنفسه ولا الإعطاءَ منها، مشبه بالثوب السفيه وهو الخفيف النسج، والسَّفه: الخفة، ومنه قول الشاعر وهو ذو الرمة:

مَشَيْنَ كَمَا اهْتَزَّتْ رماحٌ تَسَفَّهَتْ ... أَعَالِيها مرُّ الرِّيَاح النَّوَاسِم[٦]

(١) يعني أن ما سبق من وجوب الكتابة على الكاتب إذا لم يوجد غيره، وأما إذا وجد الكتبة فلا تجب على معين، وفي بعض النسخ: قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أما إذا أمكن الخ.

(٢) أي يتأكد وجوب الندب عليه.

(٣) من الآية (٧٧) من سورة الحج.

(٤) يقال أمللت، وأمليت بمعنى، فهما لغتان موجودتان في القرآن. الأولى جاءت في هذه الآية والأخرى في قوله تعالى: (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا).

(٥) عبارة أبي حيان نقلاً عن ابن عطية: «ذكر تعالى ثلاثة أنواع تقع نوازلهم في كل زمان، ويترتب الحق لهم في كل جهات سوى المعاملات كالمواريث إذا قسمت وغير ذلك» اهـ.

نميل إلى أن يكون الكلام كما نقله أبو (ح) ـ عن ابن عطية كالآتي: «ثم ذكر الله تعالى ثلاثة أنواع تقع نوازلهم في كل زمن، ويترتب الحق لهم في كل جهات سوى المعاملات كالمواريث إذا قسمت وغير ذلك. فقال: (فَإن كان الَّذي عليه الحق سفيهاً) ـ والسفيه: المهلهل الرأي ـ الخ».

(٦) جاء في اللسان: السفه: الخفة، وثوب سفيه: لهْلَهٌ سخيف ـ وتسفهت الرياح: اضطربت: وتسفهت=

وهذه الصفة في الشريعة لا تخلو من حجر أَب أَو وصي، وذلك هو وَلِيُّه، ثم قال: (أَوْ ضَعِيفاً) والضعيف: هو المدخول العقل، الناقص الفطرة، وهذا أَيضاً قد يكون وليُّه أَباً أَو وصياً ـ والذي لا يستطيع أَن يُمِلَّ هو: الصغير، ووليُّه وصيه أَو أَبوه، والغائب عن موضع الإِشهاد إِما لمرض أَو لغير ذلك من العذر، ووليُّه وكيله، وأَما الأَخرس فيسوغ أَن يكون من الضعفاءِ، والأَولى أَنه ممن لا يستطيع، فهذه أَصناف تتميز، وقد تجد من ينفرد بواحد واحد منها، وقد يجتمع منها اثنان في شخص، وربما اجتمعت كلها في شخص، وهذا الترتيب ينتزع من قول مالك وغيره من العلماءِ الحذاق.

وقال بعض الناس: السفيه: الصبي الصغير، وهذا خطأٌ، وقال قوم: الضعيف: هو الكبير الأَحمق، وهذا قول حسن.

وجاءَ الفعل مضاعفاً في قوله: (أَنْ يُمِلَّ)، لأَنه لو فُكَّ لتوالت حركات كثيرة، والفك في هذا الفعل لغة قريش. و(بالعَدْلِ) معناه: بالحق وقصد الصواب.

وذهب الطبري إِلى أَن الضمير في (وَلِيُّه) عائدٌ على الحق، وأَسند في ذلك عن الربيع وعن ابن عباس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي شيءٌ لا يصح عن ابن عباس، وكيف تشهد البينة على شيءٍ وتدخل مالا في ذمة السفيه بإِملال الذي له الدين؟ هذا شيءٌ ليس في الشريعة، والقول ضعيف إِلا أَن يريد قائله أَن الذي لا يستطيع أَن يمِلَّ بمرضه إِذا كان عاجزاً عن الإِملاءِ فليملل صاحب الحق بالعدل، ويسمع الذي عجز فإِذا كمل الإِملاءُ أَقر به، وهذا معنى لم تعن[1] الآية إِليه، ولا يصح هذا إِلا فيمن لا يستطيع أَن يمل بمرض فقط.

قوله عز وجل:

﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾.

= الريح الغصون: حركتها واستخفتها، ثم ذكر هذا البيت شاهداً على ما يقول.

(١) أي: لم تتعرض له ولم تقصده.

الاستشهاد: طلب الشهادة[١]، وعبر ببناءِ[٢] مبالغة في: ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ دلالة على من قد شهد وتكرر ذلك منه، فكأَنها إِشارة إِلى العدالة.

وقوله تعالى: ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾، نص في رفض الكفار والصبيان والنساءِ وأَما العبيد فاللفظ يتناولهم، واختلف العلماءُ فيهم ـ فقال شريح: وإِسحق بن راهويه[٣]، وأَحمد بن حنبل: شهادة العبد جائزة إِذا كان عدلاً، وغلبوا لفظ الآية، وقال مالك، والشافعي، وأَبو حنيفة، وجمهور العلماءِ: لا تجوز شهادة العبد، وغلبوا نقص الرق[٤].

واسم كان الضمير الذي في قوله: ﴿يكُونا﴾، والمعنى في قول الجمهور: فإِن لم يكن المستشهد رجلين، أَي أَغفل ذلك صاحب الحق أَو قصده لعذر ما، وقال قوم: بل المعنى: فإِن لم يوجد رجلان، ولا يجوز استشهاد المرأَتين إِلا مع عدم الرجال، وهذا قول ضعيف، ولفظ الآية لا يعطيه، بل الظاهر منه قول الجمهور[٥].

وقوله: ﴿فَرَجُلٌ وامْرَأَتَانِ﴾، مرتفع بأَحد ثلاثة أشياءَ: إما أَن يقدر[٦]: فليُسْتَشْهَدْ رجل وامرأَتان، وإِما: فليكن رجل وامرأَتان، ويصح أَن تكون تامة وناقصة، ولكن

---

(١) أمر بالإشهاد بعد الأمر بالكتابة لمزيد التوثق والاحتياط في الحقوق، فالكتابة والشهادة وظيفتان قد تجتمعان في شخص، وقد يكتب أحدهما ويشهد الآخر، وفي الآية الكريمة إشارة إلى ذكر الحجة التامة وهي رجلان أو رجل وامرأتان، وأما اليمين مع الشاهد أو مع النكول فليست بتامة، والمراد الحجة في الديون والأموال.

(٢) يعني أن بناء المبالغة الدال على تكرر الشهادة يشير إلى شرط العدالة إذ لا تتكرر الشهادة عند الحكام إلا وهو مقبول عندهم، وكأنه قيل: واستشهدوا عدلين من رجالكم.

(٣) إسحق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي، أبو يعقوب بن راهويه ـ عالم خراسان، وأحد كبار الحفاظ، أخذ عنه أحمد بن حنبل والبخاري ومسلم والترمذي ـ قيل: إن أباه ولد في طريق مكة فقال أهل مرو: راهويه ـ أي ولد في الطريق. توفي ٢٣٨هـ. عن «الأعلام».

(٤) أي لنقص الرقيق، والنفس من شأنها أن تخضع للكامل دون الناقص.

(٥) خلاصة كلامه أن الضمير ـ على قول الجمهور ـ اسم كان، ورجلين خبرها، وعلى قول الآخرين كان تامة والضمير فاعل، ورجلين حال، أي فإن لم يكن الشهيدان بهذه الصفة فرجل وامرأتان، والتفسير جار على حسب المعنى لا على حسب حكم اللفظ.

(٦) الخلاصة أنه إما أن يكون قوله تعالى: ﴿فَرَجُلٌ وامْرَأَتَانِ﴾ نائباً عن الفاعل، أو فاعلاً، أو مبتدأ خبره محذوف.

التامة أشبه، لأنه يقل الإضمار، وإما: فرجل وامرأتان يشهدون ـ وعلى كل وجه فالمقدر هو العامل في قوله: (أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا).

وروى حميد بن عبد الرحمن عن بعض أَهل مكة أَنهم قرؤُوا: [وامْرَأْتَان] بهمز الأَلف ساكنة، قال ابن جني: لا نظير لتسكين الهمزة المتحركة على قياس، إنما خففوا الهمزة[١] فقربت من الساكن، ثم بالغوا في ذلك فصارت الهمزة أَلفاً ساكنة، كما قال الشاعر:

يَقُولُونَ جَهْلا: لَيْسَ للشَّيْخ عَيِّلٌ   لَعَمْرِي لَقَدْ أَعْيَلْتُ وأن رقُوبُ[٢]

يريد: وأَنا ـ ثم بعد ذلك يدخلون الهمزة على هذه الأَلف كما هي، وهي ساكنة، ومنه قراءَة ابن كثير: [عَنْ سَأْقَيْهَا][٣]، وقولهم: بَأْز، وخَأْتم، قال أَبو الفتح: فإن قيل: شبهت الهمزة بالأَلف في أَنها ساوتها في الجهر والزيادة والبدل والحذف وقُرْب المخرج فقول مخشوب[٤] لا صنعة فيه ولا يكاد يُقْنع بمثله.

وقوله تعالى: (مِمَّنْ تَرْضوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ) رفع في موضع الصفة لقوله عز وجل: (فَرَجُلٌ وامْرَأَتَان)[٥]، قال أَبو علي: ولا يدخل في هذه الصفة قوله: (شَهِيدَيْنِ) لاختلاف الإعراب، وهذا حكم لفظي، وأَما المعنى فالرضى شرط في الشهيدين كما هو في الرجل والمرأَتين.

---

(١) لكثرة توالي الحركات.

(٢) يقال: عال عَيْلَةً وعَيْلا: افتقر ـ و: كثر عياله فهو عائل ـ وهو عيِّلٌ أيضاً ـ قال الشاعر:

سـلامٌ عَلـى يَحْيَـى، ولا يُـرْج عِنْـدَه   ولاءٌ، وإن أزرى بعيِّلـــه الفقـــر

أي: بعياله ـ والرَّقوب: الذي لا يبقى له ولدٌ ـ يقال للرجل وللمرأة.

(٣) في سورة النمل في قصة بلقيس ونص الآية: (قِيلَ لَهَا ادخلي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا). الآية (٤٤) ـ ومثل قراءته (سأْقَيْهَا) بهمز الألف ساكنة قولهم: الخأْتم والعأْلم.

(٤) أي: غير مرضي ولا مقبول لما فيه من الخلط، قال ابن خالويه: مشبه بالجفنة المخشوبة وهي التي لم تحكم صنعتها.

(٥) وقيل: هو بدلٌ من قوله تعالى: (رِجَالِكُمْ) على تكرير العامل ـ قال أبو (ح) عن هذين الإعرابين: «وهما ضعيفان»، لأن الوصف يشعر باختصاصه بالموصوف، فيكون قد انتفى هذا الوصف عن (شهيدين) ـ ولأن البدل يؤذن بالاختصاص بالشهيدين الرجلين، فعرى عنه: (رجلٌ وامرأتان) ـ والذي يظهر أنه متعلق بقوله: (واسْتَشْهدوا)، أي: واستشهدوا ممن ترضون من الشهداء ليكون قيداً في الجميع، ولذلك جاء متأخراً بعد ذكر الجميع». البحر المحيط ٢ـ٣٤٧.

قال ابن بكير وغيره: قوله: (مِمَّنْ تَرْضَوْنَ) مخاطبة للحكام، وهذا غير نبيل إنما الخطاب لجميع الناس لكن المتلبس بهذه القضية إنما هم الحكام، وهذا(١) كثير في كتاب الله يعم الخطاب فيما يتلبس به البعض. وفي قوله: (مِمَّنْ تَرْضَوْنَ) دليلٌ على أن في الشهود من لا يُرضي فيجيءُ من ذلك أن الناس ليسوا بمحمولين على العدالة حتى تثبت لهم.

وقرأ حمزة وحده: [إِنْ تَضِلَّ] بكسر الألف وفتح التاءِ وكسر الضاد [فَتُذَكِّرُ] بفتح الذال ورفع الراءِ، وهي قراءَة الأعمش، وقرأَها الباقون: [أَن تَضِل] بفتح الألف [فَتُذكِّرَ] بنصب الراءِ غير أَن ابن كثير وأَبا عمرو خففَا الذال والكاف وشددها الباقون(٢).

وقد تقدم القول فيما هو العامل في قوله: (أَنْ تَضِل)(٣) و(أَنْ) مفعول من أَجله(٤)، والشهادة لم تقع لأَن تضل إحداهما وإِنما وقع إِشهاد امرأَتين لأَن تذكر إِحداهما إِن ضلت الأُخرى، قال سيبويه، وهذا كما تقول: أَعددت هذه الخشبة أَن يميل هذا الحائط فأَدعمه(٥).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولما كانت النفوس مستشرفة إِلى معرفة أَسباب الحوادث قدم في هذه الآية ذكر

---

(١) أي كون الخطاب عامّاً ويتلبس به بعض الناس كأحكام المباشرين للقضايا.

(٢) يريد بتخفيف الذال أن تكون ساكنة ـ أما قوله: «وشدَّدها الباقون» فالضمير عائد على الكاف وحدها. والله أعلم.

(٣) في قول ابن عطية: وعلى كل وجه فالمقدر هو العامل في قوله: (أن تضِلَّ إِحْداهُمَا) عند إعراب (فَرَجُلٌ وامْرأَتَانِ)، وهذه على قراءة [أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا] بفتح الهمزة، وهو تعليل لاعتبار العدد في النساء، أي: فليشهد رجل وتشهد امرأتان عوضاً عن الرجل الآخر لأجل تذكير إحداهما للأخرى إذا ضلت.

(٤) تقديره عند الكوفيين: لئلا تضل إحداهما، الخ. ويرد عليهم (فَتُذَكِّرَ إِحْداهمَا) بالنصب، إذ يصير التقدير: لئلا تضل، ولئلا تذكر. وتقديره عند البصريين: كراهية أو إرادة أن تضل، ويرد عليهم أيضاً قوله تعالى: (فتذكر) بالنصب، فإن حكمه حكم المعطوف، فيكون التذكير مكروهاً، وإن قدروا الإرادة كان الضلال مراداً. والجواب عن هذا كله أن الكلام محمول على المعنىٰ كما قالوا لأن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت. وعدل النساء كعدل الرجال إلا أن عقلهن ينقص عن عقل الرجال كما قال ﷺ، وشهادة امرأتين بشهادة رجل دليل على ذلك، لأن استشهاد امرأتين مكان رجل هو من أجل إذكار إحداهما الأخرى إذا ضلت، وهذا إنما يكون فيمن يكثر نسيانه ويقل ضبطه.

(٥) فالقائل لا يطلب بذلك ميلان الحائط، ولكنه أخبر بعلة الدعم وسببه من قبل، فالكلام محمول على المعنى.

سبب الأمر المقصود أَن يخبر به[(١)]، وفي ذلك سبق النفوس إِلى الإِعلام بمرادها، وهذا من أَبرع أَنواع الفصاحة، إِذ لو قال رجل لك: أَعددت هذه الخشبة أَن أَدعم بها هذا الحائط لقال السامع: ولم تدعم حائطاً قائماً؟ فيجب ذكر السبب فيقال: إِذا مال. فجاءَ في كلامهم تقديم السبب أَخصر من هذه المحاورة. وقال أَبو عبيد: معنى تضل: تنسى، والضلال عن الشهادة إِنما هو نسيان جزءٍ منها، وذكر جزءٍ، ويبقى المرءُ بين ذلك حيران ضالاً، ومن نسي الشهادة جملة فليس يقال: ضل فيها[(٢)]، فأَما قراءَة حمزة فجعل (إِنْ) للجزاءِ، والفاءَ في قوله: (فَتُذَكِّر) جواب الجزاءِ، وموضع الشرط وجوابه رفع بكونه صفة للمذكور وهما المرأَتان. وارتفع (تذكرُ) كما ارتفع قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾[(٣)] هذا قول سيبويه، وفي هذا نظر[(٤)] . وأَما نصب قوله: (فتذكرَ) على قراءَة الجماعة فعلى العطف على الفعل المنصوب بـ[ـأَن].

وتخفيف الكاف على قراءَة أَبي عمرو، وابن كثير هو بمعنى تثقيله من الذكر، يقال: ذكَّر وأَذكر. تُعدِّيه بالتضعيف أَو بالهمز. وروي عن أَبي عمرو بن العلاءِ، وسفيان بن عيينة[(٥)] أَنهما قالا:

معنى قوله: (فتذكر) بتخفيف الكاف أَي تردها ذكراً في الشهادة، لأَن شهادة امرأَة

---

(١) لما بين السبب والمسبب من الاتصال والملابسة ـ ثم إن الحكمة في تكرير (إِحْدَاهُمَا) في الآية إفادة تذكرة الذاكرة للغافلة، وتذكرة الغافلة للذاكرة أيضاً لو انقلبت الحال فيهما بأن تذكر الغافلة وتغفل الذاكرة ـ وذلك غاية في البيان، ولو قيل: فتذكرها الأخرى لكان البيان من جهة واحدة لتذكرة الذاكرة الناسية، قاله ابن العربي، وحاصله أن الفاعل وقع مبهماً أولا وثانياً وهو (إحداهما) لإفادة أن كلا من المرأتين يجوز عليها الضلال والإذكار، فلم يرد بإحداهما معينة، وبذلك دخل الكلام معنى العموم، وكأنه قيل: من ضلت منهما أذكرتها الأخرى، فالإظهار خير من الإضمار ليحتمل القول كليهما، وأما الإضمار فيدل على تعيين واحدة منهما.

(٢) يرده ما في نهاية ابن الأثير وغيرها من إطلاق الضال على الناس مطلقاً، والله أعلم.

(٣) من الآية (٩٥) من سورة المائدة.

(٤) لعل تنظير قراءة الرفع بقوله تعالى: (وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ الله مِنْهُ) إنما هو من جهة تقدير ضمير بعد الفاء بحسب ما يقتضيه المقام لا من جهة كونه مفرداً أو مثنى، أي فهي تذكر أو فهما تذكر إحداهما الأخرى، تأمل، والله أعلم.

(٥) سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي ـ أبو محمد ـ كان حافظاً ثقة، قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز، له «الجامع» في الحديث، وكتاب في التفسير. الأعلام ٣ـ١٥٩، وابن خانكان ١ـ٢١٠ وتذكرة الحفاظ ١ـ٢٤٢.

نصف شهادة، فإذا شهدتا صار مجموعهما كشهادة ذَكَر، وهذا تأْويل بعيد غير فصيح، ولا يحسن في مقابلة الضلال إلا الذكر ـ وذكَّرت بشد الكاف يتعدى إلى مفعولين، و[أَحَدُهما] في الآية محذوف، تقديره: فتذكر إحداهما الأُخرى الشهادة التي ضلت عنها. وقرأَ الجحدري وعيسى بن عمر: [أَنْ تُضَل] بضم التاءِ وفتح الضاد بمعنى أَن تُنسى، هكذا حكى عنهما أَبو عمرو الداني، وحكى النقاش عن الجحدري ضم التاءِ وكسر الضاد بمعنى أَن تُضل الشهادة، تقول: أَضللت الفرس والبعير إذا تلفا لك وذهبا فلم تجدهما. وقرأَ حميد بن عبد الرحمن، ومجاهد: [فتذكِرُ] بتخفيف الكاف المكسورة ورفع الراءِ، وتضمنت هذه الآية جواز شهادة امرأَتين بشرط اقترانهما برجل[١]، واختلف قول مالك في شهادتهما ـ فروى عنه ابن وهب أَن شهادة النساءِ لا تجوز إلا حيث ذكرها الله في الدين، وفيما لا يطلع عليه أَحد إلا هُنَّ للضرورة إلى ذلك، وروي عن ابن القاسم أَنها تجوز في الأَموال، والوكالات على الأَموال، وكل ما جر إلى مال، وخالف في ذلك أَشهب وغيره.

وكذلك إذا شهدن على مايؤدي إلى غير مال ـ ففيها قولان في المذهب.

قوله عز وجل:

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾.

قال قتادة، والربيع، وغيرهما: معنى الآية: إذا دعوا أَن يشهدوا فيتقيد حق بشهادتهم، وفي هذا المعنى نزلت لأَنه كان يطوف الرجل في القوم الكثير يطلب مَنْ يشهد له فيتحرجون هم عن الشهادة فلا يقوم معه أَحد فنزلت الآية في ذلك.

وقال الحسن بن أَبي الحسن: الآية جمعت أَمرين ـ لا تأْب إذا دُعيت إلى تحصيل الشهادة، ولا إذا دُعيت إلى أَدائها، وقاله ابن عباس:

وقال مجاهد: معنى الآية ـ لا تأْب إذا دعيت إلى أَداءِ شهادة قد حصلت عندك.

---

(١) وأما امرأتان من دون رجل فلا تجوز إلا فيما لا يطلع عليه غيرهن للضرورة كالولادة، وذهب مالك والشافعي رحمهما الله تعالى، إلى أن المدعي كما يحلف مع الشاهد الواحد كذلك يحلف مع المرأتين، لأن الله جعل المرأتين في هذه الآية كالرجل، وليس في الآية ما يمنع ذلك.

وأَسند النقاش إِلى النبي ﷺ أَنه فسر الآية بهذا. قال مجاهد: فأَما إِذا دعيت لتشهد أَولا فإِن شئْت فاذهب، وإِن شئت فلا تذهب[١]، وقاله: لاحق بن حميد[٢]، وعطاءٌ، وإِبراهيم، وابن جبير، والسدي، وابن زيد، وغيرهم.

والآية كما قال الحسن جمعت أمرين على جهة الندب، فالمسلمون مندوبون إِلى معونة إِخوانهم، فإِذا كانت الفسحة لكثرة الشهود والأَمن من تعطيل الحق فالمدعو مندوب، وله أَن يتخلف لأَدنى عذر، وإِن تخلف لغير عذر فلا إِثم عليه، ولا ثواب له، وإِذا كانت الضرورة، وخيف تعطُّل الحق أَدنى خوف قوي الندب، وقرُبَ من الوجوب. وإذا عُلم أَن الحق يذهب ويتلف بتأخر الشاهد عن الشهادة فواجب عليه القيام بها لاسيما إِن كانت محصلة، وكان الدعاءُ إِلى أَدائها، فإِن هذا الطرف آكد، لأَنها قلادة في العنق، وأَمانة تقتضي الأَداءَ.

(وَلا تَسْأَمُوا) معناه: تملوا، و(صغِيراً أَو كَبيراً) حالان من الضمير في: (تَكْتُبُوه)، وقدم الصغير اهتماماً به، وهذا النهي عن السآمة إِنما جاءَ لتردد المداينة عندهم[٣]، فخيف عليهم أَن يملوا الكتب[٤].

(وأَقْسَطُ) معناه: أَعدل، وهذا أَفعل من الرباعي، وفيه شذوذ[٥] فانظر هل هي من

---

(١) يفهم من كلام ابن عطية أن مجاهداً حمل الآية على الأداء، وأن الحسن البصري حملها على التحمل والأداء جميعاً ـ فإذا كانت الشهادة للأداء فواجب على الشهداء أن يؤدوا ما عندهم من العلم بها لأنها أمانة في عنقهم ـ وإذا كانت للتحمل فلهم أن يجيبوا، ولهم ألا يجيبوا، اللهم إلا إذا علم أن الحق يذهب ويضيع فيجب عليهم أن يقوموا بالشهادة، وأما الحسن البصري فإنه يقول بإجابة الدعاء إلى التحمل، إلا أن الشهيد لا يسمى شهيداً على الحقيقة إلا إذا حصلت الشهادة عنده، وقد يقال حملها على التحمل أولى، لأن الأداء مبين بقوله تعالى: (ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) ـ والله أعلم.

(٢) لاحق بن حميد هو أبو مجلز السدوسي البصري التابعي المتوفىٰ في خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

(٣) أي: لتكررها وكثرتها.

(٤) قوله تعالى في هذه الآية: (إلى أجله) لا يصح أن يتعلق بقوله: (أنْ تَكْتُبُوه) لعدم استمرار الكتابة إلى أجل الدين، إذ أنها تنقضي في زمن وجيز، وليس ذلك نظير قولنا مثلاً: «سرت إلى الكوفة» لأن السير يستمر حتى تصل إلى الكوفة ـ وإنما هو متعلق بمحذوف، ويكون التقدير: «ولا تسأموا أن تكتبوه مستقراً في الذمة إلى أجله».

(٥) نصُّوا على أن قسط الثلاثي تأتي بمعنى: عدل، وبمعنى: جار، ونص سيبويه على أن أفعل التفضيل يأتي من أفعل الرباعي، وعليه فأقسط وأقوم إما من قسط وقام، وإمّا من أقسط وأقام، وعلى هذا فلا شذوذ. وإن أردت مزيداً من التفصيل والآراء فارجع إلى البحر المحيط ٢ ـ ٣٥١، ٣٥٢.

قسُط بضم السين كما تقول أكرم من كرُم. يقال: أَقْسَط بمعنى عدل، وقَسَط بمعنى جار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[1] ومن قدر قوله: (وأقوم للشهادة) بمعنى: وأَشد إِقامة فذلك أَيضاً أَفعل من الرباعي، ومن قدَّرها من قام بمعنى: اعتدل زال عن الشذوذ، (وأَدنى) معناه: أَقرب و(ترتابوا) معناه: تشكُّوا، وقرأَ أبو عبد الرحمن السلمي: (يَسْأَمُوا، ويَكْتُبوه ويَرْتَابوا) كلها بالياءِ على الحكاية عن الغائب.

قوله عز وجل:

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾.

لما علم الله تعالى مشقة الكتاب عليهم نص على ترك ذلك، ورفع الجناح فيه في كل مبايعة بنقد[2]، وذلك في الأَغلب إنما هو في قليل كالمطعوم ونحوه لا في كثير كالأَملاك ونحوها، ولذا قال السدي، والضحاك: هذا فيما كان يداً بيد تأْخذ وتعطي، و(أَنْ) في موضع نصب على الاستثناءِ المنقطع.

وقوله تعالى: (تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ) يقتضي التقابض والبينونة بالمقبوض ـ ولما كانت الرباع والأَرض وكثير من الحيوان لا تقوى[3] البينونة به ولا يغاب عليه ـ حسن الكتب فيها، ولحقت في ذلك بمبايعة الدين. وقرأَ عاصم وحده: [تِجَارةً] نصباً، وقرأَ الباقون: [تِجَارَةٌ] رفعاً، قال أَبو علي: وأَشك في ابن عامر ـ وإِذا أَتت (كان) بمعنى حدث ووقع ـ غنيت عن خبر، وإِذا خُلع منها معنى الحدوث لزمها الخبر المنصوب، فحجة من رفع [تجارةٌ] أَنَّ (كان) بمعنى حدث ووقع، وأَما من نصب فعلى خبر (كان)

---

(١) الآية (١٥) من سورة الجن.

(٢) يشير إلى أن الاستثناء من قوله تعالى: (فاكْتُبُوه). وما بين المستثنى والمستثنى منه كله اعتراض.

(٣) في بعض النسخ «لا تقبل البينونة» بدلاً من قوله: لا تقوى البينونة، وترجع إلى الأرض والرباع. «ولا يغاب عليه» يرجع إلى «الكثير من الحيوان». وهي متفقة مع عبارة القرطبي، أما التعبير بقوله: «لا تقوى البينونة به» فقد ورد في البحر المحيط» ـ والمعنى: لا يقوى على البينونة ولا على الغياب عليه ـ لكن جملة: «ولا يغاب عليه» وردت في البحر: «ولا يعاب عليها حسن الكتب» ـ وكل ذلك من سهو النساخ ـ والله أعلم.

والاسم مقدر، تقديره عند أبي علي، إمَّا: «المبايعة» التي دلت الآيات المتقدمة عليها، وإمَّا: [إلا أَنْ تكُونَ «التجارة تِجَارَةً»] ويكون مثل ذلك قول الشاعر:

فِدًى لِبَنِي ذُهْلِ بنِ شيبانَ ناقتي ... إذا كان يوماً ذا كواكِبَ أَشْنَعَا[1]

أي: إذا كان اليوم يوماً، هكذا أنشد أبو علي البيت، وكذلك أبو العباس المبرد، وأنشد الطبري:

وَللهِ قَومِي أيّ قوم لِحُرَّةٍ ... إذا كان يوماً ذا كواكب أشنعا

وأنشده سيبويه: يومٌ بالرفع.

إذا كان يومٌ ذو كواكبَ ... .

وقوله تعالى: (وَأَشْهِدُوا إِذا تَبَايَعْتُمْ)، قال الطبري: معناه: «وأشهدوا على صغير ذلك وكبيره»، واختلف الناس ـ هلْ ذلك على الوجوب أو على الندب؟ فقال الحسن، والشعبي، وغيرهما: ذلك على الندب. وقال ابن عمر، والضحاك: ذلك على الوجوب، وكان ابن عمر يفعله في قليل الأشياءِ وكثيرها. وقاله عطاءٌ، ورجح ذلك الطبري: والوجوب في ذلك قلق، أما في الدقائق فصعب شاق، وأما ما كثر فربما يقصد التاجر الاستيلاف بترك الإشهاد، وقد يكون عادة في بعض البلاد، وقد يستحي من العالم والرجل الكبير الموقر فلا يشهد عليه، فيدخل ذلك كله في الائتمان، ويبقى الأمر بالإشهاد ندباً لما فيه من المصلحة في الأغلب مالم يقع عذر يمنع منه كما ذكرنا، وحكى المهدوي عن قوم أنهم قالوا: (وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ) منسوخ بقوله: (فإن أَمن) الآية. وذكره مكي عن أبي سعيد الخدري.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: (وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ ولا شَهِيدٌ) فقال الحسن،

---

(١) الشاعر هو: مقاس العابدي واسمه: مسهر بن النعمان، وهو من قريش ـ نزل في بني ذهل بن شيبان (واليوم يوم الحرب) ووصفه بقوله: ذا كواكب، إشارة إلى أنه يوم مظلم كالليل الذي ترى فيه الكواكب، والشناعة: القبح، ومنهم من أنشد البيت هكذا:

بَني أسدٍ، هَلْ تَعْلَمُون بَلاءَنَا ... إذا كان يوماً ذا كواكبَ أَشْنَعَا؟

وقد نسبوه إلى عمرو بن شاس، وقد أنشده سيبويه بالرفع ـ وأنشده الطبري ـ كما ذكر ابن عطية هكذا.

ولله قومي، أيُّ قوم لحرَّةٍ ... إذا كان يوماً ذا كواكب أشْنَعَا

وقتادة، وطاوس، وابن زيد، وغيرهم: المعنى: ولا يضار الكاتب بأَن يكتب ما لم يُمْل عليه، ولا يضار الشاهد بأَن يزيد في الشهادة أَو ينقص منها، وقال مثله ابن عباس، ومجاهد، وعطاءٌ، إلا أَنهم قالوا: لا يضار الكاتب والشاهد بأَن يمتنعا، ولفظ الضرر يعم هذا، والقول الأَول، والأَصل في (يُضَارَّ) على هذين القولين يضارِرْ بكسر الراءِ، ثم وقع الإِدغام وفتحت الراءُ في الجزم لخفة الفتحة.

وقال ابن عباس أَيضاً، ومجاهد، والضحاك، والسدي، وطاوس، وغيرهم: معنى الآية: ولا يضار كاتب ولا شهيد بأَن يؤذيه طالب الكتبة أَو الشهادة فيقول: اكتب لي أَو اشهد لي، في وقت عذر أَو شغل للكاتب أَو الشاهد، فإِذا اعتذرا بعذرهما حرج وآذاهما، وقال: خالفت أَمر الله ونحو هذا من القول، ولفظ المضارة إِذ هو من اثنين يقتضي هذه المعاني كلها[1]، والكاتب والشهيد على القول الأَول رفع بفعلهما، وفي القول الثاني رفع على المفعول الذي لم يسم فاعله، وأَصل (يُضَارَّ) على القول الثاني يضارر بفتح الراءِ، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعن ابن مسعود، ومجاهد أَنهم كانوا يقرؤُون: [وَلا يُضَارَر] بالفك وفتح الراءِ الأُولى، وهذا على معنى أَن يبدأَهما بالضرر طلب الكتبة والشهادة، وذكر ذلك الطبري عنهم في ترجمة هذا القول، وفسر القراءَة بهذا المعنى، فدل ذلك على أَن الراءَ الأُولى مفتوحة كما ذكرنا.

وحكى أَبو عمرو الداني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وابن عباس، وابن أَبي إِسحق، ومجاهد أَن الراءَ الأُولى مكسورة، وحكى عنهم أَيضاً فتحها. وفك الفعل هي لغة أَهل الحجاز، والإِدغام لغة تميم وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع، وعمرو بن عبيد: [ولايُضَارّ] بجزم الراءِ وقال أَبو الفتح: تسكين الراءِ مع التشديد فيه نظر، ولكن طريقه أُجري الوصل مجرى الوقف، وقرأَ عكرمة: [وَلا يُضارِرْ] بكسر الراءِ الأُولى [كاتِباً ولا شهيداً] بالنصب، أَي لا يبدأُهما صاحب الحق بضرر، ووجوه المضارة لا تنحصر. وروى مِقْسم[2] عن عكرمة أَنه قرأَ: [ولا يُضَارِّ] بالإِدغام وكسر الراءِ للالتقاءِ، وقرأَ ابن

---

(١) خلاصة ذلك أن المفسرين اتفقوا على إسناد الضرر إلى الكاتب والشهيد، واختلفوا في تفسير الضرر، وقول ابن عطية: «وقال: خالفت أمر الله». وردت هكذا بالنسخ التي بين أيدينا ـ لكن القرطبي عبر بقوله: «خالفتما» وهو الأصح لأن الضمير يعود على الكاتب والشهيد إذا اعتذرا.

(٢) مِقْسم كمِنبر. يقال له مولى ابن عباس ـ ولم يكن مولاه ـ لملازمته إياه. توفي سنة ١٠١هـ.

محيصن: [ولا يضارُّ] برفع الراءِ مشددة، قال ابن مجاهد[١]: ولا أدري ما هذه القراءَة. قال أَبو الفتح: هذا الذي أَنكره ابن مجاهد معروفٌ، وذلك أَن تجعل (لا) نفياً أَي: ليس ينبغي أَن يضار، كما قال الشاعر:

عَلَى الحَكَم المأْتِيِّ يَوماً إِذا قَضَى قَضِيَّتَــــه أَلا يَجُـــورَ ويَقْصِـــدُ[٢]

فرفع «ويقصد» على إِرادة وينبغي أَن يقصد، فكذلك يرتفع (ولا يُضارُّ) على معنى: وينبغي أَلا يضار، قال: وإِن شئت كان لفظ خبر على معنى النهي، وهذا قريب من النظر الأَول.

وقوله تعالى: (وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ) مَنْ جعل المضارة المنهي عنها زيادة الكاتب والشاهد فيما أُملي عليهما أَو نقصهما منه فالفسوق على عرفه في الشرع، وهو مواقعة الكبائر، لأَن هذا من الكذب المؤذي في الأَموال والأَبشار، وفيه إِبطال الحق ـ ومن جعل المضارة المنهي عنها أَذى الكاتب والشاهد بأَن يقال لهما: أَجيبا ولا تخالفا أَمر الله أَو جعلها امتناعهما إِذا دُعيا، فالفسوق على أَصله في اللغة الذي هو الخروج من شيءٍ كما يقال: فسقت الفأْرة إِذا خرجت من جحرها، وفسقت الرطبة[٣]، فكأَن فاعل هذا فَسَقَ عن الصواب والحقِّ في هذه النازلة، ومن حيث خالف أَمر الله في هذه الآية فيقرب الأَمر من الفسوق العرفي في الشرع.

وقوله: (بِكُمْ) تقديره: فسوق حالٌّ بكم، وباقي الآية موعظة وتعديدُ نعمة، والله المستعان لا رب غيره[٤]، وقيل: معنى الآية: الوعد بأَن من اتقىٰ عُلِّمَ الخيرَ وأُلْهِمَهُ[٥].

---

(١) هو مقرىءُ العراق أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد، توفي سنة ٣٢٤هـ. عن ثمانين سنة.

(٢) قيل هو أبو اللحام التغلبي، وقيل عبد الرحمن بن الحكم، والصحيح الأول كما قاله صاحب اللسان.

(٣) وفسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها أيضاً.

(٤) كان مالك بن دينار البصري التابعي رحمه الله يقول: جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم، فالتقوى جهاد، وجهاد الأهواء أشق من جهاد الأعداء.

(٥) التقوى لها موضعان: الأول اتقاء الكفر والشرك، والاعتراف برسالة الله، وبذلك تكون الاستجابة إلى الإسلام. والموضع الثاني: اتقاء المعاصي والذنوب، وبذلك يلقي الله سبحانه نوراً في القلوب، فيعلم الإنسان مالم يكن يعلم، فلا تنافي بين كون العلم سبباً في التقوى، وكون التقوى تثمر العلم، وتفرق بين الحق والباطل، وعليه فمعنى الآية الكريمة ـ على ما قرره الأئمة في صناعة النحو ـ أن الله يعلِّمكم على كل حال فاتقوه. فكان الثاني سبباً في الأول فترتب الأمر بالتقوى على حصول التعليم ترتباً معنوياً، وهو يقتضي تقدم العلم على العمل، والأدلةعلى ذلك كثيرة، ففي صحيح البخاري «باب العلم قبل القول=

قوله عز وجل:

﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) ﴾.

لما ذكر الله تعالى الندب إلى الإشهاد والكتب لمصلحة حفظ الأَموال والديون، عقَّب ذلك بذكر حال الأَعذار المانعة من الكتب، وجعل لها الرهن، ونص من أَحوال الرهن على السفر الذي هو الغالب من الأَعذار، لا سيما في ذلك الوقت لكثرة الغزو.

ويدخل في ذلك بالمعنى كلُّ عذر، فرُبَّ وقت يتعذر فيه الكاتب في الحضر، كأَوقات أَشغال الناس، وبالليل، وأَيضاً فالخوف على خراب ذمة الغريم عذر يوجب طلب الرهن. وقد رهن النبي ﷺ درعه عند يهودي طلب منه سلف الشعير فقال: إنما يريد محمد أَن يذهب بمالي، فقال النبي ﷺ: (كَذَبَ، إِنِّي لأَمين في الأَرض، أَمين في السماءِ، ولو ائْتمنني لأَديت، اذهبوا إِليه بدرعي). وقد قال جمهور من العلماءِ: الرهن في السفر ثابت في القرآن، وفي الحضر ثابت في الحديث[1]، وهذا حسن، إِلا أَنه لم يمعن النظر في لفظ السفر في الآية، وإِذا كان السفر في الآية مثالاً من الأَعذار، فالرهن في الحضر موجود في الآية بالمعنى[2] إذ قد تترتب الأَعذار في الحضر. وذهب الضحاك، ومجاهد إلى أَن الرهن والائتمان إنما هو في السفر، وأَما الحضر فلا ينبغي

= والعمل»: وإن الله لم يتعبد الخلق بالجهل، وإنما تعبدهم على مقتضى قوله سبحانه: (واتَّقوا الله ويُعَلِّمُكُمُ الله)، ومن الناس من جعل الآية الكريمة على حد قوله تعالى: (إنْ تَتَّقُوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)، ولكن هذا لا تساعده قواعد اللغة العربية، ثم إن تكرار اسم الجلالة في هذه الجمل الثلاث هو من التكرار المستحسن، وهو ما كان للتعظيم في جمل متعاقبة، كل واحدة قائمة بنفسها، فالأولى: أمر بتقوى الله العظيم، والثانية: وعد بنعمة التعليم، والثالثة: غاية في باب التعظيم، ووجه العطف فيها اختلافها في الظاهر بالخبر والإنشاء. هذا ـ ويرى أبو (ح) أن جملة (ويعلمكم الله) جملة مستأنفة لا موضع لها من الإعراب، وهي تذكر بنعم الله التي أشرفها تعليم العلوم للناس. وجملة: (والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) أيضاً جملة مستقلة تدل على إحاطته تعالى بالمعلومات وقد ذكرنا بعد جملة تحث على التقوى. وهذا هو معنى ما أشرنا إليه من قيام كل جملة بنفسها.

(١) رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك وكذلك رواه غيرهما.

(٢) أي: «وإن كنتم على عذر كالسفر»، فيكون السفر مثالاً ذكر للإيضاح، والرهن وثيقة للحق وشاهد عليه في العرف.

شيءٌ من ذلك، وضعَّف الطبري قولهما في الرهن بحسب الحديث الثابت الذي ذكرته، وقوَّى قولهما في الائتمان، والصحيح ضعفُ القول في الفصلين، بل يقع الائتمان في الحضر كثيراً ويحسن.

وقرأ جمهور القراءِ: (كَاتِباً) بمعنى: رجل يكتب، وقرأ أُبي بن كعب، وابن عباس (كتاباً): بكسر الكاف، وتخفيف التاءِ، وألف بعدها، وهو مصدر قال مكي: وقيل: هو جمع كاتب كقائم وقيام، ومثلُه صاحب وصِحاب، وقرأ بذلك مجاهد، وأبو العالية، وقالا: المعنى: وإن عدمت الدواة والقلم والصحيفة.

ونفيُ وجود الكتاب يكون بعدم أي آلة اتفق من الآلة، فنفي الكتاب يعمها، ونفي الكاتب أيضاً يقتضي نفي الكتاب، فالقراءَتان حسنتان إلا من جهة خط المصحف[١]، وروي عن ابن عباس أنه قرأ [كُتَّاباً] بضم الكاف على جمع كاتب، وهذا يحسن من حيث لكل نازلة كاتب[٢] فقيل للجماعة: [وَلَمْ تَجِدُوا كُتَّاباً]، وهذا هو الجنس الذي تدل عليه قراءَة من قرأ: [كَاتِباً]. وحكىٰ المهدوي، عن أبي العالية أنه قرأ: [كُتُباً]، وهذا جمع [كتاب] من حيث النوازل مختلفة، وهذا هو الجنس الذي تدل عليه قراءَة من قرأ: [كتاباً].

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وجمهور من العلماءِ: [فَرِهَانٌ]، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: [فرُهُن] بضم الراءِ والهاءِ، وروي عنهما تخفيف الهاءِ، وقد قرأ بكل واحدة جماعة غيرهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

رهن الشيءُ في كلام العرب معناه: دام واستمر. يقال: أرهن لهم الشرب وغيره. قال ابن سيدة: ورهنه: أي أدامه[٣] ـ ومن رهن بمعنى دام قولُ الشاعر:

اللحْمُ والخُبْزُ لَهُم راهِنا وقَهْوَةٌ راووقُها سَاكِبُ[٤]

---

(١) نَفْي الكاتب يقتضي نَفْي الكتابة ـ ونفي الكتابة يقتضي نفي الكاتب ـ فعلى أي قراءة يكون كل من الكاتب والكتابة غير متوافرين. لكن ابن عطية، بعد أن حكم بالحسن على القراءتين من حيث المعنى ـ رجح القراءة التي جاء بها خط المصحف العثماني ـ وهي (كاتبا) على قراءة (كتاباً).

(٢) هذه علة قراءة الجمع، سواءٌ كان كُتَّاباً أو كُتُباً.

(٣) تفسير لما قبله من رهن وأرهن.

(٤) الراووق: المصفاة التي تصفى بها الخمر ـ والباطية، والكأس ـ قال الشاعر: =

أَي: دائم، قال أَبو علي: ولما كان الرهن بمعنى الثبوت والدوام فمن ثَمَّ بطل الرهن عند الفقهاءِ إِذا خرج من يد المرتهن إِلى يد الراهن بوجه من الوجوه، لأَنه فارق ما جعل له(١)، ويقال: أَرهن في السلعة إِذا غالى فيها حتى أَخذها بكثير الثمن، ومنه قول الشاعر في وصف ناقة:

يطوي ابنُ سَلْمى بها من راكبٍ بُعُداً ... عيدِيَّةٌ أُرهِنت فيها الدَّنانير(٢)

العيد بطن من مَهْرة، وإِبل مَهْرة موصوفة بالنجابة. ويقال في معنى الرهن الذي هو التوثق من الحق: أَرهنت إِرهاناً فيما حكى بعضهم. وقال أَبو علي: يقال: أَرهنت في المغالاة، وأَما في القرض والبيع فرهنت(٣).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويقال بلا خلاف في البيع والقرض: رهنت رهناً، ثم سمي بهذا المصدر الشيءُ المدفوع، ونقل إِلى التسمية، ولذلك كسر في الجمع كما تكسر الأَسماءُ، وكما تكسر المصادر التي يسمّىٰ بها وصار فعله ينصبه نصب المفعول به لا نصب المصدر تقول:

= وقهــوة مــزَّةٍ راووقهــا خضــل ... .

والساكب: الذي يسيل منه الشراب.

(١) من هنا قال مالك رحمه الله: إذا عاد الرهن إلى الراهن بأي وجه من الوجوه فإن المرتهن لا ينتفع بالرهن ولا يختص به إذا قام الغرماء على الراهن، فالقبض عند الإمام مالك رحمه الله شرط في الانتفاع والاختصاص به، وذلك أدخل في اعتبار الأحكام، فلا بد من وجود القبض ودوامه كما هو معنى الرهن في لغة العرب.

(٢) الشاعر هو رذاذ الكلبي كما جاء في اللسان. ويروى صدر البيت فيه هكذا:

ظَلَّــتْ تَجــولُ بِهَــا البلْــدانَ نَــاجِيَــةٌ ... .

والعيديَّةُ: نوق من كرام النجائب ـ والأصل في التسمية أو الوصف أنها نسبت إلى أحد الفحول المنجبة وكان يسمى (عيدا)، ويرى ابن عطية أنها منسوبة إلى (العيد) بطن من بطون مَهْرَة، وهي قبيلة كبيرة منسوبة لمهرة بن حيدان، يقال عن نوقها: نجائب تسبق الخيل، وهكذا ورد في اللسان. ويريد برهن الدنانير فيها: المغالاة فيها حتى يحصل عليها بالثمن الكثير.

(٣) حاصله أنه يقال في الرهن المتعارف: رهنت باتفاق، وأرهنت بقلة، كما يفيده قول أبي علي، وقد يقال في هذا المعنى: أرهنت وفعلت فيه أكثر، ويقال: رهنته الشيء، ورهنت عنده الشيء. ويقال رهنته لساني أي حبسته عنده بأن عاهدته على أمر أو واعدته به، ولا يقال أرهنته لساني بالهمزة، ويقال في السلعة إذا غالى فيها ـ أرهنت فيها، ولا يقال: رهنت فيها، هذا ما وقعت الإشارة إليه. والله أعلم.

رهنت رهناً، فذلك كما تقول: رهنت ثوباً لا كما تقول: رهنت الثوب رهناً، وضربت ضرباً، قال أَبو علي: وقد يقال في هذا المعنى: أَرهنت، وفعلت فيه أَكثر، ومنه قول الشاعر[١].

يُـــراهِنُنـــي فَيَـــرْهَنُنـــي بَنِيـــهِ ... وأَرْهَنُـــه بَنِـــيَّ بمـــا أَقـــولُ

وقال الأَعشى:

حتـــى يُفِيـــدَكَ مِـــنْ بَنِيـــه رهِينـــةً ... نَعْشٌ وَيَرْهَنُك السِّماكُ الفَرْقَدَا[٢]

فهذه رُويت من: رَهَنَ. وأَما أَرهن فمنه قول همام بن مُرَّة:

ولمَّـــا خشِيـــتُ أَظـــافِيـــرَهُـــمْ ... نَجَـــوْتُ وَأَرْهَنْتُهُـــمْ مَـــالِكَـــا[٣]

قال الزجاج: يقال في الرهن: رهنت وأَرهنت، وقاله ابن الأَعرابي، ويقال: رهنت لساني بكذا، ولا يقال فيه: أَرهنت.

فمن قرأَ: (فَرِهَانٌ) فهو جمع رَهْن ككَبْش وكِباش، وكَعْب وكِعَاب، ونَعْل ونِعال، . وبَغْل وبغَال. ومن قرأَ: [فرُهُن] بضم الراءِ والهاءِ فهو جمع رَهْن ـ كسقفْ وسقُف، وأَسْدِ[٤] وأُسد، إِذ فعْل وفُعُل يتقاربان في أَحكامهما، ومن قرأَ [فرَهْن] بسكون الهاء فهو تخفيف رهُن وهي لغة في هذا الباب كلِّه ـ ككتْب وفخْذ وعضْد وغير ذلك. قال أَبو علي: وتكسير رُهُن على أَقل العدد لم أَعلمه جاءَ، ولو جاءَ لكان قياسه أَفْعُل ككَلْب

(١) هو أُحَيْحَه بن الجلاح.

(٢) قبله:

آلَيْـــتُ لا أُعطيـــه مـــن أبنَـــائِنَـــا ... رُهُنـــاً فَيُفْسِـــدُهُـــمْ كَمَـــنْ قَـــد أفْسَـــدا

ويأتي عند ابن عطية الاستشهاد به في بناءِ فُعُل كَرُسُل جمعاً لرَهْن. وروي يفيدك ـ ويقيدك، ويقيدك من أقاد بمعنى أعطى ـ ونعش: مجموعة نجوم في السماء منها «بنات نعش الكبرى والصغرى»، وكلمة (نعش) فاعل للفعل (يقيد) ـ والسماك: واحد السماكين ـ السماك الرامح وهو في الشمال والسماك الأعزل وهو في الجنوب ـ وهما نجمان نيران ـ والأصل أن السماك: كل ما سمُك حائطاً كان أو سقفاً ـ والفرقد: نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع ولهذا يهتدى به.

(٣) في الصحاح: عبد الله بن همام السلولي، فهما روايتان رواهما اللسان، وبعد البيت:

غـــريبـــاً مُقيمـــاً بـــدار الهَـــوا ... نِ، أهْـــون علـــيَّ بـــهِ هَـــالِكَـــا

وأحضـــرت عُـــذري عليـــه الشُّهـــو ... د إن عـــاذراً لـــي وإن تـــاركـــا

وَقَـــد شهِـــد النـــاس عنـــد الإمـــا ... م أنـــي عـــدوٌ لأعـــدائِكـــا

(٤) لغة في (أسد) بفتح السين.

وأَكْلُب، وكأنهم استغنوا بالكثير عن القليل في قولهم: ثلاثة شسوع، كما استغني ببناءِ القليل عن بناءِ الكثير في رسُن وأَرسان.

فرهن يجمع على بناءَين من أَبنية الجموع وهما: فُعُل وفِعَال، فمما جاءَ على فُعُل قول الأَعشى:

آلَيْــتُ لا أُعْطِيــه مِــنْ أَبْنَــائِنَــا رُهُنـاً فَيُفْسِـدُهُـمْ كَمَـنْ قَـدْ أَفْسَـدَا

قال الطبري: تأَول قوم أَن رُهُناً بضم الراءِ والهاءِ، جمع رهان، فهو جمع جمع، وحكاه الزجاج عن الفراءِ[١]. ووجَّه أَبو علي قياساً يقتضي أَن يكون رهاناً جمع رُهُن بأَن يقال: يُجمع فُعُل على فِعَال[٢] كما جمعوا فِعالاً على فعائل في قول ذي الرمة:

وقَـرَّبْـنَ بـالـزُّرْقِ الجَمَـائِـلَ بَعْـدَمَـا تقَـوَّبَ عـنْ غِـرْبَـانِ أَوْرَاكِهَـا الْخَطْـرُ[٣]

ثم ضعف أَبو علي هذا القياس، وقال: إِن سيبويه لا يرى جَمْع الجمع مطَّردا، فينبغي أَلا يقدم عليه حتى يرد سماعاً.

وقوله عز وجل: (مَقْبُوضَةٌ) يقتضي بينونة المرتهن بالرهن، وأَجمع الناس على صحة قبض المرتهن، وكذلك على قبض وكيله فيما علمت، واختلفوا في قبض عدل يوضع الرهن على يديه ـ فقال مالك، وجميع الصحابة، وجمهور العلماءِ: قبض العدل قبض، وقال الحكم بن عتيبة، وأَبو الخطاب قتادة بن دعامة[٤]، وغيرهما: ليس قبض العدل بقبض. وقول الجمهور أَصح من جهة المعنى في الرهن[٥].

وقوله تعالى: (فَإِنْ أَمِنَ) الآية، شرط ربط به وصية الذي عليه الحق بالأَداءِ،

---

(١) في اللسان: قال الفراء: «الرهْن يجمع رهاناً، مثل نَعْل ونِعال، ثم الرهان يجمع رُهُناً».

(٢) حاصله أن منهم من جعل رُهُن بضمتين جمع رهان، ومنهم من عكس فجعل رهان جمع رُهُن، وقد ضعفه أبو علي بأن جمع الجمع يقتصر فيه على السماع ولا قياس فيه.

(٣) الزرق: قال في القاموس: النصال والرمال بالدهناء، والمراد هنا النصال لأنها توصف بالزرقة ـ والجمائل: جمع جِمَال ـ وإن كان قال في اللسان في جمع جمل (ومثله في القاموس): والجمع: أجمال وجمال و. و. وجمائل ـ وتَقَوَّب: زال وانقلع ـ يقال: تقوب الشيء إذا انقلع من أصله. والغربان: جمع غراب وهو حد الورك الذي يلي الظهر ـ والخطْر: مصدر خطر البعير بذنبه رفعه مرة بعد أُخرى فضرب به فخذيه.

(٤) قتادة: اسم أبي الخطاب ـ وأبو الخطاب تابعي جليل.

(٥) لأن الرهن معناه: الحبس، فهو محبوس مقبوض عند العدل نيابة عن المرتهن.

وقوله: (فَلْيُؤَدِّ) أَمر بمعنى الوجوب، بقرينة الإِجماع على وجوب أَداءِ الديون، وثبوت حكم الحاكم به، وجبره الغرماءَ عليه، وبقرينة الأَحاديث الصحاح في تحريم مال الغير، وقوله: (أَمانَتَهُ) مصدر سُمِّي به الشيءُ الذي في الذمة[١]، وأَضافها إِلى الذي عليه الدين من حيث لها إِليه نسبة، ويحتمل أَن يريد بالأَمانة نفس المصدر[٢]، كأَنه قال: فليحفظ مروءَته، فيجيءُ التقدير: فليؤد دين أَمانته[٣]، وقرأَ عاصم ـ فيما روى عنه أَبو بكر ـ [الذُى اوْتُمِنَ] برفع الذال، ويشير بالضم إِلى الهمزة، قال أَحمد بن موسى: وهذه الترجمة غلط[٤]، وقرأَ الباقون بالذال مكسورة، وبعدها همزة ساكنة بغير إِشمام، وهذا هو الصواب الذي لا يجوز غيره. وروى سليم عن حمزة إِشمام الهمزة الضم، وهذا خطأٌ أَيضاً لا يجوز، وصوب أَبو علي هذا القول كلَّه الذي لأَحمد بن موسى، واحتج له، وقرأَ ابن محيصن: [الَّذي ايتُمنَ] بياءٍ ساكنة مكان الهمزة، وكذلك ما كان مثله.

وقوله تعالى: (وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ) نهي عن الوجوب[٥] بعدة قرائن منها الوعيد. وموضع النهي هو حيث يخاف الشاهد ضياع الحق. وقال ابن عباس: على الشاهد أَن يشهد حيثما استشهد، ويخبر حيثما استخبر، قال: ولا تقل: أُخبر بها عند الأَمير، بل أَخبره بها لعله يرجع ويرعوي.

---

(١) يعني أنه يستعمل مجازاً في الأعيان، فيقال: الوديعة أمانة، وما في الذمة أمانة، ويحتمل أن يراد بالأمانة نفس المصدر وهي المروءة، أي فليحفظ مروءته وفتوته بألا يخون ما جعل عليه أميناً.

(٢) أي يكون على حذف مضاف حسبما قدره المؤلف.

(٣) لأنه صار لا يعلم إلا من جهته.

(٤) أي الإشارة بالضم إلى الهمزة غلط، كما أن إشمام الهمزة الضم خطأ، وأحمد بن موسى هو المعروف بابن مجاهد، كبير العلماء بالقراءات في عصره، له كتاب «القراءات الكبير» وكتاب «الياءات»، وكتاب «الهاءات» توفي ٣٢٤هـ. وقد صوب أبو علي ما قاله أحمد بن موسى في اعتراضه على القراءتين.

(٥) قال ابن عباس رضي الله عنهما: «شهادة الزور، وكتمان الشهادة كلاهما من أكبر الكبائر، فإقامة الشهادة واجبة، واكتتامها مأثمة، ومثل كتمها تحريفها وإنكارها» وقد قال الله تعالى: (وإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً).

سانحة: الأكتم بالمثناة وبالمثلثة هو الشبعان، وعظيم البطن، وواسعه، وبه سمي، ومنه يحيى بن الأكتم الذي تولى قضاء البصرة وهو ابن إحدى وعشرين سنة، فأراد بعض الشيوخ أن يخجله فقال له: كم سن القاضي؟ فقال: مثل سن عَتَّاب بن أسيد لمَّا ولاه رسول الله ﷺ إمارة مكة وقضاءها، فأفحمه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي بحسب قرينة حال الشاهد، والمشهود فيه، والنازلة، لا سيما مع فساد الزمن، وأَرذال الناس، ونفاق الحيلة، وأَغراض الدنيا عند الحكام. فرب شهادة إِن صرح بها في غير موضع النفوذ كانت سبباً لتخدم باطلاً ينطمس به الحق.

و(آثمٌ) معناه: قد تعلق به الحكم اللاحق عن المعصية في كتمان الشهادة. وإِعرابه أَنه خبر (إِنَّ) و(قَلْبُهُ) فاعل بـ(آثم)، ويجوز أَن يكون ابتداءً، و(قلبه) فاعل يسد مسد الخبر، والجملة خبر (إِن)(١)، ويجوز أَن يكون (قلبه) بدلاً(٢) على بدل البعض من الكل، وخص الله تعالى ذكر القلب إِذ الكتم من أَفعاله، وإِذ هو المضغة التي بصلاحها يصلح الجسد، كما قال عليه السلام(٣)، وقرأَ ابن أَبي عبلة: (فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبَه) بنصب الباءِ، قال مكي: هو على التفسير(٤)، ثم ضعَّفه من أَجل أَنه معرفة. وفي قوله تعالى: (وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) توعد وإِن كان لفظها يعم الوعد والوعيد.

قوله عز وجل:

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾.

المعنى: جميع ما في السموات وما في الأَرض ملك لله وطاعة(٥) لأَنه الموجد المخترع لارب غيره، وعبَّر بـ(ما) وإِن كان ثمَّ مَن يعقل لأَن الغالب إِنما هو جماد وحيوان لا يعقل، ويقِلُّ من يعقل من حيث قلت أَجناسه إِذ هي ثلاثة: ملائكة، وإِنس، وجن ـ وأَجناس الغير كثيرة.

---

(١) هذا لا يجوز على مذهب سيبويه وجمهور البصريين لأنه لا بد من اعتماد الوصف على نفي أو استفهام، لكنه يجوز على مذهب أبي الحسن الذي لا يشترط ذلك.

(٢) يريد أنه بدل من الضمير المستتر في (آثم). وجوز الزمخشري أن يكون (آثم) خبراً مقدماً، و(قلبه) مبتدأ، والجملة خبر (إنَّ).

(٣) قال الإمام القرطبي رحمه الله: يقال: إن إثْم القلب مسخه، وإذا مسخ الله قلباً جعله منافقاً وطبع عليه، نعوذ بالله من ذلك.

(٤) أي التمييز. وقد ضعّف ذلك مكي لأنه معرفة ـ لكن الكوفيين يجيزون مجيء التمييز معرفة. وقد خرجه بعضهم (في حالة النصب) على أنه منصوب على التشبيه بالمفعول به نحو قولهم: مررت برجل حسن وجهه.

(٥) أي يُصَرِّف سبحانه ما فيهما كما يشاء وهما في طاعة وانقياد.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ معناه أن الأمر سواءٌ لا ينفع فيه المواراة والكتم، بل يعلمه ويحاسب به، وقوله: (في أَنْفُسِكُمْ) تقتضي قوة اللفظ أنه ما تقرر في النفس، واعتُقد، واستُصحبت الفكرة فيه[1]، وأما الخواطر التي يمكن دفعها فليست في النفس إلا على تجوز.

واختلف الناس في معنى هذه الآية[2] ـ فقال ابن عباس، وعكرمة، والشعبي: هي في معنى الشهادة التي نهي عن كتمها، ثم أعلم في هذه الآية أن الكاتم لها، المخفي في نفسه محاسب، وقال ابن عباس أيضاً، وأبو هريرة، والشعبي، وجماعة من الصحابة والتابعين: (إن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب محمد ﷺ، وقالوا: هلكنا يا رسول الله إن حوسبنا بخواطر أنفسنا، وشق ذلك على النبي ﷺ، لكنه قال لهم: أتريدون أن تقولوا كما قالت بنو إسرائيل: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا ـ فقالوها، فأنزل الله بعد ذلك: (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا) فكشف عنهم الكربة، ونسخ الله بهذه الآية تلك). هذا معنى الحديث المروي، وله طرق من جهات، واختلفت عباراته، واستتبت عبارة هؤلاءِ القائلين بلفظة النسخ في هذه النازلة[3].

وقال سعيد بن مرجانة[4]: جئت عبد الله بن عمر فتلا هذه الآية: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ ثم قال: والله لئن أُخذنا بهذه الآية لنهلكن، ثم بكى

(١) أي ما ثبت واستقر في النفس، وأمّا الخوطر التي تمر على النفس وتذهب فلا حساب فيها، وهذا ما اعتمده ابن عطية، وفسَّر به الآية، وقال: إنها محكمة، والمراد بما في النفس ما هو في وسعكم وتحت كسبكم.

(٢) هذه الآية فيها أقوال وآراء. منها: تخصيص الآية بكتم الشهادة، ومنها: تخصيصها بما يطرأ على النفوس من الشك واليقين، ومنها: أنها محكمة عامة إلا أن المغفرة للمؤمنين والعذاب للكافرين، ومنها: أنها محكمة إلا أن العذاب الذي يكون جزاءً لما خطر في النفس وصحبة الفكر هو بمصائب الدنيا وآلامها ومكارهها، وكل هذا تخصيص بدون مخصص، ومنها (وهو الحق): أنها منسوخة لتصريح الأحاديث بالنسخ، وحيث صرحت بالنسخ فلم يبق مجال لمخالفتها، ومنها ما رجحه الإمام الطبري وابن عطية رحمهما الله تعالى من أنها محكمة غير منسوخة، وسترى ذلك إن شاء الله.

(٣) روى هذا الحديث عن أبي هريرة، وابن عباس، وابن عمر، من عدة طرق. وخرَّجه الإمام أحمد، والإمام مسلم، والإمام البخاري عن رجل من أصحاب رسول الله، قال أحسبه ابن عمر، وابن جرير الطبري، والترمذي والنسائي.

(٤) اسم أبيه (عبد الله العامري) وهو تابعي جليل، توفي سنة ٩٦هـ، وروى حديث سعيد هذا ابن جرير الطبري والبيهقي في الشعب.

حتى سالت دموعه وسمع نشيجه، قال ابن مرجانة: فقمت حتى جئت ابن عباس فأَخبرته بما قال ابن عمر وبما فعل، فقال: يرحم الله أَبا عبد الرحمن، لقد وجد المسلمون منها حين نزلت مثل ما وجد عبد الله بن عمر فأَنزل الله: (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلا وُسْعَهَا) الآية، فنسخت الوسوسة وثبت القول والفعل ـ وقال الطبري، وقال آخرون: هذه الآية محكمة غير منسوخة والله تعالى يحاسب خلقه على ما عملوا من عمل وعلى ما لم يعملوه مما ثبت في نفوسهم فأَضمروه ونووه وأَرادوه، فيغفر للمؤمنين ويأْخذ به أَهل الكفر والنفاق، ثم أَدخل عن ابن عباس ما يشبه هذا المعنى، وقال مجاهد: الآية فيما يطرأُ على النفوس من الشك واليقين. وقال الحسن: الآية محكمة، وليست بمنسوخة. قال الطبري: وقال آخرون نحو هذا المعنى الذي ذكر عن ابن عباس. إلا أَنهم قالوا: إن العذاب الذي يكون جزاءً لما خطر في النفس وصحبه الفكر هو بمصائب الدنيا وآلامها وسائر مكارهها، ثم أَسند عن عائشة رضي الله عنها نحو هذا المعنى. ورجح الطبري أَن الآية محكمة غير منسوخة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الصواب، وذلك أَن قوله تعالى: (وَإِنْ تُبْدُوا مَا في أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوه) معناه: مما هو في وسعكم وتحت كسبكم، وذلك استصحاب المعتقد والفكر فيه، فلما كان اللفظ مما يمكن أَن تدخل فيه الخواطر أَشفق الصحابة والنبي ﷺ، فبين الله تعالى لهم ما أَراد بالآية الأُولى وخصصها، ونص على حكمه أَنه لا يكلف نفساً إلا وسعها ـ والخواطر ليست هي ولا دفعها في الوسع، بل هو أَمر غالب، وليست مما يكسب ولا يكتسب، وكان في هذا البيان فَرَجُهُم، وكشْف كربهم وباقي الآية محكمة لا نسخ فيها[(١)].

ومما يدفع أَمر النسخ أَن الآية خبر، والأَخبار لا يدخلها النسخ، فإن ذهب ذاهب

---

(١) واضح أَن رأي ابن عطية هو أَن الآية مخصصة بما هو في وسعهم وتحت كسبهم، وذلك بقوله تعالى: (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا). وما أَتى به المؤلف رحمه الله في توجيه هذه القضية واضح تمام الوضوح، ويمكن القول بأَن الذين أَطلقوا النسخ أَرادوا التخصيص بهذا المعنى الذي أَشار إليه ابن عطية، فإن المتقدمين كثيراً ما يطلقون النسخ على التخصيص.

وعليه فالآية محكمة مخصصة بقوله تعالى: (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا).

إلى تقرير النسخ فإنما يترتب له في الحكم الذي لحق الصحابة حين فزعوا من الآية، وذلك أن قول النبي ﷺ لهم: (قولوا: سمعنا وأطعنا) يجيءُ منه الأمر بأن يثبتوا على هذا ويلتزموه، وينتظروا لطف الله في الغفران، فإذا قرر هذا الحكم فصحيح وقوع النسخ فيه، وتشبه الآية حينئذ قوله عز وجل: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾(١) فهذا لفظه الخبر ولكن معناه: التزموا هذا، واثبتوا عليه، واصبروا بحسبه، ثم نسخ ذلك بعد ذلك، وأجمع الناس ـ فيما علمت ـ على أن هذه الآية في الجهاد منسوخة بصبر المائة للمائتين، وهذه الآية في البقرة أشبه شيءٍ بها.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ ويُعَذِبْ] جزماً، وقرأ ابن عامر وعاصم: ﴿فَيَغْفِرُ وَيُعَذِّبُ﴾ رفعاً ـ فوجه الجزم أنه أتبعه ما قبله ولم يقطعه وهكذا تحسن المشاكلة في كلامهم(٢)، ووجه الرفع أنه قطعه من الأول ـ وقطعه على أحد وجهين ـ إما أن تجعل الفعل خبراً لمبتدأ محذوف، فيرتفع الفعل لوقوعه موقع خبر المبتدأ، وإما أن تعطف جملة من فعل وفاعل على ما تقدمها. وقرأ ابن عباس، والأعرج، وأبو حيوة: [فَيَغفِرَ وَيُعَذِّبَ] بالنصب على إضمار (أَنْ) وهو معطوف على المعنى كما في قوله (فَيُضَاعِفَه)(٣) وقرأ الجُعْفِي، وخلاد، وطلحة بن مُصَرِّف(٤): [يَغْفِر] بغير فاءٍ، وروي أنها كذلك في مصحف ابن مسعود قال ابن جني: هي على

(١) من الآية (٦٥) من سورة الأنفال.

(٢) يعني أن الجزم أحسن ليكون مُشاكِلاً لما قبله في اللفظ، ومعطوفاً على الجواب وما قبله هو (يحاسبكم).

(٣) حقيقته أنه عطف على المعنى، أي: إن تكن محاسبة فمغفرة وتعذيب كما في قوله تعالى: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ والعطف على اللفظ أجود للمشاكلة. وقوله تعالى: ﴿فيضاعفه﴾. الخ من الآية (٢٤٥) من سورة البقرة.

(٤) الجعفي ـ عبيد الله بن الحر بن عمر الجعفي ـ من بني سعد العشيرة ـ كان من خيار قومه شرفاً وصلاحاً وفضلاً ـ توفي ٦٨هـ.

وخلاد بن خالد الشيباني ـ من كبار القراء. قال ابن الجزري: كان إماماً في القراءة، ثقة، عارفاً، محققاً، مجوداً، أستاذاً ـ توفي بالكوفة ٢٢٠هـ.

وطلحة بن مُصرِّف بن كعب بن عمرو الكوفي ـ أقرأ أهل الكوفة في عصره، كان يسمى: سيد القراء في عصره، وهو من رجال الحديث الثقات ـ ومن أهل الورع والنسك ـ توفي ١١٢هـ.

البدل من (يُحَاسِبْكم) فهي تفسير المحاسبة[١]، وهذا كقول الشاعر:

رُوَيْداً بَني شَيْبَانَ بعْضَ وعيدكم تُلاقوا غداً خَيْلي عَلَى سَفَوان
تُلاقوا جياداً لا تحيدُ عَنِ الوَغَى إذا ما غَدَتْ في المأزقِ المتَدان[٢]

فهذا على البدل، وكرر الشاعر الفعل لأن الفائدة فيما يليه من القول.

وقوله تعالى: (وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ) يعني من العصاة الذين ينفذ فيهم الوعيد، قال النقاش: يغفر لمن يشاءُ، أي: لمن ينزع عنه، ويعذب من يشاءُ، أي: من أقام عليه، وقال سفيان الثوري: يغفر لمن يشاءُ العظيم، ويعذب من يشاءُ على الصغير. وتعلّق بهذه الآية قوم ممن قال بجواز تكليف ما لا يطاق، وقال: إن الله قد كلفهم أمر الخواطر وذلك مما لا يطاق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا غير بيِّن، وإنما كان أمر الخواطر تأويلاً تأوله أصحاب النبي ﷺ، ولم يثبت تكليفاً إلا على الوجه الذي ذكرنا من تقرير النبي ﷺ إياهم على ذلك، ومسألة تكليف مالا يطاق نتكلم عليها فيما بعد إن شاءَ الله تعالى[٣].

ولما ذكر المغفرة والتعذيب بحسب مشيئته تعالى عقَّب ذلك بذكر القدرة على جميع الأشياءِ إذا ما ذكر جزءٌ منها.

قوله عز وجل:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾

سبب هذه الآية[٤] أنه لما أُنزلت: (وَإِنْ تُبْدُوا ما في أَنْفُسِكُمْ أَو تُخْفُوه) وأشفق منها النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ثم تقرر الأمر على أن قالوا: سمعنا وأطعنا،

---

(١) فيه تساهل، فإن المغفرة والتعذيب يترتبان على المحاسبة التي هي إحصاء الحسنات والسيئات.

(٢) الشاعر هو الوداك بن ثميل المازني، وقوله: «بعض وعيدكم»، منصوب بفعل محذوف، أي كفوا عنا بعض وعيدكم وقوله: «تلاقوا جياداً»، بدل من قوله: «تلاقوا غداً خيلي»، وسفوان: اسم ماء بين بني مازن وبني شيبان اقتتلت عنده القبيلتان المذكورتان.

(٣) عند تفسير قوله تعالى: (لا يُكَلِّفُ الله نَفْساً إلا وسْعَهَا).

(٤) انظر صحيح الإمام مسلم، وبهذا السبب ظهرت مناسبة الآية لما قبلها.

فرجعوا إلى التضرع والاستكانة ـ مدحهم الله ـ وأثنى عليهم في هذه الآية، وقدم ذلك بين يدي رفقه بهم، وكشْفِه لذلك الكرب الذي أوجبه تأوُّلهم، فجمع لهم تعالى التشريف بالمدح، والثناءَ، ورفع المشقة في أمر الخواطر، وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع إلى الله تعالى، كما جرى لبني إسرائيل ضد ذلك: من ذمهم، وتحميلهم المشقات من الذلة والمسكنة والجلاءِ، إذ قالوا سمعنا وعصينا ـ وهذه ثمرة العصيان، والتمرد على الله، أعاذنا الله من نقمته.

و(آمَنَ) معناه: صدَّق ـ و(الرَّسُولُ): محمد ﷺ، و(مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ) هو القرآن، وسائر ما أُوحي إليه[1] ـ من جملة ذلك هذه الآية[2] التي تأولوها شديدة الحكم ـ ويروى أن رسول الله ﷺ ـ لما نزلت عليه ـ قال: (ويحق له أن يؤمن)[3]، وقرأ ابن مسعود: [وآمن المؤمنون]، وكل لفظة تصلح للإحاطة، وقد تستعمل غير محيطة على جهة التشبيه بالإحاطة، والقرينة تبين ذلك في كل كلام[4]، ولما وردت هنا بعد قوله: (والْمُؤْمِنُونَ) دلَّ ذلك على إحاطتها بمن ذكر.

والإيمان بالله: هو التصديق به، وبصفاته، ورفض الأصنام وكل معبود سواه. والإيمان بملائكته: هو اعتقاد وجودهم وأنهم عباد الله ورفض معتقدات الجاهلية فيهم. والإيمان بكتبه: هو التصديق بكل ما أنزل على الأنبياء الذين تضمن ذكرَهم كتابُ الله المنزل على محمد ﷺ، أو ما أخبر هو به.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ وابن عامر: [وكُتُبِهِ] على الجمع، وقرؤوا في «التحريم»: [وكِتَابِهِ][5] على التوحيد، وقرأ أبو عمرو ها هنا، وفي التحريم: [وكُتُبِهِ] على الجمع، وقرأ حمزة والكسائي: [وكِتَابِهِ] على التوحيد فيهما، وروى حفص، عن عاصم ها هنا وفي التحريم: [وكُتُبِهِ] مثل أبي عمرو. وروى خارجة عن نافع مثل ذلك، وبكل قراءَة من هذه قرأ جمهور من العلماءِ، فمَنْ جمع أراد جمع

(١) من العقائد والشرائع والأحكام في القرآن وفي غيره.
(٢) وهي قوله تعالى: (وَإِنْ تُبْدوا ما في أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوه يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ).
(٣) رواه ابن جرير عن قتادة، ورواه الحاكم في المستدرك عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال: إسناده صحيح.
(٤) نحو قوله تعالى: (تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا)، فإنها إنما دمرتهم ودمرت مساكنهم دون غيرهم.
(٥) في قوله تعالى: (وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ روحِنَا، وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِه، وَكَانَتْ مِنَ القَانِتِين). الآية (١٢).

كتاب، ومن أَفرد أَراد المصدر الذي يجمع كل مكتوب كان نزوله من عند الله تعالى، هذا قول بعضهم، وقد وجَّهَهُ أَبو علي، وهو كما قالوا: نَسْجُ اليمن[١]، وقال أَبو علي في صدر كلامه: أَما الإِفراد في قول من قرأَ: [وكتابِهِ] فليس كما تفرد المصادر وإِن أُريد بها الكثير، كقوله: ﴿وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ ونحو ذلك. ولكن كما تفرد الأَسماءُ التي يراد بها الكثرة كقولهم: كثر الدينار والدرهم، ونحو ذلك[٢]، فإِن قلت: هذه الأَسماءُ التي يراد بها الكثرة إِنما تجيءُ مفردة، وهذه مضافة، قيل: فقد جاءَ في المضاف ما يعنى به الكثرة، ففي التنزيل: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[٣] وفي الحديث: (منعت العراق دِرْهَمها وقَفِيزها)[٤] فهذا يراد به الكثير كما يراد بما فيه لام التعريف. ومنه قول ابن الرقاع:

يَـدَعِ الحَـيَّ بـالعَشِـيِّ غِـرَاثـاً   وَهُـم عَـنْ رغيفهـم أَغنيـاءُ[٥]

ومجيءُ أَسماءِ الأَجناس معرفة بالأَلف واللام أَكثر من مجيئها مضافة.

وقراءَة الجماعة: ﴿ورسُلِهِ﴾ بضم السين، وكذلك: (رُسُلُنَا ورُسُلُكُم ورُسُلِكَ)[٦] إِلا أَبا عمرو فروي عنه تخفيف [رسْلنا ورسْلكم]، وروي عنه في [رسلك] التثقيل والتخفيف، قال أَبو علي: مَنْ قرأَ [عَلَى رُسلِكَ] بالتثقيل فذلك أَصل الكلمة، ومن خفف فكما يخفف في الآحاد مثل: عنْق وطنْب، فإِذا خفف في الآحاد فذلك أَحرى في الجمع الذي هو أَثقل.

---

(١) أي منسوجه، فالكتاب بمعنى المكتوب.

(٢) يعني أن معنى الكثرة في المصادر المفردة غير معنى الكثرة في الأسماء المفردة، كما تقول: خرق كثير ـ أي واسع، وهلاك كثير: أي دائم.

(٣) من الآية (١٨) من سورة النحل. وقوله تعالى: (وادعوا ثبوراً) من الآية (١٤) من سورة الفرقان.

(٤) رواه الإمام أحمد في مسند أبي هريرة بلفظ. (قال رسول الله ﷺ: منعت العراق قفيزها ودرهمها، ومنعت الشام مدها ودينارها، ومنعت مصر إردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم، يشهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمه).

وراوه الإمام مسلم في الفتن وأشراط الساعة، وقوله ﷺ: (وعدتم من حيث بدأتم) هو بمعنى: بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ.

(٥) أي عدي بن الرقاع. يقال: غرث غرثاً: جاع، فهو غرثان.

(٦) تكررت (رسلنا) في كثير من الآيات ـ منها: ﴿ولقد جاءتهم رسُلُنا بالبينات﴾ (٣٢) من سورة المائدة. وجاءت (رسلكم) في الآية (٥٠) من سورة غافر: ﴿قالوا: أَوْ لَمْ تَكُ تَأتيكُمْ رسُلُكم بالبيِّنَاتِ﴾. وجاءت (رسلك) في الآية (١٩٤) من سورة آل عمران: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا ما وَعَدْتَنَا على رُسُلِكَ﴾.

وقرأ يحيى بن يعمر: [وكتْبه ورسْله] بسكون التاءِ والسين، وقرأ ابن مسعود: [وكتابه ـ ولقائه ـ ورسله]، وقرأَ جمهور الناس: [لانفرق] بالنون، والمعنى: يقولون: [لا نُفرق][(١)]، وقرأ سعيد بن جبير، ويحيى بن يعمر، وأبو زرعة بن عمرو بن جرير، ويعقوب: [لا يُفرِّق] بالياءِ، وهذا على لفظ كل، قال هارون: وهي في حرف ابن مسعود: [لا يُفرِّقُون] بالياءِ، ومعنى هذه الآية: أَن المؤمنين ليسوا كاليهود والنصارى في أَنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا سمِعْنَا وأَطَعْنَا﴾ مدح يقتضي الحض على هذه المقالة، وأَن يكون المؤمن يمتثلها غابر الدهر، والطاعة: قبول الأَوامر.

و﴿غُفرانَكَ﴾ مصدر كالكفران والخسران ـ ونصبه على جهة نصب المصادر، والعامل فيه فعل مقدر. وقال الزجاج: تقديره: اغفر غفرانك. وقال غيره: نطلب أَو نسأَل غفرانك، و﴿إِلَيْكَ الْمصيرُ﴾ إقرار بالبعث والوقوف بين يدي الله تعالى.

وروي أَن النبي ﷺ ـ لما نزلت هذه الآية ـ قال له جبريل: يا محمد: إِن الله قد أَجَلّ[(٢)] الثناءَ عليك وعلى أُمتك، فسل تعطه، فسأَل إِلى آخر السورة[(٣)].

قوله عز وجل:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: (لا يُكَلِّفُ اللهُ نفساً إلا وُسْعَهَا) خبر جزم نص على أنه لا يكلف العباد

---

(١) وحذف القول في الكلام الفصيح كثير، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ باب سلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي: يقولون: سَلامٌ عَلَيْكُمْ الخ.

(٢) في نسخة بالجيم، وفي أُخرى بالحاء، ومنه حديث: (اليوم أُحِلُّ عليكم رضواني).

(٣) رواه ابن جرير عن جابر رضي الله عنه. وهي سبعة أسئلة مستجابة، لما ثبت في الحديث الصحيح أن الله تعالى قال: قد فعلت ـ عقب كل دعاء من هذه الأدعية، أي قد استجبت. ومن أدب القرآن حذف النداء في نداء الله تعالى فيقال: ربِّ، ربَّنا، ولا يوجد في القرآن بالنداء إلا في موضعين: الأول: في سورة الفرقان: ﴿وقال الرسولُ ياربِّ إن قومي اتَّخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ والثاني: في سورة الزخرف: ﴿وَقِيلِه يَاربِّ إنَّ هَؤلاءِ قَوْمٌ لا يؤمنون﴾.

من وقت نزول الآية عبادة من أعمال القلب أو الجوارح إلا وهي في وسع المكلف، ومقتضى إدراكه وبنيته، وبهذا انكشفت الكربة عن المسلمين في تأوُّلهم أمر الخواطر، وتأول من ينكر جواز تكليف مالا يطاق هذه الآية بمعنى أنه لا يكلِّف ولا كلَّف، وليس ذلك بنص في الآية، ولا أيضاً يدفعها اللفظ، ولذلك ساغ الخلاف(١).

وهذا المعنى الذي ذكرناه في هذه الآية يجرى مع معنى قوله تعالى: وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾(٢).

واختلف الناس في جواز تكليف مالا يطاق في الأحكام التي هي في الدنيا بعد اتِّفاقهم على أنه ليس واقعاً الآن في الشرع، وأن هذه الآية آذنت بعدمه ـ فقال أبو الحسن الأشعري، وجماعة من المتكلمين: تكليف مالا يطاق جائز عقلاً، ولا يحرم ذلك شيئاً من عقائد الشرع، ويكون ذلك أمارة على تعذيب المكلف، وقطعاً به(٣)، وينظر إلى هذا تكليف المصور أن يعقد شعيرة حسب الحديث(٤).

واختلف القائلون بجوازه(٥) ـ هل وقع في رسالة محمد ﷺ أم لا؟ فقالت فرقة:

---

(١) في جواز تكليف مالا يطاق وعدم جوازه، لأن الآية لا تنص على عدم الجواز ولا تدفعه.

(٢) الآيات بترتيبها ـ من الآية (١٨٥) من سورة البقرة، ومن الآية (٧٨) من سورة الحج، ومن الآية (١٦) من سورة التغابن، وهذه الآيات كلها تدل على رفع الحرج والعسر عن هذه الأمة.

(٣) في «شرح المحلى على جمع الجوامع»: أن فائدة التعليق بالمحال اختبار المكلفين، هل يأخذون في المقدمات والأسباب فيترتب عليها الثواب، أوْلا ـ فالعقاب، وناقشه الكمال ابن أبي شريف بأن ظهور الحكمة والمصلحة للعقل في أفعال الله تعالى غير لازم.

(٤) في حديث أبي هريرة الذي رواه الشيخان: (فليَخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة). وهذا في تهديد المصورين. والذي في البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: (من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل). وفي رواية: (كلف أن يعقد شعيرة)، والحديث رواه البخاري، والإمام أحمد، والترمذي في كتاب «الرؤيا»، وليس فيه تكليف مالا يطاق، لأن هذا يكون يوم القيامة، وتأمل فإن الكلام فيه تخليط، والله أعلم.

(٥) هذا يتعارض مع قوله سابقاً: «بعد اتفاقهم على أنه ليس واقعاً في الشرع»، تأمل، ولعل هناك فرقة حكت الإجماع على عدم الوقوع، وفرقة حكت الخلاف في الوقوع وعدمه، فأشار إلى فرقة الاتفاق بقوله: «بعد اتفاقهم على أنه ليس واقعاً»، وأشار إلى فرقة الخلاف بقوله: «واختلف القائلون بالجواز» الخ. والله أعلم.

وقع في نازلة أَبي لهب[1]، لأَنه حكم عليه بتَبِّ اليدين، وصلي النار، وذلك مؤذن بأَنه لا يؤمن، وتكليف الشرع له الإِيمان راتب[2]، فكأَنه كلف أَن يؤمن، وأَن يكون في إِيمانه أَنه لا يؤمن لأَنه إِذا آمن فلا محالة أَنه يؤمن بسورة: (تَبَّتْ يدَا أَبي لَهبٍ)[3].

وقالت فرقة: لم يقع قط، وقوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا﴾[4] إِنما معناه إِنْ وافى على كفره.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وما لا يطاق ينقسم أَقساماً، فمنه المحال عقلاً كالجمع بين الضدين، ومنه المحال عادة كرفع الإِنسان جبلاً، ومنه مالا يطاق من حيث هو مهلك كالاحتراق بالنار ونحوه. ومنه ما لا يطاق للاشتغال بغيره، وهذا إِنما يقال فيه: مالا يطاق على تجوز كثير[5].

---

(١) يأتي قريباً إن شاء الله حكاية الإجماع على عدم وقوع الممتنع لتعلق علم الله بعدم وقوعه، كما يأتي أن ذلك من باب الممكن الذي عرض له ما يمنعه لا من باب المحال.

(٢) أي قائم وثابت.

(٣) في هذا التصديق تناقض حيث اشتمل على إثبات التصديق في شيء ونفيه في كل شيء فهو من الممتنع لذاته، وأُجيب بأن من أنزل الله فيه أنه لا يؤمن لم يقصد إبلاغه ذلك، أي أنه لا يؤمن حتى يكلف تصديق النبي ﷺ فيه دفعاً للتناقض، وإنما قصد إبلاغ ذلك إلى غيره، وإعلام النبي ﷺ به لليأس من إيمانه، وعليه فتكليفه الإيمان من التكليف بالممتنع لغيره لا لذاته، والله أعلم. فإن قيل: فهل يكون الفعل مقدوراً للعبد في حال عدم مشيئة الله له أن يفعله؟، قيل: إن أُريد بكونه مقدوراً سلامة آلة العبد التي يتمكن بها من الفعل، وصحة أعضائه، ووجود قواه، وتمكينه من أسباب الفعل، وتهيئة طريق فعله، وفتح الطريق له ـ فنعم. هو مقدور بهذا الاعتبار. وإن أُريد بكونه مقدوراً القدرة المقارنة للفعل، وهي الموجبة له، التي إذا وجدت لم يتخلف عنها الفعل فليس مقدوراً بهذا الاعتبار، وترجمة هذا الكلام أن القدرة نوعان: قدرة مصححة وهي قدرة الأسباب والشروط، وسلامة الآلة، وهي مناط التكليف ـ وهذه متقدمة على الفعل غير موجبة له. وقدرة مقارنة للفعل، مستلزمة له، لا يتخلف الفعل عنها. وهذه ليست شرطاً في التكليف، ولا يتوقف صحته عليها. فإيمان من لم يشأ الله إيمانه، وطاعة من لم يشأ الله طاعته مقدور بالاعتبار الأول، غير مقدور بالاعتبار الثاني، وبهذا البيان تزول الشبهة إن شاء الله في التكليف بما لا يطاق، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(٤) من الآية (٣) من سورة المسد.

(٥) ما لا يطاق على ضربين ـ أحدهما: مالا يطاق للعجز عنه، والآخر: لا يطاق للاشتغال عنه بغيره، كما يقال: لا يطيق التصرف لاشتغاله بالكتابة، وما أشبه ذلك، وهذا سبيل الكافر، فإنه لا يطيق الإيمان لا لأنه عاجز عن الإيمان، بل لاشتغاله عنه بضده الذي هو الكفر، فهذا يجوز تكليفه مالا يطاق، وأما العاجز فما ورد في الشريعة تكليفه، ولو ورد لكان صواباً لأن الله تعالى له أن يفعل في ملكه ما يريد، =

و(يكَلِّفُ) يتعدى إلى مفعولين ـ أحدهما محذوف تقديره: عبادة أو شيئاً[(١)]. وقرأ ابن أَبي عبلة: (إلا وَسِعها) بفتح الواو وكسر السين، وهذا فيه تجوز، لأنه مقلوب، وكان وجه اللفظ «إلا وسِعَته»، كما قال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[(٢)] وكما قال: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[(٣)] ولكن يجيءُ هذا من باب أَدخلت القلنسوة في رأسي، وفمي في الحجر.

= وقد أثنى سبحانه على من سأله ألا يكلفه مالا طاقة له به، ولعل ما أشار إليه المؤلف رحمه الله يرجع إلى هذين الضربين. وحاصل ما في هذا المقام أنه ثبت في الأصول أن شرط التكليف القدرة على المكلف به فما لا قدرة للمكلف عليه لا يصح التكليف به شرعاً وإن جاز عقلاً. والطاقة: هي القدرة، ومالا يطاق لا تتعلق به قدرة الإنسان المقارنة للفعل، والتكليف بما لا يطاق هو التكليف بالمحال، وهو ما يرجع المحال فيه إلى المأمور به، ثم إنه لا يلزم من نفي التكليف بما لا يطاق نفي التكليف بالمشاق، ولذلك ثبت في الشرائع السابقة التكليف بالمشاق، ولم يثبت فيها التكليف بما لا يطاق.

والتكليف بالمحال، أو بما لا يطاق له مقامان ـ المقام الأول في حكمه، وقد أشار إلى ذلك صاحب «جمع الجوامع» بقوله: «مسألة: يجوز التكليف بالمحال مطلقاً، ومنع أكثر المعتزلة، والشيخ أبو حامد الغزالي، وابن دقيق العيد ما ليس ممتنعاً لتعلق العلم بعدم وقوعه».

والمقام الثاني: في وقوعه، وقد أشار إليه بقوله: «والحق وقوع الممتنع بالغير لا بالذات». وحاصل هذا الكلام: أن التكليف بالمحال جائز عقلاً، سواء كان محالاً لذاته، أي ممتنعاً عادة وعقلاً، كالجمع بين الضدين لأدائه إلى اجتماع النقيضين، أو محالا لغيره، أي ممتنعاً عادة لا عقلاً كالطيران من الإنسان، أو عقلاً لا عادة كإيمان من علم الله أنه لا يؤمن، ومنع ذلك أكثر المعتزلة وبعض أهل السنة في غير ما تعلق علم الله بعدم وقوعه، ومنع آخرون كون المحال مطلوباً لا ورود صيغة افعل، نحو قوله تعالى: (كونوا قِرَدَةً خاسِئِينَ)، فليس معنى هذه الصيغة الطلب، وإنما معناها التذليل والامتهان، وأن الحق هو وقوع المحال لغيره دون ا لمحال لذاته ومفهومه، وقد حكى أبو عبد الله المحلي في شرح «جمع الجوامع» الاتفاق على عدم وقوع الممتنع لتعلق علم الله بعدم وقوعه، كإيمان أبي لهب، والذي عليه المحققون كالغزالي أن إيمان مَن علم الله أنه لا يؤمن ليس محالاً عقلاً، بل هو ممكن مقطوع بعدم وقوعه، ولا يخرجه القطع بذلك عن كونه ممكناً بحسب ذاته. قال التفتزاني رحمه الله: «كل ممكن عادة ممكن عقلاً، وليس كل ممكن عقلاً ممكن عادة»، ولا شك أن إيمان أبي لهب ممكن عادة فهو ممكن عقلاً. والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) قال أبو (ح): «إن عني أن أصله كذا فهو صحيح، لأن قوله: (إلا وُسعها) استثناء مفرغ من المفعول الثاني، وإن عني أنه محذوف في الصناعة فليس كذلك، بل الثاني هو (وُسعها) نحو: ما أعطيت زيداً إلا درهماً، لأنه في الصناعة هو المفعول وإن كان أصله: ما أعطيت زيداً شيئاً إلا درهماً.

(٢) من الآية (٢٥٥) من سورة البقرة.

(٣) من الآية (٩٨) من سورة طه.

وقوله تعالى: ﴿لها ما كسبت﴾ يريد من الحسنات، ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَت﴾ يريد من السيئات ـ قاله السدي، وجماعة من المفسرين. ولا خلاف في ذلك، والخواطر ونحوها ليس من كسب الإنسان ـ وجاءَت العبارة في الحسنات بـ(لَهَا) من حيث هي مما يفرح الإنسان بكسبه ويُسَرُّ به، فتضاف إلى ملكه، وجاءَت في السيئات بـ(عَلَيْهَا) من حيث هي أَوزار وأَثقال ومحتملات صعبة، وهذا كما تقول: لي مالٌ، وعليَّ ديْن، وكما قال المتصدق باللقطة: اللهم عن فلان فإن أَبى فلي وعلي، وكرر فعل الكسب فخالف بين التصريف حسناً لنمط الكلام كما قال: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾[١] هذا وجه، والذي يظهر لي في هذا أَن الحسنات هي ما كسب دون تكلف، إِذ كاسبها على جادة أَمر الله ورسم شرعه، والسيئات تكتسب ببناءِ المبالغة، إِذ كاسبها يتكلف في أَمرها خرق حجاب نهي الله تعالى، ويتخطاه إِليها، فيحسن في الآية مجيءُ التصريفين إِحرازاً لهذا المعنى.

وقال المهدوي، وغيره: وقيل: معنى الآية: لا يؤخذ أَحد بذنب أَحد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا صحيح في نفسه، لكن من غير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا﴾ معناه: قولوا في دعائكم[٢].

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ ـ فذهب الطبري وغيره إِلى أَنه النسيان بمعنى الترك[٣]، أَي إِن تركنا شيئاً من طاعتك، وأَنه الخطأُ المقصود ـ قالوا:

---

(١) الآية (١٧) من سورة الطارق.

(٢) إشارة إلى أنه خرج مخرج التعليم، فهو يعلمهم كيف يدعون ربهم.

(٣) هذا ما ذهب إليه شهاب الدين القرافي في «الفروق»، واعترضه ابن الشاط في حاشيته عليه. وحاصل ما هنا أقوال ثلاثة:

قيل: المراد بالنسيان الترك عمداً، وبالخطأ العصيان، لأن المعصية توصف بالخطأ الذي هو ضد الصواب. وكأنه قيل: لا تعاقبنا على ترك الواجبات وفعل المنهيات.

وقيل: المراد النسيان بمعنى الذهول والغفلة، والخطأ الذي كان عن اجتهاد، إذ لا امتناع في المؤاخذة بهما عقلاً، ولكنه سبحانه وعد بالتجاوز عنهما فضلاً ورحمة، ومن ثم جاز الدعاء بهما استدامة للنعمة والرحمة. =

وأَما النسيان الذي يغلب المرءَ، والخطأُ الذي هو عن اجتهاد فهو موضوع عن المرءِ، فليس بمأمور في الدعاءِ في أَلا يُؤَاخذ به، وذهب كثير من العلماءِ إِلى أَن الدعاءَ في هذه الآية إِنما هو في النسيانِ الغالب، والخطأ غير المقصود، وهذا هو الصحيح عندي.

قال قتادة ـ في تفسير الآية: ـ بلغني أَن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الله تجاوز لأُمتي عن نسيانها وخطئها»، وقال السُدّي: لما نزلت هذه الآية فقالوها، قال جبريل للنبي ﷺ: (قد فعل الله لهم ذلك يا محمد)[١]. فظاهر قوليهما ما صححته، وذلك أَن المؤمنين لما كشف عنهم ما خافوه في قوله تعالى: (يُحَاسِبْكُمْ بِهِ الله) أُمروا بالدعاءِ في دفع ذلك ليس من طاقة الإِنسان دفعه، وذلك في النسيان والخطأِ. والإِصر: الثقل، وما لا يطاق على أَتم أَنواعه[٢].

وهذه الآية ـ على هذا القول ـ تقضي بجواز تكليف ما لا يطاق، ولذلك أَمر المؤمنين بالدعاءِ في أَلا يقع هذا الجائز الصعب.

ومذهب الطبري والزجاج أَن تكليف مالا يطاق غير جائز[٣]، فالنسيان عندهم: المتروك من الطاعات، والخطأُ هو المقصود من العصيان. والإِصر: هو العبادات الثقيلة كتكاليف بني إِسرائيل من قتل أَنفسهم، وقرض أَبدانهم، ومعاقباتهم على معاصيهم في أَبدانهم حسبما كان يكتب على أَبوابهم، وتحميلهم العهود الصعبة. وما لا طاقة للمرءِ به: هو عندهم على تجوز، كما تقول: لا طاقة لي على خصومة فلان، ولغير ذلك من الأَمر تستصعبه وإِن كنت في الحقيقة تطيقه، أَو يكون ذلك مالا طاقة لنا

= وقيل: المراد منهما ما هما مسببان عنه وهو التقصير والتفريط، إذ قلما يصدران إلا عن ذلك، والله أعلم.

(١) روى الإمام مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (قال الله: نعم). وعن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ قال: (قال الله: قد فعلت)، فهذا دلالة على أن هذه الدعوات السبع مستجابة بحمد الله، وأولها: (رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أو أَخْطَأنا).

(٢) سبق أنها أربعة أنواع كما وضحها ابن عطية.

(٣) حاصله أن الذين فسروا الإصر بما لايطاق هم الذين جوَّزوا التكليف بما لا يطاق، وأما الذين لا يجوِّزون ذلك كالإمام الطبري، والزجاج، وغيرهما، فقد فسروا الإصر بالعبادات الثقيلة الشديدة، كالتكاليف التي كانت في بني إسرائيل: من قتل أنفسهم في التوبة، وقرض موضع النجاسة من أبدانهم. وحملوا قوله تعالى: (وَلا تُحَمِّلْنَا مَالا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) على المجاز، أي ما هو صعب وشديد وإن كان يطاق، وقالوا: الخطأ يكون عن قصد وعن غير قصد، والله أعلم.

به مِنْ حيث هو مهلك لنا كعذاب جهنم وغيره(١). وأَما لفظة «أَخطأَ» فقد تجيءُ في القصد ومع الاجتهاد.

قال قتادة: الإِصر: العهد والميثاق الغليظ(٢)، وقاله مجاهد وابن عباس، والسدي، وابن جريج، والربيع، وابن زيد. وقال عطاءٌ: الإِصر: المسخ قردة وخنازير. وقال ابن زيد أَيضاً: الإِصر: الذنب لا كفارة فيه ولا توبة منه. وقال مالك رحمه الله: الإِصر: الأَمر الغليظ الصعب، والآصرة ـ في اللغة ـ: الأَمر الرابط من ذمام أَو قرابة أَو عهد ونحوه، فهذه العبارات كلها تنحو نحوه، والإِصار: الحبلُ الذي تربط به الأَحمال ونحوها، والقِدُّ يضمُّ عضدي الرجل(٣)، يقال: أَصر يأْصر أَصرا، والإِصر ـ بكسر الهمزة: الاسم من ذلك، وفي هذا نظر(٤). ورُوي عن عاصم أَنه قرأَ: أُصر بضم الهمزة.

ولا خلاف أَن (الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا) يراد به اليهود.

وقال الضحاك: والنصارى.

وأَما عبارات المفسرين في قوله: (رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَالا طَاقة لنا بِهِ) فقال قتادة: لا تشدد علينا كما شددت على من كان قبلنا. وقال الضحاك: لا تحملنا من الأَعمال ما لا نطيق. وقال نحوه ابن زيد. وقال ابن جريج: لا تمسخنا قردة وخنازير(٥).

وقال سلام بن سابور: الذي لا طاقة لنا به الغُلْمَة(٦)، وحكاه النقاش عن مجاهد

---

(١) أي لا طاقة لنا به من حيث العقوبات لا من حيث الأعمال.

(٢) تفسير باللازم لأن الوفاء بالعهد شديد على النفس.

(٣) الإصر: هو الأمر الثقيل الغليظ، ويجمع على آصار، وقُرىء بذلك، والآصرة: ما عطفك على رجل مِن رحِم، أو قرابة، أو مصاهرة، ويجمع على أواصر، والإصار ـ ويقال بالسين ـ: ما تُعقد به الأشياء، والقِدُّ وهو بكسر القاف: السير يُقَدُّ من جلد، وجمع إصار: أُصر ـ مثل كِتاب وكتب.

(٤) قال في القاموس: الأصر بالفتح: الكسر والعطف والحبس، وفِعْل ذلك كضرب، والإصر بالكسر: العَهْد، والذنب، والثِّقَل، ويضم ويفتح في الكل اهـ. وتأمل.

(٥) قال شهاب الدين القرافي: إذا أُريد بقوله: (رَبَّنَا ولا تُحَمِّلْنَا مَالا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) أي من البلايا والرزايا والمكروهات جاز الدعاء بذلك، لأنه لم تدل النصوص على نفي ذلك، بخلاف التكاليف الشرعية فإنها مرفوعة بقوله تعالى: (لا يُكَلِّفُ الله نفساً إلا وُسْعَهَا) فإن أُطلق من غير تخصيص لا بالنية ولا بالعادة عصى لاشتمال العموم على مالا يجوز فيكون ذلك حراماً لأن فيه طلب تحصيل الحاصل. انتهى.

(٦) هيجان شهوة النكاح وازدياد حدتها.

وعطاءٍ ومكحول. وروي أَن أَبا الدرداءِ كان يقول في دعائه: وأَعوذ بك من غُلمة ليس لها عدة. وقال السدي: هو التغليظ والأَغلال التي كانت على بني إِسرائيل من التحريم.

ثم قال تعالى فيما أَمر المؤمنين بقوله: (واعْفُ عَنَّا)، أَي: فيما واقعناه وانكشف، (واغْفِرْ لنَا)، أَي: استر علينا ما علمت منا، (وارْحَمْنا)، أَي: تفضل مبتدئاً برحمة منك لنا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهي مناح من الدعاءِ متباينة، وإِن كان الغرض المراد بكل واحد منها واحداً وهو دخول الجنة.

و(أَنْتَ مَوْلانَا) مدح في ضمنه تقرب إِليه، وشكر على نعمه، ومولى: هو من ولي فهو مفْعل أَي: موضع الولاية، ثم ختمت الدعوة[1] بطلب النصر على الكافرين الذي هو ملاك قيام الشرع، وعلوّ الكلمة، ووجود السبيل إِلى أَنواع الطاعات.

وروي أَن جبريل عليه السلام أَتى محمداً ﷺ فقال: قل: (رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا)، فقالها، فقال جبريل: قد فعل، فقال: قل كذا وكذا، فيقولها، فيقول جبريل: قد فعل إِلى آخر السورة، تظاهرت بهذا المعنى أَحاديث.

وروي عن معاذ بن جبل أَنه كان إِذا فرغ من قراءَة هذه السورة قال: آمين[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا يظن به أَنه رواه عن النبي ﷺ، فإِن كان ذلك فكمال، وإِن كان بقياس على سورة الحمد من حيث هناك دعاءٌ، وهنا دعاءٌ فحَسن.

وروى أَبو مسعود عقبة بن عمرو[3]، عن النبي ﷺ أَنه قال: «مَنْ قَرَأَ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[4]، يعني عن قيام الليل، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله

---

(١) في بعض النسخ: ثم ختمت السورة.

(٢) رواه ابن جرير الطبري، وابن أبي شيبة.

(٣) عقبة بن عمرو بن ثعلبة الأنصاري، أبو مسعود البدري، مشهور بكنيته ـ اختلف في شهوده بدراً، قيل: مات بالكوفة، وقيل: مات بالمدينة. الإصابة ٢ـ٤٨٤.

(٤) روى هذا الحديث البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وغيرهم، والآيتان من قوله تعالى: (آمن=

عنه: «ما أَظن أَحداً عقل وأَدرك الإِسلام ينام حتى يقرأَهما».

وروي أَن النبي ﷺ قال: (أُوتيت هؤلاءِ الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش، لم يؤتهن أَحد قبلي)[1].

كملت سورة البقرة، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين.

* * *

= الرسول) إلى آخر السورة، وتنتهي الآية الأولى عند قوله: (وإليك الْمَصِير) وليست (ما اكْتَسَبَتْ) رأس آية باتفاق العادِّين، وقوله: (كفتاه) أي عن قيام الليل، أو عن قراءة القرآن، أو كفتاه شر الشيطان فلا يكون له عليه سلطان، أو ما أهمه في الدنيا والآخرة، والأولى أن يراد كل ذلك، لأن حذف المتعلق يؤذن بالعموم والشمول.

(١) رواه الإمام أحمد، والنسائي، وابن مردويه، بألفاظ متقاربة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة آل عمران

هذه السورة مدنية بإجماع فيما علمت[(١)] ، وذكر النقاش أن اسم هذه السورة في التوراة: طيبة[(٢)].

قوله عز وجل:

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾.

قد تقدم ذكر اختلاف العلماء في الحروف التي في أوائل السور في أول سورة البقرة ، ومن حيث جاء في هذه السورة ﴿اللهُ لا إِلَهَ إلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّوم﴾ جملة قائمة بنفسها فتتصور تلك الأقوال كلها في: ﴿ألم﴾ في هذه السورة ، وذهب الجرجاني في النظم إلى أن أحسن الأقوال هنا أن يكون ﴿ألم﴾ إشارة إلى حروف المعجم كأنه يقول: هذه الحروف كتابك أو نحو هذا ، ويدل قوله ﴿الله لا إله إلاَّ هُوَ الحيُّ القيومُ نزَّلَ عليكَ الكتابَ﴾ على ما ترك ذكره مما هو خبر عن الحروف ، قال: وذلك في نظمه مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمنْ شَرحَ اللهُ صدْرَهُ للإِسْلام فَهُوَ على نورٍ من رَبِّه﴾ وترك الجواب لدلالة قوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[(٣)] تقديره: كمن قسا قلبه ، ومنه قول الشاعر[(٤)]:

---

(١) صدر هذه السورة إلى ثلاث وثمانين آية نزل في وفد نجران ، وقد وفدوا على النبيّ وهو في المدينة.

(٢) تسمى أيضاً: الزهراء ، والأمان ، والكنز ، والمعينة ، وسورة الاستغفار.

(٣) من الآية: ٢٢ من سورة الزُّمَر.

(٤) هو الشنفرى ، وأم عامر كنية الضبع؛ وخامري: استتري ، وقوله: «خامري أم عامر» يجري مجرى المثل ، وهو يضرب للذي يرتاع من كل شيء جبناً. انظر الميداني ١: ١٦٠ ، وجمهرة الأمثال للعسكري ١: ٤١٦ ، والمستقصي: ٢٠٧ ، وفصل المقال: ١٨٧ ، وبيت الشنفرى في الحيوان ٦: ٤٥٠ (منسوباً لتأبط شرا) ، والعقد ١: ٥٣ ، والأزمنة والأمكنة ١: ٢٩٣ ، والمخصص ١٣: ٢٥٨.

فـلا تـدفنـونـي إنَّ دَفْنـي مُحَـرّمٌ عليكُمْ، ولكن: خامري أمَّ عامر

التقدير: ولكن اتركوني للتي يقال لها: «خامري أُمَّ عامر».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يحسن في هذا القول أن يكون ﴿نزَّلَ﴾ خبرَ قوله ﴿الله﴾ حتى يرتبطَ الكلام إلى هذا المعنى. وهذا الذي ذكره القاضي الجرجانيّ فيه نظر، لأن مثله ليست صحيحة الشبه بالمعنى الذي نحا إليه، وما قاله في الآية محتمل، ولكن الأبرع في نظم الآية أن تكون ﴿الٓمٓ﴾ لا تضم ما بعدها إلى نفسها في المعنى، وأن يكون ﴿الله لا إلهَ إلاَّ هُوَ الحيُّ القَيُّوم﴾ كلاماً مبتدأ جزماً جملة رادّةً على نصارى نجران الذين وفدوا على رسول الله عليه السلام فحاجّوه في عيسى بن مريم وقالوا: إنه الله، وذلك أن ابن إسحق والربيع وغيرهما[١] ممن ذكر السير، رووا[٢] أن وفد نجران قدم على رسول الله ﷺ: نصارى ستون راكباً، فيهم من أشرافهم أربعة عشر رجلاً، في الأربعة عشر[٣] ثلاثة نَفَر، إليه يرجع أمرهم: العاقب أمير القوم وذو رأيهم واسمه عبد المسيح، والسيد ثمالهم[٤] وصاحب مجتمعهم واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل أسقفهم وعالمهم؛ فدخلوا على رسول الله ﷺ المسجدَ إثرَ صلاةِ العصر، عليهم الحَبرَاتُ[٥] جببٌ وأردية، فقال أصحاب رسول الله عليه السلام: ما رأينا وفداً مثلهم جمالاً وجلالة، وحانت صلاتهم فقاموا فصلُّوا في مسجد رسول الله ﷺ إلى المشرق، فقال النبي ﷺ: (دعوهم)؛ ثم أقاموا بالمدينة أياماً يناظرون رسول الله ﷺ في عيسى ويزعمون أنه الله، إلى غير ذلك من أقوال بشعة مضطربة، ورسولُ الله ﷺ يردّ عليهم بالبراهين الساطعة وهم لا يبصرون، ونزل فيهم صدرُ هذه السورة إلى نيف وثمانين آية، إلى أن آل أمرهم إلى أن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الابتهال[٦]، وسيأتي تفسير ذلك.

---

(١) في بعض النسخ: وغيرهم.

(٢) انظر ابن هشام ١: ٥٧٣ (ط ١٣٧٥).

(٣) زاد في بعض النسخ: رجلاً، وهي ساقطة في نص سيرة ابن هشام.

(٤) ثمال القوم: من يقوم بأمرهم، أو هو أصلهم الذي يقصدون إليه.

(٥) الحبرة بفتح الباء وكسرها: ثوب من قطن أو كتان مخطط، كان يصنع باليمن، وجمعه حبرات بالفتح والكسر أيضاً.

(٦) انظر الحديث عن الابتهال أو المباهلة في السيرة ١: ٥٨٣، وفتح القدير ١: ٢٨٣، وعيون الأثر ١: =

وقرأ السبعة [الٓمٓ الله] بفتح الميم والألف ساقطة ، وروي عن عاصم أنه سكَّنَ الميم ثم قَطَعَ الألف ، وروى الأولى التي هي كالجماعة حفص ، وروى الثانية أبو بكر ، وذكرها الفراء عن عاصم ، وقرأ أبو جعفر الرؤاسي[1] وأبو حيوة [ألم] بكسر الميم للالتقاء[2] وذلك رديء لأن الياء تمنع من ذلك ، والصواب الفتح قراءة جمهور الناس. قال أبو علي: حروف التهجّي مبنيةٌ على الوقف فالميم ساكنة واللام ساكنة، فحركت الميم بالفتح كما حركت النون في قولك: منَ الله ومنَ المسلمين إلى غير ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن قال بأن حركة الهمزة ألقيت على الميم فذلك ضعيف لإجماعهم على أن الألف الموصولة في التعريف تسقط في الوصل، فما يسقط فلا تلقى حركته ، قاله أبو علي[3].

وقد تقدم تفسير قوله: ﴿الحيُّ القَيُّوم﴾ في آية الكرسيّ ، والآية هنالك إخبار لجميع الناس ، وكررت هنا إخباراً بحجج[4] هؤلاء النصارى ، ويرد عليهم أن هذه الصفات لا يمكنهم ادعاؤها لعيسى عليه السلام، لأنهم إذ يقولون إنه صلب، فذلك موت في معتقدهم لا محالة ، إذ من البين أنه ليس بقيوم.

وقرأ جمهور القراء ﴿القيُّومُ﴾ وزنه فيعول ، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعبد الله بن مسعود وعلقمة بن قيس [القيَّامُ] وزنه ـ فيعال ـ وروي عن علقمة أيضاً أنه

= ١٢٩. والابتهال هو: اجتماع القوم المختلفين في أمر للدعاء على الجائر منهم بنزول اللعنة عليه ، ومثله: التباهل والمباهلة.

(١) اسمه محمد بن الحسن بن أبي سارة الرؤاسي الكوفي النحوي ، له اختيار في القراءة واختيار في الوقوف ، روى عنه الكسائي والفراء (غاية النهاية ٢: ١١٦ ، وبغية الوعاة ٢: ٨٢ وطبقات الزبيدي: ١٣٥).

(٢) في بعض النسخ: لالتقاء الساكنين.

(٣) جاء في تفسير الزمخشري: «وأما فتحها فهي حركة الهمزة ألقيت عليها حين أسقطت للتخفيف ، فإن قلت: كيف جاز إلقاءُ حركتها عليها وهي همزة وصل لا تثبت في درج الكلام فلا تثبت حركتها، لأن إثبات حركتها كإثباتها؟ قلت: هذا ليس بدرج ، لأن (ميم) في حكم الوقف ، والسكون والهمزة في حكم الثابت ، وإنما حذفت تخفيفاً ، وأُلقيت حركتها على الساكن قبلها ليدل عليها ، ونظيره قولهم: (واحد اثنان) بإلقاء حركة الهمزة على «الدال» .

(٤) هكذا جاءت في كل النسخ ، إلا في نسخة واحدة فقد جاءت (يحجُّ) وهو المقبول والمناسب للمعنى.

قرأ [القيّم] وزنه فيعل ، وهذا كله من: قام بالأمر يقوم به إذا اضطلع بحفظه وبجميع ما يحتاج إليه في وجوده ، والله تعالى القيّام على كل شيء بما ينبغي له أو فيه أو عليه.

وتنزيل الله الكتاب هو بواسطة الملك جبريل عليه السلام ، و﴿الكتاب﴾ في هذا الموضع القرآن باتفاق من المفسرين.

وقرأ جمهور الناس ﴿نزّل عليك﴾ بتشديد الزاي ﴿الكتابَ﴾ بنصب الباء ، وقرأ إبراهيم النخعي [نَزَلَ عليك الكتابُ] بتخفيف الزاي ورفع الباء ، وهذه الآية تقتضي أن قوله : ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ جملة مستقلة منحازة.

وقوله ﴿بالْحَقِّ﴾ يحتمل[1] معنيين: أَحدهما: أن يكون المعنى ضمن الحقائق من خبره وأمره ونهيه ومواعظه ، فالباءُ على حدِّها في قوله: جاءني كتابٌ بخبر كذا وكذا ، أي ذلك الخبر مقتصّ فيه ، والثاني: أن يكون المعنى أنه نزل الكتاب باستحقاق أن ينزل لما فيه من المصلحة الشاملة ، وليس ذلك على أنه واجب على الله تعالى أن يفعله ، بل له بالحقِّ أن يفعله ، فالباءُ في هذا المعنى على حدها في قوله تعالى حكايةً عن عيسى عليه السلام: ﴿ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ ﴾[2]. وقال محمد بن جعفر بن الزبير[3]: معنى قوله ﴿بالحق﴾: أي فيما اختلف فيه أهلُ الكتاب واضطرب فيه هؤلاء النصارى الوافدون ، وهذا داخل في المعنى الأول.

و﴿مُصَدِّقاً﴾ حالٌ مؤكدة، وهي راتبةٌ غير منتقلة لأنه لا يمكن أن يكونَ غيرَ مصدّق لما بين يديه من كتب[4] الله ، فهو كقول ابن دارة[5]:

أنـا ابـنُ دارةَ معـروفـاً بهـا نسبـي ... وهـل بـدارةَ يـا لَلنـاس مـن عـار؟

و﴿ما بيْنَ يدَيْهِ﴾ التوراة والإنجيل وسائر كتب الله التي تلقيت من شرعنا كالزبور

---

(١) في بعض النسخ: يقتضي.

(٢) من الآية ١١٦ من سورة المائدة.

(٣) من فقهاء أهل المدينة وقرائهم ، روى عنه ابن إسحق وابن جريج وغيرهما ، توفي بين ١١٠ ـ ١٢٠ هـ (تهذيب التهذيب ٩: ٩٣).

(٤) في بعض النسخ: كتاب.

(٥) دارة اسم أمه ، قال ابن قتيبة: سميت بذلك لأنها شبهت بدارة القمر لجمالها ، واسم أبيه مسافع ، شاعر مخضرم هجاء، وبسبب الهجاء قتل (انظر الشعر والشعراء: ٣١٥ والخزانة ١: ٣٨٩ ، ٥٥٧ ، والأغاني ٢١: ٤٩ ، والسمط ٦٨٨ ، ٨٦٢ ، وشرح التبريزي على الحماسة١: ٢٠٥).

والصحف؛ وما بين اليد في هذه الحوادث هو المتقدم في الزمن.

و﴿التَّوراةَ والإِنْجيلَ﴾ اسمان أصلهما عبراني، لكن النحاة وأهلَ اللسان حملوهما على الاشتقاق العربي، فقالوا في التوراة: إنها من ورى الزند[1] يَرِي[2] إذا قدح وظهرت ناره، يقال: أوريته فوري، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾[3] وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾[4]. قال أبو علي: فأما قولهم: وَرِيَتْ بك زنادي على وزن فَعِلَتْ، فزعم أبو عثمان أنه استعمل في هذا الكلام فقط ولم يجاوَزْ به غيره.

وتوراة عند الخليل وسيبويه وسائر البصريين فوعلة، كحوقلة، أصلها وَوْرَية قلبت الواو الأولى تاء، كما قلبت في «تولج» وأصله «وولج» من: ولجت. وحكى الزجاج عن بعض الكوفيين: إن توراة أصلها تَفْعَلة بفتح العين، من: وَرِيَتْ بكَ زنادي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما ينبغي أن تكون من: أوريت، قال: فهي تَوْرِية. وقال بعضهم: يصلح أن تكون تفعِلة بكسر العين مثل توصية [ثم ردَّت إلى تفعَلة بفتح العين. قال الزجاج وكأنه يجيز في توصية][5] توصاة وذلك غير مسموع، وعلى كلّ قولٍ فالياءُ لما انفتح ما قبلها وتحركت هي انقلبت ألفاً فقيل: توراة، ورجَّح أبو علي قولَ البصريين وضعَّفَ غيرَه.

وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم: [التوراة] مفتوحة الراء، وكان حمزة ونافع يلفظان بالراء بين اللفظين بين الفتح والكسر، وكذلك فعلاً في قوله: ﴿مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ و﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ و﴿مِن قَرَارٍ﴾[6] إذا كان الحرف مخفوضاً. وروى المسيبي[7] عن نافع فتح الراء من التوراة، وروى ورش عنه كسرها، وكان أبو عمرو والكسائي يكسران

---

(١) في بعض النسخ: الزناد.

(٢) يري: سقطت من بعض النسخ.

(٣) من الآية ٢ من سورة العاديات.

(٤) الآية ٧١ من سورة الواقعة.

(٥) ما بين معقفين سقط في بعض النسخ.

(٦) ﴿مع الأبرار﴾ من الآية ١٩٣ من سورة آل عمران. و﴿من الأشرار﴾ من الآية ٦٢ من سورة (ص) و﴿من قرار﴾ من الآية ٢٦ من سورة إبراهيم.

(٧) هو إسحق بن محمد بن عبد الرحمن المخزومي، روى عن أبي الزناد ومالك ونافع، توفي سنة ٢٠٦ هـ (تهذيب التهذيب: ٢٤٩).

الراء من التوراة ويميلان [من الأبرار] وغيرها أشدَّ من إمالة حمزة ونافع.

وقالوا في الإنجيل: إنه إفعيل من النجْل، وهو الماءُ الذي ينز[1] من الأرض؛ قال الخليل: استنجلت الأرض وبها نجالٌ إذا خرج منها الماء. والنجْلُ أيضاً الولد والنسل قاله الخليل وغيره، ونجله أبوه أي ولده، ومن ذلك قول الأعشى[2]:

أنجب أيامَ والداه به إذ نَجَلاه فنعم ما نجلا

قال ابن سيدة عن أبي علي: معنى قوله: «أيام والداه به» كما تقول: أنا بالله وبك، وقال أبو الفتح: معنى البيت: أنجب والداه به أيام إذ نجلاه، فهو كقولك: حينئذ ويومئذ لكنه حال بالفاعل بين المضاف الذي هو «أيام» وبين المضاف إليه الذي هو «إذ». ويروى هذا البيت: «أنجب أيامَ والديه». والنجْلُ: الرمي بالشيء وذلك أيضاً من معنى الظهور وفراق شيء شيئاً، وحكى أبو القاسم الزجاجي[3] في نوادره: أن الوالد يقال له: نجْل، وأن اللفظة من الأضداد، وأما بيت زهير فالرواية الصحيحة فيه:

. . . . وكلُّ فحلٍ له نَجْلُ[4]

أي ولد كريم ونسل. وروى الأصمعي فيما حكي [عنه][5] «وكلُّ فرعٍ له نجل»، وهذا لا يتجه إلا على تسمية الوالد نجلاً. وقال الزجاج:

الإنجيل مأخوذٌ من النجل وهو الأصل، فهذا ينحو إلى ما حكى أبو القاسم.

قال أبو الفتح: فالتوراة من وَرَى الزناد[6] إذا ظهرت ناره، والإنجيل من نَجَلَ إذا ظهر ولده، أو من ظهور الماء من الأرض، فهو مستخرَجٌ إما من اللوح المحفوظ وإما من التوراة.

و﴿الفُرْقان﴾ من الفرق بين الحق والباطل، فحروفها مختلفة، والمعنى قريبٌ

---

(١) ينز من الأرض: يتحلب منها وهذا هو النز ـ بفتح النون وكسرها ـ.

(٢) بيت الأعشى في ديوانه: ١٣٥، وانظر اللسان والتاج في مادة (نجل).

(٣) اسمه عبد الرحمن بن إسحق، نسب إلى شيخه إبراهيم الزجاج، وهو مصنف «الجمل» وغيره من المصنفات؛ توفي بطبرية سنة ٣٩٣هـ (انظر إنباه الرواة ٢: ١٦٠ وفي الحاشية ثبت بمصادر ترجمته).

(٤) بيت زهير:

إلى معشر لم يورث اللؤم جدهم أصاغرهم، وكلّ فحلٍ له نجل

(٥) عنه: سقطت من بعض النسخ.

(٦) في بعض النسخ: الزند.

بعضه من بعض، إذ كلها معناه: ظهور الحق وبيان الشرع وفصله من غيره من الأباطيل.

وقرأ الحسن ابن أبي الحسن: [الأَنجيل] ـ بفتح الهمزة ـ وذلك لا يتجه في كلام العرب، ولكن تحميه مكانة الحسن من الفصاحة، وأنه لا يقرأ إلا بما روى، وأراه نحا به نحو الأسماء الأعجمية.

وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ يعني من قبل القرآن[1].

وقوله: ﴿هدىً لِلنَّاس﴾ معناه: دعاء، والناس: بنو إسرائيل في هذا الموضع، لأنهم المدعوون بهما لا غير، وإن أراد أنهما هدى في ذاتهما مدعو إليه فرعون وغيره، منصوب[2] لمن اهتدى به، فالناس عامٌّ في كلِّ من شاء حينئذٍ أن يستبصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقال هنا: ﴿لِلنَّاس﴾، وقال في القرآن: ﴿هدى للمتقين﴾ وذلك[3] عندي لأن هذا خبر مجرد، وقوله: ﴿هدى للمتقين﴾ خبرٌ مقترنٌ به الاستدعاء والصرفُ إلى الإيمان، فحسنت الصفة، ليقع من السامع النشاطُ والبِدار، وذكر الهدى الذي هو إيجاد الهداية في القلب، وهنا إنما ذكر الهدى الذي هو الدعاء، والهدى الذي هو في نفسه معدّ أن يهتدي به الناس، فسمي هدى لذلك، وقال ابن فورك[4]: التقدير هنا: هدىً للناس المتقين، ويردّ هذا العام إلى ذلك الخاص، وفي هذا نظر.

والفرقان: القرآن، سمّي بذلك لأنه فَرَقَ بين الحقّ والباطل، قال محمد بن جعفر: فرق بين الحق والباطل في أمر عيسى عليه السلام، الذي جادل فيه الوفد، وقال قتادة والربيع وغيرهما: فرق بين الحق والباطل في أحكام الشرائع، وفي الحلال والحرام

(١) في بعض النسخ: الفرقان.

(٢) في بعض النسخ؛ مقصور.

(٣) في بعض النسخ: وهذا.

(٤) ابن فورك: هو أبو بكر محمد بن الحسن، وهو بضم الفاء وفتح الراء، متكلم أصولي أديب نحوي، أصبهاني الأصل، أقام بالعراق مدة يدرس العلم وغادرها إلى الريّ ثم إلى نيسابور ثم إلى غزنة، وبلغت مصنفاته في أصول الفقه والدين ومعاني القرآن قريباً من مئة، توفي سنة ٤٠٦هـ، (ابن خلكان ٤: ٢٧٢، والوافي للصفدي ٢: ٣٤٤، وطبقات السبكي ٣: ٥٢ وتبيين كذب المفتري ٢٣٢).

ونحوه، والفرقان يعم هذا كله. وقال بعض المفسرين: الفرقان هنا: كلُّ أمر فرق بين الحق والباطل، فيما قَدُمَ وحَدُثَ، فيدخل في هذا التأويل طوفانُ نوح، وفرق البحر لغرق فرعون، ويوم بدر، وسائر أفعال الله تعالى المفرقة بين الحق والباطل، فكأنه تعالى ذكر الكتاب العزيز، ثم التوراة والإنجيل، ثم كلَّ أفعاله ومخلوقاته التي فرقت بين الحق والباطل، كما فعلت هذه الكتب[1] ثم توعد تعالى الكفار عموماً بالعذاب الشديد، وذلك يعم عذاب الدنيا بالسيف والغلبة، وعذاب الآخرة بالنار، والإشارة بهذا الوعيد إلى نصارى نجران، وقال النقاش: إلى اليهود، كعب بن الأشرف، وكعب بن أسد، وابني أخطب[2] وغيرهم.

و﴿عَزِيز﴾ معناه: غالب، وقد ذلَّ له كلُّ شيء والنقمة والانتقام: معاقبة المذنب بمبالغةٍ في ذلك.

قوله عز وجل:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾.

هذه الآية خبر عن علم الله تعالى بالأشياء على التفصيل، وهذه صفةٌ لم تكن لعيسى

---

(١) أشار الزمخشري في تفسيره إلى السرّ في التعبير عن تنزيل القرآن بقوله: ﴿نزَّل﴾ على صيغة (فعَّل)، والتعبير في تنزيل التوراة والإنجيل بقوله: ﴿أنزل﴾ على صيغة (أفعَل) فقال: «لأن القرآن نزل منجماً، ونزل الكتابان جملة، ونزول القرآن منجماً جعله أكثرتنزيلاً لتفرقه في مرات عدة، فعبّر عنه بصيغة المبالغة والتكثير وهي (فعَّل). لكن يَردُ على ذلك أنَّ الزمخشري حمل [الفرقان] في أحد تأويلاته على أنه [القرآن]، وقد عبَّر الله سبحانه عنه بصيغة (أَفعَل) كغيره حين قال: ﴿وأَنْزَلَ الفُرْقَانَ﴾. وأجاب بعض المحققين عن ذلك فقال: إنه لما عبَّر أولاً عن نزوله الخاص به؛ أَتى بعبارة مطابقة لقصد الخصوصية، فلما جرى ذكره ثانياً ليُنْعَت بصفة زائدةٍ على اسم الجنس عبَّر عن نزوله من حيث الإطلاق اكتفاءً بتميُّزه أَولاً، وإِجمالاً لذلك في غير مقصوده، ومن العبارات السائدة عن هذا المعنى: (الكلام يُجْمَل في غير مقصوده، ويُفَصَّل في مقصوده) ـ ا. هـ «الكشاف ١/ ٤١١».

(٢) في خبر كعب بن الأشرف وهجائه للرسول ثم مقتله، انظر ابن هشام ٢: ٥١؛ فأما كعبُ بن أسد فكان من يهود بني قريظة الذين نصبوا العداوة لرسول الله ﷺ بغياًوحسداً وضغناً، وهو صاحب عقد بني قريظة الذي نقض عام الأحزاب، قدم لقومه النصائح يوم أن حاصرهم الرسول ﷺ وأصحابه، وهو من جملة من نفذ فيهم حكم سعد بن معاذ (ابن هشام ٢٧: ٢٢٠). وأما أبناءُ أَخطب فهم: حُيَيُّ، وأبو ياسر، وجدي، وكلهم من يهود بني النضير، والمراد بقوله: (وابني أخطب) حُيَيُّ وأَبو ياسر.

ولا لأحد من المخلوقين، ثم أخبر عن تصويره[١] البشرَ في أرحام الأمهات، وهذا أمرٌ لا ينكره عاقل، ولا ينكر أن عيسى وسائر البشر لا يقدرون عليه، ولا ينكر أن عيسى عليه السلام من المصوَّرين في الأرحام، فهذه الآية تعظيمٌ لله تعالى في ضمنها الرد على نصارى نجران.

وفي قوله: ﴿إن الله لا يَخْفَى عليه شيءٌ﴾ وعيد ما لهم؛ فَسَّرَ بنحو هذا محمد بن جعفر بن الزبير والربيع، وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الذي يُصَوِّركم﴾ ردٌّ على أهل الطبيعة، إذ يجعلونها فاعلة مستبدة، وشرح النبي ﷺ كيفية التصوير في الحديث الذي رواه ابن مسعود وغيره: (إن النطفة إذا وَقعَتْ في الرَّحِمِ مكثتْ نطفةً أربعين يوماً ثم تكون[٢] عَلَقةً أربعين يوماً، ثم مضغةً مثل ذلك، ثم يبعث الله إليها ملكاً فيقول: يا ربِّ، أذكرٌ أم أنثى؟ أشقيٌّ أم سعيد؟). الحديث بطوله على اختلاف ألفاظه[٣]. وفي مسند ابن سنجر[٤] حديث: (إن الله يخلق عظام الجنين وغضاريفه من منيِّ الرجل، ولحمَهُ وشحمَهُ وسائرَ ذلك من منيّ المرأة). و(صوَّر) بناء مبالغة من: صار يصور إذا أمال وثنى إلى حال ما، فلما كان التصوير إمالةً إلى حال وإثباتاً فيها، جاء بناؤه على المبالغة. والرحم: موضع نشأة الجنين.

و﴿كيف يَشاءُ﴾ يعني من طول وقصر ولون وسلامة وعاهة وغير ذلك من الاختلافات[٥].

و﴿الْعَزيز﴾: الغالب، و﴿الْحكيمُ﴾: ذو الحكمة أو المحكم في مخلوقاته، وهذا أخص بما ذكر من التصوير.

و﴿الْكِتابَ﴾ في هذه الآية: القرآن بإجماع من المتأولين، والمُحكَمات:

---

(١) في بعض النسخ: تصوير.

(٢) تكون: سقطت من بعض النسخ.

(٣) وردت في ذلك أحاديث كثيرة انظر مثلاً (مسند أحمد ١: ٣٧٤، ٣٨٢، ٤١٤، ٤٣٠)، و(البخاري بدء الخلق: ٦).

(٤) هو محمد بن سنجر أبو عبد الله الجرجاني، الإمام الحافظ الكبير، صاحب المسند، سكن قرية قضابة من أعمال مصر، وسمع يزيد بن هارون، وأبا النعيم، وخالد بن مخلد، وغيرهم، وأخذ عنه عيسى بن مسكين، وأحمد بن عمرو بن منصور، ومحمد بن المسيَّب، وخلْق كثير، وثَّقه ابن أبي حاتم، توفي سنة ٢٨٥هـ ـ (تذكرة الحفاظ ٢: ٥٧٨).

(٥) في بعض النسخ: الاختلاف.

المفصلات المبينات الثابتات الأحكام، والمتشابهَات: هي التي فيها نظر وتحتاج إلى تأويل، ويظهر فيها ببادي النظر إما تعارض مع أخرى أو مع العقل، إلى غير ذلك من أنواع التشابه، فهذا الشبه الذي من أجله توصف بمتشابهات إنما هو بينها وبين المعاني الفاسدة التي يظنها أهلُ الزيغ ومن لم يُمْعِن[١] النظر، وهذا نحو الحديث الصحيح، عن النبي عليه السلام: (الحلالُ بيّنٌ والحرام بين، وبينهما أمور متشابهات)[٢] أي يكون الشيء حراماً في نفسه فيشبه عند من لم يمعن النظر شيئاً حلالاً، وكذلك الآية يكون لها في نفسها معنًى صحيح فتشبه عند من لم يمعن النظر أو عند الزائغ معْنىً آخر فاسداً، فربما أراد الاعتراض به على كتاب الله، هذا عندي معنى الإحكام والتشابه في هذه الآية، ألا ترى أن نصارى نجران قالوا للنبي عليه السلام: أليس عندك في كتابك أن عيسى كلمة الله وروحٌ منه؟ قال نعم[٣]، قالوا: فحسبنا إذاً[٤]، فهذا هو التشابه.

واختلفت عبارة المفسرين في تعيين المحكم والمتشابه المراد بهذه الآية، فقال ابن عباس: المحكمات: هي قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ ۞قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾[٥] إلى ثلاث آيات، وقوله في بني اسرائيل: ﴿ ۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[٦]، وهذا عندي مثال أعطاه في المحكمات. وقال ابن عباس أيضاً: المحكمات: ناسخُه وحلالُهُ وحرامه وما يؤمن به ويعمل به[٧]؛ والمتشابهات: منسوخه ومقدَّمه ومؤخَّره وأمثاله وأقسامه وما يُؤْمَنُ به ولا يُعْمَلُ به. وقال ابن مسعود وغيره: المحكمات: الناسخات، والمتشابهات: المنسوخات. وهذا عندي على جهة التمثيل أي يوجد الإحكام في هذا والتشابه في هذا، لا أنه وقف على هذا النوع من الآيات. وقال بهذا القول قتادة والربيع والضحاك. وقال مجاهد وعكرمة: المحكمات: ما فيه الحلال والحرام، وما سوى ذلك فهو متشابه يصدّق بعضه بعضاً،

---

(١) في بعض النسخ: ينعم.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، عن النعمان بن بشير (الجامع الصغير ١: ٥٢٢).

(٣) في تفسير الطبري: بلى، في موضع نعم.

(٤) انظر تفسير الطبري ٣: ١٧٧، والبغوي (بهامش الخازن١: ٢٧٠)، وكلاهما عن الربيع.

(٥) من الآية ١٥١ من سورة الأنعام.

(٦) من الآية ٢٣ من سورة الإسراء.

(٧) «ويعمل به»، سقط من بعض النسخ.

وذلك مثل قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[١] وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٢]. وهذه الأقوال وما ضارعها؛ يُضعفها أن أهلَ الزيغ لا تعلُّقَ لهم بنوع مما ذكر دون سواه.

وقال محمد بن جعفر بن الزبير: المحكمات: هي التي فيهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل، ليس لها تصريف ولا تحريف عما وُضعن عليه، والمتشابهات: لهن تصريفٌ وتحريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد، وهذا أحسن الأقوال في هذه الآية. وقال ابن زيد[٣]: المحكم: ما أحكم فيه قصص الأنبياء والأمم، وبيّن لمحمد وأمته، والمتشابه: هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرير في السور بعضه باتفاق الألفاظ[٤] واختلاف المعاني، وبعضه بعكس ذلك نحو قوله: ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾[٥] و﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾[٦] ونحو: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ﴾[٧] و﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾[٨].

وقالت جماعة من العلماء؛ منهم جابر بن عبد الله بن رئاب[٩]، وهو مقتضى قول الشعبي وسفيان الثوري وغيرهما: المحكماتُ من آي القرآن: ما عرف العلماء تأويله وفهموا معناه وتفسيره، والمتشابه: ما لم يكن لأحدٍ إلى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه. قال بعضهم: وذلك مثل وقت قيام الساعة وخروج يأجوج ومأجوج والدجال ونزول عيسى، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور.

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.

(٣) أبو عبد الله محمد بن زيد، مولى عبد الرحمن بن الحكم، كان عالماً بالعربية ورواية للشعر.

(٤) في بعض النسخ: اللفظ.

(٥) من الآية ٢٠ من سورة طه.

(٦) من الآية ٣٢ من سورة الشعراء.

(٧) من الآية ٣٢ من سورة القصص

(٨) من الآية ١٢ من سورة النمل.

(٩) هو جابر بن عبد الله بن رئاب بن النعمان الأنصاري السلمي، أَحد الستة الذين شهدوا العقبة الأُولى، شهد بدراً وأُحداً والخندق وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ، وهو أَول من أَسلم من الأَنصار قبل البعثة الأُولى بعام. (الاستيعاب. والإِصابة: ١: ٢٢١).

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه:

أما الغيوب التي تأتي فهي من المحكمات، لأن ما يعلم[١] البشر منها محدود، وما لا يعلمونه وهو تحديد الوقت محدودٌ أيضاً. وأما أوائل السور فمن المتشابه لأنها مُعَرَّضَةٌ للتأويل[٢]، ولذلك اتبعته اليهود وأرادوا أن يفهموا منه مدَّة أمةِ محمدٍ عليه السلام.

وفي بعض هذه العبارات التي ذكرنا للعلماء اعتراضات، وذلك أن التشابه الذي في هذه الآية مقيّدٌ بأنه مما لأهل الزيغ به تعلق، وفي بعض عبارات المفسرين تشابه لا يقتضي لأهل الزيغ تعلّقاً.

وقوله تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فمعناه الإعلامُ بأنها معظم الكتاب وعمدة ما فيه، إذ المحكم في آيات الله كثير قد فُصِّلَ ولم يُفَرَّطْ في شيء منه[٣].

قال يحيى بن يعمر[٤]: هذا كما يقال لمكة: أم القرى، ولمرو: أمّ خراسان، وكما يقال: أم الرأس لمجتَمَعِ الشؤون إذ هو أخطر مكان. قال المهدويّ والنقاش: كل آية محكمةٍ في كتاب الله يقالَ لها أمّ الكتاب؛ وهذا مردود بل جميعُ المحكم هو أم الكتاب، وقال النقاش: وهذا كما تقول: كلكم عليَّ أسدٌ ضار، وهذا المثال غير محكم. وقال ابن زيد: ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ معناه: جماع الكتاب. وحكى الطبري عن أبي فاختة[٥] أنه قال: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يراد به فواتح السور إذ منها يستخرج القرآن ﴿الٓمٓ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ منه استخرجت سورة البقرة، ﴿الٓمٓ اللهُ لاَ إله هُوَ الحيُّ القَيُّوم﴾ منه استخرجت سورة آل عمران. وهذا قول متداعٍ للسقوط، مضطرب لم ينظر قائله أول

---

(١) في: بعض النسخ: يعلمه.

(٢) في بعض النسخ: للتأويلات، وفي بعضها: معرض للتأويلات.

(٣) في بعض النسخ: ولم يفرط فيه شيء.

(٤) هو يحيى بن يَعْمَر (بفتح الياء والميم، بينهما عين ساكنة)، من العلماء المشهورين، روى عن ابن عباس، وابن عمر، وأخذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي، توفي سنة ١٢٩هـ.

(٥) هو سعيد بن علاقة، أبو فاختة الهاشمي الكوفي، مولى أم هانىء قدم الشام، روى عن علي وأُم هانىء، وعائشة أُم المؤمنين، وابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وغيرهم من التابعين. وروى عنه ابنه نوير، وعمرو بن عبد الله بن عتبة، وسعيد المقبري، وعمرو بن دينار، وغيرهم. وثّقه الدار قطني، والعجلي، شهد مع عليٍّ مشاهده، وتوفي في ولاية عبد الملك، أو الوليد بن عبد الملك؛ وهو بكنيته مشهور أكثر من اسمه. (الإصابة ٤/ ٧٥٧ وتهذيب التهذيب ٤/ ٧٠).

الآية وآخرها ومقصدها، وإنما معنى الآيةِ الإنحاءُ على أهل الزيغ، والإشارة بذلك أولاً إلى نصارى نجران، وإلى اليهود الذين كانوا معاصرين[١] لمحمد عليه السلام، فإنهم كانوا يعترضون معاني القرآن، ثم تعم بعد ذلك كل زائغ، فذكر الله تعالى أنه نزل الكتاب على محمد إفضالاً منه ونعمة، وأنّ مُحْكَمَهُ وبيِّنَهُ الذي لا اعتراضَ فيه هو معظمُهُ والغالبُ عليه، وأَن متشابهه الذي يحتملُ التأويلَ ويحتاجُ إلى التفهّم، هو أقلُّهُ. ثم إن أهل الزيغ يتركون المحكمَ الذي فيه غُنْيَتُهُم، ويتبعون المتشابهَ، ابتغاءَ الفتنةِ وأَن يفسدوا ذات البين[٢] ويردّوا الناسَ إلى زَيْغهم، فهكذا تتوجه المذمّةُ عليهم.

﴿وَأُخَرُ﴾ جمع أُخرى ولا ينصرف لأنه صفة، وعُدِلَ عن الألف واللام في أنه يثنى ويجمع، وصفاتُ التفضيل كلّها إذا عريت عن الألف واللام لم تثنَّ ولم تجمع، كأفضل وما جرى مجراه، ولا يفاضل بهذه الصفات بين شيئين إلا وهي منكَّرة، ومتى دخلت عليه الألفُ واللام زال معنى التفضيل بين أمرين، وليس عَدْلُ (أُخَر) عن الألفِ واللام مؤثراً في التعريف كما هو عَدْلُ (سحر) بل أُخر نكرة، وأما سحر فعدل لأنه[٣] زالت الألف واللام، وبقي معرفة في قوله «جئت يوم الجمعة سحر». وخلط المهدوي في هذه المسألة وأفسد كلام سيبويه[٤] فتأمله.

قوله عز وجل:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿الذينَ في قلوبهم زَيْغٌ﴾ يعمُّ كلَّ طائفةٍ من كافر وزنديق وجاهلٍ صاحب بدعة. والزيغُ: الميل، ومنه زاغت الشمس، وزاغتِ الأبصار. والإشارة بالآية في ذلك الوقت كانت إلى نصارى نجران لتعرّضهم للقرآن في أمر عيسى عليه

---

(١) في بعض النسخ: معاصري محمد.

(٢) في بعض النسخ: الدين.

(٣) بين النسخ اختلاف في هذه العبارة، وفي بعضها: «فإنه عدل في أنه» وفي بعضها الآخر: «فعدل في أنه».

(٤) نص كلام سيبويه: «لا يجوز أن يكون (أُخر) معدولةً عن الألف واللام؛ لأنها لو كانت معدولة عنهما لكان معرفة ألا ترى أن (سَحَر) معرفة في جميع الأقاويل لما كانت معدولة». (فتح القدير ـ للشوكاني).

السلام، قاله الربيع، وإلى اليهود، ثم تنسحبُ على كلِّ ذي بدعة أو كفر، وبالميلِ عن الهدى فَسَّر الزيغَ محمدُ بن جعفر بن الزبير، وابنُ مسعود وجماعةٌ من الصحابة ومجاهدٌ وغيرهم.

و﴿ما تَشَابه مِنْهُ﴾ هو الموصوف آنفاً «بمتشابهات». وقال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذين في قُلوبهم زَيْغٌ﴾: إن لم يكونوا الحرورية وأنواع الخوارج فلا أدري من هم. وقالت عائشة: (إذا رأيتم الذين يجادلون في القرآن فهم الذين عنى الله فاحذورهم)[1] وقال الطبري: الأشبه أن تكون الآية في الذين جادلوا رسول الله ﷺ في مدته ومدة أمته بسبب حروف أوائل السور، وهؤلاء هم اليهود.

و(ابتغاء) نُصِبَ على المفعول من أجله، ومعناه طلب الفتنة[2]. وقال الربيع: الفتنة هنا: الشِّرك، وقال مجاهد: الفتنة: الشبهات واللبس على المؤمنين.

ثم قال: ﴿وابْتِغاءَ تأويلِهِ﴾ والتأويل هو مَرَدُّ الكلام ومرجعُهُ، والشيء الذي يقف عليه من المعاني، وهو من آل يؤول، إذا رجع، فالمعنى: وطلبَ تأويله على منازعهم الفاسدة. هذا فيما له تأويل حسن، وإن كان مما لا يتأول، بل يوقف فيه كالكلام في معنى الروح ونحوه، فنفسُ طَلَبِ تأويله هو اتّباعُ ما تشابه. وقال ابن عباس: ابتغوا معرفة مدة محمد ﷺ وأمته.

ثم قال تعالى: ﴿وما يَعْلمُ تأويلَهُ إلا الله﴾ فهذا على الكمال والتَّوْفيةِ فيما لا يُتأوّل ولا سبيلَ لأحد عليه[3]، كأمرِ الروح، وتعرّف وقتِ قيام الساعة وسائر الأحداثِ التي أنذر بها الشرع، وفيما يمكن أن يتأوله العلماء ويصح التطرق إليه، فمعنى الآية: وما يعلم تأويلَهُ على الكمال إلا الله.

---

(١) في مسند الإمام أحمد ـ من رواية ابن أبي مُلَيكة عن عائشة رضي الله عنها ـ قالت: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذي أَنْزَلَ عليْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ﴾ إلى قوله: ﴿أولو الأَلْبابِ﴾ فقال: (إذا رأيتُم الذين يجادلون فيه، فهم الذين عنى الله فاحذروهم). وهكذا رواه ابن ماجه، ورواية البخاري: (فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّى الله فاحذروهم). ورواية ابن أبي حاتم تتفق مع لفظ البخاري، فالآية كما يدلُّ الحديث تدفع كل من يقصد إلى المتشابه من القرآن يبتغي التحريف والتأويل، ويبتغي الفتنة للأمة في أي زمان وفي أي مكان.

(٢) أي طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم، وطلب أن يؤولوه التأويل الذي يشتهونه.

(٣) في بعض النسخ: إليه.

واختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿والراسِخُونَ في العلمِ﴾، فرأت[1] فرقة أن رفع (والراسخون) هو بالعطف على اسم الله عز وجل، وأنهم داخلون في علم المتشابه في كتاب الله، وأنهم مع علمهم به ﴿يقولون آمنَّا بِهِ﴾... الآية، قال بهذا القول ابن عباس، وقال: أنا ممن يعلم تأويله. وقال مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به، وقاله الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير وغيرهم، و﴿يَقُولُونَ﴾ على هذا التأويل نصب على الحال.

وقالت طائفة أخرى: ﴿والرَّاسِخونَ﴾ رفع بالابتداء وهو مقطوع من الكلام الأول، وخبره ﴿يقولون﴾. والمنفرد بعلم المتشابه هو الله وحده بحسب اللفظ في الآية، وفعل الراسخين قولهم: ﴿آمنَّا بِهِ﴾، قالته عائشة وابن عباس أيضاً. وقال عروة بن الزبير: إن الراسخين لا يعلمون تأويله ولكنهم يقولون: ﴿آمنَّا بِهِ﴾. وقال أبو نهيك الأسدي[2]: إنكم تَصِلُونَ هذه الآية وإنها مقطوعة، وما انتهى علم الراسخين إلا إلى قولهم: ﴿آمنّا به كلٌّ مِنْ عندِ ربِّنا﴾. وقال مثلَ هذا عمرُ بن عبد العزيز، وحكى نحوه الطبري عن يونس عن أشهب عن مالك بن أنس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه المسألة إذا تؤملت قَرُبَ الخلافُ فيها من الاتفاق، وذلك أن الله تعالى قَسَمَ آيَ الكتابِ قسمين: محكماً ومتشابهاً، فالمحكم هو المتّضحُ المعنى لكلِّ من يفهم كلامَ العرب، لا يحتاج فيه إلى نظر ولا يتعلق به شيءٌ يُلْبِسُ، ويستوي في علمه الراسخُ وغيره، والمتشابه يتنوع، فمنه ما لا يُعْلَمُ البتةَ، كأمرِ الروح، وآمادِ المغيبات التي قد أعلم الله بوقوعها، إلى سائر ذلك، ومنه ما يحمل على وجوه في اللغة ومناحٍ في كلام العرب، فيتأول ويُعْلَمُ تأويله المستقيم، ويزال ما فيه مما عسى أن يُتَعَلَّقَ به من تأويلٍ غير مستقيم كقوله في عيسى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[3] إلى غير ذلك، ولا يسمى أحدٌ راسخاً إلا بأنْ يعلمَ من

---

(١) في بعض النسخ: فقالت.

(٢) اسمه القاسم بن محمد، روى عن زياد بن حدير، وعنه قرة بن خالد، ومنصور بن المعتمر، ذكره ابن حبان في الثقات (تهذيب التهذيب ١٢ : ٢٥٩).

(٣) من الآية ١٧١ من سورة النساء.

هذا النوع كثيراً بحسب ما قُدِّرَ له، وإلا فمن لا يعلمُ سوى المحكمِ فليس يُسَمَّى راسخاً.

وقوله تعالى: ﴿وما يَعْلَمُ تأويلَهُ﴾ الضمير عائد على جميع[1] متشابه القرآن، وهو نوعان كما ذكرنا، فقوله: ﴿إلاَّ اللهُ﴾ مقتضٍ ببديهة العقل أنه يعلمه على الكمال والاستيفاء، يعلمُ نوعيه جميعاً. فإن جعلنا قوله: ﴿والرَّاسِخونَ﴾ عطفاً على اسم الله تعالى، فالمعنى إدخالهم في علم التأويل لا على الكمال، بل علمهم إنما هو في النوع الثاني من المتشابه، وبديهة العقل تقضي بهذا، والكلام مستقيمٌ على فصاحة العرب كما تقول: ما قام لنصرتي إلا فلان وفلان، وأحدهما قد نصرك بأنْ حارب معك، والآخر إنما أعانك بكلام فقط، إلى كثير من المثل، فالمعنى: ﴿وما يَعْلَمُ﴾ تأويلَ المتشابه إلا الله والراسخون كلٌّ بقدره وما يصلح له، والراسخون بحال قول في جميعه: ﴿آمنّا بهِ﴾، وإذا تحصل لهم في الذي لا يعلم ولا يتصور عليه تمييزه من غيره، فذلك قدرٌ من العلم بتأويله، وإن جعلنا قوله: ﴿والرَّاسِخونَ﴾ رفعاً بالابتداء مقطوعاً مما قبله، فتسميتهم راسخين يقتضي بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب، وفي أي شيء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع؟ وما الرسوخ إلا المعرفةُ بتصاريف الكلام، وموارِدِ الأحكام، ومواقع المواعظ، وذلك كله بقريحة مُعَدَّة، فالمعنى: وما يعلم تأويلَهُ على الاستيفاء إلا الله، والقومُ الذين يعلمون منه ما يمكن أن يُعْلَم يقولون في جميعه: ﴿آمنَّا بِهِ كلٌّ مِنْ عِندِ ربِّنا﴾، وهذا القدر هو الذي تعاطى[2] ابن عباس رضي الله عنه، وهو ترجمان القرآن، ولا يُتَأَوَّلُ عليه أَنه علم وقت الساعة وأَمْر الروحِ وما شاكله. فإعراب ﴿الرَّاسِخونَ﴾ يحتمل الوجهين، ولذلك قال ابن عباس بهما، والمعنى فيهما يتقارب بهذا النظر الذي سطرناه.

فأمّا من يقول: إن المتشابه إنما هو ما لا سبيل لأحدٍ إلى علمه، فيستقيم على قوله إخراج الراسخين من علم تأويله، لكنَّ تخصيصَهُ المتشابهات بهذا النوع غير صحيح، بل الصحيحُ في ذلك قولُ مَنْ قال: المحكمُ ما لا يحتمل إلا تأويلاً واحداً، والمتشابه ما

---

(١) جميع: سقطت من بعض النسخ.

(٢) في بعض النسخ: يتعاطى.

احتمل من التأويل أوجهاً. وهذا هو مُتَّبَعُ أهلِ الزيغ، وعلى ذلك يترتب النظر الذي ذكرته. ومن قال من العلماء الحذاق بأن الراسخين لا يعلمون تأويل المتشابه فإنما أرادوا[1] هذا النوع، وخافوا أن يظنَّ أحدٌ أن الله وصف الراسخين بعلم التأويل على الكمال، وكذلك ذهب الزجاج إلى أن الإشارة بما تشابه منه إنما هي إلى وقت البعث الذي أنكره[2] وفسر باقي الآية على ذلك، فهذا أيضاً تخصيصٌ لا دليلَ عليه. وأما من يقول: إن المتشابه هو المنسوخ فيستقيم على قوله إدخال الراسخين في علم التأويل، ولكن تخصيصه المتشابهات بهذا النوع غير صحيح. ورجَّح ابنُ فُورك أن الراسخين يعلمون التأويل، وأطنب في ذلك.

وقرأ أبيّ بن كعب وابن عباس: [إلاَّ الله ويقولُ الرَّاسِخونَ في العِلْمِ آمنَّا بِه]. وقرأ ابن مسعود: [وابْتِغاءَ تأويلِه إنْ تأويلُهُ إلاَّ عندَ اللهِ، والراسخون في العِلْم يقولون آمنَّا بِهِ]. والرسوخ: الثبوت في الشيء، وأصله في الأَجرام أن يرسخَ الجبلُ أو الشجرُ في الأرض. وسئل النبيّ عليه السلام عن الراسخين في العلم فقال: (هو من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه)[3].

وقوله: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ ربِّنا﴾ فيه ضمير عائد على كتاب الله، محكمِهِ ومتشابهه، والتقديرُ: كلُّهُ من عند ربنا، وحذفَ الضمير لدلالةِ لفظ «كلّ» عليه، إذ هي لفظة تقتضي الإضافة.

ثم قال تعالى: ﴿وما يذَّكَّرُ إلاَّ أُولو الألباب﴾ أي ما يقول هذا ويؤمن به ويقفُ حيث وقف ويدعُ اتباعَ المتشابه إلا ذو لبّ، وهو العقل، وأولو: جمع ذو.

قوله عز وجل:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾.

يحتمل أن تكون هذه الآية حكاية عن الراسخين في العلم أنهم يقولون هذا مع

---

(١) في بعض النسخ: أراد.

(٢) لعلّ الصواب: أنكروه، كما في بعض النسخ.

(٣) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أنس وأبي أمامة وواثلة بن الأسقع وأبي الدرداء، كما خرجه ابن عساكر من طريق عبد الله بن يزيد الأزدي عن أنس مرفوعاً. (فتح القدير ١: ٢٨٩).

قولهم: ﴿آمنا به﴾، ويحتملُ أن يكونَ المعنى منقطعاً من الأول، لمّا ذَكَرَ أهلَ الزيغ وذكر نقيضهم وظهر[١] ما بين الحالتين؛ عقَّبَ ذلك بأنْ علَّم عبادَهُ الدعاءَ إليه في أن لا يكونوا من الطائفة الذميمة التي ذُكِرَتْ، وهي أهل الزيغ. وهذه الآية حجةٌ على المعتزلة في قولهم: إن الله لا يُضِلُّ العباد، ولو لم تكن الإزاغةُ من قِبَله لما جاز أن يُدْعَى في دفع ما لا يجوز عليه فعله[٢].

و(تُزِغْ) معناه: تُمِلْ قلوبنا عن الهدى والحق. وقرأ أبو واقد والجراح[٣]: [لا تزغ قلوبنا] بإسناد الفعل إلى القلوب، وهذه أيضاً الرغبة إلى الله تعالى. وقال أبو الفتح[٤]: ظاهر هذا ونحوه الرغبة إلى القلوب وإنما المسؤول الله تعالى، [وقوله: «الرغبة إلى القلوب» غير متمكن][٥]. ومعنى الآية على القراءتين أي لا يكن مثل خلق الزيغ فتزيغ هي، قال الزجاج: وقيل: إن معنى الآية: لا تكلّفنا عبادةً ثقيلةً تزيغ منها قلوبنا، وهذا قول فيه التحفُّظُ من خَلْقِ الله تعالى الزيغَ والضلالةَ في قلب أحد من العباد.

و﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ معناه: من عندك ومن قِبَلك، أي يكون تفضّلاً لا عن سبب منا ولا عن عمل. وفي هذا استسلام وتطارح. والمراد: هبْ لنا نعيماً صادراً عن الرحمة، لأن الرحمة راجعةٌ إلى صفات الذات، فلا تُتَصَوَّرُ فيها الهبة.

وقوله تعالى: ﴿ربَّنَا إنَّكَ جامعُ النَّاسِ﴾ إقرارٌ بالبعث ليوم القيامة. قال الزجاج: هذا هو التأويل الذي عِلِمَهُ الراسخون وأقرّوا به، وخالف الذين اتبعوا ما تشابه عليهم من أمر البعث حين أنكروه. والريب: الشك، والمعنى: إنه في نفسه حقّ لا ريب فيه، وإن وقع فيه ريب عند المكذبين به فذلك لا يعتدُّ به، إذ هو خطأٌ منهم.

---

(١) في بعض النسخ: وذكر.

(٢) أول الزمخشري الآية فقال في معنى قوله تعالى: ﴿لا تُزِغ قلوبَنا﴾: أي لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا؛ أما أهل السنة فيرون أن كل هدى وزيغ مخلوق لله تعالى، وتفسير ابن عطية للآية يدل على أنه بعيد كل البعد عن الاعتزال.

(٣) لعله ابن واقد أبو مسلم (عبد الرحمن بن عبيد الله بن واقد) مقرىء معروف، أخذ القراءة عن حمزة بن القاسم الأحول والصباح بن دينار. (انظر ابن الجزري، غاية النهاية ١: ٣٨١). أما الجراح فلم أعثر عليه فيما لدي من مراجع. وفي تفسير القرطبي، وقرأ واقد الجراح (دون واو عطف).

(٤) هو عثمان بن جني اللغوي المشهور.

(٥) ما بين معقفين سقط من أكثر النسخ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الميعاد﴾ يحتمل أن يكونَ إخباراً منه لمحمدٍ ﷺ وأمته، ويحتمل أن يكونَ حكايةً من قول الداعين[١]، ففي ذلك إقرار بصفة ذات الله تعالى. والميعاد: مِفعالٌ من الوعد.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾.

هِمَمُ الكفارِ الذين لا يُقرونَ ببعث إنما هي ـ على وجه الدهر وإلى يوم القيامة ـ في زينة الدنيا، وهي المال والبنون، فأخبر الله تعالى في هذه الآية أن ذلك المتَهمَّم فيه لا يغني عن صاحبه شيئاً، ولا يمنعه من عذاب الله وعقابه. و(مِنْ) في قوله: ﴿مِنَ اللهِ﴾ لابتداء الغاية، والإشارة بالآية إلى معاصري النبي ﷺ، وكانوا يفخرون بأموالهم وأبنائهم، وهي ـ بعدُ ـ متناولةٌ كل كافر.

وقرأ أبو عبد الرحمن[٢]: [لَنْ يُغْنِيَ] بالياء، على تذكير العلامة.

والوَقود بفتح الواو: ما يحترق في النار من حطب ونحوه، وكذلك هي قراءة جمهور الناس، وقرأ الحسن ومجاهد وجماعة غيرهما: [وُقود] بضمّ الواو، وهذا على حذف مضاف تقديره: «حطب وقود النار» والوُقود بضمّ الواو: المصدر، وَقَدَتِ النار تَقِدُ إذا اشتعلت. والدأب والدأَب ـ بسكون الهمزة وفتحها ـ مصدر دأب يدأب، إذا لازم فعل شيء ودام عليه مجتهداً فيه، ويقال للعادة: «دأب»، فالمعنى في الآية:

---

(١) في بعض النسخ: من قول الراسخين.

(٢) هو محمد بن الحسين بن محمد النيسابوري الصوفي الأزدي السلمي، أبو عبد الرحمن. أَخذ عن أبي العباس الأصم، وأحمد بن محمد بن عبدوس، وأحمد بن المؤمل وخلقٍ كثيرٍ، وعنه أَخذ القشيري، والبيهقي، وأَبو صالح المؤذن، وغيرهم، صنَّف للصوفية سُنناً وتفسيراً وتاريخاً، وبلغ فهرست تصانيفه المائة أو أكثر، وكتب الحديث. ولد سنة: ٣٣٠هـ، وتوفي سنة: ٤١٢هـ. «تذكرة الحفاظ للذهبي ٣/١٠٤٦»، قال الخطيب: محله كبير، وكان مع ذاك صاحب حديث مجوِّداً. (نفس المصدر).

تشبيه هؤلاء في لزومهم الكفرَ ودوامهم عليه بأولئك المتقدمين، وآخر الآية يقتضي الوعيدَ بأن يصيبَ هؤلاء مثلُ ما أصاب أولئك من العقاب.

والكاف في قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ﴾ في موضع رفع، والتقدير: دأْبُهُمْ كدأبِ، ويصحُّ أن يكون الكاف في موضع نصب. قال الفراء: هو نعتٌ لمصدر محذوف تقديره: كفراً كدأب، فالعامل فيه ﴿كَفَرُوا﴾، وردَّ هذا القولَ الزجاجُ بأنَّ الكاف خارجةٌ من الصلة فلا يعمل فيه ما في الصلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويصحُّ أن يعملَ فيه فعلٌ مقدَّر من لفظ الوقود، ويكون التشبيه في نفس الاحتراق، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[1] والقول الأول أرجح الأقوال أن تكون الكاف في موضع رفع، والهاء في ﴿قَبْلِهِمْ﴾ عائدة على آل فرعون، ويحتمل أن تعود على معاصري رسول الله ﷺ من الكفار.

وقوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ يحتمل أن يكون يريد بالآيات: المتلوة، ويحتمل أن يريد: العلامات المنصوبة. واختلفت عبارة المفسرين في تفسير الدأب، وذلك كله راجع إلى المعنى الذي ذكرناه.

قوله عز وجل:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝١٣﴾.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر: ﴿سَتُغْلبونَ وتُحْشَرونَ﴾ بالتاء من فوق، و﴿يَرَوْنَهم﴾ بالياء من تحت، وحكى أبان عن عاصم [تَرَوْنَهم] بالتاء من فوق، وقرأ نافع ثلاثتهن بالتاء من فوق، وقرأ حمزة ثلاثتهن بالياء من تحت، وبكل قراءة من هذه قرأ جمهور من العلماء، وقرأ ابن عباس، وطلحة بن مصرف، وأبو حيوة:

---

(١) من الآيتين ٤٥ و٤٦ من سورة غافر. والأصل المثبت في النسخ هو: (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب، النار)، وهو من اضطراب النساخ فيما يبدو.

[يُرَوْنهم] بالياء المضمومة، وقرأ أبو عبد الرحمن بالتاء من فوق مضمومة. واختُلِف، من الذين أُمِرَ بالقول لهم من الكفّار؟ فقيل: هم جميع معاصريه من الكفار، أُمر بأن يقولَ لهم هذا الذي فيه إعلامٌ بغيب ووعيد قد صدق بحمد الله، غلب الكفر وصار من مات عليه إلى جهنم. ونحا إلى هذا أبو علي في «الحجة»، وتظاهرت روايات بأن المراد يهود المدينة، قال ابن عباس وغيره: «لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر، وقدم المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع فقال: (يا معشر يهود، أَسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً)، فقالوا: يا محمد، لا تغرنك نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أَنا نحن الناس، فأنزل الله في قولهم هذه الآية».[1] وروي حديث آخر ذكره النقاش، وهو (أن النبي عليه السلام لما غلب قريشاً ببدر قالت اليهود: هذا هو النبي المبعوث الذي في كتابنا وهو الذي لا تُهْزَمُ له راية، وكثرتْ فتنتهم بالأمر، فقال لهم رؤساؤهم وشياطينهم: لا تعجلوا وأمهلوا حتى نرى أمره في وقعة أخرى، فلما وقعت أحد كفر جميعهم وبقوا على أولهم، وقالوا: ليس محمد بالنبيِّ المنصور فنزلت الآية في ذلك[2]، أي قل لهؤلاء اليهود: سيغلبون [يعني قريشاً][3] وهذا التأويل إنما يستقيم على قراءة ﴿سَيُغْلَبونَ وَيُحْشَرونَ﴾ بالياء من تحت، ومن قرأ بالتاء فمعنى الآية: قل للكفار جميعاً هذه الألفاظ. ومن قرأ بالياء من تحت، فالمعنى: قل لهم كلاماً هذا معناه، وتحتمل قراءة التاء التأويل الذي ذكرناه آنفاً، أي قل لليهود: ستغلب قريش. ورجَّح أبو علي قراءة التاء على المواجهة، وأَن الذين كفروا يعم الفريقين: المشركين واليهود، وكل قد غُلِبَ بالسيف والجزية والذلة. والحشر: الجمع والإحضار.

وقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ يعني جهنم، هذا ظاهر الآية، وقال مجاهد: المعنى بئس ما مهدوا لأنفسهم، فكأَنَّ المعنى: وبئس فعلهم الذي أداهم إلى جهنم.

---

(١) أخرجه محمد بن إسحق، وابن جرير، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس، كما أَخرجه ابن جرير، وابن إسحق وابن أبي حاتم عن عاصم بن عمرو عن قتادة، وأَخرجه أيضاً ابن جرير، وابن المنذر عن عكرمة. (فتح القدير للشوكاني. ٢٩٢/١).

(٢) أَخرجه البغوي عن ابن عباس، ونقله عنه الخازن، كما نقله الألوسي في تفسيره. (تفسير الخازن. ٢٧٢/١)، ورواه الواحدي في (أَسباب النزول) عن الكلبي مع اختلاف يسير.

(٣) ما بين القوسين زيادة عن بعض النسخ.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ في فِئَتَينِ﴾. . . الآية تحتمل أن يخاطب بها المؤمنون، وأن يخاطب بها جميع الكفار، وأن يخاطب بها يهود المدينة، وبكل احتمال منها قد قال قوم، فمن رأى أن الخطاب بها للمؤمنين، فمعنى الآية تثبيت النفوس وتشجيعها، لأنه لما قال للكفار ما أُمِرَ به أمكن أن يستبعدَ ذلك المنافقون وبعضُ ضعَفَةِ المؤمنين، كما قال قائل يوم الخندق: «يعدنا محمد أموال كسرى وقيصر، ونحن لا نأمن على أنفسنا في المذهب»، وكما قال عدي بن حاتم حين أخبره النبي عليه السلام بالأَمَنة التي تأتي، فقلت في نفسي: «وأين دُعَّار طيء الذين سعَّروا البلاد»؟. . . . الحديث بكماله[1]، فنزلت الآية مقوية لنفوس المؤمنين ومبينة صحة ما أخبر به بالمثال الواقع.

فمن قرأ [تَرَوْنَهُم] بالتاء من فوق فهي مخاطبة لجميع المؤمنين إذ قد رأى ذلك جمهور منهم، والهاء والميم في [تَرَوْنَهُم] لجميع المشركين، وفي ﴿مثليهم﴾ لجميع المؤمنين][2]، ومن قرأ بالياء من تحت، فالمعنى يرى الجمع من المؤمنين جمع الكفار مثلَيْ جمع المؤمنين ، ومن رأى أن الخطاب لجميع الكفار ومن رأى أنه لليهود فالآية عنده داخلة فيما أمر محمد عليه السلام أن يقوله لهم احتجاجاً عليهم، وتبييناً لصورة الوعيد المتقدم في أنهم سيغلبون. فمن قرأ [يَرَوْنَهُمْ] بالياء من تحت، فالمعنى: يرى الجمع من المؤمنين جمع الكفار مثلَيْ جمع المؤمنين ، ومن قرأ بالتاء فالمعنى: فلو حضرتم أو إن كنتم حضرتم، وساغت العبارة لوضوح الأمر في نفسه ووقوع اليقين به لكل إنسان في ذلك العصر، ومن قرأ بضم التاء أو الياء فكأنَّ المعنى: إن اعتقاد التضعيف في جمع الكفار إنما كان تخميناً وظناً لا يقيناً، فلذلك ترك في العبارة ضربٌ من الشك، وذلك أن أُرى ـ بضم الهمزة ـ تقولها فيما بقي عندك فيه نظر، وأَرى ـ بفتح الهمزة ـ تقولها فيما قد صح نظرك فيه. ونحا هذا المنحى أبو الفتح وهو صحيح. قال أبو علي: والرؤية في هذه الآية رؤية عين، ولذلك تعدت إلى مفعول واحد،

(١) الحديث المشار إليه ذكره ابن الأثير في النهاية (٢: ٣٤١) لغرابته، وورد في مادة (دعر) من لسان العرب أنه لعلي بن أبي طالب ، وأنه أراد بهم قطاع الطرق، والأمنة بفتحات هي: سكون النفس وطمأنينتها.

(٢) ما بين معقفين سقط في بعض النسخ.

و﴿مِثْلَيْهِم﴾ نصب على الحال من الهاء والميم في ﴿تَرَوْنَهُمْ﴾، وأجمع الناس على أن الفاعل بترَوْنَ هم المؤمنون، والضمير المتصل هو للكفار، إلا ما حكى الطبري عن قوم أنهم قالوا: بل كثَّر الله عدد المؤمنين في عيون الكافرين حتى كانوا عندهم ضعفيهم، وضعف الطبري هذا القول، وكذلك هو مردود من جهات، بل قلل الله كل طائفة في عين الأخرى، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فقلل الكفارَ في عيون المؤمنين ليقع التجاسر ويحتقر العدو، وهذا مع اعتقاد النبي وقوله، واعتقاد أولي الفهم من أصحابه أَنهم من التسعمئة إلى الألف[١]، لكن أذهب الله عنهم البهاء وانتشار العساكر وفخامة الترتيب، حتى قال ابن مسعود في بعض ما روي عنه: لقد قلتُ لرجل إلى جنبي أتراهم سبعين؟ فقال: أظنهم مائة، فلما أخذنا الأسرى أخبرونا أنهم كانوا ألفاً. وقلل الله المؤمنين في عيون الكفار ليغتروا ولا يحزموا، وتظاهرت الروايات أَن جمع الكفار ببدر كان نحو الألف فوق التسعمئة، وأَن جمع المؤمنين كان ثلاثمئة وأربعة عشر رجلاً، وقيل: وثلاثة عشر، فكان الكفار ثلاثة أثلاث من المؤمنين، لكن رجع بنو زهرة مع الأخنس بن شريق، ورجع طالب بن أبي طالب[٢] وأَتباع وناس كثير حتى بقي للقتال من يقرب من المثلين، وقد ذكر النقاش نحواً من هذا. فذكر الله تعالى المثلين إذ أمرهما متيقن لم يدفعه قط أحد، وقد حكى الطبري عن ابن عباس: أن المشركين في قتال بدر كانوا ستمئة وستة وعشرين رجلاً. وقد ذهب الزجاج وبعض المفسرين إلى أنهم كانوا نحو الألف، وأراهم الله المؤمنين مثليْهم فقط، قال: فهذا هو التقليل في الآية الأخرى، ثم نصرهم عليهم مع علمهم بأنهم مثلاهم في العدد، لأنه قد كان أعلم

---

(١) يشير بهذا إلى ما رواه محمد بن إسحق عن يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير: أَن رسول الله ﷺ لما سأَل ذلك العبد الأَسود لبني الحجاج عن عدة قريش قال: كثير، قال ﷺ: كم ينحرون كلَّ يوم؟ قال: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً، قال النبي ﷺ: القوم ما بين تسعمئة إلى أَلف. (ابن كثير. ٣٥٠/ ١).

(٢) هو من أَولاد أَبي طالب وأَكبر سناً من أَخيه عقيل بعشر سنين، أَتى غزوة بدر فوقعت بينه وبين بعض القرشيين محاورة فرجع إلى مكة مع من رجع فأنشأ يقول:

لا هُـمَّ إمـا يغـزُوَنَّ طـالِـب ... فـي عصبـة مخـالـف محـارب
فـي مِقْنـبٍ مـن هـذه المَقَـانِـب ... فليكـن المسلـوبُ غيـرَ السـالـب
وليكـن المغلـوبُ غيـرَ الغـالـب

«سيرة ابن هشام ٤٥١/ ٢».

والمِقْنَبُ: جماعة من الفرسان والخيل دون المئة تجتمع للغارة، وجمعه: مقانب.

المسلمين أن المئة منهم تغلب المئتين من الكفار، وروى علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي عليه السلام أنه قال يوم بدر (القوم ألف)[1]. وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾ يريد علامةً وأمارة ومعتبراً. والفئة: الجماعة من الناس سميت بذلك لأنها يفاء إليها، أي يرجع في وقت الشدة، وقال الزجاج: الفئة: الفرقة، مأخوذة من فأوتُ رأسه بالسيف، ويقال: فأيته إذا فلقته، ولا خلاف أن الإشارة بهاتين الفئتين هي إلى يوم بدر.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ﴾ برفع فئة على خبر ابتداء تقديره: إحداهما فئة، وقرأ مجاهد والحسن والزهري وحميد: [فِئَةٍ] بالخفض على البدل، ومنهم من رفع (كافرةٌ) ومنهم من خفضها على العطف، وقرأ ابن أبي عبلة: [فِئَةً] بالنصب وكذلك [كافرةً]. قال الزجاج: يتجه ذلك على الحال كأنه قال: التقتا مؤمنةً وكافرةً، ويتجه أن يضمر فعل أعني ونحوه. و﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ نصب على المصدر. و﴿يُؤَيِّدُ﴾: معناه: يقوي من الأيد وهو القوة.

قوله عز وجل:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾.

قرأ جمهور الناس: ﴿زُيِّنَ﴾ على بناءِ الفعل للمفعول ورفع ﴿حُبُّ﴾ على أنه مفعول لم يسمَّ فاعله، وقرأ الضحاك ومجاهد: [زَيَّنَ] على بناء الفعل للفاعل ونصب [حُبَّ] على أنه المفعول، واختلف الناس من المزيِّن؟ فقالت فرقة: الله زين ذلك، وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأنه قال: لما نزلت هذه الآية قلت: الآن يا ربِّ حين زينتها لنا، فنزلت: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُم﴾، وقالت فرقة: المزين هو الشيطان، وهذا ظاهر قول الحسن بن أبي الحسن، فإنه قال: من زينها؟ ما أحدٌ أشدَّ لها ذمًّا من خالقها.

---

(١) أخرجه عنه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود (مجمع الزوائد ٦: ٧٥)، وروى أبو إسحق السبيعي عن جارية عن علي قال: كانوا ألفاً، وكذلك قال ابن مسعود، ولكن المشهور أنهم كانوا بين التسعمئة إلى الألف، وهو ما يؤيده الحديث الذي رواه ابن إسحق عن ابن رومان عن عروة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإذا قيل: زين الله، فمعناه بالإيجاد والتهيئة للانتفاع وإنشاء الجبلّة على الميل إلى هذه الأشياء[١]. وإذا قيل: زيَّنَ الشيطان فمعناه: بالوسوسة والخديعة وتحسين أخذها من غير وجوهها. والآية تحتمل هذه النوعين من التزيين، ولا يختلف مع هذا النظر. وهذه الآية على كلا الوجهين ابتداء وعظ لجميع الناس، وفي ضمن ذلك توبيخ لمعاصري محمد ﷺ من اليهود وغيرهم. و﴿الشَّهَوَاتِ﴾ ذميمة، واتباعها مُرْدٍ[٢] وطاعتها مهلكة، وقد قال عليه السلام: (حفَّتِ النارُ بالشهواتِ وحفَّت الجنة بالمكاره)[٣] فحسبك أن النار حفت بها، فمن واقعها خلص إلى النار.

و﴿الْقَنَاطِيرِ﴾ جمع قنطار، وهو العقدة الكبيرة من المال. واختلف الناس في تحريرِ حدِّه كم هو؟ فروى أبيّ بن كعب، عن النبي عليه السلام أنه قال: (القنطار ألف ومئتا أوقية)[٤]، وقال بذلك معاذ بن جبل وعبد الله بن عمر وأبو هريرة وعاصم بن أبي النجود وجماعة من العلماء، وهو أصحُ الأقوال. لكن القنطار على هذا يختلف باختلاف البلاد في قدرالأوقية. وقال ابن عباس والضحاك بن مزاحم والحسن بن أبي الحسن: القنطار: ألف ومئتا مثقال[٥]. وروى الحسن ذلك مرفوعاً عن النبي عليه السلام. قال الضحاك: وهو من الفضة ألف ومئتا مثقال، وروي عن ابن عباس أنه قال: القنطار من الفضة اثنا عشر ألف درهم، ومن الذهب ألف دينار، ورُويَ ذلك عن الحسن والضحاك. وقال سعيد بن المسيب: القنطار ثمانون ألفاً. وقال قتادة: القنطار

---

(١) قال الزمخشري: الله سبحانه وتعالى هو المزين للابتلاء، كقوله تعالى: (إنَّا جعَلْنَا ما على الأَرْضِ زينةً لها)، وقراءة: [زيَّنَ] على البناء للفاعل تؤيد هذا المعنى، لأن نسق الكلام قبلها ينسب الأفعال إلى الله في قوله: (وَاللهُ يُؤَيِّدُ...).

(٢) مردٍ: مهلك.

(٣) أخرجه الإمام أحمد ومسلم والترمذي عن أنس، وأخرجه مسلم عن أبي هريرة، كما أخرجه الإمام أحمد في الزهد عن بن مسعود موقوفاً، (الجامع الصغير: ١: ٥٠٧).

(٤) أخرجه ابن جرير عن (أبي بن كعب)، وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي (عن معاذ بن جبل)، وأخرجه ابن جرير (عن ابن عمر)، وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير والبيهقي (عن أبي هريرة)، وأخرجه ابن جرير والبيهقي (عن ابن عباس)، (فتح القدير ١: ٢٩٤)، وذكره ابن كثير ثم قال: «وهذا حديث منكر أيضاً».

(٥) انظر تفسير الطبري ٣: ٢٠٠، والبغوي على هامش الخازن ١: ٣٧٤.

مئة رطل من الذهب أو ثمانون ألف درهم من الفضة. وقال السديّ: القنطار ثمانية آلاف مثقال وهي[١] مئة رطل. وقال مجاهد: القنطار سبعون ألف دينار، وروي ذلك عن ابن عمر. وقال أبو نضرة[٢]: القنطار ملء مَسْكِ ثَوْرٍ ذهباً[٣]. قال ابن سيدة: هكذا هو بالسريانية. وقال الربيع بن أَنَس: القنطارُ المال الكثيرُ بعضُهُ على بعض. وحكى النقاش عن ابن الكلبي: أنَّ القنطارَ بلغةِ الروم ملءُ مَسْكِ ثور ذهبا. وقال النقاش: القناطير ثلاثة، والمقنطرة تسعة لأنه جمع الجمع، وهذا ضعفُ نظرٍ وكلامٌ غير صحيح، وقد حكى مكيّ نحوه عن ابن كيسان أنه قال: لا تكون المقنطرة أقلَّ من تسعة، وحكى المهدوي عنه وعن الفراء: لاتكون المقنطرة أكثر من تسعة.. وهذا كلُّه تحكم. وقال أبو هريرة: القنطار اثنا عشر ألف أوقية. وحكى مكي قولاً: أن القنطار أربعون أوقية ذهباً أو فضة، وقاله ابن سيدة في المحكم، وقال: القنطار بلغة بربر ألف مثقال. وروى أنس بن مالك عن النبي عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾[٤] قال: ألف دينار[٥]، ذكره الطبري، وحكى الزجاج أنه قيل: إن القنطار هو رطل ذهباً أو فضة، وأظنها وهماً، وأَن القول مئةُ رطلٍ فسقطت «مئة» للناقل. والقنطار إنما هو اسم المعيار الذي يوزَنُ به، كما هو الرطلُ والربع، ويقال لما بلغ ذلك الوزن: هذا قنطار أي يعدلُ القنطار. والعرب تقول: قَنْطَرَ الرجلُ إذا بلغ ماله أَن يوزنَ بالقنطار. وقال الزجاج: القنطارُ مأخوذٌ من عَقْدِ الشيءِ وإحكامه، والقنطرة المعقودةُ نحوه، فكأَنَّ القنطارَ عقدة مال.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿المُقَنْطَرة﴾، فقال الطبري: معناه: المضعَّفَة، وكأَنَّ القناطير ثلاثةٌ والمقنطرةَ تسع، وقد تقدم ذكر هذا النظر، وقال الربيع: معناه:

---

(١) في بعض النسخ: وهو.

(٢) هو المنذر بن مالك بن قطعة العبدي البصري، روى عن علي بن أَبي طالب، وأَبي موسى الأَشعري، وأَنس، وجابر، وغيرهم، وروى عنه سليمان التيمي، وحميد الطويل، وعاصم الأَحول، وقتادة، وآخرون. ثقة، كثير الحديث، توفي سنة: ١٠٨ هـ (تهذيب التهذيب. ١٠ : ٣٠٢).

(٣) أَخرجه عبد بن حميد، وابن أَبي حاتم، والبيهقي، عن أَبي سعيد الخدري. (فتح القدير للشوكاني. ١ : ٢٩٤) والمَسْك (بفتح الميم وسكون السين) هو: الجلد، وجمعه: مسوك ومُسُك.

(٤) من الآية ٢٠ من سورة النساء.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أنس (فتح القدير ١ : ٢٩٤)، وفي ابن كثير: رواه ابن أبي حاتم عن أنس بلفظ «قنطار يعني ألف دينار» قال: وهكذا رواه الطبراني (تفسير ابن كثير ١ : ٣٥٢).

المالُ الكثير بعضه فوق بعض. وقال السدي: معنى المقنطرة: المضروبة حتى صارت دنانير أو دراهم. وقال مكي: المقنطرة المكملة[١]، والذي أقول: إنها إشارة إلى حضور المال وكونه عتيداً، فذلك أشهى[٢] في أمره، وذلك أنك تقولُ في رجل غنيّ من الحيوان والأَملاك: فلان صاحبُ قناطير مالٍ، أي لو قُوِّمَتْ أملاكُهُ لاجتمع من ذلك ما يعدل قناطير، وتقولُ في صاحب المال الحاضر العتيد: هو صاحب قناطيرَ مقنطرةٍ، أي قد حَصَلتْ كذلك بالفعل بها، أي قُنْطِرَتْ فهي مقنطرة، وذلك أشهى للنفوس وأقربُ للانتفاع وبلوغ الآمال. وقد قال مروان بن الحكم: ما المال إلا ما حازته العياب[٣]، وإذا كان هذا فسواء كان المال مسكوكاً أو غير مسكوك، أما إن المسكوك أشهى لما ذكرناه، ولكن لا يُعطى ذلك لفظة (المقنطرة).

﴿وَالخَيْلِ﴾ جمع خائل عند أبي عبيدة، سمى بذلك الفرس لأنه يختال في مشيه[٤] فهو كطائر وطير، وقال غيره: هو اسم جمع لا واحد له من لفظه[٥].

واختلف المفسرون في معنى ﴿الْمُسَوَّمة﴾، فقال سعيد بن جبير وابن عباس وعبدالله بن عبد الرحمن بن أبزى[٦] والحسن والربيع ومجاهد: معناه: الراعية في المروج والمسارح، تقول: سامت الدابةُ والشاة إذا سرحت وأخذت سَوْمَها من الرعي، أي غايةَ جهدها، ولم تقصِّرعن حالٍ دون حال، وأَسَمْتُها أنا إذا تركتها لذلك، ومنه قول النبي ﷺ: (في سائِمَةِ الغنمِ الزَّكاةُ)[٧] ومنه قوله عز وجل: ﴿فيه تُسِيمُونَ﴾[٨]، وروي عن مجاهد أنه قال: المسوّمة معناه: المطهّمةُ الحسانُ، وقاله عكرمة: سَومها الحُسْنُ.

---

(١) هو كما تقول: بدرة مبدّرة وألف مؤلفة، وهذا أيضاً قول ابن قتيبة.

(٢) في بعض النسخ: أشهر.

(٣) العياب: جمع عيبة، وهي وعاء تحفظ فيه الثياب والمتاع، وقد قال الشاعر:
يمرون بالدهنا خفافاً عيابهم ويرجعن من دارين بجر الحقائب

(٤) في بعض النسخ: مشيته.

(٥) ذهب ابن كثير إلى أن حبّ الخيل يكون إما استعداداً للغزو، أو رغبة في الفخر والتباهي، أو للتعفف واقتناء النسل.

(٦) كوفي ،مولى خزاعة، روى عن أبيه، وروى عنه الأجلح الكندي وأسلم المنقري وسلمة بن كهيل ومنصور بن المعتمر وغيرهم، وثقه ابن حبان. (تهذيب التهذيب ٥: ٢٩٠).

(٧) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في كتاب الزكاة، صدقة الماشية ٢: ١١٢.

(٨) من الآية (١٠) من سورة النحل.

وروي عن ابن عباس أنه قال: المسوّمة معناه: المُعْلَمَةُ، شِياتُ[١] الخيلِ في وجوهها، [وقاله قتادة][٢] ويشهد لهذا القول بيت لبيد[٣]:

وغداةَ قاعِ القرنتينِ أَتَيْنَهُمْ زُجَلاً يلوحُ خلالَها التسويمُ[٤]

وأما قول النابغة[٥]:

بسمرٍ كالقداحِ مُسوَّماتٍ عليها مَعْشرٌ أَشباهُ جِنٍّ[٦]

فيحتمل أن يريد المطهمةَ الحسان، ويحتمل أن يريد المعلمةَ بالشيات، ويحتمل أن يريد المعدَّة. وقد فسَّر الناسُ قوله تعالى: ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾[٧] بمعنى مُعَدَّة، وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلِ المسَوَّمَةِ﴾ معناه: المعدة للجهاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

قوله (للجهاد) ليس من تفسير اللفظة.

﴿وَالأَنْعَامِ﴾ الأصناف الأربعة: الإبلُ والبقرُ والضأنُ والمعز. ﴿وَالْحَرْثِ﴾ هنا اسمٌ لكل ما يحرث، وهو مصدر سمِّيَ به، تقول: حَرَثَ الرجل حرثاً إذا أثار الأرض لمعنى الفلاحة، فيقع اسمُ الحرثِ على زرْع الحبوب وعلى الجنَّات وغير ذلك من أنواع الفلاحة. وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾[٨] قال جمهور المفسرين: كان كَرْماً.

والمتاعُ: ما يستمتع به وينتفع مدة ما منحصرة. و﴿المآب﴾: المرجع، تقول: آب الرجل يؤوب، ومنه قول الشاعر[٩]:

---

(١) شيات: جمع شية، وهي العلامة، سواد في بياض أو بياض في سواد، وكل ما خالف اللون في جميع الجسد في الدواب، وشية الفرس: لونه.

(٢) زيادة من بعض النسخ.

(٣) البيت في ديوانه: ١٣٣.

(٤) القاع: الأرض المستوية، قاع القرنتين: موضع كانت فيه وقعة بين كنانة وغطفان، والنون في (أتينهم) ضمير الخيل، وزجلاً: جماعات، والتسويم: الإعلام بعلامة تعرف بها في الحرب.

(٥) البيت في ديوانه: ١٢٨ (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم).

(٦) سمر: صفة للخيل، ويروى: بضمر، أي خيل ضامرة، شبهها في ضمورها بقداح الميسر، وشبه الفرسان بالجن لشدة صولتهم وخفتهم في الحرب على الخيل.

(٧) من الآية (٣٤) من سورة الذاريات.

(٨) من الآية (٧٨) من سورة الأنبياء.

(٩) هو امرؤ القيس، وهذا الذي أورده هو عجز البيت، وصدره:

=

. . . . رضيتُ منَ الغنيمةِ بالإِيابِ

وقول الآخر:

. . . . إذا ما القارظُ العنزيُّ آبا[١]

وقول عبيد:

. . . . وغائِبُ الموتِ لا يَؤوبُ[٢]

وأصل مآب مأْوَب، نُقلَتْ حركةُ الواو إلى الهمزة وأبدل من الواو ألف، مثل مَقَال، فمعنى الآية: تقليل أمر الدنيا وتحقيرها، والترغيبُ في حسن المرجع إلى الله تعالى في الآخرة.

وفي قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ . . . . الآية، تحسّرٌ ما على نحو ما في قول النبي عليه السلام: (تتزوَّجُ المرأةُ لأرْبَع). . . . الحديث؛[٣]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم﴾ الآية بمثابه قول النبي ﷺ: (فاظفر بذات الدين).

قوله عز وجل:

﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾.

في هذه الآية تسليةٌ عن الدنيا وتقويةٌ لنفوس تاركيها، وذكر تعالى حالَ الدنيا وكيف استقرَّ تزيين شهواتها، ثم جاء الإنباء بخيرٍ من ذلك، هازّاً للنفوسِ وجامعاً لها، لتسمع هذا النبأَ المستغرب النافع لمن عقل. وأُنبيء: معناه أخبر.

= وقد طوفت في الآفاق حتى . . . .

وقد جرى قوله: رضيت. . . .إلخ» مجرى المثل، يضرب عند القناعة بالسلامة لمن سعى في شيء ولم يبلغه، أو لمن يشقى في طلب الحاجة ثم يرضى بالخلاص سالماً.

(١) هذا عجز بيت لبشر بن أبي حازم، وصدره: فَرَجِّي الخَير وانتظري إِيابي.
والقارظ: الذي يجمع ورق السلم للدباغ، وفي أوبة القارظين يضرب المثل، وهما رجلان خرجا يجمعان القرظ ولم يعودا، (انظر فصل المقال: ٣٧٤، والميداني ١: ١٤٢، وجمهرة العسكري ١: ١٢٣).

(٢) هذا عجز بيت لعدي بن الأبرص، الشاعر الجاهلي، وصدره: وكلُّ ذي غيبةٍ يؤوبُ.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه، عن أبي هريرة (الجامع الصغير ١: ١٣٢ ط. دار الكتب العلمية، بيروت).

وذهبت فرقةٌ من الناس إلى أن الكلام الذي أُمِرَ النبي ﷺ بقوله تمَّ في قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾. و﴿جَنَّاتٌ﴾ على هذا؛ مرتفعٌ بالابتداء المضمرِ، تقديره: ذلك جناتٌ؛ وذهب آخرون إلى أن الكلام تم في قوله: ﴿من ذلكم﴾، وأن قوله: ﴿لِلَّذينَ﴾ خبر متقدم، و﴿جَنَّاتٌ﴾ رفع بالابتداء، وعلى التأويلِ الأولِ يجوز في ﴿جَنّات﴾ الخفض بدلاً من ﴿خيرٍ﴾، ولا يجوز ذلك على التأويل الثاني، والتأويلان محتملان.

وقوله: ﴿مِن تَحْتِها﴾ يعني من تحت أشجارها، وعلوها من الغرف ونحوها.

و﴿خالِدينَ﴾ نصب على الحال.

وقوله: ﴿وأزواجٌ﴾ عطف على الجنات، وهو جمع زوج، وهي امرأة الإنسان، وقد يقال زوجة، ولم يأت في القرآن.

و﴿مُطَهَّرَةٌ﴾، معناه من المعهود في الدنيا من الأقذار والريب وكل ما يصم في الخَلْقِ والخُلُق. ويحتمل أَن يكون الأزواج: الأنواعَ والأشباه.

والرضوانُ: مصدر من الرضى، وفي الحديث عن النبي عليه السلام: (إنَّ أهلَ الجنَّةِ إذا استقروا فيها وحَصَلَ لكلِّ واحدٍ منهم ما لا عينٌ رأت ولا أُذُن سمعَت ولا خَطَر على قلب بشر؛ قال الله لهم: أتريدون أن أعطيكم ما هو أفضل من هذا؟ قالوا: يا ربنا وأيُّ شيء أفضلُ من هذا؟ فيقول الله تعالى: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أَسْخَطُ عليكم أبداً)[1] هذا سياق الحديث، وقد يجيء مختلفَ الألفاظ، والمعنى قريبٌ بعضُهُ من بعض.

وفي قوله تعالى: ﴿واللهُ بَصيرٌ بالعِبادِ﴾ وعدٌ ووعيدٌ.

وقوله عز وجل:

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿الَّذينَ﴾ بدل من ﴿الَّذين اتَّقَوْا﴾، فَسَّرَ في هذه الآية أحوالَ المتقين الموعودين بالجنات. ويحتملُ أن يكونَ إعرابُ قوله ﴿الَّذينَ﴾ في هذه الآية رفعاً على القطع

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري، (الجامع الصغير ١: ٣٥٩).

وإضمارِ الابتداء، ويحتاجُ إلى القطع وإضمار فعل في قوله ﴿الصَّابرينَ﴾، والخفض في ذلكَ كله على البدل أَوْجَهُ. ويجوزُ في ﴿الَّذينَ﴾ وما بعده النصبُ على المدح.

والصبر في هذه الآية معناه: على الطاعات وعلى المعاصي والشهوات. والصدق معناه: في الأقوال والأفعال. والقنوت: الطاعة والدعاء أيضاً وبكل ذلك يتصف المتقي. والإنفاق معناه: في سبيل الله ومظانّ الأجر كالصلة للرحم وغيرها، ولا يختص هذا الإنفاقُ بالزكاةِ المفروضة. والاستغفار: طلب المغفرة من الله تعالى، وخص تعالى السَّحَرَ لما فسَّر النبي ﷺ في قوله: (ينزلُ ربُّنا عزَّ وجل كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا حين يبقى ثُلُثُ الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ فلا يزال كذلك حتى يطلعَ الفجر)[١].

وروي في تفسير قول يعقوب عليه السلام: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ أنه أخر الأمر إلى السحر[٢]، وروى إبراهيم بن حاطب[٣] عن أبيه قال: سمعتُ رجلاً في السحر في ناحية المسجد يقول: ربِّ أمرتني فأطعتك، وهذا سحَرٌ فاغفر لي، فنظرت فإذا ابن مسعود[٤]. وقال أنس بن مالك: أمرنا أن نستغفر بالسحر سبعين استغفارة[٥].

وقال نافع: كان ابن عمر يُحيي الليلَ صلاةً ثم يقول:

يا نافع أَسحرنا؟ فأقول: لا، فيعاود الصلاةَ ثم يسأل، فإذا قلتُ نعم قعد يستغفر[٦].

فلفظ الآية إنما يعطي طلبَ المغفرة، وهكذا تأَوَّلَهُ مَنْ ذكرناه من الصحابة. وقال قتادة: المراد بالآية، المصلون بالسحر. وقال زيد بن أسلم: المراد بها الذين يصلون صلاةَ الصبح في جماعةٍ، وهذا كله يقترن به الاستغفار.

والسَّحَر ـ بفتح الحاء وسكونها ـ: آخر الليل. قال الزجاج وغيره: هو قبل طلوع

---

(١) أخرجه الصحيحان وغيرهما من أصحاب المسانيد والسنن بروايات مختلفة، (فتح القدير، وابن كثير، ومجمع الزوائد. ١: ١٥٣).

(٢) أخرجه أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن مسعود. (فتح القدير ٣: ٥٢). والآية هي رقم (٩٨) من سورة يوسف.

(٣) لعله إبراهيم بن عبد الله بن الحارث بن حاطب الجمحي، روى عن عبد الله بن دينار وعطاء بن أبي رباح والثقات، وقال ابن القطان: لا يعرف حاله. (تهذيب التهذيب ١ : ١٣٣).

(٤) انظر تفسير الطبري ٣: ٢٠٨، وابن كثير ٢ : ٢٠.

(٥) أخرجه عنه ابن جرير وابن مردويه. (فتح القدير ١ : ٢٩٤).

(٦) رواه ابن أبي حاتم وفيه: هل جاء السحر؟ بدل «أسحرنا». (تفسير ابن كثير ٢ : ٢٠).

الفجر، وهذا صحيح لأنَّ ما بعد الفجر هو من اليوم لا من الليلة. وقال بعض اللغويين: السحر من ثلث الليل الآخر إلى الفجر. والحديثُ في التنزل وهذه الآيةُ في الاستغفار يؤيّدان هذا. وقد يجيء في أشعار العرب ما يقتضي أنَّ حكم السحر يستمرُّ فيما بعد الفجر، نحو قول امرئ القيس:

يُعَـلُّ بـه بَـرْدُ أَنْيـابِهـا ... إذا غَـرَّدَ الطـائـرُ المستحـر[1]

يقال: أَسحر واستحر إذا دخل في السحر، وكذلك قولهم: نسيم السحر، يقع لما بعد الفجر، وكذلك قول الشاعر[2]:

يَجـدِ النسـاءَ حـواسـراً ينـدُبْنَـهُ ... قـد قُمْـنَ قبـلَ تبلُّـجِ الأَسحـارِ

فقد قضى أن السحر يتبلج بطلوع الفجر، ولكنّ حقيقةَ السحر في هذه الأحكام الشرعية من الاستغفار المحمود، ومن سحور الصائم، ومن يمينٍ لو وقعت ـ إنما هي من ثلث الليل الباقي إلى السحر.

قوله عز وجل:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.

أصل ﴿شَهِدَ﴾ في كلام العرب: حضر، ومنه قول تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾[3] ثم صُرّفت الكلمة حتى قيل في أداء ما تقرر علمه في النفس، بأيِّ وجهٍ تقرر؛ من حُضورٍ أو غيره: شهد يشهد؛ فمعنى ﴿شَهِدَ اللهُ﴾: أعلمَ عبادَهُ بهذا الأمرِ الحقِّ، وبيَّنه. وقال أبو عبيدة: شهد الله معناه: قضى الله، وهذا مردود من جهات.

وقرأ جميع القراء: ﴿أَنَّه لا إِلَهَ﴾ بفتح الألف من ﴿أَنَّه﴾ وبكسرها من قوله: ﴿إِنَّ

---

(١) العلّ: السقي أو الشرب ثانية، والبرد: الرقيق، واستحر الطائر: غرَّد بسحر، والطائر المستحر هو الديك هنا. والضمير في «به» يعود إلى الشراب.

(٢) هو الربيع بن زياد العبسي بقوله في رثاء مالك بن زهير، (الأغاني ١٧: ١٣٠ ط. دار الثقافة، بيروت)، وقد روى صاحب الأغاني بيتاً آخر في القصيدة نفسها مشبهاً لهذا المثبت هنا، وهو:

مـن مثلـه تمسـي النسـاء حـواسـراً ... وتقـوم معـولـة مـع الأسحـار

وقبل البيت الذي ذكره ابن عطية بيت آخر هو:

مـن كـان مسـروراً بمقتـل مـالـكٍ ... فليـأتِ نسـوتَنـا بـوجـه نهـار

(٣) من الآية (١٨٥) من سورة البقرة.

الدِّينَ﴾ واستئناف الكلام. وقرأ الكسائي وحده: [أَنَّ الدِّين] بفتح الألف. قال أبو علي: (أَنَّ) بدل من (أنه) الأولى، وإن شئتَ جعلته من بدل الشيء من الشيء وهو هو، لأنه الإسلام هو التوحيدُ والعدلُ، وإن شئت جعلته من بدل الاشتمال، لأن الإسلام يشتملُ على التوحيد والعدل، وإن شئت جعلت ﴿إِنَّ الدِّينَ﴾ بدلاً من ﴿القِسْطِ﴾ لأنه هو في المعنى. ووجَّه الطبريُّ هذه القراءة بأنْ قدَّر في الكلام واوَ عطفٍ ثم حذفت وهي مرادة، كأنه قال: (وإن الدِّين) وهذا ضعيف. وقرأ عبد الله بن العباس: [إِنَّهُ لا إلهَ إِلاَّ هُوَ] بكسر الألف من إنه، وقرأ: [أَنَّ الدِّين] بفتح الألف، فأَعملَ [شهد] في [أَنَّ الدِّينَ] وجاء قوله: [إِنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ] اعتراضاً جميلاً في نفس الكلام المتصل. وتأول السّديّ الآيةَ على نحو قراءة ابن عباس فقال: الله وملائكته والعلماء يشهدون [أن الدِّين عند الله الإسلام]. وقرأ أبو المهلب[1] عمُّ مُحارِبِ بن دثار[2]: [شهداءَ اللهِ] على وزن فُعَلاء وبالإضافة إلى المكتوبة. قال أبو الفتح[3]: هو نصبٌ على الحالِ من الضمير في ﴿المُسْتَغْفرينَ﴾، وهو جمع شهيد أو جمع شاهد كعالم وعلماء، وروي عن أبي المهلب هذا أنه قرأَ: [شهداءُ الله] برفع الشهداء، وروي عنه أنه قرأ: [شُهُد الله] على وزن فُعُل، بضم الفاء والعين، ونصب شهداء على الحال. وحكى النقاش أنه قُرِىءَ: [شُهُد اللهِ] بضم الشين والهاء والإضافة إلى المكتوبة، قال: فمنهم من نصب الدال ومنهم من رفعها. وأصوب هذه القراءات قراءة الجمهور، وإيقاع الشهادة على التوحيد. ﴿وَالملائِكَةُ وَأُولوا الْعِلْمِ﴾ عطفٌ على اسم الله تعالى. وعلى بعض ما ذكرناه من القراءات يجيء قوله: ﴿والملائكة وأولو العلم﴾ ابتداءً، وخبره مقدر، كأنه قال: ﴿وَالملائِكَةُ وَأُولو العِلْمِ﴾ يشهدون و﴿قائِماً﴾ نصب على الحال من اسمه تعالى في قوله: ﴿شهد الله﴾ أو من قوله: ﴿إِلاَّ هُوَ﴾. وقرأ ابن مسعود: [القائِمُ بِالقِسْطِ] والقسط: العدل.

(١) لم أجد في من يكنون بهذه الكنية من يعد عماً لمحارب، وسقطت لفظة «عم» من المحتسب ١: ١٥٥ فأصبح: «أبو المهلب محارب بن دثار».

(٢) محارب بن دثار الدوسي الكوفي، كان قاضياً بالكوفة، روى عن ابن عمر وعبد الله بن يزيد النخعي وغيرهما، وعنه عطاء بن السائب، وأبو إسحق الشيباني والأعمش وغيرهم، تابعي ثقة (تهذيب التهذيب ١: ٤٩).

(٣) انظر المحتسب ١: ١٥٥ ـ ١٥٦، وقوله قبل ذلك (إلى المكتوبة) يريد بالمكتوبة لفظ الجلالة.

قوله عز وجل:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾.

قد تقدم ذكر اختلاف القراء في كسر الألف من ﴿إِنَّ الدِّينَ﴾ وفتحها، والدِّينُ في هذه الآية: الطاعةُ والملّة، والمعنى: إن الدينَ المقبول أو النافع أو المقرر.

و﴿الإِسْلامُ﴾ في هذه الآية هو الإيمان والطاعة، قاله أبو العالية، وعليه جمهور المتكلمين، وعبر عنه قتادة ومحمد بن جعفر بن الزبير بالإيمان، ومرادهما أَنه مع الأعمال.

والإسلامُ هو الذي سأل عنه جبريل النبيَّ عليه السلام حين جاء يعلِّمُ الناسَ دينهم... الحديث[١]، وجواب النبي له في الإيمان والإسلام يفسِّرُ ذلك، وكذلك تفسيره قوله عليه السلام: (بني الإِسْلامُ على خَمْس)... الحديث[٢]. وكلُّ مؤمنٍ بنبيه ملتزمٍ لطاعات شرعه، فهو داخلٌ تحت هذه الصفة. وفي قراءة ابن مسعود [إن الدِّين عند اللهِ لَلإِسلام] باللام[٣].

ثم أخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب أنه كان على[٤] علم منهم بالحقائق، وأنه كان بغياً وطلباً للدنيا، قاله ابن عمر وغيره.

---

(١) الحديث مشهور، أَخرجه البخاري، ومسلم، والإمام أَحمد، والبزار، والطبراني في الكبير بروايات مختلفة. «مجمع الزوائد ١/٣٨». والحديث مروي عن عمر بن الخطاب. وقد جاء فيه عن الإسلام والإيمان بلفظ مسلم: «وقال: يا محمد. أَخبرني عن الإسلام، قال: «الإِسلام: أَن تشهد أَن لا إله إلا الله، وأَن محمداً رسول الله، وتُقيم الصلاة، وتؤْتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إِن استطعت إِليه سبيلا» قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويُصدقه! قال: «فأَخبرني عن الإِيمان. قال: «أَن تؤْمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره» (مشكاة المصابيح ١/٩).

(٢) أخرجه الإِمام أَحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي ـ عن ابن عمر ـ حديث صحيح. الجامع الصغير ١/٤٢٨، ونصه كما نقله في مشكاة المصابيح: (وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإِسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأَن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإِيتاءِ الزكاة، والحج، وصوم رمضان». ثم قال: متفق عليه.

(٣) أي: المفتوحة.

(٤) في بعض الروايات: عن.

و﴿الَّذينَ أُوتُوا الكتابَ﴾ لفظٌ يعمُّ اليهودَ [والنصارى، لكن الربيع بن أنس قال: المراد بهذه الآية اليهود](١) وذلك أَن موسى عليه السلام، لما حضرته الوفاة دعا سبعين حبراً من أحبار(٢) بني إسرائيل فاستودعهم التوراة، عند كلِّ حبر جزء، واستخلف يوشع بن نون، فلما مضى ثلاثةُ قرونٍ وقعت الفرقة بينهم. وقال محمد بن جعفر بن الزبير: المراد بهذه الآية النصارى، وهي توبيخ لنصارى نجران.

و﴿بَغْياً﴾ نصب على المفعول من أجله، أو على الحال من ﴿الّذين﴾.

ثم توعد عز وجل الكفار.

وسرعة الحساب يحتملُ أن يرادَ بها سرعة مجيء القيامة والحساب، إذ هي متيقنة الوقوع، فكل آت قريب، ويحتمل أن يراد بسرعة الحساب أن الله تعالى بإحاطته بكلِّ شيء علماً، لا يحتاج إلى عدٍّ ولا فكرة، قاله مجاهد.

قوله عز وجل:

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿حاجُّوكَ﴾ فاعلوك من الحجة، والضميرُ في حاجوك لليهود ولنصارى نجران، والمعنى: إن جادلوك وتعنّتوا بالأقاويلِ المزوّرة، والمغالطاتِ، فأَسْنِدْ(٣) إلى ما كُلِّفْتَ من الإيمان والتبليغِ، وعلى الله نصرك.

وقوله ﴿وجهي﴾ يحتمل أن يراد به المقصد كما تقول: خرج فلان في وجه كذا، فيكون معنى الآية: جعلت مقصدي لله، ويحتمل أن يكونَ معنى الآية: أسلمتُ شخصي وذاتي وكلّيتي؛ وجعلتُ ذلك لله. وعبَّر بالوجه إذ الوجه أشرفُ أعضاءِ الشخص وأجمعُها للحواس. وقد قال حذّاقُ المتكلمين في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾(٤) إنها عبارة عن الذات.

---

(١) ما بين القوسين سقط في كثير من النسخ.

(٢) جاء في الصحاح: والحِبْر والحَبْر: واحد أَحبار اليهود. قال أَبو عبيد: والذي عندي أنه الحَبْرُ. ومعناه: العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه.

(٣) سندت إلى الشيء أَسند سنوداً واستندت بمعنى.

(٤) من الآية (٢٧) من سورة الرحمن.

و﴿أَسْلَمْتُ﴾ في هذا الموضع بمعنى دفعتُ وأَمضيتُ، وليست بمعنى دخلت في السَّلم لأن تلك لا تتعدَّى. وقوله: ﴿وَمَنْ اتَّبعن﴾ في موضع رفع، عطف على الضمير في ﴿أَسْلَمْتُ﴾، ويجوز أن يكون مبتدأ، أي: ومن اتبعن أسلمَ وجهه. وقال بعضهم: يحتمل أن يكون في موضع خفض عطفاً على اسم الله تعالى كأنه يقول: جعلت مقصدي لله بالإيمان به والطاعة له، ولمن اتبعني بالحفظِ له والتحفي(١) بتعليمه وصحبته. ولك في ﴿اتَّبَعَن﴾ حذفُ الباء وإثباتها، وحذفها أحسنُ اتباعاً لخطِّ المصحف. وهذه النون إنما هي لتسلَمَ فتحةُ لام الفعل، فهي مع الكسرة تغني عن الباء لا سيما إذا كانت رأسَ آية، فإنها تشبه بقوافي الشعر، كما قال الأعشى:

وهـــل يمنعـــنَّ ارتيـــادي البـــلا   دَ مــن حَــذَرِ المــوتِ أن يــأْتِيَــنْ(٢)

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿رَبِّىٓ أَكۡرَمَنِ﴾(٣)، فإذا لم تكن نون فإثبات الياء أحسن، لكنهم قد قالوا: هذا غلامِ قد جاء، فاكتفوا بالكسرة دلالة على الياء(٤).

و﴿الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ﴾ في هذا الموضع يجمع اليهود والنصارى باتفاق. والأميون: هم الذين لا يكتبون، وهم العرب في هذه الآية، وهذه النسبة هي إلى الأمّ أو إلى الأمة، أي كما هي الأم، أو على حال خروج الإنسان عن الأم، أو على حال الأمة الساذجة قبل التعلم والتحذق.

وقوله: ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ تقريرٌ في ضمنه الأمر، كذا قال الطبري وغيره، [وذلك بيّن](٥)، وقال الزجاج: ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ تهدد، وهذا حسن، لأن المعنى: أأسلمتم أم لا؟

---

(١) التحفي: الاهتمام والاحتفال، والحفاوة: المبالغة في السؤال عن الرجل والعناية بأمره.

(٢) البيت من قصيدة قالها يمدح بها قيس بن معدي كرب الكندي؛ وارتياد البلاد: كثرة التجول في أنحائها، وطلب الحاجات وتلمسها فيها، يقول: هل يمنعني ارتيادي البلاد من أن أحذر الموت أن يأتيني؟ وهو من قصيدة مطلعها:

لعمــرُك مــا طــولُ هــذا الــزمــن   علــى المــرءِ إلاَّ عنــاءٌ معــن

(٣) من الآية (١٥) من سورة الفجر.

(٤) أي: إثبات الياء، كما جاء في بعض النسخ. قال الزمخشري: ﴿وَمَن اتَّبَعَنِ﴾ عطف على التاءِ في ﴿أَسْلَمْتُ﴾، وحسن للفاصل.

وقال ابن كثير: ﴿ومن اتَّبَعَنِ﴾ أي على ديني يقول مقالتي، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعو إِلَىَ الله عَلَى بَصِيرَةٍ أنا وَمَن اتبَعَنِي﴾.

(٥) ما بين القوسين زيادة عن بعض النسخ.

وقوله: ﴿فَقَد اهْتَدَوا﴾ جاءت العبارة بالماضي مبالغةً في الإخبار بوقوع الهدى لهم وتحصله.

وقوله: ﴿فإنما عليكَ البَلاغُ﴾، ذكر بعض الناس أنها آية موادعة، وأنها مما نسخته آية السيف. وهذا يحتاج أن يقترن به معرفةُ تاريخ نزولها، وأما على ظاهر نزول هذه الآية في وقت وفد نجران فإنما المعنى: ﴿فإِنَّما عَلَيْكَ البَلاَغُ﴾ بما فيه قتالٌ وغيره، والبلاغ مصدر بلَغ بتخفيف عين الفعل. وفي قوله تعالى: ﴿واللهُ بصيرٌ بِالْعبادِ﴾ وعد للمؤمنين، ووعيد للكافرين[١]..

قوله عز وجل:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

قال محمد بن جعفر بن الزبير وغيره: إن هذه الآية في اليهود والنصارى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتعمُّ كل من كان بهذه الحال. والآيةُ توبيخٌ للمعاصرين لرسول الله ﷺ بمساوىء أسلافهم وبقائهم أنفسهم على فعل ما أمكنهم من تلك المساوىء؛ لأنهم كانوا حَرْصَى[٢] على قتل محمد عليه السلام. وروي أن بني إسرائيلَ قتلوا في يوم واحدٍ سبعين نبياً، وقامت سوق البقل بعد ذلك[٣]. وروى أبو عبيدة بن الجراح عن النبي عليه السلام أنهم قتلوا ثلاثة وأربعين نبياً، فاجتمع من خيارهم وأحبارهم مئة وعشرون ليغيّروا وينكروا فقتلوا أجمعين، وكلُّ ذلك في يوم واحد[٤]؛ وذلك معنى قوله تعالى:

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره بعد أن انتهى من تفسير هذه الآية: «وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق».

(٢) هكذا بالأصل مع أن (حَرْصى) ليست جمعاً قياسياً.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ويقْتُلونَ النَّبيينَ بغَيْر الحَقِّ﴾ في سورة البقرة (تفسير الخازن ٥٦/١).

(٤) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة بن الجراح. «فتح القدير» للشوكاني ٢٩٨/١، ولفظه كما ذكره ابن كثير في تفسيره، والزمخشري في الكشاف: عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: =

﴿وَيَقْتلونَ الَّذين يأْمُرونَ بِالْقِسْطِ﴾. وقوله تعالى: ﴿بِغَير حَقٍّ﴾ مبالغة في [التحرير للذنب إذ في الإمكان][1] أن يقتضي ذلك أمر الله تعالى بوجه ما من تكرمة النبي أو غير ذلك. وعلى هذا المعنى تجيء أفعل من كذا، إذا كان فيها شياع[2] مثل: أحبّ وخير وأفضل ونحوه مقولةً بين شيئين ظاهرهما الاشتراك[3] بينهما.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيَقْتُلونَ الَّذينَ﴾، وقرأ حمزة وجماعة من غير السبعة: [ويُقاتِلونَ الَّذينَ]، وفي مصحف ابن مسعود: [وَقاتِلُوا الَّذينَ]، وقرأها الأعمش، وكلها متوجهةٌ، وأَبينُهَا قراءةُ الجمهور.

والقسط: العدل، وجاءت البشارة بالعذاب من حيث نصَّ عليه، وإذا جاءت البشارة مطلقة فمجملها فيما يستحسن.

ودخلت الفاء في قوله: ﴿فَبَشِّرهُمْ﴾ لما في (الذي) من معنى الشرط في هذا الموضع، فذلك بمنزلة قولك: الذي يفعل كذا فله كذا، إذا أردت أن ذلك إنما يكون له بسبب فعله الشيء الآخر، فيكون الفعل في صلتها، وتكون بحيث لم يدخل عليها عاملٌ يغيّر معناها، كليتَ ولعلَّ، وهذا المعنى نَصٌّ في كتاب سيبويه في باب ترجمته «هذا باب الحروف التي تتنزل منزلة الأمر والنهي، لأن فيها معنى الأمر والنهي»[4].

و﴿حَبِطَتْ﴾ معناه: بطلت وسقط حكمها، وحبطها في الدنيا: بقاءُ الذمّ واللعنة

= قلت: يا رسول الله، أَي الناس أشد عذاباً يومَ القيامة؟ قال: «رجل قتل نبيًّا أَو من أَمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذين يَكْفُرونَ بآياتِ الله وَيَقْتُلونَ النَّبِيّينَ بغَيْر حقٍّ وَيَقْتُلونَ الَّذين يَأمرونَ بالقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَليمٍ﴾. الآية، ثم قال: «يا أَبا عبيدة: قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأَربعين نبيّاً من أول النهار في ساعةٍ واحدة، فقام مئةٌ وسبعون رجلاً من بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف، ونهوهم عن المنكر، فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكر الله عزَّ وجلَّ». وهكذا رواه ابن جرير عن مكحول.

(١) اختلفت النسخ في العبارة التي وضعناها بين القوسين، فجاءت العبارة في بعضها: (في التحرير من الطريق)، وفي بعض آخر: (في التحذير من طريق)، وفي بعضها: (في التحذير للذنب) ولعلَّ الصواب فيها هو: (في التحذير من الذنب إذ في الإمكان).

(٢) في اللسان: «شاع الشَّيْبُ شيْعاً وَشِياعاً وَشُيوعاً وشَيْعوعَةً ومشيعاً: ظَهَرَ وتفرَّق، وشاع فيه الشيب. والمصدر ما تقدم. وشاع الخبر في الناس يَشيع شَيعاً وشَيَعاناً ومَشاعاً وشَيْعوعةً فهو شائعٌ: انتشر وافترق وذاع وظهر.

(٣) في بعض النسخ: (ظاهرهما أن لا اشتراك بينهما).

(٤) انظر كتاب سيبويه ١ : ٤٥٢.

عليهم، وحبطها في الآخرة: كونها هباءً منبثاً وتعذيبهم عليها. وقرأ ابن عباس وأبو السمال العدوي: [حَبَطَتْ] بفتح الباء وهي لغة، ثم نفى النصر عنهم في كلا الحالين.

قوله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية بسببِ أنَّ رسول الله ﷺ دخل بيتَ المدراس[1] على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد:[2] على أيّ دينٍ أنت يا محمد، فقال رسولُ الله ﷺ: (أنا على ملّةِ إبراهيم) فقالا: فإن إبراهيمَ كان يهودياً، فقال لهما النبي عليه السلام: (فهلموا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم) فأبيا عليه فنزلت. وذكر النقاش أنها نزلت لأن جماعةً من اليهود أنكروا نبوةَ محمد ﷺ فقال لهم النبي عليه السلام: (هلموا إلى التوراة ففيها صفتي)[3] فأبوا.

فالكتاب في قوله: ﴿مِنَ الْكِتابِ﴾[4] هو اسم الجنس، والكتابُ في قوله: ﴿إلى كتاب الله﴾ هو التوراة. وقال قتادة وابن جريج: الكتاب في قوله: ﴿إلى كتاب الله﴾ هو القرآن، كان رسول الله ﷺ يدعوهم إليه فكانوا يعرضون، ورجح الطبري القول الأول،

---

(١) المدراس: الموضع الذي يدرس فيه كتاب الله، ومنه: مدراس اليهود، و ـ دارس كتب اليهود، وفي حديث اليهودي الزاني: «فوضع مِدْراسُها كفَّه على آية الرَّجم» (ج) مداريسُ (المعجم الوسيط ١: ٢٨٠).

(٢) الذي في سيرة ابن هشام: النعمان بن زيد، وزيد بن الحارث، وهما يهوديان من يهود بني قنينقاع«سيرة ابن هشام ٢/ ٣٥٩».
لكن الزمخشري يتفق مع ابن عطية في الاسمين المذكورين؛ وهما: «نعيم بن عمرو، والحارث بن زيد». «الكشاف ١/ ٤٢٠».

(٣) أخرجه ابن إسحق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم ـ عن ابن عباس ـ «فتح القدير» للشوكاني ١/ ٢٩٨.

(٤) من، هنا للتبعيض أو للبيان.

وقال مكي: الكتابُ الأول اللوحُ المحفوظُ، والثاني؛ التوراة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ بفتح الياء أي ليحكم الكتابُ، وقرأ الحسن وأبو جعفر وعاصم الجحدري: [لِيُحْكَمَ] بضم الياء وبناء الفعل للمفعول. وخص الله تعالى بالتولي فريقاً دون الكلِّ، لأن منهم من لم يتولَّ كابن سلام وغيره.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ الإشارةُ فيه إلى التولي والإعراض، أي إنما تولوا وأعرضوا لاغترارهم بهذه الأقوال والافتراء الذي لهم في قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[1] إلى غير ذلك من هذا المعنى. وكان من قول بني إسرائيل: إنهم لن تمسهم النارُ إلا أربعين يوماً عددَ الأيام التي عبدوا فيها العجل، قاله الربيع وقتادة. وحكى الطبري أَنهم قالوا: إن الله وعد أباهم يعقوبَ أَلاَّ يُدْخِلَ أحداً من ولده النار إلا تحلة القسم[2]، وفي الحديث أَن رسول الله ﷺ قال لليهود: (مَن أولُ مَنْ يدخلُ النار؟ فقالوا: نحن، فترةً يسيرة ثم تخلفوننا فيها، فقال: كذبتم)... الحديث بطوله[3].

و﴿يَفْتَرُونَ﴾ معناه: يشقّقون ويختلقون من الأحاديث في مدح دينهم وأنفسهم وادعاءِ الفضائل لها.

ثم قال تعالى خطاباً لمحمد وأمته على جهة التوقيف والتعجيب: فكيف حال هؤلاء المغترين بالأباطيل إذا حشروا يوم القيامة، واضمحلت تلك الزخارف التي ادعوها في الدنيا وَجُوزوا بما اكتسبوه من كفرهم وأعمالهم القبيحة؟

قال النقاش: واليومُ: الوقت. وكذلك قوله: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ و﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ و﴿أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾[4] إنما هي عبارة عن أوقات، فإِنما الأيام والليالي عندنا. والصحيحُ في يوم القيامة أَنه يومٌ لأن قبله ليلة وفيه شمس، واللام في قوله تعالى: ﴿لِيَوْمٍ﴾ طالبةٌ لمحذوفٍ، قال الطبري: تقديره: لما يحدثُ في يوم.

---

(١) من الآية (١٨) من سورة المائدة.

(٢) تفسير الطبري عن قتادة ٣: ٢١٩.

(٣) أخرجه ابن مردويه (عن أبي هريرة) والبخاري وأحمد والنسائي(عن الليث بن سعد)، وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم(عن عكرمة)، انظر ابن كثير ١: ١١٨ وفتح القدير ١: ٨٩.

(٤) في ستة أيام (الفرقان: ٥٩)؛ في يومين (فصلت: ٩و١٢)؛ في أربعة أيام (فصلت: ١٠).

قوله عز وجل:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

قال بعض العلماء: إن هذه الآية دافعةٌ لباطل نصارى نجران في قولهم: إن عيسى هو الله، وذلك أن هذه الأوصاف تبين لكلِّ صحيح الفطرة؛ أن عيسى عليه السلام ليس في شيء منها، وقال قتادة: «ذكر لنا أن النبي عليه السلام سأل ربه أن يجعل في أمته ملك فارس والروم» فنزلت الآية في ذلك[١]. وقال مجاهد: الملك في هذه الآية: النبوة. والصحيح أنه مالك الملك كله مطلقاً في جميع أنواعه، وأشرف ملك يؤتيه سعادة الآخرة، وروي أنَّ الآية نزلت بسبب أَن النبي عليه السلام بشر أمته بفتح ملك فارس وغيره[٢] فقالت اليهود والمنافقون: هيهات وكذَّبوا ذلك.

واختلف النحويون في تركيب لفظة ﴿اللهم﴾ بعد إجماعهم على أَنها مضمومة الهاء مشددة الميم المفتوحة وأَنها منادى، ودليلُ ذلك أنها لا تأتي مستعملةً في معنى خبر، فمذهب الخليل وسيبويه والبصريين أَن الأَصل: يا الله، فلما استعملت الكلمةُ دون حرف النداء الذي هو «يا» جعلوا بدل حرف النداءِ هذه الميمَ المشددة، والضمة في الهاء هي ضمة الاسم المنادى المفرد، وذهب حرفان فعوض بحرفين. ومذهب الفراء والكوفيين أن أصل (اللهم) يا الله أُم: أي أُم بخير، وأَن ضمة الهاء هي ضمة الهمزة التي كانت في (أم) نقلت. وردَّ الزجاجُ على هذا القول وقال: محالٌ أَن يترك الضم الذي هو دليل على نداء المفرد وأَن تجعل في اسم الله ضمة (أم)، هذا إلحادٌ في اسم الله تعالى. وهذا غلو من الزجاج. وقال أيضاً: إن هذا الهمز الذي يُطْرَحُ من الكلام، فشأنه أن يؤتى به أحياناً كما قالوا: وَيْلُمِّهِ في ويلُ أُمّه، والأكثر إثبات الهمزة، وما سمع قط يالله أُم في هذا اللفظ. وقال أيضاً: ولا تقول العرب يا أَللهم. وقال الكوفيون: إنه قد يدخل

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة، (فتح القدير: ١: ٢٩٩).

(٢) رواه الواحدي عن ابن عباس وأنس بن مالك. روح المعاني للألوسي ٣/ ١١٢، وذكره البغوي في تفسيره نقلاً عن ابن عباس وأنس. ١/ ٢٨٠.

حرف النداء على (اللهم) وأنشدوا على ذلك:

وما عليكِ أَن تقولي كلَّما سبَّحْتِ أو هللت يا اللهمَّ ما
اردد علينا شيخنا مسلَّما[١]

قالوا: فلو كانت الميم عوضاً من حرف النداء لما اجتمعا. قال الزجاج: وهذا شاذ لا يعرف قائله، ولا يترك له ما في كتاب الله وفي جميع ديوان العرب. قال الكوفيون: إنما تزاد الميم مخففة في فم وابنم ونحوه، فأما ميم مشددة فلا تزاد. قال البصريون: لما ذهب حرفان، عوض بحرفين[٢].

و﴿مالِكَ﴾ نصب على النداء، نص سيبويه [على] ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٣] وقال: إن ﴿اللهم﴾ لا يوصف لأنه قد ضمت إليه الميم، قال الزجاج: و﴿مالِك﴾ عندي في الإعراب صفة لاسم الله تعالى، وكذلك ﴿فاطر السموات﴾، قال أبو علي: وهو مذهب أبي العباس، وما قال سيبويه أصوب، وذلك أنه ليس في الأسماء الموصوفة شيء على حد (اللهم) لأنه اسمٌ مفردٌ ضُمَّ إليه صوت، والأصوات لا توصف، نحو «غاق» وما أشبهه. وكان حكم الاسم المفرد أَلاَّ يوصف، وإن كانوا قد وصفوه في مواضع، فلما ضُمَّ هنا ما لا يوصف إلى ما كان قياسه أَلاَّ يوصف صار بمنزلة صوتٍ ضمَّ إليه صوت نحو «حَيْهَل» فلم يوصف. قال النضر بن شُمَيل[٤]، من قال: اللهم، فقد دعا الله بجميع أسمائه كلها، وقال الحسن: اللهم مَجْمَعُ الدعاء.

وخص الله تعالى ﴿الخَيْر﴾ بالذكر وهو تعالى بيده كل شيء، إذ الآية في معنى دعاءٍ

---

(١) هذا الرجز مما لم يعرف قائله، والشاعر يخاطب أنثى، لعلها زوجه أو ابنته، ويطالبها أَن تدعو له إذا سافر وغاب في أَوقات الدعوات ومكان القبول، وتمام البيت الثاني:

. . . . فإننا من خيره أَن نعدما

(٢) قال الزمخشري: (الميم) في (اللهم) عوض من (يا)، ولذلك لا يجتمعان، وهذا بعض خصائص هذا الاسم، كما اختص بالتاءِ في القسم، وبدخول حرف النداءِ عليه، وفيه لام التعريف، وبقطع همزته في يا ألله. وبغير ذلك» ـ الكشاف ١/ ٤٢١.

(٣) من الآية (٤٦) من سورة الزُّمر. وكلمة (نصَّ) تتعدى بنفسها، ولهذا سقط حرف الجر (على) في بعض النسخ.

(٤) النضر بن شميل بن خرشة المازني التميمي (١٢٢ ـ ٢٠٣هـ/ ٧٤٠ ـ ٨١٩م) من كبار النحويين اللغويين، (انظر انباه الرواة ٣: ٣٤٨، وثبتاً بمصادر أخرى في الحاشية).

ورغبة، فكأن المعنى: بيدك الخير فأجْزِلْ حظّي منه. وقيل: المراد بيدك الخير والشر فحذف لدلالةِ أحدهما على الآخر، كما قال: ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾[1]. قال النقاش: بيدك الخير أي: النصر والغنيمة، فحذف لدلالة أحدهما.

وقال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسدي وابن زيد في معنى قوله تعالى: ﴿تُولجُ اللَّيلَ في النَّهارِ﴾.... الآية: إنه ما ينتقص من النهار فيزيد في الليل، وما ينتقص من الليل فيزيد في النهار، دأباً كلّ فصل من السنة، وتحتملُ ألفاظُ الآية أن يدخل فيها تعاقبُ الليل والنهار كأنّ زوالَ أحدهما ولوجٌ في الآخر.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وتُخْرِجُ الحيَّ من الميِّتِ﴾... الآية، فقال الحسن: معناه تخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، وروي نحوه عن سلمان الفارسي. وروى الزهري أن النبي ﷺ دخل على بعض أزواجه فإذا بامرأةٍ حسنة النغمة فقال: (من هذه؟ قالت: إحدى خالاتك، فقال: إن خالاتي بهذه البلدة لغرائب، أيّ خالاتي هي؟ قالت: خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث[2]، فقال النبي ﷺ: سبحانَ الذي يخرجُ الحي من الميت)[3] وكانت امرأةً صالحة، وكان أبوها كافراً، وهو أحد المستهزئين الذي كُفِيَهُمُ النبيّ ﷺ. فالمراد على هذا القول موتُ قلبِ الكافر وحياةُ قلب المؤمن، والحياة والموت مستعاران.

وذهب جمهور كثير من العلماء إلى أن الحياة والموت في الآية إنما هما الحياةُ حقيقةً والموتُ حقيقة لا باستعارة، ثم اختلفوا في المثل التي فسروا بها، فقال عكرمة: هو إخراجُ الدجاجة وهي حية من البيضة وهي ميتة، وإخراج البيضة وهي ميتة من الدجاجة وهي حية، ولفظ الإخراج في هذا المثال وما ناسبه لفظ متمكّن على عرف استعماله.

وقال عبد الله بن مسعود في تفسير الآية: هي النطفة تخرج من الرجل وهي ميتة وهو

(١) من الآية (٨١) من سورة النحل.

(٢) هي خالدة بنت الأسود القرشية الزهرية، كانت امرأة صالحةً من المهاجرات، وإنما كانت خالة رسول الله ﷺ: لأن الأسود والد خالدة هذه هو ابن أخ بنت وهب أُم النبي ﷺ. «الإصابة والاستيعاب» ٤/٢٧٩.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي. «فتح القدير للشوكاني». ١/٣٠٠. كما رواه ابن نجيب في جزئه، وابن أبي عاصم. «الإصابة».

حيّ، ويخرج الرجل منها وهي ميتة. ولفظ الإخراج في تنقل النطفة حتى تكون رجلاً إنما هو عبارة عن تغير الحال، كما تقول في صبي جيد البنية: يخرجُ من هذا رجلٌ قويّ، وهذا المعنى يسميه ابن جني: التجريد، أي تجرّدُ الشيءِ من حالٍ إلى حال هو خروج. وقد يحتمل قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُ الميّتَ من الحيّ﴾ أن يراد به أن الحيوان كله يميته فهذا هو معنى التجريد بعينه، وأنشد ابن جني على ذلك:

أفــاءت بنــو مــروانَ ظلمــاً دمــاءَنــا   وفي الله ـ إنْ لم يُنصفوا ـ حَكَمٌ عَدْلُ(١)

وروى السدي عن أبي مالك(٢) قال في تفسير الآية: هي الحبة تخرج من السنبلة، والسنبلةُ تخرجُ من الحبة، والنواةُ تخرج من النخلة، والنخلة تخرج من النواة، والحياة في النخلة والسنبلة تشبيه.

وقوله تعالى: ﴿بغَيْر حِساب﴾ قيل معناه: بغير حساب منك، لأنه تعالى لا يخاف أن تنتقص خزائنه، هذا قول الربيع وغيره. وقيل: معنى بغير حساب: أي من أحد لك، لأنه تعالى لا معقّب لأمره. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر، وابنُ كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿الميْتَ﴾ بسكون الياء في جميع القرآن. وروى حفص عن عاصم ﴿من الميّت﴾ بتشديد الياء، وقرأ نافع وحمزة والكسائي [الميّت] بتشديد الياء في هذه الآية، وفي قوله: «إلى ﴿بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ و﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾(٣)، وخفَّفَ حمزة والكسائيُّ غير هذه الحروف. قال أبو علي: الميّتُ هو الأصل، والواو التي هي عين منه انقلبت ياءً لإدغام الياء فيها، وميْت بالتخفيف محذوفٌ منه عينه أُعِلَّتْ بالحذف كما أُعِلَّتْ بالقلب، والحذف حَسَنٌ والإتمام حسن، وما مات وما لم يمت في هذا الباب يستويان في الاستعمال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذهب قوم إلى أن الميْت بالتخفيف إنما يستعمل فيما قد مات، وأما الميّت بالتشديد فيستعمل فيما مات وفيما لم يمت بعد.

---

(١) يرد البيت في معظم المصادر منسوباً لأبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي، (انظر أنساب الأشراف ٥: ١٤٢، وتهذيب ابن عساكر ٤: ١٤٧)، ونسب في الحماسة البصرية ١: ٨١ لأبي الخطار بن صفوان الكلابي، وانظره في المحتسب ١: ٤٢، ١٠٦، وحماسة ابن الشجري: ٤، والخصائص ٢: ٤٧٥.

(٢) الظاهر أن المراد به «غزوان الكوفي الغفاري» لأن صاحب التهذيب (٨: ٢٤٥) ذكر أن البخاري أخرج له في التفسير، وأن السديّ روى عنه، (الإصابة ٤: ١٩١).

(٣) الأولى من سورة فاطر: من الآية (٩)، والثانية من سورة الأعراف: من الآية (٥٧).

قوله عز وجل:

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾.

هذا النهي عن الاتخاذ إنما هو فيما يُظهره المرءُ، فأَما أن يتخذه بقلبه ونيته فلا يفعلُ ذلك مؤمن، والمنهيّون هنا قد قرر لهم الإِيمان، فالنهيُ إنما هو عبارةٌ عن إظهارِ اللطفِ للكفّار والميل إليهم، ولفظ الآية عامٌ في جميع الأَعصار.

واختلف الناس في سبب هذه الآية، فقال ابن عباس: كان كعب بن الأشرف وابن أبي الحقيق[١] وقيس بن زيد[٢] قد بطنوا[٣] بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر بن زَبير[٤] وعبد الله بن جبير[٥] وسعد بن خيثمة[٦] لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا مباطنتهم، فأبى أولئك النفر إلا موالاةَ اليهود، فنزلت الآية في ذلك. وقال قوم: نزلت الآية في قصة حاطب بن أبي بلتعة[٧] وكتابه إلى أهل مكة، والآية عامةٌ في جميع هذا، ويدخل فيها فعلُ أبي لبابة[٨] في إشارته إلى حلقه

(١) المقصود سلام بن أبي الحقيق، وكان شديد الكيد للإِسلام وأهله، وهو ممن اشترك في تحريض الأحزاب على غزو المدينة، انظر خبر مقتله في السيرة ٢: ٢٧٤.

(٢) لم يذكر ابن اسحق في السيرة شيئاً عنه.

(٣) بطنوا بهم: صاروا من بطانتهم.

(٤) هو رفاعة بن عبد المنذر بن رفاعة بن زَنْبر بن زَبير الأنصاري الأوسي، اختلف في اسمه، من أهل العقبة، وعدَّه ابن إسحق في البدريين، (الإِصابة ٤/٥١٨).

(٥) هو عبد الله بن جبير بن النعمان الأَنصاري، أخو خوات بن جبير، شهد العقبة وبدراً واستشهد بأحد، وهو أمير الرماة يومئذ. (الإِصابة ٢/٢٨٦).

(٦) هو سعد بن خيثمة بن الحارث بن مالك الأَنصاري الأَوسي، يكنى أَبا خيثمة أَحد النقباءِ بالعقبة، شهد بدراً واستشهد به (الإِصابة ٢/٢٥).

(٧) حاطب بن أبي بلتعة: حليف بني أسد بن عبد العزى، شهد بدراً، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿يأَيُّها الذين آمنوا لا تتَّخذوا عدوّي وعدوّكم أَوْلياء﴾، وذلك أنه كاتب بنيه وإخوته بمكة يعلمهم بما عزم عليه الرسول. توفي سنة ٣٠، (انظر ترجمته في الإِصابة ١: ٣٠٠ وقصة مكاتبته أهل مكة في السيرة: ٣٩٨ - ٣٩٩).

(٨) حين حاصر الرسول بني قريظة طلبوا إليه أن يرسل إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر الأَنصاري أخا بني عمرو بن عوف ليستشيروه في أمرهم، فلما وصل إليهم قالوا له: أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم وأشار بيده إلى حلقه «إنه الذبح»، فنزل فيه: ﴿يأَيُّها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾.

حين بعثه النبيُّ عليه السلام في استنزال بني قريظة. وأما تعذيبُ بني المغيرة لعمار فنزل فيما أباح النبيّ عليه السلام لعمار ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ﴾ عبارة عن كون الشيء الذي تضاف إليه (دون) غائباً متنحياً ليس من الأمر الأول في شيء، وفي المثل: «وأَمِرَّ دونَ عُبَيْدَةَ الوَذَمُ»[٢] كأنه من غير أن ينتهي إلى الشيء الذي تضاف إليه، ورتبها الزّجاج: المضادةَ للشَّرَفِ من الشيء الدون، وفيما قاله نظر.

قوله: ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ﴾ معناه: في شيء مرضيّ على الكمال والصواب، وهذا كما قال النبي عليه السلام: (من غشنا فليس منا)[٣] وفي الكلام حذفُ مضافٍ، تقديره: فليس من التقرب إلى الله أو التزلف ونحو هذا.

وقوله: ﴿في شيء﴾ هو في موضع نصب على الحال من الضمير الذي في قوله: ﴿لَيْسَ مِنَ اللهِ﴾[٤]. ثم أباح الله إِظهار اتخاذهم بشرط الاتقاء، فأَمَّا إبطانه[٥] فلا يصحّ أن يتصف به مؤمنٌ في حال.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تقاة﴾ أصله وُقَيَةٌ ـ على وزن فُعَلة ـ بضم الفاء وفتح العين ـ أبدلوا من الواو تاءً كتُجاه وتُكأة فصار تُقَيَةٌ، ثم قلبت الياءُ ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها فجاء تُقاة. قال أبو علي: يجوز أن تكون تقاةً مثل رماة حالاً من ﴿تتقوا﴾ وهو جمع فاعل وإن كان لم يستعمل منه فاعل، ويجوز أن يكون جمع تقيٍّ وجعل فعيل بمنزلة فاعل.

---

(١) من الآية (١٠٦) من سورة النحل.

(٢) هذا المثل عجز بيت من شعر، وصدره:

لقـــد هممـــت بـــذاك إذ حبســـت ....

والوذم: سيور تشد بها عراقي الدلو، والمثل يضرب للرجل يقطع الأمر دونه: (جمهرة العسكري ١: ١٦٥ والميداني٢: ١٥٩).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود، (الجامع الصغير ٢: ١٧٧)، وزاد فيه: «والمكر والخداع في النار».

(٤) نقل أبو حيان كلام ابن عطية في إعراب (فليس من الله في شيء) ثم قال: وهو كلام مضطرب لأن تقديره: «فليس من التقرب إلى الله» يقتضي ألا يكون «من الله» خبراً لليس، لأنه غير مستقل، وقوله إن «في شيء» في موضع نصب على الحال يقتضي ألا يكون خبراً، وعلى هذا الكلام لا يكون لها خبر (البحر المحيط ٢: ٤٢٣).

(٥) في بعض النسخ: إبطانهم.

وقرأ ابن عباس والحسن وحميد بن قيس ويعقوب الحضرمي ومجاهد وقتادة والضحاك وأبو رجاء والجحدري وأبو حيوة [تَقِيَّةً] ـ بفتح التاء وشد الياء ـ على وزن فعيلة، وكذلك روى المفضل عن عاصم، وأمال الكسائي القافَ في (تُقاةً) في الموضعين، وأمال حمزة في هذه الآية ولم يمل في قوله: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[1]، وفتح سائر القراء القافَ إلا أن نافعاً كان يقرؤُها بين الفتح والكسر.

وذهب قتادة إلى أن معنى الآية ﴿إِلاَّ أن تَتَّقوا مِنْهُم تُقَاةً﴾ من جهة صلة الرحم أي: ملامة، فكأن الآية عنده مبيحةٌ الإحسانَ إلى القرابة من الكفار. وذهب جمهور المفسرين إلى أن معنى الآية: إلا أن تخافوا منهم خوفاً، وهذا هو معنى التقية. واختلف العلماء في التقية ممن تكون؟ وبأي شيء تكون؟ وأي شيء تبيح؟ فأما الذي تكون منه التقية؛ فكلُّ قادرٍ غالبٍ يُكْرِهُ بجورٍ منه، فيدخل في ذلك الكفار إذا غلبوا، وَجَوَرَةُ الرؤساءِ والسلاَّبة، وأهل الجاه في الحواضر. قال مالك رحمه الله: وزوجُ المرأةِ قد يُكْرِه.

وأما بأيّ شيءٍ تكون التقية ويترتب حكمها؟ فذلك بخوف القتل، وبالخوف على الجوارح، وبالضرب بالسوط، وبسائر التعذيب، فإذا فُعل بالإنسان شيءٌ من هذا أو خافه خوفاً متمكناً؛ فهو مُكْرَهٌ وله حُكْمُ التقية. والسجن إكراه، والتقييد إكراه، والتهديد والوعيد إكراه، وعداوة أهل الجاه الجوَرَة تقية. وهذه كلها بحسب حال المُكْرَهِ، وبحسب الشيء الذي يكرَه عليه، فكم من الناس ليس السجنُ فيهم بإكراه، وكذلك الرجل العظيم يُكْرَهُ بالسجنِ والضرب غير المتلف ليكفر، فهذا لا تتصور تقيته من جهة عظم الشيء الذي طُلِبَ منه، ومسائل الإكراه هي من النوع الذي يدخله فقه الحال.

وأما أي شيء تبيح؟ فاتفق العلماء على إباحتها للأقوال باللسان؛ من الكفر وما دونه، ومن بيع وهبة وطلاق، وإطلاق القول بهذا كله، ومن مداراة ومصانعة. وقال ابن مسعود: ما من كلام يدرأ عني سوطين من ذي سلطان إلا كنتُ متكلماً به. واختلف الناس في الأفعال[2]، فقال جماعة من أهل العلم؛ منهم الحسن ومكحول ومسروق:

---

(١) من الآية (١٠٢) من سورة آل عمران.

(٢) أي فعل المكره اتقاء الضرر، لأن ما سبق كان في الأقوال.

يفعل المكرَهُ كلَّ ما حُملَ عليه مما حَرَّمَ الله فعلَه، وينجّي نفسه بذلك. وقال مسروق: فإن لم يفعل حتى مات دخل النار. وقال كثير من أهل العلم منهم سحنون: بل إنْ لم يفعل حتى مات فهو مأجور، وتَرْكه ذلك المباح أَفضلُ من استعماله. وروي أن عمر بن الخطاب قال في رجل يقال له: نهيت بن الحارث، أخذته الفُرْس أسيراً، فعرض عليه شرب الخمر وأكل الخنزير وهُدِّدَ بالنار فلم يفعلْ فقذفوه فيها، فبلغ ذلك عمر فقال: وما كان على نهيت أن يأكل؟. وقال جمع كثير من العلماء: التقية إنما هي مبيحةٌ للأقوال، فأما الأفعالُ فلا، روي ذلك عن ابن عباس والربيع والضحاك، وروي ذلك عن سحنون، وقال الحسن في الرجل يقال له: اسجد لصنم وإلا قتلناك، قال: إن كان الصنم مقابلَ القبلة فليسجدْ ويجعلْ نيته لله، فإن كان إلى غير القبلة فلا وإن قتلوه، قال ابن حبيب: وهذا قول حسن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وما يمنعه أن جعل نيته لله تعالى وإن كان لغير قبلة، وفي كتاب الله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[1]. وفي الشرع إباحةُ التنفّلِ للمسافر إلى غير القبلة. هذه قواعدُ مسألة التقية، وأما تَشَعُّب مسائِلِها فكثيرٌ لا يقتضي الإيجازُ جمعه.

وقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾... إلى آخر الآية، وعيد وتنبيه ووعظ وتذكير بالآخرة. وقوله تعالى: ﴿نَفْسَهُ﴾ نائبة عن إياه، وهذه مخاطبةٌ على معهود ما يفهمه البشر، والنفسُ في مثل هذا راجع إلى الذات، وفي الكلام حذفُ مضافٍ لأن التحذير إنما هو من عقاب وتنكيل ونحوه، فقال ابن عباس والحسن: ويحذّركم الله عقابَهُ.

قوله عز وجلّ:

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾.

الضمير في ﴿تُخْفوا﴾ هو للمؤمنين الذين نُهوا عن اتخاذ الكافرين أولياءَ،

(١) من الآية (١١٥) من سورة البقرة.

والمعنى: إنكم إن أبطنتم الحرصَ على إظهار موالاتهم؛ فإن الله يعلم ذلك ويكرهه منكم. وقوله: ﴿ويعْلمُ ما في السَّمواتِ وما في الأرْضِ﴾ معناه: على التفصيل. وقوله: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ﴾ عموم، والشيء في كلام العرب: الموجود.

و﴿يومَ﴾ نُصِبَ على الظرف، وقد اختلف في العامل فيه، فقال مكيّ بن أبي طالب: العامل فيه ﴿قدير﴾، وقال الطبري: العامل فيه قوله: ﴿وَإِلى اللهِ الْمَصيرُ﴾، وقاله الزجاج، وقال أيضاً: العامل فيه ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ يَوْمَ﴾، ورجحه، وقال مكي حكاية: العامل فيه فعل مضمر، تقديره: «اذكر يوم» و﴿ما﴾ بمعنى الذي، و﴿محضراً﴾ قال قتادة: معناه: موفّراً، وهذا تفسير بالمعنى، والحضور أبينُ من أن يفسرَ بلفظٍ آخر.

وقوله تعالى: ﴿وما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ يحتملُ أن تكون ﴿ما﴾ معطوفة على ﴿ما﴾ الأولى فهي في موضع نصب وتكون ﴿تودُّ﴾ في موضع الحال، وإلى هذا العطف ذهب الطبريّ وغيره، ويحتمل أن تكون رفعاً بالابتداء، ويكون الخبر في قوله ﴿تودّ﴾ وما بعده، كأنه قال: وعملها السّيئ مردودٌ عندها، إنّ بينها وبينه أمداً.

وفي قراءة ابن مسعود [مِنْ سوءٍ ودَّتْ]، وكذلك قرأ ابن أبي عبلة، ويجوز على هذه القراءة أن تكون ﴿ما﴾ شرطية، ولا يجوز ذلك على قراءة ﴿تودّ﴾ لأن الفعل مستقبلٌ مرفوع، والشرط يقتضي جزمه، اللهم إلا أن يُقَدَّر في الكلام محذوفٌ «فهي تود» وفي ذلك ضعف. والأمد: الغاية المحدودة من المكان أو الزمان. قال النابغة:

. . . . سبْقَ الجوادِ إذا استولى على الأمَدِ[١]

فهذه غاية في المكان. وقال الطرماح[٢]:

كل حيٍّ مستكملٌ عِدَّةَ العُمْـ ـرِ وَمُودٍ إذا انقضى أَمَدُهُ

فهذه غاية في الزمان.

---

(١) صدر هذا البيت:

إلا لمثلك أو من أنت سابقه . . . .

(٢) الطرماح بن حكيم: أحد شعراء الخوارج في العصر الأموي، (انظر ترجمته في الشعر والشعراء: ٤٨٩، والأغاني ١٠: ١٤٨ (دار الكتب)، وتهذيب ابن عساكر ٧: ٥٢، والبيت في ديوانه: ١٩٧، تحقيق عزت حسن).

وقال الحسن في تفسير هذه الآية: يسرّ أحدَهم ألاّ يلقَى عمله ذلك أبداً، ذلك مناه، وأما في الدنيا فقد كانت خطيئته يستلذها.

وقوله تعالى: ﴿والله رؤوفٌ بِالْعِبادِ﴾ يحتمل أن يكون إشارةً إلى التحذير، لأن تحذيره وتنبيهه على النجاة؛ رأفةٌ منه بعباده، ويحتمل أن يكون ابتداءَ إعلام بهذه الصفة، فمقتضى ذلك التأنيسُ لئلا يفرطَ الوعيد على نفسٍ مؤمن، وتجيء الآية على نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] لأن قوله: ﴿ويُحذِّركُمُ اللهُ نَفسَهُ﴾ معناه: والله محذور العقاب.

قوله عز وجل:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

اختلف المفسرون فيمن أُمِرَ محمد ﷺ أن يقولَ له هذه المقالة، فقال الحسن بن أبي الحسن وابن جريج: إن قوماً على عهد النبي ﷺ قالوا: يا محمد إنا نحبُّ ربنا، فنزلت هذه الآية في قولهم، جعل الله فيها اتباع محمد عَلَماً لحبّه. وقال محمد بن جعفر بن الزبير: أُمِرَ رسول الله ﷺ أن يقول هذا القولَ لنصارى نجران، أي: إنْ كان قولكم في عيسى وغلوّكُمْ في أمره حباً لله فاتبعوني. ويحتملُ أن تكون الآيةُ عامةً لأهل الكتاب اليهود والنصارى لأنهم كانوا يدَّعون أنهم يحبون الله ويحبهم. ألا ترى أن جميعهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[2]، ولفظ «أحباؤه» إنما يُعطي أن الله يحبهم، لكن يعلم أن مرادهم «ويحبوه»[3] فيحسنُ أن يقالَ لهم: (قلْ إنْ كنتم تُحبّونَ الله).

وقرأ الزهري [فاتبعونِّي] بتشديد النون، وقرأ أبو رجاء: [يَحْبُبْكُم] بفتح الياء وضم الباء الأولى من «حَبَّ» وهي لغة، قال الزجاج: حَببتُ قليلةٌ في اللغة[4]، وزعم

---

(١) من الآية (١٦٧) من سورة الأعراف.

(٢) من الآية (١٨) من سورة المائدة.

(٣) هكذا هو في جميع النسخ، ولعلّ الصواب «ومُحبُّوه».

(٤) على هذه اللغة جاء قول الشاعر:

أحبّ أبا ثروان من حب تمره ... وأعلم أن الرفق بالجار أرفق

ووالله لولا تمره ما حببته ... لا كان أدنى من عبيد ومشرق

الكسائيُّ أنها لغةٌ قد ماتت، وعليها استعمل محبوب.

والمحبة إرادةٌ يقترنُ بها إقبالٌ من النفس وميلٌ بالمعتقد. وقد تكون الإرادة المجردة فيما يكره المريدُ، والله تعالى يريدُ وقوعَ الكفر ولا يحبه، ومحبةُ العبد لله تعالى يلزمُ عنها ولا بدَّ أن يطيعه، وتكون أعماله بحسب إقبالِ النفس، وقد تمثَّلَ بعضُ العلماء حين رأى الكعبةَ فأنشد[1]:

هـــذه دارُهُ وأنـــتَ محِـــبٌّ ... مـا بقـاءُ الـدمـوع فـي الآمـاق

ومحبةُ الله للعبد أَمارتها للمتأمل؛ أن يرى العبدَ مهدياً مسدداً ذا قبول في الأرض، فلطفُ الله بالعبد ورحمته إياه، هي ثمرةُ محبته، وبهذا النظر يتفسَّرُ لفظُ المحبة حيث وقعتْ من كتاب الله عز وجل.

وذكر الزجاج أَن أبا عمر قرأ: [ويَغْفر لكُمْ] بإدغام الراء في اللام، وخطأ القراءة، وغلَّط من رواها عن أبي عمرو فيما حسبت.

وذهب الطبري إلى أن قوله: ﴿قلْ أَطيعوا اللهَ والرَّسُولَ﴾ خطاب لنصارى نجران. وفي قوله: ﴿فإنَّ الله لا يُحبُّ الكافِرينَ﴾ وعيد، ويحتمل أن يكون بعد الصَّدْعِ بالقتال.

قوله عز وجل:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾.

لما مضى صدرٌ من محاجّة نصارى نجران والردِّ عليهم وبيانِ فسادِ ما هم عليه، جاءت هذه الآية مُعْلِمَةً بصورةِ الأمر الذي قد ضلوا فيه، ومنبئةً عن حقيقته كيف كانت، فبدأ تعالى ذكر فضله على هذه الجملة التي آلُ عمران منها، ثم خصَّ امرأةَ عمران بالذكر، لأن القصدَ وصفُ قصة القومِ إلى أن يبيِّن أمر عيسى عليه السلام وكيف كان.

و﴿اصْطَفَى﴾ معناه: اختار صفو الناس، فكان ذلك هؤلاء المذكورين وبقي الكفّارُ

(١) هذا البيت من قطعة أنشدها أبو الفضل الجوهري لما أشرف على المدينة، ونسبها صاحب نفح الطيب للشبلي ١: ٤٠، وورد البيت في قطعة أخرى غير منسوبة ١: ٤٥ وكأنه مضمّن فيها؛ ولم يرد من القطعة الأولى في ديوان الشبلي إلاالبيت الوارد هنا (ص: ١١٣) نقلاً عن «تلبيس إبليس» لابن الجوزي.

كَدَراً. و﴿آدَمَ﴾ هو أبونا عليه السلام، اصطفاه الله تعالى بالإيجاد والرسالة إلى بنيه والنبوة والتكليم، حسبما ورد في الحديث[١]، وحكى الزجَّاجُ عن قوم أن الله اصطفى آدم عليه السلام بالرسالة إلى الملائكة في قوله: ﴿أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾[٢] وهذا ضعيف؛ ونوحٌ عليه السلام هو أبونا الأصغر في قول الجمهور، وهو أول نبيّ بُعِثَ إلى الكفار، وانصرف نوح مع عجمته وتعريفه لخفّةِ الاسم، كهود ولوط. ﴿وآل إبراهيمَ﴾ يعني بإبراهيم الخليلَ عليه السلام، والآل في اللغة: الأهل والقرابة، ويقال للأتباع وأهلِ الطاعة: آل، فمنه آل فرعون، ومنه قول الشاعر وهو أراكة الثقفي في رثاءِ النبي ﷺ وهو يعزي نفسه في أخيه عمرو[٣]:

فـلا تبـك مَيْتـاً بعـدَ مَيْـتٍ أجنَّـهُ   علـيٌّ وعبـاسٌ وآلُ أبـي بكـر

أراد جميعَ المؤمنين. والآلُ في هذه الآية يحتملُ الوجهين، فإذا قلنا أراد بالآل القرابة والبيتية، فالتقديرُ: إن الله اصطفى هؤلاء على عالمي زمانهم، أو على العالمين عاماً بأن نقدر محمداً عليه السلام من آل إبراهيم؛ وإن قلنا: أراد بالآل الأَتباع فيستقيم دخولُ أمةِ محمدٍ في الآل لأنها على ملّةِ إبراهيم.

وذهب منذر بن سعيد وغيره إلى أن ذكرَ آدم يتضمَّنُ الإشارةَ إلى المؤمنين به من بنيه، وكذلك ذكر نوح عليه السلام، وأنّ الآل الأتباع، فعمَّتِ الآيةُ جميعَ مؤمني العالم، فكأن المعنى: إن الله اصطفى المؤمنين على الكافرين، وخصَّ هؤلاء بالذكر تشريفاً لهم، ولأن الكلام في قصة بعضهم.

﴿وَآلَ عِمرانَ﴾ أيضاً يحتملُ من التأويل ما تقدَّم في ﴿آل إبراهيم﴾. وعمران هو رجل من بني إسرائيل من ولد سليمان بن داود فيما حكى الطبري؛ قال مكي: هو

---

(١) الحديث وردت الإشارة إليه في أحاديث الشفاعة، وأخرجه الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا أخبركم بأفضل الملائكة؟ جبريل عليه السلام، وأفضل النبيين؟ آدم). . . . الحديث، (مجمع الزوائد ٨: ١٩٨، وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي ذر قال: يا رسول الله أرأيت آدم كان نبياً؟ قال: (نعم كان نبياً رسولاً كلمه الله، قال له: اسكن أنت وزوجك الجنة). (تفسير الشوكاني ١: ٥٥).

(٢) من الآية (٣٣) من سورة البقرة.

(٣) هو أراكة بن عبد الله بن سفيان الثقفي، شاعر محسن، قتل بسر بن أرطأة أخاه عمراً، فرثاه بأبيات منها هذا البيت، وهو يخاطب فيها ابنه عبد الله، (انظر المؤتلف والمختلف للآمدي ٦٧ ـ ٦٨).

عمران بن ماثال[١]، وقال قتادة في تفسير هذه الآية: ذكر الله تعالى أهل بيتين صالحين ورجلين صالحين، ففضلهم على العالمين، فكان محمد من آل إبراهيم. وقال ابن عباس: اصطفى الله هذه الجملة بالدِّينِ والنبوةِ والطاعةِ له.

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً﴾ نُصِبَ على البدل، وقيل: على الحال لأن معنى ﴿ذُرِّيَّةً بعضُها مِن بعْضٍ﴾ متشابهين في الدِّين والحال، وهذا أظهر من البدل. والذرية في عرف الاستعمال تقع لما تناسل من الأولاد سفلاً، واشتقاق اللفظة في اللغة يُعطي أن تقعَ على جميع الناس، أي كلّ أحدٍ ذريةٌ لغيره، فالناس كلهم ذريةٌ بعضُهُمْ لبعض، وهكذا استعملت الذرية في قوله تعالى: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾[٢] أي ذرية هذا الجنس، ولا يسوغ أن يقال في والد: هذا ذريَّةٌ لولده إذ اللفظة من «ذرَّ» إذا بث، فهكذا يجيء معناها، وكذلك إن جعلناها من «ذرا»، وكذلك إن جعلت من «ذرأ» أو من الذر الذي هو صغار النمل[٣]. قال أبو الفتح[٤]: الذرية يحتمل أن تكون مشتقة من هذه الحروف الأربعة، ثم طول أبو الفتح القول في وزنها على كل اشتقاق من هذه الأربعة الأحرف تطويلاً لا يقتضي هذا الإيجازُ ذكرَهُ، وذكرها أبو علي في الأَعراف في ترجمة: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[٥]، قال الزجّاج: أصلها فُعْلِيّة من الذر، لأن الله أخرج الخلق من صلب آدم كالذر. قال أبو الفتح: هذه نسبة إلى الذرّ غُيِّر أولها، كما قالوا في النسبة إلى الحَرَم: حِرْمي ـ بكسر الحاء ـ وغير ذلك من تغيير النسب، قال الزجاج: وقيل: أصل ذريّة ذُرّورة، وزنها فُعْلولة، فلما كثرتِ الراءاتُ أبدلوا من الأخيرة ياء فصارت ذُرُّويَة، ثم أُدغمت الواو في الياء فجاءت ذُرِّية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا اشتقاق من ذر يذر، أو من ذرى، وإذا كانت من ذرأ فوزنها فعيلة كمريقة،

---

(١) هو «ماثان» عند السهيلي.

(٢) من الآية (٤١) من سورة يس.

(٣) قال الراغب: الذرية يقال للواحد والجمع، والأصل والنسل كقوله: (حملنا ذريَّتهم)، أي آباءهم، وقال صاحب النظم: «الآية توجب أن تكون الآباء، ذرية الأبناء، والأبناء ذرية الآباء لأنه من ذرأ الله الخلق، فالأب ذرىء منه الولد، والولد ذرىء منه الأب (البحر المحيط ٢: ٤٣٥).

(٤) المحتسب ١: ١٥٦.

(٥) من الآية (١٧٢) من سورة الأعراف.

أصلها ذريئة، فألزمت البدل والتخفيف، كما فعلوا في البَرِيّة في قول من رآها من برأ الله الخلقَ، وفي كوكب دريّ، في قول من رآه من «درأ» لأنه يدفع الظلمة بضوئه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿ذُرية﴾ بضم الذال، وقرأ زيد بن ثابت والضحاك: [ذِرّية] ـ بكسر الذال ـ.

وقوله تعالى: ﴿بَعْضُها مِنْ بَعْض﴾ أي في الإيمان والطاعة وإنعام الله عليهم بالنبوة.

واختلف الناس[1] في العامل في قوله: ﴿إذْ قَالت﴾، فقال أبو عبيدة معمر: ﴿إذ﴾ زائدة، وهذا قول مردود، وقال المبرد والأخفش: العاملُ فعل مضمر تقديره: «اذكر إذ»، وقال الزجاج: العامل معنى الاصطفاء، التقدير: «واصطفى آل عمران إذ». وعلى هذا القول يخرج عمران من الاصطفاء؛ وقال الطبري ما معناه: إن العامل في «إذ» قوله: ﴿سَميعٌ﴾.

وامرأة عمران اسمها حنة بنت قاذوذ فيما ذكر الطبري عن ابن إسحق، وهي أم مريم بنت عمران.

ومعنى قوله: ﴿نَذَرْتُ لكَ ما في بَطْني مُحَرَّراً﴾ أي: جعلت نذراً أن يكونَ هذا الولدُ الذي في بطني حبيساً على خدمة بيتك، محرَّراً من كلِّ خدمةٍ وشُغْلٍ من أشغال الدنيا، أي: عتيقاً من ذلك، فهو من لفظ الحرية، ونصبه على الحال. قال مكي: فمن نصبه على النعت لمفعول محذوف يقدّره: غلاماً محرراً، وفي هذا نظر[2]، والبيتُ الذي نَذَرَتْهُ له، هو بيتُ المقدس.

قال ابن إسحق[3]: كان سببُ نذر حنة، أنها كانت قد أُمْسِكَ عنها الولد حتى أسنَّتْ، فبينما هي في ظلِّ شجرة، إذ رأَتْ طائراً يزقُّ فرخاً له، فتحركت نفسها للولد، فدعتِ الله أن يهبَ لها ولداً، فحملت بمريم، وهلك عمران، فلما علمت أن في بطنها

(١) قارن كلامه بما جاء في «زاد المسير» ١ : ٣٧٦.

(٢) لأن «نذر» قد أخذ مفعوله، وهو «ما في بطني»، أما من قال إنه منصوب على الحال؛ فيقول: إنه حال من «ما» والعامل «نذر»، أو من الضمير الذي في «استقر» العامل في الجار والمجرور، لأن العامل فيه هو «استقر».

(٣) أورده أيضاً ابن الجوزي في «زاد المسير» ١ : ٣٧٦.

جنيناً؛ جعلته نذيرةً لله أن يخدم الكنيسة، لا يُنتَفَعُ به في شيءٍ من أمر الدنيا.

وقال مجاهد: ﴿مُحَرَّراً﴾ معناه: خادماً للكنيسة، وقال مثله الشعبي وسعيد بن جبير، وكان هذا المعنى من التحرير للكنائس عرفاً في الذكور خاصة، وكان فرضاً على الأبناء التزام ذلك[١] فقالت: ﴿ما في بَطْني﴾ ولم تنصَّ على ذكورته لمكان الإشكال، ولكنها جزمتْ الدعوة رجاءً منها أن يكون ذكراً. وتقبُّلُ الشيء وقبوله: أخْذه حيث يُتَصَوَّرُ الأخذُ والرضى به في كل حال، فمعنى قولها ﴿فتَقبَّلْ مِنّي﴾: أي ارضَ عنّي في ذلك، واجعله فعلاً مقبولاً مجازىً به، و ﴿السميع﴾ إشارة إلى دعائها، ﴿العليم﴾ إشارة إلى نيتها.

قوله عز وجل:

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

هذه الآية خطاب من الله تعالى لمحمد عليه السلام، والوضع: الولادة، وأنَّث الضمير في ﴿وَضَعَتْها﴾ حملاً على الموجودة ورفعاً للفظ (ما) التي في قولها: ﴿ما في بَطْني﴾[٢] وقولها: ﴿ربِّ إني وضَعْتُها أنثى﴾ لفظ خبر في ضمنه التحسُّر والتلهف، وبيَّنَ الله ذلك بقوله: ﴿والله أَعْلَم بما وَضَعَتْ﴾.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَضَعَتْ﴾ بفتح العين وإسكان التاء ـ وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: [وَضَعْتُ] ـ بضم التاء وإسكان العين[٣] ـ وهذا أيضاً مُخْرِجٌ قولها: ﴿ربِّ إنيِّ وضَعْتُها أُنثى﴾ من معنى الخبر إلى معنى التلهف، وإنما تلهفت لأنهم كانوا لا يحرّرون الإناثَ لخدمة الكنائس ولا يجوزُ ذلك عندهم، وكانت قد رَجَتْ أنْ يكون ما في بطنها ذكراً، فلما وضعت أُنثى تلهفتْ على فوتِ الأمل وأفزعها أن نذرت ما لا

---

(١) هذا هو قول الزجاج (المصدر السابق نفسه) وفي بعض النسخ: على الأنبياء.

(٢) قال الزمخشري: وإنما أنث على المعنى، لأن ما في بطنها كان أنثى في علم الله، أو على تأويل: الجبلة أو النفس أو النسمة.

(٣) يعني أن جملة [والله أعلم بما وضعْتُ] تتمة كلام أم مريم، كأنها تخاطب نفسها.

يجوز نذره، وقرأ ابن عباس: [وضَعْتِ] ـ بكسر التاء ـ على الخطاب من الله لها.

وقولها: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾ تريد في امتناعِ نذره، إذ الأنثى تحيض ولا تصلحُ لصحبة الرهبان[1]، قاله قتادة والربيع والسدي وعكرمة وغيرهم، وبدأت بذكر الأهمّ في نفسها، وإلا فسياقُ قصّتها يقتضي أن تقول: وليستِ الأُنثى كالذكر، فتضع حرف النفي مع الشيء الذي عندها وانتفت عنه صفات الكمال للغرض المراد.

وفي قولها: ﴿وإني سَمَّيْتُها مريمَ﴾ سُنَّةُ تسميةِ الأطفال قرب الولادة، ونحوه قول النبي ﷺ: (ولد لي الليلة مولود فسميته باسم أبي إبراهيم)[2]. وقد روي عنه عليه السلام (أن ذلك في يوم السابع يعق عن المولود ويسمَّى)[3] قال مالك رحمه الله: «ومن مات ولده قبل السابع فلا عقيقةَ عليه ولا تسمية» قال ابن حبيب: «أحبُّ إليَّ أن يسمَّى، وأن يسمى السّقط لما رُوي من رجاءِ شفاعته»[4].

ومريم لا ينصرف لعجمته وتعريفه وتأنيثه[5]. وباقي الآية إعاذة، وورد في الحديث عن النبي عليه السلام من رواية أبي هريرة قال: (كل مولود من بني آدم له طعنة من الشيطان وبها يستهلّ، إلا ما كان من مريم بنة عمران وابنها، فإن أمها قالت حين وضعتها: ﴿وإني أُعيذها بكَ وذُرِّيَتَها مِن الشَّيطانِ الرَّجيم﴾ فَضربَ بينهما حجابٌ فطَعَن الشيطانُ في الحجاب)[6] وقد اخلتفت أَلفاظ الحديث من طرق، والمعنى واحد كما ذكرته.

وقوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلها﴾ إخبار لمحمد عليه السلام بأن الله رضي مريم لخدمة

---

(١) قارن كلامه بما في «زاد المسير» ١/ ٣٧٧.

(٢) أَخرجه الإِمام أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود عن أَنس. الجامع الصغير. ٢/ ٦١٩.

(٣) أَخرجه الإِمام أَحمد، وأَهل السنن، وصححه الترمذي عن سَمُرة بن جندب. تفسير ابن كثير. ١/ ٣٥٩». كما أَخرجه الطبراني في الصغير عن بريدة مرفوعاً، وفي الطبراني الأوسط والكبير عن بن عمر، وفي الأَوسط عن ابنِ عباس. وأخرجه أبو يَعْلى والبزار عن عائشة. «مجمع الزوائد». ٤/ ٥٧ ـ ٥٩. ومعنى يعق عن المولود: يَذْبح ذبيحة يوم سبوعه، وتسمى هذه الذبيحة: عقيقة.

(٤) رواه ابن عساكر عن أَبي هريرة ولفظه: (سموا أَسقاطكم) الحديث. الجامع الصغير؛ ٢/ ٢٥.

(٥) مريم: قيل: إِنه اسم عبراني معناه: العابدة، وقيل: عربي جاءَ شاذاً كمدْيَن، وقياسه: مَرام كمنال، ومعناه في العربية: التي تغازل الفتيان. قال الراجز: قلْتُ لزيدٍ لمْ تصِلْهُ مرْيَمُه.

(٦) أخرجه البخاري عن أَبي هريرة. الجامع الصغير ٢٢/ ٢٣٤ ـ وقال عنه الزمخشري: «الله أَعلم بِصِحتّه» «الكشاف» ١/ ٤٢٦.

المسجد كما نذرت أمها وسنَّى لها الأمل في ذلك، والمعنى يقتضي أن الله تعالى أوحى إلى زكريا ومن كان هنالك بأنه قد تقبلها، ولذلك جعلوها كما نذرت.

وقوله: ﴿بِقَبُولٍ﴾ مصدر جاء على غير المصدر، وكذلك قولُه: ﴿نباتاً﴾ بعد أنبت.

وقوله: ﴿وَأَنْبتها نباتاً حسناً﴾، عبارة عن حسن النشأة وسرعة الجودة فيها في خِلقةٍ وخُلُق.

وقوله تعالى: ﴿وكَفَّلَها زكريَّا﴾ معناه: ضمها إلى إنفاقه وحضنه، والكافل هو المربي الحاضن، قال ابن إسحق: إن زكريا كان زوج خالتها، لأنه وعمران كانا سلفين على أختين، ولدت امرأة زكريا يحيى، وولدت امرأة عمران مريم، وقال السدّيّ وغيره: إن زكرياء كان زوجَ ابنةٍ أخرى لعمران، ويعضد هذا القول قول النبي ﷺ في يحيى وعيسى: (ابنا الخالة)[1] قال مكي: وهو زكريا بن آذن. وذكر قتادة وغير واحد من أهل العلم أنهم كانوا في ذلك الزمان يتشاحّون في المحرَّرِ عند من يكون من القائمين بأمر المسجد فيتساهمون عليه، وأنهم فعلوا في مريم ذلك، فَرُوي أنهم ألقوا أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراةَ في النهر، وقيل: أقلاماً بَرَوْهَا من عودٍ كالسهام والقِداح، وقيل: عصيّاً لهم، وهذه كلها تقلم. ورُوي أنهم ألقوا ذلك في نهر الأردنّ، وروي أنهم ألقوه في عين[2]. وروي أن قلم زكريا صاعَدَ الجرية[3] ومضت أقلام الآخرين مع الماء في جريته. وروي أن أقلامَ القوم عامَتْ على الماءِ معروضةً كما تفعل العيدان وبقي قلمُ زكرياً مرتزّاً[4] واقفاً كأنما ركز في طين، فكفلها زكريا عليه السلام بهذا الاستهام، وحكى الطبري عن ابن إسحق أنها لما ترعرعت أصابت بني إسرائيل مجاعةٌ فقال لهم زكريا: إني قد عجزتُ عن إنفاق مريم فاقترعوا على من يكفلها، ففعلوا، فخرج السهم على رجل يقال له جُرَيْج، فجعل ينفقُ عليها، وحينئذ كان زكريا يدخلُ عليها المحرابَ عند جُريج فيجدُ عندها الرزق. وهذا استهام غير الأول، هذا المرادُ منه دفعها، والأولُ المراد منه أخذها. ومضمَّنُ هذه الرواية أَن زكريا كفلها من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ومسلم والنسائي وابن أبي حاتم عن أنس بن مالك رضي الله عنه (تفسير ابن كثير ٣: ٣) ولفظ الحديث: (فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة).

(٢) انظر تفصيل الاستهام لكفالة مريم وإلقاء الأقلام في «زاد المسير» ١: ٣٧٩.

(٣) قيل: جرى عكس جري الماء، ومعنى صاعد الجرية: قاومها.

(٤) هكذا جاء في جميع النسخ مرتزّاً، ولعلّ الصواب: مرتكزاً.

لدن طفولتها دون استهام، لكن[1] لأنّ أمّها هلكت، وقد كان أبوها هلك وهي في بطن أمها، فَضَمَّهَا زكريا إلى نفسه لقرابتها من امرأته، وهكذا قال ابن إسحق. والذي عليه الناس أن زكريا إنما كفل بالاستهام لتشاحّهم حينئذ فيمن يكفل المحرَّر.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر[2]: [وكَفَلها] ـ مفتوحة الفاء خفيفة ـ [زَكريَّاءُ] مرفوعاً ممدوداً، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: و﴿كفَّلها﴾ ـ مشددة الفاء، [زكرياء] ممدوداً منصوباً في جميع القرآن، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص: و﴿كفَّلها﴾ ـ مشددة الفاء مفتوحة، ﴿زكريا﴾ مقصوراً في جميع القرآن، وفي رواية أبي بن كعب: [وأكفلها زكرياء] ـ بفتح الفاء ـ علىٰ التعدية بالهمزة وقرأ مجاهد: [فتقبَّلْها] ـ بسكون اللام ـ على الدعاء [ربَّها] بنصب الباء على النداء، [وأنبِتْها] ـ بكسر الباء ـ على الدعاء، [وَكَفِّلْها] ـ بكسر الفاء وشدها ـ على الدعاء [زكرياءَ] منصوباً ممدوداً، وروي عن عبد الله بن كثير، وعبد الله المزني[3]: [وَكَفِلها] ـ بكسر الفاء خفيفة ـ وهي لغة يقال: كَفِلَ يكفُلُ ـ بضم العين في المضارع، وكفِلَ ـ بكسر العين ـ يكفَلُ ـ بفتحها ـ في المضارع. وزكريا: اسم أعجمي يمدُّ وَيُقْصر، قال أبو علي: لما عُرِّبَ صادف العربية في بنائه فهو كالهيجاء تمدّ وتقصر. قال الزجاج: فأَما تركُ صرفه فلأن فيه في المدِّ ألفي تأنيثٍ وفي القصر ألفَ تأنيث. قال أبو علي: ألفُ زكريا ألفُ تأنيث ولا يجوز أن تكونَ ألفَ إلحاق، لأنه ليس في الأصول شيءٌ على وزنه، ولا يجوز أن تكونَ منقلبةً، ويقال في لغة: زَكَرِيٌّ منونٌ معرب، قال أبو علي: هاتان ياءا نَسَبٍ ولو كانتا اللتين في زكريا لوجبَ ألا ينصرفَ الاسمُ للعجمة والتعريف، وإنما حذفت تلك وجلبت ياء النسب[4]. وحكى أبو حاتم زكري بغير صرفٍ وهو غلطٌ عند النحاة، ذكره مكي.

---

(١) لكن: وردت في جميع النسخ، ولعلها حشو.

(٢) في بعض النسخ: وابن عباس.

(٣) في بعض النسخ: وأبي عبد الله المزني، ولم أعثر له على ترجمة، وفي البحر لأَبي حيان: «وقرأ عبد الله المزني». ويوجد هناك عبد الله بن معقل بن مقرن المزني أَبو الوليد الكوفي، تابعي، المتوفى سنة بضع وثمانين بالبصرة، وهناك عبد الله بن مغفل بن عبد نهم أَبو عبد الرحمن المزني صحابي من أَصحاب الشجرة توفي سنة ٥٧ هـ ولعل المراد الأَول، والله أَعلم. «تهذيب التهذيب» ٦/ ٤٠، ٤٢.

(٤) قال أَبو حيان (البحر المحيط ٢/ ٤٣٣): «زكرياءُ أَعجمي، شبه بما فيه الأَلف الممدودة والأَلف =

وقوله تعالى: ﴿كُلَّما﴾ ظرف، والعامل فيه ﴿وَجَدَ﴾، والمحراب: المبنى الحسن كالغرف والعلالي ونحوه، ومحراب القصر أشرف ما فيه، ولذلك قيل لأشرف ما في المصلى ـ وهو موقف الإمام ـ: محراب، وقال الشاعر:

ربـــةُ محـــرابٍ إذا جئتُهـــا لـــم ألقهـــا أو أرتقـــي سلمـــا[1]

ومثل قول الآخر[2]:

كدُمَى العاجِ في المحاريبِ أو كالـ ـبيْـضِ فـــي الـــروضِ زهـــرُه مستنيـــرُ

وقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عِنْدها رزقاً﴾ معناه: طعاماً تتغذَّى به مما لم يعهده ولا عرف كيف جُلِبَ إليها، وكانت ـ فيما ذكر الربيع ـ تحت سبعة أبواب مغلقة، وحكى مكي أنها كانت في غرفة يُطْلَعُ إليها بسلم، وقال ابن عباس: وجد عندها عنباً في مِكْتَلٍ في غيرِ حينه، وقاله ابن جبير ومجاهد، وقال الضحاك ومجاهد أيضاً وقتادة: كان يجدُ عندها فاكهةَ الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، وقال ابن عباس: كان يجد عندها ثمار الجنة: فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، وقال الحسن: كان يجد عندها رزقاً من السماء ليس عند الناس، ولو أَنه علم أن ذلك الرزق من عنده لم يسألها عنه؛ وقال ابن إسحق: هذا الدخول الذي ذكر الله تعالى في قوله: ﴿كلَّما دَخَلَ عَلَيْها﴾ إنما هو دخولُ زكريا عليها وهي في كفالة جريج أخيراً، وذلك أن جريجاً كان يأتيها بطعامها فينمّيه الله ويكثّره، حتى إذا دخل إليها زكريا عجبَ من كثرته فقال: ﴿يَا مرْيَمُ أنَّى لكِ هَذا﴾، والذي عليه الناس أقوى مما ذكره ابن إسحق.

وقوله: ﴿أنى﴾ معناه: كيف؟ ومن أين[3]؟ وقولها: ﴿هُوَ مِنْ عندِ اللهِ﴾ دليلٌ على أنه ليس من جَلْبِ بشر، وهكذا تلقى زكريا المعنى، وإلا فليس كان يقنعُ بهذا الجواب.

= المقصورة، فهو ممدود ومقصور، ولذلك يمتنع صرفه نكرة، وهاتان اللغتان فيه عند أَهل الحجاز، ولو كان امتناعه للعلمية والعجمة انصرف نكرة».

(١) البيت لوضاح اليمن، (انظر الأغاني ٦: ٢٢٣. وزاد المسير ١: ٣٨٠).

(٢) البيت لعدي بن زيد العبادي (ديوانه ٨٤) شبه نساء حساناً مشرقات الوجوه بتماثيل من العاج في بيوت العبادة عندهم، أو بالبيض تضعه النعامة في روضة مزهرة.

(٣) راجع البحر المحيط (٢: ٤٣٣) في تحديد دلالات «أَنَّى»، ومنها الجهة (من أي جهة لك هذا الرزق)، بل قد تعني الكيفية (كيف تهيأ وصول هذا الرزق إليك)... إلخ.

قال الزجاج: وهذا من الآية التي قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[1] وروي أنها لم تَلْقَمْ ثدياً قط.

وقولها: ﴿إنَّ الله يرزُقُ مَنْ يشاءُ بغيرِ حِساب﴾ تقرير لكون ذلك الرزق من عند الله. وذهب الطبريّ إلى أن ذلك ليس من قول مريم وأنه خبرٌ من الله تعالى لمحمد ﷺ، والله تعالى لا تنتقصُ خزائنه، فليس يحسبُ ما يخرج منها. وقد يعبر بهذه العبارة عن المكثرين من الناس أنهم يُنفقون بغيرِ حساب، وذلك مجاز وتشبيه، والحقيقة هي فيما ينتفقُ من خزائن الله تعالى.

قوله عز وجل:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

هناك ـ في كلام العرب ـ إشارةٌ إلى مكانٍ فيه بُعْدٌ أو زمان، وهنالك ـ باللام ـ أبلغ في الدلالةِ على البعد، ولا يُعْرَبُ (هنالك) لأنه إشارة فأشبه الحروف التي جاءت لمعنىً.

ومعنى هذه الآية: إن في الوقت الذي رأى زكريا رزقَ الله لمريم ومكانتَها منه، وفكَّر في أنها جاءت أُمَّها بعد أن أسنَّتْ، وأَن الله تقبَّلَها وجعلها من الصالحات، تحرَّكَ أملُهُ لطلبِ الولد وقويَ رجاؤه، وذلك منه على حالِ سنٍّ وَوَهْنِ عظمٍ واشتعالِ شيب، وذلك لخوفه المواليَ من ورائه ـ حسبما يتفسَّرُ في سورة مريم إن شاء الله ـ فدعا ربَّهُ أن يهبَ له ذريةً طيبة. والذريةُ: اسمُ جنسٍ يقع على واحدٍ فصاعداً كما الوليُّ اسم جنس كذلك، وقال الطبري: إنما أراد هنا بالذرية واحداً، ودليلُ ذلك طَلَبُهُ وليّاً ولم يطلبْ أولياءَ، وأنّثَ الطيّبَةَ حملاً على لفظ الذرية كما قال الشاعر:

أبـوك خليفـةٌ ولـدتـه أخـرى   وأنـت خليفـةٌ ذاك الكمـالُ[2]

---

(١) من الآية (٩١) من سورة الأنبياء.

(٢) البيت غير منسوب، وهو من شواهد الفراء (اللسان: خلف)، قال: ولدته أخرى لتأنيث اسم الخليفة، والوجه أن يكون: ولده آخر.

وكما قال الآخر:

فمـــا تـــزدري مـــن حيَّـــةٍ جبليـــة سُكَاتٍ إذا ما عضَّ ليس بأدردا(١)

وفيما قاله الطبري تعقّب، وإنما الذرية والولي اسما جنسٍ يقعان للواحد فما زاد، وهكذا كان طلب زكريا عليه السلام، و﴿طَيِّبَةً﴾ معناه: سليمة في الخلق والدين نقية، ﴿سَمِيعُ﴾ في هذه الآية بناء اسم فاعل.

ثم قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الملائِكَةُ﴾ وتُرِكَ محذوفٌ كثيرٌ دلَّ ما ذُكِرَ عليه، تقديره: فقبل الله دعاءه، ووهبه يحيى، وبعث الملك أو الملائكة بذلك إليه، فنادته، وذكر أنه كان بين دعائه والاستجابة له بالبشارة أربعون سنة، وذكر جمهور المفسرين أن المنادي المخبر إنما كان جبريل وحده، وهذا هو العرف في الوحي إلى الأنبياء، وقال قوم: بل نادتْ ملائكةٌ كثيرةٌ حسبما تقتضيه ألفاظ الآية. وقد وجدنا الله تعالى بعث ملائكةً إلى لوط وإلى إبراهيم عليه السلام وفي غير ما قصةٍ.

وفي مصحف عبد الله بن مسعود وقراءته: [فناداه جبريل وهو قائمٌ يصلّي]. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وأبو عمرو: [فنادَتْهُ] ـ بالتاء ـ [الملائِكَةُ]، وقرأ حمزة والكسائي: [فناداهُ الملائِكَةُ] ـ بالألف وإمالة الدال ـ. قال أبو علي: من قرأ بالتاء فلموضع الجماعة، والجماعة ممن يعقل في جمع التكسير؛ تجري مجرى ما لا يعقل، ألا ترى أنك تقول: هي الرجال كما تقول: هيَ الجذوعُ وهي الجمال، ومثله ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾(٢). ففسر أبو علي على أن المنادي ملائكةٌ كثيرة، والقراءة بالتاء على قولِ من يقول: المنادي جبريل وحده متجهة على مراعاة لفظ الملائكة، وعبر عن جبريل بالملائكة إذ هو منهم، فذكر اسمَ الجنس كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾(٣)، قال أبو علي: ومن قرأ: [فناداه الملائِكَةُ]، فهو كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾(٤).

---

(١) سكات: لا يشعر به الملسوع حتى يلسعه. الأدرد: الذي ذهبت أسنانه. والشاهد فيه أنه أنث «جبلية» لموافقة لفظ «حية» ثم عاد إلى المعنى فقال «عضّ» على التذكير، (اللسان: حيي).

(٢) من الآية (١٤) من سورة الحجرات.

(٣) من الآية (١٧٣) من سورة آل عمران.

(٤) من الآية (٣٠) من سورة يوسف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا على أن المنادي كثير، ومن قال إنه جبريل وحده كالسديّ وغيره فأفردَ الفعل مراعاةً للمعنى، وعبَّر عن جبريل عليه السلام بالملائكة إذ هو اسم جنسه.

وقوله تعالى: ﴿فنادته﴾ عبارة تستعمل في التبشير وفيما ينبغي أن يُسْرَعَ به وَيُنْهَى إلى نفس السامع لِيُسَرَّ به، فلم يكن هذا من الملائكة إخباراً على عرف الوحي، بل نداءً كما نادى الرجل الأنصاريُّ كعبَ بن مالك من أعلى الجبل[1].

وقوله تعالى: ﴿وهُوَ قائِمٌ﴾ جملة في موضع الحال، و ﴿يُصَلِّي﴾ صفة القائم، و ﴿المحراب﴾ في هذا الموضع موقفُ الإمام من المسجد.

وقرأ ابن عامر وحمزة: [إِنَّ الله] بكسر الألف، قال أبو علي: وهذا على إضمار القول، كأنه قال: ﴿فنادَتْهُ الملائِكَةُ﴾ فقالت، وهذا كقوله تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾[2] على قراءة من كسر الألف، وقال بعضُ النحاة: كُسِرَتْ بعد النداء والدعاء لأن النداء والدعاء أقوال. وقرأ الباقون بفتح الألف من قوله: ﴿أَنَّ الله يبشرك﴾ قال أبو علي: المعنى: فنادته بأنَّ الله، فلما حُذِفَ الجار منها وصل الفعل إليها فنصبها، فأَنَّ في موضع نصب، وعلى قياس قول الخليل في موضع جرّ. وفي قراءة عبد الله: [في المحرابِ يا زكرياءُ إِنَّ الله]، قال أبو علي: فقوله: [زكرياءُ] في موضع نصب بوقوع النداءِ عليه، ولا يجوز فتح الألف في «إنّ» على هذه القراءة لأن (نادته) قد استوفتْ مفعوليها، أحدهما الضمير والآخر المنادى، فإن فتحت «إن» لم يبقَ لها شيء متعلّق به، قال أبو علي: وكلهم قرأ: ﴿في المحرَاب﴾ بفتح الراء ـ إلا ابن عامر فإنه أمالها، وأطلق ابن مجاهد القول في إمالة ابن عامرٍ الألفَ من (محراب) ولم يخصَّ الجر من غيره، وقال غير ابن مجاهد: إنما نميله في الجرِّ فقط.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: [يُبَشِّرك] بضم الياء وفتح الباء والتشديد ـ في كل القرآن إلا في: ﴿عسق﴾ فإنهما قرآ [ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ][3] ـ بفتح الياء وسكون الباء وضم

(١) هو حمزة بن عمرو الأسلمي، جاء ينادي من أعلى الجبل لكي يؤدي البشارة إلى كعب بن مالك؛ أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن تبوك، بأن الله قد عفا عنهم.

(٢) من الآية (١٠) من سورة القمر.

(٣) من الآية (٢٣) من سورة الشورى.

الشين. وقرأ نافع وعاصم وابن عامر: [يُبَشِّرك] بشد الشين المكسورة في كل القرآن، وقرأ حمزة: [يبشُر] خفيفاً ـ بضم الشين ـ [مما لم يقع(١)] في كلِّ القرآن إلا قوله تعالى: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾(٢). وقرأ الكسائي: [يُبشر] مخففةً في خمسة مواضع: في آل عمران في قصة زكريا وقصة مريم، وفي سورة بني إسرائيل والكهف: [وَيَبْشُرُ المؤمنين] وفي ـ عسق ـ [يَبْشُرُ الله عبادَه].

قال غير واحد من اللغويين: في هذه اللفظة ثلاثُ لغات، بشَّر بشد الشين، وبَشَرَ بتخفيفها(٣)، وأبشر يُبشر إبشاراً، وهذه القراءات كلُّها متجهة فصيحةٌ مرويّة، وفي قراءة عبد الله بن مسعود: [يُبْشِرُكَ]، ـ بضم الياء وتخفيف الشين المكسورة ـ من «أبشر»، وهكذا قرأ في كلِّ القرآن.

ويحيى: اسم سماه الله به قبل أن يولد، قال أبو علي: وهو اسم بالعبرانية صادف هذا البناء، والمعنى من العربية. قال الزجاج: لا ينصرف لأنه إن كان أعجمياً ففيه التعريف والعجمة، وإن كان عربياً فالتعريف ووزن الفعل، وقال قتادة: سماه الله يحيى لأنه أحياه بالإيمان و﴿مُصدّقاً﴾ نصب على الحال، وهي مؤكّدة بحسب حال هؤلاء الأنبياء عليهم السلام.

وقوله تعالى: ﴿بِكَلِمةٍ منَ الله﴾، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن والسدي وغيرهم: الكلمة هنا يراد بها عيسى بن مريم. وسمى الله عيسى كلمة إذ صدر عن كلمة منه تعالى، لا بسبب إنسانٍ آخرَ كعُرْفِ البشر. وروى ابن عباس أن امرأة زكرياء قالت لمريم وهما حاملتان: إني أجد ما في بطني يتحرك لما في بطنك، وفي بعض الروايات: يسجد لما في بطنك(٤) قال: فذلك تصديقه، أي: أول التصديق. وقال بعض الناس: ﴿بكلمةٍ من الله﴾ معناه: بكتابٍ من الله، الإنجيل وغيره من كتب الله، فأوقع المفرد

(١) هكذا وردت هذه العبارة في جميع النسخ، ولعل صوابها «حيثما وقع».
(٢) من الآية (٥٤) من سورة الحجر.
(٣) من ذلك قول الشاعر:
بشَرتُ عيالي إذْ رأيتُ صحيفة ... أتتك من الحجاج يُتلى كتابها
(٤) روي أنها أحست جنينها يخر برأسه إلى ناحية بطن مريم.

موقع الجمع، فـ (كلمة): اسم جنس، وعلى هذا النظر سَمّتِ العربُ القصيدةَ الطويلة كلمة[١].

وقوله تعالى: ﴿وسَيِّداً﴾ قال فيه قتادة: أي والله، سيدٌ في الحلم والعبادة والورع، وقال مرة: معناه: في العلم والعبادة، وقال ابن جبير: ﴿وَسَيِّداً﴾ أي حليماً، وقال مرة: السيد: التقيّ، وقال الضحاك: ﴿وَسَيِّداً﴾ أي تقياً حليماً، وقال ابن زيد: السيد: الشريف، وقال ابن المسيب: السيد: الفقيه العالم، وقال ابن عباس: ﴿وَسَيِّداً﴾ يقول: تقياً حليماً، وقال عكرمة: السيد: الذي لا يغلبه الغضب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كلّ من فسر من هؤلاء العلماء المذكورين السؤدد بالحلم، فقد أحرز أكثرَ معنى السؤدد، ومن جَرَّدَ تفسيره بالعلم والتقى ونحوه فلم يفسّرْ بحسب كلام العرب، وقد تحصَّلَ العلم ليحيى عليه السلام بقوله عز وجل: ﴿مصدّقاً بكلمةٍ من الله﴾، وتحصَّل التقى بباقي الآية. وخصَّهُ الله بذكر السؤدد الذي هو الاعتمالُ في رضى الناس على أشرف الوجوه دون أن يقعَ في باطل ـ هذا اللفظُ يعمُّ السؤدد، وتفصيله أن يقالَ: بذلُ الندى وهذا هو الكرم، وكفُّ الأذى وهنا هي العفةُ بالفرج واليد واللسان، واحتمال العظائم وهنا هو الحلم وغيره من تحمّل الغرامات وجبر الكسير والإفضال على المسترفد والإنقاذ من الهلكات. وانظر أن النبي ﷺ قال: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر، يجمع الله الأولين والآخرين)، وذكر حديث الشفاعة[٢] في إطلاق الموقف، وذلك منه احتمال في رضى ولد آدم، فهو سيدهم بذلك. وقد يوجد من الثقات[٣] العلماء من لا يبرز في هذه الخصال، وقد يوجد من يبرز في هذه فيسمَّى سيداً وإن قصَّر في كثير من الواجبات، أعني واجباتِ الندب والمكافحة في الحقّ وقلة المبالاة باللائمة. وقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: ما رأيت أحداً أسودَ من معاوية بن أبي سفيان، قيل له:

---

(١) من ذلك ما جاء في الحديث: (أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل) (البحر المحيط ٢: ٤٤٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد، (الجامع الصغير ١: ٣٦٣) كما أخرجه الإمام أحمد والبزار وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه عن أبي بكر رضي الله عنه، (الترغيب والترهيب ٤: ٤٣٧)

(٣) في بعض النسخ من الأتقياء.

وأبو بكر وعمر؟ قال: هما خير من معاوية، ومعاوية أسود منهما. فهذه إشارة إلى أن معاوية برز في هذه الخصال ما لم يواقع محذوراً؛ وأنَّ أبا بكر وعمر كانا من الاستضلاع بالواجبات وتتبع ذلك من أنفسهما وإقامة الحقائق على الناس بحيث كانا خيراً من معاوية، ومع تتبع الحقائق، وحمل الناس على الجادة، وقلة المبالاة برضاهم، والوزن بقسطاس الشريعة تحريراً، ينخرم كثيرٌ من هذه الخصال التي هي السؤدد ويشغلُ الزمنُ عنها. والتقى والعلم والأخذ بالأشدِّ أوكدُ وأعلى من السؤدد، أَمَا إنه يحسنُ بالتقي العالم أن يأخذ من السؤدد بكلٍّ ما لا يخلّ بعلمه وتقاه، وهكذا كان يحيى عليه السلام، وليس هذا الذي يحسن بواجب ولا بد، كما ليس التتبعُ والتحريرُ في الشدّةِ بواجبٍ ولا بد، وهما طرفا خيرٍ قد حفتهما الشريعة، فمن صائرٍ إلى هذا ومن صائرٍ إلى هذا، ومثال ذلك: حاكمٌ صليبٌ معبّس فظ على من عنده أدنى عِوَج، لا يعتني في حوائج الناس، وآخر بَسْطُ الوجهِ بسَّامٌ يعتني فيما يجوز، ولا يتتبعُ فيما لم يُرْفَعْ إليه وينفّذ الحكمَ مع رفقٍ بالمحكوم عليه، فهما طريقان حسنان.

وقوله: ﴿وحَصُوراً﴾ أصل هذه اللفظة الحبس والمنع، ومنه الحصير لأنه يحصر من جلس عليه، ومنه سمى السجن حصيراً وجهنم حصيراً، ومنه حَصْرُ العدو وإحصارُ المرض والعذر، ومنه قيل: الذي لا ينفقُ مع نُدَمائه حصور، قال الأخطل[(١)]:

وشاربٍ مُربح بالكأس نادمني … لا بالحَصور ولا فيها بسوَّار[(٢)]

ويقال للذي يكتم السر حصور وحصِر، قال جرير:[(٣)]

ولقد تساقطني الوشاة فصادفوا … حَصِراً بسرِّك يا أُميمَ ضنينا[(٤)]

وأجمع من يعتدّ بقوله من المفسرين على أن هذه الصفة ليحيى عليه السلام إنما هي الامتناعُ من وطءِ النساء، إلا ما حكىٰ مكيّ من قول من قال: إنه الحصور عن الذنوب

(١) ديوان الأخطل: ١١٦.

(٢) المربح: الذي يربح صاحب الخمر أو الذي ينحر الربح لضيفانه، والرُّبَحُ: الفُصْلان، والحصور: البخيل الضيق، والسوّار: السيء الخلق الذي يساور عليها ويقاتل؛ ويروى بسآر وهو الذي يترك سؤراً أي بقية في القدح.

(٣) ديوان جرير: ٣٨٧ (تحقيق نعمان أمين طه).

(٤) في الديوان: تسقَّطني، والمعنى: طلبوا سقطه وعالجوه كي يبوح بسره، والحصر: الكتوم للسرّ الحابس له، الضنين: البخيل.

أي لا يأتيها. وروى ابن المسيب عن ابن العاصي ـ إما عبد الله وإما أبوه ـ عن النبي ﷺ، أنه قال: (كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكرياء) قال: ثم دلى رسول الله ﷺ بيده إلى الأرض فأخذ عويداً صغيراً، ثم قال: (وذلك أنه لم يكن له ما للرجال إلا مثل هذا العود، ولذلك سماه الله سيداً وحصوراً)[1]. وقال ابن مسعود: الحصور: العنّين، وقال مجاهد وقتادة: الحصور: الذي لا يأتي النساء، وقال ابن عباس والضحاك: الحصور: الذي لا ينزل الماء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ذهب بعض العلماء إلى أن حصر يحيى عليه السلام كان لأنه لم يكن له إلا مثل الهدبة، وذهب بعضهم إلى أن حَصرَه كان لأنه كان عنيناً لا يأتي النساء وإن كانت خلقته غير ناقصة، وذهب بعضهم إلى أن حصره كان بأنه كان يمسك نفسه تقىً وجلداً في طاعة الله، وكانت به القدرة على جماع النساء. قالوا: وهذا أمدح له وليس له في التأويلين الأولين مدح، إلا بأن الله يسر له شيئاً لا تكسب له فيه، وباقي الآية بين، وروي من صلاحه عليه السلام أنه كان يعيش من العشب، وأنه كان كثير البكاء من خشية الله حتى خدد الدمع في وجهه طرقاً وأخاديد.

قوله عز وجل:

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

اختلف المفسرون، لم قال زكرياء ﴿ربِّ أنىَّ يكونُ لي غلامٌ﴾؟ فقال عكرمة والسدي: إنه لما نودي بهذه البشارة، جاء الشيطان يكدِّرُ عليه نعمةَ ربه، فقال: هل تدري من ناداك؟ قال: نادتني ملائكة ربي، قال: بل ذلك الشيطان، ولو كان هذا من عند ربك لأخفاه لك كما أخفيت نداءك، قال: فخالطتْ قلبَهُ وسوسةٌ وشكٌّ مكانه، فقال: ﴿أَنّى يكونُ لي غُلامٌ﴾.

وذهب الطبري وغيره إلى أن زكرياء لما رأى حال نفسه وحال امرأته وأنها ليست

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن المنذر وابن جرير في تفسيرهما، ورواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة (مجمع الزوائد ٨: ٢٠٩)، وانظر أيضاً «زاد المسير» ١: ٣٨٣.

بحالِ نسل؛ سأل عن الوجه الذي به يكون الغلام ، أتبدّل المرأةُ خلقتَها أم كيف يكون؟ وهذا تأويل حسن لائق بزكرياء عليه السلام. قال مكي: وقيل إنما سأل لأنه نسي دعاءه لطول المدة بين الدعاء والبشارة، وذلك أربعون سنة ، وهذا قول ضعيف المعنى(١).

و ﴿أنىَّ﴾ معناه: كيف؟ ومن أين؟. وقوله: ﴿بَلَغَني الكِبَرُ﴾ استعارةٌ، كأن الزمان طريقٌ والحوادثُ تتساوق فيه، فإذا التقى حادثان؛ فكأنّ كلَّ واحدٍ منهما قد بلغ صاحبه، وحقيقة البلوغ في الأَجرام أَن ينتقل البالغ إلى المبلوغ إليه. وَحَسُنَ في الآية ﴿بَلَغني الكِبَرُ﴾ من حيث هي عبارةُ واهنٍ منفعل ، و«بلغتُ» عبارة فاعلٍ مستعلٍ ، فتأمّله. ولا يعترض على هذا بقوله: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾(٢) لأنه قد أفصح بضعف حاله في ذكر العتيّ.

والعاقر: الإنسان الذي لا يلد ، يقال ذلك للمرأة والرجل. قال عامر بن الطفيل(٣):

لبئس الفتى إن كنتُ أعورَ عاقراً ... جباناً فما عذري لدى كلِّ محضر(٤)

وعاقر: بناء فاعل وهو على النسب وليس بجار على الفعل.

والإشارة بـ «ذلك» في قوله تعالى: ﴿كذلك الله﴾ يحتمل أن تكونَ إلى هذه الغريبة التي بُشِّر بها، أي كهذه القدرة المستغربة هي قدرة الله، ففي الكلام حذف مضاف، والكلامُ تامٌّ في قوله: ﴿كذلِكَ الله﴾ ، وقوله: ﴿يَفْعَلُ ما يشاءُ﴾ شرحٌ للإبهام الذي في ذلك. ويحتمل أن تكون الإشارة بـ ذلك إلى حال زكرياء وحال امرأته كأنه قال: ربِّ على أيّ وجهٍ يكون لنا غلام ونحن بحال كذا؟ فقال له: «كما أنتما يكون لكما الغلام» ، والكلام تام على هذا التأويل في قوله: ﴿كذلك﴾، وقوله: ﴿اللهُ يَفْعَلُ ما يشاءُ﴾ جملة مبنية مقررة في النفس وقوعَ هذا الأمر المستغرب.

---

(١) زاد أبو حيان على هذه الإجابات الثلاث أموراً أخرى لبيان سبب سؤال زكريا منها:
أ ـ أن هذا على سبيل الاستعظام لقدرة الله تعالى، فقد قاله من شدة الفرح والدهشة من حصول أَمر مستبعد عادة.
ب ـ أنه سأل: أيرزق الولد من امرأته العاقر أم من غيرها؟
جـ ـ يستعلم: أيكون الولد من صلبه أم يكون من بنيه ، أي حفيداً؟

(٢) من الآية (٨) من سورة مريم.

(٣) ديوان عامر: ٦٤ (ط. صادر ، بيروت).

(٤) في الأصل: لدي كل مشهد ، وهو خطأ ، لأن البيت من قصيدة له رائية.

قوله عز وجل:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾.

الآية: العلامة. وقال الربيع والسدي وغيرهما: إن زكرياء قال: رب إن كان ذلك الكلام من قِبَلك والبشارةُ حقٌّ، فاجعل لي علامة أعرف صحةَ ذلك بها، فعوقب على هذا الشكّ في أمر الله بأن منع من الكلام ثلاثة أيامٍ مع الناس. وقالت فرقة من المفسرين: لم يشك قط زكرياء، وإنما سأل عن الجهة التي بها يكونُ الولد وتتمُّ البشارة، فلما قيل له: ﴿كذلِكَ الله يفْعلُ ما يشاءُ﴾ سأل علامةً على وقتِ الحمل ليعرفَ متى يحمل بيحيى.

واختلف المفسرون، هل كان منعه الكلام لآفة نزلت به أم كان ذلك لغير آفة؟ فقال جبير بن نفير[(١)]: ربا لسانه في فيه حتى ملأه ثم أطلقه الله بعد ثلاثٍ. وقال الربيع وغيره: عوقب لأن الملائكة شافهته بالبشارة فسأل بعد ذلك علامةً فأخذ الله عليه لسانه، فجعل لا يقدر على الكلام. وقال قوم من المفسرين: لم تكن آفةً، ولكنه مُنِعَ محاورةَ الناسِ فلم يقدر عليها، وكان يقدر على ذكر الله، قاله الطبري، وذكر نحوه عن محمد بن كعب.

ثم استثنى الرمز، وهو استثناءٌ منقطع[(٢)]. وذهب الفقهاءُ في الإشارة ونحوها إلى أنها في حكم الكلام في الأَيمانِ ونحوها، فعلى هذا يجيء الاستثناء متصلاً، والكلام

(١) هو جبير بن نفير، ولد في حياة النبي ﷺ وحدَّث عن أبي بكر، وعمر، وأَبي ذرٍّ وجماعة، وعنه حدَّث ابنه عبد الرحمن، ومكحول، وغيرهما، من أجلّة العلماءِ، حديثه في الكتب كلها سوى صحيح البخاري، من كبار التابعين، ولأبيه صحبة، توفي سنة: ٨٠هـ («تذكرة الحفاظ» ١/ ٥٢ و«الإصابة» ١/ ٢٥٨).

(٢) إنما كان استثناء منقطعاً لأَن الرمز لا يدخل تحت التكليم، ومن أطلق الكلام في اللغة على الإشارة الدالة على ما نفس المشير جعله استثناء متصلاً، ولذلك أنشد النحويون:

أرادت كلاماً فاتقت من رقيبها ... فلم يك إلا وَمْؤُها بالحواجب

وأنشدوا أيضاً:

إذا كلمتني بالعيون الفواتر ... رددتُ عليها بالدموع البوادر

المراد بالآية إنما هو النطق باللسان لا الإعلام بما في النفس، فحقيقة هذا الاستثناء أنه منقطع.

وقرأ جمهور الناس: ﴿رَمْزاً﴾ ـ بفتح الراء وسكون الميم ـ وقرأ علقمة بن قيس: [رُمُزاً] بضمِّهما، وقرأ الأعمش: [رَمَزاً] بفتْحهما. والرمز في اللغة: حركة تُعْلِمُ بما في نفسِ الرامز، بأيّ شيء كانت الحركة؛ من عينٍ أو حاجب أو شفة أو يد أو عودٍ أو غير ذلك. وقد قيل للكلام المحرَّفِ عن ظاهره: رموز، لأنها علاماتٌ بغير اللفظ الموضوع للمعنى المقصودِ الإعلام به. وقد يقال للتصويت الدال على معنى: رمز، ومنه قول جؤية بن عائذ[1]:

وكان تكلُّم الأبطال رمزاً ... وغمغمة لهم مثل الهدير[2]

وأما المفسرون فخصص كل واحد منهم نوعاً من الرمز في تفسيره هذه الآية، فقال مجاهد: ﴿إلاَّ رَمزاً﴾، معناه: إلا تحريكاً بالشفتين، وقال الضحاك: معناه: إلا إشارة باليد والرأس، وبه قال السدي وعبد الله بن كثير، وقال الحسن: أمسك لسانه فجعل يشير بيده إلى قومه، وقال قتادة: ﴿إلاَّ رمزاً﴾ معناه: إلا إيماء.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَلاَّ تُكَلِّمَ الناسَ﴾ بنصب الفعل بأن، وقرأ ابن أبي عبلة: [أَلا تكلِّمُ] برفع الميم، وهذا على أن تكون «أن» مخففة من الثقيلة ويكون فيها ضمير الأمر والشأن، والتقدير: آيتك أنه لا تكلم الناس. والقول بأن هذه الآية نسخها قول النبي عليه السلام: (لا صمت يوماً إلى الليل)[3] قول ظاهر الفساد من جهات.

وأمره تعالى بالذكر لربه كثيراً لأنه لم يحل بينه وبين ذكر الله، وهذا قاض بأنه لم

---

(١) جؤية بن عائذ، وقيل: ابن عاتك النضري، ويقال: الأسدي الكوفي النحوي، قدم على معاوية فسأله: ما القرابة؟ قال: المودة، قال: فما السرور؟ قال: المؤاتاة، قال: فما الراحة؟ قال: الجنة، قال: صدقت (بغية الوعاة: ٢١٤).

(٢) الرمز: تصويت خفي باللسان، وقيل إشارة بالعينين أو الحاجبين، والغمغمة: الكلام الذي لا يبين، والهدير: تردد صوت البعير في حنجرته.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن عن علي رضي الله عنه قال: حفظت عن رسول الله ﷺ: (لا يُتم بعد احتلام، ولا صُمات يوم إلى الليل). «الجامع الصغير» ٢/٦٥٠. و«الأذكار» للنووي. والصُمات بالضم: السكوت، وفي الحديث: النهي عما كان من أفعال الجاهلية وهو الصمت عن الكلام في الاعتكاف وغيره.

تدركه آفةٌ ولا علةٌ في لسانه، وقال محمد بن كعب القرظي: لو كان الله رخص لأحد في ترك الذكر؛ لرخص لزكرياء عليه السلام حيث قال: ﴿آيتك أَلاَّ تُكَلِّمَ الناسَ ثلاثةَ أيامٍ إلاَّ رَمْزاً﴾ لكنه قال له: ﴿واذْكُرْ ربَّك كثيراً﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ﴾ معناه: قل: سبحان الله، وقال قوم معناه: صلّ، والقول الأول أصوب لأنه يناسب الذكر ويستغرب مع امتناع الكلام مع الناس. والعشي في اللغة: من زوال الشمس إلى مغيبها، ومنه قول القاسم بن محمد: ما أدركت الناس إلا وهم يصلون الظهر بعشي(١)، والعشي من حين يفيء الفيء، ومنه قول حميد بن ثور(٢):

فلا الظلَّ من بردِ الضحى تستطيعه ... ولا الفيءَ من بردِ العشيِّ تذوق

والعشي: اسم مفرد عند بعضهم، وجمع عشية عند بعضهم كسفينة وسفين، و ﴿الإبكار﴾ مصدر أبكر الرجل، إذا بادر أمره من لدن طلوع الشمس، وتتمادى البكرة شيئاً بعد طلوع الشمس، يقال: أبكر الرجل وبكَّر، فمن الأول قول ابن أبي ربيعة(٣):

أَمِنْ آلِ نعمى أنتَ غادٍ فمُبكر ... .

ومن الثاني قول جرير:

ألا بَكَرَتْ سلمى فجد بكورها ... وشقَّ العصا بعد اجتماع أميرُها(٤)

وقال مجاهد في تفسير الإبكار: أول الفجر، والعشي: ميل الشمس حتى تغيب.

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في باب «وقوت الصلاة».

(٢) هو حميد بن ثور الهلالي أبو المثنى، شاعر مخضرم وفد على النبي وأنشده قصيدته التي أولها:

أصبح قلبي من سليمى مقصداً ... .

روى عن عمر، وكان شاعراً مغلباً، وعاش إلى خلافة عثمان، (انظر الشعر والشعراء: ٣٠٦، والأغاني ٤: ٩٧، ومعجم الأدباء ٤: ١٥٣، والسمط: ٣٧٦، وابن عساكر ٤: ٤٥٦، وكتب الصحابة).

(٣) يعني عمر بن أبي ربيعة المخزومي الشاعر المشهور، (ترجمته في الأغاني ١: ٢٨ والخزانة ١: ٢٣٨، والشعر والشعراء: ٤٥٧)؛ وتتمة بيته:

. . . . غداة غدٍ أم رائح فمهجّر؟

(٤) البيت مطلع قصيدة لجرير يهجو بها غسان بن ذهل مناقضاً (ديوانه: ٨٩٠) وشق العصا: كناية عن الفرقة. ومنه قول الشاعر:

بكرت تلومك بعد وهْن في الندى ... بسْل عليك ملامتي وعتابي

قوله عز وجل:

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

قال الطبري: العامل في ﴿إذْ﴾ قوله: ﴿سَميعٌ﴾، فهو عطف على قوله: ﴿إذْ قالتِ امْرأةُ عِمرانَ﴾، وقال كثير من النحاة: العامل في ﴿إذ﴾ في هذه الآية فعل مضمر تقديره: «واذكر»، وهذا هو الراجح لأن هذه الآيات كلها إنما هي إخبارات بغيب تدل على نبوة محمد ﷺ، مقصد ذكرها هو الأظهر في حفظ رونق الكلام.

وقرأ عبد الله بن عمر وابن مسعود: [وإذْ قالَ الملائِكَةُ].

واختلف المفسرون ـ هل المراد هنا بالملائكة جبريل وحده، أو جمع من الملائكة؟ وقد تقدم القول على معنى مثلها في قوله تعالى: ﴿فنادَتْهُ الملائِكَةُ﴾.

و﴿اصْطَفاكِ﴾: مأخوذ من صفا يصفو وزنه «افتعل»، وبدلت طاء لتناسب الصاد. فالمعنى: تخيَّركِ لطاعته.

وقوله تعالى: ﴿وَطهَّركِ﴾ معناه: من كل ما يصم النساءَ في خلْق أو خُلُق أو دين، قاله مجاهد وغيره. وقال الزجاج: قد جاء في التفسير أن معناه: من الحيض والنفاس؛ وهذا يحتاج إلى سند قوي، وما أحفظه.

وقوله تعالى: ﴿واصْطَفَاكِ على نِساءِ العالَمينَ﴾ إن جعلنا ﴿العالَمين﴾ عاماً فيمن تقدم وتأخر جعلنا الاصطفاء مخصوصاً في أمر عيسى عليه السلام وأَنها اصطفيت لتلد من غير فحل، وإن جعلنا الاصطفاء عاماً جعلنا قوله: ﴿العالَمين﴾ مخصوصاً في عالم ذلك الزمان، قاله ابن جريج وغيره، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (خير نساء الجنة مريم بنت عمران، خير نساء الجنة خديجة بنت خويلد)، وروي عنه أنه قال: (خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد)(١) فذهب الطبري وغيره إلى أن الضمير في قوله: (خير نسائها) يراد به الجنة، وذهب قوم إلى أنه يراد به الدنيا، أي كل امرأة في زمانها، وقال النبي ﷺ (خير نساء ركبن الإبل صالح نساء

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم، وكذا الترمذي عن علي. (الجامع الصغير ١: ٥٥٣).

قريش، أحناه على ولد في صغره ، وأرعاه على زوج في ذات يده)[١]. قال أبو هريرة راوي الحديث: ولم تركب مريم بنت عمران بعيراً قط، وهذه الزيادة فيها غيب، فلا يتأول أن أبا هريرة رضي الله عنه قالها إلا عن سماع من النبي ﷺ. وروى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد)[٢]. وقد أسند الطبري أن النبي عليه السلام قال لفاطمة بنته: (أنت سيدة نساء أهل الجنة ، إلا مريم بنت عمران البتول)[٣] وأنه قال: (فضلت خديجة على نساء أمتي ، كما فضلت مريم على نساء العالمين)[٤].

وإذا تأملت هذه الأحاديث وغيرها مما هو في معناها، وجدت مريم فيها متقدمة، فسائغ أن يتأول عموم الاصطفاء على العالمين عموماً أيضاً. وقد قال بعض الناس: إن مريم نبية[٥]، قال ابن إسحق: كانت الملائكة تقبل على مريم فتقول: ﴿يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصطَفاكِ﴾ الآية، فيسمع ذلك زكرياء فيقول: إن لمريم لشأناً، فمن مخاطبة الملائكة لها جعلها هذا القائل نبية، وجمهورالناس على أنه لم تنبأ امرأة. و﴿اقْنُتي﴾ معناه: اعبدي وأطيعي، قاله قتادة والحسن، وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: (كل قنوت في القرآن فهو بمعنى طاعة الله)[٦] ويحتمل أن يكون معناه: أطيلي القيام في الصلاة، وهذا هو قول الجمهور ، وهو المناسب في المعنى لقوله: ﴿واسْجُدي وارْكَعي﴾ وبه قال مجاهد، وابن جريج، والربيع، وروى مجاهد أنها لما خوطبت بهذا قامت حتى ورمت قدماها[٧]. وروى الأوزاعي أنها قامت حتى سال الدمُ والقيح من قدميها. وروي أن الطير كانت تنزل على رأسها، تظنها جماداً لسكونها في طول قيامها.

---

(١) أخرجه الشيخان ، والإمام أحمد عن أبي هريرة. «الجامع الصغير» ١ : ٥٥٣ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد، والطبراني، عن أنس. «الجامع الصغير» ١ : ٥٥٣ .

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ٣/ ٢٦٤ .

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٣/ ٢٦٤ .

(٥) القول بنبوة مريم شهير ، وقد مال الشيخ تقي الدين السبكي في الحلبيات ، وابن السيد إلى ترجيحه ، وذكر أن ذكرها مع الأنبياءِ في سورتهم قرينة قوية لذلك. تفسير روح المعاني ٣/ ١٥٤ .

(٦) أخرجه الإمام أحمد، وأبو يعلى في مسنده، وابن حبان، وابن أبي حاتم، ابن جرير عن أبي سعيد الخدري بلفظ: (كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة). «الجامع الصغير» ٢/ ٢٣٥ . وابن كثير .

(٧) أخرجه ابن جرير في تفسيره. ٣/ ٢٦٥ .

وقد قال سعيد بن جبير: ﴿اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ معناه: أَخلصي لربك.

واختلف المتأولون: لم قدم السجود على الركوع؟ فقال قوم: كان ذلك في شرع زكرياء وغيره منهم، وقال قوم: الواو لا تعطي رتبة، وإنما المعنى: افعلي هذا وهذا، وقد علم تقديم الركوع. وهذه الآية أكثر إشكالاً من قولنا: «قام زيد وعمرو» لأن قيام زيد وعمرو ليس له رتبة معلومة، وهذه الآية قد علم أن السجود بعد الركوع، فكيف جاءت الواو بعكس ذلك[1]؟ فالقول عندي في ذلك أن مريم أُمِرَتْ بفصلين ومعلمين من معالم الصلاة، وهما طول القيام والسجود، وخُصَّا بالذكر لشرفهما في أركان الصلاة، إذ العبدُ يقرب في وقت سجوده من الله تعالى، وهذان يختصان بصلاتها مفردة، وإلا فمن يصلي وراء إمام فليس يقال له: أطل قيامك، ثم أمرت ـ بعدُ ـ بالصلاة في الجماعة، فقيل لها: ﴿وارْكَعي معَ الرَّاكِعينَ﴾، وقصد هنا معلم من معالم الصلاة، لئلا يتكرر لفظ، ولم يرد بالآية السجود والركوع الذي هو منتظم في ركعة واحدة، والله أعلم.

قوله عز وجل:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

هذه المخاطبة لمحمد عليه السلام، والإشارة بذلك إلى ما تقدم ذكره من القصص. والأنباء: الأخبار، و﴿الغيب﴾: ما غاب عن مدارك الإنسان. و﴿نُوحيه﴾ معناه: نلقيه في نفسك في خفاء. وحدّ الوحي إلقاء المعنى في النفس في خفاء، ثم تختلف أنواعه، فمنه بالملَك، ومنه بالإلهام، ومنه بالإشارة، ومنه بالكتاب، كما قال كعب بن زهير[2]:

---

(١) ذكر أبو حيان هذا الكلام عن ابن عطية، ثم قال: «وهذا كلام من لم يمعن النظر في كتاب سيبويه، فإن سيبويه ذكر أن الواو يكون معها في العطف المعيّة، وتقديم السابق وتقديم اللاحق يحتمل ذلك احتمالات سواء، فلا يترجح أحد الاحتمالات على الآخر، ولا التفات لقول بعض المتأخرين في ترجيح المعية على تقديم السابق». البحر المحيط ٢/٤٥٧.

(٢) ديوان كعب: ٦٤ (ط. دار الكتب)، يفتخر بأبيه وذيوع قصائده، والوحي هنا: الكتابة.

أتـى العُجْـمَ والآفـاقَ منـه قصـائـدٌ بقين بقاء الوحي في الحجرِ الأصمْ

تقول العرب: أوحى، وتقول: وحَى. وفي هذه الآية بيان لنبوة محمد عليه السلام، إذ جاءهم بغيوبٍ لا يعلمها إلا مَن شاهدها وهو لم يكن لديهم، أو مَن قرأها في كتب أهل الكتاب ، ومحمد عليه السلام أمي من قوم أميين، أو مَن أعلمه الله بها وهو ذاك ﷺ. و﴿لَدَيهم﴾ معناه: عندهم ومعهم ، وقد تقدم القول في الأقلام والكفل. وجمهور العلماء على أنه استهام لأخذها والمنافسة فيها. وقال ابن إسحق: إنما كان استهامهم حين نالتهم المجاعة دفعاً منهم لتحمل مئونتها.

﴿يَختَصِمونَ﴾ معناه: يتراجعون القول الجهير في أمرها، وفي هذه الآية استعمال القرعة، والقرعة سنة، وكان النبي ﷺ إذا سافر أقرع بين نسائه(١) ، وقال عليه السلام: (لو يعلمون ما في الصفِّ الأول لاستهموا عليه)(٢) . وجمهور الأمة على تجويز القرعة إلا من شذَّ فظن أنها قمار، وهذا كله فيما يصلح التراضي بكونه دون قرعة، فكأن القرعةَ محسنة لذلك الاختصاص. وأما حيث لا يجوز التراضي كعتق العبيد في ثلث الميت فجَّوزها الجمهور ومنعها أبو حنيفة. وفي الحديث أن النبي ﷺ أقرع بين ستة أعبد، فأعتق اثنين وأرق أربعة(٣) .

وقوله تعالى: ﴿أيُّهمْ يكفُلُ مريمَ﴾ ابتداء وخبر في موضع نصب بالفعل الذي تقديره: ينظرون ﴿أيُّهمْ يكفُلُ مريمَ﴾، والعامل في قوله: ﴿إذْ قالَتِ الملائِكَةُ﴾ فعل مضمر تقديره: اذكر ﴿إذْ قَالَتِ الملائكة﴾ ، وهكذا يطّردُ وصفُ الآية وتتوالى الإعلاماتُ بهذه الغيوب. وقال الزجاج: العامل فيها: ﴿يختَصِمونَ﴾، ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿وما كُنْتَ لدَيْهم﴾، وهذا كله يردّه المعنى، لأن الاختصام لم يكن عند قول الملائكة.

وقرأ ابن مسعود وعبد الله بن عمر: [إذْ قالَ الملائِكَةُ]. واختلف المتأولون؛ هل الملائكة هنا عبارة عن جبريل وحده أو عن جماعة من الملائكة؟ وقد تقدم معنى ذلك

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه ـ عن عائشة رضي الله عنها، (الجامع الصغير ٢/ ٢٦٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والنسائي ـ عن أبي هريرة. (الجامع الصغير ٢/ ٣٧٩).

(٣) أخرجه مسلم ، والنسائي ، وأبو داود ـ عن عمران بن حصين. (سبل السلام ٤/ ١٤٣).

كله في قوله آنفاً: ﴿فنادته الملائكة﴾ فتأمله، وتقدم ذكر القراءات في قوله: ﴿يبشّرك﴾.

واختلف المفسرون، لم عبر عن عيسى عليه السلام بـ ﴿كَلِمَة﴾ فقال قتادة: جعله الله ﴿كَلِمَة﴾ إذ هو موجود بكلمة وهي قوله تعالى لمراداته: «كن»، وهذا كما تقول في شيء حادث: هذا قدرالله، أي هو عن قدر الله، وكذلك تقول: هذا أمر الله. وترجم الطبري فقال: وقال آخرون: بل الكلمة اسم لعيسى سماه الله بها كما سمَّى سائر خلقه بما شاء من الأسماء، فمقتضى هذه الترجمة أَن الكلمة اسمٌ مرتجلٌ لعيسى، ثم أدخل الطبري تحت الترجمة عن ابن عباس أَنه قال: الكلمة هي عيسى، وقول ابن عباس محتملٌ أن يفسَّر بما قال قتادة وبغير ذلك مما سنذكره الآن، وليس فيه شيء مما ادعى الطبري رحمه الله. وقال قوم من أهل العلم: سماه الله كلمة من حيث كان تقدم ذكره في توراة موسى وغيرها من كتب الله وأَنه سيكون، فهذه كلمة سبقت فيه من الله، فمعنى الآية: أنت يا مريم مبشّرة بأنكِ المخصوصةُ بولادة الإنسان الذي قد تكلم الله بأمره، وأخبر به في ماضي كتبه المنزلة على أنبيائه. و﴿اسْمُهُ﴾ في هذا الموضع، معناه: تسميته، وجاء الضمير مذكراً من أجل المعنى، إذ الكلمةُ عبارة عن ولد.

واختلف الناس في اشتقاق لفظة ﴿المسيح﴾(١)، فقال قوم: هو من ساح يسيح في الأرض إذا ذهب ومشى في أقطارها، فوزنه «مفعل». وقال جمهور الناس: هو من «مسح» فوزنه «فعيل». واختلفوا ـ بعد ـ في صورة اشتقاقه من «مسح»؛ فقال قوم من العلماء: سمي بذلك من مساحة الأرض لأنه مشاها فكأنه مسحها، وقال آخرون: سمي بذلك لأنه ما مسح بيده على ذي علّة إلا برىءَ، فهو على هذين القولين؛ «فعيل» بمعنى «فاعل». وقال ابن جبير: سمي بذلك لأنه مُسح بالبركة، وقال آخرون: سمي بذلك لأنه مُسِحَ بدهن القدس، فهو على هذين القولين «فعيل» بمعنى «مفعول»، وكذلك هو في قول من قال: مسحه الله فطهره من الذنوب. قال إبراهيم النَّخَعي: المسيح: الصدّيق، وقال ابن جبير عن ابن عباس: المسيح: الملك، وسمي بذلك لأنه ملك إحياء الموتى وغيرَ ذلك من الآيات، وهذا قول ضعيف لا يصحُّ عن ابن عباس.

---

(١) قارن ما جاء هنا، بما جاء في «زاد المسير» ١: ٣٨٩.

وقوله تعالى: ﴿عيسى﴾ يحتمل من الإعراب ثلاثة أوجه: البدل من المسيح، وعطف البيان، وأن يكون خبراً بعد خبر، ومنع بعض النحاة أن يكون خبراً بعد خبر وقال: كان يلزم أن يكون أسماهُ على المعنى أو أسماها على اللفظ للكلمة، ويتجه أن يكون ﴿عيسى﴾ خبر ابتداء مضمر، تقديره: هو عيسى بن مريم، ويدعو إلى هذا كون قوله: ﴿ابن مَرْيَم﴾ صفة لعيسى إذ قد أجمع الناس على كتبه دون ألف، وأما على البدل أو عطف البيان فلا يجوز أن يكون ابن مريم صفةً لعيسى لأن الاسم هنا لم يرد به الشخص، هذه النزعة لأبي علي، وفي صدر الكلام نظر(١).

و﴿وجيهاً﴾ نُصِبَ على الحال، وهو من الوجه، أي: له وجه ومنزلة عند الله. والمعنى في الوجيه أنه حيثما أقبل بوجهه عظم وروعي أمره، وتقول العرب: فلان له وجهٌ في الناس وله جاه، وهذا على قلب في اللفظة، يقولون: جاهني يجوهني بكذا أي واجهني به، وجاه عيسى عليه السلام في الدنيا نبوته وذكره، ورفعه في الآخرة مكانته ونعيمه وشفاعته. و ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِين﴾ معناه: من الله تعالى.

قوله عز وجل:

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ﴾ نائب عن حال تقديرها: «ومكلماً»، وذلك معطوف على قوله: ﴿وجيهاً﴾، وجاز عطف الفعل المسقبل على اسم الفاعل لما بينهما من المضارعة، كما

---

(١) قال الزمخشري، ونقله عنه أبو حيان في البحر المحيط ٢/ ٤٦٠: «فإن قلت: لم قيل: اسمه المسيح عيسى بن مريم، وهذه ثلاثة أشياءَ؛ الاسم منها (عيسى)، وأما المسيح والابن فلقب وصفة؟ قلت: الاسم للمسمى علامة يعرف بها ويتميز عن غيره، فكأنه قيل: الذي يعرف به ويتميز ممن سواه مجموع هذه الثلاثة»، ثم قال أبو حيان تعقيباً على ذلك: «ويظهر من كلامه أن اسمه مجموع هذه الثلاثة فتكون الثلاثة أخباراً عن قوله: (اسمه) فيكون من باب: هذا حلو حامض، وهذا أعسر أيسر، فلا يكون أحدهما على هذا مستقلاً بالخبرية، وتنظيره في كون الشيئين أو الأشياء في حكم شيءٍ واحد قول الشاعر:

كيفَ أصبحتَ؟ كيفَ أمسيتَ؟ ... مِمَّا يزرَعُ الودَّ في فؤاد الكريم؟

أي: مجموع هذا مما يزرع الود، فلما جاز في المبتدأ أن يتعدد دون حرف عطف إذا كان المعنى على المجموع، كذلك يجوز في الخبر».

جاز عطف اسم الفاعل على الفعل المستقبل في قول الشاعر:

باتُ أُعشيها بعضبٍ باتر يقصد في أسؤقها وجائر[1]

وقوله: ﴿في المَهْدِ﴾ حال من الضمير في ﴿يُكَلِّم﴾، و﴿كَهْلاً﴾ حال معطوفة على قوله: ﴿في المَهْدِ﴾، وقوله: ﴿مِنَ الصَّالحين﴾ حال معطوفة على قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ﴾.

وهذه الآية إخبار من الله تعالى لمريم؛ بأن ابنها يتكلم في مهده مع الناس آية دالة على براءة أمه مما عسى أن يقذفها به متعسف ظان. والمهد: موضع اضطجاع الصبي وقت تربيته. وأخبر تعالى عنه أنه أيضاً يكلم الناس كهلاً، وفائدة ذلك ـ إذ كلامُ الكهل عُرِفَ ـ أنه إخبارٌ لها بحياته إلى سنِّ الكهولة، هذا قول الربيع وجماعة من المفسرين. وقال ابن زيد: فائدة قوله: ﴿وكهلاً﴾ الإخبار بنزوله عند قتله الدجال كهلاً. وقال جمهور الناس: الكهل: الذي بلغ سن الكهولة. وقال مجاهد: الكهل: الحليم، وهذا تفسير الكهولة بعرض مصاحب لها في الأغلب. واختلف الناس في حدِّ الكهولة، فقيل: الكهل: ابن أربعين سنة، وقيل: ابن خمس وثلاثين، وقيل: ابن ثلاث وثلاثين، وقيل: ابن اثنتين وثلاثين، وهذا حدّ أولها، وأَما آخرها فاثنتان وخمسون، ثم يدخل سن الشيخوخة.

وقول مريم: ﴿ربِّ أنىَّ يكونُ لي وَلَدٌ﴾ استفهام عن جهة حملها، واستغرابٌ للحمل على حال بكارتها. و﴿يَمْسَسْني﴾ معناه: يطأ ويجامع، والمسيس: الجماع، ومريم لم تنفِ مسيسَ الأيدي، والإشارة بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكِ﴾ يحتمل أن تكون إلى هذه القدرة التي تتضمنها البشارة بالكلمة، ويحتمل أن تكون إلى حال مريم وبكارتها، وقد تقدم شرح هذين التأويلين في أمر زكرياء عليه السلام، وجاءت العبارة في أمر زكرياء ﴿يفْعَلُ﴾ وجاءت هنا ﴿يخْلُقُ﴾ من حيث أمر زكرياء داخل في الإمكان الذي

---

(١) البيت أورده الفراء، والزجاج، وأبو علي، ولم ينسبه أحد منهم إلى قائله. بات من أَخوات كان. ويعَشِّيها: أَي يطعمها العشاء، وفي بعض الروايات: (يغشيها)، بالغين المعجمة، أَي يشملها ويضمها. وضمير المؤَنث للإبل. ورُوي أَيضاً: (بات يعشيها). والعضب: السيف. وباتر: صفة أُولى لعضب، ومعناه: قاطع. ويقصد: يتوسط. وأَسؤُق: جمع ساق وهو ما بين الركبة والقدم. وجائر: من جار في حكمه إذا ظلم، أَي يقصد في أَسواق إِبل تستحق العقر كالنيب، ويجور في أَسواق إِبل لا تستحق العقر كالحوامل وذات الفصال. «خزانة الأَدب ٢: ٩٤٥».

يُتعارف وإن قلَّ، وقصة مريم لا تتعارف البتة، فلفظ الخلق أقرب إلى الاختراع وأدلُّ عليه. وروي أن عيسى عليه السلام ولد لثمانية أشهر فلذلك لا يعيش من يولد من غيره لمثل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إذا قَضى﴾ معناه إذا أراد إيجاده، والأمر: واحد الأمور، وهو مصدرٌ سمي به، والضمير في ﴿له﴾ عائد على الأمر، والقول على جهة المخاطبة، قال مكي وقيل: المعنى يقول لأجله، وهذا ينحو إلى ما نورده عن أبي علي بعد.

وقرا جمهور السبعة: ﴿فيكونُ﴾ بالرفع، وقرأ ابن عامر وحده: [فيكونَ] بالنصب، فوجه الرفع، العطف على ﴿يَقُولُ﴾ أو تقدير: فهو يكون. وأما قراءة ابن عامر فغير متجهة لأن الأمر المتقدم خطابٌ للمقضي وقوله: [فيكونَ] خطاب للمخبر، فليس كقوله: قم فأحسن إليك، لكن وجهها أنه راعى الشبه اللفظي في أن يقدم في الكلام لفظ أمركما قال أبو الحسن الأخفش في نحو قوله تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (١) إنه مجرى جوابِ الأمر وإن لم يكن له جواباً في الحقيقة، فكذلك على قراءة ابن عامر يكون قوله: [فيكونَ] بمنزلة جواب الأمر وإن لم يكن جواباً. وذهب أبو علي في هذه المسألة إلى أن القول فيها ليس بالمخاطبة المحضة، وإنما هو قول مجازي كما قال:

امتـــلأَ الحَـــوْضُ وقـــالَ قطْنـــي(٢) . . . .

وغير ذلك، قال: لأن المنتفي ليس بكائن فلا يخاطب كما لا يؤمر، وإنما المعنى: فإنما يكونه فهو يكون، فهذه نزعة اعتزالية(٣)، رحمه الله وغفر له.

---

(١) من الآية (٣١) من سورة إبراهيم.

(٢) هذا صدر بيت من الرجز، وعجزه:

. . . . مَهْـــلاً رُويـــداً قـــد مَـــلأْتَ بَطْنـــي

وهو من كلام بعض الماتحين، رأى حوضه قد امتلأ، فقال: حسبي، امتلأ حوضي، ويكفيني، يريد بذلك أن ينصرف إلى دلو غيره، وهذا مما يسمى عندهم بلسان الحال، فإن الحوض لا يتكلم. وقطني بمعنى: حسبي، والبيت في اللسان ولم ينسبه لأحد.

(٣) لأن المعتزلة يقولون: المعدوم منتف فلا يخاطب ولا يؤمر، والأمر عندهم هو عين الإرادة.

قوله عز وجل:

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

قرأ نافع وعاصم: ﴿ويُعَلِّمه﴾ بالياء، وذلك عطف على: ﴿يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ﴾، كذا قال أبو علي، ويحتمل أن يكون في موضع الحال عطفاً على: ﴿وَيُكَلِّم﴾. وقرأ الباقون: [ونُعَلِّمه] بالنون وهي مثل قراءة الياء في المعنى لكن جاءت بنون العظمة، قال الطبري: قراءة الياء عطف على قوله: ﴿يَخْلُق ما يَشاءُ﴾، وقراءة النون عطف على قوله: ﴿نُوحيهِ إليْك﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الذي قاله خطأ في الوجهين مفسد للمعنى.(١) و﴿الْكِتاب﴾ هو الخط باليد، فهو مصدر كتب يكتب، هذا قول ابن جريج وجماعة المفسرين، وقال بعضهم: هي إشارة إلى كتاب منزل لم يعيَّنْ، وهذه دعوى لا حجة عليها. وأما ﴿الحكمة﴾ فهي السنة التي يتكلم بها الأنبياء في الشرعيات والمواعظ ونحو ذلك، مما لم يوحَ إليهم في كتاب ولا بملَك، لكنهم يلهمون إليه وتقوى غرائزهم عليه. وقد عبر بعض العلماء عن الحكمة بأنها الإصابة في القول والعمل، فذكر الله تعالى في هذه الآية أنه يعلم عيسى عليه السلام الحكمة، والتعليم متمكن فيما كان من الحكمة بوحي أو مأثوراً عمن تقدم عيسى من نبي وعالم. وأما ما كان من حكمة عيسى الخاصة به فإنما يقال فيها نعلمه على معنى نُهَيِّئ غريزته لها ونقدره ونجعله يتمرن في استخراجها ويجري ذهنه إلى ذلك.

و﴿التَّوراة﴾: هي المنزلة على موسى عليه السلام، ويروى أن عيسى عليه السلام كان يستظهر التوراة، وكان أعلم الناس وأعمل بما فيها، ويروى أنه لم يحفظها عن ظهر

(١) وافق أبو (ح) في البحر المحيط على فساد العطفِ في قراءة النون، لكنه اعترض على فساد العطف في قراءة الياء، وقال: إنه هو الأولى.

قلب إلا أربعة: موسى ويوشع بن نون وعزير وعيسى عليهم السلام. وذكر: ﴿الإِنْجيل﴾ لمريم وهو لم ينزل ـ بعد ـ لأنه كان كتاباً مذكوراً عند الأنبياء والعلماء وأنه سينزل.

وقوله: ﴿وَرَسولاً﴾ حال معطوفة على: ﴿ويُعَلِّمُهُ﴾. إذ التقدير: ومعلماً الكتاب، فهذا كله عطف بالمعنى على قوله: ﴿وجيهاً﴾ ويحتمل أن يكون التقدير: ويجعله رسولاً(١).

وكانت رسالة عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، مبيناً حكم التوراة، ونادباً إلى العمل بها، ومحللاً أشياء مما حرم فيها، كالشحوم ولحوم الإبل وأشياء من الحيتان والطير.

ومن أول القول لمريم إلى قوله: ﴿إسرائيل﴾ خطاب لمريم، ومن قوله: ﴿أَنيِّ قَدْ جِئْتُكُم﴾ إلى قوله: ﴿مُسْتَقيم﴾ يحتمل أن يكون خطاباً لمريم على معنى: يكون من قوله لبني إسرائيل: كيت وكيت، ويكون في آخر الكلام متروك يدلّ عليه الظاهر، تقديره: فجاء عيسى بني إسرائيل رسولاً فقال لهم ما تقدَّم ذكره: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ﴾. ويحتمل أن يكون المتروك مقدراً في صدر الكلام بعد قوله: ﴿إلى بني إسْرائيلَ﴾ فيكون تقديره: فجاء عيسى كما بشر الله رسولاً إلى بني إسرائيل بأني قد جئتكم، ويكون قوله: ﴿أَنِّي قدْ جِئْتُكُم﴾ ليس بخطاب لمريم، والأول أَظهر.

قرأ جمهور الناس: ﴿أَنِّي قد جِئْتُكُمْ﴾ بفتح الألف، تقديره: بأني، وقرئ في الشاذ: [إنِّي قدْ جِئْتُكُم]، وجمهور الناس قرؤوا: ﴿بآية﴾ على الإفراد، وفي مصحف ابن مسعود: [بآيات]، وكذلك في قوله بعد هذا: [وجِئْتُكُم بآياتٍ مِنْ رَبِّكُم]. واختلف القراء في فتح الألف وكسرها من قوله: [أَنِّي أَخْلُقُ]، فقرأ نافع وجماعة من العلماء:

---

(١) اختلف العلماءُ في إعراب (رسولاً) هنا؛ قال قومٌ: هو وصف بمعنى المرسل، ويكون منصوباً بإضمار فعل مناسب تقديره: ويجعله رسولا، أو حالا معطوفة على (ويعلمه) كما ذكرهما ابن عطية، على حدِّ قول الشاعر:

يـا ليـتَ زوجَـك قـدْ غـدا   متقلـداً سيفـاً ورمحـا

أي: ومعتقلاً رمحا وقيل: إن (رسولاً) مصدر بمعنى رسالة، ويكون معطوفاً على الكتاب، والمعنى: ويعلمه رسالةً، فتكون (رسالة) داخلة فيما يعلمه الله لعيسى، قال ذلك الحوفي وأبو البقاءِ.

[إنِّي] بكسر الألف، وقرأ باقي السبعة وجماعة من العلماء: ﴿أنّي﴾ بفتح الألف. فوجه قراءة نافع: إما القطع والاستئناف، وإما أنه فسر الآية بقوله: (إني) كما فسَّر المثلَ في قوله: ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ بقوله: ﴿خَلَقَه مِنْ تُرابٍ﴾(١) إلى غير ذلك من الأَمْثِلة، وَوَجْه قراءَة الباقين البدل من ﴿آية﴾، كأنه قال: وجئتكم بأني أخلق، وقيل: هي بدل من ﴿أني﴾ الأولى، وهذا كله يتقارب في المعنى.

و﴿أخلق﴾ معناه: أقدر وأهيِّئُ بيدي، ومن ذلك قول الشاعر(٢):

ولأنـت تفـري مـا خلقـتَ وبعـ ـضُ القـومِ يخلـقُ ثـم لا يفـري

وقوله: ﴿لَكُم﴾ تقييد لقوله: ﴿أَخْلُقُ﴾ لأنه يدل دلالة ما على أنه لم يرد الإِيجاد من العدم. ويصرح بذلك قوله: ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾، وحقيقة الخلق في الأَجرام، ويستعمل في المعاني، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾(٣)، ومنه قول الشاعر(٤):

مـن كـان يخلـقُ مـا يقـو لُ فحيلتـي فيـه قليلَـهْ

وجمهور الناس قرأ: ﴿كَهَيْئَةِ﴾ على وزن فَعلة ـ بفتح الفاء ـ وهو مصدر من قولك: هاء الشيء يهاء هيئاً وهيئة، إذا ترتب واستقر على حال ما، وهو الذي تعديه فتقول: هيأت، وقرأ الزهري: [كَهَيَّئةِ الطير]، بكسر الهاء وياء مفتوحة مشددة، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: [كَهَيْئَةِ الطَّائر فأَنْفخ فيهِ فيكونُ طائِراً] على الإفراد في الموضعين، فالأول اسم الجنس والثاني مفرد، أي يكون طائراً من الطيور، وقرأ نافع وحده: [كَهَيْئَة الطَّيْر فأَنفخُ فيهِ فيكون طائراً] بالإِفراد في الأخير، وهكذا قرأ في المائدة. وقرأ الباقون: [كَهيْئَة الطَّيْر فأنفخُ فيه فيكونُ طَيْراً] بالجمع فيهما، وكذلك في

(١) من الآية (٥٩) من سورة آل عمران.

(٢) هو زهير بن أبي سلمى (ديوانه ٩٤) ويخلق ويفري معناه: يقرر الأمر ثم يمضيه.

(٣) من قوله تعالى في الآية (١٧) من سورة العنكبوت: ﴿إِنَّما تعبُدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا﴾.

(٤) أَنشد المبرد البيت في الجزء الثاني من الكامل، وذكر قبله بيتاً ونسبهما لبعض المحدثين، وهما:

لـي حيلـة فِيمـن يَنِـمْ وليـس فـي الكـذَّاب حيلـه
مَـنْ كـان يخلـق مـا يقـو لُ فحيلتـي فيـه قليلـه

ونسبهما في «معجم الأُدباء» إلى منصور بن إسماعيل الشافعي أَبي الحسن التميمي الفقيه الشاعر الضرير المصري. ويخلق ما يقول: يفتريه، يقول: إنه لا حيلة له في الكذاب الذي يفتري الأمور ويدعيها.

سورة المائدة، ومعاني هذه القراءات بينة. والطير: اسم جمع وليس من أبنية الجموع، وإنما البناء في جمع طائر أطيار، وجمع الجمع طيور، وحكاه أَبو علي عن أبي الحسن.

وقوله: ﴿فأَنْفُخُ فيهِ﴾ ذكَّر الضمير هنا لأنه يحتمل أن يعود على الطين المهيأ، ويحتمل أن يريد فأنفخ في المذكور. وأنث الضمير في سورة المائدة في قوله: ﴿فتَنْفُخُ فيها﴾ لأنه يحتمل أن يعود على الهيئة أو على تأنيث لفظ الجماعة في قوله: ﴿الطَّيْر﴾. وكون عيسى عليه السلام خالقاً بيده ونافخاً بفيه إنما هو ليبين تلبسه بالمعجزة، وأنها جاءت من قِبَله، وأَما الإِيجاد من العدم وخلق الحياة في ذلك الطين فمن الله تعالى وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿بإِذْنِ اللهِ﴾ معناه: بعلم منه تعالى أني أفعل ذلك وتمكين منه لي. وحقيقة الإِذن في الشيء، هي العلم بأنه يفعل والتمكين من ذلك، فإن اقترن بذلك قول فذلك أمكن في الإِذن وأبلغ، ويخرج من حدِّ الإِذن إلى حدّ الأمر، ولكن تجده أبداً في قسم الإِباحة. وتأمل قوله تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[1] وقول النبي عليه السلام: (وإِذْنها صُماتها)[2].

وروي في قصص هذه الآية أن عيسى عليه السلام كان يقول لبني إسرائيل: أي الطير أشدّ خلقةً وأصعبُ أن يحكى؟ فيقولون: الخفاش، لأنه طائر لا ريش له، فكان يصنع من الطين خفافيش ثم ينفخ فيها فتطير، وكل ذلك بحضرةِ الناسِ ومعاينتهم فكانوا يقولون: هذا ساحر.

قوله عز وجل:

﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

و ﴿أُبْرِئُ﴾ معناهُ: أزيل المرض، يقال: برأ المريض وأَبرأه غيره، ويقال: برئ

---

(١) من الآية (٢٥١) من سورة البقرة.

(٢) أخرجه الإِمام مسلم، وأَبو داود، والنسائي عن ابن عباس (الجامع الصغير ١: ٤٨٧).

المريض أيضاً كما يقال في الذنب والدين[١].

واختلف المفسرون في: ﴿الأَكْمه﴾، فقال مجاهد: الأكمه: هو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل، وقال ابن عباس والحسن والسدّي: الأكمه: الأعمى على الإطلاق، وقال عكرمة: الأكمه: الأعمش، وحكى النقاش قولاً: إن الأكمه هو الأَبكم الذي لا يَفهم ولا يُفهم، الميت الفؤاد، وقال ابن عباس أيضاً وقتادة: الأكمه: الذي يولد أعمى مضموم العينين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد كان عيسى عليه السلام يبرئ بدعائه وَمَسْحِ يده كلَّ علة فتشفى، ولكن الاحتجاج على بني إسرائيل في معنى النبوة لا يقوم إلاّ بالإبراء من العلل التي لا يُبْرِئُ منها طبيبٌ بوجه، فليس يتخلص من هذه الأقوال في الأكمه إلا القول الأخير، إذ الأكمه في اللغة هو الأعمى، وكمهت العين عمِيَت، ولولا ضبطُ اللغة لكان القول الذي حكى النقاشُ حسناً في معنى قيام الحجة به. ﴿والأَبْرَص﴾ معروف، وهو داء لا يبرأ منه إذا تمكن.

وروي في إحيائه الموتى أنه كان يضرب بعصاه الميت أو القبر أو الجمجمة فيُحيي الإنسان ويكلّمه، وروي أنه أحيا سام بن نوح عليه السلام، وروي أن الذي كان يحييه كانت تدوم حياته، وروي أنه كان يعود لموته سريعاً، وفي قصص الإحياء أحاديث كثيرة لا يوقف على صحّتها. وإحياء الموتى هي آيته المعجزة المعرضة للتحدي، وهي بالمعنى متحدًّى بها وإن كان لم ينصَّ على التحدي بها. وآيات عيسى عليه السلام إنما تجري فيما يعارض الطب لأن علم الطب كان شرفَ الناس في ذلك الزمان وشغلهم، وحينئذ أثيرت فيه العجائب، فلما جاء عيسى عليه السلام بغرائبَ لا تقتضيها الأمزجة وأصول الطب، وذلك إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، علمت الأَطباء أن هذه

---

(١) قال في الصحاح أَهل الحجاز يقولون: «بَرَأْتَ من المرض بَرْءاً» بالفتح.

وفي المعجم الوسيط: برِئَ المريض بَرْءاً وبُرْءاً ـ وبَرَؤَ بَرْءاً وبُروءاً بمعنى: شفي وتخلص ممَّا به ـ.

وقال أَبو حيان في البحر المحيط ٢/٤٥٥: «الإبراءُ إزالةُ العلّة، يقال: برِئَ الرجل وبَرَأ من المرض، وأَما من الذنب ومن الدين فبرئ» تأمل الفرق بين قوله وقول ابن عطية رحمهما الله.

القوة من عند الله ، وهذا كأمر السَّحَرةِ مع موسى والفصحاء مع محمد عليهما السلام ، ووقع في التواريخ المترجمة عن الأطباء أن جالينوس كان في زمن عيسى عليه السلام ، وأنه رحل إليه من رومية إلى الشام ليلقاه فمات في طريقه ذلك.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم﴾ . . . الآية ـ فقال السدي وسعيد بن جبير وابن إسحق ومجاهد وعطاء: كان عيسى من لدن طفولته وهو في الكتاب يخبر الصبيانَ بما يفعل آباؤهم في منازلهم ، وبما يؤكل من الطعام ويدخّر حتى قال بنو إسرائيل لأبنائهم: لا تخالطوا هذا الساحر ، وكذلك إلى أن نُبِّيء ، فكان يقول لكلٍّ من سأله عن هذا المعنى: أكلتَ البارحة كذا وادخرت كذا. قال ابن إسحق: وكان معلمه يريدُ أن يعلمه الشيءَ فيسبقه إليه عيسى ، فيتعجّبُ معلمه من ذلك ويذكره للناس.

وقال قتادة: معنى الآية إنما هو في نزول المائدة عليهم ، وذلك أنها لما أنزلت أخذ عليهم عهداً أن يأكلوا ولا يخبىء أحد شيئاً ولا يدخره ويحمله إلى بيته ، فخانوا وجعلوا يخبئون من ثمار الجنة وطعامها الذي كان ينزل على المائدة ، فكان عيسى عليه السلام يخبر كلَّ أحد عما أكل وعما ادخر في بيته من ذلك ، وعوقبوا على ذلك.

و﴿ما﴾ في قوله: ﴿بما تَأْكُلونَ﴾ تحتمل أن تكون بمعنى «الذي» وتحتمل المصدرية ، وكذلك ﴿وما تَدَّخِرونَ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿تدَّخِرون﴾ بدال مشددة وخاء مكسورة، وهو تفتعلون من ذخرت ، أصله تذتخرون، استثقل النطق بالذال والتاء لتقاربهما في المخرج فأبدلت التاء دالاً وأُدغمت الذال في الدال ، كما صنع في مدّكر ومطّلع، بمعنى مضطلع وغير ذلك، نحو قول الشاعر:

إن الكـريـمَ الـذي يعطيـكَ نـائلَـهُ ... عفـواً وَيُظْلَـمُ أحيـانـاً فيطَّلـمُ[1]

بالطاء غير منقوطة. وقرأ الزهري ومجاهد وأيوب السختياني وأبو السمال: [تَذْخَرون] بدال ساكنة وخاء مفتوحة.

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى ، أورده اللسان في مادة: ظَلَم ، برواية:
هُـوَ الجـوادُ الَّـذي يُعطيـك نـائلَـهُ ... عفـواً. . . . . البيت
ومعنى يُظلم بالبناءِ للمجهول: يُطلب منه في غير موضع الطلب. ومعنى يطَّلِمُ أَو يظْطَلِم: يحتمل الظلم. ويُروى: فيظلم؛ أي يتكلف. ورواه الأصمعي: وينْظَلِم، كما في اللسان.

وقوله: ﴿إن في ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من الإحياء والإبراء والإنباء. وفي مصحف ابن مسعود: [لآيات] على الجمع.

وقوله: ﴿إنْ كُنتُم مُؤمنين﴾ توقيف، والمعنى: لآيات نافعة هادية إن آمنتم وأبصرتم، وإلا فليست بنافعة ولا هادية، فأما كونها آيات فعلى كل حال آمنوا أو كفروا، هذا كله على أنَّ المخاطبة لمن لم يؤمن ـ بعد ـ وهو ظاهر حاله مع بني إسرائيل، وإن كان خطابه لمؤمنين، أو لما[١] كانوا مؤمنين بموسى، فمعنى الآية: التثبيتُ وهزّ النفس، كما تقول لإنسان تقيم نفسه إلى شيء: أما أنت يا فلان يلزمك أن تفعل كذا وكذا إن كنت من الرجال.

قوله عز وجل:

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٥١﴾.

قوله: ﴿مُصَدِّقاً﴾ حال معطوفة على قوله: ﴿أَنِّي قدْ جِئْتُكُم بآيةٍ﴾. لأن قوله في موضع الحال، وكان عيسى عليه السلام مصدقاً للتوراة متبعاً لها عاملاً بما فيها. قال وهب بن منبه: كان يسبت ويستقبل بيت المقدس.

وقال قتادة في تفسير قوله: ﴿وَلأحلَّ لكُمْ بعضَ الَّذي حُرِّمَ عليْكُمْ﴾، كان الذي جاء به عيسى أليَنَ من الذي جاء به موسى، وقال ابن جريج: أحلَّ لهم لحوم الإبل والشحوم، قال الربيع: وأشياء من السمك، وما لا صِئْصِئَة[٢] له من الطير. وكان في التوراة محرمات تركها شرع عيسى على حالها، فلفظة البعض على هذا متمكنة، وقال أبو عبيدة: البعض في هذه الآية بمعنى الكلّ، وخطّأه الناسُ في هذه المقالة، وأنشد أبو عبيدة شاهداً على قوله بيت لبيد:

تـرّاك أَمكنـةٍ إذا لـم يـرْضَهـا ... أو يخترمْ بعضَ النفوسِ حِمامُها[٣]

---

(١) لعل الصواب: أو لمن.

(٢) صِئْصِئة الديك: مخلبه في ساقه.

(٣) بيت لبيد من معلقته المشهورة. اخترمته المنيّة: أَخذتْه. واختَرَمهم الدهر: اقْتَطَعهم واستأْصلهم. والحمام بكسر الحاء: قضاء الموت وقدره. =

وليس في البيت له حجة، لأن لبيداً أراد نفسه فهو تبعيضٌ صحيح ، وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿حُرِّم عليكُم﴾ إشارة إلى ما حرمه الأحبار بعد موسى وشرعوه ، فكأن عيسى ردَّ أحكام التوراة إلى حقائقها التي نزلت من عند الله تعالى.

وقرأ عكرمة: [حَرَّم عليكُم] بفتح الحاء والراء المشددة ، وإسناد الفعل إلى الله تعالى أو إلى موسى عليه السلام. وقرأ الجمهور: ﴿وجِئْتُكم بآيةٍ﴾، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: [وجِئْتُكم بآياتٍ مِن رَبِّكم]. وقوله تعالى: ﴿فاتَّقوا اللهَ وأَطيعون﴾ تحذير ودعاء إلى الله تعالى. وقرأ جمهور الناس: ﴿إنَّ اللهَ ربِّي وربُّكم﴾ بكسر الألف على استئناف الخبر ، وقرأه قوم: [أَنَّ اللهَ ربِّي وربُّكم] بفتح الألف. قال الطبري: [أنَّ] بدل من ﴿آية﴾، في قوله: ﴿جئْتُكم بآيةٍ﴾ ، وفي هذا ضعف ، وإنما التقدير: أطيعوني ، لأن الله ربي وربكم ، أو يكون المعنى: لأن الله ربي وربكم فاعبدوه.

وقوله: ﴿هذا صِراطٌ مُسْتقيم﴾ إشارة إلى قوله: ﴿إنَّ اللهَ ربِّي وربُّكم فاعبدُوه﴾، لأن ألفاظه جمعت الإيمان والطاعات. والصراط: الطريق، والمستقيم: الذي لا اعوجاج فيه.

= يقول لبيد: إني أَترك الأمكنة التي لا أُحبها ولا أَرضى بالعيش فيها إلا إذا نزل بي قضاء الله وقضى علي الموتُ بالبقاء فيها. وفي بعض الروايات: (أَو يرتبط) بدلاً من (أَو يخترم) ومعناها أن يربط الحمام نفسه بهذه الأَرض فلا يبرحها.

وأراد ببعض النفوس نفسه ، فالتبعيض صحيح ، وليس لأَبي عبيدة حجة في البيت. وقد أَنشد. بعضهم بيتاً آخر ليؤيد كلام أَبي عبيدة من أَن (بعض) تأتي بمعنى (كل) وهو قول الشاعر:

إنَّ الأمـــورَ إذا الأَحـــداث دبَّـــرهـــا　　　دونَ الشيـوخِ تـرى فـي بعضهـا خلَـلا

فهو يرى أن الأَحداث إذا دبروا الأُمور من دون الشيوخ صارت كلها خللا ـ وهذا أَيضاً غير صحيح ، فليس كل ما دبَّره الأَحداث يكون فيه الخلل ـ والتبعيض هنا أَيضاً صحيح. وقال بعضهم: لا يقوم (بعض) مقام (كل) إلا إذا دلت قرينة على ذلك نحو قول الشاعر:

أَبـــا مُنْـــذرٍ أَفْنَيْـــتَ فـــاسْتَبْـــق بعْضَنَـــا　　　حنانَيْك بعْضُ الشرِّ أَهْون من بعض

يريد: بعض الشر أَهون من كله. وهذا أَيضاً موضع بحث ونظر.

راجع اللسان. والبحر المحيط ٢ : ٤٦٨ .

قوله عز وجل:

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

قبل هذه الآية متروك، به يتم اتساق الآيات، تقديره: فجاء عيسى عليه السلام كما بشَّر الله به، فقال جميعَ ما ذكر لبني إسرائيل ﴿فلمَّا أَحَسَّ﴾، ومعنى ﴿أَحَسَّ﴾: علم من جهة الحواس بما سمع من أقوالهم في تكذيبه، ورأى من قرائن الأحوال وشدة العداوة والإعراض؛ يقال: أحسستُ بالشيء وحسيتُ به، أصله: حسست فأبدلت إحدى السينين ياء[١]. و﴿الكُفر﴾ هو التكذيب به، وروي أنه رأى منهم إرادة قتله، فحينئذ طلب النصر، والضمير في ﴿مِنْهُم﴾ لبني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ أَنصاري إِلَى اللهِ﴾ عبارة عن حال عيسى عليه السلام في طلبه من يقوم بالدين ويؤمن بالشرع ويحميه، كما كان محمد ﷺ يعرضُ نفسه على القبائل ويتعرض للأحياء في المواسم. وهذه الأفعال كلها وما فيها من أقوال يعبر عنها. بِـ ﴿قال مَنْ أَنصاري إلى اللهِ﴾. ولا شكَّ أن هذه الألفاظ كانت في جملة أقواله للناس. والأنصار: جمع نصير، كشهيد وأَشهاد وغير ذلك، وقيل: جمع ناصر، كصاحب وأصحاب. وقوله: ﴿إلى الله﴾ يحتمل معنيين، أَحدهما: من ينصرني في السبيل إلى الله؟ فتكون «إلى» دالة على الغاية دلالة ظاهرة على بابها. والمعنى الثاني: أن يكون التقدير: من يضيف نصرته إلى نصرة الله لي؟ فيكون بمنزلة قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾[٢] فإذا تأملتها وجدت فيها معنى الغاية لأنها تضمنت إضافة شيء إلى شيء.

---

(١) أَضاف أَبو حيان: «أو تحذف أُولى سينيه في أَحْسَسْتَ فيقال: أَحَسْتَ، قال:

سِــوى أَن العِتــاقَ مــن المطــايــا أَحسَــنْ بــه فهُــنَّ إِليــه شــوسُ

وشوس: جمع أَشْوس، وهو الذي ينظربمؤخر عينه تكبيراً وتغيظاً.

وقال سيبويه: «وما شذَّ من المضاعف ـ يعني في الحذف ـ فشبيه بباب (أَقمْت) ـ وذلك قولهم: أَحَسْتُ وأَحَسْن. يريدون: أَحْسَسْتُ وأَحْسَسْنَ».

(٢) من الآية (٢) من سورة النساء.

وقد عبر عنها ابن جريج والسدي بأنها بمعنى ـ «مع»، و«نعَم»[١] إن «مع» تسدُّ في هذه المعاني مسد «إلى» لكن ليس يباح من هذا أن يقال إن «إلى» بمعنى «مع»، حتى غلط في ذلك بعض الفقهاء في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾[٢]. فقال: «إلى» بمعنى «مع» وهذه عجمة، بل «إلى» في هذه الآية غاية مجردة، وينظر هل يدخل ما بعد «إلى» فيما قبلها من طريق آخر؟

و﴿الحَوارِيُّون﴾ قوم مرَّ بهم عيسى عليه السلام فدعاهم إلى نصره واتباع ملته، فأجابوه وقاموا بذلك خير قيام، وصبروا في ذات الله. وروي أنه مرَّ بهم وهم يصطادون السمك. واختلف الناس؛ لم قيل لهم الحواريون؟ فقال سعيد بن جبير: سموا بذلك لبياض ثيابهم ونقائها، وقال أبو أرطأة[٣]: سموا بذلك لأنهم كانوا قصارين[٤] يحورون الثياب، أي يُبيّضونها، وقال قتادة: الحواريون: أصفياء الأنبياء، الذين تصلح لهم الخلافة، وقال الضحاك نحوه، وهذا تقرير حال القوم وليس بتفسير اللفظة؛ وعلى هذا الحد شبه النبي ﷺ ابن عمته بهم في قوله: (وحواري الزبير)[٥] والأقوال الأولى هي تفسير اللفظ، إذ هي من الحور، وهو البياض، حورت الثوب: بيضته، ومنه الحواري. وقد تسمي العرب النساءَ الساكنات في الأمصار: الحواريات، لغلبة البياضِ عليهن، ومنه قول أبي جلدة اليشكري[٦]:

---

(١) ونعم: بثبوت الواو في جميع النسخ، وهو وجه جائز، ولو حذفها لكان أحسن.

(٢) من الآية رقم (٦) في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿يأيُّها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق﴾.

(٣) أبو أرطأة: كذا ورد، وقد ورد في الصحابة من اسمه أبو أرطاة (انظر الكنى في الاستيعاب والإصابة). ولعله أبو أرطاة حجاج بن أرطاة الكوفي القاضي (التهذيب ٢: ١٩٦).

(٤) قصر الثوب: دقه، ومنه القصار، وحرفته هي القصارة.

(٥) أخرجه الشيخان، كما أَخرجه البزار عن عائشة رضي الله عنها، وأَخرجه الإمام أحمد في مسنده، والبزار والطبراني عن عبد الله بن الزبير (تفسير ابن كثير، ومجمع الزوائد ٩/ ١٥١.

(٦) أَبو جلدة اليشكري: من بني يشكر. كان مولعاً بالشراب، وقيل: إنه كان ممَّن خرج مع ابن الأَشعث؛ فقتله الحجاج بعد أَن كان من أَخص الناس به، وقيل: مات في طريق مكة. (الشعر والشعراء: ٦١٩ والأغاني ١١: ٢٩١ والآمدي: ٧٨).

يقول الشاعر: قل للنساء الحضريات الصافيات البياض يبكين غيرنا. فهو لا يريد أَن يبكي عليه هذا النوع من النساءِ، لأَنه غير منعم ولا مترف، ثم طلب ألا يبكي عليه إِلا الكلاب التي كانت تخرج معهم للصيد، كناية عن أَنه من أَهل البدو.

=

فقلْ للحَــواريّــات يبكيــنَ غيــرنَــا ولا تَبْكِنَــا إلا الكَــلابُ النــوابــح

وذكر مكي أن مريم دفعت عيسى عليه السلام في صغره في أعمال شتى، وكان آخر ما دفعته إلى الحواريين، وهم الذين يقصرون الثياب ثم يصبغونها، فأراهم آياتٍ وصبغ لهم ألواناً شتَّى من ماء واحد.

وقرأ جمهور الناس: ﴿الحواريُّون﴾ بتشديد الياء، وأَحدهم «حواريّ» وليست بياء نسب وإنما هي كياء كرسيّ، وقرأ إبراهيم النَّخَعي وأبو بكر الثقفي: [الحَواريُون] مخففة الياء في جميع القرآن. قال أبو الفتح[1]: العرب تعاف ضمة الياء الخفيفة المكسور ما قبلها وتمتنع منها، ومتى جاءت في نحو قولهم: العاديُون والقاضيُون والساعيُون أعلت بأن تستثقل الضمة فتسكن الياء وتنقل حركتها ثم تحذف لسكونها وسكون الواو بعدها، فيجيء العادون ونحوه، فكان يجب على هذا أن يقال: الحوارون، لكن وجه القراءة على ضعفها أن الياء خففت استثقالاً لتضعيفها، وحملت الضمة دلالة على أن التشديد مراد، إذ التشديد محتمل للضمة، وهذا كما ذهب أبو الحسن في تخفيف يستهزيون، إلى أن أخلص الهمزةَ ياءً البتة، وحملها الضمة تذكراً لحالِ الهمزة المرادة فيها.

وقول الحواريين: ﴿واشْهَدْ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً لعيسى عليه السلام، أي: اشهد لنا عند الله، ويحتمل أن يكون خطاباً لله تعالى كما تقول: أنا أُشهد الله على كذا، إذا عزمت وبالغت في الالتزام، ومنه قول النبي عليه السلام في حجة الوداع: (اللهُمَّ اشهد)[2]. قال الطبري: وفي هذه الآية توبيخ لنصارى نجران، أي: هذه مقالة الأسلاف المؤمنين بعيسى، لا ما تقولونه أنتم يا مَن يدَّعي له الألوهية.

وقوله: ﴿ربَّنا آمَنَّا بما أَنْزَلْتَ﴾ يريدون في الإنجيل وآيات عيسى. و﴿الرَّسول﴾: عيسى عليه السلام.

وقولهم: ﴿فاكْتُبنا مَعَ الشَّاهدينَ﴾ عبارة عن الرغبة في أن يكونوا عنده في عداد من

= ومثل (الحواري) في الوزن (الحوالي) للكثير الحيلة.

(١) المحتسب ١: ١٦٢ (بتصرف).

(٢) أخرجه البخاري عن أبي بكرة في باب خطبة أيام منى، والإمام مسلم عن جابر، كما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والطبراني في الكبير، ومجمع الزوائد.

شهد بالحق من مؤمني الأمم ، ولما كان البشر يقيد ما يحتاج إلى علمه وتحققه في ثاني حالٍ بالكتاب ، عبروا عن فعل الله بهم ذلك. وقال ابن عباس: قولهم: ﴿مَعَ الشَّاهدينَ﴾ معناه: اجعلنا من أمة محمد ﷺ في أن نكون ممن يشهد على الناس.

ثم أخبر تعالى عن بني إسرائيل الكافرين بعيسى، فقال: ﴿ومَكَرُوا﴾ يريد تحيلهم في أخذ عيسى للقتل بزعمهم ، ويروى أنهم تحيلوا له، وأذكوا عليه العيون[١] حتى دخل هو والحواريون بيتاً فأخذوهم فيه، فهذا مكر بني إسرائيل، فجازاهم الله تعالى بأن طرح شبه عيسى على أحدِ الحواريين ورفع عيسى، وأعقب بني إسرائيل مذلةً وهواناً في الدنيا والآخرة. فهذه العقوبة هي التي سماها الله مكراً في قوله: ﴿وَمَكَر اللهُ﴾ ، وذلك مهيعٌ أن تُسَمَّى العقوبةُ باسم الذنب وإن لم تكن في معناه؛ وعلى هذا فسر جمهور المفسرين الآية، وعلى أن عيسى قال للحواريين: من يصبر فيلقى عليه شبهي فيقتل وله الجنة؟ فقال أحدهم: أنا، فكان ذلك. وروى قوم أن بني إسرائيل دسَّتْ يهودياً جاسوساً على عيسى حتى صحبه ودلّهم عليه ودخل معه البيت، فلما أحيط بهم ألقى الله شبه عيسى على ذلك الرجل اليهودي فأُخذ وصلب. فهذا معنى قوله: ﴿ومَكَرُوا ومكَرَ اللهُ﴾، وهذه أيضاً تسميةُ عقوبةٍ باسم الذنب. والمكر في اللغة: السعي على الإنسان دون أن يظهر له ذلك، بل أن يُبْطِنَ الماكرُ ضدَّ ما يبدي.

وقوله: ﴿واللهُ خيرُ الماكرينَ﴾ معناه: في أنه فاعل حقٍّ في ذلك، والماكر من البشر فاعل باطلٍ في الأغلب، لأنه في الأباطيل يحتاج إلى التحيل، والله سبحانه أشد بطشاً وأنفذ إرادة، فهو خير من جهات لا تحصى، لا إله إلا هو[٢]. وذكرُ حَصرِ عيسى عليه السلام ، وعدة أصحابه به وأمر الشبه وغير ذلك من أمره سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

---

(١) أذكوا العيون: بثوا الجواسيس والطلائع ، وفي بعض النسخ: أذكوا له.

(٢) سأل رجل الجنيد فقال: كيف رضي الله لنفسه المكر وقد عاب به غيره؟ فقال: لا أدري ما تقول ، ولكن أنشدني فلان الظهراني:

ويقبح من سواك الفعل عندي ... فتفعله فيحسن منك ذاكا

ثم قال: قد أجبتك إن كنت تعقل.

قوله عز وجل:

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

قال الطبري: العامل في ﴿إِذْ﴾ قوله تعالى: ﴿ومَكَر اللهُ﴾. قال غيره من النحاة: العامل فعلٌ مضمر تقديره: اذكر، وهذا هو الأصوب. وهذا القول هو بواسطة الملَك لأن عيسى ليس بمكلم.

و﴿عيسى﴾ اسم أعجميّ معرَّب فلذلك لا ينصرف، وهو بالسريانية ـ إيسوع ـ عدلته العرب إلى عيسى.

واختلف المفسرون في هذا التوفي؛ فقال الربيع: هي وفاة نوم، رفعه الله في منامه، وقال الحسن وابن جريج ومطر الوارق[1] ومحمد بن جعفر بن الزبير وجماعة من العلماء: المعنى: إني قابضك من الأرض ومحصلك في السماء فهو توفي قبض وتحصيل، وقال ابن عباس: هي وفاة موت، معناه: إني مميتك، هذا لفظ ابن عباس ولم يفسر. فقال وهب بن منبه: توفاه الله بالموت ثلاث ساعات ورفعه فيها، ثم أحياه الله بعد ذلك عنده في السماء، وفي بعض الكتب: سبع ساعات. وقال الفراء: هي وفاة موت ولكن المعنى: إني متوفيك في آخر أمرك عند نزولك وقتلك الدجال، ففي الكلام تقديم وتأخير، وقال مالك في جامع العتبية: مات عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة[2]. ووقع في كتاب مكي عن قوم: إن معنى (مُتَوَفِّيكَ) متقبل عملك، وهذا ضعيف من جهة اللفظ.

وأجمعت الأمة على ما تضمنه الحديث المتواتر من أن عيسى عليه السلام في

---

(١) هو مطر بن طهمان الوراق، أبو رجاءٍ الخراساني السلمي، مولى علي، سكن البصرة وروى عن أنس وعكرمة وعطاءٍ وحميد بن هلال وغيرهم، وعنه إبراهيم بن طهمان، وابنه هلال الراسبي، وعبد الله ابن شوذب، ومعمر الدستوائي، وغيرهم، رُوي أن المنصور قتله (تهذيب التهذيب ١٠: ١٦٧).

(٢) وأخرج ابن سعد، وأحمد في الزهد، والحاكم، عن سعيد بن المسيب قال: رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. وأخرج ابن عساكر، عن وهب مثله. «فتح القدير للشوكاني» ١: ٣١٥.

السماء حي، وأنه ينزل في آخر الزمان فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويقتل الدجال ويفيض العدل ويظهر هذه الملة، ملة محمد، ويحج البيت ويعتمر، ويبقى في الأرض أربعاً وعشرين سنة، . وقيل أربعين سنة، ثم يميته الله تعالى(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فقول ابن عباس رضي الله عنه: هي وفاة موت لا بد أن يتم، إما على قول وهب بن منبه، وإما على قول الفراء، وقوله تعالى: ﴿ورافِعُكَ إليَّ﴾ عبارة عن نقله إلى علو من سفل، وقوله: ﴿إليَّ﴾ إضافة تشريف لما كانت سماءه والجهة المكرمة المعظمة المرجوة، وإلا فمعلوم أن الله تعالى غير متحيز في جهة، وقوله تعالى: ﴿ومُطَهِّرُكَ﴾ حقيقة التطهير إنما هي من دنس ونحوه، واستعمل ذلك في السب والدعاوى والآثام وخلطة الأشرار ومعاشرتهم، تشبيهاً لذلك كله بالأدناس، فطهر الله العظيم عيسى من دعاوى الكفرة ومعاشرتهم القبيحة له.

وقوله تعالى: ﴿وجاعِلُ﴾ اسم فاعل للاستقبال، وحذف تنوينه تخفيفاً، وهو متعد إلى مفعولين، لأنه بمعنى مُصَيِّر، فأحدهما ﴿الَّذين﴾، والآخر في قوله: ﴿فوقَ الَّذين كفَروا﴾، وقال ابن زيد: الذين اتبعوه هم النصارى، والذين كفروا هم اليهود، والآية مخبرة عن إذلال اليهود وعقوبتهم بأن النصارى فوقهم في جميع أقطار الأرض إلى يوم القيامة. فخصص ابن زيد المتبعين والكافرين وجعله حكماً دنيوياً لا فضيلة فيه للمتبعين الكفار منهم بل كونهم فوق اليهود عقوبة لليهود فقط، وقال جمهور المفسرين بعموم اللفظ في المتبعين، فيدخل في ذلك أمة محمد ﷺ لأنها متبعة لعيسى، نصَّ على ذلك قتادة وغيره، وكذلك قالوا بعموم اللفظ في الكافرين. فمقتضى الآية إعلام عيسى عليه السلام أن أهل الإيمان به كما يجب هم فوق الذين كفروا بالحجة والبرهان وبالعزة والغلبة، ويظهر من عبارة ابن جريج وغيره أن المراد المتبعون له في وقت استنصاره وهم الحواريون، جعلهم الله فوق الكافرين لأنه شرَّفهم وأبقى لهم في

---

(١) أَخرجه البخاري، ومسلم، والإمام أَحمد، وأَبو داود، وابن جرير ـ عن أَبي هريرة. وبوَّب ابن كثير لنزوله في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿وإنْ منْ أَهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبْلَ موته﴾ الآية، والحديث ورد بطرق. وذَكر في فتح القدير للشوكاني: ١: ٤٩٧ أَنَّه أُفرد للأَحاديث الواردة في نزول عيسى عليه السلام مؤلفاً مستقلاً.

الصالحين ذكراً، فهم فوقهم بالحجةِ والبرهان، وما ظهر عليهم من أَمارات رضوان الله.

وقوله تعالى: ﴿ثمَّ إليَّ مَرْجعُكُم﴾ الخطاب لعيسى، والمراد الإِخبار بالقيامة والحشر، فلذلك جاء اللفظ عاماً من حيث الأمر في نفسه لا يخص عيسى وحده فكأنه قال له: ثم إليّ ـ أي إلى حكمي وعدلي ـ يرجع الناس، فخاطبه كما تخاطَبُ الجماعة إذ هو أحدها، وإذ هي مرادة في المعنى، وفي قوله تعالى: ﴿فأَحْكُم﴾.. إلى آخر الآية، وعدٌ لعيسى والمؤمنين ووعيد للكافرين.

وقوله تعالى: ﴿فأمَّا الَّذين كَفَروا﴾... الآية، إخبار بما يجعل عليه حالهم من أول أمرهم، وليس بإخبار عما يفعل بعد يوم القيامة، لأنه قد ذكر الدنيا وهي قبل. وإِنما المعنى: فأما الكافرون فالصنعُ بهم أَنهم يعذبون عذاباً شديداً في الدنيا بالأسر والقتل والجزية والذل، ومن لم ينله منهم فهو تحت خوفه إذ يعلم أن شرع الإِسلام طالبٌ له بذلك، وقد أبرز الوجود هذا. وفي الآخرة معناه: بعذاب النار، ثم ذكر قسم الإِيمان وقرن به الأعمال الصالحات تنبيهاً على درجة الكمال ودعاءً إليها.

وقرأ حفص عن عاصم: ﴿فيُوَفِّيهم﴾ بالياء على الغيبة، والفعل مسند إلى الله تعالى، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم: [فنُوَفِّيهم] بالنون، وهي نون العظمة. وتوفية الأجور هي قسم المنازل في الجنة فذلك هو بحسب الأَعمال، وأما نفس دخول الجنة فبرحمة الله وبفضله. وتقدم نظير قوله: ﴿واللهُ لا يُحبُّ الظَّالمينَ﴾ في قوله قبلُ: ﴿فإِنْ تَوَلَّوا فإِنَّ الله لا يُحبُّ الكافرين﴾.

قوله عز وجل:

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿ذلِكَ﴾ رفع بالابتداء، والإِشارة به إلى ما تقدم من الأنباء. و ﴿نَتْلُوه عَلَيْكَ﴾ خبر ابتداء، وقوله: ﴿مَنَ الآياتِ﴾ لبيان الجنس، ويجوز أن تكون للتبعيض، ويصح أن يكون: ﴿نتْلوهُ عليْكَ﴾ حالاً، ويكون الخبر في قوله: ﴿مِنَ الآياتِ﴾، وعلى قول

الكوفيين يكون قوله: ﴿نتلوه﴾ صلةً لذلك، على حدّ قولهم في بيت ابن مفرغ الحميري[١]:

. . . . وهـــذا تحمليـــن طليـــق

ويكون الخبر في قوله: ﴿مِنَ الآياتِ﴾. وقول البصريين في البيت: إن «تحملين» حال، التقدير: وهذا محمولاً. و﴿نتلوه﴾ معناه: نسرده، و﴿مِنَ الآيات﴾ ظاهره آيات القرآن، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿مِنَ الآياتِ﴾ مِن المعجزات والمستغربات أن تأتيهم بهذه الغيوب من قِبلنا، وبسبب تلاوتنا وأنت أمّي لا تقرأ. ولستَ ممن صحبَ أهل الكتاب. فالمعنى: إنها آيات لنبوتك. وهذا الاحتمال إنما يتمكَّنُ مع كون (نتلوه) حالاً.

و﴿الذِّكْر﴾ ما ينزل من عند الله، ﴿الْحَكيم﴾ يجوز أن يتأول بمعنى المُحْكم، وهو فعيل بمعنى مفعول، ويحتمل أن يتأول بمعنى مصرِّح بالحكمة، فيكون بناءَ اسم فاعل. قال ابن عباس: ﴿الذِّكر﴾: القرآن، و﴿الحكيم﴾: الذي قد كمل في حكمته.

وذكر ابن عباس وقتادة وعكرمة والسدي وغيرهم، قالوا: سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عيسى عندَ اللهِ﴾ . . . . الآية أن وفد نصارى نجران جادلوا النبي ﷺ في أمر عيسى وقالوا: بلغنا أنك تشتم صاحبنا وتقول: هو عبد، فقال النبي ﷺ: وما يضر ذلك عيسى، أجل هو عبد الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، فقالوا: فهل رأيت بشراً قط جاء من غير فحل أو سمعت به؟ وخرجوا من عند النبي فأنزل الله عليه هذه الآية[٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَل﴾ عبَّر عنه بعض الناس بأنه صفة عيسى، وقرنوا ذلك بقوله تعالى: ﴿مثلُ الجنَّة﴾[٣] قالوا: معناه: صفة الجنة. وهذا عندي ضعف في

---

(١) شاعر عاش في العصر الأموي، اسمه يزيد بن ربيعة بن مفرغ، (الشعر والشعراء: ٢٧٦، والأغاني ١٧: ٥١، والخزانة ٢: ٢١٠، ٥١٤، وأمالي الزجاجي: ٢٢٩) والبيت بتمامه:

عـــدس، مـــا لعبّـــادٍ عليـــك إمـــارةٌ نجـوْتِ، وهـــذا تحمليـــن طليـــق

يخاطب بغلته، وعدس: كلمة لزجر البغل.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم والبغوي في التفسير عن ابن عباس وذكر الشوكاني (فتح القدير ١: ٣١٦) أن هذه القصة رويت على وجوه عن جماعة من التابعين.

(٣) من الآية (٣٥). من سورة الرعد.

فهم معنى الكلام ، وإنما المعنى: إن المثل الذي تتصوره النفوس والعقول من عيسى؛ هو كالمتصور من آدم ، إذ الناس كلهم مجمعون على أن الله تعالى خلقه من تراب من غير فحل ، وكذلك مثل الجنة عبارة عن المتصور منها، وفي هذه الآية صحة القياس، أي: إذا تُصُوِّرَ أمر آدم؛ قيس عليه جوازُ أمر عيسى عليه السلام. والكاف في قوله: ﴿كَمَثَلِ﴾ اسم على ما ذكرناه من المعنى ، وقوله: ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ عبارة عن الحق في نفسه ، أي: هكذا هو الأمر فيما غاب عنكم. وقوله: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ﴾ تفسير لمثل آدم الذي ينبغي أن يُتصور، والمثل والمثال بمعنى واحد ، ولا يجوز أن يكون ﴿خَلَقَه﴾ صلةً لآدم ولا حالاً منه، قال الزجّاج: إذ الماضي لا يكون حالاً أنت فيها، بل هو كلام مقطوع منه ، مضمنه تفسير المثل.

وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ قال﴾ ترتيب للأخبار لمحمد ﷺ، المعنى: خلقه من تراب ثم كان من أمره في الأزل أن قال له: كن وقت كذا ، وعلى مذهب أبي علي الفارسي في أن القول مجازي، مثل «وقال قطني»(١) وأن هذه الآية عبارة عن التكوين ، فـ ﴿ثُمَّ﴾ على بابها في ترتيب الأمرين المذكورين ، وقراءة الجمهور: (فيكونُ) بالرفع على معنى: فهو يكون. وقرأ ابن عامر: [فيكونَ] بالنصب ، وهي قراءة ضعيفة الوجه ، وقد تقدم توجيهها آنفاً في مخاطبة مريم.

وقوله تعالى: ﴿الحقُّ مِن ربِّكَ﴾ رفع على الابتداء، وخبره فيما يتعلق به قوله: ﴿من ربك﴾، أو الحق ذلك ، أو ما قلنا لك، ويجوز أن يكون خبر ابتداء ، تقديره هذا الحق. و﴿المُمْتَرِينَ﴾ هم الشاكُّون ، والمِرية: الشك. ونُهي النبي ﷺ في عبارة اقتضت ذم الممترين ، وهذا يدل على أن المراد بالامتراء غيره ، ولو قيل: فلا تكنْ ممترياً لكانت هذه الدلالة أقل، ولو قيل: فلا تمتر لكانت أقل ونُهي عليه السلام عن الامتراء مع بعده عنه على جهة التثبيت والدوام على حاله.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حاجَّك فيهِ﴾ معناه: جادلك ونازعك الحجة ، والضمير في قوله تعالى: ﴿فيه﴾ يحتمل أن يعود على عيسى ، ويحتمل أن يعود على الحق. و ﴿العِلْم﴾ الذي أشير إليه بالمجيء هو ما تضمنته هذه الآيات المتقدمة من أمر عيسى.

---

(١) إشارة إلى الرجز المتقدم في ص ٢٢٤ من هذا الجزء:

امتـــلأ الحـــوض وقـــال قطْنـــي ... مهــلاً رويــداً قــد مــلأت بطنــي

وقوله تعالى: ﴿فقُلْ تَعالَوا﴾ . . . الآية، استدعاء المباهلة، و﴿تَعالَوا﴾ تفاعلوا من العلو، وهي كلمة قصد بها أولاً تحسين الأدب مع المدعوّ ثم اطردت حتى يقولها الإنسان لعدوه وللبهيمة ونحو ذلك. و﴿نَبْتَهِل﴾ معناه: نلتعن ، ويقال: عليهم بهلة الله بمعنى اللعنة[١]، والابتهال: الجدّ في الدعاء بالبهلة.

وروي في قصص هذه الآية: أنها نزلت بسبب محاجّة نصارى نجران في عيسى عليه السلام وقولهم: هو الله ، وكانوا يكثرون الجدال ، وقد روى عبد الله بن الحارث بن جزء السوائي[٢] عن النبي عليه السلام أنه قال: (ليت بيني وبين أهل نجران حجاباً، فلا أراهم ولا يروني)[٣] لشدة ما كانوا يمارون، فلما قرأ النبي ﷺ الآية دعاهم إلى ذلك. فروى الشعبي وغيره أنهم وعدوه بالغد أَن يلاعنوه ، فانطلقوا إلى السيد والعاقب فتابعاهم على أن يلاعنوا ، فانطلقوا إلى رجلٍ آخر منهم عاقل فذكروا له ما صنعوا فذمَّهم وقال لهم: إن كان نبياً ثم دعا عليكم هلكتم ، وإِن كان ملكاً فظهر عليكم لم يُبق عليكم ، قالوا: فكيف نصنع وقد واعدناه؟ قال: إذا غدوتم فدعاكم إلى ذلك فاستعيذوا بالله من ذلك ، فعسى أن يعفيكم؛ فلما كان الغد غدا رسول الله ﷺ محتضناً حسيناً آخذاً بيد الحسن ، وفاطمة تمشي خلفه ، فدعاهم إلى الميعاد ، فقالوا: نعوذ بالله ، فأعاد فأعادوا التعوذ ، فقال النبي ﷺ: فإِن أبيتم فأسلموا ، فإِن أبيتم فأعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، فإِن أبيتم فإِني أنبذ إليكم على سواء ، قالوا: لا طاقة لنا بحرب العرب ، ولكنا نؤدي الجزية قال: فجعل عليهم كلَّ سنة ألفي حلةٍ (ألفاً في رجب وألفاً في صفر) ، وطلبوا منه رجلاً أميناً يحكم بينهم، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح[٤] وقال عليه السلام: (لقد أتاني البشير بهلكة أهل نجران لو تموا على الملاعنة)[٥].

---

(١) في حديث مروي عن أَبي بكر: (من وَلِيَ من أمور الناس شيئاً فلم يُعطهم كتاب الله فعليه بَهْلَةُ الله) . والمعنى: عليه لعنة الله.

(٢) هو عبد الله بن الحارث بن جزءٍ بن عبد الله الزبيدي، حليف أَبي وداعة السهمي ، له صحبة ، سكن مصر ، رَوَى عن النبي ﷺ أحاديث ، وعنه المصريون ومن آخرهم يزيد بن أَبي حبيب ، وهو آخر من مات بمصر من الصحابة وذلك سنة: ٨٦هـ بعد أَن عمي. (الإِصابة. ٢: ٢٩١. والذي في تفسير الطبري: عبد الله بن الحارث الزبيدي ـ بدلاً من: السوائي.

(٣) انظر تفسير الطبري ٣: ٢١٣.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن حذيفة (فتح القدير ١ : ٣١٦ ، وتفسير ابن كثير١ : ٣٦٩).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٣: ٢٩٩.

وروى محمد بن جعفر بن الزبير وغيره: أن رسول الله ﷺ لما دعاهم قالوا: دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نفعل ، فذهبوا إلى العاقب وهو ذو رأيهم فقالوا: يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: يا معشر النصارى ، والله لقد عرفتم أن محمداً لنبيٌّ مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم عيسى ، ولقد علمتم مالاعن قومٌ قط نبياً فبقي كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم ، وإنه الاستئصال إن فعلتم ، فإن أبيتم إلا إلف دينكم وما أنتم عليه من القول في صاحبكم؛ فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم حتى يريكم الزمان رأيه. فأتوا النبي عليه السلام فقالوا: يا أبا القاسم ، قد رأينا ألا نلاعنك وأن نبقى على ديننا ، وصالحوه على أموال وقالوا له: ابعثْ معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم في أشياء قد اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رضى. وروى السدي وغيره أَن النبي عليه السلام جاء هو وعلي وفاطمة والحسن والحسين ودعاهم فأبوا وجزعوا، وقال لهم أحبارهم: إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم ناراً، فصالحوا النبيّ ﷺ على ثمانين ألف درهم في العام ، فما عجزت عنه الدراهم ففي العروض: الحلة بأربعين، وعلى أن عليهم ثلاثاً وثلاثين درعاً، وثلاثة وثلاثين بعيراً وأربعاً وثلاثين فرساً عارية كلَّ سنة ، ورسول الله ﷺ ضامن لذلك حتى يؤديها إليهم. وقال رسول الله ﷺ: (لو لاعنوا لاستُؤصلوا من جديد الأرض)(١)، وقال أيضاً: (لو فعلوا لاضطرم عليهم الوادي ناراً)(٢). وروى علباء بن أحمر اليشكري(٣) قال: لمانزلت هذه الآية، أرسل محمد ﷺ إلى علي وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين ودعا اليهودَ(٤) لِيُلاعنهم ، فقال شاب من اليهود: ويحكم ، أليس عهدكم بالأمس بإخوانكم الذين مسخوا قردة وخنازير؟ فلا تلاعنوا، فانتهوا. وفي هذه القصة اختلافات للرواة وعبارات تجري كلها في معنى ما ذكرناه، لكنا قصدنا الإيجاز.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، عن قتادة. (٣: ٣٠٠. وجديد الأرض: وجه الأرض.

(٢) أخرجه الحاكم ، وأبو نعيم في «الدلائل عن جابر ، ورواه الحاكم أيضاً من وجه آخر عن جابر. (فتح القدير للشوكاني. ١: ٣١٦).

(٣) هو علباءُ بن أحمر اليشكري البصري ، أحد القراء ، له اختيار ، رَوَى عن عكرمة مولى ابن عباس ، وعمرو بن أخطب ، وروى عنه أبو علي الرحبي ، وداود بن الفرات ، والحسين بن واقد ، وغيرهم. له في مسلم حديث واحد ، ذكره ابن حبان في الثقات ، (تهذيب التهذيب. ٧: ٢٧٣).

(٤) كذا قال هنا ، مع أن الظاهر أنهم نصارى ، فهذه رواية غريبة. لكن قتادة روى أن الدعوة إلى كلمة سواء كانت مع اليهود كما جاء في صفحة ٢٤٤ من هذا المجلد.

وفي ترك النصارى الملاعنة لعلمهم بنبوة محمد، شاهد عظيم على صحة نبوته ﷺ، وما روي من ذلك خير مما روى الشعبي من تقسيم ذلك الرجل العاقل فيهم أمر محمد بأنه إما نبي وإما ملك، لأن هذا نظر دنياوي[1]، وما روى الرواة من أنهم تركوا الملاعنة لعلمهم بنبوته؛ أَحجُّ لنا على سائر الكفرة، وأَليقُ بحالِ محمد ﷺ. ودعاء النساء والأبناء للملاعنة أهزّ للنفوس، وأدعى لرحمة الله، أو لغضبه على المبطلين. وظاهر الأمر أن النبيّ ﷺ جاءهم بما[2] يخصه، ولو عزموا؛ استدعى المؤمنين بأبنائهم ونسائهم، ويحتمل أنه كان يكتفي بنفسه وخاصته فقط.

قوله عز وجل:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

هذا خبر من الله تعالى جَزْمٌ مؤكدٌ فَصَلَ به بين المختصمين، والإشارةُ بـ(هَذَا) هي إلى ما تقدَّم في أمر عيسى عليه السلام، قاله ابن عباس وابن جريج وابن زيد وغيرهم.

و﴿الْقَصَصُ﴾ معناه: الإخبار، تقول: قص يقصّ قصاً وقصصاً، إذا تتبع الأمر يخبر به شيئاً بعد شيء، قال قوم: هو مأخوذ من: قصّ الأثر. وقوله: ﴿لَهُوَ﴾ يحتمل أن يكون فصلاً، ويحتمل أن يكون ابتداء، و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ إِلَهٍ﴾ مؤكِّدة بعد النفي، وهي التي يتم الكلام دونها لكنها تعطي معنى التأكيد، وقوله تعالى: ﴿فإِن اللهَ عليمٌ بالمُفسْدينَ﴾ وعيد.

واختلف المفسرون؛ من المراد بقوله: ﴿قُلْ يا أهْلَ الكتابِ تعالَوا﴾؟ فقال قتادة: ذُكر لنا أن رسول الله ﷺ: دعا يهودَ المدينة إلى الكلمة السواء، وهم الذين حاجّوا في إبراهيم، وقاله الربيع وابن جريج. وقال محمد بن جعفر بن الزبير: نزلت الآية في وفد نجران، وقاله السدي. وقال ابن زيد: لما أبى أهلُ نجران ما دُعُوا إليه من الملاعنة،

---

(١) زيادة الألف في النسب هنا جائزة.

(٢) في بعض النسخ (من) وهو الصواب.

دعوا إلى أيسرَ من ذلك، وهي الكلمة السواء.

والذي يظهر لي أن الآية نزلت في وفد نجران، لكن لفظ أهلِ الكتاب يعمهم وسواهم من النصارى واليهود، فدعا النبيُّ ﷺ بعد ذلك يهودَ المدينة بالآية، وكذلك كتب بها إلى هرقل عظيم الروم، وكذلك ينبغي أن يُدْعَى بها أهل الكتاب إلى يوم القيامة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿إلى كَلِمةٍ﴾ بفتح الكاف وكسر اللام، وروى أبو السمال: [كَلْمة] ـ بفتح الكاف وسكون اللام ـ. وروي عنه أنه قرأ: [كِلْمة] ـ بكسر الكاف وسكون اللام ـ وذلك على إلقاء حركة اللام على الكاف، كما قالوا في كَبِد: كِبْد بكسر الكاف وسكون الباء. والكلمة هنا عبارة عن الألفاظ التي تتضمن المعاني المدعو إليها، وهي ما فسره بعد ذلك بقوله: ﴿أَلاّ نعْبُدَ﴾.... الآية، وهذا كما تسمي العرب القصيدة كلمة، وجمهور المفسرين على أن الكلمة هي ما فسر بعد، وقال أبو العالية: الكلمة السواء: لا إله إلا الله، والقولان مجتمعان، لأن كل ما فسر ينطبق عليه معنى: لا إله إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿سَواءٍ﴾ نعت للكلمة. قال قتادة والربيع وغيرهما: معناه: إلى كلمة عدل، فهذا معنى السواء، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: [إلى كلمةٍ عدلٍ بيننَا وبيْنَكُم] كما فسر قتادة والربيع، وقال بعض المفسرين: معناه: إلى كلمة قصد. وهذا قريب في المعنى من الأول، والسواء والعدل والقصد مصادر وُصِفَ بها في هذه التقديرات كلها.

والذي أقوله في لفظة ﴿سَواءٍ﴾ أنها ينبغي أن تفسَّر بتفسيرٍ خاصّ بها في هذا الموضع، وهو أنه دعاهم إلى معانٍ، جميعُ الناسِ فيها مستوون، صغيرهم وكبيرهم. وقد كانت سيرة المدعوين أن يتخذَ بعضهم بعضاً أرباباً فلم يكونوا على استواءِ حال، فدعاهم بهذه الآية إلى ما تألفه النفوس [من حق][1] لا يتفاضل الناس فيه، فسواء ـ على هذا التأويل ـ بمنزلة قولك لآخر: هذا شريكي في مال سواء بيني وبينه. والفرق بين هذا التفسير وبين تفسير اللفظة بعدل، أنك لو دعوت أسيراً عندك إلى أن يسلم أو تضرب

---

(١) ما بين معقفين زيادة عن بعض النسخ.

عنقه، لكنت قد دعوته إلى السواء الذي هو العدل ، وعلى هذا الحد جاءت لفظة ﴿سَواءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ ﴾[١] على بعض التأويلات ، ولو دعوت أسيرك إلى أن يؤمن فيكون حراً مقاسماً لك في عيشك ، لكنت قد دعوته إلى السواء الذي هو استواء الحال على ما فسرته. واللفظة على كل تأويل فيها معنى العدل[٢] ، ولكني لم أر لمتقدمٍ أن يكون في اللفظة معنى قصد استواء الحال ، وهو عندي حسن ، لأن النفوس تألفه ، والله الموفق للصواب برحمته.

وقوله: ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ﴾ يحتمل أن يكون في موضع خفض بمعنى: إلى ألا نعبد ، فذلك على البدل من (كلمة)، ويحتمل أن يكون في موضع رفع بمعنى: هي ألا نعبد، وما ذكره المهدوي وغيره من أن تكون مفسرة إلى غير ذلك من الجائزات التي يلزم عنها رفع ﴿نَعْبُدُ﴾ إكثارٌ منهم فاختصرته. واتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً هو على مراتب ، أعلاها اعتقادهم فيهم الألوهية ، وعبادتهم لهم على ذلك ، كعزير وعيسى بن مريم ، وبهذا فسر عكرمة ، وأدنى ذلك طاعتهم لأساقفتهم ورؤسائهم في كل ما أمروا به من الكفر والمعاصي والتزامهم طاعتهم شرعاً ، وبهذا فسر ابن جريج. فجاءت الآية بالدعاء إلى ترك ذلك كله ، وأن يكون الممتثل ما قاله الله تعالى على لسان نبيه ﷺ[٣].

وقوله تعالى: ﴿فقُولوا اشْهَدُوا بأَنَّا مُسْلِمونَ﴾ أمر بالإعلان بمخالفتهم ومواجهتهم بذلك، وإشهادهم على معنى التوبيخِ والتهديد، أي: سترون أنتم أيها المتولون عاقبة توليكم كيف تكون.

---

(١) من الآية: (٥٨) من سورة الأنفال.

(٢) هذا ما سبق أَن نقله ابن عطية عن قتادة ، والربيع ـ وقد وافقهما الزجاج على أَنها من استوى الشيءُ ، وقد قال زهير:

أَرونـــي خُطـــةً لا ضَيْـــمَ فيهـــا يسَـــوِّي بيننـــا فيهـــا السَّـــواءُ

ومعنى الآية إذاً: إلى كلمةٍ عادلةٍ بيننا وبينكم. قال أَبو عبيدة: تقول العرب: قد دعاك فلان إِلى سواءٍ فأقبل منه.

(٣) في قوله تعالى: ﴿ولا يَتَّخذَ بَعْضُنا بعضاً. . .﴾ إشارة لطيفة ، وهي أَن البعضية تنافي الإِلهية ، إذ هي تماثُل في البشرية ، وما كان مثلك استحال أَن يكون إِلهاً لك ، وإِذا كانوا قد استبعدوا اتباع من شاركهم في البشرية للاختصاص بالنبوة في قولهم: ﴿إِنْ أَنتم إِلاَّ بشرٌ مثلنا﴾، ﴿أَنُؤمن لبشرٍ مثلنا﴾ ﴿إِنْ هو إِلاَّ بشَرٌ مثلُكُم﴾ فادعاء الإِلهيّة فيهم ينبغي أَن يكونوا فيه أَشد استبعاداً. والله أعلم.

قوله عز وجل:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾.

اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية، فقال ابن عباس: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند النبي عليه السلام فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله الآية. وقال السدي وقتادة، وحكى الطبري عن مجاهد وقتادة أيضاً أنهما قالا: نزلت الآية بسبب دعوى اليهود أنه منهم وأنه مات يهودياً، وجعل هذا القول تحت ترجمة مفردة له.

والصحيح أن جميع المتأولين إنما نحوا منحى واحداً، وأن الآية في اليهود والنصارى، وألفاظ الآية تعطي ذلك، فكيف يدافع أحدٌ أحدَ الفريقين عن ذلك؟ وهذه الآية مبينة فساد هذه الدعاوى التي لا تشبه[1] لقيام الدليل القاطع على فسادها، لأنهم ادعوا لإبراهيم الخليل نحلاً لم تحدث في الأرض، ولا وجدت إلا بعد موته بمدة طويلة، ولما كان الدليل عقلياً؛ قال الله تعالى لهم موبخاً: ﴿أفلا تَعْقِلونَ﴾؟.

واختلف القراء في قوله: ﴿هاأَنتُم﴾ في المد والهمز وتركه، فقرأ ابن كثير: [هأنتم] في وزن هعنتم[2]، وقرأ نافع وأبو عمرو: [هانتم]؟ استفهاماً بلا همز، وقرأ الباقون: ﴿ها أنتم﴾ ممدوداً مهموزاً، ولم يختلفوا في مدّ ﴿هؤلاء﴾ و ﴿أولاء﴾. فوجه قراءة ابن كثير أنه أبدل من همزة الاستفهام الهاء، أراد: أأنتم، ووجه قراءة نافع وأبي عمرو أحد أمرين، يجوز أن تكون ـ ها ـ التي للتنبيه دخلت على ـ أنتم ـ ويكون التنبيه داخلاً على الجملة، كما دخل على قولهم: هلم، وكما دخلت «يا» التي للتنبيه في قوله: ﴿ألا يا سجدوا﴾[3]، وفي قول الشاعر:

يا قاتل الله صبياناً تجيءُ بهم ... أم الهُنَيِّدِ من زندٍ لها واري[4]

---

(١) شبه عليه الأمر: أبهمه.

(٢) في بعض النسخ: وزن فعلتم.

(٣) من الآية: (٢٥) من سورة النمل.

(٤) البيت للقتال الكلابي، عبد الله بن المضرحي أحد شعراء القتال في العصر الأموي، (الشعر والشعراء: =

وقول الآخر(١):

يـــا لعنـــة الله والأقـــوامِ كلِّهـــم والصالحين على سمعانَ من جارِ

وخففت الهمزة من ﴿أَنتُم﴾ ولم تحقق بعد الألف ، كما قالوا في هباءة: هباة ، ويجوز أن تكون الهاء في [هانتم] بدلاً من همزة الاستفهام ، كوجه قراءة ابن كثير ، وتكون الألف هي التي تدخل بين الهمزتين ، لتفصل بينهما. ووجه قراءة الباقين ﴿ها أنتم﴾ مهموزاً ممدوداً يحتمل الوجهين اللذين في قراءة نافع وأبي عمرو ، وحققوا الهمزة التي بعد الألف ، ولم يخففوها كما خففها أبو عمرو ونافع ، ومن لم ير إلحاق الألف للفصل بين الهمزتين كما يراه أبو عمرو فينبغي أن تكون ها في قوله للتنبيه، ولا تكون بدلاً من همزة الاستفهام ، وأما ﴿هؤلاء﴾ ففيه لغتان ، المد والقصر ، وقد جمعهما بيت الأعشى في بعض الروايات(٢):

هـــؤلاء ثـــم هـــؤلاء قـــد أعْطيـــــتُ نعـــالاً محـــذوّةً بنعـــالِ

وأما إعراب: ﴿هأَنتُم هؤُلاءِ﴾ فابتداء وخبر ، و﴿حاجَجْتُم﴾ في موضع حال لا يستغنى عنها ، وهي بمنزلة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ﴾(٣). ويحتمل أن يكون ﴿هؤلاءِ﴾ بدلاً أو صفة ويكون الخبر ﴿حاجَجْتُم﴾ وعلى مذهب الكوفيين ﴿حاجَجْتُم﴾ صلة لهؤلاء ، والخبر في قوله: ﴿فلِمَ تُحاجُّونَ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فيما لكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي على زعمكم، وإنما المعنى فيما تُشَبَّه فيه دعواكم، ويكون الدليل العقلي لا يرد عليكم، وفسر الطبري هذا الموضع بأنه فيما لهم به علم من جهة كتبهم وأنبائهم، مما أَيقنوه وثبت عندهم صحته؛ وذهب عنه رحمه الله أَن ما كان هكذا فلا يحتاج معهم فيه إلى محاجّة ، لأنهم يجدونه عند محمد ﷺ ، كما كان هنالك على حقيقته ، وباقي الآية بين.

= ٥٩١ والأغاني ٢٠: ١٥٨ والخزانة ٣: ٦٦٧؛ وانظر ديوانه (بيروت١٩٦١) ص: ٥٧ وروايته: أم الهنيبر (واللسان والتاج: هنبر ، زند) والزند: كنى به هنا عن الرحم.

(١) ورد في الخزانة ٤: ٤٧٩ (دون نسبة).

(٢) انظر ديوان الأعشى: ١١.

(٣) من الآية (٨٥) من سورة البقرة.

قوله عز وجل:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ .

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن حقيقة أمر إبراهيم، فنفى عنه اليهوديةَ والنصرانيةَ والإشراكَ الذي هو عبادة الأوثان، ودخل في ذلك الإشراكُ الذي تتضمنه اليهودية والنصرانية. وجاء ترتيب النفي على غاية الفصاحة: نَفَى نفسَ المِلل وقرَّرَ الحالة الحسنة، ثم نَفَى نفياً بيَّنَ به أن تلك الملل فيها هذا الفساد الذي هو الشرك، وهذا كما تقول: ما أخذت لك مالاً بل حفظته، وما كنت سارقاً، فنفيتَ أقبح ما يكون في الأخذ.

ثم أخبر تعالى إخباراً مؤكداً أن أولى الناس بإبراهيم الخليل عليه السلام، هم القوم الذين اتبعوه على ملته الحنيفية؛ وهنا يدخل كلُّ من اتبع الحنيفية في الفترات، وهذا النبيُّ محمد ﷺ، لأنه بعث بالحنيفية السمحة، و﴿النَّبِيّ﴾ في الإعراب نعتٌ، أو عطف بيان، أو بدل، وفي كونه بدلاً نظر. ﴿والَّذين آمنوا﴾ يعني بمحمد ﷺ وسائر الأنبياء على ما يجب دون المحرّفين المبدلين. ثم أخبر أن الله تعالى ﴿وليُّ الْمُؤْمنينَ﴾ وعداً منه لهم بالنصرفي الدنيا والنعيم في الآخرة.

والحنيف[1] مأخوذ من الحنف، وهو الاستقامة، وقيل: هو الميل، ومنه قيل للمائل الرجل: أحنف، فالحنيف من الاستقامة معناه: المستقيم، ومن الميل معناه: المائل عن معوج الأَديان إلى طريق الحق. واختلفت عبارة المفسرين عن لفظة الحنيف حتى قال بعضهم: الحنيف: الحاج، وكلّها عبارة عن الحنف بأجزاء منه كالحج وغيره. وأسند الطبريّ عن عبد الله بن عمر عن أبيه، أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعهُ، فلقي عالماً من اليهود، فسأله عن دينه، وقال له: إني أريد أن أكون على دينكم، فقال اليهودي: إنك لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله، قال زيد: ما أفرُّ إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنا أستطيع، فهل تدلني على دين ليس فيه هذا؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون

(١) تعرضت هذه اللفظة لدراسات كثيرة في العصر الحديث قام بها عرب ومستشرقون.

حنيفاً ، قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، وكان لا يعبد إلا الله. فخرج من عنده فلقيَ عالماً من النصارى فقاوله بمثل مقاولة اليهودي ، إلا أن النصراني قال: بنصيبك من لعنة الله ، فخرج من عنده وقد اتفقا له على دين إبراهيم، فلم يزل رافعاً يديه إلى الله ، وقال: اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم ، وروى عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: (لكل نبيء ولاة من النبيين وإن وليي منهم أبي وخليل ربي إبراهيم ، ثم قرأ ﴿إنَّ أوْلى النَّاسِ بإبراهيمَ﴾ . . . . الآية[1]).

قوله عز وجل:

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ .

أخبر الله تعالى عن طائفة أنها تود وتشتهي أن تضِلَّ المسلمين، أي تتلفهم في دينهم وتجعلهم في ضلال ، ثم فسر الطائفة بقوله: ﴿مِنْ أهلِ االكتابِ﴾ فيحتمل «مِنْ» أن تكون للتبعيض ، وتكون الطائفة الرؤساءَ والأحبار الذين يسكنُ الناس إلى قولهم ، ويحتمل أن تكون لبيان الجنس، وتكون الطائفة جميع أهل الكتاب.

وقال الطبري: ﴿يضلونكم﴾ معناه: يهلكونكم ، واستشهد ببيت جرير[2]:

كنتَ القذى في موج أخضرَ مُزْبدٍ   قذفَ الأَتيُّ به فضلَّ ضلالا

وقول النابغة[3]:

فآب مُضِلُّوه بعينٍ جلية . . . البيت

---

(١) أَخرجه سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، وصححه عن ابن مسعود. (فتح القدير للشوكاني. ١: ٣١٩).

(٢) البيت للأَخطل يهجو به جريراً. والقذى: ما يعلو الماءَ من الزبد والغثاءِ. والأَتيُّ: السيل يأْتي من بلد بعيد. وقد وردت رواية أُخرى للبيت وهي:
كنْتَ القذى في موج اكْدَرَ مُزْبدٍ. . . . (البيت).

(٣) البيت للنابغة الذبيانِي يرثي النعمان بن الحارث بن أَبي شمر الغساني، وتمامه:
. . . . وغـودِرَ بـالجـولانِ حـزمٌ ونـائِـلُ
والأصح «مصلوه» بالصاد المهملة.

وهذا تفسير غير خاص باللفظة، وإنما اطرد له لأن هذا الضلال في الآية وفي البيتين اقترن به هلاك، وأما أن تفسر لفظة الضلال بالهلاك فغير قويم(١).

وقوله تعالى: ﴿وَما يُضِلُّون إلاَّ أَنْفُسَهم﴾ إعلام بأن سوء فعلهم عائد عليهم، وأنهم ببعدهم عن الإسلام هم الضالون، ثم أعلم أنهم لا يشعرون لذلك أي لا يتفطنون، مأخوذ من الشعار المأخوذ من الشعر، وقيل: المعنى: لا يشعرولا يشعرون أَنهم لا يصلون إلى إضلالكم.

ثم وقفهم تعالى موبخاً لهم على لسان نبيه ﷺ، والمعنى: قل لهم يا محمد: لأيّ سبب تكفرون بآيات الله التي هي آيات القرآن؛ وأنتم تشهدون أن أمره وصفة محمد الذي هو الآتي به في كتابكم؟ قال هذا المعنى قتادة وابن جريج والسدي. وتحتمل الآية أن يريد بالآيات ما ظهر على يدي محمد عليه السلام من تعجيز العرب والإعلام بالغيوب وتكلم الجمادات وغير ذلك؛ و﴿تَشْهَدُون﴾ ـ على هذا ـ تكون بمعنى تحضرون وتعاينون. والتأويل الأول أقوى لأنه روي أن أهل الكتاب كانوا قبل ظهور محمد ﷺ يخبرون بصفة النبي الخارج وحاله، فلما ظهر كفروا به حسداً، فإخبارهم المتقدم لظهوره هو الشهادة التي وقفوا عليها. قال مكي: وقيل: إن هذه الآيات عُني بها قريظة والنضير وبنو قينقاع ونصارى نجران.

وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَلْبِسون الْحَقَّ﴾ معناه: تخلطون، تقول: لَبَست الأمر ـ بفتح الباء ـ بمعنى خلطته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾(٢) وتقول: لبِستُ الثوب ـ بكسر الباء. قال ابن زيد: الحق الذي لبسوه هو التوراة المنزلة، والباطل الذي لبسوه به هو ما كتبوه بأيديهم ونسبوهُ إلى التوراة. وقال ابن عباس: الحق إسلامهم بكرة، والباطل كفرهم عشية؛ والآية نزلت في قول عبد الله بن الصيف وعدي بن زيد والحارث بن عوف(٣): تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وجه النهار،

---

(١) ذكر أَبو حيان في البحر المحيط: أَن غير ابن عطية قال: «أَصل الضلال في اللغة: الهلاك من قولهم: ضل اللبن في الماءِ إذا صار مستهلكاً فيه. وقيل: معناه: يوقعونكم في الضلال، ويلقون إليكم ما يشككونكم به في دينكم. قاله أَبو علي».

(٢) من الآية (٩) من سورة الأنعام.

(٣) عبد الله بن الصيف وعدي، من أحبار بني قينقاع؛ وفي سيرة ابن هشام: ابن صيف، ويقال: ابن =

ونكفر آخره، عسى أن نلبس على المسلمين أمرهم. وقال قتادة وابن جريج: ﴿لِمَ تَلْبِسُون الحقَّ بالباطِلِ﴾ لم تخلطون اليهودية والنصرانية بالإسلام، وقد علمتم أن دين الله الذي لا يقبل غيره الإسلام؟ فكأنَّ المعنى على هذا: لم تبقون على هذه الأديان وتوجدونها فيكون في ذلك لبس على الناس أجمعين؟ قال بعض المفسرين: الحق الذي لبسوه قولهم: محمد نبي مرسل، والباطل الذي لبسوه به؛ قول أحبارهم: لكن ليس إلينا، بل ملةُ موسى مؤبّدة.

وقوله تعالى: ﴿وتَكْتُمون الحقَّ وأَنْتُم تعْلَمونَ﴾ يريد شأن محمد ﷺ، كذلك قال الربيع وابن جريج وقتادة وغيرهم. وفي قوله: ﴿وأَنْتُم تعْلَمون﴾ توقيف على العناد ظاهر؛ قال أبو إسحق الزجاج: ولو قيل: «وتكتموا الحق» لجاز على قولك: لم تجمعوا ذا وَذا؟ على أَنَّ [تكتُموا] في موضع نصب على الظرف[1] في قول الكوفيين، وبإِضمار «أَن» في قول أصحابنا. قال أبو علي: الظرف ها هنا يقبح، وكذلك إِضمار «أَن» لأنّ ﴿تكتمون﴾ معطوف على موجب مقرّر، وليس بمستفهم عنه، وإِنما استفهم عن السبب في اللبس، واللبس موجب، فليست الآية بمنزلة قولهم: أتأكل السمك وتشرب اللبن؟ وبمنزلة قولك: أتقوم فأقوم؟ والعطف على الموجب المقرر قبيح متى نصب، إلا في ضرورة شعر كما روي:

. . . . وأَلحَق بالحجازِ فأَستريحا[2]

وقد قال سيبويه في قولك: أَسرتَ حتى تدخلَ المدينة؟ لا يجوز إلا النصب في «تدخل» لأن السير مستفهم عنه غير موجب، وإذا قلت: أيهم سار حتى يدخُلُها؟ رفعت، لأنَّ السير موجب والاستفهام إنما وقع عن غيره.

= ضيف، وفي بعض نسخ تفسير ابن عطية: الضيف، وعند القرطبي: مالك بن الصيف. أما الحارث فكان من أحبار بني قريظة.

(١) في بعض النسخ «على الصرف» ـ وهو أن تعطِفَ الواو ما لا يستقيم أن يُعاد فيه الحادث الذي فيما قبله. ولعلها أقرب إلى الصواب.

(٢) البيت للمغيرة بن حبناء الحنظلي، وصدره: سأترك منزلي لبني تميم (الخزانة ٣: ٦٠٠).

قوله عز وجل:

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾.

أخبر تعالى في هذه الآية أن طائفة من اليهود من أحبارهم ذهبت إلى خديعةِ المسلمين بهذا المنزع، قال الحسن: قالت ذلك يهود خيبر ليهود المدينة، قال قتادة وأبو مالك[1] والسدي وغيرهم: قال بعض الأحبار: لِنُظهر الإيمانَ لمحمد صدرَ النهار ثم لنكفرْ به آخرَ النهار، فسيقول المسلمون عند ذلك: ما بال هؤلاء كانوا معنا ثم انصرفوا عنا؟ ما ذلك إلا لأنهم انكشفت لهم حقيقةٌ في الأمر فيشكُّون، ولعلهم يرجعون عن الإيمان بمحمد ﷺ. ولما كانت الأحبار يُظَنُّ بهم العلم وجودة النظر والاطلاع على الكتاب القديم، طمعوا أن تنخدعَ العربُ بهذه النزعة ففعلوا ذلك: جاءوا إلى النبي ﷺ بكرة فقالوا: يا محمد أنت هو الموصوف في كتابنا، ولكن أمهلنا إلى العشيِّ حتى ننظر في أمرنا، ثم رجعوا بالعشي فقالوا: قد نظرنا ولستَ به.

﴿وَجْهَ﴾ على هذا التأويل منصوبٌ بقوله: ﴿آمنوا﴾ والمعنى: أظهروا الإيمان في وجه النهار، والضمير في قوله: ﴿آخِرَهُ﴾ عائد على النهار.

وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: نزلت الآية، لأن اليهود ذهبت إلى المكر بالمؤمنين، فصلوا مع النبي ﷺ صلاة الصبح، ثم رجعوا آخر النهار فصلوا صلاتهم ليرى الناسُ أنهم بدتْ لهم منه ضلالة بعد أن كانوا اتبعوه. وهذا القول قريب من القول الأول.

وقال جماعة من المفسرين: نزلت هذه الآية في أمر القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ صلى صلاة الصبح إلى الشام كما كان يصلي، ثم حُوِّلَتِ القبلة فصلَّى

---

(١) هو أَبو مالك الغفاري غزوان الكوفي، روَى عن عمار بن ياسر، وابن عباس، والبراءِ بن عازب، وغيرهم، وروَى عنه سلمةُ بن كُهيل، وإسماعيل السدي. وغيرهما.

قال ابن أَبي خيثمة: سأَلت ابن معين عن أَبي مالك الذي رَوى عنه حصين فقال: هو الغفاري، كوفي ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات ـ «تهذيب التهذيب ٨: ٢٤٥».

الظهر ـ وقيل العصر ـ إلى مكة ، فقالت الأحبار لتبّاعهم وللعرب: آمنوا بالذي أنزل في أول النهار واكفروا بهذه القبلة الأخيرة.

والعامل في قوله: ﴿وجْهَ النَّهارِ﴾ ـ على هذا التأويل ـ قوله: ﴿أُنْزِلَ﴾، والضمير في قوله: ﴿آخِرَه﴾ يحتمل أن يعود على النهار أو يعود على ﴿الَّذي أُنْزِلَ﴾. و﴿يَرْجعونَ﴾ ـ في هذا التأويل ـ معناه: عن مكة إلى قبلتنا التي هي الشام ، كذلك قال قائل هذا التأويل. و﴿وَجْه النهار﴾ أوله الذي يواجه منه ، تشبيهاً بوجه الإنسان ، وكذلك تقول: صدر النهار وغرة العام والشهر ، ومنه قول النبي عليه السلام: (أقتَلْتَه في غُرة الإسلام)[١]؟ ومن هذا بقول الربيع بن زياد العبسي[٢]:

مَـنْ كـان مسـروراً بمقْتَـل مـالـكٍ   فليـأتِ نِسْـوتنـا بـوجـهِ نهـارِ
يجـدِ النسـاءَ حـواسِـراً ينـدبنـه   قـد قُمْـنَ قبـل تبلُّـجِ الأَسحـار

يقول هذا في مالك بن زهير بن جذيمة العبسي[٣] وكانوا قد أخذوا بثأره، وكان القتيل عندهم لا يُناحُ عليه ولا يندب إلا بعد أخذ ثأره.

فالمعنى: مَنْ سرَّه مصابنا فيه فلينظرْ إلى ما يدله على أنّا قد أدركنا ثأره، فيكمد لذلك ويغتم، من استعارة الوجه قولهم: فعلتُ كذا على وجه الدهر، أي في القديم.

وذكر الله تعالى عن هذه الطائفة من أهل الكتاب أَنهم قالوا: ﴿وَلاَ تُؤْمِنوا إلاَّ لِمَنْ تَبعَ دينَكُم﴾ ولا خلاف بين أهل التأويل أَن هذا القول هو من كلام الطائفة.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿أن يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتم أو يُحَاجُوكُمْ﴾ فقال مجاهد وغيره من أهل التأويل: الكلام كله من قول الطائفة لأَتباعهم ، وقوله تعالى: ﴿قلْ إنَّ الهُدى هُدى اللهِ﴾ اعتراضٌ بين الكلامين.

---

(١) روى البخاري الحديث برواية أُخرى في كتاب «الديات» عن أُسامة أنه قال: (بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة قال: فصبحنا القوم فهزمناهم ، إلى أن قال: (أقتلته بعد ما قال: لا إله إلاّ الله؟)... الحديث.

(٢) الربيع بن زياد بن عبد الله العبسي ، مشهور في الجاهلية ، كان ينادم النعمان بن المنذر ، ويقال: أَحد الكملة ، ولم أَر من ذكر أَنه أَدرك الإسلام إلا الرشاطي. (الإصابة ٥٢٩).

(٣) وردت قصة مالك بن زهير في حرب «داحس والغبراء» ، وذلك أَن قيس بن زهير قتل ابناً لحذيفة فقتل حذيفة مالكاً أَخا قيس بعد ما استفرد به. وحرب «داحس والغبراء» مشهورة بين حروب العرب في الجاهلية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والكلام على هذا التأويل يحتمل معاني أحدها: ولا تصدقوا تصديقاً صحيحاً وتؤمنوا إلا لمن جاء بمثل دينكم كراهة أو مخافة أو حذاراً أن يؤتى أحدٌ من النبوة والكرامة مثلَ ما أوتيتم، وحذاراً أن يحاجوكم بتصديقهم إياهم عند ربكم إذا لم تستمروا عليه. وهذا القول على هذا المعنى ثمرةُ الحسدِ والكفر، مع المعرفة بصحّةِ نبوة محمد ﷺ.

ويحتمل أن يكون التقدير، «أَلاَّ يُؤْتى» فحذفت «لا» لدلالة الكلام، ويحتمل الكلام أن يكون معناه: ولا تصدقوا وتؤمنوا بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لمن تبع دينكم وجاء بمثله وعاضداً له، فإن ذلك لا يؤتاه غيركم، ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عندَ ربِّكم﴾ بمعنى: إلا أن يحاجوكم، كما تقول: أنا لا أتركك أو تقتضيني حقي. وهذا القول على هذا المعنى ثمرة التكذيب بمحمد ﷺ على اعتقادِ منهم أن النبوة لا تكون إلا في بني إسرائيل.

ويحتمل الكلام أَنْ يكون معناه: ولا تؤمنوا بمحمد وتقروا بنبوته إذ قد علمتم صحتها إلا لليهود الذين هم منكم، و﴿أَن يُؤْتى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتُم﴾ صفة لحالِ محمد، فالمعنى: تستروا بإقراركم أنْ قد أوتي أحد مثل ما أوتيتم، أَو فإنهم ـ يعنون العرب ـ يحاجوكم بالإقرار عند ربكم.

قال أبو علي: و﴿تُؤمنوا﴾ تعدى بالباء المقدرة في قوله: ﴿أَنْ يُؤْتى﴾ كما تعدى أول الآية في قوله: ﴿بِالّذي أُنْزِل﴾. واللام في قوله: ﴿لِمَنْ تَبِعَ﴾ لا يسهل أن تعلق بـ ﴿تُؤْمِنوا﴾ وأنت قد أوصلته بالباء فتعلق بالفعل جارّين، كما لا يستقيم أن تعدّيه إلى مفعولين إذا كان لا يتعدى إلا إلى واحد. وإنما يحمل أمر هذه اللام على المعنى، والمعنى: لا تقروا بأن الله يؤتي أحداً مثل ما أوتيتم إلا لمن، فهذا كما تقول: أقررتُ لزيد بألف، فتكون اللام متعلقة بالمعنى ولا تكون زائدة على حدّ ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾[1] ولا تتعلق على حد المفعول. قال أبو علي: وقد تعدى ﴿آمَن﴾ باللام في

---

(١) من الآية (٤٣) من سورة يوسف.

قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾[١] وقوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾[٢] وقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]. و﴿أَحَدٌ﴾ إنما دخل في هذا الكلام بسبب النفي الواقع في قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ كما دخلت «مِن» في قوله: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[٤] فكما دخلت «من» في صلة ﴿أَن يُنَزَّلَ﴾ لأنه مفعول النفي اللاحق لأول الكلام، فكذلك دخل ﴿أَحَدٌ﴾ في صلة ﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ﴾ لدخول النفي في أول الكلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا لأن أحداً الذي فيه الشياع لا يجيء في واجب من الكلام، لأنه لا يفيد معنى.

وقرأ ابن كثير وحده بين السبعة: [آنْ يُؤْتى] بالمد على جهة الاستفهام الذي هو تقرير. وفسّر أبو علي قراءة ابن كثير على أن الكلام كله من قول الطائفة، إلا الاعتراض الذي هو: ﴿قُلْ إِنَّ الهُدى هُدى اللهِ﴾ فإنه لا يختلف أنه من قول الله تعالى لمحمد ﷺ قال: فلا يجوز مع الاستفهام أن يحمل: ﴿أَنْ يُؤْتى﴾ على ما قبله من الفعل، لأن الاستفهام قاطع، فيجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ في موضع رفع بالابتداء، وخبره محذوف تقديره: تصدقون به أو تعترفون أو تذكرونه لغيركم، ونحو هذا مما يدل عليه الكلام، ويكون ﴿يُحَاجُّوكُم﴾ ـ على هذا ـ معطوفاً على ﴿أَنْ يُؤْتى﴾. قال أبو علي: ويجوز أن يكون موضع «أن» منصوباً، فيكون المعنى: أتشيعون أو أتذكرون ﴿أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مثلَ ما أُوتيتم﴾ ويكون ذلك بمعنى قوله تعالى عنهم: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾[٥]، فعلى كلا الوجهين معنى الآية توبيخ من الأحبار للأتباع على تصديقهم بأن محمداً نبي مبعوث، ويكون قوله تعالى: ﴿أَوْ يُحاجُّوكم﴾ في تأويل نصب ﴿أَنْ﴾ أي: أو تريدون أن يحاجوكم؟ قال أبو علي: و﴿أَحَدٌ﴾ على قراءة ابن كثير هو الذي يدل على الكثرة[٦]، وقد منع الاستفهام القاطع من أن يشفع لدخوله النفي الذي في أول

---

(١) من الآية (٨٣) من سورة يونس.
(٢) من الآية (٧١) من سورة طه.
(٣) من الآية (٦١) من سورة التوبة.
(٤) من الآية (١٠٥) من سورة البقرة.
(٥) من الآية (٧٦) من سورة البقرة.
(٦) راجع البحر المحيط ج٢/٤٩٦ فالكلام هنا يعطي معنى غير المقصود.

الكلام، فلم يبق إلا أن يقدّر أنه «أحد» الذي في قولك: «أحد وعشرون»، وهو يقع في الإيجاب لأنه بمعنى واحد، وجمع ضميره في قوله: ﴿أَوْ يحاجُّوكُم﴾ جمعاً على المعنى، إذ لـ ﴿أَحد﴾ المراد بمثل النبوة أتباع، فهو في معنى الكثرة. قال أبو علي: وهذا موضع ينبغي أن ترجح فيه قراءةُ غيرِ ابن كثير على قراءة ابن كثير، لأن الأَسماء المفردة ليس بالمستمر أَن تدل على الكثرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

إلا أن «أحداً» في مثل النبوة يدل عليها من حيث يقتضي الأَتباع.

وقرأ الأعمش وشعيب بن أبي حمزة: [إِنْ يُؤْتى] بكسر الهمزة بمعنى: لم يعطَ أحد مثلَ ما أعطيتم من الكرامة، وهذه القراءة يحتمل أن يكون الكلام خطاباً من الطائفة القائلة، ويكون قولها: ﴿أَوْ يحاجُّوكم﴾ بمعنى: أو فليحاجوكم. وهذا على التصميم على أَنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتي، ويحتمل أن تكون بمعنى: إلا أن يحاجوكم، وهذا على تجويز أَن يؤتى أحد ذلك إذا قامت الحجةُ له، فهذا ترتيب التفسير والقراءات على قول من قال: الكلام كله من قول الطائفة.

وقال السدي وغيره: الكلام كله من قوله: ﴿قلْ إِنَّ الهُدَى هُدَى اللهِ﴾ . . . إلى آخر الآية، هو مما أُمِرَ به محمد عليه السلام أن يقوله لأمته. وحكى الزجاجُ وغيره أَن المعنى: قل إن الهدى هو هذا الهدى، لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم. وحكي عن بعض النحويين أَن المعنى: «أَلاَّ يؤتى أحد»، وحذفت «لا» لأن في الكلام دليلاً عليها، كما في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾[1] أي أَلاَّ تضلوا. وحكي عن أبي العباس المبرد: لا تحذف «لا» وإنما المعنى كراهة أَن تضلوا، وكذلك هنا: كراهة أن يؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم، أي ممن خالف دين الإسلام، لأن الله لا يهدي من هو كاذب كفار، فهدى الله بعيد من غير المؤمنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتبعد من هذا القول قراءة ابن كثير بالاستفهام والمد، وتُحْمَلُ عليه قراءة الأعمش وابن أبي حمزة: ﴿إِنْ يُؤْتَى﴾ بكسر الألف، كأنه عليه السلام يخبر أمته أن الله لا يعطي

(١) من الآية (١٧٦) من سورة النساء.

أحداً ولا أعطى فيما سلف مثل ما أعطى أمة محمد عليه السلام من كونها وسطاً، ويكون قوله تعالى: ﴿أو يُحَاجُّوكم﴾ ـ على هذه المعاني التي ترتبت في قول السدي ـ يحتمل معنيين، أحدهما: أو فليحاجوكم عند ربكم، يعني اليهود، فالمعنى: لم يعط أحد مثل حظكم وإلا فيحاجوكم من ادعى سوى ذلك. والمعنى الثاني: أن يكون قوله: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُم﴾ بمعنى التقرير والإزراء باليهود، كأنه قال: أو هل لهم أَن يحاجوكم أو يخاصموكم فيما وهبكم الله وفضَّلكم به؟

وقوله: ﴿هُدَى اللهِ﴾ على جميع ما تقدم خبر ﴿إنّ﴾؛ وقال قتادة والربيع: الكلام من قوله: ﴿قلْ إنَّ الهُدى هُدَى اللهِ﴾ إلى آخر الآية، هو مما أمر به محمد عليه السلام أن يقوله للطائفة التي قالت: ﴿ولا تُؤْمنوا إلاَّ لِمَنْ تَبِع دِينَكُم﴾، وتتفق مع هذا القول قراءة ابن كثير بالاستفهام والمد، وتقدير الخبر المحذوف ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾: «حسدتم وكفرتم»، ويكون قوله: ﴿أو يحاجوكم﴾ محمولاً على المعنى، كأنه قال: أتحسدون أو تكفرون لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم؟ أو يحاجوكم على ما أوتوه فإنه يغلبونكم بالحجة. وأَما على قراءة غير ابن كثير بغير المد فيحتمل [ذلك](١) أن يكون بمعنى التقرير بغير حرف استفهام، وذلك هو الظاهر من لفظ(٢) قتادة فإنه قال: يقول: لما أنزل الله كتاباً مثل كتابكم وبعث نبياً مثل نبيكم حسدتموهم على ذلك. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿أَنْ يُؤْتى﴾ بدلاً من قوله: ﴿هُدَى اللهِ﴾ ويكون المعنى: قل إن الهدى هدى الله، وهو أن يؤتى أحد كالذي جاءنا نحن. ويكون قوله: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُم﴾ بمعنى: أو فليحاجوكم، فإنه يغلبونكم. ويحتمل قوله: ﴿أن يؤتى﴾ خبر ﴿إنّ﴾ ويكون قوله: ﴿هُدَى الله﴾ بدلاً من ﴿الهدى﴾، وهذا في المعنى قريب من الذي قبله. وقال ابن جريج: قوله تعالى: ﴿أن يؤتى﴾ هو من قول محمد ﷺ لليهود، وتمَّ الكلامُ في قوله: ﴿أوتيتم﴾. وقوله تعالى: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُم﴾ متصلٌ بقول الطائفة: ﴿وَلاَ تُؤْمنوا إلاَّ لِمن تَبِعَ دينَكم﴾، وهذا القول يفسر معانيه ما تقدم في قول غيره من التقسيم والله المستعان.

وقرأ ابن مسعود: [أَنْ يُحاجُّوكُم] بدل ﴿أَوْ﴾ وهذه القراءة تلتئم مع بعض المعاني التي تقدمت، ولا تلتئم مع بعضها.

---

(١) ما بين معقفين زيادة من بعض النسخ.

(٢) في بعض النسخ: من قول.

وقوله: ﴿عِنْدَ ربِّكُم﴾ يجيء في بعض المعاني على معنى «عند ربكم في الآخرة»، ويجيء في بعضها على معنى «عند كتب ربكم والعلم الذي جعل في العباد»، فأضاف ذلك إلى الربّ تشريفاً، وكأن المعنى: أو يحاجوكم عند الحق.

وقرأ الحسن: [إنْ يُؤْتِي أَحَدٌ]، بكسر الهمزة والتاء، على إسناد الفعل إلى ﴿أَحَدٌ﴾ والمعنى: إن إنعام الله لا يشبهه إنعام أحد من خلقه. وأظهرُ ما في هذه القراءة أن يكون خطاباً من محمد عليه السلام لأمته، والمفعول محذوف تقديره: إن يؤتي أحد أحداً.

قوله عز وجل:

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾.

في قوله تعالى: ﴿قلْ إنَّ الفضْلَ بِيَدِ اللهِ﴾ إلى قوله: ﴿العظيم﴾ تكذيب لليهود في قولهم: «نبوة موسى مؤبدة، ولن يؤتي الله أحداً مثل ما أتى بني إسرائيل من النبوة والشرف»، وسائر ما في الآية من لفظة ﴿واسِعٌ﴾ وغير ذلك قد تقدم نظيره.

ثم أخبر تعالى عن أهل الكتاب أَنهم قسمان في الأمانة، ومقصد الآية ذمُّ الخونة منهم، والتفنيدُ لرأيهم وكذبهم على الله في استحلالهم أموال العرب. وفي قراءة أبي بن كعب: [تِيمَنْهُ] بتاء وياء في الحرفين وكذلك: [تيمنّا][1] في يوسف، قال أبو عمرو الداني: وهي لغة تميم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وما أراه إلا لغة قرشية، وهي كسرُ نون الجماعة كَنِسْتعين، وألف المتكلم كقول ابن عمر: لا إخاله، وتاءِ المخاطب كهذه الآية، ولا يكسرون الياء في الغائب وبها قرأ ابن كعب في: [تِيمَنّا] وابن مسعود والأشهب العقيلي وابن وثاب. وقد تقدم القول في القنطار في صدر السورة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يُؤَدِّهِ إليكَ﴾ بكسر الهاء التي هي ضمير القنطار، وكذلك

(١) في سورة يوسف الآية (١١) ﴿قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف﴾.

في الأخرى التي هي ضمير الدينار، واتفق أبو عمرو وحمزة وعاصم والأعمش على إسكان الهاء، وكذلك كل ما أشبهه في القرآن، نحو: [نصله جهنم][(١)] و[نؤْتِهْ] و[نُوَلِّهْ] إلا حرفاً حكي عن أبي عمرو أنه كسره، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾[(٢)]. قال أبو إسحق: وهذا الإسكان الذي روي عن هؤلاء غلطٌ بينٌ لأن الهاءَ لا ينبغي أن تجزم، وإذا لم تجزمْ فلا يجوزُ أن تسكن في الوصل. وأما أبو عمرو فأراه كان يختلس الكسرة فَغُلِطَ عليه، كما غلط عليه في ﴿بارئكم﴾ وقد حكى عنه سيبويه ـ وهو ضابط لمثل هذا ـ أنه يكسرُ كسراً خفيفاً.

والقنطار في هذه الآية: مثالٌ للمال الكثير يدخلُ فيه أكثر من القنطار وأقلّ، وأما الدينار فيحتمل أن يكون كذلك، مثالاً لما قلَّ، ويحتمل أن يريد طبقةً لا تخون إلا في دينار فما زاد، ولم يعن لذكر الخائنين في أقل إذ هم طغام حثالة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿دُمتَ﴾ بضم الدال، وقرأ ابن وثاب والأعمش وأبو عبد الرحمن السلمي وابن أبي ليلى والفياض بن غزوان[(٣)] وغيرهم: [دِمْتَ] [وَدِمتم] بكسر الدال في جميع القرآن، قال أبو إسحق: هو من قولهم: دِمْتَ تَدام مثل نِمْتَ تنامُ، وهي لغة. ودام معناه: ثبت على حال ما، والتدويم على الشيء الاستدارة حول الشيء، ومنه قول ذي الرمة[(٤)].

---

(١) في سورة النساء: الآية (١١٥) ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾.

(٢) من الآية (٢٨) من سورة النمل ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾.

(٣) هو فياض بن غزوان الضبي الكوفي مقرئ موثق، أخذ القراءة عرضاً عن طلحة بن مصرف وسمع من زبيد اليامي، قال الداني: ويروى عنه حروف شواذ من اختياره تضاف إليه، روى الحروف عنه طلحة بن سليمان السمان، وقرأ عليه القرآن بحروف طلحة بن مصرف، وروى عنه عبد الله بن المبارك، وعمر بن شعبان، ونعيم بن ميسرة، وثَّقه أحمد بن حنبل. «طبقات القراءِ لابن الجزري. ٢: ١٣».

(٤) صدر البيت:

مُعْـرَوْرِيـاً رمـض الـرَّضْـراضِ يَـرْكُضُـه . . . .

واعْرَوْرى: سار في الأَرض وحْدَه، والفرسَ ركبه عُرياناً. والرمض: شدة الحر.

والرضراض: الحصى الصغار، والتَّدويم: الدوران. يصف بذلك جندياً يركض ويضرب برجله الحصى والبيت من قصيدة أولها:

. . . . والشمس حيرى لها في الجوِّ تَدْويمُ

والدوام: الدوار يأخذ في رأس الإنسان فيرى الأشياء تدور له ، وتدور الطائر في السماء ، وهو ثبوتة إذا صف واستدار ، والماء الدائم وغيره هو الذي كأنه يستدير حول مركزه.

وقوله: ﴿قائماً﴾ يحتمل معنيين ، قال الزجاج وقتادة ومجاهد: معناه: قائماً على اقتضاءِ دينك؛ يريدون بأنواع الاقتضاء من الحفز والمرافعة إلى الحاكم ، فعلى هذا التأويل لا تراعى هيئة هذا الدائم ، بل اللفظة من قيام المرء على أشغاله ، أي اجتهاده فيها. وقال السدي وغيره: ﴿قائماً﴾ في هذه الآية معناه: قائماً على رأسه ، على الهيئة المعروفة ، وتلك نهاية الحفز ، لأن معنى ذلك أنه في صدر شغل آخر يريد أن يستقبله. وذهب إلى هذا التأويل جماعة من الفقهاء وانتزعوا من الآيات جواز السجن ، لأن الذي يقوم عليه غريمه فهو يمنعه من تصرفاته في غير القضاء ، ولا فرق بين المنع من التصرفات وبين السجن.

وهذه الآية وما بعدها نزلت فيما روي بسبب أن جماعةً من العرب كانت لهم ديون في ذمم قوم من أهل الكتاب ، فلما أسلم أولئك العرب قالت لهم اليهود: نحن لا نؤدّي إليكم شيئاً حين فارقتم دينكم الذي كنتم عليه ، فنزلت الآية في ذلك. وروي أَن بني إسرائيل كانوا يعتقدون استحلالَ أموالِ العرب لكونهم أهلَ أوثان ، فلما جاء الإسلامُ وأسلم من أسلم من العرب، بقي اليهود فيهم على ذلك المعتقد، فنزلت الآية حامية من ذلك. وقال رسول الله ﷺ: (أَلا كلُّ شيءٍ من أمر الجاهلية فهو تحت قدمي ، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر)[1].

= أعن ترسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجومُ

ومثل البيت الذي رواه ابن عطية قول علقمة في وصف الخمر:

تشفي الصُّداعَ ولا يؤذيك صالبها ولا يُخالطُها في الرأس تدويمُ

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم (عن سعيد بن جبير) انظر (فتح القدير ١ : ٣٢٢).

قوله عز وجل:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

الإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى كونهم لا يؤدون الأمانةَ في دينارٍ فما فوقه، على أحد التأويلين، والضمير في: ﴿قالُوا﴾ يعني به لفيفَ بني إسرائيل، لأنهم كانوا يقولون: نحن أهل الكتاب، والعرب أميون أصحاب أوثان، فأموالهم لنا حلالٌ متى قدرنا على شيءٍ منها لا حجة علينا في ذلك ولا سبيل لمعترض وناقد إلينا في ذلك. والأميون: القوم الذين لا يكتبون لأنهم لا يحسنون الكتابة، وقد مر في سورة البقرة اشتقاق اللفظ.

واستعارة السبيل هنا في الحجّة هو على نحو قول حميد بن ثور[١]:

وهـل أَنـا إِن علَّلـتُ نفسـي بسـرحـةٍ مـن السـرح مـوجـودٌ علـيَّ طـريـقُ؟

وقوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[٢] هو من هذا المعنى، وهو كثير في القرآن وكلام العرب. وروي أن رجلاً قال لابن عباس: إنا نمر في الغزو بأموال أهل الذمة فنأخذ منها الشاة والدجاجة ونحوها قال: وتقولون ماذا؟ قال نقول: ليس علينا بأس، فقال ابن عباس: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿ليْسَ عَلَيْنا في الأُمِّيينَ سبيلٌ﴾ إنهم إذا أدوا الجزية لم تحلَّ لكم أموالُهم إلا بطيب أنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيقُولُونَ علَى اللهِ الكذبَ وهُمْ يعلَمون﴾ ذمٌّ لبني إسرائيل بأنهم يكذبون على الله تعالى في غير ما شيء، وهم علماء بمواضع الصدق لو قصدوها، ومن أخطر ذلك أمر محمد ﷺ، هذا قول جماعة من المتأولين. وروي عن السدّي

(١) كنى بالسرحة ـ وهي الشجرة ـ عن امرأة. وعلل نفسه: شغلها (انظر ديوان حميد والإصابة ١: ٣١٦). وقد قال حميد هذه القصيدة بعد أن نهى عمر بن الخطاب الشعراء عن التشبيب بالنساء.

(٢) من الآية (٤١) من سورة الشورى.

وابن جريج وغيرهما أنَّ طائفةً من أهل الكتاب ادّعت أنَّ في التوراة إحلالَ الله لهم أموال الأُميين كذباً منها وهي عالمة بكذبها في ذلك، وقالا: والإشارة بهذه الآية إلى ذلك الكذب المخصوص في هذا الفصل.

ثم ردَّ الله تعالى في صدر قولهم: ﴿لَيْسَ علَيْنا﴾ بقوله: ﴿بلَى﴾ أي: عليهم سبيل وحجة وتباعة، ثم أخبر على جهة الشرط أَن من أوفى بالعهد واتقى عقوبة الله في نقضه، فإنه محبوب عند الله. وتقول العرب: وفىٰ بالعهد، وأوفى به بمعنى، وأوفى هي لغة الحجاز، وفسر الطبري وغيره على أن الضمير في قوله: ﴿بِعَهْدِهِ﴾ عائد على الله تعالى. وقال بعض المفسرين: هو عائد على ﴿مَنْ﴾. والقولان يرجعان إلى معنى واحد، لأن أمر الله تعالى بالوفاء مقترن بعهد كلِّ إنسان، وقال ابن عباس: ﴿اتَّقى﴾ في هذه الآية، معناه: اتقى الشرك، ثم خرج جواب الشرط على تعميم المتقين تشريفاً للتقوى وحضاً عليها.

وقوله تعالى: ﴿إنَّ الّذينَ يشْتَرون بعَهْدِ اللهِ﴾..... الآية، وعيد لمن فعل هذه الأفاعيل إلى يوم القيامة، وهي آية يدخل فيها الكفر فما دونه من جحد الحقوق، وختر المواثيق. وكل أحد يأخذ من وعيد الآية على قدر جريمته.

واختلف المفسرون في سبب نزولها ـ فقال عكرمة: نزلت في أحبار اليهود، أبي رافع وكنانة بن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف وحيي بن أخطب، تركوا عهد الله في التوراة للمكاسب والرياسة التي كانوا بسبيلها. وروي أنها نزلت بسبب خصومة الأشعث بن قيس[١] مع رجل من اليهود في أرض، فوجبت اليمين على اليهودي فقال الأشعث: إذن يحلف يا رسول الله ويذهب بمالي، فنزلت الآية[٢]. وروى أن

(١) هو الأَشعث بن قيس بن معد يكرب الكندي، يكنى أبا محمد، أمه كبشة بنت يزيد، قدم على رسول الله ﷺ: سنة عشر في وفد كندة وكان رئيسهم مطاعاً، وفي الإسلام وجيهاً، إلا أنه كان ممن ارتد عن الإسلام بعد النبي عليه الصلاة والسلام، ثم راجع الإسلام في خلافه أبي بكر الصديق، شهد القادسية، والمدائن، وجلولاءَ، ونهاوند، واختط بالكوفة داراً في كندة ونزلها وشهد تحكيم الحكمين، كان أَحد شهود الكتاب، توفي سنة ٤٢ وقيل: ٤٠ هـ بالكوفة وصلى عليه الحسن بن علي. «الإصابة». و«الاستيعاب».

(٢) أَخرجه البخاري، ومسلم، وأَهل السنن، وغيرهم عن ابن مسعود. قال: قال رسول الله ﷺ: (من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقطع بها مالَ امرىء مسلم) الحديث.

الأشعث بن قيس اختصم في أرض مع رجل من قرابته فوجبت اليمين على الأشعث، وكان في الحقيقة مبطلاً قد غصب تلك الأرضَ في جاهليته فنزلت الآية، فنكل الأشعث عن اليمين، وتحرج وأعطى الأرض وزاد من عنده أرضاً أخرى[1].

وروي أن الآية نزلت بسبب خصومة لغير الأشعث بن قيس. وقال الشعبي: نزلت الآية في رجل أقام سلعةً في السوق من أول النهار، فلما كان في آخره جاءه رجل فساومه فحلف حانثاً: لقد منعها في أول النهار من كذا وكذا ولولا المساء ما باعها، فنزلت الآية بسببه[2]، وقال سعيد بن المسيب: اليمين الفاجرة من الكبائر، ثم تلا هذه الآية. وقال ابن مسعود: كنا نرى ونحن مع نبينا أنَّ من الذنب الذي لا يغفر يمينَ الصبرإذا فجر فيها صاحبها، وقد جعل الله الأيمانَ في هذه الألفاظ مشتراة، فهي مثمونة أيضاً. والخلاق: الحظ والنصيب والقدر، وهو مستعمل في المستحبات.

وقال الطبري: ﴿ولا يُكَلِّمهُمُ الله﴾ معناه: بما يسرهم، وقال غيره: نفى تعالى أن يكلمهم جملة لأنه يكلم عباده المؤمنين المتقين. وقال قوم من العلماء: وهي عبارة عن الغضب؛ المعنى: لا يحفل بهم ولا يرضى عنهم. ﴿وَلاَ يُزَكِّيهم﴾ يحتمل معنيين، أحدهما: يطهرهم من الذنوب وأدرانها، والآخر: ينمي أعمالهم، فهي تنمية لهم، والوجهان منفيان عنهم في الآخرة، و﴿أَليمٌ﴾ فعيل بمعنى مُفعل، فالمعنى، مؤلم.

قوله عز وجل:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

الضمير في ﴿منهم﴾ عائد على أهل الكتاب؛ والفريق: الجماعة من الناس، هي مأخوذة من فرق إذا فصل وأبان شيئاً عن شيء. و﴿يَلْوُونَ﴾ معناه: يحرفون ويتحيلون بتبديل المعاني من جهة اشتباه الألفاظ واشتراكها وتشعب التأويلات فيها، ومثال ذلك قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾[3] ونحو ذلك، وليس التبديل المحض بِلَيٍّ،

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره عن ابن جريج. ٣: ٣٢٢.

(٢) أخرجه البخاري، وابن أبي حاتم عن عبد الله بن أبي أوفى. «تفسير ابن كثير: ١: ٣٧٦».

(٣) من الآية (٤٦) من سورة النساء.

وحقيقة اللّيّ في الثياب والحبال ونحوها: فتلها وإراغتها[١]، ومنه ليُّ العنق، ثم استعمل ذلك في الحجج والخصومات والمجادلات تشبيهاً بتلك الإراغةِ التي في الأجرام، فمنه قولهم: خصم ألْوى، ومنه قول الشاعر:

فلو كان في ليلى شذًى من خصومة   لَلَوَّيْتُ أعناق الخصوم الملاويا[٢]

وقال الآخر:

ألفيتني ألْوَى بَعِيدَ المُسْتَمَرْ[٣]

وقرأ جمهور الناس: ﴿يلْوُونَ﴾ مضارع لَوى، على وزن فعَلٍ بتخفيف العين، وقرأ أبو جعفر بن القَعقاع وشيبة بن نصاح: [يُلَوّون] بتشديد الواو وفتح اللام من لوَّى، على وزن فَعَّل بتشديد العين، وهو تضعيف مبالغة لا تضعيف تعدية. وقرأ حميد: [يَلُون] بضم اللام وسكون الواو، وهي في الأصل: ﴿يلوُن﴾ مثل قراءة الجماعة، فهمزت الواو المضمومة لأنها عرفها في بعض اللغات، فجاء ـ يلؤون ـ فنقلت ضمة الهمزة إلى اللام فجاء ﴿يلون﴾. والكتاب في هذا الموضع: التوراة، وضمير الفاعل في قوله: ﴿لِتَحْسَبوه﴾ هو للمسلمين.

وقوله: ﴿وما هُوَ مِن عِنْدِ الله﴾ نفى أن يكون منزّلاً كما ادّعوا، وهو من عند الله بالخلق والاختراع والإيجاد، ومنهم بالتكسب، ولم تعن الآية إلا لمعنى التنزيل فبطل تعلق القدرية بظاهر قوله: ﴿وما هُوَ مِن عِنْدِ اللهِ﴾. وقد تقدم نظير قوله تعالى: ﴿ويقُولونَ علَى اللهِ الكذبَ وهُمْ يعلَمونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ما كانَ لِبَشَرٍ﴾ معناه: لأحد من الناس. والبشر: اسم جنس يقع

---

(١) الإراغة: المخادعة، وهي مصدر: أراغ.

(٢) البيت لمجنون ليلى (ديوان: ٣١٣، واللسان: شذا، لوى) والشذا: الأذى، والملاويا: الثنايا الملتوية.

(٣) في المثل: «لتجدن فلاناً ألوى بعيد المستمر» (فصل المقال: ١٣١ والميداني ٢: ٩٤)، : وقيل: إن المثل للنعمان قاله في خالد بن معاوية السعدي، واستخدمه أرطاة بن سهية في رجز له:

إذا تخازرت وما بي من خزر   ثم كسرت العين من غير عور

ألفيتني ألوى بعيد المستمر

وروي في اللسان (خزر) لعمرو بن العاص، وانظر أيضاً المعاني الكبير: ٢٣٩؛ وهو مثل في شدة الخصومة واللجاجة.

للكثير والواحد، ولا مفرد له من لفظه، وهذا الكلام لفظه النفي التام كقول أبي بكر رضي الله عنه: ما كان لابن أبي قحافةَ أن يصلّي بين يدي رسول الله ﷺ[1]، وإنما يعلم مبلغها من النفي بقرينة الكلام الذي هي فيه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾[3] فهذا منتفٍ عقلاً، وأما آيتنا هذه فإن النفي فيها على الكمال لأنا نقطع أن الله تعالى لا يؤتي النبوءة للكذَبَة والمدّعين. و: ﴿الكتابَ﴾ في هذه الآية اسم جنس، ﴿والحُكْمَ﴾ بمعنى: الحكمة، ومنه قول النبي عليه السلام: (إنَّ من الشعر لحكماً)[4]، و﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يقولَ﴾ معطية تعظيم الذنب في القول، بعد مهلة من هذا الإنعام.

وقوله: ﴿عباداً﴾ هو جمع عبد، ومن جموعه عبيد وعِبِدَّى[5]. وقال بعض اللغويين: هذه الجموع بمعنى، وقال قوم: العباد لله، والعبيد والعِبِدَّى للبشر، وقال قوم: العِبِدَّى، إنما تقال في العبيد بني العبيد، وكأنه بناء مبالغة تقتضي الإغراق في العبودية. والذي استقريت في لفظة العباد: أنه جمع عبد متى سيقت اللفظة في مضمار الترفيع والدلالة على الطاعة دون أن يقترن بها معنى التحقير وتصغير الشأن؛ وانظر قوله تعالى: ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[6] وقول عيسى في معنى الشفاعة والتعريض لرحمة الله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾[7] فنوه بهم. وقال بعض اللغويين: إن نصارى الحيرة وهم عرب لما أطاعوا كسرى ودخلوا تحت أمره سمتهم العرب العباد، فلم ينته بهم إلى اسم العبيد. وقال قوم: بل هم قوم من العرب من قبائل شتى اجتمعوا وتنصّروا وسمّوا أنفسهم العباد، كأنه انتساب إلى عبادة الله. وأما العبيد فيستعمل في تحقير، ومنه قول امرىء القيس:

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والإمام أحمد وأبو داود والنسائي، (نيل الأوطار ٣: ١٥٧).

(٢) من الآية (١٤٥) من سورة آل عمران.

(٣) من الآية (٦٠) من سورة النمل.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود (عن ابن عباس) كما أخرجه أبو داود (عن بريدة) وهو ضعيف (الجامع الصغير ١: ٣٣١).

(٥) للفظة (عبد) جموع عدة، (راجع لسان العرب).

(٦) هي على الترتيب من السور والآيات؛ البقرة: ٢٠٧، الأنبياء: ٢٦، الزمر: ٥٣.

(٧) من الآية (١١٨) من سورة المائدة.

قــولا لـــدودانَ عبيــد العصـــى   مــا غــركــم بــالأســد البــاســل؟[١]

ومنه قول حمزة بن عبد المطلب: «وهل أنتم إلا عبيد لأبي»[٢]؟ ومنه قول الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾[٣] لأنه مكان تشفيق وإعلام بقلة انتصارهم ومقدرتهم، وأنه تعالى ليس بظلام لهم في ذلك. ولما كانت لفظة العباد تقتضي الطاعةَ لم تقع هنا، ولذلك أُنِس بها في قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾[٤]. فهذا النوع من النظر يسلك به سبل العجائب في ميز فصاحة القرآن العزيز على الطريقة العربية السليمة.

ومعنى قوله: ﴿كونوا عِباداً لي مِنْ دُونِ اللهِ﴾ اعبدوني واجعلوني إلهاً.

واختلف المفسرون إلى من هي الإشارة بقوله تعالى: ﴿ما كان لِبَشَرٍ﴾ ـ فقال النقاش وغيره: الإشارة إلى عيسى عليه السلام، والآية رادّةٌ على النصارى الذين قالوا: عيسى إله، وادَّعوا أَن عبادته هي شرعه ومستندة إلى أوامره. وقال ابن عباس والربيع وابن جريج وجماعة من المفسرين: بل الإشارة إلى محمد عليه السلام. وسبب نزول الآية: أن أبا رافع القرظي قال للنبي ﷺ حين اجتمعت الأحبار من يهود والوفد من نصارى نجران: يا محمد إنما تريد أن نعبدك ونتخذك إلهاً كما عَبدت النصارى عيسى، فقال الرئيس من نصارى نجران: أوَ ذلك تريد يا محمد وإليه تدعونا؟ فقال النبي ﷺ: (معاذ الله، ما بذلك أُمرت، ولا إليه دعوت)[٥] فنزلت الآية في ذلك. قال بعض العلماء: أرادت الأحبارُ أن تلزم هذا القول محمداً ﷺ، لما تلا عليهم: ﴿قل إنْ كُنْتُم تحبُّونَ اللهَ فاتَّبعوني﴾، وإنما معنى الآية: فاتبعوني فيما أدعوكم إليه من طاعة الله، فحرفوها بتأويلهم، وهذا من نوعِ ليّهم الكتاب بألسنتهم.

---

(١) البيت من قصيدة طويلة لامرئ القيس. ودودان: بطن من بطون بني أسد. وعبيد العصا: الذين يساقون بها ذِلَّةً وهواناً، وهو أول من لقبهم بهذا اللقب فلزمهم، والمراد بالأسد الباسل: الشاعر نفسه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب البيوع والمغازي واللباس، كما أخرجه مسلم في الأشربة، وأبو داود في الخراج، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده عن علي بن الحسين. «القسطلاني ٤: ٣٠».

(٣) من الآية (٤٦) من سورة فصلت.

(٤) من الآية (٥٣) من سورة الزُّمَر.

(٥) أخرجه ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس، (فتح القدير ١: ٣٢٤).

وقرأ جمهور القراء: ﴿ثم يقولَ﴾ بالنصب، وروى شبل[1] عن ابن كثير، ومحبوب[2] عن أبي عمرو: [ثم يقولُ] برفع اللام، وهذا على القطع وإضمار مبتدأ، وقرأ عيسى بن عمر: [عباداً ليَ] بتحريك الياء مفتوحة.

قوله عز وجل:

﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾.

المعنى: ولكن يقول: ﴿كُونُوا ربَّانِيِّينَ﴾ وهو جمع ربَّانيّ.

واختلف النحاة في هذه النسبة، فقال قوم: هو منسوب إلى الرب من حيث هو عالم علمه، العامل بطاعته، المعلم للناس ما أمر به؛ وزيدت الألف والنون مبالغةً كما قالوا: لحياني وشعراني في النسبة إلى اللحية والشعر. وقال قوم: الرباني منسوب إلى الربان وهو معلم الناس وعالمهم السائس لأمرهم، مأخوذ من ربَّ يربُّ إذا أصلح وربَّى، وزيدت فيه هذه النون كما زيدت في غضبان وعطشان، ثم نسب إليه رباني.

واختلف العلماء في صفة من يستحق أن يقال له: ربَّاني، فقال أبو رزين[3]

---

(١) شبل بن عباد المَكي القارىء، ثقة، ضابط، هو أَجل أَصحاب ابن كثير، مولده في سنة ٧٠ وتوفي قبل سنة ١٤٨. روى عن أَبي الطفيل، وابن كثير، وعباس بن سهل، وزيد بن أَسلم، وغيرهم. وعنه روى ابنه داود، وسعد بن إبراهيم، وابن المبارك، وابن عيينة وغيرهم. «طبقات القراءِ لابن الجزري». و«تهذيب التهذيب».

(٢) هو محمد بن الحسن بن هلال بن محبوب، أَبو بكر محبوب «وهو لقبه» البصري، مولى قريش، مشهور كبير، روى القراءة عن شبل بن عباد، ومسلم بن خالد، وأَبي عمرو بن العلاءِ، وعنه روى محمد بن يحيى القطعي، وخلف بن هشام، وروح بن عبد المؤمن، وحدث عنه أَحمد بن حنبل، ومحمد بن سنان، وأَخرج له البخاري. «طبقات القراءِ لابن الجزري. ٢: ١٢٣».

(٣) هو مسعود بن مالك أَبو رزين الأسدي مولى أبي وائل الكوفي، روى عن معاذ بن جبل، وابن مسعود، وعلي بن أَبي طالب، وغيرهم، وروى عنه ابنه عبد الله، وعاصم بن أَبي النجود، والأعمش، وغيرهم، شهد صِفين مع علي، كان عالماً، فهما، ثقة، وقع ذكره في البخاري في الحيض من صحيحه، أَرخ ابن قانع وفاتَه بسنة: ٨٥هـ وقال خليفة: مات بعد الجماجم. «تهذيب التهذيب. ١٠ ص: ١١٨». و«طبقات القراء لابن الجزري».

الرباني: الحكيم العالم، وقال مجاهد: الرباني: الفقيه، وقال قتادة وغيره: الرباني: العالم الجليل، وقال ابن عباس: هو الحكيم الفقيه، وقال الضحاك: هو الفقيه العالم، وقال ابن زيد: الربّاني: والي الأمر، يربّ الناس أي يصلحهم. فالربانيون: الولاة والأحبار والعلماء؛ وقال مجاهد: الرباني: فوق الحبر لأن الحبر هو العالم، والرباني هو الذي جمع إلى العلم والفقه البصرَ بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية وما يصلحهم في دينهم ودنياهم، وفي البخاري: الرباني: الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره. فجملة ما يقال في الرباني أنه العالم بالرب والشرع، المصيب في التقدير من الأقوال والأفعال التي يحاولها في الناس.

وقوله: ﴿بما كُنتُم﴾ معناه: بسبب كونكم عالمين دارسين، فـ ما مصدرية، ولا يجوز أن تكون موصولة، لأن العائد الذي كان يلزم لم يكن بد أن يتضمنه ﴿كُنتُم تُعَلّمون﴾، ولا يصح شيء من ذلك لأن كان قد استوفت خبرها ظاهراً وهو: ﴿تُعلّمون﴾، وكذلك ﴿تُعَلّمون﴾ قد استوفى مفعوله وهو ﴿الكتابَ﴾ ظاهراً، فلم يبق إلا أن ما مصدرية، إذ لا يمكن عائد، و: ﴿تُعَلِّمون﴾ بمعنى تعرِّفون، فهي متعدية إلى مفعول واحد.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: [تَعْلمون] بسكون العين وتخفيف اللام، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿تُعَلِّمون﴾ مثقلاً، بضم التاء وكسر اللام، وهذا على تعدية الفعل بالتضعيف، والمفعول الثاني على هذه القراءة محذوف، تقديره: تعلمون الناس الكتابَ. والقراءتان متقاربتا المعنى، وقد رجحت قراءة التخفيف بتخفيفهم ﴿تدرسُون﴾، وبأن العلم هو العلة التي توجب للموفق من الناس أن يكون ربانياً، وليس التعليم شرطاً في ذلك، ورجحت الأخرى بأن التعليم يتضمن العلم، والعلم لا يتضمن التعليم، فتجيء قراءة التثقيل أبلغ في المدح. ومن حيث العالم بحال من يعلم، فالتعليم كأنه في ضمن العلم. وقراءة التخفيف عندي أرجح.

وقرأ مجاهد والحسن: [تَعَلَّمون] بفتح التاء والعين وشدّ اللام المفتوحة. وقرأ جمهور الناس: [تدرُسون] بضم الراء، من دَرَسَ إذا أدمن قراءةَ الكتاب وكرره، وقرأ أبو حيوة: [تدرِسون] بكسر الراء، وهذا على أنه يقال في مضارع درس، يدرُس ويدرِس، وروي عن أبي حيوة أنه قرأ: [تُدَرِّسون]، بضم التاء وكسر الراء وشدها،

بمعنى: تدرِّسون غيركم. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي: [ولا يأمرُكم] برفع الراء، وكان أبو عمرو يختلس حركة الراء تخفيفاً، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة: [ولا يأمرَكم] نصباً، ولا خلاف في الراء من قوله: ﴿أيأمرُكم﴾ إلا اختلاس أبي عمرو، فمن رفع قوله: ﴿لا يأمُرُكم﴾، فهو على القطع. قال سيبويه: المعنى: ولا يأمركم الله، وقال ابن جريج وغيره: المعنى: ولا يأمركم هذا البشر الذي أوتي هذه النعم، وهو محمد ﷺ، وفي قراءة ابن مسعود: [ولَنْ يأمُركم] فهذه قراءة تدلُّ على القطع. وأما قراءة من نصب الراء فهي عطف على قوله: ﴿أَنْ يُؤْتِيَه﴾ والمعنى: ولا له أَن يأمركم، قاله أبو علي وغيره. وقال الطبري: قوله: ﴿ولا يأمرَكم﴾ ـ بالنصب ـ معطوف على قوله: ﴿ثمَّ يقولَ﴾؛ وهذا خطأ لا يلتئم به المعنى(1)، والأرباب في هذه الآية بمعنى الآلهة.

وقوله تعالى: ﴿أيأمُرُكُمْ بالكُفْر﴾ تقرير على هذا المعنى الظاهرِ فسادُهُ.

وقوله تعالى: ﴿وإِذْ أَخَذَ اللهُ ميثاقَ النَّبيِّينَ﴾... الآية، المعنى: واذكر يا محمد إذ، ويحتمل أن يكون أخذ هذا الميثاق حين أخرج بني آدم من ظهر آدم نسماً، ويحتمل أن يكون هذا الأخذ على كل نبي في زمنه ووقت بعثه، ثم جمع اللفظ في حكاية الحال في هذه الآية، والمعنى: إن الله تعالى أخذ ميثاق كل نبي بأنه يلتزم هو ومن آمن به الإيمانَ بمن أتى بعده من الرسل الظاهرة براهينهم، والنصرة له.

واختلف المفسرون في العبارة عن مقتضى ألفاظ هذه الآية ـ فقال مجاهد والربيع: إنما أَخذ ميثاق أهل الكتاب لا ميثاق النبيين، وفي مصحف أبي بن كعب وابن مسعود: [وإِذْ أَخَذَ الله ميثاق الذين أُوتوا الكتاب] قال مجاهد: هكذا هو القرآن، وإِثبات ﴿النبيين﴾ خطأ من الكُتَّاب. وهذا لفظ مردود بإجماع الصحابة على مصحف عثمان رضي الله عنه. وقال ابن عباس رضي الله عنه: إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم،

---

(1) وجه الخطأ أنه إذا كان معطوفاً على ﴿ثُمَّ يقولَ﴾ وكانت ﴿لا﴾ لتأسيس النفي فلا يمكن إلاَّ أن يقدر العامل قبل ﴿لا﴾ وهو (أن)، فينسبك من أن والفعل المنفي مصدر مُنتف فيصير المعنى، ما كان لبشر موصوف بما وصف به انتفاء أمر باتخاذ الملائكة والنبيين أَرباباً، وإذا لم يكن له الانتفاء كان له الثبوت فصار آمراً باتخاذهم أرباباً وهو خطأ، فإذا جعلت ﴿لا﴾ لتأكيد النفي السابق كان النفي منسحباً على المصدرين المقدر ثبوتهما فينتفي قوله: ﴿كونوا عباداً لي﴾، وأمره باتخاذ الملائكة والنبيين أَرباباً. راجع البحر المحيط ٢/ ٥٠٧.

فهو أخذٌ لميثاق الجميع. وقال طاوس: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما بعث الله نبياً ـ آدم فمن بعده ـ إلا أخذ عليه العهد في محمد؛ لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره بأخذه على قومه، ثم تلا هذه الآية، وقاله السدي، وروي عن طاووس أنه قال: صدر الآية أخذ الميثاق على النبيين، وقوله: ﴿ثُمَّ جاءَكُم﴾ مخاطبة لأهل الكتاب بأخذ الميثاق عليهم ـ حكاه الطبري، وهو قول يفسده إعراب الآية[1]. وهذه الأقوال كلها ترجع إلى ما قاله علي بن أبي طالب وابن عباس، لأن الأخذ على الأنبياء أخذ على الأمم.

وقرأ حمزة وغيره سوى السبعة: [لِما] بكسر اللام، وهي لام الجر، والتقدير: لأجل ما آتيناكم، إذ أنتم القادة والرؤوس، ومن كان بهذه الحال فهو الذي يؤخذ ميثاقه. وما في هذه القراءة بمعنى الذي الموصولة، والعائد إليها من الصلة تقديره: آتيناكموه، و﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس. وقوله: ﴿ثم جاءكم﴾... الآية، جملة معطوفة على الصلة، ولابد في هذه الجملة من ضمير يعود على الموصول، فتقديره عند سيبويه: رسول به مصدق لما معكم، وحذف تخفيفاً كما حذف الذي في الصلة بعينها لطول الكلام، كما قال تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾[2]؛ والحذف من الصلات كثير جميل، وأما أبو الحسن الأخفش فإن قوله تعالى: ﴿لِما مَعَكم﴾ هو العائد عنده على الموصول، إذ هو في المعنى بمنزلة الضمير الذي قدَّر سيبويه، وكذلك قال الأخفش في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3] لأن المعنى: لا يضيع أجرهم، إذ المحسنون هم من يتقي ويصبر، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[4] وكذلك ما ضارع هذه الآيات. وسيبويه رحمه الله لا يرى أن يضع المظهر موقع المضمر، كما يراه أبو الحسن. واللام في: ﴿لَتؤمِنُنَّ﴾ هي اللام المتعلقة للقسم الذي تضمنه أخذ الميثاق، وفصل بين القسم والمقسم عليه بالجار والمجرور، وذلك جائز.

---

(١) لأن الضمير في كلٍّ من آتَيْتُكُم وجاءكم يرجع إلى النبيين، أو الأتباع، وهذا القول يخصص الضمير في (جاءكم) لأهل الكتاب فقط.

(٢) من الآية (٤١) من سورة الفرقان.

(٣) من الآية (٩٠) من سورة يوسف.

(٤) من الآية (٣٠) من سورة الكهف.

وقرأ سائر السبعة ﴿لَما﴾ بفتح اللام، وذلك يتخرج على وجهين، أحدهما: أن تكون ما موصولة في موضع رفع بالابتداء، واللام لام الابتداء، وهي متلقية لما أجري مجرى القسم من قوله تعالى: ﴿وإِذْ أَخَذَ اللهُ ميثاقَ﴾، وخبر الابتداء قوله: ﴿لَتؤمِنُنَّ﴾ و﴿لَتُؤمِنُنَّ﴾ متعلق بقسم محذوف، والمعنى: والله لتؤمنن؛ هكذا قال أبو علي الفارسي، وفيه من جهة المعنى نظر إذا تأملتَ على أيّ شيءٍ وقع التحليف، لكنه متوجه بأن الحلف يقع مرتين تأكيداً، فتأمل. والعائد الذي في الصلة، والعائد الذي في الجملة المعطوفة على الصلة هنا في هذه القراءة هما على حدّ ما ذكرناهما في قراءة حمزة، أما أَن هذا التأويل يقتضي عائداً ثالثاً من الخبر الذي هو ﴿لَتُؤمِنُنَّ﴾ فهو قوله تعالى: ﴿به﴾ فالهاء من ﴿به﴾ عائدة على ﴿ما﴾، ولا يجوز أن تعود على ﴿رَسُول﴾ فيبقى الموصول حينئذ غير عائد عليه من خبره ذكر. والوجه الثاني الذي تتخرج عليه قراءة القراء ﴿لَما﴾ بفتح اللام، هو أن تكون ﴿ما﴾ للجزاء شرطاً، فتكون في موضع نصب بالفعل الذي بعدها وهو مجزوم، و﴿جاءَكُم﴾ معطوف في موضع جزم، واللام الداخلة على ما ليست المتلقية للقسم، ولكنها الموطئة المؤذنة بمجيء لام القسم فهي منزلة اللام في قوله تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[1] لأنها مؤذنة بمجيء المتلقية للقسم في قوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾، وكذلك هذه مؤذنة بمجيء المتلقية للقسم في قوله: ﴿لَتُؤمِنُنَّ به﴾، وهذه اللام الداخلة على ﴿إن﴾ لا يعتمد القسم عليها، فلذلك جاز حذفها تارة وإثباتها تارة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]. قال الزجاج: لأن قولك، والله لئن جئتني لأكرمنك، إنما حلف على فعلك[3]، لا أنّ الشرط معلق به، فلذلك دخلت اللام على الشرط، وما في هذا الوجه من كونها جزاء لا تحتاج إلى عائد لأنها مفعولة والمفعول لا يحتاج إلى عائد ذكر. والضمير في قوله تعالى: ﴿لَتُؤمِنُنَّ به﴾ عائد على ﴿رسول﴾، وكذلك هو على قراءة من كسر اللام، وأما الضمير في قوله: ﴿ولَتَنْصُرَنَّه﴾ فلا يحتمل بوجه إلا العودَ على ﴿رسول﴾، قال أبو علي في الإغفال: وجزاء الشرط

---

(١) من الآية (٦٠) من سورة الأحزاب.

(٢) من الآية (٧٣) من سورة المائدة.

(٣) لعل صحة الجملة: «إنما هو حلِفٌ على فعلك».

محذوف[١] بدلالة قوله: ﴿لتؤمِنُنَّ﴾ عليه. قال سيبويه: سألته ـ يعني الخليل ـ عن قوله تعالى: ﴿وإذْ أخَذَ اللهُ ميثاق النَّبيِّينَ لما آتيتُكم﴾ فقال: ما هنا بمنزلة الذي ودخلتها اللام كما دخلت على ﴿إن﴾ حين قلت: لئن فعلت لأفعلن، ثم استمر يفسر وجه الجزاء؛ قال أبو علي: أراد الخليل بقوله: هي بمنزلة الذي أنها اسم، كما أَن الذي اسم، ولم يرد أنها موصولة كالذي، وإنما فرَّ من أن تكون (ما) حرفاً كما جاءت حرفاً في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[٢] وفي قوله: ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[٣]. والله المستعان.

وحكى المهدوي ومكي عن سيبويه والخليل: إن خبر الابتداء فيمن جعل ما ابتداء على قراءة من فتح اللام هو في قوله: ﴿مِنْ كتابٍ وحِكْمة﴾ ولا أعرف من أين حكياه، لأنه مفسد لمعنى الآية، لا يليق بسيبويه والخليل؛ وإنما الخبر في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ كما قال أبو علي الفارسي ومن جرى مجراه كالزجاج وغيره.

وقرأ الحسن: [لَمَّا آتيناكم] بفتح اللام وشد الميم، قال أَبو إسحق: أي لمَّا آتاكم الكتاب والحكمة أخذ الميثاق، وتكون اللام تؤول إلى الجزاء، كما تقول: لمَّا جئتني أكرمتك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويظهر أن (لمّا) هذه هي الظرفية، أي: لما كنتم بهذه الحال رؤساءَ الناس وأماثلهم أخذ عليكم الميثاق، إذ على القادة يؤخذ، فيجيء هذا المعنى كالمعنى في قراءة حمزة.

وذهب ابن جني[٤] في [لما] في هذه الآية إلى أن أصلها «لمن ما»، وزيدت «من» في الواجب على مذهب الأخفش، ثم أدغمت، كما يجب في مثل هذا، فجاء (لَمّما)، فثقل اجتماع ثلاث ميمات فحذفت الميم الأولى فبقي «لمَّا». وتتفسر هذه القراءة على

---

(١) قال أبو (ح) ـ جواب الشرط لا يحذف إلا إذا كان من جنس جواب القسم المذكور ليدل عليه، إن قدرناه من جنسه وهو (يؤمنوا) خلت جملته من ضمير يعود على (ما) الشرطية. فتأمل.

(٢) من الآية (١١١) من سورة هود.

(٣) من الآية (٣٥) من سورة الزخرف.

(٤) المحتسب ١: ١٦٤.

هذا التوجيه المحلق تفسر ﴿لَما﴾ بفتح الميم مخففة، وقد تقدم. وقرأ نافع وحده: [آتيناكم] بالنون، وقرأ الباقون: ﴿آتيتكم﴾ بالتاء، و﴿رسول﴾ في هذه الآية اسم جنس، وقال كثير من المفسرين: الإشارة بذلك إلى محمد ﷺ، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿مُصَدِّقاً﴾ بالنصب على الحال.

قوله عز وجل:

﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

هذه الآية هي وصف توقيف الأنبياء على إقرارهم بهذا الميثاق والتزامهم له وأخذ عهد الله فيه، وذلك يحتملُ موطنَ القسم، ويحتمل أن يراد بهذه العبارة الجامعة وصفُ ما فعل مع كلِّ نبي في زمنه. ﴿وأَخَذْتُمْ﴾ في هذه الآية عبارة عما تحصَّل لهم من إيتاء الكتاب والحكمة، فمن حيث أَخذ عليهم أَخذوا هم أيضاً؛ وقال الطبري: أَخذتم في هذه الآية معناه: قبلتم، والإصر: العهد، لا تفسير له في هذا الموضع إلا ذلك. وقوله تعالى: ﴿فاشْهَدوا﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: فاشهدوا على أممكم المؤمنين بكم، وعلى أنفسكم بالتزام هذا العهد، هذا قول الطبري وجماعة، والمعنى الثاني: بينوا الأمر عند أممكم واشهدوا به. وشهادة الله تعالى على هذا التأويل وهي التي في قوله: ﴿وأَنا مَعَكُم مِن الشاهدين﴾ هي إعطاء المعجزات وإقرار نبواتهم، هذا قول الزجاج وغيره، فتأمل؛ القول الأول هو إيداع الشهادة واستحفاظها، والقول الثاني هو الأمر بأَدائها. وحكم الله تعالى بالفسق على من تولَّى من الأمم بعد هذا الميثاق، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره. ويحتمل أن يريد بعد الشهادة عند الأمم بهذا الميثاق على أن قوله: ﴿فاشْهَدوا﴾ أمر بالأداء.

وقرأ أبو عمرو: [يَبغون] بالياء مفتوحة، [وتُرجعون] بالتاء مضمومة، وقرأ عاصم [يَبْغون] و[يُرْجعون] بالياء معجمة من تحت فيهما، وقرأ الباقون بالتاء فيهما. ووجوه هذه القراءات لا تخفى بأدنى تأمل.

و﴿تَبْغُون﴾ معناه: تطلبون. و﴿أَسْلَم﴾ في هذه الآية بمعنى: استسلم عند جمهور المفسرين، و﴿مَن﴾ في هذه الآية تعمُّ الملائكة والثقلين.

واختلفوا في معنى قوله: ﴿طوعاً وكرهاً﴾ ـ فقال مجاهد: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[1]، فالمعنى أن إقرار كل كافر بالصانع هو إسلامٌ كرهاً. فهذا عموم في لفظ الآية، لأنه لايبقى من لا يسلم على هذا التأويل، و ﴿أَسْلَمَ﴾ فيه بمعنى استسلم، وقال بمثل هذا القول أبو العالية رفيع، وعبارته رحمه الله: كلُّ آدمي فقد أقر على نفسه بأن الله حيّ وأنا أعبده، فمن أشرك في عبادته فهذا الذي أسلم كرهاً، ومن أخلص فهذا الذي أسلم طوعاً. وقال ابن عباس: بل إسلام الكاره منهم كان حين أخذ الميثاق. وروي عن مجاهد أنه قال: الكره في هذه الآية هو بسجود ظلِّ الكافر، فيسجد المؤمن طوعاً ويسجد ظلّ الكافر وهو كاره. وقال الشعبي: الآية عبارة عن استقادة جميع البشر لله وإذعانهم لقدرته وإن نسب بعضهم الألوهية إلى غيره، وذلك هو الذي يسجد كرها؛ وهذا هو قول مجاهد وأبي العالية المتقدم وإن اختلفت العبارات. وقال الحسن بن أبي الحسن: معنى الآية أنه أسلم قوم طوعاً، وأسلم قوم خوف السيف. وقال مطر الوراق: أسلمت الملائكة طوعاً، وكذلك الأنصار وبنو سليم وعبد القيس، وأسلم سائر الناس كرهاً حذر القتال والسيف[2]. وهذا قولٌ الإسلامُ فيه هو الذي في ضمنه الإيمان، والآية ظاهرها العموم ومعناها الخصوص، إذ من أهل الأرض من لم يُسْلِمْ طوعاً ولا كرهاً على هذا الحد. وقال قتادة: الإسلام كرهاً هو إسلام الكافر عند الموت والمعاينة حيث لا ينفعه. ويلزم على هذا أن كل كافر يفعل ذلك، وهذا غير موجود إلا في أفراد، والمعنى في هذه الآية يفهم كل ناظر أن هذا القسم الذي هو الكره إنما هو في أهل الأرض خاصة، والتوقيف بقوله: ﴿أَفَغَيْرَ﴾ إنما هو لمعاصري محمد ﷺ من الأحبار والكفار. وقرأ أبو بكر عن عاصم: [أُصري] بضم الألف، وهي لغة.

قوله عز وجل:

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

---

(١) من الآية (٢٥) من سورة لقمان، ومن الآية ٣٨ من سورة الزمر.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره، وأخرج الديلمي عن أنس نحوه، (فتح القدير ١: ٣٣٦).

المعنى: قل يا محمد أنت وأمتك: آمنَّا بالله وما أُنزل علينا، وهو القرآن وأمر محمد ﷺ؛ والإنزال على نبيِّ الأمة إنزالٌ عليها، وقدم إسماعيل لسنِّهِ، وسائر الآية بين.

ثم حكم تعالى في قوله: ﴿ومَنْ يَبْتَغِ﴾.... الآية، بأنه لا يقبل من آدمي ديناً غيرَ دين الإسلام، وهو الذي وافق في معتقداته دينَ كلٍّ من سَمَّى من الأنبياء، وهو الحنيفية السمحة.

وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية قال أهل الملل للنبي ﷺ: قد أسلمنا قبلك ونحن المسلمون، فقال الله له: فحجَّهم يا محمد وأنزل عليه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾(١) فحج المسلمون وقعد الكفار.

وأسند الطبري عن ابن عباس أنه قال: نزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، إلى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢) فأنزل الله بعدها: ﴿ومَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسْلامِ ديناً فلن يُقْبَلَ منه﴾... الآية. فهذه إشارة إلى نسخ.

وقوله: ﴿في الآخِرة﴾ متعلق بمقدر، تقديره: خاسر في الآخرة، لأن الألف واللام في الخاسرين في معنى الموصول. وقال بعض المفسرين: إن قوله: ﴿ومَنْ يَبْتغِ﴾.... الآية، نزلت في الحارث بن سويد(٣)، ولم يذكر ذلك الطبري.

قوله عز وجل:

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

قال ابن عباس: نزلت هذه الآيات من قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدي اللهُ﴾ في الحارث بن

---

(١) من الآية: (٩٧) من سورة آل عمران.

(٢) الآية (٦٢) من سورة البقرة.

(٣) الحارث بن سويد، ويقال: ابن مسلم المخزومي، ارتد على عهد رسول الله ﷺ ولحق بالكفار، فنزلت هذه الآية: ﴿كيفَ يَهْدي الله قوماً كفَروا بعْدَ إيمانهم﴾ الآيات، فحمل رجل هذه الآيات فقرأهن عليه، فرجع وأسْلم وحسُن إسلامه، روى عنه مجاهد. «الاستيعاب» و«الإصابة».

سويد الأَنصاري، كان مسلماً ثم ارتدَّ ولحق بالشرك، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن يسألوا رسول الله ﷺ: هل لي من توبة؟ قال: فنزلت ﴿كَيْفَ يهدي اللهُ﴾ . . . الآيات إلى قوله: ﴿إلاَّ الذين تابوا﴾، فأرسل إليه قومه فأسلم. وقال مجاهد: حمل الآيات إليه رجل من قومه فقرأها عليه، فقال له الحارث: إنك والله لما علمت لصدوق، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك، وإن الله لأصدق الثلاثة[1] قال فرجع الحارث فأسلم وحسن إسلامه. وقال السدي: نسخ الله تعالى بقوله: ﴿إلاَّ الَّذين تابوا﴾ قولَه: ﴿أولئكَ جزاؤُهم أَنَّ عليهم لعْنَةَ اللهِ﴾. وفي هذه العبارة تجوز كثير، وليس هذا بموضع نسخ.

وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في أبي عامر الراهب[2] والحارث بن سويد بن الصامت ووحوح بن الأَسلت[3] في اثني عشر رجلاً رجعوا عن الإِسلام ولحقوا بقريش ثم كتبوا إلى أهليهم: هل لنا من توبة؟ فنزلت هذه الآيات. وقال ابن عباس أيضاً والحسن بن أبي الحسن: إن هذه الآيات نزلت في اليهود والنصارى، شهدوا بنعت الرسول ﷺ وآمنوا به، فلما جاء من العرب حسدوه، وكفروا به ورجح الطبري هذا القول، وقال النقاش: نزلت هذه الآيات في طعيمة بن أبيرق[4]. وكل من ذكر فألفاظ الآية تعمّه.

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ﴾ سؤال عن حال، لكنه سؤال توقيف على جهة

---

(١) أخرجه النسائي، وابن جرير، وابن أَبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه ـ عن ابن عباس وأَخرجه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر ـ عن مجاهد، وقال: هو الحارث بن سويد، وأَخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، عن السدي، وأَخرجه كذلك ابن إِسحق، وابن المنذر ـ عن ابن عباس. (فتح القدير ١: ٣٢٨).

(٢) هو أبو عامر عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان، أَحد بني ضبيعة، كان يُسمَّى في الجاهلية الراهب فسماه رسول الله ﷺ: الفاسق، ذكره ابن هشام في سيرة النبي ﷺ في غزوة أحد.

(٣) هو وحوح بن الأسلت، واسمه عامر بن جُشم بن وائل الأوسي الأنصاري، أخو أَبي قيس الشاعر. قال عبد الله بن محمد بن عمارة: له صحبة وشهد الخندق وما بعدها من المشاهد (الإِصابة. ٣: ٦٣١». وكذا «الاستيعاب».

(٤) هو طعيمة بن أُبيرق بن عمير الأنصاري، ذكره أبو إِسحق المستملي في الصحابة، وقال: شهد المشاهد كلها إِلا بدراً، وساق من طريق خالد بن معدان عنه قال: سمعت النبي ﷺ وأَنا أَمشي قدامه فسألَه رجل: ما فضل من جامع أَهله محتسباً، قال: غفر الله لهما البتة. استدركه يحيى بن منده على جده. وإِسناده ضعيف قاله أبو موسى. «الإِصابة ٢: ٢٢٤».

الاستبعاد للأمر، كما قال عليه السلام: (كيفَ تفلح أمة أدْمَت وجْهَ نبيها؟)[١] فالمعنى: إنهم لشدة هذه الجرائم يبعد أن يهديهم الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَشَهِدوا﴾ عطف على ﴿كَفَرُوا﴾ بحكم اللفظ، والمعنى مفهوم أن الشهادة قبل الكفر، والواو لا ترتب. وقال قوم: معنى قوله: ﴿بعْد إيمانِهِم﴾: بعد أن آمنوا، فقوله: ﴿وَشَهِدوا﴾ عطف على هذا التقدير.

وقوله تعالى: ﴿واللهُ لا يَهْدي الْقَومَ الظَّالمين﴾ عموم معناه الخصوص فيمن حتم كفره وموافاته عليه، ويحتمل أن يريد الإخبار عن أَن الظالم في ظلمه ليس على هدىً من الله، فتجيء الآية عامة تامة العموم. واللعنة: الإبعاد وعدم الرحمة والعطف، وذلك مع قرينة الكفر زعيم بتخليدهم في النار، ولعنة الملائكة: قول. ﴿والنَّاس﴾: بنو آدم، ويظهر من كلام أبي علي الفارسي في بعض تعاليقه أن الجنّ يدخلون في لفظة الناس، وأنشد على ذلك:

فقلـتُ إلـى الطعـام فقـال منهـم   أنـاسٌ نحسـدُ الإنـسَ الطعـامـا[٢]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي يظهر أَن لفظة (النَّاس) إذا جاءَت مطلقة فإنما هي في كلام العرب بنو آدم لاغير، فإذا جاءت مقيدة بالجن فذلك على طريقة الاستعارة، إذ هي جماعة كجماعة، وكذلك: ﴿ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾[٣] وكذلك: ﴿ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾[٤]، ولفظة النفر أقرب إلى الاشتراك من رجال وناس، وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[٥] قاضٍ بتباين الصنفين.

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، غيرهما عن أنس أَن النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أُحد، وشج في وجهه حتى سال الدم، فقال: (كيف يفلح قوم) الحديث. «فتح القدير للشوكاني ١: ٣٤».

(٢) نسب صاحب «خزانة الأدب» ٣: ٣ البيت لشمير بن الحارث الضبي، وقيل: لتأبط شراً، وهي رواية الجرجاوي أيضاً. وفي العيني على الشواهد: لجذع بن سنان الغسّاني في رواية من روى: «عِمُوا صبَاحاً». وأما على رواية من روى: «عموا ظلاماً» فإنه ينسب إلى شمر بن الحارث الغسّاني. فقلت: إلى الطعام: اي: هلموا إليه، نحسد: يروى بالنون، ويروى بالمثناة التحتية، والإنس: البشر، أَي يحسد الإنس على الطعام. والكلام مع الجن بدليل البيت قبله:

أتـوا نـاري فقلـتُ: مَنـونَ أَنتُـم   فقالوا: الجنُّ. قلت: عموا ظلاما

(٣) من الآية (٦) من سورة الجن.

(٤) من الآية (١) من سورة الجن.

(٥) من الآية (٦) من سورة الناس.

وقوله تعالى: ﴿والناسِ أجمعين﴾[1] إما أَن يكون لمعنى الخصوص في المؤمنين سماهم الناس إذ هم المعول عليه، وإما أن يريد أنهم في الآخرة يلعنهم المؤمنون ويلعن بعضهم بعضاً، فيجيء من هذا في كل شخص منهم أن لعنه جميع الناس، وإما أن يريد أن هذه اللعنة تقع في الدنيا من جميع الناس على من هذه صفته. وكلُّ مَنْ هذه صفته ـ وقد أغواه الشيطان ـ يلعن صاحب الصفات ولا يشعر من نفسه أنه متصف بها، فيجيء من هذا أنهم يلعنهم جميعُ الناس في الدنيا حتى إنهم ليلعنون أنفسهم، لكن على غير تعيين.

والضمير في قوله: ﴿خالدينَ فيها﴾ قال الطبري: يعود على عقوبة الله التي يتضمنها معنى اللعنة. وقال قوم من المفسرين: الضمير عائد على اللعنة. وقرائن الآية تقتضي أَن هذه اللعنة مخلّدة لهم في جهنم، فالضمير عائد على النار، وإن كان لم يجرِ لها ذكرٌ، لأن المعنى يُفهمها في هذا الموضع، كما يُفهم قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[2] أنها الأرض. وقد قال بعض الخراسانيين في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾[3]: إن الضمير عائد على النار.

و﴿يُنْظَرون﴾ في هذه الآية، بمعنى: يُؤخرون، ولا راحة إلا في التخفيف أو التأخير فهما مرتفعان عنهم، ولا يجوز أن يكون ﴿يُنْظَرون﴾ هنا من نظر العين إلا على توجيه غير فصيح لا يليق بكتاب الله تعالى.

وقوله عز وجل: ﴿إلاَّ الَّذين تابوا﴾ استثناء متصل يبين ذلك قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ ذلك﴾ والتوبة: الرجوع، والإِصلاح عام في القول والعمل.

وقوله تعالى: ﴿فإنَّ الله َغفورٌ رحيمٌ﴾ وعد؛ وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [والناس أجمعون].

---

(١) تكررت أيضاً في الآية (١٦١) من سورة البقرة والآية (٨٧) من سورة آل عمران.

(٢) الآية (٢٦) من سورة الرحمن.

(٣) الآية (٤٥) من سورة النازعات.

قوله عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

اختلف المتأولون في كيف يترتب كفر بعد إيمان، ثم زيادة كفر، فقال الحسن وقتادة وغيرهما: الآية في اليهود، كفروا بعيسى بعد الإيمان بموسى ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ؛ وفي هذا القول اضطراب، لأن الذي كفر بعيسى بعد الإيمان بموسى ليس بالذي كفر بمحمد ﷺ، فالآية على هذا التأويل تخلط الأسلاف بالمخاطبين.

وقال أبو العالية رفيع: الآية في اليهود، كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بصفاته وإقرارهم أنها في التوراة، ثم ازدادوا كفراً بالذنوب التي أصابوها في خلاف النبي ﷺ، من الافتراء والبهت والسعي على الإسلام وغير ذلك. وعلى هذا الترتيب يدخل في الآية المرتدون اللاحقون بقريش وغيرهم.

وقال مجاهد: معنى قوله: ﴿ثُمَّ ازْدادوا كفراً﴾ أي تموا على كفرهم وبلغوا الموت به. فيدخل في هذا القول اليهود والمرتدون. وقال السدي نحوه.

ثم أخبر تعالى أَن توبة هؤلاء لن تقبل، وقد قررت الشريعة أَن توبة كلِّ كافر تقبل، سواء كفر بعد إيمان وازداد كفراً، أو كان كافراً من أول أمره، فلا بد في هذه الآية من تخصيصٍ تُحْمَلُ عليه ويصحُّ به نفي قبول التوبة، فقال الحسن وقتادة ومجاهد والسدي: نفي قبول توبتهم مختصٌّ بوقت الحشرجة والغرغرة والمعاينة، فالمعنى لن تقبل توبتهم عند المعاينة، وقال أبو العالية: معنى الآية: لن تقبل توبتهم من تلك الذنوب التي أصابوها مع إقامتهم على الكفر بمحمد ﷺ فإنهم كانوا يقولون في بعض الأحيان: نحن نتوبُ من هذه الأفعال وهم مقيمون على كفرهم، فأخبر الله تعالى أنه لا يقبل تلك التوبة.

وتحتمل الآية عندي أن تكون إشارة إلى قوم بأعيانهم من المرتدين ختم الله عليهم بالكفر، وجعل ذلك جزاء لجريمتهم ونكايتهم في الدين، وهم الذين أشار إليهم بقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدي اللهُ قوماً﴾ فأخبر عنهم أنهم لا تكونُ لهم توبةٌ فيتصوَّر قبولها، فتجيء الآية بمنزلة قول الشاعر:

علـى لاحـبٍ لا يُهْتـدى بمنـاره[١] . . . .

أي: قد جعلهم الله من سخطه في حيِّزِ مَنْ لا تُقبل له توبة إذ ليست لهم، فهم لا محالة يموتون على الكفر. ولذلك بينَّ حكم الذين يموتون كفاراً بعقب الآية، فبانت منزلة هؤلاء، فكأنه أخبر عن هؤلاء المعينين أنهم يموتون كفاراً، ثم أخبر الناس عن حكم من يموت كافراً. و﴿الضَّالُّون﴾ المخطئون الطريق القويم في الأقوال والأفعال. وقرأ عكرمة: [لنْ نَقْبل] بنون العظمة [تَوْبتَهم] بنصب التاء.

وقوله: ﴿إنَّ الَّذين كفروا وماتوا وهُمْ كُفَّار﴾.... الآية، جزم للحكم على كل موافٍ على الكفر إلى يوم القيامة.

وقرأ عكرمة: [فلن نَقْبل] بنون العظمة [ملءَ الأرض] بالنصب، والمِلء: ما شحن به الوعاء، فهو بكسر الميم: الاسم، وبفتحها: المصدر، تقول ملأت الشيءَ أملؤه مَلئاً، والملءُ: اسم ما ملأت به. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وأبو السمال: [مِل] دون همزة، ورويت عن نافع؛ و﴿ذهباً﴾ نصب على التمييز. وقرأ ابن أبي عبلة: [ذَهَباً لو افْتَدَى به] دون واو.

واختلف الناس في هذه الآية في قوله: ﴿وَلَو افتدى﴾؛ فقال الطبري: هي متعلقة بمحذوف في آخر الكلام دلَّ عليه دخول الواو، كما دخلت في قوله: ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾[٢] لمتروك من الكلام، تقديره: وليكون من الموقنين أريناه ملكوت

---

(١) البيت لامرئ القيس، وتمامه:

. . . . إِذَا سـافَـهُ العَـوْدُ النَّبـاطـيُّ جَـرْجَـرا

اللَّحْبُ واللأحب: الطريق الواسع، من لحبه إذا وطئه ومرَّ فيه، فأَصله ملحوب، والمنار: أعلام الطريق. وسافه يسوفه سوفاً: إذا شمَّه شمًّا، ومنه المسافه. والعود: الجمل المُسِنُّ، ويطلق على الطريق القديم. والنَّباطي: نسبة للنَّبَط، وهم قوم يحلون البطاحَ بين العراقين يستَنْبطون منها الماء. كانت عاصمتهم (سَلْع) وتعرف اليوم بالبتراء ـ ثم استعمل اللفظ (النَّبط) في أخلاط الناس من غير العرب. والنبط هم: الأنباط. والجَرْجَرَةُ: صوت يردده البعير في حنجرته.

والمقصود بالبيت نفي المنار إذا شمه البعير المسن عرف أنه طريق وعر لتجربته الطرق وجرجر خوفاًمنه لصعوبته عليه مع تمرنه على السفر ولاسيما إذا كان من إبل النبط لكثرة رحيلهم. «معلق الكشاف».

(٢) من الآية (٧٥) من سورة الأنعام.

السموات والأرض؛ وفي هذا التمثيل نظر فتأمله. وقال الزجاج: المعنى: لن يقبل من أحدهم إنفاقه وتقرباته في الدنيا ولو أنفق ملءَ الأرض ذهباً ولو افتدى به أيضاً في الآخرة لم يقبل منه، قال: فأَعلمَ أنه لا يثيبهم على أعمالهم من الخير، ولا يقبل منهم الافتداءَ من العذاب؛ وهذا قول حسن. وقال قوم: الواو زائدة، وهذا قول مردود. ويحتمل أن يكون المعنى نفي القبول جملة على كل الوجوه، ثم خصَّ من تلك الوجوه أليقها وأحراها بالقبول، كما تقول: أنا لا أفعل لك كذا بوجه ولو رغبت إليّ؛ وباقي الآية وعيد بيِّن.

قوله عز وجل:

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

ذهب بعض الناس إلى أن يصل معاني هذه الآيات بعضها ببعض، من حيث أخبر تعالى أنه لا يقبل من الموافي على الكفر ملءَ الأرض ذهباً، وقد بان أنه يقبل من المؤمن القليل والكثير، فحضَّ على الإنفاق من المحبوب المرغوب فيه، ثم ذكر تقرُّبَ إسرائيل عليه السلام بتحريم ما كان يحبّ على نفسه، ليدلَّ تعالى على أن جميع التقربات تدخل بالمعنى في جملة الإنفاق من المحبوب. وفسَّر جمهور المفسرين هذه الآيات على أنها معان منحازة، نظمتها الفصاحة المعجزة أجملَ نظم.

وقوله تعالى: ﴿لَنْ تنالوا﴾..... الآية، خطاب لجميع المؤمنين؛ وقال السدي وعمرو بن ميمون[1]: البر: الجنة. وهذا تفسير بالمعنى، وإنما الخاصُّ باللفظة أنه ما يفعله البرُّ من أفاعيل الخير، فتحتمل الآية أن يريد: لن تنالوا برَّ الله تعالى بكم، أي رحمته ولطفه، ويحتمل أن يريد: لن تنالوا درجة الكمال من فعل البر حتى تكونوا أبراراً إلا بالإنفاق المنضاف إلى سائر أعمالكم.

---

(١) هو عمرو بن ميمون الأزدي، أَبو عبد الله أو أبو يحيى الكوفي، أَدرك الجاهلية، وأَسلم في حياته ﷺ ولم يلقه، روى عن عُمَر، وابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وعائشة، وغيرهم، وروى عنه سعيد بن جُبير، والربيع بن خثيم، وأبو إسحق السبيعي، وغيرهم، كان عمرو بن ميمون إذا دخل المسجد فرؤي؛ ذكر الله، توفي سنة ٧٤ وقيل: ٧٥ هـ. «الإصابة. ٣: ١١٨». و«تهذيب التهذيب».

وبسبب نزول هذه الآية تصدق أبو طلحة[١] بحائطه، المسمى بيرحا، وتصدق زيد بن حارثة بفرس كان يحبها، فأعطاها رسول الله ﷺ أسامة ابنه[٢]، فكأن زيداً شقَّ عليه فقال له النبي: (أما إن الله قد قبل صدقتك)[٣]. وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأَشعري أن يشتري له جارية من سبي جلولاء وقت فتح مدائن كسرى على يدي سعد بن أبي وقاص، فسيقت إليه وأحبها فدعا بها يوماً وقال: إن الله يقول: ﴿لنْ تنالوا البرَّ حتىَّ تُنفقوا مِمَّا تُحبون﴾ فأعتقها. فهذا كله حمل للآية على أن قوله تعالى: ﴿مِمَّا تُحِبُّون﴾ أي: من رغائب الأموال يُضَنّ بها، ويتفسر بقول النبي ﷺ: (خيرُ الصَّدَقة أن تَصَدَّق وأنتَ صحيحٌ شحيح تخشى الفقْرَ وتأملُ الغنى)[٤]... الحديث. وذهب قوم من العلماء إلى أن ما يحب من الطعومات على قدر الاشتهاء يدخل في الآية، فكان عبد الله بن عمر يشتهي أكل السكر باللوز فكان يشتري ذلك ويتصدق به ويتلو الآية.

وإذا تأملت جميع الطاعات وجدتها إنفاقاً مما يحبُّ الإنسان، إما من ماله، وإما من صحته، وإما من دعته وترفهه، وهذه كلها محبوبات. وسأل رجل أبا ذر الغفاري

---

(١) هو أَبو طلحة زيد بن سهل بن الأَسود بن حرام الأنصاري الخزرجي، مشهور بكنيته، وهو القائل:

أَنـــا أَبـــو طَلْحَـــةَ واسْمـــي زَيـــد ... وكـــلُّ يـــوم فـــي ســـلاحـــي صَيْـــد

كان من فضلاءِ الصحابة، وهو زوج أمّ سليم، شهد بدراً، وروى عنه من الصحابة ابنُ عباس، وأنس، وزيد بن خالد، حُكي أنه كان يبغي الصوم في عهد رسول الله ﷺ فيمنعه الغزو، فلما توفي ﷺ أَصبح يسرد الصوم لا يفطر إلا يومَ عيد الفطر أَو الأَضحى. اختلف في وفاته. «الإِصابة: ١: ٥٦٦».

(٢) أُسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي الحِب ابنُ الحِب، يكنى أَبا محمد، ويقال: أبو زيد، أمه أُمُّ أَيمن حاضنة النبي ﷺ، وُلد أُسامة في الإِسلام، ومات ﷺ وله عشرون سنة، وقيل: ثماني عشرة، وكان أمَّره على جيش عظيم فمات ﷺ قبل أَن يتوجه فأنفذهُ أبو بكر، وكان عمر يُجله ويُكرمه، اعتزل الفتن بعد مقتل عثمان إلى أن مات في أواخر خلافة معاوية بالمدينة، روى عنه من الصحابة أَبو هريرة، وابن عباس، ومن كبار التابعين أَبو عثمان النهدي، وأَبو وائل، وآخرون (الإِصابة).

(٣) أخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أَبي حاتم، ابن جرير. (فتح القدير. ١: ٣٢٩).

(٤) أَخرجه البخاري في كتاب «الزكاة» باب «أَي الصدقة أَفضل» وفي «الوصايا»، وأَخرجه مسلم، والنسائي كذلك في «الزكاة».

رضي الله عنه، أي الأعمال أفضل؟ فقال: الصلاة عماد الإسلام، والجهاد سنام العمل، والصدقة شيء عجيب، فقال له الرجل: أراك تركت شيئاً وهو أوثقها في نفسي: الصيام، فقال أبو ذر: قربة، وليس هناك، ثم تلا: ﴿لن تنالوا البر﴾... الآية.

وقوله تعالى: ﴿وما تُنْفقوا مِنْ شيء فإنَّ اللهَ بِهِ عَليم﴾ شرط وجواب فيه وعد، أي: عليمٌ مجازٍ به وإن قلّ.

قوله تعالى: ﴿كلُّ الطَّعام﴾... الآية، إخبار بمغيب عن محمد ﷺ وجميع الأميين لا يعلمه إلا الله وعلماءُ أهل الكتاب.

وذهب كثير من المفسرين إلى أن معنى الآية: الرد على اليهود في قولهم في كلِّ ما حرموه على أنفسهم من الأشياء: إنها محرمةٌ عليهم بأمر الله في التوراة، فأكذبهم الله بهذه الآية، وأخبر أن جميعَ الطعام كان حلاً لهم إلا ما حرَّمَ إسرائيل على نفسه خاصة ولم يرد به ولده، فلما استنُّوا هُمْ به جاءت التوراة بتحريم ذلك عليهم، وليس من التوراة شيءٌ من الزوائد التي يدَّعون أن الله حرمها، وإلى هذا تنحو ألفاظ السدي، قال: إن الله تعالى: حرم ذلك عليهم في التوراة عقوبةً لاستنانهم في تحريم شيء إنما فعله يعقوب خاصة لنفسه، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر في لفظة الظلم أنها مختصةٌ بتحريم ونحوه، يدلُّ على ذلك أن العقوبةَ وقعت بذلك النوع.

وذهب قوم من العلماء إلى أن معنى الآية: الرد على قوم من اليهود قالوا: إن ما نحرمه الآن على أنفسنا من الأشياء التي لم تذكر في التوراة كان علينا حراماً في ملّة أبينا إبراهيم، فأكذبهم الله وأَخبر أن الطعامَ كلَّه كان حلالاً لهم قبل التوراة إلا ما حرم إسرائيل في خاصته، ثم جاءت التوراة بتحريم ما نصت عليه، وبقيت هذه الزوائد في حيّز افترائهم وكذبهم؛ وإلى هذا تنحو أَلفاظ ابن عباس رضي الله عنه، وترجم الطبري

(١) من الآية (١٦٠) من سورة النساء.

في تفسير هذه الآية بتراجم، وأدخل تحتها أقوالاً توافق تراجمه، وحمَّلَ ألفاظَ الضحاك أن الاستثناء منقطع وكأن المعنى: كلُّ الطعام كان حلاً لهم قبل نزول التوراة وبعد نزولها، وهذا شيء لم يقله الضحاك ولا يحتمله لفظه، لكنه في نفسه كلام متخرج على أن يجعل ﴿كان﴾ لا تخصّ الماضي من الزمان، بل تكون بمنزلة التي في قولك: «وَكان اللهُ غفوراً رحيماً»؛ والمعنى: إلا ما حرم إسرائيل على نفسه فحُرِّمَ عليهم في التوراة لا هذه الزوائد التي افتروها، فيرجع المعنى إلى القول الأول الذي حكيناه. وحمل الطبري قول الضحاك أن معناه: لكن إسرائيل حرم على نفسه خاصة ولم يحرم الله على بني إسرائيل في توراة ولا غيرها. وهذا تحميل يرد عليه قوله تعالى: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾[١] وقوله ﷺ: (حرمت عليهم الشحوم)[٢] إلى غير ذلك من الشواهد.

وقوله تعالى ﴿حِلاًّ﴾ معناه: حلالاً، و﴿إسرائيل﴾ هو يعقوب. وانتزع من هذه الآية أَن للأنبياء أن يحرموا باجتهادهم على أنفسهم ما اقتضاه النظرُ لمصلحةٍ أو قربة أو زهد، ومن هذا على جهة المصلحة تحريم النبي ﷺ جاريته على نفسه[٣]، فعاتبه الله تعالى في ذلك ولم يعاتب يعقوب، فقيل: إن ذلك لحق آدمي ترتب في نازلة نبينا محمد ﷺ، وقيل: إن هذا تحريم تقرب وزهد، وتحريم الجارية تحريم غضبٍ ومصلحة نفوس.

واختلف الناس في الشيء الذي حرمه يعقوب على نفسه ـ فقال يوسف بن ماهَك[٤]: جاء أَعرابي إلى ابن عباس فقال له: إنه جعل امرأته عليه حراماً، فقال ابن عباس: إنها ليست عليك بحرام، فقال الأعرابي: ولم والله تعالى يقول في كتابه: ﴿إلا

(١) من الآية (١٤٦) من سورة الأنعام ﴿حرَّمْنا عليهم شُحومَهُما إلاَّ ما حَمَلَتْ ظهورهما﴾.

(٢) أَخرجه الإِمام أَحمد، والبخاري، ومسلم، وأَبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه ـ عن جابر بن عبد الله، وأَخرجه البخاري، ومسلم ـ عن أَبي هريرة، كما أَخرجه الإِمام أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي وابن ماجه، عن عمر. «الجامع الصغير. ٢: ١٩٢».

(٣) جاريته ﷺ هي مارية القبطية أُم سيدنا إِبراهيم. سورة التحريم عند قوله تعالى: ﴿يأَيُّها النَّبيُّ لِمَ تُحرِّمُ....﴾ الآية.

(٤) هو يوسف بن ماهك ـ بفتح الهاءِ ـ بن مهران الفارسي المكي، مولى قريش، روى عن أَبيه، وأَبي هريرة، وعائشة، وعبد بن صفوان، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وغيرهم، وروى عنه عطاء بن أَبي رباح، وأَيوب، وأَبو بسر، وحميد، وابن جريج، وأَبو خثيم، وغيرهم، ثقة عدل، توفي سنة: ١٠٣ وقيل ١١٠ (تهذيب التهذيب. ١١: ٤٢١).

ما حرَّمَ إسرائيلُ عَلى نفسِهِ﴾؟ فضحك ابن عباس وقال: وما يدريك ما حرَّم إسرائيل؟ ثم أقبل على القوم يحدثهم فقال: إن إسرائيل عرضت له الأَنساء[١] فأضنته فجعل الله إن شفاه من ذلك أَلاَّ يطعم عرقاً، قال: فلذلك اليهود تنزع العروقَ من اللحم، وقال بمثل هذا القول قتادة وأبو مجلز وغيرهم.

وقال ابن عباس والحسن بن أبي الحسن وعبد الله بن كثير ومجاهد أيضاً: إن الذي حرم إسرائيل هو لحوم الإبل وألبانها، ولم يختلفْ فيما علمت أن سبب التحريم هو من مرض أصابه، فجعل تحريم ذلك شكراً لله تعالى إن شفي. وقيل: هو وجع عرق النَّسا. وفي حديث عن النبي ﷺ أن عصابة من بني إسرائيل قالوا له: يا محمد ما الذي حرم إسرائيل على نفسه؟ فقال لهم: (أنشدكم بالله هل تعلمون أن يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه، فنذر لله نذراً إن عافاه الله من سقمه ليحرّمنَّ أحبَّ الطعامِ والشراب إليه، وكان أحبَّ الطعام إليه لحومُ الإبل وألبانه؟ قالوا: اللهم نعم)[٢].

وظاهر الأحاديث والتفاسير في هذا الأمر أَن يعقوب عليه السلام حرم لحوم الإبل وألبانها ـ وهو يحبها ـ تقربا إلى الله بذلك، إذ ترك الترفه والتنعم من القرب، وهذا هو الزهد في الدنيا، وإليه نحا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله: «إياكم وهذه المجازر فإن لها ضراوة كضراوة الخمر»[٣] ومن ذلك قول أبي حازم الزاهد[٤]، وقد مر بسوق الفاكهة فرأى محاسنها فقال: موعدك الجنة إن شاء الله، وحرم يعقوب عليه السلام أيضاً العروق، لكن بغضةً لها لما كان امتحن بها، وهذا شيء يعتري نفوسَ البشر في غير ما شيء، وليس في تحريم العروق قربة فيما يظهر، والله أعلم. وقد روي عن ابن عباس أن يعقوب حرَّم العروق ولحوم الإبل.

---

(١) الأنساء: جمع نسا وهو عرق من الورك إلى الكعب.

(٢) أَخرجه الترمذي وحسَّنه، وابن جرير الطبري عن ابن عباس، وأَخرجه أَيضاً الإِمام أَحمد والنسائي. «تفسير الشوكاني» و«ابن كثير» «وابن جرير».

(٣) هذا الحديث ذكره ابن الأَثير في الغريب. «ابن الأَثير. ٣: ٢٠».

(٤) هو سلمة بن دينار المخزومي المدني مولاهم، التمار، الواعظ، الزاهد، أَبو حازم، عالم المدينة وقاضيها أَو شيخها، سمع سهل بن سعد الساعدي، وسعيد بن المسيب، وأبا صالح السَّمان، وعِدَّةً، وروى عنه مالك، والسفيانان، والحمَّادان، وخلْقٌ، قال ابن خزيمة: لم يكن في زمانه أَحد مثله.

وقوله في الفاكهة لمَّا مرَّ بها في السوق ذكره أَبو نعيم في الحِلْية. توفي سنة: ١٤٠ «تذكرة الحفاظ: ١: ١٣٣». وكذا «حلية الأَولياء. ٣: ٢٢٩».

وأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يأمرهم بالإتيان بالتوراة، حتى يبين منها كيف الأمر، المعنى: فإنه أيها اليهود، كما أنزل الله عليّ لا كما تدعون أنتم؛ قال الزجاج: وفي هذا تعجيزٌ لهم وإقامة الحجة عليهم، وهي كقصّةِ المباهلة مع نصارى نجران.

قوله عز وجل:

﴿فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله: ﴿فَمَنِ افْترى عَلى اللهِ الكذب مِنْ بعْدِ ذلكَ﴾ تحتمل الإشارة بـ ﴿ذلك﴾ أن تكون إلى ثلاثة أشياء، أحدها: أن تكون إلى التلاوة إذ مضمَّنها بيانُ المذهبِ وقيام الحجة، أي: فمن كذب منا على الله تعالى أو نسب إلى كتب الله ما ليس فيها فهو ظالم، واضعٌ الشيءَ في غير موضعه؛ والآخر: أن تكون الإشارة إلى استقرار التحريم في التوراة، لأن معنى الآية: كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه، ثم حرمته التوراة عليهم عقوبة لهم، فمن افترى على الله الكذب وزاد في المحرمات فهو الظالم؛ والثالث: أن تكون الإشارة إلى الحال بعد تحريم إسرائيل على نفسه وقبل نزول التوراة، أي: من تسنن بيعقوب وشرع ذلك دون إذن من الله، ومن حرم شيئاً ونسبه إلى ملة إبراهيم فهو الظالم. ويؤيد هذ الاحتمال الأخير قوله تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾[1] فنصَّ على أنه كان لهم ظلم في معنى التحليل والتحريم، وكانوا يشدّون فشدَّدَ الله عليهم، كما فعلوا في أمر البقرة. وبخلاف هذه السيرة جاء الإسلام في قوله ﷺ: (يسروا ولا تعسروا)[2]، وقوله: (دين الله يسر)[3] وقوله: (بعثت بالحنيفية السمحة)[4].

ثم أمر الله تعالى نبيه أن يصدع بالخلاف والجدال مع الأحبار بقوله: ﴿قُلْ

(١) من الآية (١٦٠) من سورة النساء.
(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، والنسائي، والإمام أحمد عن أنس (الجامع الصغير. ٢: ٦٥٦)
(٣) أخرجه البخاري وهو من أفراده، والنسائي عن أبي هريرة (القسطلاني. ١: ١٢٣).
(٤) أخرجه الخطيب في التاريخ عن جابر. (الجامع الصغير. ١: ٤٢٧).

صَدَقَ الله﴾ أي: الأمر كما وصف لا كما تكذبون أنتم، فإن كنتم تعتزون بإبراهيم فاتبعوا ملته على ما ذكر الله.

وقرأ أبان بن ثعلب: [قُل صَّدَقَ الله] بإدغام اللام في الصاد، وكذلك: [قل سِّيروا] قرأها بإدغام اللام في السين. قال أبو الفتح: علة جواز ذلك فشُوّ هذين الحرفين في الفم وانتشار الصدى المنبثّ عنهما، فقاربتا بذلك مخرج اللام، فجاز إدغامهما فيهما. وقرأ جمهور الناس: (وُضِع) على بناء الفعل للمجهول على معنى: وضعه الله فالآية على هذا ابتداء معنى منقطع من الكلام الأول وقرأ عكرمة: [وَضَع] بفتح الواو والضاد، فيحتمل أن يريد: وضع الله، فيكون المعنى منقطعاً كما هو في قراءة الجمهور. ويحتمل أن يريد وضع إبراهيم عليه السلام، فيكون المعنى متصلاً بالذي قبله، وتكون هذه الآية استدعاء لهم إلى ملته في الحج وغيره على ما روى عكرمة أنه لما نزلت: ﴿ومَنْ يَبْتغِ غَيْرَ الإسلام ديناً﴾.... الآية، قال اليهود: نحن على الإسلام، فقرئت: ﴿ولله عَلى النَّاس حجُّ البَيْتِ﴾ قيل له: أحجَّهمْ يا محمد إن كانوا على ملة إبراهيم التي هي الإسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويؤيد هذا التأويل ما قال أبو ذر رضي الله عنه قال: (قلت: يا رسول الله، أيّ مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال أربعون سنة)[١]. فيظهر من هذا أنهما من وضع إبراهيم جميعاً، ويضعف ما قال الزجاج من أن بيت المقدس من بناء سليمان بن داود، اللهم إلا أن يكون جدَّده، وأين مدةُ سليمان من مدة إبراهيم؟ ولا مريةَ في أن إبراهيم وضع بيتَ مكة، وإنما الخلاف هل وَضْعُ بداْةٍ أو وضعُ تجديد؟

واختلف المفسرون في معنى هذه «الأولية» التي في قوله: ﴿إنَّ أوَّلَ﴾ ـ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: معنى قوله: إنَّ أوَّلَ بيتٍ وُضِع مباركاً وهدى هذا البيت الذي بمكة، وقد كانت قبله بيوت لم توضَعْ وضعه من البركة والهدى. وقال قوم: بل هو أول بيت خلق الله تعالى ومن تحته دُحِيَتِ الأرض[٢].

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن أبي ذر (فتح القدير. ١: ٣٣٢).

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي، في الشعب عن ابن عمر، وأخرج نحوه ابن=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ورويت في هذا أقاصيص من نزول آدم به من الجنة ومن تحديد حدّد ما بين خلقه ودحو الأرض، ونحو ما قال الزجاج من أنه البيت المعمور، أسانيدها ضعاف فلذلك تركتها. وعلى هذا القول يجيء رفع إبراهيم القواعد تجديداً؛ وقال قتادة: ذكر لنا أن البيت أُهبط مع آدم ورفع وقت الطوفان(1).

واختلف الناس في ﴿بكَّةَ﴾ ـ فقال الضحاك وجماعة من العلماء: بكة: هِي مكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكأنَّ هذا من إبدال الباء بالميم، على لغة مازن وغيرهم. وقال ابن جبير وابن شهاب وجماعة كثيرة من العلماء: مكة: الحرم كله، وبكة: مزدحم الناس حيث يتباكون، وهو المسجد وما حول البيت. وقال مالك في سماع ابن القاسم من العتبية: بكة: موضع البيت، ومكة: غيره من المواضع؛ قال ابن القاسم: يريد القرية. قال الطبري: ما خرج عن موضع الطواف فهو مكة لا بكة. وقال قوم: بكة: ما بين الجبلين، ومكة: الحرم كله.

و﴿مباركاً﴾ نصب على الحال، والعامل فيه على قول علي بن أبي طالب إنه أول بيت وضع بهذه الحال قوله: ﴿وُضِع﴾، والعامل فيه على القول الآخر ـ الفعل الذي تتعلق به باء الجر في قوله: ﴿ببكة﴾ تقديره: استقرَّ ببكة مباركاً. وفي وصف البيت بهدىً مجازية بليغة، لأنه مقوِّم مصلح، فهو مرشد، وفيه إرشاد، فجاء قوله: ﴿وهدىً﴾ بمعنى: وذا هدى، ويحتمل أن يكون هدىً في هذه الآية بمعنى الدعاء، أي من حيث دعي العالمون إليه.

قوله عز وجل:

﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

الضمير في قوله: ﴿فيهِ﴾ عائد على البيت، وساغ ذلك مع كون الآيات خارجةً

= المنذر عن أبي هريرة. (فتح القدير. ١: ٣٣٢).

(١) انظر تفسير الطبري ٤/٨.

عنه، لأن البيت إنما وضع بحرمه، وجميع فضائله فهي فيه وإن لم تكن داخل جدرانه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿آياتٌ بيِّناتٌ﴾ بالجمع، وقرأ أبيّ بن كعب وعمر وابن عباس: [آيةٌ بيِّنَةٌ] على الإفراد، قال الطبري: يريد علامة واحدة؛ المقام وحده، وحكي ذلك عن مجاهد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن يريد بالآية اسم الجنس، فيقرب من معنى القراءة الأولى.

واختلفت عبارة المفسرين عن الآيات البينات؛ فقال ابن عباس: من الآيات المقام، يريد الحجر المعروف والمشعر وغير ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يدل على أن قراءته [آية] بالإفراد إنما يراد بها اسم الجنس.

وقال الحسن بن أبي الحسن: الآيات البينات مقام إبراهيم، وأن من دخله كان آمناً. وقال مجاهد: المقام الآية، وقوله: ﴿وَمَنْ دخَلَه كان آمناً﴾ كلام آخر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فرفع ﴿مقام﴾ على قول الحسن ومجاهد ـ على البدل من ﴿آيات﴾، أو على خبر ابتداء تقديره: هن مقام إبراهيم، وعلى قول ابن عباس ومن نحا نحوه ـ هو مرتفع بالابتداء وخبره محذوف مقدر تقديره: منهن مقام إبراهيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمترجح عندي أن المقام وأمن الداخل جعلا مثالاً مما في حرم الله من الآيات وخُصّا بالذكر لعظمهما، وأنهما تقوم بهما الحجة على الكفار، إذ هم المدركون لهاتين الآيتين بحواسهم. ومن آيات الحرم والبيت التي تقوم بها الحجة على الكفار أمرُ الفيل، ورمي طيرِ الله عنه بحجارة السجيل، وذلك أمر لم تختلف كافة العرب في نقله وصحته إلى أن أنزله الله في كتابه. ومن آياته كفُّ الجبابرة عنه على وجه الدهر. ومن آياته الحجر الأسود وما روي فيه أنه من الجنة، وما أُشربت قلوب العالم من تعظيمه قبل الإسلام. ومن آياته حجر المقام، وذلك أنه قام عليه إبراهيم عليه السلام وقت رفعه القواعد من البيت لما طال البناء، فكلّما علا الجدار ارتفع الحجر به في الهواء،

فما زال يبني وهو قائم عليه وإسماعيل يناوله الحجارة والطين حتى أكمل الجدار ، ثم إن الله تعالى لما أراد إبقاء ذلك آية للعالمين ليَّن الحجر ، فغرقت فيه قدما إبراهيم عليه السلام كأنها في طين ، فذلك الأثر العظيم باق في الحجر إلى اليوم. وقد نقلت كافة العرب ذلك في الجاهلية على مرور الأعصار ، وقال أبو طالب[1] :

وَمَوْطِئُ إبراهيمَ في الصخر رطبةٌ ... على قدمي حافياً غيرَ ناعل

فما حفظ أن أحداً من الناس نازع في هذا القول. ومن آياته البينات زمزم في نبعها لهاجر بهمز جبريل عليه السلام الأرض بعقبه ، وفي حفر عبد المطلب لها آخراً بعد دثورها بتلك الرؤيا المشهورة ، وبما نبع من الماء تحت خفّ ناقته في سفره ، إلى منافرة قريش ومخاصمتها في أمر زمزم ، ذكر ذلك ابن إسحق مستوعباً ، ومن آيات البيت نَفْعُ ماء زمزم لما شُرِبَ له ، وأنه يعظم ماؤها في الموسم ويكثر كثرةً خارقةً للعادة في الآبار. ومن آياته: الأَمَنةُ الثابتة فيه على قديم الدهر ، وأَن العرب كانت يغيرُ بعضها على بعض وَيُتَخطَّفُ الناسُ بالقتل وأخذِ الأموال وأنواع الظلم إلا في الحرم؛ وتركَّبَ على هذا أمنُ الحيوان فيه وسلامةُ الشجر ، وذلك كله للبركة التي خصه الله بها ، والدعوة من الخليل عليه السلام في قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾[2]. وإذعانُ نفوس العرب وغيرهم قاطبة لتوقير هذه البقعة دون ناهٍ ولا زاجر آيةٌ عظمى تقوم بها الحجة ، وهي التي فسرت بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دخلَه كان آمناً﴾. ومن آياته كونه بواد غير ذي زرع ، والأرزاق من كل قطرٍ تجيء إليه عن قرب وعن بعد. ومن آياته ما ذكر ابنُ القاسم العتقي رحمه الله ، قال في النوادر وغيرها: سمعتُ أَن الحرم يعرف بأن لا يجيء سيلٌ من الحل فيدخل الحرم.

---

(١) أبو طالب هو عم النبي وناصرُه ، وُلد قبل النبي ﷺ بخمس وثلاثين سنة ، ولمَّا حضرت الوفاة عبد المطلب وصَّى بالنبي ﷺ إليه فكَفله ، وأحسن تربيته ، وسافر به إلى الشام وهو شاب ، ولما بُعث النبي ﷺ قام بنصره ، وذبَّ عنه من عاداه ، ومدحه عدة مدائح ، توفي في السنة العاشرة من النبوة. «خزانة الأدب: ١: ٢٦١».

وموطئ إبراهيم عليه السلام هو موضع قدمه في الصخرة التي اعتمد عليها حين أمال رأسه ليغسل فأبقَى الله فيها أثر قدمه آية ، قال تعالى: ﴿فيه آياتٌ بيِّناتٌ مقامُ إبراهيم﴾ وقيل: بل هو أثر قدمه حين رفع القواعد من البيت وهو قائم عليه.

(٢) من الآية (٣٥) من سورة إبراهيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

هذا ـ والله أعلم ـ لأن الله تعالى جعله ربوةً أو في حكمها ليكون أصونَ له ، والحرم ـ فيما حكى ابنُ أبي زيد في الحجِّ الثاني من النوادر ـ ممايلي المدينة نحواً من أربعة أميال إلى منتهى التنعيم ، ومما يلي العراق نحو ثمانية أميال إلى مكان يقال له المقطع ، ومما يلي عرفة تسعة أميال ، ومما يلي طريق اليمن سبعة أميال إلى موضع يقال له أضاة ، ومما يلي جدة عشرة أميال إلى منتهى الحديبية . قال مالك في العتبية : والحديبية في الحرم .

ومن آياته فيما ذكر مكي وغيره أن الطير لا تعلوه ، وإن علاه طائر فإنما ذلك لمرض به ، فهو يستشفي بالبيت .

قال القاضي أبو محمد :

وهذا كله عندي ضعيف ، والطير تعاين تعلوه ، وقد علته العقابُ التي أخذت الحية المشرفةَ على جداره ، وتلك كانت من آياته .

ومن آياته فيما ذكر الناس قديماً وحديثاً أنه إذا عمه المطر من جوانبه الأربع في العام الواحد أخصبت آفاق الأرض ، وإن لم يُصبْ جانباً منه لم يخصبْ ذلك الأُفق الذي يليه ذلك العام .

واختلف الناس في مقام إبراهيم ـ فقال الجمهور : هو الحجر المعروف ، وقال قوم : البيت كله مقام إبراهيم لأنه بناه وقام في جميع أقطاره ، وقال قوم من العلماء : مكة كلها مقام إبراهيم ، وقال قوم : الحرم كله مقام إبراهيم . والضمير في قوله : ﴿ومَنْ دَخَلَه﴾ عائدٌ على الحرم في قول من قال : مقام إبراهيم هو الحرم ، وعائد على البيت في قول الجمهور ، إذ لم يتقدم ذكر لغيره ، إلا أن المعنى يفهم منه أن من دخل الحرم فهو في الأمن ، إذ الحرم جزءٌ من البيت ، إذ هو بسببه وبحرمته .

واختلف الناس في معنى قوله : ﴿كان آمناً﴾ ؛ فقال الحسن وقتادة وعطاء ومجاهد وغيرهم : هذه وصفُ حالٍ كانت في الجاهلية أنّ الذي يجرُّ جريرةً ثم يدخل الحرم فإنه كان لا يتناول ولا يطلب ، فأما في الإسلام وأَمْنِ جميع الأقطار فإن الحرم لا يَمْنَعُ من حدٍّ من حدود الله : من سرق فيه قطع ، ومن زنى رجم ، ومن قَتل قُتل . واستحسن كثير

ممن قال هذا القول أن يُخْرَجَ من وجب عليه القتلُ إلى الحِلِّ فيقتل هنالك. وقال ابن عباس رضي الله عنه: من أحدث حدثاً ثم استجار بالبيت فهو آمن، وإن الأمرَ في الإسلام على ما كان في الجاهلية، والإسلام زاد البيت شرفاً وتوقيراً، فلا يعرض أحد بمكة لقاتل وليه، إلا أنه يجب على المسلمين ألاّ يبايعوا ذلك الجاني ولا يكلّموه ولا يؤووه حتى يتبرَّمَ فيخرجَ من الحرم فيقامَ عليه الحد. وقال بمثل هذا عبيد بن عُمَير والشعبي وعطاء بن أبي رباح والسديّ وغيرهم؛ إلا أن أكثرهم قالوا هذا فيمن يَقتلُ خارجَ الحرم ثم يعوذُ بالحرم، فأما من يقتل في الحرم فإنه يقام عليه الحد في الحرم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإذا تُؤمل أمر هذا الذي لا يكلم ولا يبايع، فليس بآمن.

وقال يحيى بن جعدة[1]: معنى الآية: ومن دخل البيت كان آمناً من النار. وحكى النقاش عن بعض العباد قال: كنت أطوف حول الكعبة ليلاً فقلت: يا رب إنك قلت: ﴿وَمَنْ دَخَلَه كان آمناً﴾ فمن ماذا هو آمنٌ يا ربّ؟ فسمعتُ مكلماً يكلمني وهو يقول: من النار، فنظرت وتأملت فما كان في المكان أحد.

وقوله تعالى: ﴿ولله عَلَى النَّاس حجُّ البَيْت﴾.... الآية، هو فرضُ الحج في كتابِ الله بإجماع. وقال مالك رحمه الله: الحج كله في كتاب الله، فأما الصلاة والزكاة فهي من مجمله الذي فسّره النبي عليه السلام، والحج من دعائم الإسلام التي بني عليها حسب الحديث[2]، وشروط وجوبه خمسة: البلوغ، والعقل، والحرية، والإسلام، واستطاعة السبيل. والحج في اللغة: القصد، لكنه في بيت الله مخصص بأعمال وأقوال.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿حِجُّ البيت﴾ بكسر الحاء، وقرأ الباقون: [حَجُّ البيت] بفتحها. قال سيبويه: حَج حِجّاً مثل ذَكَر ذِكْراً، قال أبو علي:

---

(١) يحيى بن جعدة بن هُبيرة القرشي المخزومي، رَوَى عن جدته أُم هاني بنت أبي طالب، وعن أبي الدرداء، وزيد بن أرقم، وابن مسعود، وغيرهم، وروى عنه عمرو بن دينار، ومجاهد، وحبيب بن ثابت، وغيرهم، ثقة، ذكره ابن حبان في الثقات (تهذيب التهذيب. ١١: ١٩٢).

(٢) يشير حديث ابن عمر رضي الله عنهما: (بُني الإسلام على خمس) والحديث أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، والإمام أحمد، (الجامع الصغير. ١: ٤٢٨).

فَحِجٌّ على هذا مصدر، وقال سيبويه أيضاً: قالوا غزاة فأرادوا عمل وَجهٍ واحدٍ كما قيل حِجّة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

قوله حِجٌّ بكسر الحاء، يريدون عمل سنة واحدة ـ ولم يجيئوا به على الأصل لكنه اسم له[١]. قال أبو علي: قوله: «لم يجيئوا به على الأصل» يريد على الفتح الذي هو الدفعة من الفعل، ولكن كسروه فجعلوه اسماً لهذا المعنى، كما أن غزاة كذلك، ولم تجئ فيه الغزوة وكان القياس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأكثر ما التزم كسر الحاء في قولهم ذو الحِجة، وأَما قولهم: حَجَّةُ الوداع ونحوه فإنها على الأصل. وقال الزجاج وغيره: الحَج ـ بفتح الحاء ـ المصدر، وبكسرها اسم العمل. وقال الطبري: هما لغتان: الكسر لغة نجد، والفتح لغة أهل العالية.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ اسْتطاع إليه سبيلاً﴾: ﴿مَنْ﴾ في موضع خفض بدل من ﴿النَّاسِ﴾ وهوبدل البعض من الكل. وقال الكسائي وغيره: هي شرط في موضع رفع بالابتداء. والجواب محذوف تقديره: فعليه الحج؛ ويدل عليه عطف الشرط الآخر بعده في قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ وقال بعض البصريين: ﴿مَنْ﴾ رفع على أنه فاعل بالمصدر الذي هو «حَجُّ البَيْت» ويكون المصدر مضافاً إلى المفعول.

واختلف الناس في حال مستطيع السبيل كيف هي؟ فقال عمر بن الخطاب وابن عباس وعطاء وسعيد بن جبير: هي حالُ الذي يجد زاداً وراحلة. وروى الطبري عن الحسن من طريق إبراهيم بن يزيد الخوزي[٢] أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية فقال له رجل: يا رسول الله ما السبيل؟ قال: (الزاد والراحلة)[٣]. وأسند الطبري إلى علي بن

---

(١) قوله: (ولم يجيئوا.. اسم له): هذا تتمة كلام سيبويه.

(٢) إبراهيم بن يزيد الخوزي الأموي، أبو إسماعيل المكي، مولى عمر بن عبد العزيز روى عن طاووس وأبي الزبير ومحمد بن عباد وغيرهم.. وروى عنه عبد الرزاق، ووكيع، ومعتمر بن سلمان، وغيرهم، قال البخاري: سكتوا عنه. قال ابن سعد: مات سنة ١٥١. «تهذيب التهذيب. ١: ١٧٩».

(٣) أخرجه الشافعي، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عدي، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن عمر =

أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من ملك زاداً وراحلة فلم يحجّ فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً)[١]. وروى عبد الرزاق وسفيان عن إبراهيم بن يزيد الخوزي عن محمد بن عباد بن جعفر[٢] عن ابن عمر قال: قام رجل إلى النبي عليه السلام، فقال: ما السبيل؟ قال: (الزاد والراحلة).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وضعف قومٌ هذا الحديث لأن إبراهيم بن يزيد الخوزي تكلم فيه ابن معين[٣] وغيره، والحديث مستغن عن طريق إبراهيم، وقال بعض البغداديين: هذا الحديث مشير إلى أن الحج لا يجب مشياً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي أقول: إن هذا الحديث إنما خرج على الغالب من أحوال الناس وهو البعد عن مكة واستصعاب المشي على القدم كثيراً، فأَما القريب الدار فلا يدخل في الحديث، لأن القرب أغناه عن زاد وراحلة. وأما الذي يستطيع المشْي من الأقطار البعيدة، فالراحلة عنده بالمعنى والقوة التي وهب. وقد ذكره الله تعالى في قوله ﴿يأْتُوك رجالاً﴾ وكذلك أيضاً معنى الحديث: الزاد والراحلة إن لم يكن له عذر في بدنه، من مرض أو خوف على أقسامه أو استحقاق بأجرة أو دين وهو يحاول الأداء، ويطمع فيه بتصرفه في مال بين يديه، وأما العديم فله أن يحج إذا تكلف واستطاع، فمقصد الحديث أن يتحدد موضع الوجوب على البعيد الدار، وأَما المشاةُ وأصحابُ الأعذار فكثير منهم من يتكلف السفر وإن كان الحج غير واجب عليه، ثم يؤديه ذلك

= مرفوعاً، كما أخرجه الدار قطني بعدة روايات مختلفة. «تفسير الشوكاني. ١: ٣٣٢».

(١) أخرجه الترمذي والبيهقي من رواية الحارث عن عليٍّ. «الترغيب والترهيب: ٢: ٢١١».

(٢) محمد بن عباد بن جعفر المخزومي المكي، روى عن أبي هريرة، وعائشة، وابن عمر، وغيرهم، وروى عنه ابنه جعفر، والزهري، والأوزاعي وغيرهم، ثقة، قليل الحديث. «تهذيب التهذيب ٩: ٢٤٣».

(٣) هو يحيى بن معين، الإمام الفرد، سيد الحفاظ أبو زكريا مولاهم البغدادي، سمع هشيما، وابن المبارك وغيرهما، وروى عنه أحمد، والبخاري، وغيرهما، توفي سنة ٢٣٣هـ «تذكرة الحفاظ. ٢: ٢٢٩».

التكلف إلى موضع يجب فيه الحج عليه، وهذه مبالغة في طلب الأجر ونيله، إن شاء الله تعالى.

وذهبت فرقة من العلماء إلى أن قوله تعالى: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ كلام عام لا يتفسر بزاد وراحلة ولا غير ذلك، بل إذا كان مستطيعاً غير شاق على نفسه فقد وجب عليه الحج، قال ذلك ابن الزبير والضحاك. وقال الحسن: من وجد شيئاً يبلغه فقد استطاع إليه سبيلاً. وقال عكرمة: استطاعة السبيل: الصحة. وقال ابن عباس: من ملك ثلاثمئة درهم فهو السبيل إليه. وقال مالك بن أنس رضي الله عنه ـ في سماع أشهب من العتبية، وفي كتاب محمد، وقد قيل له: أتقول إن السبيل الزاد والراحلة؟ فقال: لا والله، قد يجد زاداً وراحلة ولا يقدر على مسير، وآخر يقدر أن يمشي راجلاً، ورب صغيرٍ أجلد من كبير، فلا صفة في هذا أبينُ مما قاله الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا أنبل كلام؛ وجميع ما حكي عن العلماء لا يخالف بعضه بعضاً، الزاد والراحلة على الأغلب من أمر الناس في البعد، وأنهم أصحاء غير مستطيعين للمشي على الأقدام، والاستطاعة ـ متى تحصلتْ ـ عامة في ذلك وغيره، فإذا فرضنا رجلاً مستطيعاً للسفر ماشياً معتاداً لذلك، وهو ممن يسألُ الناسَ في إقامته ويعيشُ من خدمتهم وسؤالهم، ووجد صحابةً، فالحجُّ عليه واجبٌ دون زادٍ ولا راحلة. وهذه من الأمور التي يتصرف فيها فقه الحال. وكان الشافعي يقول: الاستطاعة على وجهين؛ بنفسه أولاً، فمن منعه مرض أو عذر وله مال فعليه أن يجعل من يحج عنه وهو مستطيع لذلك.

واختلف الناس، هل وجوب الحج على الفور أو على التراخي؟ على قولين، ولمالك رحمه الله مسائل تقتضي القولين، قال في «المجموعة» فيمن أراد الحج ومنعه أبواه: لا يعجّل عليهما في حجة الفريضة وليستأذنهما العام والعامين، فهذا على التراخي. وقال في كتاب ابن المواز: لا يحج أحد إلا بإذن أبويه إلا الفريضة، فليخرج وليدعهما، فهذا على الفور. وقال مالك في المرأة يموت عنها زوجها فتريد الخروج إلى الحج: لا تخرج في أيام عدتها، قال الشيخ أبو الحسن اللخمي[1]: فجعله على التراخي.

(١) هو الشيخ أبو الحسن علي بن محمد الربعي اللخمي القيرواني، تفقه بابن محرز وغيره من علماءِ =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا استقراءٌ فيه نظر.

واختلف قول مالك رحمه الله فيمن يخرج إلى الحج على أن يسأل الناس جائياً وذاهباً، ممن ليست تلك عادته في إقامته، فروى عنه ابن وهب أنه قال: لا بأس بذلك، قيل له: فإن مات في الطريق؟ قال: حسابه على الله. وروى عنه ابن القاسم أنه قال: لا أرى للذين لا يجدون ما ينفقون أن يخرجوا إلى الحج والغزو ويسألون، وإني لأكره ذلك، لقول الله سبحانه ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾[(١)]. قال ابن القاسم: وكره مالك أن يحجَّ النساءُ في البحر لأنها كشفة، وكره أن يحج أحد في البحر إلا مثل أهل الأندلس الذين لا يجدون منه بداً، وقال في كتاب محمد وغيره: قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[(٢)] ولا أسمع للبحر ذكراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تأنيس من مالك رحمه الله بسقوط لفظة البحر، وليس تقتضي الآية سقوط البحر، وسيأتي تفسير ذلك في موضعه إن شاء الله، وقد قال رسول الله ﷺ: «ناس من أمتي عرضوا علي ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة، يركبون ثبج هذا البحر الأخضر غزاة في سبيل الله»[(٣)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا فرق بين الغزو والحج.

واختلف في حج النساء ماشيات مع القدرة على ذلك، فقال في «المدونة» في المرأة تنذر مشياً فتمشي وتعجز في بعض الطريق: إنها تعودُ ثانية؛ قال: والرجال

= وقته، ظهر في أيامه وطارت فتاويه، حاز رياسة أفريقية جُملة، وتفقه به جماعةٌ من أهل صفاقس، أخذ عنه أبو عبد الله المازري، له تعليق كبير على المُدَوَّنة (الديباج المذهب. ٢٠٣).

(١) من الآية (٩١) من سورة التوبة.

(٢) الآية (٢٧) من سورة الحج.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم (عن أنس رضي الله عنه) ـ انظر: (الترغيب والترهيب ٢: ٣٠٥).

والنساء في ذلك سواء ، فعلى هذا يجب الحج إذا كانت قادرةً على المشي ، لأن حجة الفريضة آكد من النذر.

وقال في كتاب محمد: لا أرى على المرأة الحجَّ ماشيةً وإن قويتْ عليه ، لأن مشيهن عورةٌ ، إلا أن يكونَ المكان القريب من مكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ينظر بفقهِ الحال إلى رائعةٍ أو متجالّةٍ[1].

ولا حجَّ على المرأة إلا إذا كان معها ذو محرم ، واختلف إذا عدمته هل يجب الحج بما هو في معناه من نساء ثقات يصطحبن في القافلة ، أو رجال ثقات؟ فقال الحسن البصري وإبراهيم النخعي وابن حنبل وإسحق بن راهويه وأبو حنيفة وأصحابه: المحرم من السبيل ، ولا حجَّ عليها إلا مع ذي محرم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا وقوف مع لفظ الحديث.

وقال مالك: تخرج مع جماعة نساء ، وقال الشافعي: تخرج مع حرة ثقة مسلمة ، وقال ابن سيرين: تخرج مع رجل ثقة من المسلمين ، وقال الأوزاعي: تخرج مع قوم عدول، وتتخذ سلماً تصعد عليه وتنزل، ولا يقرَ بها رجل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الأقوال راعت معنى الحديث. وجمهور الأمةِ على أن للمرأة أن تحجَّ الفريضة وإن كره زوجها ، وليس له منعها. واضطرب قول الشافعي في ذلك

واختلف الناس في وجوب الحج مع وجود المكوس والغرامة؛ قال سفيان الثوري: إذا كان المكس ولو درهماً سقط فرض الحج عن الناس. وقال عبد الوهاب: إذا كانت الغرامةُ كثيرةً مجحفة سقط الفرض ، فظاهر هذا إذا كانت كثيرةً غير مجحفة لسعة الحال فإن الفرض لا يسقط ، وعلى هذا المنزع جماعةُ أهلِ العلم وعليه مضت الأَعصار.

---

(١) التجال: التعاظم، وفي العبارة غموض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه نبذة من فقه الاستطاعة، وليس هذا الجمع بموضع لتقصي ذلك، والله المستعان.

والسبيل: تذكر وتؤنث، والأغلب الأفصح التأنيث، قال الله تعالى: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾[١] وقال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٢]؛ ومن التذكير قول كعب بن مالك[٣]: :

قضى يومَ بدرٍ أن تلاقي معشراً بغوا، وسبيلُ البغي بالناسِ جائرُ

والضمير في: ﴿إليه﴾ عائد على البيت، ويحتمل أن يعود على الحج.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَن العالَمين﴾ قال ابن عباس: المعنى: من زعم أن الحج ليس بفرض عليه، وقال مثله الضحاك وعطاء وعمران القطان[٤] والحسن ومجاهد. وروي عن النبي عليه السلام أنه قرأ الآية، فقال له رجل من هذيل: يا رسول الله من تركه كفر، فقال له النبي ﷺ: (من تركه لا يخاف عقوبته، ومن حجه لا يرجو ثوابه فهو ذلك)[٥]. وقال بمعنى هذا الحديث ابن عباس ومجاهد أيضاً. وهذا والذي قبله يرجع إلى كفر الجحد والخروج عن الملة. وقال ابن عمر وجماعة من العلماء: معنى الآية: من كفر بالله واليوم الآخر، وهذا قريب من الأول. وقال ابن زيد: معنى الآية: من كفر بهذه الآيات التي في البيت، وقال السدي وجماعة من أهل العلم: معنى الآية: ومن كفر بأن وجد ما يحج به ثم لم يحجّ، قال السدي: من كان بهذه الحال فهو كافر.

---

(١) من الآية (٩٩) من سورة آل عمران.

(٢) من الآية (١٠٨) من سورة يوسف.

(٣) من قصيدة له يجاوب فيها ضرار بن الخطاب، انظر ديوانه (جمع سامي العاني): ٢٠٠ والبداية والنهاية ٣: ٣٣٥.

(٤) عمران بن داود العمى، أَبو العوام القطان البصري، روى عن قتادة، ومحمد بن سيرين، وأبي حمرة الضبعي، وغيرهم، وعَنه ابن مهدي، وأَبو داود الطيالسي، وآخرون، ذكره يحيى فأَحسن الثناءَ عليه، وابن حبان ذكره في الثقات. وقال النسائي: ضعيف. وقال الحاكم: صدوق، كان من أَخص الناس بقتادة. «تهذيب التهذيب ٨/ ١٣٠».

(٥) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، عن أَبي داود نفيع. (تفسير الشوكاني ١/ ٣٣٤).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا كفر معصية، كقوله عليه السلام: (من ترك الصلاة فقد كفر)[١] وقوله: (لا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض)[٢] على أظهر محتملات هذا الحديث. وبينَّ أن من أنعم الله عليه بمال وصحة ولم يحج فقد كفر النعمة.

ومعنى قوله تعالى: ﴿غَنيٌّ عَن العالَمين﴾ الوعيد لمن كفر. والقصد بالكلام: فإن الله غني عنهم، ولكن عمم اللفظ ليبرع المعنى، وينبِّه الفكر على قدرة الله وسلطانه واستغنائه من جميع الوجوه حتى ليس به افتقار إلى شيء، لا ربَّ سواه.

قوله عز وجل:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

هذه الآيات توبيخ لليهود المعاصرين لمحمد ﷺ.

و﴿الكِتاب﴾: التوراة، وجعلهم أهله بحسب زعمهم ونسبهم، وإلا فأهله على الحقيقة هم المؤمنون، و﴿آيات الله﴾ يحتمل أن يريد بها القرآن، ويحتمل أن يراد بالآيات العلامات الظاهرة على يدي محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿والله شَهيدٌ علَى ما تَعْمَلون﴾ وعيد محض: أي يجازيكم به ويعاقبكم. قال الطبري: هاتان الآيتان قوله: ﴿قلْ يا أهْلَ الكِتابِ لِمَ تَكْفُرون﴾ وما بعدهما إلى قوله: ﴿أُولئِك لهُمْ عذابٌ عظيمٌ﴾، نزلت بسبب رجل من يهود حاول الإغراءَ بين الأوس والخزرج، قال ابن إسحق[٣]: حدثني الثقة عن زيد بن أسلم، قال: مرَّ شاس بن قيس اليهودي ـ وكان شيخاً قد عسا[٤] في الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين والحسد لهم ـ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، وهم في مجلس يتحدثون، فغاظه ما رأى من جماعتهم، وصلاح ذات

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسَط عن أنس. (الجامع الصغير ٢/٥٠٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه عن جرير، وكما أخرجه البخاري والنسائي، عن أَبي بكرة، وأخرجه البخاري، والترمذي عن ابن عباس. (الجامع الصغير ٢/ ٦٣٢).

(٣) انظر السيرة ١: ٥٥٥ ـ ٥٥٧.

(٤) بمعنى: كبر وأَسَنَّ.

بينهم ، بعد ما كان بينهم من العداوة فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة[١] بهذه البلاد ، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتى شاباً من يهود ، فقال: اعمد إليهم واجلس معهم وذكِّرهم يوم بعاث[٢] ، وما كان قبله من أيام حربهم ، وأَنشدهمْ ما قالوه من الشعر في ذلك ، ففعل الفتى ، فتكلم القوم عند ذلك فتفاخروا وتنازعوا ، حتى تواثب رجلان من الحيين على الرُّكَبِ: أوس بن قيظي[٣] ، أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس ، وجبار بن صخر[٤] من الخزرج ، فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها جذعة[٥] ، فغضب الفريقان ، وقالوا: قد فعلنا ، السلاحَ السلاح ، موعدكم الظاهرة ، يريدون الحرة ، فخرجوا إليها ، وتحاور الناس على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية ، وبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين ، فقال: يا معشر المسلمين ، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ ووعظهم فعرف القوم أنها نزغةٌ من الشيطان، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضاً من الأوس والخزرج ، وانصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين ، فأنزل الله في شاس بن قيس وما صنع هذه الآيات[٦]. وقال الحسن وقتادة والسدي: إن هذه الآيات نزلت في أحبار اليهود الذين كانوا يصدون المسلمين عن الإسلام، بأن يقولوا لهم ، إن محمداً ليس بالموصوف في كتابنا[٧].

---

(١) بنوقيلة: هم الأوس والخزرج، وهي أمهم ، قضاعية أو غسانية (اللسان: قيل).

(٢) هو يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس.

(٣) أوس بن قيظي بن عمرو بن زيد الأنصاري الأوسي: شهد أُحداً هو وابناه: كنانة ، وعبد الله. قيل إنه كان منافقاً وهو الذي قال: إن بيوتنا عورة ، وقيل: لم يحضر عرابة أُحُداً مع أبيه ولا مع أَخويه لأَن الرسول ﷺ استصغره. «الإصابة ١/ ٨٧». و«الاستيعاب».

(٤) جبار بن صخر بن أُمية الأَنصاري السلمي شهد بدراً وهو ابن اثنين وثلاثين سنة ، ثم شهد أُحُداً وما بعدها من المشاهد ، وكان أَحد السبعين ليلةَ العقبة ، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين المِقْداد بن الأَسود ، توفي سنة ثلاثين في خلافة عثمان وهو ابن اثنتين وستين سنة. «الإصابة: ١/ ٢٢٠».

(٥) يردها جذعة: أي الحرب ، يعيدها من جديد وكأنها لم تسكن.

(٦) أَخرجه ابن إسحق وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأَبو الشيخ ـ عن زيد بن أَسلم. وقد رويت هذه القِصة مختصرة ومطولة من عِدة طرق. «تفسير الشوكاني ١/ ٣٣٦».

(٧) يشير بهذا إلى ما أَخرجه ابن جرير ، وابن أَبي حاتم ـ عن السدي. وما أَخرجه عبد بن حميد وابن جرير ـ عن قتادة: «تفسير الشوكاني ١/ ٣٣٦» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا شك في وقوع هذين السببين وما شاكلهما من أفعال اليهود وأقوالهم، فنزلت الآيات في جميع ذلك.

وصدَّ؛ معناه: أعرض عن الشيء وانصرف عنه، وهو فعل، يقف ويتعدى بلفظ واحد، تقول: صددت عن كذا، وصددت غيري عنه، فالذي في هذه الآية هو الفعل المتعدي، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [تُصِدُّون]، بضم التاء وكسر الصاد، وهذا هو الفعل الواقف، نقل بالهمزة فعدِّي. و﴿سَبِيلِ اللهِ﴾ في هذه الآية هو الإسلام الذي هو طريق إلى رضى الله وجنته، و﴿مَنْ﴾ مفعولة بـ (تَصُدُّون)، والضمير في ﴿تَبْغُونها﴾ عائد على السبيل، ومعنى ﴿تبغون﴾ على ما فسر الزجاج والطبري وغيرهما: تطلبون، فالمعنى: تطلبون لها العوجَ، أي الاعوجاج والانفساد، تقول العرب: ابغني كذا (بألف موصولة)، بمعنى اطلبه لي، فإذا أرادوا أعنّي على طلبه واطلبه معي، قطعوا الألف مفتوحة. وقيل: إنَّ ﴿تبغون﴾ هنا، من البغي الذي هو التعدي، أي: تبغون عليها، ويكون ﴿عِوَجاً﴾ ـ على هذا التأويل ـ نصبه على الحال من الضمير في ﴿تبغون﴾ أي: عوجاً منكم وعدم استقامة.

والعِوج بكسر العين: ما كان في الأمور والحجج غير الأجرام، والعَوَجُ بفتح العين ما كان في الأجرام كالجدار والعصا ونحو ذلك، قال ابن قتيبة: والأرض خاصة من الأجرام يقال فيها: عِوج بكسر العين، ومنه قول الله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[1]. قال بعض اللغويين: هما لغتان بمعنى واحد. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُم شُهداء﴾ يريد جمع شاهد، على ما في التوراة من صفة محمد وصدقه، وباقي الآية وعيد.

قوله عز وجل:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

الخطاب قوله: ﴿ياأيُّها الَّذينَ آمَنوا﴾ عام في المؤمنين، والإشارة بذلك وقت نزوله

---

(١) الآية (١٠٧) من سورة طه.

إلى الأوس والخزرج بسبب نائرة[١] شاس بن قيس. والفريق: الجماعة من الناس، والمراد بها هنا الأحبار والرؤوس، و﴿يَرُدُّوكُم﴾ معناه: بالإضلال والتشكيك والمخادعة وإظهار الغش في معرض النصح[٢].

ثم وقف المؤمنين على هذا الأمر المستبعد المستشنع الذي يريده بهم اليهود، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَكفُرون وَأَنتُم﴾ بهذه الأحوال الموصوفة؟ و﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب على الحال، كما هي في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ﴾[٣] والمعنى أجاحدين تكفرون؟ أجاهلين؟ أمستخفين؟ أمرتدين؟ ونحو هذا من التقدير. والواو في قوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرون﴾ عاطفة جملة كلام على جملة كلام، ولايجوز أن تكون ﴿كيف﴾ في هذه الآية كما هي في قولك: «كيف تفعل كذا»؟ وأنت تسأل عن شيء ثابت الوقوع متحصله، لأنه كان يلزم أن يكون كفر المؤمنين مقرراً مثبت الوقوع. وتأمل معنى «كيف» إذا وليها فعل، ومعناها إذا وليها اسم[٤].

وقرأ جمهور الناس: ﴿تُتْلى﴾ بالتاء من فوق، وقرأ الحسن: ﴿يُتلى﴾ بالياء إذ الآيات هي القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَفِيكُم﴾ هي ظرفية الحضوروالمشاهدة لشخصه عليه السلام، وهو في أمته إلى يوم القيامة بأقواله وآثاره، و﴿يَعْتَصِم﴾ معناه: يتمسك ويستذري[٥]، وعصم الشيء إذا منع وحمى، ومنه قوله: ﴿يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾[٦] والعصم: الأسباب التي يمت بها، ويعتصم من الخيبة في الغرض المطلوب، وقال الأعشى:

إلـى المـرءِ قيسٍ أُطيـلُ السُّـرى ... وآخـذُ مـن كـلِّ حـيٍّ عُصُـم[٧]

---

(١) نأرتْ نائرةٌ في الناس نأراً: هاجتْ هائجة.

(٢) في قوله تعالى: [يَرُدُّوكُمْ بعْدَ إيمانكُمْ كافرينَ] انتصب [كافرين] على أنه مفعول ثانٍ للفعل [يردّ] لأنها هنا بمعنى (صيَّر) كقول الشاعر:

فـردَّ شُعـورَهُـنَّ السُّـودَ بيضـا ... وردَّ وجـوهَهُـنَّ البيـض سـودا

وهو أظهر من قول من قال: إنه منصوب على الحال.

(٣) من الآية (٢٨) من سورة البقرة.

(٤) هناك خلاف في معناها بين السيرافي وسيبويه.

(٥) يستذري به: يلجأ إليه.

(٦) من الآية (٤٣) من سورة هود.

(٧) البيت في ديوانه من قصيدة يمدح بها قيس بن معد يكرب، والعُصم: من عصام وهو الحبل للفرادة =

وتصرف اللفظة كثير جداً، وباقي الآية بيِّنٌ، والله المستعان.

قوله عز وجل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾.

الخطاب بهذه الآية يعم جميع المؤمنين، والمقصود به وقت نزولها الأوس والخزرج الذين شجر بينهم بسعاية شاس بن قيس ما شجر.

وتُقاة: مصدر وزنه فُعلة، أصله تقية، وقد تقدم قوله: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾[1]، ويصح أن تكون التقاة في هذه الآية جمع فاعل وإن كان لم يتصرف منه فيكون كرماة ورام، أو يكون جمع تقي إذ فعيل وفاعل بمنزلة، والمعنى على هذا: اتقوا الله كما يحق أن يكون مُتَّقوه المختصون به، ولذلك أُضيفوا إلى ضمير الله تعالى.

واختلف العلماء في قوله: ﴿حق تقاته﴾؛ فقالت فرقة: نزلت الآية على عموم لفظها، وألزمت الأمة أن تتقي الله غاية التقوى حتى لا يقع إخلال في شيء من الأشياء، ثم إن الله نسخ ذلك عن الأمة بقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾[2] وبقوله ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[3] قال ذلك قتادة والسدي والربيع بن أنس وابن زيد وغيرهم.

وقالت جماعة من أهل العلم: لا نسخ في شيء من هذا، وهذه الآيات متفقات، فمعنى هذه: اتقوا الله حقَّ تقاته فيما استطعتم، وذلك أن ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ هو بحسب أوامره ونواهيه، وقد جعل تعالى الدِّين يسراً، وهذا هو القول الصحيح، وألا يعصي ابن آدم جملة لا في صغيرة ولا في كبيرة وألا يفتر في العبادة ـ أمرٌ متعذر في جبلة البشر، ولو كلف الله هذا لكان تكليف ما لا يطاق، ولم يلتزم ذلك أحد في تأويل هذه

= والقربة، والمراد به هنا محل عهد وموثق.

(١) من الآية (٢٨) من سورة آل عمران.

(٢) من الآية (١٦) من سورة التغابن.

(٣) من الآية (٢٨٦) من سورة البقرة.

الآية، وإنما عبروا في تفسير هذه الآية بأن قال ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾: هو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى[١]، وكذلك عبر الربيع بن خيثم وقتادة والحسن. وقال ابن عباس رضي الله عنه: معنى قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاته﴾: جاهدوا في الله حق جهاده، ولا نسخ في الآية. وقال طاووس في معنى قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللهَ حقَّ تُقاته﴾: يقول تعالى: إن لم تتقوه ولم تستطيعوا ذلك فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

وقوله تعالى: ﴿ولا تَموتنَّ إلا وأَنْتُم مُسْلِمون﴾ معناه: دوموا على الإسلام حتى يوافيكم الموت وأنتم عليه. وهكذا هو وجه الأمر في المعنى، وجاءت العبارة على هذا النظم الرائق الوجيز، ونظيره ما حكى سيبويه من قولهم: لا أرينك ها هنا، وإنما المراد: لا تكن هنا فتكون رؤيتي لك. و﴿مُسْلِمون﴾ في هذه الآية: هو المعنى الجامع في التصديق والأعمال، وهو الدِّين عند الله وهو الذي بني على خمس.

وقوله تعالى: ﴿واعْتَصِمُوا بحَبْلِ اللهِ جَميعاً﴾ معناه: تمنعوا وتحصنوا به، فقد يكون الاعتصام بالتمسك باليد، وبارتقاء القنن، وبغير ذلك مما هو منعة، ومنه الأعصم في الجبل، ومنه عصمة النكاح، والحبل في هذه الآية مستعار، لمّا كان السببُ الذي يعتصم به وصلةً ممتدةً بين العاصم والمعصوم ونسبةً بينهما شبَّه ذلك بالحبل الذي شأنه أن يصل شيئاً بشيء، وتسمى العهود والمواثيق حبالاً، ومنه قول الأعشى[٢]:

وإذا تَجوَّزُها حبالُ قبيلةٍ أخذت من الأدنى إليك حبالها

ومنه قول الآخر:

إنِّي بِحَبْلِكِ واصلٌ حَبْلي[٣] . . . .

---

(١) أخرجه عبد الرزاق، وابن أَبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أَبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وصحَّحه، وابن مردويه ـ عن ابن مسعود، وقد رواه الحاكم وصححه، وابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعاً بدون قوله: (ويشكر فلا يكفر) (تفسير الشوكاني ١/ ٣٣٦). وابن كثير ١/ ٣٨٧. ومجمع الزوائد ٦/ ٣٢٦).

(٢) البيت في ديوانه: ٢٤ والضمير في «تجوزها» يعود إلى ناقته، وفي رواية الديوان: أخذت من الأخرى.

(٣) قائل البيت: امرؤُ القيس. وتمامه: وبريش نَبْلكِ رائِش نبلي.

ومنه قول الله تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[١].

واختلفت عبارة المفسرين في المراد في هذه الآية بحبل الله؛ فقال ابن مسعود: حبل الله: الجماعة. وروى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: (إنَّ بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة قال: فقيل: يا رسول الله، وما هذه الواحدة؟ قال: فقبض يده وقال: الجماعة، وقرأ: ﴿واعْتَصِموا بحَبْلِ اللهِ جَميعاً﴾[٢]. وقال ابن مسعود في خطبة: عليكم بالطاعة والجماعة فإنها حبلُ الله الذي أمر به. وقال قتادة رحمه الله: حبل الله الذي أمر بالاعتصام به: هو القرآن. وقال السدي: حبل الله: كتاب الله، وقاله أيضاً ابن مسعود والضحاك. وروى أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ: قال: (كتابُ الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض)[٣]. وقال أبو العالية: حبل الله في هذه الآية: هو الإخلاص في التوحيد. وقال ابن زيد: حبل الله: الإسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقيل غير هذا مما هو كله قريب بعضه من بعض.

وقوله تعالى: ﴿جميعاً﴾ حال من الضمير في قوله: ﴿اعْتَصِمُوا﴾، فالمعنى: كونوا في اعتصامكم مجتمعين، ﴿وَلاَ تَفَرَّقوا﴾ يريد التفرق الذي لا يأتي معه الائتلاف على الجهاد وحماية الدين وكلمة الله تعالى. وهذا هو الافتراق بالفتن والافتراق في العقائد، وأما الافتراق في مسائل الفروع والفقه فليس يدخل في هذه الآية. بل ذلك هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: (خلافُ أمتي رحمة)[٤] وقد اختلف الصحابة في الفروع

---

(١) من الآية (١١٢) من سورة (آل عمران).

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أنس في مسنده، وأخرجه الإمام أحمد، وأبو داود عن معاوية. «الترغيب والترهيب ١/ ٨٤». كما أخرجه الطبراني في الصغير عن أنس، وفي السند عبد الله بن سفيان وقد تكلم فيه. «مجمع الزوائد ١/ ١٨٩».

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن جرير ـ عن أبي سعيد الخدري، وهو حسن. «الجامع الصغير ٢/ ٢٢٥ ط: ١».

(٤) رواه نصر المقدسي في «الحجة»، والبيهقي في «الرسالة الأشعرية» بغير سند، وأورده الحليمي، والقاضي حسين، وإمام الحرمين، وغيرهم، ولعله خرج في بعض كتب الحفاظ التي لم تصل إلينا. «الجامع الصغير ١/ ٣٩». وقال السبكي: لم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف.

أشدَّ اختلاف، وهم يدٌ واحدةٌ على كلِّ كافر.

وأَما الفتنة على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فمن التفرق المنهي عنه، أَمَا إنّ التأويل هو الذي أدخل في ذلك أكثرَ مَنْ دخله من الصحابة رضي الله عن جميعهم.

قوله عز وجل:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾.

هذه الآية تدل على أن الخطاب بهذه الآية إنما هو للأَوس والخزرج، وذلك أن العرب وإن كان هذا اللفظ يصلح في جميعها، فإنها لم تكن في وقت نزول هذه الآية اجتمعت على الإسلام ولا تألّفت قلوبها، وإنما كانت في قصة شاس بن قيس في صدر الهجرة، وحينئذ نزلت هذه الآية، فهي في الأوس والخزرج، كانت بينهم عداوة وحروب، منها يوم بعاث وغيره، وكانت تلك الحروب والعداوة قد دامت بين الحيين مئة وعشرين سنة، حتى رفعها الله بالإسلام، فجاء النفر الستة من الأنصار إلى مكة حجّاجاً، فعرض رسول الله ﷺ نفسه عليهم، وتلا عليهم القرآن كما كان يصنع مع قبائل العرب، فآمنوا به، وأراد الخروج معهم فقالوا: يارسول الله، إن قدمتَ بلادنا على ما بيننا من العداوة والحرب؛ خفنا أَلاّ يتمَّ ما نريده منك، ولكن نمضي نحن ونشيع أمرك ونداخل الناس، وموعدنا وإياك العام المقبل، فمضوا وفعلوا. وجاءت الأَنصار في العام التالي، فكانت العقبة الثانية وكانوا اثني عشر رجلاً، فيهم خمسة من الستة الأَولين، ثم جاؤوا من العام الثالث فكانت بيعة العقبة الكبرى، حضرها سبعون وفيهم اثنا عشر نقيباً؛ ووصف هذه القصة مستوعب في سيرة ابن هشام[١].

ويسر الله تعالى الأنصار للإسلام بوجهين، أحدهما أن بني إسرائيل كانوا مجاورين لهم وكانوا يقولون لمن يتوعدونه من العرب: يبعث لنا نبي الآن نقتلكم معه قَتْلَ عاد وإرم، فلما رأى النفر من الأنصار محمداً ﷺ، قال بعضهم لبعض: هذا والله النبي الذي تذكره بنو إسرائيل فلا تُسْبَقُنَّ إليه. والوجه الآخر: الحرب التي كانت ضرَّستهم

---

(١) انظر السيرة ١: ٤٢٨ وما بعدها.

وأفنت سراتهم ، فرجوا أن يجمع الله به كلمتهم كالذي كان ، فعدد الله تعالى عليهم نعمته في تأليفهم بعد العداوة ، وذكَّرهم بها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم﴾ عبارة عن الاستمرار، وإن كانت اللفظة مخصوصة بوقت ما. وإنما خُصَّتْ هذه اللفظة بهذا المعنى من حيث هي مبدأ النهار ، وفيها مبدأ الأعمال ، فالحال التي يحسها المرء من نفسه فيها هي حاله التي يستمرُّ عليها يومَهُ في الأغلب ، ومنه قول الربيع بن ضبع[1]:

اصبحتُ لا أحملُ السلاحَ وَلا أَملكُ رأسَ البعيرِ إنْ نفرا

والإخوان: جمع أخ ، ويجمع إخوة ، وهذان أشهر الجمع فيه ، على أن سيبويه رحمه الله يرى أن إخوة اسم جمع ، وليس ببناء جمع لأن فَعَلا لا يجمع على فِعْلة ، قال بعض الناس الأخ في الدين يجمع إخواناً ، والأخ في النسب يجمع إخوة: هكذا كثر استعمالهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2] وفيه: ﴿أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾[3] فالصحيح أنهما يقالان في النسب، ويقالان في الدين.

والشَّفا: حرف كل جرم له مهوى ، كالحفرة والبئر والسقف والجدار ونحوه ، ويضاف في الاستعمال إلى الأعلى كقوله: ﴿شَفَا جُرُفٍ﴾[4] وإلى الأسفل كقوله: ﴿شَفَا حُفْرَةٍ﴾، ويثنَّى شفوان. فشبه تعالى كفرهم الذي كانوا عليه وحربهم المُدْنية من الموت بالشفا، لأنهم كانوا يسقطون في جهنم دأبا فأنقذهم الله بالإسلام ، والضمير في ﴿مِنْهَا﴾ عائد على النار أو على الحفرة ، والعَود على الأقرب أحسن ، وقال بعض

---

(١) الربيع بن ضبع بن وهب الفزاري ، جاهلي ، ذكر ابن هشام في التيجان أنه كبر وخرَّف وأدرك الإسلام ، ويقال: لم يسلم ، وروي عنه أنه وصف عمره فقال: عشت مائتي سنة في فترة عيسى ، وستين في الجاهلية ، وستين في الإسلام. «الإصابة ١/٥٢٦. ط: ١». وقد قال أبو حيان تعقيباً على استشهاد ابن عطية بهذا البيت: «وهذا الذي ذكره لا أعلم أحداً من النحويين ذهب إليه ، إنما ذكروا أن أصبح تستعمل لاتصاف الموصوف بصفةٍ وقت الصباح ، وتستعمل بمعنى (صار) فلا يلاحظ فيها وقت الصباحِ ، بل مطلق الانتقال والصيرورة ، وعليه قول الربيع بن ضبع.

(٢) من الآية (١٠) من سورة الحجرات.

(٣) من الآية (٣١) من سورة النور.

(٤) من الآية (١٠٩) من سورة التوبة.

الناس ـ حكاه الطبري: إن الضمير عائد على الشفا، وأنث الضمير من حيث كان الشفا مضافاً إلى مؤنث، فالآية كقول جرير:

رأت مرَّ السنين أخذن مني ... كما أخذ السرارُ من الهلال[(١)]

إلى غير ذلك من الأمثلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس الأمر كما ذكر، والآية لا يحتاج فيها إلى هذه الصناعة، إلا لو لم تجد معاداً للضمير إلا الشفا، وأما (ومَعَنا) لفظ مؤنث يعود الضمير عليه يعضده المعنى المتكلم فيه، فلا يحتاج إلى تلك الصناعة.

وقوله تعالى: ﴿كذلك يُبَيِّنُ اللهُ لكُم آياتِه﴾ إشارة إلى ما بيَّن في هذه الآيات، أي: فكذلك يبين لكم غيرها. وقوله: ﴿لَعَلَّكُم﴾ ترجٍّ في حق البشر، أي: من تأمل منكم الحال رجا الاهتداء[(٢)].

قوله عز وجل:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

قرأ الحسن والزهري وأبو عبد الرحمن وعيسى بن عمر وأبو حيوة: [ولِتَكُنْ] بكسر اللام على الأصل، إذ أصلها الكسر، وكذلك قرؤوا لام الأمر في جميع القرآن.

---

(١) السُّرر: آخر ليلة، إذا كان الشهر تسعاً وعشرين فسراره ليلة ثمان وعشرين، وإذا كان الشهر ثلاثين فسراره ليلة تسع وعشرين، وربما استسر ليلتين، إذا أتم الشهر. اسْتَسَرَّ الهلال في آخر الشهر: خفي، لا يلفظ به إلا مزيداً. «اللسان».
والبيت في ديوان جرير، وإنما قال: أَخَذْنَ، ولم يقل: أَخَذَ لأن المرَّ لمَّا أُضيف إلى السنين وهو جمعُ مؤنث اكتسب منه التأنيث، فأدخل النون في الفعل مراعاةً لما في المرِّ من التأنيث المكتسب من الإضافة. «معلق الطبري». هذا، وقد روى البيت: أرى مرَّ السنين. . .

(٢) فابن عطية هنا يُبقي الترجي على حقيقته لكنه يجعله بالنسبة إلى البشر لا إلى الله تعالى إذ يستحيل الترجي منه. أما الزمخشري فقال: [لعلكم تهتدون]: إرادة أن تزدادوا هدى، فجعل الترجي مجازاً عن إرادة الله زيادة الهدى ـ فهو على الرأيين مجاز ـ أما في قول الزمخشري فلأنه جعل الترجي بمعنى إرادة الله، وأما في قول ابن عطية فلأنه أسند ما ظاهره الإسناد إليه سبحانه ـ إلى البشر.

قال الضحاك والطبري وغيرهما: أُمر المؤمنون أن تكون منهم جماعة بهذه الصفة، فهم خاصة أصحاب الرسول، وهم خاصة الرواة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا القول ﴿مِنْ﴾ للتبعيض. وأمر الله الأمة بأن يكون منها علماء يفعلون هذه الأفاعيل على وجوهها، ويحفظون قوانينها على الكمال، ويكون سائر الأمة متبعين لأولئك، إذ هذه الأفعال لا تكون إلا بعلم واسع، وقد علم تعالى أن الكل لا يكون عالماً. وذهب الزجاج وغير واحد من المفسرين إلى أن المعنى: ولتكونوا كلكم أمة يدعون، و﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس قال: ومثله من كتاب الله ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾(١)، ومثله من الشعر قول القائل:

أخو رغائبَ يُعطيها ويسألها ... يأبى الظلامةَ منه النوفلُ الزُّفَرُ(٢)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية على هذا التأويل إنما هي عندي بمنزلة قولك: ليكن منك رجل صالح، ففيها المعنى الذي يسميه النحويون «التجريد». وانظر أن المعنى الذي هو ابتداء الغاية يدخلها، وكذلك يدخل قوله تعالى: ﴿مِنَ الأَوْثَان﴾ ولا تجده يدخل قول الشاعر: «منه النوفل الزفر»، ولا تجده يدخل في «من» التي هي صريح بيان الجنس، كقولك: ثوب من خز، وخاتم من فضة، بل هذه يعارضها معنى التبعيض. ومعنى الآية على هذا التأويل: أمر الأمة بأن يكونوا يدعون جميع العالم إلى الخير، الكفار إلى الإسلام، والعصاة إلى الطاعة، ويكون كل واحد من هذه الأمور على منزلته من العلم والقدرة.

قال أهل العلم: وفرض الله بهذه الآية الأمرَ بالمعروف النهي عن المنكر، وهو من فروض الكفاية إذا قام به قائمٌ سقط عن الغير، وللزوم الأمر بالمعروف شروط، منها أن يكون بمعروف لا بتخرق(٣)، فقد قال ﷺ: (من كان آمراً بمعروف، فليكن أمره ذلك بمعروف) (٤) ومنها ألاَّ يخاف الآمر أذى يصيبه، فإن فعل مع ذلك فهو أعظم

---

(١) من الآية (٣٠) من سورة الحج.

(٢) البيت لأعشى باهلة وهو عامر بن الحارث الباهلي، شاعر جاهلي، والرغائب العطايا. والنوفل: من ينفي الظلم من قومه، الزفر: السيد (اللسان: نفل).

(٣) التخرق: الاختلاق.

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب بلفظ: (من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف) عن ابن عمرو وهو ضعيف. =

لأجره، وقال رسول الله ﷺ: (مَنْ رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والناس في تغيير المنكر والأمر بالمعروف على مراتب، ففرض العلماء فيه تنبيه الحكام والولاة، وحملهم على جادة العلم، وفرض الولاة تغييره بقوتهم وسلطانهم، ولهم: هي اليد[٢]، وفرض سائر الناس رفعه إلى الحكام الولاة بعد النهي عنه قولاً، وهذا في المنكر الذي له دوام، وأما إن رأى نازلة بديهة من المنكر كالسلب والزنى ونحوه فيغيرها بنفسه بحسب الحال والقدرة، ويحسن لكل مؤمن أن يحتمل في تغيير المنكر وإن ناله بعض الأذى. ويؤيد هذا المنزع أن في قراءة عثمان بن عفان وابن مسعود وابن الزبير: [يأمُرونَ بالمعْرُوف وينْهَوْنَ عَن المُنْكر، ويستعينون بالله على ما أَصَابَهم][٣] فهذا وإن كان لم يثبت في المصحف، ففيه إشارةٌ إلى التعرض لما يصيب عَقِيبَ الأمر والنهي، كما هي في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[٥] معناه: إذا لم يقبل منكم ولم تقدروا على تغيير منكر. وقال بعض العلماء: المعروف: التوحيد، والمنكر: الكفر، والآية نزلت في الجهاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا محالةَ أنّ التوحيد والكفر هما رأس الأمرين، ولكن ما نزل عن قدر التوحيد والكفر يدخل في الآية ولا بد.

و﴿المُفْلِحون﴾ الظافرون ببغيتهم، وهذا وعد كريم.

= «الجامع الصغير ٢/ ٥٠٣».

(١) أخرجه الإمام أحمد، ومسلم في صحيحه والأربعة عن أبي سعيد الخدري. «الجامع الصغير ٢/ ٥٢٠».

(٢) الضمير في: (لهم) يعود على «الولاة»، و(هي) أي: السُّلْطة، و(اليد) هي المذكورة في الحديث الشريف: (بيده).

(٣) ـ هذه الزيادة ليست من القرآن ـ راجع القرطبي.

(٤) من الآية (١٧) من سورة لقمان.

(٥) من الآية (١٠٥) من سورة المائدة.

ثم نهى الله تعالى هذه الأمة عن أن يكونوا كالمتفرقين من الأمم.

واختلفت عبارة المفسرين في المشار إليهم، فقال ابن عباس: هي إشارة إلى كلٍّ من افترق في الأمم في الدين فأهلكهم الافتراق، وقال الحسن: هي إشارة إلى اليهود والنصارى، وقال الزجاج: يحتمل أن تكون الإشارة أيضاً إلى فرق اليهود وفرق النصارى، ومجيء البينات هو ببعث الرسل وإنزال الكتب، وأسند الفعل دون علامة إلى البينات من حيث نزلت منزلة البيان، ومن حيث لا حقيقة لتأنيثها. وباقي الآية وعيد.

وقوله ﴿عذابٌ عظيمٌ﴾ يعني أنه أعظم من سواه، ويتفاضل هذان العوضان بأن أحدهما يتخلله فتور، وأما الجزء الفرد من هذا وذلك فسواء، هذا تحرير مذهب أصحابنا الأصوليين رحمهم الله.

قوله عز وجل:

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

والعامل في قوله: ﴿يوم﴾ الفعلُ الذي تتعلق به اللام في قوله: ﴿وَلَهُمْ عذابٌ عَظيمٌ﴾، قال الزجاج: تقديره: ويثبت لهم عذاب عَظيمٌ، وقال قوم: العامل فيه: عظيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذلك ضعيف من جهة المعنى، لأنه يقتضي أن عظم العذاب في ذلك اليوم، ولا يجوز أن يكون العامل قوله: ﴿عذابٌ﴾ لأنه مصدر قد وصف.

وبياض الوجوه: عبارة عن إشراقها واستنارتها وبشرها برحمة الله، قاله الزجاج وغيره. ويحتمل عندي أن يكون ذلك من آثار الوضوء كما قال ﷺ: (أنتم الغُرُّ المحجَّلون من آثار الوضوء)[1]. وأما سواد الوجوه: فقال المفسرون: هو عبارة عن اربدادها وإظلامها بغم العذاب. ويحتمل أن يكون ذلك تسويداً ينزله الله بهم على جهة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة. (الجامع الصغير ١/ ٣٦٥).

التشويه والتمثيل بهم، على نحو حشرهم زرقاً وهذه أقبح طلعة، ومن ذلك قول بشار:

وللبخيـل علـى أمـوالـه عِلَـلٌ زرْقُ العيـونِ عليهـا أوجـهُ سـودُ(١)

وقرأ يحيى بن وثاب: [تِبْيض وتِسْود] بكسر التاء، وقرأ الزهري، ﴿تبياض وجوهٌ، وتسواد وجوه﴾ بألف، وهي لغة.

ولما كان صدر هذه الآية إخباراً عن حال لا تخص أحداً معيناً بدىء بذكر البياض لشرفه، وأنه الحالة المثلى، فلما فهم المعنى وتعين له الكفار والمؤمنون، بدىء بذكر الذين اسودت وجوههم، للاهتمام بالتحذير من حالهم.

وقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم﴾ تقرير وتوبيخ متعلق بمحذوف تقديره: فيقال لهم: أكفرتم؟ وفي هذا المحذوف هو جواب (أما)، وهذا هو فحوى الخطاب، وهو أن يكون في الكلام شيء مقدر لا يستغني المعنى عنه، كقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ﴾(٢) المعنى: فأفطر فعدة.

وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِيمانِكم﴾ يقتضي أن لهؤلاء المُوقَفين إيماناً متقدماً، فاختلف أهل التأويل في تعيينهم ـ فقال أبي بن كعب: المُوقَفين جميع الكفار، والإيمان الذي قيل لهم بسببه: ﴿بعْدَ إيمانكم﴾ هو الإيمان الذي أقروا به يوم قيل لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾(٣) وقال أكثر المتأولين: إنما عنى بالتوقيف في هذه الآية أهلَ القبلة من هذه

---

(١) هو بشار بن برد، أَبو معاذ، لقبه المرعث، ولد بالبصرة ونشأ في بني عقيل مولعاً بالاختلاف إلى الأعراب فشب فصيحَ اللسان صحيحَ البيان، كان يعيش في ظلال الشِّعر، وُلد أكمه، وكان هجاءً يتغزل بالنساءِ، ويهْتك سِتر الحشمة حتى نقم الناس منه وتمنوْا موته فأمر المهدي العباسي صاحبَ شرطته أَن يضربه بالسوط فضربه حتى مات سنة: ١٦٧هـ وقد أوفى على السبعين «الأغاني ٣: ١٢٩».
والبيت من قطعة يهجو بها العباس بن محمد العباسي. والعلل: المعاذير التي يبديها البخيل ليصرف العفاة، وسُمِّيت عللاً لأنها يبرهن بها على وجه منع العطاءِ. وشبه بشار هذه العلل بحُرَّاس يتخذها البخيل على أَمواله على طريقة المكنية وأَثبت لها أَعيناً زُرقاً ووجوهاً سوداً على طريقة التخييل.

والمقصود من البيت: التشنيع وعلامة الشر، فقوله: «زرق العيون» تشويه وتوسيم بالشر (تعليق الشيخ الطاهر بن عاشور ٣/ ١٢٨ على ديوان بشار).

(٢) من الآية: (١٨٤) من سورة البقرة.

(٣) من الآية (١٧٢) من سورة الأعراف.

الأمة ، ثم اختلفوا ـ فقال الحسن: الآية في المنافقين ، يؤمنون بألسنتهم ويكفرون بقلوبهم ، فيقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟ أي ذلك الإيمان بألسنتهم. وقال السدي: هي فيمن كفر من أهل القبلة حين اقتتلوا ، وقال أبو أمامة[١]: الآية في الخوارج ، وقال قتادة: الآية في أهل الردة ، ومنه الحديث: (ليردنَّ على الحوض رجالٌ من أصحابي، حتى إذا رفعوا إليَّ اختلجوا فأقول: أُصيحابي أُصيحابي ، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول: فسحقاً فسحقاً)[٢] ، وفي بعض طرقه: (فأناديهم: ألا هَلُمَّ ، ألا هلم). وذكر النحاس قولاً: إن الآية في اليهود ، وذلك أنهم آمنوا بصفة محمد واستفتحوا به ، فلما جاءهم من غيرهم كفروا ، فهذا كفر بعد إيمان ، وروي عن مالك أنه قال: الآية في أهل الأهواء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

إن كان هذا ففي المختَلجين[٣] منهم القائلين ما هو كفر ، وروي حديثٌ أن الآية في القدرية[٤] وقال أبو أُمامة: سمعنا من رسول الله ﷺ: أَنها في الحرورية[٥] ، وقد تقدم عنه أَنها في الخوارج وهو قول واحد ، و(ما) في قوله: ﴿بما كُنتُم﴾ مصدرية؛ وقوله تعالى: ﴿فَفي رَحْمَةِ اللهِ﴾ أي في النعيم الذي هو[٦] موجب رحمة الله ، وقوله بعد ذلك: ﴿هُمْ فيها﴾ تأكيد بجملتين، إذ كان الكلام يقوم دونها.

---

(١) هو صَديُّ بنُ عَجْلان بن الحارث الباهلي ، مشهور بكنيته ، روى عن النبي ﷺ وجماعة من الصحابة ، وروى عنه جماعة منهم مكحول وشهر بن حوشب ، سكن الشام وتوفي سنة ٨٦هـ. «الإصابة ٢: ١٨٢».

(٢) أخرجه الإمام أحمد والبخاري ، ومسلم ، عن أنس وعن حذيفة. «الجامع الصغير ٢/ ٣٨٦».

(٣) المختلج: هو الذي نقل عن قومه ونسبه فيهم إلى قوم آخرين ، اختلج الشيء انتزعه.

(٤) الحديث المشار إليه: هو حديث أَبي أُمامة الباهلي ، وقد أَخرجه الثعلبي في تفسيره من طريق عكرمة ، وكذا الحاكم. وقد أَخرجه الترمذي ، وابن ماجه ، وعبد الرزاق وإسحق والطبراني وأبو يَعْلى ، كلهم من طريق أَبي غالب. «تعليق الكشاف لابن حجر ١: ٣٩٩ ط: ١» «وابن كثير في تفسيره ١/ ٣٩٠».

والقدرية: قوم يجحدون القدر ، أَو ينسبون إِلى التكذيب بما قدر الله من الأَشياءِ وينقسمون إلى اثنتي عشرة فرقة.

(٥) الحرورية: فرقة من الخوارج الذي قاتلهم عليٌّ رضي الله عنه ، تنسب إلى موضع بظاهر الكوفة يقال له حروراءَ ، وتنقسم إلى اثنتي عشرة فرقة أَيضاً.

(٦) قال الزمخشري: «فإن قلت: كيفَ موقع قوله: ﴿همْ فيها خالدون﴾ بعد قوله: ﴿ففي رحمة الله﴾؟ قلت: موقع الاستئناف كأَنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: هم فيها خالدون ، لا يظعنون عنها ولا يموتون».

قوله عز وجل:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

الإشارة بـ ﴿تِلْكَ﴾ إلى هذه الآيات المتقدمة المتضمنة تعذيب الكفار وتنعيم المؤمنين، ولما كان فيها ذكر التعذيب أخبر تعالى أنه لا يريد أن يقع منه ظلم لأحد من العباد، وإذا لم يرد ذلك فلا يوجد البتة، لأنه لا يقع من شيء إلا ما يريد تعالى.

وقوله تعالى: ﴿بالْحَقِّ﴾ معناه: بالإخبار الحق، ويحتمل أن يكون المعنى: نتلوها عليك مضمنة الأفاعيل التي هي حق في أنفسها، من كرامة قوم، وتعذيب آخرين. وقرأ أبو نهيك: [يَتْلوها] بالياء، وجاء الإعلام بأنه تعالى لا يريد ظلماً في حكمه، فإذاً لا يوجد(١).

ولما كان للذهن أن يقف هنا في الوجه الذي به خص الله قوماً بعملٍ يرحمهم من أجله، وآخرين بعملٍ يعذّبهم عليه، ذكر تعالى الحجة القاطعة في ملكه جميع المخلوقات، وأنَّ الحق لا يُعْتَرَضُ عليه، وذلك في قوله: ﴿وللهِ ما في السموات وما في الأَرْضِ﴾ الآية، وقال: ﴿مَا﴾ ولم يقل: ﴿مَنْ﴾ من حيث هي جمل وأجناس.

وذكر الطبري أن بعض البصريين نظر قوله تعالى: ﴿وإلى الله﴾ فأظهر الاسم، ولم يقل إليه بقول الشاعر:

لا أرى الموت يسبق الموتَ شيءٌ   نغَّصَ الموتُ ذا الغنى والفقيرا(٢)

---

(١) في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله لا يظلم المؤمن حسنة، يعطى بها في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا ما عمل لله بها، فإذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها).

وروى أبو ذر أن النبي ﷺ قال فيما يروي عن ربِّه عزَّوجلَّ أنه قال: (يا عبادي، إني حرّمتُ الظُّلم على نفسي، وجعلته بينكم محرَّماً فلا تظالموا).

(٢) البيت لعديِّ بن زيد: وقوله: لا أرى الموت يسبقه شيءٌ، أي لا يفوت الموتَ شيءٌ. وقول: نغَّص الموتُ. . . . يريد: نغص الموتُ عيشَ ذي الغنى والفقر، يعني أن خوفَ الغَنيِّ من الموت يُنَغِّص عليه=

وما جرى مجراه، وقاله الزجاج، وحكى أن العرب تفعل ذلك إرادةَ تفخيم الكلام والتنبيه على عظم المعنى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والآية تشبه البيت في قصد فخامة النظم، وتفارقه من حيث الآية جملتان مفترقتان في المعنى، فلو تكررت جملٌ كثيرة على هذا الحد لحسن فيها كلّها إظهار الاسم، وليس التعرض بالضمير في ذلك بعرف، وأما البيت وما أشبهه فالضمير فيه هو العرف، إذ الكلام في معنى واحد، ولا يجوز إظهار الاسم إلا في المعاني الفخمة في النفوس التي يؤمن فيها اللبس على السامع.

وقرأ بعض السبعة: [تَرجِعُ الأمورُ] بفتح التاء على بناء الفعل للفاعل، وقد تقدم ذكر ذلك.

واختلف المتأولون في معنى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾؛ فقال عمر بن الخطاب: هذه لأولنا، ولا تكون لآخرنا، وقال عكرمة: نزلت في ابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة وأبيٍّ بن كعب ومعاذ بن جبل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يريد ومن شاكلهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا كلّه قولٌ واحد، مقتضاه أن الآية نزلت في الصحابة، قيل لهم: كنتم خيرَ أمة، فالإشارة بقوله: ﴿أُمَّةٍ﴾ إلى أمة محمد معينة، فإن هؤلاء هم خيرها.

وقال الحسن بن أبي الحسن وجماعة من أهل العلم: معنى الآية: خطاب الأمة بأنهم خير أمة أخرجت للناس، فلفظة ﴿أُمَّةٍ﴾، على هذا التأويل اسم جنس، كأنه

= الالتذاذ بالغِنَى والسرورَ به، وخوف الفقير من الموت ينغِّص عليه السعي في التماس الغنى. «خزانة الأدب ١/ ١٨٣».

قيل لهم: كنتم خير الأمم، ويؤيد هذا التأويل كونهم شهداء على الناس، وقول النبي ﷺ: (نحن الآخرون السابقون)[١]. . . الحديث. وروى بهز بن حكيم[٢] عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ: قال يوماً وهو مسند ظهره إلى الكعبة: (نحن نكمل يوم القيامة سبعين أمة نحن آخرها وخيرها)[٣] قال مجاهد: معنى الآية: كنتم خير الناس، وقال الحسن: نحن آخرها وأكرمها على الله تعالى[٤]، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: معنى الآية: كنتم للناس خير الناس[٥].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فـ (أُمة) على هذا التأويل: اسم جنس، قال أبو هريرة: يجيئون بالكفار في السلاسل فيدخلونهم في الإسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولم يبعث نبي إلى الأمة كافة إلا محمد ﷺ، فهو وأمته يدعون إلى الإيمان ويقاتلون العالم عليه، فهم خير الناس للناس، وليس يلزم على هذا التأويل أنهم أفضل الأمم من نفس لفظ الآية، لكن يعلم هذا من لفظ آخر، وهي كقوله ﷺ: (أرأف أمتي بأمتي أبو بكر)[٦] فليس يقتضي هذا اللفظ أن أبا بكر أرأف الناس على الإطلاق من مؤمن وكافر.

---

(١) أَخرجه البخاري، ومسلم، عن أبي هريرة. «البخاري ٢/ ٢ من كتاب الجمعة».

(٢) هو أَبو مالك بهز بنُ حكيم بن معاوية بن حيدة القُشَيْري البصري، روَى عن أَبيه، وروى عنه الزهري وابن عون، وخلائق من الأَئِمة، توفي بعد الأَربعين ومائة، وقيل: قبل الستين. «تهذيب الأَسماءِ» و«الخلاصة». وحكيم وَالدُ بَهْز: هو أَبو بهز القُشيري البصري التابعي، ثقة معروف. ومعاوية بن حيدة. جدُّ بهْز صحابي غزا خراسان ومات بها، له أَحاديث صحاح. «تهذيب الأَسماءِ» و«تهذيب التهذيب»، و«الخلاصة»، و«الإصابة».

(٣) أَخرجه ابن جرير في تفسيره عن قتادة ٤/ ٤٥.

(٤) أَخرجه الإِمام أَحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم ـ عن معاوية بن حيدة. «الجامع الصغير» ١/ ٣٤١. و«فتح القدير» للشوكاني ١/ ٣٤٠.

(٥) أَخرجه البخاري وغيره عن أَبي هريرة قال: (خير الناس للناس يأتون بهم في السلاسل) الحديث. «فتح القدير للشوكاني» ١/ ٣٤٠.

(٦) أَخرجه أبو يعلى في مسنده عن ابن عمر، وهو ضعيف، والحديث بطوله في الجامع الصغير ١/ ١١٨.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والرأفة المفروضة على الإطلاق ليست بجارية مع الشرع كما يجب.

وأما قوله: ﴿كُنتُم﴾ على صيغة الماضي، فإنها التي بمعنى الدوام، كما قال ﴿وكان الله غفوراً رحيما﴾إلى غير هذا من الأمثلة، وقال قوم: المعنى كنتم في علم الله، وقيل: في اللوح المحفوظ، وقيل: فيما أخبر به الأمم قديماً عنكم. و﴿خَيْر﴾ على هذه الأقوال كلها خبر كان، ويحتمل أن تكون ﴿كان﴾ التامة، ويكون ﴿خير أمة﴾ نصباً على الحال، وهذا يتجه على بعض التأويلات التي ذكرناها دون بعض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الخيرية التي فرضها الله لهذه الأمة إنما يأخذ بحظه منها مَن عمل هذه الشروط من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

وقوله: ﴿تأْمُرونَ بالمَعْروفِ﴾ وما بعده أحوال في موضع نصب.

ثم أخبر تعالى عن أهل الكتاب على جهة التوبيخ المقرون بالنصح أنهم لو آمنوا لنجَّوا أنفسهم من عذاب الله. وجاءت لفظة ﴿خَيْر﴾ في هذه الآية وهي صيغة تفضيل، ولا مشاركة بين كفرهم وإيمانهم في الخير، وإنما جاز ذلك لما في لفظة ﴿خير﴾ من الشياع وتشعب الوجوه، وكذلك هي لفظة أفضل وأحب وما جرى مجراهما. وقد بُيِّنَ هذا المعنى في غير هذا الموضع بأوعب من هذا.

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُم المؤمنونَ﴾ تنبيه على حال عبد الله بن سلام[(١)] وأخيه[(٢)] وثعلبة بن سعية[(٣)] وغيرهم ممن آمن. ثم حكم الله على أكثرهم بالفسق في كفره لأنهم

---

(١) عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي ثم الأنصاري، أسلم قبل وفاة النبي ﷺ بعامين، كان اسمه الحصين فغيره النبي ﷺ إلى عبد الله. قال الطبري: مات في قول جميعهم بالمدينة سنة ثلاث وأربعين. عن ابن عباس قال: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسد بن عبيد، وأسد أو أسيد بن سعية قالت يهود: ما أتى محمداً إلا شرارنا فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسوا سواءً، مِنْ أَهل الكتاب... إلى قوله صالحين﴾: «الإصابة».

(٢) هو ثعلبة بن سلام، روى الطبراني من قول ابن جريج مقطوعاً: أنه أحد من نزل فيه قوله تعالى: ﴿مِنْ أَهل الكتاب أُمة قائمة يتلون آيات الله﴾. «الإصابة ١/١٩٩».

(٣) وثعلبة بن سعية هو أحد من أسلم من اليهود يوم قريظة، فمنعوا دماءَهم وأموالهم، لهم خبر في السير=

حرفوا وبدلوا وعاندوا بعد معرفتهم بحقيقة أمر محمد ﷺ، فهم كفار فسقة في الكفر قد جمعوا المذمتين.

قوله عز وجل:

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿لنْ يَضُرُّوكُمْ إلاَّ أذى﴾ معناه: لن يصيبكم منهم ضرر في الأبدان ولا في الأموال، وإنما هو أذى بالألسنة، فالاستثناء متصل. وقال الحسن وقتادة وغيرهما: الأذى هو تحريفهم أمر محمد ﷺ وتكذيبهم إياه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتَنَقُّصهم المؤمنين وَطعْنُهُم عليهم جملةً وأَفراداً، وهذا كله عظيم مقلق، وبسببه استحقوا القتلَ والإجلاءَ وضربَ الجزية. لكن أراد الله تعالى بهذه الآية أن يلحظهم المؤمنون بعين الاحتقار حتى لا يصدُّوا أحداً عن دينه، ولا يَشْغَلوهُ عن عبادة ربّه، وهكذا هي فصاحة العرب، ومن هذا المعنى في التحقير؛ قول ثمامة بن أثال[1]: يامحمد إن تقتلني تقتلْ ذا دمٍ، وإن تنعمْ تنعم على شاكر، وإن شئت المال فسلْ منه ما شئت» فقوله: «ذا دم» روي بالذال منقوطة، وبالدال غير منقوطة، فذم بفتح الذال وبكسرها أراد بها الذمام، وأما بالدال غير منقوطة، فيحتمل أنه أراد التعظيم لأمر نفسه، وذلك بأحد وجهين: إما أن يريد الوعيد، أي تقتل ذا دم مطلوب بثأره له حماة فاحذر عاقبة ذلك، وإما أن يريد تقتل ملكاً يُسْتَشْفَى بدمه، كما كانت العرب تعتقد في

= يخرج في أعلام نبوة محمد ﷺ، قال البخاري: توفي ثعلبة في حياة النبي ﷺ. «الإصابة» و«الاستيعاب ١/ ٢١١».

(١) هو ثمامة بن أثال الحنفي، سيد أهل اليمامة أُسر فقال ﷺ: (ما عندك يا ثُمامة؟ قال: إن تقتل تقتل ذا دم). الحديث، أسره الصحابة حينما ظفروا به بنجد، وكان يريد مكة ليعتمر فأصبح مربوطاً باسطوانة عند باب رسول الله ﷺ، فأمر به النبي ﷺ فأطلق، فذهب ثمامة إلى المصانع فغسل ثيابه، واغتسل، ثم جاءَ إلى رسول الله ﷺ فأسلم وشهد شهادة الحقّ. «الاستيعاب ١/ ٢٠٣».

دماء الملوك، فهذا استعطاف لا وعيد، أي: لا ينبغي لك أن تفسد مثلي، وهذا كما استعطف الأشعث بن قيس أبا بكر رضي الله عنه بهذا المعنى، ويحتمل كلام ثمامة أنه أراد تحقيرَ أمرِ نفسه وليذهب عن نفس رسول الله ﷺ المسرة بنيل مثل هذا الأمر العظيم، ويجري ذلك مجرى قول أبي جهل لعبد الله بن مسعود: وهل أعمد[١] من رجل قتلتموه؟ ومثله قول الأسير لعمر بن عبد العزيز، حين قال له: لأقتلنك، قال: إن ذلك لا ينقص من عدد الخزر[٢] شيئاً، فكأن ثمامةَ أراد: إن تقتلني تقتل حيواناً حقيراً شأنه، كما يقتل كلّ ذي دم فما بالك تفعل ذلك وتدع الإنعام علي؟ فالآية تنظر إلى هذا المعنى من جهة أنه حقر عند المؤمنين ما هو عظيم في نفسه تنبيهاً لهم.

وأخبر الله تعالى في قوله: ﴿وإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾.... الآية، بخبر غيب صحَّحه الوجود، فهي من آيات محمد ﷺ، وفائدة الخبر هي في قوله: ﴿ثُمَّ لاَ يُنْصَرون﴾، أي: لا تكون حربهم معكم سجالاً[٣]، وخصَّ الأدبار بالذكر دون الظهر تخسيساً للفارّ، وهكذا هو حيث تصرف.

وقوله: ﴿ضُرِبَتْ﴾ معناه: أُثبتت بشدة وإلزام مؤكد، وهذا وصفُ حالٍ تقرَّرتْ على اليهود في أقطارِ الأرض قبل مجيء الإسلام، قال الحسن: جاء الإسلام وإن المجوس لتجبيهم[٤] الجزية، وما كانت لهم عزة ومنعة إلا بيثرب وخيبر وتلك الأرض

---

(١) من حديث ابن مسعود أَن أَبا جهلٍ قال لمَّا قتله: أعمد من رجل قتله قومه، أي: هل زاد على رجل قتله قومه؟ وهل كان إلا هذا؟ أي أنه ليس بعار، وقيل: أعمد بمعنى: أعجب، وقيل: أعمد بمعنى أَغضب، وقيل: معناه: أَتوجَّع وأَشتكي، والمراد بذلك كله أَن يُهوِّن على نفسه ما حلَّ به من الهلاك. «النهاية لابن الأثير ٣/ ١٤٣».

(٢) اختلفت النسخ في كتابة الكلمة مِمَّا لم يتبين معه المقصود بها، إلاَّ ما كان من نسخة الخرز، فهي أَقرب إِلى الفهم، ويوجد احتمال أَن اللفظة هي الخزر بتقديم الزاي على الراءِ ومعناها كما في معجم البلدان: سكان الخزر، وهي بلاد الترك خلف باب الأَبواب، وهو احتمال غير بعيد سيَّما إذا علم أَن الأَسير من بلاد الترك، فليحقق.

(٣) قال بعضهم: إن (ثُمَّ) في قوله تعالى: ﴿ثمَّ لا يُنْصَرونَ﴾ استئناف إخبار بأنهم لا ينصرون ـ يريد أعداءه، ولم يشرك في الجزاءِ فيجزم لأنه ليس مرتباً على الشرط، بل التولية مترتبة على القتال، والنصر منفى عنهم أبداً، و(ثم) هنا ليست للتراخي في الزمان، وإنما هي للتراخي في الإِخبار بانتفاء النصر عنهم مطلقاً.

(٤) جبى الخراجَ والماءَ والحوضَ يجباهُ ويجبيه: جمعه. ابن سيده، يقال: جبَيْتُ الخراج من القوم وجبيتُه القومَ، إذا أَخذته منهم، ويقال: جبيت الخراج جباية، وجبوته جباوةً.

فأزالها الله بالإسلام ، ولم تبقَ لهم رايةٌ أصلاً في الأرض. و﴿الذِّلَّة﴾ ـ فِعلة من الذل ، و﴿ثُقِفوا﴾ معناه: أخذوا وهم بحال المذنب المستحقّ الإهلاك ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ﴾[١]. ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[٢] واللفظة مأخوذة من الثقاف ، ومنه قول الشاعر:

ندعو ثقيفاً وقد عضَّ الحديدُ بها عضَّ الثِّقافِ على صُمِّ الأَنابيبِ[٣]

وقوله تعالى: ﴿إلاَّ بِحَبْل﴾استثناء منقطع، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾[٤] لأن بادي الرأي يعطي أن له أن يقتل خطَأً، وأَن الحبل من الله ومن الناس يزيل ضرب الذلة، وليس الأمرُ كذلك ، وإنما الكلام محذوف يدركه فهمُ السامع الناظر في الأمر ، وتقديره في آيَتِنَا: فلا نجاةَ من الموت إلا بحبل.

وقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيهم الذِّلَّةُ أَينما ثُقِفُوا﴾ كأنه بالمعنى: هلكوا واستؤصلوا، فلذلك حسُن أن يجيء بعدها: ﴿إلاَّ بِحَبْلٍ﴾. وقرب فهم ذلك للسامع. قال الزجاج: المعنى: ضُرِبَتْ عليهم الذلة إلا أنهم يعتصمون بالعهد إذا أعطوه ، والحبل: العهد ، شُبِّهَ به لأنه يصلُ قوماً بقوم كما يفعل الحبلُ في الأَجرام.

و﴿باءُوا﴾ معناه: مضوا متحملين لهذا الحكم ، وغضب الله عليهم بما دلت عليه هذه الأمور التي أوقع بهم. وأفعال بني إسرائيل على وجه الدهر من التعنّتِ والعصيان توجب الغضب، فلذلك خُصُّوا به ، والنصارى إنما ضلوا فقط. و﴿المسْكَنة﴾: التذلل والضعة ، وهي حالة الطوّافِ الملتمسِ لِلُّقمة ولِلُّقمتين الضارعِ المفارقِ لحالة التعفّف والتعزز به ، فليس أحدٌ من اليهود وإن كان غنياً إلا وهو بهذه الحَال.

وقوله تعالى: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الغضب وضرب الذلة والمسكنة ، فعاقبهم الله على كفرهم وقتلهم الأنبياء بذلك. و﴿آيات اللهِ﴾ يحتمل أن يراد بها المتلوة ، ويحتمل

---

(١) من الآية (٥٧) من سورة الأنفال.

(٢) من الآية (١٩١) من سورة البقرة.

(٣) البيت للنابغة الذبياني. والثقاف: خشبة تقوم بها الرماح ، والأنابيب: جمع أُنبوب وهو كعوب العصا. يقول: عض الحديد معصم هذه المرأة فأوجعها فجعلت تستغيث بقومها. «ديوان النابغة».

(٤) من الآية (٩٢) من سورة النساء.

أن يريد العبر التي عرضت عليهم. وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ تأكيد ومبالغة وقطع لما عسى أن يكونَ في وهم إنسان ممكناً بوجه ما.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بما عَصَوْا﴾ حمله المفسرّون على أن الإشارةَ بـ ﴿ذَلِك﴾ إلى الشيء الذي أُشير إليه بـ ﴿ذَلِكَ﴾ الأول، قاله الطبري والزجاج وغيرهما. والذي أقول: إن الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ الأخير إنما هي إلى كفرهم وقتلهم، وذلك أن الله تعالى استدرجهم فعاقبهم على العصيان والاعتداء بالمصير إلى الكفر وقتل الأنبياء، وهو الذي يقول أهل العلم: إن الله تعالى يعاقب على المعصية بالإيقاع في معصية، ويجازي على الطاعة بالتوفيق إلى طاعة، وذلك موجود في الناس إذا تأمل[1]. وعصيان بني إسرائيل واعتداؤهم في السبت وغيره متقررٌ في غيرِ ما موضعٍ من كتاب الله. وقال قتادة رحمه الله عندما فسر هذه الآية: «اجتنبوا المعصيةَ والعدوانَ، فإن بها أهلك من كان قبلكم من الناس».

قوله عز وجل:

﴿ ۞لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

لما مضت الضمائر في الكفروالقتل والعصيان والاعتداء عامةً في جميع أهل الكتاب، عقَّب تعالى ذلك بتخصيص الذين هم على خير وإيمان، وذلك أنّ أهلَ الكتاب لم يزلْ فيهم من هو على استقامة، فمنهم من مات قبل أن يدركَ الشرائع فذلك من الصالحين، ومنهم من أدرك الإسلام فدخل فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويعترض هذا النظرَ أن جميعَ اليهود على عِوَجٍ من وقت عيسى، وتجيءُ الآية إشارةً إلى من أسلم فقط، أو يكون اليهود في معنى الأمة القائمة إلى وقت عيسى، ثم ينتقل الحكم في النصارى، ولفظ ﴿أهل الكتاب﴾ يعم الجميع، والضمير في: ﴿لَيْسُوا﴾ لمن تقدم ذكره في قوله: ﴿مِنْهُمُ المؤمنونَ وأكثَرهُمُ الفاسِقون﴾، وما قال أبو عبيدة من

(١) يريد: تأمل المتأمل؛ وقد تكون بصيغة المجهول «تؤمل». كما جاء في بعض النسخ.

أن الآية نظيرة قول العرب: «أكلوني البراغيث» خطأ مردود[١]، وكذلك أيضاً ما حُكي عن الفراء أن ﴿أُمَّةٌ﴾ مرتفعة بـ ﴿سَوَاءً﴾ على أنها فاعلة كأنه قال: لا تستوي أمة كذا، وأَنَّ في آخر الكلام محذوفاً معادلاً تقديره: وأمة كافرة، فأغنى القسم الأول عن ذكرها ودلَّ عليه، كما قال أبو ذؤيب:

عصيتُ إليها القلبَ إني لأمْرِها سميعٌ فما أدري أَرُشْدٌ طِلابها[٢]؟

المعنى: أم غي، فاقتصر لدلالة ما ذكر عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما الوجه أن الضمير في: ﴿لَيْسُوا﴾ يراد به من تقدم ذكره، و﴿سَوَاءً﴾ خبر ليس، و﴿مِنْ أَهْلِ الكِتابِ﴾ مجرور فيه خبر مقدم، و﴿أمة﴾ رفع بالابتداء.

قال ابن عباس رضي الله عنه لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسيد[٣] بن

---

(١) ذهب أبو عبيدة إلى أن الواو في ﴿لَيْسُوا﴾ علامة جمع لا ضمير ـ مثلها في ذلك قول الشاعر:

يلُومونَني في شراءِ النَّخيـ ـلِ قومي، وكلُّهم ألوم

واسم (ليس) هو: (أمة قائمة) ـ أي: ليس سواءً مِن أهلِ الكتاب أُمة قائمةٌ مَوصوفةٌ بما ذكر وأُمةٌ كافرةٌ. قال أبوحيّان في البحر المحيط: «إن ابن عطية توهم أن اسم (ليس) هو (أُمة قائمة) فقط، وأنه لا محذوف، فإذا عرف أن ليس الغرض تفاوت الأُمة القائمة التالية وإذا قدِّر ثمَّ محذوف لم يكن قول أبي عبيدة خطأً مردوداً».

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، أنشده ابن هشام في المغني، وروايته:

دعاني إليها القلبُ إنِّي لأمْرِهِ سميع. . . . .

ورواه النيسابوري في تفسيره بهذا اللَّفظ:

دعاني إليها القلبُ إنِّي لأمره مطيع . . . .

ومعنى البيت على ما في ديوان الهذليين: عصاني إليها: أي خَطَر إليها قلبي وذهب إليها، فما أدري أرشد الذي وقعت فيه أم غي؟

وقال غيره:

أراك فَما أدري أَهَمٌّ ضَمَمْتُه وذو الهمِّ خاشعٌ مُتَضائلُ

والتقدير: أَم غيره. قال الفراءُ: لأن المساواة تقتضي شيئين، وذلك واضح في قوله تعالى: ﴿سَواءٌ العاكفُ فيه والبادِ﴾. ﴿سَواءٌ محياهُمْ ومَمَاتُهُمْ﴾.

(٣) أُسيد بن سعية بن عريض القرظي أَحد من أَسلم من اليهود، نزل هو وأَخوه ثعلبة بن سعية في الليلة التي في صبيحتها نزل بنو قريظة على حكم سعد بن معاذ ومعهما أُسيد بن عبيد القرظي، فأسلموا وأَحرزوا دماءَهم وأَموالهم. «الإصابة ١/ ٣٣». و«الاستيعاب ١/ ٥٦».

سعية، وأسد بن عبيد[١]، ومن أسلم من اليهود معهم: قال الكفار من أحبار اليهود: ما آمن بمحمد إلا شرارنا، ولو كانوا خياراً ما تركوا دين آبائهم، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿لَيْسُوا سَواءً﴾.... الآية، وقال مثله قتادة وابن جريج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهو أصح التأويلات. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: معنى الآية: ليس اليهود وأمة محمد سواء، وقاله السدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فمن حيث تقدم ذكر هذه الأمة في قوله: ﴿كُنْتُمْ خيْرَ أُمَّةٍ﴾ وذكر أيضاً اليهود قال الله لنبيه: ﴿ليْسُوا سَواءً﴾، والكتاب على هذا جنس كتب الله، وليس بالمعهود من التوراة والإنجيل فقط. والمعنى: من أهل الكتاب وهم أهل القرآن أمة قائمة.

واختلفت عبارة المفسرين في قوله: ﴿قائمة﴾ فقال مجاهد: معناه: عادلة، وقال قتادة والربيع وابن عباس: معناه: قائمة على كتاب اللهِ وحدوده مهتدية، وقال السّدي: القانتة المطيعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله يرجع إلى معنى واحد من الاعتدال على أمر الله، منه قيل للدنانير أو الدراهم الوازنة: قائمة، وهذه الآية تحتمل هذا المعنى وألاّ تنظر اللفظة إلى هيئة الأشخاص وقتَ تلاوةِ آيات اللهِ ويحتمل أن يراد بـ ﴿قائِمَة﴾ وصفُ حال التالين في آناء الليل، ومن كانت هذه حاله فلا محالة أنه معتدل على أمر الله. وهذه الآية في هذين الاحتمالين مثل ما تقدم في قوله: ﴿إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَآيِمًا﴾[٢].

و﴿يَتْلونَ﴾ معناه: يسردون، و﴿آيات اللهِ﴾ في هذه الآية هي: كُتبه، والآناء: الساعات، واحدها إِنْي بكسر الهمزة وسكون النون. ويقال فيه أَنْي بفتح الهمزة،

---

(١) أَسد بن عبيد القرظي ذكره ابن حيان في الصحابة وهو أحد من أَسلم من اليهود مع أُسيد بن سعية، وثعلبة بن سعية وغيرهما، وفيهم قالت اليهود لما أسلموا: ما أتى محمداً إلا شرارنا، فأنزل الله فيهم: ﴿لَيْسوا سَواءً منْ أَهلِ الكتاب﴾ الآية «الإصابة١/ ٣٣».

(٢) تقدمت في سورة آل عمران، في الآية: ٧٥.

ويقال: إِنَى بكسر الهمزة وفتح النون والقصر، ويقال فيه: أَنَى بفتح الهمزة، ويقال: إِنْوٌ بكسر الهمزة وسكون النون وبواو مضمومة. ومنه قول الهذلي:

حلوٌ ومرٌّ كعطفِ القِدْحِ مِرَّتُهُ　　في كل إِنْيٍ قضاه الليل ينتعلُ(١)

وحكمُ هذه الآية لا يتفق في كلّ شخص بأن يكون كلُّ واحد يصلي جميعَ ساعات الليل، وإنما يقوم هذا الحكم من جماعة الأمة، إذ بعض الناس يقومُ أولَ الليل، وبعضهم آخره، وبعضهم بعد هجعةٍ ثم يعود إلى نومه، فيأتي من مجموع ذلك في المدن والجماعات عبارة آناء الليل بالقيام، وهكذا كان صدرُ هذه الأمة، وعرفَ الناسُ القيامَ في أول الثلث الآخر من الليل أو قبله بشيء، وحينئذ كان يقوم الأكثر، والقيامُ طولَ الليل قليل، وقد كان في الصالحين من يلتزمه، وقد ذكر الله تعالى القصد من ذلك في سورة المزمّل، وقيام الليل لقراءة العلم المبتغى به وجهُ الله داخلٌ في هذه الآية، وهو أفضل من التنفّل لمن يُرْجَى انتفاعُ المسلمين بعلمه.

وأما عبارة المفسرين في ﴿آناء الليل﴾، فقال الربيع وقتادة وغيرهما: آناء الليل: ساعات الليل، وقال عبد الله بن كثير: سمعنا العرب تقول: آناء الليل: ساعات الليل، وقال السدي: آناء الليل: جوف الليل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قلق. أما إن جوفَ الليل جزء من الآناء.

وقال ابن مسعود: نزلت هذه الآية بسبب أن النبي ﷺ احتبس عنا ليلة عن صلاة العتمة وكان عند بعض نسائه، فلم يأت حتى مضى ليل، فجاء ومنا المصلي ومنا المضطجع، فقال: (أبشروا فإنه ليس أحد من أهل الكتاب يصلي هذه الصلاة)(٢)

---

(١) المُتَنَخِّل لقبه، واسمه: مالك بن عُوَيمر بن سُوَيد، وقيل: بن عُوَيمر بن عثمان، ويكنى أَبا أُثَيْلَةَ، جاهلي من شعراءِ هذيل وفحولهم وفصائحهم. «الأغاني ٢٠/ ١٤٥». و«خزانة الأدب ٢/ ١٣٧». والبيت من قصيدة قالها في ابنه أُثيلة يَرْثيه. ورواية البيت في الديوان، وفي كتاب الشعر والشعراء: في كل أَنْيٍ حذاه الليل ينتعل. ورواية الأغاني: في كل آن أتاه، والقدح: السهم. المِرَّة: الشدة والقوة. إِنْي: واحد الآناء، وهي الساعات. وينتعل: يسري في كل ساعة من هدايته.

(٢) أخرجه أحمد، والنسائي، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني. قال السيوطي: بسند حسن عن ابن مسعود قال: (أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاءِ ليلة) الحديث. ولفظ ابن جرير، والطبراني قال: (إنه لا يصلي هذه الصلاة) الحديث. «فتح القدير للشوكاني ١/ ٣٤٢».

فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَواءً﴾... الآية، فالمراد بقوله: ﴿يَتْلُون آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيْلِ﴾ صلاة العشاء. وروى سفيان الثوري عن منصور[1] أنه قال: بلغني أن هذه الآية نزلت في المصلين بين العشاءين.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَسْجُدون﴾، ذهب بعض الناس إلى أن السجود هنا عبارة عن الصلاة، سماها بجزء شريف منها كما تسمى في كثير من المواضع ركوعاً، فهي على هذا جملةٌ في موضع الحال، كأنه قال: يتلون آياتِ الله آناءَ الليل مصلّين. وذهب الطبري وغيره إلى أنها جملة مقطوعة من الكلام الأول، أخبر عنهم أنهم أيضاً أهل سجود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحسن هذا من جهة أن التلاوة آناء الليل قد يعتقد السامعُ أنَّ ذلك في غير الصلاة، وأيضاً فالقيام في قراءة العلم يخرج من الآية على التأويل الأول، ويثبت فيها على هذا الثاني، فـ ﴿هُمْ يَسجُدون﴾ على هذا نعت عُدِّد بواو العطف، كما تقول: جاءني زيد الكريم والعاقل.

و﴿يُؤْمِنونَ﴾ معناه: يصدقون، وفي الإيمان باليوم الآخر إيمان بالأنبياء. لأنه من جائزات العقل التي أثبتها السمع من الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿وَيُسارِعونَ في الخَيْراتِ﴾ وصف بأنهم متى دُعُوا إلى خيرٍ من نصر مظلوم وإغاثة مكروب وجبر مهيض وعبادة الله أجابوا، ومنه فعلُ مالكٍ رضي الله عنه في ركعتي المسجد، وقال: دعوتني إلى خير فأجبت إليه. ومما يدخل في ضمن قوله تعالى: ﴿وَيُسَارِعونَ في الخَيْراتِ﴾ أن يكون المرء مغتنماً للخمس قبل الخمس كما قال النبي ﷺ: (اغتنم خمساً قبل خمسٍ: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل مماتك، وغناك قبل فقرك)[2]، فيكون متى أراد أن

---

(١) هو منصور بن المعتمر بن عبد الله أَبو عتاب السَّلَمي الكوفي، روى عن أَبي وائل وإبراهيم النخعي، والحسن البصري، وخلق، وروى عنه أيوب، وحُصين بن عبد الرحمن، والثوري، وابن عُيَينة، وآخرون، كان أَثبت أَهل الكوفة، صام ستين سنة وقامها، توفي سنة ١٣٢هـ. «تهذيب التهذيب ١٠/ ٣١٢».

(٢) أَخرجه الحاكم، في مستدركه، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس، وأَخرجه الإمام أَحمد في=

يصنع خيراً بادر إليه ولم يسوف نفسه بالأمل، فهذه أيضاً مسارعة في الخيرات. وذكر بعض الناس قال: دخلت مع بعض الصالحين في مركب فقلت له: ما تقول أصلحك الله في الصوم في السفر؟ فقال لي: إنها المبادرة يا بن أخي، قال المحدث: فجاءني والله بجوابٍ ليس من أجوبة الفقهاء.

ثم وصف الله تعالى من تحصلت له هذه الصفات بأنه من جملة الصالحين، و﴿مِن﴾ يحسن أن تكون للتبعيض، ويحسن أن تكون لبيان الجنس[١].

قوله عز وجل:

﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

قرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر: [تَفْعلوا] و [تُكْفَروه] بالتاء، على مخاطبة هذه الأمة، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالياء فيهما على مشابهة ما تقدم من: ﴿يَتْلونَ﴾ و﴿يُؤْمِنونَ﴾ ـ وما بعدهما، وكان أبو عمرو يقرأ بالوجهين.

و[تُكْفَروه] معناه: يغطى دونكم فلا تثابون عليه، من هذا قول النبي ﷺ: (ومن أزلت إليه نعمة فليذكرها فإن ذكرها فقد شكرها، فإن لم يفعل فقد كفرها)[٢]، ومنه قول الشاعر[٣]:

= الزهد وأبو نعيم، والبيهقي، عن عمرو بن ميمون مرسلاً، وقال: إنه حسن. «الجامع الصغير ١ ـ ١٥٧».

(١) قال أبو حيان الأندلسي: «لم يتقدم شيءٌ فيه إبهام فيُبيّن جنسه. ويظهر أن الوصف بالصلاح زيادة على الوصف بالإسلام، ولذلك سأل بعض الأنبياء الله هذه الرتبة ـ قال سليمان مخاطباً ربّه: ﴿وأدْخلني برَحْمَتِكَ في عبادِكَ الصَّالحِينَ﴾ ـ وقال الله تعالى في حق إبراهيم: [ولقد اصطَفيناهُ في الدُّنيا وإنَّه في الآخِرةِ لِمَن الصَّالحِين].

(٢) أخرجه الطبراني، عن طلحة بن عبيد الله بلفظ: (من أولي معروفاً فليذكره، فمن ذكره فقد شكرهُ، ومن كتمه فقد كفَره). «مجمع الزوائد ٨/ ١٨١» ومعنى أزلْتُ: أسْديت.

(٣) هو عنترة بن شداد العبسي، والبيت كاملاً هو: =

. . . . والكفـرُ مَخبَثَـةٌ لنفـسِ المنعـمِ

وفي قوله تعالى: ﴿واللهُ عَليمٌ بالْمُتَّقين﴾ وعد ووعيد. ثم عقب تعالى ذكر هذا الصنف الصالح بذكر حال الكفار ليبين الفرق، وخصَّ الله تعالى الأموالَ والأولادَ بالذكر لوجوه: منها أنها زينةُ الحياة الدنيا وَعُظْمُ ما تجري إليه الآمال، ومنها أنها ألصقُ النصرة بالإنسان وأيسرها، ومنها أَن الكفار المكذبين بالآخرة لا همة لهم إلا فيها وهي عندهم غاية المرء وبها كانوا يفخرون على المؤمنين، فذكر الله أن هذين اللذين هما بهذه الأوصاف؛ لا غناءَ فيهما من عقاب الله في الآخرة، فإذا لم تغنِ هذه فغيرها من الأمور البعيدةِ أَحْرَى أَلاَّ يغني.

وقوله تعالى: ﴿أَصْحابُ النَّارِ﴾ إضافة تخصيص ما تَقتضي ثبوت ذلك لهم ودوامه.

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ما يُنْفِقون في هذِهِ الحياةِ الدُّنيا﴾. . . . الآية، معناه: المثالُ القائمُ في النفوس من إنفاقهم الذي يعدّونه قربةً وحسبةً وتحنثاً، ومن حبطه يوم القيامة وكونه هباءً منثوراً وذهابه، كالمثالِ القائم في النفوس من زرع قومٍ نَبَتَ واخضرَّ وقويَ الأملُ فيه فهبَّتْ عليه ريحٌ فيها صرّ محرق فأهلكته، فوقع التشبيه بين شيئين وشيئين، ذكر الله عز وجل أحد الشيئين المشبهين وترك ذكر الآخر، ثم ذكر أحد الشيئين المشبه بهما ـ وليس الذي يوازي المذكور الأول ـ وترك ذكر الآخر، ودل المذكوران على المتروكين، وهذه غايةُ البلاغة والإيجاز، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً﴾[(١)].

وقرأ عبد الرحمن بن هرمز الأعرج[(٢)] [تُنْفِقون] بالتاء على معنى قل لهم يا محمد، و﴿مَثَلُ﴾ رفع بالابتداء، وخبره في محذوفٍ به تتعلق الكاف من قوله: ﴿كَمَثَل﴾، و﴿ما﴾، بمعنى الذي، وجمهور المفسرين على أن ﴿يُنْفِقون﴾ يراد به

= نُبِّئْـتُ عمـراً غيـرَ شـاكـرِ نِعْمَتـي والكُفْـرُ مَخْبَثَـةٌ لِنَفْـسِ المُنْعِـمِ

التَّنَبُّؤُ: مثل الإنباءِ. والمخبَثَةَ: المَفْسدة. يقول: أُعلِمْتُ أَنَّ عمراً لا يشكر نعمتي، وكفران النعمة يُنَفِّر نفسَ المنعمِ عن الإنعام.

(١) من الآية (١٧١) من سورة البقرة.

(٢) هو أبو داود المدني، مولى ربيعة بن الحارث، ثقة ثبت (تقريب التهذيب ١: ٥٠١).

الأموال التي كانوا ينفقونها في التحنّث وفي عداوة رسول الله ﷺ، وكان ذلك عندهم قربة، وقال السدي: ﴿يُنفِقُونَ﴾ معناه: من أقوالهم التي يبطنون ضدها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، لأنه يقتضي أن الآية في المنافقين، والآية إنما هي في كفارٍ يعلنون مثل ما يبطنون، وذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿يُنْفقون﴾ يراد به أعمالهم من الكفر ونحوه، أي هي كالريح التي فيها صرّ، فتبطل كل ما لهم من صلة رحم وتحنث بعتق ونحوه، كما تبطل الريحُ الزرعَ، وهذا قولٌ حسن لولا بُعْدُ الاستعارة في الإنفاق.

والصِّرُّ: البرد الشديد المحرق لكل ما يهبّ عليه، وهو معروف، قال ابن عباس وجمهور المفسرين: الصِّرُّ: البرد، وتسميه العرب: الضريب، وذهب الزجاج وغيره إلى أن اللفظة من التصويت، من قولهم: صرَّ الشيء، ومنه الريح الصرصر، قال الزجاج: فالصرّ: صوت النار التي في الريح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

الصرُّ: هو نفس جهنم الذي في الزمهرير يحرق نحواً مما تحرق النار.

والحرث: شامل للزرع والثمار، لأن الجميع مما يصدر عن إثارة الأرض وهي حقيقة الحرث، ومنه الحديث: (لا زكاة إلا في عينْ أو حرْث أو ماشية)[1].

وقال عز وجل: ﴿ظَلَمُوا أَنفُسَهُم﴾ فما بال هذا التخصيص والمثل صحيح، وإن كان الحرث لمن لم يظلم نفسه؟ فالجواب أَن ظلم النفس في هذه الآية تأوله جمهور المفسرين بأنه ظلم بمعاصي الله، فعلى هذا وقع التشبيه بحرث مَنْ هذه صفته، إذ عقوبته أرجى[2]، وأخذةُ الله له أشدّ، والنقمة إليه أسرع وفيه أقوى، كما روي: «في جوف العير»[3] وغيره. وأيضاً فمن أهل العلم من يرى أن كلَّ مصائب الدنيا فإنما هي

(١) في موطأ الإمام مالك ١/٢٤١ أنّه بلَغه أَن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله على دمشق في الصدقة «إنما الصدقة في العين، والحرث، والماشية». قال مالك: ولا تكون الصدقة إلا في ثلاثة أشياءَ: في الحرث، والعين، والماشية.

(٢) اختلفت النسخ في هذه اللفظة، فهي أرجى، وأوحى، وأوخى. ورجا مهموزاً وغير مهموز، يأتي بمعنى الخوف والتأخير، وأَوحى: بمعنى أسرَع، ويبعد معنى أوخى الذي هو القصد والتحري.

(٣) الجوف اسم واد في أَرض عاد فيه ماءٌ وشجر، لم يكن ببلاد العرب أَخصب منه، فيه من كل الثمار، =

بمعاصي العبيد، وينتزع ذلك من غير ما آية في القرآن، فيستقيم على قوله: إن كل حرث تحرقه ريح فإنما هو لمن ظلم نفسه. وذهب بعض الناس ونحا إليه المهدوي إلى أن قوله تعالى: ﴿حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهم معناه: زرعوا في غير أوان الزراعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وينبغي أن يقال في هذا: ظلموا أنفسهم بأن وضعوا أفعال الفلاحة غير موضعها من وقت أو هيئة عمل، ويخصّ هؤلاء بالذكر لأن الحرق فيما جرى هذا المجرى أوعبُ وأشدُّ تمكناً، وهذا المنزع يشبهه من جهة ما قول امرىء القيس:

وسالفةٍ كَسَحُوقِ الليا ... ن أضرم فيها الغويُّ السَّعَرْ[1]

فخصص الغويَّ لأنه يلقي النار في النخلة الخضراء الحسنة التي لا ينبغي أن تحرق، فتطفىء النارَ عن نفسها رطوبتُها بعد أن تتشذب وتسودّ، فيجيء الشبه حسناً. والرشيدُ لا يضرم النار إلا فيما يبس وأسحق[2] فهو يذهبُ ولا يبقى منه ما يشبه به.

والضمير في: ﴿ظَلَمَهُم﴾ للكفار الذين تقدم ضميرهم في: ﴿يُنْفِقُون﴾، وليس هو للقوم ذوي الحرث لأنهم لم يذكروا ليردّ عليهم ولا ليبين ظلمهم، وأيضاً فقوله: ﴿ولكِنْ أنفُسَهم يظْلِمون﴾ يدلّ على فعل الحالِ في حاضرين.

قوله عز وجل:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

= حماه رجل اسمه حمارُ بن طُويلع أو مُويلع، وإلى قصته يشير ابن عطية وهي مذكورة في عدة كتب منها: «اللسان» في مادة: (جوف)، والميداني في «الأمثال» في مادة: (أكفر من حمار)، و«معجم البلدان ٣: ١٧٤» و«حياة الحيوان» في: (الحمار الوحشي). وتشير الأُسطورة كما رواها اللسان إلى أنّ هذا الرجل كان له بنون فماتوا كلهم فكفر بالله، وقتل كلَّ من مرَّ به، ثم أَرسل الله عليه صاعقة فأحرقته والجوفَ، فصار الجوفُ ملعباً للجن لا يتجرأُ أحد على سلوكه، وفيه قال الشاعر:

وخَرق كجوفِ العَيرْ قفْرٍ مَضَلَّةٍ

أراد (كجوف الحمار) فلم يستقم له فقال: كجوف العير.

(١) السالفة: جانب العنق، وسَحوق بفتح السين: طويلة. واللِيان: النخل، واحدتها: لينة، وأَضْرَم: أَوقد. الغوي: الغاوي. السعر: النار: يصف فرساً له.

(٢) أسحق بمعنى يبس وجفّ. وفي بعض النسخ: واستحق، أي استحق النار.

نهى الله تعالى المؤمنين بهذه الآية عن أن يتخذوا من الكفار واليهود أخلاء يأنسون بهم في الباطن من أمورهم، ويفاوضونهم في الآراء، ويستنيمون إليهم.

وقوله: ﴿مِنْ دُونِكُم﴾ يعني: من دون المؤمنين، ولفظة ﴿دون﴾ تقتضي فيما أضيف إليه أنه معدوم من القصة التي فيها الكلام، فشبه الأَخلاءَ بما يلي بطنَ الإِنسان من ثوبه، ومن هذا المعنى قول النبي ﷺ: (ما من خليفة ولا ذي إمرة إلا وله بطانتان، بطانة تأمره بالخير وتحضّه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله)[1].

وقوله: ﴿لاَ يَأْلُونَكُم خَبالاً﴾ معناه: لا يقصرون لكم فيما فيه الفساد عليكم، تقول: ما ألوتُ في كذا، أي: ما قصرت، بل اجتهدت، ومنه قول زهير:

جرى بعدهم قومٌ لكي يلحقوهمُ ... فلم يلحقوا ولم يُليموا ولم يألوا[2]

أي لم يقصروا. والخبل والخبال: الفساد.

وقال ابن عباس: كان رجال من المؤمنين يواصلون رجالاً من اليهود، للجوار والحلف الذي كان بينهم في الجاهلية، فنزلت الآية في ذلك. وقال أيضاً ابن عباس وقتادة والربيع والسدي: نزلت في المنافقين، نهى الله المؤمنين عنهم. وروى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (لا تستضيؤوا بنار المشركين، ولا تنقشوا في خواتيمكم عربياً)[3]، فسَّره ابن أبي الحسن فقال: أراد عليه السلام: لا تستشيروا المشركين في شيء من أموركم، ولا تنقشوا في خواتيمكم (محمداً).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويدخل في هذه الآية استكتابُ أهلِ الذمة وتصريفُهُمْ في البيع والشراء والاستنامة

---

(١) أخرجه البخاري، والنسائي، وغيرهما عن أبي سعيد الخدري «تفسير ابن كثير ١/ ٣٩٨».

(٢) ورواية البيت في ديوانه: ١١٤.

سَعى بَعدَهمْ قومٌ لِكيْ يدْركوهُمُ ... فلمْ يفعَلوا ولَمْ يُلاموا ولَمْ يألُوا

يقول تقدم هؤلاءِ في المجد والشرف، وسعى على آثارهم قومٌ آخرون لكي يدركوهم وينالوا منزلتهم؛ فلم ينالوا ذلك. ولم يليموا: أي لم يأتوا ما يُلامون عليه، يقال: ألام الرجل إذا أتى ما يُلام عليهِ، وما تركت في عملي لَوْمَة، أي: ما أُلام عليه. «ديوان زهير ١١٤. ط. دار الكتاب».

(٣) أخرجه أبو يعلى، والنسائي، والإمام أحمد، وابن جرير. «تفسير ابن كثير ١/ ٣٩٨».

إليهم. وروي أن أبا موسى الأشعري استكتب ذمياً فكتب إليه عمر يعنّفه، وتلا عليه هذه الآية. وقيل لعمر: إن ها هنا رجلاً من نصارى الحيرة لا أحد أكتب منه ولا أخطّ بقلم، أفلا يكتب عنك؟ فقال: إذاً أتخذُ بطانةً من دون المؤمنين.

و﴿ما﴾ في قوله: ﴿مَا عَنِتُّم﴾ مصدرية. فالمعنى: ودّوا عنتكم، والعنت: المشقة والمكروه يلقاه المرء، وعقبة عنوت: أي شاقة؛ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ﴾[1] معناه: المشقة إما في الزنى، وإما في ملك الأرب. قال السدي: معناه: ودُّوا ما ضللتم، وقال ابن جريج: المعنى: ودوا أن تعنتوا في دينكم، ويقال: عِنِتَ الرجل يعنَتُ بكسر النون في الماضي.

وقوله تعالى: ﴿قدْ بَدَتِ الْبَغضاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِم﴾ يعني بالأقوال، فهم فوق المتستر الذي تبدو البغضاء في عينيه. وخصَّ تعالى الأفواه بالذكر دون الألسنة إشارة إلى تَشَدُّقهم وثرثرتهم في أقوالهم هذه، ويشبه هذا الذي قلناه ما في الحديث: أن رسول الله ﷺ نهى أن يتشحَّى الرجل في عرض أخيه[2]، معناه: أن يفتح فاه به، يقال: شحا الحمار فاه بالنهيق، وشحا اللجام في الفرس، والنهي في أن يأخذ أحد عرض أخيه همساً راتب[3]، فذِكْر التشحي إنما هو إشارة إلى التشدق والانبساط.

وقوله: ﴿وما تُخفي صُدورُهُم أَكْبَر﴾ إعلام بأنهم يبطنون من البغضاء أكثر مما يظهرون بأفواههم، وفي قراءة عبد الله بن مسعود: [قدْ بَدا البَغْضاءُ] بتذكير الفعل، لما كانت البغضاء بمعنى البغض.

ثم قال تعالى للمؤمنين: ﴿قد بيَّنَا لكُمُ الآياتِ إنْ كُنتُم تعْقِلون﴾ تحذيراً وتنبيهاً، وقد علم تعالى أنهم عقلاء، ولكن هذا هزٌّ للنفوسِ كما تقول: إن كنت رجلاً فافعل كذا وكذا.

---

(١) من الآية (٢٥) من سورة النساء.

(٢) الحديث المشار إليه لم نعثر عليه بهذا اللفظ في المراجع التي بين أيدينا. والأحاديث في الغيبة والنميمة كثيرة، ذكر المفسرون معظمَها عند قوله في سورة الحجرات: ﴿ولا يَغْتَبْ بعضُكمْ بعضاً، أيُحبُّ أحدُكم أَنْ يأكل لحْمَ أخيهِ ميتاً فكرهتموه﴾.

(٣) راتب: ثابت، وهو خبر «النهي».

قوله عز وجل:

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾.

تقدم إعراب نظير هذه الآية وقراءتها في قوله تعالى آنفاً: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾، والضمير في: ﴿تُحِبُّونَهم﴾ لمنافقي اليهود الذين تقدم ذكرهم في قوله: ﴿بطانةً مِنْ دونِكم﴾، والضمير في هذه الآية اسم للجنس، أي: تؤمنون بجميع الكتب وهم لا يؤمنون بقراءتكم. وإنما وقف الله تعالى المؤمنين بهذه الآية على هذه الأحوال الموجبة لبغض المؤمنين لمنافقي اليهود واطراحهم إياهم، فمن تلك الأحوال أنهم لا يحبون المؤمنين، وأنهم يكفرون بكتابهم، وأنهم ينافقون عليهم ويستخفون بهم ويغتاظون ويتربصون الدوائر عليهم.

وقوله تعالى: ﴿عَضُّوا عليكُمُ الأناملَ﴾ عبارة عن شدة الغيظ مع عدم القدرة على إنفاذه ومنه قول أبي طالب(١):

. . . . يَعَضُّون غيظاً خلفَنا بِالأنامل

ومنه قول الاخر:

وقد شهِدتْ قيسٌ فما كان نصرها قتيبةَ إلا عضُّها بالأباهمِ(٢)

وهذا العضُّ هو بالأسنان، وهي هيئة في بدن الإنسان تتبع هيئة النفس الغائظة، كما أن عضَّ اليد على اليد يتبع هيئة النفس النادمة المتلهفة على فائت قريب الفوت، وكما أن قرع السن هيئة النفس النادمة فقط، إلى غير ذلك من عدِّ الحصى والخطِّ في

(١) صدره: وَقَدْ حالَفوا قوماً علَيْنا أظِنَّةً

والبيت من قصيدة له يتعوذ فيها بحرم مكة. «سيرة ابن هشام ١: ١٧٦».

(٢) البيت من قصيدة للفرزدق قالها في قتل قتيبة بن مسلم ويمدح سليمان بن عبد الملك ويهجو قيساً وجريراً. «شرح ديوان الفرزدق ٢: ٨٥١». وقد أراد: بالأباهيم ـ لكنه حذف.

ومثلُ البيتين اللذين استشهد بهما ابن عطية قولُ الحارث بن ظالم المرّي:

وأقبل أقواماً لِئاماً أذِلَّةً يعضُّون من غيظٍ رؤوسَ الأباهِم

وقول الآخر:

إذا رأوْني أطال الله غيْظَهُمُ عضُّوا مِن الغَيْظ أطرافَ الأباهيم

الأرض للمهموم ونحوه ، ويكتب هذا العض بالضاد ، ويكتب عظَّ الزمان بالظاء المشالة ، وواحد الأنامل أنملة بضم الميم ، ويقال بفتحها ، والضم أشهر ، ولا نظير لهذا الاسم في بنائه إلا أشد ، وله نظائر في الجموع.

وقوله: ﴿وَتُؤْمِنُون بالكِتاب كُلِّه﴾ يقتضي أن الآية في منافقي اليهود لا في منافقي العرب، ويعترضها أن منافقي اليهود لم يُحْفَظ عنهم أنهم كانوا يؤمنون في الظاهر إيماناً مطلقاً ويكفرون في الباطن كما كان المنافقون من العرب يفعلون ، إلا ما روي من أمر زيد بن الصيت القينقاعي[١] ، فلم يبق إلا أن قولهم: ﴿آمَنَّا﴾ معناه: صدقنا أنه نبيّ مبعوث إليكم، أي: فكونوا على دينكم ونحن أولياؤكم وإخوانكم لا نضمر لكم إلا المودة ، ولهذا كان بعض المؤمنين يتخذهم بطانة ، وهذا منزع قد حُفِظَ أن كثيراً من اليهود كان يذهب إليه ، ويدلّ على هذا التأويل أن المعادل لقولهم: (آمنا) عض الأنامل من الغيظ ، وليس هو ما يقتضي الارتداد كما هو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾[٢]، بل هو ما يقتضي البغضَ وعدمَ المودة. وكان أبو الجوزاء إذا تلا هذه الآية قال: هم الإباضية[٣].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الصفة تترتب في أهل البدع من الناس إلى يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿قلْ مُوتوا بِغَيْظِكم﴾ ، قال فيه الطبري وكثير من المفسرين: هو دعاء عليهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا يتجه أن يدعى عليهم بهذا مواجهة وغير مواجهة، وقال قوم: بل أُمر النبي ﷺ وأمته أن يواجهوهم بهذا. فعلى هذا زال معنى الدعاء وبقي معنى التقريع والإغاظة، ويجري المعنى مع قول مسافر بن أبي عمرو:

---

(١) ورد اسمه في السيرة (٢/ ٥٢٣): زيد بن اللصيت ، قال ابن هشام: ويقال: ابن لصيب. وفي بعض النسخ: ابن الوسيط.

(٢) من الآية (١٤) من سورة البقرة.

(٣) الإباضية: قوم من الحرورية لهم هوى ينسبون إليه ، وقيل: هم فرقة من الخوارج أصحاب عبد الله بن إباض التميمي.

وننمـــي فـــي أَرومتنـــا ونفقـــأ عيـــنَ مـــن حســـدا[١]

وينظر إلى هذا المعنى في قوله: ﴿مُوتوا بِغَيْظكم﴾ قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾[٢].

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَليمٌ بذاتِ الصُّدور﴾ وعيد يواجهون به على هذا التأويل الأخير في: ﴿مُوتوا بغَيْظكم﴾، وهو إخبار مجرد لمحمد ﷺ في تأويل الدعاء في: ﴿موتوا بغيظكم﴾. و﴿ذاتِ الصُّدور﴾: ما تنطوي عليه، والإشارة هنا إلى المعتقدات، ومن هذا قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «إنما هو ذو بطن بنت خارجة»[٣]، ومنه قولهم: «الذيب مغبوط بذي بطنه»[٤]، والذات لفظ مشترك في معان لا يدخل منها في هذه الآية إلا ما ذكرناه.

قوله عز وجل:

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

الحسنة والسيئة في هذه الآية لفظ عام في كل ما يحسن ويسوءُ، وما ذكر المفسرون من الخصب والجدب واجتماع المؤمنين ودخول الفرقة بينهم وغير ذلك من الأقوال فإنما هي أمثلة وليس ذلك باختلاف، وذكر تعالى المس في الحسنة ليبين أنَّ بأدنى طروء الحسنة تقع المساءة بنفوس هؤلاء المبغضين، ثم عادل ذلك بالسيئة بلفظ

---

(١) ورواية الأغاني ٩: ٥٤. ط: ٣ للبيت هي:

وزمـــزَم مِـــن أَرومَتنـــا ونَفَقَـــأُ عَيْـــنَ مـــن حســـدا

والبيت من قطعة قالها في الفخر، ويُتغنى بها، وهي من جيد شعره. والأرومة: تضم الأَصل، وفقأ العين: قلعها.

(٢) من الآية (١٥) من سورة الحج.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ في مالا يجوز من النحل. وذو بطن: أي: صاحبة بطن بمعنى: الكائنة في بطن حبيبة بنت خارجة، وكانت بنت خارجة زوجاً لأبي بكر. والقصة بكاملها في «الاستيعاب» في ترجمة «خارجة بن زيد».

(٤) قال أبو عبيد: «وذلك أنَّه لا يظن به أَبداً الجوع، وإنما يظن به البِطنة لعدوه على الناس والماشية، ولعله يكون مجهوداً من الجوع، وأَنشدَ:

وَمَـنْ يسْكُـن البحريـن يعظُـم طحـالُـه ويُغبـط مـا فـي بَطْنـه وَهـو جـائِـعُ

اللسان ـ مادة: (بَطَن).

الإصابة وهي عبارة عن التمكن ، لأن الشيء المصيب لشيء فهو متمكن منه أو فيه ، فدل هذا المنزعُ البليغ على شدة العداوة ، إذ هو حقدٌ لا يذهب عند الشدائد ، بل يفرحون بنزول الشدائد بالمؤمنين ، وهكذا في عداوة الحسد في الأغلب ، ولا سيما في مثل هذا الأمر الجسيم الذي هو ملاك الدنيا والآخرة ، وقد قال الشاعر :

كـل العـداوة قـد تـرجـى إزالتهـا ... إلا عداوةُ مَن عاداك مِن حسد(١)

ولما قرر تعالى هذا الحال لهؤلاء المذكورين ، وأوجبت الآية أن يعتقدهم المؤمنون بهذه الصفة ، جاء قوله تعالى: ﴿وإنْ تَصْبِروا وتَتَّقُوا لا يَضرُّكُمْ كَيْدَهُمْ شيئاً﴾ تسليةً للمؤمنين وتقوية لنفوسهم، وَشَرَطَ ذلك بالصبر والتقوى.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: [لا يضِرْكم] بكسر الضادِ وجزم الراء ، وهو من ضار يضير بمعنى: ضرَّ يضر وهي لغة فصيحة ، وحكى الكسائي: ضار يضور ، ولم يقرأ على هذه اللغة. ومِن ضار يضير في كتاب الله ﴿لَاضَيْرَ﴾(٢) ، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي:

فقيـل: تَحَمَّـلْ فـوق طـوقـك إنهـا ... مُطَبَّقَـةٌ مَـنْ يـأْتِهَـا لا يضيـرهـا(٣)

يصف مدينة، والمعنى: فليس يَضيرها، وفي هذا النفي المقدّر بالفاء هو جواب الشرط. ومن اللفظ قول توبة بن الحمير:

وقـال أنـاسٌ لا يَضيـرُكَ نـأيهـا ... بلى كلُّ ما شَفَّ النفوسَ يضيرها(٤)

---

(١) لم نعثر على قائل البيت فيما لدينا من المراجع ، ورد في «العقد الفريد لابن عبد ربه ٢ : ٣٢٠» أَن عبد الله بن المبارك المروزي كتب إلى علي بن بشر المروزي:

كـلُّ العـداوة قـدْ تُـرجَـى إماتَتُهـا ... إلا عَـداوةُ مَـن عـاداكَ مِـنْ حَسَـدِ
فـإِنَّ فـي القلـب مِنْهـا عُقـدةٌ عُقِـدَتْ ... وليْـسَ يَفْتَحهـا راقٍ إلـى الأبَـد
إلاَّ إلَـهٌ فـإِنْ يَـرْحَـمْ تحِـل بـه ... وإِنْ أَباه فـلا تَـرْجـوه مِـن أَحـدِ

(٢) من قوله تعالى في الآية (٥٠) من سورة (الشعراء): ﴿قالوا لا ضَيْر إِنَّا إِلى ربّنا مُنْقَلبون﴾.

(٣) تحَمَّلْ: الخطاب للبُخْتي في البيت قبله ، والبُخْتي: واحد البخت ، أو البختية وهي الإبل الخُراسانية ، والبيت هو:

ومـا حَمَـل البُخْتـيُّ عـامَ غِيـارِهِ ... عليـه الـوسـوق بُـرُّهـا وشَعيـرهـا

والطوْقُ: الطاقة. ومطبقة: مملوءَةٌ طعاماً. والضمير في إنّها ـ للقرية المذكورة في قوله:

أتـى قـريـةً كـانـت كثيـراً طعـامُهـا ... كـرفـع التـرابِ كـل شـيءٍ يَميـرُهـا

«الأغاني» و«الشعر والشعراء ٢ : ٥٤٩».

(٤) هو توبة بن الحمير بن حزم بن كعب، أَحد بني عقيل شاعر إسلامي وأَحد عشاق العرب المشهورين ، =

وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿لا يضُرُّكم﴾ بضم الضاد والراء والتشديد في الراء، وهذا من ضر يضُر، وروي عن حمزة مثل قراءة أبي عمرو. وأما إعراب هذه القراءة فجزم، وضمت الراء للالتقاء، وهو اختيار سيبويه في مثل هذا إتباعاً لضمة الضاد، ويجوز فتح الراء وكسرها مع إرادة الجزم، فأما الكسر فلا أعرفها قراءة، وعبارة الزجاج في هذا متجوز فيها، إذ يظهر من درج كلامه أنها قراءة، وأما فتح الراء من قوله: [لا يضُرَّكم] فقرأ به عاصم فيما رواه أبو زيد عن المفضل عنه، ويجوز أيضاً أن يكون إعراب قوله: ﴿لا يضُرُّكم﴾ رفعاً إما على تقدير: فليس يضركم، على نحو ما تقدم في بيت أبي ذؤيب، وإما على نية التقدم على: ﴿وإنْ تَصْبروا﴾ كما قال:

يـا أقـرعُ بـن حـابـسٍ يـا أقـرعُ ... إنـك إن يُصْـرَعْ أخـوك تُصْـرَعُ[1]

المراد إنك تصرع. وقرأ أبيّ بن كعب: [لا يضْرُرْكم] براءين، وذلك على فكّ الإدغام، وهي لغة أهل الحجاز، وعليها قوله تعالى في الآية: ﴿إنْ يَمْسَسْكم﴾، ولغة سائر العرب الإدغام في مثل هذا كله. والكيد: الاحتيال بالأباطيل، وقوله تعالى: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾[2] إنما هي تسمية العقوبة باسم الذنب.

وقوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ بما يعْمَلون مُحيط﴾ وعيد، والمعنى: محيط جزاؤه وعقابه بالقدرة والسلطان. وقرأ الحسن: [بما تَعْملون] بالتاء، وهذا إما على توعد المؤمنين في اتخاذ هؤلاء بطانةً، وإما على توعد هؤلاء المنافقين بتقدير: قل لهم يا محمد.

= وصاحبته ليلى الأخيلية، كان يقول الأشعار فيها ولا يراها إلا متبرقعة، فأتاها يوماً وقد سفرت فأنكر ذلك، وعلم أنها لم تُسفر إلا لأمر حدث... فأنشأ القصيدة التي منها البيت ومطلعها:

وكنـتُ إذا مـا جئـتُ ليلَـى تَبَـرْقَعَـتْ ... فقَـدْ رابَنـي منْهـا الغـداةَ سفُـورهَـا

الشعر والشعراء ١: ٣٥٦.

الضير: الضر، والنأي: البعدُ، وشفَّ النفوسَ: أي آذاها. والمعنى: يقولُ أُناس إن الفراقَ والبُعد لا يضرك، فقلت: بلى كل ما يؤذي النفس يَضرُّها ولا ينفعها. «معلق الحماسة». ٢/ ١٢٥».

(١) البيت من الرجز، وقائله الصحابي جرير بن عبد الله البجلي، وسببه أنه نافر رجلاً من اليمن إلى الأقرع بن حابس حكم العرب فقال: يا أقرع... ويصرع: معناه: يطرح. «شواهد ابن عقيل».

(٢) الآية (١٦) من سورة الطارق.

قوله عز وجل:

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

ذهب الطبري رحمه الله إلى أن هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدمها من الآيات، والظاهر أنها استقبال أمر آخر. لأن تلك مقاومة في شأن منافقي اليهود، وهذا ابتداء عتب المؤمنين في أمر أُحُد، فالعامل في ﴿إذْ﴾ فعلٌ مضمر تقديره: واذكر. وقال الحسن: هذا الغدُوُّ المذكور في هذه الآية لتبوّئ المؤمنين الذي كان في غزوة الأحزاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وخالفه الناس. والجمهور على أن ذلك كان في غزوة أُحد، وفيها نزلت هذه الآيات كلها. وكان من أمر غزوة أُحد أن المشركين اجتمعوا في ثلاثة آلاف رجل، وقصدوا المدينة ليأخذوا بثأرهم في يوم بدر، فنزلوا عند أُحد يوم الأربعاء الثاني عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة، على رأس أحد وثلاثين شهراً من الهجرة، وأقاموا هنالك يوم الخميس، ورسول الله ﷺ بالمدينة يدبّر وينتظر أمر الله تعالى، فلما كان في صبيحة يوم الجمعة جمع رسول الله ﷺ الناسَ واستشارهم، وأخبرهم أنه كان رأى في منامه بقرة تذبح وثلماً في ذباب سيفه، وأنه يدخل يده في درع حصينة، وأنه تأولها المدينة، وقال لهم: أرى ألاَّ نَخرجَ إلى هؤلاء الكفار، فقال له عبد الله بن أبيّ بن سلول: أقمْ يا رسولَ الله ولا تخرجْ إليهم بالناس، فإن هم أقاموا بشرٍّ محبس، وإن انصرفوا مَضَوْا خائبين، وإن جاؤونا إلى المدينة قاتلناهم في الأفنية، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من الآطام، فو الله ما حاربنا قط عدواً في هذه المدينة إلا غلبناه، ولا خرجنا منها إلى عدوّ إلا غَلَبنا، فوافق هذا الرأي رأيَ رسول الله ﷺ ورأيَ جماعةٍ من المهاجرين والأنصار. وقال قوم من صلحاء المؤمنين ممن كان فاتته بدر: يا رسول الله، اخرج بنا إلى عدوّنا، وشجعوا الناس ودعوا إلى الحرب، فقام رسول الله ﷺ فصلَّى بالناس صلاةَ الجمعة وقد جشمه هؤلاء الداعون إلى الحرب، فدخل إثرَ صلاته بيتَهُ ولبس سلاحه، فندم أولئك القوم وقالوا: أَكْرَهْنَا رسول الله ﷺ، فلما خرج عليهم

النبي ﷺ في سلاحه قالوا: يا رسول الله أقمْ إن شئت ، فإنا لا نريد أن نُكْرِهَكَ ، فقال رسول الله ﷺ: ما ينبغي لنبيّ إذا لبس سلاحه أن يضعها حتى يقاتل.

ثم خرج بالناس ، وسار حتى قرب من عسكر المشركين هناك ، وبات تلك الليلة ، وقد غضب عبدُ الله بن أبيّ بن سلول وقال: أطاعهم وعصاني. فلما كان في صبيحةِ يوم السبت اعتزم رسول الله ﷺ على السير إلى مناجزة المشركين، فنهض وهو في ألف رجل ، فانخزل عنه عند ذلك عبد الله بن أبي بن سلول بثلاثمائة من الناس ، من منافق ومتبع ، وقالوا: نظن أنكم لا تلقون قتالا ، ومضى رسول الله ﷺ في سبعمائة، فهمَّتْ عند ذلك بنو حارثة من الأوس وبنو سلمة من الخزرج بالانصراف ، ورأوا كثافةَ المشركين وقلةَ المسلمين ، وكادوا أن يجبنوا ويفشلوا فعصمهم الله تعالى: وذمر[١] بعضهم بعضاً ، ونهضوا مع النبي ﷺ ، فمضى رسول الله ﷺ حتى أطل على المشركين ، فتصافَّ الناس. وكان رسول الله ﷺ قد أمَّر على الرماة عبد الله بن جبير وكانوا خمسين رجلاً ، وجعلهم يحمون الجبلَ وراء المسلمين ، وأسند هو إلى الجبل ، فلما اضرمت الحرب انكشف المشركون وانهزموا ، وجعل نساء المشركين تبدو خلاخلهن وهن يسندن في صفح[٢] جبل ، فلما رأى الرماة ذلك قالوا: الغنيمةَ الغنيمةَ أيها المسلمون. وكان رسول الله ﷺ قال لهم: لا تبرحوا من هنا ولو رأيتمونا تتخطفنا الطير ، فقال لهم عبد الله بن جبير وقوم منهم: اتقوا الله واثبتوا كما أمركم نبيكم ، فَعَصَوْا وخالفوا وزالوا متبعين ، وكان خالد بن الوليد قد تجرد في جريدة خيل وجاء من خلف المسلمين حيث كان الرماة، فحمل على الناس ، ووقع التخاذل وصيح في المسلمين من مقدمتهم ومن ساقتهم ، وصرخ صارخ: قُتِلَ محمد ، فتخاذل الناس واستشهد من المسلمين نيفٌ على سبعين. قال مكي: قال مالك رحمه الله: قتل من المهاجرين يوم أحد أربعة ، ومن الأنصار سبعون ، وتحيز رسول الله ﷺ في أعلى الجبل وتجاوز الناس.

---

(١) ذمَره: بالتخفيف والتشديد: لامه وحضّه وحثَّه، وتَذَامر القوم في الحرب: تحاضوا، والقوم يتذامرون: أيْ يحض بعضهم بعضاً على الجد في القتال. «اللسان» ، قال عنترة:

لمَّا رأيتُ القوم أَقْبل جمعُهُم ... يتذامرون كررْتُ غيْرَ مذمَّم

(٢) الصفح: الجانب ، ومن الجبل مضطجعه ، وهو لغة في السفح الذي هو عرض الجبل حيث يسفح فيه الماءُ. وقيل السفح: أصل الجبل. وقيل: هو الحضيض الأسفل. «اللسان».

هذا مختصر من القصة يتركب عليه تفسير الآية ، وأمر أُحُد بطوله وما تخلله من الأفعال والأقوال مستوعَبٌ في كتب السير ، وليس هذا التعليق مما يقتضي ذكره.

وحكى مكي عن السدي ما يظهر منه أن القتال كان يوم الجمعة ، وحكى عنه الطبري أن نزول أبي سفيان بأُحد كان في الثالث من شوال ، وذلك كله ضعيف ، وقال النقاش: وقعة أحد في الحادي عشر من شوال ، وذلك خطأ. قال الطبري وغيره: فغدُوُّ رسول الله ﷺ يوم الجمعة إلى التدبير مع الناس واستشارتهم هو الذي عبر عنه بقوله تعالى: ﴿تُبَوِّئُ المُؤْمنينَ مَقاعِدَ للقتالِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا سيما أن غدو النبي ﷺ إنما كان ورأيه ألاَّ يخرج الناس ، فكان لا يشك في نفسه أن يقسم أقطار المدينة على قبائل الأنصار.

وقال غير الطبري: بل نهوض النبي ﷺ يوم الجمعة بعد الصلاة هو غدوه ، وبوأ المؤمنين في وقت حضور القتال ، وقيل: ذلك في ليلته ، وسماه غدواً إذ كان قد اعتزم التدبير والشروعَ في الأمر من وقت الغدو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا سيما أن صلاة الجمعة ربما كانت قبل الزوال ، حسبما وردت بذلك أحاديث[1] ، فيجيء لفظ الغدو متمكناً. وقيل: إنَّ الغدو المذكور هو غدوة يوم السبت إلى القتال ، ومن حيث لم يكن في تلك الليلة موافقاً للغدو فهو كأنه كان في أهله ، وبوأ المسلمين بأمرِ الرماةَ وبغيرِ ذلك من تدبيره مصافَّ الناس ، و﴿تُبَوِّئ﴾ معناه: تعينٌ لهم مقاعدَ يتمكنون فيها ويثبتون ، تقول: تبوأت مكان كذا إذا حللته حلولاً متمكناً ثبتً فيه ، ومنه قوله تعالى: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾[2] ومنه قول النبي ﷺ: (من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)[3] ومن قول الشاعر:

---

(١) من ذلك ما أخرجه الإمام أحمد ، ومسلم ، والنسائي عن جابر أن النبي ﷺ كان يصلي الجمعة ثم نذهب إلى جمالنا فنريحها حين تزول الشمس. «نيل الأوطار».

(٢) من الآية (٧٤) من سورة الزمر ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ من الجنّةِ غُرَفاً﴾.

(٣) أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه عن أنس. «الجامع الصغير ٢: ٥٥٣».

كم صاحبٍ لِيَ صالحٍ بوّأتُهُ بيديَّ لحدا[١]

ومنه قول الأعشى:

وما بوّأ الرحمن بيتَكَ منزلاً بشرقيِّ أجياد الصفا والمحرَّمِ[٢]

وقوله تعالى: ﴿مَقَاعِدَ﴾ جمع مقعد، وهو مكان القعود، وهذا بمنزلة قولك: مواقف، ولكن لفظة القعود أدل على الثبوت، ولا سيما أن الرماة إنما كانوا قعوداً، وكذلك كانت صفوف المسلمين أولاً، والمبارزة والسرعان[٣] يجولون.

وقوله: ﴿واللهُ سَميعٌ﴾ أي: ما تقول ويقال لك وقت المشاورة وغيره؛ و﴿إذ﴾ الثانية بدل من الأولى، و﴿هَمَّتْ﴾ معناه: أرادت ولم تفعل، والفشل في هذا الموضع: هو الجبن الذي كاد يلحق بني سلمة وبني حارثة، والفشل في البدن: هو الإعياء والتبليح[٤]، والفشل في الرأي: هو العجز والحيرة وفساد العزم، وقال جابر بن عبد الله: ما وددنا أنها لم تنزل، لقوله تعالى: ﴿والله وليهما﴾.

وقوله: ﴿وَعَلى اللهِ فَلْيَتَوكَّلِ المؤمنون﴾ أمرٌ في ضمنه التغبيط للمؤمنين بمثل ما فعله بنو حارثة وبنو سلمة من المسير مع النبي ﷺ. وقرأ عبد الله بن مسعود: [تُبوِّىءُ للمؤمنين] بلام الجر، وقرأ: [واللهُ وليُّهم] على معنى الطائفتين لا على اللفظ.

---

(١) البيت من قصيدة لعمرو بن معد يكرب الزبيدي ومطلعها:

لَيْسَ الجَمَالُ بِمئْزَرٍ فاعْلَمْ وإِنْ رُدِّيتَ بُرْدا

وبوأته: أنزلته، واللَّحْد: الحفرة وهو القبر.

(٢) رواية البيت في الديوان:

ومَا جَعَل الرحمن بيتك في العُلى بأَجْيادَ غَرْبيَّ الصَّفا والمحرم

وأجياد: أرض بمكة، أو جبل بها لكونه موضع خيل تبع. «قاموس». والبيت من قصيدة هجا بها الأعشى عُمَير بن عبد الله بن المنذر بن عبدان لمَّا جمع بينه وبين جهنام ليهاجيه «الديوان. ٤٠٠. ط الشركة اللبنانية للكتاب».

(٣) وسرعَان الناس مُحرَّكة: أوائلهم المستبقون، وتُسكَّن الراءُ وفي السين ثلاث لغات: الفتح والضم والكسر. ومن الخيل أوائلها. «قاموس».

(٤) يقال بَلَح الرجل وبلَّح أعيا، وقد أبلحه السير فانقطع به. «اللسان».

قوله عز وجل:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

لما أمر الله تعالى بالتوكل عليه، ذكَّر بأمرِ بدرٍ الذي كان ثمرةَ التوكل على الله والثقة به، فمن قال من المفسرين إن قول النبي ﷺ للمؤمنين: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكم﴾ كان في غزوة بدر، فيجيء التذكير بأمر بدر وبأمر الملائكة وقتالهم فيه مع المؤمنين، محرضاً على الجدِّ والتوكل على الله، ومن قال: إن قول النبي ﷺ: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكم﴾... الآية إنما كان في غزوة أُحد، كان قوله تعالى: ﴿ولَقَد نصَرَكُم اللهُ بِبَدْرٍ﴾ إلى ﴿تَشْكرون﴾ اعتراضاً بين الكلام جميلاً. والنصرُ ببدر هو المشهور الذي قتل فيه صناديد قريش، وعلى ذلك اليوم انبنى الإسلام، وكانت بدر يوم سبعة عشر من رمضان يوم جمعة لثمانية عشر شهراً من الهجرة. وبدر: ماء هنالك سُمِّي به الموضع. وقال الشعبي: كان ذلك الماء لرجل من جهينة يسمى بدراً فبه سُمِّي. قال الواقدي[1] فذكرت هذا لعبد الله بن جعفر[2] ومحمد بن صالح[3] فأنكراه وقالا: بأي شيء سميت الصفراء والجار وغير ذلك من المواضع؟ قال: وذكرت ذلك ليحيى بن النعمان الغفاري[4] فقال: سمعت شيوخاً من بني غفار يقولون: هو ماؤنا ومنزلنا وما ملكه أحد قط يقال له بدر، وما هو من بلاد جهينةَ إنما هي بلاد غفار، قال الواقدي: فهذا المعروف عندنا.

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي مولى الأَسلميين، كان يتشيع، حسن المذهب، يلزم التقية، كان من أَهل المدينة، انتقل إلى بغداد وولي القضاء بها. كان عالماً بالمغازي والسير والفُتوح واختلاف الناس في الحديث والفقه والأحكام والأَخبار، توفي سنة: ٢٠٧. «الفهرست لابن النديم ١٤٤».

(٢) عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي، أَبو محمود، ولد بأَرض الحبشة حفظ عن النبي ﷺ وروى عنه وعن أَبويه، وعنه بنوه، كان يقال له: قطب السخاءِ، كان أحد أُمراءِ عليٍّ يوم صفين، وقال فيه رسول الله ﷺ: (وأَما عبد الله فيشبه خَلقي وخُلقي)... «الإصابة ٢: ٢٨٩».

(٣) محمد بن صالح بن دينار التمار، أَبو عبد الله المدني، مولى الأَنصار، روىٰ عن أَبي حازم، والقاسم، وعمر بن عبد العزيز، وعنه ابنُه صالح، والواقدي وغيرهما، ثقة قليل الحديث، توفي سنة ١٦٨هـ «تهذيب التهذيب: ٢: ٢٢٥».

(٤) لم نعثر على ترجمته فيما لدينا من المراجع.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُم أَذِلَّةٌ﴾ معناه: قليلون، وذلك أنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلاً، وكان عدوهم ما بين التسعمائة والألف، وأذلة: جمع ذليل، واسم الذي في هذا الموضع مستعار، ولم يكونوا في أنفسهم إلا أعزة، ولكن نسبتهم إلى عدوهم وإلى جميع الكفار في أقطار الأرض تقتضي عند التأمل ذلتهم ، وأنهم مغلوبون ، وقد قال النبي ﷺ في ذلك اليوم: (اللهم إن تهلِك هذه العصابة لم تعبد)[1] ، وهذه الاستعارة هي كاستعارة الكذب في قوله في الموطأ: كذب كعب ، وكقوله: كذب أبو محمد ، وكاستعارة المسكنة لأصحاب السفينة على بعض الأقوال ، إذ كانت مسكنتهم بالنسبة إلى الملك القادر الغاصب.

ثم أمر تعالى المؤمنين بالتقوى ، ورجَّاهم في الإنعام الذي يوجب الشكر ، ويحتمل أن يكون المعنى: اتقوا الله عسى أن تكون تقواكم شكراً على النعمة في نصره ببدر.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾، العامل في ﴿إِذْ﴾ فعل مضمر، ويحتمل أَن يكون العامل: ﴿نَصَرَكُمُ﴾ وهذا على قول الجمهور: إن هذا القول من النبي ﷺ كان ببدر ، قال الشعبي والحسن بن أبي الحسن وغيرهما: إن هذا كان ببدر ، قال الشعبي: بلغ المؤمنين أن كرز بن جابر بن حسل المحاربي[2] محارب فهر قد جاء في مدد المشركين ، فغمَّ ذلك المؤمنين ، فقال النبي ﷺ للمؤمنين عن أمر الله تعالى هذه المقالة ، فصبر المؤمنون واتقوا ، وهزم المشركون ، وبلغت الهزيمة كرزاً ومن معه فانصرفوا ولم يأتوا من فورهم ، ولم يمدّ المؤمنون بالملائكة ، وكانت الملائكة بعد ذلك تحضر حروب النبي ﷺ مدداً ، وهي تحضر حروب المسلمين إلى يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وخالف الناس الشعبي في هذه المقالة ، وتظاهرت الروايات بأنَّ الملائكة حضرت بدراً وقاتلت ، ومن ذلك قول أبي أسيد مالك بن ربيعة[3]: لو كنت معكم الآن ببدر

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في باب الإمداد بالملائكة من كتاب «الجهاد ٥: ١٥٦».

(٢) كرز بن جابر بن حسل القرشي الفهري أَسلم بعد الهجرة وحسُن إِسلامه ، ولاَّه رسول الله ﷺ الجيش الذي بعثه في أثر العرنيين الذين قتلوا راعيه. «الاستيعاب» و «الإصابة. ٣: ٢٩٠ ، ٣٠٩».

(٣) مالك بن ربيعة بن البدن بن عامر الأنصاري الساعدي أَبو أُسيد ، مشهور بكنيته ، شهد بدراً واحداً وما=

ومعي بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة ، لا أشك ولا أتمارى. ومنه حديث الغفاري وابن عمه اللذين سمعا من الصحابة: اقدُمْ حيزوم فانكشف قناعُ قلب أحدهما، فمات مكانه وتماسك الآخر(١).

وقال ابن عباس: لم تقاتل الملائكة في يوم من الأيام إلا يوم بدر ، وكانوا يكونون في سائر الأيام عدداً ومدداً لا يضربون. ومن ذلك قول أبي سفيان بن الحارث(٢) لأبي لهب(٣): ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلون ويأسرون ، وعلى ذلك فو الله ما لمت الناس ، لقينا رجالاً بيضاً على خيلٍ بُلْقٍ بين السماء والأرض ما تُليق(٤) شيئاً ولا يقوم لها شيء ، ومن ذلك أن أبا اليسر كعب بن عمرو الأنصاري(٥) أحد بني سلمة أَسر يوم بدر العباس بن عبد المطلب ، وكان أبو اليسر رجلاً مجموعاً ، وكان العباس رجلاً طويلاً جسيماً ، فقال النبي ﷺ: (لقد أعانك عليه ملك كريم)(٦) . . . الحديث بجملته. وقد قال بعض الصحابة: كنت يوم بدر أتبع رجلاً من المشركين لأضربه بسيفي فلما دنوت منه وقع رأسه قبل أن يصل سيفي إليه، فعلمت أن ملكاً قتله(٧).

= معها ، روى عن النبي ﷺ ، وعنه أولاده وآخرون من الصحابة والتابعين. وهو آخر البَدْرِيِّين موتاً ، توفي سنة: ٦٠هـ. «الإصابة ٣: ٣٤٤».

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة ، وابن جرير في تفسيره من طريق ابن حميد. اقدم (بضم الدال) من التقدم: كلمة يزجر بها الخيل. وحيزوم: اسم فرس جبريل ، وهو فيعول من الحزم. الروض الأُنُف ٢: ٧٠».

(٢) أَبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم الرسول ﷺ وأَخوه من الرضاعة ، أَسلم يوم الفتح ، شهد حنيناً ، وكان ممن ثبت مع النبي ﷺ توفي سنة: ١٥ وقيل: ٢٠. «الإصابة. ٤: ٩٠».

(٣) أَبو لهب هو أَحد أَعمام النبي ﷺ ، واسمه عبد العزى، كان كثير الإذاية لرسول الله ﷺ والبغضة له ، والازدراءِ به ، والتنقص له ولدينه ، توفي بعد وقعة بدر بعدة أيام ، رماه الله بالعدسة فقتلته.

(٤) من ألاق يُليق، أَي: ما تُبقي ولا يَقف لها ولا يثبت.

(٥) هو كعب بن عمرو بن عباد الأنصاري السلمي ، مشهور باسمه وكنيته ، شهد العقبة وبدراً ، وله فيها آثار كثيرة ، وهو الذي أَسر العباس. قال المدائني: كان قصيراً دحداحاً عظيم البطن ، توفي بالمدينة سنة: ٥٥. «الإصابة ٤: ٢٢١».

(٦) رواه الإمام أحمد ، وفيه راوٍ لم يُسَمَّ ، وبقية رجاله ثقات. «مجمع الزوائد ٦: ٨٥ في باب ما جاءَ في الأَسرى».

(٧) أَخرجه ابن جرير، وابن إسحق ـ عن أَبي داود المازني، وكان شهد بدراً. «ابن جرير ٤: ٧٧».

وقال قتادة بن دعامة: أمد الله المؤمنين يوم بدر بخمسة آلاف من الملائكة[١]، قال الطبري: وقال آخرون: إن الله وعد المؤمنين يومَ بدر أن يمدهم في حروبهم كلها إن صبروا واتقوا، فلم يفعلوا ذلك إلا في يوم الأحزاب، فأمدهم حين حاصروا قريظة، ثم أدخل تحت هذه الترجمة عن عبد الله بن أبي أوفى[٢] أنه قال: حاصرنا قريظة مدة فلم يفتح علينا فرجعنا، فبينا رسول الله ﷺ قد دعا بغسل يريد أن يغسل رأسه، إذ جاءه جبريل عليه السلام فقال: وضعتم أسلحتكم ولم تضع الملائكة أوزارها، فلف رسول الله ﷺ رأسه بخرقة ولم يغسله، ونادى فينا فقمنا كالّين متعبين، حتى أتينا قريظةَ والنضير، فيومئذ أمدنا الله بالملائكة بثلاثة آلاف، وفتح لنا فتحاً يسيراً، فانقلبنا بنعمة من الله وفضل.

وقال عكرمة: كان الوعد يوم بدر، فلم يصبروا يوم أحد ولا اتقوا، فلم يُمدوا ولو مُدوا لم يهزموا.

وقال الضحاك: كان هذا الوعد والمقالة للمؤمنين يوم أحد، ففرَّ الناسُ وولوا مدبرين فلم يُمدهم الله، وإنما مُدُّوا يوم بدر بألف من الملائكة مردفين.

وقال ابن زيد: قال المسلمون لرسول الله ﷺ يوم أحد وهم ينتظرون المشركين: يا رسول الله، أليس يمدنا الله كما أَمدَّنا يوم بدر؟ فقال لهم النبي ﷺ: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكم﴾... الآية، وإنما أمدهم يوم بدر بألف. قال ابن زيد: فلم يصبروا.

وقوله تعالى: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكم﴾ تقرير على اعتقادهم الكفاية في هذا العدد من الملائكة، ومن حيث كان الأمر بيناً في نفسه أن الملائكة كافية، بادر المتكلم إلى الجواب ليبني ما يستأنف من قوله عليه فقال: ﴿بَلَى﴾ وهي جواب المقررين. وهذا يحسن في الأمور البينة التي لا محيد في جوابها، ونحوه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر «تفسير الشوكاني ١: ٣٤٦».

(٢) عبد الله بن أبي أوفى الأسلمي، أبو معاوية، له ولأبيه صحبة، شهد الحديبية، وهو آخر من مات من الصحابة، وكان من أصحاب الشجرة، توفي سنة: ٨٠ «الإصابة ٢: ٢٧٩».

والحديث الذي رواه أخرجه ابن جرير بلفظه، وأخرج البخاري ومسلم طرفاً منه في غزوة بني قريظة. «البخاري ٣: ٢٠».

شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾(١) وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿أَلاَ يَكْفيكم﴾، وقد مضى القول في الإمداد في سورة البقرة في قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾(٢).

وقرأ الحسن بن أبي الحسن(٣): [بِثَلاَثَهْ آلافٍ] يقف على الهاء، وكذلك: [بِخَمْسَهْ آلاف]، ووجه هذه القراءة ضعيف، لأن المضاف والمضاف إليه يقتضيان الاتصال، إذ هما كالاسم الواحد، وإنما الثاني كمالٌ للأوّل، والهاء إنما هي أَمارة وقف، فيقلق الوقفُ في موضعٍ إنما هو للاتصال، لكن قد جاء نحو هذا للعرب في مواضع، فمن ذلك ما حكاه الفراء أنهم يقولون: أكلت لحما شاه، يريدون لحمَ شاةٍ فمطلوا الفتحة حتى نشأت عنها ألف، كما قالوا في الوقف: قالا، يريدون: قال، ثم مطلوا الفتحة في القوافي ونحوها من مواضع الروية والتثبت، ومن ذلك في الشعر قول الشاعر:

ينباع من ذِفْرى غضوب جسْرةٍ(٤) . . . .

يريد: ينبع فمطل، ومنه قول الآخر:

أقول إذ خَرَّتْ على الكلكالِ   يا ناقتا ما جُلْتِ من مجالِ(٥)

يريد: على الكلكل فمطل، ومنه قول الآخر:

فأنت من الغوائل حين ترمي   ومن دمِّ الرجال بمنتزاحِ(٦)

---

(١) من الآية (١٩) من سورة الأنعام.

(٢) من الآية (١٥) من سورة البقرة.

(٣) من هنا حتى أواخر الشواهد الشعرية نقول: بإيجاز عن «المحتسب ١: ١٦٥ ـ ١٦٦».

(٤) قائله عنترة بن شداد، تمام البيت: زَيَّافَةٍ مثلَ الفَنيقِ المُكْدَم.

أراد: ينبع فأشبع الفتحة لإقامة الوزن. وينبع: يتفجر. والذِّفرى: ما خلف الأُذن. والجَسْرة: الناقة الموثقة الخلق. والزَّيفُ: التبختر. والفَنِيقُ: الفحل من الإبل. والمكدم: الغليظ الصلب. يقول: ينبع هذا العرق من خلف أُذن ناقة غضوب موثقة الخلق شديدة التبختر في سيرها. «ديوانه: ١٥».

(٥) نسبهُ في اللسان إلى الراجز. والكَلْكَل والكَلْكَال: الصدر من كل شيءٍ، وجال الفرس يجول في الميدان: قطع جوانبه، والمجال: اسم مكان الجولان.

(٦) قائل البيت: إبراهيم بن علي بن هرمة الهذلي القرشي، يرثي ابنه. الغوائل: الدواهي: المنتزح: البعد. يقال: نزح نزوحاً وانتزح انتزاحا: بَعُد. وقولهم: أَنت من الذم بمنتزحٍ، مجاز (أَساس البلاغة).

يريد بمنتزح ، قال أبو الفتح[(١)]: فإذا جاز أن يعترض هذا التمادي بين أثناء الكلمة الواحدة ، جاز التمادي والتأني بين المضاف والمضاف إليه إذ هما في الحقيقة اثنان[(٢)].

وقرأ ابن عامر وحده: [مُنَزَّلين] بفتح النون والزاي مشددة، وقرأ الباقون: ﴿مُنْزَلين﴾ بسكون النون وفتح الزاي مخففة ، وقرأ ابن أبي عبلة: [مُنَزِّلين] بفتح النون وكسر الزاي مشددة معناها: يُنزلون النصر ، وحكى النحاس قراءة ولم ينسبها: [مُنْزِلين] بسكون النون وكسر الزاي خفيفة، وفسَّرها بأنهم ينزلون النصر.

و﴿بَلَىٰ﴾ جواب النفي الذي في ﴿أَلَنْ﴾ وقد تقدم معناه. ثم ذكر تعالى الشرط الذي معه يقع الإمداد وهو الصبر ، والتقى. والفور: النهوض المسرع إلى الشيء مأخوذ من فور القدر والماء ونحوه ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾[(٣)] فالمعنى: ويأتوكم في نهضتكم هذه. قال ابن عباس: ﴿مِنْ فَوْرِهم هذا﴾ معناه: من سفرهم هذا، قال الحسن والسدي: معناه: من وجههم هذا، وقاله قتادة. وقاله مجاهد وعكرمة وأبو صالح مولى أم هانىء[(٤)]: من غضبهم هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تفسير لا يخص اللفظة ، قد يكون الفور لغضب ولطمع ولرغبة في أجرٍ ، ومنه الفورُ في الحجّ والوضوء.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير وعاصم: ﴿مُسَوِّمين﴾، بكسر الواو، وقرأ الباقون:

---

(١) المحتسب ١ : ١٦٦.

(٢) قال أبو حيَّان بعد أن أورد هذه الأمثلة نقلاً عن ابن عطية ، وبعد أنْ نقل رأيه: «وهو تكثير وتنظير بغير ما يناسب ، والذي يناسب توجيه هذه القراءة الشاذة أنها من إجراء الوصل مجرى الوقف أبدلها هاءً في الوصل كما أبدلوها هاءً في الوقف، وما ذكره ابن عطية من أمثلة إنما هو من باب إشباع الحركة».

(٣) من الآية (٤٠) من سورة هود.

(٤) هو باذام ، ويقال باذان أبو صالح مولى أُم هانيء بنت أبي طالب ، تابعي مشهور رَوَى عن علي ، وابن عباس ، وأبي هريرة ، ومولاته أُم هانيء ، وعنه الأعمش ، وإسماعيل السدي وسماك بن حرب ، وأبو قلابة ، وسفيان الثوري ، وغيرهم ، وثَّقَهُ بعضهم ، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه تفسير ، وما أقل ما له من المسند ، وفي ذلك التفسير ما لم يتابعه عليه أهل التفسير ، ولم أعلم أحداً من المتقدمين رضِيَه. «تهذيب التهذيب ١ : ٤١٦». و«الإصابة الجزءُ الأول ، وكذا الرابع».

[مُسَوَّمين]، بفتح الواو، فأما من قرأ بفتح الواو فمعناه: مُعْلَمين بعلاماتٍ، قال أبو زيد الأنصاري[(١)]: السومة: العلامة تكون على الشاة وغيرها يجعل عليها لون يخالف لونها لتعرف، وروي أن الملائكة أعلمت يومئذ بعمائم بيض، حكاه المهدوي عن الزجاج، إلا جبريل عليه السلام فإنه كان بعمامةٍ صفراء على مثال عمامة الزبير بن العوام، وقاله ابن إسحق. وقال مجاهد: كانت خيلهم مجزوزة الأذناب، والأعراف معلمة النواصي، والأذناب بالصوف والعهن. وقال الربيع: كانت سيماهم أنهم كانوا على خيل بلق، وقال عباد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير[(٢)]: نزلت الملائكة في سيما الزبير، عليهم عمائمُ صفر، وقال ذلك عروة وعبد الله ابنا الزبير. وقال عبد الله: كانت ملاءةً صفراء فاعتمَّ الزبير بها، ومن قرأ: ﴿مسوِّمين﴾ بكسر الواو، فيحتمل من المعنى مثل ما تقدم، أي: هم قد أَعلموا أنفسهم بعلامة وأَعلموا خيلهم، ورجح الطبري وغيره هذه القراءة بأن النبي ﷺ قال للمسلمين يوم بدر: (سوِّموا فإن الملائكة قد سوَّمت)[(٣)] فهم على هذا مُسَوِّمون، وقال كثير من أهل التفسير: إن معنى ﴿مسوِّمين﴾ بكسر الواو أي هم قد سَوَّموا خيلهم أَي: أعطوها سَوْمَها من الجري والقتال والإحضار فهي سائمة، ومنه سائمة الماشية، لأنها تركت وسومها من الرعي، وذكر المهدوي هذا المعنى في ﴿مُسَوَّمين﴾ بفتح الواو أي: أرسلوا وسومهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهو قلق، وقد قاله ابن فُورك أيضاً.

---

(١) هو أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت، صاحب النحو واللغة، روى عنه أبو عبيد القاسم بن سلام وأبوب حاتم السجستاني، وغيرهما، وكان الأصمعي يقول فيه: هذا عالمنا ومعلمنا منذ عشر سنين، توفي في البصرة سنة ٢١٤ أو ٢١٥هـ (انظر إنباه الرواة للقفطي ٢: ٣٠، وتاريخ بغداد ٩: ٧٧، وتهذيب التهذيب ٤: ٣، وابن خلكان٢: ٣٧٨).

(٢) هو عباد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير الأسدي أخو عبد الله بن حمزة، روى عن جدة أَبيه أَسماءَ بنت أبي بكر، وأُختها عائشة أم المؤمنين، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وعنه ابن عمِّ أبيه هشام بن عروة. ثقة. وقال الزهري: كان سخياً سرياً أحسنَ الناس وجها، أخرج له مسلم والنسائي حديث: (لا تحصي فيحصي الله عليك). «تهذيب التهذيب. ٥: ٩١».

وحديث السيمة: أَخرجه ابن هشام في السيرة.

(٣) أَخرجه ابن أَبي شيبة، وابن إسحق، وهو مرسل، وابن جرير الطبري، وابن سعد، من طرق. «تعليق ابن حجر على الكشاف ١: ٤١٢».

قوله عز وجل:

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

الضمير في: ﴿جَعَلَهُ اللهُ﴾ عائد على الإنزال والإمداد، والبشرى مصدر، واللام في: ﴿وَلِتَطمَئِنَّ﴾ متعلقة بفعل مضمر يدل عليه ﴿جَعَلَه﴾. ومعنى الآية: وما كان هذا الإمداد إلا لتستبشروا به وتطمئن به قلوبكم وتروا حفاية الله بكم، وإلا فالكثرة لا تعني شيئاً إلا أن ينصر الله.

وقوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ﴾ يريد للمؤمنين، وكذلك أيضاً هي الإدالة للكفار من عند الله، واللام في قوله: ﴿لِيَقْطَع﴾ متعلقة بقوله: ﴿وما النَّصرُ إلاَّ مِنْ عِنْد اللهِ﴾، وعلى هذا لا يكون قطع الطرف مختصاً بيوم، اللهم إلا أن تكون الألف واللام في ﴿النَّصْرِ﴾ للعهد، وقيل: العامل فيه ﴿وَلَقَدَ نَصَركم﴾، حكاه ابن فُورك وهو قلق، لأن قوله: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُم﴾ لايترتب عليه، وقد يحتمل أن تكون اللام في قوله: ﴿لِيَقْطَع﴾ متعلقة بـ ﴿جَعَلَه﴾، فيكون قطع الطَّرَفِ إشارةً إلى من قتل ببدر على ما قال الحسن وابن إسحق وغيرهما، أو إلى من قتل بأحد على ما قال السدّي، وقتل من المشركين ببدر سبعون، وقتل منهم يوم أحد اثنان وعشرون رجلاً. وقال السدي: قتل منهم ثمانية عشر والأول أصح.

والطرف: الفريق، ومتى قتل المسلمون كفاراً في حرب فقد قطعوا طرفاً، لأنه الذي وليهم من الكفار، فكأن جميع الكفار رقعةٌ وهؤلاء المقتولون طرفٌ منها أي حاشية. ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَع طَرَفاً﴾ بمنزلة: لِيَقْطَعَ دابراً.

وقوله: ﴿أَوْ يَكْبِتَهم﴾ معناه: أو يخزيهم، والكبت: الصرع لليدين، وقال النقاش وغيره: التاء بَدَلٌ من دال كَبَته، أصلها كَبَده أي: فعل به ما يؤذي كبده، وإذا نصر الله على أمة كافرة فلا بد من أحد هذين الوجهين، إما أن يقتل منهم وإما أن يخيبوا، فذلك نوع من الهزم.

وقوله تعالى: ﴿ليس لَكَ مِنَ الأمرِ شيءٌ﴾ توقيفٌ على أن الأمر كله لله، وهذا التوقيف يقتضي أنه كان بسبب كمن جهة النبي ﷺ. وروي في ذلك أنه لما هُزِمَ أصحابُهُ، وَشُجَّ في وجهه حتى دخلت بعضُ حَلَقِ الدرع في خده، وكسرت رباعيته، وارتثّ بالحجارة حتى صُرِعَ لجنبه، تحيز عن الملحمة، وجعل يمسحُ الدمَ من وجهه ويقول: (لا يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم)[١] هكذا لفظ الحديث من طريق أنس بن مالك، وفي بعض الطرق: (وكيف يفلح؟) وفي بعضها أن سالماً مولى أبي حذيفة كان يغسل الدمَ عن وجه رسول الله ﷺ، وقال: فأفاق وهو يقول: (كيف بقوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله)؟ فنزلت الآية بسبب هذه المقالة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكأن النبي ﷺ لحقه في تلك الحال يأسٌ من فلاح كفّار قريش، فمالت نفسه إلى أَن يستأصلهم الله ويريحَ منهم، فروي أنه دعا عليهم أو استأذن في أن يدعوَ عليهم، وروى ابن عمر وغيره: أنه دعا على أبي سفيان والحارث بن هشام[٢] وصفوان بن أمية[٣] باللعنة، إلى غير هذا من معناه، فقيل له بسبب ذلك: ﴿لَيْسَ لكَ مِن الأَمْر شيءٌ﴾ أي: عواقب الأمور بيد الله، فامضِ أنت لشأنك ودمْ على الدعاءِ إلى ربك. قال الطبري وغيره من المفسرين: قوله: ﴿أَوْ يَتوبَ علَيْهم﴾ عطف على ﴿يَكْبِتهم﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شيءٌ﴾ اعتراض أثناء الكلام، وقوله: ﴿أَوْ يتوبَ﴾

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والطبري والإمام أحمد في مسنده (عن أنس).

(٢) هو الحارث بن هشام بن المغيرة، القرشي، المخزومي ـ أخو أَبي جهل، وابن عم خالد بن الوليد، أُمه فاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وهو ممن شهد بدراً مع المشركين، وكان فيمن انهزم، وعيره حسان بن ثابت ببيتين، فرد عليه المترجم له بثلاثة أَبيات قيل فيهما: إنها أَحسن ما قيل في الاعتذار من الفِرار، أَسلم يوم فتح مكة ثم حسن إسلامه، قيل: كانت وفاته في طاعون عمواس: وقيل: استشهد يوم اليرموك. «الإصابة ١: ٢٩٣».

(٣) صفوان بن أُمية بن خلف، أَبو وهب الجمحي، أُمه صفية بنت معمر، جمحية أَيضاً، قتل أَبوه يوم بدر كافراً، وحُكي أَنه كان إِليه أَمر الأزلام في الجاهلية، كما حُكي أَنه فر يوم فتح مكة وأَسلمت امرأته، فأَحضر له ابن عمه عمير بن وهب أَماناً من النبي ﷺ فحضر، وحضر وقعة حنين قبل أَن يسلم، ثم أَسلم، وكان أَحد العشرة الذين انتهى إِليهم شرف الجاهلية ووصله لهم الإِسلام. «الإِصابة ٢: ١٨٧».

معناه: فيسلمون، وقوله: ﴿أَوْ يُعَذِّبَهم﴾ معناه: في الآخرة بأن يوافوا على الكفر. قال الطبري وغيره: ويحتمل أن يكون قوله: ﴿أَوْ يَتُوب﴾ بمعنى حتى يتوب، أو إلى أن يتوب، فيجيء بمنزلة قولك: لا أفارقك أو تقضيني حقي، وكما تقول: لا يتم هذا الأمر أو يجيء فلان، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لكَ منَ الأَمْرِ شيْءٌ﴾ ليس باعتراض على هذا التأويل، وإنما المعنى الإخبار لمحمد عليه السلام أنه ليس يتحصل له من أمر هؤلاء الكفار شيء يؤمله إلا أن يتوب الله عليهم فيسلمون، فيرى محمد عليه السلام أحدَ أمَلَيْه فيهم، أو يعذّبهم الله بقتلٍ في الدنيا، أو بنارٍ في الآخرة أو بهما، فيرى محمد ﷺ الأملَ الآخر. وعلى هذا التأويل فليس في قوله: ﴿ليْسَ لكَ مِن الأَمْرِ شيْءٌ﴾ ردعٌ كما هو في التأويل الأول، وذلك التأويلُ الأول أقوى.

وقرأ أُبي بن كعب: [أَوْ يَتُوبُ] [أَوْ يُعَذِّبُهم] برفع الباء فيهما، المعنى: أو هو يتوبُ، ثم قرر تعالى ظلم هؤلاء الكفار، ثم أكد معنى قوله: ﴿ليْسَ لكَ مِن الأَمْر شيْءٌ﴾ بالقول العام، وذكر الحجة الساطعة في ذلك وهي ملكُهُ الأشياءَ، إذ ذلك مقتضٍ أن يفعل بحقّ ملكه ما شاء، لا اعتراضَ عليه ولا معقّبَ لحكمه، وذكر أن الغفران والتعذيب إنما هو بمشيئته وحسب السابق في علمه، ثم رجا في آخر ذلك تأنيساً للنفوس وجلباً لها إلى طاعته، وذلك كله في قوله تعالى: ﴿وَللهِ ما في السَّمواتِ وما في الأَرضِ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاء ويَعَذِّبُ مَنْ يشاءُ، واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾.

و﴿ما﴾ في قوله: ﴿ما في السَّمواتِ وما في الأَرْضِ﴾ إشارة إلى جملة العالم فلذلك حسنت ﴿ما﴾؛ وما ذكر في هذه الآية من أن هذه الآية ناسخةٌ لدعاء النبي ﷺ على المشركين كلامٌ ضعيف كله، وليس هذا من مواضع الناسخ والمنسوخ[1].

قوله عزوجل:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

---

(١) قال تعالى في هذه الآية ﴿يغفرُ لِمَن يشاءُ ويُعذِّبُ مَنْ يشاءُ﴾. قال المفسرون: بدأ بالغفران وأردف بالعذاب ليناسب ما تقدم من قوله: ﴿أَوْ يتوبَ عليْهم أَوْ يعذِّبَهم﴾ ـ ولم يشترط في الغفران هنا التوبة إذ يغفر سبحانه وتعالى لمن يشاء من تائب وغير تائب إلا ما استثناه تعالى من الشرك. وقوله بعد ذلك: ﴿والله غفورٌ رحيمٌ﴾ ترجيحٌ لجهة الإحسان والإنعام والغفران.

هذا النهي عن أكل الربا اعترضَ أثناءَ قصةِ أحد ، ولا أحفظ سبباً في ذلك مروياً. والربا: الزيادة ، وقد تقدَّم ذكر مثل هذه الآية وأحكام الربا في سورة البقرة[١]. وقوله: ﴿أَضْعافاً﴾ نصب في موضع الحال ، ومعناه: الربا الذي كانت العرب تضعف فيه الدَّيْنَ ، فكان الطالب يقول: أتقضي أم تُرْبي؟ وقوله: ﴿مُضاعَفَةً﴾ إشارة إلى تكرار التضعيف عاماً بعد عام كما كانوا يصنعون ، فدلت هذه العبارة المؤكدة على شنعة فعلهم وقبحه ، ولذلك ذكرت حال التضعيف خاصة. وقد حرم الله جميع أنواع الربا ، فهذا هو مفهومُ الخطاب ، إذ المسكوتُ عنه في الربا في حكم المذكور ، وأيضاً فإن الربا يدخل جميع أنواعه التضعيفُ والزيادةُ على وجوهٍ مختلفة من العين[٢] أو من التأخير ونحوه.

والنار في قوله: ﴿وَاتَّقوا النَّار﴾ هي اسم الجنس ، ويحتمل أن تكون للعهد، ثم ذكر أنها أعدت للكافرين، أي أنهم هم المقصود والمراد الأول، وقد يدخلها سواهم من العصاة ، فشنَّع أمر النار بذكر الكفر ، وحسَّنَ للمؤمن أن يحذرَهَا ويبعدَ بطاعة الله عنها، وهذا كما قال في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقينَ﴾ أي أنهم هم المقصود، وإن كان يدخلها غيرهم من صبي ومجنون ونحوه ممن لا يكلف ولا يوصف بتقوى ، هذا مذهبُ أهل العلم في هذه الآية.

وحكى الماوردي وغيره عن قوم أنهم ذهبوا إلى ان أَكَلَةَ الربا إنما توعدهم الله بنار الكفرة، إذ النار سبع طبقات ، العليا منها وهي جهنم للعصاة ، والخمس للكفار، والدرك الأسفل للمنافقين، قالوا: فأكلة الربا إنما يعذَّبون يومَ القيامة بنارِ الكَفَرة لا بنار العصاة ، وبذلك توعدوا ، فالألف واللام على هذا في قوله: ﴿واتَّقوا النَّار﴾ إنما هي للعهد.

ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله. والطاعة هي موافقة الأمر الجاري عند المأمور مع مراد الآمر، وقال رسول الله ﷺ: (مَن أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، من أطاع الأَمير فقد أطاعني ، ومن عصى الأمير فقد عصاني)[٣].

---

(١) ذكر أبو حيان وجهاً آخر في سبب نزول هذه الآية (انظر البحر المحيط ٣: ٥٤).

(٢) العين والعينة: ضرب من ضروب الربا ، يتم بالحيلة الكلامية.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

وقال محمد بن إسحق: إن هذه الآية من قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ هي ابتداء المعاتبة في أمر أحد، وانهزام من فر وزوال الرماة عن مراكزهم[1].

قوله عز وجل:

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾.

قرأ نافع وابن عامر: [سارِعوا] بغير واو، وكذلك هي في مصاحف أهل المدينة وأهل الشام، وقرأ باقي السبعة بالواو، قال أبو علي: كلا الأمرين شائع مستقيم، فمن قرأ بالواو فلأنه عطف الجملة على الجملة، ومن ترك الواو فلأن الجملة الثانية ملتبسةٌ بالأولى مستغنيةٌ بذلك عن العطف بالواو. وأمال الكسائيُّ الألف من قوله: ﴿سارِعوا﴾ ومن قوله: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ و﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[2] في كل ذلك؛ قال أبو علي: والإمالة هنا حسنة لوقوع الراء المكسورة بعدها.

والمسارعة: المبادرة، وهي مفاعلة إذ الناس كأنّ كلّ واحدٍ يسرع ليصل قبل غيره، فبينهم في ذلك مفاعلة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[3].

وقوله: ﴿إلى مَغْفِرَةٍ﴾ معناه: سارعوا بالتقوى والطاعة والتقرب إلى ربكم إلى حال يغفر الله لكم فيها، أي: يستر ذنوبكم بعفوه عنها وإزالة حكمها، ويدخلكم جنته. قال أنس بن مالك ومكحول في تفسير ﴿وسارِعوا إلى مغْفِرَةٍ﴾ معناه: إلى تكبيرة الإحرام مع الإمام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا مقال حسَنٌ يحتذى عليه في كلٍّ طاعة.

---

(١) قال المهدوي: ذِكْر الرسول زيادة في التبيين والتأكيد والتعريف بأَن طاعته طاعة الله، وقيل في صيغتها الأمر ومعناها العتب على المؤمنين في ما جرى منهم من أكل الربا والمخالفة يوم أحد.

(٢) ﴿ويسارعون في الخيرات﴾ من الآية (١١٤) من سورة آل عمران، ومن الآية (٦١) من سورة المؤمنون، و﴿نسارع لهم في الخيرات﴾ من الآية (٥٧) من سورة المؤمنون.

(٣) من الآية (١٤٨) من سورة البقرة، ومن الآية (٤٨) من سورة المائدة.

وقوله تعالى: ﴿عَرْضُها السمواتُ والأرضُ﴾ تقديره: كعرض السموات والأرض، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾(١) أي كخلقِ نفس واحدة وبعثها، فجاء هذا الاقتضاب المفهوم الفصيح، ومنه قول الشاعر:

حسبتَ بُغَامَ راحلتي عَنَاقاً   وما هي وَيْبَ غيرِكَ بالعَنَاقِ(٢)

ومنه قول الآخر:

كأن غديرهم بجنوب سِلّى   نعامٌ قاقَ في بَلَدٍ قفار(٣)

التقدير: صوتَ عَنَاقٍ وغديرَ نعامٍ.

وأما معنى قوله تعالى: ﴿عَرْضُها السمواتُ والأَرْضُ﴾ فاختلف العلماء في ذلك على ثلاثة مذاهب، فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: تُقْرَنُ السموات والأرضون بعضها ببعض كما يبسط الثوب، فذلك عرض الجنة، ولا يعلم طولها إلا الله. وفي الحديث عن النبي ﷺ: (إن بين المصراعين من أبواب الجنة مسيرةَ أربعين سنة، وسيأتي عليها يوم يزدحم الناسُ فيها كما تزدحمُ الإبلُ إذا وردت خُمْصاً ظِماءً)(٤) وفي الحديث عنه ﷺ: (إن في الجنة شجرةً يسير الراكبُ المجدّ في ظلها مائةَ عام لا يقطعها)(٥)، فهذا كله يقوي قولَ ابن عباس، وهو قول الجمهور: إنّ الجنةَ أكبرُ من هذه المخلوقات المذكورة، وهي ممتدّةٌ عن السماء حيث شاء الله تعالى، وذلك لا يُنْكَر،

---

(١) من الآية (٢٨) من سورة لقمان.

(٢) البيت لذي الخرق الطهوي، يخاطب ذئباً تبعه في طريقه. وبُغام الناقة بالضم: صوت لا تفصح به. والعَناق: بالفتح الأُنثى من المعز. وويب: بمعنى: ويل. «اللسان».

(٣) البيت نسبه في اللسان للنابغة، ونسبه ابن بري لشقيق بن جزءٍ بن رباح الباهلي، والغدير: الحال. وسِلى: اسم موضع بالأهواز كثير الثمر. والنعام: طائر من فصيلة النعاميات يقال فيه: إنه مُرَكَّبٌ من خِلقة الطير وخِلقة الجمل، ومؤنثه نعامة. قاق النعام: صوَّت. والقفار: جمع القفر الخالي من البناءِ والشجر والساكن. يريد: كأن حالهم في الهزيمة حال نعام تغدو مذعورة.

(٤) أخرجه الطبراني ـ عن عبد الله بن سلام بلفظ: (قال رسول الله ﷺ: إن ما بينَ المِصْراعين في الجنة أربعون عاماً، وليأتين يوم يزاحم عليه كازدحام الإبل وردت لخمس ظماءً). «مجمع الزوائد. (١٠: ٣٩٧) والحديث متعدد الروايات والطرق. والخُمص: جمع خميص من خَمِص إذا جاع. والظماءُ: جمع ظمآن من ظمِىءَ مثل عطش وزناً ومعنىً.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والإمام مسلم، والبخاري، والترمذي عن أنس. (الجامع الصغير: ١: ٣١١).

فإن في حديث النبي عليه السلام: (ما السموات السبع والأرضون السبع في الكرسيّ إلا كدراهم ألقيت في فلاة من الأرض، وما الكرسي في العرش إلا كحلقةٍ في فلاة الأرض)[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذه مخلوقات أعظم بكثير جداً من السموات والأرض، وقدرة الله تعالى أعظم من ذلك كله.

روى يعلي بن أبي مرة[٢] قال: لقيت التنوخي[٣] رسول هرقل[٤] إلى رسول الله ﷺ بحمص، شيخاً كبيراً قد فند[٥] فقال: قدمت على النبي ﷺ بكتاب هرقل، فناول الصحيفة رجلاً عن يساره فقلت: من صاحبكم الذي يقرأ؟ قالوا: معاوية، فإذا كتاب هرقل: إنك كتبت إليَّ تدعوني إلى جنّةٍ عرضُها السموات والأرض أُعِدَّتْ للمتقين، فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ: (سبحان الله، فأين الليل إذا جاء النهار)[٦]؟ وروى

---

(١) أَخرجه ابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، والبيهقي عن أَبي ذر. (فتح القدير للشوكاني: ١: ٢٤٥).

(٢) هكذا ورد في جميع النسخ: وكذا في «تفسير القرطبي»، أَما بقية كتب التفاسير الموجودة بأَيدينا فقد ورد فيها: يعلى بن مرة بإسقاط (أَبي)، ولعله الصواب، بدليل أَن ابن جرير روى حديثاً عن يعلى بن مرة عن التنوخي، وهو نفس السند الذي رواه به ابن عطية.

وهو يعلى بن مرة الثقفي أَبو المرازم من أَفاضل الصحابة، رَوَى عن النَّبيِّ ﷺ أحاديث، وروى عنه ابناه، وراشد بن سعد، وآخرون. قال ابن سعد: أَمَرَهُ ﷺ بأَن يقطع أعناب ثقيف فقطعها (الإِصابة: ٣: ٦٦٩).

(٣) التَّنُوخي بفتح المثناة الفوقية وضم النون المخففة وخاءٍ معجمة نسبة إلى تنوخ، وهو اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديماً بالبحرين، وتحالفوا على التناصر، وهي إحدى القبائل الثلاث التي هي مسكن نصارى العرب وهم بهراء وتنوخ وتغلب. والتنوخي هذا لمَّا حضر بين يدي رسول الله ﷺ عرض عليه الإِسلام فأَجاب بأَنه رسول قوم، وعلى دين قوم لا يرجع عنه حتى يرجع، فقال ﷺ: إنك لا تهدي مَن أَحببت ولكن الله يهدي من يشاء. (مجمع الزوائد ٨: ٢٣٥).

(٤) هرقل: هو إِمبراطور الدولة الرومانية الشرقية بالقسطنطينية، حكم من سنة: ٦١٠ إلى سنة ٦٤١، في مدته افتتح أبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد كثيراً من بلاد سوريا، وهزموا جيوشاً رومية عديدة، وفتحوا مِصر ودمشق. (دائرة المعارف لوجدي ١٠: ٤٩٢).

(٥) فند: الفَنَد: الخرف وإِنكار العقل من الهرم أو المرض، وقد يستعمل في غير الكبر. (اللسان).

(٦) أَخرجه الإِمام أَحمد في مسنده، عن التنوخي وهو حديث صحيح، (الجامع الصغير. ٢: ١٤) كما=

قيس بن مسلم[1] عن طارق بن شهاب[2] قال: جاء رجلان من اليهود من نجران إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال أحدهما: تقولون جنة عرضها السموات والأرض، أين تكون النار؟ فقال عمر رضي الله عنه: أرأيت النهار إذا جاء أين يكون الليل؟ والليل إذا جاء أين يكون النهار؟ فقال اليهودي: إنه لمثلها في التوراة، فقال له صاحبه: لم أخبرته؟ دعه إنه بكلٍّ موقن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذه الآثار كلها هي في طريق واحد، من أن قدرة الله تتسع لهذا كله، وخصَّ العرضَ بالذكر لأنه يدل متى ذُكِرَ على الطول، والطول إذا ذكر لا يدلُّ على قَدْرِ العرض، بل قد يكونُ الطويل يسيرَ العرض كالخيط ونحوه؛ ومن ذلك قول العرب: بلاد عريضة، وفلاة عريضة.

وقال قوم: قوله تعالى: ﴿عَرْضُها السَّمواتُ والأَرْضُ﴾ معناه: كعرض السموات والأرض، كما هي طباقاً، لا بأن تقرن كبسط الثياب، فالجنة في السماء، وعرضها كعرضها وعرض ما وراءها من الأرضين إلى السابعة، وهذه الدلالة على العظم أغنت عن ذكر الطول.

وقال قوم: الكلام جارٍ على مقطع العرب من الاستعارة، فلما كانت الجنة من الاتساع والانفساح في غاية قصوى، حسنت العبارةُ عنها بعرضها السموات والأرض، كما تقول لرجل: هذا بحرٌ، ولشخص كبيرٍ من الحيوان: هذا جَبَلٌ، ولم تقصد الآيةُ تحديدَ العرض.

= أخرجه ابن جرير في تفسيره ٤: ٩٢ عن يعلى بن مرة عن التنوخي.

(١) هو قيس بن مسلم الجدلي العدواني أبو عمر الكوفي، من قيس علان، رَوَى عن طارق بن شهاب، والحسن بن محمد بن الحنفية، ومجاهد وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وغيرهم وروى عنه الأعمش، وشعبة، والثوري، ومسعر، ومالك بن مغول، وآخرون، ثقة، وكان مرجئاً. (تهذيب التهذيب ٨: ٤٠٣).

(٢) هو طارق بن شهاب بن عبد شمس البجلي، أبو عبد الله، رأى النبيَّ ﷺ، روى عنه مرسلاً، وعن الخلفاء الأربعة وغيرهم، وروى عنه إسماعيل بن أبي خالد، وقيس بن مسلم، وجماعة، توفي سنة ٨٢هـ. «تهذيب التهذيب. ٥/ ٣. و«الإصابة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وجلب مكي هذا القول غير ملخص، وأدخل حجة عليه قول العرب: أرض عريضة. وليس قولهم: أرض عريضة مثل قوله: ﴿عَرْضُها السمواتُ والأَرْضُ﴾ إلا في دلالة ذكر العرض على الطول فقط، وكذلك فعل النقاش. وروي أن النبي ﷺ قال للفارين يوم أحد: (لقد ذهبتم فيها عريضة)[1] وقال ابن فُورك: الجنة في السماء، ويزاد فيها يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا متعلق لمنذر بن سعيد وغيره ممن قال: إن الجنة لم تخلق بعد، وكذلك النار، وهو قول ضعيف، وجمهور العلماء على أنهما قد خلقتا، وهو ظاهر كتاب الله تعالى في قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقين﴾ و﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[2] وغير ذلك؛ وهو نص في الأحاديث كحديث الإسراء[3] وغيره مما يقتضي أَن ثَمَّ جنة قد خلقت. وأما من يقول: يزاد فيهما فلا ترد عليه الأحاديث، لكنه يحتاج إلى سند يقطع العذر.

و﴿أُعِدَّتْ﴾ معناه: يسرت وانتظروا بها. ثم وصف تعالى المتقين الذين أعدت لهم الجنة بقوله: ﴿الَّذينَ يُنفقون﴾.... الآية، وظاهر هذه الآية أنها مدحٌ لفعل المندوب إليه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿في السَّرَّاءِ والضَّرَّاء﴾ معناه: في العسر واليسر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

إذ الأغلب أن مع اليسر النشاط وسرورَ النفس، ومع العسر الكراهيةَ وضر النفس.

وكظم الغيظ: ردُّهُ في الجوف إذا كاد أن يخرج من كثرته، فضبطه ومنْعه كَظْمٌ له، والكِظَامُ: السير الذي يُشَدّ به فمُ الزقّ والقربة، وكظم البعير جِرَّتَهُ[4]: إذا ردَّها في

---

(١) أَخرجه ابن جرير في التفسير والتاريخ وابن إِسحق في السيرة، وذكره ابن الأَثير في النهاية في مادة: عَرَضَ.

(٢) ﴿أُعِدَّتْ لِلكافرينَ﴾ تكررت في الآيتين (١٣١) من سورة (آل عمران) و(٢٤) من سورة (البقرة).

(٣) أَخرجه مسلم في باب الإيمان ١/ ١٠٢ كما أَخرجه غيره من المحدثين.

(٤) الجِرَّة بالكسر: ما يخرجه البعير للاجترار.

جوفه ، وقد يقال لحبسه الجِرَّةَ قبل أن يرسلها إلى فيه: كَظْمٌ ، حكاه الزجاج ، فقال: كظم البعير والناقة إذا لم يجترًا ، ومنه قول الراعي:

فأَفَضْنَ بعد كُظُومِهِنَّ بِجِرَّةٍ   من ذي الأباطح إذ رَعينَ حقيلا[١]

والغيظ: أصل الغضب ، وكثيراً ما يتلازمان ، ولذلك فسر بعض الناسِ الغيظَ بالغضب ، وليس تحريرُ الأمرِ كذلك ، بل الغيظ فعل النفس لا يظهر على الجوارح ، والغضب حال بها معه ظهور في الجوارح وفِعلٌ ما ولا بد ، ولهذا جاز إسناد الغضب إلى الله تعالى ، إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم ، ولا يُسْندُ إليه تعالى غيظ ، وخلط ابن فورك في هذه اللفظة.

ووردت في كظم الغيظ وَمَلْكِ النفس عند الغضب أحاديث، وذلك من أعظم العبادة وجهاد النفس، ومنه قوله عليه السلام: (ليس الشديد بالصُّرعَةِ، إنما الشديدُ الذي يملكُ نفسه عند الغضب)[٢]، ومنه قول النبي عليه السلام: (ما من جرعة يتجرعها العبد خيرٌ له وأعظم أجراً من جرعة غيظ في الله)[٣] ، وروى أبو هريرة أن النبي عليه السلام قال: (من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ، ملأه الله أمناً وإيماناً)[٤] ، والعفو عن الناس من أجلِّ ضروب فعلِ الخير ، وهذا حيث يجوز للإنسان ألا يعفو ، وحيث يتجه حقه. وقال أبو العالية: (وَالعافِين عن النَّاسِ) يريد عن المماليك.

---

(١) الراعي: هو عبيد بن حُصين النميري تقدمت ترجمته. وأَفاض البعير: دفع جرته من كرشته ، وكظَم كظوما: أَمسك عن الجرة. قال ثعلب: سأَلني محمد بن عبد الله بن طاهر عن هذا البيت فقلت: ذو الأَبارق وحقيل: موضع واحد فأراد من ذي الأَبرق إِذْ رَعَيْنَه ، يقول: كنَّ أي الإِبل كظوما من العطش ، فلما ابتَلَّ ما في بطونها أَفضنْ بجرة ، والمعنى أَنَّها إِذا رعت حقيلا أفاضت بذي الأَبارق. (معجم البلدان ٣: ٣٠٧) ورواية البيت فيه.

وأَفضن بعد كظومهن بجرة * من ذي الأبارق. . . بدلاً من: ذي الأباطح.

(٢) أَخرجه الإِمام أَحمد ، والبخاري ومسلم ـ عن أَبي هريرة. (الجامع الصغير. ٢: ٣٨٨) .

(٣) أخرجه ابن ماجة عن ابن عمر (وهو حسن). (الجامع الصغير ٢: ٤٤٠).

(٤) أَخرجه ابن أَبي لَيْلى في ذمِّ الغضب عن أَبي هريرة ، (وهو ضعيف). الجامع الصغير. (٢:٥٥٤) هذا وهناك أخبار وأشعار كثيرة عن كظم الغيظ نذكر منها:

عن عائشة أَن خادماً لها غاظها فقالت: لله درُّ التقوى ، ما تركت لذي غيظ ثناء.

وأنشد أَبو القاسم ابن حبيب:

وإذا غضبت فكن وقوراً كاظماً   للغيظ تُبصرُ ما تقول وتسمع

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا حسن على جهة المثال، إذ هم الخدمة، فهم المذنبون كثيراً، والقدرة عليهم متيسرة، وإنفاذُ العقوبةِ سهلٌ، فلذلك مَثَّلَ هذا المفسر به.

وذكر تعالى بعد ذلك أنه يحب المحسنين فعم هذه الوجوه وسواها من البر، وهذا يدلك على أن الآية في المندوب إليه، ألا ترى إلى سؤال جبريل عليه السلام فقال: (ما الإيمان؟ ثم قال: ما الإسلام؟ فذكر له رسول الله ﷺ المفروضات، ثم قال له: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه)(١)... الحديث.

قوله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

ذكر الله تعالى في هذه الآية صنفاً دون الصنف الأول، فألحقهم بهم برحمته ومنه، فهؤلاء هم التوابون. وروي في سبب هاتين الآيتين: أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، كانت بنو اسرائيل أكرمَ على الله منا حين كان المذنبُ منهم يصبح وعقوبته مكتوبةٌ على باب داره، فأنزل الله هذه الآية توسعةً ورحمةً وعوضاً من ذلك الفعل ببني إسرائيل. وروي أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية(٢). وروى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ما من عبد يذنب ذنباً ثم يقوم فيتطهر ويصلي ركعتين ويستغفر إلا غفر له)(٣).

وقوله: ﴿والَّذين﴾ عطف جملة ناس على جملة أخرى، وليس ﴿الَّذين﴾ بنعت كرر معه واو العطف، لأن تلك الطبقة الأولى تنزه عن الوقوع في الفواحش، والفاحشة هنا: صفة لمحذوف أقيمت الصفة مقامه، التقدير: فعلوا فعلة فاحشة، وهو

(١) أخرجه مسلم عن ابن عمر ١/ ٢٩.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير ـ عن ثابت البناني (فتح القدير للشوكاني ١: ٣٤٩).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، والحميدي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن السني، والبيهقي في «الشعب»، والضياءُ في «المختارة» عن أبي بكر الصديق. (فتح القدير للشوكاني ١: ٣٥٠).

لفظ يعم جميع المعاصي ، وقد كثر اختصاصه بالزنى ، حتى فسر السدي هذه الآية بالزنى ، وقال جابر بن عبد الله لما قرأها: زنى القوم ورب الكعبة؛ وقال إبراهيم النَّخعي: الفاحشة من الظلم ، والظلم من الفاحشة ، وقال قوم: الفاحشة في هذه الآية إشارة إلى الكبائر ، وظلم النفس إشارة إلى الصغائر.

و﴿ذَكَروا الله﴾ معناه: بالخوف من عقابه والحياء منه ، إذ هو المنعم المتفضل؛ ومن هذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «رحم الله صهيباً لو لم يخف الله لم يعصه». واستغفروا معناه: طلبوا الغفران ، واللام معناها: لأجل ذنوبهم ، ثم اعترض أثناء الكلام قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يغفرُ الذنوبَ إلا الله﴾، اعتراضاً مرققاً للنفس، داعياً إلى الله، مرجياً في عفوه إذا رجع إليه، وجاء اسم الله مرفوعاً بعد الاستثناء والكلام موجب حملاً على المعنى ، إذ هو بمعنى: وما يغفر الذنوب إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ الإصرار معناه: اعتزام الدوام على الأمر وترك الإقلاع عنه، ومنه صر الدنانير أي: الربط عليها، ومنه قول أبي السمال قعنب العدوي: علم الله أنها مني صري ، يريد: عزيمة، فالإصرار اعتزام البقاء على الذنب ، ومنه قول النبي عليه السلام: (لا توبة مع إصرار)[١] وقال أيضاً: (ما أصرَّ من استغفر)[٢].

واختلفت عبارة المفسرين في الإصرار؛ فقال قتادة: هو الذي يمضي قدماً في الذنب لا تنهاه مخافة الله ، وقال الحسن: إتيان العبد الذنب هو الإصرار حتى يموت ، وقال مجاهد: (لَمْ يُصِرُّوا) معناه: لم يمضوا ، وقال السدي: الإصرار: هو ترك الاستغفار والسكوت عنه مع الذنب[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمون﴾ قال السدي: معناه: وهم يعلمون أنهم قد أذنبوا، وقال ابن إسحق: معناه: وهم يعلمون بما حرمت عليهم ، وقال آخرون: معناه: وهم يعلمون أن باب التوبة مفتوح لهم ، وقيل: المعنى: وهم يعلمون أني أعاقب على الإصرار.

---

(١) وأخرج الديلمي في الفردوس عن ابن عباس قال: (لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار) ، وهو ضعيف. (الجامع الصغير ٢: ٦٤٧).

(٢) أخرجه أبو داود ، والترمذي عن أبي بكر «وهو ضعيف (الجامع الصغير ٢: ٤١٧).

(٣) مما ذكر في «الإصرار» قول الشاعر:

يُصِرُّ باللَّيل ما تخفى شواكِلُه ... يا ويحَ كلِّ مُصِرِّ القلبِ خَتَّار

ثم شرك تعالى الطائفتين المذكورتين في قوله: ﴿أُولَئِكَ جزاؤُهم﴾... الآية، وهذه تؤذن بأن الله تعالى أوجب على نفسه بهذا الخبر الصادق قبولَ توبة التائب، وليس يجبُ عليه تعالى من جهة العقل شيء، بل هو بحكم الملك لا معقب لأمره.

وقوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ العامِلين﴾ بمنزلة قوله: ونعم الأجر، لأن نعم وبئس تطلب الأجناس المعرفة أو ما أضيف إليها، وليست هذه الآية بمنزلة قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلاً القومُ﴾[1] لأن المثل هنا أضيف إلى معهود لا إلى جنس، فلذلك قدَّرَهُ أبو علي: ساء المثلُ مثلُ القوم، ويحتمل أن يكون مثل القوم مرتفعاً بـ «ساءَ» ولا يضمر شيء.

قوله عز وجل:

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾.

الخطاب بقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ للمؤمنين. والمعنى: لا يذهب بكم أن ظهر الكفار المكذبون عليكم بأُحد، فإن العاقبة للمتقين، وقديماً أدال الله المكذبين على المؤمنين، ولكن انظروا كيف هلك المكذبون بعد ذلك، فكذلك تكون عاقبة هؤلاء. وقال النقاش: الخطاب بعد ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ للكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذلك قلق. وخلت معناه: مضت وسلفت.

قال الزجاج: التقدير: أهل سنن. والسنن: الطرائق من السير والشرائع والملك والفتن ونحو ذلك، وسنة الإنسان: الشيء الذي يعمله ويواليه، ومن ذلك قول خالد الهذلي لأبي ذؤيب:

فلا تجزعن من سنة أَنت سِرتها فأول راض سنَّةً من يسيرها[2]

---

(١) من الآية (١٧٧) من سورة الأعراف.

(٢) السنة: السيرة، حسنةً كانت أو قبيحة، والسيرة: الطريقة. يقول: أَنت جعلتها سائرة في الناس.

وقال سليمان بن قتة:

وإن الأُلى بالطَّفِّ من آل هاشم ... تأسَّوْا فسنُّوا للكرام التأسِّيا[(١)]

وقال لبيد:

من معشرٍ سَنَّتْ لهم آباؤهم ... ولكل قومٍ سنةٌ وإمامُها[(٢)]

وقال ابن زيد: (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكم سُنَنٌ) ـ معناه: أمثال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تفسير لا يخص اللفظة.

وقال تعالى: ﴿فَسيروا﴾ وهذا الأَمر ينبئك بالإِخبار دون السير لأن الإِخبار إنما يكون ممن سار وعاين، إذ هو مما يُدْرَكُ بحاسّةِ البصر وعن ذلك ينتقل خبره، فأحالهم الله تعالى على الوجه الأكمل. وقوله: ﴿فانْظُروا﴾، هو عند الجمهور من نظر العين، وقال قوم: هو بالفكر[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿هَذا بَيانٌ لِلنَّاس﴾ قال الحسن: الإِشارة إلى القرآن، وقال قتادة في تفسير الآية: هو هذا القرآن جعله الله بياناً للناس عامةً وهدى وموعظة للمتقين خاصة، وقال بمثله ابن جريج والربيع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كونه بياناً للناس ظاهر، وهو في ذاته أيضاً هدى منصوب وموعظة، لكن من عمي بالكفر وضل وقسا قلبه لا يحسن أن يضاف إليه القرآن، وَتحْسُن إضافته إلى المتقين الذين مِنهم نَفْع وإياهم هَدَى، وقال ابن إسحق والطبري وجماعة: الإِشارة بـ (هذا)

---

(١) هو سليمان بن قتة، منسوب إلى أمه، وكان شاعراً يحمل عنه الحديث، وهو مولى لتيم قريش. «المعارف لابن قتيبة: ٢٥٨».

والأُلى: اسم موصول، والطَّف (بالفتح): موضع قرب الكوفة كانت به وقعة الحسين بن علي رضي الله عنهما، والمراد بآل هاشم من كان مع الحسين من أهل بيته. تأَسَّوا: تعزوا فسنوا للكرام التأسيا، أيْ: بينوه وأوضحوا طريقته. «تعليق الكامل».

(٢) يقول: هو من قوم سنَّت لهم أسلافهم كسب رغائب المعالي واغتنامها، ولكل قوم سنة وإمام سنة يُؤتم بها فيها.

(٣) والجملة الاستفهامية في موضع المفعول لـ (انظروا)، و(كيف) في موضع نصب خبر (كان).

إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قبلكم سُنَنٌ﴾.... الآية، قال ابن إسحق: المعنى: هذا تفسير للناس إن قبلوه، قال الشعبي: المعنى: هذا بيان للناس من العمى.

ثم نهى عز وجل المؤمنين عن الوهن لما أصابهم بأُحد، والحزن على من فقد وعلى مذمة الهزيمة، وأنَّسهم بأنهم الأعلون أصحاب العاقبة والوهْن والوهَن: الضعف واللين والبلى، ومنه ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾[1] ومنه قول زهير:

.... فأصبح الحبل منها واهناً خَلَقا[2]

ومن كرم الخلق ألا يهنَ الإنسان في حربه وخصامه، ولا يلينَ إذا كان محقاً، وأن يتقصَّى جميع قدرته ولا يضرعَ ولو مات، وإنما يحسن اللين في السلم والرضى، ومنه قول النبي ﷺ: (المؤمن هين لين)[3] و(المؤمنون هينون لينون)[4] ومنه قول الشاعر[5]:

لعمـرُك مـا إن أبـو مـالـكٍ ... بـوَاهٍ ولا بضعيـفٍ قُـواه
إذا سـدتـه سـدت مطـواعـة ... ومهمـا وَكَلْـتَ إليـه كفـاه

وفي هذا الأُسلوب الذي ذكرته يجري قول النابغة:

ومَـن عصـاك فعـاقبـه معـاقبـةً ... تنهى الظَّلُوم ولا تقعد على ضَمَد

---

(١) من الآية(٤) من سورة مريم.

(٢) صدر البيت:

وأَخلفَتْـك ابْنـةُ البَكـريِّ مـا وَعَـدَتْ ... .

الإِخلاف: ألا يفي بالعهد، وأن يعد الرجل العدة فلا ينجزها. الحبل: العهد، والواهي: الضعيف. والخَلَق بالفتح: البالي.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب «وهو ضعيف». «الجامع الصغير ٢: ٥٧١».

(٤) أخرجه البيهقي، و«هو ضعيف». «الجامع الصغير ٢: ٥٧٢».

(٥) هو المتنخل، قال يرثي أخاه عويمرا وهو أبو مالك، وقيل: بل هو: أبو الشاعر لأن المتنخل اسمه مالك. والواهي: الضعيف. والقُوَى: جمع قوَّة خلاف الضعف. وبعد البيت:

ولكنـــه هيِّـــن ليِّـــن ... كعـاليـة الـرمـح عَـرْد نَسـاه

وعالية الرمح: ما دخل في السنان إلى ثلثه. والعَرْد: بالفتح ثم سكون الراءِ: الشديد. والنَّسا بفتح النون مقصوراً: عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ. والمطواعة: الكثير الطوع أي الانقياد. يريد أن أباه كان جلداً شهماً لا يكل أمره إلى أحد، ولا يؤخر لعجزه إلى وقت آخر، ومعنى كونه لينا كعالية الرمح: أنه إذا دعي أجاب بسرعة، وأنه غليظ موضع النسا. وإذا كنت فوقه سيداً له طاوعك ولم يحسدك، وإذا وكلتَ إليه شيئاً كفاك. «الخزانة ٢: ١٩٥».

إلا لمثْلــك أو مَــنْ أنــت ســابقُــه سبْق الجواد إذا استولى على الأمد[١]

وفيه يجري قول العرب: «إذا لم تغلب فاخلُب»[٢] ، على من تأوله من المخلب ، أي حارب ولو بالأظافر ، وهذا هو فِعْل عبد الله بن طارق[٣] وهو من أصحاب عاصم بن عدي[٤] حين نزع يده من القِران[٥] وقاتل حتى قتل ، وفِعْل المنذر بن

(١) الظلوم: : الكثير الظلم. الضمد: الذل والغيظ. استوْلى: غلب. الأَمد: الغاية التي تجري إليها. إِلا لمثلك: أَي أَبيك أَو منْ خرج من صُلبك.

(٢) في مجمع الأَمثال: (إِنْ لم تغلب فاخْلُب) بالضم ، ويروى بالكسر ، والصحيح الضم يقال: خلَب يخلُب خلابة ، وهي الخديعة. ويراد به الخدعة في الحرب.

(٣) هو عبد الله بن طارق بن عمرو بن مالك البلوي ، حليف لبني ظفر من الأَنصار ، شهد بدراً وأُحداً ، وهو أَحد الستة الذين بعثهم الرسول ﷺ إِلى رهط من عضل والقارة في آخر سنة ثلاث من الهجرة ليفقهوهم في الدين ، ويعلموهم القرآن وشرائع الإِسلام ، فخرجوا معهم حتى إِذا كانوا بالرجيع وهو ماءٌ لهذيل استصرخوا عليهم بهذيل وغدروا بهم ، فقاتلوا حتى قُتلوا وهم: عاصم بن ثابت ، ومرثدٌ بن أبي مرثد ، وخبيب بن عدي ، وخالد بن البكير ، وزيد بن الدثنة ، وعبد الله هذا من الذين لم يقاتلوا ولانوا في القول ورَقوا ورغبوا في الحياة فأَعطوا بأَيديهم فأُسروا حتى إِذا كانوا بالظهران انتزع عبد الله يده من القِران وأَخذ سيفه واستأْخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه وقبره بالظهران. و«الإِصابة» و«الاستيعاب».

(٤) في كتب السير أَن عاصماً هو ابن ثابت ـ وهو الصحيح ـ وليس ابن عدي. ولعله سهو من الناسخ سقط فيه: (ثابت ، وخبيب) ، فبذلك يكون ابن عطية قد ذكر ثلاثة من الستة: «عبد الله بن طارق ، وعاصم بن ثابت ، وخبيب بن عدي».

فأَما عاصم بن ثابت بن أَبي الأَقلح الأَنصاري فمن السابقين الأَولين من الأَنصار ، يكنى أَبا سليمان ، شهد بدراً وهو الذي حمته الدبر من المشركين لما أَرادوا أَن يحتزوا رأْسه يوم الرجيع حين قتله بنو لحيان لأَنه كان قتل عظيماً من عظماءِ قريش يوم بدر. «الإِصابة والاستيعاب».

وأَما خبيب بن عدي بن مالك الأَنصاري الأَوسي فقد شهد بدراً وأُسر يوم الرجيع فانطلق به المشركون مع من أُسر معه إِلى مكة فباعوهما وحبس في بيت (ماوِيّة) مولاة حجير بن أَبي إِهاب التي قالت فيه: ما رأَيت أَسيراً خيراً من خُبيب ، لقد رأيته يأْكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ من حديقة ، وإِنه لموثق في الحديد ، وأَيضاً فإِنه طلب منها لما علم منها دنو أَجله أَن تحضر له موسى يتطهر بها ففعلت حيث أَرسلتها مع غلام إِليه فندمت على فعلتها ، ولما دخل بها عليه وسلمها له قال خبيب: لعمرك ما خافت أُمك غدري ، ما كنت لأَفعل إِن شاءَ الله ، ولما خرجوا به من الحرم ليقتلوه طلب منهم أَن يُمْهلوه حتى يصلي ركعتين فصلأَهما ، فكان أَول من سنّ الركعتين عند القتل للمسلمين ، ثم سلَّم نفسه ودعا على الحاضرين من مشركي قريش بدعائه المعروف: «اللهم أَحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تغادر منهم أحداً». «الإِصابة والاستيعاب».

(٥) القِرَان: الحَبْل يربط به الأَسير ويُقاد به.

محمد بن عقبة بن أُحيحة بن الجلاح[(١)] في يوم بئر معونة. ومن رآه من معنى الخلب والخلابة الذي هو الخديعة والمكر، فهو رأي دهاة العرب، وليس برأي جمهورها، ومنه فِعْل عمرو بن سعيد الأَشدق[(٢)] مع عبد الملك بن مروان عند قتله إياه، والأمثلة في ذلك كثيرة، وأيضاً فليس المكر والخديعة بذلٍّ محضٍ، ولذلك رآه بعضهم.

وأَما قولهم: «إذا عزَّ أخوك فَهِنْ»[(٣)]، فالرواية الصحيحة المعنى فيه بكسر الهاء بمعنى: لِنْ واضعف ضَعْفَ المطواع. وأما الرواية بضم الهاء فهي أمرٌ بالهوان، وما أعرف ذلك في شيء من مقاطع العرب، وأما الشرع فقد قال النبي عليه السلام: (لا ينبغي لمؤمنٍ أن يُذِل نفسه)[(٤)]، ورأيت لعاصمٍ أن المثل على ضم الهاء إنما هو من الهُون الذي هو الرفق وليس من الهوان.

وقال منذر بن سعيد: يجب بهذه الآية أَلاَّ يوادَعَ العدوّ ما كانت للمسلمين قوة، فإن كانوا في قطر ما على غير ذلك فينظر الإمام لهم بالأصلح.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ إخبارٌ بعلوِّ كلمة الإسلام؛ هذا قول الجمهور وظاهر اللفظ، وقاله ابن إسحق، وروي عن ابن عباس وابن جريج: إنما قال الله لهم ذلك بسبب علوهم في الجبل، وذلك أن رسول الله ﷺ حين انحاز في نفر يسير من أصحابه إلى الجبل، فبينما هو كذلك إذ علا خالد بن الوليد عليهم الجبل فقال رسول الله ﷺ: (اللهم لا يعلوننا)[(٥)] ثم قام وقام من معه فقاتل أصحابُه وقاتل حينئذ عمر بن الخطاب حتى أزالوا المشركين عن رأس الجبل، وصعد رسول الله ﷺ وأصحابه فيه، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾.

---

(١) المنذر بن محمد بن عقبة الأنصاري الخزرجي، يكنى أَبا عبيدة، شهد بدراً وأُحداً واستشهد يوم بئر معونة وهي: بين أَرض عامر وحَرَّة بني سليم. «الإصابة والاستيعاب»

(٢) عمرو بن سعيد الأَشدق كان من أَكابر بني أُمية وأَمَاجِدِهم، وكان شجاعاً باسلاً، وعلى يديه اسْتَتَبَّ الأَمر لمروان بن الحكم فنازع عبد الملك من بعده الحُكم فقتله. «البيان والتبيين».

(٣) المثل في أمثال المفضل الضبي: ٦٠ والفاخر: ٦٤ وجمهرة العسكري ١: ٦٥ وفصل المقال: ٢٣٥ والميداني ١: ٤٤ والمستقصى: ٥٣؛ والخلاف بين العلماء فيه حول ضم الهاء وكسرها قديم.

(٤) أخرجه الإمام أحمد، انظر المسند ٥: ٤٠٥، وهو أيضاً عند الترمذي وابن ماجه في باب «الفتن».

(٥) أخرجه ابن جرير من طريق العوفي ـ عن ابن عباس قال: أَقبل خالد بن الوليد يريد أَن يعلو عليهم الجبل فقال النبي ﷺ: اللهم لا يعلون علينا، (فتح القدير للشوكاني ١: ٣٥٤) كما أَخرجه ابن إسحق في سيرته.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن يتعلق الشرط بقوله: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنوا﴾ فيكون المقصد هز النفوس وإقامتها، ويحتمل أن يتعلق بقوله: ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْن﴾ فيكون الشرط على بابه دون تجوز، ويترتب من ذلك الطعن على من نجم نفاقه في ذلك اليوم، وعلى من تأود[1] إيمانه واضطرب يقينه: أَلا لا يتحصل الوعد إلا بالإيمان، فالزموه.

ثم قال تعالى تسليةً للمؤمنين: ﴿إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فقد مَسَّ القومَ قرحٌ مثلهُ﴾، والأُسوة مَسْلاةٌ للبشر، ومنه قول الخنساء:

ولولا كثرةُ الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلتُ نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن ... أُعزِّي النفسَ عنه بالتأسِّي[2]

والسلوُّ بالتأسي هو النفع الذي يجره إلى نفسه الشاهد المحدود، فلذلك رُدَّتْ شهادته فيما حُدَّ فيه وإن تاب وحسنت حاله. والقَرح: القتل والجراح، قاله مجاهد والحسن والربيع وقتادة وغيرهم.

والمعنى: إن مسكم في أُحُدٍ فقد مَسَّ كفارَ قريش ببدرٍ بأيديكم.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية حفص: ﴿قَرْحٌ﴾ بفتح القاف، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: [قُرْحٌ] بضم القاف، وكلهم سَكَّنَ الراء، قال أبو علي: هما لغتان كالضَّعف والضُّعف والكَرْه والكُرْه، والفتح أولى، لأنها لغةُ أهلِ الحجاز، والأخذُ به أوجبُ لأن القرآن عليها نزل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هذه القراءات لا يُظَنّ إلا أنها مرويةٌ عن النبي ﷺ، وبجميعها عارض جبريل عليه السلام مع طول السنين توسعةً على هذه الأمة، وتكملةً للسبعة أحرف حسب ما بيناه في صدر هذا التعليق، وعلى هذا لا يقال: هذه أولى من جهةِ نزولِ القرآن بها، وإن رجحت قراءةٌ فبوجهٍ غير وجهِ النزول. قال أبو الحسن الأخفش: القَرح والقُرح

(١) التأود: التثني والاعوجاج.
(٢) وما يبكون: أي النساء والرجال. أُعَزِّي: أُصبر وأُسلي. والتأَسي: التصبر. قال المبرّد: أَن يرى ذو البلاءِ من به مثل بلائه فيكون قد ساواه فيه، فيسكن ذلك من وجده.

مصدران بمعنى واحد، ومن قال: القَرْح بالفتح الجراحات بأعيانها، والقُرْح بضم القاف أَلمُ الجراحات قُبِلَ منه إذا أتى برواية، لأن هذا مما لا يعلم بقياس، وقال بهذا التفسير الطبري.

وقرأ الأعمش: [إِنْ تَمْسَسْكُم] بالتاء من فوق، [قروح] بالجمع، ﴿فَقَدْ مَسَّ القومَ قرحٌ مِثْلُه﴾. وقرأ محمد بن السميفع اليماني [قَرَحٌ] بفتح القاف والراء؛ قال أبو الفتح[1]: هي لغة في القرح كالشّلِّ والشَّلَلِ والطَّرْدِ والطَّرَد، هذا مذهب البصريين، وليس هذا عندهم من تأثير حرف الحلق، وأنا أميل في هذا إلى قول أصحابنا البغداديين: في أنّ لحرف الحلق في مثل هذا أثراً معتمداً، وقد سمعت بعض بني عقيل يقول: نَحَوه بفتح الحاء، يريد نَحْوَه، ولو كانت الكلمة مبْنِيَّة على فتح الحاء لأُعِلتِ الواو كعصاة وقناة، وسمعت غيره يقول: أنا مَحَموم بفتح الحاء. قال ابن جني: ولا قرابةَ بيني وبين البصريين ولكنها بيني وبين الحق والحمد لله.

قوله عز وجل:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

أخبر تعالى على جهة التسلية؛ أن الأيام على قديم الدهر وغابره أيضاً إنما جعلها دولاً بين البشر، أي: فلا تنكروا أن يُدالَ عليكم الكفار. وقال تعالى: ﴿نُداوِلُها﴾ فهي مفاعلةٌ من جهة واحدة، وإنما ساغ ذلك لأن المداولة منه تعالى هي بين شيئين، فلما كان ذلك الفريقان يتداولان حَسُنَ ذلك، والدُّولة بضم الدال: المصدر والدَّوْلَةُ بفتح الدال: الفعلة الواحدة من ذلك، فلذلك يقال: في دَوْلَة فلان لأنها مرة في الدهر، وسمع بعضُ العرب الأقحاح قارئاً يقرأ هذه الآية، فقال: إنما هو «وتلك الأيام نداولها بين العرب»، فقيل له: إنما هو «بين الناس» فقال: إنا لله، ذهب مُلْكُ العرب وربِّ الكعبة.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الله الذينَ آمنوا﴾ دخلت الواو لتؤذن أنّ اللام متعلقة بمقدّر في آخر الكلام، تقديره: وليعلم الله الذين آمنوا فعل ذلك. وقوله تعالى: ﴿وليَعْلَم﴾

(١) المحتسب ١: ١٦٦ ـ ١٦٧.

معناه: ليظهر في الوجود إيمان الذين قد علم أزلاً أنهم يؤمنون، وليساوق علمه إيمانهم ووجودهم، وإلا فقد علمهم في الأول، وعلْمه تعالى لا يطرأ عليه التغيّر؛ ونحو هذا: أن يضرب حاكمٌ أحداً ثم يبين سبب الضرب ويقول: فعلت هذا التبيين لأضربَ مستحقاً، معناه: ليظهر أن فعلي وافق استحقاقه.

وقوله تعالى: ﴿ويتّخذَ منكمْ شُهَداءَ﴾، معناه: أهل فوز في سبيله حسبما ورد في فضائل الشهيد.

ثم أخبر تعالى أن إدالته الكفار على المؤمنين إنما هي ليمحّصَ المؤمنين، وأن إدالة المؤمنين على الكفار إنما هي لمحق الكفار، وهذا مقتضى ألفاظ الآية. وقد قال ابن عباس وغيره: جعل الله الدُّولةَ لرسوله يوم بدر، وعليه يوم أحد. وذهب كثير من أهل العلم إلى العبارة عن إدالة المؤمنين بالنصر، وعن إدالة الكفار بالإدالة، وروي في ذلك عن النبي ﷺ حديث: (إنهم يدالون كما تنصرون).

والتمحيص: التنقية. قال الخليل: التمحيصُ من العيب، يقال: مَحّصَ الحبلُ إذا زال عنه بكثرة مَرِّهِ على اليد زِئْبِرُهُ وأملس، هكذا ساق الزجاجُ اللفظةَ (الحبل) ورواها النقاش «محص الجمل»: إذا زال عنه وَبَره وأَملس، وقال حنيف الحناتم وقد ورد ماءً يقال له: طُوَيْلع[1]: إنك لمحِصُ الرشاء، بعيدُ المستقى، مَطِلٌ على الأعداء، فالمعنى: إنه لبعده يملس حبله بطول الجرّ ومرِّ الأيدي.

فمعنى الآية: إن الله يمحص المؤمنين إذا أَدال عليهم بأنه ينقي المتشهدين من ذنوبهم، وينقّي الأحياءَ من منافقيهم إذ يميزهم، وإنه يمحق الكافرين إذا نصر عليهم، أي: يتنقصهم، والمحق: الذهاب شيئاً شيئاً، ومنه محاق القمر.

(١) حنيف الحناتم رجل من بني تيْم اللات، وأحد بني حَنْتم، ابن عدي بن الحارث بن تيم اللاّت من ثعلبة ـ وفي المثل: «آبَلُ مِنْ حَنيفِ الحَناتم». ومن كلام حنيف الدال على إبالته قوله: «من قاظ الشرف، وتربَّع الحزن، وتشتى الصَّمان فقد أصاب المرعى» (مجمع الأمثال ١: ٨٦). والتاج على القاموس في مادة (أَبَلَ) وإبالة الرجُل: حُسْنُ رعايته للإبل، وأَبَلَت الإبل: استغنت عن الماء بالكلأ الرطب.

وطُويلع: ماءٌ لبني تيم ثم لبني يربوع منهم، قال أَبو منصور: هو ركية عادية بالشواجن عذبة الماءِ قريبة الرشاءِ. قال السكوني: قال شيخ من الأعراب لآخر: فهل وجدتَ طويلعا، أَما والله إنه لطويل الرِّشاءِ، بعيد العشاء، مشرف على الأعداء. (معجم البلدان ٦/ ٧٣).

قوله عز وجل:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ هي بمعنى الإضراب عن الكلام الأول والتركِ له، وفيها لازم معنى الاستفهام، فلذلك قدَّرها سيبويه ببَلْ وألف الاستفهام.

و﴿حَسِبْتُم﴾ معناه: ظننتم؛ وهذه الآية وما بعدها تقريعٌ وعَتْبٌ لطوائف المؤمنين الذين وقعتْ منهم الهفواتُ المشهورةُ في يوم أحد.

وقوله: ﴿ولمَّا يَعْلَم﴾ نفي مؤكد وهو معادل لقول القائل: قد كان كذا، فلما أكد هذا الخبر الموجب بقد أكد النفي المعادل له بلمَّا، وإذا قال القائل: كان هذا، فمعادله: لم يكن دون تأكيد في الوجهين، قاله سيبويه.

وقرأ جمهور الناس: بكسر الميم للالتقاء في قوله ﴿ولمَّا يعلَمِ﴾، وقرأ يحيى بن وثاب وإبراهيم النخعي: [ولمَّا يعْلَمَ] بفتح الميم إتباعاً لفتحة اللام، وقرأ الجمهور ﴿ويعْلَمَ﴾ على النصب بإضمار «أن» عند البصريين، وبواو الصرف عند الكوفيين. وروي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قرأ: [ويَعْلَمُ] بالرفع على استئناف الفعل، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ويحيى بن يعمر وأبو حيوة وعمرو بن عبيد: [ويعْلمِ] بكسر الميم جزماً معطوفاً على قوله: ﴿ولمّا يعلمِ﴾.

ثم خاطب تعالى المؤمنين بقوله: ﴿ولقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الموتَ﴾، والسبب في ذلك أن رسول الله ﷺ خرج في غزوة بدر يريد عير قريش مبادراً فلم يُوعِبِ[1] الناسُ معه، إذ كان الظن أنه لا يلقى حرباً، فلما قضى الله ببدرٍ ما قضى وفاز حاضروها بالمنزلةِ الرفيعة؛ كان المتخلفون من المؤمنين عنها يتمنّون حضورَ قتالِ الكفار مع النبي ﷺ ليكون منهم في ذلك غَنَاءٌ يُلْحِقهم عند ربهم ونبيهم بمنزلة أهلِ بدر، ولأنس بن النضر[2] في ذلك كلام محفوظ، فلما جاء أمر أُحد وحضر القتال لم يَصْدُقْ كلُّ

---

(١) أوعب الناس: خرجوا كلهم للغزو.

(٢) هو أَنس بن النضر بن ضمضم الأنصاري الخزرجي عم أَنس بن مالك خادم النبي ﷺ رُوي أنه غاب عن قتال بدر فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين، والله لئن أَشهدني الله قتال =

المؤمنين، فعاتبهم الله بهذه الآية، وألزمهم تعالى تمني الموت من حيث تمنوا لقاء الرجال بالحديد ومضاربتهم به، وهي حال في ضمنها في الأغلب الموت، ولا يتمناها إلا من طابت نفسه بالموت، فصار الموت كأنه المتمنى، وإلا فنفس قتل المشرك للمسلم لا يجوز أن يتمنى من حيث هو قتل، وإنما تُتمنى لواحقه من الشهادة والتنعيم.

وقرأ الجمهور: ﴿مِنْ قبلِ أنْ تَلْقَوْه﴾، وقرأ الزهري وإبراهيم النخعي: [مِنْ قَبْلِ أَنْ تُلاقوه]، وهذه والأولى في المعنى سواء، من حيث «لقي» معناه يتضمن أنه من اثنين وإن لم يكن على وزن فاعل، وقرأ مجاهد: [مِنْ قبلُ] بضم اللام وترك الإضافة، وجعل ﴿أَن تَلْقوه﴾ بدلاً من الموت.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ يريد رأيتم أسبابه، وهي الحرب المشتعلة والرجال بأيديهم السيوف، وهذا كما قال عمير بن وهب[1] يوم بدر: رأيت البلايا تحمل المنايا. قال الحارث بن هشام:

ووجدتُ ريحَ الموتِ من تلقائهم ... في مأزق والخيل لم تتبدَّدِ[2]

يريد لقرب الأمر، ونحو هذا قول عامر بن فهيرة[3]:

لقد رأيت الموت قبل ذوقه

= المشركين ليرين الله ما أَصنع، القصة بتمامها في الإصابة والاستيعاب.

(١) هو عمير بن وهب بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح ـ يُكنى أَبا أمية، كان له قدْرٌ وشرف في قريش، شهد بدراً كافراً، وهو القائل لقريش يومئذ في الأنصار: إني أَرى وجوهاً كوجوه الحيات، لا يموتون ظمأً أَو يقتلوا منَّا أَعدادهم، فلا تتعرضوا لهم بهذه الوجوه التي كأنها المصابيح، فقالوا له: دع هذا عنك وحرش بين القوم. وهو الذي مشى حول عسكر النبي من نواحيه ليحزر عددهم يوم بدر، وأُسر ابنه، ثم قدم عمير المدينة يريد الفتك برسول الله ﷺ فأخبره ﷺ بما جرى بينه وبين صفوان فأَسْلم وشهد شهادة الحق، ثم انصرف إلى مكة حيث أَسلم على يده خلق كثير، وشهد أُحداً، وهو أَحد الأَربعة الذين أَمد بهم عمر بن الخطاب عمْرو بن العاص بمصر، عاش إلى صدر من خلافة عثمان. «الاستيعاب والإصابة».

(٢) تلقاءُ الشيء: نحوه، وقد يستعمل في معنى اللقاءِ. والمأْزق: المضيق. والتبدد: التمزق. وقوله: «ووجدت ريح الموت من تلقائهم» ضربه مثلاً، ومعناه: إنه غلب على ظنه أنه لو وقف وقاتل قتل، وأَن قتاله منفرداً لا يؤثر في العدو، فلذلك آثر الفرار. ورواية البيت في الحماسة:
وشَمَمْت ريحَ المَوْت من تلقائهم. . . . إلخ.

(٣) عامر بن فهيرة مولى أَبي بكر الصديق، من مواليد الأزد، أسود، أَسلم وهو مملوك للطفيل فاشتراه =

يريد لما اشتد به المرض. وقرأ طلحة بن مصرف: [فَلَقَدْ رَأَيْتُموهُ]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرونَ﴾ يحتمل ثلاثة معان: أحدها: التأكيد للرؤية وإخراجها من الاشتراك الذي بين رؤية القلب ورؤية العين في اللفظ، والآخر: أن يكون المعنى: وأنتم تنظرون في أسباب النجاة والفرار، وفي أمر محمد عليه السلام هل قُتِلَ أم لا؟ وذلك كله نقض لما كنتم عاهدتم الله عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وحكى مكي وغيره عن قوم أنهم قالوا: المعنى: وأنتم تنظرون إلى محمد، وهذا قول ضعيف، إلاأن ينحى به إلى هذا القول الذي ذكرته أنه النظر في أمره ـ هل قتل؟ والاضطراب بحسب ذلك.

والمعنى الثالث: أن يكون قد وقفهم على تمنيهم ومعاهدتهم، وعلى أنهم رأوا الذي تمنوا، ثم قال على جهة التوبيخ والعتب: ﴿وَأَنتُم تَنظُرونَ﴾ في فعلكم الآن بعد انقضاء الحرب هل وفيتم أم خالفتم؟ كأنه قال: وأنتم حسباء أنفسكم، فتأملوا قبيحَ فعلكم، وفي هذا التوبيخ على هذا الوجه ضربٌ جميلٌ من الإبقاء والصون والاستدعاء. قال ابن فُورك: المعنى: وأنتم تتأملون الحال في ذلك وتفكرون فيها ـ كيف هي؟ وهذا نحو ما تقدم.

قوله عز وجل:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾.

هذا استمرار في عتبهم وإقامة حجة الله عليهم، المعنى: إن محمداً ﷺ رسولٌ

= أبو بكر وأعتقه، وكان إسلامه قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم، وكان يرعى الغنم في ثَوْر ثمَّ يروح بها على رسول الله ﷺ: وأبي بكر في الغار، وكان رفيقهما في الهجرة إلى المدينة، شهد بدراً وأحداً، ولما قدم المدينة اشتكى فيمن اشتكى بالحمى وكان كلَّما تألم يقول:

إنــي وَجَـدْتُ المــوت قبْـل ذوْقِـهِ ... إنَّ الجبـانَ حتْفُـه مِـنْ فـوقـه

كـلُّ امـرىء مجاهـدٌ بِطَـوقـه ... كـالثَّـور يحمي جلـدَه بـرَوْقِـه

قتله عامر بن الطفيل يوم بئر معونة. «الإصابة والاستيعاب».

كسائر الرسل، وقد بلَّغ كما بلغوا، ولزمكم أيها المؤمنون العملُ بمضمَّن الرسالة، وليست حياة الرسول وبقاؤه بين أظهركم شرطاً في ذلك، لأن الرسول يموت كما مات الرسل قبله. و ﴿خَلَتْ﴾ معناه: مضت وسلفت، وصارت إلى الخلاء من الأرض.

وقرأ جمهور الناس: ﴿الرُّسُلُ﴾ بالتعريف، وفي مصحف ابن مسعود: [رُسُلٌ] دون تعريف، وهي قراءة حطان بن عبد الله[1]، فوجْه الأولى تفخيم ذكر الرسل والتنويه بهم على مقتضى حالهم من الله تعالى، ووجْه الثانية أَنه موضع تفسير لأمر النبي عليه السلام في معنى الحياة، ومكان تسوية بينه وبين البشر في ذلك فَيَجيءُ تنكير ﴿الرُّسُل﴾ جارياً في مضمار هذا الاقتصاد به ﷺ، وهكذا يفعل في مواضع الاقتصاد بالشيء، فمنه قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[3] إلى غير ذلك من الأمثلة. ذكر ذلك أبو الفتح[4]، والقراءة بتعريف الرسل أوجه في الكلام.

وقوله تعالى: ﴿أَفَإِنْ ماتَ﴾... الآية، دخلت ألف الاستفهام على جملة الكلام على الحدّ الذي يخبر به ملتزمه، لأن أقبح الأحوال أن يقولوا: إن مات محمد أو قتل انقلبنا، فلما كان فعلهم ينحو هذا المنحى وقفوا على الحد الذي به يقعُ الإخبار. وقال كثير من المفسرين: ألف الاستفهام دخلت في غير موضعها، لأن الغرض إنما هو: تنقلبون على أعقابكم إن مات محمد؛ فالسؤال إنما هو عن جواب الشرط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبذلك النظر الذي قدمته يَبين وَجْهُ فصاحةِ الألف على الشرط، وذلك شبيهٌ بدخول ألف التقريب في قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾[5] ونحوه من الكلام، كأنك أدخلت التقريرَ على ما ألزمت المخاطب أنه يقوله. والانقلاب على العقب يقتضي التولّي عن

---

(١) هو حطان بن عبد الله الرقاشي البصري، ويقال السدوسي، كبير القدْر، صاحب زهد وورع وعلم، قرأ على أَبي موسى الأَشعري عرضاً، وقرأ عليه عرضا الحسن البصري، مات سنة نيف وسبعين، وهو ثقة، قليل الحديث، (طبقات القراءِ للجزري ١/ ٢٥٣. وتهذيب التهذيب).

(٢) من الآية (١٣) من سورة سبأ.

(٣) من الآية (٤٠) من سورة هود.

(٤) انظر المحتسب ١ : ١٦٨.

(٥) تكررت في سورة البقرة في الآية (١٧٠) وفي سورة المائدة في الآية (١٠٤).

المنقلب عنه. ثم توعد تعالى المنقلب على عقبه بقوله تعالى: ﴿فَلَنْ يضُرَّ اللهَ شيئاً﴾ لأن المعنى: فإنما يضرّ نفسه وإياها يُوبِقُ. ثم وعد الشاكرين وهم الذين صدقوا وصبروا ولم ينقلب منهم أحد على عقبيه بل مضى على دينه قدماً حتى مات، فمنهم سعد بن الربيع[1] وتقضي بذلك وصيته إلى الأنصار، ومنهم أنس بن النضر، ومنهم الأنصاري الذي ذكر الطبريّ عنه بِسَنَدٍ أَنه مرَّ عليه رجل من المهاجرين والأنصاري يتشحَّطُ في دمه، فقال: يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل، فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فإنه قد بَلَّغَ، فقاتلوا على دينكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهؤلاء أصحاب النازلة يومئذ صدَّقَ فعلُهم قولَهم، ثم يدخل في الآية الشاكرون إلى يوم القيامة. قال ابن إسحق: معنى ﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكرينَ﴾ أي: من أطاعه وعمل بأمره. وذكر الطبري بسند عن علي بن أبي طالب وذكره غيره: أَنه قال في تفسير هذه الآية: الشاكرون: الثابتون على دينهم، أبو بكر وأصحابه، وكان يقول: أبو بكر أمير الشاكرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الإشارة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه إنما هي إلى صدع أبي بكر رضي الله عنه بهذه الآية في يوم موت النبي عليه السلام وثبوته في ذلك الموطن، وثبوته في أمر الردة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما قُبِضَ وشاع موته، هاج المنافقون وتكلموا وهموا بالاجتماع والمكاشفة، فأوقع الله تعالى في نفس عمر رضي الله عنه أن النبيَّ لم يُقْبَضْ، فقام بخطبته المشهورة المخوِّفة للمنافقين برجوع النبي عليه السلام، فَفَتَّ ذلك في أعضاد المنافقين وتفرقت كلمتهم، ثم جاء أَبو بكر بعد أن نظر إلى النبي عليه

(١) هو سعد بن الربيع بن عمرو الأنصاري الخزرجي، أَحد نقباء الأَنصار، كان كاتباً في الجاهلية، شهد العقبة الأُولى والثانية وبدراً، وقتل يوم أُحد شهيداً، أَمر رسول الله ﷺ أن يلتمس عن خبره أَهو في الأَحياءِ أَم في الأَموات، فوجده المتطوع للبحث عنه به رمق، فقال له: بعثني رسول الله ﷺ لآتيه بخبرك، فقال له سعد: اذهب إليه فأقرئه مني السلام، وأَخبره أَني قد طعنت اثنتي عشرة طعنة، وأَني قد نفذت مقاتلي، وأَخبر قومك أَنهم لا عذر لهم عند الله إن قتل رسول الله ﷺ: وواحد منهم حي، فلما أُخبر ﷺ بحالته قال: نصح لله ولرسوله حياً وميتاً. (الإصابة والاستيعاب).

السلام فسمع كلام عمر فقال له: اسكت، فاستمر عمر في كلامه فتشهَّدَ أبو بكر فأصغى الناس إليه، فقال: أما بعد فإنه من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ﴿وما مُحَمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرُّسُلُ﴾ وتلا الآية كلها، فبكى الناسُ ولم يبقَ أحد إلا قرأ الآية كأن الناس ما سمعوها قبل ذلك اليوم، قالت عائشة رضي الله عنها في البخاري: فنفع الله بخطبة عمر ثم بخطبة أبي بكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا من المواطن التي ظهر فيها شكر أبي بكر وشكر الناس بسببه.

ثم أخبر تعالى عن النفوس أَنها إنما تموت بأجل مكتوب محتوم واحد عند الله تعالى، أي: فالجبن لا يزيد فيه، والشجاعة والإقدام لا تنقص منه، وفي هذه الآية تقويةُ النفوسِ للجهاد، قال ابن فورك: وفيه تسليةٌ ما في موت النبيّ عليه السلام والعبارة بقوله: ﴿وما كانَ﴾ قد تجيء فيما هو ممكن قريب نحو قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله ﷺ.

وقد تقع في الممتنع عقلاً نحو قوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾[(١)] فهي عبارة لا صيغة لها ولا تتضمن نهياً كما يقول بعض المفسرين، وإنما يفهم قدر معناها من قرائن الكلام الذي تجيء العبارة فيه. و﴿نفس﴾ في هذه الآية: اسم الجنس، والإذن: التمكينُ من الشيء مع العلم بالشيء المأذون فيه، فإن انضاف إلى ذلك قولٌ فهو الأمر. وقوله: ﴿كتاباً﴾ نصب على التمييز، و﴿مؤجلاً﴾ صفة. وهذه الآية رادّة على المعتزلة[(٢)] في قولهم بالأجلين. وأما الانفصال عن تعلقهم بقوله تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[(٣)] ونحو هذا من الآيات؛ فسيجيء في مواضعه إن شاء الله تعالى.

---

(١) من الآية (٦٠) من سورة النمل.

(٢) مذهب المعتزلة: أَن المقتول ليس بميت، لأَن القتل فِعْلُ العبدِ، والموت فعل الله، فيكون بذلك للمقتول أَجلان: أَحدهما القتل، والآخر الموت، وأَنه لو لم يُقتل لعاش إلى أَجله الذي هو الموت. «روح المعاني ٤/ ٧٦».

(٣) من الآية (١٠) من سورة إبراهيم.

قوله عز وجل:

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿نُؤْتِهِ منها﴾ مشروطٌ بالمشيئة، أي نؤت من شئنا منها ما قُدِّرَ له، بيَّنَ ذلك قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾[1]، وقرينةُ الكلام تقتضي أنه لا يؤتى شيئاً من الآخرة، لأن من كانت نيته من عمله مقصورةً على طلب الدنيا فلا نصيبَ له في الآخرة، والأعمالُ بالنيات، وقرينة الكلام في قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثوابَ الآخرةِ نؤته منها﴾ لا تمنع أن يؤتى نصيباً من الدنيا.

وقرأ جمهور الناس: ﴿نُؤْته﴾ و﴿نُؤْته﴾ و﴿سَنَجْزي﴾ كلها بنون العظمة، وقرأ الأعمش بالياء في الثلاثة، وذلك على حذف الفاعل لدلالة الكلام عليه. قال ابن فورك في قول الله تعالى: ﴿وسنَجْزي الشاكرينَ﴾ إشارة إلى أنه ينعمهم بنعيم الدنيا لا أنهم يقصرون على الآخرة.

ثم ضرب تعالى المثل للمؤمنين بمن سلف من صالح الأمم الذين لم يَثْنِهم عن دينهم قتلُ الكفار لأنبيائهم فقال: ﴿وكأيّنْ من نبيٍّ﴾.. الآية، وفي (كأين) أربع لغات[2]: [كأَيِّن] على وزن كعَيِّن بفتح العين، و[وكائِن]، على وزن كاعن، و[كأْيِن] على وزن كَعْين بسكون العين، و[كإِن] على وزن كَعِن بكسر العين؛ وأكثر ما استعملت العرب في أشعارها التي على وزن كاعن، فمن ذلك قول الشاعر:

وكائن رددْنا عنكم من مُدجَّجٍ ... يجيءُ أَمام القوم يَرْدي مقنّعا[3]

وقال جرير:

وكائنْ بالأباطح من صديقٍ ... يراني لو أُصِبْتُ هو المصابا[4]

---

(١) من الآية (١٨) من سورة الإسراء.

(٢) قارن بما أورده ابن جني في المحتسب ١: ١٧٠ ـ ١٧٣ ففيه كثير مما أورده المؤلف حول «كأين».

(٣) لم نعثر على قائله. والمدَجَجُ: الشاك في السلاح. يَرْدي بفتح الياءِ: يمشي مشياً فيه تبختر. ورجل مقنع: عليه بيضةُ الحديد.

(٤) البيت من قصيدة له يمدح بها الحجاج بن يوسف مطلعها:
=

وقال آخر:

وكائنْ ترى من صامتٍ لك معجبٍ زيادتُه أَو نقصُهُ في التكلّمِ[(١)]

وقد جاء في اللغة التي ذكرتها أولاً قول الشاعر:

كأيِّنْ في المعاشرِ من أناس أخوهم فوقهم وهمُ كرامُ[(٢)]

وهذه اللغة هي أصل هذه اللفظة، لأنها كاف التشبيه دخلت على «أي» كما دخلت على «ذا» في قولك: لفلان كذا وكذا، وكما دخلت على «أن» في قولك: كأن زيداً أسد، لكن بقي لها معنى التشبيه في كأن، وزال عنها ذلك في كذا وكذا، وفي كأيّن، وصرفت العرب كأيّن في معنى «كم» التي هي للتكثير، وكثر استعمالهم للفظة حتى لعب فيها لسان العرب على اللغات الأربع التي ذكرت، وهذا كما لعب في قولهم: لعمري حتى قالوا: رعملي، وكما قالوا: أطيب وأيطب، وكما قالوا: طبيخ في بطيخ، فعوملت الكافُ وأيٌّ معاملةَ ما هو شيء واحد. فأَما اعتلال لغة من قال: (كائن) على وزن فاعل؛ فإنهم أخذوا الأصل الذي هو (كأين) فقلبوا الياء قبل الهمزة ونقلت حركةُ كلٍّ واحد منهما إلى أختها، فجاء (كيَأ) على وزن كيَّع، فحذفوا الياء الثانية المفتوحة تخفيفاً، كما حذفوا الياء من ميّت وهيِّن وليِّن فقالوا، مَيْت وهيْن

= سَئِمْتُ مِن المُوَاصَلَة العتابا وأمسى الشَّيْبُ قد ورث الشَّبابا

والأَباطح جمع أَبطح: مسيل واسع فيه دقاق الحصى، أَصابه الدهر بنفسه وماله: جاحه ففجعه، والمصيبة: ما أصاب من الدهر.

(١) البيت لزهير بن أَبي سلمى. الصمتُ والصمات: السكوت، يقول: وكم صامتٍ يعجبك صمتهُ فتستحسنه، وإنما تظهر زيادته على غيره ونقصانه عن غيره عند تكلمه، وقد نسب الجاحظ هذا البيت في (البيان والتبيين ج ١/ ١٧٠) للأَعور الشني.

هذا وقد أَنشد الكسائي أَيضاً:

وكائِن ترى يسْعى من الناسِ جاهداً عل ابْنٍ غدا منه شجاعٌ وعقربُ

وقال آخر:

وكائِنْ أَصابت مؤمناً من مصيبةٍ على الله عقباها ومنْه ثوابها

والمتأمل يرى ابن عطية قد روى الأَبيات التي استشهد بها (كايِن) بالياءِ تسهيلاً للهمزة كما هي عادة أَهل المغرب العربي.

(٢) لم نعثر على قائله. والمعاشر جمع معشر: الجماعة متخالطين أو غير ذلك.

ولَيْن، وكما حذفوا الياء الثانية من «أي» تخفيفاً، ومنه قول الفرزدق بن غالب التميمي:

تنظرت نصراً والسماكين أَيْهُما   عليَّ من الغيثِ استهلَّتْ مواطره

فجاء (كيْإٍ) على وزن كَيْعٍ، فأبدلت هذه الياء الساكنة ألفاً مراعاةً للفتحة التي قبلها، كما قالوا: في يَوْجَل ياجل، وكما أبدلوا الياء ألفاً في (طاي)، وكما أبدلت في (آية) عند سيبويه، إذ أصلها عنده (أيّة) على وزن فعْلة بسكون العين، فجاء (كاءٍ) ثم كتب هذا التنوين نوناً في المصحف؛ فأما قياس اللغة فحذفه في الوقف، فكما يقولون: مررت بزيد فكذلك يقولون: (كايي)، ووقف عليه أبو عمرو (كاي) بياء دون نون، وكذلك روى سورة بن المبارك[1] عن الكسائي، ووقف سائر القراء بإثبات النون مراعاة لخط المصحف. قال أبو علي: ولو قيل إنه لما تُصرِّفَ في الكلمة بالقلب صارت بمنزلة النون التي من نفس الكلمة وصارت بمنزلة لام فاعل فأقرت في الوقف، لكان قولاً، ويقوّي ذلك أنهم لما حذفوا الكلام من قولهم: إمالاً، جعلوها بالحذف ككلمة واحدة، فأجازوا الإمالة في ألف «لا» كما تجوز في التي من نفس الكلمة في الأَسماء والأفعال، فيوقف على (كاين) بالنون ولا يوقف على النون إذا لم تقلب، كما لا تميل الألف من «لا» إذا لم يحذف فعلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبهذه اللغة التي فيها هذا القلب قرأ ابن كثير وحده، وقرأ سائر السبعة باللغة التي هي الأصل، وذهب يونس بن حبيب في (كاين) إلى أنه فاعل من الكون، وقوله مردود، إذ يلزم عنه إعراب الكلمة ولم يعربها أحد من العرب. وأما اللغة التي هي (كأْين) على وزن (كَعَيْنْ) فهي قراءة ابن محيصن والأَشهب العقيلي، وتعليل هذه اللغة أَنه علل الأصل الذي هو (كأَين) بالتعليل المتقدم، فلما جاء (كيأ) على وزن كيع، ترك هؤلاء إبدال الياء الساكنة ألفاً كما تقدم في التعليل الأول، وقلبوا الكلمة فجعلوها (كأين) على وزن كعين، وحسن هذا من وجهين: أحدهما أَن التلعب والتصرف في

(١) هو سورة بن المبارك الخراساني الدينوري، روى القراءة عن الكسائي، وهو من المُكثرين عنه، وروى عنه محمد بن سعدان بن أبي مسعود، ومحمد بن الجهم، وأَحمد بن زكرياءَ السوسي.
(طبقات القراءِ لابن الجزري ١: ٣٢١).

هذه الكلمة مهيع ، والثاني أنهم راجعوا الأصل الذي هو تقديم الهمزة على الياء. وأما اللغة التي هي (كإن) على وزن (كَعِن) فهي قراءة ابن محيصن أيضاً ، حكاها عنه أبو عمرو الداني ، وقرأها الحسن بن أبي الحسن إلا أنه سهَّل الهمزة ياء فقرأ (كيٍ) في جميع القرآن ، وتعليل هذه اللغة أنهم حذفوا الألف من (كائن) الممدودة على وزن كاعن بعد ذلك التصرف كله تخفيفاً ، وهذا كما قالوا: أمَ والله ، يريدون: أما ، وكما قالوا على لسان الضب[1]:

لا أشتهــــــــي أن أَرِدَا ... إلا عَــــراداً عَــــردا
وصِلِيَّـــانــــاً بَــــرِدا ... وَعنْكَثـــــاً مُلْتَبِــــدَا

أرادوا: عارداً وبارداً ، فحذفوا تخفيفاً ، وهذا كثير في كلامهم ، و(كأيِن) في هذه الآية في موضع رفع بالابتداء، وهي بمنزلة «كم» وبمعناها تعطي في الأَغْلب التكثير.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: [قُتِلَ] بضم القاف وكسر التاء مخففة ، وقرأ الباقون: ﴿قَاتَلَ معه﴾، بألف بين القاف والتاء، وقرأ قتادة: [قُتِّلَ] بضم القاف وكسر التاء مشدودة على التكثير.

وقوله تعالى: [قُتِلَ] قال فيه جماعة من المفسرين منهم الطبري: إنه مستند إلى ضمير ﴿نَبِيٍّ﴾ ، والمعنى عندهم: أن النبيّ قتل. قال ابن عباس في قوله: ﴿وما كان لِنَبِيّ أَنْ يَغُلَّ﴾ النبي يقتل؛ فكيف لا يخان ، وإذا كان هذا فـ ﴿رِبِّيُّونَ﴾ مرتفع بالظرف بلا خلاف.

وقوله تعالى: ﴿مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ على هذا التأويل يجوز أن يكون صفة لـ ﴿نَبِيٍّ﴾ ، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير الذي أسند إليه ﴿قُتِلَ﴾، فإن جعلته صفةً أضمرت

---

(١) قال أبو الهيثم: تقول العرب: قيل للضب: «وِرْداً وِرْداً» ، فقال:

أَصْبَــــحَ قَلْبــــي صَــــرِدَا ... لا يَشْتَهــــي أَنْ يَــــرِدَا

الأَبيات. «اللسان» في مادة : (عَرَدَ) وصردَ (بالكسر) صرَداً، والصَّرد: البَرْدُ ، والعَرادُ: حشيشٌ طيِّبُ الريح ، وقيل: حمْض تأكُله الإِبل ، والعاردُ من النبات: المنتصبُ الشديد أَو: عَرَادُ عَردٌ على المبالغة. والصِّلِيَّان: نبت ، والعَنْكَثُ نبت. والتَبَدَّ الورق: تَلَبَّد بعضه على بعض ، والْتَبَدت الشجرة: كثُرت أَوراقها. وفي «حياة الحيوان» للدميري: ومن كلامهم الذي وضعوه على أِلسنة البهائم: ثم قالت السمكة: رد يا ضَبُّ فقال: أَصبح قلبي. . . . . .إلخ.

للمبتدأ الذي هو ﴿كأين﴾ خبراً تقديره في آخر الكلام: مضى أو ذهب أو فقد ﴿فما وهنوا﴾ ، وإن جعلت مَعَهُ ﴿ربيُّون﴾ حالاً من الضمير فخبر المبتدأ في قوله: ﴿قُتِلَ﴾ ، وإذا جعلته صفة فالضمير في ﴿مَعَه﴾ عائد على ﴿نَبي﴾، وإذا جعلته حالاً فالضمير في ﴿مَعَه﴾ عائد على الضمير ذي الحال، وعلى كلا الوجهين من الصفة والحال فـ ﴿مَعَه رِبيُّون﴾ متعلق في الأصل بمحذوف، وليس متعلقاً بـ ﴿قُتِل﴾. وقال الحسن بن أبي الحسن وجماعة معه: إن ﴿قُتِلَ﴾ إنما هو مستند إلى قوله: ﴿رِبيُّون﴾ وهم المقتولون ، قال الحسن وسعيد بن جبير: لم يقتل نبيّ في حرب قط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا القول يتعلق قوله: ﴿مَعَهُ﴾ بـ ﴿قُتل﴾ ، وهذه الجملة: ﴿قُتِلَ مَعَهُ ربيُّون﴾ هي خبر الابتداء. ويتصور في قراءة من قرأ ﴿قاتَل﴾ جميع ما ذكرته من التقديرات في قراءة ﴿قُتل﴾. وأَما قراءة قتادة [قُتِّلَ] فقال أبو الفتح(١): لا يحسن أن يُسْنَدَ الفعلُ إلا إلى الربيين ، لما فيه من معنى التكثير الذي لا يجوز أن يُسْتَعملَ في قَتْلِ شخصٍ واحد ، فإن قيل: يستند إلى ﴿نبيّ﴾ مراعاة لمعنى «كم» فالجواب أَن اللفظ قد مشى على جهة الإفراد في قوله: ﴿مِنْ نَبِيٍّ﴾ ، ودل الضمير المفرد في ﴿معه﴾ على أَن المراد إنما هو التمثيل بواحدٍ واحد ، فخرج الكلام على معنى «كم» ، قال أبو الفتح: وهذه القراءةُ تقوّي قولَ من قال من السبعة: إن [قُتِل] بتخفيف التاء أو ﴿قاتَل﴾ إنما يستند إلى الربيين. ورجح الطبري استناد ﴿قُتل﴾ إلى النبي بدلالة نازلة محمد ﷺ ، وذلك أَن المؤمنين إنما تخاذلوا لما قيل: قتل محمد ، فضرب المثل بنبي قُتِل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإذا لم يسند الفعل إلى ﴿نبيٍّ﴾ فإنما يجيء معنى الآية: تثبيت المؤمنين بعد من قتل منهم فقط ، وترجيحُ الطبريّ حسن ، ويؤيد ذلك ما تقدم من قوله تعالى: ﴿أفإِنْ ماتَ أَوْ قُتل﴾ وحجة من قرأ: ﴿قاتل﴾ أنها أعم في المدح لأنه يدخل فيها من قتل ومن بقي(٢).

---

(١) انظر المحتسب ١: ١٧٣.

(٢) نقل أَبو حيان في البحر المحيط هذا الكلام ثم قال: «قِل يظهر أَنها مدح ، وهي أَبلغ في مقصود الخطاب لأَنها نصٌّ في وقوع القتل، ويستلزم المقاتلة وقاتل لا تدل على القتل إِذ لا يلزم من المقاتلة=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحسن عندي على هذه القراءة إسناد الفعل إلى الربيين، وعلى قراءة [قُتل] إسناده إلى ﴿نَبِيٍّ﴾.

وأجمع السبعة وجماعة من الناس على كسر الراء من ﴿رِبِّيُّونَ﴾، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن مسعود وابن عباس وعكرمة والحسن وأبو رجاء وعمرو بن عبيد وعطاء بن السائب[1]: [رُبّيون] بضم الراء، وروى قتادة عن ابن عباس: [رَبّيون] بفتح الراء، قال ابن جني: الفتح في الراء لغة تميم[2]، وكلها لغات. واختلف الناس في معنى ﴿رِبِّيُّونَ﴾ فقال ابن مسعود: الربيون: الألوف من الناس والجمع الكثير، وقال ابن عباس: ربيون: جموع كثيرة، وقاله الحسن وقتادة وعكرمة. ولقول عبد الله بن مسعود وابن عباس: «إنهم الألوف» ـ قال بعض المفسرين: هم عشرة آلاف فصاعداً، أخذ ذلك من بناء الجمع الكثير في قولهما: هم الألوف، وهذا في الربيين أنهم الجماعات الكثيرة هو من الرِّبة بكسر الراء وهي الجماعة الكثيرة، قاله يونس بن حبيب، وقال: إن قوله تعالى: ﴿قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ منسوبون إليها، قال قطرب: جماعة العلماء على قول يونس، وقال الزجاج: يقال: إن الرِّبة عشرة آلاف، وروي عن ابن عباس وعن الحسن بن أبي الحسن وغيرهما أنهم قالوا: ﴿رِبِّيُّونَ﴾ معناه: علماء، وقال الحسن: فقهاء علماء، قال أيضاً: علماء صُبُر[3]، وهذا القول هو على النسبة إلى الرَّب، إما لأنهم مطيعون له، أو من حيث هم علماء بما شرع، ويقوي هذا القول في قراءة من قرأ [رَبيون] بفتح الراء، وأما في ضم الراء وكسرها فيجيء على تغيير النسب، كما قالوا في النسبة إلى الحرم: حِرَميّ بكسر الحاء، وإلى البصرة، بِصْري بكسر الباء، وفي هذا نظر، وقال ابن زيد: الرَّبانيون: الولاة، والرِّبيون: الرعية الأتباع للولاة.

= وجود القتل فما ذكر من أنه يحسن عنده لا يظهر حسْنُه، بل القراءتان تحتملان الوجهين».

(١) هو عطاءُ بن السائب أبو زيدٍ الثقفي، الكوفي، أحد الأعلام، أخذ القراءة عرضاً عن أبي عبد الرحمن السلمي، وأدركَ علياً، روى عنه شعبة بن الحجاج، وأبو بكر بن عياش، وجعفر بن سليمان، ومسح على رأسه ودعا له بالبركة، توفي سنة: ١٣٦. «طبقات القراء» لابن الجزري، ١/ ٥١٣.

(٢) كذا ورد هنا، وجاء في المحتسب (١: ١٧٣) الضمّ في [رُبيون] تميمية.

(٣) الصُّبُر: بضم الصاد والباءِ جمع صبير، وهو الكفيل ومقدم القوم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كأن هذا من حيث هم مربوبون.

وقال النقاش: اشتقاق (رِبّيّ) من: ربا الشيء يربو إذا كثر، فسمى بذلك الكثير العلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وقال مكي: رِبّي بكسر الراء منسوب إلى الرَّب، لكن كسرت راؤه إتباعاً للكسرة والياء اللتين بعد الراء، وروي بضم الراء كذلك لكنهم ضموها كما قيل: دُهري بضم الدال في النسب إلى الدهر.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فما وَهَنوا﴾ بفتح الهاء، وقرأ الأعمش والحسن وأبو السمال: [وَهِنوا] بكسر الهاء، وهما لغتان بمعنى، يقال: وَهِنَ بكسر الهاء يُوهَنُ، وَوَهَن بفتح الهاء يَهِنُ. وقرأ عكرمة وأبو السمال أيضاً: [وَهْنوا] بإسكان الهاء، وهذا على طلب الخفة كما قالوا: في نِعم وبِئس إلى غير ذلك من الأمثلة، وقد تقدم معنى الوهن في قوله آنفاً: ﴿ولا تَهِنوا﴾. والضمير في قوله: ﴿فما وَهَنوا﴾ عائد على جميع الرِّبيين في قول من أسند ﴿قُتِل﴾ إلى ﴿نبي﴾، ومن أسنده إلى ﴿الرِّبيين﴾ قال في هذا الضمير: إنه يعود على من بقي منهم، إذ المعنى يفهم نفسه.

وقوله تعالى: ﴿وما ضَعُفُوا﴾ معناه: لم يكتسبوا من العجز والإلقاء باليد ما ينبئُ عن ضعفهم.

وقوله تعالى: ﴿وما اسْتَكانوا﴾ ذهبت طائفة من النحاة إلى أنه من السكون فوزنه افتعلوا، استكنوا، فمطلت فتحة الكاف فحدث من مَطْلها ألفٌ[1]. وذهبت طائفة إلى أنه مأخوذ من كان يكون، فوزنه على هذا الاشتقاق استفعلوا أصله استكونوا، نقلت حركة الواو إلى الكاف وقلبت ألفاً، كما فعلوا في قولك: استعانوا واستقاموا، والمعنى: إنهم لم يضعفوا ولا كانوا قريباً من ذلك، كما تقول: ما فعلتُ كذا ولا

(١) هذا هو قول الفراء وجماعة من النحاة، وقد مرَّت نماذج من المطل آنفاً.

كدت، فتحذف لأن الكلام يدل على أن المراد: وما كدت أن أفعل، ومحبة الله تعالى للصابرين ما يظهر عليهم من نصره وتنعيمه[1].

قوله عز وجل:

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

هذه الآية في ذكر الرِّبيين، أي: هذا كان قولَهم، لا ما قاله بعضكم يا أصحاب محمد، مِن قول مَن قال: نأخذ أماناً من أبي سفيان، ومِن قولِ مَن قال: نرجع إلى ديننا الأول، ومِن قول مَن فرَّ، فلا شك أن قوله مناسب لفعله ولو بعض المناسبة، إلى غير ذلك مما اقتضته تلك الحال من الأقوال.

وقرأ السبعة وجمهور الناس: ﴿قولَهم﴾ بالنصب، ويكون الاسم فيما بعد ﴿إلاَّ﴾، وقرأ جماعة من القراء [قولُهُمْ] بالرفع، وجعلوا الخبر فيما بعد ﴿إلاَّ﴾، وروى ذلك حماد بن سلمة عن ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم، ذكره المهدوي.

واستغفار هؤلاء القوم الممدوحين في هذا الموطن ينحو إلى أنهم رأوا أن ما نزل من مصائب الدنيا إنما هو بذنوب من البشر، كما نزلت قصة أُحُد بعصيان من عصا.

وقوله تعالى: ﴿ذُنوبَنا وإسْرافَنا في أَمْرِنا﴾ عبارتان عن معنىً قريب بعضُهُ من بعض، جاء ذلك للتأكيد ولتعلم مناحي الذنوب، وكذلك فسر ابن عباس وغيره. وقال الضحاك: الذنوبُ عام، والإسرافُ في الأمر أريد به الكبائر خاصة.

وقوله: ﴿وَثَبِّتْ أَقدامَنا﴾ يحتمل أن يجري مع ما قبله من معنى الاستغفار، فيكون المعنى: اجعلنا دائبين على طاعتك والإيمان بك، وتثبيت القدم على هذا استعارة، ويحتمل أن يكون في معنى ما بعده من قوله: ﴿وانْصُرْنا عَلى القَوْمِ الكافِرينَ﴾ فيراد ثبوت القدم حقيقة في مواقف الحرب؛ قال ابن فورك: في هذا الدعاء ردٌّ على القدرية، لقولهم: إن الله لا يخلقُ أفعالَ العبد، ولو كان ذلك لم يسُغ أن يدعى فيما لا يفعله.

---

(١) قال العلماء: الله يحب الصابرين على قتال عدوهم، أو على دينهم وقتال الكفار، والظاهر العموم، وكثيراً ما تمدحت العرب بالصبر، وحثت عليه، قال طرفة:

وتشكـي النفسُ مـا صـاب بهـا ... فـاصبـري إنَّـك مِـنْ قَـومٍ صُبُـرْ

و﴿ثواب الدُّنْيا﴾ في هذه الآية: الظهور على عدوهم، قاله ابن إسحق وقتادة وغيرهما، وقال ابن جريج: الظفر والغنيمة، وفسر بهذا جماعة من المؤلفين في التفسير، قال النقاش: ليس إلا الظفر والغلبة فقط، لأن الغنيمة لم تحلَّ إلا لهذه الأمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا اعتراض صحيح.

﴿وحُسْنَ ثوابِ الآخِرَةِ﴾ الجنة بلا خلاف، وعبر بلفظة ﴿حُسْن﴾ زيادةً في الترغيب[1] وباقي الآية بين.

قوله عز وجل:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

الإشارة بقوله: ﴿الَّذينَ كَفَروا﴾ إلى المنافقين الذين جبّنوا[2] المسلمين وقالوا في أمر أُحُد: لو كان محمد نبياً لم يهزم، والذين قالوا: قد قتل محمد فلنرجع إلى ديننا الأول، إلى نحو هذه الأقوال، ثم اللفظ يقتضي كلَّ كافر كان في ذلك الوقت ويكونُ إلى يوم القيامة. نهى الله المؤمنين عن طاعتهم. و﴿بَل﴾ تركٌ للكلام الأول ودخول في غيره.

وقرأ جمهور الناس: ﴿بَلِ اللهُ مَوْلاَكُمْ﴾ على الابتداء والخبر، وهذا تثبيت، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [بلِ اللهَ] بالنصب على معنى: بل أطيعوا الله.

وقوله تعالى: ﴿سَنُلْقي﴾ استعارة، إذ حقيقة الإلقاء إنما هي في الأَجرام، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ﴾[3] ونحوه قول الفرزدق:

---

(١) وهو أيضاً دلالة على فضله وتقدمه، وأنه هو المعتد به عند الله ﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾.

(٢) جَبَّنَه: نسبه إلى الجبن. وفي نسخة: (خبّبُوا) بمعنى: خدعوا.

(٣) من الآية (٤) من سورة النور.

هما نفثا في فيَّ من فَمَوْيهما على النابحِ العاوي أشدُّ رجامِ[١]

وقرا جمهور الناس: ﴿سَنُلْقي﴾ بنون العظمة، وقرأ أيوب السختياني: [سَيُلْقي] بالياء على معنى «هو»، وقرأ ابن عامر والكسائي [الرُّعُبَ] بضم العين حيث وقع، وقرأ الباقون: ﴿الرُّعْب﴾ بسكون العين. وهذا كقولهم: عُنُق وَعُنْق، وكلاهما حسن فصيح.

وسبب هذه الآية: أَنه لما ارتحل أبو سفيان بالكفار؛ بعث رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وقال: انظر القوم، فإِن كانوا قد جنبوا الخيل وركبوا الإِبل فهم متشمرون إلى مكة، وإِن كانوا على الخيل فهم عامدون[٢] إلى المدينة، فمضى علي فرآهم قد جنبوا الخيل فأخبر رسول الله ﷺ، فَسُرَّ وسر المسلمون. ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فتجهز واتبع المشركين يريه الجَلَد، فبلغ حمراءَ الأسد؛ وإِن أبا سفيان قال له كفار قريش: أحين قتلناهم وهزمناهم ولم يبقَ إلا الفلّ والطريد[٣] ننصرف عنهم؟ ارجع بنا إليهم حتى نستأصِلَهم فعزموا على ذلك، وكان معبد بن أبي معبد الخزاعي[٤] قد جاء إلى رسول الله ﷺ وهو على كفره، إلا أن خزاعة كلها كانت تميل إلى رسول الله ﷺ، فقال له: والله يا محمد لقد ساءنا ما أصابك؛ ولوددنا أنك لم تُرْزَأْ في أصحابك. فلما سمع رسول الله ﷺ والناس بما عزمت عليه قريش من الانصراف اشتد ذلك عليهم، فسخَّر الله ذلك الرجل معبد بن أبي معبد، وألقى بسببه الرعب في قلوب الكفار، وذلك أنه لما سمع الخبر ركب حتى لحق بأبي سفيان بالروحاء، وقريش قد أجمعوا الرجعةَ إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمعٍ لم أرَ مثله قط،

---

(١) البيت في الديوان، وروايته هي:

هُما تفلا في فيَّ مِنْ فمَوَيْهمَا عَلى النَّابحِ العَاوي أَشد رجام

ونَفَث نفثاً إِذا بزق من فيه ولا ريقِ معه وقوله: أَشد رجام، أَي: أَشد نفث.

(٢) عامدون: قاصدون.

(٣) الفلُّ: المنهزمون، والطريد: الذي لا يستشعر أمناً.

(٤) معبد الخزاعي ذكره أبو عمر بن عبد البر فقال: هو الذي رد أَبا سفيان يوم أُحد عن الرجوع إلى المدينة. قال ابن حجر العسقلاني: قلت: وزعم بعضهم أَن معبداً هذا هو ولد أم معبد الخزاعية التي مر النبي ﷺ بها في الهجرة، والذي يظهر لي أَنه غيره. «الإِصابة ٣: ٤٤٢».

يتحرقون عليكم، قد اجتمع إليه من كان تخلَّفَ عنه، وندموا على ما صنعوا، قال: ويلك، ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل، قال: فو الله لقد أجمعنا الكرةَ عليهم لنستأصلَ بقيتهم، قال: فإني أنهاك عن ذلك، والله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيه شعراً، قال: وما قلت؟ قال: [قلت]:

كادت تُهَدّ من الأصوات راحلتي ... إذ سالتِ الأرضُ بالجردِ الأبابيل

تَرْدي بأُسْدٍ كرامٍ لا تنابلةٍ ... عند اللقاءِ ولا مِيلٍ معازيلِ

فظلتُ عدواً أظنُّ الأرضَ مائلة ... لما سَمَوْا برئيسٍ غير مخذول[1]

إلى آخر الشعر، فوقع الرعبُ في قلوب الكفار. وقال صفوان بن أمية: لا ترجعوا فإني أرى أنه سيكونُ للقوم قتالٌ غيرُ الذي كان، فنزلت هذه الآية في هذا الإلقاء[2]، وهي ـ بعدُ ـ متناولةٌ كلَّ كافر، ويجري معها قول النبي عليه السلام: (نُصِرْت بالرعب مسيرة شهر)[3]، ويظهر أن هذه الفضيلة إنما أعلم عليه السلام بها بعد هذه الأحوال كلها حين امتد ظلُّ الإسلام. قال بعض أهل العلم: إنه لما أمر الله المؤمن بالصبر. ووعده النصر، وأخبره أن الرعب مُلْقى في قلوب الكفار، نقص الرعب من كلّ كافر جزءاً مع زيادة شجاعة المؤمن إذ قد وعد النصر، فلذلك كلف المؤمن الوقوف للكافرين.

وقوله تعالى: ﴿بِما أَشْرَكُوا﴾ هذه باء السبب، والمعنى: إن المشرك بالله نفسه مقسمة في الدنيا، وليس له بالله تعالى ثقة، فهو يكره الموت ويستشعر الرعب منه، والسلطان: الحجة والبرهان[4]، ثم أخبر تعالى بعاقبة الكفار في الآخرة، والمأوى: مفْعَل من أويت إلى المكان إذا دخلته وسكنت فيه، والمثوى، مفْعَل من: ثويت، والتقدير: وبئس مثوى الظالمين هي.

---

(١) الهدّ: الهدم الشديد. الجُرْد: جمع أَجرد، وهو الفرس الرقيق الشعر. الأَبابيل جمع إبالة: القطعة من الخيل والإبل. تَرْدي: تَمشي مشياً فيه نوع من التبختر. التنابلة: القصار، واحدهم تِنْبَال. مِيلٌ: جمع أميْل، معازيل: جمع معزال، الذي ليس معه سلاح. وبقية القطعة الشعرية ورد في سيرة ابن هشام.

(٢) يريد إلقاء الرعب في قلوب الكفار.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن جابر وهو صحيح (الجامع الصغير ١: ١٥٢).

(٤) قال أبو حيان: ﴿ما لم ينزل به سلطاناً﴾، تسليط النفي على الإنزال والمقصود نفي السلطان، أي آلهة لا سلطان في إشراكها، فينزل نحو قوله: (على لاحبٍ لا يهتدي بمناره)؛ أي لا منار له.

قوله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

جاءت المخاطبة في هذه الآيات بجمع ضمير المؤمنين، وإن كانت الأمور التي عاتبهم الله تعالى عليها لم يقع فيها جميعهم، ولذلك وجوه من الفصاحة: منها وعظ الجميع وزجره، إذ مَن لم يفعل مُعَدّ أن يفعل إن لم يزجر، ومنها الستر والإبقاء على من فعل، وكان رسول الله ﷺ قد وعد المؤمنين النصرَ يومئذ، على خبر الله تعالى إن صبروا وجدوا، فصدق الله الوعد أولاً، وذلك أن رسول الله ﷺ صافَّ المسلمين يومئذ ورتب الرماة، على ما قد ذكرناه في صدر تفسير هذه الآيات في قصة أُحد، فبارز علي بن أبي طالب أبا سعد بن أبي طلحة وهو صاحب لواء المشركين، وحمل الزبير وأبو دجانة[1] فهزَّا عسكر المشركين، ونهض رسول الله ﷺ بالناس، فأبلى حمزة بن عبد المطلب وعاصم بن أبي الأقلح، وانهزم المشركون وقتل منهم اثنان وعشرون رجلاً، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونهم بإِذْنِهِ﴾. والحَس: القتل الذريع، يقال: حسهم إذا استأصلهم قتلاً، وحس البردُ النبات، وقال رؤبة:

إذا شكَونا سنة حَسُوسا ... تأكلُ بعد الأخضر اليبيسا[2]

قال بعض الناس: هو مأخوذ من الحاسة، والمعنى في حس: أفسد الحواس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف. والإِذْن: التمكين مع العلم بالممكن منه.

وقوله تعالى: ﴿حتَّى إذا فَشِلْتُم﴾ يحتمل أن تكون ﴿حتَّى﴾ غاية مجردة، كأنه

(١) أَبو دجانة الأَنصاري: هو سماك بن خرشة، وقيل: ابن أوس بن خرشة. قال علي: إنه استشهد باليمامة، وهو ممن شاركوا في قتل مسلمة، رُوي عن أنس أَن النبي ﷺ أَخذ سيفاً يوم أُحد فقال: من يأْخذ هذا السيف بحقه؟ فأَخذه أَبو دجانة ففلق به هام المشركين، ولما التحم القتال يوم أُحد ذَبَّ عن النبي ﷺ مصعب بن عمير حتى قتل، وأَبو دجانة حتى كثرت فيه الجراحة. «الإِصابة ٤ : ٥٨».

(٢) الحسوس: السنة الشديدة. اليبيس: ما يبس من العشب والبقول.

قال: إلى أن فشلتم، ويقوي هذا أن ﴿إذا﴾ بمعنى «إذ» لأن الأمر قد كان تقضى، وإنما هي حكاية حال، فتستغني ﴿إذا﴾ على هذا النظر عن جواب، والأظهر الأقوى أَن ﴿إذا﴾ عل بابها تحتاج إلى الجواب، وتكون ﴿حتى﴾ كأنها حرف ابتداء على نحو دخولها على الجمل.

واختلف النحاة في جواب ﴿إذا﴾ ـ فذهبت فرقة إلى أن الجواب قوله: ﴿تَنَازَعْتُم﴾، والواو زائدة[1]، وحكى المهدوي عن أبي علي أنه قال: الجواب قوله: ﴿صَرَفَكُمْ﴾ و﴿ثُمَّ﴾ زائدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول لا يشبه نظر أبي علي. ومذهبُ سيبويه والخليل وفرسان الصناعة أَن الجواب محذوفٌ مقدر يدل عليه المعنى، تقديره: انهزمتم ونحوه. والفشل: استشعار العجز وترك الجد، وهذا مما فعله يومئذ قوم. والتنازع هو الذي وقع بين الرماة، فقال بعضهم: الغنيمة الغنيمة، ألحقونا بالمسلمين، وقال بعضهم: بل نثبت كما أمرنا. و﴿عَصَيْتُم﴾ عبارة عن ذهاب مَنْ ذَهَبَ من الرماة حتى تمكن خالد بن الوليد من غرة المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحبُّونَ﴾ يعني من هزم القوم، قال الزبير بن العوام: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة[2] وصواحبها مشمراتٍ هارباتٍ ما دونَ أخذهن قليل ولا كثير، إذ مالت الرماةُ إلى العسكر حين كشفنا القومَ عنه يريدون النهب وخلوا ظهورنا للخيل، فأُتينا من أدبارنا، وصرخ صارخ: ألا إِن محمداً قد قتل، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم.

وقوله تعالى: ﴿مِنكُم مَنْ يُريدُ الدُّنيا﴾ إخبارٌ عن الذين حرصوا على الغنيمة وكان المالُ هَمَّهم، قاله ابن عباس وسائر المفسرين. وقال عبد الله بن مسعود: ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريدُ الدنيا حتى نزل فينا يومَ أحد: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُريدُ الدُّنْيا﴾.

---

(١) هذا رأي الفراء وجماعة، قاله أبو حيان.

(٢) هي زوج أبي سفيان وأم معاوية (انظر الإصابة والاستيعاب)، والخدم: جمع خدمة وهي الخلخال.

وقوله تعالى: ﴿ومِنْكُمْ مَنْ يريدُ الآخرة﴾ إخبار عن ثبوتِ من ثبت من الرماة مع عبد الله بن جبير امتثالاً للأمر حتى قتلوا، ويدخل في هذا أنس بن النضر وكل من جدَّ ولم يضطرب من المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْتَلِيَكم﴾ معناه: ليُنْزِلَ بكم ذلك البلاء من القتل والتمحيص.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عفا عنكُمْ﴾ إعلامٌ بأنّ الذنبَ كان يستحقُّ أكثر مما نزل، وهذا تحذير، والمعنى: ولقد عفا عنكم بأن لم يستأصلوكم، فهو بمنزلة: ولقد أبقى عليكم، ويحتمل أن يكون إخباراً بأنه عفا عن ذنوبهم في قصةِ أُحد، فيكون بمنزلة العفو المذكور بعد، وبالتفسير الأول قال ابن جريج وابن إسحق وجماعة من المفسرين، وقال الحسن بن أبي الحسن: «قتل منهم سبعون، وقتل عم النبي عليه السلام، وشُجَّ في وجهه وكُسِرَتْ رباعيته، وإنما العفو أنْ لم يستأصلهم. هؤلاء مع رسول الله ﷺ وفي سبيل الله غضابٌ لله، يقاتلون أعداءَ الله، نهُوا عن شيءٍ فضيعوه، فو الله ما تُرِكُوا حتى غُمّوا بهذا الغمِّ، فأَفسقُ الفاسقينَ اليوم يجترمُ كلَّ كبيرة، ويركبُ كلَّ داهية، ويسحبُ عليها ثيابه، ويزعمُ أنْ لا بأسَ عليه، فسوف يعلم».

قوله عز وجل:

﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾.

العامل في ﴿إذْ﴾ قوله: ﴿عَفَا﴾.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تُصْعِدُونَ﴾ بضم التاء وكسر العين من أَصعَد ومعناه: ذهب في الأرض، وفي قراءة أبي بن كعب: [إذ تصعدون في الوادي].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والصعيد وجهُ الأرضِ، وصعدةُ اسمٌ من أسماء الأرض، فأَصعدَ معناه: دخل في الصعيد، كما أن أصبح دخل في الصباح إلى غير ذلك. والعرب تقول: أصعدنا من مكة وغيرها، إذا استقبلوا سفراً بعيداً وأنشد أبو عبيدة لحادي الإبل:

قــد كنــت تبكيــن علــى الإصعــاد فــالآن صــرحــت وصــاح الحــادي

وقرأ الحسن بن أبي الحسن وأبو عبد الرحمن واليزيدي[1] ومجاهد وقتادة: [إذ تَصْعَدون] بفتح التاء والعين، من صعَد إذا علا، والمعني بهذا صعود من صعد في الجبل، والقراءة الأولى أكثر.

وقوله تعالى: ﴿ولا تَلْوُونَ﴾ مبالغة في صفة الانهزام، وهو كما قال دريد: وهل يردُّ المنهزم شيء؟ وهذا أشد من قول امرىء القيس:

. . . . أخو الجَهد لا يلْوي على من تعذَّرا[2]

وقرأ ابن محيصن وابن كثير في رواية شبل: [إذْ يُصْعدون ولا يَلْوون] بالياء فيهما على ذكر الغيب، وقرأ بعض القراء: [ولاَ تَلْؤُون] بهمز الواو المضمومة، وهذه لغة، وقرأ بعضهم: ﴿ولا تلُون﴾ بضم اللام وواوٍ واحدة، وهي قراءة متركبة على لغة من همز الواو المضمومة، ثم نقلت حركة الهمزة إلى اللام وحذفت إحدى الواوين الساكنتين، وقرأ الأعمش وعاصم في رواية أبي بكر: [تُلْوُون] بضم التاء، من ألوى وهي لغة، وقرأ حميد بن قيس: [على أُحُد] بضم الألف والحاء، يريد الجبل، والمعنيُّ بذلك رسول الله عليه السلام، لأنه كان على الجبل، والقراءة الشهيرة أقوى لأن النبي ﷺ لم يكن على الجبل إلا بعد ما فر الناس عنه، وهذه الحال من إصعادهم إنما كانت وهو يدعوهم، وروي أنه كان ينادي: (إليَّ عباد الله)[3]، والناس يفرون.

وفي قوله تعالى: ﴿في أُخْرَاكُمْ﴾ مدحٌ للنبي عليه السلام، فإن ذلك هو موقف الأَبطال في أعقاب الناس، ومنه قول الزَّبير بن باطا[4]: «ما فعل مقدمتنا إذ حملنا

---

(١) هو يحيى بن المبارك الإمام، أبو محمد العدوي البصري المعروف باليزيدي نحويٌّ مقرىء، ثقة، علامة كبير، نزل بغداد، وعُرف باليزيدي لصحبته يزيد بن منصور الحميري، له تصانيف عدة، توفي بخراسان سنة: ٢٠٢ عن أربع وسبعين. «طبقات القراء للجزري».

(٢) صدر البيت: بسير يضجُّ العَوْد منه يُمنُّه. . .

العَوْد: الجمل المُسن. يَمُنُّه: يضعفه، أَخو الجَهْد: يريد نفسه وهو السائق المجد الشديد الدفع، لا يلوي: لا يتلفت ولا يميل. تعذَّر عن الأَمر: تأَخَّر، ومن الذنب: تنصل.

(٣) أَخرجه ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس. (فتح القدير للشوكاني ١: ٣٥٧).

(٤) الزبير بن باطيا أَو باطا بفتح الزاي وكسر الباءِ، جد الزبير بن عبد الرحمن المذكور في الموطأ في كتاب «النكاح»، وهو قرظي من بني قريظة يكنى أبا عبد الرحمن، وكان قدْ مَنَّ على ثابت بن قيس بن =

وحاميتنا إذ فررنا» ، وكذلك كان رسول الله ﷺ أشجعَ الناس ، ومنه قول سلمة بن الأكوع: (كنا إذا احمرَّ البأسُ اتقينا برسول الله ﷺ)[١].

وقوله تعالى: ﴿فَأَثَابَكُم﴾ معناه: جازاكم على صنيعكم، وسمى الغمَّ ثواباً على معنى أنه القائم في هذه النازلة مقام الثواب ، وهذا كقوله:

. . . . تحيـة بينهـم ضـربٌ وجيـع[٢]

وكقول الآخر:

أخـاف زيـاداً أن يكـونَ عطـاؤه   أداهمَ سُوداً أو مُحَدْرَجَةً سُمْرا[٣]

فجعل القيودَ والسياطَ عطاء ، ومحدرجة: بمعنى مدحرجة.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿غَمّاً بِغَمٍّ﴾ ـ فقال قوم: المعنى: أثابكم غماً بسبب الغم الذي أدخلتموه على رسول الله ﷺ وسائر المؤمنين ، بفشلكم وتنازعكم وعصيانكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالباء على هذا باء السبب.

= شماس في الجاهلية فطلب قيس من النبي ﷺ أن يهب له دمه ، وتمام القصة في غزوة بني قريظة. «سيرة ابن هشام ، والروض» .

(١) رواه الإمام أحمد ، والطبراني ، والنسائي ، والبيهقي ـ عن علي بن أبي طالب. «نسيم الرياض شرح شفا عياض ٢ : ٤٩».

(٢) البيت لعمرو بن معد يكرب من قصيدة له مطلعها:

أمِـنْ ريحـانـةَ الـداعـي السَّميـع   يـؤرقنـي وأصحـابـي هُجـوع

وصدر البيت:

وَخَيْـلٍ قَـد دَلَفْـتُ لهـا بِخَيـلٍ   . . . .

وخيلٍ: أي: وأصحاب خيلٍ قد تقدمت لها بمثلها. دلف بمعنى: تقدم. والتحية: الدعاءُ بالحياة فأخبر عنها بالضرب الوجيع تهكُّماً.

(٣) قائل البيت هو الفرزدق ، وروايته كما في الديوان (١ : ٢٢٧. ط. الصاوي):
فَلَمَّا خَشيتُ أَنْ يكونَ عَطاؤُه. . . . البيت.

والأداهم: جمع أدهم ، وهو القيد ، سمي به لدُهمته وسواده: والمُحَدْرَجَة: السياط. وحدْرَجَهُ: قتله وأحكم قتله ، وسوط مُدَحْرجٌ: أي مُغارٌ مَفْتول. والبيت من قصيدة مطلعها:

تـذكَّـرَ هـذا القلـبُ مـن شـوقِـه ذكْـرا   تـذكَّـر شـوْقـاً ليـس نـاسِيَـه عَصْـرَا

وقال قوم: المعنى أثابكم غماً بالغم الذي أوقع على أيديكم بالكفار يوم بدر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالباء على هذا باء معادلة، كما قال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر والحرب سجال. وقالت جماعة كثيرة من المتأولين: المعنى أثابكم غماً على غم، أو غماً مع غم، وهذه باء الجر المجرد.

واختلفوا في ترتيب هذين الغمين فقال قتادة ومجاهد: الغمُّ الأول: أن سمعوا: أَلا إن محمداً قد قتل، والثاني: القتل والجراح الواقعة فيهم. وقال الربيع وقتادة أيضاً: بعكس هذا الترتيب، وقال السدي ومجاهد أيضاً وغيرهما: بل الغمُّ الأول هو قتلهم وجراحهم وكلُّ ما جرى في ذلك المأزق، والغم الثاني هو إشراف أبي سفيان على النبي ومن كان معه. وذلك أن رسول الله ﷺ طفق يومئذ يدعو الناس حتى انتهى إلى قوم من أصحابه قد علوا صخرة في صفح الجبل فمشى نحوهم، فأهوى إليه رجل بسهم ليرميه فقال: أنا رسول الله، ففرحوا بذلك، وفرح هو عليه السلام إذ رأى من أصحابه الامتناع، ثم أخذوا يتأسفون على ما فاتهم من الظفر، وعلى من مات من أصحابهم، فبينما هم كذلك إذ أشرف عليهم أبو سفيان من علو في خيلٍ كثيرة، فنسوا ما نزل بهم أولاً، وأهمهم أمر أبي سفيان، فقال رسول الله عليه السلام: (ليس لهم أن يعلونا، اللهم إن تقتلْ هذه العصابة لا تعبد)[1] ثم ندب أصحابه فرموهم بالحجارة، وأغنى عمر بن الخطاب حتى أنزلوهم.

واختلفت الروايات في هذه القصة من هزيمة أُحُد اختلافاً كثيراً، وذلك أَن الأمر هُوِّلَ، فكلُّ أَحدٍ وصف ما رأى وسمع، قال كعب بن مالك: أول من ميَّز رسولَ الله ﷺ أنا، رأيت عينيه تزهران تحت المغفر[2]. ورُوي أن الخيل المستعلية إنما كانت حملة خالد بن الوليد، وأَن أبا سفيان إنما دنا والنبي عليه السلام في عرعرة[3] الجبل. ولأبي سفيان في ذلك الموقف قول كثير، ولعمر معه مراجعة محفوظةٌ، اختصرتها إذ لا تخصُّ الآية.

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق محمد بن الحسين. (الدر المنثور للسيوطي ٢: ٩٧)، (كما أَخرجه مسلم في صحيحه في باب الإمداد بالملائكة من كتاب «الجهاد» ٥: ١٥٦).

(٢) أَخرجه ابن هشام في السيرة النبوية. (الروض الأُنف ٢: ١٣٦).

(٣) عرعرة الجبل: رأسه ومعظمه.

وقوله تعالى: ﴿لِكَيْلاَ تَحْزَنوا على ما فاتَكُمْ﴾ معناه: من الغنيمة، ﴿وَلاَ ما أَصابَكُمْ﴾ معناه: من القتل والجرح وذل الانهزام وما نيل من نبيكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واللام من قوله: ﴿لِكَيْلا﴾ متعلقة بـ ﴿أَثَابكُمْ﴾، المعنى: لتعلموا أن ما وقع بكم إنما هو بجنايتكم، فأنتم آذيتم أنفسكم، وعادة البشر أن جاني الذنب يصبر للعقوبة، وأكثر قلق المعاقب وحزنه إنما هو مع ظنه البراءة بنفسه. وفي قوله تعالى: ﴿وَاللهُ خَبيرٌ بما تَعْمَلُون﴾ توعد.

ثم ذكر الله تعالى أمر النعاس الذي أَمَّن به المؤمنين فغشي أهلَ الإخلاص، وذلك أنه لما ارتحل أبو سفيان من موضع الحرب، قال النبيُّ ﷺ لعلي بحضرة أصحابه المتحيزين في تلك الساعة إليه: (اذهب فانظر إلى القوم، فإن جنبوا الخيل فهم ناهضون إلى مكة، وإن كانوا على خيلهم فهم عامدون إلى المدينة، فاتقوا الله واصبروا)(١) ووطنهم على القتال. فمضى علي ثم رجع فأخبر أنهم جنبوا الخيل وقعدوا على أثقالهم عجالاً، فأمِنَ الموقنون المصدقون رسول الله ﷺ، وألقى الله عليهم النعاس، وبقي المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ لا يصدّقون، بل كان ظنهم أن أبا سفيان يؤمُّ المدينةَ ولا بد، فلم يقع على أحدٍ منهم نوم، وإنما كان همهم في أحوالهم الدنياوية. قال أبو طلحة: لقد نمت في ذلك اليوم حتى سقط سيفي من يدي مراراً(٢). وقال الزبير بن العوام: لقد رفعت رأسي يومَ أحد من النوم فجعلت أنظرُ إلى أصحاب النبي ﷺ، فما منهم أحدٌ إلا وهو يميل تحت حَجَفته(٣). وقال ابن مسعود: نعسنا يوم أُحُد والنعاسُ في الحرب أَمَنَةٌ من اللهِ، والنعاسُ في الصلاة من الشيطان.

وقرأ جمهور الناس ﴿أَمَنَة﴾ بفتح الميم، وقرأ ابن محيصن والنخعي [أَمْنَة] بسكون الميم، وهما بمعنى الأمن، وفتح الميم أفصح، وقوله: ﴿نُعاساً﴾ بدل. وقرأ ابن كثير

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة. (الروض الأنف ٢: ١٤٠).

(٢) روى البخاري عن أنس أن أبا طلحة قال: «غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أُحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه» (٨/ ١٧١). ورواه كذلك الترمذي والنسائي.

(٣) الحجف: ضرب من الترسة، واحدتها حجفة، تصنع من جلود الإبل يطارق بعضها ببعض، وقيل: تصنع من جلود خاصة. «اللسان في مادة حجف».

ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر: [يَغْشَى] بالياء حملاً على لفظ النعاس بإسناد الفعل إلى الضمير البدل، وقرأ حمزة والكسائي: [تغشى] بالتاء حملاً على لفظ ﴿أَمَنَةً﴾ بإسناد الفعل إلى ضمير المبدل منه[1]. والواو في قوله تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ﴾ هي واو الحال، كما تقول: جئت وزيد قائم. قاله سيبويه وغيره، قال الزجاج: وجائز أن يكون خبر قوله: ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ قوله: ﴿يَظُنُّونَ﴾ ويكون ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُم﴾ صفة للطائفة.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُم أنفُسهم﴾ ذهب أكثر المفسرين قتادة والربيع وابن إسحق وغيرهم إلى أن اللفظة من الهمّ الذي هو بمعنى الغمّ والحزن، والمعنى: إن نفوسهم المريضة وظنونهم السيئة قد جلبت إليهم الهمَّ خوفَ القتل وذهاب الأموال، تقول العرب: أهمني الشيء إذا جلب الهمَّ. وذكر بعض المفسرين أن اللفظة من قولك: همَّ بالشيء يَهُمُّ إذا أراد فعله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمعنى: أهمتهم أنفسهم المكاشفةَ ونبْذَ الدين، وهذا قول من قال: قد قتل محمد فلنرجع إلى ديننا الأول، ونحو هذا من الأقوال.

قوله عز وجل:

﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

---

(١) اعترض بعض النحويين على ذلك فقالوا: لما أَعربَ (نُعاساً) بدلاً من (أمنة) كان القياسُ أَن يتحدث عن البدل لا عن المبدل منه، لكنه تَحَدَّثَ هنا عن المبدل منه، فإذا قلت: (هند حسنها فَاتن) كان الخبر عن حسنها ـ وأَجاز بعضهم أن يخبر عن المبدل منه على ما خرج ابن عطية إعراب (نعاساً) و(تغشى) بقراءة التاءِ، واستدلوا على ذلك بقول الشاعر:

إن السيوفَ غدوَّها ورواحَها ... تركتْ هوازنَ مثلَ قرْنِ الأعضبِ

إذ قال: (تركت) ولم يقل: (تركا). وردّ المعترضون بأَن (غدوَّها ورواحَها) انتصبا على الظرف لا على البدل. البحر المحيط ٣/ ٨٦، ٨٧.

قوله تعالى: ﴿غَيْرَ الحَقِّ﴾ معناه: يظنون أَن الإِسلام ليس بحق وأَن أمر محمد عليه السلام يضمحل ويذهب.

وقوله: ﴿ظن الجاهلية﴾؛ ذهب جمهور الناس إلى أن المراد مدة الجاهلية القديمة قبل الإِسلام، وهذا كما قال: ﴿حميةَ الجاهِليَّةِ﴾، و﴿تبرُّجَ الجاهِليَّةِ﴾[1]، وكما تقول: شعر الجاهلية، وكما قال ابن عباس: سمعت أبي في الجاهلية يقول: اسقنا كأساً دهاقا. وذهب بعض المفسرين إلى أنه أراد في هذه الآية: ظن الفرقة الجاهلية، والإِشارة إلى أبي سفيان ومن معه، والأمر محتمل، وقد نحا هذا المنحى قتادة والطبري[2].

وقوله تعالى: ﴿يقُولونَ هلْ لنا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شيءٍ﴾ حكاية كلام قالوه. قال قتادة وابن جريج: قيل لعبد الله بن أبي بن سلول: قتل بنو الخزرج، فقال: وهل لنا من الأمر من شيء؟ يريد أن الرأي ليس لنا، ولو كان لنا منه شيء لسمع من رأينا فلم يخرج فلم يُقْتَلْ أحدٌ منا، وهذا منهم قول بأَجَلَين، وكأن كلامهم يحتمل الكفر والنفاق، على معنى: ليس لنا من أمر الله شيء، ولا نحن على حقٍّ في اتباع محمد، ذكره المهدوي وابن فورك، لكن يُضْعِفُ ذلك أن الردَّ عليهم إنما جاء على أن كلامهم في معنى سوء الرأي في الخروج، وأنه لو لم يخرج لم يقتل أحد[3].

وقوله تعالى: ﴿قلْ إِنَّ الأَمْرَ كلَّهُ للهِ﴾ اعتراض أَثناء الكلام فصيح.

وقرأ جمهور القراء: ﴿كلَّه﴾، بالنصب على تأكيد الأمر، لأن (كلَّه) بمعنى أجمع، وقرأ أبو عمرو بن العلاء: [كلُّه لله] برفع (كل) على الابتداء والخبر، ورجَّح

---

(١) ﴿حميَّة الجاهلية﴾ من الآية (٢٦) من سورة الفتح و﴿تبرُّجَ الجاهلية﴾ من الآية (٣٣) من سورة الأحزاب.

(٢) قال الزمخشري: «وظن الجاهلية كقولك: حاتم الجود، ورجل صدق، تريد الظن المختص بالملَّة الجاهلية، ويجوز أن يراد: ظن أَهل الجاهلية: أَي لا يظن مثل ذلك الظن إِلا أَهل الشرك الجاهلون بالله».

(٣) وعلى الرأيين يكون الاستفهام في الآية معناه النفي، وقال بعضهم: الصواب أنه حقيقي و(مِنْ) في كلامهم (من شيءٍ) زائدة للتأكيد.

الناس قراءةَ الجمهور لأن التأكيد أملك بلفظة (كل)[١].

وقوله تعالى: ﴿يُخفُونَ في أَنفُسِهم ما لايُبْدُونَ لك﴾ يحتمل أن يكون إخباراً عن تسترهم بمثل هذه الأقوال التي ليست بمحضِ كفرٍ، بل هي جهالة، ويحتمل أن يكون إخباراً عما يخفونه من الكفر الذي لا يقدرون أن يظهروا منه أكثرَ من هذه النزعات، وأخبر تعالى عنهم على الجملة دون تعيين، وهذه كانت سنته في المنافقين، لا إله إلا هو.

وقوله تعالى: ﴿يقولُونَ لَوْ كان لَنا مِنَ الأَمْر شيءٌ ما قُتِلْنا ها هُنا﴾ هي مقالة سمعت من مُعَتِّبِ بن قشير[٢] المغموص عليه بالنفاق. وقال الزبير بن العوام فيما أسند الطبري عنه: والله لكأني أسمع قولَ معتب بن قشير أخي بني عمرو بن عوف، والنعاسُ يغشاني، ما أسمعه إلا كالحلم حين قال: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكلامُ معتب يحتملُ من المعنى ما احتمل كلام عبد الله بن أبي، ومعتب هذا ممن شهد بدراً، ذكر ذلك ابن إسحق وغيره، وقال ابن عبد البر[٣]: إنه شهد العقبة، وذلك وهم، والصحيح أنه لم يشهد عقبة.

وقوله تعالى: ﴿قلْ لو كُنتُمْ في بيوتِكُمْ﴾.... الآية، ردٌّ على الأقوال، وإعلامٌ بأن كلَّ امرئٍ إنما هو واحد، فمن لم يقتل فهو يموت لذلك الأجل على الوجه الذي قدر الله تعالى، وإذا قُتِلَ فذلك هو الذي كان في سابق الأزل[٤].

وقرأ جمهور الناس: ﴿في بُيوتكم﴾ بضم الباء، وقرأ بعض القراء ـ وهي بعض

---

(١) والتأكيد بكلمة (كل) وبلفظ (إنَّ) إنما هو لمقابلة التأكيد في كلامهم بزيادة (مِنْ).

(٢) هو معتب بن قُشير ـ مصغرا ـ بن بليل، وقيل: مليل الأنصاري الأوسي، ذكروه فيمن شهد العقبة وبدراً وأُحداً، وقيل: إنه كان منافقاً ثم تاب. وهو القائل يوم أُحد: «لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قتلنا ها هنا». «الإصابة» و«الاستيعاب».

(٣) الاستيعاب: ١٤٢٩ (ط. مصر).

(٤) هذا النوع يسمى عند علماء البيان الاحتجاج الفطري، وهو أن يذكر المتكلم معنى ثم يستدل عليه بضروب من المعقول، كقوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسَدَتا﴾، ﴿قلْ يُحْييها الذي أنشأَها أَول مرَّةٍ﴾، ومنه قول الشاعر:

جـرى القضـاءُ بمـا فيـه فـإن تلُـم ... فـلاَ مَـلامَ علـى مـا خُـطَّ بـالقلَـم

طرق السبعة: [في بِيوتكم] بكسر الباء، وقرأ جمهور الناس: ﴿لَبَرَزَ﴾ بفتح الراء والباء على معنى: صاروا في البراز من الأرض، وقرأ أبو حيوة: [بُرِّزَ] بضم الباء وكسر الراء وشدها، وقرأ جمهور الناس: ﴿عَلَيْهم القَتْلُ﴾ أي: كتب عليهم في قضاء الله وتقديره. وقرأ الحسن والزهري: [عليهِمُ القِتالُ]. وتحتمل هذه القراءة معنى الاستغناء عن المنافقين، أي: لو تخلفتم أنتم لبرز المؤمنون الموقنون المطيعون في القتال المكتوب عليهم.

وقوله تعالى: ﴿ولِيَبْتَليَ اللهُ ما في صدوركُم ولِيُمَحّص ما في قُلوبِكم﴾. . . الآية: اللام في قوله تعالى: ﴿ولِيَبْتلي﴾ متعلقة بفعل متأخر تقديره: وليبتلي وليمحص فعل هذه الأمور الواقعة، والابتلاء هنا هو الاختبار، والتمحيص: تخليص الشيء من غيره، والمعنى: ليختبره فيعلمه علماً مساوقاً لوجوده وقد كان متقرراً قبل وجود الابتلاء أزلاً، و﴿ذات الصُّدور﴾: ما تنطوي عليه من المعتقدات، هذا هو المراد في هذه الآية.

قوله عز وجل:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾.

اختلف المتأولون في من المراد بقوله تعالى: ﴿إنَّ الذين تَوَلَّوْا منكمْ يومَ التقى الجمعانِ﴾[1]؟ فقال الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: المراد بها جميع من تولى ذلك اليوم عن العدو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يريد على جميع أنحاء التولي الذي لم يكن تحرفاً لقتال.

وأسند الطبري رحمه الله قال: خطب عمر رضي الله عنه يوم الجمعة فقرأ ﴿آلَ

(١) الجمعان: تثنية الجمع ـ وهي: اسم جمع. وقد نص النحويون على أن اسم الجمع لا يثنى. لكنه هنا أراد جمع المؤمنين وجمع المشركين فلذلك صحت تثنيته، ونظير ذلك قوله:

وكلُّ رفيقَيْ كلِّ رحْلٍ وإنْ هُما ... تعاطى القنا قوماهما أخوان

فقد ثنّى (قوماً) لأنه أراد معنى القبيلة.

عِمران﴾، وكان يعجبه إذا خطب أن يقرأها، فلما انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذين تولَّوا منكُم يومَ الْتَقَى الْجمْعَان﴾ قال: لما كان يوم أُحُد هُزِمنا ففررتُ حتى صعدتُ الجبل، فلقد رأيتني أنزو كأني أروى[١]، والناس يقولون: قُتِلَ محمد، فقلت: لا أجدُ أَحداً يقول: قتل محمد إلا قتلته، حتى اجتمعنا على الجبل، فنزلت هذه الآية كلها. قال قتادة: هذه الآية في كلٍّ من فر بتخويف الشيطان وَخَدْعِهِ، وعفا الله عنهم هذه الزلة. قال ابن فورك: لم يبقَ مع النبي يومئذ إلا ثلاثة عشر رجلاً، أبو بكر، وعلي، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وسائرهم من الأنصار، أبو طلحة وغيره. وقال السدي وغيره: إنه لما انصرف المسلمون عن حملة المشركين عليهم صعد قوم الجبل، وفر آخرون حتى أتوا المدينة، فذكر الله في هذه الآية الذين فروا إلى المدينة خاصةً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

جعل الفرارَ إلى الجبل تحيزاً إلى فئة.

وقال عكرمة: نزلت هذه الآية فيمن فر من المؤمنين فراراً كثيراً، منهم رافع بن المعلى[٢]، وأبو حذيفة بن عتبة[٣]. ورجل آخر، قال ابن إسحق: فرَّ عثمان بن عفان وعقبة بن عثمان وأخوه سعد، ورجلان من الأنصار زُرَقيان، حتى بلغوا الجَلْعَبَ ـ جبل بناحية المدينة مما يلي الأعوص ـ فقاموا به ثلاثة أيام، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ، فقال لهم: (لقد ذهبتم فيها عريضة[٤]). قال ابن زيد: فلا أدري هل عفا عن هذه الطائفة خاصة أم عن المؤمنين جميعاً؟

---

(١) أَنزو: أثب وأقفز والأروى: اسم للجمع ـ تيوس الجبل.

(٢) هو رافع بن المعلى الأنصاري الزرقي، له ذكر في ترجمة درة بنت أبي لهب، روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذين تولَّوا منكُمَ يومَ التَقى الجَمْعان﴾ أَنَّ الآية نزلت في عثمان بن رافع بن المعلى. «الإصابة: ١: ٤٩٨». والذي يحتمل أن تكون نزلت هذه الآية في عثمان ورافع بن المعلى لأنهما معاً فرَّا يوم أُحد.

(٣) هو أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة القرشي العبشمي، كان من السابقين إلى الإسلام، وهاجر الهجرتين، وصلى إلى القبلتين، استشهد يوم اليمامة وهو ابن ست وخمسين سنة. «الإصابة ٤: ٤٢.

(٤) تقدم تخريجه عند قوله تعالى: ﴿سارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وجنَّةٍ عَرْضُها السمواتُ والأَرْضُ﴾ (آل عمران).

واستزلَّ معناه: طلب منهم أن يزلوا، لأن ذلك هو مقتضى وسوسته وتخويفه. وقوله تعالى: ﴿بِبَعْضِ ما كَسَبُوا﴾ ظاهره عند جمهور المفسرين أَنه كانت لهم ذنوب عاقبهم الله عليها بتمكينِ الشيطان من استزلالهم، وبخلق ما اكتسبوه أيضاً هم من الفرار، وذهب الزجاج وغيره إلى أن المعنى: إن الشيطان ذكَّرهم بذنوب لهم متقدمة، فكرهوا الموت قبل التوبة منها والإقلاعِ عنها، قال المهدوي: بما اكتسبوا من حبِّ الغنيمة والحرص على الحياة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل لفظ الآية أن تكون الإشارة في قوله: ﴿ببعضِ مَا كَسَبوا﴾ إلى هذه العبرة، أي: كان للشيطان في هذا الفعل الذي اكتسبوه استزلال لهم، فهو شريكٌ في بعضه.

ثم أخبر تعالى بعفوه عنهم، فتأوله جمهور العلماء على حطِّ التبعةِ في الدنيا والآخرة، وكذلك تأوله عثمان بن عفان في حديثه مع عبيد الله بن عدي بن الخيار[(١)]، وكذلك تأوله ابن عمر في حديثه مع الرجل العراقي[(٢)]، وقال ابن جريج: معنى الآية: عفا الله عنهم إذ لم يعاقبهم، والفرار من الزحف كبيرة من الكبائر بإجماع فيما علمت، وعدها رسول الله ﷺ: في الموبقات مع الشرك وقتل النفس وغيرها[(٣)].

---

(١) راجعنا حديث عثمان مع عدي بن الخيار فلم نجد فيه التأول، وورد هذا التأول في رواية شقيق عن عبد الرحمن بن عوف. (مجمع الزوائد ٩: ٨٣) وقد روى الإمام أَحمد، وأَبو يعلى، والطبري، والبزار بإسناد حسن عن عاصم عن شقيق قال: لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة، فقال له الوليد: مالي أَراكَ جفوتَ أمير المؤمنين عثمان؟ فقال له عبد الرحمن: أَبلغْه أَني لم أَفر يوم عيْنَين [جبل من جبال أُحد] قال عاصم: يقول: يوم أُحد ـ ولم أَتخلف عن بدر، ولم أَترك سنَّة عمر، قال: فانطلق فخبر بذلك عثمان، قال: فقال: أَما قوله: إني لم أَفر يوم عيْنَين، فكيف يعيرني بذلك وقد عفا الله عنه فقال: ﴿إن الَّذين تَوَلَّوْا منكمْ يومَ التَقَى الجمْعان إنما اسْتَزَلَّهم الشيطانُ ببعض ما كسبوا، ولقد عفا الله عنهم، إن الله غفورٌ رحيم﴾، وأما قوله: إني تخلفت يوم بدر فإني كنت أُمرض رقية بنت رسول الله ﷺ حتى ماتت، وقد ضرب لي رسول الله ﷺ بسهم، ومن ضرب له رسول الله بسهم فقد شهد، وأَما قوله: إني تركت سُنَّة عمر فإني لا أُطيقها ولا هو، فأته فحدثه بذلك. وهذا هو التأَول الذي تأوله عثمان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري، والترمذي عن عثمان بن موهب، كلٌّ في «باب المناقب». وفي البخاري، والترمذي أن الرجل السائل من أهل مصر.

(٣) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي عن أبي هريرة، وهو صحيح. «الجامع الصغير ١: ١٢٦». كما أخرجه الطبراني عن أبي سعيد. وهو صحيح (الجامع الصغير ٢: ٢٥٤).

قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾.

نهى الله تعالى المؤمنين عن الكون مثل الكفار والمنافقين في هذا المعتقد الفاسد، الذي هو أن من سافر في تجارة ونحوها ومن قاتل فَقُتِلَ لو قعد في بيته لعاش ولم يمت في ذلك الوقت الذي عَرَّضَ فيه نفسه للسفر أو للقتال، وهذا هو معتقدُ المعتزلةِ في القول بالأَجَلين، وهو نحو منه.

وقوله تعالى: ﴿لإِخوانِهم﴾ هي أخوة نسب، لأن قتلى أُحُدٍ كانوا من الأنصار، أكثره من الخزرج، ولم يكن فيهم من المهاجرين إلا أربعة، وصرح بهذه المقالة ـ فيما ذكر السدي ومجاهد وغيرهما ـ عبد الله بن أبيّ المنافق وأصحابه، وقيل: بل قالها جميع المنافقين، ودخلت ﴿إذا﴾ في هذه الآية وهي حرف استقبال من حيث ﴿الذين﴾ اسم فيه إبهام يعم من قال في الماضي ومن يقول في المستقبل، ومن حيث هذه النازلة تتصور في مستقبل الزمان، ويطِّردُ النهيُ للمؤمنين فيها، فوضعت ﴿إذا﴾ لتدلَّ على اطراد الأمر في مستقبل الزمان، وهذه فائدة وضع المستقبل موضع الماضي، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[1] إلى نحوها من الآيات، وكما قالت:

وفينا نبي يعلم ما في غدِ[2]

كما أن فائدة وضعهم الماضي موضع المسقبل للدلالة على ثبوت الأمر، لأن صيغة الماضي متحققة الوقوع، فمن ذلك قول الشاعر:

وإنـي لآتيكـم تَشَكُّـرَ مـا مضـى ... من الأمرِ واستيجابَ ما كان في غدِ[3]

---

(١) من الآية (٢٥) من سورة يونس.

(٢) القائلة جارية من جُوَيرياتٍ كنَّ عند الرُّبَيِّع بنت معوِّذ يغنين ويضربن بالدف، فقالت إحداهن: (وفينا نبي يعلمُ ما في غد)، فقال النبي ﷺ: (لا تقولي هكذا، وقولي ما كنت تقولين)، وهو طرف من حديث أخرجه البخاري، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه «القسطلاني على البخاري ٦: ٢٦٦».

(٣) البيت في اللسان في مادة (شكر) أنشده أبو علي. قال: لتشكر ما مضى، يريد ما يكون في غدٍ فوضع الماضي موضع الآتي. ورواية اللسان: في الغد. وأنشده الفراءُ في معاني القرآن. ورواية البيت في=

ومنه قول الربيع:

أصحبتُ لا أحملُ السلاحَ ولا أملكُ رأسَ البعيرِ إنْ نفرا

والضرب في الأرض: الإبعاد في السير، ومنه: ضرب الدهرَ ضرباته. إذا بعدت المدة. وضربُ الأرض: هو الذهاب فيها لحاجة الإنسان خاصة بسقوط (في)، وقال السدي وغيره في هذه الآية: الضرب في الأرض: السيرُ في التجارة؛ وقال ابن إسحق وغيره: بل هو السير في جميع طاعات الله ورسوله، والضرب في الأرض يعمُّ القولين. و﴿غُزًّى﴾: جمع غاز، وزنه ـ فُعَّل ـ بضم الفاء وشد العين المفتوحة ـ كشاهد وشُهَّد وقائل وقُوَّل، وينشد بيت رؤبة.

فالآن قد نَهْنَهَني تَنَهْنُهي وأَوَلُ حلمٍ ليس بالمسفَّهِ

وقُوَّلٌ إلاّ دهِ فلا دَهِ[1]

يريد إن لم تتبِ الآن فلا تتوبُ أبداً، وهو مثل معناه: إن لم يكن كذا فلا يكون كذا، وقد روي: وقولهم إلا دَهِ فلا دَهِ، قال سيبويه وغيره: لا يدخل ﴿غُزًّى﴾ الجر ولا الرفع. وقرأته عامة القراء بتشديد الزاي، وقرأ الحسن بن أبي الحسن والزهري: [غُزَى] مخففة الزاي، ووجهه إما أن يريد غزاةً، فحذف الهاءَ إخلاداً إلى لغة من يقول: ﴿غزًّى﴾ بالتشديد، وهذا الحرف كثير في كلامهم، ومنه قول الشاعر يمدح الكسائي[2]:

أبى الذمَّ أخلاقُ الكسائيِّ وانتمى به المجدَ أخلاقُ الأبوِّ السوابق

يريد الأبوة جمع أب، كما أن العمومة جمع عم، والبنوة جمع ابن، وقد قالوا: ابن وبنو. وتحتمل قراءتهما أن تكون تخفيفاً للزاي من(غزًّى)، ونظيره قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه: [وكذبوا بآياتنا كِذَابا][3] في قول من قال: إنه تخفيف، وقد

= تفسير ابن جرير واللسان: (استجاب).

(١) النهنهة: الكفُّ، ونهنهه عن الشيء: زَجَره. السَّفَه: خفَّة الحلم. وقولُه: إلاَّدَه فلادَه معناه: إنْ لم يكن هذا الأَمر الآن فلا يكون بعد الآن، ولا يُدرى ما أَصْلُه. قال الجوهري: إنِّي لأَظنها فارسية: يقول: إن لم تضربه الآن فلا تضربه أبداً. والقُوَّل: جمع قائل ـ مثل راكع ورُكَّع. اللسان في مادة (دَهْدَه).

(٢) البيت للقَنَّانيِّ كما في «اللسان» في مادة: (أَبَى). والقنَّانِيُّون عدة بَين كتَّاب وغيرهم. قال ابن سيدَه: الأَب: الوالد، والجمع أَبون، وآباءُ، وأُبُوٌّ، وأُبُوَّة ـ عن اللحياني.

(٣) الآية (٢٨) من سورة النبأ.

قيل: إنه مصدر جرى على غير المصدر، وقرأ الحسن: [وما قتّلوا] مشددة التاء.

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ اللهُ ذلك حَسْرَةً﴾ قال مجاهد: معناه: يحزنهم قوله ولا ينفعهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالإشارة بـ ﴿ذلِكَ﴾ إلى هذا المعتقد الذي لهم، جعل الله ذلك حسرة، لأن الذي يتيقن أن كلَّ موتٍ وقتلٍ فبأجل سابق، يجد برد اليأس والتسليم لله تعالى على قلبه، والذي يعتقد أن حميمه لو قعد في بيته لم يمت يتحسر ويتلهف. وعلى هذا التأويل مشى المتأولون، وهو أظهر ما في الآية.

وقال قوم: الإشارة بـ ﴿ذلِكَ﴾ إلى انتهاء المؤمنين ومخالفتهم الكافرين في هذا المعتقد، فيكون خلافهم لهم حسرة في قلوبهم. وقال قوم: الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى نفس نهي الله تعالى عن الكون مثل الكافرين في هذا المعتقد، لأنهم إذا رأوا أن الله تعالى قد وسمهم بمعتقد وأمر بخلافهم كان ذلك حسرةً في قلوبهم. ويحتمل عندي أن تكون الإشارة إلى النهي والانتهاء معاً، فتأمله. والحسرة: التلهف على الشيء والغم به.

ثم أخبر تعالى خبراً جزماً أنه الذي يحيي ويميت بقضاء حتمٍ، لا كما يعتقد هؤلاء. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: [واللهُ بما يَعْملون] بالياء، فهذا وعيد للمنافقين، وقرأ الباقون: ﴿تعْمَلون﴾ بالتاء على مخاطبة المؤمنين، فهذا توكيدٌ للنهي في قوله: ﴿لا تَكُونوا﴾، ووعيدٌ لمن خالفه، ووعد لمن امتثله.

قوله عز وجل:

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

اللام في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن﴾ هي المؤذنة بمجيء القسم، واللام في قوله: ﴿لَمغفرة﴾ هي المتلقية للقسم، والتقدير: واللهِ لمَغفرة.

وترتب الموت قبل القتل في قوله: ﴿ما ماتُوا وما قُتِلوا﴾ مراعاة لرتبة الضرب في

الأرض والغزو ، فقدم الموت الذي هو بإزاء المتقدم الذكر ، وهو الضرب ، وقدَّم القتل في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُم﴾ لأنه ابتداء إخبار ، فقدم الأشرفَ الأهمَّ ، والمعنى: أو متم في سبيل الله ، فوقع أجركم على الله ، ثم قدم الموت في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّم أَوْ قُتِلْتُم﴾ لأنها آية وعظ بالآخرة والحشر ، وآية تزهيدٍ في الدنيا والحياة. والموت المذكور فيها هو موتٌ على الإطلاق في السبيل وفي المنزل وكيف كان ، فقُدِّم لعمومه وأنه الأغلب في الناس من القتل.

وقرأ نافع وحمزة والكسائي: [مِتُّم] بكسر الميم و[مِتْنا] و[مِتَّ] بالكسر في جميع القرآن ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: بضم الميم في جميع القرآن ، وروى أبو بكر عن عاصم ضم الميم في جميع القرآن ، وروى عنه حفص ضم الميم في هذين الموضعين: ﴿أو مُتّم﴾ ﴿ ولئن مُتّم﴾ فقط، وكسر الميم حيث ما وقعت في جميع القرآن. قال أبو علي: ضمُّ الميم هو الأشهر والأقيس ، مُتَّ تموت مثل: قُلتَ تَقول وطُفْتَ تطوف ، والكسرُ شاذٌّ في القياس وإن كان قد استعمل كثيراً ، وليس كما شذّ قياساً واستعمالاً كشذوذ اليَجَدَّع[1] ونحوه ، ونظير مِتّ تموت بكسر الميم: فضِل بكسر الضاد يفضل في الصحيح وأنشدوا[2]:

ذكرت ابنَ عباسٍ بباب ابن عامر وما مرَّ من عمري ذكرت وما فضِلْ

وقوله تعالى: ﴿لَمَغْفِرةٌ﴾ رفع بالابتداء ﴿وَرَحْمةٌ﴾ عطف على المغفرة و﴿خيْرٌ﴾ خبر الابتداء، والمعنى: المغفرة والرحمة اللاحقة عن القتل أو الموت في سبيل الله خير ، فجاء لفظ المغفرة غيرَ مُعَرّفٍ إشارة بليغة إلى أن أيسر جزء منها خير من الدنيا ، وأنه كافٍ في فوز العبد المؤمن ، وتحتمل الآية أن يكون قوله: ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ إشارة إلى القتل أَو الموت في سبيل الله ، سمى ذلك مغفرةً ورحمةً إذ هما مقترنان به ، ويجيء التقدير: لذلك مغفرة ورحمة ، وترتفع المغفرة على خبر الابتداء المقدر ، وقوله: ﴿خيْرٌ﴾ صفة لخبر الابتداء.

---

(١) هذه الكلمة قافية بيت قائله ذو الخرق الطهوي ، ذكره صاحب «اللسان» في مادة: (جَدَع). وفي (خزانة الأدب ٢ : ٤٨٨) ونصب البيت هو:

يقول الخنى وأبغض العجم ناطقاً إلى ربنا صوتُ الحمار الْيَجَدَّع

(٢) قائله: أبو الأسود الدؤلي كما في (الأغاني ١٣ : ٣٢٢).

وقرأ جمهور الناس: (تَجمعون) بالتاء على المخاطبة وهي أشكل بالكلام، وقرأ قوم منهم عاصم فيما روى عنه حفص: ﴿يجمعون﴾ بالياء، والمعنى: مما يجمعه المنافقون وغيرهم.

ثم ذكر تعالى الحشر إليه، وأنه غايةٌ لكلِّ أَحَدٍ قُتل أو مات. وفي الآية تحقيرٌ لأمرِ الدنيا وحضٌّ على طَلَبِ الشهادةِ، أي: إذا كان الحشر في كلا الأمرين فالمضيُّ إليه في حال الشهادة الأولى.

وقوله تعالى: ﴿فَبِما رحْمةٍ مَنَ اللهِ﴾ معناه: فبرحمة من الله و﴿ما﴾ قد جرد عنها معنى النفي، ودخلت للتأكيد، وليست بزائدة على الإطلاق لا معنى لها، وأطلق عليها سيبويه اسم الزيادة من حيث زال عملها، وهذه بمنزلة قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾[(١)] قال الزجاج: الباء بإجماع من النحويين صلةٌ وفيها معنى التأكيد[(٢)]. ومعنى هذه الآية: التقريع لجميع من أخل يوم أُحُد بمركزه، أي: كانوا يستحقون الملام منك، وألاَّ تلين لهم، ولكن رحمَ الله جميعكم، أنت يا محمد بأن جعلك الله على خلق عظيم، وبعثك لتتممَ محاسنَ الأخلاق، وهُمْ بأنْ لَيَّنَكَ الله لهم. وَجُعِلْتَ بهذه الصفات لما علم تعالى في ذلك من صلاحهم، وأنك لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك وتفرقوا عنك.

والفظُّ: الجافي في منطقه ومقاطعه، وفي صفة النبي عليه السلام في الكتب المنزلة: ليس بفظ ولا غليظٍ ولا صخّابٍ في الأسواق[(٣)]، وقال الجواري لعمر بن الخطاب: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله[(٤)].... الحديث، وفظاظة عمر بن الخطاب

---

(١) تكررت في الآيتين: (٥٥) من سورة (النساء) و(١٣) من سورة (المائدة).

(٢) للعلماءِ في (ما) هذه كثير من الآراء، قيل: إنها نكرة تامة و(رحمة) بدل منها ـ وقيل: إنها استفهامية للتعجب، وقيل: إنها نافية ـ وكل قول من هذه الأقوال مردد وموضع مناقشة وبخاصة كونها استفهامية، وأصح الأقوال قول الزجاج وهي أنها للتأكيد. قال النابغة:

المـــــرءُ يهـــــوى أن يَعيـــــشَ وطـــول عيـــش مـــا يضـــره

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير، والترمذي في الشمائل في باب ما جاءَ في خُلُق رسول الله ﷺ: (بضم الخاء واللام). وأخرجه البيهقي، وأبو نعيم عن أم الدرداءِ أو امرأةِ أبي الدرداءِ. (القسطلاني في المواهب بشرح الزرقاني ٦: ١٩٣).

(٤) أخرجه البخاري في فضل عمر، وفي صفة إبليس، ومسلم في الفضائل، والنسائي في المناقب، =

رضي الله عنه إنما كانت مستعملة منه آلةً لعضد الحقِّ والشدة في الدين ، والفظاظة الجفوةُ في المعاشرة قولاً وفعلاً ، ومنه قول الشاعر[١]:

أخشى فظاظة عمّ أو جفاء أخٍ وكنتُ أخشى عليها من أذى الكلم

وغلظ القلب: عبارة عن تجهم الوجه وقلة الانفعال في الرغائب وقلة الإشفاق والرحمة، ومن ذلك قول الشاعر[٢]:

يُبَكَى علينا ولا نبكي على أحدٍ لَنحنُ أغلظُ أكباداً من الإبل

والانفضاض: افتراق الجموع ، ومنه فض الخاتم.

قوله عز وجل:

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

أمر الله تعالى رسوله بهذه الأوامر التي هي بتدريج بليغ ، وذلك أنه أمره بأن يعفو عليه السلام عنهم ما له في خاصته عليهم من تبعة وحق ، فإذا صاروا في هذه الدرجة أمره أن يستغفر لهم فيما لله عليهم من تبعة ، فإذا صاروا في هذه الدرجة كانوا أهلاً للاستشارة في الأمور.

والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب ، هذا ما لا خلاف فيه ، وقد مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[٣] وقال النبي ﷺ: (ما خاب من استخار ولا ندم من استشار)[٤] وقال عليه

= وفي اليوم والليلة. (القسطلاني ٥: ٣٠٢). والجواري: جمع جارية.

(١) نسبه أبو تمام في الحماسة (شرح المرزوقي: ٢٨٢ ـ ٢٨٤) إلى إسحق بن خلف وهو من أبيات يشكو فيها الفقر ويحاذر على بنته أميمة من ذل اليتم والفقر ويتمنى لشدة محبته لها موتها.

(٢) قائل البيت: المخبل السعدي ، وهو شاعر مخضرم ، قيل: اسمه ربيعة بن مالك ، وقيل: كعب بن ربيعة ، وقيل الربيع بن ربيعة. «الشعر والشعراءُ» و«الأغاني». والإصابة».

(٣) من الآية (٣٨) من سورة الشورى.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط ، عن أنس (الجامع الصغير ٢: ٤٢٥).

السلام (المستشار مؤتمن)[١]. وصفة المستشار في الأحكام أن يكون عالماً ديِّنا، وقل ما يكون ذلك إلا في عاقل، فقد قال الحسن بن أبي الحسن: «ما كمل دينُ امرىء لم يكمل عقله». وصفة المستشار في أمور الدنيا أن يكون عاقلاً مجرباً واداً في المستشير. والشورى بركة، وقد جعل عمر بن الخطاب الخلافة ـ وهي أعظم النوازل ـ شورى، وقال الحسن: والله ما تشارو قوم بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما بحضرتهم، وكان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه، وقد قال في غزوة بدر: (أشيروا علي أيها الناس)[٢]، في اليوم الذي تكلَّم فيه المقداد[٣] ثم سعد بن عبادة[٤]. ومشاورته عليه السلام إنما هي في أمور الحروب والبعوث ونحوه من أشخاص النوازل، وأما في حلال أو حرام أو حدّ فتلك قوانين شرع ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[٥]، وكأن الآية نزلت مؤنسة للمؤمنين، إذ كان تغلبهم على الرأي في قصة أُحُد يقتضي أن يعاقبوا بألاَّ يشاوروا في المستأنف.

وقرأ ابن عباس: [وشَاوِرْهُم في بعْضِ الأمْر]، وقراءة الجمهور إنما هي باسم الجنس الذي للبعضِ وللكل، ولا محالة أن اللفظَ خاصٌّ بما ليس من تحليل وتحريم، والشورى مبنية على اختلاف الآراء، والمستشير ينظر في ذلك الخلاف ويتحيز، فإذا أرشده الله تعالى إلى ما شاء منه عزم عليه وأنفذه متوكلاً على الله، إذ هي غاية الاجتهاد المطلوب منه، وبهذا أمر تعالى نبيه في هذه الآية[٦].

---

(١) أخرجه الأربعة عن أبي هريرة، والترمذي عن أم سَلَمة، وابن ماجه ـ عن ابن مسعود ـ (الجامع الصغير ١: ٥٧٥).

(٢) ذكره ابن هشام في سيرته (٢: ٤٤٧) كما نقله عنه القسطلاني في «المواهب اللدنية» بهذا اللفظ (١: ٤١٢).

(٣) هو المقداد بن عمرو الكندي البهراني، وقيل: الحضرمي، تبنَّاه الأسود صغيراً فنسب إليه، وهو ممَّن شهد بدراً فارساً مع بقية المشاهد بعدها، وهاجر الهجرتين، وهو أحد السبعة الذين هم أول من أظهر الإِسلام، واشتهرت كلمته التي سرّ بها النبي ﷺ في غزوة بدر، توفي بمصر، ودفن بالمدينة، صلى عليه عثمان بن عفان. «الإِصابة» و«الاستيعاب».

(٤) هو سعد بن عبادة الأنصاري، سيد الخزرج المكنى أبا ثابت وأبا قيس، ويقال له: الكامل، شهد العقبة، وهو أحد النقباءِ، وصاحب راية ورياسة الأنصار، كما عرف هو وأهْله بالجود والكرم، واختلفَ في شهوده بدراً، وتوفي بحوران في الشام سنة: ١٥ وقيل: ١٦ «الإِصابة» و«الاستيعاب».

(٥) من الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٦) والشورى تعطى معنى استخراج رأي المستشار، ولهذا يقال: إنها مأخوذة من قولهم: (شرتُ العَسَل). وأنشدوا قول خالد بن زهير: =

وقرأ جابر بن زيد وأبو نُهَيك وجعفر بن محمد وعكرمة: [عزمتُ] بضم التاء، سمى الله تعالى إرشاده وتسديده عزماً منه، وهذا في المعنى نحو قوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾(١)، ونحو قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(٢)، فجعل تعالى هزمه المشركين بحنين وتشويهَ وجوههم رمياً، إذ كان ذلك متصلاً برمي محمد ﷺ بالحصباء. وقد قالت أم سلمة: ثم عزم الله لي.

والتوكل على الله تعالى من فروض الإيمان وفصوله، ولكنه مقترن بالجد في الطاعة والتشمير والحزامة بغاية الجهد، وليس الإلقاء باليد وما أشبهه بتوكل، وإنما هو كما قال عليه السلام: (قيدها وتوكل)(٣).

ثم ثبت تعالى المؤمنين قوله: ﴿إنْ يَنْصرْكُمُ الله فلا غالبَ لكم﴾ أي: فالزموا الأمور التي أمركم بها ووعدكم النصر معها.

والخذلُ: هو الترك في مواطن الاحتياج إلى التارك، وأصله من خذل الظباء، وبهذا قيل لها: خاذل إذا تركتها أمها، وهذا على النسب أي: ذات خذل لأن المتروكة هي الخاذل بمعنى مخذولة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ذا الذي يَنْصُرُكُم﴾ تقدير جوابه: لا من، والضمير في ﴿بَعْدِه﴾ يحتمل العودة على المكتوبة، ويحتلم العودة على الخذل الذي تضمنه قوله: ﴿وإنْ يَخْذُلْكُم﴾.

= وقاسمتها بالله حقّاً لأنتُمُ ... ألَذُّ من السَّلْوى إذا ما نشورها

والسلوى على كلامه: العسل، وقد جاءَ في (اللسان): قال الزجاج: أخطأ خالد، إنما السلوى طائر. وقال الفارسي: السلوى: كل ما سلاك، وقيل للعسل: سلوى لأنه يسَلّيك بحلاوته وتأتيه عن غيره يردُّ بذلك على أبي إسحق الزجاج.

وقال الأعشى:

كأن جنيّاً من الزنجبيـ ... ـل خالط فاها وأرْياً مشورا

وجنيٌّ: فعيل من جنى الثمر يجنيه، والزنجبيل: نبات طيب الرائحة معروف، والأرْي: عسل النحل، وشار العسل واشتاره: جمعه.

(١) من الآية (١٠٥) من سورة النساء.

(٢) من الآية (١٧) من سورة الأنفال.

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» عن عمرو بن أمية الضمري. «الجامع الصغير ٢: ٢١٩». كما رواه الترمذي عن أنس بلفظ: (اعقِلْها وتوكل). ورواية البيهقي أصح كما في «الجامع الصغير» ١: ١٥٥».

قوله عز وجل:

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

تقدم القول في صيغة: وما كان لكذا أن يكون كذا، في قوله تعالى: ﴿وما كانَ لِنفْسٍ أَنْ تَموتَ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: ﴿يَغُلَّ﴾ بفتح الياء وضم الغين، وبها قرأ ابن عباس وجماعة من العلماء. وقرأ باقي السبعة: [أن يُغَلَّ] بضم الياء وفتح الغين، وبها قرأ ابن مسعود وجماعة من العلماء. واللفظة: بمعنى الخيانة في خفاء. قال بعض اللغويين: هي مأخوذة من الغلل؛ وهو الماء الجاري في أصول الشجر والدوح، قال أبو علي: تقول العرب: أغلَّ الرجل يُغلُّ إغلالاً: إذا خان ولم يؤدِّ الأمانة، ومنه قول النمر بن تولب[1]:

جـزى الله عنـي جَمْـرَةَ بنـةَ نـوفـل ... جـزاءَ مُغِـلٍّ بـالأمـانـةِ كـاذبِ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقال شريح: ليس على المستعير غير المُغِلّ ضمان. قال أبو علي: وتقول في الغِل الذي هو الضغن: غَلَّ يَغِلُّ بكسر الغين. ويقولون في الغلول من الغنيمة: غَلَّ يَغُلُّ بضم الغين. والحجة لمن قرأ يَغُلَّ أن ما جاء من هذا النحو في التنزيل أُسند الفعل فيه إلى الفاعل على نحو: ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾[2] ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾[3] ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ ﴾[4] ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾[5] ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾[6] ولا يكاد يجيء: ما كان زيد ليُضْرَبَ فيسند الفعل فيه إلى المفعول به.

---

(١) هوالنمر بن تولب العكلي، أحد الشعراءِ المخضرمين، وفد على النبي ﷺ، ومدحه بشعر، وكتب له النبي ﷺ كتاباً، ثم نزل بعد ذلك البصرة، وكان جواداً، وعمَّر طويلاً، يقال: عاش مائة سنة. «الإصابة والاستيعاب» و«تهذيب التهذيب» ١٠: ٤٧٤.

(٢) من الآية (٣٨) من سورة يوسف.

(٣) من الآية (٧٦) من سورة يوسف.

(٤) من الآية (١٤٥) من سورة آل عمران.

(٥) من الآية (١١٥) من سورة التوبة.

(٦) من الآية (١٧٩) من سورة آل عمران.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا الاحتجاج نظر

وروي عن ابن عباس أنه قرأ ﴿يَغُلّ﴾ بضم الغين، فقيل له: ان ابن مسعود قرأ [يُغَلّ] بفتح الغين، فقال ابن عباس: بلى والله وَيُقْتَل.

واختلف المفسرون في السبب الذي أوجب أن ينفي الله تعالى عن النبيّ أن يكون غالاً على هذه القراءة ـ التي هي بفتح الياء وضم الغين ـ فقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم: نزلت بسبب قطيفةٍ حمراء فُقِدَتْ من المغانم يوم بدر، فقال بعضُ من كان مع النبي ﷺ: ولعل رسول الله أخذها، فنزلت الآية[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

قيل: كانت هذه المقالة من مؤمنين لم يظنوا أنَّ في ذلك حرجاً، وقيل: كانت من منافقين، وقد روي أن المفقود إنما كان سيفاً. قال النقاش: ويقال: إنما نزلت لأن الرماة قالوا يوم أُحد: الغنيمةَ الغنيمةَ أيها الناس، إنما نخشى أن يقول النبي ﷺ: من أخذ شيئاً فهو له، فلما ذكروا ذلك للنبي ﷺ، قال: (خشيتم أن نغل؟)[٢] ونزلت هذه الآية. وقال الضحاك: بل السبب أن رسول الله ﷺ: بعث طلائع في بعض غزواته ثم غنم قبل مجيئهم، فقسم للناس ولم يقسم للطلائع، فأنزل الله تعالى عليه عتاباً: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ أي: يقسم لبعض ويترك بعضاً[٣]، وروي نحو هذا القول عن ابن عباس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويتجه على هذا أن تكون الآية إعلاماً بعدل رسول الله ﷺ وقسمه للغنائم، ورداً على الأعراب الذين صاحوا به: اقسم علينا غنائمنا يا محمد، وازدحموا حتى اضطروه

---

(١) أخرجه أبو داود، وعبد بن حميد الترمذي، وحسنَّه، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق مقسم عن ابن عباس. «الدر المنثور للسيوطي ٢: ٩١». و«ابن كثير ١: ٤٢١».

(٢) ذكره الثعلبي، والواحدي عن الكلبي ومقاتل. (الكشاف ١: ٤٣٤). والبغوي، والخازن في الجزءِ الأول ص: ٣٦٩.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن جرير من طريق سلمة بن نبيط ـ عن الضحاك. (الدر المنثور للسيوطي ٢: ٩١)، وأخرجه الطبري، والواحدي في أسبابه. (الكشاف ١: ٣٤٣).

إلى السمرة التي أخذت رداءه[١] ونحا إليه الزجاج. وقال ابن إسحق: الآية إنما نزلت إعلاماً بأن النبي عليه السلام لم يكتم شيئاً مما أمر بتبليغه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكأن الآية على هذا في قصة أُحد، لما نزل عليه: ﴿وشاوِرْهُم في الأَمْرِ﴾ إلى غير ذلك مما استحسنوه بعد إساءتهم من العفو عنهم ونحوه، وبالجملة فهو تأويلٌ ضعيف، وكان يجب أن يكون ـ (يُغِلّ) بضم الياء وكسر الغين، لأنه من الإغلال في الأمانة. وأما قراءة من قرأ: [أَن يُغَلّ] بضم الياء وفتح الغين، فمعناها عند جمهور من أهل العلم: أن ليس لأحدٍ أن يَغُلَّه، أي يخونه في الغنيمة. فالآية في معنى نهي الناس عن الغلول في المغانم والتوعّد عليه.

وخص النبي بالذكر وإن كان ذلك محظوراً مع الأمراء لشنعة الحال مع النبي ﷺ، لأن المعاصي تعظم مع حضرته لتَعَيُّنِ توقيره، والولاةُ وإنما هم عن أمر النبي ﷺ فلهم حظهم من التوقير. وقال بعض الناس: معنى ﴿أَنْ يُغَل﴾ أن يوجد غالاً، كما تقول: أحمدتُ الرجل وجدته محموداً، فهذه القراءة ـ على هذا التاويل ـ ترجع إلى معنى ﴿يَغُلّ﴾ بفتح الياء وضم الغين، وقال أبو علي الفارسي: معنى [يُغَلّ] بضم الياء وفتح الغين يقال له: غللت وينسب إلى ذلك، كما تقول أسقيته، إذا قلت: سقاك الله، كما قال ذو الرمة:

وأَسْقيه حتى كادَ مما أَبُثُّه ... تكلّمني أحجارُهُ وملاعِبُهُ[٢]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل موقِّر للنبي عليه السلام. ونحوه في الكلام: أكفرتُ الرجل إذا نسبته إلى الكفر، وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا آكل سمناً حتى يحيا الناس

---

(١) أخرجه أبو داود، والإمام أحمد، ورجال أحد أسانيده ثقات. (مجمع الزوائد ٦ : ١٨٧ وسيرة ابن هشام ٤ : ٩٢٨).

(٢) سقيتُ فلاناً وأسْقيته: إذا قلتُ له: سقاك الله. وبثَّ الشكوى: جهر بها والملاعب: ملاعب الصبيان في الدار من ديارات العرب حيث يلعبون، والواحد ملعب. وقبله:

وقفتُ على ربعٍ لميَّة ناقَتي ... فما زِلْتُ أبكي عِنْدَهُ وأخاطِبُهْ

من أول ما يحيون»[١] ، أي يدخلون في الحيا[٢] .

وقوله تعالى: ﴿ومَنْ يَغْلُلْ يأتِ بما غلَّ يومَ القيامةِ﴾ وعيدٌ لمن يغلّ من الغنيمة ، أو في زكاته فيجحدها ويمسكها ، فالفضيحةُ يوم القيامة بأن يأتي على رؤوس الأشهاد بالشيء الذي غَلَّ في الدنيا. وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ خطب فقال: (ألا عسى رجلٌ منكم يجيء يومَ القيامةِ على رقبته شاةٌ لها ثغاء ، يقول: يا رسول الله أَغِثْني ، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك)[٣] ثم ذكر ذلك عليه السلام في بقرة لها خوارٌ ، وجملٍ له رغاءٌ ، وفرسٍ له حمحمة. وروى نحو هذا الحديث ابن عباس ، قال النبي ﷺ: (لا أعرفنَّ أحدكم يأتي يومَ القيامة يحملُ شاة لها ثغاء. . . .) الحديث بطوله[٤]. وروى نحوه أبو حميد الساعدي[٥] وعمر بن الخطاب وعبد الله بن أنيس[٦]. وقال رسول الله ﷺ: (أدوا الخياط والمخيط)[٧] فقام رجل فجاء بشراك أو شراكين ،

(١) كان ذلك في عام الرمادة ، وهو عام أصاب الناس فيه مجاعة وهي سنة: ١٧ من الهجرة. (تاريخ الخلفاءِ للسيوطي ١٣٠ . ط . السعادة بمصر) .

(٢) والحيا، مقصور: الخصب ، والجمع أحياءٌ، وقد جاءَ ممدوداً بمعنى المطر والخصب، والحياة: نقيض الموت. والحياءُ: التوبة والحشمة.

(٣) أخرجه بطوله ابن أبي شيبة ، والإِمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وابن جرير ، والبيهقي ، في الشعب عن أبي هريرة قال: (قام فينا رسول الله ﷺ يوماً فذكر الغلول فعظَّمه وعظَّم أمره ، ثم قال: ألا لا ألفينَّ أحدكم). (الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٩٢).

(٤) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس (٤: ١٥٩) ، وذكره ابن كثير بطوله وقال: لم يَرْوِهِ أَحَد من أهل الكتب الستة (١: ٤٢١).

(٥) هو أبو حميد الساعدي الأنصاري الصحابي المشهور ، عبد الرحمن بن سعد ، له ذكر في الصحيحين ، شهد أُحُداً وما بعدها ، وتوفي آخر خلافة معاوية. «الاستيعاب» والإِصابة ٤ : ٤٦ .

(٦) لعله عبد الله بن أنيس الجهني لأنه أشهر الخمسة الذين شاركوه في اسمه واسم أبيه ، قاله الزرقاني على «المواهب اللدنية» في سرية «عبد الله بن أنيس» ، وقال: لا معنى للتردد في أنه غيره (٢: ٦٣). وترجم له في سيرة ابن هشام ، وذكر قصيدته التي قالها في قتل ابن نبيح (٤: ٢٦٧). وترجم له الحافظ في «الفتح» في «باب الخروج في طلب العلم» من البخاري (١: ١٢٧). كما ترجم له في الإِصابة أيضاً بطول (٢: ٢٧٨) وقال فيه صاحب «الاستيعاب»: كان مهاجرياً أنصارياً عقبياً. وترجم له السيوطي في (إِسعاف المبطا (١٩٧).

(٧) أخرجه الدارمي في سننه ، عن عبادة بن الصامت (٢: ٢٣٠) وأخرجه الموطَّأ في باب ما جاءَ في الغلول (٣: ٢٩) كما أخرجه أبو داود باختصار ، ورواه الإِمام أحمد ورجال أحد أسانيده ثقات. (مجمع الزوائد ٦: ١٨٧) وكذا ورد في (سيرة ابن هشام. ٤ : ٩٢٨).

فقال رسول الله ﷺ: (شراك أو شراكان من نار)[١] وقال في مدعم[٢]: (إن الشملة التي غَلَّ من المغانم يوم خيبر لَتشتعِلُ عليه ناراً).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الفضيحة التي يوقع الله بالغالّ هي نظيرةُ الفضيحة التي توقَعُ بالغادر؛ في أن يُنْصَبَ له لواء بغدرته حسب قوله عليه السلام[٣]، وجعل الله هذه المعاقبات حسبما يعهده البشر ويفهمونه، ألا ترى إلى قول الحادرة[٤].

أسميَّ ويحكِ هل سمعتِ بغدرةٍ رُفِعَ اللواءُ لنا بها في المجمع

وكانت العرب ترفع للغادر لواءً، وكذلك يطاف بالجاني مع جنايته. وقد تقدم القول في نظير: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضوانَ الله كمَنْ باء﴾.... الآية، توقيفٌ على تباين المنزلتين وافتراق الحالتين، والرضوان: مصدر، وقرأه عاصم ـ فيما روي عنه ـ بضم الراء، وقرأ جميعهم بكسرها، وحكى أبو عمر الداني عن الأعمش أنه قرأها بكسر الراء وضم الضاد، وهذا كله بمعنى واحد مصدر من الرضى. والمعنى: اتبعوا الطاعة الكفيلة برضوان الله، ففي الكلام حذف مضاف[٦].

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي عن أبي هريرة بطوله. (الترغيب والترهيب ٢: ٣٠٩). وأخرجه ابن أبي شيبة عن أبي هريرة أيضاً. (الدار المنثور ٢: ٩٢)، كما أخرجه الدارَوَرْدي عن ثور. (شرح الزرقاني على الموطأ (٣: ٣١).

(٢) مدعم الأسود كان مولى لرفاعة الجذامي، فأهداه للنبي ﷺ، ثبت ذكره في الموطأ، والصحيحين، وهو الذي أغل الشملة يوم خيبر، أصيب بسهم غرب فمات عام خيبر. (الإصابة (٣: ٣٩٤).

(٣) أخرجه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم عن أنس، والإمام أحمد، ومسلم عن ابن مسعود، ومسلم ـ عن ابن عمر بلفظ: (لكل غادر لواءٌ يعرف به يوم القيامة). وأخرجه مسلم عن أبي سعيد بلفظ: (لكل غادر لواءٌ عند أسته يوم القيامة) (الجامع الصغير ٢/ ٣٥٦). وفي «مجمع الزوائد» بروايات وأسانيد متعددة عن الطبراني (١: ٢٣٠) كما أخرجه المنذري والدارمي.

(٤) الحادرة: لقب غلب عليه، واسمه قطبة بن أوس، وهو شاعر جاهلي مُقِلٌّ، ذكر أنه خرج هو وزبان الفزاري يصطادان، فاصطادا جميعاً فخرج زبان يشوي ويأكل وحده في الليل فقال فيه شعراً، فوقع هجاءٌ بينهما (الأغاني ٣: ٢٦٥. والحيوان للجاحظ ٦: ٣٥٨).

(٥) عند تفسير قوله تعالى: ﴿واتَّقوا يوماً تزجعونَ فيه إلى الله، ثمَّ تُوفى كلُّ نفسٍ ما كسَبتْ وهمْ لا يُظلمونَ﴾. وهي الآية (٢٨١) من سورة (البقرة).

(٦) هذا والاستفهام في الآية معناه: النفي، أي: ليس من اتبع رضا الله فامتثل أوامره واجتنب نواهيه كمن=

و﴿باء بسَخَطٍ﴾ معناه: مضى متحملاً له، والسخط: صفة فعل، وقد تتردد متى لحظ فيها معنى الإرادة. وقال الضحاك: إن هذه الآية مشيرةٌ إلى أَن من لم يغلّ واتقى؛ فله الرضوان، وإلى أن مَنْ غلَّ وعصى فله السخط. وقال غيره: هي مشيرة إلى أن من استشهد بأُحُدٍ فله الرضوان، وإلى المنافقين الراجعين عن النبي ﷺ فلهم السخط. وباقي الآية بين.

واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿هُمْ دَرجاتٌ﴾؛ من المراد بذلك؟ فقال ابن إسحق وغيره: المراد بذلك الجمعان المذكوران، أهل الرضوان وأصحاب السخط، أي: لكل صنف منهم تباين في نفسه؛ في منازل الجنة، وفي أطباقِ النارِ أيضاً. وقال مجاهد والسدي ما ظاهره: إن المراد بقوله: ﴿هُمْ﴾ إنما هو لمتبعي الرضوان، أي: لهم درجات كريمة عند ربهم، وفي الكلام حذف مضاف تقديره: هم ذوو درجات، والدرجات: المنازل بعضها أعلى من بعض في المسافة أو في التكرمة، أو في العذاب. وقرأ إبراهيم النخعي: [هُمْ دَرَجَةٌ] بالإفراد. وباقي الآية وعيد ووعد.

قوله عز وجل:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

اللام في ﴿لَقَدْ﴾ لام القسم، و﴿مَنَّ﴾ في هذه الآية معناه تطوّل وتفضل، وقد يقال: مَنّ بمعنى كدَّر معروفه بالذكر، فهي لفظة مشتركة.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ معناه: في الجنس واللسان والمجاورة، فكونه من الجنس يوجب الأنس به وقلة الاستيحاش منه، وكونُه بلسانهم يوجبُ حسنَ التفهيم وقربَ الفهم، وكونه جاراً وربيباً يوجب التصديق والطمأنينة، إذ قد خبروه وعرفوا صدقه وأمانته، فبعث رسول الله ﷺ: في نفس قومه، وكذلك الرسل. قال النقاش: ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت رسول الله ﷺ من قبل أمهاته إلا بني تغلب

= عصاه فباءَ بسخطه، وهو من الاستعارة البديعة، إذ أن ما شرعه الله كالدليل الذي يتبعه من اهتدى به، والعاصي كالشخص الذي أمر بأن يتبع فرجع مصحوباً بما يخالف الاتباع.

لنصرانيتهم. والآيات في هذه الآية تحتمل أن يُرادَ بها القرآن وتحتمل أن يراد بها العلامات ، والأول أظهر.

و﴿يُزَكِّيهم﴾ معناه: يطهرهم من دنس الكفر والمعاصي. قال بعض المفسرين: معناه: يأخذ منهم الزكاة ، وهذا ضعيف.

و﴿الكتاب﴾: القرآن، و﴿الحكمة﴾: السنة المتعلمة من لسانه عليه السلام. ثم ذكر حالتهم الأولى من الضلال ليظهر الفرقَ بتجاور الضدين ، و﴿قَبْلُ﴾: لفظةٌ مبنية لما تضمنت الإضافة ، فأشبهت الحروفَ في تضمُّنِ المعاني فبنيت.

ثم وقف تعالى المؤمنين على الخطأ في قلقهم للمصيبة التي نزلت بهم ، وإعراضهم عما نزل بالكفار ، وعرَّفهم أن ذلك لسبب أنفسهم.

والواو في قوله: ﴿أَوَلَّما﴾ عطف جملة على جملة دخلت عليها ألف التقرير على معنى إلزام المؤمنين هذه المقالة في هذه الحال. والمصيبة التي نالت المؤمنين هي قصة أحد وقتل سبعين منهم. واختلف في المِثْلين اللذين أصاب المؤمنون فقال قتادة والربيع وابن عباس وجمهور المتأولين: ذلك في يوم بدر، قتل المؤمنون من كفار قريش سبعين وأسروا سبعين، وقال الزجاج: أحد المثلين: هو قتل السبعين يوم بدر ، والثاني: هو قتل اثنين وعشرين من الكفار يوم أحد ، فهو قتل بقتل. ولا مدخلَ للأسرى في هذه الآية ، هذا معنى كلامه ، لأن أسارى بدر أسروا ثم فدوا ، فلا مماثلة بين حالهم وبين قتل سبعين من المؤمنين. و﴿أنَّى﴾ معناها: كيف؟ ومن أين؟ ثم أمر نبيه عليه السلام أن يقول لهم: هو من عند أنفسكم.

واختلف الناس كيف هو من عند أنفسهم ولأي سبب؟ فقال الجمهور من المفسرين: لأنهم خالفوا رسول الله ﷺ في الرأي حين رأى أن يقيم بالمدينة ويترك كفار قريش بشرِّ المحبس ، فأبوا إلا الخروج حتى جرت القصة. وقالت طائفة: قوله تعالى: ﴿مِنْ عِند أَنفُسِكم﴾ إشارةٌ إلى عصيانِ الرماة وتسبيبهم الهزيمةَ على المؤمنين. وقال الحسن وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما: بل ذلك لما قبلوا الفداءَ يومَ بدر ، وذلك أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما فرغتْ هزيمةُ المشركين ببدر جاء جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله قد كره ما يصنع قومك في أخذِ الأسارى، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين: أن يقدّموا الأسارى فتضرب أعناقهم ، أو يأخذوا الفداءَ على أن

يقتل من أصحابك عدة هؤلاء الأسارى. فدعا رسول الله ﷺ الناسَ فذكر ذلك لهم فقالوا: يا رسول الله، عشائرنا وإخواننا، بل نأخذ فداءَهُمْ فنتقوَّى به على قتال عدونا ويستشهدُ منّا عدتهم، فليس في ذلك ما نكره، قال: فقتل منهم يومَ أُحُدٍ سبعون رجلاً[١].

قوله عز وجل:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾.

الخطاب بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم﴾ للمؤمنين، والجمعان هما عسكر النبي ﷺ وعسكر قريش يوم أحد، ودخلت الفاء في قوله: ﴿فَبِإِذْنِ الله﴾ رابطة مشددة، وذلك للإبهام الذي في ﴿ما﴾ فأشبه الكلام الشرط، وهذا كما قال سيبويه: الذي قام فله درهمان، فيحسن دخول الفاء إذا كان القيامُ سببَ الإعطاء، وكذلك ترتيبُ هذ الآية، فالمعنى إنما هو: وما أذن الله فيه فهو الذي أصاب، لكن قَدَّمَ الأهمَّ في نفوسهم والأقربَ إلى حسهم. والإذن: التمكين من الشيء مع العلم به[٢].

وقوله تعالى: ﴿ولِيَعْلَم﴾ معناه: ليكون العلم مع وجود المؤمنين والمنافقين، أي مساوقين للعلم الذي لم يزل ولا يزال[٣]. واللام في قوله: ﴿ليعْلَم﴾ معلقة بفعل مقدر

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، الترمذي وحسَّنه، والنسائي، وابن جرير، وابن مردويه ـ عن عليٍّ، الحديث بطوله، ورواه الترمذي، والنسائي من طريق أبي داود الحفري عن عليٍّ، وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة، ورُوي عن ابن سيرين، عن عبيدة، عن النبي ﷺ مرسلاً. «فتح القدير للشوكاني ١: ٣٦٣». و«ابن كثير ١: ٤٢٤» و«الدر المنثور للسيوطي ٢: ٩٣».

(٢) نقل أبو حيان كلام ابن عطية هذا ثم عقَّب عليه بقوله: «لما كان من حيث المعنى أن الإصابة مترتبة على تمكين الله من ذلك حمل الآية على ذلك وادعى تقديماً وتأخيراً ولا تحتاج الآية إلى ذلك، لأنه ليس شرطاً وجزاءً فيحتاج فيه إلى ذلك، بل هذا من باب الإخبار عن شيءٍ ماض، والإخبار صحيح، أخبر تعالى أن الذي أصابهم يوم أحد كان لا محالة بإذن الله، فهذا إخبارٌ صحيح، ومعنى صحيح، فلا نتكلَّف تقديماً ولا تأخيراً ونجعله من باب الشرط والجزاء» (٣/١٠٩).

(٣) وقيل: هو على حذف مضاف، أي: وليعلم إيمان المؤمنين، وليعلم نفاق الذين نافقوا، وقيل: المعنى: وليميز أعيان المؤمنين من أعيان المنافقين، وقيل: ليظهر إيمان هؤلاء ونفاق هؤلاءِ. راجع تفسير قوله تعالى: [لنَعْلَم مَن يتَّبع الرسول ممَّن ينْقلب على عَقِبَيْه].

في آخر الكلام، والإشارة بقوله: ﴿نافقوا وقِيلَ لَهُمْ﴾ هي إلى عبد الله بن أبي وأصحابه الذين انصرفوا معه عن النبي ﷺ يوم أحد، وذلك أنه كان من رأى عبد الله بن أبي ألاَّ يخرج إلى كفار قريش، فلما خرج رسول الله ﷺ بالناس على الوجه الذي قد ذكرناه، قال عبد الله بن أبي: أطاعهم وعصاني، فانخزل بنحو ثلث الناس، فمشى في أثرهم عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري[١] أبو جابر بن عبد الله بن حرام فقال لهم: اتقوا الله ولا تتركوا نبيكم، وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، أو نحو هذا من القول، فقال له ابن أبي: ما أرى أن يكون قتال، ولو علمنا أن يكون قتالٌ لكنا معكم. فلما يئس منهم عبد الله قال: اذهبوا أعداءَ الله، فسيُغني الله رسولَهُ عنكم، ومضى مع النبي ﷺ فاستشهد.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿أو ادْفعوا﴾ ـ فقال السدي وابن جريج وغيرهم: معناه: كثروا السواد وإن لم تقاتلوا، فيندفع القوم لكثرتكم، وقال أبو عون الأنصاري[٢]: معناه: رابطوا، وهذا قريب من الأول، ولا محالة أن المرابط مدافع، لأنه لولا مكان المرابطين في الثغور لجاءها العدو، والمكثّر للسواد مدافع. وقال أنس بن مالك: رأيت يومَ القادسية عبد الله بن أم مكتوم الأعمى[٣]، وعليه درع يجرّ أطرافها وبيده راية سوداء، فقيل له: أليس قد أنزل الله عذرك؟ قال: بلى، ولكني أكثّر المسلمين بنفسي، وروي أنه قال: فكيف بسوادي في سبيل الله. وذهب بعض المفسرين إلى أن قول عبد الله بن عمرو: ﴿أو ادْفعوا﴾ إنما هو استدعاء للقتال حميةً، لأنه دعاهم إلى القتال في سبيل الله، وهو أن تكون كلمة الله هي العليا، فلما رأى أنهم ليسوا أهلَ ذلك، عرض عليهم الوجه الذي يحشمهم ويبعثُ الأنفة، أي: أو قاتلوا

---

(١) هو عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري الخزرجي السلمي الصحابي المشهور، يكنى أبا جابر، شهد العقبة وبدراً، وكان من النقباءِ، ثبت ذكره في الصحيحين من حديث ولده، وهو أول قتيل قُتل من المسلمين من شهداءِ أُحد، (الإصابة ٢: ٣٥ وكذا الاستيعاب).

(٢) هو أبو عون الأنصاري الشامي الأعور، اسمه عبد الله بن أبي عبد الله، قال الحاكم أبو أحمد: أبو عون اسمه أحمد بن عمير، ذكره ابن حبان في الثقات. (تهذيب التهذيب ١٢: ١٩١).

(٣) ابن أم مكتوم هو عبد الله بن عمرو بن شريح ـ هكذا في الإصابة (٢: ٣٥١) وفي الاستيعاب: عبد الله بن زائدة بن الأصم، هو ابن أم مكتوم القرشي العامري الأعمى، لم يختلفوا أنه من بني عامر، وقيل: اسمه عمرو، واسم أمه أم مكتوم عاتكة، كان يؤذن مع بلال، شهد القادسية. قال الزرقاني على الموطأ: قيل: استشهد بالقادسية، وقيل: مات بالمدينة.

دفاعاً عن الحوزة، ألا ترى أن قزمان[١] قال: «والله ما قاتلت إلا على أحساب قومي»، وألا ترى أن بعض الأنصار قال يوم أحد، لما رأى قريشاً قد أرسلت الظهر في زروع قناة قال: «أَتُرْعَى زروعُ بني قيلة ولما نضارب»؟ وكان النبي ﷺ قد أمر أَلاَّ يقاتل أحدٌ حتى يأمره بالقتال، وكأن عبد الله بن عمرو بن حرام دعاهم إلى هذا الأمر العربي الخارج عن الدين والقتال في سبيل الله.

وذهب جمهور المفسرين إلى أن قوله: ﴿أَقْرَبُ﴾ مأخوذ من القرب ضد البعد، وسَدَّت «اللام» في قوله: ﴿لِلْكُفْرِ﴾ و﴿للإيمان﴾ مسدّ «إلى». وحكى النقاش أن قوله: ﴿أَقْرَبُ﴾ مأخوذ من القَرَب ـ بفتح القاف والراء ـ وهو الطلب، والقاربُ طالبُ الماء، وليلة القَرَب ليلةُ الورْدِ، فاللفظة بمعنى الطلب، واللام متمكنة على هذا القول[٢].

وقوله: ﴿بأفواهِهِم﴾ تأكيد، مثل: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[٣].

وقوله: ﴿ما ليْسَ في قُلُوبهم﴾ يريد ما يُظهرون من الكلمة الحاقنةِ لدمائهم، ثم فضحهم تعالى بقوله، ﴿والله أعلَمُ بما يكْتُمون﴾ أي: من الكفر وعداوة الدين، وفي الكلام توعد لهم.

---

(١) هو قزمان بن الحارث، حليف بني ظفر أبو الغيداق صاحب القصة يوم أُحد، قيل: ماتَ كافراً فإن في بعض قصته أنه صرح بالكفر، وهو قاتل نفسه. (الإصابة ٣: ٢٣٥)، وأخرج قصته ابن إسحق عن عاصم بن عمر بن قتادة (سيرة ابن هشام ٢: ١٧١).

(٢) قال الحسن: إذا قال الله: (أقرب) فهو اليقين بأنهم مشركون، كقوله: ﴿مائة ألف أو يزيدون﴾ فالزيادة لا شك فيها، والمكلف لا ينفك عن الكفر أو الإيمان، فلما دلت على الأقربية من الكفر لزم حصول الكفر.

وقال الواحدي في الوسيط: هذه الآية دليل على من أتى بكلمة التوحيد لم يكفر لأن الله تعالى لم يطلق القول عليهم بتكفيرهم مع أنهم كانوا كافرين مظهرين لقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وقال الماتريدي: أقرب: أي ألزم على الكفر وأقبل له، مع وجود الكفر منهم حقيقة لا على القرب إليه قبل الوقوع والوجود لقوله: (إنَّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين)، أي هي لهم لا على القرب قبل الوجود.

هذا ـ وأقرب: أفعل تفضيل ـ يُعدى بإلى وباللام، وبمن.

(٣) من الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

قوله عز وجل:

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾.

﴿الَّذين﴾ بدل من ﴿الذين﴾ المتقدم، وإخوانهم: المقتولون من الخزرج، وهي أخوة نسب ومجاورة. وقوله: ﴿لإِخوانِهم﴾ معناه: لأجل إخوانهم، وفي شأن إخوانهم، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لإِخْوانِهم﴾ للأحياء من المنافقين، ويكون الضمير في: ﴿أطاعونا﴾ هو للمقتولين. وقوله: ﴿وقَعَدُوا﴾ جملة في موضع الحال وهي حال معترضة أثناء الكلام. وقوله: ﴿لَوْ أَطاعونا﴾ يريد في ألاَّ يخرجوا إلى قريش.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [ما قُتِّلوا]، بشد التاء، وهذا هو القول بالأجلين، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قلْ فادْرَءُوا﴾ . . . الآية، والدرءُ: الدفع ومنه قول دغفل النسابة(1):

صادف درءُ السيل درءاً يدفعه   والعبء لا تعرفه أو تَرْفَعُهْ

ولزوم هذ الحجة هو أنكم القائلون: إن التوقي واستعمالَ النظر يدفعُ الموت، فتوقوا وانظروا في الذي يغشاكم منه حتف أنوفكم، فادفعوه إن كان قولكم صدقاً، أي: إنما هي آجالٌ مضروبة عند الله.

وقرأ جمهور القراء، ﴿ولا تَحْسبَنَّ﴾ بالتاء مخاطبة للنبي عليه السلام، وقرأ حميد بن قيس: [ولا يَحْسَبن] بالياء على ذكر الغائب، ورويت عن ابن عامر، وذكرها أبو عمرو وكأن الفاعل مقدر: ولا يحسبنَّ أحد أو حاسب. وأرى هذه القراءة بضم الباء فالمعنى: ولا يحسبُ الناس، ويحسبُنّ معناه: يظنّ. وقرأ الحسن: [الَّذين قُتِّلوا]، بشدّ التاء، وابن عامر من السبعة. وروي عن عاصم أنه قرأ: [الَّذين قاتَلُوا] بألف بين القاف والتاء.

---

(١) هو دغفل بن حنظلة بن زيد بن عبدة الشيباني الذهلي النسابة، يقال: له صحبة، قال نوح بن حبيب القرمسي: فيمن نزل البصرة من الصحابة دغفل النسابة. وقال في موضع: يقال إنه رأى النبي ﷺ. قيل: إنه غرق في يوم دولات في قتال الخوارج سنة: ٧٠ «الإصابة. ١: ٤٧٥». قال صاحب الفهرست: «قتلته الشراة ولا مصنف له ١٣١».

وأخبر الله تعالى في هذه الآية عن الشهداء أنهم في الجنة يرزقون ، هذا موضع الفائدة ، ولا محالة أنهم ماتوا وأن أجسادهم في التراب وأرواحهم حية كأرواح سائر المؤمنين ، وفضلوا بالرزق في الجنة من وقت القتل ، حتى كأنَّ حياة الدنيا دائمة لهم.

قال الحسن بن أبي الحسن: ما زال ابنُ آدم يتحمَّد حتى صار حياً لا يموت بالشهادة في سبيل الله. فقوله: ﴿بلْ أحياءٌ﴾ مقدّمة لقوله: ﴿يُرْزَقون﴾ إذ لا يُرْزَقُ إلا حيٌّ وهذا كما تقول لمن ذمَ رجلاً: بل هو رجل فاضل، فتجيء باسم الجنس الذي تركَّبَ عليه الوصف بالفضل.

وقرأ جمهور الناس: ﴿بل أحياءٌ﴾ بالرفع على خبر ابتداء مضمر، أي: هم أحياء ، وقرأ ابن أبي عبلة: [بل أحياءً] بالنصب؛ قال الزجاج: ويجوز النصب على معنى بل أحسبهم أحياء ، قال أبو علي في الأغفال[1]: ذلك لا يجوز لأن الأمر يقين فلا يجوز أن يؤمر فيه بمحسبة، ولا يصحُ أن يضمر له فعل المحسبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فوجه قراءة ابن أبي عبلة أن تضمرَ فعلاً غير المحسبة: أعْتَقِدُهُم أو أَجْعَلُهُم ، وذلك ضعيفٌ إذ لا دلالةَ في الكلام على ما يضمر.

وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهم﴾ فيه حذفُ مضافٍ تقديره: عند كرامة ربهم، لأن (عند) تقتضي غاية القرب، ولذلك لم تصغر ، قاله سيبويه، وورد عن النبي ﷺ أنه قال: (أرواح الشهداء على نهر بباب الجنة يقال له بارق ، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً)[2]. وروي عنه عليه السلام أنه قال: (أرواح الشهداء في جواف طيرٍ خضرٍ تردُ أنهارَ الجنةِ وتأكل من ثمارها)[3].

---

(١) الأغفال: كتاب لأبي علي الفارسي فيما أغفله الزجاج من المعاني. «كشف الظنون» ١: ١٢٧».

(٢) أخرجه الإمام أحمد ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن المنذر ، والطبراني ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في البعث عن ابن عباس (الدر المنثور ٢: ٩٦ وكذا «مجمع الزوائد» ٥: ٢٩٨. والمنذري في «الترغيب والترهيب». ٢: ٢٣٢).

(٣) أخرجه الإمام أحمد ، وهناد ، وعبد بن حميد ، وأبو داود ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس. (الدر المنثور ٢: ٩٥. وفتح القدير للشوكاني ١: ٣٦٧).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه طبقاتٌ وأحوال مختلفة، يجمعها أنهم يرزقون. وقال عليه السلام: (إنما نسمة المؤمن من طير تعلق في ثمار الجنة)(١) ويروى «يَعْلَق» بفتح اللام وبالياء. والحديث معناه في الشهداء خاصة، لأن أرواح المؤمنين غير الشهداء إنما ترى مقاعدها من الجنة دون أن تدخلها، وأيضاً فإنها لا ترزق. وتعلق معناه: تصيب العُلْقَةَ من الطعام، وفتح اللام هو من التعلّق، وقد رواه الفراء في إصابة العلقة، وروى أن النبي ﷺ قال: (إن الله تعالى يطلع إلى الشهداء فيقول: يا عبادي ما تشتهون فأزيدكم؟ فيقولون يا ربنا لا فوق ما أعطيتنا، هذه الجنة نأكل منها حيث نشاء، لكنا نريد أن تردَّنا إلى الدنيا فنقاتل في سبيلك فنقتل مرة أخرى، فيقول تعالى: قد سبق أنكم لا تردون)(٢). وروي أن النبي ﷺ قال لجابر بن عبد الله: (ألا أبشرك يا جابر؟ قال جابر: قلت: بلى يا رسول الله، قال: إن أباك حيث أصيب بأحد، أحياه الله، ثم قال: ما تحب يا عبد الله بن عمرو أن أفعل بك؟ قال: يا رب أحب أن تردني إلى الدنيا فأقاتل فيك فأقتل مرة أخرى)(٣) وقال قتادة رحمه الله: ذكر لنا أن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: ليتنا نعلم ما فعل إخواننا الذين أصيبوا بأُحد، فنزلت هذه الآية(٤). وقال محمد بن قيس بن مخرمة(٥) في حديث: (إن الشهداء قالوا: يا ربنا،

---

(١) أخرجه الإمام أَحمد في مسنده بإسناد فيه الأئمة الثلاثة. عن كعب بن مالك الأنصاري. (ابن كثير ١: ٢٤٧. والقسطلاني في المواهب ٢: ٥٥).

(٢) أَخرجه عبد الرزاق في المصنف، والفريابي وابن أَبي حاتم، والطبراني، وسعيد بن منصور، وهناد، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «الدلائل» ـ عن مسروق (الدر المنثور ٢: ٩٦، وابن اسحق في «السيرة» ٣: ١٢٧. وابن كثير ١: ٢٤٦) قال: وروى نحوه أَنس، وأَبو سعيد.

(٣) أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن أَبي عاصم في «السنة»، وابن خزيمة، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن جابر، وأَخرجه أَيضاً الحاكم عن عائشة. (الدر المنثور للسيوطي ٢: ٩٥. وفتح القدير ١: ٣٦٧. وابن كثير. ١/ ٤٢٧ وابن إِسحق في السيرة ٣: ١٢٧. والقسطلاني في المواهب ٢: ٥٣).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره بلفظه. (٤: ١٧٢. والدر المنثور للسيوطي ٢: ٩٥).

(٥) هو محمد بن قيس بن مخرمة بن عبد المطلب القرشي المطلبي، ذكره العسكري: وقال: لحق النبي ﷺ، وذكره ابن أَبي داود، والبارودي في الصحابة، وجزم البغوي وابن منده وغيرهما أَن حديثه =

ألا رسول يخبر نبينا عنا بما أعطيتنا؟ فقال الله تعالى: أنا رسولكم، فنزل جبريل بهذه الآيات)[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكثرت هذه الأحاديث في هذا المعنى واختلفت الروايات، وجميع ذلك جائز على ما اقتضبته من هذه المعاني[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ﴾ نصبٌ بفي موضع الحال، هو من الفرح بمعنى السرور. والفضل في هذه الآية: التنعيم المذكور.

قوله عزوجل:

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾.

﴿يستبشرون﴾ معناه: يسرون ويفرحون، وليست استفعل في هذا الموضع بمعنى طلب البشارة، بل هي بمعنى: استغنى الله، واستمجد المرخ والعفار[٣]، وذهب قتادة والربيع وابن جريج وغيرهم إلى أن هذا الاستبشار إنما هو بأنهم يقولون: إخواننا الذين تركناهم خلفنا في الدنيا يقاتلون في سبيل الله مع نبيهم فيستشهدون فينالون من الكرامة مثلَ ما نحن فيه فيسرّون لهم بذلك، إذ يُحْصلون[٤] لا خوفٌ عليهم ولا هم

= مرسل، ذكره ابن حبان، وأبو داود في الثقات، روى عن النبي ﷺ، وعن أُمه، عن إسحق، وابن جريج، وغيرهم، (الإصابة ٣: ٤٧٦. وتهذيب التهذيب).

(١) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر ـ عن محمد بن قيس بن مخرمة. (الدر المنثور ٢: ٩٥).

(٢) من أراد استيفاء هذه الأحاديث فليراجع في هذه الموضوع تفسير «ابن كثير»، و«ابن جرير» و«الدر المنثور» للسيوطي.

(٣) في بعض النسخ استحمد، والصواب ما أثبتناه. وفي «مجمع الأمثال» للميداني (٢: ٤٧): في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار. أي استكثرا وأخذا من النار ما حسبهما ـ واستمجد: استفضل، وقيل: معناه: اقتدح. والمرخ: شجر كثير الورق سريعه. والعفار: شجر يتخذ منه الزناد.

(٤) في اللسان في مادة: حَصَل. «أَحْصَل» القوم إذا أَحْصَل نخلهم، أَي: استبان البَسْرُ وتدحرج. وعلى ذلك يكون في هذه الكلمة مجاز، والمراد: إذ يثمر جهادهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والله أَعلم.

يحزنون. وذهب فريق من العلماء ـ وأشار إليه الزجاج وابن فورك ـ إلى أن الإشارة في قوله: ﴿بالَّذين لم يَلْحَقوا﴾ إلى جميع المؤمنين، أي: لم يلحقوا بهم في فضل الشهادة، لكن الشهداء لما عاينوا ثواب الله وقع اليقينُ بأن دينَ الإسلام هو الحق الذي يثيبُ الله عليه، فهم فرحون لأنفسهم بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون للمؤمنين بأنهم لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون. و﴿أَلاَّ﴾ مفعول من أجله، التقدير: بأن لا خوف، ويجوز أن يكون في موضع خفض بدل اشتمال.

ثم أكد تعالى استبشارهم بقوله: ﴿يَسْتَبْشِرونَ بِنِعْمَةٍ﴾، ثم بين تعالى بقوله: ﴿وفَضْلٍ﴾ فوقع إدخاله إياهم الجنة الذي هو فضل منه لا بعمل أحد، وأما النعمة في الجنة والدرجات فقد أخبر أنها على قدر الأعمال.

وقرأ الكسائي وجماعة من أهل العلم: [وإنّ الله] بكسر الألف من (إن)، وقرأ باقي السبعة وجمهور العلماء: ﴿وأَنَّ الله﴾ بفتح الألف، فمن قرأ بالفتح فذلك داخلٌ فيما يُسْتَبشر به، المعنى: بنعمة وبأن الله، من قرأ بالكسر فهو إخبار مستأنف. وقرأ عبد الله: [وفَضْلٍ واللهُ لاَ يُضيعُ].

وقوله تعالى: ﴿الَّذينَ اسْتَجابوا﴾ يحتمل أن تكون ﴿الَّذين﴾ صفة للمؤمنين على قراءة من كسر الألف من (إنَّ)، والأَظْهَر أن ﴿الذين﴾ ابتداء وخبره في قوله تعالى: ﴿لِلَّذين أحْسَنوا﴾... الآية. فهذه الجملة هي خبر الابتداء الأول.

والمستجيبون لله والرسول هم الذين خرجوا مع النبي ﷺ إلى حمراء الأسد[1] في طلب قريش والتظاهر لهم؛ وذلك أنه لما كان في يوم الأحد وهو الثاني من يوم أُحد نادى رسول الله ﷺ في الناس باتباع المشركين، وقال: (لا يخرجن معنا إلا من شاهدنا بالأمس)[2] وكانت بالناس جراحة وقرحٌ عظيم، ولكن تجلدوا ونهض معه مائتا رجل من المؤمنين حتى بلغ حمراءَ الأسد، وهي على ثمانية أميال من المدينة، وأقام بها

(١) حمراءُ الأَسد: إحدى غزواته ﷺ، والموضع على بعد ثمانية أَميال من المدينة عن يسار طريق ذي الحليفة، وكانت يوم الأَحد لست عشرة مضت أَو لثمان خلون من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة، (القسطلاني في المواهب بشرح الزرقاني ٢: ٥٩).

(٢) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٢: ١٠٢) وابن مردويه. وكذا في ابن كثير من عدة طرق (١: ٤٢٨) وأَخرجه البغوي أَيضاً. وابن إسحق في السيرة.

ثلاثة أيام ، وجرت قصة معبد بن أبي معبد التي ذكرناها ، ومرت قريش ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة ، فأنزل الله تعالى في شأن أولئك المستجيبين هذه الآية ، ومدحهم لصبرهم.

وروي أنه خرج في الناس أخوان[١] وبهما جراحة شديدة وكان أحدهما قد ضعف ، فكان أخوه يحمله عُقْبة ويمشي هو عُقبةً. ورغب جابر بن عبد الله إلى النبي ﷺ في الخروج معه فأذن له ، وأخبرهم تعالى أن الأَجر العظيم قد تحصَّلَ لهم بهذه الفعلة ، وقال رسول الله ﷺ: (إنها غزوة)[٢].

قوله عز وجل:

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾.

﴿الَّذين﴾ صفة للمحسنين المذكورين. وهذا القول هو الذي قاله الركب من عبد القيس لرسول الله ﷺ وأصحابه حين حملهم أبو سفيان ذلك ، وقد ذكرته قبل[٣] ، فالناس الأول ركب عبد القيس والناس الثاني عسكر قريش.

وقوله تعالى: ﴿فزادَهُمْ إيماناً﴾، أي: ثبوتاً واستعداداً، فزيادة الإِيمان في هذا هي في الأعمال.

وأطلق العلماء عبارة: إن الإِيمان يزيد وينقص ، والعقيدة في هذا أن نفس الإِيمان الذي هو تصديقٌ واحدٌ بشيء ما ، إنما هو معنى فردٌ لا تدخله زيادة إذا حصل ، ولا يبقى منه شيءٌ إذا زال ، فلم يبق إلا أن تكون الزيادة والنقص في متعلقاته دون ذاته ،

---

(١) الرجلان الأخوان هما: عبد الله ورافع ابنا سهل بن رافع كما في السيرة الحلبية (٢: ٣٣٩). وكذا ذكرهما وذكر خروجهما لحمراءِ الأَسد ابن قدامة في الاستبصار: ٢٣٠ ط. دار الفكر سنة ١٣٩٢).

(٢) أَخرجه النسائي، وابن أَبي حاتم ، والطبراني ـ بسند صحيح من طريق عكرمة عن ابن عباس: (إنها تعد غزوة). (الدر المنثور ٢: ١٠١).

(٣) أَخرجه ابن إسحق وابن جرير ، والبيهقي في «الدلائل» عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد. (الدر المنثور للسيوطي ٢: ١٠١). وقد ذكره آنفاً عند قوله تعالى: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ ، الآية: ١٥١ من سورة آل عمران حيث سرد القصة بتمامها وفي ضمنها الركب.

فذهب بعض العلماء إلى أنه يقال: يزيد وينقص من حيث تزيد الأعمال الصادرة عنه وتنقص ، لا سيما أن كثيراً من العلماء يوقعون اسم الإيمان على الطاعات؛ وذهب قوم إلى أن الزيادة في الإيمان إنما هي بنزول الفروض والأخبار في مدة النبي ﷺ ، وفي المعرفة بها بعد الجهل غابر الدهر ، وهذا إنما هو زيادة إيمان إلى إيمان ، فالقول فيه أن الإيمان يزيد وينقص قولٌ مجازيّ ولا يتصوَّرُ النقصُ فيه على هذا الحدّ ، وإنما يتصور الأنقص بالإضافة إلى من علم. وذهب قوم من العلماء إلى أن زيادة الإيمان ونقصه إنما هي من طريقِ الأَدلة ، فتزيدُ الأدلة عند واحد ، فيقال في ذلك: إنها زيادة في الإيمان ، وهذا كما يقال في الكسوة ، إنها زيادة في الإنسان. وذهب أبو المعالي في «الإرشاد»: إلى أن زيادة الإيمان ونقصانه إنما هو بسبب ثبوت المعتقد وتعاوره دائباً ، قال: وذلك أن الإيمان عرض وهو لا يثبت زمانين فهو للنبي ﷺ وللصلحاء متعاقبٌ متوالٍ ، وللفاسق والغافل غير متوالٍ ، يصحبه حيناً ويفارقه حيناً في الفترة ، ذلك الآخر أكثر إيماناً ، فهذه هي الزيادة والنقص.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا القول نظر(١).

وقوله تعالى: ﴿فزادَهُم إيماناً﴾ لايتصور أن يكون من جهة الأدلة، ويتصور في الآية الجهات الأخر الثلاث. وروي أنه لما أخبر الوفد من عبد القيس رسول الله ﷺ بما حملهم أبو سفيان، وأنه ينصرف إليهم بالناس ليستأصلهم، وأخبر بذلك أيضاً أعرابي ، شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله ﷺ: (قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل)(٢) فقالوها ، واستمرت عزائمهم على الصبر ، ودفع الله عنهم كل سوء ، وألقى الرعب في قلوب الكفار فمروا(٣).

---

(١) زاد بعض العلماء تفسيرات أُخرى ، منها: أَن الإِيمان يزيد وينقص من جهة أَعمال القلوب: كالنية والإِخلاص والخوف والنصيحة ، ومنها: أَن التقيد بظاهر النص ، وهو أَن الإِيمان يزيد فقط. وهذا هو قول المعتزلة.

(٢) أَخرجه ابن جرير عن السدي. ولهذه الكلمة فضائل كثيرة. «فتح القدير للشوكاني ١: ٣٦٧». «والدر المنثور للسيوطي ٢: ١٠٢». و«ابن كثير ١: ٤٣٠».

(٣) وقوله تعالى: ﴿حَسْبنا الله ونعم الوكيل﴾ حسب معنى: المحسب ، أَي: الكافي ، ويراد به معنى اسم الفاعل ، والوكيل: الكفيل ـ فَعِيل بمعنى مفعول ـ أَي: الموكول إِليه الأَمور.

وقوله تعالى: ﴿فانقَلَبوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلٍ﴾ يريد في السلامة والظهور في اتباع العدو وحماية الحوزة، وبفضلٍ في الأجر الذي حازوه، والفخر الذي تجللوه. وباقي الآية بين قد مضت نظائره.

هذا هو تفسير الجمهور لهذه الآية ، وأنها في غزوة أُحد في الخرجة إلى حمراء الأسد ، وشذ مجاهد رحمه الله فقال: إن هذه الآية من قوله: ﴿الَّذين قالَ لهُمُ الناسُ﴾ إلى قوله: ﴿فضْلٌ عَظيمٌ﴾ إنما نزلت في خروج النبي عليه السلام إلى بدر الصغرى ، وذلك أنه خرج لميعاد أبي سفيان في أُحد إذ قال: موعدنا بدر من العام المقبل ، فقال النبي عليه السلام: (قولوا نعم)[١] فخرج رسول الله قبل بدر وكان بها سوق عظيم ، فأعطى رسول الله ﷺ أصحابه دارهم ، وقرب من بدر فجاءه نعيم بن مسعود الأشجعي[٢] فأخبره أن قريشاً قد اجتمعت وأقبلت لحربه هي ومن انضاف إليها ، فأشفق المسلمون من ذلك لكنهم قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللهُ ونعْمَ الوكيلُ﴾ ، وصمموا حتى أتوا بدراً فلم يجدوا عدواً ، ووجدوا السوق فاشتروا بدراهمهم أدماً وتجارة ، وانقلبوا ولم يلقوا كيداً وربحوا في تجارتهم ، فذلك قوله تعالى: ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ﴾[٣] أي فضل في تلك التجارة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والصواب ما قاله الجمهور: إن الآية نزلت في غزوة حمراء الأسد ، وما قال ابن قتيبة وغيره من أن لفظة ﴿الناسِ﴾ تقع على رجل واحد من هذه الآية ، فقولٌ ضعيف.

قوله عز وجل:

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

---

(١) أَخرجه الحاكم في «الإكليل» عن الواقدي بهذه الصيغة ، والخطاب موجه إلى عمر رضي الله عنه كما في (المواهب للقسطلاني بشرح الزرقاني ٢: ٩٣).

(٢) هو نعيم بن مسعود بن عامر ، يكنى أَبا سلمة الأَشجعي صحابي مشهور ، وله رواية عن النبي ﷺ ، وهو الذي خذَّل المشركين وبني قريظة يوم الخندق ، توفي في خلافة عثمان ، وقيل: في وقعة الجمل. (الإصابة ٢: ٥٦٨. والاستيعاب).

(٣) أَخرجه ابن جرير عن السدي (الدر المنثور ٢: ١٠٤).

مقتضى ﴿إِنَّما﴾ في اللغة الحصر ، هذا منزع المتكلم بها من العرب. ثم إذا نظر عقلاً ـ وهذا هو نظر الأصوليين ـ فهي تصلح للحصر وللتأكيد الذي يستعار له لفظ الحصر ، وهي في هذه الآية حاصرة ، والإشارة بـ﴿ذلِكُمُ﴾ إلى جميع ما جرى من أَخبار الركب العبديين عن رسالة أبي سفيان ، ومن تحميل أبي سفيان ذلك الكلام ، ومن جزَع من جَزِع من ذلك الخبر من مؤمن أو متردد.

و﴿ذَلِكُمُ﴾ في الإعراب ابتداء ، و﴿الشَّيطانُ﴾ مبتدأ آخر ، و﴿يُخوِّفُ أَوْلياءَهُ﴾ خبر عن الشيطان ، والجملة خبر الابتداء الأول ، وهذا الإعراب خير في تناسق المعنى من أن يكون ﴿الشَّيْطانُ﴾ خبرَ ﴿ذِلكُم﴾ لأنه يجيء في المعنى استعارة بعيدة. و﴿يُخَوِّفُ﴾ فعل يتعدى إلى مفعولين، لكن يجوز الاقتصار على أحدهما إذ الآخر مفهوم من بنية هذا الفعل ، لأنك إذا قلت: خوفتُ زيداً ، فمعلومٌ ضرورةً أنك خوفته شيئاً حَقُّهُ أن يخاف.

وقرأ جمهور الناس ﴿يخوِّفُ أولياءَهُ﴾ فقال قومٌ: المعنى: يخوفكم أيها المؤمنون أولياءَه الذين هم كفارُ قريش ، فحذف المفعول الأول، وقال قوم: المعنى يخوِّفُ المنافقين ومَنْ في قلبه مرضٌ ، وهم أولياؤه ، فإذاً لا يعمل فيكم أيها المؤمنون تخويفه، إذ لستم بأوليائه ، والمعنى: يخوّفهم كفارَ قريش ، فحذف هنا المفعول الثاني واقتصر على الأول. وقرأ ابن عباس فيما حكى أبو عمر والداني: [يُخَوفكُم أوْلياؤُه] المعنى: يخوفكم قُرَيشٌ ومن معهم ، وذلك بإضلال الشيطان لهم ، وذلك كله مضمحل ، وبذلك قرأ النخعي. وحكى أبو الفتح ابن جني[1] عن ابن عباس أنه قرأ: [يخوّفكم أولياءَهُ] فهذه قراءة ظهر فيها المفعولان ، وفسرت قراءة الجماعة: ﴿يخوّف أولياءَه﴾ وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿يخوفكم بأوليائه﴾.

والضمير في قوله: ﴿فلا تَخافوهُم﴾ لكفار قريش وغيرهم من أولياء الشيطان ، حقر الله شأنهم وقوّى نفوسَ المؤمنين عليهم، وأمرهم بخوفه هو تعالى وامتثالِ أمره من الصبر والجلد ، ثم قرر بقوله تعالى: ﴿إنْ كُنْتُم مُؤْمنين﴾ كما تقول: إن كنت رجلاً فافعل كذا.

وقرأ نافع وحده [يُحزِنك] بضم الياء من أحزن ، وكذلك قرأ في جميع القرآن ، إلا في سورة الأنبياء: [لا يَحْزُنُهم الفزعُ الأكبر] فإنه فتح الياء ، وقرأ الباقون: [يَحْزُنْك]

---

(١) المحتسب ١: ١٧٧.

بفتح الياء، من قولك: حزنتُ الرجلَ. قال سيبويه: يقال: حزن الرجل وفتن إذا أصابه الحزن والفتنة. وحزنته وفتنته، إذا جعلتُ فيه وعنده حزناً وفتنة، كما تقول: دهنت وكحلت، إذا جعلت دهناً وكحلاً، وأحزنته وأفتنته إذا جعلته حزيناًوفاتناً، كما تقول أدخلته وأسمعته، هذا معنى قول سيبويه.

والمسارعة في الكفر هي المبادرة إلى أقواله وأفعاله والجدّ في ذلك. وقرأ الحرّ النحوي[1] [يُسْرعون] في كلِّ القرآن، وقراءة الجماعة أبلغ، لأن من يسارعُ غيرَهُ أشدُّ اجتهاداً من الذي يسرع وحده، ولذلك قالوا: «كل مجرٍ بالخلاء يُسَر»[2]. وسلى الله نبيه بهذه الآية عن حال المنافقين والمجاهدين إذ كلهم مسارع.

وقوله تعالى: ﴿إنَّهُم لَنْ يضُرُّوا الله شيئاً﴾ خبر في ضمنه وعيد لهم، أي: إنما يضرون أنفسهم. والحظ إذا لم يقيد فإنما يستعمل في الخير، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿إنَّ الّذين اشْتَروا﴾ أطلق عليهم الشراء من حيث كانوا متمكنين من قبول هذا فجاء أخذهم للواحد وتركهم للآخر كأنه ترك لما قد أُخذ وحُصِّل، إذ كانوا ممكنين منه، ولمالك رحمه الله مُتَعَلَّقٌ بهذه الآية في مسألة شراء ما تختلف آحاد جنسه مما لا يجوز التفاضل فيه، في أن منع الشراء على أن يختار المبتاع، وباقي الآية وعيد كالمتقدم.

قوله عز وجل:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

---

(١) هو الحرّ بن عبد الله النحوي القارىء، سمع أبا الأسود الدؤلي، وعنه طلب إعراب القرآن أربعين سنة، (بغية الوعاة ١: ٤٩٣) وهذه القراءة قد ذكرها ابن جني في المحتسب (١: ١٧٧).

(٢) هذا مثل، يضرب للرجل يسرّ بفضيلة في نفسه دون أن يقيسها بفضائل غيره، كراكب الفرس في الخلاء، يظن نفسه فارساً لانعدام المتبارين؛ (انظر جمهرة العسكري ٢: ١٤٢، والميداني ٢: ٥٤، والمستقصى: ٢٦٩، وفصل المقال: ٢٠٣) وللمثل صور أخرى.

(٣) من الآية (٣٥) من سورة فصلت.

﴿نملي﴾ معناه: نمهل ونمدّ في العمر، والملاوة: المدة من الدهر، والملوان الليل والنهار، وتقول: مَلأَكَ الله النعمةَ أي: منحكها عمراً طويلاً.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: [يَحْسِبَن] بالياء من أسفل وكسر السين وفتح الباء، وقرأ ابن عامر كذلك إلا في السين فإنه فتحها، وقرأ حمزة [تَحْسَبنَّ] بالتاء من فوق وفتح السين، وقرأ عاصم والكسائي كل ما في هذه السورة بالتاء من فوق إلا حرفين: قوله: ﴿ولا يَحْسَبنَّ الَّذين كفروا﴾ في هذه الآية، وبعدها ﴿ولا يَحْسَبَنَّ الذين يبخلون﴾. فأما من قرأ ﴿وَلاَ يَحْسبن﴾ بالياء من أسفل فإن ﴿الَّذين﴾ فاعل، وقوله: ﴿أنما نُمْلي لَهُم خيرٌ﴾ بفتح الألف من ﴿أنما﴾ سادٌّ مسدَّ مفعولي «حسب»، وذلك أن «حسب» وما جرى مجراها تتعدى إلى مفعولين أو إلى مفعول يسدّ مسدَّ مفعولين، وذلك إذا جرى في صلة ما تتعدى إليه ذكر الحديث والمحدث عنه. قال أبو علي: وكسر «إن» في قول من قرأ: ﴿يَحسبن﴾ بالياء لا ينبغي، وقد قرئَ فيما حكاه غير أحمد بن موسى(١) وفي غير السبع، ووجه ذلك أن «إنّ» يتلقى بها القسم كما يتلقى بلام الابتداء، ويدخلان على الابتداء والخبر، أعني «اللام» و«إن» فعلق عن ﴿إنما﴾ عمل الحسبان كما تعلق عن اللام في قولك: حسبت لزيدٌ قائمٌ، فيعلق الفعل عن العمل لفظاً، وأما بالمعنى فما بعد «إن أو «اللام» ففي موضع مفعولي حسب، و﴿ما﴾ يحتمل أن تكون بمعنى الذي، ففي ﴿نُمْلي﴾ عائد مستكن، ويحتمل أن تكون مصدرية فلا تحتاج إلى تقدير عائد. وأما من قرأ [ولا تحسبنَّ] بالتاء من فوق فـ ﴿الَّذين﴾ مفعولٌ أول للحسبان. قال أبو علي: وينبغي أن تكون الألف من ﴿إنما﴾ مكسورة في هذه القراءة، وتكون «إن» وما دخلت عليه في موضع المفعول الثاني لـ [تَحْسبن]، ولا يجوز فتح الأَلف من [إنما] لأَنها تكون المفعول الثاني، والمفعول الثاني في هذا الباب هو المفعول الأول بالمعنى، والاملاءُ لا يكون إياهم. قال مكي في مشكله(٢): ما علمت أحداً قرأ: [تَحسبن] بالتاء من فوق وكسر الألف من [إنما]. وجوز الزجاج هذه القراءة [تَحْسبن] بالتاء و﴿أنما﴾ بفتح الألف، وظاهر كلامه أنها تنصب [خيراً] قال: وقد قرأ بها خلق كثير وساق عليها مثالاً قول الشاعر:

---

(١) المقصود به: ابن مجاهد كما في إبراز المعاني شرح الشاطبية: ٢٨٠ (ط. البابي الحلبي، مصر).

(٢) هو كتاب «مشكل غريب القرآن»، ذكر ابن خلكان (٥: ٢٧٦) أنه في ثلاثة أجزاء.

فما كان قَيْسٌ هُلْكُه هُلْكَ واحدٍ[١] . . . .

بنصب هُلْكَ الثاني على أن الأول بدل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكذلك يكون ﴿أنما نُمْلي﴾ بدلاً من ﴿الَّذين كَفَروا﴾ كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾[٢] وقوله: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾[٣] ويكون ﴿خيراً﴾ المفعول الثاني.

قال أبو علي: لم يقرأ هذه القراءة أحد، وقد سألت أحمد بن موسى عنها فزعم أنه لم يقرأ بها أحد. ويظهر من كلام أبي علي أن أبا إسحق إنما جوز المسألة مع قراءة ﴿خيرٌ﴾ بالرفع، وأبو علي أعلم لمشاهدته أبا إسحق. وذكر قوم أن هذه القراءة تجوز على حذف مضاف تقديره: ولا تحسبن شأن الذين كفروا أنما نملي لهم، فهذا كقوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾[٤] وغير ذلك. ويذهب الأُستاذ أبو الحسن بن البادش[٥]: إلى أنها تجوز على بدل ﴿أن﴾ من ﴿الّذين﴾ وحذف المفعول الثاني لحسب، إذ الكلام يدل عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمسألة جائزة إذ المعنى: لا تحسبنَّ إملاءَنا للذين كفروا خيراً لهم، أو نحو هذا.

ومعنى هذه الآية: الرد على الكفار في قولهم: إن كوننا ظاهرين ممولين أصحة؛ دليلٌ على رضى الله بحالنا واستقامة طريقتنا عنده، فأخبر الله أن ذلك التأخيرَ والإِمهالَ إنما هو إملاء واستدراج، ليكتسبوا الآثام، وقال عبد الله بن مسعود: ما من نفسٍ بَرَّةٍ

---

(١) البيت من قصيدة لعبدة بن الطبيب يرثي بها قيس بن عاصم، وعجز البيت:

. . . . لكنــه بنيـــان قـــومٍ تَهَـــدَّمـــا

(الإصابة٣: ٢٥٢).

(٢) من الآية (٦٣) من سورة الكهف.

(٣) من الآية (٧) من سورة الأنفال.

(٤) من الآية (٨٢) من سورة يوسف.

(٥) هو علي بن أحمد بن خلف الأنصاري الغرناطي (٥٢٨) نحوي، وله شرح على سيبويه وشرح على الإيضاح (إنباه الرواة ٢: ٢٢٧).

ولا فاجرة إلا والموت خير لها، أما البرة فلتسرعَ إلى رحمة الله، وقرأ [وما عِنْدَ اللهِ خيْرٌ للأَبْرار]، وأما الفاجرة فلئلا تزداد إثماً، وقرأ هذه الآية[1]. ووصف العذاب بالمهين معناه: التخسيس لهم، فقد يعذب من لا يهان، وذلك إذا اعتقدت إقالةَ عثرته يوماً ما.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ المؤمنين﴾... الآية فقال مجاهد وابن جريج وابن إسحق وغيرهم: الخطاب للمؤمنين، والمعنى: ما كان الله ليدع المؤمنين مختلطين بالمنافقين مشكلاً أمرهم، يجري المنافق مجرى المؤمن، ولكن ميز بعضهم من بعض، بما ظهر من هؤلاء وهؤلاء في أُحُدٍ من الأفعال والأقوال. وقال قتادة والسدي: الخطاب للكفار، والمعنى: حتى يميز المؤمنين من الكافرين بالإيمان والهجرة. وقال السدي وغيره: قال الكفار في بعض جدلهم: أنت يا محمد تزعم في الرجل منا أنه من أهل النار، وأنه إذا اتبعك من أهل الجنة، فكيف يصح هذا؟ ولكن أخبرنا بمن يؤمن منا وبمن يبقى على كفره، فنزلت الآية[2]، فقيل لهم: لا بد من التمييز، وما كان الله ليطلعكم على الغيب فيمن يؤمن ولا فيمن يبقى كافراً، ولكن هذا رسول مجتبىً فآمنوا به. فإن آمنتم نجوتم وكان لكم أجر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأما مجاهد وابن جريج وأهل القول الأول، فقولهم في تأويل قوله تعالى: ﴿وما كان الله لِيُطْلِعَكُمْ على الغَيْبِ﴾ إنه في أمر أُحُد، أي: ما كان الله ليطلعكم على أنكم تهزمون، فكيف تكعون[3] ونحو هذا. وأيضاً فما كان ليطلعكم على المنافقين تصريحاً بهم وتسميةً لهم، ولكن هذا بقرائن أفعالهم وأقوالهم في مثل هذا الموطن.

و﴿حتى﴾ في قوله: ﴿حتَّى يَميز﴾ غاية مجردة، لأن الكلام قبلها معناه: الله يخلص ما بينكم بابتلائه وامتحانه حتى يميز.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، والمنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه ـ عن ابن مسعود. «فتح القدير للشوكاني ١: ٣٧١». وفي «الدر المنثور ٢: ١٠٤». أخرجه من ذكره الشوكاني بزيادة: عبد بن حميد وأبو بكر المروزي في «الجنائز». و﴿ما عند الله خير للأبرار﴾ من الآية (١٩٨) من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم ـ عن السدي (فتح القدير ١: ٣٧١. والدر المنثور. ٢: ١٠٤).

(٣) معناه: تتأخرون وتحجمون وتجبنون.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم: [حتَّى يَميز] بفتح الياء وكسر الميم وتخفيف الياء، وكذلك ﴿لِيَميز﴾، وقرأ حمزة والكسائي: [حتى يُمَيِّز] و[لِيُمَيِّزَ اللهُ][1] بضم الياء والتشديد.

قال يعقوب بن السكيت[2]: مِزْتُ ومَيَّزْت: لغتان بمعنى واحد. قال أبو علي: وليس ميَّزت بمنقول من مِزت، بدليل أن ميَّزت لا يتعدى إلى مفعولين وإنما يتعدى إلى مفعول واحد كمِزت، كما أن «ألقيت» ليس بمنقول من «لقي» إنما هو بمعنى أسقطت.

والغيب هنا: ما غاب عن البشر مما هو في علم الله من الحوادث التي تحدث، ومن الأسرار التي في قلوب المنافقين، ومن الأقوال التي يقولونها إذا غابوا عن الناس. قال الزجاج وغيره: روي أن بعض الكفار قال: لم لا يكون جميعنا أنبياء؟ فنزلت هذه الآية. و ﴿يَجتَبِي﴾ معناه: يختار ويصطفي، وهي من جبيت الماء والمال، وباقي الآية بين والله المستعان.

قوله عز وجل:

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾.

القراءات في قوله تعالى: ﴿ولا يَحْسبَنَّ الذين يَبْخَلُونَ﴾ كالتي تقدمت آنفاً في قوله: ﴿ولا يحسبَنَّ الذين كفروا﴾ سواء.

قال السدي وجماعة من المتأولين: الآية نزلت في البخل بالمال والإنفاق في سبيل الله وأداء الزكاة المفروضة ونحو ذلك. قالوا: ومعنى ﴿سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا﴾ هو الذي ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ما من ذي رحم يأتي ذا رحمه فيسأله عن

(١) من الآية (٣٧) من سورة (الأنفال).

(٢) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحق، عرف بابن السكيت، نديم المتوكل، وقد استشار في ذلك أحمد بن عبيد فنهاه عنها فحمل قوله على الحسد، وأجاب إلى ما دعي إليه من المنادمة، وكان ذات يوم جالساً مع المتوكل فجاء المعتز والمؤيد ابناه فسأله: أيهما أحب إليك: ابناي هذان أم الحسن والحسين؟ فذكر ابنيه بسوءٍ وأثنى على الحسن والحسين، فأمر المتوكل الأتراك فداسوا بطنه، فحمل إلى داره فمات من غده سنة ٢٤٤. و«وفيات الأعيان» لابن خلكان ٢: ٤٠٨.

فضل ما عنده فيبخل به عليه إلا خرج له يوم القيامة شجاعٌ أقرعُ من النار يتلمَّظُ حتى يطوقه)[١]. والأحاديث في مثل هذا من منع الزكاة واكتناز المال كثيرة صحيحة[٢]. قال ابن عباس: الآية إنما نزلت في أهل الكتاب وبخلهم ببيان ما علمهم الله من أمر محمد ﷺ، وقال ذلك مجاهد وجماعة من أهل التفسير.

وقوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقونَ﴾ على هذا التأويل معناه: سيحملون عقاب ما بخلوا به فهو من الطاقة كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾[٣] وليس من التطويق. قال إبراهيم النخعي: ﴿سيُطَوَّقون﴾ سيجعل لهم يوم القيامة طوق من نار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يجري مع التأويل الأول الذي ذكرته للسدي وغيره.

وقال مجاهد: معنى ﴿سيُطَوَّقون﴾: سيكلفون أن يأتوا بمثل ما بخلوا به يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يضطرب مع قوله: إن البخل هو بالعلم الذي تفضل الله عليهم بأن علمهم إياه.

وإعراب قوله تعالى: ﴿الَّذين يَبْخلون﴾ رفع في قراءة من قرأ: [يَحْسَبن] بالياء من أسفل، والمفعول الأول مقدر بعد الصلة تقديره: ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم من فضله بخلهم هو خيراً، والمفعول الثاني ﴿خيراً﴾، و﴿هو﴾ فاصلة العماد عند الكوفيين، ودلَّ قوله: ﴿يَبْخَلُون﴾ على هذا البخل المقدر كما دل السفيه على السفه في قول الشاعر:

إذا نُهِـيَ السفيـهُ جـرى إليـه وخـالـفَ، والسفيـهُ إلى خلافِ[٤]

---

(١) أخرجه ابن جرير ـ عن حجر بن بيان، وابن أبي شيبة في مسنده، كما أخرجه الطبراني ـ عن جرير بن عبد الله (الدر المنثور للسيوطي ٢: ١٠٥).

(٢) منها ما أخرجه أحمد، وعبد بن حميد والترمذي وصححه، وابن ماجه، والنسائي، وابن جرير، وابن خزيمة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود (الدر المنثور ٢: ١٠٥) وغيره من الكتب الصحاح، والمسانيد، والمنذري، ومجمع الزوائد.

(٣) انظر الآية: ١٨٤ من سورة البقرة.

(٤) ذكره الفراء في تفسيره ولم ينسبه (الخزانة٢: ٣٨٣).

فالمعنى جرى إلى السفه[١]، وأما من قرأ [تَحْسبن] بالتاء من فوق ففي الكلام حذف مضاف هو المفعول الأول، تقديره: ولا تحسبن يا محمد بخلَ الذين يبخلون خيراً لهم. قال الزجاج: وهي مثل ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿ولله ميراثُ السمواتِ﴾ خطاب على ما يفعله البشر دال على فناء الجميع، وأنه لا يبقى مالك إلا الله تعالى، وإن كان ملكه تعالى على كل شيء لم يزل.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: [واللهُ بما يَعْملون] بالياء من أسفل على ذكر الذين يبخلون ويطوقون، وقرأ الباقون بالتاء من فوق، وذلك على الرجوع من الغيبة إلى المخاطبة لأنه قد تقدم: ﴿وإن تُؤمنوا وَتَتَّقوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ﴾... الآية، قال ابن عباس: نزلت بسبب فنحاص اليهودي[٣] وذلك أن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه إلى بيت المدراس ليدعوهم فوجد فيه جماعة من اليهود قد اجتمعوا على فنحاص ـ وهو حبرهم ـ فقال أبو بكر له: يا فنحاص، اتق الله وأسلم، فو الله إنك لتعلم أَن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة، وإنه إلينا لفقير، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان غنياً لما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، في كلام طويل غضب أبو بكر منه، فرفع يده فلطم وجه فنحاص وسبه وهم بقتله، ثم منعه من ذلك أن رسول الله ﷺ: قال له: لا تُحْدِثْ شيئاً حتى تنصرف إليّ، ثم ذهب فنحاص إلى النبي ﷺ فشكا فعل

---

(١) قال أبو حيان تعقيباً على كلام ابن عطية في الاستشهاد بالبيت: «وليست الدلالة فيهما سواء لوجهين: أحدهما: أن الدالّ في الآية هو الفعل، وفي البيت هو اسم الفاعل، ودلالة الفعل على المصدر أقوى من دلالة اسم الفاعل، ولذلك كثر إضمار المصدر لدلالة الفعل عليه في القرآن وكلام العرب، ولم تكثر دلالة اسم الفاعل على المصدر، إنما جاء في هذا البيت أو في غيره إن وُجد والثاني: أن في الآية حذفاً لظاهر، إذ قدروا المحذوف: بُخْلهم، وأما في البيت فهو إضمار لا حذف». (البحر المحيط ٣/ ١٢٨).

(٢) من الآية (٨٢) من سورة يوسف.

(٣) هو فنحاص بن عازوراء، أحد أحبار يهود بني قينقاع الذين ناصبوا النبي ﷺ العداوة والحقد. «سيرة ابن هشام ٢: ٣٥٩».

أبي بكر، فقال النبي ﷺ لأبي بكر ما حملك على ما صنعت؟ فنزلت الآية في ذلك[١].

وقال قتادة: نزلت الآية في حيي بن أخطب، وذلك أنه لما نزلت: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[٢] قال: يستقرضنا ربنا؟ إنما يستقرض الفقيرُ الغنيَّ. وقال الحسن بن أبي الحسن ومعمر وقتادة أيضاً وغيرهم: لما نزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذي يُقْرض الله قَرْضاً حَسناً﴾... الآية، قالت اليهود: إنما يستقرض الفقير من الغني.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا محالة أن هذا قول صدر أولاً عن فنحاص وحيي وأشباههما من الأحبار ثم تقاولها اليهود، وهو قول يغلط به الأتباع ومن لا علم عنده بمقاصد الكلام، وهذا تحريف اليهود للتأويل على نحو ما صنعوا في توراتهم.

وقوله تعالى: ﴿قَوْلَ الذينَ قالوا﴾ دال على أنهم جماعة[٣].

قوله عز وجل:

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾.

قرأ حمزة وحده: [سَيُكْتَبُ] بالياء من أسفل على بناء الفعل للمفعول: [وقتْلُهم] برفع اللام عطفاً على المفعول الذي لم يسمَّ فاعله، و[يَقولُ] بالياء من أسفل، وقرأ الباقون بنون الجمع، فإما أنها نون العظمة، وإما هي للملائكة، و﴿ما﴾ على هذه القراءة مفعولة بها، و﴿قتلَهم﴾ بنصب اللا م عطفاً على ﴿ما﴾، ﴿ونَقُول﴾ بالنون على

---

(١) أخرجه ابن إسحق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. (الدر المنثور: ٢: ١٠٥. وفتح القدير للشوكاني ١: ٣٧٢)، وذكر الشوكاني أن هذه القصة أخرجها ابن جرير، وابن المنذر ـ عن عكرمة، وأخرجها ابن جرير ـ عن السدي بأخصر من ذلك.

(٢) تكررت في موضعين: في الآية (٢٤٥) من سورة (البقرة)ـ وفي الآية (١١) من سورة (الحديد).

(٣) قال المفسرون: جاءت الجملة مؤكدة باللام مؤذنة بعلمه بمقالتهم ومؤكدة له ـ وحيث نسبوا إلى الله ما نسبوا أكدوا الجملة (بإنَّ) على سبيل المبالغة، وحييث نسبوا إلى أنفسهم ما نسبوا لم يؤكدوا، بل أخرجوا الجملة مخرج ما لا يحتاج إلى تأكيد، و(نحن أغنياء) كأن الغنى وصف لهم ولا نزاع فيه فلا يحتاج إلى تأكيد.

نحو ﴿سَنَكْتُبُ﴾. والمعنى في هاتين القراءتين قريب بعضه من بعض، قال الكسائي: وفي قراءة عبد الله بن مسعود: [ويُقال ذوقُوا]. وقال أبو معاذ النحوي[١] في حرف ابن مسعود: [سَنَكْتُب ما يقُولونَ] [ويُقَالُ لَهُمْ ذوقوا]. وقرأ طلحة بن مصرف: [سنكْتب ما يقولون]، وحكى أبو عمرو عنه أيضاً أنه قرأ: [سَتُكْتَب] بتاء مرفوعة ﴿ما قالُوا﴾ بمعنى: ستكتب مقالتهم.

وهذه الآية وعيد لهم، أي: سيحصي عليهم قولهم. والكتب فيما حكى كثير من العلماء هو في صحف تقيده الملائكة فيها، تلك الصحف المكتوبة هي التي توزن، وفيها يخلق الله الثقل والخفة بحسب العمل المكتوب فيها. وذهب قوم إلى أن الكتب عبارة عن الإحصاء وعدم الإهمال، فعبر عن ذلك بما تفهم العرب منه غايةَ الضبط والتقييد. فمعنى الآية: إن أقوال هؤلاء تكتب وأعمالهم، ويتصل ذلك بأفعال آبائهم من قتل الأنبياء بغير حق ونحوه، ثم يقال لجميعهم: ﴿ذُوقُوا عذابَ الْحَرِيق﴾. وخلطت الآية الآباء مع الأبناء في الضمائر، إذ الآباء هم الذين طرَّقوا لأبنائهم الكفر وإذ الأبناء راضون بأفعال الآباء متبعون لهم.

والذوق مع العذاب مستعار، عبارة عن المباشرة، إذ الذوق من أبلغ أنواعها وحاسته مميزة جداً، والحريق معناه: المُحْرِق فعيل بمعنى مُفْعِل، وقيل: الحريق طبقة من طبقات جهنم.

وقوله تعالى: ﴿ذلك بما قَدَّمَتْ أيديكمْ﴾ توبيخٌ وتوقيف داخل فيما يقال لهم يوم القيامة، ويحتمل أن يكون خطاباً لمعاصري النبي ﷺ يوم نزول الآية، ونسب هذا التقديم إلى اليد إذ هي الكاسبة للأعمال في غالب أمر الإنسان، فأضيفَ كلُّ كسبٍ إليها، ثم بين تعالى أنه يفعل هذا بعدل منه فيهم ووضع الشيء موضعه، والتقدير: وبـ ﴿أنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعبيدِ﴾ وجمع «عبداً» في هذه الآية على عبيد، لأنه مكان تشفيق وتنجية من ظلم[٢].

---

(١) هو الفضل بن خالد أبو معاذ النحوي المروزي مولى باهلة، روَى عن عبد الله بن المبارك، وداود بن أبي هند، وخارجة بن مصعب، وروى عنه محمد بن شقيق، والأزهري، ومحمد بن هرون النيسابوري، وغيرهم، ذكره ابن حبان في الثقات، وصنف كتاباً في القرآن، توفي سنة: ٢٢١. (طبقات القراءِ لابن الجزري ٢: ٩. وبغية الوعاة: ٣٧٣).

(٢) صيغة (ظلَّام) تفيد الكثرة ـ وقد قيل: أنّها تكثير بسبب المتعلق، وذهب بعضهم إلى أن (فعَّالا) قد يجيء=

وقوله تعالى: ﴿الَّذين قالوا إنَّ اللهَ عَهِدَ إلَيْنا﴾ صفة راجعة إلى قوله: ﴿الَّذين قالُوا إنَّ اللهَ فَقيرٌ﴾. قال الزجاج: ﴿الَّذين﴾ صفة للعبيد، وهذا مفسد للمعنى والرصف، وهذه المقالة قالتها أحبارُ يهود مدافعةً لأمر النبي ﷺ، أي أنك لا تأتي بنار فنحن قد عهد إلينا ألاَّ نؤمن لك. و﴿عَهِدَ﴾ معناه: أمر، والعهد: أخصّ من الأمر، وذلك أنه في كل ما يتطاول أمره ويبقى في غابر الزمان، وتعدى (أمن) في هذه الآية باللام والباء في ضمن ذلك. وقُرْبان مصدر سمى به الشيء الذي يقرَّبُ كالرهن، وكان أمر القربان حكماً قديماً في الأنبياء، ألا ترى أن ابني آدم قربا قرباناً، وذلك أنهم كانوا إذا أرادوا معرفة قبول الله تعالى لصدقة إنسان أو عمله أو صدق قوله، قرَّبَ قرباناً شاة أو بقرة ذبيحة أو بعضَ ذلك، وجعله في مكان للهواء وانتظر به ساعة، فتنزل نار من السماء فتحرق ذلك الشيء، فهذه علامةُ القبول، وإذا لم تنزل النارُ فليس ذلك العمل بمقبول، ثم كان هذا الحكم في أنبياء بني إسرائيل. وكانت هذه النار أيضاً تنزل لأموال الغنائم فتحرقها، حتى أُحِلَّتِ الغنائمُ لمحمدٍ ﷺ حسب الحديث(١).

وروي عن عيسى بن عمر أنه كان يقرأ: [بقُرُبان] بضم الراء، وذلك على الإتباع لِضَمة القاف وليست بلغة، لأنه ليس في الكلام فُعُلان بضم الفاء والعين، وقد حكى سيبويه: السُّلُطان بضم اللام، وقال: إن ذلك على الإتباع.

قوله عز وجل:

﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾.

هذا ردٌّ عليهم في مقالتهم وتبيين لإبطالهم، أي: قد جاءكم رسل بالآيات الباهرة

= ولا يراد به الكثرة كقول طرفة:

ولستُ بِحَلاَّل التلاع مخافة ... ولكن متى يَسْتَرفد القوم أرفد

فهو لا يريد أنه قد يحل التلاع قليلاً، لأن عجز البيت يدفعه، فدَلَّ على نفي البخل في كل حال، وتمام المدح لا يحصل بإرادة الكثرة. وقيل: إذا نفي الظلم الكثير اتبع القليل ضرورة، لأن الذي يظلم إنما يظلم لانتفاعه بالظلم، فإذا ترك الكثير مع زيادة نفعه في حق من يجوز عليه النفع والضرر؛ كان للظلم القليل المنفعة أترك، وهذا ما يليق بعدل الله تعالى.

(١) أخرجه الشيخان، والنسائي عن جابر. (الجامع الصغير ٢: ١٥٢).

البينة ، وفي جملتها ما قلتم من أمر القربان فلم قتلتموهم يا بني إسرائيل؟ المعنى: بل هذا منكم تعلل وتعنت ، ولو أتيتكم بالقربان لتعللتم بغير ذلك ، والاقتراح لا غاية له ، ولا يجاب كل مقترح ، ولم يجب الله مقترحاً إلا وقد أراد تعذيبه وألاَّ يمهله ، كقوم صالح وغيرهم ، وكذلك قيل لمحمد في اقتراح قريش فأبى ، وقال: (بل أدعوهم وأعالجهم)(١) ثم أنس تعالى نبيه بالأسوة والقدوة فيمن تقدم من الأنبياء أي: فلا يعظم عليك ذلك.

وقرأ ابن عامر: [وبالزُّبُر] بإعادة باء الجر ، وسقوطُها على قراءة الجمهور متجهه ، لأن الواو شركت ﴿الزُّبر﴾ في الباء الأولى فاستغنى عن إعادة الباء ، وإعادتها أيضاً مُتَّجهةٌ لأجْل التأكيد ، وكذلك ثبتت في مصاحف أهل الشام ، وروي أيضاً عن ابن عامر إعادة الباء في قوله: [وَبِالكِتابِ المُنِير].

﴿والزُّبُر﴾: الكتاب المكتوب يقال: زبرت الكتاب إذا كتبته، وزبرته إذا قرأته(٢) ، والشاهد لأنه الكتاب قول امرىء القيس:

لمن طللٌ أبصرتُهُ فشجاني ... كخط زَبورٍ في عَسيب يمانِ؟(٣)

وقال الزجاج: زبرتُ: كتبت ، وذبرت بالذال: قرأت ، و﴿المنير﴾: وزنه مُفعل من النور ، أي سطع نوره:

قوله عز وجل:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾.

هذا خبر واعظ فيه تسلية للنبي عليه السلام ولأمته عن أمر الدنيا وأهلها ، وعد في الآخرة ، فبالفكرة في الموت يهون أمر الكفار وتكذيبهم ، والمعنى: كل نفس مخلوقة

---

(١) أخرجه مسلم ، والنسائي بلفظ (بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم مَنْ يعبد الله) ، الحديث. «حياة الصحابة» ١: ٤٠٤.

(٢) الزُّبر: جمع زبور ، وهو: الكتاب فهو بمعنى مفعول ، كالركوب بمعنى مركوب.

وقيل: اشتقاق الزبور من: الزبرة ، وهي القطعة من الحديد التي تركت بحالها ، ولكن المتعارف عليه هو من الزَّبْر بمعنى الكتب.

(٣) شبه الطلل بخط الكتاب المرقوم في عسيب يماني. والعسيب: سعف النخل الذي جرد من خوصه.

حية، والذوق هنا: استعارة، ﴿وإِنَّما﴾ حاصرة على التوفية التي هي على الكمال، لأن من قُضِيَ له بالجنة فهو ما لم يدخلها غير مُوَفًّى. وخصَّ تعالى ذكر الأجور لشرفها وإشارةً إلى معرفته لمحمد ﷺ وأمته، ولا محالة أن المعنى: إن يوم القيامة تقع فيه الأجور وتوفية العقاب. و﴿زُحْزِحَ﴾ معناه: أُبعد، والمكان الزحزح: البعيد. و﴿فازَ﴾ معناه: نجا من خطره وخوفه، و﴿الغُرُور﴾ الخدع والترجية بالباطل، والحياة الدنيا وكل ما فيها من الأموال فهي متاع قليل تخدع المرء وتمنيه الأباطيل.

وعلى هذا فسر الآية جمهور من المفسرين: قال عبد الرحمن بن سابط: متاع الغرور كزاد الراعي، يزوَّدُ الكفَّ من التمر أو الشيءَ من الدقيق يشربُ عليه اللبن، قال الطبري: ذهب إلى أن متاع الدنيا قليل لا يكفي من تمتع به ولا يبلّغه سفره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والغرور في هذا المعنى مستعمل في كلام العرب، ومنه قولهم في المثل: «عَشِّ ولا تغترَّ»[1]، أي لا تجتزىء بما لا يكفيك.

وقال عكرمة: (مَتاعُ الغُرورِ): القوارير، أي: لا بد لها من الانكسار والفساد، فكذلك أمر الحياة الدنيا كله.

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه:

وهذا تشبيه من عكرمة.

وقرأ عبد الله بن عمير[2] [الغَرور] بفتح الغين، وقرأ أبو حيوة والأعمش: [ذائقةٌ]، بالتنوين [الموتَ] بالنصب، وقال النبي ﷺ: (لموضعُ سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها)[3] ثم تلا هذه الآية؟

---

(١) هذا مثل يضرب للاحتياط؛ والأَخذ بالثقة في الأُمور، وكأنما يقال للراعي: عش إبلك من هذا العشب الحاضر ولا تغترَّ بالغائب فيفوتك، (جمهرة العسكري ٢: ٤٦، والميداني ١: ٣١١، والمستقصى: ٢٤٢، واللسان: عشا).

(٢) الذي في القرطبي، والبحر، والنهاية لابن الجزري هو عبد الله بن عُمرَ، ولعله هو عبد الله بن عمر بن أَحمد بن شوْذَب الواسطي مقرىء متصدر. «النهاية لابن الجزري ١/ ٤٣٧».

(٣) أَخرجه ابن أَبي شيْبة، وهناد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن حبان، وابن جرير، وابن أَبي حاتم، والحاكم، وصححه ـ عن أَبي هريرة، كما أَخرجه ابن مردويه ـ عن سهل بن سعد=

قوله عز وجل:

﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾.

هذا الخطاب للنبي عليه السلام وأمته، والمعنى: لتُختبرن ولتُمتحنن في أموالكم بالمصائب والأرزاء، وبالإنفاق في سبيل الله، وفي سائر تكاليف الشرع، والابتلاء في الأنفس بالموت والأمراض، وفقد الأحبة بالموت.

واختلف المفسرون في سبب قوله تعالى: ﴿ولَتَسْمَعنَّ مِنَ الَّذين أُوتوا الكتابَ مِنْ قَبْلِكم﴾ ـ فقال عكرمة وغيره: السبب في ذلك أقوال فنحاص: إن الله فقير ونحن أغنياء، وقوله: ﴿يدُ اللهِ مَغْلولَةٌ﴾ إلى غير ذلك. وقال الزهري وغيره: نزلت هذه الآية بسبب كعب بن الأشرف، فإنه كان يهجو النبي ﷺ وأصحابه، ويشبب بنساء المسلمين، حتى بعث إليه رسول الله ﷺ من قتله القتلة المشهورة في السير[١].

والأذى اسم جامع في معنى الضرر، وهو هنا يشمل أقوالهم فيما يخص النبي ﷺ وأصحابه من سبهم وأقوالهم في جهة الله تعالى وأنبيائه. وندب الله تعالى عباده إلى الصبر والتقوى، وأخبر أنه من عزم الأمور، أي من أشدها وأحسنها. والعزمُ: إمضاء الأمرِ المروَّى المنقّح، وليس ركوبُ الأمر دون روية عزماً إلا على مقطع المشيحين[٢] من فتّاك العرب كما قال[٣]:

= مرفوعاً. «فتح القدير للشوكاني ٢: ٣٧٤». و«الدر المنثور ٢: ١٠٧». وذكر له ابن كثير عدة طرق غير هذه ١: ٤٣٥.

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم ـ عن الزهري، كما أخرجه ابن المنذر من طريق الزهري ـ عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك. (فتح القدير للشوكاني ١: ٣٧٥) ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك. (لباب النقول في أسباب النزول: ١٧، وابن جرير في تفسيره، وسيرة ابن هشام ٣: ٥٤).

(٢) قال ابن الأثير: المشيح: الحذر والجاد في الأمر، وقيل: المقبل إليك المانع لما وراءَ ظهره، فيجوز أن يكون أشاح أحد هذه المعاني ٢: ٢٦٦.

(٣) البيت لسعد بن ناشب المازني. (خزانة الأدب والكامل للمبرد).

إذا هـمَّ ألقـى بيـن عينيـه عـزمَـه ونكّـب عـن ذكـر الحـوادث جـانبـا

وقال النقاش: العزم والحزم بمعنى واحد، الحاء مبدلة من العين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا خطأ. والحزم: جودة النظر في الأمر وتنقيحه والحذر من الخطأ فيه، والعزم: قصد الإمضاء، والله تعالى يقول: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ﴾[1] فالمشاورة وما كان في معناها هو الحزم، والعرب تقول: قد أحزِم ولو أعزِم[2].

وقوله تعالى: ﴿وإِذْ أَخَذَ اللهُ ميثاقَ الَّذين أُوتوا الكتابَ﴾... الآية، توبيخ لمعاصري النبي ﷺ، ثم هو مع ذلك خبر عام لهم ولغيرهم. والعامل في ﴿إِذْ﴾ فعل مقدر تقديره: اذكر، وأخذ هذا الميثاق هو على ألسنة الأنبياء أمة بعد أمة. وقال ابن عباس والسدي وابن جريج: الآية في اليهود خاصة، أخذ الله عليهم الميثاق في أمر محمد فكتموه ونبذوه[3].

قال مسلم البطين[4]: سأل الحجاج بن يوسف جلساءه عن تفسير هذه الآية فقام رجل إلى سعيد بن جبير فسأله فقال له: نزلت في يهود، أُخِذَ الميثاق عليهم في أمر محمد فكتموه. وروي عن ابن عباس أنه قرأ: [وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبيين لَتُبَيِّنُنَّهُ] فيجيءُ قوله: ﴿فَنَبَذُوه﴾ عائداً على الناس الذين بيَّن الأنبياءُ لهم. وقال قوم من المفسرين: الآية في اليهود والنصارى. وقال جمهور من العلماء: الآية عامة في كل من علمه الله علماً، وعلماء هذه الأمة داخلون في هذا الميثاق، وقد قال رسول الله ﷺ: (من سُئل

---

(١) من الآية (١٥٩) من سورة آل عمران.

(٢) هذا مثل، معناه: إن عزمتُ الرأي فأمضيته فأنا حازم، وإن تركتُ الصواب وأنا أراه وضيعت العزم لم ينفعني حزمي (الميداني ٢: ٣٤).

(٣) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم ـ من طريق علقمة، عن ابن عباس، كما أخرجه ابن جرير عن السدي. (فتح القدير للشوكاني ١: ٣٧٥. والدر المنثور٣: ١٠٨. وابن جرير هنا وعند تفسير قوله: [إنَّ الذي يكتُمُونَ ما أَنْزلنا]، وقوله: [إنَّ الذي يكتمونَ ما أَنْزَل الله] بسورة البقرة.

(٤) هو مسلم بن عمران، ويقال: ابن أبي عمران البطين، أبو عبد الله الكوفي، روى عن عطاءٍ، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهم، وروى عنه ابنه شبة بن مسلم، وسلمة بن كهيل، وأبو إسحق السبيعي، وثَّقه أحمد، وابن معين، وأبو حاتم، والنسائي، وابن حبان (تهذيب التهذيب ١٠: ١٣٤) وقصة سؤال الحجاج أخرجها ابن جرير ٤: ٢٠٢).

عن علم فكتمه، أُلجم يومَ القيامة بلجام من نار)[١] وقد قال أبو هريرة: إني لأحدثكم حديثاً، ولولا آية في كتاب الله ما حدثتكموه، ثم تلا: ﴿إِنَّ الَّذين يَكْتُمونَ ما أنزلَ الله من الكتابِ﴾[٢].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر: [لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاس ولا يَكْتُمونَه] بالياء من أسفل فيهما، وقرأ الباقون عن حفص وعاصم بالتاء من فوق فيهما، وكلا القراءتين متجه، والضمير في الفعلين عائد على الكتاب. وفي قراءة ابن مسعود: [لَتُبيِّنونه] دون النون الثقيلة، وقد لا تلزم هذه النون لامَ القسم، قاله سيبويه. والنبذ: الطرح. وقوله تعالى: ﴿وَراءَ ظُهورِكُم﴾ استعارة لما يبالغ في اطراحه، ومنه: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾[٣]، ومنه قول الفرزدق:

تميمَ بنَ مرٍّ لا تكونَنَّ حاجتي ... بظهرٍ فلا يعيا عليَّ جوابها[٤]

ومنه بالمعنى قول النبي ﷺ: (لا تجعلوني كقدح الراكب)[٥] أراد عليه السلام: لا تجعلوا ذكري وطاعتي خلف أظهركم، وهو موضع القدح، ومنه قول حسان:

. . . . ما نيط خَلْفَ الراكبِ القَدَحُ الفردُ[٦]

والتشبيه بالقدح إنما هو في هيئته لا في معناه، لأن الراكب يحتاجه، ومحله من

---

(١) أَخرجه الإِمام أَحمد، وأَبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم ـ عن أَبي هريرة. (الجامع الصغير ٢: ٥٢٥).

(٢) أَخرجه ابن جرير عند تفسير قوله: ﴿إِنَّ الذين يَكتمونَ ما أَنزَلْنا﴾ ٢: ٥٣، كما أَخرجه الإِمام أَحمد في مسنده (١٤: ١٢٢) وأَخرجه البخاري، ومسلم بلفظ: (لولا آيتانِ).

(٣) من الآية (٩٢) من سورة (هود).

(٤) رواية البيت في ديوانه (١: ٩٥):

تميمَ بنَ زيد لا تهونَنَّ حاجتي ... لديكَ ولا يَعْيا عليَّ جوابُها

أَي لا تجبني بجواب لا أَدري ما هو، أَي: لا تعتلَّ عليَّ. ورواه الأَغاني: بظهر فلا يخفي عليَّ.

(٥) أَخرجه رزين بن معاوية (ابن كثير ٣: ٥١٤)، وأَخرجه الترمذي موقوفاً على عمر، (تيسير الوصول إلى جامع الأُصول ٢: ٥٦) كما أَخرجه البزار عن جابر. قال صاحب مجمع الزوائد (١٠: ١٥٥): وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف.

(٦) البيت من قصيدة له يهجو بها أَبا سفيان بن الحارث، وصدره:

وَأَنتَ زنيمٌ نيطِ في آلِ هاشمٍ ... .

والزنيم: الدعيُّ الملحق بقوم. ونيط: عُلِّق. والقدحَ بالتحريك: آنية تروي الرجلين (ديوان ص: ٨٩. ط. دار بيروت للطباعة والنشر).

محلات الراكب جليل. والثمن القليل: هو مكسب الدنيا. وباقي الآية بين.

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه:

والظاهر في هذه الآية أنها نزلت في اليهود، وهم المعنيون ثم إن كلَّ كاتم من هذه الأمة يأخذُ بحظه من هذه المذمة ويتصف بها.

قوله عز وجل:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾.

اختلف المفسرون في المراد بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾؛ فقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وابن زيد وجماعة: الآية نزلت في المنافقين، وذلك أنهم كانوا إذا خرج النبي ﷺ للغزو تخلفوا عنه، فإذا جاء اعتذروا إليه وقالوا: كانت لنا أشغال ونحو هذا، فيظهر رسول الله ﷺ القبولَ ويستغفر لهم، ففضحهم الله تعالى بهذه الآية، فكانوا يفرحون بما يأتونه ويفعلونه من التخلف والاعتذار، ويحبون أن يقال لهم: إنهم في حكم المجاهدين، لكن العذر حبسهم[1].

وقالت جماعة كثيرة من المفسرين: إنما نزلت الآية في أهل الكتاب أحبار اليهود، ثم اختلفوا فيما هو الذي أتوه وكيف أحبوا المحمدة؟ فقال ابن عباس رضي الله عنه: أتوا إضلال أتباعهم عن الإيمان بمحمد، وفرحوا بذلك لدوام رياستهم الدنيوية، وأحبوا أن يقال عنهم: إنهم علماء بكتاب الله ومتقدم رسالاته[2]. وقال ابن عباس أيضاً والضحاك والسدي: أتوا أنهم تعاقدوا وتكاتبوا من كل قطر بالارتباط إلى تكذيب محمد ﷺ والدفع في صدر نبوته، وأحبوا أن يقال عنهم: إنهم أهل صلاة وصيام

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي سعيد، كما أخرجه عبد بن حميد ـ عن زيد بن أسلم. (الدر المنثور. ٢: ١٠٨. وفتح القدير للشوكاني ١: ٣٧٥. وابن كثير ١: ٤٣٦).

(٢) أخرجه ابن إسحق، وابن جرير، وابن أبي حاتم ـ من طريق عكرمة ـ عن ابن عباس. (الدر المنثور ٢: ١٠٩).

وعبادة ، وقالوا هم ذلك عن أنفسهم[١]. وقال مجاهد: فرحوا بإعجاب أتباعهم بتبديلهم تأويل التوراة ، وأحبوا حمدهم إياهم على ذلك ، وهم في الحقيقة لم يفعلوا شيئاً نافعاً ولا صحيحاً بل الحق أبلج[٢].

وقال سعيد بن جبير: الآية في اليهود ، فرحوا بما أعطى الله آل إبراهيم من النبوءة والكتاب ، فهم يقولون: نحن على طريقهم ، ويحبون أن يحمدوا بذلك وهم ليسوا على طريقتهم. وقراءة سعيد بن جبير: [أُوتوا] بمعنى أعطوا بضم الهمزة والتاء ، وعلى قراءته يستقيم المعنى الذي قال.

وقال ابن عباس أيضاً: إن الآية نزلت في قوم سألهم النبي عليه السلام عن شيء فكتموه الحق وقالوا له غير ذلك ، ففرحوا بما فعلوا وأحبوا أن يحمدوا بما أجابوا ، وظنوا أن ذلك قد قنع به واعتقدت صحته[٣]

وقال قتادة: إن الآية في يهود خيبر ، نافقوا على النبي ﷺ والمؤمنين مرة ، وقالوا: نحن معكم وعلى رأيكم وردء لكم ، وهم يعتقدون خلاف ذلك ، فأحبوا الحمد على ما أظهروا، وفرحوا بذلك[٤].

وقال الزجاج: نزلت الآية في قوم من اليهود ، دخلوا على النبي ﷺ وكلموه في أشياء ثم خرجوا ، فقالوا لمن لقوا من المسلمين: إن النبي أخبرهم بأشياء قد عرفوها فحمدهم المسلمون على ذلك وطمعوا بإسلامهم ، وكانوا قد أبطنوا خلاف ما أظهروا للمسلمين وتمادوا على كفرهم ، فنزلت الآية فيهم.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ـ عن الضحاك ، كما أخرجه ابن جرير عن السدي. (الدر المنثور ٢: ١٠٩).

(٢) أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ـ عن مجاهد. «الدر المنثور» ٢: ١٠٩. ومن أمثال العرب: «الحق أبلج ، والباطل لجلج». الحق أبلج: واضح مشرق. والباطل لجلج: يتردد فيه صاحبه فلا يصيب مخرجاً ، (الكامل للمبرد ١: ١٣. والأمثال للميداني ١: ٢٠٧).

(٣) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ـ عن سعيد ، كما أخرجه ابن جرير ـ عن سعيد أيضاً (الدر المنثور ٢: ١٠٩).

(٤) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم ، والبيهقي ، من طريق حميد بن عبد الرحمن: أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس ، الحديث بطوله في «الدر المنثور ٢: ١٠٨». و «فتح القدير ١: ٢٨٥».

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَتَوْا﴾ بمعنى فعلوا، كما تقول أتيتُ أمر كذا، وقرأ مروان بن الحكم وإبراهيم النخعي: [آتوا] بالمد، بمعنى: أَعطَوا بفتح الهمزة والطاء.

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه:

وهي قراءة تستقيم على بعض المعاني التي تقدمت.

وقرأ سعيد بن جبير وأبو عبد الرحمن السلمي: [أُوتُوا] بمعنى أُعطُوا، وقد تقدمت مع معناها. وقرأ أبو عمرو وابن كثير: [لا يَحْسِبَنَّ الذين يَفْرحون] [فلا يَحْسِبُنَّهم] بالياء من تحت فيهما وبكسر السين وبرفع الباء في (يحسبُنَّهم) قال أبو علي: ﴿الَّذين﴾ رفع بأنه فاعل (يحسب)، ولم تقع (يحسبن) على شيء، وقد تجيء هذه الأفعال لغواً لا في حكم الجمل المفيدة نحو قول الشاعر:

ما خلتُ أبقى بيننا من مودَّةٍ ... عراض المذَاكي المُسْنِفَات القَلائِصا[1]

وقال الخليل: العرب تقول: ما رأيته يقول ذاك إلا زيد، وما ظننته يقول ذلك إلا زيد، فتتجه القراءة بكون قوله: ﴿فَلا يَحْسَبَنَّهم﴾ بدلاً من الأول، وقد عدي إلى مفعوليه وهما: الضمير وقوله: ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ فاستغنى بذلك عن تعدية الأول إليهما كما استغنى في قول الشاعر[2]:

بأيِّ كتابٍ أو بأية سنةٍ ... ترى حبهم عاراً علي وتحسب؟

فاستغني بتعدية أحد الفعلين عن تعدية الآخر. والفاء في قوله: [فَلاَ يَحْسَبَنَّهم] زائدة، ولذلك حسن البدل، إذ لا يتمكن أن تكون فاء عطف ولا فاء جزاء، فلم يبق إلاأن تكون زائدة لا يقبح وجودها بين البدل والمبدل منه، وقوله على هذه القراءة: [فلا يَحْسَبَنَّهم] فيه تعدي فعلُ الفاعل إلى ضمير نفسه، نحو: ظننتني أخاه، ورأيتني الليلة عند الكعبة، ووجدتني وجعتُ من الإصغاء[3]، وذلك أَن هذه الأفعال وما كان في معناها لما كانت تدخل على الابتداء والخبر أشبهت إنّ وأخواتها، فكما تقول: إني

---

(١) البيت للأعشى من قصيدة له يهجو بها علقمة. والمذاكي: الجياد. والمسنف: المتقدم الذي تكفه بالزمام، والقلائص: النوق. «ديوانه: ١٠١».

(٢) البيت للكميت بن زيد الأَسدي من قصيدة له يمدح بها أَهل البيت. «خزانة الأَدب».

(٣) هو من قول الصمة القشيري:

تلفت نحو الحيّ حتى وجدتني ... وجعت من الإصغاء ليتاً وأخدعا

ذاهب، فكذلك تقول: ظننتني ذاهباً، ولو قلت: أظن نفسي أفعل كذا لم يحسن كما يحسن: أظنني فاعلاً.

وقرأ نافع ابن عامر: [لاَ يَحْسَبَنَّ الَّذين] بالياء من تحت وفتح الباء، وكسر نافع السين وفتحها ابن عامر ﴿فَلاَ تَحْسَبَنَّهم﴾ بالتاء من فوق وفتح الباء، والمفعولان اللذان يقتضيهما قوله: [لا يَحْسَبَنَّ الَّذين] محذوفان لدلالة ما ذكر بعده، والكلام في ذلك كما تقدم في قراءة ابن كثير، إلا أنه لا يجوز في هذا البدل الذي ذكر في قراءة ابن كثير وأبي عمرو ولاختلاف الفعلين واختلاف فعليهما. وقرأ حمزة: [لا تَحْسِبن] بالتاء من فوق وكسر السين، [فلا تَحْسِبَنهم] بالتاء من فوق وكسر السين وفتح الباء، ﴿فالَّذين﴾ على هذه القراءة ـ مفعول أول لـ [تَحْسِبَنَّ]، والمفعول الثاني محذوف لدلالة ما يجيء بعد عليه، كما قيل آنفاً في المفعولين. وحسن تكرار الفعل في قوله: [فلا تَحْسِبَنَّهم] لطول الكلام، وهي عادة العرب وذلك تقريب لذهن المخاطب. وقرأ الضحاك بن مزاحم: [فلا تَحْسَبُنَّهم] بالتاء من فوق وفتح السين وضم الباء.

والمفازة: مَفْعَلةٌ من فاز يفوز إذا نجا فهي بمعنى منجاة، وسمي موضع المخاف مفازة على جهة التفاؤل، قاله الأصمعي، وقيل: لأنها موضع تفويز ومظنة هلاك، تقول العرب: فوز الرجل إذا مات، قال ثعلب: حكيت لابن الأعرابي قولَ الأصمعي فقال: أخطأ، قال لي أبو المكارم: إنما سميت مفازة لأن من قطعها فاز، وقال الأصمعي: سمي اللديغ سليماً تفاؤلاً، قال ابن الأعرابي: بل لأنه مستسلم لما أصابه.

وبعد أن نهى أن يحسبوا ناجين أخبر أن لهم عذاباً، ثم استفتح القول بذكر قدرة الله تعالى وملكه فقال: ﴿ولله مُلْكُ السَّموات والأَرضِ﴾ . . . الآية، قال بعض المفسرين: الآية ردّ على الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللهُ فقيرٌ ونحنُ أَغنياءُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿واللهُ عَلَى كُلِّ شيْءٍ قديرٌ﴾، قال القاضي ابن الطيب وغيره: ظاهره العموم، ومعناه الخصوص؛ لأن الله تعالى لا يوصف بالقدرة على المحالات، و(شيء) هو الموجود في مقتضى كلام العرب.

ثم دل تعالى على مواضع النظر والعبرة، حيث يقع الاستدلال على الصانع بوجود السموات والأرضين، والمخلوقات دال على العلم، ومحال أن يكون موجود عالم

مريد غير حي ، فثبت بالنظر في هذه الآية عظم الصفات[١].

﴿واخْتِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ﴾: هو تعاقبهما ، إذ جعلهما الله خلفة ، ويدخل تحت لفظة الاختلاف: كونهما يقصر هذا ويطول الآخر وبالعكس ، ويدخل في ذلك اختلافهما بالنور والظلام. الآيات: العلامات. و ﴿الألْبابِ﴾ في هذه الآية: هي ألباب التكليف لا ألباب التجربة ، لأن كل من له علوم ضرورية يدركها فإنه يعلم ضرورة ما قلناه من صفات الله تعالى.

قوله عز وجل:

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾.

﴿الَّذِينَ﴾ في موضع خفض صفة ﴿لأولي الألْبَابِ﴾ ، وهذا وصف ظاهره استعمال التحميد والتهليل والتكبير ونحوه من ذكر الله ، وأن يحصر القَلب اللسان ، وذلك من أعظم وجوه العبادات ، والأحاديث في ذلك كثيرة[٢]. وابن آدم منتقل في هذه الثلاث الهيئات لا يخلو في غالب أمره منها فكأنها تحصر زمنه ، وكذلك جرت عائشة رضي الله عنها إلى حصر الزمن في قولها: كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه[٣] ، فدخل في ذلك كونه على الخلاء وغير ذلك.

---

(١) كان رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآيات العشر من آخر (آل عمران) إذا قام يتهجد في الليل ، وهي قوله تعالى ﴿إنَّ في خلْق السمواتِ والأَرض﴾. فقد روى البخاري ، ومسلم، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه عن ابن عباس قال: (بتُّ عند خالتي ميمونة ، فتحدث رسول الله ﷺ مع أَهله ساعة ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد ، فنظر إلى السماء فقال: ﴿إنَّ في خلق السمواتِ والأَرْضِ واختلافِ اللَّيل والنهَّارِ لآياتٍ لأُولي الأَلْباب﴾ ثم قام فتوضأ واستنَّ فصلَّى إحدى عشرة ركعة ، ثم أَذَّن بلال فصلَّى ركعتين ، ثم خرج فصلَّى بالناس الصبح).

(٢) منها ما خرج في الصحيحين ، ومسند الإمام أَحمد والترمذي ، وقد بوب لها المنذري في «الترغيب والترهيب» ، والنَّووي في «الأَذكار» ، والحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ، ومنها ما ذكره في «تيسير الوصول إلى جامع الأصول».

(٣) أخرجه مسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها. «الجامع الصغير ٢/ ٣٢٣».

وذهب جماعة من المفسرين إلى أن قوله: ﴿الَّذينَ يَذْكرونَ اللهَ﴾ إنما هو عبارة عن الصلاة، أي: لا يضيعونها، ففي حال العذر يصلونها قعوداً وعلى جنوبهم، قال بعضهم: وهي كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾[1]... الآية، هذا على تأويل من تأول هنالك: ﴿قَضَيْتُم﴾ بمعنى: أَدَّيْتُم، لأن بعض الناس يقول: ﴿قَضَيْتم﴾ هنالك بمعنى: فرغتم منها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فإذا كانت هذه الآية في الصلاة ففقهها أن الإنسان يصلي قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، ظاهر المدونة متربعاً. وروي عن مالك وبعض أصحابه أنه يصلي كما يجلس بين السجدتين، فإن لم يستطع القعود صلى على جنبه أو ظهره على التخيير، هذا مذهب المدونة.

وحكى ابن حبيب عن ابن القاسم: يصلي على ظهره فإن لم يستطع فعلى جنبه الأيمن، ثم على الأيسر. وفي كتاب ابن المواز: يصلي على جنبه الأيمن، وإلا فعلى الأيسر، وإلا فعلى الظهر. وقال سحنون: يصلي على الأيمن كما يجعل في لحده، وإلا فعلى ظهره، وإلا فعلى الأيسر.

وحسن عطف قوله: ﴿وعَلى جُنوبِهم﴾ على قوله: ﴿قِيَاماً وقُعوداً﴾ لأنه في معنى مضطجعين. ثم عطف على هذه العبادة التي هي ذكر الله باللسان أو الصلاة فرضها ومندوبها بعبادة أخرى عظيمة، وهي الفكرة في قدرة الله تعالى ومخلوقاته، والعبر التي بثَّ:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدُلُّ على أَنه واحدُ[2]

ومر النبي ﷺ على قوم يتفكرون في الله فقال: (تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق، فإنكم لا تقدرون قدره)[3] وهذا هو قصد الآية ﴿وَيَتَفَكَّرونَ في خَلْقِ السَّمواتِ والأَرْضِ﴾. وقد قال بعض العلماء: المتفكر في ذات الله تعالى كالناظر في

(١) من الآية (١٠٣) من سورة النساء.

(٢) البيت لأبي العتاهية، ديوان (تحقيق د. شكري فيصل): ١٠٤.

(٣) أخرجه أبو الشيخ عن ابن عباس (الجامع الصغير ١: ٤٥١).

عين الشمس ، لأنه تعالى ليس كمثله شيء ، وإنما التفكير وانبساط الذهن في المخلوقات ، وفي مخاوف الآخرة. قال رسول الله ﷺ: (لا عبادة كتفكر)(١) وقال الحسن بن أبي الحسن ، الفكرة مرآة المؤمن ، ينظر فيها إلى حسناته وسيئاته.

وقال ابن عباس وأبو الدرداء: «فكرة ساعة خير من قيام ليلة»(٢). وقال سري السقطي(٣). «فكرة ساعة خير من عبادة سنة»(٤) ، ما هو إلا أن تحل أطناب خيمتك فتجعلها في الآخرة. وأخذ أبو سليمان الداراني(٥) قدح الماء ليتوضأ لصلاة الليل وعنده ضيف ، فرآه لما أدخل إصبعه في أذن القدح أقام كذلك مفكراً حتى طلع الفجر ، فقال له: ما هذا يا أبا سليمان؟ فقال: إني لما طرحت إصبعي في أذن القدح تذكرت قول الله جل وتعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾(٦) ففكرت في حالي ، وكيف أتلقى الغل إن طرح في عنقي يوم القيامة ، فما زلت في ذلك حتى أصبحت.

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه:

فهذه نهاية الخوف ، وخير الأمور أوساطها(٧). وليس علماء الأمة الذين هم الحجة على هذا المنهاج ، وقراءة علم كتاب الله ومعاني سنة رسول الله ﷺ لمن يفهم ويرجى نفعه أفضل من هذا ، لكنه يحسن ألا تخلو البلاد من مثل هذا.

---

(١) أخرجه ابن حبان في الضعفاء ، والبيهقي في الشعب من رواية أبي رجاء محمد بن عبد الله الخرطي عن عليٍّ أنه قال لابنه الحسن: يا بني ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا مال) الحديث بطوله. تفسير «الكشاف» ١: ٤٥٤.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس ، وأخرج ابن سعد عن أبي الدرداء مثله ، كما أخرج الديلمي عن أنس مرفوعاً مثله. «الدر المنثور» ٢: ١١١. و«روح المعاني» ٤: ١٥٩.

(٣) هو أبو الحسن بن المغلس السقطي ، أحد رجال الطريقة وأرباب الحقيقة ، كان أوحد أهل زمانه في الورع ، وهو خال أبي القاسم الجُنيد وأُستاذه ، توفي سنة: ٢٥٧. «الوفيات» لابن خلكان ١: ٢٥٠. و «حلية الأولياء» ١٠: ١١٦.

(٤) أخرجه أبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة بلفظ: (ستين سنة). وأخرجه الديلمي مرفوعاً عن أنس بلفظ: (تفكُّر ساعة في اختلاف الليل والنهار خيرٌ من عبادة ثمانين سنة). «الدر المنثور» ٢: ١١١.

(٥) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنْسي الداراني الزاهد المشهور ، أحد رجال الطريقة ، ومن كبار الصوفية وأهل الجدِّ في المجاهدات النفسية ، من درر كلامه: «من أحسن في نهاره كفي في ليله». توفي سنة: ٢٠٥ هـ «حلية الأولياء» ٩: ٢٥٤. و«الوفيات» لابن خلكان ١: ٣٤٧.

(٦) من الآية (٧١) من سورة (غافر).

(٧) تقدم تخريجه عند قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ في سورة البقرة.

وحدثني أبي رضي الله عنه عن بعض علماء المشرق قال: كنت بائتاً في مسجد الإقدام بمصر، فصليت العتمة فرأيت رجلاً قد اضطجع في كساء له مسجىً بكسائه حتى أصبح، وصلينا نحن تلك الليلة وسهرنا، فلما أقيمت صلاة الصبح قام ذلك الرجل فاستقبل القبلة فصلى مع الناس، فاستعظمتُ جرأته في الصلاةِ بغير وضوء، فلما فرغتِ الصلاةُ خرج فتبعته لأعظه، فلما دنوت منه سمعته ينشد:

منسحق الجسم غائب حاضرْ ... منتبهُ القلب صامتٌ ذاكرْ
منقبضٌ في الغيوب منبسطٌ ... كذاك من كان عارفاً ذاكر
يبيتُ في ليله أخا فكر ... فهو مدى الليل قائمٌ ساهر

قال: فعلمت أنه ممن يعبد بالفكرة وانصرفت عنه.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنا﴾ معناه: يقولون: ربنا على النداء، ﴿ما خَلَقْتَ هَذا باطِلاً﴾، يريد لغير غاية منصوبة بل خلقته وخلقت البشر لينظر فيه فَتُوَحَّدَ وتعبد، فمن فعل ذلك نَعَّمته ومن ضلَّ عن ذلك عذَّبته لكفره وقولِهِ عليك ما لا يليق بك. ولهذا المعنى الذي تعطيه قوةُ اللفظ حسُن قولهم: ﴿سُبْحانك﴾، أي تنزيهاً لك عما يقول المبطلون. وحسُن قولهم: ﴿فَقِنا عذابَ النّارِ﴾ إذ نحن المسبحون المنزهون لك الموحدون.

وقولهم: ﴿رَبَّنا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَه﴾ استجارة واستعاذة، أي: فلا تفعل بنا ذلك، ولا تجعلنا ممن يعمل عملها. والخزي: الفضيحة المخجلة الهادمة لقدر المرء، خَزِيَ الرجل يخزى خزياً إذا افتضح، وخزاية إذا استحيى، الفعل واحد والمصدر مختلف.

وقال أنس بن مالك والحسن بن أبي الحسن وابن جريج وغيرهم: وهذه إشارة إلى من يخلد في النار[١]، ومن يخرج منها بالشفاعة والإيمان فليس بمخزيٍّ. وقال جابر بن عبد الله وغيره: كل من دخل النار فهو مخزي وإن خرج منها، وإن في دون ذلك لخزيا[٢].

---

(١) أَخرجه ابن جرير، وابن أَبي حاتم ـ عن أَنس. (فتح القدير للشوكاني ١: ٣٧٨. والدر المنثور للسيوطي ٢: ١١١).

(٢) أَخرجه ابن جرير، والحاكم ـ عن عمرو بن دينار عن جابر بلفظ: (وما أَخزاه حين أَحرقه بالنار، وإِن دون ذلك خزيا). (الدر المنثور ٢: ١١١. وفتح القدير للشوكاني. ١: ٣٧٨).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أما إنه خزي دون خزي، وليس خزي من يخرج منها بفضيحة هادمة لقدره، وإنما الخزي التام للكفار.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالمينَ مِنْ أَنصار﴾ هو من قول الداعين، وبذلك يتسق وصف الآية.

قوله عز وجل:

﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾.

هذه الآيات حكاية عن أولي الألباب أنهم يقولون: ربنا ربنا. قال أبو الدرداء: يرحم الله المؤمنين ما زالوا يقولون: ربنا ربنا حتى استجيب لهم[1].

واختلف المتأولون في المنادي؛ ـ فقال ابن جريج وابن زيد وغيرهما: المنادي محمد ﷺ، وقال محمد بن كعب القرظي: المنادي كتاب الله وليس كلهم رأى النبي ﷺ وسمعه، ولما كانت ﴿يُنادي﴾ بمنزلة يدعو، حسن وصولها باللام بمعنى إلى الإيمان.

وقوله: ﴿أنْ آمِنوا﴾؛ ﴿أنْ﴾، مفسرة لا موضع لها من الإعراب. وغفران الذنوب وتكفير السيئات أمر قريب بعضه من بعض، لكنه كرر للتأكيد، ولأنها مناحٍ من الستر، وإزالة حكم الذنب بعد حصوله، و﴿الأبْرار﴾ جمع بَرّ، أصله: برر على وزن فعل، أدغمت الراء في الراء، وقيل: هو جمع بارّ كصاحب وأصحاب، والمعنى: توفنا معهم في كل أحكامهم وأفعالهم.

---

(١) الفعل (سمع) إن دخل على مسموع تعدى لواحد، نحو: سمعت كلام زيد، وإن دخل على ذات وجاء بعدها فعل أو اسم في معناها نحو: سمعت زيداً يتكلم، وسمعت زيداً يقول كذا ففي هذه المسألة خلاف ـ ذهب بعضهم إلى أنه إذا كان قبل الفعل نكرة كان صفة لها نحو ﴿سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾، وإن كان ما قبله معرفة كان الفعل حالاً ـ وذهب بعضهم إلى أن الفعل أو الاسم في موضع المفعول الثاني لسمع ـ وجعل (سمع) مما يتعدى إلى مفعول واحد إن دخل على مسموع، ويتعدى إلى اثنين إن دخل على ذات ـ وهذا هو مذهب الفارسي.

وقوله: ﴿ربَّنا وآتِنا ما وَعَدْتَنا على رُسُلِكَ﴾ معناه: على ألسنةِ رسلك، وقرأ الأعمش: [رُسْلك] بسكون السين. وطلبوا من الله تعالى إنجاز الوعد، وهو تعالى من لا يجوز عليه خلفه من حيث في طلبه الرغبة أن يكونوا ممن يستحقه، فالطِّلِبَة والتخوف إنما هو في جهتهم لا في جهة الله تعالى، لأن هذا الدعاء إنما هو في الدنيا، فمعنى قول المرء: اللهم أنجزْ لي وعدك، إنما معناه: اجعلني ممن يستحقُّ إنجازَ الوعد، وقيل: معنى دعائهم الاستعجال مع ثقتهم بأن الوعد منجز. وقال الطبري وغيره: معنى الآية ما وعدتنا على ألسنة رسلك من النصر على الأعداء فكأن الدعوة إنما هي في حكم الدنيا.

وقولهم: ﴿ولا تُخزنا يومَ القيامةِ إنّك لا تُخلفُ الميعادَ﴾ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾(١)، فهذا وعده تعالى وهو دال على أن الخزي إنما هو مع الخلود(٢).

وقوله عز وجل:

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

﴿اسْتَجاب﴾ استفعل بمعنى أجاب، فليس استفعل على بابه من طلب الشيء بل هو كما قال الشاعر:

وداعٍ دعا يا مَنْ يجيبُ إلى الندى ... فلـم يستجبـه عنـد ذاك مجيـب(٣)

(١) من الآية (٨) من سورة التحريم.

(٢) قال أبو حيان: «وانظر إلى حسن محاورة هؤلاء الذاكرين المتفكرين ـ فإنهم خاطبوا الله تعالى بلفظة: (ربنا) فهي إشارة إلى أنه أصلحهم وهيأهم للعبادة ـ وقد أخبروا أولاً بنتيجة الفكر ﴿ما خلقتَ هذا باطلاً﴾ ـ ثم نزهوه، ثم سألوه أن يقيهم النار ـ ثم ذكروا ما أنتجه لهم الفكر من إجابة الداعي للإيمان لأن ذلك مترتب على أنه سبحانه لم يخلق ذلك باطلاً، ثم سألوه المغفرة والوفاة على الإيمان، ثم سألوه الجنة، وألا يفضحهم يوم القيامة ـ وتكرر لفظ ﴿ربنا﴾ خمس مرات للاستعطاف ـ وفي التكرار دليل على جواز الإلحاح في المسألة من الله]. بتصرف.

(٣) البيت لكعب بن سعد الغنوي يَرْثي أخاه هَرِماً أو شبيباً، ويكنى أبا المغوار. والداعي هنا: السائل. ويجيب: يرد الجواب. واستجاب: بمعنى أجاب. والمعنى: ربَّ داعٍ دعا: هل من أحد يمنح =

أي لم يجبه. وقوله: ﴿أَنِّي﴾ يجوز أن تكون «أن» مفسرة، ويمكن أن تكون بمعنى (أيْ)، وقرأ عيسى بن عمر: [إني] بكسر الهمزة. وهذه آية وعدٍ من الله تعالى، أي: هذا فعله مع الذين يتصفون بما ذكر. وروي أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، قد ذكر الله تعالى الرجالَ في الهجرة ولم يذكر النساء في شيء من ذلك، فنزلت الآية(١)، ونزلت آيات في معناها فيها ذكر النساء.

وقوله: ﴿مِنْ ذَكَرٍ﴾ تبيين لجنس العامل، وقال قوم: ﴿مِنْ﴾ زائدة لتقدم النفي من الكلام(٢).

وقوله تعالى: ﴿بعْضُكُم مِنْ بَعْضٍ﴾ يعني في الأجروتقبل العمل، أي: أن الرجال والنساء في ذلك على حد واحد. وبينَّ تعالى حالَ المهاجرين، ثم الآية بعد تنسحب على كل من أُوذيَ في الله تعالى، وهاجر أيضاً إلى الله تعالى، وإن كان اسم الهجرة وفضلها الخاص بها قد انقطع بعد الفتح فالمعنى باق إلى يوم القيامة، وذلك أن الذي يهجر وطنه وقرابته في الله كأن الوطن والقرابة يهجرونه أيضاً فهي مهاجرة.

وقوله تعالى: ﴿وأُخرِجوا مِنْ دِيارِهِمْ﴾ عبارة إلزام ذنب للكفار، وذلك أن المهاجرين إنما أخرجهم سوءُ العشرة وقبيحُ الأفعال فخرجوا باختيارهم، فإذا جاء الكلام في مضمار إلزام الذنب للكفار قيل: ﴿أُخرجُوا مِنْ ديارِهِم﴾ ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾(٣) إلى غير ذلك من الأمثلة. وإذا جاء الكلام في مضمار الفخر والقوة على الأعداء تمسك بالوجه الآخر من أنهم خرجوا برأيهم، فمن ذلك إنكار النبي ﷺ

= المستمنحين؟ فلم يجبه أحد. (خزانة الأدب ٤: ٣٨٥).

(١) أخرجه سعيد بن منصور، وعبد الرزاق، والترمذي، وابن أبي حاتم، والحاكم. وصححه ـ عن أمِّ سلمة. كما أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني. (الشوكاني١: ٣٧٩). و«الدر المنثور» ٢: ١١٢. و«ابن كثير».

(٢) وقيل (مِن) في موضع الحال من الضمير الذي في العامل في (منكم) ـ أي: عامل كائن منكم كائناً من ذكر أو أنثى. وقال أبو البقاء: ﴿من ذكر أو أنثى﴾ بدل من ﴿منكُم﴾ بدل الشيء من الشيء وهما لعين واحدة، فيكون قد أعاد العامل هو حرف الجرّ، ويكون بدلاً تفصيلياً من مخاطب ـ ويرد على أنه تفصيلي أنه عطف بأَوْ ـ والبدل التفصيلي لا يكون إلا بالواو كقول الشاعر:

وكنتُ كذي رجلينِ رِجْلٍ صحيحةٍ ... ورجْلٍ رمى فيها الزَّمانُ فشلَّتِ

(٣) من الآية (٢١٧) من سورة البقرة.

على أبي سفيان بن الحارث حين أنشده:

. . . . رَدَّني إلى اللهِ مَن طَرَّدتُ كلَّ مُطَرَّدِ[١]

فقال له رسول الله ﷺ: (أنت طرَّدتني كلَّ مطرد)؟ إنكاراً عليه.

ومن ذلك قول كعب بن زهير:

في عصبةٍ من قريش قال قائلُهم ببطـن مكـةَ لمـا أَسلمـوا زولـوا
زالـوا فمـا زال أنكـاسٌ ولا كُشُـفٌ عنـد اللقـاءِ ولا مِيـلٌ معـازيـلُ[٢]

وقرأ نافع وعاصم وأبو عمرو: ﴿وقاتَلُوا وقُتِلوا﴾ بتخفيف التاء وضم القاف، ومعنى هذه القراءة بيِّن. وقرأ ابن كثير: [وقاتَلُوا وقُتِّلوا] بتشديد التاء وهي في المعنى كالأولى في المبالغة في القتل. وقرأ حمزة والكسائي: [وقُتِلوا وقاتَلُوا] يبدآن بالفعل المبني للمفعول به، وكذلك اختلافهم في سورة التوبة، غير أن ابن كثير وابن عامر يشدّدان في التوبة.

ومعنى قراءة حمزة هذه: أَلاَّ تعطي الواوَ رتبةً لأن المعطوف بالواو يجوز أن يكون أولاً في المعنى، وليس كذلك العطف بالفاء، ويجوز أن يكون المعنى: وقُتلوا وقاتلَ باقيهم، فتشبه الآية قوله تعالى: ﴿فَمَا وَهنوا لِمَا أَصابَهُم﴾ على تأويل من رأى أَن القتل وقع بالربيين.

وقرأ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: [وقَتَلوا] بفتح القاف والتاء من غير ألف، ﴿وقُتِلوا﴾ بضم القاف وكسر التاء خفيفة، وهي قراءة حسنة المعنى مستوفية للفضلين على الترتيب المتعارف. وقرأ محارب بن دثار: [وقَتَلوا] بفتح القاف ﴿وقاتَلُوا﴾، وقرأ طلحة بن مصرف: [قُتِّلوا] بضم القاف وشد التاء [وقاتَلُوا]، وهذه يدخلها إما رفض رتبة الواو، وإما أنه قاتل من بقي. واللام في قوله: ﴿لأُكفِّرَنَّ﴾ لام القسم. و﴿ثواباً﴾

---

(١) هذا عجز بيت من قصيدة لأبي سفيان بن الحارث يعتذر للنبي ﷺ مما كان مضى منه، وصدره:

هَـادنـي هـادٍ غيـر نفسـي وردَّنـي إلـى الله مَـنْ طَـرَّدْتُ كـلَّ مطَّـرد

قال معلق السيرة: الذي في سائر الأُصول هو: ودَلني إلى الله. قال ابن هشام: ويروى: ودلني على الحق من طردت كل مطرد (القصة في سيرة ابن هشام ٤ : ٤٣).

(٢) الأنكاس: جمع نكس وهو الرذل المقصر عن غاية النجدة والكرم؛ الكشُف: جمع أَكْشف وهو من لا يحمي رأسه بالبيضة، والأميل الذي لا سلاح معه، وكذلك المعزال والأعزل.

مصدر مؤكد مثل قوله: ﴿صُنْعَ اللهِ﴾ و﴿كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُم﴾. وباقي الآية بين[(١)].

قوله عز وجل:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾.

نزلت ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ في هذه الآية منزلة: لاتظنّ أن حال الكفار حسنة فتهتمّ لذلك، وذلك أن المغتر فارحٌ بالشيء الذي يغترُّ به، فالكفار مغترون بتقلبهم، والمؤمنون مهتمون به، لكنه ربما يقع في نفس مؤمن أن هذا الإملاء للكفار إنما هو لخيرٍ لهم، فيجيء هذا جنوحاً إلى حالهم ونوعاً من الاغترار فلذلك حسنت ﴿لا يَغُرَّنَّكَ﴾.

ونظيره قول عمر لحفصة: «لا يغرنك أنْ كانت جارتك أوضأ منك وأحبَّ إلى رسول الله ﷺ[(٢)]»، المعنى، لا تغتري بما يتمُّ لتلك من الإدلالِ فتقعي فيه فيطلقك النبي ﷺ. والخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته[(٣)]، وللكفار في ذلك حظ، أي: لا يغرنهم تقلبهم.

وقرأ ابن أبي إسحق[(٤)] ويعقوب[(٥)]: [لا يَغُرَّنْك] بسكون النون خفيفة، وكذلك

---

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط:
بدأ أولاً بالخاص وهو الهجرة، وكانت تطلق على الهجرة إلى المدينة، وثنّى بما ينشأ عنه ما هو أعم من الهجرة، وهو الإخراج من الديار، وأتى ثالثاً بالأذاية في سبيل الله، وهي أعمُّ من أن تكون بالإخراج أو بغيره ـ ثم ارتقى بعد هذه الأوصاف السيئة إلى رتبة الجهاد والمقاومة والاستشهاد في دين الله، وبهذا جمع الله لهم بين رتب هذه الأعمال ـ والظاهر الإخبار عمَّن جمع هذه الأوصاف كلها بالخبر الذي جاء بعد: ﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم﴾... إلخ.

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، من طرق عن الزهري بسند عن ابن عباس. وأخرجه الشيخان من حديث يحيى بن سعيد، عن سعيد بن جبير، وعن ابن عباس. «ابن كثير» ٤: ٣٨٨.

(٣) قال الزمخشري: فإن قلت: كيف جاز أن يغتر الرسول ﷺ بذلك حتى ينهى عنه؟ ـ قلت: الخطاب له والمراد أمته. وإلى هذا أشار ابن عطية. وقد يكون المراد التأكيد والتنبيه وإن كان معصوماً من الوقوع فيه، وذلك كقوله تعالى: ﴿ولا تكُنْ من الكافرين﴾. ﴿ولاَ تكونَنَّ من المشركينَ﴾، ﴿وَلاَ تُطع المكذِّبين﴾.

(٤) هو عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي البصري النحوي.

(٥) هو يعقوب بن إسحق بن زيد أبو محمد الحضرمي مولاهم البصري أحد القراءِ العشرة، وإمام البصرة=

ـ [لا يُصدنّك] و[لا يصُدنّكم] و[لا يضُرَّنكم]، وشبهه.

والتقلب: التصرف في التجارات والأرباح والحروب وسائر الآمال. ثم أخبر تعالى عن قلة ذلك المتاع، لأنه منقضٍ صائرإلى ذلٍّ وقلٍّ وعذاب.

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: [لَكِنَّ الَّذين] بشد النون، وعلى أن (الذين) في موضوع نصب اسماً لـ (لكِنّ). و﴿نزلاً﴾: معناه تكرمة ونصبه على المصدر المؤكد. وقرأ الحسن [نُزْلا] ساكنة الزاي.

وقوله تعالى: ﴿وما عِندَ اللهِ خيرٌ للأبرار﴾ يحتمل أن يريد: خير مما هؤلاء فيه من التقلب والتنعم، ويحتمل أن يريد: خير مما هم فيه في الدنيا. وإلى هذا ذهب ابن مسعود، فإنه قال: ما من مؤمن ولا كافر إلا والموت خير له، أما الكافر فلئلا يزدادَ إثماً، وأما المؤمن فلأنَّ ما عند الله خير للأبرار[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)[2]. فقال القاضي ابن الطيب: هذا إنما هو بالإضافة إلى ما يصير إليه كلّ واحدٍ منهما في الآخرة، فالدنيا على المؤمن المنعّم سجن بالإضافة إلى الجنة، والدنيا للكافر الفقير المضيّق عليه في حاله وصحته جنة بالإضافة إلى جهنم. وقيل: المعنى أنها سجن المؤمن لأنها موضع تعبه في الطاعات وصومه وقيامه، فهو فيها كالمعنت المنكل، وينتظر الثواب في الأخرى التي هي جنته؛ والدنيا جنة الكافر لأنها موضع ثوابه على ما عسى أن يعمل من خير، وليس ينتظر في الآخرة ثواباً، فهذه جنته، وهذا القول عندي كالتفسير والشرح للأول.

= ومقرئها، كانت إليه رئاسة القراءة بعد أَبي عمرو. توفي سنة: ٢٠٥. «الطبقات» لابن الجزري ٢: ٣٨٦. و«النشر» ١: ١٨٦. ط: مصطفى محمد بمصر.

(١) أخرجه عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو بكر المروزي في الجنائز، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه ـ عن ابن مسعود بلفظ: (ما من نفس برة..)، وأخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن أبي الدرداءِ بلفظ: (ما من مؤمن....).

(٢) أخرجه الإمام أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه عن أبي هريرة، والطبراني، والحاكم ـ عن سليمان، والبزار ـ عن ابن عمر (الجامع الصغير ١: ٥٧٦).

قوله عز وجل:

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾.

اختلف المتأولون فيمن عني بهذه الآية؛ فقال جابر بن عبد الله وابن جريج وقتادة وغيرهم: نزلت بسبب أصحمة النجاشّي سلطان الحبشة[(١)]، وذلك أنه كان مؤمناً بالله وبمحمد ﷺ، فلما مات عرف بذلك رسول الله ﷺ في ذلك اليوم، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: (أخرجوا فصلوا على أخ لكم) فصلى عليه رسول الله ﷺ بالناس، فكبر أربعاً[(٢)]. وفي بعض الحديث: أنه كشف لرسول الله ﷺ عن نعشه في الساعة التي قرب منها للدفن، فكان يراه من موضعه بالمدينة، فلما صلى عليه النبي ﷺ قال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علج نصراني لم يره قط، فنزلت هذه الآية[(٣)]. وكان أصحمة النجاشي نصرانياً، وأصحمة تفسيره بالعربية: عطية، قاله سفيان بن عيينة وغيره. وروي أن المنافقين قالوا بعد ذلك: فإنه لم يصل للقبلة فنزلت: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾[(٤)]. وقال قوم: نزلت في عبد الله بن سلام، وقال ابن زيد ومجاهد: نزلت في جميع من آمن من أهل الكتاب.

---

(١) هو أصحمة بن أبجر ملك الحبشة، هاجر إليه المسلمون في الهجرة الأولى، وكان من قصة إسلامه المشهورة أنه قال للقسيسين: أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي بشر به عيسى، ولولا ما أنا فيه من الملك أتيته، وكنت أحمل نعليه، وكان من أعلم أهل عصره بالإنجيل، يقرأ صفة رسول الله ﷺ ويبكي حتى يبل لحيته، توفي في السنة التاسعة من الهجرة في شهر رجب وصلى عليه ﷺ صلاة الغائب. «الشهاب على الشفاء» ٣: ٢٦٧.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز عن مسدد، والترمذي فيه عن أحمد بن منيع، والنسائي فيه عن قتيبة وسويد بن نصر، وابن ماجه عن أبي بكر بن شيبة، ومسلم فيه عن يحيى بن يحيى، وأبو داود فيه عن القعنبي، والنسائي فيه عن محمد بن رافع، ستّتهم عن مالك «العيني ٨: ١٩» و«تيسير الوصول ٢٩٠» أخرجه البزار، والطبراني، في «الأوسط» عن ابن عمر وعن أنس. والطبراني أيضاً فيه عن أبي سعيد الخدري. كما أخرجه الطبراني في الكبير عن جرير، وعن ابن خارجة (مجمع الزوائد ٣: ٣٨ ـ ٣٩).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير عن حذيفة بن أسيد وإسناده حسن. (مجمع الزوائد ٣: ٣٩).

(٤) من سورة البقرة: الآية (١١٥).

و﴿خاشِعينَ﴾ حال من الضمير في ﴿يُؤمن﴾، وورد ﴿خاشِعِينَ﴾ على المعنى في ﴿مِنْ﴾ لأنه جمعٌ، لا على لفظ ﴿مِنْ﴾ لأنه إفراد.

وقوله تعالى: ﴿لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ مدحٌ لهم وذمٌ لسائر كفار أهل الكتاب لتبديلهم وإيثارهم كسبَ الدنيا الذي هو ثَمَنٌ قليل على آخرتهم وعلى آيات الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إنَّ الله سريعُ الحِسابِ﴾ قيل: معناه: سريع الإتيان بيوم القيامة، وهو يوم الحساب، فالحساب إذاً سريع، إذ كلُّ آتٍ قريب. وقال قوم: سريع الحساب أي: إحصاءُ أعمالِ العباد وأجورهم وآثامهم، إذ ذلك كله في عمله لا يحتاج فيه إلى عدّ وروية ونظر، كما يحتاج البشر.

ثم ختم الله تعالى السورة بهذه الوصاةِ التي جمعت الظهور في الدنيا على الأعداء، والفوز بنعيم الآخرة، فحضَّ على الصبر على الطاعات وعن الشهوات، وأمر بالمصابرة فقيل: معناه: مصابرة الأعداء، قاله زيد بن أسلم. وقيل: معناه: مصابرة وعد الله في النصر، قاله محمد بن كعب القرظي، أي: لا تسأموا وانتظروا الفرج، وقد قال رسول الله ﷺ: (انتظار الفرج بالصبر عبادة)[١]

وكذلك اختلف المتأولون في معنى قوله: ﴿وَرابِطُوا﴾؛ فقال جمهور الأمة: معناه: رابطوا أعداءكم الخيلَ، أي: ارتبطوها كما يرتبطها أعداؤكم، ومنه قوله عز وجلّ: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[٢]. . . الآية.

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة[٣]، وقد كتب إليه يذكر جموع الروم، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه مهما نزل بعبد مؤمن شدةٌ، جعل الله بعدها فرجاً، ولن

---

(١) أخرجه القضاعي عن ابن عمر وعن ابن عباس، و«هو ضعيف»، «الجامع الصغير» ١: ٣٦٦.

(٢) من الآية (٦٠) من سورة الأنفال.

(٣) هو أبو عبيدة بن الجراح: عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي الفهري، مشهور بكنيته، أحد العشرة السابقين إلى الإسلام، هاجر الهجرتين، وشهد بدراً وما بعدها، أرسله ﷺ مع وفد اليمن ليعلمهم دينهم، وكان فتح أكثر الشام على يده، آخى ﷺ بينه وبين سعد بن معاذ، كان أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وقال فيه: (لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة). توفي سنة: ١٨. (الإصابة ٢: ٢٥٢).

يغلبَ عسرٌ يسرين[١]، وإن الله تعالى يقول في كتابه، ﴿يأيُّها الَّذين آمَنوا اصْبِروا وصابِروا وَرابِطوا﴾ . . . الآية.

وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن[٢]: هذه الآية في انتظار الصلاة بعد الصلاة، ولم يكن في زمن رسول الله ﷺ غزو يرابط فيه، واحتج بحديث علي بن أبي طالب وجابر بن عبد الله وأبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: (ألا أدلكم على ما يحطّ الله به الخطايا ويرفعُ به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط)[٣].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقول الصحيح هو أن الرباط هو الملازمة في سبيل الله، أصلها من ربط الخيل، ثم سمّي كلّ ملازم لثغرٍ من ثغور الإسلام مرابطاً، فارساً كان أو راجلاً، واللفظة مأخوذة من الربط، وقول النبي ﷺ: (فذلكم الرباط)، إنما هو تشبيه بالرباط في سبيل الله، إذ انتظار الصلاة إنما هو سبيل من السبل المنجية، والرباط اللغوي هو الأول، وهذا كقوله: (ليس الشديد بالصُّرعة)[٤] وكقوله: (ليس المسكين بهذا الطواف)[٥] إلى غير ذلك من الأمثلة.

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه عن الحسن مرسلاً، وهو حسن، (الجامع الصغير ٢: ٣٦٤).

(٢) هو أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري المدني الحافظ، اسمه كنيته، وقيل: اسمه عبد الله، من كبار أئمة التابعين، غزير العلم، ثقة، كان يتفقه ويناظر ابن عباس ويراجعه، روى عن أبيه يسيراً وعن عثمان، وأبي قتادة، وعائشة، وأبي هريرة، وغيرهم، وروى عنه سالم أبو النضر، وأبو الزناد، والزهري، ويحيى بن سعيد، وغيرهم، توفي سنة: ٩٤، وقيل: ١٠٤.

(٣) أخرجه ابن المبارك، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان» من طريق داوود قال: قال أبو سلمة. وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن أبي أيوب وعن أبي سلمة. وأخرجه ابن جرير وابن حبان عن جابر. وأخرجه ابن جرير كذلك عن عليٍّ. وأخرجه مالك والشافعي وعبد الرزاق وأحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم عن أبي هريرة، (الدر المنثور ٢: ١١٤. وابن كثير ١: ٤٤٤).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والبخاري، ومسلم عن أبي هريرة، وهو صحيح. (الجامع الصغير ٢: ٣٨٨).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي عن أبي هريرة، وهو صحيح، (الجامع الصغير ٢: ٣٨٩).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمرابط في سبيل الله عند الفقهاء هو الذي يشخص إلى ثغر من الثغور ليرابط مدةً ما، قاله ابن المواز ورواه. فأما سكان الثغور دائماً بأهليهم الذين يعتمرون ويكتسبون هنالك، فهم وإن كانوا حماةً فليسوا بمرابطين[1].

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ﴾ ترجّ في حقِّ البشر.

كمل تفسير سورة آل عمران

والحمد لله على ذلك كثيرا

* * *

(١) وردت أحاديث صحيحة عن الرسول ﷺ في فضل المرابطة في ثغور المسلمين، وحمايتها من الكفار ـ فقد روى البخاري (٦/ ٦٣) عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها). وروى الإمام أحمد عن فضالة بن عبيد عن رسول الله ﷺ قال: (كل ميِّت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن فتنة القبر). ورواه أبو داود والترمذي ـ وقال الترمذي: حسن صحيح.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

هذه السورة مدنية إلا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح في عثمان بن طلحة(١) وهي قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَماناتِ إلى أهْلِها﴾ قال النقاش: وقيل: نزلت السورة عند هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد قال بعض الناس: إن قوله تعالى: ﴿ياأَيُّها النَّاسُ﴾ حيث وقع إنما هو مكي، فيشبه أن يكون صدر هذه السورة مكياً، وما نزل بعد الهجرة فإنما هو مدني وإن نزل في مكة أو في سفر من أسفار النبي عليه السلام ، وقال النحاس: هذه السورة مكية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا خلاف أن فيها ما نزل بالمدينة ، وفي البخاري(٢): آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتيكم في الكَلالَةِ﴾ ، ذكرها في تفسير سورة «براءة» من رواية البراء بن عازب. وفي البخاري عن عائشة أنها قالت: ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ ، تعني قد بنى بها.

قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾.

---

(١) عثمان بن طلحة: هاجر في هدنة الحديبية مع خالد بن الوليد ، وشهد فتح مكة ، ودفع إليه الرسول مفاتيح الكعبة ، وكانت وفاته في أول خلافة معاوية سنة ٤٢هـ (الاستيعاب: ١٠٣٤).

(٢) انظر إرشاد الساري ٧: ١٤١.

﴿يا﴾ حرف نداء، و﴿أيّ﴾ منادى مفرد، و﴿هَا﴾ تنبيه، و﴿النّاسُ﴾ نعت لأيّ، أَوْ صلة على مذهب أبي الحسن الأخفش. والرَّبُّ: المالك. وفي الآية تنبيه على الصانع وعلى افتتاح الوجود، وفيها حض على التواصل لحرمة هذا النسب وإن بعد، وقال: (واحِدَةٍ)، على تأنيث لفظ النفس، وهذا كقول الشاعر:

أبــوك خليفــةٌ ولــده أخــرى   وأنــت خليفــةٌ ذاك الكمــالُ[1]

وقرأ ابن أبي عبلة: [مِنْ نَفْسٍ واحِدٍ] بغير هاء، وهذا على مراعاة المعنى، إذ المراد بالنفس: آدم ﷺ، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما.

والخلق في الآية: بمعنى الاختراع، ويعني بقوله: ﴿زَوْجَهَا﴾ حواء، والزوج في كلام العرب: امرأة الرجل، ويقال زوجة، ومنه بيت أبي فراس[2]:

وإنَّ الــذي يَسْعــى لِيُفْسِــد زوجتــي   كســاعٍ إلــى أُسْــدِ الشـرى يَسْتَبيلهــا

وقوله: ﴿مِنْهَا﴾ قال ابن عباس ومجاهد والسدي وقتادة: إن الله تعالى خلق آدم وحشاً في الجنة وحده، ثم نام فانتزع الله أحد أضلاعه القُصَيْرى من شماله، وقيل: من يمينه فخلق منه حواء، ويعضد هذا القول الحديث الصحيح في قوله عليه السلام: (إن المرأة خلقت من ضلع، فإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها)[3] وقال بعضهم: معنى ﴿مِنْها﴾: مِنْ جنسها، واللفظ يتناول المعنيين، أو يكون لحمها وجوهرها من ضلعه، ونفسها من جنس نفسه.

﴿وَبَثَّ﴾ معناه: نشر، كقوله تعالى: ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾[4] أي: المنتشر.

وحصره ذريتها إلى نوعين: الرجال والنساء مقتض أن الخنثى ليس بنوع، وأنه وإن

---

(١) ـ راجع صفحة (٦٤) من هذا الجزء.

(٢) أبو فراس كنية الفرزدق الشاعر، والبيت في ديوانه (٢: ٦١ط. صادر، بيروت)، من قصيدة في شأن زواجه بالنوار واستعدائها عليه عبد الله بن الزبير ليطلقهاوفي البيت شاهد على استعمال «زوجة»، وكان الأصمعي يخطىء ذلك، فإذا احتج عليه ببيت ذي الرمة «أذو زوجة بالمصر أم ذو خصومة» ردّ قائلاً: إن ذا الرمة قد أكل الملح والباقل في حوانيت البصرة حتى بشم، كناية عن فساد لغته بتردده إلى الحاضرة.

(٣) أخرجه البخاري (في باب النكاح)، ومسلم (في الرضاع) وانظر مسند أحمد ٥: ١٥١، ٢: ٤٢٨، ٤٤٩.

(٤) من الآية (٤) من سورة القارعة. ومنه قوله تعالى: ﴿وزرابيُّ مبثوثة﴾.

فرضناه مشكل الظاهر عندنا ، فله حقيقة ترده إلى أحد هذين النوعين . وفي تكرار الأمر بالاتقاء تأكيد وتنبيه لنفوس المأمورين.

و﴿الَّذي﴾ في موضع نصب على النعت ، و[تسَّاءلون] معناه: تتعاطفون به ، فيقول أحدكم: أسألك بالله أن تفعل كذا ، وما أشبهه؛ وقالت طائفة: معناه: تساءلون به حقوقكم وتجعلونه مقطعاً لها ، وأصله: تتساءلون ، فأبدلت التاء الثانية سيناً وأدغمت في السين ، وهذه قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر وابن عمرو ، بخلاف عنه. وقرأ الباقون: ﴿تَسَاءلون﴾ بسين مخففة ، ذلك لأنهم حذفوا التاء الثانية تخفيفاً ، فهذه تاء تتفاعلون تدغم في لغة وتحذف في أخرى لاجتماع حروف متقاربة. قال أبو عليّ: وإذا اجتمعت المتقاربة خففت بالحذف والإدغام والإبدال، كما قالوا: طَسْتٌ ، فأبدلوا من السين الواحدة تاء ، إذ الأصلُ طس ، قال العجاج[1]:

لَوْ عَرَضَتْ لِيْبُليٍّ قَسٍّ ... أشعثَ في هيكلِهِ مُندسٍّ

حنَّ إليها كحنين الطَّسِّ

وقرأ ابن مسعود: [تَسَلُون] خفيفة بغير ألف، ﴿والأَرْحامَ﴾ نصب على العطف على موضع ﴿به﴾ لأنَّ موضعه نصب ، والأظهر أنه نُصِبَ بإضمار فعلٍ تقديره: واتقوا الأرحام أن تقطعها، وهذه قراءة السبعة إلا حمزة، وعليها فسَّر ابن عباس وغيره. وقرأ عبد الله بن يزيد ﴿والأرحامُ﴾ بالرفع، وذلك على الابتداء والخبر مقدر ، تقديره: والأَرحامُ أهل أن توصل ، وقرأ حمزة وجماعة من العلماء: [والأرحامِ] بالخفض عطفاً على الضمير ، والمعنى عندهم: إنها يتساءل بها كما يقول الرجل: أسألك بالله وبالرحم ، هكذا فسرها الحسن وإبراهيم النخعي ومجاهد. وهذه القراءة عند رؤساء نحويي البصرة لا تجوز ، لأنه لا يجوز عندهم أن يعطفَ ظاهرٌ على مضمر مخفوض ، قال الزجاج عن المازني: لأن المعطوف والمعطوف عليه شريكان يحلُّ كلٌّ منهما محلَّ صاحبه ، فكما لا يجوز: مررت بزيدِوك ، فكذلك لا يجوز مررت بكَ وزيدٍ. وأما سيبويه فهي عنده قبيحة لا تجوز إلا في الشعر ، كما قال:

فاليومَ قد بتَّ تهجونا وتشتمنا ... فاذهب فما بك والأيام من عجب[2]

---

(١) ليس الرجز في ديوانه؛ ونسبه له في البحر المحيط (٣: ١٥٦) ، وورد في اللسان (طسس) لِأعرابي فصيح ، والأيبلي: الراهب ، والطست: فارسي الأصل فلما عربته العرب جعلته طساً.

(٢) هو شاهد على أن حرف الجرّ قد يترك ضرورة عند البصريين ، أي: ما بك وبالأيام عجب ، وهو من=

وكما قال:

نُعلِّقُ في مثلِ السواري سيوفَنا   وما بينها والكعبِ غَوْطٌ نفانِفُ[(١)]

واستسهلها بعض النحويين، قال أبو علي: ذلك ضعيف في القياس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

المضمر المخفوض لا ينفصل فهو كحرف من الكلمة، ولا يعطف على حرف، ويردُّ عندي هذه القراءة من المعنى وجهان: أحدهما أن ذكر (الأرْحامِ) فيما يتساءل به لا معنى له في الحض على تقوى الله، ولا فائدة فيه أكثر من الإِخبار بأن الأرحام يتساءل بها، وهذا تفرق في معنى الكلام وغضٌّ من فصاحته، وإنما الفصاحة في أن يكون لِذِكْرِ الأرحام فائدة مستقلة. والوجه الثاني أن في ذكرها على ذلك تقريراً للتساؤل بها والقسم بحرمتها، والحديث الصحيح يرد ذلك في قوله عليه السلام: (من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت)[(٢)]، وقالت طائفة: إنما خفض [وَالأَرْحامِ] على جهة القسم من الله على ما اختص به لا إله إلا هو من القسم بمخلوقاته، ويكون المقسم عليه فيما بعد من قوله: ﴿إنَّ اللهَ كانَ عليكُمْ رَقيباً﴾، وهذا كلام يأباه نظمُ الكلام وسرده، وإن كان المعنى يخرجه[(٣)].

و﴿كان﴾ في هذه الآية ليست لتحديد الماضي فقط، بل المعنى: كان وهو يكون. والرقيب: بناء لاسم الفاعل من رقب يرقب إذا أحدَّ النظر بالبصر أو بالبصيرة إلى أمر ما ليتحققه على ما هو عليه، ويقترن بذلك حفظ ومشاهدة وعلم بالحاصل عن الرقبة. وفي قوله: ﴿عَلَيْكُم﴾ ضرب من الوعيد، ولم يقل: «لكم» للاشتراك الذي كان يدخل من أنه يرقب لهم ما يصنع غيرهم. ومما ذكرناه قيل للذي يرقب خروج السهم من ربابة

= شواهد سيبويه ١: ٣٩٢، وانظر الخزانة ٢: ٣٣٨، وتفسير القرطبي ٥: ٣، والبحر المحيط ٣: ١٥٨.

(١) ورد غير منسوب في الخزانة ٢: ٣٣٨، والبحر المحيط ٣: ١٥٨، وتفسير القرطبي ٥: ٣؛ وفي رواية القرطبي «مهوى نفانف» والغوط: المطمئن من الأرض، والنفنف: المهوى.

(٢) حديث صحيح ورد في الستة وفي مسند أحمد ٢: ٧، ١١.

(٣) لمعرفة مزيد من الآراء حول إعراب (والأرحام) انظر القرطبي ٥: ٤، والمحتسب ١: ١٧٩، والبحر المحيط ٣: ١٥٩، وقد مال أبو حيان إلى تصويب مذهب الكوفيين في هذا الموقف.

الضريب في القداح: رقيب، لأنه يرتقب ذلك، ومنه قول أبي داود[١]:

كمقاعد الرقباء للضُّ ... ـرباء أيديهمْ نواهدْ

قوله عز وجل:

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾.

اليتامى: جمع يتيم ويتيمة، واليتيم في كلام العرب: من فقد الأب قبل البلوغ، وقال النبي ﷺ: (لا يُتْمَ بعد بلوغ[٢])، وهو في البهيمة فقدُ الأُمّ في حال الصغر، وحُكي: اليتيم في الإنسان من جهة الأم.

وقال ابن زيد: هذه المخاطبة هي لمن كانت عادته من العرب ألاّ يورث الصغير من الأولاد مع الكبير، فقيل لهم: ورثوهم أموالهم، ولا تتركوا أيها الكبار حظوظكم حلالاً طيباً وتأخذوا الكلّ ظلماً حراماً خبيثاً، فيجيء فعلكم ذلك تبدلاً. وقالت طائفة: هذه المخاطبة هي لأوصياء الأيتام، والمعنى: إذا بلغوا وأُونس منهم الرشد. وسماهم يتامى وهم قد بلغوا استصحاباً للحالة الأولى التي قد ثبتت لهم من اليتم.

﴿وَلاَ تَتَبَدَّلوا﴾ قيل: المراد: ما كان بعضهم يفعل من أن يبدل الشاة السمينة من مال اليتيم بالهزيلة من ماله، والدرهمَ الطيب بالزائف من ماله، قاله سعيد بن المسيب والزهري والسدي والضحاك. وقيل: المراد بذلك: لا تأكلوا أموالهم خبيثاً، وتدعوا أموالكم طيباً. وقيل: معناه: لا تتعجلوا أكل الخبيث من أموالهم وتدعوا انتظار الرزق الحلال من عند الله، قاله مجاهد وأبو صالح. والخبيث والطيب: إنما هو هنا بالتحليل والتحريم.

وروي عن ابن محيصن أنه قرأ: [تَّبَدَّلوا] بإدغام التاء، وجاز في ذلك الجمع بين ساكنين، لأن أحدهما حرف مدٍّ ولين يشبه الحركة.

---

(١) ديوان أبي داود: ٣٠٧ (دراسات)، والأغاني ١٥: ٩٨ (بولاق)، والميسر: ١٣٣، والمعاني الكبير ٢: ١١٤٨، ومجاز القرآن ١: ١١٣.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (الجامع الصغير ١: ٧٠).

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُم إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ استوى الأيتام في النهي عن أكل أموالهم، كانوا ورثة ممنوعين من الميراث أو مَحجوبين، والآية نص في قصد مال اليتيم بالأكل والتمول على جميع وجوهه. وروي عن مجاهد أنه قال: الآية ناهية عن الخلط في الإنفاق، فإن العرب كانت تخلط نفقتها بنفقة أيتامها فنهوا عن ذلك، ثم نسخ منه النهي بقوله: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾[(١)] وقد تقدم ذكر هذا في سورة البقرة، وقال ابن فورك عن الحسن: إنه تأول الناس من هذه الآية النهي عن الخلط فاجتنبوه من قبل أنفسهم، فخفف عنهم في آية البقرة، وقالت طائفة من المتأخرين: ﴿إلى﴾ بمعنى «مع»، وهذا غير جيد. وروي عن مجاهد أن معنى الآية: ولا تأكلوا أموالهم مع أموالكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تقريب للمعنى، لأنه أراد أن الحرف بمعنى الآخر.

وقال الحذاق: ﴿إلى﴾ هي على بابها وهي تتضمن الإضافة، التقدير: لا تضيفوا أموالهم إلى أموالكم في الأكل، كما قال تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[(٢)] أي: من ينضاف إلى الله في نصرتي؟

والضمير في: ﴿إنَّه﴾ عائد على الأكل الذي تضمنه الفعل الظاهر، والحُوب: الإثم، قاله ابن عباس والحسن وغيرهما، تقول: حاب الرجل يحوب حوباً وحاباً إذا أثم، قال أمية بن الأسكر[(٣)].

وإن مهاجرين تكنَّفاه ... غداةَ إذٍ لقد خطئا وحابا

وقرأ الحسن: [حَوْبا] بفتح الحاء، وهي لغة بني تميم، وقيل: هو بفتح الحاء المصدر وبضمها الاسم. وتحوَّب الرجل إذا ألقى الحوب عن نفسه، وكذلك تحَنث وتأثم وتحرج، فإن هذه الأربعة بخلاف «تفعَّل» كله، لأن تفعَّل معناه: الدخول في

(١) من الآية (٢٢٠) من سورة البقرة.
(٢) تكررت في الآية (٥٢) من سورة آل عمران، والآية (١٤) من سورة الصف.
(٣) أمية بن الأسكر شاعر مخضرم، هاجر ابنه كلاب في الفتوح وكان أمية شيخاً، فلما طالت غيبته قال هذه القصيدة البائية يرجو ردّه فردّه عمر رضي الله عنه، (الإصابة١: ٦٥، وانظر أيضاً أخباره في الاستيعاب والأغاني وطبقات ابن سلام).

الشيء، كتعبَّد وتكسَّب وما أشبهه، ويلحق بهذه الأربعة ـ تَفَكَّهون، في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾[1] أي: تطرحون الفكاهة عن أنفسكم، بدليل قوله بعد ذلك: ﴿إنَّا لمُغْرمون بل نَحْن مَحرومون﴾ أي: يقولون ذلك. وقوله: ﴿كبيراً﴾ نص على أن أكل مال اليتيم من الكبائر.

وقوله تعالى: ﴿وَإنْ خِفتُم ألاَّ تُقْسِطوا في اليَتامى﴾ قال أبو عبيدة[2]: خفتم هنا بمعنى: أيقنتم، واستشهد بقول الشاعر:

فقلْتُ لهم خافوا بألفَيْ مُدَجَّجٍ[3] . . . .

وما قاله غير صحيح، ولا يكون الخوف بمعنى اليقين بوجه وإنما هو من أفعال التوقع، إلا أنه قد يميل الظن فيه إلى إحدى الجهتين. وأما أن يصلَ إلى حدّ اليقين فلا. و[تُقْسِطوا] معناه: تعدلوا، يقال: أَقسط الرجل إذا عدل، وقَسَطَ إذا جار، وقرأ ابن وثاب والنخعي: ﴿ألاَّ تَقْسِطوا﴾ بفتح التاء من «قسط» على تقدير زيادة «لا» كأنه قال: وإن خفتم أن تجوروا.

واختلف في تأويل الآية؛ فقالت عائشة رضي الله عنها: نزلت في أولياء اليتامى الذين يعجبهم جمال ولياتهم، فيريدون أن يبخسوهن في المهر لمكان ولايتهم عليهن، فقيل لهم: أقسطوا في مهورهنّ، فمن خاف ألا يقسط فليتزوج ما طاب له من الأجنبيات اللواتي يكايسن[4] في حقوقهن، وقاله ربيعة.

وقال عكرمة: نزلت في قريش، وذلك أن الرجلَ منهم كان يتزوج العشر وأكثر وأقل، فإذا ضاق ماله مالَ على مالِ يتيمه فتزوج منه، فقيل لهم: إن خفتم عجز أموالكم حتى تجوروا في اليتامى فاقتصروا.

وقال سعيد بن جبير والسدي وقتادة وابن عباس: إن العرب كانت تتحرج في أموال

---

(١) الآية (٦٥) من سورة الواقعة.

(٢) مجازات القرآن١: ١١٦، والبحر المحيط ٣: ١٦٢.

(٣) الرواية المشهورة للبيت (وهو من شعر دريد بن الصمة):

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج ... سراتهم في الفارسيّ المسرّد

وما رواه أبو عبيدة مختلف عن هذا البيت إذ هو هنالك رجز، وهو منسوب لليلى بنت الحارس:

قلت لكم خافوا بألف فارس ... مقنعين في الحديد اليابس

(٤) المكايسة في البيع: تنقيص الثمن.

اليتامى ، ولا تتحرج في العدل بين النساء ، كانوا يتزوجون العشر وأكثر ، فتنزلت الأية في ذلك ، أي: كما تخافون ألا تقسطوا في اليتامى ، فكذلك فتحرجوا في النساء ، وانكحوا على هذا الحد الذي يبعد الجور عنه.

وقال مجاهد: إنما الآية تحذير من الزنى وزجر عنه، أي: كما تتحرجون في مال اليتامى فكذلك فتحرجوا من الزنى ، وانكحوا على ما حُدَّ لكم. قال الحسن أبو مالك وسعيد بن جبير: ما طاب معناه: ما حل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لأن المحرمات من النساء كثير.

وقرأ ابن أبي عبلة، [مَنْ طابَ] على ذكر من يعقل ، وحكى بعض الناس أن ﴿ما﴾ في هذه الآية ظرفية، أي ما دمتم تستحسنون النكاح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا المنزع ضعف: وقال: ﴿ما﴾ ولم يقل: ﴿مَن﴾ لأنه لم يرد تعيينَ من يعقل ، وإنما أراد النوع الذي هو الطيّبُ من جهة التحليل، فكأنه قال: فانكحوا الطيّبَ. وهذا الأمر هو ندب لقوم وإباحةٌ لآخرين بحسب قرائن المرء ، والنكاح في الجملةِ والأغلب مندوبٌ إليه ، قال عليه السلام: (من استطاع منكم الباءَةَ فليتزوج)[1].

و﴿مَثْنى وثُلاثَ ورُباع﴾: موضعها من الإعراب نصب على البدل مما طاب ، وهي نكرات لا تنصرف لأنهامعدولة وصفة ، كذا قال أبو علي ، وقال غيره: هي معدولة في اللفظ وفي المعنى ، وأيضاً فإنها معدولة وجمع ، وأيضاً فإنها معدولة مؤنثة ، قال الطبري: هي معارف لأنها لا تدخلها الألفُ واللام ، وخطأ الزجاج هذا القول ، وهي معدولة عن اثنين وثلاثة وأربعة ، إلا أنها مضمنة تكرار العدد إلى غاية المعدود ، وأنشد الزجاج لشاعر[2]:

---

(١) ورد هذا الحديث في البخاري (في باب الصوم وباب النكاح).

(٢) البيت لساعدة بن جؤية (انظر ديوان الهذليين ٣: ١١٦٦) ، يقول: أهلي بواد ليس به أنيس ، وإنما هم مع السباع والوحش في بلد قفر؛ وانظر مجاز القرآن ١ : ١١٤.

ولَكنَّمـــا أهلـــي بـــوادٍ أنيسُـــه ذئـابٌ تبغَّـى النـاسَ مثنـى وَمَـوْحَـدُ

فإنما معناه: اثنين اثنين، وواحد واحد، وكذلك قولك: جاء الرجال مثنى وثلاث، فإنما معناه: اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة.

وقرأ يحيى بن وثاب وإبراهيم النخعي: ﴿وَرُبَع﴾ ساقطة الألف، وتلك لغة مقصدها التخفيف كما قال الشاعر: على لسان الضب[1]:

لا أشتهـــــــي أن أردا إلا عَـــــرادا عَـــــرِدَا
وصِلِيّـــــانــــاً بـــرِدا وعنْكثـــا مُلْتبِـــــدا

يريد: بارداً.

وقوله تعالى: ﴿فإنْ خفتُم ألا تعْدِلوا فواحِدَةً أوْ ما ملكَت أَيمانُكُم﴾ قال الضحاك وغيره: المعنى: ألا تعدلوا في الميل والمحبة والجماع والعشرة بين الأربع أو الثلاث أو الاثنين، ويتوجه على قول من قال: إنها نزلت فيمن يخاف أن ينفقَ مالَ اليتامى في نكاحاته أن يكون المعنى: ألا تعدلوا في نكاحِ الأربع والثلاث حتى تنفقوا فيه أموال يتاماكم، أي: فتزوجوا واحدةً بأموالكم، أو تَسرَّوْا منها.

ونصب ﴿واحدةً﴾ بإضمار فعل تقديره: فانكحوا واحدة. وقرأ عبد الرحمن بن هرمز والحسن: [فواحدةٌ] بالرفع على الابتداء، وتقدير الخبر: فواحدة كافية أو ما أشبَه، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو.

و﴿ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُم﴾ يريد به الإماء، والمعنى: إن خاف ألاّ يعدلَ في عِشْرةِ واحدةٍ فما ملكت يمينه. وأسند المِلْك إلى اليمين إذ هي صفة مدح، واليمين مخصوصة بالمحاسن لتمكنها، ألا ترى أنها المنفقة، كما قال عليه السلام: (حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[2] وهي المعاهدة المبايعة، وبها سميت الأليّة[3] يميناً، وهي الملتقية لكتاب النجاة ولرايات المجد[4] وقد نهى عليه السلام عن استعمالها في الاستنجاء وأمر المرء بالأكل بها.

---

(١) قد مرَّ هذا في ما تقدم من هذا المجلد ص: ٣٧٨.

(٢) ورد في البخاري (أذان: ٣٦، زكاة ١٦، ١٣، حدود: ١٩) ـ ومسلم (زكاة: ٩١) ـ والترمذي (زهد: ٥٣) ـ والنسائي (قضاة: ٢).

(٣) الألية: القسم أو اليمين.

(٤) لعله يشير إلى قول الشماخ في مدح عرابة الأوسي:
=

قوله عز وجل:

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ۝٣ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥﴾.

﴿أدنى﴾ أقرب، وهو من الدنو، وموضع أَن من الإعراب نصب بإسقاط الخافض، والناصب أريحية الفعل الذي في ﴿أدنى﴾، التقدير: ذلك أدنى إلى ألاَّ تعولوا. و﴿تَعولُوا﴾ معناه: تميلوا، قاله ابن عباس وقتادة والربيع بن أنس وأبو مالك والسدي وغيرهم، يقال عال الرجل يعول: إذا مال وجار، ومنه قول أبي طالب في شعره في النبي ﷺ[1]:

بميـــزان قِسْـــطٍ لا يخـــسّ شعيـــرةً ووِزان صـــدقٍ وزنـــه غيـــرُ عـــائـــلِ

يريد غير مائل. ومنه قول عثمان لأهل الكوفة حين كتب إليهم: إني لستُ بميزان لا أعول. ويروى بيت أَبي طالب: «له شاهد من نفسه غير عائل»، وعال يعيل، معناه: افتقر فصار عالةً. وقالت فرقة منهم زيد بن أسلم وابن زيد والشافعي: معناه: ذلك أدنى ألا يكثر عيالكم. وحكى ابن الأعرابي أَن العرب تقول: عال الرجل يعول إذا كثر عياله، وقدح في هذا الزجاج وغيره، بأَن الله قد أباح كثرة السراري، وفي ذلك تكثير العيال، فكيف يكون أقربَ إلى ألاَّ يكثر؟!

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا القدح غير صحيح، لأن السراري إنما هن مالٌ يُتَصَرَّفُ فيه بالبيع، وإنما العيالُ الفادح الحرائرُ ذوات الحقوق الواجبة.

وقوله: ﴿وآتُوا النساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحلةً﴾ قال ابن عباس وقتادة وابن جريج: إن الخطاب في هذه الآية للأزواج، أمرهم الله أَن يتبرعوا بإعطاء المهور نحلة منهم لأزواجهم. وقال أَبو صالح: الخطابُ لأولياء النساء، لأَن عادة بعض العرب كانت أَن يأكلَ وليُّ المرأةِ مهرها، فرفع الله ذلك بالإسلام وأمر بأَن يدفع ذلك إليهن. وقال

= إذا مـــا رايـــة رفعـــت لمجـــد تلقـــاهـــا عـــرابـــة بـــاليميـــن

(١) انظر سيرة ابن هشام ١: ٢٤٢ وتفسير القرطبي ٥: ٢١.

المعتمر بن سليمان عن أبيه: زعم حضرميّ أن المراد بالآية المتشاغرون الذين كانوا يتزوجون امرأة بأخرى، فأمروا أن يضربوا المهور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والآية تتناول هذه الفرق الثلاث.

وقرأ جمهور الناس والسبعة: ﴿صَدُقاتهن﴾ بفتح الصاد وضم الدال، وقرأ موسى بن الزبير وابن أبي عبلة وفياض بن غزوان وغيرهم: [صُدُقاتهن] بضم الصاد والدال، وقرأ قتادة وغيره: [صُدْقاتهن] بضم الصاد وسكون الدال، وقرأ ابن وثاب والنخعي [صُدُقَتهنّ] بالإفراد وضم الصاد وضم الدال. والإفراد من هذا كله: صَدُقة، وَصُدُقة.

و(نِحْلَة): معناه: نحلة منكم لهن، أي: عطية، وقيل: التقدير: من الله عز وجل لهن، وذلك لأنّ الله جعل الصداقَ[1] على الرجال ولم يجعل على النساءِ شيئاً، وقيل: نحلة معناه: شرعة، مأخوذ من النحل تقول: فلان ينتحلُ دينَ كذا، وهذا يحسن مع كون الخطاب للأولياء، ويتجه مع سواه، ونصبها على أنها من الأزواج بإضمار فعلٍ من لفظها، تقديره: انحلوهن نحلة، ويجوز أن يعمل الفعل الظاهر وإن كان من غير اللفظ لأنه مناسب للنحلة في المعنى، ونصبها على أنها من الله عز وجل بإضمار فعل مقدر من اللفظ، لايصح غير ذلك، وعلى أنها شريعة هي أيضاً من الله.

وقوله: ﴿فإن طِبْنَ لكُمْ عنْ شيء منه نفْساً فكلُوه هنيئاً مريئاً﴾ الخطاب حسبما تقدم من الاختلاف في الأزواج والأولياء، والمعنى: إن وهبن غيرَ مُكْرَهاتٍ طيّبة نفوسهن. والضمير في: ﴿منه﴾ راجع على الصداق، وكذلك قال عكرمة وغيره، أو على الإيتاء. وقال حضرمي: سبب الآية أن قوماً تحرجوا أن يرجع إليهم شيء مما دفعوا إلى الزوجات. ﴿نَفْساً﴾ نصب على التمييز، ولا يجوز تقدمه على العامل عند سيبويه إلا في ضرورة شعرٍ مع تصرّف العامل، وأجازه غيره في الكلام. ومنه قول الشاعر[2]:

. . . . وما كان نَفْساً بالفراق تطيب

(١) صداق عند المازني بكسر الصاد قال: ولا يقال بالفتح، ورُوي عن النَّحّاس بالفتح.

(٢) هو المخبل السعدي، واسمه ربيعة بن مالك (الشعر والشعراء: ٣٣٣، والخزانة ٢: ٥٣٦ ـ والإصابة ٢: ٢١٨) ـ وصدر البيت: أتهجر ليلى بالفراق حبيبها؟

و(مِنْ): تتضمن الجنس ها هنا، ولذلك يجوز أن تهب المهر كله، ولو وقفت (من) على التبعيض لما جاز ذلك. وقرىء [هنِيّا مَرِيّا] دون همز، وهي قراءة الحسن بن أبي الحسن والزهري. قال الطبري: ومن هناء البعير أن يعطي الشفاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف؛ وإنما قال اللغويون: الطعام الهنيء هو السائغ المستحسن الحميد المغبة، وكذلك المريء، قال اللغويون: يقولون: هنأني الطعام ومرأني على الإتباع، فإذا أفردوا قالوا: أمرأني على وزن أفعل. قال أبو علي: وهذا كما جاء في الحديث: (ارجعن مأزورات غير مأجورات) (١)، فإنما اعتلت الواو من موزورات إتباعاً للفظ مأجورات، فكذلك مَرَأَني إتباعاً لهنأني. ودخل رجل على علقمة وهو يأكل شيئاً مما وهبته امرأته من مهرها، فقال له: كلْ من الهنيء المريء، قال سيبويه: هنيئاً مريئاً صفتان نصبوهما نَصْبَ المصادر المدعو بالفعل غير المستعمل إظهاره، المختزل للدلالة التي في الكلام عليه، كأنهم قالوا: ثبت ذلك هنيئاً مريئاً.

وقوله: ﴿ولا تُؤْتُوا السُّفهاء﴾.... الآية، اختلف المتأولون في المراد بالسفهاء؛ فقال ابن مسعود والسدي والضحاك والحسن وغيرهم: نزلت في ولد الرجل الصغار وامرأته، وقال سعيد بن جبير: نزلت في الْمَحْجورين السفهاء، وقال مجاهد: نزلت في النساء خاصة، وروي عن عبد الله بن عمر أنه مرت به امرأة لها شارة فقال لها: ﴿ولا تُؤْتُوا السفهاءَ أموالَكُم﴾... الآية. وقال أبو موسى الأشعري والطبري وغيرهما: نزلت في كل من اقتضى الصفةَ التي شرط الله من السفه كان من كان، وقول من خصَّها بالنساء يضعف من جهة الجمع، فإن العرب إنما تجمع فعيلَة على فعائل أو فعيلات.

وقوله: ﴿أَموالَكُم﴾ يريد أموال المخاطبين، هذا قول أبي موسى الأشعري وابن عباس والحسن وقتادة. وقال سعيد بن جبير: يريد أموالَ السفهاء، وأضافها إلى المخاطبين تغبيطاً بالأموال، أي: هي لهم إذا احتاجوا، كأموالكم التي تقي أعراضكم، وتصونكم وتعظم أقداركم، ومن مثل هذا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ (٢) وما جرى مجراه.

---

(١) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه (عن علي)، انظر الجامع الصغير ١: ٣٧.
(٢) من الآية (٢٩) من سورة النساء.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن والنخعي: [اللَّاتي]، والأموال جمعٌ لما لا يعقل، فالأصوب فيه قراءة الجماعة.

و[قِيَماً] جمع قيمة كديمة ودِيَم، ولكن شذَّتْ في الرد إلى الياء كما شذ قولهم: جياد في جمع جواد، وكما قالت بنو ضبة: طويل وطيال، ونحو هذا، وقِوْما وقِواما وقِياما معناه: ثباتاً في صلاح الحال ودواما في ذلك، وقرأ نافع وابن عامر: [قِيَماً] بغير ألف، وروي أن أبا عمرو فتح القاف من قوله: (قَواماً وقياماً) كان أصله قِواما، فردت كسرة القاف الواو ياءً للتناسب. ذكرها ابن مجاهد ولم ينسبها، وهي قراءة أبي عمرو والحسن، وقرأ الباقون: ﴿قياماً﴾ وقرأت طائفة: [قواما].

وقوله: ﴿وارزقوهُمْ فيها واكْسوهُم﴾ قيل: معناه: فيمن يلزم الرجل نفقته وكسوته من زوجه وبنيه الأصاغر، وقيل: في المحجورين من أموالهم، و: ﴿مَعْروفاً﴾ قيل: معناه: ادعوا لهم: بارك الله فيكم وحاطكم وصنع لكم، وقيل: معناه: عِدوهم وعداً حسناً، أي: إن رشدتم دفعنا إليكم أموالكم، ومعنى اللفظة: كلُّ كلام تعرفه النفوس وتأنس إليه ويقتضيه الشرع.

قوله عز وجل:

﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾.

هذه مخاطبة للجميع، والمعنى يخلص التلبس بهذا الأمر للأوصياء، والابتلاء، الاختبار، و﴿بَلَغوا النِّكاحَ﴾ معناه: بلغوا مبلغ الرجال بحلم وحيض أو ما يوازيه، ومعناه: جربوا عقولهم وقرائحهم وتصرفهم، و﴿آنَسْتم﴾، معناه: علمتم وشعرتم وخبرتم، كما قال الشاعر:

آنَسَتْ نبأةً وأفزعها القنَّا صُ عصراً وقد دنا الإمساءُ

وقرأ ابن مسعود: [أَحَسْتم] بالحاء وسكون السين على مثال فعلتم، وقرأ أبو عبد الرحمن وأبو السمال وابن مسعود وعيسى الثقفي: [رَشَدا] بفتح الراء والشين، والمعنى واحد. ومالك رحمه الله يرى الشرطين: البلوغ والرشد المختبر، وحينئذٍ

يدفع المال؛ وأبو حنيفة يرى أن يدفع المال بالشرط الواحد ما لم يحتفظ له سلفة كما أبيحت التسرية بالشرط الواحد ، وكتاب الله قد قيدها بعدم الطول وخوف العنت ، إلى غير ذلك من الأمثلة ، كاليمين والحنث اللذين بعدهما تجب الكفارة ، ولكنها تجوز قبل الحنث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والتمثيل عندي في دفع المال بنوازل الشرطين غير صحيح ، وذلك أن البلوغَ لم تسقه الآية سياقَ الشرط ، ولكنها حالة الغالب على بني آدم أن تلتئم عقولهم فيها ، فهو الوقت الذي لا يعتبر شرط الرشد إلا فيه ، فقال: إذ بلغ ذلك الوقت فلينظر إلى الشرط وهو الرشد حينئذٍ ، وفصاحة الكلام تدلُّ على ذلك ، لأن التوقيفَ بالبلوغ جاء «بإذا» والمشروط جاء «بإن» التي هي قاعدة حروف الشرط ، و«إذا» ليست بحرف شرط لحصول ما بعدها، وأجاز سيبويه أن يجازى بها في الشعر ، وقال: فعلوا ذلك مضطرين ، وإنما جوزي بها لأنها تحتاج إلى جواب ، ولأنها يليها الفعل مظهراً أو مضمراً. واحتج الخليل على منع شرطيتها بحصول ما بعدها ، ألا ترى أنك تقول: أجيئك إذا احمر البسر ، ولا تقول: إن احمرَّ البسر. وقال الحسن وقتادة: الرشد في العقل والدين ، وقال ابن عباس: بل في العقل وتدبير المال لا غير ، وهو قول ابن القاسم في مذهبنا. والرواية الأخرى: «إنه في العقل والدين» مروية عن مالك. وقالت فرقة: دفع الوصي المال إلى المحجور يفتقر إلى أن يرفعه إلى السلطان ويثبت عنده رشده ، أو يكون ممن يأمنه الحاكم في مثل ذلك. وقالت فرقة: ذلك موكول إلى اجتهاد الوصي دون أن يحتاج إلى رفعه إلى السلطان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والصواب في أوصياء زمننا ألاَّ يتسنى عن رفعه إلى السلطان وثبوت الرشد عنده ، لما حفظ من تواطؤ الأوصياء على أن يرشد الوصي ويبرأ المحجور لسفهه وقلة تحصيله في ذلك الوقت.

وقوله: ﴿ولا تأكلوها﴾ . . . . . الآية ، نهي من الله تعالى للأوصياء عن أكل أموال اليتامى بغير الواجب المباح لهم؛ والإسراف: الإفراط في الفعل ، والسرف: الخطأ في

مواضع الإنفاق، ومنه قول الشاعر:

. . . . ما في عطائهمُ مَنٌّ ولا سرَفُ[١]

أي: لا يخطئون مواضع العطاء. ﴿وبِدَاراً﴾: معناه: مبادرة كِبَرِهِمْ، أي: أن الوصيّ يستغنم مال محجوره فيأكل ويقول: أبادرُ كبَره لئلا يرشد ويأخذ ماله، قاله ابن عباس وغيره. و﴿أَن يكبروا﴾ نصب بـ ﴿بِدَاراً﴾، ويجوز أن يكون التقدير: مخافة أن.

وقوله: ﴿ومنْ كان غنياً فلْيَسْتعْففْ﴾. . . الآية، يقال: عفَّ الرجل عن الشيء واستعفَّ: إذا أمسك، فأمر الغنيَّ بالإمساك عن مال اليتيم، وأباح الله للوصي الفقير أن يأكلَ من مال يتيمه بالمعروف.

واختلف العلماء في حدِّ المعروف ـ فقال عمر بن الخطاب وابن عباس وعبيدة وابن جبير والشعبي ومجاهد وأبو العالية: إن ذلك القرضُ، أن يتسلفَ من مال يتيمه ويقضي إذا أيسر، ولا يتسلف أكثرَ من حاجته.

وقال ابن عباس أيضاً وعكرمة والسدي وعطاء: روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال[٢]: «إني نزلتُ من مال الله منزلةَ والي اليتيم، إن استغنيتُ استعففتُ، وإن احتجتُ أكلتُ بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت».

وروي عن إبراهيم وعطاء وغيرهما أنه لا قضاء على الوصي الفقير فيما أكل بالمعروف، قال الحسن: هي طعمة من الله له، وذلك أن يأكل ما يقيمه أكلا بأطراف الأصابع، ولا يكتسي منه بوجه، وقال إبراهيم النخعي ومكحول: «يأكل ما يقيمه ويكتسي ما يستر عورته، ولا يلبس الكتانَ والحلل».

وقال ابن عباس وأبو العالية والحسن والشعبي: «إنما يأكل الوصي بالمعروف إذا شرب من اللبن وأكل من الثمر، بما يهنأ الجربى، ويليط الحوض، ويجدّ الثمر، وما شابهه».

وقالت فرقة: المعروف أن يكون له أجر بقدر عمله وخدمته.

---

(١) شطر بيت لجرير (ديوانه: ١٧٤) وصدره: أعطوا هنيدة يحدوها ثمانية.
والهنيدة: مئة من الإبل، يحدوها: أي يسوقها ثمانية من العبيد. والمنُّ: الفخر بالإحساس واستكثاره.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ٣: ٢٧٦.

وقال الحسن بن حي: إن كان وصيَّ أب فله الأكل بالمعروف، وإن كان وصيَّ حاكم فلا سبيل له إلى المال بوجه.

وقال ابن عباس والنخعي: المراد أن يأكل الوصي بالمعروف من ماله حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم.

وقال ربيعة بن أبي عبد الرحمن: المراد اليتامى في الحالين، أي: من كان منهم غنياً فليعف بماله، ومن كان فقيراً فليتقتر عليه بالمعروف والاقتصاد.

وقوله: ﴿فإذا دَفَعْتُم﴾ . . . . الآية أَمرٌ من الله بالتحرز والحزم، وهذا هو الأصل في الإشهاد في المدفوعات كلها، إذا كان حبسها أولاً معروفاً. وقالت فرقة: الإشهاد ها هنا فرض، وقالت فرقة: هو ندب إلى الحزم، وروى عمر بن الخطاب وابن جبيرة أن هذا دفع ما يستقرضه الوصّي الفقير إذا أيسر، واللفظ يعم هذا وسواه. والحسيبُ هنا: المحسب، أي: هو كافٍ من الشهود، هكذا قال الطبري، والأظهر أن ﴿حَسيباً﴾ معناه: حاسباً أعمالكم ومجازياً بها، ففي هذا وعيد لكلّ جاحد حقّ.

قوله عز وجل:

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾.

سمى الله عز وجل الأب والداً لأن الولد منه ومن الوالدة، كما قال الشاعر:

* بحيث يعتش الغراب البائض *

لأن البيض من الأنثى والذكر[1]. قال قتادة وعكرمة وابن زيد: وسبب هذه الآية أن العرب كان منها من لا يورث النساء ويقول: لا يرث إلا من طاعن بالرمح وقاتل بالسيف، فنزلت هذه الآية.

---

(١) قال أبو حيان «لا يتعين أن يراد بالغراب هنا الذكر لأن لفظ الغراب يطلق على الذكر والأنثى، وليس مما فرق بينه وبين مؤنثه بالتاء، أما وصفه بالبائض فهو حمل على اللفظ. البحر المحيط» ٣: ١٧٥.

قال عكرمة: سببها خبر أم كحْلة[١]، مات زوجها وهو أوس بن سويد وترك لها بنتاً فذهب عم بنيها إلى ألاَّ ترث، فذهبت إلى النبي ﷺ، فقال العم: هي يا رسول الله لا تقاتلُ، ولا تحمل كَلاًّ، ويكسب عليها، ولا تكسب، واسم العم ثعلبة فيما ذكر.

و ﴿نصيباً مفْروضاً﴾ نصب على الحال، كذا قال مكي، وإنما هو اسم نصب كما ينصب المصدر في موضع الحال، تقديره: فرضا، ولذلك جاز نصبه، كما تقول: لك علي كذا وكذا حقاً واجبا، ولولا معنى المصدر الذي فيه ما جاز في الاسم الذي ليس بمصدر هذا النصب، ولكان حقه الرفع.

وقوله: ﴿وإذا حضر الْقِسْمة﴾... الآية، اختلف المتأولون فيمن خوطب بهذه الآية على قولين: أَحدهما أَنها مخاطبة للوارثين، والمعنى: إذا حضر قسمتكم المال موروثكم هذه الأَصناف الثلاثة، فارزقوهم منه، ثم اختلف قائلو هذا القول ـ فقال سعيد بن المسيب وأَبو مالك والضحاك وابن عباس فيما حكى عنه المهدوي: نسخ ذلك بآية المواريث. وكانت هذه قسمة قبل المواريث، فأعطى الله بعد ذلك كل ذي حق حقه، وجعلت الوصية للذين يحزنون ولا يرثون. وقال ابن عباس والشعبي ومجاهد وابن جبير: ذلك محكم لم ينسخ. وقال ابن جبير: وقد ضيع الناس هذه الآية، قال الحسن: ولكن الناس شحوا، وامتثل ذلك جماعة من التابعين: عروة بن الزبير وغيره، وأمر به أبو موسى الأَشعري.

واختلف القائلون بإحكامها فقالت فرقة: ذلك على جهة الفرض والوجوب أن يعطي الورثة لهذه الأَصناف ما تفُه وطابت به نفوسهم؛ كالماعون والثوب الخَلَق، وما خفَّ كالتابوت، وما تعذر قسمه. وقال ابن جبير والحسن: ذلك على جهة الندب، فمن تركه فلا حرج عليه. واختلف في هذا القول إذا كان الوارث صغيراً لا يتصرف في ماله ـ فقال سعيد بن جبير وغيره: هذا على وجه المعروف فقط، يقوله ولي الوارث دون عطاء ينفذ، وقالت فرقة: بل يعطي وليُّ الوارثِ الصغير من مال محجوره بقدر ما يرى.

---

(١) كذا ورد الاسم هنا، وهذه رواية أبي موسى عن المستغفري (كحْلة) بسكون المهملة بعدها لأم؛ والمشهور أنها أم (كجة)، وأن زوجها مات وترك لها ثلاث بنات، وتختلف الروايات في أمرها اختلافاً بيناً، فهي زوج أوس بن ثابت، أو ثابت بن قيس، أو سعد بن الربيع، أو أوس بن مالك.... إلخ. (انظر الإصابة ٨: ٢٧٠).

والقول الثاني ـ فيمن خوطب بها ـ أَن الخطاب للمحتضرين الذين يقسمون أموالهم بالوصية ، فالمعنى: إذا حضركم الموت أيها المؤمنون ، وقسمتم أموالكم بالوصية ، وحضركم من لا يرث من ذي القرابة واليتامى فارزقوهم منه ، قال ابن عباس وسعيد بن المسيب وابن زيد: كانوا يقولون للوصي: فلان يقسم ماله ، ومعنى ﴿حَضَرَ﴾: شهد ، إلا أن الصفة بالضعف واليتم والمسكنة تقضي أَن ذلك هو علة الرزق ، فحيث وجدت رزقوا وإن لم يحضروا القسمة ، و﴿أُولو﴾: اسم جمع لا واحد له من لفظه ، ولا يكون إلا مضافاً للإبهام الذي فيه ، وربما كان واحده من غير لفظه «ذو».

واليتم: الانفراد ، واليتيم: الفرد ، وكذلك سمي من فقد أَباه يتيماً لانفراده ، ورأى عبيدة ومحمد بن سيرين أَنَّ الرزق في هذه الآية أَنْ يُصنع لهم طعام يأكلونه ، وفعلا ذلك: ذبحا شاة من التركة.

والضمير في قوله: ﴿فارْزقوهُم﴾ وفي قوله: ﴿لهُمْ﴾ عائد على الأصناف الثلاثة، وغير ذلك من تفريق عود الضميرين ـ كما ذهب إليه الطبري ـ تحكُّم؛ والقول المعروف: كل ما يؤنس به من دعاء أو عدةٍ أو غير ذلك.

وقوله: ﴿وَلْيَخْشَ﴾ جزم بلام الأَمر ، ولا يجوز إضمار هذه اللام عند سيبويه قياساً على حروف الجر إلا في ضروة شعر ، ومنه قول الشاعر:

محمــدُ تفــدِ نفســك كــلُّ نفــس   إذا مــا خفــتَ مــن أمــرٍ تبــالا(١)

وقرأ أَبو حيوة وعيسى بن عمر والحسن والزهري: بكسر لامات الأمر في هذه الآية.

وقد تقدم الكلام على لفظ ﴿ذرِّيَّة﴾ في سورة آل عمران. ومفعول (يخشى) محذوف لدلالة الكلام عليه ، وَحَسُنَ حذفه من حيث يتقدر فيه التخويف بالله تعالى ، والتخويف بالعاقبة في الدنيا ، فينظر كل متأول بحسب الأَهم في نفسه.

وقرأ أَبو عبد الرحمن وأبو حيوة والزهري وابن محيصن وعائشة: [ضُعَفاءَ] بالمد

---

(١) البيت من شواهد سيبويه (١: ٤٠٨) ، وانظر الخزانة ٣: ٦٢٩ ، ٦٦٦ ، والعيني ٤: ٤١٨ ، ٢٨ ، ٨٥ ، وشرح شواهد المغني: ٢٠٤ ، وينسب لحسان أو لأبي طالب. والتبال سوء العاقبة ، أصله وبال أُبدلت الواو تاء ـ والشاهد حذف اللام من (تفد).

وضم الضاد، وروي عن ابن محيصن: [ضُعُفاً] بضم الضاد والعين وتنوين الفاء، وأمال حمزة ﴿ضعافاً﴾، وأَمال ﴿خافوا﴾، والداعي إلى إمالة ﴿خافوا﴾ الكسرة التي في الماضي في قولك: خِفت، ليدل عليها. و﴿خافوا﴾ جواب ﴿لو﴾ تقديره: لو تركوا لخافوا، ويجوز حذف اللام في جواب ﴿لو﴾، تقول: لو قام زيد لقام عمرو، ولو قام زيد قام عمرو.

واختُلف؛ من المراد بهذه الآية؟ فقال ابن عباس وقتادة والسدي وابن جبير والضحاك ومجاهد: المراد مَن حضر ميتاً حين يوصي فيقول له: قدّم لنفسك وأَعط لفلان وفلانة، ويؤذي الورثة بذلك، فكأن الآية تقول لهم: كما كنتم تخشون على ورثتكم وذريتكم بعْدكم، فكذلك فاخْشَوْا على ورثةِ غيركم وذريته، ولا تحملوه على تبذير ماله وتركهم عالة. وقال مقسم وحضرمي: نزلت في عكس ذلك، وهو أن يقول للمحتضر: أمسك على ورثتك، وأبق لِولدك، وينهاه عن الوصية فيضرّ بذلك ذوي القربى وكلَّ من يستحق أن يوصى له، فقيل لهم: كما كنتم تخشون على ذريتكم وتسرون بأن يحسن إليهم، فكذلك فسددوا القول في جهة المساكين واليتامى، واتقوا الله في ضرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان لا يطّردُ واحدٌ منهما في كلِّ الناس، بل الناس صنفان: يصلح لأحدهما القول الواحد، وللآخر القول الثاني، وذلك أَن الرجل إذا ترك ورثةً مستقلين بأنفسهم أَغنياءَ حَسُنَ أن يُنْدَبَ إلى الوصية، ويحملَ على أن يقَدِّمَ لنفسه، وإذا ترك ورثةً ضعفاء مقلّين حسن أَن يندبَ إلى الترك لهم والاحتياط، فإِن أجره في قَصْدِ ذلك كأجره في المساكين، فالمراعى إنما هو الضعف، فيجب أَن يمال معه.

وقال ابن عباس أيضاً: المراد بالآية ولاة الأيتام، فالمعنى: أحسنوا إليهم، وسدّدوا القولَ لهم، واتقوا الله في أَكْل أموالهم، كما تخافون على ذريتكم أن يفعل بهم خلاف ذلك.

وقالت فرقة: بل المراد جميع الناس، فالمعنى: أمرهم باتقاء الله في الأيتام وأولاد الناس وإن لم يكونوا في حجورهم، وأن يسدّدوا لهم القولَ كما يريد كل أحد أَن يفعل بولده بعده.

ومن هذا ما حكاه الشيباني قال[١]: كنا على قسْطنْطينيَّة في عسكر مسْلَمة بن عبد الملك، فجلسنا يوماً في جماعة من أهل العلم فيهم الدَّيْلميُّ، فتذاكروا ما يكونُ من أهوال آخر الزمان، فقلت له: يا أبا بسر[٢]، ودِّي ألاَّ يكون لي ولد، فقال لي: ما عليك، ما من نسمة قضى الله بخروجها من رجل إلا خرجت أحبَّ أو كره، ولكن إن أَردت أَن تأمن عليهم فاتّقِ الله في غيرهم، ثم تلا هذه الآية.

والسَّديد: معناه: المصيب للحق، ومنه قول الشاعر:

أُعلمُــه الــرمــايــةَ كــلَّ يــومٍ فلمــا استــدَّ ســاعــدُهُ رمــانــي[٣]

معناه، لما وافق الأغراض التي يرمي إليها.

قوله عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ﴾.

قال ابن زيد: نزلت في الكفار الذين كانوا لا يُورِّثون النساء والصغار، ويأكلون أموالهم. وقال أكثر الناس: نزلت في الأوصياء الذين يأكلون ما لم يُبَحْ لهم من مال اليتيم. وهي تتناول كلَّ آكل وإن لم يكن وصياً. وسمي آخذ المال على كل وجوهه آكلاً، لما كان المقصود هو الأكل، وبه أكثر الإتلاف للأَشياء. وفي نصه على البطون من الفصاحة تبيين نقصهم، والتشنيع عليهم بضدّ مكارم الأَخلاق، من التهافت بسبب البطن، وهو أنقص الأسباب وألأمها حتى يدخلوا تحت الوعيد بالنار.

و﴿ظُلْماً﴾ معناه: ما جاوز المعروف مع فقر الوصي، وقال بعض الناس: المعنى: إنه لما يؤول أكلهم للأموال إلى دخولهم النار قيل: يأكلون النار. وقالت طائفة: بل هي حقيقة أَنهم يَطْعَمُونَ النار، وفي ذلك أحاديث، منها حديث أبي سعيد الخدري قال: حدثنا النبي ﷺ عن ليلة أسرى به قال: (رأيت أقواماً لهم مشافر كمشافر

---

(١) القصة مفصلة في تفسير الطبري، وانظر القرطبي أيضاً ٥: ٥١.

(٢) في بعض الروايات: (بِشْر) بالشين المعجمة.

(٣) ورد البيت في الأغاني ٥: ١٥٩، ٦: ٢٨١ (ط. دار الثقافة) على جهة التمثل به؛ وورد في اللسان (سدد) دون نسبة، ونقل عن الأصمعي: اشتد بالشين المعجمة ليس بشيء.

الإبل ، وقد وكِّل بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار يخرج من أسافلهم ، قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال هم الَّذين يأْكُلون أَموالَ الْيتامى ظُلماً)[١].

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَسَيَصْلون﴾ على إسناد الفعل إليهم، وقرأ ابن عامر بضمّ الياء ، واختلف عن عاصم ، وقرأ أَبو حيوة: [وسيُصَلّون] على بناء الفعل للمفعول ، بضم الياء وفتح الصاد وشد اللام على التكثير ، وقرأ ابن أَبي عبلة: [وسيُصْلُون] بضم الياء واللام ، وهي ضعيفة ، والأول أصوب ، لأنه كذلك جاء في القرآن في قوله: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[٢] وفي قوله: ﴿صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾[٣] ، والصَّلا هو التسخن بقرب النار أو بمباشرتها، ومنه قول الحارث بن عباد[٤]:

لـم أكـنْ مـن جنـاتهـا علـم اللَّـ ـهُ، وإنـي بَحَـرِّهـا اليـوم صـالِ

والمحترق الذي يُذهبه الحرق ليس بصال إلا في بدء أَمره، وأهل جهنم لا تذهبهم فهم فيها صالون؛ والسعير: الجمر المشتعل.

وهذه آية من آيات الوعيد ، والذي يعتقده أهل السنة أن ذلك نافذٌ على بعض العصاة ، لئلا يقع الخبر بخلاف مخبره ، ساقط بالمشيئة عن بعضهم ، وتلخيص الكلام في المسألة: إن الوعد في الخير ، والوعيد في الشر ، هذا عرفهما إذا أُطلقا ، وقد يستعمل الوعد في الشر مقيداً به ، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[٥]. فقالت المعتزلة: آيات الوعد كلها في التائبين والطائعين ، وآيات الوعيد في المشركين والعصاة بالكبائر ـ وقال بعضهم: وبالصغائر ـ. وقالت المرجئة: آيات الوعد كلها فيمن اتصف بالإيمان الذي هو التصديق ، كان من كان من عاص أو طائع. وقلنا أهلَ

---

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم ، وانظر فتح القدير ١ : ٤٣٠ ط دار الفكر. بيروت.

(٢) من الآية (١٦) من سورة الليل.

(٣) من الآية (١٦٣) من سورة الصافات.

(٤) زعيم بني بكر ، لم يشترك أول الأمر في حرب البسوس ، إلا بعد أن قتل ابنه بجير ، وعدّ بواءً بشسع نعل كليب؛ وعندئذ قال الحارث: «قربا مربط النعامة مني»ـ والنعامة فرسه ، وهو في هذا البيت يبرىء نفسه من أن يكون أحد جناة تلك الحرب ، ولكنه لم يملك إلا أن يصلي بحرها ، (انظر الأغاني ٥ : ٤٠ط. دار الثقافة).

(٥) من الآية (٧٢) من سورة الحج.

السنة والجماعة: آيات الوعد في المؤمنين الطائعين ومن حازته المشيئة من العصاة، وآيات الوعيد في المشركين ومن حازه الإنفاذ من العصاة، والآية الحاكمة بما قلناه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(١)، فإن قالت المعتزلة: لمن يشاء يعني التائبين، رد عليهم بأن الفائدة في التفضيل كانت تنفسد، إذ الشرك أيضاً يُغْفَر للتائب، وهذا قاطع بحكم قوله: ﴿لِمَنْ يشاءُ﴾ بأنّ ثم مغفوراً له وغير مغفور، واستقام المذهب السني.

وقوله تعالى: ﴿يُوصِيكم﴾ يتضمن الفرض والوجوب، كما تتضمنه لفظة «أمر» كيف تصرفت، وأما صيغة الأمر من غير اللفظة ففيها الخلاف الذي سيأتي موضعه إن شاء الله، ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾(٢).

وقيل: نزلت هذه الآية بسبب بنات سعد بن الربيع، وقال السدي: نزلت بسبب بنات عبد الرحمن بن ثابت أخي حسان بن ثابت، وقيل: بسبب جابر بن عبد الله، إذ عاده رسول الله ﷺ في مرضه، قال جابر بن عبد الله: وذكر أَن أهل الجاهلية كانوا لا يورثون إلا من لاقى الحروب وقاتل العدو، فنزلت الآيات تبييناً أن لكلّ أنثى وصغير حظَّه. وروي عن ابن عباس أَن نزول ذلك كان من أجل أن المال كان للولد، والوصية للوالدين، فنسخ ذلك بهذه الآيات.

و﴿مِثْلُ﴾ مرتفع بالابتداء أَو بالصفة، تقديره: حظٌّ مثل حظ. وقرأ إبراهيم بن أَبي عبلة: [في أَولادكم أنّ للذّكر].

وقوله تعالى: ﴿فإن كنَّ نساءً﴾.... الآية. الأولاد لفظ يجمع الذكران والإناث، فلما أراد بهذه الآية أن يخصَّ الإناث بذكر حكمهن أنَّثَ الفعلَ للمعنى، ولو اتبع لفظ الأولاد لقال: كانوا، واسم كان مضمر، وقال بعض نحويي البصرة: تقديره: وإن كن المتروكات نساء.

وقوله: ﴿فَوْقَ اثْنَتينِ﴾ معناه: اثنتين فما فوقهما، تقتضي ذلك قوة الكلام، وأَما الوقوف مع اللفظ فيسقط معه النص على الاثنتين، ويثبت الثلثان لهما بالإجماع الذي

---

(١) من الآية (٤٨) من سورة النساء.
(٢) من الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

مرت عليه الامصار والأعصار ، ولم يحفظ فيه خلاف ، إلا ما روي عن عبد الله بن عباس أنه يرى لهما النصف. ويثبت أيضاً ذلك لهما بالقياس على الأختين المنصوص عليهماويثبت ذلك لهما بالحديث الذي ذكره الترمذي أن رسول الله ﷺ قضى للابنتين بالثلثين ، ومن قال: ﴿فَوْقَ﴾ زائدة واحتج بقوله تعالى: ﴿فَوْقَ الأعناق﴾ يريد: اضربوا منهم الأعناق ـ فقوله خطأ لأن الظروف وجميع الأسماء لا يجوز في كلام العرب أن تراد لغير معنى ، ولأن قوله: ﴿فوْقَ الأعْناقِ﴾ هو الفصيح ، وليست ﴿فَوْقَ﴾ زائدة بل هي محكمة المعنى لأن ضربة العنق إنما يجب أن تكون فوق العظام في المفصل دون الدماغ ، كما قال دريد بن الصمة: «اخفض عن الدماغ وارفع عن العظم ، فهكذا كنت أضرب أعناق الأبطال».

وقد احتج لأخذهما الثلثين بغير هذا ، وكله معارض ، قال إسماعيل القاضي: إذا كانت البنت تأخذ مع أخيها الثلث إذا انفرد ، فأحرى أن تأخذ ذلك مع أُختها؛ قال غيره: وكما كان حكم الاثنين فما فوقهما من الإخوة للأم واحداً ، فكذلك البنات.

وقال النحاس: لغة أهل الحجاز وبني أسد: الثُلُث والربُعُ إلى العشر ، وقد قرأ الحسن ذلك كله بإسكان الأوسط ، وقرأه الأعرج. ومذهب الزجاج أنها لغة واحدة ، وأن سكون العين تخفيف.

وإذا أخذ بنات الصلب الثلثين ، فلا شيء بعد ذلك لبنات الابن ، إلا أن يكون معهن أخ لهن ، أو ابن أخ ، فيرد عليهن ، وعبد الله بن مسعود لا يرى لهنّ شيئاً وإن كان الأخ أو ابن الأخ ، ويرى المال كله للذكر وحده دونهن.

قوله عز وجل:

﴿ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ﴾.

قرأ السبعة سوى نافع: ﴿واحِدَةً﴾ بالنصب على خبر «كان»؛ وقرأ نافع: [واحِدَةٌ] بالرفع عل أن كان بمعنى وقع وحضر، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: [النُّصف] بضم النون ، وكذلك قرأه علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت في جميع القرآن.

وقوله: ﴿وَلَدٌ﴾ يريد ذكراً أو أُنثى، واحداً أو جماعة، للصلب أو لولدِ ذَكَر، فإن ذلك كيف وقع يجعل فرض الأب السدس، وإن أخذ النصف في ميراثه فإنما يأخذه بالتعصيب.

وقوله تعالى: ﴿فإن لمْ يكُن لهُ ولدٌ﴾... الآية، المعنى: فإن لم يكن له ولدٌ، ولا ولدُ ولَدٍ، ذكراً كان أَو أُنثى. وقوله: ﴿وَوَرِثه أَبواه﴾ تقتضي قوة الكلام أنهما منفردان عن جميع أهل السهام من ولد وغيره، فعلى هذا يكون قوله: ﴿ووَرِثَهُ﴾ حكماً لهما بالمال، فإذا ذكر وحده بعد ذلك نصيب أحدهما أخذَ النصيب الآخر، كما تقول لرجلين: هذا المال بينكما، ثم تقول لأحدهما، أَنت يا فلان لك منه الثلث، فقد حددت للآخر منه الثلثين بنصٍّ كلامك.

وعلى أن فريضتهما خلت من الولد وغيره يجيء قول أَكثر الناس: إن للأمّ مع الانفراد الثلث من المال كله، فإن كان معهما زوج كان للأم السدس، وهو الثلث بالإضافة إلى الأَب. وعلى أَن الفريضة خلت من الولد فقط يجيء قول شريح وابن عباس: إن الفريضة إذا خلت من الولد أخذت الأم الثلثَ من المال كله مع الزوج، وكان ما بقي للأب، ويجيء على هذا قوله: ﴿وَوَرِثَه أَبَوَاهُ﴾ منفردين أو مع غيرهما.

وقرأ حمزة والكسائي: [فَلإِمِّهِ] بكسر الهمزة، وهي لغة حكاها سيبويه، وكذلك كسر الهمزة من قوله: [في بطون إمهاتكم][1]، و[في إمها][2] و[في إم الكتاب][3]، وهذا كلُّه إذا وصلا إتباعاً للكسرة أو الياء التي قبل الهمزة. وقرأ الباقون كل هذا بضمٍّ للهمزة، وكسر همزة[4] الميم من [إِمِّهاتكم] إتباعاً لكسر الهمزة، ومتى لم يكن وصل وياء أو كسرة فالضم باتفاق.

وقوله تعالى: ﴿فإن كانَ لهُ إخوة فلأمّه السدس﴾ الإخوةُ يَحطّون الأم إلى السدس ولا يأخذونه، أشقاء كانوا أو للأب أو للأم، وقال من لا يعد قوله إلا في الشذوذ: إنهم يحطون ويأخذون ما يحطون لأنفسهم مع الأب، روي عن ابن عباس، وروي عنه

---

(١) من الآية (٦) من سورة الزُّمر.
(٢) من الآية (٥٩) من سورة القصص.
(٣) من الآية (٤) من سورة الزخرف.
(٤) هكذا في الأصل. والعبارة بهذا قلقة. ولعلها (حمزة) بدلاً من (همزة).

خلافه مثل قول السدس الذي يحجبون الأم عنه ، قال قتادة: وإنما أَخذ الأب دونهم ، لأنه يمونهم ، ويلي نكاحهم ، والنفقةَ عليهم ، هذا في الأغلب ، ومجمعون على أن أخوين فصاعداً يحجبون الأمّ عنه ، إلا ما روي عن عبد الله بن عباس: أنّ الأخوين في حكم الواحد ، ولا يحجب الأمّ أقل من ثلاثة. واستدلّ الجميعُ بأن أقلَّ الجمع اثنان ، لأن التثنية جمع شيء إلى مثله ، فالمعنى يقتضي أنها جمع ، وذكر المفسرون أن العرب قد تأتي بلفظ الجمع وهي تريدُ التثنية ، كما قال تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴾[1] ، وكقوله في آية الخصم: ﴿ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ ﴾[2] وكقوله: ﴿ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾[3] واحتجوا بهذا كله في أن الإخوةَ يدخل تحته الأخوان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الآيات كلها لا حجة فيها عندي على هذه الآية، لأنه قد تبين في كلِّ آية منها بالنص أَن المراد اثنان ، فساغ التجوز بأن يؤتى بلفظ الجمع بعد ذلك ، إذ معك في الأُولى ﴿يَحْكُمان﴾ ، وفي الثانية ﴿إِنَّ هذا أخي﴾ ، وأيضاً فالحكم قد يضاف إلى الحاكم والخصوم ، وقد يتسور مع الخصم غيرهما فهم جماعة ، وأما ﴿النَّهار﴾ في الآية الثالثة فالألف واللام فيه للجنس فإنما أراد طرفي كل يوم ، وأما إذا ورد لفظ الجمع ولم يقترن به ما يبين المراد فإنما يحمل على الجمع ، ولا يحمل على التثنية ، لأن اللفظ مالك للمعنى ، وللبنية حقّ. وذكر بعض من احتج لقول عبد الله بن عباس: إنَّ بناء التثنية يدلّ على الجنس والعدد كبناء الإفراد ، وبناء الجمع يدل على الجنس ولا يدلّ على العدد ، فلا يصح أن يدخل هذا على هذا.

وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿يُوصِي﴾ بإسناد الفعل إلى الموروث ، إذ قد تقدم له ذكر ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: [يُوصى] بفتح الصاد ببنية الفعل للمفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [يُوَصَّى]

---

(١) الآية (٧٨) من سورة الأنبياء.
(٢) من الآيتين (٢١ ، ٢٢) من سورة ص.
(٣) من الآية (١٣٠) من سورة طه.

بفتح الصاد وتشديدها، وكل هذا في الموضعين، وقرأ حفص عن عاصم في الأولى بالفتح، وفي الثانية بالكسر.

وهذه الآية إنما قصد بها تقديم هذين الفعلين على الميراث، ولم يقصد بها ترتيبهما في أنفسهما، ولذلك تقدمت الوصية في اللفظ، والدَّيْن مقدم على الوصية بإجماع، والذي أقول في هذا: إنه قدَّم الوصية إذ هي أقل لزوماً من الدين، اهتماماً بها وندباً إليها، كما قال تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾[١]، وأيضاً قدَّمها من جهة أنها مضمنها الوصية التي هي كاللازم يكونُ لكلِّ ميت، إذ قد حضَّ الشرع عليها، وأخَّر الدَّيْنَ لشذوذه، وأنه قد يكون ولا يكون، فبدأ بذكر الذي لا بد منه، ثم عطف بالذي قد يقع أحياناً، ويقوي هذا كونُ العطف بأو، ولو كان الدين راتباً لكان العطف بالواو، وقُدِّمت الوصية أيضاً إذ هي حظّ مساكين وضعافٍ، وأُخِّرَ الدَّيْن إذ هو حظُّ غريم يطلبه بقوة، وهو صاحبُ حقّ له فيه، كما قال عليه السلام: (إن لصاحب الحق مقالاً)[٢]. وأجمع العلماء على أنه ليس لأحد أن يوصي بأكثر من الثلث، واستحبَّ كثير منهم ألاَّ يبلغَ الثلث، وأن يغضَّ[٣] الناس إلى الربع.

قوله عز وجل:

﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾.

﴿آباؤكُم وأَبناؤُكم﴾ رفع بالابتداء، والخبر مضمر. تقديره: هم المقسوم عليهم وهم المعطون، وهذا عرض للحكمة في ذلك، وتأنيس للعرب الذين كانوا يورثون على غير هذه الصفة، و﴿لاَ تدْرونَ﴾ عامل في الجملة بالمعنى ومعلّق عن العمل في اللفظ بحسب المعمول فيه، إذ الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، و ﴿نفْعاً﴾ قال مجاهد

---

(١) من الآية (٤٩) من سورة الكهف.

(٢) في قصة هذا الحديث: أن رجلاً كان له على رسول الله حق، فأغلظ في اقتضائه، فهم به أصحاب الرسول فقال لهم: (دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً)... الحديث؛ انظر البخاري (هبة ٢٣، ٢٥، استعراض: ٤، ١٣، وكالة: ٦)، ومسلم (مساقاة: ١٢)، والترمذي (بيوع: ٧٣)، وابن ماجه (صدقات: ١٥، ١٧)، ومسند أحمد ٢: ٤١٦، ٤٥٦، ٦: ٢٢٨.

(٣) يغض: ينقص.

والسدي وابن سيرين: معناه: في الدنيا، أي: إذا اضطر إلى إنفاقهم للحاجة، نحا إليه الزجاج، وقد ينفقون دون اضطرار، وقال ابن عباس والحسن: في الآخرة، أي بشفاعة الفاضل للمفضول، وقال ابن زيد فيهما: واللفظ يقتضي ذلك، و﴿فَرِيضَةً﴾ نصب على المصدر المؤكد، إذ معنى ﴿يُوصِيكُمُ﴾ يفرض عليكم. وقال مكي وغيره: هي حال مؤكدة، ذلك ضعيف. والعامل ﴿يُوصِيكُمُ﴾، و﴿كان﴾ هي الناقصة، قال سيبويه: لما رأوا علماً وحكمة قيل لهم: إن الله لم يزل هكذا، وصيغة ﴿كان﴾ لا تعطي إلا المضي، ومن المعنى بعد يعلم أن الله تعالى كان كذلك، وهو يكون، لا من لفظ الآية، وقال قوم: ﴿كان﴾ بمعنى وجد ووقع، و﴿عليماً﴾ حال، وفي هذا ضعف، ومن قال: ﴿كان﴾ زائدة فقوله خطأ.

وقوله تعالى: ﴿ولكُمْ نِصْفُ ما تَرَكَ أَزْواجُكُم﴾... الآية، الخطاب للرجال، والولد ها هنا: بنو الصلب وبنو ذكورهم وإن سفلوا، ذكرانا وإناثا، واحداً فما زاد، هذا بإجماع من العلماء.

قوله عز وجل:

﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾.

والولد في هذه الآية كما تقدم في الآية التي قبلها، و﴿الثُّمُنُ﴾ للزوجة أو للزوجات هن فيه مشتركات بإجماع، ويلحق العول[1] فرضَ الزوج والزوجة، كما يلحق سائر الفرائض المسماة، إلا عند ابن عباس، فإنه قال: يعطيان فرضهما بغير عول. والكلالة: مأخوذة من تكلل النسب، أي: أحاط، لأن الرجل إذا لم يترك والداً ولا ولداً فقد انقطع طرفاه، وبقي أن يرثه من يتكلله نسبه، أي: يحيط به من نواحيه كالإكليل، وكالنبات إذا أحاط بالشيء، ومنه: روض مُكَلَّلٌ بالزهر، والإكليل: منزل القمر يحيط به فيه كواكب، ومن الكلالة قول الشاعر:

(١) العول: ارتفاع أو انخفاض نسبة الفريضة.

فإن أبا المرءِ أحمى له ... ومولى الكلالة لا يغضب[١]

فالأب والابن هما عمودا النسب وسائر القرابة يكلِّلون. وقال أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وابن عباس وسليم بن عبيد وقتادة والحكم وابن زيد والزهري وأبو إسحق السبيعي: الكلالةُ: خلوُّ الميت عن الولد والوالد، وهذا هو الصحيح. وقالت طائفة: هي خلو الميت من الولد فقط، وروي ذلك عن أبي بكر الصديق وعن عمر، ثم رجعا عنه، وروي عن ابن عباس، وذلك مستقرأ من قوله في الإخوة مع الوالدين: إنهم يحطون الأم ويأخذون ما يحطونها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هكذا حكى الطبري، ويلزم على قول ابن عباس إذ ورثهم بأَن الفريضة كلالة أَن يعطيهم الثلث بالنصّ. وقالت طائفة منهم الحكم بن عتيبة: الكلالة: الخلو من الوالد، وهذان القولان ضعيفان، لأن من بقي والده أو ولده فهو موروث بجزم نسب لا بتكلل. وأجمعت الآن الأمة على أن الإخوة لا يرثون مع ابن ولا مع أب، وعلى هذا مضت الأَمصار والأَعصار.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يُورَثُ﴾ بفتح الراء، وقرأ الأعمش وأَبو رجاء: [يورِّث] بكسر الراء وتشديدها. قال أبو الفتح بن جني[٢]: وقرأ الحسن: [يُورِثُ] من أورث، وعيسى[٣]: [يُورِّث] بشدّ الراء من ورَّث، والمفعولان على كلتا القراءتين محذوفان، التقدير: يورث وارثه ماله ﴿كلالةً﴾، ونصب ﴿كلالةً﴾ على الحال.

واختلفوا في الكلالة فيما وقعت عليه في هذه الآية، فقال عمر وابن عباس: الكلالة: الميت الموروث إذا لم يكن له أب، ونصبها على خبر كان، وقال ابن زيد: الكلالة: الوارثة بجملتها، الميت والأحياء كلهم كلالة، ونصبها على الحال أو على النعت لمصدر محذوف تقديره: وراثة كلالة، ويصح على هذا أن تكون ﴿كان﴾ تامة بمعنى وقع، ويصح أن تكون ناقصة وخبرها ﴿يُورَثُ﴾، وقال عطاء: الكلالة: المال، ونصب على المفعول الثاني.

---

(١) يريد أن أبا المرء أغضب له عند ظلمه، أما موالي القرابة كالأعمام وسائر الأقارب فهم أقل غضباً من الأب.

(٢) المحتسب ١: ١٨٢.

(٣) يريد عيسى بن عمر الثقفي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والاشتقاق في معنى الكلالة يفسد تسميةَ المال بها.

وقالت طائفة: الكلالة: الورثة، وهذا يستقيم على قراءة [يورِث] بكسر الراء، فينصب كلالةً على المفعول. واحتج هؤلاء بحديث جابر بن عبد الله، إذ عاده رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنما يرثني كلالةٌ، أفأوصي بمالي كله؟ وحكى بعضهم أَن تكون (الكلالة) الورثة، ونصبها على خبر كان، وذلك بحذف مضاف، تقديره: ذا كلالة، ويستقيم سائر التأويلات على كسر الراء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾... الآية، الضمير في ﴿لَهُ﴾ عائد على الرجل، واكتفى بإعادته عليه دون المرأة، إذ المعنى فيهما واحد، والحكم قد ضبطه العطف الأول، وأصل أخت: أُخوة، كما أصل بنت: بنية، فضم أول أخت إذ المحذوف منها واو، وكسر أول بنت إذ المحذوف ياء، وهذا الحذف والتعليل على غير قياس.

وأجمع العلماء على أن الإخوة في هذه الآية الإخوة لأم، لأن حكمهم منصوص في هذه الآية على صفة، وحكم سائر الإخوة مخالفٌ له، وهو الذي في كلالة آخر السورة.

وقرأ سعد بن أبي وقاص: [ولهُ أخٌ أو أُختٌ لأُمه]. والأنثى والذكر في هذه النازلة سواء، وشركتهم في الثلث متساوية وإن كثروا، هذا إجماع، فإن ماتت امرأة وتركت زوجاً وأماً وإخوة أَشقاء، فللزوج: النصف، وللأم: السدس، وما بقي فللإخوة، فإن كانوا لأمٍ فقط، فلهم الثلث، فإن تركت الميتة زوجاً وأما وأخوين لأم وإخوة لأب وأم، فهذه الحمارية، قال قوم فيها: للإخوة للأم: الثلث، ولا شيء للإخوة الأشقاء، كما لو مات رجل وخلف أخوين لأم، وخلف مئةَ أخٍ لأبٍ وأم، فإنه يعطي الأَخوان الثلث، والمئة الثلثين، فيفضلون بالثلث عليهم، وقال قوم: الأمّ واحدةٌ وهب أَباهم كان حمارا، وأشركوا بينهم في الثلث، وسموها أيضاً: المشتركة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا تستقيم هذه المسألة أن لو كان الميت رجلاً، لأنه يبقى للأشقاء، ومتى بقي لهم شيء فليس لهم إلا ما بقي، والثلث للإخوة للأم.

قوله عز وجل:

﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿غيْر مُضَارٍّ﴾ نصب على الحال، والعامل ﴿يُوصي﴾، و﴿وَصِيةً﴾ نصب على المصدر في موضع الحال، والعامل ﴿يُوصيكم﴾، وقيل: هو نصب على الخروج من قوله: ﴿فلِكُلِّ واحدٍ منهما السُّدُس﴾ أو من قوله: ﴿فَهُمْ شُركاءُ في الثُّلُثِ﴾، ويصح أن يعمل ﴿مُضَار﴾ في ﴿وَصِيَّة﴾، والمعنى أن يقع الضرر بها وبسببها فأوقع عليها تجوزاً. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [غيْر مُضَارِّ وصيةٍ] بالإضافة، كما تقول: شجاع حربٍ، وَمِدْرَهُ حَرْبٍ، وبضةُ المتجرّدِ، في قول طرفة بن العبد[1]، والمعنى على ما ذكرناه من التجوز في اللفظ لصحة المعنى.

وقال ابن عباس: الضرار في الوصية من الكبائر، رواه عن النبي ﷺ، وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (من ضارَّ في وصية ألقاه الله تعالى في وادٍ في جهنم)[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ووجوه المضارة كثيرة لا تنحصر، وكلها ممنوعة: يقر بحق ليس عليه، ويوصي بأكثر من ثلثه، أو لوارثه، أو بالثلث فراراً عن وارث محتاج، وغير ذلك. ومشهور مذهب مالك وابن القاسم أن الموصي لا يعد فعله مضارة ما دام في الثلث، فإن ضار الورثة في ثلثه مضى ذلك، وفي المذهب قول: إن المضارةَ تُرَدّ وإن كانت في الثلث، إذا عُلِمَتْ بإقرار أو قرينة، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾[3]... الآية.

---

(١) يشير إلى قوله في المعلقة:

رحيبٌ قطاب الجيب منها رفيقةٌ ... بجسّ الندامى بضّة المتجرد

(٢) انظر الترمذي (باب الوصايا: ٢).

(٣) من الآية (١٨٢) من سورة البقرة.

﴿تِلْكَ حُدودُ اللهِ﴾ . . . الآية. ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى القسمة المتقدمة في المواريث، والحد: الحجز المانع لأمر ما أن يدخل على غيره أو يدخل عليه غيره، ومن هذا قولهم للبواب: حدّاد لأنه يمنع، ومنه إحداد المرأة وهو امتناعها عن الزينة، هذا هو الحد في هذه الآية.

وقوله: ﴿مِنْ تَحْتِها﴾ يريد من تحت بنائها وأَشجارها الذي من أَجله سميت جنة، لأن أَنهار الجنة إنما هي على وجه أرضها في غير أخاديد.

وحكى الطبري: إن الحدود عند السدي هنا شروط الله، وعند ابن عباس: طاعة الله، وعند بعضهم: سنة الله، وعند بعضهم: فرائض الله، وهذا كله معنى واحد وعبارة مختلفة. و﴿خالدينَ﴾ قال الزجاج: هي حالة على التقدير، أي: مقدرين خالدين فيها، وجمع ﴿خالدين﴾ على معنى «مَنْ» بعد أن تقدم الإفراد مراعاة للفظ «مَن»، وعكس هذا لا يجوز.

وقوله: ﴿ومَنْ يَعْصِ اللهَ ورَسولَه﴾ . . . الآية، قرأ نافع وابن عامر: [نُدْخِلْهُ] بنون العظمة، وقرأ الباقون: ﴿يُدْخله﴾ بالياء فيهما جميعاً، وهذه آيتا وعد ووعيد، وتقدم الإيجاز في ذلك، ورجى الله تعالى على التزام هذه الحدود في قسمة الميراث، وتوعد على العصيان فيها بحسب إنكار العرب لهذه القسمة، وقد كلم فيها النبي ﷺ عيينةَ بن حصن وغيره.

قوله عز وجل:

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَاللَّاتي﴾ : اسم جمع «الَّتي»، وتجمع أيضاً على اللواتي، ويقال: اللائي بالياء، و﴿الفاحِشَة﴾ في هذا الموضع: الزنى وكل معصية فاحشة، لكن الألف واللام هنا للعهد، وقرأ ابن مسعود: [بِالفاحِشَةِ] ببناء الجر، وقوله: ﴿مِنْ نِسائِكم﴾ إضافةٌ في معنى الإسلام، لأن الكافرة قد تكون من نساء المسلمين بنسب، ولا يلحقها هذا الحكم، وجعل الله الشهادة على الزنى خاصة لا تتم إلا بأربعة شهداء تغليظاً على

المدعي وستراً على العباد، وقال قوم: ذلك ليترتب شاهدان على كلٍّ واحدٍ من الزانيين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف. وكانت هذه أول عقوبات الزناة: الإمساك في البيوت. قال عبادة بن الصامت والحسن ومجاهد: حتى نُسِخَ بالأذى الذي بعده، ثم نُسِخَ ذلك بآية النور وبالرجم في الثيب. وقالت فرقة: بل كان الأذى هو الأول، ثم نسخ بالإمساك، ولكن التلاوة أخرت وقدمت، ذكره ابن فُورك. و﴿سَبيلاً﴾ معناه: مخرجا بأمر من أوامر الشرع، وروى حطان بن عبد الله الرقاشي عن عمران بن حصين أَنه قال: كنا عند النبي ﷺ، فنزل عليه الوحي، ثم أقلع عنه ووجهه محمر، فقال: (قد جعل الله لهنَّ سبيلا، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم)[(١)].

﴿واللَّذانِ﴾ تثنية «الَّذي»، وكان القياس أن يقال: اللذيان كرحيان قال سيبويه: حذفت الياء ليفرق بين الأسماء المتمكنة وبين الأسماء المُبْهَمات. قال أَبو علي: حذفت الياء تخفيفاً إذ قد أُمن من اللبس في ﴿اللَّذان﴾؛ لأن النون لا تنحذف، ونون التثنية في الأسماء المتمكنة قد تنحذف مع الإضافة في رحياك ومصطفيا القوم، فلو حذفت الياء لاشتبه المفرد بالاثنين، وقرأ ابن كثير: [اللَّذانّ] بشد النون، وتلك عوض من الياء المحذوفة، وكذلك قرأ: [هذانّ] و[فذانّك] و[هاتينّ]، بالتشديد في جميعها، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: بتخفيف جميع ذلك، وشدد أبو عمرو [فذانّك] وحدها ولم يشدد غيرها.

﴿واللَّذان﴾ رفع بالابتداء، وقيل: على معنى: فيما يتلى عليكم اللَّذان. واختلف في الأذى، فقال عبادة والسدي: هو التعبير والتوبيخ، وقالت فرقة: هو السب والجفاء دون تعيير، وقال ابن عباس: هو النيل باللسان واليد وضرب النعال وما أشبهه.

قال مجاهد وغيره: الآية الأُولى في النساء عامة لهن، محصنات وغير محصنات،

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (باب الحدود ٤: ٣٣ط/ ١٢٩٠) والإمام أحمد في مسنده ٣: ٤٧٦، وانظر الجامع الصغير ٢: ٢.

والآية الثانية في الرجال، وبين بلفظ التثنية صنفي الرجال ممن أحصن وممن لم يحصن، فعقوبة النساء الحبس، وعقوبة الرجال الأذى، وهذا قول يقتضيه اللفظ، ويستوفي نصّ الكلام أصنافَ الزناة عليه، ويؤيده من جهة اللفظ قوله في الأُولى: ﴿مِنْ نسائِكم﴾، وقوله في الثانية: ﴿مِنكُم﴾، وقال السدي وقتادة وغيرهما: الآية الأُولى في النساء المحصنات، يريد: ويدخل معهن مَن أحصن من الرجال بالمعنى، والآية الثانية هي في الرجل والمرأة البكرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومعنى هذا القول تام، إلا أن لفظ الآية يقلق عنه، وقد رجحه الطبري.

وقرأ ابن مسعود: [والَّذين يفْعَلُونه مِنْكُمْ].

وأجمع العلماء على أن هاتين الآيتين منسوختان بآية الجلد في سورة النور، قاله الحسن ومجاهد وغيرهما، إلا من قال: إن الأذى والتعيير باقٍ مع الجلد لأنهما لا يتعارضان بل يتحملان على شخص واحد. أما الحبس فمنسوخ بإجماع. وآية الجلد عامة في الزناة محصنهم وغير محصنهم، وكذلك عممه رسول الله ﷺ في حديث حطان بن عبد الله الرقاشي الذي ذكرته آنفاً، وإن كان في صحيح مسلم فهو خبر آحاد. ثم ورد بالخبر المتواتر أَن رسول الله ﷺ رجم ولم يجلد، فمن قال: إن السنة المتواترة تنسخ القرآن، جعل رجم الرسول دون جلدٍ ناسخاً لجلد الثيّب، وهذا الذي عليه الأئمة؛ أَن السنة المتواترة تنسخ القرآن، إذ هما جميعاً وحيٌ من الله، ويوجبان جميعاً العلم والعمل، وإنما اختلفا في أَن السنة نَقَصَ منها الإعجاز، وصحَّ ذلك عن النبي ﷺ في خبر ماعز، وفي حديث الغامدية، وفي حديث المرأة التي بعث إليها أنَيس[1]. ومن قال: إن السنة المتواترة لا تنسخ القرآن قال: إنما يكون حكم القرآن موقتاً، ثم تأتي السنة مستأنفة من غير أن تتناول نسخاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

---

(١) ماعز والغامدية والمرأة التي بعث إليها أُنيس: قضايا يستند عليها في حدّ الزنى عند الفقهاء (انظر مثلاً صحيح مسلم ٢: ٣٤ـ٣٥ ط/ ١٢٩٠).

والغامدية: نسبة إلى غامد (بالغَين المعجمة)، وقد قال ﷺ لأنيس: (اغد على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها) ولم يذكر الجَلْد.

وهذا تخيل لا يستقيم لأنا نجد السنة ترفع بحكمها ما استقر من حكم القرآن على حدّ النسخ ، ولا يرد ذلك نظر ، ولا ينخرم منه أصل. أما إن هذه النازلة بعينها يتوجه عندي أن يقال فيها: إن الناسخ لحكم الجلد هو القرآن المتَّفق على رفع لفظه وبقاء حكمه ، في قوله تعالى: (الشَّيْخُ والشَّيْخَةُ إِذا زنيا فارْجموهما البَتَّةَ)[1] وهذا نص في الرجم ، وقد قرره عمر على المنبر بمحضر الصحابة ، وذكر أَنهم قرؤوه على عهد النبي ﷺ ، والحديث بكماله في مسلم[2]. وأيضاً فيعضد أَن ذلك من القرآن قول رسول الله ﷺ للذي قال له: فاقض بيننا يا رسول الله بكتاب الله ، فقال له النبي ﷺ: لأقضينَّ بينكما بكتاب الله ، ثم أمر أُنَيْسا برجم المرأة إن هي اعترفت ، فدلّ هذا الظاهر على أَن الرجم كان في القرآن ، وأجمعت الأمة على رفع لفظه. وهاتان الآيتان أعني الجلد والرجم لو لم يقع بيان من الرسول لم يجب أن تنسخ إحداهما الأخرى ، إذ يسوغ اجتماعهما على شخص واحد ، وحديث عبادة المتقدم يقوي جمعهما ، وقد أخذ به علي رضي الله عنه في شُرَاحة: جلدها ثم رجمها ، وقال: أجلدها بكتاب الله وأرجمها بسنّةِ رسول الله ﷺ ، وبه قال الحسن وإسحق بن راهويه ، ولكن لما بين الرسول برجمه دون جلد كان فعله بمثابة قوله مع هذه الآية: انفوا ولا تجلدوا ، فيكون القرآن هو الناسخ والسنة هي المبينة؛ ويصح أن نعترض من ينسخ بالنسة في هذه النازلة فنقول: الناسخ من شروطه أن يستقلّ في البيان بنفسه ، وإذا لم يستقل فليس بناسخ ، وآيةُ الرجم بعد أَن يُسَلَّم ثبوتها لا تستقل في النسخ بنفسها ، بل تنبني مع الجلد وتجتمع ، كما تضمن حديث عبادة بن الصامت ، لكن إسقاط الرسول الجلد هو الناسخ ، لأن فعله في ذلك هو بمنزلة قوله: لا تجلدوا الثيب ، وأَما البكر فلا خلاف أَنه يجلد ، واختلف في نفيه ـ فقال الخلفاء الأربعة وابن عمر ومالك والشافعي وجماعة: لا نفي اليوم ، وقالت جماعة: ينفى ، وقيل: نفيه سجنه ، ولا تنفى المرأة ولا العبد ، هذا مذهب مالك وجماعة من العلماء.

وقوله ﴿فأَعْرِضُوا عَنْهُما﴾ كانت هذه العقوبة من الإمساك والأذى إرادة أن يتوب

---

(١) قال القرطبي: أخرجه النسائي عن زيد ، والصواب أن الذي أخرجه البخاري ، ولم يثبت عند جمع المصاحف ، وكان في حفظ عمر.

(٢) لم أجده في مسلم ، ولكنه في باب الحدود عند كل من أبي داود وابن ماجه والموطأ ، وأورده الإمام أحمد في مسنده ٥: ١٨٢.

الزناة، وهو الرجوع عن الزنى والإصرار عليه، فأمر الله تعالى المؤمنين إذا تاب الزانيان وأصلحا في سائر أعمالهما أن يُكَفَّ عنهما الأذى، وجاء الأمر بهذا الكف الذي هو ﴿أَعْرِضُوا﴾. وفي قوة اللفظ غض من الزناة وإن تابوا، لأن تركهم إنما هو إعراض، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[1] وليس الإعراض في الآيتين أمراً بهجرة، ولكنها متاركة مُعْرِض، وفي ذلك احتقارٌ لهم بحسب المعصية المتقدمة، وبحسب الجهالة في الآية الأخرى، والله تعالى تواب، أي: راجع بعباده عن المعاصي إلى تركها ولزوم الطاعة.

قوله عز وجل:

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿إنَّما﴾ حاصرة، وهو مقصد المتكلم بها أبداً، فقد تصادف من المعنى ما يقتضي العقل فيه الحصر، كقوله تعالى: ﴿إنَّما اللهُ إلهٌ واحدٌ﴾[2]، وقد تصادف من المعنى ما لا يقتضي العقل فيه الحصر، كقوله: إنما الشجاع عنترة، فيبقى الحصر في مقصد المادح، ويتحصل من ذلك لكل سامع تحقيق هذه الصفة للموصوف بمبالغة.

وهذه الآية مما يوجب النظر فيها أنها حاصرة للتوبة[3]، وهي في عرف الشرع: الرجوع من شر إلى خير، وحدّ التوبة: الندم على فارط فعل، من حيث هو معصية الله عز وجل، وإن كان الندم من حيث أضرَّ ذلك الفعل في بدن أو ملك فليس بتوبة، فإن كان ذلك الفعل مما يمكن هذا النادم فعله في المستأنف فمن شروط التوبة العزمُ على ترك ذلك الفعل في المستأنف، وإلا فثمَّ إصرارٌ لا توبةَ معه، وإن كان ذلك الفعل لا يمكنه، مثل أن يتوب من الزنى فيجب بأثر ذلك ونحو ذلك، فهذا لا يحتاج إلى شرط

---

(١) من الآية (١٩٩) من سورة الأعراف.

(٢) من الآية (١٧١) من سورة النساء.

(٣) جاءت العبارة في بعض النسخ هكذا «مما يوجب النظر فيها أنها حاصرة، إذ ليست التوبة إلا هذا الصنف المذكور، والتوبة في كلام العرب وفي عرف الشرع. . .».

العزم على الترك. والتوبة فرض على المؤمنين بإجماع الأمة، والإجماع هي القرينة التي حمل بها قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾[1] على الوجوب، وتصحُ التوبة من ذنب مع الإقامة على غيره من غير نوعه، خلافاً للمعتزلة في قولهم: لا يكون تائباً من أقام على ذنب، وتصح التوبة وإن نقضها التائبُ في ثاني حال بمعاودة الذنب، فإن التوبةَ الأُولى طاعة قد انقضت وصحَّتْ، وهو محتاج بعد مواقعة الذنب إلى توبة أُخرى مستأنفة، والإيمان للكافر ليس نفس توبته، وإنما توبته ندمه على سالف كفره.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى اللهِ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: على فضل الله ورحمته لعباده، وهذا نحو قول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: (يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم سكت قليلاً، ثم قال: يا معاذ أتدري ما حقُّ العباد على الله؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: أن يدخلهم الجنة)[2] فهذا كله إنما معناه: ما حقهم على فضل الله ورحمته، والعقيدة أَنه لا يجب على الله تعالى شيء عقلاً، لكن إخباره تعالى عن أشياء أوجبها على نفسه يقتضي وجوب تلك الأشياء سمعاً، فمن ذلك تخليد الكفار في النار، ومن ذلك قبول إيمان الكافر، والتوبة لا يجب قبولها على الله تعالى عقلا، فأما السمع فظاهره قبول توبة التائب؛ قال أبو المعالي وغيره: فهذه الظواهر إنما تعطي غلبة ظن لا قطعاً على الله بقبوله التوبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد خولف أَبو المعالي وغيره في هذا المعنى. فإذا فرضنا رجلاً قد تاب توبة نصوحاً تامةَ الشروط، فقولُ أبي المعالي: يغلب على الظن قبول توبته، وقال غيره: يقطع على الله تعالى بقبول توبته، كما أَخبر عن نفسه عز وجل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكان أَبي رحمة الله عليه يميل إلى هذا القول ويرجّحه، وبه أقول، والله تعالى أرحم بعباده من أن ينخرم في هذا التائب المفروض معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ

---

(١) من الآية (٣١) من سورة النور.

(٢) أخرجه البخاري (عن أنس) في كتاب العلم.

عِبَادِهِۦ﴾[١] وقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾[٢]. والسوء في هذه الآية يعمُ الكفرَ والمعاصي.

وقوله تعالى: ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ معناه: بسفاهةٍ وقلةِ تحصيلٍ أدَّى إلى المعصية، وليس المعنى أن تكونَ الجهالة أن ذلك الفعل معصية، لأن المتعمد للذنوب كان يخرج من التوبة، وهذا فاسدٌ إجماعاً. وبما ذكرته في الجهالة قال أَصحاب رسول الله ﷺ، ذكر ذلك عنهم أبو العالية، وقال قتادة: اجتمع أصحاب النبي ﷺ على أنَّ كلَّ معصيةٍ فهي بجهالة، عمداً كانت أو جهلاً، وقال به ابن عباس ومجاهد والسدي، وروي عن مجاهد والضحاك أَنهما قالا: الجهالةُ هنا العمْد، وقال عكرمة: أمور الدنيا كلها جهالة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يريد الخاصةَ بها الخارجةَ عن طاعة الله. وهذا المعنى عندي جار مع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[٣] وقد تأول قوم قول عكرمة بأنه للذين يعملون السوءَ في الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكأن الجهالة اسم للحياة الدنيا، وهذا عندي ضعيف، وقيل: ﴿بِجَهَالَةٍ﴾، أي: لا يعلم كنه العقوبة، وهذا أيضاً ضعيف، ذكره ابن فُورك وَرُدَّ عليه.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾؛ فقال ابن عباس والسدي: معنى ذلك: قبل المرض والموت، وقال أبو مجلز ومحمد بن قيس والضحاك وعكرمة وابن زيد وغيرهم: معنى ذلك: قبل المعايَنَةِ للملائكة والسَّوق[٤]، وأَن يُغْلَبَ المرء على نفسه. وروى أَبو قلابة: (إن الله تعالى لما خلق آدم فرآه إبليس أجوف، ثم جرى له ما جرى ولُعِنَ وأُنظِر، قال: وَعِزَّتِكَ لا برحتُ من قبله ما دام فيه الروح، فقال الله تعالى: وعزتي لا أحجبُ عنه التوبة ما دام فيه الروح)[٥].

---

(١) من الآية (٢٥) من سورة الشورى.

(٢) من الآية (٨٢) من سورة طه.

(٣) من الآية (٣٦) من سورة محمد، والآية (٢٠) من سورة الحديد.

(٤) السوق: حالة النزع وسكرات الموت، كأن الروح تساق لتخرج من البدن.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣: ٢٩، ٤١، ٧٦) عن أبي سعيد الخدري؛ قال: سمعت رسول الله=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فابن عباس رضي الله عنه ذكر أحسنَ أوقات التوبة، والجمهور حدّدوا آخر وقتها. وقال إبراهيم النخعي: كان يقال: التوبة مبسوطة لأحدكم ما لم يؤخذ بكظمه. وروى بشير بن كعب والحسن أن النبي ﷺ قال: (إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ويغلب على عقله)[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لأن الرجاء فيه باق، ويصح منه الندم والعزم على ترك الفعل في المستأنف، فإذا غُلب تعذرت التوبة لعدم الندم والعزم على الترك.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قريبٍ﴾ إنما معناه: من قريب إلى وقت الذنب. ومدة الحياة كلها قريب، والمبادر في الصحة أفضلُ وأحقُ لأَملِهِ من العمل الصالح، والبعدُ كلُّ البعدِ الموت، ومنه قول مالك بن الريب[2]:

. . . . وأَيـنَ مكـانُ البُعْـدِ إلاَّ مكـانيـا؟

وقوله تعالى: ﴿وكان اللهُ عليماً حكيماً﴾ أي: بمن يتوب وييسره هو للتوبة، حكيماً فيما ينفذه من ذلك، وفي تأخير من يؤخر حتى يهلك.

ثم نفى بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾ . . . . الآية أن يدخل في حكم التائبين من حضره موته وصار في حيز اليأس، وحضور الموت هو غاية كما كان فرعون حين صار في غمرة الماء والغرق، فلم ينفعه ما أظهر من الإيمان، وبهذا قال ابن عباس وابن زيد وجماعة المفسرين.

وقال الربيع: الآية الأولى قوله: ﴿إنما التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ﴾ هي في المؤمنين، والآية

= يقول: إن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال الله: فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني.

(١) راجع الحديث في مسند أحمد ٢: ١٣٢، ١٥٣، ٣: ٤٢٥ وفي الترمذي (دعوات: ٩٨ وابن ماجه) (الزهد: ٣٠).

(٢) مالك بن الريب التميمي من شعراء الإسلام في أول بني أمية، كان في مبتدأ أمره قاطع طريق ثم تاب، وغزا مع سعيد بن عثمان خراسان، وعند قفوله من الغزو مرض فرثى نفسه بقصيدة طويلة يائية، منها هذا البيت، والصدر فيه: يقولون لا تبعد وهم يدفنونني (انظر أخباره في الأغاني ٢٢: ٣٠٥ ط. دار الثقافة).

الثانية قوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾... الآية نزلت في المسلمين ثم نسخت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ (١) فحتم ألاَّ يغفر للكافر وأرجأ المؤمنين إلى مشيئته، لم ييئسهم من المغفرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وطعن بعض الناس في هذا القول بأن الآية خبر، والأخبار لا تنسخ. وهذا غير لازم، لأن الآية لفظها الخبر، ومعناها تقرير حكم شرعي، فهي نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ (٢) ونحو قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ (٣) وإنما يضعف القول بالنسخ من حيث تنبني الآيتان ولا يحتاج إلى تقرير نسخ، لأن هذه الآية لم تنف أن يغفر للعاصي الذي لم يتب من قريب، فنحتاج أن نقول: إن قوله: ﴿وَيَغْفِر ما دُونَ ذلكَ﴾ نسخها، وإنما نفت هذه الآية أن يكون تائباً من لم يتب إلا مع حضور الموت. فالعقيدة عندي في هذه الآيات: أن من تاب من قريب فله حكم التائب فيغلب الظن عليه أنه ينعم ولا يعذب، هذا مذهب أبي المعالي وغيره، وقال غيرهم: بل هو مغفور له قطعاً لإخبار الله تعالى بذلك، وأبو المعالي يجعل تلك الأخبار ظواهر مشروطة بالمشيئة، ومن لم يتب حتى حضره الموت فليس في حكم التائبين، فإن كان كافراً فهو يخلد، وإن كان مؤمناً فهو عاص في المشيئة، لكن يغلب الخوف عليه، ويقوى الظن في تعذيبه، ويقطع من جهة السمع أن من هذه الصنيفة من يغفر الله تعالى له تفضلاً منه ولا يعذبه. وأعلم الله تعالى أيضاً أن الذين يموتون وهم كفار فلا مستعتب لهم ولا توبة في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿أُولئكَ أَعْتَدْنَا لَهُم عذاباً أليماً﴾ ـ إن كان الإشارة إلى الذين يموتون وهم كفار فقط، فالعذاب عذاب خلود، وإن كانت الإشارة إليهم وإلى من ينفذ عليه الوعيد ممن لا يتوب إلا مع حضور الموت من العصاة فهو في جهة هؤلاء، عذابٌ ولا خلود معه، و﴿أَعْتَدنَا﴾ معناه: يسرناه وأحضرناه، وظاهر هذه الآية أن النار مخلوقة بعد.

---

(١) من الآية (٤٨) من سورة النساء.

(٢) من الآية (٢٨٤) من سورة البقرة.

(٣) من الآية (٦٥) من سورة الأنفال.

قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ١٩﴾

اختلفت المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً﴾ ـ فقال ابن عباس: كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحقَّ بامرأته من أهلها، إن شاؤوا تزوجها أحدهم، وإن شاؤوا زوجوها من غيرهم، وإن شاؤوا منعوها الزواج، فنزلت الآية في ذلك، قال أبو أمامة بن سهل بن حنيف[1]: لما توفي أبو قيس بن الأسلت[2]، أراد ابنه أن يتزوج امرأته، وكان لهم ذلك في الجاهلية، فنزلت الآية في ذلك. ذكر النقاش أن اسم ولد أبي قيس: محصن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كانت هذه السيرة في الأنصار لازمة، وكانت في قريش مباحة مع التراضي، ألا ترى أن أبا عمرو بن أمية خلَفَ على امرأة أبيه بعد موته، فولدت من أبي عمرو مسافراً وأبا معيط، وكان لها من أمية أبو العيص وغيره، فكان بنو أمية إخوة مسافر وأبي معيط وأَعمامهما. وقال بمثل هذا القول الذي حكيت عن ابن عباس: عكرمة والحسن البصري وأبو مجلز، قال عكرمة: نزلت في كبيشة بنت معن الأنصارية، توفي عنها أَبو قيس بن الأَسلت، وقال مجاهد: كان الابن الأكبر أحق بامرأة أبيه إذا لم يكن ولدَهَا، وقال السدي: كان ولي الميت إذا سبق فألقى على امرأة الميت ثوبه فهو أحق بها، وإن سبقته فذهبت إلى أهلها كانت أحقَّ بنفسها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والروايات في هذا كثيرة بحسب السير الجاهلية، ولا منفعة في ذكر جميع ذلك، إذ قد أَذهبه الله بقوله: ﴿لاَ يَحلُّ لَكُم﴾، ومعنى الآية على هذا القول: لا يحل لكم أن

---

(١) أبو أمامة بن سهل بن حنيف اسمه أسعد، سمّاه رسول الله وكناه (باسم جده لأمه وكنيته)، توفي سنة ١٠٠هـ، وهو ابن نيف وتسعين (الاستيعاب: ٢/ ١٦٠).

(٢) أبو قيس صيفي بن الأسلت الأنصاري، وقيل في اسمه: الحارث وقيل: عبد الله، وكان من الحنفاء في الجاهلية، ولكنه لم يسلم ـ في الأرجح ـ (انظر تهذيب ابن عساكر ٦/ ٤٥٤ ـ ٤٥٨).

تجعلوا النساء كالمال، يورثن عن الرجال الموتى كما يورث المال، والمتلبس بالخطاب أولياء الموتى، وقال بعض المتأولين: معنى الآية: لا يحلّ لكم عَضْلُ النساء اللواتي أَنتم أولياءٌ لهنّ وإمساكهن دون تزويج حتى متن فتورثَ أموالهن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا القول فالموروث مالها لا هي، وروي نحو هذا عن ابن عباس وغيره. والمتلبس بالخطاب أولياء النساء وأزواجهن إذا حبسوهن مع سوء العشرة طماعية أنْ يَرِثُوهُنَّ(١).

وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير: [كَرْهَا] بفتح الكاف حيث وقع في النساء وسورة التوبة وفي الأحقاف، وقرأ حمزة والكسائي جميع ذلك بضم الكاف، وقرأ عاصم وابن عامر في النساء والتوبة بفتح الكاف، وفي الأحقاف في الموضعين بضمها، والكَرْه والكُرْه لغتان كالضَّعف والضُّعف، والفَقْر والفُقْر، قاله أَبو علي. وقال الفراء: هو بضم الكاف: المشقة وبفتحها: إكراهُ غير، وقاله ابن قتيبة.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ولا تعْضُلوهنَّ﴾. . . . الآية؛ فقال ابن عباس وغيره: هي أيضاً في أولئك الأولياء الذين كانوا يرثون المرأة لأنهم كانوا يتزوجونها إذا كانت جميلة، ويمسكونها حتى تموت إذا كانت دميمة، وقال نحوه الحسن وعكرمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويجيء في قوله ﴿آتَيْتُموهُنَّ﴾ خلط، أي: ما آتاها الرجال قبل، فهي كقوله: ﴿فاقْتُلوا أَنفسَكُم﴾ وغير ذلك، وقال ابن عباس أيضاً: هي في الأزواج: في الرجل يمسك المرأة ويسيء عشرتها حتى تفتدي منه، فذلك لا يحل له، وقال مثله قتادة، وقال ابن البيلماني: الفصل الأَول من الآية هو في أمر الجاهلية، والثاني في العضلِ هو في أهل الإسلام في حبس الزوجة ضراراً للفدية. وقال ابن مسعود: معنى الآية: لا ترثوا النساءَ كفعل الجاهلية، ولا تعضلوهن في الإسلام، وقال نحو هذا القول السدي والضحاك، وقال السدي: هذه الآية خطاب للأولياء، كالعضل المنهيِّ عنه في سورة البقرة.

---

(١) نقلها عن ابن عطية في «فتح القدير»: «طمعاً في إرثهن».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قلق، إلا أن يكون العضلُ من ولي وارث، فهو يؤمل موتها، وإن كان غيرَ وارث فبأي شيء يذهب؟، وقال ابن زيد: هذا العضلُ المنهي عنه في هذه الآية هو من سير الجاهلية في قريش بمكة، إذا لم يتوافق الزوجان طلقها على ألا تتزوجَ إلا بإذنه، ويُشْهِدُ عليها بذلك، فإذا خطبت فإن أَعطته ورشته وإلا عضل، ففي هذا نزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي أقول: إن العضل في اللغة: الحبس في شدةٍ ومضرّة، والمنعُ من الفرج في ذلك، فمن ذلك قولهم: أعضلت الدجاجة وعضلت إذا صعب عليها وضع البيضة، ومنه أعضل الداء إذا لحِجَ ولم يبرأ، ومنه داء عضال، ومشى عرف الفقهاء على أن العضل من الأولياء في حبس النساء عن التزويج، وهو في اللغة أعمّ من هذا حسبما ذكرت، ويقع من وليّ ومن زوج، وأقوى ما في هذه الأقوال المتقدمة أَن المراد الأزواج، ودليل ذلك قوله: ﴿إلا أنْ يأتِينَ بفاحِشَةٍ﴾، وإذا أتت بفاحشة فليس للولي حَبْسُهَا حتى يذهبَ بمالها إجماعاً من الأمة، وإنما ذلك للزوج على ما سنبين بعد إن شاء الله.

وكذلك قوله: ﴿وعَاشِروهُنَّ بالمَعْرُوفِ﴾ إلى آخر الآية يظهر منه تقوية ما ذكرته، وإن كان ذلك يحتمل أن يكون أمراً منقطعاً من الأول يُخَصّ به الأَزواج. وأما العضل فمنهيٌّ عنه كل من يتصور في نازلة عاضلاً، ومتى صح في ولي أنه عاضل نظر القاضي في أمر المرأة وزوَّجَها ولم يلتفت، إلا الأب في بناته، فإنه إن كان في أمره إشكال فلا يُعْتَرَضُ قولاً واحداً[1]، وإن صَحَّ عضله ففيه قولان في مذهب مالك: أَحدهما أنه كسائر الأولياء، يزوج القاضي من شاء التزويج من بناته وطلبه، والقول الآخر أنه لا يعرض له.

ويحتمل قوله: ﴿ولا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أَن يكون جزماً، فتكون الواو عاطفة جملة كلام مقطوعة من الأُولى، ويحتمل أن يكون ﴿تعضُلوهُنَّ﴾ نصباً عطفاً على ﴿تَرِثُوا﴾ فتكون الواو مشركة عاطفة فعلٍ على فعل.

---

(١) جاءت هذه العبارة في تفسير القرطبي (٥: ٩٦) وهو ينقل عن ابن عطية: «إلا الأب في بناته فإنه إن كان في عضله صلاح فلا يعترض قولاً واحداً».

وقرأ ابن مسعود: [ولا أَن تعْضُلوهُنَّ] فهذه القراءة تقوي احتمال النصب، وأَن العضل مما لا يحل بالنص وعلى تأويل الجزم هو نهيٌ معرض لطلب القرائن في التحريم أو الكراهية، واحتمال النصب أقوى.

واختلف الناس في معنى الفاحشة هنا فقال الحسن بن أَبي الحسن: هو الزنى، وإِذا زنت البكر فإِنها تجلد مئة وتنفى سنة، وتردّ إِلى زوجها ما أخذت منه، وقال أَبو قلابة: إِذا زنت امرأة الرجل فلا بأس أن يضارّها ويشقَّ عليها حتى تفتديَ منه، وقال السدي: إذا فعلن ذلك فخذوا مهورهن، وقال عطاء الخراساني: كان هذا الحكم ثم نُسِخَ بالحدود، وهذا قول ضعيف، وقال ابن عباس رحمه الله: الفاحشةُ في هذه الآية: البغض والنشوز، وقاله الضحاك وغيره، قالوا: فإِذا نشزت حلَّ له أن يأخذ مالها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو مذهب مالك، إلا أني لا أحفظ له نصاً في معنى الفاحشة في هذه الآية.

وقال قوم: الفاحشة: البذاء باللسان وسوء العشرة قولاً وفعلاً، هذا في معنى النشوز. ومن أهل العلم من يجيز أخذَ المال من الناشز على جهة الخلع، إِلا أَنه يرى أَلا يتجاوز ما أعطاها، ركوناً إِلى قوله تعالى: ﴿لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾. وقال مالك وأَصحابه وجماعة من أهل العلم: للزوج أن يأخذ من الناشز جميع ما تملك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والزنى أصعب على الزوج من النشوز والأَذى، وكل ذلك فاحشة تُحِلُّ أَخْذَ المال، وقرأ ابن مسعود: [إِلا أَن يفحشن، وعاشروهن].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا خلاف مفرط لمصحف الإِمام. وكذلك ذكر أَبو عمرو عن ابن عباس وعكرمة وأُبيّ بن كعب، وفي هذا نظر. وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر: [مُبَيَّنَة] [وآيات مُبَيَّنات] بفتح الياء فيهما، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص والمفضل عن عاصم: ﴿مبيِّنة﴾ و﴿مبيِّنات﴾ بكسر الياء فيهما، وقرأ نافع وأبو عمرو: ﴿مُبيِّنَة﴾ بالكسر، و[مُبيَّنات] بالفتح، وقرأ ابن عباس: [بفاحشةٍ مُبِينة] بكسر الباء وسكون الياء، من أبان الشيء. وهذه القراءات كلها لغات فصيحة، يقال: بيَّنَ الشيء وأبان: إِذا ظهر، وبان الشيء وبينته.

وقوله تعالى: ﴿وعاشِروهُنَّ بالمَعْروفِ﴾ أمر للجميع، إذ لكلّ أحدٍ عشرة، زوجاً كان أو ولياً، ولكن المتلبس في الأغلب بهذا الأمر الأزواج، والعشرة: المخالطة والممازجة، ومنه قول طرفة[١]:

فلئن شَطَّتْ نواها مرةً   لعلى عَهْدِ حبيبٍ مُعْتَشِرْ

جعل «الحبيب» جمعاً كالخليط والفريق. يقال: عاشره معاشرة، وتعاشر القوم واعتشروا، وأرى اللفظة من أعشار الجزور، لأنها مقاسمة ومخالطة ومخالقة جميلة، فأمر الله تعالى الرجال بحسن صحبة النساء، وإلى هذا ينظر قول النبي ﷺ: (فاستمتع بها وفيها عوج)[٢]. ثم أدب تعالى عباده بقوله: ﴿فإنْ كرهْتُمُوهُنَّ﴾ إلى آخر الآية. قال السدي: الخير الكثير في المرأة: الولد، وقال نحوه ابن عباس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن فصاحة القرآن العموم الذي في لفظة «شيء» لأنه يطرد هذا النظر في كل ما يكرهه المرء مما يجمل الصبر عليه، فيحسن الصبر، إذ عاقبته إلى خير، إذا أُريد به وجه الله.

قوله عز وجل:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

لما مضى في الآية المتقدمة حكم الفراق الذي سببه المرأة، وأَن للزوج أخذَ المال منها، عقب ذلك ذكر الفراق الذي سببه الزوج، والمنع من أخذ مالها مع ذلك، فهذا الذي في هذه الآية هو الذي يختص الزوج بإرادته.

واختلف العلماء: إذا كان الزوجان يريدان الفراق، وكان منهما نشوز وسوء عشرة، فقال مالك رحمه الله: للزوج أَن يأخذ منها إذا سببت الفراق، ولا يراعي تسببه هو،

---

(١) البيت في ديوان طرفة (ص: ١٥/ط. باريس) وروايته: معتكر. أي: مُقيمٌ على حبِّها.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن عائشة (٦: ٢٧٩): المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها وهو يستمتع بها على عوجٍ فيها، وانظر الترمذي (طلاق: ١٢).

وقالت جماعة من العلماء: لا يجوز له أخذ المال إلا أن تنفرد هي بالنشوز وبظلمه في ذلك. وقال بعض الناس: يخرج في هذه الآية جواز المغالاة بالمهور، لأن الله تعالى قد مثل بقنطار، ولا يمثل تعالى إلا بمباح.

وخطب عمر بن الخطاب فقال: ألا لا تغالوا بمهورِ نسائكم، فإن الرجل يُغَالي حتى يكون ذلك في قلبه عداوة للمرأة، يقول: تجشمتُ إليك عَلَق القِرْبَةِ أو عَرَقَ القربة[١]، فيروى أن امرأة كلَّمته من وراء الناس فقالت: كيف هذا؟ والله تعالى يقول: ﴿وآتَيْتُم إحداهُنَّ قِنْطاراً﴾ قال: فأطرق عمر ثم قال: «كلُّ الناس أفقه منك يا عمر». ويروى أنه قال: «امرأةٌ أصابتْ ورجلٌ أخطأ»، والله المستعان، وتركَ الإنكارَ.

وقال قوم: لا تعطي الآية جواز المغالاة بالمهور لأن التمثيل جاء على جهة المبالغة، كأنه قال: وآتيتم هذا القدر العظيم الذي لا يؤتيه أحد، وهذا كقوله عليه السلام: (من بنى لله مسجداً ولو كمَفحَص قطاة [لبيضها] بنى الله له بيتاً في الجنة)[٢] فمعلوم أنه لا يكون مسجد كمَفْحَصٍ، وقد قال النبي عليه السلام لابن أبي حَدْرد ـ وقد جاء يستعينه في مهره ـ فسأله عن المهر فقال: مائتين، فغضب رسول الله ﷺ وقال: (كأنكم تقطعون الذهب والفضة من عرض الحرَّة أو جبل)[٣]... الحديث فاستقرأ بعض الناس من هذا منع المغالاة بالمهور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا لا يلزم، لأن هذا أَحوجَ نفسه إلى الاستعانة والسؤال، وذلك مكروهٌ باتفاق، وإنما المغالاة المختلف فيها مع الغنى وسعة المال، وقرأ ابن محيصن بوصل ألف [احداهُنَّ] وهي لغة تحذف على جهة التخفيف. ومنه قول الشاعر:

. . . . وتسْمَعُ من تحْتِ العَجَاج لها ازْمِلا[٤]

---

(١) قال القرطبي: علق القربة: عصامها الذي تعلق به، وعرق القربة هو ماؤها، وقيل هو سيلانها. وقال الأصمعي: معناها الشدة، ولا أدري ما أصلها.

(٢) أورده أحمد في مسنده ١: ٢٤١ (عن ابن عباس) وانظر ابن ماجه (مساجد: ١).

(٣) هو عبد الله بن أبي حدْرد ويروي حفيده إسماعيل أن جدّه عبد الله تزوج امرأة على أربع أَواق فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: (لو كنتم تنحتون من الجبل ما زدتم)؛ أخرجه أحمد من طريق عبد الواحد بن أبي عون عن جدته عن ابن أبي حدرد بمعناه (انظر الإصابة: ٤: ٥٤، ٥٥).

(٤) هذا عجز بيت، وصدره: «تضب لثات الخيل في حَجَراتها». أورده ابن جني في الخصائص ٣: =

وقول الآخر:

* إن لم أقاتل فالْبِسوني بُرْقُعَا *[(١)]

وقد تقدم القول في قدر القنطار في سورة آل عمران، وقرأ أبو السمال: [منه شَيَئاً] بفتح الياء والتنوين، وهي قراءة أَبي جعفر. والبهتان: في موضع الحال، ومعناه: مبهتاً محيراً لشنعته وقبح الأحدوثة والفعلة فيه.

ثم وعظ تعالى عباده مذكراً لهم بالمودة التي بين الزوجين الموجبة لحياطة مال المرأة، إذ قد أُخذ منها العوض عما أُعْطِيَتْهُ، ﴿وكَيفَ﴾ في موضع نصب على الحال. وأَفْضَى معناه: باشر وجاوز أقصى المجاوزة، ومنه قول الشاعر:

بِلَى وثَأَى أفضى إلى كلِّ كَتْبَةٍ ... بَدَا سَيْرُهَا من ظاهرٍ بعد باطن[(٢)]

وفي المثل: «الناسُ فَوْضَى فضاً»، أي: مختلطون يباشر أمر بعضهم بعضا[(٣)]، وتقول: أفضت الحال إلى كذا أي: صارت إليه. وقال ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم: الإفضاء في هذه الآية: الجماع، قال ابن عباس: ولكن الله كريم يكْني.

واختلف الناس في المراد بالميثاق الغليظ؛ فقال الحسن وابن سيرين وقتادة والضحاك والسدي وغيرهم: هو قوله تعالى: ﴿فإِمْسَاكٌ بمعروفٍ أَو تسريح بإِحْسانٍ﴾، وقال مجاهد وابن زيد: الميثاق الغليظُ: عقدة النكاح، وقول الرجل: نكحت وملكت

= ١٥١ ، والمحتسب ١: ١٢٠ ، ١٨٤ شاهداً على حذف الهمزة ، انظر القرطبي ٥: ١٠١.

(١) ورد هذا الشطر أيضاً في الخصائص ٣: ١٥١ والمحتسب ١: ١٢٠ والقرطبي ٥: ١٠١ ولم أهتد لقائله أو شطره الآخر.

(٢) اختلفت النسخ الأصلية في رواية هذا البيت ، ولم يستشهد به القرطبي ولا أبو حيان.
بلَى: من قولنا: بلي الثوب رثَّ.
ثَأىَ: من قولنا: ثأى الخرز ثأياً فتقه ـ فالثأي هو: الفساد والقلق.
أفضى: انتهى إلى.
كَتْبَةٍ: من قولنا: كتب السقاء ونحوه: خرزه بسيرين ، أي خاطه.
وكأنه يصف القربة أو نحوها بأن البلى والفساد انتهى إلى كل خيط في سيرها.

(٣) عبارة القرطبي: أَي مختلطون لا أمير عليهم. وهذا ما ذكره اللسان. ولعّل الصواب: (يباشر بعضهم أمر بعض).

النكاح ونحوه، فهذه التي بها تُسْتَحَلُّ الفروج. وقال عكرمة والربيع، الميثاق الغليظ يفسره قول النبي ﷺ (استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عوان عندكم، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلام الله)[1] وقال قوم: الميثاق الغليظ: الولد.

ومن شاذ الأقوال في هذه الآية أن بكر بن عبد الله المزني قال: لا يجوز أن يؤخذ من المختلعة قليل ولا كثير، وإن كانت هي المريدةَ للطلاق، ومنها أن ابن زيد قال: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾[2]... الآية

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس في شيء من هذه الآيات ناسخ ولا منسوخ، وكلها ينبني بعضها مع بعض.

قوله عز وجل:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾.

هذه الآية مخاطبة للمؤمنين من العرب في مدة نزول الآية، ومعنى الآية والتحريم الذي بعدها مستقر على المؤمنين أجمع. وسبب الآية أن العرب كان منهم قبائل قد اعتادت أن يخلف الرجل على امرأة أبيه، على ما ذكرناه من أمر أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، ومن ذلك خبر أبي قيس بن الأسلت، ومن ذلك صفوان بن أُمية بن خلف، تزوج بعد أبيه فاختة بنت الأسود بن المطلب بن أسد، وكانت امرأة أبيه، قتل عنها، ومن ذلك منظور بن زبّان، خلف على مُلَيْكَة بنت خارجة، وكانت عند أبيه زبان بن سيار، إلى كثير من هذا. وقد كان في العرب من تزوج ابنته، وهو حاجب بن زرارة،

(١) ورد هذا الحديث في خطبته ﷺ في حجة الوداع. وأخرجه ابن أبي شيبة عن عكرمة ومجاهد (فتح القدير ١: ٤٤٣).

(٢) من الآية (٢٢٩) من سورة البقرة.

تمجَّسَ وفعل هذه الفعلة، ذكر ذلك النضر بن شميل في كتاب المثالب، فنهى الله المؤمنين عما كان عليه آباؤهم من هذه السير. وقال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يحرّمون ما يحرم إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، فنزلت هذه الآية في ذلك.

واختلف المتأولون في مقتضى أَلفاظ الآية فقال فرقة: قوله: ﴿ما نكَحَ﴾ يراد به النساء، أي: لا تنكحوا النساء اللواتي نكح آباؤكم، وقوله: ﴿إلا ما قَدْ سَلَفَ﴾ معناه: لكن ما قد سلف فدعوه، وقال بعضهم: المعنى: لكن ما قد سلف فهو معفوّ عنكم لمن كان واقعه، فكأنه قال تعالى: «وَلا تفعلوا حاشا ما قد سلف»، فـ ﴿ما﴾ على هذا القول واقعة على من يعقل من حيث هؤلاء النساء صنف من أصناف من يعقل، و﴿ما﴾ تقع للأصناف والأوصاف ممن يعقل. وقالت فرقة: قوله: ﴿ما نَكَحَ﴾ يراد به فعل الآباء، أي: لا تنكحوا كما نكح آباؤكم من عقودهم الفاسدة، وقوله: ﴿إلاَّ ما قَدْ سَلَفَ﴾ معناه: إلا ما تقدم منكم ووقع من تلك العقود الفاسدة فمباحٌ لكم الإقامة عليه في الإسلام، إذا كان مما يُقْدَر عليه من جهة القرابة، ويجوّزه الشرع إن لو ابتدىء نكاحه في الإسلام على سنته وقيل: معنى ﴿إلاَّ ما قَدْ سَلَفَ﴾ أي: فهو معفو عنكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

و﴿ما﴾ على هذا مصدرية، وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿إلاَّ ما قد سَلَفَ إلا مَنْ تابَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكذلك حكاه أَبو عمرو الداني.

وقال ابن زيد: معنى الآية: النهيُ عن أَن يطأ الرجل امرأةً وطئها الآباء، إلا ما قد سلف من الآباء في الجاهلية من الزنى، لا على وجه المناكحة، فذلك جائز لكم زواجهم في الإسلام، لأَن ذلك الزنى كان فاحشةً، قال ابن زيد: فزاد في هذه الآية المقت.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في تأويل هذه الآية: كل امرأة تزوجها أَبوك أو ابنك دخل أو لم يدخل فهي عليك حرام. و﴿كان﴾ في هذه الآية تقتضي الماضي

والمستقبل، وقال المبرد: هي زائدة، وذلك خطأ يردّ عليه وجود الخبر منصوباً؛ والمقت: البغض والاحتقار بسبب رذيلة يفعلها، فسمى تعالى هذا النكاح مقتاً إذ هو ذا مقت يلحق فاعله. وقال أبو عبيدة وغيره: كانت العرب تسمي الولد الذي يجيء من زوج الوالد المقتي، وقوله: ﴿وساءَ سبيلاً﴾ أَي: بئس الطريق والمنهج لمن يسلكه، إذ عاقبته إلى عذاب الله.

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾.... الآية، حكم حرم الله به سبعاً من النسب، وستاً من بين رضاع وصهر، وألحقت السنة المتواتر سابعة، وذلك الجمع بين المرأة وعمتها، ومضى عليه الإجماع، وروي عن ابن عباس أنه قال: حرم من النسب سبع، ومن الصهر سبع، وتلا هذه الآية، وقال عمرو بن سالم مولى الأَنصار: مثل ذلك، وجعل السابعة قوله تعالى: ﴿والمُحْصَنات مِنَ النساءِ﴾. وتحريم الأُمهات عام في كل حال لا يتخصص بوجه من الوجوه، ويسميه أهل العلم «المبهم» أي لا باب فيه، ولا طريق إليه لانسداد التحريم وقوته، وكذلك تحريم البنات والأَخوات، فالأم كلّ من ولدت المرء وإن علت، والبنت كل من ولدها وإن سفلت، أما الأخت لأبوين أو لأب أو لأم فهي التي قد جمعه وإياها صلبٌ أو بطن، والعمة أخت الأب، والخالة أخت الأم، كذلك فيهما العموم والإبهام، وكذلك عمة الأب وخالته، وعمة الأم وخالتها، وكذلك عمة العمة، وأما خالة العمة فينظر، فإن كانت العمة أخت أب لأمّ أو لأب وأم فلا تحل خالة العمة، لأنها أختُ الجدة، وإن كانت العمة إنما هي أخت أب لأب فقط فخالتها أجنبية من بني أخيها، تحلّ للرجال، ويجمع بينها وبين النساء؛ وكذلك عمة الخالة ينظر، فإن كانت الخالة أخت أم لأب، فعمتها حرام، لأنها أخت جد، وإن كانت الخالة أخت أم لأم فقط فعمتها أجنبية من بني أختها، وكذلك في بنات الأخ وبنات الأخت العموم والإبهام، سواء كانت الأخوة أَشِقَّاء، أو لأب أو لأم.

وقرأ أبو حيوة: [مِنَ الرِّضاعَةِ] بكسر الراء. والرضاع يحرم ما يحرم النسب، والمرضعة أم، وما تقدم من أولادها وتأخر إخوة، وفحل اللبن أب، وما تقدم من أولاده وتأخر إخوة. وقرأ ابن مسعود: [اللّاي] بكسر الياء، وقرأ ابن هرمز: [وأُمَّهاتكم الَّتي] بالإفراد، كأنه من جهة الإبهام مع الواحد والجماعة.

واختلف الناس في تأويل قوله تعالى: ﴿وأُمَّهات نِسائكُم﴾: فقال جُمْهورُ أَهْل العلم: هي تامة العموم فيمن دخل بها أَو لم يدخل، فبالعقد على الابنة حرمت الأم، وهذا مذهب جملة الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار، وروي عن علي بن أَبي طالب أنه قيل له في رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها أيتزوج أمها؟ قال: نعم، هي بمنزلة الربيبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يريد أن قوله تعالى: ﴿منْ نسائِكم اللاَّتي دخلتمْ بهنَّ﴾ شرط في هذه وفي الربيبة، وروي نحوه عن ابن عباس، وروي عنه كقول الجمهور. وروي عن زيد بن ثابت أَنه كان يقول: إذا ماتت عنده فأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها، وإن طلقها قبل أن يدخل بها، فإن شاء فعل. وقال مجاهد: الدخول مراد في النازلتين، وقول جمهور الناس مخالف لهذا القول. وروي في ذلك عن زيد بن ثابت أَنه قال: ﴿أُمَّهاتُ نِسائِكُم﴾ مبهمة، وإنما الشرط في الربائب. وقال ابن جريج: قلت لعطاء: أكان ابن عباس يقرأ: [وأمهات نِسَائِكم اللاَّتي دخلتمْ بِهِنَّ]؟ فقال: لا تترأ، قال حجاج: قلت لابن جريج: ما تترأ؟ قال: كأنه قال: لا لا. ويرد هذا القول من جهة الإعراب أَنَّ المجرورَيْن إذا اختلفا لم يكن نعتهما واحداً، ومعناه: إذا اختلفا في العامل، وهذه الآية قد اختلف فيها جنس العامل.

قوله عز وجل:

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٣﴾﴾.

الرَّبيبة: بنت امرأة الرجل من غيره، سميت بذلك لأنه يربيها في حجره فهي مربوبته. وربيبة: فعيلة بمعنى مفعولة، وقوله تعالى: ﴿اللاَّتي في حُجُوركم﴾ ذكر الأَغلب في هذه الأمور، إذ هي حالة الربيبة في الأكثر، وهي محرَّمة وإن كانت في غير الحجر، لأنها في حكم أَنها في الحجر، إلا ما روي عن علي أَنه قال: تحلُّ إذا لم تكن في الحجر وإن دخل بالأم، إذا كانت بعيدة عنه، ويقال: حَجر بكسر الحاء وفتحها، وهو مُقَدَّمُ ثوب الإنسان وما بين يديه منه في حال اللبس، ثم استعملت اللفظة في

الحفظِ والسترِ، لأن اللابسَ إنما يحفظ طفلاً وما أَشبه بذلك الموضع من الثوب.

واختلف العلماء في معنى قوله: ﴿دخلتُمْ بِهِنَّ﴾؛ فقال ابن عباس وطاوس وابن دينار: الدخول في هذا الموضع: الجماع، فإن طلق الرجل بعد البناء وقبل الوطءِ فإن ابنتها له حلال. وقال جمهور من العلماء منهم مالك بن أنس وعطاء بن أبي رباح وغيرهم: إن التجريد والتقبيل والمضاجعة وجميع أَنواع التلذذ يُحَرِّمُ الابنةَ كما يحرمها الوطء؛ والحلائل: جمع حليلة، وهي الزوجة، لأنها تحلّ مع الرجل حيث حل، فهي فعيلة بمعنى فاعلة. وذهب الزجاج وقوم إلى أنها من لفظة الحلال، فهي حليلة بمعنى محلَّلة. وقوله: ﴿الَّذين مِنْ أَصْلابِكُم﴾ تخصيصٌ ليخرج عنه كل من كانت العرب تتبناه ممن ليس للصلب، وكان عندهم أمراً كثيراً قوي الحكم.

قال عطاء بن أبي رباح: يُتَحَدَّث والله أعلم ـ أنها نزلت في محمد عليه السلام حين تزوج امرأة زيد بن حارثة، فقال المشركون: قد تزوج امرأة ابنه، فنزلت الآية.

وحرمت حليلة الابن من الرضاع وإن لم يكن للصلب؛ بالإجماع المستند إلى قوله ﷺ: (يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب)[1] وقوله تعالى: ﴿وأن تَجْمعوا بيْنَ الأُختين إلا ما قدْ سَلَفَ﴾ لفظ يعم الجمع بنكاح وبملك يمين، وأَجمعت الأمة على منع جمعهما بنكاح، وأَما بملك يمين فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: أحلتهما آية، وحرمتهما آية. فأما أَنا في خاصة نَفْسي فلا أرى الجمع بينهما حسنا. وروي نحو هذا عن ابن عباس، ذكره ابن المنذر، وذكر أَن إِسحق بن راهويه حرم الجمع بينهما بالوطء، وأَن جمهور أهل العلم كرهوا ذلك، وجعل مالكا فيمن كرهه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا خلاف في جواز جمعهما في الملك، وكذلك الأم وبنتها، ويجيء من قول إسحق أن يرجم الجامع بينهما بالوطء، وتستقرأ الكراهية من قول مالك: إنه إذا وطىء واحدة ثم وطىء أخرى؛ وقف عنهما حتى يحرم إحداهما، فلم يُلزمه حدا.

واخلتف العلماء بعد القول بالمنع من الجمع بينهما بالوطء، إذا كان يطأ واحدة ثم

(١) ورد في مواضع متعددة من صحيح البخاري، كما أخرجه مسلم وأحمد وأصحاب السنن.

أراد أن يطأ الأخرى؛ فقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه وابن عُمَر والحسن البصري والأَوزاعي والشافعي وأحمد وإِسحق: لا يجوز له وطء الثانية حتى يحرم فرج الأخرى بإِخراجها من ملكه، ببيع أو عتق أو بأن يزوجها. قال ابن المنذر: وفيها قول ثان لقتادة، وهو أنه إن كان يطأ واحدة وأراد وطء الأخرى فإنه ينوي تحريم الأولى على نفسه وأَلاَّ يقربها، ثم يمسك عنها حتى يستبرئ الأولى المحرمة، ثم يغشى الثانية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومذهب مالك رحمه الله: إذا كان أُختان عند رجل بملك، فله أن يطأ أيتهما شاء، والكف عن الأخرى موكول إلى أَمانته، فإن أراد وطء الأخرى فيلزمه أن يحرم على نفسه فرج الأولى بفعل يفعله، من إخراج عن الملك أو تزويج أو عتق إلى أجل أو إخدام طويل، فإن كان يطأ إحداهما ثم وثب على الأخرى دون أن يحرم الأولى وقف عنهما، ولم يجز له قرب إحداهما حتى يحرم الأخرى، ولم يبق ذلك إلى أَمانته، لأنه متهم فيمن قد وطئ، ولم يكن قبلُ متهماً إذ كان لم يطأ إلا الواحدة. وإن كانت عند رجلٍ أمة يطؤها ثم تزوج أختها، ففيها في المذهب ثلاثة أقوال: في النكاح الثالث من المدونة أنه يوقَفُ عنهما إذا وقع عقد النكاح حتى يحرم إحداهما مع كراهيته لهذا النكاح، إذ هو عقد في موضع لا يجوز فيه الوطء، وذلك مكروه إلا في الحيض، لأَنه أمر غالب كثير، وفي الباب بعينه قول آخر: إن النكاح لا ينعقد. وقال أشهب في كتاب الاستبراء: عقد النكاح في الواحدة تحريم لفرج المملوكة؛ وثبت عن النبي ﷺ أنه نهى أن يجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها، وأَجمعت الأمة على ذلك؛ وقد رأى بعض العلماء أَن هذا الحديث ناسخ لعموم قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لكُمْ ما وراءَ ذلِكُم﴾، وذلك الحديث من المتواتر، وكذلك قوله عليه السلام: (يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب) قيل أيضاً: إن ناسخ.

وقوله تعالى: ﴿إلاَّ ما قدْ سَلَفَ﴾ استثناء منقطع، معناه: لكن ما قد سلف من ذلك ووقع وأَزاله الإِسلام فإِن الله يغفره، والإِسلام يجبّه.

قوله عزَّ وجل:

﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ عطفٌ على المحرمات قبل. والتَّحَصُّن: التَّمنع، يقال: حصن المكان: إذا امتنع، ومنه الحصن، وحصنت المرأة: امتنعت بوجه من وجوه الامتناع، وأَحصنتْ نفسها، وأَحصنها غيرها. والإحصان تستعمله العرب في أَربعة أَشياء. وعلى ذلك تصرفت اللفظة في كتاب الله عز وجل: فتستعمله في الزواج، لأن ملك الزوجة مَنَعة وحفظ. ويستعملون الإحصان في الحرية، لأن الإماءَ كان عرفهن في الجاهلية الزنى، والحرة بخلاف ذلك، ألا ترىٰ إلى قول هند بنت عتبة للنبي عليه الصلاة والسلام حين بايعته: «وهل تزني الحرة؟»، فالحرية مَنَعة وحفظ. ويستعملون الإحصان في الإسلام لأنه حافظ، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام: (الإِيمانُ قَيْدُ الْفَتْكِ)[1].

ومنه قول الهُذَلِيِّ:

فَلَيْسَ كعهْد الدار يا أُمَّ مالك ... ولكنْ أحاطَتْ بالرقابِ السَّلاسِلُ[2]

ومنه قول الشاعر:

قالتْ هلُمَّ إلى الحديثِ فقُلْتُ لا ... يـأبـى عليْـكِ الله والإِسـلامُ[3]

---

(١) هذا جزء من حديث رواه البخاري في تاريخه، وأبو داود في سننه، والحاكم في مستدركه، عن أبي هريرة، وأخرجه الإمام أحمد في المسند عن الزبير ومعاوية، قال المناوي: «وسنده جيِّد ليس فيه إلاَّ أسباط بن الهمذاني وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي، وقد خرج لهما مسلم». المناوي على الجامع ج ٣ ص ١٨٦، والحديث بتمامه: «الإيمان قيْد الفتك، لا يفتك مؤمن».
والفتك: أن يأتي الرجل صاحبه وهو غارٌّ غافل فيشدُّ عليه فيقتله، والغيلة: أن يخدعه ثُمَّ يقتله في موضع خفي، النهاية.

(٢) يريد أن تكاليف الشريعة قد قيدت الناس ومنعتهم من فعل المعاصي.

(٣) المعنى أن الإسلام قد منعه من الحديث وما يتبعه.

ومنه قول سُحَيْم:

. . . . كفى الشَّيْبُ والإسْلاَم لِلْمَرْءِ نَاهيَا[١]

ومنه قول أَبي حيَّة:

رَمَتْني وسِتْرُ الله بَيْني وَبَيْنَهَا

فإن أَحد الأَقوال في السِّتْر أَنه أَراد به الإسْلام.

ويستعملون الإحصانَ في العفَّة، لأَنه إذا ارتبط بها إنسان وظَهَرَتْ على شخْصٍ مَّا وتخلَّق بها فهي مَنَعَةٌ وحفظ[٢].

وحيثما وقعت اللفظة في القرآن فلا تجدها تخرج عن هذه المعاني، لكنها قد تقوى فيها بعض هذه المعاني دون بعض بحسب موضع وموضع، وسيأتي بيان ذلك في أَماكنه إن شاء الله.

فقوله في هذه الآية: ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ ـ قال ابن عباس، وأَبو قُلابة، وابن زيد، ومكحول، والزهري، وأَبو سعيد الخدري: هن ذوات الأزواج، أي: هن محرمات إلا ما ملكت اليمين بالسباء من أَرض الحرب، فإنَّ تلكَ حلالٌ لِلَّذي تقع في سهمه وإنْ كان لها زوج[٣].

وروى أَبو سعيد الخدري (أن الآية نزلتْ بسبب أَنَّ رسول الله ﷺ بعث جيشاً إلى

---

(١) هذا عجز البيت، وصدره كما في الديوان:

عمُيْــرةَ ودِّع إنْ تَجَهَّــزْتَ غــاديــاً . . . .

ورُوي عن أبي بكر: «هريرةَ ودِّع».

والبيت كالبيتين السابقين عليه يدل على معنى الإحصان يستعمل في الإسلام لأنه يحفظ المسلم.

(٢) ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، ومُحْصَنةٌ ومُحْصِنةٌ وحَصَانٌ: عفيفة ممتنعة من الفسق، قال حسَّان في عائشة رضي الله عنها:

حَصَــانٌ رزانٌ مــا تُــزَنُّ بِــريبَــةٍ وتُصْبِـحُ غَـرْثـى مـن لحـوم الغـوافـل

ومعنى تُزَنّ: تُتّهم ـ ومعنى غَرْثى: جائعة، والمراد أنها لا تغتاب غيرها.

(٣) وهذا هو قول الشافعي إذ يرى أن السباء يقطع العصمة، وقاله ابن وهب وابن عبد الحكيم ورروياه عن مالك، وقال به أشهب ـ روى ذلك القرطبي ج ٥ ص ١٢١، واستدل على ذلك بالحديث الآتي الذي رواه أبو سعيد الخدري.

أَوطاس[(١)] ، فلقوا عدواً ، وأَصابوا سبياً لهنَّ أَزواجٌ من المشركين ، فَتَأَثَّمَ[(٢)] المسلمون من غِشْيَانِهِن ، فنزلت الآية مرخصة)[(٣)].

وقال عبد الله بن مسعود ، وسعيد بن المسيب ، والحسن بن أبي الحسن ، وأُبَيُّ بن كعب ، وجابر بن عبد الله ، وابن عباس أيضاً: معنى المحصنات: ذوات الأزواج ، فَهُنَّ حرامٌ إلا أن يشتري الرجلُ الأَمةَ ذات الزوج ، فإِنَّ بَيْعَها طلاقها ، وهبتَها طلاقها ، والصدقَة بها طلاقها ، وأَنْ تُعتق طلاقها ، وأَن تُورث طلاقها ، وتطليق الزوج طلاقها. قال ابن مسعود: إذا بيعت الأَمة ولها زوجٌ فالمشتري أحق بِبُضْعها. ومذهب مالك والشافعي وجمهور العلماء أَن انتقال الملك في الأَمة لا يكون طلاقاً ، ولا طلاق لها إلا الطلاق.

وقال قوم: المحصنات ـ في هذه الآية ـ: العفائف ، أي: كلُّ النساءِ حرامٌ ، وَلَبِسَهُنَّ اسم الإحصان إذ الشرائع في أنفسها تقتضي ذلك.

﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ ـ قالوا: معناه: بنكاح أَو شراءٍ ، كلُّ ذلك تحت مِلْك اليمين[(٤)]. قال بهذا القول أَبو العالية ، وعبيدة السلماني ، وطاووس ، وسعيد بن جبير ، وعطاءُ ، ورواه عبيدة عن عمر رضي الله عنه.

---

(١) أوطاس: واد بديار هوازن.

(٢) تأثَّم: تَحَرَّج ـ وقد روي الحديث بلفظ (تحرَّج) في صحيح مسلم.

(٣) «أخرج الطيالسي ، وعبد الرزاق ، والفريابي ، وابن أبي شيبة ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وأبو يَعْلَىٰ ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطحاوي ، وابن حبان ، والبيهقي في سننه عن أبي سعيد الخدري (أن رسول الله ﷺ بعث يوم حنين جيشاً إلى أوطاس ، فلقوا عدوّاً فقاتلوهم ، فظهروا عليهم ، وأصابوا لهم سبايا، فكأن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ تحرجوا من غشيانهن من أجل أَزواجهن من المشركين ، فأنزل الله في ذلك: ﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ «يقول: إلا ما أَفاءَ الله عليكم ، فاسْتَحلَلْنا بذلك فُرُوجَهن». (الدر المنثور ج ٢ ص ١٣٨) ، قال القرطبي بعد أن روى الحديث: وهذا نصٌّ صحيح صريح في أن الآية نزلت بسبب تحرُّج أصحاب النبي عليه وسلم عن وطء المَسْبِيَّات ذوات الأزواج». ج ٥ ص ١٢١. ولكن يشترط انقضاء العدة.

(٤) لعلَّ صحة العبارة: إذ كلُّ ذلك تحت مِلْك اليمين ، وعبارة «البحر المحيط»: فيدخل ذلك كله تحت ملك اليمين ، قال القرطبي: «فأَدخلوا النكاح تحت ملك اليمين.... يعني تملكون عصمتهن بالنكاح ، وتملكون الرقبة بالشراء ، فكأَنهن كلهن ملك اليمين ، وما عدا ذلك فزنىً ، وهذا قول حسن» ٥ ـ ١٢٢.

وقال ابن عباس: المُحْصَنات: العفائف من المسلمين ومن أهل الكتاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبهذا التأويل يرجع معنى الآية إلى تحريم الزنى.

وأسند الطبريُّ عن عروة أنه قال في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾: هن الحرائر، ويكون ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ معناه: بنكاح. هذا على اتصال الاستثناءِ، وإن أريد الإماء فيكون الاستثناءُ منقطعاً.

ورُوي عن أَبي سعيد الخدري أَنه قال: كان نساءٌ يأتيننا مهاجرات، ثم يهاجر أَزواجهن، فَمُنِعناهن بقوله تعالىٰ: ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ...﴾ الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ يرجع إلى ما قد ذكر من الأَقوال.

وأَسند الطبري أَنَّ رجلاً قال لسعيد بن جبير: أَما رأَيتَ ابن عباس حين سُئل عن هذه الآية ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ فلم يقل فيها شيئاً؟ فقال سعيد: كان ابن عباس لا يعلمها، وأَسند أيضاً عن مجاهد أَنه قال: لو أَعلم من يفسر لي هذه الآية لضربت إليه أَكباد الإبل. قوله: ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ إلى قوله: ﴿حَكِيمًا﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا أَدري كيف نسب هذا القول إلى ابن عباس؟ ولا كيف انتهى مجاهد إلى هذا القول؟[1].

ورُوي عن ابن شهاب أَنه سُئِل عن هذه الآية ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ فقال: يُروى أَنه حرم في هذه الآية ذوات الأَزواج والعفائف من حرائر ومملوكات. ولم يحل شيئاً من ذلك إلا بالنكاح أَو الشراء والتملك. وهذا قول حسن، عمم لفظ الإحصان، ولفظ ملك اليمين، وعلى هذا التأويل يتخرج عندي قول مالك في الموطأ، فإنه قال:

---

(١) منهج ابن عطية في هذا التفسير ألا ينقل إلا ما يرتاح إليه، وكان ينقل عن ابن جرير الطبري أَو غيره من كبار العلماءِ ثم يُعقب بالنقد إذا كان عقله لا يقبل الكلام المنقول. وقد أَخذ ابن تيمية على ابن عطية هذا الاتجاه على اعتبار أَن ما يروى عن علماء السلف يجب أَن يقبل ما دامت الرواية صحيحة، ولكن ابن عطية على حق في منهجه الذي يحكم العقل إلى جانب النقل.

هُنَّ ذوات الأزواج، وذلك راجع إلى أن الله حرَّم الزنى، ففسَّر الإحصان بالزواج، ثم عاد عليه بالعفة(١).

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ بفتح الصاد في كل القرآن، وقرأ الكسائي كذلك في هذا الموضع وحده. وقرأ سائِرَ ما في القرآن: [المُحْصِنَات] بكسر الصاد، و[محصِنات] كذلك. ورُوي عن علقمة أنه قرأ جميع ما في القرآن بكسر الصاد، فَفَتْحُ الصاد هو على معنى: أَحْصَنَهُنَّ غيرهن من زوج أو إسلام أو عفة أو حرية. وكسْرُ الصاد هو على معنى: أنهن أَحصَنَّ أنفسهن بهذه الوجوه أو ببعضها.

وقرأ يزيد بن قطيب: [والمُحْصُنَات] بضم الصاد، وهذا على إتباع الضمة الضمة(٢).

وقرأ جمهور الناس: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ وذلك نصب على المصدر المؤكد.

وقرأ أبو حيوة، ومحمد بن السَّميفَع اليماني: [كتَبَ اللهُ عليكم] على الفعل الماضي المسند إلى اسم الله تعالىٰ.

وقال عبيدة السلماني وغيره: قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إشارةٌ إلى ما ثبت في القرآن من قوله: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾(٣). وفي هذا بعد، والأظهر أن قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾

---

(١) اختار ابن عطية ما رواه ابن شهاب، وعلَّل لاختياره بأنه عمم لفظ الإحصان، ولفظ ملك اليمين، وخرَّج عليه قول مالك. أما أبو حيان في «البحر المحيط» فقال: «والذي يقتضيه لفظ الإحصان أن يعلق بالقدر المشترك بين معانيه الأربعة وإن اختلفت جهات الإحصان، ويحمل قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ على ظاهر استعماله في القرآن، وفي السنَّة، وفي عرف العلماء من أن المراد به: الإماءُ، ويعود الاستثناءُ إلى ما صحَّ أن يعود عليه من جهات الإحصان». ٣ ـ ٢١٤.

(٢) أي: إتباع ضمة الصاد لضمة الميم، ولم يعتدوا بالحاجز وهو الحاء لأنه ساكن، فهو حاجزٌ غير حصين.

(٣) من قوله تعالىٰ: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ٣]، فعبيدة السلماني يجعل ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ متعلقاً بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱنكِحُواْ...﴾، وهذا هو السبب في قول ابن عطية: «وفي هذا بعد»، والظاهر أن ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد كما قال ابن عطية، قال أبو حيان: (وما ذهب إليه الكسائي من أنه يجوز تقديم المفعول في باب الإعراب ـ الظروف والمجرورات مستدلاً بهذه الآية، إذْ تقدير ذلك عنده: عليكم كتاب الله، أي: الزموا كتاب الله ـ لا يتم دليله لاحتمال أن يكون مصدراً مؤكداً) ٣ ـ ٢١٤.

إنما هو إشارة إلى التحريم الحاجز بين الناس وبين ما كانت العرب تفعله.

واختلفت عبارة المفسرين في قوله تعالىٰ: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ ـ فقال السدي: المعنى: وأُحل لكم ما دون الخمس، أَن تبتغوا بأَموالكم على وجه النكاح، وقال نحوه عبيدة السلماني. وقال عطاءٌ وغيره: المعنى: وأُحل لكم ما وراءَ من حُرِّم من سائر القرابة فهنَّ حلالٌ لكم تزويجهن. وقال قتادة: وأُحلَّ لكم ما وراءَ ذلكم من الإِماءِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولفظ الآية يعم جميع هذه الأَقوال.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: [وَأَحَلَّ لَكُمْ] بفتح الأَلف والحاء، وهذه مناسبة لقوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾، إذ المعنى: كتب الله ذلك كتاباً، وقرأَ حمزة والكسائي: ﴿وَأُحِلَّ﴾ بضم الهمزة وكسر الحاءِ، وهذه مناسبة لقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾.

والوراءُ في هذه الآية: ما يعتبر أَمره بعد اعتبار المحرمات. فهن وراءَ أُولئك بهذا الوجه[١]، و﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ لفظ يجمع التزوج والشراءَ، و﴿أَن﴾ في موضع نصب، على قراءَة حمزة في موضع رفع، ويحتمل النصب بإسقاط الباءِ[٢].

و﴿مُّحْصِنِينَ﴾ معناه: متعففين، أَي: تُحصنون أنفسكم بذلك ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، أَي: غير زناة، والسفاح: الزنى، وهو مأْخوذ من: سفح الماءِ، أَي: صبّه وسيلانه[٣]، ولزم هذا الاسم الزنى، ومنه قول النبي ﷺ حين سمع الدَّفَّاف[٤] في

---

(١) قال الزجاج: ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾: ما دون ذلكم، أي: ما بعد هذه الأشياء التي حرمت، وقال الفراء: ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾: أي: ما سوى ذلكم، وقال أبو حيان: وهذه التفاسير بعضها يقرب من بعض.

(٢) قال أبو حيان: «وموضع ﴿أَن تَبْتَغُوا۟﴾ نصب على أنه بدل اشتمال من ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾. ونقل عن الزمخشري أَن ﴿أَن تَبْتَغُوا۟﴾ مفعول له، ثم علق على كلام الزمخشري بما يهدم رأيه. راجع «البحر المحيط» ٣ ـ ٢١٦.

(٣) جاء في لسان العرب: «التسافح والسفاح والمسافحةُ: الزنى والفجور ـ وأصل ذلك من الصبِّ». ثم قال: «قال أبو إسحاق: وسُمِّي الزِّنى سفاحاً لأنه كان عن غير عقد، كأنه بمنزلة الماء المسفوح الذي لا يحبسه شيءٌ» مادة «سفح».

(٤) أي: الضارب بالدف. وفي الحديث: «فصل ما بين الحلال والحرام الصوت والدف» رواه الخمسة إلا أَبا داود.

عرس: (هذا النكاح لا السِّفاح ولا نكاح السِّرِّ).

واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ ـ فقال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وابن زيد ، وغيرهم: المعنى: فإذا استمتعتم بالزوجة ، ووقع الوطء ولو مرة فقد وجب إعطاءُ الأَجر ، وهو المهر كله ، ولفظة ﴿فَمَا﴾ تعطي أَنَّ بِيَسير الوطء يجب إِيتاءُ الأَجر.

ورُوي عن ابن عباس أَيضاً ، ومجاهد ، والسدي ، وغيرهم: أَن الآية في نكاح المتعة ، وقرأَ ابن عباس ، وأُبي بن كعب ، وسعيد بن جبير: [فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ ـ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى ـ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ] ، وقال ابن عباس لأَبي نضرة: «هكذا أَنزلها الله عزَّ وجلَّ»[(١)].

وروى الحكم بن عتيبة أَنَّ علياً رضي الله عنه قال: «لولا أَن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شقي».

وقد كانت المتعة في صدر الإسلام ، ثم نهى عنها النبي عليه الصلاة والسلام ، وقال ابن المسيب: نسختها آية الميراث ، إذ كانت المتعة لا ميراث فيها. وقيل: قولُ الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[(٢)]. وقالت عائشة رضي الله عنها: نسخها قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾[(٣)]. ولا زوجية مع الأَجل ورفع الطلاق والعدة والميراث. وكانت[(٤)]: أَن يتزوج الرجل المرأَة بشاهدين

---

(١) أخرج الطبراني: والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: «كانت المتعة في أول الإسلام ، وكانوا يقرؤُون هذه الآية: [فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى]. والآية.. وهذا جزء من حديث طويل رواه (الدرٌ المنثور ٢ ـ ١٤٠).

(٢) الطلاق: ١.

(٣) المؤمنون: ٥ ـ ٦.

(٤) أي: المتعة ، وكانت قد أُبيحت في صدر الإسلام ثم حرِّمت ، أَخرج عبد الزراق ، وابن أبي شيبة ، والبخاري ، ومسلم ، عن ابن مسعود قال: (كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس معنا نساؤُنا فقلنا: ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك ، ورخَّص لنا أن نتزوج المرأة بالثوب إلى أجل) ، وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، ومسلم ، عن سبرة قال: رأيت رسول الله ﷺ قائماً بين الركن والباب وهو يقول: «يا أيها الناس ، إني كنت أَذنت لكم في الاستمتاع ، ألا وإن الله حرَّمها إلى يوم القيامة ، فمن كان عنده منهن شيءٌ فليخل سبيلها ، ولا تأخذوا ممَّا آتيتموهن شيئاً». (الدر المنثور ٢ ـ ١٤٠) ، وفي ابن كثير أن راوي الحديث هو الربيع بن سبرة بن معبد الجهني (تفسير ابن كثير ٢ ـ ٢٤٥).

وإِذْن الوَلِيِّ إِلى أَجلٍ مُسَمَّى ، وعلى أَلا ميراث بينهما. ويعطيها ما اتفقا عليه ، فإذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل ، وتستبرئ رحمها لأَن الولد لاحقٌ فيه بلا شك ، فإِن لم تحمل حلَّت لغيره.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي كتاب النحاس: في هذا خطأٌ فاحش في اللفظ ، يوهم أَنَّ الولد لا يلحق في نكاح المتعة[1]. وحكى المهدوي عن ابن المسيب أَنَّ نكاح المتعة كان بلا ولي ولا شهود ، وفيما حكاه ضعف.

﴿ فَرِيضَةً ﴾ نصب على المصدر في موضع الحال[2].

واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ الآية ـ فقال القائلون بأَنَّ الآية المتقدمة أَمر بإِيتاءِ مهور النساءِ إِذا دُخل بهن: إِنَّ هذه إِشارة إِلى ما يتراضى به من حط أَو تأْخير بعد استقرار الفريضة ، فإِن ذلك الذي يكون على وجه الرضا جائز ماض. وقال القائلون بأَن الآية المتقدمة هي أَمر المتعة: إِن الإِشارة بهذه إِلى أَن ما تراضيا عليه من زيادة في مدة المتعة ، وزيادة في الأَجر جائز سائغ.

وباقي الآية بين.

قوله تعالىٰ:

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾.

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، والسدي ، وابن زيد ، ومالك بن أَنس في «المدونة»: الطَّوْلُ هنا: السعة في المال. وقال ربيعة ، وإِبراهيم النَّخَعي: الطَّوْلُ هنا: الجَلَد والصبر لمن أَحب أَمَةً وهَوِيَهَا حتى صار لذلك لا يستطيع أَن يتزوج

---

(١) قال القرطبي بعد أن نقل هذا الكلام عن ابن عطية: «هذا هو المفهوم من عبارة النحاس ، فإنه قال: وإنما المتعة أن يقول لها: أتزوجك يوماً ـ أو ما أشبه ذلك ـ على أنه لا عدة عليك ، ولا ميراث بيننا ، ولا طلاق ، ولا شاهد يشهد على ذلك ، وهذا هو الزنى بعينه ، ولم يُبَحْ قط في الإسلام ، ولذلك قال عمر: لا أوتى برجل تزوج متعة إلا غيَّبْتُهُ تحت الحجارة». (القرطبي ٥ ـ ١٣٢).

(٢) قال أبو حيان الأندلسي: «أو مصدر على غير الصدر ، أي: فآتوهن أُجورهن إيتاءً ، لأنَّ الإيتاء مفروض ، أو مصدر مؤكد ، أي: فرض ذلك فريضة». (البحر المحيط ٣ ـ ٢١٩).

غيرها ، فإن له أن يتزوج الأَمة إذا لم يملك هواها ، وإن كان يجد سعة في المال لنكاح حرة ، ثم يكون قوله تعالىٰ: ﴿لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ﴾ على هذا التأويل بياناً في صفة عدم الجَلَد ، وعلى التأْويل الآخر يكون تزوج الأَمة معلقاً بشرطين: عدم السعة في المال ، وخوف العنت ، فلا يصح إلا باجتماعهما. وهذا هو نصُّ مذهب مالك في «المدونة» من رواية ابن نافع ، وابن القاسم ، وابن وهب ، وابن زياد: إنَّ الحُرَّ لا يتزوج الأَمة على حالٍ إلا ألا يجد سعة في المال لمهر حُرَّة ، وأن يخشى العنت مع ذلك.

وقال مالك في كتاب محمد: إذاوجد المهر ولكنه لا يقدر على النفقة فإنه لا يجوز له أَن يتزوج أَمةً.

وقال أَصْبَغ[1]: ذلك جائز ، إِذْ نفقة الأَمَةِ على أَهْلها إذا لم يَضُمَّهَا إليه.

وقال مُطَرِّف[2] ، وابن الماجِشُون: لا يَحلُّ للحُرِّ أَن ينكح أمة. ولا يُقَرَّ إنْ وقع ، إلا أَنْ يجتمع الشرطان كما قال الله تعالىٰ ، وقاله أَصبَغ ، قال: وقد كان ابن القاسم يذكر أَنه سمع مالكاً يقول: نكاحُ الأَمة حلال في كتاب الله عز وجل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهو في «المدونة».

وقال سحنون في غيرها: ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾[3] ، وقاله ابن مزين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس في الآية ما يلزم منه تحليل الأَمَةِ لحُرٍّ دون الشرطين. وقال مالك: في «المدونة»: ليست الحرة بطَوْل تمنع من نكاح الأَمة إذا لم يجد سعةً لأُخرى وخاف

(١) هو أَصْبَغُ بن الفرج بن سعيد بن نافع ، فقيه من كبار المالكية بمصر ، كان كاتب ابن وهب ، وله تصانيف ، قال ابن الماجشون: «ما أخرجت مصر مثل أَصْبَغ». وفيات الأعيان ـ الأعلام.

(٢) هناك مُطرِّف بن عيسى بن لبيب الغساني ـ أبو القاسم ـ من قضاة الأندلس وأُدبائها سكن غرناطة ودفن بها ، ومن كتبه «فقهاء إلبيرة» توفي سنة ٣٥٦ هـ ، وهناك مطرف بن عيسى الغساني ـ أبو عبد الرحمن ـ مؤرخ ، من أهل غرناطة ، ألف للخليفة الحكم كتاب «المعارف» في أخبار كورة إلبيرة وأهلها. توفي بإلبيرة سنة ٣٧٧ ، ونميل إلى أن المراد هنا هو الأول.

(٣) النور: ٣٢.

العنت. وقال في كتاب محمد ما يقتضي أن الحرة بمثابة الطَّوْل. قال الشيخ أبو الحسن اللَّخْمي: وهو ظاهر القرآن، ورُوي نحو هذا عن ابن حبيب، وقاله أبو حنيفة، فمقتضى هذا أن من عنده حُرَّة فلا يجوز له نكاح أَمَة وإنْ عدم السَّعَة وخاف العنت، لأنه طالب شهوة وعنده امرأة، وقال به الطبري، واحتجَّ له. و﴿طَوْلًا﴾ يصحُّ في إعرابه أن يكون مفعولاً بالاستطاعة، و﴿أَن يَنكِحَ﴾ في موضع نصب بدل مِنْ قوله: ﴿طَوْلًا﴾، أو في موضع نصب بتقدير: لأن ينكح[١]. وفي هذا نظر.

ويصح أن يكون ﴿طَوْلًا﴾ نصباً على المصدر، والعامل فيه الاستطاعة، لأنها بمعنى يتقارب، و﴿أَن يَنكِحَ﴾ ـ على هذا ـ مفعول بالاستطاعة أو بالمصدر[٢]، تقول: طال الرجلُ طَوْلا ـ بفتح الطاءِ ـ إذا تفضل ووجد واتسع عرفه[٣]. وطُولا ـ بضمِّ الطاءِ في ضد القِصَر.

﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ ـ في هذا الموضع ـ: الحرائر، يدل على ذلك التقسيم بينهن وبين الإماءِ، وقالت فرقة: معناه: العفائف، وهو ضعيف لأن الإماءَ يقَعْن تحته، وقد تقدم الذكر للقراءَة في المحصنات، و﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ صفة، فأما من يقول في الرجل يجد طَوْلاً لحرة كتابية لا لمؤمنة: إنه يمتنع عن نكاح الإماءِ ـ فهي صفة غير مشترطة، وإنما جاءَت لأنها مقصد النكاح، إذ الأَمَةُ مؤمنة، وهذا هو المذهب المالكي، نص عليه ابن الماجِشُون في الواضحة، ومن قال في الرجل لا يجد طَوْلا إلا الكتابية: إنه يتزوج الأَمة إن شاءَ ـ فصفة المؤمنات عنده في الآية مشترطة في إباحة نكاح الإماءِ، والمسألة مختلف فيها حسبما ذكرناه.

﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ يصح أن تكون مصدرية، تقديره: فمن ملك أيمانكم، ويصح أن يراد بها النوع المملوك، فهي واقعة عليه[٤].

---

(١) ويصح أن يكون ﴿طَوْلًا﴾ مفعولاً من أجله على حذف مضاف، أي: ومن لم يستطع منكم لعدم طول نكاح المحصنات. (البحر المحيط ٣ ـ ٢٢٠).

(٢) كأنه بذلك يعني أن الطول هو الاستطاعة، فيكون التقدير: «ومن لم يستطع منكم استطاعة أن ينكح».

(٣) وتكون ﴿مَّا﴾ على هذا موصولة اسمية، و﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ﴾ في موضع الحال من الضمير المحذوف في ﴿مَّا مَلَكَتْ﴾ العائد على [ما]، ومفعول الفعل المحذوف الذي هو [فلينكح]، والتقدير: فلينكح أَمة مما ملكت أيمانكم، و[من] للتبعيض ـ قاله في (البحر المحيط ٣ ـ ٢٢١].

(٤) العرب تقول للمملوك: فتى ـ ولِلْمَمْلوكة: فتاة. وفي الحديث الصحيح: «لا يقولن أحدكم عبدي =

والفتاة وإن كانت واقعة في اللغة على الشابة أَية كانت فعرفها في الإماءِ ، وفتىً كذلك ، وهذه المخاطبات بالكاف والميم عامة ، أي: منكم الناكحون ، ومنكم المالكون ، لأَن الرجل ينكح فتاة نفسه ، وهذا التوسع في اللغة كثير.

والمؤمنات ـ في هذا الموضع ـ صفة مشترطة عند مالك وجمهور أصحابه ، لأَنهم يقولون: لا يجوز زواج أَمة غير مسلمة بوجه. وقالت طائفة من أَهل العلم منهم أصحاب الرأي: نكاح الأَمة الكتابية جائز ، وقوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ على جهة الوجه الفاضل ، واحتجوا بالقياس على الحرائر ، وذلك أَنه لما لم يمنع قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ في الحرائر من نكاح الكتابيات الحرائر ، فكذلك لا يمنع قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ في الإماءِ من نكاح الكتابيات الإماءِ. وقال أَشهب في «المدونة»: جائز للعبد المسلم أَن يتزوج أَمةً كتابية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالمنع عنده أَن يفضل الزوج في الحرية والدين معاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُمْ﴾ معناه: إنَّ اللهَ عَليمٌ ببواطن الأُمور ، ولكم ظواهرها ، فإذا كانت الفتاة ظاهرها الإيمان فنكاحها صحيح ، وَعِلْم باطنها إلى الله ، وإنما هذا لئلا يستريب مُتَحَيِّرٌ بإيمان بعض الإماءِ ، كالقريبة عهد بالسباءِ ، أَو كالخرساءِ ، وما أَشبه. وفي اللفظ أَيضاً تنبيه على أنه ربما كان إيمان أَمة أَفضل من إيمان بعض الحرائر ، أَي: فلا تعجبوا بمعنى الحرية.

وقوله: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ ـ قالت طائفة: هو رفع على الابتداء والخبر ، والمقصد بهذا الكلام ، أَي[1] أَنكم أَيها الناس سواءٌ بنو الحرائر وبنو الإماءِ ، أَكْرَمكم عند الله أَتقاكم ، فهذه توطئة لنفوس العرب التي كانت تستهجن ولد الأَمة ، فلما جاءَ الشرع أُعلموا مع ذلك أَن ذلك التهجين لا معنى له[2]. وقال الطبري: هو رفع بفعل

= وأَمتي ، ولكن ليقل: فتاي وفتاتي) ، ولفظ الفتى والفتاة يطلق أيضاً على الأحرار في ابتداء الشباب ، وأَما في المماليك فيطلق في الشباب وفي الكِبَر.

(١) ربما كانت (أَي) هذه زيادة النساخ.

(٢) كانت العرب تستهجن ولد الأمة ، وتُسميه الهجين ، قال المبرد: الهجين: ولد العربي من غير العربية.

تقديره: فلينكح مما ملكت أيمانكم بعضكم من بعض. فعلى هذا في الكلام تقديم وتأخير، وهذا قول ضعيف.

قوله تعالىٰ:

﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله: ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ معناه: بولاية أربابهن المالكين، وقوله: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يعني: مهورهن، قاله ابن زيد وغيره: و﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ معناه: بالشرع والسُّنَّة، وهذا يقتضي أنهن أحق بمهورهن من السادة. وهو مذهب مالك، قال في كتاب الرهون: ليس للسيِّد أن يأخذ مهر أمته ويدعها بلا جهاز ـ قال سحنون في كتاب[1] «المدونة»: كيف هذا وهو لا يبوِّئُه معها بيتاً؟ وقال بعض الفقهاءِ: معنى ما في «المدونة»: أنه بشرط التَّبْوئة، فعلى هذا لا يكون قول سحنون خلافاً[2].

و﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ وما بعده: حالٌ، فالظاهر أنه بمعنى عفيفات، إذ غير ذلك من وجوه الإِحصان بعيد إِلا «مسلمات» فإِنه يقرب، والعامل في الحال ﴿فَانكِحُوهُنَّ﴾، ويحتمل أن يكون ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ كلاماً تاماً ثم استأنف: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ فيكون العامل: ﴿وَءَاتُوهُنَّ﴾، ويكون معنى الإِحصان: التزويج.

والمسافحات من الزواني: المبتذلات اللواتي هُنَّ سوق للزنى. ومتخذات الأخدان: هُنَّ المتسترات اللواتي يَصْحَبْنَ واحداً واحداً ويزنين خفية. وهذان كانا نوعين في زنى الجاهلية، قاله ابن عباس، وعامر الشعبي، والضحاك،

---

(١) في بعض النسخ: في غير المدونة.

(٢) لا يصح نكاح الأمة إلا بإذن سيدها كما نصت هذه الآية، وأما العبد فالعلماء أيضاً مجمعون على أنه لا ينْكِحُ إلا بإذن سيده، والفرق بينه وبين الأمة يأتي في أنه إذا تزوج بغير إذن سيده وأجازه السيد بعد ذلك جاز، وهذا هو مذهب مالك وأصحاب الرأي، وقالت طائفة منهم الشافعي والأوزاعي: لا تجوز إجازة المولى إن لم يحضر، لأن العقد الفاسد لا تصح إجازته، وقد كان ابن عمر يعد العبد بذلك زانياً ويحده. راجع القرطبي ٥ ـ ١٤١.

وغيرهم ، وأَيضاً فهو تقسيم عقلي لا يعطي الوجود ، إلا أَن تكون الزانية: إِمَّا لا تردُّ يد لامس ، وإما أَن تختص من تقتصر عليه[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ الآية ـ قرأ نافع ، وابن كثير ، وأَبو عمرو ، وابن عامر: ﴿أُحْصِنَّ﴾ على بناءِ الفعل للمفعول ، وقرأ حمزة ، والكسائي على بناءِ الفعل للفاعل ، واختلف على عاصم ، فوجه الكلام أَن تكون القراءَة الأُولى بالتزوُّج ، والثانية بالإِسلام أَو غيره مما هو من فِعْلهن ، ولكن يدخل كل معنى منهما على الآخر. واختلف المتأَولون فيما هو الإحصان هنا ـ فقال الجمهور: هو الإِسلام ، فإذا زنت الأَمة المسلمة حُدَّت نصف حدِّ الحرة ، وإِسلامُها هو إحصانها الذي في الآية ، وقالت فرقة: إِحصانها الذي في الآية هوالتزويج لِحُرٍّ، فإذا زنت الأَمة المسلمة التي لم تتزوج فلا حَدَّ عليها ، قاله سعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة. وقالت فرقة: الإِحصان في الآية: التزوج ، إلا أَن الحدَّ واجبٌ على الأَمة المسلمة بالسنَّةِ ، وهي الحديث الصحيح في مسلم والبخاري (أَنه قيل: يا رسول الله ، الأَمة إذا زنت ولم تحصن؟ فأَوجب عليها الحد)[2].

قال الزهري: فالمتزوجة محدودة بالقرآن ، والمسلمة غير المتزوجة محدودة بالحديث.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الحديث والسؤال من الصحابة يقتضي أَنهم فهموا من القرآن أَن معنى ﴿أُحْصِنَّ﴾: تزوجن ، وجواب النبي ﷺ على ذلك يقتضي تقرير المعنى ، ومن أَراد أَن

---

(١) قال ابن عباس: كان قوم يحرمون ما ظهر من الزنى ، ويستحلون ما خفي منه ، والخدن هو الصديق للمرأة يزني بها سراً ، فنهى الله تعالىٰ عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن. (البحر المحيط ٣ ـ٢٢٢ ، ٢٢٣) ، وقيل: المسافِحَةُ: المجاهرة بالزنى ، أي التي تكري نفسها لذلك ، وذات الخدن: هي التي تزني سراً. والآراء كلها متقاربة.

(٢) روى البخاري عن أبي هريرة ، وزيد بن خالد: «أَن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن. قال: إذا زنت فاجلدوها ، ثم إن زنت فاجلدوها ، ثم إن زنت فاجلدوها ، ثم بيعوها ولو بضفير». والضَّفير: هو الحبل المضفور. فعيل بمعنى مفعول. وقول ابن عطية: «واجب على الأمة المسلمة بالسنة» معناه أن الوجوب ثابت بالسنة ـ والحديث المذكور أخرجه عبد الزراق ، والبخاري ، ومسلم عن زيد بن خالد الجهني. (الدر المنثور ٢ ـ ١٤٢).

يضعف قول من قال: «إنه الإسلام» ـ بأن الصفة لهن بالإيمان قد تقدمت وتقررت ـ فذلك غير لازم[(١)] لأنه جائز أن يقطع في الكلام ويزيد، فإذا كن على هذه الحالة المتقدمة من الإيمان فإن أتين بفاحشة فعليهن، وذلك سائغ صحيح.

والفاحشة هنا: الزنى بقرينة إلزام الحدِّ، و﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ ـ في هذه الآية ـ: الحرائر، إذ هي الصفة المشروطة في الحد الكامل، والرجم لا يتنصف، فلم يرد في الآية بإجماع، ثم اختلف ـ فقال ابن عباس والجمهور: على الأمة نصف المائة لا غير ذلك[(٢)]، وقال الطبري وجماعة من التابعين: على الأَمَة نصف المائة ونصف المدة، وهي نفي ستة أشهر، والإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى نكاح الأمة.

والعنت في اللغة: المشقة. وقالت طائفة: المقصد به هاهنا الزنى، قاله مجاهد، وقال ابن عباس: ما ازْلَحَفَّ[(٣)] ناكح الأَمة عن الزنى إلا قريباً، قال: والعنت: الزنى، وقاله عطية الحوفي، والضحاك. وقالت طائفة: الإثم[(٤)]، وقالت طائفة: الحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والآية تحتمل ذلك كله، وكل ما يعنت عاجلاً وآجلاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني عن نكاح الإماء. قاله سعيد بن جبير، ومجاهد، والسدي، وابن عباس رضي الله عنهما، وهذا ندب إلى الترك، وعِلَّتُه ما يُؤَدي إليه نكاح الإماءِ من استرقاق الولد ومهنتهن[(٥)]. وهذه الجملة ابتداءٌ وخبر تقديره: وصَبْرُكم خيرٌ لكم. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾[(٦)] أي: لمن فعل وتزوج.

---

(١) قوله: «فذلك غير لازم» هوجواب قوله قبل: «ومن أراد».

(٢) اختلف العلماء في سبب نقصان الحد بالنسبة للأمة ـ قيل: لأنهن أضعف من الحرائر، وقيل: إنهن لا يصلن إلى مرادهن كما تصل الحرائر، وقيل: لأن العقوبة تجب على قدر النعمة، ألا ترى أن الله تعالىٰ قال لأزواج النبي ﷺ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾.

(٣) يريد: ما ابتعد عن الزنى إلا قليلاً. يقال: ازْلَحَفَّ عن الشيء: تَنَحَّى.

(٤) أخرج الطيالسي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن العنت فقال: الإثم، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر:

رأيتُك تَبْتَغي عَنَتي وتسْعى ... على الساعي عَلَيَّ بغير دخل

(٥) في سنن ابن ماجه من حديث أنس قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر» ومَهَنَهُ وامْتَهَنَهُ بمعنى: استخدمه واستذلّه.

(٦) قال أبو (ح) في (البحر المحيط ٣ ـ ٢٢٤): «لما ندب قوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟﴾ إلى الصبر عن نكاح الإماء=

قوله تعالىٰ:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

اختلف النحاة في اللام من قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ ـ فمذهب سيبويه ـ رحمه الله: أن التقدير: لأَن يبين، والمفعول مضمر، تقديره: يريد الله هذا، فإن كانت لام الجر، أَو لام كي فلا بد فيهما من تقدير (أَن) لأَنهما لا يدخلان إلا على الأَسماءِ. وقال الفراءُ والكوفيون: اللام نفسها بمنزلة (أَن) ـ وهو ضعيف. ونظير هذه اللام قول الشاعر:

أُريـدُ لأَنْسَـى ذكـرهـا.... . . . . (١)

وقال بعض النحاة: إرادتي لأَنسى.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بمعنى: يرشدكم، لا يتوجه غير ذلك بقرينة السُّنن. والسُّننُ: الطرق ووجوه الأُمور وأَنحاؤُها.

= صار كأنه في حيز الكراهية، فجاء بصفة الغفران المؤذنة بأن ذلك مما سمح فيه تعالىٰ، وبصفة الرحمة حيث رخص في نكاحهن وأَباحه».

(١) الشاعر هو كثير عزة، وهذا جزء من أول البيت، وتمامه:

أُريـدُ لأنْسَـى ذِكْـرَهَـا فَكَـأنَّمـا ... تَمَثَّـلُ لـي لَيْلَـى بِكُـلِّ سَبيـلِ

والفراء يرى أَن العرب تعاقب بين لام (كي) و(أَن)، فتأتي باللام التي على معنى (كي) في موضع (أَن) في: أَردت وأَمرت، فيقولون: أَردت أن تفعل، وأَردتُ لتفعل، لأنهما يطلبان المستقبل، وفي التنزيل: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾. وعلى ذلك يكون معنى بيت كثير عنده: أُريد أَن أَنسى ـ قال النحاس: وخطَّأ الزجاج هذا القول، وقال: لو كانت اللام بمعنى (أَنْ) لدخلت عليها لام أُخرى، كما تقول: جئْتُ كي تكرمني، ثم تقول: جئْتُ لكي تكرمني، وأنشدنا:

أَردْتُ لِكَيْمَـا يَعْلَـم النَّـاسُ أَنَّهَـا ... سـراويـل قيـس والـوفـود شهـودُ

وابن عطية على رأي الزجاج، وهو مذهب سيبويه، ولهذا علَّق على رأي الفراء والكوفيين بقوله: «وهو ضعيف». هذا والبيت الذي أنشده الزجاج لقيس بن عبادة، وكان قد طاول رومياً بين يدي معاوية فتجرد قيس من سراويله وأَلقاها إلى الرومي ففضلت عنه، وقال هذا البيت ومعه بيت آخر يعتذر من إلقاء سراويله في المشهد المجموع. راجع اللسان ـ مادة (سرل).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويظهر من قوة هذا الكلام أن شرعتنا في المشروعات كشرعة مَن قبلنا، وليس ذلك كذلك، وإنما هذه الهداية في أحد أمرين: إمَّا في أنَّا خوطبنا في كل قصة نهياً وأمراً، كما خوطبوا هم أيضاً في قصصهم، وشرع لنا كما شرع لهم، فهدينا سُننهم في ذلك وإن اختلفت أحكامنا وأحكامهم، والأمر الثاني أنْ هدينا سُنَنهم في أنْ أطعنا وسمعنا كما سمعوا وأطاعوا، فوقع التماثل من هذه الجهة(١).

والذين من قبلنا: هم المؤمنون في كل شريعة. وتوبة الله على عبده هي رجوعه به عن المعاصي إلى الطاعات، وتوفيقه له. وحَسُنَ ﴿عَلِيمٌ﴾ هنا بحسب ما تقدم من سُنن الشرائع وموضوع المصالح، و﴿حَكِيمٌ﴾ أي: مصيب بالأشياء مواضعها بحسب الحكمة والإتقان.

وتكرار إرادة الله التوبة على عباده تقوية للإخبار الأول، وليس المقصد في هذه الآية إلا الإخبار عن إرادة الذين يتبعون الشهوات، فقدمت إرادة الله توطئة مظهرة لفساد إرادة مُتَّبعي الشهوات، واختلف المتأولون في متبعي الشهوات ـ فقال مجاهد: هم الزناة. وقال السدي: هم اليهود والنصارى، وقالت فرقة: هم اليهود خاصة، لأنهم أرادوا أن يتبعهم المسلمون في نكاح الأخوات من الأب، وقال ابن زيد: ذلك على العموم في هؤلاء، وفي كل متبع شهوة، ورجحه الطبري.

وقرأ الجمهور: ﴿مَيْلًا﴾ بسكون الياء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [مَيَلاً] بفتح الياءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ ـ المقصد الظاهر بهذه الآية أنَّها في

---

(١) اختلف العلماء في قوله تعالىٰ: ﴿سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ـ هل ذلك على ظاهره من الهداية لسننهم أو على التشبيه، أي: سُنناً مثل سُنَن الذين من قبلنا؟ ـ فمن قال إنه على ظاهره أراد أن السُّنَن هي ما حُرِّم علينا وعليهم بالنسب والرضاع والمصاهرة، وقيل: المراد بها ما ذكره سبحانه في قوله: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾. وقيل مناهج من كان قبلكم من الأنبياء والصالحين. وعلى هذه الأقوال فالمراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: الأنبياء وأهل الخير ـ ومن قال إن ذلك على التشبيه أراد أن المعنى أن طرق الأمم السابقة في هدايتها كان بإرسال وإنزال الكتب، وكذلك جعل طريقنا إلى شرائع الدين بالبيان والتفصيل ـ وقيل: الهداية في أحد أمرين. . . وهو الذي وضحه ابن عطية.

تخفيف الله ترك نكاح الإماء بإباحة ذلك، وأن إخباره عن ضعف الإنسان إنما هو في باب النساء، أي: لما علمنا ضَعْفَكم عن الصبر عن النساءِ خففنا عنكم بإباحة الإماءِ، وكذلك قال مجاهد، وابن زيد، وطاووس. وقال طاووس: ليس يكون الإنسان في شيءٍ أضعف منه في أمر النساء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ثم بعد هذا المقصد تخرج الآية في مخرج التفضل، لأنها تتناول كل ما خفف الله تعالىٰ عن عباده، وجعله الدين يسراً، ويقع الإخبار عن ضعف الإنسان عاماً حسبما هو في نفسه ضعيف يستميله هواه في الأغلب. و﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ رفع على ما لم يُسَمَّ فاعله، و﴿ضَعِيفًا﴾ حال.

وقرأ ابن عباس، ومجاهد: [وخَلَقَ الإنسانَ] على بناءِ الفعل للفاعل، و﴿ضَعِيفًا﴾ حال أيضاً على هذه القراءَة، ويصحُّ أن يكون [وخَلَقَ] بمعنى جَعَلَ فيكسبها ذلك قوة التعدي إلى مفعولين، فيكون قوله: ﴿ضَعِيفًا﴾ مفعولاً ثانياً.

قوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

هذا استثناء ليس من الأول، والمعنى: لكن إن كانت تجارة فكلوها[1].

وقرأ المدنيون، وابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو: [تجارةٌ] بالرفع على تمام (كان)، وأنها بمعنى: وقَع. وقرأت فرقة هي الكوفيون: حمزة، وعاصم،

---

(١) إنما كان الاستثناء منقطعاً لوجهين: أولهما أن التجارة لم تندرج في الأموال المأكولة بالباطل فتستثنى منها سواء فسرنا الباطل بأنه أخذ المال بغير عوض أو بغير طريق شرعي، وثانيهما أن الاستثناء إنما وقع على الكون، والكون معنى من المعاني، وليس مالاً من الأموال. وهذا الاستثناء لا يدل على الحصر في أنه لا يجوز أكل المال إلا بالتجارة فقط، بل هو ذكر نوع غالب من طرق اكتساب المال وهو التجارة. (البحر المحيط ٣ ـ ٢٣١).
ونظير هذه الآية في الاستثناء المنقطع قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، وقوله سبحانه: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾، ذكر ذلك ابن كثير ٢/ ٢٥٣.

والكسائي: [تجارةً] بالنصب على نقصان (كان). وهو اختيار أَبي عبيد.

وهما قولان قويان، إِلا أَن تمام (كان) يترجح عند بعض، لأَنها صلة لِـ ﴿أَن﴾ فهي محطوطة عن درجتها إِذا كانت سليمة من صلة وغيرها، وهذا ترجيحٌ ليس بالقوي، ولكنه حسن، و﴿أَن﴾ في موضع نصب. ومن نصب ﴿تِجَـٰرَةً﴾ جعل اسم (كان) مضمراً تقديره: الأموال أَموال تجارة، فحذف المضاف وأقيم المضاف إِليه مقامه، أَو يكون التقدير: إِلا أَن تكون التجارة تجارةً، ومثل ذلك قول الشاعر:

. . . . إِذا كانَ يَوْماً ذا كواكبَ أَشْنَعَا[1]

أَي: إِذا كان اليومُ يوماً، والاستثناءُ منقطع في كل تقدير، وفي قراءَة الرفع. فأَكل الأَموال بالتجارة جائز بإِجماع الأُمَّة، والجمهور على جواز الغبن في التجارة، مثال ذلك: أَن يبيع الرجل ياقوتة بدرهم وهي تساوي مائة، فذلك جائز، ويعضده حديث النبي ﷺ: «لا يَبيعُ حاضرٌ لبادٍ»[2]، لأَنه إِنما أَراد بذلك أَن يبيع البادي باجتهاده، ولا يمنع الحاضر الحاضر من رزق الله في غبنه. وقالت فرقة: الغبْن إِذا تجاوز الثلث مردود، وإِنما أُبيح منه المتقارب المتعارف في التجارات، وأَما المتفاحش الفادح فلا، وقاله ابن وهب من أصحاب مالك رحمه الله.

و﴿عَن تَرَاضٍ﴾ معناه: عن رضا، إِلا أَنها جاءَت من المفاعلة، إِذ التجارة من اثنين، واختلف أَهل العلم في التراضي ـ فقالت طائفة: تمامه وجزمه بافتراق الأَبدان بعد عقدة البيع، أَو بأَن يقول أَحدهما لصاحبه: اختر، فيقول: قد اخترت، وذلك بعد العقدة أَيضاً، فينجزم حينئذ، هذا هو قول الشافعي وجماعة من الصحابة،

---

(١) هذا عجز البيت، وهو بتمامه:

فِدىً لِبَني ذُهْلِ بنِ شَيْبَانَ نَاقَتي إذا كَانَ يوماً ذا كواكبَ أشْنَعَا

وقد أنشده سيبويه:

. . . . إذا كانَ يوماً ذا كواكبَ أشْهَبُ

على أن (كان) تامة.

(٢) الحاضر: هو المقيم في المدينة أو القرية، والبادي: هو المقيم بالبادية ـ والمنهي عنه في هذا الحديث أن يأتي البدوي المدينة ومعه قوت يبغي بيعه بسرعة ولو رخيصاً، فيقول له الحضري: اتركه عندي لأغالي في بيعه، وسُئِل ابن عباس عن معنى الحديث فقال: «لا يكون له سمساراً». ـ (عن ابن الأثير).

وحجته حديث النبي ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا إلا بيع الخيار»[(١)] ، وهو حديث ابن عمر ، وأَبي برزة ، ورأيهما ـ وهما الراويان ـ أَنه افتراق الأَبدان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والتفرق لا يكون حقيقة إلا بالأَبدان ، لأَنه من صفات الجواهر.

وقال مالك ، وأَبو حنيفة رحمهما الله: تمام التراضي أَن يعقد البيع بالأَلسنة فتنجزم العقدة بذلك ويرتفع الخيار ، وقالا في الحديث المتقدم: إنه التفرق بالقول ، واحتج بعضهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾[(٢)] ، فهذه فرقة بالقول لأنها بالطلاق.

قال من احتج للشافعي: بل هي فرقة بالأَبدان ، بدليل تثنية الضمير. والطلاق لا حظَّ للمرأَة فيه ، وإنما حظُّها في فرقة البدن التي هي ثمرة الطلاق ، قال الشافعي: ولو كان معنى قوله: ﴿يَتَفَرَّقَا﴾ بالقول الذي هوالعقد لبطلت الفائدة في قوله: «البيعان بالخيار» ، لأَنه لا يُشك في أَن كل ذي سلعة مخير ما لم يعقد ، فجاءَ الإخبار لا طائل فيه.

قال من احتج لمالك: إنما القصد في الحديث الإخبار عن وجوب ثبوت العقد ، فجاءَ قوله: «البيِّعان بِالْخيار» توطئة لذلك ، وإن كانت التوطئة معلومة فإنها تُهَيِّئُ النفس لاستشعار ثبوت العقد ولزومها.

واستدل الشافعي بقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يَسُم الرجل على سوم أَخيه ، ولا يبع الرجل على بيع أَخيه»[(٣)] فجعلها مرتبتين ، لأن حالة البيعين بعد العقد قبل التفرق تقتضي أَن يُفسِد مُفْسد بزيادة في السلعة فيختار ربُّها حلَّ الصفقة الأُولى ، فنهى

---

(١) رواه سمرة بن جندب ، وأبو برزة ، وابن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأبو هريرة ، وحكيم بن حزام ، وغيرهم ، وهو ثابت في الصحيحين ، وفي لفظ البخاري: «إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا». وفي رواية: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، أو يقول أحدهما لصاحبه: اختر». وقوله: «أو يقول أحدهما لصاحبه: اختر» هو معنى الرواية الأخرى: «إلا بيع الخيار».

(٢) النساء: ١٣٠.

(٣) عن أبي هريرة «أن النبي ﷺ قال: لا يخطب الرجل على خطبة أخيه ، ولا يسوم على سومه». قال (في نيل الأوطار): متفق عليه.

النبي ﷺ عن ذلك الإفساد، ألا ترى أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا يخطب رجل على خطبة أخيه»[(١)]، فهي في درجة: (لا يسم)، ولم يقل: «لا ينكح على نكاح أخيه». لأنه لا درجة بعد عقد النكاح تقتضي تخييراً بإجماع من الأمة.

قال من يحتج لمالك رحمه الله: قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يسم» و«لا يبع» هي درجة واحدة كلها قبل العقد، وقال: «لا يبع» تجوزاً في: «لا يسم» ـ إذ مآله إلى البيع، فهي جميعاً بمنزلة قوله: «لا يخطب» ـ والعقد جازم فيهما جميعاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوله في الحديث: «إلا بَيْعَ الخيار» معناه عند المالكيين: المتساومان بالخيار ما لم يعقدا، فإذا عقدا بطل الخيار، إلا في بيع الخيار الذي عقد مِنْ أوله على خيار مدة مَّا، فإنه لا يبطل فيه.

ومعناه عند الشافعيين: المتبايعان ـ بعد عقدهما ـ مخيران ما داما في مجلسهما، إلا بيعاً يقول فيه أحدهما لصاحبه: اختر، فيختار، فإن الخيار ينقطع بينهما وإن لم يتفرقا، فإن فرض بيع خيارٍ فالمعنى: إلا بيع الخيار فإنه يبقى الخيار بعد التفرق بالأبدان.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ ـ قرأ الحسن: [ولا تُقَتِّلوا] على التكثير، فأجمع المتأولون أن المقصد بهذه الآية النهي عن أن يقتل بعض الناس بعضها، ثم لفظها يتناول أن يقتل الرجل نفسه بقصد منه للقتل، أو بأن يحملها على غرر ربما مات منه، فهذا كله يتناول النهي، وقد احتج عمرو بن العاص بهذه الآية حين امتنع من الاغتسال بالماءِ البارد خوفاً على نفسه منه، فقرر رسول الله ﷺ احتجاجه[(٢)].

---

(١) رواه الدارمي في سننه عن ابن عمر بلفظ: «لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه، ولا يبيع على بيع أخيه حتى يأذن له». ورواه أحمد عن ابن عمر أيضاً. وأخرجه مسلم أيضاً وأخرجه كذلك البخاري. (نيل الأوطار).

(٢) أخرج أحمد، وأبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عمرو بن العاص قال: «بعثني رسول الله ﷺ عام ذات السلاسل، احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فَتَيَمَّمْتُ به، ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، فلما قدمتُ على رسول الله ﷺ ذكرتُ ذلك له، فقال: يا عمرو، صلَّيت بأصحابك وأنت جُنب؟ قلت: نعم يا رسول الله، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد فأشفقت ـ إنْ اغتسلت ـ أن أهلك، وذكرت قول الله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ فتَيَمَّمْتُ ثم=

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾ ، اختلف المتأولون في المشار إليه بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ فقال عطاء: ﴿ذَٰلِكَ﴾ عائد على القتل ، لأنه أقرب مذكور. وقالت فرقة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ عائد على أكل المال بالباطل وقتل النفس ، لأن النهي عنهما جاءَ مُتَّسقاً مسروداً ، ثم ورد الوعيد حسب النهي. وقالت فرقة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ عائد على كل ما نهي عنه من القضايا من أول السورة إلى قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ . وقال الطبري: ﴿ذَٰلِكَ﴾ عائد على ما نهي عنه من آخر وعيد ، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ ، لأن كل ما نُهي عنه من أول السورة قُرن به وعيد إلا من قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ فإنه والنواهي بعده لا وعيد معها إلا قوله: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾ .

والعدوان: تجاوز الحدِّ. و﴿ نُصْلِيهِ﴾ معناه: نُمِسُّهُ حرَّها كما تعرض الشاة المَصْلِيَّة ، أي: نحرقه بها[١].

وقرأ الأعمش والنخعي: [نَصْلِيه] بفتح النون ، وقراءَة الجمهور بضم النون على نقل صلي بالهمز ، وقراءة هذين على لغة من يقول: صليته ناراً بمعنى: أَصليته ، وحكى الزجاج أنها قد قرئت: [نُصَلِّيه] بفتح الصاد وشد اللام المكسورة ، ويَسيرٌ ذلك على الله عز وجل ، لأن حجته بالغة وحُكمه لا معقِّب له[٢].

قوله تعالىٰ:

﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ .

= صلَّيت ، فضحك رسول الله ﷺ ، ولم يقل شيئاً». (الدر المنثور ٢ ـ ١٤٤ ، ١٤٥).

(١) صَلَيْتُ اللحم بالتخفيف على وجه الصلاح معناه: شويته ، فأَما أَصْلَيْته وصَلَّيْتُه فعلى وجه الفساد والإحراق ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ ، وقوله: ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ ، وفي الحديث «أن النبي ﷺ أُتي بشاة مَصْلِيَّة». قال الكسائي: المَصْلِيَّة: المشوية ، فأَما إذا أحرقته وأبقيته في النار قلت: صَلَّيته بالتشديد ، وأَصليته. اهـ. لسان العرب (صلا).

(٢) قال القرطبي: «قيد الوعد بذكر العدوان والظلم ليخرج منه فعل السهو والغلط ، وذكر العدوان والظلم مع تقارب معانيهما لاختلاف ألفاظهما ، وَحَسُن ذلك في الكلام». ثم ذكر بيت عديّ بن زيد:

فَقَدَّدَتِ الأديمَ لِراهشَيْهِ وأَلْفى قَولَها كَذِباً وَمَيْنَا

﴿تَجْتَنِبُوا﴾ معناه: تَدعون جانباً، وقرأ ابن مسعود، وابن جبير: [إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبِيرَ]، وقرأ المفضل عن عاصم [يُكفِّر]، و[وَيُدْخِلكُم] على علامة الغائب، وقرأ الباقون بالنون، والقراءتان حسنتان، وقرأ ابن عباس: [عَنْكُمْ مِن سَيِّئَاتِكُم] بزيادة (مِنْ)، وقرأ السبعة سوى نافع: ﴿مُدْخَلًا﴾ بضم الميم، وقرأ نافع: [مَدْخَلا] بالفتح، وقد رواه أيضاً أبو بكر عن عاصم هاهنا، وفي الحج، ولم يختلف في سورة بني إسرائيل في ﴿مُدْخَلَ﴾، ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾[١] أنهما بضم الميم.

قال أبو علي: [مَدْخلا] بالفتح ـ يحتمل أن يكون مصدراً، والعامل فيه فعل يدل عليه الظاهر، والتقدير: ويدخلكم فتدخلون مَدْخَلا، ويحتمل أن يكون مكاناً فيعمل فيه الفعل الظاهر، وكذلك يحتمل [مُدْخلا] بضم الميم للوجهين، وإذا لم يعمل الفعل الظاهر فمعموله الثاني محذوف، تقديره: ويُدخلكم الجنة.

واختلف أهل العلم في الكبائر ـ فقال علي بن أبي طالب: «هي سبع: الإشراك بالله، وقتل النفس، وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والفرار يوم الزحف، والتَعَرُّبُ بعد الهجرة»[٢]. وقال عبيد بن عمير: «الكبائر سبع، في كل واحدة منها آية في كتاب الله عز وجل».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذكر كقول علي، وجعل الآية في التعرب قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾[٣] الآية. ووقع في البخاري ـ في كتاب الحدود، في باب رمي المحصنات: «اتَّقوا السَّبع الموبقات، الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المُحْصَنَاتُ

---

(١) من قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

(٢) قال الأزهري: ويكون التعَرُّب أن يرجع إلى البادية بعد ما كان مقيماً بالحضر، فيلحق بالأعراب، ويكون التَّعرُّب المُقام بالبادية، ومنه قول الشاعر:

تَعَرَّب آبائي، فَهَلاَّ وَقَاهُمُ ... مِنَ الموتِ رَمْلا عالِجٍ وَزَرُودِ

يقول: أَقام آبائي بالبادية، ولم يحضروا القرى. اللسان ـ (عرب).

(٣) الآية (٢٥) من سورة محمد.

الغافلات المؤمنات»[١]. وقال عبد الله بن عمر: «هي تسع: الإشراك بالله، والقتل، والفرار، والقذف، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وإلحاد في المسجد الحرام، والذي يستسحر، وبكاء الوالدين من العقوق»[٢]. قال عبد الله بن مسعود، وإبراهيم النَّخعَي: هي في جميع ما نُهي عنه من أَول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها، وهي: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ﴾. وقال عبد الله بن مسعود: «هي أَربع أَيضاً: الإشراك بالله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأَمن من مكر الله». وروي أَيضاً عن ابن مسعود: «هي ثلاث: القنوط، واليأس، والأَمن المتقدمة». وقال ابن عباس أيضاً، وغيره: «الكبائر: كل ما ورد عليه وعيد بنار، أَو عذاب، أَو لعنة، أَو ما أَشبه ذلك»[٣]. وقالت فرقة من الأُصوليين: هي في هذا الموضع أَنواع الشِّرك التي لا تصلح معها الأَعمال. وقال رجل لابن عباس: أَخبرني عن الكبائر السبع، فقال: «هي إِلى السبعين أَقرب». وقال ابن عباس: «كل ما نهى الله عنه فهو كبير»[٤]، فهنا يدخل الزنى، وشرب الخمر، والزور، والغيبة، وغير ذلك مما قد نُص عليه في أحاديث لم يُقصد الحصر للكبائر بها، بل ذُكر بعضها مثالاً، وعلى هذا القول أَئمة الكلام: القاضي، وأَبو المعالي، وغيرهما، قالوا: وإنما قيل: صغيرة، بالإضافة إلى أَكبر منها، وهي في نفسها كبيرة من حيث المعصيُّ بالجميع واحد.

وهذه الآية يتعاضد معها حديث رسول الله ﷺ في كتاب الوضوء من مسلم «عن عثمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من ٱمرىءٍ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأت بكبيرة، وذلك الدهر كله»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة. (الدر المنثور ٢ ـ ١٤٦).

(٢) أخرجه علي بن الجعد في الجعديات عن طيسلة قال: سألت ابن عمر عن الكبائر فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: هن تسع.. إلخ. مع اختلاف في بعض الألفاظ. (الدر المنثور ٢ ـ ١٤٦).

(٣) أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: «الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، ولعنة، أو عذاب». (الدر المنثور ٢ ـ ١٤٦)، و(ابن كثير ٢ ـ ٢٦٦).

(٤) أخرجه ابن جرير عن أبي الوليد مع اختلاف يسير في اللفظ. (الدر المنثور ٢ ـ ١٤٦)، و(ابن كثير ٢ ـ ٢٦٦).

(٥) الحديث في مسلم، وصححه في الجامع الصغير.

واختلف العلماءُ في هذه المسألة ـ فجماعة من الفقهاءِ وأَهل الحديث يرون أَن الرجل إِذا اجتنب الكبائر، وامتثل الفرائض كفرت صغائره كالنظر وشبهه قطعاً بظاهر هذه الآية، وظاهر الحديث. وأَما الأُصوليون فقالوا: لا يجب على القطع تكفير الصغائر باجتناب الكبائر، وإِنما يحمل ذلك على غلبة الظن وقوة الرجاء، والمشيئة ثابتة، ودل على ذلك أَنه لو قطعنا لمجتنب الكبائر وممتثل الفرائض بتكفير صغائره قطعاً لكانت له في حكم المباح الذي يقطع بأَنه لا تباعة فيه، وذلك نقضٌ لعرى الشريعة. ومحمل الكبائر عند الأُصوليين في هذه الآية أَجْنَاسُ الكفر، والآية التي قَيَّدت الحكم فَتَرَدُّ إِليها هذه المُطْلَقَات كلها قوله تعالىٰ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(١).

﴿كَرِيمًا﴾ يقتضي كرم الفضيلة ونفي العيوب، كما تقول: ثوب كريم، وكريم المَحْتِد. وهذه آية رجاء. روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: خمس آيات من سورة النساء هي أَحبُّ إِليَّ من الدنيا جميعاً ـ قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟﴾ الآية، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ﴾، وقوله: أيضاً ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ الآية(٢).

---

(١) النساء: ١١٦. وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بقول الله تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، وهي في كتب السُّنَّة الصحيحة، وفي كثير من التفاسير.

(٢) أخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور في فضائله، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: «إن في سورة النساء خمس آيات ما يسرني أنَّ لي بها الدنيا وما فيها، ولقد علمتُ أن العلماء إذا مرُّوا بها يعرفونها ـ قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ الآية» عن (الدر المنثور ٣ ـ ١٤٥)، وقوله تعالىٰ: ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾ هي من الآية الكريمة: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال ابن عباس: ثماني آيات في سورة النساء هُنَّ خيرٌ لهذه الأمّة مما طلعت عليه الشمس وغربت: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾، ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ الآية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾، ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ الآية.

قوله تعالىٰ:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾.

سبب الآية أن النساءَ قلن: ليتنا استوينا مع الرجال في الميراث، وشركناهم في الغزو، وروي أن أُم سلمة قالت ذلك أو نحوه[1]، وقال الرجال: ليت لنا في الآخرة حظاً زائداً على النساء، كما لنا عليهن في الدنيا، فنزلت الآية الكريمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لأن في تمنِّيهم هذا تحكُّماً على الشريعة، وتطرقاً إلى الدفع في صدر حكم الله، فهذا نهيٌ عن كلِّ تَمَنٍّ لخلاف حكم شرعيٍّ، ويدخل في النهي أن يتمنى الرجل حال الآخر من دين أو دنيا، على أن يذهب ما عند الآخر، إذ هذا هو الحسد بعينه، وقد كره بعض العلماء أن يتمنى أحدٌ حال رجل ينصبه في فكره وإن لم يتمنَّ زوال حاله، وهذا في نعم الدنيا، وأما في الأعمال الصالحة فذلك هو الحسن، وأما إذا تمنَّى المرءُ على اللهِ من غير أن يقرن أُمنيته بشيءٍ مما قدمناه فذلك جائز، وذلك موجودٌ في حديث النبي عليه الصلاة والسلام في قوله: «وددْتُ أن أُقتل في سبيل الله، ثم أحيا فأُقتل»[2]، وفي غير موضع، ولقوله تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ الآية ـ قال قتادة: من الميراث، لأن العرب كانت لا تورث النساءَ.

---

(١) أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والترمذي، والحاكم، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق مجاهد، عن أُمِّ سلَمة أنها قالت يا رسول الله، تغزو الرجال ولا نغزو، ولا نقاتل فنستشهد، وإنما لنا نصف الميراث، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾. وأنزل فيها: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾. (الدر المنثور).

(٢) هذا الحديث هو الذي صدر به البخاري كتاب التمني في صحيحه، وهو يدل على جواز تمني أفعال الخير، والرغبة فيها، وفي الصحيح: «إنَّ الشهيد يقال له: تَمَنَّ، فيقول: أتمنى أن أرجع إلى الدنيا حتى أُقتل في سبيلك مرة أُخرى». قال (ق): «وكان رسول الله ﷺ يتمنى إيمان أبي طالب وأبي لهب وصناديد قريش، مع علمه بأنه لا يكون». والتمني نوع من الإرادة يتعلق بالمستقبل، كالتلهف نوع منها يتعلق بالماضي، فنهى الله سبحانه عن التمني، لأن فيه تعلُّق البال، ونسيان الأجل ـ ذكر هذا التعليل القرطبيُّ في تفسيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف ، ولفظة الاكتساب تردُّ عليه رداً بيِّناً ، ولكنه يتركب على قول النساءِ: ليتنا ساوينا الرجال في الميراث ، فكأَنه قيل بسببهن: لا تتمنوا هذا فلكل نصيبه ، وقالت فرقة: معناه: من الأَجر والحسنات وفكأَنه قيل للناس: لا تتمنوا في أَمرِ خلاف ما حكم الله به ، لاختيار ترونه أَنتم ، فإِن الله قد جعل لكل أَحد نصيباً من الأَجر والفضل بحسب اكتسابه فيما شرع له.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا القول هو الواضح البيِّن الأَعم. وقالت فرقة: معناه: لا تتمنَّوا خلاف ما حدَّ اللهُ في تفضيله ، فإِنه تعالىٰ قد جعل لكل أَحد مكاسب تختص به ، فهي نصيبه ، قد جعل الجهاد والإِنفاق وسعْي المعيشة وحمل الكلف كالأَحكام والإِمارة والحسبة وغير ذلك للرجال ، وجعل الحمْل ومشقته وحُسْن التَّبَعُّل وحفظ غيب الزوج وخدمة البيوت للنساءِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كالقول الذي قبله ، إِلا أَنه فارقه بتقسيم الأَعمال. وفي تعليقه النصيب بالاكتساب حضٌّ على العمل ، وتنبيه على كسب الخير.

قرأَ جمهور السبعة: [وَاسْأَلُوا] بالهمز وسكون السِّين ، وقرأَ الكسائي وابن كثير: [وَسَلُوا] أَلقيا حركة الهمزة على السين ، وهذا حيث وقعت اللفظة إِلا في قوله: ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾[1] فإِنهم أَجمعوا على الهمز فيه ، قال سعيد بن جبير ، وليث بن أَبي سليم: هذا في العبادات ، والدِّين ، وأَعمال البر ، ليس في فضل الدنيا. وقال الجمهور: ذلك على العموم ، وهو الذي يقتضيه اللفظ[2] ، وقوله: [واسْأَلوا] يقتضي

(١) من الآية (١٠) من سورة الممتحنة: وقد علَّق أبو حيان في البحر المحيط على كلام ابن عطية هذا بقوله: «وهذا الذي ذكره ابن عطية وهم ، بل نصوص المقرئين في كتبهم على أَن ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ من جملة المختلف فيه بين ابن كثير والكسائي ، وبين الجماعة. ونص على ذلك بلفظه ابن شيطا في كتاب «التذكار» ، ولعلَّ الوهم وقع له في ذلك من قول ابن مجاهد في كتاب السبعة: «ولم يختلفوا في قوله: ﴿وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ أَنه مهموز لأنه لغائب» راجع (البحر المحيط ٣ ـ ٢٣٦).

(٢) يؤيد هذا الذي ذهب إليه الجمهور أَحاديث كثيرة ، فقد روى الترمذي عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله مِن فضْله فإنه يُحب أَن يُسأَل ، وأَفضل العبادة انتظار الفرج».

مفعولاً ثانياً، فهو ـ عند بعض النحويين ـ في قوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، التقدير: واسألوا الله فضلَه، وسيبويه لا يجيز هذا لأن فيه حذف (من) في الواجب، والمفعول عنده مضمر تقديره: واسألوا الله الجنة، أو كثيراً، أو حظاً من فضله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الأصح، ويحسن عندي أن يُقدَّر المفعول: أمانيكم، إذ ما تقدم يحسن هذا التقدير.

وقوله: ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ معناه: إن علم الله قد أوجب الإصابة والإتقان والإحكام، فلا تعارضوا بِتَمَنٍّ ولا غيره، وهذه الآية تقتضي أن الله يعلم الأشياءَ، والعقائد توجب أنه يعلم المعدومات الجائز وقوعها وإن لم تكن أشياء، والآية لا تناقض ذلك، بل وقفت على بعض معلوماته وأمسكت عن بعض.

قوله تعالىٰ:

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

(كُلّ) إنما تُستعمل مضافةً ظَهَر المضاف إليه أو تقدر، فهي بمثابة: (قَبْل وبَعْد) ولذلك أجاز بعض النحاة: مررْت بكل ـ على حدِّ (قبل وبعد)، فالمقدر هنا على قول فرقة: ولكلِّ أحدٍ ـ وعلى قول فرقة: ولكلِّ شيْءٍ، يعني: التركة.

والمولى ـ في كلام العرب ـ لفظة يشترك فيها: القريب القرابة، والصديق، والحليف، والمعتِق، والمعتَق، والوارث، والعبد فيما حكى ابن سيدة، ويحسن هنا من هذا الاشتراك: الوَرَثَة، لأنها تصلح على تأويل: ولكلِّ أحدٍ، وعلى تأويل: ولكلِّ شيْءٍ، وبذلك فَسَّر قتادة، والسدي، وابن عباس، وغيرهم أن الموالي: العصبة والورثة. قال ابن زيد: لما أسلمت العجم سُمُّوا موالي استعارةً وتشبيهاً، وذلك في قول الله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ﴾[1].

---

(١) الأحزاب: ٥.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد سُمِّي قوم من العجم ببني العم. و﴿ مِمَّا﴾ متعلقة بشيءٍ، تقديره: ولكل شيءٍ مما ترك الوالدان والأَقربون جعلنا ورثة، وهي متعلقة ـ على تأْويل: ولكلٍّ أَحدٍ ـ بفعل مضمر تقديره: ولكل أَحدٍ جعلنا موالي يرثون مما ترك الوالدان والأَقربون، ويحتمل ـ على هذا ـ أَن تتعلق (من) بـ [مَوالي]. وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ﴾ رفع بالابتداءِ، والخبر في قوله ﴿ فَـَٔاتُوهُمْ﴾.

وقرأَ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرو، وابن عامر: [عَاقَدَت] على المفاعلة، أَي: أَيمان هؤلاءِ عاقدت أُولئك، وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿ عَقَدَتْ ﴾ بتخفيف القاف على حذف مفعول تقديره: عقدت أَيمانكم حلفهم أو ذمتهم، وقرأَ حمزة ـ في رواية علي بن كيشة[1] عنه ـ: [عقَّدت] مشددة القاف.

واختلف المتأَولون في من المراد بـ ﴿ وَٱلَّذِينَ﴾ ـ فقال الحسن، وابن عباس، وابن جبير، وقتادة، وغيرهم: هم الأَحلاف، فإِن العرب كانت تتوارث بالحلف، فشدَّد الله ذلك بهذه الآية، ثم نسخه بآية الأَنفال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[2]، وقال ابن عباس أَيضاً: هم الذين كان رسول الله ﷺ آخىٰ بينهم، فإِنهم كانوا يتوارثون بهذه الآية حتى نسخ ذلك بما تقدم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وورد لابن عباس أَن المهاجرين كانوا يرثون الأَنصار دون ذوي رحمهم، للأُخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم فنزلت الآية في ذلك ناسخة، وبقي إِيتاءُ النصيب من النصر والمعونة أَو من المال على جهة الندب في الوصية.

وقال سعيد بن المسيب: هم الأَبناءُ الذين كانوا يُتَبَنَّوْنَ، والنصيب الذي أُمر الناسُ بإِيتَائه هو الوصية لا الميراث.

وقال ابن عباس أَيضاً: هم الأَحلاف إِلا أَن النصيب هو المؤازرة في الحق، والنصر، والوفاءُ بالحلف، لا الميراث.

---

(١) قال معلق القرطبي: «كذا في ابن عطية، والبحر، والأصول، إلا: د. فابن كيْسة، وهو علي بن زيد بن كيْسة، ولعلَّه الصواب كما في: طبقات القراء والتاج».

(٢) الأنفال: ٧٥، الأحزاب: ٦.

وروي عن الحسن أَنها في قوم يوصى لهم فيموت الموصى له قبل نفوذ الوصية ووجوبها، فأُمر الموصى أَن يؤديها إلى ورثة الموصى له.

ولفظة المعاقدة والأَيمان ترجح أَن المراد: الأَحلاف، لأَن ما ذكر من غير الأَحلاف ليس في جميعه معاقدة ولا أَيمان.

و﴿شَهِيدًا﴾ معناه: إن الله شهيد بينكم على المعاقدة والصلة، فَأَوفُوا بالعهد بحسب ذلك مراقبة ورهبة.

وقوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ﴾ الآية ـ قوَّام: فعَّال، بناءُ مبالغة، وهو من القيام على الشيءِ، والاستبداد بالنظر فيه، وحفظه بالاجتهاد، فقيام الرجال على النساء هو على هذا الحدّ[1]، وتعليل ذلك بالفضيلة والنفقة يقتضي أَن للرجال عليهنَّ استيلاءً وملكاً ما[2].

قال ابن عباس: الرجال أُمراءُ على النساء، وعلى هذا قال أَهل التأْويل، و[ما] في قوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ مصدرية، ولذلك استغنت عن العائد، وكذلك: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾، والفضيلة: هي الغزو، وكمال الدين، والعقل، وما أَشبهه[3]، والإِنفاق: هو المهر، والنفقة المستمرة على الزوجات.

---

(١) قال ابن عباس: «قوَّامون: مُسَلَّطون على تأديب النساءِ في الحق» ـ وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، قال: بالتأديب والتعليم ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ قال: بالمهر، وأَخرج ابن جرير، وابن المنذر عن الزهري قال: «لا تقص المرأَة من زوجها إلا في النفس». وقوَّام: صفة مبالغة، ويقال: قيَّام، وقيّم، وفي الحديث الشريف: «أَنت قيَّام السموات والأَرض ومن فيهن».

(٢) فهم العلماء من قوله تعالىٰ: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أنه متى عجز عن نفقتها لم يكن قوَّاماً عليها، وإذا لم يكن قواماً عليها كان لها فسخ العَقْدِ لزوال المقصود الذي شُرع لأجله النكاح، وفيه دلالة واضحة من هذا الوجه على ثبوت فسخ النكاح عند الإعسار بالنفقة والكسوة، وهو مذهب مالك والشافعي، وقال أبو حنيفة: لا يفسخ، لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾. راجع تفسير القرطبي: ٢ ـ ١٦٩.

(٣) وقيل: الجمعة والجماعة، وقيل: حلُّ الأربع، وملك النكاح والطلاق والرجعة، وفضيلة الشهادات والتعصيب، وزيادة السهم في الميراث. والصلاحية للنبوة والخلافة والإمامة... وأُمور أُخرى كثيرة. والضمير في [بَعْضهم] عائد على الرجال والنساء مع تغليب المذكر على المؤنث، والمراد بالبعض الأول الرجال، وبالثاني النساء. (البحر المحيط ٣ ـ ٢٣٩).

وقيل: سبب هذه الآية أن سعد بن الربيع[1] لطم زوجه حبيبة بنت زيد بن أبي زهير، فجاءَت مع أبيها إلى رسول الله ﷺ، فأمر أن تلطمه كما لطمها، فنزلت الآية مبيحة للرجال تأديب نسائهم، فدعاهم رسول الله ﷺ، ونقض الحكم الأول، وقال: «أردت شيئاً، وما أراد الله خيرٌ»[2]، وفي طريق آخر: «أردت شيئاً وأراد الله غيره»، وقيل: إن في هذا الحكم المردود نزلت: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾[3]، وقيل: سببها قول أم سَلَمة المتقدم، أي: لما تمنى النساءُ درجة الرجال عرفن وجه الفضيلة[4].

والصلاح في قوله: ﴿فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ﴾ هو الصلاح في الدين. و﴿قَـٰنِتَـٰتٌ﴾ معناه: مطيعات، والقنوت: الطاعة، ومعناه: لأزواجهن، أو لله في أزواجهن، وغير ذلك. وقال الزجاج: إنها الصلاة، وهذا هنا بعيد.

و﴿لِّلْغَيْبِ﴾ معناه: كل ما غاب عن علم زوجها مما استرعته، وذلك يعم حال غيب الزوج وحال حضوره، وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «خير النساءِ امرأةٌ إذا نظرت إليها سرَّتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غِبت عنها حفظتك في مالك وفي نفسها»، ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية[5].

وفي مصحف ابن مسعود: «فالصوالح قوانتُ حوافظُ»، وهذا بناءٌ يختص

---

(١) هو: سعيد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك بن امرئ القيس الخزرجي، عقبي، بَدْري، وكان أحد فقهاء الأنصار، وكان له زوجتان. (أسد الغابة).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم ـ كما في فتح القدير ـ وفي (الدر المنثور) أن ابن أبي حاتم أخرجه من طريق أشعث بن عبد الملك عن الحسن، وأن عبد بن حميد، وابن جرير أخرجاه من طريق قتادة عن الحسن، وأخرج ابن جرير عن السدي نحوه.

(٣) ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

(٤) وقيل: نزلت في جميلة بنت أُبيّ، وفي زوجها ثابت بن قيس بن شماس، قاله أبو روق. وقال الكلبي: نزلت في عميرة بنت محمد بن مسلمة، وفي زوجها سعد بن الربيع ـ وأشهر الروايات ما اختاره ابن عطية هنا من أنها نزلت في حبيبة بنت زيد بن أبي زهير زوج سعد بن الربيع.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والنسائي في سننه، والحاكم في مستدركه، وصححه في الجامع الصغير ٢ ـ ٩، وأخرج أبو داود أن النبي ﷺ قال لعمر: «ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ ـ المرأة الصالحة، إذا نظر إليها سرَّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته»، ورواه ابن جرير عن أبي هريرة.

بالمؤنث، وقال ابن جني: «والتكسير أشبه لفظاً بالمعنى، إذ هو يعطي الكثرة وهي المقصود هنا».

و﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ ـ الجمهور على رفع اسم الله بإسناد الفعل إليه، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: [اللهَ] بالنصب على إعمال: [حَفِظَ]، أما قراءَة الرفع فـ[مَا] مصدرية تقديره: يحفظ الله، ويصح أَن تكون بمعنى (الذي)، ويكون العائد الذي في [حَفِظَ] ضمير نصب، ويكون المعنى إما حفظ الله ورعايته التي لا يتم أَمر دونها، وإما أَوامره ونواهيه للنساءِ، فكأَنها حفظه، فمعناه: أَن النساء يحفظن بإرادته وقدرته ـ وأَما قراءَة ابن القعقاع [بِمَا حَفِظَ اللهَ] فالأَولى أَن تكون [ما] بمعنى (الذي)، وفي [حَفِظَ] ضمير مرفوع، والمعنى: حافظات للغيب بطاعة وخوف وبر ودين حِفظْنَ الله في أَوامره حين امْتَثَلْنَهَا. وقيل: يصح أَن تكون [ما] مصدرية على أَن تقدير الكلام: بما حَفِظْنَ الله، وينحذف الضمير، وفي حذفه قبح لا يجوز إلا في الشعر كما قال:

. . . . فَــإِنَّ الحَــوَادِثَ أَوْدَى بِهَــا[1]

يريد: أَوْ دَيْن، والمعنى: يحفظن الله في أَمره حين امتثلنه، وقال ابن جني: الكلام على حذف مضاف تقديره: بما حفظ دين الله، أَو أَمرَ الله. وفي مصحف ابن مسعود: «بما حفظ الله فأَصلحوا إِليهن».

﴿وَٱلَّٰتِي﴾ في موضع رفع بالابتداءِ، والخبر ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾، ويصح أَن تكون في موضع نصب بفعل مضمر تقديره: وعظوا اللواتي تخافون نشوزهن، كقوله: [والسَّارِقَ والسَّارِقَةَ][2] على قراءَة من قرأَها بالنصب، قال سيبويه: النصب القياس، إلا أَن الرفع أَكثر في كلامهم، وحكي عن سيبويه أَن تقدير الآية عنده: وفيما يُتلى عليكم اللاتي.

قالت فرقة: معنى ﴿تَخَافُونَ﴾: تعلمون وتَتَيَقَّنُون، وذهبوا في ذلك إلى أَن وقوع النشوز هو الذي يوجب الوعظ، واحتجوا في جواز وقوع الخوف بمعنى اليقين بقول أَبي مِحْجن:

---

(١) البيت للأعشى، وهذا عجزه، وهو بتمامه:

فــإِمَّــا تَــرَيْنــي وَلــي لِمَّــةٌ فَــإِنَّ الحــوادثَ أَوْدى بهــا

(٢) المائدة: ٣٨.

وَلا تَـدْفِنَنِّـي بِـالْفَـلاةِ فَـإِنَّنـي أَخـاف إِذا مـا مِـتُّ أَلاَّ أَذوقهـا[١]

وقالت فرقة: الخوف ـ هاهنا ـ على بابه في التوقع، لأن الوعظ وما بعده إنما هو في دوام ما ظهر من مبادئ ما يتخوف[٢].

والنشوز: أن تتعوج[٣] المرأة، وترتفع في خلقها، وتستعلي على زوجها وهو من نشز الأرض، يقال: ناشز، وناشص، ومنه بيت الأعشى:

تَجَلَّلهـا شيـخٌ عِشـاءً فَـأَصْبَحَـتْ قُضاعية تأْتي الكواهِنَ ناشصا[٤]

و﴿ فَعِظُوهُنَّ ﴾ معناه: ذكروهن أمر الله، واستدعوهن إلى ما يجب عليهن بكتاب الله وسُنَّة نبيه[٥]، وقرأ إبراهيم النخعي: [في ٱلمضْجَع]، وهو واحد يدلُّ على الجمع.

واختلف المتأولون في قوله: ﴿ وَٱهْجُرُوهُنَّ ﴾ ـ فقالت فرقة: معناه: جَنِّبُوا جِمَاعَهُنَّ، وجعلوا [في] للوعاءِ على بابها دون حذف، قال ابن عباس: يضاجعها ويوليها ظهره ولا يجامعها. وقال مجاهد: جنِّبوا مضاجعتهن، فيتقدر على هذا القول حذفٌ تقديره: واهجروهن برفض المضاجع، أو بترك المضاجع. وقال سعيد بن جبير: هي هجرة الكلام، أي: لا تكلموهن، وأعرضوا عنهن، فيقدر حذف تقديره:

---

(١) البيت لأبي محجن الثقفي رضي الله عنه، وقبْله:

إذا مـتُّ فـادفِنِّـي إلـى أَصْـلِ كـرمـةٍ تُـرَوِّي عـروقي بعْـدَ مَـوْتـي عـروقُهَـا

(٢) أي أن الخوف هنا ضد الأمن، فالمعنى: يحذرون ويتوقعون، وقيل: الخوف على بابه من بعض الظن ـ قال الشاعر:

أتـانـي كـلامٌ مـن نصيـب يقـولـه ومـا خفـتُ يـا سـلام أنـك عـاتبـي

أي: وما ظننتُ ـ وفي الحديث: «أُمرت بالسواك حتى خفتُ لأدردن».

(٣) في بعض النسخ: «تتعرج»، ولا معنى لها هنا ـ ولعلها سهو من الناسخ.

(٤) قال ابن دريد: نشزت المرأة ونشست ونشصت بمعنى واحد، وقال أبو منصور اللغوي: النشوز كراهية كل واحد من الزوجين صاحبه، يقال: نشزت تنشز فهي ناشز بغير هاءٍ، ونشصت تنشص وهي السيئة للعشرة، وقال ابن فارس: نشزت المرأة: استصعبت على بعلها، ونشز بعلها عليها إذا ضربها وجفاها. وتَجَلَّلها: يريد: تزوَّجها. وفي الديوان: تقَمَّرها.

(٥) ومن السُّنَّة قول النبي ﷺ: «لو أَمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»، وقوله: «أيما امرأة باتت هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح»، وقال: «لا تمنعه نفسها ولو كانت على ظهر قتب».

واهجروهن في سبب المضاجع حتى يراجعْنَهَا، وقال ابن عباس أَيضاً: معناه: وقولوا لهن هجراً من القول، أَي: إِغلاظاً حتى يراجعن المضاجع، وهذا لا يصح تصريفه إِلا على من حكى: هجر وأَهجر بمعنى واحد.

وقال الطبريُّ: معناه: اربطوهن بالهجار كما يربط البعير به، وهو حبل يُشد به البعير، فهي في معنى: اضربوهن ونحوها، ورجَّح الطبري منزعه هذا، وقدح في سائر الأَقوال، وفي كلامه كله في هذا الموضع نظر[١].

والضرب في هذه الآية هو ضرب الأَدب غير المبرح وهو الذي لا يكسر عظماً، ولا يشين جارحة، وقال النبي ﷺ: «اضربوا النساءَ إِذا عصينكم في معروف ضرباً غير مبرح»[٢]، وقال عطاءٌ: قلت لابن عباس: ما الضرب غير المبرح؟ قال: بالشراك ونحوه، وروي عن ابن شهاب أَنه قال: لا قصاص بين الرجل وامرأَته إِلا في النفس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تجاوز، قال غيره: إِلا في النفس والجراح، وهذه العظة والهجر والضرب مراتب، إِن وقعت الطاعة عند إِحداها لم يتعد إِلى سائرها.

و﴿ تَبْغُواْ ﴾ معناه: تطلبوا، و﴿ سَبِيلًا ﴾ أَي: إِلى الأَذى، وهو التعنيت والتعسُّف بقول أَو فعل، وهذا نهي عن ظلمهن بغير واجب بعد تقدير الفضل عليهن، والتمكين من أَدبهن، وحَسُن معه الاتصاف بالعُلُوِّ والكبر، أَي: قدره فوق كل قدر، ويده بالقدرة فوق كل يد، فلا يستعلي أَحد على امرأَته، فالله بالمرصاد، وينظر هذا إِلى

---

(١) أكثر المفسرين يأخذون على الطبري ترجيحه لهذا الرأي في معنى ﴿ وَٱهْجُرُوهُنَّ ﴾ ـ أما ابن عطية فقال: «وفي كلامه كله في هذا الموضع نظر» كما رأيت، وأما الزمخشري فقال: «وهذا من تفسير الثقلاء»، وأما القرطبي فعبر مثل تعبير ابن عطية، لكنه نقل عن القاضي أبي بكر العربي ردّاً على كلام الطبري يقول فيه: «يا لها من هفوة من عالم بالقرآن والسُّنَّة، والذي حمله على هذا التأويل حديث غريب رواه ابن وهب عن مالك أَن أسماء بنت أبي بكر الصديق امرأة الزبير بن العوام كانت تخرج حتى عوتب في ذلك. قال: وعتب عليها وعلى ضَرَّتها، فعقد شعر واحدة بالأخرى ثم ضربهما ضرباً شديداً، وكانت الضَّرَّةُ أَحسن اتقاءً، وكانت أَسماءُ لا تتقي، فكان الضرب بها أكثر، فشكت إِلى أَبيها أبي بكر رضي الله عنه فقال لها: أَي بُنَيَّة، اصبري فإن الزبير رجل صالح، ولعلَّه أَن يكون زوجك في الجنة، ولقد بلغني أَن الرجل إذا ابتكر بامرأة تزوجها في الجنة ـ فرأى الربط والعقد، مع احتمال اللفظ، مع فعل الزبير فأَقدم على هذا التفسير». اهـ.

(٢) أخرجه ابن جرير عن عكرمة، وأخرج مثله عن حَجَّاج.

حديث ابن مسعود: فصرفت وجهي فإذا رسول الله ﷺ يقول: «اعلم أَبا مسعود أَن الله أَقدر عليك منك على هذا العبد»[(١)].

قوله تعالىٰ:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

قسَّمت هذه الآية النساءَ تقسيماً عقلياً، لأَنها إما طائعة، وإما ناشزة، والنشز: إما من يرجع إلى الطواعية، وإما من يحتاج إلى الحَكَمَيْن.

اختلف المتأَولون أَيضاً في الخوف ـ هاهنا ـ حسب ما تقدم، ولا يبعث الحَكَمان إلا مع شدة الخوف. والشقاق: مصدر شاق يشاق، وأُجري (البين) مجرى الأَسماءِ، وأُزيل عنه الظرفية إذ هو بمعنى: حالهما وعشرتهما وصحبتهما، وهذا من الإيجاز الذي يدل فيه الظاهر على المقدر.

واختلف ـ من المأْمور بالبعثة؟ فقيل: الحاكم، فإذا أَعضل على الحاكم أَمر الزوجين، وتعاضدت عنده الحجج، واقترنت الشُّبه، واغتَمَّ الإنفاذ على أَحدهما بعث حَكمين من الأَهل ليباشرا الأَمر، وخص الأَهل لأَنهم مظنة العلم بباطن الأَمر، ومظنة الإشفاق بسبب القرابة. وقيل: المخاطب الزوجان، وإليهما تقديم الحَكَمَيْن، وهذا في مذهب مالك، والأَول لربيعة وغيره[(٢)].

واختلف الناس في المقدار الذي ينظر فيه الحَكَمان ـ فقال الطبري: قالت فرقة: لا ينظر الحَكَمان إلا فيما وكلهما به الزوجان، وصرحا بتقديمهما عليه، ترجم بهذا ثم أَدخل عن علي غيره. وقال الحسن بن أَبي الحسن، وغيره: ينظر الحكمان في

---

(١) أخرجه مسلم عن ابن مسعود، وفي بعض الروايات ما يوضح أن ابن مسعود كان يضرب غلامه، فسمع صوتاً يقول: «اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود»، قال ابن مسعود: فصرفت وجهي.. إلخ.

(٢) قال أَبو حيان: «وَأَبْعَدَ من ذهب إلى أنه خطاب للأزواج، إذ لو كان خطاباً للأزواج لقال: وإن خافا شقاق بينهما فليبعثا، أو لقال: فإن خفتم شقاق بينكم، لكنه انتقال من خطاب الأزواج إلى خطاب من له الحكم والفصل بين الناس». ـ ثم قال: «والضمير في ﴿بَيْنِهِمَا﴾ عائد على الزوجين ولم يجر ذكرهما لكن جرى ما يدل عليهما من ذكر الرجال والنساء. والحَكَم: هو من يصلح للحكومة بين الناس والإصلاح». (البحر المحيط ٣ ـ ٢٤٣).

الإصلاح، وفي الأخذ والعطاءِ، إلا في الفرقة، فإنها ليست إليهما. وقالت فرقة: ينظر الحكمان في كل شيءٍ، ويحملان على الظالم، ويُمْضيان ما رأَياه من بقاءٍ أو فراق، وهذا هو مذهب مالك والجمهور من العلماءِ، وهو قول علي بن أَبي طالب في «المدونة» وغيرها، وتأَول الزجاج عليه ذلك، وأَنه وكل الحَكَميْن على الفرقة، وأَنها للإمام، وذلك وهم من أَبي إسحاق(١).

واختلف المتأَولون في مَنْ المراد بقوله: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا﴾؟ ـ فقال مجاهد، وغيره: المراد الحكمان، أَي: إذا نصحا وقصدا الخير بورك في وساطتهما. وقالت فرقة: المراد الزوجان، والأَول أظهر، وكذلك الضمير في [بَيْنَهما] يحتمل الأَمرين، والأَظهر أَنه للزوجين.

والاتصاف بعليم خبير يشبه ما ذكر من إرادة الإصلاح.

قوله تعالىٰ:

﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾.

(الواو) لعطف جملة الكلام على جملة غيرها، والعبادة: التذلُّل بالطاعة، ومنه: طريق معبد، وبعير معبد إذا كان معلمين، و﴿إِحۡسَٰنٗا﴾ نصب على المصدر، والعامل فعل مضمر تقديره: وأَحسنوا بالوالدين إحساناً، وما ذكر الطبري من أَنه نصب بالإغراء خطأ، والقيام بحقوق الوالدين اللازمة لهما من التوقير والصون والإنفاق ـ إذا احتاجا ـ واجبٌ، وسائر ذلك مِنْ وجوه البر، والأَلطاف، وحسن القول، والتصنُّع لهما

(١) روى الدارقطني من حديث محمد بن سيرين عن عبيدة في هذه الآية ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ قال: جاء رجل وامرأة إلى علي مع كل واحد منهما فئام (جماعة) من الناس، فأمرهم فبعثوا حكماً من أهله، وحكماً من أهلها، وقال لِلحَكَمَيْن: هل تدريان ما عليكما؟ عليكما إن رأَيتما أَن تُفرقا فرقتما، فقالت المرأة: رضيت بكتاب الله بما عليَّ فيه ولي، وقال الزوج: أَما الفرقة فلا، فقال علي: كذبت، والله لا تبرح حتى تقر بمثل الذي أَقرت به. ا.هـ. قال القرطبي تعليقاً على هذا الخبر: وهذا إسناد صحيح ثابت روي عن علي من وجوه ثابتة عن ابن سيرين عن عبَيدة. ا.هـ. ولهذا قال ابن عطية: وذلك وهم من أبي إسحاق، يعني الزجاج فيما تأوله على قول الإمام علي رضي الله عنه.

مندوب إليه مؤكد فيه ، وهو البر الذي تُفَضَّل فيه الأم على الأَب ، «حسب قوله عليه الصلاة والسلام للذي قال له: من أبر؟ قال: أُمك ، قال: ثم من؟ قال: أُمك ، قال: ثم من؟ قال: أُمك ، قال: ثم من؟ قال: أَباك ، ثم الأَقرب فالأقرب» ، وفي رواية: «ثم أَدناك أَدناك»[١] . وقرأ ابن أبي عبلة [إحسانٌ] بالرفع[٢] .

وذو القربى: هو القريب النسب من قِبَل الأَب والأُم ، وهذا من الأمر بصلة الرحم وحفظها ، و﴿ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾: جمع يتيم ، وهو فاقد الأَب قبل البلوغ ، وإن ورد في كلام العرب يتم من قِبَل الأُم فهو مجاز واستعارة ، ﴿ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ﴾: المفتقرون من المسلمين الذين تَحِلُّ لهم الزكاة ، وجاهروا بالسؤال.

واختلف في معنى ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ وفي معنى ﴿ ٱلْجُنُبِ ﴾ ـ فقال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وغيرهم: الجار ذو القربى هو الجار القريب النسب ، والجار الجنب هو الجارُ الأجنبي الذي لا قرابة بينك وبينه[٣] . وقال نوف الشامي: الجار ذو القربى هوالجار المسلم ، والجار الجنب هو الجار اليهودي أَو النصراني ، فهي عنده قرابة الإسلام ، وأَجنَبِيَّة الكفر. وقالت فرقة: الجار ذو القربى هو الجار القريب المسكن منك ، والجار الجنب هو البعيد المسكن منك ، وكأَن هذا القول منتزع من الحديث. «قالت عائشة: يارسول الله ، إنَّ لي جارين ، فَإلى أَيُّهما أُهدي؟ قال: إلى أَقربهما منك باباً»[٤] .

---

(١) روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «جاءَ رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، ومن أحق بحسن صحابتي؟ قال: أُمك ، قال: ثم من؟ قال: أُمك ، قال: ثم من؟ قال: أُمك ، قال: ثم من؟ قال: ثم أَبوك». وقال العلماء: أَحق الناس بعدالخالق المنَّان بالشكر والإحسان مَنْ قَرن الله الإحسان إليه بعبادته وطاعته ، وَشُكْرَهُ بشُكرِه ، وهما الوالدان ، قال الله تعالىٰ: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ ، وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «رضى الربِّ في رضى الوالدين ، وسُخْطه في سُخْط الوالدين».

(٢) على معنى: واجب الإحسان إليهما. أَو هو مبتدأ وخبر فيه ما في المنصوب من معنى الأمر وإن كان جملة خبرية نحو قوله تعالىٰ: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾.

(٣) أي: الغريب ، قال بلعاءُ بن قيس:

لا يَجْتَوِينَا مُجاوِرٌ أَبَداً ذُو رَحِمٍ أَو مُجاوِرٌ جُنُبُ

وأَنشد ابن الأعرابي:

هَلْ فِي القَضِيَّةِ أنْ إذا اسْتَغْنَيْتُم وَأَمِنتُمُ فَأَنَا البَعِيدُ الأَجْنَبُ؟

(٤) أخرجه البخاري في الأدب ، والحاكم وصححه ـ عن عائشة. (الدر المنثور ٢ ـ ١٥٨).

واختلف الناس في حدِّ الجيرة ـ فقال الأَوزاعي: أَربعون داراً من كل ناحية جيرة. وقالت فرقة: من سمع إقامة الصلاة فهو جار ذلك المسجد، وبقدر ذلك في الدور. وقالت فرقة: من ساكن رجلاً في محلة أَو مدينة فهو جاره. والمجاورة مراتب بعضها أَلصق من بعض، أَدناها الزوج، كما قال الأعشى:

أَيـــا جـــارتـــي بِينِـــي..... . . . .[1]

وبعد ذلك الجيرة الخُلُط، ومنه قول الشاعر:

سائلْ مُجاور جَرْم هَلْ جنيتَ لها حَـربـاً تُفَـرِّق بَيْـن الجِيـرَةِ الخُلُـطِ[2]

وحكى الطبري عن ميمون بن مهران أَن الجار ذا القربى أُريد به جارُ القريب، وهذا خطأٌ في اللسان، لأَنه جمع ـ على تأْويله ـ بين الأَلف واللام والإِضافة، وكأَن وجه الكلام: وجار ذي القربى[3].

وقرأَ أَبو حيوة، وابن أَبي عبلة: [والْجَارَ ذا الْقُرْبى] بنصب [الجار]، وحكى مكيٌّ عن ابن وهب أَنه قال عن بعض الصحابة في الجار الجنب: إِنها زوجة الرجل، وروى المفضل عن عاصم أَنه قرأَ: [والجار الْجَنْب] بفتح الجيم وسكون النون.

و﴿ٱلْجُنُبِ﴾ في هذه الآية معناه: البعيد: والجنابة: البعد، ومنه قول الشاعر وهو الأَعشى:

أَتيْـتُ حُـرَيْثـاً زائـراً عــن جَنَـابَـةٍ فكانَ حُرَيْثٌ عَن عطائِي جامدَا[4]

---

(١) البيت كاملاً هو قوله:

أيـا جـارتـي بِينِـي فـإنَّـك طَـالِقَـهْ كـذاك أُمـورُ النـاسِ غـادٍ وطـارقَـهْ

وروي: أَيا جارتا ـ وكذلك روي: أجارتنا.

(٢) البيت لوَعْلَة الجَرْمِيّ. الخُلُطُ: جمع خليط وهم القوم الذين أَمرهم واحد. كانوا ينتجعون أَيام الكلأ فتجتمع منهم قبائل شتَّى في مكان واحد فتقع بينهم أُلْفَة. (اللسان).

(٣) قال أَبو حيان: «يمكن تصحيح قول ميمون على ألا يكون جمعاً بين الألف واللام والإضافة على ما زعم ابن عطية، بأن يكون قوله: ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بدلاً من قوله: ﴿وَٱلْجَارِ﴾ على حذف مضاف، والتقدير: والجارجار ذي القربى، فحذف (جار) لدلالة (الجار) عليه، وقد حذفوا البدل في مثل هذا، قال الشاعر:

رحِـــمَ الله أَعْظُمـــاً دَفَنُـــوهَـــا بِسِجِسْتَـــانَ طَلْحَـــةِ الطَّلَحَـــاتِ

يريد: أَعْظُم طَلْحَةِ الطَّلَحات.

(٤) كذلك روي البيت في ديوان الأعشى، وفي تفسير القرطبي، ولكن جاء في تفسير الطبري: =

ومنه قول الآخر ، وهو علقمة بن عبدة:

فـلا تَحْـرِمَنِّـي نـائـلاً عـن جَنَـابَـةٍ   فإني امْرُؤٌ وَسْطَ الْقِبَابِ غَرِيبُ[١]

وهو من الاجتناب ، وهو أن يُترك الشيءُ جانباً ، وسئل أعرابي عن الجار الجنب فقال: هو الذي يجيءُ فيحل حيث تقع عينك عليه ، قال أبو علي: جُنب: صفة كناقةٍ أُجُد[٢] ، ومشية سُجُحٌ[٣] ، وجُنُب التَّطَهُّر مأخوذ من الجَنْب[٤].

وقال ابن عباس ، وابن جبير ، وقتادة ، ومجاهد ، والضحاك: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ هو: الرفيق في السفر ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وابن مسعود ، وابن أبي ليلى ، وإبراهيم النخعي: الصاحب بالجنب: الزوجة. قال ابن زيد: هو الرجل يعتريك ويُلِمُّ بك لتنفعه ، وأسند الطبري «أن رسول الله ﷺ كان مع رجلٍ من أصحابه وهما على راحلتين ، فدخل رسول الله ﷺ غيضة[٥] فقطع قضيبين أحدهما معوج ، وخرج فأعطى صاحبه القويم ، وحبس هو المعوج ، فقال له الرجل: كنت يا رسول أحق بهذا ، فقال له: يا فلان ، إن كل صاحب يصحب آخر فإنه مسؤول عن صحبته ولو ساعة من نهار»[٦].

= . . . . فكـانَ حُـرَيْـثٌ فـي عَطَـائـي جـاهِـدا

(١) قال علقمة هذا يخاطب الحارث بن جبلة ويمدحه ، ويطلب منه إطلاق سراح أخيه (شاسا) من سجنه الذي حبسه فيه الحارث بعد أسْره ، وهذا هو المراد بقوله في البيت (نائلا) ـ وقد أطلقه الحارث هو ومن أُسر معه من بني تميم ـ «عن اللسان» ، ومثل هذا البيت والذي قبله:

إذَا مـا رَأَوْنـي مُقْبِـلا عَـنْ جَنَـابَـةٍ   يَقُـولـونَ: مَـنْ هـذا وَقَـدْ عَـرَفُـونـي

(٢) في اللسان: ناقةٌ مؤْجَدَة: مُوثَقة الخَلْقِ ، وَأُجُدٌ: متصلة الفقار تراها كأنها عظم واحد ، وناقة أُجُدٌ: أيْ: قوية مُوثَقَة الخَلْقِ. ولايقال للجمل: أُجُدٌ.

(٣) يقال: مشى فلان مشياً سُجُحاً وسجيحاً ، ومِشيةٌ سُجُحٌ أي: سهلة ، وورد في حديث علي يحرض أصحابه على القتال: «وامشوا إلى الموت مشيةً سُجُحاً». قال حسان:

دعـوا التخـاجُـؤَ وامْشُـوا مِشيـةً سُجُحـاً   إن الـرِّجَـال ذَوُو عَضْـبٍ وَتَـذْكِيـر

(٤) الذي في اللسان: «الرجل جُنُبٌ من الجنابة» ـ وقال: «الجنابة»: المنيُّ ـ وفي التنزيل: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ قال الأزهري: إنما قيل له جنبٌ لأنه نهي أن يَقْرَبَ مواضع الصلاة ما لم يتطهر ، وقيل: لمجانبته الناس ما لم يغتسل ، وقيل: من الجنْب ، كأنه ضاجع ومسَّ بجنبه جَنْبا.

(٥) الغَيْضة (بالفتح): الأجمة ومجتمع الشجر في مغيض ماء.

(٦) أخرجه ابن جرير من طريق ابن أبي فديك ، عن فلان بن عبد الله ، عن الثقة عنده ، وفيه ـ كما في تفسير الطبري ، وفي الدر المنثور ـ: (فقال له: كلاً يا فلان) ، بزيادة (كلاً) التي سقطت من ابن عطية هنا.

وقال المفسرون: ابن السبيل: هو المسافر على ظهر طريقه، وسُمِّي ابنه لِلزومه له، كما قيل: ابن ماءٍ للطائر الملازم للماءِ، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام: «لا يدخل الجنَّة ابن زنى»، أَي: ملازمه الذي يستحق بالمثابرة عليه أَن ينسب إِليه، وذكر الطبريُّ أَن مجاهداً فسَّره بأَنَّه المارُّ عليك في سفره، وأَن قتادة ـ وغيره ـ فسَّره بأَنه الضيف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله قول واحد.

﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾[(١)] يريد العبيد الأَرقَّاءَ، ونسب المِلك إِلى اليمين إِذ هي في المعتاد جارحة البطش والتَّغلب والتَّملُّك، فأُضيفت هذه المعاني ـ وإِن لم تكن بها ـ إِليها تَجَوُّزاً، والعبيد موصى بهم في غير ما حديث يطول ذكرها، ويغني عن ذلك اشتهارها[(٢)].

ومعنى: ﴿ لَا يُحِبُّ ﴾ ـ في هذه الآية ـ: لا تظهر عليه آثار نعمه في الآخرة، ولا آثار حَمْده في الدنيا، فهي المحبّة التي هي صفة فعل، أَبْعَدَها عمَّن صفته الخُيَلاءُ والفخر، يقال: خال الرجل يخول خولاً إِذا تكبَّرَ وأُعجب بنفسه، وأَنشد الطبري:

فَـإِن كُنْـتَ سَيِّـدَنَـا سُـدْتَنَـا ... وَإِنْ كُنْتَ لِلْخَالِ فَاذْهَبْ فَخَلْ[(٣)]

---

(١) وقعت [ما] على العاقل باعتبار النوع، كقوله تعالىٰ: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم ﴾ ـ وقيل: إن [ما] أَعَمُّ مِن (مَن) فتشمل الحيوانات على إطلاقها من عبيد وغيرهم، والحيوانات غير الأرقَّاء أَكثر في يد الإنسان من الأرقَّاء، فغلب جانب الكثرة، وأَمر الله تعالىٰ بالإحسان إلى كل مملوك آدمي وحيوان وغيره، (البحر المحيط ٣ ـ ٢٤٥).

(٢) من ذلك ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لِلمَمْلوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يُطيق». وروى مسلم أيضاً عن المعْرُور بن سُوَيْد قال: مررنا بأبي ذرٍّ بالرَّبَذَة، وعليه برد وعلى غلامه مثله، فقلنا: يا أبا ذرٍّ، لو جمعت بينهما كانت حُلَّة، فقال: إنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلام، وكانت أُمه أعجمية فعيرته بأمِّه، فشكاني إلى النبي ﷺ، فلقيت النبي ﷺ فقال: «يا أبا ذرّ إنك امْرؤٌ فيك جاهلية». فقلت: يا رسول الله، من سبَّ الرجال سبُّوا أباه وأُمه، فقال: «يا أبا ذرّ إنك امرؤٌ فيك جاهلية، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم».

(٣) البيت في اللسان مادة (خَيَلَ). ولم ينسبه، بل قال: قال الشاعر، ثم روى عن ابن برِّي أنه قال: «وروي البيت: فاذهب فخُل، بضم الخاء، لأن فعله خال يخول، قال: وكان حقه أن يذكر في =

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ونفي المحبَّة عمَّن هذه صفته ضرب من التوعد، وخص هاتين الصفتين هنا إذ مقتضاهما العجب والزهو، وذلك هو الحامل على الإِخلال بالأَصناف الذين تقدم أَمر الله بالإِحسان إِليهم. ولكل صنف نوع من الإِحسان يختص به، ولا يعوق عن الإِحسان إِليهم إِلا العجب أَو البخل، فلذلك نفى الله محبته عن المعجبين والباخلين على أَحد التأويلين حسبما نذكره الآن بعد هذا، وقال أَبو رجاء الهروي: لا تجده سَيِّئَ الملكة إِلا وجدته مختالاً فخوراً، ولا عاقاً إِلا وجدته جباراً شقياً، والفخر: عد المناقب تطاولاً بذلك[1].

قوله تعالىٰ:

﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

قالت فرقة: ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ في موضع نصب بدل من [مَنْ] في قوله: ﴿ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[2]، ومعناه ـ على هذا ـ: يبخلون بأَموالهم، ﴿ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ يعني:

= (خَوَل)، وإنما ذكره الجوهري هنا لقولهم: الخُيَلاء، قال: وقياسه: الخُوَلاء. ثم قال: والشاعر رجل من عبد القيس. ا.هـ.

(١) أخرج البغوي، وابن قانع في معجم الصحابة، والطبراني، وابن مردويه عن ثابت بن قيس بن شماس قال: كنت عند رسول الله ﷺ نقرأ هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾، فذكر الكبر فعظمه، فبكى ثابت، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك؟» فقال: يا رسول الله، إني لأحب الجمال حتى إنه ليُعجبني أن يحسن شراك نعلي، قال: «فأنت من أهل الجنة، إنه ليس بالكبر أن تحسن راحلتك ورحلك، ولكن الكبر من سفه الحق وغمص الناس». (الدر المنثور ٢ ـ ١٦٢).

(٢) ولا يكون صفة، لأن (من) و(ما) لا يوصفان ولا يوصف بهما، ويجوز أن يكون في موضع رفع بدلاً من المضمر الذي في ﴿ فَخُورًا ﴾. ويجوز أن يكون ابتداءً والخبر محذوف، أي: الذين يبخلون لهم كذا، أو يكون الخبر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار (أعني)، فتكون الآية في المؤمنين، فتجيء الآية ـ على هذا التأويل ـ أن الباخلين منفية عنهم محبة الله، فأحسنوا أيها المؤمنون إلى من سُمِّي، فإن الله لا يحب من فيه الخلال المانعة من الإحسان. هذا وقد ذكر ابن عطية بعض هذه الأوجه وترك بعضها.

إِخوانهم ، ومن هو مَظِنَّةُ طاعتهم بالبخل بالأَموال ، فلا تنفق في شيءٍ من وجوه الإِحسان إِلى من ذكره ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ ، يعني: من الرزق والمال ، فيجيءُ ـ على هذا ـ أَن الباخلين مَنْفِيَّة عنهم محبة الله ، والآية إِذاً في المؤمنين ، فالمعنى: أَحسنوا أَيها المؤمنون إِلى من سُمِّي ، فإِن الله لا يُحب مَنْ فيه الخِلالُ المانعة من الإِحسان إِليهم من المؤمنين ، وأَما الكافرون فإِنه أَعدَّ لهم ﴿ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ ، ففصل توعد المؤمنين من توعد الكافرين بأَن جعل الأَول عدم المحبة ، والثاني عذاباً مهيناً.

وقالت فرقة: ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ في موضع رفع بالابتداءِ ، والخبر محذوف ، تقديره ـ بعد قوله: ﴿ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ ـ: مُعَذَّبون ، أَو مجازون ، أَو نحوه. وقال الزجاج: الخبر في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾ ، وفي هذا تكَلُّفٌ مَّا ، والآية على هذا كله في كفار.

وقد روي أَنها نزلت في أَحبار اليهود بالمدينة ، فإِنهم بخلوا بالإِعلام بصفة محمد عليه الصلاة والسلام ، وبما عندهم من العلم في ذلك ، وأَمروا الناس بالبخل على جهتين: بأَن قالوا لأَتباعهم وعوامِّهم: اجحدوا أَمر محمد وابخلوا به ، وبأَن قالوا للأَنصار: لِمَ تنفقون أَموالكم على هؤلاءِ المهاجرين فتفتقرون؟ ونحو هذا مروي عن مجاهد ، وحضرمي ، وابن زيد ، وابن عباس.

وحقيقة البخل: منع ما في اليد ، والشح: هو البخل الذي تقترن به الرغبة فيما في أَيدي الناس ، وكتمان الفضل هو ـ على هذا ـ: كتمان العلم ، والتوعد بالعذاب المهين لهم.

وقرأَ عيسى بن عمر ، والحسن: [بالبُخُل] بضم الباءِ والخاءِ ، وقرأَ الجمهور بضم الباءِ وسكون الخاءِ ، وقرأَ حمزة والكسائي هنا وفي «الحديد»: [بالبَخَل] بفتح الباءِ والخاءِ ، وقرأَ ابن الزبير ، وقتادة ، وجماعة بفتح الباءِ وسكون الخاءِ ، وهي كلها لغات.

﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ معناه: يَسَّرْنا وأَعدْنا وأَحضرْنا ، والعتيد: الحاضر. والمُهِين: الذي يقترن به خزي وذلّ ، وهو أَنكى وأَشَدُّ على المعذَّب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ الآية ـ قال الطبري: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في موضع خفض عطف على [الكافرين]، ويصح أن يكون في موضع رفع عطفاً على ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ على تأويل من رآه مقطوعاً ورأى الخبر محذوفاً، وقال: إنها نزلت في اليهود. ويصحُّ أن يكون في موضع رفع على العطف وحذف الخبر، وتقديره ـ بعد [اليوم الآخر] ـ: مُعذَّبون. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في اليهود، قال الطبري: وهذا ضعيف، لأنه نفى عن هذه الصفة الإيمان بالله واليوم الآخر، واليهود ليسوا كذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقول مجاهد متجه على المبالغة والإلزام، إذ إيمانهم باليوم الآخر كلا إيمان، من حيث لا ينفعهم.

وقال الجمهور: نزلت في المنافقين، وهذا هو الصحيح، وإنفاقهم: هو ما كانوا يعطون من زكاة، وينفقون في السفر مع رسول الله ﷺ رياءً ودفعاً عن أنفسهم، لا إيماناً بالله، ولا حباً في دينه. و﴿رِئَآءَ﴾ نصب على الحال من الضمير في ﴿يُنفِقُونَ﴾، والعامل: ﴿يُنفِقُونَ﴾، ويكون قوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ في الصلة، لأن الحال لا تفرق إذا كانت مما هو في الصلة، وحكى المهدوي أن الحال تصح أن تكون من ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ فعلى هذا يكون ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ مقطوعاً ليس من الصلة، والأول أصح، وما حكى المهدوي ضعيف، ويحتمل أن يكون ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ في موضع الحال، أي: غير مؤمنين، فتكون الواو واو الحال.

والقرين: فعيل بمعنى فاعل، من المقارنة، وهي: الملازمة والاصطحاب[1]، وهي ـ هاهنا ـ مقارنة مع خُلْطة وتواد، والإنسان كله يقارنه الشيطان، ولكن الموافق عاص له، ومنه قيل لما يُلَزُّ مِنَ الإبل والبقر: قرينان. وقيل للحبل الذي يُشَدَّان به: قَرَن، قال الشاعر:

---

(١) قال عدي بن زيد:

عَنِ المَرء لا تَسأَل، وسلْ عن قرينه ... فكُلُّ قرينٍ بالمُقارنِ يقتدي

والقرين فعيل بمعنى المقارن، كالجليس والخليط، أي: المجالس، والمخالط. والجمع: قرناء.

كَمُـدْخِـلِ رأسِـهِ لـم يُـدْنـه أَحَـدٌ   بيْـن القَـرِينَيْـن حتـى لـزَّه الْقَـرَنُ[١]

فالمعنى: ومن يكن له الشيطان له مصاحباً وملازماً، أوشك أن يطيعه فتسوءُ عاقبته، و﴿قَرِينًا﴾ نصب على التمييز، والفاعل لـ[سَاءَ] مضمر، تقديره: ساءَ القرين قريناً، على حدِّ (بِئس)، وقرن الطبري هذه الآية بقوله تعالىٰ: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[٢]، وذلك مردود، ولأن ﴿بَدَلًا﴾ حال، وفي هذا نظر[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ ـ﴿ما﴾ رفع بالابتداء، و﴿ذَا﴾ صلة، و﴿عَلَيْهِمْ﴾ خبر الابتداء، والتقدير: وأي شيءٍ عليهم؟ ويصح أن تكون ﴿ما﴾ اسماً بانفرادها، و﴿ذا﴾ بمعنى الذي ابتداءٌ وخبر، وجواب [لو] في قوله: ﴿ماذا﴾ فهو جواب مقدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكأن هذا الكلام يقتضي أن الإيمان متعلق بقدرتهم، ومن فعلهم. ولا يقال لأحد: «ما عليك لو فعلت». إلا فيما هو مقدور له. وهذه شبهة للمعتزلة، والانفصال عنها أن المطلوب إنما هو تكسُّبهم واجتهادهم وإقبالهم على الإيمان، وأما الاختراع فالله المنفرد به، وفي هذا الكلام تفجع مَّا عليهم، واستدعاءٌ جميل يقتضي حيطة وإشفاقاً.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ إخبار يتضمن وعيداً، وينبه على سوءِ تواطئهم، أي: لا ينفعهم كتم مع علم الله تعالىٰ بهم.

قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

---

(١) الجمع بين دابتين في حبْل هو: القَرْنُ. أما القَرَن (بالفتح) فهو الحبل الذي تُلَزَّان به، والشاعر يقصد بقوله: (القَرِينَيْن) الحيوانين المقرونين، وكلمة (لَزَّ) معناها: جمع بينهما بشدة حتى ألصق أحدهما بالآخر، ومنه قول الشاعر:

وابـنُ اللَّبـون إذا مـا لُـزَّ فـي قَـرَنٍ   لـم يَسْتَطـع صـولَـةَ البُـزْل القناعيـس

(٢) الكهف: ٥٠.

(٣) لأن ﴿قَرِينًا﴾ لا يصح أن تعرب حالا مثل (بدلا)، إذْ هذا يقتضي أن تكون ﴿ساء﴾ متعدية، ومفعولها محذوفاً، وهذا معناه أنها فعل متصرف فلا تدخله الفاء، أو تدخله مصحوبة بقد، وقددخلت الفاء بدون قد هنا.

﴿مِثْقَالَ﴾ مفعال من الثقل، والذرّة: الصغيرة الحمراءُ من النمل، وهي أصغر ما يكون إذا مرَّ عليها حول، لأنها تصغر وتجري كما تفعل الأفعى. تقول العرب: أفعى جارية، وهي أشدها، وقال امرؤُ القيس:

مِنَ القَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لوْ دَبَّ مُحْولٌ مِنَ الذَّرِّ فوْقَ الأَتْبِ منها لأَثَّرا[١]

فالمُحول: الذي أتى عليه الحول، وقال حسان:

لـوْ يـدبُّ الحَـوْلـيُّ مِـنْ وَلَـد الـذَّ رِّ عليهـا لأنْـدَبَتْهَـا الكُلُـوم[٢]

وعبَّرَ عن الذَّرَّة يزيد بن هارون بأنَّها دودة حمراء، وهي عبارة فاسدة، وروي عن ابن عباس: الذرة: رأس النملة، وقرأ ابن عباس: [إن اللهَ لا يظلمُ مثقال نملَة][٣]، ﴿مِثْقَالَ﴾: مفعول ثان لِـ ﴿يَظْلِمُ﴾، والأول مضمر، التقدير: إنَّ الله لا يظلم أحداً مثقال. و(يَظْلِم)، لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد، وإنما عُدِّي هنا إلى مفعولَيْن بأن يقدر في معنى ما يتعدىٰ إلى مفعولين، كأنه قال: إن الله لا ينقص، أو لا يَبْخَس، أو لا يَغْصب، ويصح أن يكون نصب ﴿مِثْقَالَ﴾ على أنه بيان وصفة لمقدار الظلم المنفي، فيجيءُ ـ على هذا ـ نعتاً لمصدر محذوف، التقدير: إن الله لا يظلم ظلماً مثقال ذرَّة، كما تقول: إن الأمير لا يظلم قليلاً ولا كثيراً، أَي: لا يظلم ظلماً قليلاً ولا كثيراً، فعلى هذا وقف ﴿يَظْلِمُ﴾ على مفعول واحد، وقال قتادة عن نفسه ـ ورواه عن بعض العلماءِ ـ «لأَن تفضل حسناتي سَيِّئَاتي بمثقال ذرة أَحبُّ إلي من الدنيا جميعاً». وحذفت النون من [تكُن] لكثرة الاستعمال، وشبهها خفَّة بحروف المدِّ واللِّين.

---

(١) القاصرات الطرف: اللائي يقصرن نظرهن على أزواجهن تصوناً وتعففاً، والذرُّ: صغار النمل، واحدته: ذرَّة، قال ثعلب: إن مائة منها وزن حبَّة من شعير، وقيل: ليس لها وزن، ويراد به ما يرى في شعاع الشمس الداخل من النافذة، والمُحْول: الذي مرّ عليه حول كما فسَّره ابن عطية، والأَتْب: ثوب رقيق له جيب وليس له أكمام، والبيت من القصيدة التي مطلعها:

سَمَـالَـكَ شَـوْقٌ بعْـدَ مـا كَـانَ أَقْصَـرا وحَلـتْ سُلَيْمـى بَطْـنَ قَـوٍّ فَعَـرْعَـرا

(٢) البيت من قصيدة حسان التي مطلعها:

مَنَـع النَّـوْمَ بـالعشـاءِ الهُمُـومُ وخيـالٌ إذا تَغُـور النُّجـومُ

وأراد بالحوالي هنا صغير النمل، والكُلوم: الجراح ـ جمع كَلْم ـ. وهو يصف في البيت جلدها الناعم الذي يؤثر فيه صغير النمل إذا مرَّ عليه لرقته.

(٣) قال أبو حيان: لعلَّ ذلك على سبيل الشرح للذرة. ولكنه نسب القراءة لابن مسعود.

وقرأ جمهور السبعة ﴿حَسَنَةً﴾ بالنصب على نقصان (كان)، واسمها مضمر تقديره: وإن تك زنة الذرة حسنة، وقرأ نافع وابن كثير [حَسَنَةٌ] بالرفع على تمام (كان). التقدير: وإن تقع حسنة، أو توجد حسنة، و﴿يُضَٰعِفْهَا﴾ جواب الشرط، وقرأ ابن كثير، وابن عامر: [يُضَعِّفها] مُشَدَّدة العين بغير أَلف، قال أَبو علي: المعنى فيهما واحد، وهما لغتان، وقرأ الحسن: [يُضْعِفها] بسكون الضاد وتخفيف العين. ومضاعفة الشيء في كلام العرب: زيادة مثله إِليه، فإِذا قلت: (ضعَّفت)، فقد أَتيت ببنية التكثير، وإِذا كانت صيغة الفعل دون التكثير تقتضي الطَّيّ[1] مرتين فبناء التكثير يقتضي أَكثر من المرتين إِلى أَقصى ما تريد من العدد، وإِذا قلت: (ضاعَفْت) فليس بِبِنْيَةِ تكثير، ولكنه فعل صيغته دالة على الطَّيِّ مرتيْن فما زاد. هذه أُصول هذا الباب على مذهب الخليل وسيبويه، وقد ذكر أَبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب المجاز أَن (ضَاعَفْتُ) يقتضي مراراً كثيرة. و(ضَعَّفْتُ) يقتضي مرتين، وقال مثلَه الطبري، ومنه نقل، ويدلُّك على تقارب الأَمر في المعنى ما قرئَ به في قوله ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[2]، فإِنه قرئَ: [يُضَاعِفَه]، و[يُضَعِّفَه]، وما قرئ به في قوله تعالىٰ: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾[3]، فإِنه قُرئَ: [يُضَعَّفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ].

وقال بعض المتأَولين: هذه الآية خص بها المهاجرون، لأَن الله أَعلم في كتابه أَن الحسنة لكل مؤمن مضاعفةٌ عشر مرار، وأَعلم في هذه أَنها مُضاعفة مراراً كثيرة جداً حسب ما روى أَبو هريرة من أَنها تضاعف أَلْفي أَلف مرة، وروى غيره من أَنها تضاعف أَلف أَلف مرة[4]، ولا يستقيم أَن يتضاد الخبران، فهذه مخصوصة للمهاجرين السابقين حسبما روى عبد الله بن عمر: (أَنها لما نزلت: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ

---

(١) جاء في «لسان العرب» ـ مادة ضعف ـ: «وضَعَّفَ الشَّيْءَ: أَطْبَقَ بعضَه على بعضٍ وثَنَاه فصار كأنه ضعف»، وهذا يفسر معنى التعبير هنا بكلمة: «الطَّيّ».

(٢) البقرة: ٢٤٥.

(٣) ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٠].

(٤) أَخرج ابن أبي شيبة عن أبي عثمان قال: بلغني عن أبي هريرة أنه قال: «إن الله يجزي المؤمن بالحسنة أَلف أَلف حسنة»، فأَتيته فسألته قال: «نعم، وألفي ألف حسنة، وفي القرآن من ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ فمن يدري مما ذلك الإضعاف». وأَخرج ابن جرير عن أبي عثمان النهدي مثله، (الدر المنثور ٢ ـ ١٦٣).

﴿أَمْثَالِهَا﴾[١] في الناس كافة، قال رجلٌ، فما للمهاجرين؟ فقال: ما هو أَعظم من هذا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ﴾ الآية[٢]. فخصوا بهذا كما خصت نفقة سبيل الله بتضعيف سبعمائة مرة[٣]، ولا يقع تضاد في الخبر.

وقال بعضهم: بل وعد بذلك جميع المؤمنين، وروى في ذلك أَحاديث وهي: (إن الله عزَّ وجلَّ يَجْمع الأَولين والآخرين في صعيد واحد، فينادي: هذا فلان بن فلان، فمن كان له عنده حق فليقم، قال: فيحب الإِنسان أَن لو كان له يومئذ الحق على أَبيه وابنه، فيأْتي كل من له حق فيأْخذ من حسناته حتى يقع الانتصاف، ولا يبقى له إلا وزن الذرَّة، فيقول الله تعالىٰ: أَضعفوها لعبدي، واذهبوا به إلى الجنة)[٤]، وهذا يجمع معاني ما روي مما لم نذكره.

والآية تعمُّ المؤمنين والكافرين ـ فأَمَّا المؤمنون فيجازون في الآخرة على مثاقيل الذَّرِّ فما زاد، وأَما الكافرون فما يفعلون من خير فتقع المكافأَة عليه بِنِعَم الدنيا، ويجيئون يوم القيامة ولا حسنة لهم.

و﴿لَّدُنْهُ﴾ معناه: من عنده، قال سيبويه: ولدن: هي لابتداءِ الغاية فهي تناسب أَحد مواضع (مِنْ)، ولذلك التَأَما، ودخلت (مِن) عليها[٥].

والأَجر العظيم: الجنة، قاله ابن مسعود، وسعيد بن جبير، وابن زيد، والله إذا مَنَّ بتفضُّلِه بلغ بعبده الغاية[٦].

---

(١) الأنعام: ١٦٠.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن عمر. (الدر المنثور ٢ ـ ٢٦٢.

(٣) يشير بهذه إلى الآية الكريمة من سورة البقرة ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

(٤) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أَبي حاتم، عن ابن مسعود. ونقله في (الدر المنثور) مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٥) مِنْ مواضع (مِنْ) أن تكون لابتداء الغاية، وهي في هذا مثل (لدن)، فلما تشاكلا حسن دخول (مِنْ) على (لَدُن). وفي (لَدُنْ) لغات كثيرة، منها: لَدُن ـ بفتح وضم، ولُدْن ـ بضم وسكون، ولَدْن ـ بفتح وسكون، ولَدِنْ ـ بفتح وكسر، وَلَدُ ـ بفتح وضم مع حذف النون، ولَدَى ـ بفتحتين مع ياء. (عن كتب اللغة).

(٦) أخرج ابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن =

قوله تعالىٰ:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾.

تقدم في الآية قبلها الإعلام بتحقيق الأَحكام يوم القيامة، فحسن ـ بعد ذلك ـ التنبيه على الحالة التي يحضر ذلك فيها، ويُجاءُ فيها بالشهداء على الأُمم. ومعنى الآية: إن الله يأتي بالأنبياءِ شهداءَ على أممهم بالتصديق والتكذيب، ومعنى الأمة ـ في هذه الآية ـ غير المعنى المتعارف في إضافة الأُمم إلى الأنبياءِ، فإن المتعارف أَن تريد بأُمة محمد عليه الصلاة والسلام جميع من آمن به. وكذلك في كل نبي، وهي هنا: جميع من بُعث إليه. من آمن منهم ومن كفر. وكذلك قال الأَولون: إن الإشارة بـ ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ إلى كفار قريش وغيرهم من الكفار، وإنما خص كفار قريش بالذكر لأَن وطأَة الوعيد أَشد عليهم منها على غيرهم.

﴿ فَكَيْفَ ﴾ في موضع نصب مفعول مقدم بفعل تقديره في آخر الآية: ترى حالهم، أَو يكونون، أَو نحوه، وقال مكي في الهداية: ﴿ جِئْنَا ﴾ عاملٌ في ﴿ فَكَيْفَ ﴾، وهذا خطأٌ.

وروي (أَن رسول الله ﷺ كان إذا قرأَ هذه الآية فاضت عيناه)، وكذلك ذرفت عيناه عليه الصلاة والسلام حين قرأَها عليه عبد الله بن مسعود في الحديث المشهور[1]، وما ذكره الطبري من شهادة أُمة محمد بتبليغ الرسل، وما جرى في معنى ذلك من القصص الذي ذكر مكي كسؤال اللوح المحفوظ، ثم إسرافيل، ثم جبريل، ثم الأَنبياءِ ـ فليست هذه آيته، وإنما آيته: ﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[2].

= أبي هريرة: ﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾. قال الجنَّة. (الدر المنثور).

(١) روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ علي»، فقلت: آقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: «إني أُحب أن أَسمعه من غيري»، فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾، قال: «أَمسك»، فإذا عيناه تذرفان، وأخرجه مسلم، وقال بدل قوله: «أَمسك»: فرفعت رأسي، أو غمزني رجل إلى جنبي فرفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل، قال ابن كثير: «وقد روي من طرق متعددة عن ابن مسعود فهو مقطوع به».

(٢) ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف، ويصح أَن يكون نصب ـ يوم ـ في هذا الموضع على الظرف، على أنه معربٌ من الأَسماءِ غير المتمكنة، ويصح أَن يكون نصبه على أنه مبني على النصب مع الأَسماء غير المتمكنة، والودُّ إِنما هو في ذلك اليوم.

وقرأَ نافع، وابن عامر: [تَسَّوَّى] على إدغام التاءِ الثانية من (تَتَسَوَّى)، وقرأَ حمزة والكسائي: [تَسَوَّى] بتخفيف السين وتشديد الواو[1]، على حذف التاءِ الثانية المذكورة، وهما بمعنى واحد، واختلف فيه ـ فقالت: فرقة: تنشق الأَرض فيحصلون فيها، ثم تتسوى هي في نفسها عليهم وبهم[2]، وقالت فرقة: معناه: لو تسوّى هي معهم في أَن يكونوا تراباً كآبائهم، فجاءَ اللفظ على أَن الأَرض هي المسوية معهم، والمعنى إِنما هو أَنهم يستوون مع الأَرض، ففي اللفظ قلْب يخرج على نحو اللغة التي حكاها سيبويه: أَدخلتُ القلنسوة في رأْسي، وأَدخلت فمي في الحَجَر، وما جرى مجراه، وقرأَ ابن كثير، وابن عامر، وأَبو عمرو: ﴿تُسَوَّىٰ﴾ على بناءِ الفعل للمفعول الذي لم يسمَّ فاعله، فيكون الله تعالىٰ يفعل ذلك على حسب المعنَيَيْن المتقدمين. قال أَبو علي: إِمالة الفتحة إِلى الكسرة، والأَلف إِلى الياءِ في: [تُسَوَّى] حسنَةٌ.

قالت طائفة: معنى الآية أَن الكفار لِما يرونه من الهول وشدة المخاوف يودُّون أَن تُسوى بهم الأَرض فلا ينالهم ذلك الخوف، ثم استأْنف الكلام فأَخبر أَنهم لا يكتمون حديثاً لنطق جوارحهم بذلك كله، حين يقول بعضهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[3]، فيقول الله: كذبتم، ثم يُنْطِق جوارحهم فلا تكتُم حديثاً، وهذا قول ابن عباس، وقال فيه: إِن الله إِذا جمع الأَولين والآخرين ظَنَّ بعض الكفار أَن الإِنكار يُنجي فقالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فيقول الله: كذبتم، ثم يُنْطق جوارحهم فلا تكتم حديثاً، وهكذا فتح ابن عباس على سائل أَشكل عليه الأَمر[4]. وقالت طائفة مثل القول الأَول إِلا أَنها

---

(١) أي: مع فتح التاءِ أَيضاً.

(٢) هذا رأي «أبو عبيدة» وجماعة ـ والباء في ﴿بِهِمُ﴾ بمعنى: عليهم.

(٣) ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

(٤) أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أَبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن سعد بن جبير قال: «جاء رجل إلى ابن عباس فقال: أَرأيت أَشياء تختلف عليَّ في القرآن؟ فقال ابن عباس: ما هو، أَشك في القرآن؟ قال: ليس هو بالشك، ولكنه اختلاف، قال: هات ما اختلف عليك من ذلك، قال: أسمع الله يقول: =

قالت: إنما استأنف الكلام بقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ ليخبر عن أَن الكتم لا ينفع وإن كتموا، ولأَن الله تعالىٰ يعلم جميع أَسرارهم وأَحاديثهم، فمعنى ذلك: وليس ذلك المقام الهائل مقاماً ينفع فيه الكتم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

الفرق بين هذين القولين أَن الأَول يقتضي أَن الكتم لا ينفع بوجه، والآخر يقتضي أَن الكتم لاينفع وقع أَو لم يقع، كما تقول: هذا مجلس لا يقال فيه باطل، وأَنت تريد: لا ينتفع به ولا يستمع إليه. قالت طائفة: الكلام كله متصل، ومعناه: يود الذين كفروا لو تسوى بهم الأَرض، ويودُّون أَلا يكتموا الله حديثاً، وودهم لذلك إنما هو ندم على كذبهم حين قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وقالت طائفة: هي مواطن وفروق. وقالت طائفة: معنى الآية: يَودُّ الذين كفروا أَن تُسَوَّى بهم الأَرض، وأَنهم لم يكتموا الله حديثاً، وهذا على جهة الندم على الكذب أَيضاً، كما تقول: وددت أَن أَعْزِمَ كذا، ولا يكون كذا على جهة الفداءِ، أَي: يفدون كتمانهم بأَن تسوى بهم الأَرض.

والرسول ـ في هذه الآية ـ: للجنس، شرف بالذكر، وهو مفرد دلَّ على الجمع، وقرأَ أَبو السمَّال، ويحيى بن يَعْمَرْ: [وَعَصَوِا الرَّسول] بكسر الواو من: [عَصَوا].

قوله تعالىٰ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾.

سببُ النَّهي عن قُرب الصلاة في حال سُكْر: أَن جماعةً من أَصحاب رسول الله ﷺ شربت الخمر عند أَحدهم قبل التحريم، فيهم أَبو بكر، وعمر، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، فحضرت الصلاة فتقدمهم عليُّ بن أَبي طالب فقرأَ: ﴿قُلْ

= ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وقال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ فقد كتموا، وأسمعه يقول: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾، ثم قال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾، الخ الحديث، وهو موجود في (الدر المنثور ٢ ـ ١٦٤)، ونقل (ابن كثير) الجزء الخاص منه بهذه الآية فقط ٢ ـ ٢٩١.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ﴾ فخلط فيها بأَن قال: «أَعبُد ما تعبدون، وأَنتم عابدون ما أَعبُد»، فنزلت الآية، وروي أَن المصلي عبد الرحمن بن عوف[١].

وجمهور المفسرين على أَن المراد سُكْر الخمر، إلا الضحاك فإِنه قال: إِنما المراد سكر النوم[٢].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

والخطاب لجميع الأُمَّة الصاحين، أَما السكران ـ إذا عدم الميز لسكره ـ فليس بمخاطب في ذلك الوقت، وإِنما هو مخاطب إِذا صحا بامتثال ما يجب عليه، وبتكفير ما ضاع في وقت سكره من الأَحكام التي تقرر تكليفه إِياها قبل السكر، وليس في هذا تكليف ما لا يطاق على ما ذهب إِليه بعض الناس.

وقرأَت فرقة: [سَكَارى] جمع: سَكْران[٣]، وقرأَت فرقة: [سَكْرى] بفتح السِّين، على مثال: فَعْلى، وقرأَ الأَعمش: [سُكْرى] بضم السين وسكون الكاف على مثال: فُعْلى، وقرأَ النخعي: [سَكْرى] بفتح السِّين[٤]، قال أَبو الفتح: هو تكسير (سكران)

---

(١) أخرج عبد بن حميد، وأَبو داود، والترمذي وحسَّنه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، والحاكم وصححه، عن علي بن أبي طالب قال: «صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منَّا، وحضرت الصلاة فقدموني، فقرأت: قل يأَيها الكافرون، لا أَعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون، فأنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ (الدر المنثور).

(٢) حجته في ذلك ما رواه البخاري عن أنس أنَّ النبي ﷺ قال: «إذا نعس أَحدكم وهويصلي فلينصرف فَلْيَنَمْ حتى يعلم ما يقول»، وابن عطية يرى أن قول الضحاك ضعيف لأن الحديث يعطي حكماً آخر، وليس شرحاً للآية.

(٣) نحو: نَدمان ونَدَامى، وهو جمع تكسير ـ عن (البحر المحيط ٣ ـ ٢٥٥) ـ أَما قراءة الجمهور ﴿سُكَـٰرَىٰ﴾ بالضم، ومذهب سيبويه أنها جمع تكسير، قال في حدّ تكسيرالصفات: «وقد يكسرون بعض هذا على فُعالى، وذلك قول بعضهم: سُكارى وعُجالىٰ، فهذا نصٌّ منه على أنه جمع، ولهذا قال أَبو حيان: ووهم الأستاذ أَبو الحسن بن الباذش فنسب إلى سيبويه أَنها اسم جمع، قال ابن الباذش: «وهو القياس، لأنه جاء على بناء لم يجئْ عليه جمع البتَّة».

(٤) يلاحظ أن في هذا تكراراً مع قوله قبل قليل: «وقرأت فرقة: [سَكْرى] فتح السين على مثال: فعلى».

على (سكرى)، كما قالوا: رَوْبى نياما[١]، وكقولهم: هَلْكى ومَيْدى[٢] في جمع: هالك ومائد، ويحتمل أن يكون صفة لمؤنثة واحدة، كأن المعنى: وأنتم جماعة سكْرى. وأما [سُكرى] بضم السِّين فصفة لواحدة، كَحُبْلى، والسُّكْرُ: انسداد الفهم، ومنه: سكرت الماءَ إذا سددت طريقه.

وقالت طائفة: الصلاة ـ هنا ـ العبادة المعروفة حسب السبب في نزول الآية. وقالت طائفة: الصلاة ـ هنا ـ المراد بها موضع الصلاة والصلاة معاً، لأنهم كانوا حينئذ لا يأتون المسجد إلا للصلاة، ولا يصلُّون إلا مجتمعين، فكانا متلازمين[٣].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما احتيج إلى هذا الخلاف بحسب ما يأتي في: (عابِرِي السبيل).

ويظهر من قوله: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا﴾ أن السكران لا يعلم مايقول، ولذلك قال عثمان بن عفان رضي الله عنه وغيره: إن السكران لا يلزمه طلاقه، فأسقط عنه أحكام القول، لهذا، ولقول النبي عليه الصلاة والسلام لِلَّذي أقر بالزنى: (أَسكران أنت)؟ فمعناه أنه لو كان سكراناً لم يلزمه الإقرار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبين طلاق السكران وإقراره بالزنى فرق، وذلك أن الطلاق، والإقرار بالمال، والقذف، وما أشبه هذا يتعلق به حقوق الغير من الآدميين، فيتهم السكران إن ادَّعى أنه لم يعلم، ويُحكم عليه حكم العالِم، والإقرار بالزنى إنما هو حقٌّ لله تعالىٰ فإذا

---

(١) جاء في اللسان: «وقال سيبويه (عن معنى قوم رَوْبى): «هم الذين أسخنهم السفر والوجع فاستثقلوا نوماً، ويقال: شربوا من الرائب فناموا، قال بشر:

فأما تَميمٌ، تَميمُ بنُ مُرٍّ ... فألْفاهُمُ القَومُ رَوْبى نِيَاما

ثم قال: «وهو في الجمع شبيه بهَلْكى وسَكْرى، واحدهم: رَوْبان، وقال الأصمعي: واحدهم: رائب، مثل مائق وموقى، وهالك وهلكى.

(٢) الميْدُ ما يُصيب من الحيرة عن السكر، أو الغثيان، أو ركوب البحر، وقد ماد فهو مائد، من قوم ميدى كرائب ورَوْبى، قال الفراء: سمعت العرب تقول: الميْدى: الذين أصابهم الميْد من الدوار (اللسان).

(٣) القول الأول هو قول أبي حنيفة، والثاني هو قول الشافعي، وترتب على ذلك الاختلافُ في معنى قوله تعالىٰ بعد ذلك ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ كما سيأتي.

ادعى فيه بعد الصَّحو أنه كان غير عالم دين ، وأَما أَحكام الجنايات فهي كلها لازمة للسكران.

﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ ابتداءٌ وخبر ، جملة في موضع الحال ، وحكي عن ابن فورك أَنه قال: معنى الآية النهي عن السكر ، أَي: لا يكن منكم سكر فيقع قرب الصلاة ، إِذ المرءُ مدعوٌّ إلى الصلاة دأبا ، والظاهر أَن الأمر ليس كذلك ، وقد روي أَن الصحابة ـ بعد هذه الآية ـ كانوا يشربون ويقللون إِثر الصبح وإِثر العتمة ، ولا تدخل عليهم صلاة إِلا وهم صاحون.

وقوله: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ عطف على موضع هذه الجملة المنصوبة[(١)] ، والجُنُب: هو غير الطاهر من إِنزال أَو مجاوزة ختان ، هذا قول جمهور الأُمة ، وروي عن بعض الصحابة: لا غسل إِلا على من أَنزل[(٢)] ، وهو من الجنابة وهي البعد كأَنه جانب الطُّهر ، أَو من الجَنْب كأَنه ضاجع ومسَّ بجنبه جنباً ، وقرأَت فرقة: [جَنْبا] بإِسكان النون.

و﴿عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ هو من العبور ، أَي: الخطور والجواز ، ومنه: عبر السفينة النهر ، ومنه: ناقة عُبْرُ السَّير والفلاة والمهاجرة[(٣)] ، أَي: تعبرها بسرعة السَّير ، قال الشاعر وهي امرأَة:

---

(١) قال أبو (ح) في (البحر المحيط): هذه حالة معطوفة على قوله: ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ إذ هي جملة حالية ، والجملة الاسمية أَبلغ لتكرار الضمير ، فالتقييد بها أَبلغ في الانتفاء منها من التقييد بالمفرد الذي هو ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ ، ودخول (لا) دال على مراعاة كل قيد منهما بانفراده ، وإذا كان النهي عن إِيقاع الصلاة مصاحبة لكل حال بانفراده فالنهي عن إِيقاعهما بهما مجتمعين أَدخل في الحظر. ا.هـ. ٣ ـ ٢٥٦.

(٢) لقول عليه الصلاة والسلام: (إنما الماءُ من الماءِ) أخرجه مسلم ، وفي البخاري عن أُبي بن كعب أنه قال: «يا رسول الله ، إذا جامع الرجل المرأة فلم يُنزل؟ قال: يغسل ما مسَّ المرأة منه ، ثم يتوضأ ويُصلي». قال أبو عبد الله «يعني البخاري»: الغسل أَحوط ، وذلك الآخر «يريد الرأي الآخر الدال على عدم الغسل» إنما بيناه لاختلافهم ، وأَخرجه مسلم بمعناه في صحيحه. قال أبو إسحق: «هذا منسوخ» ، وقال الترمذي: «كان هذا الحكم في أول الإسلام ثم نسخ» ، وقد كان هناك خلاف بين الصحابة في هذا الموضوع ، ثم رجعوا فيه إلى رواية عائشة عن النبي ﷺ: «إذا جلس بين شعبها الأربع ، ومسَّ الختان الختان فقد وجب الغسل». أخرجه مسلم. (عن القرطبي).

(٣) في اللسان: «وجمل عُبْرُ أَسفار ، وجمال عُبْر أَسفار ، يستوي فيه الواحد والجمع والمؤنث ، مثل الفلك ، وكذلك عِبْر أَسفار ، وناقةٌ عُبْر أَسفار وسفر ، وعَبْرٌ ، وعِبْرٌ: قوية على السفر ، تشق ما مرت به ، وتُقطع الأسفار».

عَيْـرَانَـةٌ سُـرُحُ الْيَـدَيْـنِ شِمِلَّـةٌ عُبْرُ الْهَوَاجِرِ كالهِزَفِّ ٱلْخَاضِبِ[1]

وقال علي بن أَبي طالب ، وابن عباس ، وابن جبير ، ومجاهد ، والحكم ، وغيرهم: عابر السبيل: هو المسافر ، فلا يصح لأَحد أَن يقرب الصلاة وهو جنب إِلا بعد الاغتسال إِلا المسافر فإِنه يَتَيَمَّم. وقال ابن عباس أَيضاً ، وابن مسعود ، وعكرمة ، والنخعي ، وغيرهم: عابر السبيل: الخاطر في المسجد ، وهو المقصود في الآية ، وهذا يحتاج إِلى ما تقدم من أَن القول بأَن الصلاة هي المسجد والمصلى ، وروى بعضهم أَن سبب نزول الآية (أَنَّ قَوْماً من الأَنصار كانت أَبواب دورهم شارعة في المسجد ، فإِذا أَصابت أَحدهم الجنابة اضطر إِلى المرور في المسجد فنزلت الآية في ذلك)[2] ، ثم نزلت: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ إِلى آخر الآية بسبب عدم الصحابة الماء في غزوة «المُرَيْسيع»[3] حين أَقام على التماس العِقْد[4] ، هكذا قال الجمهور. وقال النخعي: نزلت في قوم أَصابتهم جراح ثم أَجنبوا ، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية ، ذكر النقاش أَن ذلك نزل بعبد الرحمن بن عوف ، والمريض المقصود في هذه الآية هو الحضري ، والذي يصح له التيمم هو الذي يخاف الموت لبرد الماءِ وللعلة به ، وهذا يَتَيَمَّم بإِجماع ، إِلا ما روي عن عطاء: أَنه يتطهر وإِن مات. والذي يخاف حدوث علَّة على علَّة ، أَو زيادة علَّة ، والذي يخاف بطء برءٍ ، فهؤلاء يَتَيَمَّمُونَ بإِجماع من المذهب فيما حفظت ، والأَسباب التي لا يجد المريض بها الماءُ هي: إِما عدم المناول ، وإِما خوف ما ذكرناه. وقال داوود: كل من انطلق عليه اسم المريض فجائز له التَّيَمُّم ، وهذا قول خُلْف ، وإِنما هو عند علماءِ الأُمة المجرور ، والمحصوب ، والعلل المخوف عليها من الماء.

والمسافر ـ في هذه الآية ـ: هو الغائب عن الحضر ، كان السفر مما تقصر فيه

---

(١) العيرانة: الناجية في نشاط ، أو هي الناقة الصلبة تشبيهاً لها بِعَيْر الوحش. والسُّرُح: السريعة المشي ، وشِملَّةٌ بكسر الأول وتشديد اللام: الخفيفة السريعة المشمرة ، والهِزَفّ: الجافي من الظلمان ، أو: الطويل الريش ، والخاضب: الظليم إذا أكل الربيع فاحمرت ساقاه وقوادمه.

(٢) أخرجه ابن جرير عن يزيد بن حبيب. (الدر المنثور).

(٣) المُرَيْسيع مصغر مرسوع: بئر أوماءٌ لخزاعة على يوم من الفرع ، وإليه تضاف غزوة بني المصطلق.

(٤) يريد (عقد) عائشة رضي الله عنها ، وفي البخاري ، والترمذي ، وسيرة ابن هشام أن القلادة كانت لأسماء واستعارتها عائشة ، وأنها قد انقطعت ، ثم وجدوها تحت البعير.

الصلاة أَو لا تقصر ، هذا مذهب مالك وجمهور الفقهاءِ ، وقال الشافعي ـ في كتاب الأَشراف ـ: وقال قوم: لا يتيمَّم إِلا في سفر يجوز فيه التقصير ، وهذا ضعيف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكذلك قالت فرقة: لا يتيمَّم في سفر معصية ، وهذا أَيضاً ضعيف.

والأَسباب التي لا يجد بها المسافر الماءَ هي: إِما عدمه جملة ، وإِما خوف فوات الرفيق بسبب طلبه ، وإِما خوف على الرحل بسبب طلبه ، وإِما خوف سباع أَو إِذاية عليه.

واختلف في وقت إِيقاعه التيمُّم ـ فقال الشافعي: في أَول الوقت ، وقال أَبو حنيفة ، وغيره: في آخر الوقت. وفرق مالك بين اليائس والعالم الطامع بإِدراكه في الوقت ، والجاهل بأَمره جملة ، وقال إِسحاق بن رَاهُوْيَهْ: لا يلزم المسافر طلب الماءِ إِلا بين يديه وحوله ، وقالت طائفة: يخرج في طلبه الغَلْوَتين[1] ونحوهما ، وفي مذهب مالك يمشي في طلبه ثلاثة أَميال ، وقال الشافعي: يمشي في طلبه ما لم يخف فوات رفيق ، أَو فوات الوقت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول حسن.

وأَصل ﴿ٱلْغَآئِطِ﴾ ما انخفض من الأَرض ، وكانت العرب تقصد بقضاءِ حاجتها ذلك الصنف من المواضع ، حتى كثر استعماله في قضاءِ الحاجة وصار عرفه ، وقرأَ قتادة ، والزهري: [مِنَ ٱلْغَيْطِ] ساكنة الياءِ من غير أَلف ، قال ابن جني: هو محذوف من فيعل ، عين هذه الكلمة واو[2] ، وهذا اللفظ يجمع بالمعنى جميع الأَحداث الناقضة للطهارة الصغرى ، واختلف الناس في حصرها ، وأَنبل ما أَعتقد في ذلك أَن أَنواع الأَحداث ثلاثة: ما خرج من السبيلين معتاداً ، وما أَذهب العقل ، واللَّمس. هذا على مذهب مالك ، وعلى مذهب أَبي حنيفة: ما خرج من النجاسات من الجسد ،

---

(١) كل مرماة بالسهم تسمى: غَلْوَة ، والجمع: غَلَوات وغلاءٌ ، وفي المثل: جزْيُ المذكيَّات غِلاءٌ ، ويقال: غلا بالسهم غَلْواً وغُلُوّاً: رفع يديه لأقصى الغاية ، وغلا السهم: ارتفع في ذهابه وجاوز المدى. (القاموس المحيط).

(٢) وهي في هذا مثل: ميْت ـ وقيل: غيْط مصدر ، إذ قالوا: غَاطَ يغيط ، أما (الغائط) فجمعه: الغيطان أو الأغواط ، وبه سميت غوطة دمشق.

ولا يراعى المخرج ولا غيره، ولا يُعد اللمس فيها، وعلى مذهب الشافعي: ما خرج من السبيلين، ولا يراعي الاعتياد، والإجماع من الأَحداث على تسعة: أَربعة من الذَّكر وهي: البول، والمني، والودي، والمذي، وواحد من فرج المرأة وهو: دم الحيض، واثنان من الدبر وهما: الريح والغائط. وذهاب العقل كالجنون، والإغماء، والنوم الثقيل ـ فهذه تنقض الطهارة الصغرى إجماعاً، وغير ذلك كاللمس، والدود يخرج من الدبر، وما أَشبهه ـ مختلف فيه.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿لَـٰمَسۡتُمُ﴾، وهي في اللغة لفظة قد تقع لِلَّمس الذي هو الجماع، وفي اللمس الذي هو جَسُّ اليد، والقبلة، ونحوه، إذ في جميع ذلك لَمْسٌ. واختلف أَهل العلم في موقعها هنا ـ فمالك رحمه الله يقول: اللفظة هنا على أَتم عمومها تقتضي الوجهين، فالمُلامس بالجماع يَتيمَّم، والمُلامس باليد يتيمَّم، لأَن اللَّمس نقض وضوءَه. وقالت طائفة: هي هنا مُخصصة لِلَمْس اليد، والجنُب لا ذِكْر له إلا مع الماءِ، ولا سبيل له إلى التيمُّم، وإنما يغتسل الجنُب أَو يدع الصلاة حتى يجد الماءَ، روي هذا القول عن عمر رضي الله عنه، وعن عبد الله بن مسعود وغيرهما، وقال أَبو حنيفة: هي هنا مخصصة لِلَّمس الذي هو الجماع، فالجنُب يتيمم، واللامس باليد لم يجر له ذكر فليس بِحَدثٍ، ولا هو ناقضٌ لوضوءٍ، فإذا قَبَّل الرجل امرأَته للذة لم ينتقض وضوءُه. ومالك رحمه الله يرى أَن اللمس ينقض إذا كان لِلَذَّة، ولا ينقض إذا لم يقصد به اللَّذة، ولا إذا كان لابنة أَو لأُم، والشافعي رحمه الله يُعمم لفظة النساءِ، فإذا لمس الرجل عنده أُمه أَو ابنته في أَي وجه كان انتقض وضوءُه.

عدم وجود الماء يترتب للمريض وللمسافر حسبما ذكرناه، ويترتب للصحيح الحاضر بالغلاءِ الذي يعم جميع الأَصناف، واختلف فيه ـ فقال الحسن: يشتري الرجل الماءَ بماله كله ويبقى عديماً، وهذا قول ضعيف لأَن دين الله يُسر، كما قال ﷺ، ويريد بنا اليُسر، ولم يجعل علينا في الدين من حرج. وقالت طائفة: يشتري ما لم يزد على القيمة الثلث فصاعداً، وقالت طائفة: يشتري قيمة الدرهم بالدرهمين والثلاثة، ونحو هذا. وهذا كله في مذهب مالك رحمه الله، وقيل لأَشهب: أَتُشترى القربةُ بعشرة دراهم؟ فقال: ما أَرى ذلك على الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقدر هذه المسألة إنما هو بحسب غنى المشتري وحاجته، والوجه عندي أن يشتري مَالَمْ يُؤْذِ غلاؤُه. ويترتب أيضاً عدم الماءِ للصحيح الحاضر بأن يُسجن أو يربط، وهذا هو الذي يقال فيه: إنه لم يجد ماءً ولا تراباً كما ترجم البخاري، ففيه أربعة أقوال ـ فقال مالك، وابن نافع: لا يُصلي ولا يعيد. وقال ابن القاسم: يصلي ويعيد، وقال أشهب: يُصلي ولا يُعيد، وقال أصبغ: لا يُصلي ويقضي. وإذا خاف الحضري فوات الوقت إن تناول الماءَ فَلِمَالِكٍ رحمه الله قولان في «المدونة»: إنه يتيمم ولا يُعيد، وقال: إنه يُعيد، وفي الواضحة وغيرها عنه أنه يتناول الماءَ ويغتسل وإن طلعت الشمس، وعلى القول بأنه يتيمم ولا يعيد إذا بقي من الوقت شيءٌ بقدر ما كان يتوضأُ ويصلي ركعة، فقيل: يعيد، وقيل: لا يعيد.

معنى قوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾: اقصدوا، ومنه قول امرئ القيس:

تَيَمَّمتِ العيْنَ الَّتي عند ضارجٍ يَفيءُ عَلَيها الظِّلُّ عَرْمَضُها طامِي[(١)]

ومنه قول أعشى بني ثعلبة:

تَيَمَّمْتُ قَيْساً وكَمْ دونَهُ من الأَرض مِن مَهْمَهٍ ذي شَزَنْ[(٢)]

ثم غلب هذا الاسم في الشرع على العبادة المعروفة.

والصعيد في اللغة: وجه الأرض، قاله الخليل وغيره، ومنه قول ذي الرمة:

كَأَنَّهُ بِالضُّحَى تَرْمي الصَّعيدَ به دبَّابةٌ في عظام الرأس خُرطُومُ[(٣)]

---

(١) البيت في وصف ناقته، أو بعض الحمر الوحشية. ومعنى تَيَمَّمَتْ: قَصَدَتْ، وضارج: اسم موضع في بلاد بني عبس، والعَرْمض: الطحلب، وقيل: بل الخضرة على الماء، أما الطحلب فيكون كأنه نسيج العنكبوت، وطامي: مرتفع.

(٢) المهمه: المفازة البعيدة، والجمع: مَهامِهْ، والشَّزَن: الأرض الغليظة، والجمع: شُزُنٌ وشُزُون. قال الصاغاني: الرواية: تَيَمَّمُ قيساً إلخ، على الفعل المضارع، أي: تَتَيَمَّمُ ناقتي، أي: تقصد. وقبله:

فَأَفْنَيْتُهَا وتَعَالَلْتُهَا عَلى صَحْصَحٍ كرداءِ الرَّدَنْ

ومثل البيتين اللذين أوردهما قول حميد بن ثور:

سَلِ الرَّبْعَ أَنّى يَمَّمَتْ أُمُّ طارقٍ وهلْ عادةٌ لِلرَّبْعِ أَنْ يَتَكَلَّما

(٣) الصعيد: التراب، أو وجه الأرض، قال تعالىٰ: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾، والدبَّابة: يريد بها هنا الخمر، وقد ورد في بعض النسخ (ذبابة) بالذال المعجمة، والرواية الصحيحة هي ما ذكرناه، وهكذا=

واختلف الفقهاءُ فيه من أَجل تقييد الآية إِياه بالطيب ـ فقالت طائفة: يتيمم بوجه الأرض، تراباً كان أَو رملاً أَو حجارة أَو معدناً أَو سبخة، وجعلت الطيب بمعنى: الطاهر، وهذا مذهب مالك. وقالت طائفة منهم: الطيب بمعنى: الحلال، وهذا في هذا الموضع قلق. وقال الشافعي وطائفة: الطيب بمعنى: المُنْبت، كما قال جل ذكره: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾[1]، فيجيءُ (الصعيد) على هذا: التراب، وهذه الطائفة لا تجيز التيمُّم بغير ذلك مما ذكرناه، فمكان الإِجماع: أَن يتيمَّم الرجل في تراب منبت طاهر غير منقول ولا مغصوب، وكان الإِجماع في المنع: أَن يتيمَّم الرجل على الذهب الصرف، أَو الفضة والياقوت والزمرد، أَو الأَطعمة كالخبز واللحم وغيرهما، أَو على النجاسات، واختلف في غير هذا كالمعادن ـ فأُجيز وهو مذهب مالك، ومُنع وهو مذهب الشافعي، وأَشار أَبو الحسن اللخمي إِلى الخلاف فيه موجود في المذهب، وأَما الملح فأُجيز في المذهب المعدني والجامد، ومُنعا، وأُجيز المعدني، ومنع الجامد. والثلج في «المدونة» جوازه، ولمالك في غيرها منعه، وذكر النقاش عن ابن عَلِيَّةَ وابن كيسان أَنهما أَجازا التيمُّم بالمسك والزعفران.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا خطأٌ بحتٌ من جهات.

وأَما التراب المنقول في طبق وغيره ـ فجمهور المذهب جواز التيمُّم به، وفي المذهب المنع، وهو في غير المذهب أَكثر، وأَما ما طبخ كالآجر والجص ففيه من المذهب قولان: الإِجازة والمنع، وفي التيمُّم على الجدار خلاف، وأَما التيمُّم على النبات والعود فاختلف فيه في مذهب مالك ـ فالجمهور على منع التيمم على العود، وفي مختصر الوَقَار[2]: أَنه جائز، وحكى الطبري في لفظة (الصعيد) اختلافاً ـ أَنها الأَرض الملساءُ، وأَنها الأَرض المستوية، وأَن الصعيد: التراب، وأَنه: وجه الأَرض.

= وردت بالقرطبي، والخرطوم: الخمر السريعة الإسكار ـ يقول: إن ولد الظبية لا يرفع رأسه، وكأنه رجل سكران صرعته الخمر السريعة الإسكار.

(١) ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨].

(٢) الوَقَار على وزن سَحَاب: لقب لزكريا بن يحيى بن إبراهيم المصري الفقيه. (عن معلق القرطبي).

وترتيب القرآن الوجه قبل اليدين، وبه قال الجمهور، ووقع في حديث عمار في البخاري في بعض الطرق تقديم اليدين[١]، وقاله بعض أهل العلم قياساً على تنكيس الوضوءِ، وتراعى في الوجه حدوده المعلومة في الوضوءِ، فالجمهور على أن استيعابه بالمسح في التيمُّم واجب، ويتتبعه كما يصنع بالماءِ، وألَا يقصد ترك شيءٍ منه، وأَجاز بعضهم أَلا يتتبع كالغضون في الخُفَّين، وما بين الأَصابع في اليدين[٢]، وهو في المذهب قول محمد بن مسلمة، ومذهب مالك في «المدونة» أَن التيمُّم بضربتين، وقال ابن الجهم: التيمُّم واحدة، وقال مالك في كتاب «محمد»: إنْ تيمَّم بضربة أَجزأَه، وقال غيره في المذهب: يعيد في الوقت، وقال ابن نافع: يعيد أَبداً، وقال مالك في «المدونة» يبدأُ بأَصابع اليسرى على أَصابع اليمنى، ثم يمر كذلك إلى المرفق، ثم يلوي بالكف اليسرى على باطن الذراع الأَيمن حتى يصل إلى الكوع، ثم يفعل باليمنى على اليسرى كذلك. فظاهر هذا الكلام أَنه يستغني عن مسح الكف بالأُخرى، ووجهه أَنهما في الإمرار على الذراع ماسحة ممسوحة، قال ابن حبيب: يمر بعد ذلك على كفيه، فهذا مع تحكيم ظاهر «المدونة» خلاف. قال اللَّخمِي: في كلام المدونة يريد: ثم يمسح كفه بالأخرى، فيجيءُ على تأْويل أَبي الحسن كلام ابن حبيب تفسيراً، وقالت طائفة: يبدأُ بالشمال كما في «المدونة»، فإذا وصل على باطن الذراع إلى الرسغ مشى على الكف، ثم كذلك باليمنى في اليسرى. ووجه هذا القول أَلا يترك من عضو بعد التَلبُّس به موضعاً، ثم يحتاج إلى العودة إليه بعد غيره. وقالت طائفة: يتناول بالتراب كما يتناول بالماءِ في صورة الإمرار دون رتبة، وقال مالك في «المدونة»: يمسح يديه إلى المرفقين، فإن مسح إلى الكوعين أَعاد في الوقت، وقال ابن نافع: يعيد أَبداً، قال غيرهما: في المذهب: يمسح إلى الكوعين، وهذا قول مكحول وجماعة من العلماء، وفي غير المذهب يمسح الكفين فقط، وفي ذلك

---

(١) أخرج ابن أَبي شيبة، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه ـ عن عمار بن ياسر قال: (كنت في سفر فأَجنبت فتمعكت فصليت، ثم ذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «إنما كان يكفيك أن تقول: هكذا»: ثم ضرب بيده الأرض فمسح بهما و جهه وكفيه). وتقديم اليدين إنما وقع في بعض الطرق في البخاري، ومعنى (تَمَعَّك): تمرغ في التراب وتقلَّب فيه.

(٢) في بعض النسخ: «وما بين الأصابع في الرأس)، وهي عبارة القرطبي أيضاً، وما ذكرناه أقرب إلى الصواب.

حديث عن عمار بن ياسر(١)، وهو قول الشعبي، وقال ابن شهاب: يمسح إلى الآباط، (وذكر الطبري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال لعائشة رضي الله عنها حين نزلت آية التيمم: إنك لمباركة، نزلت فيك رخصة، فضربنا ضربة لوجوهنا، وضربة بأيدينا إلى المناكب والآباط)(٢). وفي مصنف أبي داود عن الأعمش (أن رسول الله ﷺ مسح إلى أنصاف ذراعيه)، ولم يقل بهذا الحديث أحد من العلماء فيما حفظت، وما حكىٰ الدَّاوودي(٣) من أن الكوعين فرض، والمرافق سنة والآباط فضيلة ـ فكلام لا يعضده قياسٌ ولا دليل، وإنما عمَّمَ قوم لفظة اليد فأوجبوه من المنكب، وقاس قوم على الوضوءِ فأوجبوه من المرافق، وهنا وقف جمهور الأُمة(٤)، ووقف قوم من الحديث في الكوعين، وقيس أيضاً على القطع(٥)، إذ هو حكم شرعيٌّ وتطهير، كما هذا تطهير، ووقف آخرون مع حديث عمار في الكفَّين، واختلف المذهب في تحريك الخاتم، وتخليل الأصابع على قولين: يجب، ولا يجب.

قوله تعالىٰ:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

---

(١) هوالحديث الذي ذكرناه في الهامش رقم (١) في صفحة (٥٦٨)، إذ نصه: «فمسح بهما وجهه وكفيه».

(٢) أخرجه ابن جرير ـ والبيهقي في سننه عن عمار بن ياسر. ثم ذكر صاحب (الدر المنثور) بعد أن أورد الحديث أن الشافعي قال: هذا منسوخ، لأنه أول تيمم كان حين نزلت آية التيمم، فكل تيمم جاء بعده يخالفه فهو له ناسخ، ا.هـ (الدر المنثور ٢ ـ ١٦٧).

(٣) عبارة القرطبي: «وحُكي عن الدَّراوَرْدي أَن الكوعيْن فرض والآباط فضيلة»، وأشار معلقه إلى عبارة ابن عطية.

(٤) في بعض النسخ: وعمم جمهور الأمة. وما اخترناه يتمشى مع بقية الكلام، وهو أقرب إلى ما نقله القرطبي عن ابن عطية، فروايته عنه تقول: «وهاهنا جمهور الأمة».

(٥) روى القرطبي عن مكحول أنه قال: اجتمعت أنا والزهري فتذاكرنا التيمم، فقال الزهري: المسح إلى الآباط، فقلت عمن أخذت هذا؟ فقال: عن كتاب الله عزَّ وجل، إن الله تعالىٰ يقول: ﴿ فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم ﴾ فهي يدٌ كلها، قلت له: فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ ـ فمن أين تُقطع اليد؟ قال: فخصمته.

الرؤية في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ من رؤية القلب، وهي علم بالشيءِ. وقال قوم: معناه: أَلم تعلم. وقال آخرون: أَلم تخبَر، وهذا كله يتقارب. والرؤية بالقلب تصل بحرف الجر، وبغير حرف الجر.

والمراد بـ ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾: اليهود، قاله قتادة وغيره، ثم اللفظ يتناول معهم النصارى، وقال ابن عباس: نزلت في رفاعة بن زيد بن التابوت اليهودي(١).

و﴿ أُوتُوا۟ ﴾: أُعطوا، والنَّصيب: الحظ، والكتاب: التوراة والإنجيل، وإنما جعل المعطى نصيباً في حق كل واحد منفرد لأنه لا يحصر علم الكتاب واحد بوجه.

و﴿ يَشْتَرُونَ ﴾ عبارة عن إيثارهم الكفر وتركهم الإيمان، فكأَنه أَخذٌ وإعطاءٌ، هذا قول جماعة. وقالت فرقة: أَراد الذين كانوا يعطون أَموالهم للأَحبار على إقامة شرعهم، فهذا شراءٌ على وجهه على هذا التأْويل.

﴿ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ معناه: أَن تكفروا، وقرأَ النَّخَعي: [وَتُريدُون أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ] بالتاءِ منقوطة من فوق في [تُريدُونَ](٢).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية وما بعدها تقتضي توبيخاً للمؤمنين على استنامة(٣) قوم منهم إلى أَحبار اليهود في سؤالٍ عن دين، أَو في موالاة، أَو ما أشبه ذلك، وهذا بيِّن في أَلفاظها، فمن ذلك: ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ﴾، أَي: تدعوا الصواب في اجتنابهم، وتحسبوهم غير أَعداء، والله أَعلم بهم.

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ﴾ خبرٌ في ضمنه التحذير منهم، و﴿ بِٱللَّهِ ﴾ في قوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ ﴾ في موضع رفع بتقدير زيادة الخافض(٤)، وفائدة زيادته تبيين معنى الأَمر

---

(١) قال ابن إسحاق: كان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء يهود، إذا كلَّم رسول الله ﷺ لوَّىٰ لسانه وقال: أَرْعِنا سمعك يا محمد حتىٰ نفهمك، ثم طعن في الإسلام وعابه فأَنزل الله عزَّ وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

(٢) ويكون المعنى على هذا: إنكم تدعون الصواب وهو اجتنابُهم، وتحسبونهم غير أعداء لله تعالىٰ، وكأَنكم بهذا تريدون لأنفسكم الضلال.

(٣) يريد أنهم يسكنون إليهم مثل سكون النائم، وفيها معنى الخضوع أو شبهه.

(٤) زيادة الباء في فاعل (كفى) مطردة: والشواهد على ذلك كثيرة، ويجوز حذفها كما قال سحيم: =

في لفظ الخبر ، أي: اكتفوا بالله ، فالباءُ تدل على المراد من ذلك ، ﴿ وَلِيًّا ﴾ فعيلا و﴿ نَصِيرًا ﴾ كذلك ، من الولاية والنصر.

وقوله تعالىٰ: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ قال بعض المتأولين: ﴿ مِّنَ ﴾ راجعة على ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ الأولى ، فهي ـ على هذا ـ متعلقة بـ ﴿ تَرَ ﴾. وقالت طائفة: هي مُتَعَلِّقَة بـ ﴿ نَصِيرًا ﴾ ، والمعنى: ينصركم من الذين هادوا ، فعلى هذين التأويلين لا يوقف في قوله: ﴿ نَصِيرًا ﴾. وقالت فرقة: هي لابتداءِ الكلام ، وفيه إضمار تقديره: يُحَرِّفُونَ ، هذا مذهب أبي علي ، ونظيره قول الشاعر:

كـانـت مِـنْ جمَـالِ أَبـي أُقَيْـشٍ ... يُقَعْقَـع خَلْـف رِجْلَيْـهِ بِشَـنْ(١)

وقال الفراءُ وغيره: تقديره: (مَنْ) ، ومثله قول ذي الرمة:

فَظَلُّـوا ومنهـم دمْعُـهُ سـابِـقٌ لـه ... وآخـر يثنـي دمعَـةَ العَيْـن بـالْيَـدِ(٢)

فعلى هذا التأويل يوقف في قوله: ﴿ نَصِيرًا ﴾ ، وقول سيبويه أَصوب ، لأَن إِضمار الموصول ثقيل ، وإِضمار الموصوف أَسهل.

و﴿ هَادُواْ ﴾ مأْخوذ من هاد إِذا تاب ، أَو من يهود بن يعقوب ، وغيَّره التعريب ، أَو من التهوُّد ، وهو: الرويد من المشي واللِّين في القول. ذكر هذه كلها الخليل ، وقد تقدم شرحها وبيانها في سورة البقرة.

= «كفى الشَّيْبُ والإسلامُ للْمرءِ ناهياً»

(١) البيت للنابغة الذبياني ، وروي: «من جمالِ بني أُقيشٍ» ـ وهم حيٌّ من (عكل) ، وكانت جمالهم صعبة القياد ، وتنفر من كل شيءٍ تراه ، وقال ابن الكلبي: هم حيٌّ من الجن ، والشنُّ: القربة القديمة تكون صغيرة ، ويكون الماء فيها أبرد منه في غيرها ، والجمع: شنان. قال في اللسان: وفي المثل: «لا يقعقع لي بالشِّنان» ثم روى البيت ، وفي الحديث: أنه أَمر بالماءِ فقُرِّس في الشنان ، أَي: بُرِّد تبريداً شديداً ، هذا والحذف هو مذهب سيبويه ، وعليه أنشد النحويون:

لـو قلْـتَ مـا فـي قَـوْمِهـا لَـمْ تِيثَـمِ ... يَفْضُلهـا فـي حَسَـبٍ وَمَبْسِـمِ

أي: لو قلت ما في قومها أَحدٌ يَفْضلها ، ثم حذف.

(٢) الرواية في الديوان: «ومنهم دمْعُهُ غالبٌ له» ـ ولكن القرطبي رواه: «وآخر يُذري عَبْرَةَ العيْنِ بالهَمْلِ» وهي التي تناسب القصيدة التي مطلعها:

خليلـيَّ عُـوجـا عـوجـة نـاقتيكُمـا ... علـى طَلَـلٍ بيـن الْقَـرينـة والحبْـل

والشاهد عند الفراء أن المحذوف (مَنْ) والمعنى: «ومنهم مَنْ دَمْعُه» فحذف الموصول ، وأنكر المبرد والزجاج ذلك لأن حذف الموصول كحذف بعض الكلمة.

وتحريف الكلم على وجهين: إما بتغيير اللفظ، وقد فعلوا ذلك في الأَقَلّ ـ وإما بتغيير التأْويل، وقد فعلوا ذلك في الأَكثر، وإليه ذهب الطبري، وهذا كله في التوراة على قول الجمهور، وقالت طائفة: هو كلم القرآن، وقال مكي: كلام النبي محمد عليه الصلاة والسلام، فلا يكون التحريف على هذا إلا في التأْويل. وقرأَ النَّخَعي: [يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلَامَ] بالألف.

مَن جعل [مِنْ] متعلقة بـ ﴿نَصِيرًا﴾ جعل ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ في موضع الحال، ومَن جعلها منقطعة جعل ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ صفة.

وقوله تعالىٰ عنهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ عبارة عن عتوهم في كفرهم وطغيانهم فيه.

و﴿مُسْمَعٍ﴾ لا يتصرف إلا من (أسمع)، و﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ يتخرج فيه معنيان: أَحدهما: غير مأمور وغير صاغر، كأَنه قال: غير أَن تسمع مأموراً بذلك، والآخر: على وجه الدعاءِ، أَي: لا سمعت، كما تقول: امض غير مصيب، وغير ذلك، فكانت اليهود إذا خاطبت النبي بـ ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أَرادت في الباطن الدعاءَ عليه، وأَرت ظاهراً أَنها تريد تعظيمه، قال نحوه ابن عباس، وغيره، وكذلك ﴿وَرَٰعِنَا﴾ كانوا يريدون منه في نفوسهم معنى الرعونة، وحكى مكي معنى رعاية الماشية، ويُظهرون منه معنى المراعاة، فهذا معنى ليِّ اللسان، فقال الزجاج: كان يريدون: اجعل اسمك لكلامنا مرعى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا جفاءٌ لا يخاطب به نبي، وفي مصحف ابن مسعود: [راعونا] ـ ومن قال: ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾: غير مقبول منك فإنه لا يساعده التصريف[1]، وقد حكاه الطبري عن الحسن، ومجاهد. و﴿لَيًّا﴾ أَصله لوْياً، قلبت الواو ياءً وأُدغمت، و﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ أَي: توهيناً له، وإظهاراً للاستخفاف به.

---

(١) قال أبو حيان في (البحر المحيط): «وجه أن التصريف لا يساعد عليه، هو أَن العرب لا تقول: أَسمعتك بمعنى: قبلت منك، وإنما تقول: سمعت منك، بمعنى: قبلت: فيعبرون عن القبول بالسماع على جهة المجاز، لا بالإسماع، ولو أُريد ما قاله الحسن ومجاهد لكان اللفظ: واسمع غير مسموع منك».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا اللَّيُّ باللسان إلى خلاف ما في القلب موجود حتى الآن في بني إسرائيل، ويحفظ منه عصرنا أمثلة، إلا أنه لا يليق ذكرها بهذا الكتاب.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ الآية، المعنى: لو أنهم آمنوا وسمعوا وأطاعوا، واختلف المتأولون في قوله: ﴿وَٱنظُرْنَا﴾ ـ فقال مجاهد، وعكرمة، وغيرهما: معناه: انتظرنا، بمعنى: افهمنا وتمهَّل علينا حتى نفهم عنك، ونعي قولك، وهذا كما قال الحطيئة:

وَقَدْ نَظَرْتُكُمُ إِينَاءَ صَادِرَةٍ ... لِلْخِمْسِ طَالَ بها مَسْحِي وَتَنْسَاسِي[1]

وقالت فرقة: انظر معناه: انظر إلينا فكأنه استدعاءُ اهْتبالٍ وتَحَفٍّ[2]، ومنه قول ابن الرقيات:

ظَاهِرَاتُ الْجَمَال والحُسْن يَنْظُرْ ... نَ كما تَنْظُر الأَراكَ الظِّبَاءُ[3]

و﴿وَأَقْوَمَ﴾ معناه: أعدل وأصوب. واللعنة: الإبعاد، فمعناه: أبعدهم من الهدى، و﴿قَلِيلًا﴾ نعت، إمَّا لإيمان، وإما لِنَفر أو قوم، والمعنى مختلف ـ فمن عبر بالقِلَّة عن الإيمان قال: إما هي عبارةٌ عن عَدَمه على ما حكى سيبويه من قولهم: «أَرض قَلَّما تنبت كذا»، وهي لا تُنْبِتهُ جملة، وإما قلَّل الإيمان لما قلَّت الأشياءِ التي

---

(١) هذا البيت من القصيدة المشهورة التي قالها الحطيئة لمدح (بغيض) وهجاء الزبرقان بن بدر، وقد شكا الزبرقان الحطيئة إلى عمر بن الخطاب فحبسه، وفي البيت روايات كثيرة منها: «أثناء صادرة»، و«أعشاء صادرة» و«حَوْزي وتَنْساسي» و«مسحي وإبْساسي» ـ والإيناءُ: الانتظار، والصادرة: الراجعة عن الماء ـ يريد الإبل ـ والخِمْس بالكسر: من إظماءِ الإبل ثلاثة أيام، وترد اليوم الرابع، ويُحسب يوم الصدور وهو الخامس، قال الأزهري: الخِمس أن تشرب يوم وِرْدها، وتصدر يومها ذلك، وتظل بعد ذلك اليوم في المرعى ثلاثة أيام سوى يوم الصَّدَر، وترد اليوم الرابع، وذلك الخِمس ـ والمسح: إمرار اليد على الإبل ـ والتَّنْساس: السير الشديد. يقول: انتظرتكم كما تنتظر الإبل الصادِرَةُ التي تردالخِمْس ثم تُسْقَى لتَصْدُر. (عن اللسان) ـ وبعد هذا البيت يقول الحطيئة:

لمَّا بدا لي منكُمْ عيبُ أَنْفُسِكُم ... ولم يكُنْ لِجراحي عِنْدكُمْ آسي
أَزْمَعْتُ أَمْراً مُريحاً من نوَالِكُمُ ... ولَنْ تَرى طَارداً للحُرِّ كالْيَاس

(٢) اهْتَبل الشيْءَ: اغتنَمَه إذا كان كلمة حكمة، واهتبل: كذب كثيراً، واهتبل الصيد: بَغَاه، وتَحَفَّى بالشيء: اعتنى به، وبالغ في العناية.

(٣) الأراك: شجر معروف، يُستاك بفروعه، قال ابن شميل: هي شجرة طويلة خضراء ناعمة كثيرة الورق والأغصان.

آمنوا بها فلم ينفعهم ذلك، وذلك أنهم كانوا يؤمنون بالتوحيد ويكفرون بمحمد وبجميع أوامر شريعته ونواهيها. ومن عبَّر بالقِلَّة عن النفر قال: لا يؤمن منهم إلا قليل كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، وغيرهما، وإذا قدرت الكلام: نفراً قليلاً، فهو نصب في موضع الحال.

قوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

هذا خطابٌ لليهود والنصارى، و﴿لِّمَا مَعَكُم﴾ معناه: من شرع وملَّة، لا لما كان معهم من مُبدَّل ومُغيَّر.

والطامس: الداثر المُغَيَّر الأعلام، كما قال ذو الرمة:

مِنْ كُلِّ نَضَّاخَةِ الذِّفْرى إذا عَرِقَتْ ... عُرْضَتُها طَامِسُ الأَعْلام مَجْهُولُ[1]

ومن ذلك قيل للأعمى المسدودة عيناه: أعمى مطموس. وقالت طائفة: طَمْسُ الوجوه هنا: أن تعفى آثار الحواس فيها، وتزال الخلقة منها، فترجع كسائر الأعضاء في الخلو من أعضاء الحواس، فيكون الرَّدُّ على الأدبار في هذا الموضع بالمعنى، أي: خُلُوه من الحواس دبراً لكونه عامراً بها، وقال ابن عباس، وعطية العَوْفي: طمْس الوجوه أن تُزال العينان خاصة منها، وترد العينان في القفا، فيكون ذلك ردّاً على الدبر، ويمشي القهقرى. وحكى الطبري عن فرقة أن طمس الوجوه أن تتغير أعلامها وتصير منابت للشعر، فذلك هوالرد على الدبر، وردَّ على هذا القول الطبري. وقال مالك رحمه الله: كان أول إسلام كعب أنه مرَّ برجل من الليل وهو يقرأُ هذه الآية:

(١) هذا البيت لكعب بن زهير من قصيدته المعروفة: «بانت سعاد». ونضاخة: كثيرة النضخ، وهو سيلان الشيء بدرجة أكثر من النضح. والذِّفرى مِنْ كل حيوان: العظم الشاخص خلف الأذن، وجمعه: ذفريات وذَفارى، وهو أَوَّلُ ما يعرق من الحيوان عند الجري. والعُرْضَة كما جاء في اللسان: (وفلانة عُرْضَةٌ للأزواج، أي: قوية على الزوج، وفلان عُرْضَةٌ للشرِّ، أي: قويٌّ عليه، قال كعب بن زهير: من كل نضَّاخة... إلخ البيت)، ثم قال: (وكذلك الاثنان والجمع). وكأن المعنى أن هذه الناقة قويةٌ على هذا الطريق المجهول الذي طمست فيه الأعلام، وضاعت الآثار التي يهتدي بها المسافرون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ فوضع كفَّيه على وجهه، ورجع القهقرى إلى بيته، فأَسْلَم مكانه وقال: والله لقد خفت أَلا أَبلغ بيتي حتى يطمس وجهي. وقال مجاهد، والحسن، والسُّدي، والضحاك: ذلك تجوز، وإِنما المراد به وجوه الهدى والرشد، وطمسها: ختم الإِضلال والصدِّ عنها والتَّصْيير إِلى الكفر، وهو الردُّ على الأَدبار. وقال ابن زيد: الوجوه: هي أَوطانهم وسكناهم في بلادهم التي خرجوا إِليها، وطمْسها: إِخراجهم منها، والرد على الأَدبار: هو رجوعهم إِلى الشام من حيث أَتوا أَولا.

و﴿أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ هم أَهل أَيلة الذين اعتدوا في السبت في الصيد حسبما تقدم، وكانت لعنتهم أَن مُسخوا خنازير وقردة، قاله قتادة، والحسن، والسدي.

و﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ في هذا الموضع: واحد الأُمور، دالٌّ على جنسها، لا واحد الأَوامر، فهي عبارة عن المخلوقات كالعذاب واللعنة هنا، أَو ما اقتضاه كل موضع ما يختص به.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الآية. هذه مسأَلة الوعد والوعيد، وتلخيص الكلام فيها أَن يقال: الناس أَربعة أَصناف: كافرٌ مات على كفره فهذا مخلد في النار بإِجماع. ومؤمن محسنٌ لم يذنب قط ومات على ذلك، فهذا في الجنة محتوم عليه حسب الخبر من الله تعالىٰ بإِجماع، وتائب مات على توبته، فهو عند أَهل السُّنَّة وجمهور فقهاءِ الأُمة لاحقٌ بالمؤمن المحسن، إِلا أَن قانون المتكلمين أَنه في المشيئة. ومذنب مات قبل توبته، فهذا موضع الخلاف ـ فقالت المرجئة: هو في الجنة بإِيمانه، ولا تضره سَيِّئاتُهُ، وبنوا هذه المقالة على أَن جعلوا آيات الوعيد كلها مخصصة في الكفار، وآيات الوعد عامة في المؤمنين، تقيِّهم وعاصيهم. وقالت المعتزلة: إِذا كان صاحب كبيرة فهو في النار ولا بُدَّ. وقالت الخوارج: إِذا كان صاحب كبيرة أَو صغيرة فهو في النار مخلد، ولا إِيمان له، لأَنهم يرون كل الذنوب كبائر، وبنوا هذه المقالة على أَن جعلوا آيات الوعد كلها مخصصة في المؤمن المحسن الذي لم يعص قط، والمؤمن التائب، وجعلوا آيات الوعيد عامة في العصاة كفاراً أَو مؤمنين. وقال أَهل السُّنَّة والحق: آيات الوعد ظاهرة العموم، وآيات الوعيد ظاهرة العموم، ولا يصح نفوذ كلها لوجهه بسبب تعارضها، كقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ

وَتَوَلَّىٰ ﴾[١]، وقوله: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾[٢]، وهذه الآية هي الحاكمة ببيان ما تعارض من آيات، فلا بد أن نقول: إنَّ آيات الوعد لفظها لفظ عموم، والمراد بها الخصوص في المؤمن المحسن، وفي التائب، وفيمن سبق في علمه تعالىٰ العفو عنه دون تعذيب من العصاة، وإن آيات الوعيد لفظها عموم، والمراد بها الخصوص في الكفرة، وفيمن سبق في علمه تعالىٰ أنه يعذبه من العصاة، ونحكم بقولنا: «هذه الآية» النَّص في موضع النزاع، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فإنها جَلَت الشَّك، وردَّت على الطائفتين: المرجئة، والمعتزلة، وذلك أن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ فصل مجمع عليه، وقوله: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ فصل قاطعٌ بالمعتزلة، رادٌّ على قولهم ردّاً لا محيد عنه، ولو وقفنا في هذا الموضع من الكلام لصحَّ قولُ المرجئة، فجاءَ قوله: ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾ راداً عليهم، موجباً أن غُفران ما دون الشرك إنما هو لقوم دون قوم، بخلاف ما زعموه من أنه مغفور لكل مؤمن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ورامت المعتزلة أن تردَّ هذه الآية إلى قولها بأن قالوا: ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾: هو التائب، وما أرادوه فاسد، لأن فائدة التقسيم في الآية كانت تبطل، إذ التائب من الشرك يُغفر له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ورامت المرجئة أن تردَّ الآية إلى قولها بأن قالوا: ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾: معناه: يشاءُ أن يؤمن، لا يشاءُ أن يغفر له، فالمشيئة معلقة بالإيمان ممن يؤمن، لا بغفران الله لمن يغفر له، ويُرَدُّ ذلك بأن الآية تقتضي ـ على هذا التأويل ـ أن قوله: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ عامٌّ في كافر ومؤمن، فإذا خُص المؤمنون بقوله: ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾، وجب أن الكافرين لا يُغْفر لهم ما دون ذلك، ويجازون به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذلك ـ وإن كان مما قد قيل ـ فهو مما لم يُقصد بالآية على تأويل أحد من

---

(١) الليل: ١٥ ـ ١٦.
(٢) الجن: ٢٣.

العلماءِ ، ويُردُّ على هذا المنزع بطول التقسيم ، لأَن الشرك مغفور أَيضاً لمن شاءَ الله أَن يؤمن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومن آيات الوعيد التي احتج بها المعتزلة قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[١] ، والآية مخرجة عنهم لوجوه منها: أَن الأَصحَّ في تأْويل قوله تعالىٰ: ﴿ مُّتَعَمِّدًا ﴾ ما قاله ابن عباس: إِنه أَراد: مستَحِلاً ، وإِذا استحلَّ أَحد ما حَرَّم الله عليه فقد كفر ، ويدل على ما قال ابن عباس أَنا نجد الله تعالىٰ في أَمْر القتل إِذا ذكر القصاص لم يذكر الوعيد ، وإِذا ذكر الوعيد بالنار لم يذكر القصاص ، فيظهر أَنَّ القصاص للقاتل المؤمن العاصي ، والوعيد للمُسْتَحِلِّ الذي في حكم الكافر ، ومنها من جهة أُخرى أَن الخلود ـ إِذا لم يقرن بقوله: [أَبداً] ـ فجائز أَن يراد به الزمن المتطاول ، إِذ ذلك معهود في كلام العرب ، أَلا ترى أَنهم يُحيُّون الملوك بِخَلَّد الله ملكك؟ ومن ذلك قول امرئ القيس:

وَهَلْ يَعِمَنْ إِلاَّ سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ ... قليلُ الْهُمُوم ما يَبيتُ بِأَوْجالِ؟[٢]

وقال عبد الله بن عمرو: لمانزلت ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾[٣] قال بعض أَصحاب النبي عليه الصلاة والسلام: والشِّرك يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾.

ولما حَتَّم على أَنه لا يغفر الشرك ذكر قبح موضعه ، وقَدْرَه في الذنوب. والفِريةُ: أَشد مراتب الكذب قبحاً ، وهو الاختلاف للعصبية.

---

(١) النساء: ٩٣.

(٢) يَعِمَنْ: يَنْعَمن ، الهموم: الأحزان ، والوجَل: الخوف ، يقال: وجِل كفرح ياجَلُ ، ويَيْجَلُ ، ويَوْجَلُ.
وقبل هذا البيت يقول الشاعر:
أَلا عِمْ صباحاً أَيُّها الطَّلَل البَالي ... وهَلْ يَعِمنَ مَن كان في العُصُر الخالي؟

(٣) الزمر: ٥٣.

قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾.

هذا لفظ عام في ظاهره، ولم يختلف أَحدٌ من المتأولين في أَن المراد اليهود، واختلف في المعني الذي به زكَّوا أنفسهم ـ فقال قتادة، والحسن: ذلك قولهم: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾[1]، وقولهم: ﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا ﴾[2]. وقال الضحاك، والسدي: ذلك قولهم: لا ذنوب لنا، وما فعلناه نهاراً غُفر ليلاً، وما فعلناه ليلاً غُفر نهاراً، ونحن كالأَطفال في عدم الذنوب، وقال مجاهد، وأَبو مالك، وعكرمة: تقديمهم أَولادهم الصغار للصلاة لأَنهم لا ذنوب لهم.

قال المؤلف:

وهذا يبعد من مقصد الآية، وقال ابن عباس: ذلك قولهم: أَبناؤُنا الذين ماتوا يشفعون لنا، ويزكوننا، وقال عبد الله بن مسعود: ذلك ثناءُ بعضهم على بعض، ومدحهم لهم، وتزكيتهم لهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فتقتضي هذه الآية الغض من المزكي لنفسه بلسانه، والإِعلام بأَن الزاكي المزكَّى من حسنت أَفعاله، وزكَّاه الله عز وجل[3]، والضمير في: ﴿ يُزَكُّونَ ﴾ عائد على المذكورين ممن زكَّى نفسه، أَو ممَّن يُزَكيه الله تعالىٰ، وغير هذين الصنفين عُلم أَن الله تعالىٰ لا يظلمهم من غير هذه الآية.

وقرأَت طائفة: [وَلا تُظْلَمُونَ] بالتاءِ على الخطاب.

والفتيل: هو ما فتل، فهو فعيل بمعنى مفعول، وقال ابن عباس، وعطاءٌ،

---

(١) المائدة: ١٨.

(٢) من قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ [البقرة: ١١١].

(٣) التزكية هي: التطهير والتبرئة من الذنوب.

ومجاهد، وغيرهم: الفتيل: الخيط الذي في شق نواة التمرة، وقال ابن عباس: وأَبو مالك، والسدي: هو ما خرج من بين إِصبعيك أَو كفيك إِذا فتلتهما، وهذا كله يرجع إِلى الكناية عن تحقير الشيء وتصغيره، وأَن الله لا يظلمه، ولا شيءَ دونه في الصغر، فكيف بما فوقه. ونصبه على مفعول ثان بـ ﴿يُظْلَمُونَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ﴾ الآية، يبين أَن تزكيتهم أَنفسهم كانت بالباطل والكذب، ويقوي أَن التزكية كانت بقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ إِذ الافتراءُ في هذه المقالة أَمكن.

و﴿كَيْفَ﴾ يصحُّ أَن يكون في موضع نصب بـ ﴿يَفْتَرُونَ﴾، ويصح أن يكون في موضع رفع بالابتداءِ، والخبر في قوله: ﴿يَفْتَرُونَ﴾(٢).

و﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ خبر في مضمنه تعجُّبٌ وتعجيب من الأمر، ولذلك دخلت الباءُ لتدل على معنى الأمر بالتعجب، وأَن يكتفى لهم بهذا الكذب إِثماً، ولا يطلب لهم غيره، إِذ هو موبق ومهلك، و﴿إِثْمًا﴾ نصب على التمييز.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ﴾ الآية. ظاهرها يعم اليهود والنصارى، ولكن أَجمع المتأَولون على أَن المراد بها طائفة من اليهود، والقصص يبين ذلك، واختلف في الجبت والطاغوت ـ فقال عكرمة وغيره: هما في هذا الموضع صنمان كانا لقريش، وذلك أَنّ كعب بن الأَشرف وجماعة معه وردوا مكة محرضين على قتال رسول الله ﷺ، فقالت لهم قريش: إِنكم أَهل كتاب، ومحمد صاحب كتاب، ونحن لا نأْمنكم أَن تكونوا معه إِلا أَن تسجدوا لهذين الصنمين اللّذين لنا، ففعلوا، ففي ذلك نزلت هذه الآية. وقال ابن عباس: الجبت هنا: حُيَيُّ بن أَخطب، والطاغوت: كعب بن الأَشرف، فالمراد على هذه الآية القوم الذين كانوا معهما من بني إِسرائيل لإِيمانهم بهما، واتّباعهم لهما، وقال ابن عباس: الجبت: الأَصنام، والطاغوت: القوم المترجمون عن الأَصنام، الذين يضلون الناس بتعليمهم إِياهم عبادة الأَصنام. وروي

---

(١) يتأتى ذلك بتضمين ﴿يُظْلَمُونَ﴾ معنى ما يتعدى لاثنين.

(٢) قال أبو حيان في (البحر المحيط): «وأما قوله: يصح أن يكون في موضع رفع بالابتداء، والخبر في قوله: ﴿يَفْتَرُونَ﴾، فهذا لم يذهب إليه أحد، لأن (كيف) ليست من الأسماء التي يجوز الابتداء بها». راجع بقية كلامه ٣ ـ ٢٧٠.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان، وقاله مجاهد والشعبي، وقال زيد بن أَسلم: الجبت: الساحر، والطاغوت: الشيطان، وقال سعيد بن جبير، ورفيع: الجبت: الساحر، والطاغوت: الكاهن. وقال قتادة: الجبت: الشيطان، والطاغوت: الكاهن. وقال سعيد بن جبير أَيضاً: الجبت الشيطان، والطاغوت: الشيطان. وقال ابن سيرين: الجبت: الكاهن، والطاغوت: الساحر، وقال مجاهد في كتاب الطبري: الجبت: كعب بن الأَشرف، والطاغوت: الشيطان كان في صورة إِنسان.

قال ابن عطية:

فمجموع هذا يقتضي أَن الجبت والطاغوت هو كل ما عُبد وأُطيع من دون الله، وكذلك قال مالك رحمه الله: الطاغوت: كل ما عُبد من دون الله تعالىٰ، وذكر بعض الناس أَن الجبت هو من لغة الحبشة. وقال قطرب: الجبت: أَصله الجبس، وهو الثقيل الذي لا خير عنده، وأَما الطاغوت فهو مَنْ طَغى، أَصله طَغَوُوت، وزنه فعلوت، وتاؤُه زائدة، قلب فردً فلعوت، أَصله طوغوت، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ الآية ـ سببها: (أَن قريشاً قالت لكعب بن الأَشرف حين ورد مكة: أَنت سيدنا وسيد قومك، إِنا قوم ننحر الكوماءَ[١]، ونقري الضيف، ونصل الرحم، ونسقي الحجيج، ونعبد آلهتنا الذي وجدنا آباءَنا يعبدون، وهذا الصنبور المنبتر من قومه[٢]، قد قطع الرحم، فمن أَهدَى، نحن أَو هو؟ فقال كعب: أَنتم أَهدى منه، وأَقوم ديناً، فنزلت هذه الآية)، قاله ابن عباس[٣]. وحكى

---

(١) الكوماء: الناقة العظيمة السنام طويلته، وفي الحديث أن النبي ﷺ رأى في نعم الصدقة ناقة كوماء، وهي الضخمة السنام. (اللسان).

(٢) الصنبور المنبتر: صفتان وَصَفَ بهما كفار قريش النبيَّ ﷺ، يقال: رجل صنبور: فرد ضعيف ذليل لا أهل له ولا عقب، وكذلك الأَبْتَر الذي لا عقب له ولا أخ، وأصل الصنبور: سعفة تنبت في جذع النخلة لا في الأرض، وقال أبو عبيدة: الصنبور: النخلة تبقى منفردة ويدق أسفلها وينقشر. (اللسان).

(٣) أخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل من طريق عكرمة عن ابن عباس، وأخرجه أحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس أيضاً مع اختلاف يسير في الألفاظ. (الدر المنثور).

السدي أن أبا سفيان خاطب كعباً بهذه المقالة، فالضمير في ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عائد على كعب على ما تقدم، أو على الجماعة من بني إسرائيل التي كانت مع كعب، لأنها قالت بقوله في جميع ذلك على ما ذكر بعض المتأولين.

﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في هذه الآية هم قريش، والإشارة بـ ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ إليهم، و﴿أَهْدَىٰ﴾: وزنه أفعل، وهو للتفضيل، و﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾: هم النبي عليه الصلاة والسلام وأمته، و﴿سَبِيلًا﴾: نصب على التميز.

وقالت فرقة: بل المراد في الآية من بني إسرائيل هو حُيَيُّ بن أخطب، وهو المقصود من أول الآيات، والمشار إليه بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ هم المراد من بني إسرائيل، فمن قال: كانوا جماعة فذلك مستقيم لفظاً ومعنى، ومن قال: هوكعب أو حُيَيُّ فعبر عنه بلفظ الجمع لأنه كان متبوعاً، وكان قوله مقترناً بقول جماعة.

و﴿لَعَنَهُمُ﴾ معناه: أبعدهم من خيره ومَقَتَهُمْ، ومن يفعل الله ذلك به ويخذله فلا ناصر له من المخلوقين، وإن نصرته طائفة فنُصرتها كَلاَ نُصْرة، إذ لا تغني عنه شيئاً.

قوله تعالىٰ:

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾؟

عُرف ﴿أَمْ﴾ أن تعطف بعد استفهام متقدم، كقولك: أقام زيد أم عمروٌ؟ فإذا وردت ولم يتقدمها استفهامٌ ـ فمذهب سيبويه أنها مُضَمَّنة معنى الإضراب عن الكلام الأول والقطع عنه، وهي مُضَمَّنة ـ مع ذلك ـ معنى الاستفهام، فهي بمعنى (بل) مع ألف الاستفهام، كقول العرب: إنها لإبلٌ أم شاءٌ؟، فالتقدير عند سيبويه: إنها لإبل بل أهي شاءٌ؟ وكذلك هذا الموضع، تقديره: بل أَلَهُمْ نصيبٌ من المُلْك؟، وقد حُكي عن بعض النحويين أن (أم) يُستفهم بها ابتداءً دون تقدم استفهام، حكاه ابن قتيبة في المشكل، وهذا غير مشهور للعرب، وقال بعض المفسرين: ﴿أَمْ﴾ بمعنى (بل)، ولم يذكروا الألف اللازمة، فأوجبوا ـ على هذا ـ حصول المُلْك للمذكورين في الآية، والتزموا ذلك وفسروا عليه، فالمعنى عندهم: بل هم ملوك أهل دُنيا وعُتو

وتَنَعُّم لا يبغون غيره، فهم بخلاءُ به، حريصون على ألَا يكون ظهور لسواهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمعنى على الأرجح ـ الذي هو مذهب سيبويه والحذاق ـ أَنه استفهامٌ على معنى الإنكار، أَي: أَلَهُمْ مُلْك؟ فإِذاً لو كان لَبَخِلُوا.

قرأَ ابن مسعود: [فَإِذاً لا يُؤْتُوا] بغير نون على إِعمال (إِذاً)، والمصحف على إِلغائها، والوجهان جائزان، وإِن كانت صدراً من أَجل دخول الفاءِ عليها.

والنقير: أَعرف ما فيه أَنها النكتة التي في ظهر النواة من التمرة، ومن هنالك تنبت، وهو قول الجمهور، وقالت فرقة: هي النقطة التي في بطن النواة، وروي عن ابن عباس أَنه قال: هو نقر الإِنسان بإِصبعه، وهذا كله يجمعه أَنه كناية عن الغاية في الحقارة والقلة على مجاز العرب واستعارتها، و﴿ فَإِذًا ﴾ في هذه الآية مُلْغَاة لدخول فاءِ العطف عليها، ويجوز إِعمالها، والإِلغاءُ أَفصح، وذلك أَنها إِذا تقدمت أُعملت قولاً واحداً، فإِذا دخل عليها وهي متقدمة فاءٌ أَو واو جاز إِعمالها والإِلغاءُ أَفصح، وهي لغة القرآن، وتكتب (إِذاً) بالنون وبالأَلف، فالنون هو الأَصل، كَعَنْ ومَنْ، وجاز كتبها بالأَلف لصحة الوقوف عليها فأشبهت نون التنوين، ولا يصح الوقوف على (عن) و(من).

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ الآية ـ ﴿ أَمْ ﴾ هذه على بابها، لأَن الاستفهام الذي في تقديرنا: «بل لَهُم» ـ قد تقدمها.

اختلف المتأَولون في المراد بـ ﴿ ٱلنَّاسَ ﴾ في هذا الموضع ـ فقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والسدي، والضحاك: هو النبي عليه الصلاة والسلام، والفضل: النبوة فقط، والمعنى: فَلِمَ يخصُّونه بالحسد ولا يحسدون آل إِبراهيم في جميع ما آتيناهم من هذا وغيره من الملك؟ وقال ابن عباس، والسدي أَيضاً: هو النبي ﷺ، والفضل: ما أُبيح له من النساءِ فقط، وسبب الآية عندهم أَنّ اليهود قالت لكفار العرب: انظروا إِلى هذا الذي يقول: إِنه بعث بالتواضع، وإِنه لا يملأ بطنه طعاماً، ليس همه إِلا في النساءِ، ونحو هذا، فنزلت الآية، والمعنى: فَلِمَ يخصونه بالحسد ولا يحسدون آل إِبراهيم عليه الصلاة والسلام؟ يعني سليمان وداود عليهما

الصلاة والسلام ، في أنهما أُعطيا النبوة والكتاب ، وأُعطيا ـ مع ذلك ـ مُلْكاً عظيماً في أَمر النساءِ ، وهو ما روي أَنه كان لسليمان سبعمائة امرأَة ، وثلاثمائة سَرِيَّة ، ولداود مئة امرأَة ، ونحو هذا من الأَخبار الواردة في ذلك ، فالمُلْك في هذا القول إِباحة النساءِ كأَنه المقصود أَولاً بالذكر. وقال قتادة: الناس في هذا الموضع: العرب ، حسدتها بنو إِسرائيل في أَن كان النبي عليه الصلاة والسلام منها ، والفضل على هذا التأْويل: هو محمد عليه الصلاة والسلام ، فالمعنى: لِمَ يَحسدون العرب على هذا النبي ﷺ ، وقد أُوتي آل إِبراهيم ﷺ ـ وهم أَسلافهم ـ أَنبياء وكتباً كالتوراة والزبور ، وحكمةً وهي الفهم في الدين ـ وما يكون من الهدي مما لم ينص عليه الكتاب. وروي عن ابن عباس أَنه قال: نحن الناس. يريد قريشاً.

﴿مُلْكًا عَظِيمًا﴾ أَي: سليمان ، قاله ابن عباس ، وقال مجاهد: الملْكُ العظيم في الآية هو النبوة ، وقال همام بن الحارث ، وأَبو مسلمة: هو التأْييد بالملائكة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَصوب أَنه مُلْك سليمان ، أَو أَمر النساءِ في التأْويل المتقدم.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ الآية ، اختلف المتأَولون في عود الضمير من ﴿بِهِۦ﴾ ـ فقال الجمهور: هو عائد على القرآن الذي في قوله تعالىٰ: ﴿ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ فأَعلم الله أَن منهم من آمن كما أَمر ، فلذلك ارتفع الوعيد بالطمس ولم يقع ، وصدَّ قومٌ ثبت الوعيد عليهم في الآخرة بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾. وقالت فرقة: الضمير عائد على إِبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وحكى مكي في ذلك قصصاً ليست بالثابتة. وقالت فرقة: هوعائدعلى الفضل الذي آتاه الله النبي عليه الصلاة والسلام ، أَو العرب على ما تقدم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

قرأَت فرقة: [صُدَّ عَنْهُ] بضم الصاد ، على بناءِ الفعل للمفعول ، و﴿سَعِيرًا﴾ معناه: احتراقاً وتلهباً ، والسعير: شدة توقد النار ، فهذا كناية عن شدة العذاب والعقوبة.

قوله تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

تقدم في الآيات وصف المردة من بين إسرائيل، وذكر أفعالهم وذنوبهم، ثم جاءَ بالوعيد النصُّ لهم بلفظ جَلِيٍّ عامٍّ لهم ولغيرهم ممن فعل فعلهم من الكفر، والقراءَة المشهورة: ﴿نُصْلِيهِمْ﴾ بضم النون، من أصلَيْت، ومعناه: قربت من النار وألقيت فيها، وهو معنىٰ صَلَّيت بتشديد اللام وقرأ حميد [نَصْلِيهِمْ] من صَلَيْت، ومعناه: صَلَيْت، ومعناه: شويت، ومنه الحديث: (أُتي رسول الله ﷺ بشاة مَصْلِيَّة) أي: مشوية[١]، وكذا وقع تصريف الفعل في العين وغيره، وقرأ سلام، ويعقوب: [نصليهُم] بضم الهاء.

واختلف المتأولون في معنى تبديل الجلود[٢] ـ فقالت فرقة: تبدل عليهم جلودٌ غيرها، إذ نفوسهم هي المعذبة، والجلود لا تألم في ذاتها، فإنها تبدل ليذوقوا تجديد العذاب[٣]. وقالت فرقة: تبديل الجلود هو إعادة ذلك الجلد بعينه الذي كان في الدنيا، تأكله النار ويعيده الله دأباً لتجدد العذاب، وإنما سماه تبديلاً، لأَن أَوصافه تتغير ثم يعاد، كما تقول: «بدل من خاتمي هذا خاتماً». وهي فضته بعينها، فالبدل إنما وقع في تغيير الصفات. وقال ابن عمر: كلما احترقت جلودهم بدلوا جلوداً بيضاءَ كالقراطيس، وقال الحسن بن أَبي الحسن: تبدل عليهم في اليوم سبعين أَلف مرة، وقالت فرقة: الجلود في هذا الموضع سرابيل القطران[٤]، سماها جلوداً للزومها

---

(١) راجع صفحة (٥٣١) من هذا المجلد هامش رقم (١).

(٢) تبديل الجلود يتم كلما نضجت، ومعنى نضج: أَدرك واستوى، يقال: نضج اللحم قديداً وشواء ينْضَج ونَضْجاً، وفلان نضيج الرأي: أي محكمه.

(٣) يُرَد بذلك على من قال: كيف جاز أن يعذب جلداً لم يعصه؟ ومعنى ردّه هنا أَن الجلد ليس بمعذب ولا معاقب، وإنما الأَلم واقع على النفوس لأنها هي التي تحس وتعرف، فتبديل الجلود زيادة في عذاب النفوس، يدل على ذلك قوله تعالىٰ: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾. لأنه لو أَراد الجلود لقال: ليذقن العذاب.

(٤) كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ سميت جلوداً=

فصارت كالجلود ، وهي تبدل دأباً عافانا الله من عذابه برحمته ، حكاه الطبري .

وحسُن الاتصاف بعد هذه المقدمات بالعزة والإحكام ، لأن الله لا يغالبه مغالب إلا غلبه الله ، ولا يفعل شيئاً إلا بحكمة وإصابة ، لا إلٰه إلا هو تبارك وتعالىٰ .

ولمَّا ذكر الله وعيد الكفار عقَّب بوعد المؤمنين بالجنة على الإيمان والأعمال الصالحة ، وقرأ ابن وثاب: [سَيُدْخِلُهُم] بالياءِ ، وكذلك [يُدْخِلُهم] بعد ذلك[1] . وقد تقدم القول في معنى ﴿ مِن تَحۡتِهَا ﴾ في سورة البقرة ، و﴿ مُّطَهَّرَةٌۖ ﴾ معناه: من الريب والأقذار التي هي معهودات في الدنيا ، و﴿ ظَلِيلًا ﴾ معناه عند بعضهم: يقي الحرَّوالبرد ، ويصح أن يريد أنه ظل لا يستحيل ولا ينتقل ، كما يفعل ظل الدنيا ، فأكده بقوله: ﴿ ظَلِيلًا ﴾ لذلك ، ويصح أن يصفه بظليل لامتداده ، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمَّر في ظلها مائة سنة ما يقطعها»[2] .

قوله تعالى:

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وزيد بن أسلم ، وشهر بن حوشب ، وابن زيد ، هذا خطاب لولاة المسلمين خاصة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهو للنبي عليه الصلاة والسلام وأُمرائه ، ثم يتناول مَن بعدهم . وقال ابن جريج

= للزومها جلودهم على المجاورة ، فكلما احترقت السرابيل أُعيدت: قال الشاعر :

كَسَا اللُّؤْمُ تيماً خُضرةً في جلودها ... فويلٌ لتَيْم من سرابيلها الخُضْر

فكنَّى عن الجلود بالسرابيل .

(١) في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾ [النساء: ١٢٢] .

(٢) أخرج ابن جرير عن أبي هريرة مثله مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ . والآراء كثيرة في معنى الظل الظليل ، قال ابن كثير: أي: ظلا عميقاً كثيراً غزيراً طيباً أنيقاً ، وقيل هو للمبالغة كقولهم: ليْلٌ ألْيَل ، وداهية دهياء ، ويوم أيوم .

وغيره: ذلك خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام خاصة في أَمر مفتاح الكعبة حين أَخذه من عثمان بن طلحة بن أَبي طلحة العَبْدَري، ومن ابن عمه شيبة بن عثمان بن أَبي طلحة، فطلبه العباس بن عبد المطلب لتنضاف له السدانة إلى السِّقاية، فدخل رسول الله ﷺ الكعبة فكسر ما كان فيها من الأَوثان، وأَخرج مقام إِبراهيم، ونزل عليه جبريل بهذه الآية، قال عمر بن الخطاب: وخرج رسول الله ﷺ وهو يقرأُ هذه الآية، وما كنت سمعتها قبل منه، فدعا عثمان وشيبة فقال لهما: (خذاها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم)، وحكى مكي أن شيبة أَراد أَلا يدفع المفتاح، ثم دفعه وقال للنبي عليه الصلاة والسلام: خذه بأَمانة الله[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واختلف الرواة في بعض أَلفاظ هذا الخبر زيادة ونقصاناً، إِلا أَنه المعنى بعينه، وقال ابن عباس: الآية في الولاة بأَن يعظوا النساءَ في النشوز ونحوه، ويردُّوهنَّ إِلى الأَزواج، والأَظهر في الآية أَنها عامة في جميع الناس[٢]، ومع أَن سببها ما ذكرناه فهي تتناول الولاة فيما إِليهم من الأَمانات في قسمة الأَموال، ورد الظلامات وعدل الحكومات وغيره[٣]، وتتناولهم ومن دونهم من الناس في حفظ الودائع والتحرز في الشهادات، وغير ذلك، كالرجل يحكم في الودائع والتحرز في الشهادات، وغير ذلك، كالرجل يحكم في نازلة مّا ونحوه، والصلاةُ والزكاة والصيام وسائر العبادات أَمانات لله تعالىٰ، وقال ابن عباس: لم يرخص لموسر ولا لمعسر أَن يمسك الأَمانة.

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر عن أبي جريج، وأَخرج مثله ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، مع تفصيل لما حدث بين عثمان بن طلحة وبين الرسول ﷺ ـ (ابن كثير ٢ ـ ٣٢٢ والدر المنثور ٢ ـ ١٧٤) ـ والتالد: المال القديم الأصلي الذي ولد عندك. وهو نقيض الطارف. روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال في (سورة بين إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء): هنَّ من العِتاق الأُول، وهنَّ من تلادي. أي: من قديم ما أخذت من القرآن. وفي حديث العباس: فهي لهم تالدة بالدة، يعني الخلافة، والبالد إتباع التالد. وفي شعر طرفة:

وَبَيْعي وإِنْفاقي طريفي ومُتْلَدي

(٢) قال بذلك جماعةٌ منهم: البراء بن عازب، وابن مسعود، وابن عباس، وأُبي بن كعب، قالوا: الأمانة في كل شيء: في الوضوء، والصلاة، والزكاة، والجنابة، والصوم، والكيل والوزن، والودائع. قال القرطبي: وهذا إجماع ـ ثم قال: والأمانة: مصدر بمعنى المفعول فلذلك جمع.

(٣) قال القرطبي: وهذا اختيار الطبري.

و﴿ نِعِمَّا ﴾ أَصله: نِعْم مَا ، سكنت الأُولى وأُدغمت في الثانية ، وحركت العين لالتقاء الساكنين ، وخصت بالكسر إِتباعاً للنون ، و(ما) المردفة على (نِعْم) إنما هي مهيئة لاتصال الفعل بها ، كما هي في (ربَّما) و(مِمَّا) في قوله: «وكان رسول الله ﷺ مما يحرك شفتيه» وكقول الشاعر:

وإِنَّـا لمِمَّـا نَضْـربُ الكبْـشَ ضَـرْبَـةً على رأسه تُلْقي اللِّسَان من ٱلْفَم[1]

ونحوه ، وفي هذا هي بمنزلة (ربَّما) ، وهي لها مخالفة في المعنى ، لأَن (ربما) معناها التقليل ، و(مِمَّا) معناها التكثير ، ومع أَن (ما) موطئة فهي بمعنى (الذي) ، وما وطَّأَت إِلا وهي اسم ، ولكن القصد إِنما هو لما يليها من المعنى الذي في الفعل[2].

وحسُنَ الاتصاف بعد هذه المقدمات بالسمع والبصر لأَنها في الشاهد محصلات ما يفعل المأمور فيما أُمر به.

وقوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ ﴾ ـ لما تقدم إِلى الولاة في الآية المتقدمة ، تقدم في هذه إِلى الرعية ، فأَمر بطاعته عز وجل ، وهي: امتثال أَوامره ونواهيه ، وطاعة رسوله ، وطاعة الأُمراءِ على قول الجمهور: أَبي هريرة ، وابن عباس ، وابن زيد ، وغيرهم ، وقال جابر بن عبد الله ، ومجاهد ، وجماعة: أُولو الأَمر: أَهل القرآن والعلم[3] ، فالأَمر ـ على هذا التأْويل ـ إِشارة إِلى القرآن والشريعة ، أَي: أُولي هذا الأَمر وهذا الشأْن ، وحكى الطبري عن مجاهد أَنه قال: الإِشارة هنا بأُولي الأَمر إِلى أَصحاب محمد ﷺ خاصة ، وحكي عن عكرمة أَنها إِشارة إِلى أَبي بكر وعمر رضي الله عنهما خاصة ، وفي هذا التخصيص بُعْد. وحكى بعض من قال «إِنهم الأُمراءُ»: أَنها نزلت في أُمراءِ رسول الله ﷺ ، وكان السبب أَن رسول الله ﷺ بعث سرية

---

(١) جاء في اللسان: «كبش القوم: رئيسهم وسيدهم ، وقيل: حاميتهم والمنظور إليه فيهم ، وكبش الكتيبة ، قائدها» ، والبيت في (البحر المحيط) ، ولم نعثر على نسبته.

(٢) نقل أبو حيان كلام ابن عطية في (البحر المحيط ٣ ـ ٢٧٨) عن (ما) المردفة على (نعم) ، ثم عقَّب عليه بقوله: «وهو كلام متهافت ، لأنه من حيث جعلها موطئة مهيئة لا تكون اسماً ، ومن حيث جعلها بمعنى (الذي) لا تكون مهيئة موطئة ـ فتدافعا».

(٣) أَخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن عطاء في قوله: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ قال: طاعة الرسول: اتباع الكتاب والسُّنَّة ، وأُولي الأمر منكم: قل أُولي الفقه والعلم. و(الدر المنثور).

فيها عمار بن ياسر، وأميرها خالد بن الوليد، فقصدوا قوماً من العرب، فأتاهم نذير فهربوا تحت الليل، وجاءَ منهم رجل إلى عسكر خالد، فدخل إلى عمار فقال: يا أبا اليقظان، إن قومي قد فرُّوا، وإني قد أسلمت، فإن كان ينفعني إسلامي بقيت، وإلا فررت، فقال له عمار: هو ينفعك فأقم، فلما أصبحوا أغار خالد فلم يجد سوى الرجل المذكور، فأخذه وأخذ ماله، فجاءَ عمار فقال: خَلِّ عن الرجل فإنه أسلم، وإنه في أمانٍ مني، فقال خالد: وأنت تجير؟ فاستبا وارتفعا إلى رسول الله ﷺ فأجاز أمان عمار، ونهاه أن يجير الثانية على أمير، واستبا عند رسول الله ﷺ، فقال خالد: يا رسول الله، أتترك هذا العبد الأجدع يسبني؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا خالد، لا تسب عماراً، فإنه من سبَّ عماراً سبه الله، ومن أبغض عماراً أبغضه الله، ومن لعن عماراً لعنه الله»، فغضب عمار فقام فذهب، فتبعه خالد حتى اعتذر إليه، فتراضيا، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[(١)]، وطاعة الرسول هي: اتباع سنته، قاله عطاءٌ وغيره، وقال ابن زيد معنى الآية: وأطيعوا الرسول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يريد: وسُنَّته بعد موته.

﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ﴾ ـ المعنى: فإن تنازعتم فيما بينكم، أو أنتم وأمراؤكم، ومعنى التنازع أن كل واحد ينتزع حجة الآخر ويذهبها[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي. (ابن كثير ـ والدر المنثور)، وكذلك رواه ابن مردويه من رواية الحكم بن ظهير عن السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. (ابن كثير).
وأخرج البخاري، ومسلم، وأبو داوود، والترمذي والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وغيرهم عن ابن عباس في قوله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي، إذ بعثه النبي ﷺ في سرية، قال أبو عمر: وكان في عبد الله بن حذافة دعابةٌ معروفة، ومن دعابته أن رسول الله ﷺ أمَّره على سرية فأمرهم أن يجمعوا حطباً ويوقدوا ناراً، فلما أوقدوها أمرهم بالتَّقحُّم فيها، فقال لهم: ألم يأمركم رسول الله ﷺ بطاعتي؟ وقال: (من أطاع أميري فقد أطاعني)، فقالوا: ما آمنا واتبعنا رسوله إلا لننجو من النار، فصوب رسول الله ﷺ فعلهم، وقال: (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾). قال القرطبي: وهو حديث صحيح الإسناد مشهور.

(٢) النزع: الجذب، والمنازعة: مجاذبة الحجج، ومنه الحديث: (مالي ينازعني القرآن) ذلك أن بعض المأمومين جهر خلفه فنازعه قراءته فشغله، فنهاه عن الجهر بالقراء في الصلاة خلفه، وقال الأعشى: =

والردُّ إلى الله: هو النظر في كتابه العزيز، والردُّ إلى الرسول: هو سؤاله في حياته، والنظر في سنته بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، هذا قول مجاهد، والأعمش، وقتادة، والسدي، وهو الصحيح، وقال قوم: معناه: قولوا: الله ورسوله أَعلم، فهذا هو الردُّ[١].

وفي قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ بعض وعيد، لأَن فيه جزاء المسيء العاتي، وخاطبهم بـ ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ وهم قد كانوا آمنوا على جهة التقدير، ليتأَكد الإلزام.

و﴿تَأْوِيلًا﴾ معناه: مآلاً، على قول جماعة. وقال مجاهد: أَحسن جزاءً. قال قتادة، والسدي، وابن زيد: المعنى: أَحسن عاقبة. وقالت فرقة: المعنى: إِن الله ورسوله أَحسن نظراً وتأَولا منكم إِذا انفردتم بتأَولكم.

قوله تعالىٰ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾.

تقول العرب: زعم فلان كذا في الأَمر الذي يضعف فيه التحقيق، وتتقوى فيه شُبَه الإبطال، فغاية درجة الزعم إذا قوي أَن يكون مظنوناً. يقال: زَعْم بفتح الزاي، وهو المصدر، وزُعْم بضمها، وهو الاسم[٢]، وكذلك زعْم المنافقين أَنهم يؤمنون هو ممَّا

= نــازَعْتُهــم قُضُبَ الـرَّيْحَـانِ مُتَّكِئـاً ... وقَهْـوةً مُـزةً راوُوقُهـا خضِـلُ

(١) وهذا كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل) ـ وفي قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ دليل على أن سنَّته ﷺ يعمل بها، ويمتثل ما فيها، قال ﷺ: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم»، أخرجه مسلم.

(٢) في اللسان: «الزَّعم، والزُّعم، والزِّعم ثلاث لغات» ـ وقال ابن دريد: أَكثر ما يقع الزعم على الباطل، قال أَبو ذؤيب الهذلي:

فـإِنْ تـزْعُمينـي كنـتُ أَجْهَـلَ فيكُـمُ ... فـإني شرَيْتُ الحِلْم بعدَكِ بـالجَهْـل

وقال غيره:

زَعَمتْنــي شيخــاً ولسْــتُ بِشَيْــخٍ ... إنَّمــا الشَّيْــخُ مَــنْ يَــدِبُّ دبيبــا

قويت فيه شبهة الإبطال لسوءِ أفعالهم ، حتى صححها الخبر من الله تعالىٰ عنهم ، ومن هذا قول النبي ﷺ: «بئس مطية الرجل زعموا»[1] ، وقد قال الأعشى:

وَنُبِّئْتُ قَيْساً ولَمْ أَبْلُهُ كَمَا زَعَمُوا خَيْرَ أَهْلِ الْيَمَنْ[2]

فقال الممدوح: وما هو إلا الزعم وحرمه ، وإذا قال سيبويه: (زَعَم الخَلِيلُ) فإنما يستعملها فيما انفرد الخليل به ، وكان أقوى رتب (زعم) أن تبقى معها عهدة الخبر على المخبر. و[أن] معمولة لـ ﴿يَزْعُمُونَ﴾.

وقال عامر الشعبي وغيره: نزلت الآية في منافق اسمه بشر ، خاصم رجلاً من اليهود ، فدعاه اليهودي إلى المسلمين لعلمه أنهم لا يرتشون ، وكان هو يدعو اليهودي إلى اليهود لعلمه أنهم يرتشون ، فاتفقا بعد ذلك على أن آتيا كاهناً كان بالمدينة فرضياه ، فنزلت هذه الآية فيهما وفي صنيعهما.

فالذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل على محمد هم المنافقون ، والذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل من قبله هم اليهود ، وكان قد أمر في كتابه بالكفر بالطاغوت ، و﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾ ـ هنا ـ الكاهن المذكور ، فهذا تأنيب للصنفين ، وقال ابن عباس: الطاغوت هنا: هو كعب بن الأشرف ، وهو الذي تراضيا به ، فعلى هذا إنما يؤنب صنف المنافقين وحده ، وهم الذين آمنوا بما أُنزل على محمد ، وبما أُنزل من قبله بزعمهم ، لأن اليهود لم يؤمروا في شرعهم بالكفر بالأحبار ، وكعب منهم. وذكر النقاش أن كعباً هذا أصله من طيّئ وتهود. وقال مجاهد: نزلت في مؤمن ويهودي ، وقالت فرقة: نزلت في يهوديين.

---

(١) شبه ما يقدمه المتكلم أمام كلامه ، ويتوصل به إلى غرضه من قوله: «زعموا كذا وكذا» ـ بالمطية التي يتوصل بها إلى الحاجة.

(٢) لم أبْلُه: لم أُجربه ولم أختَبِرهُ ، والبيت من قصيدته التي قالها يمدح قيس بن معد يكرب الكندي ، ومطلعها:

لعمرُكَ ما طُولُ هذا الزَّمَن على المرءِ إلا عناءٌ مُعَنّ

ومعنى (مُعَن): مُتعب. وبعد هذا البيت يقول:

رَفيعَ الوِساد ، طويلَ النِّجا دِ ضَخْم الدَّسيعةِ ، رَحْبَ العَطَن

والدَّسيعة: الجفنة الواسعة أو المائدة الكريمة ، ورحب العطن: واسع الصبر والحيلة عند ا لشدائد ، وسخي كثير المال ، وضده: ضيّق العطن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان بعيدان من الاستقامة على أَلفاظ الآية، وقال السدي: نزلت في المنافقين من قريظة والنضير، وذلك أنهم تفاخروا بسبب تكافؤ دمائهم، إذ كانت النضير في الجاهلية تَدِي من قتلت، وتستقيد إذا قتلت قريظة منهم، فأَبت قريظة لما جاءَ الإِسلام، وطلبوا المنافرة[1]، فدعا المؤمنون منهم إلى النبي ﷺ، ودعا المنافقون إلى أَبي بردة الكاهن، فنزلت الآية فيهم. وحكى الزجاج أن المنافق المتقدم الذكر أَو غيره اختصم عند النبي ﷺ فقضى في أمره، فَخُرِجَ وقال لخصمه: لا أَرضى بحكمه، فذهبا إلى أَبي بكر فقضى بينهما، فقال المنافق: لا أَرضى، فذهبا إلى عمر فوصفا له جميع ما فعلا، فقال لهما: اصبرا حتى أَقضي حاجة في منزلي ثم أَخرج فأَحكم بينكما، فدخل وأَخذ سيفه وخرج، فضرب المنافق حتى برد[2]، وقال: هذا حكمي فيمن لم يرض بحكم رسول الله ﷺ، فنزلت الآية[3]. وقال الحسن: احتكم المنافقون بالقداح التي يضرب بها عند الأَوثان فنزلت الآية.

و﴿ يُضِلَّهُمْ ﴾ معناه: يتلفهم، وجاء ﴿ ضَلَـٰلًا ﴾ على غير المصدر، تقديره: فيضلون ضلالاً، و﴿ بَعِيدًا ﴾ عبارة عن عظم الضلال وتمكنه حتى يبعد الرجوع عنه والاهتداء معه.

وقرأَ الجمهور: ﴿ تَعَالَوْا ﴾ بفتح اللام، وقرأَ الحسن فيما روى عنه قتادة [تعالُوا] بضمة، وجهها أَن لام الفعل من (تعاليت) حذفت تخفيفاً، وضمت اللام التي هي عين الفعل، وذلك لوقوع واو الجمع بعدها، كقولك: تقدموا وتأَخروا، وهي لفظة مأخوذة من العلُو، لما استعملت في دعاءِ الإِنسان وجلبه وأَشخاصه، سيقت من العلُوِّ

(١) المنافرة: المفاخرة والمحاكمة، وتكون في الحسب. وقال أَبو عبيد: المنافرة: أَن يفتخر الرجلان كل واحد منهما على صاحبه، ثم يُحَكِّما بينهما غيرهما. (عن اللسان). وهذا الخبر أَخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي.

(٢) بَرَدَ ـ بفتح الباء والراء: أَي مات. وفي عبارة (البحر المحيط): «فقتله عمر».

(٣) أخرجه الثعلبي عن ابن عباس ورواه أَبو صالح أَيضاً عن ابن عباس. وفيه بعد ذلك: وقال رسول الله ﷺ «أَنت الفاروق»، ونزل جبريل وقال: «إن عمر فرق بين الحق والباطل» فسُمِّي الفاروق. عن (الدر المنثور، والقرطبي).

تحسيناً للأدب ، كما تقول: ارتفع إلى الحق ، ونحوه[1].

و﴿ رَأَيْتَ ﴾ هي رؤية عين لمن صدَّ من المنافقين مجاهرة وتصريحاً ، وهي رؤية قلب لمن صدَّ منهم مكراً وتخابثاً ومسارقة حتى لا يعلم ذلك منه إلا بالتأويل عليه والقرائن الصادرة عنه ، فإذا كانت رؤية عين فـ ﴿ يَصُدُّونَ ﴾ في موضع نصب على الحال ، وإذا كانت رؤية قلب فـ ﴿ يَصُدُّونَ ﴾ نصب على المفعول الثاني.

و﴿ صُدُودًا ﴾ مصدر عند بعض النحاة من (صدّ) ، وليس عند الخليل بمصدر منه ، والمصدر عنده: (صَدًّا) ، وإنما ذلك لأن فعولا إنما هو مصدر للأفعال غير المتعدية ، كجلس جلوساً ، وقعد قعوداً ، و(صدَّ) فعل متعدٍّ بنفسه مرةً كما قال: ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[2] ، ومرةً بحرف الجر كقوله تعالىٰ: ﴿ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ ، وغيره ، فمصدره (صدَّ) ، و(صُدُود) اسم.

قوله تعالىٰ:

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

قالت فرقة: هي في المنافقين الذين احتكموا حسب ما تقدم ، فالمعنى: فكيف بهم إذا عاقبهم الله بهذه الذنوب بنقمة منه؟ ثم حلفوا إن أردنا بالاحتكام إلى الطاغوت إلا توفيق الحكم وتقريبه دون مر الحكم وتقصي الحق. وقالت فرقة: هي في المنافقين

---

(١) قال الزمخشري: «حذفت اللام من: تعاليت تخفيفاً كما قالوا: ما باليْت به بَالَةً ، وأصلها: بالِيَةً كعافية ، وكما قال الكسائي في آية: إن أصلها آيية ، فاعلة ، فحذفت اللام ، فلما حذفت وقعت واو الجمع بعد اللام من (تعال) فضمت فصار (تعالوا) نحو (تقدموا) ، ومنه قول أهل مكة: تعالِي ـ بكسر اللام للمرأة ، وفي شعر الحمداني:

تَعَالَيْ أُقَاسِمْكِ الْهُمُومَ تَعَالِي

والوجه فتح اللام. وقد اعترض عليه أبو حيان في «البحر المحيط» فارجع إليه إن شئت.

(٢) وهي من قوله تعالى: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل: ٢٤].

الذين طلبوا دم الذي قتله عمر ، فالمعنى: فكيف بهم إذا أَصابتهم مصيبة في قتل قريبهم ومثله من نقم الله تعالىٰ؟ ثم إنهم حلفوا ما أَرادوا بطلب دمه إلا إِحساناً وحقاً ، نحا إِليه الزجاج. وموضع [كَيْفَ] نصب بفعل تقديره. فكيف تراهم؟ ونحوه ، ويصح أَن يكون موضعها رفعاً ، تقديره: فكيف صنيعهم؟[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيب المنافقين المتقدم ذكرهم وتوعدهم ، أَي: فهو مجازيهم بما يعلم.

و﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ يعني عن معاقبتهم ، وعن شغل البال بهم ، وعن قبول أَيمانهم الكاذبة في قوله: ﴿يَحْلِفُونَ﴾ ، وليس بالإعراض الذي هو القطيعة والهجر ، فإِن قوله: ﴿وَعِظْهُمْ﴾ يمنع من ذلك ، و﴿وَعِظْهُمْ﴾ معناه بالتخويف من عذاب الله وغيره من المواعظ.

والقول البليغ اختلف فيه ـ فقيل: هو الزجر والردع والكفُّ بالبلاغة من القول. وقيل: هو التوعد بالقتل إن استداموا حالة النفاق ، قاله الحسن ، وهذا أَبلغ ما يكون في نفوسهم.

والبلاغة مأْخوذة من بلوغ المراد بالقول ، وحكي عن مجاهد أَن قوله: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿مُّصِيبَةٌۢ﴾ وهو مؤخر بمعنى التقديم ، وهذا ضعيف[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ تنبيه على جلالة الرسل ، أَي: فأَنت يا محمد منهم ، تجب طاعتك ، وتتعين إِجابة الدعوة إِليك. و﴿لِيُطَاعَ﴾ نصب بلام (كي) ، و﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ معناه: بأَمر الله ، وحسنت العبارة

---

(١) و(إذا) ظرف منصوب بتراهم أو بصنيعهم. وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ وعيد لهم على فعلهم ، وأنهم سيندمون عليه عند حلول بأس الله تعالىٰ حين لا ينفعهم الندم ولا يغني عنهم الاعتذار.

(٢) قال بعض المفسرين: إن قوله: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ متعلق بقوله تعالىٰ: ﴿وَقُل﴾ على أَحد معنيين: أي: قل لهم خالياً بهم لا يكون معهم أَحد من غيرهم لأن النصح إذا كان في السِّرِّ كان أَنجح ، و﴿بَلِيغًا﴾ ـ على هذا ـ مؤثراً ـ أَو قل لهم في معنى أَنفسهم النجسة المنطوية على النفاق قولاً يبلغ منهم ما يزجرهم عن العودة إلى ما فعلوا ، وقال الزمخشري: إن ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿بَلِيغًا﴾ ، أي: قولاً بليغاً في أنفسهم ، مؤثراً في قلوبهم يغتمون به ويستشعرون منه الخوف ، وهو التوعد بالقتل والاستئصال إن نجم منهم نفاق.

بالإذن، إذ بنفس الإرسال تجب طاعتُه وإن لم ينص أَمرٌ بذلك. ويصح تعلق الباءِ من قوله: ﴿بِإِذْنِ﴾ بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، والمعنى: وما أرسلنا بأمر الله، أَي: بشريعته وعبادته من رسول إلا ليطاع، والأظهر تعلقها بـ ﴿لِيُطَاعَ﴾ والمعنى: وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بأمر الله بطاعته.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى التعليقين فالكلام عام اللفظ خاص المعنى، لأَنَّنا نقطع أَن الله تبارك وتعالىٰ قد أَراد من بعض خلقه أَلا يطيعوا، ولذلك خرَّجت طائفة معنى الإذن إلى العلم، وطائفة خرَّجَته إلى الإرشاد لقوم دون قوم، وهذا تخريج حسن، لأَن الله إذا علم من أحد أَنه يؤمن، ووفقه لذلك فكأَنه أذن له فيه. وحقيقة الإذن: التمكين مع العلم بقدر ما مكن منه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ﴾ الآية ـ معناه: بالمعصية والنفاق ونقصها حظها من الإيمان، و﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ معناه: طلبوا مغفرته، وتابوا إليه. و﴿تَوَّابًا﴾ معناه: راجعاً بعباده.

قوله تعالىٰ:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾.

قال الطبري: قوله: ﴿فَلَا﴾ ردٌّ على ما تقدم، تقديره: فليس الأمر كما يزعمون أَنهم آمنوا بما أُنزل إليك، ثم استأنف القسم بقوله: ﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقال غيره: إنما قدَّم ﴿لَا﴾ على القَسَم اهتماماً بالنفي، وإظهاراً لقوته، ثم كررها بعده تأْكيداً للتَّهَمُّم بالنفي، وكان يصح إسقاط ﴿لَا﴾ الثانية، ويبقى أَكثر الاهتمام بتقديم الأولى، وكان يصح إسقاط الأُولى ويبقى معنى النفي، ويذهب معنى الاهتمام[1].

---

(١) يرى الزمخشري أن (لا) الثانية زائدة، كما زيدت في ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ لتأكيد وجوب العلم، و﴿لَا=

﴿ شَجَرَ ﴾معناه: اختلط والْتَفَّ من أُمورهم، وهو من الشجر، شبيه بالتفاف الأَغصان، وكذلك الشجير الذي امتزجت مودته بمودة صاحبه[١]، وقرأَ أَبو السمَّال: [شَجْر] بإسكان الجيم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَظنه فرَّمن توالي الحركات، وليس بالقوي لِخِفَّة الفتحة.

و﴿ يُحَكِّمُوكَ ﴾ نصب بـ ﴿ حَتَّىٰ ﴾ لأَنها هاهنا غاية مجردة، و﴿ يَجِدُواْ ﴾ عطف عليه، والحرج: الضيق والتكلف والمشقة. قال مجاهد: حرجاً: شكًّا[٢] وقوله: ﴿ تَسۡلِيمٗا ﴾ مصدر مؤكد منبئ على التحقيق في التسليم، لأَن العرب إنما تردف الفعل بالمصدر إذا أَرادت أَن الفعل وقع حقيقة، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾[٣]، وقد تجيءُ به مبالغة وإن لم يقع، ومنه:

. . . . وعَجَّت عَجيجاً مِنْ جُذَامَ المطَارِفُ[٤]

وقال مجاهد وغيره: المراد بهذه الآية من تقدم ذكره ممن أَراد التحاكم إلى الطاغوت، وفيهم نزلت، ورجح الطبري هذا لأَنه أَشبه بنَسَق الآية. وقالت طائفة: نزلت في رجل خاصم الزبير بن العوام في السقي بماءِ الحرة، فقال لهما رسول الله ﷺ: «اسق يا زبير ثم أَرسل الماءَ إلى جارك»، فغضب ذلك الرجل وقال: آن كان ابن

= ﴿ يُؤۡمِنُونَ ﴾ جواب القسم. و﴿ حَتَّىٰ ﴾ هنا غاية، أَي: ينتفي عنهم الإيمان إلى هذه الغاية.

(١) ويقال لِعصِيِّ الهودج: شِجَارٌ، لتداخل بعضها في بعض، قال الشاعر:

نَفْسِي فِداؤُكَ والرِّماحُ شَواجِرٌ ... والقَوْمُ ضُنْكٌ لِلّقَاءِ قِيَام

وقال طرفة:

وهُمُ الحُكَّامُ أَربَابُ الهُدَى ... وسُعَاةُ النَّاسِ في الأَمْرِ الشَّجِر

(٢) لأن الشاكَّ في ضيق من أَمره حتى يأتيه البيان والوضوح، وبسبب الضيق قيل للشجر الملتف: حَرَج وحَرَجة، والجمع: حِرَاج.

(٣) من قوله تعالى: ﴿ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [النساء: ١٦٤].

(٤) عَجَّ يعِجُّ ويَعَجُّ عجاً وعَجيجاً: رفع صوته وصاح، وقيده في التهذيب فقال: بالدعاء والاستغاثة، وجُذام: قبيلة تهجوها الشاعرة بأنها ليست أَهلاً للنعيم، والمطارف: أَزدية من خز مربعة لها أَعلام، والواحد: مِطرف ومُطرف، وقال الفراء: المِطرف من الثياب: ما جُعل في طرفيه علمان. والبيت لهند بنت النعمان بن بشير. وسيأتي زيادة إِيضاح.

عمتك؟ فغضب رسول الله ﷺ، واستوعب للزبير حقه فقال: «احبس يا زبير الماءَ حتى يبلغ الجدر، ثم أَرسل الماءَ»، فنزلت الآية[١]. واختلف أَهل هذا القول في الرجل ـ فقال قوم: هو رجل من الأَنصار من أَهل بدر، وقال مكي وغيره: هو حاطب بن أَبي بلتعة.

قال القاضي: أَبو محمد رحمه الله:

والصحيح الذي وقع في البخاري أَنه رجل من الأَنصار، وأَن الزبير قال: فما أَحسب أَن هذه الآية نزلت إلا في ذلك، وقالت طائفة: لما قتل عمر الرجل المنافق الذي لم يرض بحكم النبي ﷺ بلغ ذلك النبي ﷺ وعظُم عليه، وقال: «ما كنت أَظن أَن عمر يجترئ على قتل رجل مؤمن»[٢]، فنزلت الآية نافية لإِيمان ذلك الرجل الراد لحكم النبي عليه الصلاة والسلام، مقيمة عذر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قتله.

و﴿ كَتَبْنَا ﴾ معناه: فرضنا، و﴿ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ معناه: ليقتل بعضكم بعضاً، وقد تقدم نظيره في البقرة، وضم النون من [أَنُ] وكسرها جائز، وكذلك الواو من [أَوُ اخْرجُوا]، وبضمها قرأَ ابن عامر، ونافع، وابن كثير، والكسائي. وبكسرها قرأَ حمزة وعاصم، وكسر أَبو عمرو النون وضم الواو، و﴿ قَلِيلٌ ﴾ رفع على البدل من الضمير في ﴿ فَعَلُوهُ ﴾، وقرأَ ابن عامر وحده بالنصب: [إِلا قليلاً]، وذلك جائز، أَجرى النفي مجرى الإِيجاب.

وسبب الآية على ما حكي أَن اليهود قالوا ـ لما لم يرض المنافق بحكم النبي عليه الصلاة والسلام ـ ما رأَينا أَسخف من هؤلاءِ، يؤمنون بمحمد ويتبعونه، ويطؤُون عقبه، ثم لا يرضون بحكمه، ونحن قد أُمرنا بقتل أَنفسنا ففعلنا، وبلغ القتل فينا

---

(١) أَخرجه عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وأصحاب السنن من طريق الزهري، وأخرجه الحميدي، وابن جرير وابن المنذر والطبراني في الكبير وغيرهم عن أُم سلمة (الدر المنثور).
وقول الرجل الأنصاري للرسول عليه الصلاة والسلام: (آن كان) بمد همزة (أَن) المفتوحة على سبيل الإنكار، أَي: أتحكم عليَّ لأجل قرابته لك؟ وقوله في الحديث: (الجدر) معناه: ما رفع حول المزروعة فصار كالجدار.

(٢) أَخرج الحديث مع اختلاف في بعض الألفاظ ابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود.

سبعين ألفاً ، فقال ثابت بن قيس: لوكتب ذلك علينا لفعلناه ، فنزلت الآية معلمة حال أُولٰئك المنافقين ، وأَنه لو كتب ذلك على الأمة لم يفعلوه ، وما كان يفعله إلا قليل مؤمنون محققون ، كثابت وغيره ، وكذلك روي أَن رسول الله ﷺ قال: «ثابت بن قيس ، عمار ، وابن مسعود من القليل» ، وشركهم في ضمير ﴿مِّنْهُمْ﴾ لما كان المنافقون والمؤمنون مشتركين في دعوة الإسلام وظواهر الشريعة. وقال أَبو إسحاق السبيعي: لما نزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ الآية ، قال رجل: لو أُمرنا لفعلنا ، والحمد لله الذي عافانا ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «إن من أُمتي رجالاً، الإيمان أَثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي»[1]. وذكر مكي أَن الرجل هو أَبو بكر الصديق رضي الله عنه. وذكر النقاش أَنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذكر عن أَبي بكر رضي الله عنه أَنه قال: لو كتب علينا لبدأت بنفسي وبأَهل بيتي.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟﴾ أَي: لو أَن هؤلاء المنافقين اتعظوا وأَنابوا لكان خيراً لهم.

﴿تَثْبِيتًا﴾ معناه: يقيناً وتصديقاً ونحو هذا ، أَي: يثبتهم الله.

ثم ذكر تعالىٰ ما كان يَمُنُّ به عليهم من تفضله بالأَجر. ووصْفُه إياه بالعظم مقتضٍ ما لا يحصله بشر من النعيم المقيم. والصراط المستقيم: الإيمان المؤدي إلى الجنة. وجاءَ ترتيب هذه الآية كذا ، ومعلوم أَن الهداية قبل إعطاءِ الأَجر لأَن المقصد إنما هو تعديد ما كان الله ينعم به عليهم دون ترتيب ، فالمعنى: ولهديناهم قبْلُ حتى يكونوا ممن يُؤْتَى الأَجر.

قوله تعالىٰ:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

لما ذكر الله الأَمر الذي لو فعلوه لأَنعم عليهم ذكر بعد ذلك ثواب من يفعله ، وهذه الآية تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[2] ،

---

(١) رواه ابن جرير عن أبي إسحاق السبيعي ، ورواه ابن أَبي حاتم عن الأعمش (ابن كثير).
(٢) الفاتحة: ٦ ـ ٧.

وقالت طائفة: إنما نزلت هذه الاية لما قال عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري الذي أُري الأذان: يا رسول الله ، إذا متَّ ومتنا كنت في عِلِّيِّين فلا نراك ولا نجتمع بك ، وذكر حزنه على ذلك فنزلت هذه الآية(١) ، وحكى مكي عن عبد الله هذا أنه لما مات النبي عليه الصلاة والسلام قال: اللَّهم أَعْمِني حتى لا أرى شيئاً بعده ، فعمي ، وذكر أن جماعة من الأنصار قالت ذلك أو نحوه ، حكاه الطبري عن ابن جرير ، وقتادة ، والسدي.

ومعنى «أَنَّهم مَعَهم»: أَنهم في دار واحدة ، ومتنعَّم واحد ، وكل من فيها قد رزق الرضا بحاله ، وذهب عنه أن يعتقد أنه مفضول ، وإن كنا نحن قد علمنا من الشريعة أن أَهل الجنة تختلف مراتبهم على قدر أعمالهم ، وعلى قدر فضل الله على من شاءَ.

والصِّديق: فِعِّيل من الصدق ، وقيل: من الصدقة ، وروي عن النبي عليه الصلاة والسلام: «الصديقون المصدقون»(٢).

والشهداءُ: المقتولون في سبيل الله ، هم المخصوصون بفضل الميتة(٣) ، وهم الذين فرق الشرع حكمهم في ترك الغسل والصلاة ، لأنهم أكرم من أن يشفع لهم، وسمُّوا بذلك لأَن الله شهد لهم بالجنة، وقيل: لأَنهم شهدوا لله بالحق في موتهم ابتغاءَ مرضاته، ولكن لفظ الشهداءِ في هذه الآية يعم أَنواع الشهداءِ.

---

(١) أخرج الطبراني ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، والضياء المقدسي في صفة الجنة ، وحسَّنه ـ عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ، إنَّكَ لأَحَبُّ إلي من نفسي ، وإنك لأحب إلي من ولدي ، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك ، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وأني إذا دخلت الجنة خشيت ألا أراك ، فلم يَرُدَّ عليه النبي ﷺ شيئاً حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾. الآية. (الدر المنثور) ـ وقال ابن كثير بعد أن رواه: «وهكذا رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه في صفة الجنة من طريق الطبراني عن عبد الله بن عمران العابدي ، ثم قال: لا أرى بإسناده بأساً». والله أعلم.

(٢) أخرج ابن جرير عن المقداد ، قال: قُلْتُ للنبي ﷺ: قُلْتَ في أزواجك: إني لأرجو لهن من بعدي الصديقين. قال: «من تعنون الصديقين»؟ قلت: أولادنا الذين هلكوا صغاراً ، قال: «لا ، ولكن الصديقين هم المصدقون». (الدر المنثور).

(٣) أي: الذين خصوا بأفضل أنواع الميتات ـ وفي بعض النسخ من الأصول زيادة لفظ الجلالة: (الله) بين كلمتي (فضل) و(الميتة). وآثرنا حذفها حتى يستقيم المعنى ، ولعلها من أغلاط الناسخ.

و﴿رَفِيقًا﴾ موحد في معنى الجمع، كما قال: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾[(١)]. ونصبه على التمييز، وقيل: على الحال، والأول أصوب، وقرأ أبو السمال: [وَحَسْن] بسكون السين، وذلك مثل: [شَجْر بَيْنَهُم].

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ردٌّ على تقدير معترض يقول: وما الذي يوجب استواءَ أَهل الطاعة والنَّبِيِّين في الآخرة والفرق بينهم في الدنيا بيِّن؟ فذكر الله أَن ذلك بفضله لا بوجوب عليه، والإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى كون المطيعين مع المنعم عليهم، وأَيضاً فلا نقرر الاستواءَ، بل هم معهم في دارٍ والمنازلُ متباينة.

ثم قال: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ وفيها معنى أَن يقول: فسلِّموا فعل الله وتفضله من الاعتراض عليه، واكتفوا بعلمه في ذلك وغيره، ولذلك أُدخلت الباءُ على اسم الله، لتدل على الأَمر الذي في قوله: ﴿وَكَفَىٰ﴾[(٢)].

قوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

هذا خطاب للمخلصين من أُمة محمد عليه الصلاة والسلام، وأمرٌ لهم بجهاد الكفار، والخروج في سبيل الله، وحماية الشرع.

و﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾[(٣)] معناه: احزموا واستعدوا بأَنواع الاستعداد، فهنا يدخل أَخذ السلاح وغيره، و﴿ٱنفِرُواْ﴾ معناه: اخرجوا مُجدين مصممين، يقال: نفر الرجل ينفر ـ بكسر الفاء ـ نفيراً، ونفرت الدابة تنفُر ـ بضم الفاءِ ـ نفوراً. و﴿ثُبَاتٍ﴾ معناه: جماعات متفرقات، فهي كناية عن السرايا.

---

(١) من الآية (٦٧) من سورة المؤمن و﴿رَفِيقًا﴾ جاء مفرداً إما لما قاله ابن عطية، وإما لأنه مثل الخليط والصديق يكون للمفرد والمثنى والجمع، وفضَّل في (البحر المحيط) الرأي الأول لكون فاصلة.

(٢) يرى أبو حيان فسادَ قول من يدعي أَن قولك: (كفى يزيد) معناه: اكتف بزيد ـ وقد وضح ذلك عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾.

(٣) الحِذْر والحَذَر: لغتان كالمِثْل والمَثَل، قال الفراء: أَكثر الكلام الحَذَر، والحِذْر مسموع أيضاً.

و﴿ جَمِيعًا ﴾ معناه: الجيش الكثيف مع النبي ﷺ، هكذا قال ابن عباس وغيره.

والثُّبَةُ: حكي أَنها فوق العشرة من الرجال، وزنها فُعَلة بفتح العيْن، أَصلها: ثُبوَة، وقيل: ثُبَيَة، حذفت لامها بعد أَن تحركت وانقلبت أَلفاً حذفاً غير مقيس، ولذلك جمعت: ثِبُون بالواو والنون عوضاً عن المحذوف، وكسر أَولها في الجمع دلالة على خروجها عن بابها لأَن بابها أَن تجمع بالتاءِ أَبداً، فيقال: ثُباتٍ، وتصغر: ثُبَيَّة، أَصلها: ثُبَيْوة، أَما ثُبة الحوض ـ وهي وسطه الذي يثوب الماءُ إِليه ـ فالمحذوف منها العيْن، وأَصلها: ثُوَبة وتصغيرها: ثوَيْبة، وهي من: ثاب يثوب، وكذلك قال أَبو علي الفارسي في بيت أَبي ذؤيب:

فَلَمَّا جلاها بالإِيامِ تَحَيَّزتْ ... ثُباتاً عليها ذُلُّها واكْتِئابُهَا[1]

إنه اسم مفرد ليس بجمع، سيق على الأَصل، لأَن أَصل ثُبة: ثُبَوَة، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فانقلبت أَلفاً، فساقها أَبو ذؤَيب في هذه الحال.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ ﴾ ـ ﴿ وَإِنَّ ﴾ إيجاب، والخطاب لجماعة المؤمنين، والمراد بـ [مِنْ] المنافقون، وعبَّر عنهم بـ ﴿ مِنكُمْ ﴾ إذ هم في عداد المؤمنين ومنتحلون دعوتهم، واللام الداخلة على [مَنْ] لام التأْكيد دخلت على اسم [إِنَّ] لما كان الخبر متقدماً في المجرور، وذلك مهيع في كلامهم، كقولك: «إِن في الدار لزيداً»، واللام الداخلة على ﴿ لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ لام قَسَم عند الجمهور، تقديره: «وإِنَّ منكم لمن ـ والله ـ ليبطئن». وقيل: هي لام تأْكيد، ويبطِّئن معناه: يبطئ غيرَه، أَي: يثبِّطه ويحمله على التخلف عن مغازي رسول الله ﷺ، وقرأَ مجاهد: [لَيُبْطِئَن] بالتخفيف في الطاءِ. و﴿ مُّصِيبَةٌ ﴾ يعني من قتلٍ واستشهاد، وإِنما هي مصيبة بحسب اعتقاد المنافقين ونظرهم الفاسد، أَو على أَن الموت كله مصيبة كما شاءَ الله تعالىٰ، وإِنما الشهادة في

---

(١) قال هذا البيت ضمن أبيات يصف بها مشتار العسل الذي يتدلى بالحبل من الجبل حيث تتخذ النحل منها بيوتاً، وقبله يقول:

تدلى عليها بين سِبٍّ وخيطةٍ ... بجرداءَ مثلَ الوَكْف يكْبُو غرابُها

والإيام: الدُّخان، وجمعه أُيُم، وآم الرجل إياماً إذا دخن على النحل ليخرج من الخلية فيأخذ ما فيها من العسل، وتحيزت: تجمعت في جماعات، كل جماعة وحدها أو اجتمع بعضها إلى بعض، وقيل: تفرقت من الدخان. وثبات: جماعات، ومفردها: ثبة، والبيت مروي في (اللسان): ثباتٍ، ولكنه هنا ساقها ضمن كلام للفراء، وفيه تعليل لروايتها (ثباتاً) بالألف.

الحقيقة نعمة لحسن مآلها[١] ، و﴿شَهِيدًا﴾ معناه: مشاهداً ، فالمعنى: إن المنافق يسُرُّه غيبه إذا كانت شدة ، وذلك يدل على أن تخلفه إنما هو فزع من القتال ، ونكول عن الجهاد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الآية ، المعنى: ولئن ظفرتم وغنمتم وكل ذلك من فضل الله ندم المنافق أن لم يحضر ويصب الغنيمة ، وقال: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ متمنياً شيئاً قد كان عاهد أن يفعله ثم غدر في عهده ، لأن المؤمن إنما يتمنى مثل هذا إذا كان المانع له من الحضور عذراً واضحاً ، وأَمراً لا قدرة له معه ، فهو يتأَسف بعد ذلك على فوات الخير ، والمنافق يعاطي المؤمنين المودة ، ويعاهد على التزام كلف الإسلام ثم يتخلف نفاقاً وشكا وكفراً بالله ورسوله ، ثم يتمنى عندما يكشف الغيب الظفر للمؤمنين ، فعلى هذا يجيءُ قوله تعالىٰ: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ التفاتةً بليغة ، واعتراضاً بين القائل والمقول بلفظ يظهر زيادةً في قبح فعلهم. وحكى الطبري عن قتادة وابن جريج أَنهما كانا يتأَولان قول المنافق: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ﴾ على معنى الحسد منه للمؤمنين في نيل رغيبة.

وقرأَ الحسن: [ليقولُنَّ] بضم اللام على معنى [مَن] ، وضم اللام يدل على الواو المحذوفة.

ويدل مجموع هاتين الآيتين على أن خارج المنافقين إنما كان يقصد الغنيمة ، ومتخلفهم إنما كان يقصد الشك وتربص الدوائر بالمؤمنين.

و﴿كَأَن﴾ مضمنة معنى التشبيه ، ولكنها ليست كالثقيلة في الحاجة إلى الاسم والخبر ، وإنما تجيءُ بعدها الجمل[٢]. وقرأَ ابن كثير ، وعاصم في رواية حفص: [تَكُنْ] بتاءٍ ، وقرأَ غيرهما: [يَكُنْ] بياءٍ ، وذلك حسنٌ للفصل الواقع بين الفعل والفاعل.

---

(١) وقيل: المصيبة: الهزيمة ، سميت بذلك لما يلحق الإنسان فيها من العار بتولية الأدبار ، ومن العرب من يختار الموت على الهزيمة كما قال أبو تمام:

وقـد كـان فـوْتُ المـوتِ سَهْـلاً فَـردَّه ... إلَيْـهِ الحفَـاظُ المرُّ والخُلُـقُ الـوَعْـرُ

فـأَثْبَـت فـي مستَنقـع المـوت رِجْلَـه ... وقـال لها من تحت أَخمصك الحَشْرُ

(٢) يتمشى قول ابن عطية على مذهب الكوفيين ، أما على مذهب البصريين فلا ، وقد علق أبو حيان في (البحر المحيط) على كلام ابن عطية هذا فقال: «وهذا الذي ذكره غير محرر ولا على إطلاقه». وارجع إليه إن أردت البيان.

وقوله: ﴿فَأَفُوزَ﴾ نصب بالفاءِ في جواب التمني، وقرأ الحسن، ويزيد النحوي: [فَأَفُوزُ] بالرفع على القطع والاستئناف، التقدير: فأنا أفوزُ، قال روح: لم يجعل لِلَيْتَ جواباً، وقال الزجاج: إن قوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ مؤخر، وإنما موضعه: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف لأنه يفسد فصاحة الكلام.

قوله تعالىٰ:

﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

هذا أمر من الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين الذين وصفهم بالجهاد في سبيل الله.

و﴿يَشْرُونَ﴾ معناه: يبيعون في هذا الموضع، وإن جاءَ في مواضعَ: يشترون، فالمعنى ها هنا يدل على أنه بمعنى: يبيعون.

ثم وصف الله تعالىٰ ثواب المقاتل في سبيل الله، فذكر غايتي حالتيه، واكتفى بالغايتين عما بينهما، وذلك أن غاية المغلوب في القتال أن يُقْتَل، وغاية الذي يَقْتُل ويَغْنَم أن يتصف بأنه غالب على الإطلاق. والأجر العظيم: الجنة، وقالت فرقة: ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ﴾ بسكون لام الأمر، وقرأت فرقة: [فَلِيُقَاتل] بكسرها، وقرأ محارب بن دثار: [فَيَقْتُلْ أَو يَغْلِبْ] على بناءِ الفعلين للفاعل، وقرأ الجمهور: ﴿نُؤْتِيهِ﴾ بالنون، وقرأ الأعمش وطلحة بن مُصَرّف: [فَسَوْفَ يُؤْتيه] بالياءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ اللام متعلقة بما يتعلق بالمستفهم عنه من معنى الفعل، تقديره: وأَي شيءٍ موجود أَو كائن أَونحو ذلك لكم؟ و﴿لَا تُقَٰتِلُونَ﴾ في موضع نصب على الحال تقديره: تاركين، أَو مضيعين. وقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ عطف على اسم الله تعالىٰ، أَي: وفي سبيل المُسْتضعفين، وقيل: عطف على السبيل، أَي: وفي

المستضعفين لاستنقاذهم، ويعني بالمستضعفين من كان بمكة من المؤمنين تحت إذلال كفرة قريش وأذاهم لا يستطيعون خروجاً، ولا يطيب لهم ـ على الأذى ـ إقامة، وفي هؤلاءِ كان رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهم أَنج سلمة بن هشام، وعياش بن أَبي ربيعة، اللَّهم أَنج المستضعفين من المؤمنين»[1].

﴿وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ بابه أَن يكون جمع وليد، وقد يكون جمع ولد، كوَرَل ووِرْلان[2]، فهي على الوجهين عبارة عن الصبيان، والقرية ـ ها هنا ـ مكة بإِجماع من المتأَولين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والآية تتناول المؤمنين والأسرىٰ وحواضر الشرك إِلى يوم القيامة، ووحد الظالم لأَنه موضع اتخاذ الفعل، أَلا ترى أَن الفعل إِنما تقديره: الذي ظلم أَهلُها، ولما لم يكن للمستضعفين حيلة إِلا الدعاءُ دعوا في الاستنقاذ، وفيما يواليهم من معونة الله تعالىٰ، وما ينصرهم على أُولٰئك الظلمة من فتح الله تبارك وتعالىٰ.

قوله تعالىٰ:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ﴾.

هذه الآية تقتضي تقوية قلوب المؤمنين وتحريضهم، و﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾ كل ما عُبد واتُّبع من دون الله، وتدل قرينة ذكر الشيطان بعد ذلك على أَن المراد بالطاغوت هنا الشيطان، وإِعلامه تعالىٰ بضعف كيد الشيطان تقوية لقلوب المؤمنين، وتَجْرِئَةٌ لهم على مقارعة الكيد الضعيف فإِن العزم والحزم الذي يكون على الحقائق الإِيمان يكسره ويهده، ودخلت ﴿كَانَ﴾ دالة على لزوم الصفة.

---

(١) رواه البخاري ومسلم، وغيرهما.

(٢) الوَرَل ـ بفتح الواو والراء ـ: دابة على هيئة الضب، وهي أعظم منه وأَلطف بدناً، والوَرَلُ طويل الذنب، صغير الرأس، لحمه حار جداً، يعيش في الصحراء وبه يضرب المثل في الظلم فيقال: «أَظلم من وَرَل» ذلك لأنه يغصب الحية جحرها ويأكلها، ويسكن في الجحر بعدها ـ والأنثى: وَرَلة، والجمع كما قال المؤلف: وِرْلان وأَورال.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ﴾ ، اختلف المتأولون في من المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ﴾ ـ فقال ابن عباس وغيره: كان عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أَبي وقاص ، والمقداد بن عمرو الكندي ، وجماعة سواهم قد أَنِفُوا من الذل بمكة قبل الهجرة ، وسأَلوا رسول الله ﷺ أَنْ يُبيح لهم مقاتلة المشركين ، فأَمرهم الله تعالىٰ بكف الأَيدي ، وأَلا يفعلوا ، فلما كان بالمدينة وفُرض القتال شق ذلك على بعضهم ، وصعب موقعه ، ولحقهم ما يلحق البشر من الخور والكع[1]. عن مقارعة العدو فنزلت الآية فيهم.

وقال قوم: كان كثير من العرب قد استحسنوا الدخول في دين محمد عليه الصلاة والسلام على فرائضه التي كانت قبل القتال من الصلاة والزكاة ونحوها ، والموادعة وكف الأَيدي ، فلما نزل القتال شق ذلك عليهم ، وجزعوا له ، فنزلت الآية فيهم. وقال مجاهد ، وابن عباس أَيضاً: إنما الآية حكاية عن اليهود أَنهم فعلوا ذلك مع نبيِّهم في وقته ، فمعنى الحكاية عنهم تقبيح فعلهم ، ونهي المؤمنين عن فعل مثله ، وقالت فرقة: المراد بالآية المنافقون من أَهل المدينة ـ عبد الله بن أُبَيٍّ وأَمثاله ، وذلك أَنهم كانوا قد سكتوا على الكره إلى فرائض الإسلام مع الدعة وعدم القتال ، فلما نزل القتال شق عليهم وصعب عليهم صعوبة شديدة ، إِذ كانوا مكذبين بالثواب ، ذكره المهدوي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويُحَسِّن هذا القول أن ذكر المنافقين يطرد فيما بعدها من الآيات.

ومعنى ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾: أَمسكوا عن القتال. والفريق: الطائفة من الناس ، كأَنه فارق غيره ، وقوله: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ يعني أَنهم كانوا يخافون الله في جهة الموت ، لأَنهم لا يخشون الموت إِلا منه ، فلما كتب عليهم قتال الناس رأَوا أَنهم يموتون بأَيديهم ، فخشوهم في جهة الموت كما كانوا يخشون الله. وقال الحسن: قوله: ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ يدل على أَنها في المؤمنين ، وهي خشية خوف لا خشية مخافة ، ويحتمل أَن يكون المعنى: يخشون الناس على حد خشية المؤمنين لله عز وجل.

---

(١) الكَعُّ: هو الجبْن والضعف عن الإقدام ، يقال: كعَّ فلان كعًّا وكعاعة: جَبُن وضعف فهو كعٌّ وكاعٌّ ، وجمع الأخير: كاعَّة ـ (المعجم الوسيط ـ كعّ).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ترجيح لا قطع.

وقوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ قالت فرقة: ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو، وفرقة: هي بمعنى بل، وفرقة: هي للتخيير، وفرقة: على بابها في الشك في حق المخاطب، وفرقة: هي على جهة الإبهام على المخاطب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد شرحت هذه الأَقوال كلها في سورة البقرة في قوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[1]، لأَن الموضعين سواء.

وقولهم: ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾؟ ردٌّ في صدر أَوامر الله تعالىٰ، وقلة استسلام، والأَجل القريب يعنون به موتهم على فرشهم، هكذا قال المفسرون.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا يحسن إذا كانت الآية في اليهود أَو المنافقين، وأَما إذا كانت في طائفة من الصحابة فإنما طلبوا التأخر إلى وقت ظهور الإسلام وكثرة عددهم.

قوله تعالىٰ:

﴿قُلْ مَتَٰعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾.

المعنى: قل يا محمد لهؤلاء: متاع الدنيا، أَي: الاستمتاع بالحياة فيها الذي حرصتم عليه، وأَشفقتم من فقده ـ قليلٌ، لأَنه فان زائل، والآخرة التي هي نعيم مؤبد خيرٌ لمن أَطاع الله واتقاه في امتثال لأَوامره على المحاب والمكاره.

وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿تُظْلَمُونَ﴾ بالتاءِ على الخطاب، وقرأَ ابن كثير، وحمزة، والكسائي: [يُظْلَمُونَ] بالياءِ على ترك المخاطبة وذكر الغائب.

---

(١) البقرة: ٧٤.

والفتيل: الخيط في شق نواة التمرة، وقد تقدم القول فيه.

و﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ ﴾ جزاءٌ وجوابه، وهكذا قراءَة الجمهور، وقرأَ طلحة بن سليمان: [يدركُكم] بضم الكافين ورفع الفعل. قال أَبو الفتح: ذلك على تقدير دخول الفاءِ كأَنه قال: فيدرككم الموت[١]، وهي قراءَة ضعيفة. وهذا إِخبارٌ من الله يتضمن تحقير الدنيا، وأَنه لا منجي من الفناءِ والتنقل.

واختلف المتأَولون في قوله: ﴿فِي بُرُوجٍ﴾ - فالأَكثر والأَصح أَنه أَراد البروج والحصون التي في الأَرض المبنية، لأَنها غاية البشر في التحصن والمنعة، فمثَّل الله لهم بها، قال قتادة: المعنى: في قصور محصنة، وقاله ابن جريج، والجمهور. وقال السدي: هي بروج في سماء الدنيا مبنية، وحكى مكي هذا القول عن مالك، وأَنه قال: أَلا ترى إِلى قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾[٢]. وحكى النقاش عن ابن عباس أَنه قال: ﴿فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ معناه: في قصور من حديد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا لا يُعطيه اللفظ، وإِنما البروج في القرآن إِذا وردت مقترنة بذكر السماءِ بروج المنازل للقمر وغيره، على ما سمتها العرب وعرفتها. وبَرَج معناه: ظهر، ومنه البروج، أَي: المطولة الظاهرة، ومنه تبرج المرأَة.

و﴿مُشَيَّدَةٍ﴾ قال الزجاج وغيره: معناه: مرفوعة مطولة، لأَن «شاد الرجل البناءَ» إِذا صنعه بالشِّيد، وهو الجِص، و«أَشَادَ» و«شَيَّدَ» إِذا رفعه وعلاه، ومنه «أَشاد الرجل ذكر الرجل» إِذا رفعه، وقالت طائفة: ﴿مُشَيَّدَةٍ﴾ معناه: محسنة بالشِّيد، وذلك عندهم أَن «شاد الرجل» معناه: جصَّص بالشِّيد، وشيَّد معناه: كرر ذلك الفعل، فهي للمبالغة، كما تقول: «كسرت العود مرة»، و«كسَّرْته في مواضع منه كثيرة مراراً»، و«خرقْتُ الثوب وخرَّقته» إِذا كان الخرق منه في مواضع كثيرة، فعلى هذا يصح أَن تقول: «شاد الرجل الجدار مرة»، و«شيَّد الرجل الجدار» إِذا أَردت المبالغة، لأَن

---

(١) ومثله قول الشاعر:

مَنْ يَفْعَلِ الحَسَناتِ اللهُ يَشْكُرُها

(٢) البروج: ١، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ وقوله: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾.

التشييد منه وقع في مواضع كثيرة، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

شـاده مَـرْمـراً وجلَّلـه كَلْـ ـسا فلِلطَّير في ذُراه وكُور[1]

والهاءُ والميم في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ ردٌّ على الذين قيل لهم: ﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾، وهذا يدل على أَنهم المنافقون، لأَن المؤمنين لا تليق بهم هذه المقالة، وَلأَن اليهود لم يكونوا للنبي عليه الصلاة والسلام تحت أَمر، فتصيبيهم بسببه أَسواء، ومعنى الآية: وإِن تصب هؤلاءِ المنافقين حسنة من هزم عدو، أَو غنيمة، أَو غير ذلك رأَوا أَن ذلك بالاتفاق من صنع الله، لا أَنه ببركة اتباعك والإِيمان بك، وإِن تصبهم سيئة، أَي: هزيمة، أَو شدة جوع، وغير ذلك، قالوا: هذه بسببك لسوءِ تدبيرك، كذا قال ابن زيد، وقيل: لشؤمك علينا، قاله الزجاج وغيره.

وقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ إعلام من الله تعالىٰ أَن الخير والشر والحسنة والسيئة خلق له ومن عنده، لا رب غيره، ولا خالق ولا مخترع سواه، فالمعنى: قل يا محمد لهؤلاء: ليس الأَمر كما زعمتم من عندي، ولا من عند غيري، بل هو كله من عند الله، قال قتادة: النعم والمصائب من عند الله، قال ابن زيد: النصر والهزيمة، قال ابن عباس: السيئة والحسنة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله شيءٌ واحد.

ثم وبخهم بالاستفهام عن علة جهلهم، وقلة فهمهم وتحصيلهم لما يخبرون به من الحقائق، والفقه في اللغة: الفهم، وأَوقفته الشريعة على الفهم في الدين وأُموره، وغلب عليه بعد الاستعمال في علم المسائل الأَحكامية. والبلاغة في الاستفهام عن قلة

---

(١) هذا البيت لعديِّ بن زيد العباديِّ، وقبله يقول:

أَيْـنَ كِسْـرى، كِسْـرى الملوك أَبـو سا ـسـانَ؟ أَم أَيـن قَبْلَـه سـابـورُ؟
وبنـو الأَصْفـر الكـرام ملـوك الـ ـرُّوم، لـم يبْـقَ مِنهُـمُ مـذكـورُ؟
وأَخـو الحَضْـر إذْ بَنَـاهُ وإذ دَجْـ ـلَـةُ تُجْبـى إليْـه والخـابـورُ

وجَلَّله: كساه وعمَّمه. والكَلْس: ما طُلي به حائط أو باطنُ قصر، والوكور: جمع وكر وهو عش الطائر وإن لم يكن فيه. وأَما الحَضْر فهي مدينة بين دجْلَة والفُرات، وصاحبُ الحَضْر هو الساطِرون. (اللسان).

فقههم بينة ، لأنك إذا استفهمت عن علة أمر ما فقد تضمن كلامك إيجاب ذلك الأمر تضمناً لطيفاً بليغاً.

ووقف أبو عمرو ، والكسائي على قوله: [فَمَا] ، ووقف الباقون على اللام في قوله: ﴿فَمَالِ﴾ اتباعاً للخط ، ومنعه قوم جملة ، لأنه حرف جر فهي بعض المجرور ، وهذا كله بحسب ضرورة وانقطاع النفس ، وأما أن يختار أحد الوقف فيما ذكرناه ابتداءً فلا.

قوله تعالىٰ:

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾.

قالت فرقة: ﴿مَّآ﴾ شرطية ، ودخلت ﴿مِنْ﴾ بعدها لأن الشرط ليس بواجب فأشبه النفي الذي تدخله (من). وقالت فرقة: ﴿مَّآ﴾ بمعنى (الذي) و﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس ، لأن المصيب للإنسان أشياء كثيرة ، حسنة وسيئة ، ورخاءٌ وشدة ، وغير ذلك ، والخطاب للنبي ﷺ. وغيرُه داخل في المعنى ، وقيل: الخطاب للمرءِ على الجملة.

ومعنى هذه الآية عند ابن عباس ، وقتادة ، والحسن ، والربيع ، وابن زيد ، وأبي صالح ، وغيرهم: القطع واستئناف الإخبار من الله تعالىٰ بأن الحسنة منه وبفضله ، والسيئة من الإنسان بإذنابه ، وهي من الله بالخلق والاختراع.

وفي مصحف ابن مسعود: [فمن نفسك وأنا قضيتُها عليك][(١)] ، وقرأ بها ابن عباس ، وحكى أبو عمرو أنها في مصحف ابن مسعود: [وأنا كَتَبْتُها] ، وروي أن أُبَيّاً وابن مسعود قرآ: [وأنا قدَّرتُها عليك].

ويُعَضِّد هذا التأويل أحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام معناها: إن ما يصيب ابن آدم من مصائب فإنما هي عقوبة ذنوبه ، ومن ذلك «أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه

---

(١) قال القرطبي رحمه الله تعليقاً على ذلك: «هذه قراءة على التفسير ، وقد أثبتها بعض أهل الزيغ من القرآن ، والحديث بذلك عن ابن مسعود وأُبيّ منقطع ، لأن مجاهداً لم ير عبد الله ولا أُبيّاً».

لما نزلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[1] جزع، فقال له رسول الله ﷺ: «أَلَسْتَ تمرض؟ أَلَسْتَ تَسْقم؟ أَلَسْت تَغْتَم؟»[2]، وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «ما يصيب الرجل خدشة عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر»[3]. ففي ذلك بيان أن تلك كلها مجازاة على ما يقع من الإنسان.

وقالت طائفة: معنى الآية كمعنى التي قبلها في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ على تقدير حذف (يقولون). فتقديره: «فما لِهٰؤلاءِ القَوم لا يَكَادُون يَفْقَهُون حَدِيثاً، يقولون: ما أَصَابَك مِنْ حَسَنَةٍ»، ويجيءُ القطع على هذا القول من قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ﴾.

وقالت طائفة: بل القطع في الآية من أولها، والآية مضمَّنة الإخبار أن الحسنة من الله وبفضله، وتقدير ما بعده: وما أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِك على جهة الإنكار والتقرير[4]، فعلى هذه المقالة ألف الاستفهام محذوفة من الكلام[5]، وحكى هذا القول المهدوي. و﴿رَسُولًا﴾ نصب على الحال، وهي حال تتضمن معنى التأكيد في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾، ثم تلاه بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ توعدٌ للكفرة، وتهديد تقتضيه قوة الكلام، لأن المعنى: شهيداً على من كذَّبه، والمعنى أن الرسول إنما يأمر وينهى بياناً من الله وتبليغاً، فإنما هي أوامر الله ونواهيه.

قالت فرقة: سبب هذه الآية أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحبَّني فقد أَحبَّ الله»

(١) من قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

(٢) أخرجه ابن جرير عن عائشة، وأخرجه أحمد وهناد وعبد بن حميد والحكيم والترمذي وغيرهم عن أبي بكر (الدر المنثور).

(٣) أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ قال: «عقوبة بذنبك يا بن آدم». قال: «وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «لا يصيب رجلاً خدش عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر». (الدر المنثور).

(٤) هكذا في الأصول، ولعلَّها: «والتقريع»، أو يكون المراد: الإنكار عليهم مع تقريرهم بالخبر.

(٥) حذف ألف الاستفهام من الكلام كثير، ومنه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾، أي: أو تلك نعمة؟ وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾، أي: أهذا ربِّي؟ وقول أبي خراش الهذلي:

رمـوني وقـالـوا يـا خُـويلـد لـم تُـرَع فقلـتُ وأنكـرتُ الـوجـوه هُـمُ هُـمُ؟

أي: أَهُم هُم؟.

فاعترضت اليهود عليه في هذه المقالة، وقالوا: هذا محمد يأمر بعبادة الله وحده، وهو في هذا القول مدَّع للربوبية، فنزلت هذه الآية تصديقاً للرسول عليه الصلاة والسلام، وتبييناً لصورة التعلق بينه وبين فضل الله تعالىٰ.

و﴿ تَوَلَّىٰ ﴾ معناه: أعرض، وأصل تولى في المعنى أن يتعدى بحرف فنقول: تولَّى فلان عن الإيمان، وتولَّى إلى الإيمان، لأن اللفظة تتضمن إقبالاً وإدباراً، لكن الاستعمال غلب عليها في كلام العرب على الإعراض والإدبار، حتى استغنى فيها عن ذكر الحرف الذي يتضمنه.

﴿ حَفِيظًا ﴾ يحتمل معنيين ـ أي: ليحفظهم حتى لا يقعوا في الكفر والمعاصي ونحوه، أو: ليحفظ مساويهم وذنوبهم ويحسبها عليهم. وهذه الآية تقتضي الإعراض عمن تولَّى والترك له، وهي قبل نزول القتال، وإنما كانت توطئة ورفقاً من الله تعالىٰ حتى يستحكم أمر الإسلام.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾ الآية، نزلت في المنافقين باتفاق من المفسرين، المعنى: يقولون لك يا محمد: أمرنا طاعة، فإذا خرجوا من عندك اجتمعوا ليلاً وقالوا غير ما أظهروا لك، و﴿ بَيَّتَ ﴾ معناه: فَعَل ليلاً، فإما أُخذ من (بات)، وإما من (البيت) لأنه ملتزم بالليل، وفيه الأسرار التي يُخاف شياعها، ومن ذلك قول الشاعر:

أَتَــوْنــي فَلَــمْ أَرْضَ مَــا بيَّتُــوا وكَــانُــوا أَتَــوْنــي بــأَمــر نُكُــر(١)

ومنه قول النَّمر بن تولب:

هَبَّـتْ لتعْـذلَنـي بليـل اسْمَعـي سَفهـاً تُبَيِّتُـك المـلامـةُ فـاهْجَعِـي(٢)

---

(١) البيت للأسود بن يعفر، وبعده كما في اللسان:

لأنكــحَ أَيِّمهــم مُنْــذراً وهــلْ ينكــحُ العبْــدَ حــرٌّ لِحــرّ؟

والنكْر هو المنكر، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾، وقد تحرك الكاف كما في البيت، وابن عطية يستشهد بالبيت على أن معنى (بيَّت) هو: «فعل ليلا»، سواءٌ أكان من الفعل (بات) أو من (البيت) لأنه مُلْتَزَم بالليل ـ لكن القرطبي استشهد به على أن معنى ﴿ بَيَّتَ ﴾ هو: غيَّر وبدَّل، وأتبعه ببيت آخر يتضح فيه معنى التغيير أكثر، وهو قول الشاعر:

بيَّــتَ قــولــيَ عبــد المليــ ـــكِ قــاتلــه الله عبــداً كفــوراً

ورواه في (البحر المحيط):

وتَبيــتُ قَــوْلــيَ عنْــد المليــ ـــكِ قــاتلَــكَ اللهُ عبداً كفــوراً

(٢) العذْل: الملامة كالتعذيل، والاسم: العذل محركة، وبيَّت الأمر: عمله ليلاً كما في الآية الكريمة =

المعنى: وتقول لي: اسْمَع، وزيدت الياءُ إشباعاً لتصريع القافية، كقول امرئ القيس:

أَلا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّويلُ أَلا انْجَلي . . . . (١)

وقوله: بأَمثل. وقرأ جمهور القراءِ: ﴿بَيَّتَ﴾ بتحريك التاءِ، وقرأ أَبو عمرو، وحمزة بإِدغامها في الطاءِ، وقرأ ابن مسعود: [بيَّت مُبَيِّت منهم يا محمد]. و﴿تَقُولُ﴾ يحتمل أَن يكون معناه: تقول أَنت يا محمد، ويحتمل تقول هي لك. و﴿يَكْتُبُ﴾ معناه على وجهين: إِما يكتبه عنده حسب كتب الحفظة حتى يقع الجزاءُ، وإِما يكتبه في كتابه إِليك، أَي: ينزله في القرآن ويعلم بها، قال هذا القول الزجاج. والأَمر بالإِعراض إِنما هو عن معاقبتهم ومجازاتهم، وأَما استمرار دعوتهم وعظتهم فلازم، قال الضحاك: معنى ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ لا تُخبر بأَسمائهم، وهذا أَيضاً قبل نزول القتال على ما تقدم، ثم أَمر الله تعالىٰ بالتوكل عليه والتمسك بعروته الوثقى ثقة بإِنجاز وعده في النصر، والوكيل: القائم بالأُمور، المصلح لما يُخاف من فسادها، وليس ما غلب عليه الاستعمال في (الوكيل) في عصرنا بأَصل في كلام العرب، وهي لفظة رفيعة وضعها الاستعمال العامي كالعريف والنقيب وغيره.

قوله تعالىٰ:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾.

المعنى: هؤلاءِ المنافقون، الطاعنون عليك، الرافعون بغير برهان في صدر نبوتك أَلا يرجعون إِلى النصفة، وينظرون موضع الحجة، ويتدبرون كلام الله تعالىٰ فتظهر لهم براهينه، وتلوح أَدلته؟.

= هنا، وكما في قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ والهجوع بالضم: النوم ليلاً.

(١) البيت كاملاً هو:

أَلا أَيُّها اللَّيلُ الطَّويلُ أَلا انجلي بِصُبْحٍ، وما الإِصباح منك بأَمثَلِ

وإِلى كلمة (أَمثل) هذه يشير ابن عطية في قوله بعد البيْت مباشرةً: «وقوله: بأَمثل».

وقد زيدت الياء في (انجلي) ليستقيم الوزن، عن الفراء: العرب تفعل ذلك كثيراً.

والتدبر: النظر في أعقاب الأُمور وتأْويلات الأَشياءِ، هذا كله يقتضيه قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾. وهذا أَمر بالنظر والاستدلال[1]. ثم عرَّف تعالىٰ بمواقع الحجة، أَي: لو كان من كلام البشر لدخله ما في كلام البشر من القصور، وظهر فيه التناقض والتنافي الذي لا يمكن جمعه، إِذ ذلك موجود في كلام البشر، والقرآن منزه عنه، إِذ هو كلام المحيط بكل شيءٍ علما.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فإِن عرضت لأَحد شبهة وظن اختلافاً في شيءٍ من كتاب الله، فالواجب أَن يتهم نظره، ويسأَل من هو أَعلم منه.

وذهب الزجاج إِلى أَن معنى الآية: لوجدوا فيما نخبرك به مما يبيتون اختلافاً، أَي: فإِذا تخبرهم به على حد ما يقع فذلك دليل أَنه من عند الله غيب من الغيوب، هذا معنى قوله، وقد بينه ابن فُورك، والمهدوي.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ﴾ الآية، قال جمهور المفسرين: الآية في المنافقين حسبما تقدم من ذكرهم، والآية نازلة في سرايا رسول الله ﷺ وبعوثه، والمعنى: إِن المنافقين كانوا يشرئبون إِلى سماع ما يسوءُ النبي ﷺ في سراياه، فإِذا طرأَت لهم شبهة أَمن للمسلمين أَو فتح عليهم حقروها وصغروا شأْنها، وأَذاعوا بذلك التصغير والتحقير، وإِذا طرأَت لهم شبهة خوف للمسلمين أَو مصيبة عظموها، وأَذاعوا ذلك التعظيم، و﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ معناه: أَفشوه، وهو فعل يتعدى بحرف جر، وبنفسه أَحياناً، تقول: أَذعت كذا، وأَذعت به، ومنه قول أَبي الأَسود:

أَذاعوا به في النَّاس حتى كأَنَّه ... بِعَلْيَاءَ نارٌ أُوقدتْ بثقُوب[2]

وقالت فرقة: الآية نازلة في المنافقين، وفي من ضعف جلده عن الإِيمان من المؤمنين وقلَّت تجربته.

---

(١) قال القرطبي: «ودلت هذه الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ على وجوب التدبر في القرآن ليُعرف معناه، فكان في هذا ردٌّ على فساد قول من قال: «لا يؤخذ من تفسيره إِلا ما ثبت عن النبي ﷺ»، ومنع أَن يتأَول على ما يُسَوِّغه كلام العرب، وفيه دليل على الأمر بالنظر والاستدلال وإِبطال التقليد، وفيه دليل على إِثبات القياس». ا.هـ.

(٢) العلياءُ: رأْس الجبل، والمكان العالي، والثُّقوب والثِّقاب: ما أُشعلت به النار وأُثقبت من دقاق العيدان، يقال: هب لي ثقوباً أَي: حراقاً، وهو ما أَثقَبتَ به النار أَي: أَوقدتها به. (عن اللسان).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فإما أن يكون ذلك في أمر السرايا فإنهم كانوا يسمعون أقوال المنافقين فيقولونها مع من قالها، ويذيعونها مع من أذاعها، وهم غير متثبتين من صحتها، وهذا هو الدال على قلة تجربتهم، وإما أن يكون ذلك في سائر الأمور الواقعة، كالذي قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه جاءَ وقوم في المسجد يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءَه، قال: فدخَلْتُ على عائشة، فقلتُ: يا بنة أبي بكر بلغ من أمركِ أن تؤذي رسول الله ﷺ؟ فقالت: يا بن الخطاب، عليك بِعَيْبَتك[١]، قال: فدخلْتُ على حفصة، فقلت: يا حفصة، قد علمتِ أن رسول الله ﷺ لم يكن يحبك، ولولا أنا لطلقك، فجَعَلت تبكي، قال: فخرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ وهو في غرفة له، ورباح مولاه جالس على أُسْكُفَّة[٢] الغرفة، فقلت: يا رباح، استأذن لي على رسول الله، فنظر إلى الغرفة، ثم نظر إليَّ وسكت، فقلت: يا رباح، استأذن لي على رسول الله، فلعلَّه يظن أني جئت من أجل حفصة، والله لو أمرني أن أضرب عنقها لضربته، فنظر ثم أشار إلي بيده أن ادخل، فدخلت وإذا رسول الله ﷺ مضطجع على حصير، وقد أثر في جنْبه، وإذا ليس في غرفته إلا قبضة من شعير، وقبضة من قَرَظ[٣]، وإذا أفيقان[٤] معلَّقان، فبكيت، فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا بن الخطاب؟ فقلت: يا رسول الله، أنت صفوة الله من خلقه ورسولُه، وليس لك من الدنيا إلا هذا، وكسرى وقيصر في الأشجار والأنهار، فقال: ها هنا أنت يا عمر؟ أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ فقلت: بلى، ثم جعلتُ أُحدثه حتى تهلَّل وابتسم، فقلت: يا رسول الله، إنهم ادعوا أنك طلقت نساءَك، فقال: لا، فقلت: أتأذن لي أن أُعرف الناس؟ فقال: افعل إن شئت. قال: فقمت على باب المسجد فقلت: ألا إن رسول الله ﷺ لم يطلق نساءَه،

---

(١) أي: اشتغل بأهلك ودعني. (عن اللسان).

(٢) الأسْكُفَّة: بضم الهمزة، وسكون السين، وضم الكاف، وتشديد الفاء المفتوحة على وزن (طُرْطُبَّة): خشبة الباب التي يوطأ عليها. والمعرفة الآن باسم: (العتبة).

(٣) القَرَظ بفتح الراء: ورق السَّلَم، أو ثمر السنط، ويعتصر منه الأقاقيا، وهي شيء يتداوى به، والواحدة: قَرَظة.

(٤) أَفِيقَان: مثنى أَفِيق. وهو الجلد الذي لم يدبغ (عن ثعلب)، وقيل: هو الذي لم تتم دباغته، ذكر ذلك اللسان، ثم روى الجزء الذي تضمن هذه الكلمة من حديث عمر بن الخطاب هذا (اللسان مادة: أفق).

فأنزل الله في هذه القصة: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ﴾. الآية، وأنا الذي استنبطه[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ الآية. المعنى: لو أمسكوا عن الخوض، واستقصوا الأُمور من قِبل الرسول، أَو أُولي الأَمر ـ وهم الأُمراءُ ـ قاله السدي، وابن زيد، وقيل: أَهل العلم، قاله الحسن، وقتادة، وغيرهما، والمعنى يقتضيهما معاً. ﴿لَعَلِمَهُ﴾ طلابه من أُولي الأَمر، والبحثة عنه وهم مستنبطوه كما يستنبط الماءُ وهو: النبط، أَي: الماءُ المستخرج من الأَرض، ومنه قول الشاعر:

قــريــبٌ ثــراهُ مــا ينــالُ عــدُوُّهُ لــهُ نَبَطــاً آبــى الهــوانَ قَطــوب[٢]

وهذا التأْويل جارٍ مع قول عمر رضي الله عنه: أَنا استنبطته ببحثي وسؤالي. وتحتمل الآية أَن يكون المعنى: لعلمه المسؤولون المستنبطون فأَخبروا بعلمهم، وقرأَ أَبو السمّال: [لَعَلْمه] بسكون اللام، وذلك مثل ﴿شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾[٣]، والضمير في: ﴿رَدُّوهُ﴾ على الأَمر، وفي: ﴿مِنۡهُمۡ﴾ يحتمل أَن يعود على الرسول وأُولي الأَمر، ويحتمل أَن يعود على الجماعة كلها، أَي: لَعَلِمه البحثة من الناس.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ الآية، هذا الخطاب لجميع المؤمنين باتفاق من المتأَولين، والمعنى: ولولا هداية الله وإِرشاده لكم بالإِيمان ـ وذلك فضل منه ورحمة ـ لَكُنتُم على كفركم، وذلك هو اتباع الشيطان. وحكى الزجاج: لولا فضل الله في هذا القرآن ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام.

واختلف المتأَولون في الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ ـ مم هو؟ فقال ابن عباس،

---

(١) الحديث متفق عليه ـ قال ابن كثير: متفق على صحته.

(٢) الثرى: النَّدى، وفي رواية: «قريب نداه». والنبط مثل النبيط: الماء الذي ينبط من قعر البئر إذا حفرت. وقد نسبه في اللسان إلى: كعب بن سعْد الغَنَويّ، ورواه:

قــريــبٌ ثــراهُ مــا ينــالُ عــدوُّه لــه نبطــاً عنــد الهــوان قطــوب

والذي في (الأساس) «آبى الهوانَ» كما هنا. قال ابن الأعرابي: يقال للرجل إذا كان بعيد العزّ والمنعة: «ما يجد عدوُّه له نبطا» ونسب البيت لكعب.

(٣) قال أبو حيان: «ليس مثله، لأن تسكين (علْم) قياسٌ مطرد في لغة تميم، و(شجْر) ليس قياساً مطرداً، إنما هو على سبيل الشذوذ، وتسكين (علْم) مثل التسكين في قوله:

فــإن تبْلُــه يضجَــر كمــا ضَجْــر بــازِلٌ مــن الأدم دبــرت صفحَتَــاهُ وغــاربُــه

وابن زيد: ذلك مستثنى من قوله: ﴿أَذَاعُوا بِهِ ـ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ورجحه الطبري، وقال قتادة: ذلك مستثنى من قوله: ﴿يَسْتَنبِطُونَهُ ـ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقالت فرقة: ذلك مستثنى من قوله: ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، على سرد الكلام دون تقدير تقديم، ثم اختلفت هذه الفرقة ـ فقال الضحاك: إن الله هدى الكل منهم إلى الإيمان، فكان منهم من تمكَّن فيه حتى لم يخطر له قط خاطر شك، ولا عنت له شبهة ارتياب، فذلك هو القليل، وسائر من أَسلم من العرب لم يخْل من الخواطر، فلولا فضل الله بتجديد الهداية لهم لضلُّوا واتَّبعوا الشيطان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا معنى قول الضحاك، ويجيءُ الفضل معينا، أَي: رسالة محمد عليه الصلاة والسلام والقرآن، لأَن الكلَّ إِنما هدي بفضل الله على الإِطلاق، وقال قوم: المخاطب بقوله: ﴿لَاتَّبَعْتُمُ﴾ جميع المؤمنين، وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إِشارة إِلى من كان قبل الإِسلام غير متبع للشيطان على ملَّة إِبراهيم عليه السلام، كورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل، وغيرهما. وقال قوم: الاستثناءُ إِنما هو من الاتباع، أَي: لاتَّبَعْتُم الشيطان كلكم إِلا قليلاً من الأُمور كنتم لا تتبعونه فيها. وقال قوم: قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ عبارة عن العدم، يريدون: لاتَّبعتم الشيطان كلكم، وهذا الأَخير قول قلق، وليس يشبه ما حكى سيبويه من قولهم: «أَرض قلَّما تنبت كذا» بمعنى: لا تُنْبته، لأَن اقتران القلَّة بالاستثناءِ يقتضي حصولها، ولكن قد ذكره الطبري.

قوله تعالىٰ:

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾.

هذا أَمر في ظاهر اللفظ للنبي عليه الصلاة والسلام وحده، لكن لم نجد قط في خبر أَن القتال فُرض على النبي ﷺ دون الأُمة مدة ما، فالمعنى ـ والله أَعلم ـ أَنه خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام في اللفظ، وهو مثال ما يقال لكل واحد في خاصة نفسه،

أَي: أَنت يا محمد وكل واحد من أُمتك القول له: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾، ولهذا ينبغي لكل مؤمن أَن يستشعر أَن يجاهد ولو وحده، ومن ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام: «والله لأُقاتِلَنَّهُم حتى تنفرد سالفتي»[١] وقول أَبي بكر رضي الله عنه وقت الرِّدَّة: «ولو خالفتني يميني لجاهدتها بشمالي».

وخلط قوم في تعلق الفاء من قوله: ﴿فَقَٰتِلۡ﴾ بما فيه بُعْد[٢]، والوجه أنها عاطفة جملة كلام على جملة، وهي دالة على اطراح غير ما أُمر به، ثم خص النبي عليه الصلاة والسلام بالأَمر بالتحريض، أَي: حث المؤمنين على القيام بالفرض الواجب عليهم.

و﴿عَسَى﴾ إذا وردت من الله تعالىٰ ـ فقال عكرمة وغيره: إنها واجبة، لأَنها من البشر متوقعة مرجوة، ففضل الله تعالىٰ يوجب وجوبها، وفي هذا وعدٌ للمؤمنين بغلبتهم للكفرة، ثم قوَّى ـ بعد ذلك ـ قلوبهم بأَنْ عرفهم شدة بأْس الله، وأَنه أَقدر على الكفرة، وأَشد تنكيلاً لهم، والتنكيل: الأَخذ بأَنواع العذاب وترديده عليهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ الآية. أَصل الشفاعة والشُّفعة ونحوها من: الشَّفع، وهو الزوج في العدد، لأَن الشافع ثانٍ لوَتْر المذنب، والشَّفيع ثانٍ لوتْر المشتري[٣].

واختلف في الآية المتأَولون ـ فقال الطبري: المعنى: من يشفع وتر الإِسلام بالمعونة للمسلمين، أَو من يشفع وتر الكفر بالمعونة على الإِسلام. ودلَّه على هذا التأْويل ما تقدم من أَمر القتال. وقال مجاهد، والحسن، وابن زيد، وغيرهم: هي في شفاعات الناس بينهم في حوائجهم، فمن يشفع لينفع فله نصيب، ومن يشفع ليضر فله كفل. وقال الحسن وغيره: الشفاعة الحسنة هي في البر والطاعة، والسيئة هي في

---

(١) أي: حتى أموت، والسالفة: صفحة العنق، وقد كنَّى بانفرادها عن الموت لأنها لا تنفرد عما يليها إِلا به.

(٢) من ذلك قول من يقول: إن وجه العطف بالفاء أن يكون متصلاً بقوله: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ﴾، أو بقوله: ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾، وهو محمول على المعنى على تقدير شرط، أي: إِن أَردت الفَوز فقاتل، وكذلك قول من يقول: إنها معطوفة على قوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾.

(٣) والشَّفع: ضم واحد إِلى واحد، والشُّفعة: ضم ملك الشريك إِلى ملكك، والشفاعة إِذاً ضم غيرك إِلى جاهك ووسيلتك.

المعاصي. وهذا كله قريب بعضه من بعض.

والكِفل: النصيب، ويستعمل في النصيب من الخير ومن الشر، وفي كتاب الله تعالىٰ: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾(١).

و﴿مُّقِيتًا﴾ معناه: قديراً، ومنه قول الشاعر وهو الزبير بن عبد المطلب:

وذي ضِغْنٍ كففْتُ النفس عنه   وكنت على مساءَته مُقيتا(٢)

أي: قديراً، وعبر عنه ابن عباس ومجاهد: بحفيظ وشهيد. وعبد الله بن كثير: بأَنه الواصب القيِّم بالأُمور، وهذا كله يتقارب، ومنه قول رسول الله ﷺ: «كفى بالمرءِ إثماً أَن يضيِّع من يُقيت»(٣)، على من رواها هكذا، أَي: من هو تحت قدرته وفي قبضته من عيال وغيره، وذهب مقاتل بن حيان إلى أَنه الذي يقوت كل حيوان، وهذا على أَن يقال: أَقات بمعنى قات، وعلى هذا يجيءُ قوله عليه الصلاة والسلام: «من يُقيت» من أَقات، وقد حكى الكسائي: أَقات يقيت، فأَما قول الشاعر:

ليْتَ شعري وأَشْعُرَنَّ إذا ما   قرَّبوها مطويَّةً ودعيت
أَلِيَ الفَضْل أَم عَلَيَّ إذا حُو   سبْتُ؟ إنِّي على الحسابِ مُقيت(٤)

فقال فيه الطبري: إنه من غير هذا المعنى المتقدم، وأَنه بمعنى: موقوفٌ.

---

(١) الحديد: ٢٨. والكفل: مستعار من «كفل البعير»، وهو كساءٌ يحويه راكب البعير على سنامه لئلا يسقط، يقال: اكتفلت البعير إذا أدرت على سنامه كساء وركبت عليه، وذلك لأنك لم تستعمل الظهر كله، بل استعملت نصيباً منه.

(٢) ويروى: «على إذايته». وروى أَبو بكر الأنباري في الوقف والابتداء، والطبراني في الكبير أن ابن عباس قال لنافع بن الأزرق: هو من قول أُحيحة الأنصاري.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود في سننه، والحاكم في مستدركه، والبيهقي في سننه عن ابن عمر. وفي رواية: «من يَقوت».

(٤) الشاعر هو السموءل بن عادياء، وقبل هذين البيتين يقول:

رُبَّ شتْمٍ سمِعْتُهُ وتصامَمْـ   ـتُ، وَعِيٍّ تركْتُه فكُفيت

وقد جاء في (اللسان): «حكى ابن بري عن أَبي سعيدالسيرافي قال: الصحيح رواية من روى: «ربي على الحساب مقيت»، قال: لأن الخاضع لربه لا يصف نفسه بهذه الصفة، قال ابن بري: الذي حمل السيرافي على تصحيح هذه الرواية أنه بنى على أن (مقيتاً) بمعنى: مقتدر، ولو ذهب مذهب من يقول: إنه الحافظ للشيء، والشاهد له كما ذكر الجوهري ـ لم ينكر الرواية الأولى». أي الرواية التي نقلها هنا ابن عطية: «إني على الحساب مُقيت».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يضعفه أن يكون بناء فاعل بمعنى بناءِ مفعول.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم﴾ الآية، التحية وزنها تفعلة من: حيي، وهذا هو الأغلب من مصدر فعل المعتل، وروي عن مالك أن هذه الآية في تشميت العاطس، وفيه ضعف، لأنه ليس في الكلام على ذلك دلالة، أما الرَّدُّ على المشمت فممَّا يدخل بالقياس في معنى رد التحية وهذا هو منحى مالك رحمه الله إن صَحَّ ذلك عنه، والله أعلم.

واختلف المتأولون ـ فقالت فرقة: التحية أن يقول الرجل: سلامٌ عليك، فيجب على الآخر أن يقول: عليك السلام ورحمة الله، فإن قال البادئ: السلام عليك ورحمة الله، قال الراد: عليك السلام ورحمة الله وبركاته، فإن قال البادئ: السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقد انتهى، ولم يبق للراد أن يحيي بأَحْسَن منها، فها هنا يقع الرد المذكور في الآية، فالمعنى عند أهل هذه القالة: إذا حُيِّيتُم بتحية فإن نقص المُسَلِّم من النهاية فحيُّوا بأحسن، وإن انتهى فردُّوا. وقالت فرقة: إنما معنى الآية تخيير الراد، فإذا قال البادئ: السلام عليك، فللراد أن يقول: وعليك السلام، فقط، وهذا هو الرد، وله أن يقول: وعليك السلام ورحمة الله، وهذا هو التحية بأحسن منها، وقال ابن عباس وغيره: المراد بالآية: إذا حُيِّيتُم بتحية فإن كانت من مؤمن فحيوا بأحسن منها، وإن كانت من كافر فردوا على ما قال رسول الله ﷺ أن يقال لهم: (وعليكم)[1]. وروي عن ابن عمر، وابن عباس، وغيرهما: انتهى السلام إلى البركة، وجمهور أهل العلم على ألا يُبْدَأَ أَهلُ الكتاب بسلام، فإن سلم أحد ساهياً أو جاهلاً فينبغي أن يستقيله سلامه، وشذَّ قوم في إباحة ابتدائهم، والأول أصوب، لأن به يتصور إذلالهم. وقال ابن عباس: كل من سلَّم عليك من خلق الله فرد عليه وإن كان مجوسياً، وقال عطاء: الآية في المؤمنين خاصة، ومن سلم من غيرهم قيل له:

(١) في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلَّم عليكم اليهود، فإنما يقول أحدهم: السام عليكم، فقل: وعليك». وروى البخاري عن أنس بن مالك قال: «مَرَّ يهودي برسول الله ﷺ فقال: السام عليك، فقال رسول الله ﷺ: وعليك، فقال رسول الله ﷺ: أتدرون ما يقول؟ قال: السام عليك، قالوا: يا رسول الله، ألا نقتله؟ قال: لا، إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم».

عليك ، كما في الحديث[١]. وأكثر أهل العلم على أن الابتداء بالسلام سنة مؤكدة ، ورده فريضة ، لأنه حق من الحقوق ، قاله الحسن بن أبي الحسن ، وغيره.

و﴿ حَسِيبًا﴾ معناه: حفيظاً ، وهو فعيل من الحساب ، وحسنت ها هنا هذه الصفة إذ معنى الآية في أن يزيد الإنسان أو ينقص أو يوفي قدر ما يجيءُ به.

قوله تعالىٰ:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾.

لما تقدم الإنذار والتحذير الذي تضمنه قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ تلاه مقوِّياً له الإعلام بصفة الربوبية وحال الوحدانية ، والإعلام بالحشر والبعث من القبور للثواب والعقاب ، إعلاماً بِقَسَم ، والمُقْسم به تقديره: وهو ، أو: وحقه ، أو: وعظمته ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾. والجمع هنا: الحشر ، فلذلك حسنت بعده ﴿ إِلَىٰ﴾ ، أي: إليه السوق والحشر ، و﴿ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أصلها: القيام ، ولما كان قيام الحشر من أذل الحال وأضعفها إلى أشد الأهوال وأعظمها لحقته هاءُ المبالغة[٢].

و﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ تبرية هي وما بعدها بمثابة الابتداء تطلب الخبر ، ومعناه: لا ريب فيه في نفسه وحقيقة أمره ، وإن ارتاب فيه الكفرة فغير ضائر.

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ ظاهره الاستفهام ، ومعناه: تقرير الخبر ، تقديره: لا أحد أصدق من الله تعالىٰ ، لأن دخول الكذب في حديث البشر إنما علته الخوف والرجاءُ ، أو سوءُ السجية ، وهذه منفية في حق الله تعالىٰ وتقدست أسماؤه ، والصدق في حقيقته أن يكون ما يجري على لسان المُخْبر موافقاً لما في قلبه وللأمر المخْبَر عنه في وجوده ، و﴿ حَدِيثًا﴾ نصب على التمييز.

وقوله: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الآية. الخطاب للمؤمنين ، وهذا ظاهره

---

(١) نفس الحديث السابق.

(٢) أصل القيامة: الواو ـ وسمي يوم القيامة بذلك لأن الناس يقومون فيه لله عز وجل ، قال تعالىٰ: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

استفهام، والمقصد منه التوبيخ، واختلف المتأَولون في: من المراد بالمنافقين؟ ـ فقال ابن عباس: هم قوم كانوا بمكة فكتبوا إِلى أَصحاب النبي ﷺ بالمدينة أَنهم قد آمنوا وتركوا الهجرة، وأَقاموا بين أَظهر الكفار، ثم سافر قوم منهم إِلى الشام فأَعطتهم قريش بضاعات، وقالوا لهم: إِنكم لا تخافون أَصحاب محمد، لأَنكم تخدعونهم بإِظهار الإِيمان لهم، فاتصل خبرهم بالمدينة، فاختلف المؤمنون فيهم، فقالت طائفة: نخرج إِلى أَعداء الله المنافقين، وقالت طائفة: بل هم مؤمنون لا سبيل لنا إِليهم فنزلت الآية. وقال مجاهد: بل نزلت في قوم جاءُوا إِلى المدينة من مكة، فأَظهروا الإِسلام، ثم قالوا: لنا بضاعات بمكة فانصرفوا إِليها، وأَبطنوا الكفر، فاختلف فيهم أَصحاب النبي ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان يعضدهما ما في آخر الآية من قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾.

قال زيد بن ثابت: نزلت في المنافقين الذين رجعوا عن رسول الله ﷺ يوم أُحد، عبد الله بن أُبي وأَصحابه، لأَن أَصحاب النبي ﷺ اختلفوا فيهم.

وقال السدي: بل نزلت في قوم منافقين كانوا بالمدينة فطلبوا الخروج عنها نفاقاً وكفراً، وقالوا: اجتويناها. وقال ابن زيد: إِنما نزلت في المنافقين الذين تكلموا في حديث الإِفك، لأَن الصحابة اختلفوا فيهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

الاختلاف في هذه النازلة كان بين أُسيد بن حضير، وسعد بن عبادة[1] حسبما وقع في البخاري، وكان لكل واحد أَتباعٌ من المؤمنين على قوله، وكلٌّ من قال في هذه

---

(١) أُسيد بن حضير: قال عنه في «الأعلام»: أُسيد بن الحُضَير بن سماك الأوسي، صحابي، كان شريفاً في الجاهلية والإسلام، يعد من عقلاء العرب، ويسمى الكامل، شهد العقبة الثانية، وكان أحد النقباء الاثني عشر، شهد المشاهد كلها، توفي بالمدينة، وفي الحديث: «نعم الرجل أُسيد بن الحضير». له ١٨ حديثاً ـ وأما سعد بن عبادة فهو صحابي، كان سيد الخزرج، وأحد الأشراف في الجاهلية، وكان يلقب أيضاً بالكامل، وشهد العقبة، وكان أحد النقباء الاثني عشر، وشهد أُحد والخندق وغيرهما، وطمع في الخلافة، وكره المقام مع عمر بعد وفاة أبي بكر فتحول إلى الشام، ومات بحوران. (طبقات ابن سعد، والإصابة، وتهذيب ابن عساكر).

الآية إنها في من كان بالمدينة يردُّ عليه قوله: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ لكنهم يخرجون المهاجرة إلى هجر ما نهى الله عنه، وترك الخلاف والنفاق، كما قال عليه الصلاة والسلام: «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[١].

و﴿فِئَتَيْنِ﴾ معناه: فرقتين، ونصبهما على الحال، كما تقول: مالك قائماً، هذا مذهب البصريين. وقال الكوفيون: نصبه بما يتضمنه ﴿۞ فَمَا لَكُمْ﴾ من الفعل، والتقدير: مالكم كنتم فئتين، أو صرتم، وهذا الفعل المقدر ينصب عندهم النكرة والمعرفة، كما تقول: مالك الشاتم لزيد، وخطأ هذا القولَ الزجاجُ، لأن المعرفة لا تكون حالاً.

و﴿أَرْكَسَهُم﴾ معناه: رجعهم في كفرهم وضلالهم، والركس: الرجيع، ومنه حديث النبي عليه الصلاة والسلام في الاستنجاء: «فأخذ الحجرين، وألقى الروثة وقال: إنها ركس»[٢]، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

فأُركسوا في حَميم النَّار إنَّهُمُ   كانوا عُصاةً وقالوا الإفْكَ والزُّورا[٣]

وحكى النضر بن شميل، والكسائي: ركس وأركس بمعنى واحد، أي: رجعهم، ومن قال من المتأولين: أهلكهم، أو أضلهم فإنما هي بالمعنى، لأن ذلك كله يتضمنه ردُّهم إلى الكفر[٤].

و﴿بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾ معناه: بما اجترحوا من الكفر والنفاق، أي أن كفرهم بخلق من الله واختراع، وبتكَسُّب منهم، وقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ استفهام معناه الإبعاد واليأس مما أرادوه، والمعنى: أتريدون أيها المؤمنون القائلون بأن أولئك المنافقين مؤمنون أن

---

(١) روى البخاري، وأبو داود، والنسائي ـ عن ابن عمرو: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» ـ وصححه في الجامع الصغير.

(٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أتى النبي ﷺ الغائط، فأمرني أن آتيه بثلاثة أحجار، فوجدت حجرين، والتمست الثالث فلم أجد، فأخذت روثة فأتيته بها، فأخذ الحجرين، وألقى الروثة، وقال: هذا ركس». رواه أحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وزاد فيه أحمد في رواية له: (ائتني بحجر). نيل الأوطار ١ ـ ١٢٠.

(٣) أركسوا: ردُّوا وقلبوا فيها، وحميم: قيظ، والإفك: الكذب والافتراء، والزور: الباطل والكذب. ورواية الديوان: (كانوا عتاة) بدلاً من: (عُصاة).

(٤) والذين قالوا: إن أركسهم معناها: أضلهم، استشهدوا بقول الشاعر:

وأركسْتَني عن طريق الهُدى   وصيَّرْتني مثلاً لِلعدا

تَسِموا بالهدى مَن قد يسَّره الله للضلالة وحتَّمها عليه. ثم أَخبر تعالىٰ أنه ﴿وَمَن يُضْلِلِ﴾ فلا سبيل إلى إصلاحه ولا إلى إرشاده.

قوله تعالىٰ:

﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾.

الضمير في ﴿وَدُّواْ﴾ عائد على المنافقين، وهذا كشف من الله لِخُبث معتقدهم، وتحذير للمؤمنين منهم، والمعنى: تمنوا كفركم، وهي غاية المصائب بكم، هذا الود منهم يحتمل أَن يكون عن حسد منهم لهم على ما يرون للمؤمنين من ظهور في الدنيا فتجري الآية: مع ود كثير من أَهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أَنفسهم، ويحتمل أَمر المنافقين أَن يكون أَنهم رأَوا المؤمنين على غير شيءٍ فودوا رجوعهم إلى عبادة الأَصنام، والأَول أَظهر.

وقوله: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ﴾ الآية، هذا نهي عن موالاتهم حتى يهاجروا، لأَن الهجرة في سبيل الله تتضمن الإيمان، و﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ معناه: في طريق مرضاة الله، لأَن سبل الله كثيرة، وهي طاعاته كلها، المعنى: فإن أعرضوا عن الهجرة وتولوا عن الإيمان فخذوهم، وهذا أَمرٌ بالحمل عليهم، ومجاهرتهم بالقتال.

قوله تعالىٰ:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾.

كان هذا الحكم في أَول الإسلام قبل أَن يستحكم أَمر الطاعة من الناس، فكان رسول الله ﷺ قد هادن من العرب قبائل، كرهط هلال بن عويمر الأَسلمي، وسراقة بن مالك بن جعشم، وخزيمة بن عامر بن عبد مناف، فقضت هذه الآية بأَنه من وصل من المشركين الذين لا عهد بينهم وبين النبي ﷺ إلى هؤلاءِ أَهل العهد، فدخل في عدادهم وفعل من الموادعة، فلا سبيل عليه. قال عكرمة، والسدي، وابن زيد: ثم لما تقوى الإسلام وكثر ناصِرهُ نسخت هذه والتي بعدها بما في سورة براءَة،

وقال أَبو عبيدة، وغيره: ﴿يَصِلُونَ﴾ ـ في هذا الموضع ـ معناه: ينتسبون، ومنه قول الأَعشى:

إِذا اتَّصَلَتْ قالتْ لبكْرِ بن وائلٍ ... وبكرٌ سبتْها والأُنوفُ رواغِمُ[1]

يريد: إِذا انتسبت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا غير صحيح[2]، قال الطبري: قتال رسول الله ﷺ قريشاً وهم قرابة السابقين إِلى الإِسلام يقضي بأَن قرابة من له ميثاق أَجْدَر بأَن تقاتل، فإِن قيل: إِن النبي عليه الصلاة والسلام لم يُقاتل قريشاً إِلا بعد نسخ هذه الآية، قيل: التواريخ تقضي بخلاف ذلك، لأَن الناسخ لهذه الآية هي سورة براءَة، ونزلت بعد فتح مكة، وإِسلام جميع قريش.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ عطف علىٰ: ﴿يَصِلُونَ﴾، ويحتمل أَن يكون على قوله: ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾، والمعنى في العطفين مختلف[3]، وهذا أَيضاً حكم كان قبل أَن يستحكم أَمر الإِسلام، فكان المشرك إِذا اعتزل القتال، وجاءَ إِلى دار الإِسلام مسالماً كارهاً لقتال قومه مع المسلمين، ولقتال المسلمين مع قومه ـ لا سبيل عليه، وهذه نُسخت أَيضاً بما في براءَة.

و﴿حَصِرَتْ﴾: ضاقت وحرجت، ومنه الحصر في القول، وهو: ضيق الكلام على المتكلم.

---

(١) هذه هي رواية اللسان أيضاً، ولكن في المحكم والتهذيب: «قالت: أَبكر بن وائل». وجاء في اللسان: «وقال ابن الأعرابي: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ﴾، أي: ينتسبون». فرأيه كرأي أَبي عبيدة الذي ذكره ابن عطية هنا.

(٢) وقال النحاس: «هذا غلط عظيم، لأنه ذهب إلى أنه تعالى حظر أن يُقاتَل أَحدٌ بينه وبين المسلمين نسب، والمشركون قد كان بينهم وبين المسلمين السابقين أنساب». قال أبو حيان: يعني: وقد قاتل الرسول ومن معه من انتسب إليهم بالنسب الحقيقي فضلاً عن الانتساب». وقال النحاس: «وأَشد من هذا الجهل قول من قال: إنه كان ثم نسخ، لأن أَهل التأويل مجمعون على أن الناسخ له براءة، وإنما نزلت بعد الفتح، وبعد أن انقطعت الحروب»، وهذا الرأي هو الذي اختاره الطبري كما قال ابن عطية بعد ذلك رواية عنه.

(٣) شرح ذلك الاختلاف أبو حيان في (البحر) فقال: (واختلافه أن المستثنى إما أن يكون صنفين: واصلاً إلى معاهد وجائياً كافاً عن القتال، أو صنفاً واحداً يختلف باختلاف من وَصَلَ إليه من معاهد أو كاف». ا.هـ. ٣ـ ٣١٥.

وقرأ الحسن ، وقتادة: [حَصِرَةً] ، كذا قال الطبري ، وحكى ذلك المهدوي عن عاصم من رواية حفص ، وحكي عن الحسن أنه قرأ: [حَصِرات] ، وفي مصحف أبي سقط: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ ، و﴿حَصِرَتْ﴾ عند جمهور النحويين في موضع نصب على الحال بتقدير: قد حصِرَت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يصحب الفعل الماضي إذا كان في موضع الحال ، والداعي إليه أن يفرق بين تقدير الحال وبين خبر مُسْتَأْنف ، كقولك: (جاءَ زيد ركب الفرس) ، فإن أردت بقولك: (ركب الفرس) خبراً آخر عن زيد لم تحتج إلى تقدير (قد) ، وإن أردت به الحال من زيد قدرته بـ (قد) ، قال الزجاج: ﴿حَصِرَتْ﴾: خبر بعد خبر ، وقال المبرد: ﴿حَصِرَتْ﴾: دعاءٌ عليهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقال بعض المفسرين: لا يصح هنا الدعاء ، لأنه يقتضي الدعاء عليهم بألا يقاتلوا قومهم ، وذلك فاسد.

قال المؤلف:

وقول المبرد يخرج على أن الدعاءَ عليهم بألاَّ يقاتلوا المسلمين تعجيز لهم ، والدعاءَ عليهم بألاَّ يقاتلوا قومهم تحقير لهم ، أي: هم أقل وأحقر ، ويستغنى عنهم ، كما تقول إذا أردت هذا المعنى: لا جعل الله فلاناً عليَّ ولا معي أيضاً ، بمعنى: أستغني عنه وأستقل دونه.

واللام في قوله: ﴿لَسَلَّطَهُمْ﴾ جواب ﴿وَلَوْ﴾ ، وفي قوله: ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ لام المحاذاة والازدواج ، لأنها بمثابة الأولى ، لو لم تكن الأولى كنت تقول: لو شاءَ الله لقاتلوكم ، والمعنى تقرير المؤمنين على مقدار النقمة وصرفها ، أي: لو شاءَ الله لقوّاهم وجرأهم عليكم ، فإذ قد أنعم عليكم بالهدنة فاقبلوها وأطيعوا فيها.

وقرأت طائفة: [فلَقتَلوكُمْ] ، وقرأ الجحدري ، والحسن: [فلَقَتَّلوكُم] بتشديد التاءِ ، والمعنى: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾ أي: هادنوكم وتارَكُوكُمْ في القتْل. و﴿ٱلسَّلَمَ﴾ هنا: الصلح ، قاله الربيع ، ومنه قول الطِّرماح بن حكيم.

وذاكَ أَن تميمــاً غَــادرتْ سَلَمــاً ... لـلأَسـد كـلَّ حَصَـانٍ رَغْثَـةِ الكبـد

قال الربيع: السلم ها هنا: الصلح، وكذا قرأته عامة القراءِ، وقرأ الجحدري [السَّلْم] بسكون اللام، وقرأ الحسن: [السِّلْم] بكسر السين وسكون اللام، فمعنى جملة هذه الآية: خذوا المنافقين الكافرين واقتلوهم حيث وجدتموهم، إلا من دخل منهم في عداد من بينكم وبينه ميثاق، والتزم مهادنتكم، أَو من جاءكم وقد كره قتالكم وقتال قومه، وهذا بفضل الله عليكم ودفاعه عنكم، لأَنه لو شاءَ لسلَّط هؤلاءِ الذين هم بهذه الصفة من المتاركة عليكم فلقاتلوكم، فإِن اعتزلوكم، أَي: إِذا وقع هذا فلم يُقاتلوكم فلا سبيل لكم عليهم، وهذا والذي في سورة «الممتحنة» من قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1]، منسوخٌ بما في سورة «براءَة»، قاله قتادة، وابن زيد، وغيرهما.

قوله تعالىٰ:

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾.

لمَّا وصف الله تعالىٰ فيما تقدم صفة المحقين في المُتَارَكة، المُجدِّين في إِلقاءِ السَّلَم ـ نبَّه على طائفة مخادعة مبطلة مبطنة كانوا يريدون الإِقامة في مواضعهم مع أَهليهم، يقولون لهم: نحن معكم وعلى دينكم، ويقولون أيضاً للمسلمين إذا وفدوا وأرسلوا: نحن معكم وعلى دينكم خبثة منهم وخديعة. قيل: كانت أَسد وغطفان بهذه الصفة، وقيل: نزلت في نعيم بن مسعود الأَشجعي، كان ينقل بين النبي ﷺ والكفار الأَخبار، وقيل: نزلت في قوم يجيئون من مكة إِلى النبي عليه الصلاة والسلام رياءً، يظهرون الإِسلام، ثم يرجعون إِلى قريش فيكفرون، ففضح الله تعالىٰ هؤلاءِ، وأَعلم أَنهم على غير صفة من تقدم.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾ معناه: إِلى الاختبار، حكي أَنهم كانوا يرجعون إِلى قومهم فيقال لأَحدهم: ربي الخنفساء، وربي العود، وربي العقرب، ونحوه، فيقولها،

(١) الممتحنة: ٨.

ومعنى ﴿أُرْكِسُواْ﴾ رجعوا رجع ضلالة، أي: أُهلكوا في الاختبار بما واقعوه من الكفر، وقرأ عبد الله بن مسعود: [رُكِسُوا] بضم الراء من غير ألف، وحكاه عنه أبو الفتح بشد الكاف على التضعيف، والخلاف في ﴿ٱلسَّلَمَ﴾ حسبما تقدم. هذه الآية حضٌّ على قتل هؤلاء المخادعين إذا لم يرجعوا عن حالهم إلى حال الآخرين المعتزلين الملقين للسلم.

قال القاضي: أبو محمد عبد الحق رحمه الله:

وتأمل فصاحة الكلام في أن سياقه في الصيغة المتقدمة قبل هذه سياق إيجاب الاعتزال، وإيجاب إلقاءِ السَّلم، ونفي المقاتلة إذا كانوا مُحقين في ذلك معتقدين له، وسياقه في هذه الصيغة المتأخرة سياق نفي الاعتزال، ونفي إلقاءِ السلم إذا كانوا مبطلين فيه مخادعين، والحكم سواءٌ على السياقين، لأن الذين لم يجعل الله عليهم سبيلاً لو لم يعتزلوا لكان حكمهم حكم هؤلاء الذين جعل عليهم سلطان مبين، وكذلك هؤلاء الذين عليهم السلطان إذ لم يعتزلوا، لو اعتزلوا لكان حكمهم حكم الذين لا سبيل عليهم، ولكنهم بهذه العبارة تحت القتل إن لم يعتزلوا.

و﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ مأخوذ من الثقاف، أي: ظفرتم بهم مغلوبين متمكناً منهم، والسلطان: الحجة. قال عكرمة: حيثما وقع السلطان في كتاب الله تعالىٰ فهو الحجة.

قوله تعالىٰ:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾.

قال جمهور المفسرين: معنى الآية: وما كان في إذن الله، وفي أمره للمؤمن أن يقتل مؤمناً بوجه، ثم استثنى استثناءً منقطعاً ليس من الأول، وهو الذي تكون فيه (إلا) بمعنى (لكن)، والتقدير: لكن الخطأ قد يقع، وهذا كقول الشاعر:

أَمْسَى سُقَامُ خَلاءً لا أَنِيسَ بِهِ ... إلا السِّباع ومر الريح بالغَرَف[1]

(١) البيت لأبي خراش الهذلي، وسُقام بضم السين ثم قاف: اسم واد بالحجاز، وقد رواه في اللسان: =

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

سُقام: اسم واد، والغَرَف: شجر يدبغ بلحائه. وكما قال جرير:

مِن البِيضِ لم تَظْعَن بعيداً ولم تطأ على الأَرض إلا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ[١]

وفي هذا الشاهد نظر.

ويتجه في معنى الآية وجه آخر، وهو أَن تقدر ﴿كَانَ﴾ بمعنى: استقر ووجد، كأَنه قال: وما وجد ولا تقرر ولا ساغ لمؤمن أَن يقتل مؤمناً إلا خطأً، إذ هو مغلوب فيه أَحياناً، فيجيءُ الاستثناءُ ـ على هذا ـ غير منقطع، وتتضمن الآية ـ على هذا ـ إعظام العمد وبشاعة شأنه، كما تقول: ما كان لك يا فلان أَن تتكلم بهذا إِلا ناسياً، إعظاماً للعمد والقصد مع حظر الكلام به اَلْبَتَّةَ.

وقرأَ الزهري (خطا) مقصوراً غير مهموز[٢]، وقرأَ الحسن والأَعمش مهموزاً ممدوداً[٣].

وقال مجاهد، وعكرمة: نزلت هذه الآية في عيَّاش بن أَبي ربيعة المخزومي حين قتل الحارث بن يزيد بن نبيشة[٤]، وذلك أَنه كان يعذبه بمكة، ثم أَسلم الحارث وجاءَ مهاجراً، فلقيه عياش بالحرة، فظنه على كفره فقتله، ثم جاءَ فأَخبر النبي عليه الصلاة

= «غيرُ الذئاب ومرُّ الريح» بدلاً من: «إلا السباع وإلا الريح».

(١) قال جرير هذا البيت من قصيدة في هجاء عياش بن الزبرقان، ومطلع القصيدة:

أَمِنْ عَهْدِ ذي عهدٍ تَفيض مدامعي كأَنَّ قَذى العَيْنَيْنِ مِنْ حَبِّ فُلْفُلِ

ورواية الديوان: «إلا نيرمِرْط مرحَّل». ومعنى مرحَّل: مُعْلَم، وهو ضرب من برود اليمن، سُمي مرحَّلا لأن عليه تصاوير رحل ـ يقول: لم تلبس إلا مِرْطاً من خزٍّ مُعْلَم. والمِرْط: كساءٌ من خزٍّ أو صوف أو كتان يؤتزر به وتتلفع به المرأة. والنِّير ـ على ما جاء في رواية الديوان ـ: الخيوط مع القصب وهي ملفوفة عليه، أو رَقْم الثوب ورسمه يُجعل على حاشيته، أو لحمة الثوب.

(٢) على وزن (عصا)، لأنه خفف الهمزة بإبدالها أَلفاً، أو حذفها حذفاً كما وضحه أبو حيان.

(٣) على وزن (سماء).

(٤) اختلف في اسم أَبيه، فهو مرة «يزيد»، وهو مرة أخرى «زيد»، وكذلك اختلف في اسم جده، فهو في (الدر المنثور) ابن نبيشة كما قال ابن عطية، وهو مرة «ابن أنيسة» كما قال في الإصابة، وعلى كل فهو من موالي بني عامر بن لؤي.

أما عياش بن ربيعة المخزومي فهو من السابقين إلى الإسلام، أسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة، ومات بمكة.

والسلام فشق عليه ونزلت الآية، فقال له رسول الله ﷺ: «قم فحرر»(١).

وقال أبو زيد: نزلت في رجل قتله أبو الدرداءِ، كان يرعى غنماً وهو يتشهد، فقتله وساق غنمه إلى رسول الله ﷺ: ونزلت الآية(٢).

وقيل: نزلت في أبي حذيفة اليماني حين قتل خطأً يوم أُحد، وقيل غير هذا، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا ﴾ الآية. بيَّن الله تعالىٰ في هذه الآية حكم المؤمن إذا قتل المؤمن خطأً، وحقيقة الخطإِ ألا يقصده بالقتل، ووجوه الخطأ كثيرة لا تحصى، يربطها عدم القصد، قال ابن عباس، والحسن، والشعبي، والنَّخَعي، وقتادة، وغيرهم: الرقبة المؤمنة هي الكبيرة التي قد صلَّت وعلقت الإيمان، ولا يجزئ في ذلك الصغير، وقال عطاءُ بن أبي رباح: يجزئ كل من يحكم له بحكم الإسلام في الصلاة عليه إن مات ودفنه، قال مالك: ومن صلى وصام أحب إلي، وأجمع أهل العلم على أن الناقص النقصان الكثير كقطع اليدين، أو الرجلين، أو الأعمى لا يجزئ فيما حفظت، فإن كان النقصان يسيراً تتفق له مَعَهُ المعيشةُ والتحرف كالعرج ونحوه ففيه قولان.

و﴿ مُّسَلَّمَةٌ ﴾ معناه: مُؤَداة مدفوعة، وهي على العاقلة فيما جاز ثلث الدية، و﴿ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ ﴾ يريد أولياءَ القتيل. وقرأَ أُبي بن كعب: [يَتصدَّقُوا]، وقرأَ الحسن، وأبو عبد الرحمن، وعبد الوارث عن أبي عمرو: [تَصَّدَّقُوا] بالتاءِ على

---

(١) أخرجه ابن جرير عن عكرمة، وأخرج هو وابن المنذر مثله عن السدي، وأخرج مثله أيضاً ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير. (الدر المنثور).

(٢) أخرج ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال: نزلت في رجل قتله أبو الدرداء، كانوا في سرية، فعدل أبو الدرداء إلى شعب يريد حاجة له، فوجد رجلاً من القوم في غنم له فحمل عليه السيف، فقال: لا إله إلا الله، فضربه ثم جاء بغنمه إلى القوم، ثم وجد في نفسه شيئاً فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال له رسول الله ﷺ: ألا شققت عن قلبه؟ فقال: ما عسيت أجد؟ هل هو يا رسول الله إلا دم أو ماء؟ فقال: فقد أخبرك بلسانه فلم تصدقه، قال: كيف بي يا رسول الله؟ قال: فكيف بلا إله إلا الله؟ قال: فكيف بي يا رسول الله؟ قال: فكيف بلا إله إلا الله؟ حتى تمنيت أن يكون ذلك مبتدأ إسلامي، قال: ونزل القرآن: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ﴾ حتى بلغ: ﴿ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ ﴾ قال: إلا أن يضعوها. (الدر المنثور).

المخاطبة للحاضر، وقرأ نُبَيْح العَنَزِيُّ[١] [تَصَدَّقُوا] بالتاءِ وتخفيف الصاد.

والدِّية: مائة من الإبل على أَهل الإبل عند قوم، وعند آخرين: على الناس كلهم، إلا أَلاَّ يجد الإبلَ أَهلُ الذهب والفضة، فحينئذ ينتقلون إلى الذهب والفضة، يعطون منها قيمة الإبل في وقت النازلة بالغة ما بلغت، واختلف في المائة من الإبل ـ فقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: هي مربعة، ثلاثون حقة، وثلاثون جذعة، وعشرون بنت مخاض، وعشرون بنت لبون[٢]. وقال عبد الله بن مسعود: مخمَّسة، عشرون حقة، وعشرون جذعة، وعشرون بنت مخاض، وعشرون بنت لبون، وعشرون ابن لبون ذكراً. ولبعض الفقهاءِ غير هذا الترتيب، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه «وغيره» يرى الدية من البقر مائتي بقرة، ومن الغنم أَلفي شاة، ومن الحُلَل مائة حُلَّة، وورد بذلك حديث عن النبي ﷺ في مصنف أَبي داود[٣]. والحُلَّة: ثوبان من نوع واحد في كلام العرب، وكانت في ذلك الزمن صفة تقاوم المائة من الإبل فمضى القول على ذلك، وأَما الذهب فهي أَلف دينار، قررها عمر رضي الله عنه، ومشى الناس عليها، وأَما الفضة فقررها عمر رضي الله عنه اثني عشر أَلفاً، وبه قال مالك، وجماعةٌ تقول: عشرة آلاف درهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ ﴾ الآية، المعنى عند ابن عباس، وقتادة، والسدي، وإبراهيم، وعكرمة، وغيرهم: فإن كان هذا المقتول خطأً رجلاً مؤمناً قد آمن وبقي في قومه وهم كفرة عدو لكم ـ فلا دية فيه، وإنما كفارته تحرير

(١) قال معلق القرطبي، «كذا في الأصول وابن عطية، والمتبادر: أبو نُجَيح، وهو عصمة بن عروة البصري، روى عن أبي عمرو وعاصم، وأما نُبَيح فلم نقف عليه في القراء، وفي التهذيب: نبيح بالتصغير ابن عبد الله العنزي أبو عمرو الكوفي، وفي التاج: تابعي، فهذا لم تذكر عنه قراءة، والله أعلم». (القرطبي ٥ ـ ٣٢٣).

(٢) الحقة: هي التي تستحق الحمل، والجذعة من الإبل: ما كان فوق أَربعة وعشرين شهراً، وبنت المخاض: هي التي تتبع أمها وقد حملت الأم، وبنت اللبون: هي التي تتبع أُمها وهي ترضع منها. شرح ذلك محمد بن عيسى الأعشى في المزنية، وذكره الباجي في شرح الموطأ. وقال النضر بن شميل: «ابنة مخاض لسنةٍ، ابنة لبون لسنتين، وحقة لثلاث، وجذعة لأربع، والمثنى لخمس، ورباع لِستٍّ، وسديس لسبع، وبازل لثمان».

(٣) أخرجه أبو داود عن جابر بن عبد الله، وفي آخر الحديث: (وعلى أهل القمح شيء لم يحفظه محمد بن إسحاق). (الدر المنثور).

الرقبة ، والسبب عندهم في نزولها أَن جيوش رسول الله ﷺ كانت تمر بقبائل الكفار فربما قُتل من قد آمن ولم يهاجر ، أَو من قد هاجر ثم رجع إِلى قومه فيقتل في حملات الحرب على أَنه من الكفار ، فنزلت الآية ، وتسقط الدية عند قائلي هذه المقالة لوجهين: أَولهما أن أَولياءَ القتيل كفار فلا يصح أَن تدفع الدية إِليهم يتقوَّون بها ، والآخر أَن حرمة هذا الذي آمن ولم يهاجر قليلة ، فلا دية فيه ، واحتجوا بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾[1] . وقالت فرقة: بل الوجه في سقوط الدية أَن الأَولياءَ كفار فقط ، فسواء كان القتيل خطأً بين أَظهر المسلمين أَو بين قومه لم يُهاجر ، أَوهاجر ثم رجع إِلى قومه ـ كفارته التحرير ، ولا ديَة فيه ، لأَنه لا يصح دفعها إِلى الكفار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقائل المقالة الأُولى يقول: إِن قُتل المؤمن في بلد المسلمين وقومه في حرب ففيه الدية لبيت المال والكفارة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ﴾ المعنى عند الحسن ، وجابر بن زيد ، وإِبراهيم ، وغيرهم: وإِن كان هذا المقتول خطأً مؤمناً من قوم معاهدين لكم ، فعهدهم يوجب أَنهم أَحَقُّ بدية صاحبهم ، فكفارته التحرير وأَداءُ الدية ، وقرأَ الحسن: [وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ـ وهو مؤمن ـ] وقال ابن عباس ، والشعبي ، وإِبراهيم أَيضاً: المقتول من أَهل العهد خطأً لا يبالي كان مؤمناً أَو كافراً على عهد قومه ـ فيه الدية كدية المسلم ، والتحرير. واختلف على هذا في دية المعاهد ـ فقال أَبو حنيفة وغيره: ديته كدية المسلم ، ورُوي ذلك عن أَبي بكر وعمر رضي الله. وقال مالك وأَصحابه: ديته على نصف دية المسلم ، وقال الشافعي ، وأَبو ثور: ديته على ثلث دية المسلم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الآية ، يريد عند الجمهور: فمن لم يجد العتق ، ولا اتسع مالُه لَهُ فيجزيه صيام شهرين مُتتابعين في الأَيام لا يتخللها فِطْر[2] ، وقال مكي

---

(١) الأنفال: ٧٢.

(٢) فإن عرض حيض في أثناء الصيام لم يُعَدَّ قاطعاً ، قال أَبو حيان في (البحر): «بإجماع» ، وقال القرطبي: «والحيض لا يمنع التتابع من غير خلاف».

عن الشعبي: صيام الشهرين يجزئ عن الدية والعتق لمن لم يجدهما، وهذا القول وهم[1]، لأن الدية إنما هي على العاقلة وليست على القاتل، والطبري حكى القول عن مسروق.

و﴿تَوْبَةً﴾ نصب على المصدر، ومعناه: رجوعاً بكم إلى التيسير والتسهيل.

قوله تعالىٰ:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾.

المتعمِّد في لغة العرب: القاصد إلى الشيء، واختلف العلماءُ في صفة المتعمد في القتل ـ فقال عطاء، وإبراهيم النَّخعي، وغيرهما: هو من قتل بحديدة كالسيف أو الخنجر وسنان الرمح ونحو ذلك من المشحوذ المعد للقطع، أو بما يعلم أن فيه الموت من ثقيل الحجارة ونحوه. وقالت فرقة: المتعمِّد: كل من قتل، بحديدة كان القتل أو بحجر أو بعصا أو بغير ذلك، وهذا قول الجمهور، وهو الأصح. ورأيُ الشافعي وغيره أن القتل بغير الحديد المشحوذ هو شبه العمد، ورأوا فيه تغليظ الدية، ومالك رحمه الله لا يرى شبه العمد، ولا يقول به في شيءٍ، وإنما القتل عنده ما ذكره الله تعالىٰ عمداً وخطأً لا غير، والقتل بالسم عنده عمد وإن قال: ما أردت إلا سكره.

وقوله: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ تقديره عند أهل السنة: فجزاؤُه إن جازاه بذلك، أي: هو أهل ذلك ومستحقه لعظم ذنبه، ونصَّ على هذا أبو مجلز، وأبو صالح، وغيرهما، وهذا مبني على القول بالمشيئة في جميع العصاة، قاتل وغيره، وذهبت المعتزلة إلى عموم هذه الآية، وأنها مُخَصِّصَةٌ بعمومها لقوله تعالىٰ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[2]. وتوركوا في ذلك على ما روي عن زيد بن ثابت أنه قال: نزلت الشديدة بعد الهيِّنَة، يريد نزلت ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ بعد ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فهم يريدون أن ذلك الوعيد نافذ حتماً على كل قاتل يقتل مؤمناً، ويرونه عموماً ماضياً لوجهه، مُخصصاً للعموم في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ

(١) قال أبو حيان في (البحر): «وليس بوهم، بل هو ظاهر الآية كما ذكرناه».
(٢) النساء: ١١٦.

﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ كأنه قال: إلا من قتل عمداً(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأهل الحق يقولون لهم: هذا العموم منكر غير ماضٍ لوجهه من جهتين: إحداهما ما أنتم معنا مجمعون عليه من الرجل الذي يُشهد عليه، أو يُقر بالقتل عمداً، ويأتي السلطان أو الأولياء فيقام عليه الحد، ويقتل قوداً، فهذا غير متبع في الآخرة، والوعيد غير نافذ عليه إجماعاً متركباً على الحديث الصحيح من طريق عبادة بن الصامت: «أن من عوقب في الدنيا فهو كفارة له»(٢). وهذا نقض للعموم، والجهة الأخرى أن لفظ هذه الآية ليس بلفظ عموم، بل لفظ مشترك يقع كثيراً للخصوص، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٣)، وليس حكام المؤمنين إذا حكموا بغير الحق في أمر بكفرةٍ بوجه، وكقول الشاعر:

وَمَنْ لا يَذُد عَن حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ ... يُهَدَّم، وَمَن لا يَظْلِم النَّاس يُظْلَم(٤)

(١) أهل السُّنَّة يُؤَولون قوله تعالىٰ: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ بأن هذا هو الجزاء إذا جازاه الله، وإذا لم يجازه الله فلا تنطبق عليه الآية ـ أما المعتزلة فيرون أن هذه الآية عامة وماضية، على معنى أنه لا بد من الجزاء، وهذا العموم نفسه يُخصِّص العموم في قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، وكأن المعنى والله أعلم ـ على حسب كلامهم ـ: ويغفر ما دون ذلك إلا من قتل مؤمناً متعمداً، فآية المغفرة ليست عامة، وآية الجزاء على قتل المؤمن عمداً عامة وليست خاصة، وعبارة المؤلف تحتاج إلى دقة حتى تفهم على وجهها الذي يريده توضيحاً لمذهب المعتزلة، وابن عطية على مذهب أهل السُّنَّة، ولذلك ردَّ على المعتزلة بعد ذلك بقوله: «وأهل الحق يقولون لهم: . . . إلخ» ـ مما ينفي عنه شبهة الاعتزال التي رماه بها بعض المحدثين. وتأمل مناقشته لهم بالحجة القوية.

(٢) روى البخاري أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وكان شهد بدراً، وهو أحد النقباء ليلة العقبة أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابةٌ من أصحابه: «بايعوني على ألاَّ تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه» فبايعناه على ذلك.

(٣) المائدة: ٤٤.

(٤) الشاعر هو زهير بن أبي سلمى، والبيت من معلقته المشهورة التي يقول في مطلعها:

أَمِنْ أُمِّ أَوفى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ ... بِحَوْمانَةِ الدَّرَّاجِ فالمُتَثَلَّمِ

ومعنى يَذُدْ: يدفع، وقوله: «ومن لا يظلم الناس يظلم» معناه: من كف عن الناس ظلموه وركبوه، وقد روي: «ومن لم يذد».

وهذا إنما معناه الخصوص، لأنه ليس كل من لا يَظلم يُظلم، فهذه جهة أُخرى تدل على أَن العموم غير مترتب، وما احتجوا به من قول زيد بن ثابت فليس كما ذكروه، وإنما أَراد زيد أَن هذه الآية نزلت بعد سورة (الفرقان)، ومراده باللَّيِّنَةِ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[1] الآية، وإن كان المهدوي قد حكى عنه أنه قال: أُنزلت الآية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ بعد قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ بأَربعة أَشهر، فإذا دخله التَّخْصيص فالوجه أَن هذه الآية مخصوصة في الكافر يقتل المؤمن، إِمَّا على ما رُوي أَنها نزلت في شأن مِقْيَس بن صَبَابَة[2] حين قتل أَخاه هشام بن صبابة رجلٌ من الأَنصار فأَخذ له رسول الله ﷺ الدية، ثم بعثه مع رجل من فهر بعد ذلك في أَمر ما، فعدا عليه مقيس فقتله، ورجع إِلى مكة مُرْتَداً، وجعل ينشد:

قَتَلْـتُ بـه فِهْـراً وحمَّلـتُ عقلـه ... سَـراةَ بنـي النجـار أَرْبـابَ فـارع
حَلَلْـتُ بـه وتْـري وأَدركْـتُ ثُـؤرتي ... وكنـت إِلـى الأَوثـانِ أَوَّلَ راجـع[3]

فقال رسول الله ﷺ: «لا أُؤَمِّنُهُ في حلٍّ ولا في حرم»، وأَمر بقتله يوم فتح مكة وهو متعلق بالكعبة، وإِمَّا[4] أَن يكون على ما حُكي عن ابن عباس أَنه قال: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ معناه: مستحلاً لقتله، فهذا يؤول أَيضاً إِلى الكفر، وفي المؤمن الذي قد سبق في علم الله أَنه يعذبه بمعصيته على ما قدمناه من تأْويل فجزاؤُه ـ إِن جازاه ـ. ويكون قوله: ﴿خَٰلِدًا﴾ إِذا كانت في المؤمن بمعنى باقٍ مدة طويلة على نحو دعائهم للملوك

(١) من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

(٢) كذا في الأصول، وفي (البحر المحيط) ـ وفي القاموس وشرحه: حبابة، وفي الطبري والعسقلاني والدر المنثور: ضبابة، وهو كناني.

(٣) العقل: دية القتيل، وسراة القوم: أَشرافهم، وبنو النجار: هم أَخوال النبي الذين نزل عليهم بالمدينة عند هجرته، وهم الذين دفعوا الدية في هذا الخبر، لأن النبي ﷺ أرسل إليهم يطلب دية هشام بن صبابة فقالوا: والله ما نعلم له قاتلاً، ولكنا نؤدي الدية، فأَعطوا مِقيْس هذا مائة من الإبل، وأرباب: أصحاب، وفارع: حصن حسان بن ثابت بالمدينة، وقد روي الشطر الأول من البيت الثاني:
وأَدركْـتُ ثَـأْري واضْطَجَعْـتُ مُـوَسَّـداً . . . .

(٤) قوله: «وإما أن يكون على ماحكي. .» هو المقابل لقوله قبل ذلك: «إما على ما روي أنها نزلت في شأن مقيس بن صبابة».

بالتخليد ونحو ذلك ، ويدل على هذا سقوط قوله: ـ أَبداً ـ فإن التأْبيد لا يقترن بالخلود إلا في ذكر الكفار.

واختلف العلماءُ في قبول توبة القاتل ـ فجماعة على أَن لا تقبل توبته ، وروي ذلك عن ابن عباس ، وابن مسعود ، وابن عمر ، وكان ابن عباس يقول: «الشِّرك والقتل مبهمان[1] ، من مات عليهما خُلِّد» ، وكان يقول: «هذه الآية مدنية نسخت الآية التي في الفرقان ، إذ الفرقان مكية»[2] ، والجمهور على قبول توبته ، وروي عن بعض العلماءِ أَنهم كانوا يقصدون الإِغلاظ والتخويف أَحياناً فيطلقون: «لا تُقبل توبة القاتل» ، منهم ابن شهاب ، كان إذا سأَله من يفهم منه أَنه قد قتل قال له: «توبتك مقبولة» ، وإِذا سأَله من لم يفعل قال له: «لا توبة للقاتل» ، ومنهم ابن عباس ، وقع عنه في تفسير عبد بن حميد أَن رجلا سأَله: «أَللقاتل توبة»؟ فقال له: «لا توبة للقاتل ، وجزاؤُه جهنم» ، فلما مضى السائل قال له أَصحابه: «ما هكذا كنا نعرفك تقول إلا أَن للقاتل توبة» ، فقال لهم: «إِنني رأَيته مغضباً ، وأَظنه يريد أَن يقتل» ، فقاموا فطلبوه وسأَلوا عنه فإِذا هو كذلك ، وذكر هبة الله في كتاب (الناسخ والمنسوخ) له: أَن هذه الآية منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ، وقال: «هذا إجماع الناس إلا ابن عباس ، وابن عمر ، فإِنهما قالا: هي محكمة».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفيما قاله هبة الله نظر ، لأَنه موضع عموم وتخصيص ، لا موضع نسخ ، وإِنما ركب كلامه على اختلاف الناس في قبول توبة القاتل ، والله أعلم.

قوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير (الدر المنثور).

(٢) أخرجه مع اختلاف يسير في بعض الكلمات وفي الترتيب ـ ابن جرير ، والنحاس ، والطبراني عن سعيد بن جبير. (الدر المنثور).

تقول العرب: (ضربت في الأرض) إذا سرت لتجارة أو غزو أو غيره مقترنة بـ (في)، وتقول: (ضربت الأرض) دون (في) إذا قصدت قضاءَ حاجة الإنسان، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام: «لا يخرج الرجلان يضربان الغائط يتحدثان كاشفين عن فرجيهما فإن الله يمقت على ذلك»[(١)].

وسبب هذه الآية أن سرية من سرايا رسول الله ﷺ لقيت رجلاً له جمل ومتيع، وقيل: غنيمة، فسلم على القوم وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فحمل عليه أحدهم فقتله، فشق ذلك على رسول الله، ونزلت الآية فيه[(٢)].

واختلف المفسرون في تعيين القاتل والمقتول في هذه النازلة ـ فالذي عليه الأكثر، وهو في سيرة ابن إسحاق، وفي مصنف أبي داود، وغيرهما: أن القاتل: مُحَلِّم بن جَثَّامة، والمقتول: عامر بن الأضبَط. والحديث بكماله في «المصنف» لأبي داود[(٣)]، وفي السير، وفي الاستيعاب[(٤)]، وقالت فرقة: القاتل: أُسامة بن زيد، والمقتول: مِرْداس بن نَهيك الغطفاني[(٥)]، وقالت فرقة: القاتل: أبو

(١) الحديث عن أبي سعيد الخدري، رواه أبو داود، وابن ماجه، وابن خزيمة في صحيحه، ولفظه كلفظ أبي داود، وقد رواه كلهم من رواية هلال بن عياض، أو عياض بن هلال عن أبي سعيد. (الترغيب والترهيب) ١ ـ ١٣٦.

(٢) أخرج البخاري عن ابن عباس أنه قال: «كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون فقال: السلام عليكم، فقتلوه، وأخذوا غنيمته، فأنزل الله تعالىٰ ذلك إلى قوله: ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، تلك الغنيمة، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. (الدر المنثور ٢ ـ ١٩٩).

(٣) وأخرجه ابن سعد، وابن أبي شيبة، وأحمد، وابن جرير، والطبراني، وابن المنذر، وغيرهم عن عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي. وفيه أن القاتل هو: مُحَلِّم بن جثَّامة بن قيس الليثي، وأن القتيل هو عامر بن الأضبط الأشجعي، وكان على قعود له معه متيع له، وقطب من لبن، وفي هذا الخبر أن النفر من المسلمين الذين خرجوا كان فيهم الحارث بن ربعي أبو قتادة، ولكنه لم ينسب له القتل.

(٤) جاءَ في الاستيعاب عن (عامر) هذا: «عامر بن الأضبط الأشجعي، هو الذي قتلته سرية رسول الله ﷺ يظنونه متعوذاً يقول: لا إله إلا الله، فوداه رسول الله ﷺ، وقال لقاتله قولاً عظيماً، وقال: فهلا شققت عن قلبه، فأنزل الله تعالىٰ فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية. ٢ ـ ٧٨٧.

(٥) أخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال: هذا الحديث في شأن مرداس، رجل من غطفان ـ ولكن الخبر لم يحدد اسم القاتل ـ، وفي خبر آخر أخرجه ابن جرير عن السدي أن القاتل هو أُسامة بن زيد. (الدر المنثور ٢ ـ ٢٠٠).

قتادة[١] ، وقالت فرقة: القاتل: غالب الليثي ، والمقتول: مرداس[٢] ، وقالت فرقة: القاتل: أَبو الدرداءِ ، ولا خلاف أَن الذي لفظته الأَرض هو مُحَلِّم بن جَثَّامة.

وقرأَ جمهور السبعة ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ ، وقرأَ حمزة والكسائي: [فَتَثَبَّتُوا] بالثاءِ مثلثة في الموضعين ، وفي الحجرات. وقال قوم: (تبَيَّنُوا) أَبلغ وأَشد من (تَثَبَّتُوا) ، لأَن المتثبت قد لا يتبيَّن ، وقال أَبو عبيد: هما متقاربان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والصحيح ما قال أَبو عبيد ، لأَن تَبيُّن الرجل لا يقتضي أَن الشيءَ بان له ، بل يقتضي محاولة اليقين ، كما أَن تَثَبّت تقتضي محاولة اليقين ، فهما سواءٌ.

وقرأَ نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، وابن كثير في بعض طرقه: ﴿السَّلَمَ﴾ بتشديد السين وفتحُهُ وفتح اللام ، ومعناه: الاستسلام ، أَي: أَلقى بيده واستسلم لكم ، وأَظهر دعوتكم ، وقرأَ بقية السبعة: [السَّلام] ، يقول: سلم ذلك المقتول على السرية ، لأَن سلامه بتحية الإِسلام مؤذن بطاعته وانقياده ، ويحتمل أَن يراد به الانحياز والتَّرْك ، قال الأَخفش ، يقال: «فلان سلام» إِذا كان لا يخالط أَحداً وروي في بعض طرق عاصم: [السِّلْم] بكسر السين وشدِّه وسكون اللام ، وهو الصلح ، والمعنى المراد بهذه الثلاثة يتقارب ، وقرأَ الجحدري: [السَّلْم] بفتح السين وسكون اللام.

والعَرَض: هو المتيع والجمل ، أَو الغنيمة التي كانت للرجل المقتول. وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع ، وأَبو حمزة ، واليماني: [لَسْتَ مُؤْمَناً] بفتح الميم ، أَي: لسنا نؤمنك في نفسك ، وقوله تعالىٰ: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ عِدةٌ بما يأْتي به الله على وجهه ، ومن حِلِّه دون ارتكاب محظور ، أَي: فلا تتهافتوا.

واختلف المتأَولون في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ ـ فقال سعيد بن جبير: معناه: كنتم مستخفين من قومكم بإِسلامكم ، خائفين منهم على أَنفسكم ، فمنَّ الله عليكم بإِعزاز دينكم ، وإِظهار شريعتكم. فهو الآن كذلك ، كل واحد منهم خائف من قومه ، متربص أَن يصل إِليكم ، فلم يصلح إِذا وصل أَن تقتلوه حتى تتبينوا أَمره. وقال

(١) أخرجه البزار ، والدارقطني ، والطبراني عن ابن عباس. (الدر المنثور ٢ ـ ٢٠٠).
(٢) ذكر ذلك الثَّعْلَبي ، كما قال القرطبي. ٥ ـ ٣٣٧.

ابن زيد: كذلك كنتم كفرة، فمَنَّ الله عليكم بأَن أسلمتم، فلا تنكروا أَن يكون هو كافراً ثم يسلم لحينه حين لقيكم، فيجب أَن يتثبت في أَمره. ويحتمل أَن يكون المعنى إِشارة بـ[ذَلِكَ] إِلى القتل قبل التثبت، أَي: على هذه الحال كنتم في جاهليتكم لا تتثبتون، حتى جاءَ الله بالإِسلام، ومنَّ عليكم، ثم وكَّد تبارك وتعالىٰ الوصية بالتَّبيُّن، وأَعلم أَنه خبير بما يعمله العباد، وذلك منه خبر يتضمن تحذيراً منه تعالىٰ، لأَن المعنى أَن الله كان بما تعملون خبيراً، فاحفظوا نفوسكم، وجنبوها الزلل الموبق بكم.

قوله تعالىٰ:

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

في قوله: ﴿لَّا يَسْتَوِى﴾ إِبهامٌ على السامع هو أَبلغ من تحديد المنزلة التي بين المجاهد والقاعد، فالمتأَمل يمشي مع فكرته، ولا يزال يتخيل الدرجات بينهما.

و﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ عبارة عن المتخلفين، إِذ القعود هيئة من لا يتحرك إِلى الأَمر المقعود عنه في الأَغلب.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وحمزة: ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾ برفع الراءِ من ﴿غَيْرُ﴾، وقرأَ نافع، وابن عامر، والكسائي [غيرَ] بالنصب، واختلف عن عاصم، فروي عنه الرفع والنصب، وقرأَ الأَعمش، وأَبو حيوة: [غَيرِ] بكسر الراءِ، فمن رفع جعل [غير] صفة للقاعدين عند سيبويه، كما هي عنده صفة في قوله تعالىٰ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ﴾ بجر [غير] صفة، ومثله قول لبيد:

وإِذا جُوزِيتَ قَرْضاً فاجْزِه ... إِنما يجْزي الفتى غير الجَمَلْ(١)

---

(١) القرض: ما تعطيه غيرك من مال على أن يرده إليك، وما يقدم من عمل يلتمس عليه الجزاء. والفتى: السيد الكريم، والجَمَلُ هنا: الجاهل، أو لعل «لبيداً» أراد أن الذي يعنى بمقارضة المعروف هو الإنسان لا الحيوان، ورواية الديوان: «ليس الجَمَل»، ومعنى البيت: إذا قدم إليك معروف فرده بمثله، والبيت من قصيدة يتحدث فيها «لبيد» عن مآثره، ويأسى لفقد أخيه «أربد»، ومطلعها:

إنَّ تَقْـوى رَبِّنَـا خيـرُ نَفَـلْ ... وبـإِذْن الله رَيْثـي وعَجَـلْ

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كذا ذكره أَبو علي، ويروى: «لَيْس الجمل». ومن قرأَ بنصب الراءِ جعله اسثناء من (القاعدين)، قال أَبو الحسن: ويقوي ذلك أَنها نزلت بعدها على طريق الاستثناءِ والاستدراك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد يتحصل الاستدراك بتخصيص القاعدين بالصفة، قال الزجاج: يجوز أَيضاً في قراءَة الرفع أَن يكون على جهة الاستثناءِ، كأَنه قال: لا يستوي القاعدون والمجاهدون إِلا أُولو الضرر فإِنهم يساوون المجاهدين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا مردود، لأَن أُولي الضرر لا يساوون المجاهدين، وغايتهم أَن خرجوا من التوبيخ والمذمة التي لزمت القاعدين من غير عذر، قال: ويجوز في قراءَة نصب الراءِ أَن يكون على الحال، وأَما كسر الراءِ فعلى الصفة من ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وروي من غير طريق أن الآية نزلت: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ﴾، فجاءَ ابن أُم مكتوم حين سمعها فقال: يا رسول الله، هل من رخصة فإِني ضرير البصر؟ فنزلت عند ذلك: ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾، قال الفلقان بن عاصم[1]: كنا قعوداً عند النبي ﷺ، فأُنزل عليه، وكان إِذا أُوحي إِليه دام بصره مفتوحة عيناه، وفرغ سمعه وبصره لما يأْتيه من الله، وكنا نعرف ذلك في وجهه، فلما فرغ قال للكاتب: اكتب: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ﴾ إِلى آخر الآية، قال: فقام الأَعمى فقال: يا رسول الله، ما ذنبنا؟ قال: فأَنزل الله على رسوله، فقلنا للأَعمى: إِنه ينزل عليه، فخاف أَن ينزل فيه شيءٌ فبقي قائماً مكانه يقول: «أَتوب إِلى رسول الله» حتى فرغ رسول الله ﷺ، فقال للكاتب: اكتب ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾؛ وأُولو الضرر هم أَهل الأَعذار إِذ قد أَضرت بهم حتى منعتهم الجهاد، قاله ابن عباس وغيره.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ هي الغاية في كمال الجهاد، ولما كان أَهل

(١) الجرمي الصحابي.

الديوان متملكين بذلك العطاء، يصرفون في الشدائد، وتروعهم البعوث والأَوامر ـ قال بعض العلماء: هم أَعظم أَجراً من المتطوع، لسكون جأْشه، ونعمة باله في الصوائف الكبار ونحوها[١].

واحتج بهذه الآية المُظْهرة لفضل المال من قال: إن الغنى أَفضل من الفقر، وإن متعلقه بها لبيِّن. وفسر الناس الآية على أَن تكملة التفضيل فيها بالدرجة، ثم بالدرجات إنما هو مبالغة وتأْكيد وبيان، وقال ابن جريج: الفضل بدرجة هو على القاعدين من أَهل العذر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لأَنهم مع المؤمنين بنيَّاتهم، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام في غزوة تبوك: «إن بالمدينة رجالاً ما قطعنا وادياً ولا سلكنا جبلاً ولا طريقاً إلا وهم معنا، حبسهم العذر»[٢]، قال ابن جرير: والتفضيل بالأَجر العظيم والدرجات هو على القاعدين من غير أَهل العذر. و﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾: الجنَّة: وهي التي وُعدها المؤمنون، وكذلك قال السدي، وغيره.

وقال ابن محيريز: الدرجات هي درجات في الجنة، ما بين الدرجتين حضر[٣] الفرس الجواد المضمر سبعين سنة، وقال بهذا القول الطبري ورجحه. وقال ابن زيد: الدرجات في الآية هي السبع المذكورات في سورة (براءَة)، فهي قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٤] الآيات، فذكر فيها الموطئ الغائظ للكفار، والنَّيْل من العدو، والنفقة الصغيرة والكبيرة، وقطع الأودية والمسافات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ودرجات الجهاد لو حُصرت أَكثر من هذه، لكن يجمعها بذل النفس والمال،

---

(١) الصوائف: جمع صائفة. قال الجوهري: وصائفة القوم: ميرتهم في الصيف. (اللسان).

(٢) رواه البخاري عن أنس بن مالك في غزوة تبوك، مع اختلاف يسير في ترتيب الألفاظ عن هنا.

(٣) يقال: أحضر الفرس أو الرجل: وثب في عدوه، فهو وهي: مِحْضار أو مِحْضير، والجمع محاضير، فالمراد هنا: عدو الفرس، أو وثبه عند العدو بسرعة.

(٤) التوبة: ١٢٠، والسبع التي يشير إليها ابن زيد مذكورات في الآيتين (١٢٠ ـ ١٢١).

والاعتمال بالبدن والمال في أن تكون كلمة الله هي العليا، ولا شك أن بحسب مراتب الأعمال ودرجاتها تكون مراتب الجنة ودرجاتها، فالأقوال كلها متقاربة، وباقي الآية وعد كريم وتأنيس.

ونصب ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ إما على البدل من الأجر، وإما على إضمار فعل على أن تكون تأكيداً للأجر، كما تقول: «لك عليَّ ألف درهم عرفاً»، كأنك قلت: أعرفها عرفاً.

قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾.

المراد بهذه الآية إلى قوله: ﴿مَصِيرًا﴾ جماعة من أهل مكة، كانوا قد أسلموا، وأظهروا للنبي ﷺ الإيمان به، فلما هاجر رسول الله ﷺ أقاموا مع قومهم، وفُتن منهم جماعة فافتتنوا، فلما كان أمر بدر خرج منهم قوم مع الكفار فقتلوا ببدر فنزلت الآية فيهم. قال ابن عباس رضي الله عنه: كان قوم من أهل مكة قد أسلموا، وكانوا يَسْتَخْفُون بإسلامهم، فأخرجهم المشركون يوم بدر، فأُصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاءِ مسلمين[1] وأكرهوا فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الآية، قال: فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية ألاَّ عُذر لهم، فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم هذه الآية الأخرى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾[2] الآية، فكتب إليهم المسلمون بذلك، فخرجوا ويئسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]، فكتبوا إليهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجاً، فخرجوا فلحقهم المشركون فقاتلوهم حتى

---

(١) جاءت هذه الجملة في بعض النسخ كالآتي: «كأن أصحابنا هؤلاءِ مسلمون».
(٢) العنكبوت: ١٠.
(٣) النحل: ١١٠.

نجا من نجا وقُتل من قُتل[١]. وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في خمسة قتلوا ببدر، وهم: قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وأَبو العاصي بن منبه بن الحجاج، وعلي بن أُمية بن خلف[٢]. قال النقاش: في أُناس سواهم أَسلموا ثم خرجوا إِلى بدر، فلما رأَوا قلة المسلمين قالوا: غرَّ هؤلاءِ دينهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكان العباس ممن خرج مع الكفار لكنه نجا وأُسر، وكان من المطعمين في نفير بدر، قال السدي: لما أُسر العباس، وعقيل، ونفيل، قال رسول الله ﷺ للعباس: «افد نفسك وابن أَخيك»، فقال له العباس: يا رسول الله، أَلم نصل قبلتك ونشهد شهادتك؟ قال: «يا عباس، إِنكم خاصمتم فخصمتم، ثم تلا عليه هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾»[٣]، قال السدي: فيوم نزلت هذه الآية كان من أَسلم ولم يهاجر فهو كافر حتى يهاجر، إِلا من لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا الذي قاله السدي نظر، والذي يجري مع الأُصول أَن من مات من أُولٰئك بعد أَن قبل الفتنة وارتد فهو كافر، ومأْواه جهنم على جهة الخلود، وهذا هو ظاهر أَمر تلك الجماعة، وإِن فرضنا فيهم من مات مؤمناً وأُكره على الخروج، أَو مات بمكة فإِنما هو عاصٍ في ترك الهجرة، مأْواه جهنم على جهة العصيان دون خلود، لكن لما لم يتعين أَحد أَنه مات على الإِيمان لم يسغ ذكرهم في الصحابة، ولم يُعْتَد بما كان عرف منهم قبل، ولا حجة للمعتزلة في شيءٍ من أَمر هؤلاءِ على تكفيرهم بالمعاصي، وأَما العباس فقد ذكر ابن عبد البر رحمه الله أَنه أَسلم قبل بدر، ولذلك قال رسول الله ﷺ في يوم بدر: «من لقي العباس فلا يقتله فإِنما أُخرج كرهاً».

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في سُنَنه عن ابن عباس (الدر المنثور ١ ـ ٢٠٥).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن جرير ـ عن عكرمة ـ (الدر المنثور).

(٣) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم ـ عن السدي ـ. (الدر المنثور).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذُكر أَنه إِنما أَسلم مأسوراً حين ذكرَ له النبي ﷺ أَمر المال الذي ترك عند أُم الفضل، وذُكر أَنه أَسلم في عام خيبر، وكان يكتب إلى رسول الله ﷺ بأَخبار المشركين، وكان يُحب أَن يهاجر، فكتب إليه رسول الله ﷺ «أَن امكث بمكة فمقامك بها أَنفع لنا».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لكن عامله رسول الله ﷺ حين أُسر على ظاهر أَمره.

وقوله تعالىٰ: ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ يحتمل أن يكون فعلاً ماضياً لم يستند بعلامة تأْنيث، إِذ تأْنيث لفظ الملائكة غير حقيقي، ويحتمل أَن يكون فعلاً مستقبلاً على معنى: تتوفاهم، فحذفت إِحدى التَّاءَين، ويكون في العبارة إِشارة إِلى ما يأْتي من هذا المعنى في المستقبل بعد نزول الآية، وقرأَ إِبراهيم: [تُوفاهم] بضم التاءِ، قال أَبو الفتح: كأَنَّهم يدفعون إِلى الملائكة ويحتسبون عليهم[1]، و﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ بفتح التاءِ معناه: تَقْبض أَرواحهم، وحكى ابن فُورك عن الحسن أَن المعنى: تحشرهم إِلى النار.

و﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ نصب على الحال، أَي: ظالميها بترك الهجرة، قال الزجاج: حذفت النون من (ظالمين) تخفيفاً، كقوله تعالىٰ: ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾[2]، وقول الملائكة: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ تقرير وتوبيخ، وقول هؤلاءِ: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ اعتذار غير صحيح، إِذ كانوا يستطيعون الحِيَل، ويهتدون السبيل، ثم وقفتهم الملائكة على ذنبهم بقولهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾، والأَرض في قول هؤلاءِ: هي أَرض مكة خاصة، وأَرض الله: هي الأَرض بالإِطلاق، والمراد: «فَتُهَاجِرُوا فِيهَا إِلَى مَوضع الأَمن»؟ وهذه المقالة إِنما هي بعد توفي الملائكة لأَرواح هؤلاءِ، وهي دالة على أَنهم ماتوا مسلمين، وإِلا فلو ماتوا كافرين لم يُقل لهم شيءٌ من هذا، وإِنما أُضرب عن ذكرهم في الصحابة لشدة ما واقعوه، ولعدم تَعيُّن أَحد منهم بالإِيمان، ولاحتمال

---

(١) قال في البحر: «والمعنى: أن الله يوفي الملائكة أنفسهم فيتوفونها، أي يمكنهم من استيفائها فيستوفونها». ٣ ـ ٣٣٤.

(٢) من قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥].

ردته. وتوعدهم الله تعالىٰ بأَن مأْواهم جهنم، ثم استثنى منهم من كان استضعافه على حقيقة: من زَمَنَة الرجال، وضعفة النساء والولدان، كعَيَّاش بن أَبي ربيعة، والوليد بن هشام، وغيرهما، قال ابن عباس: «كُنت أَنَا وأُمِّي من المستضعفين، هي من النساءِ، وأَنا من الولدان»[١]، والحيلة: لفظ عام لأَسباب أَنواع التخلص، والسبيل: سبيل المدينة فيما ذكر مجاهد، والسدي، وغيرهما، والصواب أَنه عام في جميع السبل.

ثم رجَّى الله تعالىٰ هؤلاءِ بالعفو عنهم و﴿عَسَى﴾ من الله واجبة، كما أَنها دالَّة على ثقل الأَمر المعفو عنه. قال الحسن: (عسى) من الله واجبة، قال غيره: هي بمنزلة الوعد، إِذ ليس يخبر بـ (عسى) عن شك ولا توقع، وهذا يرجع إِلى الوجوب، قال آخرون: هو على مُعْتَقَد البشر، أَي: ظنكم بمن هذه حاله ترجي عفو الله تعالىٰ عنه.

والمُراغَم: المُتَحَوَّل والمذهب، كذا قال ابن عباس، والضحاك، والربيع، وغيرهم، ومنه قول النابغة الجعدي:

كَطَـوْدٍ يُـلاذُ بـأَرْكَـانِـهِ عـزيـزِ المُـرَاغَـم والمَـذْهَـب[٢]

وقول الآخر:

إِلـى بَلَـد غَيْـر دانـي المَحَـلِّ بعيـدِ المُـراغَـم والمضْطَـرَبْ[٣]

وقال مجاهد: المراغم: المُتَزحْزَح عما يكره، وقال ابن زيد: المراغم: المهاجر، وقال السدي: المراغم: المبتغي المعيشة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله تفسير بالمعنى، فأَما الخاص باللفظة فإِن المراغم: موضع بالمراغمة،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس. (الدر المنثور) وأُمه هي: أُم الفضل بنت الحارث، واسمها لُبابة، وهي أُخت ميمونة، وأختها الأخرى لبابة الصغرى، وهن تسع أخوات، قال النبي ﷺ فيهن: (الأخوات المؤمنات). وهن ستُّ شقائق، وثلاث لأم.

(٢) رواه في اللسان: «عزيز المُراغم والمهْرَب». والطود: الجبل العظيم الذاهب صُعُوداً في الجو. يُلاذ بأركانه: يلجأ إليه، ويستتر بأركانه وجوانبه.

(٣) أنشده أبو إسحاق دليلاً على أن المهاجِر والمراغم بمعنى واحد ولم ينسبه ـ (ذكر ذلك صاحب اللسان).

وهو أَن يرغم كل واحد من المتنازعيْن أَنف صاحبه بأَن يغلبه على مراده ، فكفار قريش أَرغموا أُنوف المحبوسين بمكة ، فلو هاجر منهم مهاجر في أَرض الله لأَرغم أُنوف قريش بحصوله في منعة منهم ، فتلك المَنَعَة هي موضع المراغمة ، وكذلك الطود الذي ذكره النابغة ، من صعد فيه أَمام طالب له وتوقَّل[1] فقد أَرغم أَنف ذلك الطالب ، وقرأَ نُبَيح ، والجراح ، والحسن بن عمران: [مَرْغما] بفتح الميم وسكون الراءِ دون أَلف. قال أَبو الفتح: هذا إِنما هو على حذف الزوائد من (راغم) ، والجماعة على (مُرَاغَم).

وقال ابن عباس ، والربيع ، والضحاك ، وغيرهم: السَّعة هنا: هي السَّعة في الرزق ، وقال قتادة: المعنى: سَعة من الضَّلالة إِلى الهدى ، ومن العيلة إِلى الغنى. وقال مالك: السَّعة سَعَة البلاد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمشبه لفصاحة العرب أَن يُريد سَعَة الأَرض ، وكثرة المعاقل ، وبذلك تكون السعة في الرزق ، واتساع الصدر لهمومه وفكره وغير ذلك من وجوه الفرح ، ونحو هذا المعنى قول الشاعر:

لكَانَ لي مُضْطَرَبٌ واسِعٌ ... في الأَرض ذاتِ الطُّولِ والعَرْضِ[2]

ومنه قول الآخر:

وكنتُ إذا خَليلٌ رامَ قَطْعي ... وجدتُ وَرايَ مُنْفَسَحاً عَريضاً[3]

وهذا المعنى ظاهر من قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾ ، وقال مالك بن أَنس رضي الله عنه: الآية تعطي أَن كل مسلم ينبغي أَن يخرج من البلاد التي تغير فيها السُّنن ، ويعمل فيها بغير الحق.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ﴾ الآية ، حكم باق في الجهاد والمشي إِلى الصلاة والحج ونحوه ، أَما إِنه لا يقال: إِن بنفس خروجه ونيته حصل في مرتبة الذي قضى

---

(١) التَّوَقُّلُ في الجبل هو: الصعود فيه.

(٢) البيت لحطان بن المعلى ، وهو من شعراء الحماسة. ورد في قطعة مطلعها:

أَنْزلني الدهْرُ على حُكْمِه ... مِنْ شامخ عالٍ إلى خَفْض

(٣) ذكره في القرطبي ولم ينسبه ، ومعنى «رام قطعي»: أراد قطع صلته بي.

ذلك الفرض أَو العبادة في الجملة، ولكن يقال: وقع له بذلك أَجر عظيم، وروي أَن هذه الآية نزلت بسبب رجل من كنانة، وقيل: من خزاعة من بني ليث، وقيل: في جُنْدَع[1] لما سمع قول الله عز وجل: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ قال: إِني لذو مالٍ وعبيد ـ وكان مريضاً ـ فقال: أَخرِجُوني إِلى المدينة، فأُخرج في سرير فأَدركه الموت بالتنعيم[2]، فنزلت الآية بسببه، واختلف في اسمه ـ فحكى الطبري عن ابن جبير أَنه ضَمْرَة بن العيص، أَو العيص بن ضَمْرَة بن زِنْبَاع، وحكى عن السدي أَنه ضمرة بن جُندب، وحكى عن عكرمة أَنه جُندب بن ضَمْرَة الجُنْدَعِي، وحكى عن ابن جبير أَيضاً أَنه ضَمْرَة بن بغيض الذي من بني ليث، وحكى أَبو عمر بن عبد البر أَنه ضمرة بن العيص، وحكى المهدوي أَنه ضمرة بن نُعيم، وقيل: ضمرة بن خُزاعة.

وقرأَت الجماعة: ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ بالجزم عطفاً على ﴿يَخْرُجْ﴾، وقرأَ طلحة بن سليمان، وإِبراهيم النَّخَعي فيما ذكره أَبو عمرو: [يُدْرِكُهُ] برفع الكاف، قال أَبو الفتح: هذا رفع على أَنه خبر مبتدإٍ محذوف، أَي: ثم هو يدركه الموت، فعطف الجملة من المبتدإِ والخبر على الفعل المجزوم بفاعله، فهما إِذن جملة، فكأَنه عطف جملة على جملة، وعلى هذا حمل يونس بن حبيب قول الأَعشى:

إِنْ تَرْكبوا فركوبُ الخيل عادَتُنَا ... أَو تَنْزلونَ فإِنَّا معْشَرٌ نُزُل[3]

المراد: وأَنتم تنزلون. وعليه قول الآخر:

إِنْ تُذْنبوا ثُمَّ يأْتيني بَقِيَّتُكُم ... فما عليَّ بذنبٍ عندكم فوتُ[4]

المعنى: ثمَّ أَنتم تأْتيني، وهذا أَوجه من أَن يحمله على قول الآخر:

---

(١) هو جُنْدَع بن ضمرة من بني ليث.

(٢) التنعيم: موضع قرب مكة في الحل يعرف بمسجد عائشة، ومنه يُحرم المعتمر بالعمرة.

(٣) هذا آخر بيت في معلقته المشهورة: «ودِّع هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ»، لكنه روي في الديوان:

قَالُوا الرُّكُوبَ فَقُلْنَا تِلْكَ عَادَتُنَا ... . إلخ

(٤) البيت قاله رويشد بن كثير الطائي من قطعة مطلعها:

يأَيُّهَا الرَّاكِبُ المُزْجي مَطِيَّتَهُ

وقد رواه في (البحر المحيط).

إِنْ تُذْنِبوا ثم يأَتيني نَعِيقُكُم ... . إلخ

أَلَـمْ يَـأْتِيـكَ والأنبـاءُ تَنْمِـي . . . . (١)

وقرأ الحسن بن أبي الحسن ، وقتادة ، ونُبَيْح ، والجراح : [ثم يُدْرِكَهُ] بنصب الكاف على إضمار (أن) كقول الأعشى:

لنـا هَضْبَـةٌ لا يَنْـزِلُ الـذُّلُّ وَسْطَهـا ويَـأْوي إليهـا المُسْتَجيـر فَيُعْصَمـا(٢)

أراد: فأن يُعصمَ ، قال أبو الفتح: وهذا ليس بالسهل ، وإنما بابه الشعر لا القرآن ، وأنشد ابن زيد:

سَـأَتْـرُكُ مَنْـزلـي لِبَنـي تَمِيـم وأَلْحَـقَ بـالحجاز فَـأَسْتَـريحَـا

والآية أقوى من هذا لتقدم الشرط قبل المعطوف(٣).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن هذه الآية رأى بعض العلماء أن من مات من المسلمين وقد خرج غازياً فله سهمه من الغنيمة ، قاسوا ذلك على الأجر ، وقد تقدم معنى الهجرة فيما سلف ، و﴿وَقَعَ﴾ عبارة عن الثبوت وقوة اللزوم ، وكذلك هي (وجَبَ) ، لأن الوقوع والوجوب نزول في الأجرام بقوة ، فشبه لازم المعاني بذلك ، وباقي الآية بين.

---

(١) تمامه:

. . . . بمـا لاقَـت لَبـون بنـي زيـاد؟

وهناك تخريج آخر لرفع الكاف في [ثمَّ يدركُه] غير ما تقدم وهو أن ضمة الكاف منقولة من الهاء ، كأنه أراد أن يقف عليها ثم نقل حركة الهاء إلى الكاف ، كقوله: «من عرى سلبي لم أضربُهْ» ، يريد: لم أضربه ذكره في (البحر المحيط).

(٢) لم نجد هذا البيت في ديوان الأعشى ، ونسبه بعض المحدثين. «التوضيح والتكميل لشرح ابن عقيل» إلى لبيد بن طرفه ، وهو أيضاً غير موجود في ديوانه المطبوع.

(٣) يعني أن الفعل وقع بين الشرط وجوابه ، ولكن أبا حيان يقول في (البحر المحيط) بعد كلام «أبو الفتح»: «ونقول: أجرى (ثمَّ) مجرى (الواو والفاء) ، فكما جاز نصب الفعل بإضمار (أن) بعدهما بين الشرط وجوابه ، كذلك جاز في (ثم) إجراء لها مجراهما ، وهذا مذهب الكوفيين ، واستدلوا بهذه القراءة ، وقال الشاعر في (الفاء):

ومـن لا يُقَـدِّمْ رجلـه مُطْمَئِنَّـةً فَيُثْبِتَهـا فـي مُسْتَـوى القـاعِ يَـزْلَـقِ

وقال آخر في (الواو):

وَمَـنْ يَقْتَـرِبْ مِنـا ويَخضَـعَ نُـؤْوِهِ ولا يَخْشَـى ظُلْمـاً مـا أَقـام ولا هَضْمـا

قوله تعالىٰ:

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ﴾.

﴿ ضَرَبْتُمْ ﴾ معناه: سافرتم، فأَهل الظاهر يرون القصر في كل سفر يخرج عن الحاضرة، وهي من حيث تؤتي الجمعة، وهذا قول ضعيف[١]، واختلف العلماءُ في حد المسافة التي تقصر فيها الصلاة ـ فقال مالك، والشافعي، وأَحمد بن حنبل، وابن راهويه: تقصر الصلاة في أَربعة بُرُد، وذلك ثمانية وأَربعون ميلاً، وحجتهم أَحاديث رويت في ذلك عن ابن عمر، وابن عباس. وقال الحسن، والزهري: تقصر الصلاة في مسيرة يومين، ولم يذكرا أَميالاً، وروي هذا القول عن مالك، وروي عنه أَيضاً: تقصر الصلاة في يوم وليلة، وهذه الأَقوال الثلاثة تتقارب في المعنى. وروي عن ابن عباس، وابن عمر أَن الصلاة تقصر في مسيرة اليوم التام، وقصر ابن عمر في ثلاثين ميلاً، وعن مالك في «العتبية» فيمن خرج إلى ضيعته على مسيرة خمسة وأَربعين ميلاً، قال: يقصر. وعن ابن القاسم في «العتبية»: إن قَصَر في ستة وثلاثين فلا إعادة عليه، وقال يحيى بن عمر: يعيد أَبداً. وقال ابن عبد الحكم: في الوقت، وقال ابن مسعود، وسفيان، والثوري، وأَبو حنيفة، ومحمد بن الحسن: من سافر مسيرة ثلاث قصر، قال أبو حنيفة: ثلاثة أَيام ولياليها سيْر الإبل ومشي الأَقدام، وروي عن أَنس بن مالك أَنه قصر في خمسة عشر ميلاً، قال الأَوزاعي: عامة العلماءِ في القصر في مسيرة اليوم التام، وبه نأْخذ.

واختلف الناس في نوع السفر الذي تقصر فيه الصلاة، فأَجمع الناس على الجهاد، والحج، والعمرة، وما ضارعها من صلة الرحم، وإحياء نفس. واختلف الناس فيما سوى ذلك ـ فالجمهور على جواز القصر في السفر المباح، كالتجارة ونحوها، وروي

---

(١) هذا هو رأي (داود)، وقد استند فيه إلى ما رواه مسلم عن يحيى بن يزيد الهُنائي قال: «سألت أنس بن مالك عن قصر الصلاة فقال: كان رسول الله ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ (شعْبَةُ الشَّاكُّ) صلى ركعتين، قال القرطبي: وهذا لا حجة فيه، لأنه مشكوك فيه ـ وعلى تقدير أحدهما فلعله حدُّ المسافة التي بدأ منها القصر، وكان سفراً طويلاً زائداً على ذلك» اهـ.

عن ابن مسعود أَنه قال: لا تقصر الصلاة إِلا في حج أَو جهاد، وقال عطاء: لا تقصر الصلاة إِلا في سفر طاعة وسبيل من سبل الخير، وقد روي عن عطاء أَنها تقصر في كل المباح، والجمهور من العلماء على أَنه لا قصر في سفر المعصية، كالباغي، وقاطع الطريق، وما في معناهما. وروي عن الأَوزاعي وأَبي حنيفة إِباحة القصر في جميع ذلك، وجمهور العلماءِ على أَن المسَافر لا يقصر حتى يخرج من بيوت القرية، وحينئذ هو ضارب في الأَرض، وهو قول مالك في «المدونة»: وابن حبيب وجماعة المذهب، قال ابن القاسم في «المدونة»: ولم يجد لنا مالك في القرب حداً. وروي عن مالك: إِذا كانت قرية يجمع أَهلها فلا يقصر حتى يجاوزها بثلاثة أَميال، وإِلى ذلك في الرجوع، وإِن كانت لا يجمع أَهلها قصر إِذا جاوز بساتينها، وروي عن الحارث بن أَبي ربيعة أَنه أَراد سفراً فصلى بهم ركعتين في منزله، وفيهم الأَسود بن يزيد، وغير واحد من أَصحاب ابن مسعود، وبه قال عطاءُ بن أَبي رباح، وسليمان بن موسى. وروي عن مجاهد أَنه قال: لا يقصر المسافر يومه الأَول حتى الليل، وهو شاذ، وقد ثبت «أَن النبي ﷺ صلى الظهر بالمدينة أَربعاً، والعصر بذي الحليفة ركعتين»[1]، وليس بينهما ثلث يوم.

ويظهر من قوله تعالىٰ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا﴾ أَن القصر مباح، أَو مخير فيه، وقد روى ابن وهب عن مالك أَن المسافر مخير، وقاله الأَبهري، وعليه حذاق المذهب. وقال مالك في «المبسوط»: القصر سُنة. وهذا هو جمهور المذهب، وعليه جواب «المدونة» بالإِعادة في الوقت لمن أَتم في سفره. وقال محمد بن سحنون، وإِسماعيل القاضي: القصر فرض، وبه قال حماد بن أَبي سليمان، وروي نحوه عن عمر بن عبد العزيز. وروي عن ابن عباس أَنه قال: من صلى في السفر أَربعاً فهو كمن صلى في الحضر ركعتين، وحكى ابن المنذر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنه قال: صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم عليه الصلاة والسلام، وقد خاب من افترى، ويؤيد هذا قولُ عائشة رضي الله عنها: «فرضت الصلاة ركعتين في الحضر والسفر، فأُقرت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر»[2].

---

(١) رواه مسلم عن أنس بن مالك في كتاب: «صلاة المسافرين وقصرها».

(٢) رواه مسلم عن عائشة من طريق: يحيى بن يحيى، ومن طريق أبي الطاهر في: «كتاب صلاة المسافرين وقصرها»، وأخرجه مالك، والبخاري، وعبد بن حميد.

واختلف العلماءُ في معنى قوله: ﴿أَن تَقۡصُرُواْ﴾ ـ فذهب جماعةٌ من العلماءِ إلى أَنه القصر إلى اثنتين من أَربع ، وروي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَنه قال: سأَل قوم من التجار رسول الله ﷺ ، فقالوا: إِنا نضرب في الأَرض ، فكيف نصلي؟ فأَنزل الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ، ثم انقطع الكلام ، فلما كان بعد ذلك بحولٍ غزا النبي عليه الصلاة والسلام ، فصلى الظهر ، فقال المشركون: لقد أَمكنكم محمد وأَصحابه من ظهورهم ، فهلا شددتم عليهم ، فقال قائل منهم: إن لهم أُخرى في أَثرها ، فأَنزل الله تعالىٰ بين الصلاتين ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾ إلى آخر صلاة الخوف[1].

وذكر الطبري في سرد هذه المقالة حديث يعلى بن أُمية ، قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الله تعالىٰ يقول: ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ وقد أَمن الناس ، فقال: عجبت مما عجبتَ منه ، فسأَلت رسول الله ﷺ فقال: صدقةٌ تصدق الله بها عليكم ، فاقبلوا صدقته»[2]. قال الطبري: وهذا كله قول حسن ، إلا أَن قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا كُنتَ﴾ تؤذن بانقطاع ما بعدها مما قبلها ، فليس يترتب من لفظ الآية إلا أَن القصر مشروط بالخوف. وفي قراءَة أُبي بن كعب: ﴿أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾ بسقوط ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ ، وثبتت في مصحف عثمان رضي الله عنه. وذهبت جماعة أُخرى إِلى أَن هذه الآية إِنما هي مُبيحةٌ القصر في السفر للخائف من العدو ، فمن كان آمناً فلا قصر له ، وروي عن عائشة رضي الله عنها أَنها كانت تقول في السفر: «أَتِمُّوا صلاتكم» ، فقالوا: إِن رسول الله ﷺ كان يقصر ، فقالت: إِنه كان في حرب ، وكان يخاف ، وهل أَنتم تخافون؟[3] وقال عطاء: كان يتم الصلاة من أَصحاب رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها ، وسعد بن أَبي وقاص ، وأَتم عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ولكن علَّل ذلك بِعِلَل غير هذه ، وكذلك علَّل إِتمام عائشة رضي الله عنها أَيضاً بغير هذا.

---

(١) أخرجه ابن جرير عن علي ، (تفسير الطبري ، والدر المنثور).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وأحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وغيرهم. (الدر المنثور).

(٣) أخرجه ابن جرير من طريق عمر بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق. (الدر المنثور).

وقال آخرون: القصر المباح في هذه الآية إنما هو قصر الركعتين إلى ركعة، والركعتان في السفر إنما هي تمام، وقصرها أن تصير ركعة، قال السدي: إذا صليت في السفر ركعتين فهو تمام، والقصر لا يحل إلا أن يخاف، فهذه الآية مبيحة أن تصلي كل طائفة ركعة لا تزيد عليها شيئاً، ويكون للإمام ركعتان، وروي عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: ركعتان في السفر تمام غير قصر، إنما القصر في صلاة المخافة، يصلي الإمام بطائفة ركعة، ثم يجيءُ هؤلاءِ إلى مكان هؤلاءِ، وهؤلاءِ إلى مكان هؤلاءِ، فيصلي بهم ركعة، فتكون للإمام ركعتان، ولهم ركعة ركعة[(١)]. وقال نحو هذا سعيد بن جبير، وجابر بن عبد الله، وكعب من أصحاب النبي ﷺ، وفعله حذيفة بطبرستان، وقد سأله الأمير سعيد بن العاصي ذلك، وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ صلى كذلك في غزوة ذي قَرَد ركعة بكل طائفة، ولم يقضوا[(٢)]، وقال مجاهد عن ابن عباس: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة[(٣)]، وروى جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ صلى كذلك بأصحابه يوم حارب خصفة وبني ثعلبة، وروى أبو هريرة أن النبي ﷺ صلى كذلك بين ضجنان وعسفان[(٤)].

وقال آخرون: هذه الآية مبيحة القصر من حدود الصلاة وهيئتها عند المسايفة واشتعال الحرب، فأُبيح لمن هذه حاله أن يُصلِّي إيماءً برأسه، ويصلي ركعة واحدة حيث توجه، إلى تكبيرتين، إلى تكبيرة، على ما تقدم من أقوال العلماء في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾، ورجَّحَ الطبري هذا القول، وقال: إنه

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير عن سماك الحنفي. (الدر المنثور).

(٢) أخرج الحديث عن ابن عباس ـ عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، والحاكم وصححه، و«ذي قَرَدَ»: بفتح القاف والراء، وقيل: بضمهما، وقيل: بضم القاف وفتح الراء، قال البلاذري: الصواب الأول.

(٣) رواه مسلم في كتاب: «صلاة المسافرين وقصرها».

(٤) الحديث رواه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد، ورواه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة، (راجع تفسير الطبري، ٥ ـ ٢٤٤ ومشكاة المصابيح باب «صلاة الخوف»، والدر المنثور ٢ ـ ٢١٠).
وضجنان كسكران: جبل قرب مكة، وآخر بالبادية كما قال في «القاموس». وعُسفان كعثمان: موضع على مرحلتين من مكة.

يعادله قوله: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أي: بحدودها وهيئتها الكاملة.

وقرأ الجمهور: ﴿تَقْصُرُوا﴾ بفتح التاء وضم الصاد، وروى الضبي عن أصحابه: [تُقْصِروا] بضم التاءِ وكسر الصاد وسكون القاف، وقرأ الزهري: [تُقَصِّرُوا] بضم التاءِ وفتح القاف وكسر الصاد وشدها.

و﴿يَفْتِنَكُمُ﴾ معناه: يمتحنكم بالحمل عليكم وإشغال نفوسكم في صلاتكم، ونحو هذا قول صاحب الحائط[1]، لقد أصابتني في مالي هذا فتنة، وأصل الفتنة الاختبار بالشدائد، وإلى هذا المعنى ترجع كيف تصَرَّفتْ[2].

وعَدُوّ: وصف يجري على الواحد والجماعة، ومبين: مفعل من أبان. المعنى: قد جلحوا[3] في عداوتكم، وراموكم كل مرام.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ الآية، قال جمهور الأمة: الآية خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام، وهو يتناول الأمراء بعده إلى يوم القيامة، وقال أبو يوسف وإسماعيل بن علية: الآية خصوص للنبي ﷺ، لأن الصلاة بإمامة النبي عليه الصلاة والسلام لا عوض عنها، وغيره من الأمراء منه العوض، فيصلي الناس بإمامين، طائفة بعد طائفة، ولا يحتاج إلى غير ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكذلك جمهور العلماء على أن صلاة الخوف تُصلى في الحضر إذا نزل الخوف، وقال قوم: لا صلاة خوف في حَضر، وقاله في المذهب: عبد الملك بن الماجشون، وقال الطبري: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ﴾، معناه: حدودها وهيئتها، ولم تقصر على ما أُبيح قبلُ في حال المسايفة.

وقوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ أمرٌ بالانقسام، أي: وسائرهم وجاه العدوِّ حذراً وتوقع حملته.

---

(١) الحائط: البستان.

(٢) قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: فتنت الرجل، وربيعة وقيس وأسد وجميع أهل نجد يقولون: أفتنت الرجل. وفرق الخليل وسيبويه بينهما فقالا: فتنته: جعلت فيه فتنة مثل أكحلته، وأفتنته: جعلته مفتتناً وزعم الأصمعي أنه لا يعرف أفتنته.

(٣) جلح في عداوته: كاشفه بها.

وأَعظم الروايات والأَحاديث أَن صلاة الخوف إِنما نزلت الرخصة فيها في غزوة ذات الرِّقَاع ، وهي غزوة محارب خصفة ، وفي بعض الروايات أَنها نزلت في ناحية عُسْفَان وضَجْنَان ، والعدو: خيل قريش عليها خالد بن الوليد ، واختلف ـ من المأْمور بأَخذ الأَسلحة هنا؟ فقيل: الطائفة المصلية ، وقيل: بل الحارسة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولفظ الآية يتناول الكل ، ولكن سلاح المصلِّين ما خف ، واختلفت الآثار في هيئة صلاة النبي ﷺ بأَصحابه صلاة الخوف ، وبحسب ذلك اختلف الفقهاء.

فروى يزيد بن رومان ، عن صالح بن خوَّات ، عن سَهْل بن أَبي حَثْمَة[١] أَنه صلى مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف يوم «ذات الرقاع» ، فَصَفَّت طائفة معه ، وطائفة وجاه العدو ، فصلَّى بالذين معه ركعة ، ثم ثبت قائماً ، وأَتموا ثم انصرفوا فصفُّوا وجاه العدو ، وجاءَتْ الطائفة الأُخرى فصلَّى بهم الركعة التي بقيت من صلاته ، ثم ثبت جالساً ، وأَتموا لأَنفسهم ، ثم سلَّم بهم ، وروى القاسم بن محمد ، عن صالح بن خوات ، عن سهل هذا الحديث بعينه ، إِلا أَنه روى أَن النبي ﷺ حين صلى بالطائفة الأَخيرة ركعة سلَّم ، ثم قضت هي بعد سلامه ، وبهذا الحديث أَخذ مالك رحمه الله في صلاة الخوف ، كان أَولا يميل إِلى رواية يزيد بن رومان ، ثم رجع إِلى رواية القاسم بن محمد بن أَبي بكر[٢].

وروى مجاهد ، وغيره عن أَبي عياش الزُّرَقي واسمه زيدُ بن الصَّامت ـ على خلاف فيه[٣] ـ أَن النبي ﷺ صلَّى صلاة الخوف بعُسْفَان والعدو في قبلته ، قال: فصلى بنا

---

(١) سهل بن أبي حثمة بسكون الثاء: الأنصاري الأوسي ، كان له سبع سنين أو ثمان سنين عند موت النبي ﷺ ، وقد حدَّث عنه بأحاديث ، وكذلك حدث عن زيد بن ثابت ، وروى عنه ابنه محمد ، وابن أخيه محمد سليمان ، وصالح بن خوت (أو ابن خوَّات) كان أبوه دليل النبي ﷺ إلى أُحد ، وشهد المشاهد كلها إلا بدراً. (الإصابة ٤ ـ ٢٧١ ، ٢٧٢).

(٢) حجة مالك في ذلك أن الإمام ليس له أن ينتظر أحداً سبقه بشيء منها ، وأن السنة المجمع عليها أن يقضي المأمومون ما سُبقوا به بعد سلام الإمام ـ وقال الشافعي: حديث يزيد بن رومان ، عن صالح بن خوَّات هذا أشبه الأحاديث في صلاة الخوف بظاهر كتاب الله ، وبه أقول ، وقال أحمد كقول الشافعي في المختار عنده. (القرطبي ٥ ـ ٣٦٦).

(٣) قيل: زيد بن الصامت ، وقيل: زيد بن النعمان الزُّرَقيُّ ، مشهور بكنيته. (الإصابة ٤ ـ ٥٨).

النبي ﷺ الظُّهر ، فقال المشركون: لقد كانوا على حال لو أَصبنا غِرَّتهم ، فقالوا: تأْتي الآن عليهم صلاة هي أَحبُّ إِليهم من أَبنائهم وأَنفسهم ، قال: فنزل جبريل عليه السلام بين الظهر والعصر بهذه الآيات ، وأَخبرهم خبرهم ، ثم قام رسول الله ﷺ فصف العسكر خلفه صفين ، ثم كبر فكبروا جميعاً ، ثم ركع فركعنا جميعاً ، ثم رفع فرفعنا جميعاً ، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه ، والآخرون قيام يحرسونهم ، فلما سجدوا وقاموا سجد الآخرون في مكانهم ، ثم تقدموا إلى مصاف المتقدمين ، وتأَخر المتقدمون إِلى مصاف المتأَخرين ، ثم ركع فركعوا جميعاً ، ثم رفع فرفعوا جميعاً ، ثم سجد النبي ﷺ فسجد الصف الذي يليه ، فلما رفع سجد الآخرون ، ثم سلم فسلموا جميعاً ، ثم انصرفوا ، قال عبد الرزاق بن همام[١] في مصنفه: وروى الثوري عن هشام مثل هذا ، إِلا أَنه قال: ينكُصُ الصف المتقدم القهقرى حين يرفعون رؤُوسهم من السجود ، ويتقدم الآخرون فيسجدون في مصاف الأَولين ، قال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن خلاد بن عبد الرحمن ، عن مجاهد ، قال: لم يصل النبي ﷺ صلاة الخوف إِلا مرتين ، مرّة بذات الرقاع من أَرض بني سليم ، ومرة بُعسْفان والمشركون بِضَجْنَان بينهم وبين القبلة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وظاهر اختلاف الروايات عن النبي ﷺ يقتضي أَنه صلى صلاة الخوف في غير هذين الموطنين. وذكر ابن عباس أَنه كان في غزوة ذي قَرَد صلاة خوف[٢].

وروى عبد الله بن عمر أَن النبي ﷺ صلى بإِحدى الطائفتين ركعة ، والطائفة الأُخرى مواجهة العدو ، ثم انصرفوا وقاموا في مقام أَصحابهم مقبلين على العدو.

---

(١) عبد الرزاق بن همَّام بن نافع الحميري ، أبو بكر الصنعاني: من حفاظ الحديث الثقات ، من أهل الصنعاء ، كان يحفظ نحواً من سبعة عشر ألف حديث ، له «الجامع الكبير» في الحديث ، قال الذهبي: وهو خزانة علم ـ توفى سنة ٢١١ هـ ـ ٨٢٧ م ـ. (تهذيب التهذيب وابن خلكان ، وطبقات الحنابلة).

(٢) اختلف العلماء في هيئة صلاة الخوف لاختلافها. ذكر ابن القَصَّار أنه ﷺ صلاها في عشرة مواضع ، وقال ابن العربي: روي عن النبي ﷺ أنه صلى صلاة الخوف أربعاً وعشرين مرة ، وقال الإمام أحمد بن حنبل ، وهو إمام أهل الحديث ، والمقدم في معرفة علل النقل فيه: لا أعلم أنه رُوي في صلاة الخوف إلا حديثٌ ثابت ، وهي كلها صحاح ثابتة ، فعلى أي حديث صلى منها المصلي صلاة الخوف أجزأه إن شاء الله ، وكذلك قال أبو جعفر الطبري ، (عن القرطبي ٣ ـ ٣٦٥).

وجاءَ أُولئك فصلىٰ بهم النبي ﷺ ركعة ، ثم سلَّم ، ثم قضى هؤلاء ركعة وهؤلاءِ ركعة في حين واحد ، وبهذه الصفة في صلاة الخوف أَخذ أَشهب رحمه الله ، ومشى على الأَصل في أَلا يقضي أَحد قبل زوال حكم الإمام ، فكذلك لا يبني ، ذكر هذا عن أَشهب جماعة عنه منهم: ابن عبد البر ، وابن يونس ، وغيرهما. وحكى اللخمي عنه أَن مذهبه أَن يُصلي الإمام بطائفة ركعة ، ثم ينصرفون تجاه العدو. وتأْتي الأُخرى فيصلي بهم ركعة ، ثم يسلِّم ، وتقوم التي معه تقضي فإِذا فرغوا منه صاروا تجاه العدو ، وقضت الأُخرى ، وهذه سنة رُوِيت عن ابن مسعود ، ورجَّح ابن عبد البر القول بما روي عن ابن عمر ، وروى أَن سهل بن أَبي حَثْمة قد روى عنه مثل ما روى عن ابن عمر سواء ، وروى حذيفة حين حكى صلاة النبي عليه الصلاة والسلام في الخوف أَنه صلى بكل طائفة ركعة ، ولم يقض أَحد من الطائفتين شيئاً زائداً على ركعة ، وذكر ابن عبد البر ، وغيره ، عن جابر بن عبد الله أَن النبي ﷺ صلى بكل طائفة ركعتين ركعتين ، فكانت لرسول الله ﷺ بكل طائفة ركعتين ركعتين ، فكانت لرسول الله ﷺ أَربع ، ولكل رجل ركعتان ، وبهذه كان يُفتي الحسن بن أَبي الحسن ، وهو قول يجيزه كلُّ من أَجاز اختلاف نية الإمام والمأْموم في الصلاة.

وقال أَصحاب الرأْي: إِذا كانت صلاة المغرب افتتح الإِمام الصلاة ومعه طائفة ، وطائفة بإِزاء العدو ، فيصلي بالتي معه ركعتين ، ثم يصيرون إِلى إِزاء العدو ، وتأْتي الأُخرى فيدخلون مع الإِمام ، فيصلي بهم ركعة ، ثم يسلم وحده ، ثم يقومون إِلى إِزاء العدو ، وتأْتي الطائفة التي صلَّت مع الإِمام الركعتين إِلى مقامهم الأَول في الصلاة ، فيقضون ركعة وسجدتين وحدانا ويسلمون ، ثم يجيئون إِلى إِزاءِ العدو ، وتنصرف الطائفة الأُخرى إِلى مقام الصلاة ، فيقضون ركعتين بقراءَة وحداناً ويسلمون ، وكملت صلاتهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا طرد قول أَصحاب الرأْي في سائر الصلوات.

وسأَل مروان بن الحكم أَبا هريرة: هل صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف؟ قال أَبو هريرة: نعم ، قال مروان: متى؟ قال أَبو هريرة: عام غزوة نجد ، قام رسول الله ﷺ إِلى صلاة العصر ، فقامت معه طائفة ، وطائفة أُخرى مقابل العدو

وظهورهم إلى القبلة، فكبر رسول الله ﷺ، وكبروا جميعاً، الذين معه والذين بإزاءِ العدو، ثم ركع رسول الله ﷺ، وركع معه الذين معه، وسجدوا كذلك، ثم قام رسول الله ﷺ، فصارت الطائفة التي كانت معه إلى إزاءِ العدو، وأقبلت الطائفة التي كانت بإزاءِ العدو، فركعوا وسجدوا ورسول الله ﷺ قائم كما هو، ثم قاموا فركع رسول الله ﷺ ركعة أُخرى، وركعوا معه، وسجد فسجدوا معه، ثم أقبلت الطائفة التي كانت بإزاءِ العدو فركعوا وسجدوا، ورسول الله ﷺ قاعد، ثم كان السلام فسلم رسول الله ﷺ وسلموا جميعاً.

وأسند أَبو داود في مصنفه عن عائشة رضي الله عنها صفة في صلاة النبي ﷺ صلاة الخوف تقرب مما روي عن أَبي هريرة، وتخالفها في أَشياء، إلا أَنها صفة في أَلفاظها تداعٍ وتناقضٌ، فلذلك اختصرتها.

ومجموع ما ذكرنا في صلاة الخوف من لدن قول أَبي يوسف، وابن علية أَحد عشر قولاً مع صلاة الخوف لكونها خاصة للنبي ﷺ، وعشر صفات على القول الشهير بأَنها باقية للأُمراءِ.

قوله تعالىٰ:

﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾.

الضمير في: ﴿سَجَدُواْ﴾ للطائفة المصلية، والمعنى: فإذا سجدوا معك الركعة الأُولى فلينصرفوا، هذا على بعض الهيئات المروية، وقيل: المعنى: فإذا سجدوا ركعة القضاءِ، وهذا على هيئة سهل بن أَبي حَثْمَة.

والضمير في قوله: ﴿فَلْيَكُونُواْ﴾ يحتمل أَن يكون للذين سجدوا، ويحتمل أَن يكون للطائفة القائمة أَولا بإزاء العدو، ويجيءُ الكلام وصاةً في حال الحذر والحرب.

وقرأَ الحسن، وابن أَبي إِسحاق: [فَلِتَقُم] بكسر اللام، وقرأَ الجمهور: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ﴾ بالتاءِ، وقرأَ أَبو حيوة: [ولْيَأْتِ] بالياءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ الآية إخبار عن معتقد القوم، وتحذير من الغفلة، لئلا ينال العدو أمله، وأَسْلِحة: جمع سلاح. وفي قوله تعالىٰ: ﴿ مَّيۡلَةً وَٰحِدَةًۚ ﴾ بناءُ مبالغة، أَي: مستأصلة لا يحتاج معها إِلى ثانية.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ الآية ترخيص، قال ابن عباس: نزلت بسبب عبد الرحمن بن عوف، كان مريضاً فوضع سلاحه فعنفه الناس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَنهم تلقوا الأَمر بأَخذ السلاح على الوجوب، فرخص الله تعالىٰ في هاتين الحالتين، وينقاس عليهما كل عذر يحدث في ذلك الوقت.

ثم قوى الله نفوس المؤمنين بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾.

قوله تعالىٰ:

﴿ فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

ذهب جمهور العلماء إِلى أَن هذا الذكر المأْمور به إنما هو إِثر صلاة الخوف، على حد ما أُمروا عند قضاءِ المناسك بذكر الله(١)، فهو ذكر باللسان.

وذهب قوم إِلى أَن ﴿ قَضَيۡتُمُ ﴾ بمعنى: فعلتم، أَي: إِذا تَلَبَّسْتُم بالصلاة فلتكن على هذه الهيئات بحسب الضرورات: المرض وغيره، وبحسب هذه الآية رتَّب ابن المواز صلاة المريض فقال: يُصَلِّي قاعداً، فإِن لم يُطق فعلى جنبه الأَيمن، فإِن لم يُطق فعلى الأَيسر، فإِن لم يُطق فعلى الظهر. ومذهب مالك في «المدونة» التخيير، لأَنه قال: فعلى جنبه أَو ظهره، وحكى ابن حبيب عن ابن القاسم أَنه قال: يبتدئ بالظهر ثم بالجنب، قال ابن حبيب: وهو وهمٌ، قال اللخمي: وليس بوهمٍ، بل هو أَحكم في استخدام القبلة. وقال سحنون: يصلي على جنبه الأَيمن كما يجعل في قبره، فإِن لم يقدر فعلى ظهره.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

والطمأنينة في الآية: سكون النفس من الخوف، وقال بعض المتأولين: المعنى: فإذا رجعتم من سفركم إلى الحضر فأقيموها تامة أربعة.

وقوله تعالىٰ: ﴿كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ معناه: منجَّماً في أوقات، هذا ظاهر اللفظ، وروي عن ابن عباس: أن المعنى: فرضاً مفروضاً، فهما لفظان بمعنى واحد، كُرِّر مبالغة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ يُبَيّن أن القضاء المشار إليه قبل إنما هو قضاء صلاة الخوف، و﴿تَهِنُوا۟﴾ معناه: تلينوا وتضعفوا، حبل واهن: أي ضعيف، ومنه: وهن العظم، و﴿ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾: طلبهم.

وقرأ عبد الرحمن الأعرج: [أَنْ تكونوا] بفتح الألف، وقرأ يحيى بن وثاب، ومنصور بن المعتمر: [تِئْلَمُون][1] في الثلاثة، وهي لغة، وهذا تشجيع لنفوس المؤمنين، وتحقير لأمر الكفرة، ومن نحو هذا المعنى قول الشاعر:

القـومُ أَمثـالُكُـم لهُـم شعـرٌ في الـرأس لا يُنْشَـرون إنْ قُتلـوا[2]

ثم تأكد التشجيع بقوله تعالىٰ: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾. وهذا برهان بيِّن، ينبغي بحسبه أن تقوى نفوس المؤمنين. وباقي الآية بيِّنٌ.

قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾.

في هذه الآية تشريف للنبي ﷺ، وتفويض إليه، وتقويم أيضاً على الجادة في الحكم، وتأنيبٌ مّا على قبول ما رفع إليه في أمر بني أبيرق بسرعة.

---

(١) أي: بكسر التاءِ.
(٢) البيت للشداخ بن يعمر الكناني. وقبله ـ كما رواه في (البحر المحيط):

قـاتلـوا القـوم بـأخـداع ولا يـأخُـذْكُـمُ مِـنْ قتـالهـمْ قَتَـل

وروي:

وقـاتلـي القـومَ يـا خُـزاعُ ولا يـدْخُلكُـم مِـنْ قتـالهـمْ فَشَـل

وقوله تعالىٰ: ﴿ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ معناه: على قوانين الشرع، إما بوحي ونصٍّ، أَو بنظر جار على سنن الوحي، وقد تضمن الله تعالىٰ لأنبيائه العصمة، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ سببها باتفاق من المتأَولين أَمر بني أُبيرق، وكانوا إِخوة: بِشْر، وبُشَيْر، ومُبَشر، وكان بُشير رجلاً منافقاً يهجو أَصحاب النبي ﷺ، وينحل الشعر غيره، فكان المسلمون يقولون: والله ما هو إلا شعر الخبيث، فقال شعراً يتنصَّل فيه، فمنه قوله:

أَفكُلَّمَـا قَـالَ الـرِّجَـالُ قَصِيـدَةً نُحِلَتْ وقالُوا ابْن الأُبيْرق قالها؟

قال قتادة بن النعمان: وكان بنو أُبيرق أَهل فاقة، فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملاً من دَرْمَك الشام[١]، فجعله في مشْرُبة[٢] له، وفي المشْرُبة درعان له وسيفان، فعدي على المشربة من الليل، فنقبت وأُخذ الطعام والسلاح، فلما أَصبح أَتاني عمي رفاعة فقال: يا بن أَخي، تعلم أَنه قد عدي علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مشرُبتنا، وذهب بطعامنا وسلاحنا، فقال: فَتَحَسَّسْنَا في الدار وسأَلنا، فقيل لنا. قد رأَينا بني أُبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نراه إلا على بعض طعامكم، قال: وقد كان بنو أُبيرق قالوا ـ ونحن نسأَل ـ: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل، رجل منا له صلاح وإِسلام، فسمع ذلك لبيد، فاخترط سيفه[٣]، ثم أَتى بني أُبيرق فقال: والله ليخالطنكم هذا السيف أَو لتُبَيِّنُن هذه السرقة، قالوا: إِليك عنا أَيها الرجل، فوالله ما أَنت بصاحبها[٤]، فسأَلنا في الدار حتى لم نشك أَنهم أَصحابها، فقال لي عمي: يا بن أَخي، لو أَتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بهذه القصة، فأَتيته عليه الصلاة والسلام فقصصتُها عليه، فقال: أَنظر في ذلك، فلما سمع بذلك بنو أُبيرق أَتوا رجلاً منهم يقال له: أسير بن عروة[٥] فكلموه في ذلك، واجتمع إِليه ناس من أَهل الدار، فأَتوا

---

(١) الدَّرْمَك: الدقيق الناعم. وهو هنا يقصد نوعاً معيناً يأْتي من الشام.

(٢) المشْرَبة: المكان يشرب منه، وهو بفتح الراءِ وضمها، والجمع: مشارب.

(٣) اخترط سيفه: استَلَّه من غمده.

(٤) أَي: بصاحب الحادثة، أو السرقة.

(٥) قال القرطبي في تفسيره: ابن عم لهم. يعني لبني أُبيرق. وكان أَسيرُ هذا مسلماً، ومنذ ذلك الوقت اتهم بالنفاق، قال ابن إِسحق: وفيه نزلت: ﴿ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾. (عن الاستيعاب: ١ ـ ١٠٠).

رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أَهل بيت منا أَهل إِسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة عن غير بينة، قال قتادة: فأَتيت رسول الله ﷺ فكلمته، فقال: عمدت إلى أَهل بيت ذكر منهم إِسلام وصلاح فرميتهم بالسرقة عن غير بينة، قال: فرجعت وقد وددت أَن أَخرج عن بعض مالي، ولم أُكلمه، فأَتيت عمي فقال: ما صنعت؟ فأَخبرته بما قال رسول الله ﷺ فقال: الله المستعان، فلم نلبث أَن نزل القرآن: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآيات، فالخائنون: بنو أُبيرق، والبريءُ المرمي: لبيد بن سهل، والطائفة التي همتْ: أسير وأَصحابه.

وقال قتادة، وغير واحد من المتأولين هذه القصة إنما كان صاحبها طعمة بن أُبيرق، ويقال فيه طُعَيْمَة، وقال السدي: القصة في طعمة بن أُبيرق ولكن بأَن استودعه يهودي درعاً. فجحده إِياها، وخانه فيها، وطرحها في دار أَبي مُليْك الأَنصاري[1]، وأَراد أَن يرميه بسرقتها لما افتضح، وأَبو مُليك هو البريءُ المشار إِليه، وقال عكرمة: سرق طعمة بن أُبيرق درعاً من مشرَبة، ورمى بسرقتها رجلاً من اليهود يقال له: زيد بن السمين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وجملة هذا يستدير على أن قوم طعمة أَتوا النبي ﷺ وكلموه في أَن يذب عن طعمة، ويرفع الدعوة عنه، ودفعوا هم عنه، ومنهم من يعلم أَنه سرق، فكانت هذه معصية من مُؤْمنهم، وخلق[2] مقصود من منافقيهم، فعصم الله رسوله من ذلك، ونبَّه على مقالة قتادة بن النعمان بقوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾.

---

(١) قال في الإصابة (١٢ ـ ٢٨): أبو مليك هو: سُلَيك بن الأغر، مذكور في الصحابة، كذا ذكره ابن عبد البر مختصراً، وأنا أخشى أن يكون هو الذي بعده وقع فيه تصحيف وتحريف» والذي بعده هو: أبو مُلَيْل ـ بلامَيْن ـ الأنصاري، ذكره ابن إسحاق وغيره فيمن شهد بدراً، وقال ابن فتحون: إنهما واحد. ١ هـ، والثابت في الأصول: أبو مُلَيك. وفي بعضها: أبو مُلَيْكَة. وكذلك هو في (البحر المحيط).

(٢) هكذا في الأصول، والصواب أن تكون: (وخلقاً)، لأنها معطوفة على: (معصية) خبر (كان)، اللهم إلا إذا قدرناها خبراً لمبتدأ محذوف، أي: وهي خلق، ومعناها: اختلاق وافتراء، أو لعلها من سهو النساخ، والله أعلم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وطُعمة بن أُبيرق صرح بعد ذلك بالارتداد، وهرب إِلى مكة ونزل على سلافة(١)، فرماها حسَّان بن ثابت بشعر، فأَخذت رحل طعمة ورمت به في الأَبطح، وقالت: اخرج عنا، أَهديت إليَّ شعر حسان، فروي أَنه نزل على الحجاج بن علاط وسرقه فطرده، وروي أَنه نقب حائط بيْت ليسرقه فانهدم الحائط عليه فقتله، وروي أَنه اتبع قوماً من العرب فسرقهم فقتلوه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ﴾ ذهب الطبري إِلى أَن المعنى: استغفر الله من ذنبك في خصامك للخائنين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ليس بذنب، لأَن النبي ﷺ إِنما دافع عن الظاهر، وهو يعتقد براءَتهم، والمعنى: استغفر للمذنبين من أُمتك، والمتخاصمين في الباطل، لا أَن تكون ذا جدال عنهم، فهذا حدُّك، ومحلك من الناس أَن تسمع من المتداعيين، وتقضي بنحو ما تسمع، وتستغفر للمذنب(٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ﴾ لفظ عام يندرج طيه أَصحاب النازلة، ويتقرر به توبيخهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ رفقٌ وإِبقاءٌ، فإِن الخوان هوالذي تتكرر منه الخيانة، والأَثيم هوالذي يقصدها، فيخرج من هذا التشديد الساقط مرةً واحدة، ونحو ذلك مما يجيءُ من الخيانة من غير قصد أَو على غفلة، واختيان الأَنفس هو بما يعود عليها من الإِثم والعقوبة في الدنيا والآخرة.

---

(١) اسمها: سلافة (بضم السين) بنت سعد بن شهيد، ومن شعر حسان فيها قوله:

وقَد أَنْزَلَتْه بنتُ سعْد وأَصْبَحَتْ ... ينازِعُها جلْد اسْتِها وتنازِعُه
ظَنَنْتُم بأَن يخفى الَّذي قد صَنَعْتُم ... وفينا نبيٌّ عِنْدَهُ الوحْيُ واضِعُه

(٢) وقيل: هو أمر بالاستغفار على طريق التسبيح، كالرجل يقول: أستغفر الله على طريق التسبيح دون أن يقصد توبة من ذنب.

قوله تعالىٰ:

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾.

الضمير في: ﴿ يَسْتَخْفُونَ ﴾ للصنف المرتكب للمعاصي مستترين بذلك عن الناس، مباهتين لهم، واندرج في طيِّ هذا العموم ودخل تحت هذه الأنحاءِ أهل الخيانة في النازلة المذكورة، وأَهل التعصب لهم والتدبير في خدع النبي ﷺ والتَّلْبيس عليه. ويحتمل أَن يكون الضمير لأَهل النازلة، ويدخل في معنى هذا التوبيخ كلُّ من فعل نحو فعلهم.

ومعنى ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ بالإِحاطة والعلم والقدرة، و﴿ يُبَيِّتُونَ ﴾ يدبرون ليلاً، انطلقت العبارة على كل استسرار بهذا، إِذ الليل مظِنَّةُ الاستتار والاختفاءِ. قال الطبري: وزعم بعض الطائيين أَن التَّبْييتَ في لغتهم: التبدُّل، وأَنشد للأَسود بن عامر بن حوين الطائي:

وبَيَّتَ قَوْلِيَ عنْدَ المليـ ـكِ قَاتَلَكَ اللهُ عَبْداً كنودا

وقال أَبو زيد: ﴿ يُبَيِّتُونَ ﴾ معناه: يؤلفون، ويحتمل أَن تكون اللفظة مأْخوذة من البيت، أَي: يستسرون في تدبيرهم بالجدران.

وقوله تعالىٰ: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ قد تقدمت وجوه القراءَات فيه في سورة آل عمران، والخطاب بهذه الآية للقوم الذين يتعصبون لأَهل الريب والمعاصي، ويندرج طي هذا العموم أَهل النازلة، ويحتمل أَن يكون الخطاب لأَهل التعصب في هذه النازلة، وهو الأَظهر عندي بحكم التأْكد بـ ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ وهي إِشارة إِلى حاضرين ـ وقد تقدم إِعراب مثل هذه الآية في سورة آل عمران.

والمجادلة: المدافعة بالقول، وهي من فَتْل الكلام وليِّه، إِذ الجدل: الفَتل[1]،

---

(١) ومنه: رجل مجدول الخَلْق بمعنى: لطيف محكم الفتل ـ وقيل: المجادلة من الجدالة، وهي وجه الأرض، فكل واحد من الخصمين يريد أن يلقي صاحبه عليها، قال العجاج: =

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يُجَادِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ وعيد محض، أي أن الله يعلم حقيقة الأمر، فلا يمكن أن يلبس عليه بجدالٍ ولا بغيره، كما فعلتم بالنبي ﷺ، إذ هو بشر يقضي على نحو ما يسمع.

ولما تمكن هذا الوعيد، وقضت العقول بألا مجادل لله، ولا وكيل يقوم بأُمور العصاة عنده ـ عقب ذلك هذا الرجاء العظيم، والمهل المنفسخ بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ الآية، قوله: ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ منحى من عمل السوءِ وهما بمعنى واحد يكرر باختلاف لفظٍ مبالغةً، واستغفارُ الله تعالىٰ مع التحقيق في ذلك توبةٌ.

وقوله: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ﴾ استعارة، لما كانت الرحمة والغفران مُعَدة للمستغفرين التائبين كانوا كالواجدين لمطلوب، وكأن التوبة ورود على رحمة الله، وقربٌ من الله، وقال عبد الله بن مسعود يوماً في مجلسه: كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدُهم ذنباً أَصبح وقد كتبت كفارة ذلك الذنب على بابه، وإذا أَصاب البول شيئاً من ثيابه قرضه بالمقراض، فقال رجل من القوم: لقد أَتى الله بني إسرائيل خيراً. فقال عبد الله: ما آتاكم الله خيرٌ مما آتاهم، جعل لكم الماءَ طهوراً، وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ الآية، وهذه آية وعد بشرط المشيئة على ما تقتضيه عقيدة أَهل السنة، وفضل الله مرجو، وهو المستعان(١).

= قد أركبُ الحالَةَ بعْد الحالَة ... وأترُكُ العاجزَ بالجدالة
مُنْعَفِراً ليس له محالة

فالجدالة: الأرض، ومن ذلك قولهم: تركته مجدَّلاً، أي: مطروحاً على الجدالة.

(١) قال الضحاك: نزلت الآية في وحشي قاتل حمزة، أشرك بالله وقتل حمزة، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: إني لنادم، فهل لي من توبة؟ فنزل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ الآية، وقيل: المراد بهذه الآية العموم والشمول لجميع الخلق، وروى سفيان عن أبي إسحاق عن الأسود وعلقمة قالا: قال عبد الله بن مسعود: من قرأ هاتين الآيتين من سورة النساء ثم استغفر الله غفر له: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾. وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «كنت إذا سمعت حديثاً من رسول الله ﷺ نفعني الله به ما شاء، وإذا سمعته من غيره خالفته، وحدثني أبو بكر، وصدق أبو بكر رضي الله عنه: ما من عَبْدٍ يذنب ذنباً، ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ويستغفر الله إلا غفر له، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾». (راجع القرطبي).

قوله تعالىٰ:

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾.

تقدم القول في معنى الكسب، والإثم: الحكم اللاحق على المعصية، ونسبة المرءِ إلى العقوبة فيها، وقوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ أي: إياها يُردي، وبها يُحل المكروه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ﴾ ذهب بعض الناس إلى أنهما لفظان بمعنى، كرر لاختلاف اللفظ، وقال الطبري: إنما فرق بين الخطيئة والإِثم أَن الخطيئة تكون عن عمد، وعن غير عمد، والإِثم لا يكون إلا عن عمد. وهذه الآية لفظها عام، ويندرج تحت ذلك العموم ويتجه أَهل النازلة المذكورة، وبريءُ النازلة ـ قيل: هو لبيد بن سهل، وقيل: هو زيد بن السمين اليهودي، وقيل أَبو مليك الأَنصاري. وقوله تعالىٰ: ﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلَ ﴾ تشبيه، إذ الذنوب ثقل ووزر، فهي كالمحمولات. و﴿ بُهْتَـٰنًا ﴾ معناه: كذباً على البريء، ومنه قول النبي ﷺ: «إذا قلت في أَخيك ما فيه مما يكره سماعه فقد اغتبته، فإِن قلت ما ليس فيه فقد بَهَتَّه»[١]. فَرَمْيُ البريءِ بهْتٌ له، ونفس الخطيئة والإِثم إِثمٌ مبين، ومعصية هذا الرمي معصيتان.

ثم وقف الله تعالىٰ نبيه على هذا، وعصمتِه له، وأَنها بفضل من الله ورحمة، وقوله: ﴿ لَهَمَّت ﴾ معناه: لجعلته همَّها وشغلها حتى تنفذه[٢]، وهذا يدل على أَن الأَلفاظ عامة في غير أَهل النازلة، وإِلا فأَهل التعصب لبني أُبيرق قد وقع همهم وثبت، وإِنما المعنى: ولولا عصمة الله لك لكان في الناس من يشتغل بإِضلالك، ويَجْعَلُه هَمَّ نفسه، أَي: كما فعل هؤلاءِ، لكن العصمة تبطل كيْد الجميع فيبقى الضلال في حيِّزهم.

---

(١) رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، عن أبي هريرة، قال في «الترغيب والترهيب»: روي من طرق كثيرة عن جماعة من الصحابة.

(٢) في بعض الأصول: «حتى تبعده»، فتأمل، وقد نقله في (البحر) عن ابن عطية بلفظ: «حتى تنفذه».

ثم ضَمَّن وعْد الله له أَنهم لا يضرونه شيئاً ، وقرر عليه نعمه ، من إنزال الكتاب المتْلُوّ ، والحكمة التي بعضها خوطب به ، وبعضها جعلت له سجيةً مَلَكها ، وقريحة يعمل عنها ، وينظر بين الناس بها ، لا ينطق عن الهوى ، وبهذين علَّمه ما لم يكن يعلم ، وباقي الآية بيِّن.

قوله تعالىٰ:

﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾.

الضمير في ﴿ نَّجْوَىٰهُمْ ﴾ عائد على الناس أَجمع وجاءَت هذه الآيات عامة التناول ، وفي عمومها يندرج أَصحاب النازلة ، وهذا من الفصاحة والإِيجاز المضمن الماضي والمغاير في عبارة واحدة.

والنجوى: المسارة ، مصدر ، وقد تسمى به الجماعة ، كما يقال: قوم عدلٌ ورضاً[1] ، وتحتمل اللفظة في هذه الآية أَن تكون الجماعة ، وأَن تكون المصدر نفسه ، فإِن قدرناها الجماعة فالاستثناءُ متصل ، كأَنه قال: لا خير في كثير من جماعاتهم المنفردة المتسارة إِلا مَنْ. وإِن قدرنا اللفظة المصدر نفسه فكأَنه قال: لا خير في كثير من تناجيهم ، فالاستثناءُ منقطع بحكم اللفظ ، ويقدر اتصاله على حذف مضاف. كأَنه قال: إِلا نجوى مَنْ. قال بعض المفسرين: النجوى: كلام الجماعة المنفردة كان ذلك سراً أَو جهراً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

انفراد الجماعة من الاستسرار ، والغرض المقصود أَن النجوى ليست بمقصورة على الهمس في الأُذن ونحوه.

---

(١) تقول: ناجيت فلاناً مناجاة ونجاء ، ونجوت فلاناً أَنجوه نجوا: ناجيته ، فنجوى مشتقة من نجوت الشيء أنجوه ، أي: خلَّصته وأفردته ، والنجوة من الأرض: المرتفع ، لانفراده بارتفاعه عما حوله ، قال الشاعر أوس بن حجر:

فَمَـنْ بِنَجْـوَتِـهِ كَمَـنْ بِعَقْـوَتِـهِ وَالمُسْتَكِـنُّ كَمَـنْ يَمْشِـي بِقِـرْواح

والعقوة: الساحة وما حول الدار ، والقرواح: البارز الذي لا يستره من السماء شيء.

والمعروف: لفظ يعم الصدقة والإصلاح، ولكن خُصَّا بالذكر اهتماماً بهما، إذ هما عظيما الغَناءِ في مصالح العباد، ثم وعد الله تعالىٰ بالأَجر العظيم على فعل هذه الخيرات بنيَّةٍ وقصدٍ لرضا الله تعالىٰ. و﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ نصب على المصدر. وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، والكسائي: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ بالنون، وقرأ أَبو عمرو، وحمزة [يُؤْتيه] بالياءِ، والقراءَتان حسنتان.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ الآية. لفظ عام نزل بسبب طعمة بن أُبيرق، لأَنه ارْتَدَّ وسارَ إِلى مكة، فاندرج الإنحاءُ عليه في طيٍّ هذا العموم المتناول لمن اتصف بهذه الصفات إلى يوم القيامة. وقوله: ﴿مَا تَوَلَّىٰ﴾ وعيد بأَن يُترك مع فاسد اختياره في تولي الطاغوت، وقرأ ابن أَبي عبلة: [يُوَلِّه] [ويُصْلِهِ] بالياءِ فيهما.

ثم أَوجب تعالىٰ أَنه لا يغفر أَن يُشرك به، وقد مضى تفسير مثل هذه الآية وما يتصل بها من المعتقد. والبعد في صفة الضَّلال مُقتضٍ بُعد الرجوعِ إِلى المحجةِ البيضاءِ وتعذُّره[1] وإِن بقي غير مستحيل.

قوله تعالىٰ:

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾.

الضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ عائد على من تقدم ذكره من الكفرة في قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾، و﴿إِن﴾ نافية بمعنى (ما)، و﴿يَدْعُونَ﴾ عبارة مغنية موجزة في معنى: يعبدون، ويتخذون آلهة. وقرأ أَبو رجاءِ العطاردي: [إِن تَدْعون] بالتاءِ، فقال أَبو مالك، والسدي، وغيرهما: ذلك لأَن العرب كانت تسمي أَصنامها بأَسماءِ مؤَنَّثة، كاللات، والعزى، ومناة، ونائلة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويردُّ على هذا أَنها كانت تسمى بأَسماءِ مذكرة كثيرة، وقال الضحاك وغيره: المراد: ما كانت العرب تعتقده من تأْنيث الملائكة وعبادتهم إِياها، فقيل لهم هذا على

(١) في بعض النسخ: وتقديره.

جهة إقامة الحجة من فاسد قولهم. وقال ابن عباس، والحسن، وقتادة: المراد: الخشب والحجارة وهي مؤنثات لا تعقل، فيخبر عنها كما يخبر عن المؤنث من الأشياءِ، فيجيءُ قوله: ﴿إِلَّآ إِنَـٰثًا﴾ عبارة عن الجمادات، وقيل: إنما هذا لأن العرب كانت تسمي الصنم أُنثى فتقول: أُنثى بني فلان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا على اختلافه يقضي بتعييرهم بالتأنيث، وأن التأنيث نقص وخساسة بالإضافة إلى التذكير. وقيل: معنى ﴿إِنَـٰثًا﴾: أوثاناً. وفي مصحف عائشة رضي الله عنها: [إنْ يدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إلا أَوْثَاناً]، وقرأ ابن عباس فيما روى عنه أبو صالح: [إلا أُنثا] يريد: وثناً، فأبدل الهمزة واواً. وهو جمع جمع على ما حكى بعض الناس، كأنه جمع وثَناً على وِثان، كَجَمَلٍ وجِمال، ثم جمع وِثَاناً على وُثُن، كرِهَانٍ ورُهُن، وكمِثَال ومُثُل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا خطأٌ، لأن فِعالاً في جمع فَعَل إنما هو للتكثير، والجمع الذي هو للتكثير لا يُجمع، إنما تُجمع جموع التقليل، والصواب أن تقول: وُثُنٌ جمع وَثَن دون واسطة كأُسُد وأَسَد، قال أبو عمرو: وبهذا قرأ ابن عمر، وسعيد بن المسيب، ومسلم بن جندب، وعطاء. وروي عن ابن عباس أنه قرأ: [إلاَّ وَثَناً] بفتح الواو والثاء على إفراد اسم الجنس، وقرأ ابن عباس أيضاً: [وُثُناً] بضم الواو والثاء، وقرأت فرقة: [إلا وُثْناً]، وقرأت فرقة: [إلا أُثْنا] بسكون الثاءِ، وقرأ النبي ﷺ: [إلاَّ أُنُثاً] بتقديم النُّون، وهو جمع أَنيث، كغدير وغُدُر ونحو ذلك، وحكى الطبري أنه جمع إناث، وكثِمَارٍ وثُمر. وحكى هذه القراءَة عن النبي ﷺ أبو عمر الداني، قال: وقرأ بها ابن عباس، وأبو حيوة، والحسن.

واختلف في المعني بالشيطان ـ فقالت فرقة: هو الشيطان المقترن بكل صنم، فكأنه موحَّد باللفظ جمْع بالمعنى، لأن الواحد يدل على الجنس. وقال الجمهور: المراد: إبليس، وهذا هو الصواب، لأن سائر المقالة به تليق، و﴿مَّرِيدًا﴾ معناه: عاتياً صليباً في غوايته، وهو فعيل من: مَرَدَ إذا عَتَا وغَلا في انحرافه وتجرد للشر والغواية.

وأَصل اللَّعْن: الإبعاد، وهو في العرف: إبعادٌ مقترنٌ بسخط وغضب، ويحتمل أَن يكون ﴿ لَّعَنَهُ﴾ صفة الشيطان، ويحتمل أَن يكون خبراً عنه، والمعنى يتقارب على الوجهين.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ﴾ الآية، التقدير: وقال الشيطان، والمعنى: لأَستخْلِصنَّهم لغوايتي، ولأَخُصَّنَّهم بإِضلالي، وهم الكفرة والعُصاة.

والمفروض: معناه ـ في هذا الموضع ـ: المنحاز، وهو مأْخوذ من الفرض، وهو الحزُّ في العود وغيره، ويحتمل أَن يريد: واجباً أَن أَتَّخذه، وبعث النار: هو نصيب إِبليس[1].

قوله تعالىٰ:

﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ معناه: أَصرفهم عن طريق الهدى، و﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾: لأُسَوِّلَنَّ لَهُم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا لا ينحصر إِلى نوع واحد من الأُمنية، لأَن كل واحد في نفسه إِنما تمنيه بقدر نسبته وقرائن حاله، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الشيطان يقول لمن يركب ولا يذكر الله: تغن، فإن لم يحسن قال له: تمن»[2]. واللامات كلها للقسم.

---

(١) قال القرطبي: «وهذا صحيح معنىً، يَعْضُده قوله تعالىٰ لآدم يوم القيامة: (ابعث بعث النار، فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين) أخرجه مسلم، وبعث النار: هونصيب الشيطان، والله أعلم» اهـ. وعبارة ابن عطية هنا تشير إلى هذا الحديث الذي نقله القرطبي عن مسلم.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى، والطبراني في الكبير عن ابن مسعود.

والبَتْكُ: القطع[١]، وكثر الفعل إذ القطع كثير على أَنحاء مختلفة، وإنما كنى سبحانه وتعالىٰ عن البحيرة والسائبة ونحوه مما كانوا يثبتون فيه حكماً بسبب آلهتهم، وبغير ذلك[٢]. وقرأ أَبو عمرو بن العلاء: [وَلامُرَنَّهم] بغير أَلف وقرأَ أُبي: [وَأُضِلَّهم وأُمَنِّيهم وآمرهُم].

واختُلف في معنى تغيير خلق الله ـ فقال ابن عباس، وإبراهيم، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغيرهم: أَراد: يغيرون دين الله، وذهبوا في ذلك إلى الاحتجاج بقوله تعالىٰ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[٣]، أَي: لدين الله والتبديل يقعَ موضعه التغيير، وإن كان التغيير أَعم منه. وقالت فرقة: تغيير خلق الله هو أَن الله تعالىٰ خلق الشمس والنهار والحجارة وغيرها من المخلوقات ليعتبر بها وينتفع بها فغيرها الكفار بأَن جعلوها آلهة معبودة، وقال ابن عباس أَيضاً، وأَنس، وعكرمة، وأَبو صالح: من تغيير خلق الله الإخصاءُ، والآية إشارة إلى إخصاء البهائم وما شاكله، فهي عندهم أَشياء ممنوعة، ورَخَّص في إخصاء البهائمَ جماعةٌ إذا قُصدت به المنفعة، إما السِّمن أَو غيره، وخصها عمر بن عبد العزيز في الخيل، وقال ابن مسعود، والحسن: هي إشارة إلى الوشم وما جرى مجراه من التَّصَنُّع لِلْحُسْن، فمن ذلك الحديثُ: لعَن رسول الله ﷺ الواشمات والموشومات، والمتَنَمِّصات، والمتَفَلِّجات المُغَيِّرات خَلْقَ الله»[٤]، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لَعَنَ الله الواصلة والمستوصلة»[٥]. وملاكُ تفسير هذه الآية

(١) ومنه: سيف باتك، أي: قاطع، يقال: بتكه وبتَّكه مخففاً ومشدَّداً، وفي يده بِتْكة، أي: قطعة، والجمع: بِتَكٌ ـ قال زهير:

حَتَّـى إذا مـا هَـوَتْ كـفُّ الْـوَلِيـد لَهـا طـارَتْ وفـي كَفِّـه مِـنْ ريشهـا بِتَـكُ

(٢) كانوا يشقون أُذني الناقة إذا ولدت خمسة أبطن، وجاء الخامس ذكراً، ويحرمون على أنفسهم الانتفاع بها، ولا يمنعونها من مرعى ولا ماء، وقد حرَّم الإسلام ذلك، وسيأتي تفسير أوضح له عند قوله تعالىٰ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾.

(٣) الروم: ٣٠.

(٤) أخرجه ابن جرير عن ابن مسعود، وأخرجه مسلم عن عبد الله. والوشم: غرز الجلد بإبرة، ثم ذر النِّيلَج عليه حتى يزرق أثره، ومعنى: تَنَمَّصت المرأة: نتفت شعر جبينها بخيط، والمرأة المتَفَلِّجَة: هي التي تُفَرق بين أسنانها للزينة.

(٥) أخرج أحمد، والبخاري، ومسلم عن عائشة أن جارية من الأنصار تزوجت، وأنها مرضت، فتمعط شعرها، فأرادوا أن يصلوها، فسألوا النبي ﷺ فقال: «لعن الله الواصلة والمستوصلة» ـ (الدر المنثور)=

أَن كل تغيير ضار فهو في الآية ، وكل تغيير نافع فهو مباح.

ولما ذكر الله تعالىٰ عُتوَّ الشيطان وما توعد به من بث مَكْرِهِ ، حذَّره تبارك وتعالىٰ عبادَه ، بأَن شرط لمن يتخذه ولياً جزاءَ الخسران ، وتصوُّر الخسران إنما هو بأَن أَخذ هذا المتخذ حظ الشيطان ، فكأَنه أُعطي حظ الله تبارك وتعالىٰ فيه وتركه من أَجله.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ ، يعدهم بأَباطيله من المال والجاه ، وأَن لا بعث ولا عقاب ونحو ذلك ، لكل أَحد ما يليق بحاله ، ويمنيهم كذلك ، ثم ابتدأَ تعالىٰ الخبر عن حقيقة ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

ثم أَخبر تعالىٰ بمصير المتخذين الشيطان ولياً ، وتوعدهم بأَن مأْواهم جهنم ، لا يدافعونها بحيلة ، ولا يعدلون عنها ولا ينحرفون ولا يتروغون ، والمَحيص: مفعول من: حاصَ إِذا راغ ونفر ، ومنه قول الشاعر:

وَلَمْ أَدْرِ إِنْ حِصْنَا مِنَ المَوْت حَيْصَةً ... كَم العُمْرُ باقٍ والْمَدَى مُتَطَاوِلُ[1]

ومنه الحديث: «فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب» ، وجاض (بالجيم والضَّاد المنقوطة) إذا راغ بنفور ، ولغة القرآن الحاءُ والصاد غير منقوطة[2].

ولما أَخبر تعالىٰ عن الكفار الذين يتخذون الشيطان وليّاً ، وأَعلم بغرور وعد الشيطان لهم ، وأَعلم بصَيُّور[3] أَمرهم ، وأَنه إِلى جهنم ، فاقتضى ذلك كله التحذير ـ أَعقب ذلك ـ عزَّ وجلَّ[4] ـ بالترغيب في ذكر حالة المؤمنين ، وأَعلم بِصَيُّور أَمرهم ،

= والواصلة: هي التي تضيف إلى شعرها شعراً آخر فيكثر به ، والمستوصلة: هي التي تستدعي من يفعل ذلك بها.

(١) البيت لجعفر بن علبة الحارثي ، وفي رواية الحماسة:
ولَـمْ نَـدْرِ إن جِضْنـا مـن المـوت جيضَـةً ... .
بنون الجمع ـ وبالجيم والضاد ، والمعنى ـ على هذا ـ هو ما شرحه ابن عطية ، وقال بعده: إن لغة القرآن بالصاد والحاء.

(٢) الحيْصُ: الحَيْد عن الشيء ، ويقال: ما عنه محيص ، أي: مَحيد ومَهْرب ، قال في اللسان: «وفي حديث يرويه ابن عمر رضي الله عنه أنه ذكر قتالاً وأمراً: فحاص المسلمون حَيْصَة ، ويُرْوى: فجاض جَيْضة ، معناهما واحد ـ وفي حديث أنس: لما كان يوم أُحد حاص المسلمون حيصة ، قالوا: قُتل محمد» اهـ. (حَيَصَ).

(٣) الصَّيُّور: منتهى الأمر وعاقبته. (المعجم الوسيط).

(٤) في بعض النسخ: «أَعقب ذلك (الوجل) بالترغيب».

وأنه إلى النعيم المقيم ، وأعلم بصحة وعده تعالىٰ لهم ، ثم قرر ذلك بالتوقيف عليه في قوله: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ . والقيل والقَول واحد. ونصبه على التمييز.

وقرأت فرقة: ﴿ سَنُدْخِلُهُمْ ﴾ بالنون. وقرأت فرقة: [سَيُدْخِلُهم] بالياءِ ، و﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ نصب على المصدر ، و﴿ حَقًّا ﴾ مصدر أيضاً مُؤَكِّدٌ لما قبله.

قوله تعالىٰ:

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ .

اسم ﴿ لَّيْسَ ﴾ مضمر[1] ، والأَماني جمع أُمنوية وزنها أُفعولة ، وهي: ما يتشهّاه المرءُ ويُطمع نفسه فيه ، وتجمع على فعاليل فتجتمع ياءَان ، فلذلك تدغم إِحداهما في الأُخرى فتجيءُ مُشَدَّدة وهي قراءَة الجمهور ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن ، وأَبو جعفر بن القعقاع ، وشيبة بن نصاح ، والحكم ، والأَعرج: [لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ] ساكنة الياء ، وكذلك في الثانية[2] ، قال الفراءُ: هذا جمع على فعاليل كما يقال: قراقير وقراقر إلى غير ذلك.

اختلف الناس فيمن المخاطب بهذه الآية؟ فقال ابن عباس ، والضحاك ، وأَبو صالح ، ومسروق ، وقتادة ، والسدي ، وغيرهم: الخطاب لأُمة محمد ﷺ ، قال بعضهم: سبب الآية أَن المؤمنين اختلفوا مع قوم من أَهل الكتاب ، فقال أَهل الكتاب: ديننا أَقدم من دينكم وأَفضل ، ونبينا قبل نبيكم ، فنحن أَفضل منكم ، وقال المؤمنون: كتابنا يقضي على الكتب ، ونبينا خاتم النبيين ، أَو نحو هذا من المحاورة ، فنزلت الآية. وقال مجاهد وابن زيد: بل الخطاب لكفار قريش ، وذلك أَنهم قالوا: لن نبعث ، ولا نعذب ، وإِنما هي حياتنا الدنيا ، ولنا فيها النعيم ثم

(١) على معنى: ليس الثواب على الحسنات ، ولا العقاب على السيئات بأمانيكم ، لأن الاستحقاق إنما يكون بالعمل لا بالأماني. قاله في (البحر المحيط).

(٢) يعني بها قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ .

لا عذاب، وقالت اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه، إلى نحو هذا من الأقوال، كقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾[١]، فرد الله تعالىٰ على الفريقين: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾، ثم ابتدأ الخبر الصادق بقوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، وجاءَ هذا اللفظ عاماً في كل سوءٍ فاندرج تحت عمومه الفريقان المذكوران.

واختلف المتأولون في تعميم لفظ هذا الخبر ـ فقال الحسن بن أبي الحسن: هذه الآية في الكافر، وقرأ: ﴿وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾[٢]، وقال: والآية يعني بها الكفار، ولا يعني بها أهل الصلاة، وقال: والله ما جازىٰ الله أحداً بالخير الشر إلا عذبه، ولكنه يغفر ذنوب المؤمنين، وقال ابن زيد في قوله تعالىٰ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾: وعد الله المؤمنين أن يُكَفِّر عنهم سَيِّئاتهم ولم يَعد أولئك، يعني المشركين، وقال الضحاك: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ يعني بذلك: اليهود والنصارى والمجوس وكفار العرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا تخصيص للفظ الآية، ورأي هؤلاءِ أن الكافر يجزى على كل سوءٍ يعمله، وأن المؤمن قد وعده الله تكفير سَيِّئَاتِهِ. وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير: قوله تعالىٰ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ معناه: مَنْ يَكُ مُشْرِكاً، والسوءُ هنا: الشرك، فهوتخصيص لعموم اللفظ من جهة أُخرى، ولأن أُولئك خصَّصُوا لفظ ﴿مَن﴾، وهذان خَصَّصا لفظ (السوءِ). وقال جمهور الناس: لفظ الآية عامٌ، والكافر والمؤمن مجازى بالسوء يعمله، فأَما مجازاة الكافر فالنار، لأَن كفره أَوبقه، وأَما المؤمن فبنكبات الدنيا. قال أَبو بكر الصديق رضي الله عنه: لما نزلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ قلت: يا رسول الله ـ ما أَشد هذه الآية، فقال: «يا أبا أبكر، أَما تحزن؟ أَما تمرض؟ أما تصيبك اللأواء؟ فهذا بذلك»[٣]، وقال عطاءُ بن أَبي رباح: لما نزلت هذه الآية قال

---

(١) البقرة: ١١١.

(٢) من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

(٣) أخرج أَحمد، وهناد، وعبد بن حميد، والحكيم، والترمذي، وابن جرير، وأَبو يعلى، وابن المنذر، وابن حبان، وابن السني في عمل اليوم والليلة، والحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان، والضياء في المختارة، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، كيف =

أَبو بكر: جاءَت قاصمة الظهر ، فقال النبي ﷺ: «إنما هي المصيبات في الدنيا»[١]. وقالت بمثل هذا التأْويل عائشة رضي الله عنها[٢] ، وقال أُبي بن كعب ـ وسأَله الربيع بن زياد عن معنى الآية وكأَنه خافها ـ فقال له أُبي: ما كنت أَظنك إلا أَفقه مما أَرى ، ما يصيب الرجل خدش ولا غيره إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أَكثر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالعقيدة في هذا أَن الكافر مجازى ، والمؤمن يجازى في الدنيا غالباً ، فمن بقي له سوءٌ إلى الآخرة فهو في المشيئة ، يغفر الله لمن يشاءُ ، ويجازي من يشاءُ.

وقرأَ الجمهور: ﴿وَلَا يَجِدْ﴾ بالجزم عطفاً على: ﴿يُجْزَ﴾ ، وروى ابن بكار عن ابن عامر: [ولا يَجِدُ] بالرفع على القطع ، وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لفظة تقتضي عدم المذكور بعدها من النازلة ، ويفسرها بعض المفسرين بـ (غير) ، وهو تفسير لا يطرد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ دخلت ﴿مِنَ﴾ للتبعيض ، إذ الصالحات على الكمال مما لا يطيقه البشر ، ففي هذا رفق بالعباد ، لكن في هذا البعض الفرائض ، وما أَمكن من المندوب إليه ، ثم قيد الأمر بالإيمان إذ لا ينفع عمل دونه ، وحكى الطبري عن قوم أَن ﴿مِن﴾ زائدة ، وضعَّفه كما هو ضعيف. وقرأَ نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي: ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ بفتح الياء وضم الخاء ، وكذلك حيث جاءَ من القرآن ، وروي مثل هذا عن عاصم ، وقرأَ أَبو عمرو في هذه الآية ، وفي (مريم) و(الملائكة) ، وفي (المؤمن)[٣]: [يُدْخَلُون] بضم الياءِ وفتح الخاءِ ، وقرأَ

= الصلاح بعد هذه الآية ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾؟ فكل سوء جزينا به؟ فقال النبي ﷺ: «غفَرَ الله لك يا أبا بكر. أَلَسْتَ تَنْصَب؟ أَلَسْتَ تمرض؟ أَلَسْتَ تحزن؟ أَلَسْتَ تُصِيبك اللأواءُ؟» قال: بلى ، قال: «فهو ما تجزون به» ـ (الدر المنثور ٢ ـ ٢٢٦).

واللأواء: الشدة والمحنة.

(١) أخرجه ابن جرير عن عطاء بن رباح.

(٢) أخرج سعيد بن منصور ، وأحمد ، والبخاري في تاريخه ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً تلا هذه الآية: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ فقال: إنا لنجزى بكل ما عملناه؟ هلكنا إذاً ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «نعم. يُجزى به المؤمن في الدنيا في نفسه ، في جسده ، فيما يؤذيه». (الدر المنثور).

(٣) أما في مريم ففي قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٠] ، =

بفتح الياءِ من ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[(١)].

والنقير: النكتة التي في ظهر نواة التمرة، ومنه تنبت، وروى عاصم: النقير ما تنقره بإصبعك، وهذا كله مثال للحقير اليسير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهنا كمل الر د على أهل الأماني والإخبار بحقيقة الأمر.

ثم أخبر تعالىٰ إخباراً موافقاً على أنه لا أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله، أي: أخلص مقصده وتوجُّهَه، وأحسن في أعماله، واتبع الحنيفية التي هي مِلَّة إبراهيم، إمام العالم، وقدوة أهل الأديان، ثم لما ذكر الله تعالىٰ إبراهيم بأنه الذي يجب اتباعه شرَّفه بذكر الخُلَّة، وإبراهيم ﷺ سماه الله خليلاً إذ كان خلوصه وعبادته واجتهاده على الغاية التي يجري إليها المحب المبالغ، وكان لطف الله به، ورحمته ونصرتُه له، بحسب ذلك.

وذهب قوم إلى أن إبراهيم سُمِّي خليلاً من الخَلَّة، بفتح الخاءِ، أي: لأنه أنزل خَلَّته وفاقته بالله تعالىٰ، وقال قوم: سُمي خليلاً لأنه ـ فيما روي في الحديث ـ جاءَ مِن عند خليل كان له بمصر، وقد حرمه الميرة التي قصد لها، فلما قرب من منزله ملأَ غرارتيه رملاً ليتأنَّس بذلك صِبيته، فلما دخل منزله نام كلالاً وهماً، فقامت امرأته وفتحت الغرارة فوجدت أحسن ما يكون من الحوارى، فعجنت منه، فلما انتبه قال: ما هذا؟ قالت: من الدقيق الذي سقت من عند خليلك المصري: فقال: بل هو من عند خليلي الله تعالىٰ، فسمي بذلك خليلاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا ضعف، ولا تقتضي هذه القصة أن يُسمَّى بذلك اسماً غالباً، وإنما هو شيءُ شرَّفه الله به[(٢)]، كما شَرَّف محمداً ﷺ، فقد صح في كتاب مسلم وغيره: أن الله اتخذه خليلاً.

= وأما قوله: (والملائكة) فلعله يريد بها ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٣]. وأما في (المؤمن) ففي قوله تعالىٰ: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

(١) من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] ـ وأراد ابن عطية بقوله: وقرأ بفتح الياء من (سَيَدخلونَ جَهَنَّمَ دَاخِرين) ـ أبا عمرو.

(٢) الآراء كثيرة في سبب تسميته عليه الصلاة والسلام خليلاً ـ فقيل زيادة على ما رواه ابن عطية: إنما سمي=

قوله تعالىٰ:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ ﴾.

ذكر الله عزَّ وجلَّ سَعَةَ مُلْكه ، وإحاطته بكل شيءٍ عقب ذكر الدِّين وتبيين الجادة منه ـ ترغيباً في طاعة الله ، والانقطاع إليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ ﴾ ، نزلت بسبب سؤال قوم من الصحابة عن أَمر النساءِ وأَحكامهن في المواريث وغير ذلك، فأَمر الله نبيه أَن يقول لهم: ﴿ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ ، أَي: يُبين لكم حكم ما سألتم عنه. وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ يحتمل ﴿ وَمَا ﴾ أَن تكون في موضع خفض عطفاً على الضمير في قوله: ﴿ فِيهِنَّ ﴾ أَي: ويُفْتيكم فيما يُتْلى عليكم ، قاله محمد بن أَبي موسى ، وقال: أَفتاهم الله فيما سأَلوا عنه ، وفيما لم يسأَلوا عنه ، ويضعف هذا التأويل ما فيه من العطف على الضمير المخفوض بغير إعادة حرف الخفض[1]. ويحتمل أَن تكون ﴿ وَمَا ﴾ في موضع رفع عطفاً على اسم الله عز وجلَّ ، أَي: ويُفْتيكم ما يُتْلى عليكم في الكتاب ، يعني القرآن ، والإشارة بهذا إلى ما تقدم من الآيات في أَمر النساءِ ، وهو قوله تعالىٰ في صدر السورة ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ الآية ، قالت عائشة رضي الله عنها: نزلت هذه الآية أَولاً ، ثم سأَل ناس بعدها رسول الله ﷺ عن أَمر النساء فنزلت:

= الخليل خليلاً لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللاً إلا ملأته ، بَدَليل قول بشار بن برد:

قَـدْ تَخَلَّلْـتَ مَسْلَـكَ الـرُّوحِ منِّـي ... وبِــه سُمِّــي الخَليــلُ خَليــلا

وقيل: الخليل من الاختصاص ، فالله عز وجل اختص إبراهيم في وقته للرسالة ، واختار هذا النحاسُ ، ودليله قوله ﷺ: «وَقَدْ اتَّخَذَ الله صَاحِبَكُم خَليلا» ، يعني نفسه ، وفي الاتخاذ معنى الاختصاص ، ولقد حسم ابن عطية القول بعبارته: «إنما هو شيء شرفه الله به».

(١) راجع (البحر المحيط) في هذا الموضع ، فأبو حيان له تعليق طويل على القول بضعف العطف على الضمير المخفوض بغير إعادة حرف الجر ، وهو يرد على كلام ابن عطية هنا ، وعلى كلام آخر للزمخشري في تفسيره للآية. والتعليق ج ٣ صفحة ٣٦٠ ، ٣٦١.

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ﴾ معناه النهي عما كانت العرب تفعله من ضمِّ اليتيمة الجميلة الغنية بدون ما تستحقه من المهر، ومن عضْل(٢) الدميمة الفقيرة أبداً، والدميمة الغنية حتى تموت فيرثها العاضل، ونحو هذا مما يقصد به الولي منفعة نفسه، لا نفع اليتيمة، والذي كتب الله لهُنَّ: هو توفيةُ ما تستحقه من مهر، وإلحاقُها بأقرانها.

وقرأ أبو عبد الله المدني: [في يَيَامَى النِّسَاءِ] بياءَين، قال أبو الفتح: والقول في هذه القراءَة أنه أراد (أَيَامَى) فقلبت الهمزة ياءً، كما قُلبت في قولهم: «باهلة بن يعصر»، وإنما هو «ابن أعصر» لأنه إنما يُسَمَّى بقوله:

أَبُنَـــيَّ إِنَّ أَبَـــاكَ غَيَّـــرَ لَـــوْنَـــهُ ... كَـرُّ اللَّيَـالـي واخْتِـلافُ الأَعْصُـر(٣)

وكما قلبت الياءُ همزة في قولهم: «قطع الله أَدَهُ»، يريدون: «يَدَهُ»، وأيامى: جمع أَيِّم، أَصله: أَيايِم، فقلبت اللام موضع العين فجاءَ: أَيامِي، ثم أُبدلت من الكسرة فتحة، ومن الياءِ أَلف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يشبه أَن الداعي إِلى هذا استثقال الضمة على الياءِ، قال أَبو الفتح: ولو قال قائل: كُسِّر أَيِّم على أَيْمَى على وزن سكْرى وقتلى من حيثُ الأُيُومَةُ بَلِيَّةٌ تدخل كرها، ثم كُسِّر أَيْمى على أَيَامَى ـ لكان و جهاً حسناً.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾، إِن كانت الجارية غنية جميلة فالرغبة في نكاحها، وإن كانت بالعكس فالرغبة عن نكاحها، وكان عمر بن الخطاب رضي الله

---

(١) الحديث في البخاري، ومسلم، وأخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم ـ عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) عَضَل المرأة: منعها التزوج ظُلْماً، قال تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ ﴾.

(٣) جاء في كتاب «سمط اللآلي» صفحة (٣٥٠) طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة: وذكر أبو علي في نسب الأصمعي أَعصُرَ بن سعد، وأعصرُ: هو مُنَبِّه بن سعيد. . . وإنما سُمِّي أعصر بقوله:

قـالـتْ عُمَيْـرَةُ مـا لِـرَأْسِـكَ بَعْـدَ مَـا ... فَقَـدَ الشَّبـابَ أَتـى بِلَـوْنٍ مُنْكَـرِ
أَعُمَيْـرُ إِنَّ أَبَـاكَ غَيَّـرَ لَـوْنَـهُ ... مَـرُّ اللَّيَـالـي واخْتِـلافُ الأَعْصُـرِ

وقال معلقة: وفي الأنباري، والشعراء، والجمحي: نَفَد الشَّبابُ.

عنه يأخذ الناس بالدرجة الفضلى في هذا المعنى، فكان إذا سأل الولي عن وليته فقيل: هي غنية جميلة، قال له: اطلب لها من هو خير منك وأعود عليها بالنفع. وإذا قيل له: هي دميمة فقيرة قال: أنت أولى بها وبالستر عليها من غيرك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ عطف على: ﴿يَتَامَى النِّسَاءِ﴾، والذي تُلِي[1] في المستضعفين من الولدان هو قوله تعالىٰ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾[2]، وذلك أن العرب كانت لا تورث الصَّبِيَّةَ ولا الصَّبِيَّ الصغير، وكان الكبير ينفرد بالمال، وكانوا يقولون: إنما يرث المال مَنْ يَحمي الحوزة، ويردُّ الغنيمة، ويُقاتل عن الحريم، ففرض الله لكل واحدٍ حقَّه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ عطف أيضاً على ما تقدم، والذي تُلي في هذا المعنى هو قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾[3] إلى غير ذلك مما ذكر في مال اليتيم. والقسط: العدل، وباقي الآية وعد على فعل الخير بالجزاءِ الجميل بيِّنٌ.

قوله تعالىٰ:

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾.

. هذه الآية حكم من الله تعالى في أمر المرأة التي تكون ذات سن ودمامة، أو نحو ذلك مما يرغب زوجها عنها، فيذهب الزوج إلى طلاقها، أو إلى إيثار شابة عليها، ونحو هذا مما يقصد به صلاح نفسه، ولا يضرها هي ضرراً يلزمه إياها، بل يعرض

---

(١) هو بيان لما سبق في السورة من القرآن المَتْلُوّ على أن معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ هو: «وَيُفتِيكُمْ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ». فالذي سبقت تلاوته في (يتامى النساء) هو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ كما وضح ذلك حديث عائشة رضي الله عنها، والذي تُلِي في ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ هو قوله تعالىٰ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾. والذي تُلِي في القيام لليتامى بالقسط هو قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾.

(٢) النساء: ١١.

(٣) النساء: ٢.

عليها الفُرقة، أَو الصبر على الأَثرة، فتريد هي بقاءَ العصمة، فهذه التي أَباح الله تعالىٰ بينهما الصلح، ورفع الجناح فيه، إذ الجناح في كل صلح يكون عن ضرر من الزوج يفعله حتى تعالجه، وأَباح الله تعالىٰ الصلح مع الخوف، وظهور علامات النشوز أَو الإعراض، وهو ـ مع وقوعها ـ مباح أَيضاً.

والنشوز: الارتفاع بالنفس عن رتبة حُسْن العشرة. والإعراض: أَخف من النشوز(١).

وأَنواع الصلح كلها مباحةٌ في هذه النازلة ـ أَن يعطى الزوج على أَن تصبر هي، أَو تعطى هي على أَلا يؤثر الزوج، أَو على أَن يؤثر ويتمسك بالعصمة، أَو يقع الصلح على الصبر على الأُثرة. فهذا كله مباح.

واختلف المفسرون في سبب الآية ـ فقال ابن عباس، وجماعة معه: نزلت في النبي ﷺ وسودة بنت زمعة، حدث الطبري بسند عن ابن عباس قال: خشيت سودة أَن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت: لا تطلقني، واحبسني مع نسائك، ولا تقسم لي، ففعل، فنزلت: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ الآية(٢). وفي المصنفات أَن سودة لما كبرت وهبت يومها لعائشة، وهذا نحو الأَول، وقال سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، وعبيدة السلماني، وغيرهم: نزلت الآية بسبب رافع بن خَديج(٣). وخولة بنت محمد بن مسلمة، وذلك أَنه خلا من سنها فتزوج عليها شابة، فآثر الشابة فلم تصبر هي فطلقها طلقة، ثم تراجعا فعاد فآثر الشابة فلم تصبر هي، فطلقها أُخرى، فلما بقي من العدة يسير قال لها: إن شئت راجعتك وصبرت على الأَثرة، وإن شئت تركتك حتى يخلو أَجلك، قالت: بل راجعني وأَصبر، فراجعها فآثر الشابة فلم تصبر، فقال: إنما هي واحدة، فإِما أَن تَقَري على ما ترين من الأَثرة

---

(١) قال النحاس: «الفرق بين النشوز والإعراض أن النشوز: التباعد، والإعراض: ألا يكلمها ولا يأنس بها».

(٢) وأخرجه أَيضاً الطيالسي، والترمذي وحسَّنه، وابن المنذر، والطبري، والبيهقي في سننه ـ عن ابن عباس. (الدر المنثور ٢ ـ ٢٣٢).

(٣) رافع بن خديج بن رافع ـ الأَنصاري الأَوسي الحارثي، كان عريف قومه بالمدينة، وشهد أُحداً والخندق، وعرض على النبي ﷺ يوم بدر فاستصغره، لكنه أَجازه يوم أُحد، توفي بالمدينة من جراحة، له ٧٨ حديثاً. (الإصابة ـ وتهذيب التهذيب).

وإلا طلقتك، فقرَّت، فهذا هو الصلح الذي أنزل الله فيه: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ﴾(١).

وقال مجاهد: نزلت الآية بسبب أبي السنابل بن بعكك وامرأته(٢).

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: [يَصَّالحا] بفتح الياءِ وشد الصاد وألف بعدها، وأصلها: يتصالحا، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم: [يُصْلِحا] بضم الياءِ وسكون الصاد دون ألف، وقرأ عبيدة السلماني: [يُصَالحا] بضم الياءِ من المفاعلة. وقرأ الجحدري، وعثمان البتي: [يَصَّلحا] بفتح الياءِ وشد الصاد، أصلها: يَصْطلحا. قال أبو الفتح أبدل الطاء صاداً، ثم أدغم فيها الصاد التي هي فاءٌ فصارت: يَصَّلِحا، وقرأ الأعمش: [إن اصَّالحا]. وكذلك هي في قراءَة ابن مسعود.

وقوله: ﴿صُلۡحٗاۚ﴾ ليس الصلح مصدراً على واحد من هذه الأفعال التي قرئَ بها، فالذي يحتمل أن يكون اسماً كالعطاء مع أعطيت، والكرامة مع أكرمت، فمن قرأ ﴿يُصۡلِحَا﴾ كان تعديه إلى الصلح كَتَعَدِّيه إلى الأسماءِ، كما تقول: أصلحت ثوباً، ومن قرأ: [يصَّالحا] من تفاعل، وعُرف تفاعل أنه لا يتعدى، فوجهه أن تفاعل قد جاءَ متعدياً في نحو قول ذي الرمة:

ومِنْ جَرْدَةٍ غُفْلٍ بَسَاطٍ تَحَاسَنَتْ ... بها الوشْيَ قَرَّاتُ الرِّياح وخُورُهَا(٣)

ويجوز أن يكون الصلح مصدراً حذفت زوائده كما قال:

. . . . وإن تهْلِك فَذَلِكَ كانَ قَدْري(٤)

---

(١) أخرجه مالك، وعبد الرزاق، عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه ـ عن رافع بن خديج، وفيه: «أنه كانت تحته امرأة» ولم يذكر اسمها ـ وأخرج الشافعي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة والبيهقي ـ عن سعيد بن المسيب أن «ابنة محمد بن مسلمة كانت عند رافع بن خديج... إلخ».

(٢) أخرجه ابن جرير عن مجاهد. (الدر المنثور ٢ ـ ٢٣٣).

(٣) هذا البيت من قصيدة مطلعها:

تَصَابيتُ في أَطْلالِ ميَّةَ بَعْدَمَا ... نَبا نَبْوَةَ بالْعيْن عنها دُثُورُهَا

وجَرِدَ جَرْداً: خلا جسْمُه من الشعر، وجَرِدَ المكان: خلا من النبات، والغُفْل: ما لا علامة فيه ولا أثر من عمارة أو طرق أو نحوهما. والبَسَاطُ من الأرض: الواسعةُ، وتحاسنت: أَحْسَنت ـ وقرَّات الرياح: الرياح الباردة. وأرض خَوَّارة: لينة سهلة، والجمع: خُورٌ ـ أما الوشي فهو: النقش، يقول: إن هذه الرياح الباردة جرت على الأرض الواسعة الجرداء فحسنت طرقها بما يشبه الوشي. وتفاعل التي يشير إليها ابن عطية في البيت هي: (تَحاسَنَ) فقد تعدت حين نصبت (الوشي).

(٤) القائل رجل من عبد القيس كان حليفاً لبني شيبان، والبيت بتمامه كما رواه في «المفضليات»: =

أي: تقديري.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا كلام أَبي علي، على أَن القدْر مصدرٌ جارٍ على أَن قَدَرْت الأَمر بمعنى قدَّرت بالتشديد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ لفظ عام مطلق يقتضي أَن الصلح الحقيقي الذي تسكن إِليه النفوس، ويزول به الخلاف خير على الإِطلاق، ويندرج تحت هذا العموم أَن صلح الزوجين ـ على ما ذكرنا ـ خير من الفُرقة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ معذرة عن عبيده تعالىٰ، أَي: لا بد للإِنسان بحكم خلقته وجِبِلَّتِهِ من أَن يشح على إِرادته حتى يحمل صاحبه على بعض ما يكره، وخصص المفسرون هذه اللفظة ـ هنا ـ فقال ابن جبير: هو شُح المرأَة بالنفقة من زوجها وبقَسْمه لها أَيامها، وقال ابن زيد: الشُّح هنا منه ومنها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا أَحسن، «فإنَّ الغالب على المرأَة الشح بنصيبها من زوجها، والغالب على الزوج الشُّح بنصيبه من الشابة».

والشُّح: الضبط على المعتقدات والإِرادات والهمم والأَموال ونحو ذلك، فما أُفرط منها ففيه بعض المذمَّة، وهو الذي قال تعالىٰ فيه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾[1]، وما صار إِلى حيز منع الحقوق الشرعية أَو التي تقتضيها المروءَة فهو البخل، وهي رذيلة»[2]، ولكنها قد تكون في المؤمن، ومنه الحديث: «قيل يا رسول الله، أَيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: نعم»[3]، وأَما الشح ففي كل أَحد لكن لا يُفْرِط إِلا على

= فــإِن يبْــرأْ فَلَــمْ أَنْفــس عَلَيْــه ... وإِنْ يَهْلِــك فــذلِــكَ كــان قَــدْري

(١) الحشر: ٩.

(٢) نقل القرطبي ما بين علامتي التنصيص هنا عن ابن عطية، ولكن جاء فيه: «فما أُفرط منه على الدين فهو محمود، وما أفرط منه في غيره ففيه بعض المذمة» وهو أوضح مما في الأصول هنا.

(٣) روى مالك عن صفوان بن سليم قال: «قيل: يا رسول الله، أيكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم، قيل له: أَيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: نعم، قيل له: أَيكون المؤمن كذاباً؟ قال: لا».

الدِّين[١] ، ويدلك على أَن الشُّح في كل أَحد قوله تعالىٰ: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ ، وقوله: ﴿شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾ ، فقد أَثبت أَن لكل نفس شحاً ، وقول النبي ﷺ: «أَنْ تَصَدَّق وأَنْت صحيحٌ شَحيحٌ»[٢] ، وهذا ما لم يُرد به واحداً بعينه ، وليس يجمل أَن يقال هنا: «أَن تصَدَّق وأَنت صحيح بخيل».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ﴾ ندب إِلى الإِحسان في تحسين العِشْرة ، وحمل أَخلاق الزوجة ، والصبر على ما يكره من حالها ، وتمكن الندب إِلى الإِحسان من حيث للزوج أَن يشح فلا يحسن. ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ معناه: تتقوا الله في وصيته بالنساءِ ، إِذ هن عوان عند الأَزواج حسبما فسَّره النبي ﷺ بقوله: «استوصوا بالنساءِ خيراً فإِنهن عوان عندكم»[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية. معناه العدل التام على الإِطلاق ، المستوي في الأَفعال والأَقوال والمحبة والجماع وغير ذلك ، وكان

---

(١) يقول: إِن المبالغة في الشح مذمومة إِلا على الدين فإِنها محمودة ، واستدل على ذلك بثلاثة أَدلة:
(أ) قوله تعالىٰ: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ ، وقد شرح المفسرون الكلام فقالوا: إِنه من باب المبالغة ، جعل الشُّح كأَنه شيء معد في مكان وأُحضرت الأَنْفُس وسيقت إِليه ، فلم يُسق هو إِليها ، بل سيقت هي إِليه ، لكون الإِنسان مجبولاً على الشُّح ، وكلام ابن عطية فيه هذا المعنى.
(ب) قوله تعالىٰ في سورة الحشر: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ لأَن إِضَافَة الشُّح إِلى النفس يدل على أَن لكل نفس شُحاً ، وأَنه من طبيعة النفوس.
(ج) قوله ﷺ: «أَن تَصدَّق وأَنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر. . . إِلخ» فإِنك حين تتصدق مع أَنك مطبوع على الشُّح مُهيَأة لك أَسباب الطمع في الحياة كالصحة والأَمل في الغنى ـ أَفضل من أَن تتصدق وقد دنت ساعة موتك ، ولهذا فلا يناسب في الحديث أَن يقال: «وأَنت صحيح بخيل» وبهذا وضح المؤلف الفرق بين الشح والبخل.

(٢) هذا الحديث رواه البخاري ، ومسلم ، وأَحمد في مسنده ، وأَبو داوود ، والنسائي ـ عن أَبي هريرة ، ولفظه: «أَفضل الصدقة أَنْ تصدق وأَنت صحيح شحيح ، تأْمل الغنى وتخشى الفقر ، ولا تمهل حتى إِذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ، ولفلان كذا ، أَلا وقد كان لفلان».

(٣) رواه ابن ماجه ، والترمذي وصححه عن عمرو بن الأَحوص أَنه شهد حجة الوداع مع النبي ﷺ ، فحمدالله ، وأَثنى عليه ، وذكر ووعظ ، ثم قال «استوصوا بالنساء خيراً. . . . إِلخ». ـ وروى البخاري ومسلم عن أَبي هريرة أَن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم والآخر فلا يؤذي جاره ، واستوصوا بالنساء خيراً فإِنهن خلقن من ضلع ، وإِن أَعوج شيء في الضلع أَعلاه ، فإِن ذهبت تقيمه كسرته ، وإِن تركته لم يزل أَعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً». ومعنى عوان: أَسرى أَو كالأَسرى.

رسول الله ﷺ يَقْسِم بين نسائه ، ثم يقول: «اللَّهُمَّ هذا فعلي فيما أَملك ، فلا تُؤَاخذني فيما تملك ولا أَملك»[١] ، يعني ميله بقلبه ، وكان عمر بن الخطاب يقول: «اللَّهم قلبي فلا أَملكه ، وأَما ما سوى ذلك فأَرجو أَن أَعدل». وروي أَن هذه الآية نزلت في النبي ﷺ وميله بقلبه إلى عائشة رضي الله عنها[٢] ، فوصف الله تعالىٰ حالة البشر ، وأَنهم بحكم الخلقة لا يملكون ميل قلوبهم إلى بعض الأَزواج دون بعض ، ونشاطهم إليهن ، وبشرهم معهن ، ثم نهى عن الميل كل الميل ، وهو أَن يفعل فعلاً يقصده من التفضيل وهو يقدر أَلا يفعله ، فهذا هو كل الميل وإن كان في أَمر حقير ، فكأَن الكلام: ولا تميلوا النوع الذي هو كل الميل. وهو المقصود من قول أَو فعل.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ أَي: لا هي أَيِّم ولا ذات زوجٍ ، وهذا تشبيه بالشيء المعلَّق من شيءٍ ، لأَنه لا على الأرض استقر ، ولا على ما عُلِّق منه انحمل ، وهذا مطردٌ في قولهم في المَثَل: «ارْضَ من المرْكَبِ بالتَّعْليق»[٣] ، وفي عرف النحويين في تعليق الفعل ، ومنه في حديث أُم زرع قول المرأَة: «زوجي العَشَنَّق ، إنْ أَنْطِقْ أُطلَّق ، وإن أَسْكُتْ أُعَلَّقْ»[٤].

وقرأَ أُبي بن كعب: [فَتَذَرُوها] «كالمسجونة» ، وقرأَ عبد الله بن مسعود: [فَتَذَرُوهَا كَأَنَّهَا مُعَلَّقَة].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ أَي: وإن تلتزموا بما يلزمكم من العدل فيما تملكون ، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لما لا تملكونه ، متجاوزاً عنه. وقال الطبري: معنى الآية: غفوراً لما سلف منكم من الميل كل الميل قبل نزول الآية.

---

(١) أخرجه ابن أَبي شيبة ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، وأَبو داوود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن المنذر عن عائشة رضي الله عنها بلفظ: (هذا قسمي).

(٢) أخرج ابن أَبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أَبي حاتم ـ عن ابن أَبي مُلَيْكَة قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ في عائشة رضي الله عنها ، يعني أن النبي ﷺ كان يُحبها أُكثر من غيرها. (الدر المنثور ٢ ـ ٢٣٣).

(٣) هذا مثل يضرب في القناعة بالقليل من الكثير ـ راجع «مجمع الأمثال» للميداني.

(٤) حديث أُم زرع حديث طويل ، رواه البخاري كاملاً ـ والعَشَنَّق: الطويل طولاً زائداً مع نحافة ، وهذا يدل على شيء من سَفَه غالباً ، وقيل: هو السَّيِّئ الخلق ، وقيل: هذه كلمة جمعت جميع العيوب. تخشى إن هي تكلمت عن عيوبه ، أو شكت سوء عشرته ومعاملته طلقها وهي حريصة على بيتها وأَولادها ، وإن هي سكتت عن عيوبه صارت مُعَلَّقَة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا فهي مغفرةٌ مُخَصَّصَة لقوم بأعيانهم، واقعوا المحظور في مدةَ النبي ﷺ.

وجاءَ في التي قبلُ: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا﴾ وفي هذه: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا﴾ لأن الأول في مندوب إليه، وهذه في لازم، لأن الرجل له هناك ألا يُحسن، وأن يشح ويصالح بما يرضيه، وفي هذه ليس له ألاَّ يصلح، بل يلزمه العدل فيما يملك.

قوله تعالىٰ:

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾.

الضمير في قوله: ﴿يَتَفَرَّقَا﴾ للزوجين اللَّذَيْن تقدم ذكرهما، أي: إن شحَّ كل واحد منهما فلم يتصالحا لكنهما تفرقا بِطَلاق، فإن الله تعالىٰ يُغْني كل واحد منهما عن صاحبه بفضله ولطائف صنعه، في المال والعِشْرة والسعة وجود المرادات والتمكن منها. وذهب بعض الفقهاء المالكيين إلى أن التفرق في هذه الآية هو بالقول، إذ الطلاق قول، واحتج بهذه على قول النبي ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا»(١)، إذ مذهب مالك في الحديث أنه التفرق بالقول لا بالبدن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا حجة في هذه الآية، لأن إخبارها إنما هو عن افتراقهما بالأبدان، وتراخي المدة بزوال العصمة، والإغناءِ إنما يقع في ثاني حال، ولو كانت الفرقة في الآية الطلاق لما كان للمرأة فيها نَصيبٌ يوجب ظهور ضميرها في الفعل، وهذه نُبْذةٌ من المعارضة في المسألة، والواسع معناه: الذي عنده خزائن كل شيءٍ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ تنبيه على موضع الرجاءِ لهذين المفترقين، ثم جاءَ بعد ذلك قوله: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾

---

(١) رواه البخاري ومسلم، وأخرجه الإمام أحمد، وأصحاب السنن إلا ابن ماجه ـ عن حكيم بن حزام.

تنبيهاً على استغنائه عن العباد، ومقدمة للخبر بكونه ﴿غَنِيًّا حَمِيدًا﴾. ثم جاء بعد ذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ مقدمة للوعيد، فهذه وجوه تكرار هذا الخبر الواحد ثلاث مرات متقاربة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ لفظ عام لكل من أُوتي كتاباً، فإن وصية الله عباده بالتقوى لم تزل منذ أوجدهم. والوكيل: القائم بالأمور، والمنفذ فيها ما رآه.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ مخاطبة للحاضرين من العرب، وتوقيف للسامعين لتحضر أذهانهم، وقوله: ﴿بِـَٔاخَرِينَۚ﴾ يريد: من نوعكم. وروي عن أَبي هريرة أَنه لما نزلت هذه الآية ضرب رسول الله ﷺ بيده على كتف سلمان الفارسي وقال: هم قوم هذا. وتحتمل ألفاظ الآية أَن تكون وعيداً لجميع بني آدم، ويكون الآخرون من غير نوعهم كما قد روي أَنه كان في الأَرض ملائكة يعبدون الله قبل بني آدم، وقدرة الله تعالىٰ على ما ذكر تقضي بها العقول ببداهتها. وقال الطبري: هذا الوعيد والتوبيخ هو للقوم الذين شفعوا في طعمة بن أُبيرق، وخاصموا عنه في أَمر خيانته في الدرع والدقيق.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تأْويل بعيد، واللفظ إِنما يظهر حُسْن رصفه بعمومه وانسحابه على العالم جملة، أَو العالم الحاضر.

قوله تعالىٰ:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾.

أَي: من كان لا مرد له إِلا في ثواب الدنيا، ولا يعتقد أَنَّ ثَمَّ سواه، فليس هو كما ظن، بل عند الله ثواب الدارَيْن، فمن قصد الآخرة أَعطاه الله من ثواب الدنيا، وأَعطاه قصده، ومن قصد الدنيا فقط أَعطاه من الدنيا ما قدر له، وكان له في الآخرة العذاب،

والله تعالىٰ سميع للأقوال ، بصير بالأعمال والنيات .

ثم خاطب تعالىٰ المؤمنين: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ﴾ الآية ، وهذا بناءُ مبالغة ، أي: ليتكرر منكم القيام ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ ، وهو العدل ، وقوله: ﴿شُهَدَآءَ﴾ نصب على خبر بعد خبر ، والحال فيه ضعيفة في المعنى ، لأنها تخصيص القيام بالقسط إلى معنى الشهادة فقط ، وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ المعنى: لذات الله ، ولوجهه ولمرضاته ، وقوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿شُهَدَآءَ﴾[1] . هذا هو الظاهر الذي فسر عليه الناس ، وإن هذه الشهادة المذكورة هي في الحقوق.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ معناه: بالوحدانية ، ويتعلق قوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ بـ ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ ، والتأويل الأول أبيَن.

وشهادة المرء على نفسه: إقرارُه بالحقائق وقوله الحق في كل أمر ، وقيامه بالقسط عليها كذلك ، ثم ذكر الوالدين لوجوب بِرِّهِمَا وعِظَم قدرهما ، ثم ثنَّى بالأقربين إذ هم مظنة المودة والتعصب ، فجاءَ الأجنبي من الناس أحرى أن يُقام بالقسط ويُشهد عليه ، وهذه الآية إنما تضمنت الشهادة على القرابة ، فلا معنى للتفقه منها في الشهادة لهم كما فعل بعض المفسرين ، ولا خلاف بين أهل العلم في صحة أحكام هذه الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ معناه: إن يكن المشهود عليه غنياً فلا يراعى لغناه ، ولا يخاف منه ، وإن يكن فقيراً فلا يراعى إشفاقاً عليه ، فإن الله تعالىٰ أَوْلى بالنوعين وأهل الحالين ، والغني والفقير اسما جنس ، فلذلك ثني الضمير في قوله: ﴿بِهِمَا﴾ ، وفي قراءَة أبي بن كعب: [فاللهُ أَوْلَى بِهِمْ] على الجمع ، وقال الطبري: ثني الضمير لأن المعنى: فالله أولى بهذين المعنيين ، غنى الغني ، وفقر الفقير ، أي: وهو أنظر فيهما ، وقد حدَّ حدوداً ، وجعل لكل ذي حق حقه. وقال قوم: ﴿أَوْ﴾ بمعنى (الواو) ، وفي هذا ضعف[2] .

---

(١) قال في (البحر المحيط): «لو ـ في قوله تعالىٰ ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ ـ شرطية بمعنى (إنْ) ، وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ متعلق بمحذوف ، لأن التقدير: وإن كنتم شهداء على أنفسكم فكونوا شهداء لله. وحذف (كان) بعد (لو) كثير ، تقول ، ائتني بتمر ولو حشفاً ، أي: وإن كان التمر حشفاً فأتني به» ، ثم علَّق على قول ابن عطية: «إنَّ قوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿شُهَدَآءَ﴾» ، فقال: «إن عني ﴿شُهَدَآءَ﴾ هذا الملفوظ فلا يصح ذلك ، وإن عني الذى قدرناه نحن فيصح» ا هـ (البحر المحيط ٣ ـ ٣٦٩).

(٢) هذا هو رأي أبي الحسن بن عصفور حين تكلم عن العطف بالحروف (الواو والفاء. . هكذا) فقد قال: =

وذكر السدي أَن هذه الآية نزلت في النبي ﷺ: اختصم إِليه غني وفقير ، فكان في ضَلْع الفقير[١] ، علماً منه أَن الغني أَحرى أَن يظلم الفقير ، فأَبى الله إِلا أَن يقوم بالقسط بين الغني والفقير[٢] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وارتبط هذا الأَمر على ما قاله النبي ﷺ: «فأَقضي له على نحو ما أَسمع»[٣] ، أَما إِنه قد أُبيح للحاكم أَن يكون في ضَلَع الضعيف[٤] بأَن يَعْتَدَّ له المقالات ، ويشد على عضده ، ويقول له: قل حجتك مُدِلا ، ويُنبهه تنبيهاً لا يفت في عضد الآخر ، ولا يكون تعليم خِصام ، هكذا هي الرواية عن أَشهب وغيره. وذكر الطبري أَن هذه الآية هي بسبب نازلة طعمة بن أُبيرق ، وقيام من قام في أَمره بغير القسط.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ﴾ نهيٌ بيّن ، واتباع الهوى مُرْدٍ مُهْلك. وقوله تعالىٰ: ﴿أَن تَعْدِلُوا﴾ يحتمل أَن يكون معناه: مخافة أَن تَعْدلوا ، ويكون العدل هنا بمعنى: العدول عن الحق ، ويحتمل أَن يكون معناه: محبة أَن تعدلوا ، ويكون العدل بمعنى: القسط ، كأَنه قال: انتهوا خوف أَن تجوروا ، أَو: محبة أَن تقسطوا ، فإِن

= «تقول: زيد أَو عمرو قام ، وكذلك سائر ما بقي من حروف العطف ، قال: لا تقول: قاما ، لأَن القائم إِنما هو أَحدهما لاغير ، ولا يجوز: قاما إِلا في (أو) خاصة ، وذلك شذوذ لا يقاس عليه. قال الله تعالىٰ: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ فأَعاد الضمير على الغني والفقير لتفرقهما في الذكر» اهـ ـ حكى هذا عنه أَبو حيان في (البحر المحيط) ، ثم قال تعقيباً على كلامه: «وهذا ليس بسديد ، ولا شذوذ في الآية ولا دليل فيها على جواز: زيد أَو عمر قاما ـ على جهة الشذوذ لا غيره ، لأَن قوله: ﴿فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ ليس بجواب ، والضمير ليس عائداً على الغني والفقير الملفوظ بهما في الآية ، وإِنما يعود على ما دلَّ عليه المعنى من جنسي الغني والفقير» ١ هـ.

(١) كان في ضلْع الفقير: أي: كان معه بميله وهواه ، يُقال: ضَلْعُك مع فلان: أي: ميلُك وهواك. وضَلْع بفتح فسكون ، على وزن بَيْت.

(٢) أخرجه ابن جرير عن السدي.

(٣) هذا جزء من حديث رواه مالك بن أَنس عن أُم سلمة ، وكذلك رواه سفيان أيضاً عن أم سلمة ، وهو أيضاً في البخاري ، وفي رواية مالك أن النبي ﷺ قال: «إنما أنا بشر مثلكم ، وإنكم تختصمون إليَّ فلعلَّ بعضكم أَن يكون أَلحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذ منه شيئاً ، فإنما أقطع له قطعة من النار».

(٤) ضَلَع الضعيف ـ بفتح الضاد واللام ـ ، يقال: ضَلِع ـ بفتح فكسر ـ مع فلان ضَلَعاً ـ بفتحتين ـ بمعنى: مال إليه وعاونه.

جعلت العامل: ﴿تَتَّبِعُواْ﴾ فيحتمل أَن يكون المعنى: محبة أَن تجوروا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ﴾ قال ابن عباس: هو في الخَصمين يجلسان بين يدي القاضي، فيكون ليُّ القاضي وإِعراضه لأَحدهما على الآخر، فاللَّيُّ ـ على هذا ـ: مطْلُ الكلام وجرُّه حتى يفوت فصل القضاء وإنفاذه للَّذي يميل القاضي عليه، وقد شاهدت بعض القضاة يفعلون ذلك، والله حسيب الكل. وقال ابن عباس أَيضاً، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد، وغيرهم: هي في الشاهد، يلوي الشهادة بلسانه ويحرفها، فلا يقول الحق فيها، أو يعرض عن أَداءِ الحق فيها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولفظ الآية يعم القضاء والشهادة والتوسط بين الناس، وكل إِنسان مأْخوذ بأَن يعدل، والخصوم مطلوبون بعدل ما في القضاءِ فتأَمله.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿تَلْوُۥٓاْ﴾ بواوين، من: لوى يلوي على حسب ما فسرناه، وقرأَ حمزة، وابن عامر، وجماعة في الشاذ: [وإِن تَلُوا] بضم اللام وواو واحدة، وذلك يحتمل أَن يكون أَصله: (تلْئُوا) على القراءَة الأُولى، هُمِزَت الواو المضمومة كما همزت في (أَدؤُر)، وأُلقيت حركتها على اللام التي هي فاءُ (لوى)، ثم حذفت لاجتماع ساكنين. ويحتمل أَن يكون [تلُوا] من قولك: ولي الرجل الأمر، فيكون في الطرف الآخر من ﴿تُعْرِضُواْ﴾، كأَنه قال تعالىٰ للشهود وغيرهم: وإِن وليتم الأَمر أَو أَعرضتم عنه فالله خبير بفعلكم ومقصدكم فيه، فالولاية والإِعراض طرفان، واللَّيُّ والإِعراض في طريق واحد، وباقي الآية وعيد.

قوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾.

اختلف الناس فيمن خوطب بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ ـ فقالت فرقة: الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى من أَهل الكتابين، أَي: يا مَنْ قد آمن بنبي من

الأنبياءِ آمِن بمحمد عليه الصلاة والسلام، ورجَّح الطبري هذا القول. وقيل: الخطاب للمؤمنين على معنى: ليكن إيمانكم هكذا على الكمال والتوفية بالله تعالىٰ، وبمحمد عليه الصلاة والسلام، وبالقرآن وسائر الكتب المنزلة، ومضمن هذا الأَمر الثبوت والدوام. وقيل: الخطاب للمنافقين، أَي: يا أَيها الذين أَظهروا الإيمان بأَلسنتهم، لكن إيمانكم حقيقة على هذه الصورة.

وقرأَ أَبو عمرو، وابن كثير، وابن عامر: [نُزِّل] بضم النون وكسر الزاي المشددة على ما لم يُسَمَّ فاعله، وكذلك قرؤُوا: [وَالْكِتَابِ الَّذي أُنْزِل من قَبْلُ] بضم الهمزة وكسر الزاي على ما لم يُسَمَّ فاعله، وقرأَ الباقون: [نَزَّلَ وَأَنْزَلَ] بفتح النون والزاي وبفتح الهمزة في [أَنزل] على إسناد الفعل إلى الله تعالىٰ، وروي عن عاصم مثل قراءَة أَبي عمرو. والكتاب المذكور أَولاً هو القرآن، والمذكور ثانياً هو اسم جنس لكل ما نزل من الكتاب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ﴾ إلى آخر الآية وعيد وخبر مُضمنة تحذير المؤمنين من حالة الكفر.

واختلف المتأَولون في المراد بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ ـ فقالت طائفة منهم قتادة وأَبو العالية: الآية في اليهود والنصارى، آمنت اليهود بموسى والتوراة ثم كفروا، وآمنت النصارى بعيسى والإنجيل ثم كفروا، ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ، ورجح الطبري هذا القول. وقال الحسن بن أَبي الحسن: الآية في الطائفة من أَهل الكتاب التي قالت: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ﴾[1]، وقال مجاهد، وابن زيد: الآية في المنافقين، فإن منهم من كان يؤمن ثم يكفر، ثم يؤمن ثم يكفر، يتردد في ذلك، فنزلت هذه الآية فيمن ازداد كفراً بأَن تَمَّ على نفاقه حتى مات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو القول المترجح، وقول الحسن بن أَبي الحسن جيد محتمل، وقول قتادة

---

(١) وهي قوله تعالىٰ في سورة آل عمران: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الآية (٧٢).

وأبي العالية وهو الذي رجح الطبري قول ضعيف، تدفعه ألفاظ الآية. وذلك أن الآية إنما هي في طائفة يتصف كل واحد منها بهذه الصفة من التردد بين الكفر والإيمان، ثم يزداد كفراً بالموافاة، واليهود والنصارى لم يترتب في واحد منهم إلا إيمان واحد وكفر واحد، وإنما يُتَخَيَّلُ فيهم الإيمان والكفر مع تلفيق الطوائف التي لم تتلاحق في زمان واحد، وليس هذا مقصد الآية[١]. وإنما توجد هذه الصفة في شخص في المنافقين، لأن الرجل الواحد منهم يؤمن ثم يكفر، ثم يوافي على الكفر، وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ فإنها عبارة تقتضي أن هؤلاء محتوم عليهم من أول أمرهم، ولذلك ترددوا، وليست هذه العبارة مثل أن يقول: «لا يغفر الله لهم»، بل هي أشد. وهي مشيرة إلى استدراج مَنْ هذه حاله وإهلاكه[٢]، وهي عبارة تقتضي لسامعها أن يتنبه ويراجع قبل نفوذ الحتم عليه، وأن يكون من هؤلاءِ، وكلُّ من كفر كفراً واحداً ووافى عليه فقد قال الله تعالىٰ: «إنه لا يغفر له»، ولم يقل: «لم يكن الله ليغفر له»، فتأمل الفرق بين العبارتين فإنه من دقيق غرائب الفصاحة التي في كتاب الله، كأن قوله: ﴿ لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ ﴾ حُكْمٌ قد تقرر عليهم في الدنيا وهم أحياءٌ.

قوله تعالىٰ:

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾.

في هذه الآية دليلٌ ما على أن التي قبلها إنما هي في المنافقين كما ترجَّح آنفاً، وجاءَت البشارة هنا مصرحاً بقيدها، فلذلك حسُن استعمالها في المكروه، ومتى جاءَت مُطْلقة فإنما عرفها في المحبوب[٣].

---

(١) في بعض نسخ الأصول: «وليس هذا مقصد الكلام».

(٢) في بعض النسخ: «إلى استدراج من هذه حالُه أو هَلاكِه».

(٣) قال في (البحر): جاء بلفظ (بشِّرْ) على سبيل التهكم بهم، نحو قوله: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، وكما قيل:

تَحِيَّةُ بَيْنهم ضربٌ وجيع

ثم نصَّ تعالىٰ من صفة المنافقين على أَشدها ضرراً على المؤمنين ، وهي موالاتهم الكفار واطراحهم المؤمنين ، ونبه على فساد ذلك ليدعه من عسى أَن يقع في نوع منه من المؤمنين غفلة أَو جهالة أَو مسامحة.

ثم وقف تعالىٰ على جهة التوبيخ على مقصدهم في ذلك أَهو طلب العزة والاستكثار بهم؟ أَي: ليس الأَمر كذلك ، بل العزة كلها لله ، يؤتيها من يشاءُ ، وقد وعد بها المؤمنين ، وجعل العاقبة للمتقين. والعزة أَصلها: الشدة والقوة ، ومنه: الأَرض العَزَازُ ، أَي: الصلبة ، ومنه: عَزَّني ، أَي: غلبني بشدته ، واسْتَعَزَّ المرض إِذا قوي ، إِلى غير هذا من تصاريف اللفظة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ مخاطبةٌ لجميع من أَظهر الإِيمان من محقق ومُنافق ، لأَنه إِذا أَظهر الإِيمان فقد لزمه أَن يمتثل أَوامر كتاب الله تعالىٰ ، والإِشارة بهذه الآية إِلى قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾(١) إِلى نحو هذا من الآيات.

وقرأَ جمهور الناس: [نُزِّلَ عَلَيْكُمْ] بضم النون وكسر الزاي المشددة ، قال الطبري: وقرأَ بعض الكوفيين ﴿نَزَّلَ﴾ بفتح النون والزاي المشددة ، على معنى: نزَّل الله ، وقرأَ أَبو حَيْوة ، وحُمَيْد: [نَزَلَ] بفتح النون والزاي خفيفة ، وقرأَ إِبراهيم النخعي: [أُنْزِل] بأَلف على بناءِ الفعل للمفعول ، والكتاب ـ في هذا الموضع ـ: القرآن(٢).

وفي هذه الآية دليلٌ قوي على وجوب تجنب أَهل البدع وأَهل المعاصي ، وأَلا يُجَالسوا ، وقد روي عن عمر بن عبد العزيز أَنه أَخذ قوماً يشربون الخمر ، فقيل له عن أَحد الحاضرين: «إِنه صائم» فحمل عليه الأَدب ، وقرأَ هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾(٣) ،

---

(١) الأنعام: ٦٨.

(٢) قوله تعالىٰ: ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ﴾ في موضع نصب بوقوع الفعل عليه في قراءة من قرأ بفتح النون من ﴿نَزَّلَ﴾ مع الزاي المفتوحة المشددة ، وهي قراءة عاصم ويعقوب ، وذلك لتقدم اسم الله تعالىٰ في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ـ أما في قراءة الباقين فهي في موضع رفع لكونه اسم ما لم يُسَمَّ فَاعله ، وقوله تعالىٰ: ﴿يُكْفَرُ بِهَا﴾ في موضع نصب على الحال ، والضمير في قوله: ﴿مَعَهُمْ﴾ عائد على المحذوف الذي دلَّ عليه قوله: ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ﴾ ، أي: فلا تقعدوا مع الكافرين المستهزئين ، و﴿حَتَّىٰ﴾ غايةٌ لترك القعود معهم.

(٣) معنى ذلك أَن الرضا بالمعصية معصية ، ولهذا يؤخذ الفاعل والراضي بعقوبة العاصي ، ولكن المماثلة=

وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات، ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة، وهذا المعنى كقول الشاعر:

عَنِ ٱلْمَرْءِ لا تَسْأَلْ وَسَلْ عنْ قَرِينِه فكُلُّ قرينٍ بالمقارن يقتدي

ثم توعد تعالىٰ المنافقين والكافرين بجمعهم في جهنم، فتأكد بذلك النَّهْيُ والحذر من مجالستهم وخلطتهم.

قوله تعالىٰ:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة للمنافقين، و﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾ معناه: ينتظرون دور الدوائر عليكم، فإن كان فتح للمؤمنين ادعوا فيه النصيب بحكم ما يظهرونه من الإيمان، وإن كان للكافرين نيلٌ من المؤمنين ادعوا فيه النصيب بحكم ما يبطنونه من موالاة الكفار، وهذا حال المنافقين.

و﴿نَسْتَحْوِذْ﴾ معناه: نغلب على أَمركم، ونحوطكم ونحمي أَمركم، ومنه قول العجاج في صفة ثور وبقر:

يَحُوذُهُنَّ ولَهُ حُوذيُّ(1)

= ـ كما قال ابن عطية ـ ليست في جميع الصفات. قال في (البحر المحيط): «و(إذاً) هنا توسطت بين الاسم والخبر وأُفرد (مثل) لأَن المعنى: إن عصيانكم مثل عصيانهم، فالمعنى على المصدر، كقوله: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾؟ وقد جمع في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ وفي قوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾، والإفراد والمطابقة في التثنية أو الجمع جائزان» (٣ ـ ٣٧٥).

(١) جاء في «لسان العرب»: وحاذَ إبله يحوذُها حوْذاً: ساقها سوقاً شديداً كحازها حوزاً، وروي هذا البيت: يَحوذُهنَّ ولَهُ حُوذيُّ

فسّرهُ ثعلب بأَن معنى قوله: «حوذيٌّ» امتناع في نفسه، قال ابن سيده: ولا أعرف هذا إلا هاهنا، والمعروف:

يَحوزُهنّ وله حوزيٌّ

=

أَي: يغلبهن على أَمرهن، ويغلب الثيران عليهن، ويروى: «يحوزهن» بالزاي. ومن اللفظة قول لبيد في صفة عيْر وأُتُن.

إِذَا اجْتَمَعَتْ وَأَحْوَذَ جَانِبَيْهَا ... وأَوْرَدَهَا على عُوجٍ طِوالِ[1]

أحوذ جانبيها: قهرها وغلب عليها. وقوله تعالىٰ: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[2] معناه: غلب عليهم، وشذَّ هذا الفعل في أَن لم تُعَلَّ واوه، بل استعملت على الأَصل.

وقرأَ أُبي بن كعب: [وَمَنَعْنَاكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِين]، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [ونَمْنَعَكُمْ] بفتح العين على الصرف[3].

ثم سلَّى وآنس المؤمنين بما وعدهم به في قوله: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أَي: وبينهم، وينصفكم من جميعهم، ولقوله: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. وقال يُسَيْع الحَضْرَمي: كنت عند أَمير المؤمنين علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، فقال له رجل: يا أَمير المؤمنين، أَرأَيت قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ كيف ذلك وهم يقاتلوننا ويظهرون علينا أَحياناً؟ فقال علي رضي الله عنه: معنى ذلك: يوم القيامة يكون الحكم[4]، وبهذا قال جميع أَهل التأْويل.

والسبيل: الحجة والغلبة، ومخادعة المنافقين هي لأَولياء الله تعالىٰ، إِذ يظنونهم غير أَولياء، ففي الكلام حذف المضاف، وإِلزام ذنب اقتضته أَفعالهم وإِن كانت نيَّاتهم لم تقتضه، لأَنه لا يقصد أَحد من البشر مخادعة الله تعالىٰ.

= والبيت من رجز يقول في مطلعه:

بكيْتُ والمحتَزِنُ البكيُّ ... وإنما يأْتي الصبا الصبيُّ

(١) يصف العير وقد طارد الأُتن، ويريد بالعُوج: القوائم ـ يقول: إذا قهرها وغلب عليها ضمَّها ولم يَفُتْهُ منها شيء.

(٢) من قوله تعالىٰ من سورة المجادلة: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ الآية (١٩).

(٣) قال في (البحر المحيط): «يعني الصرف عن التشريك لما بعدها في إعراب الفعل الذي قبلها، وليس النصب على الصرف من اصطلاح البصريين». والمعنى على هذه القراءة: أَلم نجمع بين الاستحواذ عليكم ومنعكم من المؤمنين»؟ ونظيره قول الحطيئة:

أَلَمْ أَكُ جَارَكُمْ ويَكُونَ بَيْني ... وبَيْنَكُم المَوَدَّةُ والإِخَاءُ؟

(٤) في بعض النسخ: «يوم القيامة يوم الحكم». ويؤيد هذا ما روي عن ابن عباس: «ذاك يوم القيامة»، كما ذكر ذلك القرطبي، وقد قال ابن العربي: «وهذا ضعيف»، وارجع إلى تعليل هذا الضعف عنده كما ذكره القرطبي رحمه الله.

وقوله: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ أَي: منزل الخداع بهم، وهذه عبارة عن عقوبة سمَّاها باسم الذنب، فعقوبتهم في الدنيا ذُلُّهم وخوفهم وغمٌّ قلوبهم، وفي الآخرة عذاب جهنم، وقال السدي، وابن جريج، والحسن، وغيرهم من المفسرين: إن هذا الخدع هو أَن الله تعالىٰ يعطي لهذه الأُمة يوم القيامة نوراً لكل إنسان مؤمن أَو منافق، فيفرح المنافقون، ويظنون أَنهم قد نجوا، فإذا جاءُوا إِلى الصراط طفئ نور كل منافق، ونهض المؤمنون بذلك، فذلك قول المنافقين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾(١)، وذلك هوالخدع الذي يجري على المنافقين. وقرأَ مسلمة بن عبد الله النحوي: [وَهُوَ خَادِعْهُمْ] بإسكان العين، وذلك على التخفيف.

ثم ذكر تعالىٰ كسَلَهم في القيام إِلى الصلاة، وتلك حال كل من يعمل العمل كارهاً غير معتقد فيه الصواب تقية أَو مصانعة، وقرأَ ابن هرمز الأَعرج: [كَسَالى] بفتح الكاف، وقرأَ جمهور الناس: [يُرَؤُّونَ] بهمز مضمومة مشدَّدة بين الراءِ والواو دون أَلف، وهي تعدية (رأَى) بالتضعيف، وهي أقوى في المعنى من ﴿يُرَآءُونَ﴾ لأَن معناها: يحملون الناس على أَن يَرَوْهم، ويتظاهرون لهم بالصلاة وهم يبطنون النفاق. وتقليله ذكرهم يحتمل وجهين، قال الحسن: قَلَّ لأنه كان لغير الله، فهذا وجه، والثاني أَنه قليل بالنسبة إِلى خوضهم في الباطل وقولهم الزور والكفر.

﴿مُّذَبۡذَبِينَ﴾ معناه: مضطربين لا يثبتون على حال، والتذبذب: الاضطراب بخجل أَو خوف أَو إِسراع في المشي أَو نحوه، ومنه قول النابغة:

. . . . تَـرى كُـلَّ مَلْـكٍ دونهـا يَتَـذبْـذب(٢)

ومنه قول الآخر:

خيـــالٌ لأُمِّ السَّلْسَبيـــل وَدُونهـــا مَسيـرَةُ شَهْـرٍ لِلْبـريـد الْمُـذَبْـذبِ(٣)

---

(١) الحديد: ١٣.

(٢) البيت بتمامه ـ وقد قاله يخاطب النعمان بن المنذر ويمدحه: ـ

أَلَـــمْ تَـــرَ أَنَّ اللهَ أَعْطَـــاكَ سَـــوْرةً تَـرى كُـلَّ مَلْـكٍ دونهَـا يَتَـذَبْـذَبُ؟

يريد: إن الله أَعطاك منزلة ومكانة يضطرب أمامها ويخجل كل ملك آخر.

(٣) البيت للبعيث بن حريث، وبعده ـ كما في الحماسة ـ:

فقلـتُ لهـا أَهْـلا وسَهْـلا ومَـرْحَبـا فَـردَّت بتـأهيـلٍ وسهْـلٍ ومَـرْحـب

والمُذَبْذِب بكسر الذال الثانية معناه: «الممتر القلق الذي لا يثبت ولا يتمهل» قاله ابن جني.

بكسر الذال الثانية، قال أبو الفتح: أي: المهتز، القلق، الذي لا يثبت ولا يتمهل، فهؤلاء المنافقون مترددون بين الكفرة والمؤمنين ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾. كما قال رسول الله ﷺ: «مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين»(١)، فالإشارة بذلك إلى حالي الكفر والإيمان، وأشار إليه وإن لم يتقدم ذكر لظهور تضمن الكلام له، كما جاءَ: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾(٢).

وقرأ جمهور الناس: ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾ بفتح الذال الأُولى والثانية، وقرأ ابن عباس، وعمرو بن فائد: [مُذَبْذِبِينَ] بكسر الذال الثانية، وقرأ أُبي بن كعب: [مُتَذَبْذِبِينَ] بالتاءِ وكسر الذال الثانية، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن: [مَذَبْذَبِينَ] بفتح الميم والذالين. وهي قراءَة مردودة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ معناه: سبيل هدى ولا رشاد.

قوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

خطابه تعالىٰ يدخل فيه بحكم الظاهر المنافقون المظهرون للإيمان، ففي اللفظ رِفقٌ بهم، وهم المراد بقوله تعالىٰ: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ لأن

(١) رواه مسلم، وأحمد في مسنده، والنسائي ـ عن ابن عمر، ونصه كاملا: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة، لا تدري أيهما تتبع». والعائرة: مؤنث العائر ـ ومعناها فسّره الحديث نفسه.

(٢) الآية الأولى رقم (٣٢) وهي قوله تعالىٰ في سورة ص: ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾، يعني الشمس، أضمرها ولم يجر لها ذكر.
والآية الثانية رقم (٢٦) وهي قوله تعالىٰ في سورة الرحمن: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، يريد على الأَرض. أيضاً أَضمرها ولم يجر لها ذكر ـ والعرب تفعل ذلك إذا كان في الكلام ما يدل عليه باللفظ أو القرائن المعنوية.

التوقيف إنما هو لمن أَلَمَّ بشيءٍ من الفعل المؤدي إلى هذه الحال ، والمؤمنون المخلصون ما أَلَمُّوا قط بشيءٍ من ذلك ويُقوي هذا المنزع قوله تعالىٰ: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، أَي: والمؤمنون العارفون المخلصون غيب عن هذه الموالاة ، وهذا لا يقال للمؤمنين المخلصين ، بل المعنى: يأَيُّها الذين أَظهروا الإيمان ، والتزموا لوازمه.

والسلطان: الحجة ، وهي لفظة تؤنث وتذكر ، والتذكير أَشهر ، وهي لغة القرآن حيث وقع[1] ، والسطان إِذا سمِّي به صاحب الأَمر فهو على حذف مضاف والتقدير: ذو السلطان ، أَي: ذو الحجة على الناس ، إِذ هو مدبرهم والناظر في منافعهم.

ثم أَخبر تعالىٰ عن المنافقين أَنهم في الدرك الأَسفل من نار جهنم ، وهي أَدراك بعضها فوق بعض[2] سبعة ، طبقة على طبقة ، أَعلاها هي جهنم ، وقد يسمىٰ جميعها باسم الطبقة العليا ، فالمنافقون الذين يظهرون الإِيمان ويُبطنون الكفر هم في أَسفل طبقة من النار ، لأَنهم أَسوأُ غوائل من الكفار ، وأَشد تمكناً من أَذى المسلمين.

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو: [في الدَّرَكِ] مفتوحة الراءِ ، وقرأَ حمزة ، والكسائي ، والأَعمش ، ويحيى بن وثاب: ﴿فِي ٱلدَّرْكِ﴾ بسكون الراءِ ، واختلف عن عاصم ، فروى عنه الفتح والسكون ، وهما لغتان ، قال أَبو علي: كالشَّمَع والشَّمْع ، ونحوه.

---

(١) هذا مخالف لما قاله الفراء ، ونقله عنه أبو حيان في (البحر المحيط) ، ونص كلامه: «أُنِّث وذُكِّر ، وبعض العرب يقول: قضت به عليك السلطان ، وقد أَخَذَتْ فلاناً السلطان ، والتأنيث عند الفصحاء أكثر». ١ هـ ، ثم قال أبو حيان: «فمن ذكَّر ذهب به إلى البرهان والاحتجاج ، ومن أَنث ذهب به إلى الحجة ، وإنما اختير التذكير هنا في الصفة وإن كان التأنيث أكثر ، لأنه وقع الوصف فاصلة ، فهذا هو المرجح للتذكير على التأنيث». ولنا أن نؤيد كلام ابن عطية ، فإن السلطان جاء مذكراً حيثما وقع كما قال ، فإذا كانت الفاصلة هنا هي سبب التذكير فما سبب التذكير في الآيات الأخرى كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ ، ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ ، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾؟ ليس لذلك من سبب إلا أن التذكير أفصح.

(٢) قال ابن عباس: «الدرك لأهل النار كالدرج لأهل الجنة ، إلا أن الدرجات بعضها فوق بعض ، والدركات بعضها أسفل من بعض» يعني أن استعمال العرب لكل ما تسافل أَدراك ، ولما تعالى درج ـ وأعلى الدركات جهنم ، ثم لظى ، ثم الحُطَمَة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية ، وهي مقر المنافقين.

وروي عن أَبي هريرة ، وعن عبد الله بن مسعود ، وغيرهما أَنهم قالوا: المنافقون في الدرك الأَسفل من النار في توابيت من النار تقفل عليهم[١] ، والنصير: بناءُ مبالغة من النصر.

ثم استثنى عز وجل التائبين من المنافقين ، ومن شروط التائب أَن يصلح في قوله وفعله ، ويعتصم بالله ، أَي: يجعله منعته وملجأَه ، ويخلص دينه لله تعالىٰ ، وإِلا فليس بتائب ، وقال حذيفة بن اليمان بحضرة عبد الله بن مسعود: «والله ليدخلن الجنة قوم كانوا منافقين» ، فقال عبد الله بن مسعود: «وما علمك بذلك»؟ فغضب حذيفة وتنحى ، فلما تفرقوا مرَّ به علقمة فدعاه وقال: أَما إِن صاحبكم يعلم الذي قلت ، ثم تلا ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ﴾ الآية ، وأَخبر الله تعالىٰ أَنهم مع المؤمنين في رحمة الله ، وفي منازل الجنة ، ثم وعد المؤمنين الأجر العظيم.

وحذفت الياءُ من: ﴿يُؤْتِ﴾ في المصحف تخفيفاً ، قال الزجاج: لسكونها وسكون اللام في ﴿ٱللَّهُ﴾ ، كما حذفت من قوله: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾[٢] ، وكذلك: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾[٣] ، وأَمثال هذا كثير ، والأَجر العظيم: التخليد في الجنة.

ثم قال تعالىٰ للمنافقين: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾ الآية ، أَي: أَيُّ منفعة له في ذلك أَو حاجة؟ والشكر على الحقيقة لا يكون إِلا مقترناً بالإِيمان ، لكنه ذكر الإِيمان تأْكيداً وتنبيهاً على جلالة موقعه ، ثم وعد الله تعالىٰ بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أَي: يتقبل أَقل شيءٍ من العمل ويُنَمِّيه ، فذلك شكر منه لعباده ، والشكور من البهائم الذي يأْكل قليلاً ويظهر به بدنه ، والعرب تقول في مثل: «أَشكر من بَرْوَقَة»[٤] ،

---

(١) أَخرجه عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عن أبي حاتم عن أبي هريرة ، وأخرجه الفريابي وابن أبي شيبة ، وهناد ، وابن أبي الدنيا ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم في صفة النار عن ابن مسعود (الدر المنثور ٢ ـ ٣٣٦).

(٢) من قوله تعالىٰ من سورة ق الآية (٤١): ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

(٣) العلق: ١٨.

(٤) البَرْوَقُ: ما يكسو الأرض من أول خضرة النبات ، وقيل: هي بقلة سوء تنبت في أول البقل لها قصبة مثل السياط وثمرة سوداء ، واحدها: بَرْوَقة ، وتقول العرب: هو أَشكر من بَرْوَق ، وذلك أَنه يعيش بأدنى ندىً يقع من السماء ، وقيل: لأنه يخضر إذا رأى السحاب ، ويقال أيضاً: «أضعف من بَرْوَقة» قال جرير:

كـأن سُيـوفَ التَّيْـم عِيـدانُ بَـرْوَقٍ … إذا نُضِيَـتْ عنهـا لحَـرْبٍ جُفُـونهـا =

لأنها ـ يقال ـ تَخْضَرُّ وتنْضُر بظل السحاب دون مطر ، وفي قوله: ﴿ عَلِيمًا ﴾ تحذير وندب إلى الإخلاص.

قوله تعالىٰ:

﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾.

المحبة في الشاهد إرادة يقترن بها استحسان وميل اعتقاد ، فتكون الأَفعال الظاهرة من المحب بحسب ذلك ، والجهر بالسوءِ من القول لا يكون من الله تعالىٰ فيه شيءٍ من ذلك ، أَما إِنه يريد وقوع الواقع منه ولا يحبه هو في نفسه.

والجهر: كشف الشيءِ ، ومنه الجَهْرة في قول الله تعالىٰ: ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾[(1)] ، ومنه قولهم: «جهرت البئر» إِذا حفرت حتى أَخرجَت ماءها. واختلف القراءُ في قوله تعالىٰ: ﴿ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ ، وقراءَة جمهور الناس بضم الظاءِ وكسر اللام ، وقرأَ ابن أَبي إِسحاق ، وزيد بن أَسلم ، والضحاك بن مزاحم ، وابن عباس ، وابن جبير ، وعطاءُ بن السائب ، وعبد الأَعلى بن عبد الله بن مسلم بن يسار ، ومسلم بن يسار ، وغيرهم: ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ﴾ بفتح الظاءِ واللام ، واختلف المتأَولون على القراءَة بضم الظاءِ ـ فقالت فرقة: المعنى: لا يُحب الله أَن يجهر أَحد بالسوءِ من القول إِلا من ظُلم فلا يكره له الجهر به ، ثم اختلفت هذه الفرقة في كيفية الجهر بالسوءِ ، وما هو المباح من ذلك؟ ـ فقال الحسن: هوالرجل يظلم الرجل ، فلا يدع عليه ، ولكن ليقل: اللهم أَعني عليه ، اللهم استخرج لي حقي ، اللهم حُلْ بيني وبين ما يريد من ظُلمي. وقال ابن عباس وغيره: المباحُ لمن ظُلم أَن يدعو على من ظلمه ، وإِن صبر فهو أَحسن له ،

= والمثل: «أَشكر من بَرْوَقَة» يضرب لمن يقابل المعروف بالشكر والثناء العاجلين. أو لمن يمدح ويشكر لأقل نعمة يحصل عليها.

(١) النساء: ١٥٣ ، ومثلها قوله تعالىٰ في الآية (٥٥) في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ ، وقوله تعالىٰ في الآية (٤٧) في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

وقال مجاهد وغيره: هو في الضيف المحول رحله، فإنه يجهر للذي لم يكرمه بالسوءِ من القول، فقد رخص له أن يقول فيه، وفي هذا نزلت الآية، ومقتضاها ذكر الظلم وتَبْيين الظُّلامة في ضيافة وغيرها، وقال ابن عباس، والسدي: لا بأس لمن ظلم أن ينتصر ممن ظلمه بمثل ظلمه، ويجهر له بالسوءِ من القول.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذه الأَقوال على أَربع مراتب:

قول الحسن ـ دعاء في المدافعة، وتلك أَقل منازل السوءِ من القول.

وقول ابن عباس ـ الدعاءُ على الظالم بإطلاق في نوع الدعاءِ.

وقول مجاهد ـ ذكر الظُّلامة والظلم.

وقول السدي ـ الانتصار بما يوازي الظلامة.

وقال ابن المستنير: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ معناه: إلا من أُكره على أَن يجهر بسوءٍ من القول كفراً أَو نحوه، فذلك مباح، والآية في الإِكراه.

واختلف المتأَولون على القراءَة بفتح الظاءِ واللام ـ فقال ابن زيد: المعنى: إلا من ظَلَم في قول أَو فعل فاجْهروا له بالسوءِ من القول في معنى النهي عن فعله والتوبيخ والرد عليه، قال: وذلك أَنه لما أَخبر الله تعالىٰ عن المنافقين أَنهم في الدرك الأَسفل من النار، كان ذلك جهراً بالسوءِ من القول، ثم قال لهم بعد ذلك: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ الآية، على معنى التأْنيس والاستدعاءِ إلى الشكر والإِيمان، ثم قال للمؤمنين: لا يحب الله أَن يجهر بالسوءِ من القول إِلا لمن ظَلَمَ في إِقامته على النفاق، فإِنه يقال له: أَلست المنافق الكافر الذي لك في الآخرة الدرك الأَسفل؟ ونحو هذا من الأَقوال. وقال قوم: معنى الكلام: لا يحب الله أَن يجهر أَحد بالسوءِ من القول، ثم استثنى استثناءً منقطعاً، تقديره: لكن من ظَلَم فهو يجهر بالسوءِ وهو ظالم في ذلك.

وإِعراب [مَنْ] يحتمل في بعض هذه التأْويلات النصب، ويحتمل الرفع على البدل من (أَحد) المقدر[1]، وسميع عليم: صفتان لائقتان بالجهر بالسوءِ وبالظلم أَيضاً، فإِنه يعلمه ويجازى عليه.

---

(١) ناقشه أبو حيان في ذلك، وأثبت أنه لا يجوز. (البحر المحيط ٣ ـ ٣٨٤).

ولما ذكر تعالىٰ عذر المظلوم في أن يجهر بالسوءِ لظالمه أتبع ذلك عرض إبداءِ الخير وإخفائه، والعفو عن السُّوءِ، وَعَدَ عليه بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ وَعْدَ إِخْفَاءٍ تقتضيه البلاغة، ورغَّب في العفو إذ ذكر أنها صفته مع القدرة على الانتقام، ففي هذه الألفاظ اليسيرة معان كثيرة لمن تأملها.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ إلى آخر الآية نزل في اليهود والنصارى، لأنهم في كفرهم بمحمد عليه الصلاة والسلام كأنهم قد كفروا بجميع الرسل، وكفرهم بالرسل كفر بالله، وفرقوا بين الله ورسله في أنهم قالوا: نحن نؤمن بالله ولا نؤمن بفلان وفلان من الأنبياءِ، وقولهم: ﴿نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ قيل: معناه: من الأنبياءِ، وقيل: هو تصديق بعضهم لمحمد في أنه نبي، لكن ليس إلى بني إسرائيل، ونحو هذا من تفريقاتهم التي كانت تعنتاً وروغاناً، وقوله: ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين الإيمان والإسلام والكفر الصريح المجلَّح[1]، ثم أخبر تعالىٰ عنهم أنهم الكافرون حقاً، لئلا يظن أحد أن ذلك القدر الذي عندهم من الإيمان ينفعهم. وباقي الآية وعيد.

قوله تعالىٰ:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾﴾.

لما ذكر الله تعالىٰ أن المفرقين بين الرسل هم الكافرون حقاً، عقب ذلك بذكر المؤمنين بالله ورسله جميعاً، وهم المؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام، ليصرح بوعد هؤلاءِ كما صرح بوعيد أُولئك، فبيَّن الفرق بين المنزلتين، وقرأ بعض السبعة: ﴿سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ﴾ بالياءِ، أي: يؤتيهم الله، وقرأ الأكثر: [سَوفَ نُؤتِيهِم] بالنون، منهم ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو.

واختلف المتأولون في كيفية سؤال أهل الكتاب لمحمد عليه الصلاة والسلام أن

---

(١) المجَلِّح: القائم على الجرأة وركوب الرأس. (المعجم الوسيط).

ينزل عليهم كتاباً من السماء ـ فقال السدي: قالت اليهود: يا محمد، إن كنت صادقاً فجئ بكتاب من السماء كما جاءَ موسى بكتاب. وقال محمد بن كعب القرظي: قد جاءَ موسى بأَلواح فيها التوراة فجئ أنت بأَلواح فيها كتابك. وقال قتادة: بل سأَلوه أَن يأْتي بكتاب خاص لليهود، يأْمرهم فيه بالإيمان بمحمد، وقال ابن جريج: قالت اليهود: يا محمد: لن نتابعك على ما تدعونا إليه حتى تأْتينا بكتاب من عند الله إلى فلان وإلى فلان أَنك رسول الله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فقول ابن جريج يقتضي أَن سؤَالهم كان على نحو سؤال عبد الله بن أَبي أُمية المخزومي القرشي[1].

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ على جهة التسلية لمحمد عليه الصلاة والسلام، وعرض الأُسوة، وفي الكلام متروك يدل عليه المذكور، تقديره: فلا تبال يا محمد عن سؤالهم وتشَطُّطهم فإنها عادتهم، فقد سأَلوا موسى أَكبر من ذلك. وقرأَ جمهور الناس: ﴿أَكْبَرَ﴾ بالباءِ المنقوطة بواحدة، وقرأَ الحسن: [أَكْثر] بالثاءِ المثلثة. وجمهور المتأَولين على أَن ﴿جَهْرَةً﴾ معمول لـ ﴿أَرِنَا﴾ أَي: حتى نراه جهاراً، أَي: عياناً رؤْيا منكشفة بيِّنة، وروي عن ابن عباس أَنه كان يرى أَن ﴿جَهْرَةً﴾ معمول لـ [قالوا]، أَي: قالوا جهْرةً منهم وتصريحاً: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَهل السُّنَّة معتقدون أَن هؤلاءِ لم يسأَلوا محالا عقلا، لكنه محال من جهة الشرع، إذ قد أَخبر الله تعالىٰ على أَلسنة أَنبيائه أَنه لا يُرى في هذه الحياة الدنيا، والرؤْية في الآخرة ثابتة عن النبي صلوات الله وسلامه عليه بالخبر المتواتر[2] وهي

---

(١) اسمه: حذيفة، وقيل: سهل بن المغيرة، صهر النبي ﷺ، وابن عمته عاتكة، وأخو أُم سلمة، قال البخاري: له صحبة، وله ذكر في الصحيحين من طريق زينب بنت أبي سلمة، شهد فتح مكة وحنيناً والطائف، ورمي يوم الطائف بسهم فقتله.

(٢) أحاديث الرؤية يوم القيامة متواترة، فقد وردت بطرق كثيرة عن جمع كثير من الصحابة ـ ومنها: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربَّنَا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تُضَارُونَ في رؤية القمر ليلة البدر»؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: «هَل تُضَارُون في الشمس ليس=

جائزة عقلا دون تحديد ولا تكييف ولا تحيُّز ، كما هو تعالى معلوم لا كالمعلوماتْ ، كذلك هو مرئي لا كالمرئيات. هذه حجة أَهل السُّنَّة وقولهم ، ولقد حدثني أَبي رضي الله عنه ، عن أَبي عبد الله النحوي أَنه كان يقول عند تدريس هذه المسأَلة: مثال العلم بالله حَلَق لِحَى المعتزلة في إِنكارهم الرؤْية[1] ، والجملة التي قالت: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ هي التي مضت مع موسى لحضور المناجاة ، وقد تقدم قصصها في سورة البقرة.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ ، وقرأَ أَبو عبد الرحمن السلمي ، وإِبراهيم النخعي: [الصَّعْقَة] ، والمعنى يتقارب ، إِذ ذلك كله عبارة عن الوَقْع الشديد من الصوت يصيب الإِنسان بشدته وهو له خمود وركود حواس ، وظلمهم هو تَعَنُّتهم وسؤالهم ما ليس لهم أَن يسأَلوه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ ترتيب في الإِخبار لا في نفس الأَمر ، التقدير: ثم قد كان من أَمرهم أَن اتخذوا العجل ، وذلك أَن اتخاذ العجل كان عند أَمر المضي للمناجاة ، فلم يكن الذين صُعقوا ممن اتخذوا العجل ، لكن الذين اتخذوه كانوا قد جاءَتهم البينات في أَمر إِجازة البحر ، وأَمر العصا ، وغرق فرعون ، وغير ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ يعني بما امتحنهم به من القتل لأَنفسهم ، ثم وقع العفو عن الباقين منهم ، والسلطان: الحجة[2].

قوله تعالىٰ:

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾.

﴿ٱلطُّورَ﴾: الجبل اسم جنس ، وهذا قول. وقيل: الطور: كل جبل غير منبت ،

= دونها سحاب»؟ قالوا: لا ، قال: «فإنكم ترونه كذلك». ـ والحديث طويل ـ رواه البخاري ومسلم.

(١) يريد أن هذه الحجة أعجزتهم ، وكشفت موقفهم ، وأظهرت عجزهم عن الرد ، فرؤية الله تعالىٰ بدون كيف ولا تحديد تماثل علمنا به سبحانه وتعالىٰ بدون تحديد ولا تكييف ، واللحى: جمع لحية.

(٢) والحجة هنا هي الآيات التي جاء بها وسبقت الإشارة إليها ، وسميت سلطاناً لأن من جاء بها قاهر بالحجة ، وهي قاهرة للقلوب التي تعلم أنه ليس في قوى البشر أن يأتوا بمثلها.

وبالشام جبل قد عرف بالطور ، ولزمه الاسم ، وهو طور سيناء ، وليس بالمرفوع على بني إسرائيل ، لأَن رفع الجبل كان فيما يلي فحص التيه من جهة ديار مصر ، وهم ناهضون مع موسى عليه السلام ، وقدتقدم في سورة البقرة قصص رفع الطور. وقوله ﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ أي: بسبب ميثاقهم أَن يعطوه في أَخذ الكتاب بقوة ، والعمل بما فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ هوباب بيت المقدس المعروف بباب حطة ، أمروا أَن يتواضعوا شكراً لله تعالىٰ على الفتح الذي منحهم في تلك البلاد ، وأَن يدخلوا باب المدينة سجداً ، وهو نوع من سجدة الشكر التي قد فعلها كثير من العلماء ، ورويت عن النبي ﷺ ، وإن كان مالك بن أَنس رحمه الله لا يراها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أَي: على الحيتان وفي سائر الأَعمال ، وهؤلاءِ كانوا بأَيْلَة من ساحل البحر ، فأُمروا بالسكون عن كل شغل في يوم السبت فلم يفعلوا ، بل اصطادوا وتصرفوا ، وقد تقدم قصص ذلك ، وأَخذ الله تعالىٰ منهم الميثاق الغليظ هو على لسان موسى وهارون وغيرهما من الأَنبياءِ ، أَي: بأَنهم يأْخذون التوراة بقوة ويعملون بجميع ما فيها ، ويوصلونه إِلى أَبنائهم ، ويؤدون الأَمانة فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ الآية ، إِخبار عن أَشياءَ واقعوها هي في الضد مما أُمروا به ، وذلك أَن الميثاق الذي رفع الطور من أَجله نقضوه ، والإيمان الذي تضمنه ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ ، إِذْ ذلك التواضع إِنما هو ثمرة الإِيمان والإِخبات جعلوا بدله كفرهم بآيات الله ، وقولهم: «حبة في شعرة وحنطة في شعيرة» ، ونحو ذلك مما هو استخفاف بأَمر الله وكفر به ، وكذلك أُمروا بأَلا يعتدوا في السبت ، وفي ضمن ذلك الطاعة وسماع الأَمر ، فجعلوا بدل ذلك الانتهاءَ إِلى انتهاك أَعظم حرمة ، وهي قتل الأَنبياءِ ، وكذلك أَخذ الميثاق الغليظ منهم تضمن فهمهم بقدر ما التزموه ، فجعلوا بدل ذلك تجاهلهم. وقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أَي: هي في حجب وغلف[1] ، فهي لا تفهم ، وأَخبر الله تعالىٰ أَن ذلك كله عن طبع منه على قلوبهم ، وأَنهم كَذَبَة فيما يدعونه من قلة الفهم.

---

(١) يُقال: غلفَ قلبه: لم يعِ الرشد كأن عليه غلافاً فهو أغلف ـ وجمع أَغْلَف: غُلْفٌ ، أي: قلوبنا في أغطية فلا نفقه ما تقول ، وهذا هو المعنى الذي وضحه ابن عطيّة ، وقال القرطبي: «غُلف جمع غِلاف ، أي: قلوبنا في أوعية للعلم فلا حاجة بنا إلى علم سوى ما عندنا».

وقرأ نافع: [تَعْدُّوا] بسكون العين وشد الدال المضمومة[١]، وروى عنه ورش: [تَعَدُّوا] بفتح العين وشد الدال المضمومة[٢]، وقرأ الباقون: ﴿لَا تَعْدُواْ﴾ ساكنة العين خفيفة الدال مضمومة، وقرأ الأعمش، والحسن: [لا تعْتَدُوا].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا﴾، (ما) زائدة مؤكدة، التقدير: فبنقضهم، وحذف جواب هذا الكلام بليغ متروك مع ذهن السامع، تقديره: لعناهم وأذللناهم، وحتَّمنا على الموافين منهم الخلود في جهنم[٣].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ أي: في أمر عيسى عليه السلام، ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا﴾ يعني رميهم إيَّاها بالزنى مع رؤيتهم الآية في كلام عيسى في المهد، وإلا فَلَوْلا الآية لكانوا في قولهم جارين على حكم البشر في إنكار حمل من غير ذكر. والبُهتان: مصدر، من قولك: بَهَته إذا قابله بأمرٍ مُبهت يحار معه الذهن، وهو رميٌ بباطِلٍ.

قوله تعالىٰ:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾.

هذه الآية والتي قبلها عدد الله تعالىٰ فيها أقوال بني إسرائيل وأفعالهم على اختلاف الأزمان، وتعاقبُ القرون، فاجتمع من ذلك توبيخ خلفهم المعاصرين لمحمد ﷺ، وبيان الحجة في أن وجبت لهم اللعنة، وضربت عليهم الذلة والمسكنة، فهذه الطائفة التي قالت: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ﴾ غير الذين نقضوا الميثاق في الطور، وغير الذين اتخذوا العجل، وقول بني إسرائيل إنما هو إلى قوله: ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ وقوله عز وجل:

---

(١) قال النحاس: «ولا يجوز إسكان العيْن، ولا يوصل إلى الجمع بين ساكنين في هذا، والذي يقرأُ بها إنما يروم الخطأ. (عن القرطبي).

(٢) فهي ـ على هذا ـ من: عَدَا يَعْدُو عَدْواً وعُدْواناً وعُدُوّاً وعداءً، وكان عدوانهم باقتناص الحيتان يوم السبت. قال ذلك القرطبي.

(٣) ناقشه صاحب البحر في ذلك فقال: «وتسميته ما يتعلق به المجرور جواباً اصطلاح لم يُعهد في علم النحو، ولا تساعده اللغة، لأنه ليس بجواب».

﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ إنما هو إخبار من الله تعالىٰ بصفة لعيسى وهي الرسالة ، على جهة إظهار ذنب هؤلاءِ المقرين بالقتل ، ولزمهم الذنب وهم لم يقتلوا عيسى لأنهم صلبوا ذلك الشخص على أنه عيسى ، وعلى أن عيسى كذاب ليس برسول ، ولكن لزمهم الذنب من حيث اعتقدوا أن قتلهم وقع في عيسى فكأنهم قتلوه ، وإذا كانوا قتلوه فليس يرفع الذنب عنهم اعتقادهم أنه غير رسول ، كما أن قريشاً في تكذيبهم رسول الله ﷺ لا ينفعهم فيه اعتقادهم أنه كذاب ، بل جازاهم الله على حقيقة الأمر في نفسه ، ثم أخبر تعالىٰ أن بني إسرائيل ما قتلوا عيسى ولا صلبوه ، و﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ، واختلفت الرواة في هذه القصة وكيفيتها اختلافاً شديداً أنا أختصر عيونه ، إذ ليس في جميعه شيءٌ يقطع بصحته ، لأنه لم يثبت عن النبي ﷺ فيه شيءٌ ، وليس لنا متعلق في ترجيح شيءٍ منه إلا ألفاظ كتاب الله. فالذي لا نشك فيه أن عيسى عليه السلام كان يسيح في الأرض ، ويدعو إلى الله ، وكانت بنو إسرائيل تطلبه ، وملكهم في ذلك الزمان يجعل عليه الجعائل ، وكان عيسى عليه السلام قد انضوى إليه الحواريون يسيرون معه حيث سار ، فلما كان في بعض الأوقات شعر بأمر عيسى عليه السلام ، فروي أن أحد الحواريين أُرشي[1] عليه فقبل الرِّشوة ودلَّ على مكانه فأُحيط به ، ثم ندم ذلك الحواري وخنق نفسه ، ورُوي أن رجلاً من اليهود جُعل له جُعْل فما زال ينقر عليه حتى دلَّ على مكانه ، فلما أحسَّ عيسى عليه السلام وأصحابه بتلاحق الطالبين بهم دخلوا بيتاً بمرأى من بني إسرائيل ، فروي أنهم عدُّوهم ثلاثة عشر ، وروي ثمانية عشر ، وحُصروا ليلاً ، فروي أن عيسى عليه السلام فرق الحواريين عن نفسه تلك الليلة ، ووجَّههم إلى الآفاق ، وبقي هو ورجل معه ، فرفع عيسى وأُلقي شبهه على الرجل ، فصلب ذلك الرجل ، وروي أن الشبه أُلقي على اليهودي الذي دلَّ عليه فصلب ، وروي أن عيسى عليه السلام لما أُحيط بهم قال لأصحابه: أيكم يلقى شبهي عليه فيقتل ويخلص هؤلاء وهو رفيقي في الجنة؟ فقال سرجس: أنا ، وأُلقي عليه شبه عيسى ، وروي أن شبه عيسى عليه السلام أُلقي على الجماعة كلها ، فلما أخرجهم بنو إسرائيل نقص واحد من العدة ، فأخذوا واحداً ممن أُلقي عليه الشبه حسب هذه الروايات التي ذكرتها ، فصلب ذلك الشخص ، وروي أن الملك والمتناولين لم يخف عليهم أمر رفع عيسى عليه السلام لما

---

(١) لعلَّ الصواب: رُشي ، لأن المادة ثلاثية.

رأوا أَمر نقصان العدد واختلاط الأَمر ، فصلب ذلك الشخص ، وأُبعد الناس عن خشبته أَياماً حتى تغيَّر ولم تثبت له صفة ، وحينئذ دنا الناس منه ، ومضى الحواريون يحدثون بالآفاق أَن عيسى صلب ، فهذا أَيضاً يدل على أَنه فرقهم وهو في البيت ، أَو على أَن الشبه أُلقي على الكل ، وروي أَن هذه القصة كلها لم يكن فيها إِلقاءُ شبه شخص عيسى على أَحد ، وإِنما المعنى: ولكن شبه لهم ، أَي: شبه عليهم الملك الممخرق(١) ليستديم ملكه ، وذلك أَنه لما نقص واحد من الجماعة وفقد عيسى عمد إِلى أَحدهم ، وبطش بصلبه ، وفرق الناس عنه وقال: هذا عيسى قد صلب وانحل أَمره.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ يعني: اختلاف المحاولين لأَخذه ، لأَنهم حين فقدوا واحداً من العدد ، وتُحُدِّثَ برفع عيسى اضطربوا واختلفوا. وعلى رواية من روى أَنه أُلقي شَبَهٌ يوشك أَنه بقي في ذلك الشبه مواضع للاختلاف ، لكن أَجمعوا على صلب واحدٍ على غير ثقة ولا يقين أَيهم هو.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فاليقين الذي صحَّ فيه نقل الكافة عن حواسها هو أَن شخصاً صُلب ، وأَما ، هل هو عيسى أَم لا؟ فليس هو من علم الحواس ، فلذلك لم ينفع في ذلك نقل كافة اليهود والنصارى ، ونفى الله عنهم أَن يكون لهم في أَمره علْم على ما هو به.

ثم استثنى اتباع الظن ، وهو استثناءٌ متصل ، إِذ الظن والعلم يضمهما جنس أَنهما من معتقدات النفس ، وقد يقول الظانُّ على طريق التَّجَوُّز: علمي في هذا الأَمر أَنه كذا ، وهو يعني ظَنَّه(٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ ، اختلف المتأَولون في عود الضمير من ﴿قَتَلُوهُ﴾ ـ

---

(١) قال في لسان العرب: «وقال الليث ، خَرِقَ الرَّجُلُ إذا بقي متحيراً من همٍّ أو شِدَّةٍ ، وأخْرَقَه الخوف». وقال أيضاً: «والخَرق بالتحريك: الدَّهَشُ من الفزع أو الحياء ، وقد أخرقته أي: أدهشته» ، فالمعنى المراد هو وصف الملك بالدهشة والحيرة مما رأى ، ولكن يظهر أن الكلمة الصحيحة هنا هي: «الملك المخرق» بميم واحدة.

(٢) عقب على ذلك أبو حيان في (البحر المحيط) فقال: «وليس كما ذكر ، لأن الظن ليس من معتقدات اليقين ، لأنه ترجيح أحد الجائزين ، وما كان ترجيحاً فهو ينافي اليقين ، كما أن اليقين ينافي ترجيح أحد الجائزين ، وعلى تقدير أن الظن والعلم يضمهما ما ذكر فلا يكون أيضاً استثناءً متصلاً ، لأنه لم يستثن الظن من العلم ، بل استثنى اتباع الظن» ١ هـ.

فقالت فرقة: هو عائد على الظن، كما تقول: قتلت هذا الأمر علماً، فالمعنى: وما صحَّ ظنُّهم عندهم ولا تَحَقَّقُوهُ يقيناً، هذا قول ابن عباس، والسدي، وجماعة، وقال قوم: الضمير عائد على عيسى عليه السلام، أخبر أنهم لم يقتلوه يقيناً فيصح لهم الإصفاق[1]، ويثبت نقل كافتهم. ومضمن الكلام أنهم ما قتلوه في الحقيقة جملة واحدة، لا يقيناً ولا شكاً، ولكن لما حصلت في ذلك الدعوى صار قتله عندهم مشكوكاً فيه، وقال قوم من أهل اللسان: الكلام تامٌّ في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾. و﴿يَقِينًا﴾ مصدرٌ مؤكد للنفي في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾، المعنى: يخبركم يقيناً، أو يقص عليكم يقيناً، أو أيقنوا بذلك يقيناً.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ يعني: إلى سمائه وكرامته، وعيسى عليه السلام حيٌّ في السماء الثانية على ما تَضَمَّنَهُ حديث الإسراءِ في ذكر ابني الخالة عيسى ويحيى، ذكره البخاري في حديث المعراج[2] وذكره غيره، وهو هنالك مقيم حتى ينزله الله لقتل الدجال، وليملأ الأرض عدلاً، ويحيا فيها أربعين سنة، ثم يموت كما يموت البشر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾، اختلف المتأولون في معنى الآية ـ فقال ابن عباس، وأبو مالك، والحسن بن أبي الحسن، وغيرهم: الضمير في ﴿مَوْتِهِۦ﴾ راجع إلى عيسى، والمعنى: إنه لا يبقى من أهل الكتاب أحد إذا نزل عيسى إلى الأرض إلا يؤمن بعيسى كما يؤمن سائر البشر، وترجع الأديان كلها واحداً، وقال مجاهد، وابن عباس أيضاً، وغيرهما: الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ لعيسى، وفي ﴿مَوْتِهِۦ﴾ للكتابي الذي تضمنه قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، التقدير: وإن من

---

(١) أَصْفَقُوا على الأمر: اجتمعوا عليه، وأَصفقوا على الرجل كذلك، قال زهير:

رأيتُ بَنِي آلِ امرئ القَيْسِ أَصفَقُو ... علينا، وقالوا: إننا نحن أكْثَرُ

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «فَأَصْفقت له نِسْوان مكة»، أي: اجتمعت إليه ـ فيكون معنى كلام ابن عطية: «لم يقتلوه يقيناً فيصح لهم الاجتماع على هذا الرأي، ويثبت نقل كافتهم».

(٢) جاء في حديث المعراج كما رواه البخاري عن مالك بن صعصعة: «ثم صعد حتى أتى السماء الثانية: فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، فَنِعْمَ المجيءُ جاء، ففتح، فلما خلصْتُ إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسَلَّمت فردًا ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح». إلخ الحديث وهو طويل.

أَهل الكتاب أَحد[(١)] ، قالوا: وليس يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى روح الله ، ويعلم أَنه نبي ، ولكن عند المعاينة للموت ، فهو إِيمان لا ينفعه ، كما لم ينفع فرعون إِيمانه عند المعاينة ، وقال هذا القول عكرمة ، والضحاك ، والحسن بن أَبي الحسن أَيضاً ، وقال عكرمة أَيضاً: الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وفي ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ للكتابي ، قال: وليس يخرج يهودي ولا نصراني من الدنيا حتى يؤمن بمحمد ، ولو غرق أَو سقط عليه جدارٌ فإنه يؤمن في ذلك الوقت ، وفي مصحف أُبي بن كعب: [قَبْلَ مَوْتِهِم] ففي هذه القراءَة تقوية لعود الضمير على الكتابي ، وقرأَ الفياض بن غزوان: [وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكتابِ] بتشديد [إِن] ، والضمير المستتر في ﴿يَكُونُ﴾ هو لعيسى عليه السلام في جُلِّ الأَقوال ، ولمحمد عليه الصلاة والسلام في قول عكرمة.

قوله تعالىٰ:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ عطف على قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ ، كأَنه قال: فَبِنَقْضهم لَعَنَّاهم وأَوجَبْنا عذابهم ، فَبظُلم منهم حرَّمنا عليهم المطاعم. وجعل الله هذه العقوبة الدنيوية إِزاءَ ظلم بني إِسرائيل في تعنُّتهم وسائر أَخلاقهم الذميمة. والطيبات هنا هي الشحوم وبعض الذبائح والطير والحوت وغير ذلك ، وقرأَ ابن عباس: [طَيِّبَاتٍ «كَانَتْ» أُحِلَّت لَهُمْ].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ يحتمل أَن يريد صدهم في ذاتهم ، ويحتمل أَن يريد صدهم غيرهم ، وإِلى هذا ذهب الطبري ، وقال: هو جحدهم أَمر محمد ﷺ ، فإنهم صدُّوا بذلك جمعاً عظيماً من الناس عن سبيل الله ، و﴿وَأَخْذِهِمُ

---

(١) هذا هو تقدير سيبويه للآية ، أما الكوفيون فيقدرونها: وإن مِنْ أهل الكتاب إلا مَنْ ليؤمنن به ، قالوا: وفيه قبح ، لأن فيه حذف الموصول ، والصلة بعض الموصول ، فكأن فيه حذف بعض الاسم ، هذا ومثل هذه الآية آيات أُخرى كثيرة ، منها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ ، والتقدير فيهما: وما أحد منكم إلا واردها ، وما أحدٌ منا إلا له مقام معلوم.

﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾ هو الدرهم بدرهمين إلى أَجل ونَحو ذلك مما هو مفسدة، وقد نهوا عنه فشرعوه لأَنفسهم واستمروا عليه، من ذلك، ومن كراءِ العين ونحوه، وأَكلُ أَموال الناس بالباطل: هو الرِّشا، ثم استثنى الله تعالىٰ من بني إسرائيل الراسخين في علم التوارة الذين قد تحققوا أَمر محمد عليه الصلاة والسلام وعلاماته، وهم: عبد الله بن سلام، ومخيريق[١]، ومن جرى مجراهما، و﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على «الراسخين» وما أُنزل إلى محمد عليه الصلاة والسلام: هو القرآن، والذي أُنزل من قبله: هو التوراة والإنجيل.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾، وكيف خالف إعرابها إعراب ما تقدم وتأَخر ـ فقال أَبان بن عثمان بن عفان[٢]، وعائشة رضي الله عنها: ذلك من خطإِ كاتب المصحف، وروي أَنها في مصحف أُبي بن كعب: [والمُقيمونَ]، وقد روي أَنها فيه ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ كما هي في مصحف عثمان رضي الله عنه. قال الفراءُ: وفي مصحف ابن مسعود: [والمُقيمون]، وكذلك روى غصمة عن الأَعمش، وكذلك قرأَ سعيد بن جبير، وكذا قرأَ عمرو بن عبيد الجحدري، وعيسى بن عمر، ومالك بن دينار، وكذلك روى يونس، وهارون عن أَبي عمرو. وقال آخرون: ليس ذلك من خطإِ الكاتب، ولا خَطَأً في المصحف، وإنما هذا من قطع النعوت إذا كثرت على النصب بـ (أَعني)، والرفعُ بعد ذلك بـ (هم)، وذهب إلى هذا المعنى بعض نحويي الكوفة والبصرة، وحكي عن سيبويه: أَنه قطع على المدح، وخبر ﴿لَّٰكِنِ﴾ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، لأَن المدح لا يكون إلا بعد تمام الجملة الأُولى، وهذا كقول خرنق بنت هفان:

لا يَبْعدنْ قَومي الذينَ هُمُ ... سُمُّ الْعُداةِ وَآفَةُ الجُزْرِ

---

(١) عبد الله بن سلام: يكنى أبا يوسف الإسرائيلي من ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام، وكان حليفاً لبني عوف بن الخزرج، وهو أحد الأحبار، وأحد من شهد له النبي ﷺ بالجنة، روى عنه ابناه يوسف وغيرهما، مات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين للهجرة ـ وسلام بتخفيف اللام. ومُخَيْريق: كان من علماء اليهود وأحبارهم، وكان غنياً كثير الأموال، أسلم وأوصى بأمواله للنبي ﷺ، مات في غزوة أُحد.

(٢) هو أَبان بن عثمان بن عفان القرشي، من أهل المدينة، تابعي، سمع أباه وغيره من الصحابة، وله روايات كثيرة، وروى عنه الزهري، مات بالمدينة زمن يزيد بن عبد الملك. (وأبان) بفتح الهمزة وتخفيف الباء الموحدة.

النَّــــازِلِيــــنَ بِكُــــلِّ مُعْتَــــرَكٍ   والطَّيِّبُــــونَ مَعَــــاقِــــدَ ٱلأُزُرِ(١)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد فُرِّق بين البيت والآية بحرف العطف الذي في الآية، فإنه يمنع عند بعضهم تقدير الفعل، وفي هذا نظرٌ(٢).

وقال قوم: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ ليس بعطف على قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، ولكن على ـ ما ـ في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، والمعنى: ويؤمنون بالمقيمين الصلاة وهم الملائكة، وقال بعضهم: بل من تقدم من الأنبياءِ، قالوا: ثم رجع بقوله: ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ﴾ فعطف على قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. وقال قوم: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ عطف على ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾، والمراد بهم المؤمنون بمحمد، أي: يؤمن الراسخون بهم وبما هم عليه، ويكون قوله: ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ﴾ أي: وهم المؤتون، وقال قومٌ: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ عطفٌ على الضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾، وقال آخرون: بل على الكاف في قوله: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ ويعني الأنبياء، وقرأت فرقة: ﴿سَنُؤْتِيهِمْ﴾ بالنون، وقرأت فرقة [سَيُؤْتِيهِمْ] بالياءِ(٣).

---

(١) البيتان لخرنق بنت هفان وقيل: (عفان) ـ من بني قيس، تصف قومها بالظهور على العدو، ونحر الجزر للأضياف، والملازمة للحرب، والعفة عن الفواحش، وقراءة نصب ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ فيها أقوال كثيرة، أقربها إلى الصواب قول سيبويه بأنه نصب على المدح، أي: وأعنى المقيمين، قال سيبويه: هذا باب ما ينتصب على التعظيم، ومن ذلك ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وأنشد (وهما لابن الخيّاط):

وكُــلُّ قَــوْم أَطَــاعُــوا أَمْــرَ سَيِّــدِهِــمْ   إلا نميــراً أطــاعَــتْ أمــر عــاويهَــا
الظَّــــاعِنيــــنَ ولمَّــــا يُظْعِنُــــوا أحــداً   والقــائلــون: لِمَــنْ دَارٌ نُخَلِّيهَــا؟

وأنشد أيضاً:

لا يَبْعَــدَنْ قَــوْمِــي الَّــذيــن هُــمُ   . . . . إلــــخ

قال النحاس: وهذا أصح ما قيل في ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾. أما بقية الأقوال فقد ذكرها ابن عطية كما ترى.

(٢) علّق على ذلك أبو حيان في (البحر المحيط) بعد أن نقله عن ابن عطية ـ فقال: إن مَنَع ذلك أَحدٌ فهو محجوج بثبوت ذلك في كلام العرب مع حرف العطف، ولا نظر في ذلك كما قال ابن عطية، قال الشاعر:

ويَــأوي إلــى نِسْــوَةٍ عُطَّــلٍ   وشُعْــث مــراضيــع مثــل السَّعــالــي

(٣) القراءة بالياء عودٌ على قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾. وهي قراءة حمزة، أما القراءة بالنون فهي لباقي السبعة وهي على الالتفات، ومناسبة ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾. عن (البحر المحيط).

قوله تعالىٰ:

﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ .

روي عن عبد الله بن عباس أن سبب هذه الآية أن سُكَيْنا الحبر ، وعَدِيَّ بن زيد قالا: يا محمد ، ما نعلم أن الله أنزل على بشر شيئاً بعد موسى ، ولا أَوحى إِليه ، فنزلت هذه الآية تكذيباً لقولهما .

وقال محمد بن كعب القرظي: لما أَنزل الله: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾ إلى آخر الآيات ، فتليت عليهم وسمعوا الخبر بأَعمالهم الخبيثة قالوا: ما أَنزل الله على بشر من شيءٍ ، ولا على موسى ، ولا على عيسى ، وجحدوا جميع ذلك ، فأَنزل الله: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ ﴾(١) .

والوحي: إِلقاءُ المعنى في خفاءٍ ، وعرفه في الأَنبياءِ بواسطة جبريل عليه السلام ، وذلك هو المراد بقوله: ﴿ كَمَآ أَوْحَيْنَآ ﴾ أَي: بِمَلَك ينزل من عند الله ، ونوح: أَول الرسل في الأَرض إلى أُمة كافرة ، وصرف نوح مع العجمة والتعريف لخفته ، وإِبراهيم عليه السلام: هو الخليل ، وإِسماعيل عليه السلام: ابنه الأَكبر ، وهو الذبيح في قول المحققين ، وهو أَبو العرب ، وإِسحاق: ابنه الأَصغر ، ويعقوب: هو ولد إِسحاق ، وهو إِسرائيل. والأَسباط: بنو يعقوب يوسف وإِخوته ، وعيسى: هو المسيح ، وأَيوب: هو المبتلى الصابر ، ويونُس هو ابن متَّى ، وروى ابن جمَّاز عن نافع: [يونِس] ـ بكسر النون ـ وقرأَ ابن وثّاب ، والنَّخَعي بفتحها ، هي كلها لغات. وهارون: هو ابن عمران. وسليمان: هو النبي الملك ، وداود أَبوه. وقرأَ جمهور الناس: ﴿ زَبُورًا ﴾ بفتح الزاي ، وهو اسم كتاب داود تخصيصاً ، وكل كتاب في اللغة فهو زبورٌ من حيثُ تقول: زبَرْتُ الكتاب إِذا كَتَبْتَه. وقرأَ حمزة وحده [زُبُوراً] بضم الزاي ، قال أَبو علي: يحتمل أَن يكون جمع: زَبر(٢) ، أُوقع على المزبور اسم الزبر

---

(١) الأنعام: ٩١.

(٢) الزَّبْر: الكتابة ، والزَّبُور: بمعنى المزبور ، أي: المكتوب كالرَّسول والرَّكوب والحَلوب ، وقراءة=

كما قالوا: ضَرْب الأمير، ونَسْج اليَمَن، وكما سُمِّي المكتوب كتاباً، ويحتمل أن يكون جمع زبور على حذف الزيادة، كما قالوا: ظريف وظروف[١]، وكَرَوَان وكِرْوَان، وَوَرَشان وَوِرْشان[٢]، ونحو ذلك مما يجمع بحذف الزيادة، ويُقوِّي هذا الوجه أَن التكسير مثل التصغير، وقد اطرد هذا المعنى في تصغير الترخيم نحو: أزهر وزهير، وحارث وحُريث، وثابت وثُبيت، فالجمع مثله في القياس وإن كان أَقل منه في الإستعمال.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ﴾ الآية. نصب ﴿وَرُسُلًا﴾ على المعنى، لأَن المعنى: إِنَّا أَرسلناك كما أَرسلنا نوحاً، ويحتمل أَن ينصب ﴿وَرُسُلًا﴾ بفعل مضمر، تقديره: أَرسلنا رسلا، لأَن الرد على اليهود إنما هو في إِنكارهم إِرسال الرسل والمراد الوحي، وفي حرف[٣] أُبي بن كعب: [وَرُسُلٌ] في الموضعين بالرفع على تقدير: هم رسلٌ، و﴿قَصَصْنَٰهُمْ﴾ معناه: ذكرنا أَسماءَهم وأَخبارهم، وقوله تعالىٰ: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ يقتضي كثرة الأَنبياءِ دون تحديد بِعَدَدٍ، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾[٥]، وما يذكر من عدد الأَنبياءِ فغير صحيح، والله أَعلم بعدتهم صلى الله عليهم[٦].

= حمزة [زُبُوراً] بالضم ـ يحتمل كما قال أبو علي أن تكون جمع زَبْر كَفَلْسٍ وفلُوس، ويحتمل أن يكون جمع زبور على حذف الزيادة، وكل كتاب زبور، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ ـ قال أَبو هريرة: الزَّبور: ما أُنزل على داود ـ من بعد الذكر: من بعد التوراة، ذلك لأن الزبور غلب على صحف داود عليه السلام.

(١) في بعض النسخ، وكذلك في (البحر المحيط): طريق وطروق.

(٢) الكَرَوَان: طائر طويل الرجلين، حسن الصوت، والوَرَشان: طائر من الفصيلة الحمامية، لكنه أكبر قليلاً من الحمامة.

(٣) أي: في قراءة أُبي بن كعب.

(٤) من قوله تعالىٰ في سورة فاطر: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَٰكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ الآية (٢٤).

(٥) من قوله تعالىٰ في سورة الفرقان: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ الآية (٣٨).

(٦) رويت أَحاديث كثيرة في عدد الأنبياء، ومنها ما أخرجه عبد بن حميد، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، وابن حبان في صحيحه، والحاكم، وابن عساكر ـ عن أَبي ذرٍّ قال: قلت: يا رسول، كم الأنبياء؟ قال: «مائة أَلف نبي وأربعة وعشرون أَلفاً» قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر، جم غفير»، ثم قال: «يا أبا ذر، أربعة سريانيون، آدم وشيث ونوح وخنوخ=

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ إخبارٌ بخاصة موسى، وأَن الله تعالىٰ شرفه بكلامه، ثم أَكَّدَ تعالىٰ الفعل بالمصدر، وذلك مبنيٌّ في الأَغلب عن تحقيق الفعل ووقوعه، وأَنه خارج عن وجوه المجاز والاستعارة، لا يجوز أَن تقول العرب: امتلأَ الحوض وقال قطني قولا[1]، فإنما تؤكد بالمصادر الحقائق، ومما شذ قول هند بنت النعمان بن بشير:

. . . . وعَجَّتْ عَجِيجاً مِنْ جُذَامَ المطَارِفُ[2]

وكلام الله للنبي موسى عليه السلام دون تكييف ولا تحديد ولا تجويز حدوث ولا حروف ولا أصوات، والذي عليه الراسخون في العلم أَن الكلام هو المعنى القائم في النفس، ويخلق الله لموسى أَو جبريل إدراكاً من جهة السمع يتحصل به الكلام،

= وهو إدريس، وهو أول من خط بقلم، وأربعة من العرب، هود وصالح وشعيب ونبيك، وأول نبي من أنبياء بني إسرائيل موسى، وآخرهم عيسى، وأول النبيين آدم، وآخرهم نبيك» ا هـ، قال في (الدر المنثور): «أخرجه ابن حبان في صحيحه، وابن الجوزي في الموضوعات، وهما في طرفي نقيض، والصواب أنه ضعيف لا صحيح ولا موضوع كما بينته في مختصر الموضوعات» ا هـ.

(١) «امتلأ الحوض وقال قطني» شطر بيت هو بتمامه قول الراجز:

امتَــلأَ الْحَــوضُ وقــال: قَطْنــي ... مهــلا رُوَيــداً، قَــدْ مَــلأت بَطْنــي

يستشهدون به على النون تزاد في (قط) لأنهم لم يريدوا أن يكسروا الطاءَ لئلا يجعلوها بمنزلة الأَسماء المتمكنة نحو: يدي، وإن قال بعضهم: إن (قطني) كلمة موضوعة لا زيادة فيها مثل: (حسبي)، قال ابن بري: «عنيّ ومنيّ وقطني ولدنيّ على القياس، لأن نون الوقاية تدخل الأفعال لتقيها الجر وتبقي على فتحتها». ـ وأما قول ابن عطية: «لا يجوز أَن تقول العرب: امتلأ الحوض وقال قطني قولا» فيقصد ما أجمع عليه النحويون من أنك إذا أكَّدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازاً، وأنك لا يصح في مثل قول الشاعر هذا: «امتلأ الحوض. . . إلخ» أن تقول: قال قولا، فكذلك لما قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ وجب أن يكون كلاماً على الحقيقة من الكلام الذي يُعْقَلُ ـ قاله النحاس، وحكاه القرطبي في تفسيره.

(٢) هذا هو الشطر الثاني من البيت، أما البيت بتمامه فهو:

بكَــى الخَــزُّ مِــنْ رَوح وأنكَــرَ جِلْــدَهُ ... وعَجَّــتْ عَجيجــاً مِــنْ جُــذام المطَــارِفُ

والخزُّ: ما ينسج من صوف وإبْرَيْسَم أو من إبْرَيْسَم خالص، وأَنْكَرَه: نَفَر منه، وعجَّ: رفع صوته بالشكوى، وجذام: قبيلة روح، والمطارف: جمع مُطْرَف ـ بضم الميم وسكون الطاء وفتح الراء ـ وهو رداء من خز مربع فيه علامات، والمعنى أن هذه القبيلة ليست أهلا للبس الخز والمطارف، ولذلك أنكر الخزُّ جلد روح وبكى حين لمسه، وكذلك ارتفع صوت المطارف صارخة من لبس جذام لها وهي غير أهل لمتعتها وترفها.

وكما أَن الله تعالىٰ موجود لا كالموجودات معلوم لا كالمعلومات ، فكذلك كلامه لا كالكلام ، وما روي عن كعب الأَحبار ، وعن محمد بن كعب القرظي ونحوهما من أَن الذي سمع موسى كان كأَشد ما يسمع من الصواعق ، وفي رواية أُخرى كالرعد الساكن ، فذلك كله غير مرضي عند الأُصوليين .

وقرأَ جمهور الأُمة: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ بالرفع في اسم الله ، وقرأَ يحيىٰ بن وثَّاب، وإِبراهيم النَّخعي: [وَكَلَّمَ اللهَ] بالنصب على أَن موسى هو المُكلِّمُ، وهي قراءَة ضعيفة من جهة الاشتهار ، لكنها مخرجة من عدة تأْويلات .

قوله تعالىٰ:

﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٦٩﴾ ﴾ .

﴿ رُّسُلٗا ﴾ بدلاً من الأَول قبلُ. و﴿ مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ حالان ، أَي: يبشرون بالجنة من آمن وأَطاع ، وينذرون بالنار من كفر وعصى ، وأَراد الله تعالىٰ أَن يقطع بالرسل احتجاج من يقول: لو بُعث إِلي لآمنت ، والله تعالىٰ عزيز ، لا يغالبه شيءٌ ، ولا حجة لأَحد عليه ، وهو ـ مع ذلك ـ حكيم ، تصدر أَفعاله عن حكمه ، فلذلك قطع الحجة ، فالرسل حكمة منه تعالىٰ(١) .

وقوله تعالىٰ: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ ﴾ الآية: سببها قول اليهود: ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ ﴾ ، وقال بعضهم لمحمد عليه الصلاة والسلام: ما نعلم يا محمد أَن الله أَرسل إِليك ولا أَنزل عليك شيئاً. وقرأَ أَبو عبد الرحمن السلمي ، والجراح الحكمي: [لكنَّ اللهَ يشهدُ] بِشَدِّ النون ونصب المكتوبة على اسم ﴿ لَّٰكِنِ ﴾ .

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ ﴾ ، هذه الآية من أَقوى متعلقات أَهل السُّنَّة في

---

(١) يؤيد هذا المعنى قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ ﴾ .

إثبات علم الله تعالىٰ خلافاً للمعتزلة في أنهم يقولون: عالم بلا علم، والمعنى ـ عند أَهل السُّنَّة ـ: أَنزله وهو يعلم إِنزاله ونزوله، ومذهب المعتزلة في هذه الآية أَنه أَنزله مقترناً بعلمه، أَي: فيه علمه من غيوب وأَوامر ونحو ذلك، فالعلم عبارة عن المعلومات التي في القرآن، كما هو في قول الخضر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إِلا ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، معناه: من علم الله الذي بث في عباده. وقرأَ الجمهور: [أَنْزَلَ] على بناءِ الفعل للفاعل، وقرأَ الحسن: [أُنْزِلَ] بضم الهمزة على بنائه للمفعول.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ تقوية لأَمر محمد عليه الصلاة والسلام، وردٌّ على اليهود، قال قتادة: شهود والله غير متهمة، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، تقديره: وكفى الله شهيداً، لكن دخلت الباءُ لتدل على أَن المراد: اكْتَفُوا بالله.

ثم أَخبر تعالىٰ عن الكافرين الذين يصدون عن سبيل الله أَنهم قد بعدوا عن الحق، وضلوا ضلالاً بعيداً، لا يقرب رجوعهم عنه، ولا تخلصهم منه، وقرأَ عكرمة، وابن هرمز: [وَصُدُّوا] بضم الصاد.

ثم أَخبر تعالىٰ عن الكافرين الظالمين في أَن وضعوا الشيءَ في غير موضعه، وهو الكفر بالله، والله تعالىٰ يستوجب منهم غير ذلك لنعمه الظاهرة والباطنة، إِنهم بحيث لم يكن تعالىٰ ليغفر لهم، وهذه العبارة أَقوى من الإِخبار المجرد أَنه لا يغفر، ومثال ذلك أَنك إِذا قلت: «أَنا لا أَبيع هذا الشيءَ» فهم منك الاغتباط به، فإِذا قلت: أَنا ما كنت لأَبيع هذا الشيءَ»، فالاغتباط منك أَكثر، هذا هو المفهوم من هذه العبارة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾، هذه هداية الطرق، وليست بالإِرشاد على الإِطلاق، وباقي الآية بَيِّنٌ، يتضمن تحقير أَمر الكفار، وأَنهم لا يباليهم الله بالة، كما ورد في الحديث: «يذهب الصالحون، الأَول فالأَول حتى تبقى حثالة كحثالة التمر، لا يباليهم الله بالة»[1]، المعنى: إِذ هم كفارٌ في آخر الزمان، وعليهم تقوم الساعة.

---

(١) نص الحديث كما رواه البخاري: «يذهب الصالحون الأول فالأول، ويبقى حُفَالة كَحُفَالة الشعير أو التمر لا يُبَاليهم الله بالة».
وبعده: قال أبو عبد الله: يقال: حفالة وحثالة ـ والحثالة: النفاية والرديء من كل شيءٍ، والبالة: المبالاة.

قوله تعالىٰ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾.

المخاطبة بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ مخاطبة لجميع الناس، والسورة مدنية، فهذا مما خوطب به جميع الناس بعد الهجرة، لأن الآية دعاءٌ إلى الشرع، ولو كانت في أمر من أوامر الأحكام ونحوها لكانت ـ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ـ والرسول في هذه الآية: محمد ﷺ، والحق: هو شَرْعُهُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره: ائتُوا خيراً لكم، أو حوزوا خيراً لكم، وقوله: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ ﴾ وقوله: ﴿ ٱنتَهُوا۟ ﴾ ـ بعد ذلك ـ أمر بترك الشيءِ والدخول في غيره، فلذلك حسنت صفة التفضيل التي هي (خير)، هذا مذهب سيبويه في نصب (خير)، ونظيره من الشعر قول عمر بن أبي ربيعة:

فَوَاعِدِيهِ سَرْحَتَيْ مَالِكٍ ... أَوِ الرُّبَى بَيْنَهُمَا أَسْهَلا(١)

أي: يأت أسهل، وقال أبو عبيدة: التقدير: يكن الإيمان خيراً والانتهاءُ خيراً، فنصبه على خبر كان، وقال الفراءُ: التقدير: فآمنوا إيماناً خيراً لكم، فنصبه على النعت لمصدر محذوف.

ثم قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وهذا خبر بالاستغناء، وأن ضرر الكفر إنما هو نازل بهم، ولله تعالىٰ العلم والحكمة.

ثم خاطب تعالىٰ أهل الكتاب من النصارى بأن يَدَعُوا الغُلو، وهو تجاوز الحدِّ،

---

(١) سَرحَتا مالك: موضع بعينه، وأصل السَّرحة: الشجرة، وقد اشتهر هذا المكان بشجرتين نسبتا لصاحبهما، والربى: جمع ربوة، وهي المرتفع من الأرض، تقول محبوبته لجاريتها: واعديه الليلة أن نلتقي عند السرحتين أو الربى، والأفضل أن يأتي مكاناً سهلاً حتى لا يعرف شأنهما، وإن كان بعض الشراح يرى أنه هو الذي أرسل إليها امرأة، و(أسهلا) منصوب بفعل مضمر دلَّ عليه ما قبله، أي: ائت أسهل الأمرين عليك.

ومنه غلاء السعر، ومنه غلوة السهم. وقوله تعالىٰ: ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ فإنما معناه: في الدين الذي أنتم مطلوبون به، فكأنه اسم جنس، وأضافه إليهم بياناً أنهم مأخوذون به، وليست الإشارة إلى دينهم المضلل، ولا أُمروا بالثبوت عليه دون غلو، وإنما أُمروا بترك الغلو في دين الله على الإطلاق، وأن يُوَحِّدُوا، ولا يقولوا على الله إلا الحق، وإذا سلكوا ما أُمروا به فذلك سائقهم إلى الإسلام.

ثم بيَّن تعالىٰ أمر المسيح، وأنه رسول الله ﷺ وكلمته، أي: مُكَوَّن عن كلمته التي هي: كن. وقوله: ﴿أَلْقَىٰهَآ﴾ عبارة عن إيجاد هذا الحادث في مريم، وقال الطبري: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ﴾ يريد البشارة التي بعث المَلَكَ بها إليها. وقوله تعالىٰ: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، أي: من جملة مخلوقاته، فـ﴿مِنْ﴾ لابتداءِ الغاية إذا حقق النظر فيها، وقال الطبري: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي: نفخة منه، إذ هي من جبريل بأمره، وأنشد بيت ذي الرُّمة:

فَقُلْتُ لـه اضْمُمْهَا إِلَيْكَ وَأَحْيِهَا ... بِرُوحِكَ وَاقْتَتْهُ لها قِيتَةً قَدْرا[1]

يصف سقط النار، وقال أُبي بن كعب: روح عيسى عليه السلام من أرواح الله التي خلقها واستنطقها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾[2]، فبعثه الله إلى مريم فدخل فيها، ثم أمرهم بالإيمان بالله ورسله، أي: الذين من جملتهم عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ﴾ المعنى: الله ثالث ثلاثة، فحذف الابتداء والمضاف، كذا قدَّر أبو علي، ويحتمل أن يكون المُقَدَّر: المعبود ثلاثة، أوالإله ثلاثة، أو الآلهة ثلاثة، أو الأقانيم ثلاثة[3]، وكيفما تشعب اختلاف عبارات النصارى فإنه يختلف بحسب ذلك التقدير، وقد تقدم القول في معنى ﴿ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾.

---

(١) بروحك: بِنَفْخِك، واقْتَتْه لهاقِيتَةً: يأمره بالرفق والنفخ الخفيف في النار، وأن يطعم النار حطباً قليلاً ـ والرواية في الديوان: «فقلت لها ارفعها...» بدلاً من «اضممها».

(٢) الأعراف: ١٨٢.

(٣) قال القرطبي: «والنصارى مع فرقهم مجمعون على التثليث، ويقولون: إن الله جوهر واحد، وله ثلاثة أقانيم، فيجعلون كل أُقنوم إلهاً، ويعنون بالأقانيم: الوجود، والحياة، والعلم، وربما يعبرون عن الأقانيم بالأب، والابن، وروح القدس، فيعنون بالأب: الوجود، وبالروح: الحياة، وبالابن المسيح».

وقوله تعالىٰ:

﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾.

﴿ إِنَّمَا ﴾ في هذه الآية حاصرة ، اقتضى ذلك العقل في المعنى المتكلم فيه ، وليست صيغة (إِنَّما) تقتضي الحصر ، ولكنها تصلح للحصر وللمبالغة في الصفة وإن لم يكن حصر ، نحو: إنما الشجاع عنترة ، وغير ذلك ، و﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ ﴾ معناه: تنزيهاً له وتعظيماً عن أن يكون له ولد كما تزعمون أنتم أيها النصارى في أمر عيسى ، إذ نقلتم أبوة الحنان والرأفة إلى أبوة النسل ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [إِنْ يكُون لَهُ وَلَدٌ] بكسر الألف من [إِنْ] وهي نافية بمعنى: ما يكون له ولد ، وقوله تعالىٰ: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية: إخبار يستغرق عبودية عيسى وغير ذلك من الأمور.

ثم برَّأ تعالىٰ جهة المسيح من أقوالهم ، وخلَّصه للذي يليق به فقال: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ ﴾ الآية ، والاستنكاف إبايةٌ بأنفَةٍ ، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ زيادةٌ في الحجة ، وتقريب من الأذهان ، أي: ولا هؤلاءِ الذين هم في أعلى درجات المخلوقين لا يستنكفون عن ذلك ، فكيف سواهم؟ وفي هذه الآية الدليل الواضح على تفضيل الملائكة على الأنبياء(١).

---

(١) الكلام في تفضيل الملائكة على الأنبياء استدلالاً بهذه الآية يحتاج إلى وقفة وتأمل ، وبعض المفسرين ينفي ذلك ، فابن كثير يقول: «ليس لمن استدل بهذه الآية على تفضيل الملائكة دلالة ، لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح ، والملائكة أقدر على الاستنكاف من المسيح ، لكن لا يلزم أن يكونوا أفضل» اهـ. ولكن الزمخشري يرى أن الآية تدل على ذلك قال: من حيث أن علم المعاني لا يقتضي غير ذلك ، لأن الكلام سيق لرد مذهب النصارى وغلوهم في رفع المسيح عن مرتبة العبودية ، فوجب أن يقال لهم: لن يرتفع عن العبودية ولا من هو أرفع منه درجة ، ويؤيد ذلك تخصيص المقربين ، ومثله قول القائل:

وَمَـا مِثْلُـهُ مِمَّـنْ يُجَـاوِدُ حَـاتِـم ... ولا البحـر ذو الأمـواج يَلْتَـجُّ زاخِـرُهْ

وردَّ على الزمخشري أبو حيان في (البحر المحيط) فقال: «التفضيل بين الأنبياء والملائكة إنما يكون بالسمع إذ نحن لا ندرك جهة التفضيل بالعقل ، وأما الآية فقد يُقال: متى نُفي شيء عن اثنين فلا يدل=

ثم أَخبر تعالىٰ عمَّن يستنكف، أَي: يأْنف عن عبادة الله ويستكبر بأَنه سيناله الحشر يوم القيامة، والر دُّ إلى الله، وقوله: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ عبارة وعيد. وقرأَ جمهور الناس: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ بالياءِ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [فَسَنَحْشُرُهُمْ] بنون الجماعة. [فَنُوَفِّيهِمْ] [ونَزِيدُهُمْ] [فَنُعَذِّبُهُمْ] كلها بالنون. قال أَبو الفتح: وقرأَ مَسْلَمة: [فَسَيَحْشُرْهُمْ] [فَيُعَذِّبْهُم] بسكون الراءِ والباءِ على التخفيف.

وبيَّن الله تعالىٰ أَمر المحشورين فأَخبر عن المؤمنين العاملين بالصالحات أَنه يوفيهم أُجورهم حتى لا يبخس أَحداً قليلاً أَو كثيراً، وأَنه يزيدهم من فضله، وتحتمل هذه الزيادة أَن تكون المخبر عنها في أَن الحسنة بعشر إلى سبعمائة ضعف، ويحتمل أَن يكون التضعيف الذي هو غير مُصَرَّدٍ مَخسوب[1]، وهو المشار إليه في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

قوله تعالىٰ:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾.

هذا وعيد للمستنكفين الذين يَدعُونَ عبادة اللهِ أَنَفَةً وتكبراً، وهذا الاستنكاف إنما يكون من الكفار عن اتباع الأَنبياءِ، وما جرى مجراه، كفعل حُيَي بن أَخطب وأَخيه أَبي ياسر بمحمد عليه الصلاة والسلام، وكفعل أَبي جهل وغيره، وإلا، فإذا فرضت أَحداً من البشر عرف الله تعالىٰ فمحال أَن تجده يكفر به تكبراً عليه، والعناد المجوز إنما يسوق إليه الاستكبار عن البشر، ومع تقارب المنازل في ظن المتكبر.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية، إشارة إلى محمد

= على أن الثاني أرفع من الأول، ولا أن ذلك من باب الترقي» ١ هـ، وارجع إليه في البحر ج ٣ ـ ص ٤٠٣.

(١) التضعيف المُصَرَّدُ: القليل ـ يقال: صرَّد الشيء: قَلَّله. وصرَّد عطاءه: قَلَّله. وصرَّد الإناء: وضع فيه ماءً لا يكفي الرِّيَّ، وصرَّد فلاناً: سقاه أقل مما يحتاج إليه. قال النابغة:

وتُسْقَى إذا ما شِئْتَ غيرَ مُصَرَّدِ ... بصهْباءَ في حافاتِها المِسْكُ كارِعُ

رسول الله ﷺ ، والبرهان: الحُجَّةُ النَّيِّرَةُ الواضحة التي تعطي اليقين التام ، والمعنى: قد جاءكم مقترناً بمحمد برهان من الله تعالىٰ على صحة ما يدعوكم إليه ، وفساد ما أَنتم عليه من النِّحَل ، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ يعني القرآن ، فيه بيان كل شيءٍ ، وهو الواعظ الزاجر ، الناهي الآمر.

ثم وعد تبارك وتعالىٰ المؤمنين بالله المعتصمين به. والضمير في ﴿ بِهِۦ ﴾ يحتمل أَن يعود على الله تعالىٰ ، ويحتمل أَن يعود على القرآن الذي تضمنه قوله تعالىٰ: ﴿ نُورًا مُّبِينًا ﴾ ، والاعتصام به: التَّمسُّك بسببه ، وطلب النجاة والمنعة به ، فهو يعصم كما تعصم المعاقل ، وهذا قد فسَّره قول النبي ﷺ: «القرآن حبل الله المتين ، من تمسك به عصم». والفضل: الجنة ونعيمها ، و﴿ وَيَهْدِيهِمْ ﴾ معناه: إِلى الفضل ، وهذه هداية طريق الجنان ، كما قال تعالىٰ: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾[1] لأَن هداية الإِرشاد قد تقدمت وتحصلت حين آمنوا بالله تعالىٰ ، واعتصموا بكتابه. و﴿ صِرَٰطًا ﴾ نصب بإِضمار فعل يدل عليه ﴿ وَيَهْدِيهِمْ ﴾ تقديره: فيعرفهم ، ويحتمل أَن ينتصب كالمفعول الثاني إِذ ﴿ وَيَهْدِيهِمْ ﴾ في معنى: يعرفهم ، ويحتمل أَن ينتصب على ظرفية مَّا ، ويحتمل أَن يكون حالاً من الضمير في ﴿ إِلَيْهِ ﴾ ، وقيل: من ﴿ وَفَضْلٍ ﴾. والصراط: الطريق ، وقد تقدم تفسيره غير مرة.

قوله تعالىٰ:

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

تقدم القول في تفسير ﴿ ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾ في صدر السورة ، وأَن المترجح أَنها الوِرَاثَة التي خلت من: أَبٍ وابن وابنة ، ولم يكن فيها عمود نسب ، لا عال ولا سافل ، وبقي فيها من يتكَلَّل ، أَي: يُحيط من الجوانب كما يُحيط الإِكليل. وكان أَمر الكلالة عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه مشكلا فقال: «ما راجعْتُ رسول الله ﷺ في شيءٍ مراجعتي إِياه في الكلالة ، ولوددت أَن رسول الله ﷺ لم يمت حتى يبينها». وقال على المنبر:

(١) محمد: ٥.

«ثلاث لو بينها رسول الله ﷺ لكان أَحب إِلي من الدنيا: الجدُّ والكلالة، والخلافة، وأَبواب من الربا»(١). وروي عنه رضي الله عنه أنه كتب فيها كتاباً فمكث يستخير الله فيه ويقول: «اللهم إِن علمت فيه خيراً فأَمضه». فلما طعن دعا بالكتاب فَمُحي، فلم يدر أَحد ما كان فيه»(٢). وروى الأَعمش عن إِبراهيم وسائر شيوخه قال: ذكروا أَن عمر رضي الله عنه قال: «لأَن أَكون أَعلم الكلالة أَحب إِليَّ من جزية قصور الشام»(٣). وقال طارق بن شهاب: أَخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتفا، وجمع أَصحاب النبي ﷺ ثم قال: «لأَقْضِيَنَّ في الكلالة قضاءً تحدث به النساءُ في خدورها»، فخرجت عليهم حيَّة من البيت فتفرقوا، فقال عمر: «لو أَراد الله أَن يتم هذا الأَمر لأَتَمَّه»(٤). وقال معدان بن أَبي طلحة: خطب عمر رضي الله عنه الناسَ يوم جمعة فقال: «إِني والله ما أَدع بعدي شيئاً هو أَهم إِليَّ من أَمر الكلالة، وقد سأَلت عنها رسول الله ﷺ فما أَغلظ لي في شيءٍ ما أَغلظ لي فيها، حتى طعن في نحري وقال: «تكفيك آية الصيف التي أُنزلت في آخر سورة النساءِ، فإِن أَعِشْ فسأَقضي فيها بقضية لا يختلف معها اثنان مِمَّنْ يقرأُ القرآن»(٥). وسئل عقبة بن عامر عن الكلالة فقال: أَلا تعجبون لهذا يسأَلني عن الكلالة، وما أَعضل بأَصحاب رسول الله ﷺ شيءٌ ما أَعضلت بهم الكلالة(٦).

قال القاضي أَبو محمد رضي الله عنه:

فظاهر كلام عمر رضي الله عنه أَنَّ آية الصيف هي هذه. وروى أَبو سلمة عن النبي ﷺ أَنه سُئل عن الكلالة فقال: «أَلم تسمع الآية التي أُنزلت في الصيف: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾(٧)».

---

(١) أخرجه الطيالسي، وعبد الرزاق، والسعدني، وابن ماجه، والساجي، وابن جرير، والحاكم، والبيهقي ـ عن عمر رضي الله عنه (الدر المنثور).

(٢) أخرجه عبد الرزاق، عن سعيد بن المسيب، وفي آخره: «فقال: إني كنت كتبت في الجد والكلالة كتاباً، وكنت أستخير الله فيه، فرأيت أن أتركم على ما كنتم عليه».

(٣) أخرجه ابن جرير ـ عن عمر رضي الله عنه (الدر المنثور).

(٤) أخرجه ابن جرير ـ عن طارق بن شهاب (الدر المنثور).

(٥) أخرجه ابن جرير ـ عن معدان بن أبي طلحة، مع اختلاف يسير في اللفظ. (الدر المنثور).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة، والدارمي، وابن جرير ـ عن أبي الخير (الدر المنثور).

(٧) أخرج عبد بن حميد، وأبو داود في المراسيل، والبيهقي ـ عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الكلالة فقال: «أما سمعت الآية التي أُنزلت في الصيف: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ﴾

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا هو الظاهر، لأَن البراءَ بن عازب قال: آخر آية أُنزلت على النبي ﷺ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾، وقال كثير من الصحابة: هي آخر مانزل[١]، وقال جابر بن عبد الله: نزلت بسببي. عادني رسول الله ﷺ وأَنا مريض، فقلت: يا رسول الله، كيف أَقضي في مالي؟ وكان لي تسع أَخوات، ولم يكن لي والد ولا ولد: فنزلت الآية[٢].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقوله رسول الله ﷺ: «تكفيك منها آية الصيف» بيان فيه كفاية وجلاء، ولا أَدري ما الذي أَشكل منها على الفاروق رضوان الله عليه إِلا أَن تكون دلالة اللفظ لم تطرد له، أَن كان استعمال قريش لها قليلاً، ولا محالة أَن دلالة اللفظ اضطربت على كثير من الناس، ولذلك قال بعضهم: الكلالة: الميت نفسه[٣]، وقال آخرون: الكلالة: المال، إِلى غير ذلك من الخلاف. وإِذا لم يكن في الفريضة والد ولا ولد وترك الميت أُختاً فلها النصف فرضاً مسمى بهذه الآية، فإِن ترك الميت بنتاً وأُختاً فللبنت النصف، وللأخت النصف بالتعصيب لا بالفرض المسمى. ولعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس في هذه المسأَلة خلاف للناس، وذكر عن أَبي بكر الصديق رضي الله عنه أَنه قال

= ﴿يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾، فمن لم يترك ولداً ولا والداً فورثته كلالة»، وأخرجه الحاكم موصولاً عن أبي سلمة، عن أبي هريرة. (الدر المنثور).

(١) أخرج ابن أَبي شيبة، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن الضريس، وابن جرير، وابن المنذر في (الدلائل) عن البراء قال: آخر سورة نزلت كاملة: براءة، وآخر آية نزلت: خاتمة النساء: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾.

(٢) أخرج ابن سعد، والنسائي، وابن جرير، والبيهقي في سننه ـ عن جابر قال: اشتكيت فدخل النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أوصي لأخواتي بالثلث؟ قال: أحسن، قلت: بالشطر؟ قال: أحسن، ثم خرج، ثم دخل عليَّ فقال: لا أراك تموت في وجعك هذا، إن الله أنزل وبيَّن ما لأخواتك وهو الثلثان، فكان جابر يقول: نزلت هذه الآية فيَّ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾. وأخرج ابن سعد، والبخاري ومسلم، وأحمد، وأبو داود وغيرهم عن جابر بن عبد الله قال: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ ثم صبَّ عليَّ فعقلت، فقلت: إنه لا يرثني إلا الكلالة، فكيف الميراث، فنزلت آية الفرائض، (الدر المنثور).

(٣) أخرج ابن أبي شيبة في «المصنف»، وابن المنذر ـ عن ابن عباس قال: الكلالة: الميت نفسه.

في خطبته: «أَلا إِن آية أَول سورة النساء أَنزلها الله في الولد والوالد، والآية الثانية أَنزلها الله في الزوج والزوجة والإِخوة من الأُم، والآية التي ختم بها سورة النساء أَنزلها في الإِخوة والأَخوات من الأب والأُم، والآية التي ختم بها سورة الأَنفال أَنزلها الله في أُولي الأَرحام»[١].

وقرأَ ابن أَبي عبلة: ﴿فَإِن﴾، ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾ معناه: كراهة أَن تضلوا، وحَذَر أَن تضلوا، فالتقدير: لِئَلا تضلوا، ومنه قول القطامي في صفة ناقة:

رَأَيْنَـا مَـا يَـرَى البُصَـرَاءُ مِنْهَـا ... فَـآلَيْنَـا عَلَيْهَـا أَنْ تُبَـاعَـا[٢]

وكان عمر رضي الله عنه إِذا قرأَ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ قال: اللهم من بينت له الكلالة فلم تَتَبَيَّنْ لي[٣].

تم بحمد الله تفسير سورة النساء

---

(١) أخرج ابن جرير، وعبد بن حميد، والبيهقي في سننه عن قتادة قال: ذكر لنا أن أبا بكر الصديق قال في خطبته: «أَلا إن الآية... إلخ» (الدرالمنثور).

(٢) مفعول الفعل ﴿يُبَيِّنُ﴾ محذوف تقديره: يبيِّن لكم الحقَّ ـ أمّا ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾ فمفعول لأجله، وقدره البصري والمبرد: كراهة أن تضلوا ـ أما الفراء والكسائي والزجاج فقدروه: لئلا تضلوا مثل البيت المذكور، والتقدير فيه: أَلاَّ تُباعَا ـ ومعروف أن البصريين لا يجيزون إضمار (لا).

(٣) أخرجه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر ـ عن ابن سيرين. (الدر المنثور).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة المائدة

هذه السورة مدنية بإجماع[١] ، وروي أنها نزلت عند منصرف رسول الله ﷺ من الحديبية ، وذكر النقاش عن أبي سلمة أنه قال: لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية قال: «يا علي ، أشعرت أنه نزلت علي سورة المائدة ، ونعمت الفائدة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي لا يشبه كلام النبي ﷺ[٢] .

ومن هذه السورة ما نزل في حجة الوداع ، ومنها ما نزل عام الفتح ، وهو قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ الآية ، وكل ما نزل من القرآن بعد هجرة النبي ﷺ فهو مدني ، سواء ما نزل بالمدينة ، أو في سفر من الأسفار ، أو بمكة ، وإنما يرسم بالمكيّ ما نزل قبل الهجرة[٣] ، وروي أن النبي ﷺ قال: «سورة المائدة تدعى في ملكوت الله المنقذة ، تنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب».

---

(١) أخرج أحمد ، والنسائي ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وغيرهم عن جبير بن نفير قال: حججتُ فدخلتُ على عائشة ، فقالت لي: يا جبير ، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم ، فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه ، وما وجدتم من حرام فحرّموه. (الدر المنثور ـ وفتح القدير).

(٢) قال القرطبي: «قال ابن العربي: هذا حديث موضوع ، لا يحل لمسلم اعتقاده».

(٣) هذا هو التقسيم الصحيح السليم ، لأنه ضابط حاصر ومطرد ، وهناك تقسيم ثان لوحظ فيه المكان ، وفيه أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدني ما نزل بالمدينة ، وهو تقسيم غير حاصر لا يدخل فيه مثلا ما نزل بتبوك كقوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ﴾. وهناك أيضاً تقسيم ثالث لوحظ فيه المخاطبون ، وفيه أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة ، عليه يحمل قول من قال إن ما صدر في القرآن بلفظ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهو مكي ، وما صُدِّر فيه بلفظ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فهو مدني. . إلخ ما قيل ـ وهذا التقسيم أيضاً غير مطرد فإن هناك آيات مدنية صدرت بصيغة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ﴾ كقوله تعالىٰ في أول سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ ، وهناك آيات مكية صدرت بصيغة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كقوله تعالىٰ في سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾.

قوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ﴾.

قال علقمة: كل ما في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فهو مدني، وقد تقدم القول في مثل هذا، ويقال: وَفَى وأَوفى بمعنى واحد[1]، وأَمر الله تعالىٰ المؤمنين عامة بالوفاءِ بالعقود، وهي: الرُّبوط في القول، كان ذلك في تعاهد على بر، أَو في عقدة نكاح أَو بيع أَو غيره، ولفظ المؤمنين يعم مؤمني أَهل الكتاب، إِذ بينهم وبين الله عقد في أَداء الأَمانة فيما في كتابهم من أَمر محمد ﷺ، ولفظ ﴿بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ يعم عقود الجاهلية المبنية على بِرٍّ، مثل دفع الظلم ونحوه، وأَما في سائر تعاقدهم على الظلم والغارات فقد هدمه الإِسلام، فإِنما معنى الآية: أَمر جمع المؤمنين بالوفاءِ على عقْد جارٍ على رسم الشريعة، وفسر الناس لفظ العقود بالعهود[2]، وذكر بعضهم من العقود أَشياء على جهة المثال، فمن ذلك قول قتادة: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ معناه: بعهد الجاهلية، روي لنا عن رسول الله ﷺ أَنه قال: «أَوفوا بعقد الجاهلية، ولا تحدثوا عقداً في الإِسلام»[3].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفقه هذا الحديث أَن عقد الجاهلية كان يخص المتعاقدين، إِذ كان الجمهور على ظلم وضلال، والإِسلام قد ربط الجميع، وجعل المؤْمنين إِخوةً، فالذي يريد أَن يختص به المتعاقدان قد ربطهما إِليه الشرع مع غيرهم من المسلمين، اللهم إِلا أَن يكون التعاقد على دفع نازلة من نوازل الظلامات فيلزم في الإِسلام التعاهد على دفع ذلك والوفاءُ بذلك العهد، وإِما عهد خاص لما عسى أَن يقع، يختص المتعاهدون بالنظر فيه والمنفعة، كما كان في الجاهلية، فلا يكون ذلك في الإِسلام.

---

(١) وقد جمعها طُفَيلٌ الغَنَوِيُّ في بيت واحد في قوله:

أَمَّا ابْنُ طَوْقٍ فَقَدْ أَوْفَى بِذِمَّتِهِ ... كما وَفَى بِقِلاصِ النَّجْمِ حادِيهَا

(٢) قال الزجاج: العقود أَوكد من العهود، وأَصله في الأجرام ثم توسع فأُطلق في المعاني، وتبعه الزمخشري فقال: هو العهد الموثق شبه بعقد الحبل ونحوه.

(٣) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾.

قال الطبري: وذكر[١] أن فُراتَ بنَ حَيَّان العِجْلي[٢] سأَل رسول الله ﷺ عن حلف الجاهلية ، فقال: «لعلَّك تسأَل عن حلف لَخْمٍ وَتَيْمِ اللهِ؟ قال: نعم يا نبي الله ، قال: لا يزيده الإِسلام إِلا شِدَّةً». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾ معناه: «بما أَحلَّ الله وبما حرَّم ، وبما فرض وبما حَدَّ في جميع الأَشياء». قاله مجاهد وغيره.

وقال محمد بن كعب القرظي ، وابن زيد ، وغيرهما: العقود في الآية: هي كل ما ربطه المرءُ على نفسه من بيع أَو نكاح أَو غيره.

وقال ابن زيد ، وعبد الله بن عبيدة: العقود خمس: عقدة الإِيمان ، وعقدة النكاح ، وعقدة العهد ، وعقدة البيع ، وعقدة الحلف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد تنحصر إِلى أَقل من خمس. وقال ابن جريج: قوله تعالىٰ: ﴿أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾ قال: هي العقود التي أَخذها الله على أَهل الكتاب أَن يعملوا بما جاءَهم. وقال ابن شهاب: قرأْت كتاب رسول الله ﷺ الذي كتب لعمرو بن حزم حين بعثه إِلى نجران ، وفي صدره: «هذا بيان من الله ورسوله ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾ فكتب الآيات منها إِلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾»[٣].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَصوب ما يقال في تفسير هذه الآية أَنْ تُعَمَّم أَلفاظها بغاية ما تتناول ، فيعمم لفظ المؤمنين جملةً ، في مُظْهِر الإِيمان ـ إِن لم يُبطنه ـ وفي المؤمنين حقيقة. ويُعَمم لفظ العقود في كل ربط بقول موافق للحق والشرع. ومن لفظ العقد قول الحطيئة:

قَـوْمٌ إِذَا عَقَـدُوا عَقْـداً لِجَـارِهِـمُ ... شَدُّوا العِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ الكَرَبَا[٤]

---

(١) عبارة الطبري توحي بأن الذي ذكر له ذلك هو «بشر بن معاذ».

(٢) فُرات بن حيان بن ثعلبة اليشكري العجلي ، حليف بني سهم. روى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن منكم رجالاً نَكِلُهم إِلى إيمانهم ؛ منهم فراتُ بن حيان» ، حين أَسلم أَقطعه النبي ﷺ أَرضاً باليمامة تغل أربعة آلاف ومائتين. (الإصابة).

(٣) أَخرج البيهقي في الدلائل عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: هذا كتاب رسول الله ﷺ عندنا الذي كتبه لعمرو بن حزم حين بعثه إِلى اليمن يفقه أهلها ، ويعلمهم السُّنَّة ، ويأخذ صدقاتهم. فكتب ـ ثم أورد الكتاب.

(٤) قال الحطيئة هذا البيت في قصيدة يمدح بها بني أنف الناقة ـ والعِنَاجُ: خيط أو سير يُشد في أسفل=

وقوله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ خطاب لكل من التزم الإيمان على وجهه وكماله، وكانت للعرب سنن في الأنعام من السائبة والبحيرة والحام وغير ذلك، فنزلت هذه الآية رافعة لجميع ذلك.

واختلف في معنى ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ـ فقال السدي، والربيع، وقتادة، والضحاك: هي الأنعام كلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كأنه قال: أُحلت لكم الأنعام، فأضاف الجنس إلى أخص منه. وقال الحسن: ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: الإبل والبقر والغنم. وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الأَجِنَّةُ التي تخرج عند الذبح للأُمهات، فهي تُؤكل دون زكاة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الأَجنة من بهيمة الأنعام، قال الطبري: وقال قوم: ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وحْشها، كالظباءِ وبقر الوحش والحُمُر وغير ذلك، وذكره غير الطبري عن الضحاك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول حسن، وذلك أَن الأَنعام هي الثمانية الأَزواج، وما انضاف إليها من سائر الحيوان يقال له أَنعام بمجموعه معها، وكأَن المفترس من الحيوان كالأَسد وكل ذي ناب قد خرج عن حَدِّ الأنعام فصار له نظرٌ ما، فبهيمة الأَنعام هي الراعي من ذوات الأَربع[1]، وهذه ـ على ما قيل ـ إضافة الشيءِ إلى نفسه، كدار الآخرة، ومسجد الجامع، وما هي عندي إلا إضافة الشيء إلى جنسه، وصرَّح القرآن الكريم بتحليلها، واتفقت الآية وقول النبي عليه الصلاة والسلام: «كل ذي ناب من السباع

= الدلْو، ثم يُشد في عُروتها. والكَرَب: الحبل الذي يشد على الدلو بعد المتين ـ فالمتين هو الحبل الأول، والكرَب هو الحبل الثاني، فإذا انقطع المتين بقي الكرب. وقيل غير ذلك. وهذه أمثال ضربها الحطيئة لمبالغتهم في الحفاظ على العهد.

(١) نقل القرطبي كلام ابن عطية هذا ثم قال: «فعلى هذا يدخل فيها ذات الحوافر لأنها راعية مفترسة، وليس كذلك، لأن الله تعالىٰ قال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾، ثم عطف عليها قوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾ فلما استأنف ذكرها وعطفها على الأنعام دلَّ ذلك على أنها ليست منها. والله أعلم» اهـ.

حرام»(١) ، ويؤيد هذا المنزع الاستثناءان بعْدُ ، إِذ أَحدهما استثني فيه أَشخاص نالتها صفات ما ، وتلك الصفات واقعات كثيراً في الراعي من الحيوان ، والثاني استثني فيه حال للمخاطبين وهي الإِحرام والحرم ، والصيد لا يكون إِلا من غير الثمانية الأَزواج ، فترتب الاستثناءَان في الراعي من ذوات الأَربع. والبهيمة في كلام العرب: ما أَبهم من جهة نقص النطق والفهم ، ومنه: بابٌ مبهم ، وحائط مبهم ، وليلٌ بَهِيمٌ ، وبُهْمَة للشجاع الذي لا يُدرى من أَين يُؤتَى له.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ استثناءٌ مما تلي في قوله تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ الآية. و﴿مَا﴾ في موضع نصب على أَصل الاسثناء ، وأَجاز بعض الكوفيين أَن تكون في موضع رفع على البدل ، وعلى أَن تكون ﴿إِلَّا﴾ عاطفة ، وذلك لا يجوز عند البصريين إِلا من نكرة أَو ما قاربها من أَسماءِ الأَجناس ، نحو قولك: جاءَ الرجال إِلا زيدٌ ، كأَنك قلت: غير زيد بالرفع(٢).

﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ نصب ﴿غَيْرَ﴾ على الحال من الكاف والميم في قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم﴾ ، وقرأَ ابن أَبي عبلة [غيرُ] بالرفع ، ووجهها الصفة للضمير في: ﴿يُتْلَىٰ﴾ لأَن [غيرُ مُحِلِّي الصَّيْد] هو في المعنى بمنزلة: «غير مستحل إِذا كان صيداً» ، أَو يتخرج على الصفة لـ ﴿بَهِيمَةُ﴾ على مراعاة معنى الكلام كما ذكرت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد خلط الناس في هذا الموضع في نصب (غَيْرَ) وقدروا فيها تقديمات وتأْخيرات ، وذلك كله غير مرضي ، لأَن الكلام على اطراده متمكن اسثناء بعد استثناء.

و﴿حُرُمٌ﴾ جمع حرام ، وهو المُحْرم ، ومنه قول الشاعر:

فَقُلْتُ لَهَا فِيئِي إِلَيْكِ فَإِنَّنِي ... حَرامٌ وَإِنِّي بَعْدَ ذَاكَ لَبِيبُ(٣)

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، والنسائي في سننه ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه ـ قال في «الجامع الصغير»: وهو حديث صحيح. ولكن اللفظ فيهما: «كل ذي ناب من السباع فأكله حرام».

(٢) قال في (البحر المحيط) تعقيباً على كلام ابن عطية: «وهذا الذي حكاه عن بعض الكوفيين لا يصح البتة ، لأن الذي قبله موجب ، فكما لا يجوز: «قام القوم إلا زيدٌ» على البدل ، كذلك لا يجوز في: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾» ، ثم وافقه فيما حكاه من كون ﴿إِلَّا﴾ عاطفة عند بعض الكوفيين ، ولكنه ناقشه فيما حكاه عن البصريين مناقشة طويلة.

(٣) قائل البيت هو المُضَرَّب بن كعب بن زهير ، وحرامٌ ـ كما قال ابن عطية ـ: هو المُحْرِم ، ولَبيبٌ =

أي: مُلَبٌّ. وقرأ الحسن، وإبراهيم، ويحيى بن وثَّاب: [حُرْم] بسكون الراءِ، قال أَبو الحسن: هذه لغة تميمية، يقولون في رُسُل: رُسْلٌ، وفي كُتُب: كُتْبٌ، ونحوه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ تقويةٌ لهذه الأَحكام الشرعية المخالفة لمعهود أَحكام العرب، أَي: فأَنت أَيُّها السامع لنسخ تلك العهود التي عهدت تَنَبَّه، فإِن الله الذي هو مالك الكل يحكم ما يريد، لا معقب لحكمه.

وهذه الآية مما تلوح فصاحتها وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكل ذي بَصَر بالكلام، ولمن عنده أدنى إِبصار، فإِنها تضمنت خمسة أَحكام: الأَمر الوفاءِ بالعقود، وتحليل بهيمة الأَنعام، واستثناءُ ما تُلي بعد، واستثناءُ حال الإِحرام فيما يصاد، وما يقتضيه معنى الآية من إِباحة الصيْد لمن ليس بمُحرم. وحكى النقَّاش أَن أَصحاب الكندي قالوا للكندي: أَيها الحكيم، اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال: نعم أَعمل مثل بعضه، فاحتجب أَياماً كثيرة ثم خرج فقال: والله ما أَقدر عليه، ولا يُطيق هذا أَحد، إِني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإِذا هو قد أَمر بالوفاءِ، ونهى عن النكث، وحلل تحليلاً عاماً، ثم استثنى استثناءً بعد استثناءٍ، ثم أَخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يستطيع أَن يأْتي أَحد بهذا إِلا في أَجلاد.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ خطابٌ للمؤمنين حقاً أَلا يتعدوا حدود الله في أَمر من الأُمور، والشعائر: جمع شعيرة، أَي: قد أَشعر الله أَنها حدُّه وطاعتُه، فهي بمعنى: معالم الله[1]، واختلفت عبارة المفسرين في المقصود من الشعائر الذي بسببه نزل هذا العموم في الشعائر ـ فقال السدي ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: حرم الله، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: مناسك الحج، وكان المشركون يَحجون ويعتمرون ويُهدون وينحرون ويُعظمون مشاعر الحج، فأَراد المسلمون أَن يغيروا عليهم فقال الله تعالىٰ: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، وقال ابن عباس أَيضاً: [شَعَائِرُ اللهِ]: ما حدَّ تحريمه في الإِحرام، وقال عطاءُ بن أَبي رباح:

= معناها: مُلَبٌّ بالحج ـ قال في اللِّسان: وقوله: بعد ذاكَ، أي: مع ذاك.

(١) والإِشعار هو الإِعلام، لأن إشعار البدنة أن يُجزَّ سنامها حتى يسيل منه الدم فيعلم أنها هديٌ، ومنه: المشاعر بمعنى: المعالم، واحدها: مشعر، وهي المواضع التي قد أُشعرت بالعلامات، وقال ابن فارس: ويقال للواحدة: شعارة، وهو أحسن.

[شَعائِرُ اللهِ]: جميع ما أَمر به أَو نهى عنه، وهذا هو القول الراجح الذي تقدم، وقال ابن الكلبي: كان عامة العرب لا يعدُّون الصفا والمروة من الشعائر، وكانت قريش لا تقف بعرفات، فنهوا بهذه الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ اسم مفرد يَدُل على الجنس في جميع الأَشهر الحرم، وهي كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، وإِنَّما أُضيف إِلى مضر لأَنها كانت تختص بتحريمه، وتزيل فيه السلاح، وتنزع الأَسنة من الرماح، وتسميه: مُنْصِلُ الأَسنَّة، وتسميه: الأَصَمّ، من حيث كان لا يُسمع فيه صوت سلاح، وكانت العرب مجمعة على: ذي القعدة، وذي الحجة، والمحرم، وكانت تطول عليها الحرمة، وتمتنع من الغارات ثلاثة أَشهر، فلذلك اتخذت النسيءَ، وهو أَن يُحل لها ذلك المتكلم نعيم بن ثعلبة وغيره المحرَّم ويُحَرِّم بدله صفراً، فنهى الله عن ذلك بهذه الآية، وبقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾[1]، وجُعل المحرم أَول شهور السنة من حيث كان الحجُّ والموسم غاية العام وثمرته، فبذلك يكمل، ثم يُستأْنف عام آخر، ولذلك ـ والله أَعلم ـ دوَّن به عمر بن الخطاب رضي الله عنه الدواوين، فمعنى قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾، أَي: لا تحلوه بقتال ولا غارة ولا تبديل، فإِن تبديله استحلال لحرمته.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَظهر عندي أَن الشهر الحرام أُريد به رجب ليشتهر أَمره، لأَنه إِنما كان مختصاً بقريش، ثم فشا في مضر، ومما يدل على هذا قول عوف بن الأَحوص:

وشهــر بنـــي أُميــة والهــدايــا ... إذا حبسـت مضـرَّجها الـدمـاءُ[2]

قال أَبو عبيدة: أَراد رجبا، لأَنه شهر كانت مشايخ قريش تعظمه، فنسبه إِلى بني

---

(١) التوبة: ٣٧.

(٢) كان بنو ربيعة بن نزار يحرمون شهر رمضان، ويسمونه رجباً، وكانت مضر تحرِّم رجباً نفسه، ولذلك قال النبي ﷺ في الحديث الذي أشار إليه ابن عطية: «الذي بين جمادى وشعبان» ليحدِّدَه بدون لبس، وبيت عوف بن الأحوص يدل على ذلك، ومضرَّج من: ضرَّج الثوب بمعنى صبغه بالحمرة، وتضرَّج بالدم: تلطخ به، وقبل هذا البيت:

وإِنِّــي والَّــذي حجَّــتْ قــريــشٌ ... مَحَــارِمَــهُ ومَــا جَمَعَــتْ حِــراءُ

أُمية ، ذكر هذا الأَخفش في «المفضليات» ، وقد قال الطبري: المراد في هذه الآية رجب مضر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فوجه هذا التخصيص هو كما قد ذكرت أَن الله تعالىٰ شدَّد أَمر هذا الشهر إِذ كانت العرب غير مجمعة عليه. وقال عكرمة: المراد في هذه الآية ذو القعدة من حيث كان أَولها ، وقولنا فيها (أَول) تقريب وتجوز ، إِن الشهور دائرة ، فالأَول إِنما يترتب بحسب نازلة أَو قرينة ما مختصة بقوم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ ـ أَما الهَدْيُ فلا خلاف أَنَّهُ مَا أُهْدي من النعم إِلى بيت الله وقصدت به القربة ، فأَمر الله أَلا يستحل ويغار عليه[1]. واختلف الناس في القلائد ـ فحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن القلائد هي الهدي المقلد ، وأَن الهَدْي يسمّىٰ هَدْياً ما لم يقلد ، فكأَنه قال: ولا الهدي الذي لم يقلد والمقلد منه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الذي قال الطبري تحامل على أَلفاظ ابن عباس رضي الله عنهما ، وليس يلزم من كلام ابن عباس رضي الله عنهما أَن الهدي إِنما يقال لِمَا لَمْ يقلد ، وإِنما يقتضي أَن الله نهى عن استحلال الهدي جملة ، ثم ذكر المقلد منه تأَكيداً ومبالغة في التنبيه على الحرمة في التقليد. وقال جمهور الناس: الهدي عام في أَنواع ما أُهدي قُربة ، والقلائد ما كان الناس يتقلدونه أَمنة لهم ، قال قتادة: كان الرجل في الجاهلية إِذا خرج من بيته يريد الحج تقلد من السَّمُر قلادة فلم يعرض له أَحد بسوءٍ ، إِذ كانت تلك علامة إِحرامه وحجه ، وقال عطاء وغيره: بل كان الناس إِذا خرجوا من الحرم في حوائج لهم تقلدوا من شجرالحرم ومن لحائه ، فيدل ذلك على أَنهم من أَهل الحرم أَو من حجاجه ، فيأْمنون بذلك ، فنهى الله تعالىٰ عن استحلال من تحرم بشيءٍ من هذه المعاني. وقال مجاهد وعطاء: بل الآية نَهي للمؤمنين عن أَن يستحلوا أَخذ القلائد من شجر الحرم كما

---

(١) الحق أن الخلاف موجود في المراد بالهدْي ، فقد قيل: هو اسم لما يُهدى إلى بيت الله من ناقة أو بقر أو شاة ، وقيل: هو ما قصد به وجه الله ، وفي الحديث: «ثم كالمُهْدي دجاجة» وقيل: الشعائر هي البدن من الأنعام ، وأمَّا الهَدْي فهو البقر والغنم والثياب ـ وقيل: الشعائر كل ما كان مُشْعراً أي معلماً بإسالة الدم من سنامه ، والهدي ما لم يشعر.

كان أَهل الجاهلية يفعلون ، وقاله الربيع بن أَنس عن مُطَرِّف بن الشِّخِّير وغيره .

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ معناه: ولا تحلوهم فتغيروا عليهم ، ونهى الله تعالىٰ المؤمنين بهذه الآية عن أَن يعمدوا للكفار القاصدين البيت الحرام على جهة التعبد والقربة. وكل ما في هذه الآية من نهي عن مشرك ، أَومراعاة حرمة له بقلادة ، أَو أَمِّ البيت ونحوه ، فهو كله منسوخ بآية السيف في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[1] .

وروي أَن هذه الآية نزلت بسبب الحُطَم بن هند البكري أَخي بني ضُبيعة بن ثعلبة[2] ، وذلك أَن رسول الله ﷺ قال يوماً لأَصحابه: «يدخل اليوم عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان» ، فجاءَ الحُطَم فخلَّف خيله خارجة من المدينة ، ودخل على رسول الله ﷺ ، فلما عرض رسول الله ﷺ عليه الإسلام ودعاه إِلى الله قال: انظروا لَعَلِّي أُسْلِم ، وأَرى في أَمرك غلظة ، ولي مَنْ أُشاوره ، فخرج ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «لقد دخل بوجه كافر ، وخرج بعقب غادر»[3]. فمرَّ بسرح[4] من سرح المدينة فساقه وانطلق به وهو يقول:

قَـدْ لَفَّهَـا اللَّيْـلُ بِسَـوَّاقٍ حُطَـمْ ... لَيْـسَ بِـرَاعِـي إِبِـلٍ وَلا غَنَـمْ
وَلا بِجَـزَّارٍ عَلَـى ظَهْـرِ وَضَـمْ ... بَـاتُـوا نِيَـامـاً وابْنُ هِنْـد لـمْ يَنَـمْ
بَـاتَ يُقَـاسِيهَـا غُـلامٌ كـالـزُّلَـمْ ... خَـدَلَّـج السَّـاقَيْـن خَفَّـاق ٱلقَـدَمْ[5]

---

(١) التوبة: ٤.

(٢) اسمه: شُريح بن ضُبَيْعة البكري ، وأما الحُطَم فلقب له ، وقال السدي: اسمه الحطيم بن هند البلدي ، أحد بني ضُبَيْعة ، وفي أسباب النزول للواحدي: نزلت في الحُطيم ، واسمه: شريح بن ضُبَيْع الكندي.

(٣) أخرج ابن جرير عن السدي ، وفيه بقية الكلام حتى قوله: فنزلت هذه الآية إلا الأبيات الشعرية. (الدر المنثور).

(٤) السَّرْح: الماشية (تسمية بالمصدر) ، ولا يسمى سرحاً إلا ما يغدى به ويُراح ، يقال: سرح الماشية: أسامها.

(٥) يقال: رجلٌ حُطَمٌ وحُطَمة: إذا كان قليل الرحمة للماشية يهشم بعضها ببعض. والوَضَم: كل شيء يوضع عليه اللحم من خشبة ونحوها وقاية له من الأرض. والزَّلَم: (بفتح الزاي وبضمها) القَدَح ، والجمع: الأزْلام ، وهي السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها ، وخدَلَّج الساقين: عظيمها ، ومعنى خفاق القدم: عريض صدر القدمين.

ثم أَقبل الحُطَم من عام قابل حاجّاً، وساق هدياً، فأَراد رسول الله ﷺ أَن يبعث إِليه، وخفَّ إِليه ناس من أَصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، فنزلت هذه الآية. قال ابن جُرَيج: هذه الآية نهيٌ عن الحُجَّاج أَن تُقطع سُبُلهم، ونزلت الآية بسبب الحُطَم، فذكر نحوه، وقال ابن زيد: نزلت الآية عام الفتح ورسول الله ﷺ بمكة، جاء أُناس من المشركين يحُجُّون ويعتمرون، فقال المسلمون: يا رسول الله، إِنما هؤلاء مشركون، فلن ندعهم إِلا أَن نغير عليهم، فنزل القرآن: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فكل ما في هذه الآية مما يتصور في مسلم حاج فَهو مُحْكم، وكلما كان منها في الكفار فهو منسوخ، وقرأَ ابن مسعود وأَصحابه: [وَلا آمِّي الْبَيْتِ] بالإِضافة إِلى البيت.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ قال فيه جمهور المفسرين: معناه: يبتغون الفضل في الأَرباح في التجارة، ويبتغون ـ مع ذلك ـ رضوانه في ظنهم وطمعهم. وقال قوم: إِنما الفضل والرضوان في الآية في معنى واحد، وهو رضا الله وفضله بالرجاءِ والجزاءِ، فمن العرب من كان يعتقد جزاءً بعد الموت، وأَكثرهم إِنما كانوا يرجون الجزاءَ والرضوان في الدنيا والكسب وكثرة الأَولاد، ويتقربون رجاءَ الزيادة في هذه المعاني، وقرأَ الأَعمش: [وَرُضْوانا] بضم الراءِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية استئلاف من الله تعالىٰ للعرب، ولطف بهم، لتنبسط النفوس، ويتداخل الناس، ويردون(٢) الموسم فيسمعون القرآن، ويَدخل الإِيمان في قلوبهم، وتقوم عندهم الحجة كالذي كان، وهذه الآية نزلت عام الفتح، ونسخ الله تعالىٰ ذلك كله بعد عام سنة تسع إِذ حجَّ أَبو بكر ونودي الناس بسورة براءَة.

---

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن زيد (الدر المنثور)، و(تفسير الطبري).

(٢) لعله أراد هنا الاستئناف فجاء الفعل مرفوعاً بثبوت النون، وبعده (فيسمعون) و(يدخلُ) ـ وإلا فالظاهر النصب عطفاً على ما قبله.

قوله تعالىٰ:

﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾.

جاءَت إِباحة الصيد عقب التشدد في حَرم البشرِ حسنةً في فصاحة القول[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿ فَاصْطَادُوا ﴾ صيغة أمر، ومعناه الإباحة بإجماع من الناس.

واختلف العلماءُ في صيغة (افْعَل) إذا وردت ولم يقترن بها بيان واضح في أَحد المحتملات ـ فقال الفقهاءُ: هي على الوجوب حتى يدل الدليل على غير ذلك، وقال المتكلمون: هي على الوقف حتى تطلب القرينة، ولن يُعرَّىٰ أَمر من قرينة. وقال قوم: هي على الإباحة حتى يدل الدليل، وقال قوم: هي على الندب حتى يدل الدليل. وقول الفقهاءِ أَحوطُها، وقولُ المتكلمين أَقيسها، وغير ذلك ضعيف. ولفظة (افْعَل) قد تجيءُ للوجوب كقوله: ﴿ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾، وقد تجيءُ للندب كقوله: ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ﴾ وقد تجيءُ للإباحة كقوله: ﴿ فَاصْطَادُوا ﴾ و﴿ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ و﴿ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾، ويحتمل الابتغاءُ من فضل الله أَن يكون ندباً، وقد تجيءُ للوعيد كقوله: ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾، وقد تجيءُ للتعجيز كقوله: ﴿ كُونُوا حِجَارَةً ﴾[2].

---

(١) أراد ابن عطية بهذه العبارة أن يؤكد فصاحة التعبير القرآني دون حاجة إلى القول بأن قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ جملة اعتراضية بين قوله: ﴿ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾، بل هي مُؤَسِّسة حكماً إذ أفادت عدم حِلِّ الاصطياد في حال الإحرام. وقد شرح ذلك أبو حيان في (البحر) فقال: «تضمن آخر قوله: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم ﴾ تحريم الصيد حالة الإحرام، وآخر قوله: ﴿ لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ ـ النهي عن إحلال آمّي البيت، فجاءَت هذه الجملة ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ راجعاً حكمها إلى الجملة الأولى، وجاء ما بعدها من قوله: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ راجعاً إلى الجملة الثانية، وهذا من بليغ الفصاحة» ١ هـ.

(٢) استشهد المؤلف رحمه الله هنا بجمل من آيات قرآنية كريمة، وهي على ترتيب ذكرها ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٧٢] ـ ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج: ٧٧]، ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ [المائدة: ٢] وهي الآية موضع التفسير هنا ـ ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠] ـ وقد ورد في الأصول [فَابْتَغوا] بالفاء وهو خطأ=

وقرأ أبو واقد، والجرَّاح، ونُبَيْح، والحسن بن عمران: [فِاصْطَادُوا] بكسر الفاءِ، وهي قراءَة مشكلة، ومن توجيهها أَن يكون راعىٰ كسر أَلف الوصل إِذا بدأت فقلت: اصطادوا ـ فكسر الفاء مراعاةً وتذكُّراً لكسر أَلف الوصل[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ معناه: ولا يكسبنكم. وجَرَم الرجل معناه: كسب، ويتعدى إِلى مفعولَيْن، كما يتعدى كسب، وفي الحديث: (وتكسب المعدوم). قال أَبو علي: وأَجْرم بالأَلف عرفه الكسب في الخطايا والذنوب، وقال الكسائي: جَرَم وأَجْرم لغتان بمعنى واحد، أَي: كسب. وقال قوم: ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ معناه: يحق لكُم، كما أَنَّ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾[2] معناه: حق لهم أَن لهم النار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ معناه: يَحْمِلنكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه كلها أَقوال تتقارب بالمعنى، فالتفسير الذي يخص اللفظة هو معنى الكسب، ومنه قول الشاعر:

جَـريمـةُ نـاهـضٍ فـي رَأْس نِيـقٍ ... تـرى لِعِظَـام مـا جمَعـتْ صَليبَـا[3]

معناه: كاسبُ قوت ناهض. ويقال: فلان جريمة قومه، إِذا كان الكاسب لهم، وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه وغيره: [يُجْرِمنَّكُمْ] بضم الياءِ، والمعنى أَيضاً: لا يكسبنكم، وأَما قول الشاعر:

ولَقَـدْ طعنْـتُ أَبـا عُيَيْنَـةَ طَعْنَـةً ... جَرَمتْ فَزَارَةُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا[4]

= من النساخ فآثرنا إثبات الصاب، ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]. ﴿۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٥٠].

(١) قال الزمخشري عن هذه القراءة: «هو بدلٌ من كسر الهمزة عند الابتداء». وقال أبو حيان: «وليس عندي كسراً محضاً، بل هو من باب الإمالة المحضة لتوهم وجود كسرة همزة الوصل، كما أمالوا الفاء في (فإذا) لوجود كسرة (إذا).

(٢) النحل: ٦٢.

(٣) البيت لأبي خُراش الهذلي يصف عقاباً تطعم فرخها الناهض ما بقي من لحم طير أكلته وبقي العظم يسيل منه الدسم والدهن. فالنهض هو الفرخ ـ وهي جريمته أي: كاسبة قوته كما يقال: فلان جريمة قومه، أي: كاسبهم. والنِّيق: أرفع موضع في الجبل، ويقال: هو الأنوق في النِّيق ممتنع لا يبلغ إليه، وجمعه أنياق ونيوق ونياق. والصليب: الودك، وهو دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه.

(٤) هذا البيت لأبي أسماء بن الضريبة. وجرمت أي: «حق لها الغضب» كما قاله في «اللسان» نقلاً عن=

فمعناه: كسبت فزارة بعدها الغضب، وقد فسر بغير هذا مما هو قريب منه.

وقوله تعالىٰ: ﴿شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿شَنَـَٔانُ﴾ متحركة النون، وقرأ ابن عامر: [شَنْئان] ساكنة النون، واختلف عن عاصم ونافع، يقال: شَنأْتُ الرجل شَنْئاً (بفتح الشِّين)، وشنَآناً (بفتح النون)، وشنْآناً (بسكون النون)، والفتح أكثر، كل ذلك إذا أبغضته، قال سيبويه: كل ما كان من المصادر على (فَعلان) بفتح العيْن لم يتعد فعله إلا أن يشذ شيءٌ كالشَّنآن، وإنما عدي (شنأتُ) من حيث كان بمعنى أَبغضت[1]، كما عدي (الرَّفَثُ) بإلى من حيث كان بمعنى (الإفضاءِ).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فأما من قرأ: ﴿شَنَـَٔانُ﴾ بفتح النون فالأظهر فيه أنه مصدر، كأنه قال: لا يكسبنكم بغض قوم من أجل أَنْ صدُّوكم عدواناً عليهم وظلماً لهم، والمصادر على هذا الوزن كثيرة: كالنَّزَوان، والغَلَيان، والطوَفان، والجَرَيَان، وغيره، ويحتمل الشنَآن بفتح النون أن يكون وصفاً فيجيءُ المعنى: ولا يكسبنكم بَغِيضُ قَوم أَو بُغَضَاءُ قوم عدواناً.

ومما جاءَ على هذا الوزن صفة قولهم: «حمار قطَوان»، إذا لم يكن سهل السير، وقولهم: «عدوٌ وصَمان» أي: ثقيل كعدو الشيخ ونحوه، إلى غير هذا مما ليس في الكثرة كالمصادر، ومنه ما أَنشده أبو زيد:

وقَبْلكَ ما هابَ الرِّجالُ ظُلامَتي ... وَفَقَأْتُ عيْنَ الأَشْوَس الأَبَيَانِ[2]

بفتح الباءِ، وأما من قرأ: [شَنْآن] بسكون النون فيحتمل أن يكون مصدراً، وقد جاءَ المصدر على هذا الوزن في قولهم: لويته دينه لوْيانا، وقول الأَحوص:

= الأخفش، وقال آخرون: بل المعنى: كسبت فزارة بعدها الغضب، وهو الذي اختاره ابن عطية. وللفراء رأي في البيت يقول فيه: إن (فزارة) منصوبة وليست مرفوعة كما توهموا، وفاعل الفعل (جرم) إنما هو الضمير العائد على الطعنة، والمعنى: جرمتهم الطعنة الغضب، أي: كسبتهم.

(١) في بعض النسخ: «من حيث كان أبغضت».

(٢) هذا البيت لأبي المجشِّر الجاهلي كما قال في اللسان، والشَّوَس: النظر بإحدى شقي العين، وقيل: هو الذي يُصغِّر عينه ويضم أجفانه لينظر، وقال ابن سيدة: أن ينظر بإحدى عينيه ويُميل وجهه في شق العين التي ينظر بها، يكون ذلك خلقة، ويكون من الكبر والغضب، والأبَيان: من الإِباء، يقال: أَبي يأبى فهو آبٍ وأَبيٌّ وأَبيانٌ بالتحريك.

. . . . وَإِنْ لاَمَ فيــه ذُو الشَّنــانِ وفَنَّــدا[١]

إنما هو تخفيف من (شَنْآن) الذي هو مصدر بسكون النون ، لأَنه حذف الهمزة وأَلقى حركتها على الساكن ، هذا هو التخفيف القياسي ، قال أَبو علي: من زعم أَن (فعَلان) إذا سُكنت عينه لم يكن مصدراً فقد أَخطأ ، وتحتمل القراءَة بسكون النون أَن تكون وصفاً ، فقد حُكي: رجل شنْآن وامرأَة شنآنة ، وقياس هذا أَنه من فعل غير متعد ، وقد يشتق من لفظ واحد فعل متعد وفعل واقف ، فيكون المعنى: ولا يكسبنكم بغيض قوم أو بغضاءُ قوم عُدواناً ، وإذا قدرت اللفظة مصدراً فهو مصدر مضاف إلى المفعول ، ومما جاءَ وصفاً على فعْلان ما حكاه سيبويه من قولهم: خمصان ، ومن ذلك قولهم: ندمان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومنه رحمان.

وهذه الآية نزلت عام الفتح حين أَراد المؤمنون أَن يستطيلوا على قريش وأَلفافها من القبائل المتظاهرين على صدر رسول الله ﷺ وأَصحابه عام الحديبية ، وذلك سنة ست من الهجرة ، فحصلت بذلك بغضة في قلوب المؤمنين وحسيكة[٢] للكفار ، فقيل للمؤمنين عام الفتح وهو سنة ثمان: لا يحملنكم ذلك البغض أَو أُولئك البُغَضاءُ من أَجل أَن صدوكم على أَن تعتدوا عليهم ، إذ لله فيهم إرادة خير ، وفي علمه أَن منهم من يؤمن كالذي كان. وحكى المهدوي عن قوم أَنها نزلت عام الحديبية لأَنه لما صُدَّ المسلمون عن البيت مرَّ بهم قوم من أَهل نجد يريدون البيت فقالوا: نصُدُّ هؤُلاءِ كما صُددنا ، فنزلت الآية.

وقرأَ أَبو عمرو ، وابن كثير: [إِن صدُّوكُمْ] بكسر الهمزة ، وقرأَ الباقون: ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ بفتح الهمزة إشارة إلى الصد الذي وقع ، وهذه قراءَة الجمهور ، وهي

---

(١) هذا عجز البيت ، وهو بتمامه كما رواه في اللسان:

وَمَــا الْعَيْــشُ إلا مَــا تَلَــذُّ وَتَشْتَهِــي ... وَإِنْ لامَ فيــه ذُو الشَّنـــان وَفَنَّـــدَا

(٢) الحَسَك والحَسَكَة والحسيكة: الحقد ـ على التشبيه ـ قال الأزهري: وحَسَكَ الصدر: العداوة ، وفي الحديث الشريف: «تياسروا في الصداق ، إنَّ الرجل ليعطي المرأَة حتى يبقي ذلك في نفسه عليها حسكة» أي: عداوة وحقداً.

أَمكن في المعنى ، وكسْر الهمزة معناه: إِن وقع مثل ذلك في المستقبل.

وقرأَ ابن مسعود: [إِنْ يَصُدُّوكُمْ] ، وهذه تؤيد قراءَة أَبي عمرو وابن كثير.

ثم أَمرَ الله تعالىٰ الجميع بالتعاون على البِرِّ والتَّقوى ، قال قوم: هما لفظان بمعنى ، وكرر باختلاف اللفظ تأْكيداً ومبالغة ، إِذ كل برٍّ تقوى ، وكل تقوى برٌّ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا تسامحٌ مّا ، والعرف في دلالة هذين اللفظين أَن البِر يتناول الواجب والمندوب إِليه ، والتقوى رعاية الواجب ، فإِن جعل أَحدهما بدل الآخر فَبِتَجَوُّزٍ ، ثم نهى تعالىٰ عن التعاون على الإِثم ، وهو الحكم اللاحق عن الجرائم وعن العدوان ، وهو ظلم الناس ، ثم أَمر بالتقوى ، وتوعد توعداً مجملاً بشدة العقاب. وروي أَن هذه الآية نزلت نهياً عن الطلب بدخول الجاهلية ، إِذ أَراد قوم من المؤمنين ذلك ، قاله مجاهد ، وقد قتل بذلك حليف لأَبي سفيان من هذيل.

قوله تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ الآية تعديد لما يتلى على الأُمة مما استثني من بهيمة الأَنعام ، والميتة: كل حيوان له نفس سائلة خرجت نفسه من جسده على غير طريق الذكاة المشروع ، سوى الحوت والجراد ، على أَن الجراد قد رأَى كثير من العلماءِ أَنه لا بد من فعل فيها يجري مجرى الذكاة ، وقرأَ جمهور الناس ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ بسكون الياءِ ، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [المَيِّتَةُ] بالتشديد في الياءِ ، قال الزجاج: هما بمعنى واحد ، وقال قوم من أَهل اللسان: الميْت بسكون الياءِ: ما قد مات ، والميِّت: يقال لما قد مات ولما لم يمت وهو حيٌّ بعْدُ ، ولا يقال له: ميْت بالتخفيف ، وردَّ الزجاج هذا القول ، واستشهد على ردِّه بقول الشاعر:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ ... إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ[1]

(١) نسبه في «لسان العرب إلى عدي بن الرَّعْلاءِ ، وبعده:

إِنَّمَا المَيْتُ مَنْ يعيشُ كَئِيباً ... كَاسِفاً بَالُهُ قَلِيلَ الرَّجَاءِ
فَأُنَاسٌ يُمَصَّصُونَ ثِمَاداً ... وأُنَاسٌ حُلُوقهم في المَاءِ

وكما اختلفوا في معنى كل من ميْت وميِّت ، اختلفوا كذلك في دلالة كل من ميِّت ومائت فقالوا: حكى الجوهري عن الفراء: يقال لمن لم يمت: إنه مائت عن قليل وميّت ، ولا يقولون لمن مات: هذا مائت. قيل: وهذا خطأ ، وإنما ميّت يصلح لما قد مات ولما سيموت ، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والبيت يحتمل أن يتأول شاهداً عليه لا له، وقد تأول قوم «استراح» في هذا البيت بمعنى: اكتسب رائحة، إذ قائله جاهلي لا يرى في الموت راحة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلدَّمُ﴾ معناه: المسفوح، لأنه بهذا تقيد الدم في غير هذه الآية، فيرد المطلق إلى المقيد، وأجمعت الأُمة على تحليل الدم المخالط للحم، وعلى تحليل الطحال ونحوه، وكانت الجاهلية تستبيح الدم، ومنه قولهم: «لمْ يُحْرَم مَن فُصِدَ له»[1]، و«العِلْهِزُ»: دمٌ ووبر يأكلونه في الأزمات[2].

﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ مقتض لشحمه بإجماع[3]، واختلف في استعمال شَعره وجلده بعد الدباغ فأُجيز ومُنع، وكل شيءٍ من الخنزير حرام بإجماع، جلداً كان أو عظماً.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ يعني ما ذبح لغير الله تعالىٰ، وقصد به صنم أو بشر من الناس، كما كانت العرب تفعل، وكذلك النصارى، وعادة الذابح أن يُسمي مقصوده ويصيح به، فذلك إهلاله، ومنه استهلال المولود إذا صاح عند الولادة، ومنه إهلال الهلال، أي: الصياح بأمره عند رؤيته، ومن الإهلال قول ابن أحمر:

يُهِلُّ بالفَرْقَدِ رُكْبانُها ... كما يُهِلُّ الرَّاكِبُ المُعْتَمِرْ[4]

= ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾. وقد جمع بين اللغتين عديّ بن الرعلاء في أبياته حين جعل الميْت كالميِّت.

(١) هذا مثل يضرب لمن يحصل على بعض حاجته، ويروي «من فُزْدَ له». وفُصد من الفصد. كانوا إذا أعياهم قرى الضيف فَصَدُوا بعيراً وعالجوا دمَه بشيءٍ فأكلوه، وأصل المثل أن رجلين باتا عند أعرابي فالتقيا صباحاً، فسأل أحدهما صاحبه عن القرى فقال: ما قريت، وإنما فصد لي، فقال: «لم يحرم من فصد له».

(٢) كانت العرب في الجاهلية تأكل العِلْهِز في الجدب، وفي حديث عكرمة: «كان طعام أهل الجاهلية العِلْهِز»، أنشد ابن شُميل:

وَإنَّ قِرى قَحْطَانَ قِرْفٌ وعِلْهِز ... أَقْبِحْ بهذا وَيْحَ نَفْسِكَ مِنْ فِعْل

وفي الحديث في دعائه عليه الصلاة والسلام على مُضر: «اللَّهمَّ اجعلها عليهم سنين كسني يوسف، فابتلوا بالجوع حتى أكلوا العِلْهِز». (راجع اللسان).

(٣) قال في (البحر المحيط): «وليس كذلك، فقد خالف فيه داود وغيره».

(٤) الفرقد: نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريباً، ولذا يهتدى به، وهو المسمى: «النجم القطبي»، ويقربه نجم آخر مماثلٌ له وأصغر منه، وهما فرقدان. والمعتمر: الزائر (في رأي الأصمعي)، وقال أبو عبيدة: المعتمر: المُتَعَمِّم بالعمامة. ومعنى البيت كما قال الأصمعي: «إذا انجلى لهم السحاب عن الفرقد أَهلُّوا، أي: رفعوا أصواتهم بالتكبير» ـ وقد فسَّر غير (الفرقد) بأنه ولد=

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ معناه: التي تموت خنقاً، وهو حبْس النَّفس سواءٌ فعل بها ذلك آدمي أَو اتفق لها ذلك في حجر أَو شجرة أَو بحبل أَو نحوه، وهذا بإِجماع، وقد ذكر قتادة أَن الجاهلية كانوا يخنقون الشاة وغيرها، فإِذا ماتت أَكلوها، وذكر نحوه ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ التي تُرمى أَو تضرب بعصا أَو بحجر أَو نحوه، وكأَنها التي تحذف به، وقال الفرزدق:

شَغَّارَةٌ تَقِذُ الفَصيلَ بِرِجْلِهَا ... فطَّارَةٌ لِقَوَادِمِ الأَبْكَارِ[1]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: التي تضرب بالخشب حتى يوقذها فتموت، وقال قتادة: كان أَهل الجاهلية يفعلون ذلك ويأْكلونها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومن اللفظة قول معاوية: «وَأَمَّا ابن عمر فرجل قد وقذه الورع، وكفى أَمره ونزوته». وقال الضحاك: «كانوا يضربون الأَنعام بالخشب لآلهتهم حتى يقتلوها فيأْكلونها»، وقال أَبو عبد الله الصنابحي: «ليس الموقوذة إِلا في مالك، وليس في الصيد وقيذ».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعند مالك وغيره من الفقهاءِ في الصيد ما حكمه حكم الوقيذ، وهو نص في قول النبي ﷺ في المعراض[2]: «وإِذَا أَصَابَ بِعَرْضِه فَلا تَأْكُل فَإِنَّهُ وَقِيذٌ»[3].

= البقرة، ولهذا قالوا: «إن معنى البيت أنهم في مفازة بعيدة من المياه فإذا رأَوا ولد البقرة رفعوا أصواتهم بالتكبير والتهليل». ـ وأَصل الإهلال هو رفع الصوت، وفي الحديث: «الصبي إذا ولد لم يورث ولم يرث حتى يستهل صارخاً».

(١) البيت في وصف ناقة، والشغَّارة هي التي ترفع قوائمها لتضرب. وتقذ: تضرب الفصيل حتى تصرعه أو تتركه مريضاً، والفصيل: ولد الناقة أو البقرة بعد فطامه وفصله عن أُمه ـ وهذا هو سبب ضربها له ـ والفطر: الحلب بالسبابة والوسطى ويستعان بطرف الإبهام، وخلفا الضرع المقدمان: هما القادمان، وجمعه: القوادم، والأبكار تحلب فُطْرا، لأنه لا يمكن حلبها كما يقال ضبا لقصر الخلف، لأنها صغار. ـ والفُطْر: القليل من اللبن ـ والحلب ضبا هو الحلب بقوة وشدة.

(٢) المِعْراض: سهم يرمى به بلا ريش، وأكثر ما يصيب بعرض عوده دون حده.

(٣) في الصحيحين وغيرهما عن عديٍّ قال: قلت يا رسول الله، إني أَرمي بالمعراض الصيد فأُصيب، فقال=

﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ هي التي تتردى من العلو إلى السفل فتموت ، كان ذلك من جبل أَو في بئر ونحوه ، وهي متفعِّلة من الرَّدى وهو الهلاك ، وكانت الجاهلية تأكل المتردي ، ولم تكن العرب تعتقد ميتةَ إلاَّ ما مات بالوجع ونحو ذلك دون سبب يعرف ، فأَما هذه الأَسباب فكانت عندها كالذكاة ، فحصر الشرع الذكاة في صفة مخصوصة ، وبقيت هذه كلها ميتة.

﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ فعيلة بمعنى مفعولة: وهي الشاة تنطحها أُخرى أَو غير ذلك فتموت ، وتأَول قومٌ النطيحة بمعنى الناطحة ، لأَن الشاتين قد تتناطحان فتموتان ، وقال قوم: لو ذكّر الشاة لقيل: والشاة النطيح ، كما يقال: كف خضيب ، ولحية دهين. فلما لم تُذَكَّرْ أُلحقت الهاءُ لئلا يشكل الأمر ، أَمذكراً يريد أَم مُؤَنَّثاً؟ قال ابن عباس ، والسدي ، وقتادة ، والضحاك: النطيحة: الشاة تناطح الشاة فتموتان ، أَو الشاة تنطحها البقر والغنم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكل ما مات ضغطاً فهو نطيح ، وقرأَ أَبو ميسرة: [وَالْمَنْطَوحَةُ].

وقوله: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ يريد كل ما افترسه ذو ناب وأَظفار من الحيوان كالأَسد والنمر والثعلب والذئب والضبع ونحوه ، هذه كلها سباع ، ومن العرب من يوقف اسم السبع على الأَسد ، وكان العرب إِذا أَخذ السبع شاة فقتلها ثم خلصت منه أَكلوها ، وكذلك إِن أَكل بعضها ، قاله قتادة وغيره. وقرأَ الحسن ، والفياض ، وطلحة بن سليطان ، وأَبو حيوة: [وَما أَكَلَ السَّبْعُ] بسكون الباءِ ، وهي لغة أَهل نجد[1] ، وقرأَ بذلك عاصم في رواية أَبي بكر عنه ، وقرأَ عبد الله بن مسعود: [وَأَكِيلَةُ السَّبع] ، وقرأَ عبد الله بن عباس: [وَأَكِيلُ السَّبع].

اختلف العلماءُ في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ ـ فقال ابن عباس: والحسن بن أَبي الحسن ، وعلي بن أَبي طالب ، وقتادة ، وإِبراهيم النَّخَعي ، وطاووس ،

= عليه الصلاة والسلام: «إِذا رميت بالمعراض فخرق فكله ، وإن أَصاب بعَرْضه فإنما هو وقيذٌ فلا تأكله».

(١) قال حسّان في عتبة بن أبي لهب:

مَـــنْ يــرْجِــع العَـــامَ إِلـــى أَهْلِـــهِ   فَمَـــا أَكِيـــلُ السَّبْـــع بـــالـــراجـــع

وعبيد بن عمير، والضحاك، وابن زيد، وجمهور العلماء: الاستثناءُ هو من هذه المذكورات، فما أُدرك منها يطرف بعين، أو يمصع[١] برجل، أَو يحرك ذنباً، وبالجملة ما يتحقق أَنه لم تَفِض نفْسه بل له حياة، فإِنه يذكى على سنة الذكاة ويؤكل، وما فَاضَت نفْسُه فهو في حكم الميتة بالوجع ونحوه على ما كانت الجاهلية تعتقده.

وقال مالك رحمه الله مرة بهذا القول، وقال أَيضاً ـ وهو المشهور عنه وعن أَصحابه من أَهل المدينة ـ: إن قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ معناه: من هذه المذكورات في وقت تصح فيه ذكاتها، وهو ما لم تنفذ مقاتلها ويتحقق أَنها لا تعيش، ومتى صارت في هذا الحد فهي في حكم الميتة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فقال بعض المفسرين: إن الاستثناءَ في قول الجمهور متصل، وفي قول مالك منقطع، لأَن المعنى عنده: لكم ما ذكيتم مما تجوز تذكيته فكلوه، حتى قال بعضهم: إن المعنى: إلا ما ذكيتم من غير هذه فكلوه، وفي هذا عندي نظر، بل الاستثناءُ على قول مالك متصل، لكنه يخالف في الحال التي تصح فيها ذكاة هذه المذكورات، وقال الطبري: إن الاستثناءَ عند مالك من التحريم لا من المحرمات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذه العبارة تجوُّز كثير، وحينئذ يلتئم المعنى.

والذكاة في كلام العرب: الذَّبح، قاله ثعلب، قال ابن سيدة: والعرب تقول: «ذكاة الجنين ذكاة أُمِّه».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا إِنما هو حديث[٢]. وذكَّى الحيوان ذَبَحَهُ. منه قول الشاعر:

ـ يُذَكِّيها الأَسَلْ[٣] ـ

---

(١) يقال: مَصَعَتْ الدابة بذنبها: حرّكته من غير عدد.

(٢) قال القرطبي: «الحديث الذي أشار إليه أخرجه الدارقطني من حديث أبي سعيد، وأَبي هريرة، وعلي، وعبد الله».

(٣) نقله في القرطبي هكذا، وذكره بنفس الصورة في اللسان، ولم ينسبه أحد منهما ولا من المحققين، والأسل: الرماح.

ومما احتج به المالكيون لقول مالك: «إن ما تيقن أنه يموت من هذه الحوادث فهو في حكم الميتة» ـ أنه[١] لو لم تحرم هذه التي قد تُيقن موتُها إلا بأن تموت لكان ذكرُ الميتة أولا يُغني عنها، فمن حجة المخالف أن قال: إنما ذكرت بسبب أن العرب كانت تعتقد أن هذه الحوادث كالذكاة فلو لم يذكر لها غير الميتة لظنت أنها ميتة الوجع حسب ما كانت هي عليه.

قوله تعالىٰ:

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ﴾ عطف على المحرمات المذكورات، و﴿ٱلنُّصُبِ﴾ جمعٌ، واحده: نصاب، وقيل: هو اسم مفرد، وجمعه: أَنْصاب، وهي حجارة تُنْصب، كان منها حول الكعبة ثلاثمائة وستون، وكان أَهل الجاهلية يُعظمونها ويذبحون عليها لآلهتهم ولها أَيضاً، وتلطخ بالدماءِ، وتوضع عليها اللحوم قطعاً قطعاً ليأْكل الناس، وقال مجاهد، وقتادة، وغيرهما: النُّصب حجارة كان أَهل الجاهلية يذبحون عليها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ويُهلون عليها، قال ابن جُرَيج: النُّصُب ليست بأَصنام، الصَّنَم يصور وينقش، وهذه الحجارة تنصب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد كانت للعرب في بلادها أَنصاب حجارة يعبدونها، ويحكون[٢] فيها أَنصاب مكة، ومنها الحجر المسمى بسَعْد وغيره، قال ابن جريج: كانت العرب تذبح بمكة، وينضحون بالدم ما أَقبل من البيت، ويشرحون اللحم ويضعونه على الحجارة، فلماجاءَ الإِسلام قال المسلمون لرسول الله ﷺ: نحن أَحق أَن نعظم هذا البيت بهذه

---

(١) قوله: «أنه لو لم تحرم» مبتدأ مؤخر، والخبر قوله في بداية الكلام: «ومما احتج به المالكيون». وجملة: «إن ما تيقن... إلخ» هي قول مالك، وقد وضعناها بين علامتي التنصيص.

(٢) أي: يحاكون فيها أنصاب مكة.

الأفعال ، فكأن رسول الله ﷺ لم يكره ذلك ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾[1] ، ونزلت: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

المعنى والنية فيها تعظيم النصب ، قال مجاهد: وكان أهل مكة يبدلون ما شاؤوا من تلك الحجارة إذا وجدوا أعجب إليهم منها ، قال ابن زيد: ما ذبح على النصب وما أُهِلَّ به لغير الله شيءٌ واحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ما ذبح على النصب جزءٌ مما أُهِلَّ به لغيرِ الله ، لكن خص بالذكر بعد جنسه لشهرة الأمر ، وشرف الموضع ، وتعظيم النفوس له ، وقد يقال للصنم أيضاً نُصُب لأنه يُنصب ، وروي أن الحسن بن أبي الحسن قرأ: [وَمَا ذُبِحَ عَلىٰ النَّصْب] بفتح النون وسكون الصاد ، وقال: على الصنم. وقرأ طلحة بن مُصرف: [عَلَى النُّصْب] بضم النون وسكون الصاد ، وقرأ عيسى بن عمر: [على النَّصَب] ، بفتح النون والصاد ، وروي عنه أنه قرأ بضم النون والصاد كقراءَة الجمهور.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ حرَّم به تعالىٰ طلب القِسْم وهو النصيب ، أو القَسْم ـ بفتح القاف ـ وهو المصدر بالأزلام. وهي سهام واحدها: زُلَم ـ بضم الزاي وبفتحها ـ وأزلام العرب ثلاثة أنواع:

منها الثلاثة التي كانت يتخذها كل إنسان لنفسه ، على أحدها افْعل ، والآخر لا تفعل ، والثالث مهمل لا شيءَ عليه فيجعلها في خريطة معه ، فإذا أراد فعل شيءٍ أدخل يده ـ وهي متشابهة ـ فأخرج أحدها وائتمر وانتهى بحسب ما يخرج له ، وإن خرج القدح الذي لا شيءَ فيه أعاد الضرب ، وهذه هي التي ضرب بها سراقة بن مالك بن جعشم حين اتبع النبي ﷺ وقت الهجرة.

والنوع الثاني سبعة قداح كانت عند هبل في جوف الكعبة ، فيها أحكام العرب وما يدور بين الناس من النوازل ، في أحدها: العقل في أمور الديات ، وفي آخر:

---

(١) الحج: ٣٧.

منكم، وفي آخر: من غيركم، وفي آخر: ملصق[1]، وفي سائرها: أحكام المياه وغير ذلك، وهي التي ضرب بها على بني عبد المطلب، إذ كان نَذَر هو نحر أحدهم إذا كملوا عشرة، وهو الحديث الطويل الذي في سير ابن إسحاق، وهذه السبعة أيضاً متخذة عند كل كاهن من كهان العرب وحكامهم على نحو ما كانت في الكعبة عند هبل.

والنوع الثالث هو قداح الميسر، وهي عشرة، سبعة منها فيها خطوط لها بعددها حظوظ، وثلاثة أغفال، وكانوا يضربون بها مقامرة، ففيها لهو للطالبين ولعب، وكان عقلاؤُهم يقصدون بها إطعام المساكين والمُعْدم في زمن الشتاءِ وكَلَب البرد وتَعذُّر التَّحَرُّف، وكان من العرب من يستقسم بها لنفسه طلب الكسب والمغامرة، وقد شرحت أَمرها بأَوعب من هذا في سورة البقرة في تفسير الميسر.

فالاستقسام بهذا كله هو طلب القَسْم والنصيب، وهو من أَكل المال بالباطل، وهو حرام، وكل مقامرة بحمام أَو بنرد أَو بشطرنج أَو بغير ذلك من هذه الأَلعاب فهو استقسام بما هو في معنى الأَزلام حرام كلُّه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ إشارة إلى الاستقسام بالأَزلام، والفسق: الخروج من مكان مُحْتَوٍ جامع، يقال: فسقت الرطبة: خرجت من قشرها، والفأرة من جحرها، واستعملت اللفظة في الشرع فيمن يخرج من احتواءِ الأَمر الشرعي وإحاطته.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ معناه عند ابن عباس رضي الله عنهما: من أن ترجعوا إلى دينهم، وقاله السدي وعطاء، وظاهر أَمر النبي ﷺ وأَصحابه ظهور دينه يقتضي أَن يأْس الكفار عن الرجوع إلى دينهم قد كان وقع منذ زمان، وإنماهذا اليأس عندي من اضمحلال أَمر الإِسلام وفساد جمعه، لأَن هذا أَمر كان يترجاه من بقي من الكفار، أَلا ترى إلى قول أَخي صفوان بن أُمية في يوم هوازن حين انكشف المسلمون وظنها هزيمة: أَلاَ بطل السحر اليوم، إلى غير هذا من الأَمثلة، وهذه الآية نزلت في أَثر حجة الوداع، وقيل: في يوم عرفة ولم يكن

(١) كان العرب إذا شَكُّوا في نسب أَحدهم ذهبوا إلى هبل وبمائة درهم وجزور فأَعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها، ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون، ثم قالوا: يا إلهنا، هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذاو كذا، فأَخرج الحق فيه، ثم يقولون لصاحب القداح: اضرب، فإن خرج عليه «منكم» كان منهم وسيطاً، وإن خرج «من غيركم» كان حليفاً، وإن خرج «ملصق» كان على منزلته فيهم لا نسب له ولا حلف ـ (عن سيرة ابن هشام). ويمكنك الرجوع إليها ففيها توضيح أكثر.

المشركون يومئذ إلا في حيّز القلة ، ولم يحضر الموسم منهم بشر ، وفي ذلك اليوم انمحى أمر الشرك من مشاعر الحج ، ويحتمل قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أن يكون إشارة إلى اليوم بعينه ، لا سيما في قول الجمهور ـ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره ـ أنها نزلت في عشية عرفة يوم الجمعة ورسول الله ﷺ في الموقف على ناقته ، وليس في الموسم مشرك. ويحتمل أن يكون إشارة إلى الزمن والوقت ، أي: في الأوان يئس الذين كفروا من دينكم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعم مشركي العرب وغيرهم من الروم والفرس وغير ذلك ، وهذا يقوّي أن اليأس من انحلال أمر الإسلام وذهاب شوكته ، ويقوّي أن الإشارة باليوم إنما هي إلى الأوان الذي فاتحته يوم عرفة ، ولا مشرك بالموسم ، ويعضد هذا قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ فإنما نهى المؤمنين عن خشية جميع أنواع الكفار ، وأمر بخشيته تعالىٰ التي هي رأس كل عبادة كما قال ﷺ ، ومفتاح كل خير ، وروي عن أبي عمرو أنه قرأ [يَيِسَ] بغير همزة ، وهي قراءة أبي جعفر.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ تحتمل الإشارة باليوم ما قد ذكرناه ، وهذا الإكمال عند الجمهور هو الإظهار واستيعاب عظم الفرائض والتحليل والتحريم. قالوا: وقد نزل بعد ذلك قرآن كثير ، ونزلت آية الربا ، ونزلت آية الكلالة ، إلى غير ذلك. وإنما كمل عظم الدين وأمر الحج أنْ حجوا وليس معهم مشرك ، وقال ابن عباس ، والسدي: هو إكمال تام ، ولم ينزل على النبي ﷺ بعد ذلك اليوم تحليل ولا تحريم ولا فرض ، وحكى الطبري عن بعض من قال هذا القول أن رسول الله ﷺ لم يعش بعد نزول هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر أنه عاش عليه الصلاة والسلام أكثر بأيام يسيرة ، وروي أن هذه الآية لما نزلت في يوم الحج الأكبر ، وقرأها رسول الله ﷺ بكى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك»؟ فقال: أبكاني أنّا كنا في زيادة من ديننا ، فأما إذْ كمل فإنه لم يكمل شيءٌ إلا نقص ، فقال له النبي ﷺ: «صدقت»[1].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، عن عنترة. ـ ولم يفهم الصحابة كلهم ما فهمه عمر بن الخطاب=

وروي أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له يهودي: آية في كتابكم تقرؤُونها لو علينا معشر يهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، فقال له عمر رضي الله عنه: أية آية هي؟ فقال له: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ، فقال له عمر رضي الله عنه: قد علمنا ذلك اليوم ، نزلت على رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة يوم جمعة(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ففي ذلك اليوم عيدان لأَهل الإِسلام إِلى يوم القيامة.

وقال داود بن أَبي هند للشعبي: إِن اليهود تقول: كيف لم تحفظ العرب هذا اليوم الذي كمل الله لها دينها فيه؟ فقال الشعبي: أَو ما حفظته؟ قال داود: فقلت: أَي يوم هو؟ قال: يوم عرفة.

وقال عيسى بن جارية الأَنصاري: كنا جلوساً في الديوان ، فقال لنا نصراني مثل ما قال اليهودي لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فما أَجابه منا أَحد ، فلقيت محمد بن كعب القرظي فأَخبرته ، فقال: هلاَّ أَجبتموه ، قال عمر بن الخطاب: أُنزلت على النبي ﷺ وهو واقف على الجبل يوم عرفة(٢).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذكر عكرمة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنه قال: نزلت سورة المائدة بالمدينة يوم الإِثنين ، وقال الربيع بن أَنس: نزلت سورة المائدة في مسير رسول الله ﷺ إِلى حجة الوداع ، وهذا كله يقتضي أَن السورة مدنية بعد الهجرة ، وإِتمام النعمة هو في: ظهور الإِسلام ، ونور العقائد ، وإِكمال الدين ، وسعة الأَحوال وغير ذلك مما

= رضي الله عنه ، فقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أخبر الله نبيه والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان ، فلا تحتاجون إلى زيادة أبداً ، وقد أتمه فلا ينقص أبداً ، وقد رضيه فلا يسخطه أبداً». فقد نظر إلى الآية نظرة شاملة تناولت ما فيها من إكمال وإتمام ورضا. والله أعلم.

(١) أخرجه الحميدي ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن حيان ، والبيهقي في سننه ـ عن طارق بن شهاب.

(٢) أخرجه ابن جرير عن عيسى بن حارثة الأنصاري ، وفي (الدر المنثور) زيادة في آخره: (فلا يزال ذلك اليوم عيداً للمسلمين ما بقي منهم أحد).

انتظمته هذه الملة الحنيفية ، إلى دخول الجنة والخلود في رحمة الله ، هذه كلها نعم الله المتممة قِبَلنا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ ، يحتمل الرضا في هذا الموضع أن يكون بمعنى الإرادة ، ويحتمل أن يكون صفة فعل عبارة عن إظهار الله إياه ، لأن الرضا من الصفات المترددة بين صفات الذات وصفات الأفعال ، والله تعالىٰ قد أراد لنا الإسلام ورضيه لنا ، وثَمَّ أشياء يريد الله تعالىٰ وقوعها ولا يرضاها ، والإسلام في هذه الآية هو الذي في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(١) ، وهو الذي تفسر في سؤال جبريل النبي ﷺ ، وهو الإيمان والأعمال والشُّعَب.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ﴾ يعني: مَن دعته ضرورة إلى أكل الميتة وسائر المحرمات ، وسئل رسول الله ﷺ: متى تحل الميتة؟ فقال: «إذا لم تَصطبحوا ، ولم تَغْتبقوا ، ولم تحتفئوا بها بقلا»(٢).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا مثال في حال عدم المأكول حتى يؤدي ذلك إلى ذهاب القوة والحياة.

وقرأ ابن محيصن: [فَمَن اطُّرَّ] بإدغام الضاد في الطاء ، وليس بالقياس ، ولكن العرب استعملته في ألفاظ قليلة استعمالاً كثيراً. وقد تقدم القول في أحكام الاضطرار في نظير هذه الآية في سورة البقرة.

والمخمصة: المجاعة التي تخمص فيها البطون ، أي: تضمر ، والخَمْص: ضمور البطن ، فالخلقة منه حسنة في النساءِ ، ومنه يقال: خَمْصانةٌ ، وبطن خَميص ، ومنه أَخمص القدم ، ويستعمل ذلك كثيراً في الجوع والغرث ، ومنه قول الأعشى:

تَبيتـون فـي المَشْتَـى مـلاءً بُطُـونُكُـم وجَاراتُكُمْ غَرثَى يَبِتْنَ خَمَائصَا(٣)

---

(١) آل عمران: ٦٩.

(٢) تصطبحوا: تشربون الصبوح ، وهوما يشرب في الصباح ، وتغتبقوا: تشربون الغبوق ، وهو ما يشرب في المساء ، والاحتفاء قال فيه أبو سعيد الضرير صوابه: ما لم تَحْتَفُّوا بها ـ من أَحفى الشعر أزاله ، وقيل هو من الجفا وبالهمزة وهو أصل البردي ، وقد يؤكل النوع الأبيض منه ، يقول: ما لم تقتلعوا هذا بعينه فتأكلوه. وأورد اللسان الحديث هكذا «وفي الحديث أنه سئل: متى تحل لنا الميتة؟ فقال: ما لم تصطبحوا أو تغتبقوا أو تحتَفُّوا بقلا ، فشأنكم بها» مادة (صبح) ولعل الخطأ في الأصل هنا من النساخ.

(٣) هذا البيت من قصيدة قالها الأعشى يهجو علقمة بن علاثة ، وغرثى: جوعى ـ ورواية الديوان: =

أي: منطويات على الجوع قد أضمَر بطونهن.

وقوله تعالىٰ: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ هو بمعنى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾[١]، وقد تقدم تفسيره وفقهه في سورة البقرة، والجنف: الميْل، وقرأ أبو عبد الرحمن، ويحيى بن وثاب، وإبراهيم النخعي، [غَيْرَ مُتَجَنِّف] دون ألف، وهي أبلغ في المعنى من متجانف، لأن شدّ العين يقتضي مبالغة وتوغُّلاً في المعنى وثبوتاً لحكمه، وتفاعل إنما هي محاكاة الشيءِ والتقرب منه، ألا ترى إذا قلت: تمايل الغصن، فإن ذلك يقتضي تأوّداً ومقاربة ميْل، وإذا قلت: تميَّل فقد ثبت حكم الميل، كذلك: تصاوَنَ وتصوَّن، وتغافل وتَغفَّل.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ نائب مناب «فلا حرج عليه»، إلى ما يتضمن من زيادة الوعد وترجية النفوس، وفي الكلام محذوف يدل عليه المذكور، تقديره: فأكل من تلك المحرمات المذكورات.

وسبب نزول قوله تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ أن جبريل عليه السلام جاءَ إلى رسول الله ﷺ، فوجد في البيت كلباً فلم يدخل، فقال له النبي ﷺ: «ادخل»، فقال: «أنا لا أدخل بيتاً فيه كلب، فأمر رسول الله ﷺ: بقتل الكلاب فقتلت حتى بلغت العوالي، فجاءَ عاصم بن عديٍّ، وسعد بن خيثمة، وعويمر بن ساعدة فقالوا: يا رسول الله: ماذا يحل لنا من هذه الكلاب؟[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وروى هذا السبب أبو رافع مولى النبي ﷺ، وهو كان المتولي لقتل الكلاب، وحكاه أيضاً عكرمة، ومحمد بن كعب القرظي موقوفاً عليهما، وظاهر الآية أن سائلاً سأل عما أُحلَّ للناس من المطاعم، لأن قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ ليس

= (جوعى)، وبعده:

يُـراقِبْـنَ مِـنْ جـوع خِـلالَ مخـافَـةٍ ... نُجُـومَ السَّمـاءِ العـاتِمَـاتِ الغَـوَامِصَـا

(١) من قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

(٢) أخرجه مع اختلاف مع الألفاظ الفريابي، وابن المنذر، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن أبي رافع. ـ وأخرج ابن جرير عن عكرمة دخول عاصم بن عدي ورفيقيه على النبي ﷺ وسؤالهم.

الجواب عما يحل لنا من اتخاذ الكلاب ، اللَّهم إلا أَن يكون هذا من إجابة السائل بأَكثر مما سأَل عنه ، وهذا موجود كثيراً من النبي ﷺ ، كجوابه في لباس المُحْرم وغير ذلك ، وهو ﷺ مُبيِّن الشرع ، فإنما يجاوب مادّاً إطناب التعليم لأُمته.

والطيبات: الحلال ، هذا هو المعنى عند مالك وغيره ، ولا يراعى مستلذاً كان أَم لا ، وقال الشافعي: الطيبات: الحلال المستَلَذ ، وكل مستقذر كالوزغ والخنافس وغيرها فهي من الخبائث حرام.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ تقديره: وصيْد ما علمتم ، أَو فاتخاذ ما علمتم ، وأَعلى مراتب التعليم أَن يشلى الحيوان فَيَنْشَلي[1] ، ويدعى فيجيب ، ويزجر بعد ظفره بالصيد فينزجر ، وأَن يكون لا يأْكل من صيده ، فإذا كان كلب بهذه الصفات ولم يكن أَسود بهيماً فأَجمعت الأُمة على صحة الصيد به بشرط أَن يكون تعليمَ مسلم ، ويصيدَ به مسلم ، هنا انعقد الإجماع ، فإذا انخرم شيءُ مما ذكرنا دخل الخلاف ، فإن كان الذي يصاد به غير كلب كالفهد وما أشبهه ، وكالبازي والصقر ونحوهما من الطير ، فجمهور الأُمة على أَن كل ما صاد بعد تعليم فهو جارح ، أَي: كاسب ، يقال: جرح فلان واجترح إذا كسب ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾[2] ، أَي: كسبتم من حسنة وسيئة ، وكان ابن عمر يقول: إنما يصاد بالكلاب ، فأَما ما صِيدَ به من البزاة وغيرها من الطير فما أَدركت ذكاته فذكِّه فهو حلالٌ لك ، وإلا فلا تَطْعمه ، هكذا حكى ابن المنذر ، قال: وسئل أَبو جعفر عن البازي والصقر ، أَيحل صيده؟ قال: لا ، إلاَّ أَن تدرك ذكاته ، قال: واستثنى قوم البزاة فجوَّزوا صيدها لحديث عدي بن حاتم ، قال: سأَلت رسول الله ﷺ: عن صيد البازي فقال: «إذا أَمسك عليك فكُلْ»[3]. وقال الضحاك والسدي: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ هي الكلاب خاصة ، فإن كان الكلب أَسود بهيماً فَكَرِهَ صَيْدَه الحسن بن

---

(١) أشلى الكلب على الصيد أَغراه. واستشلى الكلب بمعنى أَشلاه. (المعجم الوسيط).

(٢) الأنعام: ٦٠.

(٣) أخرجه ابن جرير عن عدي بن حاتم. وهذا الحديث في البزاة ، ولكن أخرج البخاري ومسلم عن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله ، إني أُرسل الكلاب المُعَلَّمة وأَذكر اسم الله ، فقال: إذا أرسلت كلبك المُعَلَّم ، وذكرت اسم الله فكل مما أمسكن عليك ، قلت: وإن قتلن؟ قال: وإن قتلن ما لم يشركها كلب ليس منها ، فإنك إنما سميت على كلبك ، ولم تسم على غيره. (الدر المنثور).

أَبي الحسن ، وقتادة ، وإِبراهيم النَّخَعي ، وقال أَحمد بن حنبل: ما أَعرف أَحداً يرخص فيه إِذا كان بهيماً ، وبه قال ابن راهويه ، فأَما عوام أَهل العلم بالمدينة والكوفة فيرون جواز صيد كل كلب مُعَلَّم.

وأَما أَكل الكلب من الصيد ، فقال ابن عباس: وأَبو هريرة ، والشعبي ، وإِبراهيم النَّخَعي ، وسعيد بن جبير ، وعطاءُ بن أَبي رباح ، وقتادة ، وعكرمة ، والشافعي ، وأَحمد ، وإِسحاق ، وأَبو ثور ، والنعمان وأَصحابه: لا يؤكل ما بقي ، لأَنه إِنما أَمسك على نفسه ، ولم يمسك على ربِّه ، ويعضد هذا القول قول النبي ﷺ لعديّ بن حاتم في الكلب المعلم: (وإِذا أَكل فلا تأْكل فإِنما أَمسك على نفسه) ، وتأَول هؤلاءِ قوله تعالىٰ: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أَي: الإِمساك التام ، ومتى أَكل فلم يمسك على الصائد ، وقال سعد بن أَبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وأَبو هريرة أَيضاً ، وسلمان الفارسي ، رضي الله عنهم: إِذا أَكل الجارح أُكل ما بقي وإِن لم تبق إِلا بضعة ، وهذا قول مالك وجميع أَصحابه فيما علمت ، وتأَولوا قول الله تعالىٰ: ﴿مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ على عموم الإِمساك ، فمتى حصل إِمساك ولو في بضعة حَلَّ أَكلها ، وروي عن النَّخَعي ، وأَصحاب الرأي ، والثوري ، وحماد بن أَبي سليمان: أَنهم رخصوا فيما أَكل البازيُّ منه ، خاصة في البازي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَنه لا يمكن فيه أَكثر من ذلك ، لأَن حدَّ تعليمه أَن يدعى فيجيب ، وأَن يُشْلى فينشلي ، وإِذا كان الجارح يشرب من دم الصيد فجمهور الناس على أَن ذلك الصيد يؤكل ، وقال عطاء: ليس شرب الدم بأَكل ، وكرَّه أَكل ذلك الصيد الشعبيُّ ، وسفيان الثوري.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس في الحيوان شيءٌ يقبل التعليم التام إِلا الكلب شاذًا.

وأَكثرها يأْكل من الصيد ، ولذلك لم ير مالك ذلك من شروط التعليم ، وأَما الطير فقال ربيعة: ما أَجاب منها إِذا دُعي فهو المعلم الضَّاري.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لأن أَكثر الحيوان بطبيعته ينشلي ، وقال أَصحاب أَبي حنيفة: إِذا صاد الكلب

وأَمسك ثلاث مرات ولاءً فقد حصل منه التعليم ، قاله ابن المنذر: وكان النعمان لا يحدد في ذلك عدداً ، وقال غيرهم: إذا فعل ذلك مرة واحدة فقد حصل معلماً ، وإذا كان الكلب تعليم يهودي أَو نصراني فَكَرِهَ الصَّيْدَ به الحسن البصري ، فأَما كلب المجوسي وبازُه وصقرُه فَكَرِهَ الصيد بها جابرُ بن عبد الله ، والحسن ، وعطاء ، ومجاهد ، وإبراهيم النَّخَعي ، والثوري ، وإسحاق بن راهويه ـ ومالك رحمه الله ، والشافعي ، وأَبو حنيفة ، وأَصحابهم على إباحة الصيد بكلابهم إذا كان الصائد مسلماً ، قالوا: وذلك مثل شفرته ، وأَما إذا كان الصائد من أَهل الكتاب فجمهور الأُمة على جواز صيده غير مالك رحمه الله ، فإنه لم يجوز صيد اليهودي والنصراني ، وفرَّق بين ذلك وبين ذبيحته ، وتلا قول الله تعالىٰ: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ قال: فلم يذكر الله بهذا اليهود ولا النصارى ، وقال ابن وهب ، وأَشهب: صيد اليهودي والنصراني حلال كذبيحته ، وفي كتاب محمد: لا يجوز صيد الصابئ ولا ذبيحته ، وهم قوم بين اليهود والنصارى لا دين لهم ، وأَما إذا كان الصائد مجوسياً فمنع من أَكل صيده مالك ، والشافعي ، وأَبو حنيفة ، وأَصحابهم ، وعطاء ، وابن جبير ، والنَّخَعي ، والليث بن سعد ، وجمهور الناس ، وقال أَبو ثور فيها قولين: أَحدهما كقول هؤلاءِ ، والآخر أَن المجوس أَهل كتاب ، وأَن صيدهم جائز.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ بفتح العين واللام ، وقرأَ ابن عباس ، ومحمد بن الحنيفة: [عُلِّمتُم] بضم العين وكسر اللام ، أَي: أَمر الجوارح والصيد بها.

والجوارح: الكواسب على ما تقدم ، وحكى ابن المنذر عن قوم أَنهم قالوا: الجوارح مأْخوذ من الجِراح ، أَي: الحيوان الذي له ناب وظفر أَو مخلب يجرح به صيده.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف ، أَهل اللغة على خلافه. وقرأَ جمهور الناس ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ بفتح الكاف وشد اللام ، والمكلِّب: معلم الكلاب ومُضْريها ، ويقال لمن يعلم غير كلب ، مَكلِّب ، لأَنه يرد ذلك الحيوان كالكلب. وقرأَ الحسن ، وأَبو زيد: [مُكْلِبين] بسكون الكاف وتخفيف اللام ومعناه: أَصحاب كلاب ، يقال: أَمْشى الرجل: كثرت ماشيته ، وأَكلب: كثرت كلابه. وقال بعض المفسِّرين: المكَلِّب بفتح الكاف وشد اللام: صاحب الكلاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس هذا بمحرر.

وقوله تعالىٰ: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: تعلمونهن من الحيلة في الاصطياد والتَّأني لتحصيل الحيوان، وهذا جزءٌ ممَّا علمه الله الإنسان فـ[من] للتبعيض، ويحتمل أن تكون لابتداءِ الغاية، وأُنث الضمير في ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ مراعاة للفظ الجوارح، إذ هو جمع جارحة.

قوله عز وجل:

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ يحتمل أن يريد: مما أمسكن فلم يأكلن منه شيئاً، ويحتمل أن يريد: مما أمسكن وإن أكلن بعض الصيد، وبحسب هذا الاحتمال اختلف العلماءُ في جواز أكل الصيد إذا أكل منه الجارح، وقد تقدم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أمر بالتسمية عند الإرسال على الصيد، وفِقْه الصيد والذبح في معنى التسمية واحد، فقال بعض العلماءِ: هذا الأمر على الوجوب، ومتى ترك المرسِل أو الذابح التسمية عمداً أو نسياناً لم تؤكل، وممن رويت عنه كراهية ما لم يسم عليه الله نسياناً الشعبيُّ، وابن سيرين، ونافع، وأبو ثور. ورأى بعض العلماءِ هذا الأمر بالتسمية على الندب، وإلى ذلك ينحو أشهب في قوله: إن ترك التسمية مستخفاً لم تؤكل، وإن تركها عامداً لا يدري قدر ذلك ولكنه غير متهاون بأمر الشريعة فإنها تؤكل، ومذهب مالك وجمهور أهل العلم أن التسمية واجبة مع الذكْر، ساقطة مع النسيان، فمن تركها عامداً فقد أفسد الذبيحة والصيد، ومن تركها ناسياً سمَّى عند الأكل وكانت الذبيحة جائزة. واستحب أكثر أهل العلم ألا يذكر في التسمية غير الله تعالىٰ، وأن لفظها: بسم الله والله أكبر، وقال قوم: إنْ صلى مع ذلك على النبي ﷺ فجائز.

ثم أمر تعالىٰ بالتقوى على الجملة ، والإشارة القريبة هي إلى ما تضمنته هذه الآيات من الأوامر ، وسرْعةُ الحساب هي من حيث إنه تبارك وتعالىٰ قد أحاط بكل شيء علماً ، فلا يحتاج إلى محاولة عدٍّ ، ويحاسب جميع الخلائق دفعة واحدة ، وتحتمل الآية أن تكون وعيداً بيوم القيامة كأنه قال: إن حساب الله لكم سريع إتيانه إذ يوم القيامة قريب ، ويحتمل أن يريد بالحساب المجازاة فكأنه توعد في الدنيا بمجازاة سريعة قريبة إن لم يتقوا الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ إشارة إلى الزمن والأوان ، والخطاب للمؤمنين ، وتقدم القول في ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ابتداءٌ وخبر ، و﴿حِلٌّ﴾ معناه: حلالٌ ، والطعام في هذه الآية: الذبائح ، كذا قال أهل التفسير ، وذلك أن الطعام الذي لا محاولة فيه كالبُرّ والفاكهة ونحوه لا يضُرُّ فيه ويُحرِّم عينَه تملُّكُ أحد. والطعام الذي تقع فيه محاولة على ضربين ، فمنه ما محاولته صنعة لا تعلُّق للدِّين بها كخبز الدقيق وتعصير الزيت ونحوه ، فهذا إن تُجنِّب من الذمي فعلى جهة التقزز ، والضرب الثاني التي هي محتاجة إلى الدِّين والنِّية ، فإذا كان القياس ألا تجوز ذبائحهم ـ كما تقول: إنهم لا صلاة لهم ولا صوم ولا عبادة مقبولة ـ رخَّص الله تبارك وتعالىٰ في ذبائحهم على هذه الأُمة ، وأخرجها بالنص عن القياس.

ثم إن العلماءَ اختلفوا في لفظ ﴿وَطَعَامُ﴾ ـ فقال الجمهور: وهي الذبيحة كلها ، وتذكية الذمي عاملةٌ[1] لنا في كل الذبيحة ما حلَّ له منها وما حرم عليه ، لأنه مُذَكٍّ. وقالت جماعة من أهل العلم: إنما أُحل لنا طعامهم من الذبيحة ـ أي الحلال لهم ـ لأن ما لا يحلُّ لهم لا تعمل فيه تذكيتهم ، فمنعت هذه الطائفة الطَّريف[2] والشحوم المحضة من ذبائح أهل الكتاب ، وهذا الخلاف موجود في مذهب مالك رحمه الله.

واختلف العلماءُ في لفظة ﴿أُوتُواْ﴾ ـ فقالت فرقة: إنما أُحلت لنا ذبائح بني إسرائيل

---

(١) أي: مُؤَثِّرَة في كل الذبيحة ، ما حلَّ منها للذمي وما حرم عليه.

(٢) هذه كلمة عبرية ، في الخرشي على «مختصر خليل»: «الطريفة: هي أن توجد الذبيحة فاسدة الرئة ، أي: ملتصقة بظهر الحيوان ، وإنما كانت الطريفة عندهم محرمة لأن ذلك علامة على أنها لا تعيش من ذلك ، فلا تعمل فيها الذكاة عندهم ، فهي بمنزلة منفوذة المقاتل عندنا». (عن محقق القرطبي).

والنصارى الصرحاءُ الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل، فمنعت هذه الفرقة ذبائح نصارى بني تغلب من العرب، وذبائح كل دخيل في هذين الدِّينين، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ينهى عن ذبائح نصارى بني تغلب ويقول: لأنهم لم يتمسكوا بشيءٍ من النصرانية إلا بشرب الخمر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا ليس بنهي عن ذبائح النصارى المحققين منهم. وقال جمهور الأُمة: ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وابن المسيب، والشعبي، وعطاء، وابن شهاب، والحكَم، وحماد، وقتادة، ومالك رحمه الله، وغيرهم: إن ذبيحة كل نصراني حلال سواءٌ كان من بني تغلب أو غيرهم، وكذلك اليهود، وتأولوا قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي: ذبائحكم، فهذه رخصة للمسلمين لا لأهل الكتاب، لمَّا كان الأمر يقتضي أن شيئاً قد تشرعنا فيه بالتذكية ينبغي لنا أن نحميه منهم، ورخَّص الله تعالىٰ في ذلك رفعاً للمشقة بحسب التجاوز.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ عطف على الطعام المحلَّل. والإحصان في كلام العرب وفي تصريف الشرع مأخوذ من المنعة، ومنه الحصن، وهو مترتب بأربعة أشياءٍ: الإسلام والعفة والنكاح والحرية، فيمتنع في هذا الموضع أن يكون الإسلام لأنه قد نص أنهن من أهل الكتاب، ويمتنع أن يكون النكاح لأن ذات الزوج لا تحل، ولم يبق إلا الحرية والعفة فاللفظة تحتملهما. واختلف أهل العلم بحسب هذا الاحتمال ـ فقال مالك رحمه الله، ومجاهد، وعمر بن الخطاب، وجماعة من أهل العلم: المحصنات في هذه الآية: الحرائر، فمنعوا نكاح الأمَة الكتابية. وقالت جماعة من أهل العلم: المحصنات في هذه الآية: العفائف، منهم مجاهد أيضاً، والشعبي، وغيرهم، فجوزوا نكاح الأمة الكتابية، وبه قال سفيان، والسدي، وقال الشعبي: إحصان الذمية ألا تزني وأن تغتسل من الجنابة، وقال أبو ميسرة: مملوكات أهل الكتاب بمنزلة حرائرهن العفائف منهن حلالٌ نكاحهن.

(١) المائدة: ٥١.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومنع بعض العلماءِ زواج غير العفيفة بهذه الآية، وقال الحسن بن أَبي الحسن: إِذا اطلع الرجل من امرأَته على فاحشة فليفارقها، وفرق ابن عباس رضي الله عنهما بين نساءِ أَهل الحرب ونساءِ أَهل الذمة فقال: من أَهل الكتاب من يحل لنا وهم كل من أَعطى الجزية، ومنهم من لا يحل لنا وهم أَهل الحرب. وكَرِهَ مالك رحمه الله نكاح نساءِ أَهل الحرب مخافة ضياع الولد أَو تغير دينه.

والأُجور في هذه الآية: المهور، وانتزع أَهل العلم من لفظة ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ أَنه لا ينبغي أَن يدخل زوج بزوجته إِلا بعد أَن يبذل من المهر ما يستحلها به، ومَنْ جوَّز أَن يدخل دون أَن يبذل ذلك فرأَى أَنه بحكم الارتباط والالتزام في حكم المؤتي.

و﴿مُحۡصِنِينَ﴾ معناه: متزوجين على السُّنَّة، والإِحصان ـ في هذا الموضع ـ هو بالنكاح، والمسافح: المزاني، والسفاح: الزنى، والمسافِحة هي المرأَة التي لا تردُّ يد لامس، وتزني مع كل أَحد، وهن أَصحاب الرايات في الجاهلية. والمخادَنَة: أَن يكون الزانيان قد وقف كل واحد نفسه على صاحبه، وقد تقدم نظير هذه الآية، وفُسِّر بأَوعب من هذا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ يحتمل أَن يكون المعنى على أَن الكفر هو بنفس الإِيمان، وفي هذا مجاز واستعارة، لأَن الإِيمان لا يُتصور كفر به، إِنما الكفر بالأُمور التي حقها أَن يقع الإِيمان بها، وباقي الآية بيِّن.

قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾.

لا يختلف أَن هذه الآية هي التي قالت عائشة رضي الله عنها فيها: «نزلت آية التيمم»، وهي آية الوضوء، لكن من حيث كان الوضوء متقرراً عندهم مستعملاً فكأَن

الآية لم تزدهم فيه إلا تلاوته ، وإنما أعطتهم الفائدة والرخصة في التيمم ، واستدل على حصول الوضوء بقول عائشة رضي الله عنها: «فأقام رسول الله ﷺ بالناس وليسوا على ماءٍ وليس معهم ماءٌ». وآية النساء إما نزلت معها أو بعدها بيسير ، وكانت قصة التيمم في سفر رسول الله ﷺ في غزوة ٱلْمُرَيْسيع ، وهي غزوة بني المصطلق ، وفيها كان هبوب الريح فيما روي ، وفيها كان قول عبد الله بن أبي بن سلول: «لئن رجعنا إلى المدينة» القصة بطولها ، وفيها وقع حديث الإفك»[(١)].

ولما كانت محاولة الصلاة في الأغلب إنما هي بقيام جاءت العبارة: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ﴾. واختلف الناس في القرينة التي أُريدت مع قوله: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ﴾ ـ فقالت طائفة: هذا لفظ عام في كل قيام ، سواءٌ كان المرءُ على طهور أو محدثاً ، فإنه ينبغي له إذا قام إلى الصلاة أن يتوضأ ، وروي أن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه كان يفعل ذلك ويقرأُ الآية ، وروي نحوه عن عكرمة ، وقال ابن سيرين: كان الخلفاءُ يتوضؤون لكل صلاة ، وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه توضأ وضوءًا فيه تجوز ، ثم قال: هذا وضوءُ من لم يحدث[(٢)]. وقال عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر الغَسيل: إن النبي ﷺ أُمر بالوضوءِ عند كل صلاة فشق ذلك عليه فأُمر بالسواك ورفع عنه الوضوء إلا من حدث[(٣)].

---

(١) روى البخاري عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عِقْد لي ، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه ، وأقام الناس معه ، وليسوا على ماء ، فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ والناس ، وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء ، فجاء أبو بكر الصديق ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام ، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس ، وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء ، فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول ، وجعل يَطْعَنُني بيده في خاصرتي فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي ، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماءٍ فأنزل الله آية التَّيَمُّم فتيمَّموا ، فقال أُسيد بن الحضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر ، قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فأصبنا العقد تحته». وهذا الحديث هو الذي أشار إليه ابن عطية في أكثر من موقع في الفقرة السابقة. وفيه قالت عائشة رضي الله عنها: «نزلة آية التيمم».

(٢) أخرجه أبو داوود ، وابن ماجه ، والترمذي ، وقال الترمذي إسناده ضعيف ـ (عن ابن كثير).

(٣) أخرجه أحمد ، وأبو داود ، وابن جرير ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والحاكم ، والبيهقي. (عن الدر المنثور).

والغسيل هو حنظلة رضي الله عنه ، نفر حين سمع الهائعة وهو جنب فاستشهد فغسلته الملائكة فلقب بالغسيل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فكان كثير من الصحابة منهم ابن عمر وغيره يتوضؤون لكل صلاة انتداباً إِلى فضيلة ، وكذلك كان رسول الله ﷺ يفعل ، ثم جمع بين صلاتين بوضوءٍ واحد في حديث سويد بن النعمان ، وفي غير موطن ، إِلى أَن جمع يوم الفتح بين الصلوات الخمس بوضوءٍ واحد(١) ، إِرادة البيان لأُمته ، وروى ابن عمر أَن النبي ﷺ قال: «من توضأ على طهر كتب له عشر حسنات»(٢) وقال: إِنما رغبت في هذا. وقالت فرقة: نزلت هذه الآية رخصةً لرسول الله ﷺ ، لأَنه كان لا يعمل عملاً إِلا وهو على وضوءٍ ، ولا يكلم أَحداً ، ولا يرد سلاماً ، إِلى غير ذلك ، فأَعلمه الله بهذه الآية أَن الوضوءَ إِنما هو عند القيام إِلى الصلاة فقط دون سائر الأَعمال ، قال ذلك علقمة بن الفغواءِ ، وهو من الصحابة(٣) ، وكان دليل رسول الله ﷺ إِلى تبوك ، وقال زيد بن أَسلم ، والسدي: معنى الآية: إِذا قمتم إِلى الصلاة من المضاجع ، يعني النوم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والقَصْد بهذا التأْويل أَنْ يعم الأَحداث بالذكر ، ولا سيما النوم الذي هو مختلف فيه ، هل هو في نفسه حدث ، وفي الآية على هذا التأْويل تقديم وتأْخير ، وتقديره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ من النوم ، ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ يعني الملامسة الصغرى ، ﴿فَٱغْسِلُواْ﴾ ـ فتمت أَحكام المُحْدِث حدثاً

(١) قال القرطبي: «حديث سويد بن النعمان أن النبي ﷺ صلى وهو بالصهباء العصر والمغرب بوضوء واحد ، وذلك في غزوة خيبر» ـ ثم قال: «وهو حديث صحيح رواه مالك في موطئه ، وأخرجه البخاري ومسلم». وهذا الحديث في جمعه ﷺ بين صلاتين بوضوء واحد ، وأما جمعه بين الصلوات الخمس بوضوء واحد يوم الفتح فقد أخرج مسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي عن بريدة قال: «كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ، فلما كان يومُ الفتح توضأ ومسح على خفيه ، وصلى الصلوات بوضوء واحد ، فقال له عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ، إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله ، قال: إني عمداً فعلت يا عمر». وبريدة هو ابن الحُصَيب بضم الحاء المهملة وفتح الصاد. (عن القرطبي والدر المنثور).

(٢) أخرجه أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ـ (الجامع الصغير للسيوطي).

(٣) علْقمة بن الفغواء (بفاء مفتوحة والغين المعجمة ساكنة) ـ قال ابن حبان وابن الكلبي: له صحبة ، بعثه رسول الله ﷺ بمال إلى أبي سفيان بن حرب في فقراء قريش وهم مشركون ـ يتألفهم ـ وقال له: التمس صاحباً.

أصغر ، ثم قال: ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾ فهذا حكم نوع آخر ، ثم قال للنوعين جميعاً: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ ، وقال بهذا التأويل محمد بن مسلمة من أصحاب مالك رحمه الله وغيره.

وقال جمهور أهل العلم: معنى الآية: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ «مُحْدِثين»[١] ، وليس في الآية على هذا تقديم ولا تأخير ، بل يترتب في الآية حكم واجد الماءِ إلى قوله: ﴿ فَاطَّهَّرُوا ﴾ ، ودخلت الملامسة الصغرى في قوله: «مُحْدثين» ، ثم ذكر بعد ذلك بقوله: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ ﴾ إلى آخر الآية حكم عادم الماءِ من النوعين جميعاً ، وكانت الملامسة هي الجماع ولا بد ، ليذكر الجُنُب العادم للماءِ كما ذكر الواجد ، وهذا هو تأويل الشافعي وغيره ، وعليه تجيءُ أقوال الصحابة كسعد بن أبي وقاص ، وابن عباس ، وأبي موسى ، وغيرهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ ، الغسل في اللغة: إيجاد الماءِ في المغسول مع إمرار شيءٍ عليه كاليد ، أو ما قام مقامها ، وهو يتفاضل بحسب الانغمار في الماءِ أو التقليل منه ، وغسل الوجه في الوضوءِ هو بنقل الماءِ إليه وإمرار اليد عليه ، والوجه: ما واجه الناظر وقابله ، وحدُّه في الطول منابت الشعر فوق الجبهة إلى آخر الذقن ، وعبَّر بعض الناس: إلى ما قابل آخر الذقن ، وقيل: بل حدُّه فيها آخر الشعر. واختلف العلماءُ في تخليل اللحية على قولين: روي تخليلها عن النبي ﷺ من حديث أنس ، ذكره الطبري[٢] ، واختلف في حدِّه عرضاً ـ فهو في المرأة والأمرد من الأذن

---

(١) ففي الآية محذوف تقديره: «محدثين» ـ والأقوال في الآية أربعة ـ (أ) أن الآية عامة في كل قيام سواء كان المرء على طهور أم محدثاً. (ب) أن الآية نزلت رخصة لرسول الله ﷺ. (جـ) أن الآية فيها تقديم وتأخير ، وأن المعنى: إذا قمتم للصلاة من المضاجع والقصد أن تشمل أنواع الحدث الأصغر ، ثم أسباب الحدث الأكبر. (د) أن في الآية محذوفاً تقديره: «محدثين» وليس فيها تقديم ولا تأخير.

(٢) أخرج الطبري عن أنس بن مالك قال: «رأيت النبي ﷺ توضأ فخلل لحيته ، فقلت: لِمَ تفعل هذا يا نبي الله؟ قال: أمرني بذلك ربي». (تفسير الطبري ٦ ـ ١٢٠) ـ ونلاحظ أن ابن عطية قال: «واختلف العلماء في تخليل اللحية على قولين: روي تخليلها. . إلخ ما ذكره من حديث أنس». وهذا هو القول الأول ، ومعنى ذلك أنه روي أيضاً عدم التخليل وهو القول الثاني ، ولكن النسخ التي بين أيدينا ليس فيها كلام عن القول الثاني ، ولعلَّه سقط عند النَّسخ ـ هذا وقد روى الطبري كثيراً من الأخبار التي تفيد أن غسل اللحية يكفي فيه ما مرَّ عليها ، وأن التخليل غير واجب. راجع تفسيره (٦ ـ ١١٥) ، وما بعدها.

إِلى الأُذن ، وفي ذي اللحية ثلاثة أَقوال ـ فقيل: من الشعر إِلى الشعر ـ يعني شعر العارضيْن ، وقيل: من الأُذن إِلى الأُذن ، ويدخل البياض الذي بين العارض والأُذن في الوجه ، وقيل: يغسل ذلك البياض استحباباً ، واختلف في الأُذنيْن ـ فقيل: هما من الرأس ، وقال الزهري: من الوجه ، وقيل: هما عضو قائم بنفسه ليس من الوجه ولا من الرأس ، وقيل: ما أَقبل منهما من الوجه ، وما أَدبر فهو من الرأس ، واختلف في المضمضة والاستنشاق ـ فجمهور الأُمة يرونها سنة ، ولا يدخل هذان الباطنان عندهم في الوجه ، وقال مجاهد: الاستنشاق شطر الوضوءِ ، وقال حماد بن أَبي سليمان ، وقتادة ، وعطاء ، والزهري ، وابن أَبي ليلى ، وابن راهويه: من ترك المضمضة والاستنشاق في الوضوءِ أَعاد الصلاة ، وقال أَحمد: يعيد من ترك الاستنشاق ، ولا يعيد من ترك المضمضة. والناس كلهم على أَن داخل العينين لا يلزم غسله إِلا ما روي عن عبد الله بن عمر أَنه كان ينضح الماءَ في عينيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾. اليد في اللغة تقع على العضو الذي هو من المنكب إِلى أَطراف الأَصابع ، ولذلك كان أَبو هريرة يغسل جميعه في الوضوءِ أَحياناً ليطيل الغرة ، وحدَّ الله موضع الغسل منه بقوله: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ ، يقال في واحدها: مِرْفَق ومَرْفِق ، وكسر الميم وفتح الفاءِ أَشهر ، واختلف العلماءُ هل تدخل المرافق في الغسل أَم لا؟ فقالت طائفة: لا تدخل ، لأَن (إِلَى) غاية تحول بين ما قبلها وما بعدها. وقالت طائفة: تدخل المرافق في الغسل ، لأَن ما بعد (إِلى) إِذا كان من نوع ما قبلها فهو داخل ، ومثَّل أَبو العباس المبرد في ذلك بأَن تقول: اشتريت الفدان إِلى حاشيته ، أو بأَن تقول: اشتريت الفدان إِلى الدار ، وبقوله: ﴿أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتحرير العبارة في هذا المعنى أَن يقال: إِذا كان ما بعد (إِلى) ليس مما قبلها ، فالحدُّ أَول المذكور بعدها ، وإِذا كان ما بعدها من جملة ما قبلها فالاحتياط يعطي أَن الحدَّ آخر المذكور بعدها ، ولذلك يترجح دخول المرفقين في الغسل ، والروايتان محفوظتان عن مالك بن أَنس رضي الله عنه ، روى عنه أَشهب أَن المرفقين غير داخلين في الحد ، وروى عنه أَنهما داخلان.

---

(١) البقرة: ١٨٧.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ المسح أن يمر على الشيء بشيءٍ مبلول بالماءِ. وسُنَّة مسح الرأس أَن يؤخذ ماءٌ باليدين ثم يرسل، ثم يمسح الرأس بما تعلق باليدين. واختلف في مسح الرأس في مواضع منها هيئة المسح ـ فقالت طائفة منها مالك، والشافعي، وجماعة من الصحابة والتابعين: يبدأُ بمقدم رأسه، ثم يذهب بهما إِلى قفاه، ثم يردهما إِلى مقدمه، وقالت فرقة: يبدأُ من مؤخر الرأس حتى يجيءَ إِلى المقدم ثم يرد إِلى المؤخر. وقالت فرقة: يبدأُ من وسط الرأس فَيجيءُ بيديه نحو الوجه، ثم يرد فيصيب باطن الشعر، فإِذا انتهى إِلى وسط الرأس أَمَرَّ يديه كذلك على ظاهر شعر مؤَخر الرأس، ثم يرد فيصيب باطنه ويقف عند وسط الرأس. وقالت فرقة: يمسح رأسه من هنا وهنا على غير نظام ولا مبدأ محدود حتى يعمه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله قول بالعموم. واختلف في ردّ اليدين على شعر الرأس، هل هو فرض أَم سُنَّة بعد الإِجماع على أَن المسحة الأُولى فرض بالقرآن ـ فالجمهور على أنه سُنَّة، وقيل: هو فرض. ومن مواضع الخلاف في مسح الرأس قَدْرُ ما يمسح ـ فقالت جماعة: الواجب من مسح الرأس عمومه، ثم اختلفوا في الهيآت على ما ذكرناه. وقال محمد بن مسلمة: إِنْ مَسَحَ ثلثي الرأس وتَرَكَ الثُلُث أَجْزَأَ لأَنه كثير في أُمور من الشرع، وقال أَشهب: إِنْ مسحَ الناصية أَجزأَ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكلُّ مَن أَحفظ عنه إِجْزاءُ بعض الرأس فإِنه يرى ذلك البعض من مقدم الرأس، وذلك أَنه قد روي في ذلك أَحاديث في بعضها ذكر الناصية، وفي بعضها ذكر مقدم الرأس، إِلا ما روي عن إِبراهيم، والشعبي، قالا: أَي نواحي رأسك مسحت أَجزأَك وكان سلمة بن الأَكوع يمسح مقدم رأسه، وروي عن ابن عمر أَنه مسح اليافوخ فقط. وقال أَصحاب الرأي: إِن مسح بثلاث أَصابع أَجزأَه، وإِن كان الممسوح أَقل مما يمر عليه ثلاث أَصابع لم يجزئ. وقال قوم: يجزئ من مسح الرأس أَن يمسح بإِصبع واحدة، وقال الحسن بن أَبي الحسن: إِن لم تصب المرأَة إِلا شعرةً واحدة أَجزأَها، وحكى الطبري وغيره عن سفيان الثوري أَن الرجل إِذا مسح شعرة واحدة أَجزأَه.

ومن مواضع الخلاف في مسح الرأس ، ما العضو الذي يمسح به؟ ـ فالإجماع على استحسان المسح باليدين جميعاً ، وعلى الإجزاءِ إن مسح بواحدة. واختلف في من مسح بإصبع واحدة حتى عمَّ ما يرى أنه يجزئه من الرأس ، فالمشهور أن ذلك يجزئ ، وقيل: لا يجزئ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويترجح أنه لا يجزئ لأنه خروج عن سنة المسح وكأنه لعب ، إلا أن يكون ذلك عن ضرورة مرض فينبغي ألا يختلف في الإجزاءِ.

ومن مواضع الخلاف عدد المسحات ـ فالجمهور على مرة واحدة ، ويجزئ ذلك عند الشافعي وثلاث أحب إليه. وروي عن ابن سيرين أنه مسح رأسه مرتين ، وروي عن أنس أنه قال: يمسح الرأس ثلاثاً ، وقاله سعيد بن جبير ، وعطاء ، وميسرة.

والباءُ في قوله: ﴿ بِرُءُوسِكُمْ ﴾ مؤكدة زائدة عند من يرى عموم الرأس ، والمعنى عنده: وامسحوا رؤوسكم ، وهي للإلزاق المحض عند من يرى إجزاءَ بعض الرأس كأن المعنى: أوْجِدوا مسحاً برؤوسكم ، فمن مسح شعرة فقد فعل ذلك ، ثم اتبعوا في المقادير التي حدوها آثاراً وأقيسة بحسب اجتهاد العلماءِ رحمهم الله.

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة: [وَأَرْجُلِكُمْ] خفضاً ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، والكسائي: ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ نصباً ، وروى أبو بكر عن عاصم الخفض ، وروى عنه حفصٌ النصب. وقرأ الحسن ، والأعمش: [وأَرْجُلُكُمْ] بالرفع ، المعنى: فاغسلوها ، ورُويت عن نافع. وبِحسَب هذا اختلاف الصحابة والتابعين ، فكل من قرأ بالنصب جعل العامل [اغسِلُوا] ، وبنى على أن الفرض في الرجلين الغسل بالماء دون المسح ، وهذا هو مذهب الجمهور ، وعليه فعل النبي ﷺ ، وهو اللازم من قوله ﷺ وقد رأى قوماً يتوضؤون وأعقابهم تلوح ، فنادى بأعلى صوته: «ويلٌ للأعقاب من النار»[1].

---

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي. (الجامع الصغير).

ومن قرأ بالخفض جعل العامل أقرب العاملين ، واختلفوا ـ فقالت فرقة منهم: الفرض في الرجلين المسح لا الغسل ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «الوضوءُ غسلتان ومسحتان» ، وروي أن الحجاج خطب بالأهواز فذكر الوضوءَ فقال: «اغسلوا وجوهكم وأيديكم ، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم ، وإنه ليس شيءٌ من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه ، فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما» ، فسمع ذلك أنس بن مالك فقال: «صدق الله وكذب الحجاج» قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾[1] ، قال: وكان أنس إذا مسح رجليه بَلَّهُما ، وروي أيضاً عن أنس أنه قال: «نزل القرآن بالمسح ، والسُّنَّة بالغسل» ، وكان عكرمة يمسح على رجليه وليس في الرجلين غسل ، إنما نزل فيهما المسح. وقال الشعبي: «نزل جبريل بالمسح» ، ثم قال: «ألا ترى أن التيمم يمسح فيه ما كان غَسْلا ، ويلغي ما كان مسحاً؟» ، وروي عن أبي جعفر أنه قال: «امسح على رأسك وقدميك» ، وقال قتادة: «افترض الله غَسْلَتين ومَسْحَتين». وكلٌّ من ذكرنا فقراءَته: [وَأَرْجُلِكُمْ] بكسر اللام ، وبذلك قرأ علقمة ، والأعمش ، والضحاك ، وغيرهم ، وذكرهم الطبري تحت ترجمة القول بالمسح.

وذهب قومٌ ممن يقرأُ بكسر اللام إلى أن المسح في الرجلين هو الغَسْل ، وروي عن أبي زيد أن العرب تسمي الغَسْل الخفيف مسحاً ، ويقولون: «تمسَّحْت للصلاة» بمعنى: غَسَلْت أعضائي ، وقال أبو عبيدة ، وغيره في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا﴾[2]: إنه الضرب ، ويقال: مسح علاوته[3] إذا ضربه ، قال أبو علي: فهذا يقوي أن المراد بمسح الرجلين الغسْل ، ومن الدليل على أن مسح الرجلين يراد به الغَسْل أن الحدَّ قد وقع فيهما بإلى كما وقع في الأيدي وهو مغسولة ، لم يقع في الممسوح حدٌّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويعترض هذا التأويل بترك الحد في الوجه ، فكان الوضوءُ مغْسُولين حُدَّ أحدهما ، وممسوحين حُدَّ أحدهما. وقال الطبري رحمه الله: إن مسح الرجلين هو بإيصال الماءِ

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ـ عن أنس. (الدر المنثور).
(٢) من قوله تعالىٰ في سورة ص: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ الآية (٣٣).
(٣) العِلاوة من كل شيءٍ: ما زاد عليه.

إِليهما ، ثم يمسح بيديه بعد ذلك فيكون المرءُ غاسلاً ماسحاً. قال: ولذلك كره أَكثر العلماءِ للمتوضئ أَن يدخل رجليه في الماءِ دون أَن يمر يديه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد جوَّز قوم منهم الحسن البصري وبعض فقهاءِ الأَمصار ، وجمهور الأُمة من الصحابة والتابعين على أَن الفرض في الرجلين الغَسْل وأَن المسح لا يُجزئ ، وروي ذلك عن الضحاك وهو يقرأُ بكسر اللام[1].

والكلام في قوله: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ﴾ كما تقدم في قوله: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ ، واختلف اللغويون في (الكعبين) ـ فالجمهور على أَنهما العظمان الناتئان في جنبي الرِّجل ، وهذان هما حدُّ الوضوءِ بالإِجماع فيما علمت. واختلف ، هل يدخلان في الغَسْل أَم لا كما تقدم في المرفق وقال قوم: الكعب: هو العظم الناتئُ في وجه القدم حيث يجتمع شراك النعل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا أَعلم أَحداً جعل حدَّ الوضوءِ إِلى هذا ، ولكن عبد الوهاب في التلقين جاءَ في ذلك بلفظ فيه تخليط وإِبهام. قال الشافعي رحمه الله: لم أَعلم مخالفاً في أَن الكعبين هما العظمان في مجمع مفصل الساق. وروى الطبري عن يونس عن أَشهب عن مالك قال: الكعبان اللذان يجب الوضوءُ إِليهما هما العظمان الملتصقان بالساق المحاذيان للعقب ، وليس الكعب بالظاهر في وجه القدم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويظهر ذلك من الآية ، من قوله في الأَيدي: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ ، أَي: في كل يد مرفق ، ولو كان كذلك في الأَرجل لقيل: «إِلَى الكعوب» فلما كان في كل رجل كعبان خصا بالذكر.

وأَلفاظ الآية تقتضي الموالاة بين الأَعضاءِ ، واختلف العلماءُ في ذلك ـ فقال ابن

---

(١) جاء في بعض النسخ: «وهو يقرأُ بضم اللام» ، ولكنا آثرنا اختيار النص الذي سجلناه فوق من بعض النسخ لأنه هو الذي يتفق مع ما نصَّ عليه قبل ذلك من أن قراءة الضحاك بكسر اللام.

أَبي سلمة ، وابن وهب: ذلك من فروض الوضوءِ في الذكر والنسيان. وقال ابن عبد الحكيم: ليس بفرض مع الذكر ، وقال مالك: هو فرض مع الذكر ساقط مع النسيان.

وكذلك تتضمن أَلفاظ الآية الترتيب ، واختلف فيه ـ فقال الأَبهري: الترتيب سُنَّة ، وظاهر المذهب أَنّ التنكيس[1] للناسي مُجْزِئٌ واختلف في العامد فقيل: يجزئُ ويرتب في المستقبل ، وقال أَبو بكر القاضي وغيره: لا يجزئ لأَنه عابث.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا﴾. الجُنُب مأْخوذ من الجَنْب ، لأَنه يمس جنبه جنب امرأَة في الأَغلب ، ومن المجاورة والقُرب قيل: «والجار الجُنُب». ويحتمل الجُنُب أَن يكون من البعد ، إِذ البعد يسمى جنابة ، ومنه تجنبت الشيءَ إِذا بعدت عنه ، فكأَنه جانب الطهارة. وعلى هذا يحتمل أَن يكون «الجار الجُنُب» هو البعيد الجوار ، ويكون مقابلا للصاحب بالجنب.

و﴿فَاطَّهَّرُواْ﴾ أَمرٌ بالاغتسال بالماءِ ، ولذلك رأَى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وابن مسعود ، وغيرهما أَن الجُنُب لا يتيمم البَتَّةَ ، بل يدع الصلاة حتى يجد الماءَ ، وقال جمهور الناس: بل هذه العبارة هي لواجد الماءِ ، وقد ذكر الجنُب أَيضاً بعْدُ في أَحكام عادم الماءِ بقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ ، إِذ الملامسة هنا الجماع. والطهور بالماء صفته أَن يعم الجسد بالماءِ وتمر اليد مع ذلك عليه ، هذا هو مشهور المذهب ، وروى محمد بن مروان الظاهري ، وغيره ، عن مالك أَنه يجزئ في غَسل الجنابة أَن ينغمس الرجل في الماءِ دون تدلُّك ، وقد تقدم في سورة النساءِ تفسير قوله عز وجل: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ ، وقراءة من قرأَ: [مِنَ ٱلْغَيْطِ].

وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ الإِرادة: صفة ذات ، وجاءَ الفعل مستقبلا مراعاة للحوادث التي تظهر عن الإِرادة ، فإِنها تجيء مؤتنفة ، من تطهير المؤمنين وإِتمام النعم عليهم ، وتعدية (أَراد) وما تصرف منه بهذه اللام عرف في كلام العرب ، ومنه قول الشاعر:

---

(١) التنكيس هو: عكس الترتيب المعروف.

أُرِيدُ لأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا ... تَمَثَّلُ لي لَيْلَىٰ بِكُلِّ سَبِيلِ[(١)]

قال سيبويه: وسأَلته رحمه الله عن هذا فقال: المعنى: إرادتي لأَنسى، ومن ذلك قول قيس بن سعد:

أَرَدْتُ لِكَيْمَا يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهَا ... سَرَاوِيلُ قَيْسٍ وَالْوُفُودُ شُهُودُ[(٢)]

ويحتمل أَن يكون في الكلام مفعول محذوف تتعلق به اللام، وما قال الخليل لسيبويه أَخصر وأَحسن. ويعترض هذا الاحتمال في المفعول المحذوف بأَن ﴿ مِّنْ ﴾ تصير زائدة في الواجب، وينفصل بأَن قوة النفي الذي في صدر الكلام يشفع لزيادة ﴿ مِّنْ ﴾ وإن لم يكن النفي واقعاً على الفعل الواقع على الحرج، ولهذا نظائر.

والحرج: الضيق، والحرجة: الشجر الملتف المتضايق، ومنه قيل يوم بدر في أَبي جهل: إنه كان في مثل الحَرَج من الرماح، ويجري مع معنى هذه الآية قول النبي ﷺ: «دينُ الله يُسْر»[(٣)]، وقوله ﷺ: «بُعثت بالحنيفية السمحة»[(٤)]، وجاءَ لفظ الآية على العموم والشيءُ المذكور بقرب هو أَمْرُ التيمم والرخصة فيه وزوال الحرج في تحمل الماءِ أَبداً، ولذلك قال أُسيد: «وما هي بأَول بركتكم يا آل أَبي بكر».

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ الآية إعلام بما لا يُوازى بشكر من عظيم تفضله تبارك وتعالىٰ: و﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ تَرَجٍّ في حق البشر، وقرأَ سعيد بن المسيب: [يُطْهِركم] بسكون الطاء وتخفيف الهاءِ.

---

(١) البيت لكثير عزَّة، راجع صفحة (٥٢٥) من المجلد الثاني، وقد روي: تمثل لي ليلى بكل طريق.

(٢) وبعده ـ كما جاء في اللسان:

وَأَلا يَقُولُوا غَابَ قَيْسٌ وَهَذِهِ ... سَرَاوِيلُ عَادِيٍّ نَمَتْهُ ثَمُودُ

قال ابن سيدة: بلغنا أن قيساً طاول رومياً بين يدي معاوية، أو غيره من الأمراء، فتجرد قيس من سراويله وألقاها إلى الرومي ففضلت عنه، فلما لِيمَ في فعله قال هذين البيتين يعتذر عن تبذله في هذا المشهد المجموع.

(٣) رواه البيهقي، والبخاري، وفي البخاري زيادة: «فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلجة». ـ بضم الدال المشددة وفتحها ـ كما قال في النهاية.

(٤) رواه في الجامع الصغير هكذا: «بعثت بالحنيفية السمحة، ومن خالف سنّتي فليس مني»، وهو للخطيب عن جابر، ثم قال ضعيف.

قوله عز وجل:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

الخطاب بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا﴾ إلى آخر الآية هو للمؤمنين بمحمد ﷺ، و﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ اسم جنس يجمع الإسلام، وجمع الكلمة، وعزة الحياة، وغنى المال، وحسن المآل، هذه كلها نِعَم هذه المِلَّة، والميثاق المذكور هو ما وقع للنبي ﷺ في بَيْعَةَ العقبة وبيعة الرضوان، وكل موطن قال الناس فيه: سمعنا وأطعنا، هذا هو قول ابن عباس، والسدي، وجماعة من المفسرين. وقال مجاهد: الميثاق المذكور هو المأخوذ على النَّسَم حين استخرجوا من ظهر آدم، والقول الأول أرجح وأليق بنمط الكلام.

ثم أمر تعالىٰ المؤمنين بالقيام دأباً متكرراً بالقسط وهو العدل، وقد تقدم نظير هذا في سورة النساءِ، وتقدم في صدر هذه السورة نظير قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾، وباقي الآية بيِّن متكرر، والله المعين.

قوله عز وجل:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

هذه آية وعد للمؤمنين بستر الذنوب عليهم وبالجنة، فهي الأجر العظيم، و(وَعَد) يتعدى إلى مفعولَيْن ويجوز الاقتصار على أحدهما، وكذلك هو في هذه الآية، فالمفعول الثاني مقدر، يفسره ويدل عليه قوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾، ثم عقَّب تعالىٰ بذكر حال الكفار ليبين الفرق.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب للنبي ﷺ وأمته، والنعمة هي

العاملة في ﴿إِذْ﴾، وهي نعمة مخصوصة، وهمَّ الرجل بالشيءِ إذا أراد فعله، ومنه قول الشاعر:

هَـلْ يَنْفَعَنْـكَ الْيَـومَ إِنْ هَمَّـتْ بِهَـمْ ... كثرةُ ما تُوصِي وتَعْقَادُ الرَّتَمْ؟(١)

ومنه قول الآخر:

هَمَمْـت ولَـمْ أَفْعَـلْ وكِـدْتُ وَلَيْتَنـي ... تَركْتُ على عُثمانَ تَبْكي حَلائِلُه(٢)

واختلف الناس في سبب هذه الآية، وما النازلة التي وقع فيها الهَمُّ ببسط اليد والكفُّ من الله تعالىٰ؟ ـ فقال الجمهور: إن سبب هذه الآية أنه لما قتل أهل بئر معونة نجا من القوم عمرو بن أُمية الضمري ورجل آخر معه. فلقيا بقرب المدينة رجلين من سليم قد كانا أخذا عهداً من النبيﷺ وانصرفا، فسألهما عمرو: مِمَّن أنتما؟ فانتَسَبا إلى بني عامر رهط عامر بن الطفيل، وهو كان الجاني على المسلمين في بئر معونة، فقتلهما عمرو وصاحبه، وأتيا بسلبهما النبي ﷺ، فقال: «لقد قتلتما قتيلين، لأَدِيَنَّهُمَا»، ثم شرع رسول الله ﷺ في جمع الدية، فذهب يوماً إلى بني النضير يستعينهم في الدية، ومعه أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم، فكلمهم فقالوا: نعم يا أبا القاسم، انزل حتى نصنع لك طعاماً وننظر في معونتك، فنزل رسول الله ﷺ في ظل جدار، فتآمروا بينهم في قتله، وقالوا: ما ظفرتم بمحمد قط أقرب مراماً منه

---

(١) ذكرالبيت في (اللسان) ولم ينسبه، والرَّتَم: جمع رَتَمَة، وهي الرَّتيمة، والرتيمة: الخيط الذي يشد في الإصبع لتُسْتَذْكَر به الحاجة، وتجمع الرتيمة على رتَام ورتائم، قال الشاعر:

إذَا لَـمْ تكُـنْ حـاجَـاتُنَـا فـي نُفُـوسِكُـمْ ... فَلَيْـسَ بِمُغْـنٍ عنْـكَ عَقْـدُ الـرَّتَـائِـم

(٢) هذا البيت ضمن أبيات قالها عميْر بن ضابئ البرجمي، وحكى المبرد قصتها في (الكامل)، وخلاصتها أنه استعار من قوم كلباً، فلما طلبوا منه إرجاعه رفض وهجاهم فرمى أُمهم بالكلب في بعض شعره حيث قال:

وأُمكُـمُ لا تتـرُكُـوهـا وَكَلْبَكُـم ... فَـإِنَّ عُقُـوقَ الْـوَالِـدَاتِ كَبِيـرُ

فأوجب عليه الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه الحبس، فحقد على الخليفة، وشدَّ على ساقه سكيناً ليقتله به عندما دعي للتأديب، ولكن عثر على السكين، فأحسن أدبه، وهذه بعض الأبيات التي قالها:

فـلا تُتبعينـي إنْ هَلَكْـتُ مَـلامَـةً ... فَلَيْـسَ بعَـار قَتْـلُ مَـنْ لا أُقَـاتِلُـهْ
هَمَمْتُ ولـمْ أَفْعَـلْ وكِـدْتُ وَلَيْتَنِـي ... تَـرَكْـتُ على عُثْمانَ تَبْكِي حَـلائِلُـهْ
ومَـا الفتـك مـا أُمـرتَ فيـه وَلا الَّـذي ... تُخَبِّـرُ مَـنْ لاقَيْـتَ أَنَّـكَ فَـاعِلُـهْ

اليوم، فقال بعضهم لبعض: مَنْ رجل يظهر على الحائط فيصب عليه حجراً يشدخه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش فيما روي، وجاءَ جبريل عليه السلام فأَخبر النبي ﷺ، فقام رسول الله ﷺ من المكان وتوجه إِلى المدينة، ونزلت الآية في ذلك. وفي الخبر زوائد لا تخص الآية، وقد ذكره ابن إِسحاق وغيره، وهذا القول يترجح بما يأْتي بعد من الآيات في وصف غدر بني إِسرائيل ونقضهم المواثيق[١].

وقالت جماعةٌ من العلماءِ: سبب الآية فعل الأَعرابي في غزوة «ذات الرقاع»، وهي غزوة النبي ﷺ بني محارب بن خصفة بن قيس بن عيلان، وذلك أنه نزل بوادٍ كثير العِضاه، فتفرق الناس في الظلال، وتركت للنبي ﷺ شجرة ظليلة، فعلق سيفه بها ونام، فجاءَ رجل من محارب فاخترط السيف فانتبه النبي ﷺ والسيف صلت في يده، فقال للنبي ﷺ: أَتخافني؟ فقال: لا. فقال له: ومن يمنعك مني؟ فقال: الله، فشام السيف في غمده وجلس. وفي البخاري أَن النبي ﷺ دعا الناس فاجتمعوا وهو جالس عند النبي ﷺ ولم يعاقبه، وذكر الواقدي، وابن حاتم عن أَبيه أَنه أَسلم، وذكر قومٌ أَنه ضرب برأْسه في ساق الشجرة حتى مات، فنزلت الآية بسبب ذلك، وفي البخاري في غزوة «ذات الرقاع» أَن اسم الرجل غَوْرَث بن الحارث ـ بِالْغَيْن منقوطة ـ، وحكى بعض الناس أَن اسمه دُعْثُور بن الحارث[٢].

وحكى الطبري أَن الآية نزلت بسبب قوم من اليهود أَرادوا قتل النبي ﷺ في طعام، فأَشعره الله بذلك[٣]، ثم أَدخل الطبري تحت هذه الترجمة عن ابن عباس خلاف ما ترجم به من أَن قوماً من اليهود صنعوا للنبي ﷺ وأَصحابه طعاماً ليقتلوه إِذا أَتى الطعام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فيشبه أَن ابن عباس رضي الله عنهما إِنما وصف قصة بني النضير المتقدمة.

---

(١) أَخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس، وأَخرج مثله ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر ـ عن عاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر، وأَخرج مثله ابن جرير عن يزيد بن زياد.

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل ـ عن جابر.

(٣) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم ـ من طريق العوفي ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال قتادة: سبب الآية ما همت به محارب وبنو ثعلبة يوم ذات الرقاع من الحمل على المسلمين في صلاة العصر، فأشعره الله تبارك وتعالىٰ بذلك، ونزلت صلاة الخوف، فذلك كف أيديهم عن المسلمين[1].

وحكى ابن فُورك عن الحسن بن أبي الحسن أن الآية نزلت بسبب أن قريشاً بعثت إلى النبي ﷺ رجلاً ليغتاله ويقتله، فأطلعه الله تبارك وتعالى على ذلك وكفاه شرَّه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمحفوظ في هذا هو نهوض عمير بن وهب لهذا المعنى بعد اتفاقه على ذلك مع صفوان بن أمية، والحديث بكماله في سير ابن هشام.

وذكر قوم من المفسرين ـ وأشار إليه الزجاج ـ أن الآية: نزلت في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ فكأنه تبارك وتعالىٰ عدَّد على المؤمنين نِعَمَه في أن أظهرهم، وكفَّ بذلك أيدي الكفار عنهم التي كانوا همُّوا ببسطها إلى المؤمنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحسن ـ على هذا القول ـ أن تكون الآية نزلت عقب غزوة الخندق وحين هزم الله الأحزاب، وكفى الله المؤمنين القتال، وباقي الآية أمر بالتقوى والتوكل.

قوله عز وجل:

﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾.

هذه الآيات المتضمنة الخبر عن نقضهم مواثيق الله تعالىٰ تقوي أن الآية المتقدمة في كف الأيدي إنما كانت في أمر بني النضير، واختلف المفسرون في كيفية بعثة هؤلاءِ النقباءِ، بعد الإجماع على أن النقيب كبير القوم القائم بأُمورهم التي ينقب عنها وعن مصالحهم فيها، والنَّقَّاب: الرجل العظيم الذي هو في الناس كلهم على هذه الطريقة،

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير ـ عن قتادة.

ومنه قيل في عمر رضي الله عنه: إنه كان لنَقَّاباً ، فَالنُّقَبَاءُ: الضُّمَّان ، واحدهم: نقيب ، وهوشاهد القوم وضمينهم ، وقال قوم: النُّقَبَاءُ: الأُمناءُ على قومهم ، وهذا كله قريب بعضه من بعض ، والنقيب أَكبر مكانة من العريف ، قال قتادة رحمه الله ، وغيره: هؤلاءِ النُّقباءِ قومٌ كبارٌ من كلِّ سبط تكفَّل كل واحد بسبطه بأَن يؤمنوا ويتقوا الله تعالىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ونحو هذا كان النقباءُ ليلة بيعة العقبة مع محمد ﷺ ، وهي العقبة الثالثة ، بايع فيها سبعون رجلاً وامرأَتان ، فاختار رسول الله ﷺ من السبعين اثني عشرَ رجلاً وسماهم النقباءَ ، وقال الربيع ، والسدي ، وغيرهما: إنما بعث النقباءُ من بني إسرائيل أُمناءَ على الاطلاع على الجبارين والسَّبْر لقوتهم ومَنَعَتهم ، فساروا حتى لقيهم رجل من الجبارين فأَخذهم جميعاً فجعلهم في حجزته.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

في قصص طويل ضعيف مقتضاه أَنهم اطلعوا من الجبارين على قوة عظيمة ، وظنوا أَنهم لا قِبَل لهم بهم ، فتعاقدوا بينهم على أَن يُخفوا ذلك عن بني إسرائيل ، وأَن يُعلموا به موسى عليه السلام ليرى فيه أَمر ربِّه ، فلما انصرفوا إلى بني إسرائيل خان منهم عشرة فعرفوا قراباتهم ، ومن وثقوه على سرِّهم ، ففشا الخبر حتى اعوج أَمر بني إسرائيل ، وقالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

وأَسند الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: النقباءُ من بني إسرائيل بعثهم موسى عليه السلام لينظروا إلى مدينة الجبارين ، فذهبوا ونظروا فجاؤُوا بحبة من فاكهتهم وِقْر رجل[1] ، فقالوا: اقدروا قدر قوة قوم هذه فاكهتهم ، فكان ذلك سبب فتنة بني إسرائيل ونكولهم.

وذكر النقاش أَن معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ أَي مَلِكاً ، وأَن الآية تعديد نعمة الله عليهم في أَن بعث لإِصلاحهم هذا العدد من الملوك ، قال:

---

(١) الوِقْر ـ بكسر الواو ـ: الحمل الثقيل ، والمراد هنا: مقدار ما يستطيع الرجل حمله. هذا وعبارة الطبري بعد ذلك: «قَدِّرُوا قوة قوم وبأسهم. هذه فاكهتهم».

فما وفى منهم إلاَّ خمسة: داود عليه السلام، وابنه سليمان عليه السلام، وطالوت، وحزقيا، وابنه، وكفر السبعة وبدلوا وقتلوا الأنبياء، وخرج خلال الاثني عشر اثنان وثلاثون جباراً كلهم يأخذ الملك بالسيف ويعيث فيهم، والضمير في: ﴿مَعَكُمْ﴾ لبني إسرائيل جميعاً، ولهم كانت هذه المقالة، وقال الربيع: بل الضمير للاثني عشر، ولهم كانت هذه المقالة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقول الأول أَرجح، و﴿مَعَكُمْ﴾ معناه: بنصري وحياطتي وتأييدي، واللام في قوله: ﴿لَئِنْ﴾ هي المؤذنة بمجيءِ لام القسم، ولام القَسَم هي قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾، والدليل على أَن هذه اللام إنما هي مؤذنة أَنها قد يستغنى عنها أَحياناً، ويتم الكلام دونها، ولو كانت لام القسم لن يترتب ذلك.

وإقامة الصلاة: توفية شروطها، والزكاة هنا: شيءٌ من المال كان مفروضاً فيما قال بعض المفسرين، ويحتمل أَن يكون المعنى: وأَعطيتم من أَنفسكم كلَّ ما فيه زكاة لكم حسبما ندبتم إليه، وقدم هذه على الإيمان تشريفاً للصلاة والزكاة، وإذ قد علم وتقرر أَنه لا ينفع عملٌ إلا بإيمان، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [بِرُسْلِي] ساكنة السين في كل القرآن.

﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ معناه: وقَّرتُموهم وعظّمتموهم ونصرتمُوهم، ومنه قول الشاعر:

وَكَـمْ مِـنْ مَـاجِـدٍ لَهُـمُ كَـريـمٌ   ومِـنْ لَيْـثٍ يُعَـزَّرُ فـي النَّـديّ[1]

وقرأَ عاصم الجحدري: [وعَزَرْتموهم] خفيفة الزاي حيث وقع، وقرأَ في سورة الفتح: [وتَعْزروهُ][2] بفتح التاء وسكون العين وضم الزاي. وقد تقدم في سورة البقرة تفسير الإقراض. وتكفيرُ السَّيِّئات: تَغْطِيتها بالمحو والإذهاب، فهي استعارة. و﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وسطه، ومنه: ﴿سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾[3]، ومنه قول الأعرابي: «قد

---

(١) قال القرطبي: «أنشده أبو عبيدة»، ـ ومعنى يُعَزَّر: يعظم ويوقَّر. والنَّديّ: مجلس القوم ما داموا مجتمعين فيه.

(٢) من قوله تعالىٰ في سورة الفتح: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الآية (٩).

(٣) من قوله في سورة الدخان: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ الآية (٤٧).

انقطع سوائي» ، وأَوساط الطرق: هي المعظم اللاحب منها ، وسائر ما في الآية بيِّن ، والله المستعان.

قوله تعالىٰ:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

يحتمل أَن تكون [ما] زائدة ، والتقدير: فبنقضهم[١] ، ويحتمل أَن تكون اسماً نكرة أُبدل منه النقض على بدل المعرفة من النكرة ، التقدير: فبفعل هو نقضهم للميثاق ، وهذا هو المعنى في هذا التأْويل ، وقد تقدم في (النساءِ) نظير هذا ، و﴿ لَعَنَّٰهُمْ ﴾ معناه: أَبعدناهم من الخير أَجمعه.

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأَبو عمرو ، وابن عامر: ﴿ قَٰسِيَةً ﴾ بالأَلف ، وقرأَ حمزة ، والكسائي: [قسِيَّةً] دون أَلف ، ووزنها: فعيلة ، فحجة الأُولى قوله تعالىٰ: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم ﴾[٢] ، وقوله: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾[٣] ، والقسوة: غِلَظ القلب ، ونبوه عن الرقَّة والموعظة ، وصلابته حتى لا ينفعل لخير. ومن قرأَ [قَسِيَّةً] فهو مِن هذا المعنى: فعيلة بمعنى فاعلة ، كشاهد وشهيد ، وغير ذلك من الأَمثلة ، حكى الطبري عن قوم أَنهم قالوا: [قَسِيَّةٌ] ليست من معنى القسوة ، وإِنما هي كالقسيّ من الدراهم ، وهي التي خالطها غش وتدليس ، فكذا القلوب ، لم تصف للإيمان ، بل خالطها الكفر والفساد ، ومن ذلك قول أَبي زبيد:

لَهَا صواهِلُ في صُمِّ السِّلام كَمَا ... صَاحَ القَسِيَّاتُ في أَيْدي الصَّياريفِ[٤]

---

(١) قال بذلك قتادة وسائر أهل العلم كما ذكره القرطبي ، وذلك أنها تؤكد الكلام بمعنى: تمكنه في النفس من جهة حسن النظم ، ومن جهة تكثيره للتوكيد ، كما قال:

لِشَـــيءٍ مـــا يُسَـــوَّدُ مَـــنْ يَسُـــودُ

(٢) الزمر: ٢٢.

(٣) البقرة: ٧٤.

(٤) نسبه في (اللسان) لأبي زبيد أيضاً ، وكذلك في (التاج) ـ لكن محقق القرطبي قال: هو لأبي زبيد الطائي ، ولعله خطأ مطبعي ، والصواهل: جمع الصاهلة ، مصدر على فاعلة ، من الصهيل وهو=

ومنه قول الآخر:

فَمَا زَوَّدانـي غَيْـرَ سَحْـق عِمَـامَـةٍ ... وَخَمْسِمِـىءٍ مِنْهـا قَسِـيٌّ وَزَائِـفُ[١]

قال أبو علي: هذه اللفظة معربة، وليست بأصل في كلام العرب.

واختلف العلماءُ في معنى قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ ـ فقال قومٌ منهم ابن عباس: تحريفهم هو بالتأويل، ولا قدرة لهم على تبديل الألفاظ في التوراة، ولا يتمكن لهم ذلك، ويدل على ذلك بقاءُ آية الرجم واحتياجهم إلى أن يضع القارئُ يده عليها. وقالت فرقة: بل حرفوا الكلام وبدَّلوه أيضاً، وفعلوا الأمرين جميعاً بحسب ما أمكنهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وألفاظ القرآن تحتمل المعنيين، فقوله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾[٢] الآية تقتضي التبديل، ولا شك أنهم فعلوا الأمرين.

وقرأ جمهور الناس: ﴿ٱلْكَلِمَ﴾ بفتح الكاف وكسر اللام، وقرأ أبو عبد الرحمن، وإبراهيم النَّخَعي: [الكَلاَمَ] بالألف، وقرأ أبو رجاءٍ: [الكِلْم] بكسر الكاف وسكون اللام.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ نص على سوءِ فعلهم بأنفسهم، أي: قد كان لهم حظ عظيم فيما ذكروا به فنسوه وتركوه. ثم أخبر تبارك وتعالىٰ نبيه عليه الصلاة والسلام أنه لا يزال في مؤتنف الزمان يطلع على خائنة منهم وغائلة وأمور فاسدة، واختلف الناس في معنى: ﴿خَآئِنَةٍ﴾ في هذا الموضع ـ فقالت فرقة: خائنة: مصدر كالعاقبة، وكقوله تعالىٰ: ﴿فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾[٣] فالمعنى: على خيانة. وقال

= الصوت، والشاعر يصف وقع المساحي في الحجارة، وما تحدثه من صوت، والسِّلام ـ بكسر السين ـ: الحَجَر، والقَسِيَّات ـ بفتح القاف ـ: الدراهم الزائفة، والصياريف: الذين يبدلون الدراهم.

(١) البيت لمزرِّد، كما في (اللسان) ـ والرواية فيه: «فما زوَّدوني» وسحق عمامة: يريد عمامة خلقة بالية ـ من إضافة الصفة إلى الموصوف، وهذا كقولهم: سحق ثوب، وجرد ثوب، وسمل ثوب: أي: ثوب خَلق.

(٢) البقرة: ٧٩.

(٣) من قوله تعالىٰ في سورة الحاقة: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾.

آخرون: معناه: على فرقة خائنة، فهي اسم فاعل صفة المؤنث. وقال آخرون: المعنى: على خائن، فزيدت الهاءُ للمبالغة كعلاَّمة ونسَّابة، ومنه قول الشاعر:

حَدَّثْتَ نَفْسَكَ بِالْوَفَاءِ ولَمْ تَكُن   لِلْغَدْرِ خَائِنَةً مُغِلَّ الإِصْبَعِ[1]

وقرأ الأعمش: [عَلَى خِيَانَةٍ مِنْهُمْ]، ثم استثنى تبارك وتعالىٰ منهم القليل، فيحتمل أن يكون الاستثناءُ في الأشخاص، ويحتمل أن يكون في الأفعال.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ منسوخٌ بما في (بَرَاءَةَ) من الأمر بقتالهم حتى يُؤَدوا الجزية[2]، وباقي الآية وعدٌ على الإحسان.

قوله عز وجل:

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾.

﴿وَمِنَ﴾ متعلقة بـ ﴿أَخَذْنَا﴾، التقدير: وأخذنا من الذين قالوا إنا نصارى ميثاقهم، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَمِنَ﴾ معطوفاً على قوله: ﴿خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾، ويكون قوله: ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ ابتداءُ خبر عنهم، والأول أرجح، وعلق كونهم نصارى بقولهم ودعواهم من حيث هو اسم شرعي يقتضي نصر دين الله، وسمُّوا به أنفسهم دون استحقاق ولا مشابهة بين فعلهم وقولهم، فجاءَت هذه العبارة موبخة لهم مزحزحة عن طريق نصر دين الله وأنبيائه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾ معناه: أثبتناها بينهم وألصقناها، والإِغراءُ مأْخوذ

---

(١) هذا البيت للكلابي، وهو فيه يخاطب «قُرَيْنَا» أخا «عُمَيْر الحَنَفِيّ»، وكان له عنده دمٌ ـ وقَبْلَه:

أَقُرَيْنُ إِنَّكَ لَوْ رأيْتَ فَوَارِسي   نَعَماً يَبْتَنَ إلى جَوَانِبِ صَلْقَعِ

(٢) وهو قوله تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، وقيل: منسوخٌ بآية السيف، وقيل بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ ـ وقال ابن جرير: يجوز أن يعفو عنهم في غدرة فعلوها ما لم ينصبوا حرباً ولم يمتنعوا من أداء جزية، وقيل: الضمير عائد على من آمن منهم، أي: عائد على المستثنين وهم القليل، والله أعلم.

من الغِراءِ الذي يلصق به ، والضمير في ﴿بَيْنَهُمُ﴾ يحتمل أَن يعود على اليهود والنصارى ، لأَن العداوة بينهم موجودة ومستمرة ، ويحتمل أَن يعود على النصارى فقط ، لأَنها أُمة متقاتلة بينها الفتن إِلى يوم القيامة ، ثم توعدهم تبارك وتعالىٰ بعقاب الآخرة ، إِذْ إِنبَاؤُهُم بصنعهم إِنما هو تقدير وتوبيخ مُتَقَدِّمٌ للعذاب ، إِذْ صُنْعهم كفر يوجب الخلود في النار.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ لفظ يعم اليهود والنصارى ، ولكن نوازل الإِخفاءِ كالرجم وغيره إِنما حفظت لليهود ، لأَنهم كانوا مجاوري رسول الله ﷺ في مهاجره. وقال محمد بن كعب القرظي: أَول ما نزل من هذه السورة هاتان الآيتان في شأن اليهود والنصارى ، ثم نزل سائر السورة بعرفة في حجة الوداع.

وقوله تعالىٰ: ﴿رَسُولُنَا﴾ يعني محمداً ﷺ ، وفي الآية الدلالة على صحة نبوته ، لأَن إِعلامه بِخَفِيٍّ ما في كتبهم وهو أُمي لا يقرأُ ولا يصحب القرأَةَ دليل على أَن ذلك إِنما يأْتيه من عند الله تبارك وتعالىٰ.

وأشهر النوازل التي أَخفوها فأَظهرها الله على لسان نبيِّه أَمر الرجم ، وحديثه مشهور[1]. ومن ذلك صفات محمد ﷺ إِلى غير ذلك ، و﴿مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني: من التوراة.

وقوله: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ معناه: وترك كثيراً لا يفضحكم فيه إِبقاءً عليكم ، وهذا المتروك هو في معنى افتخارهم ووصفهم أَيام الله قبلهم ، ونحو ذلك مما لا يتعين في ملة الإِسلام فضحهم فيه وتكذيبهم ، والفاعل في ﴿وَيَعۡفُواْ﴾ هو محمد ﷺ ، ويحتمل أَن يستند الفعل إِلى الله تبارك وتعالىٰ ، وإِذا كان العفو من النبي عليه الصلاة والسلام فبأَمر ربِّه ، وإِذا كان من الله تبارك وتعالىٰ فعلى لسان نبيه عليه الصلاة والسلام ، والاحتمالان قريب بعضهما من بعض.

---

(١) روى البخاري في (كتاب التفسير) ـ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ برجلٍ منهم وامرأة قد زنيا ، فقال لهم: كيف تفعلون بمن زنى منكم؟ قالوا: نُحَمِّمُهُما ونضربهما ، فقال: لا تجدون في التوراة الرجم؟ فقالوا: لا نجد فيها شيئاً ، فقال لهم عبد الله بن سلام: كذبتم فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ، فوضع مدراسها الذي يدرسها منهم كفه على آية الرجم ، فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ، ولا يقرأُ آية الرجم ، فنزع يده عن آية الرجم فقال: ما هذه؟ فلما رأَوا ذلك قالوا: هي آية الرجم ، فأمر بهما فرجما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد ، قال: فرأيت صاحبها يجنأ عليها يقيها الحجارة.

قوله عز وجل:

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧ ﴾.

قوله عز وجل: ﴿ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ يحتمل أن يريد محمداً ﷺ والقرآن، وهذا هو ظاهر الألفاظ، ويحتمل أن يريد موسى عليه السلام والتوراة، أي: ولو اتَّبعتموها حق الاتباع لآمنتم بمحمد عليه الصلاة والسلام، إِذْ هي آمرةٌ بذلك، مبشرة به. وقرأ عبيد بن عمير، والزهري، وسلام، وحميد، ومسلم بن جندب: [بِهُ اللهُ] بضم الهاءِ حيث وقع مثله.

و﴿ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾ معناه: بالتكسب والنية والإقبال عليه، والسبل: الطُرق، والقراءَة في (رُضْوان) بضم الراءِ وبكسرها، وهما لغتان، وقد تقدم ذكر ذلك، وقرأ ابن شهاب والحسن بن أَبي الحسن: [سُبْل] ساكنة الباءِ و﴿ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ في هذه الآية يحتمل أَن يكون اسماً من أَسماءِ الله تبارك وتعالىٰ، فالمعنى: طرق الله تعالىٰ التي أَمر بها عباده وشرعها لهم، ويحتمل أَن يكون مصدراً كالسلامة، فالمعنى: طرق النجاة والسلامة من النار. وقوله: ﴿ وَيُخْرِجُهُم ﴾ يعني المتَّبعين الرضوان، فالضمير على معنى [مَنْ] لا على لفظها، والظلمات: الكفر، والنور: الإيمان. وقوله تعالىٰ: ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾ أَي يمكنهم من أَقوال الإيمان وأَفعاله، ويعلم فعلهم لذلك والتزامهم إِياه، فهذا هو حدُّ الإِذن: العلم بالشيءِ والتمكين منه، وقد تقدم شرحه في سورة البقرة، والصراط المستقيم: هو دِينُ الله وتوحيده وما تركب عليه من شرعه.

ثم أَخبر تعالىٰ بكفر النصارى القائلين بأَن الله هو المسيح، وهذه فرقة من النصارى، وكل فرقهم على اختلاف أَقوالهم يجعل للمسيح عليه السلام حظًّا من الأُلوهية. وقد تقدم القول في لفظ المسيح في سورة آل عمران.

ثم ردَّ عليهم تعالىٰ قوله لنبيِّه: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أي:

ولا راد لإرادة الله تعالىٰ في المسيح ولا في غيره ، فهذا مما تقضي العقول معه أن من تنفذ الإرادة فيه ليس بإله ، ثم قرر تبارك وتعالىٰ ملكه في السموات والأرض وما بينهما فحصل المسيح عليه السلام أقل أجزاءَ ملك الله تعالىٰ ، وقوله تعالىٰ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إشارةٌ إلى خلقه المسيح في رحم مريم من غير والد ، بل اختراعاً كآدم عليه السلام ، وقد تقدم في آل عمران بين قوله تعالىٰ في قصة زكريا: ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ وفي قصة مريم: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم معناه الخصوص في ما عدا الذات والصفات والمحالات ، والشيءُ في اللغة: هو الموجود.

قوله عز وجل:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

في الكلام لف وإيجاز يحال المستمع على تفريقه بذهنه ، وذلك أن ظاهر اللفظ يقتضي أن جميع اليهود والنصارى يقولون عن جميعهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ وليس الأمر كذلك بل كل فرقة تقول خاصة: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ ، والبنوة في قولهم هذا بنوة الحنان والرأفة ، وذكروا أن الله تعالىٰ أوحى إلى بني إسرائيل أن أول أولادي بكري ، فضلُّوا بذلك ، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ ، ولو صحَّ ما رووْا لكان بِكراً في التشريف أو النبوة ونحوه ، وأَحبَّاءُ: جمع حبيب ، وكانت هذه المقالة منهم عندما دعاهم النبي ﷺ إلى الإيمان به ، وخوّفهم العذاب ، فقالوا: «نحن لا نخاف ما تقول ، لأننا أبناءُ الله وأحباؤُه» ، وذكر ذلك ابن عباس رضي الله عنهما ، وقد كانوا قالوا للنبي ﷺ في غير ما موطن: نحن ندخل النار فنقيم بها أربعين يوماً ، ثم تخلفوننا فيها ، فردَّ الله عليهم بقولهم ، فقال لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ أي: لو كانت منزلتكم فوق منازل البشر لما عذبكم ، وأنتم قد أقررتم أنه يعذبكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا على أن التعذيب هو بنار الآخرة ، وقد تحتمل الآية أن يكون المراد ما كان الله

تعالىٰ يعذبهم به في الدنيا ، وذلك أن بني إسرائيل كانوا إذا أصاب الرجل منهم خطيئة أصبح مكتوباً على بابه ذكر ذنبه وذكر عقوبته ، فينفذ ذلك عليه ، فهذا تعذيب في الدنيا على الذنوب ينافي أنهم أبناء وأحباء.

ثم ترك الكلام الأول ، وأضرب عنه غير مفسد له ، ودخل في غيره من تقرير كونهم بشراً كسائر الناس والخلق ، أكرمهم أتقاهم ، يهدي من يشاءُ للإيمان فيغفر له ، ويورط من يشاءُ في الكفر فيعذبه ، وله ملك السموات والأرض وما بينهما ، فله بحَقِّ المُلكِ أن يفعل ما شاءَ ، لا معقب لحكمه ، وإليه مصير العالم بالحشر والمعاد.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ خطابٌ لليهود والنصارى ، والرسول في قوله: ﴿رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ ، وقوله: ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: على انقطاع من مجيئهم مدَّةً ما ، والفترة: سكون بعد حركة في جرم ، ويستعار ذلك في المعاني ، وقد قال النبي ﷺ: «لكل عمل شِرَّة ، ولكل شِرَّة فترة»(١) ، وقال الشاعر:

وَإِنِّــي لَتَعْـرُونـي لِـذِكْـرَاكِ فَتْـرَةٌ . . . .(٢)

معناه سكون بعد اضطراب.

واختلف الناس في قدر الفترة التي كانت بين عيسى ومحمد ﷺ ـ فقال قتادة: خمسمائة عام وستون عاماً ، وقال الضحاك: أربعمائة سنة وبضع وثلاثون سنة ، وفي الصحيح أن الفترة بينهما ستمائة سنة(٣) ، وهذه الآية نزلت بسبب قول اليهود: ما أنزل الله على بشر بعد موسى من شيءٍ ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقوله

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، ولفظه: «إن لكل عمل شرَّة ، ولكل شرَّة فترة ، فمن كان فترتُه إلى سنتي فقداهتدى ، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك» ـ عن ابن عمرو ـ وقال الجامع الصغير ـ حديث صحيح. والشِّرة بالكسرة: النشاط والحِدَّةُ.

(٢) البيت لكثير عزة ، والرواية مشهورة:

وَإِنِّــي لَتَعْـرُونـي لِـذِكْـرَاكِ هِــزَّةٌ ... كمـا انْتَفَـضَ العصفـور بَلَّلَـه القَطْـرُ

(٣) أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ «قال: هو محمد جاء بالحق الذي فتر به بين الحق والباطل ، فيه بيان وموعظة ، ونور وهدى ، وعصمة لمن أخذ به ، قال: وكانت الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ ، وذكر لنا أنه (كذا) كانت ستمائة سنة ، أو ما شاء الله من ذلك» (الدر المنثور) ، وذكر ابن كثير في تفسيره أن البخاري رواه عن سلمان الفارسي.

تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ مفعول من أجله ، المعنى: حذار أن تقولوا محتجين يوم القيامة: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم﴾ وقامت الحجة عليكم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فهو الهادي والمضل ، والمنعم والمعذب ، لا رب غيره.

قوله عز وجل:

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢﴾.

المعنى: واذكر لهم يا محمد على جهة إعلامهم بغير كتبهم ليتحققوا نبوتك ، وينتظم في ذلك نعم الله عليهم ، وتَلَقِّيهم تلك النعم بالكفر وقلة الطاعة والإنابة.

وقرأ ابن محيصن: [يا قومُ] بالرفع وكذلك حيث وقع في القرآن ، وروي ذلك عن ابن كثير ، و﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ هنا اسم الجنس ، ثم عدَّد عيون تلك النعم. والأنبياءُ الذين جعل فيهم أَمرُهُمُ مشهور من لدن إسرائيل إلى زمان عيسى عليه السلام ، والأنبياءُ حاطة[1] ومنقذون من النار ، وشرفٌ في الدنيا والآخرة ، وقوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾ يحتمل معاني ـ أَحدها: أَن يُعدِّد عليهم مُلْك مَنْ مَلَك من بني إسرائيل ، لأَن الملوك شرف في الدنيا ، وحاطةٌ من نوائبها. والمعنى الآخر: أَن يريد: استنقذكم من القبط الذين كانوا يستخدمونكم فصرتم أحراراً تَملكون ولا تُملكون ، فهم ملوكٌ بهذا الوجه ، وبنحو هذا فسَّر السدي وغيره ، وقال قتادة: إنما قال: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾ لأَنا كنا نتحدث أَنهم أَول من خدمه أَحدٌ من بني آدم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف ، لأَن القبط كانوا يستخدمون بني إسرائيل ، وظاهر أَمر بني آدم أَن بعضهم كان يُسَخر بعضاً مذ تناسلوا وكثروا ، وإنما اختلفت الأُمم في معنى التملك فقط. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ، والحسن بن أَبي الحسن ، وجماعة من أَهل

(١) يقال: رجلٌ حيِّط: بمعنى يحوط أهله وإخوانه ويرعاهم ، والجمع: حاطة ، مثل: سيد وسادة. (المعجم الوسيط وغيره من المعاجم).

العلم: من كان له مسكن وامرأة وخادم فهو مَلِك ، وقيل: مَن له مسكن لا يدخل عليه فيه إلا بإذن فهو مَلِك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال فيه أَبو مالك ، وسعيد بن جبير: الخطاب لأمة محمد ﷺ ، وهذا ضعيف ، وقال جمهور المفسرين: الخطاب هو من موسى عليه السلام لقومه ، ثم اختلف المفسرون ـ ما الذي أُوتوا ولم يُؤتَ أَحد مثله؟ فقال مجاهد: المن والسلوى والحَجَر[1] والغمام ، وقال غيره: كثرة الأنبياءِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا في كثرة الأَنبياءِ ـ فالعالَمون على العموم والإِطلاق ، وعلى القول بأَن المؤتى هو آيات موسى فالعالَمون مقيدون بالزمان الذي كان فيه ، لأَن أُمة محمد قد أُوتيت من آيات محمد عليه الصلاة والسلام أَكثر من ذلك ، فقد ظلل رسول الله ﷺ بغمامة قبل مبعثه ، وكلمته الحجارة والبهائم ، وأَقبلت إِليه الشجرة ، وحنَّ الجذع ، ونبع الماءُ من بين أَصابعه ، وشبع كثير من الناس من قليل الطعام ببركته ، وانشق له القمر ، وعاد العود سيفا ، ورجع الحجر المعترض في الخندق رملاً مهيلا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه المقالة من موسى توطئة لنفوسهم حتى يتعزز ويأخذ الأَمر بدخول أَرض الجبارين بقوة ، وينفذ في ذلك نفوذ من أَعزه الله ورفع شأْنه ، و﴿ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ معناه: المطهّرة ، وقال مجاهد: المباركة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والبركة تطهير من القحوط والجوع ونحوه ، واختلف الناس في تعيينها ـ فقال ابن عباس ، ومجاهد: هي الطور وما حوله ، وقال قتادة: هي الشام ، وقال ابن زيد: هي أَريحاءُ ، وقاله السدي ، وابن عباس أَيضاً ، وقال قوم: هي الغوطة وفلسطين وبعض الأُردن ، قال الطبري: ولا يختلف أَنها بين الفرات وعريش مصر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتظاهرت الروايات أَن دمشق هي قاعدة الجبارين.

---

(١) الحجر هو الذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ معناه: التي كتب الله في قضائه وقدره أنها لكم ترثونها وتسكنونها مالكين لها، ولكن فَتَنْتُكم في دخولها بغرض قتال مَنْ فيها عليكم تمحيصاً وتجربة، ثم حذرهم موسى عليه السلام الارتداد على الأدبار، وذلك الرجوع القهقرى، ويحتمل أن يكون تولية الدبر والرجوع في الطريق الذي جيءَ منه. والخاسر: الذي قد نقص حظه.

ثم ذكر عزَّ وجلَّ عن بني إسرائيل أَنهم تعنَّتوا ونكصوا، فقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، والجبار: فعَّال من الجبر، كأَنه لقوته وغشمه وبطشه يجبر الناس على إرادته، والنخلة الجبارة: العالية التي لا تُنال بيد، وكان من خبر الجبارين أنهم كانوا أَهل قوة، فلما بعث موسى الاثني عشر نقيباً مطلعين على أَمر الجبارين وأَحوالهم، رأَوا لهم قوة وبطشاً، وتخيلوا أَن لا طاقة لهم بهم، فجاءُوا بني إسرائيل، ونقضوا العهد بأَن أَخبروهم بحال الجبارين حسبما قدمناه في ذكر بعث النقباءِ، ولم يف منهم إلا يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا، ثم إن بني إسرائيل كعُّوا وجبنوا وقالوا: كوننا عبيداً للقبط أَسهل من قتال هؤلاءِ، وهمَّ كثير منهم أَن يُقدموا رجلاً على أَنفسهم ويصير بهم إِلى أَرض مصر مُرْتَدِّين على الأَعقاب، ونسوا أَن الله تعالىٰ إذا أَيَّد الضعيف غلب القويَّ، وأَخبروا موسى عليه السلام أَنهم لن يدخلوا الأَرض ما دام الجبارون فيها، وطلبوا منه أَن يُخرج الله الجبارين بجند من عنده، وحينئذ يدخل بنو إسرائيل.

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

قرأَ ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد: [يُخافون] بضم الياءِ، وقرأَ الجمهور: ﴿يَخَافُونَ﴾ بفتح الياءِ، وقال أَكثر المفسرين: الرجلان يوشع بن نون وهو ابن أُخت موسى، وكالب بن يوقنا، ويقال فيه: كلاب. ويقال: كالوث بثاءِ

مثلثة ، ويقال في اسم أَبيه: قافيا ، وهو صهر موسى على أُخته ، قال الطبري: اسم زوجته مريم بنت عمران ، ومعنى ﴿ يَخَافُونَ ﴾ أي: الله. وأَنعم عليهما بالإِيمان الصحيح وربط الجأش والثبوت في الحق ، وقال قوم: المعنى: يخافون العدو ، لكن أَنعم الله عليهما بالإِيمان والثبوت مع خوفهما ، ويقوي التأْويل الأَول أَن في قراءَة ابن مسعود: «قال رجلان من الذين يخافون اللهَ أَنعم عليهما» ، وأَما من قرأَ بضم الياءِ فلقراءَته ثلاثة معان ـ أَحدها: ما روي من أَن الرجلين كانا من الجبارين آمنا بموسى واتبعاه ، فكانا من القوم الذين يخافون ، لكن أَنعم الله عليهما بالإِيمان بموسى ، فقالا: نحن أَعلم بقومنا. والمعنى الثاني: أَنهما يوشع وكالوت ، لكنهما من الذين يُوقرون ويُسمع كلامهم ويُهابون لتقَوِّيهم وفضلهم ، فهم يُخافون بهذا الوجه ، والمعنى الثالث: أَن يكون الفعل من أَخاف ، والمعنى: من الذين يُخافون بأَوامرالله ونواهيه ووعيده وزجره ، فيكون ذلك مدحاً لهم على نحو المدح في قوله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ ﴾[1] ، وقوله تعالىٰ: ﴿ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ﴾ صفة للرجلين.

والباب: هو باب مدينة الجبارين فيما ذكر المفسرون ، والمعنى: اجتهدوا وكافحوا حتى تدخلوا الباب. وقوله: ﴿ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ ﴾ ظن منهما ورجاء وقياس ، أَي: أَنكم بذلك تَفُتُّون في أَعضادهم ، ويقع الرعب في قلوبهم فتغلبونهم ، وفي قراءَة ابن مسعود: [عَلَيْهما ويْلَكُم ادْخُلوا] ، وقولهما: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ يقتضي أَنهما استرابا بإِيمانهم حين رأَياهم يعصون الرسول ، ويجبنون مع وعد الله تعالىٰ لهم بالنصر.

ثم إِن بني إِسرائيل لجُوا في عصيانهم ، وسمعوا من العشرة النقباءِ الجواسيس الذين خوَّفهمْ أَمرُ الجبارين ، ووصفوا لهم قوة الجبارين وعظم خلقهم ، فصمموا على خلاف أَمر الله تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ وهذه عبارة تقتضي كفراً ، وذهب بعض الناس إِلى أَن المعنى: اذهب أَنت وربك يُعينك ، وأَن الكلام معصية لا كفر.

---

(١) الحجرات: ٣.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقولهم: ﴿فَقَـٰتِلَآ﴾ يقطع بهذا التأويل، وذكر النقاش عن بعض المفسرين أَن المراد بالرب (هنا) هارون، لأَنه كان أَسنَّ من موسى، وكان معظماً في بني إِسرائيل، محبباً لسعة خلقه ورحب صدره، فكأَنهم قالوا: اذهب أَنت وكبيرك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تأْويل بعيد، وهارون إِنما كان وزيراً لموسى وتابعاً له في معنى الرسالة، ولكنه تأْويل يخلِّص بني إِسرائيل من الكفر. وذكر الطبري عن قتادة أَنه قال: بلغنا أَن رسول الله ﷺ لما عزم على قتال قريش في عام الحديبية جمع العسكر وكلم الناس في ذلك، فقال له المقداد بن الأَسود: لسنا نقول لك كما قالت بنو إِسرائيل: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ لكنا نقول: اذهب أَنت وربك فقاتلا إِنا معكما مقاتلون، وذكر النقاش أَن الأَنصار قالت هذه المقالة للنبي ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وجميع هذا وَهْمٌ، غلط قتادة رحمه الله في وقت النازلة، وغلط النقاش في قائل المقالة، والكلام إِنما وقع في غزوة بدر حين نزل رسول الله ﷺ: ذَفِران فكلم الناس وقال لهم: أَشيروا عليَّ أَيها الناس، فقال له المقداد هذه المقالة في كلام طويل، ذكر ذلك ابن إِسحاق وغيره، ثم تكلم من الأَنصار سعد بن معاذ بنحو هذا المعنى، ولكن سبقه المقداد إِلى التمثيل بالآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتمثيل المقداد بها وتقرير النبي ﷺ لذلك يقتضي أَن الرب إِنما أُريد به الله تعالىٰ، ويؤنس أَيضاً في إِيمان بني إِسرائيل، لأَن المقداد قد قال: اذهب أَنت وربك فقاتلا، وليس لكلامه معنى إِلا أَن الله تعالىٰ يُعينك، ويقاتل معك ملائكته ونصره، فعسى أَن بني إِسرائيل أرادت ذلك، أَي: اذهب أَنت، ويخرجهم الله بنصره وقدرته من المدينة، وحينئذ ندخلها، لكن قبحت عبارتهم لاقتران النكول بها، وحسنت عبارة المقداد لاقتران الطاعة والإِقدام بها.

ولما سمع موسى عليه السلام قولهم، ورأَى عصيانهم، تبرأَ إِلى الله تعالىٰ

منهم ، وقال داعياً عليهم: ﴿ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ ﴾ يعني هارون ، وقوله: ﴿ وَأَخِيۖ ﴾ يحتمل أَن يكون إِعرابه رفعاً إِما على الابتداءِ والتقدير: وأَخي لا يملك إِلا نفسه ، وإِما على العطف على الضمير الذي في ﴿ أَمْلِكُ ﴾ ، تقديره: لا أَملك أَنا ، ويحتمل أَن يكون إِعرابه نصباً على العطف على: ﴿ نَفْسِي ﴾ ، وذلك لأَن هارون كان يطيع موسى ، فلذلك أَخبر أَنه يملكه[1]. وقرأَ الحسن: [إِلاَّ نَفْسِيَ وَأَخيَ] بفتح الياءِ فيهما ، وقوله: ﴿ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا ﴾ دعاءٌ حرج ، قال السدي: هي عَجْلة عجِلها موسى عليه السلام ، وقال ابن عباس ، والضحاك ، وغيرهما: المعنى: افصل بيننا وبينهم بحكم وافتح ، فالمعنى: احكم بحكم يفرق هذا الاختلاف ويَلُمُّ الشعث.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا التأْويل فليس في الدعاءِ عجْلة. وقال قوم: المعنى: فافرق بيننا وبينهم في الآخرة حتى تكون منزلة المطيع مفارقة لمنزلة العاصي الفاسق ، ويحتمل الدعاءُ أَن يكون معناه: فرق بيننا وبينهم ، بمعنى أَن يقول: «فَقَدنا وجوههم ، وفُرِّق بيننا وبينهم حتى لا نشقى بفسقهم» ، وبهذا الوجه تجيءُ العجْلة في الدعاءِ ، وقرأَ عُبيد بن عُمير: [فَافْرِق] بكسر الراءِ.

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ ﴾ المعنى: قال الله ، وأَضمر الفاعل في هذه الأَفعال كلها إِيجازاً لدلالة معنى الكلام على المراد. وحرَّم الله تعالىٰ على جميع بني إِسرائيل دخول تلك المدينة أَربعين سنة ، وتركهم خلالها يتيهون في الأَرض ، أَي: في أَرض تلك النازلة ، وهو فحص التيه ، وهو ـ على ما يحكى ـ طول ثمانين ميلاً في عرض ستة فراسخ ، وهو ما بين مصر والشام ، ويروى أَنه اتفق أَنَّه مات كل من كان قال: ﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا ﴾ ولم يدخل المدينة أَحدٌ من ذلك الجيل إِلا يوشع وكالوث ، ويُروى أَن هارون عليه السلام مات في فحص التيه في خلال هذه المدة ، ولم يختلف في هذا ، وروي أَن

---

(١) وجوز بعضهم أن يكون مجروراً معطوفاً على ياء المتكلم في ﴿ نَفْسِي ﴾ ـ ولكن هذا ضعيف على مذهب البصريين.
والسرُّ في هذاا لحصر ﴿ لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ ﴾ أن موسى لم يثق بالرجلين اللذين قالا: ادخلوا عليهم الباب ، ولم يطمئن إلى ثباتهما لما عاين من أحوال قومه ، ومن تلَوُّنهم مع طول الصحبة ، فلم يذكر إلا النبي المعصوم الذي لا شبهة في ثباته وهو هارون ـ وقيل: أراد بقوله: ﴿ وَأَخِيۖ ﴾ من يوافقني في الدين لا هارون خاصة. قاله في (البحر المحيط).

موسى عليه السلام مات فيه بعد هارون بثمانية أعوام ، وقيل: بستة أشهر ونصف ، وأن يوشع نبئ بعد كمال الأربعين سنة ، وخرج ببني إسرائيل وقاتل الجبارين وفتح المدينة ، وفي تلك الحرب وقفت له الشمس ساعة حتى استمر هزْم الجبارين[1]. وروي أن موسى عليه السلام عاش حتى كملت الأربعون ، وخرج بالناس وحارب الجبارين ويوشع وكالب على مقدمته ، وأنه فتح المدينة وقتل بيده عوج بن عناق ، يقال: كان في طول موسى عشرة أذرع ، وفي طول عصاه عشرة أذرع ، وترامى من الأرض في السماءِ عشرة أذرع ، وحينئذ لحق كعبَ عوج فضربه بعصاه في كعبه فخر صريعاً ، ويروى أن عوجا اقتلع صخرة ليطرحها على عسكر بني إسرائيل فبعث الله هدهداً بحجر الماس فأداره على الصخرة فتقورت ودخلت في عنق عوج ، وضربه موسى فمات ، وحكى الطبري أن طول عوج ثمانمائة ذراع ، وحكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لمَّا خرَّ كان جسراً على النيل سنةً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والنيل ليس في تلك الأقطار ، وهذا كله ضعيف ، والله أعلم ، وحكى الزجاج عن قوم أن موسى وهارون لم يكونا في التيه ، والعامل في ﴿أَرْبَعِينَ﴾ يحتمل أن يكون ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾ ، أي: حرمت عليهم أربعين سنة ، ويتيهون في الأرض هذه المدة ثم تفتح عليهم ، أدرك ذلك من أدركه ، ومات قبله من مات. وخَطَّأَ أبو إسحاق أن يكون العامل ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾ ، وذلك منه تحامل. ويحتمل أن يكون العامل «يتيهون» مضمراً يدل عليه ﴿يَتِيهُونَ﴾ المتأخر ، ويكون قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ﴾ إخباراً مستمراً تلقوا منه أن المخاطبين لا يدخلونها أبداً ، وأنهم ـ مع ذلك ـ يتيهون في الأرض أربعين سنة يموت فيها من مات.

---

(١) أشار إلى قصة وقوف الشمس ليوشع أبو تمام في قوله:

فَرُدَّت علينا الشمس والليلُ راغمٌ ... بشمس بدَتْ من جانب الخِدْر تطلع
نضَا ضوؤُها صبغ الدُّجُنَّة وانطوى ... لبهجتها ثوبُ السماءِ المُجزَّع
فوالله ما أدري أَأحلام نائم ... أَلَمَّت بنا أَم كان في الركب يوشع؟

وأشار شوقي أيضاً إليها بقوله:

قِفي يا أُخت يوشَع خبِّرينا ... أَحاديث القُرون الغابرينا

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والخطاب على هذا التأويل أَصعب موقفاً وأَحضر يأْساً، وروي أَن من كان قد جاوز عشرين سنة لم يعش إلى الخروج من التيه، وأَن من كانوا دون العشرين عاشوا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَنه لم يعش المكلفون، أَشار إلى ذلك الزجاج.

والتِّيه: الذهاب في الأَرض إلى غير قصد معلوم[(١)]، ويروى أَن بني إِسرائيل كانوا يرحلون بالليل ويسيرون ليلهم أَجمع في تحليق ونحوه من التردد وقلة استقامة السير، حتى إذا أَصبحوا وجدوا جُمْلتهم في الموضع الذي كانوا فيه أَول الليل، قال مجاهد وغيره: كانوا يسيرون النهار أَحياناً والليل أَحياناً فيمسون حيث أَصبحوا، ويصبحون حيث أَمسوا، وذلك في مقدار ستة فراسخ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يكون تيههم بافتراق الكلمة وقلة اجتماع الرأْي، وأَن الله تعالىٰ رماهم بالاختلاف، وعلموا أَنها قد حرمت عليهم أَربعين سنة فتفرقت منازلهم في ذلك الفحص، وأَقاموا ينتقلون من موضع إلى موضع على غير نظام واجتماع، حتى كملت هذه المدة وأَذن الله بخروجهم، وهذا تيه ممكن محتمل على عرف البشر، والآخر الذي ذكر مجاهد إنما هو خرق عادة وعجب من قدرة الله تعالىٰ.

وفي ذلك التِّيه ظلل عليهم الغمام، ورزقوا المن والسلوى إلى غير ذلك مما روي من ملابسهم، وقد مضى ذلك في سورة البقرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ معناه: فلا تحزن، يقال: أَسي الرجل يأْسى أَسىً إذا حزن، ومنه قول امرئ القيس:

وُقُوفاً بِها صَحْبي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ ... يقولون لا تَهْلِكْ أَسىً وَتَجَمَّلِ

---

(١) أصل التِّيه في اللغة: الحيْرة، يقال منه: تاهَ يَتِيهُ تَيْهاً وَتَوْهاً إذا تحَيَّر، والأرض التَّيْهَاءُ: التي لا يُهتدى فيها، ومنه قول القائل:

بِتَيْهَاءَ قَفْرٍ والمَطِيُّ كأنها ... قَطَا الحزْن قدْ كانَتْ فِرَاخاً بُيُوضُها

ومنه قول مُتَمِّم بن نُوَيرة:

فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ الأَسَى يَبْعَثُ الأَسى   دَعُـونـي فَهَـذَا كُلُّـه قَبْـرُ مـالِـكِ

والخطاب بهذه الآية لموسى عليه السلام، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ندم موسى على دعائه على قومه، وحزن عليهم، فقال له الله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾. وقال قوم من المفسرين: الخطاب بهذه الألفاظ لمحمد ﷺ، ويراد بالفاسقين معاصروه، أي: هذه أفعال أسلافهم فلا تحزن أنت بسبب أفعالهم الخبيثة معك وردِّهم عليك، فإنها سجية خبيثة موروثة عندهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿۞ وَٱتْلُ﴾ معناه: اسرد وأسمعهم إياه، وهذه من علوم الكتب الأُول التي لا تعلق لمحمد ﷺ بها إلا من طريق الوحي، فهو من دلائل نبوته، والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ظاهر أمره أنه يُرَادُ به بنو إسرائيل لوجهين: أحدهما أن المحاورة فيما تقدم إنما هي في شأنهم، وإقامة الحجج عليهم بسبب همهم ببسط اليد إلى محمد ﷺ، والثاني أن عِلْم نبإ ابْنَيْ آدم إنما هو عندهم، وفي غامض كتبهم، وعليهم تقوم الحجة في إيراده. والنبأ: الخبر، وابنا آدم: هما في قول جمهور المفسرين لِصُلبه، وهما قابيل وهابيل، وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: ابنا آدم ليسا لِصُلبه، ولم تكن القرابين إلا في بني إسرائيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا وَهْمٌ، وكيف يجهل صورة الدفن أحدٌ من بني إسرائيل حتى يقتدي بالغراب؟ والصحيح قول الجمهور، ورُوي أن تقريبهما للقُرْبان إنما كان تحنثاً وتطوعاً، وكان قابيل صاحب زرع، فعمد إلى أرذل ما عنده وأدناه فقربه، وكان هابيل صاحب غنم، فعمد إلى أفضل كباشه فقربه، وكانت العادة حينئذ أن يقرب المقرب قربانه ويقوم

ويصلي ويسجد ، فإن نزلت نار وأكلت القُربان فذلك دليل للقبول ، وإلا كان تركه دليل عدم القبول ، فلما قرب هذان كما ذكرتُ ، فنزلت النار فأخذت كبش هابيل فرفعته وسترته عن العيون ، وتركت زرع قابيل ، قال سعيد بن جبير: فكان ذلك الكبش يرتع في الجَنَّة حتى أُهبط إلى إبراهيم في فداءِ ابنه ، قال [سائقو] هذا القصص: فحسد قابيل هابيل ، وقال له: أتمشي على الأرض يراك الناس أفضل مني؟ وكان قابيل أَسَنَّ ولد آدم ، وروي أن آدم سافر إلى مكة ليرى الكعبة ، وترك قابيل وصياً على بنيه ، فجرت هذه القصة في غيبته ، وروت جماعة من المفسرين ـ منهم ابن مسعود ـ أن سبب هذا التقريب أَن حواءَ كانت تلد في كل بطن ذكراً وأُنثى ، فكان الذكر يزوج أُنثى البطن الآخر ، ولا تحل له أُخته توأَمته ، فوُلدت مع قابيل أُخت جميلة ، ومع هابيل أُخت ليست كذلك ، فلما أَراد آدم تزويجها قال قابيل: أَنا أحق بأُختي ، فأَمره آدم فلم يأتمر ، فاتفقوا على التقريب ، وروي أَن آدم حضر ذلك ، فتقبل قربان هابيل ، ووجب أَن يأخذ أُخت قابيل[1] ، فحينئذ قال له: ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ ، وقول هابيل: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ كلامٌ قبله محذوف تقديره: ولمَ تقتلني وَأَنا لَمْ أَجْن شيئاً ولا ذنب لي في قبول قرباني؟ أَما إني أَتَّقيه وكنتَ عليَّ لأَحب الخلْق و﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإِجماع أَهل السُّنَّة في معنى هذه الأَلفاظ أَنها اتقاءُ الشرك ، فمن اتقاه وهو موحِّد فأَعماله التي تَصْدُق فيها نيته مقبولة ، وأَما المتقي للشرك والمعاصي فله الدرجة العليا من القبول والحتم بالرحمة ، علم ذلك بإِخبار الله تعالىٰ ، لا أَن ذلك يجب على الله تعالىٰ عقلاً ، وقال عدي بن ثابت وغيره: قُرْبَانُ متقي هذه الأُمة الصلاةُ.

واختلف الناس ، لم قال هابيل: ﴿ مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾؟ فقال مجاهد: كان الفرض عليهم حينئذ أَلا يسل أَحد سيفاً ، وأَلا يمتنع من أُريد قتله. وقال عبد الله بن عمرو ، وجمهور الناس: كان هابيل أَشد قوة من قابيل ولكنه تحرج.

---

(١) قال القرطبي: «القول ما ذكرناه من أن آدم كان يزوج غلام هذا البطن لجارية تلك البطن والدليل على هذا من الكتاب قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ ، وهذا كالنص». هذا وذكر أنَّ أُخت قابيل الجميلة اسمها: إقليمياء ، وأن أُخت هابيل اسمها: ليوذا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الأَظهر، ومن هنا يقوى أَن قابيل إِنما هو عاصٍ لا كافر، لأَنه لو كان كافراً لم يكن للتحرج وجه، وإِنما وجه التَّحرج في هذا أَن المتحرج يأْبى أَن يُقاتل موحِّداً، ويرضى بأَن يُظْلم لِيُجَازى في الآخرة، ونحو هذا فعل عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وقوله: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ ﴾ الآية، ليست هذه بإِرادة محبة وشهوة، وإِنما هو تَخَيُّرٌ في شرَّيْن، كما تقول العرب: في الشَّرِّ خيارٌ، فالمعنى: إِنْ قتلتني وسبق بذلك قدر فاختياري أَن أَكون مظلوماً سينتصر الله لي في الآخرة. و﴿ تَبُوٓأَ ﴾ معناه: تمضي متحملا، وقوله: ﴿ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ ﴾ قيل: معناه: بإِثم قتلي وسائر آثامك التي أَوجبت أَلا يتقبل منك، وقيل: المعنى: بإِثم قتلي وإِثمك في العداءِ عليَّ، إِذ هو في العداءِ وإِرادة القتل آثم ولو لم ينفذ القتل. وقيل: المعنى: بإِثمي إِن لو قاتلتك وقتلتك وإِثم نفسك في قتالي وقتلي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الإِثم الذي يقتضيه قول النبي ﷺ: «إِذا التقى المسلمان بسَيْفَيْهما فالقاتل والمقتول في النار»، قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إِنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[١]. فكأَن هابيل أَراد: إِني لست بحريص على قتلك، فالإِثم الذي كان يلحقني لو كنت حريصاً على قتلك أُريد أَن تحمله أَنت مع إِثمك في قتلي. وقيل: المعنى: بإِثمي الذي يختص لي فيما فرط لي، أَي: يؤْخذ من سيئاتي فيطرح عليك بسبب ظلمك لي، وتبوءُ بإِثمك في قتلي، وهذا تأْويل يعضده قول النبي ﷺ: «يُؤتى بالظالم والمظلوم يوم القيامة، فيؤْخذ من حسنات الظالم فيزاد في حسنات المظلوم حتى ينتصف، فإِن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه»[٢].

---

(١) رواه أحمد في مسنده، وأَخرجه الشيخان، وأَبو داود، والنسائي ـ عن أبي بكرة. وابن ماجه عن أبي موسى، وهو حديث صحيح كما قال في الجامع الصغير.

(٢) رواه مسلم في صحيحه بلفظه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يحتمل أَن يكون من قول هابيل لأَخيه، ويحتمل أَن يكون إِخباراً من الله تبارك وتعالىٰ لمحمد ﷺ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾.

قراءَة الجمهور: ﴿فَطَوَّعَتۡ﴾ والمعنى أَن القتل في ذاته مستصعب عظيم على النفوس، فردته هذه النفس اللجوجة الأَمَّارة بالسوءِ طائعاً منقاداً حتى واقعهُ صاحب هذه النفس[1]. وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، والجراح، والحسن بن عمران، وأَبو واقد: [فَطَاوَعَتْ] والمعنى: كأَن القتل يدعو إِلى نفسه بسبب الحقد والحسد الذي أَصاب قابيل، وكأَن النفس تأْبى ذلك ويصعب عليها، وكل جهة تريد أَن تطيعها الأُخرى، إِلى أَن تفاقم الأَمر، وطاوعت النفس القتل فواقعته، وروي أَنه التمس الغِرَّة في قتله حتى وجده نائماً في غنمه فشدخ رأْسه بحجر، وروي أَنه جهل كيف يقتله، فجاءَ إِبليس بطائر أَو حيوان غيره فجعل يشدخ رأْسه بين حجرين ليقتدي به قابيل ففعل، وروي أَنه لما انصرف قابيل إِلى آدم قال له: أَين هابيل؟ قال: لا أَدري، كأَنك وكلتني بحفظه، فقال له آدم: أَفعلتها؟ والله إِن دمه ليناديني من الأَرض، اللَّهم العن أَرضاً شربت دم هابيل، فروي أَنه من حينئذ ما شربت أَرض دماً، ثم إِن آدم ﷺ بقي مائة عام لم يبتسم حتى جاءَ ملك فقال له: حياك الله يا آدم وبيَّاك، فقال آدم: ما بيَّاك؟ قال: اضحك، فروي أَن آدم عليه السلام قال حينئذ:

تَغَيَّـرَتِ البـلادُ وَمَـنْ عَلَيْهَـا ... فَـوَجْـهُ الأَرضِ مُغْبَـرٌ قَبِيـح
تغيَّـر كـلُّ ذي طعْـم ولَـوْن ... وقـلَّ بشـاشـةَ الـوَجْـهِ المليـح

هكذا هو الشعر بنصب (بشاشة) وكف التنوين.

وروي عن مجاهد أَنه قال: علقت إِحدى رجلي القاتل بساقها إِلى فخذها من يومئذ

---

(١) طوَّعت له نفسه: أي سهَّلت نفسُه عليهالأمر وشجعته، وصورت له أن قتل أخيه طوعٌ له سهلٌ، يقال: طاع الشيْء يطوع: سهُلَ وانقاد، وطوَّعه فلان له: سهَّلَه.

إِلى يوم القيامة ، ووجهه إِلى الشمس حيث ما دارت ، عليه في الصيف حظيرة من نار ، وعليه في الشتاءِ حظيرة من ثلج .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فإِن صح هذا فهو من خسرانه الذي تضمنه قوله تعالىٰ: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ، ومن خسرانه ما روي عن عبد الله بن عمرو أَنه قال: «إِنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أَهل النار قسمةً صحيحة العذاب ، عليه شطر عذابهم» ، ومن خسرانه ما ثبت وصح عن النبي ﷺ أَنه قال: «مَا قُتِلَتْ نفس ظلماً إِلا كان على ابن آدم الأَول كفل منها»[1] ، وذلك أَنه أَول من سن القتل .

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ﴾ عبارة عن جميع أَوقاته ، أُقيم بعض الزمن مقام كله ، وخص الصباح بذلك لأَنه بداية النهار والانبعاث إِلى الأُمور ، ومطية النشاط ، ومنه قول الربيع بن ضبع:

أَصبَحْتُ لاَ أَحْمِلُ السِّلاَحَ . . . .

ومنه قولُ سعد بن أَبي وقَّاص: «ثم أَصبَحتْ بنو أَسد تعزرني على الإِسلام» إِلى غير ذلك من استعمال العرب كما ذكرناه .

وقوله تعالىٰ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ ، روي في معناه أَن قابيل جعل أَخاه في جراب ، ومشى به يحمله في عنقه مائة عام ، وقيل: سنة واحدة ، وقيل: بل أَصبح في ثاني يوم قتله يطلب إِخفاءَ أَخيه ، فلم يدر ما يصنع به ، فبعث الله غراباً حيّاً إِلى غراب ميت ، فجعل يبحث في الأَرض ويُلقي التراب على الغراب الميت . وروي أَن الله تعالىٰ بعث غرابين فاقتتلا حتى قتل أَحدهما الآخر ، ثم جعل القاتل يبحث ويواري الميت ، وروي أَن الله تعالىٰ إِنما بعث غراباً واحداً فجعل يبحث ويلقي التراب على هابيل .

وظاهر هذه الآية أَن هابيل هو أَول ميت من بني آدم ، ولذلك جهلت سنة المواراة ، وكذلك حكى الطبري عن ابن إِسحاق عن بعض أَهل العلم بما في الكتب الأُول .

---

(١) الحديث في الصحيحين وغيرهما ـ عن ابن مسعود ، ذكر ذلك الشوكاني ، وقال في (الدر المنثور): أخرجه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه .

و﴿ يَبْحَثُ ﴾ معناه: يفتش التراب بمنقاره ويثيره، ومن هذا سميت سورة (براءَة) ـ البحوث[1] ـ لأَنها فتشت عن المنافقين، ومن ذلك قول الشاعر:

إِن النَّـاسُ غَطـوني تَغَطَّيْـتُ عَنهُـمُ وإِنْ بَحَثُوني كانَ فِيهِمْ مباحِثُ[2]

وفي مثل: لا تكن كالباحث عن الشفرة[3].

والضمير في قوله: ﴿ سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ يحتمل أَن يعود على قابيل، ويُراد بالأَخ هابيل، ويحتمل أَن يعود على الغراب الباحث، ويراد بالأَخ الغرابُ الميت، والأَول أَشهر في التأْويل، والسَّوْأَة: العورة، وخصت بالذكر مع أَن المراد مواراة جميع الجسد للاهتمام بها، ولأَن سترها أَوكد، ويحتمل أَن يراد بالسوأَة هذه الحالة التي تسوءُ الناظر بمجموعها، وأُضيفت إِلى المقتول من حيثُ نزلت به النازلة لا على جهة الغَضِّ منه، بل الغَض لاحقٌ للقاتل، وهو الذي أَتى بالسوأَةِ، وقرأَ الجمهور: ﴿ فَأُوَارِيَ ﴾ بنصب الياءِ، وقرأَ طلحة بن مصرفَ، والفياض بن غزوان: [فأُواريْ] بسكون الياءِ، وهي لغة لتوالي الحركات.

ولما رأَى قابيل فعل الغراب تنبه على ما يجب أَن يصنع بأَخيه، ورأَى قصور نفسه وجهل البشر بالأُمور، فقال: ﴿ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ ﴾ الآية، واحتقر نفسه، ولذلك ندم، وقرأَ الجمهور: ﴿ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ﴾ والأَصل: يا وَيْلَتِي، لكن من العرب من يبدل من الياءِ أَلفاً ويفتح الياءَ لذلك، فيقولون: يا ويْلَتَى ويا غلامَا. ويَقِفُ بعضهم على هاءِ السكت

---

(١) قال في اللسان: «وفي حديث المقداد: أَبَتْ علينا سورة البُحوث، انفروا خفافاً وثقالاً» يعني سورة (التوبة)، والبُحوث بضم الباء، وقال ابن الأثير: «ورأيتُ في الفائق: سورة البَحُوث بفتح الباء، قال: فإن صحت فهي فَعُول من أبنية المبالغة ويقع على الذكر والأنثى، كامرأة صَبُور، ويكون من باب إضافة الموصوف إلى الصفة».

(٢) في بعض النسخ «إن باحثوني»، وفي بعضها: «كنتُ فيهم» بدلاً من «كان فيهم». ولم نقف على نسبة البيت.

(٣) ويروى: «كالباحثة عن حتفها بظلفها»، وأصله أن رجلاً وجد شاةً فأراد ذبحها فلم يظفر بسكين، وكانت مربوطة، فلم تزل تبحث برجلها حتى أبرزت سكيناً كانت مدفونة تحت التراب فذبحها بها، ومعنى «كالباحث عن الشفرة» أنه طلب معاشاً فسقط على شفرة فعقرته، يضرب في حاجة تؤدي بصاحبها إلى التلف. وقيل: كالعنز تبحث عن سكين جزَّار، وقال الشاعر:

فَكَـانـت كعَنْـز السُّـوء قـامَـتْ بـرِجْلِهـا إلـى مُـدْيَـةٍ مَـدْفُـونَـةٍ تَسْتَثِيـرُهـا

فيقول: ويلَتَاهْ. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [ياوَيْلَتِي][1]. ونداءُ الويلة هو معنى: احضري فهذا أَوانك، وهذا هو الباب في قوله: ﴿ يَٰحَسْرَةً ﴾[2]، وفي قولهم: يا عجباً وما جرى مجراه من نداءِ هذه الأُمور التي لا تعقل وهي معان: وقرأ الجمهور: ﴿أَعَجَزْتُ﴾ بفتح الجيم، وقرأ ابن مسعود، والحسن، والفياض، وطلحة بن سليمان: [أَعَجِزتُ] بكسر الجيم، وهي لغة[3].

ثم إن قابيل وارى أَخاه، وندم على ما كان منه من معصية الله في قتله حيث لا ينفع الندم، واختلف العلماءُ في قابيل ـ هل هو من الكفار أَو من العصاة؟ والظاهر أَنه من العصاة، وروي عن النبي ﷺ أَنه قال: «إن الله ضرب لكم ابني آدم مثلا، فخذوا من خيرهما ودعوا الشر»[4].

قوله عز وجل:

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

جمهور الناس على أَن قوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ متعلق بقوله: ﴿كَتَبْنَا﴾، أَي: بسبب هذه النازلة، ومن جرَّاها كتبنا. وقال قومٌ: بل هو متعلق بقوله: ﴿مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾، أَي: ندم من أَجل ما وقع، والوقف ـ على هذا ـ على ﴿ذَٰلِكَ﴾، والناس على أَن الوقف ﴿مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾.

يقال: أَجَلَ الأَمر أَجَلا وأَجْلا[5]، إذا جناه وجرَّه، ومنه قول خوات:

---

(١) أي: بالياء على الأصل.

(٢) من قوله تعالىٰ في سورة يس: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ الآية (٣٠).

(٣) قال النحاس: «وهي لغة شاذة، إنما يقال: عجِزت المرأة إذا عظمت عجيزتها، وعَجزْتُ عن الشيء عجْزاً ومعجِزَةً ومَعْجَزَةً».

(٤) أخرج مثله عبد الرزاق، وابن جرير عن الحسن، وأخرج عبد بن حميد مثله ـ عن الحسن، وأخرج مثله ابن جرير ـ من طريق المعتمر بن سليمان ـ عن أبيه ـ عن بكر بن عبد الله. (الدر المنثور).

(٥) فرَّق (المعجم الوسيط) بين المصدرين فقال: أَجَلَ الشيءَ ـ أَجْلاً: حبَسه ومَنَعَه، وفلاناً: عالجه من الإِجْل، وأَجَلَ أَجَلاً. تأخر. فهو: أَجِلٌ، وآجِل، وأَجيل، وفلانٌ: اشتكى الإجلَ (والإِجْل: وجع في العنق من ميله على الوسادة).

وأَهــلِ خبــاءٍ صــالــح ذات بينهــم قد احتربوا في عاجل أَنا آجِلُه[1]

ويقال: فعلت ذلك من أَجلك بفتح الهمزة. ومن إجلك بكسرها. وقرأ أَبو جعفر بن القعقاع: [مِنِ اجْلِ ذَلِكَ] بوصل الألف وكسر النون قبلها، وهذا على أَن أَلقى حركة الهمزة على النون، كما قالوا: «كمِ ابلك»؟ بكسر الميم ووصل الألف، و«منِ ابراهيم» بكسر النون.

و﴿كَتَبْنَا﴾ معناه: كُتب بأَمرنا في كتب منزلة عليهم تضمنت فرض ذلك، وخص الله تعالىٰ بني إسرائيل بالذكر وقد تقدمتهم أُمم كان قتل النفس فيهم محظوراً لوجهين: أَحدهما فيما روي أَن بني إسرائيل أَول أُمة نزل الوعيد عليهم في قتل النفس في كتاب، وغلظ الأَمر عليهم بحسب طغيانهم وسفكهم الدماءِ، والآخر لتلوح مذَمَّتُهم في أَن كتب عليهم هذا، وهم مع ذلك لا يرعون ولا ينتهون، بل همّوا بقتل النبي ﷺ ظلماً، فخُصوا بالذكر لحضورهم مخالفين لما كتب عليهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ معناه: بغير أَن تقتل نفساً فتستحق القتل، وقد حرَّم الله تعالىٰ نفس المؤمن إلا بإحدى ثلاث خصال: كفر بعد إيمان، أَو زنى بعد إحصان، أَو قتل نفس ظلماً وتعدياً. وهنا يندرج المحارب. والفساد في الأَرض يَجْمَعُ الزنى والارتداد والحرابة. وقرأَ الحسن: [أَو فساداً في الأَرْض] بنصب الفساد على فعل محذوف، وتقديره: أَو أَتى فساداً، أَو أَحدث فساداً، وحذف الفعل الناصب لدلالة الكلام عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ اضطرب لفظ المفسرين في ترتيب هذا التشبيه ـ فروي عن ابن عباس أَنه قال: المعنى: من قتل نبياً أَو إمامَ عدلٍ فكأَنما قتل الناس جميعاً، ومن أَحياهُ بأَن شد عضُده ونَصَره فكأَنما أَحيا الناس جميعاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول لا تعطيه الألفاظ.

---

(١) البيت لخوات بن جبير بن النعمان، أحد فرسان الصحابة، شهد بدراً، وتوفي بالمدينة سنة أربعين (الاستيعاب)، وقد نسب اللسان أيضاً البيت لخوات هذا، ونقل النسبة عن ابن عطية في (البحر)، ونسبه القرطبي، والشيخ مرتضى للخنّوت، واسمه: توبة بن مضرس بن عبيد ـ والبيت في ديوان زهير ـ و(أَهْلِ الكسر على تقدير (ربَّ) ـ ورواية اللسان والقرطبي: «كنْتُ بينهم» بدلاً من «ذات بينهم».

وروي عن ابن عباس أَيضاً أَنه قال: المعنى: مَن قتل نفساً واحدة وانتهك حرمتها فهو مِثْل مَن قَتل الناس جميعاً، ومن ترك قتل نفس واحدة، وصان حرمتها، واستحيا من أَن يقتلها، فهو كمن أَحيا الناس جميعاً.

وقال عبد الله بن عباس أَيضاً: المعنى: فكأَنما قتل الناس جميعاً عند المقتول، ومن أَحياها واستنقذها من هلكة فكأَنما أَحيا الناس جميعاً عند المُسْتَنْقَذ.

وقال ابن عباس أَيضاً وغيره: المعنى: من قتل نفساً فأَوبق نفسه فكأَنه قتل الناس جميعاً، إِذ يَصْلى النار بذلك، ومن سلم من قتلها فكأَنه سلم من قتل الناس جميعاً.

وقال مجاهد: الذي يقتل النفس المؤمنة متعمداً جعل الله جزاءَه جهنم، وغضب عليه، ولعَنَهُ، وأَعَدَّ له عذاباً عظيماً، يقول: لو قتل الناس جميعاً لم يزد على ذلك. ومن لم يقتل أَحداً فقد حيِيَ الناس منه.

وقال ابن زيد: المعنى أَن من قتل نفساً فيلزمه من القود والقصاص ما يلزم مَنْ قتل الناس جميعاً، قال: ومن أَحياها، أَي: من عفا عمَّن وجب له قتله. وقاله الحسن أَيضاً، أَي: هو العفو بعد القدرة، وقال مجاهد: ومن أَحياها: أَنقذها من حرق وغرق.

وقال قومٌ: لما كان المؤمنون كلهم يطلبون القاتل كان كمن قتل الناس جميعاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول متداع، ولم يتخلص التشبيه إِلى طرف في شيءٍ من هذه الأَقوال، والذي أَقول: إِن الشَّبه بين قاتل النفس وقاتل الكل لا يطرد من جميع الجهات، لكن الشبه قد تحصل من ثلاث جهات: إِحداها القود فإِنه واحد، والثانية الوعيد، فقد توعد الله قاتل النفس بالخلود في النار، وتلك غاية العذاب، فإِن فرضناه يخرج من النار بعْدُ بسبب التوحيد فكذلك قاتل الجميع إِن لو اتفق ذلك، والثالثة انتهاك الحرمة، فإِن نفْساً واحدة في ذلك وجميع الأَنفس سواءٌ، والمنتهك في واحدة ملحوظ بعين منتهك الجميع، ومثال ذلك: رجلان حلفا على شجرتين أَلا يطعما من ثمرهما شيئاً، فطعم أَحدهما واحدة من ثمر شجرته، وطعم الآخر ثمر شجرته كله، فقد استويا في الحنث.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ فيه تجوز. لأنها عبارة عن الترك والإنقاذ، وإلا فالإحياءُ حقيقة الذي هو الاختراع إنما هو لله تعالىٰ. وإنما هذا الإحياءُ بمنزلة قول نمرود: «أَنا أُحيي»، سمَّى الترك إحياءً، ومحيي نفس كمحيي الجميع في حفظ الحرمة واستحقاق الحمد.

ثم أَخبر الله تعالىٰ عن بني إسرائيل أَنهم جاءَتهم الرسل من الله بالبينات في هذا وفي سواه، ثم لم يزل الكثير منهم بعد ذلك في كل عصر يُسرفون ويتجاوزون الحدود، وفي هذه الآية إشارة إلى فعل اليهود في همهم بقتل النبي ﷺ وغيره، إلى سائر ذلك من أَعمالهم.

قوله عز وجل:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤)﴾.

اقتضى المعنى في هذه الآية كون ﴿إِنَّمَا﴾ حاصرة الحصر التام، واختلف الناس في سبب هذه الآية ـ فروي عن ابن عباس، والضحاك أَنها نزلت بسبب قوم من أَهل الكتاب كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، فنقضوا العهد وقطعوا السبيل وأَفسدوا في الأَرض.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويشبه أَن تكون نازلة بني قريظة حين هموا بقتل النبي ﷺ. وقال عكرمة والحسن: نزلت الآية في المشركين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا ضعف، لأَن توبة المشرك نافعة بعد القدرة عليه وعلى كل حال. وقال أَنس بن مالك، وجرير بن عبد الله، وسعيد بن جبير، وعروة بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وغيرهم: إن الآية نزلت في قوم من عُكل وعُرَيْنة[1] قدموا على

(١) عُكل ـ بضم العين وسكون الكاف ـ: قبيلة مشهورة، وعُرينة ـ بضم العين ـ أيضاً قبيلة.

رسول الله ﷺ فأَسلموا ، ثم إِنهم مرضوا واستوخموا المدينة ، فأَمرهم النبي ﷺ أَن يكونوا في لقاح الصدقة ، وقال: اشربوا من أَلبانها وأَبوالها ، فخرجوا فيها ، فلما صحُّوا قتلوا الرعاءَ واستاقوا الإِبل ، فجاءَ الصريخ فأَخبر بذلك النبي ﷺ. فأَمر فنودي في الناس: يا خيل الله اركبي ، فركب رسول الله ﷺ على أَثرهم فأُخذوا ، وقال جرير بن عبد الله: فبعثني رسول الله ﷺ في نفر من المسلمين ، حتى إِذا أَدركناهم وقد أَشرفوا على ديارهم ، فجئنا بهم النبي ﷺ ، قال جميع الرواة: فقطع رسول الله ﷺ أَيديهم وأَرجلهم من خلاف ، وسمَّر أَعينهم[١] ، ويروى: وسَمَلَ ، وتركهم في جانب الحرَّة يستسقون فلا يسقون ، وفي حديث جرير: فكانوا يقولون: الماءَ ، ويقول رسول الله ﷺ: النار[٢]. وفي بعض الروايات عن أَنس أَن رسول الله ﷺ أَحرقهم بالنار بعدما قتلهم ، قال أَبو قُلابة: هؤلاء كفروا وأَخذوا الأَموال وحاربوا الله ورسوله: وحكى الطبري عن بعض أَهل العلم أَن هذه الآية نسخت فعل النبي ﷺ بالعُرَنيين ، ووقفت الأَمر على هذه الحدود ، وقال بعضهم: وجعلها الله عتاباً لنبيه ﷺ على سمْل الأَعين ، وحكى عن جماعة من أَهل العلم أَن هذه الآية ليست بناسخة لذلك الفعل ، لأَن ذلك وقع في المرتدين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لا سيما وفي بعض الطرق أَنهم سملوا أَعين الرعاة[٣] ، قالوا: وهذه الآية هي في المحارب المؤمن ، وحكى الطبري عن السدي أَن النبي ﷺ لم يسمل أَعين العرنيين ، وإِنما أَراد ذلك فنزلت الآية ناهية عن ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف تخالفه الروايات المتظاهرة.

---

(١) قال ابن الأثير في «النهاية»: أي: أحمى لهم مسامير الحديد ثم كَحَلهم بها. ا هـ. وهو نفس معنى (سَمَلَ) باللام.

(٢) أخرجه عبد الرزاق والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والنحاس في ناسخه ، والبيهقي في الدلائل ، عن أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرج مسلم ، والنحاس في ناسخه ، والبيهقي عن أنس قال: إِنَّما سَمَل رسول الله ﷺ أعين أُولئك لأنهم سملوا أَعْيُن الرعاة.

ولا خلاف بين أَهل العلم أَن حكم هذه الآية مترتب في المحاربين من أَهل الإِسلام ، واختلفوا فيمن هو الذي يستحق اسم الحرابة ـ فقال مالك بن أَنس رحمه الله : المحارب عندنا من حمل على الناس السلاح في مصر أَو برية فكابرهم عن أَنفسهم وأَموالهم دون نائرة ولا دخَل ولا عداوة[1] . وقال هذا القول جماعة من أَهل العلم. وقال أَبو حنيفة وأَصحابه ، وجماعة من أَهل العلم: لا يكون المحارب إِلا القاطع على الناس في خارج الأَمصار ، فأَما في المصر فلا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

يريدون أَن القاطع في المصر يلزمه حدُّ ما اجْترح من قتل أَو سرقة أَو غصب ونحو ذلك. والحرابة رُتَبٌ أَدناها إِخافة الطريق فقط ، لكنها توجب صفة الحرابة ، ثم بعد ذلك يأْخذ المال مع الإِخافة. ثم بعد ذلك أَن يقتل مع الإِخافة ، ثم بعد ذلك أَن يجمع ذلك كلَّه. فقال مالك رحمه الله وجماعة من العلماءِ: في أَي رتبة كان المحارب من هذه الرتب فالإِمام مخير فيه في أَن يعاقبه بما رأَى من هذه العقوبات ، واستحسن أَن يأْخذ في الذي لم يَقْتُل بأَيسر العقوبات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

لا سيما إِن كانت زلة ولم يكن صاحب شرور معروفة ، وأَما إِن قتل فلا بد من قتله ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، والحسن ، وأَبو مجلز ، وقتادة ، وغيرهم من العلماءِ: بل لكل رتبة من الحرابة رتبة من العقاب ، فمن أَخاف الطريق فقط فعقوبته النفي ، ومن أَخذ المال ولم يقتُل فعقوبته القطع من خلاف ، ومن قَتل دون أَن أَخذ مال فعقوبته القتل ، ومن جمع الكل قُتل وصُلب ، وحجة هذا القول أَن الحرابة لا تُخرج عن الإِيمان ، ودم المؤمن حرام إِلا بإِحدى ثلاث: ارتداد أَو زنى بعد إِحصان ، أَو قتل نفس ، فالمحارب إِذا لم يقتل فلا سبيل إِلى قتله ، وقد روي عن ابن عباس ، والحسن أَيضاً ، وسعيد بن المسيب ، وغيرهم مثلُ قول مالك: إِن الإِمام مخير ، ومن حجة هذا القول أَنَّ ما كان في القرآن [أَو ـ أَو] فإِنه للتخيير ، كقوله تعالىٰ: ﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ

(١) النائرة: العداوة إذا هاجت وتحركت ، مشتقة من النار ـ والجمع نوائر ـ ، والدخل ـ بسكون الخاء وبفتحها ـ: الفساد والريبة والخديعة ـ قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ .

﴿أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾(١) ، وكآية كفارة اليمين ، وآية جزاء الصيد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ورجح الطبري القول الآخر ، وهو أحوط للمفتي ولِدَم المحارب ، وقولُ مالِك أَسَدُّ للذريعة ، وأَحفظ للناس والطرق ، والمخيفُ في حكم القاتل ، ومع ذلك فمالك يرى فيه الأَخذ بأَيسر العقوبات استحساناً ، وذكر الطبري عن أَنس بن مالك أنه قال: سأَل رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام عن الحكم في المحارب فقال: من أَخاف السبيل وأَخذ المال فاقطع يده للأَخذ ، ورِجْلَهُ للإخافة ، ومن قتل فاقتله ، ومن جمع ذلك فاصلبه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويقي النفي للمخيف فقط .

وقوله تعالىٰ: ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾ تغليظ جعل ارتكاب نهيه محاربة ، وقيل : التقدير : يحاربون عباد الله ، ففي الكلام حذف مضاف .

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ تبيين للحرابة ، أَي: ويسعون بحرابتهم ، ويحتمل أَن يكون المعنى: ويسعون فساداً منضافاً إلى الحرابة ، والرابط إلى هذه الحدود إنما هو الحرابة .

وقرأَ الجمهور: ﴿يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ﴾ بالتثقيل في هذه الأَفعال للمبالغة والتكثير ، والتكثير هنا إنما هو من جهة عدد الذي يوقع بهم ، كالتذبيح في بني إسرائيل في قراءَة مَنْ ثَقَّل: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾(٢) ، وقرأَ الحسن ، ومجاهد ، وابن محيصن: [يُقْتَلوا ـ يُصْلَبوا ـ تُقْطَع] بالتخفيف في الأَفعال الثلاثة .

وأَمّا قتل المحارب فبالسيف ضربة العنق ، وأَما صلبه فجمهور من العلماءِ على أنه يصلب حياً ويقتل بالطعن على الخشبة ، وروي هذا عن مالك ، وهو الأَظهر من الآية ، وهو الأَنكى في النكال ، وأَما القطع: فاليد اليمنى من الرسغ ، والرجل الشمال

---

(١) البقرة: ١٩٦ .

(٢) من قوله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ الآية (٤٩).

من المفصل. وروي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَنه كان يقطع اليد من الأَصابع، ويُبقي الكف، والرِّجل من نصف القدم، ويُبقي العقب.

واختلف العلماءُ في النفي ـ فقال السدي: هو أَن يطلب أَبداً بالخيل والرجل حتى يؤخذ فيقام عليه حدُّ الله، أَو يخرج من دار الإِسلام، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: نفيُه أَن يطلب. وقاله أَنس بن مالك، وروي ذلك عن الليث ومالك بن أَنس، غير أَن مالكاً قال: لا يضطر مسلم إِلى دخول دار الشرك. وقال سعيد بن جبير: النفي من دار الإِسلام إِلى دار الشرك، وقالت طائفة من العلماءِ منهم عمر بن عبد العزيز: النفي في المحاربين أَن ينفوا من بلد إِلى غيره مما هو قاص بعيد، وقال الشافعي بنفيه من عَمَله، وقال أَبو الزناد: كان النفي قديماً إِلى دَهْلَك وبَاضِع، وهما من أَقصى اليَمَن. وقال أَبو حنيفة، وأَصحابه، وجماعة: النفي في المحاربين السجن، فذلك إِخراجهم من الأَرض.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والظاهر أَن الأَرض في هذه الآية هي أَرض النازلة، وقد جُنِّب الناسُ قديماً الأَرض التي أَصابوا فيها الذنوب، ومنه حديث الذي ناءَ بصدره نحو الأَرض المقدسة[1]، وينبغي للإِمام إِن كان هذا المحارب المنفي مخوف الجانب يُظن أَنه يعود إِلى حرافة وإِفساد أَن يسجنه في البلد الذي يغرب إِليه، وإِن كان غير مخوف الجانب ترك مسرحاً، وهذا هو صريح مذهب مالك: أَن يغرب ويسجن حيث يغرب، وهذا هو الأغلب في أَنه مخوف، ورجحه الطبري، وهو الواضح لأَن نفيه من أَرض النازلة أَو الإِسلام هو نص الآية، وسَجْنه بعْدُ بحسب الخوف منه، فإِذا تاب وفهم حاله سرح.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ﴾ إِشارة إِلى هذه الحدود التي توقع بهم. وغلظ الله الوعيد في ذنب الحرابة بأَن أَخبر أَن لهم في الآخرة عذاباً عظيماً مع العقوبة في الدنيا، وهذا خارج عن المعاصي الذي في حديث عبادة بن الصامت في قول النبي ﷺ: «فمن أَصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفَّارة له».

---

(١) قال في النهاية: «في حديث الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً (فناء بصدره) أي: نهض، ويَحْتَمل أنه بمعنى نأَى، أي: بَعُد، يقال: ناءَ ونأَى بمعنى». (٥ ـ ١٢٣).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يكون الخزي لمن عُوقب، وعذاب الآخرة لمن سلم في الدنيا، ويجري هذا الذنب مجرى غيره، وهذا الوعيد مشروط الإنفاذ بالمشيئة[1]، أَما إن الخوف يغلب عليهم بحسب الوعد وعظم الذنب، والخزي في هذه الآية: الفضيحة والذل والمقت.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ استثنى عز وجل التائب قبل أَن يُقدر عليه، وأَخبر سقوط حقوق الله عنه بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾. واختلف الناس في معنى الآية ـ فقال قتادة، والزهري في كتاب «الأَشراف»: ذلك لأَهل الشرك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

من حيث رأَيا الوعيد بعد العقاب، وهذا ضعيف، والعلماءُ على أَن الآية في المؤمنين، وأَن المحارب إذا تاب قبل القدرة عليه فقد سقط عنه حكم الحرابة، ولا نظر للإمام فيه إلا كما ينظر في سائر المسلمين، فإن طلبه أَحدٌ بدمٍ نظر فيه وأَقاد منه إذا كان الطالب وليّاً، وكذلك يتبع بما وجد عنده من مال الغير وبقيمة ما استهلك من الأَموال، هذا قول مالك، والشافعي، وأَصحاب الرأْي. ذكره ابن المنذر. وقال قومٌ من الصحابة والتابعين: إنه لا يطلب من المال إلا بما وجد عنده بعينه، وأَما ما استهلك فلا يطلب به. وذكر الطبري ذلك عن مالك من رواية الوليد بن مسلم عنه، وهو الظاهر من فعل علي بن أَبي طالب رضي الله عنه بحارثة بن بدر الغداني، فإنه كان محارباً ثم تاب قبل القدرة عليه، فكتب له بسقوط الأَموال والدم كتاباً منشوراً، وحكى الطبري عن عروة بن الزبير أَنه لا تقبل توبة محارب، ولو قبلت لاجترؤوا وكان فساد كثير، ولكن لو فرَّ إِلى العدوّ ثم جاءَ تائباً لم أَر عليه عقوبة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لا أَدري، هل أَراد ارتد أَم لا. وقال الأَوزاعي نحوه إلا أَنه قال: إذا لحق بدار الحرب فارتد عن الإِسلام أَو بقي عليه ثم جاءَ تائباً من قبل أَن يقدر عليه، قبلت توبته.

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والصحيح من هذا كله مذهبُ الفقهاءِ الذي قرّرْته آنفاً، أن حكم الحرابة يسقط، ويبقى كسائر المسلمين، واختلف إذا كان المال أقل مما يقطع فيه السارق ـ فقال مالك: ذلك كالكثير، وقال الشافعي وأصحاب الرأي: لا يقطع من المحاربين إلا مَنْ أخذ ما يقطع فيه السارق.

قوله عز وجل:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾.

هذه الآية وعظٌ من الله تعالىٰ بعقب ذكر العقوبات النازلة بالمحاربين، وهذا من أَبلغ الوعظ، لأنه يَرِدُ على النفوس وهي خائفة وجلة، وعادة البشر إذا رأى وسمع أَمْرَ مُمْتَحِنٍ ببشيع المكاره ـ أَنْ يرقَّ ويخشع، فجاءَ الوعظ في هذه الحال.

﴿وَٱبْتَغُوٓا۟﴾ معناه: اطلبوا، و﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ القربة وسبب النُّجح في المراد، ومن ذلك قول عنترة لامرأته:

إِنَّ الـرِّجَـالَ لَهُـمْ إِلَيْـكِ وَسيلـة ... أَنْ يَـأْخـذوكِ تَكَحَّلـي وَتَخضَّبـي

وأَما الوسيلة المطلوبة لمحمد ﷺ فهي أَيضاً من هذا، لأَن الدعاءَ له بالوسيلة والفضيلة إِنما هو أَن يؤْتاهما في الدنيا، ويتصف بهما، ويكون ثمرة ذلك في الآخرة التشفيع في المقام المحمود، ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

إِذَا غَفَلَ الواشونَ عُدنا لِوَصْلِنا ... وعـادَ التَّصـافـي بَيْنَنَـا والـوسـائـلُ

أنشده الطبري.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ خصَّ الجهاد بالذكر لوجهين: أَحدهما نباهته في أَعمال البرِّ، وأَنه قاعدة الإِسلام، وقد دخل بالمعنى في قوله: ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾، ولكن خصَّه تشريفاً. والوجه الآخر أَنها العبادة التي تصلح لكل منهي عن

المحاربة، وهو مُعَدٌّ لها من حاله وسِنه وقوته وشِرَّة نفسه، فليس بينه وبين أن ينقلب إلى الجهاد إلا توفيق الله تعالىٰ.

واللام في قوله: ﴿لِيَفْتَدُوا﴾ لام (كي).

وقرأ جمهور الناس: ﴿تُقُبِّلَ﴾ بضم التاءِ والقاف على ما لم يسم فاعله، وقرأ يزيد بن قطيب: [تَقَبَّل] بفتحها على معنى: ما تَقَبَّل الله.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ﴾ إخبار عن أنهم يتمنون هذا في قلوبهم، وفي غير ما آية أنهم ينطقون عن هذه الإرادة. وقال الحسن بن أبي الحسن: إذا فارقت بهم النار قربوا من حاشيتها فحينئذ يريدون الخروج، ويطمعون به، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد تأول قوم هذه الإرادة أنها بمعنى (يَكَادُونَ) على هذا القصص الذي حكى الحسن، وهذا لا ينبغي أن يُتأول إلا فيما لا تتأتى معه الإرادة الحقيقية، كقوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾[1]، وأما في إرادة بني آدم فَلاَ، إلاَّ على تجوز كثير.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَخْرُجُوا﴾ بفتح الياء وضم الراءِ، وقرأ يحيى بن وثاب، وإبراهيم النَّخَعي: [يُخرجوا] بضم الياء وفتح الراء.

وأخبر تعالىٰ عن هؤلاءِ الكفار أنهم ليسوا بخارجين من النار، بل عذابهم فيها مقيم مُتأبد، وحكى الطبري عن نافع بن الأزرق الخارجي أنه قال لابن عباس: يا أعمى البصر، أعمى القلب، تزعم أن قوماً يخرجون من النار وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾؟ فقال له ابن عباس: ويحك، اقرأ ما فوقها، هذه الآية في الكفار.

قوله عز وجل:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨)﴾.

قرأ جمهور القراءِ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ بالرفع. وقرأ عيسى بن عمر، وإبراهيم بن أبي عبلة: [والسَّارقَ والسَّارقةَ] بالنصب. قال سيبويه رحمه الله: الوجه في

(١) من قوله تعالىٰ في سورة الكهف: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ الآية (٧٧).

كلام العرب النصب ، كما تقول: زيداً اضربه ، ولكن أَبت العامَّةُ إِلا الرفع ـ يعني عامةَ القراءِ وجُلَّهم ـ قال سيبويه: الرفع في هذا وفي قوله: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى ﴾[1] ، وفي قول الله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ ﴾[2] هو على معنى: فيما فُرِض عليكم.

والفاءُ في قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱقْطَعُوٓاْ ﴾ ردَّت المستقبل غير مستقبل ، لأَن قوله: «فيما فرض عليكم السارق» جملة حقها وظاهرها الاستقلال ، لكن المعنى المقصود ليس إِلا في قوله: ﴿ فَٱقْطَعُوٓاْ ﴾ فهذه الفاءُ هي التي ربطت الكلام الثاني بالأَول ، وأَظهرت الأَول هنا غير مستقل ، وقال أَبو العباس المبرد ، وهو قول جماعة من البصريين: أَختار أَن يكون ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ ﴾ رفعاً بالابتداءِ ، لأَن القصد ليس إِلى واحد بعينه ، فليس هو مثل قولك: «زيداً فاضربه» ، إِنما هو كقولك: «من سرق فاقطع يده» ، قال الزجاج: هو المختار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

أَنزل سيبويه النوع السارق منزلة الشخص المعيّن ، وقرأَ عبد الله بن مسعود ، وإِبراهيم النَّخَعي: [والسَّارِقونَ والسَّارِقاتُ فاقْطَعُوا أَيْمَانَهُم] ، وقال الخفاف ، وجدت في مصحف أُبي بن كعب: «والسُّرَّق والسُّرَّقة» هكذا ضبطاً ، بضم السين المشددة وفتح الراءِ المشددة فيهما ، هكذا ضبطهما أَبو عمرو.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويشبه أَن يكون هذا تصحيفاً من الضابط ، لأَن قراءَة الجماعة إِذا كتب [السَّارق] بغير أَلف وافقت في الخط هذه.

وأَخذْ ملك الغير يتنوع بحسب قرائنه ، فمنه الغَصب ، وقرينته عِلْم المغصوب منه وقت الغصْب ، أَو عِلْم مُشاهد غيره. ومنه: الخيانة ، وقرينتها أَن الخائن قد طرق إِلى المال بتصرف مَّا ، ومنه: السَّرقة ، وقرائِنُهَا أَنْ يؤخذ مال لم يطرق إِليه على غير عِلْم من المسروق ماله ، وفي خفاءٍ من جميع الناس فيما يرى السارق ، وهذا هو الذي

(١) من قوله تعالىٰ في سورة النور: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ الآية (٢).

(٢) من قوله تعالىٰ في سورة النساء: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ الآية (١٦).

يجب عليه القطع وحده من بين أخذة الأموال لخبث هذا المنزع، وقلّة العذر فيه. وحاط الله تعالىٰ البشر على لسان نبيه بأَن القطع لا يكون إلا بقرائن: منها الإخراج من حرز، ومنها القدر المسروق على اختلاف أهل العلم فيه، ومنها أَن يعلم السارق بتحريم السرقة، وأَن تكون السرقة فيما يَحِلُّ مِلكه، فلفظ ﴿وَٱلسَّارِقُ﴾ في الآية عموم معناه الخصوص.

فأَما القدْر المسروق ـ فقالت طائفة: لا قطع إلا في ربع دينار فصاعداً، قال به عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي، وعائشة، عمر بن عبد العزيز، والأوزاعي، والليث، والشافعي، وأَبو ثور، رضي الله عنهم وفيه حديث عن النبي ﷺ أَنه قال: «القطع في ربع دينار فصاعداً»[1]. وقال مالك رحمه الله: تقطع اليد في ربع دينار أَو ثلاثة دراهم، فإن سرق درهمين ـ وهي ربع دينار ـ لانحطاط الصرف لم يقطع، وكذلك العروض لا يقطع فيها إلا أَن تبلغ ثلاثة دراهم قلَّ الصرف أَو كثُر، وقال إسحاق بن راهويه، وأَحمد بن حنبل: إن كانت قيمة السلعة ربع دينار أَو ثلاثة دراهم قطع فيهما قلَّ الصرف أَو كثُر، وفي القطع قول رابع وهو أَن لا قطع إلا في خمسة دراهم أَو قيمتها، روي هذا عن عمر، وبه قال سليمان بن يسار، وابن أَبي ليلى، وابن شبرمة. ومنه قول أَنس بن مالك: «قَطَع أَبو بكر في مجن قيمته خمسة دراهم».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا حجة في هذا على أَن الخمسة حدٌّ.

وقال أَبو حنيفة وأَصحابه، وعطاء: لا قطع في أَقل من عشرة دراهم، وقال أَبو هريرة، وأَبو سعيد الخدري: لا تقطع اليد في أَقل من أَربعة دراهم، وقال عثمان البتي: تقطع اليد في درهم فما فوقه[2]، وحكى الطبري أَن عبد الله بن الزبير قطع في درهم، وروي عن الحسن بن أَبي الحسن أنه قال: تقطع اليد في كل ماله قيمة قلَّ أو

(١) أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً».

(٢) في بعض النسخ: «في درهمين فما فوقهما»، والصواب ما في النسخة التي اعتمدنا ما فيها لموافقته لما في القرطبي والبحر.

كثُر على ظاهر الآية ، وقد حكى الطبري نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وهوقول أَهل الظاهر ، وقول الخوارج ، وروي عن الحسن أَيضاً أَنه قال: تذاكرنا القطع في كم يكون على عهد زياد فاتفق رأْينا على درهمين ، وأَكثر العلماءِ على أَن التوبة لا تُسقط عن السارق القطع ، وروي عن الشافعي أَنه إِذا تاب قبل أَن يقدر عليه وتمتد إِليه يد الأَحكام فإِن القطع يسقط عنه قياساً على المحارب ، وجمهور الناس على أَن القطع لا يكون إِلا على من أَخرج من حرز. وقال الحسن بن أَبي الحسن: إِذا جمع الثياب في البيت قطع وإِن لم يخرجها.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ جمع الأَيدي من حيث كان لكل سارق يمين واحدة وهي المعروضة للقطع في السرقة أَولا ، فجاءَت للسراق أَيد وللسارقات أَيد ، فكأَنه قال: اقطعوا أَيمان النوعين ، فالتثنية في الضمير إِنما هي للنوعين. قال الزجاج عن بعض النحويين: إِنما جعلت تثنية ما في الإِنسان منه واحد جمعاً كقوله: ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[1] لأَن أَكثر أَعضائه فيه منه اثنان. فَحُمِل ما كان فيه الواحد على مثال ذلك ، قال أَبو إِسحاق: وحقيقة هذا الباب أَن ما كان في الشيءِ منه واحد لم يُثَنَّ ولُفظ به على لفظ الجمع لأَن الإِضافة تبينه ، فإِذا قلت: أَشبعت بطونهما ـ علم أَن للاثنين بطنين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَنهم كرهوا تثنيتين في كلمة.

واختلف العلماءُ في ترتيب القطع ، فمذهب مالك رحمه الله ، وجمهور الناس أَن تقطع اليمنى من يدي السارق ، ثم ـ إِنْ عاد ـ قطعت رجله اليسرى ، ثم ـ إِنْ عاد ـ قطعت يده اليسرى ، ثم ـ إِن عاد ـ قطعت رجله اليمنى ، ثم إِن سرق عزِّر وحبس. وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، والزهري ، وحماد بن أَبي سليمان ، وأَحمد بن حنبل: تقطع يده اليمنى ، ثم ـ إِن سرق ـ قطعت رجله اليسرى ، ثم ـ إِن سرق ـ عزِّر وحبس. وروي عن عطاء بن أَبي رباح: لا تقطع في السرقة إِلا اليد اليمنى فقط ، ثم ـ إِن سرق ـ عُزِّر وحبس.

---

(١) من قوله تعالىٰ في سورة التحريم: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ الآية (٤).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تمسك بظاهر الآية ، والقول شاذٌّ ، فيلزم ـ على ظاهر الآية ـ أَن تقطع اليد ثم اليد. ومذهب جمهور الفقهاءِ أَن القطع في اليد من الرسغ ، وفي الرجل من المفصل ، وروي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَن القطع في اليد من الأَصابع ، وفي الرجل من نصف القدم.

وقوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ نصبه على المصدر ، وقال الزجاج: مفعول لأَجله ، وكذلك: ﴿نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾. والنَّكال: العذاب ، والنِّكْلُ: القيد. وسائر معنى الآية بيِّن ، وفيه عن بعض الأَعراب حكاية.

قوله عز وجل:

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٠ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾.

المعنى عند جمهور أَهل العلم أَن من تاب من السرقة فندم على ما مضى ، وأَقلع في المستأْنف ، وأَصلَح ـ بِرَدِّ الظُّلامة إن أَمكنه ذلك ، وإلا فبإِنفاقها في سبيل الله ـ وأَصْلح أَيضاً في سائر أَعماله ، وارتفع إِلى فوق ، فإِن الله يتوب عليه ، ويذهب عنه حكم السرقة فيما بينه وبين الله تعالىٰ ، وهو في المشيئة مرجُوٌّ له الوعد ، وليس تسقط عنه التوبة حكم الدنيا من القطع إن اعترف أَو شُهد عليه. وقال مجاهد: التوبة والإِصلاح هي أَن يقام عليه الحدُّ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تشديد ، وقد جعل الله للخروج من الذنوب بابين ، أَحدهما الحدُّ ، والآخر التوبة ، وقال الشافعي: إِذا تاب السارق ، وقَبْل أَن يتلبس الحاكم بأَخذه فتوبته ترفع عنه حكم القطع قياساً على توبة المحارب.

وقوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ الآية توقيف وتنبيه على العلَّةِ الموجبة لإِنفاذ هذه الأَوامر في

المحاربين والسرقة ، والإِخبارِ بهذا التعذيب لقوم والتوبة على آخرين ، وهي[1] مِلكُه تعالىٰ لجميع الأَشياءِ ، فهو بحق الملك ، لا معقب لحكمه ، ولا معترض عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ الآية تسلية للنبي ﷺ ، وتقوية لنفسه بسبب ما كان يلقى من طوائف المنافقين وبني إسرائيل ، والمعنى: قد وعدناك النصر والظهور عليهم ، فلا يحزنك ما يقع منهم خلال بقائهم.

وقرأَ بعض القراءِ: ﴿ يَحْزُنكَ ﴾ بفتح الياءِ وضم الزاي ، تقول العرب: «حزِن الرجل» بكسر الزاي ، و«حزَنْتُه» بفتحها. وقرأَ بعض القراءِ: [يُحْزِنك] بضم الياءِ وكسر الزاي ، لأَن من العرب من يقول: «أَحزنت الرجل» بمعنى: حَزَنْتُه ، وجعلته ذا حُزْن. وقرأَ الناس: ﴿ يُسَـٰرِعُونَ ﴾ ، وقرأَ الحر النحوي: [يُسْرِعون] دون أَلف ، ومعنى المسارعة في الكفر: البدار إِلى نصره وإِقامة حججه ، والسعي في إِطفاءِ الإِسلام به.

واختلف المفسرون في ترتيب معنى الآية ، وفيمن المراد بقوله: ﴿ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ ، وفي سبب نزول الآية ـ فأَما سببها فرُوي عن أَبي هريرة رضي الله عنه ، وابن عباس رضي الله عنهما ، وجماعة أَنهم قالوا: نزلت هذه الآية بسبب الرجم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك أَن يهودياً زنى بيهودية ، وكان في التوراة رجم الزناة ، وكان بنو إِسرائيل قد غيروا ذلك ، وردُّوه جَلْداً وتحميم[2] وجوه ، لأَنهم لم يقيموا الرجم على أَشرافهم ، وأَقاموه على صغارهم في القذْر ، فاستقبحوا ذلك ، وأَحدثوا حكماً سووا فيه بين الشريف والمشروف ، فلما هاجر رسول الله ﷺ إِلى المدينة زنى رجل من اليهود بامرأَة ، فروي أَن ذلك كان بالمدينة ، وروي أَنه كان في غير المدينة في يهود الحجاز ، وبعثوا إِلى يهود المدينة ، وإِلى حلفائهم من المنافقين أَن يسأَلوا رسول الله ﷺ: عن النازلة ، وطمعوا بذلك أَن يوافقهم على الجلد والتحميم فيشتد أَمرهم بذلك ، فلما سئل رسول الله ﷺ: عن ذلك نهض في جملة من أَصحابه إِلى بيت

---

(١) تحتاج العبارة إِلى دقة ونظر عند القراءة ، فقوله: (والإخبار) عطف على قوله قبلها: (العِلّةِ) ، والضمير «وهي» يعود على (العلّة).

(٢) التحميم: هو طلاء الوجه بالفحم أو بالقار ، يقال: حممه تحميماً.

المِدْراس[١] ، فجمع الأَحبار هنالك ، وسأَلهم عما في التوراة ، فقالوا: إنا لا نجد فيها الرجم ، فقال رسول الله ﷺ: إن فيها الرجم ، فانشروها ، فنشرت ، ووضع أَحدهم يده على آية الرجم ، فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك ، فرفع يده فإذا آية الرجم ، فحكم رسول الله ﷺ فيها بالرجم وأَنفذه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا الحديث اختلاف أَلفاظ وروايات كثيرة[٢] ، منها أَنه روي أَن رسول الله ﷺ مرَّ على يهودي ويهودية زنيا وقد جُلدا وحُمِّما ، فقال: هكذا شرعكم يا معشر يهود؟ فقالوا: نعم ، فقال: لا ، ثم مشى إلى بيت المِدْراس وفضحهم ، وحكم في ذيْنِك بالرجم ، وقال: لأَكونن أَول من أَحيا حكم التوراة حين أَماتوه. وروي أَن الزانِيَيْن لم يكونا بالمدنية ، وأَن يهود فَدَك هم الذين قالوا ليهود المدينة: استفتوا محمداً ، فإن أَفتاكم بما نحن عليه من الجلد والتَّجْبِية[٣] فخذوه ، وإن أَفتاكم بالرجم فاحذروا الرجم[٤] ، قاله الشعبي وغيره. وقال قتادة بن دعامة وغيره سبب الآية، وذكر اليهود أَن بني النضير كانوا قد غزوا بني قريظة ، فكان النضري إذا قتله قرظي قتل به ، وإذا قتل نضري قرظياً أَعطى الدية. وقيل: كانت دية القرظي على نصف دية النضري ، فلما جاءَ النبي ﷺ المدينة طلبت قريظة الاستواءَ ، إذ هم أَبناءُ عم يرجعان إلى جدٍّ ، وطلبت الحكومة إلى رسول الله ﷺ ، فقالت النضير بعضها لبعض: إن حكم بما كنا عليه فخذوه وإلا فاحذروا[٥].

---

(١) المِدْراس: هو البيت الذي يدرسون فيه ، وفي (اللسان) أن مِفْعال غريب في المكان ، ومِدْراس أيضاً: صاحب دراسة كتبهم.

(٢) قال القرطبي عن القول بأن الآية نزلت في زنى اليهوديين وقصة الرجم: «وهذا أصح الأقوال» ، وذكر أن هذا الحديث رواه الأئمة: مالك ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وأبو داود. ولكن هناك اختلافاً في الألفاظ لاختلاف الروايات كما قال ابن عطية.

(٣) قال في اللسان: «وفي حديث حد الزنى ، أنه سأل اليهود عنه فقالوا: عليه التَّجبية. قال: ما التَّجْبية؟ قالوا: أن تُحمم وجوه الزانيين ويُحملا على بعير أو حمار ويخالف بين وجوههما». أي: يجعل قفا أحدهما إلى قفا الآخر.

(٤) أخرجه الحميدي في مسنده ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن مردويه ـ عن جابر بن عبد الله. (الدر المنثور).

(٥) أخرجه عبد بن حميد ، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾. (الدر المنثور).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه النوازل كلها وقعت، ووقع غيرها مما يضارعها ويحسن أَن يكون سبباً لفضيحة اليهود في تحريفهم الكلم وتحرشهم بالدين، والروايات في هذا كثيرة ومختلفة.

وقد وقع في بعض الطرق في حديث أَبي هريرة أَنه قال في قصة الرجم: «فقام رسول الله ﷺ إِلى بيت مِدْراسهم وقمنا معه»، وهذا يقتضي أَن الأَمر كان في آخر مدة النبي ﷺ، لأَن أَبا هريرة أَسلم عام خيبر في آخر سنة ستٍّ من الهجرة، وقد كانت النضير أُجْليت وقريظ وقريش قتلت، واليهود بالمدينة لا شيءَ، فكيف كان لهم بيت مِدْراس في ذلك الوقت؟ أو إِن كان لهم بيت على حال ذلَّةٍ فهل كان النبي ﷺ يحتاج ـ مع ظهور دينه ـ إِلى محاجتهم تلك المحاجة؟ وظاهر حديث بيت المدراس أَنه كان في صدر الهجرة، اللهم إِلا أَن يكون ذلك من النبي ﷺ مع عزَّةِ كلمته مِنْ حيث أَراد أَن يخرج حكمهم منْ أَيدي أَحبارهم بالحجة عليهم من كتابهم، فلذلك مشى إِلى بيت مِدْراسهم مع قدرته عليهم، وهذا عندي يبعد، لأَنهم لم يكونوا ذلك الوقت يَحْزُنونه، ولا كان لهم حال يُسَلِّي عنها ﷺ.

وأَما اختلاف الناس فيمن المراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ ـ فقال السدي: نزلت في رجل من الأَنصار زعموا أَنه أَبو لبابة بن عبد المنذر أَشارت إِليه قريظة يوم حصرهم: ما الأَمر؟ وعلام نَنْزِلُ من الحكم؟ فأَشارَ إِلى حلقه بمعنى أَنه الذبح[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وأَبو لبابة من فضلاءِ الصحابة، وهو وإِن كان أَشار بتلك الإِشارة فإِنَّه قال: «فوالله ما زالت قدماي حتى علمت أَني خُنت الله ورسوله»، ثم جاءَ إِلى مسجد النبي ﷺ، فربط نفسه بسارية من سواري المسجد، وأَقسم أَلا يبرح كذلك حتى يتوب الله عليه، ويرضى رسول الله ﷺ عنه، فإِنما كانت تلك الإِشارة منه زلة حمله

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ ـ عن السدي في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ (الدر المنثور).

عليها إشفاقٌ مّا على قوم كانت بينه وبينهم مودة ومشاركة قديمة ، رضي الله عنه وعن جميع الصحابة.

وقال الشعبي وغيره: نزلت الآية في قوم من اليهود أرادوا سؤال النبي ﷺ في أمر رجل منهم قتل آخر ، فكلفوا السؤال رجلاً من المسلمين وقالوا: إن أفتى بالدية قبلنا قوله ، وإن أفتى بالقتل لم نقبل[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا نحو ما تقدم عن قتادة في أمر قتل النضير وقريظة.

وقال عبد الله بن كثير ، ومجاهد ، وغيرهما: قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ يراد به المنافقون ، وقوله بعد ذلك: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ يراد به اليهود.

وأما ترتيب معنى الآية بحسب هذه الأقوال:

فيحتمل أن يكون المعنى: يا أيها الرسول لا يحزنك المسارعون في الكفر من المنافقين واليهود ، ويكون قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ خبر ابتداءٍ مضمر.

ويحتمل أن يكون المعنى: لا يحزنك المسارعون في الكفر من اليهود ، ووصفهم بأنهم ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ إلزاماً منه لهم من حيثُ حرفوا توراتهم وبدلوا أحكامها. فهم يقولون بأفواهم: نحن مؤمنون بالتوراة وبموسى ، وقلوبهم غير مؤمنة ، من حيث بَدَّلوها ، وجحدوا ما فيها من نبوة محمد ﷺ وغير ذلك مما هو كفر منهم. ويؤيد هذا التأويل قوله بعد هذا: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، ويجيءُ ـ على هذا التأويل ـ قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ كأنه قال: «ومنهم» ، لكن صرَّح بذكر اليهود من حيث الطائفةُ السَّماعة غيرُ الطائفة التي تبدل التوراة على علم منها.

وقرأ جمهور الناس: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ ، وقرأ النحاس: [سَمَّاعين] ، ووجهها عندي نصب على الذم على ترتيب من يقول: لا يحزنك المسارعون من هؤلاءِ سماعين ، وأما المعنى في قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ فيحتمل أن يكون صفة للمنافقين ولبني إسرائيل ، لأن جميعهم يسمع الكذب بعضهم من بعض ويقبلونه ،

---

(١) أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ـ عن عامر الشعبي. (الدر المنثور).

ولذلك جاءَت عبارة سماعهم في صيغة المبالغة ، إذ المراد أنهم يقبلون ويستزيدون من ذلك المسموع ، وقوله تعالىٰ: ﴿لِلْكَذِبِ﴾ يحتمل أَن يريد: سماعون للكذب ، ويحتمل أَن يريد: سماعون منك أَقوالك من أَجل أَن يكونوا عليك ، وينقلوا حديثك ، ويزيدوا مع الكلمة أَضعافها كذباً. وقرأ الحسن ، وعيسى بن عمر: [لِلْكِذْب] بكسر الكاف وسكون الذال.

وقوله تعالىٰ: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ يحتمل أَن يريد: يسمعون منهم ، وذكر الطبري عن جابر أَن المراد بالقوم الآخرين يهود فدك ، وقيل: يهود خيبر ، وقيل: أَهل الزانِيَيْن ، وقيل: أَهل الخصام في القتل والدية. وهؤلاءِ القوم الآخرون هم الموصوفون بأَنهم لم يأْتوا النبي ﷺ ، ويحتمل أَن يكون بمعنى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ﴾ بمعنى جواسيس مُسْتَرِقين لكلام لينقلوه لقوم آخرين ، وهذا مما يمكن أَن يتصف به المنافقون ويهود المدينة. وقيل لسفيان بن عُيَيْنَة: هل جرى للجاسوس ذكر في كتاب الله عز وجل؟ فقال: نعم ، وتلا هذه الآية: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾.

قوله عز وجل:

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ﴾.

قرأ جمهور الناس: ﴿ٱلْكَلِمَ﴾ بفتح الكاف وكسر اللام ، وقرأ بعض الناس: [الكِلْم] بكسر الكاف وسكون اللام ، وهي لغة ضعيفة في (كَلِمة).

وقوله تعالىٰ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ صفة لليهود فيما حرفوا من التوراة ، إذ ذاك أَخطر أَمر حرفوا فيه ، ويحتمل أَن يكون صفة لهم وللمنافقين فيما يحرفون من الأَقوال عند كذبهم ، لأَن مبادئ كذبهم لا بُدَّ أَن تكون من أَشياءَ قيلت أَو فعلت ، وهذا هو الكذب المُزَيَّن الذي يَقْرُب قبوله. وأَما الكذب الذي لا يُرْفَد[1] بمبدإٍ فقليل الأَثر في النفوس.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أَي: من بعد أَن وضع مواضعه وقصدت به وجوهه

(١) يقال: رَفَدَه رِفْداً ورفادةً: دعمه برفادةٍ ، وهي: الدعامة. والمراد: تقويته بمبدأ.

القويمة، والإشارة بهذا ـ قيل: هي إلى التحميم والجَلْد في الزنى. وقيل: هي إلى قبول الدِّية في أمر القتل، وقيل: إلى إبقاءِ عِزَّة النضير على قريظة، وهذا بحسب الخلاف المتقدم في الآية.

ثم قال تعالىٰ لنبيِّه على جهة قطع الرجاءِ فيهم: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، أي: لا تُتْبع نفسك أمرهم، والفتنة هنا: المحنة بالكفر والتعذيب في الآخرة، ثم أخبر تعالىٰ عنهم أنهم الذين سبق لهم في علم الله ألا يطهر قلوبهم، وأن يكونوا مُدَنَّسين بالكفر، ثم قرر تعالىٰ لهم الخزي في الدنيا، والمعنى: بالذلة والمسكنة التي انضربت عليهم في أقطار الأرض، وفي كل أُمة، وقرر لهم العذاب في الآخرة بكفرهم.

وقوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾، إن كان الأول في بني إسرائيل فهذا تكرار تأكيد ومبالغة، وإن كان الأول في المنافقين فهذا خبر أيضاً عن بني إسرائيل.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ فعَّالون بناءُ مبالغة، أي: يتكرر أكلهم له ويكثر. والسُّحْتُ: كل ما لا يحلُّ كسبه من المال. وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة: ﴿ٱلسُّحْتَ﴾ ساكنة الحاءِ خفيفة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: [السُّحُت] مضمومة الحاءِ مثقلة، وروي عن خارجة بن مصعب عن نافع: [السِّحْت] بكسر السين وسكون الحاءِ، واللفظة مأخوذة من قولهم: سَحَت وأَسْحَت: إذا استأصل وأذهب، فمن الثلاثي قوله تعالىٰ: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾[1]. ومن الرباعي قول الفرزدق:

. . . . إلاَّ مُسْحَتاً أَوْ مُجَلَّفُ[2]

والسُّحْت والسُّحُت ـ بضم السين وتخفيف الحاءِ وتثقيلها ـ: لغتان في اسم الشيءِ

---

(١) من قوله تعالىٰ في سورة طه: ﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ الآية (٦١).

(٢) البيت كاملاً:

وعَضُّ زمانٍ يا بْنَ مَرْوانَ لَمْ يَدَعْ مِنَ المالِ إلا مُسْحَتاً أوْ مُجَلَّفُ

قال في (اللسان): أسحت رأسه: استأصله حلقاً، وأسحت ماله: استأصله وأفسده»، وروى البيت، ثم قال: ويروى: «إلا مسحتٌ أو مجلفٌ»، ومن رواه كذلك جعل معنى: «لم يدع»: لم يتَقارّ، ومن رواه: إلا مُسْحتاً» جعل: «لم يدع» بمعنى: لم يَتْرُكْ. ورفع قوله: «أوْ مُجَلَّفٌ» بإضمار، كأنه قال: أو هو مُجَلَّفٌ. قال الزهري: وهذا هو قول الكسائي.

المسحوت. والسَّحْت ـ بفتح السين وسكون الحاءِ ـ: المصدر، سُمِّي به المسحوت، كما سُمي المصيد صيداً في قوله عز وجل: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾[1]، وكما سمي المرهون رهناً ـ وهذا كثير.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فسمي المال الحرام سحتاً لأَنه يذهب وتستأْصله النوب، كما قال عليه السلام: «من جمع مالاً من مهاوش أَذهبه الله في نهابير»[2]، وقال مكي: سمي المال الحرام سحتاً لأَنه يذهب من حيث يسحت الطاعات، أَي: يذهب بها قليلا قليلا، وقال المهدوي: من حيث يسحت أَديانهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا مردود، لأَن السيئات لا تحبط الحسنات، اللهم إِلاَّ أَن يقدر أَنه يشغل عن الطاعات، فهو سحتها من حيث لا تعمل، وأَما طاعةٌ حاصلة فلا يقال هذا فيها، وقال المهدوي: سمي أَجر الحجَّام سحتاً لأَنه يسحت مُرُوَّة آخذه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا أَشبه.

قال الطبري: أَصل السحت كَلَبُ الجوع، يقال: فلان مسحوت المعدة إِذا كان لا يُلْفَى أَبداً إِلا جائعاً يذهب ما في معدته، فكان الذي يرتشي به من الشره مثل ما بالجائع أَبداً لا يشبع.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك بأَن الرشوة تنسحت، فالمعنى هو كما قدمناه، وفي عبارة الطبري بعض اضطراب، لأَن مسحوت المعدة هو مأْخوذ من الاستئصال والذهاب، وليس كَلَب

---

(١) المائدة: ٩٥.

(٢) في (اللسان) وفي (النهاية): نهاوش بالنون ـ هي المظالم من قولهم: نهشه إذا جهده فهو منهوش. وفي رواية: مَهَاوِش بالميم ـ وهو: كل مال أُصيب من غير حِلّه ولا يُدْرى ما وجهه. والهُواشُ بالضم: ما جمع من مال حرامٍ وحلالٍ، كأنه جمع مَهْوَش من الهَوْش: الجمع والخلط، والميم زائدة. والنهابر: المهالك والأُمور المتبددة، وواحد النهابر: نهبور (النهاية) أما الحديث فقد جاء عنه في تمييز الطيب من الخبيث: مرسل ضعيف وفيه متروك، وقال التقي السبكي: لا يصح.

الغرث أصلا للسحت ، والسحتُ الذي عني أن اليهود يأكلونه هو الرشا في الأحكام ، والأَوقاف التي تؤكل ويُرفد أَكْلُها بقول الأَباطيل وخدع العامة ونحو هذا.

وقال أَبو هريرة ، وعلي بن أَبي طالب رضي الله عنه: مَهْر البغي سُحت ، وعُسْبُ[1] الفحل سُحْت ، وكسْبُ الحَجَّام[2] سُحْت ، وثمن الكَلْب والخمر سحت. وقال ابن مسعود: السحت أَن يهدي لك من قد أَعنته في حاجته أَو حقه فَتَقْبَل ، قيل لعبد الله: ما كنا نَعُدُّ السحت إِلا الرشوة في الحكم ، قال: ذلك الكفر ، وقد روي عن ابن مسعود ، وجماعة كثيرة أَن السحت هو الرشوة في الحكم ، وروي عن النبي ﷺ أَنه قال: «كل لحم نبَتَ من سحت فالنار أَولى به» ، قيل: يا رسول الله ، ما السحت؟ قال: الرشوة في الحكم[3].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكل ما ذكر في معنى السحْت فهو أمثلة ، ومن أعظمها الرشوة في الحكم ، والأُجرة على قتل النفس ، وهو لفظ يعم كل كسب لا يحل.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ تخيير للنبي ﷺ ، ولحكام أُمته بعده في أَن يحكم بينهم إذا تراضوا في نوازلهم ، وقال عكرمة ، والحسن: هذا التخيير منسوخ بقوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾. وقال ابن عباس ، ومجاهد: نُسخ من (المائدة) آيتان ، قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ ، نسختها آية السيف ، وقوله: ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ، نسختها: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقال كثير من العلماءِ: هي محكمة ، وتخيير الحكام باق ، وهذا هو الأَظهر إِن شاءَ الله.

وفِقْه هذه الآية أَن الأُمة فيما علمتُ مجمعة على أَن حاكم المسلمين يحكم بين أَهل

---

(١) عُسَبُ الفحل ـ بضم العين وبفتحها ـ ماؤها ـ والمراد أن أخذ الأجر عليه حرام. (المعجم الوسيط).

(٢) الحجَّام: صاحب حرفة الحجامة ، وهي: امتصاص للدم من الجسم بالمحجم. وقد قال القرطبي: إن كسب الحجام حلال طيب.

وروى حديث أنس: احتجم رسول الله ﷺ ، حجمه أبو طيبة ، فأمر له بصاع من تمر.. إلخ.

(٣) أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن مردويه ـ عن ابن عمر. (الدر المنثور).

الذمة في التظالم ، ويتسلط عليهم في تغييره ، وينقِّر عن صورته كيفَ وقع فيغير ذلك ، ومن التظالم حبس السلع المبيعة ، وغصْب المال ، وغير ذلك. فأَما نوازل الأَحكام التي لا ظلم فيها من أَحدهم للآخر ، وإِنما هي دعاوي محتملة ، وطلب ما يحل وما لا يحل ، وطلب المخرج من الإِثم في الآخرة ، فهذه هي التي الحاكم فيها مُخَيَّر ، وإِذا رضي به الخصمان فلا بد مع ذلك من رضى الأَساقفة أَو الأَحبار ، قاله ابن القاسم في العتبية. قال: وأَما إِن رضي الأَساقفة دون الخصمين ، أَو الخصمان دون الأَساقفة ، فليس له أَن يحكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وانظر إِن رضي الأَساقفة لأَشكال النوازل عندهم دون أَن يرضى الخصمان ، فإِنها تحتمل الخلاف ، وانظر إِذا رضي الخصمان ولم يقع من الأَحبار نَكيرٌ فحَكَمَ الحاكم ، ثم أَراد الأَحبار ردَّ ذلك الحكم ، وهل تستوي النوازل في هذا ، كالرجم في زانيَيْن ، والقضاءِ في مال يصير من أَحدهما إِلى الآخر؟ وانظر إِذا رضي الخصمان هل على الحاكم أَن يستعلم ما عند الأَحبار ، أَو يقنع بأَن لم تقع منهم معارضة؟ ومالك رحمه الله يستحب لحاكم المسلمين الإِعراض عنهم وتركهم إِلى دينهم. وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما: قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِن جَآءُوكَ ﴾ يعني أَهل نازلة الزانيَيْن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ثم الآية بعد تتناول سائر النوازل.

قوله عز وجل:

﴿ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

أَمَّن الله تعالىٰ نبيه ﷺ من ضررهم إِذا أَعرض عنهم ، وحقَّر في ذلك شأْنهم ،

والمعنى: إنك منصور ظاهر الأمر على كل حال، وهذا نحوٌ من قوله تعالىٰ للمؤمنين: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾[1].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ﴾ أي: اخترت أن تحكم بينهم في نازلةٍ ما، ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾، أي: بالعدل، يقال: أَقْسَطَ الرجل: إذا عدل وحكم بالحق، وقَسَطَ: إذا جار، ومنه قوله: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾. ومحبَّة الله للمقسطين ما يظهر عليهم من نعمة.

ثم ذكر الله تعالىٰ بعد تحكيمهم للنبي ﷺ بالإخلاص منهم، ويبين بالقياس الصحيح أنهم لا يحكمونه إلا رغبةً في ميله في هواهم، وانحطاطه في شهواتهم، وذلك أنه قال: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ بنيَّة صادقة وهم قد خالفوا حكم الكتاب الذي يصدقون به، وبنبوَّةِ الآتي به، وتولَّوا عن حكم الله فيهما؟ فأَنت الذي لا يؤمنون بك، ولا يصدقونك، أَحرى بأَن يخالفوا حكمك. وقوله تعالىٰ: ﴿مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن بعد حكم الله في التوراة في الرجم، وما أَشبهه من الأُمور التي خالفوا فيها أَمر الله تعالىٰ. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني بالتوراة وبموسى، وهذا إِلزامٌ لهم، لأَن من خالف حُكم كتاب الله فدعواه الإِيمان به قلقةٌ. وهذه الآية تُقَوِّي أَن قوله في صدر الآية: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أَنه يراد به اليهود.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ﴾ الآية ـ قال قتادة: ذكر لنا أَن رسول الله ﷺ كان يقول ـ لما نزلت هذه الآية ـ: «نحن اليوم نحكم على اليهود وعلى من سواهم من أَهل الأَديان»[2] والهدى: الإِرشاد في المعتقد والشرائع، والنورُ: ما يستضاءُ به من أَوامرها ونواهيها، و﴿النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ هم مَن بُعث من لدن موسى بن عمران إِلى مدة محمد ﷺ، هذان طرفا هذه الجماعة المذكورة في هذه الآية، و﴿أَسْلَمُوا﴾ معناه: أَخلصوا وجوههم ومقاصدهم لله تعالىٰ، وقوله تعالىٰ ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ متعلق

---

(١) من قوله تعالىٰ في سورة آل عمران: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ الآية (١١١).

(٢) أخرج عبد بن حميد، وابن جرير ـ عن قتادة في قوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ...﴾ قال: «أما الربانيون ففقهاء اليهود، وأما الأحبار فعلماؤهم، قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: لما أُنزلت هذه الآية»، وساق بقية الحديث كما رواه ابن عطية. (الدر المنثور).

بـ ﴿يَحْكُمُ﴾، أي: يحكمون بمقتضى التوراة لبني إسرائيل وعليهم، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ عطف على ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾، أي: ويحكم بها الرَّبانيُّونَ، وهم العلماءُ. وفي البخاري قال: الرَّبَّاني: الذي يُرَبي الناس بصغار العلم قبل كباره. وقيل: الرباني: منسوب إلى الرب، أي: عنده العلم به وبدينه، وزيدت النون في (ربَّاني) مبالغة، كما قالوا: منْظَراني، ومَخْبَراني، وفي العظيم الرقبة: رقَباني. والأحبار أيضاً: العلماءُ، واحدهم حِبْرٌ بكسر الحاءِ، ويقال: بفتحها، وكثر استعمال الفتح فيه للفرق بينه وبين الحبر الذي يكتب به. وقال السدي: المراد ـ هنا ـ بالربانيين والأحبار الذين يحكمون بالتوراة: ابنا صوريا، كان أحدهم ربانياً، والآخر حبرا، وكانا قد أعطيا النبي ﷺ عهداً ألا يسألهما عن شيءٍ من أمر التوراة إلا أخبراه به، فسألهم عن آية الرجم فأخبراه به على وجهه، فنزلت الآية مشيرةً إليهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر، والرواية الصحيحة أن ابْنَيْ صوريا وغيرهم[1] جحدوا أمر الرجم، وفضحهم فيه عبد الله بن سلام، وإنما اللفظ عام في كل حبر مستقيم فيما مضى من الزمان. وأما في مدة محمد ﷺ فلو وجد لأسلم، فلم يُسَمَّ حبراً ولا ربانياً.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟﴾ أي: بسبب استحفاظ الله تعالىٰ إياهم أمر التوراة، وأخذه العهد عليهم في العمل والقول بها، وعرفهم ما فيها فصاروا شهداءَ عليه. وهؤلاءِ ضيَّعوا لما استُحفظوا حتى تبدلت التوراة، والقرآن بخلاف هذا لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[2]، والحمد لله، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ حكاية ما قيل لعلماءِ بني إسرائيل، وقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ نهي عن جميع المكاسب الخبيثة بالعلم، والتَّحيُّل للدنيا بالدين، وهذا المعنى بعينه يتناول علماءَ هذه الأمة وحكامها، ويحتمل أن يكون قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ﴾ إلى آخر الآية خطاباً لأمة محمد ﷺ.

واختلف العلماءُ في المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾:

(١) هكذا في كل الأصول. وحتى في (البحر المحيط) نقل كلام ابن عطية بهذا النص فتأمل.
(٢) من قوله من سورة الحجرات: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ الآية (٩).

فقالت جماعة: المرادُ اليهودُ بـ [الكافرين ـ والظالمين ـ والفاسقين] ورُوي في هذا حديث عن النبي ﷺ من طريق البراءِ بن عازب(١).

وقالت جماعة عظيمة من أَهل العلم: الآية متناولةٌ كل من لم يحكم بما أَنزل الله، ولكنه في أُمراءِ هذه الأمة كفر معصية لا يُخرجهم عن الإيمان(٢).

وقيل لحذيفة بن اليمان: أَنزلتْ هذه الآية في بني إسرائيل؟ فقال: نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل، إن كان لكم كل حلوة، ولهم كل مُرَّة، لتسلكن طريقهم قدر الشراك(٣).

وقال الشعبي: نزلت: ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ في المسلمين، و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في اليهود، و﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ في النصارى(٤).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا أَعلم لهذا التخصيص وجهاً، إلا إذا صح فيه حديث عن النبي ﷺ، إلا أَنه راعى من ذُكر مع كل خبر من هذه الثلاثة، فلا يترتب له ما ذكر في المسلمين إلا على أَنهم خوطبوا بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ﴾. وقال إبراهيم النَّخعي: نزلت هذه

---

(١) قال القرطبي: «نزلت كلها في الكفار، ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث البراء». وقد أخرج حديث البراء أيضاً ابن جرير، وأخرج مثله من عدة طرق ـ عن أبي صالح، وعن الضحاك، وعن أبي مجلز. (راجع تفسير الطبري ٦ ـ ٢٥٢، ٢٥٣).
ـ وأخرج ابن جرير عن أبي صالح قال: الثلاث الآيات التي في المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ـ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ـ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ليس في أهل الإسلام منها شيء، هي في الكفار. (الدر المنثور).

(٢) أخرج سعيد بن منصور، والفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ قال: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، (الدر المنثور). وقال طاووس وغيره: ليس بكفر ينقل عن الملة، ولكنه كفر دون كفر. (القرطبي).

(٣) أخرجه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه ـ عن حذيفة. (الدر المنثور ـ وفتح القدير).

(٤) قال القرطبي: «وهذا اختيار أبي بكر بن العربي، قال: لأنه ظاهر الآيات، وهواختيار ابن عباس، وجابر بن زيد، وابن أبي زائد، وابن شُبْرُمة، والشعبي أيضاً».

الآيات في بني إسرائيل، ثم رضي لهذه الأمة بها[(١)].

قوله عز وجل:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

الكتب في هذه الآية هو حقيقة كتب في الألواح، وهو بالمعنى كتب فَرض وإلزام. والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لبني إسرائيل، وفي ﴿فِيهَآ﴾ للتوراة.. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ بنصب ﴿ٱلنَّفْسَ﴾ على اسم ﴿أَنَّ﴾، وعطف ما بعد ذلك منصوباً على ﴿ٱلنَّفْسَ﴾، ويرفعون [والجروحُ قِصَاصٌ] على أنها جملة مقطوعة. وقرأ نافع وحمزة، وعاصم بنصب ذلك كله، و﴿قِصَاصٌ﴾ خبر ﴿أَنَّ﴾، وروى الواقدي عن نافع أنَّه رفع [والجروحُ]، وقرأ الكسائي ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ نصباً، ورفع ما بعد ذلك، فمن نصب ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾ جعل عطف الواو مشركاً في عمل ﴿أَنَّ﴾، ولم يقطع الكلام ممَّا قبله، ومن رفع [والعَينُ] فيتمثل ذلك من الإعراب أَن يكون قطع مما قبل، وصار عطف الواو عطف جملة كلام، لا عطف تشريك في عامل، ويحتمل أَن تكون الواو عاطفة على المعنى، لأن معنى قوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ قلنا لهم: النفس بالنفس، ومثله: لَمَّا كان المعنى في قوله تعالىٰ: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾[(٢)] يُمنحون كأساً من معين، عطف [وَحُوراً عِيناً] على ذلك، ويحتمل أَن يعطف قوله: [والعَيْنُ] على الذكر المستتر[(٣)] في

---

(١) أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ ـ عن إبراهيم النَّخَعي ـ وقال في الدر المنثور: وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير ـ عن الحسن في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال: نزلت في اليهود، وهي علينا واجبة.

(٢) الصافات: ٤٥. ولكن يلاحظ أن هذه الآية من سورة الصافات ليس بعدها ما ذكره المؤلف هنا من قوله تعالىٰ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾، وإنما هذا موجود في سورة (الواقعة) لكن نص الآية في الواقعة يختلف عما أثبته النساخ هنا ـ ونرجح أن يكون كلام ابن عطية كالآتي: «لما كان المعنى في قوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ...﴾ يُمْنَحون كأساً مِن معين ـ عطف ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ على ذلك، وهذا على قراءة، [وحوراً عيناً] بالنصب ـ. وإلا فلا معنى للتنظير بآية الصافات، والله أعلم.

(٣) أي: الضمير المستتر، والسبب أن المستتر في حكم المذكور.

الطرق الذي هو الخبر ، وإن لم يُؤَكَّد المعطوف عليه بالضمير المنفصل كما أُكِّد في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾(١) ، وقد جاءَ مثله غير مُؤكد في قوله: ﴿مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾(٢).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولسيبويه رحمه الله في هذه الآية أن العطف ساغ دون توكيد بضمير منفصل ، لأَن الكلام طال بِـ ﴿وَلَآ﴾ في قوله ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ ، فكانت ﴿وَلَآ﴾ عوضاً من التوكيد ، كما طال الكلام في قولهم: «حضر القاضي اليوم امرأَةٌ» ، قال أبو علي: وهذا يستقيم أَن يكون عِوَضاً إذا وقع قبل حرف العطف ، فهناك يكون عوضاً من الضمير الواقع قبل حرف العطف ، فأَما إذا وقع بعدحرف العطف فلا يَسُدُّ مَسَدَّ الضمير ، أَلا ترى أَنك لو قلت: «حضر امرأَة القاضي اليوم» لم يُغْنِ طول الكلام في غير الموضع الذي ينبغي أَن يقع فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكلام سيبويه متجه على النظر النحوي ، وإن كان الطول قبل حرف العطف أَتم ، فإنه بعد حرف العطف مُؤثر ، لا سيما في هذه الآية ، لأن ﴿وَلَآ﴾ ربطت المعنى ، إذ قد تقدمها نفي ، ونفت هي أَيضاً عن الآباءِ ، فتمكن العطف. قال أبو علي: ومن رفع [والجروحُ قِصَاصٌ] فقطعه مما قبله ، فإن ذلك يحتمل هذه الوجوه الثلاثة التي احتملها رفع [والْعَيْنُ]. ويجوز أَن يُستأنف: [والجُروحُ] ليس على أنه مما كُتب عليهم في التوراة ، ولكن على استئناف إيجابٍ وابتداءِ شريعةٍ ، ويُقَوِّي أَنه من المكتوب عليهم نَصْبُ من نصبه. ورَوَى أَنس بن مالك عن النبي ﷺ أَنه قرأَ: [أَنِ النَّفْسُ بالنَّفْسِ] بتخفيف [أَنْ] ورفع [النَّفس] ، ثم رفع ما بعدها إلى آخر الآية ، وقرأَ أُبي بن كعب

---

(١) الأعراف: ٢٧.

(٢) الأنعام: ١٤٨. وخلاصة ما ذكره في إعراب [والعينُ] مرفوعة ثلاثة آراء هي في الأصل لأبي علي ، الأول: أن الواو عاطفة جملة على جملة ، فجملة [والعينُ بالعين] معطوفة على جملة: ﴿وَكَتَبْنَا﴾ ، الثاني: أن الواو عاطفة جملة على المعنى ، وهو ما يسمى عطف التوهم. والثالث: أن تكون الواو عاطفة مفرداً على مفرد ، فتكون [والعينُ] معطوفة على الضمير المستكن في الجار والمجرور قبلها ، وإن لم يؤكد الضمير المعطوف عليه والله أعلم. قال أبو حيان في البحر: والوجهان الأخيران ضعيفان.

بنصب [النَّفس] وما بعدها ، ثم قرأ: «وأَن الجروحُ قِصاصٌ» بزيادة (أَن) الخفيفة ، ورفع [الجروح].

ومعنى هذه الآية الخبرُ بأَن الله تعالىٰ كتب فرضاً على بني إِسرائيل أَنه من قتل نفْساً فيجب في ذلك أَخْذ نفسه ، ثم هذه الأَعضاءُ المذكورة كذلك ، ثم استمر هذا الحكم في هذه الأُمة بما عُلم من شَرْع النبي ﷺ وأَحكامه ، ومضى عليه إِجماع الناس.

وذهب قوم من العلماءِ إِلى تعميم قوله: ﴿ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ فقتلوا الحر بالعبد ، والمسلم بالذمي ، والجمهور على أَنه عموم يراد به الخصوص في المتماثلَيْن ، وهذا مذهب مالك ، وفيه الحديث عن النبي ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر»(١) ، وقال ابن عباس رضي الله عنه: رخَّص الله لهذه الأُمة ووسع عليها بالدِّية ، ولم يجعل لبني إِسرائيل دية فيما نزل على موسى وكتب عليهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذه الآية بيان لفساد فعل بني إِسرائيل في تعزز بعضهم على بعض ، وكون بني النضير على الضِّعف في الدِّية من بني قريظة ، أَو على أَلا يقاد بينهم ، بل يُقنع بالدِّية ، ففضحهم الله بهذه الآية ، وأَعلم أَنهم خالفوا كتابهم ، وحكى الطبري عن ابن عباس: كان بين حَيَّين من الأَنصار قتال فصارت بينهم قتلى، وكان لأَحدهما طول على الآخر ، فجاءَ النبي ﷺ فجَعَلَ الحرَّ بالحرِّ ، والعبدَ بالعبدِ(٢) ، قال الثوري: وبلغني عن ابن عباس أَنه قال: ثم نسختها النفس بالنفس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾ هو عموم يراد به الخصوص في جِراح

(١) روى أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ـ عن علي رضي الله عنه أنه سئل: هل خصك رسول الله ﷺ بشيء؟ فقال: لا ، إلا ما في هذا. وأخرج كتاباً من قراب سيفه وإذا فيه: «المؤمنون تتكافأ دماؤُهم ، وهم يدٌ على من سواهم ، ولا يُقتل مسلم بكافر ، ولا ذو عهد في عهده». (عن القرطبي في تفسير هذه الآية: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ . . .﴾ إلخ) ، من الذين قالوا بعموم هذه الآية ، وقالوا بقتل المسلم بالذمي لأنه نفس بنفس الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن جرير الطبري من طريق أبي مالك. (تفسير الطبري).

القَود، وهي التي لا يخاف منها على النفس. وأمَّا ما خيف منه كالمأمومة[١] وكسر الفخذ ونحو ذلك فلا قصاص فيها، والقصاص مأخوذ من قصِّ الأثَر، وهو اتباعه، فكأن الجاني يُقتص أثره، ويُتَّبع فيما سنَّه، فيُقتل كما قتَل.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ يحتمل ثلاثة معان ـ أحدهما: أَن تكون [مَنْ] للمجروح أو وليِّ القتيل، ويعود الضمير في قوله: ﴿لَّهُۥ﴾ عليه أيضاً، ويكون المعنى: إن من تصدق بجرحه أَو دَم وليّه فعفا عن حقه في ذلك، فإن ذلك العفو كفارة له عن ذنوبه، ويعظم الله أَجره بذلك ويكفر عنه، وقال بهذا التأويل عبد الله بن عمر، وجابر بن زيد، وأَبو الدرداءِ، وذكر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ما مِنْ مسلم يُصاب بشيءٍ من جسده فيهبه إلاَّ رفعه الله بذلك درجة، وحط عنه خطيئة»[٢]. وذكر مكي حديثاً من طريق الشعبي أنه يحط من ذنوبه بقدر ما عفا من الدِّية، والله أعلم، وقال به أَيضاً قتادة، والحسن.

والمعنى الثاني أَن تكون [مَنْ] للمجروح أَو ولي القتل، والضمير في ﴿لَّهُۥ﴾ يعود على الجارح أَو القاتل إِذا تصدق المجروح على الجارح بجرحه وصفح عنه، فذلك العفو كفارة للجارح عن ذلك الذنب، فكما أَن القصاص كفارة، فكذلك العفو كفارة، وأَما أَجر العافي فعلى الله تعالىٰ، وعاد الضمير على مَن لم يتقدم له ذكر لأَن المعنى يقتضيه، قال بهذا التأويل ابن عباس، وأَبو إِسحاق السبيعي، ومجاهد، وإِبراهيم، وعامر الشعبي، وزيد بن أَسلم.

والمعنى الثالث أَن تكون [مَنْ] للجارح أَو القاتل، والضمير في ﴿لَّهُۥ﴾ يعود عليه أَيضاً، والمعنى: إِذا جنى جان فجهل وخفي أَمرُه، فتصدق هو بأَن عرَّف بذلك ومكَّن الحق من نفسه فذلك الفعل كفارة لذنبه، وذهب القائلون بهذا التأْويل إِلى الاحتجاج بأَن مجاهد قال: إِذا أَصاب رجل رجلاً ولم يعلم المصاب من أَصابه فاعترف له

(١) قال الأصمعي: المأمومة ـ ويقال لها: الآمة ـ: هي الشجَّة التي تبلغ أُمَّ الرأس، يعني الدماغ.

(٢) أخرجه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابن جرير ـ عن أبي الدرداء قال: كسر رجل من قريش سن رجل من الأنصار، فاستعدى عليه، فقال معاوية: إنا سنرضيه، فألح الأنصاري، فقال معاوية: شأنك بصاحبك وأبو الدرداء جالس، فقال أبو الدرداء: سمعت الرسول ﷺ يقول: وساق بقية الحديث ـ (من الدر المنثور).

المصيبُ فهو كفارة للمصيب ، وروي أن عروة بن الزبير أصاب عيْن إنسان عند الركن وهم يستلمون ، فلم يدر المصاب من أصابه ، فقال له عروة: أنا أصبتك ، وأنا عروة بن الزبير ، فإن كان بعينك بأس فأنا بها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وانظر أن ﴿تَصَدَّقَ﴾ ـ على هذا التأويل ـ يحتمل أن يكون من الصدقة ، ومن الصدق.

وذكر مكي بن أبي طالب أن قوماً تأولوا الآية أن المعنى: والجروح قصاص ، فمن أعطى دِيَة الجرح وتصدق بذلك فهو كفارة له إذا رضيت منه وقبلت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تأويل قلق.

وقد تقدم القول على قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وفي مصحف أُبي بن كعب: [ومَنْ يتصدَّق بهِ فإنَّه كفَّارةٌ له].

قوله عز وجل:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.

﴿وَقَفَّيْنَا﴾ تشبيه ، كأن مجيءَ عيسى كان في قفاءِ مجيءِ النبيِّين وذهابهم ، والضمير في ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾ للنبيِّين المذكورين في قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ و﴿مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكدة ، و﴿ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ بين يدي عيسى لأنها جاءَت قبله كما أن رسول الله ﷺ بين يدي الساعة. وقد تقدم القول في هذا المعنى في غير موضع.

و﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ اسم أعجمي ذهب به مذهب الاشتقاق ، من نَجَل إذا استخرج وأظهر ، والناس على قراءَته بكسر الهمزة إلا الحسن بن أبي الحسن فإنه قرأ [الأنجيل] بفتح الهمزة ، وقد تقدم القول على ذلك في أول سورة آل عمران.

والهدى: الإرشاد والدعاءُ إلى توحيد الله وإحياءِ أَحكامه. والنور: ما فيه مما يستضاءُ به، و﴿ مُصَدِّقًا ﴾ حال مؤكدة معطوفة على موضع الجملة التي هي: ﴿ فِيهِ هُدًى ﴾ فإنها جملة في موضع الحال، وقال مكي وغيره: ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ معطوفٌ على الأول.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا قلق من جهة اتساق المعاني.

وقرأَ الناس: ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً ﴾ بالنَّصْب، وذلك عطف على «مصدق». وقرأَ الضحاك: [وَهُدىً ومَوْعطةٌ] بالرفع، وذلك متجه، وخص المتقون بالذكر لأَنهم المقصود به في علم الله، وإِن كان الجميع يُدعى ويُوعظ، ولكن ذلك على غير المتقين عمى وحيرة.

وقرأَ أَبي بن كعب: [وَأَن لِيَحْكُمَ] بزيادة [أَن]، وقرأَ حمزة وحده: [ولِيحْكُمَ] بكسر اللام وفتح الميم على لام (كي) ونصب الفعل بها، والمعنى: وآتيناه الإِنجيل ليتضمن الهدى والنور والتصديق ليحكم أَهلُه بما أَنزل الله فيه، وقرأَ باقي السبعة: ﴿ وَلْيَحْكُمْ ﴾ بسكون اللام التي هي لام الأَمر، وجزم الفعل، ومعنى أَمره لهم بالحكم أَي: هكذا يجب عليهم، وحسن عقب ذلك التوقيف على وعيد من خالف ما أَنزل الله، ومن القراءِ من يكسر لام الأَمر ويجزم الفعل، وقد تقدم نظير هذه الآية، وتقريره هذه الصفات لمن لم يحكم بما أَنزل الله هو على جهة التأْكيد، وأَصوب ما يقال فيها أَنها تعم كل مؤمن وكل كافر، فيجيءُ كل ذلك في الكافر على أَتم وجوهه، وفي المؤمن على معنى كفر المعصية وظلمها وفسقها.

وأَخبر تعالىٰ بَعْدُ بنزول هذا القرآن، وقوله: ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ يحتمل أَن يريد: مضمناً الحقائق من الأُمور، فكأَنه نزل بها، ويحتمل أَن يريد أَنه أَنزله بأَن حق ذلك، لا أَنه وجب على الله، ولكن حق في نفسه، وأَنزله تعالىٰ صلاحاً لعباده، وقوله: ﴿ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يريد من الكتب المنزلة، فهو اسم جنس، واختلفت عبارة المفسرين في معنى مُهَيْمن ـ فقال ابن عباس: ﴿ وَمُهَيْمِنًا ﴾: شاهداً، وقال أَيضاً: مؤْتمناً. وقال ابن زيد: معناه: مصدقاً، وقال الحسن بن أَبي الحسن: أَميناً، وحكى الزجَّاج: قريباً، ولفظه المهيمن أَخص من هذه الأَلفاظ، لأَن المهيمن على الشيءِ هو المعنيُّ بأَمره،

الشاهد على حقائقه، الحافظ لحاصله، فلا يدخل فيه ما ليس منه، والله تبارك وتعالىٰ هو المهيمن على مخلوقاته وعباده، والوصيُّ مُهَيْمن على محجوريه وأَموالهم، والرئيس مهيمن على رعيته وأَحوالهم، والقرآن جعله مهيمناً على الكتب يشهد بما فيها من الحقائق، وعلى ما نسبه المحرفون إِليها فيصحح الحقائق ويبطل التحريف، وهذا هو شاهد ومصدق ومؤتمن وأَمين، ومهيمن، بناءُ اسم فاعل، قال أَبو عبيدة: ولم يجىءْ في كلام العرب على هذا البناءِ إِلا أَربعة أَحرف، وهي: مُسَيْطر، ومُبَيْطر، ومُهَيْمن، ومُجَيْمر، وذكر أَبو القاسم الزَّجاج ـ في شرحه لصدر أَدب الكتاب ـ ومُبَيْقر، يقال: بَيْقر الرجل إِذا سار من الحجاز إِلى الشام، ومن أُفُق إِلى أُفق، وبَيْقر أَيضاً: لعب البَيْقَرى وهي لعبة يلعب بها الصبيان، وقال مجاهد: قوله تعالىٰ: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ يعني محمداً ﷺ هو مؤتمن على القرآن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وغلط الطبري رحمه الله في هذه اللفظة على مجاهد، فإِنه فسَّر تأْويله على قراءَة الناس: ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ بكسر الميم الثانية فبُعد التأْويل، ومجاهد رحمه الله إِنما يقرأُ هو وابن محيصن: [مُهَيْمَناً عليه] بفتح الميم الثانية، فهو بناءُ اسم المفعول، وهو حال من الكتاب معطوفة على قوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾، وعلى هذا يتجه أَن المؤتمن عليه هو محمد ﷺ، و[عليه] في موضع رفع على تقدير أَنها مفعولٌ لم يُسم فاعله، هذا على قراءَة مجاهد، وكذلك مشى مكيّ رحمه الله وتوغل في طريق الطبري في هذا الموضع، قال أَبو العباس محمد بن يزيد المبرد رحمه الله: مُهَيْمن أَصله: مؤَيْمن ـ من أَمين ـ، أُبدلت همزته هاءً، كما قالوا: أَرقْتُ الماءَ وهرقته، قال الزَّجاج: وهذا حسنٌ على طريق العربية، وهو موافق لما جاءَ في التفسير من أَن معنى مهيمن: مؤتمن. وحكى ابن قتيبة هذا الذي قاله المبرد في بعض كتبه، فحكى النقاش أَن ذلك بلغ ثعلباً فقال: «إِن ما قال ابن قتيبة رديءٌ، وقال: هذا باطل، والوثوب على القرآن شديد، وهو ما سمع الحديث من قوي ولا ضعيف، وإِنما جمع الكتب». انتهى كلام ثعلب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويقال من مهيمن: هَيْمَن الرجلُ على الشيءِ، إِذا حفظه وحاطه وصار قائماً عليه

أَميناً ، ويحتمل أن يكون [مُصَدقاً ـ ومُهَيمناً] حالين من الكاف في ﴿إِلَيْكَ﴾ ، ولا يخص ذلك قراءَة مجاهد وحده كما زعم مكي.

قوله عز وجل:

﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

قال بعض العلماءِ: هذ ناسخة لقوله: ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ، وقد تقدم ذكر ذلك. وقال الجمهور: إنه ليس بنسخ ، وإن المعنى: فإن اخترت أن تحكم فاحكم بينهم بما أنزل الله.

ثم حذر تعالىٰ نبيَّه من اتباع أهوائهم ، أَي: شهواتهم وإرادتهم التي هي هوى ورسول للنفس ، والنفس أَمارة بالسوءِ ، فهواها مُرْدٍ لا محالة ، وحسُن هنا دخول (عن) في قوله: ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ لما كان الكلام بمعنى: لا تنصرف أَو لا تزحزح بحسب أَهوائهم عما جاءَك.

واختلف المتأَولون في معنى قوله عز وجل: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ ـ فقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وقتادة ، وجمهور المتكلمين: المعنى: لكل أُمة منكم جعلنا شرعة ومنهاجاً ، أَي: لليهود شرعةٌ ومنهاج ، وللنصارى كذلك ، وللمسلمين كذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندهم في الأَحكام ، وأَما في المعتقد فالدين واحد لجميع العالم ، توحيد وإيمان بالبعث وتصديق للرسل ، وقد ذكر الله تعالىٰ في كتابه عدداً من الأَنبياءِ شرائعهم مختلفة ، ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[1] ، فهذا عند العلماءِ في المعتقدات فقط ، فأَما في الشرائع فهذه الآية هي القاضية فيها: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

(١) الأنعام: ٩٠.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والتأويل الأول عليه الناس ـ ويحتمل أَن يكون المراد بقوله: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ الأُمم كما قدمنا، ويحتمل أَن يكون المراد الأَنبياءُ لا سيَّما وقد تقدم ذكرهم وذكر ما أُنزل عليهم، وتجيءُ الآيةُ مع هذا الاحتمال في الأَنبياءِ تنبيهاً لمحمد ﷺ، أَي: فاحفظ شرعتك ومنهاجك لئلا يستزلَّك اليهود وغيرهم في شيء منه.

والمتأَولون على أَن الشِّرعة والمنهاج في هذه الآية لفظان بمعنى واحد، وذلك أَن الشِّرعة والشَّريعة هي: الطريق إلى الماءِ وغيره مما يورد كثيراً، فمن ذلك قول الشاعر:

وفـي الشَّـرائـعِ مِـن جَـلاَّنَ مُقْتَنِصٌ ... بالي الثِّياب خَفِيّ الصَّوْتِ مَنْدُوبُ[1]

أراد في الطرق إِلى الماءِ، ومنه: الشارع، وهي سكك المدن، ومنه قول الناس: وفيها يشرع الباب. والمنهاج أَيضاً: الطريق، ومنه قول الشاعر:

مَـــنْ يَــكُ ذَا شَــكٍّ فَهَــذا نَهْــجُ ... مــاءٌ رَواءٌ وَطَــريــقٌ نَهْــجُ[2]

أَراد: واضحاً، والمنهاج بناءُ مبالغة في ذلك. وقال ابن عباس وغيره: ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ معناه: سبيلا وسنةً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل لفظ الآية أَن يريد بالشِّرعة: الأَحكام، وبالمنهاج: المعتقد. أَي: وهو واحد في جميعكم، وفي هذا الاحتمال بُعْد. والقراءُ على ﴿ شِرْعَةً﴾ بكسر الشين، وقرأَ إِبراهيم النَّخعي، ويحيى بن وثاب: [شَرعة] بفتح الشين.

ثم أَخبر تعالىٰ بأَنه لو شاءَ لجعل العالم أُمة واحدة، ولكنه لم يشأْ لأَنه أَراد اختبارهم وابتلاءَهم فيما آتاهم من الكتب والشرائع، كذا قال ابن جُريج وغيره، فليس

---

(١) في (اللسان) في مادة (زرب) نسب إلى ذي الرمة قوله:

وبــالشمــائــل مــن جــلاَّنَ مُقْتَنِــصٌ ... رذْلُ الثِّيـابِ خفِـيُّ الشَّخـص مُنْـزَرِبُ

وقال: انزرب الصائد في قُترته: دخل ـ وقال: وجَلان: قبيلة، وابن عطية يفسر الشرائع هنا بأنها الطرق، ومندوب: به آثار جراح ونُدوب، فهو يصف صيَّاداً من قبيلة جلان بأن ثيابه بالية، وصوته خفي، وبه آثار ندوب، وهو يختفي في الطرق التي تمر بها فرائسه.

(٢) الماء الرَّواء ـ بفتح الراء المشددة: العذب، وقد رُوي البيت في (اللسان) وفي (القرطبي): «فهذا فَلَجُ» بدلاً من: «فهذا نَهج».

لهم إلا أن يجِدُّوا في امتثال الأوامر ، وهو استباق الخيرات ، فلذلك أمرهم بأحْسَن الأشياءِ عاقبة لهم.

ثم حثَّهم تعالىٰ بالموعظة والتذكير بالمعاد في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ ، والمعنى فالبدارَ البدارَ. وقوله تعالىٰ: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ معناه: يظهر الثواب والعقاب فتُخْبَرون به إخبار إيقاع ، وإلاَّ فقد نبأ الله في الدنيا بالحق فيما اختلفت الأمم فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية بارعة الفصاحة ، جمعت المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة ، وكل كتاب الله كذلك ، إلاَّ أنَّا بقصور أفهامنا يَبين في بعَضٍ لنا أكثرُ مما يبين في بعض.

قوله عز وجل:

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَأَنِ ٱحْكُم﴾ معطوف على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾. وقال مكيٌّ: هو معطوف على ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾. والوجهان حسنان. ويقرأُ بضم النون من [وأنُ احكم] مراعاة للضمة في عيْن الفعل المضارع ، ويقرأُ بكسرها على القانون في التقاءِ الساكنين.

وهذه الآية ناسخة عند قوم للتخيير الذي في قوله: ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ، وقد تقدم ذكر ذلك ، ثم نهاه تعالىٰ عن اتباع أهواءِ بني إسرائيل إذ هي مُضِلة ، والهوى في الأغْلب إنما يجيءُ عبارة عما لا خير فيه ، وقد يجيءُ أحياناً بما فيه خير ، ومن ذلك قول عمر بن الخطاب في قصة رأيه ورأي أبي بكر في أسرى بدر: «فهوي رسول الله ﷺ رأي أَبي بكر رضي الله عنه» ، ومنه قول عمر بن عبد العزيز وقد قيل له: ما ألذ الأشياءِ عندك؟ قال: حق وافق هوى ، والهوى مقصور ووزنه فعل ، ويجمع على أهواءَ ، والهواءُ ممدود ، ويجمع على أَهوية.

ثم حذر تبارك وتعالىٰ من جهتهم أن يفتنوه ، أَي: يصرفوه بامتحانهم وابتلائهم عن

شيءٍ مما أَنزل الله عليه من الأَحكام ، لأَنهم كانوا يريدون أَن يخدعوا النبي ﷺ ، فقالوا له مراراً: احكم لنا في نازلة كذا وكذا ونتَّبعك على دينك.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ قبله محذوف من الكلام يدلُّ عليه الظاهر ، تقديره: لا تتبع واحذر ، فإِن حكموك مع ذلك واستقاموا فنِعِمَّا ذلك ، وإِن تولوا فاعلم ، ويحسن أَن يقدر هذا المحذوف المعادل بعد قوله: ﴿ لَفَـٰسِقُونَ ﴾. وقوله تعالىٰ: ﴿ فَٱعْلَمْ ﴾ الآية وعدٌ للنبي ﷺ فيهم ، وقد أَنجزه بقصة بني قينقاع ، وقصة قريظة والنضير ، وإِجلاءِ عمر أَهل خيبر وفدك وغيرهم ، وخصص تعالىٰ إِصابتهم ببعض الذنوب دون كلها لأَن هذا الوعيد إِنما هو في الدنيا ، وذنوبهم فيها نوعان: نوع يخصهم كشرب الخمر ورباهم ورِشاهم ونحو ذلك ، ونوع يتعدى إِلى النبي والمؤمنين ، كمعاملاتهم للكفار وأَقوالهم في الدين ، فهذا النوع هو الذي يوجد إِليهم السبيل ، وبه هلكوا ، وبه توعدهم الله في الدنيا ، فلذلك خصص البعض دون الكلِّ ، وإِنما يعذبون بالكل في الآخرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴾ إِشارة إِليهم ، لكن جاءَت العبارة تعمهم وغيرهم ليتَنَبَّه سواهم ممن كان على فسق ونفاق وتولٍّ عن النبي ﷺ فيرى أَنه تحت الوعيد.

واختلف القراءُ في قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ ـ فقرأَ الجمهور بنصب الميم على إِعمال فعل مَّا يلي أَلف الاستفهام بيَّنَه هذا الظاهر بَعْدُ. وقرأَ يحيى بن وثاب ، والسلمي ، وأَبو رجاءٍ ، والأَعرج: [أفحكمُ] برفع الميم ، قال ابن مجاهد: وهي خطأٌ ، قال أَبو الفتح: ليس كذلك ، ولكنه وجْهٌ غيْرُهُ أَقوى منه ، وقد جاءَ في الشعر ، قال أَبو النجم:

قـد أَصْبَحَـتْ أُمُّ الخِيـارِ تَـدَّعـي   عَلَـيَّ ذنبـاً كُلُّـه لَـمْ أَصْنَـعِ

برفع كل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهكذا الرواية ، وبها يتم المعنى الصحيح ، لأَنه أَراد التبرؤَ من جميع الذنب ، ولونصب (كل) لكان ظاهر قوله أَنه صنع بعضه ، وهذا هوحذف الضمير من الخبر ،

وهو قبيح ، التقدير : يبغونه ، ولم أَصنعه ، وإِنما يحذف الضمير كثيراً من الصلة كقوله تعالىٰ: ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾[1]. وكما تقول: «مررت بالذي أكرمت». ويحذف أَقل من ذلك من الصفة ، وحذفه من الخبر قبيح كما جاءَ في بيت أَبي النجم ، ويتجه بيتُه بوجهين ـ أَحدهما: أَنه ليس في صدر قوله أَلف استفهام يطلب الفعل كما هي في قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَحُكْمَ ﴾ ، والثاني أَن في البيت عوضاً من الهاءِ المحذوفة ، وذلك حرف الإِطلاق ، أَعني الياء في (أَصنعي) ، فتضعف قراءَة من قرأَ: [أَفحكمُ] بالرفع ، لأَن الفعل بَعْدُ لا ضمير فيه ولا عِوَض من الضمير ، وأَلف الاستفهام ـ التي تطلب الفعل ويُختار معها النصب وإِنْ لفظ بالضمير ـ حاضرة[2] ، وإِنما تتجه القراءَة على أَن يكون التقدير: «أَفحكم الجاهلية حكم يبغون»؟ فلا تجعل [يَبغُون] خبراً ، بل تجعله صفة لخبر محذوف وموصوف. ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ ﴾[3] ، تقديره: قومٌ يحرفون ، فحذف الموصوف وأَقام الصفة مقامه ، ومثله قول الشاعر:

وما الدَّهْرُ إِلاَّ تارتَانِ فَمِنْهُما أَمُوتُ وأُخرى أَبْتَغي العَيْشَ أَكْدَحُ

وقرأَ سليمان بن مهران: [أَفَحَكَمَ] بفتح الحاءِ والكاف والميم ، وهو اسم جنس ، وجاز إِضافة اسم الجنس على نحو قولهم: منعت العراق قفيزها ودِرْهمها ، ومصر إِردبَّها ، وله نظائر[4].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فكأَنه قال: أفحكَّام الجاهلية يبغون؟ إِشارة إِلى الكهان الذين كانوا يأْخذون الحلوان ، ويحكمون بحسبه وبحسب الشهوات ، ثم ترجع هذه القراءَة بالمعنى إِلى الأُولى ، لأَن التقدير: أَفحكم حُكَّام الجاهلية. وقرأَ ابن عامر: [تَبْغُون] بالتاءِ على

---

(١) الفرقان: ٤١.

(٢) قوله: «حاضرة» هو خبر المبتدأ: «وألف الاستفهام»...

(٣) النساء: ٤٦.

(٤) القفيز: مكيال كان يكال به قديماً ، ويختلف مقداره باختلاف البلاد ، والإردب: مكيال معروف لأهل مصر ، والكلام أصله من حديث شريف: «منعت العراق درهمها وقفيزها ، ومصر إردبها ، وعدتم من حيث بدأتم» (اللسان).

الخطاب لهم ، أي ، قل لهم. وباقي السبعة: ﴿ يَبْغُونَ ﴾ بالياءِ من تحت ، ويبغون معناه: يطلبون ويريدون.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا ﴾ تقرير: أي: لا أحد أحسن منه حكماً تبارك وتعالىٰ ، وحَسُنَ دخول اللام في قوله: ﴿ لِقَوْمٍ ﴾ من حيث المعنى يبين ذلك ويظهر لقوم يوقنون.

قوله عز وجل:

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

نهى الله تعالىٰ المؤمنين بهذه الآية عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياءَ في النُّصرة والخُلْطة المؤدية إلى الامتزاج والمعاضدة ، وحكم هذه الآية باق ، وكل من أكثر مخالطة هذين الصنفين فله حظ من المقت الذي تضمنه قوله: ﴿ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ ، وأما معاملة اليهودي والنصراني من غير مخالطة ولا ملامسة فلا تدخل في النهي ، وقد عامل رسول الله ﷺ يهودياً ورهنه درعه.

واختلف المفسرون في سبب هذه الآية ـ فقال عطية بن سعد ، والزهري ، وابن إسحاق ، وغيرهم: سببها أنه لما انقضت بدر وشجر أمر بني قينُقاع أراد رسول الله ﷺ قتلهم ، فقام دونهم عبد الله بن أُبي بن سلول وكان حليفاً لهم ، وكان لعبادة بن الصامت من حِلْفهم مثل ما لعبد الله ، فلما رأى عبادة منزع رسول الله ﷺ ، وما سلكته يهود من المشاقَّة لله ورسوله ، جاءَ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله. إني أبْرأُ إلى الله من حلْف يهود وولائهم ، ولا أُوالي إلا الله ورسوله ، وقال عبد الله بن أُبي: أما أنا فلا أَبرأُ من ولاءِ يهود ، فإني لا بد لي منهم ، إني رجل أخاف الدوائر[1].

وحكى ابن إسحاق في السير أنه قام إلى رسول الله ﷺ فأدخل يده في جيب درعه وقال: يا محمد ، أحسن في موالي ، فقال له رسول الله ﷺ: أرسل الدرع من يدك.

---

(١) الحديث مروي بطرق كثيرة عن عبادة بن الوليد ـ وعن ابن عباس ، وعن عطية ابن سعد ـ ارجع إلى (الدر المنثور).

فقال: لا والله حتى تهبهم لي، لأنهم ثلاثمائة دارع وأربعمائة حاسر، أفأدعك تحصدهم في غداة واحدة؟ فقال رسول الله ﷺ: قد وهبتهم لك، ونزلت الآية في ذلك.

وقال السدي: سبب هذه الآية أنه لما نزل بالمسلمين أمر أُحد فزع منهم قوم، وقال بعضهم لبعض: نأخذ من اليهود عصماً ليعاضدونا إن ألَمَّت بنا قاصمة من قريش وسائر العرب، فنزلت الآية في ذلك[1].

وقال عكرمة: سبب الآية أمر أبي لبابة بن عبد المنذر وإشارته إلى قريظة: إنه الذبح حين استفهموه عن رأيه في نزولهم على حكم سعد بن معاذ[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكل هذه الأقوال محتمل، وأوقات هذه النوازل مختلفة. وقرأ أُبي بن كعب، وابن عباس: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ جملة مقطوعة من النهي تتضمن التفرقة بينهم وبين المؤمنين.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ إنحاءٌ على عبد الله بن أُبي وكُلُّ من اتصف بهذه الصفة من موالاتهم، ومن تولاهم بمعتقده ودينه فهو منهم في الكفر واستحقاق النقمة والخلود في النار، ومن تولاهم بأفعاله من العضد ونحوه دون معتقد ولا إخلال بإيمان فهو منهم في المقت والمذمة الواقعة عليهم وعليه، وبهذه الآية جوَّز ابن عباس وغيره ذبائح النصارى من العرب، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ فقال: من دخل في دين قوم فهو منهم[3]، وسئل ابن سيرين رحمه الله عن رجل أراد بيع داره من نصارى يتخذونها كنيسة فتلا هذه الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ عموم، فإمَّا أن يراد به الخصوص

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم ـ عن السدي (الدر المنثور). وقوله «نأخذ من اليهود عصماً» أي: حماة لنا يمنعوننا ويحفظوننا.

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر ـ عن عكرمة. (الدر المنثور).

(٣) أخرجه ابن جرير ـ عن ابن عباس. (الدر المنثور).

فيمن سبق في علم الله ألا يؤمن ولا يهتدي، وإمَّا أن يراد به تخصيص مدة الظلم والتلبس بفعله، فإن الظلم لا هدى فيه، والظالم من حيث هو ظالم فليس بمهدي في ظلمه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية، مخاطبة لمحمد ﷺ، والإشارة إلى عبد الله بن أُبي بن سلول ومن تبعه من المنافقين على مذهبه في حماية بني قينقاع، ويدخل في الآية من كان من مؤمني الخزرج يتابعه جهالةً وعصبية، فهذا الصنف له حظه من مرض القلب. وقراءَة جمهور الناس: ﴿فَتَرَى﴾ بالتاءِ من فوق، فإن جعلت رؤية عين فـ ﴿يُسَارِعُونَ﴾ حالٌ، وفيها الفائدة المقصودة، وإن جعلت رؤية قلب فـ ﴿يُسَارِعُونَ﴾ في موضع المفعول الثاني، و﴿يَقُولُونَ﴾ حال. وقرأَ إبراهيم النَّخَعي، ويحيى بن وثاب: [فَيَرَى] بالياءِ من تحت، والفاعل على هذه القراءَة محذوف، ولك أَن تقدر: فيرى الله، أَو فيرى الرأي، و﴿الَّذِينَ﴾ مفعول، ويحتمل أَن يكون [الذين] فاعلا، والمعنى: «أَن يسارعوا» فحذفت «أَنْ» إيجازاً[١].

و﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ معناه: في نصرتهم وتأْنيسهم وتجميل ذكرهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ لفظ محفوظ عن عبد الله بن أُبي، ولا محالة أَنه قاله بقوله منافقون كثير، والآية تُعطِي ذلك، ودائرة: معناه: نازلةٌ من الزمان وحادثة من الحوادث تُحوجنا إلى موالينا من اليهود، وتسمى هذه الأُمور دوائر على قديم الزمان من حيث الليل والنهار في دوران، فكأَن الحادث يدور بدورانها حتى ينزل فيمن نزل، ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾[٢]، و﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾[٣]، ومنه قول الشاعر:

وَالـدَّهْـرُ بـالإنْـسَـان دَوَّارِيُّ . . . .[٤]

(١) نقل أبو حيان في (البحر) هذا الرأي لابن عطية مع زيادة كلمة (ترى) عما في الأصول هنا، فقال: قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ فاعل ﴿فَتَرَى﴾، والمعنى: أن يسارعوا، فحذفت «أن» إيجازاً، انتهى، ثم قال: وهذا ضعيف، لأن حذف «أن» من نحو هذا لا ينقاس. (البحر المحيط ٣ ـ ٥٠٨).

(٢) من قوله تعالىٰ في سورة التوبة: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ الآية (٩٨). ووردت في سورة الفتح في قوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية (٦).

(٣) التوبة: ٩٨ ـ وقد سبقت في الهامش قبل هذا.

(٤) نسبه للعجاج في (اللسان)، وروى البيت بتمامه فقال: «قال العجاج في وصف الدهر: =

وقول الآخر:

. . . . ويعلـم أن النّـائبـات تـدور

وقول الآخر:

يَـرُدُّ عَنْـكَ القَـدَرَ ٱلْمَقْـدورَا   ودَائـراتِ ٱلـدَّهـرِ أَنْ تَـدُورَا

ويعضده قول النبي ﷺ: «إِنَّ الزمانَ قد استدار».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفعْل عبد الله بن أُبي في هذه النازلة لم يكن ظاهره مغالبة رسول الله ﷺ، ولو فعل ذلك لحاربه رسول الله ﷺ، وإِنما كان يظهر للنبي ﷺ أَن يستبقيهم لنصرة محمد ولأَن ذلك هو الرأي، وقوله: «إِني امرؤ أَخشى الدوائر» أَي: من العرب وممن يحارب المدينة وأَهلها، وكان يبطن في ذلك كله التحرز من النبي والمؤمنين والفَتَّ في أَعضادهم، وذلك هو الذي أَسَرَّ هو في نفسه ومن معه على نفاقه ممن يفتضح بعضهم إِلى بعض.

وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ﴾ مخاطبة للنبي ﷺ وللمؤمنين ووعد لهم، و(عسى) من الله واجبة، واختلف المتأَولون في معنى ﴿بِٱلْفَتْحِ﴾ في هذه الآية ـ فقال قتادة: يعني به القضاءَ في هذه النوازل، والفتَّاح: القاضي، فكان هذا الوعد هو مما نزل ببني قينقاع بعد ذلك وبقريظة والنضير، وقال السدي: يعني به فتح مكة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وظاهر الفتح في هذه الآية ظهور رسول الله ﷺ وعلو كلمته، أَي: فيبدو الاستغناءُ عن اليهود، ويرى المنافق أَن الله لم يوجد سبيلا إِلى ما كان يؤَمّل فيهم من المعونة على أَمر محمد ﷺ والدفع في صدر نبوته، فيندم حينئذ على ما حصل فيه من محادّة الشرع، وتجلل ثوب المقت من الله تعالىٰ ومن رسوله عليه الصلاة والسلام والمؤمنين كالذي وقع وظهر بعْدُ.

= والـدَّهْـرُ بـالإِنْسَـانِ دَوَّارِيُّ   أَفْنـى القُـرُونَ وهـو قَعْسَـرِيُّ

شبه الدهر بالجمل الشديد، والقعسريُّ: «الصلب الشديد». مادة (قعسر) ـ ثم ذكره أيضاً في مادة (دور) وقال: «الدوَّاريُّ: الدائر بالإنسان أحوالا، أي: دائر به على إضافة الشيء لنفسه قال الفارسي: هو على لفظ النسب وليس بنسب، ونظيره: بُخْتِيٌّ وكرسيٌّ».

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ قال السدي: المراد ضرب الجزية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويظهر أَن هذا التقسيم إِنما هو لأَن الفتح الموعود به هو ما يتركب على سعي النبي عليه الصلاة والسلام وأَصحابه ويسببه جدهم وعملهم، فوعد الله تعالىٰ إِما بفتح بمقتضى تلك الأَفعال، وإِما بأَمر من عنده يُهْلِك أَعداءَ الشرع، هو أَيضاً فتح لا يقع للبشر فيه تسبيب.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَيُصْبِحُواْ﴾ معناه: يكونون كذلك طول دهرهم، وخصَّ الإِصباح بالذكر لأَن الإِنسان في ليله مُتَفكر مُتَستر، فعند الصباح يُرى بالحالة التي اقتضتها فِكْرُه أَو أَمراضه ونحو ذلك، ومنه قول الشاعر:

أَصْبَحْتُ لا أَحْمِلُ السِّلاح

إلى غير هذا من الأَمثلة[١].

والذي أَسَرُّوه هو ما ذكرناه من التمرس بالنبي ﷺ، وإِعداد اليهود للثورة عليه يوماً ما، وقرأَ ابن الزهري: [فَيُصْبح الفُسَّاق عَلَى ما أَسَرُّوا في أَنْفُسِهِمْ نادمين].

قوله عز وجل:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾.

اختلف القراءُ في هذه الآية ـ فقرأَ ابن كثير، وابن عامر، ونافع: ﴿يَقُولُ﴾ بغير واو عطف وبرفع اللام، وكذلك ثبت في مصاحف المدينة ومكة، وقرأَ حمزة، والكسائي، وعاصم: ﴿وَيَقُولُ﴾ بإِثبات الواو، وكذلك ثبت في مصاحف الكوفيين،

---

(١) علّق في (البحر) على هذا الكلام فقال: «إن (أصبح) تأتي بمعنى صار من غير اعتبار كينونة في الصباح»، وقد ورد ذلك في القرآن كثيراً، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾.

وقال الطبري: كذلك هي في مصاحفنا، مصاحف أَهل الشرق، وقرأَ أَبو عمرو وحده: [ويَقُولَ] بإِثبات الواو وبنصب اللام، قال أَبو علي: وروى علي بن نصر عن أَبي عمرو النصب والرفع في اللام، فأَما قراءَة ابن كثير ونافع فمتعاضدة مع قراءَة حمزة والكسائي، لأَن الواو ليست عاطفة مفرد على مفرد مُشركة في العامل، وإِنما هي عاطفة جملة على جملة وواصلة بينها، والجملتان متصلتان بغير واو، إِذ في الجملة الثانية ذكر في الجملة المعطوف عليها، إِذ الذين يسارعون وقالوا نخشى ويصبحون نادمين هم الذين قيل فيهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾، فلما كانت الجملتان هكذا حسُنَ العطف بالواو وبغير الواو، كما أَن قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾(١) لما كان في كل واحدة من الجملتين ذكر ما تقدم اكتفى بذلك عن الواو، وعلى هذا قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٢) ولو دخلت الواو فقيل: [وهُمْ فيها خَالدُون] كان حسناً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولكن براعة الفصاحة في الإِيجاز، ويدل على حُسن دخول الواو قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾. فحذف الواو من قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ كحذفها من هذه الآية، وإِلحاقها في قوله ﴿وَثَامِنُهُمۡ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذهب كثير من المفسرين إِلى أَن هذا القول من المؤمنين إِنما هو إِذا جاءَ الفتح وحصلت ندامة المنافقين، وفضحهم الله تعالىٰ، فحينئذ يقول المؤمن: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ﴾ الآية، وتحتمل الآية أَن تكون حكاية لقول المؤمنين في وقت قول الذين في قلوبهم مرض: ﴿نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾، وعند أفعالهم ما فعلوا في حكاية بني قينقاع، فظهر فيها سرُّهم، وفُهم منهم أَن تمسكهم بهم إِنما هو إِرصاد لله ورسوله، فمقتهم النبي والمؤمنون، وترك النبي ﷺ بني قينقاع لعبد الله بن أُبي رغبة في المصلحة والأُلفة، وبحكم إِظهار عبد الله أَن ذلك هو الرأي من نفسه، وأَن الدوائر التي يخاف

(١) الكهف: ٢٢.

(٢) تكرر ذلك كثيراً في آيات الكتاب الكريم، ونذكر على سبيل المثال الآيات (٣٩ ـ ٨١ ـ ٢١٧ ـ ٢٥٧ ـ ٢٧٥) من سورة البقرة وحدها، وكما تكرر ذلك بالنسبة لأصحاب النار تكرر لأصحاب الجنة.

إنما هي ما يخرب المدينة ، وعلم المؤمنون وكل فطن أَن عبد الله في ذلك بخلاف ما أَبدى ، فصار ذلك موطناً يحسن أَن يقول فيه المؤمنون: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ ﴾ الآية.

وأَما قراءَة أَبي عمرو: [ويقولَ] بنصب اللام فلا يتجه معها أَن يكون قول المؤمنين إِلا عند الفتح وظهور ندامة المنافقين وفضيحتهم ، لأَن الواو عاطفة فعل على فعل مشركة في العامل. وتوجُّه عطف (ويقول) مطرد على ثلاثة أَوجه ـ أَحدها: على المعنى ، وذلك أَن قوله: ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ ﴾ إنما المعنى فيه: فعسى أَن يأْتي الله بالفتح بعطف قوله: [ويقولَ] على ﴿ يَأۡتِيَ ﴾ اعتماداً على المعنى ، وإِلا فلا يجوز أَن يقال: عسى الله أَن يقول المؤمنون ، وهكذا قوله تعالىٰ: ﴿ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن ﴾[(١)] ، لما كان المعنى: أَخرني إِلى أَجل قريب أَصَّدَّق ، وحُمِلَ ﴿ وَأَكُن ﴾ على الجزم الذي يقتضيه المعنى في قوله: ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾. والوجه الثاني: أَن يكون قوله: ﴿ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ ﴾ بدلاً من اسم الله عز وجل ، كما أُبدل من الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ ﴾[(٢)] ، ثم يعطف [ويقولَ] على: ﴿ أَن يَأۡتِيَ ﴾ لأنه حينئذ كأنك قلت: عسى أن يأتي. والوجه الثالث: أن يعطف قوله: ﴿ويقولَ﴾ على ﴿ فَيُصۡبِحُواْ ﴾ إذ هو فعل منصوب بالفاءِ في جواب التمني ، إذ قوله: ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ ﴾ تَمَنٍّ وتَرَجٍّ في حق البشر ، وفي هذا الوجه نظر[(٣)] ، وكذلك عندي في منعهم جواز: «عسى الله أَن يقول المؤمنون» نظر ، إذ الله تعالىٰ يصيرهم يقولون بنصره وإِظهار دينه ، فينبغي أَن يجوز ذلك اعتماداً على المعنى.

وقوله تعالىٰ: ﴿ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ نصب ﴿ جَهۡدَ ﴾ على المصدر المؤكد ، والمعنى:

---

(١) من قوله تعالىٰ في سورة المنافقون: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ الآية (١٠).

(٢) الكهف: ٦٤.

(٣) هذا النظر هو: هل تجري (عسى) في الترجي مجرى (ليت) في التمني أم لا تجري ، وقد قيل: إن (عسى) من الله واجبة فلا ترجي فيها ـ وهذا الوجه من تخريج ابن عطية وتبعه ابن الحاجب كما قال في (البحر) ، وخرج النحاس إعراب (ويقولَ) بالنصب تخريجاً رابعاً هو أن يكون معطوفاً على قوله: (بالفتح) ، أي: بأن يفتح ويقول ـ قال أبو حيان: ولا يصح هذا لأنه قد فصل بينهما بقوله تعالىٰ: ﴿ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ ﴾. ولكلامه بقية مفيدة فارجع إليها في البحرج ٣ ص ٥١٠.

أَهؤلاءِ المقسمون باجتهاد منهم في الإيمان ﴿إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ﴾ ثم قد ظهر الآن منهم من موالاة اليهود وخذل الشريعة ما يكذب إِيمانهم. ويحتمل قوله تعالىٰ: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ أَن يكون إِخباراً من الله تعالىٰ، ويحتمل أَن يكون من قول المؤمنين على جهة الإِخبار بما حصل في اعتقادهم إِذ رأَوا المنافقين في هذه الأَحوال، ويحتمل أَن يكون قوله: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ على جهة الدعاءِ، إِما من الله تعالىٰ عليهم، وإِما من المؤمنين، وحبط العمل: إِذا بطل بعد أَن كان حاصلا، وقد يقال: حبط في عمل الكفار وإِن كان لم يتحصل على جهة التشبيه، وقرأَ جمهور الناس: ﴿حَبِطَتۡ﴾ بكسر الباءِ، وقرأَ أَبو واقد، والجراح: بفتح الباءِ، وهي لغة.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدِدۡ[١] مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ الآية، قال فيها الحسن بن أَبي الحسن، ومحمد بن كعب القرظي، والضحاك، وقتادة: نزلت الآية خطاباً للمؤمنين عامة إِلى يوم القيامة، والإِشارة بالقوم الذين يأْتي بهم إِلى أَبي بكر الصديق وأَصحابه الذين قاتلوا أَهل الردة، وقال هذا القول ابنُ جريج وغيره[٢].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومعنى الآية عندي: إِن الله وعد هذه الأُمة أَن من ارتد منها فإِنه يجيءُ بقوم ينصرون الدين، ويغنون عن المرتدين. فكان أَبو بكر وأَصحابه ممن صدق فيهم الخبر في ذلك العصر، وكذلك هو عندي أَمر علي مع الخوارج، وروى أَبو موسى الأَشعري أَنه لما نزلت هذه الآية قرأَها النبي ﷺ وقال: «هم قوم هذا»، يعني أَبا موسى الأَشعري[٣]، وقال هذا القول عياض، وقال شريح بن عبيد: لما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أَنا وقومي هم يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، ولكنهم قوم هذا»، وأَشار إِلى أَبي موسى[٤]، وقال مجاهد، ومحمد بن كعب أَيضاً: الإِشارة إِلى أَهل اليمن، وقاله شهر بن حوشب.

---

(١) هكذا بدالين الأولى مكسورة والثانية مجزومة، وهي قراءة ابن عامر ونافع وأهل الشام والمدينة.

(٢) أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم ـ عن الضحاك خبراً في هذا المعنى، وأخرج مثله عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والبيهقي، وابن عساكر ـ عن قتادة.

(٣) ورواه الحاكم أبو عبد الله في «المستدرك» بسنده ـ قال ذلك القرطبي.

(٤) أخرجه ابن جرير عن شريح بن عبيد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله عندي قول واحد، لأن أهل اليمن هم قوم أبي موسى، ومعنى الآية على هذا القول مخاطبة جميع من حضر عصر النبي ﷺ على معنى التنبيه لهم والعتاب والتوعد، وقال السدي: الإشارة بالقوم إلى الأنصار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا على أن يكون قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خطاباً للمؤمنين الحاضرين يعم مؤمنهم ومنافقهم، لأن المنافقين كانوا يظهرون الإيمان، والإشارة بالارتداد إلى المنافقين، والمعنى: إن من نافق وارتد فإن المحققين من الأنصار يحمون الشريعة ويسُدُّ الله بهم كل ثَلْم، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، وحمزة، والكسائي، وعاصم: ﴿يَرْتَدَّ﴾ بإدغام الدال في الدال، وقرأ نافع، وابن عامر: [يرْتَدِدْ] بترك الإدغام، وهذه لغة أهل الحجاز «مكة وما جاورها»، والإدغام لغة تميم.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه: متذللين من قِبل أنفسهم غير متكبرين، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾(١) وكقوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمن هين لين». وفي قراءة ابن مسعود: [أَذِلَّة على المؤمنين غلظاءَ عَلَى الْكَافِرِين]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ إشارة إلى الرد على المنافقين في أنهم كانوا يعتذرون بملامة الأخلاق والمعارف من الكفار ويراعون أمرهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ الإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى كون القوم يحبون الله ويُحبهم، وقد تقدم القول غير مرّة في معنى محبة الله للعبد وأنها إظهار النعم المنبئة عن رضاه وإلباسه إياها، و﴿وَٰسِعٌ﴾ معناه: ذو سعة فيما يملك ويعطي وينعم.

قوله عز وجل:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

---

(١) الفتح: ٢٩.

الخطاب بقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية للقوم الذين قيل لهم: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ ، و﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية حاصرة ، يعطي ذلك المعنى: و[وليُّ] اسم جنس[١] ، وقرأ ابن مسعود: [إنَّما مولاكم الله] ، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: وَمَن آمن من الناس حقيقة لا نفاقاً ، وهم الذين ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة بجميع شروطها ، ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ، وهي هنا لفظ عام للزكاة المفروضة وللتطوع بالصدقة ولكل أفعال البر ، إذ هي تنمية للحسنات مطهرة للمرءِ من دنس الذنوب ، فالمؤمنون يؤتون من ذلك كلٌّ بقدر استطاعته ، وقرأ ابن مسعود: [آمَنُوا والَّذِينَ يُقيمُونَ] بواوٍ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ جملة معطوفة على جملة ، ومعناها وصفهم بتكثير الصلاة ، وخصَّ الركوع بالذكر لكونه من أعظم أركان الصلاة ، وهو هيئة تواضع فعبَّر به عن جميع الصلاة ، كما قال: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[٢] وهي عبارة عن المصلين ، وهذا قول جمهور المفسرين ، ولكن اتفق أن علي بن أبي طالب أعطى صدقة وهو راكع ، قال السدي: هذه الآية في جميع المؤمنين ، ولكن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرَّ به سائل وهو راكع في المسجد فأعطاه خاتمه ، وروي في ذلك أن النبي ﷺ خرج من بيته وقد نزلت عليه الآية فوجد مسكيناً فقال له: «هل أعطاك أحد شيئاً»؟ فقال: نعم ، أعطاني ذلك الرجل الذي يصلي خاتماً من فضة ، وأعطانيه وهو راكع ، فنظر النبي ﷺ فإذا الرجل الذي أشار إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر» ، وتلا الآية على الناس[٣].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقال مجاهد: نزلت الاية في علي بن أبي طالب ، تصدق وهو راكع ، وفي هذا

---

(١) ولهذا جاءت بالإفراد ، ولم يقل الله تعالىٰ: (أَوْلِيَاؤُكُمْ) وإن كان المخبر به متعدداً لأن (ولياً) اسم جنس ، أو لأن الولاية حقيقة هي لله تعالىٰ على سبيل التأصل ، ثم نظم في سلكه من ذكر على سبيل التبع ، ولو ذكر جمعاً لم يتبين هذا المعنى من الأصالة والتبعية. ذكر ذلك أبو حيان في (البحر).

(٢) من قوله تعالى الآية (١٢٥) في سورة البقرة: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ ، أو من قوله في سورة الحج: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ الآية (٢٦).

(٣) الحديث مروي من طرق كثيرة مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ ، فقد أخرجه الخطيب في المتفق ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخرجه الطبراني في الأوسط ، وابن مردويه ـ عن عمار بن ياسر ، وأخرج مثله أبو الشيخ وابن مردويه ـ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. (الدر المنثور).

القول نظر ، والصحيح ما قدمناه من تأويل الجمهور ، وقد قيل لأبي جعفر: نزلت هذه الآية في علي. فقال: عليٌّ من المؤمنين والواو ـ على هذا القول ـ في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ واو الحال. وقال قوم: نزلت الآية من أولها بسبب عبادة بن الصامت وتبرئه من بني قينقاع[1]. وقال ابن الكلبي: نزلت بسبب قوم أسلموا من أهل الكتاب ، فجاؤوا فقالوا: يا رسول الله ، بيوتنا بعيدة ، ولا متحدث لنا إلا مسجدك ، وقد أقسم قومنا ألا يخالطونا ولا يوالونا ، فنزلت الآية مؤنسة لهم[2].

ثم أخبر تعالىٰ أن من يتولَّ الله ورسوله ، والمؤمنين فإنه غالب كل من ناوأه ، وجاءت العبارة عامة ـ ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ اختصاراً لأن المتولي هو من حزب الله ، وحزب الله غالب ، فهذا الذي تولى الله ورسوله والمؤمنين غالب ، و﴿وَمَن﴾ يراد بها الجنس لا مفرد بعينه ، والحزب: الصاغية[3] ، والمنتمون إلى صاحب الحزب والمعاونون فيما يحزب ، ومنه قول عائشة رضي الله عنها في حمنة وكانت تحارب في أمر الإفك فهلكت فيمن هلك.

ثم نهى الله تعالىٰ عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياءَ ، فوسمهم بوسم يحمل النفوس على تجنبهم ، وذلك اتخاذهم دين المؤمنين هزؤاً ولعباً ، والهزءُ: السخرية والازدراءُ ، ويقرأُ: [هُزُؤاً] بضم الزاي والهمز ، و[هُزْءاً] بسكون الزاي والهمز ، ويوقف عليه [هزّاً] بتشديد الزاي المفتوحة ، و﴿هُزُوًا﴾ بضم الزاي وتنوين الواو ، و[هُزاً] بزاي مفتوحة منونة ، ثم بيَّن تعالىٰ جنس هؤلاءِ أنهم من أهل الكتاب: اليهود والنصارى.

واختلف القراءُ في إعراب: ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾ ـ فقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة: ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾ نصباً ، وقرأَ أبو عمرو ، والكسائي: [والكفَّارِ] خفضاً ، وروى حسين الجعفي عن أبي هريرة عن أبي عمرو النصب ، قال أبو علي:

---

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن عطية بن سعد. (الدر المنثور).

(٢) أخرجه ابن مردويه ـ من طريق الكلبي ـ عن أبي صالح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال: قال: «أتى عبد الله بن سلام ورهطٌ معه من أهل الكتاب» ، ثم ساق الحديث بتفصيل. (الدر المنثور).

(٣) صاغِيَةُ الرجل: خاصته الميَّالون لاتباعه. وحزب الله هم: جند الله ، أو أنصار الله ، قال الشاعر:

وكيفَ أَضْوَى وَبِلالٌ حِزْبِي

حجة من قرأ بالخفض حمْل الكلام على أقرب العاملين، وهي لغة التنزيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويدخل الكفارُ على قراءَة الخفض فيمن اتخذ دين المؤمنين هزؤا، وقد ثبت استهزاءُ الكفار في قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾[1]، وثبت استهزاءُ أهل الكتاب في لفظ هذه الآية، وثبت استهزاءُ المنافقين في قولهم لشياطينهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[2]. ومن قرأ ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾ بالنصب حمل على الفعل الذي هو: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾، ويخرج الكفار من أن يَتَضَمن لفظ هذه الآية استهزاءهم، وقرأ أُبي بن كعب: «ومن الكفار» بزيادة «من»، فهذه تؤيد قراءَة الخفض، وكذلك في قراءَة ابن مسعود: ﴿من قبلكم من الذين أشركوا﴾.

وفرقت الآية بين الكفار وبين الذين أُوتو الكتاب من حيث الغالب في اسم الكفار أَن يقع على المشركين بالله إِشراك عبادة أَوثان، لأَنهم أَبعد شأْواً في الكفر، وقد قال تعالىٰ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[3] ففرق بينهم إرادة البيان والجميع كفار، وكان هذا لأَن عُبَّاد الأَوثان هم كفار من كل جهة، وهذه الفرق تلحق بهم في حكم الكفر وتخالفهم في رتب، فأَهل الكتاب يؤمنون بالله وببعض الأَنبياءِ، والمنافقون يؤمنون بأَلسنتهم.

ثم أَمر تعالىٰ بتقواه، ونبه النفوس بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أَي حق مؤمنين.

قوله عز وجل:

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾.

---

(١) الحجر: ٩٥.

(٢) البقرة: ١٤.

(٣) من قوله تعالىٰ في سورة التحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ الآية (٩).

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ﴾ الآية إنحاءٌ على اليهود، وتبيين لسوءِ فعلهم، فإنهم كانوا إذا سمعوا قيام المؤمنين إلى الصلاة قال بعضهم لبعض: قد قاموا لا قاموا، إلى غير هذا من الألفاظ التي يستخفون بها في وقت الأذان وغيره، وكل ما ذكر من ذلك فهو مثال، وقد ذكر السدي أنه كان رجل من النصارى بالمدينة، فكان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله قال: حرق الله الكاذب، فما زال كذلك حتى سقط مصباح في بيته ليلة فأحرقه واحترق النصراني لعنه الله.

ثم ذكر تعالىٰ أن فعلهم هذا إنما هو لعدم عقولهم، وإنما عدموها إذ لم تتصرف كما ينبغي لها فكأنها لم توجد.

ثم أمر تعالىٰ نبيه ﷺ أن يقول لأهل الكتاب: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾؟ ومعناه: هل تعدون علينا ذنباً أو نقيصةً؟ يقال: نقَم ـ بفتح القاف ـ ينقِم ـ بكسرها ـ وعلى هذه اللغة قراءَة الجمهور، ويقال: نقِم ـ بكسر القاف ـ ينقَم ـ بفتحها ـ وعلى هذه اللغة قرأ أبو حيوة، وابن أبي عبلة، وأبو البَرَهْسَم[1] النَّخَعي. وهذه الآية من المحاورة البليغة الوجيزة، ومثلها قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾[2]، ونظير هذا الغرض في الاستثناء قول النابغة:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ[3]

وقرأ الجمهور: ﴿أُنزِلَ﴾ بضم الهمزة، وكذلك في الثاني، وقرأ أبو نُهَيك: [أَنزَل] بفتح الهمزة والزاي فيهما.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ هو عند أكثر المتأولين معطوف على قوله: ﴿أَنْ

---

(١) بَرَهْسَم ـ بفتح الباء والراء والسين وسكون الهاء ـ، وهو من ذوي القراءات الشاذة، واسمه: عمران بن عثمان الزبيدي الشامي.

(٢) من قوله تعالىٰ في سورة البروج: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ الآية (٨).

(٣) الفلول: جمع فلٍّ وهو الكسر في حدّ السيف، وقراع الكتائب هو: تضارب أفرادها وتطاعنهم بالسيوف أو بالرماح. والبيت مثال لما اصطلح البلاغيون على تسميته تأكيد المدح بما يشبه الذم، ومثله قول عبد الله بن قيس الرقيات:

مَا نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ إلا ... أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إنْ غَضِبُوا

قال الكسائي: نقمت بالكسر لغة، ونقمت الأمر أيضاً، ونقِمته إذا كرهته، وانتقم الله منه إذا عاقبه، والاسم منه: النِّقْمة، والجمع نَقِمات ونَقِم ـ مثل كَلِمة وكَلِمات وكَلِم.

ءَامَنَّا﴾ فيدخل كونهم فاسقين فيما نقموه ، وهذا لا يتجه معناه ، وروي عن الحسن بن أَبي الحسن أَنه قال في ذلك: بِفِسْقهم نقموا علينا الإِيمان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الكلام صحيح في نفسه لكنه غير مغن في تقويم معنى الأَلفاظ ، وإِنما يتجه على أَن يكون معنى المحاورة ، هل تنقمون منا إِلا عموم هذه الحال من أَننا مؤمنون وأَنتم فاسقون؟ ويكون: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ مما قرره المخاطب لهم ، وهذا كما تقول لمن تخاصمه: هل تنقم علي إِلاَّ أَن صدقت أَنا وكذبت أَنت؟ وهو لا يقر بأَنه كاذب ولا ينقم ذلك ، لكن معنى كلامك: هل تنقم إِلا مجموع هذه الحال؟ وقال بعض المتأَولين: قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ﴾ معطوف على ﴿وَمَآ﴾ كأَنه قال: ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ ويكتبه وبأَن أَكثركم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا مستقيم المعنى ، لأَن إِيمان المؤمنين بأَن أَهل الكتاب المستمرين على الكفر بمحمد فسقة هو ممَّا ينقمونه ، وذكر تعالى الأَكثر منهم من حيث بينهم من آمن ومن اهتدى.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ ـ قرأَ الجمهور بفتح النون وشد الباءِ ، وقرأَ ابن وثاب ، والنَّخَعي: [أُنْبِئُكُم] بسكون النون وتخفيف الباءِ من (أَنبأَ) ، وقرأَ الناس: ﴿مَثُوبَةً﴾ بضم الثاءِ وسكون الواو ، وقرأَ ابن بريدة ، والأَعرج ، ونبيح ، وابن عمران: [مثْوَبة] بسكون الثاءِ وفتح الواو ، وقال أَبو الفتح: هذا مما خرج عن أَصله شاذ عن نظائره ، ومثله قول العرب: «الفاكهة مقْوَدة إِلى الأذى» بسكون القاف وفتح الواو ، والقياس: مثابة ومقادة ، وأَما مثُوبة بضم الثاءِ فأَصلها مثْوُبة وزنها مَفْعَلة بضم العيْن ، نقلت حركة الواو إِلى الثاءِ ، وكانت قبل مثْوُبة مثل مقوولة[1] ، والمعنى في

(١) فلما نقلت حركة الواو إلى الثاء في مَثُوبة ، وإلى القاف في مقوولة سكنت الواو وبعدها واو ساكنة فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين ، ومثلهما في ذلك مجوزة ومضوفة على معنى المصدر ، ومضوفة هي الأمر يُشَق منه ويخاف ، قال أبو جندب الهزلي:

وكنْـتُ إِذا جَـاري دعـا لِمَضُـوفَـةٍ ... أُشَمِّـرُ حتَّـى يَنْصُـفَ السَّـاقَ مِئْـزَري

أي: إذا نزل بجاري ما يخافه شمرت مئزري إلى نصف الساق للدفاع عنه والوفاء له.

القراءَتين: مرجعاً عند الله ، أَي: في الحشر يوم القيامة ، تقول العرب: ثاب يثوب إِذا رجع ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾(١) .

ومشى المفسرون في هذه الآية على أَن الذين أُمر أَن يقول لهم: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ هم اليهود والكفار المتخذون ديننا هزؤاً ولعبا ، قال ذلك الطبري وتوبع عليه ، ولم يسند في ذلك إِلى متقدم شيئاً ، والآية تحتمل أَن يكون القول للمؤمنين ، أَي: قل يا محمد للمؤمنين: هل أُنبئكم بِشَرٍّ من حال هؤُلاءِ الفاسقين في وقت الرجوع إِلى الله ، أُولئك أَسلافهم الذين لعنهم الله وغضب عليهم ، فتكون الإِشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إِلى حالهم من كون أَكثرهم فاسقين ، وتحتمل الآية أَن يكون القول للحاضرين من بني إِسرائيل ، وتكون الإِشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إِلى حال الحاضرين من كون أَكثرهم فاسقين ، ويكون قوله: [شَرّ ـ وَأَضَلّ] صفة تفضيل بين شيئَين لهما اشتراك في الشر والضلال.

وتحتمل الآية أَن يكون القول للحاضرين من بني إِسرائيل ، والإِشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إِلى إِيمان المؤمنين وجميع حالهم ، ويُوَجّه التفضيل بـ [شَرّ ـ وأَضلّ] على أَن الاشتراك في الشر والضلال هو في معتقد اليهود ، فأَما في الحقيقة فلا شر ولا ضلال عند المؤمنين ، ولا شركة لهم في ذلك مع اليهود والكفار ، ويكون على هذا الاحتمال قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ الآية يراد به جميع بني إِسرائيل ـ الأَسلاف والأَخلاف. لأَن الخلف يُذم ويُعير بمذمات السلف إِذا كان الخلف غير مراجع ولا ذامٍّ لما كان عليه سلفه ، فهو في حكمه. وفي قراءَة أُبي بن كعب ، وعبد الله بن مسعود: «مَن غَضِبَ اللهُ علَيْهم وجَعَلَهُم قِرَدَة وخنازير» ، واللعنة: الإِبعاد عن الخير.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ﴾ هي بمعنى: صيَّر ، وقال أَبو علي في كتاب الحجة: هي بمعنى خَلَقَ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه منه رَحِمَهُ الله نزعةٌ اعتزالية ، لأَن قوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ تقديره: ومن عبد الطاغوت ، والمعتزلة لا ترى أَن الله يصير أَحداً عابد طاغوت ، وقد تقدم قصص مسخهم قردة في سورة البقرة ، وأَما مسخهم خنازير فروي أَن ذلك كان بسبب امرأَةٍ

(١) البقرة: ١٢٥.

كانت مؤمنة من بني إسرائيل ، وكفر ملك منهم في مدينة من مدنهم وكفر معه أَهل مملكته ، فدعت المرأَة قوماً إِلى نُصرة الدين فأَجابوها ، فخرجت بهم فَهُزموا ، ثم فعلت ذلك ثانية وثالثة وفي كل مرة يُهزم جمعها ، فيئست وباتت مهمومة ، فلما أَصبح رأَت أَهل تلك المدينة يسعون[1] في نواحيها خنازير ، فقالت: الآن أَعلم أَن الله أَعز دينه وآثر دينه ، قال عمرو بن كثير بن أَفلح مولى أَبي أَيوب الأَنصاري: ما كان مسخ بني إسرائيل إلاّ على يدي تلك المرأَة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ تقديره: ومن عبد الطاغوت ، وذلك عطف على قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ ، أَو معمول لـ ﴿وَجَعَلَ﴾ ، وفي هذا يقول أَبو علي: إِن جعل بمعنى خلق.

واختلف القراءُ في هذا الحرف ـ فقرأَ حمزة وحده: [وَعَبُد الطاغوت] بفتح العيْن وضم الباءِ وكسر التاءِ من [الطاغوتِ] ، وذلك أَن [عَبُدَ] لفظ مبالغة كيقُظ ونَدُس[2] ، فهو لفظ مفرد يراد به الجنس وبُني بناءَ الصفات ، لأَن عَبُدَ في الأَصل صفة وإِن كان استعمل استعمال الأَسماءِ ، وذلك لا يُخرجه عن حُكم الصفة ، فلذلك لم يمتنع أَن يُبنى منه بناءَ الصفات ، وقرأَ بهذه القراءَة الأَعمش ، ويحيى بن وثاب ، ومنه قول الشاعر:

أَبَنِــــي لُبَيْنَــــى إِنَّ أُمَّكُــــمُ ... أَمَــــةٌ وَإِنَّ أَبَــــاكُــــم عَبُــــدُ[3]

---

(١) اختلفت النسخ الخطية في كتابة هذه الكلمة ، وفي بعضها كلمات لا يستقيم معها المعنى ، وما اخترناه هنا يتفق مع ما ورد في (الطبري) وفي (الدر المنثور).

(٢) يقال: رجل يَقُظ «بضم القاف» ، أي: ذكيٌّ فطن وجمعه أيقاظ. والنَّدُس «بضم الدال»: الذي يخالط الناس دون أن يثْقُل عليهم. جمعه: ندُسُون ، ولا يكسَّر لقلة هذا البناء في الأسماء. (المعجم الوسيط).

(٣) البيت لأوس بن حجر التميمي كما قال في (اللسان). وقد ذكر قبله بيتاً آخر هو:

أبنــــي لُبَيْنَــــىَ لسْــــتُ مُعْتَــــرِفــــاً ... لِيكــــونَ ألأم مِنْكُــــم أَحَــــدُ

والشاهد في قوله: (عَبُدُ) فإنه بتثقيل الباء ، أي: تحريكها بالضم للضرورة ، لأن القصيدة من الكامل ، وهي حذَّاء. وهذا هو رأي الطبريّ ، فإنه قال بعد أن ذكر البيت: «هذا من ضرورة الشعر ، وهذا يجوز في الشعر لضرورة القوافي ، وأما في القراءة فلا». وكذلك قال ابن منظور في اللسان: «فإنه أراد وإن أباكم عبْد فثقل للضرورة. ا هـ. قارن ذلك بما ذكره ابن عطية من أن (عَبُد) في البيت من صيغ المبالغة. والله أعلم.

ذكره الطبري وغيره بضم الباء. وقرأ الباقون: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ بفتح العين والباءِ وإعماله في [الطَّاغوت]، وقد تقدم ذكره، وقرأ أُبي بن كعب: [عَبَدُوا الطاغُوتَ] على إسناد الفعل الماضي إلى ضمير جمع، وقرأ ابن مسعود فيما روىٰ عبد الغفار عن علقمة عنه: [وعَبُد الطَّاغوتُ] بفتح العين وضمِّ الباءِ ورفع التاءِ من [الطَّاغوت]، وذلك على أن يصير له أَن [عَبُد] كالخلق والأمر المعتاد المعروف، فهي في معنى: فَقُه وشَرُف وظَرُف. وقرأ ابن عباس، وإبراهيم بن أَبي عبلة: [وعَبَد الطَّاغوتِ] بفتح العين والباءِ وكسر التاءِ من [الطَّاغوتِ] وذلك على أَن المراد «عبدة الطاغوت»، وحذفت الهاء تخفيفاً[١]، ومثله قول الراجز:

قَـامَ وُلاهـا فَسَقَـوهُ صَـرْخَـدَا[٢]

أَراد: وُلاَتُها فحذف تخفيفاً. وقرأ الحسن بن أَبي الحسن في رواية عباد عنه: [وعَبْد الطَّاغوتِ] بفتح العين وسكون الباءِ وكسر التاءِ من [الطَّاغوتِ]، وهذا على أَنه اسم جنس مفرد يراد به جمع، وروي عن الحسن من غير طريق عباد أَنه قرأ بفتح العين والدال وسكون الباءِ ونصب التاءِ من [الطاغوت]، وهذه تتجه على وجهين ـ أَحدهما أَنه أَراد: «وَعَبْداً الطاغوت» فحذف التنوين كما حذف في قول الشاعر:

. . . . وَلا ذَاكِـــــرَ الله إِلا قليـــــــلا[٣]

والوجه الآخر أَن يريد: «عَبَدَ» الذي هو فعل ماض، وسكن عين الباءِ على نحو ما هي عين الفعل مسكنة في قول الشاعر:

---

(١) في بعض النسخ: «وحذفت التاء تخفيفاً».

(٢) في (تاج العروس) ـ مادة صَرْخَد ـ: الصَّرْخَد: اسم للخمر ـ عن الفراء، وأنشد البيت: و«وُلاها» يريد: وُلاتها، وصَرْخَد بلا لام: بلدٌ بالشام، وقيل: موضع منه ينسب إليه الخمر في قول الراعي:

وَلَـذٌ كَطَعْـم الصَّـرْخَـديّ طَـرَحْتُـهُ عَشِيَّـةَ خِمْـسِ القَـوْم وَالْعَيْـنُ عَـاشِقُـه

وفي (اللسان): صَرْخَد: موضع نسب إليه الشراب في قول الراعي: «وذكر البيت». ثم قال: واللَّذ: النوم، وذكَّر العيْن على معنى الطرف. وروي البيت: والعيْن عاشقُه ولكن الرفع أصح لمناسبة ما قبله من أبيات.

(٣) قال في (البحر) تعقيباً على هذا التنظير: «ولا وجه لهذا التخريج، لأن (عبْداً) لا يمكن أن ينصب (الطاغوت)، إذْ ليس بمصدر ولا اسم فاعل، والتخريج الصحيح أن يكون تخفيفاً من (عَبَد) بفتحها» ـ وهو الوجه الآخر الذي ذكره ابن عطية.

وَمَا كُلُّ مَغْبُونٍ وَلَوْ سَلْفَ صَفْقُهُ . . . .[١]

فإِنَّ اللام من «سلْف» مسكنة ، ونحو هذا قول أَبي السَّمال: [وَلُعْنُوا بما قالوا][٢]. فهذه قراءَاتٌ العيْن فيها مفتوحة.

وقرأَ أَبو واقد الأَعرابي في رواية العباس بن الفضل عنه: [وعُبَّادَ الطاغوت] بضم العين وشد الباءِ المفتوحة وأَلف بعدها وفتح الدال وكسر التاءِ من [الطاغوت]. وذلك جمع عابد. وقرأَ عون العُقَيلي فيما روى عنه العباس بن الفضل أَيضاً: [وعابدُ الطاغوت] على وزن فاعل ، والدال مرفوعة ، قال أَبو عمرو: تقديره: وهم عابد الطاغوت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهو اسم جنس. وروى عكرمة عن ابن عباس: [وَعَابدوا الطَّاغوت] بضمير جمع ، وقد قال بعض الرواة في هذه الأَخيرة إِنها تجويز لا قراءَة. وقرأَ ابن بُرَيْدَة: [وعَابِدَ الطَّاغوتِ] بفتح العين والدال وكسر الباءِ والتاءِ. وقرأَ بعض البصريين: [وعِبَادَ الطَّاغوتِ] بكسر العين وفتح الباءِ والدال وأَلف بينهما وكسر التاءِ. قال أَبو الفتح: فيحتمل أَن يكون ذلك جمع (عابد) كقائم وقيام ، وصائم وصيام ، وقد يجوز أَن يكون جمع (عبْد). وقلما يأْتي (عباد) مضافاً إِلى غير الله ، وأَنشد سيبويه:

أَتُوعِدُني بِقَوْمِكَ يا بْنَ حَجْلٍ أُشَابَاتٍ يُخَالُونَ العِبَادَا؟[٣]

---

(١) البيت في (اللسان) (سَلَفَ):

وَمَا كُلُّ مُبْتَاعٍ ولَوْ سلْفَ صَفْقُهُ بِرَاجِعِ ما قَدْ فَاتَهُ بِرَدَادِ

ولكنه في (ردّ) رواه: «وَمَا كُلُّ مَغْبُونٍ. . . إلخ» ونسبه للأخطل ـ والرَّداد: الرَّدُّ. ويقال: رَدَاد ورِداد ـ بفتح الراء وكسرها ـ.

(٢) من قوله تعالىٰ في سورة المائدة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ الآية (٦٤) ، وانظر قول ابن عطية: «ونحو هذا قول أبي السّمال». ولعله خطأ من النساخ ، والصواب: «ونحو هذا قراءة أبي السّمال». والله أعلم.

(٣) البيت ذكره ابن عطية هنا ، وأبو حيان في (البحر المحيط) ، وابن جني في (المحتسب) ، وكلهم يقولون: «وأنشد سيبويه» ، ولم ينسبه أحد لقائله ـ وذكر في (تاج العروس) ثلاثة يحملون اسم حجل ، أقربهم إلى الظن أن يكون هو المراد هنا هو: حِجْل الشاعر ، كان عبداً لبني مازن. نقله الحافظ هكذا. والأشابات: الأخلاط ، وفي الكتاب بعده:

بِمَا جَمَّعْتَ مِنْ حَضَنٍ وعمرٍو وَمَا حَضَنٌ وَعَمْرٌو وَالجِيَادَا؟

قال أَبو الفتح: يريد «عباد آدم» عليه السلام، ولو أَراد «عباد الله» فليس ذلك شيءٌ يسب به أَحد، وجميع الخلق عباد الله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التعليق بآدم ﷺ شاذٌّ بعيد، والاعتراض فيه باق، وليس هذا مما يُتَخيل أَن الشاعر قصده، وإِنما أَراد «العبيد» فساقته القافية إِلى «العباد»، إِذ يقال ذلك لمن تُملِّك مَلْكة مَّا. وقد ذكر أَن عرب الحيرة من العراق إِنما سموا العباد لأَنهم دخلوا في طاعة كسرى فدانتهم مملكته.

وذكر الطبري عن بريدة الأَسلمي أَنه كان يقرأُ: [وعَابِدَ الشيطان] بفتح العين والدال وكسر الباءِ وأَلف قبلها. وذكر «الشيطان» بدل «الطاغوت» فهذه قراءَات فيها أَلف.

وقرأَ ابن عباس فيما روى عنه عكرمة، وقرأَها مجاهد، ويحيى بن وثاب: [وعُبُدَ الطَّاغوتِ] بضم العين والباءِ وفتح الدال وكسر التاءِ، وذلك جمع «عَبْد» كرهْن ورُهُن وسَقْف وسُقُف، وقال أَحمد بن يحيى ثعلب: هو جمع «عابد» كشارفٍ وشُرُف، ومنه قول القيْنَة:

أَلاَ يـا حَمْـزَ لِلشُّـرُفِ النِّـواءِ ... وهُـنَّ مُعَقَّـلاتٌ بـالفِنَـاءِ(١)

وقال أَبو الحسن الأَخفش: هو جمع «عبيد»، وأَنشد:

أَنْسُـبِ العَبْـدَ إِلَـى آبـائِـهِ ... أَسْـودَ الجِلْـدَةِ مِـنْ قَـوْمِ عُبُـدْ(٢)

---

(١) البيت مروي ضمن أبيات أخرى في (تاج العروس). والشَّارفُ من النُّوق: المُسِنَّة الهرمة، والجمع: شوارفُ وشُرُفٌ ككُتُب وشُرَّف مثل رُكَّع. وقيل: شُرْف مثل: بازل وبُزْل. وفي حديث عليٍّ رضي الله عنه: «أَصبْتُ شارفاً من مغنم بدر، وأعطاني رسول الله ﷺ، فأَنَخْتُهما بباب رجل من الأَنصار، وحمزةُ في البيت ومعه قَيْنَةٌ تغنيه:

الا يـا حَمْـزَ لِلشُّـرُف النِّـواء ... فَهُـنَّ مُعَقَّـلاتٌ بـالفَنَـاءِ
ضَـع السكِّيـنَ فـي اللَّبـاتِ منهـا ... وَضَـرِّجْهُـنَّ حَمَـزَةُ بـالـدِّمـاءِ
وَعَجِّـلْ مِـنْ أطـايبهـا لشَـرْبٍ ... طعـامـاً فـي قـديـدٍ أوْ شِـواءِ

فخرج إليهما فَجبَّ أَسْنِمَتَهما. وبقر خواصرهما وأخذ أكبادهما، فنظرت إلى منظر أفظعني، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فخرج ومعه زيد بن حارثة رضي الله عنه حتى وقف عليه وتغيظ، فرفع رأسه إليه وقال: هل أنتم إلا عبيد آبائي، فرجع رسول الله ﷺ يقهقر. قال ابن الأثير: هي جمع شارف، وتُضم راؤُها وتُسكن تخفيفاً. ويروى: ذا الشَّرف: أي الرفعة. والنِّواء: السمينة.

(٢) قال في (اللسان): العبد المملوك خلاف الحرّ، قال سيبويه: هو في الأصل صفة، ولكنه استعمل=

وقرأَ الأَعمش وغيره: [وعُبَّد الطاغوتِ] بضم العين وشد الباءِ المفتوحة وفتح الدال وكسر التاءِ، وذلك على جمع «عابد» كضارب وضُرَّب، وقرأَ إِبراهيم النَّخَعي. وأَبو جعفر بن القعقاع، والأَعمش في رواية هارون: [وعُبِدَ الطاغوتُ] بضم العين وكسر الباءِ وفتح الدال وضم التاءِ، كما تقول: ضُرب زيدٌ، وضعَّف الطبري هذه القراءَة وهي متجهة[1]. وروي عن عبد الله بن مسعود أَنه قرأَ: [وَعُبِدَت الطاغوتُ] كما تقول: «ضُربتِ المرأَة»، وروى علقمة عن عبد الله بن مسعود: [وعُبُدَ الطاغوتِ] بضم العين وفتح الباءِ والدال وكسر التاءِ، وهذه أَيضاً بناءَ مبالغة اسم مفرد يراد به هنا الجمع بُني كَحُطَمَ ولُبَدَ، وروى عكرمة عن ابن عباس: [وعُبَّدَ الطاغوتَ] على وزن فُعَّلَ بضم الفاءِ وشد العين المفتوحة وفتح اللام ونصب التاءِ، وهذه تتخرج على أَنه أَراد: «وعبدا» منوناً ثم حذف التنوين للالتقاءِ، كما قال: ولا ذاكِرَ الله ـ وقد تقدم نظيره[2].

والطاغوت: كل ما عُبد من دون الله من وثن أَو آدمي يرضى ذلك أَو شيطان، وقد استوعبت تفسيره في سورة البقرة. وكان: يحتمل أَن يريد في الآخرة، فالمكان على وجهه، أَي: المحل، إِذ محلهم جهنم. وأَن يريد في الدنيا فهي استعارة للمكانة والحالة.

و﴿سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾: وسطه، ومنه قول العرب: «قمت حتى انقطع سوائي»، ومنه

= استعمال الأسماء، والجمع: أَعْبُدٌ وعبيدٌ مثل كَلْب وكَلِيب ـ وهو جمع عزيز ـ وعبادٌ، وعُبُد مثل سقْف وسُقُف، وأنشد الأخفش... وساق البيت، ثم قال: ومنه قرأ بعضهم: [وعُبُد الطاغوتِ]. (مادة عَبَدَ).

(١) ضعَّفَ الطبري هذه القراءة وقال: «لا معنى لها، لأن الله ابتدأ الخبر بذمِّ أقوام، فكان فيما ذمهم به عبادتهم الطاغوت، وأما الخبر على أن الطاغوت قد عُبد فليس من نوع الخبر الذي ابتدأ به الآية، ولا من جنس ما ختمها به فيكون له وجه يوجَّه إليه من الصحة». أما قول ابن عطية تعقيباً على تضعيف الطبري لها: وهي مُتَّجهة فقد وضحه أبو حيان في (البحر) فقال: وهي متجهة على حذف الرابط، أي: وعُبِد الطاغوتُ فيهم أو بينهم، ويحتمل أَن يكون (وعُبِد) ليس داخلاً في الصلة لكنه على تقدير (من) إما عطفاً على «القردة والخنازير» وإما عطفاً على (مَنْ) في قوله تعالىٰ: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾.

(٢) المتواتر من كل هذه القراءات اثنتان: قراءة حمزة: [عَبُدَ الطاغوتِ]، وقراءة باقي السبعة: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾، والقراءات الباقية شاذة. وقد عني بها المفسرون إظهاراً للبراعة في الدراسة والتحصيل. أما كتب القراءات فلم تذكرها، راجع مثلاً «النَّشر في القراءات العشر». لابن الجزري، فإنه لم يشر إليها.

قوله تعالىٰ: ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾[1] ، وخط الاستقامة في السُّبل إنما هو متمكن غاية التمكن في الأَوساط ، فلذلك خص السواءَ بالذكر ، ومن لفظ السَّواءِ قيل: خط الاستواءِ.

قوله عز وجل:

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

الضمير في ﴿جَآءُوكُمْ﴾ لليهود المعاصرين لمحمد ﷺ ، وخاصة للمنافقين منهم ، نص على ذلك ابن عباس ، وقتادة ، والسدي.

ثم أَخبر تعالىٰ عنهم أَنهم دخلوا وهم كفار ، وخرجوا كذلك ، لم تنفعهم الموعظة ، ولا نفع فيهم التذكير ، وقوله: ﴿وَهُمْ﴾ تخليص من احتمال العبادة أَن يدخل قوم بالكفر ثم يؤمنوا ، ويخرج قوم وهم كفرة ، فكان ينطبق على الجميع: «وقد دخلوا في الكفر وهم قد خرجوا به» ، فأَزال الاحتمال قوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ ، أَي: هم بأَعيانهم ، ثم فضحهم الله تعالى بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ أَي: من الكفر.

وقوله تعالىٰ لنبيه: ﴿وَتَرَىٰ﴾ يحتمل أَن يكون من رؤْية البصر ، ويحتمل من رؤْية القلب ويكون المفعول الثاني: ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ ، وعلى الاحتمال الأَول ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ حال ، و﴿فِي ٱلْإِثْمِ﴾ معناه: في موجبات الإثم ، إذ الإثم إنما هو الحكم المعلق بصاحب المعصية والنسبة التي يصير إليها إذا وقع الذنب ، وهو من هؤلاءِ كُفْرُهم ، و﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ مصدر من: عَدَا الرجل إذا ظلم وتجاوز الحد ، و﴿ٱلسُّحْتَ﴾ هو الرِّشا

(١) من قوله تعالىٰ في سورة الصافات: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ الآية (٥٥).

وسائر مكسبهم الخبيث ، واللام في ﴿لَبِئْسَ﴾ لام قَسَم ، وقرأ أبو حيوة: [والعِدْوان] بكسر العيْن.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ تخصيص في ضمنه توبيخ لهم إِذ تركوا اللازم ، قال الطبري: كل العلماءِ يقولون: ما في القرآن آية هي أَشد توبيخاً للعلماءِ من هذه الآية ولا أَخوف عليهم منها. وقال الضحاك بن مزاحم: ما في القرآن أَخوف عندي منها ، إِنا لا ننْهى ، وقال نحو هذا ابن عباس: وقرأَ الجراح ، وأَبو واقد: [الرِبَّانيُّون] بكسر الراءِ ، واحدهم: رِبّي ، إِما منسوب إِلى علم الرب ، وإِما من تربية الناس بصغار العلم قبل كباره ، وزيدت النون في نسبته مبالغة كشعراني ومنظراني ومخبراني ، وقال الحسن: الرّباني: عالم الإِنجيل ، والحبر: عالم التوراة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقوله في الرباني شاذ بعيد.

﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ واحدهم حَبْر بكسر الحاءِ وفتحها ، وهم العلماءُ الذين لا يعنون لإِصلاح الناس ولا يكلفون ذلك ، والرباني هو العالم المدبر المصلح ، وقوله تعالىٰ: ﴿عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾ ظاهر أَن الإِثم هنا يراد به الكفر ، ويحتمل أَن يراد به سائر أَقوالهم المنكرة في النبي ﷺ والمؤمنين ، وقرأَ ابن عباس: [بِئْس مَا كانوا يَصْنَعُونَ] بغير لام قَسَم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ إِلى قوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ هذه الآية تعديد كبيرة من أَقوالهم وكفرهم ، أَي: فمن يقول هذه العظيمة فلا يُستنكر عليه أَن ينافق عليك يا محمد ، ويَسعى في ردّ أَمر الله الذي أَوحاهُ إِليك. وقال ابن عباس وجماعة من المتأَولين: معنى قولهم التبخيل ، وذلك أَنهم لحقتهم سنة وجهد فقالوا هذه العبارة يعنون بها أَن الله بخل عليهم بالرزق والتوسعة ، وهذا المعنى يشبه ما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾[1] ، فإِنما المراد لا تبخل ، ومنه قول النبي ﷺ: «مثل البخيل والمتصدق» الحديث[2] ، وذكر الطبري والنقاش أَن هذه الآية نزلت في فنحاص

---

(١) الإسراء: ٢٩.

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما ، ولفظه: «مَثَل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد ، من ثديهما إلى تراقيهما ، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت على جلده حتى تخفي بنانه وتطفو أثره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع». والحديث مروي=

اليهودي وأنه قالها، وقال الحسن بن أبي الحسن: قولهم: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾، إنما يريدون عن عذابهم، فهي ـ على هذا ـ في معنى قولهم: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾، وقال السدي: أرادوا بذلك أن يده مغلولة حتى يردَّ علينا ملكنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكأنهم عنوا أن قوته تعالىٰ نقصت، ولذلك غلبوا على ملكهم، وظاهر مذهب اليهود لعنهم الله في هذه المقالة التجسيم، وكذلك يعطي كثير من أقوالهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ دعاءٌ عليهم، ويحتمل أن يكون خبراً، ويصح على كلا الاحتمالين أن يكون ذلك في الدنيا، وأن يراد به الآخرة، وإذا كان خبراً عن الدنيا فالمعنى: غلت أيديهم عن الخير والإنفاق في سبيل الله ونحوه، وإذا كان خبراً عن الآخرة فالمعنى: غُلَّت في نار جهنم، أي: حتم هذا عليهم ونفذ به القضاءُ، كما حتمت عليهم اللعنة بقولهم هذا وبما جرى مجراه، وقرأ أبو السمال: [وَلُعْنوا] بسكون العين، وذلك قصد للتخفيف لا سيما هنا للهبوط من ضمة إلى كسرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ العقيدة في هذا المعنى نفيُ التشبيه عن الله تعالىٰ، وأنه ليس بجسم ولا جارحة، ولا يُشبَّه ولا يُكيَّف ولا يتحيَّز في جهة كالجواهر ولا تحله الحوادث، تعالى عما يقول المبطلون.

ثم اختلف العلماءُ فيما ينبغي أن يعتقد في قوله تعالىٰ: ﴿ بَلْ يَدَاهُ ﴾، وقوله: ﴿ بِيَدَيَّ ﴾(١)، ﴿ عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾(٢)، ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾(٣)، ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾(٤)، ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾(٥)، ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾(٦)، و﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾(٧)، ونحو هذا.

= عن أبي هريرة، ورمز له في (الجامع الصغير) بأنه صحيح.

(١) من قوله تعالىٰ في سورة ص: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ الآية (٧٥).

(٢) من قوله تعالىٰ في سورة يس: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾ الآية (٧١).

(٣) من قوله تعالىٰ في سورة الفتح: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ الآية (١٠).

(٤) من قوله تعالىٰ في سورة طه: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ الآية (٣٩).

(٥) من قوله تعالىٰ في سورة القمر: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ الآية (١٤).

(٦) من قوله تعالىٰ في سورة الطور: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ الآية (٤٨).

(٧) من قوله تعالىٰ في سورة القصص: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ الآية (٨٨).

فقال فريق من العلماء، منهم الشعبي، وابن المسيب، وسفيان: يُؤمن بهذه الأَشياءِ، وتقرأُ كما نصها الله، ولا يعن لتفسيرها، ولا يشقق النظر فيها(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول يضطرب، لأَن القائلين به يجمعون على أَنها ليست على ظاهرها في كلام العرب، فإِذا فعلوا هذا فقد نظروا، وصار السكوت على الأَمر بعد هذا ما يوهم العوام ويُتيه الجهلة.

وقال جمهور الأُمة: بل نفسر هذه الأُمور على قوانين اللغة ومجاز الاستعارة وغير ذلك من أَفانين كلام العرب، فقالوا في العين والأَعين: إِنها عبارة عن العلم والإِدراك، كما يقال: فلان من فلان بمرأًى ومسمع، إِذا كان يعنى بأُموره وإِن كان غائباً عنه. وقالوا في الوجه: إِنه عبارة عن الذات وصفاتها، وقالوا في اليد واليمين والأَيدي: إِنها تأْتي مرة بمعنى القدرة، كما تقول العرب: لا يَدَ لي بكذا، ومرة بمعنى النعمة، كما يقال: لفلان عند فلان يدٌ، وتكون بمعنى المِلك، كما تقول: يد فلان على أَرضه. وهذه المعاني إِذا وردت عن الله تبارك وتعالىٰ عبر عنها باليد أَو الأَيدي أَو اليدين استعمالاً لفصاحة العرب، ولما في ذلك من الإِيجاز، وهذا مذهب أَبي المعالي والحذاق.

وقال قوم من العلماءِ منهم القاضي ابن الطيب: هذه كلها صفات زائدة على الذات، ثابتة لله دون أَن يكون في ذلك تشبيه ولا تحديد، وذكر هذا الطبري وغيره.

وقال ابن عباس في هذه الآية: يداه: نعمتاه.

ثم اختلفت عبارة الناس في تعيين النعمتين ـ فقيل: نعمة الدنيا ونعمة الآخرة، وقيل: النعمة الظاهرة والنعمة الباطنة، وقيل: نعمة المطر ونعمة النبات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والظاهر أَن قوله تعالىٰ: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ عبارة عن إِنعامه على الجملة، وعبر

---

(١) يقال: أَعننتُ بعُنَّةٍ: إذا تعرضت لشيءٍ لا أعرفه، والرجل المُعِن هو الذي يدخل فيما لا يعنيه. والتشقيق مبالغة في الشّقّ، وشَقّق الكلام: وسّعه وبيّنه وَوَلّد بعضَه من بعض، وفي حديث البيْعة: «تَشْقيق الكلام عليكم شديد».

عنه بيدين جَرْياً على طريقة العرب في قولهم: فلان ينفق بكلتى يَديه، ومنه قول الشاعر وهو الأَعشى:

يَـدَاكَ يَـدا مَجْـدٍ، فَكَـفٌّ مُفيـدةٌ وكَـفٌّ إذا ما ضُـنَّ بـالمـالِ تَنْفِـقُ[1]

ويؤيد أَن اليدين هنا بمعنى الإِنعام قرينة الإِنفاق. قال أَبو عمرو الداني: وقرأَ أَبو عبد الله: [بَلْ يَداهُ بَسْطَتَانِ]، يقال: يدٌ بسطة أَي: مطلقة، وروي عنه: «بسطان».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ إعلام لمحمد ﷺ، فإِن هؤلاءِ اليهود من العتو والبعد عن الحق بحيث إِذا سمعوا هذه الأَسرار التي لهم والأَقوال التي لا يعلمها غيرهم تنزل عليك طغوا وكفروا، وكان نَوْلُهم أَن يؤمنوا[2]، إِذ يعلمون أَنك لا تعرفها إِلا من قبل الله، لكنهم من العتو بحيث يزيدهم ذلك طغياناً. وخص تعالىٰ ذكر الكثير إِذ فيهم من آمن بالله ومن لا يطغى كل الطغيان.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾، فهي قصص يعطف بعضها على بعض، والعداوة أَخص من البغضاءِ لأَن كل عدو فهو يبغض، وقد يبغض من ليس بعدو، وكأَن العداوة شيءٌ مشتهر يكون عنه عملٌ وحرب، والبغضاءُ قد لا تجاوز النفوس، وقد أَلقى الله الأَمرين على بني إِسرائيل.

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ استعارة بليغة تُنْبئُ عن فض جموعهم وتشتيت آرائهم وتفريق كلمتهم. والآية تحتمل أَن تكون إِخباراً عن حال أَسلافهم، أَي: منذ عصَوْا، وعتوا وهَدَّ الله مُلْكَهم رماهم بهذه الأُمور، فهم لا ترتفع لهم راية إِلى يوم القيامة، ولا يقاتلون جميعاً إِلا في قرى محصنة. هذا قول الربيع والسدي وغيرهما. وقال مجاهد: معنى الآية: كلما أَوقدوا ناراً لحرب محمد أَطفأَها الله، فالآية على هذا تبشير لمحمد ﷺ والمؤمنين، وإِشارة إِلى حاضِريه من اليهود.

---

(١) هذا البيت من قصيدته التي يمدح بها المحلق بن خنثم بن شداد بن ربيعة، ومطلعها:

أرقْـتُ ومـا هَـذا السُّهَـادُ المُـؤَرِّقُ ومـا بـيَ مِـن سُقْـم ومـا بـيَ مَعْشَـقُ

ونص البيت في الديوان هكذا:

يَـداكَ يَـدا صِـدْقٍ فكَـفٌّ مُفيـدةٌ وأُخـرى إذا مـا ضُـنَّ بـالـزَّاد تُنْفِـقُ

(٢) يريد: وكان المفروض أن يؤمنوا، يقال: ما نَوْلك أن تفعل كذا، أي: لا ينبغي لك، وفي الحديث: «ما نَوْلُ امرىءٍ مسلم أن يقول غير الصواب».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾ معنى السعي في هذه الآية: العمل والفعل، وقد يجيءُ السعي بمعنى الانتقال على القدم، وذلك كقوله تعالىٰ: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾(١)، وإن كان مالك رحمه الله قد قال في الموطأ: إن السعي في قوله: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ إنه العمل والفعل، ولكن غيره من أهل العلم جعله على الأقدام، وهو الظاهر بقرينة ضيق الوقت وبالتعدية بإلى، ويؤيده قراءة عمر بن الخطاب: [فامْضُوا إلى ذكر الله].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، أي: لا يُظْهر عليهم من أفعاله في الدنيا والآخرة ما يقتضي المحبة.

قوله عز وجل:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

هذه الآية تحتمل أن يراد بها معاصرو محمد ﷺ، والأظهر أنه يُراد بها الأسلاف، والمعاصرون داخلون في هذه الأحوال بالمعنى، والغرض الإخبار عن أُولئك الذين أطفأ الله نيرانهم وأذلهم بمعاصيهم، لو آمنوا بالله وكتابه، واتقوا في امتثال أوامره ونواهيه لكفَّرت سيِّئاتهم، أي: سُترت وأُذهبت، ولأُدخلوا الجنة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ﴾ أي: أظهروا أحكامها، فهي كإقامة السوق وإقامة الصلاة، وذلك كلُّه تشبيه بالقائم من الناس، إذ هي أظهر هيئات المرء. وقوله تعالىٰ: ﴿وَالْإِنجِيلَ﴾ يقتضي دخول النصارى في لفظ أهل الكتاب في هذه الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ معناه وحي وسُنَن على ألسنة الأنبياء.

واختلف المفسرون في معنى ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ ـ فقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والسدي: المعنى: لأعطتهم السماءُ مطرها وبركتها، والأرض

(١) الجمعة: ٩.

نباتها بفضل الله تعالىٰ ، وحكى الطبري والزجاج وغيرهما أَن الكلام استعارة ومبالغة في التوسعة ، كما يقال: فلانٌ قد عمَّه الخير من قَرْنه إلى قدمه. وذكر النقاشُ أَن المعنى: لأَكلوا من فوقهم ، أَي: من رزق الجنة ، ومن تحت أرجلهم ، أَي: من رزق الدنيا إذ هو من نبات الأَرض.

قوله تعالىٰ: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ معناه: معتدلة ، والقصد والاقتصاد: الاعتدال والرفق والتوسط الحسن في الأَقوال والأَفعال. قال الطبري: معنى الآية: إن من بني إسرائيل مَن هو مقتصد في عيسى عليه السلام ، يقولون: هو عبد الله ورسول وروح منه ، والأكثر منهم غَلا فيه ، فقال بعضهم: هو إِلٰه ، وعلى هذا مشى الروم ومن دخل بآخرة[1] في مِلَّة عيسى عليه السلام ، وقال بعضهم وهم الأَكثر من بني إسرائيل: هو آدمي لغير رشدة ، فكفر الطرفان. وقال مجاهد: المقتصدة: مسلمة أَهل الكتاب قديماً وحديثاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا يتخرج قول الطبري ، ولا يقول في عيسى إنه عبد رسول إلا مسلمٌ ، وقال ابن زيد: هم أَهل طاعة الله من أَهْل الكتاب ، وهذا هو المترجح ، وقد ذكر الزجاج[2] أَنه يعني بالمقتصدة الطوائف التي لم تناصب الأَنبياءَ مناصبة المتهتكين المجاهرين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإِنما يتوجه أَن توصف بالاقتصاد بالإِضافة إِلى المتمردة ، كما يقال في أَبي البحتري بن هشام: إِنه مقتصد بالإِضافة إِلى أَبي جهل بن هشام لعنه الله. ثم وصف تعالىٰ الكثير منهم بسوءِ العمل عموماً ، وذهب الطبري إِلى أَن ذلك في تكذيبهم الأَنبياءَ ، وكفر اليهود بعيسى والجميع من أَهل الكتابين بمحمد ﷺ.

و﴿سَآءَ﴾ في هذه الآية هي المتصرفة ، كما تقول: ساءَ الأَمر يسوءُ ، وقد تستعمل (ساءَ) استعمال (نعم وبئس) ، كقوله عز وجل: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾[3] ، فتلك غير هذه ،

---

(١) في بعض النسخ: في آخرة ـ يريد في الزمن المتأَخر.

(٢) في بعض النسخ زيادة: وغيره.

(٣) من قوله تعالىٰ في الآية (٧٧) من سورة الأعراف: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ ، فابن عطية=

يُحتاج في هذه التي في قوله: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ من الإضمار والتقدير إلى ما يُحتاج في (نعم وبئس) ، وفي هذا نظر.

وقوله تعالىٰ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

هذه الآية أَمر من الله لرسوله بالتبليغ على الاستيفاءِ والكمال ، لأَنه قد كان بلَّغ ، فإنما أُمر في هذه الآية بأَلا يتوقف عن شيءٍ مخافة أَحد ، وذلك أَن رسالته ﷺ تضمنت الطعن على أَنواع الكفرة ، وبيان فساد حالهم ، فكان يلقى منهم عنتاً ، وربما خافهم أَحياناً قبل نزول هذه الآية ، فقال الله له ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: كاملا مُتمماً ، ثم توعده تعالى بقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي: إنك إن تركت شيئاً فكأَنما قد تركت الكل ، وصار ما بلَّغت غير معتد به ، فقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ معناه: «وإن لم تستوف» ونحو هذا قول الشاعر:

سُئِلْتَ فلمْ تمْنَعْ ولَمْ تُعْط نـائلا   فسِيَّـانَ لا ذَمٌّ عليـكَ ولا حَمْـدُ[1]

أي: ولم تعطِ ما يُعد نائلا ، وإلا فيتكاذب البيت.

وقرأَ أَبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي: ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ على الإفراد ، وقرؤوا في الأَنعام [حيث يجعل رسالته][2] على الجمع، وكذلك في الأَعراف ﴿بِرِسَٰلَٰتِى﴾[3] ، وقرأَ ابن كثير في المواضع الثلاثة بإفراد الرسالة ، وقرأَ نافع [رِسَالاتِهِ] بالجمع ، وكذلك في الأَنعام ، وأَفرد في الأَعراف ، وقرأَ ابن عامر وعاصم في رواية أَبي بكر بجمع الرسالة في المواضع الثلاثة ، وروى حفص عن عاصم الإفراد في العقود والأَنعام ، والجمع في الأَعراف ، فمن أفرد (الرسالة) فلأَن الشرع كله شيءٌ واحد

= اختار أن تكون [سَاءَ] هنا هي المتصرفة وتحتاج إلى تقدير المفعول ، أي: ساء ما كانوا يعملون بالمؤمنين ، وأجاز أن تكون غير المتصرفة وتحتاج إلى تمييز ، أي ساء عملا ما كانوا يعملون ـ أما الزمخشري فاختار أن تكون غير المتصرفة لأن في ذلك التعجب، كأنه قيل: ما أسوأ عملهم. ذكره في (البحر المحيط).

(١) النائل: ما ينال ويُدرك ، أو العطية ، فكلام ابن عطية يتفق تماماً مع قصد الشاعر ، وإلا كذَّب الكلام بعضه بعضاً.

(٢) الأنعام: ١٢٤.

(٣) من قوله تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ الآية (١٤٤).

وجملة بعضها من بعض ، ومن جمع فمن حيث الشرع معان كثيرة وورد دُفَعاً في أزمان مختلفة ، وقالت عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها: من زعم أَن محمداً كتم شيئاً من الوحي فقد أَعظم الفرية ، والله تعالىٰ يقول: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ الآية[١]. وقال عبد الله بن شقيق: «كان رسول الله ﷺ يعتقبه أَصحابه يحرسونه ، فلما نزلت: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ خرج فقال: يـأَيُّها النـاس الحقـوا بمـلاحقكـم فـإن الله قـد عصمني»[٢]. وقال محمد بن كعب القرظي: نزلت: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ بسبب الأَعرابي الذي اخترط سيف النبي ﷺ ليقتله به.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هو غورث بن الحارث ، والقصة في غزوة ذات الرقاع[٣] ، وقال ابن جريج: كان رسول الله ﷺ يهاب قريشاً ، فلما نزلت هذه الآية إِلى قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ استلقى وقال: من شاءَ فليخذلني، مرتين أَو ثلاثاً[٤].

و﴿ يَعۡصِمُكَ﴾ معناه: يحفظك ويجعل عليك وقاية ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾[٥] ، ومنه قول الشاعر:

فقلـتُ عليكُـمْ مـالِكـاً إِنَّ مـالكـاً　　　سيعصِمُكُمْ إِنْ كان في الناسِ عاصِمُ[٦]

وهذه القصة التي في الآية هي من المخاوف التي يمكن أَن توقف عن شيءٍ من

---

(١) الحديث في الصحيحين بلفظ: «فقد كذب» ، وفي الطبري عن مسروق الأجدع بلفظ: «لقد أعظم الفرية». (فتح القدير والطبري).

(٢) أخرجه ابن جرير ، وابن مردويه ـ عن عبد الله بن شقيق ـ (الدر المنثور) والأحاديث المروية في هذا كثيرة وهي ثابتة في الصحاح.

(٣) أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال: لما غزا رسول الله ﷺ بني أنمار نزل بذات الرقاع بأعلى نخل ، فبينا هو جالس على رأس بئر قد دلى رجليه ، قال غورث بن الحارث: لأقتلن محمداً ، فقال له أصحابه: كيف تقتله؟ قال: أقول له: أعطني سيفك فإذا أعطانيه قتلته به ، فأتاه فقال: يا محمد ، أعطني سيفك أشمه ، فأعطاه إياه ، فرعدت يده ، فقال رسول الله ﷺ: حال الله بينك وبين ما تريد ، فأنزل الله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ. . . ﴾ الآية.

(٤) أخرجه ابن جرير عن ابن جريج. (الدر المنثور).

(٥) من قوله تعالىٰ في سورة هود: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ الآية (٤٣).

(٦) لم نقف على نسبة البيت ـ والعاصم هو الحامي من الأعداء. أو من أحداث الزمان، وقوله: عليكم مالكاً ـ أي: الزموه وقت الشدائد والمحن يحميكم ويدفع عنكم غائلات الزمان.

التبليغ ، كالقتل والأَسر والأَذى في الجسم ونحوه ، وأَما أَقوال الكفار ونحوها فليست في الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إمَّا على الخصوص فيمن سبق في علم الله أَنه لا يؤمن ، وإما على العموم على أَن لا هداية في الكفر ، ولا يهدي الله الكافر في سبل كفره.

ثم أَمر تعالىٰ نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام أَن يقول لأَهل الكتاب الحاضرين معه ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أَي: على شيءٍ مستقيم حتى تقيموا التوراة والإنجيل ، وفي إقامة هذين الإيمان بمحمد ﷺ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني به القرآن ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ، ثم أَخبر تعالىٰ نبيَّه أَنه سيطغى كثير منهم بسبب نبوة محمد ﷺ ، ويزيده نزول القرآن والشرع كفراً وحسداً ، ثم سلاَّه عنهم وحقَّرهم بقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أَي: لا تحزن إذا لم يؤمنوا. ولا تُبالِ بهم ، والأَسى: الحزن. يقال: أَسِيَ الرجل يأْسَى أَسىً إذا حزن ، ومنه قول الراجز:

وانْحَلَبَتْ عَيْنَاهُ مِنْ فَرْطِ الأَسَى[1]

وأَسند الطبري إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءَ رسول الله ﷺ رافعُ بن جارية ، وسلام بن مِشْكَم ، ومالك بن الصَّيف ، ورافعُ بن حُرَيْملة فقالوا: يا محمد ، أَلست تزعم أَنك على ملة إبراهيم وأَنك تؤمن بالتوراة وبنبوَّة موسى ، وأَن جميع ذلك حق؟ قال: بلى ، ولكنكم أَحدثتم وغيَّرتم وكتمتم ، فقالوا: إنا نأْخذ بما في أَيدينا فإنه الحق ، ولا نصدقك ولا نتَّبعك ، فنزلت الآية بسبب ذلك: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية[2].

---

(١) قال في (اللسان): تحلَّب العَرَق وانحلب: سال: وتحلَّب فوه: سال ، وتحلَّبت عيناه وانحَلَبتا قال:
وانْحَلَبَتْ عَيْنَاهُ مِنْ طولِ الأسى
ولم ينسب الرجز إلى أحد.

(٢) أخرجه ابن إسحاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله عز وجل:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ لفظ عامٌّ لكل مؤمن مِنْ ملَّة محمد ومن غيرها من الملل، فكأَن أَلفاظ الآية حصر بها الناس كلهم، وبينت الطوائف على اختلافها، وهذا تأويل جمهور المفسرين، وقال الزَّجاج: المراد بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ المنافقون، فالمعنى: إن الذين آمنوا بأَفواههم ولم تؤمن قلوبهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فكأَن أَلفاظ الآية عدَّت الطوائف التي يمكن أن تنتقل إِلى الإيمان، ثم نفى عنهم الخوف والحزن بشرط انتقالهم إِلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وعلى التأْويل الأَول يكون قوله: ﴿ مَنْ ءَامَنَ ﴾ في حيز المؤمنين، بمعنى: ثبت واستمر، وقد تقدم تفسير: [هَادُوا] وتفسير [الصابئين] وتفسير [النصارى] في سورة البقرة.

واختلف القراءُ في إِعراب «الصابئين» في هذه الآية ـ فقرأَ الجمهور: ﴿ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ ﴾ بالرفع، وعليه مصاحف الأَمصار والقراءِ السبعة، وقرأَ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعائشة رضي الله عنها، وأُبي بن كعب، وسعيد بن جُبير، والجحدري: [الصَّابئين] وهذه قراءَة بيِّنة الإِعراب. وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، والزهري: [والصابِيُون] بكسر الباء وضم الياء دون همز، وقد تقدم في سورة البقرة.

وأما قراءَة الجمهور: ﴿ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ ﴾ فمذهب سيبويه والخليل ونُحاة البصرة أَنه من المقدم الذي معناه التأْخير، وهو المراد به، كأَنه قال: «إِن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم والآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون والنصارى كذلك»، وأَنشد الزجاج نظيراً في ذلك:

وإِلا فَـاعْلَمُـوا أَنَّـا وأَنْتُـم ... بُغـاةٌ مـا بَقِينـا فـي شقـاق[1]

(١) هذا البيت لبشر بن أبي حازم، والبغاة: جمع باغ وهو الساعي في الفساد، الشقاق: الخلاف ومثله قول ضابئ البُرْجمي: =

فقوله: «وأَنتُم» مقدم في اللفظ مؤخر في المعنى ، أَي: وأَنتم كذلك.

وحكى الزجاج عن الكسائي والفراءِ أَنهما قالا: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ عطف على ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ، إِذ الأَصل في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ الرفع ، وإِذ نصب (إِنَّ) ضعيف[1]. وخطَّأَ الزجاج هذا القول وقال: (إِنَّ) أَقوى النواصب ، وحكى أَيضاً عن الكسائي أَنه قال: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ عطف على الضمير في ﴿هَادُواْ﴾ والتقدير: «هادوا هم والصابئون» وهذا قول يردُّه المعنى: لأَنه يقتضي أَن الصابئين هادوا ، وقيل: (إِنَّ) بمعنى (نعم) ، وما بعدها مرفوع بالابتداءِ[2] ، وروي عن بعضهم أَنه قرأَ: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ بالهمزة.

واتصال هذه الآية بالتي قبلها هو أَن قيل لهم: ليس الحق في نفسه على ما تزعمون من أنكم أَبناءُ الله وأَحباؤُه ، بل لستم على شيءٍ مستقيم حتى تؤمنوا وتقيموا الكتب المنزلة ، ثم استأْنف الإِخبار عن الحق في نفسه بأَنه من آمن في كل العالم فهو الفائز الذي لا خوف عليه.

وقوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية استئناف خبر بفعل أَوائلهم ، وما نقضوا من العهود واجترحوا من الجرائم ، أَي: «إِن العَصَا مِن العُصَيَّة»[3]. وهؤلاءِ يا محمد من أُولئك ، فليس قبيح فعلهم ببدع.

و﴿كُلَّمَا﴾ ظرف والعامل فيه: ﴿كَذَّبُواْ﴾ و﴿يَقْتُلُونَ﴾. وقوله تعالىٰ: ﴿بِمَا لَا

= فَمَنْ يَكُ أمسى بالمدينة رحْلُهُ ... فإني وقيَّارٌ بها لَغَريبُ

فإنه يقول: من كان بيته بالمدينة ، فإني وفرسي (قيار غريب) والشاهد أنه قال: فإني لغريب ، وقيَّارٌ كذلك.

(١) ذكر علَّتين للرفع نقْلاً عن الكسائي والفراء: الأولى بقوله: «إذ الأصل في ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الرفع» ، والثانية بقوله: «وإِذْ نصب (إنَّ) ضعيف» ـ فـ (إذ) الثانية معطوفة على (إذ) الأولى. وقد ذكر أبو حيان في البحر أن الكسائي يجيز رفع المعطوف على الموضع سواء كان الاسم مما خفي فيه الإعراب أو مما ظهر ، وأما الفراء فإنه يجيز ذلك بشرط خفاء الإعراب ، وقد تحقق هنا.

(٢) قال في (البحر): «وهذا ضعيف ، لأن ثبوت (إن) بمعنى (نعم) فيه خلاف بين النحويين ، وعلى تقدير ثبوت ذلك من لسان العرب فتحتاج إلى شيء يتقدمها تكون تصديقاً له ، ولا تجيء ابتدائية أول الكلام من غير أن تكون جواباً لكلام سابق». ١ هـ. (٣ ـ ٥٣١).

(٣) العصا: فرس جذيمة ، والعصية: أمُّها ، يضرب في مناسبة الشيء سِنْخَه (أَصْلَه) ، وكانتا كريمتين ، ويروى: «العصا من العصية ، والأفعى بنت حية» والمعنى أن العود الكبير ينشأ من الصغير الذي غرس أولاً يضرب للشيء الجليل الذي يكون في أوله حقيراً» (المستقصى في أمثال العرب ـ للزمخشري).

﴿تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ يقتضي أَن هواهم كان غير الحق، وهو ظاهر هوى النفس متى أُطلق، فمتى قُيِّد بالخير ساغ ذلك، ومنه قول عمر رضي الله عنه في قصة أَسارى بدر: فهوي رسول الله ﷺ ما قال أَبو بكر رضي الله عنه، ولم يهْو ما قلت أَنا. وقوله تعالىٰ: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟﴾ معناه: كذبوه فقط، يريد: الفريق من الرسل، ولم يقتلوه، وفريقاً من الرسل كذبوه، وقتلوه فاكتفى بذكر القتل إِذ هو يستغرق التكذيب.

قوله عز وجل:

﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾.

المعنى في هذه الآية: وظن هؤلاءِ الكفرة والعصاة من بني إِسرائيل أَلا يكون من الله ابتلاءٌ لهم وأَخذ في الدنيا وتمحيص فَلَجُّوا في شهواتهم، وعموا فيها إِذ لم يتبصروا الحق شبهوا بالعمي، وصموا إِذْ لم يسمعوه شبهوا بالصم، ونحو هذا قول النبي ﷺ: «حُبُّك الشيءَ يعمي ويُصم»[1].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ـ قالت جماعة من المفسرين: هذه التوبة هي ردهم إِلى بيت المقدس بعد الإِخراج الأَول وردّ ملكهم وحالهم، ثم عموا وصموا بعد ذلك حتى أُخرجوا الإِخراج الثاني، ولم يُجبروا أَبداً، وقالت جماعة: ثم تاب الله عليهم ببعث عيسى عليه السلام إِليهم. وقالت جماعة: توبته تعالىٰ عليهم بعث محمد عليه الصلاة والسلام، وخص بهذا العمى[2] كثيراً منهم لأَن منهم قليلا قد آمن. ثم توعدهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ بنصب النون، وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [أَن لا تكونُ] برفع النون، ولم يختلفوا في رفع

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، والبخاري في تاريخه، وأبو داود ـ عن أبي الدرداء في اعتلال القلوب عن أبي برزة بن عساكر، عن عبد الله بن أنيس ـ ورمز له في الجامع الصغير بأنه حديث حسن.

(٢) جاء في بعض النسخ: وخص بهذا المعنى، وما أثبتناه عن بقية النسخ أقرب إلى الصواب لأنه المناسب لقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾.

[فتنة] لأن (كان) هنا هي التامة، فوجه قراءَة النصب أن تكون [أَنْ] هي الخفيفة الناصبة، ووجه قراءَة الرفع أَن تكون المخففة من الثقيلة، وحسُن دخولُها لأن (لا) قد وطَأَت أَنْ يليها الفعْل، وقامت مقام الضمير المحذوف عِوَضاً منه، ولا بُدَّ في مثل هذا من عوض[1]، مثل قولك: علمت أَن قد يقوم زيد، وقوله عز وجل: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾[2]، وقولك: علمت أَن سوفَ يقومُ زيد، وأَن لا تكونُ فتنةٌ. وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[3] حسن فيه أَلا يكون عِوَضٌ لأن (لَيس) لَيْس بفعل حقيقي، والأَفعال ثلاثة ضروب: ضربٌ يجري مجرى تيقَّنت، نحو علمْتُ ودريت، فهذا الضرب تليه (أَن) الثقيلة التي تناسبه في الثبوت وحصول الوقوع، وضرب في الضد من ذلك، نحو طمعْت ورجوت وخفت، هو مصرح بأَن لم يقع، فهـذا الضـرب تليـه (أَن) الخفيفـة إِذ هـي تنـاسبـه، كقـولـه تعـالـىٰ: ﴿وَالَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى﴾[4]، ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾[5]، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾[6] و﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾[7] و﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا﴾[8] ونحو هذا، وضرب ثالث ينجذب إِلى الأَول مرة وإِلى الثاني أَحياناً نحو ظننت وحسبت وزعمت، فيجري مجرى أَرجو وأَطمع من حيث الظن والزعم والمحسبة أُمور غير ثابتة ولا مستقرة، وقد تنزل منزلة العِلْم من حيث يستعمل استعماله كقوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ

---

(١) زيادة على ما أشار إليه ابن عطية من وجود العوض فإنهم نزّلوا (حسب) منزلة (عَلِم) لأنها استعملت في المتيقن قليلاً ـ كما أشار هو بعد ذلك ـ قال الشاعر:

حَسِبْـتُ التُّقَـى والجُـودَ خَيْـرُ تجَـارَةٍ ... ربـاحـاً إذا مـا المَـرْءُ أَصْبَـحَ ثـاقـلا

ومثل (حسب) في ذلك (زعم) قال الشاعر:

ألا زَعَمَـتْ بسْبَـاسَـةُ اليَـوْمَ أَنَّنِـي ... كَبِـرْتُ وأنْ لا يَشْهَـدُ اللَّهْـوَ أَمْثـالـي

(٢) المزمل: ٢٠.

(٣) النجم: ٣٩.

(٤) من قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَالَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ الدِّينِ﴾ الآية (٨٢).

(٥) من قوله تعالىٰ: في سورة الأنفال: ﴿وَاذْكُرُوٓا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ الآية (٢٦).

(٦) من قوله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِۦ﴾ الآية (٢٢٩).

(٧) الكهف: ٨٠.

(٨) من قوله تعالىٰ في سورة المجادلة: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ الآية (١٣).

﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾[١] ، وقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾[٢].

وقرأ جمهور الناس: ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ بفتح العين والصاد ، وقرأ ابن وثاب ، والنَّخعي: [عُمُوا وصُمُّوا] بضم العين والميم مخففة ، وبضم الصاد ، وهذا هو على أَن تجري مجرى: زُكم الرجل وأَزكمه الله ، وحُم الرجل وأَحمه الله ، ولا يقال: زكمه الله ولا حَمَّه الله. فكذلك يجيءُ هذا: عُمي الرجل وأَعماه غيره ، وصُم وأَصمه غيره ، ولا يقال: عميته ولا صممته[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: رجع بهم إِلى الطاعة والحق ، ومن فصاحة اللفظ استناد هذا الفعل الشريف إِلى الله تعالىٰ ، واستناد العمى والصمم اللذين هما عبارة عن الضلال إِليهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَثِيرٌ﴾ يرتفع من إِحدى ثلاث جهات ـ إِما على البدل من الواو في قوله: ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ ، وإِمَّا على جمع الفعل وإِن تقدم على لغة من قال: «أَكلوني البراغيث» ، وإِمَّا على أَن يكون ﴿كَثِيرٌ﴾ خبر ابتداءٍ مضمر[٤].

ثم أَخبر تعالىٰ إِخباراً مؤكداً بلام القسم عن كفر القائلين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾. وهذا قول اليعقوبية من النصارى ، ثم أَخبر تعالىٰ عن قول المسيح لهم

---

(١) البقرة: ٤٦.

(٢) الحاقة: ١٠.

(٣) قال في (البحر المحيط) عن «زكم وحمّ» وأمثالهما: وهي أفعال جاءت مبنية للمفعول الذي لم يُسم فاعله ، وهي متعدية ثلاثية ، فإذا بنيت للفاعل صارت قاصرة ، فإذا أردت بناءها للفاعل متعدية أدخلت همزة النقل ، وهي نوع غريب في الأفعال.
أما الزمخشري فيقول: «وعُمُوا وصُمُّوا» بالضم على تقدير: عماهم الله وصممهم ، أي: رماهم بالعمى والصمم ، كما يقال: نَزَكْتُهُ إذا ضربته بالنيزك ، وركَبْتُه إذا ضربته بركبتك» ١ هـ.

(٤) ذكر ثلاثة أوجه في إعراب ﴿كَثِيرٌ﴾ الأول: البدل من الواو ـ قال الأخفش سعيد: كما تقول: «رأيت قومك ثلثيهم»، الثاني: أن تكون على لغة من يجمع الفعل ـ أي اللغة المشهورة بلغة أكلوني البراغيث ، قال القرطبي: وعليه قول الشاعر: وهو الفرزدق:

ولكِــنْ ديــافــيٌّ أبــوه وأُمـــه ... بحَـوْرَانَ يَعْصِـرْنَ السليـط أقـاربُـهْ

ودياف: قرية بالشام أو بالجزيرة، والسليط: الزيت ـ والبيت في هجاء عمرو بن عفراء.
وعليه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾. الثالث: أن يكون ﴿كَثِيرٌ﴾ خبر متبدأ مضمر تقديره: العميُ والصُّم كثير منهم ، ثم قال القرطبي: ويجوز في غير القرآن (كثيراً) بالنصب ، ويكون نعتاً لمصدر محذوف.

وتبليغه كيف كان ، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ، وهذه المعاني قول المسيح بألفاظ لغته ، وهي بعينها موجودة في تبليغ محمد ﷺ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾(١) ، إلى غير ذلك من الآيات ، وأخبرهم عيسى عليه السلام أن الله تعالىٰ هو ربُّه وربُّهم فضلُّوا هم وكفروا بسبب ما رأوا على يديه من الآيات.

والمأوى هو المحلُّ الذي يسكنه المرءُ ويرجع إليه ، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾ يحتمل أن يكون من قول عيسى عليه السلام لبني إسرائيل ، و يحتمل أن يكون إخباراً مستأنفاً لمحمد ﷺ ، وقد تقدم القول في تفسير لفظة (المسيح) في سورة آل عمران.

قوله عز وجل:

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧٤ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٧٥﴾.

هذه الآية إخبار مؤكد كالذي قبله ، وهو عن هذه الفرقة الناطقة بالتثليث ، وهي ـ فيما يقال ـ الملكية ، وهم فرق من النسطورية وغيرهم ، ولا معنى لذكر أقوالهم في كتاب تفسير ، إنما الحق أنهم على اختلاف أحوالهم كفار من حيث جعلوا في الإلهية عدداً ، ومن حيث جعلوا لعيسى عليه السلام حكماً إلٰهياً.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ لا يجوز فيه إلا الإضافة وخفض ﴿ثَلَٰثَةٖ﴾ ، لأن المعنى: أحد ثلاثة ، فإن قلت: زيد ثالث اثنين ، أو رابع ثلاثة جاز لك أن تضيف كما تقدم ، وجاز ألا تضيف وتنصب ثلاثة على معنى: زيد يربع ثلاثةً.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ خبر صادق بالحق وهو الخالق المتبدع المتصف بالصفات العلى ، تعالىٰ عما يقول المبطلون.

ثم توعد تبارك وتعالىٰ هؤلاءِ القائلين هذه العظيمة بِمَسّ العذاب ، وذلك وعيد

(١) النساء: ١١٦.

بعذاب الدنيا من القتل والسبي ، وبعذاب الآخرة بعْدُ ، لا يفلتُ منه أحدٌ منهم.

ثم رفق جل وعلا بهم بتحضيضه إياهم على التوبة وطلب المغفرة ، ثم وصف نفسه بالغفران والرحمة استجلاباً للتائبين وتأنيساً لهم ليكونوا على ثقة من الانتفاع بتوبتهم.

ثم أخبر تعالىٰ عن حقيقة أَمر المسيح وأنه رسول بشر كالرسل المتقدمة قبله. و﴿ خَلَتْ ﴾ معناه: مضت وتقدمت في الخلاءِ من الأَرض ، وقرأَ حطان بن عبد الله الرقاشي: [قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ رُسُلٌ] بتنكير الرسل ، وكذلك قرأَ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾(1) وقد مضى القول على وجه هذه القراءَة هناك.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ صفة ببناءِ مبالغة من الصدق ، ويحتمل أَن يكون من التصديق ، وبه سُمي أَبو بكر الصديق رضي الله عنه لتصديقه ، وهذه الصفة لمريم تدفع قول من قال: هي نبيّة ، وقد يوجد في صحيح الحديث قصص قوم كلمتهم ملائكة في غير نبوة كقصة الثلاثة: الأَقرع والأَعمى والأَبرص وغيرهم(2) ، ولا تكون هنالك نبوة ، فكذلك أَمر مريم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ تنبيه على نقص البشرية وعلى حال من الاحتياج إلى الغذاء تنتفي معه الأُلوهية ، وذكر مكي ، والمهدوي ، وغيرهما أَنها عبارة عن الاحتياج إلى الغائط ، وهو قول بشع ولا ضرورة تدفع إليه حتى يقصد هذا المعنى بالذكر ، وإنما هي عبارة عن الاحتياج إلى التغذي ، ولا محالة أَن الناظر إذا تأَمل بذهنه لواحق التغذي وجد ذلك وغيره.

ثُمَّ أَمر تعالىٰ محمداً ﷺ ـ وفي الضمن أُمته ـ بالنظر في ضلال هؤلاءِ القوم وبُعدهم عن سنن الحق ، وأَن الآيات تُبَيَّن لهم وتُبْرَز في غاية الوضوح ، ثم بعد ذلك يُصْرفون ، أَي: تصرفهم دواعيهم ويزيلهم تكسبهم عن الحق.

---

(1) آل عمران: ١٤٤.

(2) روى البخاري عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص وأعمى وأقرع بدا لله عز وجل أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن ، قد قذرني الناس ، قال فمسه فذهب عنه ، فأُعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً ، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل ، أو قال البقر. . إلى آخر الحديث ، وهو طويل ، أثبته البخاري في كتاب (بدء الخلق) ـ باب (ما ذكر عن بني إسرائيل). والثابت فيه أن الملائكة كلمت الثلاثة. وهو مقصد ابن عطية في الإشارة إلى هذا الحديث.

و﴿ كَيْفَ ﴾ في هذه الآية ليست سؤالاً عن حال ، لكنها عبارة عن حال شأنها أن يُسأَل عنها بكيف ، وهذا كقولك: كن كيف شئت فأنت صديق.

و﴿ أَنَّىٰ ﴾ معناها: من أي جهة ، قال سيبويه: معناها: كيف؟ ومن أين؟.

و﴿ يُؤْفَكُونَ ﴾ معناه: يصرفون ، ومنه قوله عز وجل: ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾[1] ، والأرض المأفوكة: التي صرفت عن أن ينالها المطر ، والمطر في الحقيقة هو المصروف ، ولكن قيل: أرض مأفوكة لمَّا كانت مأفوكة عنها[2].

قوله عز وجل:

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

أَمر الله تعالىٰ نبيه أن يوقفهم على عبادتهم شخصاً من البشر لا يملك أن يضرهم ولا أن ينفعهم.

و﴿ مِن دُونِ ﴾ و«دُونَ فُلان» وما جاءَ من هذه اللفظة فإنما تُضاف إلى من ليس في النازلة التي فيها القول ، وتفسيرها بـ(غير) أمر غير مطرد.

والضَّر ـ بفح الضاد ـ المصدر ، والضُّر ـ بضمها ـ الاسم ، وهو عدم الخير.

و﴿ ٱلسَّمِيعُ ﴾ إشارة إلى تحصيل أقوالهم ، و﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بنياتهم ، وقال بعض المفسرين: هاتان الصفتان منبِّهتان على قصور البشر ، أي: والله تعالىٰ هو السميع العليم بالإطلاق لا عيسى ولا غيره ، وهم مُقِرُّون أن عيسى قد كان مُدَّةً لا يسمع ولا يعلم ، وقال نحوه مكي[3].

---

(١) الذاريات: ٩.

(٢) قال في (البحر): «كرر الأمر بالنظر لاختلاف المتعلَّق ، لأن الأول أمر بالنظر في كونه تعالىٰ أوضح لهم الآيات وبيَّنها بحيث لا يقع معها لبس ، والأمر الثاني بالنظر في كونهم يُصرفون عن استماع الحق وتأمله ، أو في كونهم يقلبون ما بين لهم إلى الضد منه ، وهذان أمرا تعجيب ، ودخلت (ثم) لتراخي ما بين العجبين». (٣ ـ ٥٣٨).

(٣) القول بأن عيسى عليه السلام قد كان مُدَّة لا يسمع ولا يعلم أخذها بعض العلماء وجعلها سبباً للتعبير=

ثم أمر تعالىٰ نبيه محمداً أن ينهاهم عن الغلوّ في دينهم ، والغلو: تجاوز الحد ، غلا السهم: إذا تجاوز الغرض المقصود واستوفى سومَه من الاطراد[(١)] ، وتلك المسافة هي غلوته[(٢)] ، وكما كان قوله: ﴿ لَا تَغْلُوا ﴾ بمعنى: لا تقولوا ولا تلتزموا نصب (غيْرَ) ، وليس معنى هذه الآية: اجتنبوا من دينكم الذي أنتم عليه الغلُو ، وإنما معناه: ﴿ فِي دِينِكُمْ ﴾ الذي ينبغي أن يكون دينكم ، لأن كل إنسان فهو مطلوب بالدين الحق ، وحريٌّ أن يتبعه ، ويلتزمه ، وهذه المخاطبة هي للنصارى الذين غلوا في عيسى عليه السلام ، والقوم الذين نهي النصارى عن اتباع أهوائهم بنو إسرائيل ، ومعنى الآية: لا تتبعوا أنتم أهواءَكم كما اتبع أُولئك أهواءَهم ، فالمعنى: لا تتبعوا طرائقهم ، والذي دعا إلى هذا التأويل أن النصارى في غلوهم ليسوا على هوى بني إسرائيل ، هم بالضد في الأقوال ، وإنما اجتمعوا في اتباع نوع الهوى ، فالآية بمنزلة قولك لمن تلومه على عوج: هذه طريقة فلان: تمثله بآخر قد اعوج نوعاً آخر من الاعوجاج وإن اختلفت نوازله.

ووصف تعالىٰ اليهود بأنهم ضلوا قديماً وأضلوا كثيراً من أتباعهم ، ثم أكد الأمر بتكرار قوله تعالىٰ: ﴿ وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ ، وذهب بعض المتأولين إلى أن المعنى: يا أهل الكتاب من النصارى لا تتبعوا أهواءَ هؤلاءِ اليهود الذين ضلوا من قبل ، أي: ضلَّ أسلافهم وهم قبل مجيءِ محمد عليه الصلاة والسلام ، وأضلوا كثيراً من المنافقين ، وضلوا عن سواءِ السبيل الآن بعد وضوح الحق.

وقوله تعالىٰ: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ الآية ، قد تقرر في غير

= بـ (ما) في قوله تعالىٰ: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ ﴾ ففي اختيار (ما) تنبيه على أول أحواله ، إذ مرت عليه أزمان حالة الحمل لا يوصف فيها بالعقل ـ وقال سيبويه: (ما) مبهمة تقع على كل شيء ، وقيل: أُريد ما عبد من دون الله ممن يعقل ومما لا يعقل وعبر بما تغليباً لغير العاقل إذ أكثر ما عبد من دون الله هو لغير العاقل كالأوثان والأصنام. والله أعلم.

(١) يقال: سام أي: مَرَّ ، وسوم الرياح مَرُّها ، وقال الأصمعي السَّوْم: سرعة المَرِّ ، فمعنى قول ابن عطية: «واستوفى سَوْمَهُ» أي: سرعة مروره ، وقال غير الأصمعي: السَّوْم: سرعة المرِّ مع قصد الصوب في السير (اللسان).

(٢) الغَلْوَة: قدرُ رمية بسهم ، وقد تستعمل الغَلْوة في سباق الخيل ، والغلوة: الغاية ـ مقدار رمية. (اللسان).

موضع من القرآن ما جرى في مدة موسى عليه السلام من كفر بعضهم وعتوهم، وكذلك أَمرهم مع محمد عليه الصلاة والسلام كان مشاهداً في وقت نزول القرآن، فخصت هذه الآية داود وعيسى عليهما السلام إعلاماً بأَنهم لعنوا في الكتب الأَربعة، وأَنهم قد لعنوا على لسان غير موسى عليه السلام ومحمد عليه الصلاة والسلام.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لعنوا بكل لسان، لعنوا على عهد موسى عليه السلام في التوراة، وعلى عهد داود عليه السلام في الزبور، وعلى عهد عيسى عليه السلام في الإنجيل، وعلى عهد محمد ﷺ في القرآن.

وروى ابن جريج أَنه اقترن بلعنتهم على لسان داود عليه السلام أَن مسخوا خنازير، وذلك أَن داود عليه السلام مرَّ على نفر وهم في بيت، فقال: من في البيت؟ قالوا: خنازير، على معنى الانحجَاب، قال: اللَّهم اجعلهم خنازير، فكانوا خنازير، ثم دعا عيسى عليه السلام على من افترىٰ عليه على أَن يكونوا قردة، فكانوا قردة. وقال مجاهد وقتادة: بل مسخوا في زمن داود عليه السلام قردة، وفي زمن عيسى عليه السلام خنازير، وحكى الزجاج نحوه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذكر المسخ ليس مما تعطيه أَلفاظ الآية، وإِنما تعطي أَلفاظ الآية أَنهم لعنهم الله وأَبعدهم من رحمته، وأَعلم بذلك العباد المؤمنين على لسان داود النبي في زمنه، وعلى لسان عيسى في زمنه، وروي عن ابن عباس أَنه قال: لعُن على لسان داود أَصحاب السبت، وعلى لسان عيسى الذين كفروا بالمائدة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إِشارةٌ إِلى لعنتهم، وباقي الآية بيِّن.

قوله عز وجل:

﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

ذم الله تعالىٰ هذه الفرقة الملعونة بأَنهم ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾

أَي أَنهم كانوا يتجاهرون بالمعاصي، وإِنْ نَهى ناهٍ فعن غير جد، بل كانوا لا يمتنع الممسك عن مواصلة العاصي ومؤاكلته وخلطته، وروى ابن مسعود قال: «قال رسول الله ﷺ: إِن الرجل من بني إِسرائيل كان إِذا رأَىٰ أَخاه على ذنب نهاه عنه تعزيراً، فإِذا كان من الغد لم يمنعه ما رأَىٰ منه أَن يكون خليطه وأَكيله» فلما رأَى الله ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى عليهما السلام، قال ابن مسعود: وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس وقال: «لا والله حتى تأْخذوا على يدي الظالم فتأْطروه على الحق أَطراً»[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والإِجماع على أَن النهي عن المنكر واجب لمن أَطاقه ونهىٰ بمعروف وأَمن الضرر عليه وعلى المسلمين، فإِن تعذر على أَحد النهي لشيءٍ من هذه الوجوه، ففرضٌ عليه الإِنكار بقلبه وأَلا يخالط ذا المُنكَر.

وقال حذاق أَهل العلم: ليس من شروط الناهي أَن يكون سليماً من المعصية، بل ينهى العصاة بعضهم بعضاً. وقال بعض الأُصوليين: فرض على الذين يتعاطون الكؤوس أَن ينهى بعضهم بعضاً، واستدل قائل هذه المقالة بهذه الآية، لأَن قوله: ﴿يَتَنَاهَوْنَ﴾ و﴿فَعَلُوهُ﴾ يقتضي اشتراكهم في الفعل، وذمهم على ترك التناهي.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ اللام لام قَسَم، وجعل الزَّجاج ﴿مَا﴾ مصدرية، وقال: التقدير: لبئس شيئاً فعلهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر. وقال غيره: ﴿مَا﴾ نكرة موصوفة، التقدير: لبئس الشيءُ[2] الذي كانوا يفعلون فعلا.

وقوله تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا﴾ يحتمل أَن يكون رؤْية قلب، وعلى هذا فيحتمل أَن يريد: من الأَسلاف المذكورين، أَي: ترى الآن إِذا خبرناك، ويحتمل

---

(١) أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسَّنه، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي ـ عن ابن مسعود ـ وقد روى هذا الحديث من طرق كثيرة. وأحاديث في هذا الباب كثيرة. (فتح القدير، والدر المنثور).

(٢) في بعض النسخ سقطت كلمة (الشيء) والمعنى صحيح.

أَنْ يريد: مِنْ مُعَاصري محمد ﷺ، لأنه كان يرى ذلك من أُمورهم ودلائل حالهم، ويحتمل أَن تكون رؤْية عين، فلا يريد إلا معاصري محمد ﷺ.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أَي: قدمته للآخرة واجترحته، ثم فسَّر ذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، فإن ﴿سَخِطَ﴾ في موضع بدلٌ مِن ﴿مَا﴾ ويحتمل أَن يكون التقدير: هو أَن سخط الله عليهم، وقال الزجاج: ﴿أَن﴾ في موضع نصب على تقدير: بأَن سخط الله عليهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّبِيِّ﴾ إنْ كان المراد الأَسلاف فالنبي داود وعيسى عليهما السلام، وإن كان المراد معاصري محمد فالنبي محمد عليه الصلاة والسلام، و﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم عبدة الأَوثان، وخصَّ الكثير منهم بالفسق إذ منهم قليل قد آمن.

وذهب بعض المفسرين إلى قوله تعالىٰ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ كلام منقطع من ذكر بني إسرائيل. وأَنه يُعنى به المنافقون. وقال مجاهد رحمه الله: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية، يعني المنافقون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

اللأَم في قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لامُ الابتداءِ، وقال الزجَّاج: هي لامُ قَسَم، ودخلتْ هذه النونُ الثَّقيلةُ لتفصل بين الحال والاستقبال(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا خبر مطلق منسحبٌ على الزمن كلِّه، وهكذا هو الأَمر حتَّىٰ الآن، وذلك

---

(١) يرى ابن عطية أَن اللام لام الابتداء، ويخالفه أبو حيان في «البحر»، ورأي الزجاج أنها لام قسم، أما قوله: «ودخلت هذه النون...» فهذا هو رأي الخليل وسيبويه، وليس من رأي الزجاج أو قوله كما قد يُفهم من الكلام.

أَن اليهود مَرَنُوا(١) على تكذيب الأَنبياءِ وقَتْلهم، ودَرِبُوا العُتُوّ والمعاصي(٢)، ومَرَدُوا(٣) على استشعار اللعنة وضَرْبِ الذلة والمسكنة، فهم قد لَحجت(٤) عداوتهم، وكثُرَ حسدهم، فهم أَشد الناس عداوةً للمؤمنين، وكذلك المشركون عَبَدَةُ الأَوثان من العرب، والنِّيران من المجوس، لأَنَّ الإِيمانَ إِيَّاهم كَفَر، وعروشَهم ثَلَّ(٥) وبيَّن أَنهم ليسوا على شيءٍ من أَوّلِ أَمرهم، فلم يبْق لهم بقيَّة، فعداوتُهم شديدة.

والنصارىٰ أَهل الكتاب يقضي لهم شرعُنا بأَن أَول أَمرهم صحيح لولا أَنهم ضلوا، فهم يعتقدون أَنهم لم يضلوا، وأَن هذه المِلَّة لم تنْسخ شرعهم(٦)، ويُعظمون من أَهل الإِسلام من استشعروا منهم صحَّةَ دِين، ويستهينون مَن فهموا منه الفسق، فهُمْ إِذا حاربوا فإِنَّما حرْبُهم أَنفةٌ وكسب لا أَن شرعهم يأْخذهم بذلك، وإِذا سالموا فسلمهم صافٍ، ويُعين على هذا أَنهم أُمة شريفة الخلق، لهم الوفاءُ والخلال الأَربع التي ذكر عمرو بن العاص في صحيح مسلم(٧)، وتأَمل أَن النبي ﷺ سُرَّ حين غلبت الروم فارس،

---

(١) مَرَن على الشيء: تعوَّد تناوله بدون حياءٍ أو خجل. «المعجم الوسيط ـ مرن ـ» والكلمة دقيقة في وصف اليهود.

(٢) (دَرِبَ) على وزن (فرح) لا تتعدى بنفسها، يقال: درب به دَرَباً ودُرْبَةً: اعتاده وأُولع به، ودرب على الشيءِ: مرنَ وحذِق. ولعلَّ الخطأ في الأصول من النسَّاخ، والدليل على ذلك أن أبا حيَّان قد نقل عبارة ابن عطية هكذا: «وذلك أنهم مرنوا على تكذيب الأنبياء وقتلهم، وعلى العُتُو والمعاصي. . الخ» بدون جملة (ودَربوا). والعتُو: الاستكبار ومجاوزة الحد.

(٣) (مَرَد): جاوز حَدَّ أمثاله في الطغيان، أو بلغ غاية يخرج بها من جملتهم، وفي التنزيل العزيز: (مَرَدُوا على النِّفاقِ).

(٤) لحجت العداوة: يريد تمكنت من صدورهم، ومنه: لَحَجَ السيف في غمده بمعنىٰ: نشب فيه ولم يخرج. (المعجم الوسيط).

(٥) أصل التعبير: «لأن الإيمان كفرَ إيَّاهم، وثَلَّ عروشهم» فقدم المفعول في الجملتين، ومعنى (ثَلَّ عرشَه) أذهب سلطانه، يقال: ثلَّ الدار: هَدَمَهَا، وثلَّ الكثيب ثلاً: هال تُرْبَه. (اللسان).

(٦) يريد بالملَّة: ملَّة المسلمين، فالنصارىٰ يعتقدون أن الإسلام لم ينسخ شريعتهم ـ وقد جاءَ في بعض النسخ (الآية) بدلاً من (الملَّة).

(٧) روىٰ مسلم في «كتاب الفتن وأشراط الساعة» عن موسى بن علي عن أبيه قال: قال المُسْتَوْرِدُ القُرَشِي عند عمرو بن العاص: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقوم الساعة والروم أكثر الناس، فقال له عمرو: أبْصرِ ما تقول، قال: أقول ما سمعتُ من رسول الله ﷺ، قال: لئن قلتَ ذلك إنَّ فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد معصية، وأوشكهم كرَّة بعد فرَّة، وخيرهم لِمِسْكين ويتيم وضعيف، وخامسةٌ حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك».

وذلك لكونهم أَهلَ كتاب، ولم يُرد عليه الصلاة والسلام أَن يستمر ظهور الروم، وإِنما سُرَّ بغلبة أَهل كتاب لأَهل عبادة النار، وانضاف إلى ذلك أَن غلب العدو الأَصغر وانحصرت شوكة العدوّ الأَكبر المخوف على الإِسلام.

واليهود ـ لعنهم الله ـ ليسوا على شيءٍ من هذا الخُلُق، بل شأْنُهم الخُبثُ واللَّيُّ بالأَلسنة، وفي خلال إِحسانك إِلى اليهودي يبغيك هو الغوائل[1] إِلا الشاذَّ القليل منهم مِمَّن عسىٰ أَن تخصص بأَدب وأُمور غير ما عُلِّم أَولاً.

ولم يصف الله تعالى النصارى بأَنهم أَهل وُدٍّ، وإِنما وصفهم بأَنهم أَقرب من اليهود والمشركين، فهو قرب مودة بالنسبة إِلىٰ متباعدين.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ إِشارةٌ إِلى أَن المعاصرين لمحمد ﷺ من النصارى ليسوا على حقيقة النَّصرانية، بل كونُهم نصارىٰ قولٌ منهم وزعْم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ معناه: ذلك بأَن منهم أَهلَ خشية وانقطاع إِلى الله وعبادةٍ وإِن لم يكونوا على هدىً، فهم يميلون إِلى أَهل العبادة والخشية، وليس عند اليهود ولا كان قط أَهل ديارات وصوامع وانقطاع عن الدنيا، بل هم مُعَظِّمون لها، متطاولون في البنيان وأُمور الدنيا حتى كأَنهم لا يؤمنون بالآخرة، فلذلك لا يُرى فيهم زاهد.

ويقال: قَِسٌّ بفتح القافِ وبكسرها وقسِّيس، وهو اسم أَعجمي عرّب، والقَسُّ في كلام العرب: النميمة، وليس من هذا[2].

---

(١) أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ما خلا يهودي بمسلم إلا همَّ بقتله، وفي لفظ: إلا حدَّث نفسه بقتله. (الدر المنثور ٢ـ ٣٠٢). والحديث لا أصل له.

(٢) القسِّيس: العالم، وأصله من قَسَّ إذا تتبَّع الشيءَ فطلبه، قال رؤبة بن العجاج يصف نساء عفيفات لا يتتبعن النمائم:

يُمْسين مِنْ قَسِّ الأذىٰ غَوافِلاَ ... لا جَعْبَرِيَّاتٍ وَلا طَهَامِلا

والجعبريات: القصار، واحدتها: جَعْبَرَة، والطَّهامل: الضخام مع قبح الخِلقة، واحدتها: طَهْملة. والقَسُّ أيضاً: رئيس من رؤساء النصارى في الدين والعلم، وجمعه قسوس وقسِّيس، على مثال: شَرٍّ وشرِّير، ويجمع قسيس تكسيراً على قساوسة بإبدال إحدى السينين واواً. (راجع: لسان العرب ـ والقرطبي، وفتح القدير).

وأما الرهبان فجمع راهب، وهذه تسمية عربية، والرَّهَب: الخوف، ومن الشواهد على أن الرهبان جمعٌ قول الشاعر:

رُهْبانُ مَدْيَنَ لَوْ رَأَوْكِ تَنَزَّلُوا ... والعُصْمُ مِن شَعَفِ العُقُولِ الفادِرُ[(١)]

وقد قيل: الرهبان اسم مفرد، والدليل عليه قول الشاعر:

لو عايَنَتْ رُهْبانَ دَيْرٍ في القُلَلْ ... تحدَّر الرهْبانُ يَمْشي وَنَزَلْ[(٢)]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويروىٰ: ويَزِلّ بالياءِ من الزلل، وهذه الرواية أبلغ في معنى غلبة هذه المرأة علىٰ ذهن هذا الراهب. ووصف الله تعالىٰ النصارىٰ بأنهم لا يستكبرون، وهذا بيّن موجود فيهم حتىٰ الآن، واليهودي متى وجد غروراً طغىٰ وتكبر، وإنما أذلهم الله وأضرعتهم الحمىٰ، وداسهم كلكل الشريعة، ودينُ الإسلام أعلاه الله.

وذكر سعيد بن جبير، ومجاهد، وابن عباس أن هذه الآية نزلت بسبب وفْد بعثهم النجاشيّ إلىٰ رسول الله ﷺ ليروْه ويعرفوا حاله، فقرأ النبي ﷺ عليهم القرآن فبكوا وآمنوا ورجعوا إلى النجاشي فآمن ولم يزل مؤمناً حتى مات فصلى عليه النبي ﷺ.

---

(١) هذا البيت لجرير من قصيدة مطلعها:

طَربَ الحَمَامُ بِذي الأَراكِ فَهاجَني ... لا زِلْتَ في غَلَلٍ وَأَيْكٍ ناضِرِ

والخطاب في قوله: «لو رأوك» لمن خاطبها في البيت السابق على البيت الذي استشهد به ابن عطية: «يا أم طلحةَ مالقينا مثلكم»، والعصم: الوعول، وإنما سميت عُصْماً لبياضٍ في أيديها، والفادرُ: المُسِنُّ منها، وجمعه: فُدُور، والعُقُول: المتحرزة في شعف الجبال، وشعف كل شيء: أعلاه، يقول: لو أن رهبان مدين المعروفين بالنسك والتصون رأوك لنزلوا من صوامعهم، وكذلك الوعول المسنة التي اعتصمت في أعالي الجبال.

(٢) روى صاحب اللسان البيت هكذا:

لَوْ كَلَّمَتْ رُهْبانَ دَيْرٍ في القُلَلْ ... لانْحَدَرَ الرُّهْبانُ يَسْعَى فَنَزَلْ

ولم ينسبه، بل قال: أنشد ابن الأعرابي، وكذلك رواه في التاج. ورواه في تفسير القرطبي: «لَوْ أَبْصَرَتْ ... في الجبل»، وكذلك رواه في «فتح القدير»، أما في «البحر» فقد رواه كما رواه ابن عطية، والقلل: جمع قلة وهي قمة الشيء وأعلاه، وإذا كان الرهبان جمعاً كما هو المشهور فالمفرد راهب، والفعل رهبَ، والتَّرَهُّب هو التعبد في صومعة، قال النابغة:

لَوْ أَنَّها عَرَضَتْ لأَشْمَطَ راهِبٍ ... عَبَدَ الإلَهَ صَرُورَةٍ مُتَعَبِّدِ

لَرَنَا لِرُؤْيَتِها وَحُسْنِ حَدِيثِها ... ولَخالَهُ رَشَداً وإِنْ لَمْ يَرْشُدِ

والصرورة: الذي لم يأت النساء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وروىٰ أن نَعْش النَّجاشي كُشفَ للنبي ﷺ فكان يراه من موضعه بالمدينة، وجاءَ الخبر بعد مدة أن النجاشي دفن في اليوم الذي صلى فيه النبي ﷺ عليه، وذكر السُّدي أنهم كانوا اثني عشر، سبعة قسيسين وخمسة رهباناً. وقال أبو صالح: كانوا سبعة وستين رجلاً، وقال سعيد بن جُبير: كانوا سبعين، عليهم ثيابُ الصوف، وكلهم صاحب صومعه، اختارهم النجاشي الخيِّر فالخيِّر، وذكر السدي أن النجاشي خرج مهاجراً فمات في الطريق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف لم يذكره أحد من العلماء بالسيرة.

وقال قتادة: نزلت هذه الآيات في قوم كانوا مؤمنين ثم آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفرق الطبري بيْن هذين القولين وهما واحد.

وروى سلمان الفارسي عن النبي ﷺ: «ذلِك بأَنَّ منْهم صِدِّيقين ورُهْباناً»[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ﴾ الآية، الضمير في ﴿سَمِعُوا﴾ ظاهِرُه العموم، ومعناه الخصوص فيمن آمن من هؤلاء القادمين مِن أَرض الحبشة، إِذ هم عرفوا الحق وقالوا: آمنا، وليس كل النصارى يفعل ذلك، وصدْر الآية في قُرْب المودة عام فيهم، ولا يتوجه أن يكون صدر الآية خالصاً فيمن آمن، لأَنَّ من آمن فهو من الذين آمنوا وليس يقال فيه: «قالوا: إنا نصارىٰ»، ولا يقال في مؤمنين: «ذلك بأَن منهم

(١) أخرج أبو عُبَيْد في فضائله، وابن أبي شيبة في مسنده، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، والحارث بن أُسامة في مسنده، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، والبزار، وابن الأنباري في المصاحف، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه ـ عن سلمان أنه سئل عن قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ قال: الرهبان الذين في الصوامع، نزلت على رسول الله ﷺ: «ذَلِكَ بأَنَّ مِنْهُم صِدِّيقينَ وَرُهْبَاناً»، ولفظ البزار: دع القسِّيسين: أَقرَأَني رسول الله ﷺ: [ذَلِك بأَنَّ مِنْهُمْ صدِّيقينَ]، ولفظ الحكيم الترمذي: قرأت على النبي ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾ فأَقرَأَني: «ذَلِكَ بأَنَّ مِنهُم صِدِّيقينَ». (الدر المنثور ٢ ـ ٣٠٤).

قسِّيسين»، ولا يقال: «إنهم أقرب مودة»، بل مَنْ آمن فهو أهل مودة محضة، فإنما وقع التخصيص من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟﴾، وجاءَ الضمير عامًّا إِذْ قد تُحمد الجماعة بفعل واحد منها، وفي هذا استدعاءٌ للنصارى ولطفٌ من الله تعالىٰ بهم، ولقد يوجد فيض الدموع غالباً فيهم وإن لم يؤمنوا(١).

وروي أَن وفداً من نجران قدم على أَبي بكر الصديق في شيءٍ من أُمورهم، فأَمر مَنْ يقرأُ القرآن بحضرتهم، فبكوا بكاءً شديداً، فقال أَبو بكر: هكذا كنا ولكن قست القلوب.

وروي أَن راهباً من رهبان ديارات الشام نظر إِلىٰ أَصحاب النبي ﷺ ورأَى عبادتهم وجِدَّهم في قتال عدوهم فعجب من حالهم وبكىٰ وقال: ما كان الذين نُشروا بالمناشير على دِين عيسىٰ بأَصبر من هؤُلاءِ ولا أَجَدَّ في دينهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالقوم الذين وُصفوا بأَنهم عرفوا الحق هم الذين بعثهم النجاشي ليروا النبي ﷺ ويسمعوا ما عنده، فلما رأَوه قرأَ عليهم القرآن، وهو المراد بقوله: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ فاضت أَعينهم بالدمع من خشية القلوب.

والرؤْية في الآية رؤْية العين، و﴿تَفِيضُ﴾ حالٌ من (الأعين)(٢)، و﴿يَقُولُونَ﴾ حالٌ أَيضاً، و﴿ءَامَنَّا﴾ معناه: صدقنا أَن هذا رسولك، والمسموع كتابك. والشاهدون: محمد وأُمته. قاله ابن عباس، وابن جريج، وغيرهما.

---

(١) هذا تعليل لطيف مقبول، وقد اتفق القرطبي مع ابن عطية في أن المدح لمن آمن من النصارى بمحمد ﷺ دون من أَصَرَّ منهم على كفره، قال: ولهذا قال: ﴿وأَنَّهُم لا يَسْتَكبِرون﴾ أي عن الانقياد إلى الحق.

(٢) معنى ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ أَنها تمتلىء فتفيض، لأن الفيض لا يكون إلا بعد الامتلاء، وقد جعل الأعين تفيض والفائض إنما هو الدمع قصداً للمبالغة، كقولهم: دمعت عينُه، قال امرؤُ القيس:

ففاضَتْ دموعُ العيْنِ مِني صَبَابَةً ... على النَّحْرِ حتى بَلَّ دَمْعي مِحْمَلي

و(من) في ﴿مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ قال فيها أبو البقاء: يمكن أن تكون لابتداء الغاية، أي: فيضها من كثرة الدموع، ويمكن أن تكون حالاً، والتقدير: تفيض مملوءة من الدمع مما عرفوا من الحق. وقال بعضهم (مِنْ) بمعنى الباء، أي: تفيض بالدمع. و(مِن) في ﴿مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بيانيَّة، والمعنى: كان الفيض ناشئاً من معرفة الحق. قاله أبو حيان في «البحر المحيط» نقلاً عن الزمخشري في «الكشاف» وعن غيره.

وقال الطبري: لو قال قائلٌ: معنى ذلك: مع الشاهدين بتوحيدك من جميع العالَم من تقدم ومن تأخر لكان ذلك صواباً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هذا معنى قول الطبري، وهو كلام صحيح، وكأن ابن عباس رضي الله عنهما خصَّصَ أُمة محمد عليه الصلاة والسلام لقوله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ الآية[1].

قوله عزَّ وجل:

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

قولهم: ﴿ وَمَا لَنَا﴾ توقيف لأنفسهم، أَو محاجَّة لمن عارضهم من الكفار بأَن قال لهم: آمنتم وعجلتم، فقالوا: وأَي شيءٍ يصدنا عن الإيمان وقد لاح الصواب وجاءَ الحق المنير؟ ﴿ وَمَا لَنَا﴾ ابتداءٌ وخبر و﴿ لَا نُؤْمِنُ﴾ في موضع الحال، ولكنها حال هي المقصد وفيها الفائدة، كما تقول: «جاءَ زيد راكباً» وأَنت قد سُئِلت: «هل جاءَ ماشياً أَو راكباً»؟.

وفي مصحَف ابن مسعود: [وما لَنَا لا نُؤمن بالله وما أَنزل إِلينا رَبُّنَا].

﴿ وَنَطْمَعُ﴾ تقديره: ونحن نطمع، فالواو عاطفة جملة على الجملة، لا عاطفة فعل على فعل، والقوم الصالحون: محمد وأَصحابه، قاله ابن زيد وغيره من المفسرين.

ثم ذكر الله تعالىٰ ما أَثابهم به من النعيم على إيمانهم وإِحسانهم.

ثم ذكر حال الكافرين المكذبين وأَنهم قرناءُ الجحيم[2]، والمعنى قد علم من غير ما آيةٍ من كتاب الله أَنه اقترانٌ لازم دائم أَبدي.

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ هي الآية (١٤٣) من سورة البقرة، وكأنما هي حجة ابن عباس في تخصيص أُمة محمد ﷺ وأنها هي المرادة بقوله تعالىٰ هنا: ﴿ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، ولكن هناك آراء أُخرىٰ، ومعنىٰ ﴿ فَٱكْتُبْنَا﴾ اجعلنا كما قال القرطبي فيكون بمنزلة ما قد كُتب ودُوِّن.

(٢) الجحيم: النار الشديدة الاتقاد، يقال: جَحَم فلان النار إذا شدَّد إيقادها، ويقال لِعَيْن الأسد: جَحْمَة، لِشِدَّة اتقادها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ الآية. قال أبو مالك، وعكرمة، والنخعي، وأبو قلابة، وقتادة، والسدي، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وغيرهم: إنها نزلت بسبب جماعة من أصحاب النبي ﷺ بلغت منهم المواعظ وخوف الله إلى أن حرَّم بعضهم النساءَ، وبعضهم النوم بالليل والطيب، وهمَّ بعضهم بالاختصاءِ، وكان منهم علي بن أبي طالب، وعثمان بن مظعون. قال عكرمة: ومنهم ابن مسعود، والمقداد، وسالم مولى أبي حذيفة. وقال قتادة: رفضوا النساءَ واللحم وأرادوا أن يتخذوا الصوامع، وقال ابن عباس رضي عنهما: أخذوا الشِّفار[1] ليقطعوا مذاكرهم، وطوّل السدي في قصة الحولاءِ امرأة عثمان بن مظعون مع أزواج النبي ﷺ وإخبارها بأنه لم يلم بها، فلما أُعلم رسول الله ﷺ بحالهم قال: (أمّا أنا فأقوم وأنام، وأصوم وأُفطر، وآتي النساءَ، وأنال الطيّب، فمن رغب عن سنتي فليس مني)[2].

قال الطبري: وكان فيما يُتْلى: [من رغب عن سنتك فليس من أُمتك، وقد ضلَّ سواءَ السبيل].

وقال ابن زيد: سبب هذه الآية أن عبد الله بن رواحة ضافه ضيف، فانقلب ابن رواحة وضيفه لم يتعش، فقال لزوجته: ما عشيته؟ قالت: كان الطعام قليلاً فانتظرتك، فقال: حبَسْتِ ضيفي من أجلي، طعامُك علي حرام إن ذقته، فقالت هي: وهو عليَّ حرام إنْ ذقتُه إن لم تذقه، وقال الضيف: وهو علي حرام إن ذقتُه إن لم تذوقوه، فلما رأىٰ ذلك ابن رواحة قال: قرّبي طعامك، كلوا باسم الله، فأكلوا جميعاً، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال له رسول الله ﷺ: أحسنت، ونزلت هذه الآية[3].

---

(١) الشِّفار: جمع شَفْرة، وهي ما عُرِّض وحُدِّد من الحديد كحد السيف والسكين، وتجمع أيضاً على شَفْر.

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظُهُ: قال: (نزلَتْ في رهط من الصحابة قالو: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك فقالوا: نعم، فقال النبي ﷺ: «لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأنكح النساء، فمن أخذ بسنتي فهو مني، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني». (الدر المنثور ـ وفتح القدير) وزاد في فتح القدير: «وقد ثبت نحو هذا في الصحيحين وغيرهما من دون ذكرِ أن ذلك سبب نزول الآية».

(٣) قال الشوكاني عن هذا الأثر: «أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم»، ثم قال: «وهذا أثر منقطع، ولكن في=

وأَسند الطبري إِلى ابن عباس رضي الله عنهما أَن الآية نزلت بسبب رجل أَتى النبي صلىٰ ﷺ فقال: يا رسول الله، إِني إِذا أَصبْتُ من اللحم انتشرت وأَخذتني شهوتي فحرمت اللحم، فأَنزل الله هذه الآية(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والطيبات في هذه الآية: المُسْتَلَذَّات، بدليل إِضافتها إِلى ﴿مَآ أَحَلَّ﴾، وبقرينة ما ذُكر من سبب الآية.

واختلف المتأولون في معنى قوله: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ ـ فقال السدي، وعكرمة، وغيرهما: هو نَهْي عن هذه الأُمور المذكورة من تحريم ما أَحلَّ الله وشرع ما لم يأْذن به، فقوله: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ تأْكيد لقوله: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ﴾. وقال الحسن بن أَبي الحسن: المعنىٰ: ولا تعتدوا فتحلوا ما حرم الله، فالنهْيانِ على هذا تضمَّنا الطرفين فكأَنه قال: لا تشددوا فتحرموا حلالاً، ولا تترخصوا فتحلوا حراماً. وقد تقدم القول في معنىٰ: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ غير مرة.

قوله عز وجل:

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَكُلُواْ﴾ في هذه الآية عبارة عن: تمتعوا بالأَكل والشرب واللباس والركوب ونحو

= صحيح البخاري في قصة الصِّديق مع أضيافه ما هو شبيه بهذا».

(١) أخرجه الترمذي وحسَّنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن عدي في الكامل، والطبراني، وابن مردويه ـ عن ابن عباس. (الدر المنثور ٢ـ ٣٠٧).
والأحاديث في ذلك كثيرة، ومنها ما أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السِّرِّ، فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: ما بالُ أقوام يقول أحدهم كذا وكذا، لكني أَصوم وأُفطر، وأَنام وأَقوم، وآكل اللحم، وأَتزوج النساء، فمن رغب عن سُنَّتي فليس مني.

ذلك، وخصَّ الأكل بالذكر لأنه أَعْظَم المقصود[1] وأخص الانتفاعات بالإنسان.

والرزق عند أَهل السنة: ما صحَّ الانتفاع به، وقالت المعتزلة: الرزق: كل ما صحَّ تملُّكه، والحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه، ويرد عليهم بأنه يلزمهم أَن آكل الحرام ليس بمرزوق من الله تعالىٰ، وقد خرَّج بعض النبلاءِ أَن الحرام رزق من قوله تعالىٰ: ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[2] قال: فذكر المغفرة مشيراً إِلىٰ أَن الرزق قد يكون فيه حرام، وردَّ أَبو المعالي في الإِرشاد على المعتزلة بأَنهم إِذا قالوا: الرزق ما تملك فيلزمهم أَن ما ملك فهو الرزق، وملك الله تعالىٰ للأَشياءِ لا يصح أَن يقال فيه: إِنه رزق له.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الذي أَلزم غير لازم فتأَمَّله. وباقي الآية بيِّن.

وقد تقدم القول في سورة البقرة في نظير قوله تعالىٰ: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ﴾ معناه: شدَّدْتم.

وقرأَ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرو: ﴿ عَقَّدتُّمُ ﴾ مُشدَّدة القاف، وقرأَ عاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ، وحمزة، والكسائي: [عَقَدتم] خفيفة القاف، وقرأَ ابن عامر: [عَاقَدْتُم] بأَلف على وزن فاعلتم. قال أَبو علي: من شدد القاف احتمل أَمرين: أَحدهما أَن يكون لتكثير الفعل لأَنه خاطب جماعة، والآخر أَن يكون (عقَّد) مثل (ضعَّف) لا يراد به التكثير، كما أَن ضاعف لا يراد به فعلٌ من اثنين، ومن قرأَ [عَقَدْتم] فخفف القاف جاز أَن يراد به الكثير من الفعل والقليل. وعقد اليمين كعقد الحبل والعهد، وقال الحطيئة:

قــومٌ إِذَا عَقَــدوا عَقْــداً لِجَـارِهِـمُ شَدُّوا العِنَاجَ وشَدُّوا فوْقَهُ الكَرَبا[3]

---

(١) جاء في بعض النسخ: لأنه عظم المقصود، وما أثبتناه هنا يتفق مع ما نقله القرطبي عن ابن عطية رحمه الله.

(٢) سبأ: ١٥.

(٣) قال الحطيئة هذا البيت يمدح قوماً بأنهم عقدوا لجارهم عهداً فوفوا به ولم يخْفروه، والعِنَاج: خيطٌ أو سيْر في أسفل الدلْو ثم يُشد في عروتها، والكرَب: الحبل الذي يشد على الدلْو بعد الحبل الأول (واسمه: المتين) فإذا انقطع المتين بقي الكرب. وقيل في المعاني غير هذا. وهذه أمثال ضربها الحطيئة=

ومن قرأ [عاقَدْتُمْ] فيحتمل ضربين: أَحدهما أَن يكون كطارقت النعل، وعاقبت اللص، والآخر أَن يراد به فاعلت الذي يقتضي فاعليْن كأَن المعنىٰ: يؤاخذكم بما عاقدتم عليه الأَيمان، ويُعدى (عاقد) بـ (عَلَىٰ) لما هو في معنى (عاهد)، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾[1]، وهذا كما عُديت ﴿نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾[2] بـ (إِلىٰ)، وبابها أَن تقول: ناديت زيداً، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾[3] لكن لما كانت بمعنى: دعوت إِلى كذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[4] عُدّيت (نادىٰ) بـ (إِلىٰ)، ثم يتسع في قوله تعالىٰ: «عاقدتم عليه الأَيمان» فيحذف الجار ويصل الفعل إِلى المفعول، ثم يحذف من الصلة الضمير الذي يعود على الموصول، وتقديره: «يُؤَاخذكم بما عقدتموه الأَيمان» كما حذف من قوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[5].

والأَيمان: جمع يمين وهي الأَلِيَّة[6]، سميت يميناً لما كان عرفهم أَن يصفقوا بأَيمان بعضهم على بعض عند الأَلِيَّة. وقوله تعالىٰ: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ معناه: فالشيءُ الساتر على إِثم الحنث في اليمين إِطعامُ، والضمير على الصناعة النحوية عائد على ﴿مَا﴾[7]، وتحتمل ﴿مَا﴾ في هذا الموضع أَن تكون بمعنى الذي، وتحتمل أَن تكون مصدرية وهو عائد مع المعنى الذي ذكرناه على إِثم الحنث، ولم يجر له ذكر صريح ولكن المعنى يقتضيه.

= لإيفائهم بالعهد. على أنه مما يؤيد ما ذهبنا إليه أن العرب تقول: دلوٌ مُكْرَبَة: ذات كَرَب. (اللسان). وقد سبق شرح هذا البيت في أول سورة المائدة عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾.

(١) من الآية (١٠) من سورة (الفتح).

(٢) من الآية (٥٨) من سورة (المائدة).

(٣) من الآية (٥٢) من سورة (مريم).

(٤) من الآية (٣٣) من سورة (فصلت).

(٥) من الآية (٩٤) من سورة (الحجر).

(٦) الأَلِيَّةُ: اليمين، والأَلِيَّةُ بكسر اللام وتشديد الياء المفتوحة، والجمع: ألايا. أمَّا الأَلْيَة بسكون اللام وفتح الياء فهي العجيزة أو ما ركبها من شحم ولحم. (المعجم الوسيط).

(٧) وضّح أبو حيان هذا الكلام لأن عبارة ابن عطية هذه توحي بأن الضمير عائد على ﴿مَا﴾ على الاحتمالين مع أن قوله بعد ذلك ـ « وهو عائد مع المعنى. . الخ» يخالف هذا، قال أبو حيان في «البحر»: «والضمير في ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ عائد على ﴿مَا﴾ إن كانت موصولة اسمية، وهو على حذف مضاف، وإن كانت مصدرية عاد الضمير على ما يفهم من المعنىٰ وهو إثم الحنث وإن لم يجر له ذكر صريح لكن يقتضيه المعنىٰ» ـ وهذا هو الذي أراده ابن عطية ولم تؤده عبارته بدقة.

و﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ معناه: إشباعهم مرة، قال الحسن بن أَبي الحسن: إنْ جَمعَهم أَشبعهم إشباعة واحدة، وإن أَعطاهم أَعطاهم مَكُّوكاً مَكُّوكاً[١]، وحكم هؤلاءِ أَلا يتكرر واحد منهم في كفارة يمين واحدة، وسواءٌ أَطعموا أَفراداً أَو جماعة في حين واحد، ولا يُجزىء في شيءٍ من ذلك ذميٌّ وإن أُطعم صبي فيعطى حظ كبير، ولا يجوز أَن يُطعَم عبد ولا ذو رحم تلزم نفقته، فإن كان ممن لا تلزم المكفر نفقته فقد قال مالك: لا يعجبني أَن يطعمه، ولكن إن فعل وكان فقيراً أَجزأَه، ولا يجوز أَن يُطْعَم منها غني، وإن أُطعم جهلاً بغناه ففي «المدونة» وغير كتاب أَنه لا يجزىء، وفي «الأَسدية» أَنه يجزىء.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ﴾ ـ فرأَى مالك رحمه الله وجماعة معه هذا التوسط في القدر، ورأَى ذلك جماعة في الصنف، والوجه أَن يعم بلفظ الوسط القدر والصنف، فرأَىٰ مالك أَن يطعم المسكين بالمدينة مُدّاً بمد النبي ﷺ، وذلك رطل وثلث من الدقيق وهذا لضيق المعيشة بالمدينة، ورأَى في غيرها أَن يتوسع، ولذلك استحسن الغداءَ والعشاءَ، وأَفتى ابن وهب[٢] بمصر بمدٍّ ونصف، وأَشهب بمُدٍّ وثلث، قال ابن المواز: ومُد وثلث وسَطٌ من عيش أَهل الأَمصار في الغداءِ والعشاءِ، قال ابن حبيب[٣]: ولا يجزىء الخبز قَفَاراً[٤]، ولكن بإدام[٥] زيت أَو لبن أَو لحم أَو نحوه، وفي شرح ابن مزين أَن الخبز القَفَار يجزىء، ورأَى من يقول «إن التوسط في الصنف» إنما هو في الصنف أَن يكون الرجل المكفر يتجنب أَدنىٰ ما يأْكل الناس في البلد، وينحط عن الأَعلى، ويكفر بالوسط من ذلك، ومذهب «المدونة» أَن يراعي المكفِّر

---

(١) المَكُّوكُ: مِكْيالٌ قديم يختلف مقداره اصطلاح الناس عليه في البلاد، قيل: يسع صاعاً ونصف صاع.

(٢) هو عبد الله بن وهب بن مسلم المصري، فقيه من الأئمة، من أصحاب مالك، جمع بين الفقه والحديث والعبادة، من كتبه: الجامع في الحديث، والموطأ في الحديث أيضاً، وكان حافظاً ثقة، عرض عليه القضاء فخبأ نفسه ولزم بيته، مولده ووفاته بمصر (ت١٩٧هـ) ـ (الوفيات، والتهذيب).

(٣) عبد الملك بن حبيب بن سليمان القرطبي، عالم الأندلس وفقيهها، سكن قرطبة، وزار مصر، ثم عاد إلى الأندلس وتوفي بقرطبة، كان عالماً بالتاريخ والأدب، رأساً في فقه المالكية، له تصانيف كثيرة، قيل: تزيد على الألف، منها: «حروب الإسلام، طبقات الفقهاء والتابعين، تفسير موطأ مالك»، قال عنه ابن لبابة: عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس، (معجم البلدان ـ الديباج ـ تاريخ علماء الأندلس).

(٤) القَفَارُ من الخبز: غير المأدوم.

(٥) الإِدَامُ: ما يُستمرأ به الخبز، والجمع: أُدُم.

عيشَ البلد، وفي كتاب ابن المواز أَن المراعَىٰ عيشةُ في أَهله الخاصُّ به[(١)].

وكأَن الآية ـ على التأويل الأَول ـ معناها: من أَوسط ما تُطعمون أَيها الناس أَهليكم في الجملة من مدينة أَو صِقْع، وعلى التأويل الثاني معناها: من أَوسط ما يطعم شخص أَهله. وقرأَ الجمهور: [أَهْليكمْ] وهو جمع أَهل على السلامة، وقرأ جعفر بن محمد: [من أوسط ما تُطْعِمُونَ أهاليكُمْ] وهذا جمع مكسر، قال أَبو الفتح: أَهال بمنزلة: لَيَالٍ كأَن واحدها: أَهلاتٌ وليلاتٌ، والعرب تقول: أَهلٌ وأَهْلَة، ومنه قول الشاعر:

وأهلــة ود قــد تبــريــتُ وُدَّهــم . . . . (٢)

ويُقال: ليلةٌ وليْلاه، وأَنشد ابن الأَعرابي:

فــي كُــل مــا يــومٍ وكُــلِّ ليْــلاَه حتَّــى يَقــولَ مَــنْ رآهُ إِذْ رآهُ

يا وَيْحَهُ مِنْ جَمَلٍ ما أَشْقاهُ[(٣)]

وقرأَ الجمهور: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ بكسر الكاف، يراد به كسوة الثياب. وقرأ سعيد بن المسيّب، وأَبو عبد الرحمن، إِبراهيم النَّخعي: [أَو كُسْوَتهم] بضم الكاف. وقرأَ سعيد ابن جبير، ومحمد بن السَّميفع اليماني [أَو كَإِسْوَتهم] من الأسوة، قال أَبو الفتح: كأَنه قال: أَو بما يكفي مثلهم، فهو على حذف مضاف بتقدير: أَو ككفاية أُسوتهم. قال: وإِن شئت جعلت الأُسوة هي الكفاية فلم تحتج إِلى حذف مضافٍ.

---

(١) الوَسَط هنا بمنزلة بين منزلتين، ونصفا بين طرفين، ومنه الحديث: (خير الأمور أوسطها). روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كان الرجل يقوت أهله قوتاً فيه سَعة، وكان الرجل يقوت أهله قوتاً فيه شدة، فنزلت: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ فدل هذا على أن الوسط: ما كان بين شيئين.

(٢) البيت لأبي الطَّمَحان القَيْني، وهو شاعر إسلامي اسمه: حنظلة بن الشرفي، والبيت بتمامه:

وأَهْلَــةِ وُدٍّ قــد تَبَــرَّيْــتُ وُدَّهــم وَأَبْلَيْتُهُــمْ فــي الحمْدِ جُهْدي ونــائِلي

ومعنى (تَبَرَّيْتُ): تعرضت لودهم وبذلتُ في ذلك طاقتي من نائل، وهذه هي رواية اللسان، ورواية التاج «بذلي ونائلي».

(٣) قال في اللسان: وحكىٰ ابن الأعرابي: «لَيْلاة»، وأَنشد:

فــي كُــلِّ يــوْم مــا وكُــلِّ ليْــلاهْ

حتَّــى يقــولَ كُــلُّ راءٍ إذا رآهْ

يــا وَيْحَــهُ مِــنْ جَمَــلٍ مــا أَشْقــاهْ

وتأمل الاختلاف في الرواية، فهي: «في كلِّ يوم ما» بدلاً من «في كلِّ مايوم» ـ وهي أيضاً: «كلُّ راءٍ إذا رآه» بدلاً من «من رآه إذ رآه»، ورواية ابن جني في المحتسب مثل رواية اللسان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر، والقراءَة مخالفة لخط المصحف، ومعناها على خلاف ما تأَول أَهل العلم من أَن الحانث في اليمين بالله مخير في الإِطعام أَو الكسوة أَو العتق، والعلماءُ علىٰ أَن العتق أَفضل ذلك، ثم الكسوة، ثم الإِطعام، وبدأَ الله تعالى عباده بالأَيسر فالأَيسر، ورُبَّ مُدَّة ومسغبة يكون فيها الإِطعام أَفضل من العتق، لكن ذلك شاذ وغير معهود، والحكم للأَغلب.

واختلف العلماءُ في حدِّ الكسوة ـ فراعىٰ قوم نفس اللفظة، فإِذا كان الحانث المكفر كاسياً والمسكين مكسوّاً حصل الإِجزاءَ، وهذه رتبة تتحصل بثوب واحد، أَي ثوب كان بعد إِجماع الناس على أَن القلنسوة بانفرادها لا تُجزىء في كفارة اليمين. قال مجاهد: يجزىء في كفارة اليمين ثوب واحد فما زاد، وقال الحسن: الكسوة: ثوب لكل مسكين، وقاله طاوس، وقال منصور: الكسوة: ثوب قميص أَو رداءٌ أَو إِزار، وقاله أَبو جعفر، وعطاء، وابن عباس، وقال: وقد تجزىء العباءَة في الكفارة، وكذلك الشملة، وقال الحسن بن أَبي الحسن: تجزىء العمامة في كفارة اليمين، وقال مجاهد: يجزىء كل شيءٍ إِلا التُّبَّان[1]. ورُوي عن سلمان رضي الله عنه أَنه قال: «نعم الثوبُ التُّبان»، أَسنده الطبري، وقال الحكم بن عتيبة: تجزىء عمامة يلف بها رأْسه. وراعى قوم معهود الزيّ والكسوة المتعارفة، فقال بعضهم: لا يجزىء الثوب الواحد إِلا إِذا كان جامعاً مما قد يُتَزَيّا به كالكساءِ والملحفة، قال إِبراهيم النَّخعي: يجزىء الثوب الجامع، وليس القميص والدرع والخمار ثوباً جامعاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

قد يكون القميص الكامل جامعاً وزِيّاً، وقال بعضهم: الكسوة في الكفارة: إِزار وقميص ورداءٌ، قاله ابن عمر رضي الله عنهما، وروي عن الحسن، وابن سيرين، وأَبي موسى الأَشعري أَن الكسوة في الكفارة ثوبان لكل مسكين، وعلَّق مالك رحمه الله الحكم بما يجزىء في الصلاة، وهذا أَحسن نظر، فقال: يجزىء في الرجل ثوب

---

(١) التُّبَّان ـ بضم التاء وتشديدها: سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة، قيل: يكون للملاحين، ومنه حديث عمار (أنه صلى في تُبَّان وقال: إنني ممثون)، يعني أنه يشتكي من المثانة. وفي حديث عمر: (صلى رجل في تُبَّان وقميص) (النهاية في غريب الحديث والأثر ـ لابن الأثير).

واحد، وقال ابن حبيب: يكسى قميصاً أَو إِزاراً يبلغ أَن يلتف به مشتملاً، وكلام ابن حبيب تفسير، قال مالك: تكسى المرأَةُ درعاً وخماراً، وقال ابن القاسم في «العتبية»: وإِن كسا صغير الإِناث فدرع وخمار كالكبيرة، والكفارة واحدة لا يُنقص منها لصغير، قال عنه ابن المواز: ولا تعجبني كسوة المراضع بحال، فأَما من أُمر بالصلاة فيكسوه قميصاً ويجزئه، قال ابن المواز من رأيه: بل كسوة رجل كبير وإِلا لم يجزىء، قال أَشهب: تعطى الأُنثى إِذا لم تبلغ الصلاة ثوب رجل ويجزىء، وقاله ابن الماجشون.

قوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ التحرير: الإِخراج من الرق، ويستعمل في الأسر والمشقات وتعب الدنيا ونحوها، فمنه قوله تعالىٰ عن أم مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾[1] أَي من شغوب[2] الدنيا، ومن ذلك قول الفرزدق:

أَبَنِـي غُـدانَـةَ إِنَّنـي حَـرَّرْتكُـمْ ... فَـوَهَبْتُكَـمْ لِعَطِيَّـةَ بـن جِعَـالِ[3]

أَي حررتم من الهجاء، وخصَّ الرقبة من الإِنسان إِذ هو العضو الذي فيه يكون الغل والتوثق غالباً من الحيوان، فهو موضع الملك فأُضيف التحرير إِليها.

واختلف الناس في صفة المعْتَق في الكفارة كيف ينبغي أَن يكون؟ فقالت جماعة من العلماءِ: هذه رقبة مطلقة لم تقيد بإِيمان فيجوز في كفارة اليمين عتق الكافر، وهذا مذهب الطبري وجماعة من العلماء، وقالت فرقة: كل مطلق في القرآن من هذا فهو راجع إِلى المقيد في عتق الرقبة في القتل الخطأ، فلا يجزىءُ في شيءٍ من الكفارات كافر، وهذا قول مالك رحمه الله وجماعة معه[4]، وقال مالك رحمه الله: لا يجزىء

---

(١) آل عمران: ٣٥.

(٢) الشَّغَب: تهيُّج الشر وإِثارةُ الفتن والاضطراب.

(٣) حرَّره: أعتقه، والفرزدق يريد أنه حررهم من الهجاء الذي كان سيضع منهم ويضر بأحسابهم ومكانتهم، وقد فعل هذا عن قدرة.

(٤) الرأي الأول وهو جواز عتق الكافر هو رأي أبي حنيفة رضي الله عنه ـ وأما الرأي الثاني هو وجوب أن تكون الرقبة المعْتَقَة مؤمنة (وهو رأي مالك) فدليله غير ما ذكر ابن عطية أن التحرير هنا قُربة واجبة فلا يكون الكافر محلاً لها كالزكاة. واشتراط المالكية ـ مع الإيمان ـ أن تكون كاملة ليس فيها شرك لغيره لقوله تعالىٰ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وبعض الرقبة ليس برقبة، واشترطوا كذلك أن تكون سليمة لأن النص يوجب أن تكون كاملة، والمعيبة بمرض أو عجز غير كاملة، وقد قال ﷺ: (ما من مسلم يعتق امرأً مسلماً إلا كان فكاكه من النار كل عضو منه بعضو منه حتى الفرج بالفرج).

أَعمى ولا أَبرص ولا مجنون. وقاله ابن شهاب وجماعة، وفي الأَعور قولان في المذهب، وكذلك في الأَصم وفي الخصي. وفي العلماء من رأَى أَن جميع هذا يجزىء، وفرَّق النَّخعي فجوز عتق من يعمل أَشغاله وخدمته، ومنع عتق من لا يعمل كالأَعمى والمقعد والأَشل اليدين. قال مالك رحمه الله: والأَعجمي عندي يُجزىءُ من قصر النفقة، وغيْرُهُ أَحب إِلي، قال سحنون: يريد بعد أَن يجيب إِلىٰ الإِسلام، فإِن كان الأَعجمي لم يُجب إِلا أَنه يُجبر على الإِسلام كالكبير من المجوس والصغير من الحربيين الكتابيين فقال ابن القاسم: يجزىءُ عتْقه وإِن لم يسلم، وقال أَشهب: لا يُجزىءُ حتى يُسلم، ولا يجزىء عند مالك من فيه شعبة حرية كالمدبر وأُم الولد ونحوه.

وقول تعالىٰ: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ معناه: لم يجد في ملكه أَحد هذه الثلاثة من الإِطعام أَو الكسوة أَو عتق الرقبة. واختلف العلماءُ في حدّ هذا العادم الوَجْد حتى يصح له الصيام ـ فقال الشافعي رحمه الله وجماعة من العلماءِ: إِذا كان المكفِّر لا يملك إِلا قوته وقوت عياله يومه وليلته فله أَن يصوم، فإِن كان عنده زائداً على ذلك ما يطعم عشرة مساكين لزمه الإِطعام، وهذا أَيضاً هو مذهب مالك وأَصحابه، قاله مالك في «المدونة»: لا يُجزئه الصيام وهو يقدر على أَحد الوجوه الثلاثة. وروي عن ابن القاسم أَن من تَفضُل له نفقة يوم فإِنه لا يصوم. وقال ابن المواز: ولا يصوم الحانث حتى لا يجد إِلا قوته أَو يكون في بلد لا يعطف عليه فيه. وقال ابن القاسم في كتاب ابن مزين: إِن كان لحانث فضْل عن قوت يومه أَطعم إِلاَّ أَن يخاف الجوع، أَو يكون في بلد لا يعطف عليه فيه. وقال سعيد بن جبير: إِن لم يكن له إِلاَّ ثلاثة دراهم أَطعم. وقال قتادة: إِذا لم يكن له إِلا قدر ما يكفِّر به صام، وقال الحسن بن أَبي الحسن: إِذا كان له درهمان أَطعم. وقال الطبري: وقال آخرون: جائز لمن لم تكن عنده مائتا درهم أَن يصوم وهو ممن لا يجد. وقال آخرون: جائز لمن لم يكن عنده فضل على رأْس ماله الذي يتصرف به في معاشه أَن يصوم.

وقرأَ أُبَيٌّ بن كعب: «فَصِيَامُ ثلاثَةِ أَيَّام مُتَتَابِعَاتٍ»، وكذلك عبد الله بن مسعود، وإِبراهيم النَّخعي، وقال بذلك جماعةٌ من العلماءِ منهم مجاهد وغيره، وقال مالك رحمه الله وغيره: إِن تابَع فحسن وإِنْ فَرَّق أَجزأَ.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأَشياءِ الثلاثة.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ معناه: ثم أَردتم الحنث أَو وقعتم فيه، وباقي الآية وَصَاة وتوقيف على النعمة والإِيمان.

قوله عزَّ وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (٩٢)﴾.

الخطاب للمؤمنين جميعاً لأَن هذهِ الأَشياءَ شهوات وعادات قد تُلُبِّس بها في الجاهلية وغلبت على النفوس، فكان بقي منها في نفوس كثيرة من المؤمنين[١].

فأَما الخمر فكانت لم تحرم بعد، وأَما المَيْسر ففيه قمار ولذة للفارغ من النفوس ونفع أَيضاً بوجه ما، وأَما الأَنصاب وهي حجارة يذكون عندها لفضل يعتقدونه فيها، وقيل: هي الأَنصاب المعبودة كانوا يذبحون لها وعندها في الجاهلية، فإِن كانت المرادة في هذه الآية الحجارة التي يذبح عندها فقط فذلك لأَنه كان في نفس ضَعَفَة المؤمنين شيءٌ من تعظيم تلك الحجارة، وهذا كما قالت امرأة الطفيل بن عمرو الدوسي لزوجها: أَتخاف على الصبية من ذي الشرى شيئاً؟ و«ذو الشرىٰ» صنم لدوس. وإِن كانت المرادة في هذه الآية الأَصنام فإِنما قرنت بهذه الأُمور لِيَبين النقصُ في هذه إِذْ تُقرن بالأَصنام، ولا يتأَول أنه بقي في نفس مؤمن شيءٌ من تعظيم الأَصنام والتَلَبُّس بها حتى يقال له: اجتنبه. وأَما الأَزلام فهي الثلاثة التي كان أَكثر الناس يتخذونها، في أَحدها لا، وفي الآخر نعم، والآخر غفل، وهي التي حبسها سراقة بن جعشم حين اتبع النبي ﷺ في وقت الهجرة، فكانوا يعظمونها، وبقي منها في بعض النفوس شيءٌ، ومِنْ هذا القبيل هُوَ[٢] الزجر بالطير، وأَخذ الفأْل في الكتب ونحوه مما يصنعه الناس اليوم، وقد يقال

---

(١) نقل القرطبي هذه العبارة عن ابن عطية أو غيره هكذا: «إذا كانت شهوات وعادات تَلَبَّسوا بها في الجاهلية وغلبت على النفوس، فكان نَفِيٌّ منها في نفوس كثير من المؤمنين». ومعنى نَفِيّ: بقيَّة.

(٢) نقل القرطبي هذه العباراة عن ابن عطيه هكذا: «قال ابن عطية: ومن هذا القبيل هَوَى الزجر بالطير..».

لسهام الميسر أَزلام، والزلم: السهم، وكان من الأزلام أيضاً ما يكون عند الكهان، وكان منها سهام عند الأَصنام وهي التي ضرب بها على عبد الله بن عبد المطلب أَبي النبي ﷺ، وكان عند قريش في الكعبة أَزلام فيها أَحكام ذكرها ابن إِسحق وغيره فأَخبر الله تعالىٰ أَن هذه الأَشياءَ رجس، قال ابن زيد: الرجس: الشَّر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كل مكروه ذميم[1]، وقد يقال للعذاب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: رجس: سخط، وقد يقال للنَّتن وللعذرة والأَقذار رِجْس، والرجز: العذاب لا غير، والركْس: العذرة لا غير، والرجس يُقال للأَمرين، وأَمر الله تعالىٰ باجتناب هذه الأُمور، واقترنت بصيغة الأَمر في قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ نصوصُ الأَحاديث وإِجماع الأُمة، فحصل الاجتناب في رتبة التحريم، فبهذا حرمت الخمر بظاهر القرآن ونص الحديث وإِجماع الأُمة، وقد تقدم تفسير لفظة الخمر ومعناها وتفسير الميْسر في سورة البقرة، وتقدم تفسير الأَنصاب والاستقسام بالأَزلام في صدر هذه السورة.

واختلف الناس في سبب نزول هذه الآيات ـ فقال أَبو ميسرة: نزلت بسبب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإِنه ذكر للنبي ﷺ عيوب الخمر وما ينزل بالناس من أَجلها، ودعا إِلى الله في تحريمها، وقال: اللَّهم بيّن لنا فيها بياناً شافياً، فنزلت هذه الآيات، فقال عمر: انتهينا انتهينا[2]. وقال مصعب بن سعد بن أَبي وقاص عن أَبيه سعد قال: صنع رجل من الأَنصار طعاماً فدعانا فشربنا الخمر حتى انتشينا، فتفاخرت الأَنصار وقريش، فقال كل فريق: نحن خير منكم، فأَخذ رجل من الأَنصار لَحْيَ جمل فضرب به أَنف سعد ففزره، فكان سعد أَفزر الأَنف، قال سعد: ففي نزلت هذه الآية إِلى آخرها[3].

---

(١) هذه الجملة خبر لمبتدأ محذوف تقديره: الرجس.

(٢) رواه ابن جرير عن أَبي ميسرة من عدَّة طرق. (تفسير الطبري).

(٣) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأَبو الشيخ، وابن مردويه، والنحاس في ناسخه ـ عن سعد بي أَبي وقاص. (الدر المنثور).
هذا واللَّحْي بفتح اللام وسكون الحاء: العظم الذي فيه الأسنان من كل ذي لحي ـ وهما لحيان. وفَزَر: شقَّ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل تحريم الخمر في قبيلتيْن من الأنصار، شربوا حتىٰ إذا ثملوا عربدوا، فلما صحوا جعل كل واحد منهم يرى الأثر بوجهه ولحيته وجسده فيقول: هذا فعل بي فلان، فحدث بينهم في ذلك ضغائن، فنزلت هذه الآيات في ذلك[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأمْر الخمر إنما كان بتدريج ونوازل كثيرة، منها قصة حمزة حين جبَّ الأَسنمة، وقال للنبي ﷺ: وهل أنتم إلا عبيد أبي؟[٢] ومنها قراءَة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه في صلاة المغرب: قل يا أَيها الكافرون، أَعبد ما تعبدون، فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ الآية[٣]، ثم لم تزل النوازل تَحزب[٤] الناسَ بسببها حتى نزلت هذه الآية، فحرمت بالمدينة وخمر العنب فيها قليل، إنما كانت خمرهم من خمسة أَشياءِ: من العسل ومن التمر ومن الزبيب ومن الحنطة ومن الشعير، واالأُمة مجمعة على تحريم القليل والكثير من خمر العنب التي لم تمسها نار ولا خالطها شيءٌ، وأَكثر الأُمة على أَن ما أَسكر كثيره فقليله حرام، ولأَبي حنيفة وبعض فقهاء الكوفة إِباحة مالا يسكر مما يسكر كثيره من غير خمر العنب، وهو مذهب مردود، وقد خرج قوم تحريم الخمر من وصفها بـ ﴿ رِجْسٌ ﴾، وقد وصف تبارك وتعالىٰ في آية أُخرى الميتة

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي ـ عن ابن عباس. (الدر المنثور ٢ـ ٣١٥).

(٢) رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد ـ وخلاصته أن علياً رضي الله عنه ربط ناقتين له أمام دار أحد الأنصار، وكان حمزة في الدار يشرب الخمر، فثار حمزة إلى الناقتين فجبّ أسنمتهما وبقر خواصرهما، وأخبر عليّ النبي ﷺ فانطلق حتى دخل على حمزة فتغيظ عليه فرجّع حمزة بصره فقال: هل أنتم إلا عبيد لأبي، فرجع رسول الله ﷺ يقهقر حتى خرج عنهم. وكان ذلك قبل تحريم الخمر. (المسند ١ـ ١٤٢).

(٣) أخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسّنه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، والحاكم وصححه ـ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «صنعَ لنا عبد الرحمن ابن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت: (﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾. «ونحن نعبد ما تعبدون»). فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾. (الدر المنثور ٢ـ١٦٥). والآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ﴾ هي رقم (٤٣) من سورة (النساء).

(٤) حَزَبَهُ الأمْرُ: اشتد عليه ونابَهُ، وفي الحديث: (كان رسول الله ﷺ إذا حزَبَه أمْر صلىٰ).

والدم المسفوح ولحم الخنزير بأنها رجس، فيجيءُ من ذلك أن كل رجس حرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر.

والاجتناب أَن يُجعلَ الشيءُ جانباً أَو ناحية.

ثم أَعلم تبارك وتعالى عباده أن الشيطان إِنما يريد أَن تقع العداوة بسبب الخمر وما يعتري عليها بين المؤمنين، وبسبب الميسر إِذ كانوا يتقامرون على الأَموال والأَهل، حتى ربما بقي المقمور حزيناً فقيراً فتحدث من ذلك ضغائن وعداوة، فإِنْ لم يصل الأَمر إِلى حدِّ العداوة كانت بغضاءَ، ولا تحسن عاقبة قوم متباغضين، ولذلك قال النبي ﷺ: (ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إِخواناً)[1]، وباجتماع النفوس والكلمة يُحمى الدين ويُجاهد العدو. والبغضاءُ تنقض عُرى الدين وتهدم عماد الحماية، وكذلك أَيضاً يريد الشيطان أَن يصد المؤمنين عن ذكر الله وعن الصلاة ويشغلهم عنها بشهوات، فالخمر والميسر والقمار كله من أَعظم آلاته في ذلك. وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ وعيد في ضمن التوقيف زائد على معنى (انتهوا).

ولما كان في الكلام معنىٰ (انتهوا) حسن أَن يعطف عليه ﴿وَأَطِيعُوا﴾، وكرر ﴿وَأَطِيعُوا﴾ في ذكر الرسول تأْكيداً، ثم حذر تعالىٰ من مخالفة الأَمر، وتوعد مَنْ تولّى بعذاب الآخرة، أَي: إِنما على الرسول أَن يبلغ، وعلى المرسل أَن يعاقب أَو يثيب بحسب ما يُعصى أَو يطاع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾.

سبب هذه الآية فيما قال ابن عباس، والبراءُ بن عازب، وأَنس بن مالك أَنه لما نزل تحريم الخمر قال قوم من الصحابة: يا رسول الله، كيف بمن مات منا وهو يشربها

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة. (الجامع الصغير).

ويأكل الميسر؟ ونحو هذا من القول، فنزلت هذه الآية[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا نظير سؤالهم عمن مات على القبلة الأُولىٰ، ونزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾[٢]، ولما كان أَمر القبلة خطيراً ومعلماً من معالم الدين تخيَّل قوم نقص من فاته، وكذلك لما حصلت الخمر والميسر في هذا الحدّ العظيم من الذم أَشفق قوم وتخيلوا نقص من مات على هذه المذمات، فأَعلم تبارك وتعالى عباده أَن الذم والجُناح إِنما يلحق من جهة المعاصي، وأُولئك الذين ماتوا قبل التحريم لم يعصوا في ارتكاب محرَّم بعد، بل كانت هذه الأَشياءُ مكروهة لم يُنَص عليها بالتحريم، والشرع هو الذي قبَّحها وحسَّن تجنبها، والجُناح: الإِثم والحرج، وهو كله الحكم الذي يتصف به فاعل المعصية، والنسبة التي تترتب للعاصي.

و﴿طَعِمُوٓا۟﴾ معناه: ذاقوا فصاعداً في رتب الأَكل والشرب، وقد يُستعار للنوم وغيره، وحقيقته في حاسة الذوق.

والتكرار في قوله: ﴿ٱتَّقَوا۟﴾ يقتضي في كل واحدة زيادة على التي قبلها، وفي ذلك مبالغة في هذه الصفات لهم، وذهب بعض المفسرين إِلى أَن يعين المراد بهذا التكرار ـ فقال قوم:

الرتبة الأُولى: هي اتقاءُ الشرك والكبائر، والإِيمان على كماله وعمل الصالحات.

والرتبة الثانية: هي الثبوت والدوام على الحالة المذكورة.

والرتبة الثالثة: هي الانتهاءُ في التقوى إِلى امتثال ما ليس بفرض من النوافل في الصلاة والصدقة وغير ذلك. وهو الإِحسان.

وقال قوم: الرتبة الأُولى لماضي الزمن، والثانية للحال، والثالثة للاستقبال.

وقال قوم: الاتقاءُ الأَول هو في الشرك والتزام الشرع، والثاني في الكبائر، والثالث في الصغائر.

---

(١) أخرجه الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما. (الدر المنثور ٢ـ ٣٢٠).

(٢) من الآية (١٤٣) من سورة (البقرة).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليست هذه الآية وقفاً على من عمل الصالحات كلها واتقىٰ كل التقوىٰ، بل هي لكل مؤمن وإن كان عاصياً أحياناً إذا كان قد عمل من هذه الخصال الممدوحة ما استحق به أن يوصف بأنه مؤمن عامل للصالحات، مُتَّق في غالب أمره، محسن، فليس على هذا الصنف جُناح فيما طعم مما لم يحرم عليه.

وقد تأول هذه الآية قُدامَةُ بنُ مظْعُون الجُمَحيٍّ من الصحابة رضي الله عنه، وهو ممن هاجر إلى أرض الحبشة مع أخويه عثمان وعبد الله، ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدراً، وعُمِّرَ، وكان ختن[1] عمر بن الخطاب خال عبد الله وحفصة، ولاَّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على البحرين، ثم عَزَلَه لأن الجارود سيد عبد القيس قدم على عمر بن الخطاب فشهد عليه بشرب الخمر، فقال له عمر: ومن يشهد معك؟ فقال: أبو هريرة، فجاءَ أبو هريرة فقال له عمر رضي الله عنه: بم تشهد؟ قال: لم أره يشرب، ولكن رأيته سكران يقيءُ، فقال له عمر: لقد تنطعت في الشهادة، ثم كتب عمر إلى قدامة أن يقدم عليه فقدم، فقال الجارود لعمر: أقم على هذا كتاب الله، فقال له عمر رضي الله عنه: أخصم أنت أم شهيد؟ قال: بل شهيد، قال قدأديت شهادتك، فصمت الجارود، ثم غدا على عمر فقال: أقم على قدامة كتاب الله، فقال له عمر: ما أراك إلا خصماً، وما شهد معك إلا رجل واحد، فقال الجارود: إني أنشدك الله، قال عمر: لتمسكن لسانك أو لأسوءَنَّك، فقال الجارود: ما هذا والله يا عمر بالحق أن يشرب ابن عمك الخمر وتسوءَني، فقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن كنت تشك في شهادتنا فأرسل إلى ابنة الوليد فسلها، وهي امرأة قدامة، فبعث عمر إلى هند بنت الوليد ينشدها الله، فأقامت الشهادة على زوجها، فقال عمر لقدامة: إني حادُّك فقال: لو شربتُ كما يقولون لم يكن لك أن تحدني. قال عمر: لم؟ قال: لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ ﴾ الآية، فقال له عمر رضي الله عنه: أخطأت التأويل، إنك إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرَّم عليك، ثم حدَّه عمر، وكان مريضاً، فقال له قوم من الصحابة: لا نرى أن تجلده ما دام مريضاً، فأصبح يوماً وقد عزم على جلده، فقال

(١) الخَتَن: كل من كان من قِبَل المرأة كأبيها وأخيها ـ وقد ذكر ابن عطية أنه خال عبد الله وحفصة ابني عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

لأَصحابه: ما ترون في جلد قدامة؟ قالوا: لا نرى ذلك ما دام وجعاً، فقال عمر: لأَن يلقىٰ الله وهو تحت السياط أَحبُّ إِليَّ من أَن أَلقاه وهو في عنقي، وأَمر بقدامة فجُلد، فغاضب قدامة عمر وهجره إِلى أَن حجَّ عمر وحجَّ معه قدامة مغاضباً له فلما كان عمر رضي الله عنه بالسقيا[1] نام ثم استيقظ فقال: عجِّلوا عليَّ بقدامة، فقد أَتاني آت في النوم فقال: سالِمْ قدامة فإِنه أَخوك، فبعث في قدامة فأَبى أَن يأْتي، فقال عمر: جُرُّوه إِن أَبىٰ، فلما جاءَ كلمه عمر واستغفر له فاصطلحا، قال أَيوب بن أَبي تميمة: لم يحد أَحد من أَهل بدر في الخمر غيره[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ أَي: ليختبرنكم ليرى طاعتكم من معصيتكم، وصبركم من عجزكم عن الصيد، وكان الصيد أَحد معايش العرب العاربة، وشائعاً عند الجميع منهم مستعملاً جداً، فابتلاهم الله فيه مع الإِحرام أَو الحرم كما ابتلىٰ بني إِسرائيل في أَلا يعتدوا في السبت[3].

و﴿مِّنَ﴾ يحتمل أَن تكون للتبعيض فالمعنى: من صيد البرّ دون البحر، ذهب إِليه الطبري وغيره، ويحتمل أَن يكون التبعيض في حالة الحرمة إِذ قد يزول الإِحرام ويُفارق الحرم، فصيد بعض هذه الأحوال بعض الصيد على العموم، ويجوز أَن تكون لبيان الجنس، قال الزجاج: وهذا كما تقول: لأَمتحننك بشيءٍ من الرزق، وكما قال تعالىٰ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾[4]. وقوله: ﴿بِشَىْءٍ﴾ يقتضي تبعيضاً ما، وقد قال كثير من الفقهاءِ: إِن الباءَ في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾[5] أَعطت تبعيضاً ما.

وقرأَ ابن وثاب، والنخعي: [يَنالُهُ] بالياءِ منقوطة من تحت، وقال مجاهد: الأَيدي تنال الفراخ والبيض وما لا يستطيع أَن يفر، والرماح تنال كبار الصيد.

---

(١) السُّقيا بضم السين: موضع بين المدينة ووادي الصفراء. (عن معلق تفسير القرطبي).

(٢) ساق القرطبي هذا الخبر قائلاً: «وذكر الحميديُّ عن أَبي بكر البَرْقانِيِّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم الجارُود. . الخ». وفي نهاية الخبر قال القرطبي: «وهو صحيح».

(٣) نزلت هذه الآية عام الحديبية، وأقام ﷺ بالتنعيم فكان الوحش والطير يغشاهم وهم محرمون، وقيل: كان بعضهم أحرم وبعضهم لم يحرم، فإِذا عرض صيد اختلفت أحوالهم واشتبهت الأحكام.

(٤) من الآية (٣٠) من سورة (الحج).

(٥) من الآية (٦) من سورة (المائدة).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر أن الله تعالىٰ خص الأيدي بالذكر لأنها عُظْم[1] المتصرف في الاصطياد، وهي آلة الآلات، وفيها تدخل الجوارح والحبالات وما عمل باليد من فخاخ وشباك، وخص الرماح بالذكر لأنها عُظم ما يجرح به الصيد، وفيها يدخل السهم ونحوه، واحتج بعض الناس على أن الصيد[2] للآخِذ لا للمثير بهذه الآية، لأن المثير لم تنل يده ولا رماحه بعد شيئاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ معناه: ليستمر علمه عليه وهو موجود، إذ عَلِمَ تعالىٰ ذلك في الأزل. وقرأ الزهري: [لِيُعْلِم اللهُ] بضم الياءِ كسر اللام، أي: لِيُعْلِم عباده.

و﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ قال الطبري: معناه: في الدنيا حيث لا يرى العبد ربّه فهو غائب عنه، والظاهر أن المعنىٰ: بالغيب من الناس، أي في الخلوة، فمن خاف الله انتهى عن الصيد من ذات نفسه، وقد خفي له لو صاد، ثم توعد تعالىٰ من اعتدى بعد هذا النهي الذي يأتي وهو الذي أراد بقوله: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾ وأشار إليه قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾. والعذاب الأليم هو عذاب الآخرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾.

الخطاب لجميع المؤمنين، وهذا النهي هو الابتلاءُ الذي أَعلم به قولُه قبلُ: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾، والصيد مصدر عومل معاملة الأسماء فأُوقع على الحيوان المصيد، ولفظ

---

(١) يريد أن معظم التصرف يكون بها.

(٢) المراد بالصيد: المصيد، وقال في «البحر المحيط»: «والمراد بالصيد المأكول، لأن الصيد يطلق على المأكول وغير المأكول، قال الشاعر:

صَيْدُ الملوكِ أرانبٌ وثعالبٌ ... وإذا رَكِبْتُ فصَيْدِيَ الأَبْطَالُ

وقال زهير:

لَيْثٌ بِعَثَّر يَصْطَادُ الرِّجَالَ إذا ما ... كَذَّبَ اللَّيْثُ عَنْ أقْرَانِهِ صَدَقَا

ولهذا قال أبو حنيفة: إذا قتل المُحْرِم ليثاً أو ذئباً ضارياً أو ما يجري مجراه فعليه الجزاءُ بقتله».

الصيد هنا عام، ومعناه الخصوص فيما عدا الحيوان الذي أَباح رسول الله ﷺ قتله في الحرم، ثبت عنه ﷺ أنه قال: خمْسُ فواسق يقتلن في الحرم. الغراب والحدأة والفأرة والعقرب والكلب العقور)[١]، ووقف مع ظاهر هذا الحديث سفيان الثوري، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإِسحق بن راهويه فلم يبيحوا للمحرم قتل شيءٍ سوى ما ذكر، وقاس، مالك رحمه الله على الكلب العقور كل ما كلب على الناس وعقرهم، ورآه داخلاً في اللفظ فقال: للمحرم أَن يقتل الأَسد والنمر والفهد والذئب وكل السباع العادية مبتدئاً بها، فأَما الهِرُّ والثعلب والضبع فلا يقتلها المحرم، وإِن قتلها فَدَا، وقال أَصحاب الرأي: إِن بدأَ السبعُ المحرمُ فله أَن يقتله، وإِن ابتدأَه المحرم فعليه قيمته، وقال مجاهد، والنَّخعي: لا يقتل المُحرم من السباع إِلا ما عدا عليه، وقال ابن عمر: ما حل بك من السباع فحل به، وأَما فراخ السبع الصغار قبل أَن تَفْرس[٢]، فقال مالك في «المدونة»: لا ينبغي للمحرم قتلها، قال أَشهب في كتاب «محمد»: فإِن فعل فعليه الجزاءُ، وقال أَيضاً أَشهب، وابن القاسم: لا جزاءَ عليه، وثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أَمر المحرمين بقتل الحيات، وأَجمع الناس على إِباحة قتلها، وثبت عن عمر رضي الله عنه إِباحة قتل الزنبور لأَنه في حكم العقرب، وقال مالك: يطعم قاتله شيئاً، وكذلك قال مالك فيمن قتل البرغوث والذباب والنمل ونحوه، وقال أَصحاب الرأْي: لا شيءَ على قاتل هذه كلها. وأَما سباع الطير فقال مالك: لا يقتلها المحرم وإِن فعل فَدَا، وقال ابن القاسم في كتاب «محمد»: وأَحب إِلي ألا يقتل الغراب والحدأَة حتى يؤْذياه، ولكن إِن فعل فلا شيءَ عليه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذوات السموم كلها في حكم الحية كالأَفعى والرُّتَيْلا[٣]، وما عدا ما ذكرناه فهو مما نهى الله عن قتله في الحرمة بالبلد أَو بالحال، وفرض الجزاءُ على من قتله.

---

(١) روى مسلم، والنسائي، وابن ماجه، عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: (خمس فواسق تقتلن في الحل والحرم: الحية، والغراب الأبقع، والفأرة، والكلب العقور، والحديا) ـ وروى مثله أبو داود عن أبي هريرة، وروىٰ مثله أيضاً الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه في «الجامع الصغير».

(٢) يقال: فَرَسَ الأسد فريسته ـ فرساً: صادها وقتلها، وفَرَس الذبيحة: كسر عنقها قبل موتها.

(٣) الرتَيْلاء: ضرب من العناكب ـ ويقال فيها أيضاً: رُتَيْلَى. (المعجم الوسيط).

و﴿حُرُمٌ﴾ جمع حَرَام، وهو الذي يدخل في الحَرَم أَو في الإِحرام. وحَرَام يقال للذكر والأُنثىٰ والاثنين والجمع.

واختلف العلماءُ في معنى قوله: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ ـ فقال مجاهد، وابن جريج، والحسن، وابن زيد: معناه: متعمداً لقتله ناسياً لإِحرامه، فهذا هو الذي يُكفر، وكذلك الخطأُ المحض يكفِّر، وأَما إِن قتله متعمداً ذاكراً لإِحرامه فهذا أَجَلُّ وأَعظم من أَن يُكَفِّر، وقال مجاهد: قد حل ولا رخصة له، وقال ابن جُريج، وحكى المهدوي وغيره أَنه بطل حَجُّه، وقال ابن زيد: هذا يوكل إِلى نقمة الله. وقال جماعة من أَهل العلم منهم ابن عباس، وعطاء، وسعيد بن جبير، والزهري، وطاووس، وغيرهم: المتعمد هو القاصد للقتل الذاكر لإِحرامه، وهو يُكَفِّر، وكذلك الناسي والقاتل خطأً يكَفِّران. قال الزهري: نزل القرآن بالعمد، وجرت السنة في قتله خطأً أَنهما يكفران، وقال بعض الناس: لا يلزم القاتل خطأً كفارة.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: [فَجَزَاءُ مِثْلِ ما] بإِضافة الجزاءِ إِلىٰ [مِثْلِ] وخفض [مِثْلِ]. وقرأَ حمزة، والكسائي، وعاصم: [فَجَزَاءٌ] بالرفع ﴿مِّثْلُ﴾ بالرفع أَيضاً، فأَما القراءَة الأُولىٰ ومعناها: فَعَلَيْه جزاءُ مثل ما قتل، أَي قضاؤه وغرمه، ودخلت لفظة (مثل) هنا كما تقول: «أَنا أُكرم مثلك» وأَنت تقصد بقولك: «أَنا أُكرمك»، ونظير هذا قوله تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[1]، التقدير: كمن هو في الظلمات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل قوله تعالىٰ: [فَجَزَاءُ مِثْلِ] أَن يكون المعنىٰ: فعليه أَن يجزي مثل ما، ثم وقعت الإِضافة إِلى المثل الذي يجزي به اتساعاً.

وأَما القراءَة الثانية فمعناها: فالواجب عليه، أَو فاللازم له جزاءٌ مثلُ ما، و﴿مِّثْلُ﴾ على هذه القراءَة صفة لـ ﴿فَجَزَآءٌ﴾، أَي: فجزاءٌ مماثلٌ.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ صفة لـ ﴿فَجَزَآءٌ﴾ على القراءَتين كلتيهما.

وقرأَ عبد الله بن مسعود: [فَجَزاؤُهُ مِثْل ما] بإِظهار هاءٍ يحتمل أَن تعود على الصيد

---

(١) من الآية (١٢٢) من سورة (الأنعام).

أَو على الصائد القاتل، وقرأَ أبو عبد الرحمن: ﴿فَجَزَآءٌ﴾ بالرفع والتنوين [مِثْلَ ما] بالنصب، وقال أَبو الفتح: [مِثْلَ] منصوبة بنفس الجزاءِ، أَي: فعليه أَن يجزي مثْلَ ما قتل.

واختلف العلماءُ في هذه المماثلة، كيف تكون؟

فذهب الجمهور إلىٰ أَن الحَكَمَيْن ينظران إلى مثل الحيوان المقتول في الخِلقة وعِظَم المرأَى فيجعلون ذلك من النَّعَم جزاءَه، قال الضحاك بن مُزاحم، والسدي، وجماعة من الفقهاءِ: في النَّعامة وحمار الوحش ونحوه بَدَنَةٌ، وفي الوعل والأَيل ونحوه بقرة، وفي الظبي ونحوه كبش، وفي الأَرنب ونحوه ثنية من الغنم، وفي اليربوع حَمَلٌ صغير، وما كان من جرادة ونحوها ففيها قبضة طعام، وما كان من طير فيقوم ثمنها طعاماً فإن شاءَ تصدق به، وإن شاءَ صام لكل صاع يوماً، وإن أَصاب بيْض نعام فإنه يحمل الفحل على عدد ما أَصاب من بكارة الإبل، فما نتج منها أَهداه إلى البيت، وما فسد منها فلا شيءَ عليه فيه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

حكم عمر رضي الله عنه على قبيصة بن جابر في الظبي بشاة، وحكم هو وعبد الرحمن بن عوف، قال قبيصة: فقلت له: يا أَمير المؤمنين، إن أَمْره أَهون من أَن تدعو من يحكم معك، قال: فضربني بالدرة حتى سابقتُه عدواً ثم قال: أَقتلت الصيد وأَنت محرم ثم تغمض[1] الفتوىٰ؟ وهذه القصة في «الموطأ» بغير هذه الأَلفاظ، وكذلك روي أَنها نزلت بصاحب لقبيصة، وقبيصة هو راويها فيهما، والله أعلم، وأَما الأَرنب واليربوع ونحوهما فالحكم فيهما عند مالك أَن يقوم طعاماً، فإن شاءَ تصدق به، وإن شاء صام بدل كل مُدٍّ يوماً، وكذلك عنده الصيام في كفارة الجزاءِ إنما هو كله يومٌ بدل مُدٍّ، وعند قوم: بَدَل صاع، وعند قوم: بَدَل مُدَّيْن. وفي حمام الحرم عند مالك شاةٌ في الحمامة، وفي الحمام غيره حكومة وليس كحمام الحرم، وأَما بيْض النعام وسائر الطير ففي البيضة عند مالك عُشْر ثمن أُمّه، قال ابن القاسم: وسواءٌ كان فيها فرخ أَم لم يكن ما لم يستهل الفرخ صارخاً بعد الكسر، فإن استهل ففيه الجزاءُ كاملاً كجزاءِ كبير ذلك

---

(١) أغمض السلعة: استحط من ثمنها لرداءتها، وفي التنزيل ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ فعمر رضي الله عنه يريد هنا: إنك تحط من شأن الفتوىٰ وتقلل منها.

الطير، قال ابن المواز: بحكومة عدلَيْن، وقال ابن وهب: إن كان في بيضة النعامة فما دونها فرخ فعُشْر ثمن أُمّه، وإن لم يكن فصيام يوم أو مُدٌّ لكل مسكين.

وذهبت فرقة من أهل العلم[1] منهم النَّخعي، وغيره إلىٰ أن المماثلة إنما هي في القيمة، يُقَوَّم الصيد المقتول ثم يُشترىٰ بقيمته نِدُّهُ[2] من النعم ثم يُهْدىٰ، وردَّ الطبري وغيره على هذا القول.

والنَّعم: لفظ يقع على الإبل والبقر والغنم إذا اجتمعت هذه الأصناف، فإذا انفرد كل صنف لم يُقل نعَم إلا للإبل وحدها، وقرأ الحسن: [مِن النَّعْم] بسكون العين وهي لغة، والجزاءُ إنما يجب بقتل الصيد لا بنفس أخذه بحكم لفظ الآية، وذلك في «المدونة» ظاهر من مسألة الذي اصطاد طائراً فنتف ريشه ثم حبسه حتى نسل ريشه فطار، قال: لا جزاءَ عليه، وقصر القرآن هذه النازلة على حَكَمَيْن عدلين عالمين بحُكم النازلة وبالتقدير فيها، وحكم عمر وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما، وأمر أبا جرير البجلي أن يأتي رجلين من العدول ليحكما عليه في عنز من الظباء أصابها، قال: فأتيت عبد الرحمن وسعداً فحكما عليّ تيساً أعفر، ودعا ابنُ عمر ابنَ صفوان ليحكم معه في جزاءٍ، وعلى هذا جمهور الناس وفقهاء الأمصار.

وقال ابن وهب رحمه الله في «العتبية»: من السُّنَّة أن يخيِّر الحكَمان من أصابَ الصيد كما خيَّره الله في أن يُخرج هدياً بالغ الكعبة، أو كفارة طعام مساكين، أو عدل ذلك صياماً، فإن اختار الهدي حكما عليه بما يريانه نظيراً لما أصاب ما بينهما وبين أن يكون عدل ذلك شاة لأنها أدنىٰ الهدي، فما لم يبلغ شاة حكماً فيه بالطعام، ثم خير في أن يطعمه أو يصوم مكان كل مُدٍّ يوماً، وكذلك قال مالك في «المدونة»: إذا أراد المصيب أن يطعم أو يصوم وإن كان لما أصاب نظير من النعم فإنه يقوم صيده طعاماً لا دراهم، قال: وإن قوموه دراهم واشتُري بها طعام لرجوت أن يكون واسعاً. والأول

---

(١) هذا هو الرأي الثاني في معنىٰ «المماثلة» وأنها في «القيمة»، وأما الرأي الأول وهو المماثلة في الخلقة فقد ذكره من قبل عند قوله: «فذهب الجمهور إلى أن الحَكَمَيْن ينظران إلى مثل الحيوان المقتول في الخلقة وعِظَم المرأى».

(٢) النِّدُّ: المثيل والنظير، يقال: هو نِدُّه، وهي نِدُّ فلانة، والجمع: أنداد، وفي التنزيل العزيز: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾.

أَصوب، فإِن شاءَ أَطعمه وإِلا صام مكانه لكل مُدٍّ يوماً وإِن زاد ذلك على شهرين أَو ثلاثة.

وقال يحيىٰ بن عمر من أَصحابنا: إِنما يُقال: كمْ من رجل يشبع من هذا الصيد؟ فيعرف العدد، ثم يُقال: كم من الطعام يشبع هذا العدد؟ فإِن شاءَ أَخرج ذلك الطعام، وإِن شاءَ صام عدد أَمداده.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول حسن احتاط فيه، لأَنه قد تكون قيمة الصيد من الطعام قليلة، فبهذا النظر يكثر الإِطعام، ومن أَهل العلم من يرىٰ أَلا يتجاوز في صيام الجزاءِ شهران، قالوا: لأَنها أَعلى الكفارات بالصيام.

وقوله تعالىٰ: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ يقتضي هذا اللفظ أَن يُشْخص بهذا الهدي حتى يبلغ، وذكرت الكعبة لأَنها أُم الحرم ورأْس الحُرْمَة، والحرم كله مَنحر لهذا الهدي، فما وقف به بعرفةَ من هذا الجزاءِ فينحر بمنىٰ، وما لم يوقف به فينحر بمكة وفي سائر بقاع الحرم بشرط أَن يدخل من الحِلِّ، لابد أَن يجمع فيه بين حِلٍّ وحَرَم حتى يكون بالغاً الكعبة.

وقرأ عبد الرحمن الأَعرج: [هَدِيّاً بالغَ الكَعْبَةِ] بكسر الدال وتشديد الياء. و﴿هَدْيًا﴾ نصب على الحال من الضمير في ﴿بِهِۦ﴾، وقيل: على المصدر، و﴿بَٰلِغَ﴾ نكرة في الحقيقة لم تزل الإِضافة عنه الشياع، فتقديره: «بالغاً الكعبة» حذف تنوينه تخفيفاً، وقرأَ ابن كثير، وعاصم، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ﴾ منوناً ﴿طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ برفع ﴿طَعَامُ﴾ وإِضافته إِلى جمع المساكين. وقرأَ نافع، وابن عامر برفع الكفارة دون تنوين، وخفض الإِطعام على الإِضافة، و﴿مَسَٰكِينَ﴾ بالجمع، قال أَبو علي: إِعراب ﴿طَعَامُ﴾ في قراءَة من رفعه أَنه عطف بيان، لأَن الطعام هو الكفارة، ولم يضف الكفارة لأَنها ليست للطعام، إِنما هي لقتل الصيد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الكلام كله مبني على أَن الكفارة هي الطعام، وفي هذا نظر، لأَن الكفارة هي تغطية الذنب بإِعطاءِ الطعام، فالكفارة غير الطعام لكنها به، فيتجه في رفع الطعام البدل

المحض[(١)]، وتتجه قراءَة من أَضاف الكفارة إلى الطعام علىٰ أَنها إضافة تخصيص، إذ كفارة هذا القتل قد تكون كفارة هدي، أَو كفارة طعام، أَو كفارة صيام. وقرأ الأعرج وعيسىٰ بن عمر: ﴿أَوۡ كَفَّٰرَةٌ﴾ بالرفع والتنوين، ﴿طَعَامُ﴾ بالرفع دون تنوين [مِسكين] على الإفراد، وهو اسم جنس.

وقال مالك رحمه الله وجماعة من العلماء: القاتل مُخَيَّر في الرتب الثلاثة وإن كان غنياً، وهذا عندهم مقتضى ﴿أَوۡ﴾. وقال ابن عباس وجماعة: لا ينتقل المكفر من الهدي إلى الطعام إلا إذا لم يجد هدياً، وكذلك لا يصوم إلا إذا لم يجد ما يطعم، وقاله إبراهيم النخعي، وحماد بن أَبي سليمان، قالوا: والمعنى: أَو كفارة طعام إن لم يجد الهدي.

ومالك رحمه الله ـ وجماعة معه ـ يرى أَن المقوم إنما هو الصيد المقتول، يقوم بالطعام كما تقدم، وقال العراقيون: إنما يقوم الجزاءُ طعاماً، فمن قتل ظبياً قوم الظبي عند مالك، وقوم عدله من الكباش أَو غير ذلك عند أَبي حنيفة وغيره. وحكىٰ الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: إذا أَصاب المحرم الصيد حكم عليه جزاءُه من النَّعَم، فإن وجد جزاءَه ذبحه فتصدق به، وإن لم يجد قُوِّم الجزاءُ دراهم، ثم قُوِّمت الدراهم حنطة، ثم صام مكان كل نصف صاع يوماً، قال: وإنما أُريد بذكر الطعام تَبْيِينُ أَمر الصوم، ومن يجد طعاماً فإنما يجد جزاءً، وأَسنده أَيضاً عن السدي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويعترض هذا القول بظاهر لفظ الآية فإنه ينافره، والهدي لا يكون إلا في الحرم كما ذكرنا قبل.

واختلف الناس في الطعام ـ فقال جماعة من العلماءِ: الإطعام والصيام حيث شاءَ المكفِّر من البلاد، وقال عطاءُ بن أَبي رباح وغيره: الهدي والإطعام بمكة، والصوم حيث شئت.

---

(١) أعرب أبو علي ﴿طَعَامُ﴾ في قراءَة الرفع أنها عطف بيان، لأن الطعام هو الكفارة، قال في «البحر المحيط»: و«هذا على مذهب البصريين، لأنهم شرطوا في البيان أن يكون في المعارف لا في النكرات، فالأولىٰ أن يعرب بدلاً». لكن ابن عطية رد رأي الفارسي من ناحية أخرى إذ قال: إن الكفارة هي تغطية الذنب بإعطاء الطعام، فالكفارة غير الطعام، لكنها تكون بالطعام، وعلى هذا فالصواب أن يعرب ﴿طَعَامُ﴾ بدلاً لا عطف بيان.

وقوله تعالىٰ: ﴿عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾، قرأ الجمهور بفتح العيْن، ومعناه: نظير الشيء بالموازنة والمقدار المعنوي. وقرأ ابن عباس، وطلحة بن مصرف، والجحدري: [أَوْ عِدْلُ] بكسر العيْن، قال أبو عمرو الداني: ورواه ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ. وقال بعض الناس: العَدْلُ بالفتح: قدر الشيءِ من غير جنسه، وعِدْلُه بالكسر قدره من جنسه، نسبها مكي إلى الكسائي وهو وهم، والصحيح عن الكسائي أنهما لغتان في المثل، وهذه المنسوبة عبارة معترضة، وإنما مقصد قائلها أن العِدل بالكسر قدر الشيءِ موازنة على الحقيقة كعِدْلي البعير، وعَدله: قدره من شيءٍ آخر موازنة معنوية، كما يقال في ثمن فرس: هذا عَدله من الذهب، ولا يتجه هنا كسر العين فيما حفظت. والإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾ يحتمل أن تكون إلى الطعام، وعلى هذا بُني قول من قال من الفقهاءِ: الأيام التي تصام هي على عدد الأمداد أو الأصواع أو أنصابها حسب الخلاف الذي قد ذكرته في ذلك. ويحتمل أن تكون الإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الصيد المقتول، وعلى هذا بُني قول من قال من العلماء: الصوم في قتل الصيد إنما هو على قدر المقتول، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن قتل المحرم ظبياً فعليه شاةٌ تذبح بمكة، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، وإن قتل أيلاً[1] فعليه بقرة، فإن لم يجد فإطعام عشرين مسكيناً، فإن لم يجد صام عشرين يوماً، وإن قتل نعامة أو حمار وحش فعليه بَدَنة، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد تقدم لابن عباس رضي الله عنهما قول غير هذا آنفاً حكاهما عنه الطبري مسندين، ولا ينكر أن يكون له في هيئة التكفير قولان. وقال سعيد بن جبير في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ قال: يصوم ثلاثة أيام إلى عشرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾، الذوق هنا مستعار كما قال تعالىٰ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[2] وكما قال: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾[3]، وكما قال أبو

---

(١) الأَيِّلُ: الوَعِلَ، والجمع: أيايِلْ وأيائِل ـ والهمزة فيه مثلثة، قال ذلك في القاموس، تكون مضمومة مثل خُلَّب، ومفتوحة مثل سَيِّد، ومكسورة مثل قِنَّب، ويكون للذكر والأنثىٰ كما ذكره صاحب التاج.

(٢) من الآية (٤٩) من سورة (الدخان).

(٣) من الآية (١١٢) من سورة (النحل).

سفيان: «ذُقْ عُقَقُ»[(١)]، وحقيقة الذوق إنما هي في حاسة اللسان، وهي في هذا كله مستعارة فيما بوشر بالنفس[(٢)]، والوبال: سوءُ العاقبة، والمرعىٰ الوبيل هو الذي يُتأذَّىٰ به بعد أكله[(٣)]، وعبَّر بـ ﴿أَمْرِهِۦ﴾ عن جميع حاله من قتْل وتكفير وحكم عليه ومضي ماله أو تعبه بالصيام.

واختلف المتأولون في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ ـ فقال عطاءُ بن أبي رباح وجماعة معه: معناه: عفا الله عما سلف في جاهليتكم من قتلكم الصيد في الحرمة، ومَنْ عاد الآن في الإسلام فإن كان مُسْتَحِلاً فينتقم الله منه في الآخرة ويكفر في ظاهر الحكم، وإن كان عاصياً فالنقمة هي في إلزام الكفارة فقط، قالوا: وكلما عاد المحرم فهو مكفِّر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويخاف المتورعون أن تبقىٰ النقمة مع التكفير، وهذا هو قول الفقهاءِ مالك ونظائره وأصحابه رحمهم الله، وقال ابن عباس رضي الله عنه: المحْرم إذا قتل مراراً ناسياً لإحرامه فإنه يكفِّر في كل مرَّة، فأما المتعمد العالم بإحرامه فإنه يكفر أول مرة، وعفا الله عن ذنبه مع التكفير، فإن عاد ثانية فلا يحكم عليه، ويقال له: ينتقم الله منك، كما قال الله، وقال بهذا القول شريح القاضي، وإبراهيم النَّخعي، ومجاهد. وقال سعيد بن جبير: رخص في قتل الصيد مرة فمن عاد لم يدعه الله حتى ينتقم منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا القول منه رضي الله عنه وعظ بالآية، وهو ـ مع ذلك ـ يرى أن يحكم عليه في العودة ويكفِّر، لكنه خشي مع ذلك بقاءُ النقمة.

---

(١) قال في «النهاية في غريب الحديث والأثر»: إنَّ أبا سفيان مرَّ بحمزة قتيلاً فقال له «ذُقْ عُقَقُ» أراد: ذُق القتل يا عاقَّ قومه، قال: وعُقَق: معدول عن عاق للمبالغة كغُدَر من غادر، وفُسَق من فاسق.

(٢) ومن المجاز في الذوق أيضاً الحديث: (إنَّ الله يبغض الذواقين والذواقات) كلما تزوج أو تزوجت مدَّ عينه أو مدَّت عينها إلى أخرى أو آخر ـ ذكره في «أساس البلاغة»، ومنه الحديث الشريف أيضاً: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّاً).

(٣) ويقال: طعام وبيلٌ بمعنىٰ ثقيل، ومنه قول طرفة:

فَمَرَّتْ كهاةٌ ذاتُ خَيْفٍ جُلالَةٌ ... عَقيلةُ شَيْخٍ كالْوَبيلِ يَلَنْدَدِ

الكهاةُ والجُلالة: الناقة السمينة. فهو شيخ وبيل: أي ثقيل. ويلندد: أي شديد الخصومة.

وقال ابن زيد: معنىٰ الآية: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ لكم أيها المؤمنون من قتل هذا الصيد قبل هذا النهي والتحريم، قال: وأما من عاد فقتل الصيد وهو عالم بالحرمة متعمد للقتل فهذا لا يحكم عليه، وهو موكول إلىٰ نقمة الله، ومعنىٰ قوله: ﴿مُتَعَمِّدًا﴾ في صدر الآية أي: متعمداً للقتل ناسياً للحرمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد تقدم ذكر هذا الفصل.

قال الطبري: وقال قوم: هذه الآية مخصوصة في شخص بعينه، وأسند إلىٰ زيد بن المعلىٰ أن رجلاً أصاب صيداً وهو محرم فتجوز له عنه، ثم عاد فأرسل الله عليه ناراً فأحرقته، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ تنبيه على صفتين تقتضي[1] خوف من له بصيرة، ومن خاف ازدجر، ومن هذا المعنىٰ قول النبي ﷺ: (من خاف أَدْلَج، ومن أَدْلَج بلغ المنزل)[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾.

هذا حكم بتحليل صيد البحر، وهو كل ما صيد من حيتانه، وهذا التحليل هو للمحرم وللحلال، والصيد هنا أيضاً يراد به المصيد، وأضيف إلىٰ البحر لما كان منه بسبب. والبحر: الماءُ الكثير ملحاً كان أو عذباً، وكل نهر كبير بحر.

---

(١) هكذا في جميع النسخ التي بين أيدينا، ولعله يريد: تقتضي الواحدة منهما ـ أو لعلَّ الصواب: يقتضي بالياء في أوله ليرجع الضمير إلى كلمة (تنبيه) فيصير المعنىٰ: تنبيه يقتضي.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، والحاكم في مستدركه ـ عن أبي هريرة، وهو بتمامه: (من خاف أدْلج، ومن أدْلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية: ألا إن سلعة الله هي الجنة) ـ قال عنه في الجامع الصغير (حَسَن).

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ ـ قال أَبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وجماعة كثيرة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم: هو ما قذف به وما طفا عليه، لأَن ذلك طعام لا صيد، وسأَل رجل ابن عمر عن حيتان طرحها البحر فنهاه عنها، ثم قرأَ المصحف فقال لنافع: الحقه فمُره بأَكلها فإِنها طعامُ البحر، وهذا التأْويل ينظر إِلى قول النبي ﷺ: (هو الطهور ماؤه، الحِلُّ ميتَتُه)[(١)]. وقال ابن عباس، وسعيد ابن جبير، وإِبراهيم النَّخعي وجماعة: طعامه كل ما ملح منه وبقي، وتلك صنائع تدخله فترده طعاماً، وإِنما الصيد الغريض[(٢)]، وقال قوم: طعامه مِلْحُه الذي ينعقد من مائه وسائر ما فيه من نبات ونحوه. وكره قوم خنزير الماءِ. وقال مالك رحمه الله: أَنتم تقولون خنزير، ومذهبه إِباحته.

وقول أَبي بكر وعمر هو أَرجح الأَقوال، وهو مذهب مالك.

وقرأَ ابن عباس، وعبد الله بن الحارث: [وطُعْمه] بضم الطاءِ وسكون العين دون أَلف، و﴿مَتَـٰعًا﴾ نصب على المصدر، والمعنىٰ متعكم به متاعاً تنتفعون به وتأْتدمون. و﴿لَّكُمْ﴾ يريد حاضري البحر ومُدُنه، ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ المسافرين، وقال مجاهد: أَهل القرىٰ هم المخاطبون، والسيارة: أَهل الأَمصار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَنه يريد أَهل قرى البحر، وأَن السيارة من أَهل الأَمصار غير تلك القرى يجلبونه إِلى الأَمصار.

واختلف العلماءُ في مقتضىٰ قوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ ـ فتلقَّاه بعضهم على العموم من جميع جهاته فقالوا: إِن المحرم لا يحل له أَن يصيد، ولا أَن يأْمر بصيد، ولا أَن يأْكل صيداً صِيد من أَجله ولا من غير أَجله[(٣)]، ولحم الصيد بأَي وجه كان حرام على المحرم.

(١) رواه الإمام أحمد، والشافعي، وأصحاب السنن الأربع، وصححه البخاري، والترمذي، وابن حبان ـ (تفسير ابن كثير).

(٢) الغريض: الطري من اللحم والتمر، وكل أبيض طري. (المعجم الوسيط).

(٣) التعبير المألوف، والتركيب الصحيح أن يقال: «صيد من أجْله أو من أجْل غيره» فتأمل.

وروي أَن عثمان حجَّ، وحجَّ معه عليُّ بن أَبي طالب، فأُتي عثمان بلحم صيد صاده حلالٌ فأَكل منه، ولم يأْكل علي، فقال عثمان: واللهِ ما صدنا ولا أَمرنا ولا أَشرنا، فقال علي: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾(١). وروي أَن عثمان استعمل على العروض أَبا سفيان بن الحارث فصاد يعاقيب(٢) فجعلها في حظيرة فمر به عثمان بن عفان رضي الله عنه فطبخهن وقدمهن إِليه، وجاءَ علي بن أَبي طالب فنهاهم عن الأَكل، وذكر نحو ما تقدم، قال: ثم لما كانوا بمكة أُتي عثمان فقيل له: هل لك في علي؟ أُهدي له تصفيف حمار فهو يأْكل منه، فأَرسل إِليه عثمان يسأَله عن أَكل التصفيف، وقال له: «أَما أَنت فتأْكل، وأَما نحن فتنهانا»، فقال له علي: «إِنه صيد عام أَول وأَنا حلال فليس عليَّ بأَكله بأس، وصيد ذلك ـ يعني اليعاقيب ـ وأَنا محرم وذبحن وأَنا حرام». وروي مثل قول عليٍّ عن ابن عباس، وابن عمر، وطاووس، وسعيد بن جبير.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يرىٰ بأْساً لِلْمُحْرم أَن يأْكل لحم الصيد الذي صاده الحلال لحلال مثله ولنفسه، وسئل أَبو هريرة عن هذه النازلة فأَفتى بالإِباحة، ثم أَخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له: لو أَفتيت بغيرِ هذا لأَوجعتُ رأْسك بهذه الدرة، وسأَل أَبو الشعثاءِ ابن عمر رضي الله عنهما عن هذه المسأَلة فقال له: كان عمر يأْكله، قال: قلت: فأَنت؟ قال: كان عمر خيراً مني، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: ما صيد أَو ذُبح وأَنت حلالٌ فهو لك حلال، وما صِيد أَو ذُبح وأَنت حرام فهو عليك حرام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا مثل قول علي بن أَبي طالب رضي الله عنه.

وروى عطاءٌ عن كعب قال: أَقبلت في ناس محرمين فوجدنا لحم حمار وحشي

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ ـ عن الحارث ابن نوفل.

(٢) اليعاقيب: مفردها يَعْقوب، وهو الذكر من الحَجَل والقَطَا، وهو مصروف لأنه عربي لم يُغير، قال الشاعر:

عــــالٍ يُقَصِّـــــر دونَـــــه اليَعْقـــــوبُ

قال ابن بري: «وقد ذكر الجوهري هذا البيت شاهداً على أن اليعقوب ذكر الحَجَل، والظاهر أنه ذكر العُقاب». (اللسان ـ عقب).

فسألوني عن أكله فأفتيتهم بأكله، فقدمنا على عمر فأخبروه بذلك فقال: قد أمّرته عليكم حتى ترجعوا، وقال بمثل قول عمر بن الخطاب عثمان بن عفان رضي الله عنهما، والزبير بن العوام، وهو الصحيح لأن النبي ﷺ أكل من الحمار الذي صاده أبو قتادة وهو حلالٌ والنبي عليه الصلاة والسلام محرم[(١)].

قال الطبري: وقال آخرون: إنما حرم على المحرم أن يصيد، فأما أن يشتري الصيد من مالكٍ له فيذبحه فيأكله فذلك غير مُحَرَّم، ثم ذكر أن أبا سلمة بن عبد الرحمن اشترىٰ قطّاً وهو بالعرج[(٢)] فأكله فعاب ذلك عليه الناس.

ومالك رحمه الله يُجيز للمحرم أن يأكل ما صاده الحلال وذبحه إذا كان لم يصده من أجل المُحْرم، فإن صيد من أجله فلا يأكله، وكذلك قال الشافعي، ثم اختلفا إن أكل، فقال مالك: عليه الجزاءُ، وقال الشافعي: لا جزاءَ عليه.

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: [وَحَرَّمَ] بفتح الحاءِ والراءِ مشددة. [صَيْدَ] بنصب الدال. [ما دُمْتُم حَرَماً] بفتح الحاءِ، المعني: وحرَّم الله عليكم. و[حَرَماً] يقع للجميع والواحد كرضىً وما أشبهه، والمعنىٰ ما دمتم محرمين، فهي بالمعنىٰ كقراءَة الجماعة بضم الحاء والراءِ.

---

(١) هذا الحديث صحيح، وهو قاطع في هذا الموضوع، ولهذا نورده بطوله. أخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، ومسلم ـ عن أبي قتادة (أن رسول الله ﷺ خرج حاجّاً فخرجوا معه، فصرف طائفة منهم فيهم أبو قتادة، فقال: خذوا ساحل البحر حتى نلتقي، فأخذوا ساحل البحر، فلما انصرفوا أحرموا كلهم إلا أبو قتادة لم يحرم، فبينما هم يسيرون إذ رأوا حُمُر وحش، فحمل أبو قتادة على الحمر فعقر منها أتاناً، فنزلوا فأكلوا من لحمها، فقالوا: نأكل لحم صيد ونحن محرومون؟ فحملنا ما بقي من لحمها، فلما أتوا رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، إنا كنا أحرمنا، وقد كان أبو قتادة لم يحرم، فرأينا حمر وحش فحمل عليها أبو قتادة فعقر منها أتاناً، فنزلنا فأكلنا من لحمها، ثم قلنا: إنا نأكل لحم صيد ونحن محرمون، فحملنا ما بقي من لحمها. قال: أمنكم أحد أمره أن يحمل عليها أو أشار إليها؟ قالوا: لا، قال: فكلوا ما بقي من لحمها). (الدر المنثور ـ ٢ ـ ٣٣٣).

(٢) العَرْج بفتح العين وسكون الراء: قرية جامعة في وادٍ من نواحي الطائف، إليها ينسب العرجيّ الشاعر، وهي أول تهامة، وبينها وبين المدينة ثمانية وسبعون ميلاً، وهي في بلاد هذيل، ولذلك يقول أبو ذؤيب:

هُـمُ رجَعـوا بـالعَـرْجِ والقَـوْمُ شُهَّـدٌ   هـوازنُ تَحْـدوهـا حمـاةٌ بَطَـارِقُ

(معجم البلدان ـ عرج).

ولا يختلف في أَنَّ ما لا زوال له من الماءِ أَنه صيد بحر، وفيما لا زوال له من البَرّ أَنه صيْد برّ، واختلف فيما يكون في أَحدهما وقد يعيش ويحيا في الآخر ـ فقال مالك رحمه الله، وأَبو مجلز، وعطاء، وسعيد بن جبير، وغيرهم: كل ما يعيش في البَرّ وله فيه حياة فهو من صيد البَرّ إن قتله المُحْرم وَداهُ، وذكر أَبو مجلز في ذلك الضفادع والسلاحف والسرطان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومن هذه أَنواع لا زوال لها من الماءِ فهي لا محالة من صيد البحر، وعلى هذا خرج جواب مالك في الضفادع في «المدونة» فإنه قال: الضفادع من صيد البحر، وروي عن عطاء بن أَبي رباح خلاف ما ذكرناه، وهو أنه راعىٰ أَكثر عيش الحيوان، سئل عن ابن الماء أَصَيْدُ بَرّ أَم صيد بحر؟ فقال: حيث يكون أَكثر فهو منه، وحيث يفرخ فهو منه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والصواب في ابن ماءٍ أَنه صيْد بَرّ طائر يرعى ويأْكل الحب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تشديد وتنبيه عقب هذا التحليل والتحريم، ثم ذكَّر تعالىٰ بأَمر الحشر والقيامة مبالغة في التحذير.

ولما بان في هذه الآيات تعظيم الحَرَم والحُرْمة بالإحرام من أَجل الكعبة، وأَنها بيت الله وعنصر هذه الفضائل ذكر تعالىٰ في قوله سبحانه: ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ الآية ما سنَّه في الناس وهداهم إليه وحمل عليه الجاهلية الجهلاء من التزامهم أَن الكعبة قوام، والهدي قوام، والقلائد قوام، أَي أَمْر يقوم للناس بالتأْمين وحل الحرب كما يفعل الملوك الذين هم قوام العالم، فلما كانت تلك الأُمة لا مِلك لها جعل الله هذه الأَشياءَ كالملك لها، وأَعلم تعالىٰ أَن التزام الناس لذلك هو مما شرعه وارتضاه، ويدل على مقدار هذه الأُمور في نفوسهم أَن النبي عليه الصلاة والسلام لما بعثت إليه قريش زمن الحديبية الحُلَيس، فلما رآه النبي عليه الصلاة والسلام قال: هذا رجل يعظم الحرمة فالْقَوْه بالبُدْن مشعرة، فلما رآها الحليس عظم ذلك عليه وقال: ما ينبغي أَن يُصد هؤلاءِ ورجع عن رسالتهم[1].

---

(١) الحُلَيْس بضم الحاء وفتح اللام بعدها ياءٌ ساكنة هو ابن علقمة من بني الحارث بن عبد مناف، وقد رجع=

و﴿ ۞ جَعَلَ ﴾ في هذه الآية بمعنى صيَّر، و﴿ ٱلْكَعْبَةَ ﴾ بيت مكة، وسمي كعبة لتربيعه، قال أَهلُ اللغة: كل بيت مربع فهو مكعب وكعبة، ومنه قول الأَسْوَدِ بنِ يَعْفُر:

أَهْلِ الخورنَقِ والسَّديرِ وبَارِقٍ والْبَيْتِ ذي الْكَعَبَاتِ مِنْ سِنْدادِ[1]

قالوا: كانت فيه بيوت مربعة، وفي كتاب سير ابن إسحق أنه كان في خثعم بيت يسمونه كعبة اليمانية. وقال قوم: سميت كعبة لنتوئها ونشوزها على الأرض، ومنه: كَعَبَ ثدي الجارية، ومنه: كعْب القدم، ومنه: كعوب القناة.

و﴿ قِيَٰمًا ﴾ معناه: أَمر يقوم للناس بالأَمنة والمنافع كما الملِك قوام الرعية وقيامهم، يقال ذلك بالياء كالصيام ونحوه، وذلك لخفَّة الياءِ فتستعمل أَشياء من ذوات الواو بها، وقد يستعمل القوام على الأَصل، قال الراجز:

قِوَامُ دُنْيا وَقِوَامُ دِين

وذهب بعض المتأَولين إِلىٰ أَن معنى قوله تعالىٰ: ﴿ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ أي: موضع وجوب قيام بالمناسك والتعبدات وضبط النفوس في الشهر الحرام، ومع الهدي والقلائد.

وقرأَ ابن عامر وحده: [قِيَما] دون أَلف، وهذا إِما على أَنه مصدر كالشِّبَع ونحوه، وأُعِلَّ فلم يجر مجرىٰ عوض وحول من حيث أُعل فعله، وقد تُعلُّ الجموع لاعتلال الآحاد، فأَحرى أَن تُعل المصادر لاعتلال أَفعالها، ويحتمل [قِيَماً] أَن تحذف الأَلف وهي مُرادة، وحكم هذا أَن يجيءَ في شعر وغير سَعَة. وقرأَ الجحدري: [قَيِّماً] بفتح القاف وشد الياءِ المكسورة.

و﴿ وَٱلشَّهْرَ ﴾ هنا اسم جنس، والمراد الأَشهر الثلاثة بإِجماع من العرب، وشهر

= من غير أن يُبَلِّغ رسالة قريش إِلىٰ النبي ﷺ. راجع سيرة ابن هشام ففيها الخبر كاملاً.

(١) الخورنق: قصر بناه النعمان الأكبر بالعراق، والسدير: قصر ذو ثلاث شعب، وقيل: كانت له قبة في ثلاث قباب متداخلة. وبارق: موضع قريب من الكوفة، والسنداد: نهر ـ قال في اللسان: «كل بيت مربع فهو عند العرب: كعبة، وكان لربيعة بيت يطوفون به، يُسَمُّونه الكَعَبات، وقيل: ذي الكَعَبات، وقد ذكره الأسودُ بن يَعْفُر في شعره». وذكر البيت. ويلتقي مع كلام اللسان قول ابن عطية هنا بعد البيت: «قالوا: كانت فيه بيوت مربعة».

مُضَر[١] وهو رجب الأَصم، سمي بذلك لأَنه كان لا يُسمع فيه صوت الحديد، وسموه مُنْصِل الأَسنة لأَنهم كانوا ينزعون فيه أَسنة الرماح، وهو شهر قريش، وله يقول عوف بن الأَحْوَص:

وشَهْـرِ بَنِـي أُمَيَّـةَ والْهَـدايـا إذا سيقـت مُضَـرِّجهَـا الـدِّمـاءُ[٢]

وسمَّاه النبي عليه الصلاة والسلام شهر الله، أي شهر آل الله، وكان يقال لأَهل الحرم: آل الله، ويحتمل أَن يسمى شهر الله لأَن الله سنَّه[٣] وشدده إذ كان كثير من العرب لا يراه.

وأَما الهدي فكان أَماناً لمن يسوقه لأَنه يعلم أَنه في عبادة لم يأْت لحرب، وأَما القلائد فكذلك كان الرجل إِذا خرج يريد الحج تقلد من لحاءِ السَّمُرِ أَو غيره شيئاً فكان ذلك أَماناً له، وكان الأَمر في نفوسهم عظيماً مكنه الله حتى كانوا لا يقدر من ليس بمحرم أَن يتقلد شيئاً خوفاً من الله، وكذلك إِذا انصرفوا تقلدوا من شجر الحرم.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِلنَّاسِ﴾ لفظ عام، وقال بعض المفسرين: أَراد العرب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا وجه لهذا التخصيص. وقال سعيد بن جبير: جعل الله هذه الأُمور للناس وهم لا يرجون جنة ولا يخافون ناراً، ثم شدد ذلك بالإِسلام.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إِلىٰ أَن جعل هذه الأُمور قياماً، والمعنىٰ: فعل ذلك لتعلموا أَن الله تعالىٰ يعلم تفاصيل أُمور السموات والأَرض، ويعلم مصالحكم أَيها الناس قبل وبعد، فانظروا لطفه بالعباد على حال كفرهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عام عموماً تامّاً في الجزئيات ودقائق الموجودات، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾[٤]، والقول بغير هذا إِلحاد في الدين وكفر.

---

(١) يسمىٰ شهر رجب: شهر مضر، أو: رجب مضر إضافة إليهم لأنهم كانوا أشد تعظيماً له من غيرهم، فكأنم اختصوا به. (اللسان).

(٢) يرجع نسب الشاعر إلى قيس بن عيلان بن مضر، وهو هنا يقسم بشهر رجب وبالهدي أن يظل وفيّاً لصاحبته خولة أبد الدهر.

(٣) في بعض النسخ: لأن الله مَتَّنَه، وهذا يتفق مع ما في تفسير القرطبي.

(٤) من الآية (٥٩) من سورة (الأنعام).

ثم خوَّف تعالىٰ عباده ورجّاهم بقوله: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ ﴾ الآية، وهكذا هو الأمر في نفسه حري أَن يكون العبد خائفاً عاملاً بحسب الخوف متقياً متأنساً بحسب الرجاءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ إخبار للمؤمنين، فلا يتصور أَن يقال: هي آية موادعة منسوخة بآيات القتال، بل هذه حال من آمن وشهد شهادة الحق، فإِنه إِذْ قد عصم من الرسول ماله ودمه فليس على الرسول في جهته أَكثر من التبليغ، والله تعالىٰ ـ بعد ذلك ـ يعلم ما ينطوي عليه صدره، وهو المجازي ـ بحسب ذلك ـ ثواباً أَو عقاباً.

والبلاغ مصدر من: بلغ يبلغ، والآية معناها الوعيد للمؤمنين إن انحرفوا ولم يمتثلوا ما بلِّغ إِليهم.

وقوله: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ﴾ الآية، لفظ عام في جميع الأُمور يتصور في المكاسب وعدد الناس والمعارف من العلوم ونحوها، فالخبيث من هذا كله لا يفلح ولا ينجب ولا تحسُن له عاقبة، والطَّيِّب ولو قل نافع جميل العاقبة. وينظر إِلى هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾[1]، والخبث هو الفساد الباطن في الأَشياءِ حتى يظن بها الصلاح، والطيب وهو بخلاف ذلك، وهكذا هو الخبث في الإِنسان، وقد يراد بلفظة خبيث في الإِنسان فساد نسبه، فهذا لفظ يلزم قائله ـ على هذا القصد ـ الحد.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ تنبيه على لزوم الطيب في المعتَقَد والعمل، وخص أُولي الأَلباب بالذكر لأَنهم المتقدمون في ميز هذه الأُمور، والذين لا

---

(١) من الآية (٨٥) من سورة (الأعراف)، وينظر إلى الآية أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ ـ وقوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾.

ينبغي لهم إهمالها مع ألبابهم وإدراكهم، وكأن الإشارة بهذه الألباب إلى لب التجربة الذي يزيد على لب التكليف بالحنكة والفطنة المستنبطة والنظر البعيد.

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ ﴾ الآية، اختلف الرواة في سببهاـ فقالت فرقة منهم أنس بن مالك وغيره: نزلت بسبب سؤال عبد الله بن حذافة السهمي[١]، (وذلك أن رسول الله ﷺ صعد المنبر مغضباً فقال: لا تسألوني اليوم عن شيءٍ إلا أخبرتكم به، فقام رجل فقال: أين أنا؟ فقال رسول الله ﷺ: في النار، فقام عبد الله بن حذافة السهمي وكان يُطعن في نسبه فقال: من أبي؟ فقال: أبوك حذافة).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي الحديث مما لم يذكر الطبري: (فقام آخر فقال: من أبي؟ فقال: أبوك سالمٌ مولى أبي شيبة، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجثا على ركبتيه وقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، نعوذ بالله من الفتن، وبكى الناس من غضب رسول الله ﷺ، ونزلت هذه الآية بسبب هذه الأسئلة)[٢].

---

(١) هو عبد الله بن حُذافة بن قيس القرشي ـ يقال: شهد بدراً وكانت فيه دُعابة، في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾ في عبد الله بن حذافة، بعثه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سريَّة، وقال ابن يونس: شهد فتح مصر، وتوفي بها ودفن بمقبرتها. ولما قال: من أبي يا رسول الله؟ قال: أبوك حذافة قالت له أُمه: ماسمعت بابن أعق منك، آمنتَ أن تكون أُمك قارفت ما يقارف نساءُ الجاهلية فتفضحها علىٰ أعين الناس، قال: والله لو ألحقني بعبد أسود للحقتُ به.

(٢) الحديث مروي من طرق كثيرة، منها ما رواه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، من طريق قتادة ـ عن أنس في قول الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ أن الناس سألوا نبي الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، فخرج ذات يوم حتى صعد المنبر، فقال: لا تسألوني اليوم عن شيء إلا أنبأتكم به، فلما سمع القوم ذلك أرموا، وظنوا أن ذلك بين يدي أمر قد حضر، فجعلت ألتفت عن يميني وشمالي فإذا كل رجل لافٌّ ثوبه برأسه يبكي، فأتاه رجل فقال: يا رسول الله، مَنْ أبي؟ قال: أبوك حذافة، وكان إذا لاحىٰ يدعى إلى غير أبيه، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، ونعوذ بالله من سوء الفتن، قال: فقال النبي ﷺ: ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط، إن الجنة والنار مثلتا لي حتى رأيتهما دون الحائط، قال قتادة: وإن الله يريه ما لا ترون، ويسمعه مالا تسمعون، قال: وأُنزل عليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ ﴾ الآية. . . الخ (الدر المنثور ٢ـ ٣٣٤).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وصعود رسول الله ﷺ المنبر مغضباً إنما كان بسبب سؤالات الأعراب والجهال والمنافقين، فكان منهم من يقول: أين ناقتي؟ وآخر يقول: ماالذي ألقى في سفري هذا؟ ونحو هذا مما هو جهالة أو استخفاف وتعنيت.

وقال علي بن أبي طالب، وأبو هريرة، وأبو أمامة الباهلي، وابن عباس رضي الله عنهم أجمعين ـ في لفظهم اختلاف والمعنىٰ واحد ـ: (خطب رسول الله ﷺ الناس فقال: أيُّها الناس، كتب عليكم الحج، وقرأ عليهم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾(١) قال علي رضي الله عنه: فقالوا: يارسول الله أفي كل عام؟ فسكت، فأعادوا: قال: لا، ولو قلت نعم لوجبت، وقال أبو هريرة: فقال عكاشة بن محصن، وقال مُرّة: فقال محصن الأسدي، وقال غيره: فقام رجل من بني أسد، وقال بعضهم: فقام أعرابي فقال: يا رسول الله، أفي كل عام؟ فسكت رسول الله ﷺ، ثم قال: من السائل؟ فقيل: فلان، فقال رسول الله ﷺ: لو قلت نعم لوجبت، ، ولو وجبت لم تطيقوه، ولو تركتموه لهلكتم) فنزلت هذه الآية بسبب ذلك(٢).

ويُقوي هذا حديثُ سعد بن أبي وقاص أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (إن أعظم المسلمين على المسلمين جرماً من سأل عن شيءٍ لم يحرم فحُرم من أجل مسألته)(٣).

وروي عن ابن عباس أنه قال: نزلت هذه الآية بسبب قوم سألوا عن البحيرة والسائبة والوصيلة ونحو هذا من أحكام الجاهلية، وقاله سعيد بن جُبير(٤).

---

(١) من الآية (٩٧) من سورة (آل عمران).

(٢) أخرجه ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه ـ عن أبي هريرة، (والسائل عكاشة) وأخرجه ابن حبان أيضاً ـ (والسائل رجل) وأخرج مثله ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه ـ عن أبي أُمامة الباهلي، (والسائل رجل من الأعراب) (الدر المنثور ٢ـ ٣٣٥).

(٣) أخرجه الشافعي، وأحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، وابن المنذر ـ عن سعد بن أبي وقاص، وأوّله: (أعظم المسلمين في المسلمين جرماً. . .) فتأمل الفرق بين الروايتين. (الدر المنثور ٢ـ ٣٣٦) ـ وقد قال أبو الفرج الجوزيّ: «هذا محمول على من سأل عن الشيء عنتاً وعبثاً فعُوقب بسوءِ قصده بتحريم ما سأل عنه، والتحريم يَعُم.

(٤) قال القرطبي: رواه مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما. (تفسير القرطبي).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وروي أنه لما بيَّن الله تعالىٰ في هذه الآيات أَمر الكعبة والهَدْي والقلائد، وأَعلم أن حُرمتها هو الذي جعلها، إذ هي أُمور نافعة قديمة من لدن عهد إبراهيم عليه السلام ـ ذهب ناسٌ من العرب إلى السؤال عن سائر أَحكام الجاهلية ليروا هل تلحق بتلك أم لا، إذ كانوا قد اعتقدوا الجميع سنة لا يفرقون بيْن ما هو من عند الله وما هومن تلقاءِ الشيطان والمُغَيِّرين لِدِين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كعمرو بن لُحَيٍّ وغيره، وفي عمرو بن لُحَيٍّ قال رسول الله ﷺ: (رأَيته يجر قُصْبَه في النار وكان أَول من سَيَّب السَّوائب)[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر من الروايات أَن رسول الله ﷺ أَلحت عليه الأعراب والجهال بأَنواع من السؤالات حسبما ذكرناه، فزجر الله تعالىٰ عن ذلك بهذه الآية.

و﴿أَشۡيَآءَ﴾: اسم جمع لشيءٍ، أصله عند الخليل وسيبويه شيئاءُ مثل فَعْلاءُ قلبت إلى لَفْعاء لِثِقَل اجتماع الهمزتين، وقال أَبو حاتم: أَشياءُ وزنها أَفعال وهو جمع شيءٍ وترك الصرف فيه سماعٌ، وقال الكسائي: لم ينصرف أَشْياءُ لشبه آخرها بآخر حمراءَ ولكثرة استعمالها، والعرب تقول: أَشْياوات كما تقول: حمراوات، ويلزم على هذا أَلاَّ ينصرف (أَسماءُ) لأنهم يقولون: أَسماوات[2]، وقال الأَخفش: أَشياءُ أَصلها أَشْيئاءُ على وزن أَفعلاءَ، استثقل اجتماع الهمزتين فأُبدلت الأُولىٰ ياءً لانكسار ما قبلها ثم

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده هكذا: (رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قُصبَه في النار، وكان أول من سيَّب السوائب وبحر البحيرة). ورواه عن أبي هريرة. كما في الجامع الصغير، وقال عنه: وهو صحيح، لكن ابن الأثير قال في النهاية: وفيه (رأيتُ عَمْرو بن لُحَيٍّ يجر قُصْبَه في النار) ثم قال: «القُصْب بالضم: المِعَى، وجمعه: أَقْصاب، وقيل: القُصْبُ اسم للأمعاء كلها، وقيل: هو ما كان أسفل البطن من الأمعاء، ومنه الحديث (الذي يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة كالجار قُصْبَه في النار).» أ هـ. وهو ما يتفق مع لسان العرب في شرحه لمعنى قُصْب. وهو ما يتفق أيضاً مع رواية البخاري. والسائبة: المهملة التي كانت تُسَيَّبُ في الجاهلية لنذر أو نحوه.

(٢) قال الزجاج: وقد أَجمع البصريون وأكثر الكوفيين على أن قول الكسائي خطأٌ في هذا، وألزموه ألا يصرف أَبناء وأسماء ـ (عن لسان العرب).

حذفت الياءُ استخفافاً، ويلزم على هذا أَن يكون واحد الأَشياءِ شيِّئاً مثل هَيِّن وأَهْوِناءُ[1].

وقرأَ جمهور الناس: ﴿إِن تُبْدَ﴾ بضم التاءِ وفتح الدال وبناءِ الفعل للمفعول، وقرأَ مجاهد: [إِنْ تَبْدُ] بفتح التاءِ وضم الدال على بناءِ الفعل للفاعل، وقرأَ الشَّعْبي: [إِنْ يَبْدُ لكُمْ] بالياء من أَسفل مفتوحة والدال مَضمومة [يَسُؤْكُمْ] بالياء من أَسفل، أَي: يُبْده الله لكم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: لا تسأَلوا عن أَشياءَ في ضمن الإِخبار عنها مساءَةٌ لكم، إِما لتكليف شرعيٍّ يلزمكم، وإِما لخبر يسوءُ، كما قيل للذي قال: أَين أَنا؟ ولكن إِذا نزل القرآن بشيءٍ وابتدأَكم ربكم بأَمر فحينئذ إِن سأَلتم عن تفصيله وبيانه بُيِّنَ لكم وأُبْدي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالضمير في قوله: ﴿عَنْهَا﴾ عائد على نوعها، لا على الأُولى التي نهى عن السؤال عنها.

وقال أَبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه: إِن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، ونهىٰ عن أَشياءَ فلا تنتهكوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وعفا من غير نسيانٍ عن أَشياءَ فلا تبحثوا عنها.

وكان عبيد بن عُمير يقول: إِن الله أَحلَّ وحرَّم، فما أَحلَّ فاستحِلوا، وما حرَّم فاجتنبوا، وترك بين ذلك أَشياءَ لم يُحلَّها ولم يُحَرِّمها، فذلك عفو من الله عفاه، ثم يتلو هذه الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ أَن يكون في معنى

(١) جاء في لسان العرب تعقيباً على رأي الأخفش هذا: «قال أبو إسحق: وهذا القول أيضاً غلط، لأن (شيئاً) فَعْلٌ، وفَعْلٌ لا يجمع أَفعلاء، فأما هيْنٌ فأَصله هيِّنٌ فجمع على أفعلاء كما يجمع فعليل على أفعلاء، مثل: نَصيبٌ وأنصباء». وهذا هو معنى قول ابن عطية: «ويلزم على هذا أن يكون واحد الأشياء شَيِّئاً مثل هيِّن وأَهْوناء».

الوعيد، كأنه قال: لا تسألوا، وإن سألتم لقيتم عبءَ ذلك وصعوبته، لأنكم تتكلّفون وتستعجلون علم ما يسؤكم كالذي قيل له: إنه في النار.

وقوله تعالىٰ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ تركها ولم يعرف بها، وهذه اللفظة التي هي [عفا] تؤيد أن (الأشياءَ التي هي في تكليفات الشرع. ينظر إلى ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام: (إن الله قد عفا لكم عن صدقة الخيل)[١].

﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ صفتان تناسب[٢] العفو وترك المباحثة، والسماحة في الأمور.

وقرأ عامة الناس: ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ بفتح السين، وقرأ إبراهيم النَّخعي: [قَدْ سِالها] بكسر السين، والمراد بهذه القراءَة الإمالة، وذلك على لغة من قال سِلْت تسال، وحَكَى عن العرب: «هما يتساولان» فهذا يعطي أن هذه اللغة هي من الواو لا من الهمزة[٣]، فالإمالة إنما أُريدت وساغ ذلك لانكسار ما قبل اللام في (سِلْت) كما جاءَت الإمالة في (خاف) لمجيءِ الكسرة في خاءِ (خِفت).

ومعنى الآية أن هذه السؤالات التي هي تعنيتات وطلب شطط واقتراحات ومباحثات، قد سألتها قبلكم الأمم ثم كفروا بها. قال الطبري: كقوم صالح في سؤالهم الناقة، وكبني إسرائيل في سؤالهم المائدة، وقال السدي: كسؤال قريش أن يجعل الله لهم الصفا ذهباً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما يتجه في قريش مثالاً سؤالُهم آيةً، فلما شُقَّ لهم القمر كفروا، وهذا المعنى إنما يقال لمن سأل النبي عليه الصلاة والسلام: أين ناقتي؟ وكما قال له الأعرابي: ما في بطن ناقتي هذه؟ فأما من سأله عن الحج: أفي كل عام هو؟ فلا يفسر قوله: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ الآية بهذا ولا مثله، بل بأن الأمم قديماً طلبت التعمق في الدين من أنبيائها، ثم لم تَفِ بما كلفت.

---

(١) رواه الإمام أحمد، ومالك في الموطأ، ورواه ابن ماجه والدارمي.

(٢) هكذا في النسخ التي بين أيدينا، وهي من سهو النساخ.

(٣) عبارة «البحر المحيط» في هذه النقطة هي: «وقرأ إبراهيم النَّخعي بكسر السين من غير همز، يعني بكسر الإمالة، وجعل الفعل من مادة (سين وواو ولام) لا من مادة (سين وهمزة ولام)، وهما لغتان ذكرهما سيبويه، ومن كلام العرب: هما يتساولان بالواو، وإمالة النَّخعي (سال) مثل إمالة حمزة (خاف).» وهي أوضح من عبارة ابن عطية.

قوله عز وجل:

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

لما سأل قوم عن هذه الأحكام التي كانت في الجاهلية هل تلحق بحكم الله في تعظيم الكعبة والحرم، أحبر تعالىٰ في هذه الآية أنه لم يجعل شيئاً منها ولا سنَّة لعباده، والمعنىٰ: ولكن الكفار فعلوا ذلك، إذ أكابرهم ورؤساؤهم كعمرو بن لُحَيٍّ وغيره يفترون على الله الكذب، ويقولون: هذه قربة إلى الله وأمر يرضيه، وأكثرهم ـ يعني الأتباع ـ لا يعقلون، بل يتبعون هذه الأمور تقليداً وضلالاً بغير حجة.

و﴿ جَعَلَ ﴾ في هذه الآية لا يتجه أن تكون بمعنىٰ: خلق الله، لأن الله تعالىٰ خلق هذه الأشياء كلها، ولا هي بمعنى: صيَّر، لعدم المفعول الثاني، وإنما هي بمعنىٰ: ما سَنَّ ولا شرع، فتعدَّت تعدِّي هذا الذي هي بمعناه إلى مفعول واحد.

والبحيرة: فعيلة بمعنى مفعولة، وبَحَر: شَقَّ، كانوا إذا أنتجت الناقة عشرة بطون شقوا أُذنها نصين طولاً، فهي مبحورة، وتركت ترعى وتَرِدُ الماءَ ولا ينتفع منها بشيءٍ، ويحرم لحمها إذا ماتت على النساءِ ويحل للرجال[1]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا يفعلون ذلك بها إذا أنتجت خمسة بطون، وقال مسروق: إذا ولدت خمساً أو سبعاً شقُّوا أُذنها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويظهر مما يروى في هذا أن العرب كانت تختلف في المبلغ الذي تبحر عنده آذان النوق، فلكلٍّ سُنَّة، وهي كلها ضلال، قال ابن سيدة: ويقال: البحيرة هي التي خُلِّيت بلا راع، ويقال للناقة الغزيرة بحيرة.

---

(١) وقيل أيضاً: لم يركب ظهرها، ولم يُجزَّ وبرها، ولم يَشْرب لبنها إلا ضيف، فهي:

مُحَـــرَّمَـــةٌ لا يَطْعَـــمُ النَّـــاسُ لَحْمَهـــا ... ولا نَحْـنُ فـي شَـيْءٍ كـذاكَ البَحَـائِـرُ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أرىٰ أن البحيرة تصلح وتسمن ويغزر لبنها فتشبه الغزيرات بالبحر، وعلى هذا يجيءُ قول ابن مُقْبل:

فيـه مِـنَ الأَخْـرج الْمُـرْتَـاع قَـرْقَـرَةٌ هَدْرَ الدَّيامِيِّ وَسْطَ الْهَجْمَةِ البُحُرِ(١)

فإنما يريد النوق العظام وإن لم تكن مُشَقَّقَة الآذان.

وروى الشعبي، عن أبي الأحوص، عن أبيه قال: (دخلت على النبي ﷺ فقال لي: أرأيتَ إبلَكَ؟ ألست تنتجها مسلمة آذانها، فتأخذ الموسىٰ فتقطع آذانها، فتقول: هذه بُحُرٌ، وتقطع جلودها فتقول: هذه صرم، فتُحَرِّمها عليك وعلى أهلك؟ قال: نعم، قال: فإن ما آتاك الله لك حِلٌّ، وساعد الله أشَدّ، وموسَىٰ الله أَحَدّ)(٢).

والسائبة: هي الناقة التي تُسَيب للآلهة، والناقة أيضاً إذا تابعت ثنتي عشرة إناثاً ليس فيهن ذكر سُيّبت. وقال رسول الله ﷺ لأَكْثَم بن الجون الخزاعي: (يا أَكْثَم، رأيت عَمْرو ابنَ لُحَيٍّ بن قمْعَةَ بن خندق يجُرُّ قُصْبَه في النَّار، فما رأيت أشبه به منك، قال أكثم: أيضرني شبهه يا رسول الله؟ قال: لا، إنك مؤمن وإنه كافر، هو أول من غيَّر دين إسماعيل عليه السلام، ونصب الأوثان، وسيَّب السوائب)(٣)، وكانت السوائب أيضاً في العرب كالقُرْبة عند المَرض يُبرأُ منه، والقُدوم من السفر، وإذا نزل بأحدهم أمر

(١) هذا البيت أنشده شَمر كما قال في «اللسان» لابن مقبل شاهداً على أن بَحيرة تُجْمع على بُحُر، والضمير في (فيه) يعود على مكان معين. والأخرج: من نعت الظليم، قال الليث: هو الذي سواده أكثر من بياضه كلون الرماد، والمرتاع: الخائف الشديد الفَزَع. والقَرْقَرَةُ: الهدير. والهَدْرُ: مصدر للفعل هَدَر على وزن ضرب. والدَّياميّ: جماعة الإبل ـ (وفي رواية الزّياميّ)، والهَجْمةُ: الجماعة الضخمة من الإبل، والبُحُر بضمتين جمع بحيرة. يقول: في هذا المكان قرقرة عالية تصدر عن هذا الظليم الخائف المرتاع كأنها هدير جماعة ضخمة من الإبل وسط مجموعة كبيرة من البُحُرُ التي شُقَّت آذانها. وتركت بدون راع فمضت ترعى وتهدر حيث تشاءُ.

(٢) أخرجه أحمد، وعبد بن حميد، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات ـ عن أبي الأحوص. وفي آخر الحديث شرح أبو الأحوص المعنى، وفسَّر الكلمات التي في الآية وهي: البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام. (الدر المنثور ٢ـ ٣٣٧).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن مردويه، والحاكم وصححه ـ عن أبي هريرة (الدر المنثور ٢ـ ٣٣٨).

يشكر الله عليه تقرّب بأن يُسَيِّب ناقة فلا ينتفع منها بلبن ولا ظَهْر ولا غيره. يرون ذلك كعِتْق بني آدم[١]، ذكره السدي وغيره، وكانت العرب تعتقد أن مَن عَرَض لهذه النوق فأخذها أو انتفع منها بشيءٍ فإنه تلحقه عقوبة من النار.

والوصيلة: قال أكثر الناس: إن الوصيلة في الغنم. قالوا: إذا ولدت الشاة ثلاثة بطون أو خمسة فإن كان آخرها جَدْيا[٢] ذبحوه لبيت الآلهة، وإن كانت عَنَاقا[٣] استَحْيَوها[٤]، وإن كان جَدْي وعَنَاق استَحْيوهما وقالوا: هذه العَناق وصلت أخاها فمنعته من أن يُذبح، وعلى أن الوصيلة في الغنم جاءَت الروايات عن أكثر الناس. وروي عن سعيد بن المسيب أن الوصيلة من الإبل ـ كانت الناقة إذا ابتكرت بأُنثىٰ ثم ثَنَّت بأُخرىٰ قالوا: وصلتْ أُنْثَيَيْن، فكانوا يجدعونها لطواغيتهم أو يذبحونها، شك الطبري في إحدى اللفظتين.

وأما الحامي فإنه الفحل من الإبل إذا ضرب في الإبل عشر سنين، وقيل: إذا وُلد من صُلْبه عشر، وقيل: إذا وُلد من وَلَد ولده قالوا: حمى ظهره فسيَّبوه لم يركب ولا سخر في شيءٍ[٥]، قال علقمة لمن سأله في هذه الأشياءَ: ما تريد إلى شيءٍ كان من عمل أهل الجاهلية وقد ذهب؟ وقال نحوه ابن زيد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وجملة ما يظهر من هذه الأُمور أن الله تعالىٰ قد جعل هذه الأنعام رفقاً لعباده، ونعمة عدَّدها عليهم، ومنفعةً بالغة، فكان أهل الجاهلية يقطعون طريق الانتفاع، ويذهبون

---

(١) قال عكرمة: السائبة: البعير ـ تُسَيَّب بنذر يكون على الرجل إن سلَّمه الله من مرض أو بلَّغه منزلة أن يفعل ذلك، فلا تُحبس عن رعي ولا ماءٍ، ولا يركبها أحد، قال الشاعر:

وسـائبـةٍ لله تَنْمـي تَشَكُّـراً ... إنِ اللهُ عـافَـى عـامِـراً أوْ مُجَـاشِعـا

وقيل: السائبة هي المُخَلاة لا قيد عليها، ولا راعي لها، فاعل بمعنى مفعول، نحو: «عيشة راضية»، أي: مُرضية، من سابت الحَيَّةُ وانسابت، قال الشاعر:

عَقَـرْتُـمْ نـاقَـةً كـانَـتْ لِـرَبِّـي ... وسـائبَـةً فَقُـومُـوا لِلْعِقَـاب

(٢) الجَدْيُ: الذكر من أولاد الماعز، جمعه: أَجْدٍ، وجداءٌ، وجديان.

(٣) العَناق: الأنثىٰ من أولاد المعز والغنم من حين الولادة إلى تمام حول، وجمعه: أعْنُق، وعُنُقٌ، وعُنوقٌ.

(٤) استحياه: تركه حياً فلم يقتله، وفي التنزيل: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾.

(٥) يؤيد هذا قول الشاعر:

حمـاهَـا أبـو قـابـوسَ فـي عـزِّ مُلْكِـهِ ... كمـا حمـى أولادَ أولاده الفَحْـلُ

نعمة الله فيها، ويزيلون المصلحة التي للعباد في تلك الإِبل. وبهذا فارقت هذه الأُمور الأَحباس والأَوقاف، فإِن المالك الذي له أَن يهب ويتصدق له أَن يصرف المنفعة في أَي طريق من البرِّ، ولم يَسُدَّ الطريق إِليها جملة كما فعل بالبحيرة والسائبة.

وقال أَبو حنيفة وأَصحابه: لا تجوز الأَحباس والأَوقاف، وقاسوا على البحيرة والسائبة، والفرق بيِّن، ولو عَمَد رجل إِلى ضيعة له فقال: هذه تكون حبساً لا يُجْتَنى ثمرها، ولا تُزْرع أَرضها، ولا يُنْتَفَع منها بنفع لجاز أَن يشبه هذا بالبحيرة والسائبة. وأَما الحبس البيِّن طريقه واستمرار الانتفاع به فليس من هذا، وحسبك بأَن النبي عليه الصلاة والسلام قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في مالٍ له: (اجعله حبساً لا يباع أَصله)، وحَبَس أَصحاب النبي عليه الصلاة والسلام[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية، وقد تقدم أَن المفترين هم المبتدعون، وأَن الذين لا يعقلون هم الأَتباع، وكذلك نص الشعبي وغيره، وهو الذي تعطيه الآية، وقال محمد بن أَبي موسىٰ: الذين كفروا وافتروا هم أَهل الكتاب، والذين لا يعقلون هم أَهل الأَوثان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تفسير من انتزع أَلفاظ آخر الآية عما تقدمها وارتبط بها من المعنىٰ، وعما تأَخر أَيضاً من قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، والأَول من التأويلين أَرجح.

والضمير في قوله: ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ عائد على الكفار المستنين بهذه الأَشياء، و﴿تَعَالَوْا۟﴾ نداءٌ بيِّن، هذا أَصله، ثم استعمل حيث البرُّ وحيث ضده، و﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني القرآن الذي فيه التحريم الصحيح، و﴿حَسْبُنَا﴾ معناه: كفانا، وقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أَلف التوقيف دخلت على واو العطف، كأَنهم عطفوا بهذه الجملة على

(١) روي أن أبا يوسف رجع عن قول أبي حنيفة في ذلك لما حدثه ابن عُلَيَّة، عن ابن عون، عن نافع، عن ابن عمر أنه استأذن رسول الله ﷺ في أن يتصدق بسهمه بخيبر: فقال له رسول الله ﷺ: (احبس الأصل وسبِّل الثَّمرة)، أي اجعلها وقفاً وأبح ثمرتها لمن وقفتها عليه.
وقد قال القرطبي: «إن المسألة إجماع من الصحابة، وذلك أنا أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وعائشة وفاطمة وعمرو بن العاص وابن الزبير وجابراً رضي الله عنهم كلهم وقفوا الأوقاف، وأوقافهم بمكة والمدينة معروفة ومشهورة».

الأُولى والتزموا شنيع القول، فإنما التوقيف توبيخٌ لهم كأَنَّهُم يقولون بعده: نعم ولو كانوا كذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾، اختلف الناس في تأويل هذه الآية فقال أَبو أُمية الشعباني: سأَلت أَبا ثعلبة الخشني عن هذه الآية فقال: لقد سأَلت عنها خبيراً، سأَلت عنها رسول الله ﷺ فقال: (ائتمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، فإذا رأَيت دنيا مؤثرة، وشُحّاً مُطاعاً، وإعجاب كل ذي رأْي برأْيه، فعليك بخويصة نفسك، وذر عوامهم فإن وراءَكم أَياماً أَجر العامل فيها كأَجر خمسين منكم)[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو التأْويل الذي لا نظر لأَحد معه، لأَنه مستوف للصلاح، صادر عن النبي عليه الصلاة والسلام.

ويظهر من كلام أَبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه بَلَغَه أَن بعض الناس تأَوَّل الآية أَنها لا يلزم معها أَمر بمعروف ولا نهي عن منكر، فصعد المنبر فقال: أَيها الناس، لا تغتروا بقول الله: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ فيقول أَحدكم: عليَّ نفسي، والله لتأْمرون بالمعروف، ولتنهون عن المنكر أَو ليستعملن عليكم شراركم فَلَيَسُومُنَّكُم سوءَ العذاب[2].

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أَنه قال: ليس هذا بزمان هذه الآية، قولوا الحق ما قُبل منكم، فإذا رُدَّ عليكم فعليكم أَنفسكم[3].

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه، ابن ماجه، وابن جرير، والبغوي في معجمه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب ـ عن أبي أُمية الشبعاني. (الدر المنثور ٢ـ ٣٣٩) (وفتح القدير ٢ـ ٨٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والعدني، وابن منيع، والحميدي في مسانيدهم، وأبو داوود، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابو يَعْلىٰ، وغيرهم كثيرون، ومع اختلاف في الألفاظ. (الدر المنثور. وفتح القدير).

(٣) هذا جزء من خبر طويل أخرجه عبد بن حميد، ونعيم بن حماد في الفتن، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وغيرهم كثيرون. (فتح القدير).

وقيل لابن عمر في بعض أَوقات الفتن: لو تركت القول في هذه الأَيام فلم تأْمر ولم تنه، فقال: إِن رسول الله ﷺ قال لنا: (ليبلغ الشاهد الغائب)، ونحن شهدنا فيلزمنا أَن نُبلغكم، وسيأْتي زمان إِذا قيل فيه الحق لم يقبل(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وجُملة ما عليه أَهل العلم في هذا أَن الأَمر بالمعروف متعيِّن متى رجي القبول، أَو رجي ردُّ المظالم ولو بعنْف مالم يخف المرءُ ضرراً يلحقه في خاصته، أَو فتنة يدخلها على المسلمين، إِما بِشَقِّ عصا، وإِما بضرر يلحق طائفة من الناس، فإِذا خيف هذا فعليكم أَنفسكم بحُكْم واجب أَن يوقف عنده.

وقال سعيد بن جبير: معنى هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ ﴾ فالتزموا شرعكم بما فيه من جهاد وأَمر بمعروف وغيره، ولا يضركم ضلال أَهل الكتاب إِذا اهتديتم.

وقال ابن زيد: معنىٰ الآية: يا أَيُّها الَّذين آمنوا من أَبناءِ أُولئك الذين بَحَروا البَحيرة وسيَّبوا السوائب عليكم أَنفسكم في الاستقامة على الدين، ولا يضركم ضلال الأَسلاف إِذا اهتديتم، قال: وكان الرجل إِذا أَسلم قال له الكفار: سفَّهت آباءَك وضلَّلتهم وفعلت وفعلت، فنزلت الآية بسبب ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولم يقل أَحد ـ فيما علمت ـ إِنها آية موادعة للكفار، وكذلك لا ينبغي أَن يعارض بها شيءٌ مما أَمر الله به في غير ما آية، من القيام بالقسط والأَمر بالمعروف، قال المهدوي: وقد قيل: هي منسوخة بالأَمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف ولا يعلم قائله.

وقال بعض الناس: نزلت بسبب ارتداد بعض المؤمنين وافتتانهم، كابن أَبي سرح وغيره، فقيل للمؤمنين: لا يضركم ضلالهم.

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عمر. (الدر المنثور ٢ـ ٣٤٠).

وقرأ جمهور الناس: ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ بضم الضاد وشد الراءِ المضمومة، وقرأ الحسن ابن أَبي الحسن: [لا يضُرُكم] بضم الضاد وسكون الراءِ، وقرأ إِبراهيم: [لا يضِركم] بكسر الضاد، وهي كلها لغات بمعنىٰ: ضرَّ يضُر، وضار يضور ويضير.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ الآية. تذكير الحشر وما بعده، وذلك مُسَل عن أُمور الدنيا ومكروهها ومحبوبها، وروي عن بعض الصالحين أنه قال: ما من يوم إِلا يجيءُ الشيطان فيقول: ما تأْكل؟ وما تلبس؟ وأَين تسكن؟ فأَقول له: آكل الموت، وأَلبس الكفن، وأَسكن القبر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فمن فكر في مرجعه إِلى الله فهذه حاله.

قوله عز وجل:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

قال مكي بن أَبي طالب رضي الله عنه: هذه الآيات عند أَهل المعاني من أَشكل ما في القرآن، إِعراباً ومعنى وحكماً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كلام من لم يقع له الثَّلَج[1] في تفسيرها، وذلك بيِّن من كتابه رحمه الله، وبه نستعين.

لا نعلم خلافاً أَن سبب هذه الآية أَن تميماً الداري، وعدِيَّ بن بدَّاءٍ كانا نصرانيَّيْن سافرا إِلى المدينة يريدان الشام لتجارتهما، قال الواقدي: وهما أَخوان، وقدم المدينة أَيضاً ابن أَبي مارية مولى عمرو بن العاص يريد الشام تاجراً، فخرجوا رفاقة، فمرض

(١) ثَلَجت النفس بالشيء: رضيت به وارتاحت واطمأنت إليه، وقيل: عرفته وسُرَّت به.

ابن أَبي مارية في الطريق، قال الواقدي: فكتب وصية بيده ودسَّها في متاعه، وأَوصى إِلى تميم وعدِي أَن يوديا رَحْلَه، فأتيا بعد مدة المدينة برحله فدفعاه، ووجد أَولياؤه من بني سهم وصيته مكتوبة، ففقدوا أَشياءَ قد كتبها فسأَلوهما عنها فقالا: ما ندري، هذا الذي قبضناه له فرفعوهما إِلى رسول الله ﷺ، فنزلت الآية الأُولىٰ، فاسْتَحلفهما رسول الله ﷺ بعد العصر، فبقي الأَمر مدة ثم عثر بمكة من متاعه على إِناءٍ عظيم من فضة مُخَوَّص بالذهب[1]، فقيل لمن وُجد عنده: من أَين صار لكم هذا الإِناءُ؟ فقالوا: ابتعناه من تميم الداري وعدي بن بدَّاءٍ، فارتفع في الأَمر إِلى النبي عليه الصلاة السلام، فنزلت الآية الأُخرىٰ، فأَمر رسول الله ﷺ رجليْن من أَولياءِ الميِّت أَن يحلفا. قال الواقدي: فحلف عبد الله بن عمرو بن العاص، والمطلب بن أبي وداعة، واستحقا.

وروى ابن عباس عن تميم الداري أَنه قال: برىءَ النَّاس من هذه الآيات غيري وغير عديّ بن بداءٍ، وذكر القصة، إِلا أَنه قال: وكان معه جام[2] فضة يريد به الملك، فأَخذته أَنا وعدي، فبعناه بأَلف وقسمنا ثمنه، فلما أَسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأَثَّمت من ذلك، فأَتيت أَهله فأَخبرتهم الخبر، وأَدَّيْت إِليهم خمسمائة، فوثبوا إِلى عدي فأَتوا به رسول الله ﷺ، وحلف عمرو بن العاص ورجل آخر معه، ونزعت من عديٍّ خمسمائة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

تختلف أَلفاظ هذه القصة في الدواوين، وما ذكرته هو عمود الأَمر، ولم يصح لعديٍّ صُحبة فيما علمت ولا ثبت إِسلامه، وقد صنفه في الصحابة بعض المتأَخرين، وضعَّف أَمره، ولا وجه عندي لذكره في الصحابة.

وأَما معنىٰ الآية من أَولها إِلى آخرها فهو أن الله تعالىٰ أَخبر المؤمنين أَن حكمه في الشهادة على الموصِي إِذا حضره الموت أَن تكون شهادة عدليْن، فإِن كان في سفر ـ وهو الضرب في الأَرض ـ ولم يكن معه من المؤمنين أَحد فَلْيُشْهد شاهديْن ممن حضره من أَهل الكفر، فإِذا قدما وأَدّيا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة أَنهما ما كذبا ولا

---

(١) مُخَوَّص بالذهب: أي عليه صفائح من الذهب مجدولة على هيئة خوص النخيل.
(٢) الجام: إناءٌ.

بدَلا، وأَن ما شهدا به حق ما كتما فيه شهادة الله، وحُكم بشهادتهما، فإن عُثر ـ بعد ذلك ـ على أنهما كذبا أَو خانا ونحو هذا مما هو إِثم حلف رجلان من أَولياءِ الموصي في السفر وغرم الشاهدان ما ظهر عليهما. هذا معنى الآية على مذهب أَبي موسىٰ الأَشعري، وسعيد بن المسيب، ويحيىٰ بن يَعْمر، وسعيد بن جُبَير، وأَبي مجْلز، وإِبراهيم، وشُرَيْح، وعُبَيدة السلمانيّ، وابن سيرين، ومجاهد، وابن عباس، وغيرهم، يقولون: معنى قوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ من المؤمنين، ومعنىٰ ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من الكفار، قال بعضهم: وذلك أَن الآية نزلت ولا مؤمن إِلا بالمدينة، وكانوا يسافرون في التجارة صحبة أَهل الكتاب وعبدة الأَوثان وأَنواع الكفرة.

واختلف هذه الجماعة المذكورة ـ فمذهب أَبي موسى الأَشعري وشريح وغيرهما أَن الآية مُحْكَمة، وأَسند الطبري إِلى الشعبي أَن رجلاً حضرته المنية بدقوقا[1]، ولم يجد أَحداً من المؤمنين يشهده على وصيَّته، فأَشْهَدَ رجلين من أَهل الكتاب، فقدما الكوفة، فأَتيا أَبا موسىٰ الأَشعري فأَخبراه وقدما بتركته، فقال أَبو موسىٰ الأَشعري: هذا أَمر لم يكن بعد الذي كان في مدة النبي عليه الصلاة والسلام، ثم أَحلفهما بعد صلاة العصر، وأَمضىٰ شهادتهما.

وأَسند الطبري عن شريح أَنه كان لا يجيز شهادة النصراني واليهودي على مسلم إلا في الوصية ولا تجوز أَيضاً في الوصية إِلا إِذا كانوا في سفر.

ومذهب جماعةٍ ممن ذكر أَنها منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[2] وبما استند إِليه إِجماع جمهور الناس على أَن شهادة الكافر لا تجوز.

وتأَول جماعةٌ من أَهل العلم الآية على غير هذا كله، قال الحسن أبن أَبي الحسن: وقوله تعالىٰ: ﴿مِّنكُمْ﴾ يريد من عشيرتكم وقرابتكم، وقوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ يريد من غير القرابة والعشيرة. وقال بهذا عكرمة مولى ابن عباس، وابن شهاب، قالوا:

---

(١) دَقوقا ودقوقاء (مقصورة وممدودة): مدينة معروفة بين إربل وبغداد ـ هكذا قال ياقوت في «معجم البلدان» ثم قال: لها ذكر في الأخبار والفتوح، كان بها وقعة للخوارج فقال الجعدي بن أبي صَمَام:

شبـابٌ أطـاعـوا اللهَ حتَّـى أحبهَّـم ... وكُلُّهُـمُ شـارٍ يخـافُ ويَطْمَـعُ
فلمَّـا تَبَـوَّؤا مِـنْ دقُـوقـا بمنـزلٍ ... لميعـادِ إخـوانٍ تـداعـوا فـأَجمَعوا

(٢) من الآية رقم (٢) من سورة (الطلاق).

أَمر الله بإِشهاد عدليْن من القرابة إِذ هم أَلحن[١] بحال الوصية وأَدرى بصورة العدل فيها، فإِن كان الأَمر في سفر ولم تحضر قرابة أُشْهد أَجْنَبيَّان، فإِذا شهدا فإِن لم يقع ارتياب مضت الشهادة، وإِن ارتيب أَنهما مالا بالوصية إِلى أَحد أَو زادا أَو نقصا حَلَفا بعد صلاة العصر ومضت شهادتهما، فإِن عُثر بعد ذلك على تبديل منهما واستحقاق إِثْم حَلَف وليَّان من القرابة، وبطلت شهادة الأَوليْن[٢].

وقال بعض الناس: الآية منسوخة، ولا يحلف شاهد، ويذكر هذا عن مالك بن أَنس، والشافعي، وكافة الفقهاء.

وذكر الطبريُّ رحمه الله أَن هذا التخالف الذي في الآية إِنما هو بحسب التداعي، وذلك أَن الشاهدْين الأَوَّليْن إِنما يحلفان إِذا ارْتيب، وإِذا ارتيب فقد ترتبت عليهما دعوى فتلزمهما اليمين، لكن هذا الارتياب إِنما يكون في خيانة منهما. فإِن عُثر بعد ذلك على أَنهما استحقا إِثماً نظر، فإِن كان الأَمر بيّناً غُرِّما دون يمين وليَّيْن، وإِن كان بشاهد واحد أَو بدلائل تقتضي خيانتهما أَو ما أَشبه ذلك مما هو كالشاهد حمل على الظالم وحلف المدَّعيان مع ما قام لهما من شاهد أَو دليل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا هو الاختلاف في معنىٰ الآية وصورة حكمها.

ولنرجع الآن إِلىٰ الإِعراب والكلام على لفظة لفظة من الآية، ولنقصد القول المفيد، لأَن الناس خلَّطوا في تفسير هذه الآية تخليطاً شديداً، وذكْر ذلك والردُّ عليه

---

(١) يُفهم من (أَلحن) أنهم أعرف بالوصية، إذ يقال: لَحِين القولَ عنه: فهمه ـ ويقال: أَلحن فلاناً القولَ: أفهمه إيَّاه، وفي بعض النسخ: «إذ هم أحق بحال الوصية» وهو ما يطابق عبارة أبي حيان في «البحر المحيط».

(٢) يؤيد هذا الرأي النحاس بدليل لغوي، يقول: وهذا ينبني على معنىٰ غامض في العربية، وذلك أن معنىٰ (آخرَ) في العربية يكون من جنس الأول، تقول: مررت بكريم وكريم آخر، ولا تقول: مررت بكريم وخسيس آخر، فوجب من هذا أن يكون قوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: عَدلان، ومعنىٰ هذا أنهما من المسلمين لا من الكفار، لأن الكفار لا يكونون عدولاً، فيصح على هذا قول من قال: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير عشيرتكم من المسلمين. قال القرطبي تعليقاً على ذلك: «وهذا معنى حسن من جهة اللسان، على أنه قد عورض بأن في أول الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فخوطب الجماعة من المؤمنين». ومعنى هذا أن قوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ يقتضي أن يكون المقصود «من غير المؤمنين» ما دام الخطاب للمؤمنين.

يطول، وفي تبيين الحق الذي تتلقاه الأذهان بالقبول مقنع، والله المستعان.

قوله: [شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ]، قال قوم: الشهادة هنا بمعنى الحضور، وقال الطبري: الشهادة بمعنى اليمين، وليست بالتي تُؤَدَّىٰ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله ضعيف، والصواب أنها الشهادة التي تحفظ لِتُؤَدَّىٰ(١). ورفْعها بالابتداء والخبر في قوله: ﴿ ٱثْنَانِ ﴾. قال أبو علي: التقدير: شهادة بينكم في وصاياكم شهادة اثنين، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه. وقدَّره غيره أولاً، كأنه قال: «مقيم شهادة بينكم اثنان».

وأُضيفت الشهادة إلى (بيْنَ) اتساعاً في الظرف بأن يعامل معاملة الأسماء، كما قال تعالىٰ: ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾(٢).

وقرأ الأعرج، والشعبي، والحسن: [شَهَادَةٌ] بالتنوين [بَيْنَكُمْ] بالنصب، وإعراب هذه القراءة على نحو إعراب قراءَة السبعة. وروي عن الأعرج، وأبي حيْوة: [شهادَةً] بالنصب والتنوين [بينكُم] نصباً، قال أبو الفتح: التقدير: «ليقم شهادةً بينكُم اثنان».

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ معناه: إذا قرب الحضور، وإلا فإذا حضر الموت لم يشهد ميِّت، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾(٣)، وكقوله: ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ ﴾(٤)، وهذا كثير، والعامل في ﴿ إِذَا ﴾ المصدر الذي هو ﴿ شَهَٰدَةُ ﴾، وهذا على أن تجعل ﴿ إِذَا ﴾ بمنزلة (حين) لا تحتاج إلى جواب، ولك أن

---

(١) جاءت (شهد) في القرآن بمعان مختلفة ـ بمعنى (قضىٰ) كقوله سبحانه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾، وبمعنى (أقَرَّ) كقوله سبحانه: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾. وبمعنى (حلف) كما في اللِّعان، وبمعنىٰ (وصىٰ) كقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ ـ وهذا على رأي من يرى أنها هنا بمعنىٰ (وصَّىٰ).

(٢) من الآية (٩٤) من سورة (الأنعام) ـ وقد قيل: الأصل (ما بينكم) فحذفت (ما) وتمت الإضافات على السعة كقوله تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ أي: ما بيني وبينك، وكقول الشاعر:

تُصَافِحُ مَن لاقَيْتَ لي ذا عداوةٍ ... صفاحاً، وعنِّي بيْن عَيْنَيْكَ مُنْزَوي

أي: ما بين عينيك، ومن الإضافة على السعة قوله تعالىٰ: ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾، أي مكركم في الليل والنهار.

(٣) من الآية (٩٨) من سورة (النحل).

(٤) من الآية (١) من سورة (الطلاق).

تَجْعل ﴿إِذَا﴾ في هذه الآية المحتاجَةَ إلى جواب لكن استُغني عن جوابها بما تقدم في قوله: ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ إذ المعنىٰ: إذا حضر أحدَكم الموتُ فينبغي أن يشهد.

وقوله: ﴿حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ﴾ ظرف زمان والعامل في ﴿حَضَرَ﴾، وإن شئت جعلته بدلاً من ﴿إِذَا﴾، قال أبو علي: ولك أن تعلقه بـ ﴿ٱلۡمَوۡتُ﴾، ولا يجوز أن تعمل فيه [شهادةُ] لأنها إذا عملت في ظرف من الزمان لم تعمل في ظرف آخر منه.

وقوله: ﴿ذَوَا عَدۡلٖ﴾ صفة لقوله ﴿ٱثۡنَانِ﴾، و﴿مِّنكُمۡ﴾ صفة أيضاً بعد صفة.

وقوله تعالى: ﴿مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ صفة لـ ﴿ءَاخَرَانِ﴾، و﴿ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ معناه: سافرتم للتجارة، تقول: ضربتُ في الأرض أي: سافرت للتجارة، وضربتُ الأرض: ذهبت فيها لقضاءِ حاجة الإنسان، وهذا السفر كان كالذي يمكن أن يعدم فيه المؤمن مؤمنين، فلذلك خُصَّ بالذكر، لأن سفر الجهاد لا يكاد يعدم فيه مؤمنين.

قال أبو علي: قوله: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا﴾ صفة لـ ﴿ءَاخَرَانِ﴾، واعترض بين الموصوف والصفة بقوله: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ إلى ﴿ٱلۡمَوۡتُ﴾، وأفاد الاعتراض أن العدول إلى آخرَيْن من غير الملَّة أو القرابة حسب اختلاف العلماءِ في ذلك إنما يكون مع ضرورة السفر وحلول الموت فيه، واستغني عن جواب ﴿إِنۡ﴾ لما تقدم من قوله: ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾.

وقال جمهور العلماءِ: الصلاة هنا صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس، وقد ذكره النبي ﷺ فيمن حلف على سلعته، وأمر باللعان فيه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما هي بعد صلاة الذِّمِّيِّين[1]، وأما العصر فلا حرمة لها عندهما.

والفاءُ في قوله: ﴿فَيُقۡسِمَانِ﴾ عاطفة جملة على جملة، لأن المعنىٰ تم في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، قال أبو علي: وإن شئت لم تقدر الفاءَ عاطفة جملة على جملة، ولكن تجعله جزاءً كقول ذي الرمَّة:

وإِنْسَانُ عَيْنِي يَحْسِرُ الماءُ تَارَةً ... فَيَبْدو وتَاراتٍ يَجِمُّ فَيَغْرَقُ[2]

تقديره عندهم: إذا حَسَر بدا، فكذلك إذا حبستموهما أقْسما.

---

(١) لأن الشاهدين في هذه الحالة من أهل الذمة، وصلاتهم لها عندهما حُرمة وقداسة.

(٢) إنسان العيْن: ناظرها. وحسَر الشيءُ حُسوراً: انكشف، وحسر الشيءَ: أزاله، وجمَّ: اجتمع وكثُر ـ يقول: إذا حسر الدمع وانكشف ظهر إنسان عينه، وإذا تجمَّع الماء وكثر غرق فيه فلا يظهر.

وقوله: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ شرط لا يتوجَّه تحليف الشاهدَيْن إلاَّ به، ومتى لم يقع ارتياب ولا اختلاف فلا يمين، أَما إنه يظهر من حكم أَبي موسىٰ تحليف الذِّمِّيِّين أَنه باليمين تكْمُل شهادتُهما وتنفذ الوصية لأَهلها وإِن لم يرتب. وهذه الريبة ـ عند من لا يرى الآية منسوخة ـ تترتب في الخيانة وفي الاتهام بالميل إِلى بعض الموصىٰ لهم دون بعض، وتقع مع ذلك اليمين عنده، وأَما من يرى الآية منسوخة فلا يقع تحليف إِلا بأَن يكون الارتياب في خيانة، أَو تَعَدٍّ بوجه من وجوه التعدي، فيكون التحليف عنده بحسب الدعوىٰ على منكر لا على أَنه تكميل للشهادة.

والضمير في قول الحالفيْن: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ عائد على القسم، ويحتمل أَن يعود على اسم الله تبارك وتعالىٰ، قال أَبو علي: يعود على تحريف الشهادة. وقوله: ﴿لَا نَشْتَرِي﴾ جواب ما يقتضيه قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ لأَن القسم ونحوه يتلقىٰ بما يتلقىٰ به الأَيمان، وتقدير ﴿بِهِ ثَمَنًا﴾ أَي: ذا ثمن، لأَن الثَّمن لا يُشترى، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[1] معناه: ذا ثَمَن. ولا يجوز أَن يكون ﴿نَشْتَرِي﴾ في هذه الآية بمعنى نبيع، لأَن المعنى يبطله، وإِن كان ذلك موجوداً في اللغة في غير هذا الموضع.

وخص ذا القربىٰ بالذكر لأَن العرف ميل الناس إِلى قراباتهم، واستسهالهم في جنب نفعهم مالا يستسهل.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ أَضاف ﴿شهادة﴾ إِليه تعالىٰ من حيث هو الآمر بإِقامتها الناهي عن كتمانها. وقرأَ الحسن والشعبي: [ولا نكْتُمْ] بجزم الميم[2]، وقرأَ علي بن أَبي طالب، ونعيم بن ميسرة، والشعبي ـ بخلاف عنه ـ: [شَهادةً] بالتنوين [اللهَ] نصب بـ[نكْتُم]، كأَن الكلام: «ولا نكتُم اللهَ شهادةً». قال الزهراوي: ويحتمل أَن يكون المعنىٰ: «ولا نكتم شهادةً واللهِ» ثم حذفت الواو ونصب الفعل إِيجازاً. وروىٰ يحيىٰ بن آدم عن أَبي بكر بن عيَّاش: [شهادةً] [آللهِ] بقطع الأَلف دون مد وخفض الهاءِ،

---

(١) من الآية (٩) من سورة التوبة.

(٢) القراءة بجزم الميم من [نَكْتُمْ] على معنى أَنهما يَنْهيان نفسيهما عن كتمان الشهادة والعلماءُ يقولون: إن دخول (لا) الناهية على المتكلم قليل، ومنه قول الشاعر:

إذا ما خَـرَجْنـا مـنْ دمشْـقَ فـلا نَعُـدْ ... لهـا أَبـداً مـا دامَ فيهـا الجـراضِـمُ

ورويت أيضاً عن الشعبي وغيره أنه كان يقف على الهاء من (الشهادة) بالسكون، ثم يقطع الألف المكتوبة من غير مدٍّ كما تقدم، وروي عنه أنه كان يقرأ [آلله] بمدِّ ألف الاستفهام في الوجهيْن، أعني بسكون الهاءِ من (الشهادة) وتحريكها منونة منصوبة، ورويت هذه التي هي تنوين (الشهادة) ومدّ ألف الاستفهام بعد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال أبو الفتح: أما تسكين هاءِ [شهادة] والوقف عليها واستئناف القسم فوجْه حسن، لأن استئناف القسم في أول الكلام أوقر له وأشد هيبة أن يدرج في عرض القول. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وعبد الله بن حبيب، والحسن البصري ـ فيما ذكر أبو عمرو الداني ـ: [شهادةً] بالنصب والتنوين [آلله] بالمدِّ في همزة الاستفهام التي هي عِوَض من حرف القسم [آنّا] بمد ألف الاستفهام أيضاً دخلت لتوقيف أو تقرير لنفوس المقسمين، أو لمن خاطبوه. وقرأ ابن مُحَيْصِن: [لَمِلاَّ ثِمينَ] بالإدغام.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَإِنْ عُثِرَ ﴾ استعارة لما يُوقعَ على علمه بعد خفائه اتفاقاً وبعد أن لم يُرْج ولم يُقْصد، وهذا كما يقال: على الخبير سقطت، ووقعت على كذا، قال أبو علي: والإثم هنا: اسم الشيء المأخوذ، لأن آخذه بِأَخْذه آثم فسمي إثْماً كما سُمِّي ما يؤخذ بغير حق مَظْلَمَة، قال سيبويه: المظلمة اسم ما أُخذ منك، وكذلك سمي هذا المأخوذ باسم المصدر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي يظهر هنا أن الإثم على بابه هو الحكم اللاحق لهما والنسبة التي يتحصلان فيها بعد مواقعتهما لتحريف الشهادة أو لأخذ ما ليس لهما أو نحْو ذلك.

و﴿ ٱسْتَحَقَّآ ﴾ معناه: استوجباه من الله وكانا أهلاً له، فهذا استحقاق على بابه، إنه استيجاب حقيقة، ولو كان الإثم الشيءَ المأخوذ لم يقل فيه استحقا لأنهما ظلما وخانا فيه، فإنما استحقا منزلة السوءِ وحكم العصيان، وذلك هو الإثم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَـَٔاخَرَانِ ﴾ أي: فإذا عُثر على فسادهما فالأوْلَيان باليمين وإقامة القضية آخران من القوم الذين هم ولاةُ الميت، واستحق عليهم حظهم أو ظهورهم أو مالهم أو ما شئت من هذه التقديرات.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي: [اسْتُحِقَّ] مضمومة التّاءِ،

و﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ على التثنية لـ (أَوْلى)، وروى قُرَّة عن ابن كثير: ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾ بفتح التَّاء ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ على التثنية، وكذلك روى حفص عن عاصم، وقرأ حمزة وعاصم في رواية أَبي بكر [اسْتُحق] بضم التاءِ [الأَوَّلين] على جمع (أَوَّل)، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن [استَحق] بفتح التاءِ [الأَوَّلان] على تثنية (أَوّل)، وقرأَ ابن سيرين [الأَوَّلَيْن] على تثنية (أَوَّل)، ونصبهما على تقدير: الأَولين فالأَوَّلين في الرتبة والقربى[1].

قال أَبو علي في قراءَة ابن كثير ومن معه[2]: لا يخلو ارتفاع [الأَوْليان] من أَن يكون على الابتداءِ وقدأُخِّر، فكأَنه في التقدير: «والأَوْليان بأَمر الميت آخران يقومان» فيجيءُ الكلام كقولهم: «تميميٌّ أَنا»، أَو يكون خبر ابتداءِ محذوف كأَنه: «فآخران يقومان مقامهما هما الأَوْلَيان»، أَو يكون بدلا من الضمير الذي في ﴿يَقُومَانِ﴾، أَو يكون مسنداً إلى [استُحق]، وأَجاز أَبو الحسن فيه شيئاً آخر وهو أَن يكون ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ صفة لـ ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ لأَنه لما وصف خصص، فوصف من أَجل الاختصاص الذي صار له[3].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ثم قال أَبو علي بعد كلامه هذا: فأَما ما يُسند إليه [اسْتُحِقَّ] فلا يخلو من أَن يكون: الأَنصباءَ، أَو الوصية، أَو الإِثم. وسمي المأخوذ إِثماً كما يقال لما يؤخذ من المظلوم: مَظْلَمة، ولذلك جاز أَن يستند إِليه [اسْتُحِقَّ]، ثم قال بعد كلام: فإِن قلت: هل يجوز أَن يُسند [اسْتُحِقَّ] إِلى ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾؟ فالقول أَن ذلك لا يجوز، لأَن المستحق إِنما يكون الوصية أَو شيئاً منها، وأَما الأَولَيَان بالميت فلا يجوز أَن يستحقا فيسند [اسْتُحَقَّ] إِليهما.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا الكلام نظر، ويجوز عندي أَن يسند [اسْتُحِقَّ] إِلى ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾، وذلك أَن

---

(١) قال النحاس: والقراءتان لحن، لا يقال في مُثَنّى مُثَنَّان ـ ويريد بالقراءتين قراءة الحسن وقراءة ابن سيرين ـ نقل ذلك القرطبي.

(٢) وهي قراءَة [استُحِقَّ] بضم التَّاءِ، و﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ مثنىٰ (أَوْلَىٰ).

(٣) اختار النحاس أن يكون ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ بدلا من قوله: ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾، وهو أَصلاً إِعراب ابن السَّريّ، وهو بدل المعرفة من النكرة، وهو جائز، قيل: لأَن النكرة إِذا أُعيد ذكرها صارت معرفة كقوله تعالىٰ: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ ثم قال: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾، ثم قال: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾.

أَبا علي حمل لفظة الاستحقاق علىٰ أَنه حقيقي فلم يُجَوِّزه إلا حيث يصح الاستحقاق الحقيقي في النازلة، وإنما يُسْتحق حقيقة النَّصيب ونحوه، ولفظة الاستحقاق في الآية إنما هي استعارة وليست بمعنىٰ «استحقا إثما» فإن الاستحقاق هنا حقيقة، وفي قوله [اسْتُحق] مستعار، لأنه لا وجه لهذا الاستحقاق إلا الغلبة على الحال بحكم انفراد هذا الميت وعدمه لقرابته أَو لأَهل دينه، فـ [اسْتُحِقَّ] هنا كما تقول لظالم يظلمك: هذا قد استحق عليّ مالي أَو منزلي بِظُلْمه، فَتُشَبِّهُه، بالمستحق حقيقة، إذ قد تسور تسوره وتملك تملكه، وكذلك يقال: فلان قد استحق منه زمنه شغل كذا إذا كان الأَمر قد غلبه على أَوقاته، وهكذا هي [اسْتُحِقَّ] في الآية على كل حالٍ وإن أُسندت إلىٰ الأَنصباءِ ونحوه، لأَن قوله [اسْتُحق] صلة لـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ﴾ واقع على الصنف المناقض للشاهدين الجائرين، فالشاهدان ما استحقَّا قط في هذه النازلة شيئاً حقيقة استحقاق، وإنما تسورا تسور المستحق، فلنا أَن نقدر ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ ابتداءَ وقد أُخِّر، فيسند [اسْتُحِقَّ] ـ على هذاـ إلى المال أَو النصيب ونحوه على جهة الاستعارة، وكذلك إذا كان ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ خبر ابتداءٍ، وكذلك على البدل من الضمير في ﴿يَقُومَانِ﴾، وعلى الصفة على مذهب أَبي الحسن، ولنا أَن نقدر الكلام بمعنىٰ: من الجماعة التي غابت وكان حقُّها والمبتغى أَن يحضر وليُّها، فلما غابت وانفرد هذا الموصي استحقت هذه الحال ـ وهذان الشاهدان من غير أَهل الدين ـ الولاية وأَمر الأَوْلَيَيْن على هذه الجماعة، ثم بني الفعل للمفعول على هذا المعنى إيجازاً. ويقوي هذا الغرض أَن تعدّي الفعل بـ ﴿عَلَىٰ﴾ لما كان باقتدار وحمل هيئته الحال، ولا يقال: استحق منه أَو فيه إلا في الاستحقاق الحقيقي على وجهه، وأَما استحق عليه فيقال في الحَمْل والغلبة والاستحقاق المستعار. والضمير في [عَلَيْهم] عائد على كل حال في هذه القراءَة على الجماعة التي تناقض شاهِدَي الزور الآثمين، ويحتمل أَن يعود على الصنف الذين منهم شاهد الزور على ما نُبَيِّنُه الآن إن شاءَ الله في غير هذه القراءَة.

وأَما رواية قُرَّة عن ابن كثير ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾ بفتح التاءِ فيحتمل أَن يكون ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ ابتداءً أَوْ خبر ابتداءٍ، ويكون المعنى: من الجمع أَو القبيل الذي استحق القضية على هذا الصنف الشاهد بالزور، والضمير في ﴿عَلَيْهِمُ﴾ عائد على صنف شاهدي الزور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا التأويل تحويم وتحليق وصنعة في ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وعليه ينبني كلام أبي عليّ في كتاب الحجة، ويحتمل أن يكون المعنىٰ: من الذين استحق عليهم القيام، والصواب من التأويلين أن الضمير في ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ عائد على ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ رفع بـ ﴿ٱسۡتَحَقَّ﴾ وذلك متخرج على ثلاثة معان[1]:

أحدها أن يكون المراد من الذين استحق عليهم مالَهم وتركتَهم شاهدا الزور، فسَمَّىٰ شاهدَي الزور أَوْلَيَيْن من حيث جعلتهما الحالُ الأولى كذلك، أي صيَّرهم عدمُ الناس أَوْلى بهذا الميت وتركته فجارا فيها.

والمعنى الثاني أن يكون المراد من الجماعة الذين حق عليهم أن يكون منهم الأَوليان، فاستحق بمعنىٰ: حق ووجب، كما تقول: هذا بناءٌ قد استحق بمعنى حق، كعجب واستعجب ونحوه.

والمعنى الثالث أن يجعل ﴿ٱسۡتَحَقَّ﴾ بمعنى سعى واستوجب، فكأن الكلام: فآخران من القوم الذين حضر أَوليان منهم فاستحقا عليهم حقهم، أي: استحقا لهم وسعيا فيه واستوجباه بأَيمانهما وقرباهما، ونحو هذا المعنىٰ الذي يعطيه التعدي بـ (على) قولُ الشاعر:

أَسْعَـى علـى حـيّ بَنـي مـالـك ... كـلُّ امـرىءٍ فـي شـأْنـهِ سـاعِـي[2]

وكذلك في الحديث: (كنت أَرعى عليهم الغنم) في بعض طرق حديث الثلاثة الذين ذكر أَحدهم برَّه بأَبويه حين انحطت عليهم الصخرة[3].

---

(١) خرَّج ابن عيطة قراءة فتح التاءِ في ﴿ٱسۡتَحَقَّ﴾ و﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ بالتثنية هذه التخريجات الثلاثة، أما الزمخشري فقال: «معناه: من الورثة الذين استَحَقَّ عليهم أَوْليان من بينهم بالشهادة أَنْ يُجَردوهما للقيام بالشهادة ويظهروا بهما كذب الكاذبين». وقال بعضهم: المفعول محذوف، أَي: «من الذين استحق عليهم الأولِيان وصيَّهما».

(٢) البيت في (اللسان) غير منسوب ـ والرواية فيه: أَسْعَىٰ عَلَى جُلِّ بَني مالك. وقد شرح معنى التعدية بـ (على) فيه فقال: فلا يسعى على عياله، أي: يتصرف لهم.

(٣) الحديث رواه البخاري ومسلم والنسائي، عن ابن عمر رضي الله عنهما ـ ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث أَبي هريرة رضي الله عنه. وهو حديث طويل ومشهور وابن عطية أمين حين يقول: «وفي بعض طرق حديث الثلاثة» لأن الجملة التي نقلها لا توجد في كل الطرق.

وأما قراءة حمزة[1] فمعناها: من القوم الذين استُحق عليهم أمرُهم، أي: غُلبوا عليه، ثم وصفهم بأنَّهم أوَّلون، أي: في الذكر في هذه الآية، وذلك في قوله: ﴿ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾، ثم بعد ذلك قال: ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ يعني الآخرين اللَّذين يقومان مقام شاهدي التحريف، وقولهما: ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أي: لَمَا أخبرنا نحن به وذكرناه من نَصِّ القضية أحق مما ذكراه أوَّلا وحرَّفا فيه، ﴿وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ﴾ نحن في قولنا هذا ولا زدنا على الحدّ. وقولهما: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تبرٍّ في صيغة الاستعظام والاستقباح للظلم، والظلم وضع الشيءِ في غير موضعه.

قوله عز وجل:

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ۞ يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾.

الإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ هي إلى جميع ما حدَّ الله قبل من حبس الشاهدين من بعد الصلاة لِلْيَمين، ثم إن عُثر على جورهما رُدَّت اليمين وغُرّما، فذلك كله يقرب اعتدال هذا الصنف فيما عسى أن ينزل من النوازل، لأنهم يخافون التحليف المغلظ بعقب الصلاة، ثم يخافون الفضيحة وردَّ اليمين. هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما.

ويظهر من كلام السدي أن الإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إنما هي إلى الحبس من بعد الصلاة

---

(١) قراءَة حمزة ومعه عاصم في رواية أبي بكر رضي الله عنه: [اسْتُحق] بضم التَّاء، و[الأوَّلِين] جمع (أوَّل).

ونلاحظ أن ابن عطية قد أطال في إعراب هذه الآية، وكذلك فعل أبو حيَّان في «البحر المحيط»، وقد قال الزجاج: أصعب ما في القرآن من الإعراب قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾. وحتى في الأحكام فإن الآية تحتاج إلى إعمال فكر

ودقة نظر، وقد قال عمر رضي الله عنه: هذه الآية أعضل ما في هذه السورة من الأحكام، يريد قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾.

ومع ذلك فنحن مع صاحب المنار حين لا يوافق علماء اللغة على ما ذهبوا إليه من وجود صعوبات في الإعراب، أو معضلات في فهم الأحكام، و«القرآن فوق النحو والفقه والمذاهب كلها، فهو أصل الأصول، فما وافقه فهو مقبول، وما خالفه فهو مردود مرذول. وبالله التوفيق.

فقط، ثم يجيءُ قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ﴾ بإزاءِ ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ الآية.

وجمع الضمير في ﴿يَأْتُوا۟﴾ و﴿يَخَافُوٓا۟﴾ إذ المراد صنف ونوع من الناس، و﴿أَوْ﴾ في هذه الآية على تأويل السدي بمنزلة قولك: «تجيئُني يا زيد أَو تُسخطني»، كأَنك تريد: وإِلا أَسخطتني، فكذلك معنى الآية: ذلك أدنى أَن يأْتوا بالشهادة على وجهها وإلا خافوا ردَّ الأَيمان، وأَما على مذهب ابن عباس رضي الله عنهما فالمعنى: ذلك الحكم كله أَقرب إِلىٰ أَن يأْتوا، وأَقرب إِلى أَن يخافوا.

وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ معناه: على جهتها القويمة التي لم تبدل، ولا حُرِّفت.

ثم أَمر تعالىٰ بالتقوى التي هي الاعتصام بالله، وبالسمع لهذه الأَوامر المُنْجية، وأَخبر أَنه لا يهدي القوم الفاسقين من حيثُ هم فاسقون، وإِلا فهو تعالىٰ يهديهم إِذا تابوا، ويحتمل أن يكون لفظ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ عاماً والمراد الخصوص فيمن لا يتوب.

وقوله تعالىٰ: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ ذهب قوم من المفسرين إِلى أَن العامل في ﴿۞ يَوْمَ﴾ ماتقدم من قوله: ﴿لَا يَهْدِى﴾، وذلك ضعيف. ورصف الآية وبراعتها إِنما هو أَن يكون هذا الكلام مستأْنفاً والعامل مقدراً، إِما: اذكروا، وإِما: تذكروا، وإِما: احذروا ونحو هذا مما حسن اختصاره لعلم السامع.

والإِشارة بهذا اليوم إِلى يوم القيامة، وخصَّ الرسل بالذكر لأَنهم قادة الخَلْق، وفي ضمن جَمْعهم جمع الخلائق، وهم المكلَّمون أَولاً.

و﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ معناه: ماذا أَجابت به الأُمم من إِيمان أَو كفر وطاعة أَو عصيان؟ وهذا السؤَال للأَنبياء الرسل إِنما هو لتقوم الحجة على الأُمم. ويبتدىء حسابهم على الواضح المستبين لكل مفطور.

واختلف الناس في معنى قولهم عليهم السلام: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ ـ فقال الطبري: ذهلوا عن الجواب لهول المطلع. وذكر عن الحسن أَنه قال: لا علم لنا من هول ذلك اليوم، وعن السدي: نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول فقالوا: لا علم لنا، ثم نزلوا منزلاً آخر شهدوا على قومهم. وعن مجاهد أنه قال: يفزعون فيقولون: لا علم لنا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وضعَّف بعض الناس هذا المنزع بقوله تعالىٰ: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾[1]، والأَنبياءُ في أَشد أَهوال يوم القيامة وحالة جواز السراط يقولون: سلِّم، سلِّم، وحالهم أَعظم وفضل الله عليهم أَكثر من أَن تذهب عقولهم حتى يقولوا ما ليس بحق في نفسه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معنى الآية: لا علم لنا إِلا علماً أَنت أَعلم به منا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا حسن، كأَن المعنىٰ: لا علم لنا يكفي وينتهي إِلى الغاية.

وقال ابن جريج: معنى ﴿ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾: ماذا عملوا بعدكم؟ وماذا أَحدثوا؟ فلذلك قالوا: لا علم لنا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا معنى حسَنٌ في نفسه، ويؤيده قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾، لكن لفظة ﴿ أُجِبْتُمْ ﴾ لا تساعد قول ابن جريج إِلا على كره، وقول ابن عباس أَصوب هذه المناحي، لأَنه يتخرج على التسليم لله تعالىٰ وردّ الأَمر إِليه، إِذ قوله: ﴿ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ لا علم عندهم في جوابه إِلا بما شوفهوا به مدة حياتهم، وينقصهم ما في قلوب المشافهين من نفاقٍ ونحوه، وكذلك ينقصهم ما كان يَعْدَهم من أُمتهم، والله تعالىٰ يعلم جميع ذلك على التفصيل والكمال، فرأَوا التسليم له والخضوع لعلمه المحيط.

وقرأَ أَبو حَيْوة: [ماذا أَجَبْتُم] بفتح الهمزة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

يحتمل أَن يكون العامل في ﴿ إِذْ ﴾ فعلاً مضمراً تقديره: اذكر يا محمد إِذ جئتهم

(١) من الآية (١٠٣) من سورة (الأنبياء).

بالبينات، و﴿ قَالَ﴾ هنا بمعنىٰ: يقول، لأن ظاهر هذا القول أنه في القيامة تقدمةً لقوله: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾، وذلك كلُّه إحكام لتوبيخ الذين يتحصلون كافرين بالله في ادعائهم ألوهية عيسىٰ.

ويحتمل أن تكون ﴿ إِذْ﴾ بدلاً من قوله: ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ﴾.

ونعمةُ الله على عيسى هي بالنبوة وسائر ما ذكر وما علم مما لا تُحصى، وعددت عليه النعمة على أُمِّه إذ هي نعمة صائرة إليه وبسببه كانت.

وقرأ جمهور الناس: ﴿ أَيَّدتُّكَ﴾ بتشديد الياءِ، وقرأ مجاهد، وابن محيصن: [آيَدْتك] على وزن فاعلتك، ويظهر أَن الأَصل في القراءَتين [أَيْدْتُك] على وزن أَفعلتك ثم اختلف الإِعلال، والمعنىٰ فيهما: قَوَّيتك من الأَيْدِ، وقال عبد المطلب:

الحمـــد للهِ الأَعـــزّ الأَكْـــرَم أَيَّـدنـا يـومَ زحـوف الأَشـرم[1]

وروح القُدُس هو جبريل عليه السلام، وقوله: ﴿ فِي ٱلْمَهْدِ﴾ حال، كأَنه قال: صغيراً، ﴿ وَكَهْلًا﴾ حال أيضاً معطوفة علىٰ الأَول، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾[2] والكهولة من الأَربعين إِلى الخمسين، وقيل: هي من ثلاثة وثلاثين، و﴿ ٱلْكِتَٰبَ﴾ في هذه الآية: مصدر كتب يكتب، أَي: علمتك الخط، ويحتمل أَن يريد اسم جنس في صحف إِبراهيم وغير ذلك، ثم خص بعد ذلك التوراة والإِنجيل بالذكر تشريفاً. ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هي الفهم والإِدراك في أُمور الشرع، وقد وهب الله الأَنبياءَ منها ما هم به مختصون معصومون لا ينطقون عن هوىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ﴾ في هذه الآية حيثما تكررت فهي عطف على الأُولى التي عملت فيها ﴿ نِعْمَتِى﴾.

و﴿ تَخْلُقُ﴾ معناه: تقدر وتُهَيِّىءُ تقديراً مستويا متقناً، ومنه قول الشاعر:

وَلأَنْــتَ تَفْــري مــا خَلَقْــتَ وبَعـ ـضُ القَـوْم يَخْلُـقُ ثُـمَّ لا يفْـري[3]

---

(١) الأشرم هو أَبرهة الحبشي صاحب الفيل، وزحوف: مصدر زحف ـ يقال: زحف: زحفاً وزحوفاً وزحفاناً. فإذا استعملت في الجيش دلت على المشي إلى العدوّ في ثقل بسبب كثرة العدد.

(٢) من الآية (٢١) من سورة (يونس).

(٣) البيت لزهير بن أبي سلمىٰ المزني يمدح هرم بن سنان، والمعنىٰ: إنه إذا قدر شيئاً قطعه وأمضاه لمضاءِ عزمه وقوة إرادته. راجع ص ١٦١ من المجلد الأول.

أي: يُهَيِىءُ ويقدر ليعمل ويكمل ثم لا يفعل، ومنه قول الآخر:

مَــنْ كــانَ يخلُــقُ مــا يَقــو لُ فحيلتــي فيــه قليلــة(١)

وكان عيسىٰ عليه السلام يصور في الطين أَمثال الخفافيش ثم ينفخ فيها أَمام الناس فتحيا وتطير بإِذن الله، وقد تقدم هذا القصص في «آل عمران».

وقرأَ جمهور الناس: ﴿كَهَيْـَٔةِ﴾ بالهمز، وهو مصدر من قولهم: هاءَ الشيءُ يهاءُ إذا ثبت واستقر على أَمر حسن. وقال اللحياني: ويقال: يهيءُ. وقرأَ الزهري: [كهيَّة] بتشديد الياءِ من غير همز، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [كهَيْئَة الطائر].

والإِذن في هذه الآية كيف تكرر معناه: التمكين مع العلم بما يصنع وما يقصد من دعاءِ الناس إلى الإِيمان.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ هو النفخ المعروف من البشر، وإِنما جعل الله الأَمر هكذا ليظهر تلبُّس عيسىٰ بالمعجزة وظهورها منه، وهذا كطرح موسى عليه السلام العصا، وكإِيراد محمد ﷺ القرآن، وهذا أَحد شروط المعجزات، وقوله: ﴿فِيهَا﴾ بضمير مؤَنث مع مجيءِ ذلك في (آل عمران): ﴿فَتَنفُخُ فيه﴾ بضمير مذكر موضع قد اضطرب المفسرون فيه. قال مكي: هو في (آل عمران) عائد على الطائر وفي المائدة عائد على الهيئة. قال: ويصح عكس هذا. وقال غيره: الضمير المذكر عائد على الطين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا يصح عود هذا الضمير لا على الطيْر ولا على الطين ولا على الهيئة، لأَن الطين أَو الطائر الذي يجيءُ الطين على هيئته لا نفخ فيه البَتَّة، وكذلك لا نفخ في هيئته الخاصة بجسده وهي المذكورة في الآية، وكذلك الطين المذكور في الآية إِنما هو الطين العام، ولا نفخ في ذلك، وإِنما النفخ في الصور المخصوصة منه التي رتبتها يد عيسىٰ عليه

---

(١) أنشد المبرد هذا البيت في الكامل، ونسبه لبعض المحدثين، وقبله بيت آخر يقول:

لــي حيلَــةٌ فيمَــنْ يَنِــمْ مُ وليْــسَ فــي الكَــذَّابِ حِيلَــةْ

ونسب البيتين في (معجم الأدباء) إلى منصور بن اسماعيل الشافعي أبي الحسن التميمي الفقيه الشاعر المصري الضرير. ونمَّ بيْن القوم: حرَّش وأغرىٰ، ونمَّ الحديث: سعى به ليوقع فتنة بين الناس. راجع المجلد الأول صفحة ١٦٢.

السلام، فالوجه أَن يقال في عود الضمير المؤنث إنه عائد على ما تقتضيه الآية ضرورة، وذلك أَن قوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ يقتضي صوراً أَو أَجساماً أَو أَشكالاً، وكذلك الضمير المذكر يعود على المخلوق الذي تقتضيه ﴿تَخْلُقُ﴾. ولك أَن تعيده على ما تدل عليه الكاف من معنى المثل، لأَن المعنىٰ: وإِذ تخلق من الطين مثل هيئته. ولك أَن تعيد الضمير على الكاف نفسه فيمن يجوِّز أَن يكون اسماً في غير الشِّعر، وتكون الكاف في موضع نصف صفة للمصدر المراد، تقديره: وإِذ تخلق خلقاً من الطين كهيئة الطير.

وقرأَ عبد الله بن عباس: [كهَيْئة الطَّيْر فتنفخها فيكون]، وقرأَ الجمهور ﴿فَتَكُونُ﴾ بالتاءِ من فوق، وقرأَ عيسىٰ بن عمر: [فيها فيكون] بالياءِ من تحت، وقرأَ نافع وحده: [فتكونَ طَائِراً]، وقرأَ الباقون: ﴿طَيْرًا﴾ بغير أَلف، والقراءَتان مستفيضتان في الناس، فالطير: جمع طائر، كتاجر وتجْر، وصاحب وصحْب، وراكب وركْب. والطائر: اسم مفرد، والمعنى على قراءَة نافع: فتكون كل قطعة من تلك المخلوقات طائراً.

قال أَبو علي: ولو قال قائل: إِن الطائر قد يكون جمعاً كالحامل والباقر فيكون على هذا معنى القراءَتيْن واحداً لكان قياساً، ويقوي ذلك ما حكاه أَبو الحسن من قولهم: طائرة، فيكون من باب: شعيرة وشعير، وتمرة وتمر.

وقد تقدم القول في الأكمه والأَبرص، وفي قصص إِحيائه الموتىٰ في (آل عمران)، و﴿تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ معناه: من قبورهم، وكفُّ بني إِسرائيل عنه عليه السلام هو رفعه حين أَحاطوا به في البيت مع الحواريين، ومن أَول ما منعه الله منهم هو الكف إِلى تلك النازلة الآخرة، فهنالك ظهر عِظَم الكف، والبيِّنات: هي معجزاته وإِنجيله وجميع ما جاءَ به.

وقرأَ ابن كثير وعاصم هنا وفي (هود والصَّف): ﴿إِلَّا سِحْرٌ﴾ بغير أَلف، وقرأَ حمزة والكسائي في المواضع الأَربعة[1]: [ساحر] بأَلف، فمن قرأَ (سحراً) جعل الإِشارة إِلى البينات والحديث وما جاءَ به، ومن قرأَ (ساحراً) جعل الإِشارة إِلى الشخص إِذ هو ذو سحر عندهم، وهذا مُطَّرد في القرآن كله حيثما ورد هذا الخلاف.

---

(١) نلاحظ أن المواضع التي ذكرها ابن عطية هنا ثلاثة هي كما قال: «هنا، وفي هود والصف». الموضع الرابع هو قوله تعالىٰ في الآية (٢) من سورة (يونس): ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾. ولعله سقط من النساخ. وإِثبات الألف على إِرادة اسم الفاعل، وحذفها على إِرادة المصدر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ ﴾ هو من جملة تعديد النعمة على عيسىٰ، و﴿ أَوْحَيْتُ ﴾ في هذا الموضع إما أن يكون وحي إلهام أو وحْي أمر، كما قال الشاعر:

. . . . أَوْحَىٰ لها الْقَرار فاسْتَقَرَّتِ[1]

وبالجملة فهو إلقاءُ معنى في خفاءٍ أَوصله تعالىٰ إلى نفوسهم كيف شاءَ.

والرسول ـ في هذه الآية ـ عيسىٰ عليه السلام، وقول الحواريين: ﴿ وَاشْهَدْ ﴾ يحتمل أَن يكون مخاطبة منهم لله تعالىٰ، ويحتمل أَن يكون لعيسىٰ عليه السلام، وقد تقدم تفسير لفظة ﴿ الْحَوَارِيِّينَ ﴾ في آل عمران.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ الآية، اعتراض أَثناءَ وصف حال قول الله لعيسىٰ يوم القيامة، مضمن الاعتراض إِخبار محمد عليه الصلاة والسلام وأُمته بنازلة الحواريين في المائدة، إِذ هي مثال نافع لكل أُمة مع نبيِّها يقتدى بمحاسنه ويزدجر عما ينقد منه من طلب الآيات ونحوه.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ بالياءِ ورفع الباءِ من ﴿ رَبُّكَ ﴾، وهي قراءَة السبعة حاشا الكسائي، وهذا ليس لأَنهم شكوا في قدرة الله على هذا الأمر، لكنه بمعنىٰ: هل يفعل تعالى هذا؟ وهل تقع منه إِجابة له؟ وهذا كما قال لعبد الله بن زيد:

---

(١) هكذا في الأصول (أوحىٰ). والبيت للعجاج، وتمامه كما رواه القرطبي:

بإِذنه الأرض وما تعنَّتِ ... وَحَىٰ لها القرارَ فاسْتَقَرَّت

ورواه في اللسان:

وَحَى لها القرارَ فاستَقَرَّتِ ... وشَدَّها بالرَّاسياتِ الثُّبتِ

ورواهُ الألوسي هكذا:

الحمْدُ للهِ الَّذي اسْتَقَلَّتِ ... بإِذْنِهِ السَّمَاءُ واطْمَأَنَّتِ

أَوْحَى لَهَا الْقَرَارَ فاسْتَقَرَّتِ

هل تستطيع أَن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فالمعنىٰ: هل يخف عليك؟ وهل تفعله؟ أَما إِن في اللفظة بشاعة بسببها قال عيسىٰ: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، وبسببها مال فريق من الصحابة وغيرهم إِلى غير هذه القراءَة، فقرأَ علي بن أَبي طالب، ومعاذ بن جبل، وابن عباس، وعائشة، وسعيد بن جبير رضي الله عنهم أَجمعين: [هل تَستطيع ربَّك] بالتاءِ ونصب الباءِ من [ربّك]، والمعنى: هل تستطيع أَن تسأَل ربَّك؟ قالت عائشة رضي الله عنها: كان الحواريون أَعرف بالله من أَن يقولوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

نزَّهتهم عائشة رضي الله عنها عن بشاعة اللفظ، وإِلا فليس يلزمهم منه جهل بالله تعالىٰ على ما قد تبيَّن آنفاً، وبمثل هذه القراءَة قرأَ الكسائي وزاد أَنه أَدغم اللام في التاءِ، قال أَبو علي: وذلك حسن، و﴿ أَن﴾ في قوله: ﴿ أَن يُنَزِّلَ﴾ على هذه القراءَة متعلقة بالمصدر المحذوف الذي هو: سؤال، و﴿ أَن﴾ مفعول به، إِذ هو في حكم المذكور في اللفظ وإِن كان محذوفاً منه إذ لا يتم المعنىٰ إلا به.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد يمكن أَن يستغنىٰ عن تقدير (سؤال) على أَن يكون المعنىٰ: هل تستطيع أَن ينزل ربك بدعائك أَو بأَثرتك عنده ونحو هذا؟ فيردُّك المعنى ولا بد إِلى مقدر يدل عليه ما ذكر من اللفظ.

والمائدة فاعلة من (مادَ) إِذا تَحرَّك، هذا قول الزجاج، أَو من (مادَ) إِذا مارَ وأَطعم كما قال رؤْبة:

تُهْـدَىٰ رُؤُسُ الْمُتْـرَفِيـن ٱلأَنْـداد ... إِلـى أَميـر الْمُـؤْمنيـنَ الْمُمْتـاد[2]

أَي الذي يُستطعم ويُمتاد منه.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه ـ عن عائشة رضي الله عنها. (فتح القدير).

(٢) على أن يكون (الممتاد) مُفْتَعل معناه ـ كما وضح ابن عطية ـ المتفضل على الناس، وهو المستَعْطي المسؤول، أما (مائدة) على فاعلة فهي في المعنى مفعولة، وهي مثل: عيشة راضِية، بمعنىٰ مرضية، وقد قال الفارسي: «لا تسمى مائدة حتى يكون عليها طعامٌ وإلا فهي خوان». عن (اللسان).

وقول عيسىٰ عليه السلام: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تقريرٌ لهم، كما تقول: افعل كذا وكذا إن كنت رجلاً، ولا خلاف أَحفظه في أَن الحواريين كانوا مؤمنين، وهذا هو ظاهر الآية.

وقال قوم: قال الحواريون هذه المقالة في صدر الأَمر قبل علمهم بأَنه يُبرىءُ الأَكمه والأَبرص ويُحيي الموتىٰ.

ويظهر من قوله عليه السلام: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ إنكار لقولهم ذلك وذلك على قراءَة من قرأَ: ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ بالياءِ من أَسفل متوجه علىٰ أَمرين: أَحدهما بشاعة اللفظ، والآخر إنكار طلب الآيات والتعرض إلىٰ سخط الله بها، والنبوات ليست مبنية علىٰ أَن تتعنت، وأَما على القراءة الأُخرىٰ فلم ينكر عليهم إلا الاقتراح وقلة طمأْنينتهم إلىٰ ما قد ظهر من آياته، فلما خاطبهم عليه السلام بهذه المقالة صرحوا بالمذاهب التي حملتهم على طلب المائدة فقالوا: نريد أَن نأْكل منها فنشْرُف على العالم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لأَن هذا الأَكل ليس الغرض منه شبع البطن.

﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ معناه: يسكن فكرنا في أَمرك بالمعاينة لأَمر نازل من السماءِ بأَعْيُننا، ﴿وَنَعْلَمَ﴾ على علم الضرورة والمشاهدة أَن قد صدقتنا فلا تعترضنا الشُّبَه التي تعرض في علم الاستدلال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبهذا يترجح قول من قال: كان هذا قبل علمهم بآياته. ويدل أَيضاً على ذلك أَن وحي الله إِليهم ﴿أَنْ ءَامِنُواْ﴾ إنما كان في صدر الأَمر وعند ذلك قالوا هذه المقالة ثم آمنوا ورأَوا الآيات واستمروا وصدوا، وهلك من كفر. وقرأَ سعيد بن جبير: [ويُعلم] بالياءِ مضمومة على ما لم يُسَمَّ فاعله.

وقوله: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ معناه: من الشاهدين بهذه الآية، الناقلين لها إلى غيرنا، الداعين إلى هذا الشرع بسببها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وروي أَن الذي نحا بهم هذا المنحىٰ من الاقتراح هو أَن عيسىٰ عليه السلام قال لهم

مرة: هل لكم في صيام ثلاثين يوماً لله، ثم إن سألتموه حاجة قضاها؟ فلما صاموا قالوا: يامعلم الخير، إن حق من عمل عملاً أن يطعم، فهل يستطيع ربك؟ فأرادوا أن تكون المائدة عيد ذلك الصوم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

ذكر الله تعالىٰ عن عيسىٰ أنه أجابهم إلى دعاءِ الله في أمر المائدة، فروي أنه لبس جبة شعر ورداءَ شعر وقام يصلي ويبكي ويدعو.

و﴿ٱللَّهُمَّ﴾ عند سيبويه أصلها: يا الله، فجعلت الميمان بدلاً من (يا) و﴿رَبَّنَآ﴾ منادى آخر، ولا يكون صفة لأن (اللَّهم) يجري مجرى الأصوات من أجل ما لحقه من التغيير.

وقرأ الجمهور: ﴿تَكُونُ لَنَا﴾ على الصفة للمائدة، وقرأ ابن مسعود والأعمش: [تَكُنْ لَنَا] على جواب ﴿أَنزِلْ﴾.

والعيد: المجتمع واليوم المشهود، وعرفه أن يقال فيما يستدير بالسنة أو بالشهر والجمعة ونحوه، وهو من: عاد يعود، فأصله الواو، ولكن لزمته الياءُ من أجل كسرة العين[(١)].

وقرأ جمهور الناس: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾، وقرأ زيد بن ثابت، وابن محيصن والجحدري: [لِأُولانا وأُخرَانا][(٢)]. واختلف المتأولون في معنى ذلك ـ فقال السدي، وقتادة، وابن جريج، وسفيان: ﴿لِّأَوَّلِنَا﴾ معناه: لأوَّل الأمة ثم لمن بعدهم حتىٰ لآخرها يتخذون ذلك اليوم عيداً، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المعنىٰ:

---

(١) وهذا كما في الميزان والميقات والميعاد. وقد قيل: إن العيد واحد الأعياد، وقد جمع بالياء وأصله الواو للزومها في الواحد، وقيل: للفرق بينه وبين أعواد الخشب.
وسمي يوم الفطر ويوم النحر عيداً لأنه يعود كل سنة. وقيل: سمي بذلك لأنه يوم شريف تشبيها بالْعِيد، وهو فحْلٍ كريم مشهور عند العرب وينسبون إليه فيقال: إبلٌ عِيديَّة، قال رذاذ الكلبيّ:
ظلَّت تجوبُ بها البلدانَ ناجيةٌ … عِيديَّةٌ أُرْهِنَتْ فيها الدَّنانيرُ
(٢) قال صاحب «البحر المحيط»: أنَّثوا على معنى الأمة والجماعة.

يكون مجتمعاً لجميعنا أَوَّلنا وآخرنا، قال: وأَكل من المائدة حين وضعت أَوّل الناس كما أَكل آخرهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالعيد ـ على هذا ـ لا يراد به المستدير.

وقوله: ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ أَي: علامة على صدقي وتشريفي، فأَجاب الله دعوة عيسىٰ وقال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ثم شرط عليهم شرطه المتعارف في الأُمم أَنه من كفر بعد آية الاقتراح عُذِّب أَشد عذاب.

وقرأَ نافع، وابن عامر، وعاصم: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ بفتح النون وشد الزَّاي، وقرأَ الباقون: [مُنْزِلها] بسكون النون، والقراءَتان متجهتان، نزَّل وأَنْزَل بمعنىً واحد، وقرأَ الأَعمش، وطلحة بن مصرف: [قال اللهُ إني سَأُنْزِلُها عَلَيْكُم].

واختلف الناس في نزول المائدة ـ فقال الحسن بن أَبي الحسن، ومجاهد: إِنهم لما سمعوا الشرط في تعذيب من كفر استعفوها فلم تنزل، قال مجاهد: فهو مثل ضربه الله تعالى للناس لئلا يسأَلوا هذه الآيات. وقال جمهور المفسرين: نزلت المائدة، ثم اختلفت الروايات في كيفية ذلك ـ فروى الشعبي عن أَبي عبد الرحمن السُّلَمي قال: نزلت المائدة خبزاً وسمكاً، وقال عطية: المائدة سمكة فيها طعم كل طعام، قال ابن عباس: نزل خوان عليه خبز وسمك يأْكلون منه أَينما نزلوا إِذا شاءُوا، وقاله وهب بن منبه. قال إِسحق بن عبد الله: نزلت المائدة عليها سبعة أَرغفة وسبعة أَحوات، قال: فسرق منها بعضهم فرفعت. وقال عمار بن ياسر: سأَلوا عيسىٰ عليه السلام مائدة يكون عليها طعام لا ينفد، فقيل لهم: فإِنها مقيمة لكم ما لم تخبئوا أَو تخونوا فإِن فعلتم عذبتم، قال: فما مضى يوم حتى خبؤُوا وخانوا فمسخوا قردة وخنازير، وقال ابن عباس في المائدة أَيضاً: كان طعام ينزل عليهم حيثما نزلوا، وقال عمار بن ياسر: نزلت المائدة عليها ثمار من ثمار الجنة. وقال ميسرة: كانت المائدة إِذا وضعت لبني إِسرائيل اختلفت عليها الأَيدي بكل طعام إِلا اللحم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكثَّر الناس في قصص هذه المائدة بما رأَيت اختصاره لعدم سنده، وقال قوم: لا يصح أَلا تنزل المائدة لأَن الله تعالىٰ أَخبر أَنه منزلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا غير لازم لأن الخبر مقرون بشرط يتضمنه قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾، وسائغ ما قال الحسن[1]، أما إن الجمهور على أنها نزلت وكفرت جماعةمنهم فمسخهم الله خنازير، قاله قتادة وغيره، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أشد الناس عذاباً يوم القيامة مَن كفر مِن أصحاب المائدة، والمنافقون، وآل فرعون، ويذكر أن شمعون رأس الحواريين قال لعيسىٰ عليه السلام حين رأى طعام المائدة: ياروح الله، أمن طعام الدنيا هو أم من طعام الآخرة؟ قال عيسىٰ عليه السلام: ألم ينهكم الله عن هذه السؤالات؟ هذا طعام ليس من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة، بل هو بالقدرة الغالبة، قال الله له: كن فكان، وروي أنه كان على المائدة بقول سوى الثوم والكرات والبصل، وقيل: كان عليها زيتون وتمر وحب ورمان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾.

اختلف المفسرون في وقت وقوع هذا القول ـ فقال السدي وغيره: لمَّا رفع الله عيسىٰ عليه السلام إليه قالت النصارىٰ ما قالت، وزعموا أن عيسىٰ أمرهم بذلك، فسأله تعالىٰ حينئذ عن قولهم فقال: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فيجيءُ ﴿قَالَ﴾ على هذا متمكنة في المضي، ويجيءُ قوله آخراً: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي بالتوبة من الكفر، لأن هذا قاله عيسىٰ عيه السلام وهم أحياءٌ في الدنيا.

وقال ابن عباس، وقتادة، وجمهور الناس: هذا القول من الله إنما هو في القيامة،

---

(١) قد يقال إن رأي الجمهور أرجح، وما ذكره ابن عطية من أن الخبر مقرون بشرط ليس بلازم، فإنما هو في الحقيقة حكم متفرع عما بعد الإنزال، أو مترتب عليه، والله قد وعَد، والله لا يخلف وعده.

يقوله الله له على رؤوس الخلائق، فيرى الكفار تَبَرِّيه منهم، ويعلمون أَن ما كانوا فيه باطل[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

و﴿ قَالَ ﴾ ـ على هذا التأويل ـ بمعنىٰ: يقول. ونزول الماضي موضع المستقبل دلالة على كون الأَمر وثبوته، وقوله آخراً: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ معناه: إِن عذبت العالم كله فبحقك، وإِن غفرت وسبق ذلك في علمك فلأَنك أَهل لذلك، لا معقب لحكمك ولا منازع لك. وليس المعنىٰ أَنه لابد من أَن تفعل أَحد هذَين الأَمرين، بل قال هذا القول مع علمه بأَن الله لا يغفر أَن يشرك به، وفائدة هذا التوقيف على قول من قال إِنه في يوم القيامة ظهور الذنب على الكفرة في عبادة عيسىٰ، وهو توقيف لهُ يتبيَّن منه بيان ضلال الضالين.

و﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ معناه: تنزيهاً لك على أَن يقال هذا وينطق به.

وقوله: ﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ ﴾ الآية نفيٌ يعضده دليل العقل، فهذا ممتنع عقلاً أَن يكون لبشر محدث أَن يدعي الأُلوهية، وقد تجيءُ هذه الصيغة فيما لا ينبغي ولا يحسن مع إِمكانه، ومنه قول الصديق رضي الله عنه: «ما كان لابن أَبي قحافة أَن يصلي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم». ثم قال: ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ فوفق الله عيسىٰ عليه السلام لهذه الحجة البالغة. وقوله: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى ﴾ بإِحاطة الله به، وخص النفس بالذكر لأَنها مظنة الكتم والانطواءِ على المعلومات، والمعنى: إِن الله يعلم ما في نفس عيسىٰ ويعلم كلَّ أَمره مِمَّا عسى أَلا يكون في نفسه، وقوله: ﴿ وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ معناه: ولا أَعلم ما عندك من المعلومات وما أَحطت به. وذكر النفس هنا مقابلة لفظية في اللسان العربي يقتضيها الإِيجاز، وهذا ينظر من طرف خفي إِلى قوله:

---

(١) قال القرطبي: «وهذا القول أصح، ويدل عليه ما قبله من قوله: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ ﴾ وما بعده ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾»، وعلى هذا تكون (إذ) في قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ ﴾ بمعنى (إذا) كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ ﴾، وكما في في قول أبي النجم:

ثُـمَّ جـزَاهُ اللهُ عَنـي إذْ جَـزَى   جَنَّـاتِ عَـدْنٍ فـي السَّمـواتِ العُـلا

يعني: إذا جزى. وقال أبو عبيدة: إذ زائدة، وقال صاحب «البحر»: والظاهر أنها على أصل وضعها، وأن ما بعدها من الفعل الماضي قد وقع، ولا يؤول بيقول.

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾(١)، ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾(٢)، فتسمية العقوبة باسم الذنب إنما قاد إليها طلب المقابلة اللفظية، إذ هي من فصيح الكلام وبارع العبارة، ثم أقر عليه السلام لله تعالىٰ بأنه علام الغيوب، والمعنىٰ: ولا علم لي أنا بغيب فكيف تكون لي الألوهية؟ ثم أخبر عما صنع في الدنيا وقال في تبليغه، وهو أنه لم يتعَدَّ أمر الله في أن أمرهم بعبادته وأقرَّ بربوبيته، و﴿أَنِ﴾ في قوله: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ مفسرة لا موضع لها من الإعراب(٣)، ويصح أن تكون بدلا من ﴿ مَا ﴾(٤)، ويصح أن تكون في موضع خفض على تقدير: بأن اعبدوا الله، ويصح أن تكون بدلاً من الضمير في ﴿ بِهِۦ ﴾.

ثم أخبر عليه السلام أنه كان شهيداً ما دام فيهم في الدنيا. فـ ﴿ مَّا ﴾ ظرفية.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ أي: قبضتني إليك بالرفع والتصيير في السماء(٥)، والرقيب: الحافظ المراعي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

هذه الآية ـ على قول من قال: «إن توقيف عيسىٰ عليه السلام كان إثر رفعه» ـ مستقيمة المعنىٰ، لأنه قال عنهم هذه المقالة وهم أحياءٌ في الدنيا وهو لا يدري على ما يوافون.

وهي ـ على قول من قال: «إن التوقيف هو يوم القيامة» ـ بمعنىٰ: إن سبقت لهم كلمة العذاب كما سبقت فهم عبادك تصنع بحق المِلك ما شئت لا اعتراض عليك، ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ بتوبة كما غفرت لغيرهم فإنك أنت العزيز في قدرتك، الحكيم في

---

(١) من الآية (٥٤) من سورة (آل عمران).

(٢) من الآية (١٥) من سورة (البقرة).

(٣) وهي في هذا مثلها في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ ﴾.

(٤) في قوله تعالىٰ قبل ذلك: ﴿ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦ ﴾، أي: ما قلت لهم إلا الذي أمرتني به وهو أن اعبدوا. . . الخ.

(٥) قال الحسن: الوفاة في كتاب الله عزَّ وجلَّ على ثلاثة أوجه: وفاة الموت، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ يعني وقت انقضاء أجلها. ووفاة النوم، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ يعني: الذي ينيمكم، ووفاة الرفع، قال الله تعالىٰ: ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾.

أَفعالك، لا تُعارض على حال، فكأَنه قال: إِن يكن لك في الناس معذبون فهم عبادك، وإِنْ يكن مغفور لهم فعزتك وحكمتك تقتضي هذا كله.

وهذا عندي هو القول الأَرجح[1] ويتقوى بما بعده، وذلك أَن عيسىٰ عليه السلام لما قرر أَن الله تعالىٰ له أَن يفعل في عباده ما يشاءُ من تعذيب ومغفرة أَظهر الله لعباده ما كانت الأَنبياءُ تخبرهم به كأَنه يقول: هذا أَمْرٌ قد فرغ منه، وقد خلص للرحمة من خلص، وللعذاب من خلص، فقال تبارك وتعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ فدخل تحت هذه العبارة كل مؤمن بالله تعالىٰ، وكل ما كان[2] أَتقى فهو أَدخل في العبارة، ثم جاءَت هذه العبارة مشيرة إِلى عيسىٰ في حاله تلك وصدقه فيما قال فحصل له بذلك في الموقف شرف عظيم وإِن كان اللفظ يعمه وسواه، وذكر تعالىٰ ما أَعد لهم برحمته وطوله إِلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وقرأَ نافع وحده: [هذا يَوْمَ] بنصب [يومَ]، وقرأَ الباقون بالرفع على خبر المبتدأ الذي هو ﴿هَٰذَا﴾ و﴿يَوْمُ﴾ مضاف إِلى ﴿يَنفَعُ﴾، والمبتدأ والخبر في موضع نصب بأَنه مفعول القول، إِذ القول يعمل في الجمل، وأَما قراءَة نافع فتحتمل وجهين: أَحدهما أَن يكون ﴿يومَ﴾ ظرفاً للقول، كأَن التقدير: قال الله هذا القصص أَو الخبر يومَ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي معنى يزيل رصف الآية وبهاءَ اللفظ.

والمعنىٰ الثاني أَن يكون ما بعد ﴿قَالَ﴾ حكاية عما قبلها من قوله لعيسى إِشارة إِليه، وخبر ﴿هَٰذَا﴾ محذوف إِيجازاً، وكأَن التقدير: قال الله هذا المقتص يقع أَو يحدث يومَ ينفع الصادقين.

---

(١) روى الإمام أحمد عن جسرة العامرية عن أبي ذر رضي الله عنه قال: صلى النبي ﷺ ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فلما أصبح قلت: يا رسول الله، مازلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال: «إِنِّي سأَلتُ ربِّي عز وجلَّ الشَّفاعةَ لأُمَّتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً». أ هـ. ورواه النسائي عن أبي ذر أيضاً.

(٢) الظاهر أنه أراد أن يقول: «وكل من كان»، ولكنه استعمل (ما) مكان (من) توسعاً، ويمكن أن تكون ما ظرفاً منصوباً لكن هذا يقتضي أن تكتب هكذا «وكلما كان أتقىٰ» أي المؤمن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والخطاب ـ على هذا ـ لمحمد عليه الصلاة والسلام وأُمته، وهذا أَشبه من الذي قبله، والبارع المتوجه قراءَة الجماعة.

قال أَبو علي: ولا يجوز أَن تكون ﴿يومَ﴾ في موضع رفع على قراءَة نافع لأَن هذا الفعل الذي أُضيف إِليه معرب، وإِنما يكتسي البناءَ من المضاف إِليه إِذا كان المضاف إِليه مبنياً نحو: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾[١]، ولا يشبه قول الشاعر[٢]:

عَلَى حينَ عاتَبْتُ الْمَشيبَ عَلَى الصِّبا وقلْتُ: أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازِع؟[٣]

لأَن الماضي الذي في البيت مبني، والمضارع الذي في الآية معرب.

وقرأ الحسن بن العباس الشامي: [هَذَا يَوْمٌ] بالرفع والتنوين.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ﴾ الآية ـ يحتمل أن يكون مما يقال يوم القيامة، ويحتمل أَنه مقطوع من ذلك مخاطب به محمد ﷺ وأُمته. وعلى الوجهين ففيه عضد ما قال عيسىٰ: «إِن تعذب الناس فإِنهم عبادك» على ما تقدم من تأْويل الجمهور.

كمل تفسير سورة المائدة

والله المستعان وهو حسبي ونعم الوكيل

---

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (١١) من سورة (المعارج): ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ والشاهد فيها أن (يوم) أُضيف إِلى مبني.

(٢) هو النابغة. وقبله يقول:

فَكَفْكَفْتُ مِنِّي عَبْرَةً فَرَدَدْتُهَا عَلَى النَّحْرِ مِنْهَا مُسْتَهِلٌّ ودامِعُ

(٣) أنشد هذا البيت الكسائي والشاهد فيه إِضافة (حين) إِلى الفعل وبنائها معه على الفتح. ومعنى (وازع) كافٌّ وزاجرٌ عن الوقوع في الأَخطاءِ و(على) بمعنى (في).

والقضية في إِعراب ﴿يومَ﴾ في قراءة نافع بالنصب أَن الكوفيينَ يقولون: هو مبني على الفتح في محل رفع خبر لـ ﴿هَٰذَا﴾ ـ وبني لإِضافته إِلى الجملة الفعلية، وهم لا يشترطون كون الفعل مبنياً في بناء الظرف المضاف إِلى الجملة. أما البصريون فيقولون: لا يجوز ذلك إِلا إِذا كان الفعل المضاف إِليه فعلاً ماضياً كما في بيت النابغة، أما إِذا كان فعلاً مضارعاً فلا يجوز لأَنه معرب. وفي التفاسير المختلفة تخريجات كثيرة لهذه القراءة.

وهذا خلاف نحوي لا يجوز أن نحكم به على القرآن فنقوي قراءة ونضعف أُخرى تبعاً لآراء النحويين، إِنما نأخذ القراءة الصحيحة الثابتة على أنها أساسٌ يُعتمد عليه ولا يحتاج إِلى تعليل نحوي يقويه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سُورَة الأنعَام

قيل: هي كلها مكية، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت بمكة ليلاً جملةً إلا ست آيات وهي: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾(١).

وقال الكلبي: الأنعام كلها مكية إلا آيتينْ نزلتا بالمدينة في فنحاص اليهودي، وهي(٢): ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ مع ما يرتبط بهذه الآية، وذلك أن فنحاصاً قال: «ما أَنزل الله على بشر من شيءٍ».

وقال ابن عباس: نزلت سورة الأنعام وحولها سبعون ألف ملك لهم زَجَل(٣) يَجْأَرون بالتسبيح.

وقال كعب: فاتحة التوراة فاتحة الأنعام ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى ﴿يَعْدِلُونَ﴾، وخاتمة التوراة خاتمة هود ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وقيل خاتمتها ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ﴾ إلى ﴿تَكْبِيرًا﴾(٤).

---

(١) أرقام هذه الآيات من هذه السورة هي على الترتيب المذكور كما يأتي: (١٥١) و (٩١) و(٩٣) و(٩٣) و(١١٤) و(٢٠) ـ ونلحظ أن قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ من آية واحدة هي الآية رقم (٩٣) من السورة ومع ذلك فإن الخبر المروي عن ابن عباس يعدُّ كلا منهما آية.

(٢) هكذا في جميع النسخ التي بين أيدينا. ولم يذكر الثانية لأنها مرتبطة بها.

(٣) زَجَل: صوتٌ رفيع عال. والخبر أخرجه أبو عبيد، وابن الضريس في فضائلهما، والطبراني، وابن مردويه، (الدر المنثور ٢ ـ ٢١٤).

(٤) وهي خاتمة سورة (الإسراء).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الأَنعام من نجائب القرآن(١).

وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: من قرأَ سورة الأَنعام فقد انتهى في رضى ربه(٢).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾.

هذا تصريح بأَن الله تعالىٰ هو الذي يستحق الحمد بأَجمعه، لأَن الأَلف واللام في [الْحَمْد] لاستغراق الجنس، فهو تعالىٰ له الأَوصاف السنية، والعلم والقدرة والإِحاطة والإِنعام، فهو أهل للمحامد على ضروبها، وله الحمد الذي يستغرق الشكر المختص بأَنه على النعم.

ولما ورد هذا الإِخبار تبعه ذكر أَوصافه الموجبة للحمد وهي الخلق للسموات والأَرض قوام الناس وأَرزاقهم. و[الأَرض] هنا للجنس، فإِفرادها في اللفظ بمنزلة جمعها.

والبادي من هذا الترتيب أَن السماءَ خلقت من قَبْل الأَرض، وقد حكاه الطبري عن قتادة، وليس كذلك لأَن الواو لا ترتب المعاني، والذي ينبني من مجموع آي القرآن أَن الله تعالىٰ خلق الأَرض ولم يَدْحُها، ثم استوى إِلى السماءِ فخلقها، ثم دحا الأَرض بعد ذلك.

و﴿وَجَعَلَ﴾ ها هنا بمعنى خَلَق، لا يجوز غير ذلك، وتأَمل لِمَ خصت السموات والأَرض بـ ﴿خَلَقَ﴾ والظلمات والنور بـ ﴿وَجَعَلَ﴾(٣)؟ وقال القرطبي: ﴿وَجَعَلَ﴾ هذه

---

(١) نجائب القرآن ونواجبه: أَفاضل سوره. عن «النهاية» لابن الأثير.

(٢) قال القرطبي: «قال العلماءُ: هذه السورة أَصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور، وهذا يقتضي إِنزالها جملة واحدة، لأَنها في معنى واحد في الحجة وإِن تصرف ذلك بوجوه كثيرة، وعليها بنى المتكلمون أُصول الدين لأَن فيها آيات بينات تردّ على القدرية».

(٣) وضح ذلك الزمخشري فقال: «والفرق بين الخَلْق والجَعْل» أَن الخَلْق فيه معنى التقدير، وفي الجَعْل معنى التَّصْيير كإِنشاء شيءٍ أَو تصيير شيءٍ، أَو نقله من مكان إِلى مكان، ومن ذلك: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ لأَن الظلمات من الأَجرام المتكاثفة، والنور من النار [وجعلناكم =

هي التي تتصرف في طرق الكلام كما تقول: جعَلْتُ أَفعل كذا، فكأَنه قال: وجعل إظلامها وإنارتها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا غير جيّد لأَن (جَعَل) إذا كانت على هذا النحو فلا بد أَن يرتبط معها فعل آخر كما يرتبط في أَفعال المقاربة، كقولك: «كاد زيد يموت» «وجعل زيد يجيءُ ويذهب»، وأَما إذا لم يرتبط معها فعلٌ لا يصح أَن تكون تلك التي ذكر الطبري[(١)].

وقال السدي، وقتادة، والجمهور من المفسرين: الظلمات: الليل، والنور: النهار. وقالت فرقة: الظلمات: الكفر، والنور: الإِيمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا غير جيد لأَنه إخراج لفظ بيِّن في اللغة عن ظاهره الحقيقي إلى باطن لغير ضرورة، وهذا هو طريق اللغز الذي بريء القرآن منه، والنور أيضاً هنا للجنس فإفراده بمثابة جمعه[(٢)].

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ﴾ دالة على قبح فعل الذين كفروا، لأَن المعنى أَن خلقه

= أزواجاً] ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾. أ هـ. وقال القرطبي: «الخَلْق يكون بمعنى الاختراع وبمعنى التقدير، وكلاهما مراد هنا، وذلك دليلٌ على حدوثهما»، ثم قال: «وذكر بعد خلق الجواهر خلق الأعراض»، وكأنه يوحي بأن التعبير عن خلق الجواهر يكون بالفعل (خَلَق)، وأن التعبير عن خلْق الأعراض يكون بالفعل (جَعَل)، وإن كان لم يصرح بذلك.

(١) معنىٰ ذلك أن (جَعَل) التي ذكرها الطبري من أفعال المقاربة التي تدخل على المبتدأ والخبر، وأَما (جَعَلَ) التي في الآية فإنَّها تعدَّت إلى مفعول واحد، فهما متباينتان في المعنى والاستعمال. وقد قال الزمخشري: «جَعَلَ يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأَنشأ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، وإلى مفعولَيْن إذا كان بمعنى صيَّر كقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾» ـ وقد تعقبه أبو حيَّان صاحب «البحر المحيط» في تمثيله لهذه الأخيرة فقال: «وما ذكره من أَن (جَعَلَ) بمعنىٰ صَيَّر في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ لا يصح، لأنهم لم يُصَيِّروهم إناثاً، وإنما قال بعض النحويين: إنها بمعنى سَمَّىٰ». أ هـ. وحكى الثعلبي أن بعض أهل المعاني قال: (جَعَلَ) هنا زائدة، والعرب تزيدها في الكلام.

(٢) وهذا كقوله سابقاً: «والأرض هنا للجنس.. الخ» ـ ومثل ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ وقول الشاعر:

كُلُوا فـي بَعْـضِ بَطْنِكُـمْ تَعِفُّـوا ... فـإِنَّ زمـانَكُـمْ زَمَـنٌ خميـصُ

أي: ذو مخمصة وجدب.

السموات والأرض وغيرهما قد تقرر، وآياته قد سطعت، وإنعامه بذلك قد تبيَّن، ثم بعد هذا كله عدلوا بربهم، فهذا ما تقول: يا فلان، أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك ثم تشتمني؟ أي: بعد مهلة من وقوع هذا كله، ولو وقع العطف في هذا ونحوه بالواو لم يلزم التوبيخ كلزومه بـ (ثُمَّ).

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في هذا الموضع هم كل من عبد شيئاً سوى الله، قال قتادة: هم أهل الشرك خاصة، ومن خصص من المفسرين في ذلك بعضاً دون بعض فلم يصب، إلا أن السابق من حال النبي ﷺ أن الإشارة إلى عبدة الأوثان لمجاورتهم له، ولفظ الآية أيضاً يشير إلى المانوية[1] ويقال: المانَنِيَّة، العابدين للنور، القائلين: إن الخير من فعل النور، وإن الشر من فعل الظلام، وقول ابن أبزي: «إن المراد أهل الكتاب» بعيد.

و﴿يَعۡدِلُونَ﴾ معناه: يسوون ويمثلون، وعدل الشيء قرينه ومثيله، والمانوية مجوس، وورد في مصنف أبي داود حديث وهو: (القدرية مجوس هذه الأُمة)[2]، ومعناه الإغلاظ عليهم والذم لهم في تشبيههم بالمجوس، وموضع الشبه هو أن المجوس تقول: الأفعال خيْرها خلْق النور، وشرُّها خلْق الظلمة، فجعلوا خالقاً غير الله، والقدرية تقول: الإنسان يخلق أفعاله، فجعلوا خالقاً غير الله تعالىٰ عن قولهم، وذهب أبو المعالي إلى أن التشبيه بالمجوس إنما هو لقول القدرية: إن الخير من الله، وإن الشر ليس منه ولا يريده، وإنما قلنا في الحديث: «إنه تغليظ» لأنه قد صرَّح أنهم من الأُمة، ولو جعلهم مجوساً حقيقة لم يضفهم إلى الأُمة، وهذا كله إن لو صح الحديث، والله الموفق.

---

(١) مذهب ينسب إلى رجل اسمه (ماني) ولد في ولاية مسين ببابل عام ٢١٥ أو ٢١٦ بعد ميلاد المسيح، وقد أخذ عن النصرانية عقيدة التثليث، وعن الزرادشتية فكرة الأصلَيْن: النور والظلمة، وكان يعتقد بتناسخ الأرواح، وللمانوية تنظيم دقيق، وهيكل جماعتهم يقوم على خمس طبقات متسلسلة أهمها: أبناء العلْم، وأبناء العقل، وأبناءُ الفطنة، وآخر الطبقات: «السماعون» وهم سواد الناس، وقد لقي ماني مصرعه على يد بهرام ـ ارجع إلى كتاب «مروج الذهب للمسعودي» ١ ـ ٢٥١ وكتاب: «إيران في عهد الساسانيين» لكريستنسن ص ١٧١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، والحاكم في مستدركه ـ عن ابن عمر، وهو بتمامه: (القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم) ـ قال عنه السيوطي في الجامع الصغير: «حديث صحيح». وإنما هو ضعيف لانقطاعه بين أبي حازم وابن عمر.

وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ الآية، قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: المعنىٰ: خلق آدم من طين، والبشر من آدم فلذلك قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾. وحكى المهدوي عن فرقة أنها قالت: بل المعنى أَن النطفة التي يخلق منها الإنسان أَصلها من طين ثم يقلبها الله نطفة، وذكره مكي والزهراوي. والقول الأَول أَليق بالشريعة، لأَن القول الثاني إنما يترتب على قول من يقول بأَن الطين يرجع بعد التولد والاستحالات الكثيرة نطفة، وذلك مردود عند الأُصوليين.

واختلف المفسرون في هذين الأَجلين ـ فقال الحسن بن أَبي الحسن، وقتادة، والضحاك: ﴿أَجَلًا﴾ أَجل الإنسان من لدن ولادته إلى موته، و(الأَجل المسمى عنده) من وقت موته إلى حشره، ووصفه بـ (مُسَمًّى) عنده لأَنه استأْثر بعلم وقت القيامة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَجَلًا﴾ الدنيا و﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ الآخرة. وقال مجاهد: ﴿أَجَلًا﴾ الآخرة، و﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ الدنيا، بعكس الذي قبله، وقال ابن عباس أيضاً: ﴿أَجَلًا﴾ وفاة الإنسان بالنوم، و﴿أَجَلٌ مُسَمّى﴾ وفاته بالموت. وقال ابن زيد: الأَجل الأَول هو في وقت أَخذ الميثاق على بني آدم حين استخرجهم من ظهرْ آدم، وبقي أَجل واحد مسمىٰ في هذه الحياة الدنيا. وحكى المهدوي عن فرقة: ﴿أَجَلًا﴾ ما عرف الناس من آجال الأَهلة والسنين والكوائن، و﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قيام الساعة، وحكى أَيضاً عن فرقة: ﴿أَجَلًا﴾ مسمىٰ[1]: ما عرفناه من أَنه لا نبي بعد محمد ﷺ، و﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ الآخرة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وينبغي أَن تتأَمل لفظة ﴿قَضَىٰٓ﴾ في هذه الآية فإنها تحتمل معنَيَيْن، فإن جعلت بمعنىٰ: قدَّر وكتب، ورجعت إلى سابق علمه وقدره فنقول: إن ذلك ولابد قبل خلقه آدم من طين، وتخرج ﴿ثُمَّ﴾ من معهودها في ترتيب زمنَيْ وقوع القَضِيَّتَيْن، ويبقى لها ترتيب زمنَيْ الإخبار عنه، كأَنه قال: أَخبركم أَنه خلقكم من طين ثم أَخبركم أنه قضى أَجلاً، وإن جعلت ﴿قَضَىٰٓ﴾ بمعنىٰ: أَوجد وأَظهر، ويرجع ذلك إلى صفة فعل فيصح أَن

(١) هكذا بالنسخ التي بين أيدينا ـ ولفظة ﴿مُّسَمًّى﴾ ليس لها موضع هنا لعلها من زيادة النساخ، وكلمة ﴿مُّسَمًّى﴾ معناها: معلوم، و﴿عِندَهُۥ﴾ يعني مذكور في اللوح المحفوظ، أو هي مجاز عن علمه ولا يراد المكان.

يكون خلق آدم من طين قبل إظهار هذا الأجل وإبدائه، وتكون ﴿ثُمَّ﴾ على بابها في ترتيب زمنيْ وقوع القَضِيَّتَيْن.

و﴿تَمْتَرُونَ﴾ معناه: تشكُّون، والمرْيةُ: الشَّك(١).

وقوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ على نحو قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ في التوبيخ على سوءِ الفعل بعد مهلة من وضوح الحجج.

قوله عزَّ وجَلَّ:

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾.

قاعدة الكلام في هذه الآية أَن حلول الله تعالىٰ في الأَماكن مستحيل، وكذلك مماسَّته للأَحرام أَو محاذاته لها أَو تَحيُّزُه في جهة لامتناع جواز ذلك عليه تبارك وتعالىٰ، فإِذا تقرر هذا فبيِّن أَن قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ ليس على حدّ قولنا: «زيد في الدار» بل هو على وجه من التأْويل آخر، قالت فرقة: ذلك على تقدير صفة محذوفة من اللفظ ثابتة في المعنىٰ، كأَنه قال: وهو الله المعبود في السموات وفي الأَرض، وعبَّر بعضهم بأَن قدَّر: هو الله المدبِّر للأَمر في السموات وفي الأرض، وقال الزجاج: ﴿فِى﴾ متعلقة بما تضمنه اسم الله تعالىٰ من المعاني، كما يقال: «أَمير المؤْمنين الخليفة في المشرق والمغرب».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي أَفضل الأَقوال وأَكثرها إِحرازاً لفصاحة اللفظ وجزالة المعنىٰ، وإِيضاحه أَنه أَراد أَن يدل على خلقه وإِيثار قدرته وإِحاطته واستيلائه ونحو هذه الصفات فجمع هذه كلها في قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ أَي: الذي له هذه كلها في السموات وفي الأَرض، كأَنه قال: وهو الخالق الرازق المحيي المحيط في السموات وفي الأَرض، كما تقول: زيد السلطان في الشام والعراق، فلو قصدت ذات زيد لقلت محالاً، وإِذا كان مقصد

(١) من التماري على مذهب الشَّكَ قوله تعالىٰ: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾.

قولك: زيد الآمر الناهي الناقض المبرم الذي يعزل ويولي في الشام والعراق فأقمت (السلطانَ) مقام هذه كان فصيحاً صحيحاً، فكذلك في الآية أقام لفظة ﴿ٱللَّهُ﴾ مقام تلك الصفات المذكورة.

وقالت فرقة: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ ابتداءٌ وخبر تم الكلام عنده، ثم استأنف، وتعلق قوله: ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ بمفعول ﴿يَعْلَمُ﴾، كأنه قال: وهو الله يعلم سرَّكم وجهرَكم في السموات وفي الأرض، فلا يجوز ـ مع هذا التعلُّق ـ أن يكون ﴿وَهُوَ﴾ ضمير أمر وشأن لأنه يرفع ﴿ٱللَّهُ﴾ بالابتداءِ، و﴿يَعْلَمُ﴾ في موضع الخبر، وقد فرَّق ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ بين الابتداءِ والخبر، وهو ظرف غريب من الجملة، ويلزم قائلي هذه المقالة أن تكون المخاطبة بالكاف في قوله: ﴿سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ لجميع المخلوقين الإِنس والملائكة، لأن الإِنس لا سرَّ ولا جهر لهم في السماءِ، فترتيب الكلام على هذا القول: «وهو الله يعلم يا جميع المخلوقين سركم وجهركم في السموات وفي الأرض».

وقالت فرقة: ﴿وَهُوَ﴾ ضمير الأمر والشأن، و﴿ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ ابتداءٌ وخبر تم الكلام عنده، ثم ابتدأ، كأنه قال: «ويعلم في الأرض سركم وجهركم»[1]، وهذا القول إذ قد تخلص من لزوم مخاطبة الملائكة فهو مُخَلِّص من شبهة الكون في السماءِ بتقدير حذف (المعبود) أو (المدبِّر) على ما تقدم، وقوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ خبر في ضمنه تحذيرٌ وزَجْر، و﴿تَكْسِبُونَ﴾ لفظ عامٌّ لجميع الاعتقادات والأفعال والأقوال.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾ الآية. ﴿وَمَا﴾ نافية و﴿مِّنْ﴾ الأُولى هي الزائدة التي تدخل على الأجناس بعد النفي، فكأنها تستغرق الجنس[2]، و﴿مِّنْ﴾ الثانية للتبعيض، والآيةُ: العلامة والدلالة والحجة، وقد تقدم القول في وزنها في صدر الكتاب،

---

(١) هذا رأي أبي علي، وقد علل أبو حيان هذا الاتجاه بقوله: «لأنه إذا لم يكن ضمير الشأن كان عائداً على الله تعالى فيصير التقدير: «الله الله» فينعقد مبتدأ وخبر من اسمين متحدين لفظاً ومعنىٰ ولا نسبة بينهما إسنادية، وذلك لا يجوز». أ هـ.

(٢) معنىٰ الزيادة أن ما بعد (من) معمول لما قبلها، فتكون (آية) فاعلا بالفعل (تأتي)، فإذا كانت النكرة بعدها مما لا يستعمل إلا في النفي العام كانت (مِنْ) لتأكيد الاستغراق نحو: «ما في الدار من أحد»، وإن كانت مما يجوز أن يراد بها الاستغراق ويجوز أن يراد بها نفي الوحدة أو نفي الكمال كانت دالة على الاستغراق نحو: «ما قام من رجل».

وتضمنت هذه الآية مذمّة هؤلاءِ الذين يعدلون بالله سواه بأنهم يُعرضون عن كل آية ترد عليهم، ثم اقتضت الفاءُ في قوله ﴿ فَقَدْ ﴾ أن إعراضهم عن الآيات قد أعقب أن كذبوا بالحق وهو محمد عليه الصلاة والسلام وما جاءَ به، ثم توعدهم بأن يأتيهم عقاب استهزائهم، و﴿ وَمَا ﴾ بمعنىٰ الذي، ويصح أن تكون مصدرية، وفي الكلام حذف مضاف تقديره: يأتيهم مضمن أنباءِ القرآن الذي كانوا به يستهزئون، وإن جعلت ﴿ وَمَا ﴾ مصدرية فالتقدير: يأتيهم نبأُ كونهم مستهزئين، أي: عِقاب يُخبَرُونَ أنه على ذلك الاستهزاءِ، وهذه العقوبات التي تُوُعِّدوا بها تعم عقوبات الدنيا كبدر وغيرها وعقوبات الآخرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

هذا حضٌّ على العبرة، والرؤْية هنا رؤْية القلب، و﴿ كَمْ ﴾ في موضع نصب بـ ﴿ أَهْلَكْنَا ﴾.

والقرن: الأُمة المقترنة في مدة من الزمان، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: (خير الناس قرني) الحديث[(١)]. واختلف الناس في مدة القرن ـ كم هي؟ فالأَكثر على أنها مائة سنة، ويرجح ذلك الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ: (أَرَأَيْتُم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأَرض أَحدٌ) قال ابن عمر رضي الله عنهما: يريد أَنها تخرِم[(٢)] ذلك القرن، وروي أَن رسول الله ﷺ قال لعبد الله بن بِشْر[(٣)]: (تعيش قرناً) فعاش مائة سنة.

وقيل: القرن ثمانون سنة، وقيل: سبعون، وقيل: ستون، وتمسك هؤُلاء

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي عن ابن مسعود، ونصه: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته) وفي بعض الروايات (خيركم).

(٢) بمعنىٰ أنها تنهي ذلك القرن وتفنيه. والحديث في البخاري، وفي مسند الإمام أحمد.

(٣) هكذا في الأصول وضبطه محقق القرطبي (بُسْر) بالباء المضمومة والسين، وهو الصحيح، وهو عبد الله ابن بسر المازني السلمي الحمصي (الإصابة ٤/ ٢٣).

بالمعترك[١]، وحكى النقاش أربعين، وذكر الزهراوي في ذلك أنه عن النبي صلى ﷺ، وحكى النقاشُ أيضاً ثلاثين، وحكى عشرين، وحكى ثمانية عشر، وهذا كله ضعيف، وهذه طبقات وليست بقرون، إنما القرن أن يكون وفاة الأشياخ ثم ولادة الأطفال، ويظهر ذلك من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾[٢]، وإلى مراعاة الطبقات وانقراض الناس بها أشار ابن الماجشون في «الواضحة» في تجويز شهادة السماع في تقادم خمسة عشر عاماً فصاعداً، وقيل: القرن الزمن نفسه، وهو على حذف مضاف تقديره: «من أهل قرن»، والضمير في ﴿مَّكَّنَّـٰهُمْ﴾ عائد على القرن، والمخاطبة في ﴿لَّكُمْ﴾ هي للمؤمنين ولجميع المعاصرين لهم من سائر الناس، فكأنه قال: ما لم نمكن يا أهل هذا العصر لكم، فهذا أَبيَن ما فيه، ويحتمل أن يقدر في الآية معنى القول لهؤلاءِ الكفرة، كأنه قال: يا محمد قل لهم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾، وإذا أخبرت أنك قلت لغائب أو قيل له أو أمرت أن يقال فلك في فصيح كلام العرب أن تحكي الألفاظ المقولة بعينها فتجيءُ بلفظ المخاطبة، ولك أن تأتي بالمعنىٰ في الألفاظ بذكر غائب دون مخاطبة.

والسماءُ: المطر، ومنه قول الشاعر:

إذا نَـزَلَ السَّمـاءُ بِـأَرْضِ قَـوْمٍ رَعَيْنَـاهُ وإنْ كـانـوا غِضَـابـاً[٣]

و﴿مِّدْرَارًا﴾ بناءُ تكثير كمذكار ومئناث، ومعناه: يدر عليهم بحسب المنفعة، لأن الآية إنما سياقها تعديد النعم، وإلا فظاهرها يحتمل النعمة ويحتمل الإهلاك، وتحتمل الآية أن تُراد السماءُ المعروفة على تقدير: وأرسلنا مطر السماءِ لأن (مدراراً) لا يوصف به إلا المطر.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم﴾ معناه: فَعَصَوْا وكفروا فأهلكناهم.

﴿وَأَنشَأْنَا﴾ اخترعنا وخلقنا، وجميع ﴿ءَاخَرِينَ﴾ حملا على معنى القرن.

---

(١) إشارة إلى الحديث: «مُعترك المنايا ما بين الستين إلى السبعين»، قال في الجامع الصغير: رواه الحكيم عن أبي هريرة، ورمز له بالضعف.

(٢) الآية (٣١) من سورة (المؤمنون).

(٣) ينسب هذا البيت لمعوّد الحكماء ـ معاوية بن مالك ـ وسمِّي بذلك لقوله:

أُعَـوِّد مِثْلهـا الحُكَمـاءَ بعْـدي إذا مـا الحَـقُّ فـي الحـدثـان نـابـا

وقد روي البيت: «إذا سقط السَّماءُ» بدلا من «إذا نزل...».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

لما أخبر عنهم عزَّ وجلَّ بأنهم كذبوا بكل ما جاءَهم من آية تبع ذلك إخبار فيه مبالغة مضمّنة أنه لو جاءَهم أشنع مما جاءَ لكذبوا أيضاً، والمعنىٰ: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا ﴾ بمرأى منهم ﴿ عَلَيْكَ كِتَٰبًا ﴾ أي كلاماً مكتوباً ﴿ فِى قِرْطَاسٍ ﴾، أي في صحيفة، ويقال: قُرطاس بضم القاف، ﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ يريد أنهم بالغوا في مَيْزه وتقليبه ليرتفع كل ارتباب لعاندوا فيه وتابعوا كفرهم وقالوا: هذا سحر مبين.

ويشبه أن سبب هذه الآية اقتراح عبد الله بن أبي أُمية وتَعَنتُه إذ قال للنبي ﷺ: «لا أُومن لك حتى تصعد إلى السماء ثم تنزل بكتاب فيه: من ربِّ العزة إلى عبد الله بن أمية، يأمرني بتصديقك، وما أراني مع هذا كنت أُصدقك»، ثم أَسلم بعد ذلك عبد الله وقتل شهيداً في الطائف.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ الآية حكاية عمن تَشَطَّط من العرب بأَن طلَبَ أَنْ ينزل مَلَك يُصدق محمداً في نبوته، ويعلم عن الله عزَّ وجلَّ أنه حق، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾، وقال مجاهد: معناه: لقامت القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وقال قتادة، والسدي، وابن عباس رضي الله عنهما: في الكلام حذف تقديره: ولَوْ أنزلنا ملكاً فكذبوا به لقضي الأَمر بعذابهم ولم يُنْظروا حسبما سلف في كل أُمة اقترحت بآية وكذبت بعد أَن أُظهرت إليها، وهذا قول حسن.

وقالت فرقة: ﴿ لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أَي: لماتوا من هوْل رؤْية المَلَك في صورته، ويُؤَيد هذا التأْويل ما بعده من قوله: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾ فإن أَهل التأْويل مجمعون على أَنَّ ذلك لأنهم لم يكونوا يطيقون رؤْية الملَك في صورته، فالأَوْلىٰ في قوله: ﴿ لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أي: لماتوامن هول رؤْيته.

و﴿ يُنظَرُونَ ﴾ معناه: يُؤَخَّرون، والنظرة: التأْخير.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ﴾ الآية ـ. المعنى: إنا لو جعلناه مَلَكاً لجعلناه ولا بُدَّ في خَلْق رجل لأنهم لا طاقة لهم على رؤية الملَك في صورته، وقاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومما يؤيد هذا المعنى الحديثُ الوارد عن الرجلين اللَّذيْن صعدا على الجبل يوم بدر ليريا ما يكون في حرب النبي عليه الصلاة والسلام للمشركين فسمعا حسّ الملائكة وقائلاً يقول في السماءِ: «أَقدم حيزوم»[١]. فمات أَحدهما لهول ذلك، فكيف برؤية ملَك في خلقته؟ ولا يُعارَض هذا برؤْية النبي عليه الصلاة والسلام لجبريل عليه السلام وغيره في صورهم لأَن النبي عليه الصلاة والسلام أُعطي قوة غير هذه كلها[٢] ﷺ.

﴿وَلَلَبَسْنَا﴾ أَي: لخلطنا عليهم ما يخلطون به على أَنفسهم وعلى ضعفتهم، أَي: لفعلنا لهم في ذلك ملْبساً يُطَرِّق لهم[٣] إِلىٰ أَن يلبسوا به، وذلك لا يحسن. ويحتمل الكلام مقصداً آخر، أَي: للبسنا نحن عليهم كما يلبسون على ضعفتهم، فكنا ننهاهم عن التلبيس ونفعله بهم، ويقال: لَبَس الرجل الأَمر يلبِسه لبساً إِذا خلطه. وقرأَ ابن محيصن: [ولَبَّسنا] بفتح اللام وشد الباءِ.

وذكر بعض الناس في هذه الآية أَنها نزلت في أَهل الكتاب، وسياق الكلام ومعانيه يقتضي أَنها في كفار العرب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

قرىء: ﴿ولَقَدُ﴾ بضم الدال للضمة بعد الساكن الذي بعد الدال، وقرى بكسر الدال

---

(١) حَيْزُوم: فرس جبريل عليه السلام، وأَقدم بفتح الهمزة هو أمر بالإقدام، وهو التقدم في الحرب. والإقدام الشجاعة، وقد تكسر همزة إقدام، ويكون أمراً بالتقدم لا غير، والصحيح الفتح من أَقدم. قاله ابن الأثير في كتابه: «النهاية في غريب الحديث والأثر».

(٢) يريد: غير قوة البشر، وقد وضح ذلك أبو حيان في «البحر» حين نقل عبارة ابن عطية هذه.

(٣) يريد: يُسَهِّل لهم السير في هذا الأمر، يقال: طرَّق طريقاً بمعنىٰ: سهَّله حتى طرقه المارة، وطرَّق له: جعَل له طريقاً «المعجم الوسيط».

على عرف الالتقاء. وهذه تسلية للنبي ﷺ بالأسوة في الرسل، وتقوية لنفسه على محاجة المشركين، وإخبار يتضمن وعيد مكذبيه والمستهزئين.

و﴿ فَحَاقَ ﴾ معناه: نزل وأحاط، وهي مخصوصة في الشر، يقال: حاق يحيق حيْقاً، ومنه قول الشاعر:

فَـأَوْطَـأَ جُـرْدَ الخيْـلِ عُقْـر ديـارِهـم وحاقَ بِهِمْ مِن بأس ضبَّةَ حائِقُ[1]

وقال قوم: أصل حاق: حق فبدلت القاف الواحدة كما بدلت النون في: تظنَّنت[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

و﴿ مَّا ﴾ في قوله: ﴿ مَّا كَانُواْ ﴾ يصح أَن تكون بمعنى الذي، ويصح أَن تكون مع الفعل بتأويل المصدر كأنه قال: استهزاؤُهم. وهذه كناية عن العقوبة كما تهدد إِنساناً فتقول: سيلحقك عملك، والمعنىٰ: عاقبته. و﴿ سَخِرُواْ ﴾ معناه: استهزؤُوا.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ سِيرُواْ ﴾ الآية حضٌّ على الاعتبار بآثار من مضىٰ مِمَّن فعل فعلهم، وقال: ﴿ كَانَ ﴾ ولم يقل: (كانت) لأَن تأْنيث العاقبة ليس بحقيقي، وهي بمعنىٰ الآخِرِ والمآل.

ومعنى الآية: سيروا وتَلَقَّوا ممن سار، لأَن تحصيل العبرة بآثار من مضىٰ إِنما يستند إِلى حِسِّ العيْن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾.

---

(١) لم نعثر على قائل هذا البيت في المراجع التي بين أيدينا، ولم يستشهد به من المفسرين إلا صاحب «البحر المحيط»، والفرس الأجرد: القصير الشعر، وإذا وصف بذلك فالمعنى أنه سبَّاق، وعقر الدار: وسَطُها. والحَيْقُ: ما حاق بالإنسان من مكر أو سوء عمل يعمله فينزل ذلك به، ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾، ومنه حديث أبي بكر رضي الله عنه: «أخرجني ما أجد من حاق الجوع»، وحديث علي كرم الله وجهه: «تخوَّف من الساعة التي من سار فيها حاق به الضُّرّ».

(٢) فقيل فيها: تظنَّيْتُ ـ وقد قال ابن عطية: «وهذا ضعيف» لأنها دعوى لا دليل على صحتها كما قال أبو حيَّان في «البحر».

قال بعض أهل التأويل: في الكلام حذف تقديره: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ فإذا تحيَّروا ولم يجيبوا ﴿قُل لِّلَّهِ﴾. وقالت فرقة: المعنى أنه أمر بهذا السؤال فكأنهم لمَّا يُجيبوا ولا تيقنوا سألوا فقيل له: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾. والصحيح أن الله عزَّ وجلَّ أمر محمداً عليه الصلاة والسلام بقطعهم بهذه الحجة الساطعة والبرهان القطعي الذي لا مدافعة فيه عندهم ولا عند أحد ليعتقد هذا المعتقد الذي بينه وبينهم ثم يتركب احتجاجه عليه، وجاءَ ذلك في لفظ استفهام وتقرير في قوله: ﴿لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. والوجه في المحاجة إذا سأل الإنسان خصمه بأمر لا يدافعه الخصم فيه أن يسبقه بعد التقرير إليه مبادرة إلى الحجة، كما تقول لمن تريد غلبته بآية تحتج بها عليه: كيف قال الله في كذا؟ ثم تسبقه أنت إلى الآية فتنصُّها عليه، فكأن النبي ﷺ قال لهم: يا أيُّها الكافرون العادلون بربهم لمن ما في السموات والأرض؟ ثم سبقهم فقال: لله، أي: لا مدافعة في هذا عندكم ولا عند أحد.

ثم ابتدأ يخبر عنه تعالىٰ: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ معناه: قضاها وأنفذها، وفي هذا المعنىٰ أحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام تتضمن كتب الرحمة، ومعلوم من غير ما موضع من الشريعة أن ذلك للمؤمنين في الآخرة وجميع الناس في الدنيا، منها: (إن الله تعالىٰ خلق مائة رحمة فوضع منها واحدة في الأرض، فبها تتعاطف البهائم، وترفع الفرسُ رجلها لئلا تطأ ولدها، وبها تتعاطف الطير والحيتان، وعنده تسع وتسعون رحمة، فإذا كان يوم القيامة صيرَّ تلك الرحمة مع التسعة والتسعين وبثَّها في عباده)[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فما أشقى من لم تَسَعْهُ هذه الرحمات، تغمدنا الله بفضل منه.

---

(١) أخرجه أحمد، ومسلم، والبيهقي في الأسماءِ والصفات ـ عن سلمان مع اختلاف في الألفاظ، وأخرج مثله عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم ـ عن سلمان أيضاً، ونصه: (إنَّا نجد في التوراة أن الله خلق السموات والأرض، ثم جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق، ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، فبها يتراحمون، وبها يتعاطفون، وبها يتباذلون، وبها يتزاورون، وبها تحن الناقة، وبها تنتج البقرة، وبها تَيْعَر الشاةُ (أي: تصيح)، وبها تتابع الطير، وبها تتابع الحيتان في البحر، فإذا كان يوم القيامة جمع تلك الرحمة إلى ما عنده، ورحمته أفضل وأوسع). (الدر المنثور ـ وفتح القدير).

ومنها حديث آخر: (إن الله عزَّ وجلَّ كتب عنده كتاباً فهو عنده فوق العرش أن رحمتي سبقت غضبي)(١) ويروى (نالت غضبي) ومعناه: سبقت، وأنشد عليه ثابت بن قاسم:

أَبَنِـــي كُلَيْـــب إِنَّ عَمَّيَـــا اللَّـــذا نَـــالا المُلُـــوكَ وفَكَّكَـــا الأَغْـــلالا(٢)

ويتضمن هذا الإخبار عن الله تعالىٰ بأنه كتب الرحمة تأنيس الكفار ونفي يأسهم من رحمة الله إذا تابوا: وأن باب توبتهم مفتوح. قال الزجاج: الرحمة هنا إمهال الكفار وتعميرهم ليتوبوا، وحكى المهدوي أن جماعةً من النحويين قالت: إن ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ هو تفسير الرحمة، تقديره: «أن يجمعكم» فيكون ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ في موضع نصب على البدل من ﴿الرَّحْمَةِ﴾، وهو مثل قوله: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾(٣) المعنىٰ: «أن يسجنوه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يلزم على هذا القول أن تدخل النون الثقيلة في الإيجاب وهو مردود، وإنما تدخل في الأمر والنهي وباختصاص من الواجب في القَسم(٤).

وقالت فرقة (وهو الأظهر): إن اللام لام قسم والكلام مستأنف، ويتخرج ذلك في: ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُۥ ﴾. وقالت فرقة: [إلى] بمعنى (في). وقيل: على بابها غاية، وهو الأرجح.

و﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي: هو في نفسه وذاته لا ريب فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ الآية . . . قيل: إن ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ منادى.

---

(١) هذا الحديث ثابت في الصحيحين وغيرهما من طريق الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة. (الدر المنثور ـ وفتح القدير وابن كثير).

(٢) فهو يصفهما بأنهما سبقا الملوك في الشجاعة والكرم.

(٣) الآية (٣٥) من سورة (يوسف).

(٤) قال أبو حيان تعليقاً على رأي ابن عطية هذا: «وهذا الذي ذكره لا يحصر مواضع دخول نون التوكيد، ألا ترى دخولها في الشرط وليس واحداً مما ذكر نحو قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ ﴾، وكذلك قوله: «وباختصاص من الواجب في القسم» ليس على إطلاقه، بل له شروط ذكرت في علم النحو». أ هـ. (البحر المحيط ٤ـ ٨٢).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهو فاسد لأن حرف النداءِ لا يسقط مع المبهمات.

وقيل: هو نعت ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين تقدم ذكرهم. وقيل: هو بدلٌ من الضمير في ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾، قال المبرد: ذلك لا يجوز كما لا يجوز: «مررت بك زيد».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوله في الآية: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ مخالف لهذا المثال، لأن الفائدة في البدل مترقبة من الثاني، وإذا قلت: «مررت بك زيد» فلا فائدة في الثاني، وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ يصلح لمخاطبة الناس كافة فيفيدنا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من الضمير أنهم همْ المختصون بالخطاب هنا، وخُصوا على جهة الوعيد، ويتضح فيها الوعيد إذا جعلنا (اللام) للقسم وهو القول الصحيح، ويجيءُ هذا بدلُ البعض من الكل[1].

وقال الزجاج: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ رفع بالابتداءِ وخبره ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا قول حسن، والفاءُ في قوله: ﴿فَهُمْ﴾ جواب على القول بأن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ رفع بالابتداءِ لأن معنى الشرط حاصِلٌ تَقديره: «مَن خَسِرَ نفسه فهو لا يؤمن».

وعلى القول بأن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلٌ من الضمير هي عاطفة جملة على جملة، و[خَسِرُوا] معناه: غبنوا أنفسهم بأن وجب عليها عذاب الله وسخطه، ومنه قول الشاعر:

---

(١) القول بأن ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟...﴾ بدل من الضمير في ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ هو قول الأخفش ـ وقد ردّه المبرد ودليله على ذلك أن البدل من ضمن الخطاب لا يجوز كما لا يجوز في قولك: «مررت بك زيد»، وجاء ابن عطية فردَّ كلام المبرد بالتفرقة بين الآية وبين المثال الذي ذكره المبرد، وحجته أن الفائدة من البدل عادة تكون مترقبة من الثاني وهذا لا يتحقق في مثال المبرد، لكنه يتحقق في الآية كما شرحه ابن عطية، وجاء أبو حيان فناقش ابن عطية بقوله ما معناه: كلامه يقتضي أن يكون بدل بعض من كل كما ذكر ويحتاج إذ ذاك إلى ضمير يمكن تقديره: «والذين خسروا أنفسهم منهم»، وقوله: «إن البدل يفيدنا أنهم هم المختصون بالخطاب، وخُصُّوا على جهة الوعيد» يقتضي أن يكون بدل كل من كلٍّ، وفي هذا تناقض. ولنا أن ندافع عن ابن عطية فنقول: إذا كان قوله تعالىٰ: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ يصلح لمخاطبة الناس كافة فإنه يصلح أيضاً لمخاطبة الكفار المستهزئين تبعاً لسياق الآيات، فإن جعلناه خطاباً لجميع الناس كان ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟﴾ بدل بعض من كل، وإن جعلناه خطاباً للكفار المستهزئين فقط كان بدل كل من كل، ولا تناقض. والله أعلم. وابن عطية قال: «يصلح» ولم يقل: «يجب أن يكون خطاباً لجميع الناس».

لا يــأخُــذ الــرِّشْــوَةَ فــي حُكْمِــهِ ولا يُبَــالــي غَبَــنَ الخَــاسِــرِ[١]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾ الآية. ﴿وَلَهُۥ﴾ عطف على قوله: ﴿لِّلَّهِ﴾، واللام للملك، و﴿مَا﴾ بمعنىٰ الذي، و﴿سَكَنَ﴾ هي من السكنى ونحوه، أي: ما ثبت وتقرر، قاله السدي وغيره. وقالت فرقة: هو من السكون، وقال بعضهم: لأن الساكن من الأشياءِ أكثر من المتحرك إلى غير هذا من القول الذي هو تخليط، والمقصد في الآية عموم كل شيء، وذلك لا يترتب إلا أن يكون ﴿سَكَنَ﴾ بمعنىٰ استقر وثبت، وإلا فالمتحرك من الأشياء من المخلوقات أكثر من السواكن، ألا ترىٰ إلى الفلك والشمس والقمر والنجوم السابحة والملائكة وأنواع الحيوان، والليلُ والنهارُ حاصران للزمان.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ هاتان صفتان تليقان بنَمَط الآية من قِبَلِ أن ما ذكر من قَبْلُ من الأَقوال الرَّديَّة عن الكفرة العادلين هو سميع لها، عليم بمواقعها، مجازٍ عليها، ففي الضمير وعيد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾.

قال الطبري وغيره: أُمر أَن يقول هذه المقالة للكفرة الذين دَعْوه إلىٰ عبادة أَوثانهم، فتجيءُ الآية ـ على هذا ـ جواباً لكلامهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التأْويل يحتاج إلى سند في أن هذا نزل جواباً، وإلا فظاهر الآية لا يتضمنه، والفصيح هو أَنه لما قرر معهم أَن الله تعالىٰ: ﴿لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ﴿وَلَهُۥ مَا

---

(١) هذا البيت للأعشىٰ من قصيدة قالها يهجو علْقمة بن عُلاثة ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما، والبيت في مدح الحكَم الذي كان يحكم بين المتنافرين، ومطلع القصيدة:

شــاقَتْــكَ مِــن قَتْلَــةَ أَطْــلالُهَــا بــالشَّـطِّ فــالــوِتْــرِ إلــى حــاجِــرِ

قال صاحب اللسان: «الغَبْن بالتسكين في البيع، والغَبَن بالتحريك في الرأي»، ثم قال: وقد حُكي غير ذلك.

سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾، وأنه ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أُمر أن يقول لهم على جهة التوبيخ والتوقيف: أَغير هذا الذي هذه صفاته أتخذ وَلِيّاً؟ بمعنى أن هذا خطأ لو فعلتُه بيّن، وتُعطي قوة الكلام أن من فعله من سائر الناس بيِّنُ الخطأ، و﴿أَتَّخِذُ﴾ عاملٌ في قوله: ﴿أَغَيْرَ﴾ وفي قوله: ﴿وَلِيًّا﴾ تقدم أحد المفعولين.

والوليُّ لفظ عام لمعبود وغير ذلك من الأسباب الواصلة بين العبد وربّه. ثم أخذ في صفات الله تعالىٰ فقال: ﴿فَاطِرِ﴾ بخفض الراءِ نعت لله تعالىٰ، وفَطَر معناه: ابتدع وخلقَ وأنشأ، وفطَر أيضاً في اللغة: شقَّ، ومنه: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾(١) أي: مِنْ شقوق، ومن هذا انفطار السماءِ، وفي هذه الجهة يتمكن قولهم: «فَطَر نابُ البعير» إذا خرج لأنه يشق اللِّثة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنتُ أعرف معنى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ حتى اختصم إِليَّ أعرابيان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتُها، أي: اخترعتها وأنشأتها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فحمله ابن عباس على هذه الجهة، ويصح حمْلُه على الجهة الأُخرى أنه شقَّ الأرض والبئر حين احتفرها. وقرأ ابن أبي عبلة: [فاطِرُ] برفع الراءِ على خبر ابتداءِ مضمر، أو على الابتداء.

و﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾ المقصود به: يَرْزُقُ ولا يُرْزَقُ، وخصَّ الإِطعام من أنواع الرزق لِمَسِّ الحاجة إِليه وشهرته واختصاصه بالإِنسان. وقرأ يمان العماني، وابن أبي عبلة: ﴿يُطْعِمُ﴾ بضم الياءِ وكسر العين في الثاني مثل الأول، يعني الوثن أنه لا يُطعِم. وقرأ مجاهد، وسعيد بن جبير، والأعمش، وأبو حيوة، وعمرو بن عبيد، وأبو عمرو بن العلاءِ في رواية عنه في الثاني: ﴿ولا يطعم﴾ بفتح الياء على مستقبل (طعم)، فهي صفة تتضمن التبرية، أي: لا يأكل ولا يشبه المخلوقين.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ. . .﴾ إلى ﴿عَظِيمٍ﴾ قال المفسرون: المعنى: أول من أسلم من هذه الأمة وبهذه الشريعة، ولا يتضمن الكلام إلا ذلك، قالت طائفة: في الكلام حذف تقديره: وقيل لي: ولا تكن من المشركين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

---

(١) من الآية (٣) من سورة (الملك).

وتلخيص الكلام في هذا أنه عليه الصلاة والسلام أمر فقيل له: «كن أول من أسلم ولا تكونن من المشركين»، فلما أُمِرَ في الآية أن يقول ما أُمر به جاءَ بعض ذلك على المعنى وبعضه باللفظ بعينه. ولفظة ﴿عَصَيْتُ﴾ عامة في أنواع المعاصي، ولكنها ها هنا إنما تُشير إلى الشرك الذي نُهي عنه. واليوم العظيم هو يوم القيامة.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ بضم الياءِ وفتح الراءِ، والمفعول الذي أُسند إليه الفعل هو الضمير العائد على العذاب، فهو مُقَدَّر. وقرأَ حمزة، والكسائي، وعاصم أَيضاً: [مَنْ يَصْرِفُ عنه] فيسند الفعل إلى الضمير العائد إلى ﴿رَبِّي﴾ ويعمل في ضمير العذاب المذكور آنفاً لكنه مفعول محذوف، وحكي أَنه ظهر في قراءَة عبدالله وهي: [مَنْ يَصْرِفْه عنهُ يَوْمَئِذٍ]، وفي قراءَة أُبي بن كعب: [مَنْ يَصْرِفْه الله عَنْه]، وقيل: إنها [مَنْ يَصْرِف اللهُ عنهُ]، قال أَبو علي: وحذف هذا الضمير لا يَحْسُن كما يَحْسُن حذف الضمير من الصلة كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾(١)، وكقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾(٢) معناه: بعثه. واصطفاهم ـ فَحَسُن هذا للطول كما علَّله سيبويه، ولا يحسُن هذا لعدم الصلة، قال بعض الناس: القراءَة بفتح الياءِ من [يَصْرِفْ] أَحسن لأَنه يناسب ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾، وكأَن الأَولى على القراءَة الأُخرىٰ [فَقَدْ رحِمَ] ليتناسب الفعلان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا توجيه لفظيٌّ تعلقه خفيف، وأَما بالمعنى فالقراءَتان واحد، ورجَّح قوم قراءَة ضمّ الياءِ لأَنها أَقلُّ إِضماراً، وأَشارَ أَبو علي إِلى تحسين القراءَة بفتح الياءِ بما ذكرناه، وأَما مكي بن أَبي طالب رحمه الله فتخبط في كتاب «الهداية» في ترجيح القراءَة بفتح الياءِ، ومثل في احتجاجه بأَمثلة فاسدة، والله ولي التوفيق(٣).

---

(١) من الآية (٤١) من سورة (الفرقان).

(٢) من الآية (٥٩) من سورة (النمل).

(٣) كثير من العلماء يرفضون ترجيح قراءة على قراءة، قال أبو حيَّان الأَندلسي تعليقاً على ما نقله ابن عطية هنا: «وقد تقدم لنا غير مرة أنا لا نرجح بين القراءَتين المتواترتين». وحكىٰ أبو عمرو الزاهد في كتاب «اليواقيت» أن أبا العباس أحمد بن يحيىٰ ثعلباً كان لا يرى الترجيح بين القراءات السبع، ونقل أبو حيان عن ثعلب أنه قال: «إذا اختلف الإعراب في القرآن عن السبعة لم أُفضل إعراباً على إعراب في القرآن، فإذا خرجت إلى الكلام كلام الناس فضلت الأقوىٰ»، ثم قال أبو حيان: «ونعم السلف لنا أحمد بن=

و(رَحِمَ) عامل في الضمير المتصل وهو ضمير ﴿مَّن﴾ ومستند إلى الضمير العائد إلى ﴿رَبِّى﴾، وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى صرف العذاب وإلى الرحمة والفوز والنجاة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿يَمْسَسْكَ﴾ معناه: يُصبْك وينَلْك، وحقيقة المسِّ هي بتلاقي جسمين، فكأن الإنسان والضُّرّ يتماسّان.

والضُّرّ بضم الضَّاد: سوءُ الحال في الجسم وغيره. والضَّر بفتح الضاد: ضد النَّفع، وناب الضُّر في هذه الآية مناب الشَّرِّ ـ وإن كان الشَّرُّ أعم منه ـ فقابل الخيْر، وهذا من الفصاحة عدول عن قانون التكلف والصنعة، فإن باب التكلف وترصيع الكلام أن يكون الشيءُ مقترناً بالذي يختص به بنوع من أنواع الاختصاص موافقة أو مضادة، فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[1] فجعل الجوع مع العري وبابه أن يكون مع الظمأ، ومنه قول امرىء القيس:

كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَبْ جَواداً لِلَذَّةٍ ... وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِباً ذَاتَ خَلْخَالِ
وَلَمْ أَسْبَأ الزِّقَّ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ ... لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ[2]

= يحيى كان عالماً بالنحو واللغة متديناً ثقة».

(١) الآيتان (١١٨ـ ١١٩) من سورة (طه) ـ وقد قال بعض العلماء: إنَّ الجامع بين الجوع والعري هو اشتراكهما في الخلو، فالجوع: خلو الباطن، والعري: خلو الظاهر، والجامع بين الظمأ والضحاء اشتراكهما في الاحتراق، فالظمأ، احتراق الباطن، ألا ترى إلى قولهم: برَّد الماءُ حرارة جوفي؟ والضحاءُ: احتراق الظاهر، وانظر كيف بدأت الآية بخلو الباطن ثم ثنت بخلو الظاهر، ثم فعلت نفس الشيء في الاحتراق حيث بدأت باحتراق الباطن ثم ثنت باحتراق الظاهر.

(٢) ركوب الجواد يكون للذة الصيد، وقد يكون للمتعة بالركوب نفسه. والكاعب: الفتاة التي كعَبَ ثديها، أي: برز ونهد فصار كالشيء المكعب المرتفع. والخَلْخال: حلية كالسوار تلبسها النساءُ في أرجلهن، وجمعه: خلاخيل، و«ذات خلخال»: كناية عن المرأة التي تستعمل الحليَّ لأنها من بيت غني، أو لأنها تحب استعمال الزينة. وتبطن الكاعب: باشرها وجامعها، وقيل: تبطن: باشر بطنهُ بطنها. والزق: وعاءٌ من جلد يُجزُّ شعره ولا ينتف للشراب وغيره، والجمع: أزقاقٌ وزقاقٌ، وسبأ الزق: اشترىٰ خمرها ليشربها. والرَّويّ: الكثير الخمر حتى يُشبع. والكَرُّ: معاودة الهجوم على العدو بعد الفرار، =

وهذا كثير.

قال السدي: الضُّر هَا هنا: المرض، والخيرُ: العافية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا مثال، ومعنى الآية الإخبارُ عن أَن الأَشياءَ كلها بيد الله، إن ضرَّ فلا كاشف لِضُرِّه غيرُه، وإن أصاب بخير فكذلك أيضاً لا رادَّ له ولا مانع منه، هذا تقرير الكلام، ولكن وضع بدل هذا المقدر لفظاً أَعم منه يستوعبه وغيره وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ودلَّ ظاهر الكلام على المقدر فيه، وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَي: على كل شيءٍ جائز أَن يوصف الله تعالىٰ بالقدرة عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ الآية. أَي: وهو عزَّ وجلَّ المستولي المقتدر، و﴿فَوْقَ﴾ نصب على الظرف لافي المكان بل في المعنى الذي تضمنه لفظ ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾ كما تقول: زيد فوق عمرو في المنزلة. وحقيقة (فوق) في الأَماكن، وهي في المعاني مستعارة شبه بها من هو أَرْفَعُ رتبةً في معنىٰ ما لمَّا كانت في الأَماكن تنبيء حقيقة عن

= والإجفال: الإسراع، مصدر أجفل بمعنىٰ: مضى مسرعاً.

يتذكر امرؤ القيس في هذين البيتين شبابه وماكان فيه من لذات ونفع، ويتحسر على ذلك بعد أن كبرت سنُّه وتغيرت أحواله فيقول: لقد ذهب كل هذا فكأني لم أكن فارساً أتمتع بركوب الجياد وأسعى بها للصيد، ولم أتمتع بالكاعب المنعمة بالحليّ، ولم أشتر الخمر لأشربها، ولم يكن مني كرٌّ على العدوّ بعد هزيمة أو فِرار.

هذا وقد قال بعض النقاد: كان من المنطقي أن يكون النصف الثاني من البيت الثاني مع النصف الأول من البيت الأول لأن الكلام فيهما عن الجياد وركوبها، ومن المعقول أن يكون الحديث عن الكرّ في المعركة مع الحديث عن ركوب الخيل للصيد، وكذلك من المنطقي أن يجمع بين الخمر والتمتع بالنساء فيجعل النصف الثاني من البيت الأول مع النصف الأول من البيت الثاني، ولكن امرأ القيس عدل عن ذلك إلى شيءٍ آخر دلَّ على براعة وحذق، فالجامع في البيت الأول بين الركوب للذة الفروسية أو لذة الصيد والركوب للذة المباشرة الجنسية هو اشتراكهما معاً في لذة الاستعلاء والاقتناص والظفر والقهر والسيطرة على الفَرَس والصَّيْد، أو على المرأة. والجامع في البيت الثاني بين شراءِ الخمر للشرب والكَرّة بعد الهزيمة اشتراكهما في البذل، فشراءُ الخمر فيه بذل للمال، والكرُّ بعد الهزيمة فيه بذل للروح، ثم قالوا: وما أحسن تعقل امرىء القيس وتدرجه في بيته حيث انتقل من الأدنى إلى الأعلى لأن الظفر بجنس الإنسان (المرأة) أعلى وأشرف وأحب إلى الفرسان من الظفر بجنس الحيوان (الصيد) أو (الفرس) نفسه، ولأن بذل الروح أعظم من بذل المال.

الأرفع(١). وحكىٰ المهدوي أنها بتقدير الحال كأنه قال: وهو القاهر غالباً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا لا يسلم من الاعتراض أيضاً، والأول عندي أصوب.

والعباد بمعنى العبيد، وهما جمعان للعَبْد، أما إنا نجد ورود لفظة (العباد) في القرآن وغيره في مواضع تفخيم أو ترفيع أو كرامة، وورود لفظة (العبيد) في تحقير أو استضعاف أو تصد ذمٍّ، ألا ترى قول امرىء القيس:

قُـــولا لِـــدُودانَ عَبيـــدِ الْعَصَـــا . . . .(٢)

ولا يستقيم أن يقال هنا: عباد العصا، وكذلك الذين سموا العباد لا يستقيم أن يقال لهم: العبيد لأنها أفخم من ذلك، وكذلك قول حمزة رضي الله عنه: «وهل أنتم إلا عبيد لأبي»؟ لا يستقيم فيه عباد(٣).

---

(١) هذا هو رأي الجمهور فقد ذهبوا إلى أن الفوقية هنا مجاز ـ ثم قال بعضهم: هو فوقهم بالإيجاد والإعدام، وقال بعضهم: هو على حذف مضاف معناه: فوق قهر عباده بوقوع مراده دون مرادهم، وقال الزمخشري: هو تصوير للقهر والغلبة والقدرة كقوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾ (١٢٧) ـ الأعراف. وقال أبو حيان: العرب تستعمل (فوق) إشارة لعلوّ المنزلة وشفوفها على غيرها من الرتب، ومنه قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (١٠) ـ الفتح.

(٢) البيت بتمامه:

قُـــولا لِـــدُودَانَ عَبيـــدِ الْعَصَـــا مـــا غَـــرَّكُـــمْ بـــالأَسَـــدِ الْبَـــاسِـــلِ؟

و(دودان) قبيلة بين أسد، وكان أبو امرىء القيس إذا غضب على أحد منهم أمر بضربه بالعصا، فسمُّوا: عبيد العصا، وأراد «بالأسد الباسل» أباه: وقيل: أراد نفسه.

والبيت من قصيدة مطلعها:

يـــا دار مـــا ويَّـــةَ بـــالحـــائـــل فـــالسَّهْـــب فـــالْخَبْتَيْـــنِ مـــن عـــاقـــل

وكل من حائل وعاقل جبل ـ والسهب والخبتان موضعان في جبل عاقل الذي كان ينزله حجر والد امرىء القيس.

(٣) قال أبو الفتح عثمان بن جني: «أكثر اللغة أن تستعمل (العبيد) للناس، و(العباد) لله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ (٤٢) ـ الحجر. وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ (١٦) ـ الزُّمَر، وهو كثير، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (٤٦) ـ فصلت. ومن أبيات الكتاب:

أَتُـــوعِـــدُنـــي بِقَـــوْمِـــكَ يـــابْـــن حَجْـــلٍ أُشَـــابَـــاتٍ يُخَـــالُـــون العِبَـــادَا؟

بِمَـــا جَمَّعْـــتَ مِـــنْ حَضـــنٍ وعَمْـــرو ومـــا حَضـــنٌ وعَمْـــرٌو والجِيـــادا؟

أي: «يُخالون عبيداً» أهـ. المحتسب ٢ ـ ١٤. وأما قول حمزة رضي الله عنه فقد سبق الكلام عنه».

و﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ بمعنى المحكم، و﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ دالَّة على مبالغة العلم، وهما وصفان مناسبان لنمط الآية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ أَيُّ ﴾ استفهام، وهي معربة مع إبهامها، وإنما كان ذلك لأنها تلتزم الإضافة، ولأنها تتضمن عِلْم جزءٍ من المستفهم عنه غير معيّن، لأنك إذا قلت: «أَي الرجلين جاءَنا»؟ فقد كنت تَعْلَمُ أَن أَحدهما جاءَ غير معين، فأَخرجها هذان الوجهان عن غمرة الإِبهام فأُعربت.

وتتضمن هذه الآية أَن الله تعالىٰ يقال عليه: شيءٌ، كما يقال عليه: موجود، ولكن ليس كمثله تبارك وتعالىٰ شيءٌ[(١)]. و﴿ شَهَٰدَةً ﴾ نصب على التمييز، ويصح على المفعول بأَن يحمل ﴿ أَكْبَرُ ﴾ على التشبيه بالصفة المشبهة باسم الفاعل.

وهذه الآية مثل قوله تعالىٰ: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ ﴾[(٢)] في أَن استفهم على جهة التوقيف والتقدير ثم بادر إِلى الجواب إِذ لا تتصور فيه مدافعة، وهذا كما تقول لمن تخاصمه وتتظلم منه: من أَقدر من في البلد؟ ثم تبادر وتقول: السلطان فهو يحول بيننا، ونحو هذامن الأَمثلة[(٣)]، فتقدير الآية أَنه قال لهم: أَيُّ شيءٍ أَكبر

---

(١) قال الزمخشري: «الشيءُ أَعم العام لوقوعه على كل ما يصح أن يُعلم ويُخبر عنه، فيقع على القديم والمحدث، والجوهر والعَرَض، والمحال والمستقيم، ولذلك صحَّ أن يقال في الله عز وجلَّ: شيءٌ لا كالأَشياء، كأَنك قلت: معلوم لا كسائر المعلومات». والجمهور متفق على أنه يجوز إطلاق كلمة (شيء) على الله عزَّ وجلَّ إلا الجَهْم فقد قال: «لا يجوز أن يطلق على الله شيءٌ لقوله تعالىٰ: ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ فيلزم من إطلاق شيءٍ عليه أن يكون خالقاً لنفسه وهو محال»، وقد ذكر أدلة أُخرىٰ تجدها في «البحر المحيط» كما تجد ردَّ الجمهور عليها في صفحة (٩٠) من المجلد الرابع.

(٢) من الآية (١٢) من سورة (الأَنعام).

(٣) نقل أبو حيان كلام ابن عطية هذا ثم قال: «وليست هذه الآية نظير قوله: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ ﴾ لأن ﴿ لِّلَّهِ ﴾ يتعين أن يكون جواباً، وهنا لا يتعين إذ ينعقد من قوله ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ ﴾ مبتدأ وخبر وهو الظاهر وأيضاً: ففي هذه الآية لفظ (شيء) وقد تنوع في إطلاقه على الله تعالى وفي تلك الآية لفظ (من) وهو يطلق على الله تعالى.

شهادة؟ الله أكبر شهادة، فهو شهيد بيني وبينكم، فـ ﴿ٱللَّهُ﴾ رفع بالابتداءِ وخبره مضمر يدل عليه ظاهر الكلام كما قدرناه، و﴿شَهِيدُۢ﴾ خبر ابتداء مضمر (١).

وقال مجاهد: المعنى أن الله تعالىٰ قال لِنَبيِّه عليه الصلاة والسلام: قل لهم: ﴿أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾، وقل لهم ﴿ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ لما عيوا عن الجواب. فـ ﴿شَهِيدُۢ﴾ ـ على هذا التأويل ـ خبر لـ ﴿ٱللَّهُۖ﴾، وليس في هذا التأويل مبادرة من السائل إلى الجواب المراد بقوله: ﴿شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ أَي: في تبليغي.

وقرأَت فرقة: [وَأَوْحَى إِلَيَّ هذا القرآن] على الفعل الماضي ونصب ﴿ٱلۡقُرۡءَانُ﴾، وفي [وَأَوْحَي] ضمير عائد على الله تعالىٰ من قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾، وقرأَت فرقة: ﴿وَأُوحِيَ﴾ على بناءِ الفعل للمفعول ﴿ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ رفعاً. ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ معناه: لأُخوّفكم به العقاب والآخرة، و﴿وَمَنۢ﴾ عطف على الكاف والميم في قوله: ﴿لِأُنذِرَكُم﴾، و﴿بَلَغَۚ﴾ معناه ـ على قول الجمهور ـ بلاغ القرآن، أَي: لِأُنْذِرَكم وأُنذر من بلغه، ففي ﴿بَلَغَۚ﴾ ضمير محذوف لأَنه صلة ﴿وَمَنۢ﴾ فحذف لطول الكلام، وقالت فرقة: ومن بلغ الحلم، ففي ﴿بَلَغَۚ﴾ ـ على هذا التأْويل ـ ضمير مقدر راجع إِلىٰ ﴿وَمَنۢ﴾.

وروي في معنى التأْويل الأَول أَحاديث منها أَن النبي ﷺ قال: (يَا أَيها الناس، بلِّغوا عني ولو آية، فإِنه من بُلِّغَ آية من كتاب الله تعالى فقد بَلَغَه أَمر الله تعالىٰ أَخذه أَو تركه)(٢). ونحو هذا من الأَحاديث كقوله: (مَنْ بَلَغَهُ هذا القرآن فَأَنا نذيره)(٣).

---

(١) قال بعض العلماءِ: هذا الإِعراب مرجوحٌ لأن فيه إضماراً في الآخر (حيث أُضمر خبر المبتدأ)، وفي الأول (حيث أُضمر المبتدأ). والإِعراب الراجح هو أن قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ مبتدأ وخبر، في جملة مستقلة بنفسها لا تعلق لها بما قبلها من جهة الصناعة الإِعرابية، لأن قوله: ﴿أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾ هو استفهام على جهة التقرير والتوقيف ـ ثم جاءت الجملة التالية للإخبار بأن الله خالق الأشياء. والواضح أن هذا الخلاف في الإعراب مرتبط بجواز إطلاق كلمة (شيء) على الله تعالىٰ أو بعدم جواز ذلك. والله أعلم.

(٢) أخرجه الطبري بسنده إلى قتادة، وأخرجه أبو الشيخ أيضاً من طريق قتادة. (تفسير الطبري، والدر المنثور). وأخرج البخاري وابن مردويه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (بلغوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إِسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار).

(٣) أخرجه ابن جرير عن يونس عن ابن زيد. (تفسير الطبري). وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم والخطيب ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (مَن بَلَغَه القرآن فكأنما شافهته) (الدر المنثور).

وقرأت فرقة: [آينَّكُمْ] بزيادة ألف بين الهمزة الأولى والثانية المُسَهَّلة عاملة بعد هذا التسهيل المعاملة قبل التسهيل[(١)]، وقرأت فرقة: [أَينَّكُمْ] بهمزتين الثانية مُسَهَّلَة دون ألف بينهما، وقرأت فرقة: [آئِنَّكُمْ] اسْتَثْقَلت اجتماع الهمزتين فزادت ألفاً بين الهمزتين[(٢)]، وقرأت فرقة: [إِنَّكُمْ] بالإيجاب دون تقدير.

وهذه الآية مقصدها التوبيخ وتسفيه الرأي.

و﴿أُخْرَىٰ﴾ صفة لـ ﴿ءَالِهَةً﴾، وصفة جمع مالا يعقل تجري في الإفراد مجرىٰ الواحدة المؤنثة كقوله: ﴿مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾[(٣)]، وكذلك مخاطبة جمع مالا يعقل كقوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾[(٤)] ونحو هذا.

ولما كانت هذه الآلهة حجارة وعيداناً أُجريت هذا المجرىٰ.

ثم أَمره الله تعالىٰ بالتَّبَرِّي من شهادتهم، والإعلان بالتوحيد لله تبارك وتعالىٰ، والتَّبَرِّي من إشراكهم. ﴿وَإِنَّنِي﴾ إيجاب أُلحق فيه النون التي تلحق الفعل لتبقىٰ حركته عند اتصال الضمير به في قولك: «وضربني» ونحوه.

وظاهر الآية أَنها في عبدة الأَصنام، وذكر الطبري أَنه قد ورد من وجه لم تثبت صحته أَنها نزلت في قوم من اليهود، وأَسند إِلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءَ النحام بن زيد، وفردم بن كعب، وبحري بن عمرو فقالوا: يا محمد ما تعلم مع الله إلٰهاً غيره؟ فقال لهم: لا إلٰه إلا الله، بذلك أُمرت. فنزلت الآية فيهم.

---

(١) اختلف النسخ الأصلية في هذه العبارة، وقد اخترنا أوضحها دلالة على المعنى المراد وهو أن الألف الزائدة بين الهمزتين تعمل بعد تسهيل الثانية ما كانت تعمله قبل التسهيل من الفصل بين الهمزتين لتسهيل النطق لاحظ كلمة (المعاملة) في تعبير المؤلف.

(٢) زيادة الألف بين الهمزتين كراهة التقائهما لغة معروفة، وعليها قال ذو الرمة:

أَيَا ظَبْيَةَ الوَعْسَاءِ بَيْنَ جَلاجِلٍ وبَيْنَ النَّقَا آأَنْتِ أَمْ أُمُّ سالِمِ؟

والوعساء: رملة لينة، وجَلاجل بفتح الجيم: موضع بعينه، وفي كتاب سيبويه: جُلاجل بضم الجيم، والنَّقا: الكثيب من الرمل.

(٣) من الآية (١٨) من سورة (طه).

(٤) من الآية (١٠) من سورة (سبأ).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ رفع بالإبتداءِ، وخبره ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾، و﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ معناه: التوراة والإِنجيل، وهو لفظ مفرد يدلُّ على الجنس، والضمير في ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ عائد ـ في بعض الأَقوال ـ على التوحيد لقرب قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، وهذا استشهاد في ذلك على كفرة قريش والعرب بأَهل الكتاب. و﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾ ـ على هذا التأْويل ـ منقطع مرفوع بالابتداءِ وليس من صفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الأُولىٰ، لأَنه لا يصح أَن يُستشهد بأَهل الكتاب ويُذَمُّونَ في آية واحدة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد يصح ذلك لاختلاف ما استشهد فيه بهم وما ذُمّوا فيه، وأَنَّ الذَّمَّ والاستشهاد ليْسَا من جهة واحدة. وقال قتادة، والسدي[1]، وابن جريج: الضمير عائد في ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ على محمد عليه الصلاة والسلام ورسالته، وذلك على ما في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم﴾ فكأَنه قال: «وأَهل الكتاب يعرفون ذلك من إِنذاري والوحي إِليَّ». وتأَول هذا التأْويل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يدل على ذلك قوله لعبد الله ابن سلام: إِن الله أَنزل على نبيِّه بمكة أَنكم تعرفونه كما تعرفون أَبناءَكم، فكيف هذه المعرفة؟ فقال عبد الله بن سلام: نعم أَعرفه بالصفة التي وصفه الله في التوراة فلا أَشك فيه، وأَما ابني فلا أَدري ما أَحدثت أُمه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتأَول ابن سلام رضي الله عنه المعرفة بالابن تحقق صحة نسبه، وغرض الآية إِنما هو الوقوف على صورته فلا يخطىءُ الأَب فيها.

وقالت فرقة: الضمير من ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ عائد على القرآن المذكور قَبْلُ.

---

(١) أخرج أبو الشيخ عن السدي: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُ﴾ الآية ـ يعني يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءَهم، لأن نعته معهم في التوراة، ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ لأنهم كفروا به بعد المعرفة. (الدر المنثور).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويصح أن نعيد الضمير على هذه كلها دون اختصاص كأنه وصف أشياءَ كثيرة ثم قال: «أهل الكتاب يعرفونه» أي: ما قلنا وما قصصنا.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾ الآية... يصح أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نعتاً تابعاً لـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ قبله، والفاءُ من قوله: ﴿فَهُمْ﴾ عاطفة جملة على جملة، وهذا يحسن على تأويل من رأي في الآية قبلها أن أهل الكتاب مُتَوَعَّدون مذمومون لا مُستشهد بهم. ويصح أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ رفعاً بالابتداء على استئناف الكلام، وخبره ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، والفاءُ على هذا الجواب، و﴿خَسِرُوٓاْ﴾ معناه: غبنوها، وقد تقدم.

وروي أن كل عبد له منزل في الجنة ومنزل في النار، فالمؤمنون ينزلون منازل أهل الكفر في الجنة، والكافرون ينزلون منازل أهل الجنة في النار، فها هنا هي الخسارة بيِّنة والربح للآخرين.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الآية... ﴿وَمَنْ﴾ استفهام مضمنة التوقيف والتقرير، أي: لا أحد أظلم ممن افترى. و﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ معناه: اختلق، والمكذب بالآيات مفتر كذاب، ولكنهما منحيان من الكفر فلذلك نُصا مُفسَّرين.

والآيات: العلامات والمعجزات ونحو ذلك، ثم أوجب أنه لا يفلح الظالمون، والفَلاح: بلوغُ الأمل والإرادة والنجاح، ومنه قول عبيد:

أَفْلِحْ بِمَا شِئْتَ فَقَدْ يُبْلَغُ بالضَّـ ... ـعْفِ، وقَدْ يُخَدَّعُ الأَرِيبُ[1]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قالت فرقة: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ كلام تام معناه: لا يفلحون جملة ثم استأنف فقال: واذكر يوم نحشرهم، وقال الطبري: المعنى: لا يفلح الظالمون اليوم في الدنيا ﴿وَيَوْمَ

(١) رواه في اللسان: «فقد يبلغ بالنُّوْك» ثم قال: ويروى: «فقد يُبْلغ بالضَّعف»، ثم قال: «معناه: فُزْ واظفر، التهذيب: يقول: عشْ بما شئت من عقْل وحُمْق، فقد يُرزق الأحمق ويُحرم العاقل» أ هـ.

﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ عطفاً على الظرف المقدر، والكلام متصل.

وقرأت طائفة: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ و ﴿نَقُولُ﴾ بالنون، وقرأ حميد ويعقوب فيهما بالياءِ، وقرأ عاصم هنا وفي (يونس) قبل الثلاثين(١) ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ و ﴿نَقُولُ﴾ بالنون، وقرأ في باقي القرآن بالياءِ. وقرأ أبو هريرة [نَحْشِرهم] بكسر الشين، فيجيءُ الفعل ـ على هذا ـ حَشَر يحْشُر ويَحْشِرُ. وأَضاف الشركاءَ إِليهم لأنه لا شركة لهم في الحقيقة بين الأصنام وبين شيءٍ، وإِنما وقع عليها اسم الشريك بمجرد تسمية الكفرة فأُضيفت إِليهم لهذه النسبة.

و﴿تَزْعُمُونَ﴾ معناه: تدَّعون أَنهم لله، والزعم: القول الأَميل إِلى الباطل والكذب في أَكثر كلامهم، وقد يقال: زعم بمعنى: ذكر دون ميل إِلى الكذب، وعلى هذا الحد يقول سيبويه، زعم الخليل، ولكن ذلك إِنما يستعمل في الشيءِ الغريب الذي تبقى عهدته على قائله.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ الآية ـ قرأ ابن كثير في رواية شبل عنه، وعاصم في رواية حفص، وابن عامر: ﴿تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ برفع شبل عنه، وعاصم في رواية حفص، وابن عامر: ﴿تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ برفع الفتنة، و﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ في موضع نصب على الخبر، التقدير: إِلاَّ قولهُم. وهذا مستقيم لأَنه أَنَّث العلامة في الفعل حين أَسنده إِلى مؤنث وهي الفتنة. وقرأ نافع، وأَبوعمرو، وعاصم في رواية أَبي بكر، وابن كثير أَيضاً: [تَكُنْ فِتْنَتَهُم] بنصب الفتنة، واسم كان: ﴿أَن قَالُوا۟﴾ وفي هذه القراءَة تأْنيث ﴿أَن قَالُوا۟﴾، وساغ إِلىٰ ذلك من حيث الفتنة مؤنثة في المعنىٰ، قال أَبو علي: وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾(٢) فأَنَّث الأَمثال لما كانت الحسنات بالمعنىٰ، وقرأ حمزة، والكسائي: [يَكُنْ] بالياءِ [فِتْنَتَهم] بالنصب واسم كان ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ وهذا مستقيم لأَنه ذكر علامة الفعل حين أَسنده إِلى مذكر. قال الزهراوي: وقرأت فرقة: [يَكُنْ فِتْنَتُهم] برفع الفتنة، وفي هذه القراءَة إِسناد فعل مذكر إِلى مؤنَث، وجاءَ ذلك بالمعنى لأَن الفتنة

---

(١) أي في الآية (٢٨) من سورة (يونس) وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾.

(٢) من الآية (١٦٠) من سورة (الأنعام).

بمعنى الاختبار أو المودة[١] في الشيء والإعجاب. وقرأ أُبيّ بن وكيع[٢]، وابن مسعود، والأعمش: [وَمَا كانَ فِتْنَتَهُمْ]، وقرأ طلحة بن مصرف: [ثُمَّ كانَ فِتنَتُهُمْ]. والفتنة في كلام العرب لفظة مشتركة تقال بمعنى حب الشيءِ والإعجاب به كما تقول فتنت بكذا، وتحتمل الآية هنا هذا المعنىٰ، أي: لم يكن حبهم للأصنام وإعجابهم بها واتباعهم لها لما سُئِلُوا عنها ووقفوا على عجزها إلا التَّبري منها والإنكار لها، وهذا توبيخ لهم كما تقول لرجل يدعي مودة آخر ثم انحرف عنه وعاداه: يا فلان، لم تكن مودتك لفلان إلا أن شتمته وعاديته[٣]، ويقال: الفتنة في كلام العرب بمعنى الاختبار كما قال عزَّ وجلَّ لموسىٰ عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾[٤] وكقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا﴾[٥]، وتحتمل الآية ها هنا هذا المعنىٰ لأن سُؤَالهم عن الشركاءِ وتوقيفهم اختبار، فالمعنى: ثم لم يكن اختبارنا لهم ـ إذ لم يفد ولا أثمر ـ إلاَّ إنكارهم الإشراك. وتجيءُ الفتنة في اللغة على معان غير هذين لا مدخل لها في الآية، ومن قال «إن أَصل الفتنة الاختبار، من فتنتُ الذهب في النار، ثم يُستعار بعد ذلك في غير ذلك» ـ فقد أخطأ لأَن الاسم لا يحكم عليه بمعنىٰ الاستعارة حتى يقطع باستحالة حقيقته في الموضع الذي استعير له، كقول ذي الرمة:

. . . . ولَفَّ الثريَّا في مُلاءَتِهِ الْفَجْرُ[٦]

ونحوه. والفتنة لا يستحيل أَن تكون حقيقة في كل موضع قيلت عليه.

---

(١) الصواب أن يقال: «أن الود في الشيء»، ولكن النسخ الأصلية كلها كما أثبتنا، وقطعاً هو من خطأ النساخ.

(٢) الصواب: أبي بن كعب.

(٣) قال الزمخشري: الفتنة هنا: كفرهم، والمعنى: ثم لم تكن عاقبة فتنتهم في كفرهم الذي لزموه أعمارهم، وافتخروا به، وقاتلوا عليه إلا جحوده والتَّبرؤُ منه، وقال الضحاك: الفتنة هنا: إنكارهم، وقال قتادة: عذرهم. والأقوال كثيرة.

(٤) من الآية (٤٠) من سورة (طه).

(٥) من الآية (٣٤) من سورة (ص).

(٦) البيت بتمامه:

أقامَتْ بِها حَتَّى ذوَى العُودُ في الثَّرَى ... ولَفَّ الثُّريَّا في مُلاءَتِهِ الفَجْرُ

وهو من قصيدة له معروفة، ومطلعها:

ألا يا اسْلَمي يا دارَ مَيَّ عَلَىٰ الْبِلَىٰ ... ولا زالَ مُنْهَلاً بِجَرْعائِكِ القَطْرُ

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عمر: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ خفض على النعت لاسم الله، وقرأ حمزة والكسائي: [رَبَّنَا] نصب على النداءِ، ويجوز فيه تقدير المدح. وقرأ عكرمة، وسلام بن مسكين: [وَاللهُ رَبُّنَا] برفع الاسمين وهذا على تقدير تقديم وتأخير كأنهم قالوا: «ما كنا مشركين والله ربنا». و﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ معناه جحود إشراكهم في الدنيا، فروي أنهم إذا رأوا إخراج من في النار من أهل الإيمان ضجوا فيوقفون ويقال لهم: «أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ» فينكرون طماعية منهم أن يفعل بهم ما فعل بأهل الإيمان. وأتى رجل ابن عباس فقال: سمعت الله يقول: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وفي أخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن قالوا: تعالوا فلنجحد، وقالوا: «ما كنا مشركين» فختم الله على أفواههم وتكلمت جوارحهم فلا يكتمون الله حديثاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعبر بعض المفسرين عن الفتنة هنا بأن قالوا معذرتهم[1]، قاله قتادة، وقال آخرون: كلامهم، قال الضحاك، وقيل غير هذا مما هو كله في ضمن ما ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟﴾ الآية... الخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام، والنظر نظر القلب، وقال: [كَذَبُوا] في أمر لم يقع إذ هي حكاية يوم القيامة فلا إشكال في استعمال الماضي فيها موضع المستقبل، ويفيدنا استعمال الماضي تحقيقاً مّا في الفعل وإثباتاً له، وهذا مهيع في اللغة، ومنه قول الربيع بن ضبع الفزاري:

---

(١) في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: (فيلقى العبد فيقول: أي فُلْ، ألمْ أكرمْك وأُسوِّدْك وأُزوِّجْكَ وأُسخر لك الخيل والإبل وأذرْك ترأس وترْبَعُ؟ فيقول: بلى أي رب، فيقول: أفظننتَ أنّكَ ملاقيّ؟ فيقول: لا، فيقول: إني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول له ويقول هو مثل ذلك بعينه، ثم يلقىٰ الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك، وصلّيْتُ وصُمْتُ وتصدَّقتُ، ويُثني بخير ما استطاع، قال: فيقال: ها هنا إذاً، ثم يقال له: الآن نبعث شاهداً عليك، ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ؟ فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي فتنطق فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله، وذلك ليُعْذِرَ نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي سخط الله عليه).
ومعنى (فُلْ) بضم الفاءِ وسكون اللام يا فُلانُ، وهو ترخيم على غير القياس كما قاله النووي، وقيل: ليس ترخيماً بل هي لغة بمعنى فلان لأنه لا يقال إلا بسكون اللام، ولو كان ترخيماً لفتحوهاأو ضموها ـ ومعنىٰ (ترْبع) أي: تأخذ ربع الغنيمة.

أَصْبَحْتُ لا أَحْمِلُ السلاحَ ولا أَمْلِكُ رأسَ البَعيرِ إنْ نَفَرَا

يريد: إن ينفر.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ معناه: ذهب افتراؤُهم في الدنيا وكذبهم بادعائهم لله تبارك وتعالىٰ الشركاءَ[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

الضمير في قوله: ﴿وَمِنْهُم﴾ عائد على الكفار الذين تضمنهم قبلُ قولُه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾، وأفرد ﴿يَسْتَمِعُ﴾ وهو فعل جماعة حملاً على لفظ ﴿مَنْ﴾، و﴿أَكِنَّةً﴾ جمع كنان وهو الغطاءُ الجامع، ومنه كنانة السهام والكن، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾[2]، ومنه قول الشاعر:

إذا ما انْتَضَوْهَا في الْوَغَىٰ مِنْ أَكِنَّةٍ حَسِبْتَ بُرُوقَ الْغَيْثِ هاجَتْ غُيومُها[3]

وفِعَالٌ وأَفْعِلَةٌ مهيع في كلامهم.

و﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ نصب على المفعول من أجله، أَي: كراهية أَن يفقهوه، وقيل: المعنىٰ: أَلاَّ يفقهوه، ويلزم هذا القول إضمار حرف النفي. و﴿يَفْقَهُوهُ﴾ معناه: يفهموه، ويقال: فقِه الرجل بكسر القاف إذا فهم الشيءَ، وفقُه بضمها إذا صار فقيهاً له ملكة، وفقَه إذا غلب في الفقه غيره.

---

(١) معنى كلامه هذا أن ﴿مَّا﴾ هنا مصدرية. وقد ذهب الزمخشري إلى أنها بمعنى الذي، قال المعنىٰ: «وغاب عنهم ما كانوا يفترون أُلوهيته وشفاعته». وهذا هو معنى ما قاله الحسن وأبو علي إذ قالا: المعنىٰ: «لم يغن عنهم ماكانوا يعبدون من الأصنام في الدنيا».

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٤٩) من سورة الصَّافات: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

(٣) انتضى السيف: أخرجه من غمده. والوغى في الأصل: الجَلَبة، وتطلق على الحرب لما فيها من الصوت والجَلَبة. والأَكِنَّة: جمع كنان وهو هنا: غمد السيف وجرابه الجامع له، يُشَبِّه منظر السيوف اللامعة إذا أُخرجت من أغمادها في المعركة بمنظر البروق التي هاجت غيومها عند نزول المطر، ولم نقف على قائل هذا البيت، ولم يذكره من المفسرين مع ابن عطية إلا صاحب «البحر المحيط».

والوَقْر: الثقل في السمع، يقال: وقِرَت أُذنه ووقَرَت بكسر القاف وفتحها، ومنه قول الشاعر:

وَكَــلامِ سَيِّــئٍ قَــدْ وَقِــرَتْ أُذنــي منْــهُ وَمَــا بــي مِــنْ صَمَــمْ[(١)]

وقد سمع: أُذن موقورة، فالفعل على هذا وُقِرَت. وقرأ طلحة بن مصرف: [وِقْراً] بكسر الواو كأنه ذهب إلى آذانهم وقرت بالصَّمم كما توقر الدابة من الحمل، وهي قراءَة شاذة، وهذا عبارة عما جعل الله في نفوس هؤلاءِ القوم من الغلط والبعد عن قبول الخير، لا أَنهم لم يكونوا سامعين لأَقواله.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ﴾ الآية... الرؤْية هنا رؤْية العين، يريد كانشقاق القمر وشبهه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومقصد هذه الآية أَنهم في أَعجز درجة وحاولوا ردّ الحق بالدعوىٰ المجردة، والواو في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ واو الحال، والباب أَن يصرح معها بقد، وقد تجيءُ أَحياناً مقدرة، وإِيضاح ذلك أَنه تعالىٰ قال: ومن هؤلاءِ الكفرة من يستمعك وهو من الغباوة في حدّ قلبه في كنان، وأُذنه صماء، وهو يرىٰ الآيات فلا يؤْمن بها، ولكنه مع بلوغه الغاية من هذا القصور إِذا جاءَ للمجادلة قابل بدعوىٰ مجردة.

والمجادلة: المقابلة في الاحتجاج، مأْخوذ من الجدل، و﴿هَٰذَآ﴾ في قولهم إِشارة إِلى القرآن، والأَساطير: جمع أَسْطَار، كأَقوال وأَقاويل ونحوه، وأَسْطار: جمع سَطْر أَو سَطَر[(٢)]، وقيل: الأَساطير: جمع إِسطارة وهي التُّرَّهات، وقيل: جمع أُسطورة

---

(١) قال في اللسان: «وقِرت أُذنه بالكسر تَوْقَر وَقْراً أي صَمَّت، ووَقَرَت وَقْراً، قال الجوهري: قياس المصدر التحريك إلا أنه جاء بالتسكين». فمعنى وقِرت في البيت: أصابها الصمم، أي من هذا الكلام السيىء وإن كانت في الحقيقة سليمة غير صماء، ولم نقف على نسبة البيت لقائله.

(٢) السَّطْر: الصفُّ من كل شيءٍ، يقال: سطر من الكتابة، وجمعه أَسْطُر وسطور وأسطار، وعلى هذا فأَساطير هي جمع الجمع، قال صاحب اللسان: أساطير جمع سَطْر، وكما حكىٰ ابن عطية فقد قيل: هي جمع أُسطورة، وقيل: جمع إسطارة، والأصل في ذلك كله الشيء المكتوب في سطور، يزعمون أنه خرافات وأباطيل سطرَّها الأولون ويشهد لهذا المعنى قول الشاعر:

تطَــاوَلَ لَيْلِــي واعْتَــرَتْنــي وَسَــاوِســي لِآتٍ أَتَــىٰ بــالتُّــرَّهَــاتِ الأَبَــاطِيــلِ

كأُعجوبة وأُضحوكة، وقيل: هو اسم جمع لا واحد له من لفظه كعبابيد وشماطيط[١]، والمعنىٰ: أَخبار الأَولين وأَقاصيصهم وأَحاديثهم التي تسطر وتحكىٰ ولا تحقق كالتواريخ، وإِنما شبهها الكفار بأَحاديث النضر بن الحارث وأَبي عبد الله بن أَبي أُمية عن رستم والسندباد، ومجادلة الكفار كانت مرادّتهم نور الله بأَفواههم المبطلة، وقد ذكر الطبري عن ابن عباس أنه مَثَّل من ذلك قولهم: إِنكم أَيها المتبعون محمداً تأكلون ما قتلتم بذبحكم ولا تأْكلون ما قتل الله، ونحو هذا من التخليط الذي لا تتركب منه حجة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا جدالٌ في حُكْم، والذي في الآية إِنما هو جدال في مدافعة القرآن، فلا تتفسر الآية عندي بأَمر الذبح.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

الضمير في قوله: ﴿ وَهُمْ ﴾ عائد على المذكورين قبلُ. والضمير في ﴿ عَنْهُ ﴾ ـ قال قتادة، ومجاهد: يعود على القرآن المتقدم ذكره في قوله: ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾، وقال ابن عباس، وابن الحنفية، والضحاك: هو عائد على محمد عليه الصلاة والسلام، والمعنىٰ أَنهم ينهون غيرهم ويبعدون هم بأَنفسهم، والنأْي: البعد[٢].

﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ ﴾ معناه: ما يهلكون إِلا أَنفسهم بالكفر الذي يدخلهم جهنم، وقال ابن

---

(١) العبابيد من الخيل والناس: المتفرقون الذاهبون في كل وجه، يقال: تفرقوا عبابيد، والعبابيد أيضاً: الطرق المتفرقة ـ والشماطيط: قالوا فيها: تفرق القوم شماطيط، أي فِرَقاً، وثوب شماطيط: خَلَقٌ مُتَشَقِّقٌ. «المعجم الوسيط» مادتي: «عبد وشمط».

(٢) في قوله تعالىٰ: ﴿ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ ﴾ ما يعرف عند البلاغيين بأنه تجنيس التصريف، وهو أن تنفرد كل كلمة عن الأخرى بحرف، فقد انفردت ﴿ يَنْهَوْنَ ﴾ بالهاء، وانفردت ﴿ وَيَنْـَٔوْنَ ﴾ بالهمزة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ ومنه: (الخيل معقود في نواصيها الخير)، وفي كتاب التحبير سَمَّاه: تَجنيس التحريف وقال: هو أن يكون الحرف فرقاً بين الكلمتين، وأنشد عليه:

إنْ لَمْ أَشُنَّ علَى ابْنِ هِنْدٍ غارَةً ... لِنَهَابِ مالٍ أَوْ ذَهَابِ نفوسِ

عباس أَيضاً، والقاسم، وحبيب بن أَبي ثابت، وعطاءُ بن دينار: المراد بقوله: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ أَبو طالب وَمَنْ كان معه على حماية رسول الله ﷺ، وعلى الدوام في الكفر(١). والمعنىٰ: وهم ينهون عنه من يريد إذايته، وينأون عنه بإِيمانهم واتِّباعهم، فهم يفعلون الشيءَ وخلافه. ويُقلق هذا القولَ ردُّ قوله: ﴿ وَهُمْ ﴾ على جماعة الكفار المتقدم ذكرها، لأَن جميعهم لم يكن ينهى عن إِذاية النبي ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويتخرج ذلك ويَحْسُن على أَن تقدر القصد ذكر ما ينعى على فريق من الجماعة التي هي كلها مُجْمِعَة على الكفر، فخرجت العبارة عن فريق من الجماعة بلفظ يعم الجماعة؛ لأَن التوبيخ على هذه الصورة أَغلظ عليهم، كما تقول إِذا شنَّعت على جماعة فيها زُناة وسرقة وشربة خمر: هؤلاءِ يزنون ويسرقون ويشربون الخمر، وحقيقة كلامك أَن بعضهم يفعل هذا وبعضهم يفعل هذا، فكأَنه قال: من هؤلاءِ الكفرة من يستمع وهم ينهون عن إِذايته ولا يؤمنون به، أَي: منهم من يفعل ذلك.

﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ معناه: ما يعلمون علم حسّ، وهو مأْخوذ من الشعار الذي يلي بدن الإِنسان، والشعار مأْخوذ من الشعر، ونَفْيُ الشعور مذمة بالغة، إِذ البهائم تشعر وتُحسُّ، فإِذا قلت: «فلان لا يشعر» فقد نفيت عنه العلم، النفي العام الذي يقتضي أَنه لا يعلم ولا المحسوسات.

---

(١) يعني أَن أَبا طالب ومن معه، كانوا ينهون الكفار عن إِيذاءِ الرسول ﷺ ويبقون مُصرين على كفرهم وبعدهم عن الإِيمان. وقد روي في السيرة أن النبي ﷺ تعرض للأذى وهو يصلي في الكعبة، حيث وضع عبد الله بن الزِّبَعْرى فرثاً ودماً عليه، ولطخ وجهه بهما، فذهب النبي صلوات الله وسلامه عليه إلى عمه أبي طالب قائلاً: يا عمّ، ألا ترى ما فُعل بي؟ فقال: من فعل بك هذا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: عبد الله بن الزِّبَعْرىٰ، فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه، ومشى حتى أتى القوم في الكعبة، فأَخذ فرثاً ودماً، فلطخ بهما وجوه القوم ولِحاهم وثيابهم، وأساء لهم القول، فنزلت هذه الآية ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ... ﴾ فقال النبي ﷺ: يا عمِّ، نزلت فيك آية.. فلما سمعها قال:

والله لَـنْ يَصِلُـوا إِلَيْـكَ بِجَمْعِهِـمْ ... حَتَّـى أُوَسَّـدَ فـي التُّـراب دَفِينَـا
فـاصْـدَعْ بـأَمْـرِكَ مـا عَلَيْـكَ غَضَـاضَـةٌ ... وابْشِـرْ بِـذاكَ وقَـرَّ مِنْـكَ عُيُـونَـا
ودَعَـوْتَنـي وزَعَمْـتَ أَنَّـكَ نَـاصِحِـي ... فَلَقَـدْ صَـدَقْـتَ وكُنْـتَ قَبْـلُ أَمينَـا
وعَـرَضْـتَ دينًـا قَـدْ عَـرَفْـتُ بِـأَنَّـهُ ... مِـنْ خَيْـرِ أَدْيَـانِ البَـرِيَّـةِ دينَـا
لَـولا المَـلامَـةُ أَوْ حِـذارُ مَسَبَّـةٍ ... لَـوَجَـدْتَنـي سَمْحـاً بِـذاكَ يَقِينَـا

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقرأ الحسن: [وَيَنَوْنَ عَنْهُ]. أَلقيت حركة الهمزة على النون على التسهيل القياسي.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ الآية. المخاطبة فيه لمحمد صلى الله عليه وسلم، وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف تقديره في آخر هذه الآية: لرأَيتَ هَوْلاً أَو مشقات أَو نحو هذا، وحذف جوابها في مثل هذا أَبلغ لأَن المخاطب يُتْرَكُ مع غاية تخيله[1].

ووقعت ﴿إِذْ﴾ في موقع (إِذا) التي هي لما يُستقبل، وجاز ذلك لأَن الأَمر المتيقن وقوعه يُعبر عنه كما يعبر عن الماضي الوقوع. و﴿وُقِفُوا۟﴾ معناه: حبسوا، ولفظ هذا الفعل متعدياً وغيرَ متعدٍّ سواءٌ، تقول: وقفتُ أَنا ووَقَفْتُ غيري. وقال الزهراوي: وقد فُرِّق بينهما بالمصدر، ففي المتعدي: وَقَفْتُه وَقْفاً، وفي غير المتعدي: وقفت وقوفاً، قال أَبو عمرو بن العلاءِ: لم أَسمع في شيءٍ من كلام العرب أَوْقَفْتُ فُلاناً، إِلاَّ أَني لو لقيتُ رجلاً واقفاً فقلتُ له: ما أَوقفك ها هنا؟ لكان عندي حسناً، ويحتمل قوله: ﴿وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أَن يكون: دخلُوها، فكان وقوفهم عليها أَي فيها، قاله الطبري، ويحتمل أَن يكون: أَشرفوا عليها وعاينوها.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، والكسائي، وعاصم في رواية أَبي بكر رضي الله عنه: [وَلاَ نُكذِّبُ] [ونَكُونُ] بالرفع في كلها، وذلك على نِيَّة الاستئناف والقطع في قوله: [ولا نكذِّبُ] [ونَكُونُ] أَي: ياليتنا نُرد، ونحن على كل حالٍ لا نُكَذِّبُ ونكونُ، فأَخبروا عن أَنفسهم بهذا، ولهذا الإِخبار صح تكذيبهم بعد هذا، ورجَّح هذا سيبويه ومَثَّلَه بقولك: دعني ولا أَعودُ، أَي: وأَنا لا أَعود على كل حال، ويُخَرَّج ذلك على قول آخر وهو أَن يكون: [ولا نكذِّبُ] [ونكونُ] داخلاً في التمني على حدِّ ما دخلَتْ فيه ﴿نُرَدُّ﴾، كأَنهم قالوا: ياليتنا نُرَدُّ، وليتنا لا نكذِّبُ، وليتنا نكونُ، ويعترض هذا التأْويل بأَن من تمنى شيئاً لا يقال: إِنه كاذب، وإِنما يُكَذِّب من أَخبر.

---

(١) وحذف جواب [لو] لدلالة الكلام عليه جائز فصيح، وهو كثير، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ...﴾ الآية ـ أي: لكان هذا القرآن ـ ومنه أيضاً قول الشاعر:

وَجَـدِّكَ لـو شـيءٌ أَتـانـا رَسُـولُـهُ ... سِـوَاكَ، ولكـنْ لَـمْ نَجِـدْ لَـكَ مَـدْفعـا

التقدير: لو شيءٌ سواك أَتانا رسوله لدفعناه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وينفصل عن هذا الاعتراض بأَن يكون قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ حكاية عن حالهم في الدنيا كلاماً مقطوعاً عما قبله، وبوجه آخر وهو أَن المتمنِّي إِذا كانت سجيته وطريقته مخالفة لما تمنى بعيدةً منه يصح أَن يقال له: كذبتَ على تجوّز، وذلك أَن من تمنَّى شيئاً فتمنِّيه يتضمن إِخباراً أَن تلك الأُمنية تصلح له ويصلح لها، فيقع التكذيب في ذلك الإِخبار الذي يتضمَّنُه التمني، ومثال ذلك أَن يقول رجلٌ شرير: ليتني أَحجُّ وأُجاهد وأَقوم الليل، فجائز أَن يقال لهذا عَلَى تجوز: كذبتَ، أَي أَنت لا تصلح لهذا ولا يصلح لك.

ورُوي عن أَبي عمرو أَنه أَدغم باءَ ﴿نُكَذِّبَ﴾ في الباءِ التي بعدها، وقرأَ ابن عامر، وحمزة وعاصم في رواية حفص: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ ﴿وَنَكُونَ﴾ بنصب الفعلين، وذلك كما تنصب الفاءُ في جواب التمني، فَالْوَاوُ في ذلك والفاءُ بمنزلة، وهذا على تقدير ذكر مصدر الفعل الأَول، كأَنهم قالوا: ياليتنا كان لنا ردٌّ وعدمُ تكذيبٍ وكونٌ من المؤمنين. وقرأَ ابن عامر في رواية هشام بن عمار عن أَصحابه عن ابن عامر: [ولا نكذِّبُ] بالرفع ﴿وَنَكُونَ﴾ بالنصب. ويتوجه ذلك ـ على ما تقدم[1] ـ في مصحف عبد الله بن مسعود: [يا ليتنا نرد فلا نكذب بآيات ربنا وتكون] بالتاءِ، وفي قراءَة أُبي بن كعب: [ياليتنا نُردُّ فلا نكذب بآيات ربنا أَبداً ونكُونَ]، وحكى أَبو عمرو أَن قراءَة أُبي: [بآيات ربنا ونحن نكون].

وقوله: ﴿نُرَدُّ﴾ في هذه الأَقوال كلها معناه: إِلى الدنيا، وحكىٰ الطبري تأْويلاً آخر وهو: ياليتنا نرد إِلى الآخرة، أَي: نبعث ونوقف على النار التي وقفنا عليها مكذبين، ليت ذلك ونحن في حالة لا نكذب ونكون، فالمعنىٰ: ياليتنا نوقف هذا الوقوف غير مكذبين بآيات ربنا كائنين من المؤمنين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التأْويل يضعف من غير وجه، ويبطله قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا

(١) ما تقدم: هو قوله قبل قليل في توجيه قراءَة النصب: «وذلك كما تنصب الفاءُ في جواب التَّمني». وقوله: «ويتوجه ذلك» كلام مستأنف لا يتعلق بما قبله.

عَنۡهُ﴾، ولا يصح أيضاً التكذيب في هذا التمني لأنه تمني ما مضىٰ، وإنما يصح التكذيب الذي ذكرناه قبل هذا على تجوز في تمني المستقبلات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿بَلۡ(١) بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠﴾.

الضمير في ﴿لَهُم﴾ عائد على من ذُكر في قوله: ﴿وُقِفُواْ﴾ و﴿قَالُوٓاْ﴾، وهذا الكلام يتضمن أَنهم كانوا يخفون شيئاً ما في الدنيا فظهر لهم يوم القيامة، أَو ظهر لهم وبالُه وعاقبته، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إِليه مقامه. وحكى الزهراوي عن فرقة أَنها قالت: الآية في المنافقين لأَنهم كانوا يخفون الكفر فبدا لهم وباله يوم القيامة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتقلق العبارة على هذا التأْويل لأَنه قال: ﴿وُقِفُواْ﴾ يريد جماعة كفار، ثم قال: ﴿بَدَا لَهُم﴾ يريد المنافقين من هؤلاءِ الكفار، والكلام لا يعطي هذا إلا على تحامل. قال الزهراوي: وقيل: إن الكفار كانوا إذا وعظهم النبي ﷺ خافوا وأَخفوا ذلك الخوف لئلا يشعر به أتباعهم فظهر لهم ذلك يوم القيامة.

وقال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويصحُّ أَن يكون مقصد الآية الإِخبار عن هول ما لقوه والتعظيم لما شقوابه، فعبر عن ذلك بأَنهم ظهرت لهم مستوراتهم في الدنيا من معاص وغير ذلك. فكيف الظن ـ على هذا ـ بما كانوا يعلنون من كفر ونحوه؟ وينظر إِلى هذا التأْويل قوله تعالىٰ في تعظيم شأْن يوم القيامة: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾(٢). ويصح أَن يقدر الشيءُ الذي كانوا يخفونه في

(١) (بل) هنا للإضراب والانتقال من شيءٍ إلى شيءٍ من غير إبطال لما سبق، وهكذا تأتي في كتاب الله تعالىٰ إذا كان ما بعدها من إخبار الله سبحانه وتعالىٰ، أما إذا كان ما بعدها يقال على سبيل الحكاية عن قوم فإن معنى الإضراب يختلف عما ذكرناه كقوله تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ﴾. ذكر ذلك في «البحر المحيط».

(٢) الآية رقم (٩) من سورة (الطارق).

الدنيا نُبُوَّة محمد ﷺ وأَقواله، وذلك أَنهم كانوا يُخفون ذلك في الدنيا بأَن يُحقِّروه عند من يرد عليهم، ويصفوه بغير صفته، ويتلقَّوا الناس على الطرق فيقولون لهم: هو ساحر، هو يُفرّق بين الأَقارب، يريدون بذلك إِخفاءَ أَمره وإِبطاله، فمعنى هذه الآية على هذا: بل بدا لهم يوم القيامة أَمرك وصدقك وتحذيرك وإِخبارك بعقاب من كفر الذي كانوا يخفونه في الدنيا، ويكون الإِخفاءُ على ما وصفناه.

وقال الزجاج: المعنىٰ: ظهر للذين اتَّبعوا الغُواة ما كان الغُواة يخفون من البعث.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالضميران على هذا ليسا لشيءٍ واحد[1]، وحكى المهدوي عن الحسن نحو هذا.

وقرأَ يحيىٰ بن وثَّاب، والنَّخعي، والأَعمش: [وَلَو رِدُّوا] بكسر الراءِ على نقل حركة الدال من (رُدِدُوا) إِليها.

وقوله: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ﴾ إِخبار عن أَمر لا يكون كيف كان يوجد، وهذا النوع مما استأْثر الله بعلمه، فإِن أَعلم بشيءٍ منه عُلم وإِلا لم يتكلم فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ إِما أَن يكون متصلاً الكلام ويكون التكذيب في إِخبارهم على معنى أَن الأَمر في نفسه بخلاف ما قصدوا لأَنهم قصدوا الكذب، أَو يكون التكذيب في التمني على التجوز الذي ذكرناه. وإِما أَن يكون منقطعاً إِخباراً مُسْتَأْنفاً عما هم عليه في وقت مخاطبة النبي عليه الصلاة والسلام، والأَول أَصوب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ الآية.. هذا ـ على تأْويل الجمهور ـ ابتداءُ كلام وإِخبار عنهم بهذه المقالة، ويحسن مع هذا أَن يكون قوله قبل: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ مستأْنفاً مقطوعاً خبراً عن حالهم في الدنيا التي من قولهم فيها: «إِن هي إِلا حياتنا الدنيا» وغير ذلك، و﴿إِنۡ﴾ نافية، ومعنى الآية التكذيب بالحشر والعودة إِلى الله، وقال ابن زيد: قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ معطوف على قوله: ﴿لَعَادُواْ﴾ أَي: لعادوا لما نُهوا عنه من الكفر وقالوا: إِن هي إِلا حياتنا الدنيا.

---

(١) الضمير الأول في قوله: ﴿بَدَا لَهُم﴾، فالمراد به الذين اتبعوا الغواة، والضمير الثاني في قوله: ﴿يُخۡفُونَ﴾: والمراد به الغواة أنفسهم لأنهم كانوا يخفون الأمر عن أتباعهم، وقد يؤيد هذا قوله سبحانه بعده: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتوقيف الله لهم في الآية بعدها على البعث والإشارة إليه في قوله: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ يردُّ على هذا التأويل(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟﴾ الآية.. بمعنىٰ: ولو ترى إذ وقفوا كما تقدم آنفاً من حذف جواب ﴿وَلَوْ﴾، وقوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ معناه: على حُكمه وأمره، ففي الكلام ولا بُدَّ حذف مضاف(٢).

وقوله: ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى البعث الذي كذبوا به في الدنيا، و﴿بَلَىٰ﴾ هي التي تقتضي الإقرار بما استفهم عنه منفياً ولا تقتضي نفيه وجحده، و(نَعَم) تصلح للإقرار به، كما ورد ذلك في قول الأنصار للنبي عليه الصلاة والسلام حين عاتبهم في الحظيرة عقب غزوة حنين(٣)، وتصلح أيضاً (نعَم) لجحده فلذلك لا تستعمل(٤)، وأما قول

---

(١) عقَّب أبو حيان في «البحر» على ذلك بقوله: «ولا يردُّه ما ذكره ابن عطية لاختلاف الموطنَيْن، لأن إقرارهم بحقيقة البعث هو في الآخرة، وإنكارهم ذلك هو في الدنيا على تقدير عودهم، وهو إنكار عنادٍ، فإقرارهم به في الآخرة لا ينافي إنكارهم له في الدنيا على تقدير العود، الا ترى إلى قوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ وقول أبي جهل وقد علم أن ما جاءَ به رسول الله ﷺ حق ما معناه أنه لا يؤمن به أبداً، هذا وذلك في موطن واحد وهي الدنيا. (البحر المحيط ٤ـ ١٠٤)».

(٢) وقيل: ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى (عند)، أي: عند ملائكته وجزائه، وحيث لا سلطان فيه لغير الله عز وجل، تقول وقفت على فلان، أي عنده.

(٣) في «السيرة النبوية» لابن هشام عند الحديث على توزيع الغنائم في حنين أن هذا الحيَّ من الأنصار وجَدوا في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة، وبناءً على طلب الرسول جمعهم سعد بن عبادة في الحظيرة، ثم أتاهم الرسول ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما قَالَةٌ بلغتني عنكم، وجِدَةٌ وجدْتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداءً فألَّف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بَلَىٰ، الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل، ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المَن والفضل، قال ﷺ: أما والله لو شئتم لقلتم فَلَصَدَقْتُم وَلَصُدِّقْتُم: أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَاك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسَيْنَاكَ»... إلى أن قال: «اللهم ارحم الأنصار وأبناءَ الأنصار، وأبناءَ أبناءِ الأنصار». قال الراوي «وهو أبو سعيد الخدري»: فبكى القوم حتى أَخْضَلُوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قَسْماً وحَظّاً. (٤ـ ١٤٢ ط دار إحياء التراث العربي ـ بيروت). فقول الأنصار هنا: «بَلَىٰ، اللهُ ورسوله أَمَنُّ وأفضل» للإقرار بالمستفهم عنه منفياً لا لِنَفْيه. والمستعمل في الحديث (بلى) وليس (نعم) كما يفهم من كلام ابن عطية.

(٤) يريد ابن عطية بكلامه هذا أن يفرق بين (بَلَى) و(نعم) ـ وخلاصة ما ذكره أنَّ (بَلَى) تأتي بعد المُسْتَفهم عنه منفياً فتقتضي الإقرار بما استفهم عنه بهذه الصورة المنفية، ولا تقتضي نفيه ولا إنكاره وجحده، أما=

الزجاج وغيره: إنها إنما تقتضي جحده، وإنهم لو قالوا: (نَعَم) عند قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ لكفروا فقول خطأٌ، والله المستعان. وقولهم: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ إيمان ولكنه حين لا ينفع، وقوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ استعارةٌ بليغة، والمعنىٰ باشروه مباشرة الذائق إذ هي من أشد المباشَرات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١)﴾.

هذا استئناف إخبار عن خسارة المكذبين يتضمن تعظيم المصاب الذي حلَّ بهم، وتستعمل الخسارة في مثل هذا لأنه من أخذ الكفر واتَّبعه فكأنَه قد أعطىٰ الإيمان واطَّرَحه، فأَشبهت صفقة أَخذ وإِعطاءٍ.

والإشارة بهذه الآية إلى الذين قالوا: «إنما هي حياتنا الدنيا»، وقوله: ﴿بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ معناه: بالرجوع إليه وإِلى أَحكامه وقدرته، كما تقول: لَقِيَ فلان أَعماله، أَي لَقي عواقبهَا ومآلها. و﴿السَّاعَةُ﴾: يوم القيامة، وأَدخل عليها تعريف العهد دون تقدم ذكرها لشُهرتها واستقرارها في النفوس وذيوع أَمرها، وأَيضاً فقد تضمنها قوله تعالىٰ: ﴿بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾.

و﴿بَغْتَةً﴾ معناه: فجْأَةً، تقول: بغتني الأَمر أَي فجأَني، ومنه قول الشاعر:

ولكنَّهم تابوا ولمْ أَخْشَ بَغْتَةً ... وأَفْظَعُ شَيْءٍ حينَ يَفْجَؤُكَ البَغْتُ[1]

ونصبها على المصدر في موضع الحال، كما تقول: «قتلتهُ صبراً»، ولا يجيز سيبويه القياس عليه، لا تقول: «جاءَ فلان سرعةً» ونحوه[2].

= (نَعَمْ) فتصلح للإقرار به منفياً كما ورد في الحديث النبوي الشريف «أَلَم آتكم ضُلالاً فهداكم الله»؟ وتصلح أيضاً لنفيه وإنكاره، ولكن كلامه غير واضح، وعليه كثير من علامات الاستفهام.

(١) هذا البيت ليزيد بن ضَبَّة الثَّقَفي كما قال صاحب «اللسان»، وقداختلفت الأَصول في كلمة (تابوا) ـ فهي في بعض النسخ (نابوا) ـ وفي رواية «اللسان»:

ولكنَّهُمْ ماتوا ولَمْ أَدْرِ بَغْتَةً ... وأَفْظَعُ شيءٍ حين يَفْجَؤُكَ البَغْتُ

وهي التي تتفق مع معنى البغتة وفظاعتها، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ وفيه: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ أي: فَجْأَةً.

(٢) من الشواهد التي أنشدها سيبويه على نصب المصدر في موضع الحال قول زهير بن أبي سلمىٰ: =

ونداءُ «الحسرة» على تعظيم الأمر وتشنيعه، قال سيبويه: وكأن الذي ينادي الحسرة أَو العجب أَو السرور أَو الويل يقول: اقربي أَو احضري فهذا وقتك وزمنك، وفي ذلك تعظيم للأَمر على نفس المتكلم وعلى سامعه إن كان ثَمَّ سامع، وهذا التعظيم على النفس والسامع هو المقصود بنداءِ الجمادات كقولك: يا دار، ويا رَبْع، وفي نداءِ مالا يعقل كقولهم: يا جَمَل، ونحو هذا[١].

و﴿فَرَّطْنَا﴾ معناه: قصّرنا مع القدرة على ترك التقصير، وهذه حقيقة التفريط، والضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ عائد على الساعة، أَي: في التقدمة لها، وهذا قول الحسن، وقال الطبري: يعود على الصفقة التي يتضمنها ذكر الخسارة في أَول الآية، ويحتمل أَن يعود الضمير على الدنيا إِذ المعنى يقتضيها وتجيءُ الظرفية أَمكن بمنزلة: زيد في الدار، وَعَوْدُه على الساعة إِنما معناه في أُمورها والاستعداد لها بمنزلة: زيد في العلم مشتغل.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ الآية.. الواو واو الحال. والأَوزار: جمع وِزْر بكسر الواو وهو الثقل من الذنوب، تقول منه: وَزَرَ يزِرُ إِذا حمل، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٢]، وتقول: وَزَرَ الرجل فهو مَوْزُور، قال أَبو عبيدة: والعامة تقول: مأْزور، وأَما إِذا اقترن ذلك بمأجور فإِن العرب تقول: مأزور، وقد قال النبي ﷺ لِنساءٍ لقيهن مقبلات من المقابر: (ارجعن مأْزورات غير مأْجورات)[٣]، قال أَبو علي وغيره: فهذا للإِتباع اللفظي. والوِزْرُ هنا تجوز وتشبيه بثقل الأَحمال، وقَوَّى التشبيه بأَن جعله على الظهور إِذ هي في العادة موضع حمل الأَثقال، ومن قال إِنه من الْوَزَر

= فَـلأيـاً بِـلأْيٍ مـا حَمَلْنَـا وَلِيـدَنَـا ... على ظَهْرِ مَحْبوكٍ ظِمـاءٍ مَفاصِلُـه

التقدير: حملنا وليدنا مُبْطِئِين مُلْتِين، والبيت في وصف فرس بالنشاط والسرعة، والمحبوك الشديد الخَلْق، والظماءُ هنا: القليلة اللحم، يقول: إذا حملنا وليدنا على هذا الفرس ليصيد امتنع لنشاطه فلم تحمله إلا بعد إبطاءٍ وجهد.

(١) هذا أبلغ في النفس من قولك: تعجبت، ومن أمثلته قول امرىء القيس في معلقته:

وَيَـوْمَ عقَـرْتُ لِلْعَـذارى مَطِيَّتـي ... فيـا عَجَبـاً مِـنْ رَحْلِهـا المُتَحَمَّـلِ

(٢) تكررت في الآيات: (١٦٤) من سورة (الأنعام)، و(١٥) من سورة (الإسراء)، و(١٨) من سورة (فاطر)، و(٧) من سورة (الزُّمَر) و(٣٨) من سورة (النجم).

(٣) أخرجه ابن ماجة عن عليٍّ كرم الله وجهه، وأخرجه أَبو يَعْلَى في مسنده عن أنس، ورمز له السيوطي بالصحة في الجامع الصغير.

وهو الجبل الذي يُلْتَجأُ إليه ـ ومنه الوزير وهو المعين ـ فهي مقالةٌ غير بينة. وقال الطبري وغيره: هذا على جهة الحقيقة. ورَوَوْا في ذلك خبراً أن المؤمن يلقاه عمله في أَحسن صورة وأَفرحها فيسلم عليه ويقول له: طالما ركبتك في الدنيا وأَجْهَدْتُك فاركبني اليوم، قال فيحمله تمثال العمل، وأَن الكافر يلقاه عمله في أقبح صورة وأَنتنها فيشتمه ويقول: أَنا عملك الخبيث، طالما ركبتني في الدنيا بشهواتك فأنا أَركبك اليوم، قال: فيحمل تمثال عمله وأَوزاره على ظهره(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ إخبارٌ عن سوءِ ما يأْثمون مُضَمّن التعظيم لذلك والإشادة به، وهذا كقول النبي ﷺ: (أَلا فلْيُبَلِّغ الشاهد الغائب) وقوله: (أَلا هل بلَّغت؟)(٢)، فإنما أَراد الإشادة والتشهيد، وهذا كله يتضمنه ﴿أَلَا﴾، وأَما ﴿سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ فهو خبر مجرد كقول الشاعر:

رضيتُ خُطَّةَ خَسْفٍ غيْرَ طائِلَة ... فساءَ هَذا رضىً يا قَيْسُ عيلانا

و﴿سَآءَ﴾ فعل ماض، و﴿مَا﴾ فاعلةٌ به كما تقول: «ساءَني أَمر كَذا»، ويحتمل أَن تجري ﴿سَآءَ﴾ هنا مجرى (بئس) ويقدر لها ما قد يقدر لبئس إذ جاءَ في كتاب الله: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾(٣).

---

(١) أخرج مثله ابن جرير وابن أبي حاتم عن عمرو بن قيس الملائي، وأخرج مثله ابن أبي حاتم من طريق عمرو بن قيس عن أبي مرزوق. (الدر المنثور ٣ـ٩).

(٢) جاءَ ذلك في خطبته ﷺ في حجة الوداع مع اختلاف الروايات في بعض الألفاظ، ففي السيرة النبوية لابن هشام: «اللّهم هل بلَّغت؟» وأن الناس قالوا اللّهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم اشهد».

(٣) من الآية (١٧٧) من سورة (الأعراف) ـ ومعنى كلام ابن عطية أن (ساءَ) متعدية، وأن (ما) فاعل كما نقول: «ساءَني هذا الأمر»، وأن الكلام خبر مجرد كقول الشاعر: «فساءَ هذا رضى. . . » ومعنى هذا أن وزنها فَعَل بفتح العين، و(ما) يمكن أن تكون موصولة، ويمكن أن تكون مصدرية فينسبك منها مع ما بعدها مصدر ويصير هو الفاعل أي: ألا ساءَ وِزْرُهم ـ وذكر وجهاً ثانياً هو احتمال أن تكون مثل (بئس) في المعنى والأحكام، ومعنى هذا أنها حُوِّلت إلى (فَعُل) بضم العين وأُريد بها المبالغة في الذم. وهناك وجه ثالث ذكره أبو حيان في «البحر» وهو أنها حوِّلت إلى (فَعُل) بضم العين وأُشربت معنى التعجب، والمعنىٰ: ألا ما أَسوأَ ما يزرونه ـ على أن (ما) موصولة ـ أو ما أَسوأ وزرهم ـ على أنها مصدرية ـ والأوجه الثلاثة يمكن ورودها في معنى البيت الذي ذكره ابن عطية ولا يتعين أن تكون (ساء) فيه خبراً مجرداً. (راجع «البحر المحيط» ٤ـ ١٠٧، ١٠٨).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

هذا ابتداءُ خبر عن حال الدنيا، والمعنىٰ: إنها إذا كانت فانية منقضية لا طائل لها أَشبهت اللعب واللهو الذي لا طائل له إذا انقضىٰ.

وقرأَ السِّتَّةُ من القراءِ: ﴿وَلَلدَّارُ﴾ بلامين، و﴿ٱلْءَاخِرَةُ﴾ نعت للدار، وقرأَ ابن عامر وحده: [وَلَدارُ] بلام واحدة، وكذلك وقع في مصاحف الشام بإِضافة الدار إلى الآخرة، وهذا نحو: مسجد الجامع، أَي مسجد اليوم الجامع، فكذلك هذا: ولدار الحياة الآخرة. وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم: [يعقلون] على إرادة الغائب. وقرأَ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: [تَعْقِلُونَ] على إرادة المخاطبين، وكذلك في الأعراف وفي آخر يوسف، ووافقهم أَبو بكر في آخر يوسف، فأَما ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ في [يس] فقرأَه نافع وابن ذكوان بتاءٍ والباقون بياءٍ.

وهذه الآية تتضمن الردّ على قولهم: «إن هي إلا حياتنا الدنيا» وهو المقصود بها، ويصح أَن يكون قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ على معنى: فقل لهم يا محمد: إذ الحال على هذه الصفة أَفلا تعقلون؟.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾ الآية... (قد) الملازم للفعل حرف يجيءُ مع التوقع إما عند المتكلم وإما عند السامع أَو مقدراً عنده، فإذا كان الفعل خالصاً للاستقبال كان التوقع من المتكلم كقولك: قد يقوم زيد، وقد ينزل المطر في شهر كذا، وإذا كان الفعل ماضياً أَو فعل حال بمعنى المضي مثل آيتنا هذه فإن التوقع ليس من المتكلم بل المتكلم موجب ما أَخبر به، وإنما كان التوقع عند السامع فيخبره المتكلم بأَحد المُتَوَقَّعَيْن. و﴿نَعْلَمُ﴾ تتضمن ـ إذا كانت من الله تعالىٰ ـ استمرار العلم وقِدَمه، فهي تَعُمّ الماضي والحال والاستقبال، ودخلت (أَنَّ) للمبالغة في التأكيد.

وقرأَ نافع وحده: [لَيُحْزِنُكَ] من (أَحزَن)، وقرأَ الباقون: ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ من (حَزِن الرجل)، وقرأَ أَبو رجاءٍ: [لِيُحْزُنْكَ] بكسر اللام والزاي وجزم النون، وقرأَ الأَعمش:

[أَنَّهُ] بفتح الهمزة [يَحْزُنك] بغير لام، قال أَبو علي الفارسي: تقول العرب: حزِن الرجل بكسر الزاي يحزَن حَزَناً وحُزْناً، وحَزنْتهُ أنا. وحكي عن الخليل أَن قولهم: (حَزَنْتُه) ليس هو تغيير (حَزِن) على نحو (دَخَل وأَدْخَلْتُه)، ولكنه بمعنىٰ جعلت فيه حُزناً، كما تقول: كحَلْتُه ودَهَنْتُه، قال الخليل: ولو أَردت تغيير (حزِن) لقلت: (أَحْزَنْتُه)، وحكى أَبو زيد الأَنصاري في كتاب «خباة» عن العرب: «أَحْزَنْت الرجلَ»، قال أَبو علي: و(حَزَنْتُ) الرجل أَكثر استعمالاً عندهم من (أَحْزَنْتُه)، فمن قرأَ: ﴿ليُحزِنك﴾ بضم الياءِ فهو على القياس في التغيير، ومن قرأَ: ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ بفح الياءِ وضم الزاي فهو على كثرة الاستعمال.

و﴿ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ لفظ يعم جميع أقوالهم التي تتضمن الردَّ على النبي ﷺ والدَّفْع في صدر نبوته، كقول بعضهم: إِنه كذاب، مفتر، ساحر، وقول بعضهم: إِنه مجنون مسحور، وقول بعضهم: له رَئِيٌّ من الجن، ونحو هذا.

وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأَبو عمرو، وعاصم، وحمزة: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ بتشديد الذال وفتح الكاف، وقرأَها ابن عباس وردَّها على قارىء عليه: ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ بضم الياءِ وقال: إِنهم كانوا يسمونه الأَمين، وقرأَ نافع، والكسائي بسكون الكاف وتخفيف الذال، وقرأَها علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وهما قراءَتان مشهورتان صحيحتان، واختلف المتأَولون في معناهما ـ فقالت فرقة: هما بمعنى واحد كما تقول: سقَيْت وأَسْقَيْت وقلَّلت وكثَّرت وأَكْثَرتُ. وحكى الكسائي أَن العرب تقول: «كذَّبْتُ الرجل» إِذا وجدته كذاباً، كما تقول: «أَحْمَدْتُه» إِذا وجدته محموداً، فالمعنىٰ على قراءَة من قرأَ: ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ بتشديد الذال أَي: لا تحزن فإِنهم لا يُكَذِّبونك تكذيباً يضرك، إِذ لسْتَ بكاذب في حقيقتك، فتكذيبهم كلا تكذيب، ويحتمل أَن يريد: «فإِنهم لا يُكَذِّبونك» على جهة الإِخبار عنهم أَنهم لا يُكَذِّبون وأَنهم يعلمون صدقه ونبوته، ولكنهم يجحدون عناداً منهم وظلماً، والآية على هذا لا تتناول جميع الكفار بل تخص الطائفة التي حكي عنها أَنها كانت تقول: إِنا لنعلم أَن محمداً صادق ولكن إِذا آمنا به فَضَلَتْنا بنو هاشم بالنبوة فنحن لا نؤمن به أَبداً، ورويت هذه المقالة عن أَبي جهل ومن جرى مجراه. وحكى النقاش أَن الآية نزلت في الحارث بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف، فإِنه كان يكذِّب في العلانية ويصدق في السِّر ويقول: نخاف أَن تتخطفنا العرب

ونحن أكلة رأس[1]، والمعنى على قراءة من قرأ: [يكْذِبونكَ] بتخفيف الذال يحتمل ما ذكرناه أولاً في [يَكْذِبونَك] أي: لا يجدونك كاذباً في حقيقتك، ويحتمل هذين الوجهين اللذين ذكرت في ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ بشد الذال.

وآيات الله: علاماته وشواهد نبيِّه محمد ﷺ، و[يَجْحدونَ] حقيقتُه في كلام العرب: الإنكار بعد معرفة، وهو ضد الإقرار، ومعناه ـ على تأويل من رأى الآية في المعاندين ـ مترتب على حقيقته، وهو قول قتادة والسدي وغيرهما، وعلى قول من رأى أن الآية في الكفار قاطبة دون تخصيص أهل العناد يكون في اللفظة تجوّز، وذلك أنهم لما أنكروا نبوته وراموا تكذيبه بالدعوى التي لا تعضدها حجة عبَّر عن إنكارهم بأقبح وجوه الإنكار وهو الجحد تغليظاً عليهم وتقبيحاً لفعلهم، إذ معجزاته وآياته نيِّرة يلزم كل مفطور أن يعلمها ويقرَّ بها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وجميع ما في هذه التأويلات من نفي التكذيب إنما هو عن اعتقاداتهم وأما أقوالهم جميعهم فمكذِّبة إمَّا له وإمَّا للذي جاء به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكفر العنَاد جائز الوقوع بمقتضى النظر، وظواهر القرآن تعطيه كقوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[2] وغيرها، وذهب بعض المتكلمين إلى المنع من جوازه، وذهبوا إلى أن المعرفة تقتضي الإيمان والجحد يقتضي الكفر ولا سبيل إلى اجتماعها، وتأوَّلوا ظواهر القرآن فقالوا في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾: إنها في أحكام التوراة التي بدلوها كآية الرجم وغيرها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

---

(١) يريد أن عددهم قليل تشبعهم رأس واحدة، وأَكَلَة: جمع آكل ـ وقيل: إن الآية نزلت في أبي جهل، فقد سأله الأخنس بن شُرَيْق قائلاً: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب فإنه ليس عندنا أحد غيرنا؟ فقال له: والله إن محمداً لصادق، وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواءِ والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فنزلت الآية.

(٢) من الآية (١٤) من سورة (النَّمل) وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

ودفع ما يُتصوَّر ويُعْقل من جواز كفر العناد على هذه الطريقة صعب، أما إن كفر العناد من العارف بالله وبالنُّبوة بعيد لأنه لا داعية لكفر العناد إلا الحسد، ومن عرف الله والنُّبوة وأن محمداً يجيئه مَلَك من السماءِ فلا سبيل إلى بقاءِ الحسد مع ذلك، أما إنه جائز فقد رأى أبو جهل على رأس النبي ﷺ فحلاً عظيماً من الإبل قد همَّ بأبي جهل ولكنه كفر مع ذلك، وأسند الطبريُّ أن جبريل عليه السلام وجد النبي عليه الصلاة والسلام حزيناً فسأله فقال: كذَّبني هؤلاءِ، فقال: إنهم لا يُكَذِّبونك، بل يعلمون أنك صادق ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون، والذي عندي في كفر حُيَيّ بن أخطب ومَن جرى مجراه أنهم كانوا يرون صفات النبي ﷺ ويعرفونها أو أكثرها، ثم يرون من آياته زائداً على ما عندهم فيتعلقون في مغالطة أنفسهم بكل شبهة بأضعف سبب، وتتخالج ظنونهم فيقولون مرة: هو ذاك، ومرة: عساه ليسه، ثم ينضاف إلى هذا حسدهم وفقدهم الرياسة فيتزيد ويتمكن إعراضهم وكفرهم فهم على هذا، وإن عرفوا أشياءَ وعاندوا فيها فقد قطعوا في ذلك بأنفسهم عن الوصول إلى غاية المعرفة وبقوا في ظلمة الجهل، فهم جاهلون بأشياء معاندون في أشياءَ غيرها، وأنا أستبعد العناد مع المعرفة التامة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

هذه الآية تضمنت عرض الأُسوة التي ينبغي الاقتداءُ بها على محمد رسول الله ﷺ وترجيته أن يأتيه مثل ما أتاهم من النصر إن امتثل ما امتثلوه من الصبر.

قال الضحاك وابن جريج: عزّىٰ الله بهذه الآية نبيه ﷺ، ورُوي عن ابن عامر أنه قرأ: [وَأُذوا] بغير واو بعد الهمزة. ثم قوي ذلك الرجاءَ بقوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا رادَّ لأمره وكلماته السابقات بما يكون، ولا مكذِّب لما أخبر به، فكأن المعنىٰ: فاصبر كما صبروا وانتظر ما يأتي وثق بهذا الإخبار فإنه لا مبدل له، فالقصد هنا هذا

الخبر وجاءَ اللَّفظ عاماً جميع كلمات الله السابقات، وأَما كلام الله عزَّ وجلَّ في التوراة والإنجيل فمذهب ابن عباس رضي الله عنهما أنه لا مبدل لها وإنما حرفها اليهود بالتأويل لا ببدل حروف وألفاظ، وجوَّز كثير من العلماء أَن يكونوا بدلوا الألفاظ لأنهم استُحْفِظوها، وهو الأظهر، وأَما القرآن فإن الله تضمن حفظه فلا يجوز فيه التبديل، قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1] وقال في أُولئك: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أَي فيما أَنزلناه وقصصناه عليك ما يقضي هذا الذي أَخبرناك به، وفاعل ﴿جَآءَكَ﴾ مضمر على ما ذهب إليه الطبري والرمّاني تقديره: ولقد جاءَك نبأٌ أَو أَنباءُ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والصواب عندي في المعنىٰ أَن يقدر: جلاءٌ أَو بيانٌ[3].

وقال أَبو علي الفارسي: قوله: ﴿مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ في موضع رفع بـ (جاءَ) ودخل حرف الجر على الفاعل، وهذا على مذهب الأخفش في تجويزه دخول (من) في الواجب، ووجْه قول الرمّاني أَن (من) لا تزاد في الواجب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ﴾ الآية. آيةٌ فيها إلزام الحجة للنبي ﷺ وتقسيم الأَحوال عليه حتىٰ يَتَبَيَّن أَن لا وجه إلا الصبر والمضي لأَمر الله تعالىٰ، والمعنىٰ: إن كنت تعظم تكذيبهم وكفرهم على نفسك وتلتزم الحزن عليه فإن كنت تقدر على دخول سرب في أَعماق الأَرض أَو على ارتقاء سلم إلى السماءِ فدونك وشأْنك به، أَي أَنك لا تقدر على شيءٍ من هذا، ولابدَّ لك من التزام الصبر واحتمال المشقة ومعارضتهم بالآيات التي نصبها الله تبارك وتعالىٰ للناظرين المتأَملين، إذ هو ـ

---

(١) من الآية (٩) من سورة (الحِجْر) وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

(٢) من الآية (٤٤) من سورة (المائدة).

(٣) قال أَبو حيان بعد أَن ذكر كلام ابن عطية: «والذي يظهر لي أن الفاعل مضمر تقديره: هو، ويدل على ما دلَّ عليه المعنى من الجملة السابقة، أي: ولقد جاءَك هذا الخبر من تكذيب أَتباع الرسل للرسل والصبر والإيذاءِ إلى أن نُصروا، وأَن هذا الإخبار هو بعض نبأ المرسلين الذين يُتَأَسَّىٰ بهم، و﴿مِن نَّبَإِيْ﴾ في موضع الحال، وذو الحال ذلك المضمر، والعامل فيها وفيه ﴿جَآءَكَ﴾».

لا إِلٰه إِلا هو ـ لم يُرِد أَن يجمعهم على الهدىٰ، وإِنما أَراد أَن ينصب من الآيات ما يهتدي بالنظر فيه قوم ويضل آخرون، إِذ خلقهم على الفطرة وهدي السبيل وسبقت رحمتُه غضبَه، وله ذلك كلُّه بحق ملكه فلا تكونن من الجاهلين في أَن تأْسف وتحزن على أَمر أَراده اللهُ وأَمضاه وعَلِم المصلحة فيه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا أُسلوب معنى الآية.

واسم ﴿ كَانَ ﴾ يصح أَن يكون الأَمر والشأْن، و﴿ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ خبرها، ويصح أَن يكون ﴿ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ هو اسم ﴿ كَانَ ﴾ ويقدر في ﴿ كَبُرَ ﴾ ضمير، وتكون ﴿ كَبُرَ ﴾ في موضع الخبر، والأَول من الوجهين أَقْيَس.

والنفق: السرب في الأَرض، ومنه نافقاءُ اليربوع[1]، والسُّلَّم: الشيءُ الذي يُصعد عليه ويُرتقىٰ، ويمكن أَن يشتق اسمه من السَّلامة لأَنه سببها، وجمعه: سلاليم، ومنه قول الشاعر:

لا يَحْجِزُ المرءَ أَحْجَاءُ البِلادِ وَلا ... تُبْنَى لَهُ في السَّمواتِ السَّلالِيمُ[2]

و﴿ فَتَأْتِيَهُم بِئَايَةٍ ﴾ أَي: بعلامة، ويريد إِما في فعلك ذلك، أَي: تكون الآية نفس دخولك في الأَرض أَو ارتقائك في السماءِ، وإِما أَن تأْتيهم بالآية من إِحدىٰ الجهتين، وحذف جواب الشرط قبل في قوله: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ ﴾ إِيجازاً لفهم السامع به، تقديره: فافعل أَو فدونك كما تقدم.

و﴿ لَجَمَعَهُمْ ﴾ يحتمل إِما بأَن يخلقهم مؤمنين، وإِما بأَن يكسبهم الإِيمان بعد كفرهم بأَن يشرح صدورهم، و﴿ ٱلْهُدَىٰ ﴾: الإِرشاد، وهذه الآية ترُدُّ على القدرية المغرضة

---

(١) نافقاءُ اليربوع: أَحد مخارج جحره يخرج منه إِذا أُخذ من جهة أُخرى، والمخرج الثاني يُسمَّى القاصعاءُ. ومنه المنافق لأَنه يخرج من الإِيمان أَو يخرج الإِيمان من قلبه.

(٢) البيت لابن مقبل، وقد رواه صاحب اللسان: يُبْنى بالياءِ، وقال: احتاج فزاد الياءَ، يعني في السلاليم. والأَحجاءُ: النواحي وهي جمع حجَا. وقال الزجاج: سُمِّي السُّلَّم سُلَّماً لأَنه يُسْلِمك إِلى حيث تريد، وفي «المحكَم»: السُّلَّم: الدرجة والمرقاة، يذكر ويؤنث، وقال أَبو عبيدة: السُّلَّم: السبب والمرقاة، تقول العرب: اتَّخذني سُلَّماً لحاجتك، أَي: سبباً، ومنه قول كعب بن زهير:

وَلا لَكُمـا مَنْجـى مِـنَ الأَرْضِ فَـابْغِيَـا ... بِـهِ نَفَقـاً أَوْ فـي السَّمـواتِ سُلَّمـاً.

الذين يقولون: إن القدرة لا تقتضي أن يؤمن الكافر وإن ما يأتيه الإنسان من جميع أفعاله لا خلق لله فيه، تعالىٰ الله عن قولهم.

و﴿ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ يحتمل في ألا يعلم أن الله لو شاءَ لجمعهم، ويحتمل في أن تهتم بوجود كفرهم الذي قدره وأراده، وتذهب بك نفسك إلى ما لم يقدره الله تعالىٰ.

ويظهر تباين ما بين قوله تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ وبين قوله لنوح عليه السلام: ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(١)، وقد تقرر أن محمداً ﷺ أفضل الأنبياءِ، قال مكي والمهدي: الخطاب بقوله: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ للنبي عليه الصلاة والسلام والمراد به أمته، وهذا ضعيف لا يقتضيه اللفظ، وقال قوم: وُقِّر نوح لِسنِّه وشيبته، وقال قوم: جاءَ الحمل أشد على محمد ﷺ لقُربه من الله تعالى ومكانته عنده كما يَحْمِل المُعَاقِب على قريبه أكثر من حمله على الأجانب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والوجه القويُّ عندي في الآية هو أن ذلك لم يجيءْ بحسب النَّبيِّين، وإنَّما جاءَ بحسب الأمرين اللَّذين وقع النهي عنهما والعتاب فيهما، وبيَّن أن الأمر الذي نُهي عنه محمد ﷺ أكبر قدراً وأخطر مواقعة من الأمر الذي واقعه نوح ﷺ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

هذا من النَّمط المتقدم في التسلية، أي: لا تحفل بمن أعرض فإنما يستجيب لداعي الإيمان الذين يقيمون الآيات ويتلقون البراهين بالقبول، فعبر عن ذلك كله بـ ﴿ يَسْمَعُونَ ﴾ إذ هو طريق العلم بالنبوة والآيات المعجزة، وهذه لفظة تستعملها الصوفية، إذا بلغت الموعظة من أحد مبلغاً شافياً قالوا: سمع(٢).

---

(١) من الآية (٤٦) من سورة (هود).

(٢) قال أكثر العلماءِ: إن يستجيب بمعنىٰ: يجيب، لكن الرماني فرق بينهما بأن (استجاب) فيه قبول لما دعي إليه، قال: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾، وليس كذلك (أجاب) لأنه قد يجيب بالمخالفة.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ يريد الكفار فعبر عنهم بضد ما عبر عن المؤمنين، وبالصفة التي تشبه حالهم في العمىٰ عن نور الله تبارك وتعالىٰ والصَّمَمِ عن وعي كلماته، قاله مجاهد، وقتادة، والحسن.

و﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يحتمل معنيين ـ قال الحسن: معناه: يبعثهم الله بأَن يؤمنوا حين يوقفهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فتجيءُ الاستعارة في هذا التأْويل في الوجهين: في تسميتهم موتىٰ وفي تسمية إِيمانهم وهدايتهم بعثاً، والواو على هذا مشركة في العامل عطفت ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ على ﴿ٱلَّذِينَ﴾. و﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ في موضع الحال، وكأَن معنىٰ الآية: إِنما يستجيب الذين يرشدون حين يسمعون فيؤمنون، والكفار حين يرشدهم الله بمشيئته، فلا تتأَسف أَنت ولا تستعجل ما لم يقدر. وقرأَ الحسن: [ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ][1] فتناسبت الآية. وقال مجاهد وقتادة: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾: يريد الكفار، أَي هم بمثابة الموتىٰ حين لا يرون هدى ولا يسمعون فيَعون، و﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أَي: يحشرهم يوم القيامة، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ أَي إِلى سطوته وعقابه يرجعون، وقرأَت هذه الطائفة ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بياءٍ، والواو على هذه عاطفة جملة كلام على جملة، و﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ مبتدأٌ، و﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ خبره، فكأَن معنىٰ الآية: إِنما يستجيب الذين يسمعون فيعون، والكفار سيبعثهم الله ويردهم إِلى عقابه، فالآية على هذا متضمنة الوعيد للكفار، والعائد على ﴿ٱلَّذِينَ﴾ هو الضمير في ﴿يَسْمَعُونَ﴾.

والضمير في ﴿وَقَالُواْ﴾ عائد على الكفار، و﴿لَوْلَا﴾ تحضيض بمعنىٰ: هلاَّ، قال الشاعر:

تَعُدُّونَ عَقْرَ النِّيبِ أَفْضَلَ مَجْدِكُمْ بَني ضَوْطَرَى لوْلا الكمِيَّ المقَنَّعا[2]

---

(١) أي بفتح الياءِ من (رَجَع) اللازم، ومعنى قوله: «فتناسبت الآية» أن (يَرجعون) بفتح الياءِ تناسب (يَسمعون).

(٢) البيت لجرير يهجو قوم الفرزدق، وكان الفرزدق يفتخر بكرم أبيه غالب، وعقره، مائة ناقة في معاقرة سُحَيْم بن وثيل الرياحي في موضع يقال له: (صوأر) على مسيرة يوم من الكوفة، ولذلك يقول جرير أيضاً:

وقَـدْ سَـرَّنـي ألا تَعُـدَّ مُجَـاشِـعٌ مِـنَ المجْـدِ إلا عَقْـر نِيـبٍ بِصَـوْأَر =

ومعنىٰ الآية: هلاَّ أُنزلَ على محمد عليه الصلاة والسلام بيان واضح لا يقع معه توقف من أَحد كمَلَك يشهد له أَو كنز أَو غير ذلك من تشطُّطهم المحفوظ في هذا، فأُمر عليه الصلاة والسلام بالرَّد عليهم بأَن الله عزَّ وجلَّ له القدرة على إنزال تلك الآية ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَنها لو نزلت ولم يؤمنوا لعوجلوا بالعذاب، ويحتمل ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَن الله تعالىٰ إنما جعل المصلحة في آيات معرضة للنظر وللتأَمل ليهتدي قوم ويضل آخرون.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ الآية ـ المعنى في هذه الآية التنبيه على آيات الله الموجودة في أَنواع مخلوقاته، أَي: قل لهم: إن الله قادر على أن ينزل آية إلاَّ أَنكم لا تعلمون وجه الحكمة في أَلاَّ يُنَزِّل آية مجهزة وإنما يحيل على الآيات المنصوبة لمن فكر واعتبر كالدواب والطير التي قد حصرت جميع الحيوان، وهي أُمم أَي جماعات مماثلة للناس في الخلق والرزق والحياة والموت والحشر. ويحتمل أَن يريد بالمماثلة أَنها في كونها أُمَماً لا غير، كما تريد بقولك: «مررت برجل مثلك» أَي في أَنه رجل، ويصحُّ في غير ذلك من الأَوصاف إلا أَن الفائدة في هذه الآية إنما تقع بأَن تكون المماثلة في أوصاف غير كونها أُمماً، قال الطبري وغيره: والمماثلة في أَنها يهتبل بأَعمالها وتحاسب ويقتص لبعضها من بعض على ما روي في الأَحاديث، أَي: فإذا كان يفعل هذا بالبهائم فأَنتم أَحرى إذْ أَنتم مكلفون عقلاء، وروى أَبو ذرّ أَنه انتطحت عنزان بحضرة النبي ﷺ فقال: (أَتعلمون فيم انتطحتا؟) قلنا: لا، قال: (فإن الله يعلم وسيقضي بينهما)[(١)]. وقد قال مكي في[(٢)]: المماثلة في أَنها تَعْرِفُ الله تعالىٰ وتَعْبُده، وهذا قول خلف.

= والنِّيب: جمع ناب، والنَّاب: هي المُسِنَّةُ مِن النوق، وفي الحديث: (لهم من الصدقة الثِّلْبُ والنَّاب)، وفي المَثَل: (لا أفعل ذلك ما حنت النِّيبُ). وبنو ضوطرىٰ: تقال للقوم إذا كانوا لا يغنون غناءً، والكمِيُّ: الفارس الشجاع الجرىءُ، وجمعه: أَكماةٌ. يقول منتهى فخركم هو ذكر النوق وعقرها، تعدون ذلك أفضل أمجادكم، هلا عددتم الفرسان والشجعان فإن ذلك أفضل وأكرم.

(١) أخرجه الإمام أحمد، وعبد الرزاق، وابن جرير ـ عن أبي ذر رضي الله عنه. وروى عبد الله بن الإمام أحمد عن عثمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن الجَمَّاءَ لتقتص من القَرْناءِ يوم القيامة) (ابن كثير).

(٢) هكذا في جميع النسخ المخطوطة، والظاهر أن كلمة (في) الأولى من زيادات النساخ.

و﴿دَآبَّةٍ﴾ وزنها: فاعلة، وهي صفة وضعت موضع الاسم كما قالوا: الأعرج والأَبرق، وأُزيل منه معنى الصفة، وليست بالصفة الغالبة في قولنا: العباس والحارث، لأَن معنى الصفة باق في الصفة الغالبة. وقرأَت طائفة: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ﴾ عطفاً على اللفظ، وقرأ إِبراهيم بن أَبي عبلة: [وَلا طَائِرٌ] بالرفع عطفاً على المعنىٰ، وقرأت فرقة: [وَلاَ طَيْرٍ] وهو جمع طائر.

وقوله: ﴿بِجَنَاحَيۡهِ﴾ تأكيد وبيان وإزالة للاستعارة المتعاهدة في اللفظة، فقد يقال: طائر السعد والنحس. وقال تعالىٰ: ﴿أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ﴾(١) أَي: عمله، ويقال: «طار لفلان طائر كذا» أي سهمه في المقتسمات، فقوله تعالىٰ: ﴿بِجَنَاحَيۡهِ﴾ إخراج للطائر عن هذا كله.

وقرأَ علقمةُ، وابن هرمز: [فَرَطْنا في الكِتابِ] بتخفيف الراءِ، والمعنىٰ واحد، وقال النقاش: (فَرَطْنَا) مخففة: أَخَّرنا، كما قالوا: «فَرَط الله عنك المرض» أَي أزاله، والأَول أَصوب، والتفريط: التقصير في الشيءِ مع القدرة على ترك التقصير. و﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: القرآن، وهو الذي يقتضيه نظام المعنى في هذه الآيات، وقيل: اللوح المحفوظ. و﴿مِن شَيۡءٖۚ﴾ ـ على هذا القول ـ عام في جميع الأَشياءِ، وعلى القول بأَنه قرآن خاص: في الأَشياءِ التي فيها منافع للمخاطبين وطرائق هدايتهم. و﴿يُحۡشَرُونَ﴾ قالت فرقة: حشر البهائم: موتها. وقالت فرقة: حشرها: بعثها. واحتجوا بالأَحاديث المضمنة أَن الله تعالىٰ يقتص للجمَّاءِ من القَرْناءِ، إنما هي كناية عن العدل وليست بحقيقة، فهو قول مردود ينحو إِلى القول بالرموز ونحوها(٢).

---

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (١٣) من سورة (الإسراء): ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾.

(٢) الكلام في حشر البهائم يوم القيامة طويل، وآراء العلماء فيه كثيرة، ولكن أوضح الآراء أن المراد بِهِ البعثُ يوم القيامة، وهو قول الجمهور كما قال أبو حيان، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾، وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (لتؤدن الحقوق إِلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلماءِ من الشاة القرناء)، والجلماءُ: التي لا قرن لها، وهو أيضاً معنى الجماء، وأصل الحشر: الجمع، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾، وقول ابن عطية هنا: «إنما هي كناية عن العدل... الخ» يحتمل أمرين ـ إما أنه ردٌّ على كلام غيره ممن احتجوا بالأَحاديث المضمنة أن الله تعالىٰ يقتص للجمَّاءِ من القرناء، فرأيه أن هذه الأَحاديث كناية عن العدل، الخ، وإما أنه ينقض هذا القول ويقول: إنه قول مردود، وهذا هو رأيه=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾.

كأنه قال: وما من دابة ولا طائر ولا شيءٍ إلا وفيه آية منصوبة على وحدانية الله تبارك وتعالىٰ، ولكن الذين كذبوا صمٌّ وبُكْمٌ لا يتلقون ذلك ولا يقبلونه. وظاهر الآية أنها تعُمُّ كل مكذب، وقال النقاش: نزلت في عبد الدار[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ثم بيَّن أن ذلك حكم من الله عزَّ وجلَّ بمشيئته في خلقه فقال مبتدئاً لكلام: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ شرط وجوابه[٢]، وقوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ ينوب عن (عُمْي)، و﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أهول عبارةً وأفصح وأوقع في النفس. والصراط: الطريق الواضح.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ ابتداء احتجاج على الكفار الجاعلين لله شركاءَ، والمعنى: أرأيتم إذا خفتم عذاب الله أو خفتم هلاكاً أو خفتم الساعة أتدعون أصنامكم وتلجؤون إليها في كشف ذلك إن كنتم صادقين في قولكم: إنها آلهة؟ بل تدعون الله الخالق الرزاق فيكشف ما خفتموه إن شاءَ وتنسون أصنامكم أي تتركونهم، فعبَّر عن التَّرك بأعظم وجوهه الذي هو مع الترك ذهول وإغفال، فكيف يُجعل إلهاً مَنْ هذه حاله في الشدائد والأزمات؟

= الحقيقي كما يفهم من عبارته التي نقلها عنه أبو حيان في «البحر المحيط ٤ـ ١٢١» ونصها: «قال ابن عطية: والقول في الأحاديث المتضمنة أن الله يقتص للجمَّاءِ من القرناءِ إنه كناية عن العدل وليست بحقيقة قولٌ مرذول ينحو إلى القول بالرموز ونحوها انتهىٰ». فقد سقطت من الكلام هنا بعض كلمات أوجدت اللبس.

(١) هو عبد الدار بن قصي بن كلاب، أكبر أولاد أبيه، وكان أحبهم إليه، ولهذا جعل له الحجابة واللواءَ والسقاءَ والرفادة والندوة، وهو أبٌ لبطن منهم عثمان بن طلحة صاحب مفتاح الكعبة، والدار في الأصل: صنم من أصنامهم كانوا يسمون به.

(٢) قال القرطبي: «دلَّ على أنه شاءَ ضلال الكافر وأراده لينفذ فيه عدله، ألا ترىٰ أنه قال: ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على دين الإسلام لينفذ فيه فضله، وفيه إبطالٌ لمذهب القَدَرية».

وقرأ ابن كثير، وعاصم، وأَبو عمرو، وابن عامر، وحمزة: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ بأَلف مهموزة على الأَصل، لأَن الهمزة عين الفعل، وقرأ نافع بتخفيف الهمزة بيْن بيْن على عُرف التخفيف وقياسه، وروي عنه أنه قرأها بأَلف ساكنة وحذف الهمزة، وهذا تخفيف على غير قياس، والكاف في (أَرأَيتك زيدا، وأَرأَيتكم) ليست باسم، وإِنما هي مجردة للخطاب كما هي في (ذلك) و(أَبصرك زيداً) ونحوه، ويدل على ذلك أن (أَريت) بمعنىٰ العلم إِنما تدخل على الابتداءِ والخبر، فالأَول من مفعوليها هو الثاني بعينه، والكاف في (أَرأَيتك زيداً) ليست المفعول الثاني كقوله تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾[1]، فإِذا لم تكن اسماً صح أَنها مجردة للخطاب، وإذا تجردت للخطاب صح أَن التاءَ ليست للخطاب كما هي في (أَنت)، لأَن علامتي خطاب لا تجتمع[2] على كلمة، كما لا تجتمع علامتا تأْنيث ولا علامتا استفهام، فلما تجردت التاءُ من الخطاب وبقيت علامة الفاعل فقط استغني عن إِظهار تغيير الجمع فيها والتأْنيث لظهور ذلك في الكلام. وبقيت التاءُ على حدٍّ واحد في الإِفراد والتثنية والجمع والتأْنيث، وروي عن بعض بني كلاب أَنه قال: «أَتعلمك كان أَحد أَشعر من ذي الرمة؟». فهذه الكاف صلة في الخطاب.

و﴿أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ معناه: أَتاكم خوفه وأَماراته وأَوائله مثل الجدب والبأْساءِ والأَمراض ونحوها التي يخاف منها الهلاك، ويدعو إِلى هذا التأْويل أَنا لو قدرنا إِتيان العذاب وحلوله لم يترتب أَن يقول ـ بعد ذلك ـ: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ لأَن ما قد صح حلوله ومضى على البشر لا يصح كشفه، ويحتمل أَن يراد بـ ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ في هذه الآية ساعة موت الإِنسان.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ الآية ـ المعنىٰ: بل لا ملجأَ لكم إلا الله، وأَصنامكم مطرحة منسية، و﴿مَا﴾ بمعنى الذي تدعون إِليه من أَجله، ويصح أَن تكون ﴿مَا﴾ ظرفية، ويصح أَن تكون مصدرية على حذف في الكلام، قال الزجاج: هو مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[3]، والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ يحتمل أَن يعود إِلى الله تعالىٰ بتقدير:

---

(١) من الآية (٦٢) من سورة (الإِسراءِ).
(٢) واضح أن صحتها: لا تجتمعان، والخطأ قطعاً من النساخ.
(٣) من الآية (٨٢) من سورة (يوسف).

فيكشف ما تدعون فيه إلى الله تعالىٰ[١]، ويحتمل أن يعود على ﴿مَا﴾ بتقدير: فيكشف ما تدعون إليه، و﴿إِن شَآءَ﴾ استثناءٌ، لأن المحنة إذا أظلت عليهم فدعوا إليه في كشفها وصرفها فهو ـ لا إله إلا هو ـ كاشف إن شاءَ ومصيب إن شاءَ، لا يجب عليه شيءٌ. وتقدم معنىٰ: ﴿وَتَنسَوْنَ﴾. و﴿إِيَّاهُ﴾ اسم مضمر أُجري مجرى المظهرات في أنه يضاف أبداً، وقيل: هو مبهم، وليس بالقوي لأن الأسماء المبهمة مُضَمَّنة الإشارة إلى حاضر نحو: ذاك وتلك وهؤلاء، و(إيَّا) ليس فيه معنى الإشارة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

في الكلام حذف يدل عليه الظاهر تقديره: فكذبوا فأخذناهم، ومعناه: لازمناهم وتابعناهم الشيءَ بعد الشيءَ. والبأساءُ: المصائب في الأموال، والضَّرَّاءُ: في الأبدان، هذا قول الأكثر، وقيل: قد يوضع كل واحد بدل الآخر، ويؤدب الله عباده بالبأساءِ والضراءِ، ومن هنالك أدَّب العُبَّادُ نفوسهم بالبأساءِ في تفريق المال والضراء في الحمل على البدن في جوع وعري.

والترجِّي في ﴿لعلَّ﴾ في هذا الموضع إنما هو علىٰ معتقد البشر، أي: لو رأى أحد ذلك لرجا تضرعهم بسببه، والتضرع: التذلل والاستكانة، وفي المثل: «إن الحمى أَضْرَعَتْني لَكَ»[٢] ومعنىٰ الآية توَعُّد الكفار وضرْب المثل لهم. و﴿فَلَوْلَآ﴾ تحضيض وهي التي تلي الفعل بمعنىٰ (هلاَّ)، وهذا على جهة المعاتبة لمذنب غائب، وإظهار

---

(١) قال أبو حيان: «وهذا ليس بجيِّد لأن (دعا) بالنسبة إلى مجيب الدعاء إنما يتعدىٰ لمفعول به دون حرف جر». قال تعالىٰ: وقال: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وقال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، ومن كلام العرب: دعوت الله سميعاً، ولا تقول بهذا المعنىٰ: دعوت إلى الله بمعنىٰ «دعوت الله».

(٢) ويُرْوى: «لك يَا فراش» ويُروى: «لكِ يا قطيفة» ويُضرب لمن يذل في حاجة تنزل به، قال عمر بن أبي ربيعة:

ولكــنَّ حُمَّــى أَضْــرَعَتْنــي ثــلاثَــةً ... مجــرمــة ثــمَّ استَمَــرَّتْ بنــا غبّــا

سوءِ فعله مع تحسُّر ما عليه، والمعنىٰ: إذا جاءَهم أوائل البأس وعلاماته وهو تردد البأساءِ والضراءِ، و﴿قَسَتْ﴾ معناه: صلبت وهي عبارة عن الكفر، ونسب التزيين إلى الشيطان وقد قال في آية أُخرىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾(١) لأن تسبب الشيطان ووسوسته تجلب حسن الكفر في قلوبهم، وذلك المجلوب الله يخلقه، فإن نُسب إلىٰ الله تعالىٰ فبأنه خالقه، وإلىٰ الشيطان فبأنه سببه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ الآية... عبَّر عن الترك بالنسيان إذا بلغ وجوه الترك الذي يكون معه نسيان، وزوال المتروك عن الذهن وقرأ ابن عامر فيما روي عنه: [فَتَّحْنَا] بتشديد التاءِ، و[كُلِّ شَيْءٍ] معناه: مما كان سُدَّ عليهم بالبأساءِ والضراءِ من النعم الدنيوية، فهو عموم معناه خصوص. و﴿فَرِحُوا﴾ معناه: بطروا وأَشروا وأُعجبوا وظنوا أَن ذلك لا يبيد، وأَنه دال على رضى الله عنهم وهو استدراج من الله تبارك وتعالىٰ: وقد روي عن بعض العلماءِ أَنه قال: «رحم الله عبداً تدبر هذه الآية ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾.» وقال محمد بن النضر الحارثي: أَمهل هؤلاءِ القوم عشرين سنة، وروى عقبة بن عامر أَن النبي ﷺ قال: (إذا رأَيتم الله يعطي العباد ما يشاؤُون على معاصيهم فذلك استدراج، ثم تلا ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ الآية كلها)(٢).

و﴿أَخَذْنَٰهُم﴾ ـ في هذاالموضع ـ معناه: استأْصلناهم وسطونا بهم، و﴿بَغْتَةً﴾ معناه: فجأَة، والعامل فيه ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾، وهو مصدر في موضع الحال لا يقاس عليه عند سيبويه، والمُبْلِس: الحزين الباهت اليائس من الخير الذي لا يُحير جواباً لشدة ما نزل به من سوءِ الحال(٣).

---

(١) من الآية (١٠٨) من سورة (الأنعام).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والطبراني في الكبير، والبيهقي في شعب الإيمان مع بعض التغيير في الأَلفاظ، ورمز له في «الجامع الصغير» بأنه حديث حسن.

وفي نفس المعنىٰ قال الحسن: «والله ما أَحد من الناس بسط الله له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر له فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه. وما أمسكها الله عن عبد فلم يظن أنه خير له فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه».

(٣) وجاءَ على هذا المعنى قول العجّاج:

يـا صـاح هَـلْ تَعْـرفُ رسْمـاً مُكْـرَسـاً؟ قـال نعـم أعْـرفُـهُ وأَبْلَسَـا

أي: تحيَّر لهول ما رأى وسكت غمّاً، ومن ذلك اشتق اسم (إبليس)، والمُكْرس: الذي صار فيه الكِرْس (بالكسر) وهو أَبْوال الإبل وأَبْعارها التي يتلبَّد بعضُها على بعض في الدار والدِّمَن.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾ الآية. الدابر: آخر الأمر الذي يَدْبُرُه أي: يأتي من خلفه، ومنه قول الشاعر:

فَـأُهْلِكـوا بِعَـذَابٍ حَـصَّ دابِـرَهُـم   فما استطاعوا لَهُ دفعاً ولا انْتَصَرُوا(١)

وقول الآخر:

وقـد زعمـت عُلْيـا بغيـضٍ وَلِفُّهـا   بِـأَنِّـي وَحيـدٌ قَـدْ تَقَطَّـع دَابِـري(٢)

وهذه كناية عن استئصال شأفتهم ومحو آثارهم كأنهم وردوا العذاب حتى ورد آخرهم الذي دبَرهم، وقرأ عكرمة: [فَقَطَع] بفتح القاف والطاءِ [دَابِرَ] بالنصب.

وحَسُنَ الحمد عقب هذه الآية لجمال الأفعال المتقدمة في أن أرسل الرسل، وتلَطَّف في الأخذ بالبأساءِ والضراءِ ليتضرع إليه فيرحم ويُنعم، وقطع في آخر الأمر دابر ظلمهم، وذلك حَسَنٌ في نفسه ونعمة على المؤمنين فحُسْن الحمد يعقب هذه الأفعال، وبحمد الله ينبغي أن يختم كل فعل وكل مقالة لا ربّ غيره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

هذا ابتداءُ احتجاج على الكفار، و﴿أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ معناه: أذهبه وانتزعه بقدرته، ووحَّد السمع لأنه مصدر مفرد يدل على جمع، والضمير في ﴿بِهِ﴾ عائد على المأخوذ، وقيل: على السمع، وقيل: على الهدىٰ الذي يتضمنه المعنىٰ، وقرأ الأعرج وغيره: [بهُ انظر] بضم الهاءِ، ورواها المسيبي، وأبو وقرة عن نافع، و﴿يَصْدِفُونَ﴾ معناه: يعرضون وينفرون، ومنه قول الشاعر:

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت، وقد روي في «القرطبي» وفي «البحر المحيط»: «فما استطاعوا له صرفاً» ومعنى حَصَّ: استأصل.

(٢) لم نعثر على هذا البيت في المراجع التي بين أيدينا، ولم يستشهد به أحد من المفسرين المشهورين، ولم يذكره في اللسان.

إِذَا ذَكَــرْنَ حَــدِيثــاً قُلْــنَ أَحْسَنَــهُ وهُنَّ عَنْ كُلِّ سُوءٍ يُتَّقَى صُدُفُ(١)

قال النقاش: في الآية دليل على تفضيل السمع على البصر لتقدمه هنا، ثم احتج لذلك بقوله: ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ وبغير ذلك.

والاستفهام في قوله: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ﴾ معناه التوقيف، أَي: ليس ثَمَّة إِلٰه سواه فما بال تعلقكم بالأَصنام وتمسككم بها وهي لا تدفع ضرراً ولا تأتي بخير؟ وتصريف الآيات هو نَصْب العِبَر ومجيءُ آيات القرآن بالإِنذار والإِعذار والبشارة ونحوه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ ﴾ الآية، وعيد وتهديد. و﴿ بَغْتَةً ﴾ معناه: لا يتقدم عندكم منها علم، و﴿ جَهْرَةً ﴾ معناه: تبدو لكم مخايله ومباديه ثم تتوالى حتى تنزل. قال الحسن بن أَبي الحسن: ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأَة، و﴿ جَهْرَةً ﴾ نهاراً، قال مجاهد: ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأَة آمنين، و﴿ جَهْرَةً ﴾ وهم ينظرون.

وقرأَ ابن مُحَيْصِنْ: [هَلْ يهْلِكُ] على بناءِ الفعل للفاعل، والمعنىٰ هل تهلكون إِلا أَنتم لأَن الظلم قد تبين في حيّزكم. و[هَلْ] ظاهرها الاستفهام ومعناها التسوية المضمنة للنفي، ولا تكون التسوية بها إلا في النفي، وتكون بالأَلف في نفي وفي إِيجاب.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ الآية. المعنىٰ: إِنما نرسل الأَنبياءَ المخصوصين بالرسالة ليبشروا بإِنعامنا ورحمتنا لمن آمن، وينذروا بعذابنا وعقابنا من كذب وكفر ولسنا نرسلهم ليقترح عليهم الآيات ويتابعوا شذوذ كل متعسف متعمق. ثم وعد من سلك طريق البشارة فآمن وأَصلح في امتثال الطاعات، وأَوعد الذي سلك طريق النذارة فكذب بآيات الله وفسق أَي: خرج عن الحدِّ في كفرانه وعصيانه، وقال ابن زيد: «كل فسق في القرآن فمعناه الكذب»، ذكره عنه الطبري مسنداً، و﴿ يَمَسُّهُمُ ﴾ أي: يباشرهم ويلصق بهم. قرأَ الحسن والأَعمش ﴿ ٱلْعَذَابُ بِمَا ﴾ بإِدغام الباءِ في الباءِ، ورويت عن أَبي عمرو، وقرأَ يحيى بن وثاب والأَعمش: [يَفْسِقون] بكسر السين، وهي لغة.

---

(١) هذا البيت لِعَديّ بن الرقاع. والمعنىٰ: يُعْرِضْنَ عن كل سُوءٍ يتحاشاه الناس، وفي المعنىٰ جاء قوله تعالىٰ: ﴿ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ أي: يُعرضون وينفرون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

هذا من الردّ على القائلين: «لولا أُنزل عليه آية» والطالبين أَن ينزل ملك أَو تكون له جنة أَو أَكثر أَو نحو هذا، والمعنىٰ: لستُ بهذه الصفات فيلزمني أَن أُجيبكم باقتراحاتكم.

وقوله: ﴿ لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ يحتمل معنيين أَظهرهما: أَنه يريد أَنه بشر لا شيءَ عنده من خزائن الله ولا من قدرته ولا يعلم شيئاً مما غيب عنه، والآخر: أَنه ليس بإِلٰه، فكأَنه قال: لا أَقول لكم إِني أَتّصف بأَوصاف إِلٰه في أَن عندي خزائنه وأَني أَعلم الغيب. وهذا هو قول الطبري.

وتعطي قوة اللفظ في هذه الآية أَن الملَك أَفضل من البشر، وليس ذلك بلازم في هذا الموضع، وإِنما الذي يلزم منه أَن الملَك أَعظم موقعاً في نفوسهم وأَقرب إِلى الله، والتفضيل يعطيه المعنى عطاءً خفياً، وهو ظاهر من آيات أُخر، وهي مسأَلة خلاف[1].

و﴿ مَا يُوحَىٰٓ ﴾ يريد القرآن وسائر ما سيأْتي به المَلك، أَي وفي ذلك عِبَرٌ وآيةٌ لمن تأَمل ونظر.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ﴾ الآية. أَي: قل لهم: إِنه لا يستوي الناظر المفكر في الآيات مع المُعرض الكافر المهمل للنظر، فالأَعمى والبصير مثالان للمؤمن

---

(١) احتج من فضل الملائكة بأنهم: ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾، ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ و﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ ـ وبآيتنا هذه: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ وبما ورد في البخاري: يقول الله عزَّ وجلَّ: «مَنْ ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خير منهم» ـ واحتج من فضَّلَ بني آدم بقوله تعالىٰ: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أُولئك هم خير البريئة﴾ بالهمز، مِن: برأَ الله الخلق، وبما جاءَ في أَحاديث من أَن الله تعالىٰ يُباهي بأَهل عرفات الملائكة. وقال بعض العلماء: لا طريق إِلى القطع برأي في ذلك لأَن طريق ذلك خبر الله تعالىٰ وخبر رسوله أو إِجماع الأمة، وليس ها هنا شيءٌ من ذلك. وهناك من يفرق بين الأَنبياء والأَولياء من البشر ومن الملائكة وبين سائر الناس. والله أعلم.

والكافر، أي: ففكروا أنتم وانظروا، وجاءَ الأمر بالفكرة في عبارة العرض والتخصيص.

﴿ وَأَنذِرْ ﴾ عطف على ﴿ قُلْ ﴾، والنبي عليه الصلاة والسلام مأمورٌ بإنذار جميع الخلائق، وإنما وقع التخصيص هنا بحسب المعنى الذي قصد، وذلك أن فيما تقدم من الآيات نوعاً من اليأس في الأغلب عن هؤلاءِ الكفرة الذين قد قال فيهم أيضاً: ﴿ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[١]، فكأنه قيل له هنا: قل لهؤلاءِ الكفرة المعرضين كذا ودعهم ورأيهم لأنفسهم، وأنذره بالقرآن هؤلاءِ الآخرين الذين هم مظنَّة الإيمان وأهل للانتفاع، ولم يرد أنه لا ينذر سواهم، بل الإنذار العام ثابت مستقر[٢]، والضمير في ﴿ بِهِ ﴾ عائد على ما ﴿ مَا يُوحَىٰٓ ﴾، و﴿ يَخَافُونَ ﴾ على بابها في الخوف، أي الذين يخافون ما تحققوه من أن يحشروا ويستعدون لذلك، وربَّ متحقق لشيءٍ مخوف وهو ـ لِقلَّةِ النظر والحزم ـ لا يخافه ولا يستعدُّ له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقال الطبري: وقيل: ﴿ يَخَافُونَ ﴾ هنا بمعنىٰ يعلمون، وهذا غير لازم، وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ يعُمّ بنفس اللفظ كل مؤمن بالبعث من مسلم ويهودي ونصراني.

وقوله: ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ يحتمل معنيين ـ فإن جعلناه داخلاً في الخوف كان في موضع نصب على الحال، أي: يخافون أن يحشروا في حال مَنْ لا وليَّ له ولا شفيع، فهي مختصَّة بالمؤمنين المسلمين لأن اليهود والنصارىٰ يزعمون أن لهم شفعاءَ وأنهم أبناءُ الله ونحو هذا من الأباطيل، وإن جعلنا قوله: ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ إخباراً من الله عن صفة الحال يومئذ فهي عامةٌ للمسلمين وأهل الكتاب، و[لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ] ترجّ على حسب ما يرى البشر ويعطيه نظرهم.

---

(١) من الآية (٦) من سورة (البقرة).

(٢) روىٰ أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في الموالي، منهم بلال، وصهيب، وخبَّاب، وعمار، ومهجع، وسلمان، وعامر بن فهيرة، وسالم مولى أبي حذيفة. تفسير «البحر المحيط».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

المراد بـ ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ ضعفة المؤمنين في ذلك الوقت في أُمور الدنيا: بلال وعمار وابن أُم عبد ومرثد الغنوي وخباب وصهيب وصبيح وذو الشمالين والمقداد ونحوهم.

وسبب الآية أَن الكفار قال بعضهم للنبي ﷺ: نحن لشرفنا وأَقدارنا لا يمكننا أَن نختلط بهؤلاءِ، فلو طردتهم لأَتبعناك وجالسناك، ورد في ذلك حديث عن ابن مسعود(١). وقيل: إنما قال هذه المقالة أَبو طالب على جهة النصح للنبي ﷺ، قال له: لو أَزلت هؤلاءِ لاتَّبعك أَشراف قومك. وروي أَن ملأَ قريش اجتمعوا إِلى أَبي طالب في ذلك، وظاهر الأَمر أَنهم أَرادوا بذلك الخديعة، فصوب هذا الرأْيَ من أَبي طالب عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وغيره من المؤمنين فنزلت الآية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إِن بعض الكفار إِنما طلب أَن يُؤَخر هؤلاءِ عن الصف الأَول في الصلاة، ويكونون هم موضعهم ويؤمنون إِذا طرد هؤلاءِ من الصف الأَول فنزلت الآية. أَسند الطبري إِلى خباب بن الأَرت أَن الأَقرع بن حابس ومن شابهه من أَشراف العرب قالوا للنبي ﷺ: اجعل لنا منك مجلساً لا يخالطنا فيه العُبُد والحلفاءُ، واكتب لنا كتاباً فهمَّ النبي ﷺ بذلك فنزلت الآية(٢).

---

(١) أَخرجه أَحمد، وابن جرير، وابن أَبي حاتم، والطبراني، وأَبو الشيخ، وابن مردويه، وأَبو نعيم في الحلية ـ عن عبد الله بن مسعود ـ قال: مرَّ الملأُ من قريش على النبي ﷺ وعنده صهيب، وعمار، وبلال، وخباب، ونحوهم من ضعفاءِ المسلمين فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أَهؤُلاءِ منَّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فأَنزل فيهم القرآن: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ـ (الدر المنثور ٣ـ ١٢ـ ١٣). هذا وقد روي مثل هذا الحديث عن عكرمة، وعن خباب، وعن مجاهد، وعن الربيع بن أنس.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن ماجة، وأبو يعلى، وأَبو نعيم في الحلية، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل ـ عن خباب قال: جاءَ الأَقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري فوجدا النبي ﷺ قاعداً مع بلال، وصهيب، وعمار، وخباب في=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تأويل بعيد في نزول الآية، لأن الآية مكية وهؤلاءِ الأشراف لم يفدوا إلا في المدينة. وقد يمكن أن يقع هذا القول منهم، ولكنه إن كان وقع فبعد نزول الآية بمدة اللّهم إلا أن تكون الآية مدنية، قال خباب رضي الله عنه: ثم نزلت ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، فكنا نأتي فيقول لنا: (سلامٌ عليكم) ونقعد معه، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾[1] الآية، فكان يقعد معنا، فإذا بلغ الوقت الذي يقوم فيه قمنا وتركناه حتىٰ يقوم.

و﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ قال الحسن بن أبي الحسن: المراد به صلاة مكة التي كانت مرتين في اليوم بكرة وعشيا. وقيل بل قوله: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ عبارة عن استمرار الفعل وأن الزمن معمور به، كما تقول: الحمد لله بكرة وأصيلا، فإنما تريد الحمد لله في كل وقت، والمراد ـ على هذا التأويل ـ قيل: هو الصلوات الخمس، قاله ابن عباس وإبراهيم، وقيل: الدعاءُ وذكر الله واللفظة على وجهها. وقال بعض القصاص: إنه الاجتماع إليهم غدوة وعشيا، فأنكر ذلك ابن المسيب، وعبد الرحمن بن أبي عمرة وغيرهما وقالوا: إنما الآية في الصلوات في الجماعة. وقيل: قراءَة القرآن وتعلمه، قال: أبو جعفر، ذكره الطبري، وقيل: العبادة، قاله الضحاك.

وقرأَ أبو عبد الرحمن، ومالك بن دينار، والحسن، ونصر بن عاصم، وابن عامر: [بالغُدْوَةِ والْعَشِيِّ]، وروي عن أَبي عبد الرحمن [بالغُدُوِّ] بغير هاءٍ، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [بِالغُدُواتِ والعَشِيَّات] بأَلف فيهما على الجمع. وغدوة: معرفة لأَنها جعلت علماً

= أُناس ضعفاءَ من المؤمنين، فلما رأَوهم حوله حَقَّروهم، فأَتوه فخلوا به فقالوا: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا العرب به فضْلنا، فإن وفود العرب ستأتيك فنستحي أن ترانا العرب قعوداً مع هؤلاء الأَعبُدُ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فلتقعد معهم إن شئت، قال: نعم، قالوا: فاكتب لنا عليك بذلك كتاباً، فدعا بالصحيفة، ودعا علياً ليكتب ونحن قعود في ناحية إذ نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ فألقى رسول الله ﷺ الصحيفة من يده، ثم دعانا فأتيناهُ وهو يقول: سلامٌ عَليكم كَتَبَ ربكمُ على نفسهِ الرَّحْمَةَ، فكنا نقعد معه فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ الآية: قال: فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا بعد (ذلك) فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم. (الدر المنثور).

(١) من الآية (٢٨) من سورة (الكهف).

لوقت من ذلك اليوم بعينه، وجاز إدخال الألف واللام عليها كما حكىٰ أبو زيد: «القيته فينةَ» غير مصروف، و«الفينة بعد الفينة» فألحقوا لام المعرفة ما استعمل معرفة، وحملاً على ما حكاه الخليل أنه يقال: «لقيته اليوم غدوةً» منوناً، ولأن فيها مع تعيين اليوم إمكان تقدير معنى الشياع، ذكره أبو علي الفارسي.

و﴿وَجْهَهُۥ﴾ ـ في هذا الموضع ـ معناه: جهة التزلُّف إليه، كما تقول: «خرج فلانٌ في وجه كذا» أي: في مقصد وجِهَة.

و﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾[1] معناه: لم تكلَّف شيئاً غير دعائهم فتقدم أنت وتؤخر، ويظهر أن يكون الضمير في ﴿حِسَابِهِم﴾ و﴿عَلَيْهِم﴾ للكفار الذين أرادوا طرد المؤمنين، أي ما عليك منهم آمنوا أو كفروا فتطرد هؤلاءِ رعياً لذلك، والضمير في [فتطردهم] عائد على الضعفة من المؤمنين. ويؤيد هذا التأويل أن ما بعد الفاءِ أبداً سبب ما قبلها، وذلك لا يبين إذا كانت الضمائر كلها للمؤمنين. وحكىٰ الطبري أن الحساب هنا إنما هو في رزق الدنيا، أي: لا ترزقهم ولا يرزقونك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا تجيءُ الضمائر كلها للمؤمنين، وذكره المهدوي، وذُكر عن الحسن أنه من حساب عملهم كما قال الجمهور، و﴿مِنْ﴾ الأولى للتبعيض والثانية زائدة مؤكدة، وقوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جواب النفي في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ﴾، وقوله: ﴿فَتَكُونَ﴾ جواب النهي في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾. و﴿مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ معناه: الذين يضعون الشيءَ غير مواضعه[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ الآية. ﴿فَتَنَّا﴾ ـ في هذه الآية ـ معناه: ابتلينا، فابتلاءُ المؤمنين بالمشركين هو ما يلقون منهم من الأذى، وابتلاءُ

---

(١) من اللطائف الدقيقة ما ذكره صاحب «البحر المحيط» هنا حيث قال: «وانظر إلى حسن اعتنائه تعالىٰ بنبيِّه بخطابه حيث بدأ به في الجملتين معاً» فقال: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ فقدم خطابه في الجملتين، وكان مقتضى التركيب الأول ـ لو لوحظ ـ أن يكون التركيب الثاني: «وما عليهم من حسابك من شيءٍ» لكنه قدم خطاب الرسول وأمره تشريفاً له عليهم، واعتناءً بمخاطبته، وفي هاتين الجملتين ردّ العجز على الصدر، ومنه قول الشاعر:

لَيْسَ الَّذي حَلَّلْتَهُ بِمُحَلَّلٍ ... ولَيْس الَّذي حَرَّمْتَهُ بِمُحَرَّمِ

(٢) وحاشا أن يقع الرسول ﷺ في ذلك، وإنما هذا بيان للأحكام، ولئلا يقع مثل ذلك من غيره من أهل الإسلام، وهذا مثل قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، وقد علم الله منه أنه لا يُشرك ولا يَحْبَط عمله.

المشركين بالمؤمنين هو أن يرى الرجل الشريف من المشركين قوماً لا شرف لهم قد عظمهم هذا الدين وجعل لهم عند نبيِّه قدراً ومنزلة. والإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما ذكر من طلبهم أن يطرد الضعفة، و﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ معناه: ليصير بحكم القدر أمرهم إلى أن يقولوا، فهي لام الصيرورة كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[1] أي: ليصير مآله أن يكون لهم عدوا، وقول المشركين ـ على هذا التأويل ـ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ هو على جهة الاستخفاف والهزء، ويحتمل الكلام معنى آخر وهو أن تكون اللام في ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ على بابها في لام (كي)، وتكون المقالة منهم استفهاماً لأنفسهم ومباحثة لها، وتكون سبب إيمان مَنْ سبق إيمانه منهم، فمعنى الآية ـ على هذا التأويل ـ: وكذلك ابتلينا أشراف الكفار بضعفاءِ المؤمنين ليتعجبوا في نفوسهم من ذلك، ويكون سبب نظر لمن هدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والتأويل الأول أسبق، والثاني يتخرَّج، و﴿مَنَّ﴾ على كلا التأويلين إنما هي على معتقد المؤمنين، أي: هؤلاءِ منَّ الله عليهم بزعمهم أن دينهم مِنَّة.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: يا أيها المسْتَخفُّونَ أو المتعجبون ـ على التأويل الآخر ـ ليس الآمر أمر استخاف ولاتعجُّب، فالله أعلم بمن يشكر نعمته، وبالمواضع التي ينبغي أن يوضع فيها فجاءَ إعلامهم بذلك في لفظ التقدير، إذ ذلك بيِّن لا تمكنهم فيه معاندة[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

قال جمهور المفسرين: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يراد بهم القوم الذين كانوا عُرض طردهم

---

(١) من الآية (٨) من سورة (القصص).

(٢) الاستفهام في قوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾؟ معناه التقرير والرد على القائلين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾. ولفظ الشكر هنا في غاية من الحُسْن، إذ قد تقدم في قولهم «مَنَّ» بمعنى أَنْعَم فناسب الإنعام لفظ الشكر.

فنهى الله عزَّ وجلَّ عن طردهم، وشفع بأَن أَمر بأَن يسلّم النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ويؤنسهم.

وقال عكرمة، وعبد الرحمن بن زيد: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يراد بهم القوم من المؤمنين الذين صوَّبوا رأْي أَبي طالب في طرد الضعفة فأَمر الله نبيَّه أَن يسلِّم عليهم ويُعْلِمَهم أَن يغفر لهم مع توبتهم من ذلك السوءِ وغيره.

وأَسند الطبري عن ماهان أَنه قال: نزلت الآية في قوم من المؤمنين استفتوا النبي ﷺ في ذنوب سلفت منهم فنزلت الآية بسببهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهي ـ على هذا ـ تعم جميع المؤمنين دون أَن تُشير إِلى فرقة.

وقال الفُضَيل بن عِيَاض: قال قوم للنبي ﷺ: إِنَّا قد أَصبنا ذُنوباً فاستغفر لنا. فأَعرض عنهم، فنزلت الآية.

وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعُمُّ القرآن وأَيضاً علامات النبوة كلها. و﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ ابتداءٌ، والتقدير: سلام ثابت أَو واجب عليكم، والمعنىٰ: أَمَنَةٌ لكم من عذاب الله في الدنيا والآخرة، وقيل: المعنىٰ: إِن الله يسلِّم عليكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا معنى لا يقتضيه لفظ الآية حكاه المهدوي. ولفظه لفظ الخبر ومعناه الدعاءُ، وهذا من المواضع التي جاز فيها الابتداء بالنَّكرة إِذ قد تخصصت، و﴿كَتَبَ﴾ بمعنى أَوجب، والله تعالىٰ لا يجب عليه شيءٌ عقلاً إِلا إِذا أَعلمنا أَنه قد حتم بشيءٍ ما فذلك الشيءُ واجب. وفي: أَين هذا الكتاب؟ اختلاف ـ قيل: في اللوح المحفوظ، وقيل: في كتاب غيره لقوله عليه الصلاة والسلام في صحيح البخاري: (إِنَّ الله تبارك وتعالىٰ كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش، إِنَّ رحمتي سبقت غضبي)[1].

(١) الحديث في الصحيحين، ورواه الإمام أحمد عن همام بن مُنَبِّهٍ قال: هذا ما حدثنا أَبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لما قضى الله على الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي). وقد رواه ابن مردويه من طريق الحكم ابن أبان عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذا فرغ الله من القضاءِ بين الخلق أخرج كتاباً من تحت العرش: إن رحمتي سبقت غضبي، وأنا أرحم=

وقرأ عاصم، وابن عامر: ﴿أَنَّهُۥ﴾ بفتح الهمزة في الأولى والثانية، فـ ﴿أَنَّهُۥ﴾ الأُولى بدل من ﴿ٱلرَّحۡمَةَ﴾ و﴿أَنَّهُۥ﴾ الثانية خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: فأمره أنه غفور رحيم، هذا مذهب سيبويه. وقال أَبو حاتم: ﴿فَأَنَّهُۥ﴾ ابتداء، ولا يجوز هذا عند سيبويه، وقال النحاس: هي عطف على الأُولىٰ وتكرير لها لطول الكلام، قال أَبو علي: ذلك لا يجوز لأَن ﴿مَنۡ﴾ لا يخلو أَن تكون موصولة بمعنى الذي فتحتاج إِلى خبر، أَو تكون شرطية فتحتاج إِلى جواب، وإِذا جعلنا ﴿فَأَنَّهُۥ﴾ تكريراً للأُولى عطفاً عليها بقي المبتدأ بلا خبر، أَو الشرط بلا جواب، وقرأ ابن كثير، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائيﷺ: [إِنَّهُ] بكسر الهمزة في الأُولى والثانية، وهذا على جهة التفسير لِـ ﴿ٱلرَّحۡمَةَ﴾ في الأُولى والقطع فيها، وفي الثانية ـ إِما في موضع الخبر أَو موضع جواب الشرط، وحكم ما بعد الفاءِ إِنما هو الابتداءُ، وقرأَ نافع بفتح الأُولىٰ وكسر الثانية، وهذا على أَن أَبْدل من ﴿ٱلرَّحۡمَةَ﴾ واستأْنف بعدالفاءِ، وقرأَت فرقة بكسر الأُولى وفتح الثانية، حكاه الزهراوي عن الأَعرج، وأَظُنُّه وهماً لأَن سيبويه حكاه عن الأَعرج مثل قراءَة نافع، وقال أَبو عمرو الداني: قراءَة ضد قراءَة نافع.

والجهالة ـ في هذا الموضع ـ تعُمُّ التي تُضاد العِلْم والتي تُشَبَّه بها، وذلك أَن المتعمِّد لفعل الشيءِ الذي قد نهي عنه تشمل معصيته تلك جهالة، إِذ قد فعل ما يفعله الذي لم يتقدم له علم. قال مجاهد: «من الجهالة أَلاَّ يعلم حلالاً من حرام، ومن جهالته أَن يركب الأَمر». ومن هذا الذي لا يُضاد العِلْم قول النبي ﷺ في استعاذَته: (اَنْ أَجْهل أَو يُجْهل عَلَيّ)[1]، ومنه قول الشاعر:

أَلاَ لاَ يَجْهَلَـنْ أَحَـدٌ عَلَيْنَـا ... فَنَجْهَـلَ فَـوْقَ جَهْـلِ الْجَـاهِلِينَـا[2]

= الراحمين، فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلقاً لم يعملوا خيراً مكتوب بين أعينهم: عتقاء الله). (ابن كثير).

(١) الحديث: (اللَّهمَّ إِني أَعوذ بك أَن أجهل أو يُجهل عليَّ إلى آخره). رواه ابن ماجه في (دعاء)، وأبو داود في (الأدب) والنسائي في (الاستعاذة) والترمذي في (دعوات).

(٢) البيت لعمرو بن كلثوم من قصيدته المشهورة التي بدأها بقوله:

أَلا هُبِّـي بِصَحْنِـكِ فَـاصْبَحِينَـا ... ولا تُبْقِـي خُمـورَ الأَنْـدَرِينَـا

ومعنى قوله: «فنجهلَ فوقَ جهْلِ الجاهلينا» أننا نهلكهم ونعاقبهم بما هو أعظم من جهلهم، وقد نسب الجهل إلى نفسه وهو يريد المعاقبة الشديدة ليزدوج اللفظان فتكون اللفظة الثانية مثل اللفظة الأولىٰ مع=

والجهالة المشبهة ليست بعذر في الشرع جملة، والجهالة الحقيقية يعذر بها في بعض ما يخف من الذنوب، ولا يعذر بها في كبيرة.

والتوبة: الرجوع، وصِحَّتها مشروطة باستدامة الإصلاح بعدها في الشيءِ الذي تيب منه.

والإشارة بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدم من النهي عن طرد المؤمنين وبيان فساد منزع العارضين لذلك. وتفصيل الآيات: تَبْيينُها وشرحها وإِظهارها، واللام في قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ متعلقة بفعل مضمر تقديره: «ولتستبين سبيل المجرمين فصلناها».

وقرأَ نافع: [وَلِيَسْتَبِينَ] بالياءِ أَي النبي ﷺ [سَبيلَ] بالنصب، حكاه مكي في «المشكل» له، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ برفع (السبيل) وتأْنيثها، وقرأَ عاصم في رواية أَبي بكر، وحمزة، والكسائي: [ولِيَسْتبينَ سَبيلُ] برفع (السبيل) وتذكيرها، وعرب الحجاز تؤنث (السبيل)، وتميم وأَهل نجد يذكِّرونها. وخص سبيل المجرمين لأَنهم الذين أَثاروا ما تقدم من الأَقوال، وهم أَهم في هذا الموضع لأَنها آيات ردّ عليهم، وأَيضاً فتبيْين سبيلهم يتضمن بيان سبيل المؤمنين، وتأَول ابن زيد أَن قوله: ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يعني به الآمرين بطرد الضعفة.

قال عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

أَمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أَن يجاهرهم بالتَّبري مما هم فيه، و﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ هو بتأْويل المصدر، والتقدير: «عن عبادة»، ثم حذف الجار فتسلط الفعل، ثم وضع ﴿أَنْ

= اختلاف المعنى، لأَن ذلك أخف على اللسان، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فسمَّى المعاقبة على العدوان عدواناً مع أن هذه المعاقبة عدل وحق، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ والثانية ليست سيئة في الحقيقة.

﴿أَعْبُدَ﴾ موضع المصدر. وعبَّر عن الأصنام بـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ على زعم الكفار حين أنزلوها منزلة من يعقل، و﴿تَدْعُونَ﴾ معناه: تعبدون، ويحتمل أن يريد: تدعون في أُموركم، وذلك من معنى العبادة واعتقادها آلهة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ بفتح اللام، وقرأ يحيىٰ بن وثاب، وأبو عبد الرحمن السلمي، وطلحة بن مصرف: [ضَلِلْتُ] بكسرها، وهما لغتان، و[إذاً] في هذا الموضع متوسطة وما بعدها معتمد على ما قبلها، فهي غير عاملة إلا أنها تتضمن معنى الشرط فهي بتقدير: «إن فعلت ذلك». و[أهْواء] جمع هوى وهو الإرادة والمحبة في المرديات من الأُمور، هذا غالب استعمال الهوى، وقد تقدم.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ الآية. هذه الآية تمادٍ في إيضاح مباينته لهم، والمعنى: «قل إني على أمر بيِّن»، فحذف الموصوف ثم دخلت هاءُ المبالغة كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾[1]، ويصح أن تكون الهاءُ في ﴿بَيِّنَةٍ﴾ مجردة للتأنيث، وتكون بمعنى البيان كما قال: ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[2]، والمراد بالآية: إني أيها المكذبون في اعتقادي ويقيني وما حصل في نفسي من العلْم علىَ بيِّنة من ربي. ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا﴾ الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائد على (بيِّن) في تقدير هاءْ المبالغة، أو على البيان التي هي (بيِّنة) بمعناه في التأويل الآخر، أو على الرَّبّ، وقيل: على القرآن وهو وإن لم يتقدم له ذكر جلي فإنه بعض البيان الذي منه حصل الاعتقاد واليقين للنبي عليه الصلاة والسلام فيصح عود الضمير عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وللنبي عليه الصلاة والسلام أُمور أُخر غير القرآن وقع له العلم أيضاً من جهتها، كتكليم الحجارة له، ورؤيته للمَلك قبل الوحي، وغير ذلك.

وقال بعض المفسرين: الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائد على ﴿مَا﴾ والمراد بها الآيات المقترحة على ما قال بعض المفسرين، وقيل: المراد بها العذاب، وهذا يترجح بوجهين: أحدهما من جهة المعنى وذلك أن قوله: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ يتضمن أنكم

---

(١) الآية (١٤) من سورة (القيامة).

(٢) من الآية (٤٢) من سورة (الأنفال).

واقعتم ما تستوجبون به العذاب إلا أنه ليس عندي، والآخر من جهة اللفظ وهو الاستعجال الذي لم يأت في القرآن استعجالهم إلا للعذاب، لأن اقتراحهم بالآيات لم يكن باستعجال. وقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي القضاءُ والإنفاذُ، [يَقُصُّ الْحَقَّ] أي يخبر به. والمعنى: يقص القصص الحق.

وهذه قراءَة ابن كثير، وعاصم، ونافع، وابن عباس. وقرأَ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، [يَقْضِ الْحَقَّ][1] أَي: ينفذه. وترجح هذه القراءَة بقوله: ﴿ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ لأَن الفصل مناسبٌ للقضاءِ، وقد جاءَ أَيضاً الفصل والتفصيل مع القصص. وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [وَهُوَ أَسْرَعُ الْفَاصِلِينَ]، قال أبو عمرو الداني: وقرأَ عبد الله، وأُبي، ويحيىٰ بن وثاب، وإِبراهيم النخعي، وطلحة، والأَعمش: [يَقْضي بِالْحَقِّ] بزيادة باءِ الجر، وقرأَ مجاهد، وسعيد بن جبير: [يَقْضِي الحق وهو خير الفاصلين].

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾ الآية. المعنى: لو كان عندي الآيات المقترحة، أَو العذاب ـ على التأْويل الآخر ـ لَقُضِي الأَمر، أَي لَوَقَع الانفصال، وتم النزاع لظهور الآية المقترحة، أَو لنزول العذاب، بحسب التأْويلين. وحكىٰ الزهراوي أَن المعنىٰ: لقامت القيامة، ورواه النقاش عن عكرمة، وقال بعض الناس: معنىٰ ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أَي: لَذُبِحَ المَوْتُ[2].

---

(١) [يَقْضِ] بالضاد المعجمة، قال القرطبي: «وكذلك قرأ علي رضي الله عنه، وأَبو عبد الرحمن السُّلَميَ، وسعيد بن المسيّب، وهو مكتوب في المصحف بغير ياءٍ، ولا ينبغي الوقوف عليه، وهو من القضاء».
وقال الفخر الرازي: «[يقض» بغير ياءٍ، لأَنها سقطت لالتقاء الساكنين، كما كتبوا ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ و ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾.
وفي «البحر المحيط»: [يقضي الحَقّ] هي قراءَة العربيين والأَخوين، أي: يقضي القضاءَ الحق في كل ما يقضي فيه من تأخير أو تعجيل. وضمَّن بعضهم [يقضي] معنى (ينفذ) فعداه إلى مفعول به، وقيل: يقضي بمعنى يصنع، أي كل ما يصنعه فهو حق. قال الهذلي:

وعَلَيْهِمـا مَسْـدودَتـان قَضـاهُمَـا ... داودُ أَوْ صَنَـعَ السَّـوابـغَ تُبَّـعُ

أي: صنعهما: وقيل: حذف الباء والأصل: [بالْحَقّ] ويؤيده قراءَة عبد الله، وأُبي، وابن وثاب، والنَّخعي، وطلحة، والأَعمش: [يَقْضي بالحَقِّ] بباءِ الجر، وسقطت الباءُ خطّاً لسقوطها لفظاً لالتقاء الساكنين».

(٢) في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا دخل أهل=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف جداً، لأن قائله سمع هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾[1] وذَبح الموت هنا لائق فنقله إلى هذا الموضع دون شبه، وأسند الطبري هذا القول إلى ابن جريج غير مقيد بهذه السورة، والظن بابن جريج أنه إنما فسَّر الذي في يوم الحسرة، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ يتضمن الوعيد والتهديد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿مَفَاتِحُ﴾ جمع مِفْتَح[2]، وهذه استعارة عبارة عن التوصل إلى الغيوب كما يتوصل في الشاهد بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان، ولو كان جمع مِفْتاح لقال: مفاتيح. ويظهر أيضاً أن (مَفَاتح) جمع مَفتح بفتح الميم، أي مواضع تفتح عن المغَيَّبات، ويؤيد هذا قولُ السدي وغيره: ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ خزائن الغيب، فأما مِفْتح بالكسر فهو بمعنى مفتاح، قال الزهراوي: ومِفْتح أفصح، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: الإشارة

= الجنَّة الجنَّة وأهل النَّار النار يُجاءُ بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح هو الذي بياضه أكثر من سواده، وقيل: النقي البياض ـ فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: ثم يقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت) ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. ـ وقد خرجه البخاري بمعناه عن ابن عمر رضي الله عنهما، وابن ماجه من حديث أبي هريرة، والترمذي عن أبي سعيد برفعه، وقال فيه: حديث حسنٌ صحيح.

(١) من الآية (٣٩) من سورة (مريم).

(٢) المِفْتح بكسر الميم، والمِفتاح: مفتاح الباب، وكل ما فُتح به الشيءُ، قال سيبويه: هذا الضرب مما يُعْتَمل مكسور الأول، كانت فيه الهاءُ أو لم تكن، والجمع: مفاتيح ومفاتح أيضاً. قال الأخفش: هو مثل أماني وأمانيّ، يخفف ويُشدَّد. (اللسان) ـ مادة فتح ـ قارن هذا بما ذكره ابن عطية. وقال أبو حيان في «البحر»: المفاتح: جمع مِفْتح بكسر الميم وهي الآلة التي يفتح بها ما أُغلق، ثم نقل عن الزهراوي قوله: و«مِفْتح أفصح من مفتاح». وهذا يؤيد كلام ابن عطية.

بـ ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ هي إلى الخمسة التي في آخر لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية، لأنها تعم جميع الأشياء التي لم توجد بعد[1]، ثم قوَّى البيان بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ تنبيهاً على أعظم المخلوقات المجاورة للبشر. وقوله: ﴿مِن وَرَقَةٍ﴾ على حقيقته في ورق النبات، و﴿مِن﴾ زائدة، و﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ يريد: على الإطلاق وقبل السقوط ومعه بعده، ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ يريد: في أشد حالات التَّغيب. وهذا كله وإن كان داخلاً في قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ عند من رآها في الخمس وغيرها ففيه البيان والإيضاح والتنبيه على مواضع العبر، أي: إذا كانت هذه الأمور الدقيقة معلومة فغيرها من الجلائل أحرى. ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ عطف على اللَّفظ، وقرأ الحسن، وعبد الله بن أبي إسحق: [ولا رطبٌ ولا يابس] بالرفع عطفاً على الموضع في ﴿وَرَقَةٍ﴾ لأن التقدير: «وما تسقط ورقةٌ»، و﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ قيل: يعني كتاباً على الحقيقة، ووجه الفائدة فيه امتحان ما يكتبه الحفظة، وذلك أنه روي أن الحفظة يرفعون ما كتبوه ويعارضونه بهذا الكتاب المشار إليه ليتحققوا صحة ما كتبوه. وقيل: المراد بقوله: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ على الله عزَّ وجلَّ المحيط بكل شيء. وحكىٰ النقاش عن جعفر بن محمد قولاً: إن الورقة يراد بها السقط من أولاد بني آدم، والحبة يراد بها الذي ليس بسقط، والرطب يراد به الحيُّ، واليابس يراد به الميت. وهذا قول جار على طريقة الرموز، ولا يصح عن جعفر بن محمد رضي الله عنه، ولا ينبغي أن يلتفت إليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ﴾ الآية، فيها إيضاح الآيات المنصوبة للنظر، وفيها ضرب مثل للبعث من القبور، إن هذا أيضاً إماتة وبعث على نحو مَّا.

والتَّوفي هو استيفاءُ عدد، قال الشاعر:

---

(١) روى البخاري عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (مفاتحُ الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله). وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: (من زعم أن رسول الله ﷺ يُخبر بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالىٰ يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أهـ. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾.

إِنَّ بَنِـي الأَدْرَم لَيْسُـوا مِـنْ أَحَـدْ   وَلا تَـوفَّـاهُـم قُـرَيْشٌ فـي الْعَـدَدْ[١]

وصارت اللفظة عرفاً في الموت، وهي في النوم على بعض التجوز.

و﴿جَرَحْتُم﴾ معناه: كسبتم، ومنه جوارح الصيد أي كواسبه، ومنه جوارح البدن لأنها كواسب للنفس. ويحتمل أن يكون ﴿جَرَحْتُم﴾ هنا من الْجَرْح، كأن الذنب جرح في الدين، والعرب تقول: «جرح اللسان كجرح اليد»، وروي عن ابن مسعود أو سلمان ـ شكَّ ابن دينار ـ أنه قال: «إن هذه الذنوب جراحاتٌ فمنها شَوَىٰ[٢] ومنها مقتلة، ألا وإن الشرك مقتلة».

و﴿يَبْعَثُكُمْ﴾ يريد الإيقاظ، ففي ﴿فِيهِ﴾ عائد على النهار[٣]، قاله مجاهد، وقتادة، والسدي، وذكر النوم مع الليل واليقظة مع النهار بحسب الأغلب وإن كان النوم يقع بالنهار واليقظة بالليل فنادر. ويحتمل أن يعود الضمير على التوفي، أي: يوقظكم في التوفي، أي: في خلاله وتضاعيفه، قاله عبد الله بن كثير. وقيل: يعود على الليل، وهذا قلق في اللفظ، وهو في المعنى نحو من الذي قبله.

وقرأ طلحة بن مصرف، وأبو رجاء: [ليقضي أجلاً مسمىً]، والمراد بالأجل آجال بني آدم، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يريد بالبعث النشور، و﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾ أي: يعلمكم إعلامَ توقيف ومحاسبة.

---

(١) البيت لمنظور الوَبْري كما في (اللسان) ـ أو العنبري كما في (التاج) ـ وقد روي فيهما (الأدرد) بدالين بينهما راءٌ، ومعناه كما قال صاحب (اللسان): «أي: لا تجعلهم قريش تمامَ عددهم، ولا تستوفي بهم عددهم». وقال: وأنشده أبو عبيد للدلالة على أن معنى قولك: «توفيت عدد القوم» هو أنك عددتهم كلهم، ثم قال: «وأما تَوَفِّي النائم فهو استيفاءُ وقت عقله وتمييزه إلى أن نام»، وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ هو من توفيه العدد، تأويله أن يقبض أرواحكم أجمعين فلا ينقص واحد منكم.

(٢) الشَّوَىٰ: الهَيِّن من الأمر، وفي حديث مجاهد: (كل ما أَصاب الصائم شَوًى إلا الغيبة والكذب فهي له كالمقتل). أراد أن كل شيءٍ أصابه الصائم لا يُبطل صومه فيكون كالمقتل له، إلا الغيبة والكذب فإنهما يبطلان الصوم، فهما كالمقتل له. ومعنى خبر ابن مسعود رضي الله عنه أن الذنوب بعضها هيِّن يسير، وبعضها فيه مقتل للمسلم كالشرك.

(٣) يريد أن يقول: فالضمير في (فيه) عائد على (النهار).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ ٱلْقَاهِرُ ﴾ إن أخذ صفة فعل، أي مظهر القهر بالصواعق والرياح والعذاب فيصح أن يجعل ﴿ فَوْقَ ﴾ ظرفية للجهة، لأن هذه الأشياءَ إنما تعاهدها العباد من فوقهم، وإن أخذ ﴿ ٱلْقَاهِرُ ﴾ صفة ذات بمعنىٰ القدرة والاستعلاءِ فـ ﴿ فَوْقَ ﴾ لا يجوز أن تكون للجهة، وإنما هي لعلوّ القدر والشأن، على حدِّ ما تقول: «الياقوت فوق الحديد».

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ ﴾ معناه: يبثهم فيكم، و﴿ حَفَظَةً ﴾ جمع حافظ، مثل كاتب وكتبة، والمراد بذلك الملائكة الموكلون بكتب الأعمال، وروي أنهم الملائكة الذين قال فيهم النبي ﷺ: (تتعاقب فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار)[1]، وقاله السدي وقتادة. وقال بعض المفسرين: «حفظة يحفظون الإنسان من كل شيء حتى يأتي أجله». والأول أظهر. وكلهم غير حمزة قرأ: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ على تأنيث لفظ الجمع، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾[2]، وقرأ حمزة: [تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا]، وحجته أن التأنيث غير حقيقي، وظاهر الفعل أنه ماض كقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾[3]، ويحتمل أن يكون بمعنىٰ: تتوفاه، فتكون العلامة مؤنثة، وأمال حمزة من حيث خط المصحف بغير ألف، فكأنها إنما كتبت على الإمالة، وقرأ الأعمش: [يَتَوَفَّاهُ رُسُلُنَا] بزيادة ياءٍ في أوله، والتذكير.

وقوله تعالىٰ: ﴿ رُسُلُنَا ﴾ يريد به على ما ذكر ابن عباس رضي الله عنهما وجميع أهل التأويل ملائكة مقترنين بملَك الموت يعاونونه ويأتمرون له.

وقرأ جمهور الناس: ﴿ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ بالتشديد، وقرأ الأعرج: [يُفْرِطونَ] بالتخفيف،

---

(١) روى البخاري هذا الحديث عن أبي هريرة، ولفظه: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ـ وهو أعلم بهم ـ: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، أتيناهم وهم يصلون). (فتح الباري ٢ـ ٣٣) باب فضل صلاة العصر من كتاب «مواقيت الصلاة».

(٢) من الآية (٣٤) من سورة (الأنعام).

(٣) من الآية (٣٠) من سورة (يوسف).

ومعناه: يجاوزون الحد مما أُمروا به. قال أَبو الفتح: فكما أَن المعنى في قراءَة العامة: لا يُقَصِّرون، فكذلك هو في هذه: لا يزيدون على ما أُمروا به.

ورجع اللفظ في قوله: ﴿رُدُّوٓاْ﴾ من الخطاب إِلى الغيبة، والضمير في ﴿رُدُّوٓاْ﴾ عائد على المتقدم ذكرهم، ويظهر أَن يعود على العباد فهو إِعلام بردِّ الكل، وجاءَت المخاطبة بالكاف في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ تقريباً للموعظة من نفوس السامعين. و﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ لفظ عام لأَنواع الولاية التي تكون بيد الله، وبين عبيده من الرزق والنصرة والمحاسبة والملك وغير ذلك، وقوله: [الحق] نعت لـ [مولاهم] ومعناه: الذي ليس بباطل ولا مجازي. وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، والأَعمش: [الْحَقَّ] بالنصب، وهو على المدح، ويصح على المصدر. ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ ابتداءُ كلام مضمنه التنبيه وهزُّ نفس السامع، و﴿ٱلْحُكْمُ﴾ تعريفه للجنس، أَي: جميع أَنواع التصرفات في العباد، و﴿أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ متوجه على أن الله عزَّ وجلَّ حسابه لعبيده صادر عن علمه بهم فلا يحتاج في ذلك إِلى إِعداد ولا تكلف، سبحانه لا ربَّ غيره، وقيل لعلي بن أَبي طالب رضي الله عنه: كيف يحاسب الله العباد في حالة واحدة؟ قال: كما يرزقهم في حال واحدة في الدنيا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

هذا تماد في توبيخ العادلين بالله الأَوثان، وتوقيفهم على سوءِ الفعل في عبادتهم الأَصنام، وتركهم الذي يُنَجِّي من المهلكات، ويُلْجأُ إِليه في الشدائد.

و﴿مَن﴾ استفهام رفع بالابتداءِ، وقرأَ عاصم وحمزة، والكسائي: ﴿مَن يُنَجِّيكُم﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾ بتشديد الجيم وفتح النون، وقرأَ أَبو عمرو في رواية علي بن نصر عنه، وحميد بن قيس، ويعقوب: [يُنْجيكُمْ] بتخفيف الجيم وسكون النون، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر بالتشديد في الأُولى والتخفيف في الثانية فجمعوا بين التعدية بالأَلف والتعدية بالتضعيف، كما جاءَ ذلك في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾(١).

---

(١) الآية (١٧) من سورة (الطارق).

و﴿ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يراد به شدائدها، فهو لفظ عام يستغرق ما كان من الشدائد بظُلْمة حقيقية وما كان بغير ظُلْمة، والعرب تقول: عامٌ أَسود، ويوم مُظْلِم، ويوم ذو كواكب[١]، ونحو هذا يريدون به الشدة، قال قتادة: المعنىٰ: من كُرب البر والبحر، وقاله الزَّجاج. و﴿تَدْعُونَهُۥ﴾ في موضع الحال، و﴿تَضَرُّعًا﴾ نصب على المصدر والعامل فيه ﴿تَدْعُونَهُۥ﴾، والتضرع صفة بادية على الإنسان، ﴿وَخُفْيَةً﴾ معناه: الاختفاءُ والسرّ، فكأَن نسق القول: تدعونه جهراً وسراً، هذه العبارة بمعان زائدة.

وقرأَ الجميع غير عاصم: ﴿وَخُفْيَةً﴾ بضم الخاءِ، وقرأَ عاصم في رواية أَبي بكر رضي الله عنه: [وخِفْية] بكسر الخاءِ، وقرأَ الأَعمش: [وَخيفَة] من الخوف، وقرأَ الحجازيون وأَهل الشام: [أَنْجَيْتنَا]، وقرأَ الكوفيون: [أَنْجَانا] على ذكر الغائب، وأَمال حمزة، والكسائي الجيم. و﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أَي: على الحقيقة، والشكر على الحقيقة يتضمن الإيمان، وحكى الطبري في قوله: [ظُلُمات] أَنه ضلال الطريق في الظلمات ونحوه، حكى السدي[٢] أَنه ظلام الليل والغيم والبحر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التخصيص كله لا وجه له، وإِنما هو لفظ عام لأَنواع الشدائد في المعنىٰ، وخص لفظ الظلمات بالذكر لما تقرر في النفوس من هول الظلمة.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾ سَبْقٌ في المجادلة إِلى الجواب، إِذ لا محيد عنه، ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ لفظ عام أَيضاً ليتضح العموم الذي في الظلمات، ويصح أَن يتأَول من قوله: ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ تخصيص الظلمات قبلُ، ونص عليها لهولها. وعطف في هذا الموضع بـ (ثُمَّ) للمهلة التي تُبيِّن قبح فعلهم، أَي: ثم بعد معرفتكم بهذا كله وتحققه به أَنتم تشركون.

---

(١) أنشد سيبويه:

بَنـي أَسـدٍ هـلْ تَعْلمـونَ بَـلاءَنـا ... إِذا كـانَ يـومٌ ذُو كـواكبَ أَشْنَعـا

كأنه لغيبة شمسه وشدة ظلامه بدت فيه الكواكب، ويعنون بذلك أنه شديد عليهم.

(٢) في بعض النسخ: وحكى المهدوي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

هذا إخبار يتضمن الوعيد، والأظهر من نسق الآيات أن هذا الخطاب للكفار الذين تقدم ذكرهم، وهو مذهب الطبري، وقال أُبي بن كعب، وأبو العالية، وجماعة معهما: هي للمؤمنين وهم المراد، قال أُبي بن كعب: هي أَربع خلال وكلهن عذاب وكلهن واقع قبل يوم القيامة، فمضت اثنتان بعد رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة، لبسوا شيعاً وأُذيق بعضهم بأْس بعض، واثنتان واقعتان لا محالة ـ الخسف والرجم، وقال الحسن بن أَبي الحسن: بعضها للكفار وبعضها للمؤمنين، بعث العذاب من فوق وتحت للكفار وسائرها للمؤمنين. وهذا الاختلاف إنما هو بحسب ما يظهر من أَن الآية تتناول معانيها المشركين والمؤمنين.

وروي من حديث جابر وخالد الخزاعي أَن رسول الله ﷺ لما نزلت: ﴿ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ قال: (أَعوذ بوجهك)، فلما نزلت: ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال: (أَعوذ بوجهك)، فلما نزلت: ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال: (هذه أهون) أَو (هذه أَيسر)[1]، فاحتج بهذا من قال إِنها نزلت في المؤمنين. قال الطبري: وغير ممتنع أَن

(١) رواه البخاري عند تفسير هذه الآية: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ ﴾ الآية، ورواه أيضاً في كتاب التوحيد عن قتيبة، ورواه الحميدي في مسنده عن سفيان بن عيينة، ورواه ابن حبان في صحيحه عن أبي يعلي الموصلي، ورواه النسائي في التفسير عن قتيبة، ورواه ابن جرير عن سفيان بن عيينة، ورواه أبو بكر بن مردويه عنه أيضاً. (ابن كثير).

ويتعلق بهذه الآية أحاديث كثيرة، فقد روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال: (سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية) ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ فقال: أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد). وأيضاً روى الإمام أحمد، وابن ماجة في الفتن، وابن مردويه ـ عن معاذ ابن جبل رضي الله عنه قال: (أتيت رسول الله ﷺ فقيل لي: خرج قبْلُ، قال: فجعلت لا أمر بأحد إلا قال لي: مرَّ قبْلُ، حتى مررت فوجدته قائماً يصلي، قال: فجئت حتى قمت خلفه، قال: فأطال الصلاة، فلما قضى صلاته قلت: يا رسول الله، قد صليت صلاة طويلة، فقال رسول الله ﷺ: إني صليتُ صلاة رغبة ورهبة، إني سألت الله عزَّ وجلَّ ثلاثاً، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألته ألا يهلك أُمتي غرقاً=

يكون النبي ﷺ تعوذ لأُمته من هذه الأَشياءِ التي توعد بها الكفار، وهَوّن الثالثة لأَنها بالمعنىٰ هي التي دعا بها فمنع حسب حديث الموطأ وغيره، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: إنها أَسوأُ الثلاث، وهذا عندي على جهة الإغلاظ في الموعظة، والحق أَنها أَيسرها كما قال عليه الصلاة والسلام.

و﴿مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لفظ عام للمنطبقيْن على الإنسان، وقال السدي عن أَبي مالك: ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ الرجم و﴿مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ الخسف، وقاله سعيد بن جبير، ومجاهد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ ولاة الجور، و﴿مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ سفلة السوءِ وخدمة السوءِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه كلها أَمثلة لا أَنها هي المقصود، إذ هي وغيرها من القحوط والغرق وغير ذلك داخل في عموم اللفظ.

و﴿يَلْبِسَكُمْ﴾ ـ على قراءَة السَّتَّة ـ معناه: يخلطكم ﴿شِيَعًا﴾ فرقاً يتشيع بعضها لبعض، واللبس: الخلط، وقال المفسرون: هو افتراق الأَهواءِ والقتال بين الأُمة. وقرأَ أَبو عبد الله المدني [يُلْبِسَكُمْ] بضم الياءِ مِنْ: أَلْبَسَ، فهو على هذه استعارة من اللباس، فالمعنىٰ: أَو يُلبسكم الفتنة شيعاً، و﴿شِيَعًا﴾ منصوب على الحال. وقد قال الشاعر:

لَبِسْتُ أُناساً فَأَفْنَيْتُهُمْ .... (١)

فهذه عبارة عن الخلطة والمقاساة وإلباس القتل وما أَشبهه من المكاره.

﴿وَيُذِيقَ﴾ استعارة إذ هي من أَجل حواس الاختبار، وهي استعارة مستعملة في كثير

= فأعطاني، وسألته ألا يظهر عليهم عدو ليس منهم فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فردَّها عليَّ).

(١) هذا صدر بيت للنابغة الجعدي: والبيت بتمامه:

لبِسْتُ أُناساً فأَفْنَيْتُهُم ... وأَفْنَيْتُ بعدَ أُناسٍ أُناساً

وبعده: ثلاثة أَهْلِينَ أَفْنَيْتُهُمْ ... وكان الإلهُ هو المُسْتَآسا

قال في (اللسان): يقال: لبست امرأةً أي: تمتعت بها زمناً، ولبستُ قوماً، أي: تملَّيْتُ بهم دهراً، وتلبَّس حُب فلانة بدمي ولحمي أي: اختلط، وأنشد أبو حنيفة:

تَلَبَّسَ حُبها بدمي ولَحْمي ... تَلَبُّس عِطْفَةٍ بفُروع ضالِ

من كلام العرب وفي القرآن، وقرأ الأعمش: [وَنُذيق] بنون الجماعة، وهي نون العظمة في جهة الله عزَّ وجلَّ، وتقول: أذقتُ فلاناً العلقم، تريد كراهة شيءٍ صنعته به، ونحو هذا.

وفي قوله: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ﴾ الآية استرجاع لهم، وإن كان لفظها لفظ تعجيب للنبي ﷺ فمُضَمَّنُها أن هذه الآيات والدلائل إنما هي لاستصرافهم عن طريق غيِّهم، والفقه: الفهم.

والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائد على القرآن الذي فيه جاءَ تصريف الآيات، قاله السدي، وهذا هو الظاهر، وقيل: يعود على النبي ﷺ، وهذا بعيد لقرب مخاطبته بعد ذلك بالكاف في قوله: ﴿قَوۡمُكَ﴾، ويحتمل أن يعود الضمير على الوعيد الذي تضمنته الآية، ونحا إليه الطبري، وقرأ ابن أبي عبلة: [وَكَذَّبَتْ به قَوْمُكَ] بزيادة تاءٍ، و﴿بِوَكِيلٖ﴾ معناه: بمدفوع إلى أخذكم بالإيمان والهدى، والوكيل بمعنى الحفيظ، وهذا كان قبل نزول الجهاد والأمر بالقتال ثم نسخ، وقيل: لا نسخ في هذا إذ هو خبر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والنسخ فيه متوجه لأن اللازم من اللفظ ليس الآن، وليس فيه أنه لا يكون في المستأنف، وقوله: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞ﴾ أي غاية يعرف عندها صدقه من كذبه، ﴿وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ تهديد محض ووعيد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٦٩﴾.

لفظ هذا الخطاب محرر للنبي ﷺ وحده، واختلف في معناه ـ فقيل: إن المؤمنين داخلون في الخطاب معه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الصحيح، لأن علة النهي وهي سماع الخوض في آيات الله تشملهم وإياه، وقيل: بل المعنىٰ أيضاً أُريد به النبي ﷺ وحده، لأن قيامه عن المشركين كان يشق

عليهم، وفراقه لهم على مغاضبة، ولم يكن المؤمنون عندهم كذلك، فأُمر النبي ﷺ أن ينابذهم بالقيام عنه إذا استهزءُوا وخاضوا ليتأدبوا بذلك، وَيَدَعوا الخوض والاستهزاءَ، وهذا التأويل يتركب على كلام ابن جرير يرحمه الله.

والخوض أَصله في الماءِ ثم يستعمل بعد في غمرات الأَشياءِ التي هي مجاهل تشبيهاً بغمرات الماءِ.

﴿وَإِمَّا﴾ شرط، وتلزمها النون الثقيلة في الأَغلب، وقد لا تلزم كما قال:

إِمَّـا يُصِبْـك عَـدُوٌّ فـي مُنَـاوَأَةٍ . . . . (١)

إلى غير ذلك من الأَمثلة. وقرأَ ابن عامر وحده(٢) [يُنَسِّيَنَّكَ] بتشديد السين وفتح النون، والمعنىٰ واحد إلا أَن التشديد أَكثر مبالغة(٣).

والذكرى والذكر واحد في المعنىٰ وإنما هو تأْنيث لفظي، ووصْفهم هنا بـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ متمكن لأنهم وضعوا الشيءَ في غير موضعه، و﴿أَعۡرِضۡ﴾ في هذه الآية بمعنى المفارقة على حقيقة الإعراض وأكمل وجوهه، ويدل على ذلك ﴿فَلَا تَقۡعُدۡ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم﴾ الآية، المراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ هم المؤمنون، والضمير في ﴿حِسَابِهِم﴾ عائد على ﴿ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾ ومن قال إن المؤمنين داخلون في قوله: [فأعرض] قال: إن النبي ﷺ داخل في هذا القصد بـ (الذين يتقون) والمعنى عندهم على ما روي أَن المؤمنين قالوا لما نزلت: ﴿فَلَا تَقۡعُدۡ﴾ معهم إذ كنا لا نقرب المشركين ولا نسمع أَقوالهم فما يمكننا طواف ولا قضاءُ عبادة في الحرم فنزلت لذلك ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

---

(١) هذا صدر بيت، وقد ذكره القرطبي كاملاً في تفسيره، وذكره الشوكاني أَيضاً في «فتح القدير»، ولفظه في القرطبي:

إِمَّـا يُصِبْـك عَـدوٌّ فـي مُنَـاوأةٍ ... يـومـاً فقـد كنْـتَ تَسْتَعْلـي وتَنْتَصـر

ولفظه في فتح القدير:

إِمَّـا يُصِبْـك عـدوٌّ فـي مُنَـازلـةٍ ... يـومـاً فقـل كيْـفَ يَسْتَعْلـي ويَنْتَصِـر؟

(٢) في القرطبي: «وقرأَ ابن عباس وابن عامر».

(٣) قال القرطبي: يقال: نَسَّىٰ، وأَنْسىٰ بمعنى واحد، لغتان، قال الشاعر:

قـالـتْ سُلَيْمـى أَتَسْـري الْيـومَ أَمْ تَقِـل ... وقـد يُنَسِّيـكَ بعـضَ الحـاجَـةِ الكَسَـلُ

وقال امرؤُ القيس:

ومثلِـكِ بيْضـاء العَـوارضِ طَفْلَـةٍ ... لَعـوبٍ تُنَسِّيـني إذا قُمْـتُ سِرْبـالـي

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالإباحة في هذا هي في القدر الذي يحتاج إليه من التصرف بين المشركين في عبادة ونحوها، وقال بعض من يقول «إن النبي ﷺ داخل في ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وإن المؤمنين داخلون في الخطاب الأول»: هذه الآية الأخيرة ليست إباحة بوجه، وإنما معناها: لا تقعدوا معهم ولا تقربوهم حتى تسمعوا استهزاءَهم وخوضهم، وليس نهيكم عن القعود لأن عليكم شيئاً من حسابهم وإنما هو ذكرى «لكم»، ويحتمل المعنىٰ أن يكون «لهم» لعلهم إذا جانبتموهم يتقون بالإمساك عن الاستهزاءِ، وأما من قال: «إن الخطاب الأول هو مجرد للنبي ﷺ لثقل مفارقته مغضباً على الكفار» فإنه قال في هذه الآية الثانية: إنها مختصة بالمؤمنين، ومعناها الإباحة، فكأنه قال: فلا تقعد معهم يا محمد، وأما المؤمنون فلا شيءَ عليهم من حسابهم فإن قعدوا فليذكِّروهم لعلهم يتقون الله في ترك ما هم فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا القول أشار إليه النقاش ولم يوضحه، وفيه عندي نظر، وقال قائل هذه المقالة: إن هذه الإباحة للمؤمنين نسخت بآية النساءِ قولِهِ تبارك وتعالىٰ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾[1]، وكذلك أيضاً من قال أولاً: «إن الإباحة كانت بحسب العبادات» يقول: إن هذه الآية التي في النساء ناسخة لذلك إذ هي مدنية، والإشارة بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ﴾ إليها بنفسها فتأمله، وإلا فيجب أن يكون الناسخ غيرها. و﴿ذِكْرَىٰ﴾ ـ على هذا القول ـ يحتمل أن يكون: ذكِّروهم ذكرى، ويحتمل: ولكن أعرضوا متى أعرضتم في غير وقت العبادة ذكرى، و﴿ذِكْرَىٰ﴾ ـ على كل قول ـ يحتمل أن تكون في موضع نصب بإضمار فعل، أو رفع بإضمار مبتدأ.

وينبغي للمؤمن أن يمتثل حكم هذه الآية مع الملحدين وأهل الجدال والخوض فيه، وحكى الطبري عن أبي جعفر أنه قال: لا تجالسوا أهل الخصومات فإنهم الذين يخوضون في آيات الله.

---

(١) من الآية (١٤٠) من سورة (النساء).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

هذا أمر بالمتاركة[١]، وكان ذلك بحسب قلة أتباع الإسلام حينئذ. قال قتادة: ثم نسخ ذلك وما جرى مجراه بالقتال. وقال مجاهد: الآية إنما هي للتهديد والوعيد فهي كقوله تعالىٰ: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾[٢]، وليس فيه نسخ لأنها متضمنة خبراً وهو التهديد. وقوله: ﴿ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ يريد: إذ يعتقدون أن لا بعث فهم يتصرفون بشهواتهم تصرف اللاعب اللاهي. ﴿ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: خدعتهم، من الغرور هو الإطماع بما لا يتحصل، فاغتروا بنعم الله ورزقه وإمهاله، وطمعهم ذلك فيما لا يتحصل من رحمته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويتخرج في ﴿ وَغَرَّتْهُمُ ﴾ هنا وجه آخر من الغَرِّ بفتح الغين[٣]، أَي: ملأَت أَفواههم وأَشبعتهم، ومنه قول الشاعر:

وَلَمَّا الْتَقَيْنَا بِالْحُلَيْبَةِ غَرَّنِي … بِمَعْرُوفِهِ حَتَّى خَرجْتُ أَفوقُ[٤]

ومنه: غرَّ الطائر فرخه، ولا يتَّجه هذا المعنىٰ في تفسير غرَّ في كل موضع.

وأَضاف الدين إِليهم على معنى أَنهم جعلوا اللعب واللهو ديناً، ويحتمل أَن يكون المعنىٰ: اتخذوا دينهم الذي كان ينبغي لهم لعباً ولهواً. والضمير في ﴿ بِهِۦٓ ﴾ عائد على الدين، وقيل: على القرآن.

---

(١) عبارة «البحر المحيط»: «هذا أمر بتركهم»، وهي المراعية لقواعد اللغة، إلا إذا كانت المفاعلة على غير بابها.

(٢) الآية (١١) من سورة (المدثر).

(٣) في بعض النسخ: «من الغَرور بفتح الغين» وما أَثبتناه يتفق مع ما في «البحر المحيط»، وما في «اللسان» و«القاموس»، قال في (اللسان): «وغَرَّ الطائر فرخه يغرُّه غِراراً أي زقَّه»، وفي حديث معاوية قال: «كان النبي ﷺ يغُرّ علياً العلم، أي يُلقمه إياه...» ثم قال: «والغَرُّ: اسم ما زقَّتْهُ به، وجمعه: غُرور». أ هـ.

(٤) لم نعثر على نسبة هذا البيت في المراجع التي بين أيدينا، وقد روي (بالجُنينة) بجيم ونونين، وروي (بالحَنِيَّة) المهملة ونون بعدها ياءٌ مشددة، ورواه الألوسي وحاشية الشهاب (بالعشيَّة).

و﴿أَن تُبْسَلَ﴾ في موضع المفعول، أَي: لئلا تبسل، أَو كراهية أَن تبسل، ومعناه: تُسْلَم، قاله الحسن وعكرمة، وقال قتادة: تُحْبَس وتُرْتَهَن، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تُفْضح، وقال الكلبي وابن زيد: تُجْزَى. وهذه كلها متقاربة بالمعنىٰ[(١)]، ومنه قوله الشَّنْفَري:

هُنـالِـك لا أَرْجـو حيـاةً تسـرُّنـي ... سميرَ اللَّيـالـي مُبْسَلاً بـالجـرائـر[(٢)]

وقال بعض الناس: هو مأخوذ من البَسل، أَي من الحرام كما قال الشاعر:

بكَرَت تلومُكَ بعْدَ وهْن في النَّدى ... بَسْـلٌ عليْـكِ مَـلامَتي وعِتَـابـي[(٣)]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد.

و﴿نَفْسٌ﴾ تدلُّ على الجنس، ومعنى الآية: وذكر بالقرآن والدين وادع إِليه لئلا تبسل نفس التارك للإِيمان بما كسبت من الكفر وآثرته من رفض الإِسلام.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في موضع الحال، و﴿مِن﴾ لابتداءِ الغاية، ويجوز أن تكون زائدة، و﴿دُونِ﴾ ظرف مكان، وهل لفظة تقال باشتراك، وهي ـ في هذه الآية ـ الدالة على زوال من أُضيفت إِليه من نازلة القول، كما في المثل: «وأَمِرَّ دُونَ عُبَيْدَةَ الْوَذَمُ»[(٤)].

---

(١) ذلك لأن الإِبْسال معناه: تسليم المرءِ للهلاك، وقال أبو منصور: لئلا تسلم نفس إلى العذاب بعملها، قال النابغة الجعدي:

ونَحْـنُ رهَنَّـا بـالأُفـاقَـةِ عـامِـراً ... بمـا كـانَ فـي الـدَّرْداءِ رهْنـاً فـأُبْسِـلا

والأُفاقة: موضع في أرض الحزن قرب الكوفة، ويوم الأُفاقة من أيام العرب، والدرداءُ: كتيبة كانت لهم.

(٢) رواه في (اللسان): «مُبْسَلا لجرائري». ثم شرحها فقال: «أي مُسْلَما».

(٣) أنشده أبو زيد لضَمْرَة النَّهْشَلي. كما قال في (اللسان)، ومثله في أن البسل بمعنى الحرام قول الأعشىٰ:

أَجَـارَتُكُـمْ بَسْـلٌ علَيْنـا مُحَـرَّمٌ ... وَجـارَتُنـا حِـل لَكُـمْ وحَليلُهـا؟

والبَسْل من الأضداد، فكما أنه بمعنى الحرام فهو أيضاً بمعنى الحلال، قال ابن همام:

أَيُثْبَـتُ مـا زدْتُـم وتُلْغـى زيـادَتـي؟ ... دَمِـي إنْ أُحِلَّـتْ هـذِهِ لكُـمْ بَسْـلُ

أي حلال، والمعنى لا يسوّغ أن تكون بمعنى الحرام.

(٤) أمِرَّ: أُحْكِمَ، والوَذَم: السَّيْر بين آذان الدلو وعراقيها تُشَدّ بها ويجمع على أَوْذُم وأَوْذَام وجمع الجمع أَواذم، وهو مثل يضرب لمن أُحْكم أَمْرٌ دونه. (أمثال الميداني ٢ ـ ٢٨٥).

والولي والشفيع هما طريقا الحماية والغوث في جميع الأُمور، ﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ﴾ أي: وإن تعط كل فدية وإن عظمت فتجعلها عدلاً لها لا يقبل منها، وحكى الطبري عن قائل أن المعنىٰ: وإن تَعْدل من العَدْل المضاد للجور، ورَدَّ عليه وضعفه بالإجماع على أن توبة الكافر مقبولة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا يلزم هذا الرد لأن الأمر إنما هو يوم القيامة ولا تقبل فيه توبة ولا عمل، والقول نصٌّ لأبي عبيدة. والعِدل في اللغة مماثل الشيءِ من غير جنسه، وقيل: العِدْل بالكسر: المثل، والعَدْل بالفتح: القيمة، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الجنس المدلول عليه بقوله: ﴿تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ﴾، و﴿أُبۡسِلُواْ﴾ معناه: أُسْلموا بما اجترحوه من الكفر. والحميم: الماءُ الحار، ومنه الحمَّام والحَمَّة[1]، ومنه قول أبي ذؤيب:

. . . . إلا الحميم فإنَّهُ يَتَبَضَّعُ[2]

و﴿أَلِيمُۢ﴾ فعيل بمعنى مُفْعِل، أي: مُؤْلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾.

المعنى: قل في احتجاجك: أنطيع رأيكم في أن ندعو من دون الله؟ والدعاءُ يعم العبادة وغيرها، لأن من جعل شيئاً موضع دعائه فإيَّاه يعبد وعليه يتكل. ﴿مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ يعني الأصنام، إذ هي جمادات: حجارة وخشب ونحوه. وضرر الأصنام في

---

(١) عن (اللسان): قال ابن سيدة: الحمّام: الديماس مشْتق من الحميم، مذكّر تذكّره العرب، وهو أحد ما جاءَ من الأسماء على فعّال نحو القذّاف والجبّان، والجمع: حمامات ـ والحَمَّةُ: عين ماءٍ حار يُستشفى بالغسل منه، وفي الحديث: (مثَل العالم مثَل الحَمَّة يأتيها البعداءُ ويتركها القرباءُ، فبينما هي كذلك إذ غار ماؤها وقد انتفع بها قوم، وبقي أقوام يتفكنّون، أي يتندَّمون). والحديث لا أصل له.

(٢) البيت بتمامه:

تـأبـى بـدِرَّتهـا إذا مـا اسْتُغْضِبَتْ ... إلا الحَميـم فـإنَّـهُ يَتَبَضَّـعُ

يصف الفرس عندما تَحملها على أكثر مما تطيق من الجري بأن تضربها بالسوط مثلاً، =

الدين لا يفهمه الكفار فلذلك قال: ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إنما الضرر الذي يفهمونه من نزول المكاره الدنياوية.

﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ تشبيه، وذلك أَن المردود على العقب وهو أَن يكون الإنسان يمشي قُدُما ـ هي المشية الجيدة ـ فيرد يمشي القهقرى ـ هي المشية الدنية ـ فاستعمل المثل بها فيمن رجع من خير إلى شر، ووقعت في هذه الآية في تمثيل الراجع من الهدىٰ إلى عبادة الأَصنام. و﴿هَدَىٰنَا﴾ بمعنى أَرشدنا. قال الطبري وغيره: الردُّ على العقب يستعمل فيمن أَمَّل أَمراً فخاب أَملُه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول قلق.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ الآية. الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف تقديره: ردّاً كرد الذي. و﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾ استفعلته بمعنى استدعت هواه وأَمالته، قال أَبو عبيدة: ويحتمل هُوِيَّة وهو جده وركوب رأسه في النزوع إليهم، والهويّ من هوى يهوي، يستعمل في السقوط من علو إلىٰ أَسفل، ومنه قول الشاعر:

هَـــوَى ابنــي مـــن ذرى شــرفٍ ... فـــزلَّـــت رجْلُـــه ويَـــدُه

وهذا المعنىٰ لا مدخل له في هذه الآية إلا أَن تُتأَول اللفظة بمعنى: أَلقته الشياطين في هُوَّة، وقد ذهب إليه أَبو علي وقال: هو بمعنىٰ أَهوى كما أَن استزل بمعنى أَزل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والتحرير أَن العرب تقول: هوىٰ، وأَهواه غيره، واستهواه بمعنى طلب منه أن يهوي هو، أَو طلب منه أَن يهوى شيئاً. ويستعمل الهوىٰ أَيضاً في ركوب الرأس في النزوع إلى الشيء، ومنه قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[1]، ومنه قول شاعر الجن:

تَهْـوىٰ إِلــى مكَّــةَ تَبْغِـي الْهُـدَىٰ ... مـامُـؤْمِـنُ الجِـنِّ كَـأَنْجَـاسِهَـا[2]

= فإن عزَّة نفسها تدفعها إلى مالا يعرف قدره من الجري، وهي عندئذ تأبى إلا أن تعرق عرقاً حارّاً كالحميم يتبضَّع من جسمها أي يسيل قليلاً قليلاً. عن (التاج).

(١) من الآية (٣٧) من سورة (إبراهيم).

(٢) يروى البيت: «ما مؤمنو الجن ككفَّارها» كما جاء في «البحر المحيط».

وهذا المعنىٰ هو الذي يليق بالآية.

وقرأ الجمهور من الناس: ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾، وقرأ الحسن: [اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطون]، قال بعض الناس: هو لحن. وليس كذلك بل هو شاذٌ قبيح، وإنما هو محمول على قولهم: سنون وأَرضون إلا أَن هذه في جمع مسلم وشياطون في جمع مكسر فهذا موضع الشذوذ، وقرأَ حمزة: [اسْتَهْواهُ الشَّياطينُ] وأَمال [اسْتَهْواه]، وقرأَ أَبو عبد الرحمن السلمي، والأَعمش، وطلحة: [اسْتَهْويه الشَّيطانُ] بالياءِ وإِفراد [الشَّيطان]، وذكر الكسائي أَنها كذلك في مصحف ابن مسعود.

وقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يحكم بأَن ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾ إنما هو بمعنى استدعت هُوِيَّه الذي هو الجدُّ في النزوع، و﴿حَيْرَانَ﴾ في موضع الحال، ومؤنثه (حيْرى) فهو لا ينصرف في معرفة ولا نكرة، ومعناه: ضالاً متحيِّراً، وهو حال من الضمير في ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾، والعامل فيه ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾، ويجوز أَن يكون من ﴿كَٱلَّذِى﴾ والعامل فيه المقدر بعد الكاف، وقوله: ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾ يقتضي أَنه كان على طريق فاستدعته.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فسياق هذا المثل كأَنه قال: أَيصلح أَن يكون بعد الهدى نعبد الأَصنام فيكون ذلك منا ارتداداً على العقب فيكون كرجل على طريق واضح فاستهوته عنه الشياطين فخرج عنه إِلى دعوتهم فبقي حائراً؟ وقوله: ﴿لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ﴾ يحتمل أَن يريد: له أَصحاب على الطريق الذي خرج منه، فيشبه بالأَصحاب ـ على هذا ـ المؤمنون الذين يدعون من ارتد إِلى الرجوع إِلى الهدى، وهذا تأْويل مجاهد، وابن عباس. ويحتمل أَن يريد: له أَصحاب أَي من الشياطين الدعاة أَو لا يدعونه إِلى الهدىٰ بزعمهم وإِنما يوهمونه، فيشبه بالأَصحاب ـ على هذا ـ الكفرة الذين يثبتون من ارتد عن الإِسلام على ارتداده، وروي هذا التأْويل عن ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً.

و﴿ٱئْتِنَا﴾ من الإِتيان بمعنىٰ المجيءِ، وفي مصحف عبد الله [إِلى الهدى بيِّنا][1]،

---

(١) في بعض النسخ: «إِلى الهُدى ديناً»، والذي أَثبتناه عن نسخ أُخرى يتفق مع ما في الطبري، وما في القرطبي، أما عبارة «البحر» فتختلف عن ذلك كله إذ يقول: «وفي مصحف عبد الله (أَتيْنا) فعلا ماضياً لا أمراً، فـ[إِلى الهُدىٰ] متعلق به، وفي «الدر المنثور» أن ابن جرير، وابن الأنباري أخرجا عن أبي إِسحق=

وهذه تؤيد تأويل من تأول ﴿ٱلْهُدَى﴾ حقيقة إخباراً من الله تبارك وتعالىٰ: وحكى مكي وغيره أن المراد بـ ﴿كَٱلَّذِى﴾ في هذه الآية عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وبالأصحاب أبوه وأمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف لأن في الصحيح أن عائشة رضي الله عنها لما سمعت قول القائل: إن قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾[1] نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قالت: (كذبوا ما نزل فينا من القرآن شيءٌ إلا براءَتي).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

حدثني أبي رضي الله عنه قال: سمعتُ الفقيه الإمام أبا عبد الله المعروف بالنحوي المجاور بمكة يقول: من نازع أحداً من الملحدة فإنما ينبغي أن يرد عليه وينازعه بالقرآن والحديث، فيكون كمن يدعو إلى الهدى بقوله: «ائتنا»، ومن ينازعهم بالجدل ويحلق عليهم به فكأنه بعد عن الطريق الواضح أكثر ليرد هذا الزائغ فهو يخاف عليه أن يضل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا انتزاع حسن جداً.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الآية. من قال: «إن الأصحاب هم من الشياطين المستهزئين، وتأول ﴿إِلَى ٱلْهُدَى﴾ بزعمهم» قال: إن قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ ردٌّ عليهم في زعمهم، فليس ما زعموه صحيحاً، وليس بهدي، بل هو في نفسه كفر وضلال، وإنما الهدى هدى الله، وهو الإيمان. ومن قال: «إن الأصحاب هم على الطريق المدعو إليها، وإن المؤمنين الداعين للمرتدين شبهوا بهم، وإن الهدى هو هدى على حقيقته» يجيءُ على قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ بمعنى: إن دعاء الأصحاب وإن كان إلى هدى فليس بنفس دعائهم تقع الهداية، وإنما يهتدي بذلك الدعاءِ من هداه الله تعالىٰ بهداه.

= قال: «في قراءَة عبد الله: (إلى الهدى بيِّنا)».

(١) من الآية (١٧) من سورة (الأحقاف).

﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾ اللام لام كي[1]، ومع (أن) مقدرة، ويقدر مفعول لـ ﴿وَأُمِرْنَا﴾ مضمر تقديره: وأمرنا بالإخلاص أو بالإيمان ونحو هذا، فتقدير الجملة كلها: وأمرنا بالإخلاص لأن نُسْلم»، ومذهب سيبويه في هذا أن ﴿لِنُسْلِمَ﴾ هو موضع المفعول، وأن قولك: «وأُمرت لأقوم» و«أُمرت أن أقوم» يجريان سواءً، ومثله قول الشاعر:

أَرَدْتُ لأَنسىٰ ذكرها... ....[2]

إلى غير ذلك من الأمثلة، و﴿لِنُسْلِمَ﴾ يعم الدين والاستسلام.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟﴾ يتجه أن يكون بتأويل. «وإقامة» فهو عطف على المفعول المقدر في ﴿وَأُمِرْنَا﴾، وقيل: بل هو معطوف على قوله: ﴿لِنُسْلِمَ﴾ تقديره: «لأن نسلم وأن أقيموا».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول الزجاج، واللفظ يمانعه، وذلك أن قوله: «لأَنْ نُسْلِمَ» معرب، وقوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟﴾ مبني، وعطف المبني على المعرب لا يجوز، لأن العطف يقتضي التشريك في العامل، اللهم إلا أن تجعل العطف في (أن) وحدها، وذلك قلق، وإنما يتخرج على أن يقدر قوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟﴾ بمعنىٰ: لنقيم، ثم خرجت بلفظ الأمر لما في

---

(١) قال النحاس: سمعت أبا الحسن بن كيسان يقول: هي لام الخفض، واللامات كلها ثلاث: لام خفض، ولام أمر، ولام توكيد، ولا يخرج شيءٌ عنها.

(٢) سبق الكلام عن هذا البيت، وهو بتمامه:

أُريد لأنسى ذكرها فكأنَّما ... تَمَثَّلُ لي لَيْلَى بكلِّ سَبيل

قال أبو حيان: «وما ذكره ابن عطية عن سيبويه ليس كما ذكر، بل ذلك مذهب الكسائي والفراء، زعما أن لام (كي) تقع في موضع (أن) في أردت وأمرت»، قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟﴾ «أريد لأنسىٰ» ـ وردَّ عليهما أبو إسحق، ثم ذكر مذهب سيبويه فارجع إليه في «البحر المحيط ٤ـ ١٥٩».

ذلك من جزالة اللفظ فجاز العطف على أن نلغي حكم اللفظ ونُعول على المعنىٰ. ويشبه هذا من جهة ما حكاه يونس عن العرب: «ادخلوا الأولُ فالأولُ» برفع لفظ (الأول)، فإنما هو بأن يقدر: (ادخلوا) بمعنى: ليدخل الأولُ وإلاَّ فليس يجوز إلا: ادخلوا الأولَ فالأولَ بالنصب[1]. وقال الزجاج أيضاً: يحتمل أن يكون ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟﴾ معطوفاً على ﴿ٱئْتِنَا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفيه بُعْد:

والضمير في قوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ عائد على ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿وَهُوَ﴾ ابتداءُ وما بعده خبره، وهو لفظ خبر يتضمن التنبيه والتخويف.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ الآية. ﴿خَلَقَ﴾ ابتدع وأخرج من العدم إلى الوجود، و﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لم يخلقها باطلاً لغير معنى، بل لمعان مفيدة ولحقائق بيِّنة، منها ما يحسه البشر من الاستدلال بها على الصانع ونزول الأرزاق وغير ذلك، وقيل: المعنىٰ: بأن حق له أن يفعل ذلك، وقيل: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ معناه: بكلامه في قوله للمخلوقات ﴿كُن﴾ وفي قوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتحرير القول أن المخلوقات إنما إيجادها بالقدرة لا بالكلام، واقتران ﴿كُن﴾ بحالة إيجاد المخلوق فائدته إظهار العزَّة والعظمة ونفوذ الأوامر وإعلان القصد، ومثال ذلك في الشاهد أن يضرب إنسان شيئاً فيكسره ويقول في حال الكسر بلسانه: انكسر،

---

(١) علَّق أبو حيان على كلام ابن عطية هذا بقوله: «وهذا الذي استدركه ابن عطية بقوله: اللهم إلا أن إلى آخره هو الذي أراده الزجاج بعينه، وهو أنَّ ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟﴾ معطوف على [أن نُسلم]، وأن كلاهما علة للمأمور به المحذوف». ثم قال: «وأما تشبيه ابن عطية بقوله: ادخلوا الأولُ فالأولُ بالرفع فليس يشبهه، لأن (ادخلوا) لا يمكن ـ لو أُزيل عنه الضمير ـ أن يتسلط على ما بعده، بخلاف (أنْ) فإنها توصل بالأمر، فإذاً لا شبه بينهما». (البحر المحيط ٤ـ ١٦٠).

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (١١) من سورة (فُصِّلت): ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

فإن ذلك إنفاذ عزم وإظهار قصد، ولله المثل الأعلى، لا تشبيه ولا حرف ولا صوت ولا تغير، أَمره واحد كلمح بالبصر، فكأَن معنىٰ الآية على هذا القول: هو الذي خلق السموات والأَرض بقوله كن المقترنة بالقدرة التي بها يقع إِيجاد المخلوق بعد عدمه، فعبر عن ذلك بالحق.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ نصب على الظرف، وهو متعلق بمعمول فعل مضمر تقديره: «واذكر الخلق والإِعادة يومَ». وتحتمل الآية مع هذا أَن يكون معناها: واذكر الإِعادة يوم يقول الله للأَجساد: كن معادة، ثم يحتمل أَن يتم الكلام هنا ثم يبدأُ بإِخبار أَنه يكون قوله الحق الذي كان في الدنيا إِخباراً بالإِعادة، ويحتمل أَن يكون تمام الكلام في قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾، ويكون ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ ابتداءٌ وخبر، أَو على الاحتمال الذي قبله، فـ ﴿قَوْلُهُ﴾ فاعل، قال الزجاج: قوله: ﴿يَوْمَ﴾ معطوف على الضمير من قوله: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾، فالتقدير هنا على هذا القول: «واتقوا العقاب أَو الأَهوال والشدائد يوم»، وقيل: إِن الكلام معطوف على قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾، والتقدير ـ على هذا ـ: «وهو الذي خلق السموات والأَرض والمعادات إِلى الحشر يوم»، ولا تجوز أَن تعمل هذه الأَفعال ـ لا تقديرك: اذكر، ولا: اتَّقوا، ولا: خلق ـ في ﴿وَيَوْمَ﴾ لأَن أَسماءَ الزمان إِذا بنيت مع الأَفعال فلا يجوز أَن تنصب إِلا على الظرف، ولا يجوز أَن يتعلق ﴿وَيَوْمَ﴾ بقوله: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ لأَن المصدر لا يعمل فيما نقدمه، وقد أَطلق قوم أَن العامل: اذكر أَو خلق. ويحتمل أَن يريد بـ ﴿يَقُولُ﴾ معنى المضي كأَنه قال: «وهو الذي خلق السموات والأَرض بالحق يوم يقول ـ بمعنى قال لها: كن». فـ ﴿وَيَوْمَ﴾ ظرف معطوف على موضع قوله: ﴿الْحَقُّ﴾ إِذ هو في موضع نصب، ويجيءُ تمام الكلام في قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾، ويجيءُ ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ ابتداءً وخبراً، ويحتمل أَن يتم الكلام في ﴿كُن﴾ وَيُبْتدأ ﴿فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ وتكون ﴿فَيَكُونُ﴾ تامة بمعنىٰ يظهر، و﴿الْحَقُّ﴾ صفة لِلْقول، و﴿قَوْلُهُ﴾ فاعل. وقرأَ الحسن: [قُولُهُ] بضم القاف، و﴿وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ ابتداءٌ وخبر ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾، ﴿وَيَوْمَ﴾ بدل من الأَولىٰ على أَنَّ ﴿يَقُولُ﴾ مستقبل، لا على تقدير مُضِيِّه. وقيل: بل متعلق بما تضمن ﴿الْمُلْكُ﴾ من معنى الفعل، أَو بتقدير: «ثابت أَو مستقر يوم» و﴿فِي الصُّورِ﴾ قال أَبو عبيدة: هو جمع صورة، فالمعنى: يوم تعاد العوالم، وقال الجمهور: هو الصور، القرن الذي قال

النبي ﷺ: (إنه ينفخ فيه للصعق ثم للبعث)[١]، ورجحه الطبري بقول النبي ﷺ: (إن إسرافيل قد التقم الصور وحنَى جبهته ينظر متى يؤمر فينفخ)[٢]. وقرأ الحسن: [في الصُّوَر] بفتح الواو، وهذه تؤيد التأويل الأول، وحكاه عمرو بن عبيد عن عياض، ﴿عَـٰلِمُ﴾ رفع بإضمار مبتدأ، وقيل: نعت لـ ﴿ٱلَّذِى﴾، وقرأ الحسن والأعمش: [عالمِ] بالخفض على النعت للضمير الذي في ﴿وَلَهُ﴾، أو على البدل منه من قوله ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾، وقد رويت عن عاصم، وقيل: ارتفع ﴿عَـٰلِمُ﴾ بفعل مضمر من لفظ الفعل المبني للمفعول تقديره: «ينفخ فيه عالمُ» على ما أنشد سيبويه:

لِيُبْـكَ يـزيـدُ ضـارعٌ لِخُصـومَـةٍ ... وآخـرُ مِمَّـن طـوَّحَتْـهُ الطَّـوائِـحُ[٣]

التقدير: يبكيه ضارع. وحكى هذا التأويل الذي يشبه (لِيُبْكِ يزيدٌ) عن ابن عباس، ونظيرها من القرآن قراءة من قرأ: ﴿زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾[٤] بضم الزاي ورفع (الشركاءِ)، وروي عن عبد الوارث عن أبي عمرو: [يوم نَنْفُخُ في الصُّورِ] بنون العظمة.

و﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ معناه: ما غاب عنا وما حضر، وهذا يعُمُّ جميع الموجودات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

العامل في ﴿۞ وَإِذْ﴾ فعل مضمر تقديره: واذكر أو قُص. قال الطبري: نبَّه الله

---

(١) أخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنَّه، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبَّان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث ـ عن عبد الله بن عمرو قال: (سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الصور فقال: هو قرن ينفخ فيه). (الدر المنثور).

(٢) أخرج أحمد، والطبراني في الأوسط، والحاكم، والبيهقي في البعث ـ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى جبهته وأصغىٰ بسمعه ينظر متى يؤمر) قالوا: كيف نقول يا رسول الله؟ قال: (قولوا: حسْبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا). (الدر المنثور).

(٣) البيت للحارث بن نُهيك، وهو كما في كتاب سيبويه:

لِيُبْـكَ يـزيـدُ ضـارعٌ لِخُصـومـةٍ ... ومُختبـطٌ مِمَّـا تُطيـحُ الطـوَّائِـحُ

والمختبط: الطالب المعروف، وتطيح: تذهب وتُهلك. وصفه بأنه كان مقيماً لحجة المظلوم ناصراً له.

(٤) من الآية (١٣٧) من سورة (الأنعام).

تبارك وتعالىٰ محمداً ﷺ على الاقتداءِ بإبراهيم عليه السلام في محاجته قومه إذ كانوا أَهل أَصنام، وكان قوم محمد ﷺ أَهل أَصنام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس يلزم هذا من لفظ الآية، أَما إن جميع ما يجيءُ من مثل هذا عُرضة للاقتداء. وقرأ السبعة وجمهور الناس: ﴿ ءَازَرَ ﴾ بفتح الهمزة التي قبل الألف وفتح الزاي والراءِ، قال السدي، وابن إسحق، وسعيد بن عبد العزيز: هو اسم [أبي] إبراهيم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد ثبت أَن اسمه تَارَح[1]، فله على هذا القول اسمان كيعقوب وإسرائيل، وهو في الإعراب ـ على هذا ـ بدل من الأَب المضاف في موضع خفض، وهو اسم علم. وقال مجاهد: بل هو اسم صنم، وهو في موضع نصب بفعل مضمر تقديره: «أَتتخذ آزر؟ أَتتخذ أَصناماً؟».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا ضعف.

وقال بعضهم: بل هو صفة، ومعناه هو المعوج المخطىءُ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويعترض هذا بأَن ﴿ ءَازَرَ ﴾ إذا كان صفة فهو نكرة ولا يجوز أَن تنبعث المعرفة بالنكرة، ويوجه ذلك على تحامل بأَن يقال: زيدت فيه الأَلف واللام وإن لم يلفظ بها، وإلى هذا أَشار الزجاج لأَنه قدر ذلك فقال: لأَبيه المخطىء، وبأَن يقال: إن ذلك مقطوع منصوب بفعل تقديره: أَذمُّ المعوجّ أَو المخطىء، ولا تبقى فيه الصفة بهذا الحال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف. وقيل: نصبه على الحال كأَنه قال: وإذ قال إبراهيم لأَبيه وهو في

---

(١) في كتاب «الجمل»: «ضبطه بعضهم بالحاءِ المهملة، وبعضهم بالخاءِ المعجمة»، وهكذا في كثير من التفاسير.

حال عوج وخطأ، وقرأ أُبي بن كعب، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وغيرهم بضم الراءِ على النداءِ، ويصح ـ مع هذا ـ أَن يكون (آزر) اسم أَبي إِبراهيم، ويصح أَن يكون بمعنى المعوج والمخطىء. وقال الضحاك: (آزر) بمعنى: شيء، ولا يصح مع هذه القراءة أن يكون (آزر) صفة، وفي مصحف أُبي رضي الله عنه: «يا آزر» بثبوت حرف النداءِ «اتخذت أَصناماً»؟ بالفعل الماضي. وقرأ ابن عباس فيما روي عنه أَيضاً: [أَأَزْراً تَتَّخِذُ]؟ بأَلف الاستفهام وفتح الهمزة من (أَزْراً) وسكون الزاي ونصب الراءِ، وتنوينها وإِسقاط أَلف الاستفهام من ﴿أَتَتَّخِذُ﴾، ومعنى هذه القراءَة: أَعَضُداً وقوة ومظاهرة على الله تعالىٰ تتخذ، وهو من نحو قوله تعالىٰ: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾[1]، وقرأَ أَبو اسماعيل ـ رجلٌ من أَهل الشام ـ بكسر الهمزة من هذا الترتيب، ذكرها أَبو الفتوح، ومعناها أَنها مبدلة من واو كوسادة وإِسادة، فكأَنه قال: أَوِزْراً ومأْثماً تتخذ أَصناماً؟ ونصبه ـ على هذا ـ بفعل مضمر، ورويت أَيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقرأَ الأَعمش: «إِزْراً تَتَّخِذُ» بكسر الهمزة وسكون الزاي دون أَلف توقيف. و﴿أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ مفعولان.

وذكر أَن (آزر) أَبا إبراهيم كان نجاراً محسناً ومهندساً، وكان نُمرود يتعلق بالهندسة والنجوم فحظي عنده (آزر) لذلك، وكان على خطة عمل الأَصنام، تُعمل بأَمره وتدبيره، ويطبع هو في الصنم بختم معلوم عنده، وحينئذٍ يعبد ذلك الصنم، فلما نشأ ابنه إبراهيم على الصفة التي تأْتي بعد كان أَبوه يكلفه بيعها، فكان إِبراهيم ينادي عليها: من يشتري ما يضرُّه ولا ينفعه؟ ويستخف بها ويجعلها في الماء منكوسة ويقول: اشربي فلما شهر أَمره بذلك وأَخذ في الدعاء إِلى الله تعالىٰ قال لأَبيه هذه المقالة.

و﴿أَرَىٰكَ﴾ ـ في هذا الموضع ـ يشترك فيها البصر والقلب، لأَنها رؤْية قلب ومعرفته وهي متركبة على رؤْية بصر. و﴿مُّبِينٍ﴾ بمعنى: واضح ظاهر، وهو من أَبان الشيءُ إذا ظهر، ليس بالفعل المتعدي المنقول من: بانَ يَبين[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويصح أَن يكون المنقول، ويكون المفعول مقدراً تقديره: في ضلال مبين كفركم.

---

(١) الآية (٣١) من سورة (طه).

(٢) يقال: أبان الشيءُ فهو مبين بمعنىٰ: اتَّضح، قال الشاعر:

لــوْ دبَّ ذرٌّ فــوقَ ضــاحــي جِلْــدِهــا ... لأَبــانَ مــن آثــارِهــنَّ حُــدورُ

وقيل: كان آزر رجلاً من أهل كوثا من سواد الكوفة، قال النقاش: وبها وُلِدَ إبراهيم عليه السلام، وقيل: كان من أهل حَرَّان.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾، الآية المتقدمة تقتضي بهداية إبراهيم عليه السلام، والإشارة هنا بـ[ذَٰلِكَ] هي إلى تلك الهداية، أي: وكما هديناه إلى الدعاءِ إلى الله وإنكار الكفر أريناه ملكوت. و﴿ نُرِيٓ ﴾ لفظها الاستقبال ومعناه المضي، وحكى المهدوي أن المعنىٰ: وكما هديناك يا محمد فكذلك نُري إبراهيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد إذ اللفظ لا يعطيه، و﴿ نُرِيٓ ﴾ هنا متعدية إلى مفعولين لا غير، فهي إمَّا من رؤْية البصر، وإما من (أرىٰ) التي بمعنى عرف، ولو كانت من (أرىٰ) بمعنى أعلم وجعلنا أعلم منقولة من علم التي تتعدى إلى مفعولين لوجب أن تتعدى (أُري) إلى ثلاثة مفاعيل، وليس كذلك، ولا يصح أن يقال: إن الثالث محذوف، لأنه لا يجوز حذفه إذ هو الخبر في الجملة التي يدخل عليها علمت في هذا الموضع، وإنما هي من علم بمعنى عرف، ثم نقلت الهمزة فتعدت إلى مفعولين، ثم جعلت (أرَىٰ) بمنزلتها في هذه الحال.

وهذه الرؤْية ـ قيل: رؤْية البصر، وروي في ذلك أن الله عزَّ وجلَّ فَرَج لإبراهيم السموات والأرضين حتى رأى ببصره الملكوت الأعلىٰ والملكوت الأسفل[١]، فإن صح هذا المنقول ففيه تخصيص لإبراهيم عليه السلام بما لم يدركه غيره قبله ولا بعده، وهذا هو قول مجاهد، قال: تفرجت له السموات والأرضون فرأى مكانه في الجنة، وبه قال سعيد بن جبير، وسلمان الفارسي. وقيل: هي رؤْية بصر في ظاهر الملكوت وقع له معها من الاعتبار ورؤْية القلب ما لم يقع لأحد من أهل زمنه الذين بعث إليهم، قاله ابن عباس وغيره، ففي هذا تخصيص مّا على جهة التقييد بأهل زمنه، وقيل: هي رؤْية قلب رأى بها ملكوت السموات والأرض بفكرته ونظره، وذلك ولا بد متركب على ما تقدم من رؤْيته ببصره وإدراكه في الجملة بحواسه.

---

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الأسماء والصفات ـ عن مجاهد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان الأَخيران يناسبان الآية[1]، لأَن الغاية التي نصبت له إِنما هي أَن يؤمن ويكون من جملة موقنين كثرة، والإِشارة لا محالة إِلى من قبله من الأَنبياء والمؤمنين وبعده، واليقين يَقَع له ولغيره بالرؤْية في ظاهر الملكوت والاستدلال به على الصانع والخالق لا إِلٰه إِلاَّ هو.

و﴿مَلَكُوتَ﴾ بناءُ مبالغة كَجَبَرُوت وَرَهَبُوت وَرَحَمُوت. وقال عكرمة: هو مَلَكُوثي باليونانية أَو بالنبطية، وقرأَ [مَلَكُوثَ] بالثاءِ مُثَلَّثَة، وقرأَ أَبو السَّمال: [مَلَكُوْتَ] بإِسكان اللام، وهي لغة، ومَلَكوت بمعنى: الملك، والعرب تقول: «لفلان ملكوت اليمن» أَي: ملكه.

واللام في ﴿وَلِيَكُونَ﴾ متعلقة بفعل مؤَخَّر تقديره: «وليكون من الموقنين أَريناه»، والموقن: العالم بالشيءِ علماً لا يمكن أَن يطرأَ له فيه شك، وقال الضحاك، ومجاهد أَيضاً: إِن الإِشارة ها هنا بمكلوت السموات هي إِلى الكوكب والشمس والقمر، وهذا راجع وداخل فيما قدمناه من أَنها رؤْية بصر في ظاهر الملكوت. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ قال: جلَّى له الأُمور سرَّها وعلانيتها فلم يخف عليه شيءٌ من أَعمال الخلائق، فلما جعل يلعن أَصحاب الذنوب قال الله تعالىٰ: «إِنك لا تستطيع هذا» فردَّه لا يرى أَعمالهم[2].

---

(١) قال ابن كثير يوضح المعنى المقصود من الآية: «أي نُبيِّن له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله عز وجل في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه»، كقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما (الدر المنثور). وفي كتب السنة أحاديث كثيرة في هذا الموضوع. وقد قال ابن كثير: «وأما ما حكاه ابن جرير وغيره عن مجاهد، وعطاءٍ، وسعيد بن جبير، والسدي، وغيرهم: قالوا ـ واللفظ لمجاهد ـ: (فرجت له السماء فنظر إلى ما فيهن حتى انتهى بصره إلى العرش، وفرجت له الأرضون السبع، فنظر إلى ما فيهن، وزاد غيره: فجعل ينظر إلى العباد على المعاصي ويدعو عليهم، فقال الله له: إني أرحم بعبادي منك، لعلهم أن يتوبوا أو يرجعوا)، وروى ابن مردويه في ذلك حديثين مرفوعين عن معاذ وعلي، ولكن لا يصح إسنادهما، والله أعلم». (أ. هـ ـ كلام ابن كثير ٣ـ ٥٤).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧﴾.

هذه الفاءُ في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا﴾ رابطة جملة ما بعدها بما قبلها، وهي ترجح أَن المراد بالملكوت هو هذا التفصيل الذي في هذه الآية.

وجنَّ الليل: ستر وغطى بظلامه، ويقال: أَجَنَّ، والأَول أَكثر، ويشبه أَن يكون الجِنُّ والمِجَنّ والجَنَّة والجَنَن وهو القبر مشتقة من جَنَّ إِذا ستر.

ولفظ هذه القصة يحتمل أَن تكون وقعت له في حال صباه وقبل بلوغه كما ذهب إِليه ابن عباس، فإِنه قال: رأَى كوكباً فعبده. وقال ناس كثير: إِن النازلة قبل البلوغ والتكليف، ويحتمل أَن تكون وقعت له بعد بلوغه وكونه مكلَّفاً، وحكى الطبري هذا عن فرقة، وقالت: إِنه استفهم على جهة التوقيف بغير أَلف، قال: وهذا كقول الشاعر:

رَفَوْني وقالوا يا خُوَيْلِدُ لَمْ تُرَعْ ... فقلْتُ وأَنْكَرْتُ الْوُجوهَ هُمُ هُمُ[1]

يريد: أَهُمْ هُمْ؟ وكما قال الآخر:

لَعَمْرِكَ ما أَدْري وإِنْ كُنْتُ دارياً ... شُعَيْثُ بنُ سهم أَمْ شُعَيْثُ بنُ مِنْقَرِ؟[2]

يريد: أَشعيث؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والبيت الأَول لا حجة فيه عندي.

وقد حكي أَنَ نُمرود، جَبَّار ذلك الزمن رأَى منجموه أَن مولوداً يولد في سنة كذا في

---

(١) البيت لأَبي خراش الهذلي ـ ورفوني بمعنىٰ: سكنوني من الرعب ـ وقد روي: «لا تُرَعْ» ـ ومثل البيت في حذف همزة الاستفهام قوله تعالىٰ: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾؟ أي: أَفَهُمُ الخالدون؟ وقول عمر بن أبي ربيعة:

لَعَمْرُكَ ما أَدْري وَإِنْ كُنْتُ دارياً ... بِسَبْعٍ رَمَيْنَ الجَمْرَ أَمْ بثمانِ؟

يريد: أَبِسَبْعٍ؟

(٢) نسبه في الطبري لأَوس. وشعيث بالثاءِ المثلثة، والأَقرب أن كلمة (ابن) خبر، وأنه لا يعرف أشعيث هذا ابن سهم أم ابن منقر؟ وكان الأَصح أن تكتب بألف كما في التاج، ولكن النسخ التي بيد أيدينا رسمتها بدون ألف.

عمله يكون خراب الملك على يديه، فجعل يتبع الحبالىٰ ويوكل بهن حراساً، فمن وضعت أنثى تركت، ومن وضعت ذكراً حُمِل إلى الملك فذبحه، وأن أُم إبراهيم حملت ـ وكانت شابة قوية ـ فسترت حملها، فلما قربت ولادتها بعثت تارخ أَبا إبراهيم إلى سفر، وتحيلت لمضيِّه إليه، ثم خرجت هي إلى غار فولدت فيه إبراهيم، وتركته في الغار وقد هيأت عليه، وكانت تتفقده فتجده يتغذى بأَن يمص أَصابعه فيخرج له منها عسل وسمن ونحوهما، وحكي: بل كان يغذوه ملَك، وحكي: بل كانت تأْتيه بأَلبان النساء اللائي ذبح أَبناؤُهن، فشبَّ إبراهيم أَضعاف ما يشب غيره، والملِك في خلال ذلك يحس بولادته ويشدد في طلبه، فمكث في الغار عشرة أَعوام، وقيل: خمس عشرة سنة، وأَنه نظر ـ أَول ما عَقَل ـ من الغار فرأَى الكوكب وجرت قصة الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وجلبْتُ هذه القصص بغاية الاختصار في اللفظ، وقصدتُ استيفاءَ المعاني التي تخص الآية، ويضعف عندي أَن تكون هذه القصة في الغار لقوله في آخرها: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[1]، وهي أَلفاظ تقتضي محاجة ورداً على قوم، وحاله في الغار بعيدة عن مثل هذا، اللهم إلا أَن يُتَأَول في ذلك أَنه قالها بينه وبين نفسه، أَي قال في نفسه معنى العبارة عنه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، وهذا كما قال الشاعر:

ثـمَّ انْثَنـي وقـالَ فـي التَّفْكِيـرِ ... إنَّ الحيـاةَ اليَـوْمَ فـي الكُـرورِ

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومع هذا فالمخاطبة تبعده، ولو قال: «يا قوم إني بريءٌ من الإشراك» لصحَّ هذا التأْويل وقوي، فإن قلنا بأَنه وقعت له القصة في الغار في حال الصبوة وعدم التكليف على ما ذهب إليه بعض المفسرين ويحتمله اللفظ فذلك ينقسم على وجهين: إما أَن يجعل قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ تصميماً واعتقاداً، وهذا باطل لأَن التصميم لم يقع في الأَنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وإما أَن يجعله تعريضاً للنظر والاستدلال، كأَنه قال: هذا المنير البهي ربي إن عضدت ذلك الدلائل، ويجيءُ إبراهيم عليه السلام كما قال الله

(١) هذا مذهب التزمه ابن عطية في تفسيره إزاء القصص وغيرها من الإسرائيليات، وقد نبهنا إلى ذلك في المقدمة فارجع إليها لتعرف منهجه.

تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[(١)] أي: مهمل المعتقد. وإن قلنا بأن القصة وقعت له في حال كفره وهو مكلف فلا يجوز أن يقول: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ مُصَمِّماً ولا معرضاً للنظر، لأنها رتبة جهل أو شك، وهو عليه السلام مُنَزَّه معصوم من ذلك كله، فلم يبق إلا أن يقولها على جهة التقرير لقومه والتوبيخ لهم وإقامة الحجة عليهم في عبادة الأصنام، كأنه قال لهم: «أهذا المنير ربِّي»؟ أو ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ وهو يريد: علىٰ زعمكم، كما قال تعالىٰ: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾؟[(٢)] فإنما المعنىٰ: على زعمكم. ثم عرض إبراهيم عليهم من حركته وأُفوله أمارة الحدوث. وأنه لا يصح أن يكون رباً، ثم في آخر أعظم منه، وأحرى كذلك، ثم في الشمس كذلك، فكأنه يقول: فإذا بان في هذه المنيرات الرفيعة أنها لا تصلح للربوبية فأصنامكم التي هي خشب وحجارة أحرى أن يَبين ذلك فيها، ويُعضد عندي هذا التأويل قوله: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

مثَّل لهم بهذه الأُمور لأنهم كانوا أصحاب علم نجوم ونظر في الأفلاك، وهذا الأمر كله إنما وقع في ليلة واحدة، أي الكوكب ـ وهو الزهرة في قول قتادة، وقال السدي: هو المشتري ـ جانحاً للغروب، فلما أفل بزغ القمر وهو أول طلوعه، فسرى الليل أجمع، فلما بزغت الشمس زال ضوءُ القمر قبلها لانتشار الصباح وخفي نوره ودنا أيضاً من مغربه، فسمى ذلك أُفولاً لقربه من الأفول التام على تجوز في التسمية، ثم بزغت الشمس على ذلك، وهذا الترتيب يستقيم في الليلة الخامسة عشرة من الشهر إلىٰ عشرين، وليس يترتب في ليلة واحدة كما أجمع أهل التفسير إلا في هذه الليالي، وبذلك التجوز في أُفول القمر، و(أفل) في كلام العرب معناه: غاب، يقال: أين أفَلْتَ عنا يا فلان؟ وقيل: معناه ذهب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا خلاف في عبارة فقط، وقال ذو الرمة:

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ باللَّواتي تَقودُها   نُجومٌ ولا بالآفلاتِ الدَّوالك[(٣)]

---

(١) الآية (٧) من سورة (الضحىٰ).

(٢) تكررت في الآيات (٢٧) من سورة النحل، و(٥٢) من سورة الكهف، و(٦٢، ٧٤) من سورة (القصص).

(٣) البيت في وصف لإبل، ومصابيح: جمع مِصْباح، والمصباحُ من الإبل الذي يبرك في مُعَرَّسه فلا ينهض=

وقال: ﴿ٱلْءَافِلِينَ﴾ فجمع بالياءِ والنون لما قصد الأَرباب ونحو ذلك، وعلى هذا يخرج قوله في الشمس: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ فذكَّر الإِشارة إِليها لما قصد قصد ربّه.

وقرأَ ابن كثير، وعاصم في رواية حفص: ﴿رَءَا﴾ بفتح الراءِ والهمزة، وقرأَ نافع بين الفتح والكسر، وقرأَ عاصمٌ في رواية أَبي بكر، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بكسرهما، وقرأَ أَبو عمرو بن العلاءِ بفتح الراءِ وكسر الهمزة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ الآية. البزوغ في هذه الأَنوار: أَول الطلوع، وقد تقدم القول فيما تدعو إِليه أَلفاظ الآية وكون هذا بالترتيب في ليلة واحدة مع التجوز في أُفول القمر، لأَن أُفوله لو قدرناه مغيبه في المغرب لكان ذلك بعد بزوغ الشمس، وجميع ما قلناه يعطيه الاعتبار.

و﴿يَهْدِنِي﴾ يرشدني، وهذا اللفظ يؤيد قول من قال: النازلة في حال الصغر. والقوم الضالون: عَبَدة المخلوقات كالأَصنام وغيرها، وإِن كان الضلال أَعم من هذا فهذا هو المقصود في هذا الموضع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

لما قصد قصد ربه ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ فذكَّر، أَي: هذا المرئي أَو المنير ونحو هذا، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ لم يبق شيءٌ يمثل لهم به، فظهرت حجته وقوي بذلك على منابذتهم والتّبرّي من إِشراكهم.

= حتى يصبح وإِن أُثير، وقيل: المصبح والمصباح من الإِبل: التي تصبح في مبركها لا ترعى حتى يرتفع النَّهار، وهو يستحب من الإِبل وذلك لقوتها وسمنها، قال مُزَرِّد:

ضربْتُ له بالسَّيف كوْماءَ مِصْبَحاً ... فَشُبَّتْ عليها النَّارُ فهي عَقيرُ

والآفِلاتُ: الغائبات بالغروب، والدَّوالك من قولهم: دَلَكَت الشمس: إِذا غابت أَو دنت من المغيب. (اللسان).

وقوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يؤيد قول من قال: النازلة في حال الكبر والتكليف، و﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ أي: أقبلتُ بقصدي وعبادتي وتوحيدي وإيماني وغير ذلك مما يعمه المعنىٰ المعبر عنه بـ ﴿وَجْهِيَ﴾. و﴿فَطَرَ﴾ معناه: ابتدع في أجرام، و﴿حَنِيفًا﴾ معناه: مستقيماً، والحنف: الميل في كلام العرب، وأصله في الأشخاص، وهو في المعاني مستعار، فالمعوج في الأجرام أحنف على الحقيقة، أي مائل، والمستقيم فيها أحنف على تجوُّز كأنه مال عن كل جهة إلى القَوَام[1].

﴿وَحَآجَّهُۥ﴾ فاعله من الحجة، قال: أتراجعوني في الحجة في توحيد الله؟ وقرأ قوم: [أَتحَاجُّونَنِي] بإظهار النونين وهو الأصل، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي﴾ بإدغام النون الأولى في الثانية، وقرأ نافع، وابن عامر: [أَتُحاجُّونِي] بحذف النون الواحدة، فقيل: هي الثانية، وقيل: هي الأُولى ويدل على ذلك أنها بقيت مكسورة، قال أبو علي الفارسي: لا يجوز أن تحذف الأُولى لأنها للإعراب، وإنما حذفت الثانية التي هي توطئة لياء المتكلم. كما حذفت في (لَيْتي)، وفي قول الشاعر:

. . . . يَسُـوءُ الْغَـالِيـاتِ إذا فَلَيْنِـي[2]

وكسرت ـ بعد ذلك ـ الأُولى الباقية لمجاورتها للياء.

[وَقَدْ هَدَانِ] أي: أرشدني إلى معرفته وتوحيده، وأمال الكسائي: [هَدَانِ]، الإمالة في ذلك حسنه، وإذا جازت الإمالة في «غزا ودعا» وهما من ذوات الواو فهي في (هدان) التي هي من ذوات الياءِ أجوز وأحسن، وحكي أن الكفار قالوا لإبراهيم عليه السلام: خف أن تُصيبك آلهتنا بِبَرَص أو داء لإذايتك لها وتنقُّصك، فقال لهم: لستُ

---

(١) أي إلى الاستقامة والاعتدال في الوسط. وهي بالفتح، أما قِوام الأمر بالكسر فمعناها: نظامه وعماده الذي يقوم به، وقد يفتح (اللسان).

(٢) البيت لعمرو بن مَعْد يكرَب، وهو بتمامه كما أنشده سيبويه، وذكره صاحب اللسان:

تـراهُ كـالثَّغـام يُعَـلُّ مِسْكـاً يَسُـوءُ الغَـالِيـاتِ إذا فَلَيْنِـي

الثَّغَامُ: نبت أبيض يكون في الجبال، قال عنه في التهذيب: مثل هامة الشيخ، وفي حديث أبي قحافة أنه أتى به يوم الفتح (وكان رأسه ثَغامة) والعلل: الشرب بعد الشُّرب، والمراد هنا: يُطيَّب شيئاً بعد شيء، والغاليات هن النساء، ويقال لهن أيضاً: الغوالي، وأراد فلينني بنونين فحذف إحداهما استثقالاً، يقال: فلت فلانة رأسه تفليه فلاية إذا بحثت عن القمل.

أَخاف الذي تشركون به لأنه لا قدرة له ولا غناءَ عنده، و﴿ مَا﴾ في هذا الموضع بمعنى الذي، والضمير في ﴿ بِهِۦٓ﴾ يحتمل أَن يعود على الله عزَّ وجلَّ، فيكون ـ على هذا ـ في قوله: ﴿ تُشْرِكُونَ﴾ ضمير عائد على ﴿ مَا﴾، وتقدير الكلام: «ولا أَخاف الأَصنام التي تشركونها بالله في الربوبية». ويحتمل أَن يعود الضمير على ﴿ مَا﴾ فلا يحتاج إِلى غيره، كأَنه التقدير: «ما تشركون بسببه».

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ استثناءٌ ليس من الأَول، و﴿ شَيْـًٔا﴾ منصوب بـ ﴿ يَشَآءَ﴾، ولما كانت قوة الكلام أَنه لا يخاف ضراً استثنىٰ مشيئة ربِّه تعالىٰ في أَن يريده بضُرٍّ، و﴿ عِلْمًا﴾ نصب على التمييز، وهو مصدر بمعنى الفاعل كما تقول العرب: تَصَبَّبَ زيدٌ عرقاً، والمعنىٰ: تصبب عرق زيد، فكذلك المعنى هنا: وسع علم ربي كل شيءٍ، ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ توقيف وتنبيه وإِظهار لموضع التقصير منهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

هذه الآية إِلىٰ ﴿ تَعْلَمُونَ﴾ هي كلها من قول إِبراهيم عليه السلام لقومه، وهي حجته القاطعة لهم، والمعنىٰ: وكيف أَخاف الأَصنام التي لا خطب لها وهي حجارة وخشب إِذا أَنا نبذتها ولم أُعظمها، ولا تخافون أَنتم الله عزَّ وجلَّ وقد أَشركتم به في الربوبية أَشياءَ لم ينزل بها عليكم حجة؟ والسلطان: الحُجَّة.

ثم استفهم على جهة التقرير ﴿ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾؟ أَي: من لم يشرك بالقادر العالم أَحق أَن يأْمن. وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية. ﴿ ٱلَّذِينَ﴾ رفع بالابتداءِ، و﴿ يَلْبِسُوٓا۟﴾ معناه: يخلطوا، والظلم ـ في هذه الآية ـ الشرك، تظاهرت بذلك الأَحاديث عن النبي ﷺ، وعن جماعة من الصحابة أَنه لما نزلت هذه الآية أَشفق أَصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: «أَيّنا لم يظلم نفسه»؟ فقال رسول الله ﷺ: (إِنما ذلك كما قال لقمان: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]. وروي أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ

(١) قال القرطبي: وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه: ثم ذكر الحديث وفي (الدر المنثور ٣ـ=

في المصحف، فلما أَتى عليها عظمت عليه، فلبس رداءَه ومرَّ إِلى أُبَيّ بن كعب فقال: يا أَبا المنذر، وسأَله عنها، فقال له: إِنه الشِّرك يا أَمير المؤمنين، فسُرّي عن عمر[١]، وجرى لزيد بن صوحان[٢] مع سلمان نحو ممَّا جرى لعمر مع أُبي بن كعب رضي الله عنهم. وقرأَ مجاهد: [ولم يلبسوا إِيمانهم بشرك]، وقرأَ عكرمة: [يُلْبسوا] بضم الياءِ. و﴿ٱلْأَمْنُ﴾ رفع بالابتداءِ وخبره في المجرور والجملة خبر ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾، ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أَي: راشدون.

وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: المراد بهذه الآية إِبراهيم عليه السلام خاصة، وقال عكرمة: نزلت في مهاجري أَصحاب محمد عليه الصلاة والسلام خاصة، وقالت فرقة: هي من قول إِبراهيم عليه السلام لقومه، فهي من الحجة التي أُوتيها، وقال ابن جريج: هي من قول قوم إِبراهيم، ويجيءُ هذا من الحُجَّة أَيضاً أَن أَقَرُّوا بالحق وهم قد ظلموا في الإِشراك، وقال ابن إِسحق، وابن زيد، وغيرهما: بل ذلك قول من الله عزَّ وجلَّ ابتداءُ حكم فصل عام لوقت محاجة إِبراهيم وغيره، ولكل مؤمن تقدم أَو تأَخر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو البيِّن الفصيح الذي يرتبط به معنى الآية ويحسن رصفها، وهو خبر من الله تعالىٰ.

و﴿وَتِلْكَ﴾ إِشارة إِلى هذه الحجة المتقدمة، وهي رفع بالابتداءِ، و﴿حُجَّتُنَآ﴾ خبره، و﴿ءَاتَيْنَـٰهَآ﴾ في موضع الحال، ويجوز أَن تكون ﴿حُجَّتُنَآ﴾ بدلا من ﴿وَتِلْكَ﴾، و﴿ءَاتَيْنَـٰهَآ﴾ خبر ﴿وَتِلْكَ﴾ و﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ مفعول بـ [آتينا]، والضمير

= ٢٦، ٢٧): أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدار قطني في الإفراد، وأبو الشيخ، وابن مردويه ـ عن عبد الله بن مسعود. ولفظه كما رواه: (قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله، وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون، أَلَمْ تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إنما هو الشرك).

(١) أخرجه ابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما. (الدر المنثور ـ ٣ ـ ٢٧).

(٢) هو زيد بن صوحان بن حجر بن الحارث، أَبو سليمان. أسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم. (التاج).

مفعول أيضاً بـ[آتينا] مقدم، و﴿عَلَىٰ﴾ متعلقة بقوله: ﴿حُجَّتُنَآ﴾ وفي ذلك فصل كثير، ويجوز أن تتعلق ﴿عَلَىٰ﴾ بـ ﴿ءَاتَيْنَٰهَآ﴾ على المعنى، إذ المعنىٰ: أظهرناها لإبراهيم على قومه، ونحو هذا.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: [نرفع درجاتِ من نشاءُ] بإضافة الدرجات إلى ﴿مَن﴾، وقرأ عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهما مأخذان من الكلام، والمعنىٰ المقصود بهما واحد، و﴿دَرَجَٰتٍ﴾ على قراءة مَن نوَّنَ نصب على الظرفية، ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ صفتان تليق[2] بهذا الموضع إذ هو موضع مشيئة واختيار فيحتاج ذلك إلى العلم والإحكام. والدرجات أصلها في الأجسام ثم تستعمل في المراتب والمنازل المعنوية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا﴾ عطف على ﴿ءَاتَيْنَٰهَآ﴾، و﴿إِسْحَٰقَ﴾ ابنه من سارة، ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ هو ابن إسحٰق، و﴿كُلًّا﴾ و﴿وَنُوحًا﴾ منصوبان على المفعول مقدمان على الفعل، وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ لقدمه ﷺ، وقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ المعنىٰ: وهدينا من ذرِّيَّته. والضمير في ﴿ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ ـ قال الزجاج: جائز أن يعود على إبراهيم، ويعترض هذا بذكر لوط عليه السلام وهو ليس من ذريَّة إبراهيم عليه السلام، بل هو ابن أخيه، وقيل: ابن

---

(١) أي: بالتنوين: وفيها يقع الفعل على [مَنْ] لأنه المرفوع في الحقيقة، والتقدير: ونرفع من نشاءُ إلى درجات، ومن قرأ بغير تنوين، أوقع الفعل على الدرجات، وإذا رفعت فقد رفع صاحبها، ويقويها قوله تعالىٰ: [رَفيعُ الدَّرَجاتِ]. والقراءَتان متقاربتان، وهذا هو ما نبه عليه ابن عطية.

(٢) هكذا في جميع الأصول التي بين أيدينا.

أُخته، ويتخرج عند من يرى الخال أَباً، وقيل: يعود الضمير على نوح، وهذا هو الجيِّد.

و﴿دَاوُۥدَ﴾ يقال: هو ابن أَيْشىٰ[1] و﴿وَسُلَيۡمَـٰنَ﴾ ابنه، ﴿وَأَيُّوبَ﴾ هو ـ فيما يقال ـ أَيوب بن رازح بن عيصو بن إِسحق بن إبراهيم عليه السلام. ﴿وَيُوسُفَ﴾ هو ابن يعقوب بن إِسحق، ﴿وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ عليهما السلام هما ابنا عمران بن يصهر بن قاهث ابن لاوي بن يعقوب. ونصب ﴿دَاوُۥدَ﴾ يحتمل أَن يكون بـ ﴿وَوَهَبۡنَا﴾، ويحتمل أَن يكون بـ ﴿هَدَيۡنَا﴾.

وهذه الأَسماءُ كلها فيها العجمة والتعريف، فهي غير منصرفة، وموسىٰ عند سيبويه وزنه مُفعل، فعَلَىٰ هذا ينصرف في النكرة، وقيل: وزنه فُعْلَىٰ، هذا لا ينصرف في معرفة ولا نكرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وعْدٌ من الله عزَّ وجلَّ لِمَنْ أَحسن في عمله، وترغيب في الإِحسان، ﴿وَزَكَرِيَّا﴾ عليه السلام ـ فيما يقال ـ هو ابن آذن بن بركنا ﴿وَعِيسَىٰ﴾ عليه السلام ابن مريم بنت عمران ابن ياشهم بن أَمون بن حزقياء، ﴿وَإِلۡيَاسَ﴾ عليه السلام هو ابن نسمي بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أَنه قال: إدريس هو إِلياس عليه السلام، وردَّ ذلك الطبري وغيره بأَن إِدريس هو جدُّ نوح عليه السلام، تظاهرت بذلك الروايات، وزكرياءُ قرأته طائفة بالمدِّ، وقرأَته طائفة بالقصر زكريا، وقرأَ ابن عامر باختلاف عنه. والحسن وقتادة بتسهيل الهمزة من إِلياس.

وفي هذه الآية أَن عيسى عليه السلام من ذرية نوح أَو إبراهيم عليهما السلام بحسب الاختلاف في عود الضمير من ﴿ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ وهو ابن ابنته، وبهذا يستدل في الأَحباس على أَن ولد البنت من الذرية. ﴿وَإِسۡمَـٰعِيلَ﴾ عليه السلام هو أَكبر ولدي إبراهيم عليه السلام، وهو من هاجر. ﴿وَٱلۡيَسَعَ﴾ قال زيد بن أَسلم: هو يوشع بن نون، وقال: غيره: هو الْيَسَعَ بن أَخطوب بن العجوز، وقرأَ جمهور الناس: ﴿وَٱلۡيَسَعَ﴾. وقرأَ حمزة الكسائي: [وَاللَّيْسَع] كأَن الألف واللام دخلت على فَيْعَل، قال أَبو علي الفارسي:

---

(١) كتبت في بعض النسخ بالأَلف هكذا (أَيْشا).

فالألف واللام في (الْيَسَعَ) زائدة لا تؤثر معنى تعريف، لأنها ليست للعهد كالرجل والغلام، ولا للجنس كالإنسان والبهائم، ولا صفة غالبة كالعباس والحارث لأن ذلك يلزم عليه أن يكون [الْيَسَع] فعلا وحينئذ يجري صفة، وإذا كان فعلاً وجب أن يلزمه الفاعل، ووجب أن يحكىٰ إذ هي جملة، ولو كان كذلك لم يجز لحاق اللام له، إذ اللام لا تدخل على الفعل، فلم يبق إلا أن تكون الألف واللام زائدة كما هي زائدة في قولهم: «الخمسة عشر درهماً» وفي قول الشاعر:

يَــالَيْــتَ أُمَّ الْعَمْــرِ كــانَــتْ صــاحِبــي (١)

بالعين غير منقوطة، وفي قوله:

وَجَـدْنـا الْـوَلِيـدَ بـنَ الْيَـزِيـدِ مُبارَكـاً ... شَـديـداً بِـأَعْبَـاءِ الْخِـلافَـةِ كـاهِلُـهْ(٢)

وأما (اللَّيْسَعَ) فالألف واللام فيه بمنزلتها في الحارث والعباس لأنه من أبنية الصفات، لكنه بمنزلة (الْيَسَع) في أنه خارج عما عليه الأسماءُ الأعجمية، إذ لم يجئ فيها شيءٌ هو على هذا الوزن، كما لم يجئ منها شيءٌ فيه لام تعريف، فهما من الأسماءِ الأعجمية إلا أنهما مخالفان للأسماءِ الأعجمية فيما ذكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأما (الْيَزِيد) فإنه لما سمّىٰ به أزيل منه معنى الفعل وأُفردت فيه الاسمية، فحصل فيه العلمية، وزيدت فيه الألف واللام لا لتعريف. وقال الطبري: دخلت الألف واللام إتباعاً للفظ الوليد.

﴿وَيُونُسَ﴾ هو ابن متّىٰ، ويقال: يونُس ويونَس ويونِس، وكذلك يوسُف ويوسَف ويوسِف(٣). وبكسر النُّون من [يُونِس] والسِّين من [يُوسِف] قرأ الحسن، وابن

---

(١) لم نعثر على نسبة هذا الشطر ولا على بقية البيت فيما لدينا من المراجع.

(٢) هذا البيت لابن ميّادة، ومثله في زيادة الألف واللام قول ذي الخَرَق الطُّهوي:

فيُسْتَخْـرَجِ اليَـرْبُـوعُ مِـنْ نـافِقـائِـه ... ومِـنْ بَيْتِـه بـالشَّيخَـةِ اليَتَقَصَّـعُ

(٣) أي بالضم والفتح والكسر للنون في (يونس) وللسين في (يوسف).
وقد علّق أبو حيان في «البحر» على ذكر هذه الأسماء فقال: «فهذه مراتب ست: مرتبة الملك والقدرة ذكر فيها داود وسليمان، ومرتبة البلاءِ ذكر فيها أيوب، ومرتبة الجمع بين البلاءِ والوصول إلى الملك ذكر فيها يوسف، ومرتبة قوة البراهين والمعجزات والقتال والصولة ذكر فيها موسى وهارون، ومرتبة الزهد الشديد والانقطاع عن الناس للعبادة ذكر فيها زكريا ويحيى وعيسىٰ وإلياس، ومرتبة عدم الأتباع=

مصرف، وابن وثاب، وعيسى بن عمر، والأعمش في جميع القرآن. و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ معناه: عالمي زمانهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

المعنىٰ: وهدينا من آبائهم وذرِّيَّاتهم وإخوانهم جماعات، فـ [مِنْ] للتَّبعيض، والمراد مَن آمن منهم نبياً كان أو غير نبي، ، يدخل عيسىٰ عليه السلام في ضمير قوله: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾، ولهذا قال محمد بن كعب: الخال أَب والخالة أُمٌّ.

﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ معناه: تخيرناهم وأَرشدناهم وضممناهم إلى خاصتنا وأَرشدناهم إلى الإِيمان والفوز برضى الله تعالىٰ، قال مجاهد: معناه: أَخلصناهم.

والذرِّيَّة: الأَبناءُ، ويطلق على جميع البشر ذرِّيَّة لأَنهم أَبناءٌ، وقال قوم: الذُّرِّية تقع على الآباءِ لقوله تعالىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾[1] يراد به نوع البشر.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ﴾ الآية. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى النعمة في قوله: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾، وإِضافة الهدى إلى الله إِضافة ملك. و﴿حَبِطَ﴾ معناه: تلف وذهب لسوءٍ غلب عليه.

و﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى من تقدم ذكره، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ يراد به الصحف والتوراة والإِنجيل والزبور، ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ يراد به اللب والفطنة والفقه في دين الله. و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى كفار قريش المعادين لرسول الله ﷺ وإلى كل كفار في ذلك العصر. قاله قتادة، وابن عباس، والسدي، وغيرهم. و﴿قَوْمًا﴾ يراد به مؤمنو أَهل المدينة، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي، وغيرهم: و[قَوْماً] يراد به مؤمنو أهل المدينة، قاله ابن عباس، وقتادة والضحاك، والسدي، وغيرهم فالآية ـ على هذا التأويل ـ وإن

= ذكر فيها إسماعيل واليَسع ويونس ولوطاً عليهم السلام».

(١) الآية (٤١) من سورة (يس).

كان القصد في نزولها هذين الصنفين فهي تعُمُّ الكفرة والمؤمنين إلى يوم القيامة. وقال قتادة أَيضاً، والحسن بن أَبي الحسن: المراد بالقوم من تقدم ذكره من الأنبياءِ والمؤمنين. وقال أَبو رجاءٍ: المراد الملائكة، والباءُ في ﴿بِهَا﴾ متعلقة بقوله: ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾، والباءُ في ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾ زائدة للتأْكيد.

وقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ لآية. الظاهر في الإِشارة بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أَنها إِلى المذكورين قبلُ من الأَنبياءِ ومن معهم من المؤمنين المهديِّين، ومعنى الاقتداءِ: اتباع الأَثر في القول والفعل والسيرة، وإِنما يصح اقتداؤه بجميعهم في العقود والإِيمان والتوحيد الذي ليس بينهم فيه اختلاف، وأَما أَعمال الشرائع فمختلفة، وقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[1]، ويحتمل أَن تكون الإِشارة بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إِلى قوله: ﴿قَوْمًا﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك يترتب على بعض التأْويلات في المراد بالقوم، ويقلق بعضها.

قال القاضي ابن الباقلاني: واختلف الناس ـ هل كان رسول الله ﷺ قبل مبعثه متعبداً بشرع من كان قبله؟ فقالت طائفة: كان متعبداً، واختلف بشرع من؟ فقالت فرقة: بشرع إِبراهيم، وفرقة: بشرع موسىٰ، وفرقة: بشرع عيسىٰ عليهم السلام، وقالت طائفة بالوقف في ذلك، وقالت طائفة، لم يكن متعبداً بشرع من كان قبله، وهو الذي يترجح.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا يحتمل كلام القاضي على أَنه لم يكن متعبداً بشرع من كان قبله في توحيد ولا مُعْتَقَد، لأَنا نجد شرعنا ينبيءُ أَن الكفار الذين كانوا قبل النبي عليه الصلاة والسلام كأَبويه وغيرهما في النار، ولا يدخل الله تعالىٰ أحداً النار إِلا بترك ما كلف، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2] وغير ذلك. وقاعدة المتكلمين أَن العقل لا يوجب ولا يكلف، وإِنما يوجب الشرع، فالوجه في هذا أَن يقال: إِن آدم عليه السلام فمن بعده دعا إِلى توحيد الله دعاءً عاماً، واستمر ذلك على العالم، فواجب على

---

(١) من الآية (٤٨) من سورة (المائدة).

(٢) من الآية (١٥) من سورة (الإِسراء).

الآدمي البالغ أن يبحث على الشرع الآمر بتوحيد الله تعالىٰ، وينظر في الأدلة المنصوبة على ذلك بحسب إيجاب الشرع النظر فيها، ولا يعبد غير الله، فمن فرضناه لم يجد سبيلاً إلى العلم بشرع آخر بتوحيد الله، وهو مع ذلك لم يكفر ولا عبد صنماً، بل تخلّىٰ، فأولئك أهل الفترات الذين أطلق عليهم أهل العلم أنهم في الجنة، وهم بمنزلة الأطفال والمجانين، ومن قصّر في النظر وبالبحث فعبد صنماً وكفر فهذا تارك للواجب عليه مستوجب العقاب بالنار. فالنبي ﷺ قبْل المبعث ومن كان معه من الناس وقبله مخاطبون على ألسنة الأنبياءِ قبلُ بتوحيد الله عزَّ وجلَّ، وغير مخاطبين بفروع شرائعهم إذ هي مختلفة، وإذ لم يدعهم إليها نبي، وأما بعد مبعث النبي ﷺ فهل هو وأمته مخاطبون بشرع من تقدم؟ فقالت فرقة: لسنا مخاطبين بشيءِ من ذلك، وقالت فرقة: نحن مخاطبون بشرع من قبلنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن قال من هذه الطائفة إن محمداً عليه الصلاة والسلام وأُمته مخاطبون بكل شرائع من تقدم على الإطلاق فقد أحال، لأن أحكام الشرائع تأتي مختلفة، وإنما يتخذون قول من قال منها: إنا متعبدون بما صح نقله من شرائع من قبلنا ولم تختلف فيه الشرائع، وبالآخِر مما اختلفت فيه لأنه الناسخ المتقدمَ(١)، ويرتكز في صحة نقل ذلك إلى ما وقع في القرآن وفي حديث رسول الله ﷺ من حكاية أحكام سالفة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾(٢) وكقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾(٣)، وكحكاية تزويج شعيب ابنته من موسى عليهما السلام، وكحديث النبي ﷺ في قضية سليمان عليه السلام بين المرأتين في الولد ونحو ذلك.

ولا يقتضي قولهم أكثر من جواز أن يُتَعَبد بذلك، وأما وجوب أن يتعبد فغير لازم، ولا تعلق عندي أشبه في ذلك من أن يقال: إن النبي ﷺ شرع لأُمته أن يصلي الناس صلاته إذا ذكرها، ثم مثل في ذلك لا على طريق التعليل بقوله عزَّ وجلَّ لموسىٰ:

---

(١) يريد بالآخِر: المتأخر ـ فهي بكسر الخاء، وكلمة (المتقدم) مفعول به، والمعنىٰ: ومُتَعَبَّدون بالمتأَخر الذي اختلف فيه لأنه هو الذي نسخ المتقدمَ.

(٢) من الآية (٤٤) من سورة (ص).

(٣) من الآية (١٤) من سورة (طه).

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾[٣] فننقل نحن هذا إِلى غير ذلك من النوازل ونقول: إِنه كما شُرع عندنا ذلك المثال في نسيان الصلاة كذلك نشرع هذه الأَمثلة كلها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قياسٌ ضعيف، ولو ذكر النبي ﷺ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾[٣] على جهة التعليل لكانت الحجة به قوية، ولا يصح أَن يقال: يصحُّ عندنا نقل ما في الشرائع من جهة من أَسلم منهم كعبد اللهِ بن سلام وغيره صحة نقلها، وكذلك ما شرعه الحواريون لا سبيل إِلى صحة شرع عيسى عليه السلام له[١].

وقرأ ابن كثير، وأَهل مكة، ونافع، وأَبو عمرو، وأَهل المدينة، وعاصم: ﴿ٱقْتَدِهْ﴾ بهاءِ السكت ثابتة في الوصل والوقف، وقرأ حمزة، والكسائي: [اقْتَدِ] قال: بحذف الهاءِ في الوصل وإِثباتها في الوقف، وهذا هو القياس، وهي تشبه أَلف الوصل في أَنها تقطع في الابتداءِ، وتوصل غير مبتدأ بها، فكذلك هذه تثبت في الوقف وتحذف في الوصل، وقرأ ابن عامر: [اقْتَدِهِ] بكسر الهاءِ دون بلوغ الياءِ، قال ابن مجاهد: وهذا غلط لأَنها هاءُ وقف لا تعرب على حال، وقال أَبو علي: ووجه ذلك أَن تكون ضمير المصدر كأَنه قال: «اقتد الاقتداءَ»، وقرأ ابن ذكوان على هذه: [اقْتَدِهِ] بإِشباع الياءِ بعد

---

(١) الآراء التي ذكرها في قضية: هلْ نحن مُتعَبَّدون بشرع من كان قبلنا؟ ـ آراءٌ جديرة بالنظر وبالبحث، ولكن للعلماء آراءٌ أُخرى جديرة أَن يهتم بها الباحثون، والذي يميل إليه معظم أَصحاب مالك والشافعي أَنه يجب علينا اتباع شرائع الأَنبياء السابقين فيما لم يرد فيه نصٌّ محتجين بأَحاديث كثيرة منها ما جاءَ في صحيح مسلم وغيره أَن أُخت الرُّبَيِّع أُم حارثة جرحت إِنساناً فاختصموا إِلى النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (القصاصَ القصاصَ)، فقالت أُم الرُّبيع: يا رسول الله، أَيُقْتص من فلانة؟ والله لا يُقتص منها. فقال رسول الله ﷺ: (سبحان الله يا أُمَّ الرُّبيع، القصاصُ كتابُ الله)، قالت: والله لا يُقتص منها أَبداً، قال: فما زالت حتى قبلوا الدية، فقال رسول الله ﷺ: (إِن من عباد الله من لو أَقسم على الله لأَبَرَّه)، فأَحال رسول الله ﷺ على قوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ الآية، وليس في كتاب الله تبارك وتعالى نصٌّ على القصاص في السنّ إلا في هذه الآية، وهي خبر عن شرع التوراة، ومع ذلك حكم بها وأَحال عليها.

لكن بعض أَصحاب مالك، وبعض أَصحاب الشافعي، والمعتزلة خالفوا في ذلك لقوله تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾. قال: الأَولون: وهذا لا حجة فيه لأَنه يحتمل التقييد. وفي صحيح البخاري عن العوّام قال: سأَلت مجاهداً عن سجدة (ص) فقال: سأَلت ابن عباس عن سجدة (ص) فقال: أَو تقرأُ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾ إِلى قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، وكان داود عليه السلام ممن أمر نبيكم ﷺ بالاقتداء به.

الهاءِ، وقالت فرقة: إِن كسر الهاءِ إِنما هو في هاءِ السكت، كما قد تسكن هاءُ الضمير أَحياناً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، ولا يجوز عليه القراءَة بإِشباع الياءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ الآية. المعنى: قل يا محمد لهؤلاءِ الكفرة المعاندين: لا أَسأَلكم على دعائي إِياكم بالقرآن إِلى عبادة الله وتوحيده أَجرة أَستكثر بها وأَختص بدنياها، إِن القرآن إِلا موعظة وذكرى ودعاءٌ لجميع العالمين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

الضمير في ﴿قَدَرُوا۟﴾ و ﴿قَالُوا۟﴾ يراد به العرب، قاله مجاهد وغيره. وقيل: يراد به بنو إِسرائيل، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل: رجل مخصوص منهم يقال له: مالك بن الصيف، قاله سعيد بن جبير، وقيل: في فنحاص، قاله السدي.

و﴿قَدَرُوا۟﴾ هو من توفية القدر والمنزلة، فهي عامة يدخل تحتها من لم يعرف ومن لم يُعظم وغير ذلك، غير أَن تعليله بقولهم: «ما أَنْزَلَ الله» يقضي بأَنهم جهلوا ولم يعرفوا الله حق معرفته، إِذ أَحالوا عليه بعثة الرسل. و﴿حَقَّ﴾ نصب على المقدر، ومن قال «إِن المراد كفار العرب» فيجيءُ الاحتجاج عليهم بقوله: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ احتجاجاً بأَمر مشهور منقول بكافة قوم لم تكن العرب مكذبة لهم. ومن قال: «إِن المراد بنو إِسرائيل» فيجيءُ الاحتجاج عليهم مستقيماً لأَنهم يلتزمون صحة نزول الكتاب على موسى عليه السلام.

وروي أَن مالك بن الصيف كان سميناً، فجاءَ يخاصم النبي ﷺ بزعمه، فقال له رسول الله ﷺ: (أَنشدك الله، أَلست تقرأُ فيما أُنزل على موسى أَن الله يبغض الحبر السمين؟) فغضب وقال: «واللهِ ما أَنزل اللهُ على بشر من شيءٍ»[1].

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم ـ عن سعيد بن جبير قال: جاءَ رجل من اليهود يقال له: =

والآية على قول من قال: نزلت في قول بني إسرائيل يلزم أن تكون مدنية، وكذلك حكى النقاش أنها مدنية، وقرأ الحسن، وعيسى الثقفي، وغيرهما: [وَما قَدَّروا] بتشديد الدال ﴿ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ بفتح الدال، وقرأ الجمهور في الأول بالتخفيف وفي الثانية بإسكانه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ الآية. أمره الله تعالىٰ أن يستفهم على جهة التقرير على موضع الحجة، والمراد بالكتاب التوراة. و﴿ نُورًا وَهُدًى ﴾ اسمان في موضع الحال بمعنى نيِّراً وهادياً، فإن جعلناه حالاً من ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ فالعامل فيه ﴿ أَنزَلَ ﴾، وإن جعلناه حالاً من الضمير في ﴿ بِهِۦ ﴾ فالعامل فيه ﴿ جَآءَ ﴾.

وقرأ جمهور الناس ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ ﴾ بالتاءِ من فوق في الأفعال الثلاثة، فمن رأى أن الاحتجاج على بني إسرائيل استقامت له هذه القراءَة، وتناسقت مع قوله تعالىٰ: ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ ﴾، ومن رأى أن الاحتجاج على كفار العرب فيضطر في هذه القراءَة ـ إذ لا يمكن رفعها ـ إلى أن يقول: إنه خرج من مخاطبة قريش في استفهامهم وتقريرهم إلى مخاطبة بني إسرائيل بتوبيخهم وتوبيخ أفعالهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا مع بُعْده أسهل من دفع القراءَة، فكأنه ـ على هذا التأويل ـ قال لقريش: من أنزل الكتاب على موسىٰ؟ ثم اعترض على بني إسرائيل فقال لهم خلال الكلام: تجعلونه أنتم يا بني إسرائيل قراطيس. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا] بالياءِ في الأفعال الثلاثة. فمن رأى الاحتجاج على قريش رآه إخباراً من الله عزَّ وجلَّ بما فعلته اليهود في الكتاب، ويحتمل أن يكون الإخبار بذلك لقريش، أو للنبي ﷺ وحده، وما أُخبر به النبي ﷺ في القرآن فأُمته متلقية ذلك.

و﴿ قَرَاطِيسَ ﴾ جمع قرطاس، أي بطائق وأوراقاً، والمعنىٰ يجعلونه ذا قراطيس من حيث يكتب فيها، وتوبيخهم بالإبداءِ والإخفاءِ هو على إخفائهم آيات محمد عليه الصلاة والسلام والإخبار بنبوته وجميع ما عليهم فيه حُجة.

= مالك بن الصيف، فخاصم النبي ﷺ. . الخ الحديث. (الدر المنثور ٣ـ ٢٩٩). والحديث لا يصح فهو مرسل سعيد بن جبير.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾. قال مجاهد وغيره: هي مخاطبة للعرب، فالمعنىٰ ـ على هذا ـ قصْد مِنَّة الله عليهم بذلك، أَي: عُلمتم يا معشر العرب من الهدايات والتوحيد والإرشاد إلى الحق ما لم تكونوا عالمين به ولا آباؤكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقوله تعالىٰ: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ يصلح ـ على هذا المعنىٰ ـ لمخاطبة من انتفع بالتعليم ومن لم ينتفع به، ويصح الامتنان بتعليم الصنفين، وليس من شرط من عُلِّم أَن يعلم ولابُدّ، أَما إن التعليم الكامل هو الذي يقع معه التعلم.

وقالت فرقة: بل هي مخاطبة لبني إسرائيل، والمعنى ـ على هذا ـ يترتب على وجهين: أَحدهما أَن يُقصد به الامتنان عليهم وعلى آبائهم بأَن عُلِّموا من دين الله وهداياته ما لم يكونوا عالمين به، لأَن آباءَ المخاطبين من بني إسرائيل كانوا عُلِّموا أَيضاً وعَلِمَ بعضهم، وليس ذلك في آباءِ العرب. والوجه الآخر أَن يكون المقصد ذمُّهم، أَي: وعُلِّمتم أَنتم وآباؤكم ما لم تعلموه بعد التعليم ولا انتفعتم به لإِعراضكم وضلالكم.

ثم أَمره الله تعالىٰ بالمبادرة إلى موضع الحجة، أَي قل لهم: الله هو الذي أَنزل الكتاب على موسىٰ. ويحتمل أَن يكون المعنىٰ: فإِن جهلوا أَو تحيروا أَو سأَلوا أَو نحو هذا فقل: الله(١). ثم أَمره تبارك وتعالىٰ بترك من كفر وأَعرض.

وهذه آية منسوخة بآية القتال إن تُؤُوِّلت موادعة، وقد يحتمل أَلاَّ يدخلها النسخ إذا جعلت تتضمن تهديداً ووعيداً مجرداً من موادعة.

والخوض: الذهاب فيما لا تسبر حقائقه، وأَصله في الماءِ ثم يستعمل في المعاني المُشْكلة المُلْتَبِسة، و﴿يَلْعَبُونَ﴾ في موضع الحال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا﴾ إشارة إلى القرآن، و﴿مُبَارَكٌ﴾ صفة له، و﴿مُّصَدِّقُ﴾

---

(١) قال أَبو حيان: «لا يحتاج إلى هذا التقدير لأَن الكلام مستغن عنه» (البحر المحيط ٤ـ١٧٨).

كذلك، وحذف التنوين من ﴿ مُّصَدِّقُ﴾ للإضافة، وهي إضافة غير محضة لم تتعرَّف بها ﴿ مُّصَدِّقُ﴾، ولذلك ساغ أن يكون وصفاً لنكرة. و﴿ ٱلَّذِى﴾ في موضع المفعول، والعامل فيه مصدر، ولا يصلح أن يكون ﴿ مُّصَدِّقُ﴾ ـ مع حذف التنوين منه ـ يتسلط على ﴿ ٱلَّذِى﴾، ويقدر حذف التنوين للالتقاءِ، وإنما جاءَ ذلك شاذًّا في الشعر في قوله:

فَـأَلْفَيْتُــهُ غَيْــرَ مُسْتَعْتِــبٍ ... ولا ذاكِــرِ اللهَ إلاَّ قَلِيــلاَ[1]

ولا يقاس عليه. و﴿ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ هي حال التوراة والإنجيل لأن ما تقدم فهو بين يدي ما تأخر. وقالت فرقة: الذي بين يديه القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا غير صحيح لأن القرآن هو بين يدي القيامة.

وقرأ الجمهور: ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي أنت يا محمد، وقرأ أبو بكر عن عاصم: [وَلِيُنْذِرَ] أي القرآن بمواعظه وأوامره. واللام في ﴿ وَلِتُنذِرَ﴾ متعلقة بفعل متأخر تقديره: ولتُنْذر أم القُرى ومن حولها أنزلناه.

و﴿ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾: مكة، سميت بذلك لوجوه أربعة: منها أنها منشأُ الدين والشرع، ومنها ما روي أن الأرض منها دُحيت، ومنها أنها وسط الأرض، ومنها ما لحق عن الشرع من أنها قبلة كل قرية، فهي ـ لهذا كله ـ أُم وسائر القُرى بنات، وتقدير الآية: لتنذر أهل أُم القرىٰ. ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ﴾ يريد أهل سائر الأرض، و﴿ حَوْلَهَاۚ﴾ ظرف، والفاعل فيه فعل مضمر تقديره: ومن استقر حولها.

ثم ابتدأ تعالىٰ مدح قوم وصفهم وأخبر عنهم أنهم يؤمنون بالآخرة والبعث والنشور. ويؤْمِنُونَ بالقُرآن ويصدقون بحقيقته، ثم قوَّىٰ تبارك وتعالىٰ مدحهم بأنهم يحافظون على صلاتهم التي هي قاعدة العبادات وأُم الطاعات، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وأبو بكر عن عاصم [صَلَوَاتهم] بالجمع، ومَن قرأ بالإفراد فإنه مفرد يدل على الجمع، وإذا انضافت الصلاة إلى ضمير لم تكتب إلا بالألف ولا تكتب في المصحف بواو إلا إذا لم تنضف إلى ضمير.

---

(١) سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ الآية (٦٠) من سورة (المائدة).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

هذه ألفاظ عامة، فكلُّ مَن واقَع شيئاً مما يدخل تحت هذه الألفاظ فهو داخل في الظلم الذي قد عظمه الله تعالىٰ بقوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي: لا أحد أظلم. وقال قتادة وغيره: المراد بهذه الآيات مسيلمة والأسود العنسي، وذكروا رؤْية النبي ﷺ للسوارَيْن[(١)]، وقال السدي: المراد بها عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، وكان يكتب للنبي ﷺ الوحي، وكان أخا عثمان بن عفان رضي الله عنه من الرضاعة، فلما نزلت ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾[(٢)]، فقال عبد الله بن سعد من تلقاءِ نفسه: «فتبارك الله أحسن الخالقين»، فقال له رسول الله ﷺ: (اكتُبها فهكذا أُنزلت). فتوهم عبد الله ولحق بمكة مُرْتَدّاً وقال: أنا أُنزل مثل ما أَنزل الله. وروي عنه أيضاً أن النبي ﷺ ربما أملىٰ عليه: «والله غفور رحيم» فبدلها هو: «والله سميع عليم» فقال النبي ﷺ: «ذلك سواءٌ»، ونحو هذا[(٣)].

---

(١) أخرجه الطبري بسنده إلى قتادة، وهو: (بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فكَبُر ذلك عليَّ، فأُوحي إلي أن أنفخهما فنفختهما فطارا، فأولت ذلك كذاب اليمامة وكذاب صنعاء).

(٢) الآيات (١٢، ١٣، ١٤) من سورة (المؤمنون).

(٣) حديث عبد الله بن أبي سرح مروي من عدة طرق. رواه الكلبي عن ابن عباس، وأخرجه الحاكم في المستدرك عن شرحبيل بن سعد، وابن أبي حاتم عن أبي خلف الأعمىٰ، ومثله عن السدي ـ مع اختلاف في الألفاظ ـ (القرطبي، والدر المنثور)، وفي القرطبي: «أنه لما دخل النبي ﷺ مكة أمر بقتله وقتْل عبد الله بن خَطَل ومِقْيس بن صُبَابة ولو وُجدوا تحت أستار الكعبة، ففر عبد الله بن أبي سرح إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان أخاه في الرضاعة، فغيَّبه عثمان حتى أتى به رسول الله ﷺ بعدما اطمأن أهل مكة فاستأمنه له، فصمت رسول الله ﷺ طويلاً ثم قال (نعم)، فلما انصرف عثمان قال رسول الله ﷺ: (ما صمتُّ إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه) فقال رجل من الأنصار: فهلا أوْمأت إليَّ يا رسول الله؟، فقال: (إن النبي لا ينبغي أن تكون له خائنة الأعين). قال أبو عمر رضي الله عنهما: وأسلم عبد الله بن أبي سرح أيام الفتح فحسن إسلامه» أهـ. وكلها مراسيل.

وقال عكرمة: أَولها في مسيلمة، والآخر في عبد الله بن سعد بن أَبي سرح[(١)]، وذكر الزهراوي والمهدوي أَن الآية نزلت في النضر بن الحارث لأَنه عارض القرآن بقوله: «والزارعات زرعاً، والخابزات خبزاً»[(٢)] إلى غير ذلك من السخافات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فخصص المتأَولون في هذه الآيات ذكر قوم قد يمكن أَن كانوا أَسباب نزولها، ثم هي إلى يوم القيامة تتناول من تعرض شيئاً من معانيها كَطُلَيْحَة الأَسدي، والمختار بن أَبي عبيد، وسواهما. وقرأَ الجمهور: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بتخفيف، وقرأَ أَبو حيوة: [سَأُنَزِّلُ] بفتح النون وتشديد الزاي.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الآية. جواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف تقديره: لرأَيت عجباً أَو هولاً ونحو هذا. وحذف هذا الجواب أَبلغ من نصه، لأَن السامع إذا لم ينص له الجواب يترك مع غاية تخيله. و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لفظ عام لمن واقع ما تقدم ذكره وغير ذلك من أَنواع الظلم الذي هو كفر. والغمرات: جمع غمرة وهي المصيبة المبهمة المذهلة، وهي مشبهة بغمرة الماءِ، ومنه قول الشاعر:

ولا يُنْجِي مِنَ الْغَمَراتِ إِلاَّ   بَرَاكاءُ الْقِتَالِ أَوِ الْفِرَارُ[(٣)]

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ملائكة قبض الروح، و﴿بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن مدّها بالمكروه، كما قال تعالىٰ حكاية عن ابني آدم: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى﴾[(٤)]، وهذا المكروه هو لا محالة أَوائل عذاب وأَماراته، قال ابن عباس: يضربون وجوههم وأَدبارهم، وأَما البسط لمجرد قبض النفس فإِنه يشترك فيه الصالحون والكفرة، وقيل: إِن المراد بسط الأَيدي في جهنم، والغمرات كذلك، لكنهم لا يُقضى عليهم فيموتوا.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ حكاية لما تقوله الملائكة، والتقدير: «يقولون أَخرجوا أَنفسكم»، ويحتمل قول الملائكة ذلك أَن يريدوا: فأَخرجوا أَنفسكم

---

(١) أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ ـ عن عكرمة. (الدر المنثور ٣ـ ٣٠).

(٢) أخرجه عبد بن حميد ـ عن عكرمة (المصدر السابق).

(٣) البيت لبشر بن أبي خازم، والبراكاءُ: الثباتُ في الحرب والجدُّ، وأصله من البروك، والبراكاءُ أيضاً: ساحة القتال. ويقال في الحرب. بَرَاكِ بَرَاكِ، أي: ابركوا. (اللسان ـ برك).

(٤) من الآية (٢٨) من سورة (المائدة).

من هذه المصائب والمحن وخلّصوها إن كان ما زعمتموه حقاً في الدنيا، وفي ذلك توبيخ وتوقيف على سالف فعلهم القبيح، قال الحسن: هذا التوبيخ ـ على هذا الوجه ـ هو في جهنم، ويحتمل أن يكون ذلك على معنى الزجر والإهانة، كما يقول الرجل لمن يقهره بنفسه على أمرٍ مّا: «افعل كذا» لذلك الأمر الذي يتناوله بنفسه منه على جهة الإهانة وإدخال الرعب عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ الآية. هذه حكاية عن قول الملائكة للكفرة عند قبض أرواحهم. و﴿ٱلْهُونِ﴾: الهوانِ، ومنه قول ذي الإصبع:

إلَيْـكَ عَنّـي فَمَـا أُمِّـي بِـرَاعِيَـةٍ ... تَرْعَى المخاضَ وَلاَ أُغْضِي عَلى الْهُونِ[1]

وقرأ عبد الله بن مسعود، وعكرمة: [عَذابَ الْهَوان] بالألف.

وقوله تعالىٰ: ﴿تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ لفظ جامع لكل نوع من الكفر، ولكنه يظهر منه ومن قوله: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ الإنحاءُ على من قرب ذكره من هؤُلاءِ الذين ادعوا الوحي، وأن يُنزلوا مثل ما أنزل الله، فإنها أفعال بيِّنٌ فيها قول غير الحق على الله، وبيِّنٌ فيها الاستكبار.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

هذه حكاية عما يقال لهم بعد قبض أرواحهم، فإما عند خروجها من الأجساد، وإما يوم القيامة، كل ذلك محتمل.

و﴿فُرَٰدَىٰ﴾ معناه: فرداً فرداً، والألف في آخره ألف تأنيث، ومنه قول الشاعر:

تـرَى النُّعَـراتِ الـزُّرْقَ تَحْـتَ لَبَانِـه ... فُرادَى وَمَثْنى أَضْعَفَتْهَا صَوَاهِلُهْ[2]

---

(١) الهُونُ: الخِزيُ، وفي التنزيل العزيز: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾، وهو أيضاً: الهوان، والهوْن والهوان: نقيض العزّ. والبيت في (اللسان)، ولفظه:

اذهَبْ إِلَيْكَ فَما أُمّي براعِيَةٍ ... تَرْعَى الْمَخَاضَ ولا أُغْضِي عَلَى الْهُونِ

(٢) البيت لابن مُقْبل، كما قال في اللسان، وقد رواه في مادة (فَرَدَ) كما رواه ابن عطية رحمه الله هنا، وفي مادة (نعَرَ) رواه كما يأتي:

=

وقرأ أَبو حَيْوةَ: [فَرَاداً] منوناً على وزن فعال وهي لغة تميم، ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ قيل: جمع فرَدٍ بفتح الراءِ، وقيل: جمع فرْدٍ بإِسكان الراءِ[1]، والمقصد في الآية توقيف الكفار على انفرادهم وقلة النصير واحتياجهم إِلى الله عزَّ وجلَّ بفقد الخَوَل والشفعاءِ، فيكون قوله تعالىٰ: ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ تشْبيهاً بالانفراد الأَول في وقت الخِلْقَة. ويتوجه معنى آخر وهو: أَن يتضمن قوله تعالىٰ: ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ زيادة معان على الانفراد كأنه قال: ولقد جئتمونا فرادى وبأَحوال كذا، والإِشارة ـ على هذا ـ بقوله تعالىٰ: ﴿كَمَا﴾ هي إِلى ما قاله النبي ﷺ في صفة من يُحْشَر: (إِنهم يحشرون حُفَاة عُراةً غُرْلاً)[2].

و﴿خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ معناه: أَعطيناكم، وكان أَبو عمرو بن العلاءِ ينشد بيت زهير:

هُنَالِكَ إِنْ يُسْتخْولوا المال يُخْوِلُوا ... وإِنْ يُسْأَلوا يُعْطُوا وإِن يَيْسِرُوا يُغْلوا[3]

﴿وراء ظهوركم﴾ إِشارة إِلى الدنيا لأَنهم يتركون ذلك موجوداً.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾، الآية توقيف على الخطأ في عبادة الأَصنام وتعظيمها، قال الطبري: وروي أَن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث لأَنه قال: سوف تشفع لي اللات والعزىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومن كان من العرب يعتقد أَنها تشفع وتقرب إِلى الله زُلْفَى ويرى شركتها بهذا الوجه فمخاطبتهم بالآية متمكن، وهكذا كان الأَكثر، ومن كان منهم لا يقر بإِلٰه غيرها فليس هو في هذه الآية.

= أي: قتلها صهيلُه. والنُّعَرَةُ مثال الهُمَزَة: ذباب ضخم أَزرق العين أَخضر له إِبرة في طرف ذنبه يلسع بها ذوات الحافر خاصة، وربما دخل في أنف الحمار فيركب رأسه ولا يرده شيءٌ. واللَّبان: الصدر، وقيل: وسَطُه، وقيل: الصدر من ذي الحافر خاصة، وفي قصيدة كعب:

تَـرْمـي اللَّبَـانَ بكَفَّيْهـا ومِـدْرَعِهـا ... مُشَقَّـقٌ عَـنْ تَـراقيهـا رَعَـابيـلُ

(١) وقيل: جمع فرد بكسر الراءِ، وقيل: جمع فَرْدان مثل سُكارىٰ وسَكْران وكُسَالى وكَسْلان ـ (عن كتب اللغة).

(٢) روى البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قام فينا النبي ﷺ يخطب فقال: (إِنكم محشورون حُفاة عُراة غرلاً) ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ الآية (الخ الحديث، وروىٰ أَيضاً مثله عن القاسم بن محمد بن أَبي بكر عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) قال في (اللسان): «الاسْتخْوَال مثل الاسْتخْبال، من أَخْبَلته المال إذا أَعرته ناقة لينتفع بأَلبانها وأَوبارها، أَو فرساً يغزو عليه، ومنه قول زهير». ثم ساق البيت.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة [بَيْنُكُمْ] بالرفع، وقرأ نافع والكسائي: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بالنصب، أما الرفع فعلى وجوه: أُولاها أنه الظرف استعمل اسماً وأُسند إليه الفعل كما قد استعملوه اسماً في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[1]، وكقولهم فيما حكى سيبويه: «أحمر بين العينين»، ورجَّح هذا القول أبو علي الفارسي، والوجه الآخر أن بعض المفسرين منهم الزهراوي والمهدوي وأبو الفتح وسواهم حكوا أن (الْبيْن) في اللغة يقال على الافتراق وعلى الوصل، فكأنه قال: لقد تقطَّع وصْلُكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا عندي اعتراض لأن ذلك لم يُرْوَ مسموعاً عن العرب[2]، وإنما انتزع من الآية، والآية محتملة، قال الخليل في العين: «والبَيْنُ: الوَصْلُ» لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ فعَلَّل سوق اللفظة بالآية، والآية معرضة لغير ذلك. أما أن أبا الفتح قَوَّى أن البيْن: الوصل، وقال: «وقد أتقن ذلك بعض المحدثين بقوله: قد أنصف البَيْن من البَيْن». والوجه الثالث من وجوه الرفع أن يكون البيْن على أصله في الفُرْقة من: بانَ يبين إذا بعُد، ويكون في قوله تعالىٰ: ﴿تَّقَطَّعَ﴾ تجوُّز على نحو ما يقال في الأمر البعيد في المسافة: «تقطعت الفجاج بيْن كذا وكذا» عبارة عن بُعد ذلك. ويكون المقصد: لقد تقطعت المسافة بينكم لطولها، فعبر عن ذلك بالبين الذي هو الفُرقة.

وأما وجه قراءَة النصب فأن يكون ظرفاً ويكون الفعل مستنداً إلى شيءٍ محذوف وتقديره: لقد تقطع الاتصال أو الارتباط بينكم، أو نحو هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا وجه واضح، وعليه فسَّره الناس: مجاهد، والسدي، وغيرهما[3]. ووجه

---

(١) من الآية (٥) من سورة (فصلت).

(٢) الحقيقة أنه روي مسموعاً عن العرب، ومن ذلك قول قَيْس بن ذَريح:

لَعَمْرُكَ لولا البَيْن لا يُقطَع الْهَوىٰ ... ولَوْلا الْهَوَى ما حَنَّ لِلْبَيْن آلِفُ

وقال آخر:

لقد فرَّق الواشين بَيْني وبَيْنُها ... فقرَّت بذاكَ الوَصْلِ عَيْني وَعيْنُها

وأنشد أبو عمرو في رفع (بيْن) قولَ الشاعر:

كَأَنَّ رمَاحَنَا أَشْطانُ بِئْر ... بعيدٍ بَيْنُ جالَيْها جَرُورُ

(٣) عقَّب أبو حيان على ذلك في «البحر المحيط ٤ـ ١٨٣» بقوله: «قوله: (إلى شيءٍ محذوف) ليس =

آخر يراه أبو الحسن الأخفش، وهو: أن يكون الفعل مسنداً إلى الظرف ويبقى الظرف على حال نصبه وهو في النيّة مرفوع، ومثل هذا عنده قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾(١).

وقرأ ابن مسعود، ومجاهد، والأعمش: [تَقَطَّعَ مَا بَيْنَكُمْ] بزيادة (ما)، ﴿وَضَلَّ﴾ معناه: تَلِفَ وذهب، و﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يريد دعواهم أنها تشفع وتشارك الله في الألوهية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

هذا ابتداءُ تنبيه على العِبرة والنظر، ويتصل المعنى بما قبله لأن القصد: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ لا هذه الأصنام، وقال مجاهد، وأبو مالك: هذه إشارة إلى الشق الذي في حبة البُرّ ونواة التمر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والعبرة ـ على هذا القول ـ مخصوصة في بعض الحبِّ وبعض النوى، وليس لذلك وجه. وقال الضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم: هذه إشارة إلى فعل الله في أن يشق جميع الحَبِّ عن جميع النبات الذي يكون منه، ويشق النوى عن جميع الأشجار الكائنة عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الظَّاهر الذي يعطي العبرة التامة، فسبحان الخلاق العليم.

وقال الضحاك: [فالِقِ] بمعنى خالق، وقال السدي: وأبو مالك: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ إشارة إلى إخراج النبات الأخضر والشجر الأخضر من الحَبِّ اليابس والنوى

= بصحيح، لأن الفاعل لا يحذف»، ثم قال: «والذي يظهر لي أن المسألة من باب الإعمال ـ تسلَّط على ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿تَّقَطَّعَ﴾ و﴿وَضَلَّ﴾. فأعمل الثاني وهو [ضلَّ]، وأضمر في [تقطَّع] ضمير [ما] وهم الأصنام، فالمعنىٰ: «لقد تقطَّع بينكم ما كنتم تزعمون وضلُّوا عنكم». اهـ.

(١) من الآية (١١) من سورة (الجنّ).

اليابس، فكأنه جعل الخضرة والنضارة حياة، والْيَبَس موتاً. ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ إشارة إلى إخراج الحَبّ اليابس من النبات والشجر.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: بل ذلك كله إشارة إلى إخراج الإنسان الحيّ من النطفة الميتة، وإخراج النطفة الميتة من الإنسان الحيّ، وكذلك سائر الحيوان والطير من البيض والحوت وجميع الحيوان(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا القول أرجح، وإنما تعلَّق قائلو القول الأول بتناسب تأويلهم مع قوله تعالىٰ: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، وهما على هذا التأويل الراجح معنيان متباينان فيهما معتبر.

وقال الحسن: المعنىٰ: يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ ابتداءٌ وخبر متضمِّن التنبيه. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: تصرفون وتصدون.

و﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾، أي: شاقه ومظهره، والفلق: الصبح، وقرأ الجمهور: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ بكسر الهمزة، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وعيسىٰ بن عمر، وأبو رجاءٍ: [فَالِقُ الأَصْبَاحِ] بفتح الهمزة جمع صُبْح، وقرأت فرقة: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ بحذف التنوين من ﴿فَالِقُ﴾ لالتقاءِ الساكنيْن ونصب ﴿ٱلْإِصْبَاحِ﴾ بـ ﴿فَالِقُ﴾ كأنه أراد «فالقٌ الإِصْباحَ» بتنوين القاف، وهذه قراءَة شاذة، وإنما جوَّز سيبويه مثل هذا في الشعر، وأنشد عليه:

فَــأَلْفَيْتُــه غيْــرَ مُسْتَعْتِــبِ ولا ذاكــرِ اللهَ إِلاَّ قَلِيــلاً(٢)

وحكى النحاس عن المبرّد جواز ذلك في الكلام. وقرأ أبو حيوة، وإبراهيم النَّخعي، ويحيىٰ بن وثّاب: [فَلَقَ الإِصْباحَ] بفعل ماض. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: [وَجَاعِلِ اللَّيْلِ]، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَجَعَلَ

---

(١) قال أبو حيان: «عطف قوله: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ﴾ على قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾ اسم فاعل على اسم فاعل، وليس معطوفاً على قوله سبحانه: ﴿يُخْرِجُ﴾ لأن قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾ من جنس إخراج الحي من الميت لأن الناس في حكم الحيوان، ألا ترى إلى قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ فجملة ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ في موقع الجملة المُبيِّنة من قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، ولذلك عطف اسم الفاعل على اسم الفاعل لا على الفعل.

(٢) سبق أن استشهد ابن عطية بهذا البيت في أكثر من موضع مماثل لهذا.

﴿ٱلَّيۡلَ﴾، وهذا لما كان ﴿فَالِقُ﴾ بمعنى الماضي فكأن اللفظ «فَلَقَ الإِصْبَاحَ وَجَعَلَ»، ويؤيد ذلك نصب ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿سَكَنًا﴾، وروي عن يعقوب [سَاكِناً]، قال أبو عمرو الداني: ولا يصح ذلك عنه، ونصبه بفعل مضمر إذا قرأنا: [وَجَاعِلُ] لأنه بمعنى المضي، وتقدير الفعل المضمر: «وجاعل الليل يجعله سكناً»، وهذا مثل قولك: «هذا معطي زيد أمس درهماً»، والذي حكاه أبو علي في هذا أن ينتصب بما في الكلام من معنىٰ: (مُعْطي)، وقرأ أبو حيوة: [والشَّمْسِ والْقَمرِ] بالخفض عطفاً على لفظ [اللَّيْلِ].

و﴿حُسۡبَانٗا﴾ جمع حساب، كشهبان في جمع شهاب، أي: تجري بحساب. هذا قول ابن عباس، والسدي، وقتادة، ومجاهد، وقال مجاهد في صحيح البخاري: المراد حسبان كحسبان الرحىٰ[1]، وهو الدولاب والعود الذي عليه دورانه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

هذه المخاطبة تعم المؤمنين والكافرين، فالحجة بها على الكافرين قائمة، والعبرة بها للمؤمنين ممكنة متعرضة، و﴿جَعَلَ﴾ هنا بمعنىٰ خلق لدخولها على مفعول واحد. وقد يمكن أن تكون بمعنىٰ صَيَّرَ، ويُقَدَّر المفعول الثاني في ﴿لِتَهۡتَدُواْ﴾ لأنه يُقدر: «وهو الذي جعل لكم النجوم هداية». و﴿فِي ظُلُمَٰتِ﴾ هي ها هنا على حقيقتها في ظلمة الليل بقرينة ﴿ٱلنُّجُومَ﴾ التي لا تكون إلا بالليل. ويصح أن تكون الظلمات هنا الشدائد في المواضع التي يتفق أن يهتدى فيها بالشمس.

وذكر الله تبارك وتعالىٰ النجوم في ثلاث منافع، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ

---

(١) في جميع الأصول: كحسبان الرحاق ـ والتصحيح عن البخاري، وعن كتب التفسير مثل: «البحر المحيط».

(٢) من الآية (٥) من سورة (المُلك).

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾. فالواجب أَن يعتقد أَن ما عدا هذا الوجه من أَهل التأثير باطل واختلاق على الله وكُفْرٌ به.

و﴿فَصَّلْنَا﴾ معناه: بيَّنَّا وقَسَّمنا، و﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدلائل، و﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ تخصيص لهم بالذكر، وتنبيه منهم لتحصيلهم الآيات المفصلة المنصوبة وغيرهم تمر عليهم الآيات وهم معرضون عنها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ الآية. الإِنشاءُ: ابتداءُ فعل الشيء، و﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يريد آدم عليه السلام.

وقرأَ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: [فَمُسْتَقَرٌّ] بفتح القاف على أَنه موضع استقرار، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [فَمُسْتَقِرٌّ] بكسر القاف على أَنه اسم فاعل، وأَجمعوا على فتح الدال من ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ بأَن يقدر موضع استيداع، وأَن يقدر أَيضاً مفعولاً، ولا يصح ذلك في [مُسْتَقَرٌّ] لأَن (استقر) لا يتعدىٰ فيبنى منه مفعول، أَما أَنه روى هارون الأَعور عن أَبي عمرو [مُسْتَوْدِع] بكسر الدال» فمن قرأَ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ على أَنها موضع استقر موضع استيداع علَّقها بمجرور تقديره: «فلكم مستقر ومستودع»، ومن قرأَ [فَمُسْتَقِرٌّ ومُسْتَوْدَعٌ] على اسم الفاعل في [مُسْتَقِرٌّ] واسم المفعول في [مُسْتَوْدَعٌ] علقها بمجرور تقديره: «فمنكم مستقر ومستودع»، واضطرب المتأَولون في معنى الاستقرار والاستيداع، فقال الجمهور: مستقر في الرحم، ومستودع في ظهور الآباءِ حتى يقضي الله بخروجهم، وقال ابن عون: مشيت إِلى منزل إِبراهيم النَّخعي وهو مريض فقالوا: قد توفي، فأَخبرني بعضهم أَن عبد الرحمن بن الأَسود سأَله عن [مُسْتَقِرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ] فقال: مستقِر في الرحم ومستودع في الصُّلب، وقال الحسن بن أَبي الحسن: مستقر في القبور ومستودع في الدنيا، وقال ابن عباس: المستقر: الأَرض، والمستودع عند الرحم، وقال ابن جبير: المستودع في الصلب والمستقر في الآخرة، والذي يقتضيه النظر أَن ابن آدم هو مستودع في ظهر أَبيه، وليس بمستقر فيه استقراراً مطلقاً لأَنه ينتقل لا محالة: ينتقل إِلى الرحم، ثم ينتقل إِلى الدنيا، ثم ينتقل إِلى القبر، ثم ينتقل إِلى المحشر، ثم ينتقل إِلى الجنة أَو النار فيستقر في إِحداهما استقراراً مطلقاً، وليس فيها مستودع لأَنه لا نقلة له بعد، وهو في كل رتبة متوسطة بين هذين الطرفين مستقر بالإِضافة إِلى التي قبلها، ومستودع بالإِضافة إِلى التي بعدها، لأَن لفظ الوديعة يقتضي فيها نقلة ولابد.

و﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ معناه: يفهمون[١]، وقد تقدم تفسير مثل هذا آنفاً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ـ في هذا الموضع ـ: السحاب، وكل ما أظلَّك فهو سماءٌ. و﴿ مَآءً ﴾ أَصله (مَوَه) تحركت الواو وانفتح ما قبلها فجاءَ (ماه) فبدلت الهاءُ بالهمزة لِجَلَد الهمزة لأن الألف والهاءَ ضعيفان مهموسان.

وقوله: ﴿ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾. قال بعض المفسرين: أي مما يُنبت، وحسن إطلاق العموم في ﴿ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ لأن ذكر النبات قبله قد قيَّد المقصد، وقال الطبري: المراد بـ ﴿ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ما ينمو من جميع الحيوانات والنبات والمعادن وغير ذلك، لأن ذلك كله يتغذى وينمو بنزول الماءِ من السماءِ، والضمير في ﴿ مِنْهُ ﴾ يعود على النبات، وفي الثاني يعود على الخَضِر، و﴿ خَضِرًا ﴾ بمعنى أَخضر، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: (الدنيا خضِرةٌ حُلوةٌ)[٢] بمعنىٰ: خضراءُ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكان (خَضِراً) إنما يأتي أَبداً لمعنى النضارة، وليس للون فيه مدخل، و(أَخضر) إِنما تمكنه في اللون، وهو في النضارة تجوّز.

---

(١) الاهتداءُ بالنجوم واضح، ولذلك ختمه سبحانه وتعالىٰ بما يناسبه هو قوله سبحانه: ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: من له أدنى إدراك فإنه يتفع بالنظر في النجوم وفائدتها، ولكن لما كان الإنشاءُ من نفس واحدة والتصريف في أحوال كثيرة يحتاج إلى فكر وتدقيق نظر ختمه سبحانه بقوله: ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ لأن الفقه هو استعمال الفطنة ودقة النظر والفكر. وهكذا التقى ختام كل آية بما يلائم صدرها. عن «البحر المحيط».

(٢) روى الدارمي في سُنَنِه أَن حكيم بن حزام قال: سألت رسول الله ﷺ فأَعطاني، ثم سأَلته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سأَلته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا حكيم، إن هذا المال خضر حلو فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى. (ج٢، ص٣١٠)، ورواه ابن ماجه والإمام أحمد.

وقوله: ﴿ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ يعمُّ جميع السنابل وما شاكلها كالصنوبر والرمان وغيرها من جميع النبات.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾ تقديره: ونخرجُ من النخل، و﴿ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ ابتداءٌ خبره مقدم، والجملة في موضع المفعول بـ ﴿نُّخْرِجُ﴾، والطلع: أَول ما يخرج من النخلة في أَكمامه، و﴿ قِنْوَانٌ ﴾ جمع قنو وهو العِذق بكسر العين وهو الكباسة، والعرجون: عوده الذي ينتظم الثمر. وقرأَ الأَعرج [قَنْوانٌ] بفتح القاف، وقال أَبو الفتح: ينبغي أَن يكون اسماً للجمع غير مكسر لأَن فَعْلان ليس من أَمثلة الجمع. قال المهدوي: وروي عن الأَعرج ضم القاف، وذلك على أَنه جمع قُنو بضم القاف. قال الفراءُ: وهي لغة قيس وأَهل الحجاز، والكسر أَشهر في العرب. وقنو يُثَنَّى قنوان منصرفة النون. و﴿ دَانِيَةٌ ﴾ معناه: قريبة من المتناول، قاله ابن عباس، والبراءُ بن عازب، والضحاك. وقيل: قريبة بعضها من بعض.

وقرأَ الجمهور: ﴿ وَجَنَّـٰتٍ﴾ بنصب ﴿ وَجَنَّـٰتٍ﴾ عطفاً على قوله تعالىٰ: ﴿ نَبَاتَ﴾ ، وقرأَ الأَعمش، ومحمد بن أَبي ليلىٰ: ورويت عن أَبي بكر عن عاصم: [وَجَنَّاتٌ] بالرفع على تقدير: ولكم جنات، أَو نحو هذا. وقال الطبري: هو عطف على ﴿ قِنْوَانٌ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقوله ضعيف[1].

﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ بالنصب إِجماعاً عطفاً على قوله تعالىٰ: ﴿ حَبًّا﴾، و﴿ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾ قال قتادة: معناه: تتشابه في اللون وتتباين في الثمر، وقال الطبري: جائز أَن تتشابه في الثمر وتتباين في الطعم، ويحتمل أَن يريد: تتشابه في الطعم وتتباين في المنظر، وهذه الأَحوال موجودة بالاعتبار في أَنواع الثمرات.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱنظُرُوٓا۟﴾ هو نظر بصر يترتب عليه فكرة قلب. وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، ونافع، وابن عامر، وعاصم، ﴿ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ بفتح الثاءِ والميم، وهو جمع ثَمَرة

---

(١) فسَّر هذا الضعف أبو البقاءِ فقال: «لا يجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ قِنْوَانٌ﴾ لأَن العنب لا يخرج من النخل».

كبقرة وبقر، وشجرة وشجر، وقرأ يحيىٰ بن وثاب، ومجاهد: [ثُمُرِهِ]، قالا: وهي أَصناف المال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَن المعنى: انظروا إِلىٰ الأَموال التي تتحصل منه، وهي قراءَة حمزة والكسائي، قال أَبو علي: والأَحسن فيه أن يكون جمع ثمرة كخشبة وخُشُب وأَكمة وأُكُمْ، ومنه قول الشاعر:

. . . . تَرَى الأُكم فيه سُجَّدا لِلْحَوَافِرِ(١)

ونظيره في المعتل: لابة ولوب وناقة ونوق وساحة وسوح. ويجوز أَن تكون جمْع جمْع فتقول: ثَمَرَة وثِمَارٌ وثُمُر مثل حِمار وحُمُر. وقرأَت فرقة: [إِلى ثُمْرِهِ] بضم الثاءِ وإِسكان الميم كأَنها ذهبت إِلى طلب الخفة في تسكين الميم. والثَّمَر في اللغة: جنى الشجر وما يطلع، وإِن سمي الشجر ثماراً فتجوز.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ بفتح الياءِ، وهو مصدر يَنَعَ يَيْنَع إِذا نَضِجَ، يقال: يَنَع وأَيْنَع، وبالنضج فسر ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية، ومنه قول الحجاج: «إِني لأَرى رؤُوساً قد أَيْنَعَت»، ويستعمل يَنَع بمعنىٰ: استقل واخضرَّ ناضراً، ومنه قول الشاعر:

فــي قِبــابِ حَــوْل دسْكَــرَة حَــوْلَهــا الــزَّيْتُــون قَــدْ يَنَعــا(٢)

وقيل في ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ أَنه جمع يانع مثل: تاجر وتجْر وراكب وركْب، ذكره الطبري. وقرأَ ابن محيصن، وقتادة والضحاك: [وَيُنْعِهِ] بضم الياءِ، أَي نضجه، وقرأَ ابن أَبي عبلة، واليماني: [وَيَانِعِهِ]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ﴾ إِيجاب تنبيه وتذكير، وتقدم تفسير مثله.

---

(١) لم نعثر على نسبة هذا الشعر لقائله فيما لدينا من المراجع.

(٢) قال في (اللسان) مادة (يَنَع): «وفي حديث خبّاب: ومنا من أينعت له ثمرته فهو يَهْدِبُها. أَيْنَعَ يُونِعُ ويَنَعَ يَيْنَع: أدرك ونضج، وأَيْنَع أكثر استعمالاً، وقرىء: وَيَنْعِهِ ويُنْعِهِ ويانِعِه، قال الشاعر»: وذكر البيت، ثم قال: «قال ابنُ بَرِّي: هو للأحوص، أَو يزيد بن معاوية، أو عبد الرحمن بن حسان، والْيَنْع: النُّضج، وفي التنزيل: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿ وَجَعَلُوا ﴾ بمعنىٰ: صيَّروا و﴿ الْجِنَّ ﴾ مفعول، و﴿ شُرَكَاءَ ﴾ مفعول ثان مقدم، ويصح أَن يكون قوله تعالىٰ: ﴿ شُرَكَاءَ ﴾ مفعولا أولاً، و﴿ لِلَّهِ ﴾ في موضع المفعول الثاني، و﴿ الْجِنَّ ﴾ بدل من قوله سبحانه: ﴿ شُرَكَاءَ ﴾. وهذه الآية مشيرة إلى العادلين بالله عزَّ وجلَّ، والقائلين إِن الجنَّ تعلم الغيب، العابدين للجِن، وكانت طوائف من العرب تفعل ذلك وتستجير بِجن الأَودية في أَسفارها، ونحو هذا.

وأَما الذين خرقوا البنين فاليهود في ذكر عزير، والنصارى في ذكرالمسيح، وأَما ذاكروا البنات فالعرب الذين قالوا للملائكة: بنات الله، فكأَن الضمير في ﴿ وَجَعَلُوا ﴾ و﴿ وَخَرَقُوا ﴾ لجميع الكفار، إِذ فعل بعضهم هذا وبعضهم هذا، وبنحو هذا فسَّر السدي وابن زيد، وقرأَ شعيب بن أَبي حمزة: [شُرَكَاءَ الْجِنِّ] بخفض النون، وقرأَ يزيد بن قطيب، وأَبو حيوةَ [الجِنِّ] و[الْجِنُّ] بالخفض والرفع على تقدير: هم الجن.

وقرأَ الجمهور: ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ بفتح اللام على معنى: وهو خَلَقهم، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «وهُو خَلَقهم»، والضمير في ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ يحتمل العودة على الجاعلين، ويحتملها على المجعولين، وقرأَ يحيى بن يعمر: [وخَلْقَهُمْ] بسكون اللام عطفاً على ﴿ الْجِنَّ ﴾ أَي: جعلوا خلقهم الذي ينحتونه أَصناماً شركاءَ الله.

وقرأَ السبعة سوى نافع: ﴿ وَخَرَقُوا ﴾ بتخفيف الراءِ، وهو بمعنى: اختلفوا وافتروا(١)، وقرأَ نافع: [وَخَرَّقُوا] بتشديد الراءِ على المبالغة، وقرأَ ابن عمر، وابن عباس رضي الله عنهما: [وَحَرَّفُوا] من التحريف، كذا قال أَبو الفتح، قال أَبو عمرو الداني: قرأَ ابن عباس: [حَرَفوا] خفيفة الراءِ، وابن عمر [حرَّفوا] مشددة الراءِ.

---

(١) قال الفراءُ: «يقال: خرَق الإِفك وخَلَقه واختلقه واختَرقه واقتلعه وافتراه وخرصه إذا ذب فيه».

وقوله تعالىٰ: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نص على قبح تقحُمهم المجهلة وافترائهم الباطل على عمىٰ، ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزّه عن وصفهم الفاسد المستحيل عليه تبارك وتعالىٰ. و﴿بَدِيعُ﴾ بمعنى: مبدع ومخترع وخالق، فهو بناءُ اسم فاعل كما جاءَ سميع بمعنى مسمع. و﴿أَنَّىٰ﴾ بمعنى: كيف؟ ومن أين؟ فهي استفهام في معنى التوقيف والتقرير.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿وَلَمْ تَكُن﴾ بالتاءِ على تأْنيث علامة الفعل، وقرأَ إِبراهيم النَّخعي بالياءِ على تذكيرها. وتذكير كان وأَخواتها مع تأْنيث اسمها أَسهل من ذلك في سائر الأَفعال، فقولك: «كان في الدار هند» أَسْوَغُ من: «قام في الدار هند»[١]، وحَسَّنَ القراءَةَ الفصل بالظرف الذي هو الخبر، ويتجه في القراءَة المذكورة أَن يكون في [يَكُنْ] ضمير اسم الله تبارك وتعالىٰ، وتكون الجملة التي هي ﴿لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ خبر كان، ويتجه أَن يكون في [يَكُنْ] ضمير أَمر وشأْن، وتكون الجملة بعد تفسيراً له وخبراً، وهذه الآية ردٌّ على الكفار بقياس الغائب على الشاهد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لفظ عام لكل ما يجوز أَن يدخل تحته، ولا يجوز أَن يدخل تحته صفات الله تعالىٰ وكلامه، فليس هو عموماً مخصصاً على ما ذهب إِليه قوم، لأَن العموم المخصص هو أَن يتناول العموم شيئاً ثم يخرجه التخصيص، وهذا لم يتناول قط هذه التي ذكرناها، وإِنما هو بمنزلة قول الإِنسان: «قتلت كلَّ فارس وأَفحَمْت كلَّ خصم»، فلم يدخل القائل قط في هذا العموم الظاهر من لفظه[٢]، وأَما قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهذا عموم على الإِطلاق لأَن الله عزَّ وجلَّ يعلم كل شيء لا ربَّ غيره ولا معبود سواه.

ولما تقررت الحُجَجُ وبانت الوحدانية جاءَ قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الآية، تتضمن تقريراً وحكماً إِخلاصاً وأَمراً بالعبادة، وإِعلاماً بأَنه حفيظ رقيب على كل فعل وقول، وفي هذا الإِعلام تخويف وتحذير.

---

(١) علّق على ذلك أبو حيان في «البحر ٤ـ ١٩٤» فقال: «ولا أعرفُ هذا عن النحويين، ولم يفرقوا بين كان وغيرها».

(٢) صرح القرطبي بأَنَّهُ عموم معناه الخصوص، وقال: «ومثله ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وَلَم تَسَع إِبْليس ولا من مات كافراً، ومثله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ولم تُدَمِّر السموات والأرض».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

أَجمع أَهل السُّنَّة على أَن الله تبارك وتعالى يُرَى يوم القيامة، يراه المؤمنون، قاله ابن وهب عن مالك بن أَنس رضي الله عنه، والوجه أَن يبين جواز ذلك عقلاً ثم يسند إِلى ورود السمع بوقوع ذلك الجائز، واختصار تَبْيين ذلك أَن يُعتبر بعلمنا بالله عزَّ وجلَّ، فمن حيث جاز أَن نعلمه لا في مكان ولا متميزاً ولا متقابلاً ولم يتعلق علمنا بأَكثر من الوجود، جاز أَن نراه غير مقابل ولا محاذى ولا مكيفاً ولا محدوداً، وكان الإِمام أَبو عبد الله النحوي يقول: مسأَلة العلم حَلَقَت لِحَى المعتزلة، ثم ورد الشرع بذلك وهو قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وتعدية النظر بإِلى إنما هو في كلام العرب لمعنىٰ الرؤية لا معنى الانتظار على ما ذهب إِليه المعتزلة، وذكر هذا المذهب لمالك فقال: «فأَين هم عن قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾»؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فقال بدليل الخطاب[1]. ذكره النقاش، ومنه قول النبي ﷺ فيما صحَّ عنه وتواتر وكثر نقله: (إِنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر)[2]، ونحوه من الأَحاديث على اختلاف ترتيب أَلفاظها.

---

(١) يرى الإمام مالك رضي الله عنه أَن المؤمنين يرونه سبحانه وتعالىٰ من جهة دليل الخطاب، قال: وإلا فلو حجب الكلَّ لما أغنى هذا التخصيص، وقال الإمام الشافعي: لما حجب سبحانه قوماً بالسخط دلَّ ذلك على أن قوماً يرونه بالرضا. (راجع الألوسي). وفي ابن كثير: «وقال تبارك وتعالىٰ عن الكافرين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾، قال الإمام الشافعي: فدلَّ هذا على أن المؤمنين لا يُحجبون عنه تبارك وتعالىٰ».

(٢) قال ابن كثير في تفسيره: «ثبتت رؤْية المؤمنين لله عز وجلَّ في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها لحديث أبي سعيد وأبي هريرة وهما في الصحيحين أن ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟ قالوا: لا. قال: إنكم ترون ربكم كذلك». وروى البخاري في صحيحه «إنكم سترون ربكم عياناً». وفي الصحيحين عن جرير قال: (نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة القدر فقال: إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر. فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا).

وذهبت المعتزلة إلى المنع من جواز رؤية الله تعالىٰ يوم القيامة، واستحالة ذلك بآراءٍ مجردة، وتمسكوا بقوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وانفصل أهل السنة عن تمسكهم بأن الآية مخصوصة في الدنيا، ورؤية الآخرة ثابتة بأخبارها. وانفصال آخر وهو أن يفرق بين معنى الإدراك ومعنىٰ الرؤية. ونقول[1]: إنه عزَّ وجلَّ تراه الأبصار ولا تدركه وذلك أن الإدراك يتضمن الإحاطة بالشيءِ والوصول إلى أعماقه وحوزه من جميع جهاته، وذلك كله محال في أوصاف الله عزَّ وجلَّ، والرؤية لا تفتقر إلى أن يحيط الرائي بالمرئي ويبلغ غايته، وعلى هذا التأويل يترتب العكس في قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ ويحسن معناه. ومثل هذا روي عن ابن عباس، وقتادة، وعطية العوفي، فرقوا بين الرؤية والإدراك. وأما الطبري رحمه الله ففرق بين الرؤية والإدراك، واحتج بقول بني إسرائيل: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[2] فقال: إنهم رأوهم ولم يدركوهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله خطأٌ لأن هذا الإدراك ليس بإدراك البصر، بل هو مستعار منه أو باشتراك. قال: وقال بعضهم: إن المؤمنين يرون الله تبارك وتعالىٰ بحاسة سادسة تُخلق يوم القيامة، وتبقى هذه الآية في منع الإدراك بالأبصار عامة سليمة، قال: وقال بعضهم: إن هذه الآية مخصوصة في الكافرين، أي أنه لا تدركه أبصارهم لأنهم محجوبون عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الأقوال كلها ضعيفة ودعاوى لا تستند إلى قرآن ولا حديث.

و﴿ٱللَّطِيفُ﴾ المتَلَطِّف في خلقه واختراعه وإتقانه، وبخلقه وعباده. و﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ المختبر لباطن أمورهم وظاهرها.

والبصائر: جمع بصيرة وهي ما يتفق عن تحصيل العقل للأشياءِ المنظور فيها بالاعتبار، فكأنه قال: قد جاءكم في القرآن والآيات طرائق إبصار الحق والمعنية عليه.

---

(١) تعبيره بكلمة (نقول) تدل على أنه من أهل السُّنة وتدحض دعوى من قال: إنه من المعتزلة أو يميل إلى آرائهم ـ وقد وضحنا هذه القضية في المقدمة.

(٢) من الآية (٦١) من سورة (الشعراء).

والبصيرة للقلب مستعارة من إبصار العين، والبصيرة أيضاً هي المُعْتقد المُحَصَّل في قول الشاعر:

راحـوا بَصَـائـرَهـم علـى أَكْتَـافِهِـمْ   وبصيـرتـي يعـدو بهـا عَتَـدٌ وَآي[١]

وقال بعض الناس في هذا البيت: البصيرة: طريقة الدم، والشاعر إنما يصف جماعة مَشَوْا به في طلب دم ففتروا فجعلوا الأَمر وراءَ ظهورهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ عبارة مستعارة فيمن اهتدىٰ ومن ضلَّ، وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ كان في أَول الأَمر وقبل ظهور الإِسلام، ثم بعد ذلك كان رسول الله ﷺ حفيظاً على العالم آخذاً لهم بالإِسلام والسيف.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ الآية. الكاف في قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ في موضع نصب بـ ﴿نُصَرِّفُ﴾، أَي: ومثل ما بيَّنَّا البصائر وغير ذلك نصرف الآيات، أَي نرددها ونوضحها، وقرأَت طائفة: [وَلْيَقولُوا دَرَسْتَ] بسكون اللام على جهة الأَمر، ويتضمن التوبيخ والوعيد. وقرأَ الجمهور: ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ بكسر اللام على أَنها لام كي، وهي ـ على هذا ـ لام الصيرورة كقوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[٢]، أَي: لمَّا صار أَمرهم إِلى ذلك. وقرأَ نافع، وعاصم وحمزة، والكسائي: ﴿دَرَسْتَ﴾ أي يا محمد درست في الكتب القديمة ما تُجيبنا به، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [دارسْتَ] أَي أَنت يا محمد دارست غيرك في هذه الأَشياءِ، أَي: قارأته وناظرته، وهي إِشارة منهم إِلى سلمان وغيره من الأَعاجم واليهود، وقرأَ ابن عامر وجماعة من غير السبعة: [دَرَسَتْ][٣] بإِسناد الفعل إِلى الآيات كأَنهم أَشاروا إِلى أَنها ترددت على أَسماعهم حتى بليت في نفوسهم وامّحت، قال أَبو علي: واللام في ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ ـ على هذه القراءَة بمعنى: لئلا يقولوا، أَي: صرفت

(١) هذا البيت للأسعر الجعفي، والذي في «القرطبي»: و«جاءوا بصائرهم». والعَتَدُ (بفتح التاءِ وكسرها) الفرس التَّام الخَلْق السريع الوثبة المعد للجري ليس فيه اضطراب ولا رخاوة، والوَآي (بواو مفتوحة بعدها مدٌّ) هو الفرس السريع المقتدر الخلق. يقول إنهم تركوا دم أبيهم وجعلوه خلفهم، أي: لم يثأروا له وأنا طلبت ثأري.

(٢) من الآية (٨) من سورة (القصص).

(٣) بفتح السين وإسكان التاءِ من غير ألف على وزن خَرَجَتْ وذَهَبَتْ.

الآيات وأُحكمت لئلا يقولوا: هذه أَساطير قديمة قد بليت وتكررت على الأَسماع، واللام في سائر القراءَات لام الصيرورة. وقرأَت فرقة: [دَارَسَتْ] كأَنهم أرادوا: دارسَتْكَ يا محمد، أَي الجماعة المشار إِليها قبلُ من سلمان واليهود وغيرهم، وقرأَت فرقة: [دَرُسَت] بضم الراءِ، وكأَنها في معنىٰ [دَرَسَتْ] أَي بَلِيَتْ[1]، وقرأَ قتادة: [دُرِسَتْ] بضم الدال وكسر الراءِ، وهي قراءَة ابن عباس بخلاف عنه، ورويت عن الحسن، قال أَبو الفتح: في [دُرِست] ضمير ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾، ويحتمل أَن يراد: عفيت وتنوسيت، وقرأَ أُبي بن كعب: [دَرَسَ] وهي في مصحف عبد الله، قال المهدوي: وفي بعض مصاحف عبد الله [دَرَسْنَ][2]، ورويت عن الحسن، وقرأَت فرقة [دَرَّسْنَ] بتشديد الراءِ على المبالغة في (دَرَسْنَ)، وهذه الثلاثة الأَخيرة مخالفة لخط المصحف.

واللام في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِيَقُولُوا۟﴾ وفي قوله سبحانه: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ متعلقان بفعل متأَخر تقديره: صرفناها، وقرأَ أُبي بن كعب، وابن مسعود: [وَلِتُبَيِّنَهُ] بالتاءِ على مخاطبة النبي ﷺ، وقرأَت فرقة: [وَلِيُبَيِّنَهُ] بياءٍ أَي الله تعالىٰ: وذهب بعض الكوفيين إِلى أَن (لا) مضمرة بعد (أَن) المقدرة في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِيَقُولُوا۟﴾، فتقدير الكلام عندهم: «وأَن لا يقولوا»، كما أَضمروها في قوله تعالىٰ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾[3].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قلق، ولا يجيز البصريون إِضمار (لا) في موضع من المواضع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

هذان أَمران للنبي ﷺ مُضَمَّنهما الاقتصار على اتباع الوحي وموادعة الكفار، وذلك كان في أَول الإِسلام، ثم نسخ الإِعراض عنهم بالقتال والسوق إِلى الدين طوعاً أَو كرهاً.

---

(١) حكى هذه القراءَة الأَخفش، وهي بمعنى (دَرَسَتْ) ولكنها أبلغ.

(٢) مبنية للفاعل مسندة إلى النون.

(٣) من الآية (١٧٦) من سورة (النساء).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ في ظاهرها ردٌّ على المعتزلة القائلين: إنه ليس عند الله لطف يؤمن به الكافر، وأن الكافر والإنسان في الجملة يخلق أفعاله، وهي متضمنة أن إشراكهم وغيره وقف على مشيئة الله عزَّ وجلَّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ كان في أول الإسلام، وكذلك ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية. مخاطبة للمؤمنين وللنبي ﷺ، وقال ابن عباس: وسببها أن كُفَّار قريش قالوا لأبي طالب: إما أن ينتهي محمد وأصحابه عن سبِّ آلهتنا والغض منها وإما أن نسُبَّ إلٰهه ونهجوه فنزلت الآية، وحُكمها على كل حال باق في الأُمة، فمتى كان الكافر في منعة وخيف أن يسب الإسلام أو النبي ﷺ أو الله عزَّ وجلَّ فلا يحل للمسلم أن يسب دينهم ولا صلبانهم ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك أو نحوه[1]، وعبَّر عن الأصنام ـ وهي لا تعقل ـ بـ ﴿الَّذِينَ﴾ وذلك على معتقد الكفرة فيها، وفي هذه الآية ضرب من الموادعة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿عَدْوًا﴾ بفتح العين وسكون الدال نصب على المصدر، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وأبو رجاءٍ، وقتادة، ويعقوب، وسلام، وعبد الله بن زيد: [عُدُوًّا] بضم العين والدال وتشديد الواو، وهذا أيضاً نصب على المصدر وهو من الاعتداءِ، وقرأ بعض الكوفيين: [عَدُوًّا] بفتح العين وضم الدال ونصب على الحال، أي في حال عداوة الله، وهو لفظٌ مفرد يدل على الجمع[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بيان لمعنى الاعتداء المتقدم.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ إشارة إلى ما زيَّن الله لهؤلاءِ عَبَدَة الأصنام من التمسك بها والذَّبِّ عنها، وتزيين الله عمل الأمم هوما يخلقه ويخترعه في النفوس من المحبة للخير أو الشر والاتباع لطرقه، وتزيين الشيطان هو ما يقذفه في النفوس من الوسوسة وخطرات السوءِ، وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم﴾ يتضمن وعداً جميلاً للمحسنين ووعيداً ثقيلاً للمسيئين.

---

(١) قال العلماءُ: لأن ذلك بمنزلة البعث على المعصية والتوجيه إلى فعلها.

(٢) ومثله في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾، وقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَقْسَمُوا ﴾ عائد على المشركين المتقدم ذكرهم، و﴿ جَهْدَ ﴾ نصب على المصدر، والعامل في ﴿ وَأَقْسَمُوا ﴾ على مذهب سيبويه لأنه في معناه، وعلى مذهب أبي العباس المبرّد فعلٌ من لفظه. واللام في قوله تعالىٰ: ﴿ لَئِن ﴾ لام موطئة للقسم مؤذنة به، وأما اللام المتلقية للقسم فهي في قوله سبحانه: ﴿ لَّيُؤْمِنُنَّ ﴾. و﴿ آيَةٌ ﴾ يريد: علامة.

وحكي أن الكفار لما نزلت: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾[1] أقسموا حينئذ أنها إن نزلت آمنوا فنزلت هذه الآية، وحكي أنهم اقترحوا أن يعود الصفا ذهباً، وأقسموا على ذلك، فقام رسول الله ﷺ يدعو في ذلك، فجاءَه جبريل عليه السلام فقال له: إن شِئْتَ أَصْبَحَ ذَهباً فإن لم يؤمنوا هلكوا عن آخرهم معاجَلة كما فعل بالأُمم إذ لم تؤمن بالآيات المقترحة، وإن شئت أُخروا حتى يتوب تائبهم، فقال رسول الله ﷺ: «بل حتَّى يتوب تائبهم» ونزلت هذه الآية[2]. وقرأ ابن مصرف: [لَيُؤْمَنَنْ] بفتح الميم والنون وبالنون الخفيفة.

ثم قال تعالىٰ: قل لهم يا محمد على جهة الردّ والتغطية إنما الآيات بيد الله وعنده، وليست عندي فتقترح علي، ثم قال سبحانه: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾، فاختلف المتأَولون فيمن المخاطب بقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾؟ ومن المستفهم بـ ﴿ وَمَا ﴾ التي يعود عليها

---

(١) الآية (٤) من سورة الشعراء.

(٢) أخرجه ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي، ولفظه كما جاء في (الدر المنثور ٣ـ ٣٩): «كلم رسول الله ﷺ قريشاً، فقالوا: يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصاً يضرب بها الحجر، وأن عيسى كان يحيي الموتىٰ، وأن ثمود كانت لهم ناقة، فأتنا من الآيات حتى نصدقك، فقال رسول الله ﷺ، أي شيءٍ تحبون أن آتيكم به.؟ قالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً، قال: فإن فعلت ذلك تصدقوني؟ قالوا: نعم، والله لو فعلتَ ذلك لنتبعنَّك أجمعون، فقام رسول الله ﷺ يدعو.. الخ الحديث كما أثبت بقيته ابن عطية». (وهكذا أيضاً نقله ابن كثير عن ابن جرير).

الضمير الفاعل في ﴿يُشۡعِرُكُمۡ﴾ ـ فقال مجاهد، وابن زيد: المخاطب بذلك الكفار، وقال الفراءُ وغيره: المخاطب بها المؤمنون، ﴿وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ﴾ معناه: وما يعلمكم؟ وما يدريكم؟ وقرأ قوم: [يُشْعِرْكم] بسكون الراءِ، وهي على التخفيف، وَيُحَسِّنُهَا أن الخروج من كسرة إلى ضمة.

وقرأ ابن كثير، وأَبو عمرو، وعاصم في رواية داود الإِيادي: [إِنَّهَا] بكسر الأَلف على القطع واستئناف الإِخبار، فمن قرأَ: [تُؤْمِنُونَ] بالتاءِ ـ وهي قراءَة ابن عامر وحمزة ـ استقامت له المخاطبة أَولاً وآخراً للكفار، ومن قرأَ: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ بالياءِ ـ وهي قراءَة ابن كثير، ونافع، وأَبي عمرو، والكسائي ـ فيحتمل أَن يخاطب أَولاً وآخراً المؤمنين، ويحتمل أَن يخاطب بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ﴾ الكفار، ثم يستأْنف عنهم للمؤمنين، ومفعول ﴿يُشۡعِرُكُمۡ﴾ الثاني محذوف ويختلف تقديره بحسب كل تأْويل. وقرأَ نافع، وعاصم في رواية حفص، وحمزة، والكسائي، وابن عامر: ﴿أَنَّهَآ﴾ بفتح الأَلف، فمنهم من جعلها (أَنَّ) التي تدخل على الجُمل وتأْتي بعد الأَفعال ـ كعلمت وظننت ـ وأَعمل فيها ﴿يُشۡعِرُكُمۡ﴾، والتزم بعضهم أَن ﴿لَا﴾ زائدة في قوله سبحانه: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وأَن معنى الكلام: «وَمَا يُشْعركم أَنها إِذا جاءَت يؤْمنون أَو تؤْمنون». فزيدت ﴿لَا﴾ كما زيدت في قوله تعالىٰ ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾[1]، لأَن المعنى: وحرام على قرية مُهْلَكَة رجوعهم، وكما جاءَت في قول الشاعر:

أَبَى جُودُهُ لا الْبُخْلَ واسْتَعْجلتْ بِهِ ... نَعَمْ مِنْ فَتىً لا يَمْنَعُ الْجُودَ قَاتِلَهْ[2]

قال الزجاج: أَراد: أَبى جودُهُ البُخْلَ، وكما جاءَت زائدة في قول الشاعر:

(١) الآية (٩٥) من سورة (الأنبياء).

(٢) البيت في (اللسان) غير منسوب، ولكن قال: أنشده الفارسيُّ، وفيه: «لا يَمْنَع الجوعَ» وقال معلقه: «هكذا في الأصل والصحاح، وفي المحكم: الجوس، والجوس هو الجوع» ـ وجاء في (اللسان): «يُروى بنصب البخل وبجَرِّه، فمن نصبه فعلى ضربين: أحدهما أن يكون بدلاً من (لا) لأن (لا) موضوعها للبخل، فكأنه قال: أبى جوده البخل، والثاني أن تكون (لا) زائدة، والأول أعني البدل أحسن، ومن جرَّه فقال: لا البخلِ فبإضافة (لا) إليه. والبيت أيضاً في مغني اللبيب، وكتب معلّقه (الدسوقي) ما نَصُّه: «قوله: لا يمنع الجودَ قاتله. فاعل يمنع عائد على الممدوح، والجود مفعول ثان، وقاتله مفعول أول، ويحتمل أن الجود فاعل يمنع، أي جوده لا يحرم قاتله، فإذا أراد إنسان قتله فجوده لا يحرم ذلك الشخص بل يصله».

أَفِمنْـكَ لا بَـرْقٌ كَـأَنَّ وَميضَـهُ غـابٌ تَسَنَّمَـهُ ضِـرامٌ مثقـبِ(١)

ودعا إلى التزام هذا حفظ المعنى، لأَنها لو لم تكن زائدة لعاد الكلام عذراً للكفار وفسد المراد بالآية، وضعَّف الزجاج وغيره زيادة ﴿لَا﴾ وقال: هذا غلط، ومنهم من جعل ﴿أَنَّهَآ﴾ بمعنى (لعلَّها)، وحكاها سيبويه عن الخليل، وهو تأويل لا يحتاج معه إلى تقدير زيادة ﴿لَا﴾، وحكى الكسائي أنه كذلك في مصحف أُبي بن كعب: «وما أدراكم لعلَّها إذا جاءَت لا يؤمنون»، ومن هذا المعنىٰ قول الشاعر:

قُلْـتُ لِشَيْبَـانَ ادْنُ مِـنْ لِقَـائِـهْ أَنَّ تُغـذِّي الْقَـوْمَ مِـن شِـوَائِـهْ(٢)

فهذِه كلها بمعنى (لعلَّ)، وضعف أَبو علي هذا بأَن التوقع الذي فيه لا يناسب الآية بعد التي حكمت بأَنهم لا يؤمنون، وترجَّح عنده في الآية أَن تكون (أَنَّ) على بابها، وأَن يكون المعنىٰ: «قل إنما الآيات عند الله لأَنها إِذا جاءَت لا يؤمنون». فهو لا يأْتي بها لإِصرارهم على كفرهم، وتكون الآية نظير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾(٣) أي بالآيات المقترحة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويترتب على هذا التأْويل أَن تكون ﴿وَمَا﴾ نافية، ذكر ذلك أَبو علي فتأَمل. وترجَّح عنده أَيضاً أَن تكون ﴿لَا﴾ زائدة، وبسط شواهده في ذلك، وحكى بعض المفسرين أَن في آخر الآية حذفاً يستغنى به عن زيادة ﴿لَا﴾، وعن تأْويلها بمعنىٰ (لَعَلَّ) وتقديره عندهم: أَنها إِذا جاءَت لا يؤمنون أَو يؤمنون.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف لا يعضده لفظ الآية ولا يقتضيه.

---

(١) هذا البيت لساعدة الهذلي. قال الأَصحفي: يريد: أَمِنْك برقٌ؟ وتسنَّمه: عَلاه، والضِّرام: ما اشتعل من الحطب، والمثقب: المضيءُ، وتثقيب النار: تذكيتها وتأْجيجها.

(٢) نسبه في «القرطبي» لأَبي النجم، ومثله قول حاتم طيء ـ وقيل: دُريد بن الصِّمَّة:

أَرينـي جـواداً مـاتَ هُـزْلاً لأَنَّنـي أرى مـا تَـرَيْـنَ أَو بَخيـلاً مُخَلَّـدَا

وقول عديٍّ بن زيد:

أَعَـاذِلَ مـا يُـدْريـكَ أَنَّ مَنِيَّتـي إِلى ساعةٍ في الْيَوْم أَوْ في ضُحى الْغَدَ

وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾.

(٣) من الآية (٥٩) من سورة (الإِسراءِ).

وتحتمل الآية أَن يكون المعنى يتضمن الإخبار أَنهم لا يؤمنون وقيل لهم: وما يشعركم بهذه الحقيقة؟ أي: لا سبيل إلى شعوركم بها وهي حق في نفسها وهم لا يؤمنون أَن لو جاءَت، و﴿وَمَا﴾ استفهام على هذا التأويل، وفي مصحف ابن مسعود: «ومَا يُشعِرُكُم إِذا جَاءَت لاَ يُؤْمِنُونَ».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾. المعنى على ما قالت فرقة: ونقلب أَفئدتهم وأَبصارهم في النار وفي لهيبها في الآخرة لما لم يؤمنوا في الدنيا، ثم استأْنف على هذا: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ في الدنيا ﴿فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1]. وقالت فرقة: إِنما المراد بالتقليب التحويل عن الحق والهدى والترك في الضلالة والكفر. ومعنى الآية: إِنَّ هؤلاء الذين أَقسموا أَنهم يؤمنون إِنْ جاءَت آيةٌ نحنُ نقلب أَفئدتهم وأَبصارهم أَنْ لو جاءَت فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا أَول مرة بما دُعوا إِليه من عبادة الله، فأَخبر الله تعالىٰ ـ على هذا التأْويل ـ بصورة فعله بهم[2].

وقرأَ أَبو رجاءٍ: [يَذَرُهُم] بالياءِ، ورويت عن عاصم، وقرأَ إِبراهيم النَّخعي: [وَيُقَلِّبُ] [وَيَذَرُهُمْ] بالياءِ فيها كناية عن الله تبارك وتعالىٰ. وقرأَ أَيضاً فيما روى عنه مغيرة: [وَتَقَلَّبُ] بفتح التاءِ واللام، بمعنىٰ: «وَتَتَقَلَّب أَفئدتُهم وأَبصارُهم» بالرفع فيهما[3]، [وَيَذَرْهم] بالياءِ وجزم الراءِ.

وقالت فرقة: قوله تعالىٰ: ﴿كَمَا﴾ في هذه الآية إِنما بمعنى المجازاة، أَي: لمَّا لم يؤمنوا أَول مرة نجازيهم بأَن نقلب أَفئدتهم عن الهدى ونطبع على قلوبهم، فكأَنه سبحانه قال: ونحن نقلب أَفئدتهم وأَبصارهم جزاءً لمَّا لم يؤمنوا أَول مرة بما دعوا إِليه من الشرع.

---

(١) وعلى هذا التأويل يكون بعض الآية في الآخرة، وبعضها في الدنيا، ونظيرها ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ﴾ فهذا في الآخرة: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ وهذا في الدنيا.

(٢) فهذا كله إِخبارٌ من الله تعالىٰ بفعله بهم في الدنيا، ونظير الآية على هذا المعنى قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾، ويؤكد هذا المعنىٰ آخر الآية وهو قوله سبحانه: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. بمعنى: ونتركهم في تخبطهم في الشرّ والإِفراط فيه يتحيرون.

(٣) نقل أَبو حيان رواية مغيرة عن النَّخعي: ﴿وَتُقَلَّبُ أَفْئِدَتُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ﴾ بالرفع على البناءِ للمفعول لا على معنىٰ وتَتَقَلَّب. فتأمل.

والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يحتمل أَن يعود على الله عزَّ وجلَّ، أَو على القرآن، أَو على النبي عليه الصلاة والسلام، ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ معناه: نتركهم. وقرأَ الأَعمش، والهمذاني: [وَيَذَرْهُم] بالياءِ وجزم الراءِ على وجه التخفيف.

والطغيان: التخبط في الشَّرِّ والإِفراط فيما يتناوله المرءُ. والْعَمَىٰ: التردد والحيرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

أَخبر الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية أنه لو أَتى بجميع ما اقترحوه من إِنزال الملائكة، وإِحياءِ سلفهم حسبما كان من اقتراح بعضهم أَن يحشر قصي وغيره، فيخبر بصدق محمد، أَو يجمع عليهم كل شيءٍ يعقل أَن يحشر عليهم ـ ما آمنوا إِلا بالمشيئة واللطف الذي يخلقه الله ويخترعه في نفس من شاءَ لا ربَّ غيره، وهذا يتضمن الردّ على المعتزلة في قولهم بالآيات التي تضطر الكفار إِلى الإِيمان(١).

وقال ابن جُريج: نزلت هذه الآية في المستهزئين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا لا يثبت إِلا بسند.

وقرأَ نافع، وابن عامر، وغيرهما: [قِبَلاً] بكسر القاف وفتح الباءِ، ومعناه: مواجهة ومعاينة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره. ونصبه على الحال، وقال المبرد: المعنى: ناحية، كما تقول: لي قِبَلَ فلان ديْن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فنصبه ـ على هذا ـ هو على الظرف، وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي، وغيرهم: ﴿قُبُلًا﴾ بضم القاف والباءِ، وكذلك قرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو هنا، وقرأ: [العذاب

---

(١) وهكذا يؤكد ابن عطية رحمه الله أنه يخالف المعتزلة في آرائهم خلافاً لما يدَّعيه بعض المحدثين، راجع المقدمة.

قبلاً][(١)] مكسورة القاف. واختلف في معناه. فقال عبد الله بن زيد، ومجاهد، وابن زيد: قُبُل: جمع قبيل، أَي: صنعا صنعا ونوعا نوعا، كما يجمع قضيب على قضب وغيره. وقال الفراءُ والزجاج: هو جمع قبيل وهو الكفيل، أَي: وحشرنَا عليهم كل شيءٍ كفلاءَ بصدق محمد ﷺ، وذكره الفارسي وضعَّفه. وقال بعضهم: قُبل بالضم بمعنى قِبل بكسر القاف أَي: مواجهة كما تقول: قبل ودبر، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾[(٢)]، ومنه قراءَة ابن عمر رضي الله عنهما: [لِقُبُلِ عِدَّتِهِنَّ][(٣)] أَي لاستقبالها ومواجهتها في الزمن. وقرأَ الحسن، وأَبو رجاءٍ، وأَبو حيوة: [قُبْلاً] بضم القاف وسكون الباءِ وذلك على جهة التخفيف. وقرأَ طلحة بن مصرف: [قَبْلاً] بفتح القاف وإِسكان الباءِ. وقرأَ أُبي، والأَعمش: [قَبيلاً] بفتح القاف وكسر الباءِ وزيادة ياءٍ. والنصب في هذا كله على الحال.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ الضمير عائد على الكفار المتقدم ذكرهم، والمعنىٰ: يجهلون أَن الآية تقتضي إِيمانهم ولابد، فيقتضي اللفظ أَن الأَقل لا يجهل، فكان فيهم من يعتقد أَن الآية لو جاءَت لم يؤمن إِلا أَن يشاءَ الله له ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ الآية. تتضمن تسلية النبي ﷺ وعرض القدوة عليه، أَي أَن هذا الذي امتُحنْت به يا محمد من الأَعداءِ قد امتحن به غيرك من الأَنبياءِ ليبتلي اللهُ أُولي العزم منهم. و﴿عَدُوًّا﴾ مفرد في معنى الجمع، ونصبه على المفعول الأَول لـ ﴿جَعَلْنَا﴾، والمعفول الثاني في قوله: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ و﴿شَيَاطِينَ﴾ بدل من قوله سبحانه: ﴿عَدُوًّا﴾، ويصح أَن يكون المفعول الأَول ﴿شَيَاطِينَ﴾ والثاني ﴿عَدُوًّا﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ يريد به المتمردين من النوعين، الذين[(٤)] هم

(١) من الآية (٥٥) من سورة (الكهف) وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾.

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٢٦) من سورة (يوسف): ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

(٣) من الآية (١) من سورة (الطلاق). وهي قراءَة شاذة، ونص الآية في القراءَة المتواترة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾. إلى آخر الآية.

(٤) كلمة (الذين) بالجمع صفة لكلمة (المتمردين) قبلها.

من شيم السوءِ كالشياطين، وهذا قول جماعة من المفسرين، ويؤيده حديث أَبي ذرّ رضي الله عنه أَنه صلىٰ يوماً فقال له رسول الله ﷺ: (تعوَّذ يا أَبا ذرٍّ من شياطين الجن والإِنس)، قال: وإِنَّ من الإِنس لشياطين؟ قال: (نعم)[1]، وقال السدي، وعكرمة: المراد بالشياطين الموكلون بالإِنس والشياطين الموكلون بمؤمني الجن، وزعما أَن للجن شياطين موكلين بغوايتهم، وأَنهم يوحون إِلى شياطين الإِنس بالشَّر والوسوسة يتعلمها بعضهم من بعض، قالا: ولا شياطين من الإِنس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول لا يستند إِلى خبر ولا إِلى نظر.

و﴿ يُوحِى ﴾ معناه: يلقيه في إِخفاءٍ كالمناجاة والسّرار و﴿ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ ﴾ معناه: مُحَسَّنه ومُزَيَّنه بالأَباطيل، قاله عكرمة ومجاهد. والزخرفة أَكثر ذلك إِنما تستعمل في الشر والباطل. و﴿ غُرُورًا ﴾ نصب على المصدر، ومعناه أَنهم يغرون به المضللين، ويوهمون لهم أَنهم على شيءٍ والأَمر بخلاف، والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿ فَعَلُوهُ ﴾ عائد على اعتقادهم العداوة، ويحتمل على الوحي الذي تضمنته ﴿ يُوحِى ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ لفظ يتضمن الأَمر بالموادعة منسوخ بآيات القتال، قال قتادة: كل (ذَرْ) في كتاب الله فهو منسوخ بالقتال، و﴿ يَفْتَرُونَ ﴾ معناه: يختلفون ويشتقون وهو من الفُرقة تشبيهاً بفَرْي الأَديم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ ﴾ معناه: لِتَميل، يقال: صغَى يصْغىَ، وأَصلها يصغي بكسر الغين لكن ردَّه حرف الحلق إِلى الفتح، ويقال: صغا يصغو، وأَصغىٰ يصغي، وصغِيَ يصْغَى.

(١) الحديث في ابن كثير برواية عبد الرزاق عن قتادة، ورواية الإمام أحمد عن عبيد بن الحسيحاس، ورواية ابن جرير عن عوف بن مالك عن أَبي ذرٍّ، وروي أَيضاً من طرق أُخرىٰ ذكرها في (الدر المنثور ٣ ـ ٣٩).

و﴿ أَفْـِٔدَةُ ﴾ جمع فؤاد، ويقترفون معناه: يواقعون ويجترحون وهي مستعملة أكثر ذلك في الشر والذنوب ونحوه.

والقُرَّاءُ على كسر اللام في الثلاثة الأفعال على أنها لام كي، فإما أن تكون معطوفة على ﴿ غُرُورًا ﴾ وإما أن تكون متعلقة بفعل مؤخر تقديره: فعلوا ذلك، أو جعلنا ذلك، فهي لام صيرورة، قاله الزجاج. ولا يحتمل أن تكون هذه اللامات ـ على هذه القراءَة ـ لام الأمر وضمنها الوعيد وتبقىٰ الياءُ في ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ ﴾ على نحو ما جاءَ من ذلك في قول الشاعر:

أَلَـــمْ يَـــأتِيـــكَ . . . .؟[1]

إلى غير ذلك مما قد قرىء به، قال أبو الفتح: قرأها الحسن بالتسكين في الثلاثة، وهي لام كي، وهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿ غُرُورًا ﴾، والتقدير: لأجل الغرور ولتصغى، وإسكان هذه اللام شاذٌّ في الاستعمال قويٌّ في القياس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويظهر أن تُحمل قراءَة الحسن بسكون اللامات الثلاثة على أنها لام الأمر المضمن الوعيد والتهديد، والخط على هذه القراءَة [ولْتصْغَ]. ذكر أبو عمرو الداني أن تسكينه في اللامات الثلاثة، وكذلك قال أبو الفتح وذكر أن الحسن إنما يسكن اللامين الثانية والثالثة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذلك يخالف خط المصحف في ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ ﴾.

وقال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويتحصل أن تسكن اللام في ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ ﴾ على ما ذكرناه في قراءَة الجماعة. قال أبو

---

(١) البيت بتمامه. وهو:

أَلَـــمْ يَـــأتِيـــكَ والأَنْبَـــاءُ تَنْمِـــي ... بمـــا لاقَـــتْ لَبُـــونَ بنـــي زيـــادِ؟

ومعنى كلامه أن اللام في ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ وفي ﴿ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ ﴾ يمكن أن تكون لام الأمر مضمنة الوعيد والتهديد، ولكن ذلك بعيد الاحتمال في ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ ﴾ وإن كان ذلك قد جاءَ في الكلام كبيت الشعر، وكقراءَة قنبل: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يتقي وَيَصْبِرْ ﴾. وقال بعضهم هي في (لِتَصْغَىٰ) لام (كي) وسكنت شذوذاً في قراءَة الحسن، وفي الفعلين الثاني والثالث هي لام الأمر مضمناً التهديد والوعيد بدون شذوذ.

عمرو: وقراءَة الحَسَن إنما هي: [لِتَصغِي] بكسر الغين، وقراءَة إبراهيم النَّخَعي [لِتُصْغِي] بضم التاءِ وكسر الغين من: أَصْغَى يُصغي، وكذلك قرأَ الجراح بن عبد الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ﴾ نصب بـ ﴿أَبْتَغِى﴾ و﴿حَكَمًا﴾ نصب على البيان والتمييز[1]. و﴿مُفَصَّلًا﴾ معناه: مُزال الإشكال قد فصلت آياته. وهذه الآية ـ وإن كان معناها يعُمّ في أن الله لا يبتغي سواه حَكَماً في كل شيءٍ وفي كل قضية ـ فإنا نحتاج في وصف الكلام واتِّساق المعاني أن ننظر فيما تقدم إلى قضية تكون سبباً إلى قوله تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾؟ فهي ـ والله أعلم ـ حُكْمه عليهم بأَنهم لا يؤمنون ولو بعث إليهم كل الآيات، وحكمه بأَن جعل للأَنبياءِ أَعداءَ من الجن والإنس. و﴿حَكَمًا﴾ أَبلغ من (حاكم) إذ هي صيغة لِلْعَدْلِ من الحكّام، و(الحاكم) جارٍ على الفعل، فقد يقال للجائر. و﴿حَكَمًا﴾ نصب على البيان أَو الحال.

وبهذه الآية خاصمت الخوارج علياً رضي الله عنه في تكفيره بالتحكيم، لا حُجَّة لها لأَن الله تعالىٰ حكَّم في الصَّيد، وبيْن الزوجيْن، فتحكيم المؤمنين من حُكْمه تبارك وتعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ يتضمن الاستشهاد بمؤمنيهم، والطعنَ والتَّنْبيه على مشركيهم وحسدتهم. وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿مُنَزَّلٌ﴾ بالتشديد، والباقون بالتخفيف، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أَولاً هو القرآن، وثانياً اسم جنس التوراة والإنجيل والزبور والصحف. ووصفُه أَهل الكتاب بالعلم عموم بمعنى الخصوص، وإنما يريد علماءَهم وأَحبارهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ تثبيت ومبالغة وطعن على الممترين[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

---

(١) وذلك كقولهم: «إنَّ لنا غيرها إبلا»، فالقصد تمييزهم عن غيرهم.

(٢) قيل: إن الخطاب للنبي ﷺ هو خطاب لأمته، وقيل: الخطاب لكل سامع إذا ظهرت الدلالة فلا ينبغي المماراة فيه. وقيل: هو من باب الإلهاب والإثارة كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَتَمَّتْ﴾ ـ في هذا الموضع ـ بمعنىٰ: استمرت وصحت في الأزل صدقاً وعدلاً، وليس بتمام من نقْص، ومثله ما وقع في السيرة من قولهم: «وتم حمزة على إسلامه» في الحديث مع أَبي جهل.

والكلمات: ما نزَّل على عباده، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: كلمت بالإفراد هنا وفي يونس في الموضعين، وفي حم المؤمن وقرأ نافع، وابن عامر جميع ذلك [كلمات] بالجمع، وقرأ ابن كثير، وأَبو عمرو هنا فقط [كلمات] بالجمع، وذهب الطبري إِلى أَنه القرآن كما يقال: «كلمة فلان» في قصيدة الشعر والخطبة البليغة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي بعيد معترض، وإِنما القصد، العبارة عن نفوذ قوله تعالىٰ: ﴿صِدْقًا﴾ فيمـا تضمَّنه مِنْ خبر، و﴿وَعَدْلًا﴾ فيما تضمنه من حُكم، وهما مصدران في موضع الحال، وقال الطبري: «نصباً على التمييز»، وهذا غير صـواب. و﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ معناه: في معانيها بأَن يُبيِّن أَحد أن خبره بخلاف ما أَخبر به، أَو يُبيِّن أَن أَمره لا ينفذ، والمثال من هذا أَن الله تعالىٰ قال لنبيه ﷺ: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ إلى ﴿ٱلْخَٰلِفِينَ﴾[1]. فقال المنافقون بعد ذلك للنبي ﷺ وللمؤمنين: «ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ» فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾[2]، أَو في قوله تعالىٰ: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾[3] لأَن مضمَّنه الخبر بأَن لا يباح لهم خروج، وأَما الأَلفاظ فقد بدلتها بنو إِسرائيل وغيَّرتها، هذا مذهب جماعة من العلماءِ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنهم إِنما بدَّلُوا بالتأْويل، والأَول أَرجح. وفي حرف أُبي بن كعب: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية. المعنىٰ: فامض يا محمد لما أُمرت به وأَنفذ لرسالتك فإِنك إِنْ تطع أَكثر من في الأَرض يضلوك، وذكر سبحانه: ﴿أَكْثَرَ﴾ لأَن أَهل الأَرض حينئذ كان أَكثرهم كافرين، ولم يكن المؤمنون إِلا قلة.

---

(١) هي الآية رقم (٨٣) من سورة (التوبة).
(٢) من الآية رقم (١٥) من سورة (الفتح).
(٣) من الآية رقم (٨٣) من سورة (التوبة)

وقال ابن عباس: الأرض هنا: الدنيا. وحكي أن سبب هذه الآية أن المشركين جادلوا رسول الله ﷺ في أمر الذبائح وقالوا: تأكل ما تقتل وتترك ما قتل الله؟ فنزلت الآية، ووصفهم عزَّ وجلَّ بأنهم إنَّما يقتدون بظنونهم، ويتبعون تخرُّصهم، والخَرْص: الحزْرُ والظن[1]، وقرأ جمهور الناس: ﴿يَضِلُّ﴾ بفتح الياءِ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [يُضل] بضم الياءِ، ورواه أحمد بن أبي شريح عن الكسائي. و﴿مَن﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿مَن يَضِلُّ﴾ في موضع نصب بفعل مضمر تقديره: «يعلم مَنْ». وقيل: في موضع رفع كأنه قال: «أي يضل عن سبيله»، ذكره أبو الفتح وضعفه أبو علي، وقيل: في موضع خفض بإضمار باءِ الجر كأنه قال: «بمن يضل عن سبيله»، وهذا ضعيف. قال أبو الفتح: هذا هو المراد فحذفت باءُ الجر ووصل ﴿أَعْلَمُ﴾ بنفسه، قال: ولا يجوز أن يكون ﴿أَعْلَمُ﴾ مضافاً إلى ﴿مَن﴾ لأن أفعل التفضيل بعض ما يضاف إليه. وهذه الآية خبر في ضمنه وعيد للضالين ووعد للمهتدين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

القصد بهذه الآية النَّهْيُ عما ذُبح للنصب وغيرها وعن الميتة وأنواعها، فجاءَت العبارة أمراً بما يضاد ما قصد النَّهْيُ عنه، ولا قصد في الآية إلى ما نَسِيَ فيه المؤمن التسمية أو تعمدها بالترك. قال عطاءُ:

هذه الآية أمر بذكر اسم الله على الشراب والطعام والذبح وكل مطعوم، وقوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم بأحكامه وأوامره آخذين، فإن الإيمان بهما يتضمن ويقتضي الأخذ بها والانقياد لها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا﴾ الآية. ﴿وَمَا﴾ استفهام يتضمن التقرير،

---

(١) أَصل الخَرْص: التَّظَنّي فيما لا تستيقنه، ومنه خرص النخل والكرم إذا حزرت التمر، وجاءَ في الحديث عن النبي ﷺ أنه أمر بالخرص في النخل والكرم خاصة دون الزرع القائم. فالخرص في أصله هو التقدير بغير علم، ثم قيل للكذب: خرصٌ لما يدخله من الظنون الكاذبة، قال تعالىٰ: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾، قال الزجاج: الكذابون. (عن اللسان).

وتقدير هذا الكلام: وأي شيءٍ لكم في ألاَّ تأكلوا؟ فـ ﴿أَنْ﴾ في موضع خفض بتقدير حرف الجرّ، ويصح أن تكون في موضع نصب على ألاَّ يقدر حرف الجرّ ويكون الناصب معنى الفعل الذي في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ تقديره: ما يجعلكم وقد فُصِّل لكم ما حرَّم، أي: وقد بُيِّنَ لكم الحلال من الحرام وأزيل عنكم اللبس والشك؟.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿وَقَدْ فُصِّلَ لَكُم مَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ على بناءِ الفعل للمعفول في الفعلين. وقرأ نافع، وحفصٍ عن عاصم: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ﴾ على بناءِ الفعل للفاعل في الفعلين. وقرأ أبو بكر عن عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ﴾ على إسنادالفعل إلى الفاعل [لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ] على إسناد الفعل إلى المفعول. وقرأ عطية العوفي: [وَقَدْ فَصَلَ] على بناءِ الفعل للفاعل وفتح الصاد وتخفيفها [ما حُرِّمَ] على بناءِ الفعل للمفعول. والمعنى: قد فَصَل الحرام من الحلال وانتزعه بالتبيين. و﴿وَمَا﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ﴾ يريد بها: من جميع ما حرَّم كالميتة وغيرها، وهي في موضع نصب بالاستثناء، والاستثناءُ منقطع.

وقوله تعالىٰ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ يريد الكفرة المحادّين المجادلين في المطاعم بما ذكرناه من قولهم: «تأكلون ما تذبحون ولا تأكلون ما ذبح الله؟» وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [لَيَضِلُّون] بفتح الياءِ على معنىٰ إسناد الضلال إليهم في هذه السورة وفي يونس: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟﴾ وفي سورة إبراهيم: ﴿أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟﴾ وفي الحج ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ﴾ وفي لقمان: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وفي الزُّمَر: ﴿أَندَادًا لِّيُضِلَّ﴾[1]. وقرأ نافع، وابن عامر كذلك في هذه وفي يونس. وفي الأربعة التي بعد هذه يضُمَّان الياءَ على معنى إسناد إضلال غيرهم إليهم، وهذه أبلغ في ذمّهم لأن كل مُضِلّ ضال، وليس كل ضالٍّ مُضلاً. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي في المواضع الستة: ﴿لَيُضِلُّونَ﴾ على معنى إسناد إضلال غيرهم إليهم. ثم بيَّن عزَّ وجلَّ في ضلالهم أنه على أقبح الوجوه، وأنه بالهوى لا بالنظر والتأمل، و﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ معناه: في غير نظر، فإن لِمَنْ يضل بنظر ما بعضُ عذر لا ينفع في أنه اجتهد.

---

(١) أرقام الآيات في المواضع الخمسة ـ غير هذه السورة ـ هي على الترتيب الذي ذكره: رقم (٨٨) من سورة (يونس)، ورقم (٣٠) من سورة (إبراهيم)، ورقم (٩) من سورة (الحج)، ورقم (٦) من سورة (لقمان)، ورقم (٨) من سورة (الزُّمَر).

ثم توعدهم تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

هذا نهيٌ عام من طرفيه لأن الإِثم يعم الأَحكام والنسب اللاحقة للعصاة عن جميع المعاصي، والظاهر والباطن يستوفيان جميع المعاصي، وقد ذهب المتأَولون إِلى أَن الآية من ذلك في مخصص، فقال السدي: ظاهره الزنى الشهير الذي كانت العرب تفعله، وباطنه اتخاذ الأَخذان، وقال سعيد بن جبير: الظاهر ما نصَّ الله على تحريمه بقوله تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾[1] الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾[2] الآية، والباطن الزنىٰ، وقال ابن زيد: الظاهر التعري، والباطن الزنىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يريد التعري الذي كانت العرب تفعله في طوافها. وقال قوم: الظاهر الأَعمال، والباطن المعتقد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا حسن لأَنه عام.

ثم توعَّد تبارك وتعالىٰ كسبة الإِثم بالمجازاة على ما اكتسبوه من ذلك وتحملوا ثقله، والاقتراف: الاكتساب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

المقصد بهذه الآية النهي عن الميتـة، إِذ هي جواب لقول المشركين: «تتركون ما قتل الله»، والنهي أَيضاً عما ذبح للأَنصاب، ومع ذلك فلفظها يعم ما تركت التسمية عليه

(١) هي الآية رقم (٢٣) من سورة (النساء).
(٢) الآية رقم (٢٢) من سورة (النساء).

من ذبائح الإِسلام، وبهذا العموم تعلق محمد بن سيرين، وعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، وعبد الله بن عمر، ونافع، وعبد الله بن زيد الخطمي، والشعبي، وغيرهم، فما تركت التسمية عليه نسياناً أو عمداً لم يؤكل، وقالت طائفة عظيمة من أهل العلم: يؤكل ما ذبح ولم يُسَمَّ عليه نسياناً، ولا يؤكل ما لم يُسَمَّ عليه عمداً، وهذا قول الجمهور، وحكى الزهراوي عن مالك بن أنس أنه قال: تؤكل الذبيحة التي تركت التسمية عليها عمداً أو نسياناً، وعن ربيعة أيضاً، قال عبد الوهاب: التسمية سُنَّة فإذا تركها الذابح ناسياً أكلت الذبيحة في قول مالك وأصحابه، وإذا تركها عمداً فقال مالك: لا تؤكل، فحمل بعض أصحابه قوله: «لا تؤكل» على التحريم، وحمله بعضهم على الكراهية. وقال أشهب: تؤكل ذبيحة تارك التسمية عمداً إلا أن يكون مستخفاً، وقال نحوه الطبري.

وذبائح أهل الكتاب عند جمهور العلماءِ في حكم ما ذكر اسم الله عليه من حيث لهم دين وشرع. وقال قوم: نسخ من هذه الآية ذبائح أهل الكتاب، قاله عكرمة، والحسن ابن أبي الحسن.

والضمير في ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ من ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ عائـد على الأكل الذي تضمنه الفعل في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟﴾ ويحتمل أن يعود على «ترك الذكر» الذي يتضمنه قوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يُذْكَرِ﴾. والفسق: الخروج عن الطاعة، هذا عرفه في الشرع.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ﴾ الآية، قال عكرمة: عني بالشياطين في هذه الآية مردة الإِنس من مجوس فارس، وذلك أنهم كانوا يوالون قريشاً على عداوة النبي ﷺ فخاطبوهم مُنَبِّهِينَ على الحجة التي ذكرناها في أمر الذبائح من قولهم: «تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله؟» فذلك من مخاطبتهم هو الحي الذي عني. والأولياءُ قرائن. والمجادلة: هي تلك الحجة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وعبد الله بن كثير: بل الشياطين: الجنّ، واللفظة على وجهها، وكَفرة الجن أولياءُ لكفرة قريش، ووحْيُهم إليهم كان بالوسوسة حتى ألهموهم تلك الحجـة، أو على ألسنة الكهـان. وقال أبو زميْل: كنت عند ابن عباس فجاءَه رجل فقال: إن أبا إسحق ـ يعني المختار ـ زعم أنه أُوحي إليه الليلة، فقال ابن عباس: صدق، فَنَفَرْتُ، فقال ابن عباس: «وإن الشياطين ليُوحون إلى أوليائهم».

ثم نهى الله تعالىٰ عن طاعتهم بلفظ يتضمن الوعيد، وعرض أصعب مثال في أن يشبه المؤمن بمشرك، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قولاً: إن الذين جادلوا بتلك الحجة هم قوم من اليهود.

قال القاضي أبو سعيد رحمه الله:

وهذا ضعيف لأن اليهود لا تأكل الميتة، أما إن ذلك يتجه منهم على جهة المغالطة كأنهم يحتجُّون عن العرب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

تقدم في هذه الآية السالفة ذكر قوم مؤمنين أُمروا بترك ظاهر الإثم وباطنه وغير ذلك، وذكْر قوم كافرين يضلون بأهوائهم وغير ذلك، فمثل الله عزَّ وجلَّ في الطائفتين بأَن شبه الذين آمنوا بعد كفرهم بأَموات أُحيوا، هذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وغيرهما، وشبه الكافرين وحيرة جهلهم بقوم في ظلمات يترددون فيها ولا يمكنهم الخروج منها، لِيُبيِّن عزَّ وجلَّ الفرق بين الطائفتين والْبَوْنَ بين المنزلتين.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿أَوَمَن﴾؟ بفتح الواو، فهي أَلف استفهام دخلت على واو عطف جملة على جملة، و﴿مَن﴾ بمعنى الذي. وقرأَ طلحة بن مصرف [أَفَمَنْ]؟ بالفاءِ، والمعنىٰ قريب من معنى الواو، والفاءُ في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ عاطفة. و﴿نُورًا﴾ أَمْكَنُ ما يُقي[1] به الإِيمان، و﴿يَمْشِى بِهِۦ﴾، يراد به جميع التصرف في الأَفعال والأَقوال. قال أَبو علي: ويحتمل أَن يراد النور الذي يؤتاه المؤمنون يوم القيامة، و﴿فِى ٱلنَّاسِ﴾ متعلق بـ ﴿يَمْشِى﴾[2]، ويصح أَن يتعلق بـ ﴿كَانَ مَيْتًا﴾. وقوله تعالىٰ:

---

(١) في بعض النسخ: ما يعني به الإيمان.

(٢) قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ إشارة إلى تنويره على نفسه وعلى غيره من الناس، فذكر أن منفعة المؤمن ليست مقتصرة على نفسه. قاله في «البحر المحيط».

﴿كَمَن مَّثَلُهُ﴾ بمنزلة «كمن هو»، والكاف في قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ﴾ متعلقة بمحذوف يدل ظاهر الكلام عليه، تقديره: «وكما أَحيينا المؤمنين وجعلنا لهم نوراً كذلك زُيِّن للكافرين»، ويحتمل أَن يتعلق بقوله تعالىٰ: ﴿كَمَن مَّثَلُهُ﴾ أَي كهذه الحال هو التزيين.

وقرأَ نافع وحده: [مَيِّتا] بكسر الياءِ وشدّها. وقرأ الباقون ﴿مَيْتًا﴾ بسكون الياءِ. قال أَبو علي: التخفيف كاالتشديد، والياءُ المحذوفة هي الثانية المنقلبة عن واو أُعلت بالحذف كما أُعلت بالقلب.

وقالت طائفة: إن هذه الأَلفاظ التي مثل بها وإِن كانت تعم كل مؤمن وكل كافر فإِنما نزلت في مخصوصين. فقال الضحاك: المؤمن الذي كان ميتاً فأُحيي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وحكى المهدوي عن بعضهم أَنه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه. وقال عكرمة: عمار بن ياسر رضي الله عنه، وقال الزجاج: جاءَ في التفسير أَنه يعني به النبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واتفقوا على أَن الذي في الظلمات أَبو جهل بن هشام، وإِلى حاله وحال أَمثاله هي الإِشارة والتشبيه بقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾، وهذه الآية تتضمن إِنذاراً بفساد حال الكفرة المتقدم ذكرهم لأَنه مقتضى حال من تقدمهم من نظائرهم، وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في المستهزئين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يعني أَن التمثيل لهم، و﴿جَعَلْنَا﴾ في هذه الآية بمعنى صيرنا، فهي تتعدى إِلى مفعولين، فالمفعول الأَول: ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ والثاني: ﴿أَكَابِرَ﴾، وفي الكلام ـ على هذا ـ تقديم وتأْخير تقديره: وكذلك جعلنا في كل قرية مجرميها أَكابر، وقدم الأَهم، إِذ لعلة كبرهم أَجرموا. ،يصح أَن يكون المفعول الأَول: ﴿أَكَابِرَ﴾ و﴿مُجْرِمِيهَا﴾ مضاف والمفعول الثاني قوله سبحانه: ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ و﴿لِيَمْكُرُوا﴾ نصب بلام الصيرورة.

والأَكابر جمع أَكبر كما الأَفاضل جمع أَفضل، ويقال: أَكابرة كما يقال: أَحمر وأَحامرة، ومنه قول الشاعر:

إِنَّ الأَحامِرَةَ الثَّلاثةَ أَتلَفَتْ مالي، وكُنْتُ بِهِنَّ قِدماً مُولَعا(١)

يريد: الخمر واللحم والزعفران. والمكر: التخيُّل بالباطل والخديعة ونحوهما. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يريد: لرجوع وبال ذلك عليهم، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أَي: ما يعلمون، وهي لفظة مأخوذة من الشعار وهو الشيءُ الذي يلي البدن، فكان الذي لا يشعر نفي عنه أن يعلم علم حسّ، وفي ذلك مبالغة في صفة جهله إِذ البهائم تعلم علوم الحسّ، وأَما هذه الآية فإِنما نفي فيها الشعور في نازلة مخصوصة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

هذه الآية آية ذم لكفار وتوعد لهم، يقول: وإِذا جاءَتهم علامة ودليل على صحة الشرع تشططوا وتسحبوا وقالوا: إِنما يفلق لنا البحر، إِنما يحيي لنا الموتى ونحو ذلك(٢). فرد الله عزَّ وجلَّ عليهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أَي: فيمن اصطفاه وانتخبه لا فيمن كفر وجعل يتشطط على الله. قال الزجاج: قال بعضهم: الأَبلغ في تصديق الرسل أَلا يكونوا قبل المبعث مطاعين في قومهم، و﴿أَعْلَمُ﴾ معلق العمل والعامل في ﴿حَيْثُ﴾ فعل تقديره: يعلم حيث(٣).

(١) البيت للأعشىٰ: وقد بيَّن الثلاثة التي أحبها حتى أَتلفت ماله في البيت التالي وهي الخمر واللحم والزعفران، كما قال ابن عطية.

(٢) أَي: طلبوا المستحيل وعلقوا إيمانهم على ممتنع وقصدوا بذلك أَنهم لا يؤمنون أَبداً، قال أبو حيان: «وقولهم: ﴿رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ ليس فيه إقرار بالرسل من الله، وإنما قالوا ذلك على سبيل التهكم والاستهزاء، ولو كانوا موقنين وغير معاندين لاتبعوا رسل الله». أَي: لو كانوا يؤمنون بهؤلاء الرسل لاتبعوهم.

(٣) ذلك لأنه لا يجوز أَن يعمل ﴿أَعْلَمُ﴾ في ﴿حَيْثُ﴾ ويكون ظرفاً، لأن المعنى على ذلك يكون: الله أعلم في هذه المواضع، وذلك لا يجوز أن يوصف به الباري سبحانه وتعالىٰ ولهذا عمل في ﴿حَيْثُ﴾ فعل مقدر دلَّ عليه ﴿أَعْلَمُ﴾. قاله العلماءُ، قال الحوفي: ﴿حَيْثُ﴾ لا يمكن إقرارها على الظرفية هنا، لأنه تعالىٰ لا يكون في مكان أعلم منه في مكان، وإذا لم تكن ظرفاً كانت مفعولاً على السَّعة، و﴿أَعْلَمُ﴾ لا يعمل في المفعولات فيكون العامل فيه فعل دلَّ عليه ﴿أَعْلَمُ﴾. نقله في «البحر» عن الحوفي.

ثم توعَّد تعالى بأَن هؤلاءِ المجرمين الأَكابر في الدنيا سيصيبهم عند الله صَغَارٌ وذِلَّة. و﴿عِندَ اللَّهِ﴾ متعلقة بـ ﴿سَيُصِيبُ﴾، ويصح أَن تتعلق بـ ﴿صَغَارٌ﴾ لأنه مصدر، قال الزجاج: التقدير: صغار ثابت عند الله، قال أَبو علي: وهو متعلق بـ ﴿صَغَارٌ﴾ دون تقدير (ثابت) ولا شيءَ غيره.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الآية. ﴿وَمَن﴾ أَداة شرط، و﴿يَشْرَحْ﴾ جواب الشرط، والآية نصٌّ في أَن الله عزَّ وجلَّ يريد هُدى المؤمن وضلال الكافر، وهذا عند جميع أَهل السنة بالإِرادة القديمة التي هي صفة ذاته تبارك وتعالىٰ.

والهدى في هذه الآية هو خلق الإِيمان في القلب واختراعه، وشرح الصدر هو تسهيل الإِيمان وتحبيبه وإِعداد القلب لقبوله وتحصيله، والهدى لفظة مشتركة تأْتي بمعنى الدعاءِ كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]، وتأْتي بمعنىٰ إرشاد المؤمنين إِلى مسالك الجنان والطرق والأَعمال المفضية إِليها كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾[2]، وغير ذلك، إِلاَّ أَنها في هذه الآية، وفي قوله سبحانه: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[3]. وفي قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[4] ونحوها لا يتجه حملها إلا على خلق الإِيمان واختراعه، إِذ الوجوه الأُخر من الهدى تدفعها قرائن الكلام مما قبلُ وبعدُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ﴾ أَلفاظ مستعارة ها هنا، إِذ الشرحُ: التوسعة والبسط في الأَجسام، وإِذا كان الجرم مشروحاً موسعاً كان مُعداً ليحل فيه، فيشبه توطئة القلب وتنويره وإِعداده للقبول بالشرح والتوسيع، وشبَّه قبوله وتحصيله للإِيمان بالحلول في الجسم المشروح، والصدر عبارة عن القلب، وهو المقصود إِذ الإِيمان من خصاله، وكذلك الإِسلام عبارة عن الإِيمان إِذ الإِسلام أَعم منه، وإِنما المقصود هنا الإِيمان فقط بدليل قرينة الشرح والهدى، ولكنه عبر بالإِسلام إِذ هو أَعم. وأَدنى الهدى حب

(١) من الآية (٥٢) من سورة (الشورىٰ).
(٢) من الآية (٤) والآية (٥) من سورة (محمد).
(٣) الآية (١٧٨) من سورة (الأَعراف).
(٤) من الآية (٥٦) من سورة القصص.

الأعمال وامتثال العبادات. وفي ﴿يَشْرَحْ﴾ ضمير عائد على الهدىٰ، قال: وعوده على الله عزَّ وجلَّ أبْيَن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقول بأن الضمير عائد على الهدى قول يتركب عليه مذهب القدرية في خلق الأفعال، وينبغي أن يعتقد ضعفه، وأن الضمير إنما هو عائد على اسم الله عز وجلَّ فإن هذا يعضده اللفظ والمعنىٰ: وروي عن النبي ﷺ أنه لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله، كيف يشرح الصدر؟ قال: (إذا نزل النور في القلب انشرح له الصدر وانفسح)، قالوا: وهل لذلك علامة يارسول الله؟ قال: (نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الفَوْت)[١].

والقول في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ كالقول في قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ ألفاظ مستعارة تضاد شرح الصدر للإسلام، و﴿يَجْعَلْ﴾ ـ في هذا الموضع ـ تكون بمعنى: يَحْكم له بهذا الحكم، كما تقول: «هذا يجعل البصرة مصراً»[٢]، أي يحكم لهُ بحكمها.

قال القاضي: أبو محمد رحمه الله:

وهذا المعنى يقرب من: صيَّر، وحكاه أبو علي الفارسي، وقال أيضاً: يصح أن يكون (جَعَلَ) بمعنى سمَّى كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾[٣]، أي: سمُّوهم، قال: وهذه الآية تحتمل هذا المعنىٰ.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد، وعبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي جعفر المدائني ـ رجل من بني هاشم وليس هو محمد بن علي ـ وفي أوله: قال: سئل النبي ﷺ أي المؤمنين أكْيَس؟ قال: (أكثرهم ذكراً للموت وأحسنهم لما بعده استعداداً) ثم تأتي بقية الحديث كما رواه ابن عطية رحمه الله ـ وفي آخره: (والاستعداد للموت قبل الموت) أو (قبل لقاء الموت). وأخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه، وكذلك أخرجه عنه آخرون. (الدر المنثور ٣ـ ٤٤) و(ابن كثير ٣ـ ٩٧).

(٢) المراد أن يجعل البصرة مثل مصر ويحكم لها بحكمها، ـ و(مصر) كما قال ابن سيده: تصرف ولا تصرف. (راجع اللسان).

(٣) من الآية (١٩) من سورة (الزخرف).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الوجه يضعف في هذه الآية.

وقرأ جمهور الناس والسبعة سوى ابن كثير: ﴿ضَيِّقًا﴾ بكسر الياءِ وتشديدها، وقرأ ابن كثير: [ضَيْقا] بسكون الياءِ، وكذلك قرأ في الفرقان(١). قال أبو علي: وهما بمنزلة الميِّت والميْت، قال الطبري: وبمنزلة الْهَيِّن واللَّيِّن والهَيْن واللَّيْن، قال: ويصح أن يكون الضَّيْق مصدراً من قولك: ضاق الأمر يضيق ضِيقاً وضَيْقاً، وحكى عن الكسائي مصدراً من قولك: ضاق الأمر يضيق ضِيقاً وضَيْقاً، وحكىٰ عن الكسائي أنه قال: الضِّيق بشد الضاد وكسرها في الأجرام والمعاش، والضَّيق بفتح الضاد في الأُمور والمعاني.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿حَرَجًا﴾ بفتح الراءِ. وقرأ نافع، وعاصم في رواية أبي بكر: [حَرِجاً] بكسرها، قال أبو علي: فمن فتح الراءِ كان وصفاً بالمصدر، كما تقول: رجل قَمَن بكذا، وحرَي بكذا، ودنَف(٢)، ومن كسر الراءَ فهو كذَنِف وقمِنٌ وفرِقٌ(٣)، وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأها يوماً بفتح الراءِ فقرأها له بعض الصحابة بكسر الراءِ فقال: ابغوني رجلاً من كنانة وليكن راعياً وليكن من بني مدلج، فلما جاءَه قال له: يا فتى ما الحَرَجة عندكم؟ قال: الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية، قال عمر: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيءُ من الخير.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: كأن هذا الضَّيِّق الصدر يحاول الصعود في السماء متى حاول الإيمان أو فكر فيه ويجد صعوبته عليه كصعوبة الصعود في السماءِ، قال بهذا التأويل ابن جريج، وعطاءُ الخراساني، والسّدي. وقال ابن جبير: المعنىٰ: لا يجد مسلكاً إلا صعداً من شدة التضايق.

---

(١) من الآية (١٣) من سورة (الفرقان) وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾.

(٢) قَمِنَ (تكون بفتح الميم كَجَبَل وبكسرها كَكَتِف، وهو الخليق والجدير بالأمر. و(حَري) هو الخليق والجدير أيضاً، يقال: إنه لَحريَ بكذا، وحريٌّ كَغَنِيّ، وحَرٍ. والدَّنَفُ: المَرَض. يقال: رجلٌ وامرأةٌ وقومٌ دَنَفٌ محركة، فإذا كسرت فقلت (دنِفٌ) أنّث وثنِّيت وجمعت ـ وقد تثنى وتجمع المحركة. (القاموس المحيط).

(٣) (فَرِق) كفَرِح: الفزع الخائف. (القاموس المحيط).

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يَصَّعَّدُ﴾ بإدغام التاءِ من «يَتَصَعَّدُ» في الصاد. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر رضي الله عنه: [يَصَّاعَد] بإدغام التاءِ من «يَتَصَاعَدُ» ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، وقرأ ابن كثير وحده: ﴿يَصْعَد﴾[1]، وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وابن مصرف: [يَتَصَعَّد] بزيادة تاءٍ.

و﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يريد: من سفل إلى علو في الهواءِ، قال أبو علي: ولم يرد السماءَ المُظِلَّة بعينها، وإنما هو كما قال سيبويه: «والقيدود: الطويل في غير سماءٍ». يريد: في غير ارتفاع صعدا، قال: ومن هذا قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[2] أي في جهات الجو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا على غير من تأول «تَقَلُّب الوجه» أنه الدعاءُ إلى الله عزَّ وجلَّ في الهداية إلى قِبْلة، فإن مع الدعاءِ يستقيم أن يقلب وجهه في السماء المُظِلة حسب عادة الداعين إذ قد أَلِفوا مجيءَ النعم والآلاءِ من تلك الجهة. وتحتمل الآية أن يكون التشبيه بالصاعد في عقبة كؤود كأنه يصعد بها في الهواءِ. ويصْعَد معناه: يعلو. ويصَّعَّد معناه: يتكلف من ذلك ما يشق عليه، ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما تصعَّدني شيءٌ كما تصعَّدني خطبة النكاح إلى غير ذلك من الشواهد، ويصَّاعد في المعنى مثل يَصَّعَّد.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: وكما كان هذا كله من الهدى والضلال بإرادة الله عزَّ وجلَّ ومشيئته كذلك يجعل الله الرجس. قال أهل اللغة: الرِّجس يأتي بمعنى العذاب ويأتي بمعنى النجس، وحكىٰ الطبري عن مجاهد أنه قال: الرجس كل ما لا خير فيه، وقال بعض الكوفيين: الرجس والنجس لغتان بمعنىٰ، و﴿يَجْعَلُ﴾ ـ في هذا الموضع ـ يحسُن أن تكون بمعنى يُلْقي، كما تقول: جعلت متاعك بعضه على بعض، وكما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[3].

---

(١) أي: بإسكان الصاد مخفَّفة من الصعود وهو الطلوع. وأما [يَصَّاعد] فأصلها (يتصاعد) بالتاءِ، وكذلك ﴿يَصَّعَّدُ﴾ أصلها (يتصَعَّد) بالتاءِ، وقد أُدغمت التاءُ في الصاد في القراءَتين، والمعنى فيهما يدل على فعل شيءٍ بعد شيءٍ، وذلك أثقل على فاعله.

(٢) من الآية (١٤٤) من سورة (البقرة).

(٣) من الآية (٣٧) من سورة (الأنفال).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا المعنىٰ في (جَعَلَ) حكاه أبو علي الفارسي، ويحسن أن تكون ﴿يَجْعَلُ﴾ ـ في هذه الآية ـ بمعنىٰ: يُصَيِّر، ويكون المفعول الثاني في ضمن ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كأنه قال سبحانه: «قرين الذين»، أو «لَزِيم الَّذين» ونحو ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَهَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى القرآن والشرع الذي جاءَ به محمد عليه الصلاة والسلام، قال ابن عباس، والصراط: الطريق، وإضافة الصراط إلى الربّ على جهة أنه من عنده وبأمره، و﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حال مؤكدة، وليست كالحال في قولك: جاءَ زيد راكباً، بل هذه المؤكدة تتضمن المعنى المقصود.

و﴿فَصَّلْنَا﴾ معناه: بيَّنَّا وأوضحنا، وقوله تعالىٰ: ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي للمؤمنين الذين يعدون أنفسهم للنظر ويسلكون طريق الاهتداء، والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿لَهُمْ﴾ عائد على القوم المتذكِّرين، و﴿السَّلَامِ﴾ يتَّجه فيه معنيان: أحدهما أن (السلام) اسم من أسماء الله عزَّ وجلَّ فأضاف (الدار) إليه وهي ملْكه وخلقه، والثاني أنه المصدر بمعنى السلامة، كما تقول: السلام عليك، وكقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾[1]، وقوله تعالىٰ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يريد: في الآخرة بعد الحشر، و﴿وَلِيُّهُم﴾ أي: وليُّ الإنعام عليهم، و﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب ما كانوا يقدمون من الخير، ويفعلون من الطاعة والبِرِّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

(١) من الآية (١٠) من سورة (يونس).

﴿وَيَوْمَ﴾ نصب بفعل مضمر تقديره: واذكر يوم، ويحتمل أن يكون العامل: ﴿وَلِيُّهُم﴾ والعطف على موضع قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟﴾، والضمير في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ عائد على الطائفتين: الذين يجعل الله الرجس عليهم وهم جميع الكفار جِناً وإنْساً، والذين لهم دار السلام جِنًا وإنْساً، ويدلُ على ذلك التأكيد العام بقوله تعالىٰ: ﴿جَمِيعًا﴾.

وقرأ حفص عن عاصم: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياءِ، وقرأ الباقون بالنون. وكلٌّ متَّجه[1].

ثم ذكر عزَّ وجلَّ ما يقال للجن الكفرة، وفي الكلام فعل مضمر يدل عليه ظاهر الكلام تقديره: نقول يا معشر الجن. وقوله تعالىٰ: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم﴾ معناه: فرّطتم، و﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ يريد في إغوائهم وإضلالهم، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقال الكفار من الإنس وهم أولياءُ الجن المُوَبَّخين على جهة الإعتذار عن الجن: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي انتفع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذلك في وجوه كثيرة: حكى الطبري وغيره أن الإنس كانت تستعيذ بالجن في الأَودية ومواضع الخوف[2]، وكانت الجن تتعظم على الإنس وتسودها كما يفعل العربي بالكاهن والمجير والمستجير، إذ كان العربي إذا نزل وادياً ينادي: يا ربَّ الوادي إني أستجير بك هذه الليلة، ثم يرىٰ أن سلامته إنما هي بحفظ جِنِّي ذلك الوادي. فهذا استمتاع بعضهم ببعض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا مثال في الاستمتاع، ولو تُتُبِّعَ لتبينت له وجوه أُخر كلها دنيوية.

وبلوغ الأَجل المؤجل ـ قال السُّدي: هو الموت الذي انتهىٰ الكلُّ منهم إليه، وقيل: هو الحشر، وقيل: هو الغاية التي انتهى جميعهم إليها من الاستمتاع، كأنهم أشاروا إلى أَن ذلك بقدرك وقضائك إذ لكل كتاب أَجل. وقرأ الحسن: [وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا] بكسر اللام مشددة.

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾، المعشر: الجماعة، ويجمع على معاشر، ومنه الحديث الشريف: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث)، وقال الأفوه:

فِينَا مَعَاشِرُ لَنْ يَبْنُوا لِقَوْمِهِمُ ... وإنْ بَنَى قَوْمُهُمْ مَا أَفْسَدُوا عَادُوا

(٢) قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾. الآية (٦) من سورة (الجن).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ الآية. إخبار من الله عزَّ وجلَّ عما يقول لهم يوم القيامة إِثر كلامهم المتقدم، وجاءَ الفعل بلفظ الماضي ـ وهو في الحقيقة مستقبل ـ لصحة وقوعه، وهذا كثير في القرآن وفصيح الكلام. و﴿مَثْوَىٰكُمْ﴾ أَي موضع ثوائِكم كمقامكم الذي هو موضع الإقامة. هذا قول الزجاج وغيره، قال أَبو علي في «الأغفال»: المثوى عندي مصدر لا موضع له، وذلك لعمله في الحال التي هي ﴿خَٰلِدِينَ﴾ والموضع ليس فيه معنى فعل فيكون عاملاً، والتقدير: النار ذات ثوائِكم، والاستثناءُ في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ـ قالت فرقة: ﴿مَا﴾ بمعنىٰ (مَنْ) فالمراد: إلا من شاءَ مِمَّن آمن في الدنيا بعد أَن كان من هؤُلاءِ الكفرة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولما كان هؤلاءِ صنفاً ساغت في العبارة عنهم ﴿مَا﴾، وقال الفراءُ: ﴿إِلَّا﴾ بمعنىٰ (سوى)، والمراد: سوى ما يشاءُ من زيادة في العذاب، ونحا إِليه الزَّجاج. وقال الطبري: إِن المستثنى هي المدة التي بين حشرهم إِلى دخولهم النار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وساغ هذا من حيث العبارةُ بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ لا تَخُص بصيغتها مستقبل الزمان دون غيره، وقال الطبري عن ابن عباس إِنه كان يتناول في هذا الاستثناءِ أَنه مبلغ حال هؤُلاءِ في علم الله، ثم أَسند إِليه أَنه قال: إِن هذه الآية آية لا ينبغي لأَحد أَن يحكم على الله في خَلْقه، ولا ينزلهم جنة ولا ناراً[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والإِجماع على التخليد الأَبدي في الكفار، ولا يصح هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويتجه عندي في هذا الاستثناءِ أَن يكون مخاطبة للنبي ﷺ وأُمته، وليس مما يقال يوم القيامة، المستثنىٰ هو من كان من الكفرة يومئذ يؤمن في علم الله، كأَنه لمَّا أَخبرهم

(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية عن علي بن أبي طلحة. (ابن كثير ٣ـ ١٠١).

أنه قال للكفار: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ استثنىٰ لهم من يمكن أن يؤمن منهم.

و﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ صفتان مناسبتان لهذه الآية، لأن تخليد هؤلاءِ الكفرة في النار فعل صادر عن حكمة وعِلم بمواقع الأشياءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي﴾. قال قتادة: ﴿نُوَلِّي﴾ معناه: نجعل بعضهم وليَّ بعض في الكفر والظلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل يؤيده ما تقدم من ذكر الجن والإنس واستمتاع بعضهم ببعض. وقال قتادة أيضاً: معنى ﴿نُوَلِّي﴾: نتبع بعضهم بعضاً في دخول النار، أي نجعل بعضهم يلي بعضاً، وقال ابن زيد: معناه: نسلط بعض الظالمين على بعض ونجعلهم أولياءَ النقمة منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل لا تؤيده ألفاظ الآية المتقدمة، أما إنه حفظ في استعمال الصحابة والتابعين من ذلك ما روي عن عبد الله بن الزبير لما بلغه أن عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد الأشدق صعد المنبر فقال: «إن فم الذبان قتل لطيم الشيطان»[1]، و﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ۝١٣٠ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ۝١٣١ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۝١٣٢﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ داخل في القول يوم الحشر، والضمير في

---

(١) يريد بفم الذبان عبد الملك بن مروان، وقد غلب عليه هذا لفساد كان في فمه. واللطيم في الأصل هو الذي مات أبواه فأصابه الذل والهوان. وهنا أصبحت رعايته للشيطان، وطبعاً المراد به عمرو بن سعيد الأشدق. وابن الزبير يرى أن كلا منهما ظالم، وقد سلط الله واحداً منهما على الآخر، وفي الخبر عن النبي ﷺ: (من أعان ظالماً سلطه الله عليه). والله يسلط الظلمة بعضهم على بعض.

﴿مِّنكُمْ﴾ قال ابن جريج: عمم بظاهره الطائفتين والمراد الواحدة تَجَوُّزاً، وهذا موجود في كلام العرب، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[1]، وذلك إنما يخرج من الأُجاج. وقال الضحاك: الضمير عائد على الطائفتين وفي الجِنّ رسل منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وقال ابن عباس: الضمير عائد على الطائفتين، ولكن رسل الجن هم رسل الإنس، فهم رسل الله بواسطة إذ هم رسُلُ رسله، وهم النُّذر. و﴿يَقُصُّونَ﴾ من القصص. وقرأ عبد الرحمن الأعرج: [أَلَمْ تَأْتِكُمْ] بالتاءِ على تأنيث لفظ الرسل.

وقولهم: «شَهِدْنا» إقرار منهم بالكفر واعتراف، أَي: شهدنا على أنفسنا بالتقصير. وقوله تعالىٰ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ التفاتة فصيحة تضمنت أَن كفرهم كان بأَذَمّ الوجوه لهم وهو الاغترار الذي لا يواقعه عاقل. ويحتمل ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾ أَن يكون بمعنىٰ: أَشبعتهم وأَطمعتهم بحلوائها كما يقال: غرَّ الطائر فرخه. وقوله تعالىٰ ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ تظهر بينه وبين ما في القرآن من الآيات التي تقتضي إنكار المشركين الإشراك ـ مناقضةٌ، والجمع بينهما هو إمَّا طوائف، وإما طائفة واحدة في مواطن شتَّىٰ، وإما أَن يريد سبحانه بقوله هنا: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ شهادة الأَيدي والأَرجل والجلود بعد إنكارهم بالألسنة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واللفظ ها هنا يبعد من هذا.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن﴾ الآية. ﴿ذَٰلِكَ﴾ يصح أَن يكون في موضع رفع على الابتداءِ والخبر محذوف تقديره: ذلك الأَمر، ويصح أَن يكون في موضع نصب بتقدير: فعلنا، و﴿أَن﴾ مفعول من أَجله، و﴿ٱلْقُرَىٰ﴾: المدن، والمراد أَهل القرى، و﴿بِظُلْمٍ﴾ يتوجه فيه معنيان: أَحدهما أَن اللهَ عزَّ وجلَّ لم يكن ليهلك المدن دون نِذَارة[2]، فيكون ظلماً لهم إذا لم ينذرهم والله ليس بظلام للعبيد، والآخر أَن الله عزَّ

---

(١) الآية (٢٢) من سورة (الرحمن). والأَجَاجُ: المِلح، ويراد به هنا البحر، ومنه يستخرج اللؤلؤ والمرجان لا من الأنهار ذات المياه العذبة.

(٢) النِّذارة كالإنذار ـ قال في القاموس: «والنذير: الإنْذار كالنِّذارة بالكسر، وهذه عن الإمام الشافعي رضي الله عنه».

وجلَّ لم يهلك أَهل القرىٰ بظلم إِذ ظلموا دون أَن ينذرهم[1]، وهذا هو البيّن القوي، وذكر الطبريُّ رحمه الله التأويلين.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ الآية إِخبار من الله عزَّ وجلَّ أَن المؤمنين في الآخرة على درجات من التفاضل بحسب أَعمالهم وتفضُّل اللهِ عليهم، والمشركين أَيضاً على درجات من العذاب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولكن كل مؤمن قد رضي بما أُعطي غاية الرضىٰ.

وقرأَت الجماعة سوى ابن عامر: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ على لفظ (كُلّ)، وقرأَ ابن عامر وحده [تَعْمَلون] على المخاطبة بالتاءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ صفة ذات الله عزَّ وجلَّ لأَنه تبارك وتعالى لا يفتقر إِلى شيءٍ من جهة من الجهات، ثم تُليت هذه الصفة بقوله تعالىٰ: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ فأَردف الاستغناءَ بالتفضل، وهذا أَجمل تناسق، ثم عقَّب بهذه الأَلفاظ المضمنة الوعيد المحذِّرة من بطش الله عزَّ وجلَّ في التعجيل بذلك، وإِما مع المهملة ومرور الجديديْن فكذلك عادة الله في الخلق، وأَما الاستخلاف فكما أَوجد الله تعالىٰ هذا العالم الآدميَّ بالنشأَة من ذرية قوم متقدمين أَصلهم آدم عليه السلام.

وقرأَت الجماعة: ﴿ذُرِّيَّةِ﴾ بضم الذال وشد الراءِ المكسورة، وقرأَ زيد بن ثابت

---

(١) الظلم في هذا الوجه الثاني من الكافرين، والمعنىٰ أن الله تعالىٰ لم يكن ليهلك أهل القرى بسبب شرك من أَشرك منهم، فهو مثل قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. وقد قال ابن عطية عن الوجه الثاني إنه هو البيِّن القوي لأَن الوجه الأَول يوهم أن الله تعالىٰ لو آخذهم قبل بعثة الرسل كان ظالماً وليس الأمر كذلك عند أَهل السنة والجماعة، لأَنه سبحانه وتعالى يحكم ما يشاءُ ويفعل ما يريد.

بكسر الذال، وكذلك في سورة (آل عمران)[١]، وحكى أبو حاتم عن أبان بن عثمان أنه قرأ: [ذَرِيَّة] بفتح الذال وتخفيف الراءِ المكسورة، وحكى عنه أبو الزناد أنه قرأ على المنبر: [ذَرْية] بفتح الذال وسكون الراءِ على وزن فَعْلة، قال: فسألته فقال: أقرأنيها زيد بن ثابت.

و﴿مِنْ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿مِّن ذُرِّيَّةِ﴾ للتبعيض، وذهب الطبري إلى أنها بمعنى قولك: أخذت من ثوبي ديناراً، بمعنى: عنه وعِوَضَه. و﴿تُوعَدُونَ﴾ مأخوذ من الوعيد بقرينة: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ والإشارة إلى هذا الوعيد المتقدم خصوصاً، وأما أن يكون العموم مطلقاً فذلك يتضمن تنفيذ الوعيد، والعقائد ترد ذلك، و﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ معناه: بناجين هرباً، أي يعجزون طالبهم.

ثم أمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ أن يتوعدهم بقوله: ﴿ٱعْمَلُواْ﴾، أي: فسترون عاقبة عملكم الفاسد، وصيغة «افعَل» هاهنا بمعنى الوعيد والتهديد، و﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ معناه: على حالكم وطريقتكم، وقرأ أبو بكر عن عاصم: [عَلَىٰ مَكَانَاتِكُمْ] بجمع المكانة في كلّ القرآن، وقرأ الجميع بالافراد في كل القرآن، و﴿مَن﴾ يتوجه أن يكون بمعنى الذي فتكون في موضع نصب بـ ﴿تَعْلَمُونَ﴾، ويتوجه أن يكون استفهاماً في موضع رفع بالابتداء، والخبر في قوله تعالىٰ: ﴿تَكُونُ لَهُۥ﴾، و﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: مآل الآخرة، ويحتمل أن يراد مآل الدنيا بالنصر والظهور، ففي الآية إعلام بغيب[٢].

ثم جزم الحكم بأنه ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: لا ينجح سعيهم، وقرأ حمزة، والكسائي: [مَنْ يكُونُ] بالياءِ ها هنا وفي القصص[٣] على تذكير معنى العاقبة.

---

(١) في قوله تعالىٰ في الآية (٣٤): ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

(٢) وقيل: العاقبة هي الحسنىٰ التي خلق الله هذه الدار لها، أما قوله سبحانه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ففيه من التهديد والوعيد مالا يخفى: كقوله تعالىٰ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، وعليه قول الشاعر:

إذا مـا التَقَيْنَـا والتَقـى الـرُّسْـل بَيْنَنـا ... فَسَوْفَ تَـرَىٰ يـا عَمْـرو مـا اللهُ صـانـعُ

وقول الآخر:

سَتَعْلَـمُ لَيْلـي أيَّ ديْـنٍ تَـدايَنَـتْ ... وأيُّ غَـريـمٍ لِلتَّقَـاضـي غَـريمُهَـا

(٣) في قوله تعالىٰ في الآية (٣٧) من سورة القصص: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

الضمير في ﴿ وَجَعَلُواْ ﴾ عائد على كفار العرب العادلين بربهم الأوثان الذين تقدم الرد عليهم من أول السورة.

و﴿ ذَرَأَ ﴾ معناه: خلق وأنشأ وبث في الأرض. يقال: ذرأ الله الخلق يذرؤُهم ذرءًا وذروءًا أي خلقهم وقوله تعالىٰ: «وجعلوا من كذا وكذا نصيباً» يتضمن بقاءَ نصيب آخر ليس بداخل في حكم الأول، فبيَّنه بقوله تعالىٰ: ﴿ فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ ﴾ ﴿ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾، ثم اعترضهم أثناءَ القول بأن ذلك زعْم وتَقوُّل، والزَّعم في كثير كلام العرب أقرب إلى غير اليقين والحق، يقال: زَعْم بفتح الزاي وبه قرأت الجماعة، وزُعْم بضمها، وقرأ الكسائي وحده في هذه الآية[1]، وزِعم بكسر الزاي ولا أحفظ أحداً قرأ به.

و﴿ ٱلْحَرْثِ ﴾ في هذه الآية يريد به الزرع والأشجار وما يكون من الأرض، وقوله تعالى: ﴿ لِشُرَكَآئِنَا ﴾ يريد به الأصنام والأوثان، وسموهم شركاءَ على معتقدهم فيهم أنهم يساهمونهم في الخير والشر ويكسبونهم ذلك.

وسبب نزول هذه الآية أن العرب كانت تجعل من غلاتها وزرعها وثمارها ومن أنعامها جزءًا تسميه للهِ وجزءًا تسميه لأصنامها، وكانت عادتها التحفي والاهتبال بنصيب الأصنام أكثر منها بنصيب الله إذ كانوا يعتقدون أن الأصنام بها فقر وليس ذلك بالله، فكانوا إذا جمعوا الزرع فهبت الريح فحملت مِنَ الذي للهِ إلىٰ الذي لشركائهم أقروه، وإذا حملت مِنَ الذي لشركائهم إلى الله ردُّوه، وإذا تفجر من سقي ما جعلوا لله في نصيب شركائهم تركوه، وإن بالعكس سدُّوه، وإذا لم يصيبوا في نصيب شركائهم شيئاً قالوا: لابُدَّ للآلهة من نفقة فيجعلون نصيب الله تعالىٰ في ذلك، قال هذا المعنىٰ ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، والسدي، وغيرهم. إنهم كانوا يفعلون هذا ونحوه من الفعل، وكذلك في الأنعام، وكانوا إذا أصابتهم السَّنَةُ أكلوا نصيب الله وتحاملوا نصيب شركائهم.

---

(١) هكذا في جميع الإصول، والذي يظهر لنا أن صحة العبارة: «وبها قرأ الكسائي وحده في هذه الآية».

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآبِهِمْ﴾ الآية. قال جمهور المتأولين: إن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يَصِلُ﴾ وبقوله سبحانه: ﴿يَصِلُ﴾ ما قدمنا ذكره من حمايتهم نصيب آلهتهم في هبوب الريح وغير ذلك. وقال ابن زيد: إنما ذلك في أنهم كانوا إذا ذبحوا لله ذكروا آلهتهم على ذلك الذبح، وإذا ذبحوا لآلهتهم لم يذكروا الله، فكأنه قال: «فلا يصل إلى ذكر الله»، وقال: «فهو يصل إلى ذكر شركائهم»، و﴿مَا﴾ في موضع رفع كأنه قال: «ساءَ الذي يحكمون»، ولا يتجه عندي أن يجري هنا ﴿سَآءَ﴾ مجرىٰ «نعم وبئس»، لأن المفسر هنا مضمر ولا بد من إظهاره باتفاق من النحاة، وإنما اتجه أن تجري مجرى «بئس» في قوله تعالىٰ: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾(١) لأن المفسر ظاهر في الكلام(٢).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

الكثير في هذه الآية يراد به من كان يئد من مشركي العرب، والشركاءُ ها هنا الشياطين الآمرون بذلك المزينون له، والحاملون عليه أيضاً من بني آدم الناقلين له عصراً بعد عصر، إذ كلهم مشتركون في قبح هذا الفعل وتبعاتِه في الآخرة، ومقصد هذه الآية الذمُّ للوَأْدِ والإنْحاءُ على فعلته.

---

(١) من الآية (١٧٧) من سورة (الأعراف).

(٢) وقيل: يجوز أن تكون ﴿مَا﴾ تمييزاً على مذهب من يجيز ذلك في (بئسما) فتكون في موضع نصب، والتقدير: «ساءَ حكمهم» ولا يكون (يَحْكُمون) صفة لـ ﴿مَا﴾ لأن الغرض الإبهام، ولكن في الكلام حذف يدل ﴿مَا﴾ عليه، هذه وكعادة أبي حيان في البحر عقَّب على رأي ابن عطية في إعراب ﴿مَا﴾ بقوله: «وهذا قول من شدا يسيراً من العربية ولم يرسخ قدمه فيها، بل إذا جرى ﴿سَآءَ﴾ مجرى (نعم وبئس) كان حكمها حكمهما سواء، لا يختلف في شيء ألبتة من فاعل مضمر أو ظاهر وتمييز، ولا خلاف في جواز حذف المخصوص بالمدح والذم والتمييز فيهما لدلالة الكلام عليه، فقوله: «لأن المفسر هنا مضمر ولا بد من إظهاره باتفاق النحاة إلى آخره» كلام ساقط، ودعواه الاتفاق مع أن الاتفاق على خلاف ما ذكر عجب عجاب». انتهىٰ تعقيب أبي حيان على رأي ابن عطية. وإنما نقلناه هنا لنوضح لك ما ذكرناه في المقدمة من تحامل أبي حيان على ابن عطية، وبخاصة في موضوعات النحو والإعراب مع أنه ينقل عنه في تفسيره الكثير من الآراء ويعتمد عليه اعتماداً واضحاً.

واختلفت القراءَة ـ فقرأَت الجماعة سوى ابن عامر: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ﴾ بفتح الزَّاي ﴿قَتْلَ﴾ بالنصب ﴿أَوْلَٰدِهِمْ﴾ بكسر الدال ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾، وهذه أَبْيَن قراءَة، وحكى سيبويه أنه قرأَت فرقة: [وكذلِكَ زُيِّنَ] بضم الزاي [قَتْلُ] بالرفع ﴿أَوْلَٰدِهِمْ﴾ بكسر الدال ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ بالرفع.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهي قراءَة أَبي عبد الرحمن السلمي، والحسن، وأَبي عبد الملك قاضي الجند صاحب ابن عامر، كأَنه قال: «زَيَّنَهُ شركاؤُهم»، قال سيبويه: وهذا كما قال الشاعر:

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ ... وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا يُطِيعُ الطَّوَائِحُ[1]

كأَنه قال: يبكيه ضارعٌ لخصومة، وأَجاز قطرب أَن يكون الشركاءُ في هذه القراءَة ارتفعوا بالقتل، كأَن المصدر أُضيف إِلى المفعول، ثم ذكر بعده الفاعل كأَنه قال: أَن قتل أَولادهم شركاؤُهم، كما تقول: حبَّب إِلى ركوبَ الفرسِ زيدٌ، أَي: أَن ركب زيدٌ الفرسَ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والصحيح إِذا أُضيف مصدرٌ إِلى مفعول أَلا يذكر الفاعل، وأَيضاً فالجمهور ـ في هذه الآية ـ على أَن الشركاءَ مزيِّنون لا قاتلون. والتوجيه الذي ذكره سيبويه هو الصحيح، ومنه قوله عزَّ وجلَّ على قراءَة من قرأَ: ﴿يُسَبَّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ﴾[2] بفتح الباءِ المشددة، أَي: يسبح رجالٌ.

وقرأَ ابن عامر: [وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ] بضم الزَّاي [قَتْلُ] بالرفع [أَولادَهم] بنصب الدال [شُرَكَائِهِم] بخفض الشركاءِ، وهذه قراءَة ضعيفة في استعمال العرب، ورؤَساءُ العربية لا يُجيزون الفصل بالظرف في مثل هذا إِلا في الشعر كقوله:

كما خُطَّ الكِتَابُ بِكَفِّ يَوْماً ... يَهُودِيٍّ يُقَارِبُ أَو يَزِيلُ[3]

---

(١) سبق الحديث عن هذا البيت عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، من الآية (٧٣) من هذه السورة.

(٢) من الآيتين (٣٦ـ ٣٧) من سورة (النور).

(٣) هذا البيت لأَبي حيَّة النميري، والشاهد فيه إِضافة كلمة (كف) إِلى (يهودي) مع الفصل بالظرف، وهذا=

فكيف بالمفعول في أفصح الكلام؟ ولكن وجّهَها ـ على ضعفها ـ أنها وردت شاذة في بيت أَنشده أَبو الحسن الأخفش وهو:

فَـــزَجَجْتُهـــا بِمِـــزَجَّـــةٍ   زجَّ الْقَلـــوصَ أَبـــي مَـــزادَة[١]

وفي بيت الطِّرِمَّاح وهو قوله:

يَطُفْـنَ بِحُـوزِيِّ المـراتِـع لـم تَـرُعْ   بَـواديـهِ مِـن قَـرْعِ القِسِـيِّ الكَنَـائِـن[٢]

والشركاء ـ على هذه القراءَة ـ هم الذين يتأولون وأد بنات الغير، فهم القاتِلون، والصحيح من المعنى أنهم المُزَيِّنونَ لا القاتلون، وذلك مضمن قراءَة الجماعة.

وقرأَ بعض أَهل الشام ـ ورويت عن ابن عامر ـ: [زِين] بكسر الزاي وسكون الياءِ على الرتبة المتقدمة من الفصل بالمفعول. وحكى الزهراوي أنه قرأَت فرقة من أَهل الشام: [وَكَذَلِكَ زُيِّن] بضم الزاي [قَتْلُ] بالرفع [أَوْلادِهم] بكسر الدال [شركائِهم] بالخفض. والشركاءُ على هذه القراءَةَ هم الأَولاد المؤْوُودون لأَنهم شركاءُ في النسب

= كما يقول ابن عطية غير جائز عند رؤساء العربية مع أنه يتوسعون في الظرف عن غيره، فكيف بالمفعول في أَفصح الكلام؟ والبيت يصف رسوم الدار فيشبهها بالكتاب في دقتها وفي الاستدلال بها، وخص اليهود بالذكر لأنهم أهل الكتاب، وجعل كتابته بعضها متقارب وبعضها مفترق متباين لاقتصاءِ آثار الديار تلك الصفة والحال، وكلمة (يزيل) بفتح الياءِ معناها: يُباعد ويُفرق.

ومثل هذا البيت في جواز الفصْل بين المضاف والمضاف إليه عند من يرى ذلك قول ذي الرُّمَّة:

كَـأَنَّ أَصْـوَاتَ مِـنْ إِيغـالِهِـنَّ بِنَـا   أَواخِـرِ الْمَيْـسِ أَصْواتُ الْفَـراريـج

فقد أضاف (أَصْواتَ) إلى (أواخر المَيْس) مع الفصل بالجار والمجرور، والميْس: شجر تعمل منه الرحال، والإيغال: سرعة السير، فهو يقول: «كأَن أَصوات أَواخر الْمَيْس من شدة سير الإبل بنا واضطراب الرحال، عليها أَصواتُ الفراريج. (عن شرح الشواهد للشمنتمري) وراجع أَيضاً (مجمع البيان لعلوم القرآن جـ ٣ ص٤).

(١) ذكر أبو الحسن الأَخفش هذا البيت دون أن ينسبه لأحد، والزَّج هنا: الطَّعن، والمِزَجَّة بكسر الميم: رمح قصير كالمزاريق، والقَلوص بفتح القاف: الناقة الفتية. يقول: إنه زجَّ امرأَته كما زجَّ أَبو مزادة القلوصَ، وأَبو مزادة كنية رجل. (عن شرح الشواهد الكبرىٰ للعيني ـ باب الإضافة).

(٢) قال في (اللسان): الحُوزيّ: المتوحد وهو الفحل منها ـ يعني الإبل أو البقر. يقول: «إِن البقر تطوف بهذا الفحل المنفرد المُتَوَحِّد في المراتع وهو مع ذلك آمن ساكن لم يُرَع في واديه من قرع الكنائن». وقد نسب صاحب اللسان البيت للطرماح أَيضاً، ونسبه صاحب التاج للعجاج.

هذا والشواهد التي يسوقها النحويون على جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه كثيرة، ويمكن الرجوع إلى (النحو الوافي جـ ٣ باب الإضافة) ففيه تفصيل وتحليل ومناقشة للموضوع.

والمواريث، وكأن وصفهم بأنهم شركاءُ يتضمن حرمة لهم، وفيها بيان لفساد الفعل إذ هو قتْلُ من له حرمة.

و﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ معناه: لِيُهلكوهم. من الردىٰ. ﴿ وَلِيَلْبِسُواْ ﴾ معناه: لِيَخْلطوا، جماعة على كسر الباءِ، وقرأ إبراهيم النَّخعي: [وَلِيَلْبَسوا] بفتح الباءِ، قال أبو الفتح: هي استعارة من اللباس عبارة عن شدة المخالط. وهذان الفعلان يؤيّدان أول قراءة في ترتيبنا في قوله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ يقتضي أن لا شيءَ إلا بمشيئة الله عزَّ وجلَّ، وفيها ردٌّ على من قال: إن المرءَ يخلق أفعاله.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ وعيد محض، و﴿ يَفْتَرُونَ ﴾ معناه: يختلقون من الكذب في تشرعهم بذلك واعتقادهم أنها مباحات لهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

هذه الآية تتضمن تعديد ما شرعوه لأنفسهم والتزموه على جهة القُرْبة كذباً منهم على الله وافتراءً عليه، فوصف تعالىٰ أنهم عمدوا إلى بعض أنعامهم وهي: الإبل والبقر والغنم، أو الإبل بانفرادها، وأمّا غيرها إذا انفرد فلا يقال له أنعام، وإلى بعض زروعهم وثمارها، وسُمّي ذلك حرثٌ إذ عن الحرث يكون، وقالوا: هذه حِجْرٌ، أي: حرام، وقرأ جمهور الناس: ﴿ حِجْرٌ ﴾ بكسر الحاءِ وسكون الجيم، وقرأ قتادة، والحسن، والأعرج: [حُجْر] بضم الحاءِ وسكون الجيم، وقرأ ابن عباس، وأُبي، وابن مسعود، وابن الزُّبَير، والأعمش، وعكرمة، وعمرو بن دينار: [حِرْج] بكسر الحاءِ وتقديم الراءِ على الجيم وسكونها. فالأولى والثانية بمعنىٰ: التحجير وهو المنع والتحريم[1]،

(١) الحِجْر لفظ مشترك، وهو هنا بمعنى الحرام، وأصله المنع، وسُمّي العقل حجراً لمنعه عن القبائح، ويقال: فلان في حجر القاضي، أي في منعه، وحجرتُ على الصبي حجراً، والحجر: العقل، قال الله تعالىٰ: ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾، والحجر: الفرس الأنثى، والحجر: القرابة، قال الشاعر:

يُـــرِيـــدونَ أَنْ يُقْصـــوهُ عنِّـــي وإنَّـــه ... لَـــذو حَسَـــبٍ دَانٍ إلـــيَّ وذو حِجْـــر

والأخيرة من الْحِرْج وهو التضييق والتحريم(١).

وكانت هذه الأنعام ـ على ما قال ابن زيد ـ مُحَلَّلة للرجال مُحَرّمة على النساءِ، وقيل: كانت وقفاً لمطعم سدنة بيوت الأَصنام وخدمتها، حكاه المهدوي، فذلك المراد بقوله تعالىٰ: ﴿مَن نَّشَآءُ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ أي بتقوّلهم الذي هو أَقرب إلى الباطل منه إلى الحق، وزعمهم هنا في قولهم: حِجْرٌ، وتحريمهم بذلك مالم يحرّم الله تعالىٰ: وقرأَ ابن أبي عبلة: [بِزَعَمهم] بفتح الزاي والعين، وكذلك في الذي تقدم.

﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾، كانت للعرب سُنن، إذا فعلت الناقة كذا من جودة النسل والمواصلة بين الإناث ونحوه حُرّم ظهرها فلم تركب، وإذا فعل الفحل كذا وكذا حُرم ظهره، فعدد الله ذلك على جهة الردّ إذ شرعوا ذلك برأيهم وكذبهم.

﴿وَأَنۡعَٰمٌ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾، قيل: كانت لهم سُنة في أَنعام ما أَلاَّ يُحج عليها، فكانت تركب في كل وجه إلا في الحج فذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾، هذا قول جماعة من المفسرين، ويروى ذلك عن أَبي وائل. وقالت فرقة: بل ذلك في الذبائح، يريد أَنهم جعلوا لآلهتهم منها نصيباً لا يذكرون الله على ذبحها. وقوله تعالىٰ: ﴿ٱفۡتِرَآءً﴾ مصدر نصب على المفعول من أَجله، أَو على إضمار فعل تقديره: يفترون ذلك. و﴿سَيَجۡزِيهِم﴾ وعيد بمقارضة الآخرة، والضمير في ﴿عَلَيۡهِۚ﴾ عائد على اسم الله. و﴿يَفۡتَرُونَ﴾ أَي: يكذبون ويختلفون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٣٩﴾.

هذه الآية تتضمن تعديد مذاهبهم الفاسدة، وكانت سنتهم في بعض الأَنعام أن يحرموا ما ولدت على نسائهم ويخصصونه لذكورهم، والهاءُ في [خَالِصَةٌ] قيل: هي

(١) هذا رأي فالحِرْجُ بالكسر فالسكون لغةٌ في الحَرَج بفتح الحاء والراءِ وهو الضيق والإثم، والرأي الثاني أن الحِجْر والحِرْج مثل: جبذ وجذب، فهو من القلب المكاني قاله في «تفسير القرطبي»، وفي «البحر المحيط».

للمبالغة كما هي في (رواية) وغيرها[١]، وهذا كما تقول: فلان خالصتي، وإن كان باب هاءِ المبالغة أَن تلحق بتاءَ مبالغة كعلاَّمة ونسَّابة وبصيرة ونحوه. وقيل: هي لتأنيث الأنعام إذ ما في بطونها أنعام أيضاً[٢]. وقيل: هي على تأنيث لفظ ﴿مَا﴾ لأَن ﴿مَا﴾ واقعة في هذا الموضع موقع قولك: جماعة وجملة[٣].

وقرأَ جمهور القراءُ والناس: ﴿خَالِصَةٌ﴾ بالرفع، وقرأَ عبد الله بن مسعود، وابن جبير، وابن أَبي عبلة، والأَعمش: [خالصٌ] دون هاءٍ. ورفع هاتين القراءَتين على خبر الابتداءِ، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما ـ بخلاف[٤] ـ والأَعرج، وقتادة، وسفيان بن حسين: [خالصةً] بالنصب، وقرأَ سعيد بن جبير ـ فيما ذكر أبو الفتح ـ: [خالصاً]، ونصب هاتين القراءَتين على أَن الحال من الضمير الذي في قوله تعالىٰ: ﴿فِى بُطُونِ﴾ وذلك على تقدير الكلام: «وقالوا: ما استقر هو في بطون هذه الأَنعام» فحذف الفعل وحمل المجرورُ الضميرَ، والحالُ من الضمير والعامل فيها معنى الاستقرار، قال أَبو الفتح: ويصح أَن يكون حالاً من ﴿مَا﴾ على مذهب أَبي الحسن في إِجازته تقديم الحال على العامل فيها. وقرأَ ابن عباس أَيضاً، وأَبو حيوة، والزهري: [خالِصَتُهُ] بإِضافة (خالص) إِلى ضمير يعود على ﴿مَا﴾ ومعناه: ما خلص وخرج حيّاً، والخبر ـ على قراءَة من نصب [خالصةً] في قوله سبحانه: ﴿لِّذُكُورِنَا﴾، والمعنىٰ المراد بـ ﴿مَا﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿مَا فِى بُطُونِ﴾ قال السدي: هي الأَجنة، وقال ابن عباس، وقتادة، والشعبي: هو اللبن، قال الطبري: واللفظ يعمهما.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾ يدل على أَن الهاءَ في ﴿خَالِصَةٌ﴾ للمبالغة، ولو كانت

---

(١) وعلى هذا يكون معنى خالص وخالصة واحد ولا فرق إلا أَن الهاءَ للمبالغة. قاله الكسائي.

(٢) هذا جواب عن اعتراض وردَ على قول من قال: تأنيثهاـ أي خالصة ـ لتأنيث الأَنعام، وهو قول الفراءِ، فقال جماعة: هذا خطأ لأَن مافي بطونها ليس منها ولهذا فهو لا يشبه قوله تعالىٰ: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ لأَن بعض السيَّارة سيارة. والجواب عن ذلك: هذا لا يلزم الفراء لأَن ما في بطون الأَنعام أنعام مثلها فأَنّث لتأنيثها. وهذا هو سر تعبير ابن عطية بهذه الجملة.

(٣) وقيل: إن (ما) يرجع إِلى الأَلبان أو الأَجنَّة، فجاء التأنيث على المعنىٰ والتذكير على اللفظ، ولهذا قال: ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ على اللفظ، ولو راعى المعنى لقال: ومحرّمة، ويعضد هذا قراءَة الأعمش وغيره: ﴿خالصٌ﴾ بغير هاءٍ.

(٤) أي أن هذه الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما موضع خلاف، وانظر بعد ذلك قراءته المروية عنه بالإضافة.

لتأنيث لقال: ومحرمة. و﴿أَزْوَٰجِنَا﴾ يريد به جماعة النساءِ التي هي معدة أَن تكون أَزواجا، قاله مجاهد. وحكى الطبري عن ابن زيد أَن المراد بـ ﴿أَزْوَٰجِنَا﴾ البنات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا يبعد تحليقه على المعنىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾، كان من سُنَّتِهم أَن ما خرج من الأَجنة ميتاً من تلك الأَنعام الموقوفة فهو حلال للرجال والنساءِ جميعاً، وكذلك ما مات من الأَنعام الموقوفة نفسها.

وقرأَ ابن كثير: ﴿وَإِن يَكُن﴾ بالياءِ [مَيْتَةٌ] بالرفع، فلم يلحق الفعل علامة التأْنيث لما كان تأْنيث الفاعل المسند إِليه غير حقيقي، والمعنىٰ: وإِن وقع ميتة أَو حدث ميتة، وقرأَ ابن عامر: [وَإِنْ تَكُن] بالتاءِ [مَيْتَةٌ] بالرفع، فأَلحق الفعل علامة التأْنيث لما كان الفاعل في اللفظة مؤنثاً، وأَسند الفعل إِلى الميتة كما فعل ابن كثير، وقرأَ عاصم في رواية أَبي بكر عنه: [تَكُنْ] بالتاءِ ﴿مَّيْتَةً﴾ بالنصب فأَنَّث وإِن كان المتقدم مذكراً لأَنه حمله على المعنىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالتقدير: وإِن تكن النسمة أَو نحوها ميتة. وقرأَ نافع. وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم في رواية حفص ﴿يَكُن﴾ بالياءِ ﴿مَّيْتَةً﴾ بالنصب، فذكَّروا الفعل لأَنهم أَسندوه إِلى ضمير ما تقدم من قوله تعالىٰ: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهو مذكَّر، وانتصبت الميتة على الخبر. قال أَبو عمرو بن العلاءِ: ويقوي هذه القراءَة قوله تعالىٰ: ﴿فَهُمْ فِيهِ﴾ ولم يقل (فيها)[1]، وقرأَ يزيد بن القعقاع: [وَإِنْ تَكُنْ مَيْتَةٌ] بالتشديد، وقرأَ عبد الله بن مسعود: [فَهُمْ فيه سواءُ].

ثم أَعقب تعالى بوعيدهم على ما وصفوا أَنه من القربات إِلى الله تعالىٰ وشرعوه من الباطل والإِفك[2]، ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ أَي في عذابهم على ذلك، ﴿عَلِيمٌ﴾ بقليل ما تقولوه من ذلك وكثيره.

---

(١) قال أبو حيان: «وهذا ليس بجيد لأن الميتة لكل ميّت ذكراً كان أو أنثىٰ فكأنه قيل: «وإن يكن ميّتاً فهم فيه شركاء». (البحر المحيط).

(٢) جاء هذا الوعيد في قوله تعالىٰ: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي: كذبهم وافتراءَهم، وانتصب (وَصْفَهُمْ) بنزع الخافض، إذ المعنى: سيجزيهم بوصفهم، والله أعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾.

هذا لفظ يتضمن التشنيع بقبح فعلهم والتعجب من سوءِ حالهم في وأدهم البنات وحجرهم الأَنعام والحرث. قال عكرمة: وكان الوأد في ربيعة ومضر.

قال القاضي أَبو محمد رحمهم الله:

وكان جمهور العرب لا يفعله، ثم إِن فاعليه كان منهم من يفعله خوف العيلة والإِقتار، وكان منهم من يفعله غيرة مخافة السباءِ. وقرأَ ابن عامر، وابن كثير، [قتَّلوا] بتشديد التاءِ على المبالغة، وقرأَ الباقون: ﴿ قَتَلُوٓاْ ﴾ بتخفيفها.

و﴿ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ هي تلك الأَنعام والغلات التي توقف ـ بغير شرع ولا مثوبة في مَعَاد، بل بالافتراءِ على الله والكذب. و﴿ قَدْ ضَلُّواْ ﴾ إِخبار عنهم بالحيْرة، وهو من التعجب بمنزلة قوله تعالىٰ: ﴿ قَدْ خَسِرَ ﴾. ﴿ وَمَا كَانُواْ ﴾ يريد: في هذه الفعلة، ويحتمل أَن يريد: وما كانوا قبل ضلالهم بهذه الفعلة مهتدين، ولكنهم زادوا بهذه الفعلة ضلالاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ ﴾ الآية. هذا تنبيه على مواضع الاعتبار، و﴿ أَنشَأَ ﴾ معناه: خلق واخترع، والجَنَّة مأخوذة من جنَّ إِذا ستر، و﴿ مَّعْرُوشَٰتٍ ﴾ قال ابن عباس: ذلك في ثمر العنب، ومنها ما عُرِشَ وسُمِّك، ومنها ما لم يعرش، وقال السدي: المعروشات، ما عرش كهيئة الكرْم، وغيره: البساتين، وقيل: المعروش: هو ما يعترشه بنو آدم من أَنواع الشجر، وغير المعروش: ما يحدث في الجبال والصحراءِ ونحو ذلك. وقيل: المعروش: ما حلق بحائط، وغير المعروش: مالم يحلق. و﴿ مُخْتَلِفًا ﴾ نصب على الحال على تقدير حصول الاختلاف في ثمرها لأَنها حين الإِنشاءِ لا ثمرة فيها، فهي حال مقدرة تجيءُ بعد الإِنشاءِ[1].

---

(١) المعنىٰ أن الله أَنشأَ الزرع والنخل مقدراً فيهما الاختلاف، وقد مثَّل لهذا سيبويه بقوله: «مررت برجل=

و﴿ مُتَشَٰبِهًا﴾ يريد: في المنظر، و﴿ وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾ في المطعم، قاله ابن جريج وغيره.

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ نفس الإباحة وهو مضمن الإشارة إلى النعمة بذلك، ويُقرأُ [مِنْ ثُمُره] بضم الثاءِ، وقد تقدم. ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قالت طائفة من أَهل العلم: هي في الزكاة المفروضة، منهم ابن عباس، وأَنس بن مالك، والحسن بن أَبي الحسن، وطاوس، وجابر بن زيد، وسعيد بن المسيب، وقتادة، ومحمد بن الحنفية، والضحاك، وزيد بن أَسلم، وابنه، وقاله مالك بن أَنس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول معترض بأَن السورة مكية وهذه الآية على قول الجمهور غير مستثناة، وحكى الزجاج أَن هذه الآية قيل فيها إِنها نزلت بالمدينة، ومعترض أَيضاً بأَنه لا زكاة فيما ذكر من الرمان وجميع ما هو في معناه.

وقال ابن الحنفية أيضاً، وعطاء، ومجاهد، وغيرهم من أَهل العلم: بل قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ﴾ ندب إلى إعطاء حقوق من المال غير الزكاة، والسنة أَن يعطي الرجل من زرعه عند الحصاد، وعند الذَّرْو، وعند تكديسه في البيدر، فإذا صفَّى وكال أَخرج من ذلك الزكاة، وقال الربيع بن أَنس: حقُّه: إِباحة لقط السنبل، وقالت طائفة: كان هذا حكم صدقات المسلمين حتى نزلت الزكاة المفروضة فنسختها، ورُوي هذا عن ابن عباس، وابن الحنفية، وإِبراهيم، والحسن، وقال السدي، الآية في هذه السورة

= معه صقر صائداً به غداً» على الحال، كما تقول: «لَتَدْخُلُنّ الدار آكلين شاربين»، اي مقدرين ذلك.
وقيل: ﴿ أُكُلُهُۥ﴾ مرفوع بالابتداءِ و﴿ مُخْتَلِفًا﴾ نعتُه، لكنه لما تقدم عليه وَوَلِيَ منصوباً نُصب، كما تقول: «عندي طبّاخاً غلام»، وكما قال الشاعر:

الشَّـرُّ منتَشِـرٌ يَلْقَـاكَ عَـنْ عُـرُضٍ ... والصَّـالحـاتُ عَلَيْهـا مُغْلَقـاً بـابُ

وقيل: إن الله لما أَنشأَ الزرع والنخل كان مختلفاً أُكُله، على معنى أنه لو كان له أكل لكان مختلفاً أكله.
قال الزجاج: هذه مسألة مشكلة من النحو ـ وقد جاء التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿ أُكُلُهُۥ﴾ ولم يقل ﴿أكُلُهما﴾ باعتباره يعود على الزرع والنخل لأَنه اكتفى بإعادة الذكرْ على أحدهما كقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ ولم يقل (إِلَيْهما) وقال الحوفي: «والهاءُ في ﴿ أُكُلُهُۥ﴾ عائد على ما تقدم من ذكر هذه الأشياء المنشئات»، وعلى هذا يكون الحال من جميع ما أَنشأ لا من النخل والزرع فقط، وردَّ عليه أبو حيان بقوله «لو كان كذلك لكان التركيب الصحيح (مختلفاً أكلها)، وأجيب بأن ذلك على تقدير محذوف هو في الأَصل مضاف، أي (ثمر جنات. . .) وروعي هذا المحذوف في هاء ﴿ أُكُلُهُۥ﴾.

مكية نسختها الزكاة، فقال له سفيان: عمَّن؟ قال: عن العلماء[(١)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والنسخ غير مترتب في هذه الآية لأن هذه الآية وآية الزكاة[(٢)] لا تتعارض، بل تنبني هذه على الندب وتلك على الفرض.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وحمزة، والكسائي: [حِصادَه][(٣)]، وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: [حَصَادَه] بفتح الحاءِ، وهما لغتان في المصدر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ الآية. مَنْ قال إن الآية في الزكاة المفروضة جعل هذا النهي عن الإسراف إما للناس عن التَّمَتُّع عن أدائها لأن ذلك إسراف من الفعل، وقاله سعيد بن المسيب، وإما للولاة عن التَّشطط على الناس والإذاية لهم، فذلك إسراف من الفعل، وقاله ابن زيد، ومَنْ جعل الآية على جهة الندب إلى حقوق غير الزكاة ترتب له النهي عن الإسراف في تلك الحقوق لما في ذلك من الإجحاف بالمال وإضاعته[(٤)].

وروي أن الآية نزلت بسبب أن ثابت بن قيس بن شماس حصل غلة له فقال: «والله لا جاءَني اليوم أحد إلا أطعمته»، فأمسى وليس عنده ثمرة فنزلت هذه الآية، وقال أبو العالية: كانوا يعطون شيئاً عند الحصاد ثم تباروا فيه وأسرفوا فنزلت الآية. ومن قال إنها منسوخة ترتب له النهي في وقت حكم الآية.

---

(١) نقل القرطبي هذا الخبر بالنص التالي (وقال سفيان: سألت السدِّي عن هذه الآية فقال: نسخها العشر ونصف العشر، فقلت: عمَّن؟ قال: عن العلماء).

(٢) هي قوله تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ الآية (١٠٣) من سورة (التوبة)، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الآية (٤٣) من سورة (البقرة).

(٣) أي بكسر الحاءِ بدليل قوله تعالىٰ بعد القراءَة الثانية: «بفتح الحاءِ» وهو هنا يقول: «وهما لغتان في المصدر». لكن ابن خالويه يقول في كتابه «الحجة في القراءات السبع»: «بفتح الحاءِ وكسرها فرقا بين الاسم والمصدر على ما قدمنا القول فيه أو على أنهما لغتان». ومثلُ (حَصاد) في ذلك: الصَّرام والصِّرام والجَذاذُ والجِذاذُ.

(٤) الإسراف في النفقة: التبذير، ويؤكد هذا ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: (المُعتدي في الصدقة كمانِعِها)، وقصة ثابت بن قيس التي ذكرت على أنها سبب نزول الآية تؤيد ذلك، وقد قال عليه الصلاة السلام: (خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿حَمُولَةً﴾ عطف على ﴿جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾، والتقدير: وأَنشأنا من الأنعام حَمولة، والحَمولة: ما تَحَمَّل الثِّقالَ من الإبل والبقر عند مَن عادته أَن يحمِلَ عليها، والهاءُ في ﴿حَمُولَةً﴾ للمبالغة، وقال الطبري: هو اسم جمع لا واحد له من لفظه. والفَرْش: مالا يحمل ثقلاً كالغنم وصغار البقر والإبل، هذا هو المروي عن ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وغيرهم، يقال له: الفَرْش والفَريش، وذهب بعض الناس إلى أَن تسميته فرشاً إنما هي لوطاءَته وأنه مما يمتهن ويتوطأُ ويتمكن من التصرف فيه إذا قرب جسمه من الأَرض.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: الحَمولة: الإبل والخيل والبغال والحمير. ذكره الطبري.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا منه تفسير لنفس اللفظة لا من حيث هي في هذه الآية، ولا مدخل في الآية لغير الأَنعام، وإنما خصت بالذكر من جهة ما شرعت فيها العرب.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ نص إباحة وإزالة ما سنَّه الكفار من البحيرة والسائبة وغير ذلك ـ ثم تابع النهي عن تلك السنن بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وهي جمع خطوة[1]، أَي: لا تمشوا في طرقه المضلة، وقد تقدم في سورة البقرة اختلاف القراءِ في خطوات[2]، ومن شاذّها قراءَة علي رضي الله عنه، والأَعرج، وعمرو

(١) جاءَ في (اللسان): «الخُطوة بالضم: ما بيْن القدمَيْن والجمع خُطْوات وخُطُوات وخُطىٰ ـ والخَطْوة بالفتح: الفعل للمرة الواحدة، والجمع خَطَوات بالتحريك وخِطاءٌ مثل رَكْوة وركاء». وقال ابن خالويه في كتابه «الحجة في القراءات السبع»: «الخَطوة بفتح الخاءِ: الاسم، وبضمها، قدرُ ما بَين قدميك».

(٢) وذلك عند تفسير الآية رقم (١٦٨) من سورة (البقرة) وهي قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

ابن عبيد [خُطُؤَات] بضم الخاء والطاء وبالهمزة، قال أبو الفتح: وذلك جمع خطأة من الخطإ، ومن الشاذ قراءة أبي السّمال: ﴿خُطُوَاتِ﴾ بالواو دون همزة، وهو جمع خُطْوة، وهي ذرع ما بين قدمي الماشية، ثم علَّل النهي عن ذلك بتقرير عداوة الشيطان لابن آدم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثَمَٰنِيَةَ﴾ اختلف في نصبها ـ فقال الأخفش عليُّ بن سليمان: بفعل مضمر تقديره: كلوا لحم ثمانية أزواج، فحذف الفعل والمضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه، وقيل: نصب على البدل من [ما] في قوله تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، وقيل: نصبت على الحال، وقيل: نصبت على البدل من قوله تعالىٰ: ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾. وهذا أصوب الأقوال وأجراها مع معنى الآية. وقال الكسائي: نَصَبَهَا ﴿أَنشَأَ﴾. والزوج: الذَّكر، والزوج: الأُنثىٰ، كل واحد منهما زوج صاحبه، وهي أربعة أنواع فتجيءُ ثمانية أزواج.

والضأن: جمع ضائِنَة وضائِن، وقرأَ طلحة بن مصرف، وعيسى بن عمر، والحسن: ﴿مِّنَ ٱلضَّأَنِ﴾ بفتح الهمزة، وقرأَ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ﴾ بسكون العين، وهو جمع ماعز وماعزة، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وابن عامر: [ومِنَ الْمَعَزِ] بفتح العين. فضان ومعْز كراكب وركب وتاجر وتجْر، وضأن ومعَز كخادم وخَدم ونحوه. وقرأَ أبان بن عثمان: ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَانِ﴾ على الابتداء والخبر المقدم، ويقال في جمع ماعز: مَعْزٌ ومَعَزٌ ومَعيز ومِعْزَى وأُمْعُوز[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾، هذا تقسيم على الكفار حتى يتبين كذبهم على الله، أَي: لا بُدَّ أن يكون حرَّم الذكَرين فيلزمكم تحريم جميع الذكور، أَو الأُنثيين فيلزمكم تحريم جميع الإِناث، ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ فيلزمكم تحريم الجميع، وأَنتم لم تلتزموا شيئاً مِمَّا يوجبه هذا التقسم، وفي هذه السؤالات تقرير وتوبيخ.

ثم أَتبع تقريرهم وتوبيخهم بقوله تعالىٰ: ﴿نَبِّـُٔونِى﴾ أَخبروني ﴿بِعِلْمٍ﴾ أَي من جهة نبوءَة أَو كتاب من كتب الله ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، و﴿إِن﴾ شرط وجوابه في

---

(١) ويجمع كذلك على مَوَاعِز ومِعَازٌ، قال القطامي:

فَصَلَّيْنَا بِهِمْ وسَعَى سِوَانَا ... إِلَى البَقَرِ الْمُسَيَّبِ والمِعَازِ

ومن الشواهد على مجيء مَعيز قول امرىء القيس:

وَيَمْنَحُهَا بَنُو شَمَجَى بنِ جَرْمٍ ... مَعِيزَهُمُ حَنَانَكَ ذا الحَنَانِ

﴿نَبِّـُٔونِي﴾، وجاز تقديم جواب هذا الشرط لما كانت ﴿إِن﴾ لا يظهر لها عمل في الماضي، ولو كانت ظاهرة العمل لما جاز تقديم الجواب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

القول في هذه الآية في المعنى وترتيب التقسيم كالقول المتقدم في قوله سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ﴾، وكأنه قال: أأنتم الذين تدعون أن الله حرَّم خصائص من هذه الأنعام، فلا يخلو تحريمه من أن يكون في الذكرين أو في الأنثيين أو فيما اشتملت عليه أَرحام الأُنثيين، لكنه لم يحرم لا هذا ولا هذا فلم يبق إلا أنه لم يقع تحريم.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ﴾. الآية استفهام على جهة التوبيخ، إِذ لم يبق لهم الادعاءُ المحال والتقول أَنهم شاهدوا وصية الله لهم بهذا.

و﴿شُهَدَآءَ﴾ جمع شهيد، ثم تضمن قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ذكرَ حال مفتري الكذب على الله وتقريرَ إِفراط ظلمه. وقال السدي: كان الذين سيَّبوا وبحَّروا يقولون: الله أَمرنا بهذا، ثم بين تعالىٰ سوءَ مقصدهم بالافتراءِ، لأَنه لو افترىٰ أَحد فرية على الله لغير معنى لكان ظلماً عظيماً فكيف إِذا قصدبها إِضلال أُمة. وقد يحتمل أَن تكون اللام في ﴿لِّيُضِلَّ﴾ لام صيرورة.

ثم جزم الحكَمَ لا ربَّ غيره بأَنه لا يهدي القوم الظالمين، أَي: لا يرشدهم، وهذا عموم في الظاهر، وقد تبين تخصيصه مما يقتضيه الشرع من أَن يهدي ظَلَمة كثيرة بالتوبة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾.

هذا أَمر من الله عزَّ وجلَّ بأَن يشرع للناس جميعاً ويبين عن الله ما أُوحي إِليه، وهذه الآية نزلت بمكة ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت شيءٌ محرم غير هذه الأَشياءِ، ثم نزلت سورة المائدة بالمدينة وزيد في المحرمات كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة. فإِن هذه وإِن كانت في حكم الميتة فكان في النظر احتمال أَن تلحق بالمذكيات لأَنها بأَسباب وليست حتف الأَنف[١]. فلما بيَّن النص إِلحاقها بالميتة كان زيادة في المحرمات، ثم نزل النص على رسول الله ﷺ في تحريم الحمر بوحي غير معجز، وبتحريم كل ذي ناب من السباع، فهذه كلها زيادات في التحريم، ولفظة التحريم إِذا وردت على لسان رسول الله ﷺ فإِنها صالحة أَن تنتهي بالشيءِ المذكور إِلى غاية المنع والحظر، وصالحة بحسب اللغة أَن تقف دون الغاية في حيز الكراهية ونحوها، فما اقترنت به قرينة التسليم من الصحابة المتأَولين وأَجمع عليه الكل منهم ولم تضطرب فيه أَلفاظ الأَحاديث وأَمضاه الناس على أَذْلاله[٢] وجب بالشرع أَن يكون تحريمه قد وصل الغاية من الحظر والمنع، ولحق بالخنزير والميتة، وهذه صفة تحريم الخمر. وما اقترنت به قرينة أَلفاظ الحديث واختلفت الأُمة فيه مع علمهم بالأَحاديث كقوله عليه الصلاة والسلام: (كلُّ ذي ناب من السِّباع حرام)[٣] وقد ورد نهي رسول الله ﷺ عن أَكل كلِّ ذي ناب من السباع[٤]، ثم اختلفت الصحابة ومن بعدهم في تحريم ذلك فجاز ـ لهذه الوجوه ـ لمن ينظر أَن يحمل لفظ التحريم على المنع الذي هو الكراهية ونحوها. وما اقترنت به قرينة التأْويل كتحريمه عليه الصلاة والسلام لحوم

---

(١) يقال: مات حتف أَنفه وحتف أنفيْه: مات على فراشه بلا ضرب ولا قتل، وقد يقال: مات حتف فيه، وذلك أَن العرب كانت تتخيل أَن المرءَ إِذا قتل خرج روحه من مقتله، فإِذا مات بلا قتل فقد خرج روحه من أَنفه أَو من فيه. (المعجم الوسيط).

(٢) يقال: أَجْرِ الأَمور على أَذْلالها، وإِن قضاء الله ماض على أَذْلاله، ودَعْه على أذْلاله، أَي: كما هو ـ وفي حديث ابن مسعود: (ما من شيءٍ من كتاب الله إِلا وقد جاءَ على أَذْلاله). والمعنى في ذلك كله أن الأَمور جاءَت سهلة على مجاريها ومسالكها. ومفرد أذْلال: ذِل بكسر الذال يقال: الزم ذِلَّ الطريق، أي السهل المعبد منه، ولذلك قيل: طريق مُذَلَّل، أي مُعَبد. (أساس البلاغة).

(٣) رواه الإمام أحمد ولفظه: (أَكْلُ كُلِّ ذي ناب من السباع حرام).

(٤) أخرجه مسلم، والبخاري، والترمذي، وأَبو داود في سننه، ولفظه كما في مسلم: (عن أبي ثعلبة الخشني أَن رسول الله ﷺ نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع)، وفي رواية (وعن كل ذي مخلب من الطير).

الحمر الإنسيَّة فتأَول بعض الصحابة الحاضرين ذلك لأنها نجس، وتأَول بعضهم ذلك لئلا تفنىٰ حمولة الناس، وتأَول بعضهم التحريم المحض، وثبت في الأُمة الاختلاف في تحريم لحمها فجائز لمن ينظر من العلماء أَن يحمل لفظ التحريم بحسب اجتهاده وقياسه على كراهة أَو نحوها.

وروي عن ابن عامر أَنه قرأَ [فيما أَوْحَى إِلَيَّ] بفتح الهمزة والحاءِ، وقرأَ جمهور الناس: ﴿يَطْعَمُهُۥٓ﴾. وقرأَ أَبو جعفر محمد بن علي: [يَطَّعِمُه] بتشديد الطاء وكسر العين. وقرأَ محمد بن الحنفية، وعائشة، وأَصحاب عبد الله: [طَعِمَه] بفعل ماض. وقرأَ نافع، والكسائي، وأَبو عمرو، وعاصم: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾ بالياءِ على تقدير: إلا أَن يكون المطعوم. وقرأَ ابن كثير، وحمزة، وأَبو عمرو أَيضاً: [إِلاَّ أَن تَكُونَ] بالتاءِ من فوق ﴿مَيۡتَةً﴾ على تقدير: إلا أَن تكون المطعومة. وقرأَ ابن عامر وحده ـ وذكرها مكي عن أَبي جعفر ـ: [إِلاَّ أَن تَكُونَ] بالتاءِ [مَيْتَةٌ] بالرفع على أَن تجعل [تَكون] بمعنى (تقع)، ويحتاج ـ على هذه القراءَة ـ أَن يعطف ﴿دَمًا﴾ على موضع [أَن تكون] لأَنها في موضع نصب بالاستثناء. والمسفوح: الجاري الذي يسيل، وجعل الله سبحانه وتعالىٰ هذا فرقاً بين القليل والكثير، والمسفوح: السائل من الدم والدمع ونحوه، ومنه قول الشاعر ـ وهو طرفة ـ:

إِذَا مَا عَادَهُ مِنَّا نِسَاءٌ ... سَفَحْنَ الدَّمْعَ مِن بَعْدِ الرَّنِينِ(١)

وقول امرىء القيس:

وإِنَّ شِفَائي عَبْرَةٌ إِنْ سَفَحْتُهَا ... وهَلْ عندَ رسْمٍ دارسٍ من مُعَوَّلِ(٢)

فالدم المختلط باللحم والدمُ الخارج من مرق اللحم وما شاكل هذا حلال، والدم غير المسفوح هو هذا وهو معفو عنه، وقيل لأَبي مجلز في القدر تعلوها الحمرة من الدم قال: إِنما حرَّم الله المسفوح، وقالت نحوه عائشة وغيرها، وعليه إِجماع العلماءِ، وقيل: الدمُ حرام لأَنه إِذا زايل فقد انسفح.

---

(١) البيت في ديوانه (طبعة ليدن سنة ١٩١٣) وفيه: (منها) بدلا من (مِنَّا) و(صفحن) بدلاً من (سفحن)، ومعنى (سَفَحْن) أَرَقْن، والرنين: البكاءُ بصوت. والحديث عن رجل طعنه بالرمح طعنة قوية وكان يحاول أَن يقوم منها فلا يستطيع، وإِذا ما عاده النساء بكين عليه بصوت مرتفع وسفحن الدمع حزناً عليه.

(٢) العَبْرَةُ: الدَّمْعَة، وسَفَحْتُها: أَرَقْتُها، ودَرَسَ: عَفَا وذهب أَثَرُه. ومِنْ مُعَوَّل: مِنْ مَبْكَىً، مأخوذ من العويل وهو الصياح عند البكاءِ، وقد يكون المعنى: منْ أَمْرٍ يُعَوَّل عليه، أي يُعتمد عليه.

والرجس: النَّتن والحرام، يوصف بذلك الأَجرام والمعاني كما قال عليه الصلاة والسلام: (دعوها فإنها مُنْتنة)[1] الحديث. فكذلك قيل في الأَزلام رجس. والرجس أَيضاً: العذاب لغة بمعنى الرجز، وقوله تعالىٰ: ﴿أَوۡ فِسۡقًا﴾ يريد ذبائحهم التي يختصون بها أَصنامهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ الآية، أَباح الله فيها مع الضرورة ركوب المحظور دون بغي، واختلف الناس فيم ذا؟ ـ فقالت فرقة: دون أَن يبغي الإِنسان في أكله فيأْكل فوق ما يقيم رمقه وينتهي إِلى حد الشبع وفوقه. وقالت فرقة: بل دون أَن يبغي في أَن يكون سفره في قطع طريق أَو قتل نفس، أَو يكون تصرفه في معصية، فإِن ذلك لا رخصة له، وأَما من لم يكن بهذه الأَحوال فاضطر فله أَن يشبع ويتزود، وهذا مشهور قول مالك بن أَنس رحمه الله، وقال بالأَول الذي هو الاقتصار على سدّ الرمق عبد الملك بن حبيب رحمه الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ إِباحة تعظيمها قوة اللفظ[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦﴾.

---

(١) الحديث رواه البخاري في تفسير سورة المنافقين، وكذلك الترمذي، ورواه مسلم في البر، ورواه الإمام أحمد، ولفظه كما رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: (كنا في غزاة. فَكَسَع رجل من المهاجرين رجلاً من الأَنصار، فقال الأَنصاري: يا للأَنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذاك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى جاهلية، قالوا: يارسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأَنصار، فقال: دعوها فإِنها منتنة... إلخ الحديث وهو طويل). ـ ومعنىٰ (كَسَعَ) ضربه بيده في دبره، ومعنىٰ (مُنْتِنَة) مذمومة في الشرع مُجْتَنبةٌ مكروهة كما يُجْتنب الشيءُ النَّتِن. (عن ابن الأَثير في النهاية).

(٢) اختلف العلماء في الآية الكريمة: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ...﴾ أهي محكمة أم منسوخة؟ فقيل: هي محكمة، وعلى هذا فلا شيءَ محرم من الحيوان إلا فيها، وليس هذا مذهب الجمهور، وقيل: هي منسوخة بآية المائدة: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ وينبغي أن يفهم هذا النسخ بأنه نسخ للحصر فقط، وقيل: جميع ما حرَّم داخل في الاستثناء هنا سواء أكان بنص القرآن أو حديث عن الرسول ﷺ بالاشتراك في العلّة وهي الرجسية.

لمَّا ذكر الله تعالىٰ ما حرَّم على أُمة محمد ﷺ أَعقب ذلك بذكر ما حرَّم على اليهود لِمَا في ذلك من تكذيبهم في قولهم: إِن الله لم يحرم علينا شيئاً، وإِنما حرمنا على أَنفسنا ما حرمه إِسرائيل على نفسه.

وقد تقدم القول في سورة البقرة في ﴿هَادُوا﴾ ومعنىٰ تسميتهم يهودا.

و﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ يراد به الإِبل والنعام والأَوز ونحوه من الحيوان الذي هو غير منفرج الأَصابع وله ظفر. وقال أَبو زيد: «المراد الإِبل خاصة». وضعف هذا التخصيص. وذكر النقاش عن ثعلب أَن كل مالا يصيد فهو ذو ظفر، وما يصيد فهو ذو مخلب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

«وهذا غير مطرد لأَن الأَسد ذو ظفر»[1].

وقرأَ جمهور الناس: ﴿ظُفُرٍ﴾ بضم الظاءِ والفاءِ، وقرأَ الحسن والأَعرج [ظُفْر] بسكون الفاءِ، وقرأَ أَبو السمال قعنب [ظِفْر] بكسر الظاءِ وسكون الفاءِ.

وأخبرنا الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية بتحريم الشحوم على بني إِسرائيل، وهي الثروب[2]، والكلى وما كان شحماً خالصاً خارجاً عن الاستثناء الذي في الآية.

واختلف العلماءُ في تحريم ذلك على المسلمين من ذبائح اليهود ـ فحكى ابن المنذر في «الأَشراف» عن مالك وغيره منع أكل الشحم من ذبائح اليهود، وهو ظاهر «المدونة».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا على القول في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾[3] بأَنه المطعوم من ذبائحهم، وأَما مالا يحل لهم فلا تقع عليه ذكاة بل هو كالدم في ذبائح المسلمين، وعلى هذا القول يجيءُ قول مالك رحمه الله في «المدونة» فيما ذبحه اليهودي مما لا يحل لهم كالجمل والأَرنب: إِنه لا يُؤكل.

(١) هذه العبارة كما يفهم من الكلام هنا منسوبة لابن عطية، لكن أبا حيان في البحر المحيط نسبها للنقاش.
(٢) الثُّرُوب: جمع ثَرْبٍ وهو شحم رقيق يُغَشِّيَ الكَرِشَ والأَمعَاءَ.
(٣) من الآية (٥) من سورة (المائدة).

وروي عن مالك رحمه الله كراهية الشحم من ذبائح أَهل الكتاب دون تحريم، وأَباح بعض الناس الشحم من ذبائح أَهل الكتاب وذبحهم ما هو عليهم حرام إِذا أمرهم بذلك مسلم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا على أَن يجعل قوله تعالىٰ: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾[٢] يراد به الذبائح، فمتى وقع الذبح على صفته وقعت الإِباحة، وهذا قول ضعيف لأَنه جرَّد لفظة ﴿وَطَعَامُ﴾ من معنى أن تكون «مطعوماً» لأَهل الكتاب وخلَّصها لمعنى «الذبح»، وذلك حرجٌ لا يتوجه.

وأَما الطريق[١] فحرمه قوم، وكرهه قوم، وأَباحه قوم، وحلله مالك في «المدونة» ثم رجع إِلى منعه. وقال ابن حبيب: ما كان محرماً عليهم وعَلِمْنا ذلك من كتابنا فلا يحل لنا من ذبائحهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ يريد ما اختلط باللحم في الظهر والأَجناب ونحوه، وقال السدي، وأَبو صالح: الأَلْيَات[٢] مما حملت ظهورهما. ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ قال: هو جمع حَوِيَّة على وزن فعيلة، فوزن (حَوَايَا) على هذا فعائل كسفينة وسفائن. وقيل: هو جمع حاوية على وزن فاعلة، فـ (حَوَايَا) على هذا فواعل كضاربة وضوارب. وقيل: جمع حاوياءُ فوزنها على هذا أَيضاً فواعل كقاصعاءٍ وقواصع، وأَما الحوايا على الوزن الأَول فأَصلها حَوَائِي فقلبت الياءُ الأَخيرة أَلفاً فانْفتحت لذلك الهمزة ثم بدلت ياءً، وأَما على الوزنين الأَخيرين فأَصل ﴿حَوَايَا﴾ حواوي، وبدلت الواو الثانية همزة. والحويَّة: ماتَحَوَّى في البطن واستدار وهي المصارين والحشوة ونحوهما. وقال مجاهد، وقتادة، وابن عباس، والسدي، وابن زيد: ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾:

---

(١) الطرَّيق: من قولهم: طرَّقت المرأة والناقة: نَشِب ولدها في بطنها ولم يسهل خروجه، قال أوس بن حجر:

لهَا صَرخَةٌ ثمَّ إِسْكَاتَةٌ ... كما طرَّقت بنفاسٍ بكْرُ

وقال الليث: كل حامل تُطَرِّق إذا خرج من الولد نصفه ثم نَشِب فيقال: طَرَّقت ثم خلصت.

(٢) جمع أَلْيَة بفتح الهمزة وهي العجيزة للإنسان وغيره، أَلْيَة الشاة وأَلْيَة الإنسان، وفي الحديث (كانوا يجْتَبُّونَ أَلَيَاتِ الغَنَم أَحْيَاءً). وقيل: الأَلْيَةُ: هي ما ركب العجز من اللحم والشَّحْم. (اللسان).

المباعر[١]، وقال بعضهم: هي المرابط التي تكون فيها الأمعاءُ وهي بنات اللبن[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ يريد في سائر الشخص.

و﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ معطوف على ﴿مَا﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ﴾، فهي في موضع نصب عطفاً على المنصوب بالاستثناءِ. وقال الكسائي: ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ معطوف على (الظهور) كأنه قال: إلا ما حملت ظهورهما أو حملت الحوايا، وقال بعض الناس: ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ معطوف على (الشحوم).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا تدخل ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ في التحريم، وهذا قول لا يعضده اللفظ ولا المعنىٰ بل يدفعانه[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾ في موضع رفع، و﴿جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ يقتضي أن هذا التحريم إنما كان عقوبة لهم على ذنوبهم وبغيهم واستعصائهم على الأنبياءِ، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ إخبار يتضمن التعريض بكذبهم في قولهم: «ما حرَّم الله علينا شيئاً وإنما اقتدينا بإسرائيل فيما حرَّم على نفسه» ويتضمن إدحاض قولهم وَرَدَّه عليهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾.

يريد: فإن كذبوك فيما أخبرت به أن الله حرمه عليهم وقالوا: لم يحرم الله علينا شيئاً، وإنما حرمنا ما حرَّم إسرائيل على نفسه. قال السدي: وهذه كانت مقالتهم، فقل

---

(١) جمع مَبْعَر، سمي بذلك لاجتماع البعرْ فيه، والبَعْر هو الزِّبل.

(٢) يريد: خزائن اللبن ومصادره التي يتجمع فيها قبل الحلب.

(٣) نقل أبو حيان كلام ابن عطية هذا ثم علّق عليه بقوله: «ولم يبين دفع اللفظ والمعنىٰ لهذا القول» مما يوحي بعدم الموافقة على كلام ابن عطية.

يا محمد على جهة التعجب من حالهم والتعظيم لِفِرْيَتهم في تكذيبهم لك مع علمهم بحقيقة ما قلت: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾، إِذْ لا يعاجلكم بالعقوبة مع شدة جُرمكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كما تقول عند رؤْية معصية أَو أَمر مبغي: ما أَحلم الله، وأَنت تريد: لإمهاله على مثل ذلك. ففي قوله: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ قوة وصفهم بغاية الاجترام وشدة الطغيان.

ثم أَعقب هذه المقالة بِوَعِيدٍ في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فكأَنه قال: ولا تغتروا أَيضاً بسعة رحمته فإِن له بأْساً لا يُردُّ عن المجرمين إِما في الدنيا وإِما في الآخرة، وهذه الآية وما جانسها من آيات مكة مرتفعٌ حُكْمُه بالقتال. وأَخبر الله عزَّ وجلَّ نبيه عليه الصلاة والسلام أَن المشركين سيَحْتَجُّونَ لصواب ما هم عليه من شركهم وتدينهم بتحريم تلك الأَشياءِ بإِمهال الله تعالىٰ وتقريره حالهم، وأَنه لو شاءَ غير ذلك لما تركهم على تلك الحال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبيَّنَ أَن المشركين لا حجة لهم فيما ذكروه لأَنا نحن نقول: إِن اللهَ عزَّ وجلَّ لو شاءَ ما أَشركوا، ولكنه عزَّ وجلَّ شاءَ إِشراكهم، وأَقدرهم على اكتساب الإِشراك والمعاصي ومحبته[1] والاشتغال به، ثم علق العقاب والثواب على تلك الأَشياءِ والاكتسابات وهو الذي يقتضيه ظاهر القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2]، ونحو ذلك. ويلزمهم على احتجاجهم أَن تكون كل طريقة وكل نحلة صواباً، إِذْ كلها لو شاءَ اللهُ لم تكن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقال بعض المفسرين: إِنما هذه المقالة من المشركين على جهة الاستهزاءِ. وهذا ضعيف.

---

(١) الضمير في (محبته) يعود على (الإشراك).

(٢) تكررت في الآيتين(٨٢) و(٩٥) من سورة (التوبة).

وتعلَّقت المعتزلة بهذه الآية فقالت: إن الله قد ذمّ لهم هذه المقالة، وإنما ذَّمها لأَن كفرهم ليس بمشيئة الله تعالىٰ، بل هو خلق لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس الأَمر على ما قالوا، وإنما ذم الله تعالىٰ ظن المشركين أَن ما شاءَ اللهُ لا يقع عليه عقاب، وأَما أَنه ذمَّ قولهم: «لولا المشيئة لم نكفر»، فَلاَ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، وفي الكلام حذف يدل عليه تناسق الكلام، كأَنه قال: سيقول المشركون كذا وكذا، وليس في ذلك حجة لهم، ولا شيءَ يقتضي تكذيبهم، ولكن كذلك كذب الذين من قبلهم بنحو هذه الشبهة من ظنهم أَن ترك الله لهم دليل على رضاه بحالهم.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا﴾ وعيد بيِّن، وليس في الآية ردٌّ منصوص على قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾، وإنما تُرك الردُّ عليهم مقدراً في الكلام لوضوحه وبيانه. وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ معطوف على الضمير المرفوع في ﴿أَشۡرَكۡنَا﴾، والعطف على الضمير المرفوع لا يردُّه قياس، بخلاف المنصوب، لكن سيبويه قد قبح العطف على الضمير المرفوع، ووَجْه قبحه أَنه لما بني الفعل صار كحرف من الفعل فَقَبُح العطف عليه لشبهه بالحرف، وذلك كقولك: «قمت وزيد»، لأَن تأْكيده فيه يبين معنى الاسمية ويذهب عنه شبه الحرف، وحسن عند سيبويه العطف في قوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ لما طال الكلام بِـ ﴿وَلَآ﴾ فكأَن معنى الاسمية اتضح واقتضت ﴿وَلَآ﴾ ما يعطف بعدها[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ﴾ الآية. المعنىٰ: قل يا محمد للكفرة: هل عندكم من علم من قِبَلِ الله فتبينوه حتى تقوم به الحجة. و﴿مِن﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿مِّنۡ عِلۡمٖ﴾ زائدة مؤكدة، وجاءَت زيادتها لأَن الاستفهام داخل في غير الواجب. ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أَي: لا شيءَ عندكم إلا الظن، وهو أَكذب الحديث.

---

(١) البصريون لا يجيزون العطف على الضمير المرفوع إلا بالفصل، وقد جاء الفصل هنا بـ (لا) ويستثنون من ذلك الشعر فيجيزون فيه ذلك بدون فصل، أَما الكوفيون فيجيزون ذلك في كل الأحوال وهو عندهم فصيح، وقد جاء الفصل في سورة النحل في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ فقال سبحانه ﴿مِن دُونِهِۦ﴾، وقال ﴿نَّحۡنُ﴾ فأَكّد بالضمير. قاله أبو حيان في «البحر المحيط».

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ على المخاطبة، وقرأ إبراهيم النخعي، وابن وثاب: [إِنْ يَتَّبعون] بالياءِ حكاية عنهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهي قراءَة شاذة يضعفها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَنتُمْ﴾، و﴿تَخْرُصُونَ﴾ معناه: تقدرون وتظنون وترجمون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

ثم أَعقب تعالىٰ أَمره نبيَّه ﷺ بتوقيفِ المشركين على موضع عجزهم بأَمره إِياه بأَن يقول مبيِّناً مفصحاً: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾، يريد: البالغة غاية المقصد في الأمر الذي يحتج فيه، ثم أَعلم بأَنه لو شاءَ لهدى العالم بأَسره.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية ترد على المعتزلة في قولهم: إِن الهداية والإِيمان إِنما هي من العبد لا من الله، فإِن قالوا: معنىٰ ﴿لَهَدَاكُمْ﴾ لاضطركم إِلىٰ الهدى فسد ذلك بمعتقدهم أن الإِيمان الذي يريده الله من عباده ويثيب عليه ليس الذي يضطر إِليه العبد، وإِنما هو عندهم الذي يقع من العبد وحده.

و(هَلُمَّ) معناها: هات، وهي حينئذٍ متعدية، وقد تكون بمعنىٰ: أَقْبِل فهي حينئذ لا تتعدىٰ، وبعض العرب يجعلها إِسماً للفعل كـ (رويدك) فيخاطب بها الواحد والجميع والمذكر والمؤنث على حدّ واحد، وبعض العرب يجعلها فعلا فيركب عليها الضمائر فيقول: هلُمّ يا زيد، وهلُمُّوا أَيها الناس، وهلُمِّي يا هند، ونحو هذا، وذكر اللغتين أَبو علي في الأغفال، وقال أَبو عبيدة: اللغة الأُولى لأَهل العالية، واللغة الثانية لأَهل نجد، وقال سيبويه والخليل: أَصلها: هالُمّ، وقال بعضهم: أَصلها: هالُمُمْ وحذفت الأَلف لالتقاءِ الساكنين فجاءَ هلُمم، فحذف من قال أَصلها: هالُمّ، أَدغم من قال أَصلها هالُمُمْ على غير قياس.

ومعنى هذه الآية: قل هاتوا شهداءكم على تحريم الله ما زعمتم أنه حرَّمه، ثم قال الله تعالىٰ لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ أي: فإن افترىٰ لهم أحد وزوّر شهادة أَو خبراً عن نبوة ونحو ذلك فتجنب أَنت ذلك ولا تشهد معهم. وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ قوة وصف شهادتهم بنهاية الزور، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ﴾[1] يريد: لاتنحط في شهوات الكفرة وتوافقهم على أقوالهم، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عطف نعت على نعت كما تقول: جاءَني زيد الكريم والعاقل، هذا مذهب معظم الناس. وقال النقاش: نزلت في الدهرية من الزنادقة ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أَنداداً يُسوونهم به، وإن كانت في الزنادقة فعَدْلُهم غير هذا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

هذا أَمر من الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه ﷺ أَن يدعو جميع الخلق إِلى سماع تلاوة ما حرم الله بشرع الإسلام المبعوث به إِلى الأَسود والأَحمر.

و﴿تَعَالَوْاْ﴾ معناه: أَقبلُوا، وأَصله من العلّو، فكأَن الدعاءَ لما كان أمراً من الداعي استعمل فيه ترفيع المدعوّ[2]، وتعالىٰ هو مطاوع عالي، إِذ تفاعل هو مطاوع فاعل.

و﴿أَتْلُ﴾ معناه: أَسْرد وأَنص من التلاوة التي هي إِتباع بعض الحروف بعضاً، و﴿مَا﴾ نصب بقوله تعالىٰ: ﴿أَتْلُ﴾، وهي بمعنىٰ الذي، وقال الزجاج: يجوز أَن يكون قوله تعالىٰ ﴿أَتْلُ﴾ معلَّقا عن العمل و﴿مَا﴾ نصب بـ ﴿حَرَّمَ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قَلِقٌ: و[أَنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ﴾ يصح أَن تكون في موضع رفع

---

(١) العطف في هذه الآية يدل على مغايرة الذوات. ويحتمل أن يكون بسبب تغاير الصفات والموصوف واحد، وهو رأي أكثر الناس.

(٢) قال ابن الشجري: «جعلوا التقدم ضرباً من العلوّ والارتفاع لأن المأمور بالتقدم في أصل وضع الفعل كأنه كان قاعداً فقيل له: تعال: أي ارفع شخصك بالقيام وتقدم، واتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشي»، قارن هذا بالتعليل الذي ذكره ابن عطية.

بالابتداء والتقدير: الأمر أَن، أَو: ذلك أَن. ويصح أَن تكون في موضع نصب على البدل من ﴿ مَا ﴾، قاله مكي وغيره.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمعنىٰ يبطله فتأَمله.

ويصح أَن تكون مفعولاً من أَجله، والتقدير: إِرادة أَن لا تشركوا به شيئاً، إِلا أَنَّ هذا التقدير يُخرج ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ ﴾ من المتلوِّ ويجعله سبباً لتلاوة المحرمات.

و﴿ تُشْرِكُوا۟ ﴾ يصح أَن يكون منصوباً بـ [أَنْ]، ويتوجه أَن يكون مجزوماً بالنهي وهو الصحيح في المعنى المقصود. و(أَنْ) قد توصل بما نصبته، وقد توصل بالفعل المجزوم بالأَمر والنهي، و﴿ شَيْـًٔا ﴾ عام يراد به كل معبود من دون الله.

و﴿ إِحْسَٰنًا ﴾ نصب على المصدر، وناصبه فعل مضمر من لفظه تقديره: وأَحسنوا بالوالدين إِحساناً.

والمحرمات تنفكُّ من هذه المذكورات بالمعنى وهي: الإِشراك والعقوق وقرب الفواحش وقتل النفس.

وقال كعب الأَحبار: هذه الآيات مفتتح التوراة ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ إِلى آخر الآية. وقال ابن عباس: هذه الآيات هي المحكمات التي ذكرها الله في سورة آل عمران اجتمعت عليها شرائع الخلق ولم تنسخ قط في ملَّة، وقد قيل: إِنها العشر الكلمات المنزَّلة على موسىٰ عليه السلام.

وإِن اعترض من قال إِنَّ ﴿ تُشْرِكُوا۟ ﴾ منصوب بـ [أَنْ] بعطف المجزومات عليه فذلك موجود في كلام العرب، وأَنشد الطبري حجة لذلك:

حَـجَّ وأَوْصَـىٰ بِسُلَيْمـى الأَعْبُـدا ... أَنْ لا تَـرى ولاَ تُكَلِّـمْ أَحَـداً
ولا يَـزَلْ شَـرابُهـا مُبَـرَّدَا[1]

---

(١) هذه الأبيات الثلاثة من مشطور الرجز، ولم نعثر فيما لدينا من المراجع على قائلها، والشاهد فيها أن (لا) في قوله: (أن لا ترى) نافية ومع ذلك فقد عطف الشاعر عليها الفعل مجزوماً بلا الناهية في قوله: (ولا تُكَلِّمْ) وفي قوله: (ولا يَزَلْ).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم﴾ الآية، نهيٌ عن عادة العرب في وأْدِ البنات، والولد يعُمّ الذكر والأُنثى من البنين. والإملاق: الفقر وعدم المال. قاله ابن عباس وغيره، يقال: أَمْلق الرجل إذا افتقر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويشبه أَن يكون معناه: أَمْلَق أَي: لم يبق له إلا الْمَلَق، كما قالوا: أَتْرَبَ إذا لم يبق له إلا التُّراب، وأَرْمَلَ إذا لم يبق له إلا الرمل. والْمَلَق: الحجارة السود واحدته: مَلَقَة، وذَكَرَ منذر بن سعيد[١] أن الإملاق: الإنفاق، ويقال: أَمْلَق ماله بمعنى أَنفقه، وذُكِرَ أَن عَلِيًّا قال لامرأَة: أمْلقي من مالك ما شئْتِ، وذكر النقاش عن محمد بن نعيم الترمذي أنه السرف في الإنفاق، وحكى أَيضاً النقاشُ عن مُؤَرِّجٍ أَنه قال: الإملاق: الجوع بلغة لخم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ نهي عام عن جميع أنواع الفواحش وهي المعاصي. و﴿ظَهَرَ﴾ و﴿بَطَنَ﴾ حالتان تستوفيان أَقسام ما جعلت له من الأَشياءِ، وذهب بعض المفسرين إلى أَن القصد بهذه الآية أَشياءَ مخصصات، فقال السدي، وابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَا ظَهَرَ﴾ هو زنى الحوانيت الشهير، و﴿وَمَا بَطَنَ﴾ هو متخذات الأَخدان، وكانوا يستقبحون الشهير وحده فحرَّم الله الجميع، وقال مجاهد: ﴿مَا ظَهَرَ﴾ هو نكاح حلائل الآباءِ ونحو ذلك، و﴿وَمَا بَطَنَ﴾ هو الزنىٰ، إلى غير هذا من تخصيص لا تقوم عليه حجة، بل هو دعوى مجردة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟﴾ الآية متضمنة تحريم قتل النفس المسلمة والمعاهدة، ومعنى الآية: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الذي يوجب قتلها، وقد بيَّنته الشريعة وهو الكفر بالله وقتل النفس والزنىٰ بعد الإحصان والحرابة وما تشعب من ذلك.

---

(١) هو منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن النَّفْري القرطبي ـ أبو الحكم البلوطي ـ قاضي قضاة الأندلس في عصره، كان بصيراً بالجدل منحرفاً إلى مذاهب أصحاب الكلام، له كتب في القرآن والسُّنة منها: «أحكام القرآن» و«الإبانة عن حقائق أُصول الديانة» ـ و«الناسخ والمنسوخ». (الكامل لابن الأثير. ونفح الطيب، وبغية الملتمس).

و﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى هذه المحرمات، والوصيَّة: الأمر المؤكد المقرر، ومنه قول الشاعر:

أَجِــدَّكَ لــمْ تَسْمَــعْ وَصــاةَ مُحَمَّــدٍ نَبِيِّ الإلٰـه حِيـنَ أَوْصَـىٰ وأَشْهَـدَا[1]

وقوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ترجٍّ بالإضافة إلينا، أي من سمع هذه الوصيَّة ترجَّى وقوع أَثر العقل بعدها وتمييز المنافع والمضار في الدين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

هذا نهي عن القرب الذي يعم وجوه التصرف، وفيه سدّ الذريعة، ثم استثنىٰ ما يحسن وهو التثمير والسعي في نمائه. قال مجاهد: التي هي أَحسن: التجارة فيه ممن كان من الناظرين له مال يعيش به، فالأَحسن ـ إذا ثمر مال اليتيم ـ أَلاَّ يأْخذ منه نفقة ولا أُجرة ولا غيرها. ومن كان من الناظرين لا مال له ولا يتفق له نظر إلا بأَن ينفق على نفسه من ربح نظره وإلا دعته الضرورة إلى ترك مال اليتيم دون نظر، فالأَحسن أَن ينظر ويأْكل بالمعروف. قاله ابن زيد.

والأَشدّ: جمع شَدٍّ، وجمع شدَّةٍ[2]، وهو هنا الحزم والنظر في الأُمور وحسن التصرف فيها.

---

(١) البيت لميمون بن قيس الأَعشىٰ، وهو من قصيدته المعروفة التي قالها في مدح الرسول ﷺ، ومطلعها:

أَلَــمْ تَغْتَمِـضْ عَيْنَـاكَ لَيْلَـةَ أَرْمَـدَا وَعَـادَكَ مـا عَـادَ السَّلِيـمَ المُسَهَّـدَا

وقوله: (أَجِدَّك) معناه: أَهذا جِدٌّ منك؟ والوَصَاةُ والوصيَّة: ما يُوصىٰ به ويُطْلب تنفيذه على جهة الفرض والتأْكيد.

(٢) الأَشُدُّ: مبلغ الرجل في الحنكة والمعرفة، قال أَبو عبيد: واحدها شَدٌّ في القياس ولم أَسمع لها بواحدة، وقال سيبويه: واحدها شِدَّةٌ كنِعْمَةٍ وأَنْعُم، وقال ابن جني: إنه جمع لا واحد له من لفظه، وقال السيرافي: القياس: شَدٌّ وأَشُدّ مثل قَدٌّ وأَقُدّ. (عن لسان العرب).

وقد قيل: إن انتهاءَ الكهولة فيها مجتمع الأَشُدّ كما قال سُحَيْم بن وثيل:

أَخُــو خمسيــن مُجْتَمِــعٌ أَشُــدِّي ونجَّــذنــي مُــداوَرَةُ الشُّــؤون

ولكن هذا المعنى لا يستقيم هنا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه اللهُ:

وليس هذا بالأَشُدّ المقرون ببلوغ الأَربعين، بل هذا يكون مع صغر السنّ في ناس كثير، وتلك الأَشد هي التجارب والعقل المحنك ولكن قد خلطهما المفسرون، وقال ربيعة، والشعبي، ومالك فيما روي عنه، وأَبو حنيفة: بلوغ الأَشد: البلوغ مع أَلاَّ يثبت سفه، وقال السدي: الأَشُدّ: ثلاثون سنة، وقالت فرقة: ثلاثة وثلاثون سنة، وحكىٰ الزجاج عن فرقة: ثماني عشرة سنة وضعَّفه ورجح البلوغ مع الرشد، وحكى النقاش أَن الأَشد هنا من خمس عشرة إِلى ثلاثين. والفقه ما رجَّح الزجاج وهو قول مالك رحمه اللهُ: الرشد وزوال السَّفَه مع البلوغ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه اللهُ:

وهذا أَصح الأَقوال وأَليقها بهذا الموضع.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ الآية أَمر بالاعتدال في الأَخذ والإِعطاء، والقسط: العدل، وقوله سبحانه: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يقتضي أَن هذه الأَوامر إِنما هي فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرز، لا أَنه مُطالب بغاية العدل في نفس الشيءِ المتصرف فيه. قال الطبري: لما كان الذي يعطي ناقصاً يتكلف في ذلك مشقة والذي يعطي زائداً يتكلف أَيضاً مثل ذلك، رفع الله عزَّ وجلَّ الأَمر بالمعادلة حتى لا يتكلف واحد منهما مشقة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ يتضمن الشهادات والأَحكام والتوسط بين الناس وغير ذلك، أَي: ولو كان ميل الحق على قراباتكم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أَن يراد جميع ما عهده الله إِلى عباده، ويحتمل أَن يراد به جميع ذلك مع جميع ما انعقد بين إِنسانين ويضاف إِلى ذلك العهد إِلى الله من حيث قد أَمر بحفظه والوفاءِ به. وقوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تَرَجٍّ بحسبنا.

وقرأ ابن كثير، وأَبو عمرو: [تَذَّكَّرُون] بتشديد الذال والكاف جميعاً، وكذلك ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ و[يَذَّكَّر الإِنْسَانُ][1] وما جرىٰ من ذلك مشدَّدا كله، وقرأ نافع، وعاصم في رواية أَبي بكر، وابن عامر كل ذلك بالتشديد إِلا قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (٦٧) من سورة (مريم): ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾.

فإنهم خففوها، وروى أبان، وحفص عن عاصم [تَذْكُرون] خفيفة الذال في كل القرآن، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيف الذال إذا كان الفعل بالتاءِ وإذا كان بالياءِ قرأه بالتشديد، وقرأ حمزة وحده في سورة الفرقان: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾[1] بسكون الذال وتخفيف الكاف، وقرأ ذلك الكسائي بتشديدهما وفتحهما.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

الإشارة هي إلى الشرع الذي جاءَ به محمد ﷺ بجملته. وقال الطبري: الإشارة هي إلى هذه الوصايا التي تقدمت من قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ بفتح الهمزة وتشديد النون ﴿صِرَاطِي﴾ ساكن الياءِ، وقرأ حمزة والكسائي: [وَإِنَّ] بكسر الألف وتشديدالنون، وقرأ عبد الله بن أَبي إِسحق، وابن عامر من السبعة: [وأَنْ] بفتح الهمزة وسكون النون [صراطيَ] مفتوح الياءِ، فأَمَّا مَن فتح الأَلف فالمعنى عنده كأَنه قال: «ولأَن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه»[2]، أَي: «اتبعوه لكونه كذا»، وتكون الواو ـ على هذا ـ إنما عطفت جملة على جملة، ويصح غير هذا أن يعطف على ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾، وكأَن المحرم من هذا اتباع السبل والتنكيب عن الصراط الأَقوم. ومَن قرأَ بتخفيف النون عطف على قوله تعالىٰ: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾، ومذهب سيبويه أَنها المخففة من الثقيلة، وأَن التقدير: «وأَنه هذا صراطي». ومَن قرأَ بكسر الأَلف وتشديد النون فكأَنه استأْنف الكلام وقطعه من الأَول، وفي مصحف ابن مسعود: «وهذا صراطي» بحذف «أَن».

وقال ابن مسعود: إن الله جعل طريقاً صراطاً مستقيماً طرفه محمد ﷺ وشرعه، ونهايته الجنة، وتتشعب منه طرق، فمن سلك الجادَّة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أَفضت به إلى النار[3]، وقال أَيضاً: خطَّ لنا رسول الله صلى الله عليه سولم يوماً خطاً،

(١) من قوله تعالىٰ في الآية: (٦٢) من سورة (الفرقان): ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

(٢) ومثلها قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ أَي: لا تدعوا مع الله أحداً لأن المساجد لله.

(٣) أَخرجه ابن جرير الطبري عن أَبان. (تفسير القرطبي).

فقال: هذا سبيل الله، ثم خط عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطوطاً، فقال: هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها، ثم قرأ هذه الآية[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية تَعُمّ أهل الأهواءِ والبدع والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوءِ المعتقد.

وتقدم القول في ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم﴾ وفي قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾، ومن حيث كانت المحرمات الأُول لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله جاءَت العبارة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، والمحرمات الأُخر شهوات وقد يقع فيها من العقلاءِ من لم يتذكر جاءت العبارة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، ثم لما كان ركوب الجادة الكاملة يتضمن فعل الفضائل وتلك درجة التقوى جاءَت العبارة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ في هذه الآية إنما مهلتها في ترتيب القول الذي أُمر به محمد ﷺ، كأنه قال: «ثم مما وصيناه أَنا آتينا موسىٰ الكتاب»، ويدعو إلى ذلك أَن موسى عليه السلام متقدم في الزمان على محمد ﷺ وتلاوته ما حرَّم الله[٢]. و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراة، و﴿تَمَامًا﴾ نصب على المصدر.

---

(١) أخرجه أحمد، وعبد بن حميد، والنسائي، والبزار، وابن المنذر، وابن أَبي حاتم، وأَبو الشيخ، وابن مردويه، والحاكم وصححه ـ عن ابن مسعود. ونصه: «خط رسول الله ﷺ خطاً بيده ثم قال: هذا سبيل الله مستقيماً، ثم خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثم قال: وهذه السبُل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾». وأخرج أحمد، وابن ماجه، وغيرهما مثله عن جابر بن عبد الله (الدر المنثور).

(٢) هذا تعليل ابن عطية لاستعمال «ثم» التي تفيد الترتيب والتراخي في هذا الموضع، وهناك آراءٌ كثيرة ذكرها أَبو حيان في «البحر المحيط» ثم قال: «وهذه الأقوال كلها مُتكلَّفَة، والذي ينبغي أَن يُذهب إليه أنها استعملت للعطف كالواو من غير اعتبار مهملة». وخلاصة تعليل ابن عطية أن «ثُمَّ» هنا لترتيب القول لا لترتيب الزمن والمهلة فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ مُخْتَلف في معناه ـ فقالت فرقة: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ بمعنىٰ: الَّذين، و﴿أَحْسَنَ﴾ فعل ماض صلة (الذين)، وكأن الكلام: «وآتينا موسى الكتاب تفضلاً على المحسنين من أَهل ملّته وإتماماً للنعمة عندهم». هذا تأْويل مجاهد، وفي مصحف عبد الله: «تماماً على الَّذين أَحْسَنوا» فهذا يؤيد ذلك التأْويل. وقالت فرقة: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ غير موصولة والمعنىٰ: «تماماً على ما أَحْسَن هو من عبادة ربه والاضطلاع بأُمور نبوته»، يريد موسى عليه السلام، وهذا تأْويل الربيع وقتادة، وقالت فرقة: المعنىٰ: ﴿تَمَامًا﴾ أَي تفضُّلاً وإكمالاً على الذي أَحسن الله فيه إلى عباده من النبوات والنعم وغير ذلك، فـ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ أَيضاً في هذا التأْويل غير موصولة، وهذا تأْويل ابن زيد.

وقرأَ يحيى بن يَعْمر، وابن أَبي إسحٰق: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ بضم النون، فجعلها صفة تفضيل ورفعها على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: «على الذي هو أَحسن». وضعَّف أَبو الفتح هذه القراءَة لقبح حذف المبتدأِ العائد. وقال بعض نحويي الكوفة: يصح أَن يكون ﴿أَحْسَنَ﴾ صفة لِـ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ من حيث قارب المعرفة إذ لا تدخله الأَلف واللام، كما تقول العرب: «مررتُ بالذي خير منك»، ولا يجوز «بالذي عالم»، وخطَّأَ الزجاج هذا القول الكوفي، و﴿وَتَفْصِيلًا﴾ يريد: بياناً وتقسيماً. و﴿لَّعَلَّهُم﴾ ترجٍّ بالإضافة إلى البشَر، و﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أَي بالبعث الذي الإيمان به نهاية تصديق الأَنبياء صلوات الله عليهم، إذ لا تلزمه العقول بذواتها، وإنما ثبت بالسمع مع تجويز العقل له.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿وَهَٰذَا﴾ إشارة إلى القرآن، و﴿مُبَارَكٌ﴾[1] وصف بما فيه من التوسعات وإزالة

---

(١) قال أَبو حيان في «البحر»: «﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ و﴿مُبَارَكٌ﴾ صفتان لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾، وكان الوصف بالإنزال آكد من الوصف بالبركة فقدم، لأَن الكلام مع من ينكر رسالة الرسول ﷺ وينكر إنزال الكتب الإلهية وكونه=

أَحكام الجاهلية وتحريماتها، وجمع كلمة العرب ووَحدَة أَيدي متَّبعيه، وفتح الله على المؤمنين به، ومعناه: مُنَمَّى خيره مُكَثَّر، والبَرَكة: الزيادة والنمو. و﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ دعاءٌ إِلى الدين، ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ الأَظهر فيه أَنه أَمر بالتقوى العامة في جميع الأشياء بقرينة قوله تعالىٰ: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

و﴿ أَن﴾ من قوله تعالىٰ: ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ﴾ في موضع نصب، والعامل فيه ﴿ أَنزَلْنَٰهُ﴾، والتقدير: «وهذا كتاب أنزلناه كراهية أَنْ»، وهذا أَصح الأَقوال وأَضبطها للمعنى المقصود، وقيل: العامل في ﴿ أَن﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ فكأَنه قال: «واتقوا أَن تقولوا»، وهذا تأْويل يتخرج على معنى: واتقوا أَن تقولوا كذا لأَنه لا حجة لكم فيه، ولكن يعرض فيه قَلَق لقوله تعالىٰ أَثناء ذلك: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وفي التأْويل الأَول يتَّسق نظم الآية.

والطائفتان: اليهود والنصارى بإِجماعٍ من المتأَولين، والدراسة: القراءَة والتعلم بها، و﴿ وَإِن﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن كُنَّا﴾ مخففة من الثقيلة، واللام في قوله تعالىٰ: ﴿ لَغَٰفِلِينَ﴾ لام توكيد. هذا مذهب البصريين، وحكىٰ سيبويه عن بعض العرب أَنهم يخففونها ويُبقونها على عملها، ومنه قراءَة بعض أَهل المدينة: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا﴾[١]، وأَما المشهور فإِنها إذا خففت ترجع حرف ابتداءٍ ولا تعمل. وأَما على مذهب الكوفيين فـ ﴿إِن﴾ في هذه الآية بمعنىٰ (ما) النافية، واللام بمعنىٰ (إلا)، فكأَنه قال: «وما كنا عن دراستهم إِلاَّ غافلين»[٢].

= مباركاً عليهم هو وصف حاصل لهم منه متراخ عن الإنزال، فلذلك تأخر الوصف بالبركة وتقدم الوصف بالإنزال، وكان الوصف بالفعل المسند إلى نون العظمة ﴿ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أولى من الوصف بالاسم ﴿ مُبَارَكٌ﴾ لما يدل عليه الإسناد إلى الله تبارك وتعالىٰ من التعظيم الشريف، وليس ذلك في الاسم لو كان التركيب (مُنَّزل) أو (مُنَزَّلٌ مِنَّا). (البحر ٤ـ ٢٥٦)».

(١) من الآية (١١١) من سورة (هود) وهي قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

(٢) قال الزمخشري: ﴿ وَإِن كُنَّا﴾ هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، والأَصل: «وإن كنا عن دراستهم غافلين» على أن الهاءَ ضمير. واعترض على ذلك أَبو حيان في «البحر المحيط» بما يفند كلامه فارجع إليه إن شئت، وقال قطرب في مثل هذا التركيب: «(إِنْ) بمعنى (قد) واللام زائدة» وكأن الكلام ـ على قوله ـ: «وقد كنا عن دراستهم غافلين».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

معنى هذه الآية إزالة الحجة عن أيدي قريش وسائر العرب بأنهم لم يكن لهم كتاب، فكأنه قال: وهذا القرآن يا معشر العرب أُنزل حجة عليكم لئلا تقولوا: إنما أُنزلت التوراة والإنجيل بغير لساننا على غيرنا، ونحن لم نعرف ذلك، فهذا كتاب بلسانكم ومع رجل منكم.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ جملة معطوفة على الجملة الأولىٰ، وهي في غرضها من الاحتجاج على الكفار وقطع تعلقهم في الآخرة بأن الكتب إنما أُنزلت على غيرهم، وأنهم غافلون عن الدراسة والنظر في الشرع، وأنهم لو نزل عليهم كتاب لكانوا أسرع إلى الهدى من الناس كلهم، فقيل لهم: قد جاءكم بيان من الله وهدىً ورحمة.

ولما تقرر أن البيِّنة قد جاءت والحجة قد قامت حَسُن ـ بعد ذلك ـ أن يقع التقرير بقوله تعالىٰ: فَمَنْ أشد ظلماً ممن كذب بهذه الآيات البيِّنات.

﴿وَصَدَفَ﴾ معناه: حاد وراغ وأعرض. وقرأ يحيىٰ بن وثاب، وابن أبي عبلة: [كَذَبَ] بتخفيف الذال. والجمهور ﴿كَذَّبَ﴾ بتشديد الذال، و﴿سَنَجْزِى الَّذِينَ﴾ وعيد، وقرأت فرقة ﴿يَصْدِفُونَ﴾ بكسر الدال، وقرأت فرقة [يَصْدُفون] بضم الدال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوٓا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

الضمير في ﴿يَنظُرُونَ﴾ هو للطائفة التي قيل لها قَبْلُ: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وهم العادلون بربهم من العرب الذين مضت أكثر آيات السورة في جدالهم، و﴿يَنظُرُونَ﴾ معناه: ينتظرون. و﴿الْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ هنا يراد بها ملائكة الموت الذين يصحبون عزرائيل المخصوص بقبض الأرواح، قاله قتادة ومجاهد وابن جريج. ويحتمل أن يريد الملائكة الذي يتصرفون في قيام الساعة، وقرأ حمزة والكسائي: [إلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمْ] بالياءِ، وقرأ الباقون: ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾ بالتاءِ من فوق.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ قال الطبري: لموقف الحساب يوم القيامة، وأسند ذلك إلى قتادة وجماعة من المتأولين. وحكىٰ الزجّاج أن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يَأْتِيَ

رَبُّكَ﴾ أي العذاب الذي يسلطه الله في الدنيا على من يشاءُ من عباده كالصيحات والرجفات والخسف ونحوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الكلام على كل تأويل فإنما هو بحذف مضاف تقديره: أمر ربك، أو بطش ربك، أو حساب ربك، وإلا فالإتيان المفهوم من اللغة مستحيل في حق الله تعالىٰ: ألا ترى أن الله تعالىٰ يقول: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾(١)، فهذا إتيان قد وقع وهو على المجاز وحذف المضاف.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾، أما ظاهر اللفظ لو وقفنا معه فيقتضي أنه توعدهم بالشهير الفظيع من أشراط الساعة دون أن يخص من ذلك شرطاً يريد بذلك الإبهام الذي يترك السامع مع أقوى تخيله، لكن لما قال بعد ذلك: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا﴾ وبيَّنَت الآثار الصحاح في البخاري ومسلم أن الآية التي معها هذا الشرط هي طلوع الشمس من المغرب قَوي أن الإشارة بقوله: ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾ إنما هي إلى طلوع الشمس من مغربها. وقال بهذا التأويل مجاهد وقتادة والسدي وغيرهم، ويقوىٰ أيضاً أن تكون الإشارة إلى غرغرة الإنسان عند الموت أو ما يكون في مثابتها لمن لم يغرغر، ففي الحديث أن توبة العبد تقبل مالم يغرغر(٢)، وهذا إجماع لأن من غرغر وعاين فهو في عداد الموتىٰ: وكون المرءِ في هذه الحالة من آيات الله تعالىٰ، وهذا على من يرىٰ الملائكة المتصرفين في قيام الساعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فمقصد هذه الآية تهديد الكافرين بأحوال لا يخلون منها، كأنه قال: هل ينظرون مع إقامتهم على الكفر إلا الموت الذي لهم بعده أشد العذاب، والأخذات المعهودة لله عزَّ وجلَّ، أو الآيات التي ترفع التوبة وتعلم بقرب القيامة؟

---

(١) من الآية (٢) من سورة (الحشر).

(٢) الحديث بلفظ (إن الله عزَّ وجلَّ ليقبل توبة العبد ما لم يغرغر) أخرجه الترمذي في الدعوات، وابن ماجه في الزهد، والإمام أحمد في أكثر من موضع. (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي). ومعنى يغرغر: تبلغ روحه رأس حلقه. قاله القرطبي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه اللهُ:

ويصح أَن يريد بقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ جميع ما يقطع بوقوعه من أَشراط الساعة، ثم خصص ـ بعد ذلك ـ بقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ الآية التي ترفع التوبة معها. وقد بيَّنت الأَحاديث أَنها طلوع الشمس من مغربها(١).

وقرأَ زهير الفُرْقبي(٢): ﴿يَوْمَ يَأْتِي﴾ بالرفع، وهو على الابتداءِ والخبر في الجملة التي هي: ﴿لَا يَنفَعُ﴾ إلى آخر الآية، والعائد من الجملة محذوف لطول الكلام، وقرأَ ابن سيرين، وعبد الله بن عمرو، وأَبو العالية: [لاَ تَنْفَعُ] بتاءٍ، وأَنث الإِيمان لما أُضيف إِلى مؤنث، أَو لما نُزِّل منزلة التوبة، وقال جمهور أَهل التأْويل كما تقدم: الآية التي لا تنفع التوبة من الشِّرك أَو من المعاصي بعدها هي طلوع الشمس من المغرب. وروي عن ابن مسعود أنها إحدى ثلاث، إِما طلوع الشمس من مغربها، وإِما خروج الدابة، وإِما خروج يأْجوج ومأْجوج(٣).

قال القاضي أَبو محمد رحمه اللهُ:

وهذا فيه نظر لأَن الأَحاديث تردُّه وتُخصِّص الشمس، ورُوي في الحديث (أَن الشمس تجري كل يوم حتى تسجد تحت العرش وتستأْذنه فيؤذن لها في الطلوع من المشرق، وحتى إِذا أَراد الله عزَّ وجلَّ سدَّ باب التوبة أَمرها بالطلوع من مغربها)(٤). قال

---

(١) منها ما رواه أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وأَبو يعلى، وابن أَبي حاتم، وأَبو الشيخ، وابن مردويه ـ عن أَبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ قال: (طلوع الشمس من مغربها)، وأَخرج مثله الطبراني، وابن عدي، وابن مردويه، عن أَبي هريرة، والأَحاديث في ذلك كثيرة.

(٢) زهير الفُرقبي بضم الفاءِ وسكون الراءِ ـ يعرف بالنحوي، وقيل له: الفرقبي لأَنه كان يتاجر إِلى ناحية فُرْقب، له اختيار في القراءَة وكان في زمن عاصم. مات سنة ١٥٦، وقيل: ١٥٥ (راجع طبقات القراء).

(٣) في صحيح مسلم عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عيه وسلم: (ثلاثٌ إِذا خرجْن لا ينفع نفساً إِيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إِيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها والدجّال ودابة الأرض).

(٤) أخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، ومسلم، وعبد بن حميد، وغيرهم ـ عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ أن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة ضحىٰ، فأَيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها، ثم قال عبد الله ـ وكان قد قرأ الكتب ـ وأَظن أولها خروجاً طلوع =

ابن مسعود وغيره عن النبي ﷺ: (فتطلع هي والقمر كالبعيرين القرينين)[١]، ويقوي النظر أيضاً أَن الغرغرة هي الآية التي ترفع معها التوبة.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ يريد جميع أَعمال البر وفرضها ونفلها، وهذا الفصل هو للعصاة المؤمنين، كما أَن قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ هو للكفار. والآية المشار إِليها تقطع توبة الصنفين. وقرأَ أَبو هريرة: «أَوْ كسبَتْ في إِيمانِهَا صالحاً».

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ الآية يتضمن الوعيد، أَي: فسترون من يحق كلامه ويتضح ما أَخبر به.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

قال ابن عباس، والصحابة، وقتادة: المراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اليهود والنصارىٰ، أَي: فرقوا دين إِبراهيم الحنيفية. وأُضيف الذين إِليهم من حيث كان ينبغي أَن يلتزموه إِذ هو دين الله الذي أَلزمه العباد، فهو دين جميع الناس بهذا الوجه. ووصفهم بالشِّيع إِذ كل طائفة منهم لها فرق واختلافات، ففي الآية حض لأُمة محمد ﷺ على الائتلاف وقلة الاختلاف. وقال الأَحوص[٢] وأُم سلمة زوج النبي ﷺ: الآية في أَهل البدع والأَهواء والفتن ومن جرىٰ مجراهم من أُمة محمد عليه الصلاة والسلام، أَي: فرقوا دين الإِسلام.

= الشمس من مغربها، وذلك أَنها كلما خرجت أَتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع ـ إِلى آخر الحديث وهو طويل. (الدر المنثور).

(١) أخرجه سعيد بن منصور، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن أَبي حاتم، وأَبو الشيخ، والطبراني ـ عن ابن مسعود. (الدر المنثور).

(٢) الأَحوص بن مسعود بن كعب بن عامر بن عديّ الأَنصاري أخو حويّصة ومحيّصة، ذكره العدوي في أنساب الأنصار، وقال: شهد أحد وما بعدها، استدركه ابن فتحون. وهناك الأَحوص بن عبد بن أُمية بن عبد شمس ابن عبد مناف. مختلف في صحبته. والأَقرب إِلى الصواب أن المراد هو الأَول. (الإصابة).

وقرأ علي بن أبي طالب، وحمزة، والكسائي: [فارقُوا] ومعناه: تركوا، ثم بيَّن قوله: ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أنهم فرقوه أيضاً و والشِّيَع: جمع شيعة وهي الفرقة على مقصد ما يتشايعون عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ أَي: لا تشفع لهم، ولا لهم بك تعلق، وهذا على الإطلاق في الكفار، وعلى جهة المبالغة في العصاة والمتنطعين في الشرع، لأَنهم لهم حظ في تفريق الدين.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية وعيد محض، والقرينة المتقدمة تقتضي أَن ﴿أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه وعيد، كما أن القرينة في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1] تعطي أَن في ذلك الأَمر رجاءً كأَنه قال: «وأَمره في إِقبال وإِلى خير».

وقرأ النَّخَعي، والأَعمش، وأَبو صالح: [فَرَقوا] بتخفيف الراءِ، وقال السدي: هذه آية لم يؤمر فيها بقتال وهي منسوخة بالقتال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كلام غير متقن، فإِن الآية خبر لا يدخله نسخ، ولكنها تضمنت بالمعنى أَمراً بالموادعة فيشبه أَن يقال: إِن النسخ وقع في ذلك المعنى الذي تقرر في آيات أُخر.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الآية. قال أَبو سعيد الخدري، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: هذه الآية نزلت في الأَعراب الذين آمنوا بعد الهجرة فضاعف الله حسناتهم للحسنة عشر، وكان المهاجرون قد ضوعف لهم، للحسنة سبعمائة[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تأْويل يحتاج إِلى سند يقطع العذر.

وقالت فرقة: هذه الآية لجميع الأُمة، أَي أَن الله يضاعف الحسنة بعشرة ثم بعد هذا

---

(١) من الآية (٢٧٥) من سورة (البقرة).

(٢) أخرج أَبو الشيخ عن ابن عباس ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ قال: إِنما هي للأعراب ومضعَّفة للمهاجرين بسبعمائة ضعف، وأخرج ابن أَبي حاتم عن أَبي هريرة مثله، وأخرج مثله عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر وغيرهم عن ابن عمر.

المضمون قد يزيد مايشاء(١)، وقد يزيد أيضاً على بعض الأعمال كنفقة الجهاد، وقال ابن مسعود، ومجاهد والقاسم بن أَبي بزة، وغيرهم: الحسنة ها هنا: لا إِله إِلاَّ الله، والسيئة: الكفر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه هي الغاية من الطرفين.

وقالت فرقة: ذلك لفظ عام في جميع الحسنات والسيئات، وهذا هو الظاهر. وأَنث لفظ الْعَشْر لأَن الأَمثال ها هنا بالمعنى حسنات. ويحتمل أَن الأَمثال أُنث لما أُضيف إِلى مؤنث وهو الضمير، كما قال الشاعر:

مَشَيْـنَ كمـا اهْتَـزَّت رِمَـاحٌ تَسَفَّهَـتْ أَعَـالِيهَـا مـرُّ الـرِّيَـاح النـواسِـمُ(٢)

فأَنث.

وقرأ الحسن، وسعيد بن جبير، وعيسى بن عمر، والأَعمش، ويعقوب: [فَلَهُ عشْرٌ] بالتنوين [أَمْثَالُهَا] بالرفع(٣).

وروي عن النبي ﷺ أَنه قال: (الأَعمال ستَّةٌ مُوجِبَةٌ وموجِبَةٌ، ومُضَعَّفَةٌ ومُضَعَّفَة، ومِثْلٌ ومِثْلٌ. فلا إِله إلا الله توجب الجنة. والشرك يوجب النار، ونفقة الجهاد تضعف سبعمائة ضعف، والنفقة على الأَهل حسنتها بعشرة، والسيئة جزاؤُها مثلها، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة مثلها)(٤).

---

(١) ويؤيد هذا ما أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه: (من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، ومن همَّ بسَيِّئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله، ولا يهلك على الله إلا هالك). (الدر المنثور).

(٢) البيت لذي الرمّة، وهو في وصف نساءٍ، يقول: إذا مشين اهتززن في مشيتهن وتثنَّين فكأَنهن رماح نصبت فمرت عليها الرياح فاهتزت وتثنت ـ قال المهدوي: «كثيراً ما يؤنثون فعلَ المضاف المذكَّر إذا كان إضافته إلى مؤنث وكان المضاف بعض المضاف إليه، أو منه، أو به، وعليه قول ذي الرمَّة: «مَشَينَ ـ البيت»، فقد أَنَّث المرَّ لأنه مضاف إلى الرياح وهي مؤنثة إذ كان المرُّ من الرياح».

(٣) وهذا على أن [أمْثَالُها] صفة لـ [عَشْرٌ] المنونة.

(٤) الأحاديث التي تؤكد أن الحسنة بعشر أمثالها كثيرة ومروية في الصحاح من كتب السُّنَّة، أما الحديث الذي ذكره ابن عطية رحمه الله هنا، فقد رواه ابن جرير الطبري عن قتادة، ولفظه، (الأَعمال ستَّةٌ: موجبةٌ وموجِبةٌ، ومُضَعَّفَةٌ وَمُضَعَّفَةٌ ومثْلٌ ومثلٌ، فأَمَّا الموجبتان: فمن لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل=

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يوضع في جزائهم شيءٌ في غير موضعه، وتقدير الآية: من جاءَ بالحسنة فله ثواب عشر أمثالها، والمماثلة بين الحسنة والثواب مترتبة إذا تدبرت. وقال الطبري: قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الآية، يريد: من الذين فرقوا دينهم، أي: من جاءَ مؤمنا فله الجنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقصد بالآية إلى العموم في جميع العالم[1] أليق باللفظ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

هذا أَمر من الله عزَّ وجلَّ لنبيه عليه الصلاة والسلام بالإِعلان بشريعته ونبذ ما سواها من أَضاليلهم، ووصف الشريعة بما هي عليه من الحُسْن والفضل والاستقامة.

و﴿هَدَىٰنِي﴾ معناه: أَرشدني بخلق الهدى في قلبي. والربُّ: المالك، ولفظه مصدر، من قولك: ربَّه يربُّه، وإنما هو مثل عدْل ورضا في أَنه مصدر وصف به، وأَصله ذو الربّ ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فقيل: الرب. والصراط: الطريق. و﴿دِينًا﴾ منصوب بـ (هَدَاني) المقدر الذي يدل عليه ﴿هَدَىٰنِي﴾ الأَول، وهذا الضمير إنما يصل وحده دون أَن يحتاج إلى إضمار إلى، إذ (هدىٰ) يصل بنفسه إلى مفعوله الثاني وبحرف الجرِّ، فهو فعل متردد، وقيل: نصب ﴿دِينًا﴾ فعلٌ مضمر تقديره: عرفني دينا. وقيل: تقديره فاتبعوا دينا، أَو فالزموا ديناً. وقيل: نصب على البدل من ﴿صِرَٰطٍ﴾ على الموضع، لأَن تقديره: هداني ربي صراطاً مستقيماً. و﴿قِيَمًا﴾ نعت للدين، ومعناه: مستقيماً معتدلاً.

= الجنة، ومن لقي الله مشركاً به دخل النار، وأما المضَعَّف والمضَعِّف: فنفقة المؤمن في سبيل الله سبعمائة ضعف، ونفقته على أهل بيته عشر أمثالها، وأَما مِثْلٌ ومِثْلٌ: فإذا هم العبد بحسنه فلم يعملها كتبت له حسنة، وإذا هم بسيئة ثم عملها كتبت عليه سيئة) ـ وأخرج مثله أحمد، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن خريم بن فاتك، وفيه: (الناس أربعة والأعمال ستة) . . . الخ. (عن تفسير الطبري، والدر المنثور).

(١) هكذا في الأُصول، ولعل الصواب: في جميع العاملين، أو في العالمين.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: [قَيِّماً] بفتح القاف وكسر الياء وشدها، وأصله: قَيْوِم عللت كتعليل سيِّد وميِّت. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿قِيَمًا﴾ بكسر القاف وفتح الياءِ على وزن فِعَل، وكان الأصل أن يجيءَ فيه (قِوَما) كعِوَض وحِوَل إلا أنه شذَّ كشذوذ قولهم: جياد في جمع جواد وثِيرَة في جمع ثَوْر.

و﴿مِّلَّةَ﴾ بدل من الدين، والمِلَّة: الشريعة، و﴿حَنِيفًا﴾ نصب على الحال من ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ والحَنَف في كلام العرب: المَيْل، وقد يكون المَيْل إلى فساد كحنف الرجل. وكقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾(١) على قراءَة من قرأ بالحاءِ غير المنقوطة، ونحو ذلك. وقد يكون الحنف إلى الصلاح كقوله عليه الصلاة والسلام: (الحنيفية السمحة)(٢)، الدين الحنيف، ونحو ذلك، وقال ابن قتيبة: الحنف: الاستقامة(٣)، وإنما سمي الأَحنف في الرجل على جهة التفاؤُل له. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ نفي للنقيصة عنه ﷺ.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى﴾ الآية. أَمر من الله عزَّ وجلَّ أَن يعلن بأَن مقصده في صلاته وطاعته من ذبيحة وغيرها، وتصرفه مدة حياته، وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته إما هو لله عزَّ وجلَّ، وإرادة وجْهه وطلب رضاه، وفي إعلان النبي ﷺ بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسي به حتَّى يلتزموا في جميع أَعمالهم قصد وجه الله عزَّ وجلَّ. ويحتمل أَن يريد بهذه المقالة أَن صلاته ونسكه وحياته وموته بيد الله عزَّ وجلَّ يصرفه في جميع ذلك كيف يشاءُ، وأَنه قد هداه من ذلك إلى صراط مستقيم، ويكون قوله تعالىٰ: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ على هذا التأْويل راجعاً إلى قوله تعالىٰ: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ فقط، أَو راجعاً إلى القول الأَول، وعلى التأْويل الأَول، يرجع إلى جميع ما ذكر من صلاة وغيرها، أَي: أُمرتُ بأَن أَقصد وجه الله عزَّ وجلَّ في ذلك وأَن أَلتزم العمل.

---

(١) من الآية (١٨٢) من سورة (البقرة): ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

(٢) من قوله ﷺ: (أَحب الدين إلى الله الحنيفيَّة السَّمْحَة) ـ (البخاري في كتاب الإيمان)، والطبراني في الكبير، والترمذي في المناقب، وكذلك رواه الإمام أحمد في مسنده وأيضاً روى الإمام أحمد: (ولكنِّي بعثت بالحنيفية السمحة).

(٣) والأَحنف: المستقيم، وعليه قول الشاعر:

تَعَلَّمْ أَنْ سَيَهْديكُمْ إِلَيْنَا ... طَرِيقٌ لا يَجُوزُ بِكُمْ حَنِيفُ

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَنُسُكِي﴾ بضم السين، وقرأ أبو حيوة، والحسن بإسكان السِّين، وقالت فرقة: النسك: في هذه الآية الذبائح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويُحسِّن تخصيصَ الذبيحة بالذكر في هذه الآية أنها نازلة قد تقدم ذكرها والجدل فيها في السورة، وقالت فرقة: النُسك في هذه الآية: جميع أعمال الطاعات، من قولك: نَسَك فلان فهو ناسِكٌ إذا تعبَّد(١).

وقرأ السبعة سوى نافع: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ بفتح الياءِ من ﴿وَمَحْيَايَ﴾ وسكونها من ﴿وَمَمَاتِي﴾، وقرأ نافع وحده، [وَمَحْيَايْ] بسكون الياءِ، قال أبو علي الفارسي: وهي شاذة في القياس لأنها جمعت بين ساكنين، وشاذة في الاستعمال، ووَجْهُها أنه قد سمع من العرب: «الْتَقَتْ حَلْقَتا البطان»(٢)، و«لفلان ثلثا الْمال»(٣)، وروى أبو خليد عن نافع [وَمُحْيَايِ] بكسر الياءِ، وقرأ ابن أبي إسحٰق، وعيسىٰ، والجحدري: [ومَحْيَيَّ]، وهذه لغة هذيل، ومنه قول أبي ذؤَيب:

سَبَقُوا هَوَيَّ وأعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ ... فَتَصَرَّعُوا ولِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ(٤)

وقرأ عيسى بن عمر ﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ بفتح الياءِ فيهن، وروي ذلك عن عاصم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من هذه الأُمَّة، وقال النقاش: من أهل مكة.

---

(١) في (اللسان): «سئل ثعلب عن الناسك ما هو؟ فقال: مأخوذ من النسيكة وهو سبيكة الفضة المصفَّاة، كأنه خلَّص نفسه وصفَّاها لله عزَّ وجلَّ».

(٢) يقولون: البطان للقتَب هو الحزام الذي يجعل تحت بطن البعير، وفيه حلقتان، فإذا التقتا فقد بلغ الشَّد غايته، يضرب في الحادثة إذا بلغت النهاية. «مجمع الأمثال ـ للميداني».

(٣) قال النحاس: لم يجز أحدٌ من النحويين التقاء الساكنين إلا يونس، وإنما أجازه لأن قبله ألفاً، والمَدَّة التي فيها تقوم مقام الحركة، وقد أجاز يونس أيضاً: «اضربانْ زيدا» لوجود الألف قبل النون الساكنة. ومن قرا بقراءَة نافع وأراد أن يسلم من اللحن وقف على [مَحْيَايْ] فيكون غير لاحن عند جميع النحويين. «راجع القرطبي».

(٤) هَوَيَّ: يريد هَوَايَ، أي: ماتوا قبلي وكنت أريد أن أموت قبلهم، وأعنقوا لهواهم: جعلهم كأنهم هوَوْا الذهاب إلى الموت لسرعتهم في الذهاب إليها، وهم في الحقيقة لم يَهْوَوْهَا. والرواية (فتَخَرَّموا) بدلاً من (فتصرعوا) ومعنى تخرَّموا أُخذوا واحداً واحداً. والهذليون يقولون: مَحْيَيَّ، وعَصَيَّ، وهَوَيَّ وهُدَيّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمعنى واحد، بل الأول أعم وأحسن. وقرأت فرقة ﴿وَأَنَا﴾ بإشباع الألف، وجمهور القراءِ على القراءَة ﴿وَأَنَا﴾ دون إشباع. وهذا كله في الوصل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله.

وترك الإشباع أحسن لأنها ألف وقف فإذا اتصل الكلام استغني عنها لاسيما إذا وَلِيَتْها همزة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

حكى النقاش أنه روي أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: ارجع يا محمد إلى ديننا، واعبد آلهتنا، واترك ما أنت عليه، ونحن نتكفل لك بكل تِبَاعَةٍ تتوقعها في دنياك وآخرتك، فنزلت هذه الآية. وهي استفهام يقتضي التقرير والتوقيف والتوبيخ.

و﴿أَبْغِى﴾ معناه: أطلب، فكأنه قال: أفيحسُن عندكم أن أطلب إلهاً غير الله الذي هو رب كل شيءٍ؟ وما ذكرتم من كفالتكم لا يتم، لأن الأمر ليس كما تظنونه، وإنما كَسْبُ كل نفس من الشر والإثم عليها وحدها، ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ أيْ: لا تحمل ﴿وَازِرَةٌ﴾ أي: حاملةٌ حِمْلَ أُخرى وثقلها. والوِزْرُ أصله الثِّقْل ثم استعمل في الإثم لأنه ينقض الظهر تجوزاً واستعارة، يقال منه: وزَر الرَّجل يَزِرُ فهو وازِرٌ وَوَزِرَ يَوْزَرُ فهو مَوْزورٌ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ تهديد ووعيد ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ أي: فيُعلمكم أن العقاب على الاعوجاج تبيين لموضع الحق. وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ يريد ـ على ما حكى بعض المتأولين ـ: من أمري في قول بعضكم: هو ساحر، وبعضكم: هو شاعر، وبعضكم: افتراه، وبعضكم: اكتتبه، ونحو هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل يحسُن في هذا الموضع وإن كان اللفظ يعم جميع أنواع الاختلافات من الأديان والملل والمذاهب وغير ذلك.

و﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ جمع خليفة، أَي: يخلف بعضكم بعضاً[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يتصور في جميع الأُمم وسائر أَصناف الناس، لأَن مَن أَتى خليفةٌ لمن مضىٰ، ولكنه يحسُن في أُمة محمد ﷺ أَن يُسَمَّىٰ أَهلها بجملتهم خلائف للأُمم، وليس لهم من يخلفهم لأَنهم آخر الأُمم وعليهم قيام الساعة.

وروى الحسن بن أَبي الحسن أَن النبي ﷺ قال: توفون سبعين أُمة أَنتم خيرها وأَكرمها على الله) ويروى: (أَنتم آخرها وأَكرمها على الله).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ لفظ عام في المال والجاه والقوة وجودة النفس والأَذهان وغير ذلك، وكل ذلك إِنما هو ليختبر الله تعالىٰ الخلق فيرى المحسن من المسيء.

ولما أَخبر عزَّ وجلَّ بهذا ففسح للناس ميدان العمل، وحضَّهم على الاستباق إِلى الخير توعَّد وَوَعَدَ تخويفاً منه وترجيةً فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ وسرعة عقابه إِما بأَخذاتِه في الدنيا، وإِما بعقاب الآخرة، وحسُن أَن يوصف عقاب الآخرة بـ ﴿سَرِيعُ﴾ لما كان متحققاً مضمون الإِتيان والوقوع، فكل آت يحكم عليه بالقرب ويوصف به[٢]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ ترجيةٌ لمن أَذنب وأَراد التوبة، وهذا في كتاب الله تبارك وتعالىٰ كثير، اقتران الوعيد بالوعد لطفاً من الله سبحانه وتعالىٰ بعباده.

كمل تفسير سورة الأَنعام والله المستعان

وهو حسبي ونعم الوكيل

* * *

(١) قال الشَّمَّاخ:

تُصِيبُهُم وتُخطِئُني المنَايَا وَأَخْلُفُ في رُبُوعٍ عن رُبُوعِ

(٢) وعلى هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ من الآية (٧٧) من سورة (النحل). وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ الآيتان: (٦ـ ٧) من سورة (المعارج).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورَة الأَعْراف

وهي مكية كلها، قاله الضحاك وغيره. وقال مقاتل: هي مكية إلا قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ إلى قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فإن هذه الآيات مدنية[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿الٓمٓصٓ ① كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ② ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ③﴾.

تقدم القول في تفسير الحروف المقطعة التي في أوائل السور وذكْر اختلاف المتأَولين فيها، ويختص هذا الموضع زائداً على تلك الأقوال بما قاله السدي: إن ﴿الٓمٓصٓ﴾ هجاء اسم الله تبارك وتعالىٰ هو المصور، ويقول زيد بن علي: إن معناه: أنا الله الفاصل.

وقوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية. قال الفراءُ وغيره: ﴿كِتَٰبٌ﴾ رفع على الخبر للحروف، كأَنه قال: هذه الحروف كتاب أُنزل إِليك، وردَّ الزَّجَّاج على هذا القول بما لا طائل فيه. وقال غيره ﴿كِتَٰبٌ﴾ رفع على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: هذا كتاب، و﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ في موضع الصفة لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾.

ثم نُهي النبي ﷺ أَن يُبرم أَو يستصحب من هذا الكتاب أَو بسبب من أَسبابه حرجاً، ولفظ النهي هو للحرج ومعناه للنبي عليه الصلاة والسلام. وأَصل الحرج الضيق، ومنه الْحَرَجَة: الشجر الملتف الذي قد تضايق[2]. والحرج ها هنا يعم الشك والخوف والهمَّ

(١) روى النسائي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأَعراف فرّقها في ركعتين. صححه أبو محمد عبد الحق.

(٢) مثل الحَرَج الْحَرَاج، ولما تُصُوِّر من اجتماع الشجر الضيق قيل للضيق حَرَج وللإثم حرج، قال تعالىٰ: =

وكل ما يضيق الصدر، وبحسب سبب الحرج يفسَّر الحَرَج ها هنا، وتفسيره بالشَّكّ قلِق، والضمير في ﴿مِّنْهُ﴾ عائد على الكتاب، أَي: بسبب من أَسبابه، و﴿مِّن﴾ ها هنا لابتداءِ الغاية، وقيل: يعود على التبليغ الذي يتضمَّنه معنى الآية، وقيل: على الإِنذار[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التخصيص كله لا وجه له إِذ اللفظ يعم الجهات التي هي من سبب الكتاب ولأَجله، وذلك يستغرق التبليغ والإِنذار وتعرض المشركين وتكذيب المكذبين وغير ذلك، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ اعترض في أَثناءِ الكلام[2]، ولذلك قال بعض الناس: إِن فيه تقديماً وتأْخيراً. وقوله تعالىٰ: ﴿لِتُنذِرَ﴾ اللام متعلقة بـ ﴿أُنزِلَ﴾. وقوله تعالىٰ: ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ معناه: تذكرة وإِرْشاد، و﴿وَذِكْرَىٰ﴾ في موضع رفع عطفاً على قوله سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ﴾ فالتقدير: هذه الحروف كتاب وذكرىٰ. وقيل: رفعه على جهة العطف على صفة الكتاب، فالتقدير: هذه الحروف كتاب مُنَزَّل إِليك وذكرىٰ، فهي عطف على (مُنزَّل) داخلة في صفة الكتاب. وقيل: ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ في موضع نصب بفعل مضمر تقديره: «لِتنذِر بِهِ وتذكر ذكرى للمؤمنين». وقيل نصبها على المصدر. وقيل: ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ في موضع خفض عطفاً على قوله تعالىٰ: ﴿لِتُنذِرَ﴾ أَي: لإِنذارك وذكرىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية. قال الطبري وحكاه: التقدير: قل اتبعوا، فحذف القول لدلالة الإِنذار المتقدم الذكر عليه. وقالت فرقة: قوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾ أَمر يعُمّ النبي ﷺ وأُمَّته.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والظاهر أَن يكون أَمراً لجميع الناس، أَي: اتبعوا ملَّة الإِسلام والقرآن.

= ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، وقال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾. (عن «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأَصفهاني).

(١) في بعض النسخ: على الابتداءِ. ولا معنى لها هنا، وجاز أن يعود على الإِنذار المفهوم من ﴿لِتُنذِرَ﴾ مع تأَخرها لأَن الإِنذار نفسه مرتبط بالكتاب وهو سابق على الضمير.

(٢) وسرُّ الاعتراض ـ كما قالوا ـ أَن يكون تقريراً لما قبله وتمهيداً لما بعده وحسما لتوهم أن مورد الشك هو الإنزال للإِنذار.

وقرأ الجحدري [ابتغوا ما أنزل] من الابتغاءِ، وقرأ مجاهد: و[وَلاَ تَبْتَغُوا] من الابتغاءِ أَيضاً، وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ يريد كل ما عُبد واتُّبع من دون الله كالأصنام والأحبار والكهان والنار والكواكب وغير ذلك، والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ راجع إلى ﴿رَّبِّكُمْ﴾، هذا أظهر وجوهه وأبينُها، وقيل: يعود على ﴿مَآ﴾ من قوله: ﴿اتَّبِعُواْ مَآ﴾، وقيل: يعود على الكتاب المتقدم الذكر، و﴿قَلِيلًا﴾ نعت لمصدر نصب بفعل مضمر، وقال مكي: هو منصوب بالفعل الذي بعده. قال الفارسي: و﴿مَّا﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ موصولة بالفعل وهي مصدرية. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم في رواية أَبي بكر: [تَذَّكَرون] بتشديد الذال والكاف، وقرأ حمزة والكسائي، وعاصم في رواية حفص: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيف الذال وتشديد الكاف، وقرأَ ابن عامر: [يَتَذَكَّرون] بالياءِ كناية عن غيب، وروي عنه أنه قرأَ: [تَتَذَكَّرُون] بتاءَين على مخاطبة حاضرين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾.

﴿وَكَم﴾ في موضع رفع بالابتداءِ، والخبر ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾، ويصح أَن يكون الخبر في قوله تعالىٰ: ﴿فَجَآءَهَا﴾، و﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ صفة[1]، ويصح أَن تكون في موضع نصب بفعل مقدر بعدها تقديره: وكم أَهلكنا من قرية أَهلكناها. وقدر الفعل بعدها ـ وهي خبرية ـ تشبيهاً لها بالاستفهامية في أَن لها في كل حال صدر الكلام. وقالت فرقة: المراد: وكم من أَهل قرية، وحذف المضاف وأُقيم المضاف إِليه مقام المضاف، وقالت فرقة: إِنما عبّر بالقرية لأَنها أَعظم في العقوبة إِذ أَهلك البشر وقريتهم، وقد بيَّن في آخر الآية بقوله سبحانه: ﴿أَوْ هُمْ﴾ أَن البشر داخلون في الهلاك، فالآية ـ على هذا التأْويل ـ

---

(١) قيل: إن الفاءَ تمنع من ذلك. ذكره في إعراب القرآن للعكبري، وقال الفراءُ: الفاء بمعنىٰ الواو، وقيل: المعنىٰ: وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءَها بأسنا كقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: إذا أردت قراءَة القرآن، وقيل: التقدير: وكم من قرية أهلكنا بعضها فجاءَها بأسنا فأهلكنا الجميع، وقيل غير ذلك، والله أعلم بالصواب.

تتضمن هلاك القرية وأَهلها جميعاً. وعلى التأويل الأَول تتضمن هلاك الأَهل.

والمراد بالآية التكثير، وقرأ ابن أَبي عبلة: [وكم من قرية أهلكناهم فجاءهم بأسُنا]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَجَآءَهَا﴾ يقتضي ظاهره أَن المجيءَ بعد الإِهلاكِ وذلك مستحيل، فلم يبق إِلا أَن يُعدل عن ظاهر هذا التعقيب، فقيل: الفاءُ قد تجيءُ بمنزلة الواو ولا تعطي رتبة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف:

وقيل: عبَّر عن إِرادة الإِهلاك بالإِهلاك، قال مكي في المشكل: مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ﴾(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا يَحتج به من قال: الفاءُ في هذه الآية لتعقيب القول. وقيل: المعنى: أَهلكناها بالخذلان وقلة التوفيق فجاءَها بأْسنا بعد ذلك. وقال الفراءُ ـ وحكاه الطبري ـ: إِنَّ الإِهلاك هو مجيء البأْس ومجيءُ البأْس هو الإِهلاك، فلما تلازما لم يبال أَيهما قدم في الرتبة(٢). وقيل: إِن الفاءَ لترتيب القول فقط، فكأَنه أَخبر عن قرى كثيرة أنه أَهلكها ثم قال: فكان من أَمرها مجيءُ البأْس.

و﴿بَيَـٰتًا﴾ نصب على المصدر في موضع الحال، و﴿قَآئِلُونَ﴾ من القائلة، وإِنما خصَّ وقْتَيْ الدَّعَة والسكون لأَن مجيءَ العذاب فيهما أَفظع وأَهول لما فيهما من البغت والفجأَة، و﴿أَوْ﴾ في هذا الموضع كما تقول: الناس في فلان صنفان حامدٌ أَو ذام، فكأَنه قال: جاءَهم بأْسنا فرقتين بائتين أَو قائلين، وهذا هو الذي يسمى اللف، وهو إِجمال في اللفظ يفرقه ذهن المخاطب دون كلفة. والبأْس: العذاب. وقيل: المراد: أَوْ وَهُم قائلون، فكره اجتماع حرفي العطف فحذفت الواو، وهذا تكلف لأَن معنى اللف باق.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ الآية. تبيَّن في هذه الآية غاية البيان أَن المراد في

---

(١) من الآية (٩٨) من سورة (النَّحل) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

(٢) وذلك كما تقول: «شتمني فَأَساءَ، وأَساءَ فَشتمني» لأَن الإِساءَة والشتم شيءٌ واحد.

الآية قبلها أهل القرى. والدعوى في كلام العرب لمعنيين: أحدهما: الدعاءُ، قال الخليل: تقول: اللهم أشركنا في صالح دعوى المسلمين، ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾(١) ومنه قول الشاعر:

وإنْ مَذِلَتْ رِجْلِي دَعَوْتُكِ أَشْتَفِي ... بِدَعْوَاكِ مِنْ مَذْلٍ بها فَيَهُونُ(٢)

والثاني الادّعاءُ، قال الطبري: هي في هذا الموضع بمعنى الدعاءِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويتوجه أيضاً أن يكون بمعنى الادعاءِ، لأن من ناله مكروه أو حَزَبه حادث فمن شأنه أنْ يدعو كما ذهب إليه المفسرون في فعل هؤلاءِ المذكورين في هذه الآية، ومن شأنه أيضاً أن يدّعي معاذير وأشياءَ تحسن حاله وتقيم حجته في زعمه، فيتجه أن يكون هؤلاءِ بحال من يدعي معاذير ونحوها، فأخبر الله عنهم أنهم لم تكن لهم دعوىٰ ثم استثنى من غير الأول كأنه قال: لم يكن دعاءً أو ادعاءً إلا الإقرار والاعتراف، أي: هذا كان بدل الدعاءِ والادعاءِ.

وتحتمل الآية أن يكون المعنىٰ: فما آلت دعواهم التي كانت في حال كفرهم إلا إلى اعتراف، ونحو من الآية قول الشاعر:

وَقَدْ شَهِدَتْ قَيْسٌ فَمَا كَانَ نَصْرُهَا ... قُتَيْبَةَ إلاَّ عَضُّهَا بِالأَبَاهِمِ(٣)

واعترافهم وقولهم إنا كنا ظالمين هو في المدة بين ظهور العذاب إلى إتيانه على أنفسهم، وفي ذلك مهلة بحسب نوع العذاب تتسع لهذه المقالة وغيرها، وروى ابن مسعود عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «ما هلك قوم حتى يُعْذِرُوا من

(١) من قوله تعالىٰ في الآية: (١٥) من سورة (الأنبياء): ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾.

(٢) مَذِلَتْ رجْلُه بكسر الذال: خَدِرَتْ، والمصدر مَذَلٌ ومذْلٌ، والبيت في (اللسان) غير منسوب. والرواية فيه (بذكْراكِ) بدلاً من (بدعْواكِ)، وفيه أيضاً (فتَهونُ) بالتاءِ بدلاً من (فَيَهُونُ) بالياءِ، والبيت أيضاً في الطبري» بنفس رواية ابن عطية وهو غير منسوب.

(٣) البيت للفرزدق، وقد ذكر في (اللسان) بلفظ: «فقد شهدت»، والأباهم هي الأباهيم، جمع إبهام، والإبْهام من الأصابع: العظمىٰ مؤنثة، وحكى اللحياني أنها تذكر وتؤنَّث، وقال: الأباهم بحذف الياءِ لأن القصيدة ليست مردفة، والفرزدق يذم قيساً التي لم تفعل شيئاً في نصرة قتيبة إلا عضها على أباهيمها من الذل والقهر.

أنفسهم»[١] ، وفسَّر عبد الملك بن ميسرة هذا الحديث بهذه الآية. و﴿ دَعْوَىٰهُمْ ﴾ خبر ﴿ كَانَ ﴾ واسمها ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ ﴾ ، وقيل بالعكس.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ وعيد من الله عزَّ وجلَّ لجميع العالم ، أَخبر أنه يسأَل الأُمم أَجمع عما بلغ إِليهم عنه وعن جميع أعمالهم ، ويسأَل النبيين عما بَلَّغُوا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد نُفي السؤال في آيات وذلك هو سؤال الاستفهام الحقيقي. وقد أُثبت في آياتٍ كهذه الآية وهذا هو سؤال التقرير ، فإِن الله قد أَحاط علماً بكل ذلك قبل السؤال ، فأَما الأَنبياء والمؤمنون فيعقبهم جوابهم رحمة وكرامة ، وأَما الكفار ومن نفذ عليه الوعيد من العصاة فيعقبهم جوابهم عذاباً وتوبيخاً ، فمن أَنكر منهم قص عليه بعلم ، وقرأَ ابن مسعود: [فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قبلكَ رُسُلنا وَلَنَسْأَلَنَّ المرْسلين].

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ ﴾ أَي: فَلَنَسْرُدَنَّ ﴿ عَلَيْهِم ﴾ أَعمالهم قصة قصة ﴿ بِعِلْمٍ ﴾ أَي: بحقيقة ويقين ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يشبه أَن يكون الكلام هنا استعارة إِذ كل شيءٍ فيه مقيد.

﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ أَي: ما كنا مَنْ لا يعلم جميع تصرفاتهم كالغائب عن الشيءِ الذي لا يعرف له حالاً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

---

(١) الحديث في «الجامع الصغير» بلفظ: «لَنْ يهلك الناس حتى يعذروا من أَنفسهم» ـ رواه الإمام أحمد في مسنده ، وقد رمز له بأنه (حَسَن). وكذلك ذكره ابن الأثير في «النهاية» ثم فسَّر يُعذروا فقال: «يقال: أَعذَرَ فلان من نفسه إِذا أَمكن منها ، يعني أنهم لا يَهْلِكون حتى تكثر ذنوبهم وعيوبُهم فيستوجبون العقوبة ، ويكون لمن يُعذبهم عذرٌ».

﴿وَٱلْوَزْنُ﴾: مصدر وزَنَ يزِنُ، ورفعه بالابتداءِ، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبره، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف منتصب بـ ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾، ويصح أَن يكون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ خبر الابتداءِ، و ﴿ٱلْحَقُّ﴾ نعت لـ ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾، والتقدير: الوزنُ الحقُّ ثابتٌ أَو ظاهر يومئذ. و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إشارة إلى يوم القيامة والفصل بين الخلائق.

واختلف الناس في معنى الوزن والموازين ـ فقالت فرقة: إن الله عزَّ وجلَّ أَراد أَن يعلّم عباده أَن الحساب والنظر يوم القيامة هو في غاية التحرير ونهاية العدل، فمثّل لهم في ذلك بالوزن والميزان إذ لا يعرف البشر أَمراً أَكثر تحريراً منه، فاستعير للعدل وتحرير النظر لفظة الوزن والميزان كما استعار ذلك أَبو طالب في قوله:

بِميـزان قِسْـطٍ لا يَخِـسُّ شعيـرة ... لـهُ حـاكِـمٌ مِـنْ نَفْسِهِ غَيْرِ عـائِلِ[1]

ورُوي هذا القول عن مجاهد والضحاك وغيرهما، وكذلك استعير ـ على قولهم ـ الثقل والخفة[2] لكثرة الحسنات وقلتها.

وقال جمهور الأُمة: إن اللهٰ عزَّ وجلَّ أَراد أَن يعرض لعباده يوم القيامة تحرير النظر وغاية العدل بأَمر قد عرفوه في الدنيا وعهدته أَفهامهم، فميزان القيامة له عمود وكفَّتان على هيئة موازين الدنيا، قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام»[3]، وقالوا: هذا الذي اقتضاه لفظ القرآن ولم يَرُدَّه نظر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا القول أَصح من الأَول من ثلاث جهات ـ أَولها: أَن ظواهر كتاب الله عزَّ وجلَّ تقتضيه، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ينطق به، من ذلك قوله لبعض الصحابة ـ وقد قال له: يا رسول اللهٰ، أَين أَجدك في يوم القيامة؟ ـ فقال: (اطلبني عند الحوض، فإن لم تجدني فعند الميزان)[4]. ولو لم يكن الميزان مرئياً محسوساً لَمَا

(١) لا يَخِسُّ: لا يقلُّ ولا ينقص، والشعيرة: العلامَةُ، ويقال على الميزان: نقص أو زاد، يصفه بالعدالة الكاملة فهو لا يميل عن الحدّ الصحيح علامة واحدة. والشاهد هو أن لفظة ميزان يراد بها العدالة.

(٢) يريد الثقل والخفة في قوله تعالىٰ في بقية الآية: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا، وابن جرير، واللالكائي. (الدر المنثور). والحديث واهٍ.

(٤) أخرجه الإمام أحمد، والترمذي وحسَّنه، والبيهقي في البعث ـ عن أنس ـ وفيه أن الذي سأَل الرسول ﷺ هو أنس. (الدر المنثور).

أَحاله رسول الله ﷺ على الطلب عنده. وجِهَة أُخرى أَن النظر في الميزان والوزن والثقل والخفة المقترنات بالحساب لا يفسد شيءٌ منه ولا تختل صحته، وإِذا كان الأَمر كذلك فلمَ نخرج من حقيقة الأَمر إِلى مجازه دون علَّة؟ وجِهَةٌ ثالثة وهي أَن القول في الميزان هو من عقائد الشرع الذي لم يُعرف إِلاَّ سمعاً، وإِن فتحنا فيه باب المجاز غمرتنا أَقوال الملحدة والزنادقة في أَن الميزان والصراط والجنة والنار والحشر ونحو ذلك إِنما هي أَلفاظ يراد بها غير الظاهر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فينبغي أَن يجري في هذه الأَلفاظ إِلى حملها على حقائقها.

وأَما الثقل والخفة فإِن الآثار تظاهرت بأَن صحائف الحسنات والسيِّئات توضع في كفتي الميزان فيحدث الله في الجهة التي يريد ثقلاً وخفة على نحو إِحداثه ذلك في جسم رسول الله ﷺ في وقت نزول الوحي عليه، ففي الصحيح من حديث زيد بن ثابت أَنه قال: «كنت أَكتب حتى نزلت ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾[1] وفخذ رسول الله ﷺ على فخذي حتى كادت أَن ترض فخذي»[2]، وفي الحديث «أَنه كان إِذا أُوحي إِليه وهو على ناقته بركت به عجزاً عن حمله للثقل الحادث فيه». ولابد لنا أَن نعلم أَن الثقل الحادث مع الحسنات إِنما يتعلق بجسم، إِذ العَرَض لا يقوم بِعَرَض[3]، فجائز أَن يحدث الثقل في الصحائف وهو أَقربها إِلى الظن، وجائز أَن يحدث في ذلك من الأَجسام المجاورة لتلك الحال، وإِلى حدوثه في الصحائف ذهب أَبو المعالي، ورُويت في خبر الميزان آثار عن صحابة وتابعين في هيئة طوله وأَحواله لم تصح بالإِسناد، فلم نر للإِطالة بها وجها[4]. وقال الحسن فيما روي عنه: بلغني أَن لكل أَحد يوم القيامة ميزاناً على حدة.

---

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (٩٥) من سورة (النساء): ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

(٢) رواه البخاري في كتاب الصلاة، وكتاب الجهاد، ورواه الترمذي والنسائي، ولفظه كما في البخاري: «أنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفت أن تَرُضَّ فخذي».

(٣) العَرَض في اللغة ما يطرأ ويزول، وفي علم المنطق ـ وهو المراد هنا ـ ما قام بغيره، «ضد الجوهر كالبياض والسواد، والطول والقِصر».

(٤) هذا يؤكد ما ذكرناه كثيراً من رغبة ابن عطية عن الأخبار التي لا يصح سندها عنده مخالفاً بذلك ما ساد التفاسير الأُخرىٰ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول مردود والناس على خلافه، وإنما لكل أحد وَزْن يختص به والميزان واحد، ورُوي عن مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أن الموازين الحسناتُ نفسها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وجمع لفظ الموازين إذ في الميزان موزونات كثيرة فكأنه أراد التنبيه عليها بجمعه لفظ الميزان.

و﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ في اللغة: المدركون لبغيتهم، الناجحون في طلبهم، ومنه قول عبيد:

أَفْلِحْ بِمَا شِئْتَ فَقَدْ يُبْلَغُ بِالضَّعْـ ... فِ وَقَدْ يُخَدَّعُ الأَرِيبُ[1]

فأما قول الشاعر:

.... والْمُمْسِي وَالصُّبْحُ لا فَلاحَ مَعَهْ[2]

فقد قيل: إنه بمعنى البقاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والبقاءُ: بلوغ بغية، فالمعنيان متقاربان، ووزن الله أعمال العباد مع علمه بدقائق الأشياءِ وجلائها نظيرُ كتبه أعمالهم في صحائفهم واستنساخه ذلك، ونظيرُ استنطاقه جوارحهم بالشهادة عليهم إقامة للحجة وإيضاحاً، فقد تقرر في الشرع أن كلمة التوحيد ترجح ميزان من وزنت في أعماله ولا بُدَّ[3]. فإن قال قائل: كيف تثقل موازين العصاة

---

(١) رواه صاحب (اللسان): «فقد يُبْلَغ بالنُّوك». ونقل عن التهذيب معناه: «عش بما شئت من عقل وحُمْق، فقد يُرزق الأحمق ويحرم العاقل»، هذا وقد سبق أن ذكر ابن عطية هذا البيت عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الآية (٢١) من سورة الأنعام صفحة ٣٣٣ من هذا المجلد.

(٢) هذا عجز بيت قاله الأضْبَطُ بنُ قُرَيْعٍ السَّعْدِيُّ، والبيت بتمامه كما ذكره ابن منظور في (اللسان):

لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الْهُمُومِ سَعَةْ ... والمُمْسِي والصُّبْحُ لا فَلاحَ مَعَهْ

قال: وأصل الفلاح: البقاءُ، والمعنى: ليس مع كرِّ الليل والنهار بقاءٌ.

(٣) روى الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، واللالكائي، والبيهقي في البعث عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يصاح برجل من أمتي=

من المؤمنين بالتوحيد ويصحُّ لهم حكم الفلاح ثم تدخل طائفة منهم النار وذلك شقاءٌ لا محالة؟ ـ فقالت طائفة: إنه توزن أعمالهم دون التوحيد فتخف الحسنات فيدخلون النار، ثم عند إخراجهم يوزن التوحيد فتثقل الحسنات فيدخلون الجنة، وأيضاً فمعرفة العاصي أنه غير مخلَّد فلاح وإن تقدَّمه شقاءٌ على جهة التأديب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ الآية. المعنى: من خَفَّت كفة حسناته فشالت. و﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ أي بالهلاك والخلود في النار وتلك غاية الخسارة. وقوله تعالىٰ: ﴿بِمَا كَانُوا۟﴾ أي جزاءً بذلك، كما تقول: أكرمتك بما أكرمتني، و[ما] في هذا الموضع مصدرية، والآيات هنا: البراهين والأوامر والنواهي، و﴿يَظْلِمُونَ﴾ أي يضعونها في غير مواضعها بالكفر والتكذيب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾.

الخطاب لجميع الناس، والمراد أن النوع بجملته مُمكن في الأرض، والمعايش: جمع معيشة وهي لفظة تعُمُّ المأكول الذي يعاش به والتحرّف الذي يؤدي إليه. وقرأ الجمهور: ﴿مَعَـٰيِشَ﴾ بكسر الياء دون همز، وقرأ الأعرج وغيره: [معائش] بالهمز كمدائن وسفائن، ورواه خارجة عن نافع[1]، وروي عن ورش [مَعَايْش] بسكون

= على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجلٍّ منها مدّ البصر، فيقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظَلَمَك كتبي الحافظون؟ فيقول: لا يارب، فيقول: ألك عذرٌ أوْ حسنةٌ؟ فيهاب الرجل فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى لك عندنا حسنة، إنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تُظْلَم، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة. ولا يثقل مع اسم الله شيء». (الدر المنثور ٣ـ ٧٠).

(١) قال في (اللسان): «وأكثر القراء على ترك الهمز في معايِش إلا ما روي عن نافع فإنه همزها، وجميع النحويين البصريين يزعمون أن همزها خطأٌ، وذكر أن الهمزة إنما تكون في هذه الياء إذا كانت زائدة مثل صحيفة وصحائف، فأما معايشُ فمن العيْش فالياء أصلية».

وقال أبو حيان في (البحر المحيط) بعد أن نقل الرواية عن الأعرج وغيره: «وليس بالقياس لكنهم رَوَوْهُ وهم ثقات فوجب قبوله» ثم نقل كلام الزجاج والمازني وغيرهما في إثبات خطأ هذه القراءَة وعقب على=

الياءِ ، فمن قرأ ﴿مَعَٰيِشَۗ﴾ بتصحيح الياءِ فهو الأَصوب لأنها جمع معْيشة[١] وزنها مَفْعِلة. ويحتمل أَن تكون مفعُلة بضم العين ، قالهما سيبويه ، وقال الفراءُ: مفعَلة بفتح العيْن ، فالياءُ في معيشة أَصلية ، وأُعلَّت لموافقتها الفعل الذي هو يعيش في الياءِ أَي في المتحرك والساكن ، وصُححت معايش في جمع التكسير لزوال الموافقة المذكورة في اللفظ ، ولأن التكسير معنى لا يكون في الفعل وإنما تختص به الأَسماءُ ، ومن قرأَ [معائِش] فعَلَى التخفيف من ﴿مَعَٰيِشَۗ﴾ ، ومن قرأَ [معائش] فأَعلها فذلك غلط ، وأَما توجيهه فعَلَى تشبيه الأَصل بالزائد لأَن (معيشة) تشبه في اللَّفظ (صحيفة) ، فكما يقال: صحائف قيل: معائش ، وإنما همزت ياءُ (صحائف) ونظائرها مما الياءُ فيه زائدة لأَنها لا أَصل لها في الحركة ، وإنما وزنها فعيلة ساكنة ، فلما اضطر إلى تحريكها في الجمع بُدّلت بأَجلد منها.

و﴿قَلِيلًا﴾ نصب بـ ﴿تَشْكُرُونَ﴾ ، ويحتمل أَن تكون ﴿مَّا﴾ زائدة ، ويحتمل أَن تكون مع الفعل بتأْويل المصدر ، و﴿قَلِيلًا﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره: شكراً قليلاً شكرُكم ، أَو: شكراً قليلاً تشكرون.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ الآية. هذه الآية معناها التنبيه على موضع العبرة والتعجب من غريب الصنعة وإِسداءِ النعمة ، فبدأَ بالخلق الذي هو الإِيجاد بعد العدم ، ثم بالتصوير في هذه البينة المخصوصة للبشر ، وإلا فلم يُعرَّ المخلوق قط من صورة.

واضطراب الناس في ترتيب هذه الآية لأَن ظاهرها يقتضي أَن الخلق والتصوير لبني آدم قبل القول للملائكة أَن يسجدوا ، وقد صححت الشريعة أَن الأَمر لم يكن كذلك ـ فقالت فرقة: المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ آدم بنفسه وإن كان

= ذلك بقوله: «ولسنا متعبِّدين بأَقوال نحاة البصرة». (البحر المحيط ٤ـ ٢٧١).

(١) أصل مَعيشَة: مَعْيِشَة بكسر الياءِ أو بعضها كما قال سيبويه ، وقال الفراء: بفتحها ، واللغويون يصوبون كلام سيبويه ويقولون: إِن كلام الفراء خطأ ، ويقولون في تعليل ذلك: إن كان أصلها مَعْيِشة بكسر الياء فقد نقلت الكسرة إلى الساكن قبلها وهو العين ، وإن كان أصلها مَعْيُشة بضم الياء فقد استثقلت الضمة على الياء فقلبت كسرة ثم نقلت إلى الساكن قبلها ، لكن إذا كانت في الأَصل بالفتح مَعْيَشة فليس هناك ثقل في الفتحة فلا سبيل إلى قلبها كسرة. (انظر حاشية الجمل).

الخطاب لِبَنِيه ، وذلك لما كان سببَ وجود بنيه فما فعل فيه صحَّ مع تجوز أَن يقال: إِنه فعل في بنيه ، وقال مجاهد: المعنىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ﴾ في صلب آدم وفي وقت استخراج ذرية آدم من ظهره أَمثال الذرِّ في صورة البشر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويترتب في هذين القولين أَن تكون ﴿ثُمَّ﴾ على بابها في الترتيب والمهلة.

وقال عكرمة والأَعمش: المراد: خلقناكم في ظهور الآباءِ وصورناكم في بطون الأُمهات. وقال ابن عباس والربيع بن أَنس: أَمَّا ﴿خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ فآدم ، وأَمَّا ﴿صَوَّرْنَـٰكُمْ﴾ فذريته في بطون الأُمهات ، وقاله قتادة والضحاك. وقال معمر بن راشد عن بعض أَهل العلم: بل ذلك كله في بطون الأُمهات من خلق وتصوير.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقالت هذه الفرقة: إِن ﴿ثُمَّ﴾ لترتيب الإِخبار بهذه الجمل لا لترتيب الجمل في نفسها. وقال الأَخفش: ﴿ثُمَّ﴾ في هذه الآية بمعنىٰ الواو ، وردّ عليه نحويُّو البصرة[(١)].

وملائكة: ووزنه إِمَّا مَفَاعِلة وإِما مَعَافِلة بحسب الاشتقاق الذي قد مضى ذكره في سورة البقرة. وهناك ذكرنا هيئة السجود والمراد به ، ومعنى إِبليس ، وكيف كان قبل المعصية ، وأَما قوله تعالىٰ: في هذه الآية: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ فقال الزجاج: هو استثناءٌ ليس من الأَول ، ولكن إِبليس أُمر بالسجود بدليل قوله تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾. وقال غير الزجاج: الاستثناء من الأَول ، لأَنا لو جعلناه منقطعاً على قول من قال: إِن إِبليس لم يكن من الملائكة لوجب أَن إِبليس لم يؤمر بالسجود ، إِلا أَن يقول قائل هذه المقالة: إِن أَمر إِبليس كان بوجه آخر غير قوله تعالىٰ: ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ وذلك بيّن الضعف.

---

(١) وهناك أقوال أخرىٰ ذكرها المفسرون ، وقد عقب عليها القرطبي بقوله: «كل هذه الأقوال محتمل ، والصحيح منها ما يَعْضُده التنزيل ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ يعني آدم ، وقال: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ، ثم قال: ﴿جَعَلْنَـٰهُ﴾ أي جعلنا نسله وذُرِّيته ﴿نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ ، فآدم خلق من طين ثم صوّر وأكرم بالسجود ، وذرِّيَّتُه صوِّروا في أرحام الأُمهات بعد أن خلقوا فيها وفي أصلاب الآباء».

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: [لِلْمَلاَئِكَةُ اسْجُدُوا] بضم الهاءِ، وهي قراءَة ضعيفة، وَوَجْهُها أنه حذف همزة [اسْجُدُوا] وألقى حركتها على الهاءِ، وذلك لا يَتَّجه لأنها همزة محذوفة مع الهاءِ بحركة، أيْ شيءٌ يلغى، والإلغاءِ يكون في الوصل[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ مَا ﴾ استفهام والمقصود به التوبيخ والتقريع، و(لا) في قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَّا ﴾ قيل: هي زائدة، والمعنىٰ: ما منعك أن تسجد، وهي كـ (لا) في قول الشاعر:

أَبَى جودُهُ لا الْبُخْلَ فاسْتَعْجَلَتْ بِهِ   نَعَمْ مِنْ فَتىً لا يَمْنَعُ الجودَ نائِلُه[٢]

وهذا على أحد الأقوال في هذا البيت، فقد قيل: (لا) فيه زائدة، وقال الزجاج: مفعوله، والبخل بدل منها، وحكى الطبري عن يونس عن أبي عمرو بن العلاءِ أن الرواية فيه: (لا البُخْلِ) بخفض اللام، لأن (لا) قد تتضمن جوداً إذا قالها في أمر يمنع الحقوق والبخل عن الواجبات.

ومن الأبيات التي جاءَت (لا) فيها زائدة قول الشاعر:

---

(١) جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ ﴾ في خمسة مواضع من القرآن الكريم ـ في البقرة، وفي الأعراف، وفي الإسراء، وفي الكهف، وفي طه ـ والسبب في قراءَة أبي جعفر استثقال الانتقال إلى الضمة وإجراءً للكسرة اللازمة مجرى العارضة، قاله ابن الجزري في كتابه «النشر في القراءات العشر»، وقال: وذلك لغة أزد شنوءة.

(٢) سبق الاستشهاد بهذا البيت عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فقد قيل: (لا) زائدة كما زيدت في قوله تعالىٰ: ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ لأن المعنىٰ: وحرام على قرية مهلكة رجوعهم، وأما هذا البيت: (أبى جوده...الخ) ففيه آراء كثيرة منها أيضاً أن (لا) زائدة كما قال ابن عطية، وفي اللسان والصحاح (الجوع) وفي المحكم (الجوس) وهو الجوع، وفي مغني اللبيب (الجود)، ولكن ذكر لفظ (قاتله) بدلاً من (نائلُه) على أن (قاتِلَه) مفعول أول للفعل (يمنع) والجودَ مفعول ثان. قال الفارسي في الحجة: «قال أبو الحسن: فسَّرته العرب أَبَى جودُه البخلَ، وجعلوا (لا) حشواً».

أَفَمِنْـــكَ لا بـــرْقٌ كـــأنَّ وَميضَـــهُ   غـــابٌ تَسَنَّمَـــهُ ضِـــرامٌ مثقـــب(١)

وقيل في الآية: ليست (لا) زائدة، وإنما المعنىٰ: ما منعك فأحوجك إلى ألاَّ تسجد؟ وقيل: لما كان ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ بمعنىٰ: مَنْ أَمَرَك؟ ومن قال لك؟ حَسُنَ أن يقول بعدها: ألاَّ تسجد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وجملة هذا أن يقدر في الكلام فعل يحسُن حمل النفي عليه كأنه قال: ما أحوجك أو حملك أو اضطرك؟ وجواب إبليس اللعين ليس عما سئل عنه، ولكنه جاءَ بكلام يتضمن الجواب والحجة عليه، فكأنه قال: منعني فضلي إذ أنا خير منه حين خلقتني من نار وخلقته من طين. ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لا أسجد أنا خير منه وأكبر سناً وأقوىٰ خلقاً، يقول: إن النار أقوىٰ من الطين، وظن إبليس أن النار أفضل من الطين، وليس كذلك، بل هما في درجة واحدة من حيث هما جماد مخلوق، فلما ظن إبليس أن صعود النار وخفتها يقتضي فضلاً عن سكون الطين وبلادته قاس أن ما خلق منها أفضل مما خلق من الطين، فأخطأ قياسه، وذهب عليه أن الروح الذي نُفخ في آدم ليس من طين. قال الطبري: ذهب عليه ما في النار من الطيش والخفة والاضطراب، وما في الطين من الوقار والأناة والحلم والتثبّت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي كلام الطبري نظر، وروي عن الحسن وابن سيرين أنهما قالا: أول من قاس إبليس، وما عُبدت الشمس والقمر إلا بالقياس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

قال الطبري: يعني القياس الخطأ، ولا دليل من لفظهما عليه، ولا يتأول عليهما إنكار القياس، وإنما خرج كلامهما نهياً عما كان في زمنهما من مقاييس الخوارج وغيرهم، فأرادا حمل الناس على الجادّة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ الآية. أمر من الله عزَّ وجلَّ لإبليس بالهبوط في وقت

(١) هذا البيت لساعدة الهذلي. قال الأصمعي: يريد: أمنك برق؟ والوميض: اللمعان، قال الليث: وقد يكون الوميض للنار، وتسنّمه: علاه، والضرّام: ماشتعل من الحطب، ويقال: ثَقَبَت النارُ: اتّقدت.

عصيانه في السجود ، فيظهر من هذا أنه أُهبط أولاً وأُخرج من الجنة وصار في السماءِ لأَن الأَخبار تظاهرت أنه أَغوىٰ آدم وحوّاءَ من خارج الجنة ، ثم أُمر آخراً بالهبوط من السماء مع آدم وحواء والحية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذاكله بحسب أَلفاظ القصة والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ ﴾ معناه: فما يصح لك ولا يتم ، وليس يقتضي هذا أَن التكبر له في غيرها على ما ذهب إِليه بعض المعترضين ، فقد تضمنت الآية أَن الله أَخبر إِبليس أَن الكبرياءَ لا يتم له ولا يصح في الجنة مع نهيه له ولغيره عن الكبرياءِ في كل موضع ، وأَما لو أَخذنا ﴿ فَمَا يَكُونُ ﴾ على معنى: فما يحسُن وما يجْمُل كما تقول للرجل: ما كان لك أَلاَّ تصل قرابتك لفتَر معنى الإِغلاظ على إِبليس.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ حكم عليه بضد المعصية التي عصَى بها وهي الكبرياءُ ، فعوقب بالحمل عليه بخلاف شهوته وأَمله ، والصَّغار: الذُّل ، قاله السُّدي.

ثم سأَل إِبليس ربّه أَن يؤخره إِلى يوم البعث ، طمع أَلاَّ يموت إِذ علم أَن الموت ينقطع بعد البعث. ومعنىٰ ﴿ أَنظِرْنِيٓ ﴾ أَخِّرني. فأَعطاه الله النَّظرَةَ إِلى يوم الوقت المعلوم ، فقال أَكثر الناس: الوقت المعلوم: هو النفخة الأُولىٰ في الصور التي يصعق لها من في السموات ومن في الأَرض من المخلوقين. وقالت فرقة: بل أَحاله على وقت معلوم عنده عزَّ وجلَّ يريد به يوم موت إِبليس وحضور أجله دون أَن يعيّن له ذلك ، وإِنما تركه في عماءِ الجهل به ليغمه ذلك ما عاش.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقال بعض أَهل هذه المقالة: إِن إِبليس قتلته الملائكة يوم بدر ، ورَوَوْا في ذلك أَثراً ضعيفاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَول من هذه الأَقوال أَصحُ وأَشهر في الشرع.

ومعنىٰ ﴿ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾: من الطائفة التي تأَخرت أَعمارها كثيراً حتى جاءَت آجالها على اختلاف أَوقاتها ، فقد عمَّ تلك الطائفة إِنظار وإِن لم يكونوا أَحياء مدة الدهر.

وقوله: ﴿فَبِمَآ﴾ يحتمل أَن يريد به القسم كما تقول: فبالله لأفعلنَّ(١)، ويحتمل أَن يريد به معنىٰ المجازاة كما تقول: فبإكرامك يا زيد لأكرمنك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا أَليق المعاني بالقصة.

ويحتمل أَن يريد: فمع إغوائك لي ومع ما أننا عليه من سوءِ الحالِ لأَتجلدنَّ ولأَقعدنَّ، ولا يعرض لمعنىٰ المجازاة ويحتمل أَن يريد بقوله ﴿فَبِمَآ﴾ الاستفهام عن السبب في إغوائه، ثم قطع ذلك وابتدأَ الإخبار عن قعوده لهم، وبهذا فسَّر الطبري أَثناءَ لفظه. و﴿أَغْوَيْتَنِى﴾ قال الجمهور: معناه: أَضللتني، من الغيّ، وعلى هذا المعنى قال محمد بن كعب القرظي ـ فيما حكى الطبري ـ: قاتل الله القدرية، لإِبْليسُ أَعلم بالله منهم، يريد في أَنه علم أَن الله يهدي ويضل. وقال الحسن: ﴿أَغْوَيْتَنِى﴾ لعنتني، وقيل: معناه: خيَّبتني(٢).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله تفسير بأَشياءَ لزمت إغواءَه.

وقالت فرقة: ﴿أَغْوَيْتَنِى﴾ معناه: أَهلكتني، حكى ذلك الطبري، وقال: هو من قولك، غَوِي الفصيل يَغْوَى غَوىً إِذا انقطع عنه اللبن فمات. وأَنشد:

مُعَطَّفَـةُ الأَثْنَـاءِ ليْـسَ فصيلُهـا ... بِـرازِئِهـا دَرًّا ولا ميِّـتِ غَـوَى(٣)

---

(١) دليل هذا قوله في سورة (ص): ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فكأن إبليس أعظم قدر إغواء الله إياه لأن فيها تسليطاً على العباد فأقسم به إعظاماً لِقَدْره عنده.

(٢) ومنه قول المرقش:

فَمَـنْ يَلْـقَ خَيْـراً يَحْمَـد النـاسُ أَمْـرَهُ ... وَمَـنْ يَغْـوَ لا يَعْـدَم علي الغيِّ لائمـا

أي: ومن يَخِب.

وغَوِي من باب فرح ـ ويأتي من باب ضرب.

(٣) هذا البيت في (اللسان ـ غوى) قال: وغَوِيَ الفصيل والسخلة يَغْوى غَوىً فهو غو: بَشِم من اللبن وفسد جوفه، وقيل: هو أن يمتنع من الرضاع فلا يروى حتى يهزل ويضرُّ به الجوع ويموت هزالاً، أو يكاد يهلك. وقال: يصف في هذا البيت قوساً بقوله: (معطفة) يعني القوسَ وسهماً رمي به عنها، وهذا من اللغز، وقال ابن قتيبة في كتابه (المعاني الكبير ص ١٠٤٧) أنشد ابن الأعرابي لعامر المجنون: معطفة الأذناب... يريد القوس، وفصيلها السهم.

قال: وقد حكي عن بعض طيء: أَصبح فلانٌ غاوياً، أَي مريضاً.

وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ﴾ يريد: على صراطك، وفي صراطك، وحذف كما يفعل في الظروف، ونحوه قول الشاعر:

لَـدْنٌ بِهَـزِّ الكَـفِّ يَعْسِـلُ مَتْنُـهُ ... فيـهِ كما عَسَـلَ الطَّـرِيـقَ الثَّعْلَـبُ[1]

وقال مجاهد: ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يريد به الحق. وقال عون بن عبد الله: يريد طريق مكة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تخصيص ضعيف، وإِنما المعنى: لأَتعرضنَّ لهم في طريق شرعك وعبادتك ومنهج النجاة فلأَصدَّنَّهم عنه، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الشيطان قعد لابن آدم بأَطرقه، نهاه عن الإِسلام وقال: تترك دين آبائك؟ فعصاه فأَسلم، فنهاه عن الهجرة وقال: تَدَع أَهلك وبلدك؟ فعصاه فهاجر، فنهاه عن الجهاد وقال: تُقتل وتترك ولدك؟ فعصاه فجاهد فله الجنة»[2]. الحديث.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

هذا توكيد من إِبليس في أَنه يجِدُّ في إِغواءِ بني آدم، وهذا لم يكن حتى علم إِبليس

(١) البيت لساعِدَة بن جُؤَيَة الهُذَلي، وهو من شواهد النحويين (الخزانة للبغدادي ١ـ ٤٧٤) والشاهد فيه قوله: «عَسَل الطريق» إذ يريد: في الطريق، والشاعر يصف في البيت رمحاً فيقول: إنه لَيّن الهزّ ويُشبه في حال هزّه أو اضطرابه في نفسه عَسَلان الثعلب في سيره. وعَسَلان الثعلب (بالتحريك) سيرٌ سريع فيه اضطراب واهتزاز، واللَّدن في اللغة: الناعم اللَّيِّن. (عن شرح الشواهد) ـ والشاعر: مخضرم أسلم وليست له صحبة.

(٢) الحديث في ابن كثير، وذكره الألوسي أيضاً بكامله وقد أخرجه الإمام أحمد والنسائي وغيرهما عن سَبرة بن أبي فاكه، وفي آخر الحديث كما رواه الإمام أحمد: فقال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو قتل كان حقاً على الله عزّ وجلَّ أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة». (مسند الإمام أحمد ٣ـ٤٨٣). ط دار صادر، بيروت.

أَن اللهُ يجعل في الأَرض خليفة وعلم أَنه آدم، وإِلاَّ فلا طريق له إِلى عِلْم أَنسال آدم من أَلفاظ هذه الآيات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومقصد هذه الآية أَن إِبليس أَخبر عن نفسه أَنه يأْتي لإِضلال ابن آدم من كل جهة، وعلى كل طريق، يفسد عليه ما أَمكنه من معتقده، وينسيه صالح أَعمال الآخرة، ويغريه بقبيح أَعمال الدنيا، فعبر عن ذلك بأَلفاظ تقتضي الإِحاطة بهم، وفي اللفظ تَجَوُّز، وهذا قول جماعة من المفسرين.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما روي عنه: أَراد بقوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ الآخرة، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ الدنيا، ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ الحق، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ الباطل، وقال ابن عباس أَيضاً فيما روي عنه: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ هي الدنيا، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ هي الآخرة، ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ الحسنات، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ السيئات. وقال مجاهد: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ معناه: حيث يبصرون، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ حيث لا يبصرون.

وقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ أَخبر أَن سعايته تفعل ذلك ظَنّاً منه وتوهُّماً في خلقة آدم حين رأَى خلقته من أَشياءَ مختلفة، فعلم أَنه ستكون لهم شِيَمٌ تقتضي طاعته كالغلِّ والحسد والشهوات ونحو ذلك، قال ابن عباس، وقتادة: إِلاَّ أَن إِبليس لم يقل إِنه يأْتي بني آدم من فوقهم ولا جعل الله له سبيلاً إِلى أَن يحول بينهم وبين رحمة الله وعفوه ومنَّه. وما ظنَّه إِبليس صدقه الله عزَّ وجلَّ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1] فجعل أَكثر العالم كفرة، وَيُبَيِّنُهُ قول النبي ﷺ في الحديث: «يقول الله تبارك وتعالىٰ يوم القيامة: يا آدم، أَخرج بعث النار، فيقول: يا ربِّ وما بعث النار؟ فيقول: من كل أَلف تسعمائة وتسعة وتسعين، وواحد إِلى الجنة»، ونحوه مما يخص أُمة محمد عليه الصلاة والسلام، «ما أَنتم في الأُمم إِلاَّ كالشعرة البيضاءِ في الثور الأَسود»[2].

---

(١) سبأ: ٢٠.

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد، والترمذي، والإمام البخاري في كتاب الأنبياء، وفي تفسير سورة الحج، وفي كتاب الإيمان، ويفهم من كلام ابن عطية أنهما حديثان، ولكنهما حديث واحد، ولفظه كما في البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلَّ يومَ القيامة: =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوله: (كالشعرة) يحتم أن يريد شعرة واحدة وهو بعيد لأن تناسب الحديث الأول يردُّه. ويحتمل أن يريد الشعرة التي هي للجنس، والقصد أن يشبههم بثور أسود قد أُنبتت في خلال سواده شعرة بيضاءُ، ويحتمل أن يريد اللمعة من الشعر الأبيض وهذا فيه بعد. وقوله ﴿شَٰكِرِينَ﴾ معناه: مؤمنين لأن ابن آدم لا يشكر نعمة الله إلا بأن يؤمن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ الضمير في ﴿مِنْهَا﴾ عائد على الجنة، و﴿مَذْءُومًا﴾ معناه: معيباً، يقال: ذأمه إذا عابه، ومنه الذأم وهو العيب، وفي المثل: «لن تعدم الحسناءُ ذاما»[1] أي عيباً، وسهلت فيه الهمزة، ومنه قول قيْل حمير: أردت أن تذيمه فمدهته، يريد: فمدحته، وحكى الطبريُّ أنه يروى هذا البيت:

صَحِبْتُـكَ إِذْ عَيْنـي عَلَيْهَـا غِشَـاوَةٌ ... فلَمَّا انجلَتْ قَطَّعْتُ نَفْسي أَذيمها[2]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والرواية المشهورة أَلومها. ومن الشاهد في اللفظ قول الكميت:

= يا آدم، فيقول: لَبَّيْك ربنا وسعْدَيْك، فَيُنَادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذُرِّيتك بعثاً إلى النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف أُراه قال: تسعمائة وتسعةً وتسعين، فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الولد وتَرى النَّاس سُكارىٰ وما هُمْ بِسُكارى ولكنَّ عذاب الله شديد»، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم فقال النبي ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعةً وتسعين ومنكم واحدٌ، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنَّة»، فكبَّرنا، ثم قال: «ثُلُث أهل الجنَّة» فكبَّرنا، ثم قال: «شَطْر أهل الجنَّة فكبَّرنا».

(١) المثل كما جاء في «مجمع الأمثال للميداني» هو: (لا تعدمُ الحسناءُ ذاماً) ـ قال الذَّام والذَّيْم: العيب. ومثله: العاب والعيْبُ في الوزن، وأول من تكلم بهذا المثل فيما زعم أهل الأخبار حُبيّ بنت مالك بن عمرو العدوانية، وكانت من أجمل النساء، فسمع بجمالها ملك غسّان فخطبها إلى أبيها وحكّمه في مهرها وسأله تعجيلها، فلما عزم الأمر قالت أُمها لتُبَّاعها: إن لنا عند الملامسة رشحة فيها هَنَة، فإذا أردْتُنَّ إدخالها على زوجها فطيِّبْنَها بما في أصدافها، فلما كان الوقت أعجلهن زوجها فأَغْفَلْنَ تَطْييبَها، فلما أصبح قيل له: كيف وجدت أهلك طروقتك البارحة؟ فقال: ما رأيتُ كالليلة قط لولا رُوَيْحة أنكرتها، فقالت وهي من خلف الستر: لا تَعْدَم الحسناءُ ذاماً» فأرسلتها مثلاً.

(٢) البيت في (اللسان ـ غشا) ـ قال: أنشد ابن بري للحارث بن خالد المخزومي، وذكر: «ألومُها» بدلا من «أذيمُهَا». وهذا ما عقَّب به ابن عطية على رواية الطبري للبيت.

وهُـمُ الأَقْـرَبُـونَ مِـنْ كُـلِّ خَيْـرٍ ... وهُـمُ الأَبْعَـدُونَ مِـنْ كُـلِّ ذام

ومن الشاهد في ﴿مَّدْحُورًا﴾ قول الشاعر:

وَدَحَرْتُ بني الحصيب إلى قُدَيْد ... وقَـدْ كـانـوا ذَوي أَشَـرٍ وفخـر(١)

وقرأ الزهري، وأبو جعفر، والأعمش في هذه الآية: [مَذوماً] على التسهيل. و﴿مَّدْحُورًا﴾ معناه: مقصياً مُبعداً ـ وقرأت فرقة: [لَمَنْ تَبعَكَ] بفتح اللام وهي على هذه لامُ القسم المخرجةُ الكلامُ من الشك إلى القسم، وقرأ عاصم الجدري، والأعمش: [لِمَن تَبِعَكَ] بكسر اللام، والمعنىٰ: لأجل من تبعك لأَملأن جهنم منكم أجمعين، فأدخله في الوعيد معهم بحكم هذه الكاف في [مِنْكُمْ].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

إذا أُمر الإنسان بشيءٍ هو متلبس به فإنما المقصد بذلك أن يستمر على حاله ويتمادى في هيئته. وقوله تعالىٰ لآدم ﴿ٱسْكُنْ﴾ هو من هذا الباب. وأكَّد الضمير الذي في قوله: ﴿ٱسْكُنْ﴾ بقوله: ﴿أَنتَ﴾ وحينئذٍ جاز العطف عليه وهو ضمير لا يجوز إظهاره ولا يترتب، والعطف على الضمير الملفوظ به لا يجوز إلا بعد تأكيده كقولك: قمتَ أنت وزيد، لأن الضمير بمنزلة حرف من الفعل، وهذا الضمير الذي في ﴿ٱسْكُنْ﴾ أضعف من الملفوظ به فأحرى ألاَّ يصح العطف عليه إلا بعد التأكيد.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَكُلَا﴾ هو من (أَكَلَ)، فأصله أُؤْكُلا فحذفت فاءُ الفعل لاجتماع المثلين، واستغني عن الأخرى لما تحرَّك ما بعدها، وحسُن أيضاً حذف فاءُ الفعل لأنهم استثقلوا الحركة على حرف علة، وهذا باب كل فِعْل أوله همزة ووزنه فَعَل كأَخذ وأمر ونحوه، وكان القياس ألا تحذف فاءُ الفعل ولكن ورد استعمالهم هكذا(٢).

ويقال: قرب يقرب. و﴿هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ الظاهر أنه أشار إلى شخص شجرة واحدة من نوع وأرادها، ويحتمل أن يشير إلى شجرة معينة وهو يريد النوع بجملته، وعبَّر باسم الواحدة كما تقول: أصاب الناس الدينار والدرهم، وأنت تريد النوع.

---

(١) دحره: أبعده وطرده، وقُدَيْد: مكان، والأَشرَ: البطر والكبرياءُ.

(٢) قال في (اللسان): «وقد أُخرج على الأصل فقيل: أُوكُلْ، وكذلك القول في خُذْ ومُرْ».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى الاحتمالين فآدم عليه السلام إنما قصد في وقت معصية فعل ما نهي عنه، قاله جمهور المتأَولين، وبذلك أَغواه إبليس لعنه الله بقوله: إنك لم تُنْه إلاَّ لئلا تخلد أو تكون ملكاً، فيبطل بهذا قول من قال: إن آدم إنما أَخطأ متأَولاً بأَن ظن النهي متعلقاً بشخص شجرة فأَكل من النوع فلم يعذر بالخطأ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك أَن القائل إنما يفرض آدم معتقداً أَن النهي إنما تعلق بشجرة معينة فكيف يقال له مع هذا الاعتقاد: إنك لم تُنْه إلاَّ لئلا تخلد، ثم يقصد هو طلب الخلود في ارتكاب غير ما نهي عنه؟ ولا فرق بين أَكله ما يعتقد أنه لم يُنْه عنه وبين أكله سائر المباحات له.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والهاءُ الأَخيرة في ﴿هَٰذِهِ﴾ بدل من الياءِ في (هذي) أُبدلت في الوقف ثم ثبتت في الوصل هاءً حملاً على الوقف، وليس في الكلام هاءُ تأْنيث قبلها كسرة إلاَّ هذهِ. وقرأَ ابن محيصن: [هَذِي الشَّجَرَةَ] على الأَصل. وقوله تعالىٰ: ﴿فَتَكُونَا﴾ نصب في جواب النهي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتعلق الناس بهذه الآية في مسأَلة الحظر والإِباحة، وذلك أَن مسأَلة الحظر والإِباحة تكلَّم الناس فيها على ضربين: فأَما الفقهاءُ فدعاهم إلى الكلام فيها أَنه تنزل نوازل لا توجد منصوصة في كتاب الله عزَّ وجلَّ ولا في سنة ولا في إِجماع، ويعتم وجه استقرائها من أَحد هذه الثلاثة وقياسها على ما فيها، فيرجع الناظر بعد ذلك ينظر على أَي جهة يحملها من الإِجازة والمنع، فقال بعضهم: إذا نزل مثل هذا فنحمله على الحظر، ونأْخذ فيه بالشدة، ونستبرىء لأَنفسنا، إذ الله عزَّ وجلَّ قد بيّن لنا في كتابه جميع ما يجب بيانه، وأَحل ما أَراد تحليله، ولم يترك ذكر هذه النازلة إلا عن قصد فاجترامنا نحن عليه لا تقتضيه الشريعة. وقال بعضهم: بل نحملها على الإِباحة لأَن الله عزَّ وجلَّ قد أَكمل لنا ديننا وحرَّم علينا ما شاءَ تحريمه، ولم يهمل النص على نازلة إلاَّ وقد تركها في جملة المباح، وبعيد أَن يريد في شيءٍ التحريم ولا يذكره لنا ويدعنا في

عمى الجهالة به، فإنما نحملها على الإباحة حتى يطرأ الحظر. وقال بعضهم: بل نحمل ذلك على الوقف أبداً ولا نحكم فيه بحظر ولا إباحة، بل نطلب فيه النظر والقياس أبداً، وذلك لأنا نجد الله عزَّ وجلَّ يقول في كتابه: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ في مواضع، ويقول: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ في مواضع، فدلَّ ذلك على أن كل نازلة تحتاج إلى شرع وأمر، إمَّا مخصوصاً بها، وإما مشتملاً عليها وعلى غيرها، ولو كانت الأشياءُ على الحظر لما قال في شيءٍ: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾، ولو كانت على الإباحة لما قال في شيءٍ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا أبين الأقوال، ولم يتعرض الفقهاءُ في هذه المسألة إلى النظر في تحسين العقل وتقبيحه، وإنما تمسكوا في أقوالهم هذه بأسباب الشريعة، وذهبوا إلى انتزاع مذاهبهم منها.

وأما الضرب الثاني من كلام الناس في الحظر والإباحة فإن المعتزلة ومن قال بقولهم: إن العقل يحسّن ويقبّح ـ نظروا في المسألة من هذه الجهة فقالوا: نفرض زمناً لا شرع فيه، أو رجلاً نشأ في بريّةٍ ولم يُحِسَّ قط بشرع ولا بأمر ولا بنهي، أو نقدر آدم عليه السلام وقت إهباطه إلى الأرض قد تُرك وعقله قبل أن يُؤمر ويُنهى. كيف كانت الأشياءُ عليه؟ أو كيف يقتضي العقل في الزمن والرجل المفروضين؟ فقال بعضهم: الذي يحْسُن في العقل أن تكون محظورة كلها حتى يرد الإذن باستباحتها، وذلك أن استباحتها تَعَدٍّ على ملك الغير، وإذا قبُح ذلك في الشاهد فهو في حق الله أعظم حرمة، وذهب بعض هذه الفرقة إلى استثناء التنفس والحركة من هذا الحظ وقالوا: إن هذه لا يمكن غيرها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله.

ويمكن أن يقدر الاضطرار إليها إباحة لها. وقال بعضهم: بل يحسُنُ في العقل أن تكون مباحة إذ التحكم في ملك الغير بوجه لا ضرر عليه فيه كالاستظلال بالجدران ونحوه مباح، فإذا كان هذا في الشاهد جائزاً فهو في عظم قدر الله تعالىٰ ووجوده أجوز، إذ لا ضرر في تصرفنا نحن في ملكه ويتعلق بحقه شيءٌ من ذلك.

وقال أَهل الحق والسُّنة في هذا النحْو من النظر: بل الأَمر في نفسه على الوقف، ولا يوجب العقل تحسيناً ولا تقبيحاً بمجرده يدان بِهِ، ولا يتَّجه حكم الحَسنِ والقبيح إلا بالشرع. وقال بعضهم: والعقل لم يخْلُ قط من شرْعٍ، فلا معنى للخوض في هذه المسأَلة ولا لفَرْض مالا يقع، وذهبوا إِلىٰ الاحتجاج بأَن آدم عليه السلام قد توجهت عليه الأَوامر والنواهي في الجنة بقوله تعالىٰ له حين جرى الرُّوح في جسده فعطس: قل الحمد لله يا آدم، وبقوله: اسكن وكل ولا تقرب ونحو هذا. وقال القاضي الباقلاني في «التقريب والإِرشاد»: إِن الفقهاءَ الذين قالوا بالحظر والإِباحة لم يقصدوا الكون مع المعتزلة في غوايتهم، ولكنهم رأَوا كلاماً مُلَفَّقاً مُمَوَّهاً فاستحسنوه دون أَن يشعروا بمايؤول إِليه من الفساد في القول بتحسين العقل وتقبيحه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا الكلام حمل على فقهاءِ الشرع واستقصار لهم، والصواب أَلاَّ يُظَنَّ بهم هذا الخلل، وإِنما التمسوا على نوازلهم تعليق حكم الحظر والإِباحة من الشرع، وهم مع ذلك لا يحمل عليهم أَنَّهم يدفعون الحق في أن العقل لا يُحَسِّن ولا يُقَبِّح دون الشرع.

وقد تقدم في البقرة ذكر الاختلاف في الشجرة وتعيينها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾.

الوسوسة: الحديث في خفاءٍ همساً وسراراً من الصوت، والوَسْواس: صوت الحَلْي[1] فشبه الهمس به، وسمي إِلقاءُ الشيطان في نفس ابن آدم وسوسة إِذ هي أَبلغ السرار وأَخفاه، هذا في حال الشيطان معنا الآن، وأَما مع آدم فممكن أَن تكون وسوسة بمجاورة خفية، أَو بإِلقاءٍ في نفس، ومن ذلك قول رؤْبة:

وسْوَسَ يدعو جاهداً ربّ الفلق[2]

---

(١) قال الأَعشى:

تَسْمَعُ لِلْحَلْي وَسْواساً إِذا انْصَرَفَتْ ... كما اسْتَعَانَ بِريح عِشْرِقٍ زَجِلُ

(٢) هذا البيت من أُرجوزة رؤبة المطوَّلة في وصف المفازة. والبيت في وصف صيَّادٍ، والرواية في (اللسان=

فهذه عبارة عن كلام خفي، والشيطان يراد به إبليس نفسه. واختلف نَقَلَة القصص في صورة وسوسته[١]، فروي أنه كان يدخل إلى الجنة في فم الحيَّة مستَخفياً بزعمه فيتمكن من الوسوسة. وروي أن آدم وحواءَ كانا يخرجان خارج الجنة فيتمكن إبليس منهما. وروي أن الله تعالىٰ أَقدره على الإلقاءِ في نَفْسَيْهما فأَغواهما وهو في الأَرض.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف يرده لفظ القرآن.

واللام في قوله تعالىٰ: ﴿لِيُبْدِيَ﴾ هي على قول كثير من المؤلفين لام الصيرورة والعاقبة[٢]، وهذا بحسب آدم وحواءَ، وبحسب إبليس في هذه العقوبة المخصوصة لأنه لم يكن له علم بها فيقصدها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويمكن أَن تكون لام كي على بابها بحسب قصد إبليس إلى حط مرتبتها وإلقائها في العقوبة غير المخصوصة[٣]، و﴿مَاوُرِيَ﴾ معناه: ما سُتر، من قولك: وارَى يوارِي إذا ستر، وظاهر هذا اللفظ أَنها مفاعلة من واحد، ويمكن أَن تقدر من اثنين لأَن الشيءَ الذي يواري هو أَيضاً من جهة. وقرأَ ابن وثَّاب: [ما وُرِيَ] بواو واحدة. وقال قوم: إن هذه اللفظة في هذه الآية مأْخوذة من وراء.

= ـ والتاج ـ والطبري) «يدعو مخلصاً» بدلاً من «جاهداً»، وفي بعضِ النسخ «جاهراً» بالراءِ، والمعنىٰ: لَما أحس بالصيد وأراد رميه وسوس نفسه بالدعاءِ حذر الخيبة.

(١) هذه العبارة توحي بأن ابن عطية لا يقبل هذه القصص كما حكيت، وتحمل معنى الشك في صحتها، وهو مذهب التزمه في تفسيره نحو الإسرائيليات، فإما أن يتجاهلها، وإما أن يشير إلى بعضها مع إظهار رفضه لها.

(٢) وهي في هذا كاللام في قوله تعالىٰ في الآية (٨) من سورة (القصص): ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

(٣) يمكن أن تفهم هذه العبارة على أن اللام هي لام (كي) وأن إبليس كان يقصد فعلاً كشف السوأة منهما وعلى هذا فكلمة (غير) تكون زائدة من النساخ، فالعقوبة إذن مخصوصة ـ ويمكن أن يكون قصد أن يقعا في الخطأ وأن تحل بهما أي عقوبة فتكون كلمة (غير) سليمة في موقعها لأنه قصد إيقاعهما في عقوبة، أي عقوبة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول يوهنه التصريف.

والسوأة: الفرج والدُّبر، ويشبه أَن يسمى بذلك لأَن منظره يسوءُ. وقرأَ مجاهد والحسن: [مِنْ سَوَّتِهِمَا] بالإِفراد وتسهيل الهمزة وشدّ الواو. وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع، وشيبة بن نصاح، والحسن، والزهري: [مِن سَوَّاتِهِمَا] بتسهيل الهمزة وتشديد الواو، وحكاها سيبويه لغة، قال أَبو الفتح: وَوَجْهها حذف الهمزة وإِلقاءُ حركتها على الواو فيقولون: سوَة، ومنهم من يُشدِّدُ الواو، وقالت طائفة: إِن هذه العبارة إِنما قصد بها أَنها كشفت لهما معانيهما وما يسوءُهما ولم يقصد بها العورة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول كان اللفظ يحتمله إِلا أَن ذكر خصف الورق يردُّه، إِلاَّ أَن يقدر الضمير في ﴿عَلَيْهِمَا﴾ عائد على بدنيهما إِذ تمزقت عنهما ثياب الجنة فيصح القول المذكور.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا﴾ الآية، هذا القول الذي حكي عن إِبليس يدخله من هذا التأْويل ما دخل الوسوسة، فممكن أَن يقول هذا مخاطبة وحواراً، وممكن أَن يقوله إِلقاءً في النفس ووحياً.

و﴿إِلَّآ أَن﴾ تقديره عند سيبويه والبصريين: إِلاَّ كراهية أَن. وتقديره عند الكوفيين: إِلاَّ أَن لا، على إِضمار (لا).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويُرَجِّحُ قولُ البصريين أَن إِضمار الأَسماءِ أَحسن من إِضمار الحروف.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿مَلَكَيْنِ﴾ بفتح اللام، وقرأَ ابن عباس، ويحيى بن كثير، والضحاك: [مَلِكَيْن] بكسر اللام، ويؤيد هذه القراءَة قوله تبارك وتعالىٰ في آية أُخرىٰ: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقال بعض الناس: يخرج من هذه الأَلفاظ أَن الملائكة أَفضل من البشر، وهي مسأَلة اختلف الناس فيها، وتمسك كل فريق بظواهر من الشريعة، والفضل بيد الله،

---

(١) من الآية (١٢٠) من سورة طه ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾.

وقال ابن فُورَك: لا حجَّة في هذه الآية لأَنه يحتمل أن يريد مَلَكَين في أَلاَّ تكون لهما شهوة في طعام(١).

﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أَي حلف لهما بالله، وهي مفاعلة إِذ قبول المحلوف له وإِقباله على معنى اليمين كالقَسَم وتقريره، وإِن كان بادي الرأْي يعطي أَنها من واحد، ومثله قولُ الهُزَلي:

وَقَاسَمَهُمَا بالله جَهْداً لأَنتُم ... أَلَذُّ من السَّلْوى إِذا ما نَشُورُهَا(٢)

وروي في القصص أَن آدم قال في جملة اعتذاره: ما ظننت يا رب أَن أَحداً يحلف حانثاً، فقال بعض العلماءِ: خدع الشيطان آدم بالله عزَّ وجلَّ فانخدع، ونحن من خدعنا بالله عزَّ وجلَّ وانخدعنا له، ورُوي نحوه عن قتادة.

واللام في قوله تعالىٰ: ﴿لَكُمَا﴾ متعلقة بـ ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، فقال بعض الناس، مكي وغيره: ذلك على أَن تكون الأَلف واللام لتعريف الجنس لا بمعنىٰ (الذي)، لأَنها إذا كانت بمعنىٰ (الذي) كان قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿لَكُمَا﴾ داخلا في الصلة فلا يجوز تقديمه، وأَظن أن أَبا علي الفارسي خرَّج جواز تقديمه وهي بمعنىٰ (الذي)، والظاهر أَنه إِن جعلت بمعنى (الذي) كانت اللام في قوله ﴿لَكُمَا﴾ متعلقة بمحذوف تقديره: إِني ناصحٌ لكما من الناصحين. وقال أَبو العالية في بعض القراءَة: «وقاسَمَهُما باللهِ».

قوله عزَّ وجل:

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) قال النحاس: فضَّل الله الملائكة بهذه الآية، وبقوله سبحانه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ وبقوله: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾. وقال الحسن: فضلهم بالصور والأجنحة والكرامة، وقيل: فضلهم بالطاعة وترك المعصية ـ واختار ابن عباس، والزجاج، وكثير من العلماء تفضيل المؤمنين. وأَنكر أبو عمرو بن العلاء قراءَة كسر اللام وقال: لم يكن قبل آدم مَلِك فيصيرا مَلِكَيْن.

(٢) البيت لخالد بن زهير كما قال صاحب (اللسان ـ سلا). والسَّلْوىٰ: العسل، وشارَ العَسَل: اجتناه وأخذه من خَلِيَّته. قال الزجَّاج: أخطأَ خالد، إنما السلوى طائر، وقال الفارسي يرد على الزَّجاج: السلوى: كل ما سلاك، وقيل للعسل: سلوى لأنه يسَلِّيك بحلاوته، وتأتيه عن غيره مما تلحقك فيه مؤنة الطبخ وغيره من أَنواع الصناعة.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ يريد: فغرهما بقوله وخدعهما بمكره.

قال القاضي: أبو محمد رحمه الله:

ويشبه عندي أن يكون هذا استعارة من الرجل يدلّي آخر من هُوَّة بحبل قد أَرَمَّ[١]، أَو بسبب ضعيف يغتر به، فإذا تدلَّىٰ به وتُورك عليه انقطع به فهلك، فَيُشَبَّه الذي يُغَرُّ بالكلام حتى يصدقه فيقع في مصيبة بالذي يُدَلَّى في هُوَّة بسبب ضعيف.

وعلق حكم العقوبة بالذَّوق[٢] إذ هو أَول الأَكل وبه يرتكب النَّهي، وفي آية أُخرى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿بَدَتْ﴾، قيل: تخرقت عنهما ثياب الجنة وملابسها وتطايرت تَبَرِّياً منهما، وقال وهب بن مُنبّه: كان عليهما نور يستر عورة كل واحد منهما فانقشع بالمعصية ذلك النور، قال ابن عباس وقتادة: كان عليهما ظفرٌ كاسٍ[٤] فلما عصيا تقلّص عنهما فبدت سوآتهما وبقي منها على الأَصابع قدر ما يتذكَّران به المعصية فيجددان الندم.

﴿وَطَفِقَا﴾ معناه: أَخذا وجعلا، وهو فعل لا يختص بوقت كبَاتَ وظَلَّ، و﴿يَخْصِفَانِ﴾ معناه: يلصقانها ويضمان بعضها إِلى بعض، والمِخْصَفُ: الإِشْفَى[٥]، والخصف: ضم الورق بعضه إِلى بعض أَشْبه بالْخَرْزِ منه بالخياطة. وقرأَ جمهور الناس: ﴿يَخْصِفَانِ﴾ من خصَفَ، وقرأَ عبد الله بن بريدة: [يَخَصِّفَان][٦] بِشد الصاد،

---

(١) هكذا في الأَصول (أَرَمَّ) ـ والذي في المعاجم: رمَّ الحَبْلُ: تقَطَّع، والرِّمَّةُ والرُّمَّة: قطعة من الحبل بالية، وبه سمّى غَيْلان العدوي الشاعر لقوله في وصف رأْس الوَتِدِ: (فيه بقايا رُمة التَّقْليد)، ولم نجد في المعاجم (أَرَمَّ) بمعنىٰ (رَمَّ) فانظر لعلَّ الهمزة زائدة من النساخ، ولَعلَّها تكون عربية في مراجع لم نعثر عليها.

(٢) الذَّوْق: مصدر ذاقَ الشيءَ يذوقُه ذوقاً وذَوَاقاً ومَذَاقاً ـ أمّا قولُنا: تَذَوَّقْتُه فمعناه: ذقْتُه شيئاً بعد شيءٍ، وقال ابن الأَعرابي: الذَّوْقُ يكون بالفم وبغير الفم وعليه قوله تعالىٰ: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾، ومنه الحديث الشريف: «حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك». (اللسان والتاج).

(٣) من الآية (١٢١) من سورة (طه).

(٤) قيل: كان يُغطي جسم كلٍّ منهما غطاءً كاملاً ظفر كالذي ترى بقيته الآن على أطراف الأَصابع.

(٥) الإِشْفَىٰ: مِخرزُ الإِسكافِ، وجمعه: أَشافٍ، ويُسَمَّىٰ أَيضاً: المِثْقَب.

(٦) الأَصل: يَخْتَصِفان، فأُلْقيت حركة التاءِ (الفتحة) على الخاءِ.

وقرأ الزُّهري: [يُخْصِفَان] من أخصف، وقرأ الحسن فيما روى عنه محبوب: [يَخَصِّفَان] بفتح الياء والخاءِ وكسر الصاد وشدها[١]، ورويت عن ابن بريدة وعن يعقوب، وأَصلها «يَخْتَصفان»، كما تقول: سمعت الحديث واستمعته. فأُدغمت التاءُ في الصاد ونقلت حركتها إلى الخاءِ، وكذلك الأَصل في القراءَة بكسر الخاءِ بعد هذه، لكن لما سكنت التاءُ وأُدغمت في الصاد اجتمع ساكنان فكسرت الخاءُ على عرف التقاء الساكنين، وقرأ الحسن، والأعرج، ومجاهد [يَخِصِّفَان] بفتح الياءِ وكسر الخاءِ وكسر الصاد وشدها، وقد تقدم تعليلها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الورق الذي خصفت منه ورق التين، (وروى أُبي عن النبي ﷺ أَن آدم عليه السلام كان يمشي في الجنة كأَنه نخلة سموق، فلما واقع المعصية وبدت له حالُه فرَّ على وجهه فأخذت شجرة بشعر رأسه يقال إنها الزيتونة، فقال لها: أَرسليني، فقالت: ما أَنا بمرسلتك، فناداه رَبه: أَمِني تفر يا آدم؟ قال: لا يا رب ولكني استحيتُك، قال: أَما كان لك فيما منحتك من الجنة مندوحة عمَّا حرمت عليك؟ قال: بلى يا رب، ولكن وعزتك ما ظننت أَن أحداً يحلف بك كاذباً، قال: فبعزتي لأَهبطنك إلى الأَرض ثم لا تنال العيش إلاَّ كدّاً)[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰهُمَا﴾ الآية، قال الجمهور: إن هذا النداءَ نداءُ وحي بواسطة، ويؤيد ذلك أَنا نتلقى من الشرع أَن موسى عليه السلام هو الذي خصص بين العالم بالكلام، وأَيضاً ففي حديث الشفاعة أَنَّ بني آدم المؤمنين يقولون لموسى يوم القيامة: أَنت خصك الله بكلامه واصطفاك برسالته، اذهب فاشفع للناس)[٣]، وهذا ظاهره أَنه مخصص، وقالت فرقة: بل هو نداءُ تكليم.

---

(١) هذه قراءَة الحسن فيما رواه عنه محبوب، والقراءَة المشهورة عنه بكسر الخاءِ وهي موافقة لقراءَة الأعرج ومجاهد.

(٢) رواه ابن جرير، وابن مردويه من طرق عن الحسن عن أُبيّ بن كعب مرفوعاً، وأَخرجه سعيد بن أَبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أُبي بن كعب، وأُخرج مثله عبد الرزاق عن ابن عباس رضي الله عنهما. (ابن كثير).

(٣) حديث الشفاعة ثابت في الصحاح، وقد رواه البخاري كاملاً في تفسير سورة الإسراءِ، وفي كتاب التوحيد، وفي مواضع أخرى كثيرة، ولفظه عن موسىٰ: (فيأتون موسىٰ، فيقولون: يا موسىٰ، أنت رسول الله، فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك...) الخ، كذلك رواه مسلم في كتاب الإيمان، والترمذي في التفسير، وابن ماجه في الزهد، والإمام أحمد في مواضع كثيرة من مسنده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وحجة هذا المذهب أنه وقع في أول ورقة من تاريخ ابن أبي خيثمة[١] أن رسول الله ﷺ سئل عن آدم فقال: «نبي مكلَّم»[٢]، وأيضاً فإن موسىٰ خصص بين البشر الساكنين في الأرض، وأما آدم إذا كان في الجنة فكان في غير رتبة سكان الأرض، فليس في تكليمه ما يُفسدُ تخصيص موسى عليه السلام، ويؤيد أنه نداءُ وحي اشتراك حواءَ فيه، ولم يُرْوَ قط أن الله عزَّ وجلَّ كلم حواءَ، ويتأول قوله عليه الصلاة والسلام: «نبي مُكَلَّم» أنه بمعنى موصل إليه كلام الله تبارك وتعالىٰ.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ سؤال تقرير يتضمن التوبيخ، وقوله تعالىٰ: ﴿تِلْكُمَا﴾ يؤيد بحسب ظاهر اللفظ أنه إنما أشار إلى شخص شجرة ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ إشارة إلى الآية التي في سورة طه في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾[٣].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو العهد الذي نسيه آدم على مذهب من يجعل النسيان على بابه، وقرأ أُبي بن كعب: [أَلَمْ تُنْهَيَا عَنْ تِلْكُمَا الشجرة وقيلَ لَكُمَا]؟ وقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ اعتراف من آدم وحواءَ عليهما السلام، وطلب للتوبة والستر والتَّغمُّد بالرحمة، فطَلَبَ آدمُ هذا وطَلَبَ إبليس النظرة، ولم يطلب التوبة فوُكِلَ إلى رأيه، قال الضحاك: هذه الآية هي الكلمات التي تَلَقَّى آدم من ربّه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

---

(١) اسمه أحمد بن زهير بن حرب بن شداد النسائي البغدادي، مؤرخ، من حفاظ الحديث، كان ثقة راوية للأدب، بصيراً بأيام الناس، له مذهب، ونُسب إلى القول بالقدر، أَصْلُه من نَسَا، ومولده ووفاته ببغداد، من تصانيفه «التاريخ الكبير» (الأعلام).

(٢) الحديث مروي في مسند الإمام أحمد في ثلاثة مواضع كما جاء في «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي».

(٣) من الآية (١١٧) من سورة (طه).

المخاطبة بقوله تعالىٰ: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ قال أَبو صالح، والسدي، والطبري، وغيرهم: هي لآدم وحواءَ وإِبليس والحيَّة. وقالت فرقة: هي مخاطبة لآدم وذريته وإِبليس وذريته.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف لعدمهم في ذلك الوقت، فإِن قيل: خاطبهم وأَمرهم بشرط الوجود فذلك يبعد في هذه النازلة لأَن الأَمر بشرط الوجود إِنما يصح إِذا ترتب على المأمور بعد وجوده وصحَّ معناه عليه كالصلاة والصوم ونحو ذلك، وأَما هنا فإِن معنى الهبوط لا يتصور في بني آدم بعد وجودهم، ولا يتعلق بهم من الأَمر به شيءٌ، وأَما قوله تعالىٰ: في آية أُخرى: ﴿ٱهْبِطَا﴾[1] فهي مخاطبة لآدم وإِبليس بدليل بيانه العداوة بينهما.

و﴿عَدُوٌّ﴾ فرد بمعنى الجمع، تقول: قومٌ عدوٌّ وقومٌ صديقٌ، ومنه قول الشاعر:

لَعَمْري لَئِنْ كنتُمْ عَلَى النَّأْيِ والْغنى بِكُمْ مِثْلُ ما بي إِنَّكُمْ لَصَدِيقُ[2]

وعداوة الحيات معروفة، وروىٰ قتادة عن النبي ﷺ: «ما سَالَمْنَاهُنَّ منذ حاربناهن»[3]، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «من تركهن فليس منا»، وقالت عائشة رضي الله عنها: «من ترك حيَّة خشية من ثأْرها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أَجمعين»[4].

---

(١) في الآية (١٢٣) من سورة (طه). ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...﴾.

(٢) البيت في (اللسان ـ صدق)، وفيه «على النأي والنَّوَى» بدلاً من «على النأي والغنى»، ولم ينسبه، بل قال: «وقد يكون الصديق جمعاً، وفي التنزيل: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ ألا تراه عطفه على الجمع؟»، ثم قال: «وقال آخر في جمع المذكر: «العمري.. البيت». وقد أجاب ابن عطية عن سؤال هو: كيف قال: (عَدُوّ) ولم يقل أعداء، وجوابه أنه يفرد في موضع الجمع كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ بمعنىٰ أعداء. ويمكن أن يجاب بأَن بعضاً وكلاً يخبر عنهما بالواحد على اللفظ وعلى المعنىٰ. قال تعالىٰ: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ على اللفظ، وقال تعالىٰ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ على المعنىٰ. والجوابان في تفسير القرطبي.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده ـ عن أَبي هريرة ج ٢ ص ٢٤٧ ـ وفي آخره (يعني الحيات).

(٤) الحديث لا أصل له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما يعرض في أمرهن حديث الفتى في غزوة الخندق(١)، وقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إنَّ جنّاً بالمدينة قد أسلموا، فمن رأى من هذه الحيات شيئاً في بيته فَلْيُحَرِّج عليه ثلاثاً، فإن رآه بعد ذلك فليقتله فإنما هو كافر»(٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ لفظ عام لِزَمن الحياة ولِزَمَن الإقامة في القبور، وبزمن الحياة فسَّر أبو العالية وقال: هي كقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾(٣) وبالإقامة في القبور فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما، واللفظ يَعُمّهما، فهي كقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾(٤)، وأما المتاع فهو بحسب شخص شخص في زمن الحياة، اللَّهم إلا أن تقدر سكنى القبر متاعاً بوجه مّا، والمتاع: التَمتُّعْ والنَّيْل من الفوائد، و﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ هو بحسب الجملة: قيام الساعة، وبحسب مفرد مفرد: بلوغ الأَجل والموت. والحِينُ في كلام العرب: الوقتُ غير مُعَيَّن(٥).

ورُوِيَ أَن آدم عليه السلام أُهبط بالهند، وحواءَ بِجُدَّة، وتمناها بمنىٰ، وعرف حقيقة أَمرها بعرفة، ولقيها بجَمْع(٦)، وأُهبط إِبليس بمَيْسان(٧)، وقيل: بالبصرة،

---

(١) رواه مسلم، ومالك في الموطأ ـ عن أبي السَّائب مولى هشام بن زهرة وقد دخل على أبي سعيد الخدري فوجده يصلي، وبينما هو في انتظار فراغه إذا بحيَّة في ناحية البيت.. الخ وفيه قصة الفتىٰ التي يشير إليها ابن عطية.

(٢) روى مثله الإمام أحمد في مسنده ـ ج ٣ ص ٢٧. ولفظه: عن أبي سعيد الخدري قال: وجد رجل في منزله حية فأخذ رمحه فشكها فيه، فلم تمت الحيَّة حتى مات الرجل، فأُخبر به رسول الله ﷺ فقال: «إن معكم عوامر فإذا رأيتم منهم شيئاً فحرِّجوا عليه ثلاثاً، فإن رأيتموه بعد ذلك فاقتلوه». ومعنى فحرِّجوا هو أن يقول للحية: أنت في حَرَج، أي في ضيق إن عدت إلينا فلا تلومينا أن نُضيِّق عليك التتبع والطرد والقتل ـ قاله ابن الأثير ـ في كتاب «النهاية في غريب الحديث والأثر».

(٣) من الآية (٢٢) من سورة (البقرة).

(٤) الآيتان (٢٥ ـ ٢٦) من سورة (المرسلات).

(٥) يكون الحين بمعنىٰ المُدَّة كقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾، وبمعنى الساعة كقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾، قيل: وبمعنىٰ السَّنَة كقوله تعالىٰ: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾، وقيل في هذه الآية: إنه بمعنىٰ: كلما حان موعد الإثمار. قال الأزهري: الحين: اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان طالت أو قصرت.

(٦) هو المزدلفة، أو موضع فيها. وأيام منى تسمىٰ: أيام جمْعْ، ويوم عرفة يسمىٰ يومَ جمْعْ.

(٧) مَيْسان بفتح الميم وسكون الياءِ: كورة واسعة كثيرة القرى والنخيل بين البصرة وواسط، ومركزها مَيْسان أيضاً.

وقيل: بمصر ـ فباض فيها وفرخ. قال ابن عمر رضي الله عنهما: وبسط إبليس فيها عبقريه، وذكر صالح مولى التؤمة قال: في بعض الكتب: لما أُهبط إبليس قال: ربّ أين مسكني؟ قال: مسكنك الحمام، ومجلسك الأسواقُ، ولهوك المزامير، وطعامك ما لم يذكر عليه اسمي، وشرابك المسكر، ورسلك الشهوات، وحبائلك النساءُ، وأُهبطت الحيّة بأَصبهان، ورُوي أنها كانت ذات قوائم كالبعير فعوقبت بأن رُدَّت تنساب على بطنها.

ورُوي أَن آدم لما أُهبط إِلى شقاءِ الدنيا علم صنعة الحديد، ثم علم الحرث فحرث وسقى وحصد وذرا وطحن وعجن وخبز وطبخ وأَكل فلم يبلغ إِلى ذلك حتى بلغ من الجهد ماشاءَ الله، ورُوي أَن حواءَ قيل لها: يا حواءُ، كما دميت الشجرة تدمين في كل شهر، وأَنت لا تحملين إِلا كرهاً ولا تضعين إِلا كرهاً، قال: فَرنَّت عند ذلك، فقيل لها: الرَّنَّة عليك وعلى ولدك[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذه القصة من الأَنباء كثير، اختصرتها إِذ لا يقتضيها اللفظ.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ الآية. حكم من الله عزَّ وجلَّ أَمضاه وجعله حتماً في رقاب العبادِ، يحيَوْن في الأَرض ويموتون فيها ويبعثون منها إِلى الحشر أَحياءً، كَما أَنشأَ أَوَّل خلق يُعيده.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأَبو عمرو: ﴿تُخْرَجُونَ﴾ بضم التاءِ وفتح الراءِ هنا وفي الروم[2]، وكذلك حيث تكرر[3] إِلا في الروم ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾[4]، وفي

---

(١) رَنَّ: صوَّت وصاح، والرَّنَّة: الصوت الحزين عند الغناء أو البكاءِ.

(٢) في الآية (١٩) من سورة (الروم) وهي قوله تعالىٰ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

(٣) تكرر في الآية (١١) من سورة (الزخرف): ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾، وفي الآية (٣٥) من سورة (الجاثية): ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، وتكرر أيضاً في (الروم) مرة ثانية، وفي (المعارج)، ولكن القراءَة فيهما بفتح التاء والياءِ وضم الراءِ دون اختلاف كما ذكر ابن عطية.

(٤) في الآية رقم (٢٥).

سأل سائل ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ﴾[1] فإن هذين بفتح التاءِ والياءِ وضم الراءِ ولم يختلف الناس فيهما. وقرأ حمزة، والكسائي في الأعراف: [ومنها تخرجون] بفتح التاءِ وضم الراءِ، وفتح ابن عامر التاءَ في الأعراف وضمَّها في الباقي.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ الآية. هذا خطاب لجميع الأُمم وقت النبي عليه الصلاة والسلام، والمراد قريش ومن كان من العرب يتعرىٰ في طوافه بالبيت، ذكر النقاش ثقيفاً وخُزاعة وبني عامر بن صَعصَعَة وبني مُدْلج وعامر والحارث ابنيْ عبد مناف فإنها كانت عادتهم رجالاً ونساءً، وذلك غاية العار والعصيان، قال مجاهد: ففيهم نزلت هذه الأربع الآيات.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَنزَلْنَا﴾ يحتمل أَن يريد التدرج، أَي: لما أنزلنا المطر فكان عنه جميع ما يُلْبس قال عن اللباس: أَنزلنا، وهذا نحو قول الشاعر يصف مطراً:

أَقْبَلَ فِي الْمُسْتَنِّ مِن سَحَابِهِ أَسْنِمَةُ الآبَالِ فِي رَبَابِهِ[2]

أَي: بالمال. ويحتمل أَن يريد: «خلقنا» فجاءَت العبارة بـ ﴿أَنزَلْنَا﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ﴾[3] وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾[4]، وأَيضاً فخلْق الله عزَّ وجلَّ وأَفعاله إِنما هي من علوٍّ في القدر والمنزلة، و﴿لِبَاسًا﴾ عام في جميع ما يُلْبس، و﴿يُوَٰرِى﴾ يستر، وفي حرف أُبي: [سوآتكم وزينة ولبس التقوىٰ]، وفي مصحف ابن مسعود: [ولباسُ التقوى خيرٌ، ذلِكُمْ]، ويروى عنه: [ذلك]، وسقطت [ذلك] الأُولىٰ. وقرأ سكن النحوي: [ولَبُوسُ التقوىٰ] بالواو

---

(١) في الآية رقم (٤٣). (راجع في هذه القراءَات كتاب: «النشر في القراءات العشر» لابن الجزري. وكتاب: «الحجة في القراءات السبع للإمام ابن خالويه».

(٢) قال المبرد في «الكامل»: قال الراجز يصف غيماً:

أَقْبَلَ فِي المسْتَنِّ مِن رَبَابِهِ أَسْنِمةُ الآبَال فِي سَحَابِهِ

والمسْتَنُّ: المضطرب، يقال: اسْتَنَّ السراب: اضطرب كأَنه يسيل. والرَّباب: السحاب الأَبيض واحدته: ربابة. والآبال: جمع الإبل ـ ومعنى البيت أن ذلك السحاب جاء مضطرباً في السماءِ كأَنه يسيل بالماءِ، وهذا السحاب ينزل بالمطر فينبت ما تأكله الإبل فتكثر الشحوم في أسنمتها. فالمطر سبب النبات والنبات سبب الشحم في الأسنمة فكأن الأسنمة متجمعة في هذا السحاب الذي نزل منه المطر.

(٣) من الآية (٢٥) من سورة (الحديد).

(٤) من الآية (٦) من سورة (الزُّمَر).

مرفوعة السين. وقرأ الجمهور من الناس: ﴿وَرِيشًا﴾، وقرأ الحسن، وَزِرُّ بنُ حُبَيْش[١]، وعاصم فيما رَوىٰ عنه أَبو عمرو أَيضاً، وابن عباس، وأَبو عبد الرحمن، ومجاهد، وأَبو رجاءٍ، وزيد بن عليّ، وعلي بن الحسين، وقتادة: [وَرِيَاشاً]، قال أَبو الفتح: وهي قراءَة النبي ﷺ، قال أَبو حاتم: رواها عنه عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهما عبارتان عن سعة الرزق ورفاهة العيش ووجود الملبس والتمتع، وفسَّره قومٌ بالأَثاث، وفسَّره ابن عباس رضي الله عنهما بالمال، وكذلك قال السدي والضحاك، وقال ابن زيد: الريش: الجَمال، وقيل: الرياش: جمع ريش، كبيرٍ وبيار وذيب وذياب ولِصْبٍ ولِصَابٍ[٢] وشِعْب وشعاب، وقيل: الرياش: مصدر من أَراشه الله يَرِيشه إِذا أَنعم عليه، والريش مصدر أَيضاً من ذلك، وفي الحديث: «رجل راشه الله مالاً»[٣].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويشبه أَن هذا كله من معنىٰ ريش الطائر وريش السهم، إِذ هو لباسه وسُتْرَتُه وعونه على النفوذ، وراشَ الله مأْخوذ من ذلك، أَلا ترىٰ أَنها تُقرن بِبَرىٰ، ومن ذلك قول الشاعر:

فَرِشْني بخَيْرٍ طالَمَا قَدْ بريْتَنِي ... وخَيْرُ الْمَوَالي مَنْ يَرِيشُ ولا يَبْرِي[٤]

---

(١) زرُّ بن حُبَيْش بن حباشة بن أوس الأسدي، من جلة التابعين، أدرك الجاهلية والإسلام ولم ير النبي ﷺ، كان عالماً بالقرآن فاضلاً، وكان ابن مسعود يسأله عن العربية، عاش مائة وعشرين سنة ومات بدير الجماجم. (الإصابة ـ وحلية الأولياء).

(٢) اللِّصْب بكسر اللام: كل مضيق في الجبل أو الوادي جمع لُصُوبٌ ولِصَاب.

(٣) قال في «النهاية»: ومنه الحديث: «إن رجلاً راشه الله مالاً» أي: أعطاه. ومنه حديث أبي بكر والنّسّابة:

الـرَّائِشُـونَ ولَيْـسَ يُعْـرَفُ رائِـشٌ ... والقـائِلـونَ هَلـمّ لِـلأَضْيـافِ

(٤) نسب صاحب (اللسان) البيت لعُمَيْر بن حبَّاب، لكن معلقه نقل عن شارح القاموس أن البيت لسُوَيْد الأنصاري، ثم قال صاحبُ (اللسان): «الرِّيشُ والرياش: الخِصب والمعاشُ والمالُ والأثاثُ واللباسُ الحسن الفاخر»، ولكن الذي عليه أكثر أهل اللغة أن الريش هو ما ستر من ثياب أو معيشة، وقد أنشد سيبويه:

فَـريشـي مِنكُـمُ وهَـوَايَ مَعَكُـم ... وإِنْ كـانَـتْ زيـارَتُنـا لِمـامـاً

أمَّا بَرَى فهو من قولهم: بَرَى السفر والجوع الإنسان والبعير: هَزَلَه. فالشاعر يطلب من ممدوحه أن يُنْعِم عليه بالخصب والخير إذ طالما أصابه بالهزال والضعف.

وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي: [وَلِبَاسَ] بالنصب عطفاً على ما تقدم، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة: ﴿وَلِبَاسُ﴾ بالرفع ـ فقيل: هو خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: وهو لباس، وقيل: هو مبتدأٌ و﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأٌ آخر و﴿خَيْرٌ﴾ خبر ﴿ذَٰلِكَ﴾ والجملة خبر الأول، وقيل: هو مبتدأٌ و﴿خَيْرٌ﴾ خبره و﴿ذَٰلِكَ﴾ بدلٌ أو عطف بيان أو صفة، وهذا أنبل الأقوال، ذكره أبو علي في الحجة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى جميع ما أُنزل من اللباس والريش، وحكىٰ النقاش أن الإشارة إلى ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي هو في العبد آيةٌ أي علامةٌ وأمارة من الله أنه قد رضي عنه ورحمه، و﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ترجٍّ بحسبهم ومبلغهم من المعرفة. وقال ابن جريج: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: الإيمان ـ وقال معبد الجهني[1]: هو الحياءُ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو العمل الصالح، وقال أيضاً: هو السَّمْت الحسن في الوجه، وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه على المنبر، وقال عروة بن الزبير: هو خشية الله، وقال ابن زيد: هو ستر العورة والسمت الحسن في الدنيا، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: العفة، وقال زيد بن علي: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ السلاح وآلة الجهاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه كلها مثل وهي من لباس التقوىٰ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتتصور الصفة التي حكاها أبو علي في قوله ذلك لأن الأسماء توصف بمعنى الإشارة كما تقول: جاءني زيد هذا، كأنك قلت: جاءني زيد المشار إليه، فعلى هذا الحدّ توصف الأسماءُ بالمبهمات، وأما قوله فيه: عطف بيان أو بدل، فهما واحد في اللفظ، وإنما الفرق بينهما في المعنىٰ والمقصد، وذلك أن تريد في البدل كأنك أزلت الأول وأعملت العامل في الثاني على نية تكرار العامل، وتريد في عطف البيان كأنك أبقيت الأول ثم ثنيته بعينه في ذكر الثاني، وإنما يبين الفرق بين البدل وعطف البيان في

(١) هو معبد بن خالد الجُهَنيّ أبو زرعة، صحابي من القادة، أسلم قديماً، وكان أحد الأربعة الذين حملوا ألوية جُهَيْنَةَ يوم فتح مكة، وكان يلزم البادية، عاش بضعاً وثمانين سنة (الإصابة).

مسألة النداءِ إذا قلت: يا عبد الله زيد، فالبدل في هذه المسألة هو على هذا الحد برفع (زيد) لأنك تقدر إزالة (عبد الله) وإضافة (يا) إلى (زيد)، ولو عطفت عطف البيان لقلت: يا عبد الله زيد، لأنك أردت بيانه ولم تقدر إزالة الأول، وينشد هذا البيت:

إنِّـي وأسْطَـارٍ سُطِـرْنَ سطْـراً   لَقَـائِـلٌ: يـا نصْـرُ نَصْـراً نَصْـراً[1]

ونصرٌ الأول على عطف البيان والثاني على البدل.

وقوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

هذه المخاطبة لجميع العالم، والمقصود بها في ذلك الوقت من كان يطوف من العرب بالبيت عرياناً، فقيل: كان ذلك من عادة قريش، وقال قتادة والضحاك: كان ذلك من عادة قبيلة من اليمن، وقيل: كانت العرب تطوف عراة إلا الحُمْس وهم قريش ومن والاها[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الصحيح، لأن قريشاً لما سنوا بعد عام الفيل سنناً عظموا بها حرمتهم كانت هذه من ذلك، فكان العربي إما أن يعيره أحد من الحُمْسِ ثوباً فيطوف به، وإما

(١) الرجز لرُؤْبة في نصر بن سيّار أمير خراسان، وكان للأمير حاجب يدعى نصراً ـ ويروى البيت برفع (نصر) الثانية ـ وفي إعراب كل من نصر الثانية والثالثة وجوه كثيرة يمكنك الرجوع إليها في حاشية الأمير (٢ ـ ٥١) والخزانة (١ ـ ٣٢٠)، وسيبويه (١ ـ ٣٠٤)، والسيوطي (٢٧٤). وقد ذكر النحاة فروقاً بين عطف البيان والبدل من أهمها أنَّ العطف ليس في نيَّة إحلاله محل الأول بخلاف البدل فهو في نيَّة إحلاله محل الأول. ولكن هناك اتجاهاً واضحاً بمخالفة الرأي القائل لوجود هذه الفروق، يقول شارح الكافية الأستاذ محمد بن حسن الرضي: «أنا إلى الآن لم يظهر لي فرقٌ جليٌّ بين بدل الكل من الكل وعطف البيان، بل ما أرى عطف البيان إلا البدل كما هو ظاهر كلام سيبويه» (راجع الصبان في باب عطف البيان). وعلى كل فهذه مسألة نحوية لا تؤثر قليلاً ولا كثيراً في بلاغة الكتاب العزيز، وغفر الله لشيوخنا الذين أكثروا من أمثالها في التفسير.

(٢) قال القرطبي: «الحُمْس: قريشٌ وما ولدت»، قارن هذا بما قاله ابن عطية: «ومن والاها».

أَن يطوف في ثيابه ثم يلقيها ، وتمادىٰ الأمر حتى صار عند العرب قُرْبة ، فكانت العرب تقول: نطوف عراة كما خرجنا من بطون أُمهاتنا ، ولا نطوف في ثياب قد تدنَّسنا فيها بالذنوب ، ومن طاف في ثيابه فكانت سُنَّتهم كما ذكرنا أَن يرمي تلك الثياب ولا ينتفع بها ، وتسمى تلك الثياب اللَّقَى ، ومنه قول الشاعر:

كفَـىٰ حَـزَنـاً كَـرِّي عَلَيْـه كـأَنَّـه ... لَقًى بَيْن أَيْدي الطَّائِفينَ حَريمُ[1]

وكانت المرأة تطوف عريانة حتى كانت إِحداهن تقول:

الْيَـــوْمَ يَبْـــدو بَعْضُـــه أَوْ كُلُّـــه ... فَمـــا بَـــدَا مِنْـــهُ فَـــلاَ أُحِلُّـــهُ[2]

فنهى الله عزَّ وجلَّ عن جميع ذلك ، ونودي بمكة في سنة تسع: لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان.

والفتنة في هذه الآية: الاستهواءُ والغَلَبة على النفس ، وظاهر قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾ نهي الشيطان ، والمعنى نَهْيُهم أَنفسهم عن الاستماع له والطاعة لأَمره كما لو قالوا: «لا أَرينَّكَ ها هنا» ، فظاهر اللفظ نهي المتكلم نفسه ، ومعناه نهي الآخر عن الإِقامة بحيث يراه. وأَضاف الإِخراج في هذه الآية إِلى إِبليس وذلك تجوّز بسبب أنه كان ساعياً في ذلك ومسبباً له ، ويقال: أَب[3] ، وللأُم: أَبة. وعلى هذا قيل: أَبَوَان. و﴿يَنزِعُ﴾ في موضع الحال من الضمير في ﴿أَخْرَجَ﴾.

وقد تقدم الخلاف في اللباس من قول من قال: الأظفار ، ومن قال: النور ، ومن قال: ثياب الجنة ، وقال مجاهد: هي استعارة ، وإِنما أَراد لبسة التقى المنزلة.

---

(١) اللَّقَى: ما طُرِح وتُرِك لهوانه ، وجمعه: أَلقاء ، قاله الجوهري واستشهد عليه بقول الشاعر:

فَلَيْتَـــكَ حَـــالَ الْبَحْـــرُ دونَـــكَ كُلُّـــهُ ... وكنْتَ لقـىً تجـرْي عليـكَ السَّـوائِـلُ

ذكر ذلك صاحب اللسان. ولم نعثر على نسبة هذا البيت الذي ذكره ابن عطية فيما لدينا من المراجع.

(٢) قائلة هذا البيت هي ضُبَاعَةُ بنتُ عامر بن قُرْط ، قال ذلك القاضي عياض ، وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «وكانت المرأة تطوف بالبيت وهي عُريانة وتقول: من يُعيرني تِطْوَافاً تجعله على فرجها ، وتقول:

اليـــومَ يبْـــدو بَعْضُـــهُ أو كُلُّـــهُ ... ومَـــا بَـــدَا منْـــهُ فَـــلا أُحِلُّـــهُ

فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ والتِّطْوَاف بكسر التاء كما قال في القرطبي».

(٣) أبٌ أصله: أبوٌ لأن جمعه آباءٌ مثل قفاً وأقفاء. ويقال: هما أبواه لأبيه وأُمّه ، وجائز في الشعر هما أباه ، وكذلك: رأيت أَبَيْه ـ واللغة العالية: رأيتُ أبويه. (عن المعاجم).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ﴾ الآية. زيادة في التحذير وإِعلام أَن الله عزَّ وجلَّ قد مكَّن الشيطان من ابن آدم في هذا القدر، وبحسب ذلك يجب أَن يكون التحذر بطاعة الله تعالىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والشيطان موجود قد قررته الشريعة، وهو جسم، ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ يريد: نوعه وصنفه وذريته. و﴿حَيْثُ﴾ مبنية على الضم، ومن العرب من يبنيها على الفتح، وذلك لأَنها تدل على موضع بعينه، قال الزجاج: ما بعدها صلة لها وليست بمضافة إِليه، قال أَبو علي: هذا غير مستقيم، وليست ﴿حَيْثُ﴾ بموصولة إِذ ليس ثمَّ عائد كما في الموصولات، وهي مضافة إِلى ما بعدها.

ثم أَخبر عزَّ وجلَّ أَنه صير الشياطين أَولياءَ، أَي صحابة ومُداخلين إِلى الكفرة الذين لا إِيمان لهم، وذكر الزهراوي أَن «جَعَلَ» هنا بمعنىٰ وصف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهي نزعة اعتزالية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟﴾ وما بعده داخل في صفة «الذين لا يؤمنون» ليقع التوبيخ بصفة قوم جعلوا مثالاً للمُوَبَّخين إِذ أَشبه فعلهم فعل الممثل بهم. ويصح أَن تكون هذه الآية مقطوعة من التي قبلها ابتداءَ إِخبار عن كفار العرب.

والفاحشة في هذه الآية ـ وإِن كان اللفظ عاماً ـ وهي كشف العورة عند الطواف، فقد رُوي عن الزهري أَنه قال: في ذلك نزلت هذه الآيات، وقاله ابن عباس ومجاهد، وكان قول بعض الكفار: إِن الله أَمر بهذه السُّنن التي لنا وشرعها فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، ثم وبخهم على كذبهم، ووقفهم على قولهم مالا علم لهم به ولا رواية لهم فيه، بل هو دعوى واختلاق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

تضمن قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أَقْسِطوا[1]، ولذلك عطف عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا﴾ حملاً على المعنىٰ. والقسْط: العدل والحق، واختلف المتأولون في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ـ فقيل: أراد إلى الكعبة، قاله مجاهد، والسدي، والمقصد ـ على هذا ـ شرع القبلة والأمر بالتزامها. وقيل: أراد الأمر بإحضار النِّيَّة لله في كل صلاة والقصد نحوه كما تقول: وجهت وجهي لله، قاله الربيع.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فلا يؤخذ الوجه على أنه الجارحة، بل هو المقصد والمنزع.

وقيل: المراد بهذا اللفظ إباحة الصلاة في كل موضع من الأرض، أَي: حيثما كنتم فهو مسجد لكم تلزمكم عند الصلاة إقامة وجوهكم فيه لله عزَّ وجلَّ. قال قوم: سببُها أَن قوماً كانوا لا يصلون إلا في مساجدهم في قبلتهم، فإذا حضرت الصلاة في غير ذلك من المساجد لم يصلوا فيها. وقوله تعالىٰ: ﴿مُخْلِصِينَ﴾.

وقال الحسن بن أَبي الحسن، وقتادة، وابن عباس، ومجاهد: المراد بقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الإعلام بالبعث، أَي: كما أَوجدكم واخترعكم كذلك يعيدكم بعد الموت، فالوقف على هذا التأويل ـ على ﴿تَعُودُونَ﴾. و﴿فَرِيقًا﴾ نصب على ﴿هَدَىٰ﴾، والثاني منصوب بفعل تقديره: وعذب فريقاً أَو أَضل فريقاً حق عليهم.

---

(١) من الفوائد ما ذكره أبو حيان في «البحر» من أن المصدر قد ينحل لأن والفعل الماضي نحو: عجبت من قيام زيد وخرج، أي: من أن قام وخرج، وقد ينحل لأن والفعل المضارع نحو: «لَلُبْس عَبَاءَةٍ وتَقَرَّ عيني» أي: لأن ألبسَ وتقرَّ عيني، كذلك ينحل لأن والفعل الأمر مثل هذه الآية: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا﴾ أي: بأن أقسطوا وأقيموا، ومن الجائز أن توصل (أن) بفعل الأمر فيقال: كتبت إليه بأن قم. ولم يقبل الزمخشري هذا الكلام فقال إن الآية على تقدير قل، يعني وقل أقيموا.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، وأبو العالية، ومحمد بن كعب، ومجاهد أيضاً، وسعيد بن جبير، والسدي، وجابر بن عبد الله، وروي معناه عن النبي ﷺ: المراد بقوله تعالىٰ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الإعلام بأن أهل الشقاءِ والكفر في الدنيا الذين كتب عليهم هم أهل الشقاءِ في الآخرة، وأهل السعادة والإيمان الذين كتب لهم في الدنيا هم أهلها في الآخرة. لا يتبدل من الأمور التي أحكمها ودبَّرها وأنفذها شيءٌ، فالوقف ـ في هذا التأويل ـ على قوله: ﴿تَعُودُونَ﴾ غير حسن، و﴿فَرِيقًا﴾ ـ على هذا التأويل ـ نصب على الحال، والثاني عطف على الأول. وفي قراءَة أُبي بن كعب: [تعودون فَريقَيْن فَريقاً هَدىٰ وفَريقاً حقَّ عَلَيْهم الضَّلالةُ].

والضمير في ﴿إِنَّهُمُ﴾ عائد على الفريق الذين حق عليهم الضلالة و﴿أَوْلِيَآءَ﴾ معناه: أنصاراً وأصحاباً وإخواناً، ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ معناه: يظنون، يقال: حَسِبْتُ أَحْسَبَ حِسْبَاناً ومَحْسِبَةً(١).

قال الطبري: وهذه الآية دليل على خطأ قول من زعم أن الله تعالىٰ لا يُعذِّب أحداً على معصية ارتكبها أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها على علم منه بموضع الصواب.

وقرأ العباس بن الفضل، وسهل بن شعيب، وعيسىٰ بن عمر: [أَنَّهُمُ اتَّخذُوا] بفتح الألف(٢).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ٣١ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةٗ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٖ يَعْلَمُونَ ٣٢﴾.

هذا خطاب عام لجميع العالم، وأُمروا بهذه الأشياءِ بسبب عصيان حاضري ذلك الوقت من مشركي العرب فيها.

---

(١) اللغويون يقولون: حَسَب المالَ ونحوه: عدَّه، والمصدرُ: حِسَاباً وحُسْباناً، وحسب الشيءَ كائناً يحسِبُهُ ويحسَبُه بمعنى: ظنَّه، والكسر في المضارع أجود اللغتين، والمصدر: حِسْبَاناً ومَحْسِبَةً (بالفتح والكسر). (عن: التهذيب ـ واللسان ـ والمعجم الوسيط).

(٢) أي بمعنى: لأنهم اتخذوا.

والزينة ها هنا الثياب الساترة، قاله مجاهد والسدي، وقال طاووس: الشملة[١] من الزينة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويدخل فيها ما كان من الطيب للجمعة والسواك وبدل الثياب وكل ما وجد استحسانه في الشريعة ولم يَقْصد به مستعمله الخيلاءَ.

و﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ عند كل موضع سجود، فهي إشارة إلى الصلوات وستر العورة فيها، هذا هو مهم الأمر، ويدخل مع الصلاة مواطن الخير كلها، ومع ستر العورة ما ذكرناه من الطيب للجمعة وغير ذلك، وذكر مكي حديثاً أن معنىٰ ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ صلوا في النعال، وما أَحسبه يصح.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ﴾ نهي عما كانوا التزموه من تحريم اللحم والودك[٢] في أَيام الموسم، قال السدي وابن زيد، وتدخل مع ذلك أَيضاً البَحيرةُ والسائبة ونحو ذلك، وقد نصَّ على ذلك قتادة وقال: إن البحيرة وما جانسها هي المراد بقوله: ﴿وَالطَّيِّبَٰتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ معناه: ولا تُفرطوا، قال أَهل التأْويل: يريد: ولا تُسرفوا بأَن تحرموا على أَنفسكم ما لم يحرِّم الله عزَّ وجلَّ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الحلال سرف، إنما السرف في ارتكاب المعاصي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يريد: في الحلال القصد، واللفظ يقتضي النهي عن السرف مطلقاً، فمن تلَّبس بفعل حرام فتأَول تلبسه به حصل من المسرفين وتوجَّه النهي عليه. ومن تلبس بفعل مباح فإن مشىٰ فيه على القصد وأَوساط الأُمور فحسن، وإن أَفْرطَ حتَّى دخل الضرر حصل أَيضاً من المسرفين وتوجَّه النهي عليه، مثل ذلك أَن يُفرط إنسان في شراءِ ثياب ونحوها ويستنفد في ذلك جُلَّ مالِهِ، أَو يُعطي ماله أَجمع ويكابد بعياله الفقر بعد ذلك

(١) الشملة: شُقة من الثياب ذات خمل يتوشح بها ويتلفع.
(٢) الوَدَك: الدَّسم، أو دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه، وشحم الألية والجنبين في الخروف والعجل.

ونحوه، فالله عزَّ وجلَّ لا يحب شيئاً من هذا، وقد نهت الشريعة عنه، ولذلك وقف النبي ﷺ بالموصي عند الثلث، وقال بعض العلماءِ: لو حط الناس إلى الربع لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «والثلث كثير»[1]، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: أحل الله الأكل والشرب مالم يكن سرفاً أو مَخيلة.

وأمر الله عزَّ وجلَّ نبيَّه عليه الصلاة والسلام أن يسألهم عمَّن حرَّم ما أحل الله على جهة التوبيخ والتقرير: وليس يقتضي هذا السؤال جواباً، وإنما المراد منه التوقيف على سوءِ الفعل. وذكر بعض الناس أن السؤال والجواب جاءَا في هذه الآية من جهة واحدة وتخيل قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ جواباً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا نظر فاسد، فليس ذلك بجواب السؤال، ولا يقتضي هذا النوع من الأسئلة جواباً، و﴿زِينَةَ اللَّهِ﴾ هي كل ما اقتضته الشهوة وطلب العلوّ في الأرض كالمال والبنين، وهي الزينة التي فضل الشرع عليها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَالطَّيِّبَٰتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ قال الجمهور: يريد المحَلَّلات. وقال الشافعي وغيره: يريد: المسْتَلَذَّات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

إلاَّ أن ذلك ولا بد يشترط فيه أن يكون من الحلال، وإنما قاد الشافعي إلى هذا تحريمه المستقذرات كالوزغ وغيرها فإنه يقول: هي من الخبائث محرمة.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾. قرأ نافع وحده [خَالِصَةٌ] بالرفع، والباقون ﴿خَالِصَةً﴾ بالنصب، والآية تتأول على معنيين.

أحدهما: أن يخبر أن هذه الطيبات الموجودات في الدنيا هي خالصة يوم القيامة للمؤمنين في الدنيا، وخلوصها أنهم لا يعاقبون عليها ولا يعذبون. فقوله تعالىٰ: ﴿فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بـ ﴿ءَامَنُوا﴾، وإلى هذا يشير تفسير سعيد بن جبير فإنه قال: قل

(١) عن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ عاده في مرضه فسأله سعد عما يوصي به.. إلى أن قال: (والثلث كثير). والحديث رواه البخاري في الجنائز والوصايا وغيرهما، ورواه مسلم في الوصية وغيرها، والنسائي في الجنائز، وابن ماجة في الوصايا.

هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ينتفعون بها في الدنيا ولا يتبعهم إثمها ، وقوله: [خَالِصَةٌ] بالرفع خبر ﴿هِيَ﴾ و﴿لِلَّذِينَ﴾ تبيين للخلوص ، ويصح أن يكون [خَالِصَةٌ] خبراً بعد خبر ، و﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يريد به وقت الحساب ، وقرأ قتادة والكسائي: [قُلْ هِيَ لِمَنْ آمَنَ في الْحَيَاةِ الدُّنيا].

والمعنى الثاني: هو أن يخبر أن هذه الطيبات الموجودات هي في الحياة الدنيا للذين آمنوا وإن كانت أيضاً لغيرهم معهم ، وهي يوم القيامة خالصة لهم ، أي لا يشركهم أحد في استعمالها في الآخرة ، وهذا قول ابن عباس ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، وابن جريج ، وابن زيد. فقوله تعالى: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ـ على هذا التأويل ـ متعلق بالمحذوف المقدر في قوله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ كأنه قال: هي خالصة أو مشتركة أو ثابتة في الحياة الدنيا للذين آمنوا ، و[خَالِصَةٌ] بالرفع خبر بعد خبر ، أو خبر ابتداءٍ مقدر تقديره: وهي خالصة يوم القيامة ، و﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يراد به استمرار الكون في الجنة. وأما من نصب ﴿خَالِصَةً﴾ فعلى الحال من الذكر الذي في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ والتقدير: هي ثابتة أو مستقرة للذين آمنوا في حال خلوص لهم ، والعامل فيها ما في اللام من معنى الفعل في قوله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ﴾. وقال أبو علي في «الحجَّة»: ويصح أن يتعلق قوله تعالى: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بقوله: ﴿حَرَّمَ﴾ ولا يصح أن يتعلق بـ ﴿زِينَةَ﴾ لأنها مصدرٌ قد وصف ، ويصح أن يتعلق بقوله تبارك وتعالى: ﴿أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ ، ويجوز ذلك وإن فصل بين الصلة والموصول بقوله: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأن ذلك كلام يشد القصة وليس بأجنبي منها جداً كما جازَ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾(١) ، فقوله تعالى: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ معطوف على ﴿كَسَبُوا﴾ داخلٌ في الصِّلة ، والتعلُّق بـ ﴿أَخْرَجَ﴾ هو قول الأخفش ، ويصحُّ أن يتعلق بقوله: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ﴾ ، ويصح أن يتعلق بقوله تبارك وتعالى: ﴿مِنَ الرِّزْقِ﴾ ، ويصح أن يتعلق بقوله: ﴿آمَنُوا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الأخير هو أصح الأقوال على التأويل الأول فيما رتبناه هنا ، وأما على التأويل

---

(١) من الآية (٢٧) من سورة (يونس).

الآخر فيضعف معنى الآية هذه المتعلقات التي ذكر أبو علي[١]، وإنَّما يظهر أن يتعلق بالمحذوف المقدر في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تقدير الكلام، أي: كما فصلنا هذه الأشياءَ المتقدمة الذكر فكذلك وعلى تلك الصورة نفصل الآيات، أي نُبيِّن الأمارات والعلامات والهدايات لقوم لهم علم ينتفعون به، و﴿نُفَصِّلُ﴾ معناه: نُقسم ونُبين لأن بيان الأُمور المشبهات إنما هو في تقسيمها بالفصول.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

لما تقدم إنكار ما حرَّمه الكفار بآرائهم اتبعه ذكر ما حرَّم الله عزَّ وجلَّ وتقديره:

و﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ما فحش وشنع، وأَصلُه من القبح في المنظر، ومنه قول امرئ القيس:

وجيد كَجيدِ الريم ليْسَ بِفَاحِشٍ ... إذا هِيَ نَصَّتْهُ ولا بِمُعَطَّلِ[٢]

ثم استعمل فيما ساءَ من الخُلُق وأَلفاظ الحرج والرفث، ومنه الحديث: «ليس

---

(١) يظهر من كلام ابن عطية هنا أنه لا يوافق تماماً على آراء أبي علي، والحقيقة أن هذه الآراء لا يصح أن تذكر في مقام تفسير القرآن، وقد اعترض عليها أبو حيان في «البحر» فقال: «وتقادير أبي علي والأخفش فيها تفكيك للكلام، وسلوك به غير ما تقتضيه الفصاحة، وهي تقارير أعجمية بعيدة عن البلاغة لا تناسب في كتاب الله، بل لو قدرت في شعر الشنفري ما ناسبت، والنحاةُ الصِّرْفُ غير الأدباءِ بمعزل عن إدراك الفصاحة، وأما تشبيه ذلك بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا﴾ فليس ما قاله بمتعين فيه، بل ولا ظاهر، بل قوله: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ هو خبر عن النهي، أي: جزاءُ سيئة منهم بمثلها، وحذف (منهم) لدلالة المعنىٰ عليه، كما حذف من قولهم: السمن مَنَوان بدرهم، أي منوان منه، وقوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ معطوف على ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ وسيأتي».

(٢) الريم: الظبي الخالص البياض، ونصَّته: أظهرته ومدَّته، معطَّل: خال من الحُليِّ ووسائل الجمال ـ يصف جيدها بالجمال فهو طويل طولاً معتدلاً ليس بالفاحش الزائد على الحد، وليس بالخالي من مظاهر الحسن وعلاماته.

بفاحش» في صفة النبي ﷺ(١) ، ومنه قوله لسَلَمَة بن سلامة بن وقش : «أَفحشت على الرجل» في حديث السير ، ومنه قول الحَزين(٢) . في كُثَيِّر عزَّة :

قَصيــرُ القميــص فــاحِــشٌ عنْــدَ بَيْتِــه

وكذلك استعمل فيما شنع وقبح في النفوس ، والقبح والحسن في المعاني إنما يتلقى من جهة الشرع ، والفاحش كذلك ، فقوله تعالىٰ : هنا : ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ إنما هي إشارة إلى ما نص الشرع على تحريمه في مواضع أُخر ، فكل ما حرَّمه الشرع فهو فاحشٌ وإن كان العقل لا ينكره كلباس الحرير والذهب للرجال ونحوه .

وقوله تعالىٰ : ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ يَجْمع النوعَ كلَّه ، لأَنه تقسيم لا يخرج عنه شيءٌ ، وهو لفظ عام في جميع الفواحش . وذهب مجاهد إلى تخصيص ذلك بأَن قال : ما ظَهَرَ : الطواف عرياناً ، والبواطن : الزنىٰ ، وقيل غير هذا مما يأْتي على طريق المثال ، و﴿وَمَا﴾ بدل من ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وهو بدل بعض من كلٍّ ، ومجموع القسمين يأْتي بدل الشيءِ من الشيءِ وهو هو .

والإثم أَيضاً لفظ عام لجميع الأَفعال والأَقوال التي يتعلق بمرتكبها إثم ، هذا قول الجمهور ، وقال بعض الناس : هي الخمر ، واحتج على ذلك بقول الشاعر :

شَـرِبْـتُ الإِثْـمَ حَتَّـىٰ طَـارَ عَقلـي . . . . (٣)

---

(١) روى البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : (لم يكن النبي ﷺ فاحِشاً ولا مُتَفحِّشاً ، وكان يقول إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً) . (كتاب بدء الخلْق ـ باب : صفة النبي ﷺ) ورواه الإمام أحمد ج ٢ صفحات ١٦١ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ٣٢٨ ، ٤٤٨ ، وكذلك في ج٦ ، ورواه مسلم في الفضائل ، والترمذي في البِرّ .

(٢) الحَزين الكناني هو عمرو بن عبيد بن وهيب بن أبي الشعثاء ـ من بني كنانة ، من أهل المدينة ، لم يخدم الخلفاء ولم يكن يريم الحجاز إلا نادراً ، عاش إلى أواخر الدولة الأموية ، ومات حوالي سنة ١١٠ هـ ، قال عنه الأصفهاني : «مطبوع ، ليس في فحول طبقته ، وكان هجاءً ، خبيث اللسان ، ساقطاً ، وكان يوري في معاني أعظم فحشاً ولو ظلم المهجوَّ ظلماً كبيراً» ، ويظهر ذلك في وصفه لقميص كثير الذي استشهدبه ابن عطية على معنى كلمة (فاحش)

(٣) هذا صدر بيت ـ وعجزه :

. . . . كـذَاكَ الإِثْـمُ تـذْهَـبُ بـالْعُقُـولِ

وقد روي : (حتى ضَلَّ ، وحتى زلَّ) بدلاً من : (حتى ضَلَّ) ، ومثله في إطلاق الإثم على الخمر قول الآخر :

=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول مردود لأن هذه السورة مكية ولم تعن الشريعة بتحريم الخمر إلا بالمدينة بعد أُحد لأن جماعة من الصحابة اصطبحوها يومَ أُحد وماتوا شهداءَ وهي في أجوافهم، وأيضاً فبيت الشعر يقال: إنه مصنوع مختلق، وإن صحَّ فهو على حذف مضاف[1]، وكان ظاهر القرآن ـ على هذا القول ـ أن تحريم الخمر من قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾[2] وهو في هذه الآية قد حُرِّم فيأتي من هذا أن الخمر إثمٌ والإثم مُحَرَّمٌ فالخمر محرَّمةٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولكن لا يصح هذا لأن قوله: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ﴾ محتمل أَنْ يُراد به أنه يلحق الخمر من فساد العقل والافتراءِ وقتل النفس وغير ذلك آثام فكأنه قال: في الخمر هذه الآثام، أي: هي بسببها ومعها، وهذه الأشياءُ مُحرَّمة لا محالة، وخرجت الخمر من التحريم على هذا ولم يترتب القياسُ الذي ذهب إليه قائل ما ذكرناه، ويعضد هذا أنَّا وجدنا الصحابة يشربون الخمر بعد نزول قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ﴾، وفي بعض الأحاديث: فتركها قوم للإثم الذي فيها وشربها قوم للمنافع، وإنما حرمت الخمر بظراهر القرآن ونُصوص الأحاديث والإجماع.

والبغي: التعدي وتجاوز الحدِّ، كان الإنسان مبتدئاً بذلك أو منتصراً، فإذا جاوز الحد في الانتصار فهو باغ، وقوله تعالىٰ: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادة بيان، وليس يتصور بغي بحق، لأن ما كان بِحَقٍّ فلا يُسمى بغياً.

﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ المراد بها الأصنام والأوثان وكل ما عُبد من دون الله، والسلطان: البرهان والحجة. ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنه حرَّم البَحيرة والسائبة ونحوه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ الآية، يتضمن الوعيد والتهديد، والمعنىٰ: ولكل

= نشْـرَبُ الإثْـمَ بـالصُّـوَاع جِهَـاراً ... وتَـرَىٰ المَسْـكَ بَيْنَنَـا مُسْتَعَـاراً

(١) تقديره: موجب الإثم.

(٢) الآية (٢١٩) من سورة (البقرة).

أُمَّةٍ ، أَي: فِرْقة وجماعة ، (وَهي لفظة تستعمل في الكثير من الناس) أَجلٌ مؤقت لمجيء العذاب إذا كفروا وخالفوا أَمر ربهم ، فأَنتم أَيتها الأُمة كذلك ، قال الطبري وغيره. وقرأَ الحسن: [فإذا جاء آجالهم] بالجمع ، وهي قراءَة ابن سيرين ، قال أَبو الفتح: هذا هو الأَظهر لأَن لكل إنسان أَجلاً ، فأَما الإفراد فلأَنه جنس. وإضافته إلىٰ الجماعة حسنت الإفراد ، ومثله قول الشاعر:

. . . . في حَلْقِكُمْ عظْمٌ وقدْ شجِينا[١]

وقوله تعالىٰ: ﴿سَاعَةً﴾ لفظ عُيِّن به الجزءُ القليل من الزمن[٢] ، والمراد جميع أَجزائه ، أَي: لا يستأْخرون ساعة ولا أَقل منها ولا أَكثر ، وهذا نحو قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[٣] فإنما هي عبارة يقام الجزءُ فيها مقام الكل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَنه يظهر بين هذه الآية وبين قوله تعالىٰ: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[٤] تعارض ، لأَن تلك تقتضي الوعد بتأْخيرٍ إن آمنوا والوعيد بمعاجلةٍ إن كفروا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والحق مذهب أَهل السنة أَن كل أَحد إنما هو بأَجل واحد لا يتأَخر عنه ولا يتقدم ، وقوم نوح كان منهم من سبق في علم الله تعالىٰ أَنه يكفر فيعاجل ، وذلك هو أَجله المحتوم ، ومنهم من يؤمن فيتأَخر إلى أَجله المحتوم ، وغيب عن نوح تعيين الطائفتين فندب الكل إلى طريق النجاة وهو يعلم أَن الطائفة إنما تعاجل أَو تؤخر بأَجلها ، فكأَنه يقول: فإن آمنتم علمنا أَنكم ممن قضى الله له بالإيمان والأَجل المؤخر ، وإن كفرتم علمنا أَنكم ممن قُضى له بالأَجل المعجل والكفر.

---

(١) البيت بتمامه:

لا تُنْكِروا القَتْلَ وقَدْ سُبِينَا ... في حَلْقِكُمْ عظْمٌ وقَدْ شَجِينَا

أراد: في حلوقكم بدليل قوله: وقد شجينا ـ لأن الشجا هو ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه ـ فضمير الجماعة في (شَجينا) يدل على أن المراد الحلوق بالجمع.

(٢) نقل أَبو حيان هذه العبارة عن ابن عطية بلفظ: «لفظٌ عُنِيَ به الجزءُ القليل من الزمن» ـ فتأمل.

(٣) من الآية (٤٠) من سورة (النساء).

(٤) تكررت في الآية (١٠) من سورة (إبراهيم): ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ، وفي الآية (٤) من سورة (نوح): ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا الحد هو دعاءُ محمد عليه الصلاة والسلام إلى طريق الجنة وقد علم أَن منهم من يكفر فيدخل النار، وكذلك هو أَمر الأَسير يقال له: إما أَن تؤمن فتترك وإلا قتلت.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ الآية. الخطاب في هذه الآية لجميع العالم، و(إن) الشرطية دخلت عليها (ما) مؤكدة، ولذلك جاز دخول النون الثقيلة على الفعل، وإذا لم تكن (ما) لم يجز دخول النون الثقيلة. وقرأَ أُبي بن كعب، والأَعرج: [تَأْتِيَنَّكُمْ] على لفظ الرسل، وجاءَ ﴿يَقُصُّونَ﴾ على المعنىٰ، وكان هذا الخطاب لجميع الأُمم قديمها وحديثها هو متمكن لهم ومتحصل منه لحاضري محمد عليه الصلاة والسلام أَن هذا حكم الله في العالم منذ أَنشأَه، و﴿يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ مستقبل وضع موضع ماض ليفهم أَن الإتيان باق وقت الخطاب لتقوي الإشارة بصحة النُّبُوَّة إلى محمد ﷺ، وهذا على مراعاة وقت نزول الآية. وأَسند الطبري إلى أَبي سيَّار السلمي قال: إن الله تعالىٰ جعل آدم وذريته في كفة فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الآية، قال: ثم نظر إلى الرسل فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾[1]، ثم بثهم[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا محالة أَن هذه المخاطبة في الأَزل، وقيل: المراد بالرسل محمد عليه الصلاة والسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

من حيث لا نبي بعده، فكأَن المخاطبين هم المراد ببني آدم لا غير، إذ غيرهم لم ينله الخطاب، ذكره النقاش. و﴿يَقُصُّونَ﴾ معناه: يسردون ويوردون، والآيات لفظ جامع لآيات الكتب المنزلة وللعلامات التي تقترن بالأنبياء. وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ يصح أَن تكون [من] شرطية وجوابه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، وهذه الجملة هي في

(١) الآيتان (٥١ ـ ٥٢) من سورة (المؤمنون).
(٢) يفهم من (الدر المنثور) أَنَّ أحداً غير ابن جرير الطبري لم يخرج هذا الخبر.

جواب الشرط الأول الذي هو: ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾، ويصح أن تكون [من] في قوله: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ﴾ موصولة، وكأنه قصد بالكلام تقسيم الناس فجعل القسم الأول ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ﴾، والقسم الثاني: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، وجاءَ هذا التقسيم بجملته جواباً للشرط في قوله تعالىٰ: ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ فكأنه قال: إن أتتكم الرسل فالمتقون لا خوف عليهم، والمكذبون أصحاب النار، أي: هذا هو الثمرة وفائدة الرسالة. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: ليس ثمَّ نفع للمفتري ولا غرض دنيوي، فالآية تبرية للنبي ﷺ من الافتراءِ، وتوبيخ للمفترين من الكفار، و (لا) في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ بمعنى ليس. وقرأ ابن محيصن: [فلا خوف] دون تنوين، ووجهه إمَّا أن يحذف التنوين لكثرة الاستعمال، وإمَّا حملاً على حذفه مع [لا]، وهي تبرية ناصبة، فشبه حالة الرفع في البناء بحالة النصب. وقيل: إن المراد: فلا الخوف، ثم حذفت الألف واللام وبقيت الفاءُ على حالها لتدل على المحذوف، ونفي الخوف والحزن يعم جميع أنواع مكاره النفس وأنكارها، ويشبه أن يكون الخوف لما يستقبل من الأمور، والحزن لما مضىٰ.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ هذه حالتان تعم[1] جميع من يصدُّ عن رسالة الرسول ﷺ، إمَّا أن يكذب بحسب اعتقاده، وإمَّا أن يستكبر فيكذب وإن كان غير مصمم في اعتقاده على التكذيب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا نحو الكفر عناداً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

(١) هكذا في الأصول التي بين أيدينا، ونظن أن فيها خطأ من النساخ، وقد نقل أبو حيان في «البحر» العبارة باللفظ الآتي: «هاتان حالتان تعم جميع... الخ» ـ ويمكن فهمها على أنه يقرر أن في الآية حالتين... ثم يشير إلى الآية بقوله: «تعم».

هذه آية وعيد واستفهام على جهة التقرير، أي: لا أحد أظلم منه، و﴿ ٱفْتَرَىٰ ﴾ معناه: اختلق، وهذه وإن كانت متصلة بما قبلها، أي: كيف يجعلون الرسل مفترين ولا أحد أظلم ممن افترى ولا حظ للرسل إلا أن يُرْحَم من اهتدىٰ ويُعَذَّبَ من كفر ـ فهي أيضاً مشيرة بالمعنىٰ إلى كل مفتر، إلى من تقدم ذكره من الذين قالوا: ﴿ وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ﴾ إشارة إلى جميع الكفرة. وقوله تعالىٰ: ﴿ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ قال الحسن، والسدي، وأبو صالح: معناه: من المقرر في اللوح المحفوظ، فالكتاب عبارة عن اللوح المحفوظ، وقد تقرر في الشرع أن حظهم في العذاب والسخط. وقال ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد: قوله: ﴿ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ يريد: من الشقاءِ والسعادة التي كتبت له عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويؤيد هذا القول الحديث المشهور الذي يتضمن أن الملَك يأتي إذا خُلق الجنين في الرحم فيكتب رزقه وأجله وشقيّ أو سعيد[1]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، ومجاهد، قتادة، والضحاك: الكتاب يُرادُ به الذي تكتبه الملائكة من أعمال الخليقة من خير وشر، فينال هؤلاءِ نصيبهم من ذلك وهو الكفر والمعاصي. وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، والضحاك: ﴿ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ يراد به: من القرآن، وحظهم فيه أن وجوههم تسود يوم القيامة، وقال الربيع بن أنس، ومحمد بن كعب، وابن زيد: المعني بالنصيب ما سبق لهم في أم الكتاب من رزق وعمر وخير وشر في الدنيا. ورجح الطبري هذا واحتج له بقوله تعالىٰ بعد ذلك: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا ﴾ أي: عند انقضاءِ ذلك، فكأنه معنى الآية على هذا التأويل: أُولئك يتمتعون ويتصرفون من الدنيا بقدر ما

(١) هذا الحديث رواه البخاري في كتاب التوحيد. وكتاب بدء الخلق، ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجة، ورواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود، ولفظه كما جاء في البخاري: (حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: إن أحدكم يُجْمع خلقُه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون عَلَقة مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يبعث الله مَلَكاً فيؤمر بأربع كلمات ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعملُ حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابُه فيعمل بعلم أهل النار، ويعملُ حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة).

كُتب لهم حتَّىٰ إذا جاءَتهم رسلنا لموتهم. وهذا في تأويل جماعة في مجيءِ الرسل للتوفي، وعلى هذا يترتب ترجيح الطبري الذي تقدم. وقالت فرقة: ﴿رُسُلُنَا﴾ يريد بهم ملائكة العذاب يوم القيامة، و﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ معناه: يستوفونهم عدداً في السوق إلى جهنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويترتب هذا التأويل مع التأويلات المتقدمة في قوله تعالىٰ: ﴿نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لأَن النصيب على تلك التأويلات إنما ينالهم في الآخرة وقد قضي مجيء رسل الموت. وقوله تعالىٰ حكاية عن الرسل: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ﴾ استفهام تقرير وتوبيخ وتوقيف على خزي، وهو إشارة إلى الأَصنام والأَوثان وكل ما عُبد من دون الله، و﴿تَدْعُونَ﴾ معناه: تعبدون وتؤملون، وقولهم: ﴿ضَلُّوا﴾ معناه: هلكوا وتلفوا وفُقدوا، ثم ابتدأ الخبر عن المشركين بقوله سبحانه: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰفِرِينَ﴾، وهذه الآية وما شاكلها تعارض في الظاهر قوله تعالىٰ حكاية عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾(١)، واجتماعهما إما أَن يكون في طوائف مختلفة، أَو في أَوقات مختلفة يقولون في حال كذا، وفي حال كذا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

هذه حكاية ما يقول الله لهم يوم القيامة بوساطة ملائكة العذاب، وعبَّر عن (يقول) بـ ﴿قَالَ﴾ لتحقق وقوع ذلك وصدق القصة. وهذا كثير.

وقوله تعالىٰ: ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ متعلق بـ ﴿ٱدْخُلُوا﴾، ويحتمل أَن يتعلق بمحذوف تقديره: كائنين أَو ثابتين في أُمم فيكون في موضع الحال من الضمير في ﴿ٱدْخُلُوا﴾،

(١) من الآية (٢٣) من سورة (الأنعام): ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

وقيل: ﴿فِيٓ﴾ بمعنىٰ (مع)، وقيل: هي على بابها وهو أصوب[١]. وقوله: ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ صفة لِـ ﴿أُمَمٖ﴾، وقوله: ﴿فِي ٱلنَّارِۖ﴾ يصح تعلقه بـ ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾، ويصح أن يتعلق بـ ﴿أُمَمٖ﴾ أي: في أمم ثابتة أو مستقرة، ويصح تعلقه بالذكر الذي في ﴿خَلَتۡ﴾، ومعنىٰ ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ على هذا التعلُّق، أي قد تقدمت ومضى عليها الزمن وعرفها فيما تطاول من الآباد، وقد تستعمل وإن لم يطل الوقت إذ أصلها: فيمن مات من الناس، أي صاروا إلى خلاءٍ من الأرض، وعلى التعليقين الأولين لقوله: ﴿فِي ٱلنَّارِۖ﴾ فإنما ﴿خَلَتۡ﴾ حكاية عن حال الدنيا، أي: ادخلوا في النار في جملة الأُمم السالفة لكم في الدنيا الكافرة. وقدم ذكر ﴿ٱلۡجِنِّ﴾ لأنهم أعرق في الكفر، وإبليس أصل الضلال والإغواء، وهذه الآية نص في أن كفرة الجن في النار، والذي يقتضيه النظر أن مؤمنيهم في الجنة لأنهم عقلاء مكلفون مبعوث إليهم آمنوا وصدقوا، وقد بوب البخاري رحمه الله (باب في ذكر الجن وثوابهم وعقابهم)، ذكر عبد الجليل أن مؤمني الجن يكونون تراباً كالبهائم، وذكر في ذلك حديثا مجهولاً، وما أراه يصح، والله أعلم.

والأخوة في هذه الآية أخوة الملة والشريعة، قال السدي: يتلاعن آخرها وأولها.

﴿ٱدَّارَكُواْ﴾ معناه: تلاحقوا: ووزنه تفاعلوا، أصله: تداركوا أُدْغم فجلبت ألف الوصل، وقرأ أبو عمرو [إِدَّاركوا] بقطع ألف الوصل، قال أبو الفتح: هذا مشكل ولا يسوغ أن يقطعها ارتجالاً فذلك إنما يجيءُ شاذاً في ضرورة الشعر[٢]، وقرأ مجاهد بقطع الألف وسكون الدال [إِدْرَكُوا] بفتح الراءِ وبحذف الألف بعد الدال بمعنىٰ: أدرك بعضهم بعضاً. وقرأ حميد: [أُدْرِكُوا] بضم الهمزة وكسر الراءِ أي: أُدخلوا في أدراكها، قال مكي في قراءَة مجاهد: إنها [ادرَكُوا] بشد الدال المفتوحة وفتح الراءِ، قال: وأصله (إِذْ تَركوا) وزنها افتعلوا، وقرأ ابن مسعود والأعمش: [تَدَارَكُوا] ورويت عن أبي عمرو، وقرأ الجمهور: [حَتَّى إِذ ادَّارَكُوا] بحذف ألف (إذا) لالتقاء الساكنين[٣].

---

(١) ويكون المعنىٰ: ادخلوا في جملتهم.

(٢) ومثال ذلك قول الشاعر:

يـا نَفْـسُ صَبْـراً كـلُّ حَـيٍّ لاقـي ... وكُـلُّ إثْنَيْـنِ إلـى افْتِـرَاقِ

(٣) في القرطبي أن هذه قراءة مجاهد وحميد بن قيس لكنه أضاف إلى حذف ألف (إذا) حذف الألف التي بعد الدال.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ معناه: قالت الأُمة الأَخيرة التي وجدت ضلالات مقررة وسُنَناً كاذبة مستعملة للأُولى التي شرَّعت ذلك وافترت على الله وسلكت سبيل الضلالات ابتداءً: ربنا هؤلاءِ طرقوا الضلال وسبَّبوا ضلالنا فآتهم عذاباً مضاعفاً، أَي ثانياً زائداً على عذابنا إِذ هم كافرون ومُسَبِّبون لكفرنا، وتقول: ضاعفت كذا إِذا جعلته مثل الأَول. واللام في قوله تعالىٰ: ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ كأَنها لام سبب، إِذ القول إِنما هو للربِّ. ثم قال عزَّ وجلَّ مخبراً لهم: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أَي: العذاب مشدد على الأَول والآخر ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أَي: المقادير وصور التضعيف، وهذا ردٌّ لكلام هؤلاءِ إِذ ليس لهم كرامة فيظهر إِسعافهم.

وأَما المعنى الذي دعوا فيه فظاهر حديث النبي ﷺ أَنه حاصل، وأَنَّ كل مَنْ سنَّ كفراً أَو معصية فعليه كفل من جهة كل من عمل بذلك بعده، ومنه حديث أَنس بن مالك أَن رسول الله ﷺ قال: «ما من داعٍ دعا إِلى ضلالة إِلا كان عليه وِزْرُهُ وَوِزْرُ من اتبعه لا ينقص ذلك من أَوزارهم شيئاً...»[1] الحديث. ذكره الليث بن سعد في آخر الجزءِ الرابع من حديثه، وذكره مالك في الموطأ غير مسند موصل، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «ما تُقتل نَسَمَةٌ ظلماً إِلا كان على ابن آدم الأَول كِفل منها»[2]، أَما إِن هؤلاءِ عينوا في دعائهم الضِّعف، وقد يكون الكفل أَقل أَو أَكثر. وعن ابن مسعود أَن الضعف ها هنا: الأَفاعي والحيات.

وقرأَ جميع السبعة غير عاصم في رواية أَبي بكر رضي الله عنه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ بالتاءِ، ويحتمل ذلك أَن يكون مخاطبة لهذه الأُمة الأَخيرة متصلة بقوله تبارك وتعالىٰ لهم: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾، ويحتمل أَن يكون مخاطبة لمحمد عليه الصلاة والسلام وأُمته، وقرأَ عاصم وحده في رواية أَبي بكر: [ولكن لا يعلمون]، وروى حفص عن عاصم

---

(١) الحديث رواه مسلم، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، ورواه الإمام أحمد ـ عن المنذر بن جرير، ولفظه كما في الإمام أحمد: (من سنَّ في الإِسلام سنَّة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينتقص من أجورهم شيءٌ، ومن سنَّ في الإِسلام سنَّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينتقص من أوزارهم من شيء).

(٢) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وكذلك رواه الإمام أحمد ولفظه فيه عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها لأَنه كان أول من سنَّ القتل».

مثل قراءَة الجماعة، وهذه مخاطبة لأُمة محمد عليه الصلاة والسلام وإخبارٌ عن الأُمة الأَخيرة التي طلبت أَن يشدد العذاب على أُولاها، ويحتمل أَن يكون خبراً عن الطائفتين حملاً على لفظة (كُل) أَي: لا يعلم أَحد منهم قدر ما أُعد لهم من عذاب الله.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ الآية، المعنىٰ: وقالت الأُمة الأُولى المبتدعة للأُمة الأَخيرة المتَّبِعة: أَنتم لا فضل لكم علينا، ولم تزدجروا حين جاءَتكم النُّذر والرسل، بل دمتم في كفركم، وتركتم النظر، واستوت حالنا وحالكم، فذوقوا العذاب باجترامكم. هذا قول السدي وأَبو مجلز وغيرهما، فقوله ﴿فَذُوقُواْ﴾ ـ على هذا ـ من كلام الأُمة المتقدمة للأُمة المتأَخرة، وقيل: قوله ﴿فَذُوقُواْ﴾ هو من كلام الله عزَّ وجلَّ لجميعهم. وقال مجاهد: ومعنىٰ قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿مِن فَضْلٍ﴾ أَي من التخفيف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

معناه أَنه لما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ قال الأَولون للآخرين: لم تبلغوا أَملاً في أَن يكون عذابكم أَخف من عذابنا، ولا فضلتم بالإِسعاف والنص عليه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

هذه الآية عامّة في جميع الكفرة قديمِهم وحديثِهم. وقرأَ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر: ﴿لَا تُفَتَّحُ﴾ بضم التاءِ الأُولى وتشديد الثانية، وقرأَ أَبو عمرو [تُفْتَح] بضم التاءِ وسكون الفاءِ وتخفيف الثانية، وقرأَ حمزة والكسائي [يُفْتح] بالياءِ من أَسفل وتخفيف التاءِ، وقرأَ أَبو حيوة، وأَبو إِبراهيم [يُفتَّح] بالياءِ وفتح الفاءِ وشدِّ التاءِ. ومعنى الآية: لا يرتفع لهم عمل ولا روح ولا دعاءٌ فهي عامة في نفي ما يوجب للمؤمنين بالله تعالىٰ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

وذكر الطبري في كيفية قبض روح المؤمن والكافر آثاراً اختصرتها إِذ ليست بلازمة في الآية، ولِلِين أَسانيدها أَيضاً.

ثم نفى الله عزَّ وجلَّ عنهم دخول الجنة وعلَّق كونه بكَوْنِ محالٍ لا يكونُ ، وهو أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة حيث يدخل الخيط ، والجمل كما عُهِدَ والسم كما عُهد. وقرأ جمهور المسلمين: ﴿ٱلْجَمَلُ﴾ واحد الجمال ، وقال الحسن: هو الجمل الذي يقوم بالمِرْبَد[1] ، ومرة لما أكثروا عليه قال: هو الأَشتر وهو الجمل بالفارسية ، ومرة قال: هو الجمل ولد الناقة ، وقاله ابن مسعود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه عبارة تدل على حرج السائل لارتياب السائلين لا شك باللفظة من أجل القراءَت المختلفة. وذكر الطبري عن مجاهد عن ابن مسعود أنه كان يقرأُ: [حتى يلِجَ الجَمَلُ الأَصفر]. وقرأ أبو السمَّال: [الجمْل] بسكون الميم. وقرأ ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وابن جبير ، والشعبي ، ومالك بن الشخير ، وأبو رجاء: [الجُمَّل] بضم الجيم وتشديد الميم وهو حبل السفينة. وقرأ سالم الأَفطس ، وابن خير ، وابن عامر أيضاً: [الجُمَل] بتخفيف الميم من (الجُمل) وقالوا: هو حبل السفن ، وروى الكسائي أن الذي روى تثقيل الميم عن ابن عباس رضي الله عنهما كان أعجمياً فشدد الميم لعجمته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف لكثرة أصحاب ابن عباس رضي الله عنهما على القراءَة المذكورة ، وقرأ سعيد بن جبير فيما روي عنه: [الجُمْل] بضم الجيم وسكون الميم ، وقرأ ابن عباس أيضاً: [الجُمُل] بضم الجيم والميم.

والسَّم: الثقب من الإبرة وغيرها ، ويقال: سَمٌّ وسُمٌّ بفتح السين وكسرها وضمها. وقرأ الجمهور بفتح السين ، وقرأ ابن سيرين بضمها ، وقرأ أبو حيوة بضمها وبكسرها ، وروي عنه الوجهان[2] ، والخِياط والمِخْيطُ: الإبرة ، وقرأ ابن مسعود:

---

(١) المِرْبَد: موقف الإبل ومحبسها ، وبه سُميَّ مِرْبَد البصرة ، كان سوقاً للإبل ، وكان الشعراء يجتمعون به. وجمعه: مرابد. عن (المعجم الوسيط).

(٢) من السَّم بمعنى الثقب قول الفرزدق:

فَتَنَفَّسَتْ عَـنْ سَمَّيْـهِ حتَّـىٰ تَنَفَّسَـا وقلْـتُ لَـهُ لا تَخْـشَ شَيْئـاً ورائيـا

يعني بِسَمَّيْه ثقبيْ أنفه.

[في سم المخيط] بكسر الميم وسكون الخاءِ وفتح الياءِ، وقرأ طلحة: [في سم المخيط] بفتح الميم، وكذلك أُبي على هذه الصفة، وبمثل هذا الحتم وغيره يجزي الكفرة وأَهل الجرائم على الله تبارك وتعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ المعنى أَن جهنم فراش لهم ومسكن ومضجع يتمهدونه، وهي لهم غواش: جمع غاشية، وهي ما يغشى الإنسان أَي يغطِّيه ويستره من جهة فوق، قال الضحاك: المهاد: الفراش، والغواشي: اللحف. ودخل التنوين في (غواشٍ) عند سيبويه لنقصانه عن بناءِ مفاعل، فلما زال البناءُ المانع من الصرف بأَن حذف الياءُ حذفاً لا للالتقاءِ، بل كما حذفت من قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾[1]، ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾[2] ومن قول الشاعر:

. . . . ثُــمَّ لا يفْــرِ[3]

زال الامتناع[4]، وهو كقولهم: ذُلُذلٌ بالتنوين وهم يريدون الذلاذل[5] لما زال البناءُ. قال الزجاج: والتنوين في (غواش) عند سيبويه عِوَضٌ من الياءِ المنقوصة، وردَّ أَبو علي أَن يكون هذا هو مذهب سيبويه، ويجوز الوقف بياءٍ وبغير ياءٍ والاختيار بغير ياءٍ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية. هذه آية وعْد مُخبِرَةٌ أَن جميع المؤمنين هم أَصحاب الجنة ولهم الخلد فيها، ثم اعترض أَثناءَ القول بعقب الصفة التي شرطها في المؤمنين باعتراضٍ يخفف الشرط ويرجِّي في رحمة الله ويُعلم أَن دينه يُسر.

وهذه الآية نصٌّ في أَن الشريعة لا يتقرر من تكاليفها شيءٌ لا يطاق. وقد تقدم القول

---

(١) الآية (٤) من سورة (الفجر).

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٦٤) من سورة (الكهف): ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾.

(٣) هذا آخر جزء من بيت لزهير، والبيت بتمامه:

ولأَنْــتَ تَفْــري مــا خَلَقْــتَ وبَعْـ ضُ القَــوْمِ يَخْلُــق ثُــمَّ لا يَفْــر

أي: تُنفِّذ ما تعزم عليه وتقدّره. قال في (اللسان): وهو مثل، ويقال للشجاع: ما يفري فريَّه أَحد، لكن البيت في اللسان (يفري) بالياء.

(٤) جواب (لمّا) في قول المؤلف: (فلما زال).

(٥) في (اللسان): ذلاذل القميص: ما يلي الأَرض من أسافله، الواحد ذُلْذُلٌ مثلُ قُمْقُم وقَمَاقم.

في جواز تكليف ما لا يطاق وفي وقوعه بمُغْن عن الإعادة.

والوُسْع معناه: الطاقة، وهو القدر الذي يتسع له قدر البشر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾.

هذا إخبار من الله عزَّ وجلَّ أنه يُنَقِّي قلوب ساكني الجنة من الغلِّ والحقد، وذلك أن صاحب الغلِّ متعذب به ولا عذاب في الجنة، وورد في الحديث: (الغِلُّ على باب الجنة كمبارك الإبل قد نزعه الله تبارك وتعالىٰ من قلوب المؤمنين)[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومعنى هذا الحديث إذا حُمل على حقيقته أن الله عزَّ وجلَّ يخلق جوهراً يجعله حيث يرى كمبارك الإبل لأن الغِلَّ عرض لا يقوم بنفسه، وإن قيل: إن هذه استعارة وعبَّر عن سقوطه عن نفوسهم فهذه الألفاظ على جهة التمثيل، كما تقول: فلان إذا دخل على الأمير ترك نخوته بالباب ملقاة، فله وجه، والأول أصوب وأجرى مع الشرع في أشياءَ كثيرة مثل قول عليه الصلاة والسلام: «يُؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش فيذبح»[٢] وغير ذلك، وروى الحسن عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «فينا والله أهل بدر نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[٣]»، وروي عنه أيضاً أنه قال: «فينا والله نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾»[٤]، وذكر قتادة أن علياً قال:

---

(١) الحديث لا أصل له.

(٢) حديث ذبح الموت سبق تخريجه، ونصه كما رواه الدارمي في سننه: (عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يؤتى بالموت بكبش أغبر فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون، ويقال: يا أهل النار فيشرئبون وينظرون ويرون أن قد جاءَ الفرج، فيذبح ويقال: خلود ولا موت». (٢/ ٢٩ ط. دار الفكر).

(٣) الآية (٤٧) من سورة (الحجر).

(٤) أخرجه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ ـ عن علي بن أبي طالب. (الدر المنثور).

«إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير رضي الله عنهم من الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو المعنى الصحيح، فإن الآية عامة في أهل الجنة، والغِلُّ: الحقد والإحنة الخفية في النفس، وجمعه: غِلال، ومنه الغلول أَخْذ في خفاءٍ، ومنه الانغلال في الشيءِ، ومنه المغلُّ بالأمانة، ومنه قول علقمة بن عبدة:

سُلَّاءَةٌ كعَصَا النَّهْدِيِّ غُلَّ لَهَا ... ذُو فَيْئَةٍ، مِنْ نَوَى قُرَّانَ مَعْجُومُ(١)

وقوله تعالىٰ: ﴿مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بيّن لأن ما كان لاطئاً بالأرض فهو تحت ما كان منتصباً آخذاً في سماءٍ، و﴿هَدَىٰنَا﴾ بمعنى أرشدنا، والإشارة بـ[هَذَا] تتّجه أن تكون إلى الإيمان والأعمال الصالحة المؤدية إلى دخول الجنة، ويحتمل أن تكون إلى الجنة نفسها، أي: أرشدنا إلى طرقها، ولكل واحد من الوجهين أمثلةٌ في القرآن. وقرأ ابن عامر وحده: [ما كنا لنهتدي] بسقوط الواو من قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا﴾، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام، قال أبو علي: وجه سقوط الواو أن الكلام متصل مرتبط بما قبله.

ولما رأوا ما جاءت به الأنبياءُ عن الله تبارك وتعالىٰ: وعاينوا إنجاز المواعيد قالوا: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾، فقضوا بأن ذلك حقٌّ قضاءَ من يُحِسُّ، وكانوا في الدنيا يقضون بأن ذلك حقٌّ قضاءَ من يستدلُّ. ﴿وَنُودُوٓا﴾ أي: قيل لهم بصياحٍ، وهذا النداءُ من قِبَلِ اللهِ عزَّ وجلَّ، و﴿أَن﴾ يحتمل أن تكون مفسَّرة لمعنى النداءِ بمعنىٰ (أي)،

---

(١) البيت لعلقمة في وصف فرس ـ والسُّلاءُ بالضم ممدود: شوكُ النخل ـ على وزن قُرّاء ـ واحدته: سُلاءة وسَلأ النخلة والعسيب سلأ: نزع سُلاَّءهما يريد أن الفرس ملساءُ كالعسيب الذي نزع شوكه. والنَّهدِيُّ: الشيخ المُسِنُّ، وغُل لها هو من قولهم: غَلَلْتُ للناقة إذا خلطت لها العَلَف، والغليل هو النَّوى تخلطه بالقَت وتعلفه الناقة، وذو فيئة: ذو عَوْدَة ورجْعَة. وقُرَّان: قرية باليمامة كثيرة النخل ومن ثَمَّ يكثر بها النوى الذي ينتفع به في علف الإبل والخيل، ومعجوم: يريد أنه قد عضه ليعلم مقدار صلابته، أو اختبره بيده ليعرف ذلك، فهو يشبه الفرس في ضمورها ونعومة جسمها بعصا الشيخ التي نزع شوكها فصارت ناعمة ملساء، وهي تأكل من نوى قُرَّان المعروف فيعطيها قوة وصلابة في جِسْمها. والشاهد في قوله: (غُلَّ لها)، أي خلط لها ودس في الطعام فاختلط به وانغَلَّ فيه.

ويحتمل أَن تكون مخففة من الثقيلة وفيها ضمير مستتر تقديره: أَنه تلكم الجنة، ونحو هذا قول الأَعشىٰ:

فـي فتْيـة كَسُيُـوفِ الْهِنْـد قَـدْ عَلِمـوا ... أَنْ هالِكٌ كلُّ مَن يَحْفَى ويَنْتَعِلُ[1]

تقديره: أَنه هالك. ومنه قول الآخر:

أُكَـاشِـرُهُ وأَعْلَـمُ أَنْ كِـلانَـا ... على مـا سـاءَ صـاحِبَـهُ حـريـص[2]

و﴿ تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ ﴾ ابتداءٌ وصفة، و﴿ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ الخبر، و﴿ تِلْكُمُ ﴾ إشارة فيها غيبة، فإمَّا لأَنهم كانوا وعدوا بها في الدنيا فالإشارة إلى تلك، أَي: تلكم هذه الجنة وحذفت (هذه)، وإما قبل الدخول، وإما بعد الدخول وهم مجتمعون في موضع منها، فكل غائب عن منزله.

وقوله تعالىٰ: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ لا على طريق وجوب ذلك على الله، لكن بقرينة رحمته وتغمده، والأعمال أَمارة من الله وطريق إلى قوة الرجاءِ، ودخول الجنة إنما هو بمجرد رحمة الله تعالىٰ، والقسم فيها على قدر العمل، و(أُورثتم) مشيرة إلى الأَقسام. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ وكذلك في الزخرف، وقرأَ أَبو عمرو، والكسائي وحمزة: [أُورِتُّموها] بإدغام الثاءِ في التاءِ، وكذلك في الزخرف[3].

---

(١) قائل البيت أَبو بصير الأَعشى ميمون بن قيس، وهو في القصيدة السادسة من ديوانه المطبوع بالقاهرة بشرح د. محمد حسين، والشاعر يصف في البيت ندماه على الشراب. وقوله: (من يحفىٰ) يريد به عامة العرب، ويريد بقوله: (وينتعل) من يلبس النعال ـ يعني السادة والشرفاء. يقول: إن الموت لا يفرق بين الفقراء والأَغنياء، والشاهد فيه أَنَّ (أَنْ) في أول الشطر الثاني مخففة من الثقيلة لأَنه سبقها فعل من أفعال اليقين هو (علم)، وليست هي أَنْ المصدرية لأَنه لا يسبقها يقين ولا شبهه، وقد استشهد سيبويه بالبيت في الكتاب (١ ـ ٢٨٢، ٤٤٠ ـ ٤٨٠) وعلق عليه بقوله «كأنه قال: إنَّه هالك، ثم قال: ومثل ذلك: أول ما أقول أنْ باسم الله، كأَنه قال: أول ما أقوله أَنَّه باسم الله».

(٢) هذا البيت أَيضاً من شواهد سيبويه على أَنَّ (أَنَّ) المثقلة قد تخفف ويكون اسمها ضميراً. وقال الأعلم في التعليق على البيت: «الشاهد في حذف الضمير من (أَنْ) وابتداء ما بعدها على نية إثبات الضمير، ومعنى أكاشره: أضاحكه، ويقال: كشرَّ عن نابه: إذا كشف عنه».

(٣) في قوله تعالىٰ في الآية (٧٢): ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. وقد قال الإمام ابن خالويه في كتابه: «الحجة في القراءات السبع»: «فالحجة لمن أدْغَم: مقاربة الثاء للتاء في المخرج، والحجة لمن أظهر: أن الحرفين مهموسان فإذا أدغما خفيا فضعُفا، فلذلك حَسُن الإظهارُ فيهما».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

هذا إِخبارٌ من الله عزَّ وجلَّ عما يكون منهم، وعبَّر عن معان مستقبلة بصيغة ماضية، وهذا حسن فيما تحقق وقوعه، وهذا النداءُ من أَهل الجنة لأَهل النار تقريع وتوبيخ وزيادة في الكرب، وهو بأَن يشرفوا عليهم، ويخلق الإدراك في الأَسماع والأَبصار. وقرأَ جمهور الناس: ﴿نَعَمۡۚ﴾ بفتح العيْن، وقرأَ الكسائي: [نَعِم] بكسر العين، ورويت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ، وقرأَها ابن وثاب، والأَعمش، قال الأَخفش: هما لغتان، ولم يَحْك سيبويه الكسر وقال: نعم: عِدَةٌ وتصديق أَي: مرة هذا ومرة هذا. وفي كتاب أَبي حاتم عن الكسائي عن شيخ من ولد الزبير قال: ما كنت أَسمع أَشياخ قريش يقولون إِلا (نعِم) بكسر العين، ثم فقدتها بعده. وفيه عن قتادة عن رجل من خثعم قال: قلت للنبي ﷺ: أَنت تزعمُ أَنك نبي؟ قال: نَعِم. «بكسر العين»، وفيه عن أَبي عثمان النهدي قال: سأَل عمر رضي الله عنه عن شيءٍ فقالوا: نَعَم، فقال عمر: النَّعَم: الإبل والشاءُ، قالوا: نَعِم بكسر العيْن، قال أَبو حاتم: وهذه اللغة لا تعرف اليوم بالحَرَمَيْن[(١)].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ الآية. قال أَبو علي الفارسي، والطبري، وغيرهما: [أَذَّنَ مُؤَذِّن] بمعنى: أَعلم مُعْلم، قال سيبويه: أذنت: إِعلام بتصويت، وقرأَ ابن كثير في رواية قُنبل، ونافع وأَبو عمرو، وعاصم، ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾ بتخفيف (أَنْ) من الثقيلة ورفع (اللعنة)، وقرأَ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وابن كثير في رواية البزي وشبل: [أَنَّ لَعْنَةَ] بتثقيل (أَنَّ) ونصب (اللعنة)، وكلُّهم قرأَ التي في النور:

---

(١) جميع الشواهد التي ذكرها ابن عطية نقلاً عن كتاب «أبي حاتم» مذكورة في (اللسان) ـ وفيه: «ونَعَمْ ونَعِمْ: كقولك: بَلَى إلا أن نَعِم في جواب الواجب، وهي موقوفة الآخر لأنها حرف جاء لمعنىٰ»، ونقل عن الأزهري قوله: «وقد يكون نَعِم تصديقاً ويكون عِدَةً، وربَّما ناقض بَلَى إذا قال: ليس لك عندي وديعة، فتقول: نَعَم تصديقاً لَهُ وبَلَىٰ تكذيباً» ـ ثم قال: «واشتق ابن جني (نعم) من النعمة، وذلك أن (نعم) أشرف الجوابين، وأسرهما للنفس وأجلبهما للحمد، و(لا) بضدها».

[أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ] ، و[أَنَّ غَضَبَ اللهِ] بتشديد النون ، غير نافع فإنه قرأهما: ﴿أَن لَّعْنَةُ﴾ و[أَنْ غضب الله] مخففتين ، وروى عصمة عن الأعمش: [مؤذِنٌ بَيْنَهُمْ إِنَّ] بكسر الألف على إضمار قال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لما كان الأذان قولاً. والظالمون في هذه الآية: الكافرون.

ثم ابتدأ صفتهم في الدنيا ليكون علامة أن أهل هذه الصفة هم المراد يوم القيامة بقوله: ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ، و﴿يَصُدُّونَ﴾ معناه: يعرضون ، والسبيل: الطريق والمنهج ، ويذكر ويؤنث ، وتأنيثها أكثر ، ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ معناه: يطلبونها أو يطلبون لها ، فإن قدرت يطلبونها فـ ﴿عِوَجًا﴾ نصب على الحال ، ويصحُّ أن يكون من الضمير العائد على (السبيل) ، أي: معوجة ، ويصح أن يكون من ضمير الجماعة في ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي: مُعْوَجِّين وإن قدرت ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾: يطلبون لها وهو ظاهر تأويل الطبري رحمه الله ، فـ ﴿عِوَجًا﴾ مفعول (يبغون) ، والعِوَج بكسر العيْن في الأُمور والمعاني ، والعَوَج بفتح العين في الأجرام والمتنصبات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

الضمير في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ عائد على الجنة والنار ، ويحتمل على الجمعين إذْ يتضمنهما قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ ، والحجاب: هو السور الذي ذكره الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ﴾[1] قاله ابن عباس ، وقال مجاهد: الأعراف: حجاب بين الجنة والنار ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: هو تلٌّ بين الجنة والنار ، وذكر الزهراوي حديثاً أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أُحُداً جبل يُحبنا ونُحبه ، وإنه يقوم يوم القيامة يمثل[2] بين الجنة والنار يحتبس عليه أقوامٌ

(١) من الآية (١٣) من سورة (الحديد).
(٢) نقل البحر هذه الكلمة في الخير (ممثّل) بميمين. يقال: مثل الرجل بين يدي فلان: قام بين يديه منتصباً.

يعرفون كُلاً بسيماهم ، هم إِن شاء الله من أَهل الجنة»[١]. وذَكر حديثاً آخر عن صفوان بن سليم أَن النبي ﷺ قال: (إِنَّ أُحُداً على ركن من أَركان الجنة). والأَعراف: جمع عُرْف وهو المرتفع من الأَرض ، ومنه قول الشاعر:

كُـــلُّ كِنَـــازٍ لَحْمُـــهُ نِيَـــافِ   الجَبَلِ الْمُـوفـي على الأَعـراف[٢]

ومنه قول الشماخ:

وَظَلَّـتْ بـأَعـرافٍ تَعـالـى كَـأنهـا   رِماحٌ نحَاهَا وِجْهَةَ الرِّيح راكزُ[٣]

ومنه عُرف الفرس وعُرف الديك لِعُلُوِّهما ، وقال السدي: سمّي الأَعراف أَعرافاً لأَن أَصحابه يعرفون الناس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه عجمة ، وإِنما المراد بأَعراف ذلك الحجاب أَعاليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿رِجَالٌ﴾. قال أَبو مجلز لاحق بن حميد: هم الملائكة ، ولفظة (رجال) مستعارة لهم لما كانوا في تماثيل رجال ، وهم ذكور ليسوا بإِناث[٤].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد سمّى الله رجالاً في الجن.

---

(١) الجزء الأَول من الحديث وهو: (إن أُحداً جبل يحبنا ونحبه) ثابت في الصحيحين. عن أنس رضي الله عنه ، وقد رمز له في «الجامع الصغير» بأَنه صحيح. ثم ذكر رواية أخرىٰ فيها زيادة غير الزيادة المذكورة هنا ورمز لها بالضعف بعد أن نسبها لابن ماجه ، أما الزيادة التي ذكرها ابن عطية هنا فلم نعثر على تخريج لها. فليس لها أصل.

(٢) ذكر صاحب (اللسان) هذا البيت في (نَيَفَ) شاهداً على أن النّياف: الطويل في ارتفاع ، ولم ينسبه ، لكنه ذكر لفظ (كالعَلَم (بدلا من (كالجبل). يقال: قصرٌ نياف ، وناقةٌ نياف ، قال ابن بري: وحقُّ النياف أن يذكر في (نَوَف) لأنه واويّ وقلبت الواو ياءً على جهة التخفيف مثل: صوان وصيان وطوال وطيال. والكِنَازُ: الناقة الصلبة اللحم ، والجمع كُنُزٌ مثل كتاب وكُتب ، وكل مكتنز مجتمع ، والمُوفي: المُشْرف ، والأَعراف: جمع عُرف بضم العيْن وهو كل عالٍ مرتفع ، وهو أيضاً أعالي سور بين أهل الجنة وأهل النار.

(٣) البيت في ديوان الشماخ بن ضرار مع اختلاف في بعض الأَلفاظ (طبع القاهرة ـ السعادة ١٣٢٧ هـ). ونَحاها: وجَّهَها ـ وَوجْهة ـ وَوِجْهة الريح: جِهَتُها ، وراكز: اسم فاعل من ركز رمحه في الأرض إذا غرزه ـ يصف الحُمُر بأَنها ظَلَّت واقفة بأعالي التِلال كأَنها رماح مركوزة في الأرض في جهة الريح.

(٤) قال الطبري: «واضح أن ما قاله أبو مجلز من أنهم ملائكة قول لا معنى له ، والصحيح من القول في ذلك ما قاله سائر أهل التأويل غيره». (تفسير الطبري ٨ـ ١٩٤).

وقال الجمهور: هم رجال من البشر ، ثم اختلفوا ـ فقال مجاهد: هم قوم صالحون فقهاءٌ علماءٌ ، وحكى الزهراوي أَنهم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم وهم في كل أُمة ، وقاله الزجاج ، وقال قوم: هم أَنبياء ، وقال المهدوي: هم الشهداء ، وقال شرحبيل بن سعد: هم المستشهدون في سبيل الله الذين خرجوا عصاة لآبائهم ، وذكر الطبري في ذلك حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم وأَنه تعادل عقوقهم واستشهادهم[١] ، وقال ابن مسعود ، والشعبي ، وحذيفة بن اليمان ، وابن عباس ، وابن جبير ، والضحاك ، هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقع في مسند خيثمة بن سيمان في آخر الجزءِ الخامس عشر حديث عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات ، فمن رَجَحَت حسناته على سيئاته مثقال ذرة صؤابة[٢] دخل الجنة ، ومن رَجَحَت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار ، قيل: يا رسول الله ، فمن استوت حسناته وسيئاته؟ قال: أُولئك أَصحاب الأَعراف لم يدخلوها وهم يطمعون»[٣] ، وقال حذيفة بن اليمان: هم قوم أَبطأَت بهم صغارهم إِلى آخر الناس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واللازم من الآية أَن على أَعراف ذلك السور ـ أَو على مواضع مرتفعة عن الفريقين حيث شاء الله تعالىٰ ـ رجالاً من أَهل الجنة يتأَخر دخولهم ويقع لهم ما وصف من الاعتبار في الفريقين.

و﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾ أَي بعلامتهم ، وهي بياض الوجوه وحسنها في أَهل الجنة ، وسوادها وقُبحها في أَهل النار إِلى غير ذلك في حيّز هؤلاءِ وحيّز هؤلاءِ. والسِّيما:

---

(١) روى الطبري هذا الحديث عن طريقين ـ عن رجل من بني هلال أن أَباه أخبره ـ وعن محمد بن عبد الرحمن عن أبيه ـ ولفظه في الرواية الثانية قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف فقال: (قوم قتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم ، فمنعهم قتلهم في سبيل الله عن النار ، ومنعتهم معصية آبائهم أن يدخلوا الجنة).

(٢) الصُّؤَابة: بَيْضَة القَمل ، جمعه صُؤَابٌ وصِئْبان. (المعجم الوسيط).

(٣) وأخرجه أبو الشيخ ، وابن مردويه ، وابن عساكر ـ عن جابر بن عبد الله (الدر المنثور).

العلامة، وهو من وَسَمَ، وفيه قلب، يقال: سيما مقصور، وسيماء ممدود، وسيمِيَاء بكسر الميم وزيادة ياءٍ[1]، فوزنها عفلا مع كونها من وسم. وقيل: هي من سَوَم إذا علم فوزنها ـ على هذا ـ فعلا. ونداؤُهم أَصحابَ الجنة يحتمل أَن يكون وأَصحابُ الجنة لم يدخلوها بعد، فيكون أَيضاً قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ محتملاً أَن يعني به أَهل الجنة، وهو تأويل أَبي مجلز إِذ جعل أَصحاب الأَعراف ملائكة، ومحتملاً أَن يعني به أَهل الأَعراف. ويحتمل أَن يكون نداؤُهم أَهلَ الجنة بالسلام وهم قد دخلوها فلا يحتمل حينئذٍ قوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ إلا أَهل الأَعراف فقط، وهو تأويل السدي، وقتادة، وابن مسعود، والحسن. وقال: والله ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إِلا لخير أَراده لهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الأَظهر الأَليق، ولا نظر لأَحد مع قول النبي ﷺ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ هي جملة مقطوعة، أَخبر أَنهم لم يدخلوها وهم طامعون بدخولها، فكأَن الجملة حال من الضمير في ﴿وَنَادَوْاْ﴾. وقرأَ أَبو رقيش النحوي: [لم يدخلوها وهم طامعون]، وقرأَ إِيادُ بن لقيط: [وهم ساخطون]، وذكر بعض الناس قولاً وهو أَن يقدر قوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ في موضع الحال من ضمير الجماعة في ﴿يَدْخُلُوهَا﴾، ويكون المعنىٰ: لم يدخلوها في حال طمع بها، بل كانوا في حال يأْس وخوف، لكنهم عمَّهم عفو الله عزَّ وجلَّ. وقال ابن مسعود: إِنما طمع أَصحاب الأَعراف لأَن النور الذي كان في أَيديهم لم يُطفأْ حين يُطفأُ كل ما بأَيدي المنافقين.

والضمير في ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ عائد على أصحاب الأَعراف، فهم يسَلِّمون على أَصحاب الجنة، وإِذا نظروا إِلى النار وأَهلها دعوا الله في التخليص منها، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة من العلماء. وقال أَبو مجلز: الضمير لأَهل الجنة وهم لم يدخلوها بعد. وقوله تعالىٰ: [صُرِفَتْ] معطية ما هنالك من هول المطلع. وقوله تعالىٰ: ﴿رِجَالٌ﴾ يريد من أَهل النار، ويحتمل أَن يكون هذا النداءُ وأَهل النار في

---

(١) وتكون على وزن كبرياء، وعليها جاء قول الشاعر:

غُـلامٌ رمـاهُ اللهُ بـالحُسْـنِ إِذْ رَمَـىٰ ... لـهُ سِيميـاء لا تشُـقُّ عَلَـى البَصَـرْ

النار، فتكون معرفتهم بعلامات مُعَرِّفة بأنهم أولئك الذين عرفوا في الدنيا. ويحتمل أن يكون النداءُ وهو يُحملون إلى النار، فتكون السيما التي عرفوا بها أنهم أهل النار تسويد الوجوه وتشويه الخلق. وقال أبو مجلز: الملائكة تنادي رجالاً في النار، وقال غيره: بل الآدميون ينادون أهل النار، وقيل: إن ﴿مَآ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾ استفهام بمعنىٰ التقرير والتوبيخ، وقيل: ﴿وَمَا﴾ نافية، والأول أصوب. و﴿جَمْعُكُمْ﴾ لفظ يعم جميع الأجناد والخول وجمع المال، لأن المراد بالرجال أنهم جبارون ملوك يُقرَّرون يوم القيامة على معنى الإهانة والخزي، و﴿مَآ﴾ الثانية مصدرية. وقرأت فرقة: [تَسْتَكْثِرُونَ] بالثاءِ مثلثة من الكثرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قال أبو مجلز: أهل الأعراف هم الملائكة وهم القائلون: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى أهل الجنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكذلك يجيءُ قول من قال: أهل الأعراف أنبياءٌ وشهداءُ.

وقال غيره: أهل الأعراف بشر مذنبون، وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ من كلام ملَك بأمر الله عزَّ وجلَّ إشارة إلى أهل الأعراف ومخاطبة لأهل النار، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما. وقال النقاش: لمَّا وبَّخهم بقوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أقسم أهل النار أن أهل الأعراف داخلون النار معهم، فنادتهم الملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾، ثم نادت أصحاب الأعراف: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾. وقال بعض المتأولين: الإشارة بـ (هؤلاءِ) إلى أهل الجنة، والمخاطبون هم أهل الأعراف، والذين خوطبوا هم أهل النار، والمعنىٰ: أهؤلاءِ الضعفاءُ في الدنيا الذين حلفتم أن الله لا يعبأ بهم قيل لهم: ادخلوا

الجنة؟ وقد تقدم ما قال النقاش من أَن القَسَم هو في الآخرة على أَهل الأَعراف.

وقرأَ الحسن، وابن هرمز: [أَدخِلُوا الجَنَّة] بفتح الأَلف وكسر الخاءِ بمعنىٰ: أَدخِلوا أَنفسكم، أَو على أَن تكون مخاطبة للملائكة، ثم ترجع المخاطبة بعْدُ إلى البشر في ﴿عَلَيْكُمْ﴾. وقرأَ عكرمة مولىٰ ابن عباس: [دخلوا الجنة] على الإِخبار بفعل ماض. وقرأَ طلحة بن مصرف، وابن وثاب، والنَّخعي: ﴿أُدْخِلُوا الْجَنَّةَ﴾ خبر مبني للمفعول.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وترتيب كل قراءَة من هذه على الأَقوال في المخاطِب والمخاطَب بقوله تعالىٰ: ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ ممكن بِأَيْسَر تناول فاختصرته إِيجازاً، وكذلك ما في الآية من الرجوع من مخاطبة فريق إلى مخاطبة غيره.

وقول تعالىٰ: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ معناه: لا تخافون ما يأْتي ولا تحزنون على ما فات. وذكر الطبري من طرق حذيفة أَن أَهل الأَعراف يرغبون في الشفاعة فيأْتون آدم فيدفعهم إِلى نوح، ثم يتدافعهم الأَنبياءُ عليهم السلام حتى يأْتوا محمداً ﷺ لِيَشفع لهم فيشفع فيدخلون الجنة فيلقون في نهر الحياة فيبيضون ويسمَّون مساكين الجنة[1]. قال سالم مولى أَبي حذيفة: ليت أَني من أَهل الأَعراف.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ الآية. لفظة النداءِ تتضمن أَن أَهل النار وقع لهم علم بأَن أَهل الجنة يسمعون نداءَهم، وجائز أَن يكون ذلك وهم يرونهم بإِدراك يجعله الله لهم على بُعد السفل من العلوّ، وجائز أَن يكون ذلك وبينهم السور والحجاب المتقدم الذكر، ورُوي أَن ذلك النداءُ هو عند اطلاع أَهل الجنة عليهم، و﴿أَنْ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿أَنْ أَفِيضُوا﴾ مفسِّرة بمعنىٰ أَي: وفاض الماءُ إِذا سال وانماع، وأَفاضه غيره. وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ إِشارة إِلى الطعام، قاله السدي، فيقول لهم أَهل الجنة: إِن الله حرَّم طعام الجنة وشرابها على الكافرين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَشنع على الكافرين في هذه المقالة أَن يكون بعضهم يرى بعضاً فإِنه أَخزى

---

(١) حديث حذيفة طويل ورواه الطبري كاملاً فارجع إِليه إِن شئت في تفسير الطبري. (٨ ـ ١٩٩، ٢٠٠).

وأنكىٰ للنفس، وإجابة أهل الجنة بهذا الحكم هو عن أمر الله تبارك وتعالىٰ. وذكر الزهراوي أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة بالماءِ»[1] يعني عند الحاجة إليه إذ هو ألذ مشروب وأنعشها للنفس، واستسقى الشعبي عند مصعب فقال له: أيَّ الأشربة تحب؟ فقال: أهونها موجوداً وأعزها مفقوداً. فقال مصعب: يا غلام، هات الماءَ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ الآية، أُضيف الذين إليهم من حيث قبولهم أن يلتزموه، إذ هو دين الله من حيث أَمَرَ بِهِ، ودين جميع الناس من حيث أُمِرُوا به. ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ يحتمل أن يكون من كلام أهل الجنة، ويكون ابتداءُ كلام الله تعالىٰ من قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾، ويحتمل أن يكون الكلام من أوله من كلام الله عزَّ وجلَّ، ومعنى قوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا﴾ أي بالإعراض والاستهزاء لمن يدعوهم إلى الإسلام، ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: خدعتهم بزخرفها واعتقادهم أنها الغاية القصوى، ويحتمل أن يكون اللفظ من الغرِّ وهو ملْءُ الفم[2]. أي: أشبعتهم وأبطرتهم.

وأما قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ فهو من إخبار الله عزَّ وجلَّ عما يفعل بهم، والنسيان في هذه الآية هو بمعنى الترك، أي نتركهم في العذاب كما تركوا النظر للقاءِ هذا اليوم، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة من المفسرين. قال قتادة: نسوا من الخير ولم ينسوا من الشر، وإن قدر النسيان بمعنى الذهول من الكفرة فهو في جهة ذكر الله تسمية العقوبة باسم الذنب. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانُواْ﴾ عطف على ﴿ما﴾ من قوله: ﴿كَمَا نَسُواْ﴾، ويحتمل أن تقدر [مَا] الثانية زائدة، ويكون قوله تعالىٰ: ﴿كَانُواْ﴾ عطفاً على قوله: ﴿نَسُواْ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ الآية، ذكر الإعذار إليهم إثر ذكر ما يفعل بهم، واللام في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ﴾ لام قَسَم، والضمير في ﴿جِئْنَاهُمْ﴾ لمن تقدم ذكره، وقال يحيىٰ بن سلام: تمَّ الكلام في ﴿يَجْحَدُونَ﴾، وهذا الضمير لمكذبي

---

(١) لفظه في «الجامع الصغير»: «أفضل الصدقة سقي الماء»، رواه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود، والنسائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه ـ ورمز له الإمام السيوطي بالصحة.

(٢) يقال: غرَّ الطائرُ فرخَه غَرّاً وغِراراً: أطعمه بمنقاره. (المعجم الوسيط).

محمد ﷺ ابتداءُ كلام آخر، والمراد بالكتاب القرآن العزيز.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يكون اسم جنس في جميع الكتب المنزَّلة على تأويل من يرى الضمير في ﴿جِئْنَاهُم﴾ لمن تقدم ذكره. وقرأَ جمهور الناس: ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ من تفصيل الآيات وتبيينِها، وقرأَ ابن محيصن: [فَضَّلْنَاهُ] بضادٍ منقوطة. و﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ معناه: عن بصيرة واستحقاق لذلك. وقوله تعالىٰ: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ مصدران في موضع الحال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿يَنظُرُونَ﴾ معناه: ينتظرون، والتأويل ـ في هذا الموضع ـ بمعنى المآل والعاقبة، قاله قتادة، ومجاهد، وغيرهما. وقال ابن عباس: ﴿تَأْوِيلَهُ﴾: مآله يوم القيامة. وقال السدي: ذلك في الدنيا وقعة بدر وغيرها ويوم القيامة أَيضاً، والمراد: هل ينتظر هؤلاءِ الكفار إلا مآل الحال في هذا الدين وما دعوا إِليه وما صدوهم عنه، وهم يعتقدون مآله جميلاً لهم، فأَخبر الله أن مآله يوم يأْتي يقع منه ندمهم، ويقولون تأَسفاً على ما فاتهم من الإِيمان: لقد صدقت الرسل وجاؤُوا بالحق، فالتأْويل ـ على هذا ـ مأَخوذ من آل يؤول. وقال الخطابي: أَوَّلت الشيءَ: رددتُه إِلى أَوله، فاللفظة مأْخوذة من الأَول، حكاه النقاش.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد قيل: أَوَّلت معناه: طلبت أَوّل الوجوه والمعاني.

و﴿نَسُوهُ﴾ في الآية، يحسن أَن يكون النسيان من أَول الآية بمعنى الترك، ويُقِرون بالحق ويستفهمون عن وجوه الخلاص في وقت لامستعتب لهم فيه. وقرأَت فرقة: [أَوْنَردُّ] برفع الفعل على تقدير: أَو هل نرد، وبنصب ﴿فَنَعْمَلَ﴾ في جواب هذا

الاستفهام الأخير، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلُ] بالرفع فيهما على عطف [نَعْمَلُ]، وقرأ ابن أبي إسحق، وأبو حيوة: [أَو نُرَدَّ فنعملَ]، ونصب [نردّ] في هذه القراءَة إما على العطف على قوله ﴿فَيَشْفَعُواْ﴾، وإما بما حكاه الفراءُ من أنَّ ﴿أَوْ﴾ تكون بمعنىٰ (حتَّىٰ) كنحو قول امرىء القيس:

. . . . أَوْ نمــوتَ فَنُعْــذَرَا[1]

ويجيءُ المعنىٰ: إن الشفاعة تكون في أَن يُردُّوا. ثم أَخبر تعالىٰ عن خسارتهم أَنفسهم واضمحلال افترائهم على الله وكذبهم في جعل الأَصنام آلهة.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الآية. خطاب عام يقتضي التوحيد والحجة عليه بدلائله، والرَّب أَصله في اللغة: المصلح من ربَّ يرُبُّ، وهو يجمع في جهة ذكر الله تبارك وتعالىٰ المالك والسَّيد وغير ذلك من استعمالات العرب، ولا يقال: الرَّبّ مُعَرَّفاً إلا لله، وإنما يقال في البشر بإضافة. وروىٰ بكار بن الشقير: [إِنَّ رَبَّكُمَ اللهَ] بنصب الهاءِ. وقوله تعالىٰ: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ حكى الطبري عن مجاهد أَنَّ اليوم كأَلف سنة، وهذا كله والساعة اليسيرة سواءٌ في قدرة الله تعالىٰ، وأَما وجه الحكمة في ذلك فمما انفرد اللهُ عزَّ وجلَّ بعلمه كسائر أَحوال الشرائع، وما ذهب إليه مَنْ أراد أَن يوجه هذا كالمهدوي وغيره تَخَرُّصٌ. وجاءَ في التفسير وفي الأَحاديث أَن اللهَ ابتدأَ الخلق يوم الأَحد، وكملت المخلوقات يوم الجمعة، ثم بقي دون خلق يوم السبت، ومن ذلك اختارته اليهود لراحتها، وعلى هذا توالت تفاسير الطبري وغيره، ولليهود لعنهم الله تبارك وتعالىٰ في هذا كلام سوءٍ تعالىٰ الله عما يصفون[2].

---

(١) قصة الرحلة التي قام بها امرؤ القيس لاسترداد الملك والأَخذ بالثأر من قتلة أبيه معروفة، وقد رحل إلى قيصر ملك الروم للاستعانة به، وفي تصويره لهذا يقول:

بكَىٰ صاحبي لمَّا رأى الـدَّرْبَ دونَـهُ ... وأَيْقَـنَ أَنَّـا لاحقَـانِ بقَيْصَـرا
فقُلْـتُ لـهُ لا تَبْـكِ عَيْنُـكَ إِنَّمَـا ... نحـاول مُلْكـاً أَوْ نَمُـوتَ فَنُعْـذَرَا

والفراءُ يرى أن (أَوْ) في قوله: «أو نموت فنعذرا» بمعنىٰ: «حَتَّىٰ». وصاحبه هو عمرو بن قُمَيْئَة اليَشْكُري.

(٢) كلام ابن عطية هذا يوحي بأنه يحمل اليهود مسؤولية هذه الأَقاصيص والأخبار التي تنتشر في التفاسير عن موضوع راحة الله يوم السبت مثلاً، وأنَّه لا يطمئن إلى هذه الأخبار.

ووقع حديث في كتاب مسلم بن الحجاج[١]، وفي كتاب «الدلائل» لثابت السرقسطي[٢] أن الله تعالىٰ خلق التربة يوم السبت، وذكره مكي في الهداية.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ معناه عند أَبي المعالي وغيره من حذاق المتكلمين: الملك والسلطان، وخصَّ العرش بالذكر تشريفاً له إِذ هو أَعظم المخلوقات، وقال سفيان الثوري: فَعَل فعلاً في العرش سماه استواءً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والعرش مخلوق معيَّن، جسم مّا، هذا الذي قررته الشريعة، وبلغني عن أَبي الفضل بن النحوي أَنه قال: العرش: مصدر عَرَش يعرش عرشاً، والمراد بقوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ هذا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا خروجٌ كبيرٌ عما فُهم من العرش في غير ما حديث عن النبي ﷺ. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: ﴿يُغْشِى﴾ من أَغشىٰ، وقرأَ عاصم في رواية أَبي بكر، وحمزة، والكسائي: [يُغَشِّي] بالتشديد من غشَّىٰ وهما طريقتان في تعدية غشىٰ إِلى مفعول ثان، وقرأَ حميد: [يَغْشَى] بفتح الياءِ والشين ونصب ﴿ٱلَّيْلَ﴾ ورفع ﴿ٱلنَّهَارَ﴾، كذا قال أَبو الفتح، وقال أَبو عمرو الداني برفع [اللَّيْل] ونصب ﴿ٱلنَّهَارَ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَبو الفتح أَثبت[٣].

---

(١) هو الإمام الأَشهر مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري، الحافظ، المحدث، أشهر كتبه «صحيح مسلم» وهو أحد الصحيحيْن اللذيْن أجمعت الأمة عليها، وقد شرحه كثيرون، وله غيره «المسند الكبير»، و«الجامع» و«الطبقات» و«أوهام المحدثين» وغيرها، ولد في نيسابور وتوفي ودفن بها بعد أن طاف في البلاد العربية، والحديث الذي يشير إليه القرطبي رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة، والنسائي من غير وجه عن حجاج عن أبي جريج، وهو بطوله في «تفسير ابن كثير» ولكن فيه استيعاب الأَيام السبعة، والله تعالىٰ قد قال: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أَبي هريرة عن كعب الأحبار ليس مرفوعاً، والله أعلم.

(٢) هو ثابت بن حزم بن عبد الرحمن بن مطرِّف السرقسطي، من حفاظ الحديث، أكمل كتاب «الدلائل» الذي كان ابنه القاسم قد بدأه، وهو في شرح ما أغفله أبو عبيد وابن قتيبة من غريب الحديث، توفي في سرقسطة وله من العمر نحو ٩٥ عاماً. (تذكرة الحفاظ ـ الأعلام).

(٣) علّق أبو حيان في «البحر المحيط» على رأي ابن عطية هذا بقوله: «وهذا الذي قاله من أن أبا الفتح أثبت=

و﴿حَثِيثًا﴾ معناه: سريعاً، و﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ حال من ﴿ٱلَّيْلَ﴾ بحسب اللفظ على قراءَة الجماعة، ومن ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ بحسب المعنىٰ، وأَما على قراءَة حميد فمن ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ في الوجهين، ويحتمل أَن يكون حالاً منهما[١]، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾[٢]، فيصح أَن يكون [تَحْمِلُهُ] حالاً منها، وأَن يكون حالاً منه، وأَن يكون حالاً منهما، و﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ في موضع الحال، وقرأَ ابن عامر وحده من السبعة: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ بالرفع في جميعها، ونصب الباقون هذه الحروف كلها، وقرأَ أَبان بن تغلب: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ بالنصب، ﴿والنجومُ مسخرات﴾ بالرفع.

و﴿أَلَا﴾ استفتاح كلام فاستفتح بها في هذا الموضع. هذا الخبر الصادق المرشد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَخذ المفسرون ﴿ٱلْخَلْقُ﴾ بمعنى المخلوقات، أَي: هي له كلها وملكه واختراعه، وأَخذوا ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ مصدراً من أَمَرَ يأْمُر، وعلى هذا قال النقاش وغيره: إِنَّ الآية تردُّ على القائلين بخلق القرآن لأَنه فرق فيها بين المخلوقات وبين الأَمر، إِذ ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ كلامه عزَّ وجلَّ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن تؤخذ لفظة ﴿ٱلْخَلْقُ﴾ على المصدر من خَلق يخلُق خلقاً، أَي: له هذه الصفة إِذ هو الموجد للأَشياءِ بعد العدم، ويؤخذ ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ على أَنه واحد الأُمور إِلاَّ أَنه يدل على الجنسين فيكون بمنزلة قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾[٣]، وبمنزلة

= كلاماً لا يصح، إِذ رتبة أَبي عمرو الداني في القراءات ومعرفتها وضبط رواياته واختصاصه بذلك بالمكان الذي لا يدانيه أحد من أئمة القراءات فضلاً عن النحاة. هذا مع الديانة الزائدة والتثبت في النقل وعدم التجاسر ووفور الحظ من العربية، والذي نقله أَبو عمرو عن حميد أمكن من حيث المعنىٰ» ثم دلل على ذلك.

(١) يعني من (الليل) ومن (النهار) معاً.

(٢) من الآية (٢٧) من سورة (مريم).

(٣) من الآية (١٢٣) من سورة (هود).

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[(١)] ، فإِذا أُخذت اللفظتان هكذا خرجتا عن مسألة الكلام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولما تقدم في الآية ﴿خَلَقَ﴾ و﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ تأَكد في آخرها أَن له الخلق والأَمر المصدرين حسب تقدمهما ، وكيفما تأَولت الآية فالجميع لله ، وأَسند الطبري إِلى النبي ﷺ أَنه قال: «من زعم أَن الله تبارك وتعالىٰ جعل لأَحد من العباد شيئاً من الأَمر فقد كفر بما أَنزل الله لقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾»[(٢)]. قال النقاش: ذكر الله الإِنسان في القرآن في ثمانية عشر موضعاً في جميعها أَنه مخلوق ، وذكر القرآن في أَربعة وخمسين موضعاً ليس في واحد منها إِشارة إِلى أَنه مخلوق. وقال الشعبي: ﴿ٱلْخَلْقُ﴾ عبارة عن الدنيا ، و﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ عبارة عن الآخرة. و﴿تَبَارَكَ﴾ لا يتصرف في كلام العرب ، لا يقال منه (يتبارك) ، وهذا منصوص عليه لأَهل اللسان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلة ذلك أَن (تبارك) لمّا يوصف بها غير الله تعالىٰ لم تقتض مستقبلاً ، إِذ الله قد تبارك في الأَزل ، وقد غلط بها أَبو علي القالي فقيل له: كيف المستقبل من (تبارك)؟ فقال: (يتبارك) ، فوقف على أَن العرب لم تقله. والربُّ: السَّيِّد المصلح ، و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمع عالَم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

هذا أَمر بالدعاءِ وتعبُّد به ، ثم قرن عزَّ وجلَّ بالأَمْر به صفات تَحْسُن معه[(٣)].

---

(١) تكررت في الآيات (٢١٠) من سورة البقرة. والآية (١٠٩) من سورة (آل عمران) ، والآية (٤٤) من سورة (الأنفال) ، والآية (٧٦) من سورة (الحج) ، الآية (٤) من سورة (فاطر) ، والآية (٥) من سورة (الحديد).

(٢) أخرجه ابن جرير عن عبد العزيز الشامي عن أبيه ـ وكانت له صحبة ـ وفي صدره زيادة ذكرها في (الدر المنثور) وهي أيضاً في تفسير ابن جرير ، وهي: (من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه قلّ شكره وحبط عمله. ومن زعم. . .) الخ. والحديث واهٍ.

(٣) وهي الخشوع والاستكانة والتَّضرُّع.

وقوله تعالىٰ: ﴿تَضَرُّعًا﴾ معناه: بخشوع واستكانة، والتَّضرُّع لفظة تقتضي الجهر لأَن التضرع إنما يكون بإشارات جوارح وهيئات أَعضاء تقترن بالطلب. ﴿وَخُفْيَةً﴾ يريد في النفس خاصة، وقد أَثنىٰ الله عزَّ وجلَّ على ذلك في قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾(١) ونحو هذا قول النبي ﷺ: «خَيْرُ الذِّكْر الخَفيُّ»(٢)، والشريعة مقررة أَن السرّ فيما لم يعترض من أَعمال البر أَعظم أَجراً من الجهر، وتأْول بعض العلماء التضرع والخفية في معنى السرّ جميعاً، فكأَن التضرع فعل للقلب، ذكر هذا المعنىٰ الحسن بن أَبي الحسن وقال: «لقد أَدركنا أَقواماً ما كان على الأَرض عملٌ يقدرون أَن يكون سرًّا فيكون جهراً أَبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاءِ فلا يُسمع لهم صوت، إنْ هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم، وذلك أَن الله تبارك وتعالىٰ يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وذكر عبداً صالحاً رضي بفعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾» وقال الزجاج: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ معناه: اعبدوا ربكم، ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أَي باستكانة واعتقاد ذلك في القلوب.

وقرأَ جميع السبعة: ﴿وَخُفْيَةً﴾ بضم الخاء، وقرأَ عاصم في رواية أَبي بكر ـ هنا وفي الأَنعام ـ: [وَخِفْيَةً] بكسرها، وهما لغتان، وقد قيل: إن خِفية بكسر الخاءِ بمعنى الخوف والرهبة، ويظهر ذلك من كلام أَبي علي. وقرأَت فرقة: [وخيفَةً] من الخوف، أَي: ادعوه باستكانة وخوف، ذكرها ابن سيده في المحكم ولم ينسبها، وقال أَبو حاتم: قرأَها الأَعمش فيما زعموا.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ يريد: في الدعاءِ إن كان اللفظ عاماً، فإلى هذا هي الإشارة، والاعتداءُ في الدعاءِ على وجوه، منها الجهر الكثير والصياح كما قال رسول الله ﷺ لقوم ـ وقد رفعوا أَصواتهم بالتكبير ـ «أَيها الناس، اربعوا على أَنفسكم، إنكم لا تدعون أَصمَّ ولا غائباً»(٣)، ومنها أَن يدعو الإنسان في أَن تكون له

---

(١) من الآية (٣) من سورة (مريم).

(٢) رواه في الجامع الصغير: (خَيْرُ الذكر الخفي، وخير الرزق ما يكفي)، وقال: «رواه الإمام أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي في شعب الإيمان». ورمز له الإمام السيوطي بالصحة.

(٣) الحديث في الصحيحين ـ عن أبي موسىٰ الأشعري. وفي آخره (إن الذي تدعون سميع قريب) ـ (ذكره ابن كثير).

منزلة نبي، أَو يدعو في محال ونحو هذا من الشطط، ومنها أَن يدعو طالباً معصية، وغير ذلك، وفي هذه الأَمثلة كفاية. وقرأ ابن أَبي عبلة: [إن الله لا يحب المعتدين]، والمعتدي هو مجاوز الحد ومرتكب الحظر، وقد يتفاضل بحسب ما اعتدى فيه، وروي عن النبي ﷺ أَنه قال: «سيكون أَقوام يعتدون في الدعاءِ، وحسب المرءِ أَن يقول: اللَّهم إِني أَسأَلك الجنة وما قرّب إِليها من قول وعمل، وأَعوذ بك من النار وما قرّب إِليها من قول وعمل»[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية. أَلفاظ عامة تتضمن كل إِفساد قلَّ أَو كثر بعد إِصلاح قلَّ أَو كثر. والقصد بالنهي هو على العموم، وتخصيص شيءٍ دون شيءٍ في هذا تحَكم إِلا أَن يقال على وجهة المثال. قال الضحاك: معناه: لا تُعَوِّرُوا[٢] الماءَ المعين، ولا تقطعوا الشجر المثمر ضرراً، وقد ورد قطع الدينار والدرهم من الفساد في الأَرض، وقد قيل: تجارة الحكام من الفساد في الأَرض، وقال بعض الناس: المراد: ولا تشركوا في الأَرض بعد أَن أَصلحها الله ببعثة الرسل وتقرير الشرائع ووضوح ملَّة محمد ﷺ، وقائل هذه المقالة قصد إِلى أَكبر فساد بعد أَعظم صلاح فخصه بالذكر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أَمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقب وتحزنٍ[٣] وتأْميل لله عزَّ وجلَّ حتى يكون الرجاء والخوف كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامة، وإِن انفرد أَحدهما هلك الإنسان، وقد قال كثير من العلماء: ينبغي أَن يغلب الخوف الرجاءَ طول الحياة فإِذا جاءَ الموت غلب الرجاء، وقد رأَى كثير من

---

(١) رواه الإِمام أحمد في مسنده، ورواه أبو داود ـ عن سعد، ورواه الإِمام أحمد وابن ماجة عن عبد الله بن مغفل ـ مع اختلاف يسير في الألفاظ، وفي رواية أحمد عن سعد أن سعداً سمع ابناً له يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها واستبرقها ونحواً من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها، فقال: لقد سألت الله خيراً كثيراً وتعوذت به من شر كثير، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (سيكون...) الخ الحديث. ذكر ذلك ابن كثير، ورمز له في الجامع الصغير بالصحة.

(٢) هو من قولهم: عورت عيونَ الماء إذا دفَنْتها وسَدَدتْها ـ قاله شمَّر كما في (اللسان). وقال أيضاً: «وفي حديث علي: أمره أن يُعَوِّرَ آبار بدر، أي يدفنها ويَطُمَّها». ويمكن أن يكون بالغين المعجمة من (أَغْوَرَ) بهمزة التعدية. (اللسان).

(٣) يقال: تحزَّن عليه وله بمعنى تَوجَّع. (المعجم الوسيط). وفي نسخة: «ترقب وتخوف وتأميل» ـ وهي عبارة القرطبي.

العلماءِ أَن يكون الخوف أَغلب على المرء بكثير، وهذا كله احتياط، ومنه تمني الحسن البصري أَن يكون الرجل الذي هو آخر من يدخل الجنة، وتمني سالم مولى أَبي حذيفة أَن يكون من أَصحاب الأَعراف لأَن مذهبه أَنهم مذنبون.

ثم آنس قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فإِنها آية وعْد فيها تقييد بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. واختلف الناس في وجه حذف التاءِ من ﴿قَرِيبٌ﴾ في صفة الرحمة على أَقوال ـ منها أَنه على جهة النسب، أَي: ذات قرب. ومنها أَنه لما كان تأْنيثها غير حقيقي جرت مجرىٰ: كفٌ خضيب، ولِحْيةٌ دهين. ومنها أَنها بمعنى مذكَّر فذُكرَ الوصفُ لذلك. واختلف أَهل هذا القول في تقدير المذكَّر الذي هو بدل منه ـ فقالت فرقة: الغفران والعفو. وقالت فرقة: المطر، وقيل غير ذلك. وقال الفراءُ: «لفظة القريب إِذا استعملت في النَّسب والقرابة فهي مع المؤنث بتاءٍ ولا بُدّ، وإِذا استعملت في قرب المسافة»[(١)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله: أَو الزمن[(٢)] ـ فقد تجيءُ مع المؤنث بتاءٍ، وقد تجيءُ بغير تاءٍ، وهذا منه، ومن هذا قول الشاعر:

عَشِيَّةَ لا عَفْرَاءَ مِنْكَ قَرِيبَةٌ فَتدنو ولا عَفْراءَ منْكَ بعيدُ[(٣)]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فجمع في هذا البيت بين الوجهين».

هذا قول الفراءِ في كتابه، وقد مرَّ في بعض كتب المفسِّرين مقَيَّداً[(٤)]، وردَّ الزجاج

---

(١) العبارة كما هي في المتن مبتورة، والصواب أن يقال «.... وإذا استعملت في قرب المسافة تذكر وتؤنث» انظر لسان العرب، مادة: ق. ر. ب.

(٢) يعني أن ابن عطية يضيف إلى كلام الفراء عن ﴿قَرِيبٌ﴾ إذا استعملت في قرب المسافة ـ يضيف أيضاً: قرب الزمن.

(٣) رواية اللسان (ولم ينسبه):

لَيَالِيَ لا عَفْراءُ منْكَ بعيدةٌ فَتَسْلَى، ولا عَفْرَاءُ منْكَ قَرَيبُ

ورأيُ الفراءِ هذا نقله الجوهري، وذكر غيره أنه استشهد أيضاً بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

وقيل أيضاً: هذا هو كلام العرب، قال امرؤ القيس:

لَـهُ الـوَيْـلُ أَمْسَى ولا أُمَّ هاشم قريبٌ ولا البَسْبَاسَةُ ابنَةُ يَشْكُرَا

(٤) كلمة (مقيَّداً) هنا قلقة، والصواب ما جاء في عبارة «البحر المحيط» (مُغَيَّرًا) بمعنى أنه مرَّ في بعض التفاسير مُغَيَّراً.

على هذا القول[١]. وقال أبو عبيدة: ﴿قَرِيبٌ﴾ في الآية ليس بصفة للرَّحمة، وإنما هو ظرف لها وموضع، فيجيءُ هكذا في المؤنث والاثنين والجمع، وكذلك (بعيد)، فإذا جعلوها صفة بمعنى (مُقرَّبة) قالوا: قريبة وقريبتان وقريبات[٢]. وذكر الطبري أن قوله تعالىٰ: ﴿قَرِيبٌ﴾ إنما يراد به مقاربة الأرواح للأجساد، أي: عند ذلك تنالهم الرحمة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

هذه آية اعتبار واستدلال، وقرأ نافع، وأبو عمرو ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع [نُشُراً] بضم النون والشين، قال أبو حاتم: وهي قراءَة الحسن، وأبي عبد الرحمن، وأبي رجاءٍ. واختلف عنهم الأعرج، وأبو جعفر، وعيسى بن عمر، وأبو يحيىٰ، وأبو نوفل الأعرابيين. وقرأ ابن كثير: [الرّيحَ] واحدة [نُشُرا] بضمهما أيضاً. وقرأ ابن عامر: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ جمعاً [نُشْراً] بضم النون وسكون الشين، قال أبو حاتم: ورويت عن الحسن، وأبي عبد الرحمن، وأبي رجاءٍ، وقتادة، وأبي عمرو. وقرأ حمزة، والكسائي: [الريحَ] واحدة [نَشْراً] بفتح النون وسكون الشين، قال أبو حاتم: وهي قراءَة ابن مسعود، وابن عباس، وزرُّ بن حبيش، وابن وثاب، وإبراهيم، وطلحة، والأعمش، ومسروق بن الأجدع. وقرأ ابن جني قراءَة مسروق: [نَشَراً] بفتح النون والشين. وقرأ عاصم: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ جماعة ﴿بُشْرًا﴾ بالباءِ المضمومة والشين الساكنة، وروي عنه: [بُشُراً] بضم الباءِ والشين، وقرأ بها ابن عباس، والسلمي، وابن أبي

---

(١) قال الزجاج ردّاً على الفراءِ: هذا خطأ، لأن سبيل المذكر والمؤنث أن يجريا على أفعالهما. «عن القرطبي والبحر»، ونلاحظ أن الزجاج لم يذكر حجة وإنّما يريد إجراءَ القاعدة على أصولها. وقال الأخفش: يجوز أن يذكر كما يذكر بعض المؤنث، وأنشد:

فلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَهَا ... ولا أرض أبْقَلَ إبْقَالَهَا

(٢) قال علي بن سليمان: وهذا خطأ، ولو كان كما قال لكان ﴿قَرِيبٌ﴾ منصوباً. ورد عليه أبو حيان في «البحر» بأنه يكمن الاتساع في الظرف.

عبلة. وقرأ محمد بن السميفع، وأبو قُطَيب: [بُشْرَىٰ] على وزن فُعْلَىٰ بضم الباءِ، ورويت عن أبي يحيىٰ: وابن نوفل. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: [بَشْراً] بفتح الباءِ وسكون الشين. قال الزهراوي: ورويت هذه عن عاصم.

ومن جمع الريح في هذه الآية فهو أسعد، وذلك أن (الرياح) حيث وقعت في القرآن فهي مقترنة بالرحمة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾[1]، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾[3]، وأكثر ذكر (الريح) مفرده إنما هو بقرينة عذاب كقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾[4] وقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[5]، وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[6] نحا هذا المنحىٰ يحيى بن يَعْمر، وأبو عمرو بن العلاءِ، وعاصم. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ كان إذا هبت الرِّيح يقول: «اللَّهُمَّ اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»[7].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمعنى في هذا كله بيِّن، وذلك أن ريح السُّقْيا والمطر إنما هي منتشرة ليِّنة تجيءُ من ها هنا ومن ها هنا وتتفرق، فيحسن من حيث هي منفصلة الأجزاء متغايرة المهب يسيراً أن يقال لها: رياح، وتوصف بالكثرة، وأمَّا ريح الصرِّ والعذاب فهي عاصفة صَرْصَر جسد واحد، شديدة المَرّ، مُهْلِكَة بقوتها وبما تحمله أحياناً من الصرّ المحرق، فيَحْسُنُ من حيث هي شديدة الاتصال أن تُسمى ريحاً مفردة، وكذلك

---

(١) من الآية (٤٦) من سورة (الروم).
(٢) من الآية (٢٢) من سورة (الحِجْر).
(٣) من الآية (٤٨) من سورة (الروم).
(٤) الآية (٤١) من سورة (الذَّاريات).
(٥) الآية (٦) من سورة (الحاقة).
(٦) من الآية (٢٤ ـ ٢٥) من سورة (الأحقاف).
(٧) قارن هذا بما رواه الإمام أحمد عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الريح فإنها من روح الله تبارك وتعالىٰ: وسَلُوا الله خيرها وخير ما فيها وخير ما أُرسلت به، وتعوذوا بالله من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به»، لتعلم أن الفكرة ليست قاعدة، وإنما لكل حديث أسبابه وظروفه. والحديث الذي ذكره ابن عطية ضعيف.

أُفردت الريح في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾(١) من حيث جري السفن إنما تجري بريح متصلة كأنها شيءٌ واحد فأُفردت لذلك، ووصفت بالطيب لإزالة الاشتراك بينها وبين الريح المكروهة، وكذلك ريحُ سليمان عليه السلام إنما كانت تجري بأَمره أَو تعصف في قفوله وهي متصلة(٢). وبعد، فمن قرأَ هذه الآية: [الرِّيحَ] بالإفراد فإنما يريد به اسم الجنس، وأَيضاً فتقييدها بـ ﴿بُشْرًا﴾ يزيل الاشتراك.

والإرسال في الريح هو بمعنىٰ الإجراءِ والإطلاق والإسالة، ومنه الحديث: (فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة)(٣). والريح تجمع في القليل: أَرواح، وفي الكثير: رياح، لأَن العين من الريح واو انقلبت في الواحد ياءً للكسر الذي قبلها، وكذلك في الجمع الكثير، وصحت في القليل لأَنه لا شيءَ فيه يوجب الإعلال.

وأَما [نُشُراً] بضم النون والشين فيحتمل أَن يكون جمع ناشر على النسب، أَي ذات نشر من الطي، أَو نشور من الحياة، ويحتمل [نُشُراً] أن يكون جمع نشور بفتح النون وضم الشين كرسول ورُسل، وصبور وصُبر، وشكور وشُكر، ويحتمل [نُشُراً] أَن يكون كالمفعول بمعنى منشور، كركوب بمعنى مركوب، ويحتمل أَن يكون من أَبنية اسم الفاعل لأَنها تنشر السحاب، وأَما مثال الأَول في قولنا: ناشر ونُشُر فشاهد وشُهُد ونازل ونُزُل، كما قال الشاعر:

. . . . أَوْ تَنْـزِلُـونَ فَـإِنَّـا مَعْشَـرٌ نُـزُلُ(٤)

---

(١) من الآية (٢٢) من سورة (يونس).

(٢) ريح سليمان عليه السلام هي التي قال الله تعالىٰ فيها في الآية (٣٦) من سورة (ص): ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، وإذاً فلكل تعبير دواعيه.

(٣) الحديث رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، ورواه الإمام أحمد في أماكن كثيرة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه كما جاء في مسند الإمام أحمد (١ ـ ٢٨٨): (كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقى جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، قال: فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة).

(٤) البيت للأعشىٰ من قصيدته المشهورة التي بدأها بقوله:
وَدِّعْ هُـرَيْـرَةَ إِنَّ الـرَّكْـبَ مُـرتَحِـلُ وَهَـلْ تُطِيـقُ وَداعـاً أَيُّهَـا الـرَّجُـلُ؟
وهو بتمامه:
=

وَقَاتِلٌ وقُتْلٌ، ومنه قول الأعشى:

. . . . إِنَّـا لِأَمثـالِكُـمْ يـاقَـوْمَنَـا قُتـل(١)

وأَمَّا من قرأَ: [نُشْراً] بضم النون وسكون الشين فإنما خفف الشين من قوله: نُشُراً، ومن قرَأَ: [نَشْراً] بفتح النون وسكون الشين فهو مصدر في موضع الحال من الريح، ويحتمل في المعنى أن يراد به النشر الذي هو خلاف الطيّ، وكل بقاءِ الريح بدون هبوب طيّ، ويحتمل أَن يكون من النَّشْر الذي هو الإِحياءُ كما قال الأعشي:

. . . . يَـا عَجَبَـا لِلْمَيِّـتِ النَّـاشِـرِ(٢)

وأَما من قرأَ: [نَشَراً] بفتح النون والشين ـ وهي قراءَة شاذة ـ فهو اسمٌ وهو على النسب، قال أَبو الفتح: أَي ذوات نَشَر، والنَّشَر: أَن تنتشر الغنم بالليل فترعىٰ، فشبه السحاب في انتشاره وعمومه بذلك.

وأَمَّا: [بُشُراً] بضم الباءِ والشين فجمع بشير، كَنَذِير ونُذُر، و﴿ بُشْرًا ﴾ بسكون الشين مخفف منه، و[بَشْراً] بفتح الباءِ وسكون الشين مصدر، و[بُشْري] مصدرٌ أَيضاً في موضع الحال. والرحمة في هذه الآية: المطر، و﴿ بَيْنَ يَدَىْ ﴾ أَي أَمام رحمته وقُدّامها، وهي هنا استعارة، وهي حقيقة فيما بين يدي الإِنسان من الأَجرام.

و﴿ أَقَلَّتْ ﴾ معناه: رفعت من الأَرض واسْتَقَلَّت بها، ومنه القِلَّة، وكأَن المُقِلَّ يرى ما يرفع قليلاً إِذا قدر عليه، و﴿ ثِقَالًا ﴾ معناه: من الماءِ، والعرب تصف السحاب بالثِّقل والدَّلْح، ومنه قوله قيس بن الخطيم:

بِـأَحْسَـنَ مِنْهَـا وَلا مُـزْنَـة دَلُـوح تكَشَّـفُ أَدْجَـانُهَـا(٣)

= قـالـوا الـركُـوبَ فَقُلْنَـا تِلْـكَ عَـادتُنَـا أَوْ تَنْـزِلُـونَ فَـإِنَّـا مَعْشَـرٌ نُـزُلُ

(١) البيت من نفس القصيدة التي منها الشاهد السابق، وهو بتمامه:

كَـلا، زَعَمْتُـمْ بِـأَنَّـا لا نُقَـاتِلُكُـمْ إِنَّـا لأَمْثَـالِكُـمْ يَـا قَـوْمَنَـا قُتُـلُ

(٢) هذا عجر بيت وصدره:

حَتَّـى يَقُـولُ النَّـاسُ مِمَّـا رَأَوا . . . .

وهو من قصيدة للأَعشى يهجو بها علقمة بن علاثة ويمدح ابن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما.

(٣) يقال: دَلَح دلْحاً إِذا مشى بِحِمْله غير منبسط الخطو لِثِقَله، وَدَلَحَت السحابة إِذا أبطات في مسيرها من كثرة الماء، وفي الحديث: (كان النساءُ يدْلَحْنَ بالقِرَب على ظهورهن في الغزو)، فمعنى قوله: مُزْنة دَلُوح أي: مثقلة بالماءِ لكثرته فيها، والأَدْجَان: جمع دجْن، وهو أن يلبس الغيمُ الأَرض وأَقطارَ=

والرِّيح تسوق السحاب من ورائها فهو سوق حقيقة ، والضمير في ﴿ سُقْنَٰهُ ﴾ عائد على السحاب ، واستند الفعل إلى ضمير اسم الله تعالىٰ من حيث هو إنعام . وصفة البلد بالموت استعارة بسبب شعثه وجدوبته وتصويح نباته. وقرأ أَبو عمرو ، وعاصم ، والأَعمش: [لِبَلَدٍ مَيْتٍ] بسكون الياءِ ، وشدها الباقون. والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ ﴾ يحتمل أَن يعود على السحاب أَي منه ، ويحتمل أَن يعود على البلد ، ويحتمل أَن يعود على الماءِ وهو أَظهرها.

وقال السدي: في تفسير هذه الآية: إن الله تعالىٰ يرسل الرياح فتأْتي بالسحاب من بين الخافقين طرف السماءِ والأَرض حيث يلتقيان فتخْرجه من ثَمَّ ، ثُمَّ تنشره فتبسطه في السماءِ ، ثم تفتح أَبواب السماءِ فيسيل الماءُ على السحاب ، ثم تمطر السحاب بعد ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التفصيل لم يثبت عن النبي ﷺ.

وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ يحتمل مقصدين: أَحدهما أَن يراد: كهذه القدرة العظيمة في إنزال الماءِ وإِخراج الثمرات به من الأَرض المجدبة هي القدرة على إِحياءِ الموتى من الأَجداث ، وهذا مثالٌ لها. ويحتمل أَن يراد أَن هكذا يصنع بالأَموات من نزول المطر عليهم حتى يَحْيَوْا به ، فيكون الكلام خبراً لا مثلاً ، وهذا التأْويل إنما يستند إِلى الحديث الذي ذكره الطبري عن أَبي هريرة رضي الله عنه (أَن الناس إِذا ماتوا في النفخة الأُولى مُطِر عليهم مَطَرٌ من ماءٍ تحت العرش يقال له: ماءُ الحيوان ـ أَربعين سنة ، فينبتون كما ينبت الزرع ، فإذا كملت أجسادهم نفخ فيهم الروح ، ثم تلقىٰ عليهم نومة فينامون ، فإذا نفخ في الصور ثانية قاموا وهم يجدون طعم النوم ، فيقولون: ﴿ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾؟ فيناديهم المنادي: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[1].

= السماءِ. وقَيْسُ بنُ الخطيم شاعر مُكثر مُجيد حسن الديباجة ، وهو أشعر أهل المدينة في الجاهلية ، عرض عليه الرسول ﷺ الإسلام فلم يسلم وأسلمت امرأته حواءُ بنت يزيد ، وأغراض شعره الفخر والحماسة والغزل وشيءٌ من الوصف فيه صور بدوية وصور حضرية. وقد قتل قيس بن الخطيم كما حكىٰ ذلك صاحب الأغاني: (٣ ـ ١٠). وكان مقتله قبل الهجرة.

(١) هذا الحديث رواه ابن جرير عن أَبي هريرة ، ولكن أكثر المفسرين نقلوا قول ابن عباس رضي الله عنهما=

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾ آية مُتَمِّمَة للمعنى الأول في الآية قبلها، مُعرِّفة بعادة الله تبارك وتعالىٰ في إنبات الأَرضين، فمن أراد أَن يجعلها مثالاً لقلب المؤمن وقلب الكافر فذلك كله مرتب، لكن أَلفاظ الآية لا تقتضي أَن المثال قصد به ذلك، والتمثيل بذلك حكاه الطبري عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي. وقال النحاس: هو مثال للفهيم وللبليد. والطيِّب هو الجيِّد التراب الكريم الأَرض، وخص بإذن ربِّه مدحاً وتشريفاً، وهذا كما تقول لمن تغض عنه: «أَنت كما شاءَ الله»، فهي عبارة تعطي مبالغة في مدح أَو ذم، ومن هذا قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1] على بعض التأْويلات. والخبيث هو السباخ ونحوها من رديءِ الأَرض. وقرأَ ابن أَبي عبلة، وأَبو حيوة، وعيسى بن عمر: [يُخْرِجُ نَبَاتَهُ] بضم الياءِ وكسر الراءِ ونصب التاءِ. والنَّكِدُ: العسير القليل، ومنه قول الشاعر:

لا تُنْجِـزُ الـوَعْـدَ إِنْ وعَـدْتَ وإِنْ ... أَعْطَيْـتَ أَعْطَيْـتَ تَـافِهـاً نَكِـداً[2]

ونكد الرجل إِذا سأَل إِلحافاً وأَخجل، ومنه قول الشاعر:

وأَعْـــطِ مـــا أَعْطَيْتَـــهُ طَيِّبـــا ... لا خَيْـرَ فـي المنْكُـودِ والنَّـاكِـد[3]

وقرأَ جمهور الناس وجميع السبعة: ﴿نَكِدًا﴾ بفتح النون وكسر الكاف، وقرأَ طلحة بن مصرف: [نَكْدا] بتخفيف الكاف وفتح النون، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع:

= في الآية وهو: «هذا مثل ضَرَبَه الله للمؤمن والكافر» وَرَوَوا في ذلك الحديث الذي رواه البخاري ومسلم والنسائي عن أَبي موسىٰ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (مثل ما بعثني الله به من العلم والهُدى كمثل الغيث الكثير أَصاب أَرضاً فكانت منها نقية قبلت الماءَ فأَنبتت الكلأَ والعشْب الكثير، وكانت منها أَجادب أَمسكت الماءَ فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأَصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فَعَلِم وعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأْساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به). والآية رقم (٥٢) من سورة (يس).

(١) من الآية (٢٧٥) من سورة (البقرة).

(٢) النَّكِد: العطاءُ القليل، ونكِد عيشهم بكسر الكاف ينكد نكداً: اشتد، نكد الرجل: قلَّل العطاءَ أو لم يعط البتة. (اللسان).

(٣) البيت في اللسان غير منسوب ـ قال: والنُّكد والنَّكد (بضم النون وفتحها): قلَّة العطاءِ وأَن لا يهنأه من يُعطاهُ، ونَكَدَه مما سأَله يَنْكُده نكدا: لم يُعْطه منه إلا أَقَلَّهُ، أنشد ابن الأَعرابي:

مِـنَ البيـض تُـرغينا سُقَـاط حَـديثِهَـا ... وَتَنْكُـدُنَـا لَهْـوَ الْحَـديـثِ المُمَنَّـع

تُرْغينا: تُعطينا منه ما ليس بصريح.

[نَكَداً] بفتح النون والكاف، وقال الزجاج: وهي قراءَة أهل المدينة.

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: هكذا نبين الأمور. و﴿يَشْكُرُونَ﴾ معناه: يؤمنون بآلاء الله ويثْنون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

اللام لام القسم، قال الطبري: أَقسم الله تبارك وتعالىٰ أنه أَرسل نوحاً. وقالت فرقة مِنَ المفسرين: سمِّي نوحاً لأَنه كان ينوح على نفسه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

قال سيبويه: نوح ولوط وهود أَسماءٌ أَعجمية إِلا أَنها حقيقة فلذلك صرفت. وهذهِ نِذَارة من نوح لقومه، دعاهم إِلى عبادة الله وحده ورفض آلهتهم المسماة: وَدّاً وسواعاً ويغوث ويعوق وغيرها مما لم يشتهر. وقرأَ الكسائي وحده [غيْرِه] بالكسر من الراءِ على النعت لـ[إِلَهٍ]، وهي قراءَة يحيى بن وثاب، والأَعمش، وأَبي جعفر، وقرأَ الباقون: [غيْرُهُ] بالرفع، وقرأَ حمزة والكسائي: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾(1) خفضاً، وقرأَ الباقون: [غَيْرُ اللهِ] رفعاً، والرفع في قراءَة الجماعة هنا على البدل من قوله من [إِلَهٍ]، لأَن موضع قوله: مِنْ ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ رفع، وهو الذي رجح الفارسيُّ. ويجوز أَن يكون نعتاً على الموضع لأَن التقدير: مالكم إِله غيره، أَو يقدر (غيْر) بـ(إِلاَّ) فيعرب بإِعراب ما يقع بعد (إِلاَّ)، وقرأَ عيسى بن عمر: [غيرَه] بنصب الراءِ على الاستثناءِ قال أَبو حاتم: وذلك ضعيف من أَجل النفي المتقدم. وقوله تعالىٰ: ﴿عَذَابَ﴾ يحتمل أَن يريد به عذاب الدنيا، ويحتمل أَن يريد به عذاب الآخرة.

---

(1) من الآية (٣) من سورة (فاطر).

و﴿ ٱلْمَلَأُ ﴾ الجماعة الشريفة، قال الطبري: لا امرأة فيهم، وحكاه النقاش عن ثعلب في: الملأ، والرَّهْط، والنَّفَر، والقوم. وقيل: هم مأخوذون من أنهم يملؤون النفس والعين، ويحتمل أن يكون من أنهم إذا تمالؤوا على أمْر تمَّ، وقال سلَمة بن سلامة بن وقش الأنصاري عند قفول رسول الله ﷺ من غزوة بدر: «إنما قتلنا عجائز صُلْعاً»، فقال له النبي ﷺ: «أولئك المَلأُ من قريش لو حَضرتَ أفعالهم لاحتقرت فِعْلَك»[(١)]. والمَلأُ، صفة غالبة وجمعه أملاءٌ، وليس من باب (رهْط) وإن كانا اسمين للجمع، لأن (رهْط) لا واحد له من لفظه، و(ملأ) يوجد من لفظه (مالىء). قال أحمد بن يحيىٰ: المالىء: الرجل الجليل الذي يملأُ العيْن بِجُهْرَتِه[(٢)]، فيجيءُ كعازب وخادم ورائح فإن أسماءَ جموعها: عَزَبٌ وخَدَمٌ ورَوَحٌ، وإن كانت اللفظة من «تَمَالأَ القوم على كذا» فهي مفارقة باب (رهْط)، ومنه قول علي رضي الله عنه: «ما قتلت عثمان ولا مالأتُ في دمه»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (المَلؤُ) بواو، وكذلك هي في مصاحف الشام. وقولهم: ﴿ لَنَرَىٰكَ ﴾ يحتمل أن يُجعل من رؤْية البصر، ويحتمل من رؤْية القلب وهو الأظهر، و﴿ فِى ضَلَٰلٍ ﴾ أي في إتلاف وجهالة بما تسلك. وقوله لهم جواباً عن هذا: ﴿ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ ﴾ مبالغة في حُسْن الأدب والإعراض عن الجفاءِ منهم، وتَناوُلٌ رفيق وسَعَة صدر حسبما يقتضيه خلق النُّبُوَّة، وقوله: ﴿ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ ﴾ تعرض لمن يريد النظر والبحث والتأمل في المعجزة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ونُقَدِّر ـ ولابدَّ ـ أن نوحاً عليه السلام وكل نبي مبعوث إلى الخلق كانت له معجزة تخرج العادة، فمنهم من عرفنا بمعجزته ومنهم من لم يُعرف.

وقرأ السبعة سوى أبي عمرو: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ ﴾ بشد اللام وفتح الباءِ، وقرأ أبو عمرو بسكون الباءِ وتخفيف اللام. وقوله: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وإن كان لفظاً عاماً في كل مَا عَلِمَه فالمقصود منه هنا المعلومات المخوفات عليهم، لا سيما وهم لم يسمعوا قَطُّ بأُمة عذبت، فاللفظ مضمن الوعيد.

---

(١) الحديث لا إسناد له.

(٢) من قولهم: جَهَرَ الشيءُ فلاناً: عظم في عينه وراعَه جمالُه وهيئتُه، وفي حديث علي رضي الله عنه في صفته ﷺ: (لم يكن قصيراً ولا طويلاً، وهو إلى الطول أقرب، من رآه جَهَرَهُ). «المعجم الوسيط».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

هذه ألف استفهام دخلت على الواو العاطفة، والاستفهام هنا بمعنىٰ التقرير والتوبيخ، وعجبهم الذي وقع إنما كان على جهة الاستبعاد والاستمحال، وهذا هو الظاهر من قصتهم، وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ﴾ قيل: هي بمعنىٰ (مع)، وقيل: هو على حذف مضاف تقديره: على لسان رجل منكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يكون المجيءُ بنفسه في هذا الموضع يصل بـ (عَلَى) إذ كل ما يأْتي من الله تبارك وتعالىٰ فله حكم النزول، فكأَن ﴿جَآءَكُمْ﴾ معناه: نزل، فحسُن معه أَن يقال: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾، واللام في ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ لام كي، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ ترجٍّ بحسب حال نوح ومعتقده، لأَن هذا الخبر إنما هو من تلقاءِ نوح عليه السلام.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ الآية. أَخبر الله عنهم أَنهم بعد تَلَطُّفه بهم كذبوه فأَنجاه الله والمؤمنين به في السفينة، وهي الفُلْك، والفُلْكُ للجمع والمفرد، وليس على حد جُنُب ونحوه، لكن[1] فُلْك للواحد كُسِّر علىٰ فُلْك للجميع، فضمةُ الفاءِ في الواحد ليست هي في الجمع، وفُعْل بناءُ تكسير مثل: أَسَد وأُسد، ويدل على ذلك قولهم في التثنية: فُلْكَان[2].

وفي التفسير: إن الذين كانوا مع نوح في السفينة أَربعون رجلاً، وقيل: ثمانون، وقيل: عشرة، فهم أَولاده: يافث وسام وحام، وفي كثير من كتب الحديث للترمذي

---

(١) لعلَّ الصواب (لأَن) بدلاً من (لكِن) فتأمل المعنىٰ.

(٢) جاء في (اللسان): «الفُلك بالضم: السفينة تذكر وتؤنث وتقع على الواحد والاثنين والجمع، فإن شئت جعلته من باب جُنُب، وإن شئت من باب دِلاصٍ وهِجانٍ، وهذا الوجه الأَخير هو مذهب سيبويه أَعني أَن تكون ضمة الفاءِ من الواحد بمنزلة ضمة باءِ بُرْد وخاءِ خُرْج، وضمة الفاءِ في الجمع بمنزلة ضمة حاءِ حُمْر وصاد صُفْر جمع أحمر وأَصفر»، ثم نقل عن الجوهري قوله: و«إنَّ فُعْلاً وفَعَلاً يشتركان في الشيء الواحد مثل العُرْب والعَرَب والعُجْم والعَجَم، ثم جاز أَن يجمع فَعَل على فُعْل أَسَد وأُسْد، ولم يمتنع أَن يُجْمع فُعْل على فُعْل».

وغيره: «إن جميع الخلق الآن من ذرية نوح عليه السلام»، وقال الزهري في كتاب النقاش: وفي القرآن: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فيحتمل أن يكون سائر العشرة أو الأربعين ـ حسب الخلاف ـ حَفَدة لنوح ومن ذريته فتجتمع الآية والحديث، ويحتمل أن من كان في السفينة غير بنيه لم ينسل ـ وقد روي ذلك ـ وإلاّ لكان بين الحديث والآية تعارض.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يقتضي أن نوحاً عليه السلام كانت له آيات ومعجزات، وقوله: ﴿عَمِينَ﴾ وزنه فعين وهو جمع عَم وزنه فَعٍ، ويريد عمى البصائر، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نوحاً عليه السلام بعث ابن أربعين سنة، قال ابن الكلبي: بعد آدم بثمانمائة سنة، وجاءَ بتحريم البنات والأخوات والأمهات والخالات والعمات وقال وهب بن مُنَبِّه: بعث نوح وهو ابن أربعمائة سنة، وقيل: بعث ابن ثلاثمائة سنة، وقيل: ابن خمسين سنة، ورُوي أنه عمّر بعد الغرق ستّين سنة، وروي أن الطوفان كان سنة ألف وستمائة سنة من عمره ﷺ، أتى في حديث الشفاعة وغيره أن نوحاً أول نبي بعث إلى الناس، وأتى أيضاً أن إدريس قبل نوح ومن آبائه، وذلك يجتمع أن تكون بعثة نوح مشتهرة لإصلاح الناس وحملهم بالعذاب والإهلاك على الإيمان، فالمراد أنه أول نبي بعث على هذه الصفة.

قوله عزّ وجلّ:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿عَادٍ﴾ اسم الحيّ، و﴿أَخَاهُمْ﴾ نصب بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ فهو معطوف على (نوح). وهذه أيضاً نِذارةٌ من هود عليه السلام لقومه، وتقدم الخلاف في قراءَة ﴿غَيْرُهُ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ استعطاف إلى التقى والإيمان.

---

(١) من الآية (٣) من سورة (الإسراء).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ الآية تقدم القول في مثل هذه المقالة آنفاً، والسفاهة: مصدر عبّر به عن الحال المهلهلة الرقيقة التي لا ثبات لها ولا جودة، والسَّفَهُ في الثوب خِفَّة نسجه، ومنه قول الشاعر:

مَشَيْنَ كما اهْتَزَّتْ رِماحٌ تَسَفَّهَتْ ... أعاليها مرُّ الرِّياح النَّواسِم(١)

وقولهم: ﴿لَنَظُنُّكَ﴾ هو ظن على بابه لأنهم لم يكن عندهم إلا ظنون وتخرص، وتقدم الخلاف في قراءَة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿أَمِينٌ﴾ يحتمل أن يريد: على الوحي والذكر النازل من قِبَلِ الله عزَّ وجلَّ، ويحتمل أن يريد أنه أمين عليهم وعلى غيبهم وعلى إرادة الخير بهم، والعرب تقول: «فلانٌ لِفُلانٍ ناصح الجيب(٢) أمين الغيب»، ويحتمل أن يريد به: أمين من الأمن، أي: جهتي ذات أَمْن من الكذب والغِش.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

قد تقدم القول في مثل ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾. والذكر: لفظ عام للمواعظ والأوامر والنواهي. وقوله تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ﴾ الآية، تعديد للنعم عليهم. و﴿خُلَفَآءَ﴾ جمع خليف، كظريف وظرفاءَ، وخليفة جمعه خلائف، والعرب تقول: خليفة وخليف، وأنشد أبو علي:

فَإِنْ يَزُلْ زائِلٌ يُوجَدْ خليفَتُهُ ... وَمَا خَليفُ أَبِي وَهْبٍ بمَوْجود(٣)

---

(١) سبق لابن عطية رحمه الله أن استشهد بهذا البيت عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، وعند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا﴾. والبيت لذي الرمة، وأصل السفه: الخفة، وتسفَّهت الريح الغصون: حركتها واستخفتها.

(٢) يقال: ناصِحُ الجيْبِ بمعنى: نَقي القَلْبِ لا غِشَّ فيه (المعجم الوسيط).

(٣) البيت لأوس بن حجر، وقد أنشده أبو حاتم في مقام ما ذكره من أن خلائف تأتي على لفظ خليفة، وقالوا: إن فَعيلة (خَليفة) لا تجمع على فُعَلاء (خُلَفاء) فجمعها فَعَائل (خَلائف)، ولفظ البيت في اللسان:

إنَّ مِنَ الحَيِّ مَوْجُوداً خَلِيفَتُهُ ... وما خَليفُ أَبي وَهْبٍ بِمَوْجُودِ

قال السُّدي وابن إسحق: والمعنىٰ: جعلكم سكان الأَرض بعد قوم نوح.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ أي في الْخِلْقة، والْبَصْطة: الكمال في الطول والعرض، وقيل: زادكم على أَهل عصركم، قال الطبري: المعنى: زادكم على قوم نوح، وقاله قتادة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واللفظ يقتضي أَن الزيادة هي على جميع العالم، وهو الذي يقتضي ما يذكر عنهم، ورویٰ أَن طول الرجل منهم كان مائة ذراع، وطول أَقصرهم ستين، ونحو هذا.

والآلاءُ: جمع إِلى على مثال مِعًى، وأَنشد الزجاج:

أَبْيَضُ لا يَرْهَبُ الْهُزالَ ولا يَقْطَعِ رِحْماً ولا يَخُون إِلَىٰ[1]

وقيل: واحد الآلاءِ أَلْيٌ على مثال: قَفْيٌ، وقيل: واحدها: أَلَىٰ على مثال: حَسًا وهي النعمة والمِنَّةُ. و﴿تُفْلِحُونَ﴾ معناه: تدركون البُغية والآمال.

قال الطبري: وعادٌ هؤلاءِ فيما حدّث ابن إِسحق من ولد عاد ابن إِرم بن عَوص بن سام بن نوح، وكانت مساكنهم الشِّحْر[2] من أَرض اليمن وما إِلى حضرموت إِلى عُمان. وقال السُّدّي: وكانوا بالأَحقاف وهي الرمال، وكانت بلادهم أَخصب بلاد فردَّها الله صحارىٰ، وقال علي بن أَبي طالب: إِن قبر هود عليه السلام هنالك في كثيب أَحمر يخالطه مَدَرة ذاتُ أَراك وسِدْر[3]، وكانوا قد فشوا في جميع الأَرض، وملكوا كثيراً بقوتهم وعددهم وظلموا الناس، وكانوا ثلاث عشرة قبيلة، وكانوا أصحاب أَوثان منها ما يسمىٰ صداءُ، ومنها صمودا، ومنها الهبا[4]، فبعث الله إِليهم هوداً من

---

(١) البيت للأَعشى كما قال في (اللسان).، فيه: «الآلاءُ: النِّعَم واحدها الىّ بالفَتح، وإِلْيٌ وإِلىً، قال الجوهري: قد تكسر وتكتب بالياء مِعىً وأَمعاء». «وقال ابن سيده في هذا البيت: يجوز أَن يكون (إِلَى) هنا واحد آلاءِ». أهـ ـ عن اللسان ـ.

(٢) بكسر الشين المشددة وسكون الحاءِ: ساحل اليمن ممتداً إِلى حضرموت.

(٣) المَدَرَة بفتحات: واحدة الْمَدر وهو الطيِّن اللَّزج المتماسك ـ والأَراك واحدتُه أَراكة: نبات شجيريٌّ من الفصيلة الأَراكية كثير الفروع، خوّار العود، متقابل الأَوراق، له ثمار حمر دكناء تؤكل، ينبت في البلاد الحارة، والسِّدر: شجر النبق واحدته سِدْرة. عن (المعجم الوسيط).

(٤) هكذا في الأَصول، ولكن في القرطبي والبحر: الهياءُ بالياءِ وهمزة بعد الألف.

أَفضلهم وأَوسطهم نسباً فدعاهم إِلى توحيد الله وإِلى ترك الظلم. قال ابن إِسحق: لم يأمرهم فيما يذكر بغير ذلك فكذبوه وعَتَوا، واستمر ذلك منهم إلى أَن أَراد الله إِنفاذ أَمره، فأَمسك عنهم المطر ثلاث سنين فشقوا بذلك، وكان الناس في ذلك الزمان إذا هَمَّهم أَمْرٌ فزعوا إِلى المسجد الحرام بمكة فدعوا الله فيه تعظيماً له، مؤمنهم وكافرهم، وأَهل مكة يومئذ العماليق وسيدهم رجل يسمىٰ معاوية بن بكر، فاجتمعت عاد على أن تجهز منهم وفداً إِلى مكة يستسقون الله لهم، فبعثوا قَيْل بن عَيْر، ولقيم بن هزال، وعقيل بن أُدّ بن عاد الأكبر، ومرثد بن سعد بن عفير، وكان هذا مؤمناً يكتم إِيمانه، وجُلْهمة بن الخيبري؛ في سبعين رجلاً من قومهم، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً من الحرم، فأَنزلهم، وأَقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان ـ قينتان لمعاوية ـ فلما رأَى معاوية طول إِقامتهم، وقد بعثهم عادٌ للغوث؛ أَشفق على عادٍ، وكان ابن أُختهم كلهدة بنت الخيبري جُلْهمة، وقال هلك أَخوالي، وشقَّ عليه أَن يأمر أَضيافه بالانصراف عنه، فشكا ذلك إِلى القيْنَتيْن، فقالتا له: اصنع شعراً نغني به عسىٰ أن نُنَبِّهم، فقال:

أَلاَ يـا قَيْـلُ وَيْحَـكَ قُـمْ فَهَيْنِـمْ ... لَعَــلَّ اللهَ يُسْقِينَــا غمــامَــا
فَيَسْقِــي أَرْضَ عــاد إِنَّ عَــاداً ... قَـدَ أمْسُـوا لا يُبِينـونَ الكـلامَـا
مِـنَ الْعَطَـشِ الشَّـدِيدِ فَلَيْس نَـرْجُو ... بِـهِ الشَّيْـخَ الكَبِيـرَ ولا الغُـلامَـا
وقَــدْ كَــانَــتْ نِسَــاؤُهُـمُ بِخَيْـرٍ ... فَقَـدْ أَمْسَـتْ نِسَـاؤُهُـم عيـامَـىٰ
وَإِنَّ الْـوَحْـشَ يَـأْتِيهِـمْ جِهَـاراً ... ولا يَخْشَـى لِعَــادِيٍّ سهَــامَــا
وَأَنْتُـمْ هـا هُنَـا فيمـا اشْتَهَيْتُـمْ ... نَهَــارُكُـمُ ولَيْلُكُـم التَّمَـامَـا
فَقُبِّـحَ وفْـدُكُـمْ مَـن وفْـدِ قَـوْم ... ولا لُقُّـوا التَّحِيَّـةَ والسَّـلامَـا[1]

فغنَّت به الجرادتان، فلما سمعه القوم قال بعضهم: يا قوم إِنما بعثكم قومكم لما حلَّ بهم فادخلوا هذا الحرم وادعوا لعلَّ الله يغيثهم، فخرجوا لذلك، فقال لهم

---

(١) هذه الأَبيات مذكورة في كتاب «عرائس المجالس» المشهور بقصص الأَنبياء، للمفسر أبي إِسحق أحمد ابن محمد بن إِبراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ ـ وكذلك مذكورة في تفسير الطبري كما ذكر ابن عطية، وعلى غير عادته ذكرها لكنه أوجز فيها هي والقصة مع ما ذكره في آخرها؛ مما يوحي بأنه يشك فيها.

مرثد بن سعد: إنكم والله ما تُسقون بدعائكم، ولكنكم إن أطعتم نبيكم وآمنتم به سقيتم، وأظهر إيمانه يومئذ فخالفه الوفد، وقالوا لمعاوية بن بكر وأبيه بكر: احبسا عنَّا مرثدا، ولا يدخل معنا الحرم، فإنه قد اتَّبع هوداً. ومضوا إلى مكة فاستسقى قَيْل بن عير وقال: يا إلٰهنا إن كان هود صالحاً فاسقنا فإنا قد هلكنا، فأنشأ الله سحائب ثلاثاً: بيضاءَ وحمراءَ وسوداءَ، ثم ناداه منادٍ من السحاب: يا قَيْلُ اختر لنفسك وقومك من هذا السحاب، فقال قَيْل: قد اخترت السوداءَ فإنها أكثرها ماءً، فنودي: اخترت رماداً رِمْدَدَا[1]، لا تبقي من عادٍ أحداً، لا والداً ولا ولداً، إلاَّ جعلتهم هُمَّدَا. وساق الله تعالىٰ السحابة السوداءَ التي اختارها قَيْل إلىٰ عادٍ حتى خرجت عليهم من وادٍ لهم يقال له: المغيث، فلما رأَوْها قالوا: هذا عارضٌ مُمْطرنا، حتى عرفَت أَنها ريحٌ امرأَةٌ من عادٍ يقال لها: مَهْدَد، فصاحت وصعقت، فلما أَفاقت قيل لها: ما رأَيت؟ قالت: رأَيت ريحاً كشهب النار أَمامها رجال يقودونها، فسَّخرها الله عليهم ثمانية أَيام حسوماً وسبع ليال، والحسوم: الدائمة، فلم تدع من عادٍ أحداً إلا هلك، فاعتزل هود ومن معه في حظيرة، ما يصيبه من الريح إلاَّ ما يلتذ به.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قصص وقع في تفسير الطبري مطولاً، وفيه اختلاف، فاقتضبت عيون ذلك بحسب الإيجاز. وفي خبرهم أَن الريح كانت تدمغهم بالحجارة وترفع الظعينة[2] عليها المرأَة حتى تلقيها في البحر، وفي خبرهم أَن أَقوياءَهم كان أَحدهم يسُدّ بنفسه مهبّ الريح حتى تغلبه فتلقيه في البحر، فيقوم آخر مكانه، حتى هلك الجميع. وقال زيد بن أَسلم: بلغني أَن ضبعاً ربت أَولادها في حِجَاج[3] عين رجل منهم. وفي خبرهم أَن الله بعث ـ لما هلكت عاد ـ طيراً، وقيل: أُسْداً، فنقلت جيفهم حتى طرحتهم في البحر، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾[4]. وفي بعض ما روي من شأْنهم أَن الريح لم تبعث قط إلا بمكيال، إلا يومئذ، فإنها تمت على الخزنة فغلبتهم، فذلك قوله

---

(١) الرماد الرِّمْدَدُ: المتناهي في الاحتراق والدقة. (النهاية) ـ لابن الأثير.

(٢) الظَّعينةُ: الراحلة يرتحل عليها، والهودج ـ (المعجم الوسيط).

(٣) الحِجَاج (بفتح الحاءِ وكسرها) عظم الحاجب، وجمعه: أَحجَّة (المعجم الوسيط).

(٤) من الآية (٢٥) من سورة (الأحقاف): ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

تبارك وتعالىٰ: ﴿فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[١]، ورُوي أن هوداً لما هلكت عاد نزل بمن آمن معه إلى مكة فكانوا بها حتى ماتوا، فالله أعلم أيّ ذلك كان.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا﴾ الآية، ظاهر قولهم وحده أنّهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم ويفردوا العبادة لله مع إقرارهم بالإله الخالق المبدع، ويحتمل أن يكونوا منكرين لله ويكون قولهم: ﴿لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ أي على قولك يا هود. والتأويل الأول أظهر فيهم وفي عبّاد الأوثان كلهم، ولا يجحد ربوبية الله تعالى من الكفرة إلا من أفرطت غباوته كإربد بن ربيعة، وإلا من ادعاها لنفسه كفرعون ونمرود، وقولهم: ﴿فَأْتِنَا﴾ تصميم على التكذيب، واحتقار لأمر النبوة، واستعجال للعقوبة، وتمكن قولهم: ﴿تَعِدُنَآ﴾ لما كان هذا الوعد مصرَّحاً به في الشر، ولو كان ذكر الوعد مطلقاً لما يَجيءُ إلاّ في خير.

قوله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

أَعلمهم بأَن القضاءَ قد نفذ، وحلَّ عليهم الرجز وهو السخط والعذاب، يقال: رجسٌ ورجزٌ بمعنى واحد، قاله أبو عمرو بن العلاءِ، وقال الشاعر:

إِذَا سَنَــةٌ كـانــتْ بنَجْــدٍ مُحِيطَــةً ... فكـانَ علَيْهِـمْ رِجْسُهَـا وعَـذابُهَـا[٢]

وقد يأتي الرجس أيضاً بمعنى النَّتَن والقَذر، ويقال في الرجيع: رِجْسٌ وركْزٌ، وهذا الرجس هو المستعار للمحرمات، أي ينبغي أن يجتنب كما يجتنب النتن،

---

(١) من الآية (٦) من سورة (الحاقة): ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾.

(٢) السَّنَة: الجدب والقحط، وتكون أيضاً الأرض المجدبة، وأصلها: سنهَةٌ كَجبْهَة حذفت لامها بعد نقل فتحتها إلى العين، والجمع: سنوات وسنون، ولم نعثر على نسبة هذا البيت فيما لدينا من المراجع.

ونحوه في المعنى قول النبي ﷺ في خبر جَهْجاه الغِفَاري وسنان بن وبرة الأنصاريّ[(١)] حين دعَوَا بدعوى الجاهلية: «دَعُوهَا فإنها مُنْتِنة»[(٢)].

وقوله: ﴿أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ إنما يريد أنهم يخاصمونه في أن تُسمى آلهة، فالجدل إنما وقع في التسميات لا في المُسَمَّيَات، لكنه ورد في القرآن: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ﴾[(٣)] فهنا لا يريد إلا ذوات الأصنام، فالاسم يراد به المسمَّى نفسه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن رأى أن الجدل في هذه الآية إنما وقع في أنفس الأصنام وعبادتها تأول هذا التأويل. والاسم يَرِدُ في كلام العرب بمعنى التسمية، وهذا بابه الذي استعمله به النحويّون، وقد يُرادُ به المسمَّى ويدل عليه ما قاربه من القول، من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[(٤)] على أن هذا يُتأول، ومنه قول لبيد:

إِلىٰ الْحَوْلِ ثمَّ اسْمُ السَّلام عَلَيْكُمَا . . . .[(٥)]

على تأويلات في البيت، وقد مضت المسألة في صدر الكتاب. والسلطان:

---

(١) جَهْجَاه بن سعيد ـ وقيل ابن قيس ـ الغفاري، شهد بيعة الرضوان بالحديبية. وسِنَانُ بن وَبْر الأنصاري قال عنه الواقدي: «شهد غزوة المريسيع» ـ روى الشيخان من حديث جابر: كنَّا في غزاة بني المصطلق فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار... الحديث في نزول قوله تعالىٰ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾. ذكر ابن عبد البر أن المهاجري هو جَهْجَاه، وأن الأنصاري هو سنان. وأن جهجاه هذا مات بعد عثمان بسنة ـ ذكره ابن السَّكَن.

(٢) هذا جزء من حديث رواه الشيخان، وسببه هو ما ذكرناه في الهامش السابق.

(٣) من الآية (٤٠) من سورة (يوسف).

(٤) الآية (١) من سورة (الأعلىٰ).

(٥) البيت هو آخر أبيات قالها لبيد يخاطب ابنتيه حين حضرته الوفاة، وأول هذه الأبيات:

تَمَنَّى ابْنَتَايَ أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُمَا ... وَهَلْ أَنَا إلا مِنْ رَبِيعَةَ أَوْ مُضَرْ

إلى أن يقول:

فَقُومَا فَقُولا بِالَّذي قَدْ عَلِمْتُمَا ... ولا تَخْمِشَا وَجْهاً ولا تحلقَا شَعَرْ

وقُولا هُوَ الْمَرْءُ الَّذي لا خَلِيلَهُ ... أَضَاعَ، ولا خَانَ الصَّدِيقَ ولا غَدَرْ

إلى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلام عَلَيْكُمَا ... ومن يَبْكِ حَوْلا كاملا فَقَدَ اعْتَذَرْ

وقد قيل: لفظة اسم تعد مُقحمة هنا، وقيل: السلام هو الله. وقيل: اسم هنا يراد به المسَمَّىٰ، والتعليقات على البيت كثيرة أوردها صاحب الخزانة.

البرهان، وقوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ الآية وعيد وتهديد.

والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ عائد على هود، أي أخرجه الله تعالىٰ سالماً ناجياً مع من اتَّبعه من المؤمنين برحمة الله وفضله، وخرج هود ومن آمن معه حتى نزلوا مكة فأقاموا بها حتى ماتوا. ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ﴾ استعارة تستعمل فيمن يُستأصل بالهلاك، والدابر: الذي يدبر القوم ويأتي خلفهم، فإذا انتهى القطع والاستئصال إلى ذلك لم يبق أحد، وقوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ دالٌّ على المعجزة وإن لم تتعين لها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ الآية، هو ثمود بن غاثن بن إرم بن سام بن نوح أخو جديس بن غاثن[1]. وقرأ يحيى بن وثاب: [وَإِلَى ثَمُودٍ] بكسر الدال وتنوينه في جميع القرآن، وصرْفه علىٰ اسم الحيّ، وترك صرفه على اسم القبيلة. قاله الزجاج، وقال الله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾[2]. فالمعنىٰ: وأرسَلْنَا إلى ثمود أخاهم فهو عطف على نوح، والأخوة هنا أُخوة القرابة. وقال الزجاج: يحتمل أن تكون أُخوة الآدمية وسمّي أخاهم لما بعث إليهم وهم قوم عرب، وهود وصالح عربيان، وكذلك إسماعيل وشعيب، كذا قال النقاش، وفي أمر إسماعيل عليه السلام نظر. وصالح عليه السلام هو صالح بن عبيد بن عامر بن إرم بن سام بن نوح، كذا ذكر مكي، وقال وهب: بعثه الله حين راهق الحلم، ولما هلك قومه ارتحل بمن آمن معه إلى مكة فأقاموا بها حتى ماتوا، فقبورهم بين دار الندوة والحجر.

وقوله: ﴿بَيِّنَةٌ﴾ صفة حذف الموصوف وأُقيمت مقامه، قال سيبويه: وذلك قبيح في النكرة أن تحذف وتقام صفتها مقامها، لكن إذا كانت الصفة كثيرة الاستعمال مشتهرة وهي المقصود في الأخبار والأُمم زال القبح، كما تقول: «جاءَني عبد لبني فلان» وأنت تريد: «جاءَني رجل عبد»، لأن عبداً صفة، فكذلك قوله هنا ﴿بَيِّنَةٌ﴾، المعنىٰ: آية أو حجة أو موعظة بيِّنة. وقال بعض الناس: إن صالحاً جاءَ بالناقة من تلقاءِ نفسه، وقالت فرقة وهي الجمهور: بل كانت مقترحة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا أليق بما ورد في الآثار من أمرهم، ورُوي أن بعضهم قال: يا صالح إن كنت

---

(١) في الطبري «عابر» بدلاً من «غاثن».
(٢) من الآية (٦٨) من سورة (هود).

صادقاً فادْعُ ربّك يخرج لنا من هذه الهضبة ـ وفي بعض الروايات: من هذه الصخرة ، لصخرة بالحجر يقال لها الكاثبة ـ ناقةً عُشَرَاءَ[1] قال: فدعا الله فتمخضت تلك الهضبة وتنفضت وانشقت عن ناقة عظيمة. وروي أنها كانت حاملاً فولدت سَقْبها المشهور[2]، ورُوي أنه خرج معها فصيلها من الصخرة ، ورُوِي أن جملاً من جمال ثمود ضربها فولدت فصيلها المشهور ، وقيل «ناقة الله» تشريفاً لها وتخصيصاً ، وهي إضافة خلق إلى خالق. وقال الزجاج: وقيل: إنها ناقة من سائر النوق وجعل الله لها شرباً يوماً ولهم شرب يوم. وكانت الآية في شربها وحلبها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه اللهُ:

وحكىٰ النقاش عن الحسن أنه قال: هي ناقة اعترضها من إبلهم ولم تكن تحلب ، والذي عليه الناس أقوى وأَصح من هذا. قال المفسرون وكان حلفاً عظيماً ، تأْتي إلى الماءِ بين جبلين فيزحمانها من العَظْمِ ، وقاسمت ثمود في الماءِ يوماً بيوم. فكانت ترِدُ يومها فتستوفي ماءَ بئر همشرياً ويحلبونها ما شاؤُوا من لبن ، ثم تمكث يوماً وترد بعد ذلك غبّاً ، فاستمر ذلك ما شاءَ اللهُ حتى ملَّتها ثمود وقالوا: ما نصنع باللبن؟ الماءُ أَحب إلينا منه ، وكان سبب الملل فيما رُوي أَنها كانت تصيف في بطن الوادي ، وادي الحجْر ، وتشتو في ظاهره ، فكانت مواشيهم تفر منها فتَصِيفُ في ظهر الوادي للقيظ وتشْتو في باطنه للزمهرير ، وفسدت لذلك ، فتمالؤوا على قتل الناقة ، فقال لهم صالح مرّة: إن هذا الشهر يولد فيه مولود يكون هلاكُكُم على يديه فولد لعشرة نفر أَولاد فذبح تسعة أَولادهم وبقي العاشر وهو سالف أَبو قدار ، فنشأَ قدار أَحمر أَزرق ، فكان التسعة إذا رأوه قالوا: لو عاش بنونا كانوا مثل هذا ، فأَحفظهم أَن قتلوا أَولادهم بكلام صالح ، فأَجمعوا على قتله ، فخرجوا وكمنوا في غار لِيُبيِّتُوه منه ، وتقاسموا ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ ﴾[3] فسقط الغار عليهم فماتوا فهم الرهط التسعة الذين ذكر الله في كتابه[4] ، وهم: قدار بن سالف ، ومصدّع بن مهرّج ضمّا إلى

(١) عشَراء: بضم العين وفتح الشين ، وجمعها: عشارٌ ـ ومثلها نُفَساء. قال في المصباح: ولا ثالث لهما.
(٢) السَّقب (بفتح وسكون) ولد الناقة الذكر ساعة يولد.
(٣) من الآية (٤٩) من سورة (النمل).
(٤) أي في الآية الكريمة رقم (٤٨) من سورة (النّمل): ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾.

نفسيهما سبعة نفر وعزموا على عقر الناقة. وروي أَن السبب في ذلك أَن امرأَتين من ثمود من أَعداءِ صالح جعلتا لقدار ومصدّع أَنفسهما وأَموالهما على أَن يعقرا الناقة، وكانتا من أَهل الجمال، وقيل: إِن قدار شرب الخمر مع قوم فطلبوا ماءً يمزجون به الخمر فلم يجدوه لشرب الناقة فعزموا على عقرها حينئذ، فخرجوا وجلسوا على طريقها، وكمن لها قدار خلف الصخرة، فلما دنت رماها بالحربة فسقطت فنحرها، ثم اتبعوا الفصيل فهرب منهم حتى علا ربوة ورغا ثلاث مرات واستغاث فلحقوه وعقروه. وفي بعض الروايات أَنهم وجدوا الفصيل على رابية من الأَرض فأَرادوه فارتفعت به حتى لحقت به في السماءِ فلم يقدروا عليه، فرغا الفصيل مستغيثاً بالله تبارك وتعالىٰ، فأَوحى الله إلى صالح أَن مُرْهم ﴿فَلْيَتَمَتَّعُوا﴾ في دارهم ثلاثة أيام. وحكى النقاش عن الحسن أَنه قال: إِن الله تعالىٰ أَنطق الفصيل فنادى: أَين أُمي؟ فقال لهم صالح: إِن العذاب واقع بكم في الرابع من عقر هذه الناقة، وروي أَنها عقرت يوم الأَربعاءِ، وقال لهم صالح: تَحْمَرّ وجوهكم غداً وتَصفَر في الثاني وتَسْود في الثالث وينزل العذاب في الرابع يوم الأَحد، فلما ظهرت العلامة التي قيلت لهم أَيقنوا واستعدوا ولطخوا أَبدانهم بالمن، وحفروا القبور وتحنطوا فأَخذتهم الصيحة وخرج صالح ومن آمن معه حتى نزل رملة فلسطين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا القصص اقتضبته من كثير أَورده الطبري رحمه الله رغبة الإِيجاز.

وقال أَبو موسى الأَشعري: أَتيت بلاد ثمود فذرعت صدر الناقة فوجدته ستين ذراعاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبلاد ثمود هي بين الشام والمدينة، وهي التي مرَّ بها رسول الله ﷺ مع المسلمين في غزوة تبوك فقال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أَنفسهم إِلا أَن تكونوا باكين أَن يصيبكم مثل ما أَصابهم، ثم اعتجر بعمامته وأَسرع السير ﷺ»[1]، وروي أَن المسافة

(١) الحديث رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما، ولفظة كما في البخاري ـ في غزوة تبوك ـ: «قال: لمَّا مر النبي ﷺ بالحجْر قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أَصابهم إلا أن تكونوا باكين، ثم قنّع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي».

التي أهلكت الصيحة أَهْلَها هي ثمانية عشر ميلاً ، وهي: بلاد الحجْر ومراتعها الجناب وحسمى إلى وادي القرىٰ وما حوله. وقيل في قدار: إنه ولد زنى من رجل يقال له: ظبيان ، وولد على فراش سالف فنسب إليه ، ذكره قتادة وغيره. وذكر الطبري أن رسول الله ﷺ مرَّ بقبر فقال: «أتعرفون ما هذا؟ قالوا: لا ، قال: هذا قبر أَبي رُغال الذي هو أبو ثقيف ، كان من ثمود فأَصاب قومه البلاءُ وهو بالحرم فَسَلِمَ ، فلما خرج من الحرم أَصابه ما أَصابهم فدفن هنا وجعل معه غصن من ذهب» قال: فابتدر القوم بأَسيافهم فحفروا حتى أَخرجوا الغصن[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الخبر يؤيد ما في السير من أن أَبا رُغال هو دليل الفيل وحبيسه إلى مكة ، والله أعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾ معناه: مَكَّنكم ، وهي مستعملة في المكان وظروفه ، تقول: تبوأَ فلان منزلا حسناً ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[2] ، وقال الأعشىٰ:

فَمـا بَـوَّأَ الـرَّحْمٰـنُ بيْتَـكَ منْـزِلاً ... بشَـرْقـي أَجْيَـادِ الصَّفـا والمُحَـرَّمِ[3]

---

(١) رواه ابن جرير عن جابر بن عبد الله ، وأخرجه عبد الرزاق عن اسماعيل بن أمية ـ مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(٢) من الآية (١٢١) من سورة (آل عمران).

(٣) البيت من قصيدة يهجو بها الأعشىٰ عمير بن عبد الله بن المنذر حين جمع بينه وبين جهنام ليهاجيه ، ورواية الديوان:

وَمَـا جَعَـلَ الـرَّحمـنُ بَيْتَـكَ فـي العُـلا ... بـأَجْيَـاد غـربـي الصَّفَـا والمُحَـرَّمِ =

والقُصور: جمع قصْر، وهي الدور التي قصرت على بقاع من الأَرض مخصوصة بخلاف بيوت العمود، وقصرت عن الناس قصراً تاماً.

والنَّحت: النَّجْر والقشر في الشيءِ الصلب كالحجر والعود ونحوه. وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [وَتَنْحَتُونَ] بفتح الحاءِ، وقرأَ جمهور الناس بكسرها وبالتاءِ من فوق، وقرأَ ابن مصرف بالياءِ من أَسفل وكسر الحاءِ، وقرأَ أَبو مالك بالياءِ من أَسفل وفتح الحاءِ، وكانوا ينحتون الجبال لطول أَعمارهم.

و﴿تَعْثَوْا﴾ معناه: تفسدوا، يقال: عثا يعثي، وعثَا يَعْثُو، وعَثِيَ يَعْثى كَنِسيَ يَنْسَى وعليها لفظ الآية، وقرأَ الأَعمش: [تِعْثَوْا] بكسر التاءِ، و[مُفْسِدِينَ] حال.

وتقدم القول في [الْمَلأَ]، وقرأَ ابن عامر وحده في هذا الموضع: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ بواو عطف، وهي محذوفة عند الجميع. و﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا﴾ هم الأَشراف والعظماءُ الكفرة، و﴿ٱسْتَكْبَرُوا﴾ يحتمل أَن يكون معناه: طلبوا هيئة لنفوسهم من الكبر، أَو يكون بمعنىٰ كبِروا، كبّرهم المال والجاه وأَعظمهم، فيكون ـ على هذا ـ كبِر واستكبر بمعنى كعجب واستعجب. والأول هو باب استفعل كاستوقد واسترفد. والذين استضعفوا هم العامة والأَغفال في الدنيا، وهم أَتباع الرسل.

وقولهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾ استفهام على معنى الاستهزاءِ والاستخفاف، فأَجاب المؤمنون بالتصديق والصرامة في دين الله فحملت الأَنَفَةُ الأَشرافَ على مناقضة المؤمنين في مقالتهم واستمروا على كفرهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَعَقَرُوا ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿فَعَقَرُوا﴾ يقتضي ـ بتشريكهم جميعاً في الضمير ـ أَن عقر الناقة كان

= وفي اللسان والتاج:

ولا جَعَلَ الرحْمَنُ بيْتَكَ في الذُّرىٰ … بأَجْيَاد غربي الصَّفَا والمحَطَّم

قال القرطبي: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيه محذوف تقديره: وبوأكم في الأَرض منازل.

عل تمالؤ منهم وإصفاق[١] ، وكذلك روي أن قداراً لم يعقرها حتى كان يستشير الرجال والنساءَ والصبيان ، فلما أجمعوا تعاطى فَعَقَر[٢].

﴿وَعَتَوْا﴾ معناه: خشنوا وصلبوا ولم يذعنوا للأمر والشرع وصمموا على تكذيبه واستعجلوا النقمة بقولهم: ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ ، وحسُن الوعد في هذا الموضع لما تقيّد بأنه عذاب.

قال أبو حاتم: قرأ عيسى وعاصم: [إيتنا] بهمز وإشباع ضم ، وقرأ بتخفيف الهمزة كأنها ياءٌ في اللفظ أبو عمرو والأعمش.

و﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾ ما تُؤثره الصيحة أو الطامة التي يرجف بها الإنسان وهو أن يتزعزع ويتحرك ويضطرب ويرتعد ، ومنه قول خديجة رضي الله عنها: «فرجع بها رسول الله ﷺ» يرجف فؤاده[٣]. ومنه قول الأخطل:

إمَّا تَرَيْني حَنَاني الشَّيْبُ مِنْ كِبَرٍ ... كالنَّسْرِ أَرْجُفُ والإِنْسَانُ ممدود[٤]

ومنه إرجاف النفوس لكريه الأخبار أي تحريكها ، وروي أن صيحة ثمود كان فيها من كل شيءٍ هائل الصوت ، وكانت مفرطة شقت قلوبهم فجثموا على صدورهم ، والجاثم اللاطىء بالأرض على صدره مع قبض ساقيه كما يرقد الأرنب والطير ، فإن جثومها على وجهها ، ومنه قول جرير:

عَرَفْتُ المُنْتَأى وَعَرَفْتُ مِنْهَا ... مَطَايَا الْقِدْرِ كَالْحِدَأ الْجُثُوم[٥]

(١) الإصفاق مصدر من أصفق ، ومعناه: أجمع القوم على أمر واحد.

(٢) العَقْر: الجرح ، وعَقَرْتُ الفرس: إذا ضربْتَ قوائمه بالسيف ، ومنه قول امرىء القيس:

تقولُ وَقَدْ مَالَ الْغَبِيطُ بنَا معاً ... عَقَرْتَ بَعِيري يا امْرأَ الْقَيْسِ فانْزِلِ

(٣) هذا جزءٌ من حديث طويل في الصِّحاح من كتب السُّنة ـ ورواية البخاري عن عائشة رضي الله عنها لا تنسب هذه العبارة إلى خديجة رضي الله عنها كما قال ابن عطية رحمه الله ، بل تنسبها إلى من روى الحديث إذ يقول النَّصُّ في البخاري: (ثم أرسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زمِّلوني زمِّلوني فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروع). (البخاري ـ باب كيف كان بدء الوحي).

(٤) البيت من قصيدة له يمدح بها يزيد بن معاوية ، ومطلعها:

بَانَتْ سُعَادُ فَفي العَيْنَيْنِ تَسْهِيدُ ... وَاسْتَحْقَبَتْ لُبَّهُ فَالْقَلْبُ مَعْمُودُ

والرواية: (مهدود) بالهاءِ لا (ممدود) كما هي هنا ، ولعل ذلك من خطأ النساخ.

(٥) قال جرير هذا البيت في قصيدة يمدح بها هشام بن عبد الملك ، والمنتَأى: محفر النؤي ، ومطايا =

وقال بعض المفسرين: معناه: حَمَماً محترقين كالرماد الجاثم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وحيث وجد الرماد الجاثم في شعر فإنما هو مستعار لهيئة الرماد قبل هموده وتفرقه، وذهب صاحب هذا القول إلى أن الصيحة اقترن بها صواعق محترقة.

وأخبر الله عزَّ وجلَّ بفعل صالح في توليه عنهم وقت عقرهم الناقة وقولهم: ﴿ اَئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾، وذلك قبل نزول العذاب، وكذلك رُوي أنه عليه الصلاة والسلام خرج من بين أظهرهم قبل نزول العذاب، وهو الذي تقتضيه مخاطبته لهم، وأما لفظ الآية فيحتمل أنه خاطبهم وهم موتىٰ على جهة التفجُّع عليهم وذكر حالهم أو غير ذلك كما خاطب رسول الله ﷺ أهل قليب بدر، قال الطبري: وقيل: لم تهلِك أُمة ونبيُّها معها، ورُوي أنه ارتحل بمن معه حتى جاءَ مكة فأقام بها حتى مات، ولفظة (التَّوَلِّي) تقتضي اليأس من خيرهم واليقين في إهلاكهم.

وقوله: ﴿ لَا تُحِبُّونَ النَّٰصِحِينَ ﴾ عبارة عن تغليبهم الشهوات على الرأي، إذ كلام الناصح صعب مضاد لشهوة نفس الذي يُنصح، ولذلك تقول العرب: «أَمْرَ مُبكياتك لا أَمْرَ مضحكاتِك»[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝٨١ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٨٢ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٨٣ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٨٤ ﴾.

= القِدْر: الأثافي التي توضع القدر فوقها فتكون هي للقِدْر كالمطايا، والحِدَأ: جمع حِدَأة وهي طائر معروف بالخبث، وهو هنا يُشبِّه الأثافيَّ بالحداءِ السواقط على الأرض.

(١) أي: أطع أَمْرَ من يأمرك بالصلاح وإن أبكاك لثقله عليك، ولا تطع أمْر من يأمرك بالفساد وإن أضحكك لإعجابك به ـ يضرب في النهي عن اتباع الهوىٰ، وقيل: هو أنصح مثل قالته العرب، وأصله أن غلاماً قال: أتيتُ خالاتي فأضحكنني وأمرَحْنني، وأتيْتُ عمَّاتي فأبكَيْنني وأحزنَّني فقيل له ذلك، أي إن العمات أنصح.

(عن المستقصى في أمثال العرب ـ للزمخشري).

لوط عليه السلام بعثه الله إلى أُمة تسمَّى سذوم[١] وروي أنه ابن أخي إبراهيم عليه السلام، ونصبه إما: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ المتقدم في الأنبياءِ[٢]، وإما بفعل مضمر تقديره: «واذكر لوطاً»، واستفهامه لهم هو على جهة التوقيف والتوبيخ والتشنيع.

و﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ هنا: إتيان الرجال في الأدبار، وروي أنه لم تكن هذه المعصية في أُمم قبلهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإن كان لفظ الآية يقتضي هذا فقد كانت الآية تحتمل أن يراد بها: ما سبقكم إلى لزومها وتشهيرها، ورُوي أنهم كانوا يأتي بعضهم بعضاً، وروي أنهم إنما كانوا يأتون الغرباءَ، قاله الحسن البصري، قال عمرو بن دينار[٣]: ما نزا ذكر على ذكر قبل قوم لوط، وحكى النقاش: إن إبليس كان أَصل عملهم إذ دعاهم إلى نفسه، وقال بعض العلماء: عامل اللواط كالزاني، وقال مالك رحمه الله وغيره: يُرْجَم ـ أُحصن أَو لم يُحصن. وحرق أَبو بكر الصديق رضي الله عنه رجلاً يسمى الفجأة حين عمِلَ عَمَلَ قوم لوط.

وقرأ نافع، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿إِنَّكُمْ﴾ على الخبر كأَنه فسَّر الفاحشة، وقرأ ابن كثير، وأَبو عمرو، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر، وحمزة: [أَأَنَّكُمْ] باستفهام آخر، وهذا لأَن الأَول استفهام عن أَمر مُجمْل والثاني عن مفسَّر. إلا أَن حمزة وعاصماً قرأا بهمزتين ولم يهمز أَبو عمرو وابن كثير إلا واحدة[٤].

و﴿شَهْوَةً﴾ نصب على المصدر من قولك: شهيتُ الشيءَ شهاة، والمعنىٰ: تدعون

(١) بفتح السين وإعجام الذال، أما المثل وهو «قاضي سدوم» فبالإعجام والإهمال، وإن كان المشهور الإهمال.

(٢) يقصد الأنبياء الثلاثة الذين سبق الحديث عنهم، وهم نوح وهود وصالح عليهم السلام، وقد بدأ الكلام عنهم بقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾، فبقية أسمائهم معطوفة على (نوح).

(٣) هو عمرو بن دينار الجُمَحي بالولاءِ، أبو محمد الأثرم، فقيه، كان مفتي أهل مكة، فارسي الأصل، قال شُعبة: ما رأيت أثبت منه في الحديث، وقال النسائي: ثقة ثبْتٌ، واتهمه أهل المدينة بالتشيع والتحامل على الزبير، ونفَى الذهبي ذلك، قال ابن المديني: له خمسمائة حديث. (تهذيب التهذيب ـ الأعلام).

(٤) يعني الأولى مع تسهيل الثانية.

الغرض المقصود بالوطءِ وهو ابتغاءُ ما كتب الله من الولد وتنفردون بالشهوة فقط.

وقوله: ﴿ بَلْ أَنتُمْ ﴾ إضراب عن الإخبار عنهم أو تقريرهم على المعصية وترْكٌ لذلك، إلى الحُكْم عليهم بأنهم قد تجاوزوا الحدّ وارتكبوا الحظر، والإسراف: الزيادة المفسدة.

وقرأ الجمهور [جوابَ] بالنصب، وقرأ الحسن بن أبي الحسن [جوابُ] بالرفع، ولم تكن مراجعة قومه باحتجاج منهم ولا بمدافعة عقلية، وإنما كانت بكفر وصرامة وخذلان بحث في قولهم: ﴿ أَخْرِجُوهُم ﴾ وتعليلهم الإخراج بتطهير المخْرجين. والضمير عائد على لوط وقومه وإن كان لم يجر لهم ذكر فإن المعنى يقتضيهم. ورُوي أنه لم يكن معه غير ابنتيه، وعلى هذا عني في الضمير هو وابنتاه، و﴿ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ معناه: يَتَنَزَّهون عن حالنا وعادتنا. قال مجاهد: معناه: يتطهرون عن أدبار الرجال والنساءِ، قال قتادة: عابوهم بغير عيب وذمُّوهم بغير ذم، والخلاف في أهله حسبما تقدم.

واستثنىٰ الله امرأة لوط من الناجين، وأخبر أنها هلكت. والغابر: الباقي، هذا المشهور في اللغة، ومنه غُبَّرُ الحيض[1] كما قال أبو كبير الهذلي:

وَمُبَـرَّأً مـنْ كُـلِّ غُبَّـرِ حَيْضَـةٍ ... وفَسَـادِ مُـرْضِعَـةٍ وداءِ مُغْيِـلِ[2]

وغُبَّر اللبن في الضرع: بقيَّته، فقال بعض المفسرين: كانت من الغابرين في العذاب والعقاب، أي: مع الباقين ممن لم ينج، وقال أبو عبيدة معمر: ذكرها الله بأنها كانت ممَّن أسنَّ وبقي من عصره إلى عصر غيره فكانت غابرة إلى أن هلكت مع قومها.

---

(١) غُبَّر الحيض (بضم الغيْن وتشديد الباءِ المفتوحة): بقية دم الحيض، وضُبط بضم الغيْن وسكون الباءِ أيضاً.

(٢) أبو كبير الهذلي هو عامر بن الحُلَيْس، وقوله: «ومُبَرَّأ» معطوف على «مَغْشَم» في البيت السابق حيث يقول:

وَلَقَـدْ سَـرَيْـتُ عَلَـى الظَّـلام بِمَغْشَـم ... .

ومُغْيِل من قولهم: أغْيَلَتْ المرأةُ ولدها بمعنىٰ (غَالَتْه) فهي: مُغْيِلٌ وهو مُغْيَلٌ، والغيلة أن ترضع المرأة ولدها وهي حامل، أو أن يأتيها زوجها وهي مرضع. (راجع اللسان والمعجم الوسيط).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكأن قوله ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ اكتفي به في أنها لم تنج ثم ابتدأ وصفها بعد ذلك بصفة لا تتعلق بها النجاة ولا الهلكة، والأول أظهر. وقد يجيءُ (الغابر) بمعنى الماضي، وكذلك حكى أهل اللغة: غَبَرَ بمعن مضىٰ وبمعنى بقي وأما قول الأعشىٰ:

عَـضَّ بمـا أَبْقَـى الْمَـوَاسـي لَـهُ ... مِـنْ أُمِّـهِ فـي الـزَّمَـنِ الْغَـابِـرِ(١)

فالظاهر أنه أراد الماضي وذلك بالنسبة إلى وقت الهجاءِ. ويحتمل أن يريد: في الزمن الباقي وذلك بالنسبة إلى الحين الذي هو غابر بعد الإبقاءِ. ويحتمل أن يُعَلَّق «في الزمن» بـ (عَضَّ) فيكون الغابر: الباقي على الإطلاق، والأول أظهر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ الآية نص على إمطار، وتظاهرت الآيات في غير هذه السورة أنه بحجارة، ورُوي أن الله عزَّ وجلَّ بعث جبريل فاقتلعها بجناحيه وهي ست مدن، ـ وقيل: خمس، وقيل: أربع ـ فرفعها حتى سمع أهل السماءِ نهاق الحمير وصراخ الديكة، ثم عكسها وردّ أعلاها أسفلها وأرسلها إلى الأرض، وتبعتهم الحجارة مع هذا فأهلكت من كان منهم في سفر أو خارجاً عن البقع المرفوعة، وقالت امرأة لوط حين سمعت الرَّجَة: واقوماه، والتفتت فأصابتها صخرة فقتلتها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

قيل في ﴿مَدْيَنَ﴾ إنه اسم بلَد وقُطْر، وقيل: اسم قبيلة، وقيل: هم من ولد

(١) البيت من قصيدته التي يهجو بها علقمة بن علاثة، ويمدح عامر بن الطفيل والتي مطلعها:

شَـاقَتْـكَ مِـن قَتْلَـةَ أَطْـلالُهَـا ... بِـالشَّـطِّ فـالـوتـر إلـى حـاجـر

والمواسي: جمع موسىٰ (وهو المصنوع من الحديد وله شفرة حادة) والغابر: الماضي، يقول له: إنه سيهجوه هجاءً مرّاً حين يبلغه سيجعله يعَضُّ بَظر أُمه الذي أبقته المواسي عند عملية ختانها ـ ومعنى ذلك أن المهجو سيكون عاجزاً عن أن يفعل شيئاً بالهاجي له، ولا يملك إلا الندم والحسرة فيعض بظر أُمه.

مَدْيَن بن إبراهيم الخليل، وروي أن لوطاً عليه السلام هو جد شعيب لأُمه، وقال مكي: كان زوج بنت لوط. ومن رأى (مدين) اسم رجل لم يصرفه لأنه معرفة أعجمي، ومن رآه اسماً للقبيلة أو الأرض فهو أحرى ألا يصرف.

وقوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾ منصوب بقوله تعالىٰ: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ في أول القصص، وهذا يؤيد أن ﴿وَلُوطًا﴾ به انتصب، وأن اللفظ مستمر، وهذه الأخوة في القرابة، وقد تقدم القول في [غَيْرُهُ] و[غَيْرِه]، والبَيِّنَةُ إشارة إلىٰ معجزته وإن كنا نحن لم يُنَص لنا عليها. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [قد جاءَتكم آيةٌ مِن ربكم] مكان (بينة).

وقوله: ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ﴾ أمر لهم بالاستقامة في الإعطاء وهو بالمعنىٰ: في الأخذ والإعطاءِ، وكانت هذه المعصية قد فشت فيهم في ذلك الزمن وفحشت مع كفرهم الذي نالتهم الرجفة بسببه، و﴿تَبْخَسُواْ﴾ معناه: تظلموا، ومنه قولهم: «تحسبها حمقاءَ وهي باخس[1]» أي ظالمة خادعة. و﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾ يريد أموالهم وأمتعتهم مما يكالُ أو يوزن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ﴾ لفظ عام لدقيق الفساد وجليله، وكذلك الإصلاح عام، والمفسرون نصُّوا على أن الإشارة إلى الكفر بالفساد، وإلى النبوات والشرائع بالإصلاح. وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي نافع عند الله مُكْسِبٌ فوزَه ورضوانه بشرط الإيمان والتوحيد، وإلا فلا ينفع عمل دون إيمان.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ الآية. قال السدي. هذا نهي عن العشَّارين[2] والمتقبلين[3] ونحوه من أخذ أموال الناس بالباطل. والصراط: الطريق،

---

(١) المعنىٰ: تظن أنك تخدعها لحمقها فإذا هي تخدعك وتهضمك ـ يُضرب لِمَن يُظَنُّ به الغباوة هو فِطْنٌ واعٍ.

(٢) نصُّ العبارة في البحر: «قال السدي: هذا نهي العَشّارين والمُتَقَبِّلين ونحوه من أخذ أموال الناس بالباطل» ـ ومعنى ذلك أن كلمة (عن) زائدة من النُّسَّاخ. وأما العشَّارون فهو من قولهم: عَشَرْتُ مالَه أَعشُره فأنا عاشر، وعشَّرته فأنا مُعَشِّر وعشَّار ـ إذا أخذت عُشْرَهُ» فالعاشر أو المعشّر من يأخذ العُشر على ما كان يأخُذُه أهل الجاهلية مقيماً على دينه فاقتلوه، لكفره، أو لاستحلاله ذلك إن كان مسلماً وأخذه مستحيلاً وتاركاً فرض الله وهو ربع العشر. (راجع النهاية في غريب الحديث والأثر ـ لابن الأثير).

(٣) المتَقَبِّلون: جمع متَقَبِّل وهو أن يتقبل بخراج أو جباية أكثر مما أعطي، فذلك الفضل ربا، وفي حديث=

وذلك أَنهم كانوا يكثرون من هذا لأَنه من قبيل بخسهم ونقصهم الكيل والوزن. وقال أَبو هريرة رضي الله عنه: هو نهي عن السلب وقطع الطريق وكان ذلك من فعلهم، وروىٰ في ذلك حديثاً عن النبي ﷺ[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وما تقدم قبل من النهي في شأْن المال في الموازين والأَكيال والبخس يؤيد هذين القولين ويشبههما، وفي هذا كله تَوَعُّد للناس إِن لم يتركوا أَموالهم[٢].

وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والسدي أَيضاً: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾ نهي لهم عما كانوا يفعلونه من ردّ الناس عن شعيب، فيتوعدون من أَراد المجيءَ إِليه ويصُدُّونه ويقولون: إِنه كذاب فلا تذهب إِليه على نحو ما كانت قريش تفعله مع رسول الله ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وما بعد هذا من أَلفاظ الآية يشبه هذا القول.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ الآية. المعنىٰ: وتَفْتِنُون من آمن وتَصُدونه عن طريق الهدى وسبيل الله المفضية إِلى رحمته. والضمير في [بهِ] يحتمل أَن يعود على اسم الله تبارك وتعالىٰ، وأَن يعود على شعيب في قول من رأَى أَن القعود على الطرق للردّ عن شعيب، وأَن يعود على السبيل في لغة من يُذَكِّر السبيل.

وتقدم القول في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ في صدر السورة. قال أَبو عبيدة، والزجاج: كسر العيْن في المعاني وفتحها في الأَجرام.

ثم عدد عليهم نعم الله تبارك وتعالىٰ وأَنه كثَّرهم بعد قِلَّة، وقيل: أَغناهم بعد فقر، فالمعنىٰ ـ على هذا ـ إِذ كنتم قليلاً قدركم، ثم حذَّرهم ومثَّل بمن امتحن من الأُمم السابقة.

= ابن عباس رضي الله عنهما: (إِياكم والقَبَالات فإِنها صغارٌ وفَضْلُها رباً) (النهاية ـ لابن الأَثير).

(١) الحديث في تفسير الطبري ونصُّه: (أتى النبي ﷺ ليلة أُسري به على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إِلا شَقَّته ولا شيء إِلا خرقته، قال: ماهذا يا جبريل؟ قال: هذا مثل أقوام من أُمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه، ثم تلا: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ﴾. والحديث ضعيف فيه أبو جعفر الرازي سيئ الحفظ.

(٢) المراد: وفي هذا توعد للباخسين إِن لم يتركوا للناس أموالهم. أو نحو هذا. والله أعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

المعنىٰ: وإن كنتم يا قوم قد اختلفتم عليَّ، وشعَّبْتُم بِكفْركم أَمْري فآمنت طائفة وكفرت طائفة فاصبروا أيها الكفرة حتى يأتي حكم الله بيني وبينكم.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرُوا۟﴾ قوة التهديد والوعيد، هذا ظاهر الكلام، وأن المخاطبة بجميع الآية للكفار.

وحكى منذر بن سعيد(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الخطاب بقوله: ﴿فَٱصْبِرُوا۟﴾ للمؤمنين على معنى الوعد لهم، وقاله مقاتل بن حيّان. قال النقاش: وقال مقاتل بن سليمان(٢): المعنى: فاصبروا يا معشر الكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول الجماعة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

تقدم القول في معنى ﴿ٱلْمَلَأُ﴾، وفي معنى الاستكبار. وقولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ

---

(١) منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن النَّفْزي القُرطبي أبو الحكم البلُّوطي: قاضي قضاة الأندلس في عصره، كان فقيهاً خطيباً شاعراً، رحل حاجاً سنة ٣٠٨ هـ فأقام في رحلته أربعين شهراً أخذ بها عن بعض علماء مكة ومصر، كان بصيراً بالجدل، منحرفاً إلى مذاهب أصحاب الكلام، له كتب في القرآن والسنَّة منها: «الإنباه على استنباط الأحكام من كتاب الله» و«الناسخ والمنسوخ» و«الإبانة عن حقائق أصول الديانة» (الأعلام).

(٢) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي، أبو الحسن ـ من أعلام المفسرين، أصله من بلخ ثم انتقل إلى البصرة ودخل بغداد فحدَّث بها، كان متروك الحديث، من كتبه: «التفسير الكبير» و«نوادر التفسير» و«الردّ على القدرية» و«متشابه القرآن» ـ و«القراءات» ـ (الأعلام).

يَٰشُعَيْبُ﴾ تهديد بالنفي. والقرية: المدينة الجامعة للناس لأنها تَقَرَّت أي اجتمعت، وقولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ معناه: أو لَتَصيرُنَّ. و(عاد) تجيءُ في كلام العرب على وجْهَيْن، أَحدهما: عاد الشيءُ إلى حالٍ قد كان فيها قبل ذلك، وهي ـ على هذه الجهة ـ لا تَتَعدى، فإن عُدِّيَتْ فبحرف، ومنه قول الشاعر:

إِنْ عَـادَتِ العَقْـرَبُ عُـدْنَـا لهَـا وكـانـتِ النَّعْـلُ لهَـا حـاضِـرَهْ[1]

ومنه قول الآخر:

ألا ليْـتَ أَيَّـامَ الشَّبـابِ جَـديـدُ وعَصْـراً تَـولَّـى يـا بُثَيْـنُ يَعُـودُ[2]

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾[3]. ومنه قول الشاعر:

فـإنْ تَكُـن الأَيَّـامُ أَحْسَـنَّ مَـرَّةً إِلـيَّ فَقَـدْ عَـادَت لهـنَّ ذُنُـوبُ[4]

والوجه الثاني: أن تكون بمعنى (صار)، وعاملةً عملها، ولا تتضمن أن الحال كانت متقدمة، ومن هذه قول الشاعر:

تِلْـكَ الْمَكَـارِمُ لا قَعْبَـانِ مِـنْ لَبَـن شِيبَـا بِمَـاءٍ فَعَـادَا بَعْـدُ أَبْـوَالا[5]

---

(١) العَقْرَب: واحدة العقارب، من الهوام، للذكر والأنثى بلفظ واحد، والغالب عليها التأنيث، وهذا البيت قاله الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب ضمن أبيات يذم بها رجلا اسمه «عَقْرَب بن أبي عَقْرب»، وكان من تجار المدينة، عرف بالمَطْل، وقيل في المثل: «أَمْطَلُ من عَقْرب، وأَتْجَر من عقرب»، وقد حكى الزُّبَيْرُ بن بَكَّار قصة التاجر هذا مع الفضل بن عباس، وذكر أن (عَقْرب) هذا حدث بينه وبين الفضل تعامل تجاري، وكان الفضل من أشد الناس اقتضاءً، ولا يسكت عن حقه، فلزم بيت (عَقْرب) زماناً، فلما لم يحصل على حقه قال:

قَـدْ تَجِـرَتْ فـي سُـوقِنَـا عَقْـرَبٌ لا مَـرْحَبـاً بـالعَقْـرَبِ التَّـاجِـرَهْ
كُـلُّ عَـدُوٌّ يُتَّقَـى مُقْبِـلا وَعَقْـرَبٌ يُخْشَـى مِـنَ الـدَّابِـرَهْ
إنْ عَـادَتِ العَقْـرَبُ عُـدْنَـا لَهَـا وَكَـانَـتِ النَّعْـلُ لَهَـا حَـاضِـرَهْ
كُـلُّ عَـدُوٌّ كَيْـدُهُ فـي اسْتِـهِ فَغَيْـرُ مَخْشِـيٍّ وَلا ضَـائِـره

(٢) هذا البيت مطلع قصيدة لجميل بن عبد الله بن معمر بن الحارث، المعروف بجميل بثينة، وهي بنت عمه بثينة بنت حبأ بن ثعلبة، ويروي البيت: «وعهداً تولى» بدلا من «وعصراً تولى».

(٣) الأنعام: ٢٨.

(٤) هذا البيت للأحوص، وقبله يقول مخاطباً أُم جعفر:

هَبِينِـي امـرأً إِمَّـا بَـرِيئـاً ظَلَمْتِـهِ وإِمَّـا مُسِيئـاً مُـذْنِبـاً فيَتـوب
فَـلا تَتْـرُكِـي نَفْسِـي شَعـاعـاً فـإِنَّهَـا مِـنَ الحـزْنِ قـدْ كـادتْ عَلَيْـكِ تَـذوبُ

(٥) قائل هذا البيت أمية بن أبي الصلت، وقد أعاد ابن عطية الاستشهاد بهذا البيت عند تفسير قوله تعالى في=

ومنه قول الآخر:

وَعَادَ رَأْسي كَالثَّغَامَهْ(١)

ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾(٢)، على أن هذه محتملة، فقوله في الآية: [أَوْ لَتَعُودُنَّ] ـ وشعيب عليه السلام لم يكن قطُّ كافراً ـ يقتضي أنها بمعنى صار، وأما في جهة المؤمنين بعد كفرهم فيترتب المعنى الآخر ويخرج عنه شعيب إلا أن يريدوا عودته إلى حال سكوته قبل أن يبعث(٣).

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ توقيف منه لهم على شنعة المعصية، وطلب أن يقروا بألسنتهم بإكراه المؤمنين بالله على الإخراج ظلماً وغشماً.

والظاهر في قوله تعالى: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ أنه خبر منه، أي: لقد كنا نواقع عظيماً ونفتري على الله الكذب في الرجوع إلى الكفر. ويحتمل أن يكون على جهة القَسَم الذي هو في صيغة الدعاء، مثل قول الشاعر:

بَقِيْـــتُ وَفْـــرِي. . . . .(٤)

= هذه السورة: ﴿وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين﴾ وذكر أنه لأمية، ونقل كلامه واستشهاده القرطبي في تفسيره.
والقَعب بفتح القاف: القدح الضخم الغليظ الجافي، وقيل: قدح من خشب مقعَّر، والجمع القليل: أَقْعُب، والكثير: قِعَابٌ وقعبَةٌ. والأبوال: جمع بول، وهو معروف.

(١) في التهذيب: «الثَّغامة نبات ذو ساق جُمّاحته مثل هامة الشيخ، وفي حديث النبي ﷺ أنه أُتي بأبي قُحافَةَ يوم الفتح وكأن رأسه ثَغامة فأمرهم أن يغيروه».
وقال ابن الأعرابي: الثغامة شجرة تَبْيَضُّ كأنها الثلج، وأنشد:

إذا رأيـــت صَلَعـــاً فـــي الهـــامـــهْ وحَـــدَبـــاً بعـــد اعتـــدالِ القَـــامَـــهْ
وصـــار رأسُ الشَّيْـــخ كـــالثَّغـــامَـــهْ فَـــايْـــأس مِـــن الصِّحَّـــةِ والسَّـــلامَـــهْ

(٢) يس: ٣٩.

(٣) وقد ناقش بعضهم هذه الإجابة فقال: إن عودته إلى حال سكوته قبل أن يبعث لا تجعله في ملتهم، ولهذا أجيب بوجهين آخرين ـ الأول: أن يكون هذا من باب تغليب حكم الجماعة على الواحد لما عطفوا أتباعه على ضميره في الإخراج ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ﴾ سحبوا عليه حكمهم في العود وإن كان شعيب بريئاً مما كان عليه أتباعُه قبل الإيمان. والثاني: أن رؤساءَهم قالوا ذلك على سبيل التلبيس على العامة والإيهام بأنه كان منهم.

(٤) هذا جزء من بيت للأشتر النخعي وهو مالك بن الحارث من أنصار علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد سبق لابن عطية أن استشهد به عند تفسير الآية (١٦٥) من سورة البقرة المجلد الأول ص٤٠٤ من هذا =

وكما تقول: «افتريتُ على الله إن كلمت فلاناً». و[افْتَرَيْنَا] معناه: شققنا بالقول واختلفنا، ومنه قول عائشة رضي الله عنها: «من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربّه فقد أعظم على الله الفِرية».

ونجاة شعيب من ملتهم كانت منذ أَول أمره، ونجاة من آمن معه كانت بعد مواقعة الكفر.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يحتمل أن يريد: إلاَّ أن يسبق علينا من الله في ذلك سابق سوءٍ وينفذ منه قضاءٌ لا يرد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمؤمنون هم المجوّزون لذلك، وشعيب قد عصمته النبوَّة، وهذا أظهر ما يحتمل القول. ويحتمل أَن يريد استثناءَ ما يمكن أن يتعبد الله تعالى به المؤمنين مما تفعله الكفار من القُرُبات، فلما قال لهم: إنا لا نعود في ملتكم، ثم خشِيَ أن يتعبد الله بشيءٍ من أَفعال الكفرة فيعارض مُلْحد بذلك ويقول: هذه عودة إلى ملتنا ـ استثنى مشيئة الله تبارك وتعالى فيما يمكن أَن يتعبّد به. ويحتمل أن يريد بذلك معنى الاستبعاد كما تقول: لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب وحتى يلج الجمل في سمّ الخياط ـ وقد علم امتناع ذلك ـ فهو إحالة على مستحيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تأْويل إنما هو للمعتزلة الذين من مذهبهم أن الكفر والإيمان ليسا بمشيئة من الله تعالى، فلا يترتب هذا التأْويل إلا عندهم، وهذا تأْويل حكاه المفسرون ولم يشعروا بما فيه، وقيل: إن هذا الاستثناء إنما هو تستُّر وتأَدب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

= التفسير ـ ولكن برواية أخرى هي: (بقّيْتُ نفسي) والبيت بتمامه على الرواية الواردة هنا:

بَقَيَّـتُ وَفْـري وانْحَـرَفْـتُ عَـن الْعُـلا ... ولَقِيـتُ أضْيـافـي بـوجْـهِ عَبـوس

قال أبو حيان في «البحر المحيط»: ولم ينشد ابن عطية البيت الذي يُقيِّد قوله: (بَقيّتُ) وما بعده بالشرط وهو قوله:

إنْ لـمْ أشُـنَّ علـى ابْـنِ هِنْـدٍ غـارَةً ... لَـمْ تَخْـلُ يـوْمـاً مِـنْ نِهَـابِ نُفُـوسِ

ويقلق هذا التأويل من جهة استقبال الاستثناءِ، ولو كان في الكلام «إنْ شاء الله» قوِيَ هذا التأويل[1].

وقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ معناه: وسِعَ علم ربنا كل شيءٍ، كما تقول: تصبَّب زيد عرقاً، أي: تصبَّب عرق زيد، [وسِعَ] بمعنى أحاط.

وقوله: ﴿افْتَحْ﴾ معناه: احكم، والفاتح والفتاح: القاضي بلغة حمير، وقيل: بلغة مراد، وقال بعضهم:

ألا أبْلِغْ بني عُصْمٍ رَسولاً ... فإنِّي عَنْ فُتاحَتِكُمْ غَنِيُّ[2]

وقال الحسن بن أبي الحسن: إن كل نبي أراد الله هلاك قومه أمره بالدعاءِ عليهم ثم استجاب له فأهلكهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنت أعرف معنى هذه اللفظة حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها: تعال أُفاتحك، أي: أُحاكمك.

وقوله: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ استسلام لله وتمسّك بلفظه، وذلك يؤيد التأويل الأول في قوله: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

هذه المقالة قالها المَلأُ لأتباعهم وسائر الناس الذين يقلدونهم.

و﴿الرَّجْفَةُ﴾: الزلزلة الشديدة التي ينال معها الإنسان اهتزاز وارتعاد واضطراب.

---

(١) عقَّبَ أبو حيان في «البحر» على كلام ابن عطية هذا بقوله: «وليس بقوي هذا التأويل، لا فرق بين «إلا أن يشاء» وبين «إلا أن شاء» لأن (أنْ) تخلص الماضي للاستقبال.

(٢) هذا البيت للأسْعَر الجُعفي، ولفظه كما في (اللسان والتاج): «ألا من مبلغ عمراً رسولاً». والبيت دليل على أن الفتاحة (بضم الفاء وبكسرها) معناها: الحكم بين خصمين. قال الأزهري: «الفتح: أن تحكم بين قوم يختصمون إليك، كما قال سبحانه مخبراً عن شعيب: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ قال: وأهل اليمن يقولون للقاضي: الفتَّاح، ويقول أحدهم لصاحبه: تعال حتى أفاتحك إلى الفتّاح (عن اللسان).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن فرقة من قوم شعيب أُهلكت بالرجفة، وفرقة بالظُّلَّة، ويحتمل أن الظلة والرجفة كانتا في حين واحد. وروي أن الله تبارك وتعالى بعث شعيباً إلى أَهل مدين وإلى أَصحاب الأَيكة، وقيل: هما طائفتان، وقيل: واحدة، وكانوا ـ مع كفرهم ـ يبخسون الكيل والوزن فدعاهم فكذبوه فجرت بينهم هذه المقاولة المتقدمة، فلما عتَوا وطالت بهم المدة فتح الله عليهم باباً من أبواب جهنم فأَهلكهم الحرُّ منه فلم ينفعهم ظل ولا ماءٌ، ثم إنه بعث سحابة فيها ريح طيبة فوجدوا برْد الريح وطيبها فتنادوا: عليكم الظُّلَّة، فلما اجتمعوا تحت الظُّلَّة وهي تلك السحابة انطبقت عليهم فأَهلكتهم.

قال الطبري: فبلغني أَن رجلاً من أَهل مَدْيَن يقال له عمرو بن جلهاءَ قال لمَّا رآها:

يا قَومِ إنَّ شُعَيْباً مُرْسَلٌ فَذروا ... عَنْكُمْ سَمِيراً وعِمْرَان بْنَ شَدَّادِ
إنِّي أرَى غَيْمَةً يا قَوْمِ قَدْ طَلَعَت ... تَدْعو بِصَوْتٍ على صمَّانَةِ الوادِي
وإنَّكُمْ إنْ تَرَوْا فيها ضَحَاةَ غَدٍ ... إلاَّ الرَّقيم يُمَشِّي بَيْنَ أَنْجَادِ[1]

وسمير وعمران: كاهناهم، والرقيم: كلبهم. ورُوي أن رسول الله ﷺ كان إذا ذكر شعيباً قال: «ذلك خطيبُ الأَنْبياء»[2] لقوله لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[3].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يريد: لِحُسْن مراجعته وجميل تلطفه.

وحكى الطبري عن أبي عبد الله البجلي أَنه قال: أبو جاد، وهَوز، وحُطي،

(١) أورد الثعلبي هذه الأبيات في كتابه «عرائس المجالس» المعروف باسم «قصص الأنبياء»، وبدلا من (سمير) جاءَ (شُمَيْر) بالشين المعجمة والتصغير، وجاءَ (حنَّانة) بدلا من (صَمَّانة)، ورواية البيت الأخير: (فإنَّه لن يرى...) إلخ يعني شعيباً. يريد أن الزلزال سيصيبهم بالدمار، وستصبح ديارهم خراباً لا يرى فيها شعيب إلا الرقيم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، والحاكم ـ عن ابن إسحق، عن يعقوب بن أبي سلمة، وكذلك أخرجه عنهما ابن جرير (الدر المنثور وتفسير الطبري).

(٣) هود: ٨٨.

وكَلَمُن، وسَعْفَصْ، وقرشت: أَسماءُ ملوك مَدْيَن، وكان الملك يوم الظُّلَّة (كَلَمُن) فقالت أُخته ترثيه:

كَلَمُـــنْ قَـــدْ هُـــدَّ رُكْنـــي هُلْكُـــهُ وَسْـــطَ الْمَحِلَّـــهْ
سَيِّـــدُ الْقَـــوْمِ أَتَـــاهُ الْـ ـحَتْـفُ نَـارٌ وَسْـطَ ظُلَّـهْ
جُعِلَـــتْ نَـــاراً عَلَيْهِـــمْ دارُهُـمْ... كَـالْمُضْمَحِلَّـهْ(١)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه حكاية مظنون بها، والله أعلم.

وقد تقدم معنى ﴿جَٰثِمِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾ لفظ فيه الإخبارُ عن قُوَّةِ هلاكهم، ونزول النقمة بهم، والتنبيهُ على العِبْرَة بهم، ونحو هذا قول الشاعر:

كَأَنْ لمْ يَكُنْ بَيْنَ ٱلْحَجُونِ إِلَى الصَّفَا . . . .(٢)

و [يَغْنَوْا] معناه: يقيموا ويسكنوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

و «غَنيت في المكان» إنما يقال في الإقامة التي هي مقترنة بِتَنَعُّم وعيش رخيّ(٣)، هذا الذي استَقْرَيْتُ من الأَشعار التي ذكرت العرب فيها هذه اللفظة، فمن ذلك قول الشاعر:

وقَـدْ نَغْنَـى بِهَـا وَنَـرَى عُصُـوراً بِهَـا يَقْتَـدْنَنَـا الْخُـرُدَ الْخِـذَالاَ(٤)

---

(١) أيضاً أورد الثعلبي هذه الأبيات في «قصص الأنبياء»، ونلحظ أن ابن عطية يرفض القصة كلها، وتأمل قوله تعقيباً عليها: «وهذه حكاية مظنون بها، والله أعلم». ولا شك أن الصنعة بادية فيها.

(٢) هذا البيت المشهور قاله الحارث الجرهمي، ونسبه في اللسان إلى عمرو بن الحارث بن مُضاض، قال:

كَـأَنْ لَـمْ يَكُـنْ بيْـنَ الْحَجُـون إلـى الصَّفَـا أنيـسٌ ولَـمْ يَسْمُـرْ بمَكَّـةَ سَـامِـرُ
بَلَـى، نَحْـنُ كُنَّـا أَهْلَهَـا فـأَبَـادَنَـا صُـرُوفُ اللَّيَـالـي والجُـدودُ الْعَـواثِـرُ

والحَجُون بفتح الحاء: جبل بمكة، والجدود: الحظوظ.

(٣) جاء في إحدى النسخ: «وعيش مرضي»، واخترنا التي تتفق مع النص الذي ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» نقلا عن ابن عطية.

(٤) معنى (نغني) على ما وضحه ابن عطية: نقيم في تَنَعُّم وعيش رغيد، و(يَقْتَدْنَ) من: اقتاد، ومعناها: أن يقودَ من أمام، أما السَّوْق فهو أن يقود مِنْ خَلْف، والخُرُدُ: جمع خريدة، وهي من النساء: البكر=

ومنه قول الآخر:

وَلَقَدْ يَغْنَى بِهَا جيرانُكِ أَلْـ ـمُمْسِكو منْكِ بِعَهْدٍ وَوِصَالِ(١)

أنشدهُ الطبري، ومنه قول الآخر:

أَلاَ حَيِّ مِنْ أَجْلِ الْحَبيبِ المَغَانِيا . . . .(٢)

ومنه قول مُهَلْهِل:

غَنِيَتْ دارُنَا تِهَامَةَ في الدَّهْـ ـرِ، وفيها بَنُو مَعَدٍّ حُلُولاَ(٣)

ويشبه أن تكون اللفظة من الاستغناءِ. وأَما قوله تعالى: ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾(٤) ففيه هذا المعنى، لأَن المراد: كأَن لم تكن ناعمة نضرة مستقلة، ولا توجد ـ فيما علمتُ ـ إلا مقترنة بهذا المعنى، وأَما قول الشاعر:

غَنِينَا زَمَاناً بالتَّصَعْلُك والْغِنَى وَكُلاًّ سَقَانَاهُ بِكاسِهِمَا الدَّهْرُ(٥)

= التي لم تُمس قط، وقيل: هي الحَيِيَّةُ، الطويلة السكوت، الخافضة الصوت، المتستِّرَة، والخاذل والخذول من الظباءِ: التي تخذل صاحباتها وتتركهن في المرعى وتنفرد بنفسها، وهذا الجمع على (خِذالٍ) غير مقيس. وقيل: هو على القلب، فهي المخذولة التي تركها القطيع وحدها وليست هي الخاذلة. ومنه قول طرفة:

خَذولٌ تراعي ربْرَباً بخميلةٍ تَنَاوَلُ أَطْرَافَ البَرِيرِ وتَرتدي

(١) البيت لَعبيد بن الأبرص، والرواية في ديوانه: (أَصْحَابُك) بدلاً من (جيرانُك)، و(بأسباب الوصال) بدلا من (بعَهْدٍ ووصال)، وفي الخزانة أنه من شواهد النحويين، إذ استدل به الخليل على أن حرف التعريف هو (أَلْ) لا (اللام) وحدها، لأنه فصلها عن المعرف، ولو كانت اللام وحدها هي حرف التعريف لما جاز فصلها لا سيما واللام ساكنة، و(المُمْسِكو) أصلها (المُمْسكون)، قال ابن جني: «أراد المُمْسِكون ولكنه حذف النون لطول الاسم لا للإضافة».

(٢) هذا صدر البيت، وهو بتمامه:

ألا حَيِّ مِنْ أجْلِ الْحَبيبِ الْمَغَانِيَا لَبِسْنَ الْبِلَى مِمَّا لَبِسْنَ اللَّيَالِيَا

(٣) مُهَلْهِل: امرؤُ القيس بن ربيعة، أبو ليلى، وهو خال امرىءِ القيس، ولقب مهلهلا لأنه أول من هلهل الشعر أي رققه وزينه. ويفهم من كلام ابن عطية أن (غنيت) هنا بمعنى الإقامة في تنعم، أو بمعنى الاستغناء عن غيرها، لكن في (تاج العروس) وفي (اللسان) أن (غنِي) هنا بمعنى (كان) وأن (دار) اسمها و(تِهَامَةَ) خبرها، وهي بالنصب لذلك.

(٤) يونس: ٢٤.

(٥) هذا البيت لحاتم الطائي، لكن الرواية في الديوان تجعله ضمن أبيات كالآتي:

غَنِينَا زمَاناً بالتَّصَعْلُكِ والغِنَى كما الدَّهْرُ في أيَّامِهِ الْعُسْرُ والْيُسْرُ

كَسِبْنَا صُروفَ الدَّهْرِ ليناً وغِلْظَةً كُلاًّ سَقانَا بِكَأْسَيْهِمَا الدَّهْرُ =

فمعناه: استغنينا بذلك ورضيناه، مع أن هذه اللفظة ليست مقترنة بمكان.

وقوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ إلى آخر الآية كلام يقتضي أن شُعيباً عليه السلام وجد في نفسه لما رأى هلاك قومه حزناً وإشفاقاً إذ كان أَمله فيهم غير ذلك، فلما وجد ذلك طلب أن يثير في نفسه سبب التَّسَلِّي عنهم والقسوة عليهم، فجعل يُعَدِّدُ عليهم معاصيهم وإعراضهم الذي استوجبوا به ألاَّ يتأَسف عليهم، فذكر أنه بلَّغ الرسالة ونصَحَ. والمعنى: فأَعرضوا وكذَّبوا، ثمَّ قال لنفسه لما نظَرَتْ في هذا وفكرت فيه: فكيف آسَى على هؤُلاءِ الكفرة؟ ويحتمل أن يقول هذه المقالة على نحو قول النبي ﷺ لأهل قليب بدر[1]، وقال مكي: وسار شعيب بمن معه حتى سكن مكة إلى أَن ماتوا بها.

و [آسَى]: أحزن. وقرأ ابن وثاب، وطلحة بن مصرف، والأعمش: [إيسى] بكسر الهمزة وهي لغة، كما يقال: إخال وإيمن قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لا إخاله، وقال ابنه عبد الله بن عبد الله بن عمر في كتاب الحج: لا إيمن، وجميع ذلك في البخاري، وهذه اللغة تطرد في العلامات الثلاث: همزة التكلم ونون الجماعة وتاءِ المخاطبة. ولا يجوز ذلك في ياءِ الغائب، كذا قال سيبويه، وأما قولهم مِنْ (وَجِل): يِيجَل فَلَعلَّه من غير هذا الباب.

= فَمَا زَادَنَا بَغْياً علَى ذي قَرَابَةٍ غِنَانَا ولا أزرَى بِأحْسَابِنَا الفَقْرُ

ومن هذه القصيدة البيت المشهور:

أَمَاوِيَّ إنَّ المَالَ غَادٍ ورائحٌ ويبقى مِنَ المالِ الأحاديثُ والذِّكْرُ

ويروي البيت موضع الاستشهاد: (عنينا) بالعيْن المهملة بدلا من (غَنِينا). وفي (اللسان): و«غني القومُ بالدار غِنىً: أقاموا وتقول: غَنِيَ بالمكان يغْنى، والمغْنى: المنزل الذي غَنِي به أهْلُهُ».

(١) حديث النبي لأهل قليب بدر رواه البخاري عن أبي طلحة ـ وهو حديث طويل ـ وفيه أن النبي ﷺ قام على شفة الرَّكي فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسرُّكم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله ﷺ: والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

هذه الآية خبر من الله عزَّ وجلَّ أنه ما بعث نبيًا في مدينة ـ وهي القرية ـ إلا أخذ أَهلها المكذبين له بالبأساءِ وهي المصائب في الآمال والهموم وعوارض الزمن، والضراءِ وهي المصائب في البدن كالأمراض ونحوها، هذا قول ابن مسعود رضي الله عنه وكثير من أهل اللغة، وحكي عن السدي ما يقتضي أَن اللفظتين تتداخلان[1] فتقال كل واحدة على المعنيين، و﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ ترجٍّ بحسب اعتقاد البشر وظنونهم، و﴿ يَضَّرَّعُونَ ﴾ أي ينقادون إلى الإيمان. وهكذا قولهم: «الحمَّى أَضرعتني لك»[2].

ثم قال تعالى إنه بعد إنفاذ الحكم في الأَولين بدَّل للخلق مكان السيئة ـ وهي البأساءُ والضراءُ ـ الحسنَةَ ـ وهي السراءُ والنعمة ـ وهذا بحسب ما عند الناس، وإلا فقد يجيءُ الأَمر كما قال الشاعر[3]:

قَدْ يُنْعِمُ اللهُ بالبَلْوَى وإنْ عَظُمَتْ ... ويَبْتَلي اللهُ بعضَ القَوْمِ بالنِّعَمِ

---

(١) في الأصول: تتداخل ـ وهو قطعاً من خطأ النساخ.

(٢) قال أبو عبيد: يضرب هذا في الذل عند الحاجة تنزل، قال المفضل: أول من قاله رجل من كليب يقال له: مُرَيْر، وكان له أخوان أكبر منه، وقد اختطفتهما الجن في غيابه، فلما عاد خرج في البحث عنهما، فمكث أياماً ثم رأى ظليماً فرماه فأصابه، ثم عندما وجبت الشمس أبصر بشخص قائم على صخرة ينادي:

يا أيُّها الرامي الظليم الأسودِ ... تَبَّتْ مَراميكَ التي لمْ تَرْشُد

فأجابه مرير:

يا أيُّها الهاتف فوق الصَّخْرَةِ ... كَمْ عَبْرةٍ هَيَّجْتَها وعَبْرَة

فتوارى الجني عنه ـ ثم أصابته الحمى فغلبته عيناه، فأتاه الجني واحتمله وقال له: ما أنامك وقد كنت حذراً؟ فقال: «الحمى أضرعتني للنوم» فذهبت مثلاً. (عن مجمع الأمثال للميداني).

(٣) هو أبو تمام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا إنما يصح مع النظر إلى الدار الآخرة والجزاء فيها ، والنعمة المطلقة هي التي لا عقوبة فيها ، والبلوى المطلقة هي التي لا ثواب عليها.

و﴿ حَتَّىٰ عَفَوا﴾ معناه : حتى كثروا ، يقال : عفا النباتُ والريشُ يعفو ـ إذا كثر نباته ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

ولكنَّـا نُعِـضُّ السَّيْـفَ مِنْهـا ... بـأَسْوُقِ عـافِيَـاتِ الشَّحْـمِ كُـوم[1]

وعليه قوله ﷺ : «احفوا الشوارب وأَعفوا اللِّحى»[2] ، وعفَا أيضاً في اللغة بمعنى دَرَسَ وبَلِي ، فقال بعض الناس : هي من الألفاظ التي تستعمل للضدين ، وأما قول زهير :

. . . . علَـى آثـارِ مَـنْ ذَهَـبَ العفـاءُ[3]

فيحتمل ثلاثة معان : الدعاءُ بالدرْس ، والإِخبار به ، والدعاءُ بالنمو للنبات ، كما يقال : جادته الدِّيَمُ وسقته العِهَادُ[4] ، ولما بدَّل الله حالهم بالخير لطفاً بهم فنموا رأى الخلق بعد ذلك ـ للكفر الذي هم فيه ـ أن إِصابة الضراءِ والسراءِ إنما هي بالاتفاق ، وليست بقصد كما يخبر النبي ، واعتقدوا أن ما أَصابهم من ذلك إنما هو كالاتفاق الذي كان لآبائهم فجعلوه مثالاً ، أي : قد أَصاب هذا آباءَنا فلا ينبغي لنا أَن ننكره ، فأَخبر الله تعالى أنه أَخذ هذه الطوائف التي هذا معتقدها.

---

(١) الشاعر هو لبيد ، والبيت من قصيدة له يفتخر بمآثره ويذكر سخاءَه وسخاء قومه. ونُعضُّ السيف: نجعله يَعَض كناية عن الضرب العنيف ، وأَسْوُق: جمع ساق والباءُ زائدة ، والعافيات: الكثيرة اللحم وهي موضع الشاهد هنا ، وكُوم: جمع كَوْماء ، وهي الناقة العظيمة السنام ، وهذه هي رواية الديوان.

(٢) رواه مسلم ، والترمذي ، والنسائي ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما ، ورواه ابن عديّ في «الكامل» عن أبي هريرة. ورواه الطحاوي عن أنس مع زيادة (ولا تشبَّهوا باليهود) ، ورواه ابن عدي أيضاً في «الكامل» والبيهقي في شعب الإيمان مع زيادة (وانتفواالشعر الذي في الآناف) ، والرواية الأخيرة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه (راجع الجامع الصغير).

(٣) هذا عجز بيت لزهير ، وقد استشهد به صاحب اللسان على أن (عَفَا) تأتي بمعنى (هَلَكَ) ، وهو المعنى الذي أشار إليه ابن عطية في أول المعاني الثلاثة المحتملة لكلمة العفاءِ في البيت. والبيت في وصف دار ، وهو بتمامه:

تَحَمَّـلَ أَهْلُهـا مِنْهَـا فَبَـانُـوا ... عَلَـى آثَـار مَـنْ ذَهَـبَ الْعَفَـاءُ

(٤) العِهَادُ ـ بكسر العين ـ أول المطر وهو الوسْمي أيضاً ، وهو جمع مفرده : عَهْدَة والدِّيَم : جمع ديمةٍ وهي المطر يطول زمانه في سكون. (المعجم الوسيط).

وقوله: ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة وأخذة أسف وبطشاً للشقاءِ السابق لهم في قديم علمه. والسرَّاءُ: السرور والحَبَرَة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ معناه: وهم مكذبون لا يتحسسون لشيءٍ منه ولا يستشعرونه باستدلال ولا غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ الآية. المعنى في هذه الآية أنهم لو كانوا ممَّن سبق في علم الله أن يكتسبوا الإيمان والطاعات ويتَّصفوا بالتقىٰ لتَبع ذلك من فضل الله ورحمته وإنعامه ما ذكر من بركات المطر والنبات، ولكنهم لما كانوا ممن سبق كفرهم وتكذيبهم تبع ذلك أخذ الله لهم بسوءِ ما اجترموه. وكلٌّ مقدور، والثواب والعقاب متعلق بكسب البشر، وبسببه أُسندت الأفعال إليهم في قوله: ﴿ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ وفي ﴿كَذَّبُوا۟﴾.

وقرأ السِّتَّة من القراءِ السبعة: ﴿لَفَتَحْنَا﴾ بتخفيف التاءِ، وهي قراءَة الناس، وقرأ ابن عامر وحده، وعيسى الثقفي، وأبو عبد الرحمن: [لَفَتَّحْنَا] بتشديد التاءِ. وفتح البركات: إنزالها على الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾(١)، ومنه قالت الصوفية: الفتوح والبركات: النُّمُوُّ والزيادات. و(مِنَ ٱلسَّمَاءِ) لجِهَة المطر والريح والشمس، (وَٱلْأَرْضِ) لجِهَة الإنبات والحفظ لما ينبت، هذا هو الذي يدركه نظر البشر، ولله خدام غير ذلك لا يُحصى عددهم، وما في علم الله أكثر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

هذه الآية تتضمن وعيداً للكفار المعاصرين لمحمد ﷺ، لأنه لما أخبر عما فعل في الأُمم الخالية قال: ومن يؤمن هؤلاء أن ينزل بهم مثل ما نزل بأُولئك؟ وهذا استفهام على جهة التوقيف.

---

(١) فاطر: ٢.

والبأْس: العذاب، و﴿بَيَاتاً﴾ نصب على الظرف، أي وقت مبيتهم بالليل، ويحتمل أَن يكون هذا في موضع الحال.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: [أَوْ أَمِنَ] بسكون الواو وإظهار الهمزتين، وقرأ ورش عن نافع: [أَوَامِنَ] بفتح الواو وإلقاءِ حركة الهمزة الثانية عليها، وهذه القراءَة في معنى الأُولى ولكنها سهلت. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿أَوَ أَمِنَ﴾ بفتح الواو وإظهار الهمزتين، ومعنى هذه القراءَة أنه دخل أَلف الاستفهام على حرف العطف، ومعنى القراءَة الأُولَى أنه عطف بـ (أَوْ) والتي هي لأَحد الشيئين، والمعنى: أَفأَمنوا هذا أَو هذا؟ كما تقول: «أَجاءَ زيد أَو عمرو»؟ وليست هذه (أَو) التي هي للإضراب عن الأول، كما تقول: «أَنا أَقوم أَو أَجلس» وأَنت تقصد الإضراب عن القيام والإثبات للجلوس وتقريرَه، وقولنا: التي هي لأَحد الشيئين يعمُّ الإِباحة والتخيير، كقولك: جالس الحسن أَو ابن سيرين، أَو قولك: جالس الحسن أَو جالس ابن سيرين، وقوله: ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يريد: في غاية الغفلة والإِعراض.

و﴿وَمَكْرَ ٱللَّهِ﴾ هي إِضافة مخلوق إلى خالق، كما تقول: ناقة الله، وبيت الله، والمراد فعل يعاقب به مَرَدَة الكفار، وأُضيف إلى الله لما كان عقوبةَ الذنب، فإِن العرب تسمِّي العقوبة ـ على أَي وجه كانت ـ باسم الذنب الذي وقعت عليه العقوبة، وهذا نصٌّ في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾[1] وهذا الموضع أيضاً[2]، كأَنَّ كُفْرَهم بعد الرسالة وظهور دعوة الله مكرٌ[3] وخديعة واستخفاف. وقيل: عومل ـ في مثل هذا وغيره ـ اللفظ دون المعنى في مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[4] و«إن الله لا يَمَل حتى تملُّوا»[5] وغير ذلك.

---

(١) آل عمران: ٥٤.

(٢) يريد أن تسمية العقوبة باسم الذنب نص في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ وفي هذا الموضع أيضاً.

(٣) (مكرٌ) هذه خبر (كأن) واسم (كأن) هو (كفرهم) ـ والكلام باختصار: كأن كفْرَهم مكرٌ.

(٤) البقرة: ١٥.

(٥) الحديث متفق عليه ـ وهو عن عائشة رضي الله عنها، فقد (دخل عليها النبي ﷺ وعندها امرأة فقال: من هذه؟ قالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها، قال: مَهٍ، عليكم بما تطيقون، فو الله لا يَمَلُّ الله حتى تملُّوا، وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه).

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ﴾ الآية. هذه ألف تقرير دخلت على واو العطف، و[يَهْدِي] معناه: يبين ويوضح، والهدى: الصباح، وأنشدوا على ذلك:

حَتَّى اسْتَبَنْتُ الهُدَى والْبِيدُ هاجِمَةٌ ... يَسْبَحْنَ في الآلِ غُلْفاً أَوْ يُصَلِّينَا[1]

ويحتمل أن يكون المبيّن الله تعالى، ويحتمل أن يكون المبين قوله: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ﴾ أي علمهم بذلك. وقال ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد: [يَهْدِي] معناه: يتبيَّن، وهذه أيضاً آية وعيد، أي: ألم يظهر لوارثي الأرض بعد أُولئك الذين تقدم ذكرهم وما حل بهم أنَّا نقدر لو شئنا أن نصيبهم إصابة إهلاك بسبب معاصيهم كما فعل بمن تقدم، وكنا نطبع أي نختم عليها بالشقاوة، وفي هذه العبارة ذكر القوم الذين قصد ذكرهم، وتعديد النعمة عليهم فيما ورثوا، والوعظ بحال من سلف من المهلَكين. و﴿وَنَطْبَعُ﴾ عطف على ﴿أَصَبْنَاهُم﴾ إذ المراد به الاستقبال، ويحتمل أن يكون [ونَطْبَعُ] منقطعاً إخباراً عن وقوع الطبع لا أنه متوعد به، ويبقى التوعد بالإهلاك الذي هو بعذاب كالصيحة والغرق ونحوه، وقرأ أبو عمرو: [ونَطْبَع علَى] بإدغام العيْن في العين وإشمام الضم، ذكره أبو حاتم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿تِلْكَ﴾ ابتداءٌ، و﴿الْقُرَىٰ﴾ قال قوم: هو نعت والخبر ﴿نَقُصُّ﴾، ويؤيد هذا أن القصد إنما هو الإخبار بالقصص.

---

(١) البيت لتميم بن أُبيّ بن مقبل ـ أبو كعب ـ شاعر جاهلي أسلم وعاش نيفاً ومائة سنة، وعُدَّ من المخضرمين، كان له عشرة أبناء كلهم شعراء. خلف أباه على زوجه الدهماء وفرَّق الإسلام بينهما. والهدى: الصباح كما قال ابن عطية هنا، وقال في اللسان: «الهُدَى: النهار كما قال ابن مقبل، وساق البيت». وفيه (يَخْشَعْن) بدلا من (يسْبَحْن). وهاجمة: ساكنة من قولهم: هجم الشيءُ: سكن وأطرق، والبيدُ: جمع بيداء وهي الصحراء. والآل: السراب. ويُصَلِّينا: يَسْجُدْن ـ وغُلْفاً: جمع أغلف وهو ما عليه غلاف من الشيء. والشاعر يصور الصحراء في سكونها وهدوئها في ضباب أواخر الليل، ويشبه ما فيها من آكام وتلال بالراكعين الساجدين ـ إلى أن تبين له الصباح خلف هذه الصورة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والظاهر عندي أن ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ هي خبر الابتداءِ ، وفي ذلك معنى التعظيم لها ولمهلكها ، وهذا كما قيل في ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾(١) : إنه ابتداءٌ وخبر وكما قال ﷺ : «أولئك الملأ»(٢) وكقول أمية بن أبي الصلت :

تِلْـــكَ المكَـــارِمُ. . . . . (٣)

وهذا كثير ، وكأن في اللفظ معنى التحسُّر على القرى المذكورة ، والمعنى : نقصُّ عليك من أنباءِ الماضين لتتبيَّن العِبر وتعلم المَثُلات التي أوقعها الله بالماضين .

ثم ابتدأ الخبر عن جميعهم بقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا الكلام يحتمل أربعة وجوه من التأويل : أحدها أن يريد أن الرسول جاءَ لكل فريق منهم فكذبوه لأول أمره ، ثم استبانت حجته ، وظهرت الآيات الدالة على صدقه مع استمرار دعوته ، فَلَجُوا هم في كفرهم ، ولم يؤمنوا بما تبيَّن به تكذيبهم من قبل . وكأنه وصفهم ـ على هذا التأويل ـ باللجاج في الكفر والصرامة عليه ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ويحتمل ـ في هذا الوجه ـ أن يكون المعنى : ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ أي : ما كانوا ليوفقهم الله إلى الإيمان بسبب أنهم كذبوا من قبل فكان تكذيبهم سبباً لأن يمنعوا الإيمان بعد .

والثاني من الوجه أن يريد : فما كان آخرهم في الزمن والعصر ليهتدي ويؤمن بما كذب به أولهم في الزمن والعصر ، بل كفر كلُّهم ، ومشى بعضهم على سنَن بعض في الكفر .

---

(١) البقرة : ٢ .

(٢) هذا جزء من حديث رواه سلمة بن سلامة بن وقش ، وسبق الحديث عنه عند تفسير قوله تعالى : ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف : ٦٠] .

(٣) هذا جزء من بيت سبق الحديث عنه في المجلد الثالث عند تفسير قوله تعالى : ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ والبيت بتمامه :

تِلْـكَ المكـارمُ لا قَعْبَـانِ مِـنْ لَبَـنٍ … شيبَـا بمـاءٍ فَعَـادا بَعْـدَ أَبْـوَالا

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

أَشار إلى هذا القول النقاش، فكأَن الضمير في قوله: ﴿كانوا﴾ يختص بالآخرين، والضمير في قوله: [كذَّبوا] يختص بالقدماءِ منهم.

والثالث من الوجوه يحتمل أن يريد: فما كان هؤلاء المذكورون بأَجمعهم ـ لو رُدُّوا إلى الدنيا ومُكِّنوا من العودة ـ ليؤمنوا بما كذبوا في حال حياتهم ودعاءِ الرسول لهم، قاله مجاهد وقرنه بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾(١)، وهذه أَيضاً صفة بليغة في اللجاج والثبوت على الكفر، بل هي غاية في ذلك.

والرابع من الوجوه أَنه يحتمل أن يريد وصفهم بأَنهم لم يكونوا ليؤمنوا بما قد سبق في علم الله تبارك وتعالى أَنهم مكذبون به، فجعل سابق القدر عليهم بمثابة تكذيبهم بأَنفسهم لا سيما وقد خرج تكذيبهم إلى الوجود في وقت مجيءِ الرسل. وذكر هذا التأْويل المفسرون وقرنوه بأَن الله عزَّ وجلَّ حتم عليهم التكذيب وقت أَخذ الميثاق، وهو قول أُبيّ بن كعب رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ الآية. أخبر تعالى أنه لم يجد لأَكثرهم ثبوتاً على العهد الذي أَخذه على ذرية آدم وقت استخراجهم من ظهره. قاله أَبو العالية عن أُبيّ بن كعب. ويحتمل أن يكون الكلام عبارة عن أَنهم لم يصرفوا عقولهم في الآيات المنصوبة، ولا شكروا نعم الله، ولا قادتهم معجزات الأنبياء، لأَن هذه الأُمور عهد في رقاب العقلاءِ كالعهود ينبغي أن يوفَّى بها، وأَيضاً فمن لدن آدم عليه السلام تقرر العهد الذي هو بمعنى الوصية، وبه فسر الحسن هذه الآية، فيجيءُ المعنى: وما وجدنا لأكثرهم التزام عهد وقبول وصاة. ذكره المهدوي. و﴿مِنْ﴾ في هذه الآية زائدة، إلا أَنها تعطي استغراق جنس العهد، ولا تجيءُ هذه إلا بعد النفي، و﴿إِنْ﴾ هي المخففة من الثقيلة من عند سيبويه، واللام في قوله: ﴿لَفَاسِقِينَ﴾ للفرق بين (إن) المخففة وغيرها، و[إنْ] عند الفراءِ هي بمعنى (ما)، واللام بمعنى (إلا)، والتقدير عنده: وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين.

---

(١) الأنعام: ٢٨.

قوله عزّ وجلّ:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

الضمير في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾ عائد على الأنبياءِ المتقدم ذكرهم وعلى أُمَمهم، والآيات في هذه الآية ـ عامٌّ في التِّسْع وغيرها[1]، وقوله تعالى: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ المعنى: فظلموا أنفسهم فيها وبسببها وظلموا أَيضاً مُظهِرها ومتَّبعي مظهرها. وقيل: لما نُزِّلت [ظَلَمُوا] منزلة (كفروا) و(جحدوا) عديت بالباءِ، كما قال[2]:

قَدْ قَتَلَ اللهُ زياداً عَنِّي

فأنزل (قَتَل) منزلة (صَرَف)، ثم حذر الله تعالى من عاقبة المفسدين الظالمين، وجعلهم مثالاً يتوعَّد به كفرة عصر النبي ﷺ.

وفرعون: اسم كل ملك لمصر في ذلك الزمان، فخاطبه موسى عليه السلام بأَعظم أَسمائه وأَحبها إليه إذ كان من الفراعنة كالنمارذة في اليونان وقيصر في الروم وكسرى في فارس والنجاشي في الحبشة. وروي أنه موسى بن عمران بن فاهت بن لاوي بن يعقوب ابن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن، وروي أن اسم فرعون موسى عليه السلام الوليد ابن مصعب، وقيل: هو فرعون يوسف، وأنه عمّر نيّفاً وأربعمائة سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن قال إن يوسف المبعوث الذي أَشار إليه موسى في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾[3] هو غير يوسف الصديق فليس يحتاج إلى نظر، ومن قال إنه

---

(١) يريد الآيات التسع التي ذكرها الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

(٢) أي الفرزدق، وقبله يقول:

كيف تراني قالِباً مِجَنِّي ... أَقلِبُ أمري ظهرَه للبَطنِ

(٣) غافر: ٣٤.

يوسف الصديق فيعارضه ما يظهر من قصة يوسف، وذلك أنه ملك مصر بعد عزيزها، فكيف يستقيم أن يعيش عزيزها إلى مدة موسى؟ فينفصل أن العزيز ليس بفرعون الملك، إنما كان حاجباً له.

وقرأ نافع وحده [عَلَيَّ] بإضافة (عَلَى) إليه، وقرأ الباقون [عَلَى] بسكون الياء، قال الفارسي: معنى هذه القراءَة أن (على) وضعت موضع (الباء)، كأنه قال: «حقيق بألا أقول على الله إلا الحق» كما وضعت (الباءُ) موضع (عَلَى) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾[1] فيتوصل إلى المعنى بهذه وبهذه، وكما تجيءُ (عَلَى) أيضاً بمعنى (عن)، ومنه قول الشاعر في صفة قوسه:

أَرْمِي عَلَيْهَا وَهْيَ فَرْعٌ أَجْمَعُ وَهْيَ ثَلاثُ أَذْرُعٍ وإِصْبَعُ[2]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

و﴿حَقِيقٌ﴾ ـ على هذا ـ معناه: جدير وخليق، وقال الطبري: قال قوم: ﴿حَقِيقٌ﴾ معناه: حريص فلذلك وصلت بِعَلَى، وفي هذا القول بُعْد، وقال قوم: ﴿حَقِيقٌ﴾ صفة لـ ﴿رَسُولٌ﴾، تمَّ عندها الكلام، و﴿عَلَىٰٓ﴾ خبرٌ مقدم، و﴿أَن لَّآ أَقُولَ﴾ ابتداءٌ تقدم خبره، وإعراب ﴿أَن﴾ على قراءَة من سكَّن الياءَ خفض، وعلى قراءَة من فتحها مشدَّدةً رفعٌ، وقال الكسائي: في قراءَة عبد الله: [حَقيقٌ بألا أقولَ][3]، وقال أبو عمرو: في قراءَة عبد الله: [حَقيق أن أَقُولَ][4] وبه قرأ الأعمش. وهذه المخاطبة ـ إذا تأملت ـ غاية في التلطف في القول اللِّين الذي أُمر عليه السلام به[5].

وقوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية. البيِّنَة هنا إشارة إلى جميع آياته، وهي على المعجزة هنا أدلُّ، وهذا من موسى عرض نبوته، ومن فرعون استدعاءُ خرق العادة الدال على الصدق.

---

(١) الأعراف: ٨٦.
(٢) البيت في (اللسان) غير منسوب. قال: «يقال: قوسٌ فرْع أي غير مشقوق، وقوسٌ فِلْقٌ أي مشقوق» ثم ذكر البيت.
(٣) جاء في «البحر» أن هذه هي قراءة أُبيّ.
(٤) أي من غير (عَلَى).
(٥) إشارة إلى ما في قوله تعالى ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وظاهر الآية وغيرها أَن موسى عليه السلام لم تَنْبَن شريعته إلا على بني إسرائيل فقط، ولم يدع فرعون وقومه إلا إلى إرسال بني إسرائيل، وذكَّره لعله يخشى أَو يزكى ويوحد كما يذكر كل كافر، إذ كل نبي داع إلى التوحيد وإن لم يكن آخذاً به ومقاتلاً عليه، وأمَّا أَنه دعاه إلى أَن يؤمن ويلتزم جميع الشرع فلم يرد هذا نصاً، والأَمر محتمل، وبالجملة فيظهر فرق ما بيْن بني إسرائيل وبين فرعون والقبط، أَلا ترى أن بقية القبط وهم الأكثر لم يرجع إليهم موسى عليه السلام أَبداً ولا عارضهم، وكان القبط مثل عبدة البقر وغيرهم؟ وإنما احتاج إلى محاورة فرعون لتملكه على بني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ ﴾ الآية. رُوي أَن موسى عليه السلام قلق به وبمحاورته، فقال فرعون لأعوانه: خذوه، فأَلقى موسى العصا فصارت ثعباناً وهمت بفرعون فهرب منها، وقال السدي: إنه أَحدث وقال: يا موسى كُفَّه عني فكفَّه، وقال نحوه سعيد بن جبير.

و[إذا] ظرف مكان في هذا الموضع عند المبرد من حيث كانت خبراً عن جُثَّة، والصحيح الذي عليه الناس أَنها ظرف زمان في كل موضع، ويقال: إن الثعبان وضع أسفل لَحْييه في الأرض وأَعلاهما في شرفات القصر. والثعبان: الحية الذكر، وهو أَهول وأَجرأ، قاله الضحاك، وقال قتادة: صارت حيَّة شعراءَ ذكراً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: غرزت ذنبها في الأرض ورفعت صدرها إلى فرعون. وقوله: ﴿ مُّبِينٌ ﴾ معناه: لا تخييل فيه، بل هو بين أنه حقيقة، وهو من أَبان بمعنى بان، أَو من بان بمعنى سُلب عن أَجزائه.

وقوله: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ ﴾ معناه: من جيبه أَو كُمه حسب الخلاف في ذلك، وقوله: ﴿ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ ﴾ قال مجاهد: كاللبن أَو أَشد بياضاً، ورُوي أنها كانت تظهر منيرة شفافة كالشمس تتألق، وكان موسى عليه السلام ذا دم أَحمر إلى السواد، ثم كان يردُّ يده فترجع إلى لون بدنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهاتان الآيتان عرضهما موسى عليه السلام للمعارضة، ودعا إلى الله تعالى بهما،

وخرق العادة بهما، وتحدى الناس إلى الدين بهما، فإذا جعلنا التحدي الدعاءَ إلى الدين مطلقاً فبهما تحدى، وإذا جعلنا التحدي الدعاءَ بعد العجز عن معارضة المعجزة وظهور ذلك فتنفرد حينئذ العصا بذلك، لأن المعارضة والعجز فيها وقعا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويقال: التحدي هو الدعاءُ إلى الإتيان بمثل المعجزة، فهذا نحو ثالث، وعليه يكون تحدي موسى بالآيتين جميعاً، لأن الظاهر من أمره أنه عرضهما للنظر معاً وإن كان لم ينص على الدعاء إلى الإتيان بمثلهما، وروي عن فرقد السبخي أن فم الحية كان ينفتح أربعين ذراعاً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾.

الساحر كان عندهم في ذلك الزمن أعلى المراتب وأعظم الرجال، ولكن وصفهم موسى بذلك مع مدافعتهم له عن النبوة ذمٌّ عظيم وحط، وذلك قصدوا إن لم يمكنهم أكثر، وقولهم: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ يعنون بأَنه يحكم فيكم بنقل رعيتكم في بني إسرائيل فيفضي ذلك إلى خراب دياركم إذا ذهب الخدمة والعمرة، وأَيضاً فلا محالة أنهم خافوا أن يقاتلهم، وجالت ظنونهم في كل مجال، وقال النقاش: كانوا يأخذون من بني إسرائيل خرجاً كالجزية فرأَوا أن ملكهم يذهب بزوال ذلك. وقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ الظاهر أنه من كلام الملأ بعضهم إلى بعض. وقيل: هو من كلام فرعون لهم، وروى كردم عن نافع [تأمرونِ] بكسر النون، وكذلك في الشعراء[1]. و[ما] استفهام، و[إذا] بمعنى (الذي)، فهما ابتداءٌ وخبر، وفي [تأمُرون] ضمير عائد على (الذي) تقديره: تأمرون به، ويجوز أن تجعل [ماذا] بمنزلة اسم واحد في موضع نصب

(١) في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥].

بـ [تأمرون] ولا يضمر فيه على هذا. قال الطبري: والسحر مأخوذ من: سَحَر المطرُ الأرض إذا جادها حتى يقلب نباتها ويقلعه من أُصوله، فهو يسحرها سحراً، والأرض مسحورة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما سحر المطر الطين إذا أفسده حتى لا يمكن فيه عمل، والسحر: الأَخْذة التي تأخذ العين حتى ترى الأمر غير ما هو، وربما سحر الذهن، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

وسَاحِرَةُ السَّراب مِن الْمَوَامي ... تُرَقِّصُ في نَوَاشِزِهَا الأُرُومُ(١)

أراد أنه يخيل نفسه ماءً للعيون.

ثم أشار الملأ على فرعون بأن يؤخر موسى وهارون ويدع النظر في أمرهما ويجمع السحرة من كل مكان حتى تكون غلبة موسى بحجة واضحة معلومة بينة.

وقرأ ابن كثير: [أَرْجِئْهُو] بواو بعد الهاء المضمومة وبالهمز قبل الهاءِ، وقرأ أبو عمرو: [أَرْجِئْهُ] بالهمز دون واو بعدها، وقرأ نافع وحده في رواية قالون: [أَرْجِهِ] بكسر الهاءِ، ويحتمل أن يكون المعنى أخِّره فسهل الهمزة، ويحتمل أن يكون من الرجا بمعنى: أَطْمِعْه ورَجِّه، قاله المبرد، وقرأ ورش عن نافع: [أَرْجِهي] بياءٍ بعد كسرة الهاءِ، وقرأ ابن عامر: [أَرْجِئْهِ] بكسر الهاءِ وبهمزة قبلها. قال الفارسي: وهذا غلط(٢). وقرأ عاصم والكسائي: [أَرْجِهُ] بضم الهاءِ دون همز، وروى أبان عن=

(١) البيت في (اللسان) وفي تفسير الطبري. والرواية فيهما: «وساحرة العيون» بدلا من «وساحرة السراب» ورواية الديوان: «وساجرة» بالجيم يريد أنها ممتلئة بالسراب ـ والموامي: جمع موماء (وموماة) وهي المفازة الواسعة، والنواشز: جمع ناشز وهو هنا المكان المرتفع من الأرض، إذ يريد الأماكن العالية المتناثرة في الموامي، والأُرُوم: جمع إِرَم على وزن (ضِلَع وضُلُوع) الأعلام، وهي حجارة تجمع وتنصب في المفازة يهتدى بها، وقيل: هي قبور عاد ـ وعمَّ به أبو عبيد في تفسير بيت ذي الرمة هذا كما قال في (اللسان) فهي عنده كل الأعلام التي تنصب في الصحراء للاهتداء بها، وكلمة (ترقص) إما أن تكون مبنية للفاعل، فالأروم فاعل، أو مبنية للمفعول، فالأروم زائدة فاعل، ويمكن أن يكون الفاعل ضميراً يعود على السراب والأروم مفعول، والشاعر يصور ما في سراب الصحارى الواسعة من سحر، فهو يبدو كأنه ماء للعيون ينعكس أثره على النواشز والأروم حتى لتبدو راقصة.

(٢) قال أبو حيان في «البحر»: ونسبة ابن عطية هذه القراءة لابن عامر ليس بجيد، لأن الذي روى ذلك هو ابن ذكوان لا هشام، فكان ينبغي أن يُقَيِّد فيقول: وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان» ـ ثم علَّق على قول الفارسي بأن هذا غلط فقال: «وما ذهب إليه الفارسي قول فاسد لأنها قراءة ثابتة متواترة روتها=

عاصم: ﴿أَرْجِهْ﴾ بسكون الهاءِ، وهي لغة تقف على هاءِ الكناية إذا تحرك ما قبلها، ومنه قول الشاعر:

أَنْحَى عَلَيَّ الدَّهْرُ رِجلا ويَداً ... يُقْسِمُ لا يُصْلِحُ إلاَّ أَفْسَدَا
فَيُصْلِحُ الْيَوْمَ ويُفْسِدهُ غَداً[١]

وقال الآخر:

لمَّا رأَى أَنْ لا دَعَهْ وَلاَ شِبَعْ ... مَالَ إلى أَرْطاةِ حِقْفٍ فَاضطَجَعْ[٢]

وحكى النقاش أنه لم يكن يجالس فرعون وَلَدُ غَيَّة[٣] وإنما كانوا أَشْرَافاً، ولذلك أَشاروا بالإرجاءِ ولم يشيروا بالقتل وقالوا: إن قتلته دخلَت على الناس شبهةٌ، ولكن أَغْلِبْه بالحجة. و﴿الْمَدَائِنِ﴾ جمع مدينة، وزنها فعيلة من مَدَن، أَو مَفعلة من دان يدين، وعلى هذا يهمز مدائن أَو لا يهمز، و﴿حَاشِرِينَ﴾ معناه: جامعين، قال المفسرون: وهم الشُّرَط، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿بِكُلِّ سَاحِرٍ﴾، وقرأَ حمزة والكسائي: [بِكُلِّ سَحَّار على بناءِ المبالغة، وكذلك في سورة يونس[٤]، وأَجمعوا على [سَحَّار] في سورة الشعراءِ[٥]، وقال قتادة: معنى

= الأكابر عن الأئمة، وتلقتها الأمة بالقبول، ولها توجيه في العربية، وليست الهمزة كغيرها من الحروف الصحيحة لأنها قابلة للتغيير». والحقيقة أنه يجب ألا نخضع القرآن لآراء علماء النحو أو اللغة ـ فما دامت القراءة ثابتة فهي فوق كلام النحويين واللغويين. وهي مصدر يؤخذ عنه ولا يُحْكَم عليه.

(١) الأبيات الثلاثة لدريد بن زيد بن نهد ـ وهو أحد المعمرين ـ راجع «الشعر والشعراء» لابن قتيبة، وأمالي السيد المرتضى ١ ـ ١٧٢ ـ والرواية في «الشعر والشعراء» هي:

أَلْقى عليَّ الدَّهر رجْلا ويداً
والدهر ما أَصْلَح يوماً أفسدا
يُصْلِحه اليومَ ويُفْسده غَداً.

(٢) الرواية المشهورة في البيت: «فالطَّجع» أراد: فاضطجع فأبدل الضاد لاماً، وهو إبدال شاذ. وقد روي: فاطَّجع بإبدال الضاد طاء ثم بإدغامها ـ وروي: فاضَّجع بإبدال الطاء ضاداً ثم إدغامها، قال المازني: إنَّ بعض العرب يكره الجمع بين حرفين مطبقين فيقول: الْطَجَع ويبدل مكان الضاد أقرب الحروف إليها وهو اللام، وهو نادر والبيت في اللسان ـ وقد نسبه للراجز ـ ولم يحدده ـ وابن عطية يستشهد بقوله: «لادَعَهْ» على إجراء الوصل مجرى الوقف فيقلب تاء التأنيث هاءً مع إسكانها، وأصله: «لا دَعَة».

(٣) يقال: «هو وَلَدُ غِيَّة» بفتح الغين وبكسرها أي: هو ولَدُ زنْية، بمعنى أنه كان نتيجة لإغواءِ وإغراء، وهو نقيض قولهم «ولد رَشْدَه» عن «المعجم الوسيط».

(٤) في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩].

(٥) في قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٧].

الإرجاءِ الذي أَشاروا إليه: السجن والحبس.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ الآية. هنا محذوفات يقتضيها ظاهر الكلام، وهي أَنه بعث إلى السحرة وأَمرهم بالمجيءِ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه بعث غلماناً فعلّموا بالفَرَمَا[1].

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وعاصم في رواية حفص: ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ على جهة الخبر، وقرؤُوا في الشعراءِ[2]: [آنَّ لَنَا] ممدودة مفتوحة الأَلف غير عاصم، فإنه لا يمدها، قال أَبو علي: ويجوز أن تكون على جهة الاستفهام وحذف أَلفها، وقد قيل ذلك في قوله: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[3]، ومنه قول الشاعر:

أَفْـــرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الْكِـــرَامَ..... . . . .[4]

وقرأَ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي هنا وفي الشعراء: [آئِنَّ] بأَلف الاستفهام قبل [إنّ]، وقرأَت فرقة: [أَئِنَّ] بدون مدّ، وقرأَ أَبو عمرو هنا وفي الشعراء: [أَيِنَّ][5].

---

(١) الفَرَمَا ـ بالفاء والألف المقصورة ـ: مدينة بمصر ـ وفي معجم ياقوت أن الإسكندر والفرماء أخوان بنى كل منهما مدينة بأرض مصر وسماها باسمه.

(٢) تكررت الإشارة هنا إلى سورة الشعراء، ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١].

(٣) الشعراء: ٢٢.

(٤) هذا بيت لشاعر يسمَّى حضرميُّ بن عامر ـ وكان له تسعة إخوة فماتوا وورثهم، وكان له ابن عمٍّ اسمه جَزْءٌ وكان ينافسه، فزعم أن حضرمياً هذا سُرَّ بموت إخوته لأنه ورثهم، فقال حضرميٌّ:

أَفْـــــرَحُ أَن أُرزَأَ الكـــــرامَ وأن ... أُورثَ ذَوْداً شَصَـــائصـــاً نَبَـــلا؟
إن كنْـــتَ أَزْنَنْتَنـــي بهـــا كَـــذِبـــاً ... جَـــزْءٌ فـــلاقَيْـــتَ مثلَهَـــا عَجَـــلا

والذَّوْدُ: القطيع من الإبل بين الثلاث إلى العشرة (مؤنث) ـ وفي المثل: «الذَّوْدُ إلى الذَّوْد إبل» أي: القليل إلى القليل من الإبل كثير ـ والشصائص: جمع شَصُوص القليلة اللبن، والنَّبَل بفتح النون والباء هي الصغار من الإبل.

يريد: أأفرح لموت الكرام من إخوتي لأرث هذه الشصائص القليلة العدد القليلة اللبن؟ وهو يقول على سبيل الاستنكار. وروي أن جَزْءاً هذا فقد إخوته بعد هذا الشعر بقليل، فلما سمع حضرميُّ الخبر قال: إنا لله، كلمةٌ وافقت قَدَرا، يريد قوله: «فلاقيت مثلها عَجَلا».

(٥) أي بتسهيل همزة (إن) بعد همزة الاستفهام. قاله ابن خالويه في كتاب «الحجة في القراءات السبع».

والأَجر هنا: الأُجرة، فاقترحوها إن غَلبوا، فأَنعم فرعون لهم بها وزادهم المنزلة والجاه، ومعناه: المقربين منِّي. ورُوي أَن السحرة الذين جاؤُوا إلى فرعون كانوا خمسة عشرة أَلفاً، قاله ابن إسحق، وقال ابن جريج: كانوا تسعمائة، وذكر النقاش أَنهم كانوا اثنين وسبعين رجلاً، وقال عكرمة: كانوا سبعين أَلفاً، وقال محمد بن المنذر: كانوا ثمانين أَلفاً، وقال السدي: مائتي ألف ونيفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الأَقوال ليس لها سند يتوقف عنده، وقال كعب الأَحبار: كانوا اثني عشر أَلفاً، وقال السدي: كانوا بضعة وثلاثين أَلف رجل مع كل رجل حبل وعصا، وقال أَبو ثمامة: كانوا سبعة عشر ألفاً.

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ ﴾ الآية. [أَنْ] في قوله: [إِمَّا أَنْ] في موضع نصب، أَي: إما أَن تفعل الإلقاءَ، ويحتمل أن تكون في موضع رفع، أَي: إما هو الإلقاءُ. وخيَّر السحرة موسى في أَن يتقدم في الإلقاءِ أَو يتأَخر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا فعل المُدِلِّ الواثق بنفسه، والظاهر أن التقدم في التخيلات والمخارق والحجج، لأَن بديلتها تمضي بالنفس، فَلَيُظْهِرَ اللهُ أَمر نبوة موسى قوّى نفسه ويقينه، ووثق بالحق فأَعطاهم التقدم، فنشطوا وسروا حتى أَظهر الله الحق وأَبطل سعيهم.

وقوله تعالى: ﴿ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ نص في أَن لهم فعلا ما زائداً على ما يحدثونه من التزييف والآثار في العصا وسائر الأَجسام التي يصرفون فيها صناعتهم. ﴿ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ بمعنى: أَرهبوهم، أَي: أَفزعوهم، فكأَن فعلهم اقتضى واستدعى الرهبة من الناس، ووصف الله تبارك وتعالى سحرهم بالعظم، ومعنى ذلك: من كثرته، ورُوي أنهم جلبوا ثلاثمائة وستين بعيراً موقرة بالحبال والعصي فلما أَلقوها تحركت وملأَت الوادي يركب بعضها بعضاً، فاستهول الناس ذلك واسترهبوا، قال الزجاج: قيل: إنهم جعلوا فيها الزئبق فكانت لا تستقر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

﴿ أَنْ ﴾ في موضع نصب بـ ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ ﴾ أي بأن أَلْقِ، ويحتمل أن تكون مفسرة بمعنى (أي)، فلا يكون لها موضع من الإعراب.

وروي أَن موسى عليه السلام لما كان يوم الجمع، خرج متكئاً على عصاه ويدُه في يد أَخيه، وقد صُفَّ له السحرة في عدد عظيم حسبما ذكر، فلما أَلقوا واسترهبوا أَوحى الله تعالى إليه، فأَلقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، فعظم حتى كان كالجبل، وقيل: إنَّه طال حتى جاز النيل، وقيل: كان الجمع بالإسكندرية وطال حتى جاز مدينة البحيرة، وقيل: كان الجمع بمصر وأنه طال حتى جاز بذنبه بحر القلزم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول بعيد من الصواب مفرط الإغراق لا ينبغي أن يلتفت إليه، وروي أَن السحرة لما أَلقوا وأَلقى موسى عصاه جعلوا يرقون، وجعلت حبالهم وعصيهم تعظم، وجعلت عصا موسى تعظم حتى سدَّت الأُفق وابتلعت الكل ورجعت بعد ذلك عصاً فعندها آمن السحرة. وروي أَن عصا موسى كانت عصا آدم عليهما السلام، وكانت من الجنة، وقيل: كانت من العين الذي في وسط ورق الريحان(١)، وقيل: كانت غصناً من الخبيز. وقيل: كانت لها شعبتان، وقيل: كانت عصا الأَنبياءِ مختزنة عند شعيب عليه السلام، فلما استرعى موسى، قال له: اذهب فخذ عصا فذهب إلى البيت فطارت هذه إلى يده، فأَمره شعيب بردها وأَخذ غيرها ففعل فطارت هي إلى يده، فأَخبر بذلك

---

(١) هكذا في جميع الأصول «من العَيْن»، ولا نعرف المعنى الذي يريده، ولعلها من «العود» وأخطأ النساخ، أو لعلّه أراد: من خيار ما في وسط الريحان، فإن لكلمة (العيْن) معاني كثيرة، ومن هذه المعاني: خيار الشيء، يقال: عين المتاع والمال: خياره وأفضله، ويقال: خرج في عينَةِ ثيابه، أي في أحسنها، بل يقال للشيء إذا كان حسناً في مَرْآة العَيْن: هذا عِينَةٌ، ولكن كل هذه محاولات لا تصل بنا إلى الحقيقة.

شعيباً فتركها له، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن ملكاً من الملائكة دفع العصا إلى موسى في طريق مدين.

و﴿ تَلْقَفُ ﴾ معناه: تبتلع وتزدرد، و﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ معناه: ما صوروا فيه إفكهم وكذبهم، وقرأ جمهور الناس: [تَلَقَّفُ][1]، وقرأ عاصم في رواية حفص: [تَلْقف] بسكون اللام وفتح القاف، وقرأ ابن كثير في بعض ما روي عنه: [تَّلَقف] بتشديد التاء على إدغام التاءَيْن من (تتلقف)، وهذه القراءَة لا تترتب إلا في الوصل، وأما في الابتداءِ في الفعل فلا يمكن، وقرأ سعيد بن جبير: [تَلْقَم] بالميم، أي تبتلع كاللقمة.

ورُوي أَن الثعبان استوفى تلك الحبال والعصي أكْلا وأَعدمها الله عزَّ وجلَّ، ومد موسى يده إلى فمه فعاد عصاً كما كان، فعلم السحرة حينئذ أَن ذلك ليس من عند البشر فخروا سجداً مؤمنين بالله ورسوله.

وقوله تعالى: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾ الآية. [وَقَع] معناه: نَزَل وجدّ، و﴿ ٱلْحَقّ ﴾ يريد به سطوع البرهان وظهور الإعجاز واستمرار التحدي إلى الدين[2] على جميع العالم. و﴿ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ لفظ يعم سحر السحرة وسعي فرعون وشيعته. والضمير في قوله: ﴿ فَغُلِبُوا۟ ﴾ عائد على جميعهم من سحرة ومن سعي فرعون وشيعته، وفي قوله ﴿ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴾ إن قدّرنا انقلاب الجمع قبل إيمان السحرة فهم في الضمير، وإن قدرناه بعد إيمانهم، فليسوا في الضمير، ولا لحقهم صَغَارٌ يصفهم الله تبارك وتعالى به؛ لأَنهم آمنوا واستشهدوا رضي الله عنهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ الآيات ـ لما رأَى السحرةُ من عظيم القدرة ما تيقنوا به نبوَّة موسى عليه السلام آمنوا بقلوبهم، وانضاف إلى ذلك الاستهوال والاستعظام والفزع من قدرة الله تبارك وتعالى، فخرُّوا سجَّداً لله تعالى متطارحين، وآمنوا نطقاً بأَلسنتهم، وتَبَيَّنهم الربَّ بذكر موسى وهارون زوالٌ عن ربوبية فرعون وما كان يتوهم فيه من الجهال من أَنه رب الناس، وهارون أَخو موسى أَسَنُّ منه بثلاث سنين.

---

(١) أي بفتح اللام وتشديد القاف.

(٢) لعلَّ هنا نقصاً في الكلام نتج عن سقوط كلمات من النساخ، ولعل الأصل أن يكون ـ «واستمرار التحدي في الدعوة إلى الدين»، أو «واستمرار التحدي إلى يوم الدين».

وقول فرعون: ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ دليل على وهَن أمره، لأنه إنما جعل ذنبهم مفارقة الإذن ولم يجعله نفس الإيمان إلا بشرط. وقرأ عاصم في رواية حفص عنه في كل القرآن: ﴿آمَنتُم﴾ على الخبر، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: [آمَنْتُمْ] بهمزة ومدة على الاستفهام، وكذلك في طه والشعراء[1]، وقرأ حمزة والكسائي في الثلاثة مواضع: [أآمَنْتُمْ] بهمزتين الثانية ممدودة، ورواها الأعمش عن أبي بكر عن عاصم، وقرأ ابن كثير في رواية أبي الإخريط عنه: [وَامَنْتُمْ] وهي على ألف الاستفهام إلا أنه سهَّلها واواً فأجرى المنفصل مجرى المتصل في قولهم (تُوَده) في (تؤده). وقرأ قنبل عن القواس: [وآمَنْتُمْ] وهي على القراءَة بالهمزتين (أآمنتم) إلا أنه سهل ألف الاستفهام واواً، وترك ألف أفعلتم على ما هي عليه.

والضمير في [بِهِ] يحتمل أن يعود على اسم الله تبارك وتعالى، ويحتمل أن يعود على اسم موسى عليه السلام. وعنفهم فرعون على الإيمان قبل إذنه ثم ألزمهم أن هذا كان على اتفاق منهم، ورُوي في ذلك عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم أن موسى عليه السلام اجتمع مع رئيس السحرة واسمه شمعون، فقال له موسى: أرأيت إن غلبتكم أتؤمنون بي؟ فقال له: نعم، فعلم بذلك فرعون، فلذلك قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ ثم قال للسحرة: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾ الآية، فرجع فرعون في مقالته هذه إلى الخذلان والغشم وعادة ملوك السوءِ إذا غولبوا.

وقرأ حميد المكي، وابن محيصن، ومجاهد: [لأَقْطَعن] بفتح الهمزة والطاءِ وإسكان القاف، [وَلأَصْلُبَنَّ] بفتح الهمزة وإسكان الصاد وضم اللام، ورُوي بكسرها. و[مِنْ خِلَافٍ] معناه: يُمنى وَيُسرى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر من هذه الآيات أن فرعون توعد، وليس في القرآن نصٌّ على أنه أنفذ ذلك وأوقعه، ولكنه رُوي أنه صلب بعضهم وقطع. قال ابن عباس رضي الله عنهما: فرعون أول من صلب وقطع من خلاف، وقال ابن عباس وغيره فيهم: أصبحوا سحرة وأمسَوْا شهداءَ، وأما التوعد فلجميعهم.

---

(١) أما في (طه) ففي الآية (٧١) ـ وأما في (الشعراء) ففي الآية (٤٩).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

هذا تسليم من مؤمني السحرة واتكال على الله وثقة بما عنده.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَنقِمُ﴾ بكسر القاف، وقرأ أبو حيوة، وأبو البرهسم، وابن أبي عبلة، والحسن بن أبي الحسن: [تَنْقَم] بفتحها، وهما لغتان. قال أبو حاتم: الوجه في القراءةَ كسر القاف، وكلُّ العلماءِ أنشد بيت ابن الرُّقَيَّاتِ:

مــا نَقَمُــوا مِــنْ بنــي أُمَيَّــةَ.... . . . .[1]

بفتح القاف. ومعناه: وما تعد علينا ذنباً وتُؤاخذنا به.

وقولهم: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ معناه: عُمَّنَا كما يَعُمُّ الماءُ من أُفرغ عليه، وهي هنا استعارة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما آمنت السحرة اتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل، وحكى النقاش عن مقاتل أنه قال: مكث موسى بمصر بعد إيمان السحرة عاماً أو نحوه يريهم الآيات.

وقول ملأ فرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾ مقالة تتضمن إغراءَ فرعون بموسى وقومه، وتحريضَه على قتلهم أو تغيير ما بهم حتى لا يكون لهم خروج عن دين فرعون. ومعنى ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ﴾: ؟ أتترك؟ وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيَذَرَكَ﴾، ونصبه على معنيين: أحدهما أن يقدر: «وأن يذَرك» فهي واو الصرف[2]، فكأنهم قالوا: أتذره وأن يذرك؟ أي: أتتركه وتركك؟ والمعنى الآخر أن يعطف على قوله: [لِيُفْسِدُوا]. وقرأ نعيم بن

---

(١) البيت من قصيدة لعُبَيْد الله بن قيس الرُّقَيَّات مطلعها:

عــادَ لَــهُ مِــن كَثيــرة الطَّــرَبُ فَعَيْنُــهُ بــالــدُّمــوع تَنْسَكِــبُ

والبيت بتمامه:

مــا نقَمــوا مــن بنــي أُمَيَّــةَ إلا أنهُــم يحلمــونَ إن غَضِبُــوا

(٢) واو الصرف هي واو تقابل واو العطف، فقد جعلها الكوفيون قسماً مقابلاً للعاطفة وسموها كذلك لأنها صرفت المضارع عن الرفع إلى النصب. والبحث طويل يمكن الرجوع إليه في مباحث العطف في كتب النحو.

ميسرة، والحسن بخلاف عنه: [ويَذَرُكَ] بالرفع عطفاً على قولهم: [أَتَذَرُ]، وقرأَ أنس ابن مالك: [وَنَذَرُكَ] بالنون ورفع الفعل على معنى توعد منهم، أَو على معنى إخبار أن الأمر يؤول إلى هذا، وقرأَ أُبيّ بن كعب، وعبد الله: «في الأرض وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك»، قال أَبو حاتم: وقرأَ الأَعمش: [وقد تركَكَ وَآلهَتَكَ]، وقرأَ السبعة وجمهور من العلماء: ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ على الجمع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا على ما رُوي أَن فرعون كان في زمنه للناس آلهةٌ من بقر وأَصنام وغير ذلك، وكان فرعون قد شرع ذلك وجعل نفسه الإِلٰه الأَعلى، فقوله ـ على هذا ـ ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[1] إنما هو بمناسبة بينه وبين سواه من المعبودات. وقيل: إن فرعون كان يعبد حجراً كان يعلقه في صدره كياقوتة أَو نحوها، قال الحسن: كان لفرعون حنَّانة[2] معلقة في نحره يعبدها ويسجد لها. وقال سليمان التَّيْمي: بلغني أَنه كان يعبد البقر، ذكره أَبو حاتم.

وقرأَ ابن عباس، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، وأَنس بن مالك رضي الله عنهم أَجمعين، وجماعة غيرهم: [وَإِلاَهَتَكَ]، أَي: وعبادتك والتذلل لك، وزعمت هذه الفرقة أَن فرعون لم يُبح عبادة شيء سواه، وأَنه في قوله [الأَعْلَى] إنما أَراد: «الأَعظم والأَكبر» دون مناسبة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان فرعون يُعْبَد ولا يَعْبُد.

وقرأَ ابن كثير: [سَنَقْتُل] بالتخفيف، [ويُقَتِّلُون] بالتشديد، وخففهما جميعاً نافع. وقرأَ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [يُقتّلون] ـ و[سَنُقَتِّل] بالتشديد على المبالغة، والمعنى: سنستمر على ما كنا عليه من تعذيبهم وقطعهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ يريد: في المنزلة والتمكن من الدنيا، و﴿قَٰهِرُونَ﴾ يقتضي تحقير أَمرهم، أَي: هم أَقل من أن يهتم بهم.

---

(١) النازعات: ٢٤.

(٢) حنَّانة (بتشديد النون): القوسُ المُصَوِّتَةُ، وهي (صفة غالبة). عن «المعجم الوسيط».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾.

لما قال فرعون سنقتل أبناءَهم وتوعدهم، قال موسى عليه السلام لبني إسرائيل يثبتهم ويعدهم ما عند الله: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾، وظاهر هذا الكلام كله وعد بغيب فكأَن قوته تقتضي أنه من عند الله، وليس في اللفظ شيءٌ من ذلك، و﴿الأَرْضَ﴾ أَرض الدنيا وهو الأَظهر، وقيل: المراد هنا أرض الجنة، وأَما في الثانية فأَرض الدنيا لا غير[1].

وقرأَت فرقة: [يورَثها] بفتح الراءِ، وقرأَ السبعة: ﴿يورِثها﴾ ساكنة الواو خفيفة الراء مكسورة، وروى حفص عن عاصم وهي قراءة الحسن ـ [يورِّثها] بتشديد الراءِ على المبالغة. والصبر في هذه الآية يعُمّ الانتظار الذي هو عبادة والصبر في المناجزات.

وقولهم: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ يعنون به الذبح الذي كان في المدة التي كان فرعون يتخوف فيها أَن يولد المولود الذي يخرب ملكه، والذي من بعد مجيئه يعنون به وعيد فرعون وسائر ما كان خلال تلك المدة من الإخافة لهم. وقال السدي، وابن عباس رضي الله عنهما: إنما قالت بنو إسرائيل هذه المقالة حين اتبعهم فرعون واضطرهم إلى البحر فضاقت صدورهم ورأَوْا بحراً أَمامهم وعدواً كثيفاً وراءَهم فقالوا هذه المقالة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبالجملة هو كلام يجري مع المعهود من بني إسرائيل من اضطرابهم على أَنبيائهم وقلة يقينهم وصبرهم على الدين، واستعطافُ موسى لهم بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾، ووعدُه لهم بالاستخلاف في الأَرض يدل على أَنه يستدعي نفوساً نافرة، ويقوّي هذا الظن في بني إسرائيل سلوكُهم هذه السبيل في غير قصة. وحكى

(١) يريد بالثانية كلمة (الأرض) في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فهي أرض الدنيا بدون خلاف.

النقاش أَنهم قالوا ذلك بمصر حين كلفهم فرعون من العمل ما لا يطيقون. ورُوي أنه كان يكلفهم عمل الطوب ويمنعهم التبْن ليشق عليهم عمله.

وقوله تعالى: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ تنبيه وحضٌّ على الاستقامة، وإن قُدِّر هذا الوعد أَنَّهُ من عند الله فيتخرج عليه قول الحسن بن أبي الحسن: (عسى) من الله واجبة، وقد استخلفوا في مصر في زمن داود وسليمان، وقد فتحوا بيت المقدس مع يوشع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ الآية. أخبر أنه أَخذ آل فرعون في تلك المدة التي كان موسى يدعوهم فيها بالسنين وهو: الجدوب والقحوط، وهذه سيرة الله في الأُمم، وكذلك فعل بقريش. والسَّنَة في كلام العرب: القحط ومنه قول ليلى: «والناسُ مُسْنِتُونَ»، وسَنَة وعِضَة وما جرى مجراهما من الأَسماءِ المنقوصة تجمع بالواو والنون ليس على جهة السلامة لكن على جهة العِوَض، مما نقص وكذلك (أَرض) توهموا فيها نقص هاءِ التأْنيث؛ لأنه كان حقها أن تكون (أَرضة)، وأَمَّا (حرَّة وإِحَرُّون)[1] فلأَن التضعيف أَبداً يعتل فتوهموه مثل النقص، وكسر السين من (سِنون وسِنين) وزيادة الأَلف في (إحرين) دليل على أَنه ليس بجمع سلامة.

وقوله تعالى: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ رُوي أَن النخلة كانت لا تحمل إلا ثمرة واحدة، وقال نحوَه رجاءُ بن حيوة، وأَراد الله عزَّ وجلَّ أن ينيبوا ويزدجروا عما هم عليه من الكفر، إذْ أحوال الشدة ترق القلوب وتُرغب فيما عند الله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

---

(١) الحرَّة: الأرض ذات الحجارة السوداء النخرات كأنها أحرقت بالنار، والجمع حرَّات وحرار، قال سيبويه: «وزعم يونس أنهم يقولون: حرَّة وحرُّون جمعوه بالواو والنون يشبهونه بقولهم: أرض وأرضون لأنها مؤنثة مثلها»، قال: «وزعم يونس أيضاً أنهم يقولون: حرَّة وإحرُّون يعني الحرار، كأنه جمع إحرَّة ولكن لا يتكلم بها»، (عن اللسان ـ حرر).

كان القصد من إصابتهم بالقحط والنقص في الثمرات أَن يُنيبوا ويرجعوا فإذا بهم قد ضلوا وجعلوها تشاؤُماً بموسى، فكانوا إذا اتفق لهم اتفاق حسن في غلات ونحوها قالوا: هذا لنا وبسببنا وعلَى الحقيقة لنا، وإذا نالهم ضر قالوا: هذا بسبب موسى وشؤمه، قاله مجاهد وغيره. وقرأَ جمهور الناس بالياءِ وشدّ الطاءِ والياءِ الأَخيرة ﴿يَطَّيَّرُوا﴾، وقرأَ عيسى بن عمر، وطلحة بن مصرف بالتاءِ وتخفيف الطاءِ: [تَطيَّرُوا]، وقرأَ مجاهد: [تَشَاءَمُوا بموسَى] بالتاءِ من فوق وبلفظ الشؤم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ﴾ معناه: حظهم ونصيبهم، قاله ابن عباس، وهو مأْخوذ من زجر الطير، فسمّي ما عند الله من القدر للإنسان طائراً لما كان الإنسان يعتقد أَن كل ما يصيبه إنما هو بحسب ما يراه في الطائر، فهي لفظة مستعارة، وقرأَ جمهور الناس: [طَائِرهُمْ]، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [طَيْرُهم]. وقال تعالى [أَكْثَرهم] وجميعهم لا يعلم إما لأَن القليل عَلِمَ كالرجل المؤمن وآسية امرأَة فرعون[1]، وإما أَن يراد الجميع وتُجوّز في العبارة لأَجل الإمكان، ويحتمل أَن يكون الضمير في قوله: [طَائِرُهُمْ] لجميع العالم ويجيءُ تخصيص الأَكثر على ظاهره، ويحتمل أَن يريد: ولكن أَكثرهم ليس قريباً أَن يعلم لانغمارهم في الجهل، وعلى هذا فيهم قليل مُعَدّ لأَن يَعْلَم لو وفَّقه الله.

و(مَهْمَا) أَصلها عند الخليل (ماما) فبدلت الأَلف الأُولى هاءً، وقال سيبويه: هي (مه ما) خلطتا، وهي حرف واحد، وقال غيره: معناها: (مَهْ ومَا) جزاء، ذكره الزجاج، وهذه الآية تتضمن طغيانهم وعتوهم وقطعهم على أَنفسهم بالكفر البحت.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ الآية. قال الأَخفش: الطوفان: جمع طوفانة، وهذه عقوبات وأَنواع من العذاب بعثها الله عليهم ليزدجروا ويُنيبوا. والطوفان: مصدر من قولك: طاف يطوف فهو عامٌ في كل شيءٍ يطوف، إلاَّ أَن استعمال العرب له كثر في الماءِ والمطر الشديد، ومنه قول الشاعر:

---

(١) الرجل المؤمن هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤۡمِنٌ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]. وآسية امرأة فرعون نص القرآن الكريم على إيمانها، حيث يقول عزَّ من قائل: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتًا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾[التحريم: ١١].

غَيَّــرَ الجِــدَّةَ مِــنْ آيَــاتِهَــا   خُرُقُ ٱلرِّيح وطوفانُ المَطَر[١]

ومنه قول أَبي النجم:

قَــدْ مَــدَّ طــوفَــانٌ فَبَــثَّ مَــدَداً   شَهْــراً شَآبِيــبَ وشَهْــراً بَــرَداً[٢]

وقال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: إن الطوفان في هذه الآية المطر الشديد أَصابهم وتوالى عليهم حتى هدم بيوتهم وضيق عليهم. وقيل: طَمَّ فيض النيل عليهم، وروي في كيفيته قصص كثير. وقالت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «إن الطوفان المراد في هذه الآية هو الموت»[٣]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في بعض ما روي عنه: هو مصدر معمى، عُني به شيءٌ أطافه الله تبارك وتعالى بهم.

والجراد معروف، قال الأخفش: هو جمع جرادة للمذكر والمؤنث، فإِن أَردت الفصل قلت: رأَيت جرادة ذكراً، وروي أَن الله عزَّ وجلَّ لما والى عليهم المطر غرقت أَرضهم ومنعوا الزراعة، فقالوا: يا موسى ادْع في كشف هذا عنا ونحن نؤمن، فدعا، فدفعه الله عنهم فأَنبتت الأَرض إنباتاً حسناً، فطغوا وقالوا: ما نود أَنَّا لم نمطر، وما هذا إلا إحسان من الله إلينا، فبعث الله حينئذ الجراد، فأَكل جميع ما أَنبتت الأَرض، وروى ابن وهب عن مالك أَنه رَوى أَنه أَكل أَبوابهم وأَكل الحديد والمسامير، وضيَّق عليهم غاية التضييق، وترك الله من نباتهم ما يقوم به الرمق، فقالوا لموسى: ادع في كشف الجراد ونحن نؤمن، فدعا فكشف فرجعوا إلى كفرهم، ورأَوا أَن ما أَقام رمقهم قد كفاهم، فبعث الله عليهم القُمَّل وهي الدَّبَى صغار الجراد الذي يثب ولا يطير[٤]،

---

(١) البيت في (اللسان ـ طوف) غير منسوب، والجِدَّة: وجه الأرض، وآياتها: ما فيها من علامات، وخُرُق الريح: اشتداد هبوبها، يقال: خَرُقت الريح (من باب ظرف وفرح) فهي خرقاءُ، وطوفان المطر: المطر الغالب الذي يُغرق من كثرته، يقول: غيَّر معالم هذه الأرض شيئان: شدة هبوب الريح، ودوام هطول الأمطار الغزيرة.

(٢) الطوفان: المطر الغزير المغرق، والشآبيب: جمع شُؤْبوب وهو الدفقة من المطر، والبَرَد (بفتح الباء والراء): ما جمُد من المطر، ويسمَّى حبّ الغمام.

(٣) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه. عن عائشة رضي الله عنها. (الدر المنثور).

(٤) الدَّبى: بفتح الدال المشددة والباء الخفيفة والألف المقصورة: الجراد قبل أن يطير، والواحدة دباة، وأرضٌ مدبِيَة إذا أكل الدبَى نباتها.

قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: هو الحَمْنان وهو صغار القردان[١]. وقيل: هو البراغيث، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: القُمَّل: السُّوس الذي يخرج من الحنطة. وقيل: القُمَّل: حيوان صغير جداً أسود، وأنه بأَرض مصر حتى الآن، قال حبيب بن أَبي ثابت: القُمَّل: الجِعلان[٢]، وقرأ الحسن: [القَمْل] بفتح القاف وسكون الميم، فهي ـ على هذا ـ بيّنة، إذ هو القمل المعروف. ورُوي أَن موسى مشى بعصاه إلى كثيب أُهيل، فضربه فانتشر كله قملاً في مصر، ثم إنهم قالوا: ادع في كشف هذا فدعا، ورجعوا إلى طغيانهم وكفرهم.

وبعث الله تبارك وتعالى عليهم الضفادع، فكانت تدخل في فرشهم وبين ثيابهم، وإذا همَّ الرجل أن يتكلم وثب الضفدع في فمه. قال ابن جبير: كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت الضفادع برية، فلما أُرسلت على آل فرعون سمعت وأَطاعت، فجعلت تقذف أَنفسها في القدور وهي تغلي فأَثابها الله بحسن طاعتها برْدَ الماءِ، فقالوا: ادع في كشف هذا، فدعا فكشف فرجعوا إلى كفرهم وعتوهم، فبعث الله عليهم الدم فرجع ماؤُهم الذي يستسقونه ويحصل عندهم دماً، فروي أَن الرجل منهم كان يستقي من البئر فإذا ارتفع إليه الدلو عاد دماً، وروي أَنه كان يستقي القبطي والإسرائيلي بإناءٍ واحد فإذا خرج الماءُ كان الذي يلي القبطي دماً والذي يلي الإسرائيلي ماءً، إلى نحو هذا وشبهه من العذاب بالدم المنقلب عن الماءِ، هذا قول جماعة المتأَولين. وقال زيد بن أَسلم: إنما سلط الله عليهم الرعاف فهذا معنى قوله تعالى: [والدَّمَ].

وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ التفصيل أَصله في الأَجرام إزالة الاتصال، فهو تفريق شيئين، فإذا استعمل في المعاني فيراد أنه فرق بينها وأُزيل اشتراكها وأَشكالها، فيجيءُ من ذلك بيانها، وقالت فرقة من المفسرين: [مُفَصَّلاَت] يراد به مفرقات بالزمن، والمعنى أَنه كان العذاب يرتفع ثم يبقون مدة ـ قيل: شهراً، وقيل: ثمانية أيام ـ ثم يرد الآخر، فالمراد أَن هذه الأَنواع من العذاب لم تجيء جملة ولا متَّصلة،

---

(١) الحَمْنَان: ضرب من القردان، والواحدة: حَمْنَانة، والقِرْدان بكسر القاف جمع قُراد بضمها، والواحدة قُرادة، وهي دويبة معروفة تتعلق بالحيوانات كالقمل في تعلقه بالإنسان.

(٢) الجِعلان (بكسر الجيم): جمع جُعَل (كَصُرَد)، وهو دابّة سوداءُ من دواب الأرض.

ثم وصفهم الله عزَّ وجلَّ بالاستكبار عن الآيات والإيمان، وبأنهم كان لهم اجترام على الله تبارك وتعالى وعلى عباده.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

﴿ٱلرِّجْزُ﴾: العذاب، والظاهر من الآية أن المراد بالرجز العذاب المتقدم الذكر من الطوفان والجراد وغيره، وقال قوم من المفسرين: الإشارة هنا بالرجز إنما هي إلى طاعون أنزله فيهم، فمات منهم في ليلة واحدة سبعون ألف قبطي، وروي في ذلك أن موسى عليه السلام أمر بني إسرائيل بأن يذبحوا كبشاً ويُضَمِّخُوا أبوابهم بالدم ليكون ذلك فرقاً بينهم وبين القبط في نزول العذاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وهذه الأخبار وما شاكلها إنما تؤخذ من كتب بني إسرائيل فلذلك ضعفت، وقولهم: [بِمَا عَهِدَ] يريدون: بذمامك وماتَّتِكِ إليه، فهي تعم جميع الوسائل بين الله تبارك وتعالى وبين موسى من طاعة موسى ونعم من الله تبارك وتعالى. ويحتمل أن يكون ذلك منهم على جهة القسم على موسى، ويحتمل أن يكون المعنى: ادع لنا ربَّك ماتاً إليه بما عهد إليه، ويحتمل ـ إن كان شعر أن بين الله تعالى وبين موسى في أمرهم عهْد ما ـ أن تكون الإشارة إليه. والأول أعم وألزم، والآخر يحتاج إلى رواية.

وقولهم: ﴿لَئِن كَشَفْتَ﴾ أي بدعائك ﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾ ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ﴾ قسمٌ وجوابه، وهذا عهد من فرعون وملئه الذين إليهم الحل والعقد، ولهم ضمير الجمع في قوله: [لَنُؤْمِنَنَّ].

وألفاظ هذه الآية تعطي الفرق بين القبط وبين بني إسرائيل في رسالة موسى، لأنه لو كان إيمانهم به على حدّ إيمان بني إسرائيل لما أرسلوا بني إسرائيل ولا فارقوا

دينهم، بل كانوا يشاركون فيه بني إسرائيل. ورُوي أنه لما انكشف العذاب قال فرعون لموسى: اذهب ببني إسرائيل حيث شئت فخالفه بعض ملته فرجع فنكث. وأَخبر الله عزَّ وجلَّ أَنه لما كشف عنهم العذاب نكثوا عهدهم الذي أَعطوه موسى، و[إِذَا] ها هنا للمفاجأَة، و[إلى] متعلقة بـ [كَشَفْنَا]، والأَجل يراد به غاية كل واحد منهم بما يخصه من الهلاك والموت، هذا اللازم من اللفظ كما تقول: أَخذت كذا إلى وقت، وأَنت لا تريد وقتاً بعينه. وقال يحيى بن سلاَّم[١]: الأَجل هنا: الغرق.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإنما قال هذا القول لأَنه رأَى جمهور هذه الطائفة قد اتفق أن هلكت غرقاً فاعتقد أَن الإشارة هنا بالأَجل إنما هي إلى الغرق، وهذا ليس بلازم لأَنه لابد أَنه مات منهم قبل الغَرَق عالَمٌ وهم ممَّن أُخِّر وكشف عنهم العذاب إلى أَجل بلغه ودخل في هذه الآية، فأَين الغرق من هؤلاءِ؟ وأَين هو ممَّن بقي بمصر ولم يغرق؟

وذكر بعض الناس أَن معنى الكلام: فلما كشفنا عنهم الرجز المؤجل إلى أَجل هم بالغوه إذا هم ينكثون، ومحصول هذا التأْويل أَن العذاب كان مؤجلاً، والمعنى الأَول أَفصح لأَنه تضمن توعداً مَّا.

وقرأَ أَبو البرهسم، وأَبو حيوة: [يَنْكِثُون] بكسر الكاف، والنَّكث: نقْض ما أُبرم، ويستعمل في الأجسام وفي المعاني، وقرأَ ابن محيصن، ومجاهد، وابن جبير: [الرُّجز] بضم الراءِ في جميع القرآن، قال أَبو حاتم: إلا أَن ابن محيصن كسر حرفين: ﴿رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[٢]، ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[٣].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

رآهما بمعنى آخر بمثابة الرِّجز والنَّتن الذي يجب التطهر منه.

---

(١) هو يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، مفسر، فقيه، عالم بالحديث واللغة، أدرك نحو عشرين من التابعين وروى عنهم، ولد بالكوفة، ونشأ بالبصرة، ورحل إلى مصر وأفريقية فاستوطن، وتوفي بمصر بعد عودته من الحج. من كتبه: «تفسير القرآن» (ط)، قال ابن الجزري: «ليس لأحد من المتقدمين مثله» وله أيضاً «الجامع». وقال ابن الجزري: «وكان ثقة ثبتاً ذا علم بالكتاب والسُّنَّة»، وقال العسقلاني: «ضعفه الدارقطني في الحديث»، وذكره ابن حبان في الثقات. (الأعلام).

(٢) ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [الأنفال: ١١].

(٣) المدثر: ٥.

و[ٱلْيَمّ]: البحر، ومنه قول ذي الرّمّة:

دَوِّيَّـةٌ ودُجَـى لَيْـلٍ كَـأَنَّهمـا   يَمٌّ تـراطـنُ فـي حـافـاتِـهِ الرُّومُ(١)

والباءُ في قوله: [بِأَنَّهُم] باءُ التسبيب، ووصف الكفار بالغفلة ـ وهم قد كذبوا ووردوا في صدر الآيات ـ من حيث غفلوا عما تضمَّنه الآيات من الهدى والنجاة، فعن ذلك غفلوا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ كناية عن بني إسرائيل لاستعباد فرعون لهم، وغلبته عليهم. وقوله تعالى: ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ قال الحسن، وقتادة، وغيرهما: يريد أَرض الشام، وقال أَبو جعفر النحاس: «وقيل: يراد أَرض مصر وهو قول الحسن في كتاب النقاش». وقالت فرقة: يريد الأَرض كلها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا يتجه إمَّا على المجاز لأَنه مَلَّكهم بلاداً كثيرة، وإِما على الحقيقة في أَنه ملَّك ذريتهم، وهو(٢) سليمان بن داود عليهما السلام، ولكن الذي يليق بمعنى الآية وروي فيها هو أَنه ملَّك أَبناءَ المستضعفين بأَعيانهم مشارق الأَرض ومغاربها لا سيما بوصفه

---

(١) هذا البيت من قصيدته المعروفة التي مطلعها: «أأن تَوَسَّمْتَ من خَرْقَاءَ مَنْزِلَةً» والدَّوِّيَّة (ويروى: داويّة) الفلاة. واليَمُّ: البحر، والدُّجى: الظلام، والرَّطانة: كلام العجم وما ليس بعربي من اللغات، وحافاته: جوانبه، يُشَبِّه الفلاة وما تراكم عليها من ظلام الليل والبحر وأمواجه، وهو يريد البحر الذي يسكن على جوانبه الرومان وغير العرب كأنه يعني «البحر المتوسط».

(٢) هكذا في الأصول التي بين أيدينا، ولعله ذكر الضمير وأفرده تبعاً للخبر عنه (سليمان) ولعلَّ أصلها: «ومنهم سليمان».

الأَرض بأَنها التي بارك فيها، ولا يتصف بهذه الصفة وينفرد بها أَكثر من غيرها إلا أرض الشام لما بها من الماءِ والشجر والنعم والفوائد.

وحكى الطبري عن قائل لم يسمّه ـ وذكر الزهراوي أنه الفراءُ ـ أَن ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ نصب على الظرف، أَي: يستضعفون في مشارق الأَرض ومغاربها، وأَن قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ معمول لـ[أَوْرَثْنا] وضعفه الطبري[١]، وكذلك هو قول غير متجه. و[الَّتي] في موضع خفض نعت للأَرض، ويجوز أَن يكون في موضع نصب نعت لـ[مَشَارِقَ] و[مَغَارِبَ].

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أَي ما سبق لهم في عِلْمِهِ وكلامه في الأَزل من النجاة من عدوهم والظهور عليه، قاله مجاهد، وقال المهدوي: وهي قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٢]، وقيل: هي قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾[٣] الآية. وروي عن أَبي عمرو: [كلِمات].

و﴿يَعْرِشُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: معناه: يَبْنون، وعرش البيت: سَقَفه، والعرشُ: البناءُ والتنضيد، وقال الحسن: هي في الكروم وما أَشبهها، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: بكسر الراءِ، وقرأَ الباقون «ابن عامر، وعاصم فيما رُوي عنه، والحسن، وأَبو رجاءِ، ومجاهد»: بضمها، وكذلك في سورة النحل[٤]. وهما لغتان. وقرأَ ابن أَبي عبلة: [يُعَرِّشُونَ] و[يُعَكِّفُون] بضم الياءِ فيهما وفتح العين وتشديد الراءِ والكاف مكسورتين.

---

(١) قال في تعليله للضعف: «ذلك قول لا معنى له، لأن بني إسرائيل لم يكن يستضعفهم أيام فرعون غير فرعون وقومه، ولم يكن له سلطان إلا بمصر، فغير جائز ـ والأمر كذلك ـ أن يقال: الذين يُستضعفون في مشارق الأرض ومغاربها». فإن قال قائل: فإن معناه: في مشارق أرض مصر ومغاربها، فإن ذلك بعيد من المفهوم في الخطاب مع خروجه عن أقوال أهل التأويل والعلماء بالتفسير.

(٢) القصص: ٥.

(٣) سبقت في الأعراف: ١٢٩.

(٤) في قوله تعالى ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ورأَيت الحسن البصري أَنه احتج بقوله تعالى : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية على أَنه لا ينبغي أن يُخرج على ملوك السوءِ ، وإنما ينبغي أَن يُصبر عليهم فإن الله تعالى يدمرهم ، ورأَيت لغيره أَنه قال : إذا قابل الناس البلاءَ بمثله وكلَهم الله إليه ، وإذا قابلوه بالصبر وانتظار الفرج ، أَتى الله بالفرج . وروي هذا القول أَيضاً عن الحسن .

وقرأَ جمهور الناس : [وَجَاوَزْنَا] ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن : [وَجَوَّزْنَا][(١)] ، ذكره أَبو حاتم والمهدوي ، والمعنى : قطعناه بهم وجزعناه[(٢)] ، وهذه الآية ابتداءُ خبر عنهم ، قال النَّقّاش : جاوزوا البحر يوم عاشوراءَ ، وأُعطي موسى التوراة يوم النحر القابل ، فبين الأَمرين أحد عشر شهراً ، وروي أَن قطعهم كان من ضفَّة البحر إلى الضفَّة المُنَاوِحة[(٣)] للأُولى ، ورُوي أنه قطع من الضفة إلى موضع آخر منها .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فإما أن يكون ذلك بوحي من الله وأَمر لينْفُذ أَمرُه في فرعون وقومه ، وهذا هو الظاهر ، وإما بحسب اجتهاد موسى في التخلص بأَن يكون بين موضعين أَوعار وحايلات ، ووقع في كتاب النقاش أَنه نيل مصر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا خطأٌ لا تساعده رواية ، ولا يحتمله لفظ إلا على تحامل ، وإنما هو بحر القلزم . والقوم المشار إليهم في الآية العرب ، وقيل : هم الكنعانيون ، وقال قتادة وأَبو عمرو الجوني : هم قوم من لخم وجذام . والقوم في الكلام : الرجال خاصة ، ومنه قول زهير :

---

(١) قال أبو حيان في «البحر» : «هذا مما جاء فيه فعَّل بمعنى فَعَل المجرد نحو قدَّر وقدَر ، وليس التضعيف للتعدية» .

(٢) من قولهم : جزَعَ الوادي جزْعاً بمعنى قطعه عرضاً . (المعجم الوسيط) .

(٣) المُنَاوحة : المقابلة . يقال : داره تُنَاوحُ داري ، بمعنى تقابلها (المعجم الوسيط) .

وَلاَ أَدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي أَقَوْمٌ آل حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ[1]

ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾، ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾[2].

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: [يَعْكُفُونَ] بضم الكاف. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو في رواية عبد الوارث عنه: [يَعْكِفُون] بكسرها، وهما لغتان. والعكوفُ: الملازمة بالشخص لأمر مَّا، والإكباب عليه، ومنه الاعتكاف في المساجد، ومنه قول الراجز:

. . . . عَكْفَ النَّبِيطِ يَلْعَبون الفَنْزَجَا[3]

والأصنام في هذه الآية قيل: كانت بقراً على الحقيقة، وقال ابن جريج: كانت تماثيل بقرٍ من حجارة وعيدان ونحوه، وذلك كان أول فتنة العِجْل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر من مقالة بني إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ أنهم استحسنوا ما رأوه من آلهة أُولئِكِ القوم، فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى وفي جملة ما يُتقرب به إلى الله، وإلا فبعيدٌ أن يقولوا لموسى: اجعل لنا صنماً نفرده بالعبادة ونكفر بربِّك. فعرفهم موسى عليه السلام أن هذا جهل منهم إذ سألوا أمراً حراماً فيه

---

(١) الرواية في (اللسان): «وما أدري» ـ وقد استشهد بالآية الكريمة ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ على أن كلمة (قوم) للرجال خاصة دون النساء، قال: «فلو كانت النساء من القوم لم يقل: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾، ثم قال: «وكذلك قول زهير» وساق البيت.

(٢) الحجرات: ١١.

(٣) البيت للعجاج يصف ثوراً، وهو بتمامه:

فَهُنَّ يَعْكُفْنَ بِهِ إِذْ حَجَا عَكْفَ النَّبِيطِ يلعبونَ الفَنْزَجَا

بمعنى: يقبلن عليه. ومعنى حَجَا: وقف، من قولهم: حَجَا بالمكان: أقام وثبت. والنَّبيط والنَّبط كالحبيش والحبش في التقدير: جيل ينزلون سواد العراق، وهم الأنباط، والمعنى المراد الآن: الأخلاط من الناس من غير العرب، والفَنْزج والفنزجة: النزوان، أو هو اللعب الذي يقال له: الدَّسْتَبَند ويعني به رقص المجوس. وفي الصحاح: هو رقص للعجم يأخذ بعضهم بيد بعض. قاله في «تاج العروس» واستشهد عليه ببيت العجَّاج هذا. وقد سبق أن استشهد ابن عطية بهذا البيت. .

الإشراك في العبادة، ومنه يتطرق إلى إفراد الأصنام بالعبادة والكفر بالله عزَّ وجلَّ. وعلى هذا الذي قلت يقع التشابه الذي قصه النبي ﷺ في قول أَبي واقد الليثي له في غزوة حنين إذ مرُّوا على دوح سدرة خضراءَ عظيمة: اجعل لنا يا رسول الله ذات أنواط كما لهم ذات أَنواط، وكانت ذات أَنواط سرْحة لبعض المشركين يعلقون بها أسلحتهم، ولها يوم يجتمعون إليها فيه، فأَراد أَبو واقد وغيره أَن يشرع ذلك رسول الله ﷺ في الإسلام، فرأَى رسول الله ﷺ أَنها ذريعة إلى عبادة تلك السرْحة فأَنكره وقال: (الله أكبر، قلتم والله كما قالت بنو إسرائيل: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ لتتبعن سَنَنَ مَنْ قَبْلكُمْ)(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولم يقصد أَبو واقد بمقالته فساداً. وقال بعض الناس: كان ذلك من بني إسرائيل كفراً، ولفظة (الإله) تقتضي ذلك، وهذا محتمل، وما ذكرته أَولا أصح عندي، والله تعالى أعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

أَعلمهم موسى عن الله عزَّ وجلَّ بفساد حال أُولئك القوم ليزول ما استحسنوه من حالهم فقال: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى أُولئك القوم، ﴿مُتَبَّرٌ﴾ أَي مهلك مدمرٌ رديءُ العاقبة، قاله السدي، وابن زيد. والتبار: الهلاك وسوءُ العقبى، وإناءٌ متبَّر أَي مكسور وكسارته تِبر، ومنه تِبر الذهب لأَنه كِسارة، وقوله: ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ لفظ يعُمُّ جميع حالهم، ﴿وَبَـٰطِلٌ﴾ معناه: فاسد ذاهب مضمحل.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ الآية. أَمر الله تعالى موسى عليه السلام أَن يوقفهم ويقررهم على هذه المقالة، ويحتمل أَن يكون القول من تلقائه عليه السلام،

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وغيرهم. (فتح القدير).

و﴿ أَبْغِيكُمْ ﴾ معناه: أَطلب لكم، من بَغَيْت الشيءَ إذا طلبته، و[غَيْرَ] منصوبة بفعل مضمر، هذا هو الظاهر، ويحتمل أن ينتصب على الحال، كأَن تقدير الكلام: قال أَبغيكم إلهاً غير الله؟ فهي في مكان الصفة، فلما قدمت نصبت على الحال. و﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لفظ عام يراد به تخصيص عالم زمانهم، لأَن أُمة محمد ﷺ أفضل منهم بإجماع، ولقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[1]، اللهم إلا أن يراد بالفضل كثرة الأَنبياءِ منهم فإنهم فضلوا في ذلك على العالمين بالإطلاق.

ثم عدد عليهم في هذه الآية النِّعَمَ التي يجب من أَجلها أَلا يكفروا به ولا يرغبوا عبادة غيره. وقرأَت فرقة: [نَجَّيْنَاكُمْ]، وقرأَ جمهور الناس: ﴿ أَنجَيْنَٰكُم ﴾ وقد تقدم، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: [وَإِذْ أَنْجَاكُمْ] أَي: أَنجاكم الله، وكذلك هي في مصاحف أَهل الشام، ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ معناه: يحملونكم ويكلفونكم، تقول: سامه خطة خسف، ونحو هذا، ومساومة البيع ينظر إلى هذا وأَن كل واحد من المتساومين يكلف صاحبه إرادته، ثم فسَّر سوءَ العذاب بقوله: ﴿ يُقَتِّلُونَ ـ وَيَسْتَحْيُونَ ﴾. و﴿ بَلَآءٌ ﴾ ـ في هذا الموضع ـ معناه: اختبار وامتحان، وقوله: ﴿ ذَٰلِكُم﴾ إشارة إلى سوءِ العذاب، ويحتمل أن يشير إلى التنجية، فكأَنه قال: وفي تَنْجِيَتِكُمْ امتحان لكم واختبار، هل يكون منكم وفاءٌ بحسب النعمة؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والتأْويل الأَول أَظهر.

وقالت فرقة: هذه الآيات خاطب بها موسى من حضره من بني إسرائيل. وقال الطبري: بل خوطب بهذه الآية من كان على عهد محمد ﷺ تقريعاً لهم بما فعل بأَوائلهم وبما جازوا به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأَول أَظهر وأَبين.

---

(١) آل عمران: ١١٠.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ ﴾.

قرأ أَبو عمرو، وأُبي بن كعب، وأَبو رجاءٍ، وأَبو جعفر، وشيبة: [وَوَعَدْنَا]، وقد تقدم في البقرة، وأَخبر الله تعالى موسى عليه السلام بأَن يتهيأ لمناجاته ثلاثين ليلة، ثم زاده في الأَجل بعد ذلك عشر ليال، فذكر أَن موسى عليه السلام أَعلم بني إسرائيل بمغيبه ثلاثين ليلة، فلما زاده العَشْر في حال مغيبه دون أن تعلم بنو إسرائيل ذلك وجَسَت نفوسهم[(١)] للزيادة على ما أَخبرهم به، فقال لهم السامري: إنَّ موسى قد هلَك وليس براجع وأضلهم بالعجل فاتَّبعوه، قاله كله ابن جريج. وقيل: بل أَخبرهم بمغيبه أَربعين، وكذلك أَعلمه الله تبارك وتعالى، وهو المراد بهذه الآية، قاله الحسن. وهو مثل قوله تعالى: ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ﴾[(٢)]، وأنهم عدوا الأيام والليالي، فلما تم أَربعون من الدّهر قالوا: قد أَخلف موسى فضلوا، قال مجاهد: إن الثلاثين هي شهر ذي القعدة، وإن العشر هي عشر ذي الحجة، وقاله ابن عباس، ومسروق، وروي أن الثلاثين إنما وعد بأن يصومها ويتهيأَ فيها للمناجاة ويستعد، وأن مدة المناجاة هي العشر، وقيل: بل مدة المناجاة الأربعون، وإقبال موسى على الأمر والتزامه يُحَسِّن لفظ المواعدة، وحيث ورد أن المواعدة أَربعون ليلة فذلك إخبارٌ بجملة الأَمر، وهو في هذه الآية إخبار بتفصيله كيف وقع. و[أَربَعينَ] في هذه الآية وما بعدها في موضع الحال، ويصح أَن تكون [أَربعين] ظرفاً من حيث هي عدد أزمنة. وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب [وتَمَّمْنَاهَا] بغير ألف وبتشديد الميم، وذكر الزجاج عن بعضهم قال: لما صام ثلاثين يوماً أَنكر خلوف[(٣)] فمه فاستاك بعود خروب، فقالت الملائكة: إنا كنا نستنشق من

---

(١) يقال: وجَسَ ـ من باب وَعَد ـ يَجِس وجْساً ووجسَانا بمعنى فزع مما وقع في قلبه أو سمعه من صوت.

(٢) البقرة: ١٩٦.

(٣) خلَف الشيءُ خلوفاً: تغير وفسد، يقال: خَلَف الطعام وخَلَف فم الصائم، وفي الحديث (لَخَلُوفُ فم=

فيك رائحة المسك، فأفسدته بالسواك فزيدت عليه عشر ليال، و﴿ثَلاثينَ﴾ نصب على تقدير: أجلناه ثلاثين، أو مناجاة ثلاثين، وليست منتصبة على الظرف؛ لأن المواعدة لم تقع في الثلاثين، ثم ردد الأمر بقوله سبحانه: ﴿فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ قيل: ليبيِّن أن العشر لم تكن ساعات، وبالجملة تأكيد وإيضاح[1].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ﴾ الآية. المعنى: وقال موسى حين أراد المضي للمناجاة والمغيب فيها، و﴿اخْلُفْني﴾ معناه: كن خليفتي، وهذا استخلاف في حياة كالوكالة التي تنقضي بعزل الموكل أو موته ولا يقتضي أنه متماد بعد وفاة، فينحلُّ ـ على هذا ـ ما تعلق به الإمامية في قولهم: إن النبي ﷺ استخلف علياً بقوله: (أنت مني كهارون من موسى)[2]، وقال موسى: اخلفني فيترتب على هذا أن عليّاً خليفة رسول الله ﷺ. وما ذكرناه يحل هذا القياس.

وأَمره في هذه الآية بالإصلاح، ثم من الطريق الآخر في ألا يتبع سبيل مفسد. قال ابن جريج: كان من الإصلاح أن يزجر السامري ويغيّر عليه.

ثم أخبر الله تبارك وتعالى عن موسى عليه السلام أنه لما جاءَ إلى الموضع الذي حُدِّدَ لَه، وفي الوقت الذي عُيِّنَ له، وكلَّمه ربه قال تَمَنياً منه: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿أَرِنِيٓ﴾ بكسر الراءِ، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: [أَرْني] بسكون الراء.

والمعنى في قوله تعالى: ﴿كلَّمَهُ﴾ أي: خلق له إدراكاً سمع به الكلام القائم بالذات القديم الذي هو صفة ذات. وقال ابن عباس، وابن جبير: أدنى الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام حتى سمع صريف الأقلام في اللوح، وكلام الله عزَّ وجلَّ لا يشبه

= الصائم عند الله أطيب من ريح المسك».

(١) يبين المؤلف السبب في هذه الجملة ﴿فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ وقد عُلم أن ثلاثين وعشرة أربعين فقال: ليُبَيِّن أن العشر أيضاً من جنس الليالي، وفي الجملة كذلك تأكيد للعدد وإيضاح للمراد، وقيل: فائدتها إزالة توهم أن العشر من الثلاثين.

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي، والترمذي في المناقب، وابن ماجه في المقدمة، والإمام أحمد في مواطن كثيرة، وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص، ونصه: «سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي حين خلفه في بعض مغازيه: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي».

شيئاً من الكلام الذي للمخلوقين ولا في جهة من الجهات، وكما هو موجود لا كالموجودات، ومعلوم لا كالمعلومات، كذلك كلامه لا يشبه الكلام الذي فيه علامات الحدوث، والواو عاطفة [كَلَّمَه] على [جاءَ]، ويحتمل أن تكون واو الحال، والأول أبين. وقال وهب بن منبه: كلم الله موسى في ألف مقام، كان يُرى نور على وجهه ثلاثة أيام إثر كل مقام، وما قرب موسى النساءَ منذ كلمه الله تعالى. وجواب [لَمَّا] في قوله تعالى: [قَالَ]، والمعنى أنه لما كلمه وخصه بهذه المرتبة طمحت همته إلى رتبة الرؤية وتشوّق إلى ذلك، فسأل ربه أن يريه نفسه، قاله السدي، وأبو بكر الهذلي، وقال الربيع: قربناه نجياً حتى سمع صريف الأقلام.

ورؤية الله عزَّ وجلَّ عند الأشعرية وأهل السنة جائزة عقلاً، لأنه من حيث هو موجود تصح رؤيته، قالوا: لأن الرؤية للشيءِ لا تتعلق بصفة من صفاته أكثر من الوجود، إلا أن الشريعة قررت رؤية الله تبارك وتعالى في الآخرة نصاً، ومنعت من ذلك في الدنيا بظواهر من الشرع، فموسى عليه السلام لم يسأل ربّه محالاً وإنما سأل جائزاً.

وقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ الآية. ليس بجواب من سأل محالاً، وقد قال تبارك وتعالى لنوح: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1]، فلو سأل موسى محالاً لكان في الكلام زجرٌ ما وتبيين. وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ نص من الله تعالى على منعه الرؤية في الدنيا، و[لَنْ] تنفي الفعل المستقبل، ولو بقينا مع هذا النفي بمجرده لقضينا أنه لا يراه موسى أبداً ولا في الآخرة، لكن ورد من جهة أُخرى بالحديث المتواتر أن أهل الإيمان يرون الله تعالى يوم القيامة، فموسى عليه السلام أحرى برؤيته[2]. وقال مجاهد وغيره: إنَّ الله عزَّ وجلَّ

(١) هود: ٤٦.

(٢) من الأحاديث المتواترة في هذا المقام ما جاء في الصحيحين أن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟ قالوا: لا، قال: «إنكم ترون ربكم كذلك» وفي الصحيحين عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا». والأحاديث الثابتة في ذلك كثيرة، ولا مجال للمناقشة معها في أن المؤمنين سيرون ربهم يوم القيامة. وإذا ثبت الحديث، فلا حجة أمامه.

قال لموسى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ ولكن سأتجلى للجبل الذي هو أقوى منك وأشد فإن استقر وأطاق الصبر لِهَيْبَتي فسيمكنك أن رؤيتي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا إنما جعل الله الجبل مثالاً[(١)] وقالت فرقة: إنما المعنى: سأتبدى لك على الجبل فإن استقر لعظمتي فسوف تراني، وروي في كيفية وقوف موسى وانتظاره الرؤية قصص طويل اختصرته لبعده ولكثرة مواضع الاعتراض فيه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

قال المتأولون كالقاضي الباقلاني[(٢)] وغيره: «إن الله عزَّ وجلَّ خلق للجبل حياة وحسّاً وإدراكاً يرى به ثم تجلى له، أي ظهر وبدا سلطانه، فاندك الجبل لشدة المطلع، فلما رأى موسى ما بالجبل صعق»، وهذا المعنى هو المروي عن ابن عباس. وأسند الطبري عن حماد بن زيد عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ قال: فوضع الإبهام قريباً من خنصره، قال: فساخ الجبل،

---

(١) معنى هذا الكلام أن الرؤية علقت هنا باستقرار الجبل، وهذا دليل على الجواز ضرورة أن المعلّق بالممكن ممكن ـ ولو كانت الرؤية مستحيلة لعلقها بمستحيل. قال الإمام ابن كثير: «وقد أشكل حرف (لن) ها هنا على كثير من العلماء؛ لأنها موضوعة لنفي التأبيد فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة، وهذا أضعف الأقوال لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة».

(٢) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ـ أبو بكر، قاض، من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة، ولد في البصرة، وسكن بغداد وبها مات. كان جيد الاستنباط، سريع الجواب، أوفده عضد الدولة إلى ملك الروم فناظر علماء النصرانية بين يدي ملكها، من كتبه: «إعجاز القرآن ـ ط» «الإنصاف ـ ط» و«دقائق الكلام» و«الملل والنحل» و«كشف أسرار الباطنية» «وتمهيد الدلائل ـ خ» وغيرها. عن (وفيات الأعيان ودائرة المعارف الإسلامية) وعن (الأعلام).

فقال حميد لثابت: تقول هذا؟ فرفع ثابت يده فضرب صدره وقال: يقول رسول الله ﷺ ويقوله أَنس وأَكتمه أنا؟[1].

وقالت فرقة: المعنى: فلما تجلى الله للجبل بقدرته وسلطانه اندك الجبل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التأْويل يتمسك به المعتزلة تمسكاً شديداً لقولهم: إن رؤْية الله عزَّ وجلَّ غير جائزة، وقائله من أَهل السُّنَّة إنما يقوله مع اعتقاده جواز الرؤْية، ولكنه يقول: إنه أَليق بأَلفاظ الآية من أن تحمل الآية أن الجبل خلق له إدراك وحياة، وقال الزجاج: من قال: إن التقدير: «فلما تجلى أَمرُ ربّه» فقد أَخطأ، ولا يعرف أَهل اللغة ذلك. وردّ أَبو علي في «الأَغفال» عليه.

والدَّكُّ: الانسحاق والتَّفَتُّت. وقرأَ النبي ﷺ، وابن مسعود، وأَنس بن مالك، والحسن، وأَبو جعفر، وشيبة، ومجاهد، وابن كثير، وأَبو عمرو، ونافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿دَكًّا﴾ وقرأَ حمزة، والكسائي، وابن عباس، والربيع بن خثيم، وغيرهم: [دَكَّاءَ] على وزن حمراءَ، والدكَّاءُ: الناقة التي لا سنام لها، فالمعنى: جعله أَرضاً دكاءَ تشبيهاً بالناقة. فروي أَنه ذهب الجبل برمته، وقيل: ذهب أَعلاه وبقي أكثره، وروي أن الجبل تفتت وانسحق حتى صار غباراً تذروه الرياح، وقال سفيان: روي أَنه ساخ في الأَرض وأَفضى إلى البحر الذي تحت الأَرضين. قال ابن الكلبي: فهو يهوي فيه إلى يوم القيامة، وروي أَنه انكسر ستّ فرق، فوقعت منها ثلاث بمكة: ثبير، وغار ثور، وحراء، وثلاث بالمدينة: أُحد، ووَرقان، ورضوى، قاله النقاش. وقال أَبو بكر الهذلي: ساخ في الأَرض فلا يظهر إلى يوم القيامة.

و﴿صَعِقًا﴾ معناه: مغشياً عليه كحال من تصيبه الصعقة وهي الصيحة المفرطة، قال الخليل: وهي الوقع الشديد من صوت الرعد، قاله ابن زيد وجماعة من المفسرين. وقال قتادة: كان موتاً، قال الزجاج: وهو ضعيف، ولفظة ﴿أَفَاقَ﴾ تقتضي

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، وابن جرير الطبري، والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، ورواه الحاكم وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، ورواه ابن مردويه من طريقين. راجع تفسير ابن كثير.

غير هذا، وقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك، كذا فسره النبي ﷺ، وقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ معناه: من أن أسألك الرؤية في الدنيا وأنت لا تبيحها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل عندي أنه لفظ قاله عليه السلام لشدة هول ما اطلع، ولم يعن به التوبة من شيءٍ معين، ولكنه لفظ يصلح لذلك المقام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي يتحرز منه أهل السُّنَّة أن تكون توبة من سؤال المحال كما زعمت المعتزلة.

وقرأ نافع: ﴿وَأَنَا﴾ بإثبات الألف في الإدراج، قاله الزهراوي، والأَولى حذفها في الإدراج، وإثباتها لغة شاذة خارجة عن القياس. وقوله: ﴿أَوَّلُ﴾ إما أن يريد: من قومه بني إسرائيل، وهو قول ابن عباس ومجاهد، أو من أهل زمانه إن كان الكفر قد طبق الآفاق، وإما أن يريد أول المؤمنين بأنك لا تُرى في الدنيا، قاله أبو العالية.

ثم إن الله تعالى قرّر موسى على آلائه عنده على جهة الإخبار وقنَّعه بها وأمره بالشكر عليها، وكأنه قال: ولا تتعداها إلى غيرها.

واصطفى أصله: اصتفى، وهو افتعل من صفا يصفو انقلبت التَّاءُ طاءً لمكان الصاد، ومعناه: تخيَّرتك وخصصتك، ولا تستعمل إلا في الخير والمنن، لا يقال: اصطفاه لِشَرٍّ، وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ عام والمراد الخصوص فيمن شارك موسى في الإرسال، فإن الأنبياءَ المرسلين كلهم مشاركون له بما هم رسل، والظاهر من الشريعة أن موسى مخصص بالكلام وإن كان قد روي في تكليم الله غيره أشياء بما يشاءُ، من أعظمها أن رسول الله ﷺ سئل عن آدم فقال: «هو نبي مكلم»[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

إلا أن ذلك قد تؤول بأنه كان في الجنة فيتحفظ ـ على هذا ـ تخصيص موسى. ويصح أن يكون قوله: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ عموماً مطلقاً في مجموع الدرجتين: الرسالة

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه الإمام أحمد في مسنده (٥ ـ ١٧٨) عن أبي ذرٍّ، وفيه: (قلت يا رسول الله أيُّ الأنبياءِ كان أول؟ قال: آدم، قلت: يا رسول الله أو نبي كان؟ قال: نعم، نبيٌّ مكلم).

والكلام. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ على الجمع، إذ الذي أُرسل به ضروب. وقرأ ابن كثير، ونافع، [بِرِسَالَتي] على الإفراد الذي يراد به الجمع، وتحل الرسالة ها هنا محل المصدر الذي هو الإرسال. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾، وقرأ أبو رجاء: [بِرِسَالَتي وبِكَلِمي]، وقرأ الأعمش: [بِرسَالاتي وبكَلِمي][1]، وحكى عنه المهدوي: [وَتَكْليمي] على وزن تفعيلي. وقوله تعالى: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ تأديب وتقنيع وحمْلٌ على جادَّة السلامة، ومثال لكل أَحد في حالِهِ، فإن جميع النعم من عنده بمقدار، وكل الأُمور بمرأَى من الله ومسمع.

وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾ الآية. الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ عائد على موسى عليه السلام، والألَف واللام في ﴿ٱلْأَلْوَاحِ﴾ عِوض من الضمير الذي يقدر وصلة بين [الألْواح] و(موسى) عليه السلام، تقديره: في ألواحه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[2] أَي: مأواه. وقيل: كانت الأَلواح اثنين، وقيل: سبعة، وقال مجاهد وابن عباس رضي الله عنهما: كانت الأَلواح من زمرد، وقال ابن جبير: من ياقوت أحمر، وقال أَبو العالية أَيضاً: من بَرَد[3]، وقال الحسن: من خشب، وقوله: ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ لفظة عموم، والمراد به كل شيءٍ ينفع في معنى الشرع ويُحتاج إليه في المصلحة، وقوله: [لِكُلِّ شَيءٍ] مثله، قال ابن جبير: ما أُمروا به ونهوا عنه، وقاله مجاهد، وقال السدي: الحلال والحرام. وقوله: [بِقُوَّةٍ] معناه: بجِدّ وصبر عليها واحتمال لمؤنتها، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والسدي، وقال الربيع بن أنس: [بِقُوَّةٍ] هنا: بطاعة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أُمر موسى عليه السلام أَن يأْخذ بأَشد مما أُمر به قومه، وخُذْ أَصله: أُؤْخذ، حذفت الهمزة التي هي فاءُ الفعل على غير قياس، فاستغني عن الأَول، وقوله: [بِأَحْسَنِهَا] يحتمل معنيين: أحدهما التفضيل،

---

(١) عبارة «البحر» هنا هي: «وقرأ الأعمش برسالاتي وتكلُّمي».

(٢) النازعات: ٤١.

(٣) الذي في القرطبي أن أبا العالية يقول: إنها من زبرجد ـ والذي في البحر نسبة القول بأنها من زبرجد إلى ابن عباس وأبي العالية ـ ثم قال: وعن أبي العالية أيضاً أنها من بَرَد ـ وهذا يفسر هنا كلمة (أيضاً) بعد قوله: «وقال أبو العالية» ـ ولا ندري كيف تكون من بَرَد مع أن البَرَد هو ماءٌ متجمد ينزل من السماء قطعاً صغاراً، ويسمى: حبَّ الغمام وحبَّ المزن، ولهذا قال الألوسي: لا يخفى أن أمثال هذا يحتاج إلى النقل الصحيح.

كأَنه قال: إذا اعترض فيها مباحان، فيأخذون الأَحسن منهما كالعفو والقصاص، والصبر والانتصار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا على القول أَن أَفعل التفضيل لا يقال إلا لما لهما اشتراكٌ في المفضَّل فيه. وأَما على القول الآخر فقد يراد بالأَحسن المأمور به بالإضافة للمنهي عنه لأَنه أَحسن منه، وذلك كالناسخ بالنسبة للمنسوخ ونحو هذا. وذهب إلى هذا المعنى الطبري.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويؤيد هذا التأْويل أنه تدخل فيه الفرائض وهي لا تدخل في التأْويل الأَول، وقد يُمكن أَن يتصور اشتراك في حُسْن من المأْمور به والمنهي عنه ولو بحسب الملاذ وشهوات النفس الأَمارة. والمعنى الآخر الذي يحتمله قوله تعالى: ﴿ بِأَحْسَنِهَا ﴾ أَن يريد بـ [أَحْسَن] وصف الشريعة بجملتها، فكأَنه قال: قد جعلنا لكم شريعة هي أحسن، كما تقول: «الله أكبر» دون مقايسة، ثم قال: فمرهم يأخذوا بأَحسنها الذي شرعناه لهم، وفي هذا التأْويل اعتراضات(١).

وقرأَ جمهور الناس: ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ﴾، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [أُوريكُمْ](٢)، قال أَبو الفتح: ظاهر هذه القراءَة مردود وهو أَبو سعيد المأْثور فصاحته. فوجهها أَن المراد (أُريكم) ثم أُشبعت ضمة الهمزة ومُطِلَت حتى نشأَت عنها واو، ويحسن احتمال الواو في هذا الموضع أَنه موضع وعيد وإغلاظ فمكن الصوت فيه(٣). وقرأَ قسامة بن زهير: [سَأُوَرِّثكُمْ]، قاله أبو حاتم، ونسبها المهدوي إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

---

(١) معنى هذا أن (أحسن) ليست أفعل تفضيل، وذلك كقول الشاعر: «بيتاً دعائمه أعزُّ وأطْول» أي: عزيزة طويلة، فعلى هذا أمروا بأن يأخذوا بحُسْنها وهو ما يترتب عليه الثواب دون المناهي التي يترتب على فعلها العقاب ـ قاله قطرب وابن الأنباري.

(٢) الواو في القراءة الأولى تكتب ولا تنطق وفي القراءة الثانية تكتب وتنطق.

(٣) قال أبو حيان في «البحر»: «وهذا التوجيه ضعيف لأن الإشباع بابه ضرورة الشعر». ثم ذكر توجيهاً آخر نقله عن الزمخشري هو أنها لغة فاشية بالحجاز، يقال: أورني كذا وأوريته، فوجههُ أن يكون من أوريت الزند، كأن المعنى: بيِّنه لي وأنره لأستبينَه. ثم قال أبو حيان: «وهي أيضاً في لغة أهل الأندلس كأنهم تلقفوها من لغة الحجاز وبقيت في لسانهم إلى الآن، وينبغي أن ينظر في تحقق هذه اللغة، أهي في لغة الحجاز أم لا؟».

وثبتت الواو في خط المصحف[١] فلذلك أَشكل هذا الاختلاف مع أَنَّا لا نتأَول إلا أَنها مرويات. فأَما من قرأَها: [سَأُوْرِيكُمْ][٢] فالمعنى عنده: سأَعرض عليكم وأَجعلكم تحسُّون[٣] لتعتبروا حال دار الفاسقين. والرؤية هنا رؤية العيْن إلا أَن المعنى يتضمن الوعد للمؤمنين والوعيد للفاسقين. ويدل على أَنها رؤية العين تعدي فعلها، وقد عُدي بالهمزة إلى مفعولين، ولو كان من رؤْية القلب لتعدى بالهمزة إلى ثلاثة مفاعيل، ولو قال قائل: المفعول الثالث يتضمنه المعنى فهو مقدر، أَي: مُدَمَّرَة أَو خَرِبَة أَو مُسْعَرَة ـ على قول من قال: هي جهنم ـ قيل له: ولا يُجَوَّز حذف هذا المفعول والاقتصار دونه أنها داخلة على المبتدأ والخبر، ولو جُوِّز لكان على قبح في اللسان لا يليق بكتاب الله عزَّ وجلَّ[٤].

وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، ومقاتل، وقتادة في كتاب النقاش: دار الفاسقين مصر، والمراد آل فرعون وقال قتادة أيضاً: دار الفاسقين الشام، والمراد العمالقة الذين أُمر موسى عليه السلام بقتالهم، وقال مجاهد والحسن: دار الفاسقين جهنم، والمراد الكفرة بموسى عامة، وقال النقاش عن الكلبي: دار الفاسقين دور ثمود وعاد والأُمم الخالية، أَي: سنقصها عليكم فترونها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

---

(١) يقصد بذلك القراءة الأولى التي قال إنها قراءة الجمهور.

(٢) أي برسم الواو دون نطقها ـ وهي قراءة جمهور الناس.

(٣) في بعض النسخ: تخشون من الخشية.

(٤) نقل أبو حيان هذا الكلام عن ابن عطية ـ ثم علق عليه بملحوظتين:
الأولى: أن حذف المفعول الثالث في باب (أعلم) لدلالة المعنى عليه جائز.
الثانية: أن تعليله بأنها داخلة على الابتداء والخبر لا يدل على المنع لأن خبر المبتدأ يجوز حذفه اختصاراً، والثاني والثالث في باب (أعلم) يجوز حذف كل واحد منهما اختصاراً ـ ثم إن قوله: «سأريكم داخلة على المبتدأ أو الخبر» فيه تجوز. فهو يعني أنها كانت داخلة على المبتدأ والخبر قبل النقل بالهمزة. (البحر المحيط ٤ ـ ٣٨٩).

المعنى: سأَمنع وأَصد، وقال سفيان بن عُيَيْنَة: الآيات هنا كل كتاب منزّل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالمعنى: عن فهْمها وتصديقها. وقال ابن جُرَيج: الآيات: العلامات المنصوبة الدالة على الوحدانية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالمعنى: عن النظر فيها والتفكير والاستدلال بها. واللفظ يعم الوجهين.

والمتكبرون بغير حق في الأَرض هم الكفرة، والمعنى في هذه الآية: سأَجعل الصرف عن الآيات عقوبة للمتكبرين على تكبُّرهم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ حتم من الله عزَّ وجلَّ على الطائفة التي قدّر ألا يؤمنوا. وقراءَة الجمهور: ﴿يَرَوْا﴾ بفتح الياءِ، قرأَها ابن كثير، وعاصم، ونافع، وأَبو جعفر، وشيبة، وشبل، وابن وثاب، وطلحة بن مصرف، وسائر السبعة، وقرأَها مضمومة الياء مالك بن دينار[١].

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿ٱلرُّشْدِ﴾، وقرأَ ابن عامر ـ في بعض ما روي عنه ـ وأَبو البرهسم: [الرُّشُد] بضم الراءِ والشين، وقرأَ حمزة، والكسائي على أَن [الرُّشْد] بضم الراء وسكون الشين، و[الرَّشَدَ] بفتحهما بمعنى واحد، وقال أَبو عمرو بن العلاءِ: الرُّشْد بضم الراءِ: الصلاح في النظر، والرَّشَد بفتحهما: الدِّين، وأَما قراءَة ابن عامر بضمهما فأَتبعت الضمة الضمة.

وقرأَ ابن أَبي عبلة: [لا يَتَّخِذُوها] و[يَتَّخِذُوهَا] على تأْنيث السَّبيل. والسَّبيل تؤنث وتذكَّر، وقوله تعالى: [ذَلِكَ] إشارة إلى الصَّرف، أَي صَرْفنا إياهم وعقوبتنا لهم هي بكفرهم وتكذيبهم وغفلتهم عن النظر في الآيات والوقوف عند الحجج، ويحتمل أن يكون [ذلِكَ] خبر ابتداءِ تقديره: الأَمر ذلك، ويحتمل أن يكون في موضع نصب بفعل تقديره: فعلنا ذلك[٢].

---

(١) هو مالك بن دينار البصري، أبو يحيى، من رواة الحديث، كان ورعاً يأكل من كسبه، ويكتب المصاحف بالأجرة، توفي بالبصرة ١٣١هـ (وفيات الأعيان ـ وتهذيب التهذيب، وحلية الأولياء ـ وقد اختلفوا في تاريخ وفاته).

(٢) قال أبو حيان: «والظاهر أن (ذلك) مبتدأ وخبره (بأنهم) أي ذلك الصَّرف كائن بأنهم كذبوا».

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ الآية. هذه الآية مؤكدة للتي قبلها، وسوقها في جملة المكذب به. ولقاءُ الآخرة لفظ يتضمن تهديداً. أي: هنالك يفتضح لهم حالهم. و[حَبِطَتْ] معناه: سقطت وفسدت، وأصل الحبط فيما تقدم صلاحه، ولكنه قد يستعمل في الذي كان من أول أمره فاسداً، إذ مآل العاملين واحد.

وقوله تعالى: ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ ﴾ استفهامٌ بمعنى التقرير، أي: يستوجبون بسوءِ فعلهم العقوبة[1]، وساغ أن يستعمل ﴿ حَبِطَتْ ﴾ هنا إذ كانت أعمالهم في معتقداتهم جارية في طريق صلاح، فكأن الحبط فيها إنما هو بحسب معتقداتهم، وأما بحسب ما هي عليه في أنفسها ففاسدة منذ أول أمرها، ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ: «إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم»[2] أي فساداً لكثرة الأكل بعد الصلاح الذي كان أولاً، وقرأ ابن عباس، وأبو السمال: [حَبَطَتْ] بفتح الباء.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾.

اتَّخَذَ أَصله: إيتَخَذ، وزنه افتعل، من تَخِذ. هذا قول أبي علي الفارسي. والضمير في ﴿ بَعْدِهِۦ ﴾ عائد على موسى، أي بعد مُضيِّه إلى المناجاة، وأضاف الحليّ إلى بني إسرائيل وإن كان مستعاراً من القبط ـ إذ كانوا قد تملكوه ـ إمَّا بأن نفلوه كما روي[3]، وحكى يحيى بن سلام عن الحسن أنه قال: استعار بنو إسرائيل حليّ القبط ليوم الزينة،

---

(١) قال أبو حيان في «البحر»: «والظاهر أنه استفهام بمعنى النفي ولذلك دخلت (إلا)، والاستفهام الذي هو بمعنى التقرير هو موجب من حيث المعنى فيبعد دخول (إلا) ولعلَّه لا يجوز».

(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد في مسنده، وابن ماجه ـ وقد رواه البخاري في الجهاد وفي الرقاق ـ عن أبي سعيد، ومنه: (إنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَة، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبَطاً أو يُلمُّ إلا آكلة الخضرة أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترَّت وثَلطَتْ وبالت، ثم عادت فأكلت، وإن هذا المال حُلْوَة، من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع) صدق رسول الله ﷺ.

(٣) النفل هنا: الهبة، والجمع: أنفال.

فلما أَمر موسى أَن يسري بهم ليلاً تعذر عليهم رد العواري ، وأيضاً فخشوا أَن يفتضح سرُّهم ، ثم إن الله نفلهم إياه ، ويحتمل أن يضاف الحليّ إلى بني إسرائيل من حيث تصرفت أَيديهم فيه بعد غزو آل فرعون.

ويروى أن السامري ـ واسمه موسى بن ظفر وينسب إلى قرية تسمى سامرة ـ قال لهارون حين ذهب موسى إلى المناجاة: يا هارون إن بني إسرائيل قد بدَّدوا الحليّ الذي استعير من القبط وتصرفوا فيه وأنفقوا منه ، فلو جمعته حتى يرى موسى فيه رأيه ، قال: فجمعه هارون ، فلما اجتمع قال للسامري: أَنت أَولى الناس بأَن يختزن عندك ، فأَخذه السامريُّ ـ وكان صائغاً ـ فصاغ منه صورة عجل ، وهو ولد البقرة. ﴿جَسَدًا﴾ أَي جثة وجماداً ، وقيل: كان جسداً بلا رأَس. وهذا تعلق بأَن الجسد في اللغة ما عدا الرأس ، وقيل: إن الله جعل له لحماً ودماً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف لأن الآثار في أَن موسى بَرَدَهُ بالمبارد تكذب ذلك. والخوار: صوت البقر ، ويروى أَن هذا العجل إنما خار مرة واحدة ، وذلك بحيلة صناعية من السامري أو بسحر تركب له من قبضه القبضة من أَثر الرسول ، أَو بأَن الله أَخار العجل لفَتْن بني إسرائيل. وقرأَت فرقة: [لَهُ جُوار] بالجيم وهو الصياح ، قال أبو حاتم: وشدة الصوت. وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وأَبو عمرو ، والحسن ، وأَبو جعفر ، وشيبة: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ بضم الحاءِ وكسر اللام ، وهو جمع حَلْي ـ على مثال ثَدْي وثُدِيّ ، وأَصله: حُلُوي ، قلبت الواو ياءً وأُدغمت فجاءَ (حُلُيّ) فكسرت اللام لتناسب الياءَ ، وقرأَ حمزة والكسائي: [مِنْ حِلِيِّهم] بكسر الحاءِ على ما قدمنا من التعليل ، قال أَبو حاتم: إلا أَنهم كسروا الحاءَ إتباعاً لكسرة اللام ، قال أَبو علي: وقوي التغيير الذي دخل على الجمع على هذا التغيير الأَخير ، قال: ومما يؤكد كسر الفاءِ في هذا النحو من الجمع قولهم: قِسيّ. قال أَبو حاتم: وقرأَ هكذا يحيى بن وثاب ، وطلحة ، والأَعمش ، وأَصحاب عبد الله. وقرأَ يعقوب الحضرمي: [مِنْ حَلْيِهِمْ] *بفتح الحاءِ وسكون اللام ، فإما أَن يكون مفرداً يراد به الجمع ، وإما أَن يكون* جمع حِلْيَة كتَمْرة وتَمْر. ومعنى الحليّ: ما يُتَجَمَّل به من حجارة وذهب وفضة.

ثم بين الله تعالى سوءَ فطرتهم وقرر فساد اعتقادهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾

الآية. وذلك أن الصامت الجماد لا يتصف بالألوهية، والذي لا يرشد إلى خير ولا يكشف غماً كذلك. والضمير في ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ عائد على العجل. وقوله: ﴿وَكَانُوا۟﴾ إخبارٌ لنا عن جميع أحوالهم ماضياً وحالاً ومستقبلاً، ويحتمل أن تكون الواو واو حال، وقد مرَّ في سورة البقرة سبب اتخاذ العجل وبسط تلك الحال بما أغنى عن إعادته هنا.

وقرأ جمهور الناس بكسر القاف وضم السين: ﴿سُقِطَ فِىٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾، وقرأت فرقة: [سَقط] بفتح السين والقاف، حكاه الزجاج، وقرأ ابن أبي عبلة: [أُسْقط] وهي لغة حكاها الطبري بالهمزة المضمومة وسين ساكنة، والعرب تقول لمن كان ساعياً لوجه أو طالباً غاية ما فعرض[1] له ما غلبه وصدّه عن وجهته وأوقفه موقف العجز عن بغيته، وتيقن أنه قد عجز: سُقِط في يد فلان، وقال أبو عبيدة: يقال لمن أقدم على أمر وعجز عنه: سُقِط في يده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والندم عندي عرض يعرض لصاحب هذه الحال، وقد لا يعرض له، فليس الندم بأصل في هذا، أما إن أكثر أصحاب هذه الحال يصحبهم الندم، وكذلك صحب بني إسرائيل المذكورين في الآية، والوجه الذي يصل بين هذه الألفاظ وبين المعنى الذي ذكرناه هو أن السَّعي أو الصرف أو الدفاع سقط في يد المشار إليه فصار في يده لا يجاوزها ولا يكون له خارجها تأثير. وقال الزجاج: المعنى أن الندم سقط في أياديهم، ويحتمل أن الخسران والخيبة سقط في أيديهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا كله يلزم أن يكون ﴿سُقِطَ﴾ يتعدى، فإن [سُقِطَ] يتضمن مفعولاً وهو هنا المصدر الذي هو الإسقاط، كما يقال: ذُهب بزيد، وفي هذا عندي نظر[2].

---

(١) الذي في الأصول: «فعرضه ما غلبه» ولما كان هذا مخالفاً لقواعد اللغة أكدنا أن الخطأ من النساخ بدليل أن أبا حيان في «البحر المحيط» نقل العبارة كما أثبتناها هنا قائلاً في نقله عن ابن عطية: «فعرض له ما غلبه وصده».

(٢) النظر الذي يُشير إليه وضحه صاحب البحر حيث قال: «وصوابه: وهو هنا ضمير المصدر الذي هو السقوط، لأن سُقط ليس مصدره الإسقاط، وليس نفس المصدر هو المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله بل هو ضميره».

وأَما قراءَة من قرأَ: [سَقَطَ] على بناءِ الفعل للفاعل، أَو [أُسْقِط] على التعدية بالهمزة فبين في الاستغناءِ عن التعدي، ويحتمل أَن يقال: «سقط في يديه» على معنى التشبيه بالأَسير الذي تكتف يداه، فكأَن صاحب هذه الحال يستأْسر، ويقع ظهور الغلبة عليه في يده، أو كأَن المراد سقط بالغلب والقهر في يده، وحُدّثت عن أَبي مروان بن سراج[1] أَنه كان يقول: قول العرب «سقط في يده» مما أَعياني معناه، وقال الجرجاني: هذا مما دَثَر استعماله مثل ما دَثَر استعمال قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا الكلام ضعف، والسِّقاط في كلام العرب كثرة الخطأ والندم عليه، ومنه قول سويد بن أبي كاهل:

كيْفَ يَرجُونَ سِقاطي بَعْدَمَا ... لَفَّعَ الرَّأسَ مَشِيبٌ وصَلَع؟[3]

وقول بني إسرائيل: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ إنما كان بعد رجوع موسى وتغيره عليهم، ورؤيتهم أنهم قد خرجوا على الدين ووقعوا في الكفر. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، والحسن، والأَعرج، وأَبو جعفر، وشيبة بن نصاح، ومجاهد وغيرهم: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بالياءِ في ﴿يَرْحَمْنَا﴾ وإسناد الفعل إلى الرب تعالى، [ويَغْفِر] بالياءِ، وقرأَ حمزة، والكسائي، والشعبي، وابن وثاب، والجحدري، وطلحة بن مصرف، والأَعمش، وأَيوب: [تَرْحَمْنَا رَبَّنَا] بالتاءِ في [تَرْحَمْنا] ونصب لفظة [رَبَّنَا] على جهة النداءِ [وتغفر] بالتاءِ من فوق. وفي مصحف أُبي [قالوا لئن لم ترحمنا وتغفر لنا لنكونن من الخاسرين].

---

(١) هو أحد أئمة اللغة بالأندلس ـ قال ذلك أبو حيان في «البحر المحيط».

(٢) الكهف: ١١.

(٣) سويد شاعر جاهلي أدرك الإسلام وعمّر طويلاً، متقدم في قول الشعر، شعره وجداني عذب، والبيت من قصيدة له تسمى في الجاهلية «اليتيمة»، وهي في المفضليات (دار المعارف ص ١٩٠ ـ ٢٠٢) ومنها:

هَلْ سُوَيْدٌ غيرُ ليْثٍ خَادرٍ ... ثئِدَتْ أرْضٌ عَلَيْهِ فَانْتَجَع

والرواية في (اللسان): «جَلَّل الرأس» بدلاً من: لَفَّع الرأسَ. وقد استشهد به على أن السِّقاط مثل السقطة، وأن معناه: العثرةُ والزَّلَّة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾.

يريد: رجع من المناجاة، ويروى أنه لما قرب من محلة بني إسرائيل سمع أَصواتهم فقال: هذه أَصوات قوم لاهين، فلما تحقق عكوفهم على عبادة العجل داخله الغضب والأَسف وأَلقى الأَلواح، قاله ابن إسحق، وقال الطبري: أَخبره الله تعالى قبل رجوعه أنهم قد فتنوا بالعجل فلذلك رجع وهو غاضب، والأَسف قد يكون بمعنى الغضب الشديد، وأَكثر ما يكون بمعنى الحزن، والمعنيان مترتبان ها هنا، و(ما) المتصلة بـ(بئس) مصدرية، هذا قول الكسائي، وفيها اختلاف قد تقدم في سورة البقرة، أي: بئس خلافتكم لي من بعدي ويقال: خَلَفه بخير أَو بشر إذا فعله بمن ترك من بعده، ويقال: عَجِل فلان الأَمر إذا سبق فيه، فقوله ﴿أَعَجِلْتُمْ﴾ معناه: أَسابقتم قضاءَ ربكم واستعجلتم إتياني قبل الوقت الذي قدر به.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ الآية. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان سبب إلقائه الأَلواح غضبه على قومه في عبادتهم العجل وغضبه على أَخيه في إهمال أَمرهم. وقال قتادة ـ إن صح عنه ـ: بل كان ذلك لما رأَى فيها من فضيلة أُمة محمد ﷺ فرغب أَن يكون ذلك لأُمته، فلما علم أنه لغيرها غضب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ رديءٌ لا ينبغي أَن يوصف موسى عليه السلام به، والأَول هو الصحيح. وبالجملة فكان في خُلُق موسى ضيق وذلك مستقر في غير موضع، وروي أَنها كانت لوحان وجمع إذ التثنية جَمْعٌ، وروي أَنها كانت وِقْر سبعين بعيراً يُقرأ منها الجزءُ في سنة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف مُفْرط، قاله الربيع بن أَنس. وقال ابن عباس: إن موسى لما أَلقاها تكسرت فرفع أَكثرها الذي فيه تفصيل كل شيء، وبقي الذي في نسخته الهدى

والرحمة ، وهو الذي أخذ بعد ذلك ، وقد تقدم القول من أي شيءٍ كانت الألواح ، وأَخذُه برأس أَخيه ولحيته من الخُلُق المذكور[١] ، هذا هو ظاهر اللفظ ، وروي أَن ذلك إنما كان ليُسارّه فخشي هارون أَن يتوهم الناظر إليهما أَنه لغضب فلذلك نهاه ورغب إليه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف ، والأَول هو الصحيح لقوله: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[٢]. وقوله: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ استلطاف برحم الأم إذ هو أَلصق القرابات. وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وحفص عن عاصم: ﴿ابن أُمَّ﴾ بفتح الميم ، فقال الكوفيون: أَصله: ابن أُمَّاهُ ـ فحذفت تخفيفاً ، وقال سيبويه: هما اسمان بنيا على الفتح كاسم واحد لخَمسة عشرَ ونحوها. وقرأَ ابن عامر ، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ وحمزة ، والكسائي: [ابنَ أُمِّ] بكسر الميم ، فكأَن الأَصل: ابنَ أُمِّي فحذفت الياءُ ، إما على حدّ حذفهم من: لاَ أُبالِ ، ولا أَدرِ تخفيفاً ، وإما كأَنهم جعلوا الأَول والآخر اسماً واحداً ثم أَضافوا ، كقولك: يا أَحد عشرَ أَقبلوا. قاله سيبويه ، وهذا أَقيس من الحذف تخفيفاً ، ثم أَضافوا إلى ياءِ المتكلم ، ثم حذفت الياءُ من (أُمِّي) على لغة من يقول: يا غلامِ فيحذفها من المنادى ، ولو لم يُقَدَّر جعل الأَول والآخر اسماً واحداً لما صح حذفها ، لأَن الأُم ليست بمناداة.

و﴿ٱسْتَضْعَفُونِي﴾ معناه: اعتقدوا أَني ضعيف. وقوله: ﴿وَكَادُواْ﴾ قاربوا ولم يفعلوا.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ بضم التاءِ وكسر الميم ونصب ﴿ٱلْأَعْدَآءَ﴾. وقرأَ مجاهد ـ فيما حكاه أَبو حاتم ـ: [فلا تَشمت بي] بفتح التاءِ من فوق والميم ورفع [الأَعداء]. حكاها أبو حاتم ، وقرأَ مجاهد أَيضاً ـ فيما حكاه أَبو الفتح ـ: [فَلاَ تَشْمَت بيَ الأَعْداءَ] بفتح التاءِ من فوق والميم ونصب [الأَعداء] هذا على أَن يعدَّى شمت يشمت ، وقد روي ذلك. قال أَبو الفتح: فلا تشمت بي أَنت يا رب ، وجاز هذا

---

(١) يريد بالخلق المذكور ما عرف عن موسى من سرعة الغضب.

(٢) طه: ٩٤.

كما قال تعالى: ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[1] ونحو ذلك. ثم عاد إلى المراد فأَضمر فعلا نصب به [الأَعْدَاءَ]، كأنه قال: لا تُشمت بي الأَعداءَ كقراءَة الجماعة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي كلام أَبي الفتح هذا تكلف، وحكى المهدوي عن ابن محيصن [تَشْمِت] بفتح التاءِ وكسر الميم و[الأعداءَ] بالنصب. والشماتة: فرحة العدو بمصاب عدوّه. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يريد عَبَدَة العجْل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾.

استغفر موسى من فعلة أَخيه، ومن عَجَلته في إِلْقاءِ الأَلْواح، واستغفر لأخيه من فعله في الصبر لبني إسرائيل، ويمكن أَن الاستغفار كان لغير هذا مما لا نعلمه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ الآية، مخاطبة من الله تعالى لموسى عليه السلام لقوله تعالى: ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾، ووقع ذلك النَّيْل في عهد موسى عليه السلام، والغضب والذلة هو أَمرهم بقتل أَنفسهم، هذا هو الظاهر. وقال بعض المفسرين: الذلَّة: الجزية، ووَجْهُ هذا القول أَن الغضب والذلة بقيت في عقب هؤلاءِ المقصودين بها أَولاً، وكأَن المراد: سينال أَعقابهم. وقال ابن جريج: الإشارة في قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ إلى من مات من عبدة العجل قبل التوبة بقتل النفس، وإلى من فَرَّ فلم يكن حاضراً وقت القتل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والغضب ـ على هذا ـ والذلة هو عذاب الآخرة، والغضب من الله عزَّ وجلَّ إنْ أُخذ بمعنى الإرادة فهو صفة ذات، وإن أُخذ بمعنى العقوبة وإحلال النقمة فهو صفة فعل،

---

(١) من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ المراد أولاً أُولئك الذين افتروا على الله في عبادة العجل، وتكون قوة اللفظ تعم كل مفتر إلى يوم القيامة، وقد قال سفيان بن عُيَيْنة وأبو قلابة وغيرهما: كل صاحب بدعة أو فرية ذليل، واستدلوا بالآية.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية. تضمنت هذه الآية الوعد بأن الله عزَّ وجلَّ يغفر للتائبين، والإشارة إلى من تاب من بني إسرائيل، وفي الآية ترتيب الإيمان بعد التوبة، والمعنى في ذلك أنه أراد بقوله ﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾ أن التوبة نافعة لهم منجية فتمسكوا بها، فهذا إيمانٌ خاص بعد الإيمان على الإطلاق، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿وآمَنُوا﴾ أي وعملوا عمل المؤمنين حتى وافوا على ذلك، ويحتمل أن يريد التأكيد فذكر التوبة والإيمان إذ هما متلازمان، إلا أن التوبة ـ على هذا ـ تكون من كُفْر ولابد فيجيءُ ﴿تَابُواْ ـ وَءَامَنُوٓاْ﴾ بمعنى واحد، وهذا لا يترتب في توبة المعاصي، فإن الإيمان متقدم لتلك ولا بُدّ، وهو وتوبة الكفر متلازمان. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ إيجاب ووعد مرجّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل قوله: [تَابُوا ـ وَآمَنوا] أن يكون لم تقصد رتبة الفعلين على عرف الواو في أنها لا توجب رتبة، ويكون [وآمنوا] بمعنى: وهم مؤمنون قبل وبعد. كأنه قال: ومن صفتهم أن آمنوا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾.

معنى هذه الآية أن موسى عليه السلام لما سكن غضبه أخذ الألواح التي كان ألقى، وقد تقدم ما روي أنه رفع أكثرها أو ذهب في التكسر، وقوله: ﴿سَكَتَ﴾ لفظة مستعارة، شبّه خمود الغضب بانقطاع كلام المتكلم وهو سكوته، قال يونس بن حبيب: تقول العرب: «سالَ الوادي يومين ثم سكت»، وقال الزجاج وغيره: مصدر

قولك: «سَكَتَ الْغَضب»: سَكتٌ ، ومصدر قولك: «سكت الرجل»: سُكوتٌ ، وهذا يقتضي أنه فعل على حدة وليس من سكوت الناس ، وقيل: إن في المعنى قلباً والمراد: ولما سكت موسى عن الغضب ، فهو من باب: أَدخلت فمي في الحَجَر ، وأَدخلت القلنسوة في رأسي ، وفي هذا أَيضاً استعارة ، إذ الغضب ليس بتكلم فيوصف بالسكوت ، وقرأ معاوية بن قرّة: [وَلمَّا سَكنَ] ، وفي مصحف حفصة: [وَلمَّا سَكَتَ] ، وفي مصحف ابن مسعود: [ولما صبر عن موسى الغضبُ] قال النقاش: وفي مصحف أُبي: [ولما اشتق عن موسى الغضب].

وقوله تعالى: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ معناه: وفيما ينسخ منها ويقرأُ ، واللام في قوله: ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ يحتمل وجوهاً ـ مذهب المبرد أَنها تتعلق بمصدر كأَنه قال: الذين رهبتهم لربهم ، ويحتمل أَنه لما تقدم المفعول ضعف الفعل فقوي على التعدي باللام ، ويحتمل أن يكون المعنى: هم لأَجل طاعة ربهم وخوف ربهم يرهبون العقاب والوعيد ونحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ الآية. معنى هذه الآية أَن موسى عليه السلام اختار من قومه هذه العِدة ليذهب بهم إلى موضع عبادة وابتهال ودعاءٍ ليكون منه ومنهم اعتذارٌ إلى الله عزَّ وجلَّ من خطأ بني إسرائيل في عبادة العجل وطلبٌ لكمال العفو عمن بقي منهم. ورُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أَن اختيارهم كان بسبب قول بني إسرائيل: إن موسى قتل هارون حين ذهب معه ولم يرجع ، فاختار هؤلاء ليذهبوا فيكلمهم هارون بأَنه مات بأَجله ، وقوله تعالى: ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ يؤيد القول الأَول وينافر هذا القول ، لأَنها تقتضي أَن ذلك كان عن توقيت من الله عزَّ وجلَّ وعدة في الوقت والموضع ، وتقدير الكلام: «واختار موسى من قومه» ، فلما انحذف الخافض تعدى الفعل فنصب ، وهذا كثير في كلام العرب[1].

---

(١) ومنه ما أنشده سيبويه من قول الفرزدق:

منَّا الذي اختيرَ الرِّجَالَ سَمَاحَة ... وبِراً إذا هبَّ الريَاحُ الزَّعازِعُ

وقول الراعي يمدح رجلاً:

اخترْتُكَ النَّاسَ إذْ رَثَّتْ خلائقُهُم ... واختَلَّ مَنْ كانَ يُرْجَى عنده السُّولُ

والتقدير في البيت الأول: اختير من الرجال ـ وفي البيت الثاني: اخترتك من الناس. ومعنى (اختلّ) فيه: افتقر. والسُّولُ: هي السُّؤْل.

واختلف العلماءُ في سبب الرجفة التي حلَّت بهم ـ فقيل: كانت عقوبة لهم على سكوتهم وإغضائهم على عبادة العجل. وقيل: كانت على عبادتهم العجل بأنفسهم وخفي ذلك عن موسى في وقت الاختيار حتى أَعلمه الله، قاله السدي. وقيل: كانت عقوبة لهم لأنهم لما دنوا وعلموا أَن موسى يسمع كلام الله قالوا له: «أَرنا ربَّك» فأَخذتهم الرجفة. وقيل: كانت عقوبة لتشططهم في الدعاءِ بأن قالوا: اللَّهم أَعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ولا تعطيه أحداً بعدنا، فأَخذتهم الرجفة، وقيل: إنما أَخذتهم لما سمعوا كلام هارون وهو ميت، وذلك أَن موسى وهارون ذهبا إلى التعبد أَو نحوه فمات هارون فدفنه موسى وجاءَ، فقالت بنو إسرائيل: أين هارون؟ فقال: مات. فقالوا: بل أَنت قتلته لأَنك حسدتنا على حسن خلقه وعشرته، فاختار السبعين ليمضوا معه حتى يروا برهان ما قال لهم، فلما وصلوا قال له موسى: يا هارون أَقُتِلْت أم مت؟ فناداه من القبر: بل متُّ ـ فأَخذت القوم الرجفة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وروي أنهم ماتوا في رجفتهم هذه، ويحتمل أن كانت كالإغماءِ ونحوه. والرجفة: الاهتزاز والتقلقل للهول العظيم، فلما رأَى موسى ذلك أَسف عليهم، وعلم أن أَمر بني إسرائيل سيتشعب عليه إذا لم يأْت بالقوم، فجعل يستعطف ربه، أَي ربّ لو أَهلكتهم قبل هذه الحال وإيايَ لكان أحق علي. وهذا وقتٌ هلاكُهم فيه مُفْسد عليّ مؤذٍ لي.

ثم استفهم على جهة الرغبة والتضرع والتذلل. ويحتمل قوله: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ﴾ أَن يريد وقت إغضائهم على عبادة العجل، أي وقت عبادتهم ـ على القول بذلك ـ، وفي نفسه هو وقت قتله القبطي. أي: فأنت قد سترت وعفوت حينئذ، فكيف الآن إذ رجوعي دونهم فسادٌ لبني إسرائيل، فمنحي الكلام ـ على هذا ـ محض استعطاف، وعلى التأويل الأَول منحاه الإدلاءُ بالحجة في صيغة استعطاف، وإذا قلنا: إن سبب الرجفة كان عبادة العجل كان الضمير في قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ له وللسبعين، و﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ إشارةٌ إلى العبدة من بني إسرائيل، وكذلك إذا كان سببها قول بني إسرائيل له: قتلتَ هارون. وإذا كان سببَ الرجفة طلبُهم الرؤْية وتشطُّطهم في الدعاءِ أَو عبادتُهم بأَنفسهم العجلَ فالضمير في قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ يريد به نفسه وبني

إسرائيل، أَي: بالتفرق والكفر والعصيان يكون هلاكهم، ويكون قوله: ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ إشارة إلى السبعين، ورُوي أن السبعين لم يكن فيهم من زاد على الأربعين ولا من قصر عن العشرين، ورُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنهم أُحيوا وجُعلوا أنبياءَ كلهم.

وقالت فرقة: إن موسى عليه السلام لما أَعلمه الله عزَّ وجلَّ أَن السبعين عبدوا العجل تعجَّب وقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ أي: الأُمور بيدك تفعل ما تريد، وقيل: إن الله تعالى لما أَعلم موسى بعبادة بني إسرائيل العجل وبصفته قال موسى: أَي ربِّ ومن أخاره؟ قال: أَنا، قال موسى: فأَنت أَضللتهم، إن هي إلا فتنتك، ويحتمل أن يشير بـ [هِيَ] إلى قولهم: [أَرِنَا الله] إذ كانت فتنة من الله أوجبت الرجفة، وفي هذه الآية ردٌّ على المعتزلة[1]، واغفر معناه: استر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾.

﴿۞ وَٱكْتُبْ﴾ معناه: أَثبت واقض، والكتب مستعمل فيما يخلد. و﴿حَسَنَةً﴾ لفظ عام في كل ما يحسن في الدنيا من عافية وغنى وطاعة الله تبارك وتعالى وغير ذلك، وحسنة الآخرة الجنة لا حسنة دونها ولا مرمى وراءها، و﴿هُدْنَآ﴾ بضم الهاءِ معناه: تُبْنَا، وقرأَ أَبو وَجْزَة[2] [هِدْنَا] بكسر الهاءِ، ومعناه: حركنا أَنفسنا وجذبناها لطاعتك، وهو مأْخوذ من هاد يهيد إذا حرَّك.

---

(١) في أنهم ينفون الإضلال عن الله تعالى، وقد ذهب الزمخشري إلى أن الله امتحنهم وابتلاهم فافتَتَنُوا وضلوا هم، وقد جُعل ذلك إضلالاً من الله وهدى منه لأن محنته كانت سبباً في ضلالهم وهدايتهم، فكأنه أضله وهداهم بها على الاتساع في الكلام. لكن الآية واضحة في نسبة الإضلال لله كنسبة الهداية إليه سبحانه.

(٢) هو يزيد بن عبيد السعدي، أبو وَجْزَة، شاعر محدّث مقرىء، من التابعين، أصله من بني سليم، نشأ في بني سعد بن بكر فنسب إليهم، وسكن المدينة وانقطع إلى آل الزبير، ومات بالمدينة سنة ١٣٠هـ (غاية النهاية والقاموس).

وقوله تعالى: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾ الآية. قال الله عزَّ وجلَّ: إن الرجفة التي أُنزلت بالقوم هي عذابي أُصيب به من شئت، ثم أَخبر عن رحمته، ويحتمل ـ وهو الأَظهر ـ أَن الكلام قُصد به[1] الخبر عن عذابه وعن رحمته من أَول ما ابتدأَ، ويندرج أمر أَصحاب الرجفة في عموم قوله: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾. وقرأَ الحسن، وطاوس، وعمرو بن فائد: [مَنْ أَسَاءَ] من الإساءَة، أي من عمل غير صالح. وللمعتزلة بهذه القراءَة تعلق من وجهين: أحدهما إنفاذ الوعيد، والآخر خلْق المرءِ أَفعاله، وإن [أَساءَ] لا فعل لله فيه، وهذان التعلقان فيهما احتمال ينفصل عنه كما ينفصل عن سائر الظواهر، إلا أَن القرأَة أَطنبوا في التحفظ من هذه القراءَة، وقال أَبو عمرو الداني: لا تصح هذه القراءَة عن الحسن وطاوس، وعمرُو بن فائد رجلُ سوءٍ، وذكر أبو حاتم أَن سفيان بن عُيَيْنة قرأَها مرة واستحسنها فقام إليه عبد الرحمن المقري وصاح به وأَسمعه، فقال سفيان: لم أَدر ولم أفطن لما يقول أَهل البدع، وهذا إفراط من المقربين، وحملهم على ذلك شحهم على الدين وظنهم أَن الانفصال عن تعلق المعتزلة متعذر.

ثم وصف الله تبارك وتعالى رحمته بأَنها وسعت كل شيءٍ، فقال بعض العلماءِ: هو عموم في الرحمة وخصوص في قوله: ﴿كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾، والمراد من قد سبق في علم الله أَن يرحمه دون من سواهم. وقال بعضهم: هو عموم في رحمة الدنيا لأَن الكافر والمؤمن والحيوان كله متقلب في رحمة الله الدنياوية. وقالت فرقة: قوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي﴾ يراد به التوبة، وهي خاصة ـ على هذا ـ في الرحمة وفي الأَشياءِ لأَن المراد مَنْ قد تقع منه التوبة. وقال نوف البِكَالي[2]: إنَّ إبليس لما سمع قول الله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ طمع في رحمة الله، فلما سمع ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يئس إبليس وبقيت اليهود والنصارى، فلما تمادت الصفة تبيَّن أَن المراد أُمة محمد ﷺ ويئس اليهود والنصارى من الآية، وقال نحوه قتادة.

---

(١) سقطت لفظة (به) في بعض النسخ.

(٢) هو نوف بن فضالة الحميري البكالي، إمام أهل دمشق في عصره، من رجال الحديث، وورد ذكره في الصحيحين، وكان راوياً للقصص، وهو ابن زوجة كعب الأحبار، ذكره البخاري في فصل من مات ما بين التسعين إلى المائة. (تهذيب التهذيب ـ الأعلام).

وقوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي أُقدرها وأَقضيها ، وقال نوف البِكَالي: إن موسى عليه السلام قال: يا رب جعلت وفادتي لأُمة محمد ﷺ ، وقال نوف البِكَالي: فاحمدوا الله الذي جعل وفادة بني إسرائيل لكم ، وقوله: ﴿يَتَّقُونَ﴾ في هذه الآية ـ قالت فرقة معناه: يتقون الشِّرك ، وقالت فرقة: يتقون المعاصي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومن قال: «الشِّرك لا غير» خرج إلى قول المرجئة ، يَردُ عليه من الآية شرط الأَعمال بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ ، ومن قال: «المعاصي ولابُدّ» خرج إلى قول المعتزلة ، والصواب أَن تكون اللفظة عامة ولكن ليس بأَن نقول: «ولابُدّ من اتقاءِ المعاصي» ، بل أَن نقول: «مع أَن مواقع المعاصي في مشيئة الله تعالى» ، ومعنى [يَتَّقُونَ]: يجعلون بينهم وبين المتَّقَى وقاية وحجاباً ، فذكر الله تعالى الرتبة العالية ليتسابق السامعون إليها.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ الظاهر من قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ أَنها الزكاة المختصة بالمال ، وخصها هنا بالذكر تشريفاً لها ، وجعلها مثالاً لجميع الطاعات ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما روي عنه: وَيُؤْتون الأعمال التي يزكُّون بها أَنفسهم.

قَوله عزَّ وجلَّ:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

هذه الألفاظ أَخرجت اليهود والنصارى من الاشتراك الذي يظهر في قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ، وخلَّصت هذه العِدَة لأُمة محمد ﷺ. قاله ابن عباس ، وابن جبير ، وغيرهما.

و﴿يَتَّبِعُونَ﴾ معناه: في شرعه ودينه ، و﴿الرَّسُولَ﴾ و﴿النَّبِيَّ﴾ اسمان لمعنَيَين ، فإِنَّ الرسول أَخص من النبي ، هذا في الآدميين لاشتراك الملَك في لفظة الرسول.

والنبي مأخوذ من النبأ ، وقيل: لما كان طريقاً إلى رحمة الله تبارك وتعالى وسبباً شبّه بالنبي الذي هو الطريق ، وأنشدوا:

لأَصْبَحَ رَتْماً دُقَاقَ الْحَصى مَكَانَ النَّبِيِّ مِنَ الكَاثِبِ[١]

وأَصله الهمز ولكن خفف ، كذا قاله سيبويه ، وذلك كتخفيفهم خابية وهي من خبأ ، واستعمل تخفيفه حتى قد روي أَن رسول الله ﷺ قال: «لا تنبروا اسمي»[٢]. وقدم الرسول اهتماماً بمعنى الرسالة عند المخاطبين بالقرآن ، وإلا فمعنى النبوة هو المتقدم ، وكذلك ردَّ رسول الله ﷺ على البراءِ بن عازب حين قال: «آمنت بكتابك الذي أَنزلت ، وبرسولك الذي أَرسلت» ، فقال له رسول الله ﷺ: «وبنَبيِّك الذي أَرسلت»[٣] ليرتب الكلام كما ترتب الأَمر في نفسه ، لأَنه نُبِّىءَ ثم أُرسل ، وأَيضاً ففي العبارة المردودة تكرار الرسالة وهو معنى واحد.

و[الأُمِّيّ] بضم الهمزة. قيل: نُسب إلى أُم القرى وهي مكة.

---

(١) البيت لأوس بن حَجَر يرثي فُضالة بن كلْدَةَ الأسديّ ، وقبله يقول:

علـى السَّيِّـد الصَّعْـبِ لَـوْ أَنَّـهُ يَقُـومُ علـى ذِرْوَةِ الصَّـاقِـبِ

وأوس من فحول الجاهلية ، ومن الذين يأخذون شعرهم بالإصلاح ، وقد انقطع إلى فضالة هذا يمدحه. ورَتْماً يعني مرتُوماً ، من رتَم الشيءَ كَسَرَهُ. ودُقاق بضم الدال: فتات كل شيءٍ ، والنَّبِيُّ: المكان المرتفع ، والكاثب: الرمل المجتمع ، وقيل: النبي: ما نَبا من الحجارة إذا نجلتها الحوافر ، ويقال: الكاثب: جَبَل وحوله رواب يقال لها: النبيّ ، يقول أوس: لو قام فُضالة على الصَّاقب (وهو جبل) لذلَّله ولتَسَهَّل له حتى يصير كالرمل الذي في الكاثب. قال ابن بري: الصحيح في النبي ها هنا أنه اسم رمل معروف ، والكاثب اسم قُنَّة في الصاقب. (عن اللسان).

(٢) الرواية في (النهاية) وكذلك في (اللسان) أن رجلاً قال له: يا نبيء الله ، فقال: (لا تنبر باسمي ، إنما أنا نبي الله) وقد سبق لابن عطية رحمه الله أن نقل عن أبي علي تضعيف سند هذا الحديث ، واستدل على ذلك بأن المادح ـ وهو العباس بن مرداس ـ قد مدحه بقوله:

يـا خـاتِـمَ النُّبَـاءِ إِنَّـكَ مُـرْسَـلٌ بـالحـقِّ ، كـلُّ هُـدَى الإلـهِ هُـدَاكـا

ولم يؤثر في ذلك إنكار ، وأن الجمع كالواحد ـ (راجع ج ١ ص ٣٢١ ـ ٣٢٢).

(٣) هذا الحديث رواه البخاري في (الوضوء) و(الدعوات) ، ورواه مسلم ، والترمذي ، وابن ماجه ، والدارمي ، والإمام أحمد ، وهو حديث طويل يعلّم النبي ﷺ فيه البراءَ دعواتٍ يقولها إذا أتى مضجعه ـ وفي آخر الحديث: «فَرَدَدْتُها على النبي ، فلما بلغت: اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت قلت: ورسولك ، قال: لا ، ونبيك الذي أرسلت» (البخاري ١ ـ ٦٧ ط دار الفكر).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واللفظة ـ على هذا ـ مختصة بالنبي ﷺ وغير مضمنة معنى عدم الكتابة. وقيل: هو منسوب ـ لعدم الكتابة والحساب ـ إلى الأم، أي: هو على حال الصدور عن الأم في عدم الكتابة. وقالت فرقة: هو منسوب إلى الأمة، وهذا أيضاً مضمن عدم الكتابة لأن الأمة بجُملتها غير كاتبة حتى تحدث فيها الكتابة كسائر الصنائع. وقرأ بعض القراءِ فيما ذكر أبو حاتم: [الأَمّيّ] بفتح الهمزة، وهو منسوب إلى الأَمِّ وهو القصد، أي لأن هذا النبي مقصد للناس وموضع أَمٍّ يؤُمّونه بأفعالهم وتشرعهم، قال ابن جني: وتحتمل هذه القراءَة أن يريد الأُمّيّ فغيّر تغيير النسب[1].

والضمير في قوله: ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾ لبني إسرائيل، والهاءُ منه لمحمد ﷺ، والمراد صفته ونعته. ورُوي أن الله عزَّ وجلَّ قال لموسى: قل لبني إسرائيل: أَجعل لكم الأَرض مسجداً وطهوراً، وأَجعل السكينة معكم في بيوتكم، وأَجعلكم تقرؤُون التوراة عن ظهر قلوبكم. فأَخبر موسى بني إسرائيل فقالوا: إنما نريد أن نصلي في الكنائس، وأن تكون السكينة كما كانت في التابوت، وأن لا نقرأ التوراة إلا نظراً، فقيل لهم: فنكتبها للذين يتقون يعني أُمة محمد ﷺ. وروي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في البخاري وغيره أن في التوراة من صفة محمد ﷺ: «يا أيها النَّبي، إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن أَقبضه حتى أُقيم به الملة العوجاءَ بأن يقولوا لا إله إلا الله، فنقيم به قلوباً غُلفا، وآذاناً صما، وأَعيناً عميا». وفي البخاري: «فنفتح به عيوناً عميا، وآذاناً صما، وقلوباً غلفا»[2].

ونص كعب الأَحبار نحو هذه الألفاظ إلا أنه قال: «قلوباً غلفا، وآذاناً صموما» قال الطبري: وهي لغة حميرية، وقد رويت «غلوفيا وصموميا».

---

(١) وذلك ما قيل في النسب إلى أُميّة: أَمويٌّ بالفتح. فهذا يسمونه تَغيير النَّسَب.

(٢) أخرجه ابن سعد، والبخاري، وابن جرير، والبيهقي في الدلائل ـ عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ، قال: أَجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ـ يا أَيُّها النبي... إلخ الحديث (الدر المنثور).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأظن هذا وهماً وعجمة.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ يحتمل أن يريد ابتداءَ وصف الله تبارك وتعالى النبي ﷺ، ويحتمل أن نجعله متعلقاً بـ ﴿يَجِدُونَهُ﴾ في موضع الحال على تجوّز، أي: يجدونه في التوراة آمراً بشرط وجوده، فالمعنى الأول لا يقتضي أنهم علموا من التوراة أنه يأمرهم وينهاهم ويُحل ويُحرم، والمعنى الثاني يقتضي ذلك، فالمعنى الثاني ـ على هذا ـ ذمٌّ لهم، ونحا إلى هذا أبو إسحق الزجاج. وقال أبو علي الفارسي في «الأغفال»: ﴿يَأْمُرُهُم﴾ عندي تفسير لما كتب من ذكره، كما أن قوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ تفسير للمثل[1]. ولا يجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿يَجِدُونَهُ﴾ لأن الضمير للذكر والاسم، والذكر والاسم لا يأمران.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وما قدمته من التجوّز وشرط الوجود يقرب مما منع منه أبو علي، وانظر. و﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ ما عرف بالشرع، وكل معروف من جهة المروءَة فهو معروف بالشرع، فقد قال ﷺ: «بعثت لأُتَمِّمَ محاسن الأخلاق»[2]، و[الْمُنْكَر] مقابله.

و[الطَّيِّبَات] قال فيها بعض المفسرين: إنها إشارة إلى البحيرة ونحوها، ومذهب مالك رحمه الله أنها المحلَّلات، فكأنه وصفها بالطيب إذ هي لفظة تقتضي مدحاً وتشريفاً، وبحسب هذا يقول في [الْخَبَائِث] إنها المحرَّمات. وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: الخبائث: هي لحم الخنزير والربا وغيره، وعلى هذا حلَّل مالك المتقذرات كالحيَّات والخنافس والعقارب ونحوها، ومذهب الشافعي رحمه الله أن الطيبات هي من جهة الطعم إلا أن اللفظة عنده ليست على عمومها لأن عمومها بهذا

---

(١) وهذا في الآية ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] فقوله سبحانه: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ تفسير للمثل في رأي أبي عليّ.

(٢) رواه الإمام مالك في الموطأ، ولفظه: (بُعثت لأتَمِّم حُسْنَ الأخلاق) ـ وقد قال في شرح الزرقاني إن الحديث مروي برجال الصحيح عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رواه أحمد وقاسم بن أصبغ، والحاكم وغيرهم. والرواية المشهورة: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

الوجه من الطعم يقتضي تحليل الخمر والخنزير، بل يراها مختصة فيما حلّله الشرع، ويرى الخبائث لفظاً عاماً في المحرمات بالشرع وفي المتقذرات فيحرم العقارب والخنافس والوزغ وما جرى هذا المجرى، والناس على هذين القولين إلا أن في تعيين الخبائث اختلافاً ليس هذا موضع تقصيه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ الآية. [يَضَع] كان قياسه أَن يكون (يَضِع) بكسر الضاد لكن ردّه حرف الحلق إلى فتح الضاد، قال أَبو حاتم: وأَدغم أَبو عمرو [يَضَع عَنهُمْ] العين في العين. وأَشمها الرفع وأَشبعها أَبو جعفر وشيبة ونافع، وقرأ طلحة: [ويُذْهِبُ عَنهُمْ إِصْرَهُمْ]. والإِصْر: الثقل، وبه فسّر ـ هنا ـ قتادة، وابن جبير، ومجاهد. والإِصْر أَيضاً: العهد، وبه فسّر ابن عباس، والضحاك، والحسن، وغيرهم. وقد جمعت هذه الآية المعنيين، فإن بني إسرائيل قد كان أُخذ عليهم عهد أَن يقوموا بأَعمال ثقال فوضع عنهم بمحمد ﷺ ذلك العهد وثِقَل تلك الأَعمال. وحكى أَبو حاتم عن ابن جبير قال: الإصر: شدة العبادة. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، والناس: ﴿إِصْرَهُمْ﴾، وقرأ ابن عامر وحده، وأَيوب السختياني، ويعلى بن حكيم، وأَبو سراج الهذلي، وأَبو جعفر: [آصارَهم] بالجمع، لما كانت الأَعمال كثيرة كانت أَثقالها متغايرة، ومن وحّد الإِصْر فهو مفرد اسم جنس يرادُ به الجمع، قال أَبو حاتم: في كتاب بعض العلماءِ: «أَصرهم» واحد مفتوح الهمزة عن نافع، وعيسى، والزيات، وذلك غلط. وذكرها مكيٌّ عن أَبي بكر عن عاصم وقال: هي لغة.

﴿وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ عبارة مستعارة أَيضاً لتلك الأَثقال، كقطع الجلد من أَثر البول، وأَن لا ديَة، ولابُدَّ من قتل القاتل، وترك الأَشغال يوم السبت، فإِنه رُوي أَن موسى عليه السلام رأَى يوم السبت رجلاً يحمل قصباً فضرب عنقه، هذا قول جمهور المفسِّرين، وهذا مثل قولك: «طُوِّق فلانٌ كذا» إذا أُلزمه، ومنه قوله الشاعر:

اذهَبْ بهَا اذهَبْ بِهَا طُوِّقْتَها طَوْقَ الْحَمَامَه[1]

أَي: لزمك عارها.

---

(١) قاله أبو أحمد بن جحش لأبي سفيان. قال ذلك القرطبي في تفسيره.

ومن هذا المعنى قول الهذلي:

فَلَيْسَ كَعَهْدِ الدَّارِ يا أُمَّ مَالِكٍ ولكِنْ أَحَاطَتْ بالرِّقَابِ السَّلاسِلُ
وَعَادَ الفَتى كالكَهْلِ لَيْسَ بِقَائِلٍ سِوى الحَقِّ شيئاً فاستَرَاح العَوَاذِلُ[١]

يريد أوامر الإسلام ولوازم الإيمان الذي قيّد الفتك كما قال ﷺ[٢]. وقال ابن زيد: إنما المراد هنا بالأغلال قول الله عزَّ وجلَّ في اليهود ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾[٣]، فمن آمن بمحمد ﷺ زالت عنه الدعوة وتغليلها.

ثم أخبر تعالى عن حال المؤمنين فقال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾، وقرأ الجحدري، وسليمان التيمي، وقتادة، وعيسى: [عَزَرُوه] بالتخفيف، وجمهور الناس على التشديد في الزاي، ومعناه في القراءتين، وقَّروه. والتعزيز والنصر مشاهدة خاصة للصحابة، واتباع النور يشترك فيه معهم المؤمنون إلى يوم القيامة. والنور كناية عن جملة الشرع. وقوله: [مَعَهُ] فيه حذف مضاف والتقدير: مع بعثه أو نبوته أو نحو هذا، وشبّه الشرع والهدى بالنور إذ القلوب تستضيءُ به كما يستضيءُ البصر بالنور. و[الْمُفْلِحُونَ] معناه: الفائزون ببغيتهم، وهذا يعم معاني الفلاح فإن من بقي فقد فاز ببغيته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾.

---

(١) شبّه الشاعر حدود الإسلام وموانعه عن التخطي إلى المحظورات بالسلاسل التي أحاطت بالأعناق، وهو يقول لصاحبته: لم يعد الأمر كعهدنا في الماضي، لقد أحاطت بنا القيود والموانع وصرنا جميعاً مطالبين بالعدل والحق، ويروى البيت الثاني: «سوى العدل» بدلاً من «سوى الحق».

(٢) نص الحديث كما رواه في الجامع الصغير: «الإيمان قيّد الفَتْك، لا يفتك مؤمن»، وقال: أخرجه البخاري في التاريخ، وأبو داود في سننه، والحاكم في مستدركه ـ عن أبي هريرة ـ والفَتْك: ركوب ما تدعو إليه النفس دون مبالاة ـ كالغدر والاغتيال ـ والقتل مجاهرة ـ والمبالغة في الخبث ـ والسلوك الماجن ـ وكل هذه المعاني محرمة بالإيمان. فالإيمان قيد المؤمن يمنعه منها.

(٣) المائدة: ٦٤.

هذا أمر من الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه بإشهار الدعوة والحضّ على الدخول في الشرع ، وذلك أنه لما رَجَّى الأُمة المتبعة للنبي الأُمي التي كتب لها رحمته عقَّب ذلك بدعاءِ الناس إلى الاتباع الذي تحصل معه تلك المنازل. وهذه الآية خاصة بمحمد ﷺ بيْن الرسل ، فإن محمداً ﷺ بُعث إلى الناس كافة وإلى الجن ، قاله الحسن ، وتقتضيه الأَحاديث ، وكل نبي إنما بعث إلى فرقة دون العموم ، ثم إنه لما أَعلن بالرسالة من عند الله تبارك وتعالى أَردف بصفة الله التي تقتضي الإذعان له وهي أَنه مالك السموات والأرض بالخلق والإبداع والإِحياءِ والإماتة ، لا إِله إلا هو ولا معبود سواه.

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية. هو للحضِّ على اتباع محمد ﷺ ، وقوله: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ﴾ يريد: الذي يصدق ﴿بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ ، والكلمات هنا الآيات المنزلة من عنده كالتوراة والإنجيل.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿كَلِمَاتِهِ﴾ بالجمع ، وقرأَ عيسى بن عمر: [كَلِمَتِهِ] بالإفراد الذي يراد به الجمع ، وقرأَ الأَعمش: [الذي يؤمن بالله وآياته] بدل [كَلِمَاتِهِ] ، وقال مجاهد ، والسدي: المراد بـ [كلماته] أَو [كَلمته] عيسى بن مريم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي على طمعكم وبحسب ما ترونه ، وقوله: ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ لفظ عام يدخل تحته جميع إلزامات الشريعة ، جعلنا الله من متَّبعيه على ما يلزم بمنِّه ورحمته.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ الآية. ﴿يَهْدُونَ﴾ معناه: يرشدون أنفسهم ، وهذا الكلام يحتمل أَن يريد به وصف المؤمنين المتقين من بني إسرائيل على عهد موسى وما والاه من الزمن ، فأَخبر أَنه كان في بني إسرائيل على عُتُوّهم وخلافهم من اهتدى واتقى وعدل ، ويحتمل أن يريد الجماعة التي آمنت بمحمد ﷺ من بني إسرائيل على جهة الاستجلاب لإيمان جميعهم ، ويحتمل ما رُوي من أَن بني إسرائيل لما تقطعوا مرّت أُمة منهم واعتزلت ودخلت تحت الأَرض فمشت في سرب تحت الأَرض سنة ونصف سنة حتى خرجوا وراءَ الصين ، فهم هنالك خلف واد من شهد يقيمون الشرع ويهدون بالحق ، قاله السدي وابن جريج ، ورُوي بعضه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا حديث بعيد، وقرأ بعض من الناس: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ بشد الطاءِ، وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبلة: [وَقَطَعْنَاهُمُ] بتخفيف الطاءِ، ورواها أبان عن عاصم، ومعناه: فرّقناهم، من القطع، وقرأ جمهور الناس ﴿عَشْرَةَ﴾ بسكون الشين، وهي لغة الحجاز، وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش، وطلحة بن سليمان بخلاف: [عَشَرة] بفتح الشين، وقرأت هذه الجماعة أيضاً، وطلحة بن مصرف، وأبو حيوة: [عَشِرَة] بكسر الشين، وهي لغة تميم. وقال أبو حاتم: والعجب أن تميماً يخففون ما كان من هذا الوزن، وأن أهل الحجاز يشبعون، وتناقضوا في هذا الحرف. وقوله: ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل من ﴿اثْنَتَيْ﴾، والتمييز الذي بيّن العدد محذوف مقدر: اثنتي عشرة فرقة أو قطعة أسباطاً، وإمَّا أن يزول عن التمييز ويقدر: وقطعناهم فراقا اثنتي عشرة، ثم أبدل [أَسْبَاطاً]، والأول أحسن وأبين. ولا يجوز أن يكون [أَسْباطاً] تمييزاً لأن التمييز لا يكون إلا مفرداً نكرة، وأيضاً فالسِّبْط مذكر وهو قد عُدَّ مُؤَنَّثاً، على أن هذه العلة لو انفردت لمنعت إذ السبط بمعنى الأُمة، قال الطبري: وقال بعض الكوفيين: لما كان السِّبط بمعنى الأمة غلب التأنيث، وهو مثل قول الشاعر:

فَـإنَّ كِــلابــاً هــذِهِ عَشْــرُ أَبْطُــنٍ   وَأَنْتَ بَـريءٌ مـن قَبَـائِلِهَـا العَشْـرِ[1]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأغفل هذا الكوفي جمع الأسباط وأن ما ذهب إليه إنما كان يجوز لو كان الكلام: «اثنتي عشرة سبطا»، والسبط في ولد إسحق كالقبيلة في ولد إسماعيل، وقد قال الزجاج وغيره: إن السِّبط من السَّبَط وهو شجر.

---

(١) قال العيني في شرح شواهد شروح الألفية: «قائله رجل من بني كلاب يسمى النواح، والشاهد في قوله: «عشر أبطن»، وكان القياس: «عشرة أبطن» لأن البطن مذكَّر، لكنه كنَّى عن الأبطن بالقبائل بدليل قوله: «من قبائلها العشر». وقال في (اللسان): «البطن دون القبيلة، وقيل: دون الفخذ وفوق العمارة، مذكَّر، والجمع: أبطن وبطون، فأما قوله: وإن كلابا... إلخ فإنه أنث على معنى القبيلة، وأبان ذلك بقوله: من قبائلها العشر». وفي خاتمة المصباح: «البطن مذكر ولا يؤنث». وأشار في نهاية الأرب (٢ ـ ٣٣٨) إلى البيت، وهم (يعني العشرة أبطن): جعفر، وأبو بكر واسمه عبيد، ومعاوية وهو الضباب بن كلاب، وعامر، وربيعة، والأضبط، وعمرو، وعبد الله، ورُؤاس، وقيل (رواس)، وكعب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما الأظهر فيه أنه عبراني عرّب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

قد تقدم في سورة البقرة أمر الْحَجَرِ والاستسقاءِ، وأين كان، وأمر التظليل وإنزال المنّ والسلوى، وذكرنا ذلك بما يغني عن إعادته هنا.

و﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ معناه: انفجرت إلا أن الانبجَاس أخف من الانفجار، وقرأ الأعمش، وعيسى الهمداني: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ بتوحيد الضمير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

والمعنى: واذكر إذ قيل لهم، والمراد مَن سلف من بني إسرائيل، وذلك أنهم لما خرجوا من التّيه قيل لهم: اسكنوا هذه القرية، والقرية في كلام العرب: المدينة مجتمع المنازل والإشارة هنا إلى بيت المقدس.

قاله الطبري، وقيل: إلى أريحا. و﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي: هي ونعمها لكم مباحة.

وقرأ السبعة، والحسن، وأبو رجاءٍ، ومجاهد، وغيرهم: ﴿حِطَّةٌ﴾ بالرفع، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن: [حِطَّةَ] بالنصب. الرفع على خبر ابتداءٍ تقديره: طلبُنا

حطةٌ ، والنصب على المصدر ، أي حط ذنوبنا حطةً ، وهذا على أن يكلفوا قول لفظة معناها: حطة. وقد قال قوم: كلفوا قولاً حسناً مضمنه الإيمان وشكر الله ليكون حطة لذنوبهم ، فالكلام ـ على هذا ـ كقولك: قل خيراً. وتوفية هذا مذكورة في سورة البقرة.

وقرأ ابن كثير ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي: ﴿نَّغْفِرْ﴾ بالنون ﴿لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ بالتاءِ مهموزاً على الجمع. وقرأ أبو عمرو: [نَغْفِر] بالنون [لكم خطاياكم] ونحو «قضاياكم» ، وهي قراءَة الحسن والأَعمش. وقرأ نافع: [تُغْفَر] بتاءٍ مضمومة ﴿لَكُمْ خَطيئاتكُم﴾ بالهمز وضم التاءِ على الجمع ، ورواها محبوب عن أبي عمرو.

وقرأ ابن عامر: [تُغْفَر] بتاءٍ مضمومة ﴿لكم خطيئتكم﴾ واحدة مهموزة مرفوعة ، قال أبو حاتم: وقرأَها الأَعرج وفرقة [تَغْفِر] بالتاءِ وفتحها على معنى أَن الحطة تَغفر إذ هي سبب الغفران.

وَ[بَدَّلَ] معناه: غيّر اللفظ دون أَن يذهب بجميعه ، وأَبدل: إذا ذهب به وجاءَ بلفظ آخر[1] ، والإشارة بالقول إلى قول بني إسرائيل: «حبة في شعرة أو حنطة في شعيرة». والرجز الذي أُرسل عليهم: طاعون ، يقال: مات منه في يوم سبعون أَلفاً. وتقدم أَيضاً استيعاب تفسير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ الآية. قال بعض المتأَولين: إن اليهود المعارضين لمحمد ﷺ قالوا: إن بني إسرائيل لم يكن فيهم عصيان ولا معاندة لما أُمروا به ، فنزلت هذه الآية موبخة لهم ومُقَرِّرة ما كان من فعل أَهل هذه القرية ، فسؤالهم إنما كان على جهة التوبيخ ، والقرية هنا: مَدْيَن ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقيل: أَيلة ، قاله ابن عباس ، وعبد الله بن كثير ، وعكرمة ، والسدي ، والثوري. وقال قتادة: هي «مقْنا» بالقاف ساكنة ، وقال ابن زيد: هي مقْناة

---

(١) قال في «البحر المحيط»: وهذه التفرقة ليست بشيءٍ ، وقد جاء في القراءات بدَّل وأَبْدل بمعنى واحد ، قُرِىء: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ ، و﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ ، و﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ بالتخفيف والتشديد، والمعنى واحد وهو إذهاب الشيء والإتيان بغيره بدلاً منه ، والتشديد قد جاء حيث يذهب الشيءُ كله نحو ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾.

ساحل مدين ، ويقال فيها مَغْنَّى. «بالغين مفتوحة ونون مشددة»، وقيل: هي طبرية، قاله الزهري، و[حاضِرَةَ] يحتمل أن يريد معنى الحضور ، أي: البحر فيها حاضر ، ويحتمل أن يريد معنى الحضارة على جهة التعظيم لها ، أي: هي الحاضرة في مدن البحر.

و﴿ إِذْ يَعْدُونَ ﴾ معناه: يخالفون الشرع ، من عدا يعدو. وقرأ شهر بن حوشب ، وأبو نهيك: [يَعَدُّون] ، قال أبو الفتح: أراد (يعتدون) فأسكن التاءَ ليدغمها في الدال ، ونقل فتحتها إلى العين فصار [يَعَدُّون] بفتح العيْن وشد الدال المضمومة. والاعتداءُ منهم في السبت هو نفس العمل والاشتغال كان صيداً أو غيره إلا أنه كان في هذه النازلة بالصيد ، وكان الله عزَّ وجلَّ ابتلاهم في أمر الحوت بأن يغيب عنهم سائر الجمعة فإذا كان يوم السبت جاءَهم في الماءِ شارعاً ، أي مُقبلا إليهم مصطفاً ، كما تقول: أُشرعت الرماح إذا مُدت مصطفة ، وهذا يمكن أن يقع من الحوت بإرسال من الله كإرسال السحاب ، أو بوحي وإلهام كالوحي إلى النحل ، أو بإشعار في ذلك اليوم على نحو ما يشعر الله الدواب يوم الجمعة بأمر الساعة حسبما يقتضيه قول النبي ﷺ: «ما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة حتى تطلع الشمس فرقاً من الساعة»[1] ، ويحتمل أن يكون ذلك من الحوت شعوراً بالسلامة في ذلك اليوم على نحو شعور حمام الحرم بالسلامة. قال رواة هذا القصص: فيقرب الحوت ويكثر حتى يمكن أخذه باليد ، فإذا كان ليلة الأحد غاب بجملته ، وقيل: غابت كثرته ولم يبق منه إلا القليل الذي يتعب صيده ، قال قتادة: ففتنهم ذلك وأضرَّ بهم فتطرقوا إلى المعصية بأن حفروا حُفَراً يخرج إليها ماءُ البحر على أُخدود ، فإذا جاءَ الحوت يوم السبت وحصل في الحفرة ألقوا في الأُخدود حجراً فمنعوه الخروج إلى البحر ، فإذا كان الأَحد أخذوه ، فكان هذا أول التطرق ، وروى أشهب عن مالك قال: زعم ابن رومان أنهم كانوا يأخذ الرجل خيطاً ويصنع فيه وهقة[2] ويلقيها في ذنب الحوت ، وفي الطرف الآخر من الخيط وتد مضروب ، ويتركه كذلك إلى الأحد ، ثم تطَرَّق الناس حين رأوا من صنع هذا لا يُبْتَلَى حتى كثر

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ ، ورواه أيضاً النسائي. (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث).

(٢) الوَهَق ـ بتحريك الهاء مفتوحة وبإسكانها: الحبل في طرفه أنشوطة يطرح في عنق الدابة أو الإنسان حتى يمسك ويؤخذ ـ والأنشوطة عقدة سهلة الحلّ إذا جذبت من طرف معيَّن من طرفيها انفتحت بسهولة.

صيد الحوت ومشي به في الأسواق، وأعلن الفسقة بصيده وقالوا: ذهبت حرمة السبت، فنهضت فرقة من بني إسرائيل ونهت وجاهرت بالنهي واعتزلت، والعامل في قوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ قوله: ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ وهو ظرف مقدم.

وقرأ عمر بن عبد العزيز: [حِيتانهم يوم إسباتهم]، وقرأ نافع، وأبو عمرو، والحسن، وأبو جعفر، والناس: ﴿يَسْبِتُونَ﴾ بكسر الباءِ، وقرأ عيسى بن عمر، وعاصم بخلاف: [يَسْبُتُون] بضمها، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وعاصم بخلاف: [يُسْبِتُون] من (أَسبت) إذا دخل في السبت.

ومعنى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى أمر الحوت وفتنتهم به، هذا على من وقف على ﴿تَأْتِيهِمْ﴾، ومن وقف على ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فالإشارة إلى كثرة الحيتان شُرَّعاً، أي: فما أتى منها فهو قليل، و﴿نَبْلُوهُم﴾ أي نمتحنهم لفسقهم وعصيانهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي قصص هذه الآية رواية وتطويل اختصرته واقتصرت منه على ما لا تفهم ألفاظ الآية إلا به.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

قال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق، فرقة عصت وصادت، وفرقة نهت وجاهرت وتكلمت واعتزلت، وفرقة اعتزلت ولم تعص ولم تنه. وإن هذه الفرقة لما رأت مجاهرة الناهية وطغيان العاصية وعتوها قالت للناهية: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ يريدون العاصية ﴿ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ على غلبة الظن وما عهد من فعل الله حينئذ بالأمم العاصية، فقالت الناهية: موعظتنا معذرة إلى الله، ثم اختُلِفَ بعد هذا فقالت فرقة: إن الطائفة التي لم تعص ولم تنه هلكت مع العاصية عقوبة على ترك النهي، قاله ابن عباس، وقال أيضاً: ما أدري ما فعل بهم. وقالت فرقة: بل نجت مع الناهية لأنها لم تعص ولا رضيت. قاله عكرمة والحسن وغيرهما. وقال ابن الكلبي

فيما أسند عن الطبري: إن بني إسرائيل لم تفترق إلا على فرقتين، فرقة عصت وجاهرت، وفرقة نهت وغيرت واعتزلت، وقالت للعاصية: إن الله يهلككم ويعذبهم، فقالت أُمة من العاصين للناهين ـ على جهة الاستهزاء ـ: لِمَ تعظون قوماً قد علمتم أن الله مهلكهم ومعذبهم؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقول الأول أصوب، وتؤيده الضمائر في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ﴾ فهذه المخاطبة تقتضي مخاطِباً ومخاطَباً ومكنياً عنه، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [مَعذرةٌ] بالرفع، أَي: موعظتنا معذرةٌ أي إقامة عذر، وقرأ عاصم ـ في بعض ما روي عنه ـ وعيسى بن عمر، وطلحة بن مصرف: ﴿معْذرةً﴾ بالنصب، أَي: وعَظْنا معذرةً، قال أَبو علي: حجتها أَن سيبويه قال: لو قال رجل لرجل: معذرةً إلى الله وإليك من كذا لنصب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

الرجل القائل في هذا المثال معتذر عن نفسه وليس كذلك الناهون من بني إسرائيل، فتأَمل. ومعنى ﴿مُهْلِكُهُمْ﴾ في الدنيا ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ في الآخرة، وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقتضي الترجي المحض لأنه من قول آدميين.

والضمير في قوله تعالى: ﴿نَسُوا﴾ للمنهيين، وهو تركٌ سمّي نسياناً إذ أَقوى منازل الترك أَن ينسى المتروك. و(ما) في قوله ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾ بمعنى الذي، ويحتمل أن يراد به الذكر نفسه، ويحتمل أن يراد به ما كان فيه الذكر، والسوءُ لفظ عام في جميع المعاصي إلا أن الذي يختص هنا بحسب قصص الآية صيد الحوت. و﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هم العاصون، وقوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ معناه: مؤلم موجع شديد.

وقرأ نافع وأَهل المدينة ـ أَبو جعفر، وشيبة وغيرهما: [بِيسٍ] بكسر الباءِ وسكون الياءِ وكسر السِّين وتنوينها، وهذا على أَنه فعل سُمّي به، كقوله ﷺ: «أنهاكم عن قيل وقال»[1]، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن: [بِئْسَ] كما تقول: بِئْسَ الرجلُ، وضعَّفها

(١) رواه البخاري في الرقاق والزكاة والاعتصام والأدب، ورواه مسلم في الأقضية، ورواه الدارمي في الرقاق، ومالك في «الموطأ» في الكلام، والإمام أحمد في مواطن كثيرة من مسنده ـ وفي البخاري أن=

أَبو حاتم(١) ، قال أَبو عمرو: ورُوي عن الحسن [بِئْس] بهمزة بين الباءِ والسِّين. وقرأَ نافع ـ فيما يروي عنه خارجة ـ [بَيْسٍ] بفتح الباءِ وسكون الياءِ وكسر السِّين منونة. وروى مالك بن دينار عن نصر بن عاصم [بيَسٍ] على مثل جَمَلٍ وجَبَلٍ ، وقرأَ أَبو عبد الرحمن المقرىء: [بِئْسٍ] بفتح الباءِ وهمزة مكسورة وسين منونة على وزن فَعِلٍ ، ومنه قول عبيد الله بن قيس الرقيات:

لَيْتَنِــي أَلْقَــى رُقَيَّــةَ فــي خَلْــوَةٍ مــنْ غَيْــرِ مَــا بَئِــس(٢)

قال أَبو عمرو الداني: هي قراءَة نصر بن عاصم ، وطلحة بن مصرف. وروي عن نصر [بَيِس] بياءٍ مكسورة من غير همز ، قال الزهراوي: ورُوي عن الأَعمش [بَئِّسٍ] الباءُ مفتوحة والهمزة مكسورة مشددة والسين مكسورة منونة. وقرأَت فرقة: [بَئِّسَ] التي قبلُ إلاَّ فتح السِّين ، ذكرها أَبو عمرو الداني عما حكى يعقوب ، وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، ونافع ـ في رواية أَبي قُرَّة عنه ـ وعاصم ـ في رواية حفص عنه ـ [بَئِيسٍ] بياءٍ بعد الهمزة المكسورة والسِّين المنونة ـ على وزن فعِيلٍ. وهذا وصف بالمصدر كقولهم: «عذير الحيّ» ـ والنذير والنكير ونحو ذلك. وهي قراءَة الأَعرج ، ومجاهد ، وأَهل الحجاز وأَبي عبد الرحمن ، ونصر بن عاصم ، والأَعمش ، وهي التي رجَّح أَبو حاتم ، ومنه قول ذي الإِصبع العَدْوَانيّ:

حَنِقَــا عَلَــيَّ ولاَ أَرى لِــيَ مِنْهُمَــا شَــراً بئيسـا(٣)

= معاوية كتب إلى المغيرة يطلب إليه أن يكتب له ما سمعه من رسول الله ﷺ ، فكتب إليه. وفي آخر الحديث «وكتب إليه أنه كان ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، وكان ينهى عن عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنع وهات».

(١) قال أبو حاتم: لأنه لا يقال: مررت برجل بئس ، حتى يقال: بئس الرجل أو بئس رجلا ، قال النحاس: وهذا مردود من كلام أبي حاتم ، حكى النحويون: إن فعلت كذا وكذا فبها ونِعْمَتْ ، يريدون: ونعمت الخصلة ، والتقدير على قراءة الحسن: بعذاب بئس العذاب. (راجع تفسير القرطبي).

(٢) هو البيت الثاني من أربعة أبيات وردت في ديوانه ، أولها قوله:

يــا لَقَــوْمٍ ، عــادنــي نُكُســي مِــنْ عِــدَاتِ البُــدَّن الشُّمْــسِ

وقد علَّق المحقق (طبعة دار صادر بيروت) على بيتنا هذا بأنه زيادة من العيني ـ ومن الخزانة للبغدادي: ٣ ـ ٥٨٧ والكلمة موضع الشاهد هنا مضبوطة في الديوان (بَئْسِ) بدلا من (بَئِسِ) التي ذكرت هنا وهي لغة في اليأس.

(٣) ذو الإصبع العَدْواني اسمه: حِرْثان بن الحَرْث ، أو حويرث ، أو الحَرْث ، وقيل: السموأل ـ والاختلاف في اسمه كبير ، لكنه عرف بهذا اللقب لأن حيَّة نهشت إبهام قدمه فقطعها ـ وهو شاعر=

وقرأ أهل مكة [بِئيسٍ] كالأول إلا كسر الباءِ، على وزن فعيلٍ، قال أبو حاتم: هما لغتان، وقرأ عاصم ـ في رواية أبي بكر عنه ـ: [بَيْئَسٍ] بفتح الباءِ وسكون الياءِ وفتح الهمزة، على وزن فَيْعَل، ومعناه: شديد، ومنه قول امرىء القيس بن عابس الكندي:

كِـلاهُـمَـا كَـانَ رَئِيسـاً بَيْئَسـا ... يَضْرِبُ فِي يَوْمِ الْهِيَاجِ الْقَوْنَسَا[1]

فهي صفة كضَيْغَم وحَيْدَر، وهي قراءَة الأعمش، وقرأ عيسى بن عمر، والأعمش ـ بخلاف عنه ـ [بَيْئِسٍ] كالتي قبلُ إلا كسر الهمزة على وزن فَيْعِلٍ، وهذا شاذٌّ لأنه لا يوجد فَيْعِلٍ في الصحيح، وإنما يوجد في المعتل مثل سيّد وميّت. وقال الزهراوي: روى نصر بن عاصم: [بَيِّس] على مثال [مَيِّت]، وهذا على أنه من البؤس، ولا أصل له في الهمز، قال أبو حاتم: زعم عاصم أن الحسن والأعمش قرأا: [بِئْيَس] الباءُ مكسورة والهمزة ساكنة والياءُ مفتوحة على مثال خِذْيَم، وضعفها أبو حاتم، وقرأ ابن عامر من السبعة: [بِئْسٍ] بكسر الباءِ وسكون الهمزة وتنوين السين المكسورة، وقرأت فرقة: [بَأْس] بفتح الباءِ وسكون الألف، وقرأ أبو رجاءِ [بَائِس] على وزن فاعِل، وقرأت فرقة: [بَيَسَ] بفتح الباءِ والياءِ والسِّين على وزن فَعَلَ، وقرأ مالك بن دينار: [بَأْسَ] بفتح الباءِ والسِّين وسكون الهمزة على وزن فعْلَ غير مصروف، وقرأت فرقة: [بَأْسٍ] مصروفاً، وحكى أبو حاتم [بَيَسٍ] قال أبو الفتح: هي قراءَة نصر بن عاصم، وحكى الزهراوي عن ابن كثير وأهل مكة [بئس] ويهمز همزاً خفيفاً[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولم يبيّن هل الهمزة مكسورة أو ساكنة.

= جاهليٌّ قديم، يبدو من شعره أنه رجل منازعة ومفاخرة وخصام، وشعره لا يتجاوز المقطعات. والبيت فيه استهانة باثنين حقدا عليه وهو لا يخاف شرهما، والحنق: الغيظ.

(١) البَيْئَس كفَيْعل: الشديد، والأسدُ لِشدَّته. والقَوْنَس: مقدَّم الرأس. وأعلى بيضة الحديد، وعظم ناتىءٌ بين أُذني الفرس، وكل معنى من هذه المعاني وارد وممكن هنا. يقال: فلان يضرب القوانس، قال طرفة:

أَضْـرِبُ عنْـكَ الْهُمُـومَ طـارِقَهَـا ... ضَـرْبَـكَ بـالسَّوْط قَـوْنَـسَ الْفَـرَسِ

أراد: أَضْرِبَنَّ، يصفهما بالرياسة والشجاعة وضرب الهام في يوم الهياج.

(٢) ذكر ابن عطية اثنين وعشرين قراءة، وأيضاً ذكر أبو حيان في البحر اثنين وعشرين ونصَّ على ذلك في آخرها، أما القرطبي فذكر إحدى عشرة قراءة فقط. فتأمل.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي لأجل ذلك وعقوبة عليه.

والعُتُوّ: الاستعصاءُ وقلة الطواعية.

وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ يحتمل أَن يكون قولاً بلفظ من مَلَك أَسمعهم ذلك فكان أَذهب في الإِغراب والهوان والإِصغار، ويحتمل أَن يكون عبارة عن المقدرة المكوّنة لهم قردة، و﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ مبعدين، كما قال رسول الله ﷺ لابن صياد: (اخْسَأْ)(١)، وكما يقال للكلب: اخسأ، فـ﴿خَاسِئِينَ﴾ خبر بعد خبر، هذا اختيار أَبي الفتح، وضعّف الصفة، وكذلك هو لأَن القصد ليس التشبيه بقردة مبعدات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويجوز أَن يكون ﴿خَاسِئِينَ﴾ حالاً من الضمير في ﴿كُونُوا﴾، والصفة أَيضاً متوجهة مع ضعفها، ورُوي أَن الشباب منهم مُسخوا قردة والرجال الكبار مسخوا خنازير، وروي أَن مسخهم كان بعد المعصية في صيد الحوت بعامين، وقال ابن الكلبي: إن إهلاكهم كان في زمن داود. ورُوي أَن الناهين قسموا المدينة بينهم وبين العاصين بجدار، فلما أَصبحوا ليلة أُهلك العاصون، لم يفتح باب مدينة العاصين حتى ارتفع النهار، فاستراب الناهون لذلك، فطلع أَحد الناس على السور فرآهم ممسوخين قردة تتواثب فصاح، فدخلوا عليهم يعرف الرجل قرابته ويعرف القرد أَيضاً كذلك قرابته. وينضمون إلى قرابتهم فيتحسرون، قال الزجَّاج: وقال قوم: يجوز أَن تكون هذه القردة من نسلهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتعلّق هؤلاء بقول النبي ﷺ: «إن أُمة من الأُمم فقدت، وما أُراها إلاَّ الفأْرة إذا قرب لها لبن لم تشرب»(٢)، وبقوله ﷺ في الضب.

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، وأبو داود، والدارمي، والإمام أحمد ونصه كما ذكره أحمد عن عبد الله قال: «كنا نمشي مع النبي ﷺ، فمرّ بابن صيّاد فقال: إني قد خبّأت لك خبأ، قال ابن صياد: دخ، قال فقال رسول الله ﷺ: اخسأ فلن تعدو قدرك، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله دعني أضرب عنقه، قال: لا، إن يكن الذي نخاف فلن تستطيع قتله».

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد (٢ ـ ٢٨٩) عن أبي هريرة، ونصه: (فقد سبط من بني إسرائيل وذكر الفأرة فقال: ألا ترى أنك لو أدنيت منها لبن الإبل لم تقربه، وإن قربت إليها لبن الغنم شربته؟ فقال=

وقصص هذا الأمر أكثر من هذا لكن اختصرتُه واقتصرت على عيونه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾.

بِنْيَةُ ﴿تَأَذَّنَ﴾ هي التي تقتضي التكسُّب، من أَذِنَ أي عَلِمَ[1]، وآذَنَ أي أَعْلَم، مثل كَرُمَ وأَكْرَمَ وتَكَرَّمَ، إلاَّ أن تعلَّم (وما جرى مجرى هذا الفعل) إذا كان مسنداً إلى اسم الله عزَّ وجلَّ لم يلحقه معنى التكسُّب الذي يلحق المُحْدَثين، فإنما يترتب بمعنى عَلِم صفة لا بِتَكَسُّب، بل هي قائمة بالذات، وإلى هذا المعنى ينحو الشاعر بقوله:

تَعَلَّمْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ[2]

لأنه لم يأمره بالتَّعَلُّم الذي يقتضي جهالة، وإنما أَراد أَن يوقفه على قوَّة علمه، ومنه قول زهير:

تَعَلَّمْ أَنَّ شَرَّ النَّاس حَيٌّ ... يُنادَى في شعارِهِمُ يَسَارُ[3]

فمعنى هذه الآية: وإذ عَلِمَ الله ليبعثن عليهم، وتقتضي قوة الكلام أَن ذلك العلم منه مقترن بإنفاذ وإمضاءٍ، كما تقول في أَمر قد عزمتَ عليه غاية العزم: «علم الله لأَفعلن كذا»، نحا إليه أَبو علي الفارسي، وقال الطبري وغيره: [تأَذَّن] معناه: أَعْلَم، وهو قلق من جهة التصريف إذ نسبة (تَأَذَّن) إلى الفاعل غير نسبة (أَعْلَم)، وتبين ذلك

= أكذا سمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: أفأقرأ التوراة؟).

(١) في بعض النسخ زيادة لفظة «ومكّن»، ومعناها غير واضح مع السياق. وقول المؤلف بعد ذلك: «إلا أنَّ تعَلَّم» ينطبق أيضاً على (تأَذَّن) لقوله عقب ذلك: «وما جرى مجرى هذا الفعل».

(٢) يريد أن (تعلَّم) تكون بمعنى (اعْلَم) ولكن ليس المراد علما بعد جهل، بل المراد: اعلم رأيي في ذلك، ومنه قول عمرو بن معد يكرب، أو معد يكرب بن الحارث:

تَعَلَّم أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ طُرّاً ... قَتيلٌ بين أحجار الكُلاب

ولا نعرف البيت الذي يقصده بهذه الإشارة الصغيرة، فالأبيات التي تحملها أو تحمل مثلها كثيرة.

(٣) تعلم بمعنى: اعلم، والشِّعار: عبارة يتعارف بها القوم في الحرب أو السفر ـ ويسار: واحد من رعاة الإبل أخذه الحارث بن ورقاءَ، وزهير يذمُّ قوم الحارث بأن (يساراً) هذا صار عيباً لهم ورمزاً يعرفون به كما يعرف القوم بشعارهم.

من التعدي وغيره، وقال مجاهد: ﴿تَأَذَّنَ﴾ معناه: قال، ورُوي عنه أن معناه: أمر، وقالت فرقة: معنى ﴿تَأَذَّنَ﴾: تَأَلَّى[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقادهم إلى هذا القول دخول اللام في الجواب، وأما اللفظة فبعيدة عن هذا.

والضمير في ﴿عَلَيْهِم﴾ لمن بقي من بني إسرائيل لا للضمير في [لَهُمْ][٢]. وقوله تعالى: ﴿مَن يَسُومُهُمْ﴾ قال سعيد بن جبير: هي إشارة إلى العذاب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي إشارة إلى محمد ﷺ وأُمته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والصحيح أَنها عامة في كل مَنْ حالُ اليهود معه هذه الحال، و﴿يَسُومُهُمْ﴾ معناه: يكلفهم ويحملهم، و﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ الظاهر منه الجزية والإذلال، وقد حتم الله عليهم هذا وحطَّ ملكهم، فليس في الأَرض راية ليهودي، وقال ابن المسيّب: فيستحب أَن تتعب اليهود في الجزية، ولقد حدث أَن طائفة من الروم أَمْلكت في صُقْعها، فباعت اليهود المجاورة لهم الساكنة معهم وتملكوهم.

ثم حسُنَ في آخر هذه الآية ـ لتضمنها الإيقاع بهم والوعيد ـ أَنْ ينبه على سرعة عقاب الله ويخوف بذلك تخويفاً عاماً لجميع الناس، ثم رجَّى ذلك لُطفاً منه تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ﴾ معناه: فرقناهم في الأَرض، قال الطبري عن جماعة من المفسرين: ما في الأَرض بقعة إلا وفيها معشر من اليهود، والظاهر في المشار إليهم في هذه الآية أَنهم الذين بعد سليمان وقت زوال ملكهم، والظاهر أَنه قبل مدة عيسى عليه السلام؛ لأَنه لم يكن فيهم صالح بعد كفرهم بعيسى ﷺ. وفي التواريخ في هذا الفصل روايات مضطربة، و﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ ـ و﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أَلفاظ محتملة أَن يراد بها صلاح الإيمان، فـ ﴿دُونَ﴾ بمعنى غير يراد بها الكفرة، وإن أُريد بالصلاح العبادة والخير وتوابع الإيمان فـ[دُونَ ذَٰلِكَ] يحتمل أَن يكون في مؤمنين.

---

(١) تألى: حَلَف.

(٢) المراد [لَهُم] في قوله تعالى قبل ذلك: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾.

﴿وَبَلَوْنَٰهُم﴾ معناه: امتحنّاهم، والحسنات: الصحة والرخاءُ ونحو هذا مما هو بحسب رأي ابن آدم ونظره، والسيئات: مقابلات هذه. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي بحسب رأيكم لو شاهدتم ذلك، والمعنى: لعلهم يرجعون إلى الطاعة ويتوبون من المعصية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾.

(خَلَفَ) معناه: حدث خلْفهم وبعدهم ﴿خَلْفٌ﴾ بإسكان اللام، ويستعمل في الأَشْهَر في الذم، ومنه قول لبيد:

ذَهَبَ الَّذينَ يُعَاشُ في أَكْنَافِهِمْ   وبَقِيتُ في خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ(١)

وقد يستعمل في المدح، ومنه قول حسّان:

لنَا الْقَدَمُ الأُولى إلَيْكَ وخَلْفُنَا   لأوَّلِنَا في طَاعَةِ اللهِ تَابِعُ(٢)

والخلَف ـ بفتح اللام ـ يستعمل ـ في الأشهر ـ في المدح، قال أبو عبيدة، والزجّاج: وقد يستعمل في الذمّ أيضاً، ومنه قول الشاعر:

---

(١) قال لبيد بيته هذا ضمن قصيدة له يصف فيها تغير الأيام والناس، ويتحدث عن أخيه أربد ومآثره، ومطلع القصيدة في رواية الطوسي:

قَضِّ اللُّبَانَةَ لا أبا لك واذْهَبِ   والْحَقْ بأسْرَتِكَ الكرامِ الغُيَّبِ

أما الأصفهاني في الأغاني فيرويها على أن مطلعها:

طَرِبَ الفؤَاد ولَيْتَه لَمْ يطْرَبِ   وعَنَاه ذكْرَى خُلَّةٍ لَمْ تَصْقَبِ

وفي أكنافهم معناه: في ظل خيرهم، والخَلْفُ: البقيّةُ. وجلد الأجرب: جلْد الجمل الأجرَب وهو مما لا ينتفع به.

(٢) استشهاد صاحب اللسان بهذا البيت على أن الخلْف هو الباقي بعد الهالكِ والتابعُ له، سمّي به المتخلف لا على جهة البدل، قال: ويكون محموداً ومذموماً، وشاهد المحمود قول حسّان (وذكر البيت)، ثم قال: فالخلف ها هنا هو التابع لمن مضى وليس من معنى الخلف الذي هو البدل. وواضح أن التبعيّة هنا في طاعة الله.

ألا ذلِكَ الخَلَفُ الأَعْورُ(١)

وقال مجاهد: المراد بالخلْف ها هنا النصارى، وضعّفه الطبري. وقرأ الحسن البصري: [وُرِّثُوا الكتاب] بضم الواو وشد الراءِ، وقوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ إشارة إلى الرشا والمكاسب الخبيثة، والعَرَض: ما يعرض ويَعِنُّ ولا يثبت، و﴿الأَدْنَى﴾ إشارة إلى عيش الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ذمٌّ لهم باغترارهم، وقولهم: «سيغفر» مع علمهم بما في كتاب الله من الوعيد على المعاصي وإصرارهم عليها وأنهم إذا أمكنتهم ثانية ارتكبوها فهؤلاءِ عجزة، كما قال ﷺ: «والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»(٢)، وهم مُصِرُّون، وإنما يقول سيغفر لنا من أقلع وندم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم﴾ الآية. تشديد في لزوم قول الحق على الله في الشرع والأحكام بين الناس، وأن لا تميل الرشا بالحكام إلى الباطل. و﴿الكِتَاب﴾ يريد به التوراة، وميثاقُها: الشدائد التي فيها في هذا المعنى، وقوله: ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ يمكن أن يريد بذلك قولَهم الباطل في حكومة مما يقع بين أيديهم، ويمكن أن يريد قولَهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وهم قد عَلِمُوا الحق في نهي الله تبارك وتعالى عن ذلك. وقرأ جمهور الناس: ﴿يَقُولُواْ﴾ بياءٍ من تحت، وقرأ الجحدري: [تَقُولُوا] بتاءٍ من فوق.

وقوله تعالى: ﴿وَدَرَسُواْ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾ الآية بمعنى المضي، ويقدر: أليس قد أُخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه؟ وبهذين الفعلين تقوم الحجة عليهم في قولهم الباطل، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: [وادَّارسوا ما فيه]، وقال الطبري وغيره: قوله: ﴿وَدَرَسُواْ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

---

(١) البيت بتمامه:

تبدلتِ داودَ مختارةً ... ألا ذلك الخلف الأعور

وهو للأحوص الأنصاري. ومن الواضح أنَّ (خَلَفَ) بفتح اللام وأنها في الذمّ، ولم يذكر هذا الشاهد من المفسرين غير ابن عطية إلا صاحب «البحر المحيط»، أما الشاهدان الآخران فقد ذكرهما كل من الطبري والقرطبي، وزاد القرطبي وصاحب «البحر المحيط» شاهداً آخر ذكره أيضاً صاحب (اللسان).

(٢) الحديث بتمامه كما ذكره في «الجامع الصغير»: «الكَيِّس من دان نفسه وعمل لما بعْدَ الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني» وقد رواه الإمام أحمد في مسنده، والترمذي، وابن كثير ـ وهو عن شداد بن أوس ورمز له السيوطي بالصحة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر لبعد المعطوف عليه، لأن قوله: ﴿وَدَرَسُواْ﴾ يزول منه معنى إقامة الحجة بالتقدير الذي في قوله: ﴿أَلَمْ﴾ ثم وعظ وذكَّر تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاءِ من فوق، وقرأ أبو عمرو وأهل مكة: [يَعْقِلُونَ] بالياءِ من أسفل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ عطف على قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾. وقرأ ابن كثير، ونافع، وحمزة، والكسائي، وعاصم ـ في رواية حفص ـ وأبو عمرو، والناس: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ بفتح الميم وشد السين، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأبو العالية، وعاصم وحده ـ في رواية أبي بكر ـ: [يُمْسِكُونَ] بسكون الميم وتخفيف السّين، وكلهم خفف ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾(١)، إلاَّ أَبا عمرو فإنه قرأ: [وَلاَ تَمَسَّكُوا] بفتح الميم وشد السّين، وقرأ الأعمش: ﴿والذين استمسكوا﴾ وفي حرف أُبَيّ: ﴿والذين مسكوا﴾، وهما لغتان بمعنى واحد، قال كعب بن زهير:

فَمَا تَمَسَّكُ بالعَهْدِ الَّذي زَعَمَتْ ... إلاَّ كَمَا تُمْسِكُ الماءَ الْغَرَابِيلُ(٢)

أَما إن شدَّ السين يجري مع التَّعدي بالباءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾.

﴿نَتَقْنَا﴾ معناه: اقتلعنا ورفعنا، فكأَن النتق اقتلاع الشيءِ، تقول العرب: «نتقت الزبدة من فم القربة»، ومنه قول الشاعر:

وَنَتَقُوا أَحْلاَمَنا الأَثَاقِلاَ(٣)

---

(١) الممتحنة: ١٠.

(٢) هذا البيت من قصيدة كعب المشهورة التي قالها في مدح الرسول، ومطلعها:

بَانَتْ سُعَادُ فقلبي اليومَ مَتْبولُ ... مُتَيَّمٌ إثْرَها لمْ يُفْدَ مَكْبولُ

(٣) هذا واحد من ثلاث أبيات ذكرها صاحب (اللسان) في مادة (نتق) ـ وهي من مشطور الرجز، ولم=

والناتق: الرحم التي تقلع الولد من الرجل. ومنه قول النابغة:

لَـمْ يُحْـرَمُـوا حُسْـنَ الْغِـذاءِ وأُمُّهُـمْ ... دَحَقَـتْ عَلَيْـكَ بِنَـاتِـقٍ مِـذْكَـارِ[(١)]

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بتزوج الأبكار فإنهن أنتق أرحاماً وأطيب أفواهاً» الحديث[(٢)]، وقد جاءَ في القرآن بدل هذه اللفظة في هذه القصة بعينها [رفعنا][(٣)]، لكن [نَتَقْنَا] و[فَوْقَهُم] أعطت الرفع بزيادة قرينة هي أن الجبل اقتلعته الملائكة وأمر الله إيَّاه.

ورُوي أن موسى عليه السلام لما جاءَهم بالتوراة فقال عن الله تعالى: هذا كتاب الله، أتقبلونه بما فيه؟ فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرّم عليكم وما أمركم وما نهاكم، قالوا: انشر علينا ما فيها[(٤)]، فإن كانت فرائضها يسيرة وحدودها خفيفة قبلناها، قال: اقبلوها بما فيها. قالوا: لا، فراجعهم موسى فراجعوا ثلاثاً فأوحى الله عزَّ وجلَّ إلى

= ينسبها، بل قال: «النّتق»: الزعزعة والهزُّ والجذب والنفض، ونَتَق الشيءَ ينتقه وينتقُه نتقاً: جذبه واقتلعه.. وقال الشاعر:

قَـدْ جـرَّبُـوا أخْـلاقنَـا الْجَـلائِـلا ... ونَتَقُـوا أحْـلامَنَـا الأثَـاقِـلا

فَلَمْ يَرَ النَّاسُ لَنَا مُعَادِلا

ثم قال صاحب اللسان: «وقال الفراءُ في ذلك: رفع الجبل على عسكرهم فرسخاً في فرسخ، ونَتَقْنَا: رفعنا».

(١) البيت في (اللسان ـ نتق) ـ والرواية فيه وفي الديوان: «طفحت» بدلا من «دحقت»، ولكن اللسان ذكرها مرة أُخرى بلفظ «دحقت» كرواية ابن عطية هنا. والضمير في «يحرموا» راجع إلى أقوام ذكرهم قبل ذلك في أبيات القصيدة، وهم بنو جذيمة والغاضريون. ودحقت المرأة بأولادها: ولدت بعضهم في إثر بعض، والدحوق من النساء: ضد المقاليت وهنَّ المُتْئمات. والناتق: التي أخرجت ما عندها من الولد، ومذكار: التي تلد الذكور. يقول: إنهم غذوا غذاءً حسناً فنموا وكثروا، وإن أمهم ولدتهم لك تباعاً وكانوا جميعاً من الذكور.

(٢) نص الحديث كما رواه في «الجامع الصغير»: «عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواهاً وأنتق أرحاماً وأرضى باليسير»، ثم قال: رواه ابن ماجه، والبيهقي في شعب الإيمان ـ عن عويمر بن ساعدة، ورمز له بعد ذلك بأنه حسن.

(٣) وذلك في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. قال القرطبي عند تفسيرها: «هذه الآية تفسر معنى قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾».

(٤) أنَّث الضمير هنا لأنه يعود على التوراة، وهي المقصودة في قول موسى عليه السلام قبل ذلك: «هذا كتاب الله».

الجبل فانقلع وارتفع فوق رؤُوسهم ، فقال لهم موسى ﷺ: ألا ترون ما يقول ربي؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل ، قال الحسن البصري: فلما رأوا إلى الجبل(١) خرَّ كل واحد منهم ساجداً على حاجبه الأيسر ، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرَقاً أن يسقط عليه ، فلذلك ليس في الدنيا يهودي يسجد إلا على حاجبه الأَيسر ، يقولون: هذه السجدة التي رفعت بها عنا العقوبة.

و﴿ٱلظُّلَّةُ﴾: ما أَظَلَّ ، ومنه ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾(٢) ، ومنه ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾(٣)، ومنه قول أُسَيْد بن حضير للنبي ﷺ: قرأت البارحة فغشي الدار مثل الظُّلَّة فيها أَمثال المصابيح ، فقال النبي ﷺ: «تلك السكينة نزلت للقرآن»(٤). فإن قيل: إذا كان الجبل ظُلَّة فما معنى ﴿كَأَنَّهُۥ﴾؟ فالجواب أَن البشر إنما اعتادوا هذه الأَجرام الأَرضية ظُلَلاً إذا كانت على عُمُد ، فلما كان الجبل على غير عُمُد قيل: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ ، أَي: كأَنه على عُمُد.

﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ قال المفسرون: معناه: أَيقنوا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس الأَمر عندي كذلك ، بل هو موضع غلبة الظن مع بقاءِ الرجاءِ ، وكيف يوقنون بوقوعه وموسى عليه السلام يقول: إن الرّمي به إنما هو بشرط أَن لا يقبلوا التوراة ، والظن إنما يقع ويستعمل في اليقين متى كان ذلك المتيقن لم يخرج إلى

---

(١) عُدِّيت (رأى) هنا بحرف الجر (إلى) لأنها تتضمن معنى النظر المؤدي إلى الاعتبار. قاله الراغب ، وذكره في التاج.

(٢) البقرة: ٢١٠.

(٣) الشعراء: ١٨٩.

(٤) رواه البخاري في فضائل القرآن ، ومسلم في المسافرين ، ورواه الإمام أحمد ، ولفظه كما رواه البخاري عن أسيد بن حضير قال: «بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس ، فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكت وسكنت الفرس ، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف وكان ابنه يحيى قريباً منه فأشفق أن تصيبه ، فلما اجْترّه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها ، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال له اقرأ يا ابن حضير ، اقرأ يا بن حضير ، قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريباً فرفعت رأسي فانصرفت إليه ، فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظُّلَّة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها ، قال: وتدري ما ذاك؟ قال: لا ، قال: تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت لأصْبَحتْ ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم».

الحواس، وقد تبين هذا فيما سلف من هذا الكتاب. ثم قيل لهم في وقت ارتفاع الجبل: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ فأخذوها والتزموا جميع ما تضمنته من شدة ورخاءٍ فما وفوا. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَاذْكُرُواْ﴾، وقرأ الأعمش ـ فيما حكى أبو الفتح عنه ـ: [وَاذَّكَّرُوا]. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ على ترجِّيهم، وهذا تشدُّدٌ في حفظها والتَّهمُّم بها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ الآية. التقدير: واذكر إذ أخذ ربك، وقوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ قال النحاة: هو بدل اشتمال من قوله: ﴿مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، وألفاظ هذه الآية تقتضي أن الأخذ كان من بني آدم من ظهورهم، وليس لآدم في الآية ذكر بحسب اللفظة، وتواترت الأحاديث في تفسير هذه الآية عن النبي ﷺ من طريق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وغيرهما أن الله عزَّ وجلَّ لما خلق آدم (وفي بعض الروايات: لما أهبط آدم إلى الأرض في دهناءَ من أرض السند، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وفي بعضها أن ذلك بنعمان وهي عرفة وما يليها، قاله أيضاً ابن عباس رضي الله عنهما وغيره) مسح على ظهره (وفي بعض الروايات بيمينه، وفي بعض الروايات ضرب منكبه) فاستخرج منها ـ أي من المسحة أو الضربة ـ نسم بنيه، ففي بعض الروايات كالذرّ، وفي بعضها كالخردل[1]. وقال محمد

(١) الأحاديث التي أشار إليها المؤلف هنا رويت من طرق كثيرة، وهذا هو المراد بقوله: «تواترت»، وليس المراد التواتر الاصطلاحي فإن بعضها من أحاديث الآحاد. أما حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد أخرجه مالك في الموطأ، والإمام أحمد في مسنده، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وأبو داود، والترمذي وحسَّنه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والآجري في الشريعة، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، واللالكائي، والبيهقي في الأسماء والصفات ـ عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية فقال: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال: «إنَّ الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنَّة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون، فقال الرجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ فقال: إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الله الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله النار».

وأما ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما فقد أخرج أحمد، والنسائي، وابن جرير، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الله اخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صُلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه =

ابن كعب: إنها الأرواح جعلت لها مثالات، وروى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «أُخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس، وجعل الله لهم عقولاً كنملة سليمان عليه السلام، وأَخذ عليهم العهد بأَنه ربهم وأنه لا إله غيره، فأَقروا بذلك والتزموه، وأَعلمهم أَنه سيبعث الرسل إِليهم مذكرة وداعية، فشهد بعضهم على بعض»[1]، وقال أُبيّ بن كعب: أَشهد عليهم السموات السبع، فليس من أَحد يولد إلى يوم القيامة إلا وقد أخذ عليه العهد في ذلك اليوم والمقام، وقال السدي: أَعطى الكفار يومئذ العهد كارهين على وجه التقية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذه نخيلة مجموع الروايات المطولة، وكأَن أَلفاظ هذه الأَحاديث لا تلتئم مع أَلفاظ الآية، وقد أكثر الناس في روم الجمع بينهما، فقال قوم: إن الآية مشيرة إلى هذا التناسل الذي في الدنيا، و﴿أَخَذَ﴾ بمعنى: أَوجد على المعهود، وأَن (الإِشهاد) هو عند بلوغ المكلف وهو قد أُعطي الفهم، ونصبت له هذه الصنعة الدالة على الصانع، ونحا إلى هذا المعنى الزجاج، وهو معنى تحتمله الألفاظ، لكن يرد عليه تفسير عمر ابن الخطاب وابن عباس رضي الله عنهما الآية بالحديث المذكور[2]، وروايتهما ذلك عن النبي ﷺ.

وطوّل الجرجاني[3] في هذه المسأَلة، ومدار كلامه على أَن المسح وإخراج الذرية من ظهر آدم حسب الحديث، وقيل في الآية: أَخَذَ من ظهورهم، إذ الإخراج من ظهر آدم الذي هو الأَصل إخراج من ظهور بنيه الذين هم الفروع، إذ الفرع والأَصل شيءٌ واحد، إلى كلام كثير لا يثبت للنقد.

= كالذرّ، ثم كلمهم قُبلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ عن (الدر المنثور في التفسير بالمأثور ـ للإمام السيوطي)، وللإمام الشوكاني تعليق يرد به على الزمخشري في هذا الموضوع.

(١) أخرجه ابن جرير، وابن منده في كتاب الردّ على الجهمية عن عبد الله بن عمرو. (الدر المنثور).

(٢) يفهم من كلامه أنه حديث واحد، ولكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه روى حديثاً، وروى ابن عباس رضي الله عنهما حديثاً آخر، ولكن الموضوع واحد.

(٣) هو علي بن عبد العزيز بن الحسن الجرجاني، أبو الحسن. قاض، من العلماء بالأدب، ولد بجرجان، وتوفي بنيسابور فحمل تابوته إلى جرجان، من كتبه: «تفسير القرآن» و«تهذيب التاريخ» و«الوساطة بين المتنبي وخصومه» وكان خطُّهُ يشبه خط ابن مقلة توفي سنة ٣٩٢هـ.

وقال غيره: إن جميع ما في الحديث من مسح بيمينه وضرب منكبه ونحو هذا إنما هو عبارة عن إيجاد ذلك النسم منه، واليمين عبارة عن القدرة، أَو يكون الماسح ملَكاً بأَمر الله عز وجلّ فتضمن الحديث صدر القصة وإيجاد النسم من آدم، وهذه زيادة على ما في الآية، ثم تضمنت الآية ما جرى بعد هذا من أَخذ العهد والنسم حضور موجودون. وهي تحتمل معنيين: أَحدهما أَن يكون ﴿أَخَذَ﴾ عاملاً في «عهد» أَو «ميثاق» تقدره بعد قوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، ويكون قوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ لبيان جنس البنوة، إذ المراد من الجميع التناسل، ويشركه في لفظه ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بنوه لصُلْبه وبنوه بالشفقة والحنان، ويكون قوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بدلاً من ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾. والمعنى الآخر أَنه لما كانت كل نسمة هنالك لها نسبة إلى التي هي من ظهرها كان تعيين تلك النسبة أَخْذاً من الظهر إذ ستخرج منه، فهي المستأنف، فالمعنى: وإذ عينوا بهذه النسبة وعرفوا بها، فذلك أَخْذٌ ما، و﴿أَخَذَ﴾ ـ على هذا ـ عامل في ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وليس بمعنى مَسح وأَوجد، بل قد تقدم إيجادهم كما تقدم في الحديث المذكور، فالحديث يزيد معنى على الآية وهو ذكر آدم وأَول إيجاد النسم كيف كان.

وقال الطُّرْطُوشي[1]: إن هذا العهد يلزم البشر وإن كانوا لا يذكرونه في هذه الحياة كما يَلْزَمُ الطلاقُ من شُهِد عليه به وهو قد نسيه ـ إلى غير هذا مما ليس بتفسير ولا من طريقه.

وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: [ذُرِّيَّاتهم] جمع جمع، وقرأَ ابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي، [ذُرِّيَّتَهم]، والإفراد هنا جمع، وقد تقدم القول على لفظ الذُّرية في سورة آل عمران.

وروي في قصص هذه الآية أَن الأَنبياءَ عليهم السلام كانوا بين تلك النَّسم، وأَن آدم عليه السلام رأَى داود فأَعجبه، فقال: من هذا؟ فقيل: نبي من ذريتك، فقال: كم

(١) هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهدي الأندلسي، أبو بكر الطرطوشي، من أهل طرطوشة بشرق الأندلس، تفقه ببلاده ثم رحل إلى المشرق واستقر في الإسكندرية إلى أن توفي سنة ٥٢٠هـ، كان زاهداً، من كتبه: «سراج الملوك» و«مختصر تفسير الثعلبي»، و«التعليقة» في الخلافيات من خمسة أجزاء، وله كتاب كبير عارض به «إحياء علوم الدين» للغزالي، عن (وفيات الأعيان) و«الديباج» و«نفح الطيب».

عمره؟ فقيل: ستون سنة، فقال: زيدوه من عمري أربعين سنة فزيدت، قال: وكان عمر آدم ألفاً، فلما أكمل تسعمائة وستين جاءَ ملك الموت فقال له آدم: بقي لي أربعون سنة، فرجع ملك الموت إلى ربّه فأخبره، فقال له: قل له: إنك أعطيتها لابنك داود، فتوفي عليه السلام بعد أن خاصم في الأربعين[1]. قال الضحاك بن مزاحم: من مات صغيراً فهو على العهد الأول، ومن بلغ فقد أخذه العهد الثاني، يعني الذي في هذه الحياة المعقولة الآن. وحكى الزجاج عن قوم أنهم قالوا: إن هذه الآية عبارة عن أن كل نسمة إذا ولدت وبلغت فنظرها في الأدلة المنصوبة عهد عليها في أن تؤمن وتعرف الله. وقد تقدم ذكر هذا القول، وهو قول ضعيف منكّب عن الأحاديث المأثورة مُطّرح لها.

وقوله تعالى: ﴿شَهِدْنَآ﴾ يحتمل أن يكون من قول بعض النسم لبعض، أي: شهدنا عليكم لئلاَ تقولوا يوم القيامة: غفلنا عن معرفة الله والإيمان به، فتكون مقالة من هؤلاء لهؤلاءِ، ذكره الطبري، وعلى هذا لا يَحْسُنُ الوقف على قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾. ويحتمل أن يكون قوله سبحانه: ﴿شَهِدْنَآ﴾ من قول الملائكة، فيحسن الوقف على قوله: ﴿بَلَىٰ﴾. قال السدي: المعنى: قال الله وملائكته: شهدنا، ورواهُ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ.

وقرأ السبعة غير أبي عمرو: ﴿أَن تَقُولُوا﴾ على مخاطبة حاضرين، وقرأ أبو عمرو وحده: [أَنْ يَقُولُوا] على الحكاية عن غائبين، وهي قراءَة ابن عباس رضي الله عنهما، وابن جبير، وابن محيصن، والقراءَتان تتفسران بحسب المعنيين المذكورين. و﴿أَن﴾ في موضع نصب على تقدير: مخافة أَنْ.

(١) أخرج هذا الخبر عبد بن حميد، وأبو الشيخ، وابن مردويه، ورواه الترمذي وصححه عن أبي هريرة، ولفظه كما رواه السيوطي في «الدر المنثور» قال: قال رسول الله ﷺ: لما خَلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أي ربِّ، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذُرِّيتك، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال: أي ربِّ، من هذا؟ فقال: رجل من آخر الأمم من ذُرِّيتك يقال له داود، قال: أي ربّ، وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي ربّ، زده من عمري أربعين سنة، فلما انقضى عُمر آدم، جاءَ ملك الموت فقال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد فجحدت ذريته، ونسي فنسيت ذريته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

المعنى في هذه الآيات أن الكفرة لو لم يؤخذ عليهم عهد ولا جاءَهم رسول مُذكر بما تَضَمَّنه العهد من توحيد الله وعبادته لكانت لهم حُجَّتَان ـ إحداهما: كنا غافلين، والأُخرى: كنا تَبَعاً لأسلافنا فكيف نهلك والذنب إنما هو لمن طرَّق[1] لنا وأَضلنا، فوقعت شهادة بعضهم على بعض أَو شهادة الملائكة عليهم؛ لتنقطع لهم هذه الحجج، والاختلاف في ﴿تَقُولُوٓا۟﴾ أَو [يَقولُوا] بحسب الأَول.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ تقديره: وكما فعلنا هذه الأُمور وأَنفذنا هذه المقادير فكذلك نفصل الآيات ونُبيِّنها لمن عاصرك وبُعِثْت إليه. ﴿وَلَعَلَّهُمْ﴾ على ترجِّيهم وترجِّيكم وبحسب نظر البشر ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إلى طاعة الله، ويدخلون في توحيده وعبادته. وقرأَت فرقة: [يُفصِّلُ] بالياءِ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. ﴿وَٱتْلُ﴾ معناه: قُصّ واسرُد، والضمير في [عَلَيْهِم] عائد على حاضري محمد ﷺ من الكفار وغيرهم، واختلف المتأَولون في الذي أُوتي الآيات ـ فقال عبد الله بن مسعود وغيره: هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى عليه السلام إلى ملك مدْين داعياً إلى الله تعالى وإلى الشريعة، وعَلَّمه من آيات الله ما يمكن أن يدعو به وإليه، فلما وصل رشاه الملك وأَعطاه على أَن يترك دين موسى ويتابع الملك على دينه ففعل، وفتَن الملكُ به الناس وأَضلَّهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو رجل من الكنعانيين الجبارين اسمه بلعم، وقيل: بلعام بن عابر، وقيل: ابن آبر، وقيل غير هذا مما ذِكْرُه تطويل، وكان في جملة الجبارين الذين غزاهم موسى عليه السلام، فلما قرب منهم موسى لجؤوا إلى بلعام وكان صالحاً مستجاب

(١) طرَّق الطريق: جعله سهلا حتى طرقه المارّة، وطرَّق له: جَعَل له طريقاً. (المعجم الوسيط).

الدعوة، وقيل: كان عنده علم من صحف إبراهيم ونحوها، وقال مجاهد: كان رشح للنبوة وأُعطيها فرشاه قومه على أَن يسكت ففعل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول مردود لا يصح عن مجاهد، ومن أُعطي النبوة فقد أُعطي العصمة ولابُدّ، ثبت هذا بالشرع، وقد نصّ معنى ما قلته أَبو المعالي في كتاب الشامل، وقيل: كان يعلم اسم الله الأَعظم، قاله ابن عباس أَيضاً، وهذا الخلاف في المراد بقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾، فقال له قومه: ادع الله تعالى على موسى وعسكره، فقال لهم: وكيف أَدعو على نبي مرسل؟ فما زالوا به حتى فتنوه، فخرج حتى أشرف على جبل يرى منه عسكر موسى، وكان قد قال لقومه: لا أَفعل حتى أَستأمر ربِّي، ففعل فسُكت عنه فأَخبرهم، فقالوا له: إن الله لم يدع نهيك إلا وقد أَراد ذلك، فخرج، فلما أَشرف على العسكر جعل يدعو على موسى، فتحول لسانه بالدعاءِ لموسى والدعاءِ على قومه، فقالوا له: ما تقول؟ فقال: إني لا أملك إلا هذا وعلم أَنه قد أَخطأ، فروي أَنه قد خرج لسانه على صدره، فقال لقومه: إني قد هلكت ولكن لم يبق لكم إلا الحيلة، فأَخرجوا النساءَ إلى عسكر موسى على جهة التجرد وغيره ومُروهن ألا تمتنع امرأة من رجل فإنهم إذا زنوا هلكوا، ففعلوا، فخرج النساءُ فزنى بهن رجال بني إسرائيل، وجاءَ فنحاص بن العيزار بن هارون فانتظم برمحه امرأَة ورجلاً من بني إسرائيل ورفعهما على أَعلى الرمح، فوقع في بني إسرائيل الطاعون فمات منهم في ساعة واحدة سبعون أَلفاً، ثم ذكر المُعْتمِر[1] عن أَبيه أن موسى عليه السلام قتل بعد ذلك الرجل المنسلخ من آيات الله، قال المهدوي: رُوي أَنه دعا على موسى ألاَّ يدخل مدينة الجبارين فأُجيب، ودعا عليه موسى ﷺ أَن ينسى اسم الله الأَعظم فأُجيب، قال الزجاج: وقيل: إن الإشارة إلى منافقي أَهل الكتاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وصواب هذا أَن يقال: إلى كفار أَهل الكتاب لأنه لم يكن منهم منافق، إنما كانوا

---

(١) المعتمر: هو ابن سليمان بن طرخان.

مجاهرين، وفي هذه القصة روايات كثيرة اختصرتها لتعذر صحتها، واقتصرت منها على ما يخص ألفاظ الآية[١].

وقالت فرقة: المشار إليه في الآية رجل كان قد أُعطي ثلاث دعوات مستجابات فترك أن يدعو بها في مصالح العباد، فدعا بواحدة أن ترجع امرأته أجمل النساءِ فكان ذلك، فلما رأت نفسها كذلك أبغضته واحتقرته، فدعا عليها ثانية فمسخت كلبة، فشفع لها بنوها عنده فدعا لها الثالثة فعادت كما كانت، ثم انصرفت إلى حالها، فذهبت الدعوات.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: المشار إليه في الآية أُمية بن أَبي الصلت، وكان قد أُوتي علماً، وروي أَنه جاءَ يريد الإسلام فوصل إلى بدر بعد الوقعة بيوم أَو نحوه فقال: من قتل هؤلاءِ؟ فقيل: محمد ﷺ، فقال: لا حاجة لي بدين من قتل هؤلاءِ، فارتد ورجع وقال: الآن حلت لي الخمر ـ وكان قد حرمها على نفسه ـ فمرّ حتى لحق بقوم من ملوك حمير فنادمهم حتى مات[٢].

و﴿انسلخ﴾ عبارة عن البراءَة منها والانفصال والبعد، كالسلخ من الثياب والجلد، و﴿أَتْبَعَهُ﴾: صيَّره تابعاً، كذا قال الطبري إِما لضلالة رسمها له، وإما لنفسه[٣]، وقرأَ الجمهور: ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ بقطع الألف وسكون التاءِ، وهي راجحة لأَنها تتضمن أَنه لحقه وصار معه، وكذلك ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾[٤]، ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾[٥]، وقرأَ الحسن فيما روى عنه هارون [فَاتَّبَعَه] بصلة الألف وشدّ التاءِ، وكذلك طلحة بن مصرف بخلاف، وكذلك الخلاف عن الحسن ـ على معنى لازَمَه واتَّبعه بالإِغواءِ حتَّى أَغواه، و[مِنَ ٱلْغَاوِينَ] أي: من الضالين.

---

(١) ليته تركها لتَعذُّر صحتها كما قال، وإلا فالاختصار لا يكفي عند عدم الصحة.

(٢) قال بهذا القول أيضاً زيْدُ بن أسلم. كما نقله القرطبي. ثم قال القرطبي بعد نقل الخبر عن أُمية: «وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «آمن شعره وكفر قلبه». وهذا حديث ضعيف.

(٣) قال القرطبي: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: لحق به، يقال: أَتْبعتُ القومَ أي لحقتُهم.

(٤) تكررت في الآيتين: ١٨ من سورة الحجر في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ و١٠ من سورة الصافات في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾.

(٥) تكررت أيضاً في آيتين الأولى رقم ٩٠ من سورة يونس في قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾، والثانية رقم ٧٨ من سورة طه في قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ فقالت فرقة: معناه: لأخذناه، كما تقول: «رفع الظالم» إذا هلك، والضمير في ﴿بِهَا﴾ عائد على المعصية في الانسلاخ، وابتدأ وصف حاله بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فهي عبارة عن إمهاله وإملاء الله له. وقال ابن أبي نُجيح: ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾ معناه: لتوفيناه قبل أن يقع في المعصية ورفعناه عنها، والضمير ـ على هذا ـ عائد على الآيات، ثم ابتدأ وصف حاله. وقال ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة معه: ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾ أي: لشرّفنا ذِكْره ورفعنا منزلته لدينا بهذه الآيات التي آتيناه، ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فالكلام متصل ذُكِرَ فيه السبب الذي من أَجله لم يرفع ولم يشرف كما فعل بغيره مِمَّن أُوتي هُدىً.

و ﴿أَخْلَدَ﴾ معناه: لازم وتقاعَسَ وثَبَت، والمخلِد: الذي يثبت شبابه فلا يغشاه الشيب، ومنه الخُلْد، ومنه قول زهير:

لِمَنِ الدِّيارُ غَشيتَهَا بالفَدْفَدِ كالوَحْيِ في حَجَر المَسيل المخْلِدِ[1]

وقوله تعالى: ﴿إلى الأرضِ﴾ يحتمل أَن يريد: إلى شهواتها ولذاتها وما فيها من الملاذ، قاله السدي وغيره، ويحتمل أَن يريد بها العبارة عن الأَسفل والأَخسّ، كما

(١) البيت مطلع قصيدة لزهير يمدح بها سنان بن أبي حارثة المُرّي، والفَدْفد: المرتفع من الأرض فيه صلابة وحجارة، والرواية في (اللسان والقرطبي) (الغَرقد) بالغين والراء والقاف بدلاً من (الفدفد) ـ والمراد به بقيع الغرقد، مقابر بالمدينة، ورواية ابن عطية هي رواية الديوان. والوحي: المكتوب وإنما جعله في حَجَر المسيل لأنه أصلب، هكذا قال في شرح الديوان. قال في (اللسان): «والمُخْلد من الرجال: الذي أسنَّ ولم يشب كأنه مخلّد لذلك». وقال في (التهذيب): «يقال للرجل إذا بقي سواد رأسه ولحيته على الكبر: إنَّه لمخلد» وعليه قول مالك بن نويرة من قصيدة له (الأصمعيات):

بأَبْناءِ حَيٍّ مِنْ قَبائل مالكٍ وعَمْرو بن يَرْبُوعٍ أقاموا فأَخْلدوا

يقال: فلان في الحضيض، ويتأَيد ذلك من جهة المعنى المعقول، وذلك أَن الأَرض وما ارتكز فيها هي الدنيا، وكل ما عليها فانٍ، من أَخلد إِليها، فقد حُرم حظ الآخرة الباقية.

وقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ قال السدي وغيره: إن هذا الرجل عوقب في الدنيا بأَنه كان يلهث كما يلهث الكلب فَشُبِّه به صورة وهيئة، وقال الجمهور: إنما شُبِّه به في أَنه كان ضالاً قبل أَن يؤْتَى الآيات، ثم أُوتيها فكان أَيضاً ضالاً لم تنفعه الآيات، فهو كالكلب في أَنه لا يفارق اللَّهْثَ في حال حمل المشقة عليه وتركه دون حمل عليه، وتحرير المعنى: فالشيءُ الذي تتصوره النفوس من حاله هو كالذي تتصور من حال الكلب، وبهذا التقدير يحسن دخول (الكاف) على (مَثَل)، واللَّهْثُ: تنفُّسٌ بسرعة وتحرك أَعضاءِ الفم معه وامتداد اللسان، وأَكثر ما يعتري ذلك مع الحر والتعب، وهو في الفرس: ضَبْح، وخِلْقة الكلب أَنه يلهث على كل حال، وذكر الطبري أَن معنى: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾[1] أَي تطرده، وحكاه عن مجاهد وابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك داخل في جملة المشقة التي ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: هذا المثَل يا محمد مثَل هؤلاء القوم الذين كانوا ضالين قبل أَن تأْتيهم بالهدى والرسالة، ثم جئتهم بذلك فبقوا على ضلالتهم ولم ينتفعوا بذلك، فمثلهم كمثل الكلب. وقوله: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ أي: اسرد عليهم ما يعلمون أَنه من الغيوب التي لا يعلمها إلا أَهل الكتب الماضية ولست منهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك فيؤمنون.

وقوله تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾، قال الزجاج: التقدير: ساءَ مثلا مثل القوم، لأَن الذي بعد بئس ونعْم إنما يتفسر من نوعه، كما تقول: بئس رجلاً زيد، ولما انحذف (مثل) أُقيم ﴿ٱلْقَوْمُ﴾ مقامه، والرفع في ذلك بالابتداءِ، والخبر فيما تقدم. وقرأَ الجحدري: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾ ورفع [مَثَلُ] على هذه القراءَة بـ [سَاءَ]، ولا تجري (ساءَ) مجرى

(١) جملة: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ جملة شرطية في موقع الحال والتقدير: فمثله كمثل الكلب لاهثا.

(بئس) إلا إذا كان ما بعدها منصوباً ، قال أبو عمرو الداني: قرأ الجحدري [مِثْلُ] بكسر الميم ورفع اللام ، وقرأ الأعمش: [مَثَلُ] بفتح الميم والثاءِ ورفع اللام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا خلاف ما ذكر أبو حاتم ، فإنه قال: قرأ الجحدري ، والأعمش: [ساءَ مَثَلُ] بالرفع.

وخُتمت هذه الآيات ـ التي تضمنت ضلال أقوام والقول فيه ـ بأن ذلك كله من عند الله ، الهداية منه وبخلقه واختراعه ، وكذلك الإضلال ، وفي الآية تعجب من حال المذكورين ، ومن أضلَّ فقد حكم عليه بالخسران ، والثوابُ والعقابُ متعلق[1] بِكَسب ابن آدم[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ خبر من الله تعالى أنَّه خَلق لِسُكْنى جهنم والاحتراق فيها كثيراً ، وفي ضمنه وعيد للكفار. و(ذَرَأ) معناه: خلَق وأَوْجدَ مع بثٍّ ونشْر. وقالت فرقة: اللام في قوله تعالى: [لِجَهَنَّم] هي لام العاقبة ، أي: ليكون أمرهم ومآلهم لجهنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ليس بصحيح ، ولام العاقبة إنما يتصور إذا كان فعل الفاعل لم يقصد به ما يصير الأمر إليه ، وهذه اللام مثل التي في قول الشاعر:

يـا أُمَّ فَـرْوِ كفـي اللَّـوم واعْتَـرفـي ... فَكُــلُّ والِــدةٍ لِلْمُنْتَــأَى تلِــدُ[3]

---

(١) هكذا في الأصول ، ولعلَّه أراد: «أمرهما متعلق» ـ أو: «كل منهما متعلق» أو نحو هذا.

(٢) هذه الآية ترد على القدرية ، وعلى من أنكر أن الله يضل من يشاء ، وللطائفتين فيها تأويلات كلها متكلفة بعيدة ، وعلينا أن نأخذ بالظاهر الصريح الواضح وهو أن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وله الأمر كله سبحانه. وقد قال العلماءُ: إن قوله تعالى: ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ حمل على لفظ (مَنْ) في قوله: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حمل على معنى (مَنْ) في قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ وحسَّنَ هذا كونُه فاصلة ورأس آية.

(٣) لام العاقبة تسمى أيضاً لام الصيرورة ، ولام المآل ، وقد حدَّد ابن عطية رحمه الله معناها تحديداً سليماً ، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ ، وقول سابق بن عبد الله البربري:

فَلِلْمـوْتِ تغـذُو الـوالِـداتُ سِخـالهـا ... كمـا لِخَـرَاب الـدُّور تُبنـى المسـاكـنُ =

وأما هنا فالفعل قصد به ما يصير الأمر إليه من سُكْناهم جهنم ، وحكى الطبري عن سعيد بن جبير أنه قال: «أولادُ الزنى مما ذرأ الله لجهَنَّم» ، ثم أسند فيه حديثاً من طريق عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ(١). وقوله تعالى: [كثيراً] وإن كان ليس بنص في أن الكفار أكثر من المؤمنين فهو ناظر إلى ذلك في قول النبي ﷺ: «قال الله لآدم: أخرج بعث النار ، فأخرج من كلِّ ألف تسعةً وتسعين وتسعمائة»(٢).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

وُصِفت هذه الصِّنْفَة(٣) الكافرة المعرضة عن النظر في آيات الله بأن قلوبهم لا تفقه ،

= وقول عبد الله بن الزبعرى ، أو شُتيم بن خويلد ، أو نهيكة بن الحارث ـ على اختلاف في نسبة البيت:

فـإن يكُـنِ المـوتُ أفنَـاهُـم ... فَلِلْمـوتِ مـا تَلِـدُ الـوالـدهْ

والبيت الذي استشهد به ابن عطية لم يستشهد به غيره ولم نقف على قائله ، فالوالدة لا تلد للمنتأى ولكن المآل إلى ذلك ، وقد سميت لام العاقبة فراراً من أن تكون لام تعليل ، لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ، فإثبات كونها للعلة يتنافى مع قوله سبحانه (إلا ليعبدون).

(١) نص الحديث كما رواه ابن جرير ـ عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: قال: «إن الله لما ذرأ لجهنم ما ذرأ كان ولد الزنى ممَّن ذرأ لجهنم» (عن تفسير الطبري).
قال بعض العلماء: يعني إذا عمل بعمل أبويه ، وذلك حتى لا يتعارض الحديث مع النصوص القرآنية التي تنفي عن الإنسان مسؤولية ما عمله غيره.

(٢) هذا الحديث رواه البخاري في كتاب الأنبياء ، وفي تفسير سورة الحج ، وفي كتاب الرقاق وكتاب التوحيد ، ورواه مسلم في الإيمان ، والفتن ، ورواه الترمذي في تفسير سورة الحج ، ورواه الإمام أحمد في مواطن كثيرة ـ ولفظه كما رواه البخاري. قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة: يا آدم ، فيقول: لبيك ربنا وسعديك ، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار ، قال: يا رب ، وما بعثُ النار؟ قال: من كل ألف أُراه قال: تسعمائة وتسعة وتسعين ، فحينئذ تضع الحامل حملها ، ويشيب الوليد ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، فشق ذلك على الناس ، حتى تغيرت وجوههم ، فقال النبي ﷺ: من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ومنكم واحد ، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، فكبرنا ، ثم قال: ثلث أهل الجنة فكبرنا ، ثم قال: شطر أهل الجنة ، فكبرنا».

(٣) جاء في اللسان عن شَمر: «والصِّنْفةُ طائفة من القبيلة» (اللسان ـ صنف).

وأَعينهم لا تبصر، وآذانهم لا تسمع، وليس الغرض من ذلك نفي هذه الإدراكات عن حواسهم جملة، وإنما الغرض نفيها في جهة ما كما تقول: فلان أَصم عن الخَنَا(١)، ومنه قول مسكين الدارمي:

أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي خَرَجَتْ ... حَتى يُوَارِي جَارَتِي السِّتْرُ
وأَصَمُّ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا ... عَمْداً وما بالسَّمْعِ مِنْ وَقْرِ(٢)

ومنه قول الآخر:

وعَوْرَاءِ الكَلام صَمَمْتُ عَنْها ... وَلَوْ أَنِّي أَشَاءُ بها سَمِيعُ
وبَادِرَةٍ وَزَعْتُ النَّفْسَ عَنْهَا ... وقد بَقِيَتْ مِنَ الْغَضَبِ الضُّلوعُ(٣)

ومنه قول الآخر في وصاة من يدخل إلى دار مَلِك:

وادْخُلْ إذا ما دخَلْتَ أَعْمى ... واخرُج إِذا مَا خَرَجْتَ أَخْرَسْ(٤)

فكأَن هؤلاءِ القوم لما لم ينفعهم النظر بالقلب ولا بالعين ولا ما سمعوه من الآيات والمواعظ، استوجبوا الوصف بأَنهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون، وفسّر مجاهد هذا بأَن قال: لهم قلوب لا يفقهون بها شيئاً من أَمر الآخرة، وأَعين لا يبصرون بها الهدى، وآذان لا يسمعون بها الحق. و[أُولَٰئِكَ] إشارة إلى من تقدم ذكره من

---

(١) الخَنَا: الفُحْش من الكلام. (المعجم الوسيط).

(٢) اختلفت الروايات في كلمة (عمداً) ـ ففي بعض النسخ جاءت (عُمُراً) ـ ورواية الطبري (سَمْعي) وهي التي تلتقي مع قوله بعدها: (وما بالسَّمْع من وقْر) ـ ورواية البحر المحيط» مثل رواة ابن عطية هنا ـ لكنه اختلف عن الجميع في الجملة الأخيرة فرواها (وما بالسَّمع لي وقْر) ـ وهي التي تناسب البيت السابق إذ حرف الروي فيه مرفوع. هذا والعمى: ذهاب البصر، والصمم: ذهاب السمع ـ والشاعر يصف نفسه بأنه يكف عينيه وأُذنيه عن جاراته فلا ينظر إليهن، ولا يسمع ما يجري بينهن من حديث كأنه أعمى أصم، وليس به في الحقيقة عمى ولا صمم وإنما هو الترفع عن القبيح ورعاية حقوق الجار.

(٣) العوراءُ: الكلمة القبيحة، كأنها تَعور العين فتمنعها من حدة النظر، ثم حوّلوها إلى الكلمة على المثل ـ هكذا جاء في اللسان، قال: وإنما يريدون في الحقيقة صاحب الكلمة. والبادرة: الكلمة أو الفعلة القبيحة، أوالغضبة السريعة، ووزعتُ النّفس عنها: كففتها ومنعتها ـ ورواية الألوسي: «وإني لو أشاء»، ورواية الطبري: «ولو بينت من العصب الضلوع»، وفي بعض النسخ في أصول ابن عطية: «وقد نقيت» من النقاء بالنون. ولم نقف على قائل البيتين فيما بين أيدينا من المراجع.

(٤) ينصحه بأن يدخل وقد كفَّ بصره عن أن يرى شيئاً، فإذا ما خرج فعليه أن يكف لسانه فلا يتحدث عن شيء مما رآه، وهو لا يريد طبعاً العمى الحقيقي ولا الامتناع عن الكلام لعجز خلقي. ولم نقف على قائل هذا البيت، كما لم نجد أحداً من المفسرين استشهد به غير ابن عطية رحمه الله.

الكفرة، وشبَّههم بالأنعام في أن الأنعام لا تفقه قلوبها الأشياءَ، ولا تعقل المقاييس، وكذلك ما تبصره لا يتحصل لها كما يجب، فكذلك هؤلاءِ ما يبصرونه ويسمعونه لا يتحصل لهم منه علم على ما هو به حين أُبصر وسُمع. ثم حكم عليهم بأنهم أَضل، لأَن الأَنعام تلك هي بِنيَتُهَا وخِلْقَتُها، لا تقصّر في شيءٍ، ولا لها سبيل إلى غير ذلك، وهؤلاءِ مُعَدُّون للفهم، وقد خُلقت لهم قوى يُصَرِّفونها، وأُعطوا طرقاً في النظر، فهم ـ بغفلتهم وإعراضهم ـ يلحقون أنفسهم بالأنعام، فهم أَضلُّ على هذا. ثم بيَّن بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ الطريق الذي به صاروا أَضَلَّ من الأنعام وهو الغفلة والتقصير.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الآية. السبب في هذه الآية على ما رُوي أَن أَبا جهل سمع بعض أَصحاب النبي ﷺ يقرأ فيذكر الله في قراءَته، ومرة يقرأُ فيذكر الرحمٰن. ونحو هذا، فقال: محمد يزعم أَن الإِلٰه واحد وهو إِنما يعبد آلهة كثيرة، فنزلت هذه.

و﴿ٱلْأَسْمَآءُ﴾ هنا بمعنى: التسميات إجماعاً من المتأولين لا يمكن غيره[1] و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مصدر وصف به، ويجوز أن تقدر ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فُعْلَى مؤنثة (أَحْسن) فأفرد وصف جميع ما لا يعقل، كما قال: ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾[2]، وكما قال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾[3]، وهذا كثير وحُسْن الأَسماءِ إِنما يتوجه بتحسين الشرع لإِطلاقها، والنص

---

(١) ناقشه أبو حيان في «البحر المحيط» فقال: «ولا تحرير فيما قال لأن التسمية مصدر والمراد هنا الألفاظ التي تطلق على الله تبارك وتعالى، وهي الأوصاف الدالة على تغاير الصفات لا تغاير الموصوف، كما تقول: جاءَ زيد الفقيه الشجاع الكريم» ـ ويرى الرازي في «لوامع البيّنات» أن تفسير الأسماء بالتسميات غير معقول، لأن مفهوم التسمية وضع الاسم للمسمَّى، فلو فُرض أن الاسم هو نفس المُسمَّى لكان وضع الأسماء لمسمَّياتها عبارة عن وضع الشيء لنفسه وهو أمر غير معقول» وقال القاضي أبو بكر في كتاب «التمهيد»: «وتأويل قول النبي ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» أي أن له تسعة وتسعين تسمية بلا خلاف، وهي عبارات عن كون الله تبارك وتعالى على أوصاف شتى، منها ما يستحقه لنفسه، ومنها ما يستحقه لصفة تتعلق به، وأسماؤه العائدة لنفسه هي هو، وما تعلق بصفة له فهي أسماءٌ له، ومنها صفات لذاته، ومنها صفات أفعال، وهذا هو تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: «التسميات الحسنى». ا هـ.

(٢) طه: ١٨.

(٣) سبأ: ١٠.

عليها ، وانضاف إلى ذلك أيضاً أنها إنما تضمنت معاني حساناً شريفة.

واختَلَف الناس في الاسم الذي يقتضي مدحاً خالصاً ولا يتعلق به شُبهة ولا اشتراك إلاَّ أنه لم يُرَ مُنْصوصاً ـ هل يطلق ويسمى الله به؟ ـ فنص ابن الباقلاني على جواز ذلك ، ونص أَبو الحسن الأَشعري على منع ذلك ، والفقهاءُ والجمهور على المنع ، وهو الصواب ألاَّ يُسمى الله تعالى إلا باسم قد أَطلقته الشريعة ووقفت عليه أَيضاً ، فإن هذه الشريطة التي في جواز إطلاقه من أَن يكون مدحاً خالصاً لا شبهة فيه ولا اشتراك أَمرٌ لا يحسنه إلاَّ الأَقل من أَهل العلوم ، فإذا أُبيح ذلك تسَوَّر عليه من يظن بنفسه الإحسان وهو لا يحسن ، فأَدخل في أَسماءِ الله ما لا يجوز إجماعاً.

واختُلِف أَيضاً في الأَفعال التي في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾[1] ، و﴿ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾[2] ، ونحو ذلك ـ هل يطلق منها اسم الفاعل؟ ـ فقالت فرقة: لا يُطلق ذلك بوجه ، وجوَّزت فرقة أَن يقال ذلك مُقَيّداً بسببه ، فيقال: «الله مستهزىء بالكافرين» «وماكرٌ بالذين يمكرون بالدين» ، وأَما إطلاق ذلك دون تقييد فممنوع إجماعاً. والقول الأَول أَقوى ، ولا ضرورة تدفع إلى القول الثاني لأَن صيغة الفعل الواردة في كتاب الله تغني ، ومن أَسماءِ الله تعالى ما ورد في القرآن ، ومنها ما ورد في الحديث وتواتر ، وهذا هو الذي ينبغي أن يُعتمد عليه. وقد ورد في الترمذي حديث عن أَبي هريرة ونصَّ فيه تسعة وتسعين اسماً ، وفي بعضها شذوذ[3] ، وذلك الحديث

---

(١) البقرة: ١٥.
(٢) آل عمران: ٥٤.
(٣) هذا الحديث أخرجه أيضاً مع الترمذي ابنُ المنذر ، وابن حبان ، وابن منده ، والطبراني ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعةً وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، إنه وتر يحب الوتر ، هو الله الذي لا إله إلا هو ، الرحمـٰن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي ، المبدىء ، المعيد ، المحيي. ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الأحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، =

ليس بالمتواتر(١) ، وإنما المتواتر منه قول النبي ﷺ: «إن للهِ تسعةً وتسعين اسماً ، مائة إلاَّ واحداً ، من أَحصاها دخل الجنة»(٢) ، ومعنى أَحصاها: عدَّها وحفظها ، وتضمن ذلك الإيمان بها والتعظيم لها والرغبة فيها والعبرة في معانيها ، وهذا حديث البخاري ، والمتحصل منه أَن الله تبارك وتعالى هذه الأَسماءَ مباحاً إطلاقها. وورد في بعض دعاءِ النبي ﷺ: «يا حنَّان يا منَّان» ، ولم يقع هذان الاسمان في تسمية الترمذي.

وقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ إباحة بإطلاقها، وقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ﴾ قال ابن زيد: معناه: اتركوهم ولا تحاجوهم ولا تعرضوا لهم ، فَالآية ـ على هذا ـ منسوخة بالقتال، وقيل: معناه الوعيد كقوله تبارك وتعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾(٣)، وقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾(٤). ويقال: أَلْحَدَ وَلحدَ بمعنى جارَ ومالَ وانحرف ، وأَلْحَدَ: أَشْهَر ، ومنه قول الشاعر:

. . . . لَيْسَ الإمامُ بالشَّحيحِ المُلْحِدِ(٥)

قال أَبو عليّ: ولا يكاد يسمع لأحد ، وفي القرآن ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾(٦) ، ومنه لحد القبر المائل إلى أَحد شقَّيه.

= المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، الوالي ، المتعال ، المقسط ، الجامع ، الغني ، المغني ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور. (عن الدر المنثور).

(١) يريد بالمتواتر هنا الصحيح عن الرسول ﷺ حتى ولو كان حديث آحاد ولا يريد التواتر الإصطلاحي.

(٢) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن خزيمة ، وأبو عوانة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، والطبراني ، وأبو عبد الله ابن منده في التوحيد ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات عن أبي هريرة ـ وفي آخره زيادة عما هنا (إنه وتر يحب الوتر) ـ (الدر المنثور).

(٣) المدثر: ١١.

(٤) الحجر: ٣. ومثل هذه الآية والتي في المزمل في الوعيد قوله تبارك وتعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١].

(٥) هذا عجز بيت قاله حميد بن ثور ، والبيت بتمامه:

قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ الخُبَيْبَيْنِ قَدِي ... ليس الإمامُ بالشَّحيحِ المُلْحِدِ

وذكر في (اللسان) أن ابن بري قال: «البيت المذكور لحميد بن ثور هو لحميد الأرقط ، وليس هو لحميد بن ثور الهلالي كما زعم الجوهري ، قال: وأراد بالإمام هنا عبد الله بن الزبير».

(٦) الحج: ٢٥.

وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ بضم الياءِ وكسر الحاءِ، وكذلك في النحل والسجدة. وقرأ حمزة الأحرف الثلاثة[1]: [يَلْحَدونَ] بفتح الياءِ والحاءِ، وكذلك ابن وثاب، وطلحة، وعيسى، والأعمش.

ومعنى الإلحاد في أسماءِ الله عزَّ وجلَّ أن يُسمُّوا اللات نظيراً إلى اسم الله تعالى، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، والعُزَّى نظيراً إلى العزيز، قاله مجاهد، ويسمُّون الله رباً ويسمون أوثانهم أرباباً، ونحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وعيد محض بعذاب الآخرة، وذهب الكسائي إلى الفرق بيْن ألْحَدَ ولَحَدَ، وزعم أن ألْحدَ بمعنى مال وانحرف، ولَحَدَ بمعنى ركن وانضوى، قال الطبري: وكان الكسائي يقرأُ جميع ما في القرآن بضم الياءِ وكسر الحاءِ إلاَّ التي في النحل، فإنه كان يقرؤُها بفتح الياءِ والحاءِ ويزعم أنها بمعنى الركون، وكذلك ذكر عنه أبو علي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾.

هذه آية تتضمن الخبر عن قوم مخالفين لمن تقدم ذكرهم في أنهم أهل إيمان واستقامة وهداية. وظاهر لفظ هذه الآية يقتضي كلَّ مؤمن كان من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة. قال النحاس: فلا تخلو الدنيا في وقت من الأوقات من داع يدعو إلى الحق.

---

(١) يريد بالأحرف الثلاثة هذه الآية من سورة الأعراف: ﴿ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾ وقوله تعالى في سورة النحل: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ وقوله تعالى في سورة فصلت الآية (٤٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ ونلحظ أنه أطلق على سورة فصلت اسم (السجدة)، وتسمى كذلك، ويفرق بينها وبين سورة السجدة (بين لقمان والأحزاب) بأن هذه تسمى (حم السجدة).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

سواءٌ بَعُد صوته أو كان خاملا.

ورُوي عن كثير من المفسرين أَنها في أُمة محمد ﷺ، ورُوي في ذلك حديث رسول الله ﷺ قال: «هذه الآية لكم، وقد تقدم مثلها لقوم موسى»[١].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الآية وعيد. والإشارة إلى الكفار، و﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ معناه: سنسوقهم شيئاً بعد شيءٍ ودرجة بعد درجة بالنِّعم عليهم والإمهال لهم حتى يغترُّوا ويظنوا أَنهم لا ينالهم عقاب. وقوله تعالى: ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ معناه: من حيث لا يعلمون أنه استدراج لهم، وهذه عقوبة من الله على التكذيب بالآيات، لمَّا حَتَمَ[٢] عليهم بالعذاب أَملى لهم ليزدادوا إثماً. وقرأَ ابن وثاب، والنَّخعي: [سَيَسْتَدْرِجُهُم] بالياءِ[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأُمْلِي﴾ معناه: أُؤَخر مُلاءَةَ من الدهر، أَي مُدَّة. وفيها ثلاث لغات: فتح الميم وضمها وكسرها. وقرأَ عبد الحميد عن ابن عامر: [أَنَّ كَيْدي] على معنى: لأَجل أَنَّ كيدي، وقرأَ جمهور الناس وسائر السبعة: ﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ على القطع والاستئناف.

---

(١) أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر ـ عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قرأها: «هذه لكم، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها» ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (الدر المنثور ٣ ـ ١٤٩).

(٢) المتداول في كتب اللغة والمعاجم أن (حَتَم) تتعدى بنفسها كما في القاموس، واللسان، وأَساس البلاغة، قال في (اللسان): «حتَم الله الأمر يحتمه: قضاه» وجاء في (أساس البلاغة): «حَتَم الله الأمر: أوجبه»، وقد تتعدى بعلى، قال في اللسان: «حَتَمْتُ عليه الشيءَ: أوجبَتُ»، ولكن ورد في المعاجم أنها تتعدى بالباء أيضاً، قال في (أساس البلاغة): حَتَم الحاتم بكذا أي حكم الحاكم»، وجاء في (المعجم الوسيط): «حَتَم بكذا حتما: قضى وحكم». وعلى هذا يكون تعبير ابن عطية صحيحاً.

(٣) الاستدراج هو الأخذ بالتدريج، منزلة بعد منزلة، والدَّرْج: لفُّ الشيءِ، يقال: أدرجته ودرجته، وقيل: هو من الدرجة، فالاستدراج أن يحط درجة بعد درجة إلى المقصود. قال الضحاك: «كلما جددوا لنا معصية جدَّدنا لهم نعمة»، وقيل لذي النون: ما أَقصى ما يُخْدع به العبد؟ قال: بالألطاف والكرامات، ولذلك قال سبحانه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: نُسبغ عليهم النعم ونُنسيهم الشكر، وأنشدوا:

أَحسَنْـتَ ظنَّـكَ بـالأيَّـام إذ حَسُنَـت ... ولـم تخف سـوءَ مـا يـأتـي بـه القَـدَرُ
وسَـالَمَتْـكَ اللَّيـالـي فـاغْتَـرَرْتَ بِهَـا ... وعنْـد صفْـو اللَّيـالـي يحْـدُثُ الكَـدَرُ

و [مَتِينٌ] معناه: قوي، قال الشاعر:

لآلِ عَلَيْنَا واجِبٌ لا نُضِيعُهُ ... مَتِينٌ قُوَاهُ غَيْرُ مُنْتَكِثِ الْحَبْلِ (١)

وروى ابن إسحق في هذا البيت «أمين قواه». وهو من المَتْن الذي يُحمل عليه لقوته، ومنه قول الشاعر وهو امرؤ القيس:

لَهَا مَتْنَتَانِ خَظَاتَا كَمَا ... أَكَبَّ على سَاعِدَيْهِ النَّمِرْ (٢)

وهما جنبتا الظهر، ومنه قول الآخر:

عَدَلْنَ عُدولَ اليأس وافتج يبْتَلي ... أَفانين من أَلْهوب شدّ مماتن (٣)

ومنه قول امرىء القيس:

ويَخْدي على صُمٍّ صِلابٍ مُلاطِسٍ ... شديدات عَقْد لَيِّنات مِتَان (٤)

(١) الآل: الأهْلُ، والحبل المنتكث: المنقوض، يقال: حبل نكثٌ ونكيثٌ وأنكاثٌ: منكوث، ومن المجاز نكث العهد بمعنى نقضه. والمعنى أنهم يعرفون واجب الأهل عليهم فلا يضيعونه، ولا ينقضون التزاماً فرضه عليهم حق القرابة. وهذا ولم نقف على قائل البيت.

(٢) يصف الشاعر في البيت امرأة اسمها (هِرّ)، وهو بيت من قصيدة ذات معان سياسية استطرد منها إلى وصف هذه المرأة، وَمَتْنَتَان مثنّى مَتْنَة: لَحْمتان معصوبتان بينها صُلْب الظهر معلُوّتان بعَقَب، وقيل: متنا الظهر مكتنفا الصُّلب عن يمين وشمال من عصب ولحم، يذكَّر ويؤنث. وخظاتا: اكتنزتا، وأكَبَّ على الشيء: انحنى عليه. وقد استشهد بالبيت في (اللسان) على لغة من قال (مَتنة) وقال: إنه في وصف الفرس.

(٣) البيت للطِّرِمّاح بن حكيم، وورد بلفظ: «أهلوب» بدل: «ألهوب» وهما بمعنى واحد. ووجدناه في تفسير الطبري هكذا:

عَدَلْنَ عُدولَ الناسِ وافْبح يُبْتَلى ... أفاسٌ مِنْ الهُرَّابِ شدَّ مَماتِنُ

وقال المحقق: «لم أعثر على هذا البيت، ولا على قائله، وأثبته كما رأيته في الأصل، وهو محرف غامض»، وليس من مهمتنا أن نحاول إصلاح وزن البيت أو تغيير ألفاظه حتى يستقيم المعنى، إذ قد نفعل ذلك ونكون بعيدين عن الرواية الصحيحة له.

(٤) هذا البيت من قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها:

لِمَنْ طَلَلٌ أبْصَرْتُهُ فَشَجَاني ... كَخَطِّ زبور في عَسِيبِ يَمَانِ

وقد رواه في اللسان بلفظ (وَتَرَدَى) بدلا من (ويخدي) ـ ويَخْدي الفرس: يسرع ويَزُجُّ بقوائمه، وهو من (خَدَى يخدي) على وزن (جرى يجري)، وصمّ: وصف لحوافر الفرس، يصفها بأنها صماءُ أي صلبة مصمتة، وملاطس: جمع مِلْطاس وهو المعول الغليظ لكسر الحجارة، أو حجر ضخم يدقُّ به النوى، وقال أبو خيرة: المِلْطَسُ: مانقرت به الأرْحاءُ، وشديداتُ عَقْد يعني بها عقد الأرساخ فهي شديدة مع لين المفاصل ورطوبتها. ومتَان: صلابٌ ـ وهي موضع الشاهد هنا.

ومنه الحديث في غزوة بني المُصْطَلَق: «فمَتَن رسول الله ﷺ بالناس» أي: سار بهم سيراً شديداً لينقطع الحديث بقول ابن أبيّ بن سلول: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ الآية[١].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم﴾ الآية. تقرير يقارنه توبيخ للكفار، والوقف على قوله ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾، ثم ابتدأ القول بنفي ما ذكروه: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي بمحمد ﷺ، ويحتمل أن يكون المعنى: أو لم يتفكروا أنه ما بصاحبهم من جنة؟

وسبب نزول هذه الآية فيما روي أن رسول الله ﷺ صعد ليلا على الصَّفا، فجعل يدعو قبائل قريش: يا بني فلان، يا بني فلان، يحذرهم ويدعوهم إلى الله، فقال بعض الكفار حين أصبحوا: هذا مجنون بات يصوت حتى الصباح[٢] فنفى الله عزَّ وجلَّ ما قالوه من ذلك في هذا الموطن المذكور وفي غيره، فإن الجنون بعض ما رَمَوْه به حتى أظهر الله نوره، ثم أخبر أنه نذير أي مُحَذِّرٌ من العذاب، ولفظ النذارة إذا جاءَ مطلقاً، فإنما هو في الشرِّ، وقد يستعمل في الخير مقيّداً به، ويظهر من رصف الآية أنها باعثة لهم على الفكرة في أمر محمد ﷺ، وأنه ليس به جِنَّة، وكما أحالهم بعد هذه الآية على النظر، ثم بيّن المنظور فيه كذلك أحال هنا على الفكرة ثم بيَّن المتفكر فيه.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ الآية. هذا أيضاً توبيخ للكفار وتقرير، والنظر هنا بالقلب عبرة وفكراً. و﴿مَلَكُوتِ﴾ بناءُ عظمة ومبالغة، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ لفظ يعم جميع ما ينظر فيه ويُستدل به، من الصنعة الدّالّة على الصانع، ومن نفس الإنس وحواسّه ومواضع رزقه. والشيءُ واقع على الموجودات. وقوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ﴾ عطف على قوله: ﴿فِى مَلَكُوتِ﴾. و﴿وَأَنْ﴾ الثانية في موضع رفع بـ ﴿عَسَىٰٓ﴾، والمعنى توقيفهم على أَنَّه لم يقع لهم نظر في شيءٍ من هذا، ولا في أنه قربت آجالهم، فماتوا ففات أوان الاستدارك ووجب عليهم المحذور.

---

(١) المنافقون: ٨.

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة. وفيه (بات يهوِّت حتى الصباح). (الدر المنثور ٣ـ ١٤٩) ومعنى يهوّت: يصوّت.

ثم وقفهم بأَي حديث أَو أَمر يقع إيمانهم وتصديقهم إذا لم يقع بأَمر فيه نجاتُهم ودخولهم الجنة؟ ونحو هذا قول الشاعر:

وعن أَيِّ نَفْسٍ بعْدَ نَفْسي أُقاتِلُ؟

والضمير في قوله سبحانه: [بعْدَهُ] يراد به القرآن، وقيل: المراد به محمد ﷺ وقصّته وأَمْره أَجمع، وقيل: هو عائد على الأَجل، إذ لا عمل بعد الموت.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

هذا شرط وجواب مضمنه اليأسُ منهم والمقت لهم، لأن المراد أن هذا قد نزل بهم وأنهم مثال لهذا.

وقرأَ نافع، وابن كثير، وابن عامر، والحسن، وأَبو جعفر، والأعرج، وشيبة، وأَبو عبد الرحمن، وقتادة [وَنَذَرُهُم] بالنون ورفع الراءِ، وكذلك عاصم في رواية أَبي بكر، وروى عنه حفص ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بالياءِ والرفع، وقرأَها أَهل مكة، وهذا على إضمار مبتدأ: [ونحن نذرهم]، أَو على قطع الفعل واستئناف القول[1]. وقرأَ حمزة، والكسائي، وأَبو عمرو ـ فيما ذكر أَبو حاتم ـ بالياءِ والجزم، وقرأَها كذلك طلحة بن مصرف، والأَعمش [ويَذَرْهم] بالياءِ وبالجزمِ عطفاً على موضع الفاءِ وما بعدها من قوله تعالى: ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ لأنه موضع جزم، ومثله قول أَبي داود:

فـــابْلُـــونـــي بَلِيَّتِكُـــمْ لَعَلِّـــي ... أُصَـــالِحُكُـــمْ وَأَسْتَـــدْرِجْ نَـــوِيًـــا[2]

(١) قال ابن خالويه: «الحجة لمن قرأ بالنون والرفع أنه استأنف الكلام، لأنه ليس قبله ما يردُّه بالواو عليه». وكذلك الأمر مع القراءة بالياء والرفع فهي على الاستئناف كما قال ابن عطية رحمه الله، أما قراءة الياءِ والجزم فهي عند ابن خالويه كما قال ابن عطية بالعطف على موضع الفاء في الجواب من قوله تعالى: ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾.

(٢) الشاعر يطلب الإنعام والعطاءَ بقوله «فابْلُونِيْ»، ذلك لأن البلاء قد يكون بمعنى الإنعام، قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ وفي الحديث: «من أبلي فذكر فقدْ شكرَ» بمعنى: من أُنعم عليه وأُحْسن إليه، ويكون بمعنى الإعطاءِ وبلوغ العذر كما في الحديث (أبْلِ الله تعالى عُذْراً في برِّهما) أي=

ومنه قول الآخر:

أَنَّى سَلَكْتَ فَإِنَّني لَكَ كاشِحٌ　　وعَلَى انْتِقَاصِكَ في الْحَيَاةِ وَأَزْدَدِ[١]

قال أبو علي: ومثله في الحمل على الموضع قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٢]، لأنك لو لم تلحق الفاءَ لقلت (أَصَّدَّقْ)[٣]، وروى خارجة عن نافع: [وَنَذَرْهم] بالنون والجزم. والطغيانُ: الإفراط في الشيءِ، وكأنه مستعمل في غير الصلاح، والعَمَه: الحيرة[٤].

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية. قال قتادة بن دِعَامَة[٥]: المراد: يسألك كفار قريش، وذلك أن قريشاً قالت: يا محمد، إنا قرابتك فأخبرنا بوقت الساعة. قال

= الوالدين. والبَلِيَّة: الناقة يموت صاحبها فيحفر لديها حفرة وتُشد رأسها إلى خلفها وتُبلى أي تترك هناك لا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعاً وعطشاً. والنَّوِيُّ: الرفيق، وقيل: الرفيق في السفر خاصة، أو هو صاحبك الذي نيَّتُهُ نيَّتُكَ، وفي نوادر الأعراب: فلان نَوِيُّ القوم أي صاحب أمرهم ورأيهم ـ ورُويت (سوياً) بالسين ـ وسَوِيُّ الرجل هو من يساويه. والشاهد في قوله: وأَستدرج بالسكون، ومثله قوله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرْ﴾ في قراءة الجزم.

(١) السلوك في المكان: مصدر سلك، يقال: سلك المكان وبه وفيه سلكا وسُلُوكاً: دخل ونفذ. والكـاشحُ: العدوُّ المُبغض كأنه يطويها في كشحه، أو كأنه يُوَلِّيك كشحَه ويُعرض عنك بوجهه، وانتقص الرجل: نسب إليه النُّقصان، وفلان ينتقص فلاناً أي: يقع فيه ويثلِبهُ. وأَزددَ أصلها: أَزْدادُ مضارع: ازْدَادَ وقد حذفت منها الألف لالتقاءِ الساكنين.

(٢) المنافقون: ١٠.

(٣) يرى ابن عطية في الآية أنَّ (وأكُنْ) معطوفة على الموضع، لأن التقدير: «إنْ تُؤَخِّرني أَصَّدَّقْ وأكُنْ»، ولهذا قال هنا: «إنَّكَ لو لمْ تُلحق الفاءَ لقلت (أصدَّق)»، وهذا هو مذهب أبي علي الفارسي، ومذهب سيبويه أنه لا موضع ها هنا، وأنَّ جزْم (وَأكُنْ) جاءَ على توهم الشرط الذي يدل عليه بالتمنِّي، ولا موضع هنا لأن الشرط ليس بظاهر، فإن ظهر الشرط جاز العطف على الموضع كقوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرْهُمْ﴾ في قراءة الجزم.

(٤) حكى أهلُ اللغة: عَمِه الرجل يعْمَه عُمُوها وعَمَها فهو عَمِهٌ وعامِهٌ إذا حارَ، والجمع: عُمَّهٌ. والعمى في العين، والعمه في القلب.

(٥) هو قتادة بن دِعَامة بن قتادة بن عُزير، أبو الخطاب السدوسي البصري: مفسِّر حافظ ضرير أكْمَه، قال الإمام أحمد بن حنبل: قتادة أحفظ أهل البصرة. وكان مع علمه بالحديث رأساً في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنَّسب، وكان يرى القدر، وقد يدلس في الحديث، مات بواسط في الطاعون ١١٨هـ. (عن تذكرة الحفاظ ١ ـ ١١٥، وابن خلكان ١ ـ ٤٢٧، وطبقات المدلّسين ١٦ ـ والأعلام ٦ ـ ٢٧).

ابن عباس رضي الله عنهما: المراد بالآية اليهود، وذلك أَن جبل بن أَبي قشير، وسمويل بن زيد قالا له: إنْ كنت نبياً، فأَخبرنا بوقت الساعة فإنا نعرفها، فإن صدقت آمنا بك.

و﴿ٱلسَّاعَةِ﴾: القيامة، موت كل شيءٍ كان حينئذ حيّاً وبعث الجميع هو كلُّه يقع عليه اسم الساعة واسم القيامة. و[أَيَّان] معناها: متى. وهو سؤال عن زمان، ولتضمنها الوقت بُنِيت، وقرأ جمهور الناس: ﴿أَيَّانَ﴾ بفتح الهمزة، وقرأ السُّلَميُّ: [إِيَّانَ] بكسر الهمزة، ويشبه أَن يكون أصلها «أَيّ آن» وهي مبنية على الفتح. وقال الشاعر:

أَيَّـانَ تَقْضِـي حَـاجَتِـي أَيَّـانـا   أَمَـا تَـرى لِفعْلهـا إِبَّـانَـا؟(١)

قال أَبو الفتح: وزن ﴿أَيَّانَ﴾ بفتح الهمزة: فَعْلان، وبكسرها: فِعْلان، والنون فيهما زائدة. و﴿مُرْسَىٰهَا﴾ رفع بالابتداءِ، والخبر ﴿أَيَّانَ﴾، ومذهب المبرد أَن ﴿مُرْسَىٰهَا﴾ مرتفع بإضمار فعل، ومعناه: مثبتها ومنتهاها، مأَخوذة من أَرْسى يُرْسي. ثم أَمر الله عزَّ وجلَّ بالردّ إليه والتسليم لعلمه. و﴿يُجَلِّيهَا﴾ معناه: يظهرها. والجلاءُ: البيِّنَة والشهود، وهو مراد زهير بقوله:

. . . .   يميـنٌ أَوْ نِفَـارٌ أَوْ جِـلاءُ(٢)

(١) قال في اللسان: أيّان: معناه: أيُّ حين، وهو سؤال عن زمان مثل متَى، قال ابن سيدة: ينبغي أن تكون شرطاً، ولم يذكرها أصحابنا في الظروف المشروط بها مثل متى وأين»، وحكى الزجاج فيه إِيَّان بكسر الهمزة ـ وهي قراءة أبي عبد الرحمن السُّلمي كما قال ابن عطية ـ وذكر ذلك الفراءُ أيضاً. وقد أنشد صاحب اللسان البيت في (أبَنَ) وقال: إبَّانُ كل شيءٍ بالكسر والتشديد: وقتُه وحينه الذي يكون فيه، يقال: جئته على إبّان ذلك، أي على زمنه، وأخذ الشيء بإبّانه، أي بزمانه، هذا ورواية الطبري: «أما ترى لنُجْحها إِيَّانا» بدلا من «لِفِعْلها إبّانا».

(٢) هذا عجز بيت من قصيدة مشهورة هجا فيها آل حصن بقوله: أقومٌ آلُ حِصْن أمْ نِساءُ؟ ومطلعها:

عَفَـا مِـن آل فـاطمـةَ الجِـوَاءُ   فَيُمْـنٌ، فـالقَـوادمُ، فـالحِسـاءُ

والبيت بتمامه:

وإنَّ الْحَـقَّ مَقْطَعُـهُ ثَـلاثٌ   يميـنٌ، أو نِفَـارٌ، أوْ جـلاءُ

أي: للحق ثلاث خصال، اليمين وهو الحلف، والنِّفار بمعنى التنافر وهو الاحتكام إلى رجل يتبين الحجج ويحكم، والجِلاءُ وهو انكشاف الأمر وانجلاؤه، حتى تعلم حقيقته. وقيل: إن زهيراً سُمّي بهذا البيت قاضي الشعراءِ.

وقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال السدي، ومعمر عن بعض أهل التأويل: معناه: ثَقُلَ أن تُعلم ويوقف على حقيقة وقتها. قال الحسن بن أبي الحسن: معناه: ثقلت هيئتها والفزع منها على أَهل السموات والأَرض، كما تقول: خيف العدو في بلد كذا وكذا، وقال قتادة، وابن جريج: معناه: ثقلت على السموات والأَرض أَنفُسها لِتَفطُّرِ السموات وتَبَدُّلِ الأَرض ونسْفِ الجبال، ثم أَخبر تعالى خبراً يدخل فيه الكل: إنها لا تأتي إلا بغتة، أي فجأَة دون أَن يتقدم منها علم بوقتها عند أحد من الناس، و﴿بَغْتَةً﴾ مصدر في موضع الحال.

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ الآية، قال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد: المعنى: يسألونك عنها كأَنك حفيٌّ، أَي: متحف ومهتبل، وهذا ينحو إلى ما قالت قريش: إنَّا قرابتك فأَخبرنا. وقال مجاهد أَيضاً، والضحاك، وابن زيد: معناه: كأَنك حفيٌّ في المسأَلة عنها والاشتغال بها حتى حصلت على علمها. وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما ـ فيما ذكر أَبو حاتم ـ: [كأنك حفي بها]، لأَن [حَفِيّ] معناه: مهتبل مجتهد في السؤال مبالغ في الإقبال على ما يسأَل عنه، وقد يجيءُ (حفيّ) وصفاً للسؤال، ومنه قول الشاعر:

فَلَمَّـا الْتَقَيْنَـا بيّـن السَّيْـفُ بَيْنَنَـا ... لِسَـائِلَـةٍ عَنَّـا حَفِـيٌّ سُـؤَالُهَـا[(١)]

ومن المعنى الأَول الذي يجيءُ فيه (حَفِيٌّ) وصفاً للسائل قول الآخر:

سُـؤَالُ حَفِـيٍّ عـنْ أَخِيـهِ كَـأَنَّـه ... بِـذُكْـرَتِـهِ وسْنَـانُ أَوْ مُتـواسِـنُ[(٢)]

---

(١) هذا البيت لأُنَيْف بن زُبّان النَّبهانيّ، شاعر مقلّ، فارس، والبيت من قصيدة يصف فيها معركةً، ومطلعها:

جَمَعْنـا لكُـمْ مِـن حَـيِّ عَـوْفٍ ومَـالِـكٍ ... كَتَـائِـبَ يُـرْدي المُقْـرِفيـنَ نَكَـالُهـا

ومعنى بيَّن السَّيفُ: وضَح. وحفيٌّ: مُلحٌّ في السؤال مُهْتَمٌّ.

(٢) قال في (اللسان ـ حفي): وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ قال الزجاج: يسألونك عن أمر القيامة كأنك فرحٌ بسؤالهم، وقيل: معناه: كأنك أكثرتَ المسألة عنها» ـ ثم قال بعد ذلك: «ويقال: تحفَّى فلان بفلان معناه أنه أظهر العناية في سؤاله إياه، يقال: فلان بي حفيٌّ إذا كان معنياً، وأنشد للأعشى:

فَـإنْ تَسْـألـي عَنـي فيـا رُبَّ سَـائِـلٍ ... حفيٌّ عـن الأعشـى بـه حَيْـثُ أَصْعَـدَا

وقال الجوهري: الحفيُّ: العالم الذي يتعلم الشيءَ باستقصاءٍ، والحفي: المستقصي في السؤال. أما الذُّكْرةُ بضم الذال وبالتاءِ في آخره فهي والتذكر والذكرى بكسر الذال وبالياءِ ـ ضد النسيان. وأما وسنان=

ثم أمره ثانية بأن يُسَلم لعلمه تأكيداً للأمر وتهمُّماً به إذ هو من الغيوب الخمسة التي في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾(١) الآية، وقيل: العلم الأول علم قيامها والثاني علمُ كُنهها وحالها.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قال الطبري: معناه: لا يعلمون أن هذا الأمر لا يعلمه إلا الله، بل يظن أكثرهم أنه مما يعلم البشر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ ﴾.

هذا أمر في أن يبالغ في الاستسلام ويتجرد من المشاركة في قدرة الله وغيبه، وأن يصف نفسه لهؤلاءِ السائلين بصفةٍ من كان بها فهو حريٌّ ألا يعلم غيباً ولا يدعيه، فأخبر أنه لا يملك من منافع نفسه ومضارها إلا ما سَنَّى(٢) الله له وشاءَ ويَسَّر(٣)، وهذا الاستثناءُ منقطع(٤)، وأخبر أنه لو كان يعلم الغيب لعمل بحسب ما يأتي ولاستعد لكل شيءٍ استعدادَ من يعلم قدر ما يستعد له، وهذا لفظ عام في كل شيءٍ، وقد خصص الناس هذا فقال ابن جريج، ومجاهد: لو كنت أعلم أجلي لاستكثرت من العمل

= أو متواسن فهو من قولهم: وسِنَ الرجلُ يَوْسَنُ وسَناً وسِنَةً: أخذ في النعاسِ فهو وسِنٌ ووَسْنان. (التاج ـ واللسان ـ والصحاح).

(١) لقمان: ٣٤.

(٢) سَنَى الشيءَ: سَهَّله ويَسَّرَهُ. وكذلك سَنَّى بالتشديد.

(٣) روي أنه لما رجع ﷺ من غزوة بني المصطلق جاءَت ريح في الطريق فأخبر بموت رفاعة وكان في ذلك غيظ المنافقين، ثم قال: انظروا أين ناقتي، فقال عبد الله بن أُبي بن سلول: ألا تعجبون من هذا الرجل يخبر عن موت رجل بالمدينة ولا يعرف أين ناقته؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إن ناساً من المنافقين قالوا كيت وكيت، وناقتي في الشِّعب وقدتعلق زمامها بشجرة». فوجدوها على ما وصف، فنزلت الآية، وهذا منه ﷺ إظهارٌ للعبودية، وانتفاءٌ عما يختص بالربوبية من القدرة وعلم الغيب، ومبالغة في الاستسلام، فهو يقول: لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضر فكيف أملك علم الغيب؟

(٤) قال في «البحر المحيط»: «لا حاجة لدعوى الانقطاع مع إمكان الاتصال» (البحر المحيط ٤ ـ ٤٣٦).

الصالح، وقالت فرقة: أَوقات النصر لتوخَّيتها، وحكى مكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن معنى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ﴾ السنة المجدبة لأَعددت لها من المخْصبة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَلفاظ الآية تعم هذا وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ﴾ يحتمل وجهين وبكليهما قيل. أَحدهما: أَن ﴿مَا﴾ معطوفة على قوله: ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ﴾ أَي: ولَمَا مَسَّنيَ السوءُ. والثاني أن يكون الكلام مقطوعاً تمَّ في قوله: ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ وابتدأ يخبر بنفي السوءِ عنه وهو الجنون الذي رموه به. قال المؤرِّج السَّدوسي(١): السُّوءُ: الجنون بلغة هذيل. ثم أَخبر بجُمْلة ما هو عليه من النذارة والبشارة. و﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يحتمل معنيين: أَحدهما: أَن يريد أَنه نذير وبشير لقوم يُطْلب منهم الإيمان ويُدْعون إليه وهؤلاءِ النَّاسُ أَجمع، والثاني: أَن يخبر أنه نذير ويتم الكلام، ثم يبتدىءُ يخبر أَنه بشير للمؤمنين به، ففي هذا وعدٌ لِمَن حصل إيمانه.

وقوله تعالى: ﴿۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ الآية.

قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة آدم عليه السلام، وبقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواءُ. وقوله: ﴿مِنْهَا﴾ يريد: ما تقدم ذكره من أَن آدم نام فاستخرجت قصرى أَضلاعه وخلقت منها حواءُ. وقوله تعالى: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أَي: لِيَأْنَس ويطمئن، وكان هذا كله في الجنة.

ثم ابتدأَ بحالة أُخرى هي في الدنيا بعد هبوطهما فقال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أَي: غشيها، وهي كناية عن الجماع، والحمل الخفيف هو المني الذي تحمله المرأَة في فرجها. وقرأَ جمهور الناس: ﴿حَمْلًا﴾ بفتح الحاءِ، وقرأَ حماد بن سلمة عن ابن كثير: [حِمْلاً] بكسر الحاءِ(٢). وقوله تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أَي: استمرت به، قال

---

(١) هو عمرو بن الحارث السدوسي النحوي البصري، واحد من أئمة اللغة والأدب، والمؤرِّج بالهمزة والرَّاءِ المشددة المكسورة. (تاج العروس).

(٢) قال علماءُ اللغة: كلُّ ما كان في بطن أو على رأس شجرة فهو حَمْل بالفتح، وإذا كان على ظهر أَوْ على رأس فهو حِمْل بالكسر، وقال أبو سعيد السيرافي: يقال في حمل المرأة: حَمْل وحِمْل، يُشبَّه مرة لاستبطانه بحَمْل المرأة، ومرة لظهوره وبروزه بحِمْل الدابة.

أيوب: سألت الحسن عن قوله تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ فقال: لو كنت امرأً عربياً لعرفت ما هي، إنما المعنى: فاستمرت به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقدّره قوم على القلب كأن المراد: فاستمر بها، كما تقول: أدخلت القلنسوة في رأسي، وقرأ يحيى بن يَعْمر، وابن عباس رضي الله عنهما ـ فيما ذكر النقاش ـ: [فَمَرَت بِهِ] بتخفيف الراءِ، ومعناه: فشكّت فيما أصابها هل هو حَمْل أو مرض[1] ونحو هذا. وقرأ ابن عباس: [فاستمرت به]، وقرأ ابن مسعود: [فَاسْتَمَرَّتْ بِحَمْلها]، وقرأ عبد الله بن عمرو بن العاص: [فَمَارَتْ بِهِ] ومعناه: أي جاءت به وذهبت وتصرفت كما تقول: مارت الريح موراً. و﴿أَثْقَلَتْ﴾ دخلت في الثقـل، كما تقول: أصبح وأمسى، أي: صارت ذات ثقل، كما تقول: أتمر الرجل وألبن إذا صار ذا تمر ولبن. والضمير في ﴿دَعَوا﴾ يعـود على آدم وحواءَ.

ورُوي في قصص هذه الآية أن حواءَ لما حملت أول حَمْل لها لم تدر ما هو، وهذا يقوي قراءَة من قرأ [فَمَرَتْ بِهِ] بتخفيف الراءِ فجزعت لذلك فوجد إبليس إليها السبيل، فقال لها: ما يدريك ما في جوفك؟ ولعله خنزير أو حية أو بهيمة في الجملة. وما يدريك من أين يخرج؟ أَيَنْشَقُّ له بطنك فتموتين أو من فمك أو من أنفك؟ ولكن إن أطعتني وسميته عبد الحارث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

«والحارث اسم إبليس» فسأُخلِّصه لك وأجعله بشراً مثلك، وإن أنت لم تفعلي قتلتُه لك، قال: فأخبرت حواءُ آدم، فقال لها: ذلك صاحبنا الذي أغوانا في الجنة، لا نطيعه، فلما ولدت سمياه عبد الله، فمات الغلام، ويروى أن الله سلّط إبليس على قتله، فحملت بآخر ففعل بها مثل ذلك، فحملت بالثالث، فلما ولدته أطاعا إبليس فسمياه عبد الحارث حرصاً على حياته، فهذا هو الشرك الذي جعلا لله، أي في التسمية فقط.

---

(١) قال في «أساس البلاغة»: «مَرَى في الأمر وامترى وتمارى، وما فيه مُرْيَةٌ ومَرِيَةٌ: شك»، وفي القرآن الكريم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ والمستعمل كثيراً في الشكّ هو الامتراء.

و﴿صَٰلِحًا﴾ قال الحسن: معناه: غلاماً. وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ وهو الأظهر ـ: بشراً سوياً سليماً. ونصبه على المفعول الثاني، وفي «المشكل» لمكي أنه نعت لمصدر أي: أتيا صالحاً. وقال قوم: إن المعنى في هذه الآية التَّبْيينُ عن حال الكافرين، فعدَّد النعم التي تعم الكافرين وغيرهم من الناس، ثم قرن ذلك بفعل المشركين السَّيِّىء فقامت عليهم الحجة ووجب العقاب، وذلك أنه قال مخاطباً لجميع الناس: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يريد آدم وحواءَ، أَي: واستمرت حالكم واحداً كذلك، فهذه نعمة تخص كل أحد بجزءٍ منها، ثم جاءَ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ إلى آخر الآية وصفاً لحال الناس واحداً واحداً، أَي هكذا يفعلون، فإذا آتاهم الله الولد صالحاً سليماً كما أراده صرفاه عن الفطرة إلى الشرك، فهذا فعل المشركين الذي قامت الحجة فيه باقترانه مع النعمة العامة. وقال الحسن بن أَبي الحسن ـ فيما حكى عنه الطبري ـ: معنى الآية: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إشارة إلى الرُّوح الذي ينفخ في كل أَحد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

أَي: خلقكم من جنس واحد وجعل الإناث منه، ثم جاءَ قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ إلى آخر الآية وصفاً لحال الناس واحداً واحداً على ما تقدم من الترتيب في القول الذي قبله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾.

يقال: إن الآية المتقدمة هي في آدم وحواءَ، وإن الضمير في قوله: ﴿ءَاتَىٰهُمَا﴾ عائد عليهما، ويقال: إن الشرك الذي جعلاه هو في الطاعة، أَي أَطاعا إبليس في التسمية بعبد الحارث، لكنهما كانا في غير ذلك مطيعين لله، وأَسند الطبري في ذلك حديثاً من طريق سمرة بن جندب[1]. ويحتمل أَن يكون الشرك في أَن جعلا عبوديته

---

(١) نصُّه: عن سَمُرَة بن جُنْدب، عن النبي ﷺ قال: «كانت حواءُ لا يعيش لها ولد، فنذرت لَئِن عاشَ لها=

بالاسم لغيره. وقال الطبري والسدي في قوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ : إنه كلام منفصل ليس من الأول ، وإن خبر آدم وحواءَ تمَّ في قوله: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ ، وإن هذا كلام يراد به مشركو العرب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تحكم لا يساعده اللفظ ، ويتَّجه أَنْ يقال: تعالى الله عن ذلك اليسير المتوهم من الشرك في عبودية الاسم ، ويبقى الكلامُ في جهة أَبوينا آدم وحواءَ عليهما السلام. وجاءَ الضمير في [يُشْرِكُونَ] ضمير جمع لأَن إبليس مُدَبّر معهما تسمية الولد عبد الحارث. ومن قال: «إن الآية المتقدمة إنما الغرض منها تعديد النعمة في الأَزواج وفي تسهيل النسل والولادة ، ثم ذكر سوءَ فعل المشركين بعقب ذلك» قال في الآية الأخيرة: إنها على ذلك الأُسلوب ، وإن قوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ المراد بالضمير فيه: المشركون ، والمعنى في هذه الآية: فلما آتى الله هذين الإنسانين صالحاً أَي سليماً ذهبا به إلى الكفر ، وجعلا لله فيه شركاءَ ، وأَخرجاه عن الفطرة. ولفظة الشرك تقتضي نصيبين ، فالمعنى: وجعلا لله فيه ذا شرك ، لأن إبليس أو أصنام المشركين هي المجعولة ، والأصل أن الكل لله تعالى. وبهذا حل الزجاج اعتراض من قال: ينبغي أن يكون الكلام: «جعلا لغيره شركا».

وقرأ نافع ، وعاصم في رواية أبي بكر: [شركا] بكسر الشين و سكون الراء على المصدر ، وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنهما ، وأبي جعفر ، وشيبة ، وعكرمة ، ومجاهد ، وعاصم ، وأبان بن ثعلب. وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم [شركاء] على الجمع ، وهي بَيِّنَةٌ على هذا التأْويل الأَخير ، وقلقة على قول من يقول: «إن الآية الأُولى في آدم وحواءَ» ، وفي مصحف أُبيّ بن كعب: [فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً أَشْرَكَا فيه] ، وذكر الطبري في قصص آدم وحواءَ وإبليس في التسمية بعبد الحارث ، وفي صورة مخاطبتهم أَشياءَ طويلة لا يقتضي الاختصار ذكرها[1].

= ولد لتُسَمِّيَنَّهُ عَبْد الحَرْث ، فعاش لها ولد فَسَمَّتْه عبدالحَرْث ، وإنما كان ذلك من وحي الشيطان». (تفسير الطبري ـ ٩ ـ ١٤٦).

(١) التعبير الأوضح في الدلالة على مراده أن يقول: «يقتضي الاختصار عدم ذكرها».

وقرأ نافع، والحسن، وأبو جعفر، وأبو عمرو، وعاصم: [عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ] بالياءِ من تحت فيهما. وقرأ أبو عبد الرحمن: [عما تشركون] بالتاءِ من فوق، ﴿أتشرِكُونَ مَا لاَ يَخلُقُ﴾ الآية، وروى بعض من قال: «إن الآيات في آدم وحواءَ» أن إبليس جاءَ إلى آدم وقد مات له ولد اسمه عبد الله فقال: إن شئت أن يعيش لك الولد فَسَمّه عبد شمس، فولد له ولدٌ فَسَمّاه كذلك، وإياه عني بقوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾. ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ـ على هذا ـ عائد على آدم وحواءَ والابن المسمى عبد شمس. ومن قال بالقول الآخر قال: إن هذه في مشركي الكفار الذين يشركون الأصنام في العبادة، وإياها أراد بقوله: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾، وعبّر عنها بـ[هُمْ] كأنها تعقل على اعتقاد الكفار فيها وبحسب أسمائها. و[يُخلَقُونَ] معناه: يُنحتون ويُصنعون. ويحتمل ـ على قراءَة ﴿أَيُشْركون﴾ بالياءِ من تحت ـ أن يكون المعنى: وهؤلاء المشركون يُخْلقون. أي: كان يجب أن يعتبروا بأنهم مخلوقون فيجعلون إلههم خالقهم لا من لا يخلق شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ الآية. هذه تُخَرَّج على تأويل من قال: «إن المراد آدم وحواءُ والشمس» على ما تقدم، ولكن بقلق وتعسّف من المتأَوِّل في المعنى. وإنما تَتَّسق هذه الآيات ويروق نظمها ويتناصر معناها على التأويل الآخر، والمعنى: ولا ينصرون أنفسهم من أمر الله وإرادته، ومن لا يدفع عن نفسه فأحرى ألا يدفع عن غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ﴾ الآية. من قال: «إن الآيات في آدم عليه السلام» قال: إن هذه مخاطبة للنبي ﷺ وأُمتهِ مستأنفةٌ في أَمر الكفار المعاصرين للنبي ﷺ، ولهم الهاءُ والميم من ﴿تَدْعُوهُمْ﴾، ومن قال بالقول الآخر قال: إن هذه مخاطبة للمؤمنين والكفار على قراءَة من قرأ [يُشرِكُونَ] بالياءِ من تحت، وللكفار فقط على قراءة من قرأ بالتاءِ من فوق على جهة التوقيف، أَي: إن هذه حال الأصنام معكم إن دعوتموهم لم يجيبوكم، إذ ليس لهم حواسٌّ ولا إدراكات.

وقرأ نافع وحده: [لا يَتْبَعُوكم] بسكون التاءِ وفتح الباءِ، وقرأ الباقون: [لا يَتَّبِعوكم] بشد التّاءِ المفتوحة وكسر الباءِ، والمعنى واحد(١).

---

(١) قال بعض اللغويين: «أتبعه» مخففاً: إذامضى خلفه ولم يدركه، و«اتَّبعه مشدَّداً»: إذا مضى خلفه وأدركه.

وفي قوله تعالى: ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ﴾ عطف الاسم على الفعل[1]، إذ التقدير: أَمْ صَمَتُّمْ. ومثل هذا قول الشاعر:

سَواءٌ عَلَيْكَ النَّفْرُ أَمْ بِتَّ لَيْلَةً بِأَهْلِ الْقِبَابِ مِنْ نُمَيْر بن عامِرِ[2]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾.

قرأ جمهور الناس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ بتثقيل ﴿إِنَّ﴾ ورفع [عِباد]، وهي مخاطبة للكفار في تحقير شأن أصنامهم عندهم، أي: إنَّ هذه الأصنام مخلوقة محدثة إذ هي أجسام وأجرام فهي متعبدة أي متملكة. وقال مقاتل: إن المراد بهذه الآية طائفة من العرب من خزاعة كانت تعبد الملائكة فأعلمهم الله أنهم عبادٌ أمثالهم لا آلهة. وقرأ سعيد بن جبير: [إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ] بتخفيف النون

---

(١) قال أبو حيان بعد أن نقل رأي ابن عطية: «وليس من عطف الاسم على الفعل، إنما هو من عطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية»، ونعتقد أن هذا لم يغب عن ابن عطية وإنما هو تسامح في التعبير، وكانت الجملة الثانية اسمية لمراعاة رؤوس الآيات «يَنْصُرون ـ صامتين ـ صادقين»، ولأن الفعل يشعر بالحدوث واسم الفاعل يشعر بالثبوت والاستمرار، فكانوا إذا دهمهم أمرٌ معضل فزعوا إلى أصنامهم وإذا لم يحدث بقوا صامتين ساكتين، فقيل: لا فرق بين أن تحدثوا لهم دعاءً وبين أن تستمروا على صمتكم فتبقوا على ما أنتم عليه من عادة صمتكم وهي الحالة المستمرة.

(٢) هذا البيت من شواهد الكسائي، وقد نقله الفراءُ في كتابه (معاني القرآن). وقد اختلفت الروايات في كلمة (النفر) فهي في الطبري (القَفْز) بالقاف ثم الفاءِ، وهي في بعض الأصول الخطية لتفسير ابن عطية (الفقر) ولا يناسب معناها البيت. وقد قال صاحب «البحر المحيط»: إن البيت ليس من عطف الاسم على الفعل كما قال ابن عطية، بل من عطف الجملة الفعلية على الاسم المقدر بالجملة الفعلية، إذ أصل التركيب: «سواءٌ عليك أنفرت أم بتّ ليلةً، فأوقع (النفر) موقع (أنفرْت). وقال الفراءُ في تعليقه على الآية واستشهاده بالبيت: وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ ولم يقل «أم صمتُّمْ»، وعلى هذا أكثر العرب، فهم يقولون: «سواءٌ علي أقمت أم قَعَدْت»، ويجوز: «سواءٌ عليَّ أقمتَ أمْ أنت قاعدٌ» قال الشاعر: «سواءٌ عليك القفز..» وأنشد بعضهم: «أو أنت بائت». هذا ولم ينسب أحد البيت إلى قائل معيَّن.

من [إن] على أَن تكون بمعنى (ما) وبنصب قوله: [عِبَاداً] و[أَمْثَالَكُمْ]، والمعنى بهذه القراءَة تحقير شأن الأَصنام ونفي مماثلتهم للبشر، بل هم أَقل وأَحقر إذ هم جمادات لا تفهم ولا تعقل، وسيبويه يرى أَنَّ [إِنْ] إذا كانت بمعنى (ما) فإنها تضعف عن رتبة (ما) فيبقى الخبر مرفوعاً وتكون هي داخلة على الابتداءِ والخبر لا تنصبه، فكأَن الوجه عنده في هذه القراءَة: إنِ الَّذين تَدْعونَ مِنْ دونِ اللهِ عبادٌ أَمثالُكم. وأَبو العباس المبرد يجيز أن تعمل عمل (ما) في نصب الخبر. وزعم الكسائي أَنَّ (إِنْ) بمعنى (ما) لا تجيءُ إلاَّ وبعدها (إلاَّ) كقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾[1]. ثم بيّن تعالى الحجة بقوله: ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾ أَي: فاختبروا فإن لم يستجيبوا فهم كما وصفْنَا.

وقوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ﴾ الآية. الغرض من هذه الآية: أَلَهُم حواسُّ الحيِّ وأَوصافُهُ؟ فإذا قالوا: «لا»، حكموا بأَنها جمادات، فجاءَت هذه التفصيلات لذلك المجمل الذي أُريد التقرير عليه، فإذا وقع الإقرار بتفصيلات القضية لزم الإقرار بعمومها وكان بيانها أَقوى ولم تقم بها استرابة. قال الزهراوي: المعنى: أَنتم أَفضل منهم بهذه الجوارح النافعة فكيف تعبدونهم؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتَتقوّى بهذا التأْويل قراءَة سعيد بن جبير، إذ تقتضي أَنَّ الأَوثان ليست عباداً كالبشر[2].

وقوله في الآية [أَمْ] إضراب لكل واحدة عن الجملة المتقدمة لها، وليست (أَمْ) المعادِلة للأَلف في قولك: «أعندك زيد أم عمرو؟» لأَن المعادِلة إنما هي في السؤال عن شيئين أَحدهما حاصل، فإذا وقع التقدير على شيئين كلاهما منفي فـ (أم) إضراب عن الجملة الأُولى.

---

(١) الملك: ٢٠.

(٢) في شرح التسهيل تخريج آخر لقراءَة سعيد بن جبير وهو أن (إنْ) هي المخففة من الثقيلة وأنها عملت عمل المشددة، وهذا ثابت في غير المضمر بالقراءَة المتواترة ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا﴾ وبنقل سيبويه عن العرب، لكن الخبر في هذه القراءَة نُصب كما نصب في قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

إذَا اسْوَدَّ جُنْحُ اللَّيْلِ فَلْتَأْتِ وَلْتَكُنْ خُطَاكَ خِفَافاً إنْ حُرَّاسَنَا أُسْدا

أو يمكن تأويل الخبر المنصوب على إضمار فعل، كما قالوا في قوله: «يا ليت أيامَ الصِّبَا رَوَاجِعا» إنَّ تقديره: «أقبلت رواجعا»، والتأويل في الآية أن يقال: «إن الَّذين تدعون من دونِ اللهِ تدعونَ عباداً أمثالكم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي فرق معنوي، وأما من جهة اللفظ والصناعة النحوية فهي هي.

وقرأ نافع، والحسن، والأعرج [يَبْطِشُونَ] بكسر الطاءِ، وقرأ نافع أيضاً، وأبو جعفر، وشيبة: [يَبْطُشُون] بضمها.

ثم أمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يعجزهم بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي استنجدوهم واستنفدوهم إلى إضراري وكيدي ولا تؤخروني، والمعنى: فإن كانوا آلهة فيسظهر فعلهم، وسمّاهم شركاءَهم من حيث لهم نسبة إليهم بتسميتهم إياهم آلهة وشركاء لله، وقرأ أبو عمرو، ونافع: ﴿فَكِيدُونِ﴾ بإثبات الياءِ في الوصل، وقرأ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر، وحمزة والكسائي: [كِيدونِ] بحذف الياءِ في الوصل والوقف. قال أبو علي: إذا أشبه الكلام المنفصل أو كان منفصلا أشبه القافية، وهم يحذفون الياءَ في القافية كثيراً، وقد التزموا ذلك، كما قال الأعشى:

فَهَــلْ يَمْنَعَنِّــي ارْتِيَــادِي الْبِــلا ... دَ مِـن حَـذَرِ الْمَوْتِ أَنْ يَـأْتِيـنْ[1]

وقد حذفوا الياءَ التي هي لام الأمر كما قال الأعشى:

يَلْمَــسُ الأَحْــلاسَ فــي مَنْــزِلِــهِ ... بِيَــدَيْــهِ كــالْيَهُــودِي الْمُصَــلْ[2]

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي لا تؤخرون، ومنه قوله تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾[3].

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها الأعشى يمدح فيها قيسَ بن معد يكرب الكندي، ومطلعها:

لعمْـــرُكَ مـــا طـــولُ هـــذا الـــزَّمـــن ... علـــى الْمَـــرْءِ إلا عنـــاءٌ مُعـــنّ

(٢) قائل هذا البيت هو لبيد، وهو موجود في ديوانه ضمن قصيدته التي قالها متحدثاً عن مآثره وعن أساه لفقد أخيه أربد، والتي مطلعها:

إنَّ تقْـــوَى اللهِ خَيْـــرُ نَفَـــلْ ... وبِـــإذْنِ اللهِ رَيْثـــي وعَجَـــلْ

وهو منسوب إليه أيضاً في «لسان العرب» «وتاج العروس». ومعنى يلمس: يطلب، والأحلاس: جمع حِلْس وهو كساءٌ رقيق يوضع على ظهر البعير. ومنزله: مكان نزوله. والمُصَلّ: المُصَلِّي، يصور رفيقاً له في رحيله قد أجهده السير وأراد أن ينام ولكنه كان يمنعه من النوم ـ «وقد عبَّر عن ذلك في أبيات سابقة»، ثم يقول في هذا البيت: إنه لا يكاد يعقل من غلبة النوم عليه فهو يطلب الأحلاس بيديه مائلا جانبه كأنه يهودي على شق وجهه، ثم تأمل قول ابن عطية قبل هذا البيت: «وقد حذفوا الياءَ التي هي لام الأمر» فإنها ليست لام أمره.

(٣) البقرة: ٢٨٠.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ الآية. لمّا أحالهم على الاستنجاد بآلهتهم في ضرّه وأراهم أن الله هو القادر على كل شيءٍ لا تلك ـ عقَّب ذلك بالاستناد إلى الله والتوكل عليه والإعلام بأنه وليُّه وناصره، وقرأ جمهور الناس والقرأة: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ بياءٍ مكسورة مشددة وأُخرى مفتوحة، وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ بياءٍ واحدة مشددة ورفع ﴿ٱللَّهُ﴾. قال أبو علي: لا تخلو هذه القراءَة من أن تدغم الياءُ التي هي لام الفعل في ياءِ الإضافة، أو تحذف الياءُ التي هي لام الفعل وتدغَم ياءُ فعيل في ياءِ الإضافة، ولا يجوز أن تدغم الياءُ التي هي لام الفعل في ياءِ الإضافة لأنه إذا فعل ذلك انفكَّ الإدغام الأول، فليس إلاّ أنه حذف لام الفعل وأدغم ياءَ فعيل في ياء الإضافة(١).

وقرأ ابن مسعود [الَّذي نَزَّلَ الكتاب بالْحَقِّ وَهُوَ يَتَوَلَى الصَّالحينَ]، وقرأ الجحدري ـ فيما ذكر أبو عمرو الداني ـ: [إن ولي اللهِ] على الإضافة. وفسّر ذلك بأن المراد جبريل ﷺ، وذكر القراءَة غير منسوبة أبو حاتم وضعَّفها، وإن كانت ألفاظ هذه الآية تلائم هذا المعنى وتصلح له فإن ما قبلها وما بعدها يدفع ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

الضمير في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ عائد على اسم الله تعالى، وهذا الضمير مصرح بما ذكرناه من ضعف قراءَة من قرأ: [إن ولِيَّ اللهِ] على أنه جبريل ﷺ، وهذه الآية أيضاً بيان لحال تلك الأَصنام وفسادها وعجزها عن نصرة أنفسها فضلاً عن غيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ الآية. قالت فرقة: المخاطبة للنبي ﷺ وأُمته،

---

(١) معنى هذا أن قراءة الجمهور بثلاث ياءات، الأولى: ياءُ فعيل وهي زائدة، والثانية لام الفعل وهي أصلية، والثالثة ياءُ الإضافة، فأدغمت الزائدة في الأصلية، واتصلت بها ياءُ الإضافة ففتحت لالتقاء الساكنين ـ وأما قراءة أبي عمرو فقد حُذفت فيها الياءُ الوسطى وهي لام الفعل وأدغمت ياءُ فعيل الزائدة في ياء الإضافة، ولا يجوز أن تدغم الياء الأصلية التي هي لام الفعل في ياء الإضافة حتى لا يفك الإدغام الأول. فالإدغام هنا مثله في إليَّ وعليَّ ولديَّ بفتح الياء.

والهاءُ والميم في قوله: ﴿ تَدْعُوهُمْ ﴾ للكفار، ووصفهم بأنهم لا يسمعون ولا يبصرون إذ لم يتحصل لهم عن النظر والاستماع فائدة ولا حصلوا منه بطائل، قاله السدي ومجاهد. وقال الطبري: المراد بالضمير المذكور الأَصنام وَوَصْفُهم بالنظر كناية عن المحاذاة والمقابلة وما فيها من تخييل النظر كما تقول: دار فلان تنظر إلى دار فلان، ومعنى الآية على هذا تَبْيِينُ جمودية الأَصنام وصغر شأْنها. وذهب بعض المعتزلة إلى الاحتجاج بهذه الآية على أَن العباد ينظرون إلى ربهم ولا يرونه، ولا حجة لهم في الآية لأَن النظر في الأَصنام مجاز محضٌ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإنما تكرر القول في هذا وترددت الآيات فيه لأَن أمر الأَصنام وتعظيمها كان متمكناً في نفوس العرب في ذلك الزمن ومستولياً على عقولها فأَوعب[١] القول في ذلك لطفاً من الله تعالى بهم.

وقوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ الآية. وصيّة من الله عزَّ وجلَّ لنبيه ﷺ تعم جميع أُمته، وأَمْرٌ بجميع مكارم الأَخلاق. وقال الجمهور في قوله سبحانه ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾: إن معناه: اقبل من الناس في أَخلاقهم وأَقوالهم ومعاشرتهم ما أَتى عفواً دون تكلف، فالعفْوُ هنا: الفضل والصفو الذي تهيَّأ دون تحرج، قاله عبد الله بن الزبير في مصنف البخاري، وقاله مجاهد وعروة، ومنه قول حاتم الطائي:

خُذِي الْعَفْوَ مِنّي تَسْتَديمي مَوَدَّتي ... ولا تَنْطقي في سَوْرَتي حين أَغْضَبُ[٢]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما، والضحاك، والسدي: هذه الآية في الأَموال،

---

(١) وعبَ الشيءَ وأوْعَبه: أخذه جميعه ولم يدع منه شيئاً، والشائع: استوعَب القولَ بمعنى: استوفاه.

(٢) المراد بالعفو هنا: ضد الجهد، أي ما لا يشق على المعطي، وسورة الغضب: شدَّته وحدَّته، وسورة الرجل: سطوته وقوته. والمعنى في البيت أن تأخذ منه كل ما يعطيه مما لا يشق عليه حتى لا ينفر، وقد أمر بذلك رسول الله ﷺ في قوله، (يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا)، ومنه قول الشاعر:

إذا ما بُلْغَةٌ جاءَتْك عَفْواً ... فَخُذْها فالغِنى مرعىً وشُرْبُ
إذا اتَّفَق القليل وفيه سِلْم ... فَلا تَرِدِ الكَثيرَ وفيه حَرْبُ

هذا والبيت المنسوب لحاتم الطائي غير موجود في ديوانه، ولم ينسبه «اللسان» لأحد، واستشهد به الزمخشري في الكشاف أيضاً دون أن ينسبه.

وقيل: هي قبل فرض الزكاة[١]، أُمر بها رسول الله ﷺ أَن يأْخذ ما سهل من أَموال الناس، و(عَفَا): أَي: فَضَل وزاد، من قولهم: «عفا النبات والشعر» أَي كثر، ثم نزلت الزكاة وحدودها فنسخت هذه الآية، وذكر مكي عن مجاهد أَنَّ ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ معناه: خذ الزكاة المفروضة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا شاذ.

وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ معناه: بكل ما عرفته النفوس مما لا تردُّه الشريعة، وروي أَن النبي ﷺ قال لجبريل: «ما هذا العرف الذي أُمر به؟ قال: لا أدري حتى أَسأَل العالم، فرجع إلى ربه فسأَله، ثم جاءَه فقال له: يا محمد، هو أَن تُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وتَصِلَ مَن قَطَعَكَ، وتعفو عَمَّن ظلمك»[٢].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا نصب غايات: والمراد: فما دون هذا من فعل الخير. وقرأَ عيسى الثقفي ـ فيما ذكر أَبو حاتم ـ ﴿بالعُرُفِ﴾ بضم الراءِ، والعُرْفُ والعُرُفُ بمعنى: المعروف.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ حكُمٌ مترتب محكم مستمر في الناس ما بقوا، هذا قول الجمهور من العلماءِ، وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ إلى ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: إنما أُمر النبي ﷺ بذلك مداراة لكفار قريش، ثم نسخ ذلك بآية السيف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وحديث الحُرّ بن قيس حين أَدخل عمَّه عُيَيْنَة بن حِصْن على عمر رضي الله عنه دليل على أَنها محكمة مستمرة، لأَن الحرّ احتَجّ بها على عمر رضي الله عنه فقررها ووقف عندها[٣].

---

(١) جاءت هذه العبارة في بعض النسخ هكذا: «وقيل: هي فرض الزكاة»، لكننا اخترنا النص الذي يتفق مع ما نقله صاحب «البحر المحيط» عن ابن عطية، وهو ما يتفق مع ما جاء بعد ذلك في كلامه حيث قال: «ثم نزلت الزكاة».

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الشعبي. (الدر المنثور ٣ ـ ١٥٣).

(٣) أخرج البخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن=

وقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ وصية من الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ تعم أُمته رجلا رجلا. والنزغ: حركة فيها فسادٌ، وقلَّما تستعمل إلا في فِعل الشيطان لأَن حركته مسرعة مفسدة[1]، ومنه قول النبي ﷺ: «لا يشر أَحدكم على أَخيه بالسلاح، لا ينزغ الشيطان في يده»[2].

= عباس رضي الله عنهما قال: قدم عُيَيْنَة بن حصن بن بدر فنزل على ابن أخيه الحرِّ بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضي الله عنه، وكان القراءُ أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباباً، فقال عُيَيْنَة لابن أخيه: يابن أخي هل لك وجه عند هذا الأمير؟ فاستأذنْ لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فاستأذن الحر لِعُيَيْنَة فأذن له عمر رضي الله عنه، فلما دخل قال: هي يابن الخطاب، فو الله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر رضي الله عنه حتى همَّ أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله عزَّ وجلَّ قال لنبيِّه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافاً عند كتاب الله عزَّ وجلَّ (الدر المنثور ٣ ـ ١٥٣ وابن كثير ٣ ـ ٢٦٨) فوقوف عمر رضي الله عنه عند الآية دليل على أنها غير منسوخة، بل هي محكمة مستمرة كما قال ابن عطية.

وقد روى البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير في قوله تعالى ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ قال: «ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس».

هذا وفي الآية كثير من الخصال الحميدة جمعها رسول الله ﷺ لجابر بن سليم.

(قال جابر بن سليم أبو جُرَيّ: ركبت بعيري ثم أتيت إلى مكة فطلبت رسول الله ﷺ، فأنخت قعودي بباب المسجد، فدلوني على رسول الله ﷺ، فإذا هو جالس عليه بُرْدٌ من صوف فيه طرائق حُمْر، فقلت: السلام عليك يا رسول الله، فقال: «وعليك السلام»، فقلت: إنا معشر أهل البادية قومٌ فينا الجفاءُ، فعلمني كلمات ينفعني الله بها، قال: «ادْنُ» ثلاثاً، فدنوت فقال: «أَعِد عليّ» فأعدتُ عليه فقال ﷺ: «اتّقِ الله ولا تحقرن من المعروف شيئاً، وأن تلقى أخاك بوجه منبسط، وأن تُفْرِغ من دلْوكَ في إناءِ المستسقي وإن امرؤٌ سبّك بما لا يعلم منك فلا تسُبَّه بما تعلم فيه، فإن الله جاعلٌ لك أجراً وعليه وزْراً، ولا تَسُبَّن شيئاً مما خوَّلك الله تعالى»، قال أبو جُرَيّ: فو الذي نفسي بيده ما سببت بعده شاةً ولا بعيراً). أخرجه أبو بكر البزَّار في مسنده بمعناه.

وروى أبو سعيد المَقْبُريُّ عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم لا تسعُون الناس بأموالكم، ولكن يَسَعُهم منكم بسط الوجه وحُسْن الخُلُق»، وقال ابن الزبير: «ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس».

(١) أصل النزغ: الفساد، يقال: نزغ بيننا أي أفسد، ومنه قوله تعالى: ﴿ نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾ أي أفسد، وقيل: النزغ: الإغواءُ والإغراءُ، ونزغُ الشيطان: وسوسته. والمعنى متقارب.

(٢) روى البخاري في كتاب الفتن ـ عن همَّام: «سمعت أبا هريرة عن النبي ﷺ قال: لا يُشير أحدكم على أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعلَّ الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار». وهذه الرواية بالعين المهملة. وكذلك رواه مسلم في البرّ، ورواه الإمام أحمد (٢/٣١٧) بلفظ (لا يَمشِيَنَّ أحَدُكمْ) و(ينزع)=

فالمعنى في هذه الآية: فَإِمَّا تُلِمَّن بِكَ لَمَّةٌ من الشيطان فاستعذ بالله. ونزغ الشيطان عام في الغضب وتحسين المعاصي واكتساب الغوائل وغير ذلك، وفي مصنف الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لِلْمَلَكِ لَمَّة، وللشيطان لَمَّة»[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهاتان اللَّمَّتان هما الخواطر من الخير والشر، و﴿سميعٌ﴾ في هذه الآية يصلح مع الاستعاذة، ويصلح أيضاً مع ما يقول الكفار فيه من الأقاويل فيُغضِبه الشيطان لذلك، و[عَلِيمٌ] كذلك، وبهذه الآية تعلق ابن القاسم في قوله: «إن الاستعاذة عند القراءة: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم»[٢].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

﴿ٱتَّقَوْاْ﴾ هنا عامةٌ في اتقاءِ الشرك واتقاءِ المعاصي بدليل أن اللفظة إنما جاءَت في مدح لهم، فلا وجه لقصرها على اتقاءِ الشرك وحده، وأيضاً فالمتقي العائذ قد يمسّه طائف من الشيطان إذ ليست العصمة إلا للأنبياءِ عليهم السلام.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿طَٰٓئِفٌ﴾. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: [طَيْفٌ]. وقرأ سعيد بن جبير [طيِّفٌ][٣]، واللفظة إمَّا من طاف

= بالعين المهملة أيضاً. وفي القسطلاني (ينزَغُ) بفتح الزاي والغين المعجمة.

(١) رواه الطبراني في الكبير، والترمذي في سننه. واللَّمَّة بفتح اللام المشددة: الشِّدّة والطائف من الجنّ، يقال: أصابته من الجنّ لمَّة، أي مَسٌّ أوْ شيءٌ قليل منه، ويقال: للشيطان لَمَّةٌ أي هَمَّةٌ وخطرة في القلب أو دُنوٌّ (المعجم الوسيط).

(٢) قال أبو حيان في «البحر المحيط» بعد أن نقل رأي ابن القاسم هذا عن ابن عطية: «واستنباط ذلك من الآية ضعيف، لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ جرى مجرى التعليل لطلب الاستجارة بالله، أي: لا تستعذ بغيره فإنه هو السميع لما تقول، أو السميع لما يقوله الكفار فيك حين يرومون إغضابك، العليم بقصدك في الاستعاذة، أو العليم بما انطوت عليه ضمائرهم من الكيد لك، فهو ينصرك عليهم ويجيرك منهم» (البحر ٤ ـ ٤٤٩).

(٣) بتشديد الياء المكسورة. وأما قراءة ابن كثير ومن معه فهي بتسكين الياء.

يطوف، وإما من طاف يَطيف بفتح الياءِ، وهي ثابتة عن العرب، وأَنشد أبو عبيدة في ذلك:

أنَّى أَلَمَّ بِكَ الخَيَالُ يَطيفُ ... ومَطافُه لكَ ذُكْرَةٌ وشُعُوفُ[1]

فـ ﴿طَٰٓئِفٌ﴾ اسم فاعل كقائل من قال يقول، وبائع من باع يبيع. [وطيْفٌ] اسم فاعل أَيضاً كميّت من مات، أَو كبيّع وليّن من باع يبيع ولان يلين. وطيْفٌ يكون مخففاً من طيّف كميْت من ميّت، وإذا قدرنا اللفظة من طاف يطيف فطيف مصدر، وإلى هذا مال أَبو علي الفارسي، وجعل الطائف كالخاطر والطيب كالخطرة، وقال الكسائي: الطَّيف اللَّمَم، والطائف ما طاف حول الإنسان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكيف هذا وقد قال الأَعشى:

وتُصْبِحُ مِنْ غِبِّ السُّرَى وكأَنَّما ... أَلَمَّ بها مِنْ طَائِفِ الجِنِّ أَوْلَقِ[2]

ومعنى الآية: إذا مسّهم غضب وزيّن الشيطان معه مالا ينبغي. وقوله: ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ إشارة إلى الاستعاذة المأْمور بها قبل، وإلى ما لله عزَّ وجلَّ من الأَوامر والنواهي في النازلة التي يقع تعرض الشيطان فيها. وقرأَ ابن الزبير: [مِنَ الشَّيطان تأَمَّلوا فإذا هم]، وفي مصحف أُبيّ بن كعب: [إذا طافَ مِنَ الشَّيطَانِ طائفٌ تَأَمَّلوا][3]، وقال

---

(١) قال في (اللسان ـ طيف): «وطاف الخيال يطيف طيْفاً ومطافاً: أَلَمَّ في النوم، قال كعب بن زهير: أنّي». وذكر البيت. ثم قال: «يقال: طافَ يَطيف ويَطوف طيفاً وطوفاً فهو طائف، ثم سمِّي بالمصدر». وذُكْرةُ بضم الذال: ضد النسيان. وشُعُوف بالضم مصدر شعفه الحُبّ: إذا اشتد عليه. وقد روى البيت (شغوف) بالغين المعجمة، ويحتمل أن يكون جمع شَغِف، ويحتمل أن يكون مصدراً وهو الظاهر، يقال: شَغِفَ به ويحبه: أحبه وأولع به.

(٢) البيت من قصيدته في مدح المحلّق بن خنتم بن شداد بن ربيعة، ومطلعها:

أرِقْتُ وما هذا السُّهَادُ المؤَرِّقُ ... وما بِيَ مِن سُقْمٍ وما بِيَ معْشَقُ

وهو في وصف الناقة التي يصورها في صورة من طاف بها طائف أَوْلَق من الجن. ولعلّ ابن عطية رحمه الله ينكر على الكسائي أنه خصص الطائف بأنه حول الإنسان، وتعقبه في البحر بأنه لا داعي للإنكار على الكسائي أو التعجب من تفسيره لأن ما قاله الأعشى تشبيه، حيث قال: «كأَنَّما»، والأولق: الجنون. فهي تسرع في الجري كأن بها جنون.

(٣) قال في «البحر المحيط»: وينبغي أن يحمل هذا وقراءة ابن الزبير على أن ذلك من باب التفسير لا على أنه قرآن لمخالفته سواد ما أجمع عليه المسلمون من ألفاظ القرآن».

النبي ﷺ: «إن الغضب جند من جند الجن، أَما ترون حُمرة العين وانتفاخ العروق؟ فإذا كان ذلك فالأَرض الأَرض»[١]، وقوله: ﴿مُّبْصِرُونَ﴾ من البصيرة، أَي: فإذا هم قد تبيَّنوا الحق ومالوا إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ الآية. في هذه الضمائر احتمالات، قال الزجاج: هذه الآيات متصلة في المعنى بقوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر[٢].

وقال الجمهور: إن الآية مقررة في موضعها إلا أَن الضمير في قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ عائد على الشياطين، والضمير في قوله: ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ عائد على الكفار وهم المرادُ بالإخوان، والشيطان في الآية قَبْلَ هذه للجنس فلذلك عاد عليهم ها هنا ضمير جمع، فالتقدير على هذا التأْويل: وإخوان للشياطين يمدونهم الشياطين في الغيّ، وقال قتادة: إن الضميرين في الهاءِ والميم للكفار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فتجيءُ الآية على هذا معادلةً للتي قبلها، أَي: إن المتقين حالُهم كذا وكذا، وهؤلاءِ الكفار يمدهم إخوانهم من الشياطين ثم لا يُقْصِرون.

وقوله: ﴿فِي الْغَيِّ﴾ يحتمل أَن يتعلق بقوله: ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾، وعليه يترتب التأْويل الذي ذكرنا أَولا عن الجمهور، ويحتمل أَن يتعلق بالإخوان، فعلى هذا يحتمل أَن يعود الضميران على الكفار كما ذكرناه عن قتادة، ويحتمل أَن يعودا جميعاً على الشياطين، ويكون المعنى: وإخوان الشياطين في الغي بخلاف الإخوة في الله يمدون الشياطين، أَي بطاعتهم لهم وقبولهم منهم، ولا يترتب هذا التأْويل على أَن يتعلق ﴿فِي

---

(١) الحديث المشهور في هذا هو قوله ﷺ: «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماءِ فإذا غضب أحدكم فليتوضأ». رواه الإمام أحمد، والدارمي ـ عن عطية العوفي.

(٢) وافق أبو حيان ابن عطية في الاعتراض على الزجاج، وقال: إنه أبعد في دعواه، ولا حاجة إلى ذلك، والكلام متناسق.

﴿ٱلْغَيِّ﴾ بالإمداد، لأن الإنس لا يغوون الشياطين، والمراد بهذه الآية وصف حالة الكفار مع الشياطين كما وصف حالة المتقين معهم من قبل.

وقرأ جميع السبعة غير نافع: ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ من مَدَدْتُ. وقرأ نافع وحده: [يُمِدُّونَهُمْ] بضم الياءِ من أَمْدَدتُ، فقال أبو عبيدة وغيره: مدَّ الشيءَ إذا كانت الزيادة من جنسه، وأَمَدَّه إذا كانت من شيءٍ آخر(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا غير مطرد. وقال الجمهور: هما بمعنى واحد إلا أن المستعمل في المحبوب (أَمَدَّ)، فمنه قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾(٢)، وقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾(٣) وقوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾(٤)، والمستعمل في المكروه (مَدَّ)، فمنه قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾(٥)، ومَدُّ الشيطان للكفرة في الغيّ هو التزيين لهم والإغواءُ المتتابع. فمن قرأ في هذه الآية ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ بضم الميم فهو على المنهاج المستعمل، ومن قرأ [يُمِدُّونَهُمْ] فهو مقيد بقوله: ﴿فِى ٱلْغَيِّ﴾، كما يجوز أن تقيد البشارة فتقول: «بشَّرْتُه بشَرّ». وقرأ الجحدري [يُمَادُّونهم].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ عائد على الجميع، أي: هؤلاءِ لا يقصرون في الطاعة للشياطين والكفر بالله عزَّ وجلَّ. وقرأ جمهور الناس ﴿يُقْصِرُونَ﴾ من أقصر، وقرأ ابن أبي عبلة، وعيسى بن عمر: [يَقْصُرُونَ] من قَصَر(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾. سببها فيما روي أن الوحي كان يتأخر على

---

(١) ومثال هذا الأخير قوله تعالى: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ فالمدد من الملائكة وهم ليسوا من البشر، ومثال الأول قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ فالزيادة من جنس البحر.

(٢) المؤمنون: ٥٥.

(٣) الطور: ٢٢.

(٤) النمل: ٣٦.

(٥) البقرة: ١٥.

(٦) معنى: «لا يُقْصرونَ» لا ينقصون من الإمداد والغَيّ، والإقصار: الانتهاءُ عن الشيء، وقصر وأقصر لغتان، قال امرؤ القيس:

سَمَا لكَ شَوْقٌ بَعْدَ ما كان أَقْصَرَا ... وحلَّت سُلَيْمَى بَطْنَ قَوٍّ فَعَرْعَرَا

النبي ﷺ أَحياناً، فكان الكفار يقولون: «هَلاَّ اجْتَبَيْتَهَا»، ومعنى اللفظة في كلام العرب: تخيرتها واصطفيتها. وقال ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد، وغيرهم: المراد بهذه اللفظة: «هلا اخترتها واختلقتها من قِبَلِكَ ومن عند نفسك»، والمعنى: إذ كلامك كله كذلك على ما كانت قريش تزعمه. وقال ابن عباس أَيضاً والضحاك: المراد: «هلا تلقيتها من الله وتخيرتها عليه، إذ تزعم أَنك نبي وأَن منزلتك عنده منزلة الرسالة»، فأَمره الله عزَّ وجلَّ أَن يجيب بالتسليم لله تعالى، وأَن الأَمر في الوحي إليه ينزله متى شاءَ لا معقب لحكمه في ذلك فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾، ثم أَشار بقوله: ﴿هَـٰذَا﴾ إلى القرآن، ثم وصفه بأَنه ﴿بَصَآئِرُ﴾ أي علامات هدى وأَنوار تضيءُ القلوب. وقالت فرقة: المعنى: هذا ذو بصائر. ويصح الكلام دون أَن يُقَدَّر حذف مضاف لأَن المشار إليه بـ ﴿هَـٰذَا﴾ إنما هو سُوَر وآيات وحكم، وجازت الإشارة إليه بـ ﴿هَـٰذَا﴾ من حيث اسمه مذكر، وجاز وصفه بـ ﴿بَصَآئِرُ﴾ من حيث هو سُوَر وآيات[(١)].

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لهؤلاءِ خاصة. قال الطبري: وأَما من لا يؤمن فهو عليه عمىً عقوبةً من الله تعالى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

ذكر الطبري وغيره أَن سبب هذه الآية هو أَن أَصحاب رسول الله ﷺ كانوا بمكة يتكلمون في المكتوبة بحوائجهم، ويصيحون عند آيات الرحمة والعذاب، ويقول أَحدهم إذا أَتاهم: صليتم؟ وكم بقي؟ فيُخبرونه، ونحو هذا، فنزلت الآية أَمراً لهم بالاستماع والإنصات في الصلاة وأَما قول من قال: «إنها في الخطبة» فضعيف لأَن الآية مكية والخطبة لم تكن إلا بعد هجرة النبي ﷺ من مكة، وكذلك ما ذكره الزهراوي من

---

(١) يريد ابن عطية أنه جاز الإخبار عن المفرد بالجمع في قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا بَصَآئِرُ﴾ لأنه سور وآيات فهو في المعنى جمع.

أنها نزلت بسبب فتىً من الأنصار كان يقرأُ في الصلاة والنبي ﷺ يقرأ. فأَما الاستماع والإنصات عن الكلام في الصلاة فإجماع ، وأَما الإمساك والإنصات عن القراءَة فقالت فرقة: يمسك المأموم عن القراءَة جملة قرأَ الإمام جهراً أَو سراً ، وقالت فرقة: يقرأُ المأموم إذا أَسرَّ الإمام ويُمسك إذا جهر. وقالت فرقة: يمسك المأموم في جهر الإمام عن قراءَة السورة ويقرأُ فاتحة الكتاب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومع هذا القول أَحاديث صحاح عن النبي ﷺ ، فهذه الآية واجبة الحكم في الصلاة أَن ينصت عن الحديث وما عدا القراءَة. وواجبة الحكم أَيضاً في الخطبة من السُّنَّة لا من هذه الآية ، ويجب من الآية الإنصات إذا قرأَ الخطيب القرآن أَثناءَ الخطبة ، وحكم هذه الآية في غير الصلاة على الندب ، أَعني في نفس الإنصات والاستماع إذا سمع الإنسان قراءَة كتاب الله عزَّ وجلَّ ، وأَما ما تتضمنه الأَلفاظ وتعطيه من توقير القرآن وتعظيمه فواجب في كل حالة. والإنصات: السكوت ، و﴿لَعَلَّكُمْ﴾ على ترجي البشر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولم نستوعب اختلاف العلماءِ في القراءَة خلف الإمام إذ أَلفاظ الآية لا تعرض لذلك ، لكن لما عنَّ ذلك في ذكر السبب ذكرنا منه نبذة.

وذكر الطبري عن سعيد بن جبير أَنه قال في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ قال: الإنصات يوم الأَضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به الإمام من الصلاة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول جمع فيه ما أَوجبته هذه الآية وغيرها من السُّنَّة في الإنصات ، قال الزجاج: ويجوز أَن يكون ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾: اعملوا بما فيه ولا تجاوزوه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ الآية. مخاطبة للنبي ﷺ تعمُّ جميع أُمته. وهو أَمر من الله عزَّ وجلَّ بتسبيحه وذكْرِه وتقديسه والثناءِ عليه بمحامده. والجمهورُ على أَن الذكر لا يكون في النفس ولا يراعى إلا بحركة اللسان ، ويدل على ذلك من هذه الآية قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ فهذه مرتبة السِّرِّ والمخافتة باللفظ.

و﴿تَضَرُّعًا﴾ معناه: تذلُّلا وخُضُوعاً. و﴿وَخِيفَةً﴾ أصلها: خوْفة، بدلت الواو ياءً لأجل الكسرة التي تقدمتها. وقوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾ معناه: دأباً وفي كل يوم وفي أَطراف النهار، وقالت فرقة: هذه الآية كانت في صلاة المسلمين قبل فرض الصلوات الخمس، وقال قتادة: «الغُدُوّ: صلاة الصبح، والآصال: صلاة العصر». والآصال: جمع أُصُل، والأُصُل: جمع أَصيل وهو العَشي. وقيل: الآصال: جمع أَصيل دون توسط كأيمان جمع يمين، وآصال أيضاً جمع أَصايل فهو جمع الجمع. وقرأَ أبو مجلز: [والإيصَال] مصدراً كالإصباح والإمساءِ، ومعناه: إذا دخلت في الأصيل، وفي الطبري: قال أَبو وائل لغلامه: هل آصلنا بعد؟ ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ تنبيه.

ولمَّا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ جعل بعد ذلك مثالاً من اجتهاد الملائكة ليبعث على الجدّ في طاعة الله عزَّ وجلَّ. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يريد الملائكة، وقوله: ﴿عِندَ﴾ إنما يريد في المنزلة والتشريف والقرب في المكانة لا في المكان، فهم بذلك عنده. ثم وصف تعالى حالهم من تواضعهم وإدمانهم للعبادة والتسبيح والسجود. وفي الحديث: (أَطَّت السماءُ وحقَّ لها أَن تَئِطَّ، ما فيها موضع شبر إلاَّ وفيه ملَك قائم أَو راكع أَو ساجد)[١]، وهذا موضع سجدة، قال النَّخَعي في كتاب النقاش: إنْ شِئت ركعت وإن شئت سجدت[٢].

كملت سورة الأعراف بتوفيق من الله والحمد لله ربّ العالمين

* * *

(١) رواه ابن مردويه عن أنس ـ ورمز له في «الجامع الصغير» بأنه ضعيف.

(٢) اختلف العلماءُ في عدد سجود القرآن، فأقصى ما قيل خمس عشرة، أولها خاتمة الأعراف، وآخرها خاتمة العلق، وذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ وهذا أقل ما قيل ـ أنها أربع سجدات. سجدة ألم تنزيل ـ وحم تنزيل ـ والنجم ـ والعلق ـ وفي سنن ابن ماجه عن أبي الدرداءِ قال: سجدتُ مع النبي ﷺ إحدى عشرة سجدة ليس فيها من المفصل شيءٌ: (الأعراف، والرعد، والنحل، وبني إسرائيل (الإسراء)، ومريم، والحج (سجدة)، والفرقان، وسليمان سورة النمل، والسجدة، وص، وسجدة الحواميم). وقوله بعد الحج (سجدة) معناه أنه أسقط آخرة سورة الحجّ وأثبت واحدة فيها فقط. والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الأنفال[١]

هي مدنية كلها، كذا قال أكثر الناس، وقال مقاتل: هي مدنية غير آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية كلها، وهذه الآية نزلت في قصة وقعت بمكة، ويمكن أن تنزل الآية في ذلك بالمدينة، ولا خلاف في هذه السورة أنها نزلت في يوم بدر وأمر غنائمه[٢].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾.

النَّفْل والنَّفَلُ والنافلة في كلام العرب: الزيادة على الواجب، وسُمِّيت الغنيمة نفلاً لأنها زيادة على القيام بالجهاد وحماية الدين والدعاء إلى الله عزَّ وجلَّ، ومنه قول لبيد:

إنَّ تَقْوى ربِّنَا خيْرُ نَفَلْ . . . .[٣]

أي خير غنيمة، وقول عنترة:

إنَّا إذا احْمَرَّ الوَغَى نَرْمِي القَنَا ونعِفُّ عِنْدَ مَقَاسِمِ الأنْفَالِ[٤]

---

(١) عدد آياتها خمس وسبعون آية، وعدد كلماتها (١٦٣١) إحدى وثلاثون وستمائة وألف كلمة، وعدد حروفها (٥٢٩٤) أربع وتسعون ومائتان وخمسة آلاف حرف.

(٢) وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي مدنية إلا سبع آيات، من قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخر السبع آيات. وهذه الآية هي رقم (٣٠) من السورة.

(٣) البيت مطلع قصيدة يتحدث فيها عن مآثره ومواقفه ويأسى لفقد أخيه أربد، وهو بتمامه:

إنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفَلْ وبإذْنِ اللهِ رَيْثِي والعَجَلْ

والريث: الإبطاءُ والتأني.

(٤) البيت من قصيدة قالها عنترة في إغارته على بني ضَبة، وروايته في الديوان:

إنَّا إذا حَمِسَ الوَغَى نُرْوِي القَنَا ونعِفُّ عند تقاسُمِ الأنفالِ

ومعنى حَمِس: اشتد. والأنفال: الغنائم.

والسؤال في كلام العرب يجيءُ لاقتضاءِ معنى في نفس المسؤول ، وقد يجيءُ لاقتضاءِ مال أَو نحوه ، والأَكثر في هذه الآية أن السؤال إنما هو عن حكم الأَنفال فهو من الضرب الأَول ، وقالت فرقة: إنما سأَلوه الأنفال نفسها أن يعطيهم إياها ، واحتجوا في ذلك بقراءَة سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، وعلي بن الحسين ، وأبي جعفر محمد بن علي ، وزيد بن علي ، وجعفر بن محمد ، وطلحة بن مصرف ، وعكرمة ، والضحاك ، وعطاء: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ ، وقالوا في قراءَة من قرأَ ﴿عَنِ﴾ إنها بمعنى (من) ، فهذا الضرب الثاني من السؤال.

واختلف الناس في المراد بالأَنفال في هذه الآية. فقال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعطاء ، وابن زيد: هي الغنائم مجملة. قالوا: وذلك أن سبب الآية ما جرى يوم بدر ، وهو أَن أصحاب رسول الله ﷺ افترقوا يوم بدر ثلاث فرق: فرقة أَقامت مع رسول الله ﷺ في العريش الذي صُنع له وحمَتْه وآنسته ، وفرقة أَطاحت بعسكر العدو وأَسلابهم لما انكشفوا ، وفرقة اتبعوا العدو فقتَلَوا وأَسروا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الطبري: وكان رسول الله ﷺ قد حرض الناس قبل ذلك فقال: «من قتل قتيلاً أو أسر أسيراً فله كذا وله كذا» ، فسارع الشبان وبقي الشيوخ عند الرايات ، فلما انجلت الحرب واجتمع الناس رأَت كل فرقة الفضل لنفسها ، وقالت: نحن أَولى بالمغنم ، وساءَت أخلاقهم في ذلك ، فنزلت الآية بأَن الغنائم لله وللرسول فكفُّوا ، فقسمه حينئذ رسول الله ﷺ على السواءِ[١].

وأَسند الطبري وغيره عن أَبي أُمامة الباهلي[٢] قال: سأَلت عبادة بن الصامت[٣] عن

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وأحمد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، والبيهقي ، وابن مردويه ـ عن عبادة بن الصامت. وفيه زيادات على ما هنا. (الدر المنثور ٣ ـ ١٥٩).

(٢) هو صُدَيّ بن عجلان بن وهب الباهلي ، أبو أمامة ، صحابي ، كان مع علي في صفين ، وهو آخر من مات من الصحابة بالشام ، له في الصحيحين ٢٥٠ حديثاً. (الإصابة ـ تهذيب التهذيب ـ صفوة الصفوة).

(٣) عبادة بن الصامت الأنصاري ، صحابي من الموصوفين بالورع ، شهد العقبة وكان من النقباء ، وسائر المشاهد ، وهو أول من ولي القضاء بفلسطين ، ومات ببيت المقدس أو الرملة. وكان من سادات الصحابة. (الإصابة ـ تهذيب التهذيب ـ الأعلام).

الأَنفال ، فقال: فينا أَهل بدر نزلت حين اختلفنا وساءَت أَخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسول الله ﷺ ، وقسَّمه عليه الصلاة والسلام عن بواءٍ[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يريد: عن سواءٍ ، فكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله ﷺ وصلاح ذات البين.

ومما جرى أَيضاً يوم بدر فقيل إنه سببٌ ما أَسنده الطبري عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر قُتل أخي عمير ، وقتلتُ سعيد بن العاصي وأَخذت سيفه ، وكان يسمى ذا الكثيفة ، فجئت به إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله ، هذا السيف قد شفى الله به من المشركين فأَعطنيه ، فقال: «ليس هذا لي ولا لك فاطرحه في القَبَض» فطرحته ، فرجعت وبي مالا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلبي ، قال: فما جاوزت إلا قليلا حتى نزلت عليه سورة الأَنفال ، فقال: «اذهب فخذ سيفك فإنك سأَلتني السيف وليس لي ، وإنه قد صار لي فهو لك».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي بعض طرق هذا الحديث: قال سعد: فقلت لما قال لي: «فضعه في القَبَض»: إني أَخاف أن تُعطِيه من لم يبل بلائي ، قال: فإذا رسول الله ﷺ خلفي ، قال: فقلت: أخاف أن يكون نزل في شيءٌ ، فقال: (إن السيف قد صار لي) فأَعطانيه ، ونزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾[٢]. وأَسند الطبري أَيضاً عن أبي أُسيد مالك بن ربيعة[٣] قال:

---

(١) اخرجه أحمد ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والحاكم ، والبيهقي في سننه عن أبي أمامة (الدر المنثور).
والبواءُ: السواءُ ، يقال: فلان بَوَاءُ فلان: كُفْؤُه ونظيره في القصاص ـ للمفرد وغيره.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وابن جرير ، وابن مردويه ـ عن سعد بن أبي وقاص. وأخرج الطيالسي ، والبخاري في الأدب المفرد ، ومسلم ، والنحاس في ناسخه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب ـ عن سعد بن أبي وقاص رواية أُخرى قال في أولها: «نزلت فيّ أربع آيات من كتاب الله» ذكرها ، وكانت آيتنا هذه واحدة منها (الدر المنثور ـ وكذلك تفسير ابن كثير) ـ والكثيف: السيف ـ قال ابن سيدة: ولا أدري ما حقيقته ، والأقرب أن تكون تاءً (اللسان) ، والقَبَض بالتحريك هو المقبوض وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تُقسم.

(٣) هو مالك بن ربيعة بن عمرو بن عوف الخزرجي الساعدي، أبو أُسَيد ، صحابي ، كانت معه راية بني ساعدة يوم الفتح ، وروى أحاديث ، وكفَّ بصره ، قيل: إنه آخر البدريّيْن موتاً. (الإصابة ، الأعلام).=

أَصبت سيف ابن عائذ يوم بدر ، وكان يسمى المرزُبان ، فلما أَمر رسول الله ﷺ أَن يردوا ما في أَيديهم من النفل أَقبلت به فأَلقيته في النفل ، وكان رسول الله ﷺ لا يمنع شيئاً يُسأَله ، فرآه الأَرقم المخزومي فسأَله رسول الله ﷺ فأَعطاه إياه[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فيجيءُ من مجموع هذه الآثار أن نفوس أَهل بدرٍ تنافرت ، ووقع فيها ما يقع في نفوس البشر من إرادة الأثرة ، لا سيَّما من أَبلى ، فأَنزل الله عزَّ وجلَّ الآية فرضي المسلمون وسلموا ، فأَصلح الله ذات بينهم وردَّ عليهم غنائمهم. وقال بعض أَهل هذا التأْويل «عكرمة ومجاهد»: كان هذا الحكم من الله لرفع الشغب، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾[٢] الآية. وقال ابن زيد: لم يقع في الآية نسخ ، وإنما أَخبر أَن الغنائم لله من حيث هي مِلْكُه ورزقه ، وللرسول من حيث هو مُبَيِّن بها أَحكام الله والصادع بها ليقع التسليم فيها من الناس ، وحكم القسمة نازل خلال ذلك ، ولا شك في أَن الغنائم وغيرها والدنيا بأَسرها هي لله وللرسول.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقال ابن عباس أَيضاً: الأَنفال في الآية: ما يعطيه الإمام لمن رآه من سيف أَو فرس أَو نحوه ، وهذا أَيضاً يحسن مع الآية ومع ما ذكرناه من آثار يوم بدر ، وقال علي بن صالح ابن حيّ[٣] ، والحسن فيما حكى المهدوي: الأَنفال في الآية: ما تجيءُ به السرايا خاصة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا القول بعيد عن الآية غير ملتئم مع الأَسباب المذكورة ، بل يجيءُ خارجاً عن يوم بدر ، وقال مجاهد: الأَنفال في الآية: الخُمس ، قال المهاجرون: لم يخرج منا هذا الخُمس فقال الله تعالى: هو لله وللرسول ، وهذا أَيضاً قول قليل التناسب مع الآية.

---

(١) الحديث في تفسير الطبري ـ عن أبي أسيد ـ وعن عثمان بن الأرقم عن عمه عن جده ، وفي الرواية الأولى: «فرآه الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي».

(٢) الأنفال: ٤١.

(٣) في الأصل «وابن جني» وهو تصحيف، والصواب ما أثبته. وانظر ترجمته في الضعفاء الكبير للعقيلي ٣/ ٢٣٣.

وقال ابن عباس، وعطاء أَيضاً: الأنفال في الآية: ما شذَّ من أَموال المشركين إلى المسلمين كالفرس العائِر والعبد الآبق[1] وهو للنبي ﷺ يصنع فيه ما يشاءُ، وقال ابن عباس أَيضاً: الأنفال في الآية: ما أُصيب من أَموال المشركين بعد قسمة الغنيمة وهو لله ورسوله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان لا تخرج بهما الآية عن الأَسباب التي رُويت في يوم بدر، ولا تختص الآية بيوم بدر على هذا. وكأن هاتين المقالتين إنما هما فيما ناله الجيش دون قتال وبعد تمام الحرب وارتفاع الخوف، وأَولى هذه الأقوال وأَوضحها القول الأَول الذي تظاهرت الروايات بأَسبابه، وناسبه الوقت الذي نزلت الآية فيه. وحكى النقاش عن الشعبي أنه قال: الأَنفال: الأسارى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا إنما هو على جهة ا لمثال فيعني كل ما يُغنم.

ويحسن في تفسير هذه الآية أن نذكر شيئاً من اختلاف العلماء في تنفيل الإمام لمن رآه من أَهل النجدة والغَناءِ[2]، وما يجوز من ذلك وما يمتنع، وما لهم في السَّلَب[3] من الاختلاف. فقالت فرقة: لا نفل بعد النبي ﷺ، وقال الجمهور: النفل باق إلى يوم القيامة، ينفل إمام الجيش ما رآه لِمَن رآه لكن بحسب الاجتهاد والمصلحة للمسلمين ليحض الناس على النجدة، وينشِّطهم إلى مكافحة العدو والاجتهاد في الحرب، ثم اختلفوا، فقال ابن القاسم عن مالك في «المدونة»: إنما ينفل الإمام من الخُمس لا من جملة الغنيمة، وينفل في أَول المغنم وفي آخره بحسب اجتهاده، وقالت فرقة: إنما ينفل الإمام قبل القتال، وأَما إذا جمعت الغنائم فلا نفل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا إنما يكون ـ على هذا القول ـ بأَن يقول الإمام: من قتل قتيلاً فله كذا أو كذا،

---

(١) في (اللسان): «عار الفرسُ: إذا ذهب على وجهه وتباعد عن صاحبه». والعبد الآبِق: الهارب، يقال: أبَقَ بالفتح وأبِق بالكسر فهو آبِقٌ وأبوق.

(٢) الغناء ـ بفتح الغين: الكفاية والنفع.

(٣) السَّلَبُ: ما مع القتيل من ثياب وسلاح ودابة. أي كلُّ ما يسلب ويؤخذ قهراً وقوة.

أَو يقول لِسَرِيَّة: إن وصلتم إلى موضع كذا فلكم كذا. وقال الشافعي وابن حنبل: لا نفل إلا بعد الغنيمة قبل التخميس. وقال إبراهيم النَّخَعي: ينفل الإمام متى شاءَ قبل التخميس. وقال أَنس بن مالك، ورجاءُ بن حَيْوة، ومكحول، والقاسم، وجماعة منهم الأَوزاعي، وأَحمد، وإسحق، وعدي بن عدي: لا نفل إلا بعد إخراج الخمس، ثم ينفل الإمام من أَربعة الأخماس، ثم يقسم الباقي بين الناس. وقال ابن المسيّب: إنما ينفل الإمام من خمس الخمس. وقال مالك رحمه الله: لا يجوز أَن يقول الأَمير: من هدم كذا من الحصن فله كذا، ومن بلغ إلى كذا فله كذا، ولا أُحب لأَحد أَن يسفك دماً على مثل هذا. قال سُحْنون: فإن نزل ذلك لزمه فإنه مبايعة. وقال مالك رحمه الله: لا يجوز أن يقول الإمام لسريَّة: ما أَخذتم فلكم ثلثه، قال سُحْنون: يريد ابتداءً، فإن نزل مضى ولهم أنصباؤهم في الباقي. وقال سُحْنون: إذا قال الإمام لِسَرِيَّة: ما أَخذتم فلا خمس عليكم فيه، فهذا لا يجوز، فإن نزل رددته لأَن هذا حكم شاذ لا يجوز ولا يمضي، ويستحب ـ على مذهب مالك ـ إن نفل الإمام ـ أَن ينفل ما يظهر كالعمامة والفرس والسيف. وقد منع بعض العلماء أَن ينفل ذهباً أو فضة أَو لؤلؤاً أَو نحو هذا. وقال بعضهم: النفل جائز من كل شيء.

وأَما السَّلَب فقال مالك رحمه الله: الأَسلاب من المغنم تقسم على جميع الجيش إلا أَن يشرط الإمام، وقاله غيره. وقال الليث، والأَوزاعي، والشافعي، وأَحمد، وأَبو ثور، وأَبو عبيد، وابن المنذر: السَّلَب حق للقاتل بحكم النبي ﷺ، قال الشافعي، وَأحمد، وأَبو عبيد، وابن المنذر: قاله الإمام أَو لم يقله. وقال مالك: إذا قال الإمام: «من قتل قتيلاً فله سلبه» فذلك لازم، ولكنه على قدر اجتهاد الإمام وبسبب الأَحوال والضيقات واستصراخ الأنجاد، وقال الشافعي، وابن حنبل: تخرج الأَسلاب من الغنيمة ثم تخمس بعد ذلك وتعطى الأَسلاب للقتلة. وقال إسحق بن راهويه: إن كان السَّلَب يسيراً فهو للقاتل، وإن كان كثيراً خُمّس، وفعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع البراءِ بن مالك[1] حين بارز المرزُبان فقتله فكانت قيمة منطقته وسِوَاريه ثلاثين

(١) هو البراءُ بن مالك بن النضر الأنصاري. كان يرجز لرسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وخبره أنّه في يوم يُسمى يوم تُسْتَر من بلاد فارس انكشف الناس فحمل البراءُ وحمل الناس معه فقتل مرزُبان الزّارة من عظماءِ الفرس وأخذ سلبه، فانهزم الفرس.

ألفاً، فخمّس ذلك، وروي في ذلك حديث عن النبي ﷺ هو حديث عوف بن مالك في مصنف أَبي داود. وقال مكحول: السَّلَب مغنم وفيه الخُمُس. ورُوي نحوه عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يريد: يُخَمّس على القاتل وحده.

وقال جمهور الفقهاءِ: لا يعطى القاتل السَّلَب إلا أَن يقيم البيِّنة على قتله، قال أكثرهم: ويجزي شاهدٌ واحد بحكم حديث أَبي قتادة، وقال الأَوزاعي: يعطاه بمجرد دعواه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وقال الشافعي: لا يعطى القاتل إلا إذا كان قتيله مقبلاً مبارزاً مضحياً، وأما من قتل منهزماً فلا، وقال أَبو ثور، وابن المنذر صاحب «الأشراف»: للقاتل السَّلَب منهزماً كان القتيل أَو غير منهزم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا أَصحُّ لحديث سلمة بن الأكوع[1] في اتِّباعه ربيئة[2] الكفار في غزوة حنين وأَخذه بخطام بعيره وقتله إياه وهو هارب، فأَعطاه رسول الله ﷺ سَلَبه[3]. وقال أَحمد ابن حنبل: لا يكون السَّلَب للقاتل إلا في المبارزة فقط.

واختلفوا في السَّلَب. فأَما السلاح وكل ما يُحتاج للقتال فلا أَحفظ فيه خلافاً أَنه من

---

(١) هو سلمة بن عمرو بن سنان الأكوع الأسلمي، من الذين بايعوا تحت الشجرة، غزا مع النبي سبع غزوات، وغزا في أفريقية في أيام عثمان، وكان شجاعاً بطلاً رامياً عداءً، له ٧٧ حديثاً وتوفي بالمدينة. (الأعلام).

(٢) الربيئة: الطليعة الذي يرقب العدوّ من مكان عال لئلا يدهم قومه. وجمعها: ربايا.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (٤ ـ ٤٩)، ونصّه: عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: «نزل رسول الله ﷺ منزلا فجاءَ عين المشركين ورسول الله ﷺ وأصحابه يتصبحون فدعوه إلى طعامه، فلما فرغ الرجل ركب على راحلته فذهب مسرعاً لينذر أصحابه، قال سلمة: فأدركته فأنخت راحلته وضربت عنقه فغَنَّمني رسول الله ﷺ سلبه».

السَّلَب، وفرسُه إن قاتل عليه وصُرع عنه. وقال أحمد ابن حنبل في الفرس: ليس من السَّلَب. وكذلك إن كان في هِميانِهِ[١] أَو مَنْطَقَتِهِ دنانير أَو جوهر أَو نحو هذا مما يعدّه فلا أَحفظ خلافاً أَنه ليس من السَّلَب. واختلف فيما يُتَزَيَّن به للحرب ويُهَوّل به فيها كالتاج والسوارين والأَقراط والمناطق المثقلة بالذهب والأَحجار، فقال الأَوزاعي: ذلك كله من السَّلَب، وقالت فرقة: ليس من السَّلَب، وهذا مروي عن سُحْنون رحمه الله إلا المنطقة فإنها عنده من السَّلب. قال ابن حبيب في «الواضحة»: والسواران من السَّلَب، وتردّد الشافعي ـ هل هذه كلها من السَّلَب أَم لا؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإذا قال الإمام: «من قتل قتيلاً فله سَلَبه» فقتل ذِمِّيٌ قتيلاً فالمشهور ألاَّ شيءَ له، وعلَى قول أَشهب: «يُرضخ[٢] لأَهل الذمة من الغنيمة» يلزم أن يُعطى السَّلَب. وإن قتل الإمام بيده بعد هذه المقالة قتيلاً فلَه سَلَبه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَما الصفيّ[٣] فكان خالصاً للنبي ﷺ.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ معناها في الكلام: اجعل بينك وبين المحذور وقاية، وقوله: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ تصريح بأنه شجر بينهم اختلاف، ومالت النفوس إلى التَّشاحّ، و﴿ذَاتَ﴾ ـ في هذا الموضع ـ يراد بها نفس الشيءِ وحقيقته. والذي يفهم من ﴿بَيْنِكُمْ﴾ هو معنى يعم جميع الوُصَل[٤] والالتحامات والمودّات، وذات ذلك هي المأمور بإصلاحها، أَي: نفسه وعينُه، فحضَّ الله عزَّ وجلَّ على إصلاح تلك الأَجزاءِ، فإذا صلحت تلك حصل إصلاح ما يعمها وهو البَيْن الذي لهم، وقد تستعمل لفظة (الذات) على أَنها لزيمة ما تضاف إليه وإن لم تكن عينَه أَو نفسَه،

(١) الهميان: شدادُ السراويل (أي التكَّة): والمنْطَقةُ، وكيس للنفقة يُشدّ في الوسط والجمع هماين وهَمايينُ، والمنْطقة: ما يُشَدّ به الوسط. (المعجم الوسيط) و(اللسان).

(٢) يقال: رضخ له من ماله: أعطاه قليلا. وكذلك أرضخ له من ماله: أعطاه قليلا من كثير.

(٣) الصَّفيّ: ما يأخذه رئيس الجيش ويختاره لنفسه من الغنيمة قبل القسمة، ويقال له: الصفية، والجمع: صفايا. وصفيّة رسول الله ﷺ من الصفيّ كما قالته عائشة رضي الله عنها (النهاية لابن الأثير).

(٤) وُصَلٌ بضم الواو وفتح الصاد: جمع وُصلة بمعنى الاتصال وجمع شيءٍ بشيءٍ آخر وضمه إليه، والصِّلَةُ بين الناس تكون بالبرّ وبالقربى وبالمودة وغيرها مما يحكم الاتصال والارتباط بينهم.

وذلك في قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[١] ، و﴿ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾[٢] فإنها ها هنا مؤنثة قولهم: «الذئبُ مغبوطٌ بذي بَطْنِهِ»[٣] ، وقول أَبي بكر رضي الله عنه: «إنما هو ذو بطن بنت خارجة». ويحتمل «ذات البَيْن» أن تكون هذه ، وقد تقال (الذات) أَيضاً بمعنى آخر وإن كان يقرب من هذا وهو قولهم: «فَعلْتُ كذا ذات يوم» ، ومنه قول الشاعر:

لا ينبح الكلب فيها غير واحدة ذات العشاء ولا تسري أَفاعيها[٤]

وذكر الطبري عن بعضهم أنه قال: ﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾. الحال التي لِبيْنِكُم ، كما «ذات العشاءِ»: الساعة التي فيها العشاءُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ورجحه الطبري ، وهو قولٌ بيّن الانتقاض. وقال الزجاج: البيْن ها هنا: الوَصْلُ ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾[٥].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا كله نظر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ لفظ عام ، وسببه الأَمر بالوقوف عندما ينفذه

---

(١) تكررت في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، ونذكر منها الآيات: (١١٩ ، ١٥٤ آل عمران) (٧ المائدة) (٤٣ الأنفال) (٥ هود) (٢٣ لقمان) (٣٨ فاطر) (٧ الزمر) (٢٤ الشورى). وغير ذلك.

(٢) الأنفال: ٧.

(٣) ويروى: «الذئب يُغْبَطُ بغير بِطْنَةٍ» ، قال أبو عبيد: وذلك أنه ليس يُظن به أبداً الجوع ، إنما يُظن به البِطْنة لأنه يعدو على الناس والماشية ، قال الشاعر:

ومَنْ يسْكُنِ البَحْرينِ يَعْظُم طُحَالُه ويُغْبط ما في بَطْنِهِ وهو جائع

وقال غير أبي عبيدة: إنما قيل فيه ذلك لأنه عظيم الجفرة أبداً لا يبين عليه الضمور وإن جهده الجوع ، قال الشاعر:

لكالذِّئْبِ مغْبوطُ الحشا وهْوَ جائعُ

(٤) لم نقف على قائله. . . و(ذات) هنا من ظروف الزمان التي لا تتمكن ، تقول: لقيته ذات يوم وذات ليلة وذات العشاءِ وذات مرة ـ وإنما سمع في هذه الأوقات ولم يقولوا: ذات شهر ولا ذات سَنة. (قاله في اللسان) والأفاعي: جمع أفْعى وهي من الحيات التي لا تبرح ، إنما هي مترحية ، أي مستديرة على نفسها متُحويّة ، والافْعُوان بالضم: ذكر الأفاعي. (عن اللسان أيضاً).

(٥) الأنعام: ٩٤.

رسول الله ﷺ في الغنائم، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي كاملي الإيمان، كما تقول لرجل: «إن كنت رجلاً فافعل كذا» أي: إن كنت كامل الرجولة، وجواب الشرط في قوله المتقدم ﴿وَأَطِيعُوا﴾، ومذهب أبي العباس أن الجواب محذوف متأخر يدل عليه المتقدم تقديره: إن كنتم مؤمنين أطيعوا، ومذهبه في هذا ألاّ يتقدم الجوابُ الشرط[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ لفظ لا تفارقه المبالغة والتأكيد حيث وقع، ويصلح مع ذلك للحَصْر، فإذا دخل في قصة وساعد معناها على الانحصار صح ذلك وترتب كقوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[2] وغير ذلك من الأمثلة، وإذا كانت القصة لا تتأتى للانحصار بقيت (إنما) للمبالغة والتأكيد فقط، كقوله عليه الصلاة والسلام: «إنما الربا في النسيئة»[3]، وكقولهم: إنما الشجاع عنترة، وأما من قال: «إنما هي لبيان الموصوف» فهي عبارة فاترة، إذ بيان الموصوف يكون في مجرد الإخبار دون (إنما). وقوله سبحانه ها هنا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ظاهرها أنها للمبالغة والتأكيد فقط، أي: الكاملون.

و﴿وَجِلَتْ﴾ معناه: فزعت ورقَّت وخافت، وبهذه المعاني فسرت العلماءُ. وقرأ

(١) ذكر أبو حيان في «البحر المحيط» هذا الكلام نقلا عن ابن عطية، ثم عقَّب عليه بقوله: «والذي نقله مخالف لكلام النحاة، فإنهم يقولون: إن مذهب سيبويه أن الجواب محذوف، وأن مذهب أبي العباس وأبي زيد الأنصاري والكوفيين جواز تقديم جواب الشرط عليه. وهذا النقل هو الصحيح».

(٢) الكهف: ١١٠، وتكررت في الأنبياء: ١٠٨ وفي فصلت: ٦.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه ـ عن أُسامة بن زيد، ورمز له الإمام جلال الدين السيوطي في «الجامع الصغير» بأنه صحيح. وقال الإمام ابن الأثير في النهاية: النسيئة: هي البيع إلى أجل معلوم، يريد أن بيع الرِّبويَّات بالتأخير من غير تقابض هو الربا، وإن كان بغير زيادة، وهذا مذهب ابن عباس رضي الله عنهما، كان يرى بيع الرّبويّات متفاضلة مع التقابض جائزاً، وأن الربا مخصوص بالنسيئة. (النهاية في غريب الحديث والأثر ٥ ـ ٤٥).

ابن مسعود: [فَرِقَتْ] ، وقرأ أُبيّ بن كعب: [فَزِعَتْ][1]. يقال: وجل يَوْجَل وياجَل ويَيْجَل ـ وهي شاذة ـ ويِيجَل بكسر الياءِ الأُولى ، ووجه هذه أَنهم لما أَبدلوا الواو ياءً لم يكن لذلك وجه قياس فكسروا الياءَ الأُولى ليجيءَ بدل الواو ياءُ العلة ـ حكى هذه اللغات الأَربع سيبويه رحمه الله.

و﴿ تُلِيَتْ ﴾ معناه: سُرِدت وقُرئت. والآيات هنا: القرآن المتْلُو. وزيادة الإيمان على وجوه كلها خارج عن نفس التصديق ، منها أَن المؤمن إذا كان لم يسمع حكماً من أحكام الله في القرآن فنزل على النبي ﷺ فسمعه فآمن به زاد إِيماناً إلى سائر ما قد آمن به ، إذ لكل حكم تصديق خاص به ، وهذا يترتب فيمن بلغه ما لم يكن عنده من الشرع إلى يوم القيامة ، وتترتب زيادة الإيمان بزيادة الدلائل ، ولهذا قال مالك: الإيمان يزيد ولا ينقص ، وتترتب بزيادة الأعمال البَرَّة على قول من يرى لفظة الإيمان واقعة على التصديق والطاعات ، وهؤلاءِ يقولون: يزيد وينقص.

وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ عبارة جامعة لمصالح الدنيا والآخرة إذا اعتبرت وعمل بحسبها في أَن يمتثل الإنسان ما أُمر به ويبلغ في ذلك أَقصى جهده دون عجز ، وينتظر بعدُ ما تُكفِل له به من نصر أَو رزق أَو غيره.

وهذه أَوصاف جميلة وصف الله بها فضلاءَ المؤمنين ، فجعلها غاية للأُمة ليستبق إليها الأَفاضل ، ثم أَتبع ذلك عَدَّهم[2] ووسمهم بإِقامة الصلاة ، ومدحهم بها حضّاً على ذلك.

وقوله: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ قال جماعة من المفسرين هي الزكاة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإنما حملهم على ذلك اقتران الكلام بإقامة الصلاة وإلا فهو لفظ عام في الزكاة ونوافل الخير وصِلات المستحقين ، ولفظ ابن عباس رضي الله عنهما في هذا المعنى محتمل.

---

(١) قال العلماءُ: ينبغي أن تحمل هاتان القراءتان على التفسير.

(٢) هكذا بالأصول ، وفي إحدى النسخ: «ثم أتبع بعد ذلك عدَّهم...» ويجوز أن يكون الصواب: «عِدتَهُم» أو أن تكون الكلمة زائدة ، وأن المراد: «ثم أتبع ذلك بأن وسمهم بإقامة الصلاة» ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ يريد: كلُّ المؤمنين[1] ، و﴿ حَقًّا ﴾ مصدر مؤكد ، كذا نصَّ عليه سيبويه ، وهو المصدر غير المنتقل. والعامل فيه أَحُقّ ذلك حقاً[2] ، وقوله: ﴿ دَرَجَٰتٌ ﴾ ظاهِرُهُ ـ وهو قول الجمهور ـ أَن المراد مراتب الجنَّة ومنازلها ، ودرجاتها على قدر أَعمالهم. وحكى الطبري عن مجاهد أَنها درجات أَعمال الدنيا. وقوله: ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ يريد به مآكل الجنة ومشاربها ، و﴿ كَرِيمٌ ﴾ صفة تقتضي رفع المذام كقولك: ثوب كريم وحسب كريم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ ﴾.

اختلف الناس في الشيءِ الذي تتعلق به الكاف من قوله: ﴿ كَمَآ ﴾ حسبما نبين من الأَقوال التي أَنا ذاكرها بعْدُ بحول الله ، والذي يلتئم به المعنى ويحسن سرد الأَلفاظ قولان ، وأَنا أَبدأُ بهما:

قال الفراءُ: التقدير: «امْضِ لأَمرك في الغنائم ونفل من شئتَ وإن كرهوا ، كما أَخرجك ربك» ، هذا نص قوله في «هداية مكي» ، والعبارة بقوله: «امْضِ لأَمرك ونفل من شئت» غيْرُ مُحرَّرة ، وتحرير هذا المعنى عندي أَن يقال: إن هذه الكاف شبّهت هذه القصة التي هي إخراجه من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأَنفال ، كأَنهم سأَلوا عن النفل وتشاجروا فأَخرج الله ذلك عنهم فكانت في ذلك الخيرة ، فتشاجرهم في النفل بمثابة كراهيتهم هنا للخروج ، وحُكْم الله في النفل بأَنه لله ولِلرَّسول دونهم هو بمثابة إخراجه نبيه ﷺ من بيته ، ثم كانت الخيرة في القصتين فيما صنع الله ، وعلى هذا التأْويل يمكن أَن يكون قوله: ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ ﴾ كلاماً مستأْنفاً يراد به الكفار ، أَي:

---

(١) «كلُّ» بالرفع ـ والمعنى أَنهم الكاملون في إيمانهم.

(٢) قال الزمخشري: ﴿ حَقًّا ﴾ صفة لمصدر محذوف ، أي: «أُولئك هم المؤمنون إيماناً حقاً» ، أو هو مصدر مؤكد للجملة التي هي ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ والتقدير: حقَّ ذلك حَقّاً ، كقولك: «هو عبد الله حقاً» إذ التقدير فيها: حق ذلك حقاً.

يجادلونك في شريعة الإسلام من بعد ما تبين الحق فيها كأَنما يساقون إلى الموت في الدعاءِ إلى الإيمان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الذي ذكرتُ من أَن ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ في الكفار ـ منْصُوصٌ[1].

والقول الثاني، قال مجاهد والكسائي وغيرهما: المعنى في هذه الآية: كما أَخرجك ربك من بيتك على كراهية من فريق منهم كذلك يجادلونك في قتال كفار مكة ويودُّون غير ذات الشوكة من بعد ما تبين لهم أَنك إنما تفعل ما أُمرت به لا ما يريدون هم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والتقدير ـ على هذا التأويل ـ: يجادلونك في الحق مجادلة ككراهتهم إخراج ربك إياك من بيتك، فالمجادلة ـ على هذا التأْويل ـ بمثابة الكراهية، وكذلك وقع التشبيه في المعنى، وقائل هذه المقالة يقول: إن المجادلين هم المؤمنون. وقائل المقالة الأُولى يقول: إن المجادلين هم المشركون، فهذان قولان مطردان يتم بهما المعنى ويحسن رصف اللفظ.

وقال الأَخفش: الكاف نعتٌ لِـ[حَقاً] والتقدير: «هم المؤمنون حقاً كما أخرجك».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمعنى على هذا التأْويل كما تراه لا يتناسق.

وقيل: الكاف في موضع رفع. والتقدير: «كما أَخرجك ربك فاتقوا الله»، كأَنه ابتداءٌ وخبر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا المعنى وضعه هذا المفسّر وليس من أَلفاظ الآية في ورد ولا صدر.

وقال أَبو عبيدة: هو قَسَم، أَي: «لهم درجات ومغفرة ورزق كريم كما أَخرجك». بتقدير: والذي أَخْرَجَك، فالكاف في معنى الواو و[ما] بمعنى الذي.

---

(١) كلمة «مَنْصوص» خبر «هذا»، أي: هذا الرأيُ منصوص.

وقال الزجاج: الكاف في موضع نصب، والتقدير: «الأنفال ثابتة لك ثباتاً كما أَخرجك ربك».

وقيل: الكاف في موضع رفع. والتقدير: «لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم هذا وعد حق كما أَخرجك».

وقيل: المعنى: «وأَصلحوا ذات بينكم ذلك خير لكم كما أَخرجك»، والكاف نعت لِخَبَر ابتداءٍ محذوف.

وقيل: التقدير: «قل الأَنفال لله والرسول كما أَخرجك»، وهذا نحو أَول قول ذكرتُه.

وقال عكرمة: التقدير: «وأَطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين كما أَخرجك ربك»، أَي: الطاعة خير لكم كما كان إخراجك خيراً لكم[1].

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡتِكَ﴾ يريد: من المدينة يثرب، قاله جمهور المفسرين. وقال ابن بكير: المعنى: كما أَخرجك من مكة وقت الهجرة، وقرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿في ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا بُيِّنَ﴾ بضم الباءِ من غير تاءٍ. والضمير في قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ قيل: هُوَ للمؤمنين، وقيل: للمشركين، فمن قال: «للمؤمنين» جعل الحقَّ قتال مشركي قريش، ومن قال «للمشركين» جعل الحقَّ شريعة الإسلام. وقوله: ﴿إِلَى ٱلۡمَوۡتِ﴾ أَي: في سوقهم إلى القتال على أَن المجادلين المؤمنون، وفي دعائهم إلى الشرع على أَنهم المشركون. وقوله: ﴿وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ حال تزيد في فزع السَّوْق وتقتضي شدة حاله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ الآية. في هذه الآية قصص حسن أَنا أَختصره إذ هو مستوعب في كتاب سيرة رسول الله ﷺ لابن هشام، واختصاره أَن رسول الله ﷺ لمَّا بلغه ـ وقيل: أُوحي إليه ـ أَن أَبا سفيان بن حرب قد أَقبل من الشام بالعير التي فيها تجارة قريش وأَموالها قال لأَصحابه: إن عير قريش قد عنت لكم، فاخرجوا إليها لعل اللهَ أَن ينفلكموها، قال: فابتعث مِمَّنْ معه مَن خَفَّ، وثَقُل قومٌ

(١) ذكر ابن عطية عشرة أقوال في تحديد ما تتعلق به الكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾، ونقد كل قول من الأقوال أو حلَّله ووضحه، وقال: إن الأول والثاني منهما يمكن أن يلتئم بهما المعنى.

وكرهوا الخروج ، وأَسرع رسول الله ﷺ لا يلوي على من تعذر ، ولا ينتظر من غاب ظهرُهُ[١] ، فسار في ثلاثمائة وثلاثة عشر من أَصحابه بين مهاجري وأَنصاري ، وقد ظن الناس بأَجمعهم أَن رسول الله ﷺ لا يلقى حرباً فلم يكثر استعدادهم ، وكان أَبو سفيان في خلال ذلك يستقصي ويحذر ، فلما بلغه خروج رسول الله ﷺ بعث ضَمْضَم بن عمرو الغفاري إلى مكة يستنفر أَهلها ، ففعل ضمضم ، فخرج أَهل مكة في أَلف رجل أَو نحو ذلك ، فلما بلغ رسول الله ﷺ خروجهم أَوحى الله تعالى إليه وحْياً غير متلو يَعِدُهُ إحدى الطائفتين ، فعرّف رسول الله ﷺ أَصحابه بذلك فَسُرُّوا ووَدّوا أَن تكون لهم العير التي لا قتال معها ، فلما علم أَبو سفيان بقرب رسول الله ﷺ أَخذ طريق الساحل وأَبْعَد وفات ، ولم يبق إلا لقاءُ أَهل مكة ، وأَشار بعض الكفار على بعض بالانصراف وقالوا: عيرُنا قد نجت فلننصرف ، فحرَّش[٢] أَبو جهل ولجَّ حتى كان أَمر الوقعة ، وقال بعض المؤمنين: نحن لم نخرج لقتال ولم نستعد له ، فجمع رسول الله ﷺ أَصحابه وهو بواد يُسَمَّى ذفران وقال: أَشيروا عليَّ أَيها الناس ، فقام أَبو بكر رضي الله عنه وتكلم فأَحسن وحرَّض على لقاءِ العدو ، فأَعاد رسول الله ﷺ الاستشارة ، فقام عمر رضي الله عنه بمثل ذلك ، فأَعاد رسول الله ﷺ الاستشارة ، فتكلم المقداد الكندي فقال: لا نقول لك يا رسول الله ﷺ اذهب أَنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن نقول: إنا معكما مقاتلون ، والله لو أَردت بنا برك الغماد ـ (قال القاضي أَبو محمد رحمه الله: وهي مدينة بالحبشة) ـ لقاتلنا معك من دونها ، فسُرَّ رسول الله ﷺ بكلامه ودعا له بخير ، ثم قال: أَشيروا علي أيها الناس ، فكلَّمه سعد بن معاذ ـ وقيل: سعد ابن عبادة ـ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

«ويمكن أَنهما جميعاً تكلَّما في ذلك اليوم» ، فقال: يا رسول الله ، كأَنك تريدنا معشر الأَنصار؟ فقال النبي ﷺ: أَجل ، فقال: إنا آمنا بك واتبعناك فامض لأَمر الله ، فو الله لو خضت بنا هذا البحر لخُضناهُ معك ، فقال النبي ﷺ: «امضـوا على بركة الله ، فكأَني أَنظر إلى مصـارع القوم» ، فالتقوا وكانت وقعة بدر .

---

(١) المراد بالظهر هنا ما يركبه المقاتل من فرس ونحوه.

(٢) حرَّش الإنسانَ والحيوان: أغراه بفعل شيءٍ ، وحرَّش بين القوم: أفسد. (المعجم الوسيط).

وقرأ مسلمة بن محارب[1]: [وإذْ يَعِدْكُمُ] بجزم الدال، قال أبو الفتح: ذلك لتوالي الحركات، وقرأ ابن محيصن: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ ٱحدى ٱلطَّآبِفَتَيْنِ ﴾ بوصل الألف من [إِحْدَى] وصِلَة الهاءِ بالحاءِ.

و﴿ ٱلشَّوْكَةِ ﴾ عبارة عن السلاح والحدّة، ومنه قول الأعور: «إن العَرْفَجَ قَدْ أَدْبَى»[2]. وقرأ أبو عمرو ـ فيما حكى أبو حاتم ـ [الشَّوكَةتَّكونُ] بإدغام التاءِ في التاءِ. ومعنى الآية: وتودُّون العير وتأبَوْن قتال الكفار.

وقوله: ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ ﴾ الآية، المعنى: ويريد الله أن يظهر الإسلام ويُعلي دعوة الشرع. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع ـ بخلاف عنهم ـ [بِكَلِمَتِهِ] على الإفراد الذي يراد به الجمع، والمعنى في قوله: ﴿ بِكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾ إما أن يريد: بأوامره للملائكة والنُّصْرة لجميع ما يظهر الإسلام، وإما أن يريد: بكلماته التي سبقت في الأزل، والمعنى قريب.

والدابر: الذي يدبر القوم، أي: يأتي في آخرهم، فإذا قطع فقد أُتي على آخرهم بشرط أن يبدأ الإهلاك من أولهم، وهي عبارة في كل من أتى الهلاك عليه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ ﴾.

---

(١) هو مسلمة بن عبد الله بن محارب أبو عبد الله الفهري البصري النحوي، له اختيار في القراءات، وقال ابن الجزري: لا أعلم على مَنْ قرأ، وكان من العلماء بالعربية. (المحتسب لابن جني).

(٢) العَرْفَج: نبت طيب الرائحة أغبر مائل إلى الخضرة له زهرة صفراءُ وليس له شوك ـ أدبى: يريد أنه استوى وصلح أن يؤكل، وإذا استوى هذا النبت صلح الوقت للغزو ـ هذا وللعرفج أسماء تبعاً لمراحل نموه، قال أبو نصر: إدباءُ العرفج أن يتَّسق نبتُه ويتآزر. وقد قال هذا الكلام رجل من بني العنبر كان أسيراً في بكر بن وائل فسألهم أن يرسل رسولاً إلى قومه، فلما شرطوا أن يعرفوا الرسالة لجأ إلى الرموز والتورية، وكان من رسالته لهم: «إن العَرْفَج قد أدبى، وشكّت النساءُ.. وأمرَهُم أن يُعْرُوا ناقتي الحمراءَ فقد أطالوا ركوبها، وأن يركبوا جملي الأصهب» يريد أن وقت الغزو قد حان، وعليهم أن يرحلوا من أماكنهم إلى جهة أخرى يعرفونها ـ راجع في ذلك كتاب «الأمالي لأبي علي القالي» في: «مطلب الكلام على مادة لحَنَ».

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أي: ليُظْهر ما يجب إظهاره وهو الإسلام، ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ أي الكفر ﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾ أي: وكراهيتهم واقعة، فهي جملة في موضع الحال.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ الآية. ﴿إِذْ﴾ متعلقة بفعل تقديره: واذكر إذ، وهو الفعل الأول الذي عمل في قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾، وقال الطبري: هي متعلقة بـ ﴿لِيُحِقَّ﴾ و﴿وَيُبْطِلَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويصح أن يعمل فيها ﴿يَعِدُكُمُ﴾ فإن الوعد كان في وقت الاستغاثة، وقرأ أبو عمرو بإدغام الذال في التاءِ، واستحسنها أبو حاتم. و﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ معناه: تطلبون، وليس يبين من ألفاظ هذه الآية أن المؤمنين علموا قبل القتال بكون الملائكة معهم، فإن [اسْتَجَاب] يمكن أن يقع في غيبه تعالى، وقد روي أنهم علموا بذلك قبل القتال، ومعنى التأنيس وتقوية القلوب يقتضي ذلك، وقرأ جمهور الناس [أَنِّي] بفتح الألف، وقرأ أبو عمرو ـ في بعض ما روي عنه ـ وعيسى بن عمر ـ بخلاف عنه ـ [إِنِّي] بكسر الألف، أي: قال إني، و﴿مُمِدُّكُم﴾ أي مكثركم ومقويكم، من أمددت، وقرأ جمهور الناس ﴿بِأَلْفٍ﴾، وقرأ عاصم الجحدري [بِآلُفٍ][1]، على مثل فَلْس وأَفْلُس فهي جمع (أَلْف)، والإشارة بها إلى الآلاف المذكورة في آل عمران[2]، وقرأ عاصم الجحدري أيضاً [بِآلاَف].

و﴿مُرْدِفِينَ﴾ معناه: متبعين، ويحتمل أن يراد بالمردَفين، المؤمنين، أي أُردفوا بالملائكة، فـ[مُرْدَفِينَ] ـ على هذا ـ حالٌ من الضمير في قوله: ﴿مُمِدُّكُم﴾. ويحتمل أن يراد به: الملائكة، أي أَردف بعضهم ببعض. وهذه القراءَة بفتح الدال، وهي قراءَة نافع وجماعة من أَهل المدينة وغيرهم. وقرأ سائر السبعة غير نافع بكسر الدال، وهي قراءَة الحسن، ومجاهد، والمعنى فيها: تابع بعضهم بعضاً[3]، وروي عن ابن عباس

---

(١) أصلها على هذا (أَلُف) بهمزتين قلبت الثانية منهما ألفا لأنها ساكنة وما قبلها مفتوح فصارت (آلف).

(٢) في قوله تعالى في الآية (١٢٥): ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

(٣) قال الإمام ابن خالويه: «الحجة لمن كسر الدال أنه جعل الفعل للملائكة فأتى باسم الفاعل من (أردف)، والحجة لمن فتح الدال أنه جعل الفعل لله عزَّ وجلَّ فأتى باسم المفعول من (أردف)، =

رضي الله عنهما: «خلف كل ملَك ملك» ، وهذا معنى التتابع ، يقال: ردف وأَردف إذا اتبع وجاءَ بعد الشيءِ. ويحتمل أَن يراد: مُرْدِفين المؤمنين. ويحتمل أَن يراد: مردفين بعضهم بعضاً ، ومن قال: «مُرْدِفِين بمعنى أَن كل ملَك أَردف ملَكاً وراءَه» فقول ضعيف لم يأت بمقتضاه رواية. وقرأَ رجل من أَهل مكة ـ رواه عنه الخليل ـ «مُرَدِّفين» بفتح الراءِ وكسر الدال وشدها ، وروي عن الخليل أَيضاً أَنها بضم الراءِ وكالتي قبلها في غير ذلك. وقرأَ بعض الناس بكسر الراءِ ومثلهما في غير ذلك ، حكى ذلك أَبو عمرو عن سيبويه ، وحكاه أَبو حاتم قال: كأَنه أَراد: «مرتدفين» فأَدغم وأَتبع الحركة ، ويحسن مع هذه القراءَة كسر الميم ولا أَحفظه قراءَة.

وأنشد الطبري شاهداً على أن (أَردف) بمعنى: «جاءَ تابعاً» قول الشاعر:

إذا الْجَــوْزَاءُ أَرْدَفَــتِ الثُّــرَيَّـا ظَنَنْـتُ بـآل فـاطِمَـةَ الظُّنُـونـا(١)

والثريا تطلع قبل الجوزاءِ.

وروي في الأَشهر أَن الملائكة قاتلت يوم بدر ، واختلف ـ في غيره ـ من شاهد رسول الله ﷺ ، وقيل: لم تقاتل يوم بدر وإنما وقفت وحضرت ، وهذا ضعيف. وحكى الطبري عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَنه قال: نزل جبريل في أَلف ملك على ميمنة النبي ﷺ وفيها أَبو بكر رضي الله عنه ، ونزل ميكائيل في أَلف ملَك في الميسرة وأَنا فيها ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانا في خمسمائة خمسمائة ، وقال الزجاج: قال بعضهم: إن الملائكة خمسة آلاف ، وقال بعضهم: تسعة آلاف ، وفي هذا المعنى أَحاديث هي مستوعبة في كتاب السير.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ ﴾ الآية. الضمير في ﴿ جَعَلَهُ ﴾ عائد على الوعد.

= والعرب تقول: أردفتُ الرجل: أركبته على قطاة دابتي خلفي ، وردفته: إذا ركبت خلفه» راجع كتاب «الحجة في القراءات السبع» ـ هذا وقطاةُ الدابة: العجز وما بين الوركين ، أو مقعد الرديف من الدابة. «القاموس المحيط ـ مادة: قطا».

(١) البيت لخزيمة بن مالك بن نَهْد ـ جاء ذلك في (اللسان) مادة: ردف ، قال: وأردفه: لغة في ردفه مثل تبعه وأتبعه بمعنى ، قال خزيمة: إذا الجوزاء. . . » وهو يريد فاطمة بنت يذكر بن عنزة أحد القارظين ، ومعنى البيت على ما حكاه اللسان عن أبي بكر بن السراج: إن الجوزاء تردف الثريا في شدة الحرّ ، فتتكبد السماءَ في آخر الليل ، وعند ذلك تنقطع المياه وتجف فتتفرق الناس في طلب المياه ، فتغيب عنه محبوبته ، فلا يدري أين مضت ، ولا أين نزلت. (راجع اللسان والتاج).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي أَمكن الأَقوال من جهة المعنى. وقال الزجاج: «الضمير عائد على المُمْدَد»، ويحتمل أَن يعود على الإمداد، وهذا يحسن مع قول من يقول: إن الملائكة لم تقاتل، وإنما آنست بحضورها مع المسلمين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي ضعيف تردُّه الأَحاديث الواردة بقتال الملائكة، وما رأَى من ذلك أَصحاب النبي ﷺ كابن مسعود رضي الله عنه وغيره.

ويحتمل أَن يعود على «الإرداف» وهو قول الطبري، وهذا أَيضاً يجري مجرى القول الذي قبله، ويحتمل أَن يعود على «الأَلف»، وهذا أَيضاً كذلك لأَن البشرى بالشيءِ إنَّما هي ما لم يقع بعد. والبشرى: مصدر من بشرت، والطمأْنينة: السكون والاستقرار.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ توقيف على أَن الأَمر كله لله، وأَن تكسّب المرءِ لا يغني إذا لم يساعده القدر وإن كان مُطالَباً بالجد، كما ظاهر رسول الله ﷺ بيْن دِرْعَيْن.

وهذه القصة كلها ـ من قصة الكفار وغلبة المؤمنين لهم ـ تليق بها من صفات الله عزَّ وجلَّ العزَّة والحكمةُ إذا تُؤُمّل ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾﴾.

العامل في ﴿إِذۡ﴾ هوالعامل الذي عمل في قوله: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ﴾ بتقدير تكراره، لأَن الاشتراك في العامل الأَول نفسه لا يكون إلا بحرف عطف، وإنما القصد أَن يُعَدِّدَ نِعمَهُ[1] تبارك وتعالى على المؤمنين في يوم بدر فقال: «واذكروا إذ فعلنا بكم كذا».

(١) النص الذي وجدناه في النسخ التي بين أيدينا هو: «وإنما القصد أن تعدد نعمة الله تعالى»إلخ، ولكننا=

وقال الطبري: «العامل في [إذْ] قوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا مع احتماله فيه ضعف، ولو جعل العامل في [إذْ] شيئاً قريباً مما قبلها لكان الأَولى في ذلك أَن يعمل في ﴿إِذْ﴾ ﴿حَكِيمٌ﴾، لأَن إلقاءَ النعاس عليهم وجعله أَمنةً حِكْمَةٌ من الله عزَّ وجلَّ[1].

وقرأَ نافع: [يُغْشيكم] بضم الياءِ وسكون الغين. وهي قراءَة الأَعرج، وأَبي حفص، وابن نصاح. وقرأَ عاصم، وحمزة، وابن عامر، والكسائي: [يُغَشِّيكُم] بفتح الغين وشد الشين المكسورة، وهي قراءَة عروة بن الزبير، وأَبي رجاءٍ، والحسن، وعكرمة، وغيرهم. وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [يغْشَاكم] بفتح الياءِ وأَلف بعد الشين، وهي قراءَة مجاهد، وابن محيصن، وأَهل مكة [النُّعاسُ] بالرفع. وحجة من قرأَ [يَغْشَاكُمْ] إجماعهم في آية (أُحُد) على ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾، وحجة من قرأَ [يُغشِّيكُم] أَن يجيءَ الكلامُ متَّسقاً مع [يُنَزِّلُ][2]. ومعنى [يُغَشِّيكُم]: يغطيكم به ويفرغه عليكم، وهذه استعارة.

والنعاس: أَخف النوم، وهو الذي قد يصيب الإنسان وهو واقف أَو ماش، ويُنصّ على ذلك قصص هذه الآية أَنهم إنما كان بهم خَفَق في الرؤُوس، وقول النبي ﷺ: «إذا نعس أَحدكم في صلاته»[3]، وينصُّ على ذلك قول الشاعر:

وَسْنــانُ أَقْصَــدَهُ النُّعــاسُ فــرَنَّقــتْ ... فــي عَيْنِــهِ سِنَــةٌ ولَيْــسَ بنــائِـم[4]

= آثرنا هذا الذي أثبتناه معتمدين على كتاب «البحر المحيط» لأنه نقل العبارة عن ابن عطية هكذا، ثم علَّق عليها، وهي التي يتسق بها الكلام.

(١) قريب من هذا ما قاله أبو البقاء، وهو: «يجوز أن يكون ظرفاً لما دلَّ عليه ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(٢) وأيضاً فإن الفعل فيها مضاف إلى الله عزَّ وجلَّ الذي تقدم ذكره في قوله سبحانه: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ هذا وآية (أُحُد) هي الآية ١٥٤ من سورة آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ إلى آخر الآية.

(٣) الحديث مروي في البخاري ومسلم وغيرهما ـ عن عائشة رضي الله عنها، ونصه: «إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه». ورواه أيضاً مالك، ورمز له في «الجامع الصغير» بالصحة.

(٤) نَسَبَه في (اللسان) إلى ابن الرُّقاع وقال: امرأةٌ وسْنى ووسنانة: فاترة الطرف، شُبهت بالمراة الوسنى من=

وقوله: ﴿أَمَنَةً﴾ مصدر من أَمِن الرجل يأمن أَمْناً وأَمَنة وأَماناً، والهاءُ فيها لتأْنيث المصدر كما هي في المساءَة والمشقة[1]، وقرأ ابن محيصن: [أَمْنَةً] بسكون الميم، وروي عن عبد الله بن مسعود[2] أنه قال: «النعاس عند حضور القتال علامة أَمن من العدو، وهو من الله، وهو في الصلاة من الشيطان».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا طريقه الوحي فهو لا محالة إِنما يسنده.

وقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ تعديدٌ أَيضاً لهذه النعمة في المطر، فقال بعض المفسرين ـ وحكاه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وقاله الزجاج ـ: إن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماءِ بدر فنزلوا عليه، وبقي المؤمنون لا ماءَ لهم، فوجست نفوسهم وعطشوا وأَجنبوا وصَلُّوا كذلك، فقال بعضهم في نفوسهم ـ بإِلقاءِ الشيطان إليهم ـ: نزعم أَنَّا أَولياءُ الله وفينا رسول الله ﷺ وحالنا هذه والمشركون على الماءِ، فأَنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان حتى سالت الأَودية، فشرب الناس وتطهروا وسقوا الظَّهْر[3]، وتدَمَّثت السَّبْخة[4] التي كانت بينهم وبين المشركين حتى ثبتت فيها أَقدام المسلمين وقت القتال، وكانت قبل المطر تسوخُ فيها الأَرجل، فلما نزل الطَّشُّ تلبَّدَت[5]، قالوا: فهذا معنى قوله: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ أي

= النوم، وقال أيضاً: «إن ابن الرقاع فرَّق بين السِّنَةِ والنوم»، وعلى هذا فالوسن: النوم الخفيف، يقال: وسَن كَفَرح يَوْسَن وسناً وسِنَةً، وأقصده: أصابه فلم يخطئه، ورَنَّق النوم في عينه: خالطها، أو تهيّأت العين للنوم، وقبل هذا البيت يقول ابن الرقاع، (وهو عديّ بن الرقاع العامليّ، كان شاعراً مقدما عند بني أُميّة مدَّاحاً لهم):

لـولا الحَيَـاءُ وأنَّ راسـي قَـدْ عَسَـا ... فيـه المَشيـبُ لـزُرْتُ أُمَّ القَـاسِـم

وكَـأنَّهَـا بيْـنَ النِّسَـاءِ أَعَـارَهَـا ... عَيْنَيْـهِ أحْـوَرُ مِـنْ جَـآذر جَـاسِـم

(١) معنى أن [أَمَنَةً] مصدر أنه منصوب على المصدر، والتقدير: فأَمنتم أَمَنَةً، ويرى الزمخشري وأبو حيان أنه منصوب على أنه مفعول له (في قراءة [يُغَشِّيكُم] لاتحاد الفاعل، لأن المغشيّ والمؤمّن هو الله تعالى.

(٢) نسب هذا الكلام في «الكشاف» إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) الظهر: الإبل التي يُحْمل على ظهرها والجمع ظهران بالضم.

(٤) السَّبْخة ـ بسكون الباءِ وكسرها ـ: أرض ذات نزّ وملح وجمعها: سبخات ـ والأرض الدمثاءُ: السهلة اللَّيِّنة.

(٥) الطّشّ: المطر الخفيف، وهو فوق الرذاذ ـ وتلبدت الأرض: تماسكت وصلحت للمشي عليها.

من الجنابة ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أي عذابه لكم بوساوسه المتقدمة الذكر. والرِّجْز: العذاب، وقرأ أبو العالية: [رِجْسَ] بالسين، أي وساوسه التي تمقت وتتقذر، وقرأ ابن محيصن: [رُجْز] بضم الراءِ، وقرأ عيسى بن عمر: [ويُذْهبْ] بجزم الباءِ. ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي بتنشيطها وإزالة الكسل عنها وتشجيعها على العدو، ومنه قولهم: «رابط الجأش»، أي ثابت النفس عند جأشها في الحرب[١]، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ أي في الرمْلة الدَّهِسَة[٢] التي كان المشي فيها صعباً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والصحيح من القول ـ وهو الذي في السيرة لابن إسحق وغيرها ـ أن المؤمنين سبقوا إلى الماءِ ببدر، وفي هذا وقع كلام حباب بن المنذر الأنصاري[٣] حين نزل رسول الله ﷺ على أول ماءٍ، فقال له حباب: «أبِوَحْي يا رسول الله هو المنزل فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو عندك الرأي والمكيدة؟» الحديث المستوعب في السيرة[٤].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولكن نزول المطر كان قبل وصولهم إلى الماءِ، وذلك أن القوم من المؤمنين لحقتهم في سفرهم الجنابات وعدموا الماءَ قريب بدر فصَلُّوا كذلك، فوقع في نفوسهم من ذلك، ووسوس الشيطان لهم في ذلك مع تخويفه لهم من كثرة العدو وقلَّتهم، وهذا قبل التراائي بالأعين، وأيضاً فكانت بينهم وبين ماءِ بدر مسافة طويلة من رمْل

---

(١) الجأشُ: النفس أو القلب ـ وقول ابن عطية: «عند جأشها» يعني عند فزعها.

(٢) يقال: دهِسَ المكان بمعنى كثر فيه الدَّهاس، وهو المكان السهل اللَّيِّن ليس برمل ولا تراب ولا طين.

(٣) الاسم الصحيح: «الحُباب بن المنذر بن الجَموح» الأنصاري الخزرجي ثم السَّلَميّ. فهو بالألف واللام وضم الحاءِ، كان يكنى أبا عُمر، وهو القائل يوم السقيفة: «أنا جُذَيلها المُحكَّك، وعُذَيقها المُرَجَّب»، قال ابن سعد: مات في خلافة عمر وقد زاد على الخمسين (الإصابة) ـ وزاد في (الاستيعاب): كان يقال له ذو الرأي لما أشار به على الرسول ﷺ يوم بدر.

(٤) الحديث طويل، وقد ذكره القرطبي وابن كثير ـ وفيه أن النبي ﷺ أجاب الحباب: (بل هو الرأي والحرب والمكيدة)، فقال: يا رسول الله، إن هذا ليس لك بمنزل، فانهض بنا إلى أدنى ماءٍ من القوم فننزله ونُغوِّر (نَدْفن) ما وراءَه من القُلُب (جمع قليب وهو البئر العادية القديمة)، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه فنشرب ولا يشربوا، فاستحسن رسول الله ﷺ ذلك وفعله، ثم التقوا فنصر الله نبيَّه والمسلمين.

دَهِسٍ ليّن تسوخ فيه الأَرجل ، وكانوا يتوقعون أَن يسبقهم الكفار إلى ماءِ بدر فتحرضوا هم أن يسبقوهم إليه ، فأَنزل الله تلك المطرة فسالت الأَودية فاغتسلوا وطهرهم الله فذهب رجس الشيطان ، ودمّثت الطريق وتلبَّدت تلك الرملة فسهل المشي فيها وأمكنهم الإسراع حتى سبقوا إلى الماءِ ، ووقع في السيرة أَن ما أَصاب المشركين من ذلك المطر بعينه صعَّب عليهم طريقهم ، فسُرَّ المؤمنون وتَبيَّنُوا من فعل الله بهم قَصْد المعونة لهم فطابت نفوسهم ، واجتمعت وتشجعت ، فذلك الرّبْطُ على قلوبهم وتثبيت الأَقدام منهم على الرملة اللينة ، فأَمكنهم لحاق الماءِ قبل المشركين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا أَحد ما يحتمله قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ ، والضمير في ﴿بِهِ﴾ على هذا الاحتمال عائد على الماءِ ، ويحتمل أَن يعود الضمير في [بِهِ] على ربط القلوب ، فيكون تثبيت الأَقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب ، وبيِّنٌ أَن الرَّابطَ الجأش يثبت قدمه عند مكافحة الهول.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ونزول الماءِ كان في الزمن قبل تغشية النعاس ولم يترتب ذلك في الآية إذ القصد فيها تعديدالنِّعَمْ فقط ، وحكى أَبو الفتح أن الشعبي قرأَ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ما﴾ ساكنة الألف ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ قال: وهي بمعنى: الذي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف[١]. وقرأ ابن المسيب: [لِيُطْهِرَكُم] بسكون الطاءِ. وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ الآية. العامل في ﴿إِذْ﴾ العامل الأَول على ماتقدم فيما قبلها ، ولو قدرناه قريباً لكان قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ﴾ على تأويل عود الضمير على الربط ، وأَما

(١) والسبب أن ما دخلت عليه لام التعليل لا يصحُّ أن يكون صلة ، قال في «البحر المحيط»: «ويمكن تخريج هذه القراءة على وجه آخر وهو أن [ما] ليس موصولا بمعنى (الذي) وأنه بمعنى (ماء) الممدود ، وقد حكوا أن العرب حذفت هذه الهمزة فقالوا: (مأ يا هذا) بحذف الهمزة وتنوين الميم ، فيمكن أن تخرّج على هذا إلا أنهم أجروا الوصل مجرى الوقف فحذفوا التنوين وأبقوا الألف ، وهي إما ألف الوصل التي هي بدل من الواو وهي عين الكلمة ، وإما الألف التي هي بدل التنوين في حالة النصب».

على عوده على الماء فيقلق أن تعمل ﴿وَيُثَبِّتَ﴾ في ﴿إِذْ﴾[(١)].

ووحْيُ الله إلى الملائكة إما بإلهام أو بإرسال بعض إلى بعض.

وقرأ عيسى بن عمر ـ بخلاف عنه ـ [إنِّي مَعَكُمْ] بكسر الألف على استئناف إيجاد القصة، وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنِّي﴾ بفتح الألف على أنها معمولة لـ ﴿يُوحي﴾، ووجه الكسر أن الوحي في معنى القول.

وقوله تعالى: ﴿فَثَبِّتُوا﴾ يحتمل أن يكون بالقتال معهم على ما رُوي. ويحتمل بالحضور في حيّزهم والتأنيس لهم بذلك، ويحتمل أن يريد: فَثَبِّتُوهم بأقوال مؤنسة مقوية للقلب، وروي في ذلك أن بعض الملائكة كان في صورة الآدميِّين، فكان أحدهم يقول للَّذي يليه من المؤمنين: لقد بلغني أن الكفار قالوا: «لئن حمل المسلمون علينا لننكَشِفنَّ»، ويقول آخر: ما أرى الغلبة والظَّفر إلاَّ لنا، ويقول آخر: أَقدم يا فلان، ونحو هذا من الأقوال المثبِّتة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أيضاً أن يكون التثبيت الذي أمر به ما يلقيه الملَك في قلب الإنسان بِلَمَّته[(٢)] من توهّم الظفر واحتقار الكفار، ويجري عليه من خواطر تشجيعه، ويُقوي هذا التأويل مطابقةُ قوله تعالى: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾، وإن كان إلْقاءُ الرعب يطابق التثبيت على أي صورة كان التثبيتُ، ولكنه أشبه بهذا إذ هما من جنس واحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا التأويل يجيءُ قوله تعالى: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ مخاطبة للملائكة، ثم يجيءُ قوله سبحانه: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ لفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر عن صورة الحال، كما تقول ـ إذا وصفت حرباً ـ لمن تخاطبه: «لقينا

---

(١) سبب القلق اختلاف زمان التثبيت عنده وزمان الوحي، لأن زمان إنزال المطر وما تعلق به من تعليلات متقدم على تغشية النعاس والإيحاء، ذكر ذلك أبو حيان في «البحر»، ومن هذا الرأي أيضاً الألوسي، فقد ذكر القول بأن (إذ) معمولة لـ [يُثَبِّت] ثم قال: «ويتعين حينئذ عود الضمير المجرور في [بِهِ] إلى الربط، ولا يصح أن يعود إلى الماء لتقدم زمانه على زمان ذلك، يعني الإيحاءَ إلى الملائكة.

(٢) لَمَّةُ الشيء: ما اجتمع منه.

القوم وهزمناهم، فاضرب بسيفك حيث شئت واقتل وخذ أَسيرك»، أَي هذه كانت صفة الحال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يكون [سَأُلقي] إلى آخر الآية خبراً يخاطب به المؤمنين عما يفعله في الكفار في المستقبل كما فعله في الماضي، ثم أَمر بضرب الرقاب والبنان تشجيعاً لهم وحضاً على نُصرة الدين، وقرأَ الأعرج [الرُّعُب] بضم العين، والناس على تسكينها.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ ـ فقال الأَخفش: [فوْق] زيادة، وحكاه الطبري عن عطية أَن المعنى: فاضربوا الأَعناق[١]، وقال غيره: هي بمعنى: عَلَى، وقال عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما: هي على بابها وأَراد الرُّؤوس إذ هي فوق الأَعناق. وقال المبرد: وفي هذا إباحة ضرب الكافر في الوجه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التأْويل أَنبلها.

ويحتمل عندي أَن يريد بقوله: ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ وصف أَبلغ ضربات العُنُق وأَحْكمِها، وهي الضربة التي تكون فوق عظم العنق ودون عظم الرأْس، في المفصل. وينظر إلى هذا المعنى قول دُرَيْد بن الصِّمَّة[٢] الجشمي لابن الدُّغُنَّة السَّلمي حين قال له: «خذ سيفي وارْفع عن العظم واخفض عن الدماغ فهكذا كنت أَضرب أَعناق الأَبطال»، ومثله قول الشاعر:

جَعلْتُ السَّيْف بيْن ٱلْجِيدِ مِنْهُ ... وبيْن أَسيلِ خدَّيْهِ عِذاراً[٣]

---

(١) في القرطبي: «وقد روى المسعودي قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لم أُبعث لأعذِّب بعذاب الله، وإنما بعثت بضرب الرقاب وشدّ الوثاق». وقال محمد بن يزيد: هذا خطأ لأن (فَوْق) تفيد معنى فلا تجوز زيادتها.

(٢) دُرَيد بن الصِّمَّة الجُشَمي البكري، من هوازن، شجاع، من الأبطال الشعراء المعمرين في الجاهلية، غزا نحو مائة غزوة لم يهزم في واحدة منها، أدرك الإسلام ولم يسلم، بل قتل على جاهليته يوم حنين، له أخبار كثيرة، والصِّمَّة لقب أبيه معاوية بن الحارث. (الأغاني ط دار الكتب: ١٠: ٣ ـ ٤٠، وخزانة البغدادي، والروض الأنف).

(٣) الجيدُ: العنق أو مقدّمه أو موضع القلادة منه. والخَدُّ الأسيل: السهل اللَّيْن الرقيق المستوى، وفي صفته ﷺ: كان أسيل الخدّ، قال ابن الأثير: الأسالة في الخد الاستطالة، وأن لا يكون مرتفع الوجنة. =

فيجيءُ على هذا ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ متمكناً. وقال ابن قتيبة: ﴿فَوْقَ﴾ في هذه الآية بمعنى: دون. وهذا خطأ بيّن، وإنما دخل عليه اللَّبس من قوله تعالى: ﴿مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[١] أي: فما دونها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليست [فوْق] هنا بمعنى دون، وإنما المراد: فما فوقها في القِلَّة والصغر، فأشبه المعنى دون، والبَنانُ: قالت فرقة: هي المفاصل حيث كانت من الأعضاءِ، فالمعنى على هذا: «واضربوا منهم في كل موضع». وقالت فرقة: البنان: الأصابع، وهذا هو القول الصحيح[٢]، فعلى هذا التأويل ـ وإن كان الضرب في كل موضع مباحاً ـ فإنما قصد أبلغ المواضع لأن المقاتل إذا قطع بنانه استأسر[٣] ولم ينتفع بشيءٍ من أعضائه في مكافحة وقتال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

هذا الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنون داخلون فيه بالمعنى، والضمير في ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ عائد على الذين كفروا، و﴿شَآقُّوا۟﴾ معناه: خالفوا ونابذوا وقطعوا، وهو مأخوذ من الشَّقّ وهو القطع والفصل بين شيئين، وهذه مفاعلة، فكأن الله لما شرع شرعاً وأمر بأوامر وكذَّبوا هم وصدُّوا تباعد ما بينهم وانفصل وانشقَّ، والشّق مأخوذ من هذا لأنه

= وعذارُ اللجام: ما وقع منه على خدَّي الدابة، وعِذارُ الرجل شعره النابت في موضع العذار وهو أعلى العارضة، ومراد الشاعر أنه يضربه بالسيف في هذا الموضع الدقيق بين الخدّ والجيد، ولم نقف على قائل البيت.

(١) من قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

(٢) البَنانُ: جمع بَنانَة وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين، وأنشد ابن برّي لعباس بن مرداس:

ألا لَيْتَنـــي قَطَّعْـــتُ مِنْـــهُ بَنَـــانَـــةً   ولاقَيْتُـــهُ فـــي البَيْـــتِ يَقْظَـــانَ حـــاذِراً

(٣) يقال: استَأسَرَ لَهُ: أي استسلم لأسْره. (المعجم الوسيط).

مع شِقه الآخر تباعدا وانفصلا. وعبّر المفسرون عن قوله تعالى: ﴿شَآقُّوا۟﴾ أي: صاروا في شِق غير شِقه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا وإن كان معناه صحيحاً فتحرير الاشتقاق إنما هو ما ذكرناه، والمثال الأول إنما هو الشَّق بفتح الشين، وأجمعوا على الإظهار في ﴿يُشَاقِقِ﴾ اتباعاً لخطِّ المصحف. وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ جواب الشرط تضمن وعيداً وتهديداً.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ المخاطبة للكفار، أي: ذلكم الضرب والقتل وما أوقع الله بهم يوم بدر، فكأنه قال: الأمر ذلكم فذوقوه، وكذا فسّره سيبويه. وقال بعضهم: يحتمل أن يكون ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ في موضع نصب، كقوله: «زيداً فاضربه». وقرأ جمهور الناس: [وَأَنَّ] بفتح الألف، فإمَّا على تقدير: «وحَتْم أَنَّ»، فيقدَّر على ابتداءٍ محذوف يكون [أَنَّ] خبره[١]، وإمَّا على تقدير، «واعلموا أَنَّ» فهي ـ على هذا ـ في موضع نصب. وروى سليمان عن الحسن بن أَبي الحسن: [وَإِنَّ] على القطع والاستئناف.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ الآية. [زحفاً] يراد به: مُتقَابلي الصُّفُوف والأشخاص، أي: يزحف بعضهم إلى بعض، وأَصل الزحف الاندفاع على الأَلْية[٢] ثم سُمّي كل ماش إلى آخر في الحرب رويداً زاحفاً، إذ في مشيته من التماهل والتباطؤ ما في مشي الزاحف، ومن الزحف الذي هو الاندفاع قولهم لنار العرفج[٣] وما جرى مجراه في سرعة الاتقاد: نار الزَّحْفتيْن[٤]. ومن التباطؤ في المشي قول الشاعر:

---

(١) جاء في إحدى النسخ بعد هذا زيادة قوله: «وقال سيبويه: التقدير: الأمر ذلكم».

(٢) الأَلْيَة: العجيزة أو ما ركبها من شحم ولحم. قال الأزهري: «وأصل الزَّحف للصَّبيِّ وهو أن يزحف على اسْتِهِ قبل أن يقوم، وإذا فعل ذلك على بطنه قيل: قدْ حَبَا، وشُبِّه بزحف الصبيان مشْيُ الفئتين تلتقيان للقتال».

(٣) العَرْفَج: شجر أوْ ضَرب من النبات سريع الاتقاد، واحدته بهاءٍ، وقال أبو زياد: العَرْفَج طيّب الرائحة أغبر إلى خُضرة وله زهرة صفراءُ وليس له حَبٌّ ولا شوك، وقال أبو حنيفة: أخبرني بعض الأعراب أن العرفجة أصلها واسع تنبت لها قضبان كثيرة بقدر الأصل، وليس لها ورق، إنما هي عيدان دقاق وفي أطرافها زَمَع يظهر في رؤوسها شيءٌ كالشعر أصفر، والإبل والغنم تأكله رطباً ويابساً، ولهَبُهُ شديد الحُمْرة، ويقال: كأن لحيته ضرام عرفجة. (راجع تاج العروس ـ عَرَجَ).

(٤) جاء في التَّاج: «قال الأزهري: ونار العَرْفَج يُسميها العرب نار الزحفتين، لأن الذي يوقدها يزحف=

كَأَنَّهُنَّ بِأَيْدِي الْقَوْمِ فِي كَبَدٍ طَيْرٌ تكشَّفُ عنْ جونٍ مَزاحيفِ (١)

ومنه قول الفرزدق:

عَلَى عمائِمِنا تُلْقَى وَأَرْحُلُنَا علَى زوَاحِفَ نُزْجيها محاسِيرِ (٢)

ومنه قول الاخر:

لِمَنِ الظَّعَائِنُ سَيْرُهُنَّ تَزحُّف .... (٣)

ومن التزحُّف بمعنى التَّدافع قول الهُذَلِّي:

= إليها، فإذا اتَّقدت زحف عنها». ونقل في اللسان عن ابن بري: وتُسمّى ناره نار الزحفتين لأنه يسرع الالتهاب فيزحف عنه، ثم لا يلبث أن يخبو فيُزحف إليه، وأنشد أبو العَمَيْثَل:

وسَوْداء المَعَاصم لمْ يُغادِرْ لها كَفَلا صِلاءُ الزَّحْفَتَين

(١) البيت لأبي زبيد، وقد ذكر حفر قبر عثمان رضي الله عنه وكانوا قد حفروا له في الحرَّة فشبَّه المساحي التي يضرب بها في الأرض بطير عائفة على إبلٍ سودٍ قد اسوَدَّت من العرق بها دبَرٌ، وشبَّه سواد الحَرَّة بالإبل السود، ورواية البيت كما قال ابن بريٍّ: «طَيْرٌ تَعِيفُ على» بدلا من: «طيرٌ تكشّف عن». وقد روى البيت بألفاظ أُخرى ذكرها صاحب اللسان وهي:

حَتَّى كَأَنَّ مَسَاحي الْقَوْمِ فَوْقَهُم طَيْرٌ تَحومُ علَى جُوقٍ مَزَاحِيفِ

(٢) قبل هذا البيت يقول الفرزدق:

مُسْتَقْبِلِين شمالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا بحاصِبٍ كَنَديفِ القُطْنِ مَنْثور

ورواية البيت في الديوان وفي اللسان كما ذكرها ابن عطية هنا: (على زواحفَ نُزْجيها مَحَاسير)، وقد قال شارح الديوان: «الرواية المشهورة: (تُزْجَى مُخُّهَا ريرُ)، ولحنَّه ابن معدان وقال: أسأت. الموضعُ موضعُ رَفع، وإن رفعْتَ أقْوَيْتَ، وألَحَّ الناس على الفرزدق في ذلك فقلبها فقال: (نُزْجيها محاسير)، قال التاريخي: ثم ترك الرواة هذا ورجعوا إلى القول الأول». ومعنى رير: رقيق، يقال: أرارَ الله مُخَّه أي: جعله رقيقاً، قال الراجز: والسَّاقُ منّي باديات الرِّير

أي: أنا ظاهر الهزال، لأنه دقَّ عظمُه ورقَّ جلْدُه فظهر مُخُّه. (راجع اللسان).

وفي كتاب التنبيهات على أغلاط الرواة أن عبد الله بن أبي إسحق النحوي قال: إن الفرزدق لحن في قوله: (تُزْجَى مُخُّهَا ريرُ) فبلغ ذلك الفرزدق فقال: أما وجد هذا لبيتي مخرجاً في العربية؟ أما إني لو أشاءُ لقلت: (عَلى زواحف نُزْجيها محاسير)، ولكنني والله لا أقوله. ولكن هكذا رواه اللغويون، وأصحاب المعاجم ورواة الديوان.

(٣) نسبه في «البحر المحيط» للأعشى، وتمامه كما ذكره:

.... منْكَ السَّفينُ إذا تَقَاعَسَ تَجْرِف

والظعائن: جمع ظعينة وهي المرأة تكون في الهودج، ثم كثر ذلك حتى سمُّوا زوجة الرجل ظعينة، والظعن: سير البادية لنجدة أو طلب ماء. ورواية (التَّاج) لهذا البيت في شطره الثاني:

.... عَوْمُ السَّفينِ إذا تَقَاعَسَ يحذف

كَـــأَنَّ مـــزاحِـــف الحيَّـــاتِ فيـــهِ قُبَيْـــل الصُّبْـــح آثـــارُ السِّيَـــاطِ(١)

وأمر الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية ألاَّ يُوَلِّي المؤمنون أَمام الكفار ، وهذا الأَمر مقيد بالشريطة المنصوصة في مِثْلَي المؤمنين ، فإذا لَقِيَتْ فِئَةٌ من المؤمنين فِئَةً هي ضِعْف المؤمنة من المشركين ، فالفرض أَلا يفروا أَمامهم ، فالفِرار هناك كبيرة موبقة بظاهر القرآن والحديث وإجماع أَكثر الأمة ، والذي يُراعى العَدَدُ حسب ما في كتاب الله عزَّ وجلَّ ، وهذا قول جمهور الأُمة ، وقالت فرقة منهم ابن الماجشون في «الواضحة»: يراعى أَيضاً الضعف والقوة والعُدَّة ، فيجوز ـ على قولهم ـ أَن يفر مائة فارس إذا علموا أَن عند المشركين من العُدَّة والنجدة والبسالة ضعف ما عندهم ، وأَمام أَقل أَو أَكثر بحسب ذلك ، وأَمَّا على قول الجمهور فلا يحلُّ فِرار مائة إلاَّ أَمام ما زاد على مائتين.

والعبارة بالدُّبُر في هذه الآية متمكنة الفصاحة لأَنها بَشِعَةٌ على الفارّ ذامَّةٌ له ، وقرأَ الجمهور: [دُبُره] بضم الباءِ ، وقرأَ الحسن بن أبي الحسن: [دُبْره] بسكون الباءِ.

واختلف المتأَولون في المشار إليه بقوله: [يَوْمَئِذٍ] ـ فقالت فرقة: الإشارة إِلى يوم بدر وما وليَه ، وفي ذلك اليوم وقع الوعيد بالغضب على من فرَّ ، ونُسخ ـ بعد ذلك ـ حُكْمُ الآية بآية الضَّعْف(٢) وبَقِي الفِرار من الزحف ليس بكبيرة ، وقد فرَّ الناس يوم أُحد ، فعفا الله عنهم ، وقال الله فيهم يوم حُنين: ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾(٣) ولم يقع على ذلك تعنيف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقال الجمهور من الأُمة: الإشارة بـ [يَوْمَئِذٍ] إِلى يوم اللقاءِ الذي يتضمنه قوله:

---

(١) قال المُتَنَخِّل الهُذَلِيُّ هذا البيت يصف منهلاً ، وقد ذكره الجوهري بلفظ:

كـــأن مـــزاحـــف الحيّـــات فيهـــا . . . .

وخطأه في اللسان ، وقال: الصواب (فيه) كما ذكرناه ، وقد ذكره مع بيت قبله هكذا:

شَـــربْـــتُ بِجَمِّـــهِ وصَـــدَرْتُ عَنْـــهُ وأبْيَـــضُ صـــارمٌ ذكَـــرٌ إبَـــاطِـــي
كَـــأن مـــزَاحِـــفَ الحيَّـــاتِ فيـــهِ قُبَيْـــلَ الصُّبْـــحِ آثَـــارُ السِّيَـــاطِ

والجَمُّ: الماءُ إذا تراجع وكثر في البئر بعد الأخذ منه. ومعنى قوله إباطي: تحت إبطي ، وقال السيرافي: أصله: إباطيٌّ فخفَّف ياءَ النسب ، وعلى هذا يكون صفه لصارم ، وهو منسوب إلى الإبط.

(٢) هي قوله تعالى في الآية ٦٦ من هذه السورة ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾.

(٣) التوبة: ٢٥.

﴿إِذَا لَقِيتُمُ﴾ ، وحُكم الآية باق إلى يوم القيامة بشرط الضَّعف الذي بيَّنه الله تعالى في آية أُخرى ، وليس في الآية نسخ ، وأَما يوم أُحد فإنما فرَّ الناس من أَكثر من ضعفهم ، ومع ذلك عُنفوا لكون رسول الله ﷺ فيهم وفِرارهم عنه ، وأَما يومُ حُنَيْن فكذلك مَن فَرَّ إنما انكشف أَمام الكثرة ، ويحتمل أَن عفو الله عمَّن فرّ يوم أُحد كان عفواً عن كبيرة.

و﴿مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾ يراد به الذي يرى أنّ فعله ذلك أَنكى للعدوّ وأَعود عليه بالشر ، ونصبه على الحال ، وكذلك نصب ﴿مُتَحيِّزاً﴾. وأَما الاستثناءُ فهو من الْمُوَلِّين الذين يتضمنهم [مَنْ] ، وقال قوم: الاستثناءُ هو من أَنواع التَّوَلِّي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولو كان كذلك؛ لوجب أَن يكون: «إلاَّ تحَرُّفاً وَتحيُّزاً».

والفِئَةُ ـ ها هنا ـ: الجماعة من الناس الحاضرةُ للحرب. هذا على قول الجمهور في أن الفِرار من الزحف كبيرة ، وأَما على القول الآخر فتكون (الفئة): المدينةُ والإمام وجماعة المسلمين حيث كانوا ، رُوي هذا القول عن عمر رضي الله عنه ، وأَنه قال: أَنا فئتكم أَيها المسلمون[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا منه على جهة الحيطة على المؤمنين إذ كانوا في ذلك الزمن يثبتون لأَضعافهم مراراً ، وفي مُسْند ابن أَبي شيبة من طريق عبد الله بن عمر أَن النبي ﷺ قال لجماعة فرَّت في سَرِيَّةٍ من سراياه: «أَنا فِئَةُ المسلمين»[2] حين قدموا عليه. وفي صحيح البخاري من

---

(١) أخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ـ عن عمر رضي الله عنه قال: «لا تَغُرَّنكم هذه الآية فإنها كانت يوم بدر ، وإنا فِئةٌ لكل مسلم».

(٢) أخرج سعيد بن منصور ، وابن سعد ، وابن أبي شيبة ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري في الأدب المفرد ، واللفظ له ، وجماعة غيرهم ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال: كنا في غزوة فحاص الناس حيصة ، قلنا: كيف نلقى النبي ﷺ وقد فررنا من الزحف وبُؤنا بالغضب؟ فأتينا النبي ﷺ قبل صلاة الفجر ، فخرج فقال: (من القوم؟) فقلنا: نحن الفرارون ، فقال: (لا ، بل أنتم العكارون) ، فقبلنا يده فقال: (أنا فئتكم ، وأنا فئة المسلمين) ثم قرأ: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾. (الدر المنثور) قال ابن الأثير في «النهاية»: «حاص الناس حيصة: جالوا جولةً يطلبون الفِرَار ، والمحيص: المهرب والمحيد».

حديث أَبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اتقوا «السَّبْعَ الموبقات»، وعدد فيها الفِرَارَ من الزحف[1].

و[بَاءَ] بمعنى نهض متحملاً للثقل المذكور في الكلام غضباً كان أَو نحوه، والغضب من صفات الله عزَّ وجلَّ إذا أُخذ بمعنى الإرادة فهي صفة ذات، وإذا أُخذ بمعنى إظهار أَفعال الغاضب على العبد فهي صفة فعل، وهذا المعنى أَشْبه بهذه الآية، والمأْوى: الموضع الذي يأْوي إليه الإنسان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

هذه مخاطبة للمؤمنين أَعْلم الله بها أَن القتلة من المؤمنين ليْسوا هم مستبدين بالقتل بالإقدار عليه، والخلقُ والاختراع في جميع حالات القاتل إنما هي لله تعالى ليس للقاتل فيها شيءٌ، وإنما يشاركه بتكَسُّبه وقصده. وهذه الأَلفاظ تردّ على من يقول بأَن أَفعال العباد خلق لهم.

وسبب هذه الآية ـ فيما روي ـ أَن أَصحاب رسول الله ﷺ لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل، فقال: قتلت كذا وفعلت كذا، فجاءَ من ذلك تفاخر ونحو ذلك فنزلت الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ يراد به ما كان رسول الله ﷺ فعله يومئذ، وذلك أَنه أَخذ قبضاتٍ من حصى وتراب فرمى بها في وجوه القوم وتِلْقاءَهم ثلاث مرات، فانهزموا عند آخر رمية. ويروى أَنه قال يوم بدر: «شاهت الوجوه». وهذه الفعلة أَيضاً كانت يوم حنين بلا خلاف، وروي أَن التراب الذي رمَى به

---

(١) الحديث رواه مسلم في الإيمان، ورواه البخاري في الوصايا وفي الحدود، ولفظه كما في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله وما هُنَّ؟ قال: الشرك بالله، والسِّحر، وقتل النفس التي حرَّم الله، إلا بالحق، وأكل الرِّبا، وأكل مال اليتيم، والتَّولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات». ومعنى الموبقات: المهلكات ـ والتَّولي يوم الزحف هو الفِرار عن القتال يوم التقاء المحاربين.

لم يبق كافر إلا دخل في عينيه منه شيءٌ ، ورُوي أنه رمى بثلاثة أَحجار ، فكانت الهزيمة مع الحجر الثالث.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فيحتمل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ ما قلناه في قوله سبحانه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ وذلك منصوص في الطبري وغيره ، وهو خارج عن كلام العرب على معنى: وما رميت الرمي الكافي إذْ رميت ، ونحو قول العباس بن مرداس:

. . . . فَلَمْ أُعْطَ شيئاً ولَمْ أُمْنَعِ(١)

أَي: لم أُعطَ شيئاً مرضياً.

ويحتمل أَن يريد: وما رميت الرعب في قلوبهم إذ رميت حصياتك ، ولكن الله رماه ، وهذا منصوص في المهدوي وغيره.

ويحتمل أَن يريد: وما أَغنيت إذ رميت حصياتك ، ولكن الله رمى ، أَي أَعانك وأَظفرك ، والعرب تقول في الدعاءِ: رمى الله لك ، أَي ، أَعانك وصنع لك، وحكى هذا أَبو عبيدة في كتاب المجاز. وقرأَت فرقة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ بتشديد النون ، وفرقة: [وَلكِنِ اللهُ رَمَى] بتخفيفها ورفع الهاء من [اللهُ].

و﴿وَلِيُبْلِيَ﴾ أَي: ليصيبهم ببلاءٍ حسن ، فظاهر وصفه بالحُسْن يقتضي أَنه أَراد الغنيمة والظَّفر والعزة ، وقيل: أَراد الشهادة لمن استشهد يوم بدر وهم أَربعة عشر ، منهم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، ومهجع مولى عمر رضي الله عنه ، ومعاذ وعمرو ابنا عفراءَ ، وغيرهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لاستغاثتكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجه الحكمة في جميع أَفعاله لا إِلٰه إلا هو.

---

(١) هذا عجز البيت ، وتمامه:

وقَـدْ كُنْـتُ فـي القَـوْمِ ذا تُـدرأ فَلَـمْ أُعْـطَ شيئـاً ولَـمْ أُمْنَـعِ

قال ابن الأثير: ذو تُدْرأ أي: ذو هجوم لا يُتوقَّى ولا يَهاب ففيه قوة على دفع أعدائه ، وهو اسم موضوع للدفع ، والتَّاءُ فيه زائدة كما زيدت في تَنْفُل وتَنْضُب وترتُب ، يقال: السلطان ذو تُدْرأ بضم التاءِ ، أي ذو عُدة وقوة على دفع أعدائه عن نفسه (اللسان).

وحكى الطبري أن المراد بقوله سبحانه: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ رميُ رسول الله ﷺ الحربة على أُبي بن خلف يوم أُحُد[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف لأن الآية نزلت عقب بدر، وعلى هذا تكون أجنبية مما قبلها وما بعدها وذلك بعيد. وحكى أيضاً أن المراد السهم الذي رمى به رسول الله ﷺ في حصن خيبر فسار في الهواءِ حتى أَصاب ابن أَبي الحُقَيْق، فقتله وهو على فراشه[٢]. وهذا فاسدٌ، وخيبر فَتْحُها أَبعد من أُحُد بكثير، والصحيح في قتل ابن أبي الحُقَيْق غير هذا. فهذان القولان ضعيفان لما ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى ما تقدم من قتل الله ورميه إياهم، وموضع ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ من الإعراب رفع. قال سيبويه: التقدير: الأَمر ذلكم، وقال بعض النحويين: يجوز أَن يكون في موضع نصب بتقدير فعل، ﴿ وَأَنَّ ﴾ معطوف على ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾، ويجوز أَن يكون خبر ابتداءٍ مقدر تقديره: وحَتْمٌ وسابِقٌ وثابتٌ ونحو هذا. وقرأت فرقة: [وإنّ] بكسر الهمزة على القطع والاستئناف. و﴿ مُوهِنُ ﴾ معناه: مُضْعِف مُبْطل، يقال: وهَن الشيءُ، مثل: وعَد يَعِد. ويقال: وهِن مثل: وَلِيَ يَلِي. وقُرِىءَ ﴿ فَمَا وَهِنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ ﴾[٣] بكسر الهاءِ. وقرأَ حمزة، والكسائي، وابن عامر، وأَبو بكر عن عاصم: ﴿ مُوهِنُ كَيْدِ ﴾ من أَوْهن، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو:

---

(١) كان أُبي بن خلف قد أوعد رسول الله ﷺ بالقتل في مكة، فقال له رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتلك»، فمات عدو الله من ضربة رسول الله ﷺ في مرجعه إلى مكة بموضع يقال له «سَرِف»، قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب: لما كان يوم أُحُد أقبل أُبي مُقَنَّعاً في الحديد على فرسه يقول: لا نجوت إن نجا محمد، فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله، قال موسى بن عقبة: قال سعيد بن المسيب: فاعترض له رجال من المؤمنين فأمرهم رسول الله ﷺ فخلَّوْا طريقه، فاستقبله مصعب بن عمير يقي رسول الله ﷺ، فقُتل مصعب بن عمير، وأبصر رسول الله ﷺ تَرْقُوة أُبي بن خلف من فُرْجَة بين سابغة البَيْضَة والدِّرع، فطعنه بحربته فوقع أُبي عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم، قال سعيد: فكَسَر ضلعاً من أضلاعه، قال: ففي ذلك نزل: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ والقصة صحيحة، ولكن القول بأن الآية نزلت فيها هو الذي يصفه ابن عطية وغيره من المفسرين بالضعف لأن الآية نزلت عقب بَدْر.

(٢) قصة قتل ابن أبي الحُقَيْق فيها روايات كثيرة، والذي يهمنا هنا، أنها كانت في فتح خيبر بعيدة تماماً عن هذه الآية التي نزلت عقب غزوة بدر.

(٣) آل عمران: ١٤٦.

[موهِّنُ كَيْدِ] من وَهَّن. وقرأ حفص عن عاصم: ﴿مُوهِنُ كَيْدِ﴾ بكسر الدال والإضافة(١)، وذكر الزجاج أن فيها أربعة أوجه، فذكر هذه القراءات الثلاث، وزاد [مُوهِّن كيد] بتشديد الهاءِ والإضافة، إلا أنه لم ينص على أنها قراءة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قال بعض المتأولين: هذه الآية مخاطبة للمؤمنين الحاضرين يوم بدر، قال الله لهم: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ وهو الحكم بينكم وبين الكافرين، فقد جاءكم وقد حكم الله لكم، ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عما فعلتم من الكلام في أمر الغنائم وما شجر بينكم فيها، وعن تفاخركم بأفعالكم من قتل وغيره ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟﴾ لهذه الأفعال ﴿نَعُدْ﴾ لتوبيخكم. ثم أعلمهم أن الفئة ـ وهي الجماعة ـ لا تغني وإن كثرت، إلا بنصر الله تعالى ومعونته، ثم آنسهم بقوله وإيجابه أنه مع المؤمنين.

وقال أكثر المتأولين: هذه الآية مخاطبة للكفار أهل مكة، وذلك أنه روي أن أبا جهل كان يدعو أبداً في محافل قريش ويقول: «اللّهم، أقْطعُنا للرحم وآتانا بما لا نعرف، فأهْلِكه واجعله المغلوب». يريد محمداً ﷺ وإياهم. وروي أن قريشاً لما عزموا على الخروج إلى حماية العير، تعلقوا بأستار الكعبة واستفتحوا، وروي أن أبا جهل قال صبيحة يوم بدر: «اللهم، انصر أحب الفئتين إليك، وأظهر خير الدينين عندك، اللهم أَقْطَعُنا للرحم، فأَحِنْهُ الغداةَ(٢)، ونحو هذا»، فقال لهم الله: إن تطلبوا الفتح أي كما ترونه عليكم لا لكم.

---

(١) الحجة لمن قرأ بتشديد الهاءِ أنه أخذه من وهَّن فهو موهِّن، والحجة لمن قرأ بتخفيف الهاء أنه أخذه من أوْهَنَ ـ ومن قرأ بالتنوين مع نصب (كيْد) أراد الحال أو الاستقبال، ومن قرأ بالإضافة أراد ما ثبت ومضى من الزمان. قال ذلك الإمام ابن خالويه في كتابه «الحجة في القراءات السبع».

(٢) الحَيْن هو: الهلاك، يقال: حان الرجل أي هَلَك ـ وأحانَه الله: أهْلَكه ـ والفعل أحِنْه أمْرٌ من ذلك بمعنى: أهْلِكْهُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا توبيخ. ثم قال لهم: وإن تنتهوا عن كفركم وغيّكم فهو خير لكم، ثم أخبرهم أنهم إن عادوا للاستفتاح عاد بمثل الوقعة يوم بدر عليهم، ثم أعلمهم أن فئتهم لا تغني شيئاً وإن كانت كثيرة، ثم أعلمهم أنه مع المؤمنين.

وقالت فرقة من المتأولين: قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ هي مخاطبة للمؤمنين، وسائر الآية مخاطبة للمشركين، كأنه قال: وأنتم أيها الكفار ﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

وقرأ ابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [وإنَّ الله] بكسر الهمزة على القطع، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم في رواية حفص: ﴿وأنَّ﴾ بفتح الألف، فإما أن يكون في موضع رفع على خبر ابتداءٍ محذوف، وإما في موضع نصب بإضمار فعل، وما ذكره الطبري من أن التقدير: «لكثرتها ولأن الله مع المؤمنين» محتمل المعنى، وفي قراءة ابن مسعود: [وَلَوْ كثُرَتْ واللهُ مَعَ الْمُؤمنين]، وهذا يقوي قراءَة من كسر الألف من [إنَّ].

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية. الخطاب للمؤمنين المصدقين، جدّد عليهم الأمر بطاعة الله والرسول، ونهوا عن التَّولِّي عنه، وهذا قول الجمهور. ويكون هذا متناصراً مع قول من يقول: «إن الخطاب بقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ هو للمؤمنين»، فيجيءُ الكلام من نمط واحد في معناه، وأما على قول من يقول: «إن المخاطبة بـ (إنْ تنتَهوا) هي للكفار» فيرى أن هذه الآية إنما نزلت بسبب اختلافهم في النفل، ومجادلتهم في الحق، وكراهيتهم خروج رسول الله ﷺ، وتفاخرهم بقتل الكفار والنكاية فيهم. وقالت فرقة: الخطاب بهذه الآية إنما هو للمنافقين، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ـ وإن كان محتملا على بُعْد ـ فهو ضعيف جداً لأجل أن الله وصف من خاطب في هذه الآية بالإيمان، والإيمان: التصديق. والمنافقون لا يتصفون من التصديق

بشيء، وقيل: إن الخطاب لبني إسرائيل، وهذا أجنبي من الآية.

و﴿تَوَلَّوْا﴾ أصله: تتولّوا، لأن تفعّل دخلت عليه تاءُ المخاطبة بالفعل المستقبل، فحذفت الواحدة، والمحذوفة هي تاءُ تفعّل، والباقية هي تاءُ العلامة، لأن الحاجة إليها هنا أمَسُّ ليبقى الفعل مستقبلا. وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ يريد: دعاءَه لكم بالقرآن والمواعظ والآيات.

وقوله: ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا﴾ يريد الكفار، فإمّا من قريش لقولهم: ﴿سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾(١)، وإما الكفار على الإطلاق الذين يقولون: سمعنا القرآن وعلمنا أنه سحر أو شعر وأساطير بحسب اختلافهم، ثم أخبر الله عنهم خبراً نفى به أنهم سمعوا أي: فهموا وَوَعَوْا، لأنه لا خلاف أنهم كانوا يسمعون التلاوة بآذانهم ولكن صدورهم مطبقة لم يشرحها الله عزَّ وجلَّ لتلقي معاني القرآن والإيمان به.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

المقصود بهذه الآية أن يُبيِّن أن هذه الصنيفة العاتية من الكفار هي شرّ الناس عند الله عزَّ وجلَّ، وأنها أخسّ المنازل لديه، وعبّر بالدواب ليتأكد ذمُّهم وليفضل عليهم الكلب العقور والخنزير ونحوهما من السبع والخمس الفواسق وغيرها. والدوابّ: كل ما دبَّ فهو يَعُمُّ الحيوان بجملته. وقوله تعالى: ﴿الصُّمُّ الْبُكْمُ﴾ عبارة عما في قلوبهم وقلة انشراح صدورهم وإدراك عقولهم، فلذلك وصفهم بالصمم والبكم وسلب العقل. وروي أن هذه الآية نزلت في طائفة من بني عبد الدار(٢)، وظاهرها العموم فيهم وفي غيرهم ممن اتصف بهذه الأوصاف، ثم أخبر تعالى بأن عدم سمعهم وهداهم

---

(١) ستأتي في الآية ٣١ من هذه السورة.

(٢) في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قال: هم نفر من بني عبد الدار، هذا والأصل: أشرّ، حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال، وكذا خير، الأصل فيها أخير.

إنما هو بما علمه الله منهم وسبق من قضائه عليهم، فخرج ذلك في عبارة بليغة في ذمّهم في قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾، والمراد: لأَسمعهم إِسماع تفهيم وهدى. ثم ابتدأ عزَّ وجلَّ الخبر عنهم بما هم عليه من حَتْمِهِ عليهم بالكفر فقال: ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ أَي: ولو أَفهمهم ﴿ لَتَوَلَّوا ﴾ بحكم القضاءِ السابق فيهم، ولأَعرضوا عما تبيّن لهم من الهدى. وحكى الطبري عن فرقة أَنها قالت: المعنيُّ بهذه الآية المنافقون، وضعفه الطبري، وكذلك هو ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ الآية. هذا خطاب للمؤمنين المصدقين بلا خلاف، و﴿ ٱسْتَجِيبُوا ﴾ بمعنى أَجيبوا، ولكن عرف الكلام أَن يتعدى (استجاب) بلام ويتعدى (أَجاب) دون لام، وقد يجيءُ تعدي (استجاب) بغير لام، والشاهد قول الشاعر:

وَدَاعٍ دَعَا يا مَنْ يُجيبُ إلى ٱلنَّدَى فلَـمْ يَسْتجِبْـهُ عِنْـد ذاكَ مُجيـبُ[1]

وقوله: ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ قال مجاهد والجمهور: المعنى: للطاعة وما تضمنه القرآن من أَوامر ونواه، وهذا إِحياءٌ مستعارٌ، لأَنه من موت الكفر والجهل، وقيل: للإسلام، وهذا نحو الأَول ويضعف من جهة أَن من آمن لا يقال له: ادخل في الإِسلام. وقيل: ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ معناه: للحرب وجهاد العدو، وهو يُحْيي بالعزة والغلبة والظفر، فسُمِّي ذلك حياة، كما تقول: حَيِيَتْ حال فلان إذا ارتفعت، ويُحْيي أَيضاً كما يُحْيي الإِسلام والطاعة وغير ذلك بأَنه يؤدي إِلى الحياة الدائمة في الآخرة. وقال النقاش: المراد: إذا دعاكم للشهادة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذه صلة حياة الدنيا بحياة الآخرة.

---

(١) البيت لكعب بن سعد الغنوي يرثي أخاهُ أبا المغوار، وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت في سورة البقرة عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾. وفي الفعل (أجاب) يمكن أن تقول: أجابه وأجاب عن سؤاله. والمصدر: الإجابة، والاسم: الجابة بمنزلة الطاقة والطاعة، وفي المثل: «أساءَ سمعاً فأساءَ جابة»، ذكر الزبير بن بكار أنه كان لسهل بن عمر بنٌ مضعوف، فقال له: أين أَمُّك؟ بفتح الهمزة وضم الميم المشددة ـ بمعنى: أين قصدك؟ فظن أنه يسأله عن أُمه فقال: ذهبت تشتري دقيقاً، فقال أبوه: «أساءَ سمعاً فأساءَ جابة». (اللسان).

وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ يحتمل وجوهاً ـ منها أنه لما أَمرهم بالاستجابة في الطاعة حضَّهم على المبادرة والاستعجال، فقال: واعْلَمُوا أَنَّ الله يحُولُ بيْن الْمَرْءِ وَقلْبِهِ بالموت والقبض، أَي: فبادروا بالطاعات. ويلتئم مع هذا التأْويل قوله: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أَي: فبادروا بالطاعات وتزودوها ليوم الحشر. ومنها أَن يقصد بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ إعلامهم أَن قدرة الله وإحاطته وعلمه والجةُّ بين المرءِ وقلبه حاصلة هناك حائلة بينه وبين قلبه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فكأَن هذا المعنى يحضُّ على المراقبة والخوف لله المطلع على الضمائر، ويشبه ـ على هذا التأْويل ـ هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(١)، حُكي هذا التأْويل عن قتادة.

ويحتمل أَن يريد تخويفهم إن لم يمتثلوا الطاعات ويستجيبوا لله وللرسول بما حل بالكفار الذين أَرادهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ لأَن حتمه عليهم بأَنهم لو سمعوا وفهموا لم ينتفعوا، يقتضي أَنه قد كان حال بينهم وبين قلوبهم، فكأَنه قال للمؤمنين في هذه الأُخرى: استجيبوا لله وللرسول ولا تأْمنوا إن لم تفعلوا أَن ينزل بكم ما نزل بالكفار من الحول بينهم وبين قلوبهم، فنبه على ما جرى على الكفار بأَبلغ عبارة وأَعلقها بالنفس.

ومنها أن يكون المعنى ترجية لهم بأَن الله يبدل الخوف الذي في قلوبهم من كثرة العدو فيجعله جرأَة وقوة، وبضد ذلك للكفار، فإِن الله هو مقلب القلوب كما كان في قسم النبي ﷺ(٢)، قال بعض الناس: ومنه: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، أَي: لا حول على معصية ولا قوة على طاعة إلا بالله.

---

(١) ق: ١٦.

(٢) روى البخاري في كتاب التوحيد عن سالم بن عبد الله، قال: كان أكثر ما كان النبي ﷺ يحلف: «لا ومقلِّب القلوب». وفي مسند الإمام أحمد أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما سمع رسو ل الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك».

وقال المفسرون في ذلك أَقوالاً هي أَجنبية من أَلفاظ الآية حكاها الطبري ـ منها أَن الله يحول بين المؤمن والكافر، وبين الكفر والإيمان، ونحو هذا[١].

وقرأَ ابن أبي إسحق: [بَيْن المِرءِ] بكسر الميم، ذكره أَبو حاتم، قال أَبو الفتح: وقرأَ الحسن والزبيدي[٢]: [بَيْن المَرِّ] بفتح الميم وشد الراءِ المكسورة[٣].

و﴿ تُحْشَرُونَ ﴾ تبعثون يوم القيامة. وروي من طريق مالك بن أَنس والنسائي أَن رسول الله ﷺ دعا أُبي بن كعب وهو في الصلاة فلم يجب وأَسرع في بقية صلاته، فلما جاءَه قال له رسول الله ﷺ: أَما سمعت فيما أُوحي إلي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾؟ فقال أُبَيٌّ: لا جرم يا رسول الله، لا تدعوني أَبداً إلا أَجبتك. الحديث بطوله واختلاف أَلفاظه[٤]. وفي البخاري ومسلم أَن ذلك وقع مع أَبي سعيد بن المُعَلَّى[٥]، وروي أَنه وقع نحوه مع حذيفة بن اليمان في غزوة الخندق.

---

(١) الذي اختاره الطبري من الأقوال هو أن الله أخبر أنه أمْلَكُ لقلوب العباد منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء حتى لا يدرك الإنسان شيئاً إلا بمشيئته تبارك وتعالى، وقد أشار إلى ذلك كل من القرطبي وأبي حيان.

(٢) في بعض النسخ: وقرأ الحسن والزبير، والذي في أبي الفتح: الزهري. وكذلك نقله في «البحر المحيط».

(٣) معنى هذا أن الهمزة حذفت بعد نقل حركتها إلى الراءِ قبلها، ثم شددت الراءُ كما تشدد في الوقف، وأُجري الوصل مجرى الوقف، والعرب تفعل ذلك كثيراً ـ قال أبو حيان: وهذا توجيه شذوذ.

(٤) أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة من طريق أحمد بن المقدام العجلي مرة، ومن طريق أبي كُريب مرة أُخرى، وذلك إضافة إلى ما ذكره ابن عطية من طريق مالك بن أنس والنسائي.

(٥) روى البخاري عن أبي سعيد بن المُعلّى قال: كنت أُصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أُجبه، ثم أتيته فقلت: يا رسول الله، إني كنت أُصلي، فقال: «ألم يقل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾؟ ثم قال: «إني لأعلمنَّك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد»، ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل لأعلمنَّك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتيته». قال ابن عبد البرّ وغيره: أبو سعيد بن المُعَلّى من جلّة الأنصار وسادات الأنصار، تفرد به البخاري واسمه رافع. وقال الشافعي: «هذا دليل على أن الفعل الفرض أو القول الفرض إذا أُتي به في الصلاة لا تبطل لأمر رسول الله ﷺ بالإجابة وإن كان في صلاة». وقد نقل القرطبي ذلك عن الشافعي ثم قال: وفيه حجة لقول الأوزاعي: «لو أن رجلاً يصلي فأبصر غلاماً يريد أن يسقط في بئر فصاح به وانصرف إليه وانتهره لم يكن في ذلك بأس». والله أعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

هذه الآية تحتمل تأويلات. أَسْبَقُها إلى النَّفْس أن يريد الله أن يُحذر جميع المؤمنين من فتنة إن أَصابت لم تخص الظَّلَمة فقط، بل تصيب الكل من ظالم وبريءٍ، وهذا التأويل تأَول فيها الزبير بن العوام رضي الله عنه، فإنه قال يوم الجمل[(١)]: «وما علمت أَنا أُردنا بهذه الآية إلا اليوم، وما كنت أَظنها إلا فيمن خوطب بها ذلك الوقت»، وكذلك تأَول الحسن البصري، فإنه قال: «هذه الآية في علي وعمار وطلحة والزبير»، وكذلك تأَول ابن عباس، فإنه قال: «أَمر الله المؤمنين في هذه الآية ألاَّ يُقِرُّوا المنكر بين أَظهرهم فيعمهم العذاب»، وبيَّنه القتبي فيما ذكره مكي عنه بياناً شافياً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فيجيءُ قوله: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ ـ على هذا التأويل ـ صفة للفتنة، فكان الواجب ـ إذا قدَّرنا ذلك ـ أَن يكون اللفظ: (لا تُصيب)، وتلطف لدخول النون الثقيلة في الخبر عن الفتنة، فقال الزجاج: زعم بعض النحويين أَن الكلام جزاءٌ فيه طرق من النهي، قال: ومثله قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾[(٢)]، فالمعنى: إنْ تدخلوا لا يحطمنكم، فكذلك هذا: إن تتقوا لا تصيبنَّ[(٣)]. وقال قوم: هو خبر بمعنى الجزاءِ فلذلك أَمكن دخول النون[(٤)]. وقال المهدوي: وقيل: هو جواب قَسَم مقدر تقديره:

---

(١) واقعة مشهورة شاركت فيها أُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكانت سنة ٣٦هـ.

(٢) النمل: ١٨.

(٣) صاحب هذا الرأي الذي يرويه الزجاج بقوله: «وزعم بعض النحويين» هو الفراءُ، وهو يرى أن الجملة جواب للأمر نحو قولك: «انزل عن الدابة لا تطرحنك»، ومنه: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ﴾ وعقب على التمثيل أبو حيان، فقال: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ ليس نظير ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ﴾ لأنه ينتظم من الأولى شرط وجزاءٌ ولا ينتظم ذلك في الثانية، ألا ترى أنه لا يصح تقدير: «إن تتقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة» لأنه يترتب على الشرط غير مقتضاه من جهة المعنى. وللزمخشري رأي في الموضوع يناقشه أبو حيان في «البحر المحيط».

(٤) من رأي الزمخشري أن الجملة صلة وأنها نهي، وقال: وكذلك إذا جعلتها صفة على إرادة القول كأنه =

«واتقوا فتنة والله لا تُصيبن» ، ودخلت النون مع (لا) حملا على دخولها مع اللام فقط.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا القول تكرُّه ، لأَن جواب القسم إذا دخلته (لا) أَو كان منفياً في الجملة لم تدخل النون ، وإذا كان موجباً دخلته اللام والنون الشديدة كقولك: «والله لا يقوم زيد ، والله ليقومن زيد» هذا هو قانون الباب ، ولكن معنى هذه الآية يستقيم مع التكره الذي ذكرناه.

والتأويل الآخر في الآية هو أَن يكون قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً﴾ خطاباً عاماً لجميع المؤمنين مستقلا بنفسه ، تم الكلام عنده ثم ابتدأَ نهي الظلمة خاصة عن التعرض للظلم فتصيبهم الفتنة خاصة ، وأُخرج النهي على جهة المخاطبة للفتنة فهو نهي محول ، والعرب تفعل مثل هذا كما قالوا: «لا أَرينَّك ها هنا» ، يريدون: لا تقم ها هنا فتقع مني رؤْيتك ، ولم يريدوا نهي الإنسان الرائي نفسه ، فكذلك المراد في الآية: لا يقع من ظلمتكم ظلم فتقع من الفتنة إصابتهم ، نحا إليه الزجاج ، وهو قول أَبي العباس المبرد ، وحكاه النقاش عن الفراءِ ، ونهي الظلمة ها هنا بلفظ مخاطبة الجمع كما تقول لقوم: «لا يفعل سفهاؤُكم كذا وكذا» وأَنت إنما تريد نهي السفهاءِ فقط.

و﴿خَاصَّةً﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره: إصابة خاصة ، فهي نصب على الحال لما انحذف المصدر ، وهي من الضمير في ﴿تُصِيبَنَّ﴾ ، وهذا الفعل هو العامل. ويحتمل أَن تكون ﴿خَاصَّةً﴾ حالاً من الضمير في ﴿ظَلَمُواْ﴾ ولا يحتاج إلى تقدير مصدر محذوف. والأَول أَمكن في المعنى.

وقرأَ علي بن أَبي طالب ، وزيد بن ثابت ، وأَبو جعفر محمد بن علي ، والربيع بن أَنس ، وأَبو العالية ، وابن جماز: [لَتُصيبَنَّ] باللام على جواب قسم. والمعنى على هذا وعيد الظلمة فقط. قال أَبو الفتح: يحتمل أَن يراد بهذه القراءَة: [لا تصيبنَّ] فحذف الأَلف من (لا) تخفيفاً واكتفاءً بالحركة ، كما قالوا: «أَم والله»[1] ، ويحتمل أَن يراد

= قيل: «واتَّقوا فِتْنَةً مقولا فيها: لا تُصيبَنَّ» ، ونظيره قول الشاعر:

حتَّى إذَا جَنَّ الظَّلامُ واخْتَلَط ... جاءُوا بِمَذْقٍ هَلْ رَأَيْتَ الذِّئبَ قَطّ؟

أي بمَذْقٍ مقولٍ فيه هذا القول.

(١) قال المهدوي موضحاً ذلك: كماحذفت من (ما) وهي أُخت (لا) في قولهم: «أَمَ والله لأفعلن» ـ قال أبو=

بقراءَة الجماعة ﴿ لَّا تُصِيبَنَّ ﴾: «لَتُصيبَنَّ» فمطلت حركة اللام فحدثت عنها ألف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تنطع في التحميل[1]، وحكى النقاش هذه القراءَة عن الزبير بن العوام، وهذا خلاف لما حكى الطبري وغيره من تأويل الزبير رضي الله عنه في الآية. وحكى النقاش عن ابن مسعود أنه قرأَ: [واتَّقُوا فِتْنَةً أَنْ تُصيبَ].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ وعيد يلتئم مع تأويل الزبير والحسن التآماً حسناً، ويلتئم مع سائر التأويلات بوجوه مختلفة.

ورُوي عن علي بن سليمان الأَخفش أَن قوله تعالى: ﴿ لَّا تُصِيبَنَّ ﴾ هي[2] على معنى الدعاءِ، ذكره الزهراوي.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٌ﴾ الآية، هذه آية تتضمن تعديد نعم الله على المؤمنين، و﴿إِذۡ﴾ ظرف لمعمول ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ تقديره: «واذكروا حالكم الكائنة أَو الثابتة إذ أَنتم قليل»، ولا يجوز أَن تكون [إذْ] ظرفاً للذِّكر، وإنما يعمل الذِّكر في [إذْ] لو قدرناها مفعولة[3].

واختلف الناس في الحال المشار إليه بهذه الآية ـ فقالت فرقة وهي الأَكثر: هي حال مكة في وقت بدأَة[4] الإسلام، والناس الذين يُخاف تخطفهم: كفارُ مكة، والمأْوى ـ على هذا التأْويل ـ: المدينة والأَنصار، والتأْييد بالنصر: وقعة بدر وما انْجرَّ معها في وقتها، والطيباتُ: الغنائمُ وسائر ما فتح الله عليهم به. وقالت فرقة: الحال المشار

= حيان: (ما) ليست للنفي، وهذا فرق بينها وبين (لا) فالتنظير في رأيه غير دقيق.

(١) من رأي أبي حيان أن الإشباع ـ وهو ما سمّي هنا مطلا للحركة ـ خاصٌ بالشعر، وقال الألوسي ما معناه: إنه لا يعول على القول بحذف الألف تخفيفاً، ولا على القول بتمطيط الحركة إشباعاً ـ وابن عطية من رأيهما، بل إنه سمّى مطل الحركة وإشباعها تنطعاً في التحميل، ورحم الله علماء النحو فالقرآن في غنىً عن هذه الآراء.

(٢) أراد بالضمير (هي) جملة ﴿لا تُصيبنَ﴾.

(٣) هذا التخريج أحسن من تخريج الزمخشري فقد جعل [إذ] مفعولاً للفعل [اذكروا] وهي ظرف، والتقدير: واذكروا وقت كونكم أذلة»، ويؤخذ عليه التصرف في (إذْ) حين نصبها مفعولة وهي من الظروف التي لا تتصرف إلا إذا أُضيف إليها زمان.

(٤) بدأَة: مصدر للفعل (بدأ) بمعنى: حدث ونشأ ـ وفي بعض النسخ كتبت بداءَة.

إليها هي حال رسول الله ﷺ وأَصحابه في غزوة بدر، والناس الذين يخاف تخطفهم ـ على هذا ـ: عسكرُ مكة وسائر القبائل المجاورة، فإن رسول الله ﷺ كان يتخوف من بعضهم، والمأوى ـ على هذا ـ والتأييد بالنصر هو الإمداد بالملائكة والتغليبُ على العدّو. والطيباتُ: الغنيمةُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان يناسبان وقت نزول الآية لأنها نزلت عقب بدر. وقال وهب بن منبه، وقتادة: الحال المشار إليها هي حال العرب قاطبة، فإنها كانت أَعرى الناس أَجساماً وأَجوعهم بطوناً وأَقلهم رجالاً ونعماً، والناس الذين يخاف تخطفهم ـ على هذا التأويل ـ: فارس والروم، والمأوى ـ على هذا ـ هو النبوة والشريعة، والتأييد بالنصر هو فتح البلاد وغلبة الملوك، والطيبات هي نعم المآكل والمشارب والملابس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل يرده أَن العرب كانت في وقت نزول هذه الآية كافرة إلا القليل، ولم تترتب الأَحوال التي ذكرها هذا المتأَول، وإنما كان يمكن أَن يخاطب العرب بهذه الآية في آخر زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإن تمثَّل أَحد بهذه الآية لحالة العرب فتمثُّلُه صحيح، وأَما أَن تكون حالة العرب هي سبب الآية فبعيد لما ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ترجٍّ بحسب البشر متعلق بقوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

هذا خطاب لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة، وهو يجمع أَنواع الخيانات كلها قليلها وكثيرها. قال الزهراوي: والمعنى: لا تخونوا بغلول الغنائم، وقال الزهراوي، وعبد الله بن أَبي قتادة: سبب نزولها أَمرُ أَبي لُبَابة، وذلك أَنه أَشار لبني قُرَيْظَة ـ حين

سَفَر إليهم - إلى حلقه ، يريد بذلك إعلامهم أنه ليس عند رسول الله ﷺ إلا الذبح ، أي: فلا تنزلوا ، ثم ندم وربط نفسه بسارية من سواري المسجد حتى تاب الله عليه. الحديث المشهور[١]. وحكى الطبري أنه أقام سبعة أيام لا يذوق شيئاً حتى تيب عليه ، وحُكي أنه كان لأبي لُبابة عندهم مال وأولاد فلذلك نزلت: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾.

وقال عطاءُ بن أبي رباح عن جابر بن عبد الله: سببها أن رجلاً من المنافقين كتب إلى أبي سفيان بن حرب بخبر من أخبار رسول الله ﷺ فنزلت الآية[٢] ، فقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ معناه: أظهَروا الإيمان ، ويحتمل أن يخاطب المؤمنين حقاً ألا يفعلوا فعل ذلك المنافق.

وحكى الطبري عن المغيرة بن شعبة ، أنه قال: أُنزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يشبه أن يمثل بالآية في قتل عثمان رحمه الله ، فقد كانت خيانة لله وللرسول والأمانات. والخيانة: التَنَقُّص للشيءِ باختفاءِ ، وهي مستعملة في أن يفعل الإنسان خلاف ما ينبغي من حفظ أمرٍ مّا ، مالاً كان أو سراً أو غير ذلك ، والخيانة لله تعالى هي في تنقص أوامره في سرّ ، وخيانة الرسول تَنَقُّص ما استحفظ ، وخيانات الأمانات هي تَنَقُّصُها وإسقاطها ، والأمانة حال للإنسان يؤمن بها على مااستحفظ ، فقد اؤتُمِن على دينه وعبادته وحقوق الغير. وقيل: المعنى: وتخونوا ذوي أماناتكم ، وأظن الفارسي أبا علي حكاه. ﴿ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ يريد أن ذلك لا يضر منه إلاَّ ما كان عن تعمد.

وقوله تعالى: ﴿ فِتۡنَةٞ ﴾ يريد: محنة واختباراً وابتلاءً ليرى كيف العمل في جميع ذلك. وقوله: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ يريد فوز الآخرة ، فلا تدعوا حظكم منه للحيطة على أموالكم وأبنائكم فإن المدخور للآخرة أعظم قدراً من مكاسب الدنيا.

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن عبد الله بن قتادة ، وأخرج مثله سنيد ، وابن جرير عن الزهري ، وأخرجه أيضاً عبد بن حميد عن الكلبي. (الدر المنثور).

(٢) أخرجه ابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ عن جابر بن عبد الله. (الدر المنثور).

وقوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ﴾ قال الطبري: يحتمل أن يكون داخلاً في النهي كأنه قال: «لا تخونوا الله والرسول ولا تخونوا أماناتكم»، فمكانه على هذا جزم، ويحتمل أن يكون المعنى: «لا تخونوا الله والرسول فذلك خيانة لأماناتكم»، فموضعه على هذا نصب على تقدير: وأن تخونوا أماناتكم، قال الشاعر:

لا تَنْـهَ عَـنْ خُلُـقٍ وتَـأْتـي مِثْلَـهُ   عَـارٌ عَلَيْـكَ إذَا فَعلْـتَ عَظِيـمُ[1]

وقرأ مجاهد، وأبو عمرو بن العلاءِ ـ فيما روي عنه أيضاً ـ [وتخونوا أمانتكم] على إفراد الأمانة.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية، وعد للمؤمنين بشرط الاتقاءِ والطاعة له، و﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ معناه: فرقاً بين حقكم وباطل من ينازعكم، أي بالنُّصرة والتأييد عليهم، والفرقان مصدر من فرق بين الشيئين حال بينهما أو خالف حكمهما، ومنه قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾[2]. وعبَّر قتادة وبعض المفسرين عن الفرقان ها هنا بالنجاة، وقال السدي، ومجاهد: معناه: مخرجاً ونحو هذا مما يعمه ما ذكرناه، وقد يوجد للعرب استعمال الفرقان كما ذكر المفسرون، فمن ذلك قول مزرد بن ضِرَار:

بَــادَرَ الأُفْــقَ أَن يَغيــبَ فَلَمَّــا   أَظْلَـمَ اللَّيْـلُ لَـمْ يَجِـدْ فُـرْقَـانَـا[3]

(١) يروي النحويون هذا البيت شاهداً على جواز النصب عطفاً على اسم مؤول بمعنى أن تكون الواو للمعية، والتقدير: «لا تنْهَ عن خُلُق وأنت تأتي مثله». أما إعراب الآية الكريمة فيحتمل الأمرين اللَّذين ذكرهما ابن عطية وهما: أن يكون مجزوماً عطفاً على [لا تَخُونُوا] وأن يكون منصوباً على جواب النهي، وكونه مجزوماً هو الراجح، لأن النصب يقتضي النهي عن الجمع، والجزم يقتضي النهي عن كل واحد ـ وهناك شروط للنصب بعد هذه الواو تجدها في كتب النحو.
هذا وقد اختلف النحويون في نسبة هذا البيت، فقيل: قائله أبو الأسود الدؤلي، وقيل: هو الأخطل، وقيل: المتوكل الليثي أو سابق البربري، ونسب لحسَّان والطرماح، والبيت في حماسة البحتري ١٧٤، والأغاني ١٢ ـ ١٥٦، والمؤتلف ٢٧٣، والمستقصى ٢ ـ ٢٦٠، وسيبويه ١ ـ ٤٢٤، وابن عقيل ٢ ـ ١٢٦، والسيوطي ٢٦٤، والخزانة ٣ ـ ٦١٧.

(٢) الأنفال: ٤١.

(٣) واضح أن يستشهد بهذا البيت والبيتين بعده على أن كلمة (الفرقان) قد تأتي بمعنى: المخرج والنجاة.
قال ابن وهب: سألتُ مالكاً عن قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ قال: مَخرجاً، ثم قرأ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾. ويادرَ مُبادرة وبداراً إلى الشيء: أسرع إليه.

وقال الآخر:

مـالَـكَ مِـنْ طُـولِ الأَسـى فُـرْقَـانُ بعـد قَطيـن رحَلُـوا وبَـانُـوا[1]

وقال الآخر:

وكَيْفَ أُرَجّي الْخُلْدَ والْمَوْتُ طَالِبي ومَـالـيَ مِـنْ كَـأسِ الْمَنِيَّـةِ فُـرْقَـان[2]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية. يشبه أن يكون قوله: ﴿وَإِذْ﴾ معطوفاً على قوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾، وهذا تذكير بحال مكة وضيقها مع الكفرة وجميل صنع الله تعالى في جميعها. ويحتمل أن يكون ابتداءَ كلام، وهذا كله على أن الآية مدنية كسائر السورة، وهذا هو الصواب، وحكى الطبري عن عكرمة ومجاهد أن هذه الآية مكية، وحكى عن ابن زيد أنها نزلت عقب كفاية الله رسوله المستهزئين بما أحلَّه بكل واحد منهم، الحديث المشهور[3]، ويحتمل عندي قول عكرمة ومجاهد: «هذه مكية» أن أشارا إلى القصة لا إلى الآية.

والمكر: المخاتلة والتداهي[4]، تقول: «فلان يمكر بفلان» إذا كان يستدرجه ويسوقه إلى هُوَّة وهو يظهر جميلاً وتَسَتُّرا بما يريد، ويقال: أَصل المكر الفتل، قاله ابن فُورك، فكَأن الماكر بالإنسان يفاتله حتى يوقعه، ومن المكر الذي هو الفتل قولهم للجارية المعتدلة اللحم: ممكورة[5]، فمكر قريش بالنبي ﷺ كان تدبيرهم ما يسوؤه، وسعيهم في فساد حاله وإطفاءِ نوره، وتدبير قريش على رسول الله ﷺ هذه الخصال

---

(١) لم نعرف قائل هذا البيت، وقَطينُ الدار: ساكنها وأهلها الذين يقيمون فيها، وقَطينُ الله: سُكّان حَرَمه. وبانَ: من البَيْن وهو البعد.

(٢) الخُلْد: الدوام والبقاء ـ طالبي: يبحث عني ويسعى ورائي. وفرقان: نجاة ومخرج. ولم نقف على قائل البيت.

(٣) الحديث طويل وهو بنصه في تفسير الطبري، وقد رواه غير الطبري من طرق مختلفة فارجع إليه في الصحاح من كتب السنة.

(٤) التداهي: مصدر تدَهَّى، ومعنى تَدَهَّى: بصر بالأمر وجاد رأيُهُ فيه، والكلمة في الأصل واوية ويائية، يقال: دهوته ودهيته، قال في التهذيب: الدهْوُ والدهْيُ: لغتان في الدهاء.

(٥) لم نعثر في كتب اللغة التي بين أيدينا على ما يشير إليه من الارتباط بين المكر والفتل، أما قولهم للجارية: ممكورة فقد جاء في اللسان: «المكرة: الساق الغليظة الحسناء، ابْن سيدة: والمكر حُسْن خدالة الساقين، وامرأةٌ ممكورة: مستديرة الساقين، وقيل: المُدْمَجة الخَلْق الشديدةُ البَضْعة، وقال غيره: ممكورة مرتوية الساق خدلة، شبهت بالمكر من النبات» (اللسان ـ مكر).

الثلاث لم يزل قديماً من لدن ظهوره، لكن إعلانهم لا يسمى مكرا، وما اسْتَسَرُّوا به هو المكر، وقد ذكر الطبري أَن أَبا طالب قال للنبي ﷺ: يا محمد، ماذا يدبر فيك قومك؟ قال: يريدون أَن أُقتل أَو أُسجن أَو أُخرج، قال أَبو طالب: من أَعلمك هذا؟ قال: ربي، قال، إن ربك لرَبُّ صدق فاستوص به خيراً، فقال النبي ﷺ: بل هو يا عم يستوصي بي خيراً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا المكر الذي ذكَره الله في الآية هو بإجماع من المفسرين إشارة إلى اجتماع قريش في دار الندوة بمحضر إبليس في صورة شيخ نجدي على ما نص ابن إسحق في سيره. الحديث بطوله، وهو الذي كان خروج النبي ﷺ من مكة بسببه، ولا خلاف أَن ذلك كان بعد موت أَبي طالب، ففي القصة أَن أَبا جهل قال: الرأي أَن نأْخذ من كل بطن في قريش فتىً قوياً جلداً فيجتمعون، ثم يأْخذ كل واحد منهم سيفاً ويأْتون محمداً في مضجعه، فيضربونه ضربة رجل واحد، فلا يقدر بنو هاشم على قتال قريش بأَسرها، فيأْخذون العقل ونستريح منه، فقال النجدي: صدق الفتى، هذا الرأي لا أَرى غيره، فافترقوا على ذلك، فأَخبر الله بذلك نبيه ﷺ، وأذن له في الخروج إلى المدينة، فخرج رسول الله ﷺ من ليلته، وقال لعلي بن أَبي طالب: التف في بردي الحضرمي واضطجع في مضجعي فإنه لا يضرك شيءٌ، ففعل عليٌّ، وجاءَ فتيان قريش فجعلوا يرصدون الشخص وينتظرون قيامه فيثورون به، فلما قام رأَوا عليًّا فقالوا له: أَين صاحبك؟ قال: لا أَدري، وفي السير أَن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم في طريقه فطمس الله عيونهم عنه، وجعل على رأس كل واحد منهم تراباً ومضى لوجهه، فجاءَهم رجل فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمداً، قال: إني رأَيته الآن جائياً من ناحيتكم وهو لا محالة وضع التراب على رؤُوسكم، فمد كل واحد يده إلى رأْسه، وجاؤُوا إلى مضجع النبي ﷺ فوجدوا عليًّا، فركبوا وراءَه حينئذ كل صعبٍ وذلول[1] وهو بالغار[2].

---

(١) الذَّلُولُ: هو السهل الانقياد من الإبل وغيرها من الدواب. والصعب بعكسه ـ ويقال: «ركبوا كل صعب وذلول في أمرهم»: اتخذوا كل سبيل.

(٢) الحديث أخرجه ابن إسحق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ عن (الدر المنثور ـ وتفسير ابن كثير).

ومعنى ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾: ليسجنوك فَتَثبُت، قاله السدي، وعطاءٌ، وابن أَبي كثير. وقال ابن عباس، ومجاهد: معناه: لِيُوَثِّقُوكَ. وقال الطبري: وقال آخرون: المعنى: ليسحروك.

وقرأ يحيى بن وثاب فيما ذكر أَبو عمرو الداني: ﴿ليثبُّتوك﴾، وهذه أَيضاً تعدية بالتضعيف، وحكى النقاش عن يحيى بن وثاب أَنه قرأ: [لِيُبَيِّتوك] من البيات، وهذا أَخذ مع القتل فيضعف من هذه الجهة، وقال أَبو حاتم: معنى ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أَي بالجراحة، كما يقال: «أَثبتته الجراحة»[1] وحكاه النقاش عن أَهل اللغة ولم يُسَمّ أَحداً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ معناه: يفعل أَفعالا منها تعذيب لهم، ومنها ما هو إبطالٌ لمكرهم وردٌّ له ودفع في صدره حتى لا ينجع، فسُمي ذلك كله باسم الذنب الذي جاءَ ذلك من أَجله، ولا يحسن في هذا المعنى إلا هذا، وأَمّا أَن ينضاف المكر إلى الله عزَّ وجلَّ على ما يفهم منه في اللغة فغير جائز أَن يقال، وقد ذكر ابن فُورك في هذا ما يقرب من هذا الذي ضعفناه، وإنما قولنا: «ويمكر الله» كما تقول في رجل شتم الأَمير فقتله الأَمير: هذا هو الشتم، فتسمى العقوبة باسم الذنب، وقوله سبحانه: ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أَي: أَقدرهم وأَعزهم جانباً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذه الجهة ـ أَعْني القدرة والعزَّة ـ يقع التفضيل، لأن مكَرَةَ الكفار لهم قُدرة مّا، فوقع التفضيل لمشاركتهم بها، وأَما من جهة الصلاح الذي فيما يعلمه الله تعالى فلا مشاركة للكفار بصلاح، فيتعذر التفضيل على مذهب سيبويه والبصريين إلا على ما قد بيَّناه في أَلفَاظ العموم مثل: خيرٌ وأَحبّ ونحو هذا، إذ لا يخلو من اشتراك ولو على معتقد من فرقة أَو أَحد.

---

(١) قال عطاء والسُّدي: ليُثخنوك بالجرح والضرب، من قولهم: ضربوه حتى أثبتوه لا حَرَاك به ولا بَرَاح، ورمى الطائر فأَثْبَته، أي أَثخنه، قال الشاعر:

فَقُلْتُ وَيْحَكَ مَاذا فِي صَحِيفَتِكُم؟ قَالَ: الْخَلِيفَةُ أَمْسَى مُثْبَتاً وَجِعاً

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائد على الكفار، والآيات هنا: آيات القرآن خاصة بقرينة قوله: ﴿تُتْلَىٰ﴾، و﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ يريد: وقد سمعنا هذا المتلوَّ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مثله، وقد سمعنا نظيره، على ما رُوي أن النضر سمع أحاديث أَهل الحيرة من العباد، فلو نشاءُ لقلنا مثله من القصص والأنبياءِ، فإن هذه إنما هي أَساطير مَنْ قد تقدم، أَي قصصهم المكتوبة المسطورة. وأَساطير: جمع أُسطورة، ويحتمل أَن يكون جمع أَسطارٍ، ولا يكون جمع أَسْطُر كما قال الطبري، لأَنه كان يجيءُ أَساطِرَ بدون ياءٍ[١]، هذا هو قانون الباب، وقد شذَّ منه شيءٌ كصيرفٍ، قالوا في جمعه: صياريف. والذي تواترت به الروايات عن ابن جُرَيْج، والسُّدّي، وابن جُبَيْر أَن الذي قال هذه المقالة هو النضر بن الحارث، وذلك أَنه كان كثير السفر إلى فارس والحِيرَة، فكان قد سمع من قصص الرهبان والأَناجيل، وسمع من أَخبار رستم واسبنديار، فلما سمع القرآن ورأَى فيه من أَخبار الأَنبياءِ والأُمَمِ قال: لو شئت لقلت مثل هذا، وكان النضر من مَرَدة قريش النائلين من رسول الله ﷺ، ونزلت فيه آياتٌ من كتاب الله، وقتله رسول الله ﷺ صبْراً[٢] بالصفراءِ مُنْصَرَفه من بدر في موضع يقال له: الأُثَيْل[٣]، وكان أَسره المقداد[٤]، فلما أَمر رسول الله ﷺ بضرب عنقه قال المقداد: أَسيري يا رسول الله،

---

(١) الذي في لسان العرب هو أن السَّطْر والسَّطر: الصف من الكتاب والشَّجر والنخل ونحوها، والجمع من كل ذلك: أسْطُرٌ وأَسْطَارٌ وأَسَاطيرُ، وعن اللحياني: وسُطُورٌ، ثم روى عن اللغويين ـ بعد ذلك آراء مختلفة.

(٢) الصَّبْرُ: نَصْبُ الإنسان لِلْقتل، فهو مصبور، وصَبْر الإنسان على القتل: نصْبُه عليه، يقال: قتله صبراً، وقد صبره عليه. (اللسان) ـ وفي «المعجم الوسيط»: قتله صبراً: حبسه حتى مات.

(٣) الأُثَيل بالتصغير: موضع قريب من المدينة فيه عين ماءٍ لآل جعفر بن أبي طالب.

(٤) هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة الحضرمي، قدم مكة من اليمن فحالف الأسود بن عبد يغوث فقيل له: المقداد بن الأسود، كان طويلاً آدم كثيف الشعر واسع العينين، تزوج ضُباعة بنت الزبير بن عبد المطلب ابنة عم النبي ﷺ، هاجر الهجرتين، وشهد بدراً والمشاهد بعدها، ولم يثبت=

فقال رسول الله ﷺ: إنه كان يقول في كتاب الله ما علمتم، ثم أعاد المقداد مقالته حتى قال رسول الله ﷺ: اللهم أَغْنِ المقداد من فضلك، فقال المقداد: هذا الذي أَردت، فضرب عنق النضر.

وحكى الطبري عن سعيد بن جبير أَن رسول الله ﷺ قَتَل يوم بدر صبراً ثلاثة نفر: المُطْعَم بن عَدِيّ، والنَّضر بن الحارث، وعُقْبة بن أَبي مُعَيْط.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا وهم عظيم في خبر المُطْعم، فقد كان مات قبل يوم بدر[١]، وفيه قال النبي ﷺ: «لو كان المُطْعم حياً وكلَّمني في هؤلاءِ النَّتْنَى لتركتهم له»[٢] يعني أَسرى بدر.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية. روي عن مجاهد، وابن جُبَير، وعطاءٍ، والسدي أَن قائل هذه المقالة هو النَّضر بن الحارث الذي تقدم ذكره، وفيه نزلت هذه الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وترتب أَن يقول النَّضر بنُ الحارث مقالةً وينسُبها القرآن إلى جميعهم لأَن النَّضر كان فيهم موسوماً بالنُّبْل والفهم مسكوناً إلى قوله، فكان إذا قال قولا قالهُ منهم كثير واتبعوه عليه حسبما يفعله الناس أَبداً بعلمائهم وفُقهائهم. والمشارُ إليه بـ ﴿هَٰذَا﴾ هو القرآن

= أنه كان على فرس يوم بدر غيرُه، أخرج الترمذي وابن ماجة عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى أمرني بحب أربعة، وأخبرني أنه يُحبهم: عليٌّ، والمقداد، وأبو ذرّ، وسلمان» وروى المقداد أحاديث عن النبي ﷺ. واتفقوا على أنه مات سنة ثلاث وثلاثين في خلافة عثمان رضي الله عنه، قيل: وهو ابن سبعين سنة. (الإصابة).

(١) الحقيقة التي لا شكَّ فيها أن المُطعم بن عدي لم يكن حياً يوم بدر، وقد ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره لهذه الآية ـ قال عن هذا الخبر: «وكذا رواه هشيم عن أبي بشر جعفر ابن أبي رحية عن سعيد بن جبير أنه قال (المطعم بن عدي) بدل (طعيمة بن عدي)، وهو غلط لأن المطعم بن عدي لم يكن حيّاً يوم بدر. وسرّ الغلط هو التشابه بين الاسمين، ويؤيد هذا أن السيوطي حين نقل الحديث في (الدر المنثور) لم يذكر فيه المطعم بن عدي، بل ذكر اثنين فقط هما عُقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث.

(٢) رواه البخاري في كتاب المغازي، ورواه الدارمي في الجهاد، ورواه الإمام أحمد في مسنده (٤ ـ ٨٠)، ولكن فيه لفظ «النّتنين» بدلا من «النّتنى».

وشرع محمد ﷺ، والذي حملهم على هذه المقالة هو الحسد، وذلك أنهم استبعدوا أَن يكرم الله عليهم محمداً ﷺ هذه الكرامة، وعميت بصائرهم عن الهدى، وصمموا على أَن هذا ليس بحق فقالوا هذه المقالة، كما يقول الإنسان لأَمر قد تحقق يزعمه أَنه لم يكن: «إن كان كذا وكذا فَفَعَلَ الله بي وصَنَع»[1]. وحكى ابن فُورك أَن هذه المقالة خرجت مخرج العناد مع علمهم بأَنه حق، وكذلك أَلزم أَهل اليمن معاوية بن أبي سفيان القصة المشهورة في باب الأَجوبة. وحكاه الطبري عن محمد بن قيس، ويزيد ابن رومان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد من التأْويل، ولا يقول هذا على جهة العناد عاقل. ويجوز في العربية رفع ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ على أَنه خبر ﴿هُوَ﴾، والجملة خبر كان، قال الزَّجَّاج: ولا أَعلم أَحداً قرأَ بهذا الجائز[2]، وقراءَة الناس إنما هي بنصب [الْحَقّ] على أَن يكون خبر كان، ويكون [هُوَ] فصلا، فهو حينئذ اسمٌ وفيه معنى الإعلام بأَن الذي بعده خبر وليس بصفة، ﴿فَأَمۡطِرۡ﴾ إنما يستعمل في المكروه، و(مَطَر) في الرحمة. كذا قال أَبو عبيدة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويعارض هذا قوله سبحانه: ﴿هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾[3] لأَنهم ظنوها سحابة رحمة. وقولهم: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مبالغة وإغراق.

وهذان النوعان اللذان اقترحوهما هما السالفان في الأُمم، عافانا الله وعفا عنا ولا أَضلَّنا بمنِّه ويُمْنِه.

---

(١) في هذه العبارة بعض الاضطراب، وقد جاءت في إحدى النسخ: «كما يقول الإنسان لأمر قد تحقق يزعمه أنه لم يكن إلا كذا وكذا. . . إلخ».

(٢) ذكر الألوسي في تفسيره أن زيد بن علي، والأعمش قرأ [الحقُّ] بالرفع، وعبارة الزجاج تنفي علمه هو ولا تنفي القراءة.

(٣) الأحقاف: ٢٤. وفي (اللسان): «ومَطَرَتْهم السماءُ وأَمطرَتهم: أصابتهم بالمطر، وناس يقولون: مطَرت السماءُ وأَمْطَرت بمعنى، وأمطرَهم الله مَطراً أَوْ عذاباً، ابن سيدة: أَمْطَرهم الله في العذاب خاصة، كقوله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، وقوله عز وجل: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

قالت فرقة: نزلت هذه الآية كلها بمكة، وقالت فرقة: نزلت كلها بعد وقعة بدر حكاية عما مضى، وقال ابن أَبزي[1]: نزل قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ بمكة إثر قولهم: ﴿ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، ونزل قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ عند خروج النبي ﷺ عن مكة في طريقه إلى المدينة وقد بقي بمكة مؤمنون يستغفرون، ونزل قوله: ﴿ وَمَا لَهُمْ ﴾ إلى آخر الآية بعد بدر عند ظهور العذاب عليهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَجمع المتأَولون على أَن معنى قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ أَن الله عزَّ وجلَّ لم يُعَذِّب قط أُمَّة ونَبِيُّها بين أَظهرها، فما كان ليعذب هذه وأَنت فيهم، بل كرامتك لديه أَعظم، قال ـ أُراه عن أَبي زيد[2] ـ: سمعت من العرب من يقول: «ما كان الله لَيعذبهم» بفتح اللام، وهي لغة غير معروفة ولا مستعملة في القرآن.

واختلفوا في معنى قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما، وابن أَبزي، وأَبو مالك، والضحاك ما مقتضاه: إن الضمير في قوله: [مُعَذِّبَهُم] يعود على كفار مكة، والضمير في قوله: [وهُمْ] عائد على المؤمنين الذين بقوا بعد رسول الله ﷺ بمكة، أَي: وما كان الله ليعذب الكفارَ والمؤمنون بينهم يستغفرون.

---

(١) هو عبد الرحمن بن أَبزي الخزاعي ـ الجمهور على أن له صحبة، قال أبو حاتم: أدرك النبي ﷺ، وصلّى خلفه، وهو قارىء لكتاب الله، عالم بالفرائض، وروى عن النبي ﷺ، وروى عنه ابناه عبد الله وسعيد، وقال البخاري: هو كوفي، وقال ابن السكن: استعمله النبي ﷺ على خراسان.

(٢) أُراه بضم الهمزة بمعنى أظنه، والمظنون هو الخبر الآتي: «سمعت... إلخ» ـ فابن عطية يقول: أظن أني سمعت كذا عن أبي زيد. وقد نقل أبو حيان الرواية صريحة عن ابن عطية فقال ما نصه: «قال ابن عطية عن أبي زيد سمعت... إلخ» «البحر المحيط ٤ ـ ٤٨٩».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويدفع في صدر هذا القول أن المؤمنين الذين ردّ الضمير عليهم لم يجر لهم ذكر. وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ما مقتضاه أن يقال: الضميران عائدان على الكفار، ذلك أنهم كانوا يقولون في دعائهم: غفرانك، ويقولون: لبيك لا شريك لك، ونحو هذا مما هو دعاءٌ واستغفار، فجعله الله أمنة من عذاب الدنيا، وعلى هذا تركب قول أبي موسى الأشعري، وابن عباس: إن الله جعل من عذاب الدنيا أَمَنَتَيْن، كون النبي ﷺ مع الناس، والاستغفار، فارتفعت الواحدة وبقي الاستغفار إلى يوم القيامة[1]، وقال قتادة: الضمير للكفار.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ جملة في موضع الحال إن لو كانت، فالمعنى: وما كان الله معذبهم وهم بحال توبة واستغفار من كفرهم لو وقع ذلك منهم، واختاره الطبري، ثم حسّن الزجْر والتوقيف ـ بعد هذا ـ بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

وقال الزجاج ما معناه: إن الضمير في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ عائد على الكفار، والمراد به من سبق له في علْم الله أن يُسْلم ويستغفر، فالمعنى: وماكان الله ليعذب الكفار وفيهم من يستغفر ويؤمن في ثاني حال، وحكاه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال مجاهد في كتاب الزهراوي: المراد بقوله: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ذرية المشركين يومئذ الذين سبق لهم في علم الله أن يكونوا مؤمنين، فالمعنى: وما كان الله ليعذبهم وذريتهم يستغفرون ويؤمنون، فنسب الاستغفار إليهم إذ ذريتهم منهم، وذكره مكي ولم ينسبه.

وفي الطبري عن فرقة أن معنى ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾: يُصَلّون، وعن أُخرى: يُسْلمون، ونحو هذا من الأقوال التي تتقارب مع قول قتادة.

---

(١) قال أبو حيان تعليقاً على قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ...﴾ إلخ: «انظر إلى حُسْن مساق هاتين الجملتين. لما كانت كينونته فيهم سبباً لانتفاء تعذيبهم أكد خبر (كان) باللام ـ على رأي الكوفيين ـ، أو جعل خبر (كان) الإرادة المنفية ـ على رأي البصريين، وانتفاءُ الإرادة للعذاب أبلغ من انتفاء العذاب، ولما كان استغفارهم دون تلك الكينونة الشريفة لم يؤكد باللام، بل جاء خبر [كان] قوله: [مُعَذِّبَهُم]، فشتان ما بين استغفارهم وكينونته ﷺ فيهم». «البحر المحيط ٤ ـ ٤٩٠».

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ توعد بعذاب الدنيا، فتقديره: وما يُعْلِمهم أَو يُدْريهم ونحو هذا من الأَفعال التي توجب أن تكون [أَنْ] في موضع نصب(١)، وقال الطبري: تقديره: وما يمنعهم من أَن يُعذبوا، والظاهر في قوله: [وَمَا] أَنها استفهام على جهة التقرير والتوبيخ والسؤال، وهذا أَفصح في القول وأَقطع لهم في الحجة. ويصح أَن تكون [مَا] نافية، ويكون القول إِخباراً، أَي: وليس لهم ألا يعذبوا وهم يصدون.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ على التأويلين جملة في موضع الحال، و﴿يَصُدُّونَ﴾ في هذا الموضع معناه: يمنعون غيرهم، فهو متعد كما قال:

صَددْتِ الكَأْسَ عَنَّا أَمَّ عمْرٍو . . . .(٢)

وقد يجيءُ (صدَّ) غير متعد، كما أَنشد أَبو علي:

صَدَّتْ خُلَيْدَةُ عنَّا مَا تُكَلِّمُنَا . . . .(٣)

والضمير في قوله سبحانه: ﴿أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ عائد على الله عزَّ وجلَّ من قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾، أَو على المسجد الحرام، كل ذلك جيّد، رُوي الأَخير عن الحسن، والضمير الآخر تابع للأَول.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ معناه: لا يعلمون أَنهم ليسوا

---

(١) قال الأخفش: إنَّ [أنْ] زائدة، قال النحاس: لو كان كما قال لرُفع ﴿يُعَذِّبُهُمُ﴾ فيكون الفعل في موضع الحال، كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ ويجوز أن تكون [أنْ] في موضع جرٍّ على تقدير (في) وتتعلق بما تعلق به [لَهُم] والمعنى: أيُّ شيءٍ كائن أو مستقر لهم في ألا يعذبهم الله؟ أي: لا حظَّ لهم في انتفاء العذاب، فهم معذبون ولابُدَّ.

(٢) هذا صدر بيت من معلقة عمرو بن كلثوم المشهورة التي بدأها بقوله:

ألا هُبِّـي بصَحنـك فَـاصْبَحينَـا ... ولا تُبْقِـي خُمُـورَ الأنْـدَرينَـا

وقد روي (صَبَنْتِ) بدلا من (صَدَدْتِ) ـ والصَّبْنُ هو الصرف، ولكن الرواية المشهورة (صَدَدْتِ) والبيت بتمامه:

صَـدَدْتِ الكَـأسَ عَنَّـا أُمَّ عَمْـرٍو ... وكَـانَ الكَـأسُ مَجْـرَاهَـا اليَمينَـا

والمعنى: صرفت الكأس عني يا أُمَّ عَمْرو، وكانَ مجرى الكأس على اليمين، فأجريتها على اليسار، أي أنك تعمَّدْت أن تمنعي عني الكأس.

(٣) الواضح أن (صدَّ) هنا بمعنى: أعرض، فخليدة قد أعرضت عنه وامتنعت عن تكليمه، ولم نقف على قائل البيت ولا على بقيته.

بأَوليائه ، بل يظنون أَنهم أَولياؤُه. وقوله: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ ونحن نجد كلهم بهذه الصفة لفظ خارج إما على أَن تقول: إنه لفظ خصوص أُريد به العموم ، وهذا كثير في كلام العرب ، ومنه حكى سيبويه قولهم: «قَلَّ مَنْ يقول ذلك» ، وهم يريدون: لا يقوله أَحد. وإِمَّا أَن تقول: إنه أَراد بقوله: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ أَن يُعلم ويُشعر أَن بينهم وفي خلالهم قوماً قد جنحوا إلى الإيمان ، ووقع لهم عِلْم وإن كان ظاهرهم الكفر فاستثناهم من الجميع بقوله: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ ، وكذلك كانت حال مكة وأَهلها ، فقد كان فيهم العباس ، وأُمّ الفضل[1] وغيرهما.

وحكى الطبري عن عكرمة: قال الحسن بن أَبي الحسن: إن قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ناسخ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر لأَنه خبر لا يدخله نسخ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٥﴾ .

قرأَ الجمهور: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾ بالرفع ﴿عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً﴾ بالنصب ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ كذلك. وروي عن عاصم أَنه قرأَ [صلاتَهم] بالنصب [إلا مكاءٌ وتصديةٌ] بالرفع ، ورويت عن سليمان الأَعمش بخلاف عنه فيما حكى أَبو حاتم ، وذكر أَبو علي عن الأَعمش أَنه قال في قراءَة عاصم: أَفإِن لَحَن عاصم تلْحَن أَنت؟ قال أَبو الفتح: وقد روي الحرف كذلك عن أَبان بن تغلب ، قال قوم: وهذه القراءَة خطأٌ لأَنه جعل الاسم نكرة والخبر معرفة ، قال أَبو حاتم: فإن قيل: «إن (المُكاءَ والتَّصدية)

---

(١) أم الفضل هي لُبابة بنت الحارث الهلالية امرأة العباس بن عبد المطلب ، وهي لبابة الكبرى ، ولها أربع أخوات أخرج فيهن الزبير بن بكار عن النبي ﷺ: «الأخوات الأربع مؤمنات: أُم الفضل ، وميمونة ، وأسماء ، وسلمى» فأما ميمونة فهي أُم المؤمنين ، وأما أسماء وسلمى فأختاهما من أبيهما. وكان يقال لوالدة أُم الفضل: أكرم الناس أصهاراً ، ميمونة زوج النبي ﷺ ، والعباس تزوج أُختها شقيقتها لبابة ، وحمزة تزوج أُختها سلمى ، وجعفر بن أبي طالب شقيقتها أسماءَ ثم تزوجها بعده أبو بكر رضي الله عنهم أجمعين ، وقد ماتت أُم الفضل في خلافة عثمان قبل زوجها العباس. (الإصابة).

اسم جنس واسم الجنس مُعَرفاً ومُنكراً واحد في التعريف» قيل: إن استعماله هكذا لا يجوز إلا في ضرورة الشعر، كما قال حسّان:

كَأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْس ... يكونُ مِزَاجُها عَسَلٌ وماءُ[1]

ولا يقاس على ذلك.

فأما أَبو الفتح فوَجّه هذه القراءَة بما ذكرناه من تعريف اسم الجنس، وبعد ذلك يرجح قراءَة الناس[2].

قال أَبو علي الفارسي: وإنما ذهب من ذهب إلى هذه القراءَة لما رأَى أَن (الصَّلاةَ) مؤنثة، ورأَى الفعل المسند إليها ليس فيه علامة تأْنيث فأَراد تعليقه بمذكر وهو (المكاءُ)، وأَخطأَ في ذلك، فإن العرب تعلق الفعل لا علامة فيه بالمؤنث، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾[3]، وقوله سبحانه: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾[4]، و﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[5]، ونحو هذا مما أُسند فيه الفعل دون علامة إلى المؤنث.

والمكاءُ على وزن الفُعَالِ: الصَّفِير[6]، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والجمهور،

---

(١) هذا البيت من قصيدة حسان المشهورة في مدح النبي ﷺ، والتي يقول في مطلعها:

عَفَتْ ذاتُ الأصابعِ فالجواء ... إلى عَذْراءَ مَنْزِلُهَا خَلاءُ

والسَّبيئَةُ: اسم لما سال من الخمر قَبل أن تعصر، وذلك أخلصها، وقيل: بل هي الخمر، وقد روي بدلا منها (سُلافة)، وبيت رأس: مكان كانت تعصر فيه الخمر.

(٢) أي: قراءة الجمهور، وابن جني مع اعترافه بقبح تنكير اسم (كان) وتعريف خبرها إلا أنه أجازه معللا الجواز بما أشار إليه ابن عطية هنا من أن اسم الجنس معرفاً ومنكراً واحد في التعريف، فكأن المعنى كما وضحه ابن جني: وما كان صلاتهم إلا هذا الجنس، وأيضاً فإنه يجوز مع النفي ما لا يجوز في الإثبات. وأبو حيَّان يؤيد ذلك في تفسيره «البحر المحيط» ويقول: «وهو نظير قول من جعل [نَسْلَخ] صفة لـ [اللَّيل] في قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾، وجعل (يَسُبّني) صفة لـ (اللئيم) في قول الشاعر:

ولقَدْ أَمُرُّ علَى اللَّئيم يَسُبُّني ... فَمَضَيْتُ ثمتَ قُلْتُ لا يَعْنِيني

(٣) هود: ٦٧.

(٤) النمل: ٥١.

(٥) تكررت في آيتين ـ في قوله تعالى في الآية ٨٦ من سورة الأعراف: ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وفي قوله تعالى في الآية ١٠٣ من سورة الأعراف أيضاً: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

(٦) قال السُّدي: المُكَاءُ: الصفير، على نحو طائر أبيض بالحجاز يقال له: المُكَّاء. قال الشاعر: =

فقد يكون بالفم، وقد يكون بالأصابع والكف في الفم، قال مجاهد، وأَبو سَلَمَة بنُ عبد الرحمن: وقد يشارك الأنف، يقال: مَكَا يَمْكُو إذا صَفَر، ومنه قول عنترة:

وحَليلِ غَانِيَةٍ تَرَكْتُ مُجَدَّلا ... تَمْكُو فَريصَتُهُ كشِدْقِ الأَعْلَم[١]

ومنه قول الشاعر:

فَكَأَنَّمَا يمْكُو بِأَعْصَمَ عَاقِلِ ... .[٢]

يصف رجلا فرَّ له حيوان، ومنه قول الطِّرمَّاح:

فَنَحَا لأُولاَهَا بِطَعْنَةِ مُحْفَظٍ ... تَمْكُو جَوانِبُهَا مِنَ الإِنْهَارِ[٣]

ومكت اسْتُ الدَّابة إذا صَفَرت، يقال: ولا تمكُو إلا اسْتٌ مكشوفة، ومن هذا قيل لِلاسْت: مَكْوَة[٤]، قال أَبو علي: فالهمزة فيه منقلبة عن واوٍ.

= إذَا غَرَّدَ المُكَّاءُ فِي غيْرِ رَوْضَةٍ ... فَوَيْلٌ لأَهْلِ الشَّاءِ والحُمُرات

(١) البيت من المعلقة، ورقمه فيها السادس والأربعون، ورواه اللسان في (مكا) ـ والحليل بالحاء المهملة: الزوج، والحليلة: الزوجة، وهما من الحلول تسميا بذلك لأنهما يحلان في مكان واحد وفراش واحد، فهو فعيل بمعنى مفاعل، مثل أكيل ونديم بمعنى مؤاكل ومنادم. وقيل هما من الحلّ لأن كلا منهما يحل لصاحبه فهو فعيل بمعنى مُفْعَل، مثل حكيم بمعنى محكم. وقد روي البيت: وخليل بالخاء المعجمة، والغانية: البارعة الجمال المستغنية بجمالها عن الزينة، أو الشابة الحسناءُ التي تعجب الرجال ويعجبها الرجال، ومُجَدَّلا: مصروعاً على الجَدَالة وهي الأرض، يقال جدلته فتجدل. والمُكاءُ: الصفير. والفريصة: لحمة رقيقة تحت الإبط بحذاء القلب ترتجف عند الخوف، والإصابة فيها قاتلة. والأعلَم: مشقوق الشفة العليا. يقول: إن فريصة الفارس الذي صرعته تصفر وهو ملقى على الأرض كصفير شدق البعير إذا كان مشقوق الشفة، وذلك بسبب اتساع الطعنة وشدة خروج الدم منها.

(٢) لم نقف على نسبة هذا الشعر ولا على بقيته. والمعنى واضح بتفسير ابن عطية له، فهو يصفر بفمه بحثاً عن الحيوان الذي فرَّ منه.

(٣) البيت للطِّرماح بن حكيم يصف الثور وهو يطعن الكلاب في معركة بينه وبينها. ونحا: انحرف وقصد، وأُولاها: يريد أول الكلاب. والمُحْفَظ: المغضب (اسم مفعول)، تمكُو: تصْفر. والضمير في جوانبها يعود على الطعنة أو أثرها في الكلب، والإنهار: هو توسيع الطعنة، ومنه قول قيس بن الخطيم: «فأنهرت فتقها» أي وسَّعت الفتق الذي أحدثته. يقول في وصف الثور الهائج مع كلاب الصيد: إنه قصد أول الكلاب بطعنة مُغضب مغيظ من تكاثرها عليه، وسال الدم من هذه الطعنى فأحدث عند سيلانه صفيراً صدر عن جوانب الطعنة الواسعة.

(٤) مَكْوَة: على وزن زَهْرة وتَمْرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن هذا قيل للطائر: المُكَّاءُ، لأنه يَمْكُو أي يَصْفر في تغريده، ووزنه فُعَّال بشَدّ العَيْن كخُطَّاف، والأصوات في الأكثر تجيءُ على فُعَال بتخفيف العين كالبُكَاءِ والصُّرَاخ والدُّعَاءِ والجُؤَار والنُّبَاح ونحوه. ورُوي عن قتادة أن المُكَاءَ صوت الأيدي، وذلك ضعيف. ورُوي عن أبي عَمرو أنه قرأ [إلا مُكَا] بالقصر.

والتَّصْدِيَةُ عبّر عنها أكثر الناس بأَنها التصفيق. وقتادة بأَنها الضجيج والصياح، وسعيد بن جُبَير بأَنها الصَّدُّ والمنع. ومن قال «إنها التصفيق» قال: «إنما كان للمنع عن ذكر الله ومعارضة لقراءة رسول الله ﷺ للقرآن». والتَّصْدِية يمكن أَن تكون من صَدَّى يُصَدِّي إذا صوَّت، والصدى: الصوت، ومنه قول الطِّرِمَّاح يصف الأُرْوِيَّةَ[1]:

لَهــا كُلَّمــا رِيعَــتْ صَــداةٌ وَرَكْــدَةٌ   بِمِصْرَانَ أَعْلَى ابْنَيْ شَمامِ الْبَوائِنِ[2]

فيلتئم ـ على هذا الاشتقاق ـ قول من قال: هو التصفيق، وقول من قال: الضجيج، ولا يلتئم عليه قول من قال: هو الصَّدُّ والمنع إلا أَن يُجعل التصويت إنما يقصد به المنع، ففسَّر اللفظ بالمقصود لا بما يخصه من معناه.

ويمكن أن تكون التصدية من صدَّ يصُدّ، استعمل الفعل مضعفاً للمبالغة والتكثير لا ليُعدَّى فقيل: صدّد، وذلك أن الفعل الذي يتعدى إذا ضُعّف فإنما يُضعّف للتكثير، إذ التعدّي حاصل قبل التضعيف وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾[3]، والذي يُضَعّف ليُعَدى هو كقولهم علَّم وغرَّم، فإذا قلنا في صَدَّ: صدَّدَ، ففعَّل في الصحيح

---

(١) الأروِيَّةُ: الأنثى من الوعول، والجمع: أرَاوِي. وعن اللحياني الضبط بالكسر فهي: الإروِيَّةُ، قاله في اللسان، وعلى هذا فالطِّرمَّاح يصف أُنثى الوعول في هذا البيت والضمير في (لها) يعود عليها.

(٢) ريعت: فزعت وخافت، والصَّداة: فعل المتصدّي، وهو الذي يرفع رأسه وصدره يتصدى للشيء ينظر إليه، والرّكْدة: السكوت والثبات والهدوء، والمصران: أعالي الجبال وهي تحجز بين شيئين أو ناحيتين وتكون حرزاً لمن يلجأ إليها، والواحد: مصار. وشمام: جبل في بلاد بني قشير، وابنا شمام: يريد بهما هضبتين في هذا الجبل، والبوائن: جمع بائن وهو البعيد المفارق والطِّرماح يصف هذه الأُرْوِيَّة بأنها كلما فزعت من شيءٍ في هذا الجبل البعيد ترددت بين الصفير والثبات أو السكون، وقد روى اللسان البيت: «لها كلّما صاحت» وقال: إنه في وصف هامة، فإذا ما صاحت تصدت مرة وركدت أُخرى، ورواية «كلما ريعت» جاءت في «التكملة»، وهي أقرب وأوضح.

(٣) يوسف: ٢٣.

يجيءُ مصدره في الأكثر على تفعيل ، وفي الأقل على تَفعِلَة ، مثل كمَّل تكميلاً وتكمِلَة وغير ذلك ، بخلاف المعتل فإنه يجيءُ في الأكثر على تَفعِلَة ، مثل عَزَّى تَعزية ، وفي الشاذ على تَفعِيل مثل قول الشاعر:

بَـــاتَ يُنَــزِّي دَلْــوَهُ تَنْــزِيًّــا . . . .[1]

وإذا كان فَعَّل في الصحيح يتسق فيه المِثْلان رُفض فيه تفعلة مثل قولنا: تَصْدية ، وصُيِّر إلى تفعيل لتحول الياءُ بين المثلين كتخفيف وتشديد ، فلما سلكوا في مصدر صدَّدَ المسْلَك المرفوض أُصلح ذلك بأَن أُبدل أَحد المِثْلَيْن ياءً كبدلهم في: تَظَنَّيْت ونحوه[2] ، فجاءَ: تصْدِية ، فعلى هذا الاشتقاق يلتئم قول من قال: التَّصْدية: الصَّدُّ عن البيت والمنع.

ويمكن أَن تكون التَّصدية من: صدَّ يصِدُّ ـ بكسر الصاد في المستقبل ـ إذا ضجَّ ، ويُبدل أَيضاً على هذا أَحد المِثْلَيْن ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[3] بكسر الصاد ، ذكره النحاس.

وذهب أكثر المفسرين إلى أَن المكاءَ والتَّصدية إنما أَحدثها الكفار عند مبعث رسول الله ﷺ لتقطع عليه وعلى المؤمنين قراءَتهم وصلاتهم ، ويخلط عليهم ، فكان

---

(١) استشهد صاحب اللسان بهذا البيت على أن مصدر أَنْزاه ونزَّاه هو تَنْزيه وتنزيًا. والرواية فيه مع بقية البيت:

بـــاتَـــتْ تُنَـــزِّي دَلْـــوَهـــا تَنْـــزِيًّـــا ... كَمَـــا تُنَـــزِّي شَهْلَـــةٌ صَبِيـــا

والشهلة هي العجوز ، وقيل: المرأةُ النَّصف العاقلة. أما التَّنَزِّي فهو التَّوَثُّبُ والتَّسَرُّع ، قال نُصَيب ـ وقيل: بل هو بَشّار:

أَقُـــولُ ولَيْلَتِـــي تَـــزْدَادُ طُـــولا ... أَمَـــا لِلَّيْـــلِ بَعْـــدَهُـــمُ نَهَـــارُ؟

جَفَـــتْ عَيْنِـــي عـــن التَّغْمِيـــضِ حَتَّـــى ... كَـــأَنَّ جُفُـــونَهَـــا عَنْهَـــا قِصَـــارُ

كَـــأَنَّ فُـــؤَادَهُ كُـــرَةٌ تَنَـــزَّى ... حِـــذَارَ البَيْـــنِ لَـــوْ نَفَـــعَ الحِـــذَارُ

(٢) وعليه جاء قول العجاج يمدح عمر بن عُبَيْد الله بن يعمر ويشبهه بطائر ضخم يضم جناحيه إلى نفسه وينقض على الصيد:

إذا الكِـــرامُ ابْتَـــدروا البَـــاعَ ابْتَـــدرْ ... دانَـــى جَنَـــاحَيْـــه مـــن الطُّـــورِ فَمَـــرْ

تَقَضِّي البازي إذا البازي كَسَرْ

يريد: تقَضُّضَ البازي.

(٣) من قوله تعالى في الآية (٥٧) من سورة الزخرف: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾.

المصلي إذا قام يقرأُ من المؤمنين اكتنفه من الكفار عن يمينه وشماله من يمكو ويُصدّي حتى تختلط عليه قراءَته[(١)] ، فلما نفى الله ولايتهم للبيت أَمكن أَن يعترض معترض بأَن يقول: وكيف لا نكون أَولياءَه ونحن نسكنه ونصلي عنده؟ فقطع الله هذا الاعتراض بأَن قال: ﴿وما كان صلاتهم إلا المكاء والتصْدية﴾ ، وهذا كما يقول الرجل: أَنا أَفعل الخير ، فيقال له: ما فعلك الخير إلا أَن تشرب الخمر وتقتل ، أَي: هذه عادتك وغايتك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي مرّ بي من أَمر العرب في غير ما يدوَّن أَن المُكَاءَ والتَّصدية كان[(٢)] من فعل العرب قديماً قبل الإِسلام على جهة التقرب به والتَّشَرُّع ، ورأَيت عن بعض أَقوياءِ العرب أَنه كان يمكُو على الصفا فيسمع من جبل حراءَ وبينهما أَربعة أَميال. وعلى هذا يستقيم تعييرهم وتَنَقُّصهم بأَن شرعهم وصلاتهم وعبادتهم لم تكن رهبة ولا رغبة ، إنما كانت مُكَاءً وتَصْدية من نوع اللعب ، ولكنهم كانوا يتزايدون فيها وقت النبي ﷺ ليشغلوه وأُمَّته عن القراءَة والصلاة.

وقوله تعالى: ﴿ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ إشارة إلى عذابهم ببدر بالسيف ، قاله ابن جُرَيج ، والحسن ، والضحاك ، فيلزم من هذا أَن هذه الآية الأَخيرة نزلت بعد بدر ولابُدّ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَشبه أَن الكل نزل بعد بدر حكاية عما مضى. والله ولي التوفيق برحمته.

---

(١) أخرج الطستيّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ ، قال: المُكَاءُ: صوت القنبرة ، والتَّصدية: صوت العصافير وهو التصفيق ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة وهو بمكة كان يصلي قائماً بين الحجر والركن اليماني ، فيجيءُ رجلان من بني سهم يقوم أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، ويصيح أحدهما كما يصيح المُكَاء ، والآخر يصفق بيديه تصدية العصافير ليفسدا عليه صلاته ، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم ، أما سمعت حسّان بن ثابت رضي الله عنه يقول:

نقـــومُ إلـــى الصَّـــلاة إذا دُعينـــا ... وهِمَّتُـــكَ التَّصَـــدِّي والمُكَـــاءُ

(٢) هكذا في جميع الأصول.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

قال بعض الرواة، منهم ابن أَبْزي، وابن جبير، والسدي، ومجاهد: سبب نزول هذه الآية أَن أَبا سفيان أَنفق في غزوة أُحد على الأَحابيش وغيرهم أَربعين أُوقية من الذهب أَو نحو هذا، وأَن الآية نزلت في ذلك. وقال ابن شهاب، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ: إنه لما قُتل من قُتل ببدر اجتمع أَبناؤُهم وقرابتهم وقالوا لمن خلص ماله في العير: إن محمداً قد نال منا ما ترون، ولكن أَعينوننا بهذا المال الذي كان سبب الوقعة، فلعلنا أَن ننال منه ثأْراً، ففعلوا فنزلت الآية في ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى القولين فإنما أُنفق المال في غزوة أُحد، فأَخبر الله تعالى في هذه الآية خبراً لفظه عام في الكفار، والإشارة به إلى مخصوصين أَنهم ينفقون أَموالهم يقصدون بذلك الصَّدَّ عن سبيل الله والدفع في صدر الإسلام، ثم أَخبر خبراً يخص المشار إليهم أَنهم ينفقونها ثم تكون عليهم حسرة، إذ لا تتم لهم إرادة ويذهب المال باطلا، والحسرة: التلهف على الفائت، ويحتمل أَن تكون الحسرة في يوم القيامة، والأَول أَظهر وإن كانت حسرة القيامة راتبة عليهم، وهذا من إخبار القرآن بالغيوب لأنه أخبر بما يكون قبل أَن يكون، فكان كما أخبر، قال ابن سلام: بيّن الله عزَّ وجلَّ أَنهم يُغلبون قبل أَن يقاتلوا بِسَنَة، حكاه الزهراوي.

ثم أَخبر تعالى عن الكافرين أَنهم يُجمعون إلى جهنم، والحشر: جَمْع الناس والبهائم إلى غير ذلك مما يُجْمع ويُحْضر، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾[1]، ومنه في التفسير أَنَّ السَّلْوى طائر كانت الجنوب تحشره على بني إسرائيل، والقوم الذين جَلَبَهُم أَبو سفيان وأَنفق المال عليهم هم الأَحابيش من كنانة، ولهم يقول كعب بن مالك:

(١) الأنعام: ١١١.

وَجِئْنَا إلى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ وَسْطَهُ أَحَابِيشُ مِنْهُمْ حَاسِرٌ ومُقَنَّعُ
ثَلاثَةُ آلافٍ ونَحْنُ نَصِيَّةٌ ثَلاثُ مِئِينَ إنْ كَثُرْنَ فَأَرْبَعُ[1]

وقال الضحاك وغيره: إن هذه الآية نزلت في نفقة المشركين الخارجين إلى بدر الذين كانوا يذبحون يوماً عشراً ويوماً تسعاً من الإبل، وحكى نحو هذا النقاش.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأَبو عمرو، وابن عامر: [لِيَمِيزَ] بفتح الياء وكسر الميم، وهي قراءَة الأَعرج، وأَبي جعفر، وشيبة بن نصاح، وشبل، وأَبي عبد الرحمن، والحسن، وعكرمة، ومالك بن دينار. تقول: مِزْتُ الشيءَ، والعرب تقول: مِزْتُه فلم يَتَميَّز لي، حكاه يعقوب، وفي شاذ القراءَة: [وَٱنْمَازُوا الْيَوْم][2]، وأَنشد أَبو زيد:

لَمَّا ثَنَى اللهُ عَنِّي شَرَّ دَعْوَتِهِ وانْمزْتُ لا مُنْشِئاً ذعْراً ولا وجلا[3]

وهو مطاوع: ماز.

وقرأَ حمزة، والكسائي: [لِيُمَيِّزَ] بضم الياءِ وفتح الميم وشد الياءِ، وهي قراءَة

---

(١) الحاسرُ: الذي لا درع عليه ولا مِغْفر. والمُقنّع: الذي لبس المِغْفَر على رأسه. والنَّصيَّة: خيار القوم وأشرافهم، وهكذا رواه في اللسان، ولكنه فسّر النصية بأنها البقية، ونسب ذلك إلى ابن السكيت، وقد روي البيت بروايات أخرى لعلها من أخطاء النساخ، فقد قيل: (بقية)، و(قصية). وعند الألوسي: (ونحن عصابة).

(٢) هي قراءة شاذة في قوله تعالى في سورة يس: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

(٣) ينسب البيت لمالك بن الريب ضمن قصيدة له، وورد البيت في الأغاني هكذا:

لما ثنى الله عني شر عدوته رقدت لا مثبتاً ذعراً ولا بعلاً

واختلافات الرواة في هذا البيت كثيرة، فقد روي: «شرَّ عُذْرَتِه» و«شرَّ عَذْوته» بدلا من «شَرَّ دَعْوتِهِ»، وروي «مُنْسئاً» و«مثبتا» بدلا من «مُنْشئاً»، وروي «رَجُلا» و«بعلاً» بدلا من «وجلا».

قتادة، وطلحة بن مصرف، والأعمش، والحسن أيضاً، وعيسى البصري، تقول: مَيَّزْتُ أُمَيِّز إذا فرقت بين شيئين فصاعدا، وفي القرآن ﴿تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[1] فهو مطاوع مَيَّز ومعناه: تنفصل. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، والسدي: المعنيّ بالخبيث الكفار، وبالطيب المؤمنون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واللام ـ على هذا التأويل ـ من قوله: ﴿لِيَمِيزَ﴾ متعلقة بـ ﴿يُحْشَرُونَ﴾، والمعنى أن الله يحشر الكافرين إلى جهنم ليميز الكافرين من المؤمنين بأن يجمع الكافرين جميعاً فيلقيهم في جهنم.

ثم أخبر عنهم أنهم هم الخاسرون، أي الذين خابت سعايتهم وتبّت أيديهم وصاروا إلى النار، وقال ابن سلام، والزجاج: المعنيّ بالخبيث المال الذي أنفقه المشركون في الصَّدِّ عن سبيل الله، والطيب هو ما أنفقه المؤمنون في سبيل الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واللام ـ على هذا التأويل ـ من قوله: ﴿لِيَمِيزَ﴾ متعلقة بـ ﴿يُغْلَبُونَ﴾، والمعنى أن الكفار ينفقون أموالهم فتكون عليهم حسرة ثم يغلبون مع نفقتها، وذلك ليميز الله الفرق بين الخبيث والطيّب فيخذل أهل الخبيث وينصر أهل الطيب، وقوله تعالى: ـ على هذا التأويل ـ: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ مترتب على ما روي عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يخرج من الأموال ما كان صدقة أو قُرْبة يوم القيامة، ثم يأمر بسائر ذلك فيلقى في النار». وحكى الزهراوي عن الحسن أن الكفار يُعذَّبون بذلك المال، فهي كقوله تعالى: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾[2]، وقاله الزجاج، وعلى التأويلين فقوله سبحانه: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ إنما هو عبارة عن جَمْع ذلك وضمّه وتأليف أشْتَاتِه وتكاثفه بالاجتماع.

---

(١) الملك: ٨.
(٢) التوبة: ٣٥.

و(يَرْكُمَهُ) في كلام العرب: يكثِّفه، ومنه: ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾[(١)] وركام، ومنه قول ذي الرُّمة:

. . . . زُعْ بالزِّمَام وَجَوْزُ اللَّيْل مَرْكومُ[(٢)]

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ﴾ بمعنى يُلْقي، قاله أبو عليّ. و﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ ـ على هذا التأويل ـ يُرادُ به المنافقون من الكفار، ولفظة الخسارة تليق بهم من جهة المال وبغير ذلك من الجهات.

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ الآية. أمر من الله عزَّ وجلَّ لِنبيّه ﷺ أن يقول للكفار هذا المعنى الذي تضمنته ألفاظ قوله ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، وسواءٌ قاله النبي ﷺ في هذه العبارة أو غيرها، ولو كان الكلام كما ذكر الكسائي أنه في مصحف ابن مسعود: ﴿قُلْ للَّذين كفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرَ لَكُمْ﴾ لما تأدت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بعينها، هذا بحسب ما تقتضيه الألفاظ. وقوله: ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ يريد به: عن الكفر ولابُدّ، والحامل على ذلك جواب الشرط بـ ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لِمُنْتَهٍ عن الكفر. وقوله: ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ يريد به: إلى القتال، لأن لفظة (عاد يعود) إذا جاءَت مطلقة فإنها تتضمن الرجوع إلى حالة قد كان الإنسان عليها، ثم تنقل عنها، ولسنا نجد في هذه الآية لهؤلاءِ الكفار حالة تشبه ما ذكرنا، إلا القتال، ولا يصح أن يُتَأَول: «وإن يعودوا إلى الكفر» لأنهم لم ينفصلوا عنه، وإنما قلنا في (عاد): «إذا كانت مطلقة» لأنها قد تجيءُ في كلام العرب داخلة على الابتداءِ والخبر بمنزلة (صار)، وذلك كما تقول: «عاد زيد ملكاً» تريد: صار، ومنه قول أبي الصلت:

---

(١) من قوله تعالى الآية (٤٤) في سورة الطور: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾.

(٢) هذا عجز البيت، وهو بتمامه كما جاء في الديوان:

وخَافِقِ الرَّأْسِ فَوْقَ الرَّحْلِ قُلْتُ لَهُ زُعْ بِالزِّمَامِ وجَوْزُ اللَّيلِ مَرْكُومُ

وقد روي في اللسان: «مثل السيف» بدلاً من «فوق الرحل». ورواية الصحاح مثل رواية الديوان. وزُع راحلتك أي استحثها، يقال: زاع الناقة بالزِّمام يزوعها زوعاً إذا هيَّجها وحركها بزمامها إلى قُدَّام لتزداد في سيرها. قال في اللسان: «ومن رواه: زَع بالفتح فقد غلط لأنه يأمره بأن يكفَّ بعيره، قال الليث: الزَّوع: جذبك الناقة بالزِّمام لتنقاد» وجَوْزُ الليل: وسطه، وفي حديث علي رضي الله عنه «أنه قام من جَوْز الليل يصلي». (اللسان والتاج والمعجم الوسيط).

تِلْكَ المكارمُ لا قَعْبانِ مِنْ لَبَنٍ ... شِيبا بماءٍ فعادا بَعْدُ أَبْوالا[(١)]

وهذه لا تتضمن الرجوع لحالة قد كان العائد عليها قَبْلُ، لكنها مُقَيَّدة بخبرها لا يجوز الاقتصار دونه، فحُكْمها حُكْم (صار).

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تجمع الوعيد والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأُمم في سالف الدهر بعذاب الله حين صد في وجه نَبِيِّه، وبِمَنْ هلك في يوم بدرٍ بسيف الإسلام والشَّرْع، والمعنى: فقد رأيتم ببدرٍ وسمعتم عن الأمم ما حلَّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والتخويف عليهم بيوم بدرٍ أَشَدُّ، إذ هي القريبة منهم والمُعَايَنَةُ عندهم، وعليها نصَّ ابن إسحق، والسُّدِّيّ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ الآية. أَمر من الله عزَّ وجلَّ فَرَضَ به على المؤمنين أَن يقاتلوا الكفار، والفتنة: قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: معناها: الشِّرك، وقال ابن إسحق: معناها: حتى لا يُفْتن أَحد عن دينه كما كانت قريش تفعل بمكة بِمن أَسلم كبلال وغيره، وهو مقتضى قول عروة بن الزبير في جوابه لعبد الملك بن مروان حين سأَله عن خروج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ أَي: لا يُشْرك معه صنم ولا وَثَن، ولا

(١) سبق الاستشهاد بهذا البيت في سورة الأعراف عند تفسير قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ راجع ص (٦١٣) من المجلد الثالث.

(٢) روى ابن جرير الطبري عن هشام بن عروة عن أبيه أن عبد الملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياءَ، فكتب إليه عروة: «سلام عليك، فإني أحمد الله إليك، الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنك كتبت إليَّ تسألني عن مَخْرج رسول الله ﷺ من مكة، وسأخبرك به، ولا حول ولا قوة إلا بالله» ثم حدَّثه كيف بدأ النبي ﷺ دعوته، وكيف قابله قومه بالتعذيب له ولأصحابه، بالسعي لفتنة المسلمين، وكيف أمرهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بالهجرة إلى الحبشة، فلما فشا الإسلام ودخل فيه من دخل وبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة، وعلموا أن المسلمين صاروا بمأمن فهم لا يفتنون رجعوا إلى مكة فلما انتشر الإسلام بالمدينة عادت قريش إلى التآمر على فتنة المسلمين. قال عروة في آخر رسالته: «وكانت فتنة الآخرة» إلى أن قال: «فاشتدت عليهم قريش، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يخرجوا إلى المدينة، وهي الفتنة الآخرة التي أَخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه وخرج هو، وهي التي أنزل الله فيها ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ اهـ. وكتاب عروة هذا في تفسير الطبري.

يُعبد غيره. وقال قتادة: حتى تستوسقِ[١] كلمةُ الإخلاص «لا إله إلاّ الله».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه المعاني تتلازم كلها، وقال الحسن: حتى لا يكون بلاءٌ، وهذا يلزم عليه القتال ـ في فتن المسلمين ـ الفئة الباغية، وعلى سائر ما ذكرناه من الأقوال يكون المعتزل في فسحة، وعلى هذا جاءَ قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أَما نحن فقد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وأَما أَنت وأَصحابك فتريدون أَن نقاتل حتى تكون فتنة».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فمذهب ابن عمر أَن الفتنة: الشِّرك في هذه الآية، وهو الظاهر، وفسَّر هذه الآية قولُ النبي ﷺ: «أُمرت أَن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منِّي دماءَهم وأَموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»[٢]. ومن قال: المعنى حتى لا يكون شرك فالآية عنده يراد بها الخصوص فيمن لا تُقبل منه جزية، قال ابن سلام: وهي في مشركي العرب.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ أَي عن الكفر فإن الله بصير بعملهم مُجاز عليه، عنده ثوابه وجميل المقارضة عليه[٣]، وقرأ يعقوب بن إسحق، وسلام بن سليمان: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ بالتاءِ، أَي في قتالكم وجِدِّكم وجلادكم عن دينه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ الآية، معادل لقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾، والمعنى: فإن انتهوا عن الكفر فالله مجازيهم ـ أَو مجازيكم على قراءَة [تَعْلَمُونَ] ـ، وإن تولوا فاعلموا أَن الله ينصركم عليهم، وهذا وعد محضٌ بالنصر والظفر، أَي: فَجِدُّوا.

والمولى ها هنا: المُوالي والمُعين. والمولى في اللغة على معانٍ هذا هو الذي يليق بهذا الموضع منها، والمولى الذي هو السيّد المقترن بالعبد يعمّ المؤمنين والمشركين.

---

(١) بمعنى: تجتمع، يقال: اسْتَوسَقَ الشيءُ: اجتمع وانضم، واستوسق الأمرُ: انتظم، واستوسق له الأمرُ: أمْكَنَهُ أن يجمع السلطة والكلمة في يده.

(٢) الحديث متواتر، رواه عن أبي هريرة البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ورمز له السيوطي في (الجامع الصغير) بأنه صحيح.

(٣) جاء في بعض النسخ «المعاوضة» بدلا من «المقارضة».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَاعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾.

موضع ﴿أَنَّ﴾ الثانية رفع، والتقدير: «فحكمه أنَّ»، فهي في موضع رفع خبر الابتداءِ، والغنيمة في اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة بسعْي، من ذلك قول الشاعر:

وَقَدْ طَوَّفْتُ في الآفَاقِ حتى ... رَضِيتُ مِنَ الغَنِيمَةِ بالإِيابِ[١]

وقال آخر:

ومُطْعَمُ الغُنْم يومَ الغُنْم مُطْعَمُه ... أَنَّى توجَّه والمحْرُومُ مَحْرُومُ[٢]

ومنه قول النبي ﷺ في الرهن: «له غُنْمه وعليه مخرجه»[٣].

وقوله: «الصيام في الشتاءِ هو الغنيمة الباردة»[٤]. فالشيءُ الذي يناله المسلمون من عدوهم بالسعي وإيجاف[٥] الخيل والركاب: غنيمة، ولزم هذا الاسم هذا المعنى حتى صار عرفاً له.

والفيءُ مأخوذ من «فَاءَ يفيءُ» إذا رجع، وهو كلُّ ما دخل على المسلمين من غير

---

(١) قائل هذا البيت هو امرؤ القيس، وقد صار الشطر الثاني مثلاً يضرب عند القناعة بالسلامة. وطوَّف مبالغة في طاف بمعنى دار حول الشيء. والإياب: مصدر آب بمعنى: رجع.

(٢) المُطعم: المرزوق، يقال: فلان مُطْعَمٌ للصَّيد ومُطْعَم الصَّيْد إذا كان مرزوقاً منه، قال ذو الرمة:
* ومُطْعَمُ الصَّيْدِ هَبَّال لِبُغْيَتِهِ *
والمعنى: المرزوق بالخير مرزوق به حيث كان وأنَّى تَوَجَّه، والمحروم محروم مهما فعل.

(٣) هذا جزء في آخر حديث رواه في المُوطَّأ، وأوله: «لا يُغْلق الرهن...»، وعند الزرقاني شارح الموطأ أن الحديث مرسل، وأن بعض الرواة زاد في آخره: «له غُنْمُه وعليه غُرْمه» واختلف في رفع هذه الزيادة، أو أنها من كلام ابن المسيَّب.

(٤) نصُّ الحديث كما رواه الترمذي عن عامر بن مسعود: «الغنيمةُ الباردة الصوم في الشتاء» ـ هذا ما أثبته السيوطي في «الجامع الصغير»، وجاء في لسان العرب: «وفي الحديث: الصوم في الشتاء الغنيمة الباردة» سماه غنيمة لما فيه من الأجر والثواب.

(٥) المراد: استعمال الخيل وحثُّها للحصول على الغنيمة، يقال: أوْجف دابته إذا حثَّها، والوجيف: ضرب سريع من السَّيْر.

حرب ولا إيجاف كَخَراج الأَرض ، وجزية الجماجم ، وخُمس الغنيمة ، ونحو هذا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والزكوات أَيضاً مالٌ على حِدَته ، أَحكامه منفردة دون أَحكام هذين ، قال سفيان الثوري ، وعطاءُ بن السائب: «الغنيمة: ما أُخذ عنْوة ، والفيءُ: ما أُخذ صُلْحاً». وهذا قريب مما بيَّنَّاه. وقال قتادة: «الفيءُ والغنيمة شيءٌ واحِد فيهما الخمس ، وهذه الآية التي في الأَنفال ناسخة لقوله في سورة الحشر: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ ﴾[1] وذلك أن تلك كانت الحُكْم أَولا ، ثم أعطى الله أَهلها الخمس فقط ، وجعل الأَربعة الأَخماس في المقاتلين».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ ضعيف نصَّ العلماءُ على ضعفه ، وأَن لا وجه له من جهات: منها أَن هذه السورة نزلت قبل سورة الحشر ، هذه ببدْرٍ ، وتلك في بني النَّضير وقرى عرينة. ولأَن الآيتين متَّفقتان وحكم الخمس وحكم تلك الآية واحد لأَنها نزلت في بني النَّضير حين جلوا وهربوا ، وأَهل فدك حين دعوا إلى صلح ونال المسلمون ما لهم دون إيجاف. وحكى ابن المنذر عن الشافعي أَن في الفيءِ الخمس ، وأَنه كان في قرى عرينة زمن النبي ﷺ ، وأَن أَربعة أَخماسها كان للرسول ﷺ خاصة دون المسلمين يضعها حيث يشاءُ ، وقال أَبو عُبَيدة: «هذه الآية ناسخة لقوله تعالى في أَول السورة: ﴿ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ ﴾ الآية ، ولم يخمس رسول الله ﷺ غنائم بدر فنسخ حُكمه في ترك التخميس بهذه الآية».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويظهر من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه في البخاري: «كانت لي شارف من نصيبي من المغنم ببدر ، وشارف أَعطانيها رسول الله ﷺ من الخمس حينئذ»[2] أَن

(١) الحشر: ٧.

(٢) الحديث مروي في البخاري ، وقد استشهد به ابن عطية في أكثر من مناسبة ، والنص في البخاري يؤكد أن ما أخذه عليّ من المغنم كان يوم بدر ، إذ جاء فيه أن حُسَين بن علي أخبره أن علياً قال: «كانت لي شارف من نصيبي من المَغْنم يوم بدر ، وكان النبي ﷺ أعطاني مما أفاءَ الله من الخمس يومئذ» إلى آخر الحديث وهو في غزوة بدر. ولفظ الحديث يؤكد أن النبي ﷺ خمّس الغنائم يومئذ ، وأن الشارف التي=

غنيمة بدر خمست ، فإن كان ذلك فسد قول أَبي عُبَيْدَة ، ويحتمل أن يكون الخمس الذي ذكره علي بن أَبي طالب من إحدى الغزوات التي كانت بين بدر وأُحد ، فقد كانت غزوة بني سليم ، وغزوة السويق ، وغزوة ذي أَمَر ، وغزوة بُحْران ، ولم يحفظ فيها قتال ولكن يمكن أن غنمت غنائم. والله أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ ظاهره عام ومعناه الخصوص ، فأَما النَّاضُّ(١) والمتاع والأَطفال والنساءُ وما لا يؤكل لحمه من الحيوان ويصح تملُّكُه فليس للإمام في جميع ذلك ما كثر منه وما قلَّ كالخيط والمخيط إلا أَن يأْخذ الخمس ويقسم الباقي في أَهل الجيش ، وأَما الأَرض فقال فيها مالك: يُقَسِّمها الإمام إن رأَى ذلك صواباً كما فعل النبي ﷺ بِخَيْبر ، ولا يُقَسِّمها إن أَدّاه اجتهاده إلى ذلك كما فعل عمر رضي الله عنه بأَرض مصر وسواد الكوفة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لأَن فعل عمر رضي الله عنه ليس بمخالف لفعل النبي ﷺ ، إذ ليست النازلة واحدة بحسب قرائن الوقْتَيْن وحاجة الصحابة وقلَّتهم ، وهذا كله انعكس في زمان عمر رضي الله عنه ، وأَما الرجال ومن شارف البلوغ من الصبيان فالإمامُ ـ عند مالك وجمهور العلماء ـ مُخَيَّر فيهم على خمسة أوجه ، منها: القتل ، وهو مُستحسن في أَهل الشجاعة والنكاية ، ومنها: الفداءُ ، وهو مُستحسن في ذي المنصب الذي ليس بشجاع ولا يُخاف منه رأي ولا مكيدة لانتفاع المسلمين بالمال الذي يؤخذ منه ، ومنها: المَنُّ ، وهو مُستحسن فيمن يرجى أَن يحنو على أَسرى المسلمين ونحو ذلك من القرائن ، ومنها الاسترقاق ، ومنها: ضرب الجزية والترك في الذِّمَّة. وأَما الطعام والغنم ونحوهما مما يؤكل فهو مباح في بلد العدو يأْكله الناس فما بقي كان في المغنم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَما أَربعة أَخماس ما غُنم فيقسمه الإمام على الجيش ، ولا يختص بهذه الآية ذكر

= أخذها عليّ كانت من المغنم يوم بدر. ولذلك فإن الاحتمال الثاني وهو أن الخمس الذي ذكره علي كان من إحدى الغزوات بين بدر وأُحُد غير وارد. والله أعلم.

(١) النَّاضُّ: الماء الذي يخرج من الحجر قليلاً قليلاً ، أو يرشح من رمل تحته أرض صلبة كلما نضَّ منه شيءٌ أي رشح واجتمع أُخذ للانتفاع به.

القسمة فأَنا أَختصره هنا ، وأَما الخمس فاختلف العلماءُ فيه.

قال مالك رحمه الله: الرأْي فيه للإِمام يلحقه ببيْت الفيءِ ، ويعطي من ذلك البيت لقرابة رسول الله ﷺ ما رآه ، كما يعطي منه اليتامى والمساكين وغيرهم ، وإنما ذكر من ذكر على وجه التنبيه عليهم لأَنهم من أَهم من يدفع إليه. قال الزجاج محتجاً لمالك: قال الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[١] ، وللإِمام بإِجماع أَن ينفق في غير هذه الأَصناف إِذا رأَى ذلك.

وقالت فرقة: كان الخمس يُقَسّم على ستة أَقسام: قسم لله وهو مردود على فقراءِ المسلمين أَو على بيت الله ، وقسم للنبي ﷺ ، وقسم لقرابته ، وقسم لسائر من سمي ، حكى القول منذرُ بنُ سعيد ، ورُدّ عليه ، قال أَبو العالية الرياحي: كان النبي ﷺ يقبض من خمس الغنيمة قُبْضَة[٢] فيجعلها للكعبة ، فذلك لله ، ثم يقسم الباقي على خمسة ، قسم له ، وقسم لسائر من سمي.

وقال الحسن بن محمد ، وابن عباس ، وإبراهيم النَّخَعي ، وقتادة ، والشافعي: قوله تعالى: ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾ استفتاح كلام كما يقول الرجل لعبده: «قد أَعتقك الله وأعتقتك» على جهة التبرُّك وتفخيم الأَمر ، والدنيا كلها لله ، وقسْم الله وقسْم الرسول واحد ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يقسم الخمس على خمسة أَقسام كما تقدم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً فيما روى عنه الطبري: الخمس مقسوم على أَربعة أَقسام ، وسهم الرسول ﷺ لقرابته وليس لله ولا للرسول شيءٌ.

وقالت فرقة: قسم الرسول ﷺ بعد موته مردود على أَهل الخمس ، القرابة وغيرها. وقالت فرقة: هو مردودٌ على الجيش أَصحاب الأَربعة الأَخماس ، وقال علي ابن أَبي طالب رضي الله عنه: يلي الإِمام منهم سهم الله ورسوله. وقالت فرقة: هو

---

(١) البقرة: ٢١٥.

(٢) القُبْضَة بضم القاف: ما قبضت عليه باليد من شيءٍ ، وهو المراد ها هنا ، وأَمّا بالفتح فالمرادُ المَرَّة من القَبْض ، وقد يكون المعنى مع الفتح هو نفس المعنى مع الضم ، وفهم بعض اللغويين هذا من قوله تعالى: ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ ، وقد قرئت الآية بالضم وبالفتح ، وكذلك قرىء بالضم والفتح قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ قال ابن الأثير في النهاية: «في حديث حنين: فأَخذ قُبْضَة من التراب ، وهو بمعنى المقبوض كالغُرْفة بمعنى المغروف».

موقوف لشراءِ العُدَد والكُرَاع[١] في سبيل الله.

وقال إِبراهيم النَّخَعي: وهذا الذي اختاره أَبو بكر وعمر رضي الله عنهما فيه.

وقال أَصحاب الرأْي: الخمس بعد النبي ﷺ مقسوم ثلاثة أَقسام، قسم لليتامى، وقسم للمساكين، وقسم لابن السبيل، ورسول الله ﷺ لم يورث فسقط سهمه وسهم ذوي القُرْبى، وحجتهم فيه منع أَبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم لذوي القربى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولم يثبت المنع، بل عورض بنو هاشم بأَن قريشاً قُرْبى، وقيل: لم يكن في مدة أَبي بكر رضي الله عنه مغْنم.

وقال الشافعي: يعطى أَهل الخمس منه ولابُدّ، ويُفَضِّل الإِمام أَهل الحاجة ولكن لا يحرم صنفاً منهم حرماناً تاماً، وقول مالك رحمه الله: إن للإِمام أَن يعطي الأَحوج وإِن حرم الغير.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكان رسول الله ﷺ مخصوصاً من الغنيمة بثلاثة أَشياءَ، كان له خمس الخمس، وكان له سهم رجل في سائر الأَربعة الأَخماس، وكان له صفيٌّ يأْخذه قبل القسمة[٢]، دابة أَو سيف أَو جارية، ولا صفيَّ لأَحدٍ بعده بإجماعٍ إلا ما قال أَبو ثور من أَن الصَّفيّ باق للإمام، وهو قول معدود في شواذ الأَقوال.

وذو القربى: قرابة رسول الله ﷺ، فقال علي بن الحسين، وعبد الله بن الحسن، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم: «هم بنو هاشم فقط»، قال مجاهد: كان آل محمد ﷺ لا تحل لهم الصدقة فجُعل لهم خمس الخمس، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولكن أَبَى ذلك علينا قَوْمُنا وقالوا: «قريش كلها قربى». وقال الشافعي رحمه الله: «هم بنو هاشم وبنو المطلب فقط». وقال رسول الله ﷺ لعثمان بن عفان، وجبير بن مطعم في وقت قسْمه سهم ذوي القربى من خيبر على بني هاشم وبني

---

(١) الكُرَاعُ: اسم يجمع الخيل والسلاح. «المعجم الوسيط».

(٢) الصَّفيُّ: ما يأْخذه رئيس الجيش ويختاره لنفسه من الغنيمة قبل القسمة، وقد سبقت الإشارة إلى معناها عند تفسير أول آية من هذه السورة (الأنفال).

المطلب: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيءٌ واحد، ما فارقونا في جاهلية ولا في إسلام»[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كانوا مع بني هاشم في الشِّعب.

وقالت فرقة: قريش كلها قربى، وروي عن علي بن الحسين، وعبد الله بن محمد ابن علي رضي الله عنهم أنهما قالا: «الآية كلها في قريش»، والمراد يتامى قريش ومساكينها.

وقالت فرقة: سهم القرابة بعد النبي ﷺ موقوف على قرابته، وقد بعثه إليهم عُمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه، إلى بني هاشم وبني المطلب فقط. وقالت فرقة: هو لقرابة الإمام القائم بالأَمر، وقال قتادة: كان سهم ذوي القربى طُعْمة لرسول الله ﷺ ما كان حياً، فلما توفي جُعل لوَلي الأَمر بعده، وقاله الحسن بن أَبي الحسن البصري. وحكى الطبري أَيضاً عن الحسن أَنه قال: اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة النبي ﷺ، فقال قوم: سهم النبي ﷺ للخليفة، وقال قوم: سهم النبي ﷺ لقرابة النبي ﷺ، وقال قوم: سهم القرابة لقرابة الخليفة، فاجتمع رأْيهم على أَن يجعلوا هذيْن السهمين في الخيل والعُدّة، فكان على ذلك مدة أَبي بكر رضي الله عنه. قال غير الحسن: وعمر.

واليتامى: الذين فقدوا آباءَهم من الصبيان، واليُتْمُ في بني آدم من قِبَل الآباءِ، وفي البهائم مِن قبل الأُمهات. والمسكين: الذين لا شيءَ لهم، وهو مأْخوذ من السكون وقلة الحراك. وابن السبيل: الرجل المجتاز الذي قد احتاج في سفر، وسواءٌ كان غنياً في بلده أَو فقيراً فإِنه ابن السبيل، يُسَمَّى بذلك إِما لأَن السبيل تبرزه فكأَنها تلده، وإما لملازمته السبيل كما قالوا: ابن ماءٍ وأَخو سفر، ومنه قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة ابن زنى»، وقد تقدم[٢].

---

(١) أخرجه البخاري، والنسائي، قال البخاري: قال الليث: حدثني يونس، وزاد: (ولم يقسم النبي ﷺ لبني عبد شمس ولا لبني نوفل شيئاً)، قال ابن إسحق: «وعبد شمس، وهاشم، والمطَّلب إخوة لأم، وأمهم عاتكة بنت مرة، وكان نوفل أخاهم لأبيهم»، وقال النسائي: «وأسهم النبي ﷺ لذوي القربى، وهم بنو هاشم وبنو المطَّلب، بينهم الغني والفقير، وقد قيل: إنه للفقير منهم دون الغني، كاليتامى وابن السبيل، وهو أشبه القولين بالصواب. والله أعلم».

(٢) تقدم الكلام عن ابن الزنى عند تفسير الآية ١٧٩ من سورة الأعراف، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد اقتضبت فِقْه هذه الآية حسب الاختصار، والله المستعان.

و﴿مَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿ما غنمتم﴾ بمعنى الذي، وفي قوله: ﴿غَنِمْتُم﴾ ضمير يعود عليها، وحكي عن الفراء أنه جوز أن تكون [ما] شرطية بتقدير: «أنه ما»، وحذف هذا الضمير لا يجوز عند سيبويه إلاَّ في الشعر، ومنه:

إِنَّ مَـنْ يَـدْخُـلِ الكَنِيسَـةَ يَـوْمـاً . . . .[1]

وقرأ الجمهور: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ﴾[2] بفتح الهمزة، وقرأ الجعفي عن أبي بكر عن عاصم، وحسين عن أبي عمرو: [فَإِنَّ] بكسر الهمزة، وقرأ الحسن: [خُمْسه] بسكون الميم.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ الآية، قال الزجاج عن فرقة: المعنى: فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم، فـ[إنْ] متعلقة بهذا الوعد، وقال أيضاً عن فرقة: إنها متعلقة بقوله: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الصحيح لأن قوله: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ يتضمن الأمر بانقياد وتسليم لأمر الله في الغنائم، فعلق [إنْ] بقوله: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ على هذا المعنى، أي: إن كنتم مؤمنين بالله

= ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ لكن نص الحديث هناك يختلف عن نصه هنا.

(١) في خزانة الأدب، وفي المغني لابن هشام أن البيت للأخطل، وهو بتمامه:

إِنَّ مَـنْ يَـدْخُـلِ الكَنِيسَـةَ يَـوْمـاً يَلْـقَ فيهَـا جـآذِراً وظِبَـاءَ

وهو شاهد على أن اسم (إنَّ) ضمير شأن والجملة شرطية بعدها خبرها، ودليل ذلك أن (مَنْ) جزمت الفعلين، والشرط له الصدارة في جملته فلا يعمل فيه ما قبله. قال ابن السيد في شرح أبيات الجمل: «هذا البيت للأخطل، وكان نصرانياً فلذلك ذكر الكنيسة»، وقال ابن هشام اللَّخْميّ: «لم أجده في ديوان الأخطل» وفعلا بحثت في الديوان من رواية السكري فلم أجده، وقد نسبه السيوطي في شواهد المغني للأخطل ثم قال: وبعده:

مَـالَـتِ النَّفْـسُ بَعْـدَهَـا إذ رَأَتْهَـا فَهْـيَ ريـحٌ وصـارَ جِسْمـي هَبَـاءَ

(٢) من اللطائف التي ذكرها المفسرون في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ الإشارة إلى هذا التركيب الذي أفرد كينونة الخمس لله، وفصل بين اسمه تعالى وبين المعاطيف بقوله: (خُمُسه) ليظهر استقلاله وتفرده تعالى بكينونة الخمس له، ثم أشرك المعاطيف معه على سبيل التَّبعية له، ولم يأت التركيب «فإن لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل خمسه».

فانقادوا وسلموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة. وقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ عطف على قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾ ، والمشار إليه بـ [ما] هو النصر والظهور الذي أَنزله الله تبارك وتعالى يوم بدر على نبيِّه وأَصحابه ، أَي: إن كنتم مؤمنين بالله وبهذه الآيات والعظائم الباهرة التي أُنزلت يوم بدر ، ويحتمل أَن تكون الإشارة إلى قرآن نزل يوم بدر أَو في قصة يوم بدر على تكرُّه في هذا التأويل الأَخير.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يكون المعنى: واعلموا أَنما غَنِمْتم يوم الفرقان يوم التقى الجمعان فإِن خُمسه لكذا أَو كذا إن كُنْتم آمَنْتم ، أَي: فانقادوا لذلك وسلموا ، وهذا تأْويل حسنٌ في المعنى. ويعترض فيه الفصل بين الظرف وما تعلق به بهذه الجملة الكثيرة من الكلام.

و﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ معناه: يوم الفرق بين الحق والباطل بإِعزاز الإسلام وإذلال الشِّرك. والفُرقان: مصدر من فَرَق يفْرق. والجمعان: يريد جمع المسلمين وجمع الكفار ، وهو يوم الوقعة التي قُتل فيها صناديد قريش ببدر ، ولا خلاف في ذلك ، وعليه نصَّ ابن عباس ، ومجاهد ، ومقسم ، والحسن بن علي ، وقتادة ، وغيرهم ، وكانت يوم الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة ، هذا قول جمهور الناس ، وقال أَبو صالح: لِتِسع عشرة ، وشك في ذلك عروة بن الزبير وقال: لتسع عشرة أَو لسبع عشرة ، والصحيح ما عليه الجمهور.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعضد أَن قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يراد به النصر والظفر ، أَي الآيات والعظائم من غلبة القليل الكثير ، وذلك بقدرة الله تعالى الذي هو على كل شيءٍ قدير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

العامل في ﴿إِذْ﴾ قوله: ﴿التقى﴾ ، والعدوة: شفير الوادي وحَرْفه الذي يتعذر المشيُ فيه ، بمنزلة رجا البئر ، لأَنها عدَت ما في الوادي من ماءٍ ونحوه أَن يتجاوز

الوادي، أَي منعته، ومنه قول الشاعر:

عَـدتْنـي عَـنْ زيـارَتِـكَ العَـوَادي ... وحـالـت دُونهـا حـرْبٌ زَبُـون

ولأنها ما عَدَا الوادي، أَي جاوزه، وتُسمى الضِّفَّة والفضاءُ المساير للوادي عُدْوة للمجاورة، وهذه هي العُدْوة التي في الآية(١).

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [بِالْعُدْوَة] بضم العين، وقرأ ابن كثير، وأَبو عمرو: [بِالْعِدْوة] بكسر العيْن، وهما لغتان، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن، وقتادة، وعمرو: [بِالْعَدْوَة] بفتح العين، ويمكن أَن تكون تسمية بالمصدر، قال أَبو الفتح: الذي في هذا أَنها لغة ثالثة كقولهم في اللبن: رُغْوة ورِغْوة ورَغْوَة، وروى الكسائي: كلَّمته بحَضرة فلانٍ وحُضْرته وحِضرته، إلى سائر نظائر ذَكَر أَبو الفتح كثيراً منها.

وقوله تعالى: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿ٱلْقُصْوَىٰ﴾ إنما هو بالإضافة إلى المدينة، وفي حرف ابن مسعود: «إذ أَنتم بالعُدوة العُلْيا وهمْ بالعُدوَة السفلى»، ووادي بدر آخذ بين الشرق والقبلة منحرف إلى البحر الذي هو قريب من ذلك الصُّقع، والمدينة من الوادي من موضع الوقعة منه في الشرق، وبينهما مرحلتان، حدَّثني أَبي أَنه رأَى هذه المواضع على ما وصفت. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «بدرٌ بين مكة والمدينة»، والدُّنيا من الدُّنوّ، والقُصوى من القُصو وهو البعد، وكان القياس أَن تكون القُصْيا لكنه من الشاذ، وقال الخليل في «العيْن»: «شذَّت لفظتان هما القصوى والفتوى، وكان القياس فيهما بالياءِ كالدنيا والعليا»(٢).

---

(١) جاء في (اللسان ـ عدا): «العدى والعُدْوَة والعِدْوة والعَدْوة، كلُّه: شاطىء الوادي»، ونقل عن الفراء: «العُدْوة: شاطىء الوادي، الدُّنيا مما يلي المدينة، والقصوى مما يلي مكة» ونقل عن ابن السكِّيت: «عُدْوة الوادي وعِدْوته: جانبه وحافته، والجمع عِدى وعُدى».
هذا وقد جاء بالكسر قول الراعي:

وَعَيْنَـانِ حُمْـرٌ مَـآقِيهِمَـا ... كمـا نَظَـرَ العِـدْوَة الْجُـؤْذَرُ

وكذلك بيت أوس بن حجر:

وفَـارِسٍ لـو تَحُـلُّ الخيْـلُ عِـدْوَتَـهُ ... ولَّـوْا سِراعـاً ومـا هَمُّـوا بـإقْبَـالِ

(٢) معظم علماءِ التصريف فصَّلوا في (الفُعْلى) مما لامُه واوٌ فقالوا: إن كان اسماً أُبدلت الواو ياءً ثم يمثلون بما هو صفة نحو الدنيا والعليا والقصيا، وإن كان صفة أُقِرّت نحو الحلوى تأنيث الأحْلى، ولهذا=

﴿وَٱلرَّكۡبُ﴾ بإجماع من المفسرين: عِيرُ أَبي سفيان ، ولا يقال «ركْبٌ» إلا لركاب الإِبل ، وهو من أَسماءِ الجمع ، وقد يجمع «راكب» عليه كصاحب وصَحْبٍ وتاجر وتَجْر ، ولا يقال «ركْبٌ» لما كَثُر جداً من الجموع. وقال القتبي: «الركْبُ: العشرة ونحوها»، وهذا غير جيّد لأَن النبي ﷺ قد قال: «والثلاثة ركْبٌ»[١]. وقوله: ﴿أَسۡفَلَ﴾ في موضع خفض تقديره: «في مكان أسفل» ، كذا قال سيبويه ، قال أَبو حاتم: «نصب أَسفل على الظرف» ، ويجوز «الركب أسفل» على معنى: وموضع الركب أَسفل ، أَو الركب مستقر أَسفل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكان الركب ومُدَبّر أَمره أبو سفيان قد نكَّب عن بدر حينَ نَذِرَ[٢] بالنبي ﷺ ، وأَخَذ سِيفَ البحر[٣] فهو أَسفل بالإِضافة إلى أَعلى الوادي من حيث يأْتي ، وقال مجاهد في كتاب الطبري: أَقبل أبوَ سفيان وأَصحابه بالشام تجاراً لم يشعروا بأَصحاب بدر ، ولم يشعر أَصحاب (محمد ﷺ) بكفار قريش ، ولا كفار قريش بمحمد ﷺ وأَصحابه حتى التقوا على الماءِ ببدر، من يسقي لهم كلهم ، فاقتتلوا فغلبهم أصحاب محمد ﷺ فأَسروهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا تعقب ، وكان من هذه الفرق شعور بين من الوقوف على القصة بكمالها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾ ، قال الطبري وغيره: لو تواعدتم على الاجتماع ثم علمتم كثرتهم وقِلَّتكم لخالفتم ولم تجتمعوا معهم ، وقال

= قالوا: شذ القصوى بالواو وهي لغة الحجاز ، والقصيا لغة تميم. وذهب بعض النحويين إلى أنه إن كان اسماً أقرت الواو نحو حزوى ، وإن كان صفة أُبدلت نحو الدنيا والعليا وشذ إقرارها نحو الحلوى. راجع «البحر المحيط».

(١) الحديث كاملاً كما رواه في «الجامع الصغير»: «الراكب شيطان ، والراكبان شيطانان ، والثلاثة ركب ، أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والحاكم في مستدركه ، وأبو داود ، والترمذي عن ابن عمرو.

(٢) نذر بكسر الذال: عَلِم ، يقال: نذِر بالشيءِ نَذْراً ونِذَارةً: عَلِمه فحذِرَهُ ، ويقال: نَذَروا بالعدوِّ. (المعجم الوسيط).

(٣) السِّيف: ساحل البحر ، وجمعه: أسياف ، وفي حديث جابر: (فأتينا سِيفَ البحر) أي ساحله. (اللسان).

المهدوي: المعنى: أي لاختلفتم بالقواطع والعوارض القاطعة بالناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا أَنبَل وأَصح[١] وإيضاحُه أن المقصد من الآية تبيينُ نعمة الله تبارك وتعالى وقدرته في قصة بدر وتيسيره ما يسَّر من ذلك، والمعنى: إذ هيَّأ الله لكم هذه الحال، ولو تواعدتم لاختلفتم إلا مع تيسير الله الذي تمَّم ذلك، وهذا كما تقول لصاحبك في أَمر سنَّاهُ الله[٢] دون تعب كثير: لو بَنَيْنا على هذا وسعينا فيه لم يتم هكذا.

ثم بين تعالى أَن ذلك كان بلطف الله عزَّ وجلَّ ليقضي أَمراً، أي لِيُنْفِذَ ويُظهر أَمراً قد قدَّره في الأَزَل مفعولا لكم بشرط وجودكم في وقت وجودكم، وذلك كله معلوم عنده.

وقوله تعالى: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾، قال الطبري: المعنى: لِيُقْتل من قُتل من كفار قريش وغيرهم ببيان من الله وإعذار بالرسالة، ويحيا أيضاً ويعيش من عاش عن بيان منه أيضاً وإعذار لا حجة لأَحد عليه، فالهلاك والحياة ـ على هذا التأْويل ـ حقيقتان.

وقال ابن إسحق وغيره: معنى ﴿لِّيَهۡلِكَ﴾ أي لِيَكْفُر، ﴿ويحيا﴾ أي ليُؤمن، فالهلاك والحياة ـ على هذا ـ مستعارتان، والمعنى أَن الله تعالى جعل قصة بدرٍ عبرة وآية ليؤمن من آمن عن وضوح وبيان، ويكفر أيضاً من كفر عن مثل ذلك.

وقرأَ الناس: ﴿لِّيَهۡلِكَ﴾ بكسر اللام الثانية، وقرأَ الأَعمش: [ليهلَك] بفتح اللام، ورواها عصمة عن أبي بكر عن عاصم.

والبيِّنة صفة، أَي قضية بيِّنة، واللام الأُولى في قوله: ﴿لِّيَهۡلِكَ﴾ ردٌّ على اللام في قوله تعالى: ﴿لِّيَقۡضِيَ﴾.

---

(١) يعني أنه أنبل من قول الطبري وأشرف، وهو الصواب لما ذكره بعد ذلك، وقوله: «وإيضاحه» يعني: وتوضيح النبل والصحة... الخ.

(٢) سَنَّاه: أي سهلَّه ويَسَّره، يقال: سنَّيْتُ الشيءَ إذا فتحته ويسَّرته، وتسنَّى لي الشيءُ أي تَيَسَّر لي وتأَتَّى، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وأَعْلَـمُ علـمـاً لـيـس بـالظَّـنِّ أنَّـه ... إذا اللهُ سَنَّـى عَقْـدَ شَـيءٍ تَيَسَّـرا

وقد نقل أبو حيان في البحر عبارة ابن عطية هكذا: «في أمر شاءَه الله» من المشيئة.

وقرأ ابن كثير ـ في رواية قنبل ـ وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم ـ في رواية حفصٍ ـ: ﴿مَنْ حَيَّ﴾ بياءٍ واحدة مشددة، وقرأ نافع، وابن كثير ـ في رواية البزيِّ ـ وعاصمٌ ـ في رواية أبي بكر ـ: [منْ حَيِيَ] بإظهار الياءَين وكسر الأولى وفتح الثانية، فمن قرأ ﴿حَيَّ﴾: فلأن الياءَ قد لزمتها الحركة فصار الفعل بلزوم الحركة لها مشبهاً بالصحيح مثل عضَّ وشَمَّ ونحوه، ألا ترى أن حذف الياءِ من (جَوارٍ) في الجرّ والرفع لا يطَّرِدُ في حال النصب إذ قلت: «رأيتُ جَوارِيَ» لمشابهتها بالحركة سائر الحروف الصحاح، ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾[(١)]، وعلى نحو [حَيَّ] جاء قول الشاعر:

عَيُّوا بِأَمْرِهِمُ كما عَيَّتْ بِبَيْضَتِهَا الحَمامَةْ[(٢)]

ومنه قول لبيد:

سَأَلَتْني جارَتي عنْ أَمَتي وإذا مَا عَيَّ ذُو اللُّبِّ سَأَلْ[(٣)]

وقول المتلَمِّس:

فهذَا أَوَانُ العِرْضِ حَيٌّ ذُبَابُهُ زَنَابيرُهُ والأَزْرقُ المُتَلَمِّس[(٤)]

ويروى: جُنَّ ذُبابُهُ[(٥)].

---

(١) القيامة: ٢٦.

(٢) هذا البيت للشاعر الجاهلي المعروف عَبِيد بن الأبرص، وهو من قصيدة قالها بعد أن حبسه حُجْر الكندي والد امرىء القيس هو وأكثر قومه بني أسد حين امتنعوا عن دفع الجزية له في قصة طويلة عرف فيها بنو أسد بأنهم «عبِيد العصا» لأن حُجْرا كان يقتلهم بالعصا.
والقصيدة تتضمن مفاخر بني أسد، ورواية البيت في الديوان تؤكد ما أشرنا إليه، فلفظه فيه:
بَرِمَتْ بَنُو أَسَدٍ كَما بَرِمَتْ بِبَيْضَتِهَا الحَمَامَةْ
ورواية اللسان هي رواية ابن عطية هنا، وهي شاهد على أن (عَيَّ) تأتي مشددة الياءِ مثل (حَيَّ).

(٣) البيت غير موجود في ديوان لبيد، بل هو للنابغة الجعدي ضمن قصيدة مطلعها:
لمن الدار كأنضاءِ الخلل عهدها من حِقب العيش الأُول

(٤) المتَلَمِّس هو جرير بن عبد المسيح الضُّبَيْعي، وبيتُه هذا من قصيدة يتحدث فيها عن إبائه ويسوق فيها الكثير من الحكمة، والعِرْض: وادٍ في اليمامة، وحَيٌّ ذبابة أي عاش فيه بالخصب والحياة. و(زنابيره) بدل من (ذبابُه)، والأزرقُ المتلَمِّس: نوع آخر من الذباب أخضر اللون كبير الحجم، يقول مخاطباً النعمان: هذا موسم ذلك الوادي المسمَّى بالعِرْض وقد حامت فيه أنواع مختلفة وذلك دليل على خصبه، وقد سُمِّي المتَلَمِّسَ لقوله هذا.

(٥) في بعض النسخ: دقَّ ذبابُه.

قال أبو عليٍّ وغيره: هذا أنَّ كل موضع تلزمُ الحركةُ فيه ياءً مستقبلة[١] فالإدغام في ماضيه جائز، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[٢] لا يجوز الإدغام فيه لأن حركة النصب غير لازمة؟ ألا ترى أنها تزول في الرفع وتذهب في الجزم؟ ولا يُلتفت إلى ما أنشد بعضهم لأنه بيت مجهول:

وكأنَّها بينَ النِّساءِ سبيكَةٌ   تَمْشِي لِسُدَّةِ بَيْتِهَا فَتُعِيّ[٣]

قال أبو عليّ: وأما قراءَة من قرأ: [حَيِيَ] فبيَّن ولم يُدْغِم، فإن سيبويه قال: أخبرنا بهذه اللغة يونس، قال: وسمعنا بعض العرب يقول: «أَحْيِيَاء»[٤]، قال أبو حاتم: القراءَة إظهار الياءَين والإدغام حسَنٌ، فاقرأ كيف تعلمت فإن اللغتين مشهورتان في كلام العرب، والخطُّ فيه ياءٌ واحدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذه اللفظة استوعب أبو عليّ القول فيما تصرف من (حَيِيَ) كالحيّ الذي هو مصدر منه وغيره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

قال المهدوي: ﴿إِذْ﴾ نصب بتقدير: واذكر.

---

(١) هي الياءُ الثانية التي تأتي بعد الياءِ الأولى وتكون حركتها لازمة، وقد شرح ابن عطية الفرق بين الحركة اللازمة والحركة العارضة التي تزول بزوال العامل.

(٢) القيامة: ٤٠.

(٣) ينسب هذا البيت إلى الحطيئة مع أنه غير موجود في ديوانه، والسبيكة: القطعة من الذهب أو الفضة الخالصة من الخبث المصبوبة في قالب على صور معينة، والكلام هنا على التشبيه، والسدة: باب الدار، أو الظُّلَّة بباب الدار، أو السَّاحة بين يدي الباب، وقد جاء (تعيًّ) بالإدغام مع أنَّ حركة الياء الثانية غير لازمة.

(٤) على وزن أغنياء.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

أو بدل من [إِذْ] المتقدمة ، وهو أَحسن.

وتظاهرت الروايات أَن هذه الآية نزلت في رؤيا رآها رسول الله ﷺ، رأى فيها عدد الكفار قليلاً فأَخبر بذلك أصحابه فقويت نفوسهم، وحَرَصوا على اللقاءِ[1]، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿فِي مَنَامِكَ﴾ ، أي في نومك ، قاله مجاهد وغيره.

وروى عن الحسن أَن معنى قوله: ﴿فِي مَنَامِكَ﴾ أَي في عينك إذ هي موضع النوم ، وعلى هذا التأْويل تكون الرؤْية في اليقظة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا القول ضعيف ، وعليه فسّر النقاش وذكره عن المازني.

والضمير على التأْويلين ، من قوله: ﴿يُرِيكَهُمُ﴾ عائد على الكفار من أَهل مكة ، ومما يضعف ما رُوي عن الحسن أَن معنى هذه الآية يتكرر في التي بعدها لأَن النبي ﷺ مخاطب في الثانية أيضاً ، وقد تظاهرت الرواية أَن النبي ﷺ انتبه وقال لأَصحابه: (أَبشروا فلقد نظرت إلى مصارع القوم) ونحو هذا ، وقد كان علم أَنهم ما بين التسعمائة إلى الأَلف ، فكيف يراهم ببصره بخلاف ما علم؟ والظاهر أنه رآهم في نومه قليلاً قدْرُهم وحالهم وبأْسهم مهزومين مصروعين ، ويحتمل أنه رآهم قليلاً عددهم فكان تأْويل رؤْياه انهزامهم ، فالقِلَّة والكثرة على الظاهر مستعارة في غير العدد ، كما قالوا: «المرءُ كثير بأَخيه» إلى غير ذلك من الأَمثلة ، والفَشَل: الخَور عن الأَمر إمَّا بعد التَّلبُّس وإمَّا بعد العزم على التَّلبسُّ. و﴿وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ أَي: لتخالفتم ، و﴿فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ يريد: في اللقاءِ والحرب. و﴿سَلَّمَ﴾ لفظ يعُمَّ كل متخوف اتصل بالأَمر أَو عرض في وجهه فسَلَّمَ الله من ذلك كلّه ، وعبَّر بعض الناس بأن قال: سلَّم لكم أَمركم ونحو هذا مما يندرج فيما ذكرناه ، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أَي: بإيمانكم وكفركم فيجازي بحسب ذلك.

(١) أكمل أبو حيان في «البحر» الخبر: (وقال النبي ﷺ لأصحابه حين انتبه: أبْشروا ، لقد نظرتُ إلى مصارع القوم) ـ هذا والمراد بالقِلَّة هنا قِلَّةُ القدر والنجدة وأنهم مهزومون ، ولا يُحمل على قِلَّة العدد لأن رؤياه ﷺ حق ، وقد كان علم أنهم ما بين تسعمائة وألف ، فلا يمكن حمل ذلك على قِلَّة العدد.

وقرأ الجمهور من الناس: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ بشدّ النون ونصب المكتوبة[1]، وقرأت فرقة: ﴿ولكنِ اللهُ﴾ برفع المكتوبة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾ الآية. ﴿وَإِذْ﴾ عطف على الأُولى، وهذه الرؤْية هي في اليقظة بإجماع، وهي الرؤْية التي كانت حين التقوا ووقعت العين على العين، والمعنى أن الله تعالى لِمَا أراد مِنْ إنْفاذ قضائه في نُصرة الإسلام وإظهاره قَلَّل كل طائفة في عيون الأُخرى فوقع الخلل في التخمين والحزْر[2] الذي يستعمله الناس في هذا التجَسُّس كل طائفة على الأُخرى وتتسبب أَسباب الحرب، ورُوي في هذا عن عبد الله بن مسعود أنه قال: لقد قلت ذلك اليوم لرجل إلى جنبي: أَتظنهم سبعين؟ قال: بل هم مائة.

قال: فلما هزمناهم أَسرنا منهم رجلاً فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويَرد على هذا المعنى في التقليل ما رُوي أَن رسول الله ﷺ حين سأَل عما ينحرون كلَّ يوم فأُخبر أنهم يوماً عشراً ويوماً تسعاً قال: (هم ما بين التسعمائة إلى الألف)، فإما أَن عبد الله ومن جرى مجراه لم يعلم بمقالة رسول الله ﷺ، وإما أن نفرض التقليل الذي في الآية تقليل القدر والمهابة والمنزلة من النجدة، وتقدم القول في مثل قوله تعالى: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، والأَمر المفعول المذكور في الآيتين هو القصة بأَجمعها، وذهب بعض الناس إلى أَنهما المعنَيَيْن من معاني القصة، والعموم أَولى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ تنبيه على أَن الحوْل بأَجمعه لله تبارك وتعالى، وأَن كل أَمرٍ فَلَهُ وإِليه، وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر، والأَعمش: [ترْجِع] بفتح التاءِ وكسر الجيم، قال أَبو حاتم: وهي قراءَة عامة النَّاس، وقرأَ الأَعرج، وابن كثير، وأَبو عمرو، ونافع وغيرهم: [تُرْجَع] بضم التاءِ وفتح الجيم.

---

(١) المكتوبة: لفظ الجلالة (الله).

(٢) حَزْرُ الشيء: تقديرهُ بالتخمين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾.

هذا أمر فيه داعية إلى النصر وسبب العزِّ، وهي وصية من الله متوجهة بسبب التقييد الذي في آية الضَّعْف[(١)]، ويجري مع معنى الآية قول النبي ﷺ: (لا تتمنَّوْا لقاءَ العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا)[(٢)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهكذا ينبغي أن يكون المسلم في ولاية الإمارة والقضاء لا يطلب ولا يتمنى، فإن ابتُلِي صبر على إقامة الحق.

والفئة: الجماعة، أَصلها فِئَوة وهي من فَأَوْتُ أَي جمعت.

ثم أَمر الله تعالى بإكثار ذكره هنالك إذ هو عصمة المستنجد ووَزَرُ[(٣)] المستعين، قال قتادة: افترض الله ذكره عند أَشغل ما يكونون، عند الضراب بالسيوف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا ذكر خفي لأَن رفع الأَصوات في موطن القتال رديءٌ مكروه إذا كان أَلفاظاً[(٤)]،

---

(١) هي قوله تعالى في الآية (٦٦) من هذه السورة: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾.

(٢) قال ابن كثير في تفسيره: «ثبت في الصحيحيْن عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدوَّ حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: (يا أيُّها الناس، لا تتمنَّوا لقاءَ العدوّ، وأسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)، ثم قام النبي ﷺ وقال: «اللَّهم مُنْزِلَ الكتاب، ومُجْرِي السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم».
ثم نقل عن عبد الرزاق عن عبد الله بن عُمَر مثله. (تفسير ابن كثير ٣ ـ ٣٢٩، ٣٣٠).

(٣) الوَزَرُ: الملجأ والمعتصم (المعجم الوسيط).

(٤) اضطربت الأصول في هذه الجملة ـ ففي بعضها: «إذا كان إلغاطا»، وفي بعضها: إذا كان الغايط واحداً، والصواب ما ذكره محقق القرطبي ناقلاً عن ابن عطية: «إذا كان الذكر واحداً، فأما إن كان من الجميع... الخ».

فأما إن كان من الجميع عند الحملة فحسن فاتٌّ في عضد العدو ، وقال قيس بن عباد ، كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون الصوت عند ثلاث: عند قراءَة القرآن ، وعند الجنازة ، والقتال ، وقال النبي ﷺ: (اطلبوا إِجابة الدعاءِ عند القتال ، وإقامة الصلاة ، ونزول الغيث)[1] ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يكره التَّلَثُّم عند القتال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولهذا ـ والله أعلم ـ تيمَّنَ[2] المرابطون بطرحه عند القتال على ضنانتهم به.

و﴿ تُفۡلِحُونَ﴾: تنالون بُغْيَتَكُم وتبلغون آمالكم ، وهذا مثل قول لبيد:

أَفْلح بما شِئْتَ فقَدْ يُبْلَغُ بالضَّعْفِ وقَدْ يُخْدَعُ الأَريبُ[3]

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية ، استمرار على الوصية والأَخذ على أَيديهم في اختلافهم في أَمر بدر وتنازعهم ، و﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾ نصب بالفاءِ في جواب النَّهي ، قال أَبو حاتم في كتاب «إبراهيم»: «فتَفشِلُوا» بكسر الشين ، وهذا غير معروف[4] ، وقرأَ جمهور الناس: ﴿وَتَذۡهَبَ﴾ بالتاءِ من فوق ونصب الباءِ ، وقرأَ هُبَيْرَة عن حفص عن عاصم: [وتَذْهَبْ] بالتاءِ وجزم الباءِ ، وقرأَ عيسى بن عمر: [ويَذْهَبْ] بالياءِ من تحت وبجزم [يَذْهَبْ] ، وقرأَ أَبو حيوة: [ويَذْهَبَ] بالياءِ من تحت ونصب الباءِ ، ورواها أَبان ، وعصمة عن عاصم. والجمهور على أَن الريح هنا مستعارة

---

(١) أخرج الحاكم وصححه عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثنتان لا تُرَدَّان ، الدعاءُ عند النداءِ وعند البأس ، حين يلحم بعضهم بعضاً». (الدر المنثور).

(٢) وأيضاً اضطربت الأصول في هذه الجملة ، ففي بعضها: «يتَسَنَّنُ» ، وفي بعضها «اسْتنّ» ـ والتصويب عن القرطبي الذي قال: «والتصويب عن تفسيرابن عطية» ، والمراد أن المرابطين آثروا التبرك بترك اللثام عند القتال على شدة تمسكهم به.

(٣) المعروف أن البيت لعبيد بن الأبرص ، وهو من قصيدته المشهورة ـ على الرغم مما فيها من اضطراب فني ـ والتي يقول مطلعها:

أَقْفَــرَ مِــنْ أَهْلِــهِ مَلْحــوبُ فــالقُطَبِيَّــاتُ ، فــالــذَّنُــوبُ

وأَفْلح بما شِئْتَ: عِشْ به ، والأَريب: العاقل ، ورواية الديوان: «فقد يدرك» ، ويروى: «بالنَّوْك» بدلاً من «بالضعف» والمعنى: عشْ كما تشاءُ فلربما نال الضعيف بضعفه ما لا يناله القوي بقوته ، هذا وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢٢].

(٤) جاء في «التاج»: «فشَل يفشُل ككتب يكتُب ، وبه قُرِىء [فتَفشُلوا] ، وفشَل يفشِل كضَرب يضرِب ، وبه قرأ الحسن البصري ، وهما لغتان نقلهما الصاغاني ، ولهذا عقب أبو حيان في البحر على كلام أبي حاتم فقال: «وقال غيره: هي لغة».

والمراد بها النصر والقوة، كما تقول: «الريح لفلان» إذا كان غالباً في أمر، ومن هذا المعنى قول الشاعر وهو عبيد بن الأبرص:

كَمَا حَمَيْنَاكَ يَوْمَ النَّعْفِ مِنْ شَطِبٍ   والفَضْلُ لِلْقَوْمِ مِنْ ريحٍ ومِنْ عَدَدِ(١)

وقال مجاهد: الريح: النصر والقوة، وذهبت ريح أصحاب محمد ﷺ حين نازعوه يوم أُحد، وقال زيد بن علي: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ معناه: الرعب من قلوب عدوكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا حسن بشرط أن يعلم العدوّ بالتنازع، وإذا لم يعلم فالذاهب قوة المتنازعين فينهزمون، وقال شاعر الأنصار:

قَدْ عَوَّدَتْهُم ظُبَاهُم أَنْ تَكُونَ لَهُم   ريحُ القِتَالِ وأَسْلابُ الَّذين لَقوا(٢)

ومن استعارة الريح قول الآخر:

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَاغْتَنِمْهَا   فَإِنْ لِكُلِّ عَاصِفَةٍ سكُونُ(٣)

وهذا كثير مستعمل، وقال ابن زيد وغيره: الريح على بابها، وروي أن النصر لم يكن قطُّ إلا بريح تهب فتضرب في وجوه الكفار، واستند بعضهم في هذه المقالة إلى قوله ﷺ: (نُصِرتُ بالصَّبا)(٤)، وقال الحكم: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ يعني الصَّبا إذْ بها نصر محمد ﷺ وأُمته.

---

(١) شَطِب: اسم جَبَل بديار بني أسد، وفي معجم ما استعجم للبكري: «بديار بني تميم»، والنَّعْفُ: أسفل الجَبَل، أو المكان المرتفع في اعتراض، والفَضْلُ للقَوم: الريح معهم والعدد لهم، ويروى البيت: «مِن صوْتٍ ومن غَرد» ويريد بالغرد الصوت، والمعنى ـ على هذه الرواية الثانية ـ أن لهم صوتاً وجلبة يهزمون بها العدو.

(٢) الظُّبَةُ: حد السيف وما أشبهه، والجمع: ظُباً وظُبات وظِبُون، وريح القتال: النَّصر والغلبة فيه، والأسلاب: جمع سَلَب وهو ما مع القتيل من مال وسلاح ودابة، ولقوا: قابلوهم في الحرب، والمعنى: النصر دائماً لهم.

(٣) يروى: «لِكُلِّ خافقة» بدلاً من «لِكُلِّ عاصفة»، والقافية مرفوعة، واسم (إن) هنا ضمير الشأن، والخبر قوله: «لِكُلِّ خافقة سكون»، وهذا تصحيح لمن روى البيت: «فَإِنَّ لكُل عاصفة سكوناً» بالنصب، فالخطأ واضح، والدليل أن مِنْ هذه القصيدة البيت المعروف:

ولا تغفـل عـن الإِحسـان فيهـا   فمـا تَـدْري السُّكـونُ متـى يكـونُ

(٤) (نُصرْت بالصَّبا وأُهلكت عادٌ بالدَّبُور)، رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهناك حديث آخر نصّه: «نُصرت بالصَّبا وكانت عذاباً على من كان قبلي»، رواه الشافعي عن=

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا إنما كان في غزوة الخندق خاصة، وقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ إلى آخر الآية تَتْميم في الوصية وعِدَةٌ مُؤنسة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ الآية.

آية تتضمن الطعن على المشار إليهم وهم كفار قريش، وخُرّج ذلك على طريق النهي عن سلوك سبيلهم، والإشارة هي إلى كفار قريش بإجماع، والبَطَر: الأَشَر وغَمْط النعمة والشغل بالمرح فيها عن شكرها، والرِّياءُ: المباهاة والتصنع بما يراه غيرك، وهو فِعَالٌ من: رَائَى يُرَائي، سُهِّلت همزته، وروي أَن أبا سفيان لما أحسَّ أنه تجاوز بِعِيره الخوفَ من النبي ﷺ وأصحابه بعث إلى قريش فقال: «إن الله قد سلم عيركم التي خرجتم إلى نصرتها فارجعوا سالمين قد بلغتم مرادكم»، فأَتى رأْي الجماعة على ذلك، فقال أبو جهل: «والله لا نفعل حتى نأْتي بدراً ـ وكانت بدر سوقاً من أسواق العرب لها يوم موسم ـ فننحر عليها الإبل، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، ويسمع بنا العرب، ويهابنا الناس».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «اللَّهم، إن قريشاً أقبلت بفخرها وخُيلائها تحادّك وتكذِّب رسولك، اللَّهم، فأَحِنْها الغداةَ»[1]، وقال محمد بن كعب القرظي: خرجت قريش بالقيان والدفوف.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي غيرَهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لأَنهم أَحرى بذلك من أَن يقتصر صدهم على أنفسهم. وقوله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ

= محمد بن عمر مرسلاً، ذكر ذلك الإمام السيوطي في «الجامع الصغير»، ورمز إلى الحديث الأول بالصحة، ورمز إلى الثاني بالضعف، والصبًا: ريح مَهَبُّها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار (مؤنث)، والدبور: ريح تهب من المغرب وتقابل القبول وهي الصبًا.

(١) هذا جزء من حديث أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في الآية، وليس فيه الجملة الأخيرة، ومعنى: (فأحِنْها الغداة): فاجعل حَيْنها وهلاكها غداً، وتخريج الحديث عن (الدر المنثور).

مُحِيطٌ﴾ آية تتضمن الوعيد والتهديد لمن بقي من الكفار، ونفوذَ القَدَر فيمن مضى بالقتل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

التقدير: واذكروا إذْ، والضمير في ﴿لَهُمُ﴾ عائد على الكفار، والشيطان: إبليس نفسه. وحكى المهدوي وغيره أَن التزيين في هذه الآية وما بعده من الأَقوال هو بالوسوسة والمحادثة في النفوس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويضعف هذا القول أن قوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ ليس مما يلقى بالوسوسة. وقال الجمهور في ذلك بما رُوي وتظاهر أَن إِبليس جاءَ كفار قريش، ففي السير لابن هشام أنه جاءَهم بمكة، وفي غيرها أَنه جاءَهم وهُمْ في طريقهم إلى بدر وقد لحقهم خوف من بني بكر وكنانة لحروب كانت بينهم، فجاءَهم إبليس في صورة سُراقة بن مالك بن جعشم وهو سيِّد من ساداتهم، وقال لهم: «إني جارٌ لكم، ولن تخافوا من قومي وهم لكم أَعوان على مقصدكم، ولن يغلبكم أحدٌ»، فسُرّوا عند ذلك ومضوا لِطيَّتِهم[1]، وقال لهم: «أَنتم تقاتلون عن دين الآباءِ ولن تعدموا نصراً»، فروي أَنه لما التقى الجمعان كانت يده في يد الحارث بن هشام، فلما رأَى الملائكة نكص على عقبيه، فقال له الحارث: أَتفِرُّ يا سراقة؟ فلم يَلْو عليه[2]، ويروى أنه قال له ما تضمنت الآية، وروي أن عُمَيْر بن وهب ـ أَو الحارث بن هشام ـ قال له: أَين يا سراق؟ فلم يَلْو ودفع في صدر الحارث وذهب فوقعت الهزيمة[3]، فتُحُدِّث أَن سراقة فرَّ بالناس فبلغ ذلك

---

(١) الطِّيَّةُ: النيَّة، والحاجة.

(٢) يقال: مرَّ لا يلوي على أحد: لا يُقيم عليه ولا ينتظره.

(٣) اضطربت العبارات في الأصول في هذه الجملة، والتصويب عن كتب السيرة، والمفسرين الذين يأخذون عن ابن عطية كالقرطبي وأبي حيان.

سراقة بن مالك فأتى مكة فقال لهم: «والله ما علمت بشيءٍ من أمركم حتى بلغتني هزيمتكم، ولا رأيتكم ولا كنت معكم»، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: جاءَ إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه، رأيته في صورة رجل من بني مدلج، فقال: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ الآية.

و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف والعامل فيه معنى نفي الغلبة، ويحتمل أن يكون العامل متعلق ﴿لَكُمُ﴾، وممتنع أن يعمل [غَالِبُ] لأنه كان يلزم أن يكون: (لا غالبا)[١].

وقوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ معناه: فأنتم في ذمتي وحمايتي.

و﴿تَرَآءَتِ﴾: تفاعلت من الرؤية، أي رأى هؤلاء هؤلاءِ، وقرأ الأعمش، وعيسى بن عمر: [تَرَأَتْ] مقصورة، وحكى أبو حاتم عن الأعمش أنه أمال والراءُ مرقَّقة ثم رجع عن ذلك.

وقوله: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ معناه: رجع من حيث جاءَ، وأصل النكوص في اللغة: الرجوع القهقرى، قال زهير:

هُمْ يَضْرِبُون حبيكَ الْبَيْض إذْ لَحِقُوا ... لا ينكِصُونَ إذا ما استُلْحِموا وحَمُوا[٢]

كذا أنشد الطبري، وفي رواية الأصمعي: استلأموا، وبذلك فسر الطبري هذه الآية، وفي ذلك بُعْد، وإنما رجوعه في هذه الآية مُشَبَّه بالنكوص الحقيقي، وقال اللغويون: النكوصُ: الإحجام عن الشيء، يقال: أراد أمراً ثم نكص عنه، وقال تأَبَّطَ شرًّا:

ليس النُّكوصُ على الأَدْبارِ مكرُمَةً ... إنَّ المكارمَ إقدامٌ على الأَسَلِ[٣]

---

(١) لأنه يكون اسم (لا) مطولاً، والمطوَّل يعرب ولا يبنى.

(٢) البيت في الديوان، وهو من قصيدته التي يقول في مطلعها:

قِفْ بالديار التي لَمْ يعفُها القِدَمُ ... بلَى، وغيَّرها الأرواحُ والدِّيَمُ

والبَيْضُ: جمع بَيْضة، ما يوضع على الرأس كالخوذة، وحَبيك البيض: طرائقه، والواحدة: حبيكة، ينكصُون: يتراجعون ويُحجمون عن القتال، ونكَص على عقبيه: رجع عما كان عليه من الخبر، ولا يقال ذلك إلا في الرجوع عن الخبر خاصة، ونكَص ينكُص بضم الكاف وبكسرها في المضارع (قال ذلك في اللسان نقلاً عن أبي منصور الأزهري)، واستُلْحموا: أُدْركوا ولوبسوا في أثناء المعركة، وحَمُوا: اشتد غضبهم، أما استَلأموا (على رواية الأصمعي) فمعناها: لبسوا ما عندهم من عُدَّة، أو لبس كل واحد منهم لأْمَتَهُ وهي أداة الحرب كلها من الرمح والمِغْفر والبَيْضَة والسيف والدرع.

(٣) الأدبار: جمع دُبُر ـ بضم الباء وبسكونها ـ وهو الظَّهْر والاسْتُ، والأَسَلُ: الرماح وكل ما رُقِّق من=

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فليس هاهنا قهقرى، بل هو فِرار، وقال مؤَرج[١]: نكص هي رجع بلُغة سليم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ يبين أَنه إنما أراد الانهزام والرجوع في ضِد إِقباله، وقوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾ هو خذلانه لهم وانفصاله عنهم، وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ يريد الملائكة، وهو الخبيث إنما شرط أَن لا غالب من الناس فلما رأَى الملائكة وخرق العادة خاف وفرَّ، وفي الموطإِ وغيره أَن رسول الله ﷺ قال: «ما رُئِيَ الشيطان في يوم أَقل ولا أَحقر ولا أَصغر منه في يوم عرفة لما يرى من نزول الرحمة إلا ما رأَى يوم بدر، قيل: وما رأى يا رسول الله؟ قال: رأَى الملائكة يزَعُها جبريل»[٢]، وقال الحسن: رأَى إِبليس جبريل عليه السلام يقود فرسه بين يدي النبي ﷺ وهو معتجر ببردة وفي يده اللجام.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ قيل: إِن هذه معذرة كاذبة ولم تلحقه قط مخافة، قاله قتادة، وابن الكلبي، وقال الزجاج وغيره: بل خاف مما رأَى من الأَمر وهَوْله، وأَنه يومه الذي أُنظر إليه[٣]، ويقوي هذا أَنَّه رأَى خرق العادة ونزول الملائكة للحرب.

وحكى الطبري بسنده أَنه لما انهزم المشركون يوم بدر حين رمى رسول الله ﷺ بقبضة من التراب وجوه الكفار أَقبل جبريل ﷺ إلى إِبليس، فلما رآه إِبليس وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع يده ثم ولى مدبراً، فقال له الرجل: أَي سراقة تزعم أَنك لنا جار؟ فقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية، ثم ذهب.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية. العامل في

= الحديد ـ على التشبيه بالشوك الطويل، أو بنبات ذي أغصان كثيرة شائكة الأطراف من الفصيلة الأسلية ينبت في الماء أو في الأرض الرطبة وتصنع منه الحصر والحبال ـ فالنكوص على الأدبار فِرار وهزيمة كما قال المؤلف.

(١) هو مؤرج بن عمرو السدوسي، يكنى أبا فيد، مات سنة ١٩٥ هـ.

(٢) الحديث رواه مالك في الموطأ، وقال ابن كثير بعد أن أورده كاملاً بسنده: «هذا مرسل من هذا الوجه» ومعنى يَزَعُها: يُرتبُها ويسوّي صفوفها للحرب.

(٣) يعني: وظنَّ أنه يومه الذي أُنظِرَ إليه فخاف ونكص على عقبيه.

﴿إِذْ﴾ ﴿زَيَّنَ﴾ أو ﴿نَكَصَ﴾ لأن ذلك الموقف كان ظرفاً لهذه الأُمور كلها ، وقال المفسرون: إن هؤلاء الموصوفين بالنفاق ومَرْضَى القلوب إنما هم من أَهل عسكر الكفار لمَّا أشرفوا على المسلمين ورأَوا قِلَّتهم وقِلَّة عددهم قالوا مشيرين إلى المسلمين: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ ، أَي: اغْتَرُّوا فأَدخلوا أَنفسهم فيما لا طاقة لهم به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والنفاق أَخص من مرض القلب ، لأَن مرض القلب يطلق على الكافر وعلى من اعترضته شُبْهة وعلى من بينهما ، وكنى بالقلوب عن الاعتقادات إِذ القلوب محلها ، ورُوي في نحو هذا التأْويل عن الشعبي أَنْ قوماً ممن كان الإسلام داخل قلوبهم خرجوا مع المشركين إلى بدر ، منهم مَنْ أُكْرِه ، ومنهم من داجى وداهن[(١)] ، فلما أَشرفوا على المسلمين ورأَوا قِلَّتهم ارتابوا واعتقدوا أنهم مغلوبون فقالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ ، قال مجاهد: منهم قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأَبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن زمعة بن الأَسود ، وعليّ بن أمية بن خلف ، والعاصي بن منبه بن الحجاج[(٢)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولم يُذكر أَحَدٌ ممن شهد بدراً بنفاق إلا ما ظهر بعد ذلك من معتب بن قشير أَخي عمرو بن عوف فإِنه القائل يوم أُحُد: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾[(٣)] ، وقد يحتمل أن يكون منافقو المدينة لما وصلهم خروج قريش في قوة عظيمة قالوا عن المسلمين هذه المقالة ، فأَخبر الله بها نبيَّه في هذه الآية.

ثم أَخبر عزَّ وجلَّ بأَن من توكل على الله واستند إِليه فإِن عزَّة الله تبارك وتعالى وحكمته كفيلة بنصره وشدِّ أعضاده ، وخرجت العبارة عن هذا المعنى بأَوجز لفظ وأَبلغه.

---

(١) اختلفت النسخ الخطية في هذه الجملة ، فبعضها أسقط كلمة «داجى» ، وبعضها أثبتها (جاء) ، ومعنى داجى: أَخفَى ما في نفسه وداراه.

(٢) أثبت هذا الاسم الأخير في بعض النسخ: «العاصي بن أُمية» ، وآثرنا التي تتفق مع ما في الطبري والبحر المحيط.

(٣) آل عمران: ١٥٤.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

هذه آية تتضمن التعجب مما حلَّ بالكفار يوم بدر، قاله مجاهد وغيره، وفي ذلك وعيد لمن بقي منهم، وحذف جواب ﴿لَوْ﴾ إبهام بليغ.

وقرأ جمهور السبعة والناس: ﴿يَتَوَفَّى﴾ بالياءِ فأُسند فعل فيه علامة التذكير إلى مؤنث في اللفظ، وساغ ذلك إذ التأنيث غير حقيقي، وارتفعت ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ بـ ﴿يَتَوَفَّى﴾، وقال بعض مَنْ قرأ هذه القراءَة: إن المعنى: إذ يَتَوَفَّى الله الذي كفروا، و﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ رفع بالابتداء، و يَضْرِبُونَ: خبره، والجملة في موضع الحال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويضعف هذا التأْويل سقوط واو الحال، فإنها في الأَغلب تلزم مثل هذا[1]، وقرأَ ابن عامر من السبعة، والأعرج: [تتوفَّى] بالتاءِ على الإسناد إلى لفظ [الْمَلاَئِكَة]، و﴿يَضْرِبُونَ﴾في موضع الحال.

وقوله تعالى: ﴿وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ قال جمهور المفسرين: يريد أَسْتَاهَهُم، ولكن الله كريم يكني، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَراد ظهورهم وما أَدبر منهم، ومعنى هذا أَن الملائكة كانت تلحقهم في حال الإِدبار فتضرب أَدبارهم، فأَمَّا في حال الإِقبال فبيّن تمكن ضرب الوجوه.

وروى الحَسَن أَن رجلاً قال: يا رسول الله، رأَيت في ظهر أَبي جهل مثل الشِّراك[2]، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك ضرب الملائكة» وعبَّر بجمع الملائكة ومَلَك الموت واحد إذْ له على ذلك أَعوانٌ من الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ قيل: كانوا يقولون للكفار حينئذ هذا اللفظ

---

(١) قال أبو حيّان في «البحر»: «لا يضعفه إذ جاء بغير واو في كتاب الله وفي كثير من كلام العرب».
(٢) الشِّراك: سير النَّعْل. (المعجم الوسيط).

فحذف (يقولون) اختصاراً ، وقيل: معناه: وحالهم أن يقال لهم هذا ، والحريق: فعيل من الحرق.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ يحتمل أن يكون من قول الملائكة في وقت توفيتهم لهم على الصورة المذكورة ، ويحتمل أن يكون كلاماً مستأنفاً تقريعاً من الله عزَّ وجلَّ للكافرين حيِّهم وميِّتهم ، [وأنَّ] يصح أن تكون في موضع رفع على تقدير: والحكم أن ، ويصح أن تكون في موضع خفض عطفاً على (ما) في قوله سبحانه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ ، وقال مكّي ، والزهراوي: ويصح أن تكون في موضع نصب بإسقاط الباءِ ، وتقديره: «بأنَّ» فلما حذفت الباءُ حصلت في موضع نصب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا غير متَّجهٍ ولا بيِّن إلا أن تنصب بإضمار فعل.

وقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الآية ، الدأب: العادة في كلام العرب ، ومنه قوله امرىء القيس:

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا ... وجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ[1]

ويروى: كدينك ، ومنه قول خراش بن زهير العامري:

فَمَا زالَ ذاكَ الدَّأْبُ حتى تخاذَلَت ... هوازن وارْفَضَّتْ سليمٌ وعامِرُ

وهو مأخوذ من: «دأب على العمل» إذا لزمه ، ومنه قوله ﷺ لصاحب الجمل الذي هشَّ إليه وأقبل نحوه وقد ذلَّ ودمعت عيناه: (إنه شكا إليَّ أنك تجيعه وتُدئبُهُ)[2] ، فكأن العادة دُؤُوب ما.

---

(١) البيت من معلقة امرىء القيس ، والدأب: العادة ، ومأسَل: موضع ماءٍ ، وأم الحُوَيْرِث ، وأم الرَّباب: اسما امرأتين ، والخطاب في قوله «كدأبك» لنفسه ، فهو يلومها على شغفه وهيامه بالنساءِ مما يسبب له العذاب والدموع ، فبعد حبّه لأم الحويرث ولأم الرباب لم يتعظ ، ولم يرعو ويرجع عن الحب ، بل دأب عليه معانياً ما فيه من لوعة وشقاءٍ.

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده ، والدارمي في سننه ، ولفظه كما في مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن جعفر ، قال: (أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه ، فأسرّ إلي حديثاً لا أُخبر به أحداً أبداً ، وكان رسول الله ﷺ أحبَّ ما استتر به في حاجته هدف أو حائش نخل ، فدخل يوماً حائطاً من حيطان الأنصار ، فإذا جمل قد أتاه فجرجر وذرفت عيناه ، فمسح رسول الله ﷺ سراته وذفراه فسكن ، فقال: من صاحب الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: هو لي يا رسول الله ، فقال: أما تتقي الله في هذه البهيمة التي ملّككها الله؟ إنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه». (المسند ١ ـ ٢٠٤).

وقال جابر بن زيد، وعامر الشعبي، ومجاهد، وعطاءٌ: المعنى: كَسُنَن آل فرعون، ويحتمل أَن يراد: كعادة آل فرعون وغيرهم، فتكون عادة الأمم بجملتها لا على انفراد أُمة، إذ آل فرعون لم يكفروا وأُهلكوا مراراً بل لكل أُمة مرة واحدة، ويحتمل أَن يكون المراد: كعادة الله فيهم، فأَضاف العادة إليهم إذ لهم نسْبة إِليها كما يضاف المصدر إلى الفاعل وإلى المفعول، والكاف من قوله: ﴿كَدَأْبِ﴾ يجوز أَن تتعلق بقوله: ﴿وَذُوقُواْ﴾، وفيه بُعْد، والكاف على هذا في موضع نصب نعت لمصدر محذوف، ويجوز أن تتعلق بقوله: ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وموضعها أيضاً ـ على هذا ـ نصب كما تقدم، ويجوز أن يكون معنى الكلام: الأمر مثلُ دأب فرعون، فتكون الكاف في موضع خبر الابتداء، وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾ معناه: أَهلكهم وأَتى عليهم، بقرينة قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾، ثم ابتدأ الإِخبار بقوة الله تبارك وتعالى وشدَّة عقابه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ في موضع رفع على خبر الابتداء تقديره عند سيبويه: الأمر ذلك، ويحتمل أن يكون التقدير: وجب ذلك، والباءُ باءُ السبب[1].

وقوله: ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا﴾ جزم بـ ﴿لَمْ﴾ وجزمه بحذف النون، والأَصل: (يكونُ) فإذا دخلت (لم) جاءَ: (لم يكن)، ثم قالوا: (لم يك) كأَنهم قصدوا التخفيف فتوهموا دخول (لم) على (يكن) فحذفت النون للجزم، وحسُنَ ذلك فيها لمشابهتها حروف اللِّين التي تحذف للجزم، كما قالوا: «لم أُبال» ثم قالوا: «لم أُبل» فتوهموا دخول (لم) على (أُبال).

ومعنى هذه الآية الإِخبار بأَن الله عزَّ وجلَّ إذا أَنعم على قوم نعمة، فإِنه بلطفه ورحمته لا يبدأ بتغييرها وتكديرها حتى يجيءَ ذلك منهم بأَن يغيروا حالهم التي تراد

(١) يريد الباء في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾.

وتحسن منهم ، فإذا فعلوا ذلك وتلبسوا بالتكسب للمعاصي أو الكفر الذي يوجب عقابهم غير الله نعمته عليهم بنقمته منهم ، ومثال هذا: نعمة الله على قريش بمحمد ﷺ ، فكفروا وغيّروا ما كان يجب أن يكونوا عليه فغيَّر الله تلك النعمة بأن نقلها إلى غيرهم من الأنصار ، وأحلَّ بهم عقوبته.

وقوله تعالى: و﴿وأنَّ﴾ عطف على الأولى ، و﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي لكُلِّ وبِكُلِّ ما يقع من الناس في تغيير ما بأنفسهم لا يخفى عليه من ذلك سرٌّ ولا جهر.

وقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الآية ، الكاف من ﴿كَدَأْبِ﴾ في هذه الآية متعلقة بقوله: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟﴾ ، وهذا التكرير هو لمعنى ليس للأول ، إذ الأول دأب في أن هلكوا لمَّا كفروا ، وهذا الثاني دأب في أن لم يُغَيِّر نعمتهم حتى غيَّروا ما بأنفسهم ، وقد ذكرنا متعلقات الكاف في الآية الأُولى ، والإشارة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوم هود ، وصالح ، ونوح ، وشعيب ، وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ إلى ﴿يَتَّقُونَ﴾ ، المعنى المقصود تفضيل الدواب الذميمة كالخنزير والكلب العقور على الكافرين الذين حتم عليهم بأنهم لا يؤمنون ، وهذا الذي يقتضيه اللفظ ، وأما الكافر الذي يؤمن فيما يستأنفه من عمره فليس بشرِّ الدواب ، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ يحتمل أن يريد أن الموصوفين بـ ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ هم الذين لا يؤمنون المعاهدون من الكفار ، فكانوا شرّ الدواب على هذا بثلاثة أوصاف: الكفر ، والموافاة عليه ، والمعاهدة مع النقض. و﴿ٱلَّذِينَ﴾ ـ على هذا ـ بدل البعض من الكل ، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ﴾ الذين الأُولى ، فتكون بدل الشيءِ من الشيءِ وهما لعين واحدة ، والمعنى ـ على هذا ـ: الذين عاهدت فرقة أو طائفة منهم ، ثم ابتدأ يصف حال المعاهدين منهم بقوله: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ ، والمعاهدة في هذه الآية: المسالمة وترك الحرب.

وأجمع المتأولون أن الآية نزلت في بني قريظة ، وهي بعْدُ تَعُم كل من اتصف بهذه الصفة إلى يوم القيامة ـ ومن قال: «إن المراد بـ ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾ الناس» فقولٌ لا يستوفي المذمة ، ولا مرية في أن (الدواب) تعم الناس وسائر الحيوان ، وفي تعميم اللفظة في هذه الآية استيفاءُ المذمة ، وقوله: ﴿فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ يقتضي أن الغدر قد كان وقع منهم ، وتكرر ذلك.

وحديث قريظة هو أَنهم عاهدوا رسول الله ﷺ على أَلا يحاربوه ولا يعينوا عليه عدُوّاً من غيرهم ، فلما اجتمعت الأحزاب على النبي ﷺ بالمدينة غلب على ظن بني قريظة أن النبي ﷺ مغلوب ومستأصل ، وخدع حيَيُّ بن أَخطب النضري كعبَ بن أَسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم ، فغدروا ووالوا قريشاً وأَمَدوهم بالسلاح والأَدراع ، فلما انجلت تلك الحال عن النبي ﷺ أَمره الله بالخروج إليهم وحربهم ، فاستنزلوا وضربت أعناقهم بحكم سعد بن معاذ ، واستيعاب القصة في سير ابن هشام ، وإنما اقتضبت منها ما يخص تفسير الآية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩ ﴾.

دخلت النون مع ﴿ فَإِمَّا ﴾ تأْكيداً ، ولتفرق بينها وبين (إِمَّا) التي هي حرف انفصال في قولك: جاءَني إما زيد وإما عمرو ، و﴿ تَثْقَفَنَّهُمْ ﴾ معناه: تأْسرهم وتحصلهم في ثقافك ، أو تلقاهم بحال ضعف تقدر عليهم فيها وتغلبهم ، وهذا لازم من اللفظ لقوله: ﴿ فِي ٱلْحَرْبِ ﴾ ، وقيل: ثَقِفَ: أَخذ بسرعة ، ومن ذلك قولهم: رجل ثقِفٌ لقِفٌ[1].

وقال بعض الناس: معناه: تُصَادِفَنَّهم ، إلى نحو هذا من الأَقوال التي لا ترتبط في المعنى ، وذلك أَن المُصَادَفَ قد يُغْلَب فيمكن التشريدُ به وقد لا يُغْلَب ، والثِّقاف في اللغة: ما تُشَدُّ به القناة ونحوها ، ومنه قول الشاعر:

إنَّ قَنَاتِي لنَبْعٌ ما يُؤَيِّسُهَا ... عَضُّ الثِّقَافِ ولا دُهْنٌ ولا نارُ[2]

---

(١) عن اللسان: «اللِّحياني: رجلٌ ثَقْفٌ لَقْفٌ وثَقِفٌ لقِفٌ وثقيفٌ لَقيفٌ بين الثقافة واللقافة ، ابن السِّكيت: رجلٌ ثَقفٌ لَقْفٌ إذا كان ضابطاً لما يحويه قائماً به» ، والأصل أن يقال: ثَقْفٌ وثَقيفٌ بمعنى حاذق فَهِم ، ثم أتبعوه فقالوا: ثقفٌ لقفٌ.

(٢) القَناة: الرُّمح ، والنَّبْعُ: شجر ينبت في قُلَّة الجبل تُتَّخذ منه القسي والسهام ، ويقال: فلان صليب النبع ، والمراد أنها من نوع فائق الجودة والمتانة ، يُؤَيِّسُها: يُذَلِّلها ويؤثر فيها ، والثِّقافُ: أداة من حديد أو خشب تُثَقَّف بها الرماح لتَسْتَوِيَ وتَعْتَدِل. يصف رمحه بأنه من شجر جيد أصيل لايؤثر فيه =

وقال آخر:

تَدْعو قُعَيْناً وَقَدْ عضَّ الحَدِيدُ بِهَا ... عَضَّ الثِّقَافِ على صُمِّ الأَنابيب(١)

وقوله تعالى: ﴿فَشَرِّدْ﴾ معناه: طرِّدْ وخوِّفْ وأَبْعِدْهُ عن مِثْل فعلهم، والشريد: المبْعَدُ عن وطن أَو نحوه، والمعنى: بفعل تفعله بهم من قَتْل أَو نحوه يكون تخويفاً لمَنْ خلفهم، أَي لِمَنْ يأْتي بعدهم بمثل ما أَتَوْا به، وسواءٌ كان معاصراً لهم أَم لا.

وما تقدم الشيءَ فهو بين يديه، وما تأَخر عنه فهو خلفه، فمعنى الآية: فإِن أَسرت هؤلاءِ الناقضين في حربك لهم، فافعل بهم من النقمة ما يكون تشريداً لمن يأْتي خلفهم في مثل طريقتهم، والضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ عائد على الفرقة المُشَرَّدة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: نكل بهم مَنْ خلفهم، وقالت فرقة: «شرِّدْ بهم» معناه: سمِّع بهم، حكاه الزهراوي عن أَبي عبيدة، والمعنى متقارب لأن التسميع بهم في ضمن ما فسرناه أَولاً، وفي مصحف عبد الله: [فَشَرِّذْ] بالذال منقوطة، وهي قراءَة الأعمش، ولم يحفظ (شرذ) في لغة العرب، ولا وجه لها إلا أن تكون الذال المنقوطة تُبدل من الدال كما قالوا: لحم خراديل وخراذيل(٢)، وقرأَ أَبو حيوة ـ وحكاها المهدوي عن الأَعمش بخلاف عنه: ﴿مِنْ خَلْفِهِم﴾ بكسر الميم مِنْ قوله: [مِنْ] وخفض الفاءِ من قوله: [خَلْفِهم] والترجي في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بحسب البشَر، و﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ معناه: يتَّعظون.

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ الآية، قال أكثر المؤلفين في التفسير: إن هذه الآية هي في بني قريظة، وحكاه الطبري عن مجاهد، والذي يظهر من أَلفاظ القرآن أَنَّ أَمْر بني قُرَيْظَة قد انقضى عند قوله تعالى: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾، ثم ابتدأَ تبارك وتعالى

= تثقيف بالحديد ولا دهن ولا نار.

(١) قُعَيْن على وزن زُبَيْر: بطْن من أسد وهو قُعَيْن بن الحارث بن ثعلبة بن داود بن أسد، سئل بعض العلماء: أي العرب أفصح؟ فقال: نصر قُعَيْن أو قُعَيْن نصر، وقيل: بل هما قُعَيْنان، قُعَيْن في بني أسد، وقُعَيْن في قيس عيلان. والقَعَن (بالتحريك) قصَر في الأنف فاحش، وقد اشتق منه قعين هذا اسماً لهذا الحي من العرب، والأنابيب: جمع أنبوبة، وهي كعب القصبة والرمح، والرمح الأصم أمتن من الأجوف.

(٢) خَرَاديل: جمع خُرْدُولة، وهي العضو الوافر من اللحم، والخَرْذَل: لغة في الخَرْدل. (المعجم الوسيط).

في هذه الآية بأَمره بما يصنعه في المستقبل مع من يخاف منه خيانة إلى سالف الدهر[١]، وبنو قُرَيْظَة لم يكونوا في حدٍّ من تخاف خيانته فترتب فيهم هذه الآية، وإنما كانت خيانتهم ظاهرة مشتهرة، فهذه الآية هي عندي فيمن يستقبل حاله من سائر الناس غير بني قريظة، وخوف الخيانة أن تبدو جَنادِعُ الشر[٢] من قبل المعاهدين، وتَّصل عنهم أقوالٌ، وتُحَسُّ من تلقائهم مبادىء الغدر، فتلك المبادىء معلومة، والخيانة التي هي غايتهم مَخُوفة لا مُتيقَّنَة، وحينئذ ينبذ إليهم على سواءٍ، فإن التزموا السلم على ما يجب وإلا حوربوا. وبنو قُرَيْظَة نبذوا العهد مرتين[٣]، وقال يحيى بن سلام: «تَخَاف» في هذه الآية بمعنى: تعْلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس كذلك، وقوله تعالى: ﴿خِيَانَةً﴾ يقتضي حصول عهد، لأَن من ليس بينك وبينه عهد فليست محاربته لك خيانة، فأَمر الله تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ إِذا أَحسَّ من أَهل عهد ما ذكرنا وخاف خيانتهم أن يلقي إِليهم عهدهم، وهو النَّبْذ، ومفعول قوله: ﴿فَٱنۢبِذۡ﴾ محذوف تقديره: فانبذ إِليهم عهدهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتقتضي قوة هذا اللفظ الحضَّ على حربهم ومناجزتهم إن لم يستقيموا. وقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ قيل: معناه: حتى يكون الأمر في بيانه والعلم به على سواءٍ منك ومنهم، فتكونون فيه ـ أَي في استشعار الحرب ـ سواءً، وقيل: معنى قوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ على معدلة، أَي: فذلك هو العَدْلُ والاستواءُ في الحق، وقال المهدوي: معناه: جهراً لا سرّاً.

---

(١) تأمل أنه يتحدث عن المستقبل ولا يتفق مع هذا قوله: «إلى سالف الدهر»، فإن معنى (سَلَفَ) هو تقدم وسبق، والسالف: المتقدم، قال الجوهري وحكاه اللسان: «سلَف يسْلُف سَلفاً مثال طَلَب يطْلُب طَلَباً أي: مضى».

(٢) جَنادِعُ الشر: أوائله، والجُنْدعُ: جُنْدب أسود له قرنان طويلان، وهو أضخم الجنادب، وكل جُندب يؤكل إلا الجُندع، وجنادع الضَّب: دوابّ أصغر من القردان تكون عند جُحْره، فإذا بدت هي عُلم أن الضب خارج، فيقال حينئذ: بدت جنادِعُه، ويقال للشرير المُنْتظر هلاكه: «ظهرت جنادعُه والله جادِعُه»، ويضرب مثلاً للرجل الذي يأتي عنه الشر قبل أن يُرى. (عن اللسان).

(٣) في بعض النسخ: «نبذوا العهد مبتدئين».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا نحو الأول، وقال الوليد بن مسلم: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ معناه: على مَهَل، كما قال تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واللغة تأبى هذا القول، وذكر الفراءُ أن المعنى: انبذ إليهم على اعتدالٍ وسواءٍ من الأمر، أيْ: بيّن لهم على قدر ما ظهر منهم، لا تفرط ولا تفجأ بحرب، بل افعل بهم مثلما فعلوا بك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يعني موازنة ومقايسة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ يحتمل أن يكون طعناً على الخائنين من الذين عاهدهم النبي ﷺ، ويحتمل أن يريد: فانبذ إليهم على سواءٍ حتى تبعد عن الخيانة فإن الله لا يحب الخائنين، فيكون النبذ ـ على هذا التأويل ـ لأجل أن الله لا يحب الخائنين.

والسَّواءُ في كلام العرب قد يكون بمعنى العدل والمَعْدلة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾(٢)، ومنه قول الراجز:

فَاضْرِبْ وُجُوهَ الْغُدَّرِ الأَعْداءِ   حَتَّى يُجِيبُوك إِلَى السَّواءِ(٣)

وقد يكون بمعنى الوسط، ومنه قوله تعالى: ﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾(٤).

---

(١) التوبة: ١. وجزء من الآية (٢) من سورة التوبة.
(٢) آل عمران: ٦٤.
(٣) الغَدْرُ: نَقْضُ العَهْد، وصَفَهم بأنهم أعداءٌ لا يوفون بعهودهم، وقد رُوي: «واضرب»، والسواءُ والسَّوِيَّةُ: العَدْلُ والنَّصَفَة، قال زهير:
أَرُوني خُطَّةً لا عَيْبَ فيها   يُسَوِّي بَيْنَنَا فيها السَّوَاءُ
أي: يُسَوِّي فيها العدلُ بيننا، وقال البراءُ بن عازب الضَّبيُّ:
أَتَسْأَلُني السَّوِيَّةَ وَسْطَ زَيْدٍ؟   ألا إنَّ السَّوِيَّةَ أن تُضَامُوا
أي: أتسألني العدلَ والإنصاف؟
(٤) الصافات: ٥٥.

ومنه قول حسَّان بن ثابت:

يــا وَيْــحَ أنصــارِ النَّبــي ورَهْطِــه بَعْـدَ الْمُغَيَّـبِ فـي سـواءِ المُلْحَـد[1]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾، قرأ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرو، وعاصم، والكسائي: ﴿ولا تَحْسِبنَّ﴾ بالتاءِ مخاطبة للنبي ﷺ، وبكسر السِّين - غير عاصم فإنَّه فتحها - ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مفعول أول، و﴿سَبَقُوٓا۟﴾ مفعول ثان، والمعنى: فاتُوا بأَنفسهم وأَنجوها، ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ بكسر أَلف [إنَّ] على القطع والابتداءِ، و﴿يُعْجِزُونَ﴾ معناه: يُفْلِتُونَ ويُعجزون طالبهم، فهو مُعَدَّى (عجز) بالهمزة، تقول: عجز زيد وأعجزه غيره وعجَّزَه أيضاً قال سويد:

وأَعْجــزنــا أَبــو ليْلــى طُفَيْــل صحيـح الجِلْـدِ مِـنْ أَثَـر السِّلاح

وروي أن الآية نزلت فيمن أَفلت من الكفار في حرب النبي ﷺ، كقريش في بدر وغيرهم، فالمعنى: لا تظنهم ناجين بل هم مدركون، وقيل: معناه: لا يُعجزون في الدنيا، وقيل: المرادُ: في الآخرة.

قال أبو حاتم: وقرأ مجاهد، وابن كثير، وشبل: [ولاَ تِحْسِبنَّ] بكسر التاءِ، وقرأَ الأَعرج، وعاصم، وخالد بن إلياس: [تَحْسَبَنَّ] بفتح التاءِ من فوق وبفتح السين، وقرأَ الأَعمش: [ولاَ يحْسَبُ] بفتح السين والياءِ من تحت وحذف النون، وقرأَ أبو جعفر بن القعقاع، وأَبو عبد الرحمن، وابن محيصن، وعيسى: [ولا يَحْسِبَنَّ] بياءِ من تحت وسين مكسورة ونون مشددة، وقرأَ حفص عن عاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياءِ على الكناية عن الغائب وبفتح السين، فإِمَّا أَن يكون في الفعل ضمير النبي ﷺ، أو يكون التقدير: ولا يحْسَبَن أحد، ويكون قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مفعولاً أولاً، و﴿سَبَقُوٓا۟﴾ مفعولاً ثانياً، وإما أَن يكون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم الفاعلون، ويكون المفعول الأَول مضمراً، و﴿سَبَقُوٓا۟﴾ مفعولاً ثانياً، وتقدير هذا الوجه: ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا، وإما أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هو الفاعل وتُضْمر (أَنْ) فيكون التقدير: ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا، وتَسُدّ «أَنْ سبقوا» مسدَّ المفعولين.

---

(١) رواه في اللسان، وفي القرطبي: «أصحاب النبي»، ومثل الآية الكريمة وبيت حسّان هذا في أن (سواء) تكون بمعنى (وسط) حديث ابن مسعود: «يُوضع الصِّراط على سواء جهنم».

قال الفارسي: ويكون هذا كما تأوله سيبويه في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾(١)، فالتقدير: «أَنْ أَعْبُد».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ونحوه قول الشاعر:

أَلاَ أَيُّهَـذَا الـزَّاجِـري أَحْضُـرُ الـوَغَـى . . . . (٢)

قال أبو علي: وقد حذفت (أَنْ) وهي مع صلتها في موضع الفاعل، وأنشد أحمد بن يحيى في ذلك:

ومـا راعَنَـا إِلاَّ يَسيـرُ بِشُـرْطَـة وعهْـدِي بـه قَينا يَسيـرُ بِكِيـرِ(٣)

وقرأ ابن عامر وحده من السبعة: ﴿أَنَّهم لَا يُعْجِزُونَ﴾ بفتح الألف من ﴿إِنَّهُم﴾، ووجهه أن يقدر بمعنى: لأَنهم لا يعجزون، أَي: لا تحسبن عليهم النجاة لأَنهم لا ينجون، وقرأَ الجمهور: ﴿يُعْجِزُونَ﴾ بسكون العيْن، وقرأَ بعض الناس فيما ذكر أبو حاتم: [يُعَجّزون] بفتح العين وشدِّ الجيم، وقرأ ابن محيصن: [يُعجزونِ] بكسر النون، ومنحاها [يُعجزونَني] بإلحاق الضمير، قال الزجاج: الاختيار فتح النون، ويجوز كسرها على أَن المعنى: «إِنهم لا يُعجزونني»، وتحذف النون الأُولى لاجتماع النونين، كما قال الشاعر:

---

(١) الزمر: ٦٤.

(٢) الشاعر هو طرفة بن العبد، والبيت من معلقته، والرواية: «ألا أيهذا اللائمي...»، ورواية «الزَّاجري» هي التي رواها الشَّنتمري، والوغى: الحرب، والمعنى: يا أيها الذي تزجرني أو تلومني على الاشتراك في الحروب وشهود اللذات، هل تضمن ليالخلود إن كففت عنها؟ يريد أن أحداً لا يضمن له الخلود في الدنيا ولهذا فإن من حقه أن يتمتع بما يريد قبل الرحيل.
و(أحْضُرَ) هنا يجوز فيها الرفع والنصب.

(٣) يروى: «وما راعني»، والشُّرْطة هو الشُّرْطي، والجمع: شُرَط، وقد نَقَل في الصحاح عن الأصمعي أنهم سُمُّوا شُرَطاً لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها، وقال أبو عبيدة: لأنهم أُعِدُوا، والقَيْن: الحدَّادُ، وجمعه قُيُون، والكيرُ: كبر الحداد وهو زِقٌّ أو جِلْدٌ غليظ ذو حافاتٍ، وأما المبني من الطين فهو الكُور، وهذا البيت يذكره النحويون غير منسوب في موضع خلافهم في الفاعل ونائبه: هل يكونان جملة أم لا؟ فالمشهور المنع، وأجاز ذلك هشام وثعلب مطلقاً، وفصل الفراءُ وجماعة بين الفعل القلبي والمعلق عن العمل وغيره، ودليل هشام وثعلب على الجواز هذا البيت، راجع «مغني اللبيب» لابن هشام.

تــراهُ كــالثَّغــام يُعَــلُّ مِسْكــاً يسُــوءُ الفَــالِيــاتِ إذَا فَلَيْنِــي[(١)]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

البيت لعمرو بن معديكرب، وقال أبو الحسن الأخفش في قول مُتَمّم بن نُوَيْرَة:

وَلَقَــدْ عَلِمْــتُ ولا محــالــة أنَّنــي للحــادِثــات، فَهَــلْ تَــرَيْنــي أجْــزَعُ؟[(٢)]

هذا يجوز على الاضطرار، فقال قوم: حذف النونَ الأُولى وحذْفُها لا يجوز لأَنها موضع الإعراب، وقال أبو العباس المُبَرّد: أَرى فيما كان مثل هذا حذْفَ الثانية، وهكذا كان يقول في بيت عمرو بن معد يكرب.

وفي مصحف عبد الله: «ولاَ يَحْسب الَّذينَ كفَرُوا أَنَّهُمْ سَبقُوا إِنَّهم لا يُعْجِزون»، قال أبو عمرو الداني: بالياءِ من تحت وبغير نون في (يحسب).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذكرها الطَّبَرِيُّ بنُونٍ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾.

المخاطبة في هذه الآية لجميع المؤمنين، والضمير في قوله تعالى [لَهُمْ] عائد على

---

(١) البيت كما قال لعمرو بن معد يكرب، هكذا في سيبويه (٢ ـ ١٥٤)، والخزانة ٢ ـ ٤٤٥، والضمير في (تراه) للشَّيب في الرأس، والثَّغام بفتح الثاءِ المشددة: نباتٌ إذا يبس صار أبيض كالثلج، وبه يشبه الشيب، والعَلُّ والعَلَلُ هو الشرب ثانية، أو الشرب تباعاً، والمعنى هنا: يُسْقَى المسكَ مرَّةً بعد مرَّة، والفاليات: مخرجات القمل من الرأس، وهو مفعول به للفعل (يسوءُ)، قال الأخفش في هذا البيت: «حذَف النون الأخيرة لأن هذه النون وقاية للفعل وليست باسم، فأما النون الأولى فلا يجوز طرحها لأنها الاسم المضمر» هكذا في «الصحاح» عنه، وفي «الصحاح» أيضاً: «وعلى هذا قرأ بعض القراء: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ فأذهب إحدى النونين استثقالاً، وقال أبو حية النمري:

أَبِــالْمَــوْتِ الــذي لابُــدَّ أَنّــي مُــلاقٍ لا أبــاكِ تُخَــوِّفينــي؟

أراد: (تخوفينني) فحذف.

(٢) يريد: تَرَيْنَني، والمعنى أنه لا يجزع أو يخاف من مصائب الأيام مع علمه بأنه معرض لها.

الذين ينبذ إليهم العهد، أو على الذين لا يعجزون على تأويل من تأول ذلك في الدنيا، ويحتمل أن يعود على جميع الكفار المأمور بحزبهم في ذلك الوقت ثم استمرت الآية في الأمة عامة، إذ الأمر قد توجَّه بحرب جميع الكفار.

وقال عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما: القوة: ذُكُور الخيل، والرِّباط: الإناث، وهذا قول ضعيف، وقالت فرقة: القُوَّة: الرَّمْيُ، واحتجت بحديث عقبة بن عامر أن الرسول ﷺ قال: «أَلا إنَّ القوَّة الرَّميُ، ألا إنَّ القوَّة الرَّميُ، ألا إنَّ القوَّة الرَّميُ»[1]، وقال السدي: القوة: السلاح، وذهب الطبري إلى عموم اللفظة، وذكر عن مجاهد أنه رؤي يتجهز وعنده جُوالق[2] فقال: هذا من القوة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الصواب، والخيلُ والمركوبُ في الجملة والمحمولُ عليه من الحيوان والسلاح كله والملابسُ الباهية والآلات والنفقاتُ كلُّها داخلة في القوة، وأُمر المسلمون بإعداد ما استطاعوا من ذلك، ولما كانت الخيل هي أصل الحروب وأوزارها والتي عُقد الخير في نواصيها، وهي أقوى القوى وحصون الفرسان خصَّها الله بالذكر تشريفاً، على نحو قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[3]، وعلى نحو قوله: ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[4]، وهذا كثير، ونحوه قول رسول الله ﷺ: «جُعلت لي الأَرض مسجداً وطهوراً»[5]، هذا في البخاري وغيره، وقال في صحيح مسلم: «جعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً» فذكر التراب على جهة التحفي به، إذ هو أعظم أجزاءِ الأرض مع دخوله في عموم الحديث الآخر، ولما كانت السهام من أنجع ما يُتعاطى في الحرب وأنكاه في العدو وأقربه تناولاً للأرواح

(١) أخرجه الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو يعقوب إسحق بن إبراهيم القراب في كتاب فضل الرمي، والبيهقي في شعب الإيمان. (الدر المنثور).

(٢) الجُوالِق بضم الجيم وبكسرها: الغرارة. (المعجم الوسيط).

(٣) البقرة: ٩٨.

(٤) الرحمن: ٦٨.

(٥) رواه ابن ماجة عن أبي هريرة، وأبو داود عن أبي ذر، هكذا قال السيوطي في «الجامع الصغير» ورمز له بالضعف.

خصها رسول الله ﷺ بالذكر والتنبيه عليها، وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى يُدخل بالسهم الواحد الثلاثة من المسلمين الجنة، صانعه، والذي يحتسب في صنعته، والذي يرمي به»[١]، وقال عمرو بن عبسة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رمى بسهم في سبيل الله أَصاب العدو أو أَخطأَ فهو كعتق رقبة»[٢]، وقال رسول الله ﷺ: «ارموا واركبوا، وأنْ ترموا أحب إلي من أن تركبوا»[٣].

ورباطُ الخيل جمع ربَطٍ ككَلْبٍ وكلاب، ولا يكثر ربطها إلا وهي كثيرة، ويجوز أن يكون الرِّباط مصدراً من رَبَط، كصاح صياحاً ونحوه، لأن مصادر الثلاثي غير المزيد لا تنقاس[٤]، وإن جعلناه مصدراً من رابط فكأَن ارتباط الخيل واتخاذها يفعله كل واحد لفعل آخر له فيُرابط المؤمنون بعضهم بعضاً، فإذا ربط كل واحد منهم فرساً لأَجل صاحبه فقد حصل بينهم رباط، وذلك الذي حضَّ في الآية عليه، وقد قال ﷺ: «من ارتبط فرساً في سبيل الله فهو كالباسط يده بالصدقة لا يقبضها»[٥]، والأَحاديث في هذا المعنى كثيرة.

وقرأ الحسن، وعمرو بن دينار، وأَبو حيوة: [وَمِنْ رُبُط] بضم الراءِ والباءِ، وهو

---

(١) لفظه كما أثبته في «الجامع الصغير» هو: (إن الله تعالى يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنَّة، صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومنبله) وقال إنَّ الإمام أحمد رواه في مسنده، وكذلك رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، ثم رمز له السيوطي بالضعف.

(٢) رواه في «الجامع الصغير» بلفظ: (مَن رمى بسهم في سبيل الله فهو له عدل محرر) ثم رمز إلى أن رواته هم الترمذي، والنسائي، والحاكم في مستدركه ـ عن أبي نجيح، ورمز له بعد ذلك بأنه صحيح.

(٣) هذا جزء من حديث رمز له الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» بأنه حديث حسن، وقد رواه الإمام أحمد في مسنده، والترمذي، والبيهقي في شعب الإيمان ـ عن عقبة بن عامر ـ والحديث بتمامه هو: «ارموا واركبوا، وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا، كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا رمي الرجل بقوسه، أو تأديبه فرسه، أو ملاعبته امرأته، فإنهن من الحق، ومن ترك الرمْي بعدما علمه فقد كفر الذي علمه».

(٤) قال أبو حيان في «البحر المحيط» تعليقاً على ذلك: «ليس بصحيح، بل لها مصادر مُنْقاسَةٌ ذكرها النحويون».

(٥) هذا جزءٌ من حديث طويل رواه الدارمي في (اللِّباس)، ورواه الإمام أحمد في مسنده عن سهل بن الحنظلية، قال الراوي عن سهل وكان جليساً لأبي الدرداء: كان بدمشق رجل من أصحاب النبي ﷺ يقال له: ابن الحنظلية... إلى أن قال: ثم مرّ بنا يوماً آخر فقال له أبو الدرداء: كلمة تنفعنا ولا تضرك: قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «إن المنفق على الخيل في سبيل الله كباسط يديه بالصدقة لا يقبضها».

جمع رباطٍ ككتابٍ وكُتُب، كذا نصَّه المفسرون، وفي جمعه وهو مصدر غير مختلف نظر[(١)].

و﴿تُرْهِبُونَ﴾ معناه: تُفْزعون وتُخَوّفون، والرهبة: الخوف، قال طفيل الغنوي:

وَيْـلُ أمّ حـيٍّ دفعْتـمْ فـي نُحـورهِـمْ بَني كلابٍ غداةَ الرُّعْبِ والرَّهْبِ[(٢)]

ومنه راهِب النصارى، يقال: رَهِبَ إذا خاف، فـ﴿تُرْهِبُونَ﴾ معدى بالهمزة.

وقرأ الحسن، ويعقوب: [تُرَهّبون] بفتح الراء وشدّ الهاءِ معدى بالتضعيف، ورويت عن أبي عمرو بن العلاء، قال أبو حاتم: وزعم عمرو أن الحسن قرأ: [يُرهِبون] بالياءِ من تحت وخففها، فهو على هذا تعدى بالتضعيف، وقرأ ابن عباس، وعكرمة: «تُخْزونَ بِهِ عدوَّ اللهِ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ذكرها الطبري تفسيراً لا قراءةَ، وأثبتها أبو عمرو الداني قراءَة.

وقوله تعالى: ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ذكر الصفتين وإن كانت[(٣)] متقاربة إذ هي متغايرة المعنى، وبذكرهما يتقوّى الذم وتتضح وجوه بُغضنا لهم، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: [عَدُوّاً للهِ] بتنوين ﴿عَدُوَّ﴾ وبلامٍ في المكتوبة[(٤)]، والمراد بهاتين الصفتين منْ قَرُب وصاقَبَ[(٥)] من الكفار وكانت عداوته متحركة بَعْدُ، ويجوز أن يراد بهما جميع الكفار، ويبين هذا من اختلافهم في قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ الآية، قال مجاهد: الإشارة بقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ إلى قريظة، وقال السُّدي: إلى أهل فارس،

---

(١) عقب أبو حيان في «البحر» على ذلك بقول: «ولا يتعين كونه مصدراً، ألا ترى إلى قول أبي زيد: إنه من الخيل الخَمْسُ فما فوقها».

(٢) هذا البيت واحد من ثلاثة أبيات قالها طُفَيل الغنوي يمدح بها بني جعفر بن كلاب، وهو يصفهم بالشجاعة وبأن مَنْ عاداهم فلأمه الويل والثكل، ويُرْوَى: «لله قومٌ دفَعْتُم في جنوبهم»، وأشار محقق الديوان إلى أن هذه الرواية الثانية في النقائض، وقال محقق تفسير الطبري: «ورأيناها ثمّة» ـ والويل هو الهلاك والعذاب.

(٣) يُريد: وإن كانت الصفات متقاربة فإنها متغايرة في المعنى، وظاهر اللفظ يقتضي التثنية ولكنا وجدنا النص هكذا في الأصول.

(٤) المكتوبة هي لفظ الجلالة.

(٥) صاقَبَه صِقَاباً ومصاقَبَةً: قارَبَهُ وواجَهَهُ، يقال: جارٌ مصاقب.

وقال ابن زيد: الإشارة إلى المنافقين، وقالت فرقة: الإشارة إلى الجن، وقالت فرقة: هم كل عدوّ للمسلمين غير الفرقة التي أُمر النبي ﷺ أن يُشرّد بهم من خلفهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الخلاف إنما ينبغي أن يترتب على ما يتوجه من المعنى في قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾، فإذا حملنا قوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ على عمومه، ونفينا علم المؤمنين بهذه الفرقة المشار إليها جملة واحدة، وكان العلم بمعنى المعرفة لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد لم يثبت من الخلاف في قوله: [وآخَرِين] إلا قول من قال: «الإشارة إلى المنافقين»، وقول من قال: «الإشارة إلى الجن»، وإذا جعلنا قوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ مجازاً بيّناً أو نحو هذا مما نفيد به نفي العلم عنهم حَسُنت الأَقوال، وكان العلم متعدياً إلى مفعولَيْن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الوجه أَشبه عندي، ورجح الطبري أن الإشارة إلى الجن، وأَسند في ذلك ما رُوي من أن صهيل الخيل ينفر الجن، وأن الشيطان لا يدخل داراً فيها فرس للجهاد، ونحو هذا، وفيه ـ على احتماله ـ نظر، وكان الأَهم في هذه الآيات أن يبرز معناها في كل ما يقوّي المسلمين على عدوهم من الإنس وهم المحاربون والذين يدافعون على الكفر، ورهبتُهم من المسلمين هي النافعةُ للإسلام وأهله، ورهبةُ الجن فزعُهُمْ لا غناء له في ظهور الإسلام، وهو أجنبي جداً، والأَولى أن يُتأَول أن المسلمين إذا ظهروا وعزوا هابهم من جاورهم من العدوّ المحارب لهم، فإذا اتصلت حالهم تلك بمن بعدُ من الكفار داخلته الهيبة وإن لم يقصد المسلمون إرهابهم، فأولئك هم الآخرون[1].

ويحسُن أن يقدر قوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ بمعنى: «لا تعلمونهم فازعين راهبين ولا تظنون ذلك بهم، والله تعالى يعلمهم بتلك الحالة»، ويحسُن أيضاً أن تكون الإشارة إلى المنافقين على جهة الطعن عليهم، والتنبيه على سوءِ حالهم، وليستريب

(١) قال القرطبي بعد نقل هذه الآراء: «ولا ينبغي أن يُقال فيهم شيءٌ، لأن الله سبحانه قال: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فكيف يدعي أحد علماً بهم، إلا أن يصح حديث جاء في ذلك».

بنفسه كل من يعلم منها نفاقاً إذا سمع الآية، ولِفَزَعهم ورَهْبتهم غناءٌ كثير في ظهور الإسلام وعُلُوِّه.

وقوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِمْ﴾ بمنزلة قولك: دون أن يكن هؤلاءِ، فـ «دون» في كلام العرب و«من دون» يقتضي عدم المذكور بعدها من النازلة التي فيها القول، ومنه المثل: «وأَمِرَّ دونَ عُبَيْدَةَ الوذَمُ»(١).

ثم تفضَّل تبارك وتعالى بِعِدَةِ المؤمنين على إنفاقهم في سبيل الله بأَن النفقة لابُدَّ أن تُوفَّى، أي أن تجازى ويُثابُ عليها، ولزوم هذا هو في الآخرة، وقد يمكن أن يُجازي الله تعالى بعض المؤمنين في الدنيا مجازاة مضاعفة إلى مجازاة الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ الآية، الضمير في [جَنحُوا] هو للذين نبذ إليهم على سواءٍ، وجَنَح الرجل إلى الأمر إذا مالَ إليه وأَعطى يده فيه، ومنه قيل للأَضلاع: جوانح لأنها مالت على الحُشوة(٢)، وللخِباءِ: جناح، وجنحت الإبل إذا مالت أَعناقها في السَّيْر، وقال ذو الرُّمَّة:

إذا مات فوْقَ الرَّحْل أَحْيَيْتُ رُوحَه ... بذِكْرَاكِ والعِيسُ المراسِيلُ جُنَّحُ(٣)

وجَنَح الليلُ إذا أَقبل وأَمال أطنابه(٤) على الأرض.

ومنه قول النابغة:

جــوانِــحُ قــدْ أيْقَــنَّ أنَّ قَبيلَــهُ ... إذا ما الْتقَى الجمعْانِ أَوَّلُ غالِبِ(٥)

(١) تقدمت الإشارة إلى هذا المثل عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وأَمِرَّ: أُحْكِم، والوَذَمُ: سَيْرٌ تُشَدُّ به أُذُن الدلو، وجمعه أَوْذُم وأَوْذامٌ، ويضرب هذا المثل لمن يحكم الأمر دونه. (مجمع الأمثال للميداني ٢ ـ ٢٨٥).

(٢) الحِشْوة بضم الحاءِ ويكسرها: الأمعاءُ.

(٣) الرَّحْل: ما يوضع فوق ظهر البعير للركوب عليه. والعيس: الإبل البيض، والمراسيل: سهْلة السير التي تعطيك ما عندها عفواً دون إجهاد لها أو لك، وجُنَّح: مائلة صدورها إلى الأرض، وقيل: مائلة في سيرها من النشاط، يريد أنَّه يغني بأشعاره فيحيى روحه.

(٤) الأطْناب: جمع طُنُب بضمتين، والطُّنُب: حبل الخباءِ، يقال: خِباءٌ مُطَنَّب ورواقٌ مُطَنَّب، أي مشدودٌ بالأطْناب.

(٥) البيت في وصف الطيور التي تتبع الجيش، ويوضح هذا البيتُ الذي قبْلَه، وفيه يقول:

إذا مـا غـزا بـالجَيْش أبْصَرْتَ فـوقَـهُ ... عَصَـائِـبَ طيْـر تَهْـتـدي بعَصَـائـبِ

والقبيل: الجماعة من قوم شتى تكون من الثلاثة فصاعداً، وقد فسّر ابن عطية رحمه الله كلمة «جوانح».

أي موائل، وقال لبيد:

جُنُوحَ الهالِكيِّ على يديهِ ... مُكِبّاً يَجْتَلِي نُقَبَ النِّصَالِ[١]

وقرأ جمهور الناس: ﴿لِلسَّلْمِ﴾ بفتح السين وشدِّها، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: [للسِّلْم] بكسرها وشدها، وهما لغتان في المسالمة.

ويقال أيضاً: (السَّلَم) بفتح السين واللام، ولا أحفظها قراءة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَٱجْنَحْ﴾ بفتح النون، وهي لغة تميم، وقرأ الأشهب العقيلي: [فاجنُح] بضم النون وهي لغة قيس، قال أبو الفتح:

وهذه القراءة هي القياس، لأن فَعَلَ إذا كان غير متعد فمستقبله[٢].

يفعُل بضم العين أقيس، قعَد يقعُد أقيس من جلَس يجلِس، وعاد الضمير في ﴿لَهَا﴾ مؤنثاً إذ السَّلم بمعنى المسالمة والهدنة، وقيل: السّلم مؤنثة كالحرب، ذكره النحاس، وقال أبو حاتم: يذكَّر السَّلم.

وقال قتادة، والحسن بن أبي الحسن، وعكرمة، وابن زيد:

هذه الآية منسوخة بآيات القتال في (براءَة)[٣].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد يحتمل ألاَّ يترتب نسخها بها بأن يُعنى بهذه من تجوز مصالحته، وتبقى تلك التي في (براءة) في عَبَدة الأوثان، وإلى هذا ذهب الطبري، وقول الجماعة صحيح أيضاً إذ كان الجنوح إلى سلْم العرب مستقراً في صدر الإسلام فنَسَخت ذلك آية (براءَة)

---

(١) البيت مع الأبيات السابقة عليه في وصف ثور وحشي ناشط كثير الحركة ضلَّ عن القطيع الذي كان يرعى معه، وبات في حِمَى بعض الأشجار يحرك قرنه كلما تحركت أغصان الشجر أو قطرت على ظهره، وقد أكَبَّ كما يكبُّ الصَّيقل الذي يشحذ السيوف، ومعنى جُنُوح: إكْباب، أي أكبَّ مثْل إكباب، والهالكيّ: الصيقلي الذي يشحذ السيوف على يديه أو يصنعها، ويجتلى: يجْلو، والنُّقَب: الصدأ الذي ظهر في النصال، والصورة التي عرضها لبيد في هذه الأبيات وما تبعها من معركة بين الثور والكلاب من روائع الصور في الشعر العربي.

(٢) أي: مُضَارعُه.

(٣) كقوله تعالى: في الآية: (٥): ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.
وقوله في الآية (٣٦): ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾.

ونبذت إليهم عهودهم ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾(١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول بعيد من أن يقول ابن عباس رضي الله عنهما ، لأن الآيتين مدنيّتان ، وقوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أمرٌ في ضمنه وعيد.

قوله عزّ وجلّ:

﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

الضمير في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا ﴾ عائد على الكفار الذين قيل فيهم: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا ﴾ ، وقوله: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ ﴾ يريد: بأن يظهروا له السَّلم ويبطنوا الغدر والخيانة ، أي فاجنح وما عليك من نياتهم الفاسدة. ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴾ أي كافيك ومعطيك نُصرةً وإظهاراً ، وهذا وعدٌ محضٌ. و﴿ أَيَّدَكَ ﴾ معناه: قوَّاكَ ، ﴿ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ يريد: بالأنصار بقرينة قوله: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية ، وهذه إشارة إلى العداوة التي كانت بين الأوس والخَزْرج في حروب بعاث ، فألّف الله تعالى قلوبهم على الإسلام ، وردّهم متحابّين في الله ، وعددت هذه النعمة تأنيساً لمحمد ﷺ ، أي: كما لطف بك ربُّك أولاً فكذلك يفعل آخراً.

وقال ابن مسعود: نزلت هذه الآية في المتحابِّين في الله ، وقال مجاهد: إذا تراءى المتحابان فتصافحا وتضاحكا ، تحاتَّت خطاياهم ، فقال له عَبْدَة بن أبي لبابة: إن هذا ليسير ، فقال له: لا تقل ذلك ، فإن الله يقول: ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ ، قال عَبْدة: فعرفتُ أنه أفقه مني.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله تَمثُّل حسَنٌ بالآية ، لا أن الآية نزلت في ذلك ، بل تظاهرت أقوال

(١) محمد: ٣٥.

المفسرين أنها في الأَوس والخزرج كما ذكرنا ، ولو ذهبَ ذاهبٌ إلى عموم المؤمنين في المهاجرين والأَنصار ، وجعل التأليف ما كان بين جميعهم من التحابّ حتى تكون أُلفة الأَوس والخزرج جزءاً من ذلك لَسَاغَ ذلك ، وكل تآلف في الله فتابع لذلك التآلف الكائن في صدر الإِسلام ، وقد روى سهل بن سعد عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن مألفة ، لا خير فيمن لا يأْلف ولا يؤلف»[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والتشابُه هو سبب الأُلفة ، فمن كان من أَهل الخير أَلِف أشباهه وأَلِفوه.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

قال النقاش: نزلت هذه الآية بالبيداءِ في غزوة بدر قبل القتال ، وحكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في الأَوس والخزرج خاصة ، قال: ويقال: إنها نزلت حين أَسلم عمر رضي الله عنه وكمل المسلمون أربعين ، قاله ابن عمر ، وأَنس ، فهي ـ على هذا ـ مكيَّة.

و﴿حَسْبَكَ﴾ في كلام العرب ، و[شَرْعُكَ][2] بمعنى: كافيك ويكفيك ، والمحسب: الكافي ، وقالت فرقة: معنى هذه الآية: يكفيك الله ويكفيك من اتَّبعك من المؤمنين ، فـ [مَنْ] ـ في هذا التأْويل ـ رفع عطفاً على اسم الله عزَّ وجلَّ ، وقال عامر الشعبي ، وابن زيد: معنى الآية: حسبك الله وحسب من اتَّبعك من المؤمنين ، فـ[مَنْ] ـ في هذا التأويل ـ في موضع نصب عطفاً على موضع الكاف ، لأن موضعها نصب على المعنى لِـ (يَكْفيك) التي سدّت [حَسْبُك] مسدَّها ، ويصح أن تكون [مَنْ] في موضع خفضٍ بتقدير محذوف كأَنه قال: وحسب ، وهذا كقول الشاعر:

أَكُلَّ امْرِىءٍ تحْسَبِينَ امْرءاً ... ونارٍ تَوَقَّدُ باللَّيلِ نارا؟[3]

---

(١) لفظه في «الجامع الصغير» للإمام السيوطي: (المؤمن يألف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف) ، ثم قال: رواه الإمام أحمد في مسنده عن سهل بن سعد ، وذكر السيوطي أنه حديث صحيح ، ولكن الرواية في مسند الإمام أحمد: (المؤمن مألف. . .) كما ذكر ابن عطية ، (راجع المسند ٥ ـ ٣٣٥) ، وبلفظ (مألف) ذكره في «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي».

(٢) يقال في المثَل: «شَرْعُكَ ما بلَّغكَ المحَلَّ» أي: يكفيك من الزاد ما بلَّغك مقصدك. (مجمع الأمثال للميداني).

(٣) نُسب هذا البيت لجارية بن الحجاج ، وحارثة بن حمران ، وعدي بن زيد العبادي ، وأبي دؤاد ـ وهو=

التقدير: «وكلّ نارٍ»، وهذا الوجه من حذف المضاف مكروه، بابُه ضرورة الشعر[١]، ويروى البيتَ «وناراً»، ومن نحو هذا قول الشاعر:

إذا كانت الهَيْجاءُ وانْشَقَّتِ العَصَا   فحَسْبُكَ والضَّحّاكُ سَيْفٌ مُهَنَّدُ[٢]

يروى «الضحاكُ» مرفوعاً، و«الضحاكَ» منصوباً، و«الضحاكِ» مخفوضاً، فالرفع عطف على قوله: «سيفٌ» بنيّةِ التأخير، كما قال الشاعر:

. . . .   عليْكَ ورَحْمَةُ اللهِ السَّلامُ[٣]

ويكون «الضحاك» ـ على هذا ـ محسباً للمخاطب[٤]، والنصب عطفٌ على موضع الكاف من قوله: «حَسْبُكَ»، والمُهنَّد ـ على هذا ـ محسب للمخاطَب، و«الضحاك» على تقدير محذوف، كأنه قال: «فحسبك وحسب الضحاك».

قوله عزّ وجلّ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

= في كتاب سيبويه ١ ـ ٣٣، وابن عقيل ٢ ـ ٢٠، والكامل ٢٤٧، ٨٢٥، والسيوطي ٢٣٩.

(١) قال أبو حيان في «البحر المحيط» تعقيباً على ذلك: «وليس بمكروه ولا ضرورة، وقد أجازه سيبويه في الكلام وخرَّج عليه البيت وغيره من الكلام الفصيح». (البحر المحيط ٤ ـ ٥١٦).

(٢) لم نقف على قائل البيت، و«كان» هنا تامة، والهيجاء: الحرب، وانشقت العصا: تفرقت الجماعة، وقد ذكر ابن عطية بالتفصيل الأوجه الثلاثة في إعراب كلمة «الضحاك»، وقد روي بها البيت، وذكر صاحب اللسان البيت دليلاً على أن الكاف في (حَسْبُكَ) في موضع نصب كما هي في الآية الكريمة، وذكر أن (مَنْ) في موضع نصب أيضاً.

(٣) هذا عجز بيت للأحوص، والبيت بتمامه:

ألا يا نخلةً مِنْ ذاتِ عِرْقٍ   عليْكِ ورحمةُ اللهِ السلامُ

هكذا ذكره في الخزانة ١ ـ ١٩٢، ٣١٢ ـ وفي مجالس ثعلب ١ ـ ١٩٨، رُوي الشطر الثاني: «بَرُودِ الظِّلِّ شاعكم السَّلامُ»، وعلى هذا فلا شاهد فيه على العطف، وتقدير العطف بنيَّةِ التأخير كما في رواية الخزانة وابن عطية: «عليك السلامُ ورحمةُ الله»، فـ (رحمة) معطوفة على (السلام) على نيّة التأخير، والنخلة كناية عن امرأة، ومعنى «شاعَكم»: عَمَّكُم وصَحِبَكُم.

(٤) أي: هو الكافي للمخاطب.

قوله تعالى: ﴿حَرِّضِ﴾ معناه: حُثَّهم وحُضَّهم. قال النقاش: وقرئت [حَرِّص] بالصاد غير منقوطة، والمعنى متقارب، والحارض ـ الذي هو القريب من الهلاك ـ لفظة مباينة لهذه ليست منها في شيء[١].

وقالت فرقة من المفسرين: المعنى: حرِّضْ على القتال حتى يبين لك فيمن تركه أنه حُرِّض.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول غير ملتئم ولا لازم من اللفظ، ونحا إليه الزجاج.

والقتالُ مفترض على المؤمنين بغير هذه الآية، وإنما تضمنت هذه الآية أَمر النبي ﷺ بتحريضهم على أَمر قد وجب عليهم من غير هذا الموضع.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن﴾ إلى آخر الآية في لفظ خبر ضمنه وعد بشرط، لأَن قوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ﴾ بمنزلة أَن يقال: إنْ يصبرْ منكم عشرون يَغْلِبُوا، وفي ضمنه الأَمر بالصبر، وكسرت العين من [عِشرون] لأَن نسبة عشرين من عشرة نسبة اثنين من واحد، فكما جاءَ أَول اثنين مكسوراً كسرت العين من عشرين، ثم اطرد في جُموع أَجزاءِ العشرة، فالمفتوح كأَربعة وخَمسة وسبعة فُتح أَول جمعه، والمكسور كستَّة وتِسْعَة كُسر أَول جمعه، هذا قول سيبويه، وذهب غيره إلى أَن (عشرين) جمع عِشْر الإِبل، وهو ورودها للتِّسع[٢]، فلما كان في عَشرة وعَشرة عِشْرٌ وعِشْرٌ ويومان من الثالث جمع ذلك على عِشْرين، كما قال امرؤ القيس:

. . . . ثـلاثيـنَ شَهْـراً في ثـلاثـة أَحْـوالِ[٣]

---

(١) يقال: حَرَضَ يحرُض ويحرِض حرَضاً وحُروضاً: هَلَك، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ﴾، وهذا معنى آخر غير معنى حَرَّض أي حَثَّ وحَضَّ. (اللسان).

(٢) إذا مُنعت الإبل من الماء تسعاً ثم وردت في العاشر فهو «عِشْر الإبل».

(٣) هذا عجز بيت، والبيت بتمامه:

وهَـلْ يَنْعَمَـنْ مَـنْ كـانَ أَقْـرَبُ عَهْـدِهِ ثـلاثيـن شَهْـراً فـي ثـلاثـةِ أحْـوالِ؟

وهو في الديوان، ورواية الأصمعي: يعِمَنْ، ورواية الطوسي والسكري وأبي سهل: أقرب عهده، والبيت في «معاني القرآن» لابن النحاس، ورقة ١٢٩ وروايته: آخر عهده، وفي الخصائص ٢ ـ ٣١٣: أحدث عهده.

لما كان في الثلاثين حولٌ وحولٌ وبعض الثالث.

وتظاهرت الروايات عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من الصحابة بأَن ثبوت الواحد للعشرة كان فرضاً من الله عزَّ وجلَّ على المؤمنين، ثم لمَّا شق ذلك عليهم حط الفرض إلى ثبوت الواحد للاثنين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو النَّسخ، لأَنه رفع حكم مستقر بحكم آخر شرعي، وفي ضمنه التخفيف إذ هذا من نسخ الأَثقل بالأَخف، وذهب بعض الناس إلى أَن ثبوت الواحد للعشرة إنما كان على جهة ندب المؤمنين إليه، ثم حط ذلك حين ثقل عليهم إلى ثبوت الواحد للاثنين، وروي أَيضاً هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال كثير من المفسرين: وهذا تخفيف لا نسخ إذ لم يستقر لفرض العشرة حكم شرعي، قال مكي: وإنما هو كتخفيف الفطر في السفر وهو لو صام لم يأْثم وأَجزأَه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر، ولا يمتنع كون المنسوخ مباحاً من أَن يقال: نُسخ، واعتبر ذلك في صدقة النجوى، وهذه الآية التخفيف فيها نسخ للثبوت للعشرة، وسواءٌ كان الثبوت للعشرة فرضاً أو ندباً هو حكم شرعي على كل حال، وقد ذكر القاضي ابن الطيب أَن الحكم إذا نُسخ بعضه أو بعض أوصافه أو غير عدده فجائز أَن يقال له: نسخ، لأَنه حينئذ ليس بالأَول، وهو غيره، وذكر في ذلك خلافاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي يظهر في ذلك أَن النسخ إنما يقال حينئذ على الحكم الأَول مقيداً لا بإِطلاق، واعتبر ذلك في نسخ الصلاة إلى بيت المقدس[1].

---

(١) من أسرار الفصاحة في التعبير القرآني هنا ما ذكره المفسرون عن التقييد بالصبر، إذ جاء هذا التقييد في أول كل شرط ﴿عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ و﴿مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ﴾، ثم حذف من الشرط الثاني ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا﴾ ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ﴾، وسبب الحذف من الشرط الثاني دلالة الأول عليه، وفي المقابل قُيّد الشرط الثاني بقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ على حين حذف من الشرط الأول في قوله ﴿يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾. فالقيد المذكور في الجملة الأولى يحذف من الثانية، والقيد المذكور في الثانية يحذف من الأولى ليحدث في الآيتين توازن.

وقرأ حمزة، والكسائي وعاصم: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ﴾ في الموضعين بياء على تذكير العلامة، ورواها خارجة عن نافع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بحسب المعنى، لأن الكائن في تلك المائة إنما هو رجال، فذلك في الحمل على المعنى كقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[1]، إذ أمثالها حسنات. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: [إِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ] بالتاءِ في الموضعين على تأنيث العلامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بحسب اللفظ والمقصد، كأنه أراد: إن تكن فرقة عددها مائة. وقرأ أبو عمرو بالياءِ في صدر الآية، وبالتاءِ في آخرها، ذهب في الأولى إلى مراعاة ﴿يَغْلِبُوا۟﴾، وفي الثانية إلى مراعاة ﴿صَابِرَةٌ﴾، قال أبو حاتم: وقرأ الأعرج [إِنْ تَكُنْ] بالتاءِ من فوق ﴿مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ وجعلها كلها على التاءِ.

قال القاضي: أبو محمد رحمه الله:

إلا قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ﴾ فإنه لا خلاف في الياءِ من تحت. وقوله: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ معناه: لا يفهمون مراشدهم ولا مقصد قتالهم، ولا يريدون به إلا الغَلبة الدنياوية، فهم يخافون الموت إذا صُبر لهم، ومن يقاتل ليَغْلِب أو يستشهد فيصير إلى الجنة أثبت قدماً لا محالة.

وروى المفضل عن عاصم: [وعُلِم] بضم العين وكسر اللام على البناءِ للمفعول، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، ابن عامر، والكسائي، وابن عمرو، والحسن، والأعرج، وابن القعقاع، وقتادة، وابن أبي إسحق: [ضُعْفاً] بضم الضاد وسكون العين. وقرأ عاصم، وحمزة، وشيبة، وطلحة: [ضَعْفاً] بفتح الضاد وسكون العين، وكذلك اختلافهم في سورة الروم[2]، وقرأ عيسى بن عمر: [ضُعُفاً] بضم

---

(١) الأنعام: ١٦٠.

(٢) في قوله تعالى في الآية: ٥٤ من سورة الروم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾.

الضاد والعين، ذكره النقاش، وهي مصادر بمعنى واحد، قال أَبو حاتم: من ضم الضاد جاز له ضم العين، وهي لغة، وحكى سيبويه الضَّعْف والضُّعْف لغتان بمنزلة الفَقْر والفُقْر، حكى الزهراوي عن أَبي عمرو بن العلاءِ أَنه قال: ضم الضاد لغة أَهل الحجاز، وفتحها لغة تميم، ولا فرق بينهما في المعنى، وقال الثعالبي في كتاب «فقه اللغة» له: الضَّعف بفتح الضاد في العقل والرأي، والضُّعف بضمها في الجسم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ترده القراءَة، وذكره أَبو غالب بن التياني غير منسوب.

وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع أيضاً «ضُعَفاءَ» بالجمع كظريف وظرفاءَ، وحكاه النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ لفظ خبر في ضمنه وعدٌ وحضٌ على الصبر، ويُلحظ منه وعيدٌ لِمَن لمْ يصبر بأَنه يُغلب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾.

هذه الآية تتضمن ـ عندي ـ معاتبة من الله عزَّ وجلَّ لأَصحاب نبيِّه ﷺ، والمعنى: ما كان ينبغي لكم أَن تفعلوا هذا الفعل الذي أَوجب أَن يكون للنبي أَسرى قبل الإثخان، والإِخبار هو لهم، ولذلك استمر الخطاب بـ ﴿تُرِيدُونَ﴾، والنبي ﷺ لم يأمر باستبقاءِ الرجال وقت الحرب ولا أَراد قط عرَض الدنيا، وإِنما فعله جمهور مباشري الحرب، وجاءَ ذكر النبي ﷺ في الآية مشيراً إلى دخوله ﷺ في العتب حين لم يَنْه عن ذلك حين رآه من العريش وأَنكره سعد بن معاذ، ولكنه ﷺ شغله بغْتُ الأَمر وظهور النصر، فترك النهي عن الاستبقاءِ، ولذلك بكى ﷺ وأَبو بكر حين نزلت هذه الآية، ومرَّ كثير من المفسرين على أَن هذا التوبيخ إنما كان بسبب إشارة من أَشار على النبي ﷺ بأَخذ الفدية، وذلك أَن رسول الله ﷺ لما جمع أَسرى بدر استشار فيهم أَصحابه، فقال أَبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله هم قرابتك، ولعل الله أَن يهديهم بعْدُ إِلى الإسلام، ففادِهم واستبقِهم ويتقوى المسلمون بأَموالهم، وقال

عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يا رسول الله ، بل نضرب أَعناقهم فإنهم أئمة الكفر ، وقال عبد الله بن رواحة: بل نجعلهم في وادٍ كثير الحطب ثم نضرمه عليهم ناراً ، وقد كان سعد بن معاذ قال وهو مع رسول الله ﷺ في العريش وقد رأى الأسر: لقد كان الإثخان في القتل أَحب إليَّ من استبقاء الرجال: فأخذ رسول الله ﷺ بقول أَبي بكر رضي الله عنه ومال إليه ، فنزلت هذه الآية مخبرة أن الأَوْلى على سائر الكفار كان قتل أَسرى بدر ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية والمسلمون قليل ، فلما كثروا واشتد سلطانهم نزل في الأَسر: ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾[1] ، وذكر الطبري ، وغيره أَن رسول الله ﷺ لما تكلَّم أَصحابه في الأَسرى بما ذكر دخل ولم يُجبهم ، ثم خرج فقال: «إن الله تعالى يُلين قلوب رجال ويشدد قلوب رجال حتى تكون أَشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أَبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] ، ومثل عيسى قال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[3] ، ومثلك يا عمر مثل نوح قال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[4] ، ومثل موسى قال: ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[5] ، ثم قال رسول الله ﷺ: «أنتم اليوم فلا يُفلتن منهم رجل إلا بفدية أو ضرب عنق»[6] وفي هذا الحديث قال عمر رضي الله عنه: «فَهَوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أَبو بكر ولم يَهْوَ ما قلت».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه حجة على ذكر «الهوى» في الصلاح.

وقرأت فرقة: [مَا كَان لِلنَّبي] معرفاً ، وقرأَ جمهور الناس: ﴿ لِنَبِيٍّ ﴾ ، وقرأ أَبو

---

(١) محمد: ٤.

(٢) إبراهيم: ٣٦.

(٣) المائدة: ١١٨.

(٤) نوح: ٢٦.

(٥) يونس: ٨٨.

(٦) الحديث مروي من طرق كثيرة ، وقد أخرجه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والترمذي وحسَّنه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وأخرج مثله أحمد عن أنس رضي الله عنه ، وكذلك أخرج مثله ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والمضمون واحد ، ولكن توجد اختلافات يسيرة في الألفاظ. (الدر المنثور).

عمرو بن العلاءِ وحده: [أَنْ تَكُونَ] على تأنيث العلامة مراعاة لِلَفْظ الأَسرى ، وقرأَ باقي السبعة وجمهور الناس: ﴿أَن يَكُونَ﴾ بتذكير العلامة مراعاة لمنع الأَسرى ، وقرأَ جمهور الناس والسبعة: ﴿أَسْرَىٰ﴾ ، وقرأَ بعض الناس: [أُسَارَى] ، ورواها المفضل عن عاصم ، وهي قراءَة أبي جعفر.

والقياس والباب أَن يجمع أَسيرٌ على أَسْرى ، وكذلك كل فَعيل بمعنى مفعول ، وشُبِّه به فَعيلٌ وإِن لم يكن بمعنى مفعول كمريض ومَرْضى إذا كانت أَيضاً أَشياءَ سبيلُ الإنسان أَن يجبر عليها وتأْتيه غَلَبة فهو فيها بمنزلة المفعول ، وأمَّا جمعه على أُسارى فشبيه بكُسالى جمع كسلان ، وجمع أَيضاً كسْلان على كَسْلَى تشبيهاً بأَسْرى في جمع أَسير ، قال سيبويه: وهما شاذَّان ، وقال الزجاج: أُسارَى جمع أَسْرى ، فهو جمع الجمع[1].

وقرأَ جمهور الناس: ﴿يُثْخِنَ﴾ بسكون الثاءِ ، وقرأَ أبو جعفر ، ويحيى بن يَعْمَر ، ويحيى بن وثاب ، [يُثَخِّن] بفتح الثاءِ وشد الخاءِ ، ومعناه في الوجهين: يبالغ في القتل ، والإِثخان إِنما يكون في القتل والجراحة وما كان منهما.

ثم أَمدَّ[2] مخاطبةَ أَصحاب النبي ﷺ فقال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ أَي: مالها الذي يعِنُّ ويعرض ، والمراد ما أُخذ من الأَسرى من الأَموال ، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ أَي عمل الآخرة ، فحُذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه ، وقرأَ ابن جماز: [الآخِرَةِ] بالخفض على تقدير المضاف ، وينظر لذلك قول الشاعر:

أَكُلَّ امْرِىءٍ تَحْسَبِينَ امْرءًا ... ونارٍ تَوَقَّدُ باللَّيلِ نارا؟[3]

---

(١) أُسارى تكون بضم الهمزة وتكون بفتحها ، وكانوا يشدون الأسير بالقِدِّ وهو الإِسَارُ ، فسُمِّي كل أَخيذ وإِنْ لم يؤسر أسيراً ، قال الأعشى:

وقَيَّدني الشِّعْرُ في بَيْتِهِ ... كما قَيَّدَ الآسِرَاتُ الحِمارا

وقال أبو عمرو بن العلاء: الأَسْرى: هم غير المُوثقين عندما يؤخذون ، والأُسارى: هم الموثوقون ربطاً ، وحكى أبو حاتم أنه سمع هذا من العرب.

(٢) تأتي (أَمَدَّ) بمعنى (مَدَّ) ، يقال: أَمَدَّ الشيءَ ومدَّه: زاد فيه ، والمعنى المراد هنا أن الله زاد في مخاطبة أصحاب النبي ﷺ.

(٣) سبق الاستشهاد بهذا البيت والتعليق عليه عند تفسير قوله تعالى في هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

على تقدير: وكلَّ نارٍ.

وذكر الطبري وغيره أَن رسول الله ﷺ قال للناس: إن شئتم أَخذتم فداءَ الأسرى ويقتل منكم في الحرب سبعون على عددهم، وإن شئتم قُتلوا وَسلِمْتُم، فقالوا: نأْخذ المال ويستشهد منا سبعون، وذكر عبد بن حميد بسنده أَن جبريل نزل على النبي ﷺ بتخْيير الناس هكذا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى الروايتين فالأَمر في هذا التَّخيير من عند الله فإنه إعلامٌ بغيب، وإذا خُيِّروا فكيف يقع التوبيخ بعْدُ بقوله تعالى: ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟ والذي أَقول في هذا: إن العَتْب لأَصحاب النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ إلى قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ إنما هو على استبقاءِ الرجال وقت الهزيمة رغبة في أَخذ المال منهم، وجميع العتْب إذا نظر فإنما هو للناس، وهناك كان عمر رضي الله عنه يقتل ويحضّ على القتل ولا يرى الاستبقاءَ، وحينئذ قال سعد بن معاذ: الإثخان أَحب إِليَّ من استبقاءِ الرجال، ولذلك جعلهما رسول الله ﷺ ناجِيَيْن من عذاب إن لو نزل، ومما يدل على حرص بعضهم على المال قول المقداد حين أَمر رسول الله ﷺ بقتل عقبة بن أَبي معيط: «أَسيري يا رسول الله»، وقول مصعب بن عُمير للذي يأْسر أَخاه: «شُدَّ يدك عليه فإن له أُمّاً موسرة»، إلى غير ذلك من قصصهم، فلما تحصل الأَسرى وسيقوا إلى المدينة وأَنفذ رسول الله ﷺ القتل في النَّضْر وعُقْبة، والمَنَّ في أَبي عزَّة وغيره، وجعل يَرْتَئي في سائرهم نزَلَ التخيير من الله تعالى، فاستشار رسول الله ﷺ حينئذ، فمرَّ عمر رضي الله عنه على أَول رأيه في القتل، ورأَى أَبو بكر رضي الله عنه المصلحة في قوة المسلمين بمال الفداءِ، ومال رسول الله ﷺ إلى رأي أبي بكر رضي الله عنه، وكلا الرأْيين اجتهاد بعد تخيير، فلم ينزل على شيءٍ من هذا عتب، وذكر المفسرون أن الآية نزلت بسبب هذه المشورة والآراءِ، وذلك معترض بما ذكرته، وكذلك ذكروا في هذه الآيات تحليل المغانم لهذه الأمة، ولا أَقول ذلك، لأَن حكم الله بتحليل المغنم لهذه الأُمة قد كان تقدم قبل بدر، وذلك في السَّرِيَّة التي قُتل فيها عمرو بن الحضرمي، وإنما المبتدع في بدر استبقاءُ الرجال لأَجل المال، والذي منَّ الله به فيها إِلحاق فدية الكافر بالمغانم التي قد تقدم تحليلها.

ووَجْهُ ما قال المفسرون أَن الناس خُيِّروا في أَمرين أَحدهما غير جيّد على جهة الاختبار لهم ، فاختاروا المفضول فوقع العتب ، ولم يكن تخييراً في مستويين ، وهذا كما أُتِي رسول الله ﷺ ليلة الإِسراءِ بِإِنَاءَيْنِ فاختار الفاضل[١] .

و﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ صفتان من قِبلِ الآية لأَن بالعزَّة والحكمة يتم مراده على الكمال والتوفية ، وقال أبو عمرو بن العلاء: الأَسرى هم غير الموثقين عندما يؤخذون ، والأَسارى هم الموثقون ربطاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وحكى أبو حاتم أنه سمع هذا من العرب ، وقد ذكره أَيضاً أَبو الحسن الأَخفش ، وقال: العرب لا تعرف هذا وكلاهما عندهم سواءٌ.

وقوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ الآية. قالت فرقة: الكتاب السابق هو القرآن ، والمعنى: لولا الكتاب الذي سبق فآمنتم به وصدَّقتم لمسَّكم العذاب لأَخْذكم هذه المفاداة ، وقال سعيد بن جبير ، ومجاهد ، والحسن أيضاً ، وابن زيد: الكتاب السابق هو مغفرة الله لأَهل بدر ما تقدم من ذنوبهم أَو تأَخر ، وقال الحسن ، وابن عباس ، وأَبو هريرة ، وغيرهم: الكتاب هو ما قد كان الله قضاه في الأَزل من إِحلال الغنائم والفداءِ لمحمد ﷺ وأُمته ، وكانت في سائر الأُمم محرَّمة. وقالت فرقة: الكتاب السابق هو عفو الله عنهم في هذا الذنب مُعَيَّناً ، وقالت فرقة: الكتاب السابق هو أن الله عزَّ وجلَّ قضى ألاَّ يعاقب أحداً بذنب أتاه بجهالة ، وهذا قول ضعيف تعارضه مواضع من الشريعة ، وذكر الطبري عن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أَبي طالب أن الكتاب السابق هو ألاَّ يعذب أَحداً بذنب إلا بعد النهي عنه ، ولم يكونوا نُهوا بعْدُ ، وقالت فرقة: الكتاب السابق هو ما قضاه الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر.

وذهب الطبري إلى دخول هذه المعاني كلها تحت اللفظ وأنه يَعُمُّها ، ونَكَّبَ[٢] عن تخصيص معنى دون معنى.

---

(١) حديث الإسراء حديث طويل ، وقد رواه البخاري ، وفيه مما يشير إليه ابن عطية هنا: (ثُمَّ أُتيت بإناءٍ من خمر وإناءٍ من لبن وإناءٍ من عسل فأخذت اللبن فقال: هي الفطرة ، أنت عليها وأُمتك).

(٢) نكَّب عن الشيءِ: عدل عنه وتنَحَّى.

واللام في ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ جواب ﴿لَّوْلَا﴾، و﴿كِتَٰبٌ﴾ رفع بالابتداءِ والخبر محذوف، وهكذا حال الاسم الذي بعد (لولا)، وتقديره عند سيبويه: لولا كتاب سابق من الله تداركَكم، و[ما] من قوله تعالى: ﴿فِيمَآ﴾ يراد بها إمَّا الأَسرى وإِمَّا الفداءُ، وهي موصولة.

وفي ﴿أَخَذْتُمْ﴾ ضمير عائد عليها، ويحتمل أن تكون مصدرية فلا تحتاج إلى العائد، ورُوي أَن رسول الله ﷺ قال: «لو نزل في هذا الأمر عذاب لَنَجا منه عمر بن الخطاب»[1]، وفي حديث آخر: «وسعد بن معاذ»، وذلك أَن رأْيهما كان أَن يُقتل الأَسرى[2].

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ الآية، نصٌّ على إِباحة المال الذي أُخذ من الأَسرى وإِلحاقٌ له بالغنيمة التي كان تقدم تحليلها.

وقوله: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ حالان من [ما] في قوله: ﴿مِمَّا﴾، ويصح أَن يكونا من الضمير الذي في ﴿غَنِمْتُمْ﴾، ويحتمل أَن يكون ﴿حَلَٰلًا﴾ مفعولاً بـ ﴿فَكُلُوا۟﴾. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ معناه: في التسرع حسب إِرادة البشر وشهوته في نازلة أُخرى، وجاءَ قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ اعتراضاً فصيحاً في أَثناءِ الكلام، لأن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هو متصل بالمعنى بقوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن مردويه، ولفظه فيه: (لو نزل العذاب ما أفلت إلا ابن الخطاب)، ورواية ابن جرير: قال رسول الله ﷺ: (لَوْ عُذِّبنا في هذا الأمر يا عمر ما نجا غيرك).

(٢) يرى بعض المفسرين أن معنى هذه الآية هو: لولا كتاب من الله سبق بنصركم وتأييدكم حتى استوليتم عليهم قتلاً وأسراً على قلّة عددكم لمسّكم فيما أخذتم من غنائمهم وفدائهم عذابٌ عظيم منهم لكونهم أكثر منكم عَدَداً، ولكنه تعالى سهَّل عليكم ونصركم فلم ينلكم هذا العذابُ منهم، وينظر أصحاب هذا الرأي إلى قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾.

رُوي أَن الأَسرى ببدر أَعلموا رسول الله ﷺ أَنهم لهم ميل إلى الإسلام ، وأَنهم يُؤَملونه ، وأَنهم إن فدوا ورجعوا إلى قومهم التزموا جلبهم إلى الإسلام ، وسَعَوْا في ذلك ، ونحو هذا الغرض ، ففي ذلك نزلت هذه الآية ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الأَسرى في هذه الآية عباس وأَصحابه ، قالوا للنبي ﷺ: آمنا بما جئت به ونشهد أَنك لرسول الله ، لَنَنْصَحنَّ لك على قومنا فنزلت هذه الآية.

وقرأ جمهور الناس: ﴿مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ ، وقرأَ أَبو عمرو وحده من السبعة: [مِنَ الأَسَارَى] ، وهي قراءة أبي جعفر ، وقتادة ، ونصر ابن عاصم ، وابن أَبي إِسحق ، واختلف عن الحسن بن أَبي الحسن ، وعن الجحدري ، وقرأَ ابن محيصن: [مِن لَسْرَى] بالإدغام ، ومعنى الكلام: إن كان هذا عن جدّ منكم وعلم الله من نفوسكم الخير والإِسلام سيجبر عليكم[1] أَفضل مما أَعطيتم فدية ، وسيغفر لكم جميع ما اجترحتموه ، وقرأَ الأَعمش: [يُثِبْكُمْ خَيْراً]. وقرأَ جمهور الناس: [أُخِذَ] بضم الهمزة وكسر الخاءِ ، وقرأَ شيبة بن نصاح ، وأَبو حيوة [أَخَذَ] بفتحهما.

ورُوي أَن أَسرى بدر افتدوْا بأَربعين أُوقية أَربعين أُوقية إلا العباس فإنه افتدي بمائة أُوقية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأُوقية أَربعون درهماً ، وقال قتادة: فادُوهم بأَربعة آلاف أَربعة آلاف ، وقال عبيدة السلماني: كان فداءُ أَسرى بدر بمائة أُوقية ، والأُوقية أَربعون درهماً ، ومن الدنانير ستة ، وروي أَن العباس بن عبد المطلب قال: فيَّ وفي أَصحابي نزلت هذه الآية ، وقال حين أَعطاه رسول الله ﷺ من مالِ البحرين ما قَدَر أَن يُقِل: هذا خيرٌ مما أُخذ مني ، وأَنا أَرجو أن يغفر الله لي ، وأَسند الطبري أيضاً إلى العباس أَنه قال: فيَّ نزلت حين أَعلمت رسول الله ﷺ بإِسلامي وسأَلته أَن يحاسبني بالعشرين أُوقية التي أُخذت مني قبل المفاداة فأَبى وقال: (ذلك فيْءٌ)[2] فأَبدلني الله من ذلك عشرين عبداً كلهم تاجَرَ بمالي ، وروي عن العباس أنه قال: ما أَودُّ أن هذه الآية لم تنزل ولي الدنيا بأَجمعها ، وذلك أن الله قد آتاني خيراً مما أُخذ مني ، وأَنا أَرجو أن يغفر لي.

---

(١) أي: يُعَوِّضُكم ما ذهب ويُعْطيكم أفضل منه ، وفي حديث الدعاء: (واجبُرْني واهْدني).

(٢) وأخرج مثله أبو نعيم في الدلائل من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، في حديث طويل عن هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية.

قولٌ أُمِرَ أَن يقوله للأسرى ويورد معناه عليهم. والمعنى: إِن أخلصوا فُعل بهم كذا، وإن أَبطنوا خيانة ما زعموا أَن يُؤتمنُوا عليه من العهد فلا يسرهم ذلك ولا يسكنوا إليه، فإن الله بالمرصاد لهم، الذي خانوه من قبْلُ بكفرهم وتركهم النظر في آياته، وهو قد بيَّنها لهم إدراكاً يحصلونها به، فصار ذلك كعهد متقرِّر، فجعل جزاءَهم على خيانتهم إياه أنْ مكَّن منهم المؤمنين، وجَعَلَهُم أَسرى في أَيديهم.

وقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ صفتان مناسبتان، أَي عليم بما يبطنونه من إِخلاص أَو خيانة، حكيم فيما يُجازيهم به.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَما تفسير هذه الآية بقصة عبد الله بن أَبي سرْح، فينبغي أن يُحَرَّر[1]، فإِن جُلبت قصة عبد الله بن أَبي سرح على أَنها مثال كما يمكن أَن تجلب أَمثلة في عصرنا من ذلك فحسن، وإِن جُلبت على أَن الآية نزلت في ذلك فخطأٌ، لأَن ابن أَبي سرح إِنما تبيَّن أمره في يوم فتح مكة، وهذه الآية نزلت عقيب بدر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾.

---

(١) تتلخص قصة ابن أَبي سرح هذا فيما رواه قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً كتب لنبي الله ﷺ ثم عمد فنافق، فلحق بالمشركين بمكة، ثم قال: ما كان محمد يكتب إلا ما شئت، فلما سمع ذلك رجل من الأنصار نذر: لئن أمكنه الله منه ليضربنه بالسيف، فلما كان يوم الفتح أمَّن رسول الله ﷺ الناسَ إلا عبد الله بن سعد بن أبي سرح، ومقيس ابن ضبابة، وابن خطل، وامرأة كانت تدعو على النبي ﷺ كل صباح، فجاء عثمان بابن أبي سرح وكان رضيعه أو أخاه من الرضاعة ـ فقال: يا رسول الله هذا فلان أقبل تائباً نادماً، فأعرض نبي الله ﷺ، فلما سمع به الأنصاري أقبل متقلداً سيفه، فأطاف به، وجعل ينظر إلى رسول الله ﷺ رجاءَ أن يومىء إليه، ثم إن رسول الله ﷺ قدّم يده فبايعه، فقال: أما والله لقد تَلَوَّمْتُك فيه لتوفي نذرك، فقال: يا نبي الله إني هِبْتُك فلولا أومضت إليَّ، فقال: إنه لا ينبغي لنبي أن يومض. (رواه ابن جرير).

مقصد هذه الآية وما بعدها تَبْيين منازل المهاجرين والأنصار والمؤمنين الذين لم يهاجروا والكفار والمهاجرين بعد الحديبية، وذِكْر نسب بعضهم من بعض، فقدم أولا ذكْرَ المهاجرين وهم أَصل الإسلام، وانظر تقديم عمر رضي الله عنه لهم في الاستشارة، وهاجر معناه: هجر أهله وقرابته وهجروه، و﴿وَجَٰهَدُواْ﴾ معناه: أجهدوا أَنفسهم في حرب من أَجهد نفسه في حربهم. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ هم الأنصار، وآوَى معناه: هيأ مأوى وهو الملجأ والحِرْزُ، فحكم الله على هاتين الطائفتين بأن بعضهم أَولياءُ بعض، فقال كثير من المفسرين: هذه الموالاةُ هي المؤازرة والمعاونة واتصال الأَيدي، وعليه فسّر الطبري الآية، وهذا الذي قالوا لازمٌ من دلالة اللفظ، وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وكثير منهم: إن هذه الموالاةُ هي في الميراث، وذلك أن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار، وكانت بين الأَنصار أُخوة النسب، وكانت أيضاً بين بعض المهاجرين، فكان المهاجري إذا مات ولم يكن له بالمدينة مهاجريٌّ وَرِثَهُ أَخوه الأنصاري، وإن كان له وليٌّ مسلم لم يهاجر، فكان المسلم الذي لم يهاجر لا ولاية بينه وبين قريبه المهاجري فلا يرثه، قال ابن زيد: واستمر أمرهم كذلك إلى فتح مكة، ثم توارثوا بعد ذلك لما لم تكن هجرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فذهبت هذه الفرقة إلى أن هذا هو مقصد الآية، ومن ذهب إلى أنها من التآزر والتعاون فإنما يحمل نفي الله تعالى ولايتهم عن المسلمين على أَنها صفة الحال، لا أن الله حكَم بأَنْ لا ولاية بين المهاجرين وبينهم جملة، وذلك أن حالهم إذا كانوا متباعدي الأَقطار تقتضي أنَّ بعضهم إنْ حَزَبهم حازب لا يجد الآخر ولا ينتفع به، فعلى هذه الجهة نفي الولاية، وعلى التأويلين ففي الآية حض للأعراب على الهجرة، قاله الحسن بن أبي الحسن، ومن رأَى الولاية في الموارثة فهو حكم من الله بنفي الولاية في الموارثة، قالوا: ونَسَخَ ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[1] الآية.

وقرأ جمهور السبعة والناس: ﴿وَلَٰيَتِهِم﴾ بفتح الواو، و﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ أيضاً بفتح

(١) ستأتي بعد ثلاث آيات، فهي الآية (٧٥) من هذه السورة.

الواو[١]، وقرأ الكسائي: [وَلاَيَتهم] بفتح الواو، و[الوِلاية] بكسر الواو، وقرأ الأعمش، وابن وثاب: [وِلايتهم] و[الوِلاية] بكسر الواو، وهي قراءة حمزة، قال أبو علي: والفتح أجود لأنها في الدين، قال أبو الحسن الأخفش: «والكسر فيها لغة»، وليست بذلك، ولحن الأصمعي الأعمش[٢]، وأخطأ عليه لأنها إذا كانت لغة فلم يلحن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لاسيما ولا يُظن به إلا أنه رواها، قال أبو عبيدة: الوِلاية بالكسر هي من وليت الأمر إليه فهي في السلطان، والوَلاية هي في المولى، يقال: مولى بيّن الوَلاية بفتح الواو.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾ يعني: إن استدعى هؤلاءِ المؤمنون الذين لم يهاجروا نصركم على قوم من الكفرة فواجب عليكم نصرهم، إلا إن استنصروكم على قوم كفار قد عاهدتموهم أنتم وواثقتموهم على ترك الحرب فلا تنصروهم عليهم، لأن ذلك غدر ونقض للميثاق وترك لحفظ العهد والوفاءِ به، والقراءَة: ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ برفع الراء، ويجوز [فَعَلَيْكُمُ النَّصْرَ] على الإغراءِ، ولا أحفظه قراءَة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على مخاطبة المؤمنين، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والأعرج: [بِمَا يَعْمَلُونَ] بالياءِ على ذكر الغائب.

قوله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾.

---

(١) يريد [الوَلاية] في قوله تعالى في الآية (٤٤) من سورة (الكهف): ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾.

(٢) هكذا في جميع النسخ المخطوطة، ولكن من الواضح أنها «الأخفش» فالكلام عنه، ويؤيد ذلك ما قاله في «البحر» ونصه: «ولحن الأصمعي الأخفش في قراءته بالكسر وأخطأ في ذلك لأنها قراءة متواترة»، وكلام ابن عطية يؤيد هذا حين يقول: «لأنها إذا كانت لغة فلم يلحن» والذي قال إنها لغة هو الأخفش.

هذا حكم بأَن الكفار ولايتهم واحدة ، وذلك بجمع الموارثة والمعاونة والنُّصرة ، وهذه العبارة ترغيب وإقامة للنفوس ، كما تقول لمن تريد أَنْ يستضلع[١] : «عدوُّك مجتهد» ، أَي: فاجتهد أنت.

وحكى الطبري في تفسير هذه الآية عن قتادة أنه قال: أَبى الله أَن يقبل إيمان من آمن ولم يهاجر ، وذلك في صدر الإسلام ، وذلك أيضاً مذكور مستوعب في تفسير قوله عزَّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[٢].

والذي يظهر من الشرع أن حكم المؤمن التارك للهجرة مع علمه بوجوبها ، حكم العاصي لا حكم الكافر ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إنما هي فيمن قتل مع الكفار ، وفيهم قال رسول الله ﷺ: «أنا بريءٌ من مسلم أَقام بين المشركين لا تراءَى نارهما» الحديث[٣] على اختلاف أَلفاظه ، وقولُ قتادة إنما هو فيمن كان يقوم متربصاً يقول: مَنْ غلَب كنت معه ، وكذلك ذكر في كتاب الطبري والكشي.

والضمير في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ قيل: هو عائد على الموارثة والتزامها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا لا تقع الفتنة عنه إلاَّ عن بُعد وبوساطة كثيرة ، وقيل: هو عائد على المؤازرة

---

(١) استضلع وتضلَّع بمعنى واحد ، إذ يراد بهما: امتلأ من العلوم وشبع.

(٢) النساء: ٩٧.

(٣) أخرجه أبو داود في سُنَنه عن جابر بن عبد الله في كتاب الجهاد قال: (بعث رسول الله ﷺ سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود فأسرع فيهم القتل ، قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فأمر لهم بنصف العَقل ، وقال: أنا بريءٌ من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين ، قالوا: يا رسول الله لِمَ؟ قال: لا تراءى نارهما) ، والمعنى كما جاء في «النهاية» لابن الأثير: يلزم المسلم ويجب عليه أن يباعد منزله عن منزل المشرك ، ولا ينزل بالموقع الذي إذا أُوقدت فيه ناره تلوح وتظهره لنار المشرك إذا أَوْقدها في منزله ، ولكنه ينزل مع المسلمين في دارهم ، وإنما كره مُجَاورة المشركين لأنهم لا عهد لهم ولا أمان ، وحثَّ المسلمين على الهجرة ، والترائي: تفاعُلٌ من الرؤية ، يقال: تراءى القوم إذا رأى بعضهم بعضاً ، وتراءى لي الشيءُ: أي ظهر حتى رأيته ، وإسناد الترائي إلى النارَيْن مجازٌ ، من قولهم: داري تنظر إلى دار فلان ، أي تقابلها ، يقول: ناراهما مختلفتان ، هذه تدعو إلى الله ، وهذه تدعو إلى الشيطان ، فكيف يتَّفقان؟ والأصل في تراءَى: تتَراءَى ، فحذفت إحدى التَّاءَيْن تخفيفاً.

والمعاونة واتصال الأيدي، وهذا تقع الفتنة عنه عن قُرْب فهو آكد من الأول، ويظهر أيضاً عوده على حفظ العهد والميثاق الذي يتضمنه قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌۗ﴾، وهذا إن لم يفعل فهو الفتنة نفسها، ويظهر أن يعود الضمير على النصر للمسلمين المنتصرين في الدِّين، ويجوز أن يعود الضمير مجملاً على جميع ما ذكر.

والفتنة: المحنة بالحرب وما أُنجز معها من الغارات والجلاءِ والأسر.

والفسادُ الكبير: ظهور الشِّرك، وقرأ جمهور الناس: ﴿كَبِيرٌ﴾ بالباءِ المنقوطة بواحدة، وقرأ أبو موسى الحجازي عن الكسائي بالثاءِ المنقوطة مثلثة، وروى أبو حاتم المدني أن رسول الله ﷺ قرأ: [وفساد عريض]، وقرأت فرقة: [والذين كفروا بعضُهم أوْلى ببعض].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ الآية، آية تضمنت تخصيص المهاجرين والأنصار وتشريفهم بهذا الوصْف العظيم. و﴿حَقًّاۚ﴾ نصب على المصدر المؤكد لما قبله، ووَصْفُ الرزق بالكريم معناه أنه لا يستحيل نجواً[(١)]، والمراد به طعام الجنة، كذا ذكره الطبري وغيره، ولازم اللفظ نفي المذمَّات عنه، وما ذكروه فهو في ضمن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ يريد به: مِنْ بَعد الحديبية وبيعة الرضوان، وذلك أن الهجرة من بعد ذلك كانت أقل رتبة من الهجرة قبل ذلك، وكان يقال لها: الهجرة الثانية، لأن الحرب وضعت أوزارها نحو عامين، ثم كان فتح مكَّة، وبه قال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»[(٢)]، وقال الطبري: المعنى: من بَعْد ما بيَّنْتُ لكم حكم الولاية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكان الحاجز بين الهجرتين نزول الآية، فأخبر الله تبارك وتعالى في هذه الآية بأنهم من الأولين في المؤازرة وسائر أحكام الإسلام.

---

(١) النَّجْو: ما يخرج من البطن، ويقال: أنْجى، أي أحْدث، والمعنى الذي يقصده المؤلف: لا يتغير في أجوافهم فيصير نَجْوا، ولكنه يصير رشحاً كرشح المسك على ما وضحه الطبري في تفسيره.

(٢) رواه البخاري عن مجاشع بن مسعود، ولفظه فيه: (لا هجرة بعد فتح مكة)، ورمز له السيوطي بأنه صحيح. (الدر المنثور).

وقوله تعالى: ﴿وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ﴾ لفظ يقتضي أنَّهم تبع لا صدر، وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ﴾ كذلك، ونحوه قوله عليه الصلاة والسلام: «مَوْلى القوم منهم»[١]، «وابن أُخت القوم منهم»[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾[٣] إلى آخر السورة، قال من تقدم ذكره: هي في المواريث، وهي ناسخة للحكم المتقدم ذكره من أن يرث المهاجري الأنصاري، ووجب بهذه الآية الأخيرة أن يرث الرجل قريبه وإن لم يكن مهاجراً معه، وقالت فرقة منها مالك بن أنس رحمه الله: إن الآية ليست في المواريث، وهذا فِرار عن توريث الخال والعمة ونحو ذلك، وقالت فرقة: هي في المواريث إلا أنها نُسخت بآية المواريث المُبيَّنة.

وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ﴾ معناه: القرآن، أي ذلك مثبت في كتاب الله، وقيل: المعنى: في كتاب الله السابق في اللوح المحفوظ، و﴿عَلِيمُۢ﴾ صفةٌ مناسبة لنفوذ هذه الأحكام.

كمل تفسير سورة الأنفال بتوفيق من الله

والحمد لله رب العالمين

---

(١) رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه، ولفظه فيه: (مولى القوم من أنفسهم)، وقد رمز له الإمام السيوطي بالصحة في «الجامع الصغير».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والشيخان، والترمذي، والنسائي عن أنس، وأبو داود عن أبي موسى، والطبراني عن جبير بن مطعم، وعن ابن عباس، وعن أبي مالك الأشعري، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة في «الجامع الصغير».

(٣) الرَّحِمُ مؤنثة، والجمع: أرحام، والمراد بها ها هنا العصبات دون المولود بالرحم، والواحد: ذو رحم، ومما يبين أن المراد بالرحم العصبات قول العرب: وَصَلَتْكَ رَحِمٌ، لا يريدون قرابة الأم.
والخلاف في توريث ذوي الأرحام معروف من أيام السلف رضوان الله عليهم، فقال قوم: لا يرث من لا فرض له من ذوي الأرحام، روي ذلك عن أبي بكر، وزيد بن ثابت، وابن عمر، وروي عن علي، وهو قول أهل المدينة، وروي عن مكحول والأوزاعي، وبه قال الإمام الشافعي رضي الله عنه.
وقال بتوريثهم عمر بن الخطاب، وابن مسعود، ومعاذ، وأبو الدرداء، وعائشة، وعلي في رواية عنه، وهو قول الكوفيين وأحمد، واحتجوا بهذه الآية، ولكن أصحاب الرأي الأول قالوا: هذه آية مجملة جامعة، والظاهر بكل رحم قرُب أو بُعد، وآيات المواريث مُفَسَّرة، والمُفَسَّر قاض على المجمل ومُبيِّن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة التوبة

مدنية وآياتها تسع وعشرون ومائة .

هذه السورة مدنية إلا آيتيْن: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إلى آخرها ، وتُسمى سورة التَّوبة ، قاله حذيفة وغيره ، وتُسمى الفاضحة[١]، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وتُسمى الحافرة لأَنها حفرت عن قلوب المنافقين ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما زال ينزل: «ومنهم ، ومنهم» حتى ظن أنه لا يبقى أَحد ، وقال حذيفة: هي سورة العذاب ، قال ابن عمر رضي الله عنهما: كنا ندعوها المُقَشْقِشَة ، قال الحارث بن يزيد: كانت تدعى المبعثرة ، ويقال لها المثيرة ، ويقال لها البحوث[٢] .

وقال أبو مالك الغفاري: أول آية نزلت من براءة ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ ، وقال سعيد بن جبير: كانت براءَة مثل سورة البقرة في الطول .

واختُلف ـ لم سقط سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ من أَولها ـ فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: أَشبهت معانيها معاني الأَنفال ، وكانتا تدعيان القرينتين في زمن رسول الله ﷺ ، فلذلك قَرَنْت بينهما ، ولم أَكتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ، ووضعتها في السبع الطُّوَل[٣] ، وقال علي بن أَبي طالب لابن عباس رضي الله عنهما: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أَمانٌ وبِشارة ، و«براءَة» نزلت بالسَّيف ونبذ العهود ، فلذلك لم تبدأْ بالأَمان .

---

(١) لأنها فضحت أسرار المنافقين ، وهذا بدليل قول ابن عباس رضي الله عنهما: «ما زال ينزل: ومنهم ومنهم حتى ظن أنه لا يبقى أحد» .

(٢) وهذا لأنها أيضاً تبحث عن أسرار المنافقين ، وبقية الأسماء تدور حول هذا المعنى بالنسبة للمنافقين .

(٣) السبع الطُّوَل: سورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، فهذه ست سُوَر متواليات ، واختلفوا في السابعة ، فمنهم من قال: هي الأنفال وبراءة ، وعدَّهما سورة واحدة ، ومنهم من جعل السابعة سورة يونس .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويعزى هذا القول للْمُبَرِّد وهو لِعِليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وهذا كما يبدأ المخاطب الغاضب: «أَمَّا بَعْدُ» دون تقريظ ولا استفتاح بِتَبْجيل، وروي أن كَتَبَة المصحف في مدة عثمان رضي الله عنه اختلفوا في الأنفال وبراءَة، هل هما سورة واحدة أو هما سورتان؟ فتركوا فصلاً بينهما مراعاة لقول من قال: هما سورتان، ولم يكتبوا ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مراعاة لقول من قال منهم: هما واحدة، فرضي جميعهم بذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا القول يضعفه النظر أن يُختلف في كتاب الله هكذا، ورُوي عن أُبي بن كعب أَنه قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بوضع ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في أول كل سورة، ولم يأمرنا في هذه بشيءٍ، فلذلك لم نضعه نحن، ورُوي عن مالك أَنه قال: بلغنا أَنها كانت نحو سورة البقرة ثم نُسخ ورُفع كثير منها وفيه البسملة، فلم يَرَوْا بَعْدُ أَنَ يضعوه في غير موضعه[1].

وسورة براءَة من آخر ما نزل على النبي ﷺ، وحكى عمران بن حدير أن أَعرابياً سمع سورة براءَة فقال: أَظن هذه من آخر ما أَنزل اللهُ على رسوله، فقيل له: لِم تقول ذلك؟ فقال أَرى أَشياءَ تنقض وعهوداً تنبذ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾.

---

(١) وقيل: كان من شأن العرب في زمانها في الجاهلية، إذا كان بينهم وبين قوم عهد فأرادوا نقْضه كتبوا إليهم كتاباً ولم يكتبوا فيه بَسْملة، فلمّا نزلت سورة براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين بعث بها النبي ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقرأها عليهم في الموسم، ولم يبسمل في ذلك على ما جرت به عادتهم في نقض العهد من ترك البسملة، وقال القرطبي بعد أن ذكر أكثر من رأي: «والصحيح أن التسمية لم تكتب لأن جبريل عليه السلام ما نزل بها في هذه السورة، قاله القُشَيْري».

﴿بَرَآءَةٌ﴾ رفع على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: هذه الآيات براءة، ويصح أن ترتفع بالابتداءِ والخبرُ في قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾، وجاز الابتداءُ بالنكرة لأنها موصوفة فتعرفت تعريفاً ما، وجاز الإِخبارُ عنها، وقرأ عيسى بن عمر: [بَرَاءَةً] بالنصب على تقدير: الزموا براءةً، ففيها معنى الإغراءِ. و﴿بَرَآءَةٌ﴾ معناها: تخلُّصٌ وتَبرُّؤٌ من العهود التي بينكم وبين الكفار البادئين بالنقض، تقول: برئتُ إليك من كذا، فبرىء الله تعالى ورسوله بهذه الآية إلى الكفار من تلك العهود التي كانت ونقضها الكفار، وقرأ أَهل نجران: [مِنِ اللهِ] بكسر النون.

وهذه الآية حُكْم من الله عزَّ وجلَّ بنقض العهود والموادعات التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين طوائف المشركين الذين ظهر منهم أو تُحسِّس من جِهتهم نقض، ولما كان عهد رسول الله ﷺ لازماً لأُمته حسن أَن يقول: [عَاهَدْتُمْ]، قال ابن إسحق وغيره من العلماء: كانت العرب قد واثقها[1] رسول الله ﷺ عهداً عاماً على أَلاّ يُصد أحد عن البيت الحرام، ونحو ذلك من الموادعات، فَنَقَضَ ذلك بهذه الآية، وأَجَّل لجميعهم أَربعة، فمن كان له مع النبي ﷺ عهد خاص وبقي منه أَقل من الأربعة الأَشهر بلغ به تمامها، ومن كان أَمده أَكثر من أَربعة أَشهر أَتم له عهده، إلا إِنْ كان ممن تحسس منه نقض فإِنه قصر على أربعة أَشهر، ومن لم يكن له عهد خاص فرضت له الأَربعة الأشهر يسيح فيها في الأَرض، أَي يذهب مسرَّحاً آمناً كالسَّيح من الماءِ وهو الجاري المنبسط، ومنه قول طرفة بن العبد:

لَوْ خِفْتُ هذا منك ما نِلْتَني ... حتَّى تَرَى خَيْلاً أَمامي تَسِيحْ[2]

وهذا يُنْبىء عن أن رسول الله ﷺ استشْعر من الكفار نقضاً وتربُّصاً به إِلا من الطائفة المستثناة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أول الأَشهر الأَربعة شوَّال وحينئذ نزلت الآية، وانقضاؤُها عند انسلاخ الأَشهر الحرم، وهو انقضاء المحرم بعد يوم الأَذان

(١) واثق فلاناً: عاهَدَه، وفي أكثر النسخ الخطية: وافقها بالفاء، ولفظ «البحر المحيط»: «أوثقها».

(٢) السَّيْح: الماءُ الظاهر الجاري على وجه الأرض، والسِّياحة: الذهاب في الأرض للعبادة والترهب، ويقال كما في اللسان: ساح في الأرض يسيح سياحةً وسيوحاً وسَيْحاً، وسيحاناً، فمعنى أن الخيل تسيح أنها تذهب في الأرض، هذا والبيت موجود في الديوان.

بخمسين يوماً، فكأن أجل من له عهد أربعة أشهر من يوم نزول الآية، وأجل سائر المشركين خمسون ليلة من يوم الأذان[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

اعتُرِض هذا بأن الأجل لا يلزم إلا من يوم سُمِع، ويحتمل أنَّ البراءة قد كانت سُمِعت من أول شوال، ثم كرر إشهارها مع الأذان يوم الحج الأكبر، وقال السدي وغيره: بل أولها يوم الأذان وآخرها العشرون من ربيع الآخر، وهي الحُرُم، استعير لها الاسم بهذه الحرمة والأمن الخاص الذي رسمه الله وألزمه فيها، وهي أجل الجميع ممن له عهد وتحسس منه نقض، وممن لا عهد له.

وقال الضحاك وغيره من العلماءِ: «كان من العرب من لا عهد بينه وبين رسول الله ﷺ جملة، وكان منهم من بينه وبينهم عهد وتَحَسَّس منهم النقض، وكان منهم من بينه وبينهم عهد ولم ينقضوا، فقوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ هو أجل ضربه لمن كان بينه وبينهم عهد وتَحسَّس منهم نقضه، وأوَّل هذا الأجل يوم الأذان، وآخره انقضاءُ العشر الأول من ربيع الآخر، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هو حُكم مباين للأوَّل حَكَم به في المشركين الذين لا عهد لهم البَتَّةَ، فجاءَ أجل تأمينهم خمسين يوماً، أولها يومُ الأذان وآخرها انقضاءُ المحرم، وقوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم﴾ يريد به الذين لهم عهد ولم ينقضوا ولا تُحسِّس منهم نقض، وهم ـ فيما روي ـ بنو ضمرة من كنانة، عاهد لهم المحسَّر بن خويلد، وكان بقي من عهدهم يوم الأذان تسعة أشهر».

وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: إنما أَجَّل الله أربعة أشهر من كان عهده ينصرم عند انقضائها أو قبله، والمعنى: فقل لهم يا محمد: سيحوا، وأما من كان له عهد يتمادى بعد الأربعة الأشهر، فهم الذين أمر الله لهم بالوفاءِ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ معناه: واعلموا أنكم لا تغلبون الله

---

(١) يوم الأذان هو يوم الإعلام بهذه الأحكام التي جاءت في هذه الآية نحو العهود مع المشركين، وهو اليوم الذين أذن فيه عليٌّ رضي الله عنه وقرأ هذه السورة على الناس، وقد اختلف الناس فيه، فقيل: هو يوم عرفة، وقيل: هو يوم النحر ـ وسيأتي بيان ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾.

ولا تعجزونه هرباً من عقابه ، ثم أعلمهم بحُكْمه بخزي الكافرين ، وذلك حَتْم إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ الآية. ﴿ وَأَذَٰنٌ﴾ معناه: إعلامٌ وإشهارٌ ، و﴿ ٱلنَّاسِ﴾ هاهنا: عام في جميع الخلق ، و﴿ يَوْمَ﴾ منصوب على الظرف ، والعامل فيه ﴿ وَأَذَٰنٌ﴾ وإن كان قد وصف فإن رائحة الفعل باقية ، وهي عاملة في الظرف ، وقيل ، لا يجوز ذلك إذ قد وُصف المصدر فزالت عنه قوة الفعل ويصح أن يعمل فيه فعل مضمر تقتضيه الألفاظ ، وقيل: العامل فيه صفة الأذان ، وقيل: العامل فيه [مُخْزي].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد.

ويوم الحجِّ الأكبر ـ قال عمر ، وابن عمر ، وابن المسيب ، وغيرهم: هو يوم عرفة ، وقال به علي رضي الله عنه ، ورُوي عنه أيضاً أنه يوم النحر ، وروي ذلك عن أَبي هريرة وجماعة ، وروي ذلك عن النبي ﷺ ، وقال منذر بن سعيد وغيره: كان الناس يوم عرفة مفترقين إذ كانت الحمس تقف بالمزدلفة. وكان الجمع يوم النحر بمنى ، فلذلك كانوا يسمونه «الحج الأكبر» أي: من الأصغر الذي هم فيه مفترقون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا زال في حجة أَبي بكر رضي الله عنه لأنه لم يقف أَحد بالمزدلفة ، وقد ذكر المهدوي أن الحمس ومن اتبعها وقفوا بالمزدلفة في حجة أبي بكر رضي الله عنه ، والذي تظاهرت به الأحاديث في هذا المعنى أن عليّاً رضي الله عنه أذَّن بتلك الآية يوم عرفة إثر خطبة أَبي بكر ، ثم رأى أنه لم يعلم الناس بالإسماع فتتبعهم بالأذان بها يوم النحر ، وفي ذلك اليوم بعث معه أَبو بكر مَن يُعينه بالأذان بها كأَبي هريرة رضي الله عنه وغيره ، وتتبعوا بها أيضاً أَسواق العرب كذي المجاز وغيره ، فمن هنا يترجح قول سفيان: إن ﴿ يَوْمَ﴾ في هذه الآية بمعنى «أَيام» ، وبسبب ذلك قالت طائفة: يومُ الحج الأَكبر: عرفة حيث وقع أَول الأَذان ، وقالت طائفة أُخرى: هو يوم النحر حيث وقع إكمال الأذان ، واحتجوا أيضاً بأنه من فاته الوقوف يوم عرفة فإنه يجزيه الوقوف ليلة النحر ، فليس يوم عرفة ـ على هذا ـ يوم الحج الأكبر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا حجة في هذا.

وقال سفيان بن عُيَيْنَة: المراد أيام الحج كلها كما تقول: «يوم صفين، ويوم الجمل»، تريد جميع أَيامه، وقال مجاهد: يوم الحج الأَكبر: أَيام منى كلها ومجامع المشركين حيث كانوا بذي المجاز، وعكاظ، ومجنة، حين نودي فيهم ألاَّ يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كما قال عثمان لعمر رضي الله عنهما حين عرض عليه زواج حفصة رضي الله عنها: إني قد رأَيت أَلا أتزوج يومي هذا، وكما ذكر سيبويه أَنك تقول لرجل: ما شغلك اليوم؟ وأَنت تريد: في أَيامك هذه.

واختلف، لم وُصف بالأَكبر؟ فقال الحسن بن أَبي الحسن، وعبد الله بن الحارث بن نوفل: لأَنه حجَّ ذلك العام المسلمون والمشركون وصادف أَيضاً عيد اليهود والنصارى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف أن يصفه الله تعالى في كتابه بالكبر لهذا، وقال الحسن أَيضاً: إِنما سُمِّي أَكبر لأَنه حجَّ فيه أَبو بكر رضي الله عنه ونبذت فيه العهود.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو القول الذي يشبه نظر الحسن، وبيانه أن ذلك اليوم كان المفتتح بالحق وإمارة الإِسلام بتقديم رسول الله ﷺ، ونبذت فيه العهود، وعزَّ فيه الدّين وذلَّ الشِّرك، ولم يكن ذلك في عام ثمان حين ولى رسول الله ﷺ الحج عتَّاب بن أَسِيد[1]،

(١) عتاب بن أَسيد (بفتح الهمزة من أسيد): صحابي جليل، أسلم يوم الفتح، واستعمله النبي صلوات الله وسلامه عليه على مكة وذلك حين سار إلى حنين وحجّ بالناس عام الفتح، وأقرّه أبو بكر على مكة إلى أن مات، قالوا: وكان صالحاً فاضلاً، وكان حين استعمله النبي ﷺ شديداً على المريب، ليِّناً على المؤمنين، وكان يقول: والله لا أعلم متخلفاً عن هذه الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه فإنه لا يتخلف عنها إلا منافق، وقد تزوج بنت أبي جهل حتى لا يتزوجها عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه على فاطمة=

بل كان أَمر العرب على أَوله ، فكل حجّ بعد حجّ أَبي بكر رضي الله عنه فمتركب عليه ، فحقه لهذا أَن يُسَمَّى أَكبر.

وقال عطاءُ بن أَبي رباح ، وغيره: الحج الأكبر بالإضافة إلى الحج الأَصغر وهي العمرة ، وقال الشعبي: بالإضافة إلى العمرة في رمضان فإنها الحج الأَصغر ، وقال مجاهد: الحج الأَكبر: القِرانُ ، والأَصغر: الإفراد ، وهذا ليس من الآية في شيءٍ ، وقد تقدم ما ذكره منذر بن سعيد ، ويتجه أَن يوصف بالأَكبر على جهة المدح لا بالإضافة إلى أَصغر معين ، بل يكون المعنى: الأَكبر من سائر الأَيام ، فتأَمله.

واختصار ما تحتاج إليه هذه الآية على ما ذكر مجاهد وغيره من صور تلك الحال أن رسول الله ﷺ افتتح مكة سنة ثمان ، فاستعمل عليها عتَّاب بن أَسيد ، وقضى أمر حنين والطائف وانصرف إلى المدينة ، فأَقام بها حتى خرج إلى تبوك ، ثم انصرف من تبوك في رمضان سنة تسع ، فأَراد الحج ، ثم نظر في أن المشركين يحجون في تلك السنة ويطوفون عراة فقال: لا أُريد أَن أرى ذلك ، فأَمَّر أبا بكر رضي الله عنه على الحج بالناس وأَنفذه ، ثم أَتْبعه عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه على ناقته العضباءِ ، وأَمره أن يؤذن في الناس بأَربعة أَشياء وهي: «لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ـ وفي بعض الروايات: ولا يدخل الجنة كافر ـ ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته»[1] ، وفي بعض الروايات: ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فَأَجلُه أربعة أَشهر يسيح فيها ، فإذا انقضت فإن الله بريءٌ من المشركين ورسولُه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَقول: إنهم كانوا ينادون بهذا كله ، فهذا للذين لهم عهد وتحسس منهم نقضه ، والإبقاءُ إلى المدة لمن لم يخبر منه نقض.

وذكر الطبري أن العرب قالت يومئذ: نحن نبرأُ من عهدك وعهد ابن عمك إلا من

= رضي الله عنها ، وقد ولدت له ابنةُ عبد الرحمن. (الإصابة ، والاستيعاب).

(١) الحديث مروي من طرق كثيرة ، فقد أخرجه ابن أبي حاتم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وأخرجه أحمد ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرجه عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن طريق سعيد بن المسيب. (الدر المنثور).

الطعن والضرب، فلام بعضهم بعضاً وقالوا: ما تصنعون وقد أَسلمت قريش؟ فأَسلموا كلهم ولم يسِخْ أَحَدٌ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وحينئذ دخل الناس في دين الله أفواجاً، وكان رسول الله ﷺ قد أَمر عليّاً أن يقرأَ على الناس الأَربعين آية صدر سورة براءَة، وقيل: ثلاثين، وقيل: عشرين، وفي بعض الروايات: عشر آيات، وفي بعضها، تسع آيات، ذكرها النقاش[(١)]، وقال سليمان بن موسى الشامي: ذلك ثمان وعشرون آية، فلحق علي أَبا بكر رضي الله عنهما في الطريق، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: أَمير أَو مأمور؟ فقال: بل مأمور، فنهضا حتى بلغا الموسم، فلما خطب أَبو بكر رضي الله عنه بعرفة قال: قم يا علي فأَدِّ رسالة رسول الله ﷺ، فقام علي رضي الله عنه ففعل، قال: ثم وقع في نفسي أن جميع الناس لم يشاهدوا خطبة أَبي بكر فجعلت أَتتَبع الفساطيط يوم النحر.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ﴾ بفتح الأَلف على تقدير: بأَن الله، وقرأَ الحسن، والأعرج: [إنَّ الله] بكسر الأَلف على القطع، إذ الأَذان في معنى القول. وقرأَ جمهور الناس: [وَرَسُولُه] بالرفع على الابتداءِ وحذف الخبر، وتقديره: ورسوله بريءٌ منهم، هذا وهو عند شيخنا الفقيه الأُستاذ أَبي الحسن بن الباذش[(٢)] رحمه الله معنى العطف على الموضع، أي تُؤنس بالجملة الأُولى التي هي ابتداءُ وخبر فُعطفت عليها هذه الجملة، وقيل: هو معطوف على موضع المكتوبة قبل دخول ﴿أَنَّ﴾ التي لا تغير معنى الابتداءِ بل تؤكده وإذ قد قرئت بالكسر[(٣)]، لأَنه لا يعطف على موضع

---

(١) هو محمد بن الحسن بن محمد بن زياد ـ أبو بكر النقاش ـ مقرىء مفسر، وكان إمام أهل العراق في القراءات والتفسير، قرأ القرآن على هارون بن موسى الأخفش، وروى الحديث عن أبي مسلم الكَجِّيِّ، وصنف تفسيراً سماه «شفاء الصدور»، وله: «الإشارة في غريب القرآن» و«الموضح في معاني القرآن» و«دلائل النبوة» و«القراءات» وقد ضعفه جماعة منهم الدارقطني، (طبقات المفسرين)، وله ترجمة في إرشاد الأريب، وفي الأنساب، وفي تذكرة الحفاظ، والبداية والنهاية، ووفيات الأعيان، وغيرها.

(٢) علي بن أحمد بن خلف الأنصاري الغرناطي المعروف بابن الباذش، من العلماء بالعربية، من كتبه: «المقتضب من كلام العرب»، و«شرح كتاب سيبويه» و«شرح أصول ابن السرَّاج في النحو»، و«شرح الإيضاح» للفارسي. (الأعلام).

(٣) واضح أن الواو زائدة قبل كلمة (إذ) ـ وهكذا وجدناها في جميع الأصول.

(أَنَّ) بالفتح ، وانظره فإنه مختلف في جوازه ، لأن حكم (أَن) رفع حُكم الابتداءِ إلاَّ في هذا الموضع وما أَشبهه ، وهذا قول أبي العباس ، وأَبي علي رحمهما الله. ومذهب الأستاذ[1] على مقتضى كلام سيبويه ألاَّ موضع لما دخلت عليه (أَنَّ) إذ هو معرب قد ظهر فيه عمل العامل ، ولأنه لا فرق بين (أَنَّ) و(ليْت) و(لَعلَّ) ، والإجماع على ألاَّ موضع لما دخلت عليه هذه[2] ، وقيل: هو عطف على الضمير المرفوع الذي في ﴿بَرِيٓءٌ﴾ ، وحسّن ذلك أن المجرور قام مقام التوكيد ، كما قامت ﴿وَلَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾[3]. وقرأ ابن أَبي إسحق ، وعيسى بن عمر: [رسولَه] بالنصب عطفاً على لفظ المكتوبة ، وبهذه الآية امتحن معاوية أَبا الأَسود حتى وضع النحو إذ جعل قارئاً يقرأ بخفض [ورَسُولِهُ].

والمعنى في هذه الآية: بريءٌ من عهودهم وأَديانهم براءَة عامة تقتضي المحاربة وإعمال السيف.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ أَي: عن الكفر ، ووَعدَهم مع شرط التوبة ، وتَوعدهم مع شرط التولِّي ، وجاز أَن تدخل البشارة في المكروه لما جاءَ مصرَّحاً به مرفوع الإشكال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾﴾.

---

(١) يعني بالأستاذ أبا الحسن بن الباذش ، وقد سبق التعريف به في الصفحة السابقة.

(٢) قال أبو حيان في «البحر المحيط ٥ ـ ٦» (وهذا كلام فيه تعقب لأن علة كون (أنَّ) لا موضع لما دخلت عليه ليس ظهور عمل العامل بدليل: «ليس زيد بقائم» و«ما في الدار من رجل» ، فإنه ظَهَر عملُ العامل ولهما موضع ، وقوله: «والإجماع. . . الخ» يريد أن (لَيْتَ) لا موضع لها من الإعراب بالإجماع ، وليس كذلك ، لأن الفراءَ خالف وجعل حكم «ليت ، ولعَلَّ ، وكأن ، ولكن ، وأنَّ» حكم (إنَّ) في كون اسمهن له موضع).

(٣) الأنعام: ١٤٨.

هذا هو الاستثناءُ الذي تقدم ذكره في المشركين الذين بقي من عهدهم تسعة أَشهر وكانوا قد وفوا بالعهد على ما يجب، وقال قتادة: هم قريش الذين عوهدوا زمن الحديبية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا مردود بإسلام قريش في الفتح قبل الأَذان بهذا كله، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْۚ﴾: إلى الأَربعة الأَشهر التي في الآية. وقرأَ الجمهور: ﴿يَنقُصُوكُمْ﴾ بالصاد غير منقوطة، وقرأَ عطاءُ بن يسار، وعكرمة، وابن السميفع: [ينقُضُوكُمْ] بالضاد، من النقض، وهي متمكنة مع العمد. ولكنها قلقة في تعدِّيها إلى الضمير، ويحسن ذلك أن النقض نقض وفاءٍ وحق للمعاهد، وكذلك تعدّى ﴿فَأَتِمُّوٓاْ﴾ بـ﴿إِلَىٰ﴾ لما كان العهد في معنى ما يؤدي ويبرأُ منه[1] وكأَنهم ينقضون العهد، و﴿يُظَٰهِرُواْ﴾ معناه: يعاونوا، فالظَّهر: المُعين، وأَصلُهُ من الظهر، كأَن هذا يسند ظهره إلى الآخر، والآخر كذلك، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تنبيه على أن الوفاء بالعهد من التقوى.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ الآية. الانسلاخ: خروج الشيء عن الشيءِ المتلبس به، كانسلاخ الشاة عن الجلد والرجل عن الثياب، ومنه قوله تعالى: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾[2]، فشبَّه انصرام الأشهر بأَسمائها وأَحكامها من الزمن بذلك[3]، وقد تقدم القول فيمن جُعِل له انقضاءُ الأشهر الحُرُم أجلاً، وما المعنيّ بالأَشهر الحُرُم بما أَغنى عن إعادته.

وقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أَمر بقتال المشركين فخرج الأَمر بذلك بلفظ [اقتُلوا] على جهة التشجيع وتقوية النفس، أَي: هكذا يكون أَمركم معهم، وهذه الآية

(١) في بعض النسخ: ويبرأ به.

(٢) يس: ٣٧.

(٣) يقال: سلخْتُ الشهر إذا صرت في أواخر أيامه، قال أبو الهيثم: يقال: أهللنا هلال شهر كذا أي دخلنا فيه ولبسناه فنحن نزداد كل ليلة إلى مُضِيَ نصفه لباساً منه، ثم نسلخه عن أنفسنا بعد تكامل النصف منه جُزءاً فجُزءاً حتى نسلخه كله، وأنشد:

إذا ما سَلَخْتُ الشهرَ أهْلَلْتُ مِثْلَهُ ... كفَى قاتلاً سَلْخي الشُّهورَ وإهْلالي

ويقال أيضاً: سلَخت المرأةُ درعها: نزعته.

نسخت كل موادعة في القرآن أو مهادنة وما جرى مجرى ذلك، وهي على ما ذُكر مائة آية وأَربع عشرة آية، وقال الضحاك، والسدي وعطاءَ: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[1]، وقالوا: لا يجوز قتل أَسير البتَّة صبراً، إما أن يُمنَّ عليه وإمَّا أَن يُفادى، وقال قتادة، ومجاهد، وغيرهما: قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ منسوخ بهذه الآية، وقالوا: لا يجوز المنُّ على أَسير ولا مفاداته، ولا شيءَ إلا القتل، وقال ابن زيد: هما محكمتان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولم يفسر أَكثر من هذا، وقوله هو الصواب، والآيتان لا يشبه معنى واحدة معنى الأُخرى، وذلك أَن هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ أَفعالٌ إِنما تتمثل مع المحارب المرسل المناضل، وليس للأَسير فيها ذكْر ولا حُكم، وإذا أُخذ الكافر خرج عن درجات هذه الآية وانتقل إلى حكم الآية الأُخرى، وتلك الآية لا مدخل فيها لغير الأَسير، فقول ابن زيد هو الصواب، وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ معناه: الأَسر، وقوله: ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ معناه: في مواضع الغِرَّة حيث يُرصدون، وقال النابغة[2]:

أَعَـاذِلُ إِنَّ الجهْـلَ مِـن لَـذَّةِ الْفتـى ... وإِنَّ الْمنـايـا للنُّفُـوسِ بِمَـرْصَـدِ[3]

ونُصب ﴿كُلَّ﴾ على الظرف، وهو اختيار الزجاج، أَو بإِسقاط الخافض، التقدير: في كل مرصد، أَو على كل مرصد، وحكى سيبويه: ضُرِب الظهرَ والبطنَ[4].

---

(١) محمد: ٤.

(٢) البيت لعديٍّ بن زيد، وقد نسبه القرطبي للنابغة أيضاً، ونسبه في اللسان لعديَّ بن زيد وهو الصواب، وهو من قصيدة مطلعها:

أَتَعْـرفُ رسْـمَ الـدار مِـنْ أُمِّ مَعْبَـدِ؟ ... نَعَـم، ورَمَـاكَ الشَّـوْقُ قَبْـلَ التَّجَلُّـدِ

(٣) العذلُ: اللَّوم، والعاذل هنا زوجُه، وقد أشار إليها في بيت آخر قبل هذا يقول فيه:

وعَــاذِلَــةٍ هَبَّـتْ بلَيْـلٍ تَلُـومُنـي ... فلمَّا غَلَتْ في اللَّوم قُلْتُ لَها اقْصدي

ويروى الشطر الثاني: (وإنَّ المنايا للرِّجال بمَرْصَد)، والمعنى: إن المرءَ قد يطلب اللذة جهلاً إذ يتوهم فيها السعادة في حين أنها تنتهي به إلى التعاسة، وإن الموت يترصَّد الناس ويتربص بهم لينقضَّ عليهم.

(٤) المرصد: مَفْعَل من رصَدَ يرصُد بمعنى رَقَب ـ يكون مصدراً وزماناً ومكاناً قال عامر بن الطفيل: =

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ يريد: من الكفر، فهي متضمنة الإيمان، ثم قرن بها إقامة الصلاة وإيتاءَ الزكاة تنبيهاً على مكان الصلاة والزكاة من الشرع[١]، وقوله: ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ تأمين.

وقال أَنس بن مالك: هذا هو دين الله الذي جاءَت به الرسل، وهو من آخر ما نزل قبل اختلاف الأَهواءِ، وفيه قال النبي ﷺ: «من فارق الدنيا مخلصاً لله تعالى مطيعاً له لقي الله وهو عنه راض»[٢]، ثم وعد بالمغفرة في صيغة الخبر عن أَوصافه تعالى.

= ولقد علِمتَ وما إخالُك ناسياً ... أن المنيَّةَ لِلْفَتى بالمَرْصَدِ

وقال الزمخشري: ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾: كل مَمَرٍّ ومُجْتاز ترصدونهم فيه، وانتصابُه على الظرف كقوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، وقال الزجاج: مَرْصَد: ظرف كقولك: ذهبتُ مذهباً، وردَّه أبو علي الفارسي لأن المرصد هو المكان الذي يرصد فيه العدو فهو مكان مخصوص لا يحذف الحرف منه إلا سماعاً كما حكى سيبويه: دخلتُ البيتَ، وكقول الشاعر: كما عَسَل الطريقَ الثَّعلبُ، وقال أبو حيَّان الأندلسي رداً على الفارسي:

يصح انتصابه على الظرف لأن قوله: ﴿وَٱقْعُدُوا۟﴾ ليس معناه حقيقة القُعود، بل المعنى: ارصدوهم في كل مكان يرصد فيه، ومتى كان العامل من لفظ الظرف أو معناه جاز أن يعمل فيه بغير واسطة: تقول: «جلست مجلس زيد وقعدت مجلس زيد» تريد: في مجلس زيد. هذا والذي قدّر الواسطة المحذوفة (عَلَى) هو الأخفش قال: معناه: على كل مرصد ـ فحذف الحرف وأعمل الفعل ـ والذي عليه النحاة أن حذف الحرف وإعمال الفعل مخصوص بالشعر، كقول الشاعر:

تَحِنُّ فتُبْدي ما بها مِنْ صَبَابَةٍ ... وأُخْفي الَّذي لَوْلا الأسى لَقَضاني

أي: لقضى عَلَيّ.

(١) هذا هو التعليل الذي يراه ابن عطية لذكر الصلاة والزكاة بعد التوبة أو معها، ولكن كثيراً من العلماء يرون رأياً آخر هو أن الله تعالى علّق القتل على الشرك، ثم قال: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ وذلك يقتضي زوال القتل بمجرد التوبة من غير اعتبار لشيءٍ آخر كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، غير أن الله تعالى ذكر التوبة وذكر معها شرطين آخرين هما إقامة الصلاة وإيتاءُ الزكاة فلا سبيل إلى إلغائهما، ونظير ذلك قوله ﷺ: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءَهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»، قال ابن العربي: فانتظم القرآن والسنة واطَّردا، ويرى العلماءُ أن ذلك فيمن يترك الصلاة والزكاة مستحلا لذلك، وقد يلتقي تعليل ابن عطية برأي العلماء عند التأمل والنظر الدقيق.

(٢) أخرجه ابن جرير عن أنس ولكن بلفظ: (من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا يشرك به شيئاً فارقها والله راض عنه).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾.

أُمر رسول الله ﷺ في هذه الآية ـ بعد الأمر بقتال المشركين ـ بأَن يكون متى طَلَب مشركٌ عهداً يأمن به حتى يسمع القرآن ويرى حال الإسلام أَنْ يُعْطيه ذلك، وهي الإجارة من الجوار.

ثم أُمر بتبليغه المأمن إذا لم يرض بالإسلام ولم يُهْد إليه، وقال الحسن: هي محكمة سُنَّة[1] إلى يوم القيامة، وقاله مجاهد، وقال الضحاك، والسدي: هذا منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. وقال غيرهما: هذه الآية إنما كان حكمها مدة الأَربعة الأَشهر التي ضربت لهم أَجلاً.

وقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ يعني القرآن[2]، وهي إضافة صفة إلى موصوف، لا إِضافة خلق إلى خالق، والمعنى: ويَفْهَم أَحكامه وأَوامره ونواهيه، فذُكر السماعُ بالآذان إِذ هو الطريق إلى الفهم، وقد يجيءُ السماع في كلام العرب مستعملاً بمعنى الفهم، كما تقول لمن خاطبته فلم يقبل منك: «أنت لم تسمع قولي»، تريد: لم تفهمه، وذلك في كتاب الله تعالى في عدة مواضع. و﴿أَحَدٌ﴾ في هذه الآية مرتفع بفعل يفسره قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ ويضعف فيه الابتداءُ لولاية الفعل لِـ [إِنْ]. وقوله تعالى: [ذٰلِكَ] إِشارة إلى هذا اللطف في الإِجارة والإِسماع وتبليغ المأْمن، و[لا يَعْلَمُونَ] نفى علمهم بمراشدهم في اتباع محمد ﷺ.

---

(١) هكذا في جميع الأصول، وفي القرطبي نقلاً عن الحسن أيضاً، والمعنى بها يكاد يكون غير واضح.

(٢) لما كان القرآن أعظم المعجزات ومصدر الهداية والإرشاد علّق السماع به.

و﴿حَتَّىٰ﴾ يصحُ أن تكون للغاية، أي: إلى أن يسمع، ويصحُ أن تكون للتعليل ـ وهي في الحالين متعلقة بـ ﴿فَأَجِرْهُ﴾، ولا يصح أن يكون من باب التنازع وذلك لمانع لفظي، وهو لو أُعمل الأول وهو ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ لأضمر في الثاني ﴿فَأَجِرْهُ﴾ وحتى لا تجر المضمر، لكن من النحويين من أجاز أن تجر ﴿حَتَّىٰ﴾ المضمر على خلاف رأي الجمهور، ولا مانع عند هؤلاءِ أن يكون من باب المتنازع، مع العلم بأنه لا مانع من حيث المعنى من كونه من باب التنازع، وإنما المانع لفظي كما قلنا ـ ذكر ذلك أبو حيان في «البحر المحيط».

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ﴾ الآية.

لفظ استفهام وهو على جهة التعجب والاستبعاد، أي: على أي وجه يكون للمشركين عهد وهم قد نقضوا وجاهروا بالتعدي؟ ثم استثنى من عموم المشركين القوم الذين عوهدوا عند المسجد الحرام، أي: في ناحيته وجهته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما رُوي عنه: المعني بهذا قريش. وقال السدي: المعني بنو جذيمة من الديل. وقال ابن إسحق: هي قبائل بني بكر، كانوا قد دخلوا وقت الحديبية في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش، فلم يكن نقض إلا قريش وبنو الديل من بني بكر، فأُمر المسلمون بإتمام العهد لمن لم يكن نقض. وقال قوم: المعني خزاعة، قاله مجاهد، وهو مردود بإسلام خزاعة عام الفتح، وقال بعض من قال إنهم قريش: إن هذه الآية نزلت فلم يستقيموا، بل نقضوا فنزل تأجيلهم أربعة أشهر بعد ذلك، وحكى الطبري هذا القول عن ابن زيد، وهو ضعيف متناقض، لأن قريشاً وقت الأذان بالأربعة الأشهر لم يكن منهم إلا مسلم، وذلك بعد فتح مكة بِسنَة، وكذلك خزاعة، قاله الطبري وغيره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ يريد به الموفين بالعهد من المؤمنين، فلذلك جاءَ بلفظ معرف للوفاء بالعهد متضمن للإيمان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

بعد ﴿كَيْفَ﴾ في هذه الآية فعل مقدر ولابُدّ، يدل عليه ما تقدم، فيحسن أن يُقدّر: «كيف يكون لهم عهد»؟ ونحوه قول الشاعر:

وخَبَّرْتُماني أنَّما الموتُ في القرى فكَيْفَ وهاتا هضْبَةٌ وكثيبُ؟[1]

---

(١) هذا البيت لكعب بن سعيد الغَنَوي (مجموع أشعار العرب ١ ـ ١٤) من قصيدة له يرثي أخاً له، ورواية البيت فيه:

وَحَدَّثْتُماني أَنَّما الْمَوْتُ في القُرى فكَيْفَ وهاتا روْضَةٌ وَقَلِيبُ؟ =

وفي ﴿كَيْفَ﴾ هنا تأكيد للاستيعاب الذي في الأولى، و﴿لَا يَرْقُبُوا۟﴾ معناه: لا يراعوا ولا يحافظوا، وأَصل الارتقاب بالبصر، ومنه الرقيب في المسير وغيره، ثم قيل لكل من حافظ على شيءٍ ورعاه: راقبه وارتقبه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿إِلًّا﴾، وقرأ عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما بياءٍ بعد همزة خفيفة اللام: [إِيلاً]، وقرأت فرقة: [أَلاًّ] بفتح الهمزة، فأَمَّا من قرأ: ﴿إِلًّا﴾ فيجوز أَن يراد به الله عزَّ وجلَّ، قاله مجاهد، وأبو مجلز، وهو اسمه بالسريانية وعُرِّب، ومن ذلك قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين سمع كلام مسيلمة، فقال: هذا كلامٌ لم يخرج من إِلٍّ[1]. ويجوز أَن يراد به العهد، والعرب تقول للعهْد والحِلْف والجِوار ونحو هذه المعاني: إِلاًّ، ومنه قول أَبي جهل:

لإِلٌّ علَيْنَـــا واجـــبٌ لا نُضيعُـــه ... مَتيـنٌ قُـواهُ غيْـرُ مُنْتَكَـثِ الْحَبْـلِ[2]

ويجوز أن يراد به القرابة، فإنها في لغة العرب يقال لها: إِلٌّ، ومنه قول ابن مقبل:

أَفْسَـــدَ النَّـــاسَ خُلُـــوفٌ خلَفُـــوا ... قَطعُـــوا الإِلَّ وأَعْـراقَ الـرَّحِـمْ[3]

= والتقدير: فكيف مات؟ والبيت في شواهد سيبويه وفي جمهرة أشعار العرب: «هضبة وقليب»، قال الشنتمري: أراد بالقليب القبر، وأصله البئر، كأن الشاعر حُذّر من وباءِ الأمصار وهي القُرى فخرج إلى البادية فرأى قبْراً فعلم أنه لا نجاة من الموت فقال هذا ينكر على مَنْ حذَّره من الإقامة في القرى. هذا وقد جاء حذف الفعل بعد (كيف) لدلالة المعنى عليه في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾؟

(١) قال الأزهري: الإلّ: اسم الله بالعبرانية، وأصله من الأليل وهو البريق، وقال السهيل في «الروض»: حذار أن تقول هو اسم الله تعالى فتسمي الله باسم لم يُسَمِّ به نفسه لأنه نكرة، ونفى ذلك أيضاً صاحب اللسان لأنه لم يسمع، وأصل الإل في اللغة: التَّحديد، ومنه الألَّة للحربة، ومنه أُذن مؤَلَّلةٌ أي مُحَدَّدة، ومنه قول طرفة بن العبد يصف أذني ناقته بالحِدَّة والانتصاب:

مُــــؤَلَّلَتَـــانِ يُعْـــرَفُ العِتْـــقُ فيهمـــا ... كَسَـامِعَتَـــي شـــاةٍ بحَـــوْمَـــل مُفْـــرَد

أي هما مثل أذني ثور وحشي مفرد في هذه الرملة المعروفة بحومل.

(٢) نَكَثَ الحبلَ: نقَضه، وانتكث الحبلُ: انتقضَ أي تَفَكَكَ وتفرقت خيوطه. والإِلُّ في البيت بمعنى: العَهْد والحِلْف والجوار كما ذكر ابن عطية.

(٣) الخُلُوف: جمع خلْف بسكون اللام، وهم الذين يَخْلُفونَ غيرهم في ديارهم خياراً كانوا أو شراراً، وقيل: هو خاص بالأشرار، يقال: هؤلاء خلْف سوءٍ وهم الأخساءُ الأراذل، والإلّ في البيت: القرابة على ما قال أبو عبيدة، وإن كان المعنى ينسجم مع العَهْد كما قال ابن عطية رحمه الله، والأعراق: جمع عِرْق وهو أصل الشيء.

أَنشده أَبو عبيدة على القرابة، وظاهره أَنه في العهود، ومنه قول حسان:

لَعَمْـرُكَ إِنَّ إِلَّـكَ مـن قُـرَيْـشٍ ... كـإِلِّ السَّقْـبِ مِـنْ رَأْلِ النَّعـامِ(١)

وأما من قرأَ: [أَلاًّ] بفتح الهمزة فهو مصدر من فعل الأَلّ الذي هو العهد، ومن قرأَ: [إِيلاً] فيجوز أن يراد به الله عزَّ وجلَّ، فإنه يقال: إِلّ وإِيل، وفي البخاري: قال الله: جِبْر، وميك، وسراف: عَبْدٌ بالسريانية، وإِيلُ: اللهُ عزَّ وجلَّ(٢)، ويجوز أَن يريد: ﴿إِلًّا﴾ المتقدم فأَبدل من أَحد المثلين ياءً، كما فعلوا ذلك في قولهم: أَمَّا وأَيما، ومنه قول سعد بن قرط يهجو أُمَّه:

يـا لَيْتَمَـا أُمُّنَـا شَـالَـتْ نعـامَتُهـا ... أَيمـا إِلـى جنَّـةٍ أَيمـا إِلـى نـار(٣)

ومنه قول عمر بن أَبي ربيعة:

رأَتْ رجُلا أَيما إِذا الشَّمْسُ عارضت ... فيضْحى وأَمَّا بـالعَشِيِّ فيخصَرُ(٤)

وقال الآخر:

لا تُفْسِـدُوا أَبـاً لكُـمْ ... إِيمـا لنـا إِيمـا لَكُـم(٥)

قال أَبو الفتح: ويجوز أَن يكون مأْخوذاً من آل يؤول إِذا ساس(٦).

---

(١) استشهد صاحب اللسان بالبيت على أن (الإِلّ) بمعنى القرابة، ونسبه أيضاً لحسَّان بن ثابت، والسُّقْب: ولَدُ الناقة، والرَّأل: ولد النعام، يقول: إن قرابتك من قريش مثل قرابة ولد الناقة لولد النعام.

(٢) معنى ذلك أن هذه الأسماء تحمل معنى العبودية لله، فهي كلها بمعنى «عبد الله».

(٣) نسب البيت إلى سعد بن قرط، أو سعد بن قرين، أو معبد بن قرط، وهو فيه يدعو على أُمّه بالموت وقد كان عاقاً لها، والبيت في الخزانة ٤ ـ ٤٣١، وفي شواهد السيوطي ٦٧، وفي مغنى اللبيب ٨٥، والنحويون يستشهدون بهذا البيت على أمور منها: فتح الهمزة في (إمَّا)، والإبدال، وأن (إمَّا) الثانية عاطفة عند أكثرهم، قالوا: وزعم يونس، والفارسي، وابن كيسان أنها غير عاطفة كالأولى، ووافقهم ابن مالك لأنها غالباً ما تلازم الواو، ومن غير الغالب جاءَ هذا البيت.

(٤) عارضت: غدت في عرض السماء، ويضحى: يبرز للشمس، ويخصر: يبرد، والبيت كناية عن مواصلة السفر بالنهار وفي العشي، وهو في الديوان، وذكره في الخزانة ٤ ـ ٥٥٢.

(٥) لم نعثر على قائله، والشاهد فيه إبدال الميم ياءً في إمَّا الأولى وإما الثانية.

(٦) يقال: أُلْتُ الشيءَ أَوْلاً وإِيالاً، سُسْتُه، والإِيالَةُ: السياسة، وآل عليهم أَوْلاً وإِيالاً وإِيالة: وَلِيَ، وفي المَثَل: «قد أُلْنا وإِيلَ علينا»، نسبه ابن برّي إلى عمر وقال: معناه: سُسْنا وسِيسَ علينا، وقال الشاعر:

أَبـا مـالـكٍ فـانظُـرْ فـإِنَّـكَ حـالـبٌ ... صَرَى الحرْبِ فانْظُرْ أَيَّ أَوْلٍ تَؤُولُها

(عن اللسان).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «قد أُلْنا وإِيلَ عَلَينَا» ، فكأن المعنى ـ على هذا ـ: لا يرقبون فيكم سياسة ولا مداراة ولا ذمة ، وقلبت الواو ياءً لسكونها والكسرة قبلها.

والذمَّة أيضاً بمعنى المتاب والحِلْفِ والجوار ، ونحوهُ قول الأصمعي: «الذمة كل ما يجب أن يحفظ ويُحمى»[1] ، فمن رأى في (الإلّ) أنه العهد جعلهما لفظتين مختلفتين لمعنى واحد أو متقارب ، ومن رأى (الإلّ) لغير ذلك فهما لفظان لمعنيين. و﴿ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾ معناه: تأبى أن تذعن لما يقولونه بالألسنة ، وأَبَى يَأْبى شاذٌّ ، لا يُحفظ فعل يفْعل بفتح العين في الماضي والمستقبل ، وقد حُكي ركَن يركَن. وقوله: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ ﴾ يريد به الكل ، أو يريد استثناءَ من قضى له بالإيمان ، كل ذلك محتمل.

وقوله تعالى: ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ الآية. اللازم من ألفاظ هذه الآية أن هذه الطائفة الكافرة الموصوفة بما تقدم لمَّا تركت آيات الله ودينه وآثرت الكفر وحالها في بلادها ، كل ذلك كالشراءِ والبيع لمَّا كان تَرْكاً لما قد مُكِّنوا منه وأَخْذاً لما يمكن نبذه ، وهذه نزعة مالك رحمه الله في منع اختيار المشتري فيما تختلف آحاد جنسه ، ولا يجوز التفاضل فيه[2] ، وقد تقدم ذكر ذلك في سورة البقرة ، وقوله: ﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ﴾ يريد: صدُّوا أنفسهم وغيرهم ، ثم حكم عليهم بأَن عملهم سَيِّءٌ ، و[ساءَ] في هذه الآيةِ ـ إذْ لم يُذكر مفعولها ـ يحتمل أن تكون مضمنة كبئس ، فأَما إذا قلت: «ساءَني فعل زيد» فليس بتضمين بوجه ، وإن قدرت في هذه الآية مفعولاً زال التضمين.

وروي أَن أبا سفيان بن حرب جمع بعض العرب على طعام ، وندبهم إلى وجه من

---

(١) قال أبو عبيدة مَعْمر: الذِمَّةُ: التَّذَمُّم ، وجمع ذِمَّةٍ: ذِمَمٌ ، وبئر ذَمَّة (بفتح الذال): قليلة الماء ، وجمعها: ذمام ، وأهل الذمة: أهل العقد.

(٢) مفهوم الآية أن هؤلاء الكفرة لم يخيروا بين الدخول في الإسلام والبقاء على كفرهم إلا مع بيان الحقيقة لهم ، وهي ما ينالهم من العذاب الأليم الدائم إن هم اختاروا الكفر ، وبناءً على هذا المفهوم أخذ الإمام مالك رحمه الله حكماً في عمليات البيع والشراء يمنع بمقتضاه الإنسان من الشراء على أن يختار في كل ما تختلف آحادُ جنسه ولا يجوز فيه التفاضل إلا مع بيان ثمن كل فرد من أفراد الجنس المذكور توضيحاً للحقيقة.

وجوه النقض فأَجابوا إلى ذلك فنزلت الآية ، وقال بعض الناس: هذه في اليهود.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا القول وإن كانت أَلفاظ هذه الآية تقتضيه فما قبلها وما بعدها يردُّه ويتبرأُ منه ، ويختل أُسلوب القول به.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ﴾ الآية. وصف لهذه الطائفة المشترية يضعف ما ذهب إليه من قال إن قوله: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ هو في اليهود ، وقوله تعالى: ﴿فِي مُؤْمِنٍ﴾ إعلامٌ بأَن عداوتهم إنما هي بحسب الإيمان فقط ، وقوله أَولاً: ﴿فِيكُمْ﴾ كان يحتمل أَن يظن ظانٌّ أَن ذلك لِلإحن التي وقعت فزال هذا الاحتمال بقوله: ﴿فِي مُؤْمِنٍ﴾ ثم وصفهم بالاعتداءِ والبداءَة بالنقض للعهود والتعمق في الباطن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿تَابُوا﴾: رجعوا عن حالهم ، والتوبة منهم تتضمن الإِيمان ، ثم قرن تعالى بإيمانهم إِقامة الصلاة وإِيتاءَ الزكاة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: حرّمت هذه الآيةُ دماءَ أَهل القِبْلَة ، وقال ابن زيد: قرن الله الصلاة بالزكاة ولم يرض بإحداهما دون الأُخرى[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا مرَّ أَبو بكر رضي الله عنه وقت الردَّة.

والأُخوّة في الدين هي أُخوّة الإسلام ، وجمعُ الأَخ منها: إخوان ، وجمعهُ من النسب: إِخوة قاله بعض اللغويين ، وقد قيل: إن الأَخ من النَّسب يجمع على إِخوان

---

(١) في هذا المعنى روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ فرَّق بين ثلاثٍ فرَّق الله بينه وبين رحمته يوم القيامة ، من قال: أطيع الله ولا أطيع الرسول ، والله تعالى يقول: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ، ومن قال: أقيم الصلاة ولا أُوتي الزكاة ، والله تعالى يقول: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ ، ومن فرَّق بين شكر الله وشكر والديه ، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾.

أيضاً، وذلك ظاهر من قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ﴾[١]، ويبين ذلك قوله تعالى في آخر الآية: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾، وكذلك قوله في هذه السورة: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾[٢] الآية. فأما الأخ من التَّوادِّ فَفي كتاب الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٣].

وقال أبو هريرة في البخاري: «كان إخوتي منَ المهاجرين يشغلهم الصفق بالأسواق»[٤]، فيصح من هذا كله أن الأخ يجمع إخوة وإخواناً سواءٌ كان من نسب أو مودة، وتفصيلُ الآيات: بيانها وإيضاحها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم﴾ الآية. النكثُ: النقض، وأَصله في كل ما قُبل ثم حُلَّ، فهي في الأيمان والعهود مستعارة، وقوله: ﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ أي بالاستنقاص والحرب وغير ذلك مما يفعله المشرك، وهذه استعارة، ومنه قول النبي ﷺ حين أَمَّر أُسامة: «إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أَبيه من قبل» الحديث[٥].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويليق هنا ذكر شيءٍ من طعن الذمي في الدين، فالمشهور من مذهب مالك رحمه الله أَنه إذا فعل شيئاً من ذلك مثل تكذيب الشريعة وسبّ النبي ﷺ ونحوه قُتِل، وقيل: إذا كفر وأَعلن بما هو معهود من مُعتقده، وكُفْره أُدّب على الإعلان وتُرك، وإذا كفر بما ليس من معهود كفره كالسبِّ ونحوه قُتِل، وقال أَبو حنيفة في هذا: إنه يُسْتَتاب،

(١) النور: ٦١.
(٢) التوبة: ٢٤.
(٣) الحجرات: ١٠.
(٤) الصفق بالأسواق هو البيع والشراء، يقال: صَفق البيعَ، أمضاه، وكانت العرب إذا أرادوا إنفاذ البيع ضربَ أحدهما يده على يد صاحبه، فقالوا: صفق يده، أو صفق على يده بالبيع فوصفوا به البيع.
(٥) الحديث رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وغيرهم، ولفظه كما في البخاري: «عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: بعث النبي ﷺ بعثاً وأمّر عليهم أُسامة بن زيد، فطعن بعض الناس في إمْرتِهِ فقام رسول الله ﷺ فقال: إن كنتم تطعُنون في إمْرَتِه فقد كنتم تطعُنُون في إمْرَة أبيه من قبلُ، وايم الله إن كان لخَليقاً للإمارة، وإن كان لَمِنْ أحبّ الناس إليّ، وإنَّ هذا لَمِنْ أحب الناس إليّ بَعْدَهُ».

واختلف إذا سبَّ الذمِّي النبي ﷺ ثم أَسلم تقية القتل، فالمشهور من المذهب أَنه يُترك، وقد قال ﷺ: «الإِسلام يَجُبُّ ما قبله»[١]، وفي «العتبية» أنه يقتل ولا يكون أَحسن حالاً من المسلم.

وقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ أَي رؤُوسهم وأَعيانهم الذين يقودون الناس إليه، وقال قتادة: المراد بهذا أبو جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وغيرهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ـ إن لم يتأَول أَنه ذكرهم على جهة المثال ـ ضعيف، لأن الآية نزلت بعد بدر بكثير، وروي عن حذيفة أنه قال: لم يجىءْ هؤلاءِ بَعْدُ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يريد: لم ينقرضوا فهم يحيون أَبداً ويقاتلون، وأَصوب ما في هذا أَن يقال: إنه لا يُعنى بها مُعيَّن، وإنما وقع الأَمر بقتال أَئمة الناكثين بالعهود من الكفرة إلى يوم القيامة دون تعيين، واقتضت حال كفار العرب ومحاربي رسول الله ﷺ أَن تكون الإِشارة إِليهم أَولا بقوله: ﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾، وهم حصلوا حينئذ تحت اللفظة إذ الذي يتولى قتال النبي ﷺ والدفع في صدر شريعته هو إمام مَنْ يكفر بذلك الشرع إلى يوم القيامة، ثم تأْتي في كل جيل من الكفار أَئمة خاصة بجيلٍ جيلٍ.

وقرأَ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرو: [أَئِمَّة] بهمزة واحدة وبعدها ياءٌ مكسورة، وقد رُوي عن نافع مدُّ الهمزة، وروى عنه ابن أَبي أَويس [أَئِمَّة] بهمزتين، وأَصْلها: (أَأْمِمَة) وزنها أَفْعِله جمع إمام، كعمادٍ وأَعْمدة، نقلت حركة الميم إلى الهمزة التي هي فاءُ الفِعل[٢]، وأُدْغِمت الميم في الميم الأُخرى وقلبت الهمزة ياءً لانكسارها ولاجتماع همزتين من كلمة واحدة، وقرأَ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي [أَئِمَّة] والتعليل واحد إلا أَنهم لم يقلبوا الهمزة ياءً. وقرأَ المُسَيَّبي[٣] عن نافع: [آيِمَّة]

---

(١) رواه ابن سعيد عن الزبير وعن جُبَيْر بن مطعم بلفظ (الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله)، والحديث صحيح وهو في مسند أحمد ٤/ ٢٠٥.

(٢) معنى ذلك أن الهمزة الأولى هي همزة الجمع، والثانية همزة الأصل التي كانت في (إمام) ـ وكان إدغام الميم في الميم للمجانسة.

(٣) المُسَيَّبيّ: هو إسحق بن محمد بن عبد الرحمن بن المسيَّب، أبو محمد المسيَّب المدني، إمام =

بهمزة ممدودة، وقرأ هشام عن أبي عامر بمَدَّة بين الهمزتين(١).

وقرأ الناسُ الجم الغفير: ﴿لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ على جمع يمين، وليس المرادُ نفي الأَيْمَانَ جملة، وإنما المعنى: لا أَيْمَان لهم يُوَفَىّ بها ويُبَرّ، وهذا المعنى يشبه الآية، وقرأ الحسن، وعطاءٌ، وابن عامر وحده من السبعة: ﴿لا إِيمَاَن لَهُمْ﴾ وهذا يحتمل وجهين، أحدهما، لا تصديق، قال أبو علي: وهذا غير قويّ لأَنه تكرير، وذلك أنه وصف أَئمة الكفر بأَنهم لا إيمان لهم، فالوجه في كسر الألف أنه مصدر من آمنه إيماناً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾(٢)، فالمعنى أنهم لا يُؤَمِّنون كما يُؤَمِّن أهلُ الذمة الكتابيون، إذ المشركون لم يكن لهم إلا الإسلام أو السيف، قال أبو حاتم: فسّر الحسَن قراءَته: لا إِسلام لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والتكرير الذي فرَّ أبو علي منه متَّجه لأَنه بيان المبهم الذي يوجب قتلهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ﴾ عرض وتحضيض: وقوله: ﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال الحسن بن أبي الحسن: المراد: من المدينة، وهذا يستقيم كغزوة أُحُد والأحزاب وغيرهما، وقال السدي: المراد: من مكة، فهذا على أَن يكون المعنى: همُّوا وفعلوا، أَو على أَن يقال: هموا بإِخراجه

= جليل، عالم بالحديث، قيِّم في قراءة نافع، ضابط لها، قال أبو حاتم السجستاني: إذا حدثت عن المُسَيَّبِيّ عن نافع ففَرِّغ سمعك وقلبك فإنه أتقن الناس، وأعرفهم بقراءة أهل المدينة. (غاية النهاية ١ ـ ١٥٧، ١٥٨).

(١) الأولى حينئذ أن تكتب (أآئمة) ويمكن أن تكتب (آئمة) وتأمل الفرق بين هذه القراءة وبين قراءة المسيَّبيِّ عن نافع.

(٢) قريش: ٤.

بأَيديهم فلم يصلوا إلى ذلك، بل خرج بأَمر الله عزَّ وجلَّ، وهذا يجري مع إِنكار النبي ﷺ على أَبي سفيان بن الحارثة قوله:

وَرَدَّنـــــي للهِ مَـــــنْ طَـــــرَّدْتُ كُـــلَّ مُطَـــرَّدِ

ولا ينسب الإخراج إِليهم إلا إِذا كان الكلام في طريق تَذْنيبهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[١]، وقوله: ﴿مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾[٢]، والأَول على أَن ما فعلوا به من أَسباب الإِخراج هو الإِخراج.

وقوله: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قيل: يراد أَفعالهم بمكة بالنبي ﷺ وبالمؤمنين، وقال مجاهد، يراد به ما بدأَت به قريش من معونة بني بكر حلفائهم على خزاعة حلفاءِ رسول الله ﷺ، فكان هذا بدءَ النقض، وقال الطبري: يعني فعلهم يوم بدر، وقوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ استفهام على معنى التقرير والتوبيخ، وقوله: ﴿فَٱللَّهُ﴾ مرتفع بالابتداءِ، و﴿أَحَقُّ﴾ خبره، و﴿أَن تَخْشَوْهُ﴾ بدل من اسم الله، بدل اشتمال، أو في موضع نصب على إسقاط خافض تقديره: بأَن تخشوه، ويجوز أَن يكون [الله] ابتداءً، و﴿أَحَقُّ﴾ ابتداءٌ ثان[٣]، و﴿أَن تَخْشَوْهُ﴾ خبر الثاني، والجملة خبر الأَول، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كما تقول: افعل كذا إن كنت رجلاً، أَي: رجلاً كاملاً، فهذا معناه: إن كنتم مؤمنين كاملي الإيمان، لأن إيمانهم كان قد استقر.

وقوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية. قررت الآيات قبلها أَفعال الكفرة، ثم حضَّ على القتال مقترناً بذنوبهم لتنبعث الحمية مع ذلك، ثم جزم الأَمر بقتالهم في هذه الآية مقترناً بوعد وكيد يتضمن النصرة عليهم والظفر بهم، وقوله: ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾ معناه: بالقتل والأَسر وذلك كله عذاب، ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ معناه: يذلهم على ذنوبهم، يقال: خَزِي الرجل يخزى خزياً إِذَا ذلَّ من حيث وقع في عار، وأَخزاه غيره، وخَزِي يَخزى خزايةً إذا استحيا، وأما قوله: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الكلام يحتمل أَن يريد جماعة المؤمنين، لأَن كل ما يهد من الكفر هو شفاءٌ من همّ صدور المؤمنين،

---

(١) البقرة: ٢١٧.

(٢) محمد: ١٣.

(٣) هكذا في جميع الأصول، وقال أبو حيان تعليقاً على ذلك: «وحسن الابتداءُ بالنكرة لأنها أفعل التفضيل، وقد أجاز سيبويه أن تكون المعرفة خبراً للنكرة في نحو: أقصِدُ رجلاً خيرٌ منه أبوه».

ويحتمل أن يريد تخصيص قوم من المؤمنين، وروي أنهم خزاعة، قاله مجاهد والسدي، ووجه تخصيصهم أنهم الذين نقض فيهم العهد ونالتهم الحرب، وكان يومئذ في خزاعة مؤمنون كثير، ويقتضي ذلك قول الخزاعي المستنصر بالنبي ﷺ:

. . . . ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعِ يدا

وفي آخر الرجز يقول:

. . . . وَقَتَّلُونَا رُكَّعاً وسُجَّدا[1]

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ على إسناد الفعل إلى الله عزَّ وجلَّ. وقرأت فرقة: [وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ] على إسناد الفعل إلى الغيظ، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيَتُوبُ﴾ بالرفع على القطع مما قبله، والمعنى أن الآية استأنفت الخبر بأنه قد يتوب على بعض هؤلاءِ الكفرة الذين أمر بقتالهم، قال أبو الفتح: وهذا أمر موجود سواءٌ قوتلوا أو لم يقاتلوا، فلا وجه لإدخال التوبة في جواب الشرط الذي في ﴿قَتِلُوهُمْ﴾ على قراءَة النصب، وإنما الوجه الرفع على الاستئناف والقطع، وقرأ الأعرج، وابن أبي إسحق، وعيسى الثقفي، وعمرو بن عبيد، وأبو عمرو ـ فيما رُوي عنه ـ: [ويتُوبَ] بالنصب على تقدير: «وأن يتوب»، ويتوجه ذلك عندي إذا ذهبت إلى أن التوبة إنما يراد بها هنا أن قتل الكافرين والجهاد في سبيل الله هو توبة لكم أيها المؤمنون

---

(١) الخزاعي الذي قال هذا الرجز اسمه عمرو بن سالم، وقصتُه أن صلح الحديبية جعل بني بكر يدخلون في عَقْد قريش وعهدهم، وخزاعة تدخل في عقد النبي ﷺ وعهده، وبقيت الهدنة سبعة عشر شهراً بين الطرفين، ثم إن بني بكر وثبوا على خزاعة حلفاء الرسول ﷺ ليلاً بماءٍ لهم يقال له: «الوتير» قرب مكة، فقالت قريش: ما يعلم بنا محمد (ﷺ) وهذا الليل وما يرانا أحد، فأعانوا بني بكر على خزاعة بالكراع والسلاح، وركب عمرو بن سالم هذا حتى قدم المدينة على رسول الله ﷺ بأبيات أنشده إياها، ومنها:

اللَّهُمَّ إنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدا ... حِلْفَ أَبِينَا وأبيهِ الأتْلَدا
كُنَّا والِداً وكنتَ وَلَدا ... ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا ولم نَنْزَعْ يدَا
فانْصُرْ رسولَ الله نصْراً أعْتَدا ... وادْعُوا عِبَادَ اللهِ يأْتُوا مَدَدَا

إلى أن يقول:

هُمْ بيَّتُونا بالهَجِيرِ هُجَّدَا ... وقَتَّلُونَا رُكَّعاً وسُجَّدَا

فقال رسول الله ﷺ: «نُصرتَ يا عمرو بن سالم» وأمر رسول الله ﷺ بالجهاد، وكان أن كتم مخرجه، وسأل الله أن يُعمي على قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم، وكان نصر الله الأكبر، وتم فتح مكة.

وكمال لإيمانكم، فتدخل التوبة ـ على هذا في شرط القتال[(١)].

و﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ صفتان نِسْبَتُهما إلى الآية واضحة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ في هذه الآية ليست المعادلة، وإنما هي المتوسط في الكلام، وهي عند سيبويه التي تتضمن إضراباً عن اللفظ الأول لا معناه، واستفهاماً، فهي تسُدّ مسدَّ «بلْ وألف الاستفهام» وهي التي في قولهم: «إنَّهَا لإبل أَمْ شَاءٌ»، التقدير: بل أَهي شاءٌ؟ وقوله: ﴿أَن تُتْرَكُوا﴾ يَسُد عند سيبويه مسَدَّ مفعولي (حسِب)، وقال المبرّد: [أَنْ] وما بعدها مفعول أول، والثاني محذوف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كأن تقديره: مُهْملين، أَو سُدىً، ونحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا﴾ هي (ما) دخلت على (لم) وفيها مبالغة، ومعنى الآية:

---

(١) بدأت الآية الكريمة بأمر هو ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾، وبعده جوابُه ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ﴾. وفي الأمر معنى الشرط، والتقدير: إن تقاتلوهم يعذبْهم الله بأيديكم، ثم جاء بعد الجواب قوله: ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾، ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، و﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ﴾ و﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ ـ وكلها مجزومة بالعطف على [يُعذبْ]، ويجوز فيها كلمة الرفع على القطع من الأول والاستئناف، ويجوز النصب على إضمار (أنْ) وهو ما يسمَّى الصرف عند الكوفيين، وعليه قول الشاعر:

فإن يَهْلِكْ أبو قابوسَ يَهْلِكْ ... ربيعُ النَّاس والشَّهْرُ الحرامُ
ونأخُذْ بَعْدَه بذِنَاب عَيْشٍ ... أَجَبُّ الظَّهْر لَيْسَ لَهُ سَنَامُ

وإن شئت رفعت (نأخذ) على القطع، وإن شئت نصبته، لكن جاءت بعد ذلك جملة ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ﴾ والقراءة فيها بالرفع على الاستئناف، ولا يجوز الجزم لأنه ليس من جنس الأول، لأن القتال غير موجب لهم التوبة من الله كما أوجب لهم العذاب والخزي، وكما أوجب شفاء صدور المؤمنين وذهاب غيظهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فقد تم الكلام، ثم قال سبحانه: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾، هذا وقد ذكر ابن عطية التعليل المقبول لجواز النصب في [وَيَتُوبَ] على معنى أن نعتبر الجهادَ في سبيل الله وقَتْلَ الكفار توبةً.

أظننتم أن تُتركوا دون اختبار وامتحان؟ فـ[لَمَّا] في هذه الآية بمنزلة قول الشاعر:

بِـأَيْـدِي رجـالٍ لـم يَشيمـوا سُيُـوفَهُـمْ   ولَمْ تَكْثُرِ الْقَتْلَى بها حينَ سُلَّتِ[1]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمراد بقوله: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ﴾ لما يعلم ذلك موجوداً كما علمه أَزلاً بشرط الوجود، ولما يظهر فعلكم واكتسابكم الذي يقع عليه الثوابُ والعقاب، ففي العبارة تجوز، وإِلاَّ فحَتْم أَنه قد علم الله في الأَزل اللذين وصفهم بهذه الصفة مشروطاً وجودهم، وليس يحدث له علم[2] تبارك وتعالى عن ذلك.

و﴿وَلِيجَةًۚ﴾ معناه: بطانة ودخيلة، قال عبادة بنُ صفْوان الغَنوي:

ولائِجُهُـم فـي كـلِّ مَبْدَى وَمَحْضَـرٍ   إِلى كُلِّ مَنْ يُرْجى وَمَنْ يُتَخَوَّف[3]

وهو مأْخوذ من الولوج، فالمعنى: أَمراً باطناً مما ينكره الحق.

وهذه الآية مخاطبة للمؤمنين معناها أنه لابد من اختبارهم، فهي كقوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ﴾[4]، وكقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾[5]، وفي هذه الآية طعن على المنافقين الذين اتخذوا الولائج لاسيما عندما فُرض القتال، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ بالتاءِ على المخاطبة، وقرأَ الحسن، ويعقوب ـ في رواية رؤَيس ـ وسلام بالياءِ على الحكاية عن الغائب.

---

(١) الشاعر هو الفرزدق، والبيت في المدح، وكلمة (شام) من الأضداد، يقال: شام السيْف شيما: سلَّه وأغمده، والمراد هنا الإغماد، والواو في قوله: (ولم تكثر) واو الحال، أي: لم يغمدوها والقتلى بها لم تكثر، وإنما يغمدونها بعد أن تكثر القتلى، ومن الشواهد الواضحة على أن شام بمعنى أغمد قول الطرماح:

وقَـدْ كنْـتُ شِمْـتُ السَّيْـفَ بعْـدَ استِـلالـهِ   وحاذَرْتُ يومَ الوَعْد ما قيلَ في الوَعْدِ

(٢) نص هذه الجملة في بعض النسخ: «وليس يحدث أنه علم».

(٣) الولائج: جمع وليجة وهو بطانة الرجل وخاصته، والمَبْدَى خلاف المَحْضَر، قاله في اللِّسان، وقال: البَدْوُ والباديَةُ والبَداةُ والبَداوةُ: خلاف الحضر، وفي الحديث: (مَنْ بَدَا جَفَا)، أي: من نزل البادية صار فيه جفاءُ الأعراب، والرجاءُ ضد الخوف، يقول: إن بطانتهم من كل نوع، من البدو، ومن الحضر، فهم موضع القصد من الجميع.

وهم موضع الرجاءِ والخوف.

(٤) البقرة: ٢١٤.

(٥) العنكبوت: ١ـ ٢.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية[1]. معناه: ما كان للمشركين بحق الواجب أَن يعمروا، وهذا هو الذي نفى الله عزَّ وجلَّ، وإلا فقد عمروا مساجده قديماً وحديثاً وتَغَلُّباً وظُلْماً، وقرأ حماد بن أَبي سلمة عن ابن كثير، والجحدري: [مَسْجِد اللهِ] بالإفراد في الموضعين، وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، والأَعرج، وشيبة، وأَبو جعفر، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم: ﴿مَسَاجِدَ﴾ بالجمع في الموضعين، وقرأ ابن كثير أيضاً، وأَبو عمرو: [مسْجِدَ] بالإفراد في هذا الموضع الأَول، و﴿مَسَاجِدَ﴾ بالجمع في الثاني، كأَنَّه ذكر أولا الذي فيه النازلة ذلك الوقت، ثم عمم المساجد ثانياً في الحكْم الثابت ما بقيت الدنيا، ولفظ الجمع يقتضي عموم المساجد كلها، ويحتمل أَن يراد به المسجد الحرام في الموضعين وحده على أن يقدر كل موضع سجود فيه مسجداً ثم يُجمع، ولفظ الإفراد في الموضعين يقتضي خُصُوص المسجد الحرام وحده، ويحتمل أَن يُراد به الجنس فيعم المساجد كلها، ولا يمنع من ذلك إضافته كما ذهب إليه من لا بصر له، وقال أَبو عليٍّ: الثاني في هذه القراءَة يراد به الأَول وسائر المساجد كلها حكمها حكم المسجد الحرام.

وقوله تعالى: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ إشارة إلى حالهم، إذ أَقوالهم وأَفعالهم تقتضي الإقرار بالكفر والتحلي به، وقيل: الإشارة إلى قولهم في التَّلْبية: «إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك» ونحو ذلك، وحكى الطبري عن السدي أَنه قال: الإشارة إلى أَن النصراني كان يقول: أنا نصراني، واليهودي كذلك، والوثني يقول: «أَنا مشرك».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا لم يحفظ، ثم حكم الله عليهم بأَن أَعمالهم قد حَبِطت، أَي: بطلت، ولا أَحفظها تستعمل إلا في السعي والعمل، ويشبه أَن يكون من الحبط وهو داءٌ قاتل

---

(١) قيل في سبب نزول هذه الآية: إن العباس لما أُسرِ وعُيِّر بالكفر وقطيعة الرحم قال: تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا، فقال علي: أَلَكُم محاسن؟ قال: «نعم، إنَّا لنَعْمُر المسجد الحرام، ونَحْجُبُ الكعبة، ونسقي الحجاج، ونَفُكّ العاني»، فنزلت هذه الآية رداً عليه، ولهذا قال الزمخشري: معنى الآية: «ما صحّ وما استقام لهم ذلك»، وهذا هو معنى قول ابن عطية هنا: «ما كان للمشركين بحق الواجب أن يعمروا، وهذا هو الذي نفي الله عزَّ وجلَّ، وإلا فقد عمروا مساجده قديماً وحديثاً وتغلُّباً وظلماً».

يأخذ السائمة إذا رعَتْ وبيلا ، وهو الذي في قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ مما ينبت الربيع مما يقتل حبطاً أو يُلِم» الحديث[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝١٨ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩ ﴾.

المعنى في هذه الآية: إنَّمَا يعمر مساجد الله بالحق لهم والواجب ، ولفظ هذه الآية الخبر وفي ضمنها أَمر المؤمنين بعمارة المساجد ، وقد قال بعض السلف: إذا رأَيتم الرجل يعمر المساجد فحسنوا به الظن ، وروى أَبو سعيد الخدري أَن النبي ﷺ قال: «إذا رأَيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإِيمان»[٢] ، وقد تقدم القول في قراءة ﴿مَسَٰجِدَ﴾ وقوله: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يتضمن الإيمان بالرسول إذ لا يتلقى ذلك إلا منه ، وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ حذفت الألف من (يخشى) للجزم ، قال سيبويه: «واعلم أن الأخير إذا كان يسكن في الرفع حذف في الجزم لئلا يكون الجزم بمنزلة الرفع» ، ويريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة ، وهذه مرتبة العدل بين الناس ، ولا محالة أَن الإِنسان يخشى غيره ويخشى المحاذير

(١) هذا جزءٌ من حديث طويل رواه الإمام البخاري عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ جلس ذات يوم على المِنْبر وجلسنا حوله فقال: «إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يُفْتَح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ، فقال رجل: يا رسول الله أو يأتي الخير بالشَّر؟ فسكت النبي ﷺ ، فقيل له: ما شأنك تُكلِّم رسول الله ﷺ ولا يكلمك؟ فرأينا أنه يُنْزَلُ عليه ، قال: فمسح عنه الرُّحَضَاءَ فقال: أين السائل؟ وكأنه حمده ، فقال: إنه لا يأتي الخير بالشَّر ، وإن مما ينبت الربيع يَقْتُل أو يُلِمّ ، إلا آكلة الخضراءِ أكلت حتى إذا امتدت خاصِرتَاها استقبلت عين الشمس فَثَلَطَتْ وبَالَت ورَتَعَتْ ، وإن هذا المال خَضِرَةٌ حُلْوَة ، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ، أو كما قال النبي ﷺ ، وإنه من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع ، ويكون شهيداً عليه يوم القيامة».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن خزيمة ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه ، والنسائي ، والبيهقي في شعب الإيمان ـ عن أبي سعيد ، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة. (الجامع الصغير).

الدنيوية، وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه، و[عَسَى] من الله واجبة حيثما وقعت في القرآن، ولم يرْجُ الله بالاهتداءِ إلا من حصل في هذه المرتبة العظيمة من العدالة، ففي هذا حضٌّ بليغ على التقوى.

وقرأ الجمهور: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾، وقرأ ابن الزُّبير[١]، وأبو وجْزَة[٢] ومحمد بن عليّ، وأبو جعفر القاري[٣]: [أجعلتم سُقاةَ الحاج وعمرَةَ المسجدِ الحرامِ][٤]، وقرأها كذلك ابن جبير إلا أنه نصب ﴿المَسْجدَ﴾ على إرادة التنوين في [عَمَرَة]. وقرأ الضحاك، وأبو وجزة، وأبو جعفر القاري [سُقايةَ] بضم السين[٥]، و[عمرة]، فأما من قرأ ﴿ سِقَايَةَ ﴾ و﴿ وَعِمَارَةَ ﴾ ففي الكلام عنده محذوف إمَّا في أوله وإمَّا في آخره، فإمَّا أن يُقَدَّر: أجعلتم أهل سقاية، وإما أن يُقَدَّر: كفعل من آمن بالله، وأما من قرأ: [سُقاة] و[عَمَرَة] فنمط قراءَته مستو. وأما قراءَة الضحاك فجمع ساقٍ إلا أنه ضم أوله، كما قالوا: عرق وعُراق وظِئْر وظُؤَار[٦]، وكان قياسه أن يقال: سُقاءٌ، وإن أُنِّث كما أُنِّث من الجموع (حجارة) وغيره.

وسقاية الحاج كانت في بني هاشم، وكان العباس يتولاها، قال الحسن: ولما نزلت هذه الآية قال العباس: ما أُراني إلا أترك السقاية، فقال النبي ﷺ: «أقيموا عليها فإنها لكم خير»[٧].

---

(١) هو عبد الله بن الزبير بن العوّام القرشي الأسدي، أُمُّه أسماءُ بنت أبي بكر رضي الله عنه، ولد عام الهجرة، وحنكه رسول الله ﷺ بتمرة فكان أول شيء دخل في جوفه هو ريق النبي ﷺ، ووردت عنه الرواية في حروف القرآن، وقتل سنة ٧٣ من الهجرة، وهو قول الجمهور (الإصابة).

(٢) اسمه يزيد بن عبيدة السعدي المدني، وردت عنه الرواية في حروف القرآن، وتوفي سنة ١٣٠ من الهجرة. (طبقات القراء).

(٣) هو يزيد بن القعقاع أبو جعفر المخزومي المدني القاري، أحد القراء العشرة المشهورين، تابعي كبير القدر (طبقات القراء).

(٤) (سُقَاة) في هذه القراءة: جمع ساقٍ مثل رامٍ ورماة، و(عَمَرَة) بفتح العين وحذف الألف: جمع عامر مثل صانع وصَنَعَة، قال ابن الجزري في كتابه «النَّشر في القراءات العشر»: «وهي رواية ميمونة والقورسي عن أبي جعفر، وكذا رواها ابن جبير عن ابن جماز».

(٥) قال القرطبي تعقيباً على هذه القراءة: وهي لغة.

(٦) العُراق: العظم أكل لحمه، والظِّئْرُ: المرضعة لغير ولدها، يقال: ظأرت المرأةُ والناقة على غير ولدها: عَطَفَت.

(٧) أخرج أبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه في قوله: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ ﴾ قال: أرادوا أن يدعوا=

وعمارة المسجد ، قيل: هي حفظه من الظلم فيه أَو يقال هُجْرا ، وكان ذلك إلى العباس ، وقيل: هي السدانة خدمة البيت خاصة ، وكانت في بني عبد الدار ، وكان يتولاها عثمانُ بن طلحة بن أَبي طلحة ـ واسم أَبي طلحة عبد الله بن عبد العزَّى بن عبد الدار ـ وشيبةُ بن عثمان بن أبي طلحة المذكور ، هذان هما اللذان دفع إليهما رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة في ثاني يوم الفتح بعد أن طلبه العباس وعلي رضي الله عنهما ، وقال ﷺ لعثمان وشيبة: «يوم وفاءٍ وبِرّ ، خذوها خالدة تالدة لا ينازعكموها إلا ظالم»[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يعني السدانة ، واختلف الناس في سبب نزول هذه الآية ـ فقيل: إن كفار قريش قالوا لليهود: إنا نسقي الحجيج ونعمر البيت ، أفنحن أَفضل أَم محمد ﷺ ودينه؟ فقالت لهم أحبار اليهود: بل أنتم ، فنزلت الآية في ذلك ، وقيل: إن الكفار افتخروا بهذه الآية فنزلت الآية في ذلك ، وأَسند الطبري إلى النعمان بن بشير أنه قال: كنت عند منبر النبي ﷺ في نفر من أَصحابه ، فقال أَحدهم: ما أَتمنى بعد الإسلام إلا أن أَكون ساقي الحجاج ، وقال الآخر: إلا أن أكون خادم البيت وعامره ، وقال الثالث: إلا أَن أَكون مجاهداً في سبيل الله ، فسمعهم عمر بن الخطاب فقال: اسكتوا حتى أَدخل على النبي ﷺ فأَستفتيه ، فدخل فاستفاه ، فنزلت الآية في ذلك[2] ، وقال ابن عباس ، والضحاك: إن المسلمين عيَّروا أَسرى بدر بالكفر ، فقال العباس: بل نحن سقاة الحاج

= السقاية والحجابة فقال رسول الله ﷺ: «لا تدعوها فإن لكم فيها خيراً». (الدر المنثور).

(١) عثمان بن طلحة بن أبي طلحة: اسمه عبد الله بن عبد العزَّى ، أسلم في هدنة الحديبية ، وهاجر مع خالد بن الوليد ، وشهد الفتح مع النبي ﷺ ، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر قال: دخل النبي ﷺ الكعبة ودخل معه بلال وعثمان بن طلحة ، وأُسامة بن زيد ، وفي هذا الحديث أن النبي ﷺ طلب من عثمان مفتاح البيت ، فدخل فمكث فيه نهاراً ثم خرج ، قد سكن عثمان بالمدينة إلى أن مات بها سنة اثنين وأربعين من الهجرة.

(٢) أخرجه مسلم ، وأبو داود ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ـ عن النعمان بن بشير رضي الله عنه ، وفيه: «فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ، وذلك يوم الجمعة ، ولكن إذا صليتم الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ. . . . الخ» (الدر المنثور).

وعمرة البيت، فنزلت الآية في ذلك[١]، وقال مجاهد: أُمِروا بالهجرة فقال العباس: أنا أَسقي الحاج، وقال عثمان بن طلحة: أَنا حاجب للكعبة فلا نهاجر، فنزلت ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾ إلى قوله: ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾[٢]، قال مجاهد: وهذا كله قبل فتح مكة، وقال محمد بن كعب: إن العباس، وعلياً وعثمان بن طلحة تفاخروا، فقال العباس: أَنا ساقي الحاج، وقال عثمان: أنا عامر البيت ولو شئت بتُّ فيه، وقال علي: أَنا صاحب جهاد الكفار مع النبي ﷺ، والذي آمنت وهاجرت قديماً، فنزلت الآية في ذلك[٣].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

لما حكم الله تعالى في الآية المتقدمة بأَن الصنفين لا يستويان بيَّن ذلك في هذه الآية الأَخيرة، وأَوضحه، فعدَّد الإيمان، والهجرة، والجهاد بالمال والنفس، وحكم أَن أَهل هذه الخصال أَعظم درجة عند الله من جميع الخلق، ثم حكم لهم بالفوز برحمته، ورضوانه، والفوزُ: بلوغُ البُغية، إما في نيل رغبة، أو نجاة من مهلكة، وينظر إلى معنى هذه الآية الحديث الذي جاء «دعوا لي أصحابي، فلو أَن أَحدكم أَنفق مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصيفه»[٤].

---

(١) أخرجه ابن جرير، وأبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة، وأبو الشيخ، وابن مردويه ـ عن عبد الله بن عبيدة رضي الله عنه، وأخرج الفريابي مثله عن ابن سيرين. (الدر المنثور).

(٣) أخرج مثله أبو نعيم في فضائل الصحابة، وابن عساكر عن أنس رضي الله عنه، وفيه «شيبة بن عثمان» بدلاً من «عثمان».

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس رضي الله عنه، ولفظه: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغتم أعمالهم». قال الإمام السيوطي، وهو حديث صحيح، وفي الصحيحين وغيرهما من الصحاح عن أبي سعيد الخُدري أنه ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أَحَدِهم ولا نصِيفَه».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لأن أَصحاب هذه الخصال على سيوفهم انبنى الإِسلام، وهم ردُّوا الناس إلى الشرع.

وقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ الآية. هذه آية وعد، وقراءَة الناس: ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ بضم الياءِ وكسر الشين المشددة، وقرأَ الأَعمش، وطلحة بن مصرف، وحميد بن هلال: [يبْشُرهم] بفتح الياءِ وسكون الباءِ وضم الشين خفيفة، وأَسند الطبري إلى جابر ابن عبد الله أَنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أَهل الجنةِ الجنةَ قال الله عزَّ وجلَّ: أَعطيتكم أَفضل من هذا، فيقولون: ربنا أَي شيءٍ أفضل من هذا؟ قال: رضواني»[1]، وفي البخاري في كتاب السُّنة منه: «فلا أَسخط عليكم أبداً».

وقرأَ الجمهور: ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ بكسر الراءِ، وقرأَ عاصم، وعمرو: [ورُضوان] بضم الراءِ، وقرأَ الأَعمش بضم الراءِ والضاد جميعاً، قال أَبو حاتم: لا يجوز هذا[2].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ﴾ الآية.

ظاهر هذه المخاطبة أنها لجميع المؤمنين كافة، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة، ورَوَتْ فرقة أن هذه الآية إنما نزلت في الحضّ على الهجرة ورفض بلاد الكفر، فالمخاطبة ـ على هذا ـ إنما هي للمؤمنين الذين كانوا في مكة وغيرها من بلاد العرب، خوطبوا بألاَّ يُوالوا الآباءَ والإِخوة فيكونون لهم تبعاً في سكنى بلاد الكفرة، ولم يذكر الأَبناءُ في هذه الآية إذ الأَغلب من البشر أَن الأَبناءَ هم التبع للآباءِ. و(الإِخوان) في هذه الآية جمع أخ النسب، وكذلك هي قوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾[3].

---

(١) الحديث رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، ولفظه كما جاء في كتاب التوحيد في البخاري: «عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبَّيْك ربنا وسعْدَيْك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تُعْط أحداً من خَلْقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

(٢) ردَّ عليه أبو حيان في «البحر» فقال: «ينبغي أن يجوز، فقد قالت العرب: «سُلُطان» بضم اللام، وأورده التصريفيون في أبنية الأسماء».

(٣) النور: ٦١.

وقرأ عيسى بن عمر: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا﴾ بفتح الألف من [أَن]، وقرأ الجمهور [إِنْ] بكسر الألف على الشرط، و﴿اسْتَحَبُّوا﴾ متضمنة معنى: فَضَّلوا وآثروا، ولذلك تعدت بـ[عَلَى].

ثم حكم الله تعالى بأن مَنْ والاهم واتَّبعهم في أغراضهم فإنه ظالم، أي واضع للشيء غير موضعه، وهذا ظلم المعصية لا ظلم الكفر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

هذه الآية تقوِّي مذهب من رأى أن هذه والتي قبلها إنما مقصودها الحضُّ على الهجرة، وفي ضمن قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ وعيد بين. وقوله: [بِأَمْرِهِ] قال الحسن: الإشارة إلى عذاب أو عقوبة من الله، وقال مجاهد[1]: الإشارة إلى فتح مكة، والمعنى: فإذا جاءَ الله بأَمرِهِ فلم تُسْلفوا ما يكون لكم به أَجر ومكانة في الإسلام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذُكر الأَبناء في الآية لمَّا جَلبت ذكرَهم المحبةُ، والأبناءُ صدرٌ في المحبة، وليسوا كذلك في أَن يتبعهم آباؤُهم في آرائهم كما في الآية المتقدمة، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾، وقرأ عاصم وحده بخلاف عنه، وأبو رجاءٍ، وأَبو عبد الرحمن، وعصمة: [وعشيراتُكم] وحسُنَ هذا الجمع إذْ لكل أَحدٍ عشيرة تختص به، ويُحسِّن الإفراد أَن أبا الحسن الأَخفش قال: إنما تجمع العرب «عشائر» ولا تكاد تقول «عشيرات». و﴿اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ معناه: اكتسبتموها، وأَصل الاقتراف والمقارفة: مقاربة الشيءِ[2]. ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ بيِّنٌ في أَنواع المال، وقال ابن المبارك:

---

(١) مجاهد: يكنى أبا الحجَّاج، وهو مولى عبد الله بن السائب بن أبي السائب المخزومي، أسند مجاهد إلى ابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو، ومات سنة اثنتين ومائة يوم السبت وهو ساجد، راجع (صفوة الصفوة ـ الجزء الثاني).

(٢) قال القرطبي: أصل الاقتراب اقتطاع الشيء من مكانه إلى غيره.

الإشارة إلى البنات اللواتي لا يتزوجن ولا يوجد لهن خاطب[١] ﴿ومسَاكِنُ﴾ جمع مسكن بفتح الكاف، مفْعل من السُّكْنى، وما كان من هذا معتل الفاءِ فإنما يأتي على مَفْعِل بكسر العين كموعِدٍ وموطن، والمساكن: القصور والدور، و﴿أَحَبَّ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وكان الحجاج بن يوسف يقرؤُها [أحبُّ] بالرفع، وله في ذلك خبرٌ مع يحيى بن يَعْمَر، سأله الحجّاج: هل تسمعني أَلحن؟ قال: نعم، في هذا الحرف، وذَكَر له رفع [أَحَبّ] فنفاه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك خارج في العربية على أَن يضمر في كان الأَمر والشأن[٢]، ولم يُقْرَأ بذلك، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ عموم لفظ يراد به الخصوص فيمن يوافي على فسقه، أَو عموم مطلق على أنه لا هداية من حيث الفسق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

هذه مخاطبة لجميع المؤمنين، يعدّد الله نعمه عليهم، و﴿مَوَاطِنَ﴾ جمع موطِن بكسر الطاءِ، والموطن: موضع الإقامة أو الحلول لأَنه أول الإقامة، والمواطن المشار إليها بدرٌ، والخندق، والنضير، وقُريظة، ولم يصرف [موَاطن] لأنه جمع

(١) نقل المفسرون هنا بيت شعر يؤيد هذا المعنى، وهو:

كَسَدْنَ مِن الفقْرِ في قَوْمِهِنّ ... وقَدْ زَادَهُنَّ مَقَامِي كُسودا

ولكن أبا حيان قال تعقيباً على رأي ابن المبارك: «وتفسير ابن المبارك بأن ذلك إشارة إلى البنات اللواتي لا يتزوجن لِقِلَّة خطابهن تفسير غريب ينبو عنه اللفظ».

(٢) يجوز ـ في غير القرآن ـ رفع (أَحَبّ) على الابتداء والخبر، واسم كان مضمر فيها، والمبتدأُ والخبر في محلّ نصب خبر كان، وعليه أنشد سيبويه قول العُجَير السلوكي:

إذا مِتُّ كان الناسُ صِنْفَانِ: شامتٌ ... وآخَرُ مُثْنٍ بالَّذي كنتُ أَصْنَعُ

كما أنشد لهشام أخي ذي الرّمة:

هيَ الشّفاءُ لِدَائي لَوْ ظَفِرْتُ بها ... وليْسَ منِها شفاءُ الداءِ مَبْذولُ

ونهاية جمع. ﴿وَيَوْمَ﴾ عطف على موضع قوله: ﴿فِي مَوَاطِنَ﴾ أَو على لفظه بتقدير: «وفي يوم»، فانحذف حرف الخفض، و﴿حُنَيْنٍ﴾ وادٍ بين مكة والطائف قريب من ذي المجاز، وصُرف حين أُريد به الموضع والمكان، ولو أُريد به البقعة لم يصرف، كما قال الشاعر:

نَصَرُوا نَبِيَّهُمُ وشَدُّوا أَزْرَهُ ... بِحُنَيْنَ يوم تَواكُلِ الأَبْطَالِ[1]

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، رُوي أن رسول الله ﷺ قال حين رأى جملته اثني عشر ألفاً: «لنْ نُغلب اليوم من قِلَّة»، ورُوي أن رجلاً من أَصحابه قالها فأَراد الله إِظْهَار العجز فظَهر حين فر الناس، ثم عطف القدر بنصره.

وقوله تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، أَي: بقدر ما هي رحبة واسعة لِشدَّة الحال وصعوبتها، فـ(ما) مصدرية.

وقوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ يريد فِرار الناس عن النبي ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واختصار هذه القصة أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة وكان في عشرة آلاف من أَصحابه وانْضاف إليه أَلفان من الطلقاء فصار في اثني عشر أَلفاً سمع بذلك كفار العرب فشق عليهم، فجمعت له هوازن وأَلْفافُها وعليهم مالك بن عوف النصري، وثقيف وعليهم عبد ياليل بن عمرو، وانضاف إليهم أَخلاط من الناس حتى كانوا ثلاثين أَلفاً، فخرج إليهم رسول الله ﷺ حتى اجتمعوا بِحُنين، فلما تَصافَّ الناس حمل المشركون من جوانب الوادي فانهزم المسلمون، قال قتادة: ويقال: إن الطُّلقاءَ من أَهل مكة فرُّوا وقصدوا إِلقاءَ الهزيمة في المسلمين، وكان رسول الله ﷺ على بغلة شهباءَ، وقال

(١) البيت لحسَّان بن ثابت (الصحاح ـ حَنَنَ) قال: وحُنَيْنٌ: موضع يذكَّر ويؤنَّث، فإن قصدت به البلد والموضع ذكَّرته وصَرَفْته، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾، وإن قصدت به البَلْدة والبقعة أَنَّثته ولم تصرفه كما قال الشاعر: وساق البيت، وقال الفراءُ في «معاني القرآن»: وقوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾: وادٍ بين مكة والطائف، وجرى حنينٌ لأنه اسمٌ لمذكر، وإذا سمِّيَتْ ماءً أو وادياً أو جبلاً باسم مذكر لا علة فيه أجريته، من ذلك حنينٌ وبدرٌ وأحدٌ وحِراءٌ وثَبيرٌ ودابقٌ وواسطٌ، وإنما سمّي واسطاً بالقصر الذي بناه الحجاج بين الكوفة والبصرة، ولو أراد البلدة أو اسماً مؤنثاً لقال: واسطة، وربما جعلت العرب (واسط وحنينَ وبدرَ) اسماً لبلدته التي هو فيها فلا يجرونه، وأنشد بعضهم: نصروا نبيَّهُمُ... الخ».

أَبو عبد الرحمن الفهري: كنت مع النبي ﷺ يومئذ، وكان على فرس قد اكتنفه العباسُ عمُّه وابنُ عمِّه أَبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وبين يديه أَيمن بن أُم أَيمن ـ وثَمَّ قُتِل رحمه الله ـ فلما رأَى رسول الله ﷺ شدة الحال نزل عن بغلته إلى الأرض ـ قاله البراءُ بن عازب ـ واسْتَنْصَر الله عزَّ وجلَّ فأَخذ قبضة من تراب وحصى فرمى بها وجوه الكفار وقال: «شاهت الوجوه»، وقال أبو عبد الرحمن: تطاول من فرسه فأَخذ قبضة التراب، ونزلت الملائكة لنصره، ونادى رسول الله ﷺ: «يا للأَنصار»، وأَمر رسولُ الله ﷺ العباسَ أن ينادي: أَين أَصحاب الشجرة؟ أَين أَصحاب سورة البقرة؟ فرجع الناس عُنُقاً واحداً[1] وانهزم المشركون، قال يَعْلَى بن عطاءٍ: فحدثني أَبناؤُهم عن آبائهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا دخل في عينيه من ذلك التراب، واستيعاب هذه القصة في كتب السِّيَر.

وظاهر كلام النحاس أَن رسول الله ﷺ كان في أربعة عشر أَلفاً، وهذا غلط.

وقوله: ﴿مُّدۡبِرِينَ﴾ نصب على الحال المؤكدة كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقًا﴾[2]، والمؤكدة هي التي يدل ما قبلها عليها كدلالة التَّولِّي على الإِدبار.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ الآية. ﴿ثُمَّ﴾ هاهنا على بابها من الترتيب، والسكينةُ: النصر الذي سكنت إليه ومعه النفوس والحال. والإشارة بالمؤمنين إلى الأَنصار على ما رُوي، وذلك أَن رسول الله ﷺ نادى في ذلك اليوم: «يا معشر الأَنصار»، فانصرفوا وهم ردُّوا الهزيمة، والجنود: الملائكة والرعب، قال أبو حاجر يزيد بن عامر[3]: «كان في أَجوافنا مثل ضربة الحجر في الطست من الرعب». وعذابُ

---

(١) بضم العين والنون: جماعة واحدة، ومنه حديث فزارة: «فانظروا إلى عُنُق الناس» أي: جماعتهم، ومنه حديث الحُدَيْبِيَة: «وإنْ نَجَوْا تكن عُنُق قطعها الله» أي: جماعة من الناس، قاله ابن الأثير في النهاية.

(٢) البقرة: ٩١، وفيها يقول سبحانه: ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمۡ﴾.

(٣) يزيد بن عامر بن الأسود بن حبيب ـ أبو حاجر السُّوَائي، قال أبو حاتم: له صحبة، رَوَى عن النبي ﷺ في الصلاة، كان شهد حنيناً مع المشركين، ثم أسلم، ولما انهزم المشركون يوم حنين لحق بالطائف فقال رسول الله ﷺ: «لو أتاني مسلماً لرددت عليه أهله وماله» فلحق به، فرَدَّ عليه أهله وماله، وقد مدح النبي ﷺ بقصيدة منها:

مـــا إنْ رأيـــتُ ولا سَمِعْـــتُ بِـــوَاحِـدٍ ... فـــي النَّـاسِ كُلِّهِـمُ كمثـل محمـد

الذين كفروا هو القتل الذي استحر فيهم والأَسر الذي تمكن في ذراريهم، وكان مالك ابن عوف النَّصْري قد أَخرج الناس بالعيال والذَّراري ليقاتلوا عليها فخطَّأَهُ في ذلك دُرَيْد ابن الصِّمة، وقال لمالك بن عوف: راعي ضأن، وهل يردُّ المنهزمَ شيءٌ؟ وفي ذلك اليوم قُتل دُرَيد بن الصمة القتلة المشهورة، قتله ربيع بن رُفَيْع بن أَهْبان السلميُّ، ويقال له ابن الدُّغُنَّة[1].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ إعلام بأَن من أَسلم وتاب من الكفار الذين نجوا ذلك اليوم فإِنهم مقبولون مسلمون موعودون بالغفران والرحمة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٢٨﴾.

قال قتادةُ، ومعْمرُ بن راشد، وغيرهما: صفة المشرك بالنجس إِنَّما كانت لأَنه جُنُب، إِذْ غسله من الجنابة ليس بغسل. وقال ابن عباس وغيره: بل معنى الشرك هو الذي نجسه كنجاسة الخمر، قال الحسن البصري: من صافح مشركاً فليتوضأْ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فمن قال: «بسبب الجنابة» أَوجب الغسل على من يُسلم من المشركين، ومن قال بالقول الآخر لم يوجب الغسل، والمذهب كله على القول بإِيجاب الغسل إلا ابن عبد الحكم فإِنه قال: ليس بواجب.

وقرأَ أَبو حيوة: [نِجْسٌ] بكسر النون وسكون الجيم[2].

---

(١) يزيد بن رُفَيْع (بالتصغير) بن ثعلبة ـ السَّلمِيّ، كان يقال له: ابن الدُّغُنَّة، وهي أُمُّه، ويقال: اسمها لدغة، وجزم بذلك ابن هشام، والكلبي، وأبو عبيدة، وفي غزوة حنين أدرك ربيعةُ دُرَيْد بن الصمة، وهو في شجار له (أي هودج أو سرير) فظنه أولاً امرأة، فإذا به شيخ، وفي قصة قتله له أن دريداً قال له: فإذا رجعت إلى أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة، فلما أخبرها بذلك قالت: لقد أعتق أُمَّهاتٍ لك، ألا تكرّمت عن قتله لما أخبرك بِمَنِّه علينا؟ فقال: ما كنتُ لأتكرَّم عن رضا الله ورسوله. (عن الإصابة هو والهامش السابق).

(٢) وهذا على تقدير حذف الموصوف، أي: جنس نِجسٌ، أو ضرْبٌ نِجْسٌ، وهو اسم فاعل من (نجس) فخففوه بعد الإتباع.

ونَصَّ الله تعالى في هذه الآية على المشركين وعلى المسجد الحرام، فقاس مالك رحمه الله وغيره جميعَ الكفار من أهل الكتاب وغيرهم على المشركين، وقاس سائر المساجد على المسجد الحرام، ومنع من دخول الجميع في جميع المساجد، وكذلك كتب عمرُ بن عبد العزيز إلى عماله، ونزَع في كتابه بهذه الآية، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾[1]، وقال الشافعي: هي عامة في الكفار خاصة في المسجد الحرام، فأَباح دخول اليهود والنصارى والوثنيين في سائر المساجد، ومن حُجَّته حديث رَبْط ثُمامةَ بن أثال[2]، وقال أبو حنيفة: هي خاصة في عَبدة الأوثان وفي المسجد الحرام، فأَباح دخول اليهود والنصارى في المسجد الحرام وغيره، ودخول عبَدة الأَوثان في سائر المساجد، وقال عطاء: وصف المسجد الحرام ومنع القُرْب يقتضي منعهم من جميع الحرم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوة قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا﴾ تقتضي أَمْرَ المسلمين بمنعهم، وقال جابر بن عبد الله، وقتادة: لا يقربُ المسجد الحرام مشركٌ إلا أن يكون صاحب جزية أو عبداً لمسلم، وعبَدة الأَوثان مشركون بإجماع.

واختلف في أهل الكتاب ـ فمذهب عبد الله بن عُمَر وغيره أَنهم مشركون، وقال جمهور أَهل العلم: ليسوا بمشركين، وفائدة هذا الخلاف تَتَبيَّن في فقه مناكحتهم وذبائحهم وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ يريد: بعد عام تسع من الهجرة، وهو عامٌ حجَّ فيه أَبو بكر بالناس وأَذَّن عليٌّ بسورة براءَة[3].

(١) النور: ٣٦.

(٢) خالف ابن العربي الإمام الشافعي في رأيه وفي حجَّته بحديث ثُمامة هذا فقال: «وهذا جمود منه (أي من الشافعي) على الظاهر، لأن قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة، فإن قيل: فقد ربط النبي ﷺ ثُمامَة في المسجد وهو مشرك، قيل: أجاب علماؤنا عن هذا الحديث ـ وإن كان صحيحاً ـ بأجوبة أحدها: أن ذلك كان متقدماً على نزول الآية». وقد نقل القرطبي رأي ابن العربي هذا تعقيباً على رأي الشافعي.

(٣) قال قتادة: بل سنة عشر، وأيَّده ابن العربي، فقال: «وهو الصحيح الذي يعطيه مقتضى اللفظ، وإن من العجب أن يقال: إنه سنة تسع وهو العام الذي وقع فيه الأذان، ولو دخل غلامُ رجلٍ داره يوماً فقال=

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ قال عمرو بن قائد: المعنى: وإِذْ خِفْتُم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه عُجمة، والمعنى بارعٌ بـ ﴿وَإِنْ﴾، وكان المسلمون لمَّا ـ مُنِع المشركون من الموسم وهم كانوا يجلبون الأطعمة والتجارات ـ قذف الشيطان في نفوسهم الخوف من الفقر، وقالوا: من أين نعيش؟ فوعدهم الله بأن يُغْنِيهم من فضله، قال الضحاك: ففتح عليهم باب أخذ الجزية من أهل الذِّمَّة بقوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، وقال عكرمة: أغناهم بإدرار المطر عليهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأَسلمت العرب فتمادى حجُّهم وتَجْرُهم[1] وأغنى الله من فضله بالجهاد والظهور على الأُمم.

والعيْلَةُ: الفقر، يقال: عال الرجل يعيل عيْلَة إِذَا افتقر، قال الشاعر:

ومَا يدْرِي الفقيرُ متى غِنَاهُ ... وما يدري الغَنِيُّ متى يعِيلُ[2]

وقرأ علْقَمَة وغيرُه من أصحاب ابن مسعود: [عَائِلَةً] وهو مصدر كالقائلة من قالَ يقيلُ، وكالعاقِبة والعافية، ويحتمل أن تكون نعتاً لمحذوف تقديره: «حالاً عائلة»، وحكى الطبري أنه يقال: «عال يعول» إذا افتقر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

= له مولاه: لا تدخل هذه الدار بعد يومك، لم يكن المراد اليوم الذي دخل فيه». نقل ذلك أيضاً القرطبي عن ابن العربي.

(١) يقال: تَجَر تجْراً وتِجَارَةً: مارس البيع والشراءَ، ويقال: اتَّجر، ويقال: تاجر فلانٌ فلاناً: اتَّجر معه (المعجم الوسيط).

(٢) قال هذا البيت أحَيْحَةُ بن الجَلاح، من أربعة أبيات ذكرها صاحب اللسان في عَيَلَ، وعَال يَعيل من باب ضرب، والمصدر: عيْلة وعُيول.

تضمنت هذه الآية قتال أَهل الكتاب من اليهود والنصارى حتى يقتلوا أَو يُؤَدُّوا الجزية، قال مجاهد: وعند نزول هذه الآية أخذ رسول الله ﷺ في غزو الروم، ومشى نحو تبوك، ومن جعل أَهل الكتاب مشركين فهذه الآية عنده ناسخة بما فيها من أَخذ الجزية لقوله تبارك وتعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[1]، ونفى عنهم الإِيمان بالله واليوم الآخر من حيث تركوا شرع الإِسلام الذي يجب عليهم الدخول فيه، فصار جميع ما لهم في الله عزَّ وجلَّ وفي البعث من تخيلات واعتقادات لا معنى لها، إِذ تلقوها من غير طريقها، وأيضاً فلم تكن اعتقاداتهم مستقيمة، لأَنهم تشعبوا وقالوا: عزير ابن الله، والله ثالث ثلاثة، وغير ذلك، ولهم أيضاً في البعث آراءٌ كثيرة، كشراءِ منازل الجنة من الرهبان، وقول اليهود في النار: نكون فيها أياماً بِعَدَد، ونحو ذلك.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فبيّن ونص على مخالفتهم لمحمد ﷺ، وأما قوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ﴾ فمعناه: ولا يطيعون ويمتثلون، ومنه قول عائشة رضي الله عنها: ما عقلتُ أَبويّ إلاَّ وهما يدينان الدين[2]، والدِّين في اللغة لفظة مشتركة، وهي هاهنا: الشريعة، وهي مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾[3]، وأَما قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فنصٌّ في بني إسرائيل وفي الروم، وأَجمع الناس على ذلك، وأَما المجوس فقال ابن المنذر: لا أعلم خلافاً في أَن الجزية تؤخذ منهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ورُوي أن رسول الله ﷺ قال: «سنوا بهم سنة أَهل الكتاب»[4]، فقال كثير من

(١) التوبة: ٥.

(٢) قال ابن جرير: «كُلُّ مطيع مَلِكاً أو ذا سلطانٍ فهو دائن له، يقال منه: دان فلان لفلان فهو يَدين له دِيناً». ثم استشهد بقول زهير:

لئِنْ حَلَلْتَ بجَوٍّ في بني أَسَدٍ ... في دِينِ عَمْرو وحالتْ بَيْنَنا فَدَكُ

و(جوّ) وادٍ بعينه، ودينُ عمرو: طاعته وسلطانه، وهو عمرو بن هند، وفَدَكُ: قريةٌ في وادي القرى، وهو في هذا البيت يخاطب الحارث بن ورقاءَ الصيداوي من بني أسد، وكان أغار على بني عبد الله بن غطفان، فغنم واستاق إبلاً لزهير فهو يقول له: لئن حللتَ بحيث لا أُدركك فسيصلك هجائي، وسأُدَنِّس عرضك كما يدنِّس الودكُ القبطية.

(٣) آل عمران: ١٩.

(٤) ذكر في الموطأ عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذُكِر أمْرَ المجوس فقال: =

العلماءِ: معنى ذلك في أخذ الجزية منهم ، وليسوا أَهل كتاب ، فعلى هذا لم يتعد التشبيه إلى ذبائحهم ومناكحهم ، وهذا هو الذي ذكره ابن حبيب في «الواضحة».

وقال بعض العلماءِ: معناه: سنوا بهم سنة أَهل الكتاب إِذ هم أَهل كتاب ، فعلى هذا يتجه التشبيه في ذبائحهم وغيرها ، والأَول هو قول مالك وجمهور أصحابه ، ورُوي أَنه قد كان بعث في المجوس نَبِيٌّ اسمه زرادشت ، وأَما مجوس العرب فقال ابن وهب: لا تقبل منهم جزية ولابد من القتال أو الإِسلام ، وقال سحنون ، وابن القاسم ، وأَشهب: تؤخذ الجزية من مجوس العرب والأُمم كلها ، وأَما عَبَدة الأَوثان من العرب فلم يستثن الله فيهم جزية ، ولا بقي منهم على الأَرض بَشَر ، وقال ابن حبيب: وإِنما لهم القتال أَو الإِسلام ، وهو قول أَبي حنيفة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويوجد لابن القاسم أَن الجزية تؤخذ منهم ، وذلك أيضاً في «التفريع» لابن الجلاب ، وهو احتمالٌ لا نَصٌّ ، وأما أَهْل الكتاب من العرب فذهب مالك رحمه الله إلى أن الجزية تؤخذ منهم ، وأشار إلى المنع من ذلك أبو حنيفة ، وأَما السامرة والصابئة فالجمهور على أنهم من اليهود والنصارى تؤخذ منهم الجزية وتؤكل ذبائحهم ، وقالت فرقة: لا تؤكل ذبائحهم وعلى هذا لا تؤخذ الجزية منهم ، ومنع بعضهم الذبيحة مع إِباحة أَخذ الجزية منهم ، وأَما عبدة الأَوثان والنيران وغير ذلك فجمهور العلماء على قبول الجزية منهم ، وهو قول مالك في «المدونة» ، وقال الشافعي ، وأَبو ثور: «لا تؤخذ الجزية إلا من اليهود والنصارى والمجوس فقط» ومذهب مالك رحمه الله أن الجزية لا تؤخذ إلا من الرجال البالغين الأَحرار العقلاءِ ، وهو قول الشافعي وأَبي حنيفة ، ولا تضرب على الصبيان والنساءِ والمجانين ، ولا تضرب على رهبان الديارات والصوامع المنقطعين ، قال مالك في «الواضحة»: «وأما إِن كانت قد ضربت عليهم ثم انقطعوا بعد ذلك فلا تسقط عنهم» ، وأَما رهبان الكنائس فتضرب عليهم ، واختلف في الشيخ الفاني ، ومنْ راعى أن عِلَّتها الإِذلال

= ما أدري كيف أصنع في أمرهم ، فقال عبد الرحمن بن عوف: أشهد لسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب» ، وفي (الدر المنثور): «أخرجه مالك ، والشافعي ، وأبو عُبيد في كتاب «الأموال» ، وابن أبي شيبة ـ عن جعفر عن أبيه ، ثم ساق نص الحديث.

أَمضاها في الجميع ، وقال النقاش[١] : «العقوبة الشرعية تكون في الأموال والأَبدان ، فالجزية من عقوبات الأَموال» .

وأما قَدْرها فذهب مالك رحمه الله وكثير من أهل العلم إلى ما فرضه عمر رضي الله عنه ، وذلك أربعة دنانير على أهل الذهب ، وأَربعون درهماً على أَهل الفضة ، وفرض عُمَرُ رضي الله عنه ضيافة وأَرزاقاً وكسوة ، قال مالك في «الواضحة» : «ويحط ذلك عنهم اليوم لما حدث عليهم من اللوازم» ، فهذا أَحد ما ذكر عن عمر ، وبه أَخذ مالك ، قال سفيان الثوري : «رُويت عن عُمر ضرائب مختلفة» .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَظن ذلك بحسب اجتهاده رضي الله عنه في يُسرهم وعُسْرهم .

وقال الشافعي ، وغيره : قدر الجزية دينارٌ على الرأس ، ودليل ذلك أَمر رسول الله ﷺ معاذاً بذلك[٢] ، وأَخذه جزية اليمن كذلك أَو قيمته معافر[٣] ، وهي ثياب ، وقال كثير من أَهل العلم : ليس لذلك في الشرع حدّ محدود ، وإنما ذلك إلى اجتهاد الإمام في كل وقت ، وبحسب قوم قوم ، هذا كله في العنْوة[٤] ، وأما الصلح فهو ما صولحوا عليه من قليل أو كثير ، واختلف في المذهب في العبد الذي يعتقه الذميّ أو المسلم ، هل يلزمه جزية أَم لا؟ وقال ابن القاسم : لا ينقص أحد من أَربعة

(١) محمد بن الحسن بن محمد بن زياد ، أبو بكر النقاش ، عالم بالقرآن وتفسيره ، أصله من الموصل ، ونشأته ببغداد ، كان في مبدأ أمره يتعاطى نقش السقوف والحيطان فعرف بالنقاش.
من تصانيفه : «شفاء الصدور. خ» في التفسير ، و«الإشارة» في غريب القرآن» و«الموضح» في القرآن ومعانيه ، و«المعجم الكبير» في أسماء القُرّاء وقراءاتهم ، و«مختصره» ، و«أخبار القصاص» ، قال الذهبي : «وقد اعتمد الداني في التيسير على روايته للقراءات ، والله أعلم فإن قلبي لا يسكن إليه ، وهو عندي متهم ، عفا الله عنه. توفي سنة ٣٥١ هـ ـ ٩٦٢ م. (وفيات الأعيان ، وإرشاد الأريب).

(٢) رواه النسائي ، والإمام أحمد في مسنده ، ولفظه : عن معاذ قال : «بعثه النبي ﷺ إلى اليمن ، فأمره أن يأخذ من كل ثلاثين من البقر تبيعاً أو تبيعة ، ومن كل أربعين مُسنّة ، ومن كل حالم ديناراً أو عِدْله معافر). (المسند ٥ ـ ٢٣٠).

(٣) قال في الصحاح : «ومَعافر بفتح الميم : حيٌّ من هَمْدان ، لا ينصرف في معرفة ولا نكرة ، لأنه جاءَ على مثال ما لا ينصرف من الجمع ، وإليهم تُنسب الثياب المَعَافريّة ، تقول : ثوب مَعافريٌّ ، فتصرفه لأنك أدخلت عليه ياءَ النسبة ولم تكن في الواحد».

(٤) يقال : عَنَا الشيءَ عَنْوَةً : أخذَه قسْراً وقهْراً ، والعَنْوة : القَهْرُ ، وفي حديث الفتح : «أنه دخل مكة عَنْوَةً» أي قَهْراً وغلبَةً.

دنانير كان فقيراً أو غنياً ، وقال أَصبغ: يحط الفقير بقدر ما يرى من حاله ، وقال ابن الماجشون: لا يؤخذ من الفقير شيءٌ.

والجِزْية وزنها فِعْلة من جَزَى يجزي إذا كافأَ عمَّا أُسدي إليه ، فكأَنهم أَعْطُوهَا جزاءَ ما مُنحوا من الأَمن ، وهي كالقِعْدة والجِلْسة ، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

يَجْـزِيـكَ أَوْ يُثْـني علَيْـكَ وإِنَّ مـنْ   أَثْنى علَيْكَ بما فَعَلْتَ كمن جَزَى[1]

وقوله تعالى: ﴿ عَن يَدٍ ﴾ يحتمل تأْويلاتٍ ، منها أن يريد سوق الذميّ لها بيده لا مع رسولٍ ليكون في ذلك إِذلالٌ له ، ومنها أَنْ يريد: عن نعمة منكم قِبَلَهم في قبولها منهم وتأْمينهم ، والْيَدُ في اللغة: النعمة والصنع الجميل ، ومنها أَن يريد: عن قوة منكم عليهم وقهر لا تبقى لهم معه راية ولا معقل ، واليد في كلام العرب: القوّة ، يقال: فلانٌ ذو يدٍ ، ويقال: ليس لي بكذا وكذا يدٌ ، أَي: قوة.

ومنها أن يريد: أَن ينقدوها ولا يؤخروها ، كما تقول: بعته يداً بِيَدٍ ، ومنها أَن يريد: عن استسلام منهم وانقياد ، على نحو قولهم: «أَلقى فلان بِيَده» إذا عجز واستسلم.

وقوله: ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ لفظ يعُمّ وجوهاً لا تنحصر لكثرتها ، ذُكِر منها ـ عن عكرمة ـ أن يكون قابضها جالساً والدافع من أهل الذِّمَّة قائم ، وهذا ونحوه داعٍ إلى صغارهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

الذي كثر في كُتُب أهل العلم أَن فرقة من اليهود تقول هذه المقالة ، ورُوي أنه لم

(١) قال في (اللسان): «الجَزَاءُ: المكافأة على الشيء» ، وقال: «الجِزْيَةُ: خراجُ الأرض ، والجمع: جِزىً وجِزْيٌ ، وجزية الذّمي منه ، والجمع الجِزَى ، مثل لِحْيَة ولِحَىً ، وهي فِعْلة من الجزاء كأنها جَزَت عن قَتْلِهِ ، ومنه الحديث «ليس على مسلم جِزْيَة» وهو حديث ضعيف ، وقد استشهد كل المفسرين بهذا البيت ، ولم نقف على قائله.

يقلها إلا فنحاص. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قالها أَربعة من أَحبارهم ، سلاَّم بنُ مِشْكَمْ ، ونُعمان بن أَبي أَوفى ، وشاسُ بن قَيْس ، ومالك بن الصَّيف ، وقال النقاش: لم يبق يهودي يقولها بل انقرضوا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فإذا قالها واحد فينبغي[١] أن يلزم الجماعة شنعة المقالة لأجل نباهة القائل فيهم ، وأَقوال النبهاء أبداً مشهورة في الناس يحتج بها ، فمن هنا صحَّ أن تقول الجماعة قول نبيِّها.

وقرأ عاصمٌ ، والكسائي: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ بتنوين [عُزَيْر] والمعنى أَن (ابْناً) ـ على هذا ـ خبر ابتداءٍ عن [عُزَيْر] ، وهذا هو أَصح المذاهب لأَنه المعنى المنعيّ عليهم. و(عُزَيْر) ـ ونَحْوُهُ ـ ينصرف عجمياً كان أَو عربياً ، وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وابن عامر: [عُزَيْرُ ابنُ اللهِ] دون تنوين [عُزَيْر] ، فقال بعضهم: [ابن] خبر عن [عُزَير] ، وإنما حذف التنوين من [عزير] لاجتماع الساكنين[٢] ، ونحوه قراءَةُ من قرأَ: ﴿أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾[٣] ، قال أَبو عليّ: وهو كثير في الشعر ، وأَنشد الطبري في ذلك:

لَتجدَنِّي بالأَميرِ بَرَّا
وبالقَنَاةِ مِدْعساً مِكَرَّا
إِذَا عُطَيْفُ السُّلَمِيُّ فَرَّا[٤]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالألف ـ على هذه القراءَة والتأْويل ـ ثابتةٌ في [ابْن] ، وقال بعضهم: [ابن] صفة لـ

(١) في بعض النسخ: «فيَتَوجَّه».
(٢) يرى أَبو حيان في «البحر» أنَّ من زعم ذلك وكذلك من زعم أن (ابْناً) صفة لـ [عُزَيْر] وقع بين عَلَمَيْن فَحُذف تنوينه والخبر محذوف ، أي: معبودنا ـ فقوله مُتَمَحِّل ، لأن الذي أُنكر عليهم إنما هو نسبة البُنُوَّة إلى الله تعالى.
(٣) الإخلاص: ١ ـ ٢.
(٤) دعَسَه بالرُّمح يدْعَسُه دَعْساً: طعنة ، ورجلٌ مِدْعَسٌ: طعَّان ، ويكون بالصاد ، قال صاحب اللسان: «وهو الأعرف» ، وقال سيبويه: «وكذلك الأنثى بغير هاءٍ ، ولا يجمع بالواو والنون لأن الهاءَ لا تدخُلُ مُؤَنثه» ، والشاهد في قوله: «عُطَيْفُ السُّلَمِي» بدون تنوين في (عُطَيف).

[عُزَيْر] ، كما تقول: «زيدُ بن عمرو» ، وجعلت الصفة والموصوف بمنزلة اسم واحد ، وحذف التنوين إذا جاءَ الساكنان كأَنهما التقيا من كلمة واحدة ، والمعنى: عُزَيْر ابنُ اللهِ معبودنا وإِلَهُنا ، أَو المعنى: معبودنا أَو إِلهُنا عُزَيْرٌ ابن الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقياس هذه القراءة والتأْويل أَن يحذف الأَلف من [ابْن] لكنها ثبتت في خط المصحف ، فيتدرج من هذا كله أَن قراءَة التنوين في [عُزَيْر] أَقواها.

وحكى الطبري وغيره أن بني إسرائيل أَصابتهم فِتن وبلاءٌ ـ وقيل مرضٌ ـ وأَذهب الله عنهم التوراة في ذلك ونسوها ، وكان علماؤُهم قد دفنوها أَول ما أَحسوا بذلك البلاءِ ، فلما طالت المدة فُقدت التوراة جملة فحفظها الله عزيراً كرامة منه له ، فقال لبني إسرائيل: إن الله قد حفظني التوراة فجعلوا يدرسونها من عنده ، ثم إن التوراة المدفونة وُجدت فإذا هي مساوية لما كان عُزَيْر يدرس ، فضلوا عن ذلك وقالوا: إن هذا لم يتهيّأ إلا وهو ابن الله ، وظاهر قول النصارى المسيح ابن الله أَنها نُبُوَّة النسل كما قالت العرب في الملائكة ، وكذلك يقتضي قول الضحاك والطبري وغيرهما ، وهذا أَشنع في الكفر ، قال أَبو المعالي: أَطبقت النصارى على أَن المسيح إله وأَنه ابن الإِلٰه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويقال: إن بعضهم يعتقدها بنوة حُنُوٍّ ورحمة ، وهذا المعنى أَيضاً لا يحل أن تطلق البنوة عليه ، وهو كُفر لمكان الإِشكال الذي يدخل من جهة التناسل ، وكذلك كفرت اليهود في قولهم: عُزَيْر ابن الله ، وقولهم: نحن أَبناءُ الله ، وإنما توجد في كلام العرب استعارة البنوة عبارة عن نِسَبٍ وملازماتٍ تكون بين الأَشياءِ إذا لم يُشْكل الأَمر وكان أَمر النسل من الاستحالة ، ومن ذلك قول عبد الملك بن مروان: «وقد زَبنَتْنا الحرب وزَبنَّاها»(١) ، فنحن بنوها وهي أُمنا» ، يريد الملازمة ، ومن ذلك قول حُرَيْث بن محصن:

بنُو الْمجد لم تَقْعُد بِهِم أُمَّهاتُهم ... وآبَاؤُهم أَبْنَاءُ صِدْقٍ فأَنْجبُوا(٢)

---

(١) ومنه قولهم: «حَرْبٌ زَبون» لأنها تزْبِن الناس أي تدفعهم وتصدمهم على التشبيه بالناقة الزَّبون وهي التي تدفع حالبها عن حلبها ، وفي حديث معاوية: «فَرُبَّمَا زَبَنَت فكسرت أنف حالبها».

(٢) يصفهم بالمجد والشرف من جهة الأمهات ومن جهة الآباء ، ومعنى «لم تقعد بهم أمهاتهم»: لم تقصر=

ومن ذلك: ابنُ نَعْش، وابن ماءٍ، وابن السبيل، ونحو ذلك، ومنه قول الشاعر:

والأَرْضُ تَحْمِلنا وكانت أُمَّنا

ومنه أَحد التأويلات في قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة ابن زنى»[1] أي ملازمه، والتأويل الآخر: لا يدخلها مُشكل الأَمْر، والتأويلان في قول النصارى: المسيح ابن الله كما تقدم من الصفة والخبر إلا أن شغب التنوين ارتفع هاهنا، وعُزَيْر نَبيٌّ من أنبياءِ بني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يتضمن معنيين، أَحدهما: إلزامهم المقالة بالتأكيد في ذلك كما قال: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾[2]، وكقوله: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[3]، والمعنى الثاني في قوله سبحانه: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي هو ساذج لا حجة عليه ولا برهان[4]، غاية بيانه أَن يقال بالأَفواه قولاً مجرداً نَفْس دعوى[5].

و[يُضَاهُونَ] قراءَة الجماعة، ومعناه: يحاكون ويُبادرون ويماثلون، وقرأَ عاصم وحده من السبعة، وطلحة بن مصرف [يُضَاهِئُون] بالهمز على أَنه من (ضاهأ)، وهي لغة ثقيف بمعنى (ضاهى).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومن قال إن هذا مأْخوذ من قولهم: «امرأةٌ ضَهْيَاءُ» ـ وهي التي لا تحيض، وقيل:

= من ناحية الشرف، يقال: فلان مُقْعَد الحسب إذا لم يكن له شرف، وقد أقْعَدَهُ آباؤُه وتَقَعّدوه، قال الطِّرمّاح يهجو رجلاً:

ولكنَّــهُ عَبْــدٌ تَقَعَّــد رأيَــهُ ... لِئَامُ الْفُحولِ وارْتِخاصُ الْمَنَاكِحِ

وأنجب الرجل: ولد نجيبا، والنجيب الكريم، قال الشاعر:

أَنْجَــبَ أزْمَــانَ والــداهُ بِــهِ ... إذْ نَجَــلاهُ فنِعْــمَ مــا نجَــلا

(١) تقدم الكلام على هذا عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. والحديث لا أصل له.

(٢) البقرة: ٧٩.

(٣) الأنعام: ٣٨.

(٤) وردت كلمة (ساذج) في بعض النسخ بالدال المهملة أي (سادج)، والسَّدْجُ والتَّسَدّج: الكذب وتَقَوّل الأباطيل، وقد سدَج سدْجاً وتسَدَّج أي: تكذب، قال الشاعر: «فِينا أقاويل امرئٍ تسدَّجا»، فالمعنى: هو كلام كاذب لا حجة عليه.

(٥) هكذا بالأصل.

التي لا ثدي لها، سُميت بذلك لشبهها بالرجال ـ فقوله خطأٌ، قاله أبو عليّ، لأن الهمزة في (ضاهأ) أَصلية، وفي (ضهياءَ) زائدة كحمراءَ[١]، وإن كان الضمير في [يُضَاهِئُونَ] لليهود والنصارى جميعاً فالإشارة بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ﴾ هي إِمَّا لمشركي العرب إِذ قالوا: «الملائكة بنات الله»، وهم أَول كافر، وهو قول الضحاك، وإِما لأُمَمٍ سالفة قبلهما، وإِما للصدر الأَول من كفرة اليهود والنصارى، ويكون ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ لمعاصري محمد ﷺ، وإن كان الضمير في [يُضَاهِئُونَ] للنصارى فقد كانت الإِشارة بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ﴾ إلى اليهود، وعلى هذا فَسّر الطبري، وحكاه الزهراوي عن قتادة.

وقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ دعاءٌ عليهم عام لأَنواع الشَّر، ومعلوم أن من قاتله الله فهو المغلوب المقتول، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن المعنى: لعنهم الله[٢]. و﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ مقصده: أَنّى توجهوا وأَنّى ذهبوا، وبُدل مكان هذا الفعل المقصود فعل سوءٍ يحلُّ بهم، وذلك فصيح في الكلام كما تقول: «لعن الله الكافر أَنّى هلك» كأَنك تحتم عليه بهلاك، وكأَنه حتم عليهم في هذه الآية بأَنهم يؤفكون، ومعناه: يحرمون ويصرفون عن الخير، والأَرض المأفوكة التي لم يصبها مطر، قال أَبو عبيدة: ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ معناه: يحدّون.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يريد: من قولك «رجلٌ محدود» أَي: محروم لا يصيب خيراً، وكأَنه من الإِفك الذي هو الكذب، فكأَن المأْفوك هو الذي تكذبه أَراجيه فلا يلقى خيراً[٣]. ويحتمل أَن

---

(١) اختلف العلماءُ في (ضَهْيَا) هل يمد أو لا؟ فقال ابن ولاَّد: امرأةٌ ضهيًا وهي التي لا تحيض، مهموز غير ممدود، وسيبويه يمدُّه فيجعله ضهياء، والهمزة فيه زائدة لأنهم عند الجمع يقولون: نساءٌ ضُهْيٌ فيحذفون الهمزة، ونقل أبو الحسن عن النَّجيرميّ «امرأة ضَهْيَاءَةٌ» بالمدّ والهاء، جمع بين علامتي تأنيث، حكاه عن أبي عمرو الشيباني، وأنشد: «ضَهْيَاءَةٌ أو عاقِرٌ جماد».

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل شيءٍ في القرآن قَتْل فهو لعن، ومنه قول أبان بن تغلب:

قَاتَلَهَا اللهُ تَلْحَانِي وقَدْ عَلِمَتْ ... أَنِّي لِنَفْسِيّ إفْسَادي وإصْلاحي

وقال النقاش: أصل «قاتل الله» الدعاءُ، ثم كثر في استعمالهم حتى قالوه على التعجب في الخير والشر وهم لا يريدون الدعاءَ، وأنشد الأصمعي:

يا قَاتَلَ اللهُ ليلى كيفَ تُعجبني ... وأُخبِرُ النَّاسَ أني لا أُباليهَا؟

(٣) من الأفك بمعنى الصرف عن الحق قوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: يصرف عن الإيمان من =

يكون قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ ابتداءَ تقرير، أَي: بأَي سبب ومن أَي جهة يصرفون عن الحق بعدما تبين لهم؟

و[قَاتَلَ] في هذه الآية بمعنى (قتل)، وهي مفاعلة من واحد، وهذا كُلُّهُ بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

واحد الأحبار حِبْر بكسر الحاءِ، ويقال حَبْر بفتح الحاءِ، والأَول أفصح ومنه مداد الحبر، والحَبر بالفتح: العالِم، وقال يونس بن حبيب: لم أَسمعه إلا بكسر الحاءِ، وقال الفراءُ: سمعت فتح الحاءِ وكسرها في العالِم، وقال ابن السكِّيت: الحِبر بالكسر: المداد، والحَبْر بالفتح: العالِم، والرهبانُ: جمع راهب وهو الخائف، من الرهبة، وسماهم أَرباباً وهم لا يعبدونهم ولكن من حيث تلقوا الحلال والحرام من جهتهم وهو أَمر لا يُتلقى إلا من جهة الله عزَّ وجلَّ، ونحو هذا قال ابن عباس، وحذيفة بن اليمان، وأَبو العالية، وحكى الطبري أَن عدي بن حاتم قال: جئت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب ذهب، فقال: يا عدي اطرح هذا الصليب من عنقك، فسمعته يقرأُ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فقلت: يا رسول الله، وكيف ولم نعبدهم؟ فقال: أَليس تستحلُّون ما أَحلوا وتحرِّمون ما حرَّموا؟ قلت: نعم، قال: فذاك[1]. ﴿وَٱلْمَسِيحَ﴾ عطف على الأَحبار والرهبان،

= صُرف، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: لتصرفنا وتصدنا؟ ويأتي الأفيك والمأفوك بمعنى المخدوع عن رأيه، وبمعنى من لا حزم له ولا حيلة، وعليه قول الشاعر: «مَالي أَرَاكَ عاجزاً أفيكاً»؟

(١) أخرجه ابن سعد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسَّنه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن عدي بن حاتم ولكن دون ذكر الصليب الذي في عنقه. (الدر المنثور)، وفي تفسير ابن كثير أن هذا الحديث رواه الإمام أحمد، والترمذي، وابن جرير=

و﴿سُبۡحَـٰنَهُۥ﴾ نصب على المصدر والعامل فيه فعل من المعنى؛ لأنه ليس من لفظ (سُبحان) فعل، والتقدير: أُنزهه تنزيها، فمعنى ﴿سُبۡحَـٰنَهُۥ﴾: تنزيهاً له، واحتج من يقول إن أهل الكتاب مشركون بقوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ والغير يقول: إن اتخاذ هؤلاء الأَرباب ضرب من الإشراك، وقد يقال في المرائي: إنه أَشرك، وفي ذلك آثار.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ الآية. نور الله في هذه الآية: هو الصادر عن القرآن والشرع المثبت في قلوب الناس، فمن حيث سماه نوراً سمَّى محاولة إِفساده والصد في وجهه إِطفاءً. وقالت فرقة: النور: القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا معنى لتخصيص شيءٍ مما يدخل تحت المقصود بالنور.

وقوله: ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ عبارة عن قلة حيلتهم وضعفها، أَخبر عنهم أَنهم يحاولون مقاومة أَمر جسيم بسعي ضعيف، فكان الإِطفاءُ بنفخ الأَفواه، ويحتمل أن يراد: بأَقوال لا برهان عليها، فهي لا تجاوز الأَفواه إلى فهم سامع. وقوله: [ويَأبَي] إيجابٌ يقع بعده أَحياناً (إِلاَّ) وذلك لوقوعه هو موقع الفعل المنفي، لأَن التقدير: ولا يريد الله إلا أن يتم نوره، وقال الفراءُ: «هو إيجابٌ فيه طرف من النفي»، وردّ الزجاج على هذه العبارة وبيانه ما قلناه[1].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ الآية. ﴿رَسُولَهُۥ﴾ يراد به محمد ﷺ، وقوله: ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ يعُم القرآن وجميع الشرع، وقوله: ﴿وَدِينِ

= من طُرق عن عديّ بن حاتم، وفيه أنه رضي الله عنه لما بلغته دعوة النبي ﷺ فرَّ إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأُسِرَت أُخته وجماعة من قومه، ثم مَنَّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام، وفي القدوم على الرسول ﷺ، فقدم عدي إلى المدينة وكان رئيساً في قومه طيءٍ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدَّث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عديّ صليب... الخ.

(١) قال الزجاج: الجحد والتحقيق ليسا بذوي أطراف، وأدوات الجحد: ما، ولا، وإنْ، وليس، وهذه لا أطراف لها ينطق بها، ولو كان الأمر كما أراد ـ أي الفراءُ ـ لجاز: كرهت إلا زيداً، وقد رد عليه ابن عطية، وخلاصته أن (أَبى) مَنع وامتناع فضارعت النفي، قال الشاعر:

أبَى اللهُ إلا أنْ أكونَ لَها ابْنَما ... وهَلْ لِيَ أُمٌّ غَيْرُها إنْ تركتُها؟

﴿ٱلْحَقِّ﴾ إشارة إلى الإسلام والمِلَّة بجمعها وهي الحنيفية، وقوله: [لِيُظْهِرهُ] قال أبو هريرة، وأبو جعفر محمد بن عليّ، وجابر بن عبد الله[1] ما معناه: إن الضمير عائد على الدين، وإظهاره عند نزول عيسى بن مريم وكون الأديان كلها راجعة إلى دين الإسلام، فذلك إظهاره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكأن هذه الفرقة رأت الإظهار على أتم وجوهه، أي: حتى لا يبقى معه دين آخر، وقالت فرقة: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ﴾ أي ليجعله أعلاها وأظهرها، وإن كان معه غيره كان دونه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا لا يحتاج إلى نزول عيسى، بل كان هذا في صدر الأمة وهو حتى الآن إن شاءَ الله، وقالت فرقة: الضمير عائد على الرسول، ومعنى [لِيُظْهِرَهُ] ليطلعه ويعلِّمه الشرائع كلها والحلال والحرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل وإن كان جائزاً صحيحاً فالآخر أبرع منه وأليق بنظام الآية وأجرى مع كراهية المشركين، وخُصَّ المشركون هنا بالذكر لما كانت كراهية مختصة بظهور دين محمد ﷺ، فذُكِر العُظْم[2] والأَوَّلُ مِمَّن كرِه وصدَّ فيه، وذُكر الكافرون في الآية قَبْلُ لأنها كراهية إتمام نور الله في قديم الدهر وفي باقيه فعَمَّ الكفرة من لدن خلق الدنيا إلى انقراضها إذ قد وقعت الكراهية والإتمام مراراً كثيرة.

---

(١) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي، صحابي.
من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ، وروى عنه جماعة من الصحابة، غزا تسع عشرة غزوة، وكانت له في أواخر حياته حلقة في المسجد النبوي، روى له البخاري ومسلم وغيرهما ١٥٤٠ حديثاً، توفي ٧٨ هـ (الإصابة، وكشف النقاب، وتهذيب الأسماء).

(٢) عُظْمُ الشيءِ ومُعْظَمه: جُلُّه وأكثره، وعُظْم الشيء: أكبَره، وفي الحديث: «أنه كان يُحدِّث ليلةً عن بني إسرائيل لا يقوم فيها إلا إلى عُظْم صلاة» كأنه أراد: لا يقوم إلا إلى الفريضة، ومنه الحديث: «فأسْنَدوا عُظْم ذلك إلى ابن الدُّخْشُم»، أي معظمه، (اللسان)، أما الأوَّل فجمع أوَّل يريد السابقين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

المراد بهذه الآية بيان نقائص المذكورين، ونَهْيُ المؤمنين عن تلك النقائص مترتبٌ ضمن ذلك، واللام في ﴿ لَيَأۡكُلُونَ ﴾ لام تأكيد، وصورة هذا الأكل هي أَنهم يأخذون أَموال أَتباعهم ضرائب وفروضاً باسم الكنائس والبيع وغير ذلك مما يوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلف إِلى الله، وهم خلال ذلك يحتجنونَ[1] تلك الأَموال كالذي ذكره سلمان في كتاب السير عن الراهب الذي استخرج كنزه[2]، وقيل: كانوا يأخذون منهم من غلاتهم وأَموالهم ضرائب باسم حماية الدين والقيام بالشرع، وقيل: كانوا يرتشون في الأَحكام، ونحو ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقوله تعالى: ﴿ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ يعُمُّ كلَّ ذلك، وقوله: ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ الأَشبه هنا أن يكون مُعدى، أَي: يصدُّون غيرهم، وهذا الترجيح إنما هو لنباهة منازلهم في قومهم، و(صدَّ) يستعمل واقفاً ومتجاوزاً، ومنه قول الشاعر:

صَـدَدْتِ الكَـأْسَ عنَّـا أُمَّ عمْـرٍو ... وكـانَ الكَـأْسُ مجْـرَاهـا اليَمِينَـا[3]

و (سَبيلِ الله): الإسلام وشريعة محمد عليه الصلاة والسلام، ويحتمل أن يريد: ويصدون عن سبيل الله في أكلهم الأموال بالباطل، والأول أرجح. وقوله: (والَّذينَ) ابتداءَ وخبره (فبشِّرهم)، ويجوز أن يكون (الَّذينَ) معطوفاً على الضمير في قوله:

---

(١) من قولهم: احتجن الشيءَ بمعنى احتوى عليه وضمَّه إليه، ويقال: احتجن عليه بمعنى حَجَر، فهو من الاحتجان بمعنى جَمْع الشيءِ وضمه، وفي بعض النسخ (يَحْتَجِبُون) والمعروف أن الاحتجاب معناه الاختفاء خلف ستار، وعبارة القرطبي (يَحْجُبون).

(٢) الكنز للراهب والذي استخرج هذا الكنز هو سلمان الفارسي، وفي العبارة غموض.

(٣) البيت لعمرو بن كلثوم ـ من معلقته المشهورة، وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالى في الآية (٣٤) من سورة الأنفال: ﴿ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ﴾.

(يأكُلُونَ) على نظر في ذلك، لأن الضمير لم يؤكد، وأسند أبو حاتم إلى علباءَ بن أحمد أنه قال: لما مرَّ عثمان بكتب المصحف أراد أن ينقص الواو من قوله: (والذين يكنزونَ) فأبى ذلك أُبي بن كعب وقال: «لتلحقنها أو لأضعن سيفي على عاتقي» فألحقها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى إرادة عثمان يجري قول معاوية: إن الآية في أهل الكتاب، وخالفه أبو ذَرٍّ فقال: بل هي فينا، فشكاه إلى عثمان فاستدعاه من الشام ثم أخرجه إلى الرَّبَذَة[1]، والذي يظهر من الألفاظ أنه لما ذكر بعض الأحبار والرهبان الآكلين المال بالباطل ذكر بعد ذلك مقولة نقص الكانزين المانعين حق المال.

وقرأ طلحةَ بن مصرف: [الّذينَ يَكْنِزونَ] بغير واو، و(يكنزون) معناه: يجمعون ويحفظون في الأوعية. ومنه قول المنخّلِ الهُذلي:

لا دَرَّ دَرِّي إن أطعمْتُ جائِعَهُمْ   قِرْفَ الحَتيِّ وعندي البُرُّ مكْنوزُ[2]

أَي محفوظ في أَوعيته، وليس من شروط الكنز الدفن لكن كثُر في حفظة المال أن يدفنوه حتى تعورف في المدفون اسم الكنز، ومن اللفظة قولهم: «رَجل مُكْتَنِز الخلْق» أي مجتمع، ومنه قول الراجز:

---

(١) الرَّبذَة بفتح الراءِ المشددة، وبفتح الباء: موضع قريب من المدينة، وظاهر الخبر أن عثمان هو الذي أخرج أبا ذر إلى الرَّبَذَةَ، ولكن يظهر من رواية البخاري أنه عرض عليه ذلك وترك له حرية الخروج إليها، فقد روى البخاري عن زيد بن وهب قال: (مررت بالربذة فإذا بأبي ذر فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في (الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله) فقال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم، وكان بيني وبينه في ذلك، فكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إلي عثمان أن أقدم المدينة، فقدمتُها فكثر علي الناس حتى كأنهم لم يروني من قبل، فذكرت ذلك لعثمان فقال: إن شئت تنحَّيت فكنت قريباً، فذاك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أمَّروا عليّ حبشياً لسمعتُ وأطعتُ).

(٢) الدَّرُّ: اللَّبن، والدَّرُّ أيضاً: العمل من خير أو شر، ومنه قولهم: لله درُّك، يكون مدحاً ويكون ذمّاً، وغلب في مجال المدح: لله «درُّك»، وفي مجال الذَّم: «لا درَّ درُّك» قال: الفراءُ: وقد استعملوه من غير أن يقولوا (لله)، فيقولون: درَّ درُّ فلان، ولا درَّ درُّه، ومنه هذا البيت. ويروى: «نازِلَهُم» بدلا من «جائِعَهم»، وقِرْفُ الْحَتِيِّ هو سَوِيقُ المُقْل، والمُقْلُ هو ثمر شجر الدوم ينضج ويؤكل، يقول: إنه نزل بقوم فكان قراه عندهم قِرفَ الحَتِيِّ، فلما نزلوا به قال: لا دَرَّ درِّي.. إلخ.

علَـى شَـديـدٍ لَحْمُـهُ كِنـاز   بـاتَ يُنَـزِّينـي علَـى أَوْفـاز[١]

والتَّوعد في الكنز إنما وقع على منع الحقوق منه، ولذلك قال كثير من العلماءِ: الكنز هو المال الذي لا تُؤدّى زكاته وإن كان على وجه الأرض، وأما المدفون إذا أُخرجت زكاته فليس بكنز كما قال رسول الله ﷺ: «كُل ما أُدِّيت زكاته فليس بكنز»[٢]، وهذه الألفاظ مشهورة عن ابن عمر رضي الله عنهما، وروي هذا القول عن عِكرمة، والشعبي، والسّدي، ومالك، وجمهور أهل العلم. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «أربعة آلاف درهم فما دونها نفقة، وما زاد عليها فهو كنز وإن أُديت زكاته»، وقال أبو ذرٍّ وجماعة معه: «ما فَضَل من مال الرجل عن حاجة نفسه فهو كنز»، وهذان القولان يقتضيان أن الذم في حبس المال لا في منع زكاته فقط، ولكن قال عُمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: هي منسوخة بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾[٣] فأتى فرض الزكاة على هذا كله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كأن مضمن الآية: «لا تجمعوا مالاً فتعذبوا»، فنسخه التقرير الذي في قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، والضمير في قوله: ﴿يُنفِقُونَهَا﴾ يجوز أن يعود على الأموال والكنوز التي يتضمنها المعنى، ويجوز أن يعود على الذهب والفضة إذ هما أنواع، وقيل: عاد على الفضة واكتفي بضمير واحد عن ضمير الآخر إذْ أفهمه المعنى، وهذا نحو قول الشاعر:

نَحْـنُ بِمـا عِنْـدَنـا وأَنْـتَ بِمـا   عِنْـدَكَ رَاضٍ والـرَّأْيُ مُخْتَلِـفُ[٤]

---

(١) الراجز يصف حملاً، وقد رواه في (اللسان) غير منسوب وبلفظ آخر، قال:

أسـوقُ عيـراً مـائـلَ الجهـاز   صعبـاً ينـزيني علـى أو فـاز

واللحم الكناز: المجتمعُ الصلب، والنزوُ: الوَثبان، يقال: نزا ينزو، ومنه أنزاه ونزّاه تنزية، والوفزُ: ألا يطمئن في قعود، ويقال: تعد على أوفاز في الأرض، يقول: إن جملي صلب مجتمع اللحم يثب بي في سرعة فينزّيني فلا أطمئن في قعودي عليه.

(٢) أخرج ابن عدي، والخطيب عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أي مال أديت زكاته فليس بكنز)، وأخرجه ابن أبي شيبة عن جابر رضي الله عنه موقوفاً.

(٣) من الآية (١٠٣) من سورة (التوبة).

(٤) البيت لقيس بن الخطيم، وقد أنشده سيبويه مستشهداً على جواز الاكتفاء بضمير الواحد عن ضمير الآخر عند فهم المعنى، إذ لم يقل: راضون.

ونحو قول حسَّان:

إنَّ شَـرْخَ الشَّبـابِ والشَّعَـر الأسْـ ـوَدَ مـا لـم يُعـاص كـان جُنـونـا[1]

وسيبويه يكره هذا في الكلام، وقد شبه كثير من المفسرين هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا ﴾[2]، وهي لا تشبههاالأن ﴿ أَوْ ﴾ قد فصلت التجارة عن اللَّهو وحسنت عود الضمير على أحدهما دون الآخر.

والذهب يؤنث ويذكر والتأنيث أشهر، وروي أن أصحاب النبي ﷺ قالوا: قد ذم الله كسب الذهب والفضة، فلو علمنا أي المال خير حتى نكسبه، فقال عمر رضي اللهعنه: أنا أسأل لكم رسول الله ﷺ عن ذلك فسأله فقال: (لسانٌ ذاكر، وقلب شاكر، وزوجة تعين المؤمن على دينه)[3]، وروي أن النبي ﷺ قال لما نزلت الآية: «تبّاً للذهب تبّاً للفضة»[4]، فحينئذ أَشفق أصحابه وقالوا ما تقدم.

والفاءُ في قوله: ﴿ فَبَشِّرْهُم ﴾ جواب لِمَا في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾ من معنى الشرط، وجاءَت البشارة مع العذاب لمَّا وقع التصريح بالعذاب، وذلك أَن البشارة تقيد بالخير والشر فإِذا أُطلقت لم تُحمل إِلاَّ على الخير فقط، وقيل: بل هي أَبداً للخير فمتى قُيِّدت بِشَرّ فإِنما المعنى: أقم لهم البشارة عذاباً أليماً، وهذا نحو قول الشاعر:

وخيـلٍ قـد دلفـتُ لهـا بِخَيْـلٍ تَحِيَّـةُ بَيْنَهُـمْ ضَـرْبٌ وجيـعُ[5]

---

(١) الشاهد فيه إنه لم يقل: يُعاصيا، ومثل هذا البيت والذي قبله في الاكتفاء بضمير الواحد عن ضمير الآخر إذا فهم المعنى، قول ابن أحمر يصف رجلاً كان بينهما مشاجرة في بئر (تسمَّى الطَّويّ)، وإن هذا الرجل رماه بأمر يكرهه، ورمى أباه بمثله على براءتهما منه:

رَمَـانـي بـأمـر كنـتُ منـه ووالـدي بـريئـاً ومـن أجْـلِ الطَّـويِّ رَمَـانـي

(٢) من الآية (١١) من سورة الجمعة.

(٣) رواه الترمذي وحسنَّه، ورواه ابن ماجه من غير وجه عن سالم بن أبي الجعد، ذكر ذلك القرطبي وابن كثير، وفي ابن كثير أن الإمام أحمد رواه عن ثوبان بلفظ: لما نزل في الذهب والفضة ما نزل قالوا: فَأيّ المال نتّخذ؟ فقال عمر: فأنا أعلم لكم ذلك، فأوضععلى بعير فأدركه، وأنا في أثره (قائل ذلك ثوبان)، فقال: يا رسول الله أي المال نتّخذ؟ قال: (قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة).

(٤) رواه عبد الرزاق عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ ﴾ الآية، قال النبي ﷺ: «تبّاً للذهب تبّاً للفضة» يقولها ثلاثاً، قال: فَشَقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: فأي المال نتخذ؟ فقال عمر... الخ. (ابن كثير).

(٥) قائل هذا البيت عمرو بن معديكرب، والدَّلف: المشي رويداً في خطو متقارب، وقيل: هو فوق =

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ الآية. ﴿يَوْمَ﴾ ظرف والعامل فيه ﴿أَلِيمٍ﴾. وقرأ جمهور الناس: ﴿يُحْمَىٰ﴾ بالياءِ بمعنى: تُحمى الوقود، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [تُحْمَى] بالتاءِ من فوق بمعنى: تُحْمى النار، والضمير في ﴿عَلَيْهَا﴾ عائد على الكنوز أَو الأَموال حسبما تقدم.

وقرأ قوم [جِبَاهُّم] بالإِدغام وأَشموها الضم، حكاه أَبو حاتم.

ووردت أَحاديث كثيرة في معنى هذه الآية من الوعيد لكنها مُفسَّرَة في منع الزكاة فقط لا في كسب المال الحلال وحفظه، ويؤدي ذلك حال الصحابة وأَموالهم رضي الله عنهم، فمن تلك الأَحاديث قوله ﷺ: «من ترك بعده كنزاً لم يُؤَدّ زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أَقرع» الحديث[1]، وأَسند الطبري قال: كان نعْل سيف أَبي هريرة من فضة فنهاه أَبو ذَرٍّ وقال: قال رسول الله ﷺ: «مَن ترك صفراءَ أَو بيضاءَ كوي بها»[2]، وأُسند إلى أَبي أُمامة الباهلي قال: «مات رجل من أهل الصُّفَّة فوجد في بردته دينار فقال رسول الله ﷺ: كيَّة، ثم مات آخر فوجد له ديناران فقال رسول الله ﷺ: كيَّتان»[3].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا إما لأَنهما كانا يعيشان من الصدقات وعندهما التِّبْر، وإِمَّا لأَن هذا كان في صدر الإِسلام ثم قرر الشرع ضبط المال وأَداءَ حقه، ولو كان ضبط المال ممنوعاً لكان حقه أَن يخرج كله لا زكاته فقط، وليس في الأُمة من يُلْزم هذا.

= الدبيب، والشاهد في البيت أن في كلمة (تحية) استعارة تهكمية فيها السخرية منهم كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وفيهما نُزِّل التَّضادُّ منزلة التناسب.

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة في كتاب الزكاة ـ باب إثم مانع الزكاة ـ ولفظه: «من آتاه الله مالاً فلم يُؤَدّ زكاته مُثّل له يوم القيامة شُجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه ثم يأخذ بلهزمتيه ـ يعني شدقيه ـ ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾. الآية.

(٢) أخرجه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وابن مردويه عن ثوبان رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٣) أسنده الطبريُّ إلى أبي أُمامة، ذكر ذلك القرطبي كما ذكره ابن عطية، وفي ابن كثير أن الإمام أحمد رواه عن بريد بن أصرم قال: سمعتُ علياً رضي الله عنه يقول: مات رجل من أهل الصفة وترك دينارين أو درهمين فقال رسول الله ﷺ: «كيَّتان»، صلوا على صاحبكم، ورواه قتادة عن شهر بن حوشب عن أبي أمامة صدي بن عجلان بمثل إسناد الطبري إلا أنه قال: «بمئزره» بدلاً من «بردته».

وقوله: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ إشارة إلى المال الذي يكوى به ، ويحتمل أن يكون إلى الفعل النازل بهم ، أي: هذا جزاءُ ما كنزتم ، وقال ابن مسعود: والله لا يمس دينار ديناراً ، بل يمد الجلد حتى يكوى بكل دينار وبكل درهم ، وقال الأحنف بن قيس: دخلت مسجد المدينة وإذا رجل خشن الهيئة رثُّها يطوف في الخلق وهو يقول: بشِّر أصحاب الكنوز بكيٍّ في جباههم وجنوبهم وظهورهم ، ثم انطلق يتذمّر وهو يقول: وما عسى تصنع في قريش.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)﴾.

هذه الآية ـ والتي بعدها ـ تتضمن ما كانت العرب شرعته في جاهليتها من تحريم شهور الحلِّ ، وتحليل شهور الحُرمة ، وإذا نُصّ ما كانت العرب تفعله تبين معنى الآيات ، فالذي تظاهرت به الروايات ويَنْفَكُّ من مجموع ما ذكر الناس أَن العرب كانت لا عيش لأكثرها إلا من الغارات وإعمال سلاحها ، فكانوا إذا توالت عليهم حرمة ذي القعدة وذي الحجة والمحرم صعب عليهم وأملقوا ، وكان بنو فُقَيْم[1] من كنانة أهل دين في العرب وتَمَسُّكٍ بشرع إبراهيم عليه السلام ، فانتدب منهم القَلَمَّس وهو حذيفة بن عبد فُقَيم فنسأ الشهور للعرب ، ثم خلفه على ذلك ابنه عباد بن حذيفة ، ثم خلف ابنه قلع بن عباد ، ثم خلفه ابنه أُمية بن قلع ، ثم خلفه ابنه عوف بن أُمية ، ثم خلفه ابنه أَبو ثمامة جنادة بن عوف ، وعليه قام الإسلام ، وذكر الطبري وغيره أَن الأَمر كان في عدوان قبل بني مالك بن كنانة ، وكان صورة فعلهم أَن العرب كانت إذا فرغت من حجّها جاءَ إليهم من شاءَ منهم مجتمعين فقالوا: أَنسئنا شهراً ، أَي: أَخِّر عنا حرمة المحرّم فاجعلها في صفر ، فيحلُّ لهم المحرم فيُغِيرون فيه ويعيشون ، ثم يلتزمون

(١) بضم الفاءِ وفتح القاف بعدهما ياءٌ ساكنة، والقَلَمَّس بفتح القاف واللام وتشديد الميم، وكان القَلَمَّس هذا يقوم بعد صدورهم من منًى فيقول: أنا الذي لا يُرَدُّ لي قضاءٌ، فيقولون: أنْسئنا شهراً ، أي أخِّر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر ، فيحل لهم المحرم. . الخ.

حرمة صفر ليوافقوا عدة الأشهر الأربعة، قال مجاهد: ويسمون ذلك الصفر المحرَّم، ثم يسمون ربيعاً الأول صفراً وربيعاً الآخر ربيعاً الأول، وهكذا في سائر الشهور يستقبلون سنتهم من المحرم الموضوع لهم فيسقط على هذا حكم المحرم الذي حُلِّل لهم، وتجيء السَّنَة من ثلاثة عشر شهراً أوّلها المحرم المحلّل ثم المحرَّم الذي هو في الحقيقة صفر ثم استقبال السَّنَة كما ذكرنا، ففي هذا قال الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ أي: ليست ثلاثة عشر شهراً. قال الطبري: حدثني ابن وكيع عن عمران بن عُيَيْنَة بن حصين عن أبي مالك قال: كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهراً، قال مجاهد: ثم كانوا يحجون في كل شهر عامين ولاءً ثم بعد ذلك يُبَدلون فيحجون عامين ولاءً، ثم كذلك حتى جاءَت حجة أبي بكر رضي الله عنه في ذي القعدة حقيقة وهم يسمونه ذا الحجة، ثم حج رسول الله ﷺ سنة عشر في ذي الحجة حقيقة، فذلك قوله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان»[1]، وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب في حجة الوداع فساق الحديث فقال فيه: «أولهن رجب مُضر الذي بين جمادى وشعبان، وذو القعدة وذو الحجة والمحرم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويجيءُ في أكثر الكتب أنهم كانوا يجعلون حرمة المحرم في صفر ويُسكت عن تمام القصة، والذي ذكرناه هو بيانها، وأمّا كون المحرم أول السنة العربية، وكان حقه ـ إذ التاريخ من الهجرة ـ أن يكون أول السَّنَة في ربيع الأول، فإن ذلك فيما يروى، لأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دوّن ديوان المسلمين وجعل تاريخه المحرم إذ قبله انقضاءُ الموسم والحج، فكان الحج خاتمة للسَّنَة، واعتد بعام الهجرة وإن كان قد نقص من أوَّله شيءٌ، ولما كانت سنة العرب هلالية، بدأ العام من أول شهر، ولم يكن في الثاني عشر من ربيع الذي هو يوم دخول النبي ﷺ المدينة، ولا كان عند تمام

(١) الحديث رواه الإمام أحمد عن أبي بَكْرَة، ورواه البخاري في التفسير وغيره، ورواه مسلم عن عبد الرحمن بن أبي بَكْرة عن أبيه، وابن جرير عن أبي هريرة، ورواه البزار عن محمد بن معمر، ورواه ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما، وهو ثابت في كتب التفسير والسير من طرق عدة.

الحج؛ لأنه في كسر شهر، وأما الأربعة الحُرم فهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم ورجب، ومعنى قول النبي ﷺ: «ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان» قصد التفريق بينه وبين ما كانت تفعله قبائل ربيعة بأسرها، فإنها كانت تجعل رجبها رمضان وتحرّمه ابتداعاً منها، وكانت قريش ومن تابعها في ذلك من قبائل مضر على الحق، فقرر رسول الله ﷺ ذلك ونسبه إلى مضر إذْ كان حكمه وتحريمه إنما كان من قِبَل قريش، وفي المفضّليات لبعض شعراءِ الجاهلية:

وشَهْــر بَنــي أُميَّــةَ والْهــدايــا . . . .[(1)]

البيت، قال الأصمعي: يريد رجباً، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع:

[اثنا عْشَر شهراً] بسكون العين[(2)]، وذلك تخفيف لتوالي الحركات، وكذلك قرأ: [أَحَدَ عْشَرَ] و[تِسْعَةَ عْشَرَ][(3)].

وقوله تعالى: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي فيما كتبه وأثبته في اللوح المحفوظ أو غيره، فهي صفة فعل مثل خلقه ورزقه وليست بمعنى قضائه وتقديره، لأن تلك هي قبل خلق السموات والأرض، والكتاب الذي هو المصدر هو العامل في ﴿يَوْمَ﴾، و﴿فِى﴾ من قوله: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ متعلقة بـ «مُسْتَقِرّة أو ثابتة» ونحوه، ويقلق أن يكون الكتاب: القرآن في هذا الموضع، وتأمل، ولا يتعلق [في] بـ [عِدَّة] للتفرقة بين الصلة

---

(١) هذا شطر بيت قاله عوف بن الأحوص العامريُّ ضمن أبيات يهجو بها رجلاً من بني الحارث بن كعب، وهي:

وإنّــي والّــذي حَجَّــتْ قــرَيْــشٌ ... محــارِمَــهُ ومــا جَمَعَــتْ حِــرَاءُ
وشَهْــر بَنــي أُمَيَّــةَ والْهَــدَايَــا ... إذَا حُبِسَــتْ مُضَــرِّجَهــا الــدِّمَــاءُ
أذُمُّــكَ مــا تَــرَقْــرقَ مــاءُ عَيْنــي ... عَلَــيَّ إذاً مــن الله الْعَفَــاءُ

ومُضَرِّجها: اسم فاعل، و«الدماء» فاعله، و«ها» عائدة على الهدايا، وهو منصوب على الحال من ضمير الهدايا في «حُبست»، وهو جائز لأن إضافة الصفة كاسم الفاعل إلى معمولها ليست محضة فلا تفيد تعريفاً (راجع همع الهوامع ٢ ـ ٤٧) وأذمك معناها: لا أذمك.

(٢) قرأ بها أيضاً هُبَيْرَةَ عن حَفْص كما قال في «البحر المحيط»، قال: بإسكان العين مع إثبات الألف، وهو جمع بين ساكنين على غير حدِّه، كما روي: «التَقَتْ حَلْقَتَا البُطان» بإثبات ألف «حلقتا».

(٣) الأولى من قوله تعالى في الآية (٤) من سورة (يوسف): ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾، والثانية من قوله تعالى في الآية (٣٠) من سورة (المدثر): ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾. ولكن لا يوجد هنا التقاءٌ بين ساكنين.

والموصول بخبر [إنَّ][١]. وقوله: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾ نصٌّ على تفضيل هذه الأربعة وتشريفها، قال قتادة: «اصطفى الله من الملائكة والبشر رسلاً، ومن الشهور المحرّم ورمضان، ومن البقع المساجد، ومن الأيام الجمعة، ومن الليالي ليلة القدر، ومن الكلام ذكْره، فينبغي أن يُعظِّم ما عظَّم الله».

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ﴾ قالت فرقة: معناه: الحساب المستقيم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما حكى المهدوي: معناه: القضاءُ المستقيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأصوب عندي أن يكون ﴿ٱلدِّينُ﴾ هاهنا على أشهر وجوهه، أي ذلك الشرع والطاعة لله. ﴿ٱلْقَيِّمُۚ﴾ أي: القائم المستقيم، وهو من «قام يقوم» بمنزلة «سيِّد» من «ساد يسود»، وأصله قَيْوِمٌ، وقوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ﴾ الضمير عائد على «الاثنَا عشر شَهْراً» أَي: لا تظلموا أنفسكم بالمعاصي في الزمن كله، وقال قتادة: الضمير عائد على «الأربعة الأشهر»[٢]، ونهى عن الظلم فيها تشريفاً لها بالتخصيص والذكر وإن كان منهياً عنه في كل الزمن، وزعم النحاة أن العرب تكني عما دون العشرة من الشهور: «فيهن»، وعمّا فوق العشرة: «فيها»، ورُوي عن الكسائي أنه قال: إني لأتعجب من فعل العرب هذا، وكذلك يقولون فيما دون العشرة من الليالي: «خَلَوْن»، وفيما فوقها: «خَلَتْ». وقال الحسن: معنى «فيهِنَّ» أي بِسَبَبِهِنَّ ومن جرّاهن في أن تُحِلُّوا حرامها وتبدلوه بما لا حرمة له، وحكى المهدوي أنه قيل: «لا تظلموا فيهن أنفسكم بالقتال» ثم نسخ بفرض القتال في كل زمن، قال سعيد بن المسيب في كتاب الطبري: كان رسول الله ﷺ يحرم القتال في الأشهر الحرم بما أنزل الله في ذلك حتى نزلت براءَة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

---

(١) وهو ﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾، وهذا هو رأي أبي علي، وقد نقله عنه أيضاً أبو حيَّان في «البحر» وعلق عليه بقوله: «وهو كلام صحيح».

(٢) والسبب أنه إليها أقرب، ولأن لها مزية في تعظيم الظلم لقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّۗ﴾، وليس المعنى أن الظلم في غير هذه الأيام جائز، بل هو حرام في كل وقت وبخاصة في هذه الأوقات.

وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ معناه: فيهن فأحرى في غيرهن، وقوله: ﴿كَآفَّةً﴾ معناه: جميعاً، وهو مصدر في موضع الحال، قال الطبري: كالعاقبة والعافية، فهو ـ على هذا ـ كما تقول: خاصة وعامة، ويظهر أيضاً أنه من كفَّ يكفُّ، أي جماعة تكف من عارضها، وكذلك تقول: الكافة، أي تكف من خالفها، فاللفظة ـ على هذا ـ اسم فاعل، وقال بعض الناس: معناه: يكف بعضهم بعضاً عن التخلف، وما قدماه أَعَمُّ وأحسن، وقال بعض الناس: كان الفرض بهذه الآية قد توجَّه على الأعيان ثم نسخ ذلك بعْدُ وجُعل فرض كفاية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الذي قالوه لم يُعلم قط من شرع النبي ﷺ أنه ألزم الأمة جميعاً النَّفْر، وإنما معنى الآية الحض على قتالهم والتحزب عليهم وجمع الكلمة، ثم قيدها بقوله سبحانه: ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾، فبحسب قتالهم واجتماعهم لنا يكون فرض اجتماعنا لهم، وأما الجهاد الذي يندب إليه فإنما هو فرض على الكفاية إذا قام به بعض الأمة سقط عن الغير.

وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ خبر في ضمنه أمْرٌ بالتقوى ووعْد عليها بالنصر والتأييد.

قوله عز وجلَّ:

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿ٱلنَّسِىٓءُ﴾ على وزن فَعيل مصدر بمعنى التأخير، تقول العرب: أَنْسَأَ الله في أَجلك ونسأً في أَجلك، ومنه قوله النبي ﷺ: «منْ سرَّه النَّسَأَ في الأَجل والسَّعة في الرزق فَلْيصل رحمه»[١]، وهذه قراءَة الجمهور والسبعة، وقرأ ابن كثير فيما روي عنه وقوم

(١) أخرجه البخاري في كتاب البيوع بلفظ: «من سرَّه أن يُبْسَط له رزقه أو ينْسَأ له في أثره فَلْيَصِلْ رحمه»، وأخرجه مسلم في كتاب البِرّ، وأبو داود في كتاب الزكاة.

معه في الشَّاذ[١]: [النَّسيُّ] مشددة الياءِ، وقرأَ فيما روى عنه جعفر بن محمد، والزهري: [النَّسيءُ]، وقرأَ أَيضاً فيما رُوي عنه: [النَّسْءُ] على وزن «النَّسْع»، وقرأَت فرقة [النَّسْيُ]. فأَما [النَّسيءُ] بالمدّ والهمز فقال أبو علي: هو مصدر مثل النكير والنذير وعذير الحيّ[٢]، ولا يجوز أَن يكون فعيلاً بمعنى مفعول؛ لأَنه يكون المعنى: إنَّما المؤَخَّر زيادة، والمُؤَخَّر الشهر، ولا يكون الشهر زيادة في الكفر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقال أَبو حاتم: هو فعيل بمعنى مفعول، وينفصل عن إِلزام أَبي علي بأَن يُقَدَّر مضاف، كأَن المعنى: إِنما إِنساءُ النسيءِ، وقال الطبري: هو في معنى الزيادة، أي زيادتهم في الأشهر، وقال أَبو وائل: كان «النسيءُ» رجلاً من بني كنانة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وأَما [النَّسيُّ] فهو الأَول بعينه خففت الهمزة، وقيل: قلبت الهمزة ياءً وأُدغمت الياءُ في الياءِ، وأَما [النَّسْءُ] فهو مصدر من نسأَ إِذا أَخَّر، وأَما [النَّسْيُ] فقيل: تخفيف همزة «النَّسءِ»، وذلك على غير قياس، وقال الطبريُّ: هو مصدر من نَسِي ينْسى إِذا تَرك.

---

(١) هذه القراءةُ ليست من الشاذّ، فقد قرأ بها نافع، قال أبو حيان في «البحر»: وقرأ الزهري، وحميد، وأبو جعفر، وورش عن نافع والحلواني: (النَّسِيّ) بتشديد الياء من غير همز»، ونقل القرطبي عن النحاس قوله: «ولم يرْوِ أحدٌ عن نافع فيما علمناه «إنَّما النَّسِيُّ» بلا همز إلا ورش وحده»، وعلى هذا يكون معنى قول ابن عطية: «وقومٌ معه في الشاذّ» وقوم ممن يُعَدّون في الشاذ، وليس غرضه أن يجعل هذه القراءَة من الشاذّ.

(٢) العَذير: العاذِر، يقال: عذيرَكَ من فلانٍ، بالنصب، أي: هات من يعذرك، فَعيل بمعنى فاعل، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو ينظر إلى ابن مُلْجَم: عذيرَك مِنْ خَليلِكَ من مراد.

والعاذِرُ والعذير: من يفعل شيئاً لقومه فيقبلون عُذْرَه فلا يلومونه، فيكون كأنه اعتذر من التقصير وهم قبلوا عذره، كمن يتخذ طعاماً لقومه في ختان أو عُرْس، وإضافة «عذير» للحيّ على معنى اللام وليست من إضافة المصدر إلى مفعوله، لأن أعذر المذكور لازم، قال ذو الأصبع العدواني:

عَذِيرَ الحيِّ مِنْ عُدْوا ... نَ كانوا حيَّةَ الأَرْض
بغَى بعضٌ على بَعْضٍ ... فلم يرعَوْا على بَعْض

يقول: هات عُذْراً فيما فعل بعضهم ببعض من التباعد والتباغض والقتل، ولم يرْع بعضهم على بعض بعدما كانوا حيّة يحذرها الناس جميعاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والنسيءُ هو فعل العرب في تأخيرهم الحرمة، وقوله تعالى: ﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أَي: جارٍ مع كفرهم بالله، وخلافٌ منهم للحق، فالكفر متكثر بهذا الفعل الذي هو باطلٌ في نفسه[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومما وجد في أَشعارها من هذا المعنى قول بعضهم:

ومنَّا مُنْسِيءُ الشَّهْرِ القَلَمَّس[٢]

وقال الآخر:

نَسَؤوا الشُّهور بها وكانوا أَهْلَها ... مِنْ قبلِكُمْ والعِزُّ لَمْ يَتَحوّل[٣]

ومنه قول جِذْلِ الطِّعانِ:

وَقَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ أَنَّ قَوْمي ... كِرَامُ النَّاسِ إِنَّ لَهم كِراما

فأَيُّ الناسِ فاتونا بِوِتْرٍ؟ ... وأيُّ النَّاس لم تَعْلك لِجَامَا؟

أَلَسْنَا النَّاسِئينَ عَلَى مَعَدٍّ ... شهور الحِلِّ نَجْعَلُها حرامَا؟[٤]

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: [يَضِلُّ] بفتح الياءِ وكسر الضاد، وقرأَ ابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وعمرو بن ميمون:

---

(١) قال بعض العلماء: لأن الكافر إذا أحدث معصية ازداد كفراً، قال تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾، كما أن المؤمن إذا أحدث طاعة ازداد إيماناً، قال تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، ذكر ذلك أبو حيان في «البحر»، وقال القرطبي: «لما فعلته العرب من جمعها من أنواع الكفر، فإنها أنكرت وجود الله، وأنكرت البعث، وأنكرت بعثة الرسل». الخ.

(٢) القلَمّس بفتح القاف واللام وتشديد الميم سبقت الإشارة إليه، واسمه حُذَيْفَة بن عبد من بني فُقَيْم من بني كنانة، وشاعرهم يقول هذا الشعر افتخاراً منه لأن الذي يظفر بالنسيءِ تختاره العرب للرياسة، وروي هذا الشطر من بحر الوافر: «ومنا ناسِيءُ» بدلاً من «مُنْسِيء».

(٣) ينسب هذا البيت لأمية بن الأسكر الليثي، وقيل هو للشويعر ربيعة بن عبس الليثي، والشاعر فيه يفخر بقوم كان لهم النسيءُ قبل غيرهم ولا يزال العزّ فيهم لم يتحول عنهم.

(٤) هذه الأبيات مختلف في نسبتها، فصاحب اللسان، وصاحب التاج ينسبان البيت الأخير فيها إلى عُمَيْر بن قَيْس بن جِذْل الطِّعان، والألوسي والقُرطبي ينسبانه إلى الكميت، وواضح أن ابن عطية ينسبها كلها إلى عُمَير هذا لكِنّ خطأ النساخ جعله: جِذْل الطِّعان.

[يُضِلُّ] بضم الياءِ وكسر الضاد، فإمَّا على معنى: يُضِل الله، وإما على معنى: يُضِل به الذين كفروا أَتباعهم ، فـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في التأْويل الأَول في موضع نصب، وفي الثاني في موضع رفع، وقرأَ عاصم أيضاً، وحمزة، والكسائي، وابن مسعود ـ فيما روي عنه ـ: ﴿يُضَلُّ﴾ بضم الياءِ وفتح الضاد على المفعول الذي لم يُسم فاعله، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ﴾ للتناسب في اللفظ، وقرأَ أَبو رجاءِ: [يَضَلُّ] من ضلَّ يضَل ، على وزن فعِل بكسر العين يفعَل بفتحها ، وهما لغتان ، يقال: ضلَّ يَضِل وضَلَّ يَضَلُّ والوزن الذي ذكرناه يفرق بينهما ، وكذلك يروى قول النبي ﷺ: «حتَّى يَضِلَّ الرجل أن يدري كم صلَّى» بفتح الضاد وكسْرها[1].

وقوله تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ معناه: عاماً من الأَعوام ، وليس يريد أَن تلك كانت مداولة في الشهر بعينه ، عام حلال وعام حرام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد تأَول بعض الناس القصة أَنهم كانوا إِذا شق عليهم توالي الأَشهر الحرم أَحل لهم المحرم وحرم عليهم صفر بدلاً منه ، ثم مشت الشهور مستقيمة على أَسمائها المعهودة ، فإذا كان من قابل حرّم المحرم على حقه ، وأُحل صفر ، ومشت الشهور مستقيمة ، ورأت هذه الطائفة أَن هذه كانت حالة القوم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي قدمناه قبْلُ أَليق بأَلفاظ الآيات ، وقد بيَّنه مجاهد ، وأَبو مالك ، وهو مقتضى قول النبي ﷺ: «إن الزمان قد استدار» مع أَن الأَمر كله قد تقضَّى ، والله أَعلم أَيُّ ذلك كان.

وقوله: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟﴾ معناه: ليوافقوا ، والمواطأة: الموافقة ، تواطأَ الرجلان على كذا إذا اتفقا عليه ، ومعنى ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾: ليحفظوا في كل عام أَربعة أشهر في العدد.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب «الصلاة» ، ورواه في الموطأ في «النداء» ـ (عن المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) جـ ٣ ص ٥١٥.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فأزالوا الفضيلة التي خصّ الله بها الأَشهر الحرم وحدها، بمثابة أن يفطر أحدٌ رمضان ويصوم شهراً من السَّنَة بغير مرض أَو سفر، وقوله: ﴿زُيِّنَ﴾ يحتمل هذا التَّزْيين أَن يضاف إلى الله عزَّ وجلَّ والمراد به خلقه لكفرهم وإقرارهم عليه وتحبيبه لهم، ويحتمل أَن يضاف إلى مُغْويهم ومُضِلهم من الإنس والجن، ثم أَخبر تعالى أَنه لا يهديهم ولا يرشدهم، وهو عموم معناه الخصوص في الموافقين أَو عموم مطلق لكن لا هداية من حيث هم كفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذكر أبو علي البغدادي في أَمر النسيءِ أنه كان إذا صدر الناس من (منى) قام رجل يقال له نعيم بن ثعلبة، فيقول: أنا الذي لا أُعاب ولا يردّ لي قضاءٌ، فيقولون: أَنْسِئنا شهراً، أَي أَخِّر عنا حرمة المحرم فاجعلها في صفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واسم نعيم لم يعرف في هذا، وما أَرى ذلك إلاَّ كما حكى النقاش من بني فُقَيْم، كانوا يسمون القلامس وأَحدهم قَلَمَّس، وكانوا يفتون العرب في الموسم، يقوم كبيرهم في الحجر، ويقوم آخر عند الباب، ويقوم آخر عند الركن فيفتون.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهم على هذا عدَّة، منهم نعيم وصفوان ومنهم ذرِّيّة القَلَمّس حذيفة وغيرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقال رسول الله ﷺ: «لا عَدْوى ولا هامةَ ولا صفر»[1]، فقال بعض الناس: إنه يريد بقوله: «ولا صفر» هذا النسيءَ، وقيل غير ذلك.

---

(١) رواه الشيخان، وأبو داود عن أبي هريرة، وعن السائب بن زيد، وكذلك أخرجه الإمام أحمد في مسنده بهذا اللفظ عن أبي هريرة، وعن السائب بن زيد، وأخرجه هو ومسلم في صحيحه عن جابر بلفظ: «لا عَدْوى ولا طِيرَة ولا هامَةَ ولا صَفَر ولا غول».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

هذه الآية هي بلا اختلاف نازلة عتاباً على تخلف من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام، غزا فيها الروم في عشرين ألفاً بين راكب وراجل، وتخلف عنه قبائل من الناس ورجال من المؤمنين كثير ومنافقون، فالعتاب في هذه الآية هو للقبائل وللمؤمنين الذين كانوا بالمدينة، وخص الثلاثة: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أُمية بذلك التذنيب الشديد بحسب مكانهم من الصحبة إذ هم من أَهل بدر وممن يقتدى بهم، وكان تخلفهم لغير علَّة كما يأْتي.

وقوله: ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ استفهام بمعنى التقرير والتوبيخ، وقوله: ﴿ قِيلَ ﴾ يريد النبي ﷺ إلاَّ أَن صرفه الفعل لا يُسَمَّى فاعله يقتضي غلاظاً ومخاشنة مّا.

والنَّفر هو التنقل بسرعة من مكان إلى مكان لأَمر يحدث، يقال في ابن آدم: نَفَر إلى الأَمر ينفِرُ نفيراً ونفراً، ويقال في الدابة: نفرتْ تنفرُ بضم الفاءِ نُفوراً[١]، وقوله: ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ ﴾ أصله تثاقلتم، أُدغمت التاءُ في الثاءِ فاحتيج إلى أَلف الوصل، كما قال: ﴿ فَٱدَّٰرَءْتُمْ ﴾[٢] وكما تقول: «ازَّيّن»، وكما قال الشاعر:

تُولي الضَّجيجَ إذا ما استَافَها خَصِراً عذب الْمَذاقِ إذا ما اتَّابَع القُبَلُ[٣]

وقرأ الأَعمش ـ فيما حكى المهدوي وغيره ـ: [تَثَاقَلْتُمْ] على الأَصل، وذكرها أَبو

---

(١) ويقال أَيضاً «تنفِر» بكسر الفاءِ كما قال صاحب اللسان. ويقال: قومٌ نُفُور، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٦].

(٢) من قوله تعالى في الآية (٧٢) من سورة (البقرة): ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾.

(٣) البيت أنشده الكسائي كما قال القرطبي، وساف الشيءَ يَسُوفه ويَسَافُه سوفاً وساوَفه واستافه، كل ذلك بمعنى: شَمَّه، والخَصِر بكسر الصاد: البارِدُ من كل شيءٍ، والشاهد في قوله: اتَّابع، إذ أَصلُها «تتابع»، ومن الكلمات التي حصل فيها الإدغام على مثل «اثَّاقلتم» «اطَّيَّرنا» في قوله تعالى في سورة النمل: ﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ «وازَّيَّنتْ» في قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ ﴾.

حاتم «تتاقلتم» بتاءين ثم ثاءٍ مثلثة، وقال: هي خطأٌ أو غلط، وصوّب [تَثَاقَلْتُمْ] بتاءٍ واحدة وثاءٍ مثلثة إن لو قرئ بها، وقوله: ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ عبارة عن تخلفهم ونكولهم وتركهم، الغزو لسكنى ديارهم والتزام نخلهم وظلالهم، وهو نحو من: أَخْلَد إِلى الأَرض، وقوله: [أَرَضِيتُمْ] تقرير يقول: أَرضيتم نزر الدنيا على خطير الآخرة وحَظِّها الأَسعد؟ ثم أَخبر فقال: إِن الدنيا بالإِضافة إِلى الآخرة قليل نَزْر، فتعطي قوةُ الكلام التعجبَ من ضلال من يرضى النَّزْر بدل الكثير الباقي[1].

وقوله: ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا ﴾ الآية ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ ﴾ شرط وجواب، وقوله: [يُعذِّبْكُمْ] لفظ عام يدخل تحته أَنواع عذاب الدنيا والآخرة، والتهديد بعمومه أَشدُّ تخويفاً، وقالت فرقة: يريد: يُعذبكم بإِمساك المطر عنكم، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: استنفر رسول الله ﷺ قبيلة من القبائل فقعدت فأَمسك الله عنها المطر وعذَّبها به، و«أَليم» بمعنى مُؤلم، بمنزلة قول عمرو بن معديكرب:

أَمِـنْ رَيْحَـانَـةَ الـدَّاعِـي السَّمِيـعِ . . . .[2]

وقوله: ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ توعّد بأن يبدل لرسول الله ﷺ قوماً لا يقعدون عند استنفاره إياهم، والضمير في قوله: ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ﴾ عائد على الله عزَّ وجلَّ، أَي: لا يَنقص ذلك من عِزِّه وعِزِّ دينه، ويحتمل أَن يعود على النبي ﷺ، وهو أَليق. ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَي: على كل شيء مقدور، وتبديلهم منه ليس بمحال ممتنع.

قوله عزَّ وجل:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

---

(١) النَّزْر: القليل التافه من كل شيء.

(٢) هذا صدر بيت، وهو بتمامه:

أَمِـنْ رَيْحَـانَـةَ الـدَّاعِـي السَّمِيـعُ يُـؤَرِّقُنـي وأَصْحَـابـي هُجُـوعُ؟

والسميع بمعنى: المُسْمِع، قال الأزهري: ولست أنكر أن يكون السميع سامعاً، ويكون مُسْمِعاً كما قال عمرو بن معديكرب، ولكنه شاذٌّ.

هذا أيضاً شرط والجواب في الفاءِ من قوله: ﴿فَقَدْ﴾ وفيما بعدها ، قال النقاش: هذه أَول آية نزلت من سورة التوبة ، ومعنى الآية: إنكم إن تركتم نصره فالله متكفل به إِذ قد نصره في موضع القِلَّة والانفراد وكثرة العدو ، فنَصْره إِياه اليوم أَحرى منه حينئذ. وقوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يريد: فعلوا من الأَفاعيل ما أَدَّى إِلى خروجه ، وأَسند الإِخراج إِليهم إِذ المقصود تذنيبهم ، ولما كان مقصد أَبي سفيان بن الحارث الفخر في قوله: «مَنْ طَرَّدْتُ كُلَّ مُطَرَّدِ» لم يقرره النبي ﷺ ، والإِشارة إِلى خروج رسول الله ﷺ من مكة إِلى المدينة وفي صحبته أَبو بكر رضي الله عنه ، واختصار القصة أَن رسول الله ﷺ كان ينتظر أَمر الله عزَّ وجلَّ في الهجرة من مكة ، وكان أَبو بكر رضي الله عنه حين ترك ذمة ابن الدُّغُنة قد أَراد الخروج من مكة فقال له رسول الله ﷺ: «اصبر فلعل الله أَن يسهل في الصحبة» ، فلما أَذن الله لرسوله ﷺ في الخروج تجهز من دار أَبي بكر وخرجا فبقيا في الغار الذي في جبل ثور في غربي مكة ثلاث ليال ، وخرج المشركون في أَثرهم حتى انتهوا إِلى الغار ، فطمس عليهم الأَثر ، وقال أَبو بكر للنبي ﷺ: «لو نظر أَحدهم إِلى قدمه لرآنا» ، فقال له النبي ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»؟ ويروى أَن العنكبوت نسجت على باب الغار ، ويروى أَن الحمامة عشَّشت عند باب الغار ، ويروى أَن رسول الله ﷺ أَمر أَبا بكر رضي الله عنه أَن يجعل ثُمَاماً[1] في باب الغار فتخيله المشركون نابتاً وصرفهم الله عنه ، ووقع في «الدلائل» في حديث النبي ﷺ أَنه نبتت على باب الغار «رَاءَةٌ» أَمرها الله بذلك في الحين ، قال الأَصمعي: جمعها «راءٌ» وهي من نبات السهل. وروي أَن أَبا بكر رضي الله عنه لما دخل الغار خرق رداءَه فسَدّ به كِواءَ[2] الغار لئلا يكون فيها حيوان يؤذي النبي ﷺ ، وروي أنه بقيت فيه واحدة فسدها برجله فوقى الله تعالى ، وكان يروح عليهما باللَّبن عامر بن فهيرة مولى أَبي بكر رضي الله عنه.

---

(١) الثُّمامُ: نبت معروف في البادية ، ولا تَجْهده النَّعَمُ إِلا في الجدوبة ، والثَّمام: نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص ، وربما حُشي به وسُدَّ به خصاص البيوت ، والثمام: نبت ضعيف قصير لا يطول ، وفي حديث عمر رضي الله عنه: اغزُوا والغزو حُلْوٌ خَضِر قبل أن يصير ثُماما ، جاءَ ذلك كله في (لسان العرب).

(٢) الكَوُّ والكَوَّة: الخرق في الحائط ، والثَّقْبُ في البيت ، والجمع كوىً بالقصر نادرٌ وكواءٌ بالمدّ ، والكاف مكسورة فيهما ، وقال اللحياني: من قال كَوَّة ففتَح فجمعه كِواءٌ ممدود ، والكُوة بالضم لغة ، ومن قال كُوَّة بالضم فجمعه كِوىً مكسور مقصور.

وقوله: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ معناه: أحد اثنين ، وهذا كثالث ثلاثة ورابع أربعة ، فإذا اختلف اللفظ فقلت: «رابع ثلاثة» فالمعنى: صيَّر الثلاثة بنفسه أربعة ، وقرأ جمهور الناس: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ بنصب الياءِ من [ثاني] ، قال أبو حاتم: لا يعرف غير هذا ، وقرأت فرقة: [ثَانِيْ اثْنَيْن] بسكون الياءِ من [ثاني] ، قال أبو الفتح: حكاها أبو عمرو بن العلاءِ ، ووجهه أنه سكن الياءَ تشبيهاً لها بالألف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذه كقراءة: ﴿مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾[1] وكقول جرير:

هُوَ الخليفةُ فارْضَوْا ما رَضي لكُمُ ... مَـاضِـي العَـزِيمـةِ مـا في حُكْمِـهِ جَنَـفُ[2]

وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه ، وروى أن أبا بكر الصديق قال يوماً وهو على المنبر: أيكم يحفظ سورة التوبة؟ فقال رجل: أنا ، فقال: اقرأ ، فقرأ فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ بكى وقال: أنا واللهِ صاحبُه ، وقال الليث: ما صحب الأنبياءَ مثل أَبي بكر الصديق ، وقال سفيان بن عيينة: خرج أبو بكر رضي الله عنه بهذه الآية من المعاتبة التي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أَقول: بل خرج منها كل من شاهد غزوة تبوك ولم يتخلف ، وإنما المعاتبة لمن تخلَّف فقط ، أَما إن هذه الآية منوهة بأَبي بكر حاكمة بتقدمه وسابقته في الإسلام رضي الله عنه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ يريد به النصر والإنجاءَ واللطف[3] ، وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ الآية. قال حبيب بن أبي ثابت: الضمير في ﴿عَلَيۡهِ﴾

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٢٧٨) من سورة (البقرة): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

(٢) الأصل في الكلام «ما رَضِيَ» بفتح الياءِ ، ولكن الشاعر سكّن هنا على أساس تشبيه الياء بالألف ، فكما أن الحركة لا تصل إلى الألف فهي كذلك هنا لا تصل إلى الياءِ ، والجنف: الميْل والجور.

(٣) قال المُحَاسبيّ: يعني: معهما بالنصر والدفاع ، لا على معنى ما عمَّ به الخلائق فقال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ فمعناه العموم ، وأنه يسمع ويرى من الكفار والمؤمنين.

عائد على أَبي بكر لأن النبي ﷺ لم يزل ساكن النفس ثقة بالله عزَّ وجلَّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول من لم يَر السكينة إلاَّ سكون النفس والجأش. وقال جمهور الناس: الضمير عائد على النبي ﷺ، وهذا أقوى، والسكينة عندي إنما هي ما ينزل الله على أَنبيائه من الحياطة لهم والخصائص التي لا تصلح إلا لهم[1]، كقوله تعالى: ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[2]، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾ إلى آخر الآية يراد به ما صنعه الله لنبيّه إلى وقت تبوك من الظهور والفتوح، لا أَن تكون هذه الآية تختص بقصة الغار والنجاة إلى المدينة، فعلى هذا تكون الجنود الملائكة النازلين ببدرٍ وحُنَيْن، ومن رأَى أن الآية مختصة بتلك القصة قال: الجنود: ملائكة بشّروه بالنجاة وبأَن الكفار لا ينجح لهم سعي، وفي مصحف حفصة رضي الله عنها: [فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِيْنَتَهُ عَلَيْهِمَا وأَيَّدَهُمَا]، وقرأَ مجاهد: [وَآيَدَهُ] بأَلِفين، والجمهور: ﴿ وَأَيَّدَهُ ﴾ بشد الياءِ.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ﴾ يريد بإدحارها ودحضها وإذلالها، ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ قيل: يريد: «لا إلهَ إلاَّ الله»، وقيل: الشرع بأَسره، وقرأَ جمهور الناس: ﴿ وَكَلِمَةُ ﴾ بالرفع على الابتداءِ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، ويعقوب: [وكَلِمةَ] بالنصب على تقدير: «وجعل كلمة»، قال الأعمش: ورأَيت في مصحف أنس بن مالك المنسوب إلى أُبي بن كعب «وجَعلَ كَلِمتَهُ هِيَ العُليا».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

---

(١) وقال ابن عباس رضي الله عنهما: السكينةُ: الرحمة، وقال قتادة: الوقار، وقال ابن قتيبة، الطمأنينة، وكلها أقوال متقاربة.

(٢) البقرة: ٢٤٨.

هذا أمرٌ من الله تعالى لأمة محمد ﷺ بالنَّفير إلى الغزو ، فقال بعض الناس: هذا أَمْر عامٌ لجميع المؤمنين فعبّر عنه بالفرض على الأعيان في تلك المدة ، ثم نسخه الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟﴾[١] ، روي ذلك عن الحسن وعكرمة.

وقال جُلُّ الناس: بل هذا حضٌّ ، والأَمر في نفسه موقوف على فرض الكفاية ، ولم يقصد بالآية فرضه على الأعيان.

وأما قوله: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فنصب على الحال من الضمير في قوله: ﴿ٱنفِرُوا۟﴾ ، ومعنى الخِفَّة الثِّقَل هنا مستعار لمن يمكنه السَّفَر[٢] بسهولة ومن يمكنه بصعوبة ، وأمّا من لا يمكنه كالعُمْي ونحوهم فخارج عن هذا ، وروي أن ابن أُم مكتوم جاءَ إلى النبي ﷺ فقال: أَعَليَّ أن أنفر؟ فقال له: نعم ، حتى نزلت: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾[٣] ، وذكر الناس من معاني الخفة والثقل أَشياءَ لا وجه لتخصيص بعضها دون بعض ، بل هي وجوه متفقة ، فقيل: الخفيف: الغني والثقيل: الفقير ، قاله مجاهد ، وقيل: الخفيف: الشاب والثقيل: الشيخ ، قاله الحسن وجماعة ، وقيل: الخفيف: النشيط والثقيل: الكاسل ، قاله ابن عباس وقتادة ، وقيل: المشغول ومن لا شغل له ، قاله الحكم بن عُيينة وزيد بن علي ، وقيل: الذي له ضيعْة هو الثقيل ومن لا ضيْعة له هو الخفيف ، قاله ابن زيد ، وقيل: الشجاع هو الخفيف والجبان هو الثقيل ، حكاه النقاش ، وقيل: الراجل هو الثقيل والفارس هو الخفيف ، قاله الأوزاعي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذان الوجهان الآخران ينعكسان ، وقد قيل ذلك ولكنه بحسب وطأتهم على العدوّ، فالشجاع هو الثقيل، وكذلك الفارس، والجبان هو الخفيف وكذلك الراجل ، وكذلك ينعكس الفقير والغني ، فيكون الغني هو الثقيل بمعنى صاحب الشغل، ومعنى

(١) التوبة: ١٢٢.

(٢) في بعض النسخ: لمن يمكنه النَّفْر.

(٣) تكررت ـ فهي في الآية (٦١) من سورة (النور) ، وفي الآية (١٧) من سورة (الفتح) وهي المقصودة هنا.

هذا أن الناس أُمروا جملة، وهذه الأَقوال إنما هي على معنى المثال في الثقل والخفة، وقال أَبو طلحة: ما سمع الله عذر أَحد، وخرج إلى الشام فجاهد حتى مات ، وقال أَبو أَيوب: ما أجدني أبداً إلا ثقيلاً أو خفيفاً ، وروي أَن بعض الناس رأَى في غزوات الشام رجلاً سقط حاجباه على عينيه من الكبر فقال له: يا عم، إن الله قد عذرك ، فقال: يا بن أَخي ، إنَّا قد أُمرنا بالنفر خِفافاً وثقالاً ، وأَسند الطبري عمن رأَى المقداد بن الأَسود بحمص، وهو على تابوت صرَّاف وقد فضل على التابوت من سمنه وهو يتجهز للغزو، فقال له: لقد عذرك الله، فقال: أتت علينا سورة البعوث ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ ، وروي: سورة البحوث.

وقوله تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ وصفٌ لأَكْمل ما يكون من الجهاد وأَنْفَعه عند الله تعالى ، فحض على أَكمل الأوصاف ، وقدمت الأَموال في الذكر إذ هي أَول مصرف وقت التجهيز ، فرتب الأَمر كما هو في نفسه ، ثم أَخبر أَن ذلك لهم خير للفوز برضى الله وغلبة العدو ووراثة الأَرض ، وفي قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تنبيه وهز للنفوس.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ الآية. ظاهر هذه الآية وما يحفظ من قصة تبوك أن الله لما أَمر رسوله بغزو الروم ندب الناس ، وكان ذلك في شدة من الحر وطيب من الثمار والظلال ، فنفر المؤمنون ، واعتذر منهم لا محالة فريق لاسيَّما من القبائل المجاورة للمدينة ، ويدل على ذلك قوله تعالى في أَول هذه الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ لأَن هذا الخطاب ليس للمنافقين خاصة ، بل هو عام ، واعتذر المنافقون بِأَعذارٍ كاذبة ، وكانوا بسبيل كسل مفرط وقصْد للتخلف ، وكانت أَعذار المؤمنين حقيقة ولكنهم تركوا الأَوْلى من التحامل ، فنزل ما سلف من الآيات في عتاب المؤمنين ، ثم ابتدأ من هذه الآية ذكر المنافقين وكشف ضمائرهم ، فيقول: لو كان هذا الغزو لِعَرَضٍ أَي لمالٍ وغنيمة تنال قريباً بسفرٍ قاصد يسير ، لبادروا إليه ، لا لوجه الله ولا لظهور كلمته ، ﴿وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ في غزو الروم ، أَي المسافة الطويلة.

وذكر أَبو عبيدة أَن أَعرابياً قدم البصرة وكان قد حمل حمالة فعجز عنها ، وكان معه ابن له يسمى الأَحوص ، فبادر الأَحوص أَباه بالقول فقال: «إنا من تعلمون ، وابنا

سبيل، وجئنا من شُقَّة، ونطلب في حق، وتُنْطونَنا[(١)] ويجزيكم الله». فتهيأ أبوه ليخطب فقال له: «يا، إياك، إنِّي قد كفيتك».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يا: تنبيه، وإِيَّاك: نهي، وقرأ عيسى بن عمر: [ٱلشِّقَّة] بكسر الشين، وقرأ الأعرج: [بعِدت] بكسر العين، وحكى أبو حاتم أنها لغة بني تميم في اللفظتين.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ يريد المنافقين، وهذا إخبارٌ بغيب، وقوله: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ يريد عند تخلفهم مجاهرة وكفرهم، فكأنهم يوجبون على أنفسهم الحتم بعذاب الله، ثم أخبر أن الله الذي هو أعدل الشاهدين يعلم كذبهم، وأنهم كانوا يستطيعون الخروج ولكنهم تركوه كفراً ونفاقاً، وهذا كله في الجملة لا بتعيين شخص، ولو عُيِّن، لقتل بالشرع.

وقرأ الأعمش على جهة التشبيه بواو ضمير الجماعة: [لَوُ ٱسْتَطَعْنَا] بضم الواو، ذكره ابن جني، ومثله بقوله[(٢)] تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾[(٣)]، ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾[(٤)]، و﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾[(٥)] وما أشبهه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

هذه الآية في صنف مُبالغ في النفاق واستأذنوا دون اعتذار، منهم عبد الله بن أُبي،

---

(١) لغة في «تُعطونَنا»، وهي لغة أهل اليمن، وفي الحديث: «اليدُ المُنْطية خير من اليد السفلى»، وفي حديث الدعاءِ «لا مانع لما أنْطَيْت، ولا مُنْطي لما منعت»، وقد جاءت في بعض النسخ على اللغة المشهورة: «تعطوننا».

(٢) هكذا في جميع النسخ، ولعلّ الصواب: «ومثله قولُه» ولكن أخطأ النساخ، ولعلَّه أراد: (مَثَّلَه) بفتح الميم وشد الثاءِ المفتوحة، يعني ابن جني.

(٣) التوبة: ٤٨.

(٤) الجمعة: ٦.

(٥) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦] وتكررت في الآية (١٧٥) من نفس السورة.

والجَدُّ بن قيس، ورفاعة بن التابوت، ومن اتبعهم، فقال بعضهم: ائذن لي ولا تفتني، وقال بعضهم: ائذن لنا في الإقامة، فأذن لهم رسول الله ﷺ استبقاءً منه عليهم، وأخذاً بالأسهل من الأمور، وتوكلاً على الله. وقال مجاهد: قال بعضهم: نستأذنه فإن أذن لنا في القعود قعدنا، وإلا قعدنا، فنزلت الآية في ذلك، وقالت فرقة: إن رسول الله ﷺ أذن لهم دون أن يؤمر بذلك فعُفي عنه ما يلحق من هذا، وقُدم ذكرُ العفو قبل العقاب إكراماً له ﷺ، وقال عمرو بن ميمون الأودي: إن رسول الله ﷺ صدع برأيه في قصتين دون أن يؤمر فيهما بشيءٍ، هذه وأمر أُساري بدرٍ، فعاتبه الله فيهما، وقالت فرقة: بل قوله سبحانه في هذه الآية: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ استفتاح كلام، كما تقول: أَصلحك الله، وأَعزك الله، ولم يكن منه ﷺ ذنب يُعفى عنه، لأن صورة الاستنفار وقبول الأعذار مصروفة إلى اجتهاده، وأَما قوله سبحانه: ﴿لِمَ أَذِنتَ﴾ فهي على معنى التقرير[1].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ يريد: في استئذانك وأنك لو لم تأذن لهم خرجوا معك، وقوله: ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يريد: في أنهم استأذنوك يظهرون لك أنهم يقفون عند حدك وهم كذبة قد عزموا على العصيان أذنت لهم أو لم تأذن، وقال الطبري: معناه: حتى تعلم الصادقين في أن لهم عذراً والكافرين في ألاَّ عذر لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا التأويل يختلط المعتذرون، وقد قدمنا أن فيهم مؤمنين كالمستأذنين وهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، والأول أصوب، والله أعلم. وأدخل الطبري أيضاً في تفسير هذه الآية عن قتادة أن هذه الآية نزلت بعدها الآية الأخرى في سورة النور ﴿فَإِذَا

---

(١) قال أبو عبد الله إبراهيم بن عرفة المعروف بنفطويه: «كان لرسول الله ﷺ أن يفعل وألا يفعل حتى ينزل عليه الوحي، كما قال: «لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لجعلتها عمرة»، وقد قال الله تعالى: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ فكان له أن يفعل ما يشاءُ مما لم ينزل عليه فيه وحي، واستأذنه المتخلفون في التخلف واعتذروا واختار أيسر الأمرين تكرماً وتفضُّلاً منه عليه الصلاة والسلام، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ افتتاح كلام وليس عفواً عن ذنب، كما قال ﷺ: «عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق» وما وجبتا قط، ومعناه: ترك أن يلزمكم ذلك. ا هـ. مع بعض التصرف.

اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ (١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا غلط لأن آية النور نزلت سنة أربع من الهجرة في غزوة الخندق في استئذان بعض المؤمنين رسول الله ﷺ في بعض شأنهم في بيوتهم في بعض الأوقات، فأباح الله له أن يأذن، فتباينت الآيتان في الوقت والمعنى.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ الآية، نفي عن المؤمنين أن يستأذنوا رسول الله ﷺ في التخلف دون عذر كما فعل الصنف المذكور من المنافقين.

وقوله: ﴿أَن يُجَاهِدُوا﴾ يحتمل أن تكون ﴿أَن﴾ في موضع نصب على معنى: لا يستأذنون في التخلف كراهية أن يجاهدوا، قال سيبويه: ويحتمل أن تكون في موضع خفض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

على معنى: لا يحتاجون إلى أن يستأذنوا في أن يجاهدوا، بل يمضون قدماً، أي: فهم أحرى ألاَّ يستأذنوا في التخلف، ثم أخبر بعلمه تعالى بالمتقين، وفي ذلك تعيير للمنافقين وطعن عليهم بيّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

هذه الآية تنص على أن المستأذنين إنما هم مخلصون للنفاق، ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ معناه: شكّت، والريب نحو الشك، و﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: يتحيرون ولا يتجه لهم هدى، ومن هذه الآية نزع أهل الكلام في حدّ الشّك إلى أنه تردُّدٌ بين أمرين، والصواب في حده أنه توقف بين أمرين، والتردُّد في الآية إنما هو في ريب هؤلاء

---

(١) النور: ٦٢.

المنافقين، إذ كانوا تخطر لهم صحة أمر النبي ﷺ أحياناً، وأنه غير صحيح أحياناً، ولم يكونوا شاكِّين طالبين للحق؛ لأنه كان يتضح لهم لو طلبوه، بل كانوا مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، كالشاة العائرة بين الغنمين[١]، وأيضاً فبين الشك والريب فرق مّا، وحقيقة الرّيب إنما هو الأمر يستريب به الناظر، فيخلط عليه عقيدته، فربما أدّى إلى شكٍّ وحيرة، وربما أدّى إلى علم النازلة التي هو فيها، ألا ترى أنَّ قول الهُذَلي:

كأنّني أَرَبْتهُ بِريْبِ[٢]

لا يتجه أن يفسر بشكٍّ.

قال الطبري: وكان جماعة من أهل العلم يرون أن هاتين الآيتين منسوختان بالآية التي ذكرنا في سورة النور، وأسند عن الحسن وعِكْرمة أنهما قالا في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾: منسوخة بآية النور: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا غلط وقد تقدم ذكره.

وقوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ الآية، حجة على المنافقين، أَي: ولو

---

(١) هي الشاة المتردّدة بين قطيعين لا تدري أيّهما تتبع، ومنه الحديث: «مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين غنمين»، (اللسان).

(٢) الهُذَلِيّ هو خالد بن زهير، وهذا البيت جاء آخر أبيات يقول فيها:

يا قَوْم مَالي وأَبا ذُؤَيْبِ
كنتُ إذا أتيْتُهُ مِنْ غَيْبِ
يشَمُّ عِطْفي ويَبُزُّ ثَوبي
كأَنِّي أَرَبْتُهُ بِرَيْبِ

وعلّق عليها ابن برّي بقوله: والصحيح في هذا أن (رابني) بمعنى شَكّكني وأوجب عندي ريبة، كما قال الآخر:

وقَدْ رَابَني منْ دَلْوِيَ اضْطرابُهَا

وأما (أراب) فإنه يأتي مُتَعَدّياً وغير مُتَعَدّ، فمن عدّاه جعله بمعنى (راب) كقول خالد، وأما غير المتعدي فمعناه: أتى بريبةٍ. (اللسان).

أرادوا الخروج بنيّاتهم، لنظروا في ذلك واستعدوا له قبل كونه. والعُدَّة: ما يُعَدُّ للأمر ويُروَّى له من الأشياءِ[١].

وقرأ جمهور الناس: ﴿عُدَّةً﴾ بِضَمّ العين وتاءِ تأنيث، وقرأ محمد بن عبد الملك ابن مروان وابنه معاوية بن محمد: [عُدَّهُ] بضمّ العين وهاءِ إضمار، يريد: «عُدَّتُه» فحذف تاءَ التأنيث لما أَضاف، كما قال: «وإِقَامَ الصلاةِ» يريد: «وإِقامة الصلاة»، هذا قول الفراءِ، وضعَّفه أبو الفتح وقال: إنما حذف تاء التأنيث وجعل هاءَ الضمير عوضاً منها، وقال أَبو حاتم: هو جمع (عُدَّة) على (عُدّ) كبُرَّة وبُرّ ودُرَّة ودُرّ، والوجه فيه عُدد ولكن لا يوافق خط المصحف، وقرأ عاصم فيما روى عنه أَبان، وزِرُّ بن حبيش: [عِدَّه] بكسر العين وهاءِ إضمار، وهو عندي اسم لما يُعَد كالذِّبْح والقِتْل[٢]، لأَن العدو سُمّي قِتْلا إذ حقه أَن يقتل، هذا في معتقد العرب حين سمته.

و﴿ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ نفوذهم لهذه الغزوة، والتَّثبيط: التكسيل وكسر العزم، وقوله: ﴿وَقِيلَ﴾ يحتمل أن يكون حكاية عن الله تعالى، أَي: قال الله تبارك وتعالى في سابق قضائه: ﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾، ويحتمل أَن يكون حكاية عنهم، أَي: كانت هذه مقالة بعضهم لبعض، إما لفظاً وإما معنى، فحُكي في هذه الأَلفاظ التي تقتضي لهم مذمة، إذ القاعدون النساءُ والأَطفال، ويحتمل أن يكون عبارة عن إذن محمد ﷺ في القعود، أَي: لما كره الله خروجهم يسر أَن قلت لهم: ﴿ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾، والقعود هنا عبارة عن التخلف والتراخي كما هو في قول الشاعر:

. . . . واقْعُدْ فإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسي[٣]

---

(١) من الرَّوايّة في الأمر، وهي النظر وعدم العجلة، بمعنى التفكير فيه، قال ابن الأثير: الرّويّة: ما يُرَوِّي الإنسان في نفسه من القول والفعل، أي يُزَوّر ويفكر، وأصلها الهمز، يقال: روَّأتُ في الأمر. (عن اللسان).

(٢) الذِّبح والقِتْل بكسر الذال والقاف هو ما يُعَدّ للذَّبح والقَتْل، وفي التنزيل: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ أي: بِكَبْش يُذْبح، قال الأزهري: هو بمنزلة المذبوح والذَّبيح، وهو بمنزلة الطِّحْن بمعنى المطحون، والقِطْف بمعنى المقطوف، وفي حديث الضحية «فَدَعا بِذِبْح فذبحه». (عن اللسان).

(٣) البيت للحطيئة في قصيدة مشهورة قالها يهجو الزبرقان بن بدر، وهو بتمامه:
دَع المكـارمَ لا تَـرْحَـلْ لِبُغْيَتِهَـا   واقْعُـدْ فـإِنَّـكَ أَنْـتَ الطَّـاعِـمُ الكَـاسِـي
أيَ المطعوم المكسُوّ، ومعناه يحمل قسوة في الهجاء علّق عليها النقاد.

وليس للهيئة في هذا كله مدخل، وكراهية الله انبعاثهم رفق بالمؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم﴾ الآية... خبر بأنهم لو خرجوا لكان خروجهم مضرّة، وقوله: [إِلاَّ خَبَالاً] استثناءٌ من غير الأول، وهذا قول من قدّر أنه لم يكن في عسكر رسول الله ﷺ خبال فيزيد المنافقون فيه، فكأن المعنى: ما زادوكم قوة ولا شِدَّة لكن خبالا، ويحتمل أن يكون الاستثناءُ غير منقطع، وذلك أن عسكر رسول الله ﷺ في غزوة تبوك كان فيه منافقون كثير ولهُم لا محالة خبال، فلو خرج هؤلاءِ، لالتَأَموا مع الخارجين فزاد الخبال، والخبال: الفساد في الأشياءِ المؤتلفة الملتحمة كالمودات وبعض الأجرام، ومنه قول الشاعر:

يـا بَنـي لُبَيْنـى لَسْتُمَـا بِيـدِ ... إلاَّ يَـداً مخبُـولـةَ الْعضُـد[1]

وقرأ ابن أبي عبلة: [مَا زَادكُمْ] بغير واو[2].

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَلَأَوْضَعُوا﴾ ومعناه: لأَسرعوا السّير.

و[خِلاَلَكُمْ] معناه: فيما بينكم من هنا إلى هنا لسدّ الموضع الخلَّة بين الرجلين، والإيضاع: سرعة السَّير[3]، وقال الزجاج: [خِلاَلَكُمْ] معناه: فيما يخل بكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وماذا يقول في قوله تعالى: ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾[4]، وقرأ مجاهد فيما حكى النقاش عنه: [وَلأَوْفَضُوا]، وهو بمعنى الإسراع، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾[5]، وحُكي عن الزبير أنه قرأ: [ولأَرْفَضُوا]، قال أبو الفتح: هذه من

---

(١) هذا البيت لأوس، أنشده الزَّجاج ليدلل على أن الخبال هو الفساد وذهاب الشيءِ، ذكر ذلك في اللسان، والرواية فيه:

أبَنـي لُبَيْنـى لَسْتُـمُ بِيَـدِ ... إلا يـداً مخْبُـولَـةَ العَضُـدِ

(٢) والمعنى: ما زادكم خروجهم إلاّ خبالاً.

(٣) ومنه قول دُرَيْد بن الصمة:

يـا لَيْتَنـي فيهـا جَـذَعْ ... أخُـبُّ فيـه وأَضَـعْ

وقول الآخر:

أرانـا مُـوضِعيـنَ لأمْـرِ غَيْـبٍ ... ونُسْحَـرُ بـالطَّعَـام وبـالشَّـرَاب

(٤) الإسراء: ٥.

(٥) المعارج: ٤٣.

«رَفَضَ البعير» إذا أسرع في مشيه رفْضاً ورفضاناً، ومنه قول حسّان بن ثابت:

بِـزُجَـاجَـةٍ رفضَتْ بِمـا فـي قَعْـرِهـا ... رفْضَ الْقَلُوصِ بِرَاكِبٍ مُسْتَعْجِلِ[١]

ووقعت «وَلاَ أَوْضَعوا» بألف بعد «لا» في المصحف، وكذلك وقعت في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾[٢]، قيل: وذلك لخشونة هجاءِ الأَوَّلين[٣]، قال الزجاج: وإنما وقعوا في ذلك لأَن الفتحة في العبرانية وكثير من الألسنة تكتب ألفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن تمطل حركة اللام فيحدث ألف بين اللام والهمزة التي من «أَوضع»[٤].

وقوله تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: يطلبون لكم الفتنة، وقوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ﴾ قال سفيان بن عُيَيْنَة، الحسن، ومجاهد، وابن زيد: معناه: جواسيس يستمعون الأخبار وينقلونها إليهم، ورجَّحه الطبري، وقال النقاش: بناءُ المبالغة يضعف هذا القول.

وقال جمهور المفسرين: معناه: وفيكم مطيعون سامعون لهم، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ توعد لهم ولمن كان من المؤمنين على هذه الصفة.

---

(١) قبل هذا البيت:

إنَّ الَّتــي نــاوَلْتَنــي فَــرَدَدْتُهَــا ... قُتِلَتْ قُتِلْـتَ فهاتِهَـا لَـمْ تُقْتَـلِ

كِلْتَـاهُمَـا حَلَـبُ الْعَصير فعـاطِنـي ... بِـزُجَـاجَـةٍ أَرْخَـاهُمـا لِلْمفصَـلِ

والقَلُوص: الفَتِيَّةُ من الإبل بمنزلة الجارية الفتاة من النساءِ، وقيل: هي الثَّنِيَّة، وقيل: هي كل أُنثى من الإبل حين تركب، وسميت قلوصاً لطول قوائمها وهي لم تَجْسُمْ بَعْد.

(٢) النمل: ٢١.

(٣) الأولين: هم السابقون جمع أَوّل، يريد أن هجاءهم لم يكن قد ناله التهذيب.

(٤) قال في «الكشاف»: «كانت الفتحة تكتب ألفاً قبل الخط العربي والخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن، وقد بقي من ذلك الألف أثر في الطباع فكتبوا صورة الهمزة ألفاً أُخرى، ومثل ذلك ﴿لا أذبحنه﴾» وقال في الألوسي: «كتب قوله تعالى: (وَلاَ أَوْضَعُوا) في الإمام بألفين الثانية منهما هي فتحة الهمزة، والفتحة ترسم لها ألف كما ذكره الداني»، وكلام صاحب الكشاف فيه ما قاله الزجاج، ورأي ابن عطية قريب من رأي الألوسي، وهي كلها أقوال متقاربة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

في هذه الآية تحقير لهم، وذلك أنه أخبر أنهم قديماً سعوا على الإسلام فأبطل الله سعيهم، ومعنى قوله ﴿مِن قَبْلُ﴾ ما كان من حالهم من وقت هجرة رسول الله ﷺ ورجوعهم عنه في أحد وغيرها، ومعنى ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ دبروها ظهراً لبطن. ونظروا في نواحيها وأقسامها، وسعوا بكل حيلة، وقرأ مسلمة بن محارب: [وَقَلَبُوا لَكَ] بالتخفيف في اللام، و﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾: الإسلام ودعوته.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى﴾ نزلت في الجدِّ بن قيس، وذكر أن رسول الله ﷺ لما أمر بالغزو إلى بلاد الروم حرَّض الناس فقال للجدِّ بن قيس: (هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟)، وقال له وللناس: (اغزوا تغنموا بنات الأصفر)، فقال له الجدُّ بن قيس: ائذن لي في التخلف ولا تفتِنِّي بذكر بنات الأصفر، فقد علم قومي أني لا أتمالك عن النساءِ إذا رأيتهن، وذكر ابن إسحق نحو هذا من القول الذي فيه فتور كثير وتخلُّف في الاعتذار[1]، وأسند الطبري أن رسول الله ﷺ قال: «اغزوا تبوك تغنموا بنات الأصفر» فقال الجدُّ: ائذن لي ولا تَفْتِنَّا بالنساءِ، وهذا منزع غير الأول إذا نُظر، وهو أشبه بالنفاق والمحادَّة[2]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الجدَّ قال: «ولكني أُعينك بمالي» وتأول بعض الناس قوله: «ولا تَفْتِنِّي» أي: لا تصعب علي حتى

(١) أخرجه ابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن جابر بن عبد الله مع اختلاف يسير في الألفاظ، (الدر المنثور) (والسيرة النبوية عن ابن إسحق).

(٢) الحديث في تفسير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه. (الدر المنثور).

أحتاج إلى مواقعة معصيتك ومخالفتك ، فسَهِّل أنت عليَّ ودعني غير مُجَلِّح[١] ، وهذا تأويل حسن واقف مع اللفظ ، لكن تَظَاهَرَ ما رُوي من ذكر بنات الأصفر ، وذلك معترض في هذا التأويل ، وقرأ عيسى بن عمر: [وَلاَ تُفْتِنِّي] بضم التاء الأُولى ، قال أَبو حاتم: هي لغة بني تميم ، والأَصفر هو الروم بن عيصو بن إسحٰق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وكان أَصفر اللون فيقال للروم: بنو الأَصفر ، ومن ذلك قول أَبي سفيان: «أَمِرَ أَمْرُ ابن أَبي كبشة ، إنه يخافه ملك بني الأَصفر» ، ومنه قوله الشاعر:

وبنُو الأَصْفَرِ الكِرامُ ملوكُ الرُّو م لَمْ يَبْقَ مِنْهُمُ مَذْكُورُ[٢]

وذكر النقاش والمهدوي أن الأَصفر رجلٌ من الحبشة وقع ببلاد الروم ، فتزوج وأَنسل بنات لَهُنَّ جمال ، وهذا ضعيف ، وقوله تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ أي في الذي أَظهروا الفِرار منه بما تبيَّن لك وللمؤمنين من نفاقهم ، وصحَّ عندكم من كفرهم ، وفسد ما بينكم وبينهم.

و﴿سَقَطُوا۟﴾ عبارة مُنْبئة عن تمكُّن وقوعهم ، ومنه: «عَلى الخبير سَقَطْتَ»[٣] ، ثم قال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهذا توعد شديد لهم ، أَي: هي مآلهم ومصيرهم كيفما تقلبوا في الدنيا فإليها يرجعون ، فهي محيطة بهذا الوجه.

وقوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ الآية ، أخبر تعالى عن معتقدهم وما هم عليه ، والحسنة هنا بحسب الغزوة هي الغنيمة والظفر ، والمصيبة الهزم والخيبة ، واللفظ عام ـ بعد ذلك ـ في كل محبوب ومكروه. ومعنى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي قد حزمنا نحن في تخلفنا ونظرنا لأنفسنا.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ﴾ الآية. أَمَر الله عزَّ وجلَّ نبيَّه في هذه الآية أن يرد على المنافقين ويفسد عليهم فرحهم بأَن يعلمهم أَن الشيءَ الذي يعتقدونه مصيبة ليس

---

(١) من قولهم: جَلَّح في الأمر ركب رأسه فيه ، أو أقدم عليه ومضى فيه.

(٢) البيت لعديّ بن زيد العباديّ.

(٣) قيل: إن هذا المثل لمالك بن جبير العامري أحد حكماء العرب ، وقد تمثل به الفرزدق للحسين بن علي رضي الله عنهما حين أقبل يريد العراق والفرزدق يريد الحجاز ، وذلك حين سأله الحسين بقوله: ما وراءَك؟ فأجابه قائلاً: «على الخبير سقطتَ» ، قلوب الناس معك وألسنتهم مع بني أُمية والأمر ينزل من السماء. فقال الحسين رضي الله عنه: صَدقتني. (مجمع الأمثال للميداني) ١ ـ ٦٤٨.

كما اعتقدوه ، بل الجميع مما قد كتبه الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين ، فإمَّا أن يكون ظفراً وسروراً في الدنيا وإما أن يكون ذخراً للآخرة ، وقرأ طلحة بن مصرّف: [قلْ هلْ يُصيبنَا] ذكره أبو حاتم ، وعند ابن جني: وقرأ طلحة بن مصرف ، وأعين قاضي الري: [قل لنْ يُصَيِّبنا] بشد الياءِ الثانية وكسرها ، كذا ذكره أبو الفتح وشرح ذلك ، وهو وهم ، والله أعلم ، قال أَبو حاتم: قال عمرو بن شفيق: سمعت أَعين قاضي الريّ يقرأ: [قُلْ لَنْ يُصيبنَّا] النون مشددة ، قال أَبو حاتم: ولا يجوز ذلك لأَن النون لا تدخل مع «لن» ولو كانت لطلحة بن مصرف لجازت لأَنها مع «هل» ، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾[(١)]. وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ يحتمل أَن يريد ما قضى وقدّر ، ويحتمل أن يريد ما كتب الله في قرآننا وأَنزل علينا من أَنَّا إما أن نظفر بعدونا وإما أن نستشهد ، فندخل الجنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الاحتمال يرجع إلى الأَول ، وقد ذكرهما الزجَّاج.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ معناه: مع سعيهم وجدهم إذ لا حولَ ولا قوة إلا بالله ، وهذا قول أَكثر العلماءِ ، وهو الصحيح ، والذي فعله رسول الله ﷺ مدَّة عمره ، ومنه مظاهرته بين دِرْعَين ، وتخبط الناس في معنى التوكل في الرزق ، فالأَظهر والأَصح أن الرجل الذي يمكنه التَّحرف والحلال المحض الذي لا تدخله كراهية ينبغي له أن يمتثل منه ما يصونه ويحمله مثل الاحتطاب ونحوه ، وقد قرن الله تبارك وتعالى الرزق بالتَّسبّب ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[(٢)].

ومنه قول النبي ﷺ في الطير: «تَغدو خِماصاً. . .» الحديث[(٣)] ، ومنه قوله ﷺ: «قَيِّدها وتوكَّل»[(٤)] ، وذهب بعض الناس إلى أن الرجل القوي الجلد إذا بلغ من التوكل

(١) الحج: ١٥.

(٢) مريم: ٢٥.

(٣) هذا جزءٌ من حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم ، عن عمر رضي الله عنه ، وقد رمز له في «الجامع الصغير» بالصحة ، ولفظه كاملاً: «لو أنكم تتوكلون على الله تعالى حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً».

(٤) رواه ابن خزيمة ، والطبراني من حديث عمرو بن أُمية الضَّمري بإسناد جيّد ، وأما الرواية المشهورة=

إلى أن يدخل غاراً أو بيتاً يُجْهل أمرُه فيه، ويبقى في ذكر الله متوكلاً يقول: إن كان بقي لي رزق فسيأتي الله به، وإن كان رزقي قد تَمَّ مِتُّ ـ إن ذلك حسنٌ بالغ عند قوم، وحدثني أَبي رضي الله عنه أنه كان في الحرم رجل ملازم يُخرج من جيبه المرة بعد المرة بطاقة ينظر فيها ثم يصرفها ويبقى على حاله حتى مات في ذلك الموضع، فقرأت البطاقة فإذا فيها مكتوب: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الطريقة لا يراها جُلُّ أَهل العلم، بل ينبغي أن يسعى الرجل لقدر القوت سعياً جميلاً لا يواقع فيه شبهة، فإن تعذر عليه ذلك وخرج إلى حد الاضطرار، فحينئذ إن تسامح في السؤال وأكل الميتة وما أمكنه من ذلك فهو له مباح، وإن صبر واحتسب نفسه كان في أَعلى رتبة عند قوم، ومن الناس من يرى أنَّ فرضاً عليه إبقاءُ رمقه.

وأمَّا من يختار الإلقاءَ باليد ـ والسَّعْيُ ممكن ـ فما كان هذا قطُّ من خلق الرسول ﷺ ولا الصحابة ولا العلماء، والله سبحانه الموفق للصواب، ومِنْ حُجَج منْ يقول بالتوكل حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: «يدخل الجنة سبعون أَلفاً من أُمتي بلا حساب، وهم الذين لا يَرْقُون ولا يَسْتَرْقُونَ ولا يكتوون ولا يتطببون، وعلى ربهم يتوكلون»[2]، وفي هذا الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لعُكَّاشَة بن محصن[3] أن

= (اعْقِلها وتَوَكَّل) فقد أخرجها الترمذي عن أنس كما قال في الجامع الصغير حيث رمز لها بالضعف، لكن رواها ابن حبان في صحيحه عن عمرو بن أُمية الضمري بإسناد صحيح. (راجع شرح المناوي للجامع الصغير).

(١) الطور: ٤٨.

(٢) حديث متفق عليه، وقد رواه البخاري في كتاب الرقاق، وورواه مسلم في كتاب الجنة وكتاب الإيمان، وفي الرواية أن النبي ﷺ قال: «عُرِضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرُّهَيْط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رُفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أُمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أُمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»، ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أُولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلَّهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياءَ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «ما الذي تخوضون فيه»؟ فأخبروه فقال: : «هم الذين لا يَرْقُون. . . الخ».

(٣) هو عكَّاشة (بتشديد الكاف) بن محصن بن حرثان الأسدي، من بني غنم، صحابي من أُمراء السرايا، =

يكون منهم ، فقيل: ذلك لأنه عرف منه معدٌّ أنَّه لذلك ، وقال للآخر: سبقك بها عكاشة ، وبردت الدعوة ، فقيل: ذلك لأنه كان منافقاً ، وقيل: بل عرف منه أنه لا يصلح لهذه الدرجة من التوكل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

فالمعنى في هذه الآية الردّ على المنافقين في معتقدهم في المؤمنين ، وإزالة ظنهم أن المؤمنين تنزل بهم مصائب ، والإعلام بأنها حسنى كيف تصرفت.

و﴿ تَرَبَّصُونَ ﴾ معناه: تنتظرون ، والحُسنَيان: الشهادة والظَّفَر[1] ، وقرأ ابن محصين: [إلا احدى الحسنين] بوصل ألف ﴿ إِحْدَى ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه لغة وليست بالقياس ، وهذا نحو قول الشاعر:

يا بالْمُغيرة ربَّ أَمْرٍ مُعْضِلٍ[2]

وقول الآخر:

إن لَمْ أُقَاتِلْ فَالْبِسِيني بُرْقُعا[3]

= يُعَدّ من أهل المدينة ، شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ ، وقتل في حرب الردَّة ببزاخة (بأرض نجد) ، قتله طلحة بن خويلد الأسدي سنة ١٢ هـ. (عن الإصابة ، والروض الأنف ، والأعلام).

(١) في الحديث الشريف: «تكفَّل الله لمن جاهد في سبيله لا يُخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخل الجنة أو يرجع إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة» ، وهو حديث طويل رواه مسلم ، وروى البخاري بعضه ـ عن أبي هريرة. (منهاج الصالحين).

(٢) أعضله الأمر: غلَبه ، ويقال: أمْر عُضال ومُعْضل ، فأوله عُضال فإذا لَزِمَ فهو مُعْضل ، والشاهد في البيت هو وصل همزة «أبا».

(٣) البُرْقُع «بضم الباءِ والقاف» ، والبُرْقَع «بضم الباء وفتح القاف» ، والبُرْقوع: معروف ، وهو للدوابّ ونساءِ الأعراب ، وفيه خَرْقان للعينين ، قال توبة بن الحمير:

وكنْتُ إذا مـا جئْتُ ليلَى تبَرْقَعَتْ ... فقـد رابنـي منْهـا الْغـدَاة سُفـورَهـا

والشاهد في البيت الذي أورده ابن عطية وصل الهمزة في «فَالْبسيني».

وقوله: ﴿بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ يريد الموت بإحداث الأَسف، ويحتمل أن يكون توعداً بعذاب الآخرة، وقوله: ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ يريد القتل.

وقيل: ﴿بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ يريد أَنواع المصاعب والقوارع. وقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ وعيد وتهديد.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ سببها أَن الجدّ بن قيس حين قال: ﴿ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ قال: «إني أُعينُكَ بمال» فنزلت هذه الآية فيه، وهي عامة بعده. والطَّوْعُ والكَرْهُ يعمان كل إنفاق، وقرأ ابن وثاب، والأَعمش: [أَوْ كُرْهاً] بضم الكاف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويتصل هنا ذكر أَفعال الكافر إِذا كانت بِرّاً كصلة القرابة وجبر الكسير وإِغاثة المظلوم، هل ينتفع بها أَم لا؟ فاختصار القول في ذلك أَن في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن ثواب الكافر على أَفعاله البرَّة هو في الطعمة يطعمها» ونحو ذلك، فهذا مُقنع لا يحتاج معه إلى نظر، وأَما أن ينتفع بها في الآخرة فلا دليل، ذلك أَن عائشة أُم المؤمنين قالت للنبي ﷺ: يا رسول الله، أَرأَيت عبد الله بن جُدْعان، أَينفعه ما كان يطعم ويصنع من خير؟ فقال: «لا، إِنه لم يقل يوماً: ربّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[١]، ودليل آخر في قول عمر رضي الله عنه لابنه: «ذاك العاصي بن وائل لا جزاه الله خيراً»، وكان هذا القول بعد موت العاصي، الحديث بطوله، ودليل ثالث في حديث حكيم بن حزام على أَحد التَّأْوِيلَيْن، أَعني في قول النبي ﷺ: «أَسلمتَ على ما سلف لك من خير»، ولا حجة في أَمر أَبي طالب وكونه في ضحضاح من نار[٢] لأن ذلك إِنما هو بشفاعة محمد ﷺ، وبأَنه وجده في غمرة من النار فأَخرجه، ولو

(١) الحديث في «صحيح مسلم»، وعبد الله بن جُدْعان (بضم الجيم وسكون الدال» التيمي القرشي، أحد الأجواد المشهورين في الجاهلية، أدرك النبي ﷺ قبل النبوة، وكانت له جفنة يأكل منها الطعامَ القائمُ والراكبُ، وهو الذي خاطبه أُمية بن أبي الصلت بأبيات منها:

أَأَذكُرُ حاجتي أم قَدْ كَفَاني ... حياؤك؟ إنَّ شِيمَتَكَ الْحَيَاءُ

(٢) روى مسلم عن العباس قال: قلت: يا رسول الله، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعه ذلك؟ قال: «نعم، وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح».

والضحضاح في الأصل: ما رقّ من الماء على وجه الأرض، ما يبلغ الكعبين، فاستعاره للنار.

فرضنا أن ذلك بأعماله لم يحتج إلى شفاعة(١).

وأما أفعال الكافر القبيحة، فإنها تزيد في عذابه، وبذلك تفاضلهم في عذاب جهنم.

وقوله تعالى: ﴿أَنفِقُوا﴾ أمر في ضمنه جزاءٌ، وهذا مستمر في كل أمر معه جواب، فالتقدير: «إن تنفقوا لن يتقبل منكم»، وأما إذا عُرّي الأمر من جواب، فليس يصبه تضمن الشرط.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

يحتمل أن يكون معنى الآية: وما منعهم الله أن تقبل إلاَّ لأجل أنهم كفروا بالله، فـ ﴿أن﴾ الأولى ـ على هذا ـ في موضع خفض نصبها الفعل حين زال الخافض، و[أنَّ] الثانية في موضع نصب مفعول من أجله، ويحتمل أن يكون المعنى: وما منعهم الله قبول نفقاتهم إلاَّ لأجل كفرهم، فالأولى ـ على هذا ـ في موضع نصب، ويحتمل أن يكون المعنى: وما منعهم قبولَ نفقاتهم إلا كفرُهم، فالثانية في موضع رفع فاعلة.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم: ﴿أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾، وقرأَ حمزة، والكسائي، ونافع ـ فيما روي عنه ـ: [أَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُم] بالياءِ، وقرأَ الأَعرج بخلاف عنه: [أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُم] بالتاءِ من فوق وإِفراد النفقة، وقرأَ الأَعمش: [أَنْ يُقْبَلَ مِنْهُم صدقَاتُهم]، وقرأَت فرقة [أَنْ نَقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُم] بالنون ونصب النفقة.

---

(١) أما غير أبي طالب فقد أوضح التنزيل أمرهم بقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ وقال مخبراً عن الكافرين: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.
ولولا شفاعة الرسول ﷺ لأبي طالب لكان كغيره، ويتبين ذلك مما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه»، ومن حديث العباس رضي الله عنه: «ولولا أنا لكان في الدَّرك الأسفل من النار». (ذكر ذلك القرطبي).

و﴿كُسَالَىٰ﴾: جمع «كسْلان»، و«كسلان» إذا كانت مؤنثة «كَسْلى» لا ينصرف بوجه، وإِن كانت مؤنثة «كسلانة» فهو ينصرف في النكرة.

ثم أَخبر عنهم تبارك وتعالى أَنهم لا ينفقون نفقة إلا على كراهية، إذِ لا يقصدون بها وجه الله ولا محبة المؤمنين، فلم يبق إِلا فقد المال وهو من مكارههم لا محالة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ الآية، حقَّر هذا اللفظ شأْن المنافقين وعلَّل إِعطاءَ الله لهم الأموال والأَولاد بإرادته تعذيبهم بها، واختلف في وجه التعذيب، فقال قتادة: في الكلام تقديم وتأْخير، فالمعنى: فلا تعجبك أَموالهم ولا أَولادهم في الحياة الدنيا، إِنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة، وقال الحسن: الوجه في التعذيب أَنه بما أَلزمهم فيها من أَداءِ الزكاة والنفقة في سبيل الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالضمير في قوله: ﴿بِهَا﴾ عائد ـ في هذا القول ـ على الأَموال فقط.

وقال ابن زيد وغيره: التعذيب هو مصائب الدنيا، ورزاياهم هي لهم عذاب، إذ لا يؤجرون عليها، وهذا القول وإن كان يستغرق قول الحسن، فإن قول الحسن يتقوى تخصيصه بأن تعذيبهم بإِلزام الشريعة أعظم من تعذيبهم بسائر الرزايا، وذلك لاقتران الذلة والغلبة بأَوامر الشريعة لهم.

وقوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ يحتمل أَن يريد: ويموتون على الكفر، ويحتمل أَن يريد: وتزهق أَنفسهم من شدة التعذيب الذي ينالهم[1].

وقوله: ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ جملة في موضع الحال على التأويل الأَول، وليس يلزم ذلك على التأْويل الثاني.

---

(١) قال القرطبي في هذه الآية: «نَصٌّ في أن الله يريد أن يموتوا كافرين، سبق بذلك القضاءُ»، وأشار ابن عطية إلى هذا الرأي في الاحتمال الأول الذي ذكره، وقال الرماني والزمخشري: «المعنى: إنما يريد الله أن يملي لهم ويستدرجهم ليعذبهم»، ووضحه الزمخشري بقوله: «كأنه قيل: ويريد أن يديم عليهم نعمته إلى أن يموتوا وهم كافرون ملتهون بالتمتع عن النظر إلى العاقبة»، وأراد أبو حيان أن يدفع شبهة المعتزلة فوضح المعنى بقوله: «والذي يظهر من حيث عطف (وَتَزْهَق) على (لِيُعَذِّب) أن المعنى: ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ونبّه على عذاب الآخرة بعلّته وهو زهوق أنفسهم على الكفر، لأن من مات كافراً عُذّب في الآخرة».

وقوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ الآية ، أَخبر الله تعالى عن المنافقين أَنهم يحلفون أَنهم من المؤمنين في الدِّين والشريعة ، ثم أَخبر تعالى عنهم ـ على الجملة لا على التعيين ـ أَنهم ليسوا من المؤمنين ، وإِنما هم يفزعون منه فيظهرون الإِيمان وهم يبطنون النفاق ، والفرق: الخوف ، والفَرُوقَةُ: الجبان[١] ، وفي المثل: «فَرَقٌ خَيْرٌ مِنْ حُبَّيْن»[٢].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

الْمَلْجَأُ: من لجأَ يَلْجأُ إِذا أَوى واعتصم ، وقرأَ جمهور الناس: ﴿أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ﴾ بفتح الميم ، وقرأَ سعيد بن عبد الرحمن بن عوف: [أَو مُغَارَاتٍ] بضم الميم ، وهي الغيران في أَعراض الجبال ، فَفَتْحُ الميم من: «غار الشيءُ» إِذا دخل ، كما تقول: «غارت العين» ، إِذا دخلت في الحِجَاج[٣] ، وضمُّ الميم من: «أَغار الشيءُ غيرَه» إِذا أَدخله ، فهذا وجه من اشتقاق اللفظة ، وقيل: إِن العرب تقول: «غار الرجلُ وأَغار» بمعنى واحد ، أَي دخل. قال الزجاج: إِذا دخل الغور ، فيحتمل أَن تكون اللفظة أَيضاً من هذا.

---

(١) يقال: رجل فَرِقٌ وفَرُقٌ وفَرُوقٌ وفَرُوقَةٌ وفَرُّوقٌ وفَرُّوقَةٌ: فزِعٌ شديد الفَزَع. (اللسان).

(٢) صيغة هذا المثل كما ذكره الميداني: «فَرَقاً أَنْفَع من حُبٍّ» ، وأول من قاله الحجاجُ للغضبان بن القبعثري الشيباني ، وكان قد قال لأهل العراق حيث خلفوا الحجاج بقيادة ابن الجارود وأهل البصرة: «يا أهل العراق تعشَّوا الجدي قبل أن يتغذاكم» ، فلما قتل الحجاج ابن الجارود قبض على الغضبان وجماعة ، لكن عبد الملك بن مروان أمر بإخراجهم من السجن ، وطلب الحجاج الغضبان وقال له: إنك لسمين ، قال: من يكن ضيف الأمير يسمن ، فقال: أأنت قلت لأهل العراق: تعشوا الجدي قبل أن يتغذاكم؟ قال: ما نفعت قائلها ولا ضرت من قيلت فيه ، فقال الحجاج: «أو فرقاً خير من حُبٍّ» فأرسلها مثلاً يضرب في موضع قولهم: «رهبوت خير من رحموت» ، أي: لأن يفرق منك فرقاً خير من أن تموت. (مجمع الأمثال للميداني).

(٣) الحَجاج بفتح الحاء وبكسرها: العظم المستدير حول العين ، وفي الحديث: «كانت الضبع وأولادها في حجاج عين رجل من العماليق». (النهاية في غريب الحديث ـ لابن الأثير).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويصح في قراءة ضم الميم أن تكون من قولهم: «حبْل مُغَارٌ» أي مفتول، ثم يستعار ذلك في الأمر المحكم المبرم فيجيءُ التأويل على هذا: لو يجدون عُصْرَةً[١] أَو أُموراً مرتبطة مشددة تعصمهم منكم.

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ﴾ وقرأ جمهور الناس: ﴿مُدَّخَلٗا﴾ أصله مُفْتَعل، وهو بناءُ تأْكيد ومبالغة، ومعناه: السَّرب والنَّفَق[٢] في الأَرض. وبما ذكرناه في «الملجأ والمغارات والمدخل» فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الزجاج: المدَّخل معناه: قومٌ يدخلونهم في جملتهم. وقرأ مسلمة بن محارب، والحسن، وابن أَبي إِسحق، وابن محيصن، وابن كثير بخلاف عنه: [أَو مَدْخلاً] فهذا من دَخَل، وقرأ قتادة، وعيسى بن عمر، والأَعمش: [أَو مُدَّخَّلاً] بتشديدهما[٣]، وقرأ أَبي بن كعب: [مُنْدخلا] بنون، قال أَبو الفتح: هذا كقول الشاعر:

. . . . ولاَ يَدِي في حَمِيتِ السَّمْنِ تَنْدَخِلُ[٤]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقال أَبو حاتم: قراءَة أُبي بن كعب: [مُتدَخلا] بتاءٍ مفتوحة، وروي عن الأَعمش، وعيسى: [مُدْخلاً] بضم الميم فهو من أَدْخل.

وقرأ الناس: ﴿لَّوَلَّوۡاْ﴾، وقرأ جدُّ أَبي عبيدة بن قرمل[٥]: [لَوالَوا] من الموالاة،

---

(١) العُصْرة: الملْجأُ والمنجاة، يقال: عَصَر بالشيءِ واعتَصَر به: لجأ إليه. (اللسان).

(٢) السَّرَبُ بفتح السِّين المشددة والراءِ: حفير تحت الأرض، وقيل: بيت تحت الأرض، وهو أيضاً: جحر الثعلب والأسد والضبع والذئب. والنَّفق: مثله وزناً ومعنى، والجمع منهما أسراب وأنفاق.

(٣) يريد بتشديد الدال والخاء.

(٤) البيت للكميت، وهو بتمامه:

لا خَطْـوَتِـي تَتَعـاطَـى غَيْـرَ مَـوْضِعِهَـا ... ولا يَـدِي فـي حَمِيتِ السَّمْـنِ تَنْـدَخِـلُ

قال في اللسان: وليس بالفصيح، ورواية «البحر» و«الألوسي» مثل رواية ابن عطية: السَّمْن والذي في «اللسان» و«التاج»: «في حَميتِ السَّكْن» بسكون الكاف، اسم جمع لساكن، مثل ركْب وراكب، وصحْب وصاحب، والحَميتُ هو الزِّقُّ الذي نتف ما عليه من شعر، وهو للسَّمْن.

(٥) هكذا في جميع النسخ التي بأيدينا، ورواية «البحر» أوضح، ولفظها: «وَرَوى ابن أبي عبيدة ابن معاوية بن نَوْفَل، (بدلاً من «قرمل») «عن أبيه عن جدّه وكانت له صُحْبة». والصحيح: معاوية بن قرمل كما في الإصابة.

وأنكرها سعيد بن مسلم وقال: أَظُنُّها: «لَوأَلُوا» بمعنى «لَجؤوا»[(١)] وقرأ جمهور الناس: ﴿يَجْمَحُونَ﴾، ومعناه: يسرعون مصمّمين غير مُنْثَنين، ومنه قول مهلهل:

لَقَدْ جَمَحْتُ جِماحاً في دمائِهِمُ حَتَّى رأيتُ ذَوي أحسَابِهِم خَمَدوا[(٢)]

وقرأ أنس بن مالك: [يجْمِزُونَ] ومعناه: يهربون، ومنه قولهم في حديث الرَّجم: «فلَمَّا أَذْلَقَتْهُ الحِجَارَةُ جَمَزَ»[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ الآية. الضمير في قوله: ﴿وَمِنْهُم﴾ عائد على المنافقين، وأسند الطبري إلى أبي سعيد الخدري أنه قال: جاءَ ابن ذي الخُوَيْصِرَة التميمي[(٤)] ورسول الله ﷺ يقسم قسماً فقال: «اعدل يا محمد» الحديث المشهور بطوله، وفيه: قال أَبو سعيد: فنزلت في ذلك ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[(٥)]. وروى داود ابن أَبي عاصم أن النبي ﷺ أُتي بصدقة فقسمها ووراءَه رجل من الأنصار فقال: «ما هذا بالعدل» فنزلت الآية[(٦)].

---

(١) قال في اللسان: وأَلَ إليه وألا وَوُؤُلا وَوَئيلا وواءَلَ مُوَاءَلَةً ووِئالا: لَجَأَ، والمَوْئِل: المَلْجأُ.

(٢) الجُمُوح هو الإسراع الذي لا يرَده شيءٌ، ومنه قولهم: «فرس جموح» وهو الذي لم يردَّه اللجام، ونقل في اللسان عن الأزهري أن هذا قد يكون عيباً في الفرس، وهذا إذا كان من عادته ركوب الرأس، ويسمى جِمَاحاً، وقد يكون مدحاً للفرس بمعنى السرعة والنشاط ومصدره الجمُوح، ومنه قول امرىء القيس:

جَمُوحاً مَرُوحاً وإحْضَارُهَا كَمَعْمَعَةِ السَّعَفِ الْمُوَقَدِ

لكن بيت المهلهل لا ينطبق عليه هذا الكلام، فهو يصور سرعته التي لا تنثني في إسالة دمائهم حتى قضى عليهم، والبيت في رواية «البحر المحيط»: حتى رأيت ذوي أَجْسَامِهم جمدوا.

(٣) جاء ذلك في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وفي الحديث أنه ﷺ قال له: «لعلَّك قبَّلت، أو غمزت أو نظرت...» فقال: لا يا رسول الله، فأمر برجْمِهِ، فلما أَذْلَقَتْهُ الحجارة جَمَزَ وَفَرَّ»، ومعنى أَذْلَقَتْه: بلغت منه الجَهْدَ حتَّى قَلِقَ، ومعنى جَمَزَ: أَسْرَعَ هارباً من القتل.

(٤) اسمه حُرْقُوص بن زهير، وفي القرطبي والدر المنثور وتفسير ابن كثير أنه هو ذو الخوَيْصِرة وليس ابنه، وأنه أصل الخوارج.

(٥) هذا حديث طويل، أخرجه البخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وفيه أن النبي ﷺ قال: «ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟» فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، ائذن لي فيه فأضرب عنقه، فقال ﷺ: «دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم».. الخ. (الدر المنثور، وابن كثير، والشوكاني).

(٦) أخرجه سنيد، وابن جرير. (الدر المنثور).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه نزعة منافق ، وكذلك روي من غير طريق أن الآية نزلت بسبب كلام المنافقين إذْ لَمْ يعطوا بحسب شطط آمالهم.

و﴿ يَلْمِزُكَ ﴾ معناه: يعيبك ويأخذ منك في الغيبة ، ومنه قول الشاعر:

إِذَا لَقِيتُـكَ تُبْـدِي لـي مُكَـاشَـرةً وإِنْ أَغِيبُ فـأَنت الْهـامِزُ اللَّمِزُ[١]

ومنه قول رؤْبة:

. . . . في ظِلِّ عَصْرَي باطِلِي ولَمْزِي[٢]

والهمز أيضاً في نحو ذلك ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾[٣] ، وقيل لبعض العرب: أَتهمز الفأْرة؟ فقال: إنها تَهْمزها الهرَّة ، قال أَبو علي: فجعل الأَكل همزاً ، وهذه استعارة كما استعار حسَّان بن ثابت الغَرَث في قوله:

. . . . وتُصْبِحُ غَرْثَى من لُحوم الْغَوَافِلِ[٤]

---

(١) رواه في اللسان ولم ينسبه ، ولفظه فيه:

إذا لَقِيتُـك عَـنْ شَحْـطٍ تُكَـاشِـرُنـي وإنْ تَغَيَّبْـتُ كنـتَ الهـامِـزَ اللُّمَـزُ

وفي بعض النسخ: فأنت الهامزُ اللُّمَزَةْ. والمكاشرة: الابتسام في وجه من تلقاه: تبتسم في وجهه والقلب يكرهه ، روي عن أبي الدرداء «إنا لنكْشِرُ في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتَقْليهم» أي تكرههم ، والهمز واللمز هو اغتياب الناس والغض منهم.

(٢) هما بيتان من مشطور الرَّجز ، قالهما رؤبة في أُرجوزة له ص ٦٤ من ديوانه (طبعة ليبسك سنة ١٩٠٣) يقول فيهما:

قَـارَبْـتُ بَيْـنَ عَنَقِـي وجَمْـزِي فـي ظِـلِّ عَصْـرَى بـاطِلـي ولَمْـزِي

والعَنَقَ (بفتح العين والنون): ضرب من سير الإبل والدابة ، وهو سير منبسط ، قاله في اللسان ، ومعناه: سيرممتد ، والجَمْز: مصدر جَمَزَ الإنسان والبعير والدابة جَمْزاً ، وهو عَدْوٌ دون الحُضْر الشديد وفوق العَنَق ، ومما روي في العَنَق قول الراجز:

يـا نـاقُ سِيـرِي عَنَقـاً فسِيحَـا إلـى سُلَيْمَـانَ فَنَسْتَـريحَـا

(٣) الهمزة: ١.

(٤) هذا عجز بيت قاله حسَّان في أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها ، والبيت بتمامه:

حَصَـانٌ رزانٌ مـا تُـزَنُّ بِـريبَـةٍ وتُصْبح غَـرْثَـى مـن لحُـوم الغَـوَافِـل

والغَرَثُ: أَيْسَر الجوع ، وقيل شدته ، وقيل: هو الجوع عامة ، وفي حديث علي رضي الله عنه: «أبيت مبطاناً وحولي غَرْثَى»؟ وحسّان رضي الله عنه يصور امتناع عائشة رضي الله عنها عن الخوض في أعْراض الغافلات في صورة الجائعة التي امتنعت عن أكل اللحوم.

تركيباً على استعارة الأكل في الغيبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولم يجعل الأعرابي الهمزَ الأَكل، وإنما أَراد ضربها إياها بالناب والظفر، وقرأَ جمهور الناس: ﴿يَلْمِزُكَ﴾ بكسر الميم، وقرأَ ابن كثير فيما روى عنه حماد بن سلمة [يلمُزك] بضم الميم، وهي قراءَة أهل مكة وقراءَة الحسن، وأَبي رجاءٍ، وغيرهم، وقرأَ الأعمش: [يُلَمِّزُكَ][1] وروى أيضاً حمَّاد بن سلمة عن ابن كثير: [يُلامِزُكَ]، وهي مفاعلة من واحد لأَنه فعل لم يقع من النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية.

وصف للحال التي ينبغي أن يكون عليها المستقيمون، يقول تعالى: «ولو أن هؤلاء المنافقين رضوا قسمة الله الرزق لهم وما أعطاهم على يدي رسوله ورجوا أَنفسهم فضل الله ورسوله، وأَقروا بالرغبة إلى الله، لكان خيراً لهم وأفضل مما هم فيه». وحذف الجواب من الآية لدلالة ظاهر الكلام عليه، وذلك من فصيح الكلام وإيجازه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿۞ إِنَّمَا﴾ في هذه الآية حاصرة تقتضي وقوف الصدقات على الثمانية الأَصناف، وإنما اختلف في صورة القسمة ـ فقال مالك وغيره: ذلك على قدر اجتهاد الإمام وبحسب أَهل الحاجة، وقال الشافعي رحمه الله، هي ثمانية أَقسام على ثمانية أَصناف لا يخل بواحد منها إلا أَن المؤلفة انقطعوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويقول صاحب هذا القول: إنه لا يجزي المتصدق والقاسم من كل صنف أَقل من ثلاثة.

---

(١) بضم الياءِ وتشديد الميم المكسورة. (راجع فتح القدير للشوكاني).

وأَما الفقير والمسكين ـ فقال الأَصمعي ، وغيره: الفقير أَبلغ فاقة ، وقال غيرهم: المسكين أبلغ فاقة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا طريق إلى هذا الاختلاف ولا إلى الترجيح إلا النظر في شواهد القرآن ، والنظر في كلام العرب وأَشعارها ، فمن حجة الأَولين قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾(١).

واعترض هذا الشاهد بوجوه منها: أَن يكون سمَّاهم مساكين بالإضافة إلى الغاصب وإن كانوا أَغنياءَ على جهة الشفعة ، كما تقول في جماعة: «تظلم مساكين لا حيلة لهم» ، وربما كانوا مياسير ، ومنها أنه قرىءَ [لِمسَّاكِينَ] بشد السين بمعنى: دبَّاغين يعملون المسوك(٢) ، قاله النقاش وغيره ، ومنها أن تكون إضافتها إليهم ليست بإضافة مِلْك ، بل لما كانوا عاملين بها ، فهي كما تقول: سرج الفرس ، وباب الدار.

ومن حجة الآخرين قول الراعي:

أَمَّا الفقيرُ الذي كانَتْ حَلُوبَتُهُ ... وفْقَ العِيالِ فلم يُتْرَكْ له سَبَدُ(٣)

وقد اعترض هذا الشاهد بأَنه إنما سمّاه فقيراً بعد أن صار لا حلوبة له ، وإنما ذكر الحلوبة بأَنها كانت ، وهذا اعتراض يردّه معنى القصيدة ، ومقصد الشاعر بأَنَّه إنما يصف سعاية أتت على مال الحي بأَجمعه فقال: أَما الفقير فاستؤصل ماله فكيف بالغني مع هذه الحالة؟ وذهب من يقول إن المسكين أبلغ فاقة إلى أنه مشتق من السكون ، وأن الفقير مشتق من فقار الظهر ؛ كأنه أُصيب فقاره ، وذهب من يقول إن الفقير أبلغ فاقة إلى أنه مشتق من فقرت البئر إذا نزعت جميع ما فيها ، وأن المسكين من السكن.

---

(١) الكهف: ٧٩.

(٢) المُسُوك: جمع مَسْكٍ بفتح الميم وسكون السّين ، وهو الجلد.

(٣) قال الراعي ذلك يمدح عبد الملك بن مروان ويشكون إليه سُعَاتَه: والحَلُوبة: الناقة التي تحلب ، ويقال: حلوب ولكن الهاءَ أكثر ؛ لأنها بمعنى مفعولة ، والسَّبَد محرّكة: الوَبَر ، وقيل: الشعر ، ومن أقوالهم: «مَالَه سَبَدٌ ولا لَبَدٌ» ، أي ليس له ذُو وَبَر ولا صوف متلَبِّد ، كناية عن الإبل والغنم ، ومعنى «وَفْقَ العيال» أن حَلُوبته لها لبن قدر كفايتهم ولا يبقى منه شيءٌ بعدهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومع هذا الاختلاف فإنهما صنفان يعمهما الإقلال والفاقة، فينبغي أن نبحث عن الوجه الذي من أجله جعلهما الله اثنين والمعنى فيهما واحد، وقد اضطرب الناس في هذا، فقال الضحاك بن مزاحم: الفقراءُ هم من المهاجرين، والمساكين من لم يهاجر، وقال النخعي نحوه، قال سفيان: لا يعطى فقراءُ الأعراب منها شيئاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمِسْكين: السائل يعطى في المدينة وغيرها، وهذا القول هو حكاية الحال وقت نزول الآية، وأما منذ زالت الهجرة فاستوى الناس، وتعطى الزكاة لكل متصف بفقر، وقال عكرمة: الفقراءُ من المسلمين، والمساكين من أهل الذمة، ولا تقولوا لفقراءِ المسلمين: مساكين، وقال الشافعي في كتاب ابن المنذر: الفقير: من لا مال له ولا حرفة سائلاً كان أو متعففاً، والمسكين: الذي له حرفة أو مال ولكن لا يغنيه ذلك سائلاً كان أو غير سائل، وقال قتادة بن دعامة: الفقير: الزَّمن[1] المحتاج، والمسكين: الصحيح المحتاج، وقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والزهري، وابن زيد، وجابر بن زيد، ومحمد بن مسلمة: المساكين: الذين يسعون ويسألون، والفقراءُ هم الذين يتصاونون، وهذا القول الأخير ـ إذا لُخِّص وحُرِّر ـ أحسن ما يقال في هذا.

وتحريره أن الفقير هو الذي لا مال له، إلا أنه لم يذل ولا بذل وجهه، وذلك إما لتعفف مفرط وإما لِبُلْغَةٍ تكون له كالحلوبة وما أَشْبهها، والمسكين هو الذي يقترن بفقره تذلل وخضوع وسؤال، فهذه هي المسكنة، فعلى هذا كلُّ مسكين فقير وليس كل فقير مسكيناً، ويقوّي هذا أن الله تعالى قد وصف بني إسرائيل بالمسكنة وقرنها بالذلّة مع غناهم، وإذا تأملت ما قلناه، بان أنهما صنفان موجودان في المسلمين، ويُقوي هذا قوله تبارك وتعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾[2]، وقيل لأعرابي:

(١) يقال: رجلٌ زَمِنٌ أي مُبْتَلىً بيِّن الزَّمانة وهي العاهة، والجمع: زَمِنون، ويقال: رجل زَمِينٌ، والجمع: زَمْنى.
(٢) البقرة: ٢٧٣.

أَفقير أنت؟ فقال: إِني والله مسكين، وقال النبي ﷺ: «ليس المسكين بهذا الطَّوَّاف الذي تردُّه اللقمة واللقمتان، ولكن المسكين هو الذي لا يجد غنىً يغنيه، ولا يُفْطن له فيُصَدَّق عليه، اقرؤُوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾»[١]، فدل هذا الحديث على أن المسكين في اللغة هو الطّواف، وجرى تنبيه النبي ﷺ في هذا الحديث على المتصاون مَجْرى تقديم الفقراءِ في الآية لمعنى الاهتمام، إذ هم بحيث إِن لم يُتَهَمّم بهم هلكوا، والمسكين يُلِحُّ ويُذكِّر بنفسه.

وأما العامل فهو الرجل الذي يستنيبه الإمام في السعي على الناس وجمع صدقاتهم، وكل من يصرف من عون لا يستغني عنه، فهو من العاملين؛ لأنه يحشر الناس على الساعي[٢]، وقال الضحاك: للعاملين ثمن ما عملوا على قسمة القرآن، وقال الجمهور: لهم قدر تَعَبِهِمْ ومؤنته، قاله مالك، والشافعي في كتاب ابن المنذر، فإن تجاوز ذلك ثمن الصدقة فاختُلف ـ فقيل: يتم لهم ذلك من سائر الأنصباءِ، وقيل: بل يتم لهم ذلك من خُمسِ الغنيمة. واختُلف إذا عمل في الصدقات هاشمي ـ فقيل: يعطى منها عُمالته[٣]، وقيل: بل يعطاها من الخُمس، ولا يجوز للعامل قبول الهدية والمصانعة ممن يسعى عليه، وإن فعل ذلك رُدّ في بيت المال كما فعل النبي ﷺ بابن اللُّتْبية[٤] حين استعمله على الصدقة فقال: «هذا لكم وهذا أُهدي إلي»، فقال النبي ﷺ: «هَلاَّ قعدتَ في بيت أَبيك وأُمك حتى تعلم ما يُهدى لك»؟، وأخذ الجميع منه[٥].

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان عن أبي هريرة، وفيه «تردُّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان»، ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

(٢) كل من يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة وجبايتها يسمون السعاة وجباة الصدقة ويقال للواحد: الساعي وجابي الصدقة، قال الشاعر:

إن السُّعـاةَ عَصَـوْكَ حِيـنَ بَعَثْتَهـم ... لَـمْ يَفْعَلُـوا مِمَّـا أَمَـرْتَ فَتِيـلا

(٣) قال الأزهري وحكاه في اللسان: «العمالة بالضم: رزق العامل الذي جُعل له على ما قُلِّد من عمل»، والكسر لغة، قاله في المصباح، وفي القاموس أنها مثلثة، ولكن في اللسان أن العَمَالة بالفتح تقال للناقة إذا كانت فارهة مثل: اليَعْمَلة.

(٤) اختلف في ضبطه، فقيل: بضم اللام المشددة وسكون التاء، وحكي فتحها، وقيل: بفتح اللام والمثناة، واسمه عبد الله، وكان من بني تولب، وهم حَيٌّ من الأزد، وقيل: اللُّتْبية: اسم أمّه.

(٥) روى البخاري عن أبي حُمَيْد السّاعدي قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأسْد على صدقات بني =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتأمل عِمالة السَّاعي هل يأخذها قبل العمل أو بعده؟ وهل هي إجارة أَو هي جعل؟ وهل العمل معلوم أو هو يُتَتَبَّعُ وإنما يعرف قدره بعد الفراغ؟

وأما المؤلفة قلوبهم فكانوا صِنْفين: مسلمين وكافرين مُساتِرين[1]، قال يحيى بن كثير: كان منهم أَبو سفيان بن حرب بن أُمية، والحارث بن هشام، وصفوان بن أُميَّة، وسُهَيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، وأَبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعُيَيْنة، والأَقرع[2]، ومالك بن عوف، والعباس بن مرداس، والعلاءُ بن جارية الثقفي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأكثر هؤلاء من الطلقاءِ[3] الذين ظاهر أَمرهم يومَ الفتح الكفرُ، ثم بقوا مُظْهرين الإسلام حتى وثقه الاستئلاف في أَكثرهم، واستئلافُهم إما كان لتُجْلَب إلى الإسلام منفعة أو تُدْفع عنه مضَرَّة، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والحسن، والشعبي، وجماعة من أهل العلم: انقطع هذا الصنف بعزة الإِسلام وظهوره، وهذا مشهور مذهب مالك رحمه الله. قال عبد الوهاب: إن احتيج إليهم في بعض الأَوقات أُعطوا من الصدقة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقول عمر رضي الله عنه ـ عندي ـ إنما هو لمُعيَّنين، فإنه قال لأَبي سفيان حين أَراد أَخْذ عطائه القديم، «إنما تأْخذ كرجل من المسلمين، فإن الله قد أَغنى عنك وعن ضربائك»[4]، يريد: في الاستئلاف، وأَما أن ينكر عمر الاستئلاف جملةً وفي ثغور

= سُلَيْم يُدعى ابن اللُّتْبية، فلما جاء حاسبه.

(١) المُسَاترة كالمُدَاجنة، والمعنى فيهما: حسن المخالطة بحسب الظاهر.

(٢) هما: عُيَيْنَةُ بن حِصْنَ، والأَقْرَعُ بن حابس.

(٣) هم الذين قال لهم النبي ﷺ يوم فتح مكة: «اذهبوا فأنتُم الطُّلقَاءُ».
وفي حديث حُنَيْن: «خرَج ومعه الطُّلَقاءُ» قال في اللسان: هم الذين خلّى عنهم يوم فتح مكة وأطلقهم فلم يسترقهم، والواحد: طليق.

(٤) ضريب الشيء: مثله وشكله، والضُّرَبَاءُ هم الأَمْثال والنُّظَراءُ.

الإِسلام فبعيد ، وقال كثير من أَهل العلم: المؤلفة قلوبهم موجودون إلى يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإذا تأملت الثغور وجدت فيها الحاجة إلى الاستئلاف.

وقال الزهري: المُؤَلَّفة: من أسلم من يهودي أو نصراني وإن كان غنياً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يريد: لتبسط نفسه ويحبب دين الإِسلام إليه.

وأمَّا الرقاب فقال ابن عباس ، والحسن ، ومالك ، وغيرهم:

هو ابتداءُ العِتق وعون المُكَاتب بما يأتي على حريته ، واخْتُلِف هل يعان بها المُكَاتَب في أَثناءِ نجومه[1] بالمنع والإباحة ، واخْتُلِف على القول بإِباحة ذلك إن عجز ، فقيل: يُرَدُّ ذلك من عند السّيد ، وقيل: يمضي ؛ لأَنه كان يوم دفعه بوجه مترتب ، قال الشافعي: معنى ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾: في المُكاتبين ، ولا يبتدأُ منها عتق عبد ، وقاله اللَّيْث ، وإبراهيم النَّخَعي ، وابن جُبَيْر ، وذلك أن هذه الأصناف إِنما تُعْطَى إما لمنفعة المسلمين أو لحاجة في أَنفسها ، والعبد ليس له واحدة من هاتين العِلَّتين ، والمُكَاتب قد صار من ذوي الحاجة ، وقال الزهري: سهم الرقاب نصفان ، نصف للمُكَاتبين ، ونصف يعتق منه رقابٌ مسلمون مِمَّن صلَّى ، ويفدى منه أُسارى المسلمين ، ومَنَع ذلك غيرُه[2].

وأمَّا الغارم فهو رجل يركبه دَيْنٌ في غير معصية ولا سفَه ، قال العلماءُ: فهذا يُؤَدَّى عنه دينه وإن كانت له عروض تُقيم رَمَقه وتكفي عياله ، وكذلك الرجل يتحمل بحمالة

---

(١) تنجيم الدَّين: هو أن يُقَدَّر عطاؤه في أوقات معلومة متتابعة، مشاهرةً أو مساناة، ومنه تنجيم المُكاتَب ونجوم الكتابة، وأصله أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت حلول ديونها وغيرها فتقول: إذا طلع النجم حلَّ عليك مالي، أي الثّريا، وكذلك باقي المنازل، فلما جاءَ الإِسلام جعل الله تعالى الأهلة مواقيت للحج والصوم ومحِل الديون، وسمَّوها نجوماً اعتباراً بالرسم القديم الذي عرفوه. (اللسان ـ نجم).

(٢) قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ معناه: وفي فكّ الرقاب، وعلى هذا التقدير يعطى ما حَصَلَ به فك الرقاب من ابتداء عِتق يشترى منه العبد فيُعتق ، أو تخليص مُكاتَب أو أسير.
قاله في «البحر» ، وهذا هو رأي ابن عباس ، والحسن ، ومالك.

في دياتٍ أو إصلاح بين القبائل، ونحو هذا، وهو أحد الخمسة الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «لا تَحِلُّ الصَّدقة لغني إلا لخمسة، لِعامِلٍ عليها، أو غازٍ في سبيل الله، أو رجل تحمل بحمالة، أو من أُهديت له، أَو من اشتراها بماله»(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد سقط المؤلفة من هذا الحديث، ولا يؤدى من الصدقة ديْن ميّت، ولا يعطى منها من عليه كفارة ونحو ذلك من حقوق الله، وإنما الغارم مَنْ عليه ديْن يسجن فيه، وفيه قيل في مذهبنا وغيره:

يُؤَدّى دَيْن الميّت من الصدقات، قاله أَبو ثور.

وأما في سبيل الله فهو المجاهد، يجوز أن يأْخذ من الصدقة لينفقها في غزوه وإن كان غنياً، قال ابن حبيب: ولا يُعْطَى منها الحاج إلا أن يكون فقيراً فيعطى لفقره، وقال ابن عباس، وابن عمر، وأحمد، وإسحق: يعطى منها الحاج وإن كان غنياً، والحج سبيل الله، ولا يعطى منها في بناءِ مسجد ولا قنطرة ولا شراءِ مصحف ونحو هذا.

وأما ابن السبيل فهو الرجل في الغربة والسفر يُعْدِم، فإنه يعطى من الزكاة وإن كان غنياً في بلده، وسمّي المسافر ابن سبيل لملازمته السبيل، كما يقال للطائر: «ابن ماءٍ» لملازمته له، ومنه عندي قولهم: «ابن جلا»، وقد قيل فيه غير هذا، ومنه قولهم: «بنو الحرب وبنو المجد»(٢).

ولا يعطى بنو هاشم من الصدقة المفروضة، قال ابن الماجشون، ومطرف، وأَصْبَغ، وابن حبيب: ولا من التطوع، ولا يعطى مواليهم لأن مولى القوم منهم، وقال ابن القاسم: يُعطى بنو هاشم من صدقة التطوع ويعطى مواليهم من الصدقتين، ومنْ سأَل الصدقة وقال إنه فقير؟ فقالت فرقة: يعطى دون أن يكلف بيّنة على فقره، بخلاف حقوق الآدميين يُدَّعى معها الفقير فإنه يُكَلَّف البيّنة لأَنها حقوق الناس يؤخذ لها

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن ماجه، وغيرهم ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه.

(٢) كما قال الشاعر:

أنــا ابْــنُ الْحَــرْب رَبَّتْنــي وَلِيــداً ... إلـى أنْ شِبْـتُ واكْتَهَلْـتُ لِـدَاتـي

بالأحوط، وأيضاً فالناس إذا تعلقت بهم حقوق لآدميين محمولون على الغنى حتى يثبت العدم، ويظهر ذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾[(١)]، أي إنْ وَقَعَ فَيُعْطِي هذا أن الأصل الغنى[(٢)]، فإن وقع ذو عسرة فنظرة، وقالت فرقة: الرجل الصحيح الذي لا يعلم فقره لا يُعطى إلا أن يعلم فقره، وأمَّا إن ادَّعى أنه غارم أو مُكاتَب أو ابن سبيل أو في سبيل الله أو نحو ذلك مما لم يُعلم منه فلا يُعْطَى إلا ببيِّنة قولاً واحداً، وقد قيل في الغارم[(٣)]:

تباع عروضه وجميع ما يملك ثم يعطى بالفقر، ويُعْطي الرجل قرابته الفقراء، وهم أَحق من غيرهم، فإن كان قريبه غائباً في موضع تقصر إليه الصلاة فجاره الفقير أولى، وإن كان في غيبة لا تقصر إليه الصلاة، فقيل: هو أَولى من الجار الفقير، وقيل: الجار أَولى، ويُعطي الرجل قرابته الذين لا تلزمه نفقتهم، وتعطي المرأة زوجَها، وقال بعض الناس: ما لم ينفق ذلك عليها، ويعطي الرجل زوجته إذا كانت من الغارمين، واختلف في ولاءِ الذي يُعْتَقُ من الصدقة ـ فقال مالك: ولاؤُه لجماعة المسلمين، وقال أَبو عبيد: ولاؤه للمُعْتِق، وقال عبيد الله بن الحسن: يجعل ماله في بيت الصدقات، وقال الحسن، وأحمد، وإسحق: ويعتق من ماله رقاب، وإذا كان لرجل على مُعْسرٍ دينٌ، فقيل: يتركه له ويقطع ذلك من صدقته، وقيل: لا يجوز ذلك جملة، وقيل: إن كان ممن لو رفعه للحاكم أمكن أن يؤديه جاز ذلك، وإلا لم يجز لأنه قد توفي[(٤)].

وأما السبيل فهو الذي قدمنا ذكره، يُعْطَى الرجل الغازي وإن كان غنياً، وقال أصحاب الرأي: لا يُعطى الغازي في سبيل الله إلا أن يكون منقطعاً به، قال ابن المنذر: وهذا خلاف ظاهر القرآن وحديث رسول الله ﷺ، أما القرآن فقوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وأما الحديث فقوله: «إلاَّ لخمسة، لعامل عليها، أو غاز في سبيل الله»، وأما صورة التفريق ـ فقال مالك وغيره: على قدر الحاجة ونظر الإمام،

---

(١) البقرة: ٢٨٠.

(٢) معنى هذه العبارة: أيْ إن حَصَل العُسْر فإن هذا التعبير يعطي بأن الأصل هو الغني وأن الفقر أمر طارىء.

(٣) في بعض النسخ: وقد قيل في المفلس.

(٤) في بعض النسخ: لأنه قد تَوِيَ، ومعناها: هلك، قال في الصحاح: التَّوَى: هلاك المال، ونقل ذلك في اللسان عن الصحاح ثم قال: التَّوَى: ذهابُ مال لا يُرْجَى.
تَوِيَ المالُ بالكسر يَتْوَى تَوىً: ذهب فلم يرج. وواضح أن التعبير بقوله (تَوِيَ) هو الصحيح، والله أعلم.

يضعها في أَيِّ صنف رأى، وكذلك المتصدِّق، قاله حذيفة بن اليمان، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، وأبو العالية. قال الطبري: وقال بعض المتأخرين: إذا قسم المتصدق قسم في ستة أصناف، لأنه ليس ثَمَّ عامل، ولأن المؤلفة قد انقطعوا، فإن قسم الإمام ففي سبعة أصناف، وقال الشافعي، وعكرمة، والزهري: هي ثمانية أقسام لثمانية أصناف لا يخل بواحد منها، واحتج الشافعي، بقول رسول الله ﷺ للرجل الذي سأله: «إن الله تعالى لم يرض في الصدقات بقسم نبي ولا غيره حتى قسمها بنفسه فجعلها ثمانية أقسام لثمانية أصناف، فإن كنت واحداً منها أعطيتك».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والحديث في مصنف أبي داود، وقال أبو ثور: إذا قسمها الإمام لم يخل بصنف منها، وإن أعطى الرجلُ صدقَتَه صنفاً دون صنف أجزأه ذلك. وقال النخعي: إذا كان المال كثيراً قَسَّم على الأصناف كلها، وإذا كان قليلاً أعطاه صنفاً واحداً، وقالت فرقة من العلماء: من له خمسون درهماً فلا يعطى من الزكاة، وقال الحسن، وأبو عبيد: لا يعطى من له أُوقية وهي أربعون درهماً، قال الحسن: وهو غني.

وقال الشافعي: قد يكون الرجل الذي لا قدر له غنياً بالدرهم مع سعْيه وتحيله، وقد يكون الرجل له القدر والعيال ضعيف النفس والحيلة فلا تغنيه آلاف، وقال أبو حنيفة: لا يأخذ الصدقة من له مائتا درهم، ومن كان له أقل فلا بأس أن يأخذ. قال سفيان الثوري: لا يُدفع إلى أحد من الزكاة أكثر من خمسين درهماً إلا أن يكون غارماً، وقال أصحاب الرأي: إن أُعطي ألفاً وهو محتاج أجزأ ذلك، وقال أبو ثور: يعطى من الصدقة حتى يغنى ويزول عنه اسم المسكنة، ولا بأس أن يعطى الفقير الألف وأكثر من ذلك، وقال ابن المنذر: أَجمع أكثر من يُحفظ عنه من أهل العلم أن لِمَنْ له دار وخادم لا يستغني عنهما أن يأخذ من الزكاة، وللمعطي أن يعطيه، وقال مالك: إن لم يكن في ثمن الدار أو الخادم فضلة عمن يحتاج إليه منهما جاز له الأخذ، وإلا لم يجز، وأما الرجل يعطي الآخر يظنه فقيراً فإذا هو غني، فإنه إن كان تعود ذلك أخذها منه، فإن فاتت نُظر، فإن كان الآخذ غنياً وأخذها مع علمه بأنها لا تحل له ضمنها على كل وجه، وإن كان لم يُغرّ بل اعتقد أنها تجوز له، أو لم يتحقق مقصدَ المعطي نُظر، فإن كان لبسها أو أكلها ضمنها، وإن كانت تلفت لم يضمن. واختُلف في إجزائها عن

المتصدق ـ فقال الحسن ، وأَبو عبيدة: تجزيه ، وقال الثوري ، وغيره: لا تجزيه ، وأَهل بلد الصدقة أحق بها إلا أن تفضل فضلة فتنقل إلى غيرها بحسب نَظَرِ الإمام ، قال ابن حبيب في «الواضحة»: أما المؤلفة فانقطع سهمهم ، وأما سبيل الله فلابأس أن يعطي الإمام الغزاة إذا قلَّ الفيْءُ في بيت المال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الشرط فيه نظر ، قال ابن حبيب: وينبغي للإمام أن يأمر السعاة بتفريقها بالمواضع التي جُبيت منها ، ولا يحمل منها شيءٌ إلى الإمام إلاّ أن يرى ذلك لحاجة أو فاقة نزلت بقوم. قاله مالك.

ومن له مزرعة أو شيءٌ في ثمنه إذا باعه ما يغنيه لم يجز له أَخذ الصدقة.

وهذه جُملة من فقه الآية كافية على شرطنا في الإيجاز ، والله الموفق برحمته[1].

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أَي مُوجَبَة مُحَدَّدة ، وهو مأْخوذ من الفرض في الشيءِ بمعنى الحز والقطع لثبوت ذلك ودوامه شبه ما يفرض من الأحكام ، ونصب [فَرِيضَة] على المصدر[2] ، ثم وصف نفسه تبارك وتعالى بصفتين مناسبتين لحكم هذه الآية لأَنه صدر عن علم منه بِخَلْقه ، وحكمة منه في القسمة بينهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

---

(١) قال الزمخشري: «فإن قلتَ: لم عدل عن (اللام) إلى (في) في الأربعة الأخيرة؛ قلتُ: للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره ، لأن (في) للوعاءِ ، فنبه على أنهم أحقاءُ بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظِنّة لها ومصباً» ، ثم ذكر مافي كل نوع من سمات تجعله أهلاً لهذا التفضيل.

(٢) قيل: هي في معنى المصدر المؤكد ، لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ معناه: فَرْضٌ من الله الصدقات لهم ، وقال الكرماني: وأبو البقاء: [فَريضةً] حال من الضمير في [الفُقَراءِ] ، أي مفروضة ، وذُكر عن سيبويه أنها مصدر والتقدير: فرض الله الصدقات فريضة ، وهذا هو الرأي الذي ذكره ابن عطية.

الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ﴾ عائد على المنافقين ، و﴿يُؤْذُونَ﴾ لفظ يعم جميع ما كانوا يفعلونه ويقولونه في جهة رسول الله ﷺ من الأذى ، وخص ـ بعد ذلك ـ مِنْ قولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ ، وروي أن قائل هذه اللفظة هو نبتل بن الحارث وكان من مَرَدة المنافقين ، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «مَنْ سرَّه أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نَبْتَل بن الحارث»[١] ، وكان ثائر الرأس ، منتفش الشعر ، أَحمر العينين ، أَسْفَع الخدين ، مشوَّهاً.

ورُوي عن الحسن البصري ، ومجاهد أنهما تأوّلا أنهم أرادوا بقولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أَنَّه يسمع منا معاذيرنا وتنصّلنا ويقبله ، أي: فنحن لا نبالي عن أَذاه[٢] ، ولا الوقوع فيه إذ هو سماع لكل ما يقال من اعتذار ونحوه ، فهذا تنقُّص بقلة الحزامة والانخداع[٣] ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة معه أَنهم أرادوا بقولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أنه يسمع كل ما ينقل إليه عنا ويصغي إليه ويقبله ، فهذا تشكُّك منه ووصف بأَنه تسوغ عنده الأَباطيل والنَّمائم.

ومعنى ﴿أُذُنٌ﴾: سمّاع ، ويسمى الرجل السّماع لكل قول أُذُناً إِذْ كثر منه استعمال الأُذن ، فهذه تسمية الشيء بالشيءِ إذا كان منه بسبب ، كما يقال للرَّبيئَة: عينٌ[٤] ، وكما يقال للسمينة من الإبل التي قد بزل نابها: نابٌ[٥] ، وقيل: معنى الكلام: ذو أُذن ، أَي: ذو سماع ، وقيل: إن قوله تعالى: ﴿أُذُنٌ﴾ مشتق من قولهم: «أَذِنَ للشَّيْءِ» إذا استمع ، كما قال الشاعر وهو عديُّ بن زيد:

---

(١) لفظ الحديث في القرطبي «من أراد» والسُّفْعَةُ: سوادٌ مشربٌ بحمرة ، ويقال للرجل: أسفع.

(٢) أي: لا يَهُمّنا ولا يكرِثُنا أن نكف عن أذاه ، والعبارة قلقة حتى لو فهمناها على معنى البعد عن الشيء نتيجة لكرهه.

(٣) يقال: حَزُم حَزَامة كَضخُم ضَخامة ، فالحزامة مصدر ، ومنه قولهم: «ربّما كان من الحَزَامة أن تجعل أنفك في الخِزَامة» والخِزامة بكسر الخاء حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير يشد بها الزمام. (التاج).

(٤) الرَّبيئة: الطليعة ، وإنما أنثوه لأن الطليعة يقال لها: العينُ ، إذ بعينه ينظر ، والعين مؤنثة ، وقيل للربيئة عين لأنه يرعى أمور قومه ويحرسهم ، وجمع الربيئة: الرّبايا. (اللسان).

(٥) النابُ في الأصل هي السِّن التي خلف الرباعية ، وفيها التأنيث والتذكير. والنابُ: الناقة السمينة ، سمّوها بذلك حين طال نابها وعَظُم ، مؤنثة ، وهي مما سمّى فيه الكل باسم الجزءِ ، ومعنى «بَزل نابها»: انشق وانفطر ، ويكون ذلك حين تبلغ التاسعة من عمرها.

أَيُّهـــا الْقَلْـــبُ تعَلَّـــلْ بـــدَدَنْ   إِنَّ هَمِّـــي فـــي سَمَـــاعٍ وأَذَنْ(١)

وفي التنزيل: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾(٢)، ومن هذا قول النبي ﷺ: «ما أَذِن الله لشيءٍ كإِذْنه لنبي يتغنى بالقرآن»(٣)، ومن هذا قول الشاعر:

فـــي سَمَـــاعٍ يـــأْذَنُ الشَّيْـــخُ لَـــهُ   وحَـدِيـــثٍ مثْـلَ مـــاذِيٍّ مُشَـــار(٤)

ومنه قول الآخر:

صُـــمٌّ إذا سَمِعـــوا خَيْـــراً ذُكِـــرتُ بِـــه   وَإِنْ ذُكِـرْتُ بِسُـوءٍ عِنْـدَهُـمْ أَذِنُـوا(٥)

وقرأ نافع: [أُذْن] بسكون الذال فيهما، وقرأ الباقون: [أُذُن] بضم الذال فيهما، وكلهم قرأ بالإضافة إلى ﴿خَيْر﴾ إلا ما روي عن عاصم، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، ومجاهد، وعيسى ـ بخلاف ـ ﴿أُذُنٌ خَيْرٌ﴾ برفع [خَيْر] وتنوين [أُذُن]، وهذا يجري مع تأويل الحسن الذي ذكرناه، أي: من يقبل معاذيركم خير لكم، ورُويت هذه القراءَة عن عاصم، ومعنى ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ على الإضافة، أي سماع خير وحق.

و﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ معناه: يصدق بالله ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: معناه ويصدق المؤمنين، واللام زائدة كما هي في قوله سبحانه: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾(٦)، وقال المبرد: هي

---

(١) الدَّدَنُ: اللهو، وفيه لغات كثيرة أشهرها (دَدٌ) مثل (يَد) و(دداً) مثل (قفاً وعصاً)، و(دَدَنٌ) مثل حَزَن، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «ما أنا من دَدٍ ولا الدَّدُ منّي»، وفي رواية «ما أنا من دَداً ولا دَداً مني»، قال ابن الأثير: الدَّدُ: اللهو واللعب، وهي محذوفة اللام، وقد استعملت مُتَمَّمة على ضربين: دداً كنَدًى ودَدَنٌ كبَدَنٍ، والأَذَن: الاستماع يقال: أَذِنْتُ للشيءِ آذن له أَذَناً إذا استمعت له. (عن اللسان).

(٢) الانشقاق: ٥.

(٣) أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي ـ عن أبي هريرة، ولفظه كما رواه في الجامع الصغير: «ما أذن الله لشيءٍ ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به» قال أبو عبيد: «يعني: ما استمع الله لشيءٍ كاستماعه لنبي يتغنى بالقرآن، أي يتلوه يجهر به».

(٤) البيت لعديّ بن زيد، ومعنى «يأذن الشيخ له»: يستمع إليه معجباً، والماذِيّ: العَسَل الأبيض الرقيق، والمشار: المجتنى، وقبل هذا البيت يقول عَدِيٌّ:

ومَـــلاهٍ قَـــدْ تَلَهَّيْـــتُ بهـــا   وقصـرتُ اليَـوْمَ فـي بيْـتِ عـذار

ومثل هذا البيت قول عمرو بن الأهيم:

فَلَمَّـــا أَنْ تَسَـــايَـــرْنَـــا قَليـــلا   أَذِنَّ إلـــى الْحَـــديـــث فَهُـــنَّ صـــورُ

(٥) البيت لقَعْنَب بن أُمّ صاحب، وقبله يقول:

إنْ يَسْمَعُـــوا ريبَـــةً طـــاروا بهَـــا فَـــرَحـــاً   مِنِّـي، ومـا سَمِعـوا مِـنْ صَـالِـح دَفَنُـوا

(٦) من قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢].

متعلقة بمصدر مقدر من الفعل كأنه قال: وإيمانه للمؤمنين، أي تصديقه، ويقال: «آمنت لك» بمعنى صدقتك، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعندي أن هذه التي معها اللام في ضمنها باءٌ، فالمعنى: ويصدق للمؤمنين بما يُخبرونه به، وكذلك: وما أنت بمؤمن لنا بما نقوله لك، والله المستعان.

وقرأ جميع السبعة إلا حمزة: [ورَحمةٌ] بالرفع عطفاً على [أُذُن]، وقرأ حمزة وحده: [وَرَحمة] بالخفض عطفاً على [خَيْر]، وهي قراءَة أُبي بن كعب، وعبد الله، والأَعمش، وخصص الرحمة للذين آمنوا إِذ هم الذين نجوا بالرسول وفازوا به، ثم أَوجب تبارك وتعالى للذين يؤذون رسول الله العذاب الأَليم وحتم عليهم به.

وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ الآية. ظاهر هذه الآية أَن المراد بها جميع المنافقين الذين يحلفون لرسول الله ﷺ وللمؤمنين بأَنهم منهم في الدِّين، وأَنهم معهم في كل أَمر وكل حزب، وهم في ذلك يبطنون النفاق ويتربصون الدوائر، وهذا قول جماعة من أَهل التأْويل، وقد روت فرقة أنها نزلت بسبب رجل من المنافقين قال: «إن كان ما يقول محمد حقاً فأَنا شرّ من الحمر»، فبلغ قوله رسول الله ﷺ فدعاه ووقف على قوله ووبخه، فحلف مجتهداً أنه ما فعل، فنزلت الآية في ذلك(٢)، وقوله: [واللهُ].

مذهب سيبويه أَنهما جملتان حذفت الأُولى لدلالة الثانية عليها، والتقدير عنده: والله أَحق أن يرضوه، ورسوله أَحق أن يرضوه، وهذا كقول الشاعر:

نحنُ بِمَا عِنْدنَا وأَنتْ بِمَا عِنْـ ـــدكَ راضٍ والرَّأْيُ مُخْتلِف(٣)

---

(١) يوسف: ١٧.

(٢) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي مثله، وسمَّى الرجل المسلم عامر بن قيس من الأنصار، (الدر المنثور)، وفي القرطبي أن جماعة من المنافقين اجتمعوا، فيهم الجُلاسُ بن سُوَيْد، ووديعة بن ثابت، وفيهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس.

(٣) سبق الاستشهاد بهذا البيت عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الآية (٣٤) من هذه السورة وقد اعترض أبو حيان في «البحر» على هذا الرأي وقال: «فقوله: مذهب سيبويه أنَّهما جملتان حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها إن كان الضمير=

ومذهب المبرد أن في الكلام تقديماً وتأخيراً، وتقديره: والله أحق أن يرضوه، ورسوله، قال: وكانوا يكرهون أن يجمع الرسول مع الله في ضمير، حكاه النقاش عنه، وليس هذا بشيءٍ، وفي مصنف أبي داود أن النبي ﷺ قال: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى» فجمع في ضمير، وقوله ﷺ في الحديث الآخر: «بئس الخطيب أنت» إنما ذلك لأنه وقف على «ومن يعصهما» فأدخل العاصي في الرشد[1]، وقيل: الضمير في ﴿يُرْضُوهُ﴾ عائد على المذكور كما قال رؤْبة:

فيهــا خُطــوطٌ مِــن ســوادٍ وبَلَــقْ ... كــأنَّــه فــي الجِلْـدِ تَـوْلِيـعُ الْبَهَـقْ[2]

وقوله: ﴿إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: على قولهم ودعواهم.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ الآية قوله: [أَلَمْ] تقرير ووعيد، وفي مصحف أُبي بن كعب ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ على خطاب النبي ﷺ، وهو وعيد لهم، وقرأ الأعرج، والحسن: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾ بالتاءِ، و﴿يُحَادِدِ﴾ معناه: يخالف ويشاق، وهو أن يعطي هذا حدّه لهذا وهذا حدّه لهذا، وقال الزجاج: هو أن يكون هذا في حدّ وهذا في حدّ.

وقوله: ﴿فَأَنَّ﴾ مذهب سيبويه أنها بدلٌ من الأُولى، وهذا معترض بأن الشيءَ لا يبدل منه حتى يستوفىٰ، والأُولى في هذا الموضع لم يأْت خبرها بَعْدُ إذا لم يتم جواب الشرط، وتلك الجملة هي الخبر، وأيضاً فإن الفاءَ تمانع البدل، وأيضاً فهي في معنى آخر غير الأَول فيقلق البدل، وإذا تُلطِّف للبدل فهو بدل الاشتمال، وقال غير

= في (أنَّهما) عائداً على كل واحدة من الجملتين فكيف تقول: حذفت الأولى ولم تحذف الأولى وإنما حذف خبرها؟ وإن كان الضمير عائداً على الخبر وهو ﴿أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ فلا يكون جملة إلا باعتقاد كون ﴿أَن يُرْضُوهُ﴾ مبتدأ، و﴿أَحَقُّ﴾ المتقدم خبره، لكن لا يتعين هذا القول إذ يجوز أن يكون الخبر مفرداً بأن يكون التقدير: «أحق بأن يرضوه»، وعلى التقدير الأول يكون التقدير: «والله إرضاؤه أحق»، وللعلماء في إفراد الضمير في قوله تعالى: ﴿يُرْضُوهُ﴾ آراء كثيرة ذكر منها ابن عطية ثلاثة، ومن هذه الآراء أن الإفراد جاء لتعظيم الله سبحانه، أو لكونه لا فرق بين إرضاء الله وإرضاء رسوله، أو لأن الضمير موضوع موضع اسم الإشارة، فإنه يشار به إلى الواحد والمتعدد.

(١) أنكر النبي ﷺ على الخطيب لأنه فهم منه اعتقاد التسوية حين وقف على (يعصهما) فَنَبَّهه على خلاف معتقده.

(٢) البَهَق: بياض دون البرص، أو هو بياض يعتري الجسد بخلاف لونه وليس من البرص. والشاهد في البيت عود الضمير في قوله (كأنه)، أي: كأن المذكور.

سيبويه: هي مجردة لتأكيد الأُولى، وقالت فرقة من النحاة: هي في موضع خبر ابتداءٍ تقديره: «فواجب أنَّ له»، وقيل: المعنى: «فلَه أَن له»، وقالت فرقة: هي ابتداءٌ والخبر مضمر تقديره: «فأن له نار جهنم واجب»، وهذا مردود لأن الابتداءَ بـ (أنَّ) لا يجوز مع إضمار الخبر، قاله المبرد، وحُكي عن أبي علي الفارسي قول يقرب معناه من معنى القول الثالث من هذه التي ذكرنا لا أَقف الآن على لفظه، وجميع القراءِ على فتح [أَنَّ] الثانية، وحكى الطبري عن بعض نحويي البصرة أنه اختار في قراءَتها كسر الأَلف، وذكر أَبو عمرو الداني أَنها قراءَة ابن أبي عبلة، ووجهه في العربية قوي لأَن الفاءَ تقتضي القطع والاستئناف، ولأَنه يصلح في موضعها الاسم ويصلح الفعل، وإذا كانت كذلك وجب كسرها[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ﴾ خبر عن حال قلوبهم، وحذرهم إنما هو أن تتلى سورة، ومعتقدهم ـ هلْ تنزل أَم لا ـ ليس بنصّ في الآية لكنه ظاهر، فإن حمل على مقتضى نفاقهم واعتقادهم أن ذلك ليس من عند الله فوجه بيّن، وإن قيل: إنهم يعتقدون نزول ذلك من عند الله وهم ينافقون مع ذلك فهذا كفر عناد. وقال الزجاج وبعضُ من ذهب إلى التحرز من هذا الاحتمال: معنى ﴿ يَحْذَرُ ﴾: الأَمر وإن كان لفظه لفظ الخبر، كأَنه يقول: لِيَحْذَر.

---

(١) أجاز الخليل وسيبويه كسر همزة (فَإِنَّ)، قال سيبويه: وهو جيّد، وأنشد لابن مقبل:

وعلْمـي بـأسـدام الميـاه فلـم تـزَل ... قـلائِصُ تَخْـدِي فـي طـريـقٍ طـلائِـحُ
وأنّـي إذا مَلَّـت ركـابـي مُنَـاخَهـا ... فـإنِّـي على حَظِّـي مـن الأمـر جـامِـحُ

والأسدام: المياه المتغيرة لقلة الوارد، وتخدي: تُسرع، والطلائح: المعيبة لطول السفر، والجامح: الماضي على وجهه، ومعنى: «ملّت ركابي مُنَاخَهاَ»: توالى سفرها وإناختها فيه وارتحالها، يقول: لا يكسرني طول السفر ولكني أمضي قدماً لما أرجوه من الحظ في أمري.

وقرأ أبو عمرو وجماعة معه: [أَن تُنْزِل] ساكنة النون خفيفة الزاي ، وقرأ بفتح النون مشددة الزاي الحسنُ ، والأَعرج ، وعاصم ، والأَعمش ، وعيسى: و﴿أَن﴾ من قوله: ﴿أَن تُنَزَّلَ﴾ مذهب سيبويه أَن ﴿يَحْذَرُ﴾ عامل فيها فهي مفعولة ، وقال غيره: (حَذِر) إنما هي من هيئات النفس التي لا تتعدى ، مثل (فَزِع) ، وإنما التقدير: «يحذر المنافقون من أن تنزل عليهم سورة»[1].

وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓاْ﴾ لفظه الأَمر ومعناه التهديد ، ثم ابتدأ الإخبار عن أَنه يخرج لهم إلى حيّز الوجود ما يحذرونه ، وفعل ذلك تبارك وتعالى في سورة التوبة فهي تسمى الفاضحة ؛ لأَنها فضحت المنافقين.

وقال الطبري: كان المنافقون إذا عابوا رسول الله ﷺ وذكروا شيئاً من أَمره قالوا: «لعلَّ الله لا يفشي سِرّنا» ، فنزلت الآية في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يقتضي كفر العناد الذي قلناه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ الآية. نزلت ـ على ما ذكر جماعة من المفسرين ـ في وديعة بن ثابت ، وذلك أَنه مع قوم من المنافقين كانوا يسيرون في غزوة تبوك ، فقال بعضهم لبعض: هذا يريد أَن يفتح قصور الشام ويأْخذ حصون بني الأَصفر ، هيهات هيهات. فوقَفَهم رسول الله ﷺ على ذلك وقال لهم: قلْتم كذا وكذا ، فقالوا: «إنما كنا نخوض ونلعب» ، يريدون: كنا غير مُجدّين. وذكر ابن إسحق أَن قوماً منهم تقدموا النبي ﷺ ، فقال بعضهم: كأَنكم والله غداً في الحبال أَسرى لبني الأَصفر ، إلى نحو هذا من القول ، فقال النبي ﷺ: «أَدرك القوم فقد احترقوا ، وأَخبرهم بما قالوا» ، ونزلت الآية[2]. وروى أن وديعة ابن ثابت المذكور قال في جماعة من المنافقين:

---

(١) هذا رأي المبرد ، وكثير من العلماء لا يرون ذلك ، ويقولون: إن (خاف) من هيئة النفس ومع ذلك تتعدى ، ومثلها (خشي). راجع «البحر» و«حاشية الجمل».

(٢) الحديث مروي من عدة طرق ، والألفاظ تختلف باختلاف الرواة. فقد أخرجه ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة ، وهذه الرواية هي التي ذكرها ابن عطية أولاً ، ثم ذكر رواية ابن إسحق ، ومعنى قوله (احترقوا): هلكوا. (الدر المنثور ، وفتح القدير ، والسيرة النبوية لابن هشام) ، وليس في الرواية نصٌّ على من خاطبه النبي ﷺ.

ما رأَيت كقرائنا هؤلاءِ، لا أَرغب بطوناً ولا أكثر كذباً ولا أَجبن عند اللقاءِ، فعنَّفهم رسول الله ﷺ على هذه المقالة فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، ثم أَمره بتقريرهم: ﴿ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾[1]، وفي ضمن هذا التقرير وعيد، وذكر الطبري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: رأيت قائل هذه المقالة وديعةَ متعلقاً بِحَقَب[2] ناقة رسول الله ﷺ يماشيها تنكبه وهو يقول: «إنما كنا نخوض ونلعب»، والنبي ﷺ يقول: ﴿ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾[3]؟ وذكر النقاش أَن هذا المتعلق كان عبد الله بن أُبي بن سلول، وذلك خطأٌ لأَنه لم يشهد تبوك.

وقوله تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا ﴾ الآية. المعنى: قل لهم يا محمد: «لا تعتذورا» على جهة التوبيخ، كأَنه قال: لا تفعلوا ما لا ينفع، ثم حكم عليهم بالكفر فقال: قل لهم: ﴿ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ الذي زعمتموه ونطقتم به، وقوله: ﴿ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ ﴾ يريد ـ فيما ذكر المفسرون ـ رجلاً واحداً، قيل اسمه مخشّن بن حُمَيِّر، قاله ابن إسحق، وقال ابن هشام، ومقاتل: مخشيّ، وقال خليفة ابن خياط في تاريخه: مُخاشن بن حُمَيّر، وذكر ابن عبد البر: مُخاشن الحميريّ، وذكر جميعهم أنه استشهد باليمامة، وكان قد تاب وتسمّى عبد الرحمن، فدعا الله أن يستشهد ويجهل أَمره فكان ذلك باليمامة، ولم يوجد جسده، وذكر أيضاً ابن عبد البرّ: مخشَّى بن حُمَيْر بضم الحاءِ وفتح الميم وسكون الياءِ، ولم يتقن القصة.

وكان مخشّى مع المنافقين الذين قالوا: «إنا كنا نخوض ونلعب»، فقيل: كان منافقاً ثم تاب توبة صحيحة، وقيل: كان مسلماً مخلصاً إلا أنه سمع كلام المنافقين فضحك لهم ولم ينكر عليهم، فعفا الله عنه في كلا الوجهين، ثم أَوجب العذاب لباقي المنافقين الذين قالوا ما تقدم.

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. (الدر المنثور، وفتح القدير).

(٢) الحَقَب (بوزنَ سَبَب): حبل يشد على بطن البعير سوى الحزام الذي يشد فيه الرحْل، والرواية في (فتح القدير): «قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه».

(٣) هذا نص رواية ابن جرير للحديث السابق تخريجه في الهامش رقم (١) من هذه الصفحة، وقد رواه الليث عن هشام بن سعد بنحو من هذا ـ ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره.

وقرأ جميع السبعة سوى عاصم: [إنْ يُعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ] بالياءِ [تُعَذَّبْ] بالتاءِ[1]، وقرأ الجحدري: [إنْ يَعْفُ] بالياءِ المفتوحة على تقدير: إن يعفُ الله، [يُعذِّب] الله، [طَائِفَةً] بالنصب، وقرأ عاصم، وزيد بن ثابت، وأَبو عبد الرحمن: [إنْ نَعْفُ] بالنون [نُعَذب] بنون الجميع أيضاً، وقرأ مجاهد: [إنْ تُعْفَ] بالتاءِ المضمومة على تقدير: إن تُعْف هذه الذنوب [تُعَذَّب] بالتاءِ أَيضاً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

هذا ابتداءُ إِخبار عنهم وحُكْمٌ من الله تعالى بما تضمنته الآية.

فقوله سبحانه: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ يريد: في الحكم والمنزلة من الكفر، وهذا نحو قولهم: «الأذنان من الرأس» يريدون: في حكم المسح، وإلا فمعلوم أنهما من الرأس، ولما تقدم من قبل: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾[2] حَسُن هذا الإخبار.

وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ يريد: بالكفر وعبادة غير الله، وسائر ذلك من الآية لأَن المنافقين الذين نزلت هذه الآيات فيهم لم يكونوا أَهل قدرة ولا أَفعال ظاهرة وذلك بسبب ظهور الإسلام وكلمة الله عزَّ وجل، والقَبْضُ هو عن الصدقة وفعل الخير، وقوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾ أي: تركوه حين تركوا نبيَّه وشِرْعته فتركهم حين لم يهدهم ولا كفاهم عذاب النار، وإنما يُعبَّر بالنسيان عن الترك مبالغة إذْ أَبلغ

---

(١) قال أبو حيان في «البحر»: «ولقيني شيخنا الأديب أبو الحكم مالك بن المرحل المالقي بغرناطة فسألني: قراءة من تقرأ اليوم على الشيخ أبي جعفر الطباع؟ فقلت قراءة عاصم، فقال:
لعاصم قراءةٌ لِغَيْرها مخالفة إن نَعْف عن طائفة منكم نعذب طائفة.

(٢) تقدم ذلك في الآية (٥٦) من هذه السورة في جملة الحديث عن المنافقين.

وجوه التَّرك الوجه الذي يقترن به نسيان، وعلى هذا يجيءُ ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[١]، و﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾[٢]، ثم حكم عليهم عزَّ وجلَّ بالفسق وهو فسوق الكفر المقتضي للخلود في النار، وكان قتادة يقول: [فَنَسِيَهُمْ] أي: من الخير ولم ينسهم من الشَّر.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الآية، لما قيَّد الوعد بالتصريح بالشَّر صحَّ ذلك وحَسُن وإن كانت آية وعيد مخضٍ، والكفار في هذه الآية: المُعْلِنون، وقوله: ﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ أي كافيتهم وكافية جُرمهم وكفرهم نكالاً وجزاءً، فلو تمنى أحد لهم عذاباً لكان ذلك عنده حسْباً لهم. ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ معناه: أَبعدهم عن رحمته، و﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ معناه: مؤبد لا نقلة له.

وقوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية، أَمر الله نبيه أن يخاطب بها المنافقين فيقول لهم: كالذين من قَبْلكم، والمعنى: أَنتم كالذين، أو مثلكم مثل الذين من قبْلكم، وقال الزجاج: المعنى: وعداً كما وعد الذين من قبلكم، فهو متعلق بـ [وَعَد].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا قلق، ثم قال: كانوا أَشد منكم وأَعظم فعصوا فأُهلكوا، فأَنتم أَحرى بالإهلاك لمعصيتكم وضعفكم.

والخَلاَق: الحظ من القدر والدين وجميع حال المرءِ، وخلاقُ المرءِ: الشيءَ الذي هو به خليق، والمعنى: عجلوا حظهم في دنياهم وتركوا باب الآخرة فاتبعتموهم أنتم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَورد الطبري في تفسير هذه الآية قوله ﷺ: «لتتبعن سَنَن من قبلكم شبْراً بِشِبْر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»[٣]، وما شاكل هذا الحديث مما

---

(١) البقرة: ٢٣٧.

(٢) القصص: ٧٧.

(٣) أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري، وفي تفسير ابن كثير أن ابن جُرَيج أخرجه عن أبي هريرة ـ وتمامه: «قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ أهل الكتاب؟ قال: فمن؟». =

يقتضي اتباع أُمة محمد ﷺ لسائر الأمم، وهو معنى لا يليق بالآية جداً، إذ هي مخاطبة لمنافقين كفار أَعمالهم حابطة، والحديث مخاطبة لموحّدين يتبعون سنن من مضى في أَفعال دنياوية لا تخرج عن الدين.

وقوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أَي: خلطتم كالذي خلطوا وهو مستعار من الخوض في المائعات، ولا يستعمل إلا في الباطل لأن التصرف في الحقائق إنما هو على ترتيب ونظام، وأُمورُ الباطل إنما هي خوض، ومنه قول النبي ﷺ: «رُبَّ متخوّض في مال الله له النار يوم القيامة»(١).

ثم قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فيحتمل أن يراد بـ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ القوم الذين وصفهم بالشدة وكثرة الأَموال والاستمتاع بالخلاق، والمعنى: وأَنتم أَيضاً يعتريكم بإعراضكم عن الحق، ويحتمل أن يريد بـ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المنافقين المعاصرين لمحمد ﷺ، ويكون الخطاب لمحمد ﷺ، وفي ذلك خروج من خطاب إلى خطاب غير الأَول، وحبِطَ العمل وما جرى مجراه يَحْبط حَبْطاً إذا بطل بعد التعب، وحبط البطن حَبَطاً بفتح الباءِ، وهو داءٌ في البطن، ومنه قوله النبي ﷺ: «إنَّ مما يُنْبِت الربيع ما يقتل حَبَطاً أو يُلِمُّ»(٢)، وقوله: في ﴿الدُّنْيَا﴾ معناه ـ إذا كان في المنافقين ـ: ما يُصيبهم في الدنيا من مقت المؤمنين وفساد أَعمالهم وفي الآخرة بأَلا تنفع ولا يقع عليها جزاءٌ، ويُقوّي أَن الإِشارة بـ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إلى المنافقين قوله تعالى في الآية المستقبلة: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ فتأَمله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

= وهكذا رواه أبو معشر عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فذكره.

(١) أخرجه البخاري في باب ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾، ولفظه فيه: «إن رجالاً يتَخوَّضُونَ في مال الله بغير حق، فلهم النار يوم القيامة».

(٢) سبق الاستشهاد به عند تفسير الآية (١٧) من هذه السورة وهي قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾.

يقول عزَّ وجلَّ لنبيّه ﷺ: ألم يأت هؤلاءِ المنافقين خبرُ الأُمم السابقة التي عصت الله بتكذيب رسله فأهلكها؟ وعاد وثمود قبيلتان، وقوم إبراهيم: نمرود وأصحابه وتباع دولته، وأصحاب مدين: قوم شعيب، والمؤتفكات: أهل القرى الأَربعة، وقيل: السبعة الذين بُعث إليهم لوط ﷺ، ومعنى المؤتكفات: المنصرفات والمنقلبات، أَفكت فائتكفت لأنه جعل أعاليها أسافلها، وقد جاءت في القرآن الكريم مفردة تدل على الجمع، ومن هذه اللفظة قول عمران بن حطان:

بمنطِـقٍ مُسْتَبِيـنٍ غَيْـرِ مُلْتَبِـسٍ ... بِـهِ اللِّسَـانُ وأَنِّـي غيْرُ مُؤْتَفِـك[1]

أَي: غير منقلب منصرف مضطرب، ومنه يقال للريح: مؤتفكة لِتَصَرُّفِهَا، ومنه: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[2]، والإفك صرف القول من الحق إلى الكذب. والضمير في قوله: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ عائد على هذه الأمم المذكورة. وقيل: على المؤتفكات خاصة، وجعل لهم رسلاً وإنما كان نبيُّهم واحداً لأنه كان يرسل إلى كل قرية رسولاً داعياً، فهم رسل رسول الله، ذكره الطبري، والتأويل الأَول في عود الضمير على جميع الأُمم أَبيَن. وقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ يريد: بالمعجزات، وهي بيِّنة في نفسها بالإضافة إلى الحق لا بالإضافة إلى المكذبين بها.

ولما فرغ من ذكر المنافقين بالأَشياءِ التي ينبغي أن تصرف عن النفاق وتنهي عنه عقَّب ذلك بذكر المؤمنين بالأشياء التي تُرغِّب في الإيمان وتُنَشِّط إليه تلطُّفاً منه تبارك وتعالى بعباده لا ربَّ غيره، وذكرت هنا الولاية إذْ لا ولاية بين المنافقين، ولا شفاعة لهم، ولا يدعو بعضهم لبعض، وكأَن المراد هنا الولاية في الله خاصة. وقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يريد: بعبادة الله وتوحيده وكل ما اتبع ذلك، وقوله: ﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ يريد عبادة الأَوثان وكل ما اتبع ذلك، وذكر الطبري عن أَبي العالية أنه قال: كل

(١) انظر؛ شعر الخوارج لإحسان عباس. وقد أورد البيت فيه مع بعض الاختلاف. وفيه: لمنطق بدلا من بمنطق، ورأي بدلا من وأني.

(٢) من قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

ما ذكر الله في القرآن من الأمر بالمعروف فهو دعاءٌ من الشِّرك إلى الإسلام ، وكل ما ذكر من النهي عن المنكر فهو النهي عن عبادة الأوثان والشياطين ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هي الصلوات الخمس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبحسب هذا تكون الزكاة المفروضة ، والمدح عندي بالنوافل أبلغ ، إذْ من يُقيم النوافل أحرى بإقامة الفرض. وقوله: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ جامع للمندوبات ، والسين في قوله: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ﴾ مدخل في الوعد مهلة ، لتكون النفوس تنعم برجائه ، وفضله تعالى زعيم بالإنجاز.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. وعْدَهُ في هذه الآية صريح نص في الخير ، وقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ إما من تحت أشجارها ، وإما مِن تحت عُلِّيَّاتها ، وإما من تحت مجالسها بالإضافة إلى هذا ، كما تقول في دارين متجاورتين ومتساويتي المكان: هذه تحت هذه.

وذكر الطبري في قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ عن الحسن أنه قال: سألت عنها عمران بن الحصين وأبا هريرة فقالا: على الخبير سَقَطْتَ ، سألنا عنها رسول الله ﷺ فقال: «قَصْر في الجنة من اللؤلؤ ، فيه سبعون داراً من ياقوتة حمراءَ ، في كل دارٍ سبعون بيتاً من زمردة خضراءَ ، في كل بيت سبعون سريراً»[(١)] ، ونحو هذا مما يشبه هذه الألفاظ أو يقرب منها فاختصرتها طلباً للإيجاز ، وأما قوله: ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾ فمعناه: في جنات إقامة وثبوت ، يقال: عَدَن الشيءُ في المكان إذا أقام به وثبت ، ومنه المعدن ، أي موضع ثبوت الشيءِ ، ومنه قول الأعشى:

وإنْ يَسْتَضِيفُـــوا إلـــى حِلْمِـــهِ يُضـافـوا إلـى راجـحٍ قـدْ عَـدَنْ[(٢)]

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن الحسن ، وتتمة الحديث التي تركها ابن عطية وكأنه يشك في نسبتها إلى الصادق الأمين ، «على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون ، على كل فراش امرأة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة ، في كل مائدة سبعون لوناً من كل طعام ، في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة ، فيُعطي المؤمن من القوة في كل غداة ما يأتي على ذلك كله. ـ (عن الدر المنثور ، وفتح القدير) ، وقد علّق أبو حيان على هذه التتمة بقوله: «وقد ذكر في آخر هذا الحديث أشياء ، وإن صح النقل عن الرسول وجب المصير إليه». والحديث ضعيف بسبب جسر بن فرقد.

(٢) رواه الطبري بالتاء في الكلمتين (تستضيفوا ـ تضافوا) ، وبلفظ (حُكْمه) بدلاً من (حِلْمِهِ) والبيت من نُونِيّة الأعشى قيس أبي بصير ، وروايته في الديوان تختلف عن هذه الرواية ولفظها: =

هذا الكلام اللغوي ، وقال كعب الأَحبار: جنات عدن هي بالفارسية: جنات الكروم والأَعناب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَظن هذا وهماً اختلط بالفردوس وقال الضحاك: جنات عدن هي: مدينة الجنة وعُظْمها ، فيها الأَنبياءُ والعلماءُ والشهداءُ وأَئمة العدل والناس حولهم بعد والجنات حولها ، وقال ابن مسعود: عدن هي بُطْنان الجنة وسرّتها[١] ، وقال عطاءُ: عدن: نهرٌ في الجنة جناته على حافته ، وقال الحسن: عدن: قصر في الجنة لا يدخله إِلا نبي أَو صِدِّيق أو شهيد أو حكم عدل ، ومدّ بها صوته.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والآية تأْبى هذا التخصيص إِذ قد وعد الله بها جميع المؤمنين.

وأما قوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فروي فيه أن الله عزَّ وجلَّ يقول لعباده إذا استقروا في الجنة: «هل رضيتم؟ فيقولون: وكيف لا نرضى يا ربنا؟ فيقول: إني سأُعطيكم أفضل من هذا كله ، رضواني ، أَرضى عليكم ، فلا أَسخط عليكم أبداً». الحديث[٢]. وقوله: ﴿أَكْبَرُ﴾ يريد: أكبر من كل ما تقدم ، ومعنى الآية والحديث متفق.

وقال الحسن بن أبي الحسن: وصل إلى قلوبهم برضوان الله من اللذة والسرور

= وإنْ يُسْتَضافُوا إلى حُكْمِهِ ... يُضَافُوا إلى هادِنٍ قَدْ رَزَن

ويستضيفوا: يَلْجئوا ، والراجح: الهادىء الساكن ، وعَدَنَ بالمكان يَعْدِنُ: أقام فيه وثبت ، والهادِنُ في رواية الديوان: الساكن وهو بمعنى الراجح ، ورزن: ثبت واستقر، والقصيدة في مدح قيس بن معد يكرب الكِنْدي، وهي ثلاثة وثمانون بيتاً.

(١) بُطْنان الجنة (بضم الباء): وَسَطُهَا ، وفي الحديث: «ينادي منادٍ من بُطْنانِ العرش» أي من وسطه ، وقيل: من أصله ، (عن اللسان).

(٢) أخرجه أحمد ، والبخاري ومسلم ، والترمذي ، والنسائي والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي سعيد ، ولفظه الذي نقله في (الدر المنثور): قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة ، يا أهل الجنة ، فيقولون: لبيك يا ربنا وسعديك والخير في يديك ، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا ، ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحداً من خلقك ، فيقول: الا أُعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: يا رب ، وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أُحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

ما هو أَلَذُّ عندهم وأَقَرُّ لأَعينهم من كل شيءٍ أَصابوه من لذة الجنة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويظهر أَن قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ إشارة إلى منازل المقربين الشاربين من تَسْنيم[1] الذين يرون كما يرى النجم الغائر في الأُفق، وجميع من في الجنة راض والمنازل مختلفة، وفضل الله تبارك وتعالى متسع. والفوز: النجاة والخلاص ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[2]، والمقربون هم في الفوز العظيم، والعبارة عندي عن حالهم بسرور وكمال أَجود من العبارة عنها بلذة، واللَّذة أيضاً مستعملة في هذا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله: ﴿جَٰهِدِ﴾ مأْخوذ من بلوغ الجهد، وهي مقصود بها المكافحة والمخالفة، وتتنوع بحسب المجاهد، فجهاد الكافر المُعْلِن بالسيف، وجهاد المنافق المتستِّر باللسان والتعنيف، والاكفهرار في وجهه ونحو ذلك.

ألا ترى أن من ألفاظ الشرع قوله ﷺ: «والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله»[3]، فجهاد النفس إنما هو مصابرتها باتباع الحق وترك الشهوات، فهذا الذي

(١) التَّسْنيم: قالوا: هو ماءٌ في الجنة، وسمّي بذلك لأنه يجري فوق الغرف والقصور.

(٢) آل عمران: ١٨٥.

(٣) رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه عن فضالة بن عبيد، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة. (الجامع الصغير)، وفي مسند الإمام أحمد (٦ ـ ٢٠، ٢٢) أن عمرو بن مالك الجبني أخبر أنه سمع فضالة بن عبيد يحدث عن رسول الله ﷺ قال: «من مات على مرتبة من هذه المراتب بعث عليها يوم القيامة»، وبهذا الإسناد عن فضالة بن عبيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله فإنه ينمو عمله إلى يوم القيامة ويأمن فتنة القبر»، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المجاهد من جاهد نفسه لله، أو قال: في الله عزَّ وجلَّ».

يليق بمعنى هذه الآية ، لكنا نجلب أقوال المفسرين نصّاً لتكون معرضة للنظر ، قال الزجاج (وهو متعلق في ذلك بألفاظ ابن مسعود): أُمر في هذه الآية بجهاد الكفار والمنافقين بالسيف ، وأُبيح له فيها قتل المنافقين ، قال ابن مسعود: إنْ قدر وإلاّ فباللسان ، وإلا فبالقلب والاكفهرار في الوجه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقتل لا يكون إلا مع التَّجْليح[١] ، ومن جلَّح خرج عن رتبة النفاق. وقال ابن عباس: المعنى: جاهد المنافقين باللسان ، وقال الحسن ابن أبي الحسن: المعنى: جاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم ، قال: وأكثر ما كانت الحدود يومئذ تصيب المنافقين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ووجه ترك النبي ﷺ المنافقين بالمدينة أنهم لم يكونوا مُجلِّحين ، بل كان كل مغموص عليه إذا وقف ادعى الإسلام ، فكان في تركهم إبقاءٌ وحيطة للإسلام ، ومخافة أن تنفر العرب إذا سمعت أَن محمداً ﷺ يقتل من يظهر الإسلام ، وقد أَوعبت هذا المعنى في صدر سورة البقرة ، ومذهب الطبري أَن النبي ﷺ كان يعرفهم ويسترهم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فلفظة عامة تتصرف في الأَفعال والأَقوال واللحظات ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾[٢] ، ومنه قول النسوة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: أَنت أَفظُّ وأَغلظ من رسول الله ﷺ[٣] ، ومعنى الغِلَظ:

---

(١) التَّجليح: المكاشفة والمجاهرة بالعداوة ، والمجالح: المكابر. (اللسان).

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) روى البخاري ومسلم هذا الحديث في باب «مناقب عمر رضي الله عنه» قالا: «استأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه عاليةً أصواتهن على صوته ، فلما استأذن عمر ، قمن فبادرن الحجاب ، فأذن له رسول الله ﷺ فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك ، فقال عمر: أضحك الله سنَّك يا رسول الله ، فقال النبي ﷺ: «عجبت من هؤلاء اللاتي كنّ عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب» ، فقال عمر رضي الله عنه: أنت أحق أن يهَبْن يا رسول الله ، ثم قال عمر: يا عدوات أنفسهن أتَهبنني ولا تَهَبْن رسول الله ﷺ! فقلن: نعم! أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ: «إيها يا بن الخطاب ، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجّاً إلا سلكَ فَجّاً غير فَجِّك».

خشونة الجانب ، فهي ضدُّ قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[(١)] ، ثم خبرت الآية المؤمنين عليهم في عقب الأمر بإخباره أنهم في جهنم[(٢)] ، والمعنى: هم أهل لجميع ما أُمرت أن تفعل بهم ، والمأوى: حيث يأوي الإنسان ويستقر.

وقوله تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ الآية. هذه الآية نزلت في الجُلاس بن سويد بن الصامت ، وذلك لأنه كان يأتي من قباءَ ومعه ابن امرأته عُمَير بن سعد ـ فيما قال ابن إسحق ـ وقال عُرْوَة: اسمُه مصعب ، وقال غيره: وهما على حمارين ، وكان رسول الله ﷺ قد سمَّى قوماً ممن اتَّهمهم بالنفاق وقال: «إنهم رجس» ، فقال الجُلاَسُ لِلَّذي كان يسير معه: والله ما هؤلاءِ الذين سمّى محمد إلا كبراؤُنا وسادتنا ، ولئن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شرٌّ من حُمُرنا هذه ، فقال له ربيبه أو الرجل الآخر: والله إنه لحق ، وإنك لشَرٌّ من حمارك ، ثم خشي الرجل أن يلحقه في دينه درك فخرج وأخبر رسول الله ﷺ بالقصة ، فأَرسل النبي عليه الصلاة والسلام في أثر الجُلاس فقرَّره فحلف بالله ما قال ، فنزلت هذه الآية[(٣)].

والإشارة بكلمة الكفر إلى قوله: «إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شر من الحُمُر» ، لأَن التكذيب في قوة هذا الكلام. قال مجاهد: وكان الجُلاس لما قال له صاحبه: «إني سأُخبر رسول الله ﷺ بقولك هذا» ، همَّ بقتله ثم لم يفعل عجزاً عن ذلك ، فإلى هذا هي الإشارة بقوله: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾ ، وقال قتادة بن دعامة: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أُبي بن سلول ، وذلك أَن سنان بن وبرة الأَنصاري والجهجاه الغِفَاري كسع أَحدهما رجل الآخر في غزوة المريسيع ، فتثاورا ، فصاح جهجاه بالأنصار وصاح سنان بالمهاجرين فثار الناس فهدن رسول الله ﷺ الأَمر ، فقال

---

(١) الشعراء: ٢١٥ ، وهي أيضاً ضد: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾.

(٢) في العبارة شيءٌ من القلق وقد يستقيم قوله: «والمعنى: هم أهل لجميع ما أُمرت أن تفعل بهم» ، وذلك أنه أُمر بالجهاد وأُمر بالغلظة ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم» ، وقال الضحاك: «جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهرتهم». وهذا يوضح ما ذكره ابن عطية من التخيير بين الجهاد بالسيف والغلظة بالكلام فهم أهل لجميع ذلك.

(٣) أخرجه ابن إسحق ، وابن أبي حاتم عن كعب بن مالك ، وأخرج مثله ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخرجه عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن عروة.

عبد الله بن أُبي بن سلول: ما أَرى هؤلاءِ إِلا قد تداعوا علينا، ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال الأُول: سمِّن كَلْبكَ يأكلك، ولئن رجعنا إِلى المدينة ليخرجن الأَعزُّ منها الأَذل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فوقفه فحلف أَنه لم يقل ذلك، فنزلت الآية مكذبة له[1]، والإِشارة بكلمة الكفر إلى تمثيله: سَمِّنْ كلبك يأكلك، قال قتادة: والإِشارة بـ ﴿وَهَمُّواْ﴾ إلى قوله: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾. وقال الحسن: همّ المنافقون من إِظهار الشرك ومكابرة النبي ﷺ بما لم ينالوا، وقال تبارك وتعالى: ﴿بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ ولم يقل: «بعد إيمانهم» لأَن ذلك لم يتجاوز أَلسنتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ معناه أَن رسول الله ﷺ أنفذ لعبد الله بن أُبي بن سلول دية كانت قد تعطلت له، ذكر عكرمة أنها كانت اثني عشر أَلفاً، وقيل: بل كانت للجُلاَس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا بحسب الخلاف المتقدم فيمن نزلت الآية من أَولها، وتقدم اختلاف القراءِ في ﴿نَقَمُوٓاْ﴾ في سورة الأعراف، وقرأَها أَبو حيْوَة وابن أَبي عبلة بكسر القاف، وهي لغة، وقوله: ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ استثناءٌ من غير الأَول، كما قال النابغة:

وَلاَ عيْـبَ فيهـمْ غيْـر أَنَّ سُيُـوفَهُـم   بِهِـنَّ فلـولٌ مِـنْ قِـراع الكَتَـائِـبِ[2]

فكأَن الكلام: وما نقموا إلا ما حقه أَن يشكر.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾: إِنها نزلت في قوم من قريش أَرادوا قتل رسول الله ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا لا يناسب الآية، وقالت فرقة: إِن الجُلاس هو الذي همَّ بقتل رسول الله ﷺ،

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه. (الدر المنثور ـ وفتح القدير).

(٢) الفُلول جمع فلّ وهو الثَّلم في السيف، والقراع والمقارعة: المضاربة بالسيوف في الحرب، وهذا البيت من تأكيد المدح بما يشبه الذَّم، والمعنى في الآية الكريمة: «وما عابوا وأنكروا إلا ما هو حقيق بالمدح والثناءِ»، ومن نفس الباب قول الشاعر:

مـــا نَقَمـــوا مِـــنْ بَنـــي أُمَيَّـــة إلا   أنَّهُـــمْ يَحْلُمُـــونَ إنْ غَضِبُـــوا

وهذا يشبه الآية إلا أنه غير قوي السَّند، وحكى الزجاج أن اثني عشر من المنافقين همّوا بذلك فأَطلع الله عليهم، وذِكْرُ رسولِ الله ﷺ في إغنائهم من حيث كُثرت أَموالهم من الغنائم، فرسول الله ﷺ سبب في ذلك، وعلى هذا الحدّ قال رسول الله ﷺ للأنصار: «كنتم عالة فأغناكم الله بي»(١)، ثم فتح عزَّ وجلَّ لهم باب التوبة رفقاً بهم ولطفاً في قوله: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، وروي أن الجُلاس تاب من النفاق فقال: «إن الله قد ترك لي باب التوبة»، فاعترف وأَخلص وحسنت توبته. والعذاب الأَليم اللاحق بهم في الدنيا هو المقت والخوف والهجنة عند المؤمنين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾.

هذه الآية نزلت في ثعلبة بن حاطب الأَنصاري، وقال الحسن: وفي معتب بن قشير معه، واختصار ما ذكره الطبري وغيره من أَمره أنه جاءَ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أَن يجعل لي مالاً فإنني لو كنت ذا مال لقضيت حقوقه وفعلت فيه الخير، فراده رسول الله ﷺ وقال: «قليلٌ تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه»، فعاود فقال له النبي ﷺ: «ألا تريد أَن تكون مثل رسول الله، لو دعوت أن تسير الجبال معي ذهباً لسارت؟»، فأَعاد عليه حتى دعا له رسول الله ﷺ بذلك، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود حتى ضاقت به المدينة فتنحى عنها، وكثرت غنمه فكان لا يصلي إلا

(١) هذا جزءٌ من حديث طويل رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وفي البخاري (كتاب المغازي) عن عبد الله بن زيد بن عاصم، قال: لمَّا أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلاَّلاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي؟ وعالةً فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أَمَنّ، قال: ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ؟ قال: «لو شئتم قلتم: جئتنا كذا وكذا، ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشِعْباً لسلكت وادي الأنصار وشِعبُها، الأنصار شعار والناس دثار، إنكم ستلقون بعدي أَثَرَةً فاصبروا حتى تلقوني على الحوض».

الجمعة ، ثم كثرت حتى تنحى بعيداً ونجم نفاقه ، ونزل خلال ذلك فرض الزكاة على رسول الله ﷺ فبعث مصدقين بكتابه في أخذ زكاة الغنم ، فلما بلغوا ثعلبة وقرأ الكتاب قال: هذه أُخت الجزية ، ثم قال لهم: دعوني حتى أَرى رأْيي ، فلما أَتوْا رسول الله ﷺ وأَخبروه قال: «ويح ثعلبة» ثلاثاً ، ونزلت الآية فيه ، وحضر القصة قريب لثعلبة ، فخرج إِليه فقال: أدرك أَمرك فقد نزل فيك كذا وكذا ، فخرج ثعلبة حتى أَتى رسول الله ﷺ فرغب أن يؤدي زكاته ، فأَعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «إن الله أَمرني أَلا آخذ زكاتك» ، فبقي كذلك حتى توفي رسول الله ﷺ ، ثم ورد ثعلبة على أبي بكر ، ثم على عمر ، ثم على عثمان يرغب إلى كل واحد منهم أن يأْخذ منه الزكاة ، فكلهم رد ذلك وأَباه اقتداءً برسول الله ﷺ ، فبقي ثعلبة كذلك حتى هلك في مدة عثمان[1] .

وفي قوله تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ نص المعاقبة على الذنب بما هو أَشد منه ، وقوله: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ يقتضي موافاتهم على النفاق ، ولذلك لم يقبل الخلفاءُ رضي الله عنهم رجوع ثعلبة لشهادة القرآن عليه بالموافاة ، ولولا الاحتمال في أنه نفاق معصية لوجب قتله .

وقرأ الأَعمش: ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ بالنون الثقيلة مثل الجماعة ، [ولَنَكُونَنْ] خفيفة النون .

والضمير الذي في قوله: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ يعود على الله عزَّ وجلَّ ، ويحتمل أن يعود على البخل المضمّن في الآية ، ويضعف ذلك الضمير في ﴿ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ ، وقوله: ﴿ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ يحتمل أن يكون نفاق كفر ويكون تقرير ثعلبة بعد هذا النص والإِبقاءُ عليه لمكان إظهاره الإِسلام وتعلقه بما فيه احتمال ، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ نِفَاقًا ﴾ يريد به نفاق معصية وقلة استقامة فيكون تقريره صحيحاً ، ويكون ترك في أَول الزكاة عقاباً له ونكالاً ، وهذا نحو ما رُوي أن عاملاً كتب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنَّ فلاناً يمنع الزكاة ، فكتب إليه أَنْ دَعْهُ واجعل عقوبته ألا يؤدي الزكاة مع المسلمين ، يريد: لما يلحقه من المقت في ذلك .

---

(١) أخرجه الحسن بن سفيان ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والعسكري في الأمثال ، والطبراني ، وابن منده ، والبارودي ، وأبو نعيم في معرفة الصحابة ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، وابن عساكر عن أبي أُمامة الباهلي رضي الله عنه. (الدر المنثور ـ وفتح القدير). والحديث ضعيف.

وقرأ الحسن، والأعرج، وأبو عمرو، وعاصم، ونافع، وسائرهم: [يكْذِبُونَ] خفيفة، وقرأ أبو رجاءٍ: [يُكَذِّبُون] مشددة.

وذكر الطبري في هذه الآية ما يناسبها من حديث رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، إذا وعد أخلف، وإذا حدّث كذب، وإذا اؤْتمنَ خان»(١)، وفي حديث آخر: «وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» ونحو هذا من الأحاديث، ويظهر من مذهب البخاري وغيره من أهل العلم أن هذه الخلال الذميمة منافق من اتصف بها إلى يوم القيامة. ورُوي أن عمرو بن العاص لما احتضر قال: «زوِّجوا فلاناً فإني قد وعدته، لا ألقى الله بثلث النفاق»، وهذا ظاهر كلام الحسن بن أبي الحسن، وقال عطاء بن أبي رباح: «قد فعل هذه الخلال إخوة يوسف ولم يكونوا منافقين، بل كانوا أنبياءَ»، وهذه الأحاديث إنما هي في المنافقين في عصر النبي ﷺ، الذين شهد الله عليهم، وهذه الخصال في سائر الأمة معاصٍ لا نفاق، وذكر الطبري أن الحسن رجع إلى هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا محالة أنها كانت مع التوحيد والإيمان بمحمد ﷺ معاصٍ، ولكنها من قبيل النفاق اللغوي، وذكر الطبري عن فرقة أنها قالت: كان العهد الذي عاهد الله عليه هؤلاءِ المنافقون شيئاً نَوَوْهُ في أنفسهم ولم يتكلموا به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا فيه نظر(٢).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. وفي آخره: «وتلا هذه الآية ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ إلى آخر الآية، وأخرج البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»، (الدر المنثور)، و(تفسير ابن كثير).

(٢) للعلماء في هذه القضية رأيان وهي قضية «العهد والطلاق وكل حكم ينفرد به المرءُ ولا يفتقر إلى غيره فيه»، قال بعضهم: يلزمه منه ما يلتزمه بقصده وإن لم يلفظ به، قال ابن العربيّ: والدليل على صحة ما ذهبنا إليه ما رواه أشهب عن مالك وقد سُئل: إذا نوى الرجل الطلاق بقلبه ولم يلفظ به بلسانه فقال: يلزمه، كما يكون مؤمناً بقلبه وكافراً بقلبه، وقال الشافعي، وأبو حنيفة: لا يلزم أحداً حكمٌ إلا بعد أن يلفظ به، والحجة ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي عمّا=

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ الآية. لفظ تعلق به من قال في الآية المتقدمة: إن العهد كان من المنافقين بالنِّيَّة لا بالقول، وقرأ الجمهور: ﴿يَعْلَمُوٓا۟﴾ بالياءِ من تحت، وقرأ أَبو عبد الرحمن، والحسن: [أَلَمْ تَعْلَموا] بالتاءِ من فوق، وهذه الآية تناسب حالهم، وذلك أَنها تضمنت إِحاطة علم الله بهم وحضْره لهم، وفيها توبيخهم، على ما كانوا عليه من التحدث في نفوسهم من الاجتماع على ثلب الإِسلام، وراحة بعضهم مع بعض في جهة النبي ﷺ وشرعه، فهي تعم المنافقين أَجمع، وقائل المقالة المذكورة ذهب إلى أَنها تختص بالفرقة التي عاهدت.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ ردَّ على الضمائر في قوله: ﴿يَكْذِبُونَ﴾، وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾، وقوله: ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾. و﴿يَلْمِزُونَ﴾ معناه: ينالون بأَلسنتهم، وقرأ السبعة: ﴿يَلْمِزُونَ﴾ بكسر الميم، وقرأ الحسن، وأَبو رجاءٍ، ويعقوب، وابن كثير ـ فيما رُوي عنه ـ [يلْمُزون] بضم الميم، و﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ لفظة عموم في كل متصدق، والمراد به الخصوص فيمن تصدق بكثير، دلَّ على ذلك قوله عطفاً على ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾، ولو كان «الذين لا يجدون» قد دخلوا في «المطوّعين» لما ساغ عطف الشيءِ على نفسه، وهذا قول أَبي علي الفارسي في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[1] فإنه قال: المراد بالملائكة من عدا هذين وكذلك قال في قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ

= حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به»، ورواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم، فإن الرجل إذا حدث نفسه بالطلاق لم يكن شيئاً حتى يتكلم به، قال أبو عمر: «ومن اعتقد بقلبه الطلاق ولم ينطق به لسانه فليس بشيءٍ، وهذا هو الأشهر عن مالك»، راجع تفسير القرطبي.

(١) البقرة: ٩٨.

وَرُمَّانٌ ﴾[(١)] ، وفي هذا كله نظر ، لأن التكرار لقصد التشريف يسوّغ هذا مع تجوز العرب في كلامها ، وأصل «المطَّوّعين» المَتَطوّعين ، فأبدلت التاءُ طاءً وأُدغم ، وأما المتصدق بكثير الذي كان سبباً للآية فأكثر الروايات أنه عبد الرحمن بن عوف ، تصدق بأربعة آلاف وأمسك مثلها ، فقال له النبي ﷺ: «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أنفقت»[(٢)] ، وقيل هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه تصدق بنصف ماله ، وقيل: عاصم بن عديّ ، تصدق بمائة وسْق ، وأما المتصدق بقليل فهو أبو عقيل حبْحَاب الأراشي ، تصدق بصاع من تمر ، وقال: يا رسول الله ، جررت البارحة بالحرير وأخذت صاعين تركت أحدهما لعيالي وأتيت بالآخر صدقة ، فقال المنافقون: الله غني عن صدقة هذا ، وقال بعضهم: إن الله غني عن صاع أبي عقيل[(٣)] ، وقيل: إن الذي لَمَزَ في القليل أبو خيثمة ، قاله كعب بن مالك صاحب النبي ﷺ ، وتصدق عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف، وقيل: بأربعمائة أُوقية من فضة، وقيل: أقل من هذا ، فقال المنافقون: ما هذا إلا رياءٌ فنزلت الآية في هذا كله.

وقوله تعالى: ﴿ فَيَسْخَرُونَ ﴾ معناه: يستهزئون ويستخِفُّون ، وهو معطوف على ﴿ يَلْمِزُونَ ﴾ ، واعترض ذلك بأن المعطوف على الصلة فهو من الصلة ، وقد دخل بين هذا المعطوف والمعطوف عليه قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ ﴾ ، وهذا لا يلزم ، لأن

---

(١) الرحمن: ٦٨.

(٢) أخرج البزار ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً ، فجاء عبد الرحمن فقال: يا رسول الله عندي أربعة آلاف ، ألفان أقرضهما ربي ، وألفان لعيالي ، فقال: بارك الله لك فيما أعطيت وبارك لك فيما أمسكت ، وجاء رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، إني بتّ أجر الحرير فأصبت صاعين من تمر ، فصاعاً أقرضه ربي وصاعاً لعيالي ، فلمزه المنافقون ، قالوا: والله ما أعطى ابن عوف الذي أعطى إلا رياءً ، وقالوا: أو لم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ، فأنزل الله ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ ﴾ الآية. وأخرج مثله البخاري ، ومسلم ، وابن المنذر ، وغيرهم عن ابن مسعود ، ولم يذكر فيه اسم المتصدق بكثير ، وذكر فيه أن المتصدق بقليل هو أبو عقيل ، وأنه تصدق بنصف صاع. (الدر المنثور) و(فتح القدير).

(٣) أخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والبغوي في معجمه ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في المعرفة عن أبي عقيل قال: بتّ أجر الحديد على ظهري على صاعين من تمر ، فانقلبت بأحدهما إلى أهلي يتبلغون به ، وجئت بالآخر إلى رسول الله ﷺ أتقرب به إلى ربي ، فأخبرته بالذي كان فقال: انثره في المسجد ، فسخر القوم وقالوا: لقد كان الله غنياً عن صاع هذا المسكين، فأنزل الله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآيتين. (الدر المنثور).

قوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ معمول للذي عمل في ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ فهو بمنزلة قوله: «جاءني الذي ضرب زيداً وعمراً فقتلهما». وقوله: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ تسمية العقوبة باسم الذنب، وهي عبارة عما حلَّ بهم من المقت والذل في نفوسهم، وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ معناه: مؤلم، وهي آية وعيد محض.

وقرأ جمهور الناس: ﴿جُهْدَهُمْ﴾ بضم الجيم، وقرأ الأعرج وجماعة معه: [جَهْدهُمْ] بالفتح، وقيل: هما بمعنى واحد، قاله أبو عبيدة، وقيل: هما لمعنيين، الضمّ في المال والفتح في تعب الجسم، ونحوه عن الشعبي[1].

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ يصح أن يكون خبر ابتداءٍ تقديره: هم الذين، ويصح أن يكون ابتداءً وخبره ﴿سَخِرَ﴾، وفي [سخِر] معنى الدعاءِ عليهم، ويحتمل أن يكون خبراً مجرداً عن الدعاءِ، ويحتمل أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ صفة جارية على ما قبْلُ، كما ذكرتُ أول الترجمة.

وقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يحتمل معنيين، أحدهما أن يكون لفظ أَمر ومعناه الشرط بمعنى: إن استغفرت أَو لم تستغفر لن يغفر الله لهم، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾[2]، وبمنزلة قول الشاعر:

أَسِيئِـي بنـا أَوْ أَحْسِنـي لاَ مَلُـومَـةٌ ... لَـدَيْنَـا وَلاَ مَقْلِيَّـةٌ إِنْ تَقَلَّـتِ[3]

وإلى هذا المعنى ذهب الطبري وغيره في معنى الآية، والمعنى الثاني الذي يحتمله اللفظ أن يكون تخييراً، كأَنه قال له: إن شِئْتَ فاستغفر، وإن شئتَ لا تستغفر، ثم أَعلمه أنه لا يغفر لهم وإن استغفر سبعين مرة، وهذا هو الصحيح لقول رسول الله ﷺ وتبْيينه ذلك، وذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمعه بعد نزول هذه الآية يستغفر لهم، فقال: يا رسول الله، أَتستغفر للمشركين وقد أعلمك الله أَنه لا يغفر

---

(١) وقيل: الجَهد بالفتح: المشقة، والجُهد بالضم: الطاقة.

(٢) التوبة: ٥٣.

(٣) البيت لكُثَيِّر عزة، وفي بعض النسخ: «لنا» بدلاً من «بنا»، ورواه في (اللسان) لا ملولةٌ باللام، ومَقْلِيّة: مكروهة، وتقلَّت: فعلت ما تستحق من أَجله الكره والبغض.
قال في اللسان: الجوهريُّ: تَقَلَّى أي تبغَّض قال كثير: «أسيئي بنا...» البيت، ثم قال: «خاطبها ثم غابت»، يعني انتقل من الخطاب إلى الغيبة.

لهم، فقال له: «يا عمر إن الله قد خيرني فاخترت، ولو علمت أني إذا زدت على السبعين يغفر لهم، لزدت»[(١)]، ونحو هذا من مقاولة عمر في وقت إرادة النبي ﷺ الصلاة على عبد الله بن أُبي بن سلول، وظاهر صلاته عليه أن كفره لم يكن يقيناً عنده، ومحال أن يصلي على كافر، ولكنه راعى ظواهره من الإقرار، ووكل سريرته إلى الله عزَّ وجلَّ، وعلى هذا كان ستر المنافقين من أجل عدم التعيين بالكفر، وفي هذه الألفاظ التي لرسول الله ﷺ رفض إلزام دليل الخطاب، وذلك أن دليل الخطاب يقتضي أن الزيادة على السبعين يُغفر معها، فقال رسول الله ﷺ: (ولو علمتُ) فجعل ذلك مما لا يعْلَمه ومما ينبغي أن يُتَعلَّم ويطلب علمه من الله عزَّ وجلَّ، ففي هذا حجة عظيمة للقول برفض دليل الخطاب، وإذا ترتب ـ كما قلنا ـ التخيير في هذه الآية، صح أن ذلك التخيير هو الذي نُسخ بقوله تعالى في سورة المنافقين: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[(٢)] ولمالك رحمه الله مسائل تقتضي القول بدليل الخطاب، منها قوله: «إن المدرك للتشهد وحده لا تلزمه أحكام الإمام؛ لأن النبي ﷺ قال: «من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة»[(٣)]، فاقتضى دليل الخطاب أن من لم يدرك ركعة فليس بمدرك، وله مسائل تقتضي رفض دليل الخطاب، منها قول النبي ﷺ: «وفي سائمة الغنم الزكاة»[(٤)]، فدليل الخطاب أن لا زكاة في غير السائمة، ومالك يرى الزكاة في غير

---

(١) أخرج أحمد، والبخاري والترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، والنحاس، وابن حبان، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت عمر يقول: لما توفي عبد الله بن أُبي دُعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام عليه، فلما وقف قلت: أعَلَى عدوّ الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا، والقائل كذا وكذا أُعَدِّدُ أيامه ورسول الله ﷺ يتبسم، حتى إذا أكثرتُ قال: يا عمر أخر عنّي، إني قد خيرت، قد قيل لي: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، فلو أعلم أني إن زدتُ على السبعين غُفِرَ له لزِدتُ عليها، ثم صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه، فعجبتُ لي ولجرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله، والله ورسوله أعلم، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾، فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده، حتى قبضه الله عزَّ وجلَّ. (الدر المنثور).

(٢) المنافقون: ٦.

(٣) أخرجه الشيخان، وأصحاب السنن الأربعة ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه مالك في «الموطأ»، ولفظه فيه: «وفي سائمة الغنم إذا بلغت أربعين إلى عشرين ومائة ـ شاة».

السائمة، ومنها أن الله عزَّ وجلَّ يقول في الصيد: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾[١]، فقال مالك: حكم المخطىء والمتعمد سواءٌ، ودليل الخطاب يقتضي غير هذا، وأما تمثيله بالسبعين دون غيرها من الأعداد فلأنه عدد كثيراً ما يجيءُ غاية ومقنعاً في الكثرة، ألا ترى إلى القوم الذين اختارهم موسى، وإلى أصحاب العقبة، وقد قال بعض اللغويين: إن التصريف الذي يكون من السين والباءِ والعين فهو شديد الأمْر، ومن ذلك السَّبعة فإنها عدد مقنع، هي في السموات وفي الأرض وفي خلق الإنسان وفي رزقه وفي أعضائه التي بها يطيع الله وبها يعصيه، وبها ترتيب أبواب جهنم فيما ذكر بعض الناس، وهي[٢]: عيناه وأُذناه ولسانه وبطنه وفرجه ويداه ورجلاه، وفي سهام الميسر وفي الأقاليم وغير ذلك، ومن ذلك السَّبعُ والعبوس والعنبس ونحو هذا من القول[٣].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى امتناع الغفران، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ إما من حيث هم فاسقون، وإما أنه لفظ عموم يراد به الخصوص فيمن يوافي على كفره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

هذه آية تتضمن وصف حالهم على جهة التوبيخ لهم وفي ضمنها وعيد، وقوله: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ لفظ يقتضي تحقيرهم وأنهم الذين أبعدهم الله من رضاه، وهذا أمكن

(١) المائدة: ٩٥.

(٢) الضمير عائد على الأعضاء التي يطيع العبد بها ربّه ويعصيه.

(٣) قال الزمخشري في التعليل للتمثيل بالسبعين: «والسَّبعون جارٍ مجرى المثل في كلامهم للتكثير، قال عليٌّ رضي الله تعالى عنه:

لأصبحن العاص وابنَ العاصي ... سبعينَ ألفاً عاقدي النَّواصي

وقال الأزهري: «السبعون هنا جمع السَّبعة المستعملة للكثرة لا السَّبعة التي فوق الستَّة».

في هذا من أن يقال: «المتخلفون» ، ولم يفرح إلا منافق ، فخرج من ذلك الثلاثة ، أَصحاب العُذْر[(١)] ، ومَقْعَد: مصدر بمعنى القعود ، ومثله:

مَـن كـانَ مسْـروراً بمقتـل مـالِـكٍ ....[(٢)]

وقوله: ﴿خِلَٰفَ﴾ معناه: بعْد ، وأَنشد أَبو عبيدة في ذلك:

عَقَـبَ الـرَّبيـعُ خِـلافَهُـمْ فكَـأَنَّمـا   نَشَـطَ الشَّـواطِـبُ بَيْنَهُـنَّ حَصيـرَا[(٣)]

يريد: بعدهم ، ومنه قول الشاعر:

فَقُلْ لِلَّذي يَبْقَى خلافَ الَّذي مَضى   تـأَهَّـبْ لأُخْـرَى مِثْلِهَـا فكَـأن قَـدِ[(٤)]

وقال الطبري: هو مصدر خالفَ يُخَالِفُ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا هو مفعول له، والمعنى: فرح المخلفون بمقعدهم لخلاف رسول الله ﷺ، أو مصدر ، ونصبه في القول الأول كأنه على الظرف ، وكراهيتهم لما ذُكر هي شحٌّ إِذ لا يؤمنون بالثواب في سبيل الله ، فهم يضِنُّون بالدنيا. وقولهم: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ كان ؛ لأن غزوة تبوك كانت في وقت شدة الحر وطيب الثمار والظلال ، قاله ابن

---

(١) يريد الثلاثة الذين قال الله فيهم في الآية (١١٨) من هذه السورة: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ ، وسيأتي الحديث عنهم.

(٢) هذا صدر بيت ، وهو بتمامه:

مَـنْ كـان مَسْـروراً بِمَقْتَـلِ مَـالِـكٍ   فَلْيَـأْتِ نِسْـوَتَنَـا بِـوَجْـه نَهَـارِ

وقد سبق أن استشهد المؤلف بهذا البيت وبيت آخر بعده عند تفسير قوله تعالى في الآية (٧٢) من سورة (آل عمران): ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾.

(٣) البيت في (اللسان) ، وقد نسبه للحارث بن خالد المخزومي ، وذكر أن ابن بَرِّي أنشده للتدليل على أن [خِلاَف] في الآية بمعنى (بَعْد) ، والشَّوَاطِبُ من النساء: اللواتي يشقُقْنَ الخوص ، ويَقْشُرْنَ العُسُب ليَتَّخذْنَ منه الحُصْر ثم يُلقينها إلى المَنقِّيَات ، والمنقيَّة هي التي تأخذ كل شيءٍ على العسيب بِسكِّينها حتى تتركه رقيقاً صالحاً لعمل الحصرْ منه.

(٤) هذا ثاني بيتين ، وأولهما:

تَمَنَّـى أنـاسٌ أن أَمُـوتَ وإنْ أَمُـتْ   فَتِلْـكَ طَـريـقٌ لَسْـتُ فيهـا بـأَوْحَـد

وقد ذكره في اللسان غير منسوب ، والرواية فيها (تَهَيَّأْ) بدلاً من (تأَهَّبْ) ، وفي «البحر» (وكأن) بدلاً من (فكأن) ، ومثل هذا البيت الذي قبله قول مُزاحم العُقَيلي:

وَقَـدْ يفْـرُطُ الجهْـلُ الفتـى ثُـمَّ يَـرْعَـوي   خِـلافَ الصِّبَـا لِلْجَـاهِلِيـنَ حُلُـومُ

عباس، وكعب بن مالك، والناس، فأُقيمت عليهم الحجة بأَن قيل لهم: فإذا كنتم تجزعون من حرّ القيظ، فنار جهنم التي هي أشدّ أَحْرى أَن تجزعوا منها لو فهمتم، وقرأَ ابن عباس، وأبو حيوة: [خلْف]، وذكرها يعقوب ولم ينسبها، وقرىءَ: [خُلْفَ] بضم الخاءِ، ويقوي قول الطبري «إن لفظة الخلاف هي مصدر من خالَفَ» ما تظاهرت به الروايات من أن رسول الله ﷺ أَمرهم بالنَّفْر فعصوا وخالفوا وقعدوا مستأْذنين، وقال محمد بن كعب: قال: «لا تَنْفروا في الحرِّ» رجلٌ من بني سلمة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رجل: يا رسول الله، الحرّ شديد فلا تنفر في الحرّ، قال النقاش: وفي قراءَة عبد الله: [يعلمون] بدل [يَفْقَهُونَ].

وقال ابن عباس، وأَبو رزين، والربيع بن خثيم، وقتادة، وابن زيد: قوله: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا﴾ إشارة إلى مُدّة العُمْر في الدنيا، وقوله: ﴿وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ إشارة إلى تأْبيد الخلود في النار، فجاءَ بلفظ الأَمر ومعناه الخبر عن حالهم، ويحتمل أن يكون صفة حالهم، أَي: هم لما هم عليه من الخطر مع الله وسوءِ الحال بحيث ينبغي أن يكون ضحكهم قليلاً وبكاؤُهم من أجل ذلك كثيراً، وهذا يقتضي أن يكون وقت الضحك والبكاءِ في الدنيا على نحو قوله ﷺ لأُمته: «لو تعلمون ما أَعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً»[(١)]، وروي أن رسول الله ﷺ لما قال هذا الكلام أَوحى الله إليه: «يا محمد لا تقنط عبادي».

وقوله: ﴿جَزَآءَۢ﴾ متعلق بالمعنى الذي تقديره: وليبكوا كثيراً إِذ هم مُعذَّبون جزاءً، وقوله: ﴿يَكْسِبُونَ﴾ نصّ في أن التكسّب هو الذي يتعلق به الثواب والعقاب.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنْهُمْ﴾ الآية. (رجع) يستوي مُجاوزه، وقوله تعالى: [إِنْ] مبينة أَن النبي ﷺ لا يعلم بمستقبلات أَمره من أَجل وسواه[(٢)]، وأيضاً فيحتمل أن يموتوا هم قبل رجوعه، وأَمْرُ الله عزَّ وجلَّ لنبيه ﷺ بأَن يقول لهم: ﴿لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ﴾ هو عقوبة لهم، وإظهارٌ لدناءَة منزلتهم وسوء حالهم، وهذا هو المقصود في قصة ثعلبة بن حاطب التي تقدمت في الامتناع من أَخذ صدقته، ولا خِزْي

---

(١) أخرجه البخاري، والترمذي، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٢) جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾.

أعظم من أن يكون إنسان قد رفضه الشرع وردّه كالجمل الأجرب(١).

وقوله: ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ﴾ يقتضي عندي أن المراد رؤوسهم والمتبوعون، وعليها وقع التشديد بأنها لا تخرج ولا تقاتل عدواً، وكرر معنى قتال العدو؛ لأنه عُظم الجهاد وموضع بارقة السيوف التي تحتها الجنة، ولولا تخصيص الطائفة، لكان الكلام: «فإن رجعك الله إليهم»، ويشبه أن تكون هذه الطائفة قد حُتم عليها بالموافاة على النفاق، وعُيّنوا للنبي ﷺ، وإلاَّ فكيف يترتب ألا يصلي على موتاهم إن لم يعينهم الله. وقوله: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ نصّ في موافاتهم، ومما يؤيد هذا ما روي أن النبي ﷺ عيّنهم لحذيفة بن اليمان، وكانت الصحابة إذا رأوا حذيفة تأخر عن الصلاة على جنازة رجل تأخروا هم عنها، وروي عن حذيفة أنه قال يوماً: بقي من المنافقين كذا وكذا، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنشدك الله أنا منهم؟ فقال: لا، ووالله لا أمنت منها أحداً بعدك؟

وقرأ جمهور الناس: [مَعِيْ] بسكون الياءِ في الموضعين، وقرأ عاصم ـ فيما قال الفضل ـ ﴿معِيَ﴾ بحركة الياءِ في الموضعين، وقوله: [أَوَّلَ] هو بالإضافة إلى وقت الاستئذان.

والخالفون: جميع من تخلف من نساءٍ وصبيان وأهل عذر، غلب المذكر فجمع بالياءِ والنون وإن كان ثمَّ نساءٌ، وهو جمع خالف.

وقال قتادة: الخالفون: النساءُ، وهذا مردود، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الرجال، وقال الطبري: يحتمل قوله: ﴿مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ أن يريد: مع الفاسدين، فيكون ذلك مأخوذاً من: خَلَفَ الشيءُ إذا فسد، ومنه: خُلوف فم الصائم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تأويل مقحم، والأول أفصح وأجرى على اللفظة، وقرأ مالك بن دينار، وعكرمة: [مَعَ الْخَلِفينَ] وهو مقصود من «الخالفين»، كما قال: «عرِداً وبَرِداً» يريد: عارِداً وبارداً(٢) وكما قال الآخر:

---

(١) تقدم ذكر ضعف خبر ثعلبة.
(٢) يشير بهذا إلى أبيات سبق أن تكلّم عليها عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [آل=

مِثْلُ النَّقا لَبَّدَهُ بَرْدُ الظِّلَلِ [١]

يريد: الظلال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

هذه الآية نزلت في شأن عبد الله بن أُبي بن سلول وصلاة رسول الله ﷺ عليه. روى أَنس بن مالك أن رسول الله ﷺ لما تقدم ليصلي عليه جاءَ جبريل عليه السلام، فجذبه بثوبه وتلا عليه هذه الآية، فانصرف رسول الله ﷺ ولم يصلِّ عليه[٢]، وتظاهرت الروايات أن رسول الله ﷺ صلى عليه، وأن الآية نزلت بعد ذلك، وفي كتاب الجنائز من البخاري من حديث جابر قال: «أَتى رسول الله ﷺ عبد الله بن أُبي بعدما أُدخل حفرته فأَمر به فأُخرج ووضعه على ركبته ونفس عليه من ريقه وأَلبسه قميصه»[٣]،

= عمران: ١٤٥] وهذه هي الأبيات:

أصْبَحَ قَلْبِي صَرِدا
لا يَشْتَهِي أَنْ يَرِدَا
إلا عَرِداً عَرِدَا
وصِلِّيَاناً بَرِدَا
وعَنْكَثاً مُلْتَبِدَا

يريد: عارداً وبارداً فحذف للضرورة، والعرادة: شجرة صلبة العود، وجمعها: عَرَادٌ، وعرادٌ عرِد على المبالغة.

(١) النَّقا: القطعة من الرمل تنقاد محدودبة، وفي الحديث الموضوع: «خلق الله آدم من نقا ضَرِيَّة»، أي من رملها (وضَرِيَّة موضع معروف)، وحكى يعقوب في تثنيته نقَيَان ونَقَوان، والجمع نِقْيان وأَنقَاءٌ، وهذه نقاةٌ من الرمل. ويقال: لَبَد بالمكان: أقام به ولزق، فكأن برد الظلال ألصق تراب الرمل بالأرض وثبته عليها.

(٢) أخرجه أبو يَعْلى، وابن جرير، وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٣) الحديث في البخاري في كتاب الجنائز باب «هل يخرج الميت من القبر واللَّحد لعلَّة» ـ وتتمة الحديث=

وروي في ذلك أن عبد الله بن أُبي بعث إلى رسول الله ﷺ في مرضه ورغب إليه أن يستغفر له وأن يصلي عليه، ورُوي أن ابنه عبد الله بن عبد الله جاءَ رسول الله ﷺ بعد موت أبيه فرغب في ذلك وفي أن يكسوه قميصه الذي يلي بدنه، ففعل، فلما جاءَ رسول الله ﷺ ليصلي عليه قام إليه عمر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، أَتصلي عليه وقد نهاك الله عن الاستغفار لهم؟ وجعل يعدد أَفعال عبد الله، فقال له رسول الله ﷺ: أخِّر عنِّي يا عمر فإني خُيِّرت، ولو أَعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت»[1]، وفي حديث آخر: «إن قميصي لا يغني عنه من الله شيئاً، وإني لأَرجو أن يسلم بفعلي هذا أَلف رجل من قومي»، كذا في بعض الروايات، يريد: من منافقي العرب، والصحيح أنه قال: «رجال من قومه»، فسكت عمر، وصلى رسول الله ﷺ على عبد الله، ثم نزلت هذه الآية بعد ذلك، وصلى عليه رسول الله ﷺ لموضع إظهار الإيمان، ومحالٌ أن يصلي عليه وهو يتحقق كفره، وبَعْد هذا ـ والله أَعلم ـ عُيِّن له من لا يصلي عليه، ووقع في مغازي أبي إسحق وفي بعض كتب التفسير: فأَسلم وتاب بهذه الفعلة من رسول الله ﷺ والرغبةِ من عبد الله أَلْفُ رجل من الخزرج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، قاله من لم يعرف عِدَّة الأَنصار.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ الآية. تقدم تفسير مثل هذه الآية[2]. والخطاب للنبي ﷺ والمراد أُمته إذ هو ـ بإجماع ـ ممن لا تفتنه زخارف الدنيا، ويحتمل أن يكون معنى الآية: «ولا تعجبك أَيها الإنسان»، والمراد الجنس، ووجه تكريرها تأْكيد هذا المعنى وإيضاحه، لأن الناس كان يفتنون بصلاح حال المنافقين في دنياهم.

= كما جاء في البخاري: «فالله أعلم، وكان كسا عباساً قميصاً، قال سفيان: وقال أبو هريرة: وكان على رسح
وكان على رسول الله ﷺ قميصان، فقال له ابن عبد الله: يا رسول الله، أَلْبسْ أبي قميصك الذي يلي جلدك، قال سفيان: فيروون أن النبي ﷺ أَلْبَسَ عبد الله قميصه مكافأةً لما صنع»، وسفيان هو راوي الحديث عن عمرو عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهم.

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر رضي الله عنهما. (الدر المنثور ـ وفتح القدير).

(٢) التوبة: ٥٥.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ الآية. العامل في ﴿وَإِذَآ﴾ ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ﴾، والسورة المشار إليها هي براءَة فيما قال بعضهم، ويحتمل أن تكون إلى كل سورة فيها الأمر بالإيمان والجهاد مع الرسول ﷺ، وسورة القرآن أُجمِع على ترك همزها في الاستعمال، واختُلف هل أَصلها الهمز أَم لا؟ فقيل: أَصلها الهمز، فهي من أَسْأَر إذا بقيت له قطعة من الشيء، فالسورة: قطعة من القرآن، وقيل: أصلها ألاَّ تُهمز فهي كسورة البناءِ، وهي ما نبني منه شيئاً بعد شيءٍ، فهي الرتبة بعد الرتبة، ومن هذا قول النابغة:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ أَعْطَـاكَ سـورةً ... تـرى كـلَّ ملْـكٍ دونَهـا يَتَـذبْـذَبُ؟

وقد مضى هذا كله مستوعباً في صدر هذا الكتاب.

و﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿أَنْ ءَامِنُوا﴾ يحتمل أن تكون مفسرة بمعنى أي، فهي ـ على هذا ـ لا موضع لها، ويحتمل أن يكون التقدير: بأنْ، فهي في موضع نصب[1]، و﴿ٱلطَّوْلِ﴾ في هذه الآية: المالُ، قاله ابن عباس، وابن إسحق، وغيرهما، والإشارة بهذه الآية إلى الجَدِّ بن قيس، وعبد الله بن أُبيّ، ومعتب بن قشير، ونظرائهم.

والقاعدون: الزّمْنىٰ وأهل العذر في الجملة ومن تُرِك لضبط المدينة لأن ذلك عذر.

وقوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ الآية. تقريع وإظهار شنعة كما يقال على وجه التَّعْيير: رضيتَ يا فلان كذا؟ و﴿ٱلْخَوَالِفِ﴾: النساءُ، جمع خالفة، هذا قول جمهور المفسرين، وقال أبو جعفر النّحّاس: يقال للرجل الذي لا خير فيه: خالفةٌ، فهذا جمعه بحسب اللفظ، والمراد أخسّة الناس وأخلافهم، وقال النضر بن شميل في كتاب النقاش: الخوالف: من لا خير فيه، وقالت فرقة: الخوالف جمع خالف فهو جارٍ مجرى فوارس ونواكس وهوالك.

و﴿طُبِعَ﴾ في هذه الآية مستعار، ولما كان الطبع على الصوان والكتاب مانعاً منه وحافظاً عليه شُبّه القلب الذي غشيه الكفر والضلال حتى منع الإيمان والهدى منه بالصوان المطبوع عليه، ومن هذا استعارة الغفل والكنان للقلب، و﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ معناه: لا يفهمون.

---

(١) إذا كانت بمعنى (أي) فهي تفسيرية، لأن قبلها شرط، وإذا كان التقدير (بأنْ) فهي مصدرية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾.

الأكثر في ﴿لَٰكِنِ﴾ أن تجيءَ بعد نفي، وهو هنا في المعنى، وذلك أن الآية السالفة معناها أن المنافقين لم يجاهدوا فَحَسُن بعدها: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟﴾، والخيرات جمع خَيْرةٍ، وهو المستحسن من كل شيءٍ، وكثر استعماله في النساءِ، فمن ذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾(١)، ومن ذلك قول الشاعر، أنشده الطبري:

ولقَـدْ طَعَنْـتُ مجَـامِـعَ الـرَّبَـلاَتِ ... رَبَـلاَتِ هِنْـدٍ خَيْـرةِ المِلكَـاتِ(٢)

و﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: الذين أدركوا بغيتهم من الجنة، والفلاح يأتي بمعنى إدراك البغية، كقول لبيد:

أَفلِحْ بمـا شِئْـت فقـدْ يُبْلَـغُ بـالضَّعْـ ... ـفِ وقـدْ يُخْـدعُ الأَريـبُ(٣)

وقد يأْتي بمعنى البقاءِ كقول الشاعر:

لكـلِّ هـمٍّ مـن الْهُمـوم سَعَـهْ ... والمُسْيُ والصُّبْحُ لا فـلاح معـه(٤)

---

(١) الرحمن: ٧٠.

(٢) البيت أنشده أيضاً أبو عبيدة، وهو لرجل من بني عديّ تيم جاهليّ، قال الأخفش في قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾: «إنه لما وُصِفَ به وقيل: «فلان خير» أشبه الصفات فأدخلوا فيه الهاءَ للمؤنث، ولم يريدوا به أفعل، (كما في البيت)، فإن أردت معنى التفضيل قلت: «فلانةٌ خَيْرُ الناس» ولم تقل خيرة، «وفلان خير الناس» ولم تقبل أخير.
والرَّبَلات: جمع رَبْلة بتسكين الباءِ وبتحريكها، قال الأصمعي: والتحريك أفصح، وهي ما حول الضَّرع والحياء من باطن الفخذ، وخيرة بسكون الياءِ هي الفاضلة من كل شيءٍ، وقيل: هي الكريمة النسب، الشريفة الحسب، الحسنة الوجه، الحسنة الخُلُق، الكثيرة المال.

(٣) نسب صاحب (اللسان) البيت لعبيد، ورواه «بالنَّوْك» بدلاً من «بالضَّعْف» وأشارَ إلى رواية الضعف، والمعنى: عش بما شئت من عقل وحمق فقد يرزق الأحمق ويُحرم العاقل، وقد سبق الاستشهاد بالبيت في غير هذا الموضع من الكتاب.

(٤) البيت للأضبط بن قُرَيْع السَّعْدي، والمعنى: ليس مع كرّ الليل والنهار بقاءٌ. =

أي: لا بقاءَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبلوغ البُغية يعم لفظة الفلاح حيث وقعتْ فتأَمله.

و﴿ أَعَدَّ ﴾(١) معناه: يسَّر وهيأَ، وقوله: ﴿ مِن تَحۡتِهَا ﴾ يريد: من تحت مبانيها وأَعاليها، و﴿ ٱلۡفَوۡزُ ﴾ حصول الإِنسان على أَمله وظفره ببغيته، ومن ذلك فوزُ سِهام الأَيسار(٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ ﴾ الآية، اختلف المتأَولون في هؤلاءِ الذين جاءُوا ـ هل كانوا مؤمنين أو كافرين؟ فقال ابن عباس وقوم معه منهم مجاهد: كانوا مؤمنين وكانت أَعذارهم صادقة، وقرأ: [وجاء المُعْذِرون] بسكون العيْن، وهي قراءة الضحاك، وحميد الأَعرج، وأَبي صالح، وعيسى بن هلال، وقرأَ بعض قائلي هذه المقالة [المُعَذِّرونَ] بشد الذال، قالوا: وأَصله «المعتذرون» فقلبت التاءُ ذالاً وأُدغمت، ويحتمل «المُعْتَذِرُونَ» في هذا القول معْنيين، أحدهما: المعتذرون بأَعذار حق، والآخر أن يكون: الذين قد بلغوا عذرهم من الاجتهاد في طلب الغزو معك فلم يقدروا، فيكون مثل قول لبيد:

. . . . ومنْ يبْكِ حوْلاً كامِلاً فقد اعْتَذَر(٣)

وقال قتادة وفرقة معه: بل الذين جاؤُوا كفرة، وقولهم وعذرهم كذب، وكل هذه الفرقة قرأَ: ﴿ ٱلۡمُعَذِّرُونَ ﴾ بشد الذال، فمنهم من قال: أَصله المعتذرون، نقلت حركة

= هذا وقد سبق لابن عطية أن استشهد بهذا البيت في مواضع أخرى من تفسيره.

(١) قال بعض المفسرين: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ . . . ﴾ الآية. تفسير لكلمة (الخَيْرَات) إذ هي لفظ مبهم. وقيل: إن المراد بالخيرات هنا الحور العين بدليل الآية الكريمة: ﴿ فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ ﴾، أخرجه القرطبي في تفسيره عن الحسن. وقيل: المراد بها الغنائم من الأموال والذراري، ولكن ابن عطية اختار أقرب الأقوال ارتباطاً باللغة.

(٢) ذلك أنهم كانوا يتساهمون على الميسر، فكلما خرج قِدْحُ رجل قيل: قد فاز فوزاً.

(٣) هذا عجز البيت، وهو بتمامه:

إلـى الحَـوْلِ ثـمَّ اسْـمُ السَّـلام عليكمـا ومـن يَبْـكِ حَـوْلاً كـامـلاً فَقَـد اعْتَـذَر

أي فعل ما في طاقته واستحق أن يقبل عذره، ولبيد في البيت يطلب إلى ابنتيه أن يبكيا عليه عاماً واحداً، وبهذا يقبل عذرهما في عدم البكاء بعده.

التاءِ إلى العين وأُدغمت التاءُ في الذال، والمعنى: معتذرون بكذب، ومنهم من قال: هو من التعذير، أي الذين يعذرون الغزو ويدفعون في وجه الشرع، فالآية إلى آخرها ـ في هذا القول ـ إنما وصفت صنفاً واحداً في الكفر ينقسم إلى أعرابي وحضري، وعلى القول الأول وصفت صنفين مؤمناً وكافراً، قال أبو حاتم: وقال بعضهم: سألت مسلمة فقال: «المعذَّرون» بشد العين والذال، قال أبو حاتم: أراد: المعتذرين، والتاءُ لا تدغم في العين لبعد المخارج، وهي غلط منه أو عليه، قال أبو عمرو: وقرأ سعيد بن جبير: [المُعتَذرون] بزيادة تاءٍ، وقرأ الحسن ـ بخلاف عنه ـ وأبو عمرو، ونافع، والناس: [كَذَبوا] بتخفيف الذال، وقرأ الحسن ـ وهو المشهور عنه ـ وأُبي بن كعب، ، ونوح، وإسماعيل: [كَذَّبوا] بتشديد الذال، والمعنى: لم يصدقوه تعالى ولا رسوله وردُّوا عليه أمره، ثم توعَّد ـ في آخر الآية ـ الكافرين بعذاب أليم، فيحتمل أن يريد في الدنيا بالقتل والأسر، ويحتمل أن يريد في الآخرة بالنار.

وقوله: ﴿ مِنۡهُمۡ ﴾ يريد أن المعَذِّرين كانوا مؤمنين، ويرجحه بعض الترجيح فتأَمله[1]، وضعف الطبري قول من قال إن «المَعَذِّرين» من التعذير وأَنحى عليه، والقول منصوصٌ ووجْهُهُ بيّن والله المعين.

وقال ابن إسحق: المعذَّرون نفر من بني غفار، منهم خفاف بن إيماءِ بن رحْضة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يقتضي أنهم مؤمنون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

---

(١) يميل أكثر المفسرين إلى أن المعتذرين كانوا مؤمنين، وهو رأي ابن عباس رضي الله عنهما، لأن التقسيم يقتضي ذلك، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾؟ فلو كان الجميع كفاراً لم يكن لوصف الذين قعدوا بالكذب اختصاص، وكان التركيب الصحيح: «سيصيبهم عذاب أليم».

يقول تعالى: ليس على أَهل الأَعذار الصحيحة من ضعف أبدان أو مرض أو زمانة أو عدم نفقة ـ إثمٌ، والحرجُ: الإِثم[١]. وقوله: ﴿إِذَا نَصَحُواْ﴾ يريد: بِنيّاتهم وأَقوالهم سرّاً وجهرّاً، وقرأَ أبو حيوة: ﴿نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بغير لام وبنصب الهاءِ من المكتوبة[٢]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ﴾ الآية في لائمة تُناط بهم أو تذنيب أو عقوبة، ثم أَكد الرجاءَ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «والله لأَهل الإِساءَة غفور رحيم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا على جهة التفسير أَشبه منه على جهة التلاوة لخلافه المصحف.

واختلف فيمن المراد بقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾.

فقالت فرقة: نزلت في بني مُقَرِّن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبنو مُقَرِّن ستة إِخوة صحبوا النبي ﷺ، وليس في الصحابة ستة إِخوة غيرهم، وقيل: كانوا سبعة[٣].

وقيل: نزلت في عبد الله بن مُغَفَّل المزني، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ﴾ الآية. اختلف فيمن نزلت هذه الآية.

---

(١) هذه الآية أصل في سقوط التكليف عن العاجز، فكل من عجز عن شيءٍ، سقط عنه، ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من جهة المال، وسقوط التكليف يكون إلى بدل هو فعلٌ تارة، أو عُزْمٌ تارة أخرى، ونظيرها قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ﴾، ومثل هذه الآيات ما رواه البخاري، والإمام أحمد، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وغيرهم ـ عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ لما قفل من غزوة تبوك، فأشرف على المدينة قال: «لقد تركتم بالمدينة رجالاً ما سرتم في مسير، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم فيه»: قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: «حَبَسَهم العذر»، فلا حرج على من حبسه العذر، وفضل الله كبير، ورحمته وسعت كل شيء.

(٢) يريد: لفظ الجلالة.

(٣) في (القاموس) ـ مادة قرن ـ «عبد الله ـ وعبد الرحمن، وعقيل، ومعقل، والنعمان، وسويد، وسنان أولاد مُقَرِّن «كمحدّث صحابيون».

فقيل: نزلت في عِرْباضِ بن سارية، وقيل: نزلت في عبد الله بن مُغَفَّل، وقيل: في عائذ بن عمرو، وقيل: في أبي موسى الأشعري ورهطه، وقيل: في بني مُقَرِّن، وعلى هذا جمهور المفسرين، وقيل: نزلت في سبعة نفر من بطون شتى، فهم البكَّاؤون، وهم سالم بن عُمَير من بني عمرو بن عوف، وحَرَمِيّ بن عمرو من بني واقف، وأبو ليلى عبدُ الرحمن بن كعب من بني مازن بن النجار، وسليمان بن صخر من بني المعلَّى، وأبو رُعَيْلة عبد الرحمن بن زيد من بني حارثة، وهو الذي تصدق بعرضه فقبل الله منه، وعمرو بن غَنَمَة من بني سلمة، وعائذ بن عمرو المُزَنِيّ، وقيل: عبد الله بن عمرو المزني، قال هذا كله محمد بن كعب القرظي، وقال مجاهد: البكَّاؤون هم بنو بكر من مزينة.

ومعنى قولهم: ﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾ أي على ظهر يُركب ويُحمل عليه الأثاث، وقال بعض الناس: إنما استحملوه النعال، ذكره النقاش عن الحسن بن صالح، وهذا بعيد شاذ.

والعامل في ﴿إِذَا﴾ يحتمل أن يكون: ﴿قُلْتَ﴾ ويكون قوله: ﴿تَوَلَّوا﴾ مقطوعاً، ويحتمل أن يكون العامل: ﴿تَوَلَّوا﴾ ويكون تقدير الكلام: فقلت، أو يكون قوله: ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ بمنزلة: وجدوك في هذه الحال. وفي الكلام اختصار وإيجاز ولابُدّ، يدل ظاهر الكلام على ما اختصر منه، وقال الجرجاني في «النظم» له: إن قوله ﴿قُلْتَ﴾ في حكم المعطوف تقديره: وقلت. و﴿حَزَنًا﴾ نصب على المصدر، وقرأ معقل بن هارون: [لِنَحْمِلَهُمْ] بنون الجماعة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

قوله في هذه الآية ﴿۞ إِنَّمَا﴾ ليس بحصر، وإنما هي للمبالغة فيما يريد تقريره على نحو قولك: «إنما الشجاع عنترة»، ويقضي بذلك أنا نجد «السبيل» في الشرع على غير

هذه الفرقة «موجوداً» ، والسبيل قد توصل بِعَلَى وبِإِلَى فتقول: لا سبيل على فلان ، ولا سبيل إِلى فلان[١] ، غير أَن وصولها بِعَلَى يقتضي أَحياناً ضعف[٢] المتوصل إِليه وقلَّة مَنَعَته ، فلذلك حسنت في هذه الآية ، وليس ذلك في (إِلى) ، أَلا ترى أَنك تقول: «فلان لا سبيل له إِلى الأَمر ولا إِلى طاعة الله» ، ولا يحسن في شبه هذا (عَلَى) ، والسبيل ـ في هذه الآية ـ سبيل العاقبة. وهذه الآية نزلت في المنافقين المتقدم ذكرهم: عبد الله بن أُبي ، والجدُّ بن قيس ، ومعتب ، وغيرهم ، وقد تقدم نظير تفسير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ ﴾ الآية. هذه المخاطبة للنبي ﷺ ، واشترك معه المسلمون في بعض لأَن المنافقين كانوا يعتذرون أَيضاً إِلى المؤمنين ، ولأَن إِنباءَ الله أَيضاً تحصَّل للمؤمنين. وقوله: ﴿رَجَعْتُمْ﴾ يريد: من غزوة تبوك. وقوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾[٣] معناه: لن نصدقكم ، ولكن لفظة ﴿نُّؤْمِنَ﴾ تتصل بلام أَحياناً كما تقدم في قوله: ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٤] ، و﴿نَبَّأَ﴾ ـ في هذه الآية ـ قيل: هي بمعنى عرَّف لا تحتاج إِلى أَكثر من مفعولين ، فالضمير مفعول أَول ، وقوله: ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ مفعول ثان على مذهب أَبي الحسن في زيادة (من) في الواجب ، فالتقدير: قد نبأَنا الله أَخباركم ، وهو على مذهب سيبويه نعت لمحذوف هو المفعول الثاني تقديره: قد نبأَنا الله جليَّة من أَخباركم. وقيل: ﴿نَبَّأَ﴾ بمعنى أَعلم يحتاج إِلى ثلاثة مفاعيل ، فالضمير واحد ، و﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ ثانٍ حسب ما تقدم من القولين ، والثالث محذوف يدل الكلام على تقديره: قد نبأَنا الله من أَخباركم كذباً ، أَو نحوه ، وحذف هذا المفعول مع الدلالة عليه جائز بخلاف الاقتصار ، وذلك أَن الاقتصار إِنما يجوز إِمَّا على المفعول الأَول ويسقط الاثنان إِذ هما الابتداءُ والخبر ، وإِما على الاثنين

---

(١) ومن شواهد وصولها بإلى في الشعر البيت المشهور الذي سمعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكان له خبر طريف مع نصر بن حَجَّاج:

هـلْ مِـنْ سبيـلٍ إلـى خمـرٍ فـأَشْـرَبَهَـا ... أَمْ مِـنْ سَبيـلٍ إلـى نصـر بـن حَجَّـاج؟

(٢) في بعض النسخ: (ضَعَة) بدلا من (ضَعْف).

(٣) قوله تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ علَّة للنهي عن الاعتذار ، لأن غرض المعتذر أن يُصَدَّق فيما يعتذر به ، فإذا علم أنه مكَذَّب في اعتذاره كفَّ عنه. قاله في «البحر المحيط» ، وأشار إليه في «فتح القدير».

(٤) من الآية (٦١) من هذه السورة (التوبة).

الأخيرين ويسقط الأول، وأما أن يقتصر على المفعولين الأولين ويسقط الثالث دون دلالة عليه فذلك لا يجوز، ويجوز حذفه مع الدلالة عليه.

والإشارة بقوله سبحانه: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾[1]، ونحو هذا. وقوله: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ﴾ توعد معناه: وسيراه في حال وجوده ويقع الجزاءُ منه عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وقوله: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ يريد البعث من القبور، والغيب والشهادة يَعُمَّان جميع الأشياءِ، وقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ معناه التخويف ممن لا تخفى عليه خافية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾.

قيل: إن هذه الآية من أَول ما نزل في شأن المنافقين في غزوة تبوك، وذلك أن بعض المنافقين اعتذروا إلى النبي ﷺ واستأذنوه في القعود قبل مسيره فأذن لهم، فخرجوا من عنده وقال أحدهم: والله ما هو إلا شحمة لأول آكل، فلما خرج رسول الله ﷺ نزل فيهم القرآن، فانصرف رجل من القوم فقال للمنافقين في مجلس منهم: والله لقد نزل على محمد ﷺ فيكم قرآن، فقالوا له: وما ذلك؟ فقال: لا أَحفظ إلا أني سمعت وصفكم فيه بالرجس، فقال لهم مخشّي: والله لوَدِدْتُ أن أُجلد مائة جلدة ولا أَكون معكم، فخرج حتى لحق برسول الله ﷺ، فقال له: ما جاءَ بك؟ فقال: وَجْهُ رسول الله ﷺ تسْفَعُه الريح وأنا في الكِنِّ، فروي أنه ممن تاب.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أَمَرَنا بانتهارهم وعقوبتهم بالإعراض والوصم بالنفاق، وهذا مع إجْمال لا مع تعيين مصرح من الله ولا من رسوله، بل كان لكل واحد منهم ميدان المغالطة مبسوطاً، وقوله: ﴿رِجْسٌ﴾ أي نتَن وقذر، وناهيك بهذا

---

(١) من الآية (٤٧) من هذه السورة، ومعنى كلامه أن الإشارة في الآية هنا ترجع إلى الآية السابقة وهي رقم (٤٧).

الوصف محطة دنيوية، ثم عطف بمحطة الآخرة فقال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مسكنهم. ثم جعل ذلك جزاءً بتكسبهم المعاصي والكفر مع أن ذلك مما قدره الله وقضاه لا رب غيره ولا معبود سواه.

وأسند الطبري عن كعب بن مالك أنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك جلس للناس فجاءه المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾. هذه الآية والتي قبلها مخاطبة للمؤمنين مع الرسول ﷺ، والمعنى: يحلفون لك مبطلين ومقصدهم أن ترضوا لا أنهم يفعلون ذلك لوجه الله ولا للبر.

وقوله: ﴿فَإِن تَرْضَوْا﴾ إلى آخر الآية شرط يتضمن النهي عن الرضى عنهم، وحكم هذه الآية يستمر في كل مغموص عليه ببدعة ونحوها، فإن المؤمن ينبغي أن يبغضه ولا يرضى عنه لسبب من أسباب الدنيا[1].

وقوله تعالى ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الآية. ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ لفظة عامة، ومعناه الخصوص فيمن استثناه الله عزَّ وجلَّ، وهذا معلوم بالوجود وكيف كان الأمر، وإنما انطلق عليهم هذا الوصف بسبب بُعدهم عن الحواضر ومواضع العلم والأحكام والشرع، وهذه الآية إنما نزلت في منافقين كانوا في البوادي، ولا محالة أن خوفهم هناك أقل من خوف منافقي المدينة، فألسنتهم لذلك مطلقة، ونفاقهم أنجم[2].

---

(١) في الآية الأولى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾الخ... ذكر الله تعالى حلفهم لأجل الإعراض، ولهذا جاءَ الأمر بالإعراض نصاً ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لأن الإعراض من الأمور التي تظهر للناس، وفي الآية الثانية: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ ذكر سبحانه الحلف لأجل الرضى فأبرز النهي عن الرضى في صورة شرطية لأن الرضى من الأمور القلبية التي تخفى، وخُرِّج مخرج المتردِّدِ فيه وجُعل جوابه انتفاءَ رضي الله عنهم فصار رضى المؤمنين عنهم أبعد شيءٍ في الوقوع، لأنه معلوم منهم أنهم لا يرضون عمَّن لا يرضى الله عنهم.

(٢) الذي في كتب اللغة أن (العَرَب) جيل من الناس، والنسبة إليهم (عَرَبيّ)، وهم أهل الأمصار، و(الأعراب) منهم: سكان البادية خاصة، وجمعه أعاريب كما جاء في الشعر الفصيح، والنسبة إلى (الأعراب) أعرابي لأنه لا واحد له من لفظه، وليس الأعراب جمعاً للعرب كما كان الأنباط جمعاً=

وأَسند الطبري أَن زيد بن صوحان[١] كان يحدث أَصحابه بالعلم وعنده أعرابي، وكان زيد قد أُصيبت يده اليسرى يوم نهاوند[٢]، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني وإن يدك لتريبني، قال زيد: وما يريبك من يدي وهي الشمال؟ فقال الأَعرابي: والله ما أَدري أَليمينَ تقطعون أَم الشمال؟ فقال زيد: صدق الله، ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾. و﴿وَأَجْدَرُ﴾ معناه: أَحرى وأَقمن، والحدود هنا: السُّنن والأَحكام ومعالم الشريعة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

هذا نص في المنافقين منهم، ومعنى ﴿يَتَّخِذُ﴾ في هذه الآيات أَي: يجعل مقصده ولا ينوي فيه غير ذلك، وأَصل المغرم الدين، ومنه تعوذ رسول الله ﷺ من المغرم والمأْثم، ولكن كثر استعمال المغرم فيما يؤديه الإنسان مما لا يلزمه بحق، وفي اللفظ معنى اللزوم، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[٣] أَي: مكروهاً لازماً. و﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾: المصائب التي لا مخلص للإنسان منها فهي تحيط به كما تحيط الدائرة، وقد يحتمل أَن تشتق من دور الزمان والمعنى: ينتظر بكم ما يأْتي به الأَيام وتدور به. ثم قال على جهة الدعاء: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾، وكل ما كان بلفظ دعاء

= لنبَط، وإنما العرب اسم جنس، وكلام ابن عطية يتفق مع هذا تماماً.

(١) زَيْد بن صُوحان بن حُجر العبدي، من بني عبد القيس، من ربيعة، تابعي من أهل الكوفة، له رواية عن عمرو وعليّ، كان أحد الشجعان الرؤساءِ، وشهد وقائع الفتح فقطعت شماله يوم نهاوند، قاتل مع عليّ رضي الله عنه في يوم الجمل حتى قتل. (طبقات ابن سعد، والأعلام).

(٢) قال في معجم البلدان: بفتح النون الأولى وتكْسَر، والواو مفتوحة ونون ساكنة ودال مهملة: مدينة عظيمة في قبلة همذان، وكان فتحها سنة ١٩هـ، ويقال سنة ٢٠هـ، وقيل سنة ٢١هـ أيام عمر ابن الخطاب، حدث رجال الأدب أنه رأى بها فتى ساهماً يشكو حاله ويقول:

يـا طـولَ لَيْلـي بِنَهـاوَنْـد ... مُفَكِّـراً فـي البَـثّ والـوَجْـدِ
كَـأَنَّنـي فـي خَـانِهـا مُصْحَـفٌ ... مُسْتَـوحَـشٌ فـي يَـدِ مُـرْتَـدٌ

(٣) من الآية (٦٥) من سورة (الفُرقان).

من جهة الله عزَّ وجلَّ فإنما هو بمعنى إيجاب الشيءِ، لأن الله لا يدعو على مخلوقاته وهي في قبضته، ومن هذا قوله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[١] و﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[٢]، فهي كلها أحكام تامة تضمنها خبرُهُ تبارك وتعالى. وقرأ الجمهور من السبعة وغيرهم: ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ بفتح السين، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن بخلاف عنه، وعاصم والأعمش بخلاف عنهما: [دَائِرَةُ السُّوءِ] بضم السين، واختلف عن ابن كثير[٣]، وقيل: الفتح المصدر والضم الاسم، واختلف الناس فيهما وهو اختلاف يقرب بعضه من بعض، والفتح في السين يقتضي وصف الدائرة بأنها سيئة، وقال أبو علي: معنى (الدائرة) يقتضي معنى (السوء) فإنما هي إضافة بيان وتأكيد، كما قالوا: «شمس النهار» و«لَحْيا رأسه»[٤].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا يقال: «رجل سَوْءٍ» إلا بفتح السين، هذا قول أكثرهم، وقد حكي: «رجل سُوءٍ» بضم السين، وقد قال الشاعر:

وكنْت كذِئْب السُّوءِ لمَّا رأَى دماً ... بَصاحِبِهِ يَوْماً أَحالَ عَلَى الدَّمِ[٥]

ولم يختلف القراءُ في فتح السين من قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ الآية. قال قتادة: (هذه ثُنِيَّةُ الله تعالى من الأعراب)[٧]، و﴿وَيَتَّخِذُ﴾ في هذه الآية أيضاً هي بمعنى: يجعله مقصداً، والمعنى: ينوي بنفقته في سبيل الله القُرْبَةَ عند الله عزَّ وجلَّ واستغنام دعاءِ الرسول ﷺ،

---

(١) الآية (١) من سورة (الهُمَزَة).
(٢) الآية (١) من سورة (المُطَفِّفين).
(٣) تأمل أنه قال في أول هذه العبارة: «وقرأ ابن كثير» ولم يذكر عنه خلافاً كما نص على ذلك بالنسبة لعاصم وابن محيصن.
(٤) مُثَنَّى (لَحْي) بفتح اللام وسكون الحاءِ، قال في اللسان: «واللَّحْي منبت اللِّحية من الإنسان وغيره وهما لَحْيان».
(٥) البيت للفرزدق، وقد رواه في اللسان مادة ـ حول ـ «فكان كذئب السَّوءِ»، ورواه في مادة ـ سوأ ـ «وكنت كذئب السَّوءِ» والرواية فيه بفتح السِّين في الموضعين.
(٦) من الآية (٢٨) من سورة (مريم).
(٧) ثَنِيَّة ـ على وزن هَدِيَّة ـ بمعنى الاستثناء، رُوي عن كعب أنه قال: «الشهداءُ ثَنِيَّةَ الله في الأرض» يعني استثناه من الصعقة الأولى.

ففي دعائه لهم خير الآخرة في النجاة من النار ، وخير الدنيا في أرزاقهم ومنح الله لهم ، فـ ﴿ وَصَلَوَاتِ ﴾ على هذا عطف على ﴿ قُرُبَاتٍ ﴾ . ويحتمل أن يكون عطفاً على ﴿ مَا يُنفِقُ ﴾ ، أي: ويتخذ بالأعمال الصالحة صلوات الرسول قُربة ، والأول أبيَن.

و﴿ قُرُبَاتٍ ﴾ جمع قُرْبة أو قُرُبة بسكون الراء وضمها ، وهما لغتان ، والصلاة في هذه الآية: الدعاء إجماعاً ، وقال بعض العلماء: الصلاة من الله رحمة ، ومن النبي والملائكة دعاء ، ومن الناس عبادة. والضمير في قوله: ﴿ إِنَّهَا ﴾ يحتمل أن يعود على النفقة ، وهذا في انعطاف الصلوات على القربات ، ويحتمل أن يعود على الصلوات ، وهذا في انعطافه على ﴿ مَا يُنفِقُ ﴾ . وقرأ نافع: [قُرُبة] بضم الراء ، واختلف عنه وعن عاصم والأعمش ، وقرأ الباقون: ﴿ قُرْبَةٌ ﴾ بسكون الراءِ ، ولم يختلف في ﴿ قُرُبَاتٍ ﴾ . ثم وعد تبارك وتعالى بقوله: ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ الآية. وروي أن هذه الآية نزلت في بني مُقَرّن من مُزَينة ، وقاله مجاهد. وأسند الطبري إلى عبد الرحمن بن مغفل بن مُقَرّن أنه قال: كنا عشرة ولد مُقَرّن فنزلت فينا: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ إلى آخر الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوله: «عشرة ولد مقرّن» يريد الستة أولاد مقرّن لصلبه أو السبعة على ما في الاستيعاب من قول سويد بن مقرّن وبينهم لأن هذا هو الذي في مشهور دواوين أهل العلم.

قوله عزَّ وجَلّ:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ .

قال أبو موسى الأشعري ، وابن المسيّب ، وابن سيرين ، وقتادة: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ : مَنْ صلى القبلتين. وقال عطاءٌ: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ : من شهد بدراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وحولت القبلة قبل بدر بشهرين.

وقال عامر بن شراحيل الشعبي[١]: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾: من أدرك بيعة الرضوان. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ يريد سائر الصحابة، ويدخل في هذا اللفظ التابعون وسائر الأمة لكن بشريطة الإحسان، وقد لزم هذا الاسم الطبقة التي رأت مَنْ رأى النبي ﷺ، ولو قال قائل: إن السابقين الأوَّلين هم جميع من هاجر إلى أن انقطعت الهجرة لكان قولا يقتضيه اللفظ، وتكون ﴿مِنَ﴾ لبيان الجنس، و﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في هذه الآية عطف على قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾.

وقرأ عمر بن الخطاب، والحسن بن أبي الحسن، وقتادة، وسلام، وسعيد، ويعقوب بن طلحة، وعيسى الكوفي: [وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُون مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارُ] برفع الراءِ عطفاً على ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، وكذلك ينعطف على كلتا القراءتين قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ جعل الاتباعَ عديلاً للأنصار. وأسند الطبريُّ أن زيد بن ثابت سمعه فرادّه فبعث عمر رضي الله عنه في أُبي بن كعب فسأله فقال أُبي بن كعب: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾، فقال عمر رضي الله عنه: ما كنا نرى إلا أَنَّا قد رفعنا رفعة لا ينالها معنا أَحد، فقال أُبي: إن مصداق هذا في كتاب الله في أَول سورة الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾[٢]، وفي سورة الحشر: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[٣]، وفي سورة الأنفال في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾[٤]، فرجع عمر إلى قول أُبي، ونبَّهت هذه الآية من التابعين وهم الذين أَدركوا أَصحاب رسول الله ﷺ، كما نبَّه من ذكرهم قوله ﷺ: (اللّهم ارحم الأنصار

---

(١) هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري، أبو عمرو، رواية من التابعين، يضرب المثل بحفظه، ولد ونشأ ومات في الكوفة، وهو من رجال الحديث الثقات، وكان فقيهاً شاعراً، سئل عما بلغ إليه حفظه فقال: «ما كتبتُ سوداءَ في بيضاءَ ولا حدَّثني رجل بحديث إلا حفظته». توفي سنة ١٠٣هـ. (راجع الوفيات، والتهذيب وتاريخ بغداد).

(٢) الآية (٣) من سورة (الجمعة).

(٣) الآية (١٠) من سورة (الحشر).

(٤) الآية (٧٥) من سورة (الأنفال).

وأبناءَ الأنصار وأبناءَ أبناءِ الأنصار) فتأمله(١).

وقرأ ابن كثير: [مِن تَحْتِهَا الأَنْهارُ]، وقرأ الباقون: ﴿ تَحْتَهَا ﴾ بإسقاط ﴿مِنْ﴾، ومعنى هذه الآية: الحكمُ بالرضا عنهم بإدخالهم الجنة وغفر ذنوبهم، والحكم برضاهم عنه في شكرهم وحمدهم على نعمه وإيمانهم به وطاعتهم له، جعلنا الله من الفائزين برحمته ومنّه.

وقوله: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ الآية. مخاطبة للنبي ﷺ شرَّك معه في بعضها أُمته، والإشارة بقوله: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ إلى جُهَيْنة ومُزَيْنة وأَسْلَم وغَفار وعصيّة ولَحْيان وغيرهم من القبائل المجاورة للمدينة، فأَخبر الله عن منافقيهم، وتقدير الآية: «ومن أَهل المدينة قوم أَو منافقون»، هذا أَحسن ما حمله اللفظ. و﴿ مَرَدُوا۟ ﴾ قال أَبو عبيدة: معناه: مَرَنوا عليه ولجُّوا فيه، وقيل غير هذا مما هو قريب منه، وقال ابن زيد: أَقاموا عليه لم يتوبوا كما تاب الآخرون. والظاهر من معنى اللفظ أَن التمرد في الشيءِ أَو المرود عليه إنما هو اللَّجاج والاستهتار به والعُتُو على الزاجر وركوب الرأس في ذلك، وهو مستعمل في الشّر لا في الخير، من ذلك قولهم: شيطان ماردٌ ومَريدٌ، ومن هذا سميت مراد لأَنها تمردت، وقال بعض الناس: يقال: «تمرد الرجل في أَمر كذا» إذا تجرد له، وهو من قولهم: «شجرة مرداءُ» إذا لم يكن عليها ورق، ومنه: ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ ﴾(٢)، ومنه قولهم: «تمرَّدَ ماردٌ وعزَّ الأَبلقُ»(٣)، ومنه الأَمْرُد الذي لا لِحْية له، فمعنى ﴿ مَرَدُوا۟ ﴾ في هذه الآية: لجُوا فيه واستهتروا به وعتوا على زاجرهم.

ثم نفىٰ عزَّ وجلَّ علْم نبيه بهم على التَّعيين، وأَسند الطبري عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ قال: فما بال أَقوام يتكلفون علم الناس، فلان في

---

(١) هذا جزءٌ من حديث طويل رواه البخاري وغيره، وقد سبق الاستشهاد به في المجلد الثالث من هذا الكتاب عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ... ﴾.

(٢) من قوله تعالى في الآية (٤٤) من سورة النمل: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾.

(٣) مارد: حصن دومة الجندل، والأبلق: حصنٌ للسموءل بن عاديا، قيل: وصف بالأبلق لأنه بُني من حجارة مختلفة الألوان بأرض تيماءَ، وهما حصنان قصدتهما الزبَّاءُ ملكة الجزيرة فلم تقدر عليهما فقالت: «تمرَّدَ ماردٌ وعزَّ الأبلق»، فصار مثلاً لكل ما يعزّ ويمتنع عن طالبه. (اللسان ـ مجمع الأمثال للميداني ـ المستقصى الزمخشري).

الجنة، وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري، أنت لعَمْري بنفسك أعلم منك بأعمال الناس، ولقد تكلّفت شيئاً ما تكلّفه الرسل، قال نبي الله نوح ﷺ: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١)، وقال نبي الله شعيب: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾(٢)، وقال تبارك وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾(٣).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾. في مصحف أنس بن مالك رضي الله عنه: [سيُعَذبُهُم] بالياءِ، والكلام ـ على القراءَتين ـ وعيد، واللفظ يقتضي ثلاثة مواطن من العذاب، ولا خلاف بين المتأولين أن العذاب العظيم الذي يُرَدُّون إليه هو عذاب الآخرة، وأكثر الناس أن العذاب المتوسط هو عذاب القبر، واختلف في عذاب المرة الأولى ـ فقال مجاهد وغيره: هو عذابهم بالقتل والجوع، وهذا بعيد لأن منهم من لم يصبه هذا، وقال ابن عباس أيضاً(٤): عذابهم هو بإقامة حدود الشرع عليهم مع كراهيتهم فيه، وقال ابن إسحق: عذابهم هو همُّهم بظهور الإسلام وعلو كلمته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ وهو الأشهر عنه ـ: عذابهم هو فضيحتهم ووصمهم بالنفاق، وروي في هذا التأويل أن رسول الله ﷺ خطب يوم جمعة فندّد بالمنافقين وصرّح وقال: «اخرج يا فلان من المسجد فإنك منافق، واخرج أنت يا فلان، واخرج أنت يا فلان) حتى أخرج جماعة منهم، فرآهم عمر يخرجون من المسجد وهو مقبل إلى الجمعة، فظن أن الناس انتشروا وأن الجمعة فاتته فاختبأ منهم حياءً، ثم وصل إلى المسجد فرأى أن الصلاة لم تُقْض وفهم الأمر(٥).

---

(١) من الآية (١١٢) من سورة (الشعراء).

(٢) الآية (٨٦) من سورة (هود).

(٣) أخرجه عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله تعالى عنه (الدر المنثور).

(٤) قال (أيضاً) نظراً للرأي الأساسي لابن عباس رضي الله عنهما وإن كان سيأتي ذكره بعد ذلك.

(٥) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه ابن مردويه عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، وفي آخر هذه الرواية: (فلقي عمر رضي الله عنه رجلا كان بينه وبينه إخاءٌ فقال ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله ﷺ=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفعل النبي ﷺ بهم هو على جهة التأديب اجتهاداً منه فيهم، ولم يسلخهم ذلك من الإسلام وإنما هو كما يُخْرَجُ العصاة والمتهمون، ولا عذاب أعظم من هذا. وكان رسول الله ﷺ كثيراً ما يتكلم فيهم على الإجمال دون تعيين، فهذا أيضاً من العذاب. وقال قتادة وغيره: العذاب الأول هي علل وأدواءٌ أخبر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أنه يصبهم بها، وأسند الطبري في ذلك عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسرَّ إلى حذيفة باثني عشر رجلا من المنافقين، وقال: ستَّة منهم تكفيهم الدُّبَيْلَة[1]، سراج من نار جهنم تأخذ من كتف أحدهم حتى تفضي إلى صدره، وستة يموتون موتاً، ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا مات رجل ممن يُظَن أنه منهم نظر إلى حذيفة، فإن صلى صلَّى عمر عليه وإلا تركَ، وذكر لنا أن عمر بن الخطاب قال لحذيفة: أنشدك بالله، أمِنهم أنا؟ قال: لا، والله ولا أُؤَمن منها أحداً بعدك. وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾: أما عذاب الدنيا فالأموال والأولاد، لكل صنف عذاب فهو مرتان، وقرأ قول الله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[2]، وقال ابن زيد أيضاً: المرتان هي[3] في الدنيا، الأولى: القتل والجوع والمصائب، والثانية: الموت إذ هو للكفارِ عذابٌ. وقال الحسن: الأولى هي أخذ الزكاة من أموالهم، والعذاب العظيم هو جميع ما بعد الموت، وأظن الزجاج أشار إليه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

المعنى: ومن هذه الطوائف آخرون اعترفوا بذنوبهم. واختُلف في تأويل هذه الآية

= خطبنا فقال كذا وكذا، فقال عمر رضي الله عنه: أبعدك الله سائر اليوم). (الدر المنثور).

(١) الدُّبَيْلَةُ: الداهية (مصغرة للتكبير)، ويقال: دبَلَته الدُّبَيْلَةُ.

(٢) من الآية (٥٥) من سورة (التوبة).

(٣) هكذا في جميع النسخ التي بين يديّ.

ـ فقال ابن عباس ـ فيما روي عنه ـ وأبو عثمان: هي في الأعراب ، وهي عامة في الأمة إلى يوم القيامة فيمن له أعمال صالحة وسيئة ، فهي آية ترج على هذا ، وأسند الطبري هذا عن حجاج بن أبي زينب قال: سمعت أبا عثمان[1] يقول: ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ ، وقال قتادة: بل نزلت هذه الآية في أبي لبابة الأنصاري خاصة في شأنه مع بني قريظة ، وذلك أنه كلمهم في النزول على حكم الله ورسوله ، وأشار هو لهم إلى حلقه يريد أن النبي ﷺ يذبحهم إن نزلوا ، فلما افتضح تاب وندم وربط نفسه في سارية من سواري المسجد ، وأقسم ألا يطعم ولا يشرب حتى يعفو الله عنه أو يموت ، فمكث كذلك حتى عفا الله عنه ونزلت هذه الآية ، وأمر رسول الله ﷺ بحَلِّه[2] ، ذكر هذا القول الطبري عن مجاهد ، وذكره ابن إسحق في كتاب السِّيَر أوعب وأتقن.

وقالت فرقة عظيمة: بل نزلت هذه الآية في شأن المتخلفين عن غزوة تبوك ، فكان «عملهم السَّيىء» التخلف بإجماع من أهل هذه المقالة ، واختلفوا في «الصالح» ـ فقال

---

(١) هو أبو عثمان النهدي.

(٢) سبق الاستشهاد بهذا الحديث ، وقد أخرج البيهقي عن سعيد بن المسيب أن بني قريظة كانوا حلفاء لأبي لبابة فاطلعوا إليه وهو يدعوهم إلى حكم رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا لبابة ، أتأمرنا أن ننزل؟ فأشار بيده إلى حلقه ، «إنه الذبح» ، فأخبر عنه رسول الله ﷺ بذلك ، فقال له رسول الله ﷺ: أحسبت أن الله غفل عن يدك حين تشير إليهم بها إلى حلقك؟ فلبث حيناً حتى غزا رسول الله ﷺ تبوك ، وهي غزوة العسرة ، فتخلف عنها أبو لبابة فيمن تخلف ، فلما قفل رسول الله ﷺ منها جاءَ أبو لبابة يسلم عليه ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، ففزع أبو لبابة فارتبط بسارية التوبة التي عند باب أُم سلمة سبعاً من بين يوم وليلة في حرّ شديد لا يأكل فيهن ولا يشرب قطرة ، وقال: لا يزال هذا مكاني حتى أُفارق الدنيا أو يتوب الله عليّ ، فلم يزل كذلك حتى ما يسمع الصوت من الجهر ورسول الله ﷺ ينظر إليه بكرة وعشية ، ثم تاب الله عليه ، فنودي أن قد تاب الله عليك ، فأرسل رسول الله ﷺ ليطلق عنه رباطه ، فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله ﷺ ، فجاء رسول الله ﷺ فأطلقه عنه بيده ، فقال أبو لبابة حين أفاق: يا رسول الله ، إني أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأنتقب إليك فأُساكنك ، وإني أختلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله ﷺ ، فقال: يجزي عنك الثلث ، فهجر أبو لبابة دار قومه ، وساكن رسول الله ﷺ ، وتصدق بثلث ماله ، ثم تاب فلم يُرَ منه في الإسلام بعد ذلك إلا خير حتى فارق الدنيا. (الدر المنثور).

ويلاحظ أن قتادة يرى أن الآية نزلت في أبي لبابة وحده لتخلفه عن غزوة تبوك لا لموقفه من بني قريظة وإشارته لهم. كذلك يلاحظ أن جميع الأقوال تجعل أبا لبابة واحداً من الذين نزلت فيهم الآية ، وقد اعترض أبو حيان على رأي قتادة وقال: «ويبعد ذلك من لفظ (وَآخَرُونَ) لأنه جمع».

الطبري وغيره: الاعتراف والتوبة والندم، وقالت فرقة: بل «الصالح» غزوهم فيما سلف من غزو النبي ﷺ، ثم اختلف أهل هذه المقالة في عدد القوم الذين عُنوا بهذه الآية ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا عشرة رهط ربط منهم أنفسهم سبعة، وبقي الثلاثة الذين خلفوا دون ربط وهم المذكورون بعد هذا، وقال زيد بن أسلم[1]: كانوا ثمانية منهم كردم، ومرداس، وأبو قيس، وأبو لبابة. وقال قتادة: كانوا سبعة، وقال ابن عباس أيضاً وفرقة: كانوا خمسة، وكلهم قال: كان فيهم أبو لبابة، وذكر قتادة فيهم الجَدَّ بن قيس، وهو ـ فيما أعلم ـ وهْم لأن الجَدَّ لم تُرْوَ له توبة، وأما قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرَ﴾ فهو بمعنى ﴿بِآخَرَ﴾ وهما متقاربان. و﴿عَسَى﴾ من الله واجبة.

ورُوي في خبر الذين ربطوا أنفسهم أن رسول الله ﷺ لما دخل المسجد فرآهم قال: (ما بال هؤلاءِ؟) فقيل له: إنهم تابوا وأقسموا إلا ينحلوا حتى يحلَّهم رسول الله ﷺ ويعذرهم[2]، فقال رسول الله ﷺ: (وأنا والله لا أحلهم ولا أعذرهم إلا أن يأمرني الله بذلك، فإنهم تخلفوا عني وتركوا جهاد الكفار مع المؤمنين).[3]

وقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية. رُوي أن أبا لبَابة والجماعة التائبة التي ربطت أنفسها وهي المقصودة بقوله سبحانه: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ جاءَت رسول الله ﷺ لما تِيبَ عليها فقالت: يا رسول الله، إنا نريد أن نتصدق بأموالنا زيادةً في توبتنا، فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أعرض لأموالكم إلا بأمر من الله»، فتركهم حتَّى نزلت هذه الآية، فهُم المراد بها، فروي أن رسول الله ﷺ أخذ ثلث أموالهم مراعاةً لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، فهذا هو الذي تظاهرت به أقوال المتأولين، ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

---

(١) هو زيد بن أسْلم العدوي العمري، مولاهم. فقيه مفسِّر، من أهل المدينة، كان مع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أيام خلافته، وكان ثقة، كثير الحديث، له حلقة في المسجد النبوي، وله كتاب في التفسير. (تهذيب التهذيب، تذكرة الحفاظ، الأعلام).

(٢) يقال عَذَرَ فلاناً فيما صنع: رفع عنه اللوم فيه. (المعجم الوسيط)، وفي (الصحاح): اعتذر رجل إلى إبراهيم النَّخَعي فقال له: «قد عذرتك غير معتذر، إن المعاذير يشوبها الكذب».

(٣) هذا جزءٌ من حديث طويل أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي بقية الحديث قصة تقدمهم بأموالهم للرسول ليتصدق منها ورفض رسول الله ﷺ لذلك إلا إذا أمره الله، وهو ما أشار إليه ابن عطية بعد ذلك.

وقالت جماعة من الفقهاءِ: المراد بهذه الآية الزكاة المفروضة، فقوله ـ على هذا ـ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ ضميره لجميع الناس، وهو عموم يراد به الخصوص إذ يخرج من الأموال الأنواع التي لا زكاة فيها كالثياب والرباع ونحوه، والضمير الذي في ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أيضاً كذلك عموم يراد به خصوص إذ يخرج منه العبيد وسواهم، وقوله: ﴿صَدَقَةً﴾ مجمل يحتاج إلى تفسير[١]، وهذا يقتضي أن الإمام يتولى أخذ الصدقات وينظر فيها، و﴿مِنْ﴾ في هذه الآية للتبعيض، هذا أقوى وجوهها.

وقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أحسن ما يحتمل أن تكون هذه الأفعال مسندةً إلى ضمير النبي ﷺ، ويحتمل أن تكون في موضع الحال من الضمير في ﴿خُذْ﴾، ويحتمل أن تكون في صِفَة الصدقة، وهذا مترجح بحسب رفع الفعل، ويكون قوله ﴿بِهَا﴾ أي بنفسها، أي: يقع تطهيرهم من ذنوبهم بها، ويحتمل أن تكون ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ صفة للصدقة و﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ مسنداً إلى النبي ﷺ، ويحتمل أن يكون حالا من الصدقة، وذلك ضعيف لأنها حال نكرة، وحكى مكي أن تكون ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من صفة الصدقة وقوله ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ حالاً من الضمير في ﴿خُذْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا مردودٌ لمكان واو العطف، لأن ذلك يتقدر: «خذ من أموالهم صدقة مطهرة ومزكيا بها»، وهذا فاسد المعنى، ولو لم يكن في الكلام واو عطف جاز[٢]. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [تُطْهِرْهُم] بسكون الطاءِ.

وقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ معناه: ادع لهم فإن في دعائك لهم سكوناً لأنفسهم

---

(١) قال صاحب «البحر المحيط» تعليقاً على ذلك: «وإطلاق ابن عطية عليه أنه مجمل فيحتاج إلى تفسير ليس بجيّد» ورأيه أن لفظ «صدقة» مطلق لا مجمل، ولهذا يصدق بأدنى شيءٍ. «البحر ٥ـ٩٥». وكذلك يقول القرطبي: «هو مطلق غير مقيد بشرط في المأخوذ والمأخوذ منه، ولا يتبين المأخوذ ولا المأخوذ منه، وإنما بيان ذلك في السُّنة والإجماع».

(٢) حاول أبو حيان في البحر أن يجد تخريجاً لهذا الاعتراض فقال: «ويصحّ على تقدير مبتدأ محذوف والواو للحال، أي: وأنت تزكيهم»، لكنه عاد فاعترف أنه تخريج ضعيف لقلة نظيره في كلام العرب. وقال الزجاج: «والأجود أن تكون المخاطبة للنبي ﷺ، أي: فإنك تطهرهم وتزكيهم بها، على القطع والاستئناف».

وطمأنينة ووقاراً، فهذه عبارة عن صلاح المعتقد. وحكى مكي[١]، والنحاس[٢]، وغيرهما أنه قيل: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا وهم بعيد، وذلك أن تلك في المنافقين الذين لهم حكم الكافرين، وهذه في التائبين من التخلف الذين لهم حكم المؤمنين، فلا تناسخ بين الآيتين.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، ونافع، وابن عامر: [إِنَّ صَلَوَاتِكَ] بالجمع، وكذلك في (هود) وفي (المؤمنين)[٣]، وقرأ حفص عن عاصم، وحمزة، والكسائي: [إِنَّ صَلَاتَكَ] بالإفراد، وكذلك قرأ حمزة والكسائي في (هود) وفي (المؤمنين)، وقرأ عاصم في (المؤمنين) وحدها جمعاً، ولم يختلفوا في سورة (الأنعام) و(سأل سائل)[٤]، وهو مصدر أفردته فرقة وجمعته فرقة.

وقوله تعالى: ﴿سَمِيعٌ﴾ أي لدعائك، ﴿عَلِيمٌ﴾ أي بمن يهدي ويتوب عليه وغير ذلك مما يقتضيه هاتان الصفتان. وروي أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية فعل ما أُمر به من الدعاءِ والاستغفار لهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾: رحمة لهم»، وقال قتادة: «﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي وقار لهم».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإنما معناه أن من يدعو له النبي ﷺ فإنه تطيب نفسه ويقوى رجاؤه، ويُروى أنه قد

---

(١) اسمه مكيّ بن أبي طالب حموش بن محمد الأندلسي القيسي، مقرئ، عالم بالتفسير والعربية، من أهل القيروان، من أهم كتبه: «مشكل إعراب القرآن» و«الكشف عن وجوه القراءات وعملها»، «والهداية إلى بلوغ النهاية» في معاني القرآن، و«التبصرة في القراءات السبع» (خ)، و«الإيضاح» في الناسخ والمنسوخ، و«الرعاية» لتجويد القراءة وغيرها. توفي بقرطبة سنة (٤٣٧هـ). (الأعلام).

(٢) هو أحمد محمد بن إسماعيل المرادي المصري، أبو جعفر النحاس، مفسّر أديب، مولده ووفاته بمصر (٣٣٨هـ)، كان من نظراء نفطويه وابن الأنباري، صنف «تفسير القرآن»، و«إعراب القرآن» (خ)، و«ناسخ القرآن ومنسوخه»، و«معاني القرآن». (الأعلام).

(٣) أما في (هود) ففي قوله تعالى في الآية (٨٧): ﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾، وأما في سورة (المؤمنون) ففي قوله تعالى في الآية(٢): ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾.

(٤) أما في (الأنعام) ففي قوله تعالى في الآية(٩٢): ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ وأما في (سأل سائل) وهي (المعارج) ففي قوله تعالى في الآية (٢٣): ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾، وأجمعوا على الإفراد فيهما لأن الكلمة مكتوبة به في السواد، قاله الإمام ابن خالويه.

صحت وسيلته إلى الله تبارك وتعالى، وهذا بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

قرأ جمهور الناس: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ على ذكر الغائب، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن ـ بخلاف عنه ـ: [أَلَمْ تَعْلَمُوا] على معنى: قل لهم يا محمد أَلم تعلموا؟ وكذلك هي في مصحف أُبي بن كعب بالتاءِ من فوق، والضمير في ﴿يَعْلَمُوٓا۟﴾ قال ابن زيد: يراد به الذين لم يتوبوا من المتخلفين، وذلك أَنه لما تيب على بعضهم قال الغير: ما هذه الخاصة التي خُص بها هؤلاءِ؟ فنزلت هذه الآية. ويحتمل أَن يكون الضمير في ﴿يَعْلَمُوٓا۟﴾ يراد به الذين تابوا وربطوا أَنفسهم.

وقوله: ﴿هُوَ﴾ تأكيد لانفراد الله بهذه الأُمور وتحقيق ذلك، لأَنه لو قال: «أَن الله يقبل التوبة» لاحتمل ذلك أَن يكون قبول رسوله قبولا منه، فبيَّنت الآية أَن ذلك مما لا يصل إِليه نبي ولا ملك، وقوله: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ معناه: يأمر بها ويُشرِّعها كما تقول: أَخذ السلطان من الناس كذا، إِذا حملهم على أَدائه، وقال الزجاج: معناه: ويقبل الصدقات، وقد وردت أَحاديث في أَخذ الله صدقة من عبيده، منها قوله ﷺ الذي رواه عبد الله بن أَبي قتادة المحاربي عن ابن مسعود عنه: «إِنَّ العبد إِذا تصدق بصدقة وقعت في يد الله قبل أَن تقع في يد السائل»[1] ومنها قوله الذي رواه أَبو هريرة: «إِنَّ الصدقة تكون قدر اللقمة يأخذها الله بيمينه فيُربيها لأَحدكم كما يربي أَحدكم فَلُوَّه أَو فصيله حتى يكون مثل الجبل»[2]. وغير هذا من الأَحاديث التي هي عبارة عن القبول والتحفي بصدقة العبد، فقد يحتمل أَن تُخرَّج لفظة ﴿وَيَأْخُذُ﴾ على هذا.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود بلفظ (ما تصدق رجل بصدقة إلا وقعت...) وفي آخره: ثم قرأ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾. (الدر المنثور).

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن أبي هريرة، وأخرج مثله ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن أبي هريرة. (الدر المنثور).

ويتعلق في هذه الآية القول في قبول التوبة ، وتلخيص ذلك أَن قبول التوبة من الكفر يقطع به عن الله عزَّ وجلَّ إجماعاً ، وهذه نازلة هذه الآية ، وهذه الفرقة التائبة من النفاق تائبة من كفر ، وأَما قبول التوبة من المعاصي فيقطع بأَن الله تعالى يقبل من طائفة من الأُمة توبتهم ، واختلف ـ هل تقبل توبة الجميع؟ وأَما إِذا عين إِنسان تائب فيرجى قبول توبته ولا يقطع بها على الله. وأَما إِذا فرضنا تائباً غير معين صحيح التوبة ، فهل يقطع على الله بقبول توبته أَم لا؟ فاخْتُلف ـ فقالت فرقة فيها الفقهاءُ والمحدثون ـ وهو كان مذهب أَبي رضي الله عنه[1] ـ: يقطع على الله بقبول توبته لأَنه تعالى أَخبر بذلك عن نفسه ، وعلى هذا يلزم أَن تقبل توبة جميع التائبين. وذهب أَبو المعالي وغيره من الأَئمة إِلى أَن ذلك لا يقطع به على الله تعالى ، بل يقوى فيه الرجاءُ ، ومن حجتهم أَن الإِنسان إِذا قال في الجملة: إِني أَغفر لمن ظلمني ، ثم جاءَ من قد سبَّه وآذاه ، فله تعقُّب حقه ، وبالغفران لقوم يصدق وعده ولا يلزمه الغفران لكل ظالم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ونحو هذا من القول ، والقول الأَول أَرجح ، والله الموفق للصواب.

وقوله تعالى: ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ هي بمعنى «من» ، وكثيراً ما يتوصل في موضع واحد بهذه وهذه ، تقول: لا صدقة إِلا عن غنى ، ومن غنى ، وفعل فلان ذلك من أَشره وبطره ، وعن أَشره وبطره[2].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ تقرير ، والمعنى: حق لهم أَن يعلموا ، وقوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ﴾ الآية. صيغة أَمر مضمنها الوعيد ، وقال الطبري: المراد بها الذين اعتذروا من المتخلفين وتابوا.

---

(١) كان ابن عطية يعتز برأي والده دائماً ، ووالده هو الإمام الحافظ أبو بكر غالب ابن عطية ، فقيه ، ومحدث ، وزاهد ، أخذ عن أعلام الأندلس ، ورحل إلى المشرق سنة ٤٦٩هـ وأخذ عن علمائه. وهذا العالم الفقيه هو الأستاذ الأول لابن عطية رحمه الله.

(٢) يمين الأمير» أفاد أنه جلس في ذلك الجانب ولكن مع ضرب من البعد ، ولهذا فإنها تفيد هنا أن التائب يجب أن يعتقد في نفسه أنه بعيد عن قبول الله توبَتَه بسبب ذلك الذنب فيحصل له انكسار العبد الذي طرده مولاه وأبعده عن حضرته ، فلفظة (عن) كالتنبيه على أنه لابد من حصول هذا المعنى للتائب ، ومن المعروف أن (عن) للمجاوزة ، وأن (من) لابتداءِ الغاية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر أن المراد بها الذين اعتذروا ولم يتوبوا، وهم المتوعدون، وهم الذين في ضمير قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ إلا على الاحتمال الثاني من أنَّ الآيات كلها في الذين خلطوا عملاً صالحا وآخر سيئاً. ومعنى ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ أي موجوداً متعرضاً للجزاءِ عليه بخير أو شر، وأما الرسول والمؤمنون فرؤيتهم رؤية حقيقية لا تجوز، وقال ابن المبارك: رؤية المؤمنين هي شهادتهم على المرءِ بعد موته، وهي ثناؤهم عند الجنائز. وقال الحسن ما معناه أنهم حذروا من فراسة المؤمن التي قال فيها النبي ﷺ: «اتَّقوا فراسة المؤمن فإِنه ينظر بنور الله»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يريد البعث من القبور، ومعنى الغيب والشهادة: ما غاب وما شوهد، وهي حالتان تعم كل شيءٍ(٢)، وقوله ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ عبارة عن حضور الأعمال وإِظهارها للجزاءِ عليها، وهذا وعيد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ عطف على قوله أولا: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾، وقرأ نافع، والأعرج، وابن نصاح، وأبو جعفر، وطلحة، والحسن، وأهل الحجاز: ﴿مُرْجَوْنَ﴾ من أرجى يُرْجِي دون همز، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وأهل البصرة: [مُرْجئُونَ] من أرجأ يرجئُ بالهمز، واختلف عن عاصم، وهما لغتان، ومعناهما

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ، والترمذي عن أبي سعيد، وأخرجه الطبرانيُّ في الكبير، وابن عدي في الكامل عن أبي أُمامة، وأخرجه ابن جرير عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) هكذا في جميع النسخ التي بين يدي، ويلاحظ أن الضمائر كلها للمفرد، وكان الصحيح أن يقول: (هما حالتان تَعُمَّان)، وهذه الظاهرة تكررت كثيراً في أُسلوب ابن عطية وأشرنا إليها في كل موضع.

التأْخير، ومنه المرجئة لأَنهم أَخروا الأَعمال، أَي أَخروا حكمها ومرتبتها. وأَنكر المبرد ترك الهمز في معنى التأْخير، وليس كما قال.

والمراد بهذه الآية ـ فيما قال ابن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن إِسحق ـ الثلاثة الذين خلفوا، وهم هلال بن أُمية الواقفي، ومرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، ونزلت هذه الآية قبل التوبة عليهم، وقيل: إِنها نزلت في غيرهم من المنافقين الذين كانوا معرضين للتوبة مع بنائهم مسجد الضِّرار، وعلى هذا يكون ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ بإِسقاط واو العطف بدلا من ﴿ وَءَاخَرُونَ﴾ أَو خبر ابتداءٍ تقديرهم: هم الذين، فالآية ـ على هذا ـ فيما ترج لهم واستدعاءٌ إِلى الإِيمان والتوبة. و﴿عَلِيمٌ﴾ معناه: بمن يهدي إِلى الرشد، و﴿حَكِيمٌ﴾ فيما ينفذه من تنعيم من شاءَ وتعذيب من شاءَ لا رب غيره ولا معبود سواه.

وقرأَ عاصم، وعوام القراءِ، والناس في كل قطر إِلا بالمدينة: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾، وقرأَ أَهل المدينة، نافع، وأَبو جعفر، وشيبة، وغيرهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ﴾ بإِسقاط الواو، وكذلك هي في مصحفهم، قاله أَبو حاتم، وقال الزهراوي: هي قراءَة ابن عامر، وهي في مصاحف أَهل الشام بغير واو. فأَما من قرأَ بالواو فذلك عطف على قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ﴾ أي: ومنهم الذين اتخذوا، وأَما من قرأَ بإِسقاطها فرفع الذين بالابتداءِ، واختلف في الخبر ـ فقيل: الخبر: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، قاله الكسائي، ويتجه بإِضمار إِما في أَول الآية وإِما في آخرها بتقدير: «لا تقم في مسجدهم»، وقيل: الخبر: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ﴾، قاله النحاس، وهذا أَفصح، وقد ذكرت كون ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ بدلاً من ﴿ وَءَاخَرُونَ﴾ آنفاً. وقال المهدوي: الخبر محذوف تقديره: «مُعذبون» أَو نحوه.(١)

وأَما الجماعة المرادة «بالذين اتخذوا» فهم منافقو بني غنم بن عوف، وبني سالم بن عوف، وأَسند الطبري عن ابن إِسحق عن الزهري وغيره أَنه قال: أَقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك حتى نزل بذي أَوان ـ بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ـ وقد كان أَصحاب مسجد الضِّرار أَتوه وهو يتجهَّز إِلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إِنا قد

---

(١) وقال الزمخشري: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ محله النصب على الاختصاص كقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال: إني على جناح سفر وحال شغل، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه، فلما أقبل ونزل بذي أوان نزل عليه القرآن في شأن مسجد الضرار، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُّخْشُم، ومعن بن عدي أو أخاه عاصم بن عدي فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحَرِّقاه، فانطلقا مسرعين ففعلا، وحرَّقاه بنار في سعف[١]. وذكر النقاش أن رسول الله ﷺ بعث لهدمه وتحريقه عمار بن ياسر، ووحشيا مولى المطعم بن عدي[٢]، وكان بانوه اثني عشر رجلاً: خِذام بن خالد ومن داره أخرج مسجد الشقاق[٣]، وثعْلبة بن حاطب[٤]، ومُعَتِّب بن قُشير، وأبو حبيبة بن الأزعر[٥] وعباد بن حُنْيف أخو سهل بن حُنيف، وجارية بن عمرو[٦]، وابناه: مُجَمّع بن جارية وهو كان إمامهم، وحلف لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في خلافته أنه لم يشعر بأمرهم، وزيْدُ بن جارية، ونبْتَل بنُ الحارث، وبَحْزَج من بني ضبيعة[٧]، وبجاد بن عثمان[٨]، ووديعة بن ثابت. وبَحْزَج منهم هو الذي حلف لرسول الله ﷺ: ما أردت إلا الحسنى والتوسعة علينا وعلى من عجز أو ضعف عن المسير إلى مسجد قباءٍ.

وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

والآية تقتضي شرح شيءٍ من أمر هذه المساجد، فروي أن رسول الله ﷺ لمَّا قدم المدينة وقت الهجرة بنى مسجداً في بني عمرو بن عوف، وهو مسجد قباءٍ، وقيل:

---

(١) أخرجه ابن إسحق، وابن مردويه عن أبي رهم بن كلثوم بن الحصين الغفاري، وكان من الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة، وأخرج مثله ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما. (الدر المنثور).

(٢) هو وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه.

(٣) خِذَام بن خالد من بني عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف. وهو بالخاءِ والذال المعجمتين.

(٤) نقل القرطبي عن ابن عبد البر أنه قال: «وفيه نظر لأنه شهد بدراً».

(٥) كتب بالزاي في كل المراجع تقريباً ما عدا القرطبي فقد كتبت فيه بالذال.

(٦) في «القرطبي» و«الدر المنثور»: جارية بن عامر، وفي «البحر المحيط» و«الألوسي»: حارثة بن عامر.

(٧) في بعض النسخ جاءَ اسمه: (يَخْرج) بالياءِ والخاءِ والراءِ، وفي الدر المنثور: يخدج بالدال المهملة، ولكنا اخترنا ما يتفق مع ما في الطبري وسيرة ابن هشام، والبحر المحيط.

(٨) بالباءِ المفتوحة.

وجده مبنياً قبل وروده، وقيل: وجده موضع صلاة فبناه، وتشرف القوم بذلك فحسدهم من حينئذ رجال من بني عمهم من بني غنم بن عوف وبني سالم بن عوف، فكان فيهم نفاق، وكان موضع مسجد قباءٍ مربطاً لحمار امرأة من الأنصار اسمها لية، فكان المنافقون يقولون: والله لا نصبر على الصلاة في مربط حمار لية ونحو هذا من الأقوال، وكان أبو عامر عبد عمرو المعروف بالراهب منهم، وكانت أُمه من الروم، فكان يتعبد في الجاهلية فسمي الراهب، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة، وكان سيداً نظيراً[1] وقريباً من عبد الله بن أبي بن سلول، فلما جاءَ الله تبارك وتعالى بالإسلام نافق ولم يزل مجاهراً بذلك فسماه رسول الله ﷺ الفاسق، ثم خرج في جماعة من المنافقين فحزَّب على رسول الله ﷺ الأحزاب، فلما ردهم الله بغيظهم أقام أبو عامر بمكة مظهراً لعداوته، فلما فتح الله مكة هرب إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف خرج هارباً إلى الشام يريد قيصر مستنصراً به على رسول الله ﷺ، وكتب إلى قومه المنافقين منهم أن ابنوا مسجداً مُقَاوَمَةً لمسجد قباءٍ وتحقيراً له، فإني سآتي بجيش من الروم أُخرج به محمداً وأصحابه من المدينة، فَبَنَوْهُ وقالوا: سيأتي أبو عامر ويصلي فيه ويتخذه معبداً ويُسَر به، ثم إن أبا عامر هلك عند قيصر. ونزل القرآن في أمر مسجد الضرار، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعني أبا عامر وقولهم: «سيأتي أبو عامر». وقرأ الأعمش: [للّذين حاربوا الله]. وقوله ﴿ضِرَارًا﴾ أي داعية للتضار بين جماعتين، فلذلك قال: ﴿ضِرَارًا﴾، وهو في الأصل مصدر ما يكون من اثنين وإن كان المصدر الملازم لذلك مُفَاعلة كما قال سيبويه[2]. ونصب ﴿ضِرَار﴾ وما بعده على المصدر في موضع الحال، ويجوز أن يكون على المفعول لأجله، وقوله: ﴿بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد: بين الجماعة التي كانت تصلي في مسجد قباءٍ، فإن من جاوز مسجدهم كانوا يصرفونه إليه وذلك داعية إلى صرفه عن الإيمان. وقيل: أراد بقوله:

---

(١) النَّظير: المِثْلُ والمساوي، فهو مساو لابن سلول في المكانة بين قومه، وفي أبي عامر الراهب هذا يقول كعب بن مالك:

معــاذَ اللهِ مـــن فِعْــلٍ خَبيــثٍ ... كَسَعْيِـكَ فـي الْعَشِيرَةِ عَبْدَ عَمْـرو
وقُلْــتَ بــأَنَّ لــي شـرَفــاً وذِكْـراً ... فَقَــدْتَــابَعْـتَ إيمــانــاً بِكُفْــرِ

(٢) قال بعض العلماءِ: الضَّرَر: الذي لك به منفعة وعلى جارك فيه مضَرَّة ـ والضرَّار: الذي ليس لك فيه منفعة وعلى جارك فيه المَضَرَّة.

﴿بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جماعة مسجد رسول الله ﷺ، وهذا بحسب الخلاف في المسجد المؤسس على التقوى، وسيأتي ذلك. قال النقاش: يلزم من هذا ألا يُصَلَّى عليه في كنيسة ونحوها لأنها بنيت على شرٍّ من هذا كله، وقد قيل في هذا: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تفقه غير قوي[1].

والإرصاد: الإعداد والتهيئة، والذي حارب الله ورسوله: أبو عامر الفاسق، وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ يريد: في غزوة الأحزاب وغيرها، والحالف المراد في قوله: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ هو بَخزَجُ ومن حلف من أصحابه، وكُسِرَت الألف من قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ لأن الشهادة في معنى القول.

وأسند الطبري عن شقيق[2] أنه جاءَ ليصلي في مسجد بني غاضرة[3] فوجد الصلاة قد فاتته، فقيل له: إن مسجد بني فلان لم يصل فيه بعد فقال: لا أُحب أَن أُصلي فيه فإنه بُني على ضرار، وكل مسجد بني ضراراً ورياءً وسُمعة فهو في حكم مسجد الضرار، وروي أن مسجد الضرار لما هدم وأُحرق اتخذ مزبلة ترمى فيه الأقذار والقمامات.

---

(١) قال القرطبي: «لأن الكنيسة لم يقصد ببنائها الضرر بالغير، وإن كان أصل بنائها على شر، وإنما اتخذ النصارى الكنيسة واتخذ اليهود البيعة موضعاً للعبادة بزعمهم كالمسجد لنا فافترقا، وقد أجمع العلماءُ على أن من صلى في كنيسة أو بيعة على موضع طاهر أن صلاته صحيحة، وذكر البخاري أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يصلي في البيعة إذا لم يكن فيها تماثيل».

(٢) عرف بهذا اثنان: شقيق بن إبراهيم الأزدي البَلْخي، أبو علي، زاهد صوفي من مشاهير المشايخ في خراسان، من أول من تكلم في علوم الصوفية، وكان من كبار المجاهدين، استشهد سنة ١٩٤هـ. وشقيق بن ثور بن عفير السدوسي البصري، من أشراف العرب في العصر الأموي، شهد صفين مع علي، وقدم على معاوية في خلافته، وهو من التابعين، ومن الثقات عند رجال الحديث، وتوفي سنة ٦٤هـ. ونرجح أن المراد هو الثاني لأن الأول عاش ومات في خراسان، والحادثة المروية هنا تعلق بني غاضرة وهم من العرب.

(٣) في الصحاح: غاضرة: قبيلة من بني أسد، وحيٌّ من بني صعصعة، وبطن من ثقيف. وفي القاموس: وهم بنو غاضرة بن بغيض بن ثابت بن غطفان بن سعد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

وروي أَن رسول الله ﷺ لما نزلت: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ ﴾ كان لا يمر بالطريق التي فيها المسجد، وهذا النهي إنما هو لأن البانين لمسجد الضرار قد كانوا خادعوا رسول الله ﷺ وقالوا: بنينا مسجداً للضرورات والسيل الحايل بيننا وبين قومنا فنريد أَن تصلي لنا فيه وتدعو بالبركة، فهَمَّ رسول الله ﷺ بالمشي معهم إلى ذلك، واستدعى قميصه لينهض فنزلت الآية: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ ﴾. وقوله ﴿ لَّمَسْجِدٌ ﴾ قيل: إن اللام لام قَسَم، وقيل: هي لام الابتداءِ كما تقول: لَزيْدٌ أَحسن الناس فعلا، وهي مقتضية تأكيداً.

وقال ابن عباس، وفرقة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم: المراد بالمسجد الذي أُسس على التقوى: هو مسجد قِباءٍ، وروي عن عمر، وأَبي سعيد، وزيد بن ثابت أَنه مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، ويليق القول الأَول بالقصة، إلا أَن القول الثاني رُوي عن رسول الله ﷺ، ولانظر مع الحديث، وأَسند الطبري في ذلك عن أَبي سعيد الخدري أَنه قال: اختلف رجل من بني خدرة ورجل من بني عمرو بن عوف فقال الخدري: هو مسجد الرسول ﷺ، وقال الآخر: هو مسجد قباءٍ، فأَتيا رسول الله ﷺ فسأَلاه فقال: «هو مسجدي هذا، وفي الآخر خير كثير»[1] إلى كثير من الآثار في هذا عن أُبي بن كعب، وسهل بن سعد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومسجد رسول الله ﷺ كان في بقعته نخل وقبور مشركين ومِربد[2] ليتيمين كانا في

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة، وابن حبان، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن أبي سعيد الخدري: (الدر المنثور، وفيض القدير).

(٢) المِرْبد: موقف الإبل ومَحْبسها، وبه سُمّي مِرْبد البصرة، كان سوقاً للإبل، وكان الشعراء يجتمعون فيه.

حجر أَسعد بن زرارة ، وبناه رسول الله ﷺ ثلاث مرات: الأُولى بالسَّميط[١] وهي لبنة أَمام لبنة ، والثانية بالصعيدة[٢] ، وهي لبنة ونصف في عرض الحائط ، والثالثة بالأُنثى والذكر ، وهي لبِنتان تعرض عليهما لبنتان ، وكان في طوله سبعون ذراعاً ، وكان عُمُده النخل ، وكان عريشاً يكف المطر ، وعرض على رسول الله ﷺ بنيانه ورفعه فقال: «لا ، بل يكون عريشاً كعريش أَخي موسى كان إِذا قام ضرب رأسه في سقفه» ، وكان رسول الله ﷺ ينقل فيه اللَّبن على صدره ، ويقال إِن أَول من وضع في أَساسه حجراً رسول الله ﷺ ، ثم وضع أَبو بكر حجراً ، ثم وضع عمر حجراً ، ثم وضع عثمان حجراً ، ثم رمى الناس بالحجارة فتفاءَل بذلك بعض الصحابة في أَنها الخلافة فصَدَقَ فأله.

وقوله: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ قيل: معناه: منذ أَول يوم ، وقيل: معناه: من تأسيس أَول يوم ، وإِنما دعا إِلى هذا الاختلاف أَنَّ من أُصول النحويين أَنَّ (من) لا تُجر بها الأَزمان وإنما تُجَر الأَزمان بمنذ ، تقول: ما رأَيته منذ يومين أَو سنة أَو يوم ، ولا تقول: من شهر ولا من سنة ، ولا من يوم ، فإِذا وقعت (من) في الكلام وهي تلي زمناً[٣] فيقدر مضمر يليق أَن تجره (من) كقول الشاعر:

لِمَنِ الديَارُ كقُنَّةِ الحِجْرِ ... أَقْوَيْنَ مِنْ حِجَجٍ ومِنْ دهْرِ؟[٤]

و«مِنْ شَهْرِ» رواية ، فقدروه: «مِنْ مرِّ حِجَجٍ ومِنْ مرِّ دَهْرِ» ، ولما كان قوله تعالى ﴿أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ يوماً وهو اسم زمان احتاجوا فيه إِلى تقدير «مِنْ تأْسيس»[٥] ، ويحسن عندي

---

(١) السَّمِيطُ: بفتح السِّين المشددة وكسر الميم ، وقد تشدّد السِّين مع الضم وتشدّد الميم مع الفتح هو: الآجُرّ القائم بعضه فوق بعض ، وقد يُسَمى المَسْمُوط ، والسَّمْط. (المعجم الوسيط).

(٢) طريقة ثانية في البناء يكون عرض الجدار فيها مساوياً لِلَبِنَة ونصف لَبِنَة ، وأما الطريقة الأولى فيكون عرض الجدار فيها لبنة واحدة ، وقد وضح ذلك ابن عطيَة ، أما الطَريقة الثالثة فهي قائمة على وضع لَبِنَتين ثم فوقهما لبنتان أُخريان بالعرض.

(٣) هكذا في جميع النسخ التي بين يديّ ، والمفروض أن تكون العبارة: «فإذا وقعت (مِنْ) في الكلام يليها زمن».

(٤) البيت لزهير بن أبي سُلْمى ، وهو مطلع قصيدة يمدح بها هرم بن سنان ، والقُنَّة: قِمَّة الشيءِ أو ما أشرف منه على الأرض ، والحِجر: منازل ثمود عند وادي القرى بناحية الشام ، وأَقْوَيْن: أَقْفَرْن وخَلَوْنَ ، والحِجَج: السنون.

(٥) يعني: «من تأسيس أول».

أَنْ يُستغنى في هذه الآية عن تقدير ، وأَن تكون (مِنْ) تجر لفظة ﴿أَوَّلِ﴾ لأَنها بمعنى البداءَة ، كأَنه قال: من مبتدإِ الأيام ، وهي ـ هنا ـ تقوم مقام «المَرّ» في البيت المتقدم ، وهي كما تقول: «جئت من قبلك ومن بعدك» وأَنت لا تدل بهاتين اللفظتين إِلا على الزمن ، وقد حُكي لي هذا الذي اخترته عن بعض أَئمة النحو.

ومعنى ﴿أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ أَي بصلاتك وعبادتك. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ﴾ بكسر الهاءِ ، وقرأ عبد الله بن زيد: [أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فيهُ] بضم الهاءِ الثانية على الأَصل ، ويُحَسِّنه تجَنُّب تكرار لفظ واحد ، وقال قتادة وغيره: الضمير عائد على مسجد الرسول ﷺ ، والرجال: جماعةُ الأَنصار.

وروي أَن رسول الله ﷺ قال لهم: «يا معشر الأَنصار إِني رأيت الله أَثنى عليكم بالطهور فماذا تفعلون؟» فقالوا: يا رسول الله: إِنا رأَينا جيراننا من اليهود يتطهرون بالماءِ ، (قال القاضي أَبو محمد رحمه الله: يريدون الاستنجاءَ بالماءِ) ففعلنا نحن ذلك ، فلما جاءَ الإِسلام لم ندعه ، فقال رسول الله ﷺ: «فَلا تدعوه أَبداً»(١).

وقال عبد الله بن سَلَام(٢) وغيره ما معناه: إِن الضمير عائد على مسجد قباءٍ ، والمراد بنو عمرو بن عوف ، وروي أَن رسول الله ﷺ إِنما قال المقالة المتقدمة لبني عمرو بن عوف ، والأَول أَكثر. واختلف أَهل العلم في الأَفضل بين الاستنجاءِ بالماءِ أَو بالحجارة ، فقيل هذا وقيل هذا ، ورأَت فرقة من أَهل العلم الجمع بينهما ، فينقى بالحجارة ثم يتبع بالماءِ ، وحدثني أَبي رضي الله عنه أَنه بَلَغه أَن بعض علماءِ القيروان كانوا يتخذون في مُتَوَضَّياتهم أَحجاراً في تراب ينقون بها ثم يستنجون بالماءِ أَخذاً بهذا القول.

---

(١) هذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده (٣ـ٤٢٢) عن عويم بن ساعدة الأنصاري ، وفيه أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: «إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء»... الخ.

(٢) هو عبد الله بن سَلَام الحارث الإسرائيلي ، أبو يوسف ، صحابي ، قيل إنه من نسل يوسف بن يعقوب عليهما السلام ، أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة ، وكان اسمه «الحصين» فسماه رسول الله ﷺ عبد الله ، وفيه نزلت الآية الكريمة ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ، والآية الكريمة: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ، وقد شهد مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتح بيت المقدس والجابية ، ولما كانت الفتنة بين علي رضي الله عنه وبين معاوية اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات بها سنة ٤٣هـ ، له (٢٥) حديثاً. (تهذيب التهذيب ـ الأعلام).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما يتصور الخلاف في البلاد التي يمكن فيها أَن تنقي الحجارة. وابن حبيب لا يجيز الاستنجاءَ بالحجارة حيث يوجد الماءُ، وهو قولٌ شذَّ فيه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَتَطَهَّرُواْ﴾، وقرأ طلحة بن مصرف، والأَعمش: [يطَّهَّروا] بالإدغام، وقرأ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: [الْمُتَطَهِّرِينَ] بالتاءِ، وأَسند الطبري عن عطاءٍ أنه قال: أَحدث قوم من أَهل قباءٍ الاستنجاء بالماءِ فنزلت الآية فيهم، وروي أَن رسول الله ﷺ قال: «منهم عُويم بن ساعدة» ولم يسم أَحداً منهم غير عُويم.

وقوله تعالى ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ الآية. استفهام بمعنى تقرير. وقرأَ نافع، وابن عامر، وجماعة: [أُسِّس بُنْيَانُهُ] على بناءِ [أُسِّسَ] للمفعول ورفع [بُنْيَان] فيهما[١]، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وجماعة: ﴿أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ على بناءِ الفعل للفاعل ونصب [بُنيان] فيهما، وقرأَ عمارة بن ضبا ـ رواه يعقوب ـ الأَول على بناءِ الفعل للمفعول والثاني على بنائه للفاعل. والآية تتضمن معادلة بين شيئين، فإِما بين البناءَين وإِما بين البانين، فالمعادلة الأُولى هي بتقدير: «أَبِناءُ من أَسَّس؟». وقرأَ نصر بن علي ـ ورويت عن نصر بن عاصم ـ: [أَفَمَنْ أُسُّ بُنيانِهِ] على إِضافة [أُسُّ] إِلى البنيان، وقرأَ نصر بن عاصم، وأَبو حيوة أَيضاً: [أَساسُ بُنيانِهِ]، وقرأَ نصر بن عاصم أَيضاً: [أُسُسُ بُنيانِهِ] على وزن (فُعُل) بضم الفاءِ والعين، وهو جمع أَساس كقَذَالٍ وقُذُل، حكى ذلك أَبو الفتح[٢]، وذكر أَبو حاتم أَن

---

(١) أي في قوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ وقوله: [أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيانُهُ].

(٢) روى أبو الفتح هذه القراءات عن نصر بن عاصم ونصر بن علي في كتاب المحتسب (ج١ـ٣٠٣ـ القاهرة ـ تحقيق على النجدي)، ويتفق كلام ابن عطية مع ما في المحتسَب في قراءتين: [أَسَاسُ بُنْيَانِهِ] بفتح الألف وألف بين السِّينين، و[أُسُّ بُنْيَانِهِ] برفع الألف بالسين المشددة وبخفض النون في بنيانه ـ أما القراءة الثالثة فقد ضبطها ابن عطية هنا: [أُسُسُ بُنْيَانِهِ] على وزن فُعُل بضم الفاء والعين. وقال: وهو جمع أساس كَقَذَالٍ وقُذُل، ولكن محقق المحتسب ضبطها: [أَسَسُ بُنْيَانِهِ] وقال على وزن فَعَل. وضبط الفاء والعين بالفتح. وهو ما نقله ابن عطية عن أبي حاتم بعد ذلك.

ونصر بن عاصم هو: نصر بن عاصم الليثي، (ويقال: الدؤلي) البصري النحوي، تابعي، سمع من مالك بن الحويرث وغيره، وعرض القرآن على أبي الأسود، وروى القراءة عنه عَرْضاً أبو عمرو، =

هذه القراءَة لنصر إنَّما هي: [أَسَسُ] بهمزة مفتوحة وسين مفتوحة وسين مضمومة، وعلى الحكايتين فالإضافة إلى البنيان، وقرأ نصر بن علي أيضاً: [أَساس] على جمع [أُسٍّ](١)، والبنيان مصدر، يقال: بنى يبني بناءً وبُنياناً كالغُفْران والطُّغيان فسمي به المبني مثل الخلْق إذا أردت به المخلوق، وقيل: هو جمعٌ واحدُهُ بُنْيَانَةَ، وأنشد في ذلك أبو علي:

كبُنْيَانَةِ القَاري مَوْضِعُ رجْلِها وآثارِ نِسْعيها من الدَّفِّ أَبْلَقُ(٢)

وقرأ الجمهور: ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ﴾، وقرأ عيسى بن عمر: [عَلَى تَقْوًى] بتنوين الواو، حكى هذه القراءَة سيبويه وردها الناس، قال أبو الفتح: قياسها أن تكون الألف للإلحاق كأَرطًى ونحوه(٣).

وأما المراد بالُبنيان الذي أُسس على التقوى والرضوانِ فهو ـ في ظاهر اللفظ وقولِ الجمهور ـ المسجدُ المذكور قبلُ، ويطرد فيه الخلاف المتقدم، وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: المراد بالمسجد المؤسس على التقوى هو مسجد رسول الله ﷺ، والمراد بأنه أُسس على تقوى من الله ورضوان هو مسجد قباءٍ، وأما البنيان الذي أُسس على شفا جرف هار فهو مسجد الضرار بإجماع.

= وعبد الله بن أبي إسحق الحضرمي، وتوفي قبل سنة مائة. (طبقات القراءِ لابن الجزري).
أما نصر بن علي فهو نصر بن علي أبو حفص الحضيفي، روى الحروف عن حفص بن سليمان عن عاصم. (طبقات القراءِ لابن الجزري).

(١) على مثال: خُفّ وأَخْفَاف وقُفْل وأَقفال. ولكن الكثير إساسٌ مثل خِفَاف، قال الشاعر:
أَصْبَحَ المُلكُ ثابتَ الإسَاسِ في البهاليلِ مِنْ بني العَبَّاسِ
هذا وجمع الأساس مثل قَذَال وقُذُل.

(٢) الشاهد في البيت أن (بُنْيَانَة) واحدة (بُنْيان). والقاري: ساكن القرية، كما أن البادي: ساكن البادية. والنِّسع: المفصل بين الكف والساعد، والدَّفُّ: من قولهم: دَفَّ الطائر أي ضرب بجناحيه، أو حرَّكَ جناحيه ورجلاه في الأرض، وفي الحديث: «كُلْ ما دَفَّ ولا تأكل ما صَفَّ». والبَلَق: سوادٌ وبياضٌ في الشيءِ، يقال: بَلِق فهو أبْلَق، والجمع: بُلْقٌ. والبيت غير منسوب.

(٣) معنى أن الألف للإلحاق أنها ليست للتأنيث وذلك مثل أَرطىً كما قال، ومثل تَترىً، وكذلك عَلْقىً في قول العجَّاج:
يَسْتَنُّ في عَلْقىً وفي مكُورِ
والعَلْقَى والمُكُور: ضربان من الشجر، ويَسْتَنُّ: يرعى: فالعجاج يصف ثوراً يرعى في ضروب من الشجر.

والشَّفا: الحاشية والشَّفير[(١)]، والجُرُف: الحفير حول البئر ونحوه مما جرفته السيول والنَّدوة والبلى[(٢)]، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وجماعة: ﴿جُرُفٍ﴾ بضم الراءِ، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وجماعة: [جُرْف] بسكون الراءِ، واختلف عن عاصم، وهما لغتان، وقيل: الأَصل بضم الراءِ وتخفيفها بعد ذلك مستعمل. و﴿هَارٍ﴾ معناه: متهدم مُنْهال، من هَار يهور، ويقال: هار يهير ويهار، وأَصله: هاير أَو هاور، فقيل: قلبت راؤُه قبل حرف العلة فجاءَ هارِوْ أَو هارِي، فصنع به ما صنع بِقَاضٍ وغازٍ، وعلى هذا يقال في حال النصب: هاريا، ومثله «في يوم راح» أَصله: رائح، ومثله «شاكي السلاح» أَصله: شائك، ومثله قول العَجاج:

لاَثٍ بِـــهِ الأَشَــاءُ والعُبْــرِي[(٣)]

أصله: لائِثٌ، ومثله قول الشاعر:

. . . . خَفَضُــوا أَسِنَّتَهُــمْ فكُــلٌّ نــاعٍ[(٤)]

على أَحد الوجهين، فإِنه يحتمل أَنه من «نَعَى ينعى» والمراد أَنهم يقولون: «يا ثارات فلان»، ويحتمل أَن يريد: «فَكُلُّهم نَائِعٌ» أَي عاطِشٌ كما قال عُمير بن شييم[(٥)]:

---

(١) الكلمات الثلاث معناها واحد: الحرف والطرف.

(٢) الجُرف: ما أكل السَّيْل من أسفل شقّ الوادي، وجمعه أجرافٌ وجروف وجَرفة، فإن لم يكن من شقِّه فهو شطٌّ وشاطى، وجُرْف الوادي ونحوه من أسْنادِ المسَايِل إذا نَخَرَ الماءُ في أصله فاحتفره فصار كالدحل وأشرف أعلاه، ولعل هذا يفسر لنا معنى إضافة «الندوة والبلى» إلى «السيول» في كلام ابن عطية.

(٣) الأَشَاءُ: النَّخل، والعُبْرِيّ: السِّدْرُ الذي على شاطى الأنهار، ومعنى: «لاثٍ به»: مُطيف به.

(٤) هذا عجز بيت للأجدع بن مالك كما قال في اللسان، والبيت بتمامه:

خَيْــلانِ مِــنْ قَــوْمــي ومِــنْ أعْـدَائِهِــمْ   خَفَضُــوا أَسِنَّتَهُــمْ وكُــلٌّ نــاعِ

والاحتمال الثاني هنا قاله يعقوب وأنشد البيت عليه بلفظ: «وكلّ ناعِي»، قال: «أراد نايعٌ أي عطشان إلى دم صاحبه». أما الاحتمال الأول فقد قاله الأصمعي، قال: «هو على وجهه، إنما هو فاعِلٌ من نَعَيْتُ، وذلك أنهم يقولون: يالثارات فلان:

ولقَــدْ نَعَيْتُــكَ يَــوْمَ حِــزْمِ صَــوَائِــقٍ   بِمَعَــابِــلٍ زُرْقٍ وأَبْيَــضَ مِخْــذَمِ

أي: طلبتُ دمك فلم أزل أضرب القومَ وأطعُنُهُم وأنعاك وأبكيك حتى شفيت نفسي وأخذتُ بثاري».

(٥) في بعض الأصول كتب عمرو بن شييم، وفي بعضها كتب عامر. وصحة اسمه كما أثبتناه: عمير بن=

. . . . والأَسَـــلَ النِّيَــاعَــا[١]

وقيل في ﴿ هَارٍ ﴾: إن حرف علَّته حُذف حذفاً، فعلى هذا يجري بوجوه الإعراب فتقول: هذا جُرُفٌ هارٌ، ورأيتُ جرُفاً هاراً، ومررت بَجُرُف هارٍ. واختلف القراءُ في إمالة ﴿ هَارٍ ﴾ و[انهار].

وتأسيس البناءِ على تقوى إنما هو بِحُسْن النية فيه وقصد وجه الله تبارك وتعالى وإظهار شرعه، كما صنع في مسجد النبي ﷺ وفي مسجد قباءٍ. والتأسيس على شفا جرف هار إنما هو بفساد النية وقصد الرياءِ والتفريق بين المؤمنين، فهذه تشبيهات صحيحة بارعة. و﴿ خَيْرٌ ﴾ في هذه الآية تفضيل، ولا شركة بين الأمرين في خير إلا على معتقد باني مسجد الضِّرار، فبِحَسَب ذلك المعتقد صح التفضيل.

وقوله تعالى: ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ الظاهر منه وممَّا صح من خبرهم وهَدْم رسول الله ﷺ مسجدهم أنه خارج مخرج المثل، أَي: مثل هؤلاءِ المضارين من المنافقين في قصدهم معصية الله وحصولهم من ذلك على سخطه كمن ينهار بنيانه في نار جهنم، ثم اقتضب الكلام اقتضاباً يدل عليه ظاهره. وقيل: بل ذلك حقيقة وإن ذلك المسجد بعينه انهار في نار جهنم، قاله قتادة وابن جريج[٢]. وروي عن جابر بن عبد الله وغيره أنه قال: رأيت الدخان يخرج منه على عهد رسول الله ﷺ، وروي في بعض الكتب أَن رسول الله ﷺ رآه حين انهار حتى بلغ الأَرض السابعة ففزع لذلك رسول الله ﷺ، وروي أَنهم لم يصلوا فيه أَكثر من ثلاثة أَيام، أَكملوه يوم الجمعة وصلوا فيه يوم الجمعة وليلة السبت وانهار يوم الاثنين.

= شييم بن عمرو بن عباد بن بكر التغلبي، عدَّه ابن سلام في الطبقة الثانية من الإسلاميين، وكان يكثر من المثال في شعره، توفي عام ١٠١هـ. (معجم الشعراء ـ طبقات فحول الشعراء ـ المؤتلف والمختلف ـ مقدمة ديوانه).

(١) هذا جزء من بيت، رواه في اللسان منسوباً إلى القطامي (عمير بن هشيم)، والبيت بتمامه:

لَعَمْــرُ بنــي شِهَــابٍ مــا أقــامــوا ... صُـدورَ الخَيْـلِ والأَسَـلَ النِّيَـاعَـا

ثم قال: «يعني الرِّماح العطاش إلى الدماءِ، والأسل: أطراف الأسنة»، ثم عاد فقال: قال ابن برّي: البيت لدريد بن الصمة. وهذا يوافق ما في «الصحاح».

(٢) قال الزمخشري: «لما جُعل الجرف مجازاً عن الباطل قيل: ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ على معنى: فطاح به الباطل في نار جهنم، إلا أنه رشح المجاز فجيءَ بلفظ الانهيار الذي هو الجرف، وليصور أن المبطل كأنه أسس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهكذا كله بإسناد لين، وما قدمناه أصوب وأصح، وكذلك بقي أمره والصلاة فيه من قبل سفر رسول الله صلة الله عليه وسلم إلى تبوك إلى أن قفل منها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ طعن على هؤلاءِ المنافقين وإشارة إليهم. والمعنى: لا يهديهم من حيث هم ظالمون، أو يكون المراد الخصوص فيمن يوافي على ظلمه، وأسند الطبري عن خلف بن ياسين أنه قال: رأيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله في القرآن فرأيت فيه مكاناً يخرج منه الدخان، وذلك في زمن أبي جعفر المنصور. وروي شبيه بهذا أو نحوه عن ابن جريج، أسنده الطبري.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

الضمير في ﴿بُنۡيَٰنُهُمُ﴾ عائد على المنافقين البانين للمسجد ومن شاركهم في غرضهم، وقوله: ﴿ٱلَّذِي بَنَوۡاْ﴾ تأكيد وتصريح بأمر المسجد ورفع للإشكال. والرِّيبة: الشك، وقد يُسمى ريبةً فسادُ المعتقد واضطرابه والاعتراض في الشيءِ والتخبط فيه والحزازة من أجله وإن لم يكن شكاً، فقد يرتاب من لا يشك، ولكنها في مُعتاد اللغة تجري مع الشك. ومعنى الريبة ـ في هذه الآية ـ أمر يعم الغيظ والحنق ويعم اعتقاد صواب فعلهم ونحو هذا مما يؤدي كله إلى الريبة في الإسلام، فمقصد الكلام: لا يزال هذا البنيان الذي هدم لهم يُبقي في قلوبهم حزازة وأثر سوءٍ، وبالشك فسر ابن عباس رضي الله عنهما الريبة هنا، وفسرها السدي بالكفر، وقيل له: أفكفَر مجمع بن جارية؟ قال: لا ولكنها حزازة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومُجَمِّع رحمه الله قد أقسم لعمر رضي الله عنه أنه ما علم باطن القوم ولا قصد سوءاً، والآية إنما عنت من أبطن سوءاً، فليس مجمع منهم. ويحتمل أن يكون

المعنى: لا يزالون مريبين بسبب بنائهم الذي اتضح فيه نفاقهم ، وجملة هذا أن الريبة في الآية تعم معاني كثيرة يأخذ كل منافق منها بحسب قدره من النفاق.

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي: [إِلاَّ أَنْ تُقَطَّعَ قلُوبُهُم] بضم التاءِ وبناءِ الفعل للمفعول ، وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وعاصم ـ بخلاف عنه ـ: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ﴾ بفتح التاءِ على أنها فاعلة ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، [إِلَى أَنْ تَقَطَّعَ] على معنى: إلى أن يموتوا ، وقرأ بعضهم: [إِلَى أَنْ تَقْطَع] ، وقرأ أبو حيوة [إِلاَّ أَنْ يُقْطِع] بالياءِ مضمومة وكسر الطَّاءِ ونصب القلوب ، أي: بالقتل ، وأما على القراءة الأولى فقيل: بالموت ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد وغيرهم. وقيل: بالتوبة ، وليس هذا بالظاهر وإلا أن يُتَأَول: أو يتوبوا توبة نصوحة يكون معها من الندم والحسرة على الذنب ما يقطع القلوب همّاً وفكرة ، وفي مصحف ابن مسعود: [ولو قُطِّعت قلوبهم] ، وكذلك قرأها أصحابه وحكاها أبو عمرو: [وإن قُطِعت] بتخفيف الطاءِ ، وفي مصحف أُبي: «حتى الممات» ، وفيه «تقطع».

وقوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ الآية. هذه الآية نزلت في البيعة الثالثة وهي بيعة العقبة الكبرى ، وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين ، وكان أصغرهم سناً عقبة بن عمرو ، وذلك أنهم اجتمعوا مع رسول الله ﷺ عند العقبة فقالوا: اشترط لك ولربك ، والمتكلم بذلك عبد الله بن رواحة ، فاشترط رسول الله ﷺ حمايته مما يحمون به أنفسهم ، واشترط لربه التزام الشريعة وقتال الأحمر والأسود في الدفع عن الحوزة ، فقالوا: ما لَنا على ذلك؟ قال: الجنة ، فقالوا: نعم ، ربح البيع لا نقيل ولا نقال ، وفي بعض الروايات: ولا نستقيل ، فنزلت الآية في ذلك ، ثم الآية ـ بعد ذلك ـ عامة في كل من جاهد في سبيل الله من أُمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة ، وقال بعض العلماءِ: ما من مسلم إلا ولله في عنقه هذه البيعة وفَى بها أو لم يَف ، وفي الحديث: «إن فوق كل بِرٍّ بِرٌّ حتى يبذل العبد دمه فإذا فعل ذلك فلا بِرَّ فوق ذلك»[1] ، وهذا تمثيل من الله عزَّ وجلَّ جميلَ صنعه بالمبايعة ، وذلك أن حقيقة المبايعة أن تقع بين نَفْسين بقصد منهما وتملُّك صحيح ، وهذه القصة

(١) قال القرطبي: رواه الحسن ، ثم أنشد البيت المشهور:
الجُـودُ بـالمـال جُـودٌ فيـه مكـرُمَـةٌ والجُودُ بـالنَّفْـسِ أقصى غـايَـةِ الجـود

وهب الله عباده أَنفسهم وأَموالهم ، ثم أَمرهم ببذلها في ذاته ، ووعدهم على ذلك ما هو خير منها ، فهذا غاية التفضل ، ثم شبه القصة بالمبايعة ، وأَسند الطبري عن كثير من أَهل العلم أَنهم قالوا: ثامَنَ الله تعالى في هذه الآية عباده فأَعلى لهم ، وقاله ابن عباس ، والحسن بن أَبي الحسن ، وقال ابن عيينة: معنى الآية: اشترى منهم أَنفسهم أَلاَّ يُعْملوها إِلا في طاعة الله ، وأَموالهم أَلاَّ ينفقوها إِلا في سبيل الله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالآية ـ على هذا ـ أَعم من القتل في سبيل الله ، ومبايعة الخلفاء هي منتزعة من هذه الآية ، كان الناس يعطون الخلفاء طاعتهم ونصائحهم وجدهم ، ويُعْطيهم الخلفاءُ عدلهم ونظرهم والقيامَ بأَمرهم. وحدثني أَبي رضي الله عنه أَنه سمع الواعظ أَبا الفضل ابن الجوهري يقول على المنبر بمصر: ناهيك من صفقةٍ البائع فيها رب العلا ، والثمن جنة المأْوى ، والواسطة محمد المصطفى ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مقطوع ومستأْنف ، وذلك على تأْويل سفيان بن عيينة ، وأَما على تأْويل الجمهور من أَن الشراءَ والبيع إِنما هو مع المجاهدين فهو في موضع الحال. وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وأَبو عمرو ، والحسن ، وقتادة ، وأَبو رجاء ، وغيرهم: ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ على البناءِ للفاعل ، ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ على البناءِ للمفعول ، وقرأَ حمزة ، والكسائي ، والنَّخَعي ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأَعمش بعكس ذلك ، والمعنى واحد إِذ الغرض أَن المؤمنين يقاتلون فيوجد فيهم من يَقْتُل وفيهم من يُقْتَل ، وفيهم من يجتمعان له ، وفيهم من لا تقع له واحدة منهما ، وليس الغرض أَن يجتمع ولابد لكل واحد واحد ، وإِذا اعتبر هذا بان[1].

وقوله سبحانه: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لأَن ما تقدم من الآية هو في معنى الوعد فجاءَ هذا مؤكداً لما تقدم من قوله: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾. وقال المفسرون: يظهر من قوله سبحانه: ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ أَن كل أَمة أُمرت بالجهاد ووعدت عليه.

---

(١) قال الزمخشري: ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ فيه معنى الأمر ، لقوله تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن ميعاد أُمة رسول الله ﷺ تقدم ذكره في هذه الكتب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ استفهام على جهة التقرير، أَي: لا أَحد أَوفى بعهده من الله، وقوله: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ فعل جاءَ فيه استفعل بمعنى أَفعل، وليس هذا من معنى طلب الشيءِ كما تقول: استوقد ناراً، واستهدى مالاً، واستدعى نصراً، بل هو كعجب واستعجب[1]، ثم وصف الله تبارك وتعالى ذلك البيع بأَنه ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، أَي أَنه الحصول على الحظ الأَغبط من حط الذنوب ودخول الجنة بلا حساب[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾.

هذه الأَوصاف هي من صفات المؤمنين الذين ذكر الله أَنه اشترى منهم أَنفسهم، وارتفعت هذه الصفات لما جاءَت مقطوعة في ابتداءِ آية على معنى: هم التائبون. ومعنى الآية على ما تقتضيه أَقوال العلماءِ والشرع أَنها أَوصاف الكملة من المؤمنين ذكرها الله تعالى ليستبق إِليها أَهل التوحيد حتى يكونوا في أَعلى رتبة، والآية الأُولى مستقلة بنفسها، يقع تحت تلك المبايعة كل موحد قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا وإِن لم يتصف بهذه الصفات التي في هذه الآية أَو بأَكثرها. وقالت فرقة: بل هذه الأَوصاف جاءَت على جهة الشرط، والآيتان مرتبطتان فلا يدخل في المبايعة إِلا المؤمنون الذين هم على هذه الأَوصاف ويبذلون أَنفسهم في سبيل الله. وأَسند الطبري في ذلك عن الضحاك بن مزاحم أَن رجلاً سأَله عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾ الآية، وقال الرجل: أَلا

---

(١) قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ خطاب من الله تبارك وتعالى بعد ضمائر الغائب على سبيل الالتفات، لأن في مواجهته تعالى لهم بالخطاب تشريف لهم، وهذه هي حكمة الالتفات هنا.

(٢) قال الحسن: «والله ما على الأرض مؤمن إلا يدخل الجنة في هذه البيعة»، فما أعظم هذا الفوز حقاً!.

أَحمل على المشركين فأَقتل حتى أُقتل؟ فقال الضحاك: ويلك، أَين الشرط: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ الآية؟ وهذا القول تحريج وتضييق والله أَعلم، والأول أَصوب، والشهادة ماحية لكل ذنب إِلا لمظالم العباد، وقد رُوي أَن الله تعالى يحمل عن الشهيد مظالم العباد ويجازيهم عنه، خَتَمَ الله لنا بالحسنى.

وقالت فرقة: إِن رفع التائبين إِنما هو على الابتداءِ وما بعده صفة إِلا قوله: ﴿ٱلْـَٔامِرُونَ﴾ فإِنه خبر الابتداءِ، كأَنه قال: هم الآمرون، وهذا حسن إِلا أَن معنى الآية ينفصل من معنى التي قبلها، وذلك قلق فتأَمله. وفي مصحف عبد الله بن مسعود: [التَّائِبِينَ الْعَابِدِينَ] إِلى آخرها، ولذلك وجهان: أَحدهما: الصفة للمؤمنين على اتباع اللفظ، والآخر: النصب على المدح.

و﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ يعم الرجوع من الشر إِلى الخير كان ذلك في كفر أَو معصية، والرجوع من حالة إِلى ما هي أَحسن منها وإِن لم تكن الأُولى شرًّا بل خيراً، وهكذا كانت توبة النبي ﷺ واستغفاره سبعين مرة في اليوم، والتائب هو المُقْلع عن الذنب العازم على التمادي على الإِقلاع النادم على ما سلف، والتائب عن ذنب يسمى تائباً وإِن قام على غيره إِلا أَن يكون من نوعه فليس بتائب، والتوبة ونقضها دائباً خير من الإِصرار، ومن تاب ثم نقض ووافى على النقض فإِن ذنوبه الأُولى تبقى عليه لأَن توبته منها علم الله أَنها منقوضة، ويحتمل الأَمر غير ذلك، والله أَعلم.

وقال الحسن في تفسير الآية: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ معناه: من الشرك.

و﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ لفظ يعم القيام بعبادة الله تبارك وتعالى والتزام شرعه وملازمة ذلك والمثابَرة عليه والدوام، والعابدُ هو المحسن الذي فسر رسول الله ﷺ في قوله: «أَنْ تعبد الله كأَنَّك تراه»(١)، وبأَدنى عبادة يؤديها المرءُ المسلم يقع عليه اسم عابد ويحصل في أَدنى رتبة، وعلى قدر زيادته في العبادة يحصل الوصف.

---

(١) هذا جزءٌ من حديث طويل رواه البخاري في تفسير سورة لقمان وفي كتاب الإيمان، ورواه مسلم في كتاب الإيمان، ورواه أبو داود في كتاب السنَّة، ورواه الترمذي في كتاب الإيمان، وابن ماجة في المقدمة، والإمام أحمد في مواضع كثيرة، وفيه أن جبريل عليه السلام سأله عن الإيمان، فأجاب، ثم سأله عن الإسلام فأجاب، ثم سأله عن الإحسان فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تراه فإنه يراك»، ثم سأله عن الساعة فأجاب بالحديث عن أشراطها، ثم قال في آخر الحديث: «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم».

و﴿ ٱلْحَـٰمِدُونَ ﴾ معناه: الذاكرون لله بأَوصافه الحسنى في كل حال وعلى السرَّاءِ والضرَّاءِ، وحمده لأَنه أَهل لذلك، وهو أَعم من الشكر إِذ الشكر إِنما هو على النِّعَم الخاصة بالشاكر.

و﴿ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ﴾ معناه: الصائمون، وروي عن عائشة رضي الله عنها أَنها قالت: «سياحة هذه الأمة الصيام»، أَسند الطبري، ورُوي أَنه من كلام النبي ﷺ[1]، وفي الحديث: «إِن لله ملائكة سيَّاحين مشَّائين في الآفاق يبلغون صلاة أُمتي عليّ»[2]، ويروى الحديث (صيَّاحين) بالصاد مِن الصِّياح، والسياحة في الأَرض مأْخوذة من السَّيْح وهو الماءُ الجاري على الأَرض إِلى غير غاية، وقال بعض الناس ـ وهو في كتاب النقاش ـ: «﴿ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ﴾ هم الجائلون بأَفكارهم في قدرة الله وملكوته»، وهذا قول حسن، وهي من أَفضل العبادات، ومن ذلك قول معاذ بن جبل رضي الله عنه: «اقعد بنا نؤمن ساعة»، ويروى أَن بعض العباد أَخذ القدح ليتوضأَ لصلاة الليل، فأَدخل إِصبعه في أُذن القدح وجعل يفكر حتى طلع الفجر، فقيل له في ذلك فقال: أَدخلت إِصبعي في أُذن القدح فتذكرت قول الله تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ ﴾[3]، وفكرت كيف أَتلقى الغُلَّ وبقيت في ذلك لَيْلي أَجمع.

و﴿ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ﴾ هم المصلون الصلوات الخمس، كذا قال أَهل العلم، ولكن لا يختلف في أَن من يكثر من النوافل هو أَدخل في الاسم وأَغرق في الاتصاف.

وقوله: ﴿ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ هو أَمر فُرض على أُمة محمد ﷺ بالجملة، ثم يفترق الناسُ فيه مع التعيين، فأَما ولاة الأَمر والرؤَساءُ فهو

---

(١) الخبر المسند إلى عائشة رضي الله عنها أسنده الطبري، أما أنه في كلام النبي ﷺ فقد روي عن أبي هريرة موقوفاً كما قال الشوكاني. وأخرج ابن جرير، أبو الشيخ، وابن مردويه، وابن النجار من طريق أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «السائحون هم الصائمون». (الدر المنثور).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والنسائي في سُنَنه، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بالصحة ولفظه كما رواه: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام». (الجامع الصغير).

(٣) من الآية (٧١) من سورة (غافر).

فرض عليهم في كل حال، وأَما سائر الناس فهو فرض عليهم بشروط، منها: أَلا تلحقه مضرَّة، وأَن يعلم أَن قوله يُسْمع ويُعْمل به ونحو هذا، ثم من تحمل بعد في ذات الله مشقة فهو أَعظم أَجراً، وأَسند الطبري عن بعض العلماءِ أَنه قال: حيثما ذكر الله الأَمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو الأَمر بالإِسلام والنهي عن الكفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا شك أَنه يتناول هذا وهو أَحرى أَن يتناول ما دونه[1] فتعميم اللفظ أَولى. وأَما هذه الواو التي في قوله: ﴿وَالنَّاهُونَ﴾ ولم يتقدم في واحدة من الصفات قبلُ، فقيل: معناها الربط بين هاتين الصفتين وهما الأَمر بالمعروف والنهي عن المنكر إِذ هما من غير قبيل الصفات الأُول.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لأَن الأُول فيما يخص المرءَ، وهاتان فيما بينه وبين غيره[2]، ووجب الربط بينهما لتلازمهما وتناسبهما، وقيل: هي زائدة، وهذا قول ضعيف لا معنى له، وقيل: هي واو الثمانية، لأَن هذه الصفة جاءَت ثامنةً في الرتبة، ومن هذا قوله تعالى في أَبواب الجنة: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾[3]، وقوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[4]، ومن هذا قوله: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾[5].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

على أَن هذه تعترض حتى لا يلزم أَن تكون واو ثمانية أَنها فرقت بين فصلين يعمان

---

(١) جاء في بعض النسخ: «إذ يتناول ما دونه»، على معنى أن اللفظ يتناول ما دون الإسلام والكفر فأولى به أن يتناولهما.

(٢) جاء ترتيب هذه الصفات في غاية من الحسن، إذ بدأ أولا بما يخص الإنسان مُرَتَّبة على ما سعى، ثم بما يتعدى الإنسان إلى غيره كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بما شمل ما يخصه في نفسه ويتعدى إلى غيره وهو الحفظ لحدود الله. ولما ذكر الله جميع الصفات أمر رسوله ﷺ أن يبشر المؤمنين، وفي الآية التي قبلها أمرهم سبحانه بالاستبشار فقال: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ﴾ فحصلت لهم المزية التامة بأن الله أمرهم بالاستبشار وأمر رسوله أن يبشرهم.

(٣) في الآية (٧٣) من سورة (الزُّمر).

(٤) في الآية (٢٢) من سورة (الكهف).

(٥) في الآية (٥) من سورة (التحريم).

بمجموعهما جميع النساءِ ولا يصح أَن يكون(١) [ثَيِّبَاتٍ أَبْكَاراً] فهي فاصلة ضرورة، وواو الثمانية قد ذكرها ابن خالويه في مناظرته لأَبي علي الفارسي في معنى قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وأَنكرها أَبو علي، وحدثني أَبي رضي الله عنه عن الأُستاذ النحوي أَبي عبد الله الكفيف المالقي ـ وكان قد استوطن غرناطة وأَقرأ فيها في مدة ابن حبوس ـ أَنه قال: «هي لغة فصيحة لبعض العرب، من شأْنهم أَن يقولوا إِذا عدُّوا: واحد، اثنان، ثلاثة، أَربعة، خمسة، ستة، سبعة، وثمانية، تسعة، عشرة، فهكذا هي لغتهم، ومتى ما جاءَ في كلامهم أَمر ثمانية أَدخلوا الواو»(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ لفظ عام تحته إِلزام الشريعة والانتهاءُ عما نهى الله عنه في كل شيءٍ وفي كل فن، وقوله ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: هو لفظ عام أُمر به النبي ﷺ أَن يبشر أُمته جميعاً بالخير من الله، وقيل: بل هذه الأَلفاظ خاصة لمن لم

---

(١) أي: لا يصح أن يكون التعبير «ثَيِّبَاتٍ أبكاراً» لأن هذا غير ممكن، وفي بعض النسخ: «لا يصح أن يَكُنَّ» أي النساء.

(٢) يرى بعض النحويين أن الواو التي تدخل على العدد ثمانية أو على ثامن الأشياء المعدودة تسمى «واو الثمانية»، ومنهم ابن خالويه الذي ذكرها في مناظرته لأبي علي الفارسي في معنى قوله تعالى في سورة الزُّمَر: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، وحكى الثعلبي عن أبي بكر بن عياش أن قريشاً كانت تقول: «ستة، سبعة، وثمانية» فتدخل الواو في الثمانية، وحكى نحوه القفال فقال: إن قوماً قالوا: العدد ينتهي عند العرب إلى سبعة، فإذا احتيج إلى الزيادة عليها استؤنف خبر آخر بإدخال الواو، كقوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ...﴾ ثم قال سبحانه: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، ويدل على ذلك أنه سبحانه لما ذكر أبواب جهنم قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ بدون واو، ولما ذكر الجنة قال: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ بالواو، وأنه سبحانه قال في سورة التحريم: ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ﴾... إلى أن قال: ﴿وَأَبْكَارًا﴾ فالسبعة نهاية العدد عندهم كالعشرة الآن عندنا. قال القُشيري أبو نصر: ومثل هذا الكلام تحكم، ومن أين أن السبعة نهاية عندهم؟ ثم هو منقوض بقوله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ ولم يذكر الاسم الثامن بالواو، وإنما ذكرت الواو في هذه الآيات لعلَّة خاصة في كل آية، وفي آيتنا هذه ذكر ابن عطية رحمه الله العلَّة وهي أنها أداة للربط بين صفتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنهما تختلفان عن الصفات السابقة من حيث إنهما تتعلقان بصلة المرء بغيره، أما الصفات الأولى فتختص بالمرء نفسه، وذكر أبو حيان التوحيدي علة أُخرى خلاصتها أن الصفات إذا تكررت للمدح أو الذم أو الترحم جاز فيها الإتباع للمنعوت والقطع في كلها أو بعضها، وإذا تباين ما بين الوصفين جاز العطف، ولما كان الأمر بالمعروف مبايناً للنهي عن المنكر لأن الأول طلب فعل والثاني ترك فعل حسن العطف في قوله سبحانه: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ ـ هذا وسنذكر إن شاء الله علَّة ذكر الواو في الآيات الأخرى في مواضعها إن شاء الله، أي في (الكهف)، و(الزُّمَر) و(التحريم).

يغزُ ، أَي: لمّا تقدم في هذه الآية وعد المجاهدين وفضلهم أُمِر أَن يبشر سائر الناس ممن لم يَغْزُ بأَن الإيمان مخلص من النار ، والحمد لله رب العالمين.

وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ﴾ الآية. يقتضي التأنيب ومنع الاستغفار للمشركين مع اليأس عن إيمانهم ، إمَّا بموافاتهم على الكفر وموتهم ، ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العاص بن وائل: «لا جزاه الله خيراً» ، وإما بنص من الله تعالى على أَحد كأَبي لهب وغيره فيمنع الاستغفار له وهو حيّ.

واختلف المفسرون في سبب هذه الآية؛ فقال الجمهور ـ ومداره على ابن المسيّب وعمرو بن دينار ـ: نزلت في شأن أَبي طالب ، وذلك أَن رسول الله ﷺ دخل عليه حين احتضر ووعظه وقال: (أَي عمّ ، قل: لا إله إلا الله كلمة أُحاجّ لك بها عند الله تعالى) ، وكان بالحضرة أَبو جهل وعبد الله بن أُمية ، فقالا له: يا أَبا طالب أَترغب عن ملَّة عبد المطلب؟ فقال أَبو طالب: يا محمد ، والله لولا أَني أَخاف أَن يُعَيّر بها ولدي من بعدي لأَقررت بها عينك ، ثم قال: أَنا على ملَّة عبد المطلب ، ومات على ذلك ، إذ لم يسمع منه النبي ﷺ ما قال للعباس ، فنزلت: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[١] ، فقال رسول الله ﷺ: (والله لأَستغفرن لك ما لمْ أُنهَ عنك) ، فكان يستغفر له حتى نزلت هذه الآية فترك رسول الله ﷺ الاستغفار لأَبي طالب[٢] ، وروي أَن المؤمنين لما رأَوا رسول الله ﷺ يستغفر لأَبي طالب جعلوا يستغفرون لموتاهم ، فلذلك دخلوا في التأنيب والنهي ، والآية ـ على هذا ـ ناسخة لفعل النبي ﷺ إذ أَفعالُه في حكم الشرع المستقر.

وقال فُضيْل بن عطية وغيره: إن رسول الله ﷺ لما فتح مكة أَتى قبر أُمِّه فوقف عليه حتى سخنت عليه الشمس ، وجعل يرغب في أَن يؤذن له في الاستغفار لها فلم يؤذن له ، فأَخبر أَصحابه أَنه أُذن له في زيارة قبرها ومُنع أَن يستغفر لها ، فما رُئي باكياً أَكثر من يومئذ ، ونزلت الآية في ذلك[٣] ، وقالت فرقة: إنما نزلت بسبب قول النبي ﷺ في

---

(١) من الآية (٥٦) من سورة (القصص).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ، والإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن سعيد بن المسيّب. (الدر المنثور).

(٣) روى ابن جرير عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ لما قدم مكة أتى رسم قبر فجلس إليه فجعل=

المنافقين: (والله لأزيدن على السبعين)[١]، وقال ابن عباس، وقتادة، وغيرهما: إنما نزلت الآية بسبب جماعة من المؤمنين قالوا: نستغفر لموتانا كما استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه فنزلت الآية في ذلك[٢]، وعلى كل حال ففي ورود النهي عن الاستغفار للمشركين موضع اعتراض بقصة إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه، فنزل رفع الاعتراض في الآية التي بعدها.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ يريد: من بعد الموت على الكفر، فحينئذ تيبن أنهم أَصحاب الجحيم، أَي سكانها وعمرتها، والاستغفار للمشرك الحيّ جائز إِذ يُرجى إِسلامه، ومن هذا قول أَبي هريرة رضي الله عنه: «رحم الله رجلا استغفر لأَبي هريرة وأُمّه»، قيل له: ولأَبيه، قال: لا إِن أَبي مات كافراً، وقال عطاءُ بن أَبي رباح: الآية في النهي عن الصلاة على المشركين، والاستغفار ها هنا يراد به الصلاة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾﴾.

المعنى: لا حجة أَيها المؤمنون في استغفار إِبراهيم الخليل لأَبيه فإِن ذلك لم يكن

= يخاطب، ثم قام مستعبراً، فقلنا: يا رسول الله إنَّا رأينا ما صنعت، قال: «إني استأذنت ربي في زيارة قبر أُمي فأذن، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي»، فما رؤي باكياً أكثر من يومئذ، وروى مثله ابن حاتم عن ابن مسعود، وكذلك روى الطبراني عن عكرمة عن ابن عباس مثله في حديث طويل جاء فيه أنه ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك اعتمر، فلما هبط من ثنية عسفان أمر أصحابه أن استندوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم فذهب فنزل على قبر أُمه... وفي آخر الحديث: «دعوت ربِّي أن يرفع عن أُمتي أربعاً، فرفع عنهم اثنتين وأبى أن يرفع عنهم اثنتين، دعوت ربي أن يرفع عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض والا يلبسهم شيعاً والا يُذيق بعضهم بأس بعض، فرفع عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض، وأبى أن يرفع عنهم القَتْلَ والهرج». (الدر المنثور، وتفسير ابن كثير).

(١) سبق الاستشهاد بهذا الحديث عند تفسير قوله تبارك وتعالى في الآية(٨٠) من هذه السورة: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾.

(٢) أخرج مثله ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن محمد بن كعب. (الدر المنثور).

إلاَّ عن موعدة ، واختلف في ذلك ـ فقيل: عن موعدة من إبراهيم في أن يستغفر لأبيه ، وذلك قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ (١) ، وقيل: عن موعدة من أبيه له من أنه سيؤمن ، فكان إبراهيم قد قوي طمعه في إيمانه فحمله على الاستغفار له حتى نُهي عنه ، وقرأ طلحة: [وَمَا يسْتَغْفِر إبراهيمُ] ، وروي عنه: [وما اسْتغْفَرَ إبراهيمُ]. و﴿مَّوْعِدَةٍ﴾ مفعلة من الوعد ، وأما تَبيُّنُهُ أنه عدوٌّ لله ـ فقيل: بموت آزر على الكفر ، وقيل: ذلك بأنه نُهي عنه وهو حيّ. وقال سعيد بن جبير(٢): ذلك كله يوم القيامة ، وذلك أن في الحديث أن إبراهيم عليه السلام يلقاه فيعرفه ويتذكر قوله: [سأَسْتَغْفِر لَكَ رَبِّي] فيقول له: الزم حَقْوي(٣) فلن أدعك اليوم لشيءٍ ، فيلزمه حتى يأتي الصراط فليتفت إليه فإذا هو قد مُسِخَ ضِبْعاناً أَمْدَر(٤) ، فيتَبَرَّأُ منه حينئذ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وربط أمر الاستغفار بالآخرة ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ ثناءٌ من الله تعالى على إبراهيم ، والأَوَّاه ، قال ابن مسعود: هو الدّعَاءُ ، وقيل: هو الداعي بتضرع ، وقيل: هو الموقن ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقيل: هو الرحيم ، قاله ابن مسعود أيضاً ، وقيل: هو المؤمن التَّوَّاب ، وقيل: هو المُسبِّح ، وقيل: هو الكثير الذكر لله عزَّ وجلَّ ، وقيل: هو التَّلاَّءُ للقرآن ، وقيل: هو الذي يقول من خوفه لله عزَّ وجلَّ أبداً: أَوّاهْ ويكثر ذلك. وروي أن أبا ذر سمع رجلا يكثر ذلك في طوافه فشكاه إلى رسول الله ﷺ فقال: «دَعْهُ

---

(١) من الآية (٤٧) من سورة (مريم).

(٢) سعيد بن جُبَيْر السدي بالولاءِ ، الكوفي ، أبو عبد الله ، تابعي ، كان أعلمهم على الإطلاق ، وهو حبشي الأصل ، أخذ العلم عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم أجمعين ، كان ابن عباس إذا أتاه أحد من الكوفة يستفتيه يقول: أتسألوني وفيكم ابن أم دهماءَ؟ يعني سعيداً رضي الله عنه ، قتله الحجاج لأنه كان مع ابن الأشعث عند خروجه على عبد الملك بن مروان ، قال الإمام أحمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيداً وما على وجه الأرض أحدٌ إلا وهو مُفْتَقِرٌ إلى علمه ، وكان مقتله عام ٩٥هـ (وفيات الأعيان ـ وطبقات ابن سعد ، وتهذيب التهذيب. والأعلام).

(٣) الحَقْوُ بفتح الحاءِ وسكون القاف: الخَصْرُ وهو موضع شدّ الإزار ، ثم أطلق على الإزار ، والجمع أحْقٍ ، أصْلُهُ أحْقُوٌ فحذف لأنه ليس في الأسماءِ اسم آخره حرف علّة وقبله ضمة. (الصحاح).

(٤) قال في الصّحاح: «وضِبْعَانٌ أَمْدرَ أي: مُنْتفخ الجنبين عظيم البطن ، ويقال: هو الذي تَتَربَّ جنباه كأنه من (المدر أو التراب)».

فَإِنَّهُ أَوَّاه»[١]، والتَّأَوّه: التفجع الذي يكثر حتى ينطق الإنسان معه بأَوْهِ، قال المؤلف: ويقال: أَوَّه[٢]، فمن الأول قول رسول الله ﷺ لبلالٍ في بيع أَوْ شراءٍ أَنكره عليه: (أَوْهِ، ذلك الرِّبَا بعينه)[٣]، ومن الثاني قول الشاعر:

فَأَوْهِ لِذِكْرَاهَا إِذَا مَا ذَكَرْتُهَا ... وِمِنْ بُعْدِ أَرْضٍ بيْنَنَا وسَمَاءُ[٤]

ومن هذا المعنى قول المُثَقِّب العبدي:

إِذا مَا قُمْتُ أَرْحلُهَا بِلَيْلٍ ... تَأَوَّه آهَةَ الرَّجُلِ الْحَزِينِ[٥]

ويروىٰ: أَهَّةَ، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «أَوَّهْ لأفراخ محمد». و﴿حَلِيمٌ﴾ معناه: صابر محتمل عظيم العقل، والحلم العقل[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ الآية. معناه التأنيس للمؤمنين،

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي ذرّ رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٢) قال في اللسان: «وآوَّهْ، وأَوَّهْ، وآوُوهُ (بالمد وواوَيْن)، وأَوْهِ (بكسر الهاء خفيفة)، وأَوْهَ، وآهِ، كلُّهَا: كلمة معناها التَّحَزُّن».

(٣) قال في اللسان: «وردَ الحديث بأوْهِ في حديث أبي سعيد، فقال النبي ﷺ عند ذلك: «أَوْهِ، عَيْنُ الرِّبا»». وقال ابن الأثير: «أَوْهِ: كلمة يقولها الرجل عند الشكاية والتوجع، وهي ساكنة الواو مكسورة الهاء». ثم قال: «وبعضهم يفتح الواو مع التشديد فيقول: أَوَّهْ، وفي الحديث: «أَوَّهْ لفراخ محمد من خليفة يُسْتَخْلَف»».

(٤) أنشد الفراء في (أَوْهِ)، قال صاحب اللسان: «ويروى: فأوٌ لذكراها، ويُروى: فَآهٍ لذكراها»، قال ابن برّي: ومثل هذا البيت:

فَأَوْهِ على زِيَارَةِ أُمِّ عَمْرو ... فكيف مَعَ العِدَا وَمَعَ الوُشَاةِ؟

وقال في الصحاح: «ويُرْوَى: (فَأَوِّ لذكراها)».

(٥) المثقّب العبدي: اسمه عائذ بن محصن بن ثعلبة، شاعر جاهلي فحل قديم، سمِّي المثقّب لقوله: «وثَقَّبْنَ الوَصَاوِص والعيونا»، وبيته هذا من قصيدته التي يطالب فيها حبيبته فاطمة بالوصال والمتعة، والتي بدأها بقوله:

أفَاطِمَ قبْلَ بيْنِكِ مَتِّعيني ... ومنْعُكِ مَا سَألْتُ كأنْ تَبِيني

وفي البيت يصف ناقته بأنها تتأوّه تَأَوُّهَ الرجل الحزين إذا ما قام ليضع الرحل عليها ليسير بها في الليل. قال في اللسان: ويروى: «تَهَوَّهُ هَاهَةَ الرجلِ»، وقال ابن سيدة: وعندي أنه وضع الاسم موضع المصدر، أي: تأوَّهُ تأوُّهَ الرَّجُلِ الحزين.

(٦) الحِلْم بالكَسْر: الأناة والعقل، وجمعه أحلام وحلوم، وفي الكتاب العزيز ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَآ﴾، وقال جرير:

هَلْ مِنْ حُلُومٍ لأقوام فَتُنْذِرهُمْ ... ما جرَّبَ النَّاسُ من عَضِّي وتَضْرِيسي؟

وقيل: إن بعضهم خاف على نفسه من الاستغفار للمشركين دون أَمْر من الله تبارك وتعالى فنزلت الآية مؤنسة ، أَي: ما كان الله ـ بعد أَن هدى إِلى الإسلام وأَنقذ من النار ـ لِيُحبط ذلك ويُضل أَهله لمواقعتهم ذنباً لم يتقدم منه نهي عنه ، فأَما إِذا بيّن لهم ما يتقون من الأُمور ويتجنَّبون من الأَشياءِ فحينئذ مَنْ واقع ـ بعد النهي ـ استوجب العقوبة. وقيل: إِن هذه الآية إِنما نزلت بسبب قوم من أَصحاب رسول الله ﷺ كانوا غيباً فحولت القبلة فصلوا ـ قبل أَن يصلهم ذلك ـ إِلى بيت المقدس ، وآخرين شربوا الخمر بعد تحريمها قبل أَن يصل إِليهم ، فخافوا على أَنفسهم وتكلموا في ذلك فنزلت الآية ، والقول الأَول أَصوب وأَليق بالآية.

وذهب الطبري إِلى أَن قوله سبحانه: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ إِشارة إِلى أَنه يجب أَيها المؤمنون أَلا تجزعوا من عدوّ وإِن كثر ، ولا تهابوا أَحداً فإِن الموت المخوف والحياة المحبوبة إِنما هما بِيَدِ الله تبارك وتعالى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمعنى الذي قال صحيح في نفسه ، ولكن قوله: «إِن القصد بالآية إِنما هو لهذا» قول يبعد ، والظاهر في الآية إِنما هو لمَّا نَصَّ في الآية المتقدمة نعمتَه وفضلَه على عبيده في أَنه متى منَّ عليهم بهداية ففضلُه أَسبغ من أَن يصرفهم ويضلهم قبْلَ أَن تقع منهم معصية ومخالفة أَمر ـ أَتبع ذلك[1] بأَوصاف فيها تمجيد الله عزَّ وجلَّ وتعظيمه وبعْث النفوس على إِدمان شكره والإِقرار بعبوديته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

التوبة من الله رجوعه بعبده من حالة إِلى أَرفع منها ، فقد تكون في الأَكثر رجوعاً من

---

(١) قوله: «أَتبَع ذلك. . » هو جواب لمَّا في قوله: «إِنما هو لمَّا نصَّ في الآية المتقدمة».

حالة المعصية إلى حالة الطاعة ، وقد تكون رجوعاً من حالة طاعة إلى أكمل منها ، وهذه توبته في هذه الآية على النبي ﷺ لأنه رجع به من حاله قبل تحصيل الغزوة وأجرها وتحمّل مشقاتها إلى حاله بعد ذلك كله. وأما توبته على المهاجرين والأنصار فحالها معرضة لأن تكون من تقصير إلى طاعة وجد في الغزو ونصرة الدين ، وأما توبته على الفريق الذي كاد أن يزيغ فرجوع من حالة محطوطة إلى غفران ورضا.

و﴿ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ معناه: دخلوا في أمره وانبعاثه ولم يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، وقوله سبحانه: ﴿ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ يريد: في وقت العسرة ، فأنزل الساعة منزلة المدّة والوقت والزمن وإن كان عرف الساعة في اللغة أنه لِمَا قلَّ من الزمن كالقطعة من النهار. ألا ترى قوله ﷺ في رواح يوم الجمعة في الساعة الأولى وفي الثانية الحديث[1] ، فهي هنا تجوّز ، ويمكن أن يريد بقوله: ﴿ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ الساعة التي وقع فيها عزمهم وانقيادهم لتحمل المشقة إذ السّفرة كلها تَبَعٌ لتلك الساعة وبها وفيها يقع الأجر على الله وترتبط النية ، فمن اعتزم على الغزو وهو مُعْسر فقد اتّبع ساعة العسرة ، ولو اتفق أن يطرأ لهم غنىً في سائر سفرتهم لما اختل كونهم متبعين في ساعة عُسرة ، والعسرة: الشدة وضيق الحال والعدم ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾[2] ، وهذا هو جيش العسرة الذي قال رسول الله ﷺ فيه: «من جهَّز جيش العسرة فله الجنة»[3] ، فجهزه عثمان بن عفان رضي الله عنه بألف جمل وألف دينار ، وروي أن رسول الله ﷺ قلَّب الدنانير في يده وقال: «وما على عثمان ما عمل بعد هذا؟» ، وجاء أيضاً رجل من الأنصار بسبعمائة وَسْق من تمر[4] ، وقال مجاهد ، وقتادة: إن العسرة بلغت بهم في

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجمعة عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وكذلك رواه مسلم ، والترمذي ، ومالك في الموطأ في متاب الجمعة ، ورواه أبو داود في كتاب الطهارة ، ولفظه كما جاء في البخاري: «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرَّب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرَّب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرَّب كبشاً أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرَّب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرَّب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر».

(٢) من الآية (٢٨٠) من سورة (البقرة).

(٣) رواه البخاري في مناقب عثمان رضي الله عنه ، ولفظه: «وقال النبي ﷺ: من يحفر بئر رومة فله الجنة ، فحفرها عثمان ، وقال: من جَهَّزَ جيش العُسْرَة فله الجنة ، فجهَّزه عثمان».

(٤) الوَسْق بفتح الواو: مِكْيَلَة معلومة ، وهي ستون صاعاً ، والصاع خمسة أرطال وثلث ، والوَسْق أيضاً: =

تلك الغزوة وهي غزوة تبوك إلى أن قسموا التمرة بين رجلين، ثم كان النفر يأخذون التمرة الواحدة فيمضغها أحدهم ويشرب عليها الماءَ ثم يفعل كلهم بها ذلك. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وأصابهم في بعضها عطش شديد حتى جعلوا ينحرون الإبل ويشربون ما في كروشها من الماءِ ويعصرون الفرث حتى استسقى لهم رسول الله ﷺ فرفع يديه يدعو، فما رجعهما حتى انسكبت سحابة فشربوا وادّخروا ثم ارتحلوا فإذا السحابة لم تخرج عن العسكر، وحينئذ قال رجل من المنافقين: وهل هذه إلا سحابة مرت؟[1] وكانت الغزوة في شدة الحرّ، وكان الناس كثيراً فقَلَّ الظَّهر فجاءَتهم العسرة من جهات. ووصل رسول الله ﷺ إلى أوائل بلد العدوّ فصالحه أَهل أَذرُج وأَيْلة[2]، وغيرهما على الجزية ونحوها، وانصرف.

وأَما الزَّيْغ الذي كادت قلوب فريق منهم أَن تواقعه فقيل: همّت فرقة بالانصراف لما لقوا من المشقة والعسرة، قاله الحسن. وقيل: زيغها إنما كان بظنون لها ساءَت في معنى عزم رسول الله ﷺ على تلك الغزوة لما رأَته من شدة العسرة وقلة الوفر وبعد المشقة وقوة العدو المقصود.

وقرأ جمهور السبعة، وأبو بكر عن عاصم: [تَزيغُ] بالتاءِ من فوق على لفظ القلوب، وروي عن أَبي عمرو أَنه كان يدغم الدال في التاءِ، وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم والأعمش، والجحدري: ﴿يَزِيغُ﴾ بالياءِ على معنى جَمْع القلوب، وقرأ ابن مسعود: [من بَعْدِ ما زاغَتْ قُلوبُ فريقٍ]، وقرأ أُبي بن كعب: [من بَعْدِ ما كادَتْ تَزيغُ].

= حِمْل البعير والعربة والسفينة. (المعجم الوسيط).

(١) أخرجه ابن جرير، وابن خُزيمة، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل والضياءِ في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: حدثنا عن شأن ساعة العسرة، فقال: خرجنا... إلى قوله: العسكر. وليس فيه كلام الرجل المنافق. (الدر المنثور).

(٢) أذرُج (بالذال المعجمة والراءِ المضمومة) قال في التاج: هي مدينة السَّراة، وقيل: إنما هي أذرُح، وذكر ذلك في اللسان، وصوب ياقوت ذلك وخطأ ما قبله وأطال في ذلك، وأيلة معروفة باسم إيلات قال في اللسان: «وأَيْلة: قرية عربية ورد ذكرها في الحديث، وهو بفتح الهمزة وسكون الياء البلد المعروف فيما بين مصر والشام».
وقال حسان بن ثابت:

مَلَكَـا مِـنْ جَبَـلِ الثَّلْـج إلـى ... جـانِبَـيْ أَيْلَـةَ مِـنْ عَبْـدٍ وحُـرّ

وأمَّا «كادَ» فيحتمل أن يرتفع بها ثلاثة أشياءَ، أولها وأقواها: القصة والشأن، هذا مذهب سيبويه، وترتفع «القلوب» ـ على هذا ـ بـ[تزيغُ]. والثاني: أن يرتفع بها ما يقتضيه ذكر المهاجرين والأنصار أولاً، ويقدر ذلك: «القوم»، فكأنه قال: من بعد ما كاد القوم تزيغ قلوب فريق منهم. والثالث: أن يرتفع بها «القلوب» ويكون في قوله: [تَزيغُ] ضمير القلوب، وجاز ذلك تشبيهاً بكان في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١)، وأيضاً فلأن هذا التقديم للخبر يراد به التأخير، وشبهت (كاد) بـ(كان) لِلُزُوم الخبر لها، قال أبو علي: ولا يجوز ذلك في (عسى)(٢).

ثم أخبر الله عزَّ وجلَّ أنه تاب أيضاً على هذا الفريق وراجع به، وأنَّس بإعلامه للأُمة بأنه رءُوفٌ رحيم. والثلاثة هم: كعْبُ بن مالك(٣)، وهلال بن أُمية الواقفي(٤)، ومُرارة بن الربيع العامري، ويقال: ابن ربيعة، ويقال: ابن ربعي(٥). وقد خرَّج حديثهم بكماله البخاري ومسلم(٦)، وهو في السِّير، فلذلك اختصرنا سوقه. وهم

---

(١) الآية (٤٧) من سورة (الروم).

(٢) أورد أبو حيّان في «البحر المحيط» إشكالات على هذه الإعرابات الثلاثة على قراءة التاء في [تَزيغ] فقال: «إذا قدّرنا فيها ضمير الشأن كانت الجملة في موضع نصب على الخبر والمرفوع ليس ضميراً يعود على اسم كاد، بل ولا سبباً له، وهذا يلزم في القراءة الياء أيضاً. وأما توسيط الخبر فهو مبني على جواز مثل هذا التركيب في مثل: «كان يقوم زيد»، وفيه خلاف والصحيح المنع. وأما توجيه الآخر فضعيف جداً من حيث أُضمر في كاد ضمير لا يعود إلا بتوهم، ومن حيث يكون خبر كاد واقعاً سببياً. ويُخَلّص من هذه الإشكالات اعتقاد كون (كاد) زائدة ومعناها مراد ولا عمل لها». (البحر المحيط ٥ـ١٠٩).

(٣) كعب بن مالك بن عمرو بن القين الأنصاري الخزرجي، اشتهر في الجاهلية، وكان من شعراء النبي ﷺ في الإسلام، شهد الوقائع ثم كان من أصحاب عثمان، كفَّ بصره في آخر عمره، مات سنة ٥٠هـ وعمره سبع وسبعون سنة، وله ٨٠ حديثاً. (الأعلام، الإصابة، الأغاني).

(٤) هلال بن أُمية بن عامر بن قيس الأنصاري الواقفي، شهد بدراً وما بعدها، له ذكر في الصحيحين من رواية سعيد بن جُبَيْر عن ابن عمر. (الإصابة والاستيعاب).

(٥) مُرَارة بن ربيعة، ويقال ابن ربيع العمري الأنصاري من بني عمرو بن عوف كما جاء في (الاستيعاب)، ومُرارة بن ربعي بن عدي بن زيد بن جُشَم، ذكره ابن الكلبي وقال: كان أحد البكائين كما جاء في (الإصابة).

(٦) الحديث كما رواه البخاري طويل جداً، ويروي فيه كعب بلاءَه وبيعته ليلة العقبة، ويوري بصدق لماذا تخلف وكيف اعتذر للنبي ﷺ إلى أن نزلت الاية الكريمة، قال: «فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ الا أكون كذبته فأهلِك كما هلك الذين=

الذين تقدم فيهم: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ ﴾. ومعنى: ﴿ خُلِّفُوا۟ ﴾: أُخِّرُوا وتُرِك أمرهم ولم تقبل منهم معذرة ولا ردّت عليهم، فكأَنهم خُلِّفوا عن المعتذرين، وقيل: معنى ﴿ خُلِّفُوا۟ ﴾ أَي عن غزوة تبوك، قاله قتادة، وهذا ضعيف وقد ردّه كعب بن مالك نفسه وقال: معنى ﴿ خُلِّفُوا۟ ﴾: تُركوا عن قبول العذر، وليس بتخلفنا عن الغزو، ويُقوّي ذلك جعله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ ﴾ غاية للتخلف، ولم يكن ذلك عن تخليفهم عن الغزو، وإنما ضاقت عليهم الأَرض عن تخليفهم عن قبول العذر.

وقرأَ الجمهور: ﴿ خُلِّفُوا۟ ﴾ بضم الخاءِ وشدّ اللام المكسورة، وقرأَ عكرمة بن هارون المخزومي، وزِرّ بن حُبيش، وعمرو بن عبيد، وأَبو عمرو أَيضاً: [خَلَفُوا] بفتح الخاءِ واللام غير مشددة، وقرأَ أَبو مالك: [خُلِفُوا] بضم الخاءِ وتخفيف اللام المكسورة، وقرأَ أَبو جعفر محمد بن علي، وعلي بن الحسين، وجعفر بن محمد، وأَبو عبد الرحمن: [خَالَفُوا]، والمعنى قريب من التي قبلها، وقال أَبو جعفر: ولو خلفوا لم يكن لهم ذنب، وقرأَ الأَعمش: [وعلى الثلاثة المُخَلَّفِين].

وقوله تعالى: ﴿ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ معناه: برحبها، كأَنه قال: على ما هي في نفسها رحْبة، فـ[ما] مصدرية، ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ استعارة لأَن الهم والغمَّ مَلآها، ﴿ وَظَنُّوٓا۟ ﴾ في الآية بمعنى: أَيقنوا وحصل علماً لهم[1].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ﴾، لما كان هذا القول في تعديد نعمه بدأَ في ترتيبه بالجهة التي هي عن الله عزَّ وجلَّ ليكون ذلك مُنَبِّها على تلقي النعمة من عنده لا ربَّ غيره، ولو كان القول في تعديد ذنب لكان الابتداءُ بالجهة التي هي عن المذنب كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[2]، ليكون هذا أَشدّ تقريراً للذنب عليهم، وهذا من فصاحة القرآن وبديع نظمه ومُعجز اتِّساقه. وبيان هذه الآية ومواقع

= كذبوا، ثم قال كعب: «وكنا تخلفنا أَيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾، وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفْنَا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمَّن حلف له واعتذر إليه فقبل منه».

(١) في بعض النسخ: «وحصل علمٌ لهم» وهي أصح وأوضح.

(٢) من الآية (٥) من سورة (الصف).

أَلفاظها إِنَّما يكمل مع مطالعة حديث الثلاثة الذين خُلِّفوا في الكتب التي ذكرنا[١]، وإِنما عظم ذنبهم واستحقوا عليه ذلك لأَن الشرع يُطالبهم من الجد فيه بحسب منازلهم منه وتقدمهم فيه، إِذ هم أُسوة وحجة للمنافقين والطاعنين، إِذ كان كعبٌ من أَهل العقبة وصاحباه من أَهل بدر، وفي هذا ما يقتضي أَن الرجل العالِمَ والمُقتدى به أَقل عذراً في السقوط من سواه. وكتب الأَوازعي رحمه الله[٢] إِلى المنصور أَبي جعفر في آخر رسالة: «واعلم أَن قرابتك من رسول الله ﷺ لن تزيد حق الله عليك إِلا عِظَما، ولا طَاعَتَه إِلاَّ وجوبا، ولا الناس فيما خالف ذلك منك إِلاَّ إِنكاراً والسلام». ولقد أَحسن القاضي التنوخي في قوله:

والعَيْـــبُ يَعْلَـــقُ بـــالكبيـــر كبيـــرُ

وفي بعض طرق حديث الثلاثة أَن رسول الله ﷺ كان ليلة نزول توبتهم في بيت أُم سلمة، وكانت لهم صالحة[٣]، فقال لها رسول الله ﷺ: «يا أُم سلمة، تِيب على كعب بن مالك وصاحبيه»، فقالت: يا رسول الله أَلا أَبعث إِليهم؟ فقال: «إِذاً يحطمكم الناس سائر الليلة فيمنعوكم النوم».

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، هذا الأَمر بالكون مع أَهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين، فجاءَ هذا الأَمر اعتراضاً في أَثناءِ الكلام إِذْ عنَّ في القصة ما يجب التنبيه على امتثاله، وقال ابن جريج وغيره: الصدقُ في هذه الآية هو صدق الحديث، وقال نافع، والضحاك ما معناه: إِن اللفظ أَعمّ من صدق الحديث، وهو بمعنى الصحة في الدين والتمكن في الخير، كما تقول العرب: «عَوْدٌ صدقٌ ورجلٌ صدق». وقالت هذه الفرقة: كونوا مع محمد ﷺ، وأَبي بكر، وعمر، وأَخيار المهاجرين الذين صدقوا الله

---

(١) يريد البخاري، ومسلم، وكتب السيرة كما سبق أن ذكر.

(٢) اسمه عبد الرحمن بن عمرو بن يُحْمد الأوزاعي، وأبو عمرو، إمام في الفقه والزهد، وأحد الكتاب المترسلين، ولد في بعلبك ونشأ في البقاع، وكانت الفُتيا تدور بالأندلس على رأيه إلى زمن الحكَم بن هشام، له كتاب «السُّنَن» في الفقه، و«المسائل» وقد سئل عن سبعين ألف مسألة أجاب عنها كلها، توفي سنة ١٥٧هـ. (تاريخ بيروت، الوفيات، الأعلام).

(٣) يريد: وكانت للثلاثة مصالحة، ولعله سهو من النساخ. وفي نسخة: «وكانت لهم صلْحاً» أي مصالحة.

في الإسلام. و﴿ مَعَ ﴾ في هذه الآية تقتضي الصحبة في الحال والمشاركة في الوصف المقتضي للمدح، وقرأ ابن مسعود، وابن عباس: [وكُونُوا مِنَ الصَّادِقِينَ]، ورويت عن النبي ﷺ، وكان ابن مسعود يتأول في صدق الحديث، وروي عنه أنه قال: الكذب لا يصلح منه جدّ ولا هزل، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

هذه معاتبة للمؤمنين من أَهل يثرب وقبائل العرب المجاورة لها على التخلف عن رسول الله ﷺ في غزوه، وقوة الكلام تعطي الأَمر بصحبته إِلى توجُّهه غازياً وبذل النفوس دونه، واختلف المتأَولون، فقال قتادة: كان هذا الإِلزام خاصاً مع النبي ﷺ ووجوب النفر إِلى الغزو إِذا خرج هو بنفسه، ولم يبق هذا الحكم مع غيره من الخلفاءِ، وقال زيد بن أَسلم: كان هذا الأَمر والإِلزام في قلة الإِسلام والاحتياج إِلى اتصال الأَيدي ثم نسخ عند قوة الإِسلام بقوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله في الانبعاث إِلى غزو العدو على الدخول في الإِسلام، وأَما إِذا أَلَمَّ العدو بجهة فمتعين على كل أَحد القيام بذبّه ومكافحته.

وأَما قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ ﴾ فمعناه أَلاَّ يتحمل رسول الله ﷺ في الله مشقة ويجود بنفسه في سبيل الله فيقع منهم شحّ على أَنفسهم ويكعّون عما دخل هو فيه، ثم ذكر تعالى لِمَ لَمْ يكن لهم التخلف عن رسول الله ﷺ بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ الآية. والنصب: التعب، ومنه قول النابغة:

كِلِيني لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ ناصِبِ . . . .[١]

أي: ذي نَصَبٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾[٢].

والمخْمصة: مفْعَلة من خمص البطن وهو ضموره، واستعير ذلك لحالة الجوع إذ الخموص ملازم له، ومن ذلك قول الأعشى:

تَبِيتُونَ في المَشْتى مِلاءً بُطُونُكُمْ   وجاراتُكُمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خَمَائِصَا[٣]

ومنه: «أَخْمَص القدم»[٤]، والخُمْصانة من النساءِ[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا﴾ أي: ولا ينتهون من الأرض منتهىً مؤذياً للكفار، وذلك هو الغائط، ومنه في «المدونة»: «كنا لا نتوضَّأ من مَوْطىءٍ» من قول ابن مسعود. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ لفظٌ عامٌ لقليل ما يصنعه المؤمنون بالكفرة من أَخذ مالٍ أَو إِيراد هوانٍ وكثيره[٦]، والنَّيْلُ: مصدر نال ينال، وليس من قولهم: نلتُ أَنوله نولاً ونوالاً، وقيل: هو منه وبدلت الواو ياءً لخفتها هنا، وهذا ضعيف، والطبري قد ذكر نحوه وضعّفه وقال: ليس ذلك المعروف من كلام العرب. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ الآية. قدم الصغيرة للاهتمام، أَي: إِذا كتبت

---

(١) هذا صدر بيت قاله النابغة في مطلع قصيدة يمدح بها عمرو بن الحارث الأصغر المعروف بابن أبي شَمِر وذلك حين هرب النابغة إلى دمشق حين بلغه أن مُرّة بن قريع وشى به إلى النعمان في أمر المتجردة، وقيل: إن الواشي هو المُنَخّل بن عبيد اليشكري، والبيت بتمامه:

كِلِينِي لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصِبِ   ولَيْلٍ أُقاسيهِ بطيءِ الكَواكِبِ

و(كِلِي) فعل أمر بمعنى اتركي، والمعنى المراد: خلّي بيني وبين الهم الذي أتعبني والليل الطويل الذي أُقاسي منه. وقد أجمع الرواة على نصب (أُمَيْمَةَ) في البيت، وعلل ذلك أبو عبيدة والأصمعي بأن عادة العرب أن ينادوا اسم المرأة بالترخيم، وإذا كان الحرف الذي قبل هاء التأنيث مفتوحاً أبداً واحتاج الشاعر إلى إبقاء هاء التأنيث لأجل سلامة الوزن تكلم بها على عادة الترخيم ففتحها كما يفتح آخر المنادىٰ المؤنث المرخم. ومعنى (ناصب): ذو نصب، أي: تعب، فهو همٌّ مُتْعب.

(٢) من الآية (٦٢) من سورة (الكهف).

(٣) قاله الأعشى في قصيدة يهجو بها علقَمة بن عُلاثة، ويروى: (وجاراتكم جَوْعى) بدلا من (غَرْثى). والقصيدة مُقْذعة في الهجاء.

(٤) الأخْمَص: باطن القدم وما رقّ من أسفلها وتجافى عن الأرض.

(٥) الخَمصان (بالفتح) والخُمصان (بالضم): الجائع الضامر البطن، والأنثى: خَمُصانة بالفتح والضم أيضاً، وجمعها خِماصٌ.

(٦) (كثيره) معطوفه على (قليل) فيكون المعنى: لفظ عامٌّ للقليل وللكثير مما يصنعه المؤمنون بالكفرة.

الصغيرة فالكبيرة أَحرى، والوادي: ما بين الجبلين كان فيه ماءٌ أَو لم يكن، وجمعه أَودية، وليس في كلام العرب فاعِلٌ وأَفعِلَة إلاَّ في هذا الحرف وحده[١]، وفي الحديث: «ما ازداد قوم من أَهليهم في سبيل الله بعداً إلا ازدادوا من الله قرباً»[٢].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

قالت فرقة: سبب هذه الآية أَن المؤمنين الذين كانوا بالبادية سكاناً ومبعوثين لتعليم الشرع لما سمعوا قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ أَهمهم ذلك، فنفروا إِلى المدينة إِلى رسول الله ﷺ خشية أَن يكونوا مذنبين في التخلف عن الغزو، فنزلت هذه الآية في نفرهم ذلك. وقالت فرقة: إِن المنافقين لما نزلت الآيات في المتخلفين قالوا: هلك أَهل البوادي، فنزلت هذه الآية مقيمة لعذر أَهل البوادي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فيجيءُ قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم ﴾ عموماً في اللفظ والمراد به في المعنى الجمهورُ والأكثر، وتجيءُ هذه الآية مبينة لذلك مطردة الأَلفاظ متصلة المعنى من قوله تبارك وتعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُونَ ﴾. بُيّن في آخر الآية العمومُ الذي في أَولها إِذ هو معرض أَن يتأَول فيه أَلاَّ يتخلف بشر. والتفقه هو من النافرين، والإِنذارُ هو منهم، والضمير في ﴿ رَجَعُوٓا۟ ﴾ لهم أَيضاً. وقالت فرقة: هذه الآية ليست في معنى الغزو، وإِنما سببها أَن قبائل العرب لمّا دعا رسولُ الله ﷺ على مُضر بالسنين أَصابتهم مجاعةٌ وشدّة، فنفروا إِلى المدينة لمعنى

(١) سمع من ذلك: نادٍ وأندية، قال الجوهري: «الجمع أوْدية على غير قياس كأنه جمع وَدِيٍّ مثلُ سريٍّ وأَسْرِية للنهر»، وقال ابن الأعرابي: «الوادي: يجمع أوداءٍ على أفعال مثل صاحب وأصحاب». وطيءٌ تقول: أوْداءٌ، قال جرير:

عــرفــتُ بِبُــرْقَــةِ الأوْداءِ رسْمــاً ... مُحيلا، طـال عَهْـدُكَ مِـنْ رسُـوم

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري.

المعاش فكادوا أَن يفسدوها، وكان أَكثرهم غير صحيح الإيمان وإنما أَضرعه الجوع[١]، فنزلت الآية في ذلك فقال: وما كان مَنْ صفته الإيمان لينفر مثل هذا النفير، أَي: ليس هؤلاءِ المؤمنين. وقال ابن عباس ما معناه: إن هذه الآية مختصة بالبعوث والسرايا، والآية المتقدمة ثابتة الحكم مع خروج رسول الله ﷺ في الغزو، وهذه ثابتة الحكم مع تخلفه، أَي: يجب إذا تخلف أَلا ينفر الناس كافة فيبقى هو منفرداً، وإنما ينبغي أَن تنفر طائفة وتبقى طائفة لتتفقه هذه الباقية في الدين وينذروا النافرين إذا رجع النافرون إليهم. وقالت فرقة: هذه الآية ناسخة لكل ما ورد من إلزام الكافة النفير والقتال، والضمير في قوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا﴾ عائد أَيضاً ـ على هذا التأْويل ـ على الطائفة المتخلفة مع النبي ﷺ، وهو على القول الأَول في ترتيبنا هذا عائد على الطائفة النافرة، وكذلك يترتب عوده مع بعض الأَقوال على هذه، ومع بعضها على هذه.

والجمهور على أَن التفقُّه إنما هو بمشاهدة رسول الله ﷺ وصحبته. وقالت فرقة: يُشْبه أَن يكون التفقه في الغزو في السرايا لما يرون من نُصرة الله لدينه وإظهارِهِ العدد القليل من المؤمنين على الكثير من الكافرين وعلمهم بذلك صحة دين الإسلام ومكانته من الله تعالى، ورجحه الطبري وقوّاه، والآخر أَيضاً قوي. والضمير في قوله سبحانه: ﴿وَلِيُنذِرُوا﴾ عائد على المتفقهين بحسب الخلاف، والإنذار عام للكفر والمعاصي والحذر منها أَيضاً كذلك.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَٰتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ الآية. قيل: هذه الآية نزلت قبل الأَمر بقتال الكفار كافة فهي من التدريج الذي كان أَول الإسلام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قَوْل يضعفه أَن هذه الآية من آخر ما نزل. وقالت فرقة: إنما كان رسول الله ﷺ ربَّما تجاوز قوماً من الكفار غازياً قوماً آخرين أَبعد منهم، فأَمر الله تعالى بغزو الأَدنى فالأَدنى إلى المدينة، وقالت فرقة: الآية مبينة صورة القتال كافة، وهي مترتبة مع الأَمر بقتال الكفار كافة، ومعناها أَن الله تعالى أَمر فيها المؤمنين أَن يقاتل كل

---

(١) أي أَذَلَّهُ وأضعفه، يقال؛ أَضرع الله خدَّه: أَذلَّه. (المعجم الوسيط).

فريق منهم الجنس الذي يصاقبه[١] من الكفرة، وهذا هو القتال لكلمة الله وردّ الناس إلى الإسلام، وأما إذا مال العدوّ إلى صقع من أصقاع المسلمين ففرض على من اتصل به من المسلمين كفاية عدو ذلك الصقع وإن بعدت الدار ونأت البلاد، وقال قائلوا هذه المقالة: نزلت الآية مشيرة إلى قتال الروم بالشام لأنهم كانوا يومئذ العدو الذي يلي ويقرب، إذ كانت العرب قد عمّها الإسلام وكانت العراق بعيدة، ثم لما اتسع نطاق الإسلام توجه الفرض في قتال الفُرس والدَّيْلم[٢] وغيرهما من الأُمم، وسأل ابن عمر رضي الله عنهما رجلٌ عن قتال الدَّيْلم فقال: عليك بالروم، وقال الحسن: هم الروم والدَّيْلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يعني في زمنه ذلك، وقاله علي بن الحسين. وقال ابن زيد: المراد بهذه الآية وقت نزولها: العرب، فلما فُرغ منهم نزلت في الروم وغيرهم: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[٣].

وقرأ جمهور الناس: ﴿غِلْظَةً﴾ بكسر الغين، وقرأ المفضل عن عاصم، والأعمش: [غَلْظَة] بفتحها، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبان بن ثعلب، وابن أبي عبلة: [غُلْظَة] بضمها، وهي قراءة أبي حَيْوة، ورواها المفضّل عن عاصم أيضاً، قال أبو حاتم: رويت الوجوه الثلاثة عن أبي عمرو، وفي هاتين القراءتين شذوذ، وهي لغات. ومعنى الكلام: وليجدوا فيكم خشونة وبأساً، وذلك مقصود به القتال، ومنه: «العذاب الغليظ»[٤] و﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾[٥]، و﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾[٦] في صفة

(١) أي يقاربه ويواجهه، يقال: صاقَبَهُ مُصاقَبَةً وصِقاباً، ويقال: جارٌ مُصَاقب. (المعجم الوسيط).

(٢) الدَّيْلَمُ: جيل من العجم كانوا يسكنون نواحي أذْربيجان، ولهذه الكلمة معانٍ كثيرة تجدها في كتب اللغة.

(٣) من الآية (٢٩) من هذه السورة (التوبة).

(٤) إشارة إلى ما ورد في كثير من آيات التنزيل، مثل قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، وقوله: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، وقوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

(٥) من الآية (١٥٩) من سورة (آل عمران).

(٦) من الآية (٦) من سورة (التحريم).

الزبانية، و(غَلُظَتْ عَلَيْنَا كُدْيَة) في حفر الخندق[١] إلى غير ذلك.

ثم وعد الله تعالى في آخر الآية، وحضَّ على التقوى التي هي ملاك الدين والدنيا وبها يلقى العدو، وقد قال بعض الصحابة: «إنما تقاتلون الناس بأعمالكم». وأهلها هم المجدون في طريق الحق، فوعد تعالى أنه مع أهل التقوى، ومن كان الله معه فلن يُغلَب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

هذه الآية نزلت في شأن المنافقين، والضمير في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم﴾ عائد على المنافقين، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ يحتمل أن يكون لمنافقين مثلهم، ويحتمل أن يكون لقوم من قراباتهم من المؤمنين يستنيمون إليهم[٢]، ويثقون بسترهم عليهم، ويطمعون في ردّهم إلى النفاق. ومعنى ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ الاستخفاف والتحقير لشأن السورة كما تقول: أي غريب في هذا؟ أو أيّ دليل؟

ثم ابتدأ عزَّ وجلَّ الردَّ عليهم والحكم بما يهدم لبسهم فأخبر أن المؤمنين زادتهم إيماناً، وأنهم يستبشرون من ألفاظها ومعانيها برحمة الله ورضوانه. والزيادة في الإيمان موضع تخبط للناس وتطويل، وتلخيص القول فيه أن الإيمان الذي هو نفس التصديق ليس مما يقبل الزيادة والنقص في نفسه، وإنما تقع الزيادة في المُصَدَّق به، فإذا نزلت سورة من الله تبارك وتعالى حدث للمؤمنين بها تصديق خاص لم يكن قبل، فتصديقُهم

---

(١) إشارة إلى ما حدث في غزوة الخندق، وجاءت هذه الجملة في حديث رواه البخاري عن جابر، ولكن بلفظ: (فَعَرَضَتْ) بدلاً من (وغلظت). قال جابر: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت لنا كُدْيَةٌ شديدة، فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كُدْيَةٌ عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازل»، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب فعاد كثيباً أهيل أو أهيم... الحديث. والكُديةُ هي الصَّفاةُ العظيمة الشديدة، وقيل: الأرض الصلبة.

(٢) استنام إلى الشيء: استراح وسكن إليه.

بما تضمنته السورة من أَخبار وأَمر ونهي أَمرٌ زائد على الذي كان عندهم من قبلُ، فهذا وجه من زيادة الإِيمان، ووجه آخر أَن السورة ربما تضمنت دليلاً أَو تنبيهاً عليه فيكون المؤمن قد عرف الله بعدة أَدلة، فإِذا نزلت السورة زادت في أَدلته، وهذه أَيضاً جهة أُخرى من الزيادة، وكلها خارجة عن نفس التصديق إِذا حصل تامًّا، فإِنه ليس يبقى فيه موضع زيادة، ووجه آخر من وجوه الزيادة أَن الرجل ربما عارضه شك يسير أَو لاحت له شبهة مشغبة فإِذا نزلت السورة ارتفعت تلك الشبهة واستراح منها، فهذا أَيضاً زيادة في الإِيمان إِذ يرتقي اعتقاده عن مرتبة معارضة تلك الشبهة إِلى الخلوص منها، وأَما على قول من يُسمّي الطاعات إِيماناً ـ وذلك مجاز عند أَهل السُّنَّة ـ فَتَتَرَتَّب الزيادة بالسورة، إِذ تتضمن أَوامر ونواهي وأَحكاماً، وهذا حكم من يتعلم العلم في معنى زيادة الإِيمان ونقصانه إِلى يوم القيامة، فإِن تعلُّم الإِنسان العلم بمنزلة نزول سورة القرآن.

و﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم المنافقون، وهذا تشبيه، وذلك أَن السالم المعتقد المنشرح الصدر بالإِيمان يشبه الصحيح، والفاسد المعتقد يشبه المريض، ففي العبارة مجاز فصيح لأَن المرض والصحة إِنما هي[1] خاصة في الأَعضاءِ، فهي في المعتقدات مجاز، والرجس في هذه الآية عبارة عن حالهم التي جمعت معنى الرجس في اللغة، وذلك أَن الرجس في اللغة يجيءُ بمعنى القذر، ويجيءُ بمعنى العذاب، وحال هؤلاءِ المنافقين هي قذر وهي عذاب عاجل كفيل بآجل، وزيادة الرجس إِلى الرجس هي عمههم في الكفر وخبطهم في الضلال، يعاقبهم الله على الكفر والإِعراض بالخَتم على قلوبهم والحتم بالنار عليهم، وإِذا كفروا بسورة فقد زاد كفرهم فذلك زيادة رجس إِلى رجسهم.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ الآية. قرأَ الجمهور ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ بالياءِ على معنى: أَوَلا يرى المنافقون. وقرأَ حمزة: [أَوَلاَ تَرَوْنَ] بالتاءِ على معنى: أَولا ترون أَيها المؤمنون، فهذا تنبيه للمؤمنين. وقرأَ ابن مسعود، وأَبي بن كعب، والأَعمش: [أَوَلاَ تَرَى] أَي أَنت يا محمد، وروي عن الأَعمش أَيضاً: [أَوَلَمْ تَرَوْا]، وذكر عنه أَبو حاتم: [أَوَلَمْ يَرَوْا]. وقال مجاهد: [يُفْتَنُونَ] معناه: يُختبرون بالسَّنَة

---

(١) ـ يريد: إنما هي صفات خاصة في الأعضاء.

والجوع، وحكى عنه النقاش أنه قال: مرضة أو مرضتين، وقال الحسن بن أَبي الحسن، وقتادة: معناه: يُختبرون بالأَمر بالجهاد، والذي يظهر مما قبل الآية ومما بعدها أَن الفتنة والاختبار إِنما هي بكشف الله تعالى أَسرارهم وإِفشائه عقائدهم، فهذا هو الاختبار الذي تقوم عليه الحجة برؤْيته وترك التوبة، وأَما الجهاد والجوع فلا يَتَرَتَّب معهما ما ذكرناه، فمعنى الآية على هذا: أَفلا يزدجر هؤلاء الذين تفضح سرائرهم كل سنة مرة أَو مرتين بحسب واحد واحد، ويعلمون أَن ذلك من عند الله فيتوبون ويتذكرون وعد الله ووعيده، وأَما الاختبار في المرض فهو في المؤمنين، وقد كان الحسن ينشد:

أَفـي كـلِّ عـام مـرْضَـةٌ ثـم نَقْهَـةٌ فحتَّى مَتى حتى مَتى وإِلى مَتى؟

وقالت فرقة: المعنى: يفتنون بما يشيعه المشركون على رسول الله ﷺ من الأَكاذيب، فكان الذين في قلوبهم مرض يفتنون في ذلك، وحكى الطبري هذا القول عن حذيفة وهو غريب من المعنى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

الضمير في قوله سبحانه: ﴿بَعْضُهُمْ﴾ عائد على المنافقين، والمعنى: وإِذا ما أُنزلت سورة فيها فضيحة أَسرارهم نظر بعضهم إِلى بعضهم على جهة التقرير، يفهم من تلك النظرة التقرير، هل معكم من ينقل عنكم؟ هل يراكم من أَحد حين تدبرون أَموركم؟ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ معناه: عن طريق الاهتداءِ، وذلك أَنهم حينما يبين لهم كشف أَسرارهم والإِعلام بمغيَّبات أُمورهم يقع لهم لا محالة تعجب وتوقف نظر، فلو اهتدوا لكان ذلك الوقت مظنة ذلك، فهم إِذ يصممون على الكفر ويرتبكون فيه[1] كأَنهم انصرفوا عن تلك الحال التي كانت مظنة للنظر الصحيح والاهتداءِ، وابتدأَ

---

(١) قال في اللسان: «ارتبك الرجل في الأمر، أي نشب فيه ولم يكد يتخلّص منه»، وقال: «وفي حديث=

بالفعل المسند إليهم إذ هو تعديد ذنب على ما قد بيَّنَّاه. وقوله: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ يحتمل أن يكون دعاءً عليهم، ويحتمل أن يكون خبراً، أي استوجبوا ذلك ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يفهمون عن الله ولا عن رسوله. وأسند الطبري في تفسير هذه الاية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لا تقولوا: انصرفنا عن الصلاة، فإن قوماً انصرفوا فصرف الله قلوبهم، ولكن قولوا: قضينا الصلاة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا النظر الذي في هذه الآية إنما هو إيماءٌ، وحكى الطبري عن بعضهم أنه قال: ﴿نَّظَرَ﴾ في هذه الآية في موضع: «قال».

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ مخاطبة للعرب في قول الجمهور، وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم في ذلك، إذ جاءَ بلسانهم وبما يفهمونه من الأغراض والفصاحة وشُرِّفوا به غابر الأيام. وقال الزَّجاج: هي مخاطبة لجميع العالم، والمعنى: لقد جاءَكم رسول من البشر، والأول أصوب. وقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يقتضي مدحاً لنسب النبي ﷺ وأنه من صميم العرب وأشرفها[(١)]، وينظر إلى هذا المعنى قوله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم»[(٢)]، ومنه قوله ﷺ: «إني من نكاح ولست من سفاح»[(٣)]، معناه أن نسبه ﷺ إلى آدم عليه السلام لم يكن النسل فيه إلا من نِكاح، ولم يكن فيه زنى. وقرأ عبد الله بن قُسَيْط المكي: [مِنْ أَنْفَسِكُمْ]

= علي: (تحيّر في الظلمات وارتبك في الهلكات)، ومنه: ارتبك الصيد في الحبالة: اضطرب».

(١) في جميع النسخ الأصلية جاء (وشرفها) بدون الهمزة، والمعنى يقتضي وجودها، وقد نقل أبو حيان في البحر كلام ابن عطية كما أثبتناه هنا.

(٢) أخرجه ابن سعد، ومسلم، والترمذي، والبيهقي في الدلائل عن واثلة بن الأسقع، وفي أوله: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى إسماعيل من بني كنانة» الحديث. (الدر المنثور).

(٣) أخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، وأبو الشيخ عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شيءٌ من ولادة الجاهلية، وقال رسول الله ﷺ: «خرجتُ من نكاح ولم أخرج من سفاح». (الدر المنثور).
واخرجه ابن عدي في الكامل، والطبراني في الأوسط عن علي كرم الله وجهه بزيادة في آخره «من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأُمي، لم يصبني من سفاح الجاهلية شيءٌ»، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث حسن.

بفتح الفاءِ من النفاسة، ورويت عن النبي ﷺ وعن فاطمة رضي الله عنها، وذكر أَبو عمرو أَن ابن عباس رضي الله عنهما رواها عن النبي ﷺ.

وقوله: ﴿ مَا عَنِتُّمْ ﴾ معناه: عَنَتُكم، فـ﴿ مَا ﴾ مصدرية، وهي ابتداءٌ، و﴿ عَزِيزٌ ﴾ خبر مقدم، ويجوز أَن يكون ﴿ مَا عَنِتُّمْ ﴾ فاعلا بـ ﴿ عَزِيزٌ ﴾ و﴿ عَزِيزٌ ﴾ صفة للرسول ﷺ، وهذا أَصوب من الأَول[١]. والعَنتُ: المشقَّة، وهي هنا لفظة عامة، أَي: ما شق عليكم من كفر وضلال بسبب الحق، ومن قتْل أَو إِسارٍ أَو امتحان بسبب الحق واعتقادكم أَيضاً معه. وقال قتادة: المعنى: عنت مؤمنيكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتعميم عَنت الجميع أَوجه.

وقوله تعالى: ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ يريد: على إِيمانكم وهداكم، وقوله: ﴿ رَءُوفٌ ﴾ معناه: مبالغٌ في الشفقة، قال أَبو عبيدة: الرأفة أَرقّ من الرحمة. وقرأَ [رؤُفٌ] دون مدٍّ؛ الأَعمشُ، وأَهل الكوفة، وأَبو عمرو[٢].

ثم خاطب النبي ﷺ بعد تقريره عليهم هذه النعمة فقال: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ يا محمد، أَي

---

(١) فيكون المعنى على هذا: يَعِزّ عليه مشقتكم، كما قال الشاعر:

يسُرُّ المرءَ ما ذَهَبَ اللّيالي وكان ذَهَابُهنّ لَهُ ذهابا

أي: يسر المرءَ ذهاب الليالي. ويجوز أن يكون ﴿ عَزِيزٌ ﴾ مبتدأ و﴿ مَا عَنِتُّمْ ﴾ هو الخبر وأن تكون ﴿ مَا ﴾ بمعنى الذي، ذكره الحوفي، وهو إعراب دون الإعرابين السابقين كما قال أبو حيان الأندلسي في «البحر».

(٢) وصف الله تبارك وتعالى محمداً ﷺ في هذه الآية بستة أوصاف، الأولى: الرسالة وهي كمال الإنسان لما احتوت عليه من كمال ذات الرسول وطهارة نفسه الزكية وأنه من الخيار بحيث صار أهلاً لأن يكون واسطة بين الله وبين خلقه، ولما كانت هذه الصفة أشرف الأشياء بدأ بها. الثانية: أنه من أنفسهم، وهي صفة مؤثرة في التبليغ والفهم عنه والتآنس به، فإن كان الخطاب للعرب ففي هذه الصفة التنبيه على شرفهم والتحريض على اتباعه، وإن كان الخطاب لبني آدم ففيها التنويه بهم واللطف في إيصال الخير إليهم. والثالثة: أنه يعزّ عليه ما يشق عليهم فهذا الوصف من نتائج الرسالة ومن نتائج أنه منهم لأنه من كان منك دلّك على الخير وصعب عليه إيصال ما يؤذي إليك، والرابعة: حرصه ﷺ على هدايتهم، وهذه أيضاً من نتائج الرسالة. والصفتان الخامسة والسادسة أنه رءُوف رحيم بالمؤمنين، وهذا من نتائج التبعية له والدخول في دين الله، وصدق الله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾.

وهذا وقد قال الحسن بن الفضل: لم يجمع الله لنبي بين اسمين من أسمائه إلا لنبيّنا ﷺ، فإنه قال: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

أَعرضوا بعد هذه الحال المتقررة التي منَّ الله تبارك وتعالى عليهم بها ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ معناه: وأَعمالك بحسب قولك من التفويض إِلى الله والتوكل عليه والجِدّ في قتالهم. وليست بآية موادعة لأَنها من آخر ما نزل، وخصّص العرش بالذكر إِذ هو أَعظم المخلوقات. وقرأَ ابن محيصن: [الْعَظِيمُ] برفع الميم صفة للربّ، ورويت عن ابن كثير.

وهاتان الآيتان لم توجدا حين جمع المصحف إلا في حفظ خزيمة بن ثابت[١]، «ووقع في البخاري: أَو أَبي خزيمة»، فلما جاءَ بهما تذكرهما كثير من الصحابة، وقد كان زيد يعرفهما ولذلك قال: «فقدت آيتين من آخر سورة التوبة». ولو لم يعرفهما لم يدر هل فقد شيئاً أَم لا، فإِنما ثبتت الآيتان بالإِجماع لا بخزيمة وحده، وأَسند الطبري في كتابه قال: كان عمر لا يثبت آية في المصحف إِلا أَن يشهد عليها رجلان، فلما جاءَ خزيمة بهاتين الآيتين قال: والله لا أَسأَل عليهما بيِّنَة أَبداً فإِنه هكذا كان ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يعني صفة النبي ﷺ التي تضمنتها الآية، وهذا ـ والله أَعلم ـ قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مدة أَبي بكر رضي الله عنه حين الجمع الأَول، وحينئذ فقدت الآيتان، ولم يجمع من القرآن شيءٌ في خلافة عمر رضي الله عنه. وخزيمة بن ثابت هو المعروف بذي الشهادتين، وعرف بذلك لأَن رسول الله ﷺ أَمضى شهادته وحده في ابتياع فرس وحكم بها لِنَفْسه ﷺ[٢]، وهذا خصوص لرسول الله ﷺ[٣]. وذكر النقاش

---

(١) هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الأنصاري، أبو عمارة، صحابي جليل، من أشراف الأوس ومن شجعانهم، حمل راية بني خَطْمَةَ (من الأوس) يوم فتح مكة، وعاش إلى خلافة علي، وشهد معه صفّين فقتل فيها سنة ٣٧هـ، روى له البخاري ومسلم ٣٨ حديثاً، وهو المعروف بذي الشهادتين.

(٢) روى أبو داود من طريق الزهري عن عمارة بن خزيمة، أن عمه حدَّثه وهو من أصحاب النبي ﷺ: أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي (اسمه سوار بن الحارثة) فجحده، فشهد له خزيمة، فقال له رسول الله ﷺ: ما حملك على الشهادة ولم تكن معنا حاضراً؟ قال: صدقتك بما جئت به وعلمت أنك لا تقول إلا حقاً، فقال رسول الله ﷺ: من شهد له خزيمة أو شهد عليه فحسبه. وروى الدارقطني عن خزيمة بن ثابت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعل شهادته شهادة رجلين، وفي البخاري من حديث زيد بن ثابت: فوجدتها مع خزيمة بن ثابت الذي جعل النبي ﷺ شهادته بشهادتين. (الإصابة ـ الأعلام).

(٣) يعني أنه لا يجوز لأحد أن يحكم لنفسه، والنبي صلوات الله وسلامه حكم لنفسه في هذه القضية، فهي خصوصية له ﷺ، كما أن جعل شهادة خزيمة بن ثابت بشهادة رجلين خصوصية لخزيمة.

عن أُبي بن كعب أنه قال: أَقرب القرآن عهداً بالله تعالى هاتان الآيتان: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إلى آخر السورة[1].

انتهى بعون الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة التوبة
والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) في «نوادر الأصول» عن بُريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال عشر كلمات عند دُبُر كل صلاة وجد الله عندهن مَكْفِياً مَجْزِياً، خمسٌ للدنيا وخمسٌ للآخرة: حسبيَ اللهُ لديني، حسبيَ اللهُ لدنياي، حسبيَ اللهُ لما أهمَّني، حسبيَ اللهُ لمن بَغَى عَليّ، حسبيَ اللهُ لمن حسدني، حسبيَ اللهُ لمن كادني بسوءٍ، حسبيَ اللهُ عند الموت، حسبيَ اللهُ عند المساءلة في القبر، حسبيَ اللهُ عند الميزان، حسبي الله عند الصراط، حسبيَ اللهُ لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أُنيب».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة يونس عليه السلام

هذه السورة هي مكيّة ، قال مقاتل: إلا آيتين وهي[١] قوله تبارك وتعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ نزلت بالمدينة. وقال الكلبي: هي مكيّة إلاّ قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾[٢] نزلت في اليهود بالمدينة. وقالت فرقة: نزل من أولها نحو من أربعين آية بمكة وباقيها بالمدينة.

قوله عزّ وجلّ:

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾.

تقدم في أول سورة البقرة ذكر الاختلاف في فواتح السور ، وتلك الأقوال كلها تترتّب هنا ، وفي هذا الموضع قول يختص به ، قال ابن عباس ، وسالم بن عبد الله ، وابن جبير ، والشعبي: ﴿الٓر﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿نٓ﴾ هو (الرَّحْمن) قُطع اللفظُ في أوائل هذه السُّور[٣]. واخْتُلف عن نافع في إمالة الراءِ ، والقياس ألاّ تمال. وكذلك اختلف

---

(١) هكذا بلفظ (هي) ، والمتأمل في أُسلوب ابن عطية يجده يكثر من ذلك فهو يستعمل الضمير (هي) قاصداً به مذكوراً سيأتي وهو «الآيات» ، ومن العجيب أن القرطبي ينقل هنا عن مقاتل رأيه فيقول: «وقال مقاتل: إلا آيتين وهي قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾» وهو نفس تعبير ابن عطية ، فهل أخذه عن مقاتل؟ على أن الذي ذكره أكثر المفسرين كالشوكاني ، والقرطبي هو: «إلا ثلاث آيات هي». فهل قال ذلك ابن عطية وأخطأ النساخ؟ والخلاف بين ابن عباس ومقاتل في أن المكي ثلاثُ آيات أو آيتان مبني على اختلافهما في تحديد آخر الآية الثانية ، فمقاتل يرى أنها تمتد إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ ، وابن عباس رضي الله عنهما يرى أنها تنتهي عند قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ، والآيات المقصودة هي رقم (٩٤) من السورة وما بعدها.

(٢) الآية رقم (٤٠) من السورة.

(٣) تعبير القرطبي هنا نقلا عن ابن عباس: «﴿الٓر﴾ ، و﴿حمٓ﴾ ، و﴿نٓ﴾: حروف(الرَّحمن) مفرقة» ، وهو يفسر المعنى المراد هنا.

القراءُ، وعلَّة من أَمال الراءَ أَن يدل بذلك على أَنها اسم للحرف وليست بحرف في نفسها وإِنما الحرف (ر)(١).

وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ﴾ قيل: هو بمعنى: (هذه)(٢)، وقد يشبه أَن يتصل المعنى بـ ﴿ تِلْكَ ﴾ دون أَن نقدرها بدل غيرها، والنظر في هذه اللفظة إِنما يتركب على الخلاف في فواتح السور فتدبّره. و﴿ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ قال مجاهد، وقتادة: المراد به التوراة والإِنجيل، وقال مجاهد أَيضاً وغيره: المراد به القرآن، وهو الأَظهر. و﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ فعيل بمعنى محكم، كما قال تعالى: ﴿ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾(٣)، أَي: مُعتد مُعَد، ويمكن أَن يكون ﴿ حكِيم ﴾ بمعنى: ذو حكمة فهو على النسب، قال الطبري «فهو مثل أَليم بمعنى مؤلم»، ثم قال: هو الذي أَحكمه وبيّنه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فساق قولين على أَنهما واحد.

وقوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ الآية. قال ابن عباس، وابن جريج، وغيرهما: نسبت هذه الآية أَن قريشاً استبعدوا أَن يبعث الله رسولا من البشر. وقال الزجاج: إِنما عجبوا من إِخباره أَنهم يُبعثون من القبور، إِذ النذارة والبشارة تتضمنان ذلك، وكثر كلامهم في ذلك حتى قال بعضهم: أَما وجد اللهُ من يبعث إِلا يتيم أَبي طالب؟ ونحو هذا من الأَقاويل التي اختصرتها لشهرتها، فنزلت الآية. وقوله:

---

(١) قال ابن خالويه في كتاب «الحجة»: «يُقرأُ بكسر الراء وفتحها، فالحجة لمن أمال أنه أراد التخفيف والحجة لمن فَتَح أنه أتى باللفظ على الأصل، وكلهم قصروا الراءَ، وأهل العربية يقولون في حروف المعجم: إنه يجوز إمالتها، وتفخيمُها، وقَصْرُها ومَدُّها، وتذكيرُها وتأنيثها».

(٢) والمشار إليه ـ على هذا ـ حاضر قريب، وهذا هو رأي ابن عباس رضي الله عنهما، واختاره أبو عبيدة كما ذكر أبو حيان في «البحر»، وعليه جاء قول الأعشى:

تِلْكَ خَيْلي منْهُ وتِلْكَ ركابي ... هُنَّ صُفْرٌ أولادُها كالزَّبيب

ثم اختلف ـ بعد ذلك ـ في المقصود بالإشارة، فقيل: آيات القرآن الكريم، وقيل: آيات السورة التي تقدم ذكرها في آخر التوبة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾، وقيل: المشار إليه هو (الراءُ) فإنها كنوز القرآن، وبها العلوم التي استأثر الله بها، إذ المراد أن الحروف التي افتتحت بها السور وإن قربت ألفاظها فمعانيها بعيدة المنال.

(٣) من الآية (٢٣) من سورة (ق).

﴿أَكَانَ﴾ تقرير[١]، والمراد بـ﴿النَّاسِ﴾: قائلوا هذه المقالة. و﴿عَجَبًا﴾ خبر ﴿كان﴾، واسمها: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾، وفي مصحف ابن مسعود: [أكانَ لِلنَّاسِ عجبٌ]، وجعل الخبر في قوله سبحانه: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾، والأول أصوب لأن الاسم معرفة والخبر نكرة وهذا القلب لا يصحُّ ولا يجيءُ إلاَّ شاذّاً[٢]، ومنه قول حسان:

. . . . يكُـونُ مِـزَاجُهـا عسَـلٌ ومَـاءُ[٣]

ولفظة العجب هنا ليست بمعنى التعجب فقط، بل معناه: أَوصل إنكارهم وتعجبهم إلى التكذيب؟ وقرأت فرقة: [إِلَى رَجْلٍ] بسكون الجيم. ثم فسّر الوحي وقسّمه على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين. والقدمُ ـ هنا ـ: ما قُدّم. واخْتُلف في المراد بها ها هنا ـ فقال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أَنس، وابن زيد: هي الأَعمال الصالحة من العبادات، وقال الحسن بن أَبي الحسن، وقتادة: هي شفاعة محمد ﷺ، وقال زيد بن أَسلم، وغيره: هي المصيبة بمحمد ﷺ بموته، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أَيضاً، وغيره: هي السعادة السابقة لهم في اللوح المحفوظ، وهذا أَليق الأَقوال بالآية، ومن هذه اللفظة قولُ حسّان:

لَنَـا القَـدمُ العُلْيـا إِليْـكَ وخَلْفُنَـا ... لأَوَّلِنَـا فـي طَـاعـةِ اللهِ تَـابِـعُ[٤]

---

(١) قال القرطبي: «استفهام معناه التقرير والتوبيخ»، وقال الشوكاني: «لإنكار العجب مع ما يفيد من التقريع والتوبيخ». وجعله الألوسي وابو حيان للإنكار فقط.

(٢) قال أبو حيان: «وهذا تخريج الزمخشري وابن عطية، وقيل: «كان» تامة، و﴿عَجَبٌ﴾ فاعل بها، والمعنى: أَحَدثَ للناس عجبٌ لأن أوحينا؟ وهذا التوجيه حسن». فالشذوذ ناتج عنده من فهم الزمخشري وابن عطية وليس في القراءة نفسها.

(٣) وهذا عجز بيت لحسّان، وهو بتمامه:

كـأنَّ سبيئـةً مـن بَيْـتِ رأسٍ ... يكـون مِـزَاجُهـا عسـلٌ ومَـاءُ

والسبيئةُ: الخمر، وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ الآية (٣٥) من سورة (الأنفال).

(٤) ورواه في «اللسان»: «القدم الأولى»، والقَدَم: السابقة وما تقدموا فيه غيرهم من الخير، والخَلْفُ: الباقي بعد الهالك والتابعُ له، سُمّي به المُتَخَلّف والخالف لا على جهة البَدَل، وجمعه: خلوف مثل قَرْن وقرون، والخَلْفُ هنا محمود، أما في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فهو مذموم. والبيت من القصيدة له يذكر فيها الأيام الأولى من تاريخ المسلمين في المدينة، وهي أحد عشر بيتاً.

وقول ذي الرمة:

لكُـمْ قَـدمٌ لاَ يُنْكِـرُ النَّـاسُ أَنَّهـا مع الحسَبِ العالي طمَّتْ على الْبحْر[1]

ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ في صفة جهنم: «حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول: قَطْ قَطْ»[2] أَي ما قدم لها من خلقه، هذا على أَن (الجبار) اسم الله تبارك وتعالى، ومن جعله اسم جنس كأَنه أَراد الجبارين من بني آدم، فالقدم على هذا التأْويل: الجارحة[3]. والصدق في هذه الآية بمعنى الصلاح، كما تقول: رجلٌ صِدْقٌ ورجلُ سوْءٍ[4]. وقوله سبحانه: ﴿قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ يحتمل أَن يكون تفسيراً لقوله: «أَكان وحْيُنا إِلى بشر عجبا؟» قال الكافرون عنه كذا وكذا؟ وذهب الطبري إِلى أَن في الكلام حذفاً يدل الظاهر عليه، تقديره: فلما أَنْذر وبَشَّر قال الكافرون كذا وكذا. وقرأَ جمهور الناس، وهي قراءَة نافع، وأَبي عمرو، وابن عامر: ﴿إِن هذا لسحر مبين﴾، وقرأَ مسروق بن الأَجدع، وابن جبير، والباقون من السبعة، وابن مسعود، وأَبو رُزَيْن، ومجاهد، وابن وثاب، وطلحة، والأَعمش، وعيسى بن عمرو بخلاف، وابن محيصن، وابن كثير بخلاف عنه: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ﴾، والمعنى متقارب. وفي مصحف أُبيّ: [قال الكافرون ما هذا إِلاَّ سحرٌ مبين]. وقولهم في الإِنذار والبشارة سحرٌ إِنما هو

---

(١) أنشد هذا البيت الزمخشري في «أساس البلاغة» (قدم) قال: «ولفلانٍ قدم في هذا الأمر: سابقة وتقدم، وله قدم صدق»، قال ذو الرمة: «لكم قَدَمٌ...» وهو في الديوان وتفسير الطبري: «مع الحسب العادي»، وفي الديوان: «على الفخر»، ومعنى العادي: القديم. ومعنى البيت: لكم سوابق تقدمت من الخير والفضل والحسب ما يعدّه الإنسان من مفاخره.

(٢) رواه البخاري في تفسير سورة (ق)، وفي الإيمان، وفي التوحيد، وكذلك رواه مسلم، والترمذي، والإمام أحمد في مواطن كثيرة من مسنده، ولفظه كما في البخاري عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُلْقى في النار وتقول: هل من مزيد حتى يضع قدمه فيها فتقول: قَطْ قَطْ»، وروى مثله عن أبي هريرة في لفظ طويل، ومثله عن أبي هريرة أيضاً بلفظ موجز.

(٣) هذا الاحتمال غير وارد لأن بعض روايات الحديث في مسلم تقول: «حتى يضع ربّ العزّة»، ولأن معنى الحديث يرفضه.

(٤) رجُلٌ صَدْقٌ بفتح الصاد. جاء في الصحاح: «رجُلٌ صَدْقُ اللقاءِ وصَدْقُ النَّظَر وقوم صُدْقٌ بالضم، مثل فرس وَرْدٍ وأفراسٍ وُرْد، وجَوْنٍ وجُونٍ». وفي المعجم الوسيط: الصَّدْق: الكامل من كل شيءٍ، يقال: «رمْحٌ صَدْقٌ: مُسْتَوٍ صُلْبٌ، ورجُلٌ صَدْقُ اللقاءِ: ثبْتٌ فيه». ويقال كذلك بالكسر: رجُلٌ صِدْقٌ.
وأمّا السَّوْءُ فبفتح السين: «يقال: رجلُ سَوْءٍ وعَمَلُ سَوْءٍ، ورجُلُ السَّوْءِ، والرجلُ السَّوْءُ». (المعجم الوسيط).

بسبب أنه فرق بذلك كلمتهم وحال بين القريب وقريبه فأشبه بذلك ما يفعله الساحر فظنوه من ذلك الباب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾.

هذا ابتداءُ دعاءٍ إلى عبادة الله عزَّ وجلَّ وإعلام بصفاته، والخطاب بها لجميع الناس، و﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ هو على ما تقرر أَن الله عزَّ وجلَّ خلق الأَرض ثم استوى إلى السماء وهي دخان فخلقها ثم دحى الأَرض بعد ذلك. وقوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قيل: هي من أَيام الآخرة، وقال الجمهور ـ وهو الصواب ـ: بل من أَيام الدنيا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك في التقدير، لأَن الشمس وجريها لم يتقدم حينئذ، وقول النبي ﷺ في خلق الله المخلوقات: «إن الله ابتدأَ يوم الأَحد كذا ويوم كذا كذا» إنما هو على أَن نقدر ذلك الزمان ونعكس إِليه التجربة من حين ابتدأَ ترتيب اليوم والليلة. والمشهور أَن الله ابتدأَ الخلق يوم الأَحد، ووقع في بعض الأَحاديث في كتاب مسلم، وفي الدلائل أَن البداءَة وقعت يوم السبت[1]، وذكر بعض الناس أَن الحكمة في خلق الله تبارك وتعالى هذه الأَشياءَ في مدة محدودة ممتدة وفي القدرة أَن يقول كن فيكون إِنما هو ليعلِّم عباده التؤدة والتماهل في الأُمور.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا مما لا يوصل إِلى تعليله، وعلى هذا هي الأَجنَّة في البطون وخلق الثمار

---

(١) عبارة ابن عطية هنا تدل على أنه يشك في صحة هذه الرواية، بدليل قوله: «ووقع في بعض الأحاديث»، والحقيقة المشهورة عند العلماءِ أن الله بدأ الخلق يوم الأحد، وأن مدة الخلق كانت ستة أيام بِنَصّ القرآن الكريم. ومعنى ذلك أن هذه الرواية تتعارض مع الآيَة فلا بد من إسقاطها أو تأويلها، ولا يمنع من ذلك ورودها في صحيح مسلم غفر الله لنا وله، وقد تكلم كثير من الحفاظ في هذا الحديث. والله أعلم.

وغير ذلك، والله عزَّ وجلَّ قد جعل لكل شيءٍ قدراً وهو أَعلم بوجه الحكمة في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قد تقدم القول فيه في ﴿الٓمٓصٓ﴾. وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يصح أَن يريد (بالأمر) اسم الجنس من الأُمور، ويحتمل أَن يريد الأَمر الذي هو مصدر أَمرَ يأمُرُ أَمْراً، وتدبيره لاَ إِله إِلاَّ هُو الإِنفاذ لأَنه قد أَحاط بكل شيءٍ علما. وقال مجاهد: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ معناه: يقضيه وحده.

وقوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ ردٌّ على العرب في اعتقادها أَن الأَصنام تشفع لها(١)، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إِشارة إِلى الله تبارك وتعالى، أَي هذا الذي هذه صفاته فاعبدوه، ثم قررهم على هذه الآيات والعبر فقال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَي: فيكون التذكُّر سبباً للاهتداءِ.

واختصار القول في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أَن يكون استوى بقهره وغلبته، وإِمَّا أَن يكون ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعنى استولى ـ إِن صحَّت اللفظة في اللسان، فقد قيل في قول الشاعر:

قَـد استـوى بِشْـرٌ عَلَـى الْعِـراقِ   مِـنْ غَيْـرِ سيْـفٍ ودَمٍ مُهْـرَاقِ

إِنَّه بيتٌ مصنوع ـ وإِما أَن يكون فَعَلَ فِعْلا في العرش سماه استوى. واستيعاب القول قد تقدم.(٢)

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ الآية آية إِنباءٍ بالبعث من القبور، وهي من الأُمور التي جوزها العقل وأَثبت وقوعها الشرع. وقوله ﴿جَمِيعًا﴾ حال من الضمير في ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر، وكذلك قوله: ﴿حَقًّا﴾، وقال أَبو الفتح: ﴿حَقًّا﴾ نعت. وقرأَ الجمهور: ﴿إِنَّهُۥ﴾ بكسر الأَلف على القَطع والاستئناف، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع، والأَعمش، وسهل بن شعيب، وعبد الله: [أَنه] بفتح الأَلف، وموضعها النصب على تقدير: أَحق أَنه، وقال الفراءُ: موضعها رفع على تقدير: يحق أَنَّه.

---

(١) قال بعض العلماءِ: فماذا إِذا ادّعَوْا الإِذن لها وقالوا: إِنها تشفع بعد أَن يؤذن لها، والآية لا تنفي الإِذْنَ؟ يقال: ولن يأذن لها لأنها ليست أهلا للشفاعة.

(٢) في الآية (٥٤) من سورة (الأعراف). واللغويون لهم آراء كثيرة في معنى (استوى) أشهرها أنه بمعنى: استولى وظهر، وقد سئل مالك بن أنس رضي الله عنه: كيف استوى؟ فقال: «الكيف غير معقول، والاستواءُ غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يجوز عندي أن يكون [أنه] بدلاً من قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، قال أبو الفتح: إن شئت قدرت: لأنه يبدأ الخلق، أي: فمن في قدرته هذا فهو غني عن إخلاف الوعد، وإن شئت قدرته: وَعدَ اللهُ حقاً أنَّه، ولا يعمل فيه المصدر الذي هو ﴿وَعْدَ﴾ لأنه قد وصف فآذن ذلك بتمامه وقطع عمله[1]. وقرأ ابن أبي عبلة [حقٌّ] بالرفع، فهو ابتداءٌ وخبره [أنَّهُ]، وقوله: ﴿يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ﴾ يريد النشأة الأولى، والإعادة هي البعث من القبور، وقرأ طلحة: [يُبْدي الْخَلْقَ] بضم الياءِ وكسر الدال. وقوله ﴿لِيَجْزِىَ﴾ هي لام كي، والمعنى أن الإعادة إنما هي لِيَقَع الجزاءُ على الأعمال، وقوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾] أي بالعدل في رحمتهم وحُسْن جزائهم، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ابتداءٌ، والحميمُ: الْحَارُّ المسَخَّن، وهو فعيل بمعنى مفعول، ومنه الحمام والحمة، ومنه قول المرقش:

فــي كــلِّ يــوْم لَهَــا مِقْطَــرةٌ   وكبــاءٌ مُعَــدَّةٌ وحميــمْ[2]

وحميم النار ـ فيما ذكر عن رسول الله ﷺ ـ إذا أدناه الكافر من فيه تساقطت فروة رأسه[3]، وهو كما وصفه الله تعالى: ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾[4].

---

(١) فلا يصح أن يوصف قبل تمامه.

(٢) البيت للمرقّش الأصغر، واسمه ربيعة بن سفيان بن سعد، وهو ابن أخ للمرقش الأكبر، وعمٌّ لطرفة بن العبد، وهو أشهر المرقشين، ويعد واحداً من فرسان العرب وشجعانهم، والبيت من قصيدة يتغزل فيها في محبوبته ابنة عجلان، والرواية هنا ناقصة، وفيها اختلاف عن الديوان، واللفظ كما في الديوان:

فــي كُــلِّ مُمْســىً لَهَــا مِقْطَــرَةٌ   فيهــا كِبــاءٌ مُعَــدَّةٌ وحميــمْ

وروايه اللسان: «كُلّ عشاءٍ ـ ومُعَدّ». وجميع الروايات تحتاج إلى مناقشة في الوزن الشعري، والمِقْطَرَة: المِجْمَرَة، والكِباءُ بكسر الكاف: العود، الحميم: ماءٌ حارٌ تُحَمّ به، يصفها بالنظافة فيقول: إنها تُعِدُّ كل مساءٍ ماءً ساخناً لتغتسل به، وهذا المعنى مأثور ومتكرر في الشعر الغزلي عند الجاهليين، إذ ينسبون إلى الحبيبات كل نعيم للدليل على الترف.

(٣) رواه الترمذي، والإمام أحمد (٥ـ٢٦٥) ولفظه كما جاء فيه: عن أبي أُمامة عن النبي ﷺ في قوله: «ويُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُه» قال: يقرب إليه فيتكرهه فإذا دنا شوى وجهه ووقعت فروة رأسه... الخ الحديث.

(٤) من الآية (٢٩) من سورة (الكهف).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

هذا استمرار على وصف آيات الله والتنبيه على صنعته الدالة على الصانع، وهذه الآية تقتضي أَن الضياءَ أَعظم من النور وأَبهى بحسب الشمس والقمر، ويلحق هاهنا اعتراض وهو أَنا وجدنا الله تعالى شبّه هداه ولطفَه بخلقه بالنور، فقال: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾[1]، وهذا يقتضي أَن النور أَعظم هذه الأَشياءِ وأَبلغها في الشروق، وإلاَّ فلم ترك التشبيه الأَعلى الذي هو الضياءُ وعدل إلى الأَقل الذي هو النور؟ فالجواب عن هذا والانفصال أَن تقول: إن لفظة النور أَحكم وأَبلغ في قوله سبحانه: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ وذلك أَنه تعالى شبَّه هداه ولطفه الذي نصبه لقوم يهتدون وآخرين يضلون معه بالنور الذي هو موجود أَبداً في الليل وأَثناءَ الظلام، ولو شبهه بالضياءِ لوجب أَلاَّ يضل أَحد إذ كان الهدى يكون مثل الشمس التي لا تبقى معها ظلمة، فمعنى الآية: إن الله تبارك وتعالى قد جعل هداه في الكفر كالنور في الظلام فيهتدي قومٌ ويضل آخرون، ولو جعله كالضياءِ لوجب أَلا يضل أَحد، وبقي الضياءُ على هذا الانفصال أَبلغ في الشروق كما اقتضت آيتنا هذه، والله عزَّ وجلَّ هو ضياءُ السموات والأَرض ونورُها وقيُّومُها. ويحتمل أَن يعترض هذا الانفصال، والله المستعان.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ يريد البروج المذكورة في غير هذه الآية[2]. وأَما الضمير الذي ردَّه على القمر وقد تقدم ذكر الشمس معه فيحتمل أَن يريد بالضمير القمر وحده لأَنه هو المراعى في معرفة عدد السنين والحساب عند العرب، لكنه اجتزأَ بذكر

---

(١) من الآية (٣٥) من سورة (النور).

(٢) في قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾، وفي سورة الفرقان: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾، وفي سورة البروج: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾، وكانت العرب تنسب للبروج الأنواء، وهي ثمانية وعشرون برجاً.

الواحد كما قال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[١] ، وكما قال الشاعر:

رماني بذَنْبٍ كنْتُ منْهُ ووالِدِي   بريئاً ، ومن أَجْلِ الطَّوِيّ رماني[٢]

قال الزجاج: وكما قال الآخر:

نحن بما عندنا وأَنْتَ بِما   عندك راضٍ والرَّأْيُ مُخْتَلِف[٣]

وقوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا۟﴾ المعنى: قدر هذين النَّيِّرَين منازل لكي تعلموا بها عدد السنين والحساب رفقاً بكم ، ورفعاً للالتباس في معاشكم وتَجْرِكم وإجارتكم وغير ذلك مما يضطر فيه إلى معرفة التواريخ.

وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أَي للفائدة لا لِلَّعب والإهمال ، فهي إذاً يحق أَن تكون كما هي.

وقرأ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وعاصم في رواية حفص: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ ، وقرأ ابن كثير أَيضاً ، وعاصم ، والباقون[٤] ، والأَعرج ، وأَبو جعفر ، وشيبة ، وأَهل مكة ، والحسن ، والأَعمش: [نُفَصِّل] بنون العظمة.

وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إنما خصهم لأَن نفع التفصيل فيهم ظهر وعليهم أَضاءَ

---

(١) من الآية (٦٢) من سورة (التوبة).

(٢) لأن الشاعر قال: (بريئاً) ولم يقل (بريئين)، وقد سبق الاستشهاد بالبيت ، وقد رواه الفراء في كتابه «معاني القرآن» ، وفي اللسان أن ابن برّي قال: البيت لابن أحمر ، وقيل: هو للأزرق بن طرفة بن العَمَرّد الفراصي ، ورُوي: (ومِنْ جَوْل الطويّ) ، والطَّوِي: بئر اختصم عليها الشاعر مع أحد الناس فقال خَصْمه: إنَّه لِصّ وابن لَصّ ، فقال هذه القصيدة ، وبعد البيت:

دَعَاني لِصاً في نُصوصٍ وما دعَا   بها والدي فيما مضَى رجُلانِ

وجول الطَّويّ: كل ناحية من نواحي البئر من أعلاها إلى أسفلها.

(٣) إذ قال: (راضٍ) ولم يقل: (رضوان) ، وقد سبق الاستشهاد بالبيت عند تفسير قوله تعالى في الآية (٣٤) من سورة التوبة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ، وكذلك عند تفسير قوله سبحانه في الآية (٦٢) من نفس السورة: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾.

وهذا مثل الآية والبيتين قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ إذ لم يقل سبحانه (إليهما) ، ومثلها أيضاً قول حسان بن ثابت الأنصاري:

إنَّ شَرْخَ الشباب والشَّعَرَ الأسْـ   ـوَدَ ما لَمْ يُعاصِ كان جُنونا

فقد قال: (يعاص) ولم يقل: (يعاصيَان).

(٤) يريد باقي السبعة.

وإن كان التفصيل إنما وقع مجملا للكل مُعَدًّا ليحصله الجميع. وقرأ جمهور السبعة، وقد رويت عن ابن كثير: ﴿ضِيَآءً﴾، وقرأ ابن كثير وحده فيما روي أيضاً عنه(١): [ضِئَاءً] بهمزتين، وأصله ضياءً فقلبت(٢)، فجاءَت [ضِئَاءًا]، فقلبت الياءُ همزة لوقوعها بين ألفين. قال أبو علي: وهي غلط(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الآية، آية اعتبار وتنبيه، ولفظة (الاختلاف) تعم تعاقب الليل والنهار وكونهما خلفة وما يتعاورانه من الزيادة والنقص وغير ذلك من لواحق سير الشمس وبحسب أقطار الأرض، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لفظ عام لجميع المخلوقات، والآيات: العلامات والدلائل، وخصص القوم المتقين تشريفاً لهم إذ الاعتبار فيهم يقع، ونسبتهم إلى هذه الأشياءِ المنظور فيها أفضل من نسبة من لم يهتد ولا اتَّقى.

قوله عز وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

قال أبو عبيدة، وتابعه القتبي وغيره: ﴿يَرْجُونَ﴾ في هذه الآية بمعنى يخافون، واحتجوا ببيت أبي ذؤيب:

إذا لَسَعَتْـهُ النَّحْـلُ لـم يـرْجُ لَسْعَهـا ... وخالَفَها في بيت نُوبٍ عواسِلِ(٤)

---

(١) في القرطبي وفي البحر المحيط أنها قراءَة قنبل.

(٢) يعني: قدمت الهمزة التي بعد الألف فصارت قبل الألف وصارت ضئايا، ثم قلبت الياءُ همزة لوقوعها بعد ألف زائدة فصارت ضئاءا، وكذلك إن قدرت لأن الياء حين تأخرت رجعت إلى أصلها وهو الواو التي انقلبت عنها ـ إن قدرت هذا فإن الياء تقلب همزة أيضاً وتكون على وزن فلاع مقلوب من فعال.

(٣) لأن القياس هو الفرار من اجتماع همزتين إلى تخفيف إحداهما فكيف نتخيل تقديماً وتأخيراً يؤديان إلى اجتماعهما ولم يكونا موجودين في الأصل. وتأمل التعليل الذي ذكره ابن عطية لقلب الياء المتأخرة همزة وهو أنها وقعت بين ألفين، وما ذكرنا هنا من أنها قلبت همزة لوقوعها بعد ألف زائدة، فقد قيل بالرأيين.

(٤) جاء في اللسان: «وقال ثعلب: قال الفراءُ: الرجاءُ في معنى الخوف لا يكون إلا مع الجحد، تقول؛ =

وحكى المهدوي عن بعض أَهل اللغة ـ قال ابن سيدة: هو الفراءُ ـ: إِن لفظة الرجاءِ إِذا جاءَت منفية فإِنها تكون بمعنى الخوف ـ وحكى عن بعضهم: إِنها تكون بمعناها في كل موضع تدل عليه قرائن ما قبله وما بعده، فعَلَى هذا التأْويل معنى الآية: «إِن الذين لا يخافون لقاءَنا». وقال ابن زيد: هذه الآية في الكفار، وقال بعض أَهل العلم: الرجاءُ في هذه الآية على بابه، وذلك أَن الكافر المكذب بالبعث ليس يرجو رحمة الله في الآخرة، ولا يحسن ظناً بأَن يلقى الله، ولا له في الآخرة أَمل، فإِنه لو كان له فيها أَمل لقارنه لا محالة خوفٌ، وهذه الحال من الخوف المقارن هي الفائدة من النجاة، والذي أَقول: إِن الرجاءَ في كل موضع على بابه، وإِن بيت الهذلي معناه: لم يرج فقْدَ لَسْعِها فهو يبني عليه ويصبر إِذ يعلم أَنه لا بُدَّ منه.

وقوله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ يريد: كانت آخر همهم ومنتهى غرضهم، وأَسند الطبري عن قتادة أَنه قال في تفسير هذه الآية: «إِذا شئت رأَيت هذا الموصوف، صاحب دنيا، لها يغضب، ولها يرضى، ولها يفرح، ولها يهتم ويحزن». فكأَن قتادة صورها في العصاة، ولا يترتب ذلك إِلا مع تأَوّل الرجاءِ على بابه، إِذ قد يكون العاصي المُجلِّح[1] مستوحشاً من آخرته، فأَما على التأْويل الأَول فمن لا يخاف لقاءَ الله فهو كافر، وقوله: ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ تكميل في معنى القناعة بها والرفض لغيرها، لأَن الطمأْنينة بالشيءِ هي زوال التحرك إِلى غيره. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ يحتمل أَن يكون ابتداءَ إِشارة إِلى فرقة أُخرى من الكفار، وهؤلاءِ ـ على هذا التأْويل ـ أَضل صفقة لأَنهم ليسوا أَهل دنيا بل أَهل غفلة فقط[2]، ثم حتم عليهم بالنار، وجَعَلها مأْواهم، وهو حيث يأْوي الإِنسان ويستقر، ثم جعل ذلك بسبب كسبهم واجتراحهم، وفي هذه اللفظة ردّ على الجبرية ونص على تعلُّق العقاب بالتكسب الذي للإِنسان.

= ما رجوتك، أي: ما خفتك، ولا تقول: رجوتك بمعنى خفتك وأنشد لأبي ذؤيب: إذا لَسَعَته... البيت. أي: لم يخف ولم يبال، ويروى: وحالفها».

(١) المُجلِّح في الأمر: الذي يُقدم عليه في عزم وتصميم ويركب رأسه فلا يتراجع.

(٢) لم يذكر الاحتمال الثاني وهو أن يكون قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ من عطف الصفات، فيكون الغافلون عن الآيات هم الذين لا يرجون لقاءَ الله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية. لما قرّر تبارك وتعالى حالة الفرقة الهالكة عقَّب ذلك بذكر حالة الفرقة الناجية ليتضح الطريقان ويرى الناظر فرق ما بين الهدى والضلال، وهذا كله لطف منه بعباده. وقوله: ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ لا يترتب أن يكون معناه: يرشدهم إلى الإيمان، لأنه قد قررهم مؤمنين، فإنما الهدى في هذه الآية إنما على أحد وجهين، إما أن يريد أن يديمهم ويثبتهم، كما قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾[1] فإنما معناه: اثبتوا، وإما أن يريد به: يرشدهم إلى طرق الجنان في الآخرة. وقوله: ﴿بِإِيمَـٰنِهِمْ﴾ يحتمل أن يريد: بسبب إيمانهم ويكون ذلك مقابلاً لقوله قبل: ﴿مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، ويحتمل أن يكون الإيمان هو نفس الهدى، أي: يهديهم إلى طريق الجنة بنور إيمانهم. قال مجاهد: يكون لهم إيمانهم نوراً يمشون به، ويتركب هذا التأويل على ما روي عن النبي ﷺ: «إن العبد المؤمن إذا قام من قبره للحشر تمثل له رجل جميل الوجه طيب الرائحة، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقوده إلى الجنة»[2] وبعكس هذا في الكافر، ونحو هذا مما أسنده الطبري وغيره. وقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ يريد؛ من تحت عِلِّيّاتهم وغرفهم، وليس التحت الذي هو بالمسامتة، بل يكون من ناحية الإنسان، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[3]، وكما قال حكاية عن فرعون: ﴿وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾ الآية. الدعوى بمعنى الدعاءِ، يقال: دعا الرجل وادَّعى بمعنى واحد، قاله سيبويه. و﴿سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ تقديس وتسبيح وتنزيه لجلاله عن كل ما لا يليق به، وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في ذلك: «هي

---

(١) من الآية (١٣٦) من سورة (النساء).

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ﴾ قال: حدثنا الحسن قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «المؤمن إذا خرج من قبره صُوّر له عمله في صورة حسنة وريح طيبة، فيقول له: ما أنت؟ فوالله إني لأراك عين امرئ صدق، فيقول له: أنا عملك، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة، وأما الكافر فإذا خرج من قبره صُوِّر له عمله في صورة سيئة وريح منتنة، فيقول له: ما أنت؟ فوالله إني لأراك عين امرئ سوءٍ، فيقول: أنا عملك، فينطلق به حتى يدخله النار». (الدر المنثور).

(٣) من الآية (٢٤) من سورة (مريم).

(٤) من الآية (٥١) من سورة (الزخرف).

كلمات رضيها الله تعالى لنفسه» ، وقال طلحة بن عبيد الله: قلت: يا رسول الله ، ما معنى «سبحان الله»؟ فقال: «معناها تنزيه الله من السّوءِ» ، وقد تقدم ذكر خلاف النحاة في ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ ، وحكي عن بعض المفسرين أنهم رأوا أن هذه الكلمة إنما يقولها المؤمن في الجنة عندما يشتهي الطعام ، فإنه إذا رأى طائراً أو غير ذلك قال: «سبحانك اللّهم» فنزلت تلك الإرادة بين يديه فوق ما اشتهى[1]. رواه ابن جريج ، وسفيان بن عيينة.

وقوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ يريد: تسليم بعضهم على بعض ، والتحية مأخوذة من تمني الحياة للإنسان والدعاء بها ، يقال: حيّاه يُحيِّيه ، ومنه قول زهير بن جناب:

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ الفَتى ... قَدْ نِلْتُهُ إِلاَّ التَّحِيَّهْ[2]

يريد دعاءَ الناس للملوك بالحياة ، وقد سُمّي المُلْكُ تحية بهذا التدريج ، ومنه قول عمرو بن معديكرب:

أَزورُ أَبَا قَابُوس حتَّى ... أُنيخَ علَى تَحِيَّتِهِ بِجُنْدِي[3]

أَراد: على مملكته. وقال بعض العلماء: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ يريد تسليم الله عزَّ وجلَّ ، والسلام مأخوذ من السلامة.

---

(١) أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ عن ابن جريج قال: أُخبرت أن قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ إذا مرَّ بهم الطائر يشتهونه قالوا: سبحانك اللّهم ، ذلك دعاؤهم به ، فيأتيهم الملك بما اشتهوا ، فإذا جاء الملك بما يشتهونه فيسلم عليهم فيردون عليه فذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ ، فإذا أكلوا قدر حاجتهم قالوا: الحمد لله رَبِّ العَالَمين ، فلذلك قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. (الدر المنثور).

(٢) رواية التّاج: «ولَكُلُّ ما» وكذلك في غيره من المراجع ، يقول: لقد نلت كل ما يتمناه أمثالي ولم ينقصني إلا أن أكون ملِكاً ينحني لي الناس بالتحية ، وزُهَيْر كان سيداً وخطيباً وشاعراً وبطلاً في قومه (قضاعة) ونال فعلا مكانة عالية وعمّر طويلا ، وقيل: رأته ابنة له يوماً يدبّ على عصاه فقالت لابن ابنها: خذ بيد جدِّك ، فقال له: من أنت؟ فلما أجابه أنشأ يقول:

أَبَنِيَّ إنْ أَهْلِكْ فَقَدْ ... أَوْرَثْتُكُمْ مَجْداً بَنِيَّهْ
وتَرَكْتُكُمْ أَبْنَاءَ سَا ... داتٍ زِنَادُكُمْ وَرِيَّهْ
ولَكُلُّ مَا نَالَ الفَتَى ... قَدْ نِلْتُهُ إلا التَّحِيَّهْ

(٣) عن اللسان: (قال أبو عمرو: التحية المُلْك ، وأنشد قول عمرو بن معديكرب: «أسيرُ به إلى النُّعْمَانِ حَتَّى... البيت» يعني على مُلْكِه ، ويُروى: «أسير بها» ، ويروى: «أَؤُمُّ بها». وقال خالد بن يزيد: لو كانت التحية المُلك لما قيل: التحيّات لله).

وقوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ يريد: وخاتمة دعواهم في كل موطن وكلامهم شكر الله تعالى وحمده على سابغ نعمه، وكانت بدايتهم بالتنزيه والتعظيم. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهي عند سيبويه [أَنْ] المخففة من الثقيلة، وقرأ ابن محيصن، وبلال بن أبي بُردة، ويعقوب، وأبو حيوة: [أَنَّ الْحَمْدَ للهِ]، وهي ـ على الوجهين ـ رفع على خبر الابتداءِ، قال أبو الفتح: هذه القراءَة تدل على أن قراءَة الجماعة هي [أَنْ] المخففة من الثقيلة بمنزلة قول الأعشى:

فـي فِتْيـةٍ كسُيـوف الْهِنْـدِ قَـدْ علِمُـوا ... أَنْ هَالِكٌ كلُّ منْ يحْفَى وينْتَعِلُ(1)

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

قال مجاهد: «نزلت في دعاءِ الرجل على نفسه أو ماله أو ولده ونحو هذا، فأخبر الله تعالى أنه لو فعل مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في إجابتهم إلى الخير لأهلكهم، ثم حذف بعد ذلك من القول جملة يتضمنها الظاهر تقديرها: ولا يفعل ذلك ولكن يذر الذين لا يرجون، فاقتضب القول وتوصل إلى هذا المعنى بقوله سبحانه: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، فتأمل هذا التقدير فتجده صحيحاً. و﴿اسْتِعْجَالَهُم﴾ نصب على المصدر، والتقدير: مثل استعجالهم، وقيل: التقدير: تعجيلا مثل استعجالهم، وهذا قريب من الأول. وقيل: إن هذه الآية نزلت في قوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾(2)،

---

(1) الرواية في الديوان:

فـي فِتْيَـةٍ كسُيُـوفِ الهنْـدِ قَـدْ عَلِمُـوا ... أنْ لَيْسَ يَدْفَعُ عن ذي الحيلَةِ الحِيَلُ

وهو أنسب للمعنى، وأما الحديث عن الحفاء والانتعال في بيت آخر قبل هذا البيت بثلاثة أبيات، وفيه يقول الأعشى:

إمَّـا تَـرَيْنَـا حُفَـاةً لا نِعَـالَ لَنَـا ... إنَّـا كـذلـك مـا نَحْفَـى ونَنْتَعِـلُ

والبيتان من قصيدته المشهورة التي مطلعها:

وَدِّعْ هُـرَيْـرَةَ إنَّ الـرَّكْـبَ مُـرْتَحِـلُ ... وهـلْ تُطِيـقُ وَدَاعـاً أيُّهـا الـرَّجُـلُ؟

(2) من الآية (٣٢) من سورة (الأنفال).

وقيل: نزلت في قوله تعالى: ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾(١) وما جرى مجراه.

وقرأ جمهور القراءِ: ﴿لَقُضِىَ﴾ على بناءِ الفعل للمفعول ورفع [الأجل]، وقرأ ابن عامر وحده(٢)، وعوف، وعيسى بن عمر، ويعقوب: [لَقَضَى] على بناء الفعل للفاعل ونصب [الأَجل]، وقرأ الأعمش: [لَقَضَيْنَا]، والأَجل ـ في هذا الموضع ـ أَجل الموت، ومعنى (قضى) في هذه الآية: أَكمل وفرغ، ومنه قول أَبي ذُؤَيب:

وعلَيْهِمَا مَسْرُودتَانِ قَضَاهُمَا ... داودُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغ تُبَّعُ(٣)

وأَنشد أَبو علي في هذا المعنى:

قضيْتُ أُموراً ثم غادرْتُ بَعْدَها ... فوائح في أَكمامِها لَمْ تفتَّق(٤)

وتعَدَّى (قضى) في هذه الآية بإلى لما كان بمعنى: فَرغَ، وفَرغ يتعدى بإلى وباللام، فمن ذلك قول جرير:

الآن فَقَدْ فَرَغْتُ إِلَى نُمَيْرٍ ... فصِرْتُ علَى جَمَاعَتِهَا عَذَابَا(٥)

---

(١) من الآية (٧٧) من سورة (الأعراف)، وهي قوله سبحانه: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

(٢) يعني من بين القراء السبعة، وإلا فقد قرأ بها معه عوف وغيره ممن ذكرهم ابن عطية.

(٣) هذا البيت من عَيْنِيَّة أبي ذؤيب المشهورة التي قالها في الرثاء، ومطلعها: «أَمِنَ المنونِ وريْبها تَتَوَجَّعُ»، وقوله: «مسرودتان»: رواية المفضل الضبي في «المفضليات»، والمسرودة: الدرع التي سمرت حلقاتها، والسَّرْد: الحلق، وقوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ معناه أن يجعل المسمار على قدر الثقب بحيث لا يكون الثقب واسعاً فيتقلقل المسمار، ولا يكون الثقب دقيقاً والمسمار غليظاً فينقصم الحلق. ورواية جمهرة أشعار العرب: «وعليهما ماذيتان» أي: درعان من الحديد لينتان سهلتان. ومعنى «قضاهما»: أحكمهما وأكملهما وفرغ منهما، ورجُلٌ صَنَعٌ: ماهر في الصناعة، وتُبَّع: من ملوك اليمن، وقيل: كان يجيد صناعة الدروع، أو يأمر بصنعها محكمة، وداود عليه السلام اشتهر أيضاً بصنع الدروع، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ و(صَنَعُ) مضافةٌ إلى (السوابغ)، وروي بالفعل الماضي في صَنَع، (والسوابغَ) مفعول به.

(٤) ويروى (حوائج) بدلا من (فوائح)، وقضى هنا بمعنى انتهى منها وأكملها، وكُمُّ كل نوْر وعاؤه، والتفتق: التَّفتح ويترتب عليه انتشار الرائحة الطيبة. ولم نقف على قائله.

(٥) البيت غير موجود في ديوانه (دار المعارف بمصر ـ تحقيق: د. نعمان محمد أمين) وأقرب الظن أن يكون من قصيدته المشهورة التي قالها في هجاء الراعي النميري، ومطلعها:

أقِلِّي اللَّوْم عاذلَ والعِتَابَا ... وقُولي إن أصَبْتُ لَقَدْ أصابَا

ومنها البيت المشهور الذي قال النقاد عنه إنه أهجى بيت قالته العرب:

فَغُضَّ الطرفَ إنَّكَ من نُمَيْرٍ ... فَلا كَعْباً بَلَغْتَ ولا كِلابَا

ومن الآخر قوله عز وجل: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[١] ، وقرأ الأعمش[٢]: [فَنَذَرَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا] ، و﴿يَرْجُونَ﴾ في هذا الموضع على بابها ، والمراد الذين لا يؤمنون بالبعث فهم لا يرجون لقاءَ الله ، والرجاءُ مقترن أَبداً بخوف ، والطغيان: الغُلُوّ في الأمر وتجاوز الحدّ ، والعَمَهُ: الخبط في ضلال ، فهذه الآية نزلت ذامّة لخلق ذميم هو في الناس ، يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة فيحملهم أَحياناً سوءُ الخلق على الدعاءِ في الشَّرّ ، فلو عُجِّل لهم لهلكوا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ الآية ، هذه الآية أَيضاً عتابٌ على سوءِ الخُلق من بعض الناس ، ومضمنه النهيُ عن مثل هذا ، والأمرُ بالتسليم إلى الله تعالى والضراعة إليه في كل حال ، والعلمُ بأَن الخير والشر منه لا ربّ غيره. وقوله ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ في موضع حال ، كأَنه قال: مضطجعاً ، ويجوز أَن يكون حالاً من ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ ، والعامل فيه ﴿مَسَّ﴾[٣]، ويجوز أَن يكون حالا من ضمير الفاعل في ﴿دَعَانَا﴾ والعامل فيه (دعا) وهما معنيان متباينان. و﴿ٱلضُّرُّ﴾ لفظ عام لجميع الأَمراض والرزايا في النفس والمال والأَحبة ، هذا قول اللغويين ، وقيل: هو مختص برزايا البدن: الهزال والمرض ، وقوله: ﴿مَرَّ﴾ يقتضي أَن نزولها في الكفار ثم هي بعدُ تتناول كل من دخل تحت معناها من كافر أَو عاص ، فمعنى الآية: مرَّ في إِشراكه بالله وقلَّة توكله عليه. وقوله ﴿زُيِّنَ﴾ إِن قدرناه من الله تبارك وتعالى فهو خلقه الكفر لهم واختراعه في نفوسهم صحبة أَعمالهم الفاسدة ومثابرتهم عليها ، وإِن قدرنا ذلك من الشيطان فهو بمعنى الوسوسة والمخادعة ، ولفظة التزيين قد جاءَت في القرآن بهذين المعنيين مرّة من فعل الله تعالى ، ومرّة من فعل الشياطين.

---

(١) الآية (٣١) من سورة (الرحمن).

(٢) يفهم من كلام الزمخشري أن هذه القراءة بالنصب [فَنَذَرَ] حيث قال: «فإن قلت: فكيف اتصل به قوله: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾؟ وما معناه؟ قلت: قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ﴾ متضمن نفي التعجيل ، كأنه قيل: ولا نعجل الشَّرَّ ولا نقضي إليهم أجلهم فنذرهم».

(٣) هذا قول الزجاج ، وضعفه أبو البقاء لأمرين ، أحدهما: أن الحال ـ على هذا ـ واقع وجوب بعد ﴿وَإِذَا﴾ وليس بالوجه ، والثاني: كثرة دعائه في كل أحواله لا على الضر يصيبه في كل أحواله ، وعليه آيات كثيرة في القرآن. راجع البحر المحيط ٥ـ١٢٩.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

هذه آية وعيد للكفار وضرب أَمثال لهم ، أَي: كما فعل هؤلاءِ فِعلَكُم فكذلك يُفْعل بكم ما فعل بهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ﴾ إِخبارٌ عن قسوة قلوبهم وشدة كفرهم. وقرأَ جمهور السبعة ، وغيرهم: ﴿ نَجْزِى ﴾ بنون الجماعة ، وفرقة: [يجْزِي] بالياءِ على معنى: يجزي الله. و﴿ خَلَٰٓئِفَ ﴾ جمع خليفة. وقوله: ﴿ لِنَنظُرَ ﴾ معناه: لنبيّن في الوجود ما علمناه أَزلا ، لكن جرى القول على طريق الإِيجاز والفصاحة. وقرأَ يحيى بن الحارث[1] ـ وقال: رأَيتها في الإِمام مصحف عثمان ـ: [لِنَظُّرَ] بإِدغام النون في الظَّاءِ[2]. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إِن الله تعالى إِنّما جعلنا خلفاء لينظر كيف عملنا فأَرُوا الله حسن أَعمالكم في السِّرّ والعلانية» ، وكان أَيضاً يقول: «قد استُخلفت يا بن الخطاب فانظر كيف تعمل» ، وأَحياناً كان يقول: «قد استُخلفت يا بن أُم عُمر».

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ الآية. هذه الآية نزلت في قريش لأَن بعض كفارهم قال هذه المقالة على معنى: ساهلنا يا محمد واجعل هذا الكلام الذي هو من قِبَلِكَ على اختيارنا ، وأَحلَّ ما حرّمته وحرّم ما حلَّلته ليكون أَمرنا حينئذ واحداً

---

(١) هو يحيى بن الحارث بن عمرو بن يحيى ، أبو عمرو الذِّماري (من ذَمار على مرحلتين من صنعاء) ثم الدمشقي ، إمام الجامع الأموي وشيخ القراءِ بدمشق بعد ابن عامر ، أخذ القراءة عن ابن عامر. مات سنة ١٤٥هـ وله تسعون سنة. (طبقات القراء).

(٢) قال أبو الفتح: ظاهر هذا أنه أدغم النون في الظاءِ ، وهذا لا يعرف في اللغة ، ويُشبه أن تكون مخفاة فظنها القراءُ مدغمة على عادتهم في تحصيل كثير من الإخفاء إلى أن يظنوه مدغماً ، وذلك لأن النون لا تدغم إلا في ستة حروف يجمعها قولك (يَرْمَلون).

وكلمتنا متصلة. فذَمَّ الله هذه الصنعة وذكَّرهم بأَنهم يقولون هذا للآيات البينات، ووصفهم بأَنهم لا يؤمنون بالبعث، ثم أَمر نبيّه عليه الصلاة والسلام أَن يردّ عليهم بالحق الواضح، وأَن يستسلم ويتبع حكم الله تعالى ويُعلم بخوفه ربّه. واليوم العظيم: يومُ القيامة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾.

هذه من كمال الحجة. أَي: هذا الكلام ليس من قِبَلي ولا من عندي، وإِنما هو من عند الله، ولو شاء الله ما بعثني به ولا تلوتُه عليكم ولا أَعلمتكم به. و﴿أَدْرَىٰكُم﴾ بمعنى: أُعْلمكم، يقال: دريت بالأَمر وأَدريت غيري. وهذه قراءَة الجمهور، وقرأَ ابن كثير[1] في بعض ما روي عنه: [وَلأَدْرَاكُمْ بِهِ] وهي لام تأْكيد دخلت على (أَدرى)، والمعنى ـ على هذا ـ ولأَعلمكم به من غير طريقي، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما، وابن سيرين[2]، وأَبو رجاءٍ[3]، والحسن[4]: [وَلاَ أَدْرَأْتُكُمْ بِهِ]، وقرأَ ابن عباس

(١) هو عبد الله بن كثير الداريّ، مولى عمرو بن علقمة الكناني، ويكنى أبا مَعْبد، توفي بمكة سنة عشرين ومائة للهجرة.

(٢) محمد بن سيرين البصري الأنصاري بالولاءِ، أبو بكر، إمام وقته في علوم الدين بالبصرة، تابعي، من أشراف الكتاب نشأ بزازاً وتفقه وروى الحديث، واشتهر بالورع، ينسب له كتاب «تعبير الرؤيا. ط»، وهو غير «مُنْتَخَب الكلام في تفسير الأحلام» المنسوب إليه. وردت عنه الرواية في حروف القرآن، مات سنة ١١٠هـ. (طبقات القراء).

(٣) هو عمران بن تيم، أبو رجاء العطاردي التابعي، ولد قبل الهجرة وأسلم في حياة النبي ﷺ ولم يره، عرض القرآن على ابن عباس رضي الله عنهما وتلقنه من أبي موسى رضي الله عنه، وحدث عن عمر رضي الله عنه وغيره، مات سنة ١٠٥هـ ـ (طبقات القراء).

(٤) هو أبو سعيد الحسن البصري إمام أهل البصرة، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه، وكان جامعاً عالماً فقيهاً حجة مأموناً عابداً كثير العلم فصيحاً، توفي سنة ١١٠هـ ـ (طبقات القراء).

أَيضاً وشهر بن حوشب: [وَلاَ أَنْذَرْتكُمْ بِهِ]، وخرّج الفراءُ قراءَة ابن عباس، والحسن على لغة لبعض العرب منها قولهم: «لَبَأْتُ» بمعنى «لبَيْتُ»، ومنها قول امرأَة منهم: «رَثَأْتُ زوجي بأَبيات»، أَي: رثَيْتُ، وقال أَبو الفتح: إِنما هي [أَدْرَيْتكُم] قلبت الياءُ أَلفاً لانفتاح ما قبلها[1]. وروينا عن قطرب: إِن لغة عقيل في أَعطيتك: أَعطأْتك، قال أَبو حاتم: قلبت الياءُ أَلفاً كما هي لغة بني الحارث بن كعب: «السلام علاك».

ثم قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ أَي الأَربعين سنة قبل بعثته عليه السلام، ويريد: لم تجربوني في كذب ولا تكلمت في شيءٍ من هذا، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَن من كان على هذه الصفة لا يصح منه كذب بعد أَن كلَّ عمرُه[2] وتقاصر أَمله واشتدت حنكته وخوفه لربّه، وقرأَ الجمهور بالبيان في ﴿لَبِثْتُ﴾، وقرأَ أَبو عمرو [لَبِتُّ] بِإِدغام الثاءِ في التاءِ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الآية. جاءَ في هذه الآية التوقيف على عِظَمِ جُرْمِ المفتري على الله بعد تقدم التنصل من ذلك، قيل: فاتسق القول واضطردت فصاحته، وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهامٌ وتقرير، أَي: لا أَحد أَظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ﴾ ممن ﴿كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ بعد بيانها، وذلك أَعظم جرم على الله، وأَكثر استشراف إِلى عذابه. ثم قرر أَنه لا يفلح أَهل الجرم، و﴿يُفْلِحُ﴾ معناه: يظفر ببغيته.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ الآية. الضمير في ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ عائد على الكفار من قريش الذين تقدمت محاورتهم، و﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ هي الأَصنام، وقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ هو مذهب النبلاءِ منهم، فأَمر الله تعالى نبيّه عليه الصلاة والسلام أَن يقررهم ويوبّخهم: أَهم يعلمون الله بأَنباءٍ من السموات والأَرض لا يعلمها هو؟ وذكر «السموات» لأَن من العرب من يعبد الملائكة والشعرى. وبحسب هذا حسن أَن يقول: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، وقيل: ذلك على تجوّز الأَصنام

---

(١) هذا مع أن الياء ساكنة، وذلك كقولهم في يَيْبَس: يَابسَ، وقالوا في الإضافة إلى الحِيرَة: حاريّ، وإلى طيءٍ: طائيّ، فقد قلبت الياء الساكنة في هذه الكلمات ألفاً، ثم لما صارت ألفاً هُمِزَ على لغة من قال في الباز: البأز، وفي العالم: العألم، وفي الخاتم: الخأتم. (راجع ذلك في كتاب الخصائص لابن جني ـ باب ما همزته العرب ولا أصل له في همز مثله ٣ـ١٤٢).

(٢) أي: ضعف وثقل عن العمل، يقال: كلّ عن الأمر بمعنى: ثقل الأمر عليه فلم ينبعث له. (المعجم الوسيط).

التي لا تعقل، وفي التوقيف على هذا أعظم غلبة لهم، ولا يمكنهم إلا أن يقولوا: لا نفعل ولا نقدر، وذلك لهم لازم من قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾. و﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ استئناف تنزيه لله عزَّ وجلَّ. وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر هنا: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالياءِ على الغيبة، وفي حرفين في النحل، وحرف في الروم، وحرف في النمل[1]، وذكر أبو حاتم أنه قرأها كذلك نافع، والحسن، والأعرج، وابن القعقاع، وشيبة، وحميد، وطلحة، والأعمش. وقرأ ابن كثير، ونافع هنا وفي النمل فقط: [تُشْرِكُونَ] بالتاءِ على مخاطبة الحاضر. وقرأ حمزة، والكسائي الخمسة الأحرف بالتاءِ، وهي قراءَة أبي عبد الرحمن.

قوله عز وجل:

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قالت فرقة: المراد آدم، كان أُمة وحده، ثم اختلف الناسُ بعْدُ، وفي أمر بنيه. وقالت فرقة: المراد نَسَم بنيه إذ استخرجهم الله من ظهره وأشهدهم على أنفسهم. وقالت فرقة: المراد آدم وبنوه من لدن نزوله إلى قتل أحد ابنيه الآخر. وقالت فرقة: المراد: وما كان الناس إلاَّ أُمة واحدة في الضلالة والجهل بالله، فاختلفوا فرقاً في ذلك بحسب الجهالة. ويحتمل أن يكون المعنى: كان الناس صنفاً واحداً مُعَدّاً للاهتداء. واستيفاءُ القول في هذا متقدم في سورة البقرة في قوله سبحانه: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[2]. وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وأبو جعفر، ونافع، وشيبة، وأبو عمرو:

---

(١) أما في (النحل) ففي الآية (١) وهي قوله سبحانه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وفي الآية (٣) وهي قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ـ وأما في الروم ففي الآية (٤٠) وفيها يقول سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ـ وأما في النمل ففي الآية (٦٣) حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. والحجة لمن قرأ بالياء أنه أخبر بها عن المشركين في حال الغيبة، والحجة لمن قرأ بالتاء أنه أراد: قل لهم يا محمد: تعالى الله عما تشركون أيُّها الكفرة.

(٢) من الآية (٢١٣) من سورة (البقرة).

﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بضم القاف وكسر الضاد، وقرأ عيسى بن عمرو: [لَقَضَى] بفتحهما على الفعل الماضي.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يريد قضاءَه وتقديره لبني آدم بالآجال المؤقتة. ويحتمل أن يريد الكلمة في أمر القيامة وأن العقاب والثواب إنما يكون حينئذ(١).

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الآية. يريدون بقولهم: ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ آية تضطر الناس إلى الإيمان، وهذا النوع من الآيات لم يأت بها نبي قط، ولا هي معجزات اضطرارية، وإنما هي معرضة للنظر ليهتدي قوم ويضل آخرون. وقوله: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ إن شاءَ الله فعل وإن شاءَ لم يفعل، لا يطلع على غيبه أحد. وقوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ وعيد وقد صدقه الله تبارك وتعالى بنصرته محمداً ﷺ، قال الطبري: في بدر وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ الآية. المراد بالناس في هذه الآية الكفار، وهي بعْدُ تتناول من العاصين من لا يؤدي شكر الله تبارك وتعالى عند زوال المكروه عنه، ولا يرتدع بذلك عن معاصيه، وذلك في الناس كثير. والرحمة هنا بعد الضراءِ كالمطر بعد القحط والأمن بعد الخوف والصحة بعد المرض ونحو هذا مما لا ينحصر. والمكرُ: الاستهزاءُ والطعن عليها من الكفار واطراح الشكر والخوف من العصاة، ووصف مكر الله بالسرعة وإن كان الاستدراج بمهلهم لأنه مُتَيَقَّن به وواقع لا محالة، وكل آت قريب. قال أبو حاتم: قرأ الناس: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ بضم السين، وخفف السين الحسنُ، وابن أبي الحسن، وأبو عمرو.

ويقال: ﴿أَسْرَعُ﴾ من: سرعَ، ولا يكون من؛ أَسْرَعَ يُسْرِعُ، حكى ذلك أبو علي، قال: ولو كان من أَسْرَع لكان شاذاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد قال رسول الله ﷺ في نار جهنم: «لَهِيَ أَسْوَدُ مِن القَار»(٢) وما حفظ للنبي ﷺ فليس بشاذ(٣).

---

(١) في بعض النسخ: «إنما كان حينئذ»، وقد آثرنا التعبير الذي أثبته أبو حيان في نقله عن ابن عطية رحمه الله.

(٢) الحديث في الموطأ.

(٣) معنى كلام أبي علي أن (أَسْرع) اسم تفضيل لأنها من الثلاثي. وابن عطية يرى أنها مثل (أسود) التي=

وقرأ الحسن، والأعرج، ونافع، وقتادة، ومجاهد: ﴿تَمْكُرُونَ﴾ بتاءٍ على المخاطبة، وهي قراءَة أهل مكة، وشبل، وأبي عمرو، وعيسى، وطلحة، وعاصم، والأعمش، والجحدري، وأَيوب بن المتوكل، [وقرأ الحسن، وقتادة، ومجاهد][1] ورويت أَيضاً عن نافع، والأعرج [يمْكُرُون] على الغيبة. قال أَبو حاتم: قال أَيوب بن المتوكل: «في مصحف أُبي: يا أَيها الناس إن الله أَسرع مكرا وإن رسله لديكم يكتبون ما تمكرون»[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

هذه الآية تتضمن تعديد النعمة فيما هي الحال بسبيله من ركوب البحر. وركوبُه وقت حُسْن الظن به للجهاد والحج مُتَّفَقٌ على جوازه، وكذلك لضرورة المعاش بالصيد فيه أَو لتصرف التجر، وأَما ركوبُه لطلب الغنى والاستكثار فمكروه عند الأَكثر. وغاية مُبيحِهِ أَن يقول: وتركُه أَحسنُ، وأَما ركوبه في ارتجاجه فمكروه ممنوع، وفي الحديث: «من ركب البحر في ارتجاجه فقد بَرِئت منه الذِّمة»[3]،

= وردت في حديث نبوي شريف. قال أبو حيّان تعليقاً على ذلك: «في بناء التعجب وأفعل التفضيل من (أفعَل) ثلاثة مذاهب: المنع مطلقاً وما ورد من ذلك فهو شاذ، والجواز مطلقاً، والتفصيل بين أن تكون الهمزة فيه للنقل فيمنع، أو لغير النقل فيجوز نحو: أشكل الأمر، وأظلم الليل». ثم قال: «وأما تنظير «أسود من القار» بأسرع ففاسد، لأن أسود فعله ثلاثي، ولم يمتنع التعجب والتفضيل من نحو سوِد وحمِر وأَدِم إلا لكونه لوناً، وقد أجاز ذلك بعض الكوفيين في الألوان مطلقاً، وبعضهم في السواد والبياض فقط». (البحر: ٥ـ١٣٦).

(١) ما بين القوسين المعقوفين زيادة يقتضيها المعنى، وقد نقلناها عن البحر، وإلا لما كان هنا مبرر لأن يقول: «ورويت أيضاً» عن نافع، والأعرج.

(٢) قال أبو حيان تعليقاً على ذلك: «وينبغي أن يحمل هذا على التفسير لأنه مخالف لما أجمع عليه المسلمون من سواد المصحف، والمحفوظ عن أُبيّ القراءةُ والإقراءُ بسواد المصحف». (البحر ٥ـ١٣٧).

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (٥ـ٧٩) عن أبي عمران الجوني قال: حدثني بعض أصحاب محمد ﷺ وغزونا نحو فارس فقال: قال رسول الله ﷺ: «من بات فوق بيت ليس له إجار فوقع فمات فبرئت منه=

وقال النبي ﷺ: «البحر لا أركبه أبداً»(١).

وقرأ جهور القراءِ من السبعة وغيرهم: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾، قال أبو عليّ: وهو تضعيف مبالغة لا تضعيف تَعْدِية، لأن العرب تقول سرتُ الرجلَ وسيَّرته، ومنه قول الهزلي:

فَلا تَجْزَعَنْ مِن سِيرةٍ أَنْتَ سِرْتَهَا ... فـأوَّلُ راضٍ سُنَّـةً مـن يَسيـرُهَـا(٢)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا البيت اعتراض حتى لا يكون شاهداً في هذا، وهو أن يجعل الضمير كالظرف، كما تقول: «سرت الطريق»(٣)، وهذه قراءَة الجمهور من (سَيَر)، وكذلك هي في مصحف ابن مسعود، وفي مصحف أبي شَيْخ(٤). وقال عوف بن أبي جميلة:

= الذمة، ومن ركب البحر عند ارتجاجه فمات فقد برئت منه الذمّة». وقد علّق على الحديث الشيخ ناصر الدين الألباني في كتابه: «الأحاديث الصحيحة» فقال: «أخرجه الإمام أحمد وهو صحيح متصل الإسناد وجهالة الصحابي لا تضر».

(١) لم نقف على تخريج هذا الحديث، ولكن في الدارمي حديث آخر فيه: «لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز»، ومعنى هذا التحذير من ركوب البحر إلا في الطاعة ولأمر هام كالجهاد والحج، على أن الثابت في القرآن الكريم أن البحر نعمة من نعم الله، وفيه فوائد كثيرة، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. فإن صحَّ الحديث فليس لنا أن نفهم منه إلا مجرد التحذير من ركوب البحر إلا عند الضرورة. وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ دلالة على جواز ركوب البحر، والله أعلم.

(٢) جاء في (اللسان ـ سَيَر): «والسِّيرَةُ: السُّنَّة، وقد سارَتْ وسِرْتُهَا، قال خالد بن زهير ـ وقال ابن برِّي: وهو لخالد ابن أُخت أبي ذؤيب ـ كان أبو ذؤيب يرسله إلى محبوبته فأفسدها عليه فعاتبه أبو ذؤيب في أبيات كثيرة فقال له خالد:

فَـإِنَّ الَّتـي فِينَـا زَعَمْـتَ ومِثْلَهَـا ... لَفِيـكَ، ولكنِّـي أراكَ تَجُـورُهَـا
تَنَقَّـذْتَهَـا مِـن عنـد وَهْـب بـن جابـر ... وأنـتَ صَفيُّ النفـس منه وخيْـرُهَـا
فـلا تجـزَعَـنْ مِـنْ سُنَّـةٍ أنـت سِـرْتَهَـا ... فـأوَّلُ راضٍ سُنَّـةً مـن يَسيـرُهَـا

يقول: أنت جعلتها سائرةً في الناس، وقال أبو عبيد: سارَ الشيءُ وسِرْتُهُ، فعمَّ». وعلى هذا فالبيت لخالد بن زُهَيْر.

(٣) قال أبو حيان في «البحر» تعليقاً على ذلك: «هذا لا يجوز عند الجمهور لأن (الطريق) عندهم ظرف مختص كالدار والمسجد فلا يصل إليه الفعل غير (دخلت) عند سيبويه، و(انطلقت وذهبت) عند الفراءِ إلا بواسطة (في) إلا في الضرورة، وإذا كان كذلك فضميره أحرى ألا يتعدى إليه الفعل».

(٤) أبو شَيْخ الهُنائي، اسمه حيْوان بحاء مهملة أو معجمة والياء ساكنة، روى عن عمر رضي الله عنه، ومعاوية، وروى عنه بَيْهَس وقتادة، وثّقه ابن حبان، ومات بعد المائة. (خلاصة تذهيب =

قد كان يُقرأ: [يَنْشُركُم] فغيرها الحجاج بن يوسف ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ . قال سفيان بن أَبي الزعل: كانوا يقرؤُون: [يَنْشُرُكُم] فنظروا في مصحف ابن عفان رضي الله عنه فوجدوها ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ ، فأَول من كتبها كذلك الحجاجُ. وقرأ ابن كثير في بعض طرقه: [يُسيركم] من أَسار ، وقرأ ابن عامر وحده من السبعة: [يَنْشُرُكُمْ] بفتح الياءِ وضم الشين ، من النَّشْر والبَث ، وهي قراءَة زيد بن ثابت ، والحسن ، وأَبي العالية ، وأَبي جعفر ، وعبد الله بن جبير بن الفصيح ، وأَبي عبد الرحمن ، وشيبة ، وروي عن الحسن أنه قرأَ: [يُنْشِرُكُمْ] بضم الياءِ وكسر الشين وقال هي قراءَة عبد الله ، قال أَبو حاتم: أَظنه غلط.

و﴿ٱلْفُلْكِ﴾: جمع (فُلْكٍ) ، وليس باسم واحد للجميع والفرد[(١)] ، ولكنه فُعْل جُمِع على فُعْل ، ومما يدل على ذلك قولهم: (فُلْكان) في التثنية ، وقراءَة أَبي الدرداء وأَم الدرداء: [في الفُلْكِيّ] على وزن فُعْلِيّ بياءِ نَسَب[(٢)] ، لقولهم: أَشقريّ ودَوَّاريّ[(٣)] في دور الدهر ، وكقول الصَّلَتان[(٤)]:

أَنـــا الصلتـــانـــي. . . . .[(٥)]

---

(١) يشير بذلك إلى رأي الفراء ، ثم استدل على كلامه بأنه قد ثُني فقيل: فُلْكانِ ، ذلك أن التثنية تدل على أنه قد حدث تغيير ، إذ من المعروف أن ما لا يُغَيَّر ليس بجمع بل هو مشترك ، والخلاف أصلاً بين ابن جني والفراءِ ، فابن جني يقدّر التغيير ويعتبر سكون الجمع غير سكون الواحد ، والفراءُ لا يقدر التغيير لأن السكون أمرٌ عدمي فكيف نقدره؟ راجع حواشي البيضاوي.

(٢) نسب أبو الفتح هذه القراءة إلى أُم الدرداء فقط ، واسمها هجيمة بنت حيي الأوصابية الحميرية أُم الدرداء الصغرى زوجة أبي الدرداء ، أخذت القراءة عن زوجها ، وأخذ عنها إبراهيم بن عبلة ، وعطية بن قيس ، ويونس بن هبيرة ، توفيت بعد الثمانين. (طبقات القراء ٢ـ٣٥٤).

(٣) يقال للدّهر: دوَّاري ، قال الليث: الدَّوَّاريُّ الدّهر الدائر بالإنسان أحوالا ، قال العجّاج:

والــــدَّهْــــرُ بـــــالإنســـــانَ دوَّاريُّ ... أَفْنـــى القـــرونَ وهُـــو قَعْسَـــرِيّ

(٤) الصَّلَتان بفتح الصاد المشددة واللام: اسم لثلاثة شعراء ، (عَبْديّ) نسبة إلى عبد القيس ، واسمه قُثم وهو المراد هنا ، و(ضبّيّ) نسبة إلى ضبّ بن أُدّ ، و(فَهْميّ) نسبة إلى فهم بن مالك. (راجع تاج العروس للزبيدي).

(٥) هذا جزءٌ من بيت قاله في مطلع قصيدة نظمها حين جعلوا إليه الحكم بين الفرزدق وجرير ، أيهما أشعر. (راجع الأمالي للقالي ٢ـ١٤٢ ، ١٤٣) ، والبيت بتمامه:

أنـــا الصَّلَتَـــانـــيُّ الـــذي قـــدْ عَلِمْتُـــمُ ... مَتـى مـا يُحَكَّـم فَهْـوَ بـالحـقّ صـادعُ

وقوله: ﴿وَجَرَيْنَ﴾ علامة قليل العدد[١]، وقوله: ﴿بِهِم﴾ خروج من الحضور إلى الغيبة، وحسُنَ ذلك لأن قوله: ﴿كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ هو بالمعنى المعقول: حتى إذا حصل بعضكم في السفن[٢]، والريح إذا أُفردت فعُرْفها أَن تستعمل في العذاب والمكروه، لكنها لا يحسن في البحر أَن تكون إلا واحدة لا نشراً، فقيدت المفردة بالطيّب فخرجت عن ذلك العُرف وبرع المعنى. وقرأ ابن أَبي عبلة: [جَاءَتْهُمْ رِيحٌ عَاصِفٌ]، والعاصف: الشديدة من الريح، يقال: عصَفَت الرّيح[٣]، وقوله: ﴿وَظَنُّوا﴾ على بابه في الظن، لكنه ظن غالب مفزع بحسب أنه في محذور، وقوله: ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ أَي: نسوا الأَصنام والشركاءَ وجردوا الدعاءَ لله، وذكر الطبري في ذلك عن بعض العلماءِ حكاية قول العجم: «هيا شراهيا» ومعناه: يا حي يا قيوم، قال الطبري: جواب قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ﴾: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، وجواب قوله: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾[٤].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿يَبْغُونَ﴾: أَي يفسدون ويكفرون، والبغي: التعدي والأَعمال الفاسدة، وأَكّد

---

(١) يقول: إن النون علامة جمع قليل العدد، وهو جمع المؤنث السالم، وهذا يتفق مع ما نبّه عليه الأشموني عند الكلام على جموع القلّة من أن استعمالها في القِلّة على سبيل الحقيقة، واستعمالها في الكثرة على سبيل المجاز، وقد خالف في ذلك ابن خروف وتبعه الرضي وقالا: إن الجمعين لمطلق الجمع دون نظر إلى قِلّة أو كثرة.

(٢) قال أبو حيان في «البحر» تعقيباً على ذلك بعد أن نقله: «فكأنه قدّر مفرداً غائباً يعاد الضمير عليه فيصير كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ﴾ أي: أو كذي ظلمات، فعاد الضمير غائباً على اسم غائب فلا يكون من باب الالتفات».

(٣) ويقال أيضاً: (أعصفت الريح)، فهي عاصف ومعصف ومعصفة، أي: شديدة. فالفعلان لازمان، قال الشاعر:

حَتّـى إذَا أعصَفَـت ريـحٌ مُـزَعْـزِعَـةٌ ... فيهـا قطـارٌ ورعْـدٌ صـوْتـه زَجَـل

(٤) هذا مخالف للظاهر لأن قوله: (وظنوا) ظاهره العطف على جواب (إذا) لا أنه معطوف على (كنتم) لكنه محتمل، قاله في البحر.

ذلك بقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[١]، ثم ابتدأ بالزجر وذمِّ البغي في أَوجز لفظ. وقوله: [مَتَاعُ الحياةِ] رفع، وهذه قراءَة الجمهور، وذلك على خبر الابتداءِ، والمبتدأُ ﴿بَغْيُكُمْ﴾، ويصحُّ أَن يرتفع [مَتَاعُ] على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: ذلك متاع، أَو هو متاع، وخبر البغي قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾. وقرأَ حفص عن عاصم، وهارون عن ابن كثير، وابن أَبي إِسحق: ﴿مَّتَـٰعَ﴾ بالنصب، وهو مصدر في موضع الحال من البغي، وخبر البغي ـ على هذا ـ محذوف تقديره: مذموم أَو مكروه أَو نحو هذا، ولا يجوز أَن يكون الخبر قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ لأَنه كان يحول بين المصدر وما عمل فيه بأَجنبي، ويصح أَن ينتصب ﴿مَّتَـٰعَ﴾ بفعل مضمر تقديره: تمتعون متاعَ الحياة الدنيا. وقرأَ ابن أَبي إِسحق: «متاعاً الحياةَ الدنيا» بالنصب فيهما، ومعنى الآية: إِنما بغيكم وإِفسادكم مضر لكم وهو في حالة الدنيا ثم تلقون عقابه في الآخرة، قال سفيان بن عيينة: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أَي: تعجل لكم عقوبته في الحياة الدنيا، وعلى هذا قالوا: البغي يصرع أَهله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقالوا: الباغي مصروع لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾[٢]، ولقول النبي ﷺ: «ما من ذنب أَسرع عقوبة من بَغْي»[٣]. وقرأَت فرقة: ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ على ضمير

---

(١) قال الزمخشري: فإن قلتَ: ما معنى قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ والبغي لا يكون بحق؟ قلت: بلى، وهو استيلاءُ المسلمين على أرض الكفرة وهدْم دورهم وإحراق زروعهم وقطْع أشجارهم كما فعل رسول الله ﷺ ببني قريظة. اهـ. وعلّق على ذلك أبو حيان في «البحر» فقال: وكأنه قد شرح قوله تعالى: ﴿يَبْغُونَ﴾ بأنهم يفسدون ويعبثون مترقين في ذلك ممعنين فيه من: بَغَى الجرحُ إذا ترقَّى للفساد. ولا يصح أن يقال في المسلمين إنهم باغون على الكفرة إلا إذا ذُكر أن أصل البغي هو الطلب مطلقاً ولا يتضمن الفساد وحينئذ ينقسم إلى طلب بحق وطلب بغير حق، ولما حمل ابن عطية البغي هنا على الفساد قال: «أكّدَ ذلك بقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾. وجواب ﴿لَمَّآ﴾ هو ﴿إِذَا﴾ الفجائية وما بعدها، وذلك دليل على أنها حرف يترتب ما بعدها من الجواب على ما قبله من الفعل الذي وقع بعد ﴿لَمَّآ﴾ وأنها تفيد الترتيب والتعليق في المضي، وأنها كما قال سيبويه حرف، والجواب بها دليل على أنه لم يتأخر (بَغْيُهم) عن (إنجائهم)، بل بنفس ما وقع الإنجاءُ وقع البغي.

(٢) من الآية (٦٠) من سورة (الحج).

(٣) أخرجه البخاري، والإمام أحمد في مسنده، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه في سننهم، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه عن أبي بكرة، قال ذلك في «الجامع الصغير»، ولفظه: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم».

المعظم المتكلم، وقرأت فرقة: [فَيُنَبِّئُكُمْ] على ضمير الغائب، والمراد الله عزَّ وجلَّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

المعنى: إنما مثل تفاخر الحياة الدنيا وزينتها بالمال والبنين إذ يصير ذلك إلى الفناءِ كمطر نزل من السماءِ فاختلط. ووقف هنا بعض القراءِ على معنى: فاختلط الماءُ بالأرض، ثم استأنف: ﴿ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ على الابتداءِ والخبر المقدم، ويحتمل ـ على هذا ـ أن يعود الضمير في ﴿ بِهِۦ ﴾ على الماءِ أو على الاختلاط الذي يتضمنه القول[١]. ووصلت فرقةٌ فرفع (النبات) على ذلك بقوله: ﴿ فَٱخْتَلَطَ ﴾، أي: اختلط النبات بعضه ببعض بسبب الماءِ. وقوله: ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ ﴾ يريد الزروع والأشجار ونحو ذلك، وقوله: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ يريد سائر العشب المرعي.

و﴿ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ لفظة كثرت في مثل هذا، كقوله: ﴿ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ ﴾[٢]. والزُّخرف: التَّزيّن بالألوان، وقد يجيءُ الزخرف بمعنى الذهب إذ الذهب منه. وقرأ مروان بن الحكم، وأبو جعفر، والسبعة، وشيبة، ومجاهد، والجمهور: ﴿ وَٱزَّيَّنَتْ ﴾، أصله: تزَيَّنَت، سكنت التاءُ لتُدغم فاحتيج إلى ألف وصل. وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وأبي بن كعب: [وتزَيَّنَتْ] وهذه أصل قراءَة الجمهور، وقرأ الحسن، وأبو العالية، والشعبي، وقتادة، ونصر بن عاصم، وعيسى: [وَأَزْيَنَتْ] على معنى: حضرت زينتها كما تقول: أحصد الزرع، و[أَزْيَنَت] على مثال: أَفْعَلَتْ[٣]، وقال عوف بن أبي جميلة: كان أشياخنا يقرؤونها: [وازْيَانَّت] النون

(١) قال أبو حيان تعقيباً على ما ذكره ابن عطية: «والوقف على قوله: ﴿ فَٱخْتَلَطَ ﴾ لا يجوز وخاصة في القرآن لأنه تفكيك للكلام المتصل الصحيح المعنى الفصيح اللفظ، وذهاب إلى اللغز والتعقيد والمعنى الضعيف، ألا ترى أنه لو قيل: بالاختلاط نبات الأرض لم يكد ينعقد كلاماً لضعف الإسناد وقربه من عدم الإفادة؟ ولولا أن ابن عطية ذكره وخرجه لم نذكره في كتابنا».

(٢) من الآية (٣١) من سورة الأعراف.

(٣) صحّت الياءُ فيه على جهة النُّدْرَة كأغْيَلَت المرأة، وكان القياس أن تقلب الياءُ ألفاً فيقال: ازَانَتْ.

شديدة وألف ساكنة قبلها[١]، وهي قراءة أبي عثمان النهديّ، وقرأت فرقة: [وَازْيأَنَّتْ]، وهي لغة منها قول الشاعر:

. . . . إذا ما الْهَوَادي بالعَبيطِ احْمأَرَّتِ[٢]

وقرأت فرقة: [وازَّايَنَت]، والمعنى في هذا كله: ظهرت زينتُها.

وقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ على بابها[٣]، والضمير في ﴿عَلَيْهَآ﴾ عائد على الأرض، والمراد ما فيها من نعمة ونبات، وهذا الكلام فيه تشبيه جملة أمر الحياة الدنيا بهذه الجملة الموصوفة أحوالها، و﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية، وهي حرف ابتداءٍ لدخولها على ﴿إِذَآ﴾، ومعناها متصل إلى قوله: ﴿قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾، ومن بعد ذلك بدأ الجواب، والأمر الآتي واحد الأمور كالريح والصِّر والسَّموم ونحو ذلك، وتقسيمه ليلا أو نهاراً تنبيه على الخوف وارتفاع الأمن في كل وقت. و﴿حَصِيدًا﴾ فعيل بمعنى مفعول، وعبّر بحصيد عن التالف الهالك من النبات وإن لم يهلك بحصاد إذ الحكم فيهما واحد، وكأن الآفة حصدته قبل أوانه. وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ أي: كأن لم تنعم ولم تنضر ولم تغر بغضارتها. وقرأ قتادة: [يَغْنَ] بالياءِ من تحت، يعني الحصيد، وقرأ مروان: [كَأَنْ لَمْ تَتَغَنَّ] بتاءَين مثل تتفعّل[٤]، والمغاني: المنازل المعمورة، ومنه قول الشاعر:

وقــد نَغْنــى بِهَــا وَنَــرَى عُصُــوراً ... بهــا يَقْتَــدْنَنَــا الخُــرُدَ الخِــذالا[٥]

وفي مصحف أُبي بن كعب: «﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ وما كُنَّا لِنُهْلِكَها إلاّ بِذُنُوبِ

---

(١) على وزن اسْوادَّتْ واحْمَارَّت.

(٢) هذا عجز بيت لكُثيِّر، والبيت بتمامه:

وأنْــتَ ابــنُ لَيْلــى خَيْرُ قَــومِكَ مشْهــداً ... إذا مــا الْهَــوَادي بــالْعَبيــطِ احْمَــارت

ورواية الديوان: «إذا ما احمارَّتْ بالْعَبيطِ الْعَوَامِلُ»، وهو من قصيدة قالها كثير يمدح بها عبد العزيز بن مروان، وقد سبق الاستشهاد بالبيت عند تفسير قوله تعالى في الفاتحة: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وروي هناك بلفظ «العوالي» بدلا من الهوادي» (١ـ١٣٠)، وكثير هو صاحب عزَّة، توفي سنة ١٠٥هـ.

(٣) بابُها هو المعنى الأصلي للظن وهو أن يدرك الذهن الشيءَ مع ترجيحه.

(٤) قال أبو الفتح: «جاء هذا مجيءَ نظائره، كقولهم: تمتَّعتُ بكذا، وتأنَّقتُ فيه، وتلبَّسْتُ بالأمر». (المحتسب ١ـ٣١٢).

(٥) سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ الآية (٩٢) من سورة (الأعراف).

أَهْلِهَا ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾» رواها عنه ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل: إن فيه: «وَما كان لِيُهلِكَها إلاَّ بذنوب أَهلها»[١]، وقرأ أبو الدرداءِ: [لِقَوْم يَتَذَكَّرُونَ].

ومعنى الآية التحذير من الاغترار بالدنيا إذ هي معرضة للتلف وأَن يصيبها ما أَصاب هذه الأَرض المذكورة بموت أَو غيره من رزايا الدنيا، وخصّ المتفكرين بالذكر تشريفاً للمنزلة، ولِيَقَع التسابق إلى هذه الرُّتبة.

قوله عزَّ وجل:

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

نَصَّتْ هذه الآية أَن الدعاءَ على الشرع عامّ في كل بشر، والهداية التي هي الإرشاد مختصة بمن قُدِّر إيمانه. و«السَّلاَمُ»، قيل هو اسم الله عزَّ وجلَّ، فالمعنى يدعو إلى داره التي هي الجنة. وإضافتها إليه إضافة ملك إلى مالك. فقيل: السلام: بمعنى السلامة، أَي: من دخلها ظفر بالسلامة وأَمن الفناءَ والآفات، وهذه الآية رادّة على المعتزلة[٢].

وقد وردت في دعوة الله تعالى عباده أَحاديث منها رؤيا النبي ﷺ جبريل وميكائيل، ومثَّلا دعوة الله، ومحمداً عليه الصلاة والسلام الداعي، والملة المدعو إليها، والجنة التي هي ثمرة الغفران بالمأْدُبَة يدعو إليها مِلِك إلى منزله[٣]، وذكر قتادة في كلامه على

(١) قال العلماءُ: هذا مخالف لما في سواد المصحف ولا يصح أن يقرأ به، ولعلَّه من قبيل الشرح والتوضيح.

(٢) يتركز الخلاف بين أهل السُّنَّة والمعتزلة في «إرادة الاهتداء»، فأهل السُّنَّة يقولون: إن هذه الإرادة خاصة، والمعتزلة يقولون: إنها عامة، ومعنى كلام المعتزلة أن يكون الله جلَّ شأنه قد أراد إيمان الكفار ولم يقع مراده سبحانه وتعالى عن ذلك، وكلام ابن عطية هذا ينفي ما قاله ابن تيمية وبعض المحدثين من أن لابن عطية ميولاً اعتزالية. وقد رددنا عليهم في مقدمة هذا التفسير. هذا وقد قال قتادة ومجاهد: هذه الآية بيِّنة الحجة والردّ على القدرية لأنهم قالوا: هدى الله الخلق كلهم إلى صراط مستقيم، والله قال: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فردُّوا على الله نصوص القرآن. قال ذلك القرطبي.

(٣) أخرجه ابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن سعيد بن أبي هلال=

هذه الآية: ذُكر لنا أن في التوراة مكتوباً: «يا باغي الخير هلُمّ، ويا باغي الشَّرّ انته»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الآية. قالت فرقة وهي الجمهور: الحُسْنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله عزَّ وجلَّ، وروي في ذلك حديث عن النبي ﷺ، رواه صُهيب[(٢)]، وروي هذا القول عن أَبي بكر الصديق، وحذيفة، وأَبي موسى الأَشعري، وعامر بن سعد، وعبد الرحمن بن أَبي ليلى. وروي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أنه قال: الزيادة: غرفة من لؤلؤة واحدة. وقالت فرقة: الحسنى: هي الحسنة، والزيادة: هي تضعيف الحسنات إلى سبعمائة فدونها حسبما روي في نصِّ الحديث وتفسير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾، وهذا قولٌ يعضده النظر، ولولا عظم القائلين بالقول الأَول لترجّح هذا القول، وطريق ترجيحه

= رضي الله عنه قال: سمعت أن أبا جعفر محمد بن علي رضي الله عنه وتلا ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فقال: حدثني جابر رضي الله عنه قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلا، فقال: اسمَعْ سمعَتْ أُذنك، واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أُمتك كمثل ملِك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه. فالله الملِك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول، من أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها». (التخريج عن الدر المنثور، واللفظ عن الطبري).

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والإمام أحمد عن قتادة. (الشوكاني).

(٢) حديث صهيب هذا أخرجه الإمام مسلم، والإمام أحمد في مسنده، والترمذي، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وكثيرون غيرهم أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم تثقل موازيننا وتبيض وجوهنا وتدخلنا الجنة وتزحزحنا عن النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبّ إليهم من النظر إليه ولا أقرّ لأعينهم».

وخرّجه أيضاً ابن المبارك في دقائقه عن أبي موسى الأشعري موقوفاً، وخرّج الترمذي عن أُبي بن كعب قال: سألت رسول الله ﷺ عن الزيادتين في كتاب الله، في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «النظر إلى وجه الرحمن»، وعن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال: «عِشْرُونَ أَلْفاً».

وأخرج أبو الشيخ، وابن منده في الرد على الجهمية، والدارقطني في الرؤية، وابن مردويه، واللالكائي، والخطيب، وابن النجار عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل عن هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فقال: الذين أحسنوا العمل في الدنيا لهم الحسنى وهي الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم. (الدر المنثور، والشوكاني، وابن كثير، والقرطبي).

أَن الآية تتضمن اقتراناً بين ذِكْر عمّال الحسنات وعمّال السيئات، فوصف المحسنين بأَن لهم ـ على إِحسانهم ـ حُسْنى زيادة من جنسها، ووصف المسيئين بأَن لهم السيئة مثلها، فتعادل الكلامان. وعبّر عن الحسنات بالحسنى مبالغةً إِذْ هي عشرة. وقال الطبري: الحُسْنى عام في كل حسْنى فهي تعم جميع ما قيل، ووعد الله في جميعها بالزيادة، ويؤيد ذلك أَيضاً قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾، ولو كان معنى الحُسْنى الجنَّة لكان في القول تكرير بالمعنى، على أَن هذا ينفصل عنه بأَنه وصف المحسنين أَن لهم الجنة وأَنهم لا يرهق وجوههم قترٌ ولا ذلة، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ على جهة المدح لهم، أَي: أُولئك مستحقوها وأَصحابها حقاً وباستيجاب.

و﴿يَرۡهَقُ﴾ معناه: يغشى مع ذلة وتضييق، والقَتَرُ: الغبار المسودّ، ومنه قول الشاعر:

مُتَــوَّجٌ بـــرداءِ المُلْـــك يَتْبَعُـــهُ   موجٌ تَرَى وسْطَهُ الرَّايَاتِ والقَتَرا[(١)]

وقرأَ الحسن، وعيسى بن عمرو، والأَعمش، وأَبو رجاءٍ: ﴿قَتْرٌ﴾ بسكون التاءِ. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية. اختلف النحويون في رفع ﴿جَزَآءُ﴾ بم هو؟ فقالت فرقة: التقدير: «لهم جزاءُ سيِّئة بمثلها»، وقالت فرقة: التقدير: «جزاءُ سيئة مثلها» والباءُ زائدة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويتوجه أَن يكون رفع الجزاءِ على المبتدأ، وخبره في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾، لأَن ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على قوله: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ فكأَنه قال: «ولِلَّذينَ كسبوا السيئات جزاءُ سيئة بمثلها»، وعلى الوجه الآخر فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ رفع بالابتداءِ، وتعمُّ السيئاتُ ها هنا الكفرَ والمعاصي، فمثل سيئة الكفر التخليد في النار، ومثل سيئة المعاصي مصروف إِلى مشيئة الله تبارك وتعالى.

والعاصمُ: المنجي والمجير، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾[(٢)]،

---

(١) البيت للفرزدق، والتتويج لا يكون بالرداء، ولكنه أراد بالرداءِ المهابة، والموْجُ: الجيش الكثيف، والرايات: الأعلام، والقتَر بالفتح: الغبرة، وتأمل كيف يكون القتَر وسط الموج؟ ولهذا روي: «ترى فَوْقَهُ» وهي الأصح.

(٢) من الآية (٤٣) من سورة (هود).

و﴿أُغْشِيَتْ﴾: كُسيت، ومنه الغشاوة، والقِطَعُ: جمع قِطعة. وقرأ ابن كثير: ﴿قِطْعاً﴾ بسكون الطاءِ، وقرأ الباقون بفتح الطاءِ، والقِطْعُ: الجُزءُ من الليل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾(١)، وهذا يراد به الجزءُ من زمان اللَّيل، وفي هذه الآية يراد الجزءُ من سواده(٢). و﴿مُظْلِمًا﴾ نعت لِقِطْع، ويجوز أن يكون حالاً من الذكر الذي في قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾(٣)، فإذا كان نعتاً فكان حقه أن يكون قبل الجملة، ولكن قد يجيءُ بعدها، وتقدير الجملة: «قِطْعاً استقر من الليل مظلماً» على نحو قوله تبارك وتعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾(٤). ومن قرأ ﴿قِطَعًا﴾ جمع قِطْعة فنصب ﴿مُظْلِمًا﴾ على الحال من الليل، والعاملُ في الحال ﴿مِّنَ﴾ إذ هي العامل في ذي الحال(٥). وقرأ أُبي بن كعب: [كَأَنَّمَا يغشى وجوهَهُمْ قِطْعٌ من اللَّيْل مُظْلِمٌ](٦). وقرأ ابن أَبي عبلة: ﴿قِطَعٌ مِنَ اللَّيْل مُظْلِمٌ﴾ بتحريك الطاءِ في ﴿قِطَع﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قرأ نافع، وابن كثير، أَبو عمرو، وعاصم، والحسن، وشيبة، وغيرهم: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ بالنون. وقرأت فرقة: [يحشُرُهُمْ] بالياءِ. والضمير في ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ عائد

---

(١) من الآية (٨١) من سورة (هود)، والآية (٦٥) من سورة (الحجر).

(٢) أي: يراد الزمان من الليل في آية هود وآية الحجر، حيث طلب إلى لوط عليه السلام أن يسري بأهله في هذا الزمن من الليل، أما في آيتنا ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ فيراد به جزء من سواده وظلامه.

(٣) يريد بقوله: «الذِّكر» الضمير في متعلق ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾.

(٤) من الآية (٩٢) من سورة (الأنعام). وقد نقل أبو حيان هذا الكلام عن ابن عطية ثم عقب عليه بقوله: «ولا يتعين تقدير العامل في المجرور بالفعل فيكون جملة، بل الظاهر أن يقدر باسم الفاعل فيكون من قبيل الوصف بالمفرد، والتقدير: قِطْعاً كائناً من الليل مظْلماً».

(٥) قال في تفسير «أبو السعود»: «العامل فيه ﴿أُغْشِيَتْ﴾ لأنه العامل من ﴿قِطَعًا﴾. وهو موصوف بالجار والمجرور، والعامل في الموصوف عامل في الصفة، أو معنى الفعل في ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾. وهذا التوضيح مذكور أيضاً في الكشاف».

(٦) بسكون الطاءِ في ﴿قِطْع﴾، أما قراءة ابن أبي عبلة فالطاء مفتوحة كما قال ابن عطية.

على جميع الناس محسنين ومسيئين ، و﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ نصب على تقدير: لازموا مكانكم ، وذلك مقترن بحال شدة وخزي ، و﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ في هذا الموضع من أسماءِ الأفعال إِذ معناه: قفوا واسكنوا ، وهذا خبر من الله تعالى عن حالة تكون لِعَبَدَةِ الأوثان يوم القيامة ، يؤمرون بالإقامة في موقف الخزي مع أصنامهم ، ثم يُنْطِق الله الأصنام بالتبري منهم. وقوله: ﴿ وَشُرَكَآؤُكُمْ ﴾ أَي الذين تزعمون أَنتم أَنهم شركاءُ لله ، فأَضافهم إِليهم لأَن كونهم شركاءَ إِنما هو بزعم هؤلاءِ. وقوله: ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ معناه: فرقنا في الحجة والمذهب وهو من زلتُ الشيءَ عن الشيءِ أَزيله ، وهو تضعيف مبالغة لا تعدية. وكونُ مصدر زيَّل تزييلا يدلُّ على أَن زيّل إِنما هو فعَّل لا فيْعل لأَن مصدره كان يجيءُ على فيعلة. وقرأَت فرقة: [فَزَايَلْنَا] ، وروي عن النبي ﷺ أَن الكفار إِذا رأَوْا العذاب وتقطعت بهم الأَسباب قيل لهم: اتَّبعوا ما كنتم تعبدون ، فيقولون: كنا نعبد هؤلاءِ ، فتقول الأَصنام: والله ما كنا نسمع ولا نعقل ، وما كنتم إِيانا تعبدون ، فيقولون: والله لإِيَّاكم كنا نعبد ، فتقول الآلهة: ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وظاهر هذه الآية أَن محاورتهم إِنما هي مع الأَصنام دون الملائكة وعيسى بن مريم بدليل القول لهم: ﴿ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ﴾ ، ودون فرعون ومن عبد من الجن بدليل قولهم: ﴿ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ ، وهؤلاءِ لم يغفلوا قط عن عبادة من عبدهم ، و﴿ أَنتُمْ ﴾ رفع بالابتداءِ ، والخبر: موبخون أَو مُهانون[٢] ، ويجوز أَن يكون ﴿ أَنتُمْ ﴾ تأْكيداً للضمير الذي في الفعل المقدر الذي هو «قفوا» أَو نحوه[٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٢) هذا الإعراب عليه مآخذ ، من أهمها أن يفك الكلام الذي اتصلت أجزاؤه ، وفيه تقدير إضمار لا ضرورة له ، وأيضاً فإن قوله تعالى: ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ يدل على أنهم ثبتوا هم وشركاؤهم في مكان واحد حتى وقع التفريق بينهم ، وكذلك فإن قراءَة من قرأ: [أَنْتُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ] بالنصب يدّلُّ على أنه مفعول معه والعامل فيه اسم الفعل ، فلو كان ﴿ أَنتُمْ ﴾ مبتدأ حُذف خبره لما جاز أن يأتي بعده مفعول معه ، تقول: «كل رجل وضيعتُه» بالرفع ، ولا يجوز النصب.

(٣) وهذا أيضاً ليس بجيد ، إذ لو كان تأكيداً لذلك الضمير الذي في الفعل المقدر (قفوا أو نحوه) لجاز تقديمه على الظرف ، إذ الظرف لم يتحمل ضميراً على هذا القول فيلزم تأخيره عنه ، وهو غير جائز ، لا تقول: «أنت مكانك» ، والأصح أنه لا يجوز حذف المؤكد في التأكيد المعنوي ، فلذلك هذا التأكيد=

و﴿شَهِيدًا﴾ نصب على التمييز، وقيل: على الحال[١]. و﴿إِن﴾ هذه عند سيبويه هي مخففة موجبة حرف ابتداءٍ، ولزمتها اللام فرقا بينها وبين (إِنْ) النافية، وقال الفراءُ: ﴿إِن﴾ بمعنى (ما)، واللام بمعنى (إلاَّ). و﴿هُنَالِكَ﴾ نصب على الظرف. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: [تَبْلُو] بالباءِ بواحدة بمعنى: تختبر، وقرأَ حمزة، والكسائي: [تَتْلُو] بالتاءِ بنقطتين من فوق بمعنى: تَتْبَع، أي تطلب وتتبع ما أَسلفت من أَعمالها، ويصح أَن يكون بمعنى: تقرأُ كتبها التي ترفع إليها. وقرأَ يحيى بن وثاب: [وَرِدُّوا] بكسر الراءِ، وقرأَ الجمهور: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أَي رُدُّوا إِلى عقاب مالكهم وشديد بأْسه، فهو مولاهم في الملك والإِحاطة لا في الرحمة والنصر ونحوه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

هذا توقيف وتوبيخ واحتجاج لا محيد عن التزامه. و﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يريد: المطر، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ يريد: النبات ونحو ذلك، و﴿يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لفظ يعم جملة الإِنسان ومعظمه حتى أَن ما عداهما تبع، و﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ الجنين من النطفة، والطائر من البيضة، والنبات من الأَرض، إِذْ له نمو شبيه بالحياة. ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ مثل البيضة من الطائر ونحو ذلك، وقد تقدم فيما سلف إِيعاب القول في هذه المعاني. وتدبير الأَمر عام لهذا وغيره من جميع الأَشياءِ، وذلك استقامة الأُمور كلها عن إِرادته عزَّ وجلَّ، وليس تدبيره بفكر ولا رَوِيَّة وتغيّرات، تعالى عن ذلك، بل علمه محيط كامل دائم. ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ لا مندوحة لهم عن ذلك، ولا تمكنهم المباهتة بسواه، فإِذا أَقروا بذلك ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ في افترائكم وجعلكم الأَصنام آلهة.

وقوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ الآية. يقول: فهذا الذي هذه صفاته ربكم الحق، أَي المستوجب للعبادة والأُلوهية، وإِذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغير حق،

= ينافي الحذف، وليس في كلامهم «أنت زيداً».

(١) التمييز أحسن لقبوله (مِنْ). راجع «البحر المحيط».

وعبارة القرآن في سوق هذه المعاني تفوت كل تفسير براعة وإيجازاً وإيضاحاً، وحكمت هذه الآية بأَنه ليس بين الحق والضلال منزلة ثالثة في هذه المسأَلة التي هي توحيد الله، وكذلك هو الأمر في نظائرها وهي مسائل الأُصول التي الحق فيها في طرف واحد، لأَن الكلام فيها إنما هو في تقرير وجود ذات كيف هي، وذلك بخلاف مسائل الفروع التي قال الله فيها: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾[١]، وقال النبي ﷺ: «الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أُمورٌ متشابهات»[٢]، والحق في هذه في الطرفين لأَن المتعبدين إنما تُعِبّدوا بالاجتهاد لا بالتعيين في كل نازلة، ويدلك على أَن الحق في الطرفين اختلاف الشرائع بتحليل وتحريم في شيء واحد، والكلام في مسائل الفروع إنما هو في أَحكام طارئة على وجود ذات متقررة لا يُختلف فيها، وإنما يُخْتلف في الأَحكام المتعلقة بالمتشرع[٣]. وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ تقرير[٤]، كما قال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾؟[٥] ثم قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ﴾ أَي: كما كانت صفات الله كما وصف، وعبادته واجبة كما تقرر، وانصراف هؤلاءِ كما قدر عليهم وتكسبوا ـ كذلك حَقَّتْ.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي هنا وفي آخر السورة[٦]: ﴿كَلِمَةُ﴾ على الإفراد الذي يراد به الجمع، كما يقال للقصيدة: كلمة. فعبّر عن وعيد الله بكلمته. وقرأَ نافع، وابن عامر في الموضعين المذكورين: [كَلِمَاتُ]، وهي قراءَة أَبي جعفر، وشيبة بن نصاح.

---

(١) من الآية (٤٨) من سورة (المائدة).

(٢) رواه البخاري في الإيمان والبيوع، ومسلم في المساقاة، وأبو داود في البيوع وكذلك الترمذي والنسائي، وابن ماجه في الفتن، والدارمي في البيوع، والإمام أحمد في مواطن كثيرة من مسنده، ولفظه كما في البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أُمور مُشْتَبِهة، فمن ترك ما شُبِّه عليه من الإثم كان لما استبان أترك، ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان، والمعاصي حمى الله، من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه».

(٣) ثبت عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل قال: «اللَّهُمَّ لك الحمد» الحديث، وفيه: «أنت الحقُّ، ووعدك الحقّ، وقولك الحقّ، والجنة حقّ، ولقاؤك حقّ، والنار حقّ، والساعة حقّ، والنبيُّون حقّ، ومحمد حقّ». سبحانه وتعالى هو الواجب الوجود.

(٤) يمكن أن يكون الاستفهام إنكارياً كما قال الألوسي بمعنى إنكار الواقع والتعجب منه بالنظر للمخلوقين.

(٥) الآية (٢٦) من سورة (التكوير).

(٦) في الآية (٩٦) من هذه السورة حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وهذه الآية إخبار أن في الكفار من حتم الله بكفره وقضى بتخليده. وقرأ ابن أبي عبلة: [إِنَّهُمْ] بكسر الألف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

هذا توقيف أيضاً على قصور الأصنام وعجزها، وتنبيه على قدرة الله عز وجلَّ، وبدْءُ الخلق يريد به إنشاءَ الإنسان في أول أمره، وإعادتُه هي البعث من القبور. و﴿تُؤْفَكُونَ﴾ معناه: تصرفون وتحرمون، تقول العرب: «أرض مأفوكة» إذا لم يصبها مطر فهي بمعنى الخيبة والتلف، كما قال: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ﴾ الآية. ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ يريد به: يُبيّن طرق الصواب ويدعو إلى العدل ويفصح بالآيات ونحو هذا. ووصف الأصنام بأنها لا تهدي إلا أن تُهدى، ونحن نجدها لا تهتدي وإنْ هُدِيت، فوجه ذلك أنه عامل ـ في العبارة عنها ـ معاملتهم في وصفها بأوصاف من يعقل، وذلك مجاز وموجود في كثير من القرآن، ذكر ذلك أبو عليّ الفارسي، والذي أقول: إن قراءَة حمزة والكسائي تحتمل أن يكون المعنى: «أمَّن لا يهدي أحداً إلا أن يُهدى ذلك الأحد بهداية من عند الله»، وأما على غيرها من القراءَات التي مقتضاها: «أمَّن لا يَهْتَدي إلاَّ أن يُهْدى» فيتجه المعنى على ما تقدم لأبي عليّ الفارسي، وفيه تجوز كثير. وقال بعضهم: هي عبارة عن أنها لا تنتقل إلا أن تنقل. ويحتمل أن يكون ما ذكر الله تعالى من تسبيح الجمادات هو اهتداؤها، ويحتمل أن يكون الاستثناءُ في اهتدائها إلى مناكرة الكفار يوم القيامة حسبما مضى في هذه السورة.

وقراءَة الحمزة والكسائي هي ﴿يَهْدِىٓ﴾ بفتح الياءِ وسكون الهاءِ. وقرأ نافع،

---

(١) الآية (٥٣) من سورة (النجم).

وأَبو عمرو ، وشيبة ، والأَعرج ، وأَبو جعفر: [يَهْدّي] بسكون الهاءِ وتشديد الدال[١]. وقرأَ ابن كثير ، وابن عامر: [يَهَدّي] بفتح الياءِ والهاءِ ، وهذه أَفصح القراءَات ، نقلت حركة تاءَ [يَهْتَدي] إلى الهاءِ وأُدغمت التاءُ في الدال ، وهذه رواية ورش عن نافع. وقرأَ عاصم في رواية حفص: ﴿يَهِدّي﴾ بفتح الياءِ وكسر الهاءِ وشدّ الدال ، أَتبع الكسرة الكسرة. وقرأَ عاصم في رواية أَبي بكر: [يِهِدِّي] بكسر الياءِ والهاءِ وشدّ الدال ، وهذا أَيضاً إِتباع. وقال مجاهد: الله يهدي من الأَوثان وغيرها ما شاءَ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وقرأَ يحيى بن الحارث الزِّماري: [إلا أَن يهَدّي] بفتح الهاءِ وشد الدال. ووقف القراءُ على: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ ثم يبدأُ: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ إخبار عن فساد طرائقهم وضعف نظرهم وأَنه ظن ، ثم بيَّن منزلة الظن من المعارف وبُعْده عن الحق. والظن ـ في هذه الآية ـ على بابه في أَنه معتقد أَحد جائزين لكن ثمَّ ميلٌ إلى أَحدهما دون حجة تبطل الآخر. وجواز ما اعتقده هؤلاءِ إِنما هو بزعمهم لا في نفسه ، بل ظنهم محال في ذاته. والحق أَيضاً على بابه في أَنه معرفة المعلوم على ما هو به ، وبهذه الشروط لا يغني الظن من الحق شيئاً ، وأَما في طريق الأَحكام التي تَعَبَّدَ الناس بظواهرها فيغني الظن في تلك الحقائق ويصرف من طريق إلى طريق. والشهادة إنما هي مظنونة ، وكذلك التُّهم في الشهادات تغني ، وليس المراد في هذه الآية هذا النمط. وقرأَ جمهور الناس: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ ، وقرأَ عبد الله بن مسعود: [تَفْعَلُونَ] بالتاءِ على مخاطبة الحاضر.

---

(١) قال أبو حيان في «البحر»: «فجمعوا بين ساكنين» ، قال النحاس: «لا يقدر أحد أن ينطق به» ، وقال المبرد: من رام هذا لابد أن يحرك حركة خفيفة ، وسيبويه يسمي هذا: اختلاس الحركة.

(٢) فيكون قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ كلام تامّ معناه: أي شيءٍ لكم في عبادة الأوثان؟ ثم قيل لهم: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ لأنفسكم وتقضون بهذا الباطل الصراح فتعبدون آلهة لا تغني عن أنفسها شيئاً ، و﴿كَيْفَ﴾ منصوبة بـ﴿تَحْكُمُونَ﴾ ، فالجملة الأولى وهي ﴿ما لكم﴾ استفهام معناه الإنكار والتعجب ، والجملة الثانية وهي ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ استفهام آخر فيه معنى الإنكار والتعجب ، وسبب التعجب في الاستفهامين مختلف.

قوله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

هذا نفي قول من قال من قريش: «إن محمداً ﷺ يفتري القرآن وينسبه إلى الله تعالى» وعبّر عن ذلك بهذه الألفاظ التي تتضمن تشنيع قولهم وإعظام الأمر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾[1]، وكما قال حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾[2]، وغير هذا مما يعطي المعنى والقرائن والبراهين استحالته.

و﴿يُفْتَرَىٰ﴾ معناه: يُختلق ويُنشأ، وكأن المرءَ يفريه من حديثه أي يقطعه ويَسِمُه بسمة، فهو مشتق من (فريْت) إذا قطعت لإصلاح. و﴿تَصْدِيقَ﴾ نصب على المصدر، والعامل فيه فعل مضمر، وقال الزجاج: هو خبر كان مضمرة، والتقدير: ولكن كان تصديق الذي بين يديه. وقوله: ﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يريد التوراة والإنجيل، والذي بين اليد هو المتقدم للشيءِ، وقالت فرقة في هذه الآية: إن الذي بين يديه هي أَشراط الساعة وما يأتي من الأُمور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا خطأٌ، والأمر بالعكس، كتاب الله تبارك وتعالى بين يديْ تلك، أَمَّا أَنَّ الزجاج تحفظ فقال: «الضمير يعود على الأَشراط والتقدير: ولكن تصديق الذي بين يدي القرآن» فهذا أيضاً قلق، وقيام البرهان على قريش حينئذ إنما كان في أَن يصدق القرآنُ ما في التوراة والإنجيل مع أَن الآتي بالقرآن ممن يقطعون أَنه لم يطالع تلك الكتب ولا هي في بلده ولا في قومه. وتفصيل الكتاب هو تبيينُه. و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يريد: هو في نفسه على هذه الحالة، وإن ارتاب مبطل فذلك لا يلتفت إليه.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الآية. ﴿أَمْ﴾ هذه ليست بالمعادلة لألف الاستفهام

---

(١) من الآية (١٦١) من سورة (آل عمران).

(٢) من الآية (١١٦) من سورة (المائدة).

التي في قولك: أزيدٌ قام أم عمرو؟ وإنما هي التي تتوسط الكلام. ومذهب سيبويه أنها بمنزلة «الألف» و«بَل» لأنها تتضمن استفهاماً وإضراباً عما تقدم. وهي كقولهم: «إنها لإبلٌ أم شاءٌ»؟ وقالت فرقة في ﴿ أَمْ﴾ هذه: هي بمنزلة ألف الاستفهام. ثم عَجَّزهم في قوله: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ ، والسُّورَةُ مأخوذة من «سُورَةِ البناءِ»[1] ، وهي من القرآن هذه القطعة التي لها مبدأ وختم. والتحدي في هذه الآية وقع بجهتَي الإعجاز اللتين في القرآن. إحداهما: النظم والرصف والإيجاز والجزالة ، كل ذلك في التعريف بالحقائق ، والأخرى: المعاني من الغيب لما مضى ولما يستقبل. وحين تحداهم بعشر مفتريات تحداهم بالنظم وحده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هذا قول جماعة من المتكلمين ، وفيه عندي نظر ، وكيف يجيءُ التحدي بمماثلة في الغيوب ردّاً على قولهم: «افتراه»؟ وما وقع التحدي في الآيتين: ـ هذه وآية العشر السُّور ـ إلا بالنظم والرصف والإيجاز في التعريف بالحقائق ، وما أُلزموا قط إتياناً بغيب، لأن التَّحدي بالإعلام بالغيوب كقوله: ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾[2] ، وكقوله: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾[3] ، ونحو ذلك من غيوب القرآن فبيّن أن البشر مقصر عن ذلك ، وأما التحدي بالنظم فبيَّن أيضاً أن البشر مقصر عن نظم القرآن إذ الله تعالى قد أحاط بكل شيءٍ علماً ، فإذا قدر الله اللَّفْظَةَ في القرآن علم بالإحاطة اللفْظَةَ التي هي أليق بها في جميع كلام العرب في المعنى المقصود حتى كمل القرآن على هذا النظام ، الأَوْلى فالأَوْلى ، والبشرـ مع أن يفرض أفصح العالم ـ محفوف بنسيان وجهل بالألفاظ والحق ، وبغلط وآفات بشرية. فمحال أن يمشي في اختياره على الأَولى فالأَولى. ونحن نجد العربي ينقح قصيدته ـ وهي الحَوْلِيَّات ـ يبدل فيها ويقدم ويؤخر ، ثم يدفع تلك القصيدة إلى أفصح منه فيزيد في التنقيح. ومذهب أهل الصرفة مكسور بهذا الدليل ، فما كان قط في العالم إلا من فيه تقصير سوى من يوحي إليه الله تعالى ،

---

(١) سُورَة مثل بُسْرَة: كلُّ منزلة من البناء ، ومنه سُورَة القرآن لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى.

(٢) من الآية (٣) من سورة (الرُّوم).

(٣) من الآية (٢٧) من سورة (الفتح).

وميّزتْ فصحاءُ العرب هذا القدر من القرآن وأَذعنتْ له لصحة فطرتها وخلوص سليقتها، وأَنهم يعرف بعضهم كلام بعض ويميزه عن غيره، كفعل الفرزدق في أَبيات جرير، والجارية في شعر الأَعشى، وقول الأعرابي في عَرْفَجِكُمْ[1]، فقطع، ونحو ذلك مما إذا تُتُبِّع بان. والقدر المعجز من القرآن ما جمع الجهتين: اطراد النظم والسرد، وتحصيل المعاني وتركيب الكثير منها في اللفظ القليل، فأَمّا مثل قوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾[2]، وقوله: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾[3] فلا يصح التحدي بالإتيان بمثله، لكن بانتظامه واتصاله يقع العجز عنه.

وقوله: ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ صفة للسُّورة، والضمير عائد على القرآن المتقدم الذكر، كأَنه قال: فأتوا بسُورة مثل القرآن، أَي في معانيه وأَلفاظه[4]. وخلطت فِرَقٌ في قوله: ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ من جهة اللسان، كقول الطبري: ذلك على المعنى، ولو كان على اللفظ لقال: «مثلها»، وهذا وهم بيّن لا يحتاج إليه. وقرأَ عمرو بن فائد: [بِسُورةِ مِثْلِهِ] على الإِضافة، قال أَبو الفتح: التقدير: بسورة كلام مثله[5]، قال أَبو حاتم: أَمر عبدُ الله الأَسودَ أَن يسأَل عمر رضي الله عنه عن إِضافة [سُورَةٍ] أَو تنوينها، فقال له عمر: كيف شئت.

وقوله: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم﴾ إحالة على شركائهم وجِنِّهم وغير ذلك، وهو كقوله في الآية الأُخرى: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[6]، أَي معيناً، وهذا أَشد إِقامة لنفوسهم وأَصح تعجيزاً لهم.

---

(١) العَرْفَج: نبات طيب الرائحة أغبر إلى الخضرة له زهرة صفراءٌ وليس له حبٌّ ولا شوك، والإبل والغنم تأكله رطباً ويابساً، ولهبه شديد الحمرة، ويبالغ بحمرته فيقال: كأن لحيته ضرام عرفجة.

(٢) الآية (٦٤) من سورة (الرحمن).

(٣) الآية (٢١) من سورة (المدثر).

(٤) احتج المعتزلة بهذه الآية على أن القرآن مخلوق، قالوا: لأنه تحدَّى به، وطلب الإتيان بمثله، وعجزوا، ولا يمكن هذا إلا إذا كان الإتيان بمثله صحيح الوجود في الجملة، ولو كان القرآن قديماً لكان الإتيان بمثله محالاً في نفس الأمر، فوجب ألا يصح التحدي به.

(٥) فهو عند ابن جني على حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه.

(٦) من الآية (٨٨) من سورة (الإسراء).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

المعنى: ليس الأمر كما قالوا في أنه مفترى، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾، وهذا اللفظ يحتمل معنيَيْن، أَحدهما: أَن يريد به الوعيد الذي توعدهم الله عزَّ وجلَّ على الكفر، و﴿تَأْوِيلُهُ﴾ على هذا يراد به ما يؤول إِليه أَمره، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾[1]، والآية بجملتها ـ على هذا التأويل ـ تتضمن وعيداً. والمعنى الثاني: أَنه أَراد: بل كذَّبوا بهذا القرآن العظيم المُنبئ بالغيوب الذي لم تتقدم لهم به معرفة، ولا أَحاطوا بعلم غيوبه وحسن نظمه، ولا جاءَهم تفسير ذلك وبيانه. و﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يريد من سلف من أُمم الأَنبياء. قال الزجاج: ﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب على خبر ﴿كَانَ﴾، ولا يجوز أَن يعمل فيها ﴿فَانظُرْ﴾[2] لأَن ما قبل الاستفهام لا يعمل فيه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا قانون النحويين لأَنهم عاملوا (كيف) في كل مكان معاملة الاستفهام المحض في قولك: «كيف زيدٌ؟»، ولـ(كَيْفَ) تصرفات غير هذا، تحل محل المصدر الذي هو «كيفية» وتخلع معنى الاستفهام، ويحتمل أَن يكون منها، ومن تصرفاتها قولهم: «كن كيف شئتَ»، وانظر قول البخاري: «كيف كان بدءُ الوحي»، فإِنه لم يستفهم[3].

---

(١) من الآية (٥٣) من سورة (الأعراف).

(٢) أي: لا يعمل فيها لفظاً، لكن الجملة في موضع نصب بـ ﴿فَانظُرْ﴾ معلقة، وهي من نظر القلب لا العين.

(٣) علَّق أبو حيان على هذا بكلام طويل خلاصته أن ﴿كَيْفَ﴾ لها معنيان: أحدهما: الاستفهام المحض، فهي سؤال عن الهيئة إلا إذا تعلق عنها العامل فيكون معناها معنى الأسماء التي يستفهم بها عند تعليق العامل عنها، والثاني: الشرط كقول العرب: «كيف تكون أكون»، وأما قول البخاري: «كيف كان بدء=

وذكَّر الفعل المسند إلى «العاقبة» لما كانت بمعنى المآل ونحوه، وليس تأنيثها بحقيقي.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ الآية. الضمير في ﴿وَمِنْهُم﴾ عائد على قريش، ولهذا الكلام معنيان: قالت فرقة: معناه: مِن هؤلاءِ القوم من سيؤمن في المستقبل، ومنهم من حتم الله أنه لا يؤمن به أبداً. وقالت فرقة: معناه: مِن هؤلاءِ القوم من هو مؤمن بهذا الرسول إلا أنه يكتم إيمانه وعلمه بأن نبوة محمد ﷺ وإعجاز القرآن حق، حفظاً لرياسته أو خوفاً من قومه، كالفتية الذين خرجوا إلى بدر مع الكفار فقتلوا فنزل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ (١)، وكالعباس ونحو هذا، ومنهم من ليس بمؤمن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفائدة الآية على هذا التأويل التفريق لكلمة الكفار، وإضعاف نفوسهم، وأن يكون بعضهم على وجل من بعض. وفي قوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ تهديد ووعيد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ آية مناجزة لهم ومتاركة، وفي ضمنها وعيد وتهديد، وهذه الآية نحو قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إلى آخر السورة. وقال كثير من المفسرين منهم ابن زيد: هذه الآية منسوخة بالقتال لأن هذه مكية، وهذا صحيح(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾. جمع ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ على معنى ﴿مَّن﴾ لا على لفظها، ومعنى الآية: ومن هؤلاءِ الكفار من يستمع إلى ما تأتي به من القرآن

= الوحي»؟ فهو استفهام محض على سبيل الحكاية، كأن سائلا سأله فقال: «كيف كان بدءُ الوحي»؟ فأجاب بالحديث الذي فيه كيفية ذلك. «البحر ٥ـ١٦٠».

(١) من الآية (٩٧) من سورة (النساء).

(٢) قال بالنسخ مع ابن زيد مجاهدٌ، والكلبي، ومقاتل. وقال المحققون: ليست بمنسوخة، ومدلولها اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمراتها من الثواب والعقاب، ولم ترفع آية السيف شيئاً من هذا. قاله أبو حيان في البحر، ثم قال: هذا وقد جاء ترتيب الآية على نسق بلاغي بديع، إذ بدأ في المأمور بقوله: ﴿لِّى عَمَلِى﴾ لأنه آكد في الانتفاء منهم، وفي براءة بدأ بقوله: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ﴾ لأن هذه الجملة جاءت متممة لما قبلها ومؤكدة له وهو: ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، ولمراعاة الفواصل إذ لو تقدم ذكر براءته كما تقدم ذكر أن عمله له لم تقع الجملة فاصلة إذ كان يكون الترتيب: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ﴾.

بأُذنه، ولكن حين لا يُؤمن ولا يحصل فكأنه لا يسمع، ثم قال على وجه التسلية للنبي ﷺ: أَفأَنت يا محمد تريد أَن تُسمع الصمَّ؟ أَي: لا تكترث بذلك، وقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ معناه: ولو كانوا في أَشدّ حالات الأَصمّ، لأَن الأَصمّ الذي لا يسمع شيئاً بحال فذلك لا يكون في الأَغلب إِلا مع فساد العقل والدماغ، فلا سبيل أَن يعقل حجة ولا دليل أَبداً. و﴿وَلَوْ﴾ هذه بمعنى (إِنْ)، وهذا توقيف للنبي ﷺ. أَي: أَلزم نفسك هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ الآية. هي نحو الأُولى في المعنى، وجاءَ [يَنْظُرُ] على لفظ [مَنْ]، وإِذا جاءَ الفعل على لفظها فجائز أَن يعطف عليه آخر على المعنى، وإِذا جاءَ أَولاً على معناها فلا يجوز أَن يعطف عليه آخر على اللفظ، لأَن الكلام يلبس حينئذ[1]. وهذه الآية نحو الأُولى في المعنى كأَنه قال: ومنهم من ينظر إِليك ببصره، لكنه لا يعتبر ولا ينظر ببصيرته، فهو لذلك كالأَعمى، فهوّن ذلك عليك، أَفتريد أَن تهدي العُمْي والهداية أَجمع بيد الله عزَّ وجلَّ؟[2]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

قرأَت فرقة: [وَلَكِن النَّاسُ] بتخفيف [لَكِن] ورفع [النَّاسُ] وقرأَت فرقة: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ بالتشديد ونصب ﴿ٱلنَّاسَ﴾، وظلم الناس لأَنفسهم إِنما هو بالتكسب منهم الذي يقارن اختراع الله تعالى لأَفعالهم. وعرف [لكن] إِذا كان قبلها واو أَن تثقل، وإِذا عرّيت من الواو أَن تخفف، وقد ينخرم هذا. وقال الكوفيون: قد تدخل اللام في خبر «لكنَّ» المشددة على حدّ دخولها في (إِنَّ)، ومنع ذلك البصريون.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ الآية وعيد بالحشر وخِزْيهم فيه وتعارفِهم في التلاوُم

---

(١) قال أبو حيان بعد أن نقل كلام ابن عطية هذا: «وليس كما قال، بل يجوز أن تراعي المعنى أولاً، فتعيد الضمير على حسب ما تريد من المعنى من تأنيث وتثنية وجمع، ثم تراعي اللفظ، فتعيد الضمير مفرداً مذكراً، وفي ذلك تفصيل ذكر في علم النحو».

(٢) الاستفهام في الآيتين معناه النفي، فكأن الكلام: أنت لا تُسمع الصم، وأنتَ لا تَهدي العمي.

بعضهم لبعض. و﴿وَيَوْمَ﴾ ظرف، ونصبه يصح بفعل مضمر تقدير: واذكر يوم، ويصح أن ينتصب بالفعل الذي يتضمنه قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾[1]، ويصح نصبه بـ ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾، والكاف من وقوله: ﴿كَأَن﴾ يصح أن تكون في معنى الصفة لليوم[2]، ويصحُّ أن تكون في موضع نعت للمصدر كأنه قال: ويوم نحشرهم حشراً كأن لم يلبثوا، ويصح أن يكون قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ في موضع الحال من الضمير في ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾. وخصص النهار بالذكر لأن ساعاته وقسمته معروفة بيِّنة للجميع، فكأن هؤلاءِ مُتَحَقِّقُون قلَّة ما لبثوا، إذ كل أمد طويل إذا انقضى فهو واليسير سواءٌ. وأما قوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ فيحتمل أن يكون معادلة لقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾، كأنه أخبر أنهم يوم الحشر يتعارفون، وهذا التعارف على جهة التلاوم والخزي من بعضهم لبعض، ويحتمل أن يكون من موضع الحال من الضمير في ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ ويكون معنى التعارف كالذي قبله، ويحتمل أن يكون حالاً من الضمير في ﴿يَلْبَثُوٓا۟﴾ ويكون التعارف في الدنيا، ويجيءُ معنى الآية: ويوم نحشرهم للقيامة فتنقطع المعرفة بينهم والأسباب، ويصير تعارفهم في الدنيا كساعة من النهار لا قدر لها، وبنحو هذا المعنى فسّر الطبري[3]، وقرأ السبعة وجمهور الناس: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ بالنون، وقرأ الأعمش فيما روي عنه: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياءِ.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ﴾ إلى آخرها. حكم على المكذبين بالخسارة، وفي اللفظ إغلاظ على المحشورين من إظهار ما هم عليه من الغرر مع الله تعالى. وهذا على أن الكلام إخبار من الله تبارك تعالى، وقيل: إنه من كلام المحشورين على جهة التوبيخ لأنفسهم.

---

(١) قال أبو حيان: «هذا كلام مجمل لم يبين الفعل الذي يتضمنه ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ ولعلَّه أراد ما قاله الحوفي من أن الكاف في موضع نصب بما تضمنت من معنى الكلام وهو السرعة».

(٢) قيل: «هذا لا يصح لأن ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ معرفة، والجمل نكرات، ولا تنعت المعرفة بالنكرة.» وأفضل إعراب لقوله تعالى: ﴿كَأَن...﴾ هو أنها جملة حالية من مفعول ﴿نَحْشُرُ﴾، وهذا ما اتفق عليه كل من الألوسي، والزمخشري، وأبو حيان، وذكره ابن عطية في آخر آرائه.

(٣) قيل: لا تعارف يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾، وقيل: يبقى تعارف التوبيخ، وهو الأصح، والآية السابقة معناها: لا يسأله سؤال شفقة ورحمة، والدليل على بقاء التعارف للتوبيخ قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ الآية. ﴿وَإِمَّا﴾ شرط، وجوابه ﴿فَإِلَيْنَا﴾، والرؤْية في قوله: ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ رؤية بصر، وقد عدي الفعل بالهمزة فلذلك تعدى إلى مفعولين: أَحدهما (الكاف)، والآخر ﴿بَعْضَ﴾. والإشارة بقوله: ﴿بَعْضَ الَّذِى﴾ إلى عقوبة الله لهم في بدر وغيرها، ومعنى هذه الآية الوعيد بالرجوع إلى الله تعالى، أَي: إن أريناك عقوبتهم أَو لم نركها فهم على كل حال راجعون إلينا إلى الحساب والعذاب، ثم مع ذلك فالله شهيد من أَول تكليفهم على جميع أَعمالهم، فـ﴿ثُمَّ﴾ ها هنا لترتيب الإخبار لا لترتيب القصص في أَنفسها[(١)]، و﴿إِمَّا﴾ هي (إنْ) زيدت عليها (ما)، ولأَجلها جاز دِخول النون الثقيلة، ولو كانت (إن) وحدها لم يجز.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ إخبار مثل قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ﴾[(٢)]، وقال مجاهد، وغيره: المعنى: فإذا جاءَهُم رسولهم يوم القيامة للشهادة عليهم صُيِّر قوم للجنة وقوم للنار، فلذلك القضاءُ بينهم بالقسط[(٣)]، وقيل: المعنى: فإذا جاءَ رسولهم في الدنيا وبعث صاروا من حتم الله بالعذاب لقوم والمغفرة لآخرين لغاياتهم، فلذلك قضاءٌ بينهم بالقسط. وقرن بعض المتأَولين هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[(٤)]، وذلك يتفق إمَّا بأَن نجعل ﴿مُعَذِّبِينَ﴾ في الآخرة، وإما بأَن نجعل القضاءَ بينهم في الدنيا بحيث يصح اشتباه الآيتين.

---

(١) هذا إذا أُريدت الشهادة على حقيقتها، أما إذا أُريد لازمها وهو ما يترتب عليها من عقاب فإن ﴿ثُمَّ﴾ تكون لترتيب القصص في أنفسها، قاله في الشوكاني وأبي السعود.

(٢) من الآيتين (٨، ٩) من سورة (المُلْك).

(٣) دليل ذلك قول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

(٤) من الآية: (١٥) من سورة (الإسراء).

وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾. الضمير في ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ يراد به الكفار، وسؤالهم عن الوعد تحديد بزعمهم في الحجة، أي: هذا الذي تُوعِدُنا حدِّدْ لنا فيه وقته لنعلم الصدق من ذلك من الكذب. وقال بعض المفسرين: قولهم هذا على جهة الاستخفاف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا لا يظهر من اللفظة.

ثم أمره الله تعالى أن يقول لهم: ﴿ لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾، المعنى: قل لهم يا محمد ردّاً للحجة: إني لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً من دون الله، ولا أنا إلا في قبضة سلطانه وبضمن الحاجة إلى لطفه، فإذا كنت هكذا، فأحرى ألا أعرف غيبه ولا أتعاطى شيئاً من أمره، ولكن لكل أمة أجل انفرد الله تبارك وتعالى بعلم حدّه ووقته، فإذا جاءَ ذلك الأجل في موت أو هلاك أُمّة لم يتأخروا ساعة ولا أمكنهم التقدم عن حدّ الله عزَّ وجلَّ. وقرأ ابن سيرين: [آجالُهُمْ] بالجمع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

المعنى: قل: يأيُّها الكافرون المستعجلون عذاب الله عزَّ وجلَّ ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ ﴾ ليلاً وقت المبيت؟ يقال: بيّت القومُ القومَ إذا طرقوهم ليلاً بحربٍ أو نحوها، ﴿ أَوْ نَهَارًا ﴾ لكم منه مَنَعَة أو به طاقة؟ فماذا تستعجلون منه وأنتم لا قِبَلَ لكم به؟ و﴿ مَا ﴾ ابتداءٌ، ﴿ ذَا ﴾ خبره، ويصح أن تكون ﴿ مَّاذَا ﴾ بمنزلة اسم واحد في موضع رفع بالابتداءِ وخبره الجملة التي بعده، وضعف هذا أبو علي وقال: إنما يجوز ذلك على تقدير إضمارٍ في ﴿ يَسْتَعْجِلُ ﴾ وحَذْفه كما قال:

. . . . كُلُّـــــهُ لَـــــمْ أَصْنَـــــعِ[1]

---

(١) هذا جزءٌ من بيت لأبي النجم، والبيت بتمامه: =

و«زيد ضربْت» ، قال: ويصحُّ أَن تكون ﴿مَّاذَا﴾ في حال نصب لـ ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾. والضمير في ﴿مِنْهُ﴾ يحتمل أَن يعود على الله عزَّ وجلَّ ، ويحتمل أَن يعود على العذاب.

وقوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ الآية. عطف بقوله: ﴿ثُمَّ﴾ جملة القول على ما تقدم ، ثم أَدخل على الجميع أَلف التقرير. ومعنى الآية: إِذا وقع العذاب وعاينتموه آمنتم به حينئذ ، وذلك غير نافعكم ، بل جوابكم الآن ، وقد كنتم تستعجلونه مكذبين به. وقرأَ طلحة بن مصرف: [أَثَمَّ] بفتح الثاءِ ، وقال الطبري في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ﴾ بضم الثاءِ: معناه: هنالك ، وقال: ليست (ثُمَّ) هذه التي تأْتي بمعنى العطف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمعنى الصحيح على أَنها (ثُمَّ) المعروفة ، ولكن إِطباقه على لفظ التنزيل هو كما قلنا ، وما ادعاه الطبري غير معروف. و﴿ءَآلْئَنَ﴾ أَصله عند بعض النحاة «آنَ» فعل ماض دخلت عليه الأَلف واللام على حدّها في قوله:

. . . . الحِمَــارِ الْيُجَـدَّعُ[1]

= قَــدْ أَصْبَحَــتْ أُمُّ الْخِيَــارِ تَــدَّعِــي عَلَــيَّ ذنبــاً كُلُّــهُ لَــمْ أَصْنَــعِ

برفع (كلّ) ، وبها يتم المعنى الصحيح لأنه أراد التَّبَرُّؤَ من جميع الذنب ، ولو نصب (كُلّ) لكان ظهر قوله أنه صنع بعضه، وهذا هو حذف الضمير من الخبر، وهو قبيح، والتقدير: لم أصنعه ، وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير الآية (٥٠) من سورة (المائدة).

(١) وهذا أيضاً جزء من بيت قاله ذو الخِرَق الطُّهَوِيّ ، وقد ذكره صاحب اللسان مع بيت سابق عليه للاستشهاد على معنى (مُجَدَّع) ، قال: «الجَدْع: القطع ، وقيل: هو القطع البائن... يقال: جَدَعه يَجْدعه جدْعاً فهو جادع ، وحمارٌ مُجَدَّع: مقطوع الأذن ، قال:

أَتَــانِــي كَــلامُ التَّغْلَبِــيِّ بْــنِ دَيْسَــقٍ فَفِــي أَيِّ هَــذا وَيْلَــهُ يَتَتَــرَّعُ؟
يقــول الخَنَــى ، وأَبْغَــضُ العُجْــمِ نَــاطِقــا إِلَــى رَبِّــهِ صَــوْتُ الحمــار اليُجَــدَّعُ

أراد: الذي يُجَدَّع فأدخل اللام على الفعل المضارع لمضارعة اللام الذي ، كما تقول: هو اليَضْربُكَ. وهو من أبيات الكتاب». يريد: كتاب سيبويه. واليُجَدّع: فعل مضارع مبني للمجهول. وقد قال أبو بكر بن السَّرَّاج: لما احتاج إلى رفع القافية قلب الاسم فعلاً ، وهو من أقبح ضرورات الشعر ، وأَنكر ابن بريّ أن يكون هذا البيت من أبيات الكتاب كما ذكر الجوهري وقال: وإنما هو في نوادر أبي زيد.

ولم يتعرف بذلك كل التعريف، ولكنها لفظة مضمنة معنى حرف التعريف ولذلك بُنيت على الفتح لتضمنها معنى الحرف، ولوقوعها موقع المبهم، لأَن معناها: «هذا الوقت»، وقرأَ الأَعمش، وأَبو عمرو، وعاصم، والجمهور: ﴿آلآن﴾ بالمدّ والاستفهام على حدّ التوبيخ، وكذلك ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾[1]، وقرأَها باستفهام بغير مدّ طلحة والأَعرج.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الآية. هو الوعيد الأَعظم بالخلود لأَهل الظلم الأَخصّ الذي هو ظلم الكفر لا ظلم المعصية. وقوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ توقيف وتوبيخ. ونصت هذه الآية على أَن الجزاءَ في الآخرة هو على تكسّب العبد.

وقوله تعالى: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ معناه: يستخبرونك، وهي ـ على هذا ـ تتعدى إِلى مفعولين: أَحدهما الكاف، والآخر في الابتداءِ والخبر. وقيل: هي بمعنى يستعلمونك، فهي ـ على هذا ـ تحتاج إِلى مفاعيل ثلاثة: أَحدها الكاف، والابتداءُ والخبر سدّ مسَدَّ المفعولين[2].

و﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ قيل: الإِشارة إِلى الشرع والقرآن، وقيل: إِلى الوعيد، وهو الأَظهر، وقرأَ الأَعمش: [آلحقُّ هُوَ] بِمَدَّةٍ وبلام التعريف[3]. وقوله: ﴿إِى﴾ هي لفظة تتقدم القَسَم، وهو بمعنى (نعم)، ويجيءُ بعدها حرف القسم وقد لا يجيءُ، تقول: إِي وربي، وإِي ربّي، و﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ معناه: مُفْلتين، وهذا الفعل أَصله تعدية (عجز) لكن كثر فيه حذف المفعول حتى قالت العرب: «أَعْجَزَ فلان» إِذا ذهب في الأَرض فلم يُقدر عليه.

---

(١) من الآية (٩١) من هذه السورة (يونس).

(٢) الأصل أن (استنبأ) يتعدى إلى مفعولين أحدهما بِعَنْ تقول: استنبأتُ زيداً عن عمرو، والظاهر أنها معلّقة عن المفعول الثاني، ولا يلزم من كونها بمعنى (يستعلمونك) أنها تتعدى إلى ثلاثة مفاعيل لأن (استعلم) لا يتعدى هو إلى ثلاثة مفاعيل فأولى بذلك ما كان بمعناه.

(٣) قال أبو الفتح تعليقاً على هذه القراءة: «إن الأجناس تتساوى فائدتها معرفتها ونكرتها في نحو هذا، تقول: ثِقْ بأمانٍ من الله، وثق بالأمان من الله، وهذا حق، وهذا الحق، وهذا صدق، وهذا الصدق، ومنه قولهم: خرجت فإذا بالباب أسد، وإذا بالباب الأسد، المعنى واحد ووَضْع اللفظ مختلف، وسبب ذلك كون الموضع جنساً». (المحتسب ٢ـ٣١٣).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

هذا إِخبارٌ للكفار في سياق إِخبارهم بأَن ذلك الوعد حق. و﴿وَأَسَرُّوا﴾ لفظة تجيءُ بمعنى: أَخْفَوْا، وهي حينئذ من السّر، وتجيءُ بمعنى: أَظهروا، وهي حينئذ من أَسارير الوجه[1]. قال الطبري: المعنى: وأَخفى رؤَساءُ هؤلاءِ الكفار الندامة عن سفلتهم ووضائعهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

بل هو عام في جميعهم.

و﴿أَلَآ﴾ استفتاح وتنبيه، ثم أَوجب أَن جميع ما في السموات والأَرض مِلك لله تبارك وتعالى، قال الطبري: يقول: فليس لهذا الكافر يومئذ شيءٌ يفتدي به.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وربط الآيتين هكذا يتجه على بعد، وليس هذا من فصيح المقاصد. وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قيّد بالأَكثر لأَن بعض الناس يؤمن فهم يعلمون حقيقة وعد الله تعالى، وأَكثرهم لا يعلمون فهم لأَجل ذلك يكذبون.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِۦ﴾ يريد: يُحْيي من النطفة، ﴿وَيُمِيتُ﴾ بالأَجل، ثم يجعل المرجع إِليه بالحشر يوم القيامة. وفي قوة هذه الآيات ما يستدعي الإِيمان وإِجابة دعوة الله عزَّ وجلَّ، وقرأَ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالتاءِ من فوق الأَعرج، وأَبو عمرو،

(١) من شواهد مجيئها بمعنى أظهروا قولُ كُثير:

فَأَسْرَرْتُ النَّدَامَةَ يَوْمَ نَادَى ... بِرَدِّ جِمَالِ غَاضِرَةَ المُنَادي

أي: أظهرت الندامة. ويقوّي معنى الإظهار في الآية أن يوم القيامة ليس بيوم تصبر ولا تجلّد، ولا يقدر فيه الكافر على كتمان ما ناله، ولأنه عند رؤيَة العذاب يوم القيامة يتحسَّر الإنسان على ارتكاب ما سببه له وأوجبه عليه، ويظهر الندامة على ما فاته من الفوز والخلاص من العذاب، ولهذا يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾.

وعاصم، ونافع، والناس. وقرأ عيسى بن عمر ﴿يُرْجِعُونَ﴾ بالياءِ من تحت. واختلف عن الحسن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

هذه آية خوطب بها جميع العالم، والموعظة: القرآن لأن الوعظ إنما هو بقولٍ يأمر بالمعروف ويزجُر ويرقّق ويُوعد ويَعد، وهذه صفة الكتاب العزيز، وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يريد: لم يختلقها محمد ﷺ ولا غيره، بل هي من عند الله عزَّ وجلَّ، و﴿لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ يريد به الجهل والعُتُوّ عن النظر في آيات الله تبارك وتعالى ونحو هذا مما يدافع الإيمان. وجعَلَه موعظة بحسب الناس جميعاً، وجعله هُدىً ورحمة بحسب المؤمنين فقط، وهذا تفسير صحيح المعنى إذا تُؤُمّل بان وجهه.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ الباءُ متعلقة بمحذوف استغني عن ذكره يدل عليه قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾. قال بعض المتأولين وهو هلال بن يِساف[1]، وقتادة، والحسن، وابن عباس رضي الله عنهما: الفضل: الإِسلام، والرحمة: القرآن، وقال أَبو سعيد الخدري: الفضل: القرآن، والرحمة: أَن جعلهم من أَهله، وقال زيد بن أَسلم، والضحاك: الفضل: القرآن، والرحمة: الإِسلام، قالت فرقة: الفضل: محمد ﷺ، والرحمة: القرآن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا وجه عندي لشيءٍ من هذا التخصيص إلا أَن يستند منه شيءٌ إِلى النبي ﷺ، وإِنما الذي يقتضيه اللفظ ويلزم منه أَن الفضل هو هداية الله تعالى إِلى دينه، والتوفيق إِلى اتباع شريعته، والرحمة هي عفوه وسُكنى جنته التي جعلها جزاءً على التَّشرع بالإِسلام والإِيمان به. ومعنى الآية: قل يا محمد لجميع الناس: بفضل الله وبرحمته فليقع الفرح منكم، لا بأُمور الدنيا وما يجمع من حطامها، فالمؤمنون يقال لهم: فَلْتَفْرَحُوا، وهم مُتَلَبّسُونَ بعلة الفرح وسببه، ومُحَصِّلون لفضل الله منتظرون الرحمة.

---

(١) ضبطه محقق «المحتَسب» لابن جني بالفتح، وذكر في الهامش نقلا عن القاموس أنه بالكسر وقد يفتح.

والكافرون يقال لهم: بفضل الله وبرحمته فلْتَفرحوا ، على معنى أَن لو اتفق لكم ، أَو لو سعدتم بالهداية إِلى تحصيل ذلك.

وقرأ أُبيّ بن كعب ، وابن القعقاع ، وابن عامر ، والحسن ـ على ما زعم هارون ـ ورويت عن النبي ﷺ: [فَلْتَفرَحُوا]. و[تَجْمَعُونَ] بالتاءِ فيهما على المخاطبة ، وهي قراءَة جماعة من السلف كبيرة ، وعن أَكثرهم خلاف. وقرأ السبعة سوى ابن عامر[1] ، وأَهلُ المدينة ، والأَعرج ، ومجاهد ، وابن أَبي إِسحق ، وقتادة ، وطلحة ، والأَعمش بالياءِ فيهما على ذكر الغائب ، ورويت عن الحسن بالتاءِ من فوق فيهما. وقرأَ أَبو التياح ، وأَبو جعفر ، وقتادة ـ بخلاف عنهم ـ وابن عامر بالياءِ في الأُولى وبالتاءِ في الآخرة ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن ، وجماعة من السلف ، ورويت عن النبي ﷺ بالياءِ في الأُولى وبالتاءِ في الآخرة ، ورويت عن أَبي التياح. وإِذا تأَملت وجوه ذلك بانت على مَهْيَع الفصيح من كلام العرب ، ولذلك كثر الخلاف من كل قارئ ، وفي مصحف أُبي بن كعب: «فبذلك فافرحوا» ، وأَما من قرأَ: [فَلْتَفْرَحُوا] فأَدخل اللام في أَمر المخاطب فذلك على لغة قليلة ، حكى ذلك أَبو علي في الحجة ، وقال أَبو حاتم وغيره: الأَصل في كل أَمر إِدخال اللام إِذا كان النهي بحرف ، فكذلك الأَمر إِذا كان أَمراً لغائب بلام[2] ، قال أَبو الفتح: إِلا أَن العرب رفضت إِدخال اللام في أَمر المخاطب لكثرة ترداده[3]. وقرأَ أَبو التياح ، والحسن بكسر اللام من [فَلِتَفْرَحُوا] ،

---

(١) ذكر ابن عطية أن ابن عامر في الجماعة الأولى التي قرأت بالتاءِ ، وأكَّدَ ذلك بقوله: «وقرأ السبعة سوى ابن عامر بالياءِ» ، ثم عاد فنقل أن ابن عامر قرأ في الأولى وهي [فَلْيفرَحوا] بالياءِ ، وفي الثانية وهي ﴿تَجْمعون﴾ بالتاء ، ولو تأملت الأسماء في كل جماعة لوجدت تكراراً أو ما يشبه التناقض ، لكن يتضح لك الموقف حين تقرأ قوله: «وإذا تأملت وجوه ذلك بانت ـ أي ظهرت كلها ـ على مهْيَع الفصيح من كلام العرب ، ولذلك كثر الخلاف من كل قارئ». ولهذا فلا داعي لتعليق أبي حيان على ما نسبه ابن عطية لابن عامر من القراءة بالتاء وتأكيده أنه قرأ بالياء ، فقد عاد ابن عطية وذكر ذلك.

(٢) معنى هذا أن أصل الأمر أن يكون بحرف الأمر وهو اللام ، فأصل اضرب: لِتَضْرب ، وأصل قم: لتقم ، ولكن لما كثر أمر الحاضر حذفوا حرف المضارعة تخفيفاً ودلّ المقام عليه فلما حذف حرف المضارعة بقي ما بعده في الأغلب ساكناً فاحتيج إلى همزة الوصل ليقع الابتداء به فقيل: اضرب ، اكتب ، اذهب. . .الخ. ذكر ذلك أبو الفتح في المحتسب. (٢ـ٣١٣).

(٣) كان أمر الحاضر أكثر لأن الغائب بعيد عنك ، فإذا أردت أن تأمره احتجت إلى أن تأمر المخاطب ليؤدي كلامك إلى الغائب ، فتقول: يا محمد قل لعلي اقرأ ، أما الحاضر فلا يحتاج إلى ذلك لأن خطابك إياه مباشرة أغنى عن تكليف غيره أن يحمل إليه كلامك. (عن أبي الفتح في المحتسب ٢ـ٣١٣).

فإن قيل: كيف أمر الله بالفرح في هذه الآية وقد ورد ذمُّه في قوله: ﴿لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[١]، وفي قوله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[٢]، قيل: إن الفرح إذا ورد مقيّداً في خير فليس بمذموم، وكذلك هو في هذه الآية، وإذا ورد مقيداً في شرّ أو مطلقاً لحقه ذمٌّ إذ ليس من أفعال الآخرة، بل ينبغي أن يغلب على الإنسان حزنه على ذنبه وخوفه لربّه. وقوله: ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يريد: من مال الدنيا وحطامها الفاني المؤذي في الآخرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

هذه المخاطبة لكفار العرب الذين جعلوا البحائر والسوائب والنصيب من الحرث والأنعام وغير ذلك مما لم يأذن الله به، وإنما اختلقوه بأمرهم. وقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ﴾ لفظة فيها تجوّز، وإنزال الرزق إما أن يكون في ضمن إنزال المطر بالمآل أو نزول الأمر به الذي هو ظهور الأثر في المخلوق منه المخترع، ثم أمر الله نبيّه بتوقيفهم على أحد القسمين، وهم لا يمكنهم ادعاءُ إذن الله في ذلك، فلم يبق إلا أنهم افتروْه، وهذه الآية نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾[٣]، ذكر ذلك الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ﴾ آية وعيد. لمَّا تحقق عليهم بتقسيم الآية التي قبلها أنهم مفترون على الله عظَّم في هذه الآية جرم الافتراءِ، أي: ظنُّهم في غاية الرداءَة بحسب سوءِ أفعالهم، ثم ثنَّى بإيجاب الفضل على الناس في الإمهال لهم مع الافتراءِ والعصيان، والإمهال داعية إلى التوبة والإنابة. ثم استدرك ذكر من لا يرى حق الإمهال ولا يشكره ولا يبادر فيه على جهة الذمّ لهم، والآية بعد هذا تعمُّ جميع فضل الله وجميع تقصير الخلق في شكره لا ربّ غيره.

---

(١) من الآية (١٠) من سورة (هود).
(٢) من الآية (٧٦) من سورة (القصص).
(٣) من الآية (٣٢) من سورة (الأعراف).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

قصد الآية وصف إحاطة الله بكل شيءٍ، ومعنى اللفظ: وما تكون يا محمد ـ والمراد هو وغيره ـ في شأن من جميع الشؤون، ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ﴾ الضمير عائد على ﴿شَأْنٍ﴾ أي فيه وبسببه من قرآن، ويحتمل أن يعود الضمير على جميع القرآن، ثم عمَّ بقوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾، وفي قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ تحذير وتنبيه. و﴿تُفِيضُونَ﴾: تأخذون وتنهضونَ بجدّ، يقال: أفاض الرجل في سيره وفي حديثه، ومنه الإفاضة في الحج، ومفيض القِداح[1]، ويحتمل أن (فاض) عُدّي بالهمزة.

و﴿يَعْزُبُ﴾ معناه: يغيب حتى يخفى، حتى قالوا للبعيد: عازب ومنه قول الشاعر:

عـوازبُ لـم تسمَـعْ نُبُـوحَ مُقَـامَـةٍ ... ولَـمْ تَـرَ نَـاراً تِـمَّ حَـوْلٍ مُجَـرَّم[2]

وقيل للغائب عن أهله: عازب، حتى قالوه لمن لا زوجة له، وفي السير أن بيت سعد بن خيثمة كان يقال له: بيت العزاب. وقرأ جمهور السبعة، والناس: [يَعْزُب] بضم الزاي، وقرأ الكسائي وحده منهم: [يَعْزِب] بكسرها، وهي قراءَة ابن وثاب، والأعمش، وطلحة بن مصرف. قال أبو حاتم: القراءَة بالضم والكسرُ لغة. والمِثْقَالُ: الوزن، وهو اسم لا صفة كمعطار ومضراب. والذَّرّ: صغار النمل، جعلها الله مثالاً إذ لا يُعرف في الحيوان المتغذي المتناسل المشهور النوع والموضع أصغر منه. وقرأ

(١) القِداح: جمع قَدَح. يقال: أفاض الرجل بالقداح إفاضة: ضرب بها، لأنها تقع منبثة متفرقة، ويجوز أفاض على القداح، قال أبو ذؤيب الهذلي يصف حماراً وأُتُنه:

وكَـأَنَّهُـنَّ رِبَـابَـةٌ وكَـأَنَّـهُ ... يَسَـرٌ يُفِيـضُ عَلـى القِـداح ويَصْـدَعُ

يعني: يفيض بالقداح.

(٢) البيت لطُفَيْل، قال ذلك في أساس البلاغة، والعوازبُ: البعيدة، والنُّبُوح: ضجَّةُ الحيّ وأصواتُ كلابهم، وتِمُّ الشيءِ بكسر التاءِ: تمامه وكماله، والحول المُجرَّمُ: الذي كمل وانقضى، يقول: إنها لبعدها الشديد لم تعرف شيئاً عن ضجيج الحياة ونباح الكلاب في الحيّ ولم تر ناراً ولا علامة من علامات الحياة المألوفة مدة عام كامل.

جمهور الناس، وأكثر السبعة: ﴿وَلَآ أَصْغَرَ﴾ ﴿وَلَآ أَكْبَرَ﴾ بفتح الراءِ عطفاً على ﴿ذَرَّةٍ﴾ في موضع خفض لكن منع من ظهوره امتناع الصرف. وقرأ حمزة وحده: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ﴾ ﴿وَلَآ أَكْبَرُ﴾ عطفاً على موضع قوله: ﴿مِّثْقَالِ﴾ لأن التقدير: وما يعزب عن ربّك مثقالُ ذرّة. والكتاب المبين: اللّوح المحفوظ، كذا قال بعض المفسرين، ويحتمل أن يريد تحصيل الكتبة، ويكون القصد ذكر الأعمال المذكورة قبلُ، وتقديم الأصغر في الترتيب جزئيٌ على قولهم: القمريْن والعمريْن، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾[١]، والقصد بذلك كله تنبيه الأقل، وأن الحكم المقصود إذا وقع على الأقل فأحرى أن يقع على الأعظم.

و﴿أَلَآ﴾ استفتاح وتنبيه، وأولياءُ الله هم المؤمنون الذين والُوه بالطاعة والعبادة، وهذه الآية يعطي ظاهرها أن من آمن واتقى فهو داخل في أولياءِ الله، وهذا هو الذي تقتضيه الشريعة في الوليّ، وإنما نبّهنا هذا التنبيه حذراً من بعض الصوفية وبعض الملحدين في الوليّ[٢]، وروي عن النبي ﷺ أنه سُئِل: من أولياءُ الله؟ فقال: «الذين إذا رأيتهم ذكرت الله»[٣].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذاوصف لازم للمتقين لأنهم يخشعون ويخشعون، وروي عن النبي ﷺ أيضاً أنه قال: «أَوْلياءُ الله هم قوم تحابُّوا في الله واجتمعوا في ذاته، لم تجمعهم قرابة ولا مالٌ يتعاطونه»[٤]. وقوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يحتمل أن يكون في الآخرة، أي: لا يهتمون بهمّها، ولا يخافون عذاباً ولا عقاباً ولا يحزنون لذلك. ويحتمل أن

---

(١) من الآية (٤٩) من سورة (الكهف).

(٢) يشير بذلك إلى ما يرويه بعض الناس من أن الوليّ أفضل من النبي، وهناك عبارات نقلت عن بعض المتصوفين تحمل مثل هذه المعاني.

(٣) أخرجه ابن المبارك، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه: (قيل: يا رسول الله من أولياءُ الله؟ قال: الذين إذا رُؤوا ذُكر الله)، وروى ابن الشيخ مثله عن سهل بن الأسد. وتعددت رواياته من طرق عدة في صيغ قريب بعضها من بعض.

(٤) أخرج ابن أبي شيبة عن العلاء بن زياد رضي الله عنه عن نبي الله ﷺ قال: «عباد من عباد الله ليسوا بأنبياءَ ولا شهداءَ، يغبطهم الأنبياءُ والشهداءُ يوم القيامة بقربهم من الله على منابر من نور، يقول الأنبياءُ والشهداءُ: من هؤلاءِ؟ فيقول: هؤلاءِ كانوا يتحابون في الله على غير أموال يتعاطونها ولا أرحام كانت بينهم».

يكون ذلك في الدنيا، أَي: لا يخافون أَحداً من أَهل الدنيا ولا من أَعراضها، ولا يحزنون على ما فاتهم منها، والأَول أَظهر، والعموم في ذلك صحيح، لا يخافون في الآخرة جملة، ولا في الدنيا الخوف الدنيوي الذي هو فوت آمالها، وزوال منازلها، وكذلك في الحزن، وذكر الطبري عن جماعة من العلماءِ مثل ما في الحديث في الأَولياءِ الذين إذا رآهم أَحدٌ ذكر الله، وروي فيهم حديث: «إِن أَولياءَ الله هم قوم يتحابون في الله، وتجعل لهم يوم القيامة منابر من نور، وتنير وجوههم، فهم في عرصة القيامة لا يخافون ولا يحزنون»[1]. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَن رسول الله ﷺ قال: «إِن من عباد الله عباداً ما هم بأَنبياءَ ولا شُهداءَ، يغبطهم الأَنبياءُ والشُهداءُ بمكانهم من الله، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: قومٌ تحابوا بروح الله على غير أَرحام ولا أَموال» الحديث، ثم قرأَ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يصح أَن يكون في موضع نصب على البدل من (الأَولياءِ)، ويصح أَن يكون في موضع رفع على الابتداءِ على تقدير: «هم الذين»، وكثيراً ما يفعل ذلك بنعت ما عملت فيه (إِنَّ) إذا جاءَ بعد خبرها، ويصح أَن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ابتداءً وخبره في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ لفظ عام في تقوى الشرك والمعاصي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

أَما بشرى الآخرة فهي بالجنة قولاً واحداً، وتلك هي الفضل الكبير الذي في قوله:

---

(١) الحديث مروي من عدة طرق مع اختلاف في بعض الألفاظ باختلاف الرواة.

(٢) رواه ابن جرير عن أبي زرعة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أخرجه أبو داود، وهناد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان عن عمر رضي الله عنه. (تفسير ابن جرير، والدر المنثور).

﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾[١] ، وأَما بشرى الدنيا فتظاهرت الأَحاديث عن رسول الله ﷺ أَنها الرؤْيا الصالحة يراها المؤمن أَو تُرَى له. وروَى ذلك عن رسول الله ﷺ أَبو الدرداءِ ، وعمران بن حُصَين ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ ، وغيرهم على أَنه سُئل عن ذلك ففسّره بالرُؤْيا[٢] ، وعن النبي ﷺ في صحيح مسلم أَنه قال: لم يبق من المبشرات إِلا الرؤْيا الصالحة»[٣] ، وروت عنه أُم كند الكعبية أَنه قال: «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات»[٤] ، قال قتادة ، والضحاك: البشرى في الدنيا هي ما يُبَشر به المؤمن عند موته وهو حيٌّ عند المعاينة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويصح أَن تكون بشرى الدنيا ما في القرآن من الآيات المبشرات ، ويَقْوَى ذلك بقوله تعالى في هذه الآية: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ وإِن كان ذلك كله يعارضه قول النبي ﷺ: «هي الرُؤْيا» إِلا إِن قلنا: إِن النبي ﷺ أَعطى مثالاً من البشرى ، وهي تعم جميع الناس ، وقوله: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ يريد: لا خلف لمواعيده ولا ردّ في أَمره.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد أَخذ ذلك عبد الله بن عمر رضي الله عنهما على نحو غير هذا ، وجعل التبديل المنفي في الأَلفاظ ، وذلك أَنه رُوي أَن الحجاج بن يوسف خطب فأَطال خطبته حتى قال: إِن عبد الله بن الزبير قد بدّل كتاب الله ، فقال له عبد الله بن عمر: إِنك لا تطيق ذلك أَنت ولا ابن الزبير ، ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ، فقال له الحجاج: لقد أُعطيت

---

(١) من الآية (٤٧) من سورة (الأحزاب).

(٢) أخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وأحمد ، والترمذي ، وغيرهم عن رجل من أهل مصر قال: سألتُ أبا الدرداء رضي الله عنه عن قول الله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ فقال: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: «ما سألني عنها أحد منذ أُنزلت ، هي الرُّؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له ، فهي بشراه في الحياة الدنيا ، وبشراه في الآخرة الجنة». الدر المنثور.

(٣) أخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كشف النبي ﷺ الستارة في مرضه الذي مات فيه والناس صفوف خلف أبي بكر رضي الله عنه فقال: «إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له» ، المرجع السابق.

(٤) أخرجه ابن ماجه ، وابن جرير. (المرجع السابق).

علماً، فلما انصرف إليه في خاصته سكت عنه، وقد رُوي هذا النظر عن ابن عباس في غير مقاولة الحجاج، ذكره البخاري. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ إشارة إلى النعيم الذي وقعت به البشرى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ الآية. هذه آية تسلية لمحمد ﷺ، والمعنى: ولا يحزنك يا محمد ويهمك قولهم، أي قول كفار قريش، ولفظة «القول» تعم جحودهم واستهزاءَهم وخداعهم وغير ذلك.

ثم ابتدأ بوجوب أَن العزة لله جميعاً، أَي: فهم لا يقدرون لك على شيءٍ ولا يؤذونك إلا بما شاءَ الله، وهو القادر على عقابهم، لا يُعَازُّه شيءٌ، ففي الآية وعيد لهم. وكسر ﴿إِنَّ﴾ في الابتداءِ ولا ارتباط لها بالقول المتقدم لها. وقال ابن قتيبة: لا يجوز فتح إن في هذا الموضوع وهو كفر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقوله: «وهو كفر» غُلُوّ. وكأَن ذلك خرج على تقدير: لأَجل أَن العزة لله[1]. وقوله: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ أَي لجميع ما يقولونه، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما في نفوسهم من ذلك، وفي ضمن هذه الصفات تهديد.

ثم استفتح بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَي بالملك والإحاطة، وغلب من يعقل في قوله: ﴿مَن﴾ إذ له ملك الجميع ما فيها ومن فيها، وإذا جاءَت العبارة بِمَا فذلك تغليب للكثرة، إذ الأَكثر عدداً من المخلوقات لا يعقل، فـ(مِنْ) تقع للصنفين بمجموعهما، و(ما) كذلك، ولا تقع لما يعقل إذا تجرد من الصفات والأَحوال، أَلا ترى لو ذكرتُ لك قولة في مسأَلة فأَردت أَن تسأَل عن قائلها، أَيجوز في كلام العرب أَن تقول: «ما قائل هذا القول»؟ هذا ما يتقلده من يفهم كلام العرب. وقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾. يصح أَن يكون ﴿مَا﴾ استفهاماً بمعنى التقرير وتوقيف نظر المخاطب، ويعمل ﴿يَدْعُونَ﴾ في قوله: ﴿شُرَكَآءَ﴾. ويصح أَن تكون نافية

---

(١) معنى هذا أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ تعليل، أي: لا يقع منك حزن لما يقولون لأجل أن العزّة لله، ولكن هذا المعنى لا يتضح إلا في قراءَة فتح ﴿إِنَّ﴾، أما إذا كسرت الهمزة فالواضح الاستئناف. والذي قرأ بالفتح هو أبو حيوة.

ويعمل ﴿يَتَّبِعُ﴾ في ﴿شُرَكَآءَ﴾ على معنى أنهم لا يتبعون شركاءَ حقاً، ويكون مفعول ﴿يَدْعُونَ﴾ محذوفاً، وفي هذا الوجه عندي تكلف[1]. وقرأ أَبو عبد الرحمن السُّلمي: ﴿تَدْعُونَ﴾ بالتاءِ، وهي قراءَة غير متجهة[2]، وقوله: [إِنْ] نافية، و﴿يَخْرُصُونَ﴾ معناه: يحسدون ويخمنون، لا يقولون بقياس ولا نظر. وقرأَت فرقة: [وَلاَ يُحْزِنْكَ] من أَحزن، وقرأَت فرقة: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ من حزن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

لما نصّ على عظمة الله تبارك وتعالى في الآية المتقدمة عقَّب ذلك في هذه بالتنبيه على أَفعاله لتبيّن العظمة المحكوم بها قبلُ. وقوله: ﴿لِتَسْكُنُواْ﴾ دال على أَن النهار للحركة والتصرف، وكذلك هو في الوجود، وذلك أَن حركة الليل متعذرة بفقد الضوءِ. وقوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مجازٌ، لأَن النهار لا يُبصر، ولكنه ظرف للإِبصار، وهذا موجود في كلام العرب، إِذ المقصود من ذلك مفهوم، فمن ذلك قول ذي الرمّة:

---

(١) يظهر من كلام أبي حيان أنه لا تكلف، لأن التقدير: إن الذين جعلوهم آلهة وأشركوهم مع الله في الربوبية ليسوا شركاءَ حقيقة، إذ الشركة في الألوهية مستحيلة. ولو لم نقدر (حقيقة) أو (حقاً) لدّل التعبير على نفي اتباعهم الشركاءَ مع أنهم اتبعوهم فعلاً.

(٢) قراءة التاءِ هي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه أيضاً كما قال الزمخشري، قال: ووجه هذه القراءة أن يحمل ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ على الاستفهام، أي: وأيّ شيءٍ يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيِّين؟ إنهم يتبعون الله تعالى ويطيعونه، فما لكم لا تفعلون مثل فعلهم؟ كقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾.
وفي إعراب ﴿مَا﴾ أجاز الزمخشري أَن تكون موصولة عطفاً على ﴿مَن﴾ والعائد محذوف، أي: والذي يتّبعه الذين يدعون من دون الله شركاءَ. وأجاز غيره أن تكون ﴿مَا﴾ موصولة في موضع رفع على الابتداء والخبر محذوف، والتقدير: والذي يتّبعه المشركون باطل.

لَقَدْ لُمْتِنَا يا أُمَّ غَيْلانَ في السُّرَى ... ونِمْتِ وما لَيْلُ المَطِيِّ بِنَائِمِ[١]

وليس هذا من باب النسب كعيشة راضية ونحوها ، وإنما ذلك مثل قول الشاعر:

أَمَّا النَّهَارُ فَفِي قَيْدٍ وسِلْسِلَةٍ ... واللَّيْلُ في بَطْنِ مَنحوتٍ من السَّاجِ[٢]

فجعل الليل والنهار بهاتين الحالتين ، وليس يريد إلا أنه هو فيهما كذلك ، وهذا البيت لمسجون كان يبيت في خشبة السجن ، وعلى أن هذا البيت قد ينشد: «أَما النهارَ» بالنصب ، وفي هذه الألفاظ إيجاز وإحاطة على ذهن السامع لأن العبرة هي في أَن الليل مظلم يُسكن فيه ، والنهار مبصر يُتصرف فيه. فذُكر طرف من هذا والطرف الآخر من الجهة الثانية ، ودلَّ المذكوران على المتروكين ، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾[٣]. وقوله: ﴿يَسْمَعُونَ﴾ يريد: ويَعُون. والضمير في ﴿قَالُواْ﴾ للكفار العرب ، وذلك قول طائفة منهم: «الملائكة بنات الله» ، والآية بعدُ تعُمّ كل من قال نحو هذا القول كالنصارى ومن يمكن أَن يعتقد ذلك من الكفرة. و﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ مصدر معناه: تنزيهاً له وبراءَة من ذلك ، فسّره بهذا النبي ﷺ ، وقوله: ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ صفة على الإطلاق ، أَي: لا يفتقر إِلى شيءٍ بجهة من الجهات ، والولد جزءٌ مما هو غني عنه ، والحق هو قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٤] ، وقوله: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالمِلْك والإحاطة والخلق ، و﴿إِنْ﴾ نافية ، والسلطان: الحجة ، وكذلك معناه حيث تكرر من القرآن[٥] ، ثم

---

(١) البيت لجرير لا لذي الرمّة ، وهو البيت رقم (٦) من قصيدة له يجيب بها الفرزدق ، ومطلعها:

لاخَيْـرَ فـي مُسْتَعْجَـلات المَـلاوِم ... ولا فـي خليـلٍ وصْلُـهُ غَيْـرُ دائِـم

وأُم غَيْلان: ابنة جرير ، والسُّرى: السَّيْر بالليل ، وقد أسند النوم إلى الليل على سبيل المجاز العقلي وأراد أنه هو نفسه لا ينام ، والإسناد إلى ظرف زمان هو الليل ، والنوم يقع فيه.

(٢) السّاج: خشب أسود لا تكاد الأرض تبليه يُجْلَب من الهند ، وواحدته: ساجة ، وقد جعل الشاعر النهار مقيداً بالسلاسل ، والليل محبوساً في بيت من الخشب الأسود المتين ، وهو يريد أن يصف نفسه بذلك ، ولم نقف على قائله فيما لدينا من المراجع.

(٣) من الآية (١٧١) من سورة (البقرة).

(٤) من الآية (١٥) من سورة (فاطر).

(٥) ﴿بِهَٰذَآ﴾ من قوله سبحانه: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ متعلق بمعنى الاستقرار وهو الذي تعلق به الظرف ، قال ذلك الحوفي، وتبعه الزمخشري فقال: «الباءُ حقها أن تتعلق بقوله: ﴿إِنْ عِندَكُم﴾ على أن يجعل القول مكاناً للسلطان، والتقدير: إن عندكم فيما تقولون سلطان». وقال أبو البقاء: «﴿بِهَٰذَآ﴾ متعلق بـ﴿سُلْطَٰنٍ﴾ أو نعتٌ له».

وقفهم موبّخاً بقوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الآية. هذا توعد لهم بأنهم لا يظفرون ببغية ولا يبقون في نعمة، إذ هذه حال من يصير إلى العذاب وإن نُعّم في دنياه يسيرا، وقوله: ﴿مَتَٰعٌ﴾ مرفوع على خبر ابتداءٍ، أي: ذلك متاع، أو هو متاع، أو على الابتداءِ بتقدير: لهم متاع. وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ إلى آخر الآية توعّد بحق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾.

تقدم في (الأعراف) الكلام على لفظة نوح، والمَقَام: وقوف الرجل لكلام أو لخطبة أو نحوه، والمُقَام أيضاً بضم الميم: إقامته ساكناً في موضع أو بلد، ولم يُقرأ هنا بضم الميم[١]، وتذكيرُه: وعظه وزجْرُهُ، والمعنى: يا قوم، إن كنتم تستضعفون حالي ودعائي لكم إلى الله فإني لا أُبالي عنكم[٢] لتوكلي على الله تعالى، فافعلوا ما قدرتم عليه.

وقرأ السبعة، وجمهور الناس: الحسن، وابن أبي إسحق، وعيسى: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾ من أجمع الرجل على شيءٍ إذا عزم عليه، ومنه قول الشاعر:

. . . . هلْ أغدُوَنْ يوماً وأمري مُجْمَعُ؟[٣]

ومنه قول الآخر:

أَجمعُوا أَمرَهمْ بليلٍ فلَمَّا ... أَصبَحوا أَصبحَتْ لهُمْ ضَوْضَاءُ[٤]

---

(١) قال أبو حيّان: «وليس كما ذكر، بل قرأ ﴿مُقَامِي﴾ بضم الميم أبو مجلز، وأبو رجاءٍ، وأبو الجوزاءِ».

(٢) تتعدى (بالَى) بنفسها أو بالباء فيقال: ما أباليه، وما أبالي بالأمر، ولم يسمع أنها تتعدى بعن.

(٣) هذا عجز بيت أورده صاحب «اللسان» في (جَمَعَ)، وهو من شواهد الفراء في «معاني القرآن»، وذكره القرطبي وأبو حيان في «البحر المحيط»، وهو كذلك في «الصحاح» و«التاج»، والبيت بتمامه:

يا ليتَ شِعْري والمُنى لا تَنْفَعُ ... هلْ أغدُونْ يوماً وأمْري مُجْمَعُ؟

قال في «اللسان»: «وجمع أمره، وأجمعه، وأجمع عليه: عزم عليه كأنه جمع نفسه له، والأمر مُجْمَع، ويقال أيضاً: أجْمِعْ أمْرَك ولا تَدَعْه مُنْتَشِراً».

(٤) هذا البيت من شواهد النحويين، ولم يذكره من المفسرين غير ابن عطية والبحر المحيط، وأجمعوا=

ومن الحديث: «ما لم يُجْمِعْ مُكْثاً»(١)، ومنه قول أبي ذُؤَيب:

ذَكَرَ الوُرُودَ بها فأَجْمَعَ ... شوقاً وأَقْبَلَ حَيْنُهُ يَتَتَبَّعُ(٢)

وقرأ نافع ـ فيما روى عنه الأصمعي ـ وهي قراءَة الأعرج، وابن أَبي رجاءٍ، وعاصم الجحدري، والزهري، والأعمش: [فَاجْمَعُوا] بفتح الميم من جَمَع إِذا ضمَّ شيئاً إلى شيءٍ. و﴿أَمْرَكُمْ﴾ يريد به: قدرَتكم وحياتكم، ويؤيد هذه القراءَة قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾(٣)، وكل هؤلاءِ نصب (الشركاءَ)، ونَصْب قوله: ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ يحتمل أَن يعطف على قوله: ﴿أَمْرَكُمْ﴾، وهذا على قراءَة ﴿فَاجْمَعُوا﴾ بالوصل(٤)، وأَما من قرأَ: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾ بقطع الألف فنصب «الشركاءَ» بفعل مضمر كأَنه قال: «وادعوا شركاءكم»، فهو من باب قول الشاعر:

شَرَّابُ أَلْبَانٍ وتَمْرٍ وأَقِطْ(٥)

ومن قول الآخر:

ورأَيْتِ زوْجَكِ في الوَغَى ... مُتَقَلِّداً سَيْفاً ورُمْحا(٦)

= أمرهم: عزموا عليه واتفقوا، والشاعر في البيت يصور اتفاقهم على أمرهم بالليل، فلما جاء الصباح كان لهم ضجيج وضوضاءٌ، هذا ينادي، وذاك يجيب، وبين الإجابة والنداء يرتفع الرغاءُ والثغاءُ.

(١) هذا جزءٌ من حديث عن صلاة المسافر رواه الموطأ، ولفظه: «أُصلّي صلاة المسافر مالم أَجْمع مُكثاً»، أي أعزِم إقامة. هكذا في «النهاية»، وفي «الموطأ»، وراجع أيضاً «المعجم الفهرس لألفاظ الحديث النبوي ـ مكث».

(٢) وَرَدَ المكان: أشرف عليه سواءٌ دخل أم لم يدخل، والمعنى هنا: «تذكر الوصول إلى غايته»، وأجمع أمره: عزم وصمم من شدة شوقه، والحَيْنُ: الهلاك. يصور شوقه ورغبته في ورود الماء وسعيه إليه ومن ورائه الهلاك.

(٣) من الآية (٦٠) من سورة (طه).

(٤) ويحتمل أن يكون منصوباً على أنه مفعول معه، أو على حذف مضاف، أي: ذوي الأمر منكم، فجرى على المضاف إليه ما جرى على المضاف لو ثبت. قال أبو حيان في البحر نقلا عن أبي علي الفارسي، وقد نقل المؤلف احتمال النصب على المعية عن الفارسي.

(٥) لأن التمر لا يشرب وكذلك الأقط فلابد من فعل محذوف تقديره: «وأكَّال»، لأن في المذكور من الكلام دليل على المحذوف. والأقِط: لبن محمّض يجمّد حتى يستحجر ويطبخ، أو يطبخ به.

(٦) والرمح لا يُتَقلّد بل يحمل، ولهذا يقدر الناصب: «وحاملاً»، وقائل البيت هو عبد الله بن الزبعرى كما في الكامل للمبرد، ويروى: «ياليت زوجك قد غدا». هذا وقد سبق الاستشهاد به في المجلد الأول، ص ١١٤.

ومن قول الآخر:

عَلَفْتُهَا تِبْناً وماءً بارداً حتَّى شَتَتْ همَّالَةً عيناها[١]

وفي مصحف أُبي بن كعب: «فأَجمعوا أَمركم وادعوا شركاءكم»، قال أَبو علي: وقد ينتصبُ «الشركاءُ» بواو مَعْ، كما قالوا: «جاءَ البريد والطيالسة». وقرأَ أَبو عبد الرحمن، والحسن، وابن أَبي إِسحق، وعيسى، وسلام، ويعقوب، وأَبو عمرو فيما رُوي عنه: [وشُرَكَاؤُكُم] بالرفع عطفاً على الضمير في: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾، وعطف على الضمير قبل تأكيده لأن الكاف والميم في ﴿أَمْرَكُمْ﴾ ناب مناب «أَنتم» المؤكد للضمير، ولطول الكلام أَيضاً. وهذه العبارة أَحسن من أَن يطول الكلام بغير ضمير[٢]، ويصح أَن يرتفع بالابتداءِ والخبر مُقدّر، تقديره: «وشركاؤُكم فليجمعوا»، وقرأَت فرقة: ﴿وشُرَكَائِكُم﴾ بالخفض على العطف على الضمير في قوله تعالى: ﴿أَمْرَكُمْ﴾، والتقدير: «وأَمر شركائكم» فهو كقول الشاعر:

أَكُلَّ امْرِئٍ تحسَبينَ امرءاً ونارٍ تَوَقَّدُ باللَّيْلِ نارا؟[٣]

أَي: وكل نار، والمراد بالشركاءِ في هذه الآية الأَنداد من دون الله، فأَضافهم إِليه إِذ يجعلونهم شركاءَ بزعمهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أَي: ملتبساً مُشْكلاً. ومنه قوله ﷺ في

---

(١) والماءُ لا يعلف، ولهذا يقدر الناصب: «وَسَقَيْتُهَا»، ويروى: (بدت) و(غدت) بدلا من (شتت) والمعنى واحد، والبيت في ابن عقيل والعيني. وقد روي البيت بلفظ آخر سبق أن ذكرناه في المجلد الأول ص ١١٤ وهو:

لما حطَطْتُ الرَّحْلَ عَنْهَا وارداً عَلَفْتُهَا تِبْنَاً وماءً بارداً

والبيت مجهول القائل، وقيل: إنه لذي الرمّة.

(٢) وقد جاز العطف على الضمير بدون تأكيد لطول الكلام بـ﴿لَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ (١٤٨ـ الأنعام) وذلك مع وقوعها بعد الواو، فمن باب أولى يجوز هنا للفصل بالكاف والميم الواقعين قبل الواو. ولكن ذلك ليس في قوة التأكيد نحو قوله تبارك وتعالى: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، وذلك لأن التوكيد فيه معنى لا يوجد في الفصل بغيره، إذ هُوَ يُثْبِتُ معنى الاسمية للمضمر المتصل الذي مازج الفعل وصار كجزء منه فضعف الفعل عن أن يعطف عليه، لكنه إذا أُكِّد صار فيه حيّزُ الأسماء ولحق بما يحسن العطف عليه. قاله أبو الفتح في كتابه «المحتسب».

(٣) نسب هذا البيت لجارية بن الحجاج، ولحارثة بن حمران، ولعدي بن زيد، ولكن المشهور أنه لأبي دؤاد، وهو في الكتاب لسيبويه، وفي الكامل للمبرد، وفي ابن عقيل.

الهلال: «فإنْ غُمّ عليكم»، ومنه قول الراجز:

بَـلْ لَـوْ شهِـدْتِ النَّـاسَ إذْ تُكُمُّـوا   بِغُمَّـةٍ لَـوْ لَـمْ تَفَـرَّجْ غُمُّـوا(١)

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ معناه: أَنفذوا قضاءكم نحوي، وقرأ السَّريُّ بن ينْعُم: [ثُمَّ أَفْضُوا] بالفاءِ وقطع الألف، ومعناه: أَسرعوا، وهو مأْخوذ من الأرض الفضاءِ، أَي: اسلكوا إِليَّ بكيدكم واخرجوا معي وبي إلى سعة(٢)، وقوله: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: ولا تؤخرون، والنَّظِرة: التأخير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

المعنى: فإن لم تقبلوا على دعوتي وكفرتم بها وتوليتم عنها، التولِّي أَصله بالبدن، ويستعمل في الإعراض عن المعاني، يقول: فأَنا لم أَسأَلكم أجراً على ذلك ولا مالاً فيقع منكم قطع لي وتقصير بإرادتي وإنما أَجري على الذي بعثني. وقرأَ نافع، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ: [أَجْري] بسكون الياءِ، وقرأَ: [أَجْرِيَ] بفتح الياءِ الأَعرجُ، وطلحة بن مصرف، وعيسى، وأَبو عمرو. وقال أَبو حاتم: هما لغتان، والقراءَة بالإسكان في كل القرآن. ثم أَخبرهم أن الله أَمره بالإسلام والدين الحنيف الذي هو توحيد الله والعمل بطاعته والإعداد للقائه.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ الآية. إخبار من الله عزَّ وجلَّ عن حال قوم نوح المكذبين

---

(١) الراجز هو العجاج، والبيت في ديوانه، ونسبه له ابن منظور في «اللسان» والقرطبي في تفسيره، ونسبه الطبري إلى رؤبة، وهذا غير صحيح، والبيت مطلع أرجوزة للعجاج يذكر مسعود بن عمرو العتكي من الأزد، وتُكُمّوا بضم التاء والكاف: أُلبسوا كمة فتغطوا بها، والأصل: تكمموا بميمين من كَمَمْتُ الشيءَ إذا سترته، ثم أبدلت الميم الأخيرة ياء فصار في التقدير: تكميوا، ثم حذفت الياءُ فصارت: تُكُمّوا، نقل ذلك «التاج» عن الفراء، والغَمُّ والغُمَّةُ: الكرب، والمعنى: تغطّوا بالكرب والهم.

(٢) قال أبو الفتح: هو أَفْضَيتُ من الفضاءِ، وذلك أنه إذا صار إلى الفضاء تمكن من الإسراع، ولام أفضيت والفضاءُ وما تصرف منهما واوٌ لقولهم: فضا الشيءُ يفضُوا فُضُواً إذا اتَّسع، وقولهم: أفضيت: صرت إلى الفضاء، مثل أنجدت: صرت إلى نجد.

له ، وفي ضمن ذلك الإخبار توعّد للكفار بمحمد ﷺ وضرب المثال لهم ، أَي: أَنتم بحال هؤلاءِ من التكذيب فستكونون بحالهم من النقمة والتعذيب ، و﴿ٱلْفُلْكِ﴾: السفينة ، والمفسرون وأَهل الآثار مجمعون على أَن سفينة نوح كانت واحدة ، والفلك لفظ الواحد منه ولفظ الجمع مستو ، وليس به ، وقد مضى شرح هذا في (الأَعراف) ، و﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ جمع خليفة ، وقوله: ﴿فَٱنظُرْ﴾ مخاطبة للنبي ﷺ يشاركه في معناها جميع الخلق ، وفي هذه الآية أَنه أَغرق جميع من كذَّب بآيات الله التي جاءَ بها نوح عليه السلام ، وهي مقتضية أَيضاً أَنه أَنذرهم فكانوا منذرين ، فلو كانوا جميع أَهل الأَرض كما قال بعض الناس لاستوى نوحٌ ومحمدٌ عليهما الصلاة والسلام في البعث إِلى أَهل الأَرض ، ويردّ ذلك قول النبي ﷺ: «أُعطيت خمْساً لم يُعطهن أَحدٌ قبلي» الحديث[1] ، ويترجح بهذا النظر أَن بعثة نوح عليه السلام والغرق إِنما كان[2] في أَهل صقع لا في جميع الأَرض.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

الضمير في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ عائد على نوح عليه السلام ، والضمير في ﴿قَوْمِهِمْ﴾ عائد على الرسل ، ومعنى هذه الآيات كلها ضرب المثل لحاضري محمد ﷺ ، أَي: كما حلَّ بهؤلاءِ يحِلُّ بكم ، والبيِّنَات: المعجزات والبراهين الواضحة ، والضمير في قوله: ﴿كَانُوا۟﴾ وفي ﴿لِيُؤْمِنُوا۟﴾ عائد على قوم الرسل ، والضمير في ﴿كَذَّبُوا۟﴾ عائد على قوم نوح عليه السلام ، وهذا قول بعض المتأَولين ، وقال بعضهم: بل يَعود الثلاثة على قوم الرسل على معنى أَنهم بادروا رسلهم بالتكذيب كلما

---

(١) الحديث مشهور رواه الشيخان البخاري ومسلم ، ورواه النسائي ، وتمامه: «نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلت لي الأَرض مسجداً وتربَتها طهوراً فأيما رجل من أُمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأُحلت لي الغنائم ولم تحِل لأحد قَبْلي ، وأُعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة».

(٢) هكذا في جميع النسخ.

جاءَ رسول، ثم لَجوا في الكفر وتمادوا فلم يكونوا ليؤمنوا بما سبق به تكذيبهم. وقال يحيى بن سلاّم[١]: ﴿مِن قَبْلُ﴾ معناه: من قبل العذاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا القول بُعد، ويحتمل اللفظ عندي معنى آخر وهو أَن تكون (ما) مصدرية، والمعنى: فكذبوا رسلهم فكان عقابهم من الله أَن لم يكونوا ليؤمنوا بتكذيبهم من قبل، أَي من سببه ومن جرائه[٢]. ويؤيد هذا التأويل قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾. وقال بعض العلماءِ: عقوبة التكذيب الطبْعُ على القلوب. وقرأ جمهور الناس: ﴿نَطْبَعُ﴾ بالنون، وقرأ العباس بن الفضل: [يَطْبَعُ] بالياءِ، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَي: هذا فِعلنا بهؤلاءِ، ثم ابتدأ: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾ أَي: كفعلنا هذا. و﴿ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ هم الذين تجاوزوا طورهم، واجترحوا ما لا يجوز لهم وهي ها هنا في الكفر.

والضمير في ﴿بَعْدِهِم﴾ عائد على الرسل، والضمير في ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ عائد على فرعون، والملأُ: الجماعة من قبيلة وأَهل مدينة، ثم يقال للأَشراف والأَعيان من القبيلة أَو البلد ملأٌ، أَي: هم يقومون مقام الملأَ، وعلى هذا الحدّ هي في قول رسول الله ﷺ في قريش بدر: «أُولئك الملأُ»، وكذلك هي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾[٣]، وأَما في هذه الآية فهي عامة لأَن بعثة موسى وهارون كانت إِلى فرعون وجميع قومه من شريف ومشروف، وقد مضى في ﴿الٓمٓصٓ﴾ ذكرهما وما بُعثا إِليهم فيه. والآيات: البراهين والمعجزات وما في معناها، وقوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ أَي: تعظموا وكفروا بها، و﴿مُّجْرِمِينَ﴾ معناه: يرتكبون ما لم يُبح الله ويجسرون من ذلك على الخطر الصعب.

---

(١) يحيى بن سَلاَّم بن أبي ثعلبة، التيمي بالولاء، البصري ثم الأفريقي، مفسِّر، فقيه، عالم بالحديث واللغة، ولد بالكوفة ورحل طويلاً ثم توفي بمصر سنة ٢٠٠هـ. ومن كتبه «تفسير القرآن»خ. و«اختيارات الفقه» و«الجامع»، وله مصنفات كثيرة في العلم.

(٢) قال أبو حيان: «والظاهر أن ﴿فَمَا﴾ موصولة، ولذلك عاد الضمير عليها في قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ﴾، ولو كانت مصدرية لبقي الضمير غير عائد على مذكور فتحتاج أن يتكلف ما يعود عليه الضمير».

(٣) من الآية (٢٠) من سورة (القصص).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

يريد بالحق آيتَي العصا واليد، ويدل على ذلك قولهم عندهما: «هذا سحر»، ولم يقولوا ذلك إلا عندهما، ولم يتعاطوا إلا مقاومة العصا فهي معجزة موسى عليه السلام التي وقع فيها عجز المعارض. وقرأ جمهور الناس: ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وقرأ سعيد بن جُبَيْر، والأعمش: [لَسَاحِرٌ مُبِين][1].

ثم اختلف المتأَلون في قوله: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ فقالت فرقة: هو حكاية من موسى عنهم على معنى أَن قولهم كان: «أَسِحْرٌ هَذَا»؟ ثم اختلف في معنى قول قوم فرعون: «أَسحرٌ هذا»؟ فقال بعضهم: قالها منهم كل مستفهم جاهل بالأَمر فهو يسأَل عنه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا التأْويل يضعفه ما ذكر الله قبلُ عنهم من أَنهم صمموا على أَنه سحرٌ بقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. وقال بعضهم: بل قالوا ذلك على معنى التعظيم للسحر الذي رأَوه بزعمهم، كما تقول لفرس تراه يجيد الجري: «أَفرسٌ هذا»؟ على معنى التعجب منه والاستغراب وأَنت قد علمت أَنه فرس. وقالت فرقة غير هاتين: ليس ذلك حكاية من موسى عنهم، بل القول الذي حكاه عنهم مقدر تقديره: أَتقولون للحق لما جاءَكم سحرٌ؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

أَو نحو هذا من التقدير، ثم ابتدأَ يوقفهم بقوله: «أَسحرٌ هذا»؟ على جهة التوبيخ، ثم أَخبرهم عن الله تعالى أَن السَّاحرين لا يفلحون ولا يظفرون ببغية، ومثل هذا التقدير المحذوف على هذا التأْويل موجود في كلام العرب، ومنه قول ذي الرمّة:

---

(١) على قراءة الجمهور تكون ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى الفعل الذي حدث للعصا. وعلى قراءة سعيد والأعمش تكون ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى موسى عليه السلام.

فَلَمَّـا لَبِسْـنَ اللَّيْـلَ أَوْ حيـنَ نصَّبَـتْ ... لـهُ مِـنْ خَـذا آذانِهَـا وهـو جَـانـحُ[١]

يريد: أو حين قاربن ذلك، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾[٢]، المعنى: بعثناهم لِيَسؤُوا، ومثل هذا كثير شائع.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا﴾ الآية. المعنى: قال قوم فرعون لموسى: أجئتنا لتصرفنا وتلْوينا وتردّنا عن دين آبائنا؟ يقال: «لفت الرجل عن الآخر» إذا لواه، ومنه قولهم: الْتفت، فإنه افتعل من لفت عنقه، ومنه قول رؤْبة:

لفتـاً وتَهْـزيعـاً سـواءَ اللَّفْـتِ ... .[٣]

وقرأ السبعة سوى أبي عمرو ـ فإنه اختلف عنه ـ: و﴿وَتَكُونَ﴾ بالتاءِ من فوق، وهي قراءَة جمهور الناس، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ـ فيما زعم خارجة وإسماعيل ـ: [وَيَكُونَ] بالياءِ من تحت، ورويت عن أبي عمرو، وعن عاصم، وهي قراءَة ابن مسعود. و﴿ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾ مصدر مبالغ من الكبر، والمراد به ـ في هذا الموضع ـ الملك، وكذلك قال فيه مجاهد، والضحاك، وأكثر المتأولين، لأنه أعظم تكبر الدنيا، ومنه قول الشاعر:

سُـؤْدُداً غيْـرَ فـاحِـشٍ لا يُـدا ... نيـهِ تَجْبـارُهُ ولا كبْـريـاءُ[٤]

---

(١) البيت في الديوان، وقوله: «لبسن الليل»: أَدْلَجْن فيه وسَتَرَهُنَّ حتى صار لباساً لهنّ، و«خذا آذانها»: استرخاؤها، والأخذى: المسترخي الأذن، والجانح هو الليل، يقال: جَنَح الليْلُ بمعنى: مال للذهاب أو المجيءِ.

(٢) من الآية (٧) من سورة (الإسراء).

(٣) هذا بيت لرؤبة قاله ضمن قصيدة عن نفسه جاء مطلعها:

يـا بنْـتَ عمْـروٍ لا تَسُبّـي بِنْتـي ... حَسْبُـكِ إحْسَـانُـكِ إنْ أحْسَنْـتِ

وبعده يقول:

. . . . وطـامِـح النَّخْـوَةِ مُسْتكِـتّ

واللَّفْتُ: اللَّيّ، يقال: لفتَه يَلْفِتُه لفْتاً إذا لواه وصرفه، والتهزيع: التكسير أو دقّ العنق، وسواء اللفت: سوَى اللَّفْتِ. يقول: التَّهْزيع غير اللَّفْت. ومن اللفت قول الشاعر:

تَلَفَّـتُّ نَحْـوَ الحَـيِّ حَتَّـى رَأَيْتُنـي ... وَجِعْـتُ مِـن الإصْغَـاءِ ليتـاً وأخْـدَعَـا

(٤) السؤدد: المجد والشرف والسيادة، غير فاحش: ليس فيه بغي ولا تجبر ولا عدوان ولا تخالطه الكبرياء، والتّجبار: مصدر بمعنى الجبر والقهر، والكبرياء بوزن فعلياء هي العظمة إذا كانت وصفاً لله سبحانه، فإذا كانت وصفاً للمخلوقين فهي التكبر والاستعلاء على الناس مع الظلم لهم.

وقوله: ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بمصدقين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝٧٩ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٨٠ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨٢﴾.

يخبر أَن فرعون قال لخدمته ومتصرفيه: ائتوني بكل ساحر، هذه قراءَة جمهور الناس، وقرأَ طلحة بن مصرف، ويحيى بن وثاب، وعيسى: [بِكُلِّ سَحَّارٍ] على المبالغة، قال أَبو حاتم: لسنا نقرأُ [سَحَّار] إلا في سورة الشعراءِ، فروي أَنهم أَتوه بسحرة الفرما وغيرها من بلاد مصر حسبما قد ذكر قبل في غير هذه الآية، فلما ورد السحرة باستعدادهم للمعارضة خيّروا موسى كما ذكر في غير هذه الآية، فقال لهم عن أَمر الله ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾ الآية. المعنى: فلما أَلقوا حبالهم وعصيهم وخيّلوا بها وظنوا أَنهم قد ظهروا قال لهم موسى هذه المقالة. وقرأَ السبعة سوى أَبي عمرو. ﴿بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ وهي قراءَة جمهور الناس، وقرأَ أَبو عمرو، ومجاهد، وأَصحابه، وابن القعقاع: [به آلسّحر] بأَلف الاستفهام ممدودة قبل «السحر»، فأَما من قرأَ ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ بغير أَلف استفهام قبله فـ﴿مَا﴾ في موضع رفع على الابتداءِ، وهي بمعنى الذي وصلتها قوله: ﴿جِئْتُم بِهِ﴾، والعائد الضمير في ﴿بِهِ﴾، وخبرها ﴿ٱلسِّحْرُ﴾، ويؤيد هذه القراءَة والتأْويل أَنَّ في مصحف ابن مسعود: [ما جئتم به سحر]، وكذلك قرأَها الأَعمش، وفي قراءَة أُبي بن كعب: [مَا أَتَيْتُم به سِحْرٌ] والتعريف هنا في ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ أَرتب لأَنه تقدم مُنكراً في قولهم: [إِنَّ هذا لَسِحْر] فجاءَ هنا بلام العهد. كما يقال في أَول الرسالة: «سلام عليك»، وفي آخرها: «والسلام عليك»[2]، ويجوز أَن تكون

---

(١) راجع تفسير الأعراف ابتداءً من قوله تعالى في الآية (١٠٣): ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وما بعد ذلك من آيات نزلت في قصة موسى عليه السلام.

(٢) قال أبو حيان في «البحر» تعقيباً على ذلك: «وهذا أخذه من الفراء، قال الفراء: وإنما قال: ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ بالألف واللام لأن النكرة إذا أُعيدت أُعيدت بالألف واللام، ولو قال له: مَن رَجُلٌ؟ لم يقع في وهمه أنه يسأله عن الرجل الذي ذكره له ا.هـ. وما ذكراه هنا في السحر ليس هو من باب تقدم النكرة ثم=

﴿مَا﴾ استفهاماً في موضع رفع بالابتداءِ، و﴿جِئْتُم بِهِ﴾ الخبر، و﴿ٱلسِّحْرُ﴾ خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: «هو السحر إن الله سيبطله»، ووجه استفهامه هذا هو التقرير والتوبيخ. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ في موضع نصب على معنى: «أيَّ شيءٍ جئتم به»، و﴿ٱلسِّحْرُ﴾ مرفوع على خبر الابتداءِ، وتقدير الكلام: «أيَّ شيءٍ جئتم به هو السحر إن الله سيبطله». وأما من قرأ بألف الاستفهام والمدّ قبل ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ فـ﴿مَا﴾ استفهام رفع بالابتداءِ، و﴿جِئْتُم بِهِ﴾ الخبر، وهذا على جهة التقرير، وقوله: ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ استفهام أيضاً كذلك، وهو بدل من الاستفهام الأول، ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ في موضع نصب بمضمر تفسيره في قوله: ﴿جِئْتُم بِهِ﴾، وتقديره: «أي شيءٍ جئتم به السحر»، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ إيجاب عن عِدَةٍ من الله تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ الآية. يحتمل أن يكون من كلام موسى عليه السلام، ويحتمل أن يكون من إخبار الله عزَّ وجلَّ، وكون ذلك كله من كلام موسى عليه السلام أقرب، وهو الذي ذكره الطبري، وأما قوله: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ فمعناه: بكلماته السابقة الأزلية في الوعد بذلك، قال ابن سلاَّم: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بقوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾، ومعنى ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: وإن كره المجرمون. والمجرم: المجترم الراكب للخطر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

المعنى: فما صدق موسى، ولفظة ﴿ءَامَنَ﴾ تتعدى بالباءِ، وتتعدى باللام وفي ضمن المعنى الباءُ، واختلف المتأولون في عود الضمير الذي في ﴿قَوْمِهِۦ﴾، قالت

= الإخبار عنها بعد ذلك، لأن شرط هذا أن يكون المعرف بالألف واللام هو النكرة المتقدم لا غيره، كما قال تبارك وتعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾، والسحر هنا ليس هو السحر الذي في قولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ﴾ لأنهم أخبروا عن الأمر الذي فعله موسى عليه السلام، والسحر الذي في قول موسى عليه السلام إنما هو سحرهم الذي جاءوا به، فقد اختلف المدلولان».

فرقة: هو عائد على موسى عليه السلام، وقالت فرقة: هو عائد على فرعون، فمن قال إن العود على موسى عليه السلام قال: معنى الآية وصف حال موسى عليه السلام في أول مبعثه أنه لم يؤمن به إلا فتيان وشباب أكثرهم أُولوا آباءٍ كانوا تحت خوف من فرعون ومن ملإٍ بني إسرائيل، فالضمير في [المَلإِ] عائد على الذرية، وتكون الفاءُ ـ على هذا التأويل ـ عاطفة جملة على جملة لا مرتبة. وقال بعض القائلين بعود الضمير على موسى عليه السلام: إن معنى الآية أن قوماً أدركهم موسى عليه السلام ولم يؤمنوا به، وإنما آمن ذرياتهم بعد هلاكهم لطول الزمان، قاله مجاهد، والأعمش، وهذا قول غير واضح، وإذا آمن قوم بعد موت آبائهم فلا معنى لتخصيصهم باسم الذرية، وأيضاً فما روي من أخبار بني إسرائيل لا يعطي هذا، وهيئة قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ﴾ تعطي تقليل المؤمنين به، لأنه نفى الإيمان ثم أوجبه للبعض، ولو كان الأكثر مؤمناً لأوجب الإيمان أولاً ثم نفاه عن الأقل، وعلى هذا الوجه يتخرج قول ابن عباس رضي الله عنهما في الذرية: «إنه القليل»، لا أنه أراد أن لفظة الذرية هي بمعنى القليل كما ظن مكي وغيره. وقالت فرقة: إنما سمّاهم ذُرّية لأن أُمهاتهم كانت من بني إسرائيل وآباءَهم من القبط، فكان يقال لهم: الذُّرّية كما قيل لِفُرْس اليمن: الأبناءُ، وهم الفُرْس المنتقلون من وهرز بسعاية سيف بن ذي يزن[١]، والأمر بكماله في السّير. وقال السُّدي: كانوا سبعين أهل بيت من قوم فرعون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومما يضعف عود الضمير على موسى عليه السلام أن المعروف من أخبار بني إسرائيل أنهم كانوا قوماً قد تقدمت فيهم النبوات، وكانوا في مدة فرعون قد نالهم ذلٌّ مفرط وقد رجوا كشفه على يدي مولود يخرج فيهم يكون نبياً، فلما جاءَهم موسى عليه السلام أصفقوا عليه[٢] واتبعوه، ولم يحفظ قط أن طائفة من بني إسرائيل كفرت به،

---

(١) وهْرز: كان سجيناً عند كسرى، وكان ذا حسب ونسب وفضل وسِنّ بين قومه، فلما استنجد سيف بن ذي يزن بكسرى ليساعده ضد مسروق بن أبرهة ملك الحبشة بعد أن غلب وتسلط على أرض اليمن أمده كسرى بجيش، واختار وهرز ليضعه على رأس هذا الجيش لفضله وسنه وحسبه. (راجع كتب السيرة، وبخاصة سيرة ابن هشام).

(٢) يقال أصْفَق على هذا، أوْلَهُ: أطبقوا عليه واجتمعوا. (المعجم الوسيط).

فكيف تعطي هذه الآية أَن الأَقل منهم كان الذي آمن؟ فالذي يترجح ـ بحسب هذا ـ أَن الضمير عائد على فرعون ، ويؤيد ذلك أَيضاً ما تقدم من محاورة موسى عليه السلام وردّه عليهم وتوبيخهم على قولهم: «هذا سحر» ، فذكر الله ذلك عنهم ثم قال: فما آمن لموسى إِلا ذرية من قوم فرعون الذين هذه أَقوالهم ، وروي في ذلك أَنه آمنت زوجة فرعون وخازنه وامرأَة خازنه وشباب من قومه ـ قاله ابن عباس رضي الله عنهما ـ والسَّحرةُ أَيضاً فإِنهم معدودون في قوم فرعون ، وتكون القصة ـ على هذا التأْويل ـ بعد ظهور الآية والتعجيز بالعصا ، وتكون الفاءُ مرتبة للمعاني التي عطفت(١) .

ولاعتقاد الفراءِ وغيره عود الضمير على موسى عليه السلام تخبطوا في عود الضمير في ﴿مَلَإِيْهِمْ﴾ فقال بعضهم: ذِكْر فرعون وهو الملك يتضمن الجماعة والجنود ، كما تقول: «جاءِ الخليفة ، وسافر الملك» وأَنت تريد جيوشه معه ، وقال الفراءُ: المعنى: «على خوف من آل فرعون وملَئِهم» ، وهو من باب: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾(٢) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التنظير غير جيد لأَن إِسقاط المضاف في قوله: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ هو سائغ بسبب ما يعقل من أَن القرية لا تسأَل ، ففي الظاهر دليل على ما أُضمر ، وأَما ها هنا فالخوف من فرعون متمكن لا يحتاج معه إِلى إِضمار ، أَما إِنه ربما احتج بأَن الضمير المجموع في ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ يقتضي ذلك ، والخوف إِنما يكون من الأَفعال والأَحداث التي للجثة ، ولكن لكثرة استعماله ولقصد الإِيجاز أُضيف إِلى الأَشخاص.

وقوله: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ بدل من ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وهو بدل الاشتمال ، فـ﴿أَن﴾ في موضع خفض ، ويصح أَن تكون في موضع نصب على المفعول من أَجله ، وقرأَ الحسن ،

---

(١) يظهر من كلام ابن عطية أنه يؤيد الرأي القائل بأن الضمير في قوله تعالى: ﴿قَوْمِهِۦ﴾ يعود على فرعون ، وأن القول بعوده على موسى ضعيف ، ولكن الطبري ومن وافقه يؤيدون رأيهم بعود الضمير على موسى بأمور ، منها: أنه أقرب مذكور والحديث عنه ، وقد مضى الحديث عن فرعون من مدة ، فالأولى عود الضمير على أقرب مذكور وهو موسى. ومنها أنه لوكان عائداً على فرعون لما ذكر بعد ذلك في قوله: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ بل لقيل: «على خوف منه». ومنها أنه يمكن أن يكون المعنى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ﴾ أي: ما أظهر إيمانه وأعلنه إلا ذرية من قوم موسى عليه السلام ، فلا يدل ذلك على أن طائفة من بني إسرائيل كفرت بموسى. وقد ردَّ ابن عطية على بعض ما تقدم وهو الإظهار لاسم فرعون بدلاً من الإضمار.

(٢) من الآية (٨٢) من سورة (يوسف).

والجراح ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ بضم الياءِ. ثم أَخبر عن فرعون بالعلوّ في الأَرض والإِسراف في الأَفعال والقتل والدعاوي ليتبيّن عذر الخائفين.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ﴾ إلى ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. ابتداءُ حكاية قول موسى عليه السلام لجماعة بني إِسرائيل المؤمنين منهم مؤنساً لهم ونادباً إِلى التوكل على الله الذي بيده النصر، ومسأَلة التوكل متشعبة للناس فيها خوضات، والذي أَقول: إِن التوكل الذي أُمرنا به هو مقترن بتسبب جميل على مقتضى الشرع، وهو الذي في قوله ﷺ: «قَيِّدها وتَوَكَّلْ»[(١)]، فقد جعله متوكلاً مع التقييد، والنبي ﷺ رأْس المتوكلين، وقد تسبَّب عمره كله، وكذلك السلف كله، فإِن شذَّ متوكل فترك التسبب جملة فهي رتبة رفيعة ما لم يُسرف بها إِلى حد قتل نفسه وإِهلاكها، كمن يدخل غاراً خفياً يتوكل فيه فهذا أَو نحوه مكروه عند جماعة من العلماءِ، وما رُوي من إِقدام عامر بن قيس على الأَسد ونحو ذلك كله ضعيف، وللصحيح منه قرائن تسهله، وللمسلمين أَجمعين قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[(٢)]، ولهم قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟﴾[(٣)]، وقول النبي ﷺ في مدح السبعين أَلفاً من أُمته: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[(٤)] ليس فيه أَنهم يتركون التَّسَبُّب جملة واحدة، ولا حفظ عن عكاشة أَنه ترك التَّسبب، بل كان يغزو ويأْخذ سهامه[(٥)]. وأَعني بذلك ترك التسبب في الغذاءِ، وأَما ترك التسبب في الطب فسهل وكثير من الناس جُبِل عليه دون نيّة وحسبة، فكيف بمن

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» عن عمرو بن أُمية الضمري، ورواه ابن حبان في صحيحه عن عمرو بن أُمية أيضاً بلفظ: (اعقلها وتوكل)، وبنفس اللفظ رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه، وأخرجه ابن خزيمة والطبراني من طريق عمرو بن أُمية الضمري بإسناد جيد بلفظ (قيدها وتوكل). ورمز له السيوطي في «الجامع الصغير» بالضعف، غير أن المناوي نقلاً عن الزركشي قال: إن القطّان إنما أنكره من حديث أنس، هذا وقد سبق الاستشهاد به.

(٢) من الآية (١٩٨) من سورة (البقرة).

(٣) من الآية (٢٣) من سورة (المائدة).

(٤) من الآية (٢) من سورة (الأنفال).

(٥) عُكاشة بن مِحْصن صحابي جليل، شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ، وقُتل في حرب الردّة، وقد ذكر في الصحيحين في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، فقال عكاشة حين سمع ذلك: ادع الله أن يجعلني منهم «فقال صلوات الله عليه وسلامه: أنت منهم» ومع أن النبي ﷺ قد بشره بالجنة، فإنه ما تأخر عن الأخذ بالأسباب، فاشترك في كل الحروب والغزوات، وهذا عند ابن عطية دليل على أن التوكل على الله لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب.

يحتسب؟ وقال لهم: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم﴾ مع علمه بإيمانهم على جهة إقامة الحجة وتنبيه الأنفس وإثارة الأنفة، كما تقول: «إن كنت رجلا فقاتل» تخاطب بذلك رجلا تريد إقامة نفسه. وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ يريد: أهل الطاعة منضافة إلى الإيمان المشروط، فَذِكْرُ الإسلام فيه زيادة معنى. ثم ذكر أنه أجاب بنو إسرائيل بنيّة التوكل على الله والنطق بذلك، ثم دعوا في ألا يجعلهم فتنة للظَّلَمة، والمعنى: لا تنزل بنا بلاءً بأيديهم أو بغير ذلك مدة مجاورتنا لهم فيفتنون ويعتقدون أن إهلاكنا إنما هو بقصد منك لسوءِ ديننا وصلاح دينهم، وأنهم أهل الحق. قاله مجاهد وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا الدعاءُ ـ على هذا التأويل ـ يتضمن دفع فصلين، أحدهما: القتل والبلاءُ الذي توقعه المؤمنون، والآخر: ظهور الشرك باعتقاد أهله أنهم أهل الحق، وفي ذلك فساد الأرض، ونحو هذا المعنى قول النبي ﷺ: «بئس الميت أبو أُمامة ليهود والمشركين، يقولون: لو كان نبياً لم يمت صاحبه»[(١)]، ويحتمل اللفظ من التأويل، وقد قالته فرقة: إن المعنى: لا تفتنهم وتبتلهم بقتلنا فتعذبهم على ذلك في الآخرة، وفي هذا التأويل قلق بيّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

روي أن فرعون أخاف بني إسرائيل وهدم لهم مواضع كانوا اتخذوها للصلاة ونحو

(١) حديث أبي أُمامة هذا رواه الإمام أحمد في مسنده (٤ـ١٣٨)، عن زمعة بن صالح قال: سمعت ابن شهاب يُحدث أن أبا أُمامة بن سهل بن حنيف أخبره عن أبي أُمامة أسعد بن زرارة، وكان أحد النُّقباء يوم العقبة أنه أخذته الشَّوْكَةُ فجاءه رسول الله ﷺ يعوده فقال: «بئس الميت ليهود» مرّتين، «سيقولون: لولا دَفَعَ عن صاحبه، ولا أملك ضرّاً ولا نَفْعاً ولأتمحلَنَّ له» فأمر به وكوي بخطَّين فوق رأسه فمات. ا.هـ. قال ابن الأثير في «النهاية»: «الشَّوْكَة: حُمْرَةٌ تعلو الوجه والجسد، يقال منه: شيك الرجلُ فهو مشوك». وقد اختلفت النسخ الخطية في كلمة ﴿بئس﴾ فكتبت مرّة (لَيْس) ومرّات (بئس).

هذا، فأوحى الله إلى موسى وهارون أن اتَّخذا وتخيّرا لبني إسرائيل بيوتاً بمصر، قال مجاهد: مصر في هذه الآية: الإسكندرية، ومصرُ ما بين البحر إلى أسوان، والإسكندرية من أرض مصر، و﴿ تَبَوَّءَا ﴾ معناه كما قلنا: تخيّرا واتَّخذا، وهي لفظة مستعملة في الأماكن وما يشبه بها، ومن ذلك قول الشاعر:

لهَا أمرُها حتَّى إذا ما تبَوَّأتْ ... لأقحافِها مرعىً تبَوَّأ مضجَعاً[(١)]

وهذا البيت للراعي، وبه سُمّي الراعي، ومنه قول امرئ القيس:

يَتَبَوَّءُونَ مَقَاعِداً لِقِتَالِكُمْ ... كَلُيُوثِ غَابٍ لَيْلُهُنَّ زَئِيرُ[(٢)]

وقرأ الناس: ﴿ تَبَوَّءَا ﴾ بهمزة على تقدير (ـــ)[(٣)]، وقرأ حفص في رواية هبيرة: ﴿تبوَّيَا﴾، وهذا تسهيل ليس بقياسي، ولو جرى على القياس لكان بين الهمزة والألف، وقوله: ﴿ قِبْلَةً ﴾ معناه: مساجد، قاله ابن عباس، والربيع، والضحاك، والنخعي، وغيرهم، قالوا: خافوا فأُمروا بالصلاة في بيوتهم، وقيل: يقابل بعضها بعضا، قاله سعيد بن جبير، والأول أصوب. وقيل: معناه: موجهة إلى القبلة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ومن هذا حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «خير بيوتكم ما استقبل به القبلة»، وقوله: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ خطاب لبني إسرائيل، وهذا قبل نزول التوراة لأنها لم تنزل إلا بعد إجازة البحر[(٤)]، وقوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أمرٌ لموسى عليه السلام. وقال مكي، والطبري: هو أمر لمحمد ﷺ، وهذا غير متمكن.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾ الآية. غضبٌ من موسى عليه السلام على القبط

---

(١) البيت للراعي كما قال ابن عطية، واسمه عبيد بن الحصين، وهو من فحول الشعراء، عدّه ابن سلام الجمحيّ في كتابه «الطبقات» من فحول الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين، وكان يفضل الفرزدق على جرير، وله في ذلك قصة مشهورة، وقد روي البيت بلفظ: «لأمحالها» و«لأخفافها» جمع خفّ بدلا من «لأقحافها»، والأقحاف: جمع قِحْف، والقِحْف واحد من أقحاف ثمانية تكَوّن الجمجمة، والمعنى واضح على روايتي الأخفاف والأقحاف.

(٢) في «اللسان»: «تبَوّأ فلانٌ منزلاً: اتخذه، وتَبَوّأت منزلاً: نزلته، وعليه قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ ﴾ فمعنى يتبوءُون في البيت: ينزلونها ويتخذونها مقاعد للقتال. والزئير: صوت الأسد يكون من صدره».

(٣) يوجد بياض بالأصل في أكثر النسخ، وفي نسخة واحدة: «على تقدير: تبوعاً».

(٤) يقال: جاز الموضع وبه: سار فيه وقطعه، ويقال: أجاز الموضع: جازه. (المعجم الوسيط).

ودعاءٌ عليهم، فقدم للدعاءِ تقرير نعم الله عليهم وكفرهم بها. و﴿ءَاتَيْتَ﴾ معناه: أَعطيت وملَّكت، وتكرر قوله ﴿رَبَّنَا﴾ استغاثة، كما يقول الداعي بالله. وقوله: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ يحتمل أَن يكون لام كي على بابها، على معنى: آتيتهم الأَموال إِملاءً لهم واستدراجاً، فكان الإِيتاءُ كي يضلوا، ويحتمل أَن تكون لام الصيرورة والعاقبة، كما قال: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[1]، والمعنى: آتيتهم ذلك فصار أَمرهم إِلى كذا، ورُوي عن الحسن أَنه قال: هو دعاءٌ، ويحتمل أَن يكون المعنى على جهة الاستفهام، أَي: ربنا ليضلوا فعلت ذلك؟ وفي هذا تقرير الشنعة عليهم[2].

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، والحسن، والأَعرج، وشيبة، وأَبو جعفر، ومجاهد، وأَبو رجاءٍ، وأَهل مكة: [لِيَضِلُّوا] بفتح الياءِ على معنى: ليَضِلُّوا في أَنفسهم. وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي، والأَعمش، وقتادة، وعيسى، والحسن، والأَعرج ـ بخلاف عنه ـ: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بضم الياءِ، على معنى: لِيُضِلُّوا غيرهم، وقرأَ الشعبي: [لِيِضِلُّوا] بكسر الياءِ.

وقرأَ الشعبي أَيضاً، وغيره: [اطمُسْ] بضم الميم، وقرأَت فرقة: ﴿ٱطْمِسْ﴾ بكسر الميم، وهما لغتان، يقال: طمَس يطمِس ويطمُس، قال أَبو حاتم: وقراءَة الناس بكسر الميم، والضم لغة مشهورة، ومعناه: عفِّ وغيِّر، وهو من طموس الأَثر والعين وطمْس الوجوه، ومنه قول كعب بن زهير:

مِنْ كُلِّ نَضَّاخَةِ الذِّفْرَي إِذَا عَرِقَت ... عُرْضَتُهَا طَامِسُ الأَعْلَامِ مجْهولُ[3]

---

(١) من الآية (٨) من سورة (القصص).

(٢) قال بعض النحويين: هذه اللام في ﴿لِيَضِلُّوا﴾ وما أشبهها بتأويل الخفْض، أي: آتيتهم ما آتيتهم لضلالهم، والعرب تجعل لام (كي) في معنى لام الخفض، ولام الخفض في معنى لام (كي) لتقارب المعنى، قال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ أي لإعراضكم، ولم يحلفوا لإعراضهم، وقال الشاعر:

سَمَوْتَ ولَمْ تَكُنْ أَهْلاً لتَسْمُو ... ولَكِنَّ المُضَيَّعَ قَدْ يُصَابُ

(٣) النَّضَّاخَةُ: كثيرة رشح العَرَق. والذِّفْرَى: النُّقْرَة خلف أُذن الناقة، أو العظم الشَّاخص خلف الأذن، أو من لدُن المَقَذّ إلى نصف القَذَال، وكلها أماكن قريبة من غُدَّة العرق. وعُرْضَتُها: هِمَّتُهَا، والأعلام: العلامات تكون في الطريق ليهتدي بها السائر في الصحراء كالأحجار والآبار والتلال ونحوها، وطامِسُ الأعلام: الدارس منها. يقول: هذه الناقة كثيرة العرق لنشاطها في سيرها وإجهادها نفسها، وهي تعرف=

وروي أنهم حين دعا موسى عليه السلام بهذه الدعوة رجع سكرهم حجارة، وزادهم ودنانيرهم وحبوبهم من الأطعمة رجعت حجارة، قاله محمد بن كعب القرظي، وقتادة، وابن زيد. وقال مجاهد وغيره: معناه: أهلكها ودمرها، وروي أن الطمسة كانت من آيات موسى عليه السلام التسع، وقوله: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بمعنى: اطبع واختم عليهم بالكفر، قاله مجاهد والضحاك، ولما أشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله ﷺ بقتل أسرى بدر شبَّهه بموسى عليه السلام في دعائه على قومه الذين بعث إليهم في هذه الآية، وبنوح عليه السلام في قوله: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[١]. وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾ مذهب الأخفش وغيره أن الفعل منصوب عطفاً على قوله: ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾، وقيل: هو منصوب على جواب الأمر، وقال الفراءُ والكسائي: هو مجزوم على الدعاءِ، ومنه قول الشاعر:

فَلاَ يَنْبَسِطْ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْكَ ما انْزَوَى ... وَلاَ تَلْقَنِي إلاَّ وَأَنْفُكَ رَاغِمُ[٢]

وجعل رؤية العذاب نهاية وغاية، وذلك لِعلْمِه من قِبَل الله تعالى أن المؤمن عند رؤية العذاب لا ينفعه إيمانه في ذلك الوقت ولا يخرجه من كفره، ثم أجاب الله هذه الدعوة في فرعون نفسه[٣]، قال ابن عباس: العذاب هنا: الغرق، وقرأ الناس: ﴿دَّعْوَتُكُمَا﴾، وقرأ السُّدي، والضحاك: ﴿دعَوَاتكُمَا﴾، وروي عن ابن جريج، ومحمد بن علي، والضحاك أن الدعوة لم تظهر إجابتها إلا بعد أربعين سنة، وحينئذ كان أمر الغرق[٤].

= الطريق وتمضي فيه مُشْرِعَةً مجدَّة ـ وإن طمست أعلامه وتغيرت ـ لكثرة ما سافرت فيه.

(١) من الآية (٢٦) من سورة (نوح).

(٢) البيت للأعشى، وهو من ميميته التي يهجو بها يزيد بن مسهر الشيباني، ولذلك يقول قبله:

يـزيـدُ يَغُـضُّ الطَّـرْفَ دُونـي كَـأنَّمَـا ... زَوَى بَيْـنَ عَيْنَيْـهِ عَلَـيَّ المَحَـاجِـمُ

يقال: زوى ما بين عينيه فانزوى بمعنى: جمعه فاجتمع، يقول: إن يزيد ينفر مني حين يلقاني، ويتجهم لي مُقَطِّباً وجهه كأنما وضعت بين عينيه المحاجم، وما أبالي أن يستمر غضبه عليّ وإعراضه عني وأن أكون شجاً في حلقه.

(٣) وذلك حين أدركه الغرق فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وأُجيب بقول الله سبحانه: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

(٤) جاءت هذه الجملة في إحدى النسخ بلفظ: «وحينئذ كان الغرق».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأُعلما أَن دعاءَهما صادف مقدوراً، وهذا معنى إِجابة الدعاء. وقيل لهما: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أَي في أَن تستعجلا قضائي فإِن وعدي لا خلف له. وقوله: ﴿دَّعۡوَتُكُمَا﴾ ولم يتقدم الدعاءُ إِلا لموسى عليه السلام، وروي أَن هارون كان يُؤَمِّن على دعاءِ موسى عليه السلام، قاله محمد بن كعب القرظي، فلذلك نسب الدعوة إِليهما، وقيل: كنى عن الواحد بلفظ التثنية، كما قال:

قِفَــا نَبْــكِ. . . . . [1]

ونحو هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف لأَن الآية تتضمن بعْدُ مخاطبتهما من غير شيءٍ، قال علي بن سليمان: قول موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَآ﴾ دالٌّ على أَنهما دعوا معاً[2]، وقوله: ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾ أَي على ما أُمِرْتُمَا بِهِ من الدعاءِ إِلى الله. وأُمِرا بالاستقامة وهما عليها للإِدامة والتمادي.

وقرأَ نافع والناس: ﴿تَتَّبِعَآنِّ﴾ بتشديد التاءِ والنون على النهي، وقرأَ ابن عامر، وابن ذكوان: [تَتْبعانِّ] بتخفيف التاءِ وشدّ النون، وقرأَ ابن ذكوان أَيضاً: [تتَّبعانِ] بتشديد التاءِ وتخفيف النون وكسرها، وقرأَت فرقة: [تَتْبعانْ] بتخفيفها وسكون النون، رواه الأَخفش الدمشقي عن أَصحابه عن ابن عامر، فأَما شدّ النون فهي النون

---

(١) هذا أول البيت الذي افتتح به امرؤ القيس معلقته المشهورة، وفيه يقول:

قِفَــا نَبْــكِ مِــنْ ذِكْــرَى حَبِيــبٍ وَمَنْــزِلِ ... بِسِقْـطِ اللِّـوَى بيْـنَ الـدَّخـولِ فَحَـوْمَـلِ

وقد خاطب الشاعر صاحبيه على عادة العرب في المخاطبة بالمثنى.

(٢) نقل أبو حيان في «البحر» أن ابن السميفع قرأ: [قَدْ أَجَبْتُ دَعْوَتَكُمَا] خبراً عن الله تعالى، وبنصب «دعوة»، وأن الربيع قرأ [دَعْوَتَيْكُمَا]، ثم قال: «وهذا يؤيد قول من قال: إن هارون دعا مع موسى. وقراءة: [دَعْوَتَيْكُمَا] تدل على أنه قرأ: [قَدْ أَجَبْتُ] على أنه فعل وفاعل». «البحر المحيط ٥ـ١٨٧». وقال أبو الفتح في «المحتسب»: «ومن ذلك قراءة أبي عبد الرحمن: [قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَاتُكُمَا] وهذه جَمْع دعوة، وبهذه القراءة تعلم قراءة الجماعة: ﴿دَّعۡوَتُكُمَا﴾ يراد فيها بالواحد معنى الكثرة، وساغ ذلك لأن المصدر جنس، والأجناس يقع قليلها موقع كثيرها، وكثيرها موضع قليلها»

الثقيلة حذفت معها نون التثنية للجزم، كما تحذف معها الضمة في «التفعلنَّ» حيث بُني الفعل معها على الفتح، وإنما كسرت هذه النون الثقيلة بعد ألف التثنية. وأما تخفيفها فيصح أن تكون الثقيلة خففت، ويصح أن تكون نون التثنية ويكون الكلام خبراً معناه الأمر، أي: لا ينبغي أن تتَّبعا، قال أبو علي: إن شئت جعلته حالاً من ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾ كأنه قال: غير متَّبعين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والعطف يمانع في هذا فتأمله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢﴾.

قرأ الحسن بن أبي الحسن: [وَجَوَّزْنَا] بشد الواو وطرح الألف، ويشبه عندي أن يكون [جاوَزْنَا] كتب في بعض المصاحف بغير ألف. وتقدم القول في صورة جوازهم البحر في البقرة والأعراف.

وقرأ جمهور الناس: ﴿۞وَجَٰوَزۡنَا﴾ لأنّه يقال: تَبِعَ وأَتبع بمعنى واحد، وقرأ قتادة، والحسن: [فَأَتَّبَعَهُمْ] بشد التاءِ، قال أبو حاتم: القراءَة [أَتبع] بقطع الألف لأنها تتضمن الإدراك، [واتَّبع] بشد التاءِ هي طلب الأثر سواءٌ أدرك أو لم يُدرك.

وروي أن بني إسرائيل الذين جاوزوا البحر كانوا ستمائة ألف، وكان يعقوب قد استقر أولاً بمصر في نيف على السبعين ألفاً من ذريته فتناسلوا حتى بلغوا وقت موسى العدد المذكور، ورُوي أن فرعون كان في ثمانمائة ألف أدهم حاشا ما بقي من ألوان الخيل، وروي أقل من هذه الأعداد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله ضعيف، والذي تقتضيه ألفاظ القرآن أن بني إسرائيل كان لهم جمع كثير في نفسه قليل بالإضافة إلى قوم فرعون المتبعين.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والكوفيون، وجماعة: ﴿وَعَدۡوًاۚ﴾ على مثال: غزا غزْواً، وقرأ الحسن، وقتادة: [وعُدُوًّا] على مثال: علا عُلُوًّا. وقوله: ﴿أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ أي في البحر، وروي في ذلك أن فرعون لما انتهى إلى البحر فوجده قد انفرق ومشى فيه بنو إسرائيل قال لقومه: إنما انفلق بأمري، وكان على فرس ذكر، فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام على فرس أُنثى وديق[١] فدخل بها البحر، فولج فرس فرعون وراءَه وحثت الجيوش خلفه، فلما رأى الانفراق يثبت له استمر، وبعث الله تعالى ميكائيل يسوق الناس حتى حصل جميعهم في البحر، فانطبق عليهم حينئذ، فلما عاين فرعون قال ما حُكي عنه في هذه الآية.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنَّهُۥ﴾ بفتح الألف، ويحتمل أن تكون في موضع نصب، ويحتمل أن تكون في موضع خفض على إسقاط الباءِ. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو: [إِنَّهُ] بكسر الألف، إما على إضمار الفعل، أي: «آمنت فقلت: إنه»، وإما على أن يتم الكلام في قوله: ﴿ءَامَنتُ﴾ ثم يبتدئ إيجاب: [إِنَّهُ]، ورُوي عن النبي ﷺ أن جبريل عليه السلام قال: «ما أبغضت أحداً قط بغضي لفرعون، ولقد سمعته يقول: ﴿ءَامَنتُ﴾ الآية، فأخذت من حال البحر[٢] فملأت فمه مخافة أن تلحقه رحمة الله»[٣]، وفي بعض الطرق «مخافة أن يقول لا إله إلاَّ الله فتلحقه رحمة الله»[٤].

---

(١) يريد: استسلمت للفرس الذي يركبه فرعون واستأنست به، يقال: ودَقَ إلى الشيءِ: دنا من الشيءِ وأمكنه، ووَدَقَ له الصيد، وبه: استأنَسَ، وفي المثل: «وَدَقَ العَيْر إلى الماء» أي دنا منه، يضرب لمن خضع للشيء لحرصه عليه. (المعجم الوسيط، والصحاح).

(٢) حالُ البحر: الطين الأسود الذي يكون في أرضه، قاله القرطبي نقلا عن أهل اللغة.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه «حمأة البحر»، وأخرجه الترمذي وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكذلك عنه أخرجه الطيالسيّ، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان». (الدر المنثور).

(٤) أشار أبو حيان إلى البحر في هذه الزيادة فقال: «وأما ما يضم إليه من قولهم: «خشيت أن تدركه رحمة الله» فمن زيادات الباهتين لله وملائكته، وفيها جهالتان، إحداهما: أن الإيمان يصح بالقلب كإيمان الأخرس فحال البحر لا يمنعه، والأخرى: أنَّ مَنْ كره إيمان الكافر وأَحَبَّ بقاءه على الكفر فهو كافر، لأن الرضا بالكفر كفر».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فانظر إِلى كلام فرعون ففيه مجهلة وتلعثم، ولا عذر لأَحد في جهل هذا، وإِنما العذر فيما لا سبيل إِلى علمه، كقول علي رضي الله عنه: «أَهللت بإِهلال كإِهلال النبي ﷺ والحال الطين»، كذا في الغريب المصنف وغيره، والأَثر بهذا كثير مختلف اللفظ والمعنى واحد. وفعل جبريل عليه السلام هذا يشبه أَن يكون لأَنه اعتقد تجويزه المغفرة للتائب وإِن عاين، ولم يكن عنده قبلُ إِعلام من الله تبارك وتعالى أَن التوبة بعد المعاينة غير نافعة.

وقوله تعالى: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ﴾ الآية، قال أَبو علي: اعلم أَن لام المعرفة إِذا دخلت على كلمة أَولها الهمزة فخففت الهمزة فإِن في تخفيفها وجهين، أَحدهما: أَن تحذف وتُلْقَى حركتها على اللام وتقر همزة الوصل فيه فيقال: «أَلَحْمَر»، وقد حكى ذلك سيبويه، وحكى أَبو عثمان عن أَبي الحسن أَن ناساً يقولون: «لَحْمَر»، فيحذفون الهمزة التي للوصل، فمن ذلك قول الشاعر:

وَقَدْ كُنْتَ تُخْفِي حُبَّ سَمْرَاءَ حِقْبَةً فَبُحْ لاَنَ مِنْهَا بالَّذِي أَنْتَ بَائِحُ(1)

قرأَ نافع في رواية ورش لم يختلف عنه: [آلانَ] بمد الهمزة وفتح اللام، وقرأَ الباقون بمدّ الهمزة وسكون اللام وهمز الثانية، وقرأَت فرقة: [أَلاَنَ] بقصر الهمزة وفتح اللام وتخفيف الثانية. وقرأَ جمهور الناس: [أَلآنَ] بقصر الأُولى وسكون اللام وهمز الثانية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقراءَات التخفيف في الهمزة تترتب على ما قال أَبو علي، فتأَمله، فإِن الأُولى

---

(1) البيت غير منسوب، والشاهد فيه كلمة (أَلآنَ) التي تنطق (لآنَ) على النحو الذي وضحه أبو علي الفارسي، وقد نقل ابن خالويه عن اللغويين السبب في بناء (الآن) مع أن فيه الألف واللام، قال سيبويه: (الآن) إشارة إلى وقت أنت فيه بمنزلة (هذا) والألف واللام تدخل لعهد قد تقدم، فلما دخلت هاهنا لغير عهد ترك مبنياً. وقال المبرد: معرفته وقعت قبل نكرته وليس يشركه غيره في التسمية، فتكون اللف واللام مُعَرِّفَة له، وإنما تعني به الوقت الذي أنت فيه من الزمان، فلذلك بُني. وقال الفراء: أصله أوان، فقلبت الواو ألفاً فصار (أآن) ودخلت الألف واللام على مبني فلم تغيره عن بنائه. (راجع الحجة في القراءات لابن خالويه، ومعاني القرآن للفراء).

على لغة من يقول: «الْحَمر»، وهذا على جهة التوبيخ له والإعلان بالنقمة منه، وهذا اللفظ يحتمل أَن يكون مسموعاً لفرعون من قول مَلَك مُوَصِّلٍ عن الله وكيف شاءَ الله، ويحتمل أَن يكون معنى هذا الكلام معنى حاله وصورة خزيه، وهذه الآية نصٌّ في ردّ توبة المُعَاين.

وقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ الآية. يُقَوّي ما ذكرناه من أنها صورة الحال، لأَن هذه الأَلفاظ إِنما يظهر أَنها قيلت بعد غرقه. وسبب هذه المقالة ـ على ما رُوي ـ أَن بني إِسرائيل بَعُدَ عندهم غرق فرعون وهلاكه لعظَمِهِ عندهم، وكذَّب بعضهم أَن يكون فرعون يموت، فنُجِّي على نجوة من الأَرض حتى رآه جميعهم ميتاً كأَنه ثور أَحمر، وتحققوا غرقَه[1]، وقرأَت فرقة: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾، وقالت فرقة: معناه: من النجاة، أَي من غمرات البحر والماءِ، وقال جماعة: معناه: نلقيك على نجوة من الأَرض وهي ما ارتفع منها، ومنه قول أَوس بن حجر:

فَمَـنْ بِعَقْـوَتِـهِ كمـن بِنَجْـوَتِـهِ وَالمُسْتَكِـنُّ كمَـنْ يَمْشي بِقِرْوَاحِ[2]

وقرأَ يعقوب: [نُنْجِيكَ] بسكون النون وتخفيف الجيم، وقرأَ أُبي ابن كعب: [نُنَحِّيكَ] بالحاءِ المشددة من التنحية، وهي قراءَة محمد بن السميفع اليماني، ويزيد البريدي[3]. وقالت فرقة: معنى [بِبَدَنِكَ]: بدرعك[4]، وقالت فرقة: معناه

---

(١) يقال: تحَقَّقَ الأمْرُ: صَحَّ ووقع، ويقال أيضاً: تحَقَّقَ الأمْر: عرف حقيقته.

(٢) البيت منسوب في «اللسان» إلى عبيد بن الأبرص، في (عَقَا) وفي (قرَحَ). والمعروف أنه لأوس، وهو من قصيدة له مشهورة يصف فيها المطر، وهي قصيدة فريدة تغنى بها الموصلي لالتحام مقاطعها، ومطلعها:

وَدِّعْ لَمِيسَ وَداعَ الصَّارِمِ اللاَّحِي إذْ فَنَكَتْ فـي فَسَادٍ بَعْـدَ إصْلاحِ

ورواية الديوان:

فَمَـنْ بِنَجْـوَتِـهِ كَمَـنْ بمَحْفِلِـهِ وَالمُسْتَكِـنُّ كَمَـنْ يَمْشي بِقِـرْوَاحِ

والعَقْوَة: الساحة وما حول الدار والمحلة، والجمع: عِقَاءٌ، والنَّجْوَة: ما ارتفع من الأرض. والمحْفِل: مستقر الماءِ ووسطه. والكِنُّ: الوقاءُ والسِّتْر، وهو أيضاً: البيت، والقِرْواحُ: الأرض البارزة للشمس. يقول: إن المطر عمَّ الأرض وغمر كل شيءٍ فمن كان في مرتفع تساوى مع من كان في محلّ مستو من الأرض، ومن كان في كِنٍّ تساوى مع من كان على ظهر الأرض بارزاً للشمس.

(٣) وفي معنى التنحية يقول الحطيئة لأمّه: (سامحه الله):

تَنَحَّـيْ فـاقْعُـدي مِنِّـي بعيـداً أَرَاحَ اللهُ مِنْـكِ العَـالَمِينـا

(٤) ومن معاني البَدَنَ في اللغة: الدرع القصيرة، أنشد أبو عبيد لعمرو بن معديكرب:

ومَضَـى نِسَـاؤُهُـمُ بِكُـلِّ مُفَـاضَـةٍ جَـدْلاءَ سَـابِغَـةٍ وبـالأَبْـدَانِ =

بشخصك، وقرأت فرقة: [بِندائك] أي: بقولك: ﴿ءَامَنتُ﴾ إلى آخر الآية، ويشبه أن يكتب [بنداثك] بغير ألف في بعض المصاحف، ومعنى الآية: إنا نجعلك آية مع ندائك الذي لا ينفع[1]. وقرأت فرقة: [خَلَفَكَ] أيْ: من أتى بعدك، وقرأت فرقة: ﴿خَلْفَكَ﴾ والمعنى: يجعلك الله آية له في عباده[2].

ثم بين عزَّ وجلَّ لعباده بقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾، وهذا خبر في ضمنه توعّد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

المعنى: لقد اخترنا لبني إسرائيل أَحسن اختيار، وأحللناهم من الأماكن أحسن محل و﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: يصدق فيه ظن قاصده وساكنِهِ وأَهله، ويعني بهذه الآية إحلالهم بلاد الشام وبيت المقدس. قاله قتادة، وابن زيد، وقيل: بلاد مصر والشام، قاله الضحاك، والأول أَصح بحسب ما حفظ من أَنهم لن يعودوا إلى مصر، على أن في القرآن: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[3]، يعني ما ترك القبط من جنات وعيون وغير ذلك، وقد يحتمل أَن يكون ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ معناه: الحالة من النِّعمة وإِنْ لم يكن في قطر واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ يحتمل معنيين: أَحدهما: فما اختلفوا

= المُفَاضة: الدرع الواسعة، والجدلاءُ: المحكمة النسج، والأبدان: الدروع القصيرة.

(١) قال القرطبي: «هذه القراءة مرغوب عنها لشذوذها وخلافها ما عليه عامة المسلمين، والقراءة سُنّة يأخذها آخر عن أول، وفي معناها نقص عن تأويل قراءتنا».

(٢) معنى قراءة ﴿خَلْفَكَ﴾ بسكون اللام: أي لبني إسرائيل ولمن بقي من قوم فرعون ممن لم يدركه الغرق ولم يبلغه الخبر. ومعنى قراءة فتح اللام: أي لمن يخلفك في أرضك، وربما كانت عبارة ابن عطية لا توضح الفرق بالدقة المطلوبة.

(٣) من الآية (٥٩) من سورة (الشعراء).

في نبوة محمد ﷺ حتى جاءَهم وبان علمُه وأَمْرُه ، فاختلفوا حينئذ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا التخصيص هو الذي وقع في كتب المتأَولين ، وهذا تأْويل يحتاج إِلى سند . والتأْويل الآخر الذي يحتمله اللفظ : أَن بني إِسرائيل لم يكن لهم اختلاف على موسى عليه السلام في أَول حاله ، فلما جاءَهم العلم والأَوامر وغرق فرعون اختلفوا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فمعنى الآية مذمة ذلك الصدر من بني إِسرائيل . ثم أَوجب الله عزَّ وجلَّ بعد ذلك أَنه يقضي بينهم ويفصل بعقاب من يعاقب ورحمة من يرحم .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ ﴾ الآية . قال بعض المتأَولين ـ ورُوي ذلك عن الحسن ـ إِنَّ ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى (ما) ، والجمهور على أَنَّ ﴿إِنْ﴾ شرطية . والصواب في معنى الآية أَنها مخاطبة للنبي ﷺ ، والمراد بها سواه من كل من يمكن أَن يشك أَو يعارض . وقال قوم : الكلام بمنزلة قولك : «إِن كنت ابني فبرَّني»[(١)] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وليس هذا المثال بجيد ، وإِنما مثال هذا قوله تعالى لعيسى : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي ﴾[(٢)] ، ورُوي أَن رجلاً سأَل ابن عباس رضي الله عنهما عما يحيك في الصدر من الشك فقال له : ما نجا من ذلك أَحد ولا النبي ﷺ حتى أُنزل عليه : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وذكر الزهراوي أَن هذه المقالة أَنكرت أَن يقولها ابن عباس ، وبذلك أَقول ، لأَن

---

(١) قال أبو حيان : «إن الشرطية تقتضي تعليق شيء على شيء ، ولا تستلزم تحقق وقوعه ولا إمكانه ، بل قد يكون ذلك في المستحيل عقلا ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ (الزخرف ٨١) ، ومستحيل أن يكون له ولد ، وكذلك مستحيل أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام في شك ، وقد يكون في المستحيل عادة كقوله تعالى : ﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ﴾ أي فافعل ، ولكن وقوع (إن) للتعليق على المستحيل قليل ، وهذه الآية من ذلك ، ولما خَفِي هذا الوجه على أكثر الناس اختلفوا في تخريج هذه الآية» .

(٢) من الآية (١١٦) من سورة (المائدة) .

الخواطر لا ينجو منها أَحد، وهي خلاف الشك الذي يجال فيه على الاستشفاءِ بالسؤال. و﴿ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ هم من أَسلم من بني إِسرائيل كعبد الله بن سلام، وروي أَن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «أَنا لا أَشك ولا أَسأَل»(١).

وقرأَ [فَسَلْ] دون همز الحسنُ، وأَبو جعفر، وأَهل المدينة، وأَبو عمرو، وعيسى، وعاصم، وقرأَ جمهور عظيم بالهمز. ثم جزم الله تبارك وتعالى الخبر بقوله: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾. واللام في ﴿لَقَدۡ﴾ لام القسم، و﴿ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ معناه: الشَّاكِّين الذين يحتاجون في اعتقادهم إِلى المماراة فيها، وقوله: ﴿مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ يريد به: من أَن بني إِسرائيل لم يختلفوا في أَمره إِلاَّ مِن بعد مجيئه، وهذا قول أَهل التأْويل قاطبة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الذي يشبه أَن ترتجى إِزالة الشك فيه من قبل أَهل الكتاب. ويحتمل اللفظ أَن يريد: بما أَنزلنا جميع الشرع، ولكنه بعيد بالمعنى لأَن ذلك لا يعرف ويزول الشك فيه إِلا بأَدلة العقل لا بالسماع من مؤمني بني إِسرائيل. وقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ الآية، مما خوطب به النبي ﷺ والمراد سواه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولهذا فائدة ليست في مخاطبة الناس به، وذلك شِدَّة التخويف، لأَنه إِذا كان رسول الله ﷺ يحذر من مثل هذا فغيرُه من الناس أَولى أَن يحذر ويتقي على نفسه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾﴾.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق، وابن جرير عن قتادة بدون كلمة (أنا)، وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياءُ في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ والعبارة فيه على لسان ابن عباس لا من كلام الرسول ﷺ. (الدر المنثور).

جاءَ هذا تحذيراً مُرَدَّداً وإعلاماً بسوءِ حال المحتوم عليهم، والمعنى: إن الله أَوجب لهم سخطه في الأزل وخلقهم لعذابه، فلايؤمنون ولو جاءَهم كل بيان وكل وضوح إلا في الوقت الذي لا ينفعهم فيه إيمان، كما صنع فرعون وأشباهه من الخلق، وذلك وقت المعاينة، وفي ضمن الألفاظ التحذير من هذه الحال، وبعث الكل على المبادرة إلى الإيمان، والفرار من سخط الله.

وقرأَ أَبو عمرو، وعاصم، والحسن، وأَبو رجاءٍ: [كَلِمَة] بالإفراد. وقرأَ نافع، وأَهل المدينة: [كَلِمَات] بالجمع. وقد تقدم ذكر هذه الترجمة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ الآية. في مصحف أُبيّ، وابن مسعود: [فَهَلاَّ]، والمعنى فيهما واحد. وأَصل (لولا) في الكلام التحضيض أَو الدلالة على منع أَمر لوجود غيره، فأَما هذه فبعيدة عن هذه الآية، لكنها من جملة التي هي للتحضيض، وحقيقة التحضيض بها أَن يكون المحضِّض يريد من المخاطب فعل ذلك الشيءِ الذي يحضه عليه. وقد تجيءُ (لولا) وليس من قصد المخاطب أَن يحضّ المخاطب على فعل ذلك الشيءِ فيكون حينئذ المعنى توبيخاً، كقول جرير:

. . . . لَـــوْلاَ الكَمِـــيَّ المقَنَّعَـــا(١)

وذلك أَنه لم يقصد حضَّهم على عقر الكميّ، كقولك لرجل قد وقع في أَمر صعب: «لولا تحرَّزْتَ»، وهذه الآية من هذا القبيل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومفهوم من معنى الآية نفيُ إيمان أَهل القُرى، ومعنى الآية: فَهَلاَّ آمن أَهل القرية

---

(١) هذا جزءٌ من آخر بيت قاله جرير ضمن قصيدة يجيب بها الفرزدق، وهي من النقائض يقول في مطلعها:

أقَمْنَـــا وربَّتْنَـــا الـــدِّيَـــارُ ولا أرى كَمَـــرْبَعِنَـــا بَيْـــنَ الْحِنِيَّيْـــن مَـــرْبَعَـــا

والبيت بتمامه كما جاء في الديوان (دار المعارف ٢ـ٩٠٧):

تَعُـــدُّون عَقْـــرَ النِّيـــبِ أفضَـــلَ سَعْيِكُـــمْ بَنِـــي ضَـــوْطَـــرَى هَـــلاَّ الكَمـــيَّ المُقَنَّعَـــا

ويروى: «أفضل مجدكم» و«لَوْلا الكَميّ». والنِّيب: جمع أنْيَب، وهو الذي غلُط نابه لأنه كبر وصار ضخماً «من الأبل»، والكَمِيُّ: الشُّجاع المقدام الجريءُ، كان عليه سلاح أو لم يكن، والمقنَّع: الذي لبس القناع في الحرب استعداداً لها. والمعنى فعلا فيه توبيخ لأنهم يعدون ذبح الإبل الضخمة غاية مجدهم وفضلهم، ويقول لهم: هلا تحدثتم عن الشجاعة وعددتم الشجعان منكم؟

وهم على مهل لم يلتبس العذاب بهم فيكون الإيمان نافعاً لهم في هذه الحالة، ثم استثنى قوم يونس عليه السلام، فهو بحسب اللفظ استثناءٌ منقطع، وكذلك رسمه النحويون أَجمع، وهو بحسب المعنى متصل لأَن تقديره: ما آمن مِنْ أَهل قرية إِلا قوم يونس عليه السلام، والنصب في قوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ﴾ هو الوجْهُ، ولذلك أَدخله سيبويه في باب «مالا يكون فيه إلا النصب»، وكذلك مع انقطاع الاستثناء، ويشبه الآية قول النابغة:

إِلا الأَوارِيَّ. . . . .[1]

وذلك هو حكم لفظ الآية. وقالت فرقة: يجوز فيه الرفع وهذا مع اتصال الاستثناءِ[2]، وقال المهدوي: والرفع على البدل من ﴿قَرْيَةٌ﴾.

ورُوي في قصة يونس عليه السلام أَن القوم لما كفروا أَوحى الله إِليه أَن أَنذرهم بالعذاب لثلاثة، ففعل فقالوا: هو رجل لا يكذب فارقبوه، فإِن أَقام بين أَظهُركم فلا عليكم، وإِن ارتحل فهو نزول العذاب لاشك، فلما كان الليل تزود يونس عليه السلام وخرج عنهم، فأَصبحوا فلم يجدوه، فتابوا ودعوا الله وآمنوا ولبسوا الْمُسُوح وفرّقوا بين الأُمّهات والأَولاد من الناس والبهائم، والعذاب منهم ـ فيما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ على ثلثي ميل. وروي على ميل، وقال ابن جبير: غشيهم

---

(١) هذا أول البيت الثالث من الدالية التي قالها النابغة يمدح النعمان ويعتذر إليه، وفيها يقول:

يـا دارَ مَيَّـةَ بـالعَلْيـاءِ فـالسَّنَـدِ ... أقـوَتْ وطـالَ عَلَيْهـا سَـالِفُ الأبـدِ
وقَفْـتُ فيهـا أصَيـلانـاً أُسَـائِلُهَـا ... عَيَّتْ جَـوَابـاً ومَـا الـرَّبْـعِ مِـنْ أحَـدِ
إلا الأَوارِيَّ لأيـاً مَـا أُبَيِّنُهَـا ... والنُّؤْيَ كـالحَوْضِ بـالمَظْلُومَـةِ الجَلَدِ

والأَوَارِيّ مستثنى منصوب لأنه من غير جنس السابق وهو (أحد)، والأَوَاري: جمع أريّ وهو عود أعْلاه معوج يُدَق لتشدّ فيه حبال الخيمة، ولأياً: تعباً وبُطْئاً، و(ما) زائدة للتوكيد، أي لَا أُبيِّنها لعيني إلا بيانا تعبا. والنُّؤي: الحفير الذي يحيط بالخيمة ليمنع ماء المطر، والباءُ للظرفية، والمظلومة: صفة لموصوف محذوف تقديره: بالأرض المظلومة وهي اليابسة التي انحبس عنها المطر، والجَلَد: الصلبة اليابسة التي يصعب فيها الحفر. والنؤيَ بالنصب معطوفة على الأواري. يقول: لا أرى بالدار من أحد إلا هذه الأوتاد التي لا أكاد أتبينها تحت التراب، وهذا النؤي الجاف الذي يشبه الحوض في الأرض الجافة الصلبة.

(٢) قال الزجاج: ويكون المعنى: غير قوم يونس، فلما جاء بإلاّ أعرب الاسم الذي بعدها بإعراب (غير) كما قال:

وكُـلُّ أخ مُفَـارِقُـهُ أخـوهُ ... لعَمْـرُ أبيـكَ إلا الفَـرْقَـدَانِ

العذاب كما يغشى الثوب القبر، فرفع الله عنهم العذاب، فلما مضت الثلاثة وعلم يونس عليه السلام أن العذاب لم ينزل قال: كيف أتصرف وقد وجدوني في كذب؟ فذهب مغاضباً كما ذكر الله تعالى في هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذهب الطبري إلى أن قوم يونس عليه السلام خُصُّوا من بين الأُمم بأن تيب عليهم من بعد معاينة العذاب، ذكر ذلك عن جماعة من المفسرين، وليس كذلك، والمعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي تلبس العذاب أو الموت بشخص الإنسان كقصة فرعون. وأما قوم يونس عليه السلام فلم يصلوا هذا الحدّ.

وقرأ الحسن، وطلحة بن مصرف، وعيسى بن عمر، وابن وثاب، والأعمش: [يُونِس] بكسر النون، وفيه للعرب ثلاث لغات: ضم النون وفتحها وكسرها، وكذلك في [يوسف]. وقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ يريد: إلى آجالهم المفروضة في الأزل.

وروي أن قوم يونس عليه السلام كانوا بِنِينَوَى من أرض الموصل، ويقتضي ذلك قول النبي ﷺ لِعَدَّاس حين قال له إنه من أهل نينوى: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متَّى؟» الحديث الذي في السيرة لابن إسحق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

المعنى: إن هذا الذي تقدم إنما كان جميعه بقضاء الله عليهم ومشيئته فيهم، ولو شاءَ الله لكان الجميع مؤمناً، فلا تأسف أنت يا محمد على كفر من لم يؤمن بك، وادع ولا عليك، فالأمر محتوم، أفتريد أنت أن تُكْرِه الناس بإدخال الإيمان في قلوبهم وتضطرهم إلى ذلك والله عزَّ وجلَّ قد شاءَ غيره؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا التأويلُ الآية عليه محكمة، أي: ادع وقاتل من خالفك، وإيمانُ من آمن مصروف إلى المشيئة.

وقالت فرقة: المعنى: أَفأَنت تكره الناس بالقتال حتى يدخلوا في الإيمان؟ وزعمت أَن هذه الآية في صدر الإسلام وأَنها منسوخة بآية السيف، والآية ـ على كلا التأويلين ـ رادَّة على المعتزلة(١). وقوله تعالى: ﴿كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ تأكيد وهو من فصيح الكلام، و﴿جَمِيعًا﴾ حال مؤكدة، ونحوه قوله سبحانه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية. ردّ إلى الله تعالى، وأَن الحول والقوة في إيمان من يؤمن لله، وكون الرجس على الكفار. وقرأ عاصم في رواية أَبي بكر: [وَنَجْعَلُ الرِّجْسَ] بنون العظمة، وقرأ الباقون، وحفص عن عاصم: ﴿وَيَجْعَلُ﴾ بالياءِ، وقرأ الأعمش: [ويجْعَلُ اللهُ الرجْسَ]، والرِّجْس يكون بمعنى العذاب كالرجز، ويكون في معنى القذر والنجاسة كالركْس، ذكره أَبو علي هنا وغيره، وهو في هذه الآية بمعنى العذاب، و﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ يريد: آياتِ الله وحجج الشرع، ومعنى الإذن في هذه الآية: الإرادةُ والتقديرُ لذلك، فهو العلم والتمكين.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذه الآية أَمْرٌ للكفار بالاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع وغير ذلك من آيات السموات وأَفلاكها وكواكبها وسحابها ونحو ذلك، والأَرض ونباتها ومعادنها وغير ذلك، المعنى: انظروا في ذلك بالواجب يُنَبِّهكم إلى المعرفة بالله والإيمان بوحدانيته. وقرأ أَبو عبد الرحمن والعامَّةُ بالبصرة: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾ بكسر اللام، وقرأ نافع وأَهل المدينة: [قُلُ انظُرُوا] بضم اللام. ثم أَعلَم في آخر الآية أَن النظر في الآيات والسماع من «النُّذر» وهم الأَنبياءُ لا يُغني إلا بمشيئة الله، وأَن ذلك غير نافع لقوم قد قضى الله أَنهم لا يؤمنون، وهذا على أَن تكون ﴿مَا﴾ نافية، ويجوز أَن تُعَدّ استفهاماً على جهة التقرير الذي ضمنه نفْيُ وقوع الغَناءِ، وفي الآية ـ على هذا ـ توبيخ لحاضري رسول الله ﷺ من المشركين، وقوله: ﴿ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ حصر طريقي تعريف الله تعالى عباده. ويحتمل أَن تكون ﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا تُغْنِى﴾ مفعولة بقوله: ﴿ٱنظُرُواْ﴾ معطوفة على قوله: ﴿مَاذَا﴾، أَي: تأَمَّلُوا قدر غَناءِ الآيات والنذر عن الكفار إذ قبلوا ذلك كفعل قوم يونس عليه السلام فإنه يرفع العذاب في الدنيا والآخرة، ويُنَجِّي من

(١) الذين يقولون: «إن الله لا يريد الشَّر». ذلك لأنها أثبتت مشيئة الإيمان والكفر لله سبحانه وتعالى.
(٢) من الآية (٥١) من سورة (النحل).

الهلكات. فالآية ـ على هذا ـ تحريض على الإيمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتجوز اللفظ ـ على هذا التأويل ـ إنما هو في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

هذا وعيد وحضّ على الإيمان، أي: إذا لجوا في الكفر حلَّ بهم العذاب، وإذا آمنوا نجوا، هذه سنة الله في الأمم الخالية، فهل عند هؤلاءِ غير ذلك؟ وهو استفهام بمعنى التوقيف.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا﴾ مهادنة مّا، وهي من جملة ما نسخه القتال.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ الآية. لما كان العذاب لم تحصر مدته وكان النبي والمؤمنون بين أظهر الكفرة وقع التصريح بأَن عادة الله عزَّ وجلَّ سلَفَت بإِنجاءِ رسله ومُتَّبعيهم، فالتخويف ـ على هذا ـ أشد، وكلُّهم قرأَ: ﴿نُنَجِّي﴾ مشددة الجيم إلا الكسائي وحفصاً عن عاصم فإِنهما قرآ: [نُنْجِي] بسكون النون وتخفيف الجيم، وقرأَ عاصم في سورة الأَنبياءِ في بعض ما روي عنه: [نُجِّي] بضم النون وحذف الثانية وشد الجيم، كأَن النون أُدغمت فيها، وهي قراءَة لا وجه لها، ذكر ذلك الزجاج[1]،

---

(١) الآية المقصودة من سورة الأنبياء هي قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. ومع أن ابن عطية نقل عن الزجاج أن هذه القراءة لا وجه لها فقد قال ابن خالويه في كتاب «الحجة»: «ولعاصم في قراءته وجه من النحو، لأنه جعل [نُجِّي] فِعْلَ مالم يُسَمّ فاعله، وأرسل الياءَ بغير حركة، لأن الحركة لا تدخل عليها في الرفع، وهي ساقطة في الجزم إذا دخلت في المضارع، وأضمر مكان المفعول الأول المصدر لدلالة الفعل عليه، ومنه قولهم: «من كذب كان شرّاً له»، يريدون: كان الكذب، فلما دلّ (كَذَبَ) عليه حذف، فكأنه هنا قال: «وكذلكَ نُجِّي النجاءُ المؤمنين»، وأنشد شاهداً لذلك:

ولَــوْ وَلَــدَتْ قُفَيْــرَةُ جَــرْوَ كَلْــبٍ لَسُــبَّ بــذلــك الجِـرْوِ الكــلابــا =

وحكى أبو حاتم نحوها عن الأعمش، وخط المصحف في هذه اللفظة [نُنَجِّ] بجيم مطلقة دون ياءٍ، وكذلك قرأ الكسائي في سورة مريم: [ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوا] بسكون النون وتخفيف الجيم، والباقون بفتح النون وشدّ الجيم والكاف في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يصح أَن تكون في موضع رفع، ويصح أَن تكون في موضع نصب نعتاً لمصدر محذوف.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الآية. مخاطبة عامة للناس أَجمعين إِلى يوم القيامة، يدخل تحتها كل من اتصف بالشك في دين الإِسلام، وهذه الآية يتسق معناها بمحذوفات يدل عليها هذا الظاهر الوجيز، والمعنى: إِنْ كنتم في شك من ديني فأَنتم لا تعبدون الله، كذلك فليس هو بأَهل أَن يُشك فيه، وإِنما يُشَكُّ في دينكم ويُرفض، وأَما لا أَعبد أَحَداً غيره، فاقتضت فصاحة الكلام وإِيجازه اختصار هذا كله، ثم صرّح بمعبوده وخصّ من أَوصافه ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ لما فيها من التذكير بالموت وفزع النفوس به، والمصير إِلى الله بعده، والنقد للأَصنام التي كانوا يعتقدونها ضارة ونافعة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾.

المعنى: قيل لي: كن من المؤمنين وأَقم وجهك للدين، ثم جاءَت العبارة بهذا الترتيب، والوَجْهُ في هذه الآية بمعنى المنْحَى والمقصد، أَي: اجعل طريقك واعتمادك للدين والشرع، و﴿حَنِيفًا﴾ معناه: مستقيماً على قول من قال: الحنف: الاستقامة، وجعل تسمية المعوج القدم أَحنف على وجه التفاؤُل، ومن قال: «الحنف: الميل» جعل ﴿حَنِيفًا﴾ ها هنا: مائلا عن حال الكفرة وطريقهم. و﴿حَنِيفًا﴾ نصب على الحال. وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ معناه: قيل لي، ولا تدع، فهو عطف على ﴿أَقِمْ﴾، وهذا الأَمر والمخاطبة للنبي ﷺ إِذا كانت هكذا فأَحرى أَن يتحرز من ذلك

= قال في «الخزانة»: «وقفيرة: اسم أم الفرزدق، والجَرو: مثلث الجيم، والبيت لجرير» والشاهد في البيت كما جاءَ في «الدُّرر اللوامع»: نيابة غير المفعول به مع وجوده، فـ(بذلك) جار ومجرور وناب عن فاعل (سُبَّ) مع وجود المفعول وهو الكلاب».

غيره، «ما لا ينفع ولا يضر» هو الأصنام والأوثان، والظالم: الذي يضع الشيءَ في غير موضعه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الآية. مقصد هذه الآية أن الحول والقوة لله. ويبين ذلك للناس بما يحسونه من أنفسهم. والضُّر لفظ جامع لكل ما يكرهه الإنسان كان ذلك في ماله أو في بدنه، وهذه الآية مظهرة فساد حال الأصنام، لكن كل مُمَيِّز أدنى ميز يعرف يقيناً أنها لا تكشف ضراً ولا تجلب نفعاً.

وقوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ لفظ تام العموم[١]، وخصص النبي ﷺ الفقه بالذكر في قوله: «مَنْ يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[٢]، وهذا على جهة التشريف للفقه. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ترجية وبسط ووعد مَّا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

هذه مخاطبة لجميع الكفار مستمرة مدى الدهر، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ هو القرآن والشرع الذي جاءَ به محمد ﷺ[٣]، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أَي: اتبع الحق وأذْعَن له فإنما يسعى لنفسه لأَنه يوجب لها رحمة الله ويدفع عذابه، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أَي حادَ عن طريق الحق ولم ينظر بعين الحقيقة، وكفر بالله عزَّ وجلَّ فبِضِدّ ذلك. وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أَي:

---

(١) أَتَى في (الضُّر) بلفظ (المَسّ) وفي الخير بلفظ (الإرادة)، وطابق بين الخير والضر مطابقة معنوية لا لفظية، لأن مقابل الضُّر النفعُ، ومقابل الخير الشرُّ، فجاءت لفظة الضرّ ألطف وأخص من لفظة الشرّ، وجاءت لفظة الخير أَتمّ من لفظة النفع، ولفظة المسّ أوجز من لفظة الإرادة وأَنَصّ على الإصابة وأنسب لقوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾، ولفظة الإرادة أدل على الحصول في وقت الخطاب وفي غيره، وأنسب للفظ الخير، قاله في البحر.

(٢) رواه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم عن معاوية، ورواه الإمام أحمد، والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة، ورواه أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود بلفظ: «مَنْ يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويُلْهمه رشده»، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث حسن.

(٣) وقيل: الحقُّ هو الرسول الله ﷺ.

لست بآخذكم ولابُدّ بالإيمان ، وإنما أنا مبلغ ، وهذه الآية منسوخة بالقتال(١) .

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ الآية. معناه: اتَّبع ما رسمه لك شرعك ، وما أَعلمك الله به من نُصْرَته لك ، واصبر على شقاءِ الرسالة وما ينالك في الله من الأذى. وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ وعدٌ للنبي ﷺ بأَن يغلبهم ـ كما وقع ـ تقتضيه قوة اللفظ. وهذا الصبر منسوخ بالقتال. وهذه السورة مكيّة ، وقد تقدم ذكْر هذا في أَولها(٢) .

انتهى تفسير سورة يونس بعون الله وتوفيقه

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) وذهب بعض العلماء إلى أن الآية محكمة غير منسوخة ، وكذلك الآية التي بعدها ، وحملوا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ على أنه ليس بحفيظ على أعمالهم ليجازيهم عليها ، بل ذلك لله ، وكذلك حملوا قوله: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على الصبر على طاعة الله وحَمْل أثقال النبوة وأداءِ الرسالة ، وعلى هذا لا تعارض بين الآيتين وبين آية السيف. قال أبو حيان في البحر: «وإلى هذا مال المحققون».

(٢) روي أنه لما نزلت: ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ جمع رسول الله ﷺ الأنصار فقال: «إنكم ستجدون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة هود عليه السلام[(١)]

هذه السورة مكية إلاَّ قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ونزلت في ابن سلام وأصحابه، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية[(٢)]، نزلت في شأن الثمار. وهذه الثلاث مدنية، قاله مقاتل[(٣)]، عَلَى أَنَّ الأُولى تشبه المكي.

وإذا أَردت بـ(هود) اسم السورة لم ينصرف، كما تفعل إذا سميت امرأَةً بـ(عمرو) و(زيْد)، وإِذا أَردت سورة (هود) صرفت[(٤)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾.

تقدم استيعاب القول في الحروف المقطعة في أَوائل السور، وتختص هذه بأَن قيل: إِن (الرَّحْمن) فرقت حروفه فيها، وفي ﴿حمٓ﴾ وفي ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾.

---

(١) أسند أبو محمد الدارمي في مسنده وأبو داود في مراسيله، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا سورة هود يوم الجمعة»، وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قد شِبْتَ! قال: «شَيَّبَتْني هود، والواقعة، والمرسلات، وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت»، قال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) الآية الأولى رقمها (١٢)، والثانية رقمها (١٧)، والثالثة رقمها (١١٤) من السورة.

(٣) وعن ابن عباس، والحسن، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وجابر بن زيد أن هذه السورة مكيّة كلها.

(٤) عيسى بن عمر يقول: «هذه هودٌ» بالتنوين على أنه اسم للسورة، وكذا إن سميتَ امرأة بـ(زيد)، لأنه لما سكن وسطه خفّ فصرف.

و﴿ كِتَٰبٌ ﴾ مرتفع على خبر الابتداءِ ، فمن قال: «الحروف إشارة إلى حروف المعجم» كانت الحروف المبتدأ ، ومن تأول الحروف غير ذلك كان المبتدأَ: هذا كتاب ، والمراد بالكتاب القرآن.

و﴿ أُحْكِمَتْ ﴾ معناه: أُتقنت وأُجيدت شبه ما تحكم من الأُمور المتقنة الكاملة ، وبهذه الصفة كان القرآن في الأزل ، ثم فصل بتقطيعه وتبيين أَحكامه وأوامره على محمد ﷺ في أَزمنة مختلفة ، فـ﴿ ثُمَّ ﴾ على بابها ، وهذه طريقة الإحكام والتفصيل ، إذ الإحكام صفة ذاتية ، والتفصيل إنما هو بحسب من يُفصَّل له ، والكتاب بأَجمعه مُحْكم ومُفْصل ، والإحكام الذي هو ضد النسخ والتفصيلُ الذي هو خلاف الإجمال إنما يقالان مع ما ذكرناه باشتراك. وحكى الطبري عن بعض المتأَولين: أُحْكمت بالأَمر والنهي ، وفُصّلت بالثواب والعقاب ، وعن بعضهم: أُحكمت من الباطل ، وفصلت بالحلال والحرام ، ونحو هذا من التخصيص الذي هو صحيح المعنى ولكن لا يقتضيه اللفظ. وقال قوم: ﴿ فُصِّلَتْ ﴾ معناه: فُسّرت. وقرأ عكرمة ، والضحاك ، والجحدري ، وابن كثير فيما روي عنه: [ثُمَّ فَصَلَت] بفتح الفاءِ والصاد واللام ، ويحتمل ذلك معنيين ، أَحدهما: فَصَلَتْ أَي: نزلت إلى الناس ، كما تقول: «فَصَلَ فلان» لسفره ونحو هذا من المعنى ، والثاني: فَصَلَت بين المُحِقِّ والمُبْطِل من الناس.

و﴿ مِن لَّدُنْ ﴾ معناها: من حيث ابتدئت الغاية ، كذا قال سيبويه ، وفيها لغات. يقال: [لَدْن] ، و[لُدْن] بسكون الدال ، وقرئ بهما ﴿ مِن لَّدُنْ ﴾ ، ويقال: [لَدُ] بفتح اللام وضم الدال دون نون ، يقال: [لَدىً] بدال منونة مقصورة ، ويقال: [لَدٍ] بدال مكسورة منونة. حكى ذلك أَبو عبيدة.

و﴿ حَكِيمٍ ﴾ أَي: مُحْكِم ، و﴿ خَبِيرٍ ﴾ أَي: ذو خبرة بالأُمور أَجمع.

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ ﴾ ، ﴿ أَن ﴾ في موضع نصب ، إما على إضمار فعل ، وإمَّا على تقدير: «بأَنْ» وإسقاط الخافض ، وقيل: على البدل من موضع «الآيات» ، وهذا معترض ضعيف لأَنه لا موضع للآيات ، وإن نظر موضوع الجملة فهو رفع ، ويحتمل أَن تكون في موضع رفع على تقدير: «تفصيله أَلا تعبدوا» ، وقيل: على البدل من لفظ «الآيات».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي: من عقابه وبثوابه، وإذا أُطلقت هاتان اللفظتان فالنذارة في المكروه والبشارة في المحبوب، وقدم «النذير» لأن التحذير من النار هو الأهم، و﴿أَنْ﴾ معطوفة على التي قبلها، ومعنى الآية: استغفروا ربكم، أَي: اطلبوا مغفرته لكم وذلك بطلب دخولكم في الإسلام، ثم توبوا من الكفر، أَي: انسلخوا منه واندموا على سالفه، و﴿ثُمَّ﴾ مرتبة لأن الكافر أول ما ينيب فإنه في طلب مغفرة ربه، فإذا تاب وتجرد من الكفر تمَّ إيمانه. وقرأ الجمهور ﴿يُمَتِّعْكُم﴾ بشد التاءِ، وقرأ ابن محيصن: [يُمْتِعْكُمْ] بسكون الميم وتخفيف التاءِ. وفي كتاب أَبي حاتم: «إن هذه القراءَات بالنون»، وفي هذا نظر. و﴿مَّتَاعًا﴾ مصدرٌ جارٍ على غير الفعل المتقدم مثل: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾(١)، وقيل: نصب بتعدي ﴿يُمَتِّعْكُم﴾ لأنك تقول: متَّعتُ زيداً ثوباً. ووَصْف المتاع بالحُسْن إنما هو لطيب عيش المؤمن برجائه في الله عزَّ وجلَّ وفي ثوابه، وفرحه بالتقرب إليه بمفترضاته، والسرور بمواعيده، والكافرُ ليس في شيءٍ من هذا. وأَما من قال بأَن المتاع الحسن هو فوائد الدنيا وزينتها، فيضعف بأَن الكفرة يشاركون في ذلك أَعظم مشاركة. والأَجل المسمّى هو أَجل الموت، معناه: إلى أَجل مسمّى لكل واحد منكم، وهذا ظاهر الآية، والأَجل الكبير ـ على هذا ـ هو يوم القيامة. وتحتمل الآية أَن يكون التوعد بتعجيل العذاب إن كفروا، والوعد بتمتيعهم إن آمنوا، فتشبه ما قاله نوح عليه السلام، واليوم الكبير ـ على هذا ـ كيوم بدر ونحوه، والمجهلة ـ في أَي الأمرين يكون ـ إنما هي بحسب البشر، والأَمر عند الله تعالى معلوم مُحَصّل، والأَجل واحد.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي كل ذي إحسان بقوله أَو بفعله أَو بقوّته أَو بماله أَو غير ذلك مما يمكن أَن يتقرب به، و﴿فَضْلَهُ﴾ يحتمل أَن يعود الضمير فيه على ﴿ذِي﴾ أَي: ثواب فضله وجزاءَه. ويحتمل أَن يعود الضمير فيه على الله عزَّ وجلَّ، أَي: يؤتي الله فضْلَه كلَّ ذي فضل وعمل صالح من المؤمنين، ونحو هذا المعنى ما وعد به الله تبارك وتعالى من تضعيف الحسنة بعشر أَمثالها، ومن التضعيف الغير محصور(٢) لمن شاءَ. وهذا التأويل تأَوله ابن مسعود وقال: «ويلٌ لمن غلبت

---

(١) الآية (١٧) من سورة (نوح).

(٢) الأصح أن يقال: غير المحصور.

آحاده عشراته» ، ويحتمل أن يكون قول ابن مسعود موافقاً للمعنى الأول[١].

وقرأ الجمهور: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ بفتح التاءِ واللام ، فبعضهم قال: معناه: الغيبة ، أي: فقل لهم: إني أخاف عليكم ، وقال بعضهم: معناه: [فإن تَتَولّوا] فحذفت التاءُ ، والآية كلها على مخاطبة الحاضر ، وقرأ اليماني ، وعيسى بن عمر: [وَإِنْ تُوَلُّوَ] بضم التاءِ واللام وفتح الواو[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ توعُّد بيوم القيامة ، ويحتمل أن يريد به يوماً من الدنيا كبدر وغيره.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ توعُّد ، وهو يؤيد أن اليوم الكبير يوم القيامة لأنه توعَّد به ، ثم ذكر الطريق إليه من الرجوع إلى الله. والمعنى: إلى عقابه وجزائه رجوعُكُم ، وهو القادر الذي لا يضره شيءٌ ، ولا يجير عليه مجير ، ولا تنفع من قضائه واقية. وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ عموم يراد به الخصوص ، دون مالا يوصف الله بالقدرة عليه من المحالات وغيرها التي هي أشياءٌ. والشيءُ في اللغة: الموجود ، وما يتحقق أنه يوجد كزلزلة الساعة وغيرها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾.

قيل: إن هذه الآية نزلت في الكفار الذين كانوا إذا لقيهم رسول الله ﷺ تطامنوا وثَنَوْا صدورهم كالمستتر[٣] ، وردُّوا إليه ظهورهم ، وغشوا وجوههم بثيابهم تباعداً

---

(١) نصُّ كلام ابن مسعود كما رواه الطبري هو: «قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات ، فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات ، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات» ، ثم يقول: «هلك من غلب آحاده أعشاره».

(٢) قال أبو حيان في «البحر»: «وفي كتاب «اللوامع»: اليماني وعيسى: [وَإِنْ تُوَلُّوا] بثلاث ضمات مرتباً للمفعول به ، وهو ضد التبرِّي ، وقرأ الأعرج بضم التاءِ واللام وسكون الواو مضارع (أولى)».

(٣) ثَنَى الشيء ثنياً: عَطَفَه وردَّ بعضه على بعض ، ويقال: ثنى صدره على كذا: طواهُ عليه وستره. (المعجم الوسيط).

منه وكراهة للقائه، وهم يظنون أَن ذلك يخفى عليه وعلى الله عزَّ وجلَّ، فنزلت الآية في ذلك. و﴿ صُدُورَهُمْ ﴾ منصوبة ـ على هذا ـ بـ﴿ يَثْنُونَ ﴾.

وقيل: هي استعارة للغل والحقد الذي كانوا ينطوون عليه، كما تقول: «فلان يطوي كشحه على عداوته ويثني صدره عليها». فمعنى الآية: أَلا إِنهم يُسرون العداوة ويتكتمون بها لتخفى ـ في ظنهم ـ عن الله، وهو تعالى ـ حين تغشاهم وإِبلاغهم في التَّستُّر ـ يعلم ما يُسرون.

وقرأَ سعيد بن جبير: [يُثْنُونَ] بضم الياءِ والنون، من أَثْنى. وقرأَ ابن عباس: [لَيَثْنون]، وقرأَ ابن عباس أَيضاً، ومجاهد، وابن يَعْمَر[1]، وابن أَبزى، ونصر بن عاصم، والجحدري، وابن إِسحق، وأَبو رزين[2]، وعليّ بن الحسين، وأَبو جعفر محمد بن عليّ، ويزيد بن عليّ، وجعفر بن محمد، وأَبو الأَسود[3]، والضحاك: [تَثْنَوْني صُدُورُهُمْ] برفع الصدور، وهي تحتمل المعنيَيْن المتقدمين في ﴿ يَثْنُونَ ﴾، ووزنها تَفْعَوْعِلُ على بناءِ مبالغة لتكرار الأَمر، كما تقول: اعشَوْشَبَت الأَرض، واحْلَوْلَت الدنيا، ونحو ذلك[4]، وحكى الطبري عن ابن عباس ـ على هذه القراءَة ـ أَن هذه الآية نزلت في أَن قوماً كانوا لا يأْتون النساءَ والحدث إِلا ويتغشَّون ثيابهم كراهية أَن يفضوا بفروجهم إِلى السماءِ. وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما ـ فيما روى ابن

(١) اسمه يحيى بن يَعْمَر بفتح الياءِ والميم وسكون العين بينهما، أبو سليمان العدواني البصري، تابعي جليل، عرض على عمر، وابن عباس، وأبي الأسود الدؤلي، وعرض عليه أبو عمرو بن العلاء، توفي سنة ٩٠هـ. (طبقات ابن الجزري).

(٢) هو مسعود بن مالك، (ويقال: ابن عبد الله) أبو رزين الكوفي، روى عن ابن مسعود، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وروى عنه الأعمش. (طبقات ابن الجزري).

(٣) هو ظالم بن عمرو بن سفيان أبو الأسود الدؤلي، ثقة جليل، أول من وضع مسائل في علم النحو بإشارة من علي بن أبي طالب، أخذ القراءة عرضاً عن عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وروى القراءة عنه ابنه أبو حرب، ويحيى بن يَعْمَر، توفي بالبصرة سنة ٦٩هـ. (المصدر السابق).

(٤) كقولهم: «اخْلَوْلَقَت السماءُ للمطر»، إذا قويت أمارة ذلك، «واغْدَوْدَن الشَّعْر» إذا طال واسترخى، وأنشد أبو علي لِحَسَّان:

وقَامَتْ تُرَائِيكَ مُغْدَوْدِناً ... إذا ما تَنُوءُ بِهِ آدَها

ومنه قول الشاعر:

لَوْ كُنْتَ تُعْطِي حِينَ تُسْأَلُ سَامَحَتْ ... لَكَ النَّفْسُ واحْلَوْلاكَ كلُّ خَلِيلِ

عُيَيْنة ـ: [تَثْنَوي] بتقديم الثاءِ على النون وبغير نون بعد الواو[١] ، قال أَبو حاتم: هذه القراءَة غلط لا تتَّجه[٢]. وقرأَ نصر بن عاصم ، ويحيى بن يَعْمَر ، وابن أَبي إِسحق: [تَثْنَوِي] بتقديم النون على الثاءِ ، وقرأَ عروة ، وابن أَبزى ، والأَعمش: [تَثْنَونّ] بثاءٍ مثلثة بعدها نون مفتوحة بعدها واو مكسورة. وقرأَا أَيضاً هما[٣] ومجاهد فيما روي عنه: [تَثْنَئِنّ] بهمزة بدل الواو ، وهاتان مشتقتان من «الثِّنّ» وهو العشب المثني بسهولة[٤] ، فشبه صدورهم به إِذ هي مجيبة إِلى هذا الانطواءِ على المكر والخداع. وأَصل [تَثْنَونّ[٥]]: «تَثْنَوْنِنْ» ، سكنت النون المكسورة ، ونقلت حركتها إِلى الواو التي قبلها ، وأُدغمت في النون التي بعدها. وأَما [تَثْنَئِنُّ] فأَصلها: «تَثْنَانّ» مثل «تَحْمَارّ» ، ثم قالوا: «اثْنَأَنَّ» كما قالوا: احْمَأَرَّ وابيَأَضَّ[٦].

والضمير في ﴿مِنۡهُۚ﴾ عائد على الله تعالى ، هذا هو الأَفصح الأَجزل في المعنى ،

---

(١) قال أبو حيان في «البحر»: على وزن تَرْعَوي.

(٢) إنما قال ذلك لأنه لاحظ الواو في هذا الفعل ، لا يقال: ثنوتُه فانثوى ، كما يقال: رعوته فارعوى ، أي: كففتُه فانكفّ. قاله في «البحر المحيط».

(٣) تأمل قوله: «هما» ، والمتقدم ذكرهم ثلاثة هم: عروة ، وابن أبزى ، والأعمش ، ولعلَّه أراد الأخيرين فقط.

(٤) قال أبو الفتح في المحتسب: وتَثْنَوِنّ وتَثْنَئِنّ من لفظ الثِّنّ ومعناه ، وهو ما هش وضعف من الكلأ ، وأنشد أبو زيد ، ورويناه عنه:

يـــا أَيُّهَـــا الفُصَيِّـــلُ المُعَنِّـــي
إِنَّـــكَ ريَّـــانُ فصَمِّـــتْ عَنِّـــي
يكفـــي اللَّقُـــوحَ أَكْلَـــةٌ مِـــنْ ثِـــنِّ

والأبيات في (اللسان ـ ثنن) ، وشرح ابن عطية للثِّنّ يلتقي مع هذا المعنى فهو العشب المثني بسهولة ، وقد جاءَت الكلمة في بعض النسخ: «العسيب» بدلا من «العشب» ، وهي بعيدة في معناها عن المراد.

(٥) يعني على قراءة عروة ، وابن أبزى ، والأعمش.

(٦) قال أبو الفتح: «أصله (تَثْنَانّ) فحركت الألف لسكونها وسكون النون الأولى ، فانقلبت همزة ، وعليه قول دُكَيْن:

راكِـــدَةٌ مِخْـــلاتُـــه ومحلَبُـــه وجُلُّـــه حتَّـــى ابيـــأَض مَلْبَبُـــه

يريد: ابيَاضّ فحرّك الألف فهمزتها ، والمَلْبَب: موضع اللَّبَة ، وهو وسط الصدر». ثم قال أبو الفتح: «ذهب أبو إسحق إلى أن «تَثْنَئِنّ» أصلها: «تَثْنَوِنّ» فهمزت الواو لانكسارها ، ومذهب أبي إسحق هذا مردود».

وعلى بعض التأويلات يمكن أن يعود على محمد ﷺ ، و﴿يَسْتَغْشُونَ﴾ معناه: يجعلونها أَغشية وأَغطية ، ومنه قول الخنساءِ:

أَرْعَى النُّجومَ وما كُلِّفتُ رِعْيَتَهَا ... وتارَةً أَتَغَشَّى فضلَ أَطْمَارِي[(١)]

وقرأ ابن عباس: [عَلَى حينَ يَسْتَغْشونَ] ، ومن هذا الاستعمال قول النابغة:

عَلَى حِينَ عاتَبْتُ الْمَشيبَ علَى الصبَا ... وقلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازِعُ[(٢)]

و«ذات الصدور»: مافيها ، والذَّات تتصرف في الكلام على وجوه هذا أَحدها ، كقول العرب: «الذئب مغبوط بذي بطنه»[(٣)] ، أَي بالذي فيه من النفخ ، وكقول أَبي بكر الصديق رضي الله عنه: «إِنما هو ذو بطن خارجة». والذاتُ التي هي حقيقة الشيءِ ونفسه قلقة في هذا الموضع ، ويحتمل أَن يفرق بين «ذي بطنه» وبين «الذات» ، وإِنما يجمعه بينهما المعنى.

وقوله تعالى: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٍ . . .﴾ الآية. تماد في وصف الله تبارك وتعالى

---

(١) أنشد صاحب اللسان هذا البيت في (رعى) قال: ورعَى النجوم رعْياً وراعاها: راقَبها وانتظر مغيبها ، قالت الخنساءُ: أرعى النجوم. . . البيت. واستَغْشَى بثوبه وتغَشَى: تغطّى ، والأطمار: جمع طِمْر وهو الثوب الخلق ، ومنه الحديث «رُبّ ذي طِمْرين لا يُؤْبَهُ له لو أقسم على الله لأَبَرَّهُ».

(٢) البيت من قصيدة للنابغة يمدح فيها النعمان ، ويعتذر إليه مما وشت به بنو قُرَيع ، ومعنى (عَلى) هنا: (في) ، لأنه في البيت السابق يقول:

فَكَفْكَفْتُ مِنِّي عَبْرَةً فَرَدَدْتُهَا ... على النَّحْرِ مِنْهَا مُسْتَهِلٌ ودامِعُ

فهي مثل (عَلى) في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ ، والمعنى: كَفْكفتُ الدمع في وقت عتابي لنفسي عند مشيبها ، وقد جعل العتاب للمشيب على سبيل المجاز ، و(على الصبا) متعلق بـ(عاتبتُ) ، أي: عاتبته على فعل التصابي الذي لا يليق به ، وقد تقدم الاستشهاد بالبيت عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ الآية (١١٩) من سورة (المائدة).

(٣) ويروى: «الذئب يغبط بغير بطنة» ، و«ذو بطنه»: ما في بطنه ، ويقال: ذو البطن: اسم للغائط ، يقال: ألقى ذا بطنه إذا أحدث ، قال أبو عبيد: وذلك أنَّه ليس يظن به أبداً الجوع ، إنما يظن به البطنة لأنه يعدو على الناس والماشية ، قال الشاعر:

ومَنْ يَسْكُنِ البَحْرينِ يَعْظُمْ طُحَالُه ... ويُغْبَطْ مافي بَطْنِهِ وهْوَ جَائِعُ

وقال غيره: إنما قيل فيه ذلك لأنه عظيم الجفرة أبداً لا يبين عليه الضمور وإن جهده الجوع ، وقال الشاعر:

لكالذِّئب مَغْبُوطُ الْحَشَا وهْوَ جَائِعُ

(مجمع الأمثال للميداني. ج١ ص٣٨٧ ـ الحياة. بيروت).

بنحوقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾. والدَّابة: ما دبَّ من الحيوان، والمراد جميع الحيوان الذي يحتاج إلى رزق، ويدخل في ذلك الطائر والهَوَامّ وغير ذلك، كلها دواب. وقد قال الأعشى:

نِيَافٌ كغُصْنِ البَانِ تَرْتَجُّ إنْ مَشَتْ ... دَبِيبَ قَطَا البَطْحَاءِ في كلِّ مَنْهَلِ[1]

وقال علقمة بن عبدة لطير:

. . . . لِطَيْـــرِهِـــنَّ دَبيـــبُ[2]

وفي حديث أَبي عبيدة: «فإذا دابة مثل الظَّرِب»[3]، يريد: من حيوان البحر. وتخصيصه بقوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إنما هو لأَنه الأَقرب لحِسِّهم. والطائر والعائم إنما هو في الأَرض، وما مات من الحيوان قبل أَن يتغذى فقد اغتذى في بطن أُمه بوجه مّا.

وهذه الآية تعطي أَن الرزق: كل ما صحّ الانتفاع به خلافاً للمعتزلة في قولهم: «إنه الحلالُ الممتلك».

---

(١) من قصيدة له يقول في مطلعها:

صَحَا القَلْبُ مِنْ ذكْرَى قُتَيْلَةَ بَعْدَمَا ... يكونُ لَهَا مثْلَ الأسيرِ المُكَبَّلِ

والنياف: الطويلة التامة الحسن. والقطا: جمع قطاةٍ، وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراءِ، ويتخذ أُفْصوحةً في الأرض، ويطير في جماعات، ويقطع مسافات شاسعة، وبيضه مرقط، ومشيته رشيقة، والمنْهل: المورد، أي الموضع الذي فيه المشرب.

(٢) هو علقمة بن عبدة الفحل، أحد كبار الشعراءِ المعاصرين لامرىء القيس، والجملة جزء من بيت قاله ضمن قصيدته: طحَا بكَ قلبٌ في الحسان طروب، وهو بتمامه:

كأنَّهُمُ صابَتْ عَلَيْهِمْ سحابَةٌ ... صواعِقُهَا لِطَيْرِهِنَّ دَبِيبُ

وصابت: أمطرت، والدبيب: المشي الضعيق الخفيف. والمعنى: إن الممدوح إذا هجم على أعدائه كان كالسحابة التي تتفجر بالصواعق وتتهاطل كالطير عجزت عن التحليق فدبت تطلب النجاة، وفي البيت حركة تصور الجيش في كرّه، والطبيعة في صواعقها، والطَّير في دبيبها على الأرض.

(٣) الحديث في البخاري «شركة ومغازي»، وفي الموطأ «صفة النبي»، وفي مسند الإمام أحمد ٣ـ٣٠٦، ولفظه كما جاء في المسند عن جابر: «إن رسول الله ﷺ بعث سرية ثلاثمائة، وأمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، فنفذ زادنا، فجمع أبو عبيدة زادهم فجعله في مزود، فكان يقيتنا حتى كان يصيبنا في كل يوم تمرة، فقال له رجل: يا أبا عبد الله، وما كانت تغني عنكم تمرة؟ قال: قد وجدنا فقدها حين ذهبت حتى انتهينا إلى الساحل، فإذا حوتٌ مثْلُ الظَّرِب العظيم، قال: فأكل منه ذلك الجيش ثماني عشرة ليلة، ثم أخذ أبو عبيدة ضلعين من أضلاعه فنصبهما ثم أمر براحلته فرحلت فمر تحتهما فلم يصبها شيءٌ». والظَّرِبُ: الجبل المنبسط، أو الجُبَيْل (بالتصغير) كما قال في أساس البلاغة.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ إيجابُ تفضُّلٍ لأنه تعالى لا يجب عليه شيءٌ عقلا، والْمُسْتَقَرّ: صلْب الأَب، والمُسْتَوْدَع: بطن الأُم. وقيل: المسْتَقر: المأوى، والمُسْتَوْدَع: القبر، وهما ـ على هذا ـ ظرفان. وقيل: المُسْتَقَر: ما حصل موجوداً من الحيوان، والمُسْتَوْدَع: ما يوجد بعْدُ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمُسْتَقَرّ ـ على هذا ـ مصدر استَقَرّ، وليس بمفعول كمُسْتَوْدع، لأَن استَقَرّ لا يتعدى. وقوله: ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ إشارةٌ إِلى اللوح المحفوظ، وقال بعض الناس: هذا مجازٌ، وهي إشارة إِلى علم الله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وحَمْلُه على الظاهر أَولى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨﴾.

قال أَكثر أَهل التفسير: الأيام هي من أَيام الدنيا، وقالت فرقة: هي من أيام الآخرة، يومٌ من أَلف سنة، قاله كعب الأَحبار، والأَول أَرجح. وأَجزأَ ذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عن كل ما فيها، إِذ كل ذلك خُلِقَ في تلك الستة الأَيام.

واختلفت الأَحاديث في يوم بداية الخلق ـ فروى أَبو هريرة ـ فيما أَسند الطبري أَن رسول الله ﷺ أَخذ بيده وقال: «خلق الله التربة يوم السبت، والجبال يوم الأَحد، والشجر يوم الاثنين، والمكروه يوم الثلاثاء، والنور يوم الأَربعاءِ، وبث الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة»، ونحو هذا من أَن البداءَة يوم السبت في كتاب مسلم، وفي الدلائل لثابت: «وكان خلق آدم في يوم الجمعة، لا يعتَدّ به إِذ هو بشر كسائر بنيه، ولو اعتُدّ به لكانت الأَيام سبعة خلاف ما في كتاب الله». وروي

عن كعب الأَحبار أَنه قال: «بدأَ الله خلق السموات والأَرض يوم الأَحد، وفرغ يوم الجمعة، وخلق آدم في آخر ساعة منه»، ونحو هذا في جل الدواوين أَن البدأَة يوم الأَحد، وقال قوم: خلق الله تعالى هذه المخلوقات في ستة أَيام مع قدرته على خلقها في لحظة، نهجاً إِلى طريق التؤدة والمهلة في الأَعمال لِيُحكم البشر أَعمالهم. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: «كان العرش على الماءِ، وكان الماءُ على الريح»[1].

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾، والمعنى أَن خلقه إياها كان لهذا، وقال بعض الناس: هو متعلق بفعل تقديره: أَعلم بذلك ليبلوكم، ومقصد هذا القائل أَن هذه المخلوقات لم تكن لسبب البشر.

وقرأَ عيسى الثقفي[2]: [وَلَئِن قُلْتُ] بضم التاءِ، وقرأَ الجمهور: ﴿قُلْتَ﴾ بفتح التاءِ.

ومعنى الآية: إِن الله عزَّ وجلَّ هذه صفاته، وهؤلاء بكفرهم في حيز إِن قلت لهم: «إِنهم مبعوثون» كذبوا وقالوا: «هذا سحر»، أَي: فهذا تناقض منكم، إِذ كل مفطور يقر بأَن الله خالق السموات والأَرض، فهم من جملة المقرين بهذا، ومع ذلك ينكرون ما هو أَيسر منه بكثير، وهو البعث من القبور، إِذ البداءَة أَعسر من الإِعادة، وإِذ خلق السموات والأَرض أَكبر من خلق الناس. واللام في ﴿وَلَئِن﴾ مؤذنة بأَن اللام في ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ لام قسم لا جواب شرط.

وقرأَ الأَعرج، والحسن، وأَبو جعفر، وشيبة، وفرقة من السبعة: ﴿سِحْرٌ﴾، وقرأَت فرقة: [سَاحِرٌ]، وقد تقدم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾ الآية. المعنى: لئن تأَخر العذاب الذي

(١) الثابت في البخاري عن عمران بن حُصَين قال: كنت عند النبي ﷺ إذ جاء قوم من بني تميم فقال: «اقبلوا بالبشرى يا بني تميم»، قالوا بشرتنا فأعطنا، (مرتين)، فدخل ناس من أهل اليمن فقال: «اقبلوا البشرى ياأهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم»، قالوا: قبلْنا، جئنا لنتفقه في الدين، ولنسألك عن هذا الأمر ما كان؟ قال: «كان الله ولم يكن شيءٌ غيره، وكَان عرشه على الماءِ، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيءٍ»، ثم أتاني رجل فقال: يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت، فانطلقت أطلبها فإذا هي يقطع دونها السرابُ، وأيْمُ الله لَوَدِدْتُ أنها ذهبت ولم أقم.

(٢) هو عيسى بن مروان أبو عمرو الثقفي النحوي البصري، مؤلف الجامع والإكمال، مات سنة ١٤٩هـ. (طبقات القراء).

توعدتم به عن الله قالوا: ما هذا الحابس لهذا العذاب؟ على جهة التكذيب. و﴿الأُمَّةُ﴾ في هذه الآية: المُدّة، كما قال: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[(١)]، قال الطبري: سميت بذلك المُدّةُ لأنها تمضي فيها أُمة من الناس وتحدث فيها أُخرى، فهي ـ على هذا ـ المدة الطويلة. ثم استفتح بالإخبار عن أن العذاب يوم يأتي لا يردّه شيءٌ ولا يصرفه، و﴿وَحَاقَ﴾ معناه: حلَّ وأحاط، وهي مستعملة في المكروه، و﴿يَوْمَ﴾ منتصب بقوله: ﴿مَصْرُوفًا﴾[(٢)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَذَقْنَا﴾ هاهنا مستعارة، لأَن الرحمة هاهنا تعم جميع ما يُنتفع به من مطعوم وملبوس وجاهٍ وغير ذلك، و﴿الْإِنسَانَ﴾ هاهنا اسم الجنس. والمعنى: إن هذا الخُلُق في سجية الناس، ثم استثنى منهم الذين ردتهم الشرائع والإيمان إلى الصبر والعمل الصالح. و﴿لَيَئُوسٌ﴾ و﴿كَفُورٌ﴾ بناءَان للمبالغة. و﴿كَفُورٌ﴾ هاهنا من كُفر النعمة، والمعنى: إنه ييأس ويتحرج ويتسخط، ولو نظر إلى نعمة الله الباقية عليه في عقله وحواسه وغير ذلك، ولم يكفرها، لم يكن ذلك، فإن اتفق هذا أن يكون في كافر أيضاً بالشرع صحّ ذلك ولكن ليس من لفظ الآية.

وقال بعض الناس في هذه الآية: ﴿الْإِنسَانَ﴾ إنما يراد به الكافر، وحَمَلَه على ذلك لفظة ﴿كَفُورٌ﴾، وهذا عندي مردودٌ، لأَن صفة الكفر لا تطلق على جميع الناس كما تقتضي لفظة الإنسان.

والنَّعْمَاءُ: تشمل الصحة والمال ونحو ذلك، والضَّرَّاءُ من الضُّر، وهو أَيضاً

---

(١) من الآية (٤٥) من سورة (يوسف).

(٢) فهو معمول لخبر ﴿لَيْسَ﴾، وقد استدل به على جواز تقديم خبر ليس عليها قالوا: لأن تقدم المعمول يؤذن بتقدم العامل، ونُسب هذا المذهب لسيبويه، وعليه أكثر البصريين، وذهب الكوفيون والمبرد إلى أنه لا يجوز، ولا يدل جواز تقدم المعمول على جواز تقدم العامل، وأيضاً فإن الظرف والمجرور يتوسع فيهما ما لا يتوسع في غيرهما، ويقعان حيث لا يقع العامل فيهما.

شامل، وقد يكثر استعمال الضراءِ فيما يخص البدن. ولفظ ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ تقتضي بطراً وجهلا أَن ذلك بإِنعام من الله تعالى، واعتقاد أَن ذلك باتِّفاق أَو بعقد من الاعتقادات الفاسدة، وإِلا فلو قالها من يعتقد أَن ذهابها بإِنعام من الله وفضل لم يقع ذلك. و﴿ٱلسَّيِّـَٔاتُ﴾ هاهنا: كلُّ مايسوءُ في الدنيا.

وقرأَت فرقة: ﴿لَفَرِحٌ﴾ بكسر الراءِ، وقرأَت فرقة: [لَفَرُحٌ] بضمها. وهذا الفرح مطلق، ولذلك ذُمّ، إِذ الفرح انهمال النفس، ولا يأْتي الفرح في القرآن ممدوحاً إِلا إِذا قُيِّد بأَنه في خير.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ الآية. هذا الاستثناءُ متصل على ما قدمناه من أَن ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ عام يراد به الجنس، ومن قال «إِنه مخصص بالكافر» قال هاهنا: إِن الاستثناءَ منقطع، وهو قول ضعيف من جهة المعنى، وأَما من جهة اللفظ فجيّد، وكذلك قاله من النُّحاة قومٌ، واستثنى الله من الماشين على سجيّة الإِنسان هؤلاءِ الذين حملتهم الأَديان على الصبر على المكاره ومثابرة عبادة الله، وليس شيءٌ من ذلك في سجية البشر، وإِنما حَمَل على ذلك حب الله وخوفُ الدار الآخرة والصبر، والعملُ الصالح لا ينفع إِلا مع هداية وإِيمان. ثم وعدَ تبارك وتعالى أَهل هذه الصفة ـ تحريضاً عليها وحضّاً ـ بالمغفرة للذنوب والتفضل بالأَجر والنعيم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٖ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٖ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾.

سبب هذه الآية أَن كفار قريش قالوا: يا محمد لو تركت سبّ آلهتنا وتسفيه آبائنا لجالسناك واتَّبعناك. وقالوا: إِيتِ بقرآن غير هذا أَو بدله، ونحو هذا من الأَقوال، فخاطب الله تعالى نبيّه ﷺ على هذه الصورة من المخاطبة، ووقفه بها توقيفاً راداً على أَقوالهم ومبطلاً لها، وليس المعنى أَنه ﷺ همّ بشيءٍ من هذا فزجر عنه، فإِنه لم يرد قط ترك شيءٍ مما أُوحي إِليه، ولا ضاق صدره، وإِنما كان يضيق صدره بأَقوالهم وأَفعالهم وبُعدهم عن الإِيمان.

و[لعلّك] ها هنا بمعنى التوقيف والتقرير، و﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ هو القرآن والشريعة والدعاءُ إلى الله تعالى، كان في ذلك سب آلهتهم وتسفيه آبائهم أَو غيره. ويحتمل أَن يكون النبي ﷺ قد عَظُم عليه ما يلقى من الشدة فمال إلى أَن يكون من الله تعالى إذْنٌ في مساهلة الكفار بعض المساهلة، ونحو هذا من الاعتقادات التي تليق به ﷺ كما جاءَت آيات الموادعة. وعبّر بـ[ضائق] دون (ضَيّق) للمناسبة في اللفظ مع ﴿تَارِكُۢ﴾، وإن كان (ضيّق) أَكثر استعمالاً لأَنه وصف لازم، و﴿وَضَآئِقُۢ﴾ وصف عارض، فهو الذي يصلح هنا. والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائد على ﴿البعض﴾، ويحتمل أَن يعود على ﴿مَا﴾. و﴿أَن﴾ في موضع نصب على تقدير: «كراهة أَنْ»، والكنزُ ها هنا: المالُ، وهذا هو طلبهم آية تضطر إلى الإيمان، والله تبارك وتعالى لم يبعث الأَنبياءَ بآيات اضطرار، وإنما بعثهم بآيات النظر والاستدلال، ولم يجعل آية الاضطرار إلا للأُمم التي قدّر تعذيبها بكفرها بعد آية الاضطرار، كالناقة لثمود.

ثم آنَسَهُ تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾، أَي: هذا القدر هو الذي فُوّض إليك، والله تعالى بعد ذلك هو الوكيل الممضي لإيمان من شاءَ وكفر من شاءَ.

وقوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ الآية. هذه «أَمْ» التي عند سيبويه بمعنى «بل وأَلف الاستفهام»، كأَنه أَضرب عن الكلام الأَول واستفهم في الثاني على معنى التقرير، كقولهم: «إنها لإِبلٌ أَمْ شَاءٌ؟». والافتراءُ أَخصّ من الكذب، ولا يستعمل إلا فيما بهت به المرءُ وكابر وجاءَ بأَمر عظيم منكر. ووقع التحدي في هذه الآية بعشر لأَنه قيدها بالافتراءِ، فوسَّع عليهم القدر لتقوم الحجة غاية القيام، إذْ قَدْ عَجَّزهم في غير هذه الآية بسورة من مثله دون تقييد، فهذه مماثلة تامة في غيوب القرآن ومعانيه ونظمه ووعده ووعيده، وَعُجِّزوا في هذه الآية بأَنْ قيل لهم: عارضوا القدر منه بعشر أَمثاله في التقدير والغرض واحد، واجعلوه مفترى لا يبقى لكم إلا نظمه، فهذه غاية التوسعة، وليس المعنى: عارضوا عشر سور بعشر، لأَن هذه إنما كانت تجيءُ معارضة سورة بسورة مفتراة ولا يُبالي عن تقديم نزول هذه على هذه. ويؤيد هذا النظر أَن التكليف في آية البقرة إنما هو بسبب الريب، ولا يزيلُ الريب إلا العلم بأَنهم لا يقدرون على المماثلة التامة، وفي هذه الآية إنما التكليف بسبب قولهم: «افتراه»، فكلفوا نحو ما قالوا، ولا يطرد هذا في آية «يونس». وقال بعض الناس: هذه مقدمة في النزول

على تلك، ولا يصح أن يُعَجّزوا في واحدة فيكلفوا عشراً والتكليفان سواء، ولا يصح أن تكون السورة الواحدة إلا مفتراة، وآية سورة «يونس» في تكليف سورة متركبة على قولهم: «افتراه»، وكذلك آية البقرة، إنما ريبُهم بأن القرآن مفترى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقائل هذا القول لم يلحظ الفرق بين التكليفين، في كمال المماثلة مرة، ووقوفها على النظم مرة.

و﴿ مَن ﴾ في قوله: ﴿ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم ﴾ يراد بها الآلهة والأصنام والشياطين وكل ما كانوا يعظمونه، وقوله: ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ يريد: في أن القرآن مفترى.

قوله عزّ وجلّ:

﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

لهذه الآية تأويلان:

أحدهما: أن تكون المخاطبة من النبي ﷺ للكفار، أي: فإن لم يستجب من تدعونه[1] إلى شيء من المعارضة ولا قدر جميعكم عليها فأذعِنُوا حينئذ واعلموا أنه من عند الله، ويأتي قوله: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ متمكناً.

والثاني: أن تكون مخاطبة من الله تعالى للمؤمنين، أي: فإن لم يستجب الكفار إلى ما دُعوا إليه من المعارضة فاعلموا أن ذلك من عند الله. وهذا على معنى: دوموا على علمكم، فإنهم كانوا عالمين بذلك. قال مجاهد: قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ هو لأصحاب محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ يحتمل معنيين. أحدهما: بإذنه وعلى علم منه. والثاني: أنه أُنزل بما علمه الله تعالى من الغيوب، فكأنه أراد: «المعلومات له»، وقوله: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ تقرير.

---

(١) في بعض النسخ زيادة: ﴿من دون الله﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية. قالت فرقة: ظاهرها العموم ومعناها الخصوص في الكفرة. هذا قول قتادة والضحاك[١]، وقال مجاهد: هي في الكفرة وفي أَهل الرياءِ من المؤمنين، وإِلى هذا ذهب معاوية حين حدثه سَيَّافُه شُفي بن ماتع الأَصبحي[٢] عن أَبي هريرة بقول رسول الله ﷺ في الرجل المتصدق، والمجاهد المقتول، والقائم بالقرآن ليله ونهاره ـ وكل ذلك رياءً ـ أَنهم أَول من تُسَعَّر به النار يوم القيامة، فلما حدّثه شُفي بهذا الحديث بكى معاوية وقال: صدق الله ورسوله، وتلا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا...﴾ الآية إِلى قوله: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٣].

فأَما من ذهب في أَنها في الكفرة فمعنى قوله: ﴿يُرِيدُ﴾: يقصد ويعتمد، أَي: هي وجهُهُ ومقصدُه لا مقصد له غيرها، فالمعنى: من كان يريد بأَعماله الدنيا فقط إِذ لا يعتقد الآخرة فإِن الله يجازيه على حُسْن أَعماله ـ في الدنيا ـ بالنعم والحواسّ وغير ذلك، فمنهم مُضَيّق عليه، ومنهم مُوَسَّع له، ثم حكم عليهم بأَنهم لا يحصل لهم يوم القيامة إِلا النار، ولا تكون لهم حالٌ سواها.

---

(١) قال القرطبي: «واختاره النحاس، بدليل الآية التي بعدها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾، فمن أَتى منهم بصلة رحم أو صدقة نكافئه بها في الدنيا بصحة الجسم وكثرة الرزق، لكن لا حسنة له في الآخرة».

(٢) شُفَي بن ماتع هذا كان سيافاً لمعاوية، ومات سنة ١٠٥هـ.

(٣) الحديث رواه مسلم بمعناه، والترمذي أيضاً، وهو في ابن جرير، وفيه أن أبا هريرة قال: حدثني رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى أهل القيامة ليقضي بينهم وكل أُمة جاثية، فأول من يُدْعى به رجل جمع القرآن، ورجل قُتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلتُ على رسولي؟ قال: بلى يا ربّ، قال: فماذا عَمِلتَ فيما عُلِّمتَ؟ قال: كنت أقوم آناءَ الليل وآناءَ النهار، فيقول الله له: كذبتَ، وتقول الملائكة: كذبتَ، ويقول الله له: بل أردت أن يقال: «فلانٌ قارئ» فقد قيل ذلك. ويُؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أُوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا ربّ، قال: فماذا عملتَ فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبتَ، وتقول الملائكة: كذبتَ، ويقول الله له: بل أردت أن يقال: «فلان جواد»، فقد قيل ذلك. ويُؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقال له: في ماذا قُتلت؟ فيقول: أُمرتُ بالجهاد في سبيلك فقاتلتُ حتى قتلت، فيقول الله له: كذبتَ، وتقول له الملائكة: كذبتَ، ويقول الله له: بل أردت أن يقال: «فلان جريءٌ»، وقد قيل ذلك، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسَعّر لهم النار يوم القيامة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فاستقام هذا المعنى على لفظ الآية ، وهو عندي أرجح التأويلات بحسب تقدم ذكر الكفار والمنافقين في القرآن ، فإنما قصد بهذه الآية أولئك[(١)].

وأما من ذهب إلى أنها في العصاة من المؤمنين فمعنى ﴿ يُرِيدُ ﴾ عنده: يُحب ويُؤثر ويُفضّل ويقصد وإن كان له مقصد آخر بإيمانه ، فإن الله يجازيه على تلك الأعمال الحسان ـ التي لم يعملها لله ـ بالنِّعم في الدنيا ، ثم يأتي قوله: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ ﴾ بمعنى: ليس يجب لهم أو يحق لهم إلاّ النار ، وجائز أن يتغمدهم الله برحمته ، وهذا هو ظاهر ألفاظ ابن عباس وسعيد بن جبير[(٢)].

وقال أنس بن مالك: هي في أهل الكتاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومعنى هذا أن أهل الكتاب الكفرة يدخلون في هذه الآية ، لا أنها ليست في غيرهم.

وقرأ جمهور الناس: ﴿ نُوَفِّ ﴾ بنون العظمة ، وقرأ طلحة[(٣)] ، وميمون بن مهران: [يُوَفَّ] بياءِ الغائب[(٤)].

و﴿ يُبْخَسُونَ ﴾ معناه: يعطون أقل من ثوابهم ، و﴿حَبِطَ﴾ معناه: بطل وسقط ، منه قول النبي ﷺ: «يقتل حبطاً أو يُلِمّ»[(٥)] ، وهي مستعملة في فساد الأعمال. والضمير في

---

(١) ولقوله تعالى بعد ذلك: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ﴾ كما سبق أن ذكرنا.

(٢) وهذا الرأي يلتقي مع قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيّات» ، فالمرءُ إنما يعطى على وجه قصده ، وبحكم ضميره ونيّته.

(٣) هو طلحة بن ميمون كما ذكر ذلك في البحر ، وإلا فهناك طلحة بن مصرف مثلاً ، وغيره.

(٤) في إعراب هذه الآية: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ... ﴾ إلخ ذكر عن الفراءِ أن (كانَ) زائدة ولهذا جزم الجواب وهو ﴿ نُوَفِّ ﴾ ، قال أبو حيان: (ولعَلّه لا يصح ، إذْ لوْ كانت زائدة لكان (يُريدُ) هو فعل الشرط ، وكان يكون مجزوماً). وهذا التركيب من مجيء فعل الشرط ماضياً والجواب مضارعاً ليس مخصوصاً بكان ، بل هو جائز في غيرها ، كما روي في بيت زهير بن أبي سلمى:

ومَـنْ هـابَ أسْبَـابَ المنَـايـا يَنَلْنَـهُ ... ولـوْ رامَ أنْ يَـرْقَـى السَّمَـاءَ بِسُلَّـم

(٥) هذا جزءٌ من حديث رواه البخاري ، ومسلم ، وابن ماجه والإمام أحمد ، ولفظه كما في البخاري عن أبي سعيدالخدري رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ قام على المنبر فقال: «إنما أخشى عليكم من بعدي=

قوله: ﴿فِيهَا﴾ عائد على الدنيا في الأُوليَيْن ، وفي الثالثة عائد على الآخرة ، ويحتمل أَن يعود في الثلاثة على الدنيا ، ويحتمل أن تعود الثانية على الأعمال. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَبَاطِلٌ﴾ بالرفع على الابتداءِ والخبر ، وقرأ أُبيّ ، وابن مسعود: [وَبَاطلاً] بالنصب ، قال أبو حاتم: ثبتت في أَربعة مصاحف ، والعامل فيه ﴿يَعْمَلُونَ﴾ ، و﴿مَا﴾ ، والتقدير: وباطلاً كانوا يعملون ، والباطل: كل ما تقتضي ذاته أَلاَّ تُنَال به غاية في ثواب ونحوه ، وبالله التوفيق.

قال عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

اختلف المتأَولون في المراد بقوله ﴿أَفَمَنْ﴾ ـ فقالت فرقة: المراد بذلك المؤمنون بمحمد ﷺ. وقالت فرقة: المراد محمد ﷺ خاصة. وعلي بن أَبي طالب ، والحسن ، وقتادة ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن عباس: المراد بذلك محمد ﷺ والمؤمنون جميعاً.

وكذلك اختلف في المراد بـ «البيّنة» ـ فقالت فرقة: المراد بذلك القرآن ، أَي: على جَلِيَّة بسبب القرآن. وقالت فرقة: المراد محمد ﷺ، أَي: على جليَّة بسبب محمد ﷺ، والهاءُ في «البيّنة» للمبالغة كهاءِ علاَّمة ونسّابة.

كذلك اختلف في المراد بـ «الشَّاهد» ـ فقال ابن عباس ، وإِبراهيم النَّخعي ، ومجاهد ، والضحاك ، وأَبو صالح ، وعكرمة: هو جبريل عليه السلام. وقال

= ما يفتح عليكم من بركات الأرض» ، ثم ذكر زهرة الدنيا فبدأ بإحداهما وثنى بالأُخرى ، فقام رجل فقال: يا رسول الله ، أو يأتي الخير بالشر؟ فسكت عنه النبي ﷺ ، قلنا: يوحَى إليه ، وسكت الناس كأن على رؤوسهم الطير ، ثم إنه مسح عن وجهه الرُّحَضَاءَ ، فقال: أَين السائل آنفاً؟ أَوَ خَيْرٌ هو؟ ثلاثاً ، إِن الخير لا يأتي إلا بالخير ، وإنه كلما يُنبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يُلِمُّ كلما أكلت ، إلا آكلة الخُضَر حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت ، وإن هذا المال خضِرَةٌ حُلوة ، ونعم صاحب المسلم لِمَنْ أخذه بحقه فجعله في سبيل الله واليتامى والمساكين ، ومن لم يأْخذه بحقه فهو كالآكل الذي لا يشبع ، ويكون عليه شهيداً يوم القيامة).

الحسن بن علي: هو محمد ﷺ، وقال مجاهد أيضاً: هو ملَك وكَّلَه الله بحفظ القرآن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يريد بهذه الألفاظ: جبريل عليه السلام[١]. وقال علي بن أبي طالب، والحسن، وقتادة: هو لسان النبي ﷺ. وقالت فرقة: هو علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وروي ذلك عنه. وقالت فرقة: هو الإنجيل، وقالت فرقة: هو القرآن، وقالت فرقة: هو إعجاز القرآن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويتصرف قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ على معنيين. بمعنى: يقرؤُه، وبمعنى: يتْبَعه. وتصرفه بحسب الخلاف المذكور في «الشاهد»، ولْنُرَتِّب الآن اطراد كل قول وما يحتمل:

فإذا قلنا: إن قوله: ﴿أَفَمَن﴾ يراد به المؤمنون، فإذا جعلت ـ بعد ذلك ـ «البيِّنَة محمداً ﷺ، صحَّ أن يترتب «الشَّاهد» الإنجيل، ويكون ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ بمعنى يقرؤُه، لأَن الإنجيل يُقرأُ، شأْن محمد ﷺ، وأَن يترتب جبريل عليه السلام، ويكون ﴿يَتْلُوه﴾ بمعنى: يَتْبَعه، أَي في تبليغ الشرع والمعونة فيه. وأن يترتب الملَك، ويكون الضمير في [مِّنْهُ] عائداً على البينة» التي قدرناها محمد ﷺ، وأَن يترتب القرآن، ويكون ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ بمعنى: يتْبَعه، ويعود الضمير في ﴿مِّنْهُ﴾ على الربّ.

وإِن جعلنا «البيِّنة» القرآن على أَن ﴿أَفَمَن﴾ هم المؤمنون ـ صح أَن يترتب «الشَّاهد» محمد ﷺ، وصح أَن يترتب الإنجيل، وصح أَن يترتب جبريل والملَك، ويكون ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ بمعنى: يقرؤُه، وصحّ أَن يترتب «الشَّاهد» الإعجاز، ويكون ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ بمعنى: يتْبَعه، ويعود الضمير في ﴿مِّنْهُ﴾ على القرآن.

وإِذاجعلنا ﴿أَفَمَن﴾ للنبي ﷺ، كانت «البيِّنَة» القرآن، وترتب «الشَّاهد» لسان محمد النبي ﷺ، وترتب الإنجيل، وترتب جبريل والملَك، وترتب عليّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، وترتب الإعجاز، ويُتَأَول [يَتْلُوه] بحسب «الشاهد» كما قلنا، ولكن هذا القول يضعفه قوله: [أُولَئِكَ]، فإنا إذا جعلنا قوله: [أَفَمَنْ] للنبي ﷺ وحده لم نجد في الآية مذكورين يشارُ إِليهم بذلك، ونحتاج في الآية إِلى تجوُّز وتشبيهٍ

(١) فاعل (يريد) يعود على مجاهد في قوله قبل ذلك: (هُوَ ملَك).

بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[١]، وهو شبه ليس بالقوي.

والأَصح في الآية أَن يكون قوله: ﴿أَفَمَن﴾ للمؤمنين، أَو لهم وللنبي ﷺ معهم بألا يترتب «الشاهد»[٢] ـ بعد ذلك ـ يراد به النبي ﷺ داخلاً في قوله: ﴿أَفَمَن﴾، وما تركناه من بَسْطِ هذا الترتيب يخرجه التدبر بسرعة فتأمله.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿كِتَٰبُ﴾ بالرفع، وقرأَ الكلبي، وغيره: [كِتَابَ] بالنصب، فمن رفع قدَّر «الشاهد» الإنجيل[٣]، معناه: يقرأُ القرآن، أَو محمد ﷺ ـ بحسب الخلاف ـ. والإنجيل، ومِنْ قبل الإنجيل كتابُ موسى، إِذ في الكتابين ذكْرُ القرآن وذكْرُ محمد ﷺ.

ويصحُ أَن يُقَدِّرَ الرافعُ «الشاهدَ» القرآنَ، وتطرد الأَلفاظ بعد ذلك.

ومن نصب [كتابَ] قدَّر «الشاهدَ» جبريل عليه السلام، أَي: يتلو القرآنَ جبريلُ، ومن قبلِ القرآن كتابَ موسى[٤].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهنا اعتراض. يقال: إِذا قال: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أَو [كتابَ] بالنصب على القراءَتين، والضمير في ﴿قَبۡلِهِۦ﴾ عائد على القرآن. فلِمَ لمْ يذكر الإِنجيل ـ وهو قبله ـ بينه وبين كتاب موسى؟ فالانفصال أَنه خصَّ التوراة بالذكر لأَن المِلَّتين مجتمعتان أَنهما من عند الله، والإِنجيل ليس كذلك، فكان الاستشهاد بما تقوم به الحجة على الطائفتين أَوْلى، وهذا يجري مع قول الجنِّ: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾[٥]، ومع قول النجاشيّ: «إِنَّ هذا والذي جاءَ به موسى لَيَخْرُج من مشكاةٍ واحدة، فإِنما

(١) من الآية (١) من سورة (الطلاق).

(٢) معنى كلامه هنا: أَن نجعل ﴿أَفَمَن﴾ للمؤمنين، أو لهم وللنبي ﷺ على ألا يكون المرادُ (بالشاهد) النبيّ لأَنه داخل في (أَفَمَنْ).

(٣) لعَلَّ الصواب (جبريل) بدلاً من (الإنجيل)، لأَنه هو الذي يقرأ، ولكن جميع النسخ كانت هكذا بلفظ (الإنجيل).

(٤) [كِتَابَ] في قراءَة النصب معطوف على مفعول ﴿وَيَتۡلُوهُ﴾، أَو منصوب بإضمار فعل يفسره المذكور وتقديره: يَتْلُو.

(٥) من الآية (٣٠) من سورة الأحقاف.

اختصر «الإنجيل» من جهة أن مذهبهم فيه مخالف لحال القرآن والتوراة.

ونصب ﴿إِمَامًا﴾ على الحال من ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾.

و﴿الأَحْزَابِ﴾ هاهنا يراد به جميعُ الأُمم، وروى سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من أحد يسمع بي من هذه الأمة، ولا من اليهود والنصارى، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»[١]، فقلت[٢]: أين مصداق هذا من كتاب الله؟ حتى وجدته في هذه الآية، وكنت إذا سمعت حديثاً عن النبي ﷺ طلبت مصداقه في كتاب الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والراجح عندي من الأقوال في هذه الآية أن يكون ﴿أَفَمَن﴾ للمؤمنين، أولهم وللنبي ﷺ معهم، إذ قد تقدم ذكر الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، فعقَّب ذكرهم بذكر غيرهم، و«البيِّنَة»: القرآن وما تضمن، و«الشاهد» محمد ﷺ أو جبريل عليه السلام إذا دخل النبي ﷺ في قوله: ﴿أَفَمَن﴾، أو الإنجيل، والضمير في ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ للبيِّنَة، وفي ﴿مِّنْهُ﴾ للربّ تبارك وتعالى، والضمير في ﴿قَبْلِهِ﴾ للبيِّنَة أيضاً، وغير هذا مما ذكرته آنفاً محتمل.

وقرأ الجمهور: ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ بكسر الميم، وقرأ السلمي، وأبو رجاء، وأبو الخطاب السَّدُوسي: [فِي مُرْيَةٍ] بضم الميم، وهما لغتان في الشَّكِّ، والضمير في ﴿مِّنْهُ﴾ عائد على كون الكفرة موعدهم النار، وسائر الآية بيِّن.

وفي هذه الآية معادلة محذوفة يقتضيها ظاهر اللفظ تقديرها: أَفَمَنْ كان على بيِّنة من ربّه كمن كفر بالله وكذَّب أنبياءَه؟ ونَحْوُ هذا ـ في معنى الحذف ـ قولُه عزَّ وجلَّ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[٣] لكان هذا القرآن ـ ومن ذلك قول الشاعر:

---

(١) الحديث في صحيح مسلم، من حديث شعبة عن أبي بشر. (قال ذلك ابن كثير في تفسيره).

(٢) هذا من كلام سعيد بن جبير. فقد قال ابن كثير في تفسيره عقب الحديث مباشرة: (وقال أيوب السختياني عن سعيد بن جبير قال: كنت لا أسمع بحديث.. إلخ).

(٣) من الآية (٣١) من سورة الرعد.

فأُقسِمُ لَوْ شَيْءٌ أَتانا رسولُهُ سِواكِ، ولكِنْ لم نَجِدْ لَكِ مَدْفَعَا[(١)]

التقدير: لرددْناهُ ولم نُصغ إليه.

وقوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَنْ﴾ استفهام بمعنى التقرير، وكأنه قال: لا أحد أظلم ممن افترى كذباً، والمراد بـ ﴿مَنْ﴾ الكفرة الذين يدعون مع الله إلٰهاً آخر، ويفترون في غير ما شيءٍ، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ عبارة عن الإشادة عليهم[(٢)] والتشهير بخزيهم، وإلا فكل بشر يعرضون على الله يوم القيامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾. قالت فرقة: يريد الشهداءَ من الأنبياءِ والملائكة، فيجيءُ قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إخباراً عنهم وشهادة عليهم. وقالت فرقة: ﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ بمعنى الشاهدين، ويريد جميعَ الخلائق، وفي ذلك إشارة عليهم، وروي في نحو هذا حديث: «إنَّه لا يخزى أَحدٌ يوم القيامة إلاَّ

---

(١) البيت من قصيدة لامرئ القيس مطلعُهَا:

جَزِعْتُ ولمْ أجْزَعْ مِنَ البَيْنِ مَجْزَعَا وعزَّيْتُ قَلْباً بالكواعِبِ مُولَعَا

والرواية (وجدِّكِ لَوْ شَيْءٌ) بدلاً من (فأُقسِمُ)، وهو من شواهد النحويين على أن الجواب فيه محذوف، وهو جواب القسم لا جواب (لو) عملاً بالقاعدة عنداجتماع قسم وشرط، وتقدير الجواب: (لدفعناه)، ذكر ذلك الفراءُ أخذاً من قوله: (مَدْفَعاً). والصواب أن الجواب مذكور في البيت الذي بعده وهو:

إذاً لرَدَدْنَاهُ ولَوْ طَالَ مُكْثُهُ لَدَيْنَا، ولكِنَّا بِحُبِّكِ وُلَّعَا

وابن عطية تبع الطبري في استشهاده بالبيت، والطبري تبع الفراءَ الذي قال في كتابه (معاني القرآن): «وربما تركت العرب جواب الشيءِ والمعروف معناه... قال الشاعر: فأقسم... إلخ البيت، وقال تعالىٰ وهو أصدق من قول الشاعر: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ...﴾ فلم يؤتَ له بجواب». قال البغدادي في (خزانة الأدب): «والصواب أن الجواب في البيت الذي بعده، وعلى هذا يكون قوله: «ولكِنْ لم نجِدْ لَكِ مَدْفَعاً» جملة اعتراضية، وعذرهم في تقدير الجواب أن البيت الثاني ساقط في أكثر الروايات، وقد ذكره الزجاجي في أماليه الصغرى والكبرى ضمن ثمانية أبيات رواها المبرد.

(٢) يقال: أشاد بالشيءِ: رفع صوته به ـ وبذكره: أثنى عليه ـ وعليه: شَهَّرَ به. (المعجم الوسيط).

ويعلم ذلك جميع من شهد المحشر»[١] ، فيجيءُ قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ـ على هذا التأويل ـ استفهاماً عنهم وتثبتاً فيهم ، كما تقول إذا رأيت مجرماً قد عوقب: «هذا هو الذي فعل كذا وكذا»؟ وإن كنت قد علمت ذلك ، (ويحتمل الإخبار عنهم)[٢].

وقوله: ﴿أَلَا﴾ استفتاحُ كلام ، و«اللَّعنَةُ»: الإبعاد ، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ نعت لـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. ويحتمل الرفع على تقدير: «هم الذين». و﴿يَصُدُّونَ﴾ يحتمل أن يقدر متعدياً على معنى: يَصُدّون الناس ويمنعونهم من سبيل الله ، ويحتمل أن يقدر غير متعد على معنى: يصُدّون هم ، أي: يُعْرضون. و﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: شريعتُه ، و﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾ معناه: يطلبون لها ، كما تقول: بغيتك خيراً أو شراً ، أي: طلبت لك ، و﴿عِوَجًا﴾ ـ على هذا ـ مفعول ، ويحتمل أن يكون المعنى: ويبغون السبيل على عِوَج ، أي: فهم لا يهتدون أبداً ، فـ ﴿عِوَجًا﴾ ـ على هذا ـ مصدر في موضع الحال. والعِوَج: الانحراف والميل المؤدِّي إلى الفساد ، وكرر قوله: ﴿وَهُم﴾ على جهة التأكيد ، وهي جملة في موضع خبر الابتداءِ الأول ، وليس هذا موضع الفصل لأن الفصل إنما يكون بين معرفتين ، أو معرفة ونكرة تقارب المعرفة ، لأنها تفصل ما بين أن يكون ما بعدها صفة أو خبراً وتخلِّصه للخبر.

و﴿مُعۡجِزِينَ﴾ معناه: مُفْلتين لا يُقدر عليهم ، وخصَّ ذكر الأرض لأن تصرف ابن آدم وتمتعه إنما هو فيها ، وهي قصاراه لا يستطيع النفوذ منها. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ يحتمل معنيين ، أحدهما: أنه نفى أن يكون لهم ولي أو ناصر كائناً من كان. والثاني: أن يقصد وصف الأصنام والآلهة بأنهم لم يكونوا أولياءَ حقيقة ، وإن كانوا هم يعتقدون أنهم أولياءُ. ثم أخبر أنه يُضاعف لهم العذاب يوم القيامة ، أي يُشَدَّدُ حتى يكون ضعفيْ ما كان ، و﴿يُضَٰعَفُ﴾ فعل مستأنف وليس بصفة.

وقوله: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ يحتمل خمسة أوجه:

أحدها: أن يصف هؤلاءِ الكفار بهذه الصفة على معنى أن الله ختم عليهم بذلك ، فهم لا يسمعون سماعاً ينتفعون به ولا يبصرون كذلك.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) الجملة التي بين القوسين المعقوفين ساقطة في أكثر النسخ التي بين أيدينا.

الثاني: أَن يكون وصفهم بذلك من أَجل بغضتهم في النبي ﷺ، فهم لا يستطيعون أَن يحملوا أَنفسهم على السمع منه والنظر إِليه، وينظر إِلى هذا حشو الطفيل بن عمرو أُذنيه بالكُرْسُف[1]، وإِباية قريش وقت الحديبية أَن يسمعوا ما نقل إِليهم من كلام رسول الله ﷺ حتى ردّهم عن ذلك مشيختهم.

والثالث: أَن يكون وصف بذلك الأَصنام والآلهة التي نفى عنها ـ على التأْويل المتقدم ـ أَن تكون أَولياءَ، و﴿مَا﴾ في هذه الوجوه الثلاثة نافية.

والرابع: أَن يكون التقدير: يضاعف لهم العذاب بما كانوا، بحذف الجار[2]، وتكون ﴿مَا﴾ مصدرية، وهذا قولٌ فيه تحامل، قاله الفراءُ وقرنه بقوله: «أُجازيك ما صنعت بي».

والخامس: أَن تكون ﴿مَا﴾ ظرفية، أَي أَن العذاب يضاعف لهم مدة استطاعتهم السمع والبصر، وقد أَعلمت الشريعة أَنهم لا يموتون فيها أَبداً، فالعذاب إِذاً مُتمادٍ أَبداً.

وقدم السمع على البصر في هذه الآية لأن حاسَّته أَشرف من حاسة البصر، إِذ عليه تبنى في الأَطفال مَعْرِفَة دلالات الأَسماءِ، وإِذ هو كاف في أَكثر المعقولات دون البصر، إِلى غير ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بوجوب العذاب عليهم، ولا خسران أعظم من خسران

---

(١) الكُرْسُف: القُطن.

(٢) والعرب تقول: جزيته ما فعل، وبما فعل، فيحذفون الباءَ مرة ويثبتونها أُخرى، وأنشد سيبويه قول عمرو بن معد يكرب:

أَمَـرْتُـكَ الخَيْـرَ فـافْعَـلْ مـا أُمِـرْتَ بِـهِ ... فَقَـدْ تَـرَكْتُـكَ ذا مـالٍ وَذَا نَشَـبِ

أراد: «أمرتك بالخير» فحذف ووصل الفعل ونصب، والنشب: المال الثابت كالضياع ونحوها، وقيل: جميع المال، فيكون عطفه على الأول من قبيل المبالغة والتأكيد. (شواهد سيبويه).

النفس[1]. و﴿وَضَلَّ﴾ معناه: تَلِفَ ولم يجدوه حيث أمَّلوه. و﴿لَا جَرَمَ﴾ لفظة مركبة من «لا» ومن «جَرَمَ» بُنِيَتَا معاً، ومعنى «لا جَرَمَ»: حقَّ. هذا مذهب سيبويه والخليل. وقال بعض النحويين: معناها: لا شكَّ ولا بُدّ ولا مَحَالة، وقد رُوي هذا عن الخليل. وقال الزجاج: ﴿لَا﴾ ردٌّ عليهم ولِمَا تقدم من كل ما قبلها، و﴿جَرَمَ﴾ معناه: كَسَبَ، أَي: كَسَب فعْلُهم ﴿أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾. فموضع ﴿أَنَّ﴾ ـ على مذهب سيبويه ـ رفعٌ، وموضعها ـ على مذهب الزجاج ـ نصب، وقال الكسائي: معناها: لا صدَّ ولا مَنْع.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فكأَن ﴿جَرَمَ﴾ ـ على هذا ـ من معنى القطع، تقول: جرَمْتُ أَي قطعت. هي على منزع الزجاج من الكَسْب، ومنه قول الشاعر:

جَـرِيمـةُ نـاهِـضٍ فـي رَأْسِ نِيـقٍ ... تـرَى لعِظـامِ مـا جَمَعَـتْ صَليبـا[2]

وجريمةُ القوم كاسِبُهم. وأَما قول الشاعر:

ولَقَـدْ طعنْـتُ أَبـا أُمَيْمَـةَ طَعْنَـةً ... جَرَمَتْ فَزارَةُ بَعْدَها أَنْ يَغْضَبُوا[3]

---

(١) قال أَبو حيان في (البحر): «وهو على حذف مضاف، أي: راحةَ أوْ سعادةَ أنفسهم، وإلا فأنْفُسُهُم باقية معذبة».

(٢) البيت لأبي خراش الهُذَليّ يصف عُقاباً ترزُق فرْخَها وتكسبُ له، فهي تقدم له ما يأكله من لحم طير أكلته، وبقيت عظامه يسيل منها الدهن، وجريمة بمعنى: كاسبة، قاله في اللسان. والنِّيق: الطويل من الجبال، ورأسُ النِّيق: أعلى موضع فيه. هذا وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [المائدة: ٢].

(٣) البيت منسوب في (اللسان) و(الصحاح) لأبي أسماءَ بن الضَّريبة. وقيل: إن البيت لعطيَّة بن عفيف، والصواب فيه: «ولَقَدْ طعنتَ» بفتح التاءِ، لأنه يخاطب كُرْزاً العُقَيْلي ويَرْثيه، وقبل البيت:

يـا كُـرزُ إنَّـكَ قَـدْ قُتِلْـتَ بِفـارسٍ ... بطَـلٍ إذا هـابَ الكُمـاةُ وجَبَّبُـوا

وكان كُرْز قد طعن أبا عُيَيْنَة، وهو حِصْن بن حُذَيْفَة بن بدْر الفَزاريُّ. قال ذلك ابن برّي، ونقله في اللسان عنه. وجَرَم في هذا البيت تحتمل المعنيين كما قال ابن عطية رحمه الله. قال الأخفش: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ معناها حقَّ أن لهم النار، وأنشد: «جَرَمت فزارة»، يقول: حقَّ لها، وفزارةُ مرفوعةٌ، وقال الفراءُ: «وليس قول من قال: «جرمت: حققْتُ» بشيءٍ، وإنما لبَّس عليهم الشاعر بقوله: «جرمَتْ فزارةُ»، فرفعوا «فزارة» كأنه حقّ لها الغضب، قال: وفزارة منصوبة، أي: جرَمَتهم الطعنة أن يغضبوا، قال أبو عبيدة: أَحَقَّتْ عليهم الغضَب، أي: أَحقَّتِ الطَّعْنَةُ فزارة أن يغضبوا. (راجع التاج واللسان والصحاح).

فيحتمل الوجهين ، ويختلف معنى البيت. وفي «لاَ جرَمَ » ثلاث لغات: يقول بعض العرب: «لا ذَا جَرَمَ» ، وبعضهم «لا أَنْ ذَا جَرَمَ» ، وبعضهم: «لا عَنْ ذَا جَرَمَ» ، وبعضهم: «لاَ جَرَ» ، حذفو الميم لكثرة استعماله.

و﴿ وَأَخْبَتُوٓاْ ﴾ ، قيل: معناه: خشعوا ، قاله قتادة. وقيل: أَنابوا ، قاله ابن عباس رضي عنهما ، وقيل: اطمأَنوا ، قاله مجاهد ، وقيل: خافوا ، قاله ابن عباس أَيضاً. وهذه الأَقوال بعضها قريبٍ من بعض ، وأَصل اللفظ من «الخَبْت» وهو البراحُ القَفْر المستوي من الأَرض ، فكأَن المُخْبت في القفر قد انكشف واستسلم وبقي دون منعة ، فشبه المتذلل الخاشع بذلك ، وقيل: إِنما اشتق منه لاستوائه وطمأنينته. وقوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ ، قيل: هي بمعنى اللام ، أَي: أخبتوا لربهم ، وقيل: المعنى: جعلوا قصدهم بإِخباتهم إِلى ربهم(١).

والفريقان: الكافرون والمؤمنون ، شبه الكافر بالأَعمى وبالأَصم ، وشبه المؤمن بالبصير وبالسميع ، فهو ـ على هذا ـ تمثيل بمثاليْن ، وقال بعض المتأولين: التقدير: كالأعمى الأصم ، والبصير السميع ، ودخلت واو العطف ، كما تقول: جاءَني زيد العاقل والكريم ، وأَنت تريده بعينه ، فهو ـ على هذا ـ تمثيل بواحد(٢). و﴿ مَثَلًا ﴾ نصب على التميز ، ويجوز أَن يكون حالاً(٣).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

---

(١) قيل: إِن (أخبت) يتعدى بإِلى وباللام ، ويقال: أَخبَتَ: دخل في الخَبْت. كأنْجدَ: دخل نَجْداً ، وَأتْهَمَ: دخلَ تهامة ، ثم توسع فيه فقيل: خبت ذكره ، خمد.

(٢) إذا كان من تشبيه اثنين بإثنين فقد قوبل الأَعمى بالبصير ، والأَصم بالسميع ، وإذا كان تمثيلاً بواحد فمعناه أنه تشبيه واحد بوصفيه بواحد بوصفيه فيكون من عطف الصفات ، كما قال الشاعر:

إلـى المِلـكِ القِـرْنِ وابـنِ الهُمَـام ... وليْـثِ الكَـريهَـةِ فـي المـزْدَحَـمْ

(٣) قال أبو حيان: وفي كونه بُعْد ، والظاهر التمييز ، وأنه منقول من الفاعل ، وأصله: هل يستوي مثلاهما؟ ـ ولم يذكر القرطبي في إعرابه غير التمييز.

هذه آية قصص فيه تمثيل لقريش وكفار العرب ، وإعلام أن محمداً ﷺ ليس ببدع من الرسل ، وروي أن نوحاً عليه السلام أول رسول إلى الناس ، وروي أن إدريس أول نبي من بني آدم إلا أنه لم يرسل ، فرسالة نوح إنما كانت إلى قومه كسائر الأنبياء ، وأما الرسالة العامة فلم تكن إلا لمحمد ﷺ.

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة: ﴿إِنِّي﴾ بكسر الألف ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائي: [أَنِّي] بفتح الألف ، فالكسر على إضمار القول ، والمعنى: قال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ، ثم يجيءُ قوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا﴾ معمولاً لـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ ، أي: أرسلنا نوحاً بألَّاتعبدوا إلا الله ، واعترض أثناءَ الكلام بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. والفتح على إعمال ﴿أَرْسَلْنَا﴾ في [أَنِّي] ، أي: بأني لكم نذير. قال أبو علي: وفي هذه القراءَة خروج من الغيبة إلى المخاطبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر ، وإنما هي حكاية مخاطبته لقومه ، وليس هذا حقيقة الخروج من غيبة إلى خطاب ، ولو كان الكلام «أن أنذرهم» أو نحوه لصحّ ذلك. و«النذير» للتحفظ من المكاره بأن يُعرفها ويُنبَّه عليها ، و﴿مُّبِينٌ﴾ من: أبان يُبين.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ظاهر في أنهم كانوا يعبدون الأوثان ونحوها ، وذلك بيِّن في غير هذه الآية ، و﴿أَلِيمٌ﴾ معناه: مؤلم ، ووصف به «اليوم» وحقه أن يوصف به «العذاب» تجوّزاً ، إذ العذابُ في اليوم ، فهو كقولهم: «نهارٌ صائم وليلٌ قائم».

و﴿ٱلْمَلَأُ﴾ الجمع والأكثر من القبيلة والمدينة ونحوه ، ويُسَمى الأشراف ملأً إذْ هم عمدة الملأ والسَّادُون مسَدَّه في الآراءِ والأمور ، وكل جماعة كبيرة ملأٌ. ولمَّا قال لهم نوح: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ ، أي: والله لا يبعث رسولاً من البشر ، فأحالوا الجائز على الله. و«الأراذل» جمع أرْذَل ، وقيل: جمع أرْذُل ، وأرْذَال جمع رَذْل[1] ، وكان اللازم ـ على هذا ـ أن يقال: أراذيل ، وإذا ثبتت الياءُ في جمع

(١) يقول أكثر أهل اللغة: أراذل: جمع أرْذُل: وأرْذُل: جمع رَذْلٍ ، فهو مثل: كلْبٍ وأكْلُب وأكالب ، وقد نقل ذلك القرطبي والبحر ، وقال في (البحر): «والظاهر أنه جميع أرْذَل التي هي أفعل التفضيل ، وجاءَ=

«صَيْرف» فأَحرى أَلا تُزال في موضع استحقاقها وهم سفلة الناس ومَنْ لا خَلاَقَ له ولا يبالي ما يقول ولا ما يقال له.

وقرأَ الجمهور: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ بياءٍ دون همز، من: «بَدَا يَبْدُو»، ويحتمل أَن يكون من «بدأَ» مسَهَّلاً، وقرأَ أَبو عمرو، وعيسى الثقفي [بَادِئَ الرَّأْيِ] بالهمز مِن «بدأَ يبدأُ».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبين القراءَتين اختلاف في المعنى يعطيه التدبّر[١] فتركتُ التطويل ببسطه. والعرب تقول: «أَما بادِئَ بدْءٍ فإِنِّي أَحمد الله»، و«أَمّا باديَ بدْيٍ»، بغير همز فيهما، وقال الراجز:

أَضْحَى لِخالي شَبَهي بادِي بَدِي وصارَ لِلْفَحْلِ لِسَاني وَيَدِي[٢]

وقال الآخر:

وقَدْ عَلَتْني ذُرْأَةٌ بادِي بَدِي[٣]

= جمعاً كما جاء: ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ و(أحاسِنُكم أخلاقاً). ويقال: إن الأراذل هي جمع الأرْذَل كالأساوِدِ جمع الأسْود من الحيّات.

(١) إذا كانت من (بَدَا يبدو) فالمعنى المراد هو الظهور، أي: فيما يظهر لنا ـ وإن كانت من (بدأ يبدأ) ـ سواءٌ بقيت الهمة أو سُهِّلت ـ فالمعنى يكون من بدأتُ، أي: من أوّل الرأي. قال ذلك الفراءُ والجوهري.

(٢) البيت في (اللسان) و(القاموس)، وهو من شواهد أبي عبيدة في تفسيره (مجاز القرآن)، ولم ينسبه أحد منهم، قال في (اللسان): «أراد به: ظاهري في الشبه لخالي، والمعن: خرجتُ عن شرخ الشباب إلى حدّ الكهولة التي معها الرأي والحجا، فصرت كالفحولة التي بها يقع الاختيار، ولها بالفضل تكثر الأوصاف». والفراءُ ينشد البيت شاهداً لعدم الهمز. وتأمل الهامش التالي فالشَّطر الثاني للبيت هنا مثبت فيه على رواية (اللسان).

(٣) هذا بيت من مشطور الرجز، وهو لأبي نُخَيْلَة السعدي، وأنشده الجوهري شاهداً على أَن أصله الهمز وإنما تُرِك لكثرة الاستعمال، قال: وربما جعلوه اسماً للداهية، كما قال أبو نُخَيْلَة:

وقَدْ عَلَتْني ذُرْأَةٌ بادِي بَدِي
ورَيْثَةٌ تَنْهَضُ بالتَّشَدُّدِ
وصَارَ لِلفَحْلِ لِسَاني وَيَدِي

قال: و(بادي بدى) اسمان جعلا اسماً واحداً مثل: (قالي قلا) و(معد يكرب)، ومن الرأي في (اللسان) أيضاً أنه قد يكون من: بدا يبدو بمعنى: ظهر. والذُّرْأة: الشيب في مقدم الرأس، ويقال: عَلَتْه ذُرْأةٌ أي=

وقرأ الجمهور بهمز ﴿ٱلرَّأۡيِ﴾ ، وقرأ أبو عمرو بترك الهمز ، و﴿بَادِيَ﴾ نصب على الظرف ، وصحّ أن يكون اسم الفاعل ظرفاً كما يصحّ في «قريب» ونحوه ، وفعيلٌ وفاعلٌ متعاقبان أبداً على معنى واحد في المصدر ، كقولك: جهد نفسي محبٌّ كذا وكذا.

وتعلق قوله: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ يحتمل ستةَ أوجه:

أحدها: أن يتعلق بـ ﴿نَرَىٰكَ﴾ ، أي: وما نراك بأول نظر وأقل فكرة ـ وذلك هو باديَ الرأي ـ أي: إلاَّ ومُتَّبعوك أراذلنا.

والثاني: أن يتعلق بقوله: ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ ، أي: وما نراك اتَّبعك بادي الرأي إلا الأراذل ، ثم يحتمل ـ على هذا ـ وقوله: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ معنيين: أحدهما: أن يريد: اتَّبعك في ظاهر أمرهم ، وعسى أنَّ بواطنهم ليست معك ، والثاني: أن اتَّبعوك بأول نظر وبالرأي البادي دون تعقب ، ولو تثبتوك لم يتبعوك ، وفي هذا الوجه ذمُّ الرأي الغير المروي(١).

والوجه الثالث من تعلق قوله: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ أن يتعلق بقوله: ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ ، أي: الذين هم أراذلنا بأول نظر فيهم ، وببادي الرأي يُعلم ذلك منهم.

ويحتمل أن يكون قولهم: «بادي الرأي» وصفاً منهم لنوح ، أي: تَدَّعي عظيماً وأنت مكشوف الرأي لا حصافة لك ، ونصبه على الحال وعلى الصفة.

ويحتمل أن يكون اعتراضاً في الكلام مخاطبة لمحمد ﷺ ، ويجيءُ جميع هذا ستة معان ، ويجوز التعلق في هذا الوجه بـ ﴿قَالَ﴾.

ومعنى ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾ ، أي: ما ثَمَّ شيءٌ تستحقون به الاتباع والطاعة. ثم قال: ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ فيحتمل أنهم خاطبوا نوحاً ومن آمن معه من

= شيبٌ ، وهي بضم الدال ، والرَّثْيَةُ: انحلالُ الركب والمفاصل.

(١) الأفصح في اللغة أن يقال: (غير المروي) لأن الألف واللام لا تدخل على (غير) إذ الهدف من إدخالها على النكرة تخصيصها بشيءٍ معيَّن ، وليس لإدخالها على (غير) فائدة لأنها لا تتعرف بها وتشتمل على ما لا يحصى. وهناك من اللغويين من يجيز إدخال الألف واللام عليها لأنها تشبه المعرفة ، فهي تضاف إلى المعرفة ويجوز أن يدخل عليها ما يعاقب الإضافة وهو الألف. (راجع «المصباح المنير ـ غير» ، والصبان ، وحواشي الكشاف وغيرها).

قومه، أي: أنتم كاذبون في تصديقكم هذا الكاذب، وقولكم: إنه نبيٌّ مرسل. ويحتمل أنهم خاطبوا نوحاً وحده فيكون من باب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ۝٢٨ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ۝٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠﴾.

هذه الآية كأنه قال: أرأيتم إن هداني اللهُ وأضلكم، أأُجبركم على الهدى وأنتم كارهون له معرضون عنه؟ واستفهامه في هذه الآية أولاً وثانياً على جهة التقرير، وعبارة نوح عليه السلام كانت بِلُغَتِهِ دالة على المعنى القائم بنفسه، وهذا هو المفهوم من هذه العبارة العربية، فبهذا استقام أن يقال كذا وكذا، إذ القولُ ما أفاد المعنى القائم بنفسه.

وقوله: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾، أي: على أمر بيّن جليّ، والهاءُ في ﴿بَيِّنَةٖ﴾ للمبالغة كعلاَّمة ونسَّابة. و«إيتاؤه الرَّحْمَةَ» هو هدايته للبيّنة، والمشار إليه بهذا كله النبوةُ والشرعُ. وقوله: ﴿مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ تأكيد، كما قال: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾[2] ونحوه، وفائدته رفع الاشتراك ولو بالاستعارة.

وقرأ جمهور الناس: [فَعَمِيَتْ]، ولذلك وجهان من المعنى: أحدهما: خفِيَتْ، ولذلك يقال للسحاب: العماءُ لأنه يخفي ما فيه، كما يقال له: الغمام لأنه يغمه، ومنه قوله ﷺ: «كان الله قبل أن يخلق الأشياءَ في عماءٍ»[3]. والمعنى الثاني أن تكون

(١) من الآية (١) من سورة الطلاق، وهي من باب الآية في أن المخاطب هو النبي ﷺ والمراد هو ومن معه.

(٢) من الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٣) رواه الترمذي في تفسير سورة (هود)، وابن ماجه في المقدمة، والإمام أحمد في مسنده (٤ ـ ١١، ١٢) ولفظه كما في المسند: عن أبي رزين قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا عزَّ وجلَّ قبل أن يخلق خلقه؟ قال: (كان في عماءٍ، ما تحته هواءٌ، وما فوقه هواءٌ، ثم خلق عرشه على الماءِ).

الإرادة: «فعَمِيتُم أَنتم عنها» لكنه قَلَب، كما تقول العرب: «أَدخلتُ القلنسوةَ في رأسي»، ومنه قول الشاعر:

تَـرَى الثَّـوْرَ فيهـا يُـدْخِـلُ الظِّـلَّ رأسَـهُ   وسـائـره بـادٍ إِلـى الشَّمْـس أَجْمَـعُ[1]

قال أَبو عليّ: وهذا مما يقلب إِذْ ليس فيه إِشكال، وفي القرآن: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾[2].

وقرأَ حَفْصٌ، وحمزة، والكسائي: [فعُمِّيَتْ] بضم العين وتشديد الميم على بناءِ الفعل للمفعول، وهذا إِنما يكون من الإِخفاءِ، ويحتمل أَن القلب المذكور. وقرأَ الأَعمش، وغيره: [فعمّاها عليكم]، قال أَبو حاتم: روى الأَعمش عن ابن وثاب: [وَعمِيَتْ] بالواو خفيفة[3].

وقوله: ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ يريد إِلزام جبر كالقتال، وأَما إِلزام الإِيجاب فهو حاصل. وقال النحاس: معناه: أَنُوجبها عليكم؟ وقوله في ذلك خطأٌ. وفي قراءَة أُبي بن كعب: «أَنُلْزِمُكُمُوها من شطر أَنفسنا»، ومعناه من تلقاءِ أَنفسنا ورُوي عن ابن عباس أَنه قرأَ ذلك «من شطر قلوبنا».

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ﴾ الآية. الضمير في ﴿ عَلَيْهِ ﴾ عائد على التبليغ، وقوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ يقتضي أَنهم طلبوا منه طرد الضعفاءِ الذين بادروا إِلى الإِيمان به نظير ما اقترحت قريش على رسول الله ﷺ بطرد أَتباعه بمكة الذين لم يكونوا من قريش. وقوله: ﴿ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾ تنبيه على العودة إِلى الله ولقاءِ جزائه، المعنى: فيوصِّلهم إِلى حقهم عندي إِن ظلمتهم بالطرد، ثم وصفهم بالجهل في مثل هذا الاقتراح ونحوه.

---

(١) البيت غير منسوب، وقد استشهد به في (البحر)، وعلّق على رأي أبي علي بقوله: «وأما قول الشاعر فليس من باب القلب، بل من باب الاتساع في الظرف».

(٢) (إبراهيم): ٤٧، وأبو حيان لا يوافق أيضاً على أنها من باب القلب، ويقول: «فأَخْلَفَ يتعدى إلى مفعولين، ولك أن تضيف إلى أيهما شئت فليس من باب القلب»، وهو يرى أيضاً أن آيتنا هنا ليست من باب القلب، ويقول: ولو كان ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ من باب القلب لكان التعدي بـ (عن) دون (على)، ألا ترى أنك تقول: «عميتُ عن كذا» ولا تقول: «عميتُ على كذا». (البحر المحيط ٥ ـ ٢١٦).

(٣) يريد بالواو بدلاً من الفاءِ، والكلمة خفيفة الميم.

وقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ الآية. هو استفهام بمعنى تقرير وتوقيف، أي: لا ناصر يدفع عني عقاب الله إن ظلمتهم بالطرد عن الخير الذي قبلوه، ثم وقفهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وعرض عليهم النظر المؤدي إلى صحة هذا الاحتجاج.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢﴾.

قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ عطف على قوله: ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾، ومعنى هذه الآية: إنِّي لا أُمَوِّه عليكم، ولا أتعاطى غير ما أَهَّلني الله له، فلست أَقول: عندي خزائن الله، يريد: القدرة التي يوجد بها الشيءَ بعد حال عدمه. وقد يمكن أَن يكون من الموجودات كالرياح والماءِ، ونحوه كثير باختراع الله له[1]، فإِن سمّي ذلك ـ على جهة التجوز ـ مختزناً فيشبه، أَلا ترى المروي في أَمر ريح عادٍ أَنه فتح عليهم من الريح قدر حلقة الخاتم، ولو كان على قدر منخر الثور لأَهلك الأَرض، ورُوي أَن الريح عتت على الملائكة الموكلين بتقديرها فلذلك وصفها الله تعالىٰ بالعتو، وقال ابن عباس، وغيره: عَتَتْ على الخُزَّان، فهذا ونحوه يقتضي أَن ثم خزانين، ثم قال: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾، ثم انحط عن هاتين فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾، وظاهر هذه الآية فضل المَلَك على البشر وعلى النبي ﷺ، وهي مسأَلة اختلاف، وظاهر القرآن على ما قلنا. وإِن أَخذنا قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ على حدّ أَن لو قال: «ولا أَقول إِني كوكب أَو نحوه» زالت طريقة التفضيل، ولكن الظاهر هو ما ذكرنا.

و﴿تَزْدَري﴾ أَصله: «تزتري» ـ تفتعل ـ من: زرى يزري[2]، ومعنى ﴿تَزْدَري﴾: تحتقر، و«الخَيْر» هنا يظهر فيه أَنه خير الآخرة، اللّهم إِلا أَن يكون ازدراؤُهم من جهة

---

(١) في إحدى النسخ: «كثير بإبداع الله تعالىٰ له».

(٢) القاعدة أن التاءَ تبدل بعد الزاي دالاً، لأن الزاي مجهورة والتاء مهموسة، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها، ويقال: أزريْتُ عليه إذا عبته، وزريْتُ عليه إذا حقَّرته، وأنشد الفراءُ:

يُبَـاعِـدُه الصّـديـقُ وتَـزدريـه ... حلِيلَتُـهُ وينْهَـرُهُ الصغيـر

والأصل أن يقال: «تزدريهم»، ولكن حذفت الهاءُ والميم لطول الاسم.

الفقر، فيكون الخير: المال، وقد قال بعض المفسرين: حيثما ذكر الله الخير في القرآن فهو المال، وفي هذا الكلام تحامل، والذي يشبه أن يقال: إنه حيثما ذكر الخير فإن المال يدخل فيه.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ تسليم لله تعالىٰ، أي: لست أحكم عليهم بشيءٍ من هذا، وإنما يحكُم عليهم بذلك ويُخْرج حكمهُ إلى حيّز الوجود اللهُ تعالىٰ الذي يعلم ما في نفوسهم ويجازيهم بذلك، وقد قال بعض المتأولين: هي ردّ على قولهم: «اتَّبعك أراذلنا على ما يظهر منهم» حسب ما تقدم في بعض تأويلات الآية آنفاً. فالمعنى: لستُ أنا أحكم عليهم بألاَّ يكون لهم خير لِظنكم بهم أن بواطنهم ليست كظواهرهم، الله أعلم بما في نفوسهم. ثم قال: ﴿إِنِّىٓ إِذًا﴾ لو فعلتُ ذلك ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يضعون الشيءَ في غير موضعه.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾ الآية. معناه: قد طال منك هذا الجدال، وهو المراجعة في الحُجَّة والمخاصمة والمقابلة بالأقوال حتَّى تقع الغلبة، وهو مأْخوذ من الجَدْل، وهو شدة الفتل. ومنه: حبْلٌ مجدولٌ، أي: مُمَرّ[1]، ومنه قيل للصقر: أجدل، لشدة بِنْيته وفتل أعضائه، والجدالُ: فِعالٌ مصدر فاعَلَ، وهو يقع من اثنين، ومصدر فاعَلَ يأتي على فِعَالٍ وفِيعَالٍ ومفاعلة، فتركت الياءُ من فِيعَال ورفضت. ومن الجدال ما هو محمود، وذلك إذا كان مع كافر حربي في منعته ويطمع بالجدال أن يهتدي، ومن ذلك هذه الآية، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[2]، إلى غير ذلك من الأمثلة. ومن الجدال ما هو مكروه، وهو ما يقع بين المسلمين بعضهم في بعض في طلب علل الشرائع، وتصور ما يخبر به الشرع من قدرة الله، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك، وكرهه العلماءُ، والله المستعان. وقرأ ابن عباس: ﴿قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جَدَلَنَا﴾ بغير ألف، وبفتح الجيم، ذكره أبو حاتم[3].

والمراد بقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ العذاب والهلاك. والمفعول الثاني لـ ﴿تَعِدُنَآ﴾ مضمر تقديره: بما تعدناه. ولما كان الكلام يقتضي العذاب جاز أن يستعمل فيه الوعد.

---

(١) يقال: أَمَرَّ الحَبَل بمعنى فَتَله وأحكم فَتْلَه، فهو مُمَرّ.

(٢) من الآية (١٢٥) من سورة النحل.

(٣) كقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

قول عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

المعنى: ليس ذلك بيدي ولا إِليَّ توفيته، وإِنما ذلك بيد الله، وهو الآتي به إِن شاءَ، ولستم من المنعة بحال من يفلت أَو يعتصم بمُنْج، وإِنما أَنتم في قبضة القدرة وتحت ذِلَّة التملك، وليس نصحي بنافع، ولا إِرادتي الخير لكم مغنية إِذا كان الله تعالىٰ قد أَراد بكم الإِغواءَ والإِضلال والإِهلاك. والشرط الثاني اعتراضٌ بين الكلام، وفيه بلاغة في اقتران الإِرادتين، وأَن إِرادة الشر غير مغنية، وتعلق هذا الشرط هو بـ ﴿نُصْحِىٓ﴾، وتعلق الآخر هو بـ (لاَ يَنْفَعُ) والنُّصْحُ هو سَدُّ ثَلْم الرأي للمنصوح وترقيعُه، وهو مأْخوذ من: نَصَحَ الثوبَ إِذا خَاطَهُ. والمِنْصح: الإِبرة، والخَيْط يقال له: منْصَحٌ ونِصَاحٌ[1].

وقالت فرقة: معنى قوله ﴿يُغْوِيَكُمْ﴾: يُضِلكم، من قولهم: غَوَى الرجل يَغْوَى، ومنه قول الشاعر:

فَمَـنْ يَلْـقَ خَيْـراً يحْمَـدِ النَّـاسُ أَمْـرَهُ وَمَنْ يَغْوَ لا يَعْدَمْ علَى الغَيِّ لائِماً[2]

وإِذا كان هذا معنى اللفظة ففي الآية حجة على المعتزلة القائلين: إِن الضلال إِنما هو من العبد. وقالت فرقة: معنى قوله: ﴿يُغْوِيَكُمْ﴾: يُهلككُم، والغَوَى: المرض والهلاك، وفي لغة طيء: أَصبح فلان غاوياً، أَي مريضاً، والغَوَى: بَشَمُ الفصيل، قاله يعقوب في الإِصلاح، وقيل: فَقْده اللبن حتى يموت جوعاً، قاله الفراءُ وحكاه

(١) يقال: نَصَح الخيَّاطُ الثوبَ إذا أنعم خياطته ولم يترك فيه فتقاً ولا خللاً، شبَّه ذلك بالنصح (أساس البلاغة ـ نصح).

(٢) البيت للمرقش الأصغر، واسمه ربيعة بن سفيان بن سعد، وهو من قصيدة غزلية في حبيبته فاطمة يقول في مطلعها:

ألا يـا اسْلَمـي، لا صُـرْمَ لـي اليَـوْمَ فَـاطِمـا ولا أبَـداً مـا دامَ وصْلُـكِ دائِمـاً

والغَوَى هنا هو الضلال والخيبة.

الطبري، يقال: غَوِيَ يَغْوَى[١]. وحكى الزهراوي أنه الذي قطع عنه اللبن حتى كاد يهلك ولمَّا يهلِك بعد. فإذا كان هذا معنى اللفظة زال موضع النظر بين أهل السُّنَّة والمعتزلة، وبقي الاحتجاج عليهم بما هو أَبْيَن من هذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ الآية[٢] ونحوها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واعتقد مكي أن للمعتزلة تعلقاً وحجة بالغة بهذا التأويل، فردَّ عليه وأفرط حتى أنكر أن يكون الغوى بمعنى الهلاك موجوداً في لسان العرب.

وقوله: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ تنبيه على المعرفة بالخالق. وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إخبارٌ في ضمنه وعيد وتخويف.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الآية. قال الطبري وغيره من المتأولين والمؤلفين في التفسير[٣] إن هذه الآية اعترضت في قصة نوح عليه السلام، وهي في شأن محمد ﷺ مع كفار قريش: وذلك أنهم قالوا: افترى القرآن وافترى هذه القصة على نوح، فنزلت الآية في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا لو صحّ بسند وجب الوقوف عنده، وإلا فهو يحتمل أن يكون في شأن نوح عليه السلام ويبقى اتساق الآية مطرداً، ويكون الضمير في قوله: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ عائد إلى العذاب الذي توعدهم به، أو على جميع أخباره، وأُوقع الافتراءُ على العذاب من حيث يقع على الإخبار به، والمعنى: أَم يقول هؤلاءِ الكفرة: افترى نوح هذا التَّوعُّد بالعذاب وأَراد الإرهاب علينا بذلك[٤]. ثم يطرد باقي الآية على هذا.

و﴿أَمْ﴾ هي التي بمعنى «بل»، و«الإِجْرَامُ» مصدر أَجْرَمَ يُجْرِمُ إذا جنَى، يقال:

---

(١) قال في (اللسان): والغَوَى مصدر قولِكَ: غَوِيَ الفَصيلُ والسَّخْلة بالكسر يغوى... قال ابن السِّكِّيت: هو ألا يَرْوَى من لَبَأ أُمه، ولا يَرْوَى من اللبن حتى يموت». وقال: «قال ابن شُمَيْل: غَوَى الصبيُّ والفصيل إذا لم يجد من اللبن إلا عُلْقَة».

(٢) من الآية (١٢٥) من سورة الأنعام.

(٣) في بعض النسخ: «والمؤلفين في السيّر».

(٤) أرهب تتعدى بنفسها، ولهذا جاءت العبارة في إحدى النسخ: «وزاد الإرهابَ علينا بذلك».

جَرَمَ وأَجْرَمَ بمعنى، ومن ذلك قول الشاعر:

طَــرِيــدُ عَشِيــرَةٍ ورَهِيــنُ ذنْــبٍ   بِمَا جَرَمَتْ يَدي وجَنَى لِسَانِي[1]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قال أبو البَرَهْسَم[2]: [وأَوحى] بفتح الهمزة على إسناد الفعل إلى الله عزَّ وجلَّ، [إِنهُ] بكسر الهمزة، وقيل لنوح هذا بعد أن طال عليه كفر القرن بعد القرن به، وكان يأتيه الرجل بابنه فيقول: يا بُنَيّ لا تُصدق هذا الشيخ فهكذا عَهِدَه أَبي وجدي كذاباً مجنوناً، رواه عبيد بن عمير وغيره. وهذه الآية هي التي أَيْأَسَتْ نوحاً عليه السلام من قومه، فروي أنه لما أُوحي إليه ذلك دعا فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[3].

و﴿تَبْتَئِسْ﴾ من البؤس تَفْتعل، ومعناه: لا تحزن نفسك، ومنه قول الشاعر، وهو لبيد بن ربيعة:

فــي مَــأْتَــمٍ كَنِعَــاجِ صَــا   رَةَ يَبْتَئِسْــنَ بِمَــا لَقِينَــا[4]

صَارَة: موضع.

---

(١) جاء في (اللسان) ـ جَرَمَ ـ: «وأنشد أبو عُبَيدة للهَيْرُوَانِ السَّعْدِي أحد لصوص بني سعدٍ: طريدُ عشيرة... إلخ البيت، وفيه: «ورهين جُرْم» بدلاً من «ذَنْب»، وقال: وَجَرَمَ يَجْرِمُ: كَسَبَ، وهو يَجْرُمُ لأهله: يتكَسَّب».

(٢) «قال الصاغاني: هو عمران بن عثمان الزبيدي الشامي ذو القراءات الشواذ، هكذا في العباب، وقد أكثر عنه ابن جني في كتابه المحتسب». هكذا قال الزبيدي في تاج العروس، ثم قال: «وقرأت في حاشية الإكمال للمزّي في ترجمة شريح بن المؤذن ما نصه: رَوَى عن أبي البَرَهْسَم حُدَير بن معدان بن صالح الحضرمي المقري... فلعل هذا غير ما قاله الصاغاني». (تاج العروس ـ برهم).

(٣) من الآية (٢٦) من سورة نوح.

(٤) البيت من قصيدة قالها عندما حضرته الوفاة، وهي في الديوان، ورواه اللسان، والرواية فيهما: «في رَبْرَبٍ» وهو القطيع من البقر الوحشية. والنعاج: جمع نعجة وهي الأنثى من الضأن أو الظباءِ أو البقر الوحشي، والعرب تكني بها عن المرأة، وصارة: ماءٌ بين فَيْد وضريَّة، وخصّ نعاجه لحسنهن بما توافر لهن من مرعى وماءٍ، والابتئاس: الحزن والغم عند الخبر المحزن. يتحدث عن نساء جميلات كنعاج البقر الوحشي وقفن في مأتمه متشحات بالسواد كما يقول في البيت الذي بعده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي أمر نوح عليه السلام تدافع في ظاهر الآيات والأحاديث ينبغي أن نلخص القول فيه، وذلك أن ظاهر أمره أنه عليه السلام دعا على الكافرين عامة من جميع الأمم، ولم يخص قومه دون غيرهم، وتظاهرت الروايات وكتب التفاسير بأن الغرق نال جميع أهل الأرض، وعمَّ الماءُ جميعها، قاله ابن عباس وغيره، ويوجب ذلك أمر نوح بحمل الأزواج من الحيوان، ولولا خوف فناءِ أجناسها من جميع الأرض ما كان ذلك، فلا يتفق لنا أن نقول: إنه لم يكن في الأرض غير قوم نوح في ذلك الوقت، لأنه يجب أن يكون نوح بعث إلى جميع الناس، وقد صح أن هذه الفضيلة خاصة لمحمد عليه الصلاة والسلام بقوله: «أُوتيت خمْساً لَمْ يُؤْتَهُنَّ أحدٌ قبلي»[1]، فلا بدَّ أن نقدر كثيراً من الأمم كان في ذلك الوقت، وإذا كان ذلك فكيف استحقوا العقوبة في جمعهم ونوح عليه السلام لم يبعث إلى كلهم؟ وكنَّا نقدّر هنا أن الله تبارك وتعالىٰ بعث إليهم رسلاً قبل نوح عليه السلام فكفروا بهم واستمر كفرهم لولا أنَّا نجد الحديث ينطق بأن نوحاً هو أول الرسل إلى أهل الأرض، ولا يمكن أن نقول: «عُذبوا دون رسالة» ونحن نجد في القرآن: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2].

والتأويل المخلّص من هذا كله هو أن نقول: إن نوحاً عليه السلام هو أول رسول بعث إلى كفار من أهل الأرض ليصلح الخلق ويبالغ في التبليغ ويتحمل المشقة من الناس ـ بحسب ما ثبت في الحديث ـ ثم نقول: إنه بُعث إلى قومه خاصة بالتبليغ والدعاء والتنبيه، وبقي أمم في الأرض كثير لم يكلف القول لهم، فتصح الخاصة لمحمد ﷺ، ثم نقول: إن الأمم التي لم يُبعث ليخاطبها إذا كانت بحال كفر وعبادة أوثان، وكانت الأدلة على الله تعالىٰ منصوبة معرضة للنظر، وكانوا متمكنين من النظر

(١) الحديث رواه البخاري في التَّيَمُّم وفي الصلاة وفي الغُسل، ورواه الدارمي في السيِّر، ولفظه كما في البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أُعطيت خمساً لم يُعْطهُنَّ أحدٌ قبلي، نصرتُ بالرُّعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أُمتي أدركته الصلاة فَلْيُصل، وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قَبْلي، وأُعْطيتُ الشَّفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة»، وزاد في الجامع الصغير أن النسائي رواه، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة.

(٢) من الآية (١٥) من سورة الإسراء.

من جهة إدراكهم ، وكان الشرع ـ ببعث نوح ـ موجوداً مستقراً ، فقد وجب عليهم النظر ، وصاروا بتركه بحال من يجب تعذيبه ، فإن هذا رسول مبعوث وإن كان لم يبعث إليهم معينين ، ألا ترى أن لفظ الآية إنما هو: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ ، أي: حتى نوجده ، لأن بعثة الأنبياء إلى قوم مخصوصين إنما هو في معنى القتال والشدة ، وأما من جهة بذل النصيحة وقبول من آمن فالناسُ أجمع في ذلك سواءٌ ، ونوح عليه السلام قد لبث ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعو إلى الله ، فغير ممكن أن لم تبلغ نبوءته للقريب والبعيد ، ويجيءُ تعذيب الكل بالغرق بعد بعثة رسول وهو نوح ﷺ. ولا يعارضنا مع هذه التأويلات شيءٌ من الحديث ولا الآيات ، والله الموفق للصواب.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ ﴾ عطف على قوله: ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾. والفُلْك: السفينة ، وجمعها أيضاً فُلْك ، وليس هو لفظاً للواحد والجمع ، وإنما هو فُعْل وجمع على فُعْل ، ومن حيث جاز أن يجمع فَعَل على فُعْل كأَسد وأُسْد جاز أن يجمع فُعْل على فُعْل ، فظاهر لفظ الجمع فيها كظاهر لفظ الواحد وليس به ، تدل على ذلك درجة التثنية التي بينهما ، لأنك تقول: فُلْك وفُلْكان وفُلْك ، فالحركة في الجمع نظير ضمة الصاد إذا ناديت: «يا منصُو» ، تريد: يا منصور ، فرخمت على لغة من يقول: «يا حارُ» بالضم ، فإن ضمة الصاد هي في اللفظ كضمة الأصل ، وليست بها في الحكم.

وقوله: ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ يمكن ـ فيما يُتأول ـ أن يريد به: بمرأى مِنَّا وتحت إدراك ، فتكون عبارة عن الإدراك والرعاية والحفظ ، ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير ، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴾[(١)] ، فرجع معنى الأعين في هذه وفي غيرها إلى معنى (عَيْن) في قوله: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾[(٢)] ، وذلك كله عبارة عن الإدراك وإحاطته بالمدركات ، وهو تبارك وتعالىٰ مُنزَّه عن الحواسّ والتشبيه والتكييف لاَ رَبَّ غيره. ويحتمل قوله: ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أَي: بملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على مواضع حفظك ومعونتك ، فيكون الجمع ـ على هذا ـ للتكثير. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿ بِأَعْيُنَّا ﴾ مدغماً.

---

(١) من الآية (٢٣) من سورة المرسلات ، ومثلها قوله تعالىٰ: ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾.

(٢) من الآية (٣٩) من سورة طه.

وقوله: ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ معناه: وتعليمنا لك صورة العمل بالوحي، وروي في ذلك أَن نوحاً عليه السلام لما جهل كيفية صنع السفينة أَوحى الله إِليه أَن اصنعها على مثال جؤجؤ الطير، إِلى غير ذلك مما علمه نوح من عملها، فقد روي أَيضاً أَنها كانت مربعة الشكل طويلة في السماء ضيقة الأَعلى، وأَن الغرض منها إِنما كان الحفظ لا سرعة الجري، والحديث الذي تضمن أَنها كجؤجؤ الطائر أَصح ومعناه أَظهر، لأَنها لو كانت مربعة لم تكن فُلْكاً، بل كانت وعاءً فقط، وقد وصفها الله تعالىٰ بالجري في البحر، وفي الحديث: «كان رَازُ سفينة نوح عليه السلام جبريل عليه السلام»، والرّاز: القَيِّم يعمل السفن[١]، ومن فسّر قوله: ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ أَي: «بِأَمرنا لك»، فذلك ضعيف، لأَن قوله: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ مُغْنٍ عن ذلك.

و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ هم قومه الذين أَعرضوا عن الهداية حتى عمَّتهم النقمة. قال ابن جريج: وهذه الآية تقدم الله[٢] فيها إِلى نوح أَلاَّ يشفع فيهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾﴾.

التقدير: فشرع يصنع، فحكيت حال الاستقبال إِذ في خلالها وقع مرورهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: صنع نوح عليه السلام الفلك بيفاع دمشق[٣]، وأَخذ عودَها من لبنان، وعودُها من الشمشاد وهو البقص[٤]، ورُوي أَن عودها من الساج، وأَن

---

(١) في (اللسان): «الرَّازُ: رأس البنّائين، لأنه يروز الحجر واللبن، والجمع الرّازة، وقد يستعمل ذلك لرأس كل صناعة، من: راز يروز إذا امتحن عمله فحذقه». وأصل «الراز»: الرائز. (وراجع النهاية لابن الأثير).

(٢) يقال: تقدم إلى فلان بكذا: أمَرَه به أو طلب منه. (المعجم الوسيط).

(٣) اليَفَاع: المرتفعُ من كل شيءٍ، يكون في المشرف من الأرض، والجبل، والرمل، وغيرها. (المعجم الوسيط).

(٤) هكذا بالنسخ التي بأيدينا، والموجود في المعاجم البَقْسُ (بالسين لا بالصاد). قال في المعجم الوسيط: =

نوحاً عليه السلام اغترسه حتى كبر في أَربعين سنة ، ورُوي أَن طول السفينة أَلف ذراع ومائتان ، وعرضها ستمائة ذراع ، ذكره الحسن بن أَبي الحسن. وقيل: طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً وطولها في السماءِ ثلاثون ذراعاً ، ذكره قتادة ، ورُوي غير هذا مما لم يثبت فاختصرت ذكره ، وذكر الطبري حديث إِحياءِ عيسى بن مريم لِسام بن نوح وسؤاله إِياه عن أَمر السفينة ، فذكر أَنها ثلاث طبقات: طبقة للناس ، وطبقة للبهائم ، وطبقة للطير ، إِلى غير ذلك في حديث طويل[1].

و«المَلأُ» هنا: الجماعة ، و﴿سَخِرُواْ﴾ معناه: استجهلوه ، وهذا الاستجهال ـ إِن كان الأَمر كما ذكر أَنهم لم يكونوا قبْلُ رأَوا سفينة ولا كانت فوجه الاستجهال واضح ، وبذلك تظاهرت التفاسير ، وإِن كانت السفائن حينئذ معروفة فاستجهلوه في أَن صَنَعَها في قرية لا قرب لها من البحر . ورُوي أَنهم كانوا يقولون له: صرتَ نجاراً بعد النبوة؟ .

وقوله: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ قال الطبري: يريد: في الآخرة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل الكلام ـ بل هو الأَرجح ـ أَن يريد: إِنا نسخر منكم الآن ، أَي نستجهلكم لعلمنا بما أَنتم عليه من الغرَر والكون بمدرج عذابه. ثم جاءَ قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديداً. والسَّخَرْ: الاستجهال مع استهزاءٍ ، ومصدره: «سُخْرِيّ» بضم السين ، والمصدر من السُّخْرة والتَّسَخُّر «سِخْرِيّ» بكسرها[2].

والعذاب «المخزي» هو الغَرق ، و«المقيم» هو عذاب الآخرة. وحكى الزهراوي أَنه يُقرأُ: [ويحُلُّ] ، ويُقرأُ: ﴿وَيَحِلُّ﴾ بكسرها بمعنى: ويجب. و﴿مَن﴾ في موضع نصب بـ ﴿تَعْلَمُونَ﴾ ، وجائز أَن يكون ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بمثابة «تعرفون» في التعدي إِلى مفعول واحد ، وجائز أَن تكون التعدية إِلى مفعولين واقتصر على الواحد[3].

= «البقس: شجر يشبه الآس خشبه صلب يعمل منه بعض الأدوات» ، وقال في القاموس: «أو هو شجر الشَّمْشاذ (بالذال المعجمة) ، منابته بلاد الروم ، تتخذ منه المغالق والأبواب لمتانته وصلابته».

(١) الحديث طويل ، وقد أورده الطبري في تفسيره.

(٢) في (اللسان): «سخر منه وبه سَخْراً ، وسَخَراً ، ومَسْخَراً ، وسُخْراً بالضم ، وسُخْرَةً ، وسِخْرِيّاً ، وسُخْرِيّاً ، وسُخْرِيَّةً: هزئ به» وفيه: «والاسم السُّخْرِيَّةُ ، والسُّخْرِيُّ». تأمل هذا وكلام ابن عطية رحمه الله.

(٣) قال أبو حيان تعقيباً على ذلك: «ولا يجوز حذف الثاني اقتصاراً لأن أصله خبر مبتدأ ، ولا اختصاراً هنا=

وقوله تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ الآية. الأمرُ ها هنا يحتمل أَن يكون واحد الأُمور، ويحتمل أَن يكون مصدر أَمَرَ، فمعناه: أَمْرُنا للماءِ بالفوران، أَو للسّحاب بالإرسال، أَو للملائكة بالتصرف في ذلك ونحو هذا مما يقدر في النازلة. و﴿ وَفَارَ ﴾ معناه: انبعث بقوة، واختلف الناس في ﴿ ٱلتَّنُّورُ ﴾ ـ فقالت فرقة ـ وهي الأَكثر ـ منهم ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: هو تنور الخبز الذي يوقد فيه. وقالت فرقة: كانت هذه أَمارة جعلها الله لنوح، أَي: إِذا فار التَّنُّور فاركب في السفينة، ويشبه أَن يكون وجه الأَمارة أَن مستوقد النار إِذا فار بالماءِ فغَيْرُه أَشَدُّ فوراناً وأَحرى بذلك، ورُوي أَنه كان تَنُّور آدم خَلَص إِلى نوح عليهما السلام فكان يوقد فيه. وقال النقاش: اسم المستوقد التَّنُّور بكل لغة، وذكر نحو ذلك ابن قتيبة في الأَدب عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد.

وقيل: إِن موضع تنُّور نوح عليه السلام كان بالهند، وقيل: كان في موضع مسجد الكوفة، وقيل: كان في ناحية الكوفة، قاله الشعبي، ومجاهد، وقيل: كان في الجهة الغربية من قبلة المسجد بالكوفة، وقال ابن عباس، وعكرمة: التَّنُّور: وجه الأَرض، ويقال له: تنُّور الأَرض. وقال قتادة: التَّنُّور: أَعالي الأَرض، وقالت فرقة: التَّنُّور: عين بناحية الجزيرة. وقال الحسن بن أَبي الحسن: التَّنُّور: مجتمع ماءِ السفينة فار منه الماءُ وهي بعد في اليبس. وقالت فرقة: التَّنُّور هو الفجر، المعنى: إِذا طلع الفجر فاركب في السفينة، وهذا قولٌ روي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، إِلاَّ أَن التصريف يضعفه، وكان يلزم أَن يكون التنوير[1]، وقالت فرقة: الكلام مجاز، وإِنما أَراد غلبة الماءِ وظهور العذاب، كما قال النبي ﷺ لشدة الحرب: «حمي

= لأنه لا دليل على حذفه».

(١) الكلمة في جميع النسخ «التَّنُّور»، والمعنى المراد لا يستقيم بها إذ لا فرق بينها وبين الكلمة الموجودة فعلاً، وبالرجوع إلى أصل الحديث الذي رواه ابن جرير في تفسيره عن أبي جُحيفة عن عليّ رضي الله عنه وجدنا نصّه. قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ قال: هو تنوير الصبح، ومن هنا جاء اختيارنا لكلمة «التنوير» بدلاً من كلمة «التنور» لأنها هي المنسوبة للإمام علي كرّم الله وجهه.

الوطيس»[(١)] والوَطيسُ أيضاً مستوقد النار ، فلا فرق بين «حَمِيَ» و«فَار» إذ يستعملان في النار ، قال الله تعالىٰ: ﴿ سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴾[(٢)] فلا فرق بين الوطيس والتَّنُّور.

وقرأ حفص عن عاصم ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ بتنوين ﴿كُلٍّ﴾ وقرأ الباقون: [مِنْ كُلِّ زَوْجَيْن] بإضافة [كُل] إلى [زَوْجَيْن] ، فمن قرأ بالتنوين حذف المضاف إليه ، التقدير: من كل حيوان أو نحوه ، وأعمل «الحَمْلَ» في ﴿ زَوْجَيْنِ ﴾ ، وجاءَ قوله: ﴿ ٱثْنَيْنِ ﴾ تأكيداً ، كما قال: ﴿ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾[(٣)]. ومن قرأ بالإضافة فأعمل «الحَمْلَ» في قوله: ﴿ ٱثْنَيْنِ ﴾ ، وجاءَ قوله: ﴿ زَوْجَيْنِ ﴾ بمعنى العموم ، أي: من كل ماله ازدواج ، هذا معنى قوله: ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ﴾ ، قاله أبو علي وغيره. ولو قدرنا المعنى: احمل من كل زوجين حاصلين اثنين لوجب أن يحمل من كل نوع أربعة. والزوج يقال: ـ في مشهور كلام العرب ـ للواحد مما له ازدواج ، فيقال: هذا زوج هذا ، وهما زوجان ، وهذا هو المهيع في القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾[(٤)] ، ثم فسَّرها ، وكذلك هو في قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴾[(٥)]. قال أبو الحسن الأخفش في كتابه «الحجة»: وقد يقال في كلام العرب للاثنين: زَوْجٌ ، ومن ذلك قول لبيد:

مِـنْ كُـلِّ مَحْفُـوفٍ يُظِـلُّ عِصِيَّـهُ ... زَوْجٌ عليـه ، كِلَّـةٌ وقِـرَامُهَـا[(٦)]

وهكذا يأخذ العدديون. والزوج أيضاً في كلام العرب: النوع ، كقوله تعالىٰ:

---

(١) لفظ الحديث كما رواه الإمام أحمد في مسنده عن كثير بن عباس قال: (كان عباس وأبو سفيان معه ـ يعني النبي ﷺ ـ ، قال: فخطبهم وقال: الآن حمي الوطيس ، وقال: ناديًا: يا أصحاب سورة البقرة). ومن رواية أُخرى للحديث أطول من هذه يتضح أن ذلك كان في (حنين). والحديث رواه مسلم أيضاً في الجهاد.

(٢) من الآية (٧) من سورة الملك.

(٣) من الآية (٥١) من سورة النحل.

(٤) من الآية (١٤٣) من سورة الأنعام.

(٥) من الآية (٤٥) من سورة النَّجم.

(٦) البيت رواه في اللسان على أن معنى «الزّوج»: النَّمط أو الديبَاج. و«المحفوف»: الهودج الذي ستر بالثياب ، و«عصيّ»: مفعول به مقدم ، والفاعل كلمة «زوجٌ» والمراد بها النَّمط الذي يطرح على الهودج ، وسمّي بذلك لاشتماله على ما تحته اشتمال الرجل على المرأة ، قاله في اللسان ثم عقَّب عليه بقوله: «وهذا ليس بقوي» ، ثم فسّر الشاعر «النّمط» بأنه كِلَّةٌ وقرام ، والكِلَّة: الستر الرقيق المثقب الذي يتقى به من البعوض وغيره ، والقِرَامُ: السِّتر يكون فيه نقوش ، أو الكساءُ الغليظ من الصوف ذي الألوان يتخذ سِتْراً ويتخذ فِرَاشاً في الهودج.

﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾[١]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾[٢].

وروي في قصص هذه الآية أن نوحاً عليه السلام كان يأتيه الحيوان فيضع يمينه على الذكر. ويساره على الأنثى، وروي أن أول ما دخل في السفينة الذَّرّ وآخر ما دخل الحمار، فتمسك الشيطان بذنبه، فزجره نوح عليه السلام فلم ينبعث، فقال له: «ادخل ولو كان معك الشيطان»، قال ابن عباس رضي الله عنهما: زلت هذه الكلمة على لسانه فدخل الشيطان حينئذ، وكان في كوثل السفينة ـ أي عند مؤخرها ـ وقيل: كان على ظهرها، ورُوي أن نوحاً عليه السلام آذاه نتن الزبل والعذرة، فأوحى الله إليه أن امسح على ذنب الفيل ففعل، فخرج من الفيل ـ وقيل: من أنفه ـ خنزير وخنزيرة، فكفيا نوحاً وأهله ذلك الأذى، وهذا يجيءُ منه أن نوع الخنازير لم يكن قبل ذلك، ورُوي أن الفأر آذى الناس في السفينة بقرض حبالها وغير ذلك، فأمر الله نوحاً أن يمسح على جبهة الأسد ففعل، فعطس فخرج منه هرٌّ وهرَّة، فكفياهم الفأر، وروي أيضاً أن الفأر خرج من أنف الخنزير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله قصص لا يصح إلا لو استند، والله أعلم كيف كان.

وقوله: ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ عطف على ما عمل فيه ﴿ٱحۡمِلۡ﴾، والأهل هنا: القرابة، وبشرط من آمن منهم خُصصوا تشريفاً، ثم ذكر من آمن وليس من الأهل، واختلف في الذي ﴿سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ ـ فقيل: هو ابنه يام، وقال النقاش: اسمه كنعان، وقيل: هي امرأته «والعة»، هكذا اسمها بالعين غير منقوطة، وقيل: هو عموم فيمن لم يؤمن من أهل نوح وعشيرته. و﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ ها هنا معناه: القول بأن يعذب، وقوله: ﴿وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾ عطف على قوله: ﴿وَأَهۡلَكَ﴾. ثم قال إخباراً عن حالهم: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ واختلف في ذلك القليل ـ فقيل: كانوا ثمانين رجلاً وثمانين امرأة، وقيل: كان جميعهم ثلاثة وثمانين، وقيل: كانوا ثمانين في الكل، قاله السُّدي، وقيل: عشرة، وقيل: ثمانية، قاله قتادة، وقيل: سبعة، والله أعلم. وقيل: كان في السفينة جُرْهُم،

---

(١) الآية (٧) من سورة ق.

(٢) من الآية (٣٦) من سورة يس.

وقيل: لم ينج من الغرق أحد إلا عوج بن عنق، وكان في السفينة مع نوح عليه السلام ثلاثة من بنيه: سام، وحام، ويافث، وغرق يام، ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «سام أَبو العرب، ويافث أَبو الروم، وحام أَبو الحبش».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

المعنى: وقال نوح ـ حين أُمر بالحمل في السفينة ـ لمن آمن معه: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾، فأَنَّث الضمير إذ هي سفينة، لأَن «الفُلْك» المذكور مذكَّر، وفي مصحف أُبَي: «على اسْم الله»، وقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ يصحُّ أَن يكون في موضع الحال من الضمير الذي في قوله: ﴿ٱرْكَبُوا۟﴾، كما تقول: «خرج زيد بثيابه وبسلاحه»، أَي: اركبوا متبرِّكين بالله تعالىٰ، ويكون قوله ﴿مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ ظرفين، أَي: وقْتَ إِجرائها وإِرسائها، كما تقول العرب: «الحمد لله سِرَارُك وإِهْلالُك[1]، وخفوق النجم، ومقدم الحاج»، فهذه ظرفية زمان، والعامل في هذا الظرف ما في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ من معنى الفعل. ويصح أَن يكون قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ في موضع خبر، و﴿مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ ابتداءٌ مصدران كأَنه قال: «اركبوا فيها فإِن ببركة الله إِجراءَها وإِرساءَها»، وتكون هذه الجملة ـ على هذا ـ في موضع حال من الضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾، ولا يصح أَن يكون حالاً من الضمير في قوله: ﴿ٱرْكَبُوا۟﴾ لأَنه لا عائد في الجملة يعود عليه، وعلى هذا التأْويل قال الضحاك: إِن نوحاً كان إِذا أَراد جري السفينة قال: «بسم الله» فتجري، وإِذا أَراد وقوفها قال: «بسم الله» فتقف.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ وابن عامر: [مُجْرَاهَا ومُرْسَاهَا] بضم الميمين على معنى: إِجرائها وإِرسائها، وهي قراءة مجاهد، وأَبي رجاءٍ، والحسن، والأَعرج، وشيبة، وجمهور الناس، ومنه قول لبيد:

---

(١) السِرَّار بالفتح والكسر: وسَرارُ الشهر: آخر ليلة فيه. (القاموس والمعجم الوسيط). وفي التاج عن الأزهري أن الكسر لغة ليست بجيدة. وأَهَلَّ الشهرُ: ظهر هلالُه، وأَهَلَّ فلانٌ: رفع صوته وصاح، ويقال: أَهَلَّ الصبيُّ، وأَهَلَّ الملبِّي. وغيرها.

وَعمرتُ حَرْساً قَبْلَ مُجْرَى داحِسٍ ... لـوْ كـان لِلنَّفْسِ اللَّجُـوج خُلُـودُ(١)

وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: [مَجْرِيهَا] بفتح الميم وكسر الراءِ، وكلهم(٢) ضم الميم من ﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾، وقرأ الأعمش، وابن مسعود: [مَجْراها ومَرْساها] بفتح الميمين، وذلك من الجري والرسوّ، وهذه ظرفية مكان، ومن ذلك قول عنترة:

فَصَبَـرْتُ نفْسـاً عنْـدَ ذَلِـكَ حُـرَّةً ... تَـرْسُـو إِذَا نَفْسُ الْجَبَـانِ تَطَلَّـعُ(٣)

واختار الطبري قراءَة ﴿مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ بفتح الميم الأُول وضمّ الثانية، ورجحها بقوله تعالىٰ: ﴿وَهِىَ تَجْرِى﴾ ولم يقرأ أَحد «تُجْري»، وهي قراءَة ابن مسعود أَيضاً، رواها عنه أَبو وائل، ومسروق، وقرأ ابن وثاب، وأَبو رجاءِ العطاردي، والنَّخَعي، والجحدري، والكلبيّ، والضحاك بن مُزاحم، ومسلم بن جُندب، وأَهل الشام: [مُجْرِيهَا ومُرْسِيهَا]، وهما ـ على هذه القراءَة ـ صفتان لله تعالىٰ عائدتان على ما ذكره في قوله ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾(٤).

---

(١) البيت من قصيدة للبيد يتحدث فيها عن طول عمره وسأمه من الحياة، ويتحدث عن مآثره، وقبله البيت المشهور:

ولَقَـدْ سَئِمْـتُ مِـنَ الْحَيَـاةِ وطُـولِهَـا ... وسُـؤَالِ هـذا النَّـاس كَيْـفَ لبيـدُ

والبيت في الديوان: «وغَنِيتُ سَبْتاً»، ويروى: و«غَنيت حَرْساً»، ويروى: «بعد مُجْرى». «وعمَرْت وغَنِيتُ» معناهما: عِشْتُ. ومُجْرى: إجراءُ، وداحس والغبراءُ: فرسان جرّ الرهان عليهما إلى الحرب المشهورة بين عبْسٍ وذبيان في أواسط القرن السادس الميلادي، والسَّبْتُ والحرْس بمعنى: الدهر، وقدرهما قوم بعدد من السنين، ولكن المقصود الحقيقي محض حقبة طويلة من الزمن.

(٢) يريد الثلاثة: حمزة، والكسائي، وحفصاً في قراءته عن عاصم.

(٣) البيت في (اللسان)، ذكره بعد قوله: «ولو حَبَس رجلٌ نفسه على شيءٍ يريده قال: (صَبَرْتُ نفسي)، قال عنترة يذكر حرباً كان فيها: فَصَبَرْتُ عارفَةً لِذَلكَ حُرَّةً...» وبهذه الرواية جاء البَيت في شعر عنترة كما قال أبو عُبَيْد، ومعنى (صَبَرْتُ عَارفَةً): حَبَسْتُ نفساً عارفة أي: صابرة، تصبر للشدائد ولا تنكرها، وترسُو: تثبت وتستقر ولا تتطلع إلى الخلق جُبْناً وفزعاً كما تتطلع نفسُ الجبان. والشاهد في البيت أن (مَرْسَاهَا) تكون من الفعل: رَسَا يَرْسُو.

(٤) قال أبو حيان تعقيباً على كلام ابن عطية: «ولا يكونان صفتين إلا على تقدير أن يكونا معرفتين، وقد ذهب الخليل إلى أن ما كانت إضافته غير محضة قد يصح أن تجعل محضة فتعرَّف، إلا ما كان من الصفة المشبهة فلا تتمَحَّض إضافتها فلا تعرف»، ومعنى هذا أن كلام ابن عطية صحيح على مذهب الخليل.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تنبيه لهم على على قدر نعم الله عليهم ورحمته لهم وستره عليهم وغفرانه ذنوبهم بتوبتهم وإنابتهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ الآية. رُوي أَن السماءَ أَمطرت بأَجمعها حتى لم يكن في الهواءِ جانب لا مطر فيه، وتفجرت الأَرض كلها بالنبع، فهكذا كان التقاءُ الماءِ، ورُوي أَن الماءَ علاَ على الجبال وأَعالي الأَرض أَربعين ذراعاً، وقيل: خمسة عشر ذراعاً. وأَشار الزجاج وغيره إِلى أَن الماءَ انطبق، ماءُ الأَرض وماءُ السماءِ فصار الكل كالبحر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وأَين «كان الموج كالجبال» على هذا؟ وكيف استقامت حياة من في السفينة على هذا؟.

وقرأَت فرقة: [ٱبْنِهِ] على إِضافة «الابن» إِلى [نُوحٌ]، وهذا قول من يقول: هو ابنه لصلبه، وقد قال قوم: إِنه ابن قريب له، ودعاه بالبنوة حناناً منه وتلطفاً، وقرأَ ابن عباس: «ٱبْنَهْ» بسكون الهاءِ، وهذا على لغةٍ لأَزد السَّرَاةِ[1]. ومنه قول الشاعر:

. . . . مِطْـوَايَ مُشْتَـاقَـانِ لَـهْ أَرِقَـانِ[2]

وقرأَ السُّدّي: «ٱبْنَاه»، قال أَبو الفتح: ذلك على النداءِ، وذهبت فرقة إِلى أَن ذلك على جهة النُّدْبة مَحْكيَّةً. وقرأَ عروة بن الزبير، وعليّ بن أَبي طالب رضي الله عنه:

---

(١) جاء في (الصّحاح): أَزْدٌ: أَبو حَيٍّ من اليمن، وهو أزد بن غوث... بن سبأ، وهو بالسين أفصح، يقال: أزد شَنوءَة، وأزد عُمَان، وأزدُ السّراة، قال الشاعر النجاشي ـ قيس بن عمرو ـ:

وكنْـتُ كـذِي رِجْلَيْـن رجْـلٍ صَحيحَـةٍ ... ورجْـلٍ بهـا ريْـبٌ مِـنَ الحَـدَثَـانِ
فَـأَمَّـا الَّتـي صَحَّـتْ فـأَزْدُ شَنُـوءَةٍ ... وأمَّـا الَّتـي شلَّـتْ فَـأَزْدُ عُمَـانِ

(٢) هذا عجز بيت، نقل صاحب اللسان عن ابن بري أنه لرجل من أزد السَّرَاة يصف برقاً، ثم قال: وذكر الأصبهاني أنه ليعْلَى بن الأحول، والبيت بتمامه:

فَظَلْـتُ لَـدَى البَيْـتِ العَتيـقِ أُخِيلُـهُ ... ومِطْـوايَ مُشْتَـاقَـانِ لَـهْ أرقَـان

ويروى «البيت الحرام»، ويروى الشطر الأخير: «ومِطْوَايَ مِنْ صدْقٍ لَهُ أرِقَانِ»، ومعنى أُخِيلُهُ: أَنظر إلى مَخِيلَتِه، والهاءُ عائدة على البرق في بيت قبله وهو:

أَرِقْـتُ لِبَـرْقٍ دُونَـهُ شَـرَوان ... يمـانٍ، وأهْـوَى البَـرْقَ كـلَّ يَمَـانِ

ومِطْوَايَ: مُثنّى مِطْو، ومِطْوُ الرجل: صديقه وصاحبه ونظيره، وقيل: في السفر خاصة. (خزانة الأدب، والخصائص).

«ابْنَها»، وتأَوَّلوا ذلك على أَنه دعا ابن امرأَته الكافرة إِذْ قد تقدم ذكرها في قوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾، وعلى هذه القراءَة يدخل تأْويل من قال: «كانت خائنة» فيه، وسيأْتي ذكر هذا بعد، وقرأَ علي بن أَبي طالب، وعروة بن الزبير أَيضاً، وأَبو جعفر، وجعفر بن محمد: «ابْنَهَ» على تقدير: «ابْنَهَا» فحذفت الأَلف تخفيفاً، وهي لغة، ومنها قول الشاعر:

إِمَّـا تَقُـودُ بـه شـاةً فَتـأْكُلهـا ... أَوْ أَنْ تَبِيعَهَ في بعْضِ الأَرَاكِيبِ(١)

وأَنشد ابن الأَعرابي على هذا:

فَلَسْـتُ بِمُـدْرِكٍ مـا فَـاتَ مِنِّـي ... بِلَهْـفَ ولاَ بِلَيْـتَ ولاَ لَـوَانِّـي(٢)

يريد: بِلَهْفَا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وخطَّأَ النحاس أَبا حاتم في حذف هذه الأَلف، وليس كما قال. وقرأَ وكيع بن الجراح: [وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ] بضم التنوين، وقال أَبو حاتم: هي لغة سوءٍ لا تعرف.

وقوله: ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾، أَي: في ناحية، فيمكن أَن يريد: في معزل في الدين، ويمكن أَن يريد: في معزل في بُعْده عن السفينة، واللفظ يعمهما. وقال مكي في «المشكل»: (ومن قال «مَعْزِل» بكسر الزاي أَراد الموضع، ومن قال: «مَعزَل» بفتحها أَراد المصدر). فلم يصرح بأَنها قراءَة، ولكن يقتضي ذلك لفظُه.

---

(١) أراد «تَبِيعَهَا» فحذف الألف تشبيهاً لها بالواو والياء لما بينهما وبينها من النسبة وهذا شاذٌّ ـ قال ذلك في (اللسان)، والأراكيب: جمع أُركوب بضم الهمزة، وهو أكثر من الرَّكْب، والرَّكْبُ في الأصل هو راكب الإبل خاصة، ثم اتسع فأُطلق على كل من ركب دابّة، قالوا وأنشد ابن جني:

أَغْلَقْـتَ بـالـذِّئْـبِ حبْـلاً ثـمَّ قُلْـتَ لَـهُ ... الْحَـقْ بـأَهْلِـكَ واسْلَـمْ أيُّهَـا الـذِّيـبُ

إمَّـا تقـولُ بِـهِ شَـاةٌ فتـأكُلُهَـا ... أوْ أنْ تَبِيعَـهَ فـي بَعْـضِ الأَرَاكِيـبِ

هكذا باللام في «تقولُ» ورفع «شاة» على رواية اللسان.

قال القرطبي: «فأما قراءَة ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُ وَكَانَ﴾ فقراءَة شاذة، وزعم أبو حاتم أنها تجوز على أنه يريد «ابنَهَا» فحذف الألف، كما تقول: «ابنُهُ» فتحذف الواو، وقال النحاس: وهذا الذي قاله أبو حاتم لا يجوز على مذهب سيبويه، لأن الألف خفيفة فلا يجوز حذفها، والواو ثقيلة يجوز حذفها». اهـ.

(٢) قال في (اللسان): أنشده الأخفش، وابن الأعرابي، وغيرهما. واللَّهْف واللَّهَف: الأسى والحزن والغيظ على شيءٍ يفوتك بعدما تشرف عليه. وأراد الشاعر: لا أدرك ما فاتني بأن أقول: «والَهْفا»، فحذف الألف.

وقرأ السبعة: [يا بُنَيِّ] بكسر الياءِ المشددة، وهي ثلاث ياءَات: أُولاها: ياءُ التصغير، وحقها السكون، والثانية: لام الفعل، وحقها أن تكسر بحسب ياءِ الإضافة، إذ ما قبل ياءِ الإضافة مكسور، والثالثة: ياءُ الإضافة، فحذفت ياءُ الإضافة إما لسكونها وسكون الراءِ[1]، وإما إذ هي بمثابة التنوين في الأعلام وهو يحذف في النداءِ، فكذلك ياءُ الإضافة، والحذف فيها كثير في كلام العرب، تقول: يا غلامِ، ويا عبيدِ، وتبقى الكسرة دالة، ثم أُدغمت الياءُ الساكنة في الياءِ المكسورة. وقد رَوى أبو بكر، وحفصٌ عن عاصم أيضاً: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بفتح الياءِ المشددة، وذكر أبو حاتم أن المفضل رواها عن عاصم، ولذلك وجهان: أحدهما: أن يبدل من ياءِ الإضافة ألفا، وهي لغة مشهورة، تقول: يا غلامَا، ويا عينَا، فانفتحت الياءُ قبل الألف، ثم حذفت الألف استخفافاً[2]، أو لسكونها وسكون الراءِ من قوله: ﴿ٱرْكَب﴾. والثاني: أن الياءَات لما اجتمعت استثقل اجتماع المماثِلَة[3]، فخفف ذلك الاستثقال بالفتح إذ هو أخف الحركات، هذا مذهب سيبويه، وعلى هذا حمل قوله ﷺ: «وحواريَّ الزُّبير»[4]، وروي عن ابن كثير أنه قرأ في سورة لقمان: [يا بُنَي لا تُشْرِكْ بالله][5] بحذف ياءِ الإضافة ويُسَكن الياءَ خفيفة، وقرأ الثانية: [يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ][6] كقراءَة الجماعة، وقرأ الثالثة: ﴿يا بُنَيْ أَقِمِ﴾[7] ساكنة كالأُولى.

وقوله: ﴿ وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يحتمل أن يكون نهياً محضاً مع علمه أنه كافر، ويحتمل أن يكون خفي عليه كفره فناداه ألا يبقى ـ وهو مؤمن ـ مع الكفرة فيهلِك بهلاكهم. والأول أبيَن.

---

(١) يريد الراءَ في قوله تعالىٰ بعدها: ﴿ٱرْكَب﴾.

(٢) أي: طلباً للخفة، يقال: استَخَفَّه: طلب خفته.

(٣) يريد: اجتماع الحروف التي يماثل بعضها بعضا.

(٤) رواه البخاري في الجهاد، وفي فضائل الصحابة، وفي المغازي، ورواه مسلم في فضائل الصحابة، وابن ماجه في المقدمة. والإمام أحمد في مواطن كثيرة في مسنده، ولفظه كما في المسند عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل نبيّ حواريّ، وحواريَّ الزبير».

(٥) من الآية (١٣) من سورة لقمان.

(٦) من الآية (١٦) من سورة لقمان.

(٧) من الآية (١٧) من سورة لقمان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

ظن ابن نوح أَن ذلك المطر والماء على العادة. وقوله: ﴿ لَا عَاصِمَ ﴾، قيل فيه: إنه على لفظة« فاعل». وقوله: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ يريد: إلا الله الراحم، فـ ﴿ مَن ﴾ كناية عن اسم الله تبارك وتعالىٰ، المعنى: لا عاصم اليوم إلا الذي رحمنا، فـ ﴿ مَن ﴾ في موضع رفع. وقيل: قوله: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ استثناءُ منقطع كأَنه قال: لا عاصم اليوم موجود، لكن من رحم الله موجود[1]، وحَسَّن هذا من جهة المعنى أَنَّ نفي العاصم يقتضي نفي المعصوم فهو حاصل بالمعنى، وأَما من جهة اللفظ فـ ﴿ مَن ﴾ في موضع نصب على حد قول النابغة:

إِلاَّ الأَوَارِيَّ. . . . .[2]

ولا يجوز أَن تكون في موضع رفع على حَدِّ قول الشاعر:

وبَلْـــدةٍ لَيْـــسَ بهـــا أَنِيـــس　　إِلاَّ الْيَعَـــافيـــرُ وإِلاَّ الْعِيـــسُ[3]

إِذْ هذان أَنيس ذلك الموضع القفر، والمعصوم هنا ليس بعاصم بوجه. وقيل: ﴿ عَاصِمَ ﴾ معناه: ذو اعتصام، فـ «عَاصِمَ» ـ على هذا ـ في معنى «معصوم»، ويجيءُ الاستثناءُ مستقيماً، و﴿ مَن ﴾ في موضع رفع، و﴿ ٱلْيَوْمَ ﴾ ظرف، وهو متعلق بقوله:

---

(١) أي: من رحمه اللهُ موجود.

(٢) هذا مطلع بيت سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ [يونس: ٩٨]. والبيت بتمامه:

إلا الأَوَارِيَّ لأيــــاً مَّــــا أُبَيِّنُهَــــا　　والنُّؤْي كـالْحَوْضِ بـالمظْلُومَـةِ الْجَلَـدِ

(٣) البيت لِجِران العَوْد النُّمَيْري، وهو من شواهد النحوين (خزانة الأدب للبغدادي) على أن الاستثناء في البيت منقطع لأن اليَعَافير والعِيس ليسا من نوع المستثنى منه وهو «الأنيس». وللعرب في هذا مذهبان: فالحجازيون ينصبون المنقطع على الاستثناءِ، وبنو تميم يرفعونه على أنه بدلٌ مما قبله. والبلْدَة هنا: القطعة من الأرض، والأنيس: المؤنس من الناس وهو الذي يذهب ما بك من وحشة، واليعافير: جمع يَعْفور وهو ولد الظبية أو البقرة الوحشية، أو هو تيس الظباءِ، والعيس: إبل بيض يخالط بياضها شقرة، والجمع: أَعْيُس وعيساءٌ.

﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ ، أو بالخبر الذي تقديره: كائن اليوم ، ولا يصح تعلقه بـ ﴿عَاصِمَ﴾ لأنه كان يجيءُ منوناً: «لا عاصماً اليوم» ، يرجع إلى أصل النصب لئلا يرجع ثلاثة أشياءٍ واحداً ، وإنما القانون أن يكون الشيئان واحداً: «لا» وما عملت فيه ، ومثال النحويين في هذه المسألة: «لا أمراً يوم الجمعة لك» ، فإن أعملت في «يَوْمَ» لَكَ ـ قلتَ: لا أمْرَ[1].

و﴿بَيْنَهُمَا﴾ يريد: بين نوح وابنه ، فكان الابن ممن غرق.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ الآية. بناءُ الفعل للمفعول أبلغ في التعظيم والجبروت ، وكذلك بناءُ الأفعال ـ بعد ذلك ـ في سائر الآية. وروي أن أعرابياً سمع هذه الآية فقال: «هذا كلام القادرين». والبَلْعُ هو تجرّع الشيءِ وازدرادُه ، فشبَّه قبض الأرض للماءِ وتسرُّبه فيها بذلك ، وأُمِرت بالتشبيه ، وأضاف الماءَ إليها إذْ هو عليها وحاصل فيها. والسماءُ في هذه الآية: إما السماءُ المُظِلَّة ، وإما السحاب. والإقلاع عن الشيءِ: تركه. والمعنى: أقلعي عن الإمطار. و﴿وَغِيضَ﴾ معناه: نقص ، وأكثر ما يجيءُ فيما هو بمعنى: جفوف[2] ، كقوله: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ ، وكقوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾[3] ، وأكثر المفسرين على أن ذلك في الحيض ، وكذلك قول الأسود بن يَعْفُر:

. . . . مَا غِيضَ مِنْ بصَرِي ومِنْ أَجْلَادي[4]

---

(١) أفضل ما قيل في الآراء التي ذكرها ابن عطية رحمه الله أن ﴿مَن﴾ في موضع رفع ، والمعنى لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحم ، أي: إلا الله ، وهذا هو الذي اختاره الطبري ، ومال إليه القرطبي ، قال: لأنك لم تجعل «عاصماً» بمعنى «معصوم» فتخرجه من بابه ، ولا «إلا» بمعنى «لكن». والذين جعلوا «عاصماً» بمعنى «معصوم» قاسوها على قوله تعالىٰ: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ فهو والله أعلم بمعنى «مَدْفُوق» ، وعليه جاء قول الشاعر:

بَطِيءُ القِيَامِ رَخِيمُ الكَلا ... م أمْسَى فُؤَادي به فاتِنَا

أي: «مفتوناً» ، وعليه أيضاً قول الحطيئة يهجو الزبرقان بن بدر:

دَعِ المكارمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا ... واقْعُدْ فإنَّكَ أنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

أي: المطعوم المكْسُوّ.

(٢) مصدر جَفَّ ، يقال: جَفَّ الشيءُ جفوفاً وجفافا. (اللسان).

(٣) من الآية (٨) من سورة الرعد.

(٤) الشاعر من بني تميم ، ويطلق عليه أعشى بني نهشل ، وهو جاهلي ، مقدم ، فصيح ، فحل ، كان=

وذلك أَن الإِنسان الهرم إِنما تَنَقُّصه بجُفوفٍ وقَضَافَة[١].

وقوله: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ إشارة إِلى جميع القصة: بعْثُ الماءِ، وإِهْلاكُ الأُمم، وإِنجاءُ أَهل السفينة. وروي أَن نوحاً عليه السلام ركب في السفينة من عين وردة بالشام أَول يوم من رجب، وقيل: في العاشر منه، وقيل: في الخامس عشر، وقيل: في السابع عشر، واستوت السفينة في ذي الحجة، وأَقامت على الجوديّ شهراً، وقيل له: اهبط يوم عاشوراءَ، فصامه وصامه من معه من أُناس ووحوش.

وذكر الطبري عن ابن إِسحق ما يقتضي أَنه أَقام على الماءِ نحو السنة، وذكر أَيضاً حديثاً عن النبي عليه الصلاة والسلام: «إِن نوحاً ركب في السفينة أَول يوم من رجب، وصام الشهر أَجمع، وجرت بهم السفينة إِلى يوم عاشوراءَ، ففيه أَرست على الجوديّ فصامه نوح ومن معه»[٢]. ورُوي أَن نوحاً لما طال مقامه على الماء بعث الغراب ليأْتيه بخبر كمال الغرق، فوجد جيفة طافية، فبقي عليها فلم يرجع بخبر، فدعا عليه نوح فاسودّ لونه وخُوّف من الناس، فهو لذلك مستوحش، ثم بعث نوح الحمام فجاءَته بورق زيتونة في فمها ولم تجد تراباً تضع رجليها عليه، فبقي أَربعين يوماً ثم بعثها فوجدت الماءَ قد انحسر عن موضع الكعبة، وهي أَول بقعة انحسر الماءُ عنها، فمسّت الطين برجليها وجاءَته، فعلم أَن الماءَ قد أَخذ في النضوب، ودعا لها فطوّقت وأَنست، فهي لذلك تأْلف الناس، ثم أَوحى الله إِلى الجبال أَن السفينة ترسي على واحد منها فتطاولت كلها وبقي الجوديّ ـ وهو جبل بالموصل في ناحية الجزيرة ـ ولم يتطاول تواضعاً لله، فاستوت السفينة ـ بأَمر الله ـ عليه، وبقيت عليه أَعوادها، وفي الحديث أَنَّ النبي ﷺ قال: «لقد بقي منها شيءٌ أَدركه أَوائل هذه الأُمة»[٣]، وقال

= ينادم النعمان، والبيت بتمامه:

إِمَّا تَرَيْني قَدْ بَلِيتُ وغاضَني ... ما نِيلَ مِنْ بَصَري ومِنْ أجْلادِي

هكذا بلفظ «نِيلَ» بدلاً من «غِيضَ». وغاضني: نقصني. وأجلادي: خُلقي وشخصي، يريد أن الدهر قد حطمه، فقد كفّ بصره، وأنهكت الأيام جسمه، فأصبح ضعيفاً لا يقوى على شيء.

(١) قَضُفَ قَضَافَة: دقَّ ونَحُف لا عن هُزال. (المعجم الوسيط).

(٢) الحديث بنصه وسنده موجود في تفسير الطبري، وكذلك كل الأخبار التي نقلها ابن عطية عن قصة السفينة والغراب والحمامة، وستجد في آخر كلامه عن هذه الأخبار ما يشير إلى شكه فيها، وإلى أنها يدخلها الاختلاف.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه.

الزجاج: الجوديّ هو بناحية آمِد[١] ، وقال قوم: هو عند باقِرْدَى[٢] ، ورُوي أن السفينة لما استقلت من «عين وردة» جرت حتى جاءَت الكعبة فوجدتها قد نَشَزَت من الأَرض فلم ينلها غرق فطافت بها أُسبوعاً ، ثم مضت إلى اليمن ، ورجعت إلى الجوديّ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والقصص في هذه المعاني كثير صعب أَن يستوفى ، فأَشرت منه إلى نُبَذ ، ويدخله الاختلاف كما ترى في أَمر الكعبة ، والله أَعلم كيف كان. و﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ معناه: تمكنت واستقرت. وقرأَ جمهور الناس: ﴿عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ بكسر الياءِ وشدها ، وقرأَ الأَعمش وابن أَبي عبلة: [على ٱلْجُودِي] بسكون الياءِ ، وهما لغتان. وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ يحتمل أَن يكون من قول الله تعالىٰ عطفاً على: ﴿وَقِيلَ﴾ الأَول ، ويحتمل أَن يكون من قول نوح والمؤمنين. والأَول أَظهر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

هذه جملة معطوفة على التي قبلها دون ترتيب ، وذلك أَن هذه القصة كانت في أَول ما ركب نوح في السفينة ، ويظهر من كلام الطبري أَن ذلك كان بعد غرق الابن ، وهو محتمل ، والأَول أَليق.

وهذه الآية احتجاج[٣] من نوح عليه السلام ، وذلك أَن الله أَمره بحمل أَهله ، وابنُه من أَهله ، فينبغي أَن يحمل ، فأَظهر الله له أَن المراد مَنْ آمن مِنَ الأَهل. ثم حسَّن المخاطبة بقوله: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ وبقوله: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ ، فإِن هذه الأَقوال

(١) آمِد: بلدٌ قديم حصين ركين مبني بالحجارة السود على نَشَز ودجلةُ محيطة بأكثره ، مستديرة به كالهلال ، يُسقى من عيون بقُربه ، قال في التاج: «نقل شيخنا عن بعض أنه ضبطه بضم الميم».

(٢) باقِرْدَى: بكسر القاف وفتح الدال: كورة في شرقي دجلة ، وبالقرب منها جبل الجوديّ.

(٣) يريد أن هذه الآية حجّة من نوح يقدمها في استعطافه لله ، ولا يريد الاحتجاج بمعنى المعارضة أو إقامة الحجة.

مُعينة في حُجّته ، وهذه الآية تقتضي أن نوحاً عليه السلام ظن أن ابنه مؤمن ، وذلك أشد الاحتمالين.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ﴾ الآية. المعنى: قال الله تعالىٰ: يا نوح ، وقالت فرقة: المراد بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾: ليس بولد لك ، وزعمت أنه كان لِغَيَّة[1] ، وأن امرأته الكافرة خانته فيه ، هذا قول الحسن ، وابن سيرين ، وعُبَيد بن عُمَير ، وقال بن أَبزي: إنما قضى رسول الله ﷺ بالولد للفراش من أجل ابن نوح[2] ، وحلف الحسن أنه ليس بابنه ، وحلف عكرمة والضحاك أنه ابنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

عوّل الحسن على قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ، وعوّل الضحاك وعكرمة على قوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾.

وقرأ الحسن ومنْ تأوَّل تأويله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ على هذا المعنى ، وهي قراءَة السبعة سوى الكسائي ، وقراءَة جمهور الناس ، وقال من خالف الحسن بن أَبي الحسن: المعنى: ليس من أَهلك الذين عمَّهم الوعدُ ، لأَنه ليس على دينك وإن كان ابنك بالولادة[3] ، فمن قرأَ من هذه الفرقة: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ جعله وصفاً له بالمصدر على جهة المبالغة فوصفه بذلك ، كما قالت الخنساءُ تصفُ ناقةً ذهب عنها ولدها:

---

(١) ولَدُ الغَيَّة وولد الزنْية: من يأتي نتيجة الغواية والزنى ، ويقال في نقيضهما: هو ولد رَشْدَة.

(٢) حديث: «الولد للفراش وللعاهر الحَجَرُ» رواه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارمي ، وهو في الموطأ ، وفي مسند الإمام أحمد ، وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان عتبة بن أبي وقاص عَهِد إلى أخيه سعد بن أبي وقاص أن ابنَ وليدَةِ زَمْعَة مِنِّي فاقبضه ، قالت: فلما كان عام الفتح أخذه سعد بن أبي وقاص وقال: ابن أخي ، قد عهد إلي فيه ، فقام عَبدُ بن زمعَةَ فقال: أخي وابن وليدَة أبي ، ولد على فراشه ، فتساوقا إلى النبي ﷺ ، فقال سعد: يا رسول الله ، ابن أخي كان قد عهد إليّ فيه ، فقال عَبْدُ بن زمعة: أخي وابن وليدَة أبي ولد على فراشه ، فقال رسول الله ﷺ: هو لك يا عَبْدُ بن زَمْعَة ، ثم قال النبي ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحَجَر ، ثم قال لسَوْدَة بنت زمْعَة زوج النبي ﷺ: احتجبي منه يا سودة ـ لما رآه من شَبَهِهِ بعُتْبَة ، فما رآها حتى لقي الله». ومعنى «الحَجَر» أي: الرَّجم بالحَجَر ، أو الخيبة.

(٣) في بعض الأصول: (وإن كان ابنك بالولاء). وفي بعضها: (ابنك بالولاد).

تَرْتَعُ مـا رَتَعَـتْ حتَّـى إذا ادَّكَـرَتْ ... فَـإنَّمـا هـيَ إقْبَـالٌ وإدْبَـارُ[1]

أي: ذات إقبال وإدبار.

وقرأ بعض هذه الفرقة: [إنَّهُ عَمِلَ غيرُ صَالِح]، وهي قراءَة الكسائي، وروت هذه القراءَة أُمُّ سَلَمة وعائشةُ عن رسول الله ﷺ. ذكره أبو حاتم، وضعَّف الطبري هذه القراءَة، وطعن في الحديث بأنه من طريق شهر بن حوشب. وهي قراءَة علي، وابن عباس، وعائشة، وأنس بن مالك، ورجَّحها أبو حاتم. وقرأ بعضهم: [إنَّه عَمِلَ عَملاً غيْرَ صَالِحٍ]. وقالت فرقة: الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ على قراءَة جمهور السبعة عائد على سؤال نوح الذي يتضمنه الكلام، وقد فسَّره آخر الآية، ويُقَوِّي هذا التأويل أَن في مصحف ابن مسعود: «إنَّه عمَلٌ غيْرُ صالِح أَنْ تَسْأَلَني مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ»، وقالت فرقة: الضمير عائد على ركوب ولد نوح معهم الذي يتضمنه سؤال نوح، المعنى: إن ركوب الكافر مع المؤمنين عملٌ غَيرُ صالح. وقال أَبو علي: ويحتمل أَن يكون التقدير: إن كونك مع الكافرين وتركك الركوب معنا عملٌ غيْرُ صالح.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تأْويل لا يتَّجه من جهة المعنى.

وكل هذه الفرق قال: إن القول بأَن الولَد كان لِغَيَّةٍ وَوَلَدَ فراشٍ خطأٌ محض، وقالوا: إنه رُوي عن النبي ﷺ أَنه ما زنت امرأَة نبي قط.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الحديث ليس بالمعروف، وإنما هو من كلام ابن عباس رضي الله عنهما، ويُعضِّده شرف النبوة، وقالوا في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾[2]: إن الواحدة كانت

---

(١) البيت للخنساء من قصيدة ترثي بها أخاها صخراً، وفيه تصف ناقة ذهب عنها ولدها، وترتع: ترعى كيف شاءت في خصب وسعة، وادّكرت: تذكرت وليدها، يقول: إنها في حركة دائمة تذهب وترجع باستمرار من شدة القلق.

(٢) ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠].

تقول للناس: هو مجنون ، والأُخرى كانت تنبه على الأضياف ، وأمَّا غير هذا فلا[١]. وهذه منازع ابن عباس وحُجَجُه ، وهو قوله وقول الجمهور من الناس[٢].

وقرأ ابن أَبي مليكة: [فَلاَ تَسَلْني] بتخفيف النون وإثبات الياءِ وسكون اللام دون همز ، وقرأت فرقة بتخفيف النون وإسقاط الياءِ وبالهمز ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ﴾ ، وقرأ أَبو جعفر ، وشيبة بكسر النون وشدها والهمز وإثبات الياءِ ﴿فَلاَ تَسْأَلَنِّي﴾ ، وقرأ ابن كثير ، وابن عامر: [فَلاَ تَسْأَلَنَّ] بفتح النون المشددة ، وهي قراءَة ابن عباس ، وقرأ أَبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي: [لاَ تَسَلْنِ] خفيفة النون ساكنة اللام ، وكان أَبو عمرو يثبت الياءَ في الوصل ، وحذفها عاصم و حمزة في الوصل والوقف ، ومعنى قوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ، أَي: إذا وعدتك فاعلم أَنه لا خُلْف في الوعد ، فإذا رأَيتَ ولدك لم يُحمل فكان الواجب عليك أَن تقف وتعلم أَن ذلك واجب بحق عند الله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولكن نوحاً عليه السلام حملته شفقة النبوة وسجية البَشَر على التعرض لنفحات الرحمة والتذكير ، وعلى هذا القدر وقع عتابه ، ولذلك جاءَ بتلَطف وترفيع في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ، وقد قال الله تبارك وتعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾[٣] ، وذلك هنا بحسب الأمر الذي عوتب فيه وعظمته ، فإنه لضيق صدره بتكاليف النبوة ، وإلاَّ فمتقرر أَنَّ محمداً ﷺ أَفضل البشر وأَولاهم بلين المخاطبة ، ولكن هذا بحسب الأَمرين لا بحسب النبيَّيْن. وقال قوم: إنما وقَّر نوح لِسنِّه ، وقال قوم: إنما حمل اللفظ على محمد ﷺ كما يحمل الإنسانُ على المختص به الحبيب إليه.

---

(١) في إحدى النسخ: «وأما خيانة غير هذا فلا».

(٢) قال الزمخشري: «فإن قُلْتَ: فهلا قيل: (إنه عَمَل فاسدٌ؟) قلتُ: لما نفاهُ من أهله نَفَى عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستنفي معها لفظ المنفي ، وأذن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهلهِ بصلاحهم لا لأنهم أهلك وقرابتك ، وأن هذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أُبوتك». وهذا هو سرّ التعبير بكلمة الصلاح منفية عن ابن نوح عليه السلام.

(٣) ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]..

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله ضعيف.

ويحتمل قوله: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: لا تطلب مني أمراً لا تعلم المصلحة فيه علم يقين. ونحا إلى هذا أبو علي الفارسي وقال: إن ﴿بِهِۦ﴾ يجوز أن يتعلق بلفظة ﴿عِلْمٌ﴾ كما قال الشاعر:

كَـــانَ جَـــزَائـــي بـــالْعصَـــا أَنْ أُجْلَـــدَا[1]

ويجوز أن يكون ﴿بِهِۦ﴾ بمنزلة «فيه» فتتعلق الباءُ بالمستقر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واختلاف هذين الوجهين إنما هو لفظي، والمعنى في الآية واحد. ورُوي أن هذا الابن إنما كان ربيبه، وهذا ضعيف. وحكى الطبريّ عن ابن زيد أن معنى قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ في أن تعتقد أني لا أفي لك بوعْدٍ وعدتك به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تأْويل بشع، وليس في الأَلفاظ ما يقتضي أن نوحاً اعتقد هذا، وعياذاً بالله[2]. وغاية ما وقع لنوح عليه السلام أن رأى ترك ابنه معارضاً للوعد فذكر به، ودعا بحسب الشفقة ليكشف له الوجه الذي استوجب به ابنه الترك في الغرقى.

---

(١) البيت للعجاج، وهو آخر ثلاثة أبيات يقول فيها:

وَرَبَّيْتُـــــه حَتَّـــــى إذا تَمَعْـــــدَدا
وآضَ نَهْـــداً كـــالحِصَـــانِ أجْـــرَدَا
كـــان جَـــزَائـــي بـــالْعَصَـــا أنْ أُجْلَـــدَا

وتَمَعْدَدَ الغلامُ: شبَّ وغلظ جسمه، وآضَ: صار، والنهد: الجسم الجهير، ومنه قولهم: «فرسٌ نَهْدٌ»، أي: جميل جسيم، والأجرد من الخيل: القصير الشعر ويكون سباقاً. راجع (اللسان ـ وشواهد الشافية، وديوان العجاج).

(٢) تعفف أبو حيّان في (البحر) عن ذكر هذا الرأي وقال: «وذكر الطبري عن ابن زيد تأويلاً في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ لا يناسب النبوة، تركناه. ويوقف عليه في تفسير ابن عطية» ا هـ. وابن عطية نقله ولكن وصفه بأنه بشع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

هذه الآية فيها إنابة نوح وتسليمُه لأمر الله تعالىٰ واستغفاره، والسؤال الذي وقع النهي عليه والاستعاذة والاستغفار منه هو سؤال العزم الذي معه محاجة وطلبة ملحّة فيما قد حجب وجه الحكمة فيه، وأما السؤال في الأُمور على جهة التعلم والاسترشاد فغير داخل في هذا، وظاهر قوله: ﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ ﴾ يعم النحويْن من السؤال، فلذلك نبّهت على أَن المراد أَحدهما دون الآخر. الخاسرون: هم المغبونون حظوظَهم من الخير.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ ﴾، كان هذا عند نزوله من السفينة مع أَصحابه للانتشار في الأَرض، و«السَّلَام» هنا: السلامة والأَمن ونحوه، و«البركات»: الخير والنمو في كل الجهات. وهذه العِدَةُ تعم جميع المؤمنين إلى يوم القيامة، قاله محمد بن كعب القرظي[1]. وقوله: ﴿ مِّمَّن مَّعَكَۚ ﴾ أَي: من ذرية من معك ومِنْ نسلهم، فـ ﴿ مِنۡ ﴾ ـ على هذا ـ هي لابتداءِ الغاية، أَي: مِنْ هؤلاءِ تكون هذه الأُمم، و﴿ مَنۡ ﴾ موصولة، وصلتُها ﴿ مَّعَكَۚ ﴾ وما يتَقَدَّر معها نحو قولك: مِمَّن استقرَّ معك، ونحوه. ثم قطع قوله: ﴿ وَأُمَمٞ ﴾ على وجه الابتداءِ إِذ كان أَمرهم مقطوعاً من الأَمر الأَول، وهؤلاءِ هم الكفار إِلى يوم القيامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ ﴾ الآية. إِشارة إِلى القصة، أَي: هذه من الغيوب التي تقادم عهدها ولم يبق علمها إِلا عند الله تبارك وتعالىٰ، ولم يكن علمها أَو علم أَشباهها عندك ولا عند قومك، ونحن نوحيها إِليك لتكون لك هداية وأُسوة فيما

(١) هو محمد بن كعب بن سليم بن عمرو أبو حمزة، ويقال: أبو عبد الله، القُرَظِيّ، تابعي، ولد في حياة النبي ﷺ، وقيل: رآه. نزل الكوفة، ثم رجع إلى المدينة، روى عن عائشة وأبي هريرة وغيرهما ـ رضي الله عنهم ـ، ووردت عنه الرواية في حروف القرآن، قال عَوْنُ بن عبد الله: ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القُرَظي، توفي سنة ١٠٨ هـ. (طبقات القراء).

لقيه غيرك من الأنبياءِ ، وتكون لقومك مثالاً وتحذيراً ، لئلا يصيبهم إذا كذبوك مثل ما أصاب هؤلاءِ وغيرهم من الأمم المعذبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا المعنى ظهرت فصاحة قوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ، أي: فاجتهد في التبليغ وجِدَّ في الرسالة واصبر على الشدائد ، واعلم أن العاقبة لك كما كانت لنوح في هذه القصة ، وفي مصحف ابن مسعود: «منْ قَبْلِ هَذَا القُرْآنِ».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ عطف على قوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ في قصة نوح[1] ، و«عاد» قبيلة ، وكانت عرباً فيما يذكر ، و«هودٌ» عليه السلام منهم ، وجعله ﴿أَخَاهُمْ﴾ بحسب النسب والقرابة ، فإن فرضناه ليس منهم فالأُخوة بحسب المنشإِ واللسان والجيرة ، وأما قول من قال: «هي أُخوة بحسب النسب الآدمي» فضعيف.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَا قَوْمِ﴾ ، وقرأ ابن محيصن: [يَا قَوْمُ] برفع الميم ، وهي لغة حكاها سيبويه ، وقرأ جمهور الناس: ﴿غَيْرُهُ﴾ بالرفع على النعت أو البدل من موضع قوله: ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ ، وقرأ الكسائي وحده بكسر الراءِ حملاً على لفظ ﴿إِلَٰهٍ﴾ ، وذلك أيضاً على النعت أو البدل ، ويجوز [غيرَه] نصباً على الاستثناءِ.

و﴿مُفْتَرُونَ﴾ معناه: كاذبون أفحش كذب في جعلكم الأُلوهية لغير الله تعالىٰ. والضمير في قوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على الدعاءِ إلى الله تبارك وتعالىٰ ، والمعنى:

---

(١) يجوز أن يكون من عطف الجُمل ، وعليه يكون هناك فعل محذوف تقديره: (وأرسلنا) إلى عادٍ أخاهم ، ويجوز أن يكون من عطف المفردات بأن نعطف المجرور على المجرور ، والمنْصوب على المنصوب ، كما يعطف المرفوع والمنصوب على المرفوع والمنصوب في قولك: «ضربَ زيدٌ عمراً وبكرٌ خالداً».

ما أَجري وجزائي إِلاَّ عند الله تعالىٰ، ثم وصفه بقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾، فجعلها صفة رادَّة عليهم في عبادتهم الأَصنام، واعتقادهم أنها تفعل، فجعل الوصف بذلك في درج كلامه منبهاً على أَفعال الله تعالىٰ، وأَنه هو الذي يستحق العبادة، و[فَطَرَ] معناه: اخترع وأَنشأ، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ توقيف على مجال القول بأَن غير الفاطر إِلٰهٌ، ويحتمل أَن يريد: أَفلا تعقلون إِذا لم أَطلب عرضاً من أَعراض الدنيا أَنِّي إِنما أُريد النفع لكم والدَّار الآخرة. والأَول أَظهر. والاستغفار: طلب المغفرة، وقد يكون ذلك باللسان، وقد يكون بإِنابة القلب وطلب الاسترشاد والحرص على وجود المحجة الواضحة[1]، وهذه أَحوال يمكن أَن تقع من الكفار، فكأَنه قال لهم: اطلبوا غفران الله بالإِنابة وطلب الدليل في نبوتي، ثم توبوا بالإِيمان من كفركم، فيجيءُ الترتيب ـ على هذا ـ مستقيماً، وإِلا احتيج في ترتيب التوبة بعد الاستغفار إِلى تحيّل كثير، فإِما أَن يكون ﴿تُوبُوٓا۟﴾ أمراً بالدوام، و«الاستغفار» طلب المغفرة بالإِيمان، وإِلى هذا ذهب الطبري، وقال أَبو المعالي في «الإِرشاد»: التوبة في اصطلاح المتكلمين هي الندم، بعد أَن قال: إِنها في اللغة الرجوعُ، ثم ركَّبَ على هذا أَن قال: إِن الكافر إِذا آمن ليس إِيمانه توبة، وإِنما توبته ندمُه بعْدُ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي أَقول: «إِن التوبة عقد في ترك متوب منه يتقدمها علم بفساد المتوب منه وصلاح ما يرجع إِليه ويقترن بها ندمٌ على فارط المتوب منه لا ينفك منه، وهو من شروطها»، فأَقول: إِن إِيمان الكافر هو توبته من كفره لأَنه هو نفسه رجوعه.

و«تاب» في كلام العرب معناه: رجع إِلى الطاعة والأَمثل من الأُمور، وتصرُّفُ اللفظة في القرآن بـ «إِلى» يقتضي أَنها الرجوع لا الندم، وإِنما الندم لاحق لازم للتوبة كما قلنا، وحقيقة التوبة ترك مثل ما تِيب منه عن عزْمة معتقدة على ما فسرناه، والله المستعان.

و﴿مِّدْرَارًا﴾ هو بناءُ تكسير، وكان حقه أَن تلحقه هاءٌ ولكن حذفت على نية النسب، وعلى أَن السماءَ المطرُ نفسه، وهو من: درَّ يَدُرُّ، ومِفْعال قد يكون من اسم

(١) المَحَجَّةُ: الطريق المستقيم، وجمعه: محاجٌّ. وفي إحدى النسخ: «الحُجَّة الواضحة».

الفاعل الذي هو من ثُلاثيّ، ومن اسم الفاعل الذي هو رباعيّ، وقول من قال: «إنه أَلزمُ للرباعيّ» غير لازم[١].

ويُروى أن «عَاداً» كان الله تعالىٰ قد حبس عنها المطر ثلاث سنين، وكانوا أهل حرث وبساتين وثمارٍ، وكانت بلادهم شرق جزيرة العرب، فلهذا وعدهم بالمطر، ومن ذلك فرحهم حين رأَوا العارض وقولهم: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾[٢]، وحضهم على استنزال المطر بالإيمان والإنابة، وتلك عادة الله في عباده، ومنه قول نوح عليه السلام: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[٣] ومنه فعل عمر رضي الله عنه حين جعل جميع قوله في الاستسقاءِ ودعائِه استغفاراً فسُقي، فَسُئِلَ عن ذلك فقال: «لقد استنزلت المطر بمجاديح السماء»[٤].

وقوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ ظاهره العموم في جميع ما يحسن الله تعالىٰ فيه إلى العباد، وقالت فرقة: كان الله تعالىٰ قد حبس نسلهم، فمعنى قوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ أي: الولد. ويحتمل أن خصَّ القوة بالذكر إذ كانوا أقوى العوالم فوعدوا بالزيادة فيما بهروا فيه. ثم نهاهم عن التولِّي عن الحق والإعراض عن أمر الله، و﴿مُجْرِمِينَ﴾ حالٌ من الضير في ﴿تَتَوَلَّوْا﴾.

---

(١) قال القرطبي: (وأكثر ما يأتي مِفعَال من أفعل، وقد جاء ها هنا من فَعَل، لأنه من درَّت السماءُ تدِرُّ وتَدُرُّ فهي مدرار. و﴿مِّدْرَارًا﴾ نصب على الحال، وفيه معنى التكثير، أي: يرسل السماءَ بالمطر متتابعاً يتلو بعضُه بعضاً.

(٢) من الآية (٢٤) من سورة الأحقاف.

(٣) الآيتان (١٠ـ ١١) من سورة نوح.

(٤) أخرج ابن سعد في (الطبقات)، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة في (المصنف)، ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في (سُنَنه) عن الشعبي رضي الله عنه قال: خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستسقي فلم يزد على الاستغفار حتى يرجع (هكذا) فقيل له: ما رأيناك استسقيت، قال: لقد طلبتُ المطر بمجاديح السماءِ التي يُستنزل بها المطر، ثم قرأ: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ و﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ (الدر المنثور). وقال في (النهاية): «والمَجاديح: واحدها مِجْدَح، والياءُ زائدةٌ للإشباع، والمِجْدح: نجم من النجوم، قيل: هو الدَّبَران، وقيل: ثلاثة كواكب كالأثَافيّ تشبيهاً لها بالمِجْدَح الذي له ثلاث شعب وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر، فجعل الاستغفار مُشَبَّهاً بالأنواءِ مخاطبة لهم بما يعرفونه، لا قولا بالأنواءِ، وجاء بلفظ الجمع لأنه أراد الأنواء جميعها التي يزعمون أن من شأنها المطر». وفي (المعجم الوسيط): المِجْدَح: خشبة في رأسها خشبتان معترضتان يُسَاطُ بها الشراب، والجمع مجاديح.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾.

المعنى: ما جئتنا بآية تضطرنا إلى الإيمان بك، ونفوا أن تكون معجزاته آية بحسب ظنهم وعماهم عن الحق، كما جعلت قريش القرآن سحراً وشعراً ونحو هذا، وقد قال رسول الله ﷺ: «مَا من نبي إلا وقد أُوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر..» الحديث[١]، وهذا يقتضي بأن هوداً وغيره من الرسل لهم معجزات وإن لم يُعَيَّن لنا بعضها.

وقولُهم: ﴿عَن قَوْلِكَ﴾، أَي: لا يكون قولك سبب تركنا إِذْ هو مجرد عن آية. وقولُهم: ﴿إِن نَّقُولُ﴾ الآية، معناه: ما نقول إلا أَن بعض الآلهة لما سَبَبْتَها وضلَّلْتَ عبدتها أَصابك بجنون.

يقال: عَرَّ يَعُرُّ، واعْتَرى يعتَري إذا أَلَمَّ بالشيءِ[٢]، فحينئذ جاهرهم هود عليه السلام بالتبري من أَوثانهم، وحضَّهم على كيده هم وأَصنامُهم، ويُذكر أَن هذه كانت له معجزة، وذلك أَنه حرَّض جماعتهم عليه مع انفراده وقوّتهم وكفرهم فلم يقدروا على نيله بسوءٍ. و﴿تُنظِرُونِ﴾ معناه: تؤخروني، أَي: عاجلوني بما قدرتم عليه.

---

(١) رواه الشيخان: البخاري في (فضائل القرآن)، ومسلم في (الإيمان)، ولفظه كما في البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيتُ وحياً أوحاهُ الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

(٢) في الصحاح: «يقال: به عُرَّة وهو ما اعتراه من الجنون، والعُرَّة: أيضاً: البَعْر والسِّرْجين وسَلْح الطير، وفلانٌ عُرَّة: قَذِر، وهو يَعُرُّ قومه: أي يُدخل عليهم مكروهاً يلطخهم به». وفي اللسان: «وعراني الأمر يعروني عَرْواً واعتراني: غَشِيَني وأصابني»، قال الراعي:

قالت خُلَيْدَةُ: ما عَراكَ؟ ولَمْ تَكُنْ ... بعْدَ الرُّقَادِ عن الشُّؤُونِ سَؤُولا

وابن عطية يسوّي في المعنى بين المادتين، فمعناهما عنده: أَلَمَّ بهِ، وقد يكون النزول في (اعترى) لطلب المعروف، وكان الأحسن أن يقول: «عرَّ يعُرّ، واعترى يعتَري إذا أصابه بسوءٍ». راجع التاج أيضاً وغيره من المعاجم.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الآية. المعنى: إني توكلت على الله الذي هو ربِّي وربكم مع ضعفي وانفرادي وقوتكم وكثرتكم يمنعني منكم ويحجز بيني وبينكم، ثم وصف قدرة الله تبارك وتعالىٰ وعظم ملكه بقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾، وعبَّر عن ذلك بالناصية إذ هي في العرف حيث يقبض القادر المالك ممن يقدر عليه، كما يقاد الأسير والفرس ونحوه حتى صار الأخذ بالناصية عُرْفاً في القدرة على الحيوان، وكانت العرب تجزّ ناصية الأسير الممنون عليه لتكون تلك علامة أنه قُدِر عليه وقُبض على ناصيته. والدَّابة: جميع الحيوان، وخُص بالذكر إذ هو صنف المخاطبين والمتكلم. وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يريد أن أفعال الله عزَّ وجلَّ هي في غاية الإحكام، وقوله الصدق، ووعده الحق، فجاءَت الاستقامة في كل ما ينضاف إليه عزَّ وجلَّ، فعبّر عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على تقدير مضاف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

قرأ الجمهور: ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ بفتح اللام والتاءِ على معنى «تتولّوا»، وقرأ عيسى الثقفي، والأعرج: [تُوَلُّوا] بضم التاءِ واللام، و[إِنْ] شرط والجواب في الفاءِ وما بعدها من قوله: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾[1]، والمعنى: إنه ما عليَّ كبيرُ هَمٍّ منكم إن توليتم، فقد برئت ساحتي بالتبليغ، وأَنتم أَصحاب الذنب في الإعراض عن الإيمان، ويحتمل أَن يكون ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ فعلاً ماضياً ويجيءُ في الكلام رجوع من غيبة إلى خطاب، أَي: فقل: قد أَبلغتكم.

---

(١) وصحَّ أن يكون جواباً لأن في إبلاغه إليهم رسالتَه تَضَمُّن ما يحل بهم من العذاب المستأْصِل، فكأنه قيل: فإن تتولوا استُؤْصلتم بالعذاب، ويدل على ذلك الجملة الخبرية وهي قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾ بضم الفاءِ على معنى الخبر بذلك، وقرأ عاصم ـ فيما روى هُبيرة عن حفص ـ: [وَيَسْتَخْلِفْ] بالجزم عطفاً على موضع الفاءِ من قوله: ﴿فَقَدْ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ يحتمل من المعنى وجهين:

أَحدهما: ولا تضُرُّونَهُ بذهابكم وهلاككم شيئاً، أَي: لا ينتقص ملكه ولا يختل أَمره، وعلى هذا المعنى قرأ عبد الله بن مسعود: «ولا تنقصونه شيئاً».

والمعنى الآخر: ولا تضرونه، أَي: ولا تقدرون ـ إذا أَهلككم ـ على إِضراره بشيءٍ، ولا على الانتصار منه، ولا تقابلون فعله بكم بشيءٍ يضره[1].

ثم أَخبرهم أَن ربه حفيظ على كل شيء، عالم به. وفي ترديد هذه الصفات ونحوها تنبيه وتذكير.

والأَمر: واحد الأُمور، ويحتمل أَن يكون مصدر أَمر يأْمُر، أَي: أَمْرُنا للريح أَو لخزنتها ونحو ذلك، وقوله: ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ إما أَن يكون إِخباراً مجرداً عن رحمة من الله لحقتهم، وإِما أَن يكون قصداً إِلى الإِعلام أَن النجاة إِنما كملت بمجرد رحمة الله لا بأعمالهم، فتكون الآية ـ على هذا ـ في معنى قول رسول الله ﷺ: «لا يدخُل أَحَدٌ الجنة بعمله، قالوا: ولا أَنت يا رسول الله؟ قال: ولا أَنا إِلا أن يتغمدني الله بفضل منه وبرحمته»[2]. وقوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يحتمل أَن يريد عذاب الآخرة، ويحتمل أَن يريد: وكانت النجاة المتقدمة من عذاب غليظ، يريد: الريح، فيكون المقصود ـ على هذا ـ تعديد النعمة. ومشهور عذابهم بالريح هو أَنها كانت تحملهم وتهدم مساكنهم وتنسفها، وتحمل الظعينة كما هي، ونحو هذا، وحكى الزجاج أَنها كانت تدخل في أَبدانهم وتخرج من أَدبارهم وتقطعهم عضواً عضواً.

وتعدَّى: ﴿جَحَدُوا﴾ بحرف جر لما نُزِّل منزلة «كفروا»، وانعكس ذلك في الآية بعد

---

(١) قال أبو حيان: «وهذا فعل منفي ومدلوله نكرة فينتفي جميع وجوه الضرر، ولا يتعين واحد منها».

(٢) الحديث رواه البخاري، ومسلم، وغيرهما: ونصه كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة في كتاب المرضى: «لن يُدْخِل أحداً عملُه الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسَدِّدوا وقاربوا، ولا يتَمَنَّيَنَّ أحدكم الموت، إمَّا مُحسناً فلعلَّه أن يزداد خيراً، وإمَّا مُسيئاً فلعلَّه أن يَسْتَعْتِب» ـ قال في (النهاية): أي يرجعُ عن الإساءة ويَطْلُب الرضا.

هذا[١]، وقوله: ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ شُنعة عليهم، وذلك أَن في تكذيب رسول واحد تكذيب سائر الرسل وعصيانهم، إذ النُّبوءَات كلها مجمعة على الإيمان بالله والإقرار بربوبيته، ويحتمل أَن يراد هودٌ وآدم ونوح عليهم السلام.

و«الْعَنِيدُ» فَعِيل من عَنَد إذا عَتَا، ومنه قول الشاعر:

إنِّـــي كبيـــرٌ لاَ أُطيـــقُ العُنَّـــدَا[٢]

أي الصعاب من الإبل، وكان التجبُّر والعناد من خُلُق عاد لقوتهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾ الآية. حُكِمَ عليهم بهذا الحكم لكفرهم وإصرارهم حتى حلَّ العذاب بهم، واللعنة: الإبعادُ والخِزْي، وقد تيقَّن أَن هؤلاءِ وافوا على الكفر، فيلعن الكافر الموافي على كفره، ولا يلعن معيّن حيّ، لا مِنْ كافر ولا من فاسق ولا من بهيمة، كل ذلك مكروهٌ بالأَحاديث، و﴿وَيَوۡمَ﴾ ظرف معناه أَن اللعنة عليهم في الدنيا وفي يوم القيامة، ثم ذكرت العلة الموجبة لذلك وهي كفرهم بربهم، وتعدَّى «كَفَرَ» بغير الحرف إذ هو بمعنى جَحدُوا، كما تقول: شكرت لك وشكرتك. وكفر نعمته وكفر بنعمته، و﴿بُعۡدٗا﴾ منصوب بفعل مقدر وهو مقام ذلك الفعل[٣].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ٦١ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢﴾.

---

(١) أي قوله سبحانه: ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ حيث تعدَّى (كَفَرَ) بنفسه.

(٢) العانِدُ: البعير الذي يحور عن الطريق ويعدل عن القصد، وناقة عَنودٌ: لا تخالط الإبل، تُباعد عنهن فترعى ناحيةً أبداً، والجمع: عانِدٌ وعُنُدٌ، وجمعها كلها: عوانِدُ وعُنَّدٌ، وعليه جاء قوله:

إذا رَحَلْـتُ فـاجْعَلُـونـي وسَطـاً   إنِّـي كبيـرٌ لا أُطيـقُ العُنَّـدَا

وقد جمع الراجز بين الطاءِ والدال وهو إكفاءٌ. والشطران في التاج واللسان، وكذلك في الجمهرة لابن دريد (٢١ ـ ٢٣٨) وفي الاقتضاب مع أشطار أخرى (٥ ـ ٤)، والرجز كله غير منسوب في أي مرجع من هذه المراجع.

(٣) الضمير (هُوَ) يعود على المصدر (بُعْداً)، يريد أن المصدر قائم مقام فعله.

التقدير: وأَرسلنا إلى ثمود، وقد تقدم القول في مثل هذا وفي معنى الأُخوة في قصة هود. وقرأَ الجمهور: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ بغير صرف، وقرأَ ابن وثاب، والأَعمش: [وَإِلَى ثَمودٍ] بالصرف حيث وقع، فالأُولى على إرادة القبيلة، والثانية على إرادة الحيّ، وفي هذه الأَلفاظ الدالة على الجموع ما يكثر فيه إرادة الحيّ كقُريش وثقيف وما لا يقال فيه: بنو فلان، وفيها ما يكثر فيه إرادة القبيلة كتميمَ وتغلبَ، أَلا ترى أَنهم يقولون: «تَغلب بنة وائل»، وقال الطِّرِمَّاح:

. . . . إذا نَهَلَتْ مِنْهُ تَمِيمٌ وعَلَّتِ[١]

وقول الآخر:

تَميمُ بنُ مُرٍّ وَأَشْياعُهَا

وفيها ما يكثر فيه الوجهان كثمود وسبأ، فالقراءَتان هنا فصيحتان مستعملتان. وقرأَت فرقة: ﴿غَيْرُهُۥ﴾ برفع الراءِ، وقرأَ الكسائي: [غَيْرِهِ] بكسر الراءِ، وقد تقدم آنفاً[٢].

و﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أَي: اخترعكم وأَوجدكم، وذلك باختراع آدم عليه السلام، فكأَن إنشاءَ آدم إنشاءٌ لبَنيه، ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ﴾ أَي: اتخذكم عُمّاراً، كما تقول: استكتب واستعمل، وذهب قوم إلى أنها من العُمْر، أَي عمَّرَكم[٣]، وقد تقدم مثل قوله:

---

(١) هذا عجز بيت قاله الطرماح من قصيدة يهجو بها الفرزدق، والبيت بتمامه:

فَخَـرْتَ بيَـوْمٍ لـمْ يكُـنْ لَـكَ فَخْـرُهُ ... إذا نَهَلَـتْ مِنْـهُ تَميـمٌ وعَلَّـتِ

والنَّهَلَ: الشُّرْبُ الأولُ، يقال: نَهِلَ نَهَلا وَمَنْهلا، والعَلَلُ: الشُّرْبُ الثاني: يقال: شَرِبَ عَلَلا بَعْدَ نَهَل، والمعنى على الاستعارة، يريد أن (تميمَ) أخذت أول المجد وآخره في هذا اليوم الذي لم تنل أنت فيه شيئاً ومع ذلك تفخر به.

(٢) خلاصة ما تقدم أن الرفع يكون على النعت أو البدل من موضع ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾، وأن الجرَّ يكون حملا على لفظ (إلهٍ) وهو أيضاً على النعت أو البدل، على أنه يجوز النصب على الاستثناءِ كما قال ابن عطية، ولكن لم يذكر أحد أنه قرئ بالنصب.

(٣) أي: أطال أعماركم، وهذا هو رأي الضحاك. وقال مجاهد: هي من «العُمْرَى»، فيكون (اسْتَعْمَرَ) في معنى (أَعْمَر)، والمعنى: أعْمَرَكُم فيها دياركم ثم هو وارثها منكم، أي: جعلكم مُعَمّرين دياركم فيها لأن من ورَّثَ داره مَنْ بَعده فإنه أعْمره إيّاها، لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره. وللعلماءِ في معنى (العُمْرَى) آراءٌ كثيرة، أشهرها أنها تمليكٌ لمنافع الرّقبة حياةَ المُعْمَر مُدَّةَ عمره، فإن مات المعْمَرُ رجعت إلى الذي أعطاها.

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾. ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ أي: إجابته وغفرانه قريب ممن آمن وأناب، و﴿مُجِيبٌ﴾ معناه: بشرط المشيئة.

والظاهر الذي حكاه جمهور المفسرين أن قوله: ﴿مَرْجُوًّا﴾ معناه: مُسَوّداً، نؤمل فيك أن تكون سيداً سادّاً مسَدّ الأكابر. ثم قرّروه ـ على جهة التوبيخ في زعمهم ـ بقولهم: ﴿أَتَنْهَانَا﴾، وحكى النقاش عن بعضهم أنه قال: معناه: حقيراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فأما أن يكون لفظ ﴿مَرْجُوًّا﴾ بمعنى حقير فليس ذلك في كلام العرب، وإنما يتجه ذلك على جهة التفسير للمعنى، وذلك أن القصد بقولهم: ﴿مَرْجُوًّا﴾ يكون: لقد كنت فينا سهلاً مرامك قريباً ردُّ أمرك، مِمَّن لا يظن أن يستفحل من أمره مثل هذا، فمعنى «مرجُوّ» أي: مرجُوّ اطِّراحه وغلبته ونحو هذا، فيكون ذلك على جهة الاحتقار، فلذلك فُسّر بحقير، ويشبه هذا المعنى قول أبي سفيان بن حرب «لَقَدْ أَمِر أَمْرُ ابن أَبي كَبْشَة..» الحديث، ثم يجيءُ قولهم: ﴿أَتَنْهَانَا﴾ على جهة التوعُّد والاستشناع لهذه المقالة منه.

و﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ يريدون به الأوثان والأصنام، ثم أوجبوا أنهم في شك من أَمْرِه وأقاويله، وأن ذلك الشك يرتابون به زائداً إلى مرتبته من الشك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا فرق بين هذه الحال وبين حالة التصميم على الكفر. و﴿مُرِيبٍ﴾ معناه: مُلْبس مُتَّهم، ومنه قول الشاعر:

يا قَوْمِ مَالي وأَبَا ذُؤَيْبِ ... كُنْتُ إذا أَتَيْتُهُ مِنْ غيبِ
يَشَمُّ عِطْفي وَيبُزُّ ثَوْبي ... كَأَنَّني أَرِبْتُهُ بِرِيبِ(١)

---

(١) البيتان لخالد بن زُهَيْر الهُذَليّ، عِطْف كلّ شيءٍ: جانبه، وهو من الإنسان من لدُن رأسه إلى وركه، وبَزَّ: انتزع بجفاءٍ وغلظة، و(أراب) بالألف قد يكون متعدياً فيكون بمعنى (رَابَ)، وعليه قول خالد هذا، وقد يكون غيرُ مُتَعَدٍّ ومعناه: أتى بريبَةٍ، كما تقول: ألامَ إذا أتى بما يُلامُ عليه. ويروى: (أَتَوْتُه)، وهي لغة في (أتَيْتُه)، وبها جاءَ الشعر في القرطبي والطبري. ورواه (اللسان) في (أتى): (أَتَوْتُه)، وفي (راب): (أتَيْتُه).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ هو من رؤْية القلب، أَي: أَتدبَّرتم؟ والشرط الذي بعده وجوابُه يسُدّ[1] مَسَدّ مفعولَيْن لـِ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، والبيِّنَةُ: البرهان واليقين، والهاءُ في ﴿بَيِّنَةٍ﴾ للمبالغة، ويحتمل أَن تكون هاءَ تأْنيث، والرحمة في هذه الآية: النُّبُوَّة وما انضاف إِليها، وفي الكلام محذوف تقديره: أَيضرُّني شكُّكُم؟ أَو: أَيُمْكنني طاعتكم؟ ونحو هذا مما يليق بمعنى الآية[2].

وقوله: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ معناه: فما تُعطونني فيما أَقتضيه منكم من الإِيمان وآمُرُكم بِهِ من الإِنابة غير تخسير لأَنفسكم، وهو من الخسارة، وليس التخسير في هذه الآية إِلا لهُم وفي حيِّزهم. وأَضاف الزِّيادة إِليه من حيث هو مقتض لأَقوالهم مُوَكَّلٌ بإِيمانهم، كما تقول لمن توصيه: «أَنَا أُريد بك خيراً وأَنت تُريد بي شرّاً»[3]، فكان الوجه البيّن: «وأَنت تُريد شرّاً» ولكن من حيث كنت مُريد خير ومُقْتَضٍ ذلك ـ حسُن أَن تضيف الزيادة إِلى نفسك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ الآية. اقتضب في هذه الآية ذكْر أَوّل أَمر الناقة، وذلك أَنه رُوي أَنَّ قومه طلبوا منه آية تضطرهم إِلى الإِيمان فأَخرج الله جلَّت قدرتُه لهم الناقة من الجبل، ورُوي أَنهم اقترحوا تعيين خروج الناقة من تلك الصخرة،

---

(١) هكذا، وكأنه يريد أن يقول: «يَسُدُّ مع جوابه».

(٢) قال في (البحر) تعقيباً على كلام ابن عطية: «وهذا التقدير الذي قدره استشعارٌ منه بالمفعول الثاني الذي يقتضيه ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ وأن الشرط وجوابه لا يقعان ولا يسُدّان مسَدّ مفعولي ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، والذي نقدره نحن هو أنه حين خاطب الجاحدين قال: قَدّروا أنّي على بيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وانظروا إن تابعتكم وعصيتُ ربِّي في أوامره فمن يمنعني من عذابه؟ ويدل عليه قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾».

(٣) اختلفت النسخ الأصلية في هذه العبارة، واختلف المفسرون في نقلها عن ابن عطية كالألوسي وأبي حيان، فهي مرة بالراءِ، ومرة بالزاي، مع التعدية إلى المفعول الثاني مرة بنفس الفعل، ومرة بحرف الجر، ولعلَّ الصواب ما أثبتناه.

فرُوي أن الجبل تمخَّض كالحامل وانصدع الحجر وخرجت منه ناقة بفصيلها، ورُوي أنها خرجت عُشراءَ ووضعت بعد خروجها فوقفهم صالح وقال لهم: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾، ونصب ﴿ءَايَةً﴾ على الحال.

وقرأت فرقة: ﴿تَأْكُلْ﴾ بالجزم على جواب الأمر، وقرأت فرقة: [تأكُلُ] على طريق القطع والاستئناف، أو على أنه الحال من الضمير في ﴿فَذَرُوهَا﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ عامٌّ في العقْر وغيره، وقوله: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ هذا بوحي من الله إليه أن قومك إذا عقروا الناقة جاءَهم عذاب قريب المدة من وقت المعصية، وهي الأيام الثلاثة التي فهمها صالح عليه السلام من رُغَاءِ الفصيل على جبل القارة، وأضاف العَقْر إلى جميعهم لأن العاقر كان منهم، وكان عن رضىً منهم وتمالُؤ، وعاقرها «قدار»، ورُوي في خبر ذلك أن صالحاً أُوحي إليه أن قومك سيعقرون الناقة وينزل بهم العذاب عند ذلك، فأخبرهم بذلك فقالوا: عياذاً بالله أن نفعل ذلك، فقال: إن لم تفعلوا أنتم ذلك أوشك أن يولد فيكم من يفعله، وقال لهم صفة عاقرها أحمر أزرق أشقر، فجعلوا الشُّرط مع القَوَابِلِ وأمروهم بتفقد الأطفال، فمن كان على هذه الصفة قُتل، وكان في المدينة شيخان شريفان عزيزان، وكان لهذا ابن ولهذا بنت، فتصاهروا فُولد بين الزوجين «قدار» على الصفة المذكورة، فهمَّ الشُّرطة بقتله فمنع منه جدّاه حتى كبر فكان الذي عقرها بالسيف في عراقيبها، وقيل: بالسهم في ضرعها، وهرب فصيلها عند ذلك، فصعد على جبل يقال له: القارة، فَرَغا ثلاثاً، فقال صالح: هذا ميعاد ثلاثة أيام للعذاب، وأمرهم قبل رُغاءِ الفَصيل أن يطلبوه عسى أن يصلوا إليه فيردّ عنهم العذاب به، فراموا الصعود إليه في الجبل فارتفع الجبل إلى السماءِ حتى ما تناله الطير، وحينئذ رغا الفصيل.

وقوله: ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ هي جمع «دارة» كما تقول: ساحةٌ وساحٌ وسوحٌ، ومنه قول أُمَيَّة بن أَبي الصَّلْتِ:

لَـــهُ داعٍ بِمَكَّـــةَ مُشْمَعِـــلّ وآخَــرُ عِنْــدَ دَارَتِــهِ يُنَــادِي[1]

---

(١) قال في (الصحاح)، ونقله عنه في (اللسان): «قال أُمية بن أبي الصَّلْت يمدح عبد الله بن جُدْعان: له داع... البيت». والدَّارَةُ: أخصّ من الدار، والمُشْمَعِلُّ: الوصف من اشمَعَلّ، واشْمَعَلّ الرجل: ارتفع وأشرف وخفّ وطرب، قاله في (المعجم الوسيط) واستشهد بهذا البيت.

ويمكن أَن يُسمى جميع مسكن الحيّ داراً ، والثلاثة أَيام تعجيزٌ قاسَ الناس عليه الإعذارَ إِلى المحكوم عليه ونحوه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك عندي مفترق ، لأَنها في المحكوم عليه والغارم في الشُّفعة ونحوه توسعة ، وهي هنا توقيف على الخزي والتعذيب. وروى قتادة عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: «لو صعدتم على القارة لرأَيتم عظام الفصيل».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

الأَمر جائز أَن يراد به المصدر من أَمر ، وجائز أَن يراد به واحد الأُمور. وقوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ يحتمل أَن يقصد أَن التَّنْجية إِنما كانت بمجرد الرحمة ، ويحتمل أَن يكون وصف حالٍ فقط ، أَخبر أَنه رحمهم في حال التَّنْجية. وقوله: ﴿مِّنَّا﴾ الظاهر أَنه متعلق بـ ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ ، ويحتمل أَن يتعلق بقوله: ﴿نَجَّيْنَا﴾.

وقرأَت فرقة: [وَمِنْ خِزْيٍ يَوْمَئِذٍ] بتنوين [خِزْيٍ] وفتح الميم من [يَوْمَئِذٍ] ، وذلك يجوز فيه أَن تكون فتحة الميم إِعراباً ، ويجوز أَن يكون ببناءِ الظرف لما أُضيف إِلى غير متمكن ، فأَنت مُخيّر في الوجهين ، والروايتان في قول الشاعر:

عَلَى حين عاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّبَا ... وَقُلْتُ: أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازِع؟[1]

وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وابن عامر: ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ بإِضافة [خِزْيِ] وكسر الميم من ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ ، وهذا توسع في إِضافة المصدر إِلى الظرف ، كما قال: ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[2] ، ونحو هذا. وقياسُ هذه القراءَة أَن يقال: «سير عليه يومئذ»

(١) سبق الاستشهاد بهذا البيت عند تفسير قوله تعالىٰ في الآية رقم (٥) من هذه السورة: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾.

(٢) من الآية (٣٣) من سورة سبأ.

برفع الميم، وهذه قراءتهم في قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾[١]، و﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمِئِذٍ﴾[٢]. وقرأ عاصم، وحمزة كذلك إلا في قوله: [مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ] فإنهما نوّنا العين وفتحا الميم، واختلفت عن نافع في كسر الميم وفتحها، وهويضيف في الوجهين، وقرأ الكسائي: [مِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ] بترك التنوين وفتح الميم من [يَوْمَئِذٍ]، وهذا جمعٌ بين الإضافة وبناءِ الظرف، وقرأ: [وَمِنْ فَزَعِ] كعاصم وحمزة، وأما (إذٍ) فكان حقها [إذْ] ساكنة إلا أنها من حقِّها أن تليها الجملُ، فلما حذفت لها ها هنا الجملة عُوضت بالتنوين[٣]، والإشارة بقوله: ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ إلى يوم التعذيب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ الآية. رُوي أن صالحاً عليه السلام قال لهم حين رغا الفصيل: ستصفر وجوهكم في اليوم الأول، وتحمر في الثاني، وتسوَدّ في الثالث، فلما كان كذلك تكفنوا في الأنطاع[٤] واستعدوا للهلاك، وأخذتهم صيحة فيها من كل صوت مهول، صدّعت قلوبهم وأصابت كل من كان منهم في شرق الأرض وغربها، إلا رجلاً كان في الحرم فمنعه الحرم من ذلك، ثم هلك بعد ذلك، ففي مصنف أبي داود: قيل: يا رسول الله منْ ذلك الرجل؟ قال: أَبو رُغال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر، وخلافه في السِّير، وذُكِّر الفعل المسند إلى الصيحة إذ هي بمعنى

---

(١) من الآية (١١) من سورة المعارج.

(٢) من الآية (٨٩) من سورة النمل.

(٣) قال ابن خالويه في كتابه: «الحجّة في القراءات السبع»: الحُجّة لمن نوَّن ونَصَب أنه أراد بالنصب خلاف المضاف، لأن التنوين دليل، والإضافة دليل، ولا يجتمع دليلان في اسم واحد، والحُجّة لمن ترك التنوين وأضاف أنه أتى به على قياس ما يجب للأسماءِ، والحجة لمن بناه مع ترك التنوين وجهان: أحدهما: أنه جعل (يومَ) مع (إذا) بمنزلة اسمين جُعلا اسماً واحداً، فبناه على الفتح كما بُني خمسةَ عشرَ، والثاني: أنه لما كانت (إذْ) اسماً للوقت الماضي، و(اليوم) من أسماءِ الأوقات أضفْتَهما إضافة الأوقات إلى الجُمل، كقولك: جئتك يوم قام زيد، فيكون كقولك: جئتك إذ قام زيد، فلما كانت (إذْ) بهذه المثابة بُني اليومُ معها على الفتح لأنه غير متمكن من الظروف، وجُعل تنوين (إذْ) عوضاً من الفعل المحذوف بعدها، لأن معناها: (يومَ إذْ قدم الحاج)، وما شاكل ذلك.

(٤) الأنْطاع: جمع نِطْع، وفي نونه الفتح والكسر، وفي طائه السكون والكسر والفتح، وأشهرها كسر النون وسكون الطاءِ، وهو بساطٌ من الجلد كثيراً ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل، ويجمع النِّطْع أيضاً على نُطوع وأنْطُع. (المعجم الوسيط).

الصياح، وتأنيثها غير حقيقي، وقيل: جاز ذلك وهي مؤنثة لما فصل بين الفعل وبينها، كما قالوا: «حضر القاضي اليوم امرأةٌ»، والأول أصوب، والصيحة إنما تجيءُ مستعملة في ذكر العذاب لأنها فَعْلة تدل على مرّة واحدة شاذة، والصياح مصدر متطاول، وشذَّ في كلامهم قولهم: «لقيته لقاءَة واحدة»، والقياس: لَقْية.

و﴿جَٰثِمِينَ﴾ أي: باكين قد صعق بهم، وهو تشبيه بجثوم الطير، وبذلك يشبه جثوم الأَثافيّ[١] وجثوم الرماد.

و﴿يَغْنَوْا﴾ مضارع من غَنِي في الكان إذا أَقام فيه في خفض عيش[٢]، وهي المغاني، وقرأ حمزة وحده: [أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ] وكذلك في «الفرقان، والعنكبوت، والنجم»[٣]، وصرفها الكسائي كلَّها وقولَه [أَلاَ بُعْداً لِثَمُود]، واختلف عن عاصم، فروى عنه حفص ترك الإجراءِ[٤] كحمزة، ورَوَى عنه أَبو بكر إجراءَ الأَربعة وتَرْكَه في قوله: [أَلاَ بُعْداً لِثَمُود]، وقرأ الباقون: [أَلا إِنَّ ثَمُوداً] فصُرِفَتْ، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ غير مصروف، والقراءَتان فصيحتان، وكذلك صرفوا في «الفرقان، والعنكبوت، والنجم»[٥].

---

(١) الأثافيّ: جمع أُثفِيّة، وهي أحد أحجار ثلاثة توضع عليها القِدْرُ. وثالثة الأثافي: حرف الجبل يجعل إلى جنبه أُثفيتَانِ.

(٢) خفض العيش: لينه وسهولته.

(٣) أما في (الفرقان) ففي الآية (٣٨)، وأما في (العنكبوت) ففي الآية (٣٨)، وأما في (النجم) ففي الآية (٥١).

(٤) الإجراءُ هو: الصَّرْف، قال في القاموس: (المجاري: أواخر الكلم)، قال الشارح وذلك لأن حركات الإعراب والبناءِ إنما تكون هنالك، فسميت بذلك لأن الصوت يبتدئُ بالجريان في حروف الوصل منها.

(٥) حُجَّة من صرف أمران: أحدهما: أنه جعل (ثمود) اسم حيّ أو رئيس فصرفه، والآخر: أنه جعله (مفعولاً) من الثَّمد وهو الماءُ القليل فصرفه. وحُجّة من لم يصرفه أنه جعله اسماً للقبيلة، فاجتمع فيه علَّتان فرعيَّتان منعتاه من الصرف: إحداهما: التأنيث الذي هو فرع للتذكير، والأخرى: التعريف الذي هو فرع للتنكير.
والقراءُ مختلفون في (ثمود) وما شاكله من الأسماءِ الأعجمية، وأكثرهم يتبع سواد النحويِّين، فما كان فيه ألف صرفوه، وما كان بغير ألف منعوه من الصرف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾.

الرُّسل: الملائكة، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقالت فرقة بدل إسرائيل: عزرائيل ملك الموت. ورُوي أن جبريل منهم كان مختصاً بإهلاك قرية لوط، وميكائيل كان مختصاً بتبشير إبراهيم بإسحق، وإسرافيل مختصاً بإنجاءِ لوط ومن معه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية تقضي باشتراكهم في البشارة بإسحق. وقالت فرقة ـ وهي الأكثر ـ: البُشْرى هي بإسحق، وقالت فرقة: البُشرى هي بإهلاك قوم لوط. وقوله: ﴿سَلَٰمًا﴾ نصب على المصدر، والعامل فيه فعل مضمر من لفظه كأنه قال: اسلم سلاماً، ويصح أن يكون ﴿سَلَٰمًا﴾ حكاية لمعنى ما قالوه لا للفظهم، قاله مجاهد والسدي. فلذلك عمل فيه القول، كما تقول لرجل قال: «لا إله إلاَّ الله»: «قلت حقاً أو إخلاصاً»، ولو حكيت لفظه لم يصح أن تُعمل فيه القول، وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ حكاية لِلَفْظه. و﴿سَلَٰمٌ﴾ مرتفع إما على الابتداءِ والخبر محذوف تقديره: عليكم. وإما على خبر ابتداءِ محذوف تقديره: أَمْرِي سلامٌ، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[1]، إما على تقدير: فأَمري صبر جميل، وإما على تقدير: فصبر جميل أَجمل[2].

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾، وقرأَ حمزة، والكسائي: [قالوا سلاماً قالَ سِلْمٌ] وكذلك اختلافهم في سورة الذاريات[3]، وذلك على وجهين: يحتمل أَن يريد به السلام بعينه، كما قالوا: حلٌّ وحلالٌ وحرمٌ وحرامٌ، ومن ذلك قول الشاعر:

مَـرَرْنَـا فَقُلْنَـا إِيـهِ سِلْـمٌ فَسَلَّمَـتْ كما اكْتَلَّ بالْبَرْقِ الْغَمَامُ اللَّوَائِحُ[4]

---

(١) من الآية (١٨) من سورة يوسف.

(٢) في بعض النسخ: فصبر جميلٌ أَمْثَلُ.

(٣) في قوله تعالى في الآية (٢٥): ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

(٤) البيت في (اللسان ـ كَلَلَ) غير منسوب، وكذلك في (التاج)، بل أنشده ابن الأعرابي شاهداً على أن=

اكْتَلَّ: اتَّخذ إِكْليلاً أَو نحو هذا ، قال الطبري: ورُوي: «كَمَا انكَلّ» ، ويحتمل أَن يريد بالسلم: ضد الحرب ، تقول: نحن سِلْمٌ لكم. وكان سلام الملائكة دعاءً مرجُواً ، فلذلك نصب ، وحيا الخليلُ بأَحسن مما حُيِّي وهو الثابت المتقرر ، ولذلك جاءَ مرفوعاً[1].

وقوله: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ ﴾ ، يصح أَن تكون ﴿مَا﴾ نافية ، وفي ﴿ لَبِثَ ﴾ ضمير إبراهيم ، و﴿ أَن جَآءَ ﴾ في موضع نصب ، أَي: بأَن جاءَ. ويصح أَن تكون ﴿ما﴾ نافية ، و﴿ أَن جَآءَ ﴾ بتأويل المصدر في موضع رفع بـ ﴿لَبث﴾ ، أَي: ما لبث مجيئُه ، وليس في ﴿ لَبِثَ ﴾ ـ على هذا ـ ضمير إبراهيم ، ويصح أَن تكون ﴿ما﴾ بمعنى الذي ، وفي ﴿ لَبِثَ ﴾ ضمير إبراهيم ، و﴿ أَن جَآءَ ﴾ خبر ﴿مَا﴾ ، أَي: فلبث إبراهيم مجيئه بعجلٍ حنيذ[2] ، وفي أَدب الضيف أَن يُعَجِّل قِرَاه من هذه الآية.

والْحَنِيذُ بمعنى المحنوذ ، ومعناه: بعجل مشويٍّ نضج يقطر ماؤُه ، وهذا القطر يفصل الحنيذ من جملة المشويات ، ولكن هيئة المحنوذ في اللُّغة الذي يُغَطَّى بحجارة أَو رمل محمي أَو حائل بينه وبين النار يُغطَّى به ، والمُعَرَّضُ[3] من الشواءِ: الذي

= معنى «انكَلَّ السحاب واكْتَلَّ»: تَبَسَّم. و«اكْتَلَّ الغمام بالبرق»: لَمَعَ ، وفي (اللسان ـ سلم) بيت آخر غير منسوب أيضاً أنشده الفراءُ عن بعض الأعراب ، وفيه اختلاف عن هذا البيت ، قال الجوهري: وسِلْم بالكسر: السلام. وقال:

وقَفْنَــا فقُلْنَــا إيــهِ سِلْــمٌ فَسَلَّمَــتْ ... فمـا كـان إلا وَمْـؤُهـاً بـالحَـوَاجِـبِ

ومما يؤيد أنه بيت آخر أن صاحب اللسان عقَّب روايته للبيت برأي لابن بِرّي قال فيه: والذي رواه القناني:

فَقُلْنَـا السَّـلامُ فَـاتَّقَـتْ مِـنْ أَسِيـرِهَـا ... ومـاكـان إلا ومْـؤُهَـا بـالحَـوَاجِـبِ

وعلى رواية القناني هذه لا يكون في البيت شاهد.

هذا ومن المعاني التي وردت في قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ ﴾ ما ذكره ابن عرفة: «أي قالوا قولاً يتسلمون فيه ، ليس فيه تَعَدّ ولا مأثم» ، وقيل: ﴿ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ ﴾ أي سداداً من القول وقصداً لا لَغْوَ فيه.

(١) يريد أن سلام الملائكة كان متجدّداً فناسبه النصب ، وأن سلام إبراهيم الخليل كان ثابتاً فناسبه الرفع.

(٢) قال الزمخشري: التقدير: فما لبث مجيئه. وقال أبو حيّان: التقدير: فالذي لَبثَهُ ، والخبر: مجيئُه.

(٣) قال في الصّحاح: «المُعَرَّض من اللَّحم: يقال للذي لم يُبالغ في إنضاجه ، قال الشاعر سُلَيك بن السُّلكة:

سَيَكْفِيـكَ ضَـرْبُ القَـوْمِ لَحْـمٌ مُعَـرَّضٌ ... ومـاءُ قُـدُورٍ فـي القِصَـاعِ مَشِيـبُ

ويروى: (في الجفان) بدلاً من (في القصاع) ، ويُرْوَى (صرب)بالصاد والضّاد.

يصفف على الجمر ، والمُهَضَّبُ[1]: الشواءُ الذي بينه وبين النار حائل يكون الشواءُ عليه لا مدفوناً به ، والتحنيذ في تضمير الخيل هو أَن يُغَطَّى الفرس بِجُلٍّ على جُلٍّ[2] ليتصَبَّب عرَقُهُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ ﴾ الآية ، رُوي أَنهم كانوا ينكتون بقداح كانت في أَيديهم في اللحم ولا تصل أَيديهم إِليه ، وفي هذه الآية من أَدب الطعام أَن لصاحب الضيف أَن ينظر من ضيفه هل يأْكل أَم لا؟.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك ينبغي أَن يكون بتلَفُّت ومُسارقة لا بتحديد النظر ، فروي أَن أَعرابياً أَكل مع سليمان بن عبد الملك ، فرأَى سليمان في لقمة الأَعرابي شعرة فقال له: أَزِل الشعرة عن لقمتك ، فقال له: أَتنظر إِليّ نظر من يرى الشعرة في لقمتي؟ والله لا أَكلت معك[3].

و﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ ـ على ما ذكر كثير من الناس ـ معناه: أَنْكرهم ، واستشهد لذلك بالبيت الذي نَحلَه أَبو عمرو بن العلاءِ الأَعشى ، وهو:

وَأَنْكَرتْني وما كَان الَّذي نَكِرتْ ... مِنَ الْحَوادِثِ إِلاَّ الشَّيْبَ والصَّلَعَا[4]

وقال بعض الناس: (نَكِرَ) هو مستعمل فيما يُرى بالبصر فينكر ، (وَأَنْكَرَ) هي مستعملة فيما لا يقرر من المعاني ، فكأَن الأَعشى قال: وأَنكرتني موَدَّتي وأَذمتي[5]

---

(١) لَحمٌ مُهَضَّبٌ: إذا شُويَ ولمْ يُبَالغ في نُضجه ، قال امرؤ القيس:

نَمُشُّ بأَعْرَافِ الجِيَادِ أَكُفَّنَا ... إذا نحن قُمْنَا عَنْ شِوَاءٍ مُهَضَّبِ

(٢) الجُلُّ: كساءٌ تُغَطَّى به الدابة وتصان ، كالثوب للإنسان ، والجمع: جِلالٌ وأَجْلالٌ.

(٣) ذكر أن هذه الحكاية كانت مع هشام بن عبد الملك لا مع سليمان ، وأن الأعرابي خرج من عنده وهو يقول:

ولَلْمَوْتُ خَيْرٌ من زِيَارَةِ باخِلٍ ... يُلاحِظُ أَطْرَافَ الأكيلِ على عَمْدِ

(٤) أورد صاحب اللسان هذا البيت في (نكر) شاهداً على أن العرب تقول: نكِرْتُ الشيءَ وأنكرتُه فأنا أُنْكِرُهُ إنكاراً ، والبيت في ديوان الأعشى (طبعة القاهرة ص ١٠١) و(طبعة دار صادر بيروت ١٠٥). وقد قال بعض العلماءِ: البيت مصنوع ، قيل في الديوان: وضعه حمّاد. (ص ١٠٠) ، وفي (مجاز القرآن) لأبي عبيدة (١ ـ ٢٩٣) قال أبو عبيدة: قال يونس ، قال أبو عمرو: أنا الذي زدت هذا البيت في شعر الأعشى.. إلى آخره ، فأتوب إلى الله منه.

(٥) يريد: خُلْطتي وأُلْفتي ومَوَدَّتي.

ونحوه ، ثم جاء بـ (نكر) في الشيب والصلع الذي هو مرئيٌّ بالبصر ، ومن هذا قول أَبي ذُؤَيب:

فَنَكَـرْنَـهُ فَنَفَـرْنَ وامتَـرَسَـتْ بِـهِ ... هـوْجـاءُ هـادِيـةٌ وهـادٍ جُـرْشُـعُ(١)

والذي خاف منه إبراهيم عليه السلام ما يدل عليه امتناعهم من الأكل ، فَعُرْفُ من جاءَ بِشَرّ أَلاَّ يأكل من طعام المنزول به ، و﴿وَأَوْجَسَ﴾ معناه: أَحسّ في نفسه خيفة منهم ، والوجيس: ما يعتري النفس عند الحذر وأوائل الفزع ، فأَمنوه بقولهم: ﴿لَا تَخَفْ﴾ ، وعلم أَنهم الملائكة.

ثم خرجت الآية إلى ذكر المرأة وبشارتها ، فقالت فرقة: معناه: قائمة خلف ستر تسمع محاورة إبراهيم مع أَضيافه ، وقالت فرقة: معناه: قائمة في صلاة. وقال السدي: معناه: قائمة تخدم القوم ، وفي قراءَة ابن مسعود: [وهي قائمة وهو جالس].

قوله: ﴿فَضَحِكَتْ﴾ ، قال مجاهد: معناه: حاضت ، وأنشد على ذلك اللغويون:

وَضِحْـكُ الأَرَانِـبِ فَـوْقَ الصَّفَـا ... كَمِثْـلِ دَم الجَـوْفِ يـوْمَ اللِّقَـا(٢)

وهذا قول ضعيف قليل التمكن ، وقد أَنكر بعض اللغويين أَن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت ، وقرره بعضهم ، ويقال: ضحك الحوض إذا امتلأَ وفاض ،

---

(١) البيت في ديوان الهُذَليين (طبعة دار الكتب المصرية (١ ـ ٨) وفيه: (سطعاءُ) بدلاً من (هوْجاءُ) ، قال شارح الديوان: يعني الحمير نكرنَ الصائد ، وامْتَرَسَتْ هوجاءُ: يعني الأتان امْتَرَسَت بالفَحْل أي تكاد تسير معه ، والهوجاءُ: التي ترفع رأسها لتقدمه ، وهادٍ: هو الفحل ، وجُرْشع: مُنْتَفِخ الجنْبَيْن ، يريد أنه أيضاً امْتَرَس بها.

(٢) البيت في اللسان غير منسوب ، وقد ذكره عن ابن سيدة شاهداً على أن ﴿ضحكت﴾ بمعنى حاضت ، ونقل عن أبي عمْرو قولَه: «سمعت أبا موسى الحامض يسأل أبا العباس عن قوله ﴿فَضَحِكَتْ﴾ أي حاضت ، وقال إنه جاء في التفسير ، فقال: ليس في كلام العرب ، والتفسير مُسَلَّم لأهل التفسير ، فقال له: فأنت أنشدْتَنا:

تَضْحَـكُ الضَّبْـعُ لِقَتْلـى هُـذَيْـلٍ ... وتَـرَى الـذِّئْـبَ بهـا يَسْتَهِـلّ

فقال أبو العباس: تَضحك هنا: تَكْشِرُ ، وذلك أنَّ الذئب ينازعها فتكْشِر في وجهه وعيداً فيتركها مع لحم القتيل». وقال ابن الأعرابي في هذا البيت وهو لِتأبَّطَ شراً: إن الضبع إذا أكلت لحوم الناس أو شربت دماءهم طمثت وقد أضحكها الدَّمُ». وكان ابن دُرَيْد يردُّ هذا ويقول: من شاهد الضباع عند حيضها فيعلم أنها تحيض؟» ، ومما استشهد به اللغويون على أن ضحكت بمعنى حاضت البيت المشهور:

وإنِّـي لآتـي العِـرْسَ عِنْـدَ طُهـورهَـا ... وأهْجُـرهَـا يـوْمـاً إذَا تَـكُ ضَـاحِكَـا

وردّ الزَّجاج قول مجاهد ، وقال الجمهور: هو الضحك المعروف ، واختُلِف ، مِمَّ ضَحِكَتْ؟ فقالت فرقة: ضحكت من تأمينهم لإبراهيم بقولهم: ﴿لَا تَخَفْ﴾ ، وقال قتادة: ضحكت هزؤاً من قوم لوط أَن يكونوا على غفلة وقد نفذ من أَمر الله تعالىٰ فيهم ما نفذ ، وقال وهب بن مُنَبه: ضحكت من البشارة بإسحق ، وقال: هذا مقدم بمعنى التأخير ، وقال محمد بن قيس: ضحكت لظنها بهم أَنهم يريدون عمل قوم لوط.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول خطأٌ لا ينبغي أَن يلتفت إليه ، وقد حكاه الطبري ، وإنما ذكرته لمعنى التنبيه على فساده.

وقالت فرقة: ضحكت من فزع إبراهيم من ثلاثة وهي تعهده يغلب الأَربعين من الرجال ، وقيل: المائة ، وقال السدي: ضحكت من أَن تكون تخدم وإبراهيم يحتد ويسعى والأَضياف لا يأْكلون ، وقيل: ضحكت سروراً بصدق ظنها ، لأَنها كانت تقول لإبراهيم: إنه لا بد أَن ينزل العذاب بقوم لوط ، ورُوي أَن الملائكة مسحت العجل فقام حياً فضحكت لذلك ، وقرأَ محمد بن زياد الأَعرابي: [فَضَحَكَتْ] بفتح الحاءِ.

وامرأَة إبراهيم هي سارة بنت هارون بن ناحور ، وهو إبراهيم بن آزر بن ناحور ، فهي ابنة عمّه ، وقيل: هي أَخت لوط.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وما أَظن ذلك إلا أُخوة القرابة لأَن إبراهيم هو عمّ لوط فيما رُوي.

وذكر الطبري أَن إبراهيم عليه السلام لما قدّم العجل قالوا له: إنا لا نأْكل طعاماً إلا بثمن ، فقال لهم: ثمنه أَن تذكروا الله تعالىٰ عليه في أَول وتحمدوه في آخر ، فقال جبريل لأَصحابه: بحقّ اتخذ الله هذا خليلاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا﴾ ، أَضاف فعل الملائكة إلى ضمير اسم الله تعالىٰ إذ كان ذلك بأَمره ووحيه ، وبشر الملائكة سارة بإسحق وبأَن إسحق سيلد يعقوب ، ويُسَمّى ولَدُ الولدِ الْوَلَدُ من الوراءِ ، وهو قريب من معنى (وراء) في الظرف ، إذْ هو ما يكون خلْف الشيءِ وبعدَه ، ورأَى ابن عباس رجلاً معه شاب ، فقال له: من هذا؟ فقال له: ولد ولدي ، فقال: هو ولدك من الوراءِ فغضب الرجل فذكر له ابن عباس الآية.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي: [يعْقُوبُ] بالرفع على الابتداءِ والخبر المقدم، وهو ـ على هذا ـ داخل في البشرى، وقالت فرقة: رفعه على القطع بمعنى: ومن وراءِ إسحق يحدث يعقوب، وعلى هذا لا يدخل في البشارة، وقرأ ابن عامر، وحمزة: ﴿يَعْقُوبَ﴾ بالنصب، واختلف عن عاصم، فمنهم من جعله معطوفاً على [إسحق] إلا أنه لم ينصرف، واستسهل هذا القائل أن فرق بين حرف العطف والمعطوف بالمجرور، وسيبويه لا يجيز هذا إلا على إعادة حرف الجر، وهو كما تقول: «مَرَرت بزيدٍ اليوم وأَمسِ عمرٍو»، فالوجه عنده: «وأمسِ بعمرو»، وإذا لم يُعَد ففيه كبير قبح، والوجه في نصبه أن ينتصب بفعل مضمر تدل عليه البشارة وتقديره: ومِن وراءِ إسحق وهبنا يعقوب، وهذا رجَّحه أبو عليّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ورُوي أن سَارَة كانت في وقت هذه البشارة بنت تسع وتسعين سنة، وإبراهيم ابن مائة سنة.

وهذه الآية تدل على أن الذبيح هو إسماعيل، وأنه أَسَنُّ من إسحق، وذلك أن سارَة كانت في وقت إخدام الملك الجائر هاجر أُم إسماعيل امرأَة شابة جميلة حسبما في الحديث، فاتخذها إبراهيم عليه السلام أُمَّ ولد فغارت لها سارَة، فخرج بها وبابنها إسماعيل من الشام على البراق، وجاءَ من يومه مكة فتركها ـ حسبما في السير ـ وانصرف إلى الشام من يومه، ثم كانت البشارة بإسحق وسارَة عجوز مُتَجَالَّة[1]، وأَما وجه دلالة الآية على أن إسحق ليس بالذبيح فهو أَن سارة وإبراهيم بُشِّرا بإسحق وأنه يولد له يعقوب، ثم أُمر بالذبح حين بلغ ابنه معه السعي، فكيف يؤمر بذبح ولدٍ قد بُشِّر أَنه سيولد لابنه ذلك؟ وأَيضاً فلم يقع قط في أَثر أَن إسحق دخل الحجاز، وإجماعٌ أَنَّ أَمْرَ الذبح كان بمنى، ويؤيد هذا الغرض قول رسول الله ﷺ: «أَنا ابن الذبيحين»[2]

---

(١) أي: أَسَنَّت وكبرَت، وفي حديث أُمِّ صُبَيَّة الجُهَنِيَّة: (كنا نكون في المسجد نسوةً قد تجالَلْنَ)، وفي حديث جابر: (تزوجتُ امرأة قد تجالَّت) أي: أَسَنَّت وكَبرَت.

(٢) لم نعثر على هذا الحديث في مصدر صحيح، وقد تكلم فيه كثير من العلماءِ، والذي رُوي عن الصُّنابحي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: «يا بن الذبيحين، فضحك رسول الله ﷺ»، وقال ابن كثير: هذا حديث غريب جداً، وقد رواه الأموي في مغازيه ـ (راجع تفسير ابن كثير ٦ ـ ٣١).

يريد أَباه عبد الله وأَباه إِسماعيل ، ويؤيده ما نزع إِليه مالك رحمه الله من الاحتجاج برتبة سورة الصافات فإِنه بعد كما أَمر الذبيح قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا كله موضع معارضات لقائل القول الآخر: إِنَّ الذَّبيح هو إِسحق ، ولكن هذا الذي ذكرناه هو الأَرجح ، والله أَعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

اختلف الناس في الأَلف التي في قوله تعالى: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ ، وأَظهر ما فيها أَنها بدل ياءِ الإِضافة ، أَصلها: «يا وَيْلَتي» ، كما تقول: يا غُلاماً ويا غَوثاً ، وقد تردف هذه الأَلف بهاءٍ في الكلام ، ولم يُقرأ بها ، وأَمال هذه الأَلف عاصم ، والأَعمش ، وأَبو عمرو.

ومعنى ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ في هذا الموضع: العبارة عما دهم النفس من العجب في ولادة عجوز ، وأَصل هذا الدعاءُ بالويل ونحوه في التَّفجع لشدَّةٍ أَو مكروه يهم النفس ، ثم استعمل بعْدُ في عجب يدهم النفس ، وقال قوم: إِنما قالت: «يا وَيْلَتَى» لما مرّ بفكرها من أَلم الولادة وشدتها ، ثم رجعت بفكرها إِلى التعجب ونطقت بقولها: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾؟ الآية.

وقرأَت فرقة: ﴿ءَأَلِدُ﴾ بتحقيق الهمزتين ، وقرأَت فرقة بتخفيف الأُولى وتحقيق الثانية ، وفي النطق بهذه عُسْرٌ ، وقرأت فرقة بتحقيق الأُولى وتخفيف الثانية ، والتخفيف هنا مدُّها ، وقرأَت فرقة: [ءَاأَلِدُ] بتحقيق الهمزتين ومدة بينهما.

والعجوز: المُسِنَّة ، وقد حكى بعض الناس أَن العرب تقول: العجوزة(٢).

---

(١) من الآية (١١٢) من سورة الصافات.

(٢) في اللسان: (والعَجوز والعَجوزة من النساء: الشيخة الهرمة ، الأخيرة قليلة ، والجمع: عُجُز وعُجْز وعجائز). وفي الصحاح: (والعَجُوز: المرأة الكبيرة ، قال ابن السِّكِّيت: ولا تَقُل عجوزة ، والعامة تقوله).

و«البعل»[1]: الزوج، و﴿شَيۡخًاۖ﴾ نصب على الحال، وهي حالٌ من مُشار إليه لا يستغنى عنها لأنها مقصودُ الإخبار، وهي لا تصح إلاَّ إذا لم يقصد المتكلم التعريف بذي الحال، مثل أن يكون المخاطب يعرفه، وأَما إذا قصد التعريف به لزم أن يكون التعريف في الخبر قبل الحال وتجيءُ الحال على بابها مستغنى عنها، ومثال هذا قولك: «هذا زيد قائماً» إذا أَردت التعريف بزيد، أَو كان معروفاً وأَردت التعريف بقيامه، وأَما إن قصد المتكلم أن زيديته إنما هي ما دام قائماً فالكلام لا يجوز. وقرأَ الأعمش: [وَهَذَا بَعْلِي شَيْخٌ]، قال أَبو حاتم: وكذلك في مصحف ابن مسعود، ورفْعه على وجوه: منها: أَنه خبر بعد خبر كما تقول: «هذا حلو حامض»، ومنها: أَن يكون خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: هو شيخ، ورُوي أَن بعض الناس قرأَه: «وهَذَا بَعْلي هَذَا شَيْخٌ»، وهذه القراءَة شبيهة بهذا التأويل، ومنها: أَنه بدل من ﴿بَعۡلِي﴾، ومنها أَن يكون قولها: ﴿بَعۡلِي﴾ بدلاً من ﴿وَهَٰذَا﴾ أَو عطف بيان عليه، ويكون ﴿شَيۡخٌ﴾ خبر ﴿وَهَٰذَا﴾، ويقال: شيخٌ وشيْخةٌ، وبعض العرب يقول في المذكر والمؤنث: شيخ، ورُوي أَن سَارَة كانت وقت هذه المقالة من تسع وتسعين سنة، وقيل: من تسعين، قاله ابن إسحق، وقيل: من ثمانين، وكذلك قيل في إبراهيم: إنه كان مائة وعشرين سنة، وقيل: مائة سنة، وغير ذلك مما يحتاج إلى سند.

والضمير في قوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾ للملائكة، وقوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ يحتمل أَن يريد واحدَ الأُمور، أَي من الولادة في هذه السن، ويحتمل أَن يريد مصدر أَمر، أَي مما أَمر الله به في هذه النازلة. وقوله: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾، يحتمل اللفظ أَن يكون دعاءً وأَن يكون إخباراً، وكونه إخباراً أَشرف لأَن ذلك يقتضي حصول الرحمة والبركة لهم، وكونه دعاءً إنما يقتضي أنه أَمر يُتَرَجَّى ولم يتحصل بعد، ونصب ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ على الاختصاص، هذا مذهب سيبويه، ولذلك جعل هذا والنصب على المدح في بابين كأَنه ميّز النصب على المدح بأَن يكون المنتصب لفظاً يتضمن بنفسه

(١) البَعْل في الأصل: كل شجر أو زرع لا يُسقى، وفي النَّخل: ما يشرب بعروقه من غير سقي ولا ماءِ سماءٍ، فهو مستقل بنفسه، ولهذا سَمُّوا مالك الشيءِ بعْلَهُ، ومن هذا البَعْلُ بمعنى الزَّوج، وأقرب ما قيل فيه هو ما حكاه الأزهري: إنما سُمّي زوجُ المرأة بعلا لأنه سيدها ومالكها، قال صاحب اللسان: (والأنثى بعْلٌ وبعْلةٌ مثل زوج وزوجة، قال الراجز:

شَرُّ قَرِينٍ لِلكَبِيرِ بَعْلَتُهْ ... تُولِغُ كلباً سُؤْرَهُ أَوْ تَكْفِتُهْ)

مدحاً، كما تقول: «هذا زيد عاقلَ قومه»، وجعل الاختصاص إذا لم يتضمن اللفظة ذلك، كقوله: «إِنَّا معاشرَ الأنبياءِ»[1]:

إِنَّـــا بنـــي نَهْشَـــلٍ. . . . . [2]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا يكون الاختصاص إلا بمدح أَو ذم لكن ليس في نفس اللفظة المنصوبة.

وهذه الآية تعطي أَن زوجة الرجل من أَهل بيته لأَنها خوطبت بهذا، فيقوى القول في زوجات النبي ﷺ بأَنهن من أَهل بيته الذين أَذهب الله عنهم الرجس، بخلاف ما تذهب إليه الشيعة وقد قاله أَيضاً بعض أَهل العلم، قالوا: «أَهل بيته: الذين حُرموا الصدقة»، والأَول أَقوى، وهو ظاهر جليّ من سورة الأَحزاب لأَنه ناداهن بقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ ثم بقوله: ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[3].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ووقع في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أَهْل بيته: الذين حرموا

---

(١) أشهر ما ورد من الأحاديث مبدوءاً بلفظ (إنَّا) قوله ﷺ: «إنَّا معشر الأنبياءِ تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا»، رواه ابن سعد عن عطاءٍ مرسلاً، وقوله: «إنا معشر الأنبياءِ أُمرنا أن نعجل إفطارنا، ونؤخر سحورنا، ونضع أيماننا على شمائلنا في الصلاة»، رواه الطبراني في الكبير عن الطيالسي، وقوله: «إنا معشرالأنبياءِ يضاعف علينا البلاءُ»، رواه الطبراني في الكبير عن أُخت حذيفة، والأولان رمز لهما السيوطي بالصحة، والثالث رمز له بأنه حديث حسن، ولكن اللفظ فيها (مَعْشر)، أمَّا الحديث الذي ورد بلفظ (معاشر) فهو قوله ﷺ: «نحن معاشر الأنبياءِ لا نورث ما تركناه صدقة»، ورواه الإمام أحمد في مسنده (٢ ـ ٤٦٣) بلفظ: «إنا معشر الأنبياءِ لا نُورث، ما تركتُ بعد مؤنة عاملي ونفقة نسائي صدقة»، ونلاحظ اختلاف الألفاظ بين (إنا) و(نحن)، وبين (معشر) و(معاشر).

(٢) يريد قول الشاعر:

إنَّـــا بَنـــي نَهْشَـــلٍ لا نَـــدَّعـــي لأبٍ ... عنـــهُ ولا هُـــوَ بـــالأبْنَـــاءِ يَشْـــرينَـــا

وهو من أبيات رواها أبو تمام في أوائل ديوان الحماسة، ونسبوها لبشامة بن حزم النَّهْشَلي، وأول هذه الأبيات قوله:

إنَّـــا مُحَيُّـــوكِ يـــا سَلْمَـــى فَحَيِّينَـــا ... وإنْ سَقَيْـــتِ كِـــرَامَ النَّـــاس فـــاسْقِينَـــا

ومن الناس من ينسب هذه الأبيات لرجل من بني قيس بن ثعلبة من غير أن يُعَيّنه، ويَرْوي صدر بيت الشاهد: (إنَّا بني مالك).

(٣) الآيتان (٣٢ـ ٣٣) من سورة الأحزاب.

الصدقة بعده» ، فأراد ابن عباس: أهل بيت النسب الذين قال رسول الله ﷺ فيهم: «إن الصدقة لا تحل لأهل بيتي ، إنما هي أوساخ الناس»(١).

والبيت ـ في هذه الآية ، وفي سورة الأحزاب ـ بيتُ السكنى ، ففي اللفظ اشتراك ينبغي أن يُتَحَسَّسَ إليه ، ففاطمة رضي الله عنها من أهل بيت محمد ﷺ بالوجهين ، وعلي رضي الله عنه بالواحد ، وزوجاته بالآخر ، وأما الشيعة فيدفعون الزوجات بغضاً في عائشة رضي الله عنها.

و﴿حَمِيدٌ﴾ أي: أفعاله تقتضي أن يُحْمد ، ﴿مَجِيدٌ﴾ أي: متصف بأوصاف العلوّ ، ومَجُد الشيءُ: إذا حسنت أوصافه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿ٱلرَّوْعُ﴾: الفزع والخيفة التي تقدم ذكرها ، وكان ذهابه بإخبارهم إياه أنهم ملائكة ، و﴿ٱلْبُشْرَىٰ﴾ يحتمل أن يريد الولد ، ويحتمل أن يريد البشرى بأن المراد غيره ، والأول أبين. وقوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ فعل مستقبل جائز أن يسُدّ مسَدّ الماضي الذي يصلح لجواب ﴿لَمَّا﴾ ، لا سيما والإشكال مرتفع بمُضيّ زمان الأمر ومعرفة السامعين بذلك ، ويحتمل أن يكون التقدير: «ظلَّ أو أخذ ونحوه يجادلنا» ، فحذف اختصاراً لدلالة ظاهر الكلام عليه ، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ حالاً من إبراهيم ، أو من الضمير في قوله: ﴿وَجَآءَتْهُ﴾ ، ويكون جواب ﴿لَمَّا﴾ في الآية الثانية: «قُلْنَا: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾» ، واختار هذا أبو عليّ(٢). والمجادلة: المقابلة في القول

---

(١) رواه مسلم في الزكاة والإمام أحمد (٤ ـ ١٦٦ ، ٦ ـ ٨) ، ولفظه كما رواه الإمام أحمد: عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحرث أنه هو والفضل أتيا رسول الله ﷺ ليزوجهما ويستعملهما على الصدقة فيصيبان من ذلك فقال رسول الله ﷺ: «إن هذه الصدقة إنما هي أوساخ الناس ، وإنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد. . .». وللحديث بقية تجدها في المصدر المذكور.

(٢) وقيل: جواب: ﴿لَمَّا﴾ محذوف كما حُذف في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ. . .﴾ ، والتقدير هنا: اجترأ على الخطاب إذ فطن للمجادلة ، أو قال كيت وكيت ، ودلَّ على ذلك الجملة المستأنفة وهي ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ ، وهذاهو رأي الزمخشري ، ونقله عنه أبو حيّان الأندلسي.

والحُجج ، وكأَنها أَعم من المخاصمة ، فقد يجادل من لا يخاصم كإبراهيم .

وفي هذه النازلة وُصِف إبراهيم بالحلم ، قيل: إنه لم يغضب قط لنفسه إلا أَن يغضب لله ، والحلم: العقل إذا انضاف إليه أَناةٌ واحتمال. والأَوَّاه معناه: الخائف الذي يكثر التأَوّه من خوف الله تعالىٰ ، ويروى أَن إبراهيم عليه السلام كان يسمع وجيب قلبه من الخشية ، قيل: كما تُسمع أَجنحة النسور ، وللمفسرين في «الأَوّاه» عبارات كلها ترجع إلى ما ذكرته وتلزمه ، و«المُنيبُ»: الرَّجّاع إلى الله تعالىٰ في كل أَمره. وصورة جدال إبراهيم عليه السلام كانت أَن قال إبراهيم: إن كان فيهم مائة مؤمن أَتعذبونهم؟ قالوا: لا ، قال: أَفَتِسْعون؟ قالوا: لا ، قال: أَفثمانون؟ فلم يزل كذلك حتى بلغ خمسة ووقف عند ذلك ، وقد عد في بيت لوط امرأَته فوجدهم ستة بها فطمع في نجاتهم ولم يشعر أَنها من الكفرة ، وكان ذلك من إبراهيم حرصاً على إيمان تلك الأُمة ونجاتها ، وقد كثر اختلاف رواة المفسرين لهذه الأَعداد في قول إبراهيم عليه السلام ، والمعنى كله نحو مما ذكرته ، وكذلك ذكروا أَن قوم لوط كانوا أَربعمائة أَلف في خمس قرى ، وقالت فرقة: المراد: يجادلنا في مؤمني قوم لوط ، وهذا ضعيف ، وأَمْرُهُ بالإعراض عن المجادلة يقتضي أَنها إنما كانت في الكفرة حرصاً عليهم ، والمعنى: قلنا: يا إبراهيم أَعرض عن المجادلة في هؤلاءِ القوم والمراجعة فيهم ، فقد نفذ فيهم القضاءُ ، و﴿ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ ﴾ ، والأَمر هنا: واحد الأُمور بقرينة وصفه بالمجيءِ ، فإن جعلناه مصدر (أَمَرَ) قدرنا حذف مضاف ، أَي: جاءَ مقتضى أَمْر ربّك ونحو هذا ، وقوله: ﴿ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ﴾ ابتداءٌ وخبر ، جملة في موضع خبر ﴿إِنَّ﴾ ، وقيل: ﴿ ءَاتِيهِمۡ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ فهو اسم فاعل معتمد ، و﴿ عَذَابٌ﴾ فاعل بـ ﴿ ءَاتِيهِمۡ﴾ .

وهذه الآية مقتضية أَن الدعاءَ إنما هو أَن يوفق الله الداعي إلى طلب المقدور ، فأَما الدعاءُ في طلب غير المقدور فغير مُجْد ولا نافع .

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ ﴾ .

الرسل هنا هم الملائكة الذين كانوا أَضياف إِبراهيم عليه السلام ، وذلك أَنهم لما خرجوا إِلى بلد لوط ـ وبيْنه وبيْن قرية إِبراهيم ثمانية أَميال ـ وصلوه ، فقيل: وجدوا لوطاً في حرث له ، وقيل: وجدوا ابنته تستقي ماءً في نهر سدوم ـ وهي أَكبر حواضر قوم لوط ـ فسأَلوها الدلالة على من يضيفهم ، ورأَت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط ، وقالت لهم: مكانكم ، وذهبت إِلى أَبيها فأَخبرته ، فخرج إِليهم ، فقالوا له: نريد أَن تضيفنا الليلة ، فقال لهم: أَوما سمعتم بعمل هؤلاءِ القوم؟ فقالوا: وما عملهم؟ فقال: أَشهد بالله لَهُمْ شرُّ قوم في الأَرض ، وقد كان الله عزَّ وجلَّ قد قال للملائكة: لا تعذبوهم حتى يشهد عليهم لوط أَربع شهادات ، فلما قال لوط هذه قال جبريل لأَصحابه: هذه واحدة ، وتكرر القول بينهم حتى كرَّرَ لوط الشهادة أَربع مِرار ، ثم دخل لوط بهم المدينة ، وحينئذ «سيءَ» بهم ، أَي: أَصابه سوءٌ. و«سيءَ» فعل بُني للمفعول.

والذَّرْعُ: مصدر مأْخوذ من الذراع ، ولما كان الذراع موضع قوة الإِنسان قيل في الأَمر الذي لا طاقة له به: ضاق بهذا الأَمر ذِرَاعُ فلان ، وذَرْعُ فلان ، أَي: حيلته بذراعه ، وتوسعوا في هذا حتى قلبوه فقالوا: «فلان رحبُ الذِّراع» إِذا وصفوه بالقدرة ، ومنه قول الشاعر:

يــا سيِّــد مــا أَنْــتَ مِــنْ سَيِّــد ... مُــوَطَّــأَ الأَكْنَــافِ رحْــبَ الــذِّرَاعِ[1]

وقوله: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٌ﴾ أَشار به إِلى ما كان يتخوفه من تعدّي قومه على أَضيافه واحتياجه إِلى المدافعة مع ضعفه عنها ، و﴿عَصِيبٌ﴾ بناءُ اسم فاعل معناه: يعصب الناس بالشَّرّ كما يعْصب الخابط السَّلمة[2] إِذا أَراد خبطها ونفض ورقها ، ومنه قول

---

(١) الأَكْنَاف: جمع كَنَفٍ وهو الجانب والناحية ، وكَنَفَا الرجل: جانباه وناحيتاه عن يمينه وشماله ، وهما حِضْناهُ. والموطَّأُ: السَّهل اللَّين الدمث الأَخلاق الكريم ، يقال: فلانٌ وطيءُ الخُلُق ، وفيه وطاءَةُ الخُلق ووضَاءَةُ الخَلْق ، ويقال للمضياف: مُوَطأُ الأَكْنَاف إِذا لَمْ يَنْبُ جانبه عن النُّزَّل. وقد وضح ابن عطية معنى (رحب الذراع).

(٢) السَّلَمة: شجرة من العَضَاة ذات شوك ، وورقها القرظ الذي يدبغ به الأديم ، ومن الصعب خَرْطُ ورقها لكثرة شوكها ، فتعصب أغصانها بأن تُجمع ويُشدّ بعضها إلى بعض بحبْلٍ شداً شديداً ، ثم يهصرها الخابط إليه ويخبطها بعصاه فيتناثر ورقها للماشية ولمن أراد جمعه ، قال الشاعر يشبه الجهد الذي يصيب الأبطال في المعارك بعَصْب الرجل القويّ السَّلَمَ الطوال: =

الحجاج في خطبته: «ولأعْصِبَنَّكُم عصْب السَّلَمة» ، فهو من العصابة ، ثم كثر وصفهم اليوم بعصيب ، ومنه قول الشاعر وهو عديّ بن زيد:

وكنتُ لِزَازَ خَصْمِكَ لَمْ أُعَرِّدْ ... وقَدْ سلكُوكَ في يَوْمٍ عَصِيبِ[1]

ومنه قول الآخر:

فَإِنَّكَ إِلاَّ تُرْضِ بَكْرَ بْنَ وَائِلٍ ... يَكُنْ لَكَ يَوْمٌ بِالْعِرَاقِ عَصِيبُ[2]

فـ ﴿عَصِيبٌ﴾ بالجملة: في موضع شديد وصعب الوطأة ، واشتقاقه كما ذكرنا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ الآية. رُوي أن امرأة لوط الكافرة لمّا رأت الأضياف ورأت جمالهم وهيئتهم خرجت حتى أتت مجلس قومها فقالت: إن لوطاً أضاف الليلة فتية ما رُئي مثلهم جمالاً وكذا وكذا ، فحينئذ جاءُوا يهرعون إليه ، ومعناه: يسرعون ، والإهراع هو أن يسرع أمْر بالإنسان حتى يسير بين الخبب والجمز[3] ، فهي مشية الأسير الذي يُسرع به ، والطامع المبادر إلى أمر يخاف فوته ، ونحو هذا ، يقال: هرع الرجل

= يَوْمٌ عَصِيبٌ يَعْصِبُ الأبْطَالا ... عصْبَ القَوِيِّ السَّلَمَ الطِّوَالا

(١) عدِيُّ بن زيد شاعر جاهلي ، اتصل بكسرى وسَفَر بينه وبين ملك الروم ، وهو ربيب النعمة والحضارة لكنه بدوي اللفظ ، وهو في بيته هذا يخاطب النعمان في قصيدة اعتذار ، ويقول له فيه: لقد بقيت إلى جانبك أمنع عنك حتى في الأوقات العصيبة. ولِزَاز: أي كنتُ ملازماً لخصمك لا أدعه يخالف أو يعاند ، وأصل اللِّزاز: ما يترس به الباب. ولم أُعَرِّد: لم أحجم ولم أتراجع ، والتَّعريد: الفِرار أو سرعة الذهاب في الهزيمة. وسَلَكُوك: أدخلوك يقال: سلكتُ الشيءَ في الشيءِ فانْسَلَك ، أي أدخلته فيه فدخل ، والعصيب: الشديد ، وهو من عَصَبَ على وزَن ضَرَبَ ، قال الراغب: يصح أن يكوم بمعنى فاعل ، وأن يكون بمعنى مفعول ، أي: يومٌ مجموع الأطراف ، كقولهم: يومٌ ككِفَّةِ حابِلٍ وحلْقَة خاتم.

(٢) بكر بن وائل قبيلة كانت تسكن العراق أو قريباً منه ، وهو مثل الشاهد السابق عليه في أن اليوم العصيب هو الشديد ، والمعنى: إذا لم تفعل ما ترضاه قبيلة بكر بن وائل فستلقى منهم بالعراق يوماً شديد الشّرّ. هذا ومثل الشاهدين السابقين قول كعب بن جُعَيل:

ويُلَبُّونَ بِالحَضِيضِ فِئَامٌ ... عارفاتٌ منْهُ بِيَوْمٍ عَصِيبِ

(٣) الْخَبَبُ: ضربٌ من العَدْوِ ، تقول: خبَّ الفرسُ يَخُب(بالضم) خبّاً وخَبَباً وخَبِيباً إذا راوَحَ بين يديه ورجليه ، أي: قام على إحداهما مرة وعلى الأخرى مرة ، ويقال: أَخَبَّ الفرسَ صاحبُه ، وجاءُوا مُخِبِّين. والجَمْزُ: سَيْرٌ سريعٌ قريبٌ من العَدْوِ ، وقد يكون فيه وثْبٌ ، أما الهَرَعُ والهُرَاع والإهْرَاعُ فهو شدَّة السَّوق وسرعة العَدْوِ. تأمل هذا وهو عن اللسان والصحاح والتاج وتأمل تفرقة ابن عطية بين الأنواع الثلاثة ، وانظر الهامش التالي.

وأَهرعه طمع أَو عدو أَو خوف ونحوه. والقراءَة المشهورة: ﴿يُهْرَعُونَ﴾ بضم الياء، أَي: يُهرعهم الطمع. وقرأَت فرقة: [يَهْرعون]﴾ بفتح الياءِ، من هَرَع، ومن هذه اللفظة قول مهلهل:

فَجَـاءُوا يُهْـرَعُـونَ وهُـمْ أُسَـارَى تَقُـودُهُـمُ عَلَـى رَغْـم الأُنُـوفِ[1]

وقوله: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أَي: كانت عادتهم إِتيان الفاحشة في الرجال، فجاءُوا إِلى الأَضياف لذلك، فقام إِليهم لوط مدافعاً وقال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾. فقالت: فرقة: أَشار إِلى بنات نفسه وندبهم في هذه المقالة إِلى النكاح، وذلك على أَن كانت سُنَّتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة، أَو على أَن في ضمن كلامه أَن يؤمنوا، وقالت فرقة: إِنما كان الكلام مدافعة لم يُرد إِمضاءَه، رُوي هذا القول عن أَبي عبيدة، وهو ضعيف، وهذا كما يقال لمن يَنْهَى عن مال الغير: «الخنزير أَحَلُّ لك من هذا»، وهذا التنطع ليس من كلام الأَنبياء صلى الله عليهم وسلم، وقالت فرقة: أَشار بقوله: ﴿بَنَاتِى﴾ إِلى النساءِ جملة إِذْ نبيُّ القوم أَبٌ لهم، ويُقَوي هذا أَن في قراءَة ابن مسعود: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾[2] «وهو أَبٌ لهم»، وأَشار أَيضاً لوط ـ في هذا التأْويل ـ إِلى النكاح[3].

وقرأَت فرقة هي الجمهور: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ﴾ برفع الراء على خبر الابتداءِ. وقرأَ الحسن، وعيسى بن عمر، ومحمد بن مروان، وسعيد بن جبير: [أَطْهَرَ] بالنصب، قال سيبويه: «هو لَحْنٌ»، وقال أَبو عمرو بن العلاءِ: احتبى فيه ابن مروان في

---

(١) الذي في اللسان أن الإهراع هو سرعة السير مع رِعْدَة أو خوف أو حرص أو غضب أو حُمَّى، واستشهد بهذه الآية، ونقل عن الكسائي قوله: الإهراع: إسراعٌ في رعدة، وقال المهلهل: فجاءُوا.. البيت. ونقل عن الليث قوله: يُهرعون وهم أُسارى: يساقون ويُعجلون. والرَّغْمُ: الذِّلَّة، وأصل الرَّغم: التراب، ويقال في الكناية عن الذِّلَّة والإكراه: رَغِمَ أنْفُه، أي: ذلَّ، وفي حديث معقل بن يسار: «رَغِمَ أنْفِي لأمر الله». والعرب تقول: أُهرِعوا وهُرِعوا فهم مُهْرَعون ومهْروعون.

(٢) من الآية (٦) من سورة الأحزاب.

(٣) أقوى الآراءِ في قول لوط: ﴿بَنَاتِى﴾ أنه على المجاز، وذلك لأمور كثيرة، منها أنه لم يكن له إلا بنتان على الحقيقة وهذا بلفظ الجمع، ومنها أنه لا يمكن أن يزوج ابنتيه من جميع قومه، ومنها أنه في منزلة الأب للقوم جميعاً وله أن يعبر عن هذه الأبوة، والنبي الكريم لا يريد بعرض البنات إلا الزواج، فهو يوجه أبناءَ قومه إلى الأسلوب الصحيح في التعامل مع الغريزة الجنسية.

لحنه[١] ، ووجهه ـ عند من قرأ بالنصب على الحال ـ بأن تكون ﴿بَنَاتِي﴾ ابتداءً ، و﴿هُنَّ﴾ خبره ، والجملة خبر ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهو إعراب مرويّ عن المبرد ، وذكره أبو الفتح ، وهو خطأٌ في معنى الآية ، وإنما قوم اللفظ فقط ، والمعنى إنما هو في قوله: ﴿أَطْهَرُ﴾ ، وذلك قصد أن يُخبر به ، فهي حالٌ لا يُستغنى عنها ، كما تقدم في قوله: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ . والوجه أن يقال: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ ابتداءٌ وخبر ، و﴿هُنَّ﴾ فصلٌ ، و[أَطْهرَ] حالٌ ، وإن كان شرط الفصل أن يكون بين معرفتين ليفصل الكلام من النعت إلى الخبر فمن حيث كان الخبر هنا في [أَطْهَرَ] ساغ القول بالفصل ، ولما لم يستسغ ذلك أبو عمرو ولا سيبويه لحنًا ابن مروان ، وما كان ليذهب عليهما ما ذكر أبو الفتح.

والضَّيْف: مصدر يوصف به الواحد والجماعة والمذكر والمؤنث[٢] . ثم وبَّخهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ ، أي: يَزَعُكم ويردعكم.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ الآية. رُوي أن قوم لوط كانوا قد خطبوا بنات لوط فردّهم ، وكانت سُنَّتهم أن من رُدَّ في خطبة امرأة لا تحل له أبداً ، فلذلك قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبعد ألاَّ تكون هذه الخاصية ، فوجْه الكلام: إنا ليس لنا إلى بناتك تعلُّق ، ولا هُمْ قصدنا[٣] ، ولا لنا عادة نطلبها في ذلك ، وقولهم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إشارة إلى الأضياف ، فلما رأى استمرارهم في غيِّهم وغلبتهم وضعفه عنهم قال ـ على جهة التَّفجُّع والاستكانة ـ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ ، و﴿أَنَّ﴾ في موضع رفع بفعل مضمر

---

(١) معنى (احتبى): أنه جلس في اللحن بكامله ، وتفسير البحر للكلمة أنه (تربّع في اللحن).

(٢) وعليه قول الشاعر:

لا تَعْدمي الدَّهْرَ شِفَارَ الْجَازِرِ ... للضَّيْفِ ، والضَّيْفُ أحَقُّ زائِرِ

وكلمة (ضَيْف) في ذلك مثل (عَدْل) ، تقول: رجلٌ عَدْلٌ وقوم عَدْلٌ ، ومثل قولك: رجال صَوْمٌ وفِطْرٌ وزَوْرٌ.

(٣) هكذا في جميع الأصول.

تقديره: لو اتفق أو وقع ونحو هذا، وهذا مطردٌ في (أَنَّ) التابعة لـ (لَوْ)، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، وحذف مثل هذا أبلغ لأنه يدع السامع ينتهي إلى أبعد تخيلاته، والمعنى: لفعلتُ كذا وكذا.

وقرأ الجمهور: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ﴾ بسكون الياءِ، وقرأ شيبة وأبو جعفر: [أَوْ آويَ] بالنصب، التقدير: أَوْ أَن آوِي، فتكون (أَنْ) مع (آوي) بتأويل المصدر، كما قالت مَيْسُون بنت بحدل:

ولُبْسُ عَبَاءَةٍ وتَقَرَّ عَيْني . . . .[1]

ويكون ترتيب الكلام: لو أن لي بكم قوةً أَوْ أُوِيّاً[2]. وآوى معناه: لجأ وانضوى. ومراد لوط عليه السلام بـ (الرُّكن): العشيرة المنَعة بالكثرة، وبلغ به قبيح فعلهم إلى هذا مع علمه بما عند الله تبارك وتعالىٰ، فيروى أن الملائكة وجَدَت عليه[3] حين قال هذه الكلمات وقالوا: إن ركنك لشديد، وقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، فالعجب منه لم استكان؟»[4].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هذا نقد لأن يلفظ لوط هذه الألفاظ، وإلاَّ فحالة النبي ﷺ وقت طُرِح عليه سَلَى

---

(١) مَيْسون بنت بَحْدل الكلبية (نحو ٨٠ للهجرة) بدوية تزوجها معاوية فولدت له يزيد، ثم سمعها تنشد أبياتاً منها هذا البيت الذي ذكر ابن عطية بدايته، والبيت بتمامه:

ولُبْسُ عَبَاءَةٍ وتَقَرَّ عَيْني ... أَحَبُّ إليَّ مِن لُبْسِ الشُّفوفِ

ومن أبياتها علم أنها تفضل حياة البادية، وأن بيتاً من الشعر تخفق فيه الرياح أحبّ إليها من القصر المنيف الذي تعيش فيه فاستجاب لرغبتها وطلّقها. والشّفوف: الثياب الرقيقة. وكلمة (تقَرّ) منصوبة بأن مضمرة، والمصدر المؤول منها معطوف على (لبسُ). والبيت من شواهد النحويين، وهو في سيبويه ١ ـ ٤٢٦، وابن عقيل ٢ ـ ١٢٧، والخزانة ٣ ـ ٥٩٢ ـ ٦٢١، ومغني اللبيب تحت أرقام ٤٧١، ٥١٦، ٦٧٠، ٨٦٤، ٩٤٨.

(٢) مصدر أوَى، وهو بضم الهمزة أو بكسرها مع كسر الواو وشد الياءِ.

(٣) يقال: وجَد عليه بمعنى: حزِنَ من أجله، وهذاا لمعنى يتفق مع قول الرسول ﷺ الآتي بعد ذلك: «يرحم الله لوطاً».

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة، وخرّجه الترمذي وزاد فيه: «ما بعث الله بعده نبيّاً إلا في ثروة من قومه»، ورواه ابن جرير من طرق مختلفة، عن الحسن، وعن أبي هريرة مع اختلاف في الروايات حيث تذكر فيه الجملة الأخيرة مرة، ولا تذكر فيه مرات.

الجزور[(١)] ، ومع أهل الطائف[(٢)] ، وفي غير موطن تقتضي مقالة لوط ، لكن محمداً ﷺ لم ينطق بشيءٍ من ذلك عزامة منه ونجدة ، وإنما خشي لوط أن يمهل الله أُولئك العصاة حتى يعصوه في الأضياف كما أمهلهم فيما قبل ذلك من معاصيهم فيمن مضى ، فتمنى ركناً من البشر يعاجلهم به وهو يعلم أن الله تعالىٰ من وراءِ عقابهم ، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «لم يبعث الله تعالىٰ بعد لوط نبياً إلاَّ في ثروة من قومه»[(٣)] ، أي: في منَعَة وعزة.

قوله عزَّ وجل:

﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾.

الضمير في ﴿قَالُوا۟﴾ ضمير الملائكة ، ويروى أن لوطاً لما غلبوه وهموا بكسر الباب وهو يمسكه قالت له الرُّسل: تنحَّ عن الباب فتنحَّى وانفتح الباب ، فضربهم جبريل عليه السلام بجناحه فطمس أَعينهم وعمُوا ، وانصرفوا على أَعقابهم يقولون:

---

(١) في الحديث أن المشركين جاءُوا بسَلَى جزور فطرحوه على النبي ﷺ وهويصلي ، قال ابن الأثير في كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر): «والسَّلَى: الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أُمه ملفوفاً فيه ، وقيل: هو في الماشية: السَّلَى ، وفي الناس: المشيمة ، والأول أشبه لأن المشيمة تخرج بعد الولد ، ولا يكون الولد فيها حين يخرج». والجَزُور: ما يصلح لأن يذبح من الإبل ، و(ولفظه أُنثى) ، يقال للبعير: هذه جزور سمينة ، والجمع: جَزَائر وجُزُر.

(٢) يشير إلى قصة خروجه ﷺ إلى الطائف ودعوته أهلها إلى الإسلام ، وما حدث له هناك ، فقد أغروا به سفهاءهم وصبيانهم يرجمونه بالحجارة حتى أدموا عقبيه الشريفين ، وانتهى به المطاف إلى البستان استراح بجواره ، ولجأ إلى الله يستعين به ويقول: «اللَّهُم إليك أَشكو ضعف قُوَّتي ، وقلَّة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربِّي وأنتَ ربّ المستضعفين ، إلى من تَكِلُني؟ إلى بعيد يَتَجَهَّمُني؟ أم إلى عدوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْري؟ إنْ لم يكُن بك عليَّ غضبٌ فلا أُبَالي ، أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقت به الظُّلمات ، وصَلح عليه أمر الدنيا من أن ينزل عليَّ غضبُك ، أو يَحلَّ بي سَخَطك ، لَكَ العُتبى حتى ترضى ، ولا حَوْل ولا قوَّة إلا بِك». لكن هذه المحنة لم تزد الرسول ﷺ إلا يقيناً وثباتاً على دعوته ، ومُضِياً حتى تحقق له النصر ، وتأمل قوله ﷺ في هذا الد عاء: «إنْ لم يكن بك علي غضبٌ فلا أُبالي» فهو لا يبالي بأي مشقَّة أوتعب ، وكل ما يريده هو رضى الله عزَّ وجلَّ.

(٣) هو جزءٌ من الحديث السابق ، ونصه كما رواه ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «فما بعث الله بعده من نبيّ إلا في ثروة من قومه». وفسَّر محمد بن عمرو أحد رواة الحديث الثروة بقوله: (والثروة: الكثرة والمَنَعة).

النَّجاءَ النَّجَاءَ فعند لوط قوم سحرة ، وتوعدوا لوطاً ففزع حينئذ من وعيدهم ، فحينئذ قالوا له: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ فَأَمِنَ ، ذكر هذا النقاش. وفي تفسير غيره ما يتقتضي أن قولهم: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ كان قبل طمس العيون. ثم أمروه بالسُّرى وأعلموه أن العذاب نازلٌ بالقوم ، فقال لهم لوط: فعذِّبوهم الساعة ، قالوا له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ ، أي: بهذا أمر الله ، ثم آنسوهُ في قلقه بقولهم: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

وقرأ نافع وابن كثير: [فَاسْرِ] من سَرَى يَسْرِي إذا سار في أثناءِ الليل ، وقرأ الباقون: ﴿فَأَسْرِ﴾ من أَسْرَى إذا سار أوَّل الليل ، والقِطْع: القِطْعة من الليل ، ويحتمل أن لوطاً أَسْرَى بأهله من أول الليل حتى جاوز البلد المقتلع ، ووقعت نجاته بِسَحَر فتجتمع هذه الآية مع قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾[1] ، وبيت النابغة جمع بين الفعلين في قوله:

أَسْـرَتْ عَلَيْـهِ مِـن الْجَـوْزَاءِ سَارِيَـةٌ ... تُزْجِي الشَّمَالُ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرَدِ[2]

فذهب قوم إلى أن (سَرَى) و(أَسْرَى) بمعنى واحد ، واحتجوا بهذا البيت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأقول: إن البيت يحتمل أنهما لِمَعْنَيَيْنِ ، وذلك أظهر عندي ، لأنه قصد وصف هذه الديمة وأنها ابتدأت من أول الليل وقت طلوع الجوزاءِ في الشتاءِ.

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو: [إِلاَّ امْرَأَتُكَ] بالرفع على البدل من ﴿أَحَدٌ﴾ ، وهذا هو الأوجه إذا استُثني من منفيّ ، كقولك: «ما جاءَني أحدٌ إلاَّ زيدٌ» ، وهذا هو استثناءٌ من الملْتَفِتِينَ ، وقرأ الباقون: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ بالنصب ، ورأت ذلك فرقة من النحاة الوجهَ في الاستثناءِ من منفيّ ، إذ الكلام المنفي في هذا مستقل بنفسه كالموجب فإذاً هو مثله في الاستقلال ، فحكمه حكمه في نصب المستثنى ، وتأولت فرقة ممن قرأ: ﴿إِلَّا

(١) من الآية (٣٤) من سورة القمر.

(٢) البيت من قصيدة النابغة المشهورة التي يقول في مطلعها:

يـا دارَ مَيَّـةَ بـالْعَلْيَـاءِ فـالسَّنَـدِ ... أَقْـوَتْ وطـالَ عَلَيْهَـا سـالِـفُ الأَبَـدِ

ورواية الديوان: (سَرَتْ) ، والجوزاءُ: منزلة من منازل الشمس الربيعية ، وهي من الأنواءِ إذا نشأ السحاب من جهتها كان شديد المطر. والسَّارية تسير باللَّيل ، وتُزْجي: تسوق وتدفع ، والبَرَدُ: الماءُ المَتَجَمِّدُ في قطع صغيرة تنزل من السحاب ، وَيُسَمَّى حبّ الغمام وحبّ المُزْنِ.

أَمْرَأَتَكَ﴾ بالنصب أَن الاستثناءَ وقع من الأَهل كأَنه قال: فأَسْر بأَهلك إِلا امرأَتَك» ، وعلى هذا التأْويل لا يكون إِلا النصب ، وقال أَبو عبيد القاسم بن سلام: «لو كان الكلام: ولا يلتفتُ ـ برفع الفعل ـ لصَحَّ الرفع في قوله: ﴿إِلَّا أَمْرَأَتُكَ﴾ ، ولكنه نهيٌ ، فإِذا اسْتُثْنِيَت «المرأَة» من ﴿أَحَدٌ﴾ وجب أَن تكون «المرأَة» أُبيح لها الالتفات فيفسد معنى الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الاعتراض حسَنٌ يلزم الاستثناءَ من [أَحد] رفَعْتَ التاءَ أَونصبْتَ ، والانفصال عنه يترتب بكلام حُكِي عن المبرد ، وهو أَن النَّهْيَ إِنما قُصد به لوط وحده ، والالتفات منفي عنهم بالمعنى ، أَي: لا تدع أَحداً منهم يلتفت ، وهذا كما تقول لرجل: «لا يقم من هؤلاءِ أَحد إِلاَّ زيدٌ» ، وأُولئِكَ لم يسمعوك ، فالمعنى: لا تدع أَحداًمن هؤلاءِ يقوم ، والقيام بالمعنى منفي عن المشار إِليهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وجملة هذا أَن لفظ الآية هو لفظ قولنا: «لا يقُمْ أَحدٌ إِلا زيدٌ» ، ونحن نحتاج أَن يكون معناها معنى قولنا: «لا يَقُوم أَحدٌ إِلا زيدٌ» ، وذلك اللفظ لا يرجع إِلى هذا المعنى إِلا بتقدير ما حكيناه عن المبرّد ، فتدبره. ويظهر من مذهب أَبي عبيد أَن الاستثناءَ إِنما هو «الأَهل»[1] ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: «فأَسْر بأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِن اللَّيلِ إِلاَّ امرأَتك» ، وسقط قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾[2].

---

(١) قيل: إِذا جعلنا الاستثناءَ من الأَهل كان فيه إِشكالٌ من جهة المعنى ، إِذ يلزم أَلا يكون أُسْرِيَ بها ، ولما التفتت دلَّ ذلك على أنها قد سرت معهم قطعاً ، وأُجيب بأَنها لم يُسْرَ بها ولكنها تبعتهم ثم التفتت فأَصابها الهلاك.

(٢) قال بعض العلماءِ: الذي يظهر أَن الاستثناءَ على كلتا القراءَتين منقطع لم يُقصد به إِخراجها من المأْمور بالإِسراء بهم ، ولا من المنْهِيِّين عن الالتفات ، ولكن استُؤْنف الإِخبار عنها ، فالمعنى: (لكن امرأَتك يجري لها كذا وكذا) ، ويؤيِّد هذا المعنى أَن مثل هذه الآية جاءَت في سورة (الحِجْر) وليس فيها استثناءٌ أَلْبَتَّة ، قال تعالىٰ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥] ـ فلم تقع العناية في ذلك إِلا بذكر من أَنجاهم الله تعالىٰ ، فجاءَ شرح حال امرأة لوط في سورة (هود) تَبَعاً لا مقصوداً مما تقدم ، وإِذا اتَّضح هذا المعنى عُلم أن القراءَتين ورَدَتا على ما تقتضيه العربية في الاستثناءِ المنقطع ، ففيه النصب والرفع ، فالنَّصب لُغَة أَهل الحجاز وعليه الأَكثر ، والرفع=

والظاهر في ﴿يَلْتَفِتْ﴾ أنها من التفات البصر ، وقالت فرقة: هي من: لَفَتَ الشَّيءَ يلفته إذا ثَنَاهُ ولَواه ، فمعناها: «وَلاَ يَتَثَبَّط» ، وهذا شاذ مع صحته ، وفي كتاب الزهراوي أن المعنى: «وَلا يَلْتفت أَحدٌ إِلى ما خلف بل يخرج مسرعاً مع لوط عليه السلام» ، وروي أَن امرأَة لوط لما سمعت الهدة ردّت بصرها وقالت: واقوماه ، فأَصابها حجرٌ فقتلها. وقرأَت فرقة: [الصُّبُحُ] بضم الباءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

رُوي أَن جبريل عليه السلام أَدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط واقْتلعها ورفعها حتى سمع أَهل السماءِ الدنيا صُراخ الديكة ونُباح الكلاب ، ثم أَرسلها معكوسة وأَتبعهم الحجارة من السماءِ. ورُوي أَن جبريل عليه السلام أَخذهم بخوافي جناحه[1]. ويُرْوى

= لبني تميم وعليه اثنان من القُرَّاءِ. ا هـ. ولكن أبا حيان لم يقبل هذا الكلام ، وردَّ عليه بأنه لا تحقيق فيه ، فإنه إذا لم يُقصد إخراجُها من المأمور بالإسراءِ بهم ، ولا من المنْهِيِّين عن الالتفات وجُعل استثناءً منقطعاً كان من الاستثناءِ المنقطع الذي لم يتوجه عليه العامل بحالٍ ، وهذا النوع من الاستثناءِ المنقطع يجب فيه النصب بإجماع العرب ، وليس فيه النصب والرفع باعتبار اللغتين ، وإنما هذا في الاستثناءِ المنقطع الذي يمكن توجّه العامل عليه ، وفي كلا النوعين من الاستثناءِ المنقطع يكون ما بعد (إلا) من غير الجنس المستثنى منه ، وكونه هنا جاز فيه اللغتان دليل على أنه مما يمكن أن يتوجَّه عليه العامل ، وهو قد فرض أنه لم يُقْصد بالاستثناءِ إخراجها من المأمور بالإسراءِ بهم ولا من المنْهِيِّين عن الالتفات ، فكان يجب فيه النصب إذ ذاك قولاً واحداً. ا هـ.

(١) الخَوَافي: ريشات أربع إذا ضمَّ الطائر جناحيه خَفِيَتْ ، وهي بَعْدَ المناكب ، والواحدة: خافية: قال في اللسان: «وفي الحديث: (إن مدينة قوم لوط حملها جبريل عليه السلام على خَوَافي جناحه) ، قال الأصمعي: هي الريش الصغار التي في جناح الطائر ، ضدُّ القوائم ، وفي حديث أبي سفيان: ومعي خَنْجر مثل خافية النَّسْر» ا هـ. وقول الأصمعي يذكرنا بقول رؤبة:

خُلِقْتُ مِنْ جناحِكَ الغُدَافي ... مِنَ القُدَامَى لا مِنَ الخَوَافي

وبقول الشاعر:

فَإِنَّ الخَوَافي قُوَّةٌ للقَوَادِمِ

وفي المثل:

مَا جُعل القَوَادم كَالْخَوَافي

أَن مدينة منها نُجِّيت كانت مختصة بلوطٍ عليه السلام يقال لها: زُغَر[١].

و﴿ أَمْرُنَا ﴾ في هذه الآية يحتمل أَن يكون مصدراً من: أَمَرَ، ويكون في الكلام حذف مضاف تقديره: مُقْتضي أَمرنا. ويحتمل أَن يكون واحد الأُمور. والضمير في قوله ﴿ عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ للمُدُن، وأُجْري ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ كذلك، والمراد على أَهلها، ورُوي أَن الحجارة استوفت منهم من كانوا خارج مدنهم حتى قتلتهم أَجمعين، ورُوي أَنه كان منهم في الحَرَم رجل فبقي حجره معلقاً في الهواءِ حتى خرج من الحرم فقتله الحَجَر، «و(أَمْطَرَ) أَبداً إِنما يستعمل في المكروه، و(مطر) يستعمل في المحبوب»، هذا قول أَبي عبيدة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس كذلك، وقوله تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾[٢] يردُّ هذا القول، لأَنهم إِنما ظنُّوه معتاد الرحمة.

وقوله: ﴿ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ اختلف فيه، فقال ابن زيد: ﴿ سِجِّيلٍ ﴾: اسم السماءِ الدنيا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، ويردُّه وصفه بـ ﴿ مَّنضُودٍ ﴾. وقالت فرقة: هو مأْخوذ من لفظ السِّجِلِّ[٣]، أَي: هي من أَمْر كتب عليهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد، وقالت فرقة: هو مأْخوذٌ من السَّجْلِ إِذا أُرسل الشيْءُ كما يُرسل

---

(١) في (التّاج): وزُغَر كزُفر أبو قبيلة.. وقيل: اسم ابنة لوط عليه السلام، ومنه زُغَرَةُ بالشام لأنها نزلت بها فسميت باسمها، فهي بمشارف الشام، قال الأزهري: وإيَّاها عنى أبو داود في قوله:

كَكِنَانَـةِ الـزُّغَـرِيِّ غَشَّـاهَـا مِـنْ الـذَّهَـبِ الـدُّلامِـص

(٢) من الآية (٢٤) من سورة الأحقاف.

(٣) قال في الصحاح: (السِّجِلُّ: الصَّكُّ، وقد سَجَّل الحاكم تَسْجيلا). وفي اللسان: (وقيل: من سِجِّيل: كقولك من سِجِلٍ أيْ مما كُتب لهم). وفي المعجم الوسيط: (سَجَّل: كتب في السِّجلّ، وسَجَّل القاضي: حَكَم وقضى وأثبت حكمه في السِّجِلّ). فالسِّجِلُّ هو الديوان الذي تُسَجَّل فيه الأحكام والأشياءُ وتُثْبت.

السَّجْلُ ، كما تقول: قالها مُسْجَلَةً[(١)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف. وقالت فرقة: ﴿ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ معناه: من جهنم ، لأَنه يقال: «سِجِّيلٌ وسِجِّين» ، حُفظ فيها بدل النون لامٌ ، كما قالوا: أُصَيْلالٌ وأُصَيْلانٌ[(٢)]. وقالت فرقة: [سِجِّيلٌ] معناه: شديد ، وأَنشد الطبري في ذلك:

. . . . ضرْباً تَوَاصَى بِهِ الأَبْطَالُ سِجِّيلاً[(٣)]

والبيت في قصيدة نونية: سِجِّيناً. وقالت فرقة: [سِجِّيلٌ] لفظة غير عربية عُبِّر عنها بالعربية وأَصلها: «سَنْجٌ وَجِل»[(٤)] ، وقيل غير هذا في أَصلها ، ومعنى اللفظة: ماءٌ وطينٌ ، هذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وابن جُبير ، وعكرمة ، والسدي ، وغيرهم ، وذهبت هذه الفرقة إِلى أَن الحجارة التي رُمُوا بها كانت كالآجُرّ المطبوخ[(٥)] ، أَصلها من طين قد تَحَجَّر ، نصّ عليه الحسن ، وهذا قول يشبه ، وهو الصواب الذي عليه الجمهور. وقالت فرقة: معنى ﴿ سِجِّيلٍ ﴾: حجر مخلوطٌ بِطين ، أَي حَجَر وطِينٌ ، ويمكن أَن يُرَدّ هذا إِلى الذي قبله ، لأَن الآجُرّ وما جرى مجراه يمكن أَن يقال فيه: حَجَر وطين ، لأَنه قد أَخذ من كل واحد بحظّه ، وهي من طين من

---

(١) أي: مُرْسَلَة ، هذا والسَّجْلُ هو الدَّلْوُ الضخمة المملوءَة ماءً ، مذكر ، وجمعه: سِجَالٌ وسُجولٌ ، وإذا كان فارغاً لا يقال له سَجْلٌ ، وإنما هو دَلْوٌ. (اللسان).

(٢) من ذلك قول النابغة:

وقَفْتُ فيها أُصَيْلاناً أُسائِلُها ... عَيَّتْ جواباً وما بالرَّبع مِنْ أحَدِ

وأُصيلان: تصغير أصيل بزيادة نون على غير قياس ، والتصغير للتحبيب ، وقد رُوي البيت باللام: أُصيْلالا.

(٣) هذا عجز بيت لابن مقبل ، قال ذلك في (اللسان: سجل) ، والبيت بتمامه على رواية اللسان:

وَرَجْلَةٍ يَضْرِبُونَ الْبَيْض عَنْ عُرُضٍ ... ضَرْباً تَواصَتْ بِهِ الأبْطَالُ سِجِّينا

قال: وسِجِّيل وسِجِّين بمعنى واحد. وَرَوَى عن أبي عُبَيْدَة قوله مستشهداً بهذا البيت: (من سجِّيل ، تأويلُه: كثيرةٌ شديدةٌ) ، ورُوي البيت في القرطبي: (يَضْربُونَ الْبَيْضَ ضَاحِيَةً).

(٤) قال في القرطبي: (قالت طائفة منهم ابن عباس ، وسعيد بن جُبير ، وابن إسحٰق: إن سجيلا لفظة غير عربية عُرِّبت ، أصلها: «سَنْجٌ وجيل» ، ويقال: «سَنْكٌ وَكِيل» بالكاف موضع الجيم ، هما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما اسماً واحداً).

(٥) الآجُرّ: الطين المطبوخ ، يبنى به ، والواحدة: أُجُرَّة ، وآجُرَةٌ ، وآجِرَةٌ. قال أبو عمرو: فارسيٌّ مَعَرَّب ، (اللسان).

حيث هو أَصلها، ومن حَجَر من حيث صلبت.

و﴿مَّنضُودٍ﴾ معناه: بعضه فوق بعض، أَي تتَابَع، وهي صفة لـ ﴿سِجِّيلٍ﴾، وقال الربيع بن أَنس: نضده: أَنه في السماءِ منضود مُعَدّ بعضه فوق بعض.

و﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معناه: معلمة بعلامة، فقال عكرمة وقتادة: إِنه كان فيها بياض وحمرة، ويُحكى أَنه كان في كل حجر اسم صاحبه، وهذه اللفظة هي من سوَّم إِذا أَعلم، ومنه قول النبي ﷺ يوم بدر: «سَوِّمُوا فقد سَوَّمت الملائكة»، ويحتمل أَن تكون ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ ها هنا بمعنى: مُرْسَلَة، وسَوْمُهَا من الهبوط. وقوله: ﴿وَمَا هِيَ﴾ إِشارة إِلى الحجارة. و﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، قيل: يعني قريشاً، وقيل: يريد عموم كل من اتصف بالظلم، وهذا هو الأَصح لأَنه رُوي عن النبي ﷺ أَنه قال: «سيَكُونُ في أُمتي خَسْف ومَسْخ وقَذْف بالحِجَارة»[1]. وقد ورد أَيضاً حديث: «إِنَّ هذه الأُمة بِمَنْجَاةٍ من ذلك». وقيل: يعني بـ ﴿هِيَ﴾ المدن، ويكون المعنى الإِعلام بأَن هذه البلاد قريبة من مكة، والأَول أَبين، ورُوي أَن هذه البلاد كانت بين المدينة والشام، وحكى الطبري في تسمية هذه المدن: صنعة، وصعوة، وعثرة، ودوما، وسدوم[2]، وسدوم هي القرية العظمى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾.

التقدير: وإِلى مدين أَرسلنا أَخاهم شُعيباً، واختلف في لفظة ﴿مَدْيَنَ﴾ ـ فقيل: هي

---

(١) رواه الترمذي في الفتن، وأبو داود في الملاحم، وابن ماجه في الفتن، والإمام أحمد في مسنده (٢ ـ ١٦٣)، ولفظه في المسند عن عبد الله بن عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا رأيتم أُمّتي تهاب الظالم أن تقول له: أنت ظالم، فقد تودع منهم»، وقال رسول الله ﷺ: «يكون في أُمّتي خَسْفٌ ومَسْخٌ وقَذْفٌ».

(٢) اختلفت الأصول في كتابة هذه الأسماء، وقد آثرنا اختيار ما يتفق مع ما في الطبري حيث إن ابن عطية نقل الخبر عن الطبري. وآثار هذه القرى معروفة الآن بالأغوار في الأرْدُن.

بُقْعة ، فالتقدير على هذا: «وإلى أَهل مدين» ، كما قال: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾[1] ، وقيل: كان هذا القطر في ناحية الشام ، وقيل: ﴿ مَدْيَنَ ﴾ اسم رجل كانت القبيلة من ولده فسُمِّيت باسمه ، و«مَدْيَن» لا ينصرف في الوجهين ، حكى النقاش أن «مَدْيَن» هو ولد إبراهيم الخليل لصلبه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد.

وقد قيل: إن ﴿ شُعَيْبًا ﴾ عربي ، فكيف يجتمع هذا وليس للعرب اتصال بإبراهيم إلاَّمن جهة إسماعيل فقط؟ ودعاءُ شعيب إلى عبادة الله يقتضي أَنهم كانوا يعبدون الأَوثان ، وذلك بَيِّنٌ من قولهم فيما بعد ، وكُفْرُهم هو الذي استوجبوا به العذاب لا معاصيهم ، فإن الله لم يعذب قطُّ أُمَّة إلاَّ بالكفر ، فإن انضافت إلى ذلك معصية كانت تابعة ، وأَعني بالعذاب عذاب الاستئصال العام. وكانت معصية هذه الأُمة الشنيعة أَنهم كانوا تواطؤوا أَن يأخذوا ممن يرد عليهم من غيرهم وافياً ويُعطوا ناقصاً في وزنهم وكيْلهم ، فنهاهم شُعيب بوحي من الله تعالىٰ عن ذلك ، ويظهر من كتاب الزجّاج أَنهم كانوا تراضوا بينهم بأن يبخس بعضُهم بعضاً.

وقوله: ﴿ بِخَيْرٍ ﴾ قال ابن عباس: معناه: في رخص من الأَسعار. و«عذاب اليوم المحيط» هو حلول الغلاءِ المُهْلِك ، وينظر هذا التأويل إلى قول النبي ﷺ: «ما نقص قومٌ المكيال والميزان إلاَّ ارتفع عنهم الرزق»[2]. وقيل: قوله: ﴿ بِخَيْرٍ ﴾ عامٌ في جميع نعم الله تعالىٰ ، «وعذاب اليوم» هو الهلاك الذي حلَّ بهم في آخر. وجميع ما قيل في لفظ «خَيْر» منحصر فيما قلناه. وَوُصِفَ اليوم بالإِحاطة وهي من صفة العذاب على جهة التجوّز ، إذ كان العذاب في اليوم ، وقد يصح أَن يوصف اليوم بالإِحاطة على تقدير: محيط شرُّه ، ونحو هذا.

وكرر عليهم الوصية في «الكيل والوزن» تأكيداً وبياناً وعظة ، لأَن ﴿ وَلَا تَنقُصُوا۟ ﴾ هو ﴿ أَوْفُوا۟ ﴾ بعينه لكنهما منحيان إلى معنى واحد.

---

(١) من الآية (٨٢) من سورة يوسف.
(٢) رواه في الموطأ ، ولفظه فيه: «ولا نَقَص قومٌ المكيال والميزان إلا قُطع عنهم الرزق».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وحدثني أَبي رحمه الله أنه سمع أَبا الفضل بن الجوهري على المنبر بمصر يعظ الناس في الكيل والوزن فقال: «اعتبروا في أَن الإِنسان إِذا رفع يده بالميزان فامتدت أَصابعه الثلاثة والتقى الإِبهام والسبابة على ناصية الميزان جاءَ من شكل أَصابعه المكتوبة، فكأَن الميزان يقول: الله الله».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا وعظ مليح مُذكِّر.

و﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: العدلُ ونحوه، و«الْبَخْس»: النقصان، و﴿تَعْثَوْا﴾ معناه: تَسْعَون في فساد، وكرر ﴿مُفْسِدِينَ﴾ على جهة التأْكيد، يقال: عَثَا يَعْثُو أَو عَثى يَعْثي، وعَثَّ ويَعُثُّ، وعاثَ يَعيثُ إِذا أَفسد ونحوه من المعنى. والعُثَّة: الدودة التي تفسد ثياب الصوف[1].

وقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: معناه: الذي يُبقي الله لكم من أَموالكم بعد توفيتكم الكيل والوزن خيرٌ لكم مما تستكثرون أَنتم به على غير وجهه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تفسير يليق بلفظ الآية.

وقال مجاهد: معناه: طاعة الله: وقال ابن عباس أَيضاً: معناه: رزق الله. وهذا كله لا يُعطيه لفظ الآية، وإِنما المعنى عندي: «إِبقاءُ الله عليكم إِن أَطعتم». وقرأَ إِسماعيل بن جعفر عن أَهل المدينة بتخفيف الياءِ، وهي لغة.

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط في أَن تكون البقية خيراً لهم، وأَما مع الكفر فلا خير لهم في شيءٍ من الأَعمال، وجواب هذا الشرط متقدم.

و«الحفيظ»: المراقب الذي يحفظ أَحوال من يراقب، والمعنى: إِنما أَنا مُبلِّغ، والحفيظ المحاسب هو الذي يجازيكم بالأَعمال.

---

(١) في (اللسان): العُثَّة: السُّوسة أو الأَرَضة التي تلحس الصوف، والجمع: عُثٌّ وعُثَثٌ.

قوله عزّ وجلّ:

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾.

قرأ جمهور الناس: [أصلواتُكَ] بالجمع، وقرأ ابن وثاب: (أَصلاَتُكَ) بالإفراد، وكذلك قرأ في التوبة: ﴿ إِنَّ صَلَوٰتَكَ ﴾[١]، وفي (المؤمنون): [عَلَى صَلاتِهِم][٢]، كل ذلك بالإفراد. واختلف في معنى الصلاة هنا ـ فقالت فرقة: أرادوا الصلوات المعروفة، ورُوي أن شعيباً عليه السلام كان أكثر الأنبياءِ صلاة، وقال الحسن: لم يبعث الله نبياً إلا فرض عليه الصلاة والزكاة. وقيل: أرادوا: قراءَتك، وقيل: أرادوا: أَمَسَاجدك؟ وقيل: أرادوا: أَدَعَواتك؟.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأقرب هذه الأقوال الأول والرابع.

وجعلوا «الأمر» من فعل الصلوات على جهة التَّجوّز، وذلك أن كل من حصل في رتبة من خير أو شرّ ففي الأكثر تدعوه رتبة إلى التَّزَيّد من ذلك النوع، فمعنى هذا: أَلَمَّا كنت مصلياً تجاوزت إلى ذمّ شرعنا وحالنا؟ فكأن حاله من الصلاة جَسَّرَتْه على ذلك فقيل: أَمَرَتْهُ، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾[٣].

قولهم: ﴿ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ نصٌّ في أنهم كانوا يعبدون غير الله تعالىٰ، وقرأ جمهور الناس: [نَفْعَلَ] و[نَشَاءُ] بنون الجماعة فيهما، وقرأ الضحاك بن قيس: [تفعَلَ] و[تَشَاءُ] بتاءِ المخاطبة فيهما، ورُويت عن أبي عبد الرحمن: [نَفْعَل] بالنون [مَا تَشاءُ] بالتاءِ، ورُويت عن ابن عباس رضي الله عنهما، فأما من قرأ بالنون فيهما فـ ﴿ أَن ﴾ الثانية عطف على ﴿ مَا ﴾ لا على ﴿ أَن ﴾ الأولى، لأن المعنى يصير: أَصلواتك تأمرك

---

(١) من قوله تعالى في الآية (١٠٣) من سورة (التوبة) ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾.
(٢) من قوله تعالى في الآية (٩) من سورة (المؤمنون) ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾.
(٣) من الآية (٤٥) من سورة العنكبوت.

أَن نفعل في أَموالنا ما نشاءُ؟ وهذا قلْب ما قصدوه، وأَما من قرأَ بالتاءِ فيهما فيصح عطف ﴿أَن﴾ الثانية على ﴿أَنْ﴾ الأُولى، قال بعض النحويين: ويصح عطفهاعلى ﴿مَا﴾ ويتم المعنى في الوجهين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويجيءُ ﴿نَتْرُكَ﴾ في الأَوَّل بمعنى: نرفض، وفي الثاني بمعنى: نُقرّر، فيتعذر عندي هذا الوجه لما ذكرته من تنوع التَّرك على الحكم اللفظي، أَو على حذف مضاف، أَلا ترى أَن التَّرك في قراءَة من قرأَ بالنون في الفعلين إنما هو بمعنى الرفض غير متنوع، وأَما من قرأَ بالنون في ﴿نَفْعل﴾ والتاءُ في ﴿تَشَاءُ﴾ فـ ﴿أَنْ﴾ معطوفة على الأُولى، ولا يجوز أَن تنعطف على ﴿ما﴾ لأَن المعنى أَيضاً ينقلب فتدبره.

وظاهر فعلهم هذا الذي أَشاروا إِليه هو بخس الكيل والوزن الذي تقدم ذكره، ورُوي أَن الإِشارة هي إِلى قرضهم الدينار والدرهم وإِجراءِ ذلك مع الصحيح على جهة التدليس، قاله محمد بن كعب، وغيره. ورُوي عن سعيد بن المسيب أَنه قال: قطع الدنانير والدراهم من الفساد في الأَرض، فتأَول ذلك بهذا المعنى المتقدم، وتُؤُوِّل أَيضاً بمعنى أَنه تبديل السكك التي يقصد بها أَكل أَموال الناس.

واختلف في قولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ ـ فقيل: إِنّما كانت أَلفاظهم: «إِنك لأَنت الجاهل السَّفيه» فكنى الله عن ذلك، وقيل: بل هذا لفظهم بعينه إِلا أَنهم قالوه على جهة الاستهزاءِ، قاله ابن جريج، وابن زيد، وقيل: المعنى: إِنك لأَنت الحليم الرشيد عند نفسك، وقيل: بل قالوه على جهة الحقيقة وأَنَّه اعتقادهم فيه، فكأَنهم فنَّدوه[1] أَي: أَنت حليم رشيد فلا ينبغي لك أَن تأْمرنا بهذه الأَوامر ويشبه هذا المعنى قول اليهود من بني قريظة ـ حين قال لهم رسول الله ﷺ «يا إِخوة القردة»: «يا محمد ما علمناك جهولاً»[2].

---

(١) يقال: فَنَّد فلاناً وأَفْنَدَه: خَطَّأَ رأيه، وفي التنزيل العزيز حكاية عن يعقوب: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾، ويقال: فَنَّدَ رأيَه: أضعفه وأبطله.

(٢) لم نعثر على الحديث بهذا اللفظ، ولكن الذي رواه الإمام أحمد ينسب الكلام لعائشة رضي الله عنها، ولفظه عن أنس بن مالك أن اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا: السَّام عليكم، فقال النبي ﷺ: السَّام عليكم، فقالت عائشة: السَّام عليكم يا إخوان القردة والخنازير ولعنة الله وغضبه، فقال: يا عائشة=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والشبه بين الأمرين إنما هو بالمناسبة بين كلام شعيب وتلطفه وبين ما بادر به محمد عليه الصلاة والسلام بني قريظة.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ الآية. هذه مراجعةٌ لفظية واسترسالٌ[1] حسن واستدعاءٌ رفيق، ولهذه الآية ونحوها من محاورة شعيب عليه السلام قال فيه رسول الله ﷺ: «ذاكَ خطيب الأنبياءِ». وجواب الشرط الذي في قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ محذوف، تقديره: أأَضِلُّ كما ضللتم وأتْركُ تبليغ الرسالة؟ ونحو هذا مما يليق بهذه المحاجة. و﴿بَيِّنَةٍ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى: (بيان) أو بيِّن ودخلت الهاءُ للمبالغة كعَلاَّمة، ويحتمل أن تكون صفة لمحذوف فتكون الهاءُ هاءَ تأنيث[2].

وقوله: ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ يريد: خالصاً من الفساد الذي أدخلتم أنتم في أموالكم، ثم قال لهم: ولست أُريد أن أفعل الشيءَ الذي نَهيتكم عنه من نقص الكيل والوزن فأستأثر بالمال لنفسي، وما أُريد إلا إصلاح الجميع، و﴿أُنِيبُ﴾ معناه: أرجع وأتوب وأستند[3].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ معناه: لا يكسبَنَّكم، يقال: جرَمه كذا وكذا وأَجْرمه إذا أكسبه،

= مه، فقالت: يا رسول الله أما سمعت ما قالوا؟ فقال: أوما سمعت ما رددْتُ عليهم؟ يا عائشة لم يدخل الرفق في شيءٍ إلا زانه ولم ينزع من شيءٍ إلا شانه.

(١) جاءت هذه العبارة في بعض النسخ: «هذه مراجعة لطيفة واستنزال حسن»، واختارها البحر المحيط في النقل عن ابن عطية.

(٢) ويكون التقدير: (أرايتم إن كنت على محجَّةٍ بيِّنَةٍ).

(٣) من الاستناد بمعنى الاعتماد على الله واللجوء إليه.

كما يقال: كسب وأَكْسَب بمعنى[١]، ومن ذلك قول الشاعر:

وَلَقَـدْ طعنْـتُ أَبـا عُيَيْنَـةَ طعْنَـةً ... جرَمَت فَزَارةُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا[٢]

وقـرأ الجمهـور: ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ بفتـح اليـاءِ، وقـرأ الأعمـش، وابـن وثـاب: [يُجْرِمَنَّكُمْ] بضمها، و﴿شِقَاقِيَ﴾ معناه: مُشَاقَّتي وعداوتي[٣]، و﴿أَن﴾ مفعولة بـ ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾. وكانت قصة قوم لوط أَقرب القصص عهداً بقصة قوم شعيب، وقد يحتمل أَن يريد: وما منازل قوم لوط منكم ببعيد، فكأَنه قال: وما قوم لوط منكم ببعيد في المسافة، ويتضمن هذا القولُ ضربَ المثل لهم بقوم لوط.

وقرأَ الجمهور: ﴿مِّثْلُ﴾ بالرفع على أَنه فاعل ﴿يُصِيبَكُم﴾، وقرأَ مجاهد، والجحدري، وابن أَبي إِسحق: [مِثْلَ] بالنصب، وذلك على أَحد وجهين: إِما أَن يكون [مِثل] فاعلاًوفتحة اللام فتحة بناءٍ لما أُضيف لغير متمكن، فإِن [مِثْل] قد يجري مجرى الظروف في هذا الباب وإِن لم يكن ظرفاً محضاً، وإِما أَن يقدر الفاعل محذوفاً يقتضيه المعنى، ويكون [مِثل] منْصوباً على النعت لمصدر محذوف تقديره: إِصابة مثل.

وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ الآية. تقدم القول في مثل هذا من ترتيب هذا الاستغفار قبل التوبة، و﴿وَدُودٌ﴾معناه أَن أَفعاله ولطفه بعباده لما كانت في غاية الإِحسان إِليهم كانت كفعل من يَتودّد ويود المصنوع له.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ﴾ الآية. ﴿نَفْقَهُ﴾ معناه: نفهم، وهذا نحو قول

---

(١) (جَرَم) في التعدية مثلُ (كَسَبَ)، يتعدَّى إلى واحد فتقول: جرم فلانٌ الذنبَ، وكسب زيدٌ المالَ، ويتعدَّى إلى اثنين فتقول: جَرَمتُ زيداً الذنبَ، وكَسَبْتُ زيداً المال، وبالألف يتعدَّى إلى اثنين أيضاً، تقول: أجْرم زيدٌ عمراً الذنب، وأكسبْتُ زيداً المال.

(٢) هذا البيت قاله أسماءُ بن الضَّريبة، وفزارة تروى مرفوعة بمعنى حق لها الغضب، وتروى منصوبة والمعنى: جرمتهم الطعنة أن يغضبوا، والمشهور (طعنتُ) بتاء المتكلم، ولكن الصواب أنه يخاطب غيره فهي بالفتح. (راجع اللسان والتاج) هذا وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت في المائدة، وفي غيرها.

(٣) (شِقَاقي) في موضع رفع، و﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ في موضع نصب، والمعنى: لا تحملنكم معاداتي على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار، وهذا قول الحسن وقتادة، والشِّقاق بمعنى العداوة، لأن كل واحد في شِقّ، ومنه قول الأخطل:

ألا مَـــنْ مُبْلِـــغٌ عَنـــي رســـولاً ... فَكَيْـفَ وجَـدْتُـمُ طعْـمَ الشِّقَـاقِ؟

والمراد بالرسول هنا الرسالة، وهي ما ذكره في الشطر الثاني، أي: كيف وجدتم نتيجة العداوة؟.

قريش: ﴿ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ ﴾[١] ، ومعنى ﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾: أي ما نفقه صحة قولك ، وأما فِقْهُهُم لفظَه ومعناه فمتحصل. وروي عن ابن جبير ، وشريك القاضي في قولهم: ﴿ ضَعِيفًا ﴾ أنه كان ضرير البصر أعمى ، وحكى الزهراوي أن حِمْيَر تقول للأعمى: ضعيف ، كما يقال له: ضرير ، وقيل: كان ناحل البدن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله ضعيف ولا تقوم عليه حجة بضعف بصره أو بدنه ، والظاهر من قولهم: ﴿ ضَعِيفًا ﴾ أنه ضعيف الانتصار والقدرة ، وأن رهطه الكفرة كانوا يراعون فيه.

والرَّهْط: جماعة الرجل[٢] ، ومنه الراهطاءُ لأن اليربوع يعتصم به كما يفعل الرجل برهطه[٣]. و﴿ لَرَجَمْنَٰكَ ﴾ قيل: معناه: بالحجارة ، وهو الظاهر ، قاله ابن زيد. وقيل: معناه: لرجمناك بالسَّب ، وبه فسّر الطبري ، وهذا أيضاً تستعمله العرب ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾[٤] ، وقولهم: ﴿ بِعَزِيزٍ ﴾ أي: بذي منعةٍ وعزَّة ومنزلة في نفوسنا.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ ﴾ الآية. «الظِّهْرِيّ»: الشيءُ الذي يكون وراءَ الظَّهر ، وقد يكون الشيءُ وراءَ الظهر بوجهين في الكلام: إمَّا بأن يُطرح ، كما تقول: جعلتَ كلامي وراءَ ظهرك ودَبْرَ أُذُنك ، ومنه قول الفرزدق:

تَميمُ بْنَ زَيْدٍ لا تَكُونَنَّ حاجَتي بِظَهْرٍ فلا يعْيا عَلَيَّ جوابُها[٥]

---

(١) من الآية (٥) من سورة فصلت ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ الخ الآية.

(٢) في (اللسان): «رهْط الرجل: قومه وقبيلته ، والرهط عدد يجمع من ثلاثة إلى عشرة ، وقيل: ما دون العشرة من الرجال لا يكون فيهم امرأة ، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾. والجمع: أَرْهُطٌ وأرهاطٌ وأراهط».

(٣) أول حفيرة يحتفرها اليربوع في جِحَرِهِ تسمى الرُّهَطَةُ والرُّهطاءُ والراهطاءُ ، وهي بين القاصعاء والنافقاءِ وفيها يخبىء أولاده.

(٤) من الآية (٤٦) من سورة مريم.

(٥) رواية اللسان: تميمُ بن قَيْس ، وقد قال: (وظَهَرَ بحاجة الرجل وظَهَّرها وأظهرها: جعلها بظَهْر واستخف بها ، أي جعلها وراءَ ظهره تهاوناً بها). وعَيَّ بالأمر: عجز عنه فهو عيٌّ والجمع: أَعْيَاءٌ ، أو هو عييٌّ والجمع: أَعْيِيَاءٌ ، والفرزدق يحذر تميمَ بن قيس ويطالبه بألا يهمل حاجته فهو ليس بعاجز عن الجواب عن إهماله وتهاونه.

وإمَّا بأَن يُسْند إِليه ويُلْجأ ، ومن هذا قول النبي ﷺ في دعائه: «وَأَلْجأْتُ ظهري إِليك»[١] ، فقال جمهور المتأَولين في معنى هذه الآية: إنه «واتخذتم الله ظهريا ـ أَي غير مُراعى ـ وراءَ الظهر» على معنى الاطراح ، ورجحه الطبري.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهو عندي على حذف مضاف ولا بُدّ.

وقال بعضهم: الضمير في قوله: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ﴾ عائد على أَمر الله وشرعه ، إِذ يتضمنه الكلام ، وقالت فرقة: المعنى: أَترون رهطي أَعز عليكم من الله وأَنتم تتخذون الله سند ظهوركم وعماد آمالكم؟.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فقول الجمهور على أَن كان كُفْر قوم شعيب جحداً بالله تعالىٰ وجهلاً به ، وهذا القول الثاني على أَنهم كانوا يقرون بالخالق الرازق ويعتقدون الأَصنام وسائط ووسائل ، ونحو هذا ، وهاتان الفرقتان موجودتان في الكفرة ، ومن اللفظة: الاستظهار بالبيِّنَة ، وقد قال ابن زيد: الظِّهري: الفضل مثل الجمَّال يخرج معه بإِبلٍ ظهاريّة يُعدها إِن احتاج إِليها وإِلا فهي فضلة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا كله مما يُسْتَند إِليه.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ خبر في ضمنه توعُّد ، ومعناه: محيطٌ علمُهُ وقُدْرَتُهُ.

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٨٨) في كتاب الوضوء ، وفي كتاب التوحيد ، ورواه أبو داود في الأدب ، والترمذي في الدعوات ، والدارمي في الاستئذان ، ولفظه كما رواه البخاري في التوحيد: عن البراءِ بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا فلان ، إذا أَويْت إلى فِراشك فقل: اللَّهم أسلمتُ نفسي إليك ، ووجَّهت وجهي إليك ، وفوَّضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبنبيّك الذي أرسلت. فإنَّك إن مُتَّ في ليلتك مُتَّ على الفِطْرَة ، وإن أصبحت أصبت أجراً».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ ﴾ معناه: على حالاتكم، وهذا كما تقول: مكانة فلان في العلم فوق مكانة فلان، يستعار من البقاع إلى المعاني. وقرأ الحسن، وأبو عبد الرحمن، وعاصم: [مكاناتكم] بالجمع، والجمهور على الإفراد.

وقوله: ﴿ ٱعۡمَلُواْ ﴾ تهديد ووعيد، وهو نحو قوله: ﴿ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ﴾[1]. وقوله: ﴿ مَن يَأۡتِيهِ ﴾ يجوز أن تكون ﴿ مَن ﴾ مفعولة بـ ﴿ تَعۡلَمُونَ ﴾، والثانية عطف عليها. قال الفراءُ: ويجوز أن تكون استفهاماً في موضع رفع بالابتداءِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

الأول أَحسن لأنها موصولة ولا توصل في الاستفهام، ويقضي بصلتها أن المعطوفة عليها موصولة لا محالة، والصحيح أن الوقف في قوله: ﴿ إِنِّي عَٰمِلٞۖ ﴾ ثم ابتداءُ الكلام بالوعيد، و﴿ مَن ﴾ معمولة لـ ﴿ تَعۡلَمُونَ ﴾ وهي موصولة. وقوله: ﴿ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ ﴾ كذلك تهديد أيضاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا ﴾ الآية. الأمر ها هنا يصح أن يكون مصدرَ أَمَرَ، ويصح أن يكون واحد الأمور، وقوله: ﴿ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا ﴾ إما أن يقصد الإخبار عن الرحمة التي لحقت شعيباً لنبوته وحُسْن عمله وعمل مُتَّبعِيه، وإمَّا أن يقصد أن التنجية لم تكن إلا بمجرد رحمة لا بعمل من أعمالهم، وأمَا ﴿ ٱلصَّيۡحَةُ ﴾ فهي صيحة جبريل عليه السلام، ورُوي أنه صاح بهم صيحة جثم لها كل واحد منهم في مكانه حيث سمعها ميتاً قد تقطعت حجب قلبه. والجُثُوم أصله في الطائر إذا ضرب بصدره إلى الأرض، ثم يستعمل في غيره إذا كان منه بِشَبَه.

---

(١) من الآية (٤٠) من سورة فصلت.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ الآية. الضمير في قوله: ﴿فِيهَآ﴾ عائد على «الديار»، و﴿يَغْنَوْاْ﴾ معناه: يقيمون بنعمة وخفض عيش، ومنه المغانى، وهي المنازل المعمورة بالأهل، وقوله: ﴿أَلَا﴾ تنبيه لِلسَّامع، وقوله: ﴿بُعْدًا﴾ مصدرٌ دَعَا بِهِ، وهذاكما تقول: «سقيا لك، ورعيا لك، وسحقاً للكافر» ونحو هذا، وفارقت هذه قولهم: «سلام عليك»، لأَن هذا كأَنه إِخبار عن شيءٍ قد وجب وتحصَّل، وتلك إِنما هي دعاءٌ مُتَرَجِّي، ومعنى البعد في قراءَة من قرأَ ﴿بَعِدَتْ﴾ بكسر العين: الهلاك، وهي قراءَة الجمهور، ومنه قول خِرْنِق بنت هَنَّان:

لا يَبْعِـدنْ قَـوْمِـي الَّـذِيـنَ هُـمُ ... سُـمُّ العُـداةِ وآفَـةُ الجُـزْرِ (١)

ومنه قول مالك بن الريب:

يقـولـونَ لا تَبْعِـدْ وهُـمْ يَـدْفِنُـونَنـي ... وأَيْـنَ مكَـانُ الْبُعْـدِ إِلاَّ مَكَـانِيَـا؟ (٢)

وأَما من قرأَ: [بَعُدَتْ] وهو السُّلَمي، وأَبو حيوة فهو من البُعْد الذي ضده القرب، ولا يُدعى به إِلاَّ على مبغوض (٣).

---

(١) الخِرْنِق هي أُخت طرفة بن العبد لأمه وردة بنت عبد العُزّى، ومعنى الخِرْنق: الأرنب الصغير، وهذا البيت هو مطلع قصيدة ترثي بها زوجها بشر بن عمرو بن مِرْثد سيِّد بني أسد ومَن قُتل معه في يوم قُلاب. ولا يَبْعِدن: لا يَهْلِكن، وسُمُّ العداة: وصفٌ لهم بالشجاعة حتى أنهم يُهلكون عدوهم، وآفة الجزر: تصفهم بالكرم حيث يكثرون من ذبح الإبل للضيفان. تقول: حَمَى الله قومي من الهلاك فهم مثال الشجاعة على أعدائهم والكرم لضيوفهم.

(٢) هو مالك بن الريب المازني، وبيته هذا من قصيدة قالها يرثي بها نفسه حين أحسَّ بالموت يقترب منه وهو غريب بعيد عن أهله وبلاده، وهي من روائع الشعر العربي القديم صدقاً وتصويراً، يقول: إن قومي يتمنون لي السلامة والنجاة من الهلاك مع أنهم يُعدون لي قبري فهل هناك هلاك مثل هذا؟ ويمكن أن يفهم البعد على أنه بُعد المكان فقد كان بعيداً عن بلاده حين حانت وفاته.

(٣) قال النحاس: المعروف في اللغة أنه يقال: بعِد يَبْعَد بَعَداً وبُعْداً إذا هَلَك، وقال المهدوي: من ضَمَّ العين من [بَعُدت] فهي لغة تستعمل في الخير والشر، ومصدرها البُعْد، و(بَعِدت) تستعمل في الشَّرّ خاصة، فالبعد على قراءة الجماعة بمعنى اللعنة، وقد يجتمع معنى اللغتين لتقاربهما في المعنى. نقل ذلك القرطبي، وفي (اللسان) «إن بعض العرب يقول: بَعِد، وبعضهم يقول: بَعُد مثل: سَحِقَ وسَحُقَ، ومن الناس من يقول: بَعُد في المكان، وبَعِد في الهلاك». وهذا ما اختاره ابن عطية رحمه الله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

الآيات: العلامات، والسُّلْطان: البرهان والبيان في الحُجَّة، قيل: هو مشتق من السَّليط الذي يُسْتَضاءُ به[1]، وقيل: من أنه مسلط على كل جبار ومخاصم. والمَلأُ: الجمع من الرجال، والمعنى: أرسلناه إليهم ليؤمنوا بالله تعالىٰ فصدَّهم فرعون فاتبعوا أَمره ولم يؤمنوا وكفروا. ثم أَخبر تبارك وتعالىٰ عن أَمر فرعون أنه ليس برشيد، أَي: ليس بمصيب في مذهبه ولا مفارق للسفاهة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ الآية. أَخبر الله تعالىٰ في هذه الآية عن فرعون أنه يأْتي يوم القيامة مع قومه المُغْرَقين معه وهو يَقْدُمُهُم إلى النار، وأَوقع الفعل الماضي في ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ ﴾ موقع المستقبل لوضوح الأَمر وارتفاع الإِشكال عنه، وَوَجْهُ الفصاحة من العرب في أَنها تضع أَحياناً الماضي موضع المستقبل أَنَّ الماضي أَدلُّ على وقوع الفعل وحصوله. و«الْوُرود» في هذه الآية هو وُرُود الدخول، وليس بُورود الإِشراف على الشيءِ والإِشفاءِ[2] لقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾[3]، وقال ابن عباس: «في القرآن أَربعة: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾[4]، وقوله: ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾[5]، وهذه[6] في مريم، وفي الأنبياء: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾[7]. قال: وهي كلها وُرُودُ دخول، ثم يُنجي الله

---

(١) السَّليطُ عند عامة العرب: الزَّيت، وعليه جاء قول امرئ القيس في وصف البرق:
يُضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ راهِبٍ ... أَمالَ السَّليطَ بالذُّبالِ المُفَتَّلِ
(٢) مصدر أَشْفَى على الشيءِ: اقترب منه. (المعجم الوسيط).
(٣) من الآية (٢٣) من سورة القصص.
(٤) من الآية (٧١) من سورة مريم.
(٥) من الآية (٨٦) من سورة مريم.
(٦) الصواب: وهاتان لأن الآية التي قبلها في مريم هي الأخرى.
(٧) من الآية (٩٨) من سورة الأنبياء.

الَّذين اتَّقوا». و﴿ٱلْمَوْرُودُ﴾ صفة لمكان ﴿ٱلْوِرْدُ﴾ على أَن التقدير: وبئس مكان الوِرْد الْمَوْرُود[١]. وقيل: ﴿ٱلْمَوْرُودُ﴾ ابتداءٌ والخبر مقدم. والمعنى: المَوْرود بئس الوِرْدُ.

وقوله: ﴿فِى هَٰذِهِۦ﴾ يريد دار الدنيا، و«اللعنة»: إبعادهم بالغرق والاستئصال وقبيح الذكر غابر الدهر، وقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أَي: يُلعنون أَيضاً بدخولهم جهنم، قال مجاهد: «فهما لعنتان، وذهب قوم إِلى أَن التقسيم هو أَن لهم في الدنيا لعنة، ويوم القيامة بئس ما يُرفدون به، فهي لعنة واحدة أَولا، وقبح إِرفاد آخرا»[٢]. وقوله: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ أَي: بئس العطاءُ المعطى لهم، والرِّفد في كلام العرب: العطية، وسُمِّي العذاب هنا رفْداً لأَن هذا هو الذي حلَّ لهم محلَّ الرِّفْد، وهذا كما تقول: يا فلان لم يكن خيرك إِلا أَن تضربني، أَي: لم يكن الذي حلَّ محلَّ الخير منك. والإِرْفَاد: المعونة، ومنه رفادة قريش، معونتهم لفقراءِ الحاج بالطعام الذي كانوا يطعمونه في الموسم[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ الآية. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إِشارة إِلى ما تقدم من ذكر العقوبات النازلة بالأُمم المذكورة، والأنباءُ: الأَخبار، و﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ يحتمل أَن يراد بها القُرى التي ذكرت في الآيات المتقدمة خاصة، ويحتمل أَن يريد القرى عامة، أَي: هذه الأَنْباءُ المقصوصة عليك هي عوائد المدن إِذا كفرت، فيدخل ـ على هذا التأْويل ـ فيها المدن المعاصرة، ويجيءُ قوله: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ منها عامرٌ وداثر، وهذا

---

(١) جوّز ذلك أيضاً أبو البقاءِ، ومعنى ذلك أن المخصوص محذوف لفهم المعنى كما حذف في قوله تعالىٰ: ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، وهذا مبني على جواز وصف فاعل (نعم وبئس) وفيه خلاف، إذ ذهب ابن السراج والفارسي إلى أنه لا يجوز. وهناك تخريجات أخرى للآية تجدها في الكشاف للزمخشري، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي وغيرهما.

(٢) عقَّب أبو حيان على كلام مجاهد هذا بقوله في (البحر المحيط)، و(وهذا لا يصح، لأن هذا التأويل يدل على أن ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ معمولٌ لـ ﴿وَبِئْسَ﴾، وبئس لا تتصرف فلا يتقدم معمولها عليها، ولو تأخر ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ صحَّ كما قال الشاعر:

ولَنِعـمَ حَشْـو الـدِّرْعِ أَنْـتَ إذَا ... دُعِيـت نَـزَالِ وَلـجَّ فـي الـذُّعـرِ

(٣) في كتب اللغة أن أصل الرِّفْد: العون، يقال منه: رَفَد فُلانٌ فُلاناً عند الأمير يَرْفده رِفْداً بكسر الراءِ، أما إذا فُتحت الراءُ فمعناه: السَّقْيُ في القَدَح العظيم، والرَّفْد: القدح الضخم، ومنه قول الأعشى:

رَفَـدِ هَـرَقْتُـهُ ذلِـكَ اليَـو ... م وأَسْـرَى مِـنْ مَعْشَـرٍ أَقْتَـالِ

كنَّى بالرِّفْد عن الموت، ومعنى أقتال: أصحاب تِرَاتٍ وهم أشد عنفاً في القتال وحرصاً على الإقدام فيه.

قول ابن عباس ، وعلى التأويل الأول ـ في أنها تلك القرى المخصوصة ـ يكون قوله: ﴿ قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ بمعنى: قائم الجدران ومتهدم لا أثر له[١] ، وهذا قول قتادة وابن جريج ، والآية بجملتها متضمنة التخويف وضرب المثل للحاضرين من أهل مكة وغيرهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

المعنى: وما وضعنا عندهم من التعذيب ما لا يستحقونه ، لكنهم ظلموا أنفسهم بوضعهم الكفر موضع الإيمان ، والعبادة في جَنْبة الأصنام[٢] ، فما نفعتهم تلك الأصنام ، ولا دفعت عنهم حين جاءَ عذاب الله.

والتَّتبيب: الخُسران ، ومنه ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[٣] ، ومنه قول جرير:

عَـرَارَةُ مِـنْ بَقِيَّـةِ قَـوْمِ لُـوطٍ ... أَلاَ تَبّـاً لمـا عَمِلُـوا تبـابـا[٤]

أَي: خساراً، وصورة زيادة الأَصنام التَّتبيب إنما تُتصوَّر: إمَّا بأَنَّ تأْميلها والثقة بها والتعب في عبادتها ـ شغلت نفوسهم وصرفتها عن النظر في الشرع وعاقتها ، فلحق عن ذلك عَنَتٌ وخُسْران ، وإمَّا بأَن عذابهم على الكفر يُزاد عليه عذاب على مجرد عبادة الأَوثان.

---

(١) على التشبيه بالزرع ، بعضه قائم على سوقه ، وبعضه حصيد ، قال قتادة: جعل حصد الزرع كناية عن الفناءِ ، قال الشاعر:

والنَّـاسُ فـي قَسْـمِ المنِيَّـةِ بَيْنَهُـمْ ... كـالـزَّرْعِ منْـهُ قـائِـمٌ وحَصِيـدُ

(٢) الجَنْبَةُ والجَنَبَةُ مِنَ الشيءِ: جانبهُ وناحيتُه ، فقد جعلوا العبادة للأَصنام وفي ناحيتها.

(٣) من الآية (١) من سورة المَسَد.

(٤) البيت من قصيدة قالها جرير في هجاء الرّاعي النُّميري ، وهي في (النقائض) ـ طبع بيفان ص ٤٣٢ ـ وكذلك ذكرت في (منتهى الطلب) لابن ميمون ، و(الخزانة ١ ـ ٣٤) ، و«عَرارة» جاءَ محرفاً في الأصول «عرابة» ، وروي: «لما فعلوا» في الديوان ، و«لما صنعوا» في (التاج) و(اللسان) ، وعَرَارةُ النُّميريُّ هذا هو راوية الراعي النميري الذي قيلت فيه القصيدة كلها ، وعَرارةُ في الأصل اسم نبات.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ، الإشارة إلى ما ذكر من الأحداث في الأمم ، وهذه آية وعيد تعم قُرى المؤمنين ، فإن ﴿ظَٰلِمَةٌ﴾ أعم من «كافرة» ، وقد يمهل الله تبارك وتعالىٰ بعض الكَفَرَة ، وأمَّا الظَّلَمة ـ في الغالب ـ فمُعَاجلون ، أما إنه يملي لبعضهم ، وفي الحديث ـ من رواية أبي موسى ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يُمْلي للظالم حتَّى إذا أخذه لم يُفلته» ، ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ الآية[١].

وقرأ أبو رجاءٍ العطاردي ، وعاصم الجحدري: [ربُّك إذْ أخذ القرى][٢] ، والجمهور الأعظم: ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ ، وأنحى الطبريّ على قراءَة عاصم هذه[٣] ، وقرأ طلحة بن مصرف كذلك ، وهي قراءَة متمكنة المعنى ، ولكن قراءَة الجماعة تعطي بقاءَ الوعيد واستمراره في الزمان ، وهو الباب في وضع المستقبل موضع الماضي.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ ، المعنى: إن في أمر هذه القُرى وما حلَّ بها لعبرة وعلامة اهتداءٍ لمن خاف أمْر الآخرة ، وتوقع أن يناله عذابها فنظر وتأمل ، فإن نظره يؤديه إلى الإيمان بالله تعالىٰ ، ثم عظَّم الله أمر يوم القيامة بوصفه بما تَلَبَّس بأجنبي منه للسبب المتَّصل بينهما وبعود الضمير عليه ، و﴿ٱلنَّاسُ﴾ ـ على هذا ـ مفعول لم يُسَمّ فاعله ، ويصح أن يكون ﴿ٱلنَّاسُ﴾ رفعاً بالابتداءِ ، و﴿مَّجْمُوعٌ﴾ خبر مقدم[٤].

---

(١) رواه البخاري في التفسير ، ومسلم في البرّ ، والترمذي في التفسير ، وابن ماجه في الفتن ، ولفظه في البخاري عن أبي موسى كما رواه هنا ابن عطية.

(٢) اختلفت النسخ الأصلية في كتابة الآية طبقاً لهذه القراءة ، وقد صوبناها بالرجوع إلى تفسير الطبري ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، وكتب القراءات ، وهي: [وكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذْ أَخَذَ] على أن [أَخَذَ] فعل ماض ، و[رَبُّكَ] فاعل مرفوع ، و[إذْ] بدلاً من [إذا] ، وقال القرطبي: وعن الجحدري أيضاً: [وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذْ] كقراءة الجماعة ولكن بـ [إذْ] بدلاً من ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ﴾.

(٣) قال الطبري: «وذلك قراءَة لا أستجيز القراءة بها لخلافها مصاحف المسلمين ، وما عليه قرأةُ الأمصار» ، (راجع تفسير الطبري ١٢ ـ ١١٤). وإلى ذلك يشير ابن عطية بكلامه هنا.

(٤) قال أبو حيان تعقيباً على هذا الإعراب: «وهو بعيد لإفراد الضمير ﴿مَّجْمُوعٌ﴾» ، وقياسه ـ على إعرابه ـ (مجموعون). ومن اللطائف التي ذكرها الزمخشري ونقلها عنه أبو حيان تعليله لإيثار اسم المفعول على الفعل بقوله: لما في اسم المفعول من دلالته على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنه لا بد أن يكون ميعاداً مضروباً لجمع الناس له ، وأنه هو الموصوف بذلك صفة لازمة ، وهو أثبت أيضاً لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكُّون منه ، وفيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل.

ومعنى ﴿مَّشْهُودٌ﴾: مشهود فيه ، فاتسع في الجار والمجرور ووصل الفعل إلى الضمير إجراءً له مجرى المفعول به على السعة ، والمعنى: «يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد» ، ومنه قولهم: =

وهذه الآية خبر عن الحشر، و﴿مَّشْهُودٌ﴾ عام على الإطلاق يشهده الأولون والآخرون من الإنس والملائكة والجن والحيوان ـ في قول الجمهور ـ وفيه ـ أعني الحيوان الصامت ـ اختلاف، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الشاهد: محمد عليه الصلاة والسلام، والمشهود: يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ الآية. المعنى: وما نؤخر يوم القيامة عجزاً عن ذلك، ولكن القضاءَ السابق قد نفذ فيه بأجل محدود لا يتقدم عنه ولا يتأخر. وقرأ الجمهور: ﴿نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ بالنون، وقرأ الأعمش: [يُؤَخِّرُهُ] بالياءِ.

وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾[1] بحذف الياءِ من [يأتي] في الوصل والوقف، وقرأ ابن كثير بإثباتها في الوصل والوقف، وقرأ نافع، وأبو عمرو، والكسائي بإثباتها في الوصل وحذفها في الوقف، ورويت أيضاً كذلك عن ابن كثير، والياءُ ثابتة في مصحف أُبيّ بن كعب، وسقطت في إمام عثمان، وفي مصحف ابن مسعود: [يوْمَ يأتُون]، وقرأ بها الأعمش، ووجه حذفها في الوقف التشبيه بالفواصل، وإثباتها في الوجهين هو الأصل، ووجه حذفها في الوصل التخفيف، كما قالوا: «لا أُبالِ ولاَ أَدْرِ»، وأنشد الطبريُّ:

كَفَّاكَ كَفٌّ مَا تُلِيقُ دِرْهَماً ... جوداً وأُخرى تُعطِ بالسَّيفِ الدَّمَا[2]

= «لفلانٍ مجلس مشهود وطعام محضور».

(١) المراد بإتيان اليوم أهوالُه وشدائده إذ اليوم لا يكون وقتاً لإتيان اليوم. والظاهر أن الفاعل بـ ﴿يَأْتِ﴾ ضمير يعود على ما عاد عليه الضمير في قوله سبحانه: ﴿نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ وهو قوله قبل: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ﴾، وأجاز الزمخشري أن يكون فاعل ﴿يَأْتِ﴾ ضميراً عائداً على الله تبارك وتعالىٰ، قال: كقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾، ويعضد ذلك قراءة [يُؤَخِّرُهُ] بالياءِ.

(٢) كما لم ينسبه الطبري كذلك لم ينسبه صاحب اللسان، والشاهد في البيت حذف الياءِ من (تُعْطِ)، وهي لغة هذيل، قال الفراءُ في (معاني القرآن): «كل ياءٍ أو واوٍ تسكنان وما قبل الواو مضموم وما قبل ا لياء مكسور فإن العرب تحذفها وتجتزئ بالضمة من الواو وبالكسرة من الياء، أنشدني بعضهم: كفَّاك كفٌّ ـ البيت».

وما تُليقُ: ما تُمْسك درهماً، يقال: ما يُليق بكفِّه درهمٌ بمعنى ما يحتبس، وما يُليقُ هو درهماً بمعنى: ما يحبسه، يمدحه بالشجاعة وبالكرم، وفي حذف الياءِ في هذا الموضع قال الزجاج: «والأجود في النحو إثبات الياءِ، والذي أراه اتِّباع المصحف وإجماع القرَّاءِ لأن القراءَة سُنَّة، وقد جاء مثله في كلام العرب».

وقوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ يصح أَن تكون جملة في موضع الحال من الضمير الذي في ﴿يَأْتِ﴾ وهو العائد على قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ﴾، ولا يجوز أَن يعود على قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾، لأَن اليوم المضاف إِلى الفعل لا يكون فاعل ذلك الفعل، إِذ المضاف متعرف بالمضاف إِليه، والفعل متعرف بفاعله وليس في نفسه شيئاً مستقلاً دون الفاعل، وقولهم: «سيِّد قومه، ومولى أَخيه، وواحد أُمه» مفارق لما لا يستقل، فلذلك جازت الإِضافة فيها، ويكون قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ ـ على هذا ـ في موضع الرفع بالابتداءِ وخبره: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، وفي الكلام ـ على هذا ـ عائد محذوف تقديره: «لا تكلَّم نفسٌ فيه إِلاَّ»، ويصح أَن يكون قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ صفة لقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ والخبر قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، ويصح أَن يكون قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ خبراً عن قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ﴾ يُرَادُ بِهِ اليوم الذي قبل ليلته، وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ يُراد به الحين والوقت لا النَّهار بعينه، فهو كما قال عثمان: «إِنِّي رأَيت أَلاَّ أَتزوج يومي هذا»، وكما قال الصديق رضي الله عنه: «فَإِنَّ الأَمانة اليوم في الناس قليل»[1].

ومعنى قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾: وصف المهابة يوم القيامة وذهول العقل وهول القيامة، وما ورد في القرآن من ذكر كلام أَهل الموقف في التَّلاوم والتساؤُل والتجادل، فإِمَّا أَن يكون بإِذن، وإِما أَن تكون هذه هنا مختصة في تكلم شفاعة أَو إِقامة حجة[2].

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ عائد على الجميع الذي تضمنه قوله: ﴿نَفْسٌ﴾ إِذ هو اسم جنس يراد به الجميع.

---

(١) قال في (البحر المحيط): «وكلامه في إعراب ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ كأنه منقول من كلام الحوفي».

(٢) هذه قضية يثيرها كثيرون ممن يحبون الجدل، يقولون: لم قال الله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ و﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾، وقال في مواضع أخرى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ و﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ و﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾؟ وللجواب عن ذلك يقول العلماءُ: يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف متعددة، ففي بعضها يجادلون وفي بعضها لا يتكلمون، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم، وهم عندما يتكلمون لا ينطقون بحجة تنفعهم وتجب لهم، وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم ولوم بعضهم بعضاً، ونحن نقول لمن يتكلم طويلاً بغير حجة ولا منطق: ما تكلمت بشيءٍ، والمهم أنهم لا يتكلمون إلا بإذن الله سبحانه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ شَقُواْ ﴾ ـ على بعض التأويلات في الاستثناء الذي في آخر الآية ـ يُرادُ به كلُّ من يعذب من كافر وعاصٍ، وعلى بعضها ـ كلُّ من يخلد، وذلك لا يكون إلا في الكفرة خاصة.

والزفير: صوت شديد خاص بالمحزون أَو الموجع أَو المعذب ونحوه، والشَّهيق كذلك، كما يفعل الباكي الذي يصيح خلال بكائه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الزفير: صوت حاد، والشهيق: صوت ثقيل، وقال أَبو العالية: الزفير من الصدر، والشهيق من الحلق، وقيل: بالعكس، وقال قتادة: الزفير: أَول صوت الحمار، والشهيق آخره[1]، فصياح أَهل النار كذلك، وقيل: الزفير مأْخوذ من الزَّفْر وهو الشِّدَّة، والشهيق من قولهم: جبل شاهق أَي عالٍ، فهما ـ على هذا المعنى ـ واحد أَو متقارب، والظاهر ما قال أَبو العالية، فإِن الزَّفرة هي التي يعظم معها الصدر والخوف، والشهقة هي الوقعة الأَخيرة من الصوت المندفعة[2] معها النَّفَسُ أَحياناً، فقد يشهق المحتضر ويشهق المغشي عليه.

وأَما قوله: ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ فقيل: معناه أَن الله تبارك وتعالىٰ يبدل السموات والأَرض يوم القيامة، ويجعل الأَرض مكاناً لجهنم والسماءَ مكاناً للجنة، ويتأَبد ذلك، فقَرنت الآية خلود هؤلاءِ ببقاءِ هذه، ويُروى عن ابن عباس أَنه قال: «إِن الله خلق السموات والأَرض من نور العرش، ثم يردهما إِلى هنالك في الآخرة، فَلَهُما ثَمَّ بقاءٌ دائم». وقيل: معنى قوله: ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾: العبارةُ عن

---

(١) قال ذلك أيضاً الضحاك ومقاتل، وتعبيرهما: الزفير مثل أول نهيق الحمار، والشهيق مثل آخره حين فرغ من صوته، قال العجاج:

حَشْرَجَ فـي الجَـوْفِ سَحِيـلا أوْ شَهَـقْ ... حَتَّـى يُقَـالَ نَـاهِـقٌ ومَـا نَهَـقْ

(٢) هكذا في جميع الأصول. وهو نعت سيء والصواب أن يقال: المندفع معها النَّفَسُ، إلا إذا تكلفنا وضبطنا الفاءَ بالسكون وأردنا النَّفْس.

التأبيد: بما تعهده العرب ، وذلك أن من فصيح كلامها إذا أرادت أن تخبر عن تأبيد شيءٍ أن تقول: «لا أفعل كذا وكذا مدى الدهر ، وما ناح الحمام ، وما دامت السموات والأرض» ، ونحو هذا مما يريدون به طولاً من غير نهاية ، فأفهمهم الله تعالىٰ تخليد الكفرة بذلك وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض.

وأما قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ فقيل فيه: إن ذلك على طريق الاستثناءِ الذي ندب الشرع إلى استعماله في كل كلام ، فهو على نحو قوله تعالىٰ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[1] استثناءٌ في واجب ، وهذا الاستثناءُ في حكم الشرط ، كأنه قال: «إن شاء الله» ، فليس يحتاج إلى أن يوصف بمُتَّصل ولا بمنقطع ، ويؤيد هذا قوله تعالىٰ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ، وقيل: هو استثناءٌ من طول المدة ، وذلك على ما رُوي من أن جهنم تخرب ويعدم أهلها وتخفق أبوابها[2] ، فهم ـ على هذا ـ يخلدون حتى يصير أمرهم إلى هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول مختل ، والذي رُوي ونُقل عن ابن مسعود وغيره إنما هو الدرك الأعلى المختص بعصاة المؤمنين ، هو الذي يُسمى جهنم ، وسُمي الكلُّ به تجوزاً.

وقيل: إنما استثني ما يلطف الله تعالىٰ به للعصاة من المؤمنين في إخراجهم بعد مدة من النار ، فيجيءُ قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: لقوم ما ، وهذا قول قتادة ، والضحاك ، وأبي سنان ، وغيرهم ، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ عامّاً في الكفرة والعصاة كما قدمنا ، ويكون الاستثناءُ من ﴿خَٰلِدِينَ﴾[3]. وقيل: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى الواو ، فمعنى الآية: «ومَا شاءَ الله زائداً على ذلك» ، ونحو هذا قول الشاعر:

---

(١) من الآية (٢٧) من سورة الفتح.

(٢) المروي عن عمرو بن العاص رضي الله عنه: (ليأتِيَنَّ على جهنَّم يومٌ تصفق فيه أبوابها). راجع تعليق المؤلف على هذا فهو القول السليم.
وأقرب معاني (خَفَق) التي يمكن إيرادها هنا هو قولهم: خفق المكان: خَلا. رَوَى ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن مسعود: «لَيَأْتِيَنَّ عليها زمان تخفق أبوابها» ـ الدر المنثور.

(٣) يؤيد هذا ما قاله القرطبي: «وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (يدخل ناس جهنم حتى إذا صاروا كالحُمَمَة أُخرجوا منها ودخلوا الجنة فيقال: هؤلاء الجهنميون). والحُمَمَةُ واحدة الحمم وهو الرماد والفحم وكل ما احترق واسودّ من النار».

وكُــلُّ أخٍ مُفَــارِقُــهُ أَخُــوهُ   لَعمْــرُ أَبِيــكَ إِلاَّ الْفَــرْقَــدَانِ(١)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا البيت يصح الاستشهاد به على معتقدنا في فناءِ الفرقدين وغيرهما من العالم ، وأَما إن كان قائله من دَهْرِيّة العرب(٢) فلا حجة فيه ، إذ يرى ذلك مؤبّداً فأَجرى «إلاَّ» على بابها.

وقيل: ﴿إِلَّا﴾ في هذه الآية بمعنى «سوى» ، والاستثناءُ منقطع ، كما تقول: «لي عندك أَلْفا درهم ، إلا الأَلف التي كنت أَسْلفتك» ، بمعنى: سوى تلك ، فكأَنه قال: خَالدين فيها ما دامت السموات والأَرض سوى ما شاءَ الله زائداً على ذلك» ، ويؤيد هذا التأويل قوله بعْدُ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ، وهذا قول الفراءِ ، فإنه يقدر الاستثناءَ المنقطع بـ «سوى» ، وسيبويه يقدره بـ «لكن» ، وقيل: «سوى ما أَعدّه لهم من أَنواع العذاب مما لا يُعرف كالزمهرير ونحوه» ، وقيل: استثناءُ من مدة السموات والأَرض ، المدة التي فرطت لهم في الحياة الدنيا ، وقيل: في البرزخ بين الدنيا والآخرة ، وقيل: في المسافات التي بينهم في دخول النار ، إذ دخولهم إنما هو زُمَراً بعدزُمَر ، وقيل: الاستثناءُ من قوله: ﴿فَفِى ٱلنَّارِ﴾ ، كأَنه قال: «إلاَّ ما شاءَ ربُّك من تأخير قوم عن ذلك» ، وهذا قول رواه أَبو نَضْرَةَ عن جابر أَو عن أَبي سعيد الخدري(٣) ، ثم أَخبر مُنَبّهاً على قدرة الله تبارك وتعالىٰ بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ [سَعِدُوا] بفتح السِّين ، وهو فعل لا يتعدى ، وقرأَ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ـ في

---

(١) البيت لعمرو بن معد يكرب (سيبويه ١ ـ ٣٧١) ـ واللسان. وقيل: لحضرمي بن عامر (كما في المؤتلف والمختلف ١١٦) ـ وفي حاشية سيبويه: لسوار بن المضرب ، والفَرْقَدَان: نجمان في السماء لا يغربان ، وقيل: كوكبان قريبان من القطب ، وقيل: كوكبان في بنات نعش الصغرى ، يقال: لأبكينك الفرقَدَيْن: أي طول طلوعهما ، ينصب على الظرف مثل بقية النجوم حيث يقال: لأبكينَّك الشمسَ والقَمَرَ ، ويجوز أن تكون (إلا) في البيت بمعنى (غير) ، قال سيبويه: كأنه قال: وكلُّ أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه ، فهونعت لـ (كل). والبيت مذكور في الخزانة أيضاً (٢ ـ ٥٥).

(٢) الدَّهْري: الرجل الملحد الذي لا يؤمن بالآخرة ويقول ببقاء الدَّهر.

(٣) ذكر ابن عطية عشرة أقوال في الاستثناءِ الوارد في هذه الآية ، وقد ذكرها القرطبي أيضاً ، ونقلها أبو حيان (البحر المحيط) عن ابن عطية ، وللمفسرين أقوال أُخرى.

رواية حفص ـ: ﴿سُعِدُواْ﴾ بضم السِّين ، وهي شاذة ولا حجة في قولهم: «مسعود» لأنه «مفعول» من «أَسْعَدَ» على حذف الزيادة ، كما يقال: «محبوب» من «أَحبَّ» و«مجنون» من «أَجَنَّه الله» ، وقد قيل في مسعود: إِنما أَصله الوصف للمكان ، يقال: مكان مسعود فيه ، ثم نقل إِلى التسمية به ، وذكر أَن الفراءَ حكى أَن هذيلاً تقول: سَعَدَه الله ، بمعنى: أَسعده ، وبضم السِّين قرأَ ابن مسعود ، وطلحة بن مصرف ، وابن وثاب ، والأَعمش[1].

والأَقوال المترتبة في استثناءِ التي قبل هذه تترتب ها هنا إِلا تأْويل من قال: «هو استثناءُ المُدَّة التي تخرب فيها جهنم» فإِنه لا يترتب مثله في هذه الآية ، ويزيد هنا قول أَن يكون الاستثناءُ في المدة التي يقيمها العصاة في النَّار ، ولا يترتب أَيضاً تأْويل من قال في تلك: إِن الاستثناءَ هو من قوله تعالىٰ: ﴿فَفِى ٱلنَّارِ﴾ .

وقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ نصب على المصدر[2] ، والمجذوذ: المقطوع ، والجَذُّ: القطع[3] ، وكذلك الجد ، وكذلك الحَزّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾ .

لفظ الخطاب للنبي ﷺ ، والمعنى له ولأُمته ، ولم يقع لأحد شك فيقع عنه نهي ، ولكن من فصاحة القول في بيان ضلالة الكفرة إِخراجه في هذه العبارة ، أَي حالهم أَوضح من أَن يُمْتَرَى فيها ، والمِرْيَةُ: الشك ، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إِشارة إِلى كفار العرب عبدة الأَصنام ، ثم قال: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ المعنى: إِنهم مقلدون

---

(١) قال أبو عمرو: «الدَّليل على أنه (سَعِدُوا) أن الأولى (شَقُوا) ولم يقل: (أُشقوا) ، وقال الثعلبي: «(سُعِدوا) بضم السين ، أي: رُزقوا السعادة» ، وقال سيبويه: «لا يقال: سُعِد فلان كما لا يُقال: شُقِي فلانٌ لأنه مما لا يتعدى».

(٢) وَعطاءً هنا بمعنى إعطاء ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ فهو بمعنى: إنباتاً.

(٣) مأخوذ من قولهم: جَذّه يجذّه أي قَطَعَه ، قال النَّابغة يصف السيوف:

تَجُـدُّ السَّلُـوقِـيَّ المُضَـاعَـفَ نَسْجُـهُ ... وَتُـوقِـدُ بـالصُّفَّـاحِ نـارَ الحُبَـاحِـبِ

لا برهان عندهم ولا حُجَّة ، وإنما عبادتهم تَشَبُّهاً منهم بِآبائِهِم لا عن بصيرة ، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ وعيد ، ومعناه: العقوبة التي تقتضيها أعمالهم[1] ، ويظهر من قوله: ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ أَن على الأولين كِفْلا من كُفْر الآخرين. وقرأ الجمهور: ﴿لَمُوَفُّوهُمْ﴾ بفتح الواو وشد الفاء ، وقرأ ابن محيصن [لَمُوْفوُهم] بسكون الواو وتخفيف الفاءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الآية. تسلية لمحمد ﷺ ، وذكر قصة موسى مثل له: أَي: لا يعظم عليك أَمْر من كذَّبَكَ فهذه هي سيرة الأُمم ، فقد جاءَ موسى بكتاب فاختلف الناسُ عليه.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ إِلى آخر الآية يحتمل أَن يريد به أُمَّة موسى ، ويحتمل أَن يريد به معاصري محمد ﷺ ، وأَن يعمهم اللفظ أِحسن عندي ، ويؤكد ذلك قوله: ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ ، و«الكلمة» ها هنا عبارة عن الحكم والقضاءِ ، ومعنى ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾: لَفُصل بين المؤمن والكافر بنعيم هذا وعذاب هذا. ووصْفُ الشَّكِّ بالمريب تقويةٌ لمعنى الشَّك.

وقرأَ الكسائي ، وأَبو عمرو: [وَإِنَّ كُلاً لَمَا] بتشديد النون وتخفيف الميم من [لَمَا] ، وقرأَ ابن كثير ، ونافع بتخفيفهما ، وقرأَ حمزة بتشديدهما ، وكذلك حفص عن عاصم ، وقرأَ عاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ بتخفيف [إِنْ] وتشديد الميم من [لمَّا] ، وقرأَ الزهري ، وسليمان بن أَرقم: [وإِنَّ كُلاً لَمّاً] بتشديد الميم وتنوينها ، وقرأَ الحسن بخلاف: [وإِنْ كُلُّ لَمَّا] بتخفيف [إِنْ] ورفع [كُلّ] وشد ﴿لَّمَّا﴾ ، وكذلك قرأَ أَبان بن تغلب إِلاَّ أَنه خفف [لَمَا] ، وفي مصحف أُبيّ ، وابن مسعود: [وَإِنْ كُلٌّ إِلاَّ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ] ، وهي قراءَة الأَعمش ، قال أَبو حاتم: الذي في مصحف أُبَيّ: «وإِنْ مِنْ كُلٍّ إِلاَّ ليوفِّينَّهم أَعمالَهُم».

فأَما الأَول فَـ [إِنَّ] فيها على بابها ، و﴿كُلًّا﴾ اسمها ، وعرفها أَن تدخل على

(١) هذا قول ، وللعلماءِ في هذا النصيب ثلاثة أقوال ذكرها القرطبي: الأول: نصيبهم من الرزق ، قاله أبو العالية. والثاني: نصيبهم من العذاب ، قاله ابن زيد ، والثالث: ما وُعدوا به من خير أو شرّ. قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وكما اختار ابن عطية ـ رحمه الله ـ هنا قول أبي زيد اختاره أيضاً الزمخشري.

خبرها لامٌ ، وفي الكلام قسم تدخل لامه أيضاً على خبر «إنَّ» ، فلما اجتمع لامان فصل بينهما بـ [ما] ، هذا قول أَبي عليّ ، والخبر في قوله: ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾(١). وقال بعض النحاة: يصح أَن تكون [مَا] خبر [إنَّ] ، وهي لمن يعقل لأَنه موضع جنس وصنف ، فهي بمنزلة «مَنْ» ، كأَنه قال: «وإِنَّ كُلا لخلْق لَيُوَفِّينهم» ، ورجح الطبري هذاو اختاره(٢) ، أَما إِنه يلزم القول أَن تكون [مَا] موصوفة إِذ هي نكرة ، كما قالوا: مررت بما معجب لك» ، وينفصل بأَن قوله: ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾ يقوم معناه مقام الصفة ، لأَن المعنى: «وإِنَّ كلا لخلْق مُوفى عمله».

وأَما من خَفَّفَهَا ـ وهي القراءَة الثانية في ترتيبنا ـ فحكم [إِنْ] وهي مخففة حكمها مثقلة ، وتلك لغة فصيحة ، حكى سيبويه أَن الثقة أَخبره أَنه سمع بعض العرب يقول: «إِنْ عَمْراً لَمُنْطَلِقٌ» ، وهو نحو قول الشاعر:

وَوَجْـــهٌ مُشْـــرِقُ النَّحْـــرِ كَـــأَنْ ثَـــدْيَيْـــهِ حُقَّـــانِ(٣)

رواه أَبو زيد ، ويكون القول في فصل [مَا] بين اللامين حسبما تقدم ، ويدخلها القول الآخر من أَن تكون [مَا] خبر [إِنْ](٤).

وأَمَّا من شددها أَو خَفَّف [إِنْ] وشدَّد الميم(٥) ففي قراءَتيهما إِشكال ، وذلك أَن بعض الناس قال: «إِنَّ ﴿ لَمَّا ﴾ بمعنى «إِلاَّ» ، كما تقول: «سأَلتك لمَّا فعلْتَ كذا وكذا»

(١) قال الزجاج: لام ﴿ لَمَّا ﴾ هي لام [إنَّ] ، و﴿ما﴾ زائدة مُؤكدة ، و(إنَّ) تقتضي أن يدخل على خبرها أو اسمها لام ، كقولك: (إن الله لغفور رحيم) ، و(إنَّ في ذلك لذكرى) ، ولام ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾ هي التي يتلقى بها القسم ، ولما اجتمعت اللامان فُصل بينهما بـ ﴿ما﴾ ، فهي زائدة مُؤكدة.

(٢) هذا قول الفراءِ ، فهي كقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ ، والمعنى: وإنَّ كُلا لمَنْ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ.

(٣) البيت من شواهد الكتاب لسيبويه (١ ـ ٢٨١) ، قال الأعلم في توجيهه: «الشاهد فيه تخفيف (كأنْ) وحذف اسمها ، والتقدير: كأنّ ثدياه حقان ، ويجوز: (كأن ثَدْيَيْه) على إعمال (كأنْ) مخففة ، والهاءُ في (ثَدْيَيْه) عائدة على الوجه أو النحر ، والمعنى: كأنْ ثَدْيَيْ صاحبه حُقّان».

(٤) والبصريون يُجَوّزون تخفيف (إنَّ) المشددة مع إعمالها ، وقد استشهدوا لذلك بما قاله سيبويه وأبو زيد ، وأنشدوا أيضاً قول ابن صريم اليَشْكُري:

ويَـــوْمـــاً تُـــوَافِينَـــا بِـــوَجْـــهٍ مُقَسَّـــمٍ كَـــأَنْ ظَبْيَـــةٌ تَعْطُـــو إلـــى وارق السَّلَـــم

أراد: كأنها ظَبْيَةٌ ، وزعم الفراءُ أن ﴿ كُلًّا ﴾ في قراءَة التخفيف منصوبة بقوله: ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾ ، وأنكر ذلك جميع النحويين.

(٥) أراد الميم في قوله تعالىٰ: ﴿ لَمَّا ﴾.

بمعنى: إلاَّ فعَلْت[١]، قال أَبو علي: وهذا ضعيف لأَن ﴿ لَمَّا﴾ هذه لا تفارق القسم. وقال بعض الناس: أَصلها «لَمنْ ما» فقلبت النون ميماً وأُدغمت في التي بعدها فبقي «لَمَمَّا» فحذفت الأُولى تخفيفاً لاجتماع الأَمثلة، كما قرأَ بعض القراءِ: ﴿والبَغْى يَعِظُكُمْ﴾[٢] بحذف الياءِ مع الياءِ، وكما قال الشاعر:

وَأَشْمَتَّ العداةَ بِنَا فَأَضْحوْا ... لَدَيْ يَتبَاشَرونَ بما لَقِينَا[٣]

قال أَبو علي: وهذا ضعيف، وقد اجتمع في هذه السورة ميمات أَكثر من هذه في قوله: ﴿أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾[٤] ولم يدغم هناك فأَحرى أَلاَّ يدغم هنا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقال بعض الناس: أَصلها «لَمَنْ ما»، فـ«منْ» خبر ﴿ وَإِنَّ﴾، و[ما] زائدة، وفي التأْويل الذي قبله أَصله: «لَمَنْ مَا»، فـ[ما] هي الخبر دخلت عليها «مِنْ» على حدّ دخولها في قول الشاعر:

وإِنَّا لَمِمَّا نَضْربُ الكَبْشَ ضَرْبَةً ... على رأْسه تُلْقي اللِّسَانَ من الْفَم[٥]

وقالت فرقة: ﴿ لَمَّا﴾ أَصلها «لَمّاً» منونةً، والمعنى: وإِنْ كلا عاماً حصراً شديداً،

---

(١) قال القرطبي: «ومثله قوله تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ أي إلا عليها، فمعنى الآية هنا: «ما كلُّ واحد منهم إلا لَيُوَفِّينهم»، وزيّف الزجاج هذا القول بأنه لا نفي هنا حتى تقدر «إلا»، ولا يقال: ذهب النَّاسُ لمَّا زيدٌ.

(٢) من الآية (٩٠) من سورة النحل، والاستشهاد بالآية على قراءة من قرأ (بتخفيف الياءِ مع الياءِ) كما قال الطبري في تفسيره، وجاءت العبارة هنا (بحذف الياءِ مع الياءِ). (راجع الهامش التالي).

(٣) البيت من شواهد الكسائي، وأنشده الفراءُ في (معاني القرآن)، وهو شاهد على التخفيف بحذف بعض الحروف المكررة في الكلمة، فَبَعْد أن تكلم على تخفيف ﴿ لَمَّا﴾ قال: (ثم يخفف، كما قرأ بعض القراءِ: ﴿والبَغْى يَعِظُكُمْ﴾ بحذف الياء عند الياء، وأنشد الكسائي: وأشْمَتَّ العداة ـ البيت، ومعناه: لديْ يتَبَّاشرون، فحذف لاجتماع الياءِ)، فقد اجتمعت الياءان في (لَدَيَّ) مع الياء في (يتباشرون) وحذفت إحدى الياءات تخفيفاً بسبب اجتماع الأمثال.

(٤) من الآية (٤٨) من سورة هود.

(٥) البيت لأبي حيَّة النميري، وهو الهيثم بن الربيع (١٨٢ هـ) شاعر مجيد، وراجز فصيح من أهل البصرة، ومن مخضرمي الدولتين، والبيت من شواهد النحويين على دخول (من) على (ما) الكافة عن محل الجر، وهو في سيبويه (١ ـ ٤٧٧)، والخزانة (٤ ـ ٢٨٢)، ومغني اللبيب، هذا والمراد بالكبش زعيم القوم وسيدهم.

فهو مصدر: لَمَّ يَلُمّ، كما قال: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾[(١)] ، أي: شديداً ، قلت: ولكنه ترك تنوينه وصرفه وبُنِيَ منه (فَعْلَى) كما فعل في [تَتْرىً] ، فقرئ: ﴿تَتْرَا﴾[(٢)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر ، حُكي عن الكسائي أنه قال: لا أعرف وجه التثقيل في [لَمّاً]. قال أبو عليّ: وأما من قرأ [لَمّاً] بالتنوين وشدّ الميم فواضح الوجه كما بيَّنّا.

وأَمّا من قرأ: [وَإِنْ كُلٌّ لَمَا] فهي المخففة من الثقيلة ، وحقُّها في أكثر لسان العرب ـ أن يرتفع ما بعدها ، و[لَمَا] هنا بمعنى: «إلاَّ» ، كما قرأ جمهور القراءِ: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[(٣)] ، ومن قرأ: [إلاَّ] مصرحةً فمعنى قراءَته واضح. وهذه الآية وعيد.

وقرأ الجمهور: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بياءٍ على ذكر الغائب ، وقرأ الأعرج: [تَعْمَلُونَ] بتاءٍ على مخاطبة الحاضر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

أَمْرُ النبي ﷺ بالاستقامة وهو عليها إنما هو أَمْرٌ بالدوام والثبات ، وهذا كما تأْمر إنساناً بالمشي والأكل ونحوه وهو متلبس به ، والخطاب بهذه الآية للنبي عليه الصلاة والسلام وأَصحابه الذين تابوا من الكفر ولسائر أُمته بالمعنى ، ورُوي أن بعض العلماءِ رأى النبي ﷺ في النوم فقال له: يا رسول الله بلغنا عنك أنك قلت: «شَيَّبَتْني هود

---

(١) من الآية (١٩) من سورة الفجر.

(٢) من الآية (٤٤) من سورة (المؤمنون) ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ ، فقد قرأها بعض القراء [تَتْرىً] بالتنوين ، كما قرأ من قرأ [لَمّاً] بالتنوين ، وقرأ بعض القراءِ (تَتْرَى) بغير تنوين ، كما قرأ من قرأ ﴿لَمَّا﴾ بغير تنوين وقالوا: إن أصله من اللَّمِّ من قول الله تعالىٰ: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ يعني: أكلا شديداً كما وضحه ابن عطية.

(٣) من الآية (٤) من سورة الطارق.

وأخواتها»(١) ، فما الذي شيَّبك من هود؟ قال له: قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والتأويل المشهور في قوله ﷺ: «شَيَّبَتْني هود وأَخواتها» أَنها إِشارة إِلى ما فيها ممَّا حلَّ بالأُمم السابقة ، فكأَن حذره على هذه الأُمَّة مثل ذلك شيّبه عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿أُمِرۡتَ﴾ مخاطبة تعظيم ، وقوله: ﴿وَمَن﴾ معطوف على الضمير في قوله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ﴾ ، وحَسُن ذلك دون أَن يؤكد لطول الكلام بقوله: ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾. و﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ معناه: ولا تتجاوزوا حدود الله تبارك وتعالىٰ ، والطغيان: تجاوز الحدّ ، ومنه قوله: ﴿طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾(٢) ، وقوله في فرعون: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾(٣) ، وقيل في هذه: معناه: ولا تطغينَّكم النِّعم ، وهذا كالأَول. وقرأَ الجمهور: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ بتاءٍ ، وقرأَ الحسن ، والأَعمش: [يعْمَلون] بياءٍ من تحت.

وقرأَ الجمهور: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ﴾ بفتح الكاف ، وقرأَ طلحة بن مصرف ، وقتادة ، والأَشهب العقيلي ، وأَبو عمرو ، فيما رَوى عنه هارون ـ بضمها ، وهو لغة ، يقال: رَكِن يَرْكَن ورَكَن يَرْكُن(٤) ، ومعناه السكون إِلى الشيءِ والرِّضا به ، قال أَبو العالية:

---

(١) رُويَ هذا الحديث من طُرق مختلفة ، وبزيادات تختلف من رواية إلى أُخرى ، فقد رواه الطبراني في الكبير بلفظ (شَيَّبَتْني هود وأَخواتُها) عن عقبة بن عامر ، وعن أبي جحيفة ، ورمز له السيوطي بالصحة ، ورواه الطبراني أيضاً في الكبير عن سهل بن سعد بلفظ (شَيَّبَتْني هود وأخواتها الواقعة والحاقة وإذا الشمس كوِّرت) ، ورمز له السيوطي بأنه حسن ، ورواه الترمذي ، والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وانفرد الحاكم بروايته أيضاً عن أبي بكر رضي الله عنه ، ورواه ابن مردويه عن سعد بلفظ (شَيَّبَتْني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كوِّرت) ، ورمز له السيوطي بأنه حسن ، ورواه ابن مردويه عن أبي بكر رضي الله عنه بلفظ (شَيَّبَتْني هود وأخواتها قبل المشيب) ، وقال السيوطي: حديث حسن ، ورواه ابن مردويه عن عمران بلفظ (شيَّبَتْني هود من المفصل) ، وقال السيوطي: حديث حسن ، وهناك روايات أُخرى لا تخرج عما ذكرناه.

(٢) من الآية (١١) من سورة الحاقة.

(٣) تكررت في الآيات (٢٤) و(٤٣) من سورة طه ، و(١٧) من سورة النازعات.

(٤) قال في (اللسان): «قرئ بفتح الكاف من ركِنَ يَرْكَن ، ولغة أُخرى ركَن يركُن وليست بفصيحة ، وأجاز أبو عمرو ، ركَن يركَن بفتح الكاف من الماضي وهو خلاف ما عليه الأبنية في السالم». و قال في (البحر المحيط): «وقرأ الجمهور ﴿تَرۡكَنُوٓاْ﴾ بفتح الكاف والماضي (ركِن) بكسرها ، وهي لغة قريش ، وقال الأزهري: هي اللغة الفصحى ، وقرأ قتادة وغيرها [تَرْكُنوا] بضم الكاف والماضي [ركَن] بفتحها. وهي لغة قيس وتميم ، وشذَّ (يَرْكَنَ) بفتح الكاف مضارع (ركَنَ) بفتحها».

الرّكون: الرضا، قال ابن زيد: الرّكُون: الإِذعان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالركون يقع على قليل هذا المعنى وكثيره، والنهي هنا يترتب من معنى الركون على المَيْل إِليهم بالشِّرك معهم إِلى أَقل الرُّتب من ترك التغيير عليهم مع القدرة، و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ هنا هم الكفار، وهو النَّصّ للمتأَولين، ويدخل بالمعنى أَهل المعاصي.

وقرأَ الجمهور: ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾، وقرأَ يحيى بن وثاب، وعلقمة، والأَعمش، وابن مصرف، وحمزة ـ فيما روي عنه ـ: [فَتِمَسَّكُم] بكسر التاءِ، وهي لغة في كسر العلامات الثلاث دون الياءِ التي للغائب، وقد جاءَ في الياءِ «يِيجَل» و«يِيبَى»، وعللت هذه بأَن الياءَ التي ولِيَت الأُولى ردَّتها إِلى الكسر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية. لم يختلف أَحد في أَن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة، واخْتُلف في «طَرَفَي النهارِ وزُلَف الليل» ـ فقيل: الطرف الأَول: الصبح، والثاني: الظهر والعصر، والزُّلَف: المغرب والعشاءُ، قاله مجاهد، ومحمد بن كعب القُرظي. ورُوي أَن النبي ﷺ قال في المغرب والعشاءِ: «هما زُلفتا الليل»(١). وقيل: الطرف الأَول: الصبح، والثاني: العصر، قاله الحسن، وقتادة، والضحاك. والزُّلفُ: المغربُ والعشاءُ، وليست الظهر في هذه الآية ـ على هذا القول ـ بل هي في غيرها. وقيل: الطرفان: الصبح والمغرب، قاله ابن عباس، والحسن أَيضاً، والزُّلفُ: العشاءُ، وليست الظهر والعصر في الآية، وقيل: الطرفان: الظهر والعصر، والزُّلف: المغربُ والعشاءُ والصبحُ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَن هذا القائل راعى جهر القراءَة، والأَول أحسنُ هذه الأَقوال عندي، ورجح الطبريّ أَن الطرفين: الصبح والمغرب، وأَنه الظاهر إِلاَّ أَن عموم الصلوات الخمس بالآية أَولى.

وقرأَ الجمهور: ﴿وَزُلَفًا﴾ بفتح اللام، وقرأَ طلحة بن مصرف، وابن محيصن،

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الحسن. (فتح القدير، والدر المنثور).

وعيسى، وابن إسحق، وأَبو جعفر: [زُلُفاً] بضم اللام كأَنه اسم مفرد، وقرأَ [زُلْفاً] بسكون اللام مجاهد، وقرأَ أيضاً: [زُلْفَى] على وزن «فُعْلَى»، وهي قراءة ابن محيصن، والزُّلَف: الساعات القريب بعضها من بعض ومنه قول العجاج:

نــاجٍ طَــواهُ الأَيْــن مِمَّــا وجَفَــا
طَــيَّ اللَّيــالــي زُلَفــاً فَــزُلَفَــا
سَمَــاوةَ الْهِــلاَلِ حتَّــى احْقَــوْقَفَــا[1]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ذهب جمهور المتأَولين من صحابة وتابعين إلى أَن ﴿ٱلْحَسَنَٰتِ﴾ يراد بها الصلوات الخمس، وإلى هذه الآية ذهب عثمان رضي الله عنه عند وضوئه على المقاعد[2]، وهو تأْويل مالك، وقال مجاهد: الحسنات: قول الرجل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إِله إِلاَّ الله، والله أَكبر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله إنما هو على جهة المثال في الحسنات، ومن أَجل أَن الصلوات الخمس هي أَعظم الأَعمال. والذي يظهر أَن لفظ الآية عام في الحسنات خاص في السيئات لقوله عليه الصلاة والسلام: «ما اجْتُنِبَت الْكَبَائر». وروي أَن هذه الآية نزلت في رجل من الأَنصار، قيل: هو أَبو الْيَسَر بن عمرو، وقيل: اسمه عبَّاد، خلا بامرأَة فقبَّلها

---

(١) الأبيات الثلاثة من مشطور الرجز، وهي في وصف جمَل، والناجي: المسرع في السَّيْر لأنه ينجو بسرعته من الأخطار، والأين: التَّعب والإعياءُ، والوَجْف: سرعة السير، أي: أصابه التعب من سرعة السير، وزُلَفاً فزُلَفاً: قال في اللسان: منزلةً بعد منزلة ودرجة بعد درجة، وسماوة الهلال: شخصه إذا ارتفع عن الأفق شيئاً، ومعنى احقوقف: طال واعَوجّ، وكل ما طال واعوجَّ فقد احقوقف كشخص الهلال وظهر البعير.

(٢) أسند ابن جرير الطبري إلى زهرة بن معبد قال: سمعت الحرث مولى عثمان بن عفان يقول: جلس عثمان بن عفان يوماً وجلسنا معه، فجاءَ المؤذن، فدعا عثمان بماءٍ في إناءٍ أظنه سيكون فيه قدرُ مُدّ، فتوضأ، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأُ وضوئي هذا، ثم قال: «من توضأ وضوئي هذا ثم قام فصلَّى صلاة الظهر غُفِر له ما كان بينه وبين صلاة الصبح، ثم صلى العصر غفر له ما بينه وبين صلاة الظهر، ثم صلَّى المغرب غُفر له ما بينه وبين صلاة العصر، ثم صلَّى العشاءَ غُفِرَ له ما بينه وبين صلاة المغرب، ثمَّ لعلَّه يبيت ليلة يتمرَّغ، ثم إنْ قام فتوضأ وصلَّى الصبح غُفر له ما بينها وبين صلاة العشاءِ، وهنَّ الحسَنَات يُذهِبن السَّيِّئات»، وفي رواية أُخرى لابن جرير أيضاً: جلس عثمان يوماً على المقاعد.. فذكر مثله، وهذا هو السبب في إشارة المؤلف إلى المقاعد.

وتلذَّذ بها فيما دون الجماع ، ثم جاءَ إلى عمر رضي الله عنه فشكا إليه ، فقال: قد ستر الله عليك فاستر على نفسك ، فقلق الرجل فجاءَ أبا بكر رضي الله عنه فشكا إليه ، فقال له مثل مقالة عمر ، فقلق الرجل فجاءَ رسول الله ﷺ فصلى معه ثم أخبره وقال: اقْضِ فيّ ما شئت ، فقال الرسول ﷺ: لعلَّها زوجة غاز في سبيل الله ، قال: نعم ، فوبَّخه رسول الله ﷺ وقال: ما أدري ، فنزلت هذه الآية فدعاه رسول الله ﷺ فتلاها عليه ، فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: يا رسول الله ، خاصة؟ قال: بل للناس عامة[1].

ورُوي أَن الآية كانت نزلت قبل ذلك واستعملها رسول الله ﷺ في ذلك الرجل ، ورُوي أن عمر بن الخطاب قال ما حكي عن معاذ.

ورُوي أَن رسول الله ﷺ قال: «الجمعة إلى الجمعة ، والصلوات الخمس ، ورمضان إلى رمضان ـ كفَّارة لما بينهما إن اجْتُنِبَت الكبائر»[2] ، فاختلف أَهل السُّنة في تأويل هذا الشرط في قوله: «إن اجْتُنبت الكبائر» ـ فقال جمهورهم: هو شرط في معنى الوعد كله ، أَي: إن اجْتُنِبت الكبائر كانت العبادات المذكورة كفارة للذنوب ، فإن لم تُجتنب لم تكفر العبادات شيئاً من الصغائر ، وقالت فرقة: معنى قوله: «إن اجْتُنبت» أَي: هي التي لا تحطها العبادات ، فإنما شرط ذلك ليصح بشرطه عموم قوله: (ما بينهما) ، وإن لم تُجْتنب لم تحطها العبادات وحطت الصغائر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبهذا أَقول: وهو الذي يَقتضيه حديث خروج الخطايا مع قطر الماءِ

---

(١) أخرجه الترمذي وحسَّنه ، والبزار ، وابن جرير ، وابن مردويه عن أبي اليَسَر ، وفيه قال: (أتتني امرأة تبتاع تمراً ، فقلت: إن في البيت تمراً أطيب منه ، فدخلت معي البيت ، فأهويت إليها فقبَّلتها ، فأتيت أبا بكر. . .) الحديث ، وفي البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، والترمذي ، وغيرهم أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة. . . إلخ ولم يذكر اسم الرجل ، وفي بعض الروايات أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الذي أجاب أبا اليَسَر بأنها عامة للمسلمين لأنه هو الذي قال للرسول ﷺ: ألي خاصة؟ فقال عمر: لا ، وضرب على صدره. والروايات كثيرة في هذا الحديث.

(٢) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة بلفظ «الجمعة إلى الجمعة كفارة ما بينهما ما لم تُغْش الكبائر ، ورمز له السيوطي بالضعف في (الجامع الصغير) وأخرج البزّار عن أنس عن النبي ﷺ قال: «الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما اجتُنِبَت الكبائر» ، وأخرج الطبراني عن أبي أُمامة الباهلي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصلاة المكتوبة تكَفِّر ما قبلها إلى الصلاة الأخرى ، والجمعة تُكَفِّر ما قبلها إلى الجمعة الأخرى ، وشهر رمضان يكفِّر ما قبله إلى شهر رمضان ، والحج يكفِّر ما قبله إلى الحج» (الدر المنثور).

وغيره[١] ، وذلك كله بشرط التوبة من تلك الصغائر وعدم الإصرار عليها ، وهذا نصُّ حُذَّاق الأُصوليِّين ، وعلى التأْويل الأَول تجيءُ هذه مخصوصة في مجتنبي الكبائر فقط.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الصلوات ، ووصفها بـ ﴿ذِكْرَىٰ﴾ ، أَي: هي سبب ذكر وموضع ذكرى ، ويحتمل أَن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الإخبار بأَن الحسنات يذهبن السيئات ، فتكون هذه الذكرى تحضُّ على الحسنات ، ويحتمل أَن تكون الإشارة إلى جميع ما تقدم من الأَوامر والنواهي في هذه السورة ، وهو تفسير الطبري.

ثم أَمره تعالىٰ بالصبر[٢].

وجاءَت هذه الآياتُ في نمط واحد: أَعلمه الله تعالىٰ أَنه يوفي جميع الخلائق أَعمالهم ، المسيءَ والمحسن ، ثم أَمره بالاستقامة والمؤمنين معه ، ثم أَمره بإِقامة الصلوات ووعد على ذلك ، ثم أَمره بالصبر على التبليغ والمكاره في ذات الله تبارك وتعالىٰ ، ثم وعد بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿فَلَوْلَا﴾ هي التي للتحضيض ، لكن يقترن بها هنا معنى التفجع والتأَسف الذي ينبغي أَن يقع من البشر على هذه الأُمم التي لم تهتد ، وهذا نحو قوله: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى

---

(١) رواه مسلم في الطهارة ، وكذلك هو في الموطأ في الطهارة ، ورواه الإمام أحمد (٢/٣٠٣) ، ولفظه فيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرجت من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماءِ ، أو مع آخر قطرة الماءِ ، أو نحو هذا ، فإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطش بها مع الماءِ ، أَو مع آخر قطرة الماءِ حتى يخرج نقياً من الذنوب».

(٢) من اللطائف التي أشار إليها أبو حيان في هذه الآيات قوله: (انظر إلى الأمر والنهي في هذه الآيات ، فقد جاء الخطاب بالأمر موحداً في الظاهر وإن كان المأمور به من حيث المعنى عامّاً: «فاستقم» ، «أقم الصلاة» ، «واصبر» ، وجاء الخطاب في النهي موجهاً إلى غير الرسول ﷺ مخاطباً به أُمته: «ولا تركنوا» ، فحيث كان الأمر بأفعال الخير توجه الخطاب إليه ، وحيث كان النهي عن المحظورات عدل عن الخطاب عنه إلى غيره من أُمته ، وهذا من جليل الفصاحة).

﴿ٱلْعِبَادِ﴾(١) ، و﴿ٱلْقُرُونِ﴾ من قبلنا هم قوم نوح وعادٍ وثمود ومن تقدم ذكره ، والقرن من الناس: المقترنون في زمان طويل أكثره ـ فيما حدّ الناس ـ مائة سنة ، وقيل: ثمانون ، وقيل غير ذلك إلى ثلاثين سنة ، والأرجح الأول لقول النبي ﷺ: «أرأيتكم ليلتكم هذه فإن إلى رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد»(٢) ، قال ابن عمر رضي الله عنهما: يريد أنها تخرم ذلك القرن ، و«البقية» هنا يراد بها النَّظَرُ والعقل والحزم والثبوت في الدين ، وإنما قيل «بقية» لأن الشرائعَ والدولَ ونحوَها قُوَّتُها في أولها ثم لا تزال تضعف ، فمن ثبت في وقت الضعف فهو بقية الصدر الأول ، وقرأ فرقة: [بَقِية] بتخفيف الياءِ ، وهو ردّ فَعِيلَة إلى فَعِلَة(٣) ، وقرأ أبو جعفر ، وشيبة: [بُقْية] بضم الياءِ وسكون القاف على وزن فُعْلَة.

و«الْفَسَادُ في الأرض» هو الكفر وما اقترن به من المعاصي ، وهذه الآية فيها تنبيه لأمة محمد ﷺ وحضٌّ على تغيير المنكر والنهي عن الفساد ، ثم استثنى الله تعالىٰ القوم الذين نجاهم مع أنبيائهم وهم قليل بالإضافة إلى جماعاتهم ، و﴿قَلِيلًا﴾ نصب على الاستثناءِ ، وهو منقطع عند سيبويه ، والكلام عنده موجب ، وغيره يراه منفياً من حيث معناه أنه لم يكن فيهم أولو بَقِيّة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ على بناءِ الفعل للفاعل ، وقرأ جعْفَر بن محمد: [وَأُتبِعَ] على بنائه للمفعول ، ورويت عن أبي عمرو(٤). و﴿مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ أي: عاقبة ما نعموا به ـ على بناء الفعل للمفعول ـ ، والمُتْرف: المُنَعَّم الذي شغله ترفه عن الحق حتى هلك ، ومنه قول الشاعر:

تُهْدِي رُؤُوس المُتْرَفِينَ الصُّدَّادْ ... إِلَى أَمِيرِ الْمُؤمِنِينَ المُمْتَادْ(٥)

---

(١) من الآية (٣٠) من سورة يس.

(٢) الحديث رواه البخاري في باب السَّمَر في العلم عن عبد الله بن عمر ، قال: صلَّى بنا النبيُّ ﷺ العشاءَ في آخر حياته ، فلما سلَّم قام فقال: أَرَأَيتكُم.. إلخ.

(٣) قال في (البحر المحيط): «فهي اسم فاعل من بَقِيَ ، نحو شجِيت فهي شَجِيَّة».

(٤) ورويت أيضاً عن العلاءِ بن سيابة ، وهي بسكون التاءِ مبنية للمفعول على حذف مضاف لأنه مما يتعدى إلى مفعولين ، والتقدير: جزاءَ ما أُترفوا فيه ، قال ذلك أبو حيان في (البحر) ، ولعله نقله عن أبي الفتح حيث قال في المحتَسَب: «هو عندنا على حذف مضاف ، أي: اتبع الذين ظلموا جزاء ما أُترفوا فيه».

(٥) البيتان من مشطور الرجز ، وهما لرؤبة بن العجاج ، قاله في اللسان ، وأيضاً في التاج ، وهما في=

يريد: المسؤول، يقال: ماده إذا سأله.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِظُلْمٍ﴾ يحتمل أن يريد: بِظُلْم منه لهم ـ تعالى عن ذلك ـ، قال الطبري: ويحتمل أن يريد: بِشِرْكٍ منهم وهم مصلحون في أعمالهم وسيرهم، وعدل بعضهم في بعض، أي أنه لا بُدَّ من معصية تقترن بكفرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وإنما ذهب قائله إلى نحو ما قيل: «إن الله تعالىٰ يُمْهل الدول على الكفر ولا يُمْهلها على الظلم والجور». ولو عكس لكان ذلك متجهاً، أي: ما كان الله ليعذب أُمة بظلمهم في معاصيهم وهم مصلحون في الإيمان، والاحتمال الأَول في ترتيبنا أَصحُّ إن شاء الله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

المعنى: لجعلهم أُمَّةً واحدة مؤمنة ـ قاله قتادة ـ حتى لا يقع منهم كفر ولا تنزل بهم مُثلة، ولكنه عزَّ وجلَّ لم يشأْ ذلك، فهم لا يزالون مختلفين في الأَديان والآراءِ والمِلَل. هذا تأْويل الجمهور. قال الحسن، وعطاء، ومجاهد، وغيرهم: المرحومون المستثنون هم المؤمنون ليس عندهم اختلاف، وقالت فرقة: لا يزالون مختلفين في السعادة والشقاوة، وهذا قريب المعنى من الأَول، إِذ هي ثمرة الأَديان والاختلاف فيها، ويكون الاختلاف ـ على هذا التأْويل ـ يدخل فيه المؤمنون إِذْ هم مخالفون للكفرة، وقال الحسن أَيضاً: لا يزالون مختلفين في الغنى والفقر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول بعيد معناه من معنى الآية.

= الديوان، وذكرهما أبو عبيدة في (مجاز القرآن)، وقال أبو عبيدة بعدهما: الممتاد: من مادَ يميد، وفي اللسان: الممتاد: المطلوب منه العطاءُ، مفتعل (اسم مفعول)، ثم قال: أي المتفضل على الناس، وهو المستَعْطى المسؤول، وماد زيد عمرواً إذا أعطاه، والرواية في اللسان: تُهْدِي رُؤوسَ المُتْرفين الأَنْدَادْ، وكلمة «تهدي» كتبت في الأصول (تَجْبي).

ثم استثنى الله تعالىٰ من الضمير في ﴿يَزَالُونَ﴾ مَنْ رحمه من الناس بأَن هداه إِلى الإِيمان ووفقه له.

وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ اختلف فيه المتأولون ـ فقالت فرقة: ولِشُهود اليوم المشهود ـ المتقدم ذكره ـ خلقهم، وقالت فرقة: [ذَلِكَ] إشارة إلى قوله قبْلُ: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أَي: لهذا خلقهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذان المعْنيان وإِن صحَّا فهذا العوْدُ المتباعد ليس بجيد، ورَوَى أَشهب عن مالك أَنه قال: [ذَلِكَ] إشارة إِلى أَن يكون فريق في الجنة وفريق في السعير.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فجاءَت الإِشارة بـ[ذَلِكَ] إِلى الأَمرين معاً: الاختلاف والرحمة، وقد قاله ابن عباس واختاره الطبري، ويجيءُ عليه الضمير في ﴿خَلَقَهُمْ﴾ للصِّنفين، وقال مجاهد، وقتادة: [ذلك] عائد على الرحمة التي تضمنها قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أَي: ولِلرَّحمة خلق المرحومين، قال الحسن: [ذلك] إشارة إِلى الاختلاف الذي في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويعترض هذا بأَن يقال: كيف خلقهم للاختلاف؟ وهل معنى الاختلاف هو المقصود بِخَلْقهم؟ فالوجه في الانفصال أَن نقول: إن قاعدة الشرع أَن الله عزَّ وجلَّ خلق خلقاً للسعادة وخلقاً للشقاوة، ثم يسَّر كُلاً لما خُلق له، وهذا نصٌّ في الحديث الصحيح(١)، وجعل بعد ذلك الاختلاف في الدين على الحق هو أَمارة الشقاوة، وبه

(١) نصُّ الحديث كما رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس، وعن عمران بن حصين: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِق لَه»، وهو حديث صحيح، قال ذلك الإمام السيوطي في (الجامع الصغير). هذا وقد رواه البخاري في تفسير سورة (الليل) وفي أماكن أُخرى كثيرة، ومسلم في القدر، وابن ماجه في المقدمة، والترمذي في القدر، والإمام أحمد في أكثر من موضع من مسنده، واللفظ كما جاء في البخاري عن عليّ رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مَقعده من الجنة ومقعده من النار»، فقالوا: يا رسول الله أفلا نتَّكل؟ فقال: «اعملوا فكُلٌّ مُيَسَّر»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾.

تعلق العقاب، فيصح أَن يحمل قوله هنا[١]: «وللاختلاف خلقهم» أَي: لثمرة الاختلاف وما يكون عنه من الشقاوة.

ويصح أَن تجعل اللام في قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾ لام الصيرورة، أَي: وخلقهم ليصير أَمرهم إِلى ذلك وإِن لم يقصد بهم الاختلاف. ومعنى قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢]، أَي: لآمُرُهم بالعبادة وأُوجبُها عليهم[٣]، فعبر عن ذلك بثمرة الأَمر ومقتضاه.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أَيْ نفذ قضاؤُه وحق أَمره، واللام في ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ لام قسم، إِذ «الكلمة» تتضمن القسم[٤]، والجِنُّ: جمع لا واحد له من لفظه، وهو من أَجَنَّ إِذا ستَر، والهاءُ في ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ للمبالغة، وإِن كان الجِنُّ يقع على الواحد فـ ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ جمعُه[٥].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَكُلًّا﴾ مفعول مقدم بـ ﴿نَّقُصُّ﴾[٦]، وقيل: هو منصوب على الحال، وقيل: على المصدر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذان ضعيفان.

---

(١) أي قول الحسن رضي الله عنه، لأن الكلام في دفع اعتراض وَرَد على رأيه.

(٢) من الآية (٥٦) من سورة الذاريات.

(٣) يريد أن يقول: إنه لا تعارض بين كون اللام في قوله: (وَلِذَٰلِكَ) للصيرورة وبين قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، لأن هذه الآية يراد بها الأمر بالعبادة.

(٤) فهي كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ ثم قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾.

(٥) وهذا مما يكون فيه الواحد بغير هاءٍ والجمع بالهاءِ كقول بعض العرب: (كمْءٌ) للواحد و(كَمْأَة) للجمع. قاله في (البحر المحيط).

(٦) والتنوين في ﴿وَكُلًّا﴾ عوض عن المحذوف، إذ التقدير: وكلَّ نبأ نقصُّ عليك. و﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ في موضع الصفة لقوله: ﴿وَكُلًّا﴾ إذ هي مضافة في التقدير إلى نكرة.

و﴿ مَا ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿ وَكُلًّا ﴾[1] ، و﴿ نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ أَي: نُؤْنسك فيما تلقاه ، ونجعل لك الأسوة فيمن تقدمك من الأنبياءِ ، وقوله: ﴿ فِي هَٰذِهِ ﴾ ، قال الحسن: هي إِشارةٌ إِلى دار الدنيا ، وقال ابن عباس: إِلى السورة والآيات التي ذكر فيها قصص الأُمم. وهذا قول الجمهور.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ووجْه تخصيص هذه السورة بوصفها بـ ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ ـ والقرآن كله حَقٌّ ـ أَن ذلك يتضمن معنى الوعيد للكفرة والتنبيه للناظر أَي: جاءَك في هذه السورة الحق الذي أَصاب الأُمم الظالمة ، وهذا كما يقال عند الشدائد: «جاءَ الحقُّ» ، وإِن كان الحق يأْتي في غير شدَّة وغير ما وجْه ، ولا يستعمل في ذلك «جاءَ الحق» ، ثم وصف أَيضاً أَن ما تضمنته السورة هو موعظة وذكرى للمؤمنين ، فهذا يؤيد أَن لفظة ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ إِنما تختص بما تضمنت من وعيد للكفرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الآية. هذه آية وعيد ، أَي: اعملوا على حالاتكم التي أَنتم عليها من كفركم. وقرأَ الجمهور هنا: ﴿ مَكَانَتِكُمْ ﴾ واحدة دالة على جمع ، وأَلفاظ هذه الآية تصلح للموادعة ، وتصلح أَن تقال على جهة الوعيد المحض والحرب قائمة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآية. هذه آية تَعَظُّم وانفراد بمالا حظَّ لمخلوق فيه ، وهو علم الغيب ، وتَبْيِين أَن الخير والشَّرَّ وجليل الأَشياءِ وحقيرها ـ مصروف إِلى أَحكام مالكه[2] ، ثم أَمر النبي ﷺ بالعبادة والتوكل على الله تبارك وتعالىٰ ، وفيها زوالُ همِّه وصلاحُه ووصوله إِلى رضوان الله.

وقرأَ السبعة غير نافع [يَرْجِعُ ٱلأَمْرُ] على بناءِ الفعل للفاعل ، وقرأَ نافع: وحفص عن عاصم: ﴿ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ ﴾ على بنائه للمفعول ، ورواها ابن أَبي الزناد عن أَهل

---

(١) ويجوز أن تكون صلة كما هي في قوله تعالىٰ: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ، كما يجوز أن تكون خبر مبتدأ محذوف ، أي: هو ما نُثَبِّت ، فتكون ﴿ مَّا ﴾ موصولة بمعنى (الذي) ، أو مصدرية.

(٢) قال أبو عليّ الفارسي: المعنى: «علم ما غاب في السموات والأرض» ، وأضاف الغيب إليهما توسُّعاً.

المدينة. وقرأ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاءِ من فوق نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم، وهي قراءَة الأَعرج، والحسن وأَبي جعفر، وشيبة، وعيسى بن عمرو، وقتادة، والجحدري، واخْتُلف عن الحسن، وعيسى. وقرأَ الباقون: [يَعْمَلُونَ] بالياءِ على كناية الغائب.

تم بتوفيق من الله تبارك وتعالىٰ تفسير سورة هود

والحمد لله رب العالمين

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة يوسف عليه السلام

هذه السورة مكية[١]، ويُرْوى أَن اليهود سأَلوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف فنزلت السورة بسبب ذلك، ويُرْوى أَن اليهود أَمروا كفار مكة أَن يسأَلوا رسول الله ﷺ عن السبب الذي أَحلَّ بني إسرائيل بمصر فنزلت السورة، وقيل: سبب نزولها تسلية رسول الله ﷺ عما يفعله به قومه بما فعل إخوة يوسف بيوسف، وسورة يوسف لم يتكرر من معناه شيءٌ في القرآن كما تكررت قصص الأَنبياءِ[٢]، ففيها حجة على من اعترض بأَن الفصاحة تمكنت بترداد القول، وفي تلك القصص حجة على من قال في هذه: لو كررت لَفَتَرَتْ فصاحتها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾.

تقدم القول في فواتح السُّور، و﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: القرآن، ووصفه بـ ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ ـ قيل: من جهة أَحكامه وحلاله وحرامه، وقيل: من جهة مواعظه وهداه ونوره، وقيل: من جهة بيان اللسان العربي وجودته إذ فيه ستة أَحرف لم تجتمع في لسان[٣]، ـ رُوي هذا القول عن معاذ بن جبل ـ ويحتمل أَن يكون مُبيناً لنبوة محمد ﷺ بإعجازه والصواب أَنه مبين بجميع هذه الوجوه، والضمير في قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ للكتاب، والإنزال إمَّا بمعنى

(١) في (البحر المحيط): «وقال ابن عباس وقتادة: إلا ثلاث آيات من أولها»، وفي (القرطبي): «وقال ابن عباس وقتادة: إلا أربع آيات منها». وعدد آيات هذه السورة مائة وإحدى عشرة آية، ونزلت بعد سورة هود.

(٢) اللهم إلا ما أخبر به مؤمن آل فرعون في سورة غافر، قاله أبو حيان في (البحر المحيط).

(٣) هي: «الصَّاد والضَّاد والطَّاءُ والظَّاءُ والعين والحاء». ولاحظ قوله: «لم تجتمع» فإنه هو المقصود.

الإثبات، وإما أن تتصف به التلاوة والعبارة، وقال الزجاج: الضمير في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ يراد به خبرُ يوسف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يحتمل أن تتعلق بـ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، أي: أنزلناه لعلَّكم، ويحتمل أن تتعلق بقوله: ﴿عَرَبِيًّا﴾، أي: جعلناه عربياً لعلَّكم تعقلون إذ هو لسانكم، و﴿قُرْءَٰنًا﴾ حال[1]، و﴿عَرَبِيًّا﴾ صفة له[2]، وقيل: إن ﴿قُرْءَٰنًا﴾ بدلٌ من الضمير، وهذا فيه نظر، وقيل: ﴿قُرْءَٰنًا﴾ توطئة للحال، و﴿عَرَبِيًّا﴾ حال، وهذا كما تقول: «مررت بزيد رجلاً صالحاً».

وقوله تعالىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ الآية. روى ابن مسعود أَنَّ أَصحاب رسول الله ﷺ مَلُّو مَلَّة فقالوا: لو قصصتَ علينا يا رسول الله، فنزلت هذه الاية، ثم ملُّو مَلَّة أُخرى فقالوا: لو حدَّثتنا يا رسول الله، فنزلت: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾[3]،

---

(١) سُمِّي القرآن قرآناً لأنه يُقرأُ، وهو اسم جنس يقع على القليل والكثير. وقال أبو عبيدة: سُمِّي قرآناً لأنه يجمع السُّور فيضمها.

(٢) ﴿عَرَبِيًّا﴾ منسوب إلى العرب، والعَرب، جيل من الناس، واحده: عَرَبيّ، والعَرَب: اسم جنس، وليس (الأعراب) جمعاً له، بل (الأعراب) جمع أعْرابي، والعَرَبُ والعُرْبُ واحد، وعَرَبة ناحية دار إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، قال الشاعر:

وعَـــرْبَـــةُ أرضٌ مـــا يُحِـــلُّ حَـــرَامَهَـــا ... مِـنَ النَّـاسِ إلا اللَّـوْذَعِـيُّ الحُـلاحِـلُ

يعني النبي ﷺ، وسكنت راءُ (عَرَبَة) في البيت لضرورة الشعر.

(٣) الحديث بهذا اللفظ أخرجه ابن جرير عن عون بن عبد الله، إلا أنهم في المَلَّة الأولى قالوا: «لو حدثتنا...»، وفي الثانية قالوا: «حدثنا فوق الحديث ودون القرآن، يعنون القصص». (راجع تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، والدر المنثور)، وأخرج ابن جرير ـ ونقله ابن كثير في تفسيره ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله، أما ما رواه ابن مسعود فقد أخرجه ابن مردويه عنه من طريق عون بن عبد الله، ولفظه «قالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فنزلت: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾، (راجع الدر المنثور) وقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾ من الآية (٢٣) من سورة الزُّمَر.

وقد وصفت هذه السورة بأنها أحسن القصص لأسباب ذكرها العلماءُ: منها أن كل من ذكر فيها كان مآله إلى السعادة، وانظر إلى يوسف وأبيه وإخوته وامرأة العزيز والملك والساقي مستعبر الرؤْيا، ومنها انفراد السورة بما فيها من أخبار لم تتكرر في غيرها، ومنها أنها عبَّرت عن حسن تجاوز يوسف عن أعمال إخوته وعفوه عنهم، ومنها أنها ذكرت جملة من الفوائد التي تصلح الدنيا والدين كالتوحيد، =

و﴿ٱلْقَصَصِ﴾: الإخبار بما جرى من الأُمور، كأَن الأنباءَ تَتَبَّع بالقول كما يُقَص الأَثر، وقوله: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أَي: بوَحْيِنَا، و﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ نعتٌ لـ﴿هَٰذَا﴾، ويجوز فيه البدل، وعطف البيان فيه ضعيف. و﴿وَإِن﴾ هي المخففة من الثقيلة، واللام في خبرها لام التأْكيد، هذا مذهب البصريين، ومذهب أَهل الكوفة أن [إنْ] بمعنى [لها]، و(اللام) بمعنى (إلاَّ)، والضمير في ﴿قَبْلِهِۦ﴾ للقصص العام لما في جميع القرآن منه، و﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ أَي عن معرفة هذا القصص. ومَنْ قال: إن الضمير في ﴿قَبْلِهِۦ﴾ عائد على ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ جعل ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ في معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[(١)]، أَي: على طريق غير هذا الدين الذي بعثت به، ولم يكن عليه الصلاة والسلام في ضلال الكفار ولا في غفلتهم، لأَنه لم يشرك قط، وإنما كان مستهدياً ربّه عزَّ وجلَّ وموحداً، والسائلُ عن الطريق المُتَحَيِّرُ يقع عليه ـ في اللغة ـ اسم ضالّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

العامل في ﴿إِذْ﴾ فعل مضمر تقديره، اذكر إِذ، ويجوز أَن يعمل فيه ﴿نَقُصُّ﴾، كأَن المعنى: نقُصّ عليك الحال إِذْ[(٢)]، وحكى مكِّيّ أَن العامل فيه ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾، وهذا ضعيف.

وقرأَ طلحة بن مصرف: [يُؤْسَف] بالهمز وفتح السين، وفيه ست لغات: [يُوسُف] بضم الياءِ وسكون الواو وبفتح السّين وبضمها وبكسرها، وكذلك بالهمز. وقرأَ الجمهور: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ بكسر التاءِ، حذفت الياءُ من (أَبي) وجعلت التاءُ بدلاً منها، قاله سيبويه. وقرأَ ابن عامر وحده[(٣)]، وأَبو جعفر، والأَعرج: [يا أَبَتَ] بفتحها، وكان

= والفقه، والسير، والسياسة، والمعاشرة، وتعبير الرؤيا، وتدبير المعاش، وقيل: إن (أحسنَ) هنا بمعنى أعجب.

(١) من الآية (٧) من سورة الضحى.

(٢) وأجاز الزمخشري أن تكون ﴿إِذْ﴾ بدلاً من ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ على أنها بدل اشتمال، ورفض أبو حيان هذا، كما رفض قول ابن عطية إنها معمول لـ﴿نَقُصُّ﴾ وقال: «هذه التقديرات لا تتَّجه حتى تُخلع ﴿إِذْ﴾ من دلالتها على الماضي وتُجَرّد للوقت المطلق الصالح للأزمان كلها على جهة البدلية».

(٣) يعني: وحده من السبعة، وإلا فقد قرأ بها أبو جعفر، والأعرج كما ذكر المؤلف رحمه الله.

ابن كثير ، وابن عامر يقفان بالهاءِ ، فأَما قراءَة ابن عامر بفتح التاءِ فلها وجهان: إمّا أن يكون «يا أَبتا» ثم حذفت الأَلف تخفيفاً وبقيت الفتحة دالة على الأَلف ، وإِمَّا أَن يكون جارياً مجرى قولهم: «يا طلحةَ أَقْبِلْ» ، رخَّموه ثم ردُّوا العلامة ولم يعتد بها بعدالترخيم ، وهذا كقولهم: «اجتمعت اليمامة» ، ثم قالوا: «اجتمعت أَهل اليمامة» فردوا لفظة الأَهل ولم يعتدوا بها.

وقرأَ أَبو جعفر ، والحسن ، وطلحة بن سليمان: ﴿أَحَدَعَشَرَ كَوْكَبًا﴾ بسكون العين لتوالي الحركات ، وليظهر أَن الاسمين قد جُعلا واحداً ، وقيل: إِنه رأَى كواكب حقيقة والشمس والقمر فتأَولها يعقوب إِخوته وأَبويه ، وهذا قول الجمهور ، وقيل: الإِخوة والأَب والخالة ، لأَن أَمه كانت ميتة ، وقيل: إِنما كان رأَى إِخوته وأَبويه فعبّر عنهم بالكواكب والشمس والقمر ، وهذا ضعيف ، ترجم به الطبري ثم أَدخل عن قتادة والضحاك وغيرهما كلاماً محتملاً أَن يكون كما ترجم وأَن يكون مثل قول الناس ، وقال المفسرون: القمر تأْويله: الأَب ، والشمس تأْويلها: الأُم ، فانتزع بعض الناس من تقديمها وجوب بِر الأُم وزيادته على برّ الأَب ، وحكى الطبري عن جابر بن عبد الله أَن يهودياً اسمه بستانة جاءَ إِلى رسول الله ﷺ فقال: أَخبرني عن أَسماءِ الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام ، فسكت عنه رسول الله ﷺ ، ونزل جبريل عليه السلام فأَخبره بأَسمائها ، فدعا رسول الله ﷺ اليهوديّ ، فقال: هل أَنت مؤمن إِن أَخبرتك بذلك؟ قال: نعم ، قال: جَرِيَّان ، والطَّارق ، والذَّيَّال ، وذُو الكَتِفَين ، وقابِس ، ووثَّاب ، وعَمُودان ، والْفَيْلَق ، والمُصْبح ، والضَّروح ، وذو الْفَرْغ ، والضِّياءُ ، والنُّورُ[١] ، فقال اليهودي: أَي والله إِنها لأَسماؤُها[٢].

---

(١) اختلفت النسخ الأصلية في كتابة هذه الأسماء ، وكذلك وقع اختلاف بين المفسرين في كتابتها ، وقد آثرنا اختيار الأسماء التي اتفق عليها أكثر المفسرين ، والاسم الأول جاء في بعض النسخ (حربان) بالراءِ والباءِ ، وفي (فتح القدير) جاءَ (خرثان) بالخاءِ والثاءِ ، وضبطه (الجمل) نقلاً عن (الشهاب) فقال: (جَرِيَّان) بفتح الجيم وكسر الراءِ المهملة وتشديد الياءِ التحتية ، أما (ذو الكتفين) فجاءَ في بعض التفاسير بالنون بدلاً من التاءِ ، و(عمودان) هو تثنية عمود ، و(الفَيْلَق) جاءَ بتقديم اللام على الياءِ (الفَيَلق) ، و(ذو الفرغ) بالغين المعجمة جاءَ في بعض النسخ بالعين المهملة ، وهكذا.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور ، والبزَّار ، وأبو يَعْلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والعقيلي ، وابن حبان في الضعفاء ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقي معاً في «دلائل النبوة» عن جابر. (الدر المنثور).

وتكرر ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ لطول الكلام[١]، وجَرْيُ ضمائر هذه الكواكب في هذه الآية مجرى ضمائر من يعقل إنما كان لمَّا وُصِفَت بأفعال هي خاصة بمن يعقل[٢].

ورُوي أن رؤْيا يوسف كانت ليلة القدر ليلة جمعة، وأنها خرجت بعد أربعين سنة، وقيل: بعد ثمانين سنة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

تقتضي هذه الآية أن يعقوب عليه السلام كان يُحِسُّ من بَنيه حسد يوسف وبغضته، فنهاه عن قصص الرؤْيا عليهم خوف أن يشعل بذلك غِلَّ صدروهم، فيعملوا الحيلة على هلاكه، ومن هنا ومن فعلهم بيوسف ـ الذي يأتي ذكره ـ يظهر أنهم لم يكونوا أنبياءَ في ذلك الوقت. ووقع في كتاب الطبري لابن زيد أنهم كانوا أنبياءَ، وهذا يردّه القطع بعصمة الأنبياءِ عن الحسد الدنياوي، وعن عقوق الآباءِ، وعن تعريض مؤمن للهلاك والتوافر في قتله. ثم أعلمه أن الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين، أي: هو يدخلهم في ذلك ويحضهم عليه.

وأَمال الكسائي: ﴿رُءْيَاكَ﴾ والرؤْيا حيث وقعت، ورُوي عنه أنَّهُ لم يُمِلْ ﴿رُءْيَاكَ﴾ في هذه السورة وأمال الرؤْيا حيث وقعت، وقرأ [رُويَاكَ] بغير همز ـ وهي لغة أهل الحجاز ـ ولم يُمِلْها الباقون حيث وقعت. والرُّؤْيا مصدر كثر وقوعه على هذا المُتَخَيَّل في النوم حتى جرى مجرى الأسماءِ كما فعلوا في الدَّرّ في قولهم: «لله دَرُّك» فخرجا من حكم عمل المصادر، وكسَّروها رُؤًى بمنزلة ظُلَم، والمصادر في أكثر الأمر لاتُكَسَّر[٣].

---

(١) قال الزمخشري: «ليس بتكرار، إنما هو كلام مستأنف وقع جواباً لسؤال مقدر، كأن يعقوب عليه السلام قال له: كيف رأيتها؟ سائلاً عن حال رؤيتها، فقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾. وقال الجمل مثل هذا الكلام أيضاً، ثم عقَّب عليه بقوله: «وهذا أظهر لأنه متى دار الكلام بين الحمل على التأكيد أو التأسيس فحمله على التأسيس أولى».

(٢) والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته وإن كان خارجاً عن الأصل، ومن هذا قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

(٣) الرؤيا: مصدر كالبُقْيا، قال الزمخشري: «الرؤيا بمعنى الرؤية إلا أنها مختصة بما كان في النوم دون=

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ﴾ الآية، فـ ﴿يَجْتَبِيكَ﴾ معناه: يختارك ويصطفيك، ومنه: جبيْتُ الماءَ في الحوض، ومنه: جباية المال. وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾(١)، وقال مجاهد، والسدي: هي عبارة الرؤْيا، وقال الحسن: هي عواقب الأُمور، قيل: هي عامة لذلك وغيره من المغيَّبات. وقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ﴾ يريدالنبوة وما انضاف إليها من سائر النعم، وقوله: ﴿ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ يريد ـ في هذا الموضع ـ الأَولاد والقرابة التي هي من نسله، أَي يجعل فيهم النبوة، ويروى أَن ذلك إنما علمه يعقوب من دعوة إِسحق له حين تشَبَّه له بعيصو، والقصة كاملة في كتاب النقاش لكني اختصرتها لأَنه لم ينبُل أَلفاظها(٢)، وما أَظنه انتزعها إلا من كتب بني إِسرائيل فإِنها قصة مشهورة عندهم، وباقي هذه الآية بيّن.

والنعمة على يوسف كانت تخليصَه من السجن وعصمتَه والمُلْكَ الذي نال، وعلى إبراهيم هي اتخاذه خليلاً، وعلى إِسحق فديته بالذبح العظيم(٣) مضافاً ذلك كله إلى النبوة، و﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ مناسبتان لهذا الوعد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

قرأ الجمهور: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بالجمع، وقرأ ابن كثير وحده(٤): [آيَةٌ] بالإفراد، وهي

= اليقظة، فُرّق بينهما بِحَرْفَي التأنيث كما قيل في القُرْبة والقُرْبى».

(١) يرى الزمخشري أن الأحاديث اسم جمع للحديث وليس بجمع أُحدوثة، وعارضه أبو حيان فقال: وليس باسم جمع كما ذكر، بل هو جمع تكسير لحديث على غير قياس، كما قالوا: أباطل وأباطيل، ولم يأت اسم جمع على هذا الوزن، وإذا كانوا يقولون في (عَبَادِيدَ) و(يَنَاذِيرَ) إنهما جمعا تكسير ولم يلفظ لهما بمفرد فكيف لا يكون (أحاديث) و(أباطيل) جمعي تكسير؟. (البحر المحيط ٥ ـ ٢٨١).

(٢) لم يحسن اختيار الألفاظ ولم يُحْكمها، يقال: هو يَنْبُل هذا الأمر بمعنى: يُحكم معرفته، وهو يَنْبُل الرسم أو التمثيل بمعنى يحسنه ويجيد القيام به، وأتاه أمْرٌ لم يَنْبُل نبله بمعنى: لم يتخذ له عُدَّته. (المعجم الوسيط).

(٣) الثابت أن الذبيح هو إسماعيل، ونسبة الذبح وقصته إلى إسحق فرية يروج لها اليهود.

(٤) يريد: وحده من بين السبعة، وإلا فقد قرأ بها مجاهد، وشبل، وأهل مكة كما ذكر المؤلف.

قراءَة مجاهد، وشبل، وأَهل مكة. فالأُولى على معنى أَن كل حال من أَحواله آية آية فجمعها، والثانية على أَنه بجملته آية، وأَن تفصل بالمعنى. ووزن آية فَعَله أَو فَعْله أَو فاعلة على الخلاف فيه[١]، وذكر الزجاج أَن في غير مصحف عثمان «عِبْرَةٌ لِلسَّائِلِينَ»، قال أَبو حاتم: هو في مصحف أُبيّ بن كعب.

وقوله: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ يقتضي حضاً مّا على تعلم هذه الأَنباءِ، لأَنه إِنما المراد: «آية للناس»، فوصفهم بالسؤال إِذ كل واحد ينبغي أَن يسأَل عن مثل هذه القصص، إِذ هي مقر العبر والاتِّعاظ، ويصح أَيضاً أَن يصف الناس بالسؤال من حيث كان سبب نزول السورة سؤال سائل كما روي. وقولهم: ﴿وَأَخُوهُ﴾ يريدون به «بنيامين»، وهو أَصغر من يوسف، ويقال له: «يامين»، وقيل: كان شقيق يوسف وكانت أُمهما ماتت، ويدل على أَنهما شقيقان تخصيص الإِخوةَ لهما بـ «أَخُوهُ» وهي دلالة غير قاطعة، وكان حُبُّ يعقوب ليوسف عليه السلام وبنيامين لصغرهما وموت أُمهما، وهذا من «حُبُّ الصغير فطرةُ البشر»، وقد قيل لابنة الحسن: أَيُّ بنيك أَحب إِليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يقدم، والمريض حتى يُفيق.

وقولهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أَي: نحن جماعة تضر وتنفع، وتحمي وتخذل[٢]، أَي: لنا كانت تنبغي المحبة والمراعاة. والعُصبة في اللغة: الجماعة، قيل: من عشرة إِلى خمسة عشر، وقيل: من عشرة إِلى أَربعين، وقال الزجاج: العشرة ونحوهم، وفي الزهراوي: الثلاثة: نفر، فإِذا زادوا فهم رهط إِلى التسعة، فإِذا زادوا فهم عُصبة، ولا يقال لأَقل من عشرة: عُصبة.

وقولهم: ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أَي: لفي اختلاف وخطإٍ في محبة يوسف وأَخيه، وهذا هو معنى الضلال، وإِنما يصغر قدره أَو يعظم بحسب الشيءِ الذي فيه يقع الائتلاف، و﴿مُّبِينٍ﴾ معناه: يظهر للمتأَمل، وقرأَ أَبو عمرو، وعاصم، وابن عامر،

---

(١) وزن آية عند سيبويه: (فَعَلَه) فهي «أَيَيَة»، ووزنها عند الفراءِ: (فَعْلَة)، فهي «أَيَّة»، ووزنها عند الكسائي: (فاعِلَة)، فهي «آيِيَة».

(٢) كان عددهم أَحد عشر رجلاً، وهم: روبيل ـ وهو أَكبرهم، ويقال: روبين بالنون ـ وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وزبالون، ويساخر، فهؤلاءِ ستة أُمهم لِيَا بنت لِيان، وهي بنت خال يعقوب، ووُلِدَ له مِن سُرِّيَّتَيْن أَربعة هم: دان، ونفتالي، وجاد، وآشر، ثم توفيت (لِيَا) فتزوج يعقوب أُختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين. وأُم يعقوب اسمها (رِفْقا)، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين.

وحمزة: ﴿مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟﴾ بكسر التنوين في الوصل لالتقاءِ ساكن التنوين والقاف، وقرأ نافع، وابن كثير، والكسائي: [مُبِيننُ اقْتُلُوا] بكسر النون وضم التنوين إتباعاً لضمة التاءِ ومراعاةً لها.

وقوله: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ الآية. كانت هذه مقالة بعضهم: ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ﴾ معناه: أَبعدوه، ومنه قول عروة بن الورد:

وَمَــنْ يَــكُ مِثْلِــي ذَا عِيَــالٍ وَمُقْتِــراً ... يُغَــرِّرْ وَيَطْــرَحْ نَفْسَــهُ كُــلَّ مَطْـرَحِ[(١)]

والنَّوى الطَّروح: البعيدة، و﴿أَرْضًا﴾ مفعول ثان بإسقاط حرف الجر، لأَن «طَرَحَ» لا يتعدى إلى مفعولين إلا كذلك. وقالت فرقة: هو نصب على الظرف، وذلك خطأٌ لأَن الظرف ينبغي أَن يكون مبهماً، وهذه ليست كذلك، بل هي أَرض مقيدة بأَنها بعيدة أَو قاصية ونحو ذلك، فزال بذلك إبهاماً، ومعلوم أَن يوسف لم يخْل من الكون في أَرض فبيّن أَنها بعيدة غير التي هو فيها قريب من أَبيه[(٢)].

وقوله: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ استعارة[(٣)]، أَي: إذا فقد يوسف رجعت إليكم محبته، ونحو هذا قول العربي حين أَحبَّته أُمه لما قُتِلَ إِخْوَتُهُ وكانت قَبْلُ لا تُحِبُّه: «الثُّكْل أَرْأَمَهَا»[(٤)]، أَي عطفها عليه، والضمير في ﴿بَعْدِهِۦ﴾ عائد على «يوسف» أَو

---

(١) وروي: «من المال» بدلاً من «يُغرِّر»، ومُقْتر: مُقِلّ فقير، يقول: من كان مثلي فقيراً عليه أَن يطلب رزقه في كل مكان، وأن يلقي بنفسه في كل مَطْرح مهما كان بعيدا، وعروة من الشعراء الصعاليك، دفعه إلى ذلك اضطهاد أبيه له، وتفضيله أخاه الأكبر عليه، وقد احتقره قومه لهبوط منزلة أُمه في النسب عن منزلة أبيه فزاده ذلك بُعْداً عنهم وإقبالاً على الفروسية والصعلكة.

(٢) يقول الزمخشري: هي أرض منكورة مهجورة بعيدة عن العمران، وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الناس، ولإبهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة.

(٣) ذُكر (الوجه) لتصوير معنى الإقبال عليهم لأن الرجل إذا أقبل على الشيءِ أقبل بوجهه، وفي الألوسي أنها كناية عن خلوص المحبة.

(٤) نص المثل كما رواه الميداني، في (مجمع الأمثال): «ثُكْلٌ أَرْأَمَهَا وَلَداً». قاله بَيْهَس الملقب بنعامة لأمِّه حين رجع إليها بعد إخوته الذين قتلوا، وكان بيهس رجلاً من فزارة، وكان سابع سبعة إخوة، فأغار عليهم ناسٌ من أشجع فقتلوا منهم سَتَّة وبقي بيْهس وهو أصغرهم، فقالوا: وما تريدون من قتل هذا؟ يحسب عليكم برجل، فلما رجع إلى أُمّه أخبرها الخبر، فقالت: فما جاءني بك من بين إخوتك؟ ثم رقَّت له، وعطفت عليه، فقال الناس: لقد أَحَبّت أم بَيْهَس بيهساً، فقال بَيْهَس: «ثُكْلٌ أرْأَمَها وَلَداً»، أي: عطفها على ولد، فذهبت مثلاً.

«قَتْلِهِ» أو «طَرْحِه» ، و﴿صَٰلِحِينَ﴾ ، قال السدي ، ومقاتل بن سليمان: إنهم أرادوا صلاح الحال عند أبيهم ، وهذا يشبه أن يكون قصدهم في تلك الحال ، ولم يكونوا حينئذ أنبياءَ ، وقال الجمهور: ﴿صَٰلِحِينَ﴾ معناه بالتوبة ، وهذا هو الأظهر من اللفظ ، وحالهم أيضاً تُعطيه ، لأنهم مؤمنون بنوا على عظيمة وعلَّلوا أنفسهم بالتوبة ، والقائل منهم ، قيل: هو روبيل ـ أسنهم ـ ، قاله قتادة ، وابن إسحق. وقيل: يهوذا ـ أحلمهم ـ ، وقيل: شمعون ـ أشجعهم ـ قاله مجاهد ، وهذا عطف منه على أخيه لا محالة لما أراد الله من إنفاذ قضائه ، و«الْغَيَابة»: ما غاب منك من الأماكن أو غيب عنك شيئاً آخر. وقرأ الجمهور: ﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ ، وقرأ نافع وحده: [غَيَابَات ٱلْجُبِّ] ، وقرأ الأعرج: [غَيَّابَاتِ ٱلْجُبِّ] بشد الياءِ ، قال أبو الفتح: «هو اسم جاءَ على (فَعَّالة) ، كان أبو علي يلحقه بما ذكر سيبويه من الفيّاد ونحوه[١] ، ووجدت أنا من ذلك: التَّيار للموج ، والفَخَّار للخزف».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي شبه «غَيَّابة» بهذه الأمثلة نظر لأن «غَيَّابة» جارية على فعل[٢]. و قرأ الحسن: [في غيْبَةِ ٱلْجُبِّ] على وزن (فَعْلة)[٣] ، وكذلك خطت في مصحف أُبي بن كعب ، ومن هذه اللفظة قول الشاعر: وهو المنَخّل:

فـإِنْ أَنـا يَـومـاً غَيَّبَتْنـي غَيَـابَتـي ... فسِيروا بِسَيْرِي في ٱلْعَشَائِرِ والأَهْلِ[٤]

(١) الفَيَّاد: المتبختر ، (المعجم الوسيط) ، وفي (المحتسَب) لأبي الفتح في نفس الموضع: «الفَيَّاد لذَكَر البوم» ، وفيه: «والحَمَّام ، والجَيَّار ـ السُّعال ـ والكَرَّار ـ كبش الراعي» ، ومن أمثلة ذلك أيضاً: الجَبَّار والكَلاَّءُ.

(٢) أي: مشتقة من فعل ، بخلاف التَّيَّار والفَخَّار فهما جامدان.

(٣) قال أبو الفتح في (المحتسَبَ): «فيجوز أن يكون حدثاً: فَعْلَةً من غبت ، فيكون كقولنا: في ظُلْمَة الجُب ، ويجوز أن يكون موضعاً على فَعْلَة كالقَِرْمة» ـ بفتح القاف وكسرها ـ وهي من سمات الإبل تكون فوق الأنف ـ والجَِرْفَة ـ بفتح الجيم وكسرها أيضاً ، وهي كذلك من مسات الإبل تكون دون الأنف.

(٤) البيت للمنخل السعدي ، ويُرْوى: (في العشيرة) ، والغيابة هنا: القبر ، يقال: وقع في غيابة من الأرض ، أي في منهبط منها ، يقول: إذا أنا مت في يوم من الأيام ، وغيَّبَني القبر في جوفه فاتبعوا سُنَّتي وسيروا بسيرتي مع أهلي وعشيرتي.

و﴿ٱلۡجُبِّ﴾: البئر التي لم تُطْوَ[(١)] لأنها جُبَّت من الأَرض فقط.

وقرأ الجمهور: ﴿يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ﴾ بالياءِ من تحت على لفظ [بَعْض]، وقرأ الحسن البصري، ومجاهد، وقتادة، وأَبو رجاءٍ: [تلتقطه] بالتاءِ، وهذا من حيث أُضيف ﴿بَعۡضُ﴾ إلى ﴿ٱلسَّيَّارَةِ﴾ فاستفاد منها تأْنيث العلاقة، ومن هذا قول الشاعر:

أَرَى مَرَّ السِّنين أَخَذْنَ مِنِّي كما أَخَذَالسِّرَارُ مِنَ الهِلاَلِ[(٢)]

ومنه قول الآخر:

إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ سَيِّدٌ قام سَيِّدٌ فذَلَّتْ لَهُ أَهْلُ الْقُرى والْكَنَائِسُ[(٣)]

وقول كعب:

. . . . ذلَّتْ لِوَقْعَتِهَا جَميعُ نَزَارِ[(٤)]

حين أَراد بـ«نزار» القبيلة، وأَمثلة هذا كثير. وروي أَن جماعة من الأَعراب التقطت يوسف عليه السلام. و[السيارَةُ] جمع سيَّار، وهو بناءٌ للمبالغة.

وقيل في هذا الجُبِّ: إنه بئر بيت المقدس، وقيل: غيره، وقيل: لم يكن حيث

---

(١) البئر الْمَطْوِيَّة هي التي بنيت بالحجارة ونحوها، أو عُرشت، والبئر التي لم تُطْوَ هي التي حفرت وتركت دون بناءٍ أو عرش.

(٢) السِرَّار بفتح السين وكسرها، الليلة التي يخفى فيها الهلالُ آخر الشهر، والشهد في (أَخَذْن) فقد أَنّثها الشاعر بالنون مع أنها تعود على (مَرّ) وهو مذكر، وكان المفروض أن يقول: (أَخَذَ)، لكن لمّا أُضيف (مَرَّ) إلى (السِّنين) اكتسب منها التأنيث.

(٣) هذا البيت من شواهد الكسائي، وقد أورده الفراءُ في (معاني القرآن)، وقال: «العرب إذا أضافت المذكر إلى المؤنث وهو فعل له أو بعض له قالوا فيه بالتذكير والتأنيث، وإنما جاز ذلك لأن الثاني يكفي من الأول، ألا ترى أنه لو قيل: (تلتقطه السيارة) لجاز، ولا يجوز أن يقال: «ضربتني غلام جاريتك) لأنه لو أَلقيت (غلام) لم تدخل الجارية على معناه؟». هذا ومثل البيتين قول الأعشى يخاطب يزيد بن مسهر الشَّيباني وكانت بينهما مهاجاة:

وتَشْرَقُ بالْقَوْلِ الَّذي قَدْ أذَعْتَهُ كما شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّم

فقال: شرقت وهي منسوبة إلى(صدر). ومعنى البيت: يعود عليكَ مكروه ما أَذَعْتَه عَني من القَوْل وما نَسَبْته إلى من الفعل القبيح فلا تجد منه مخلصاً، والإنسان يشرق بالماء كما يغص بالطعام.

(٤) هذا عجز بيت من أبيات قالها يمدح الأنصار بعد أن عاتبوه على الغَضِّ من شأنهم في قصيدته المشهورة (بانت سعاد)، وهو بتمامه:

صَدَمُوا الكتيبَةَ يَوْمَ بَدْرٍ صَدْمَةً ذَلَّتْ لِوَقْعَتِهَا جَميعُ نَزَار

ويروى البيت: (زلَّتْ لوقعتها رقابُ نزار)، وعلى هذا فلا شاهد فيه.

طرحوه ماءٌ، ولكن أخرجه الله فيه حتى قصده الناس للاستقاءِ، وقيل: بل كان فيه ماءٌ يغرق يوسف فنشز حجر من أسفل الجبّ حتى ثبت عليه يوسف، وروي أنهم رموه بحبل في الجبل فتماسك بيديه حتى ربطوا يديه ونزعوا قميصه ورموه حينئذ، وهمُّوا برضخه بالحجارة فمنعهم أخوهم المشير بطرحه من ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُوا يَٰأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

الآية الأُولى تقتضي أن أباهم قد كان علم منهم إرادتهم الخبيثة في جهة يوسف، وهذه تقتضي أنهم علموا منه بعلمه ذلك.

وقرأ الزهري، وأبو جعفر: [لاَ تأمنَّا] بالإدغام دون إشمام، ورواها الحلواني عن قالون[1]. وقرأ السبعة بالإشمام للضم، وقرأ طلحة بن مصرف: [لاَ تَأْمَنَنَا]، وقرأ ابن وثاب، والأعمش: [لاَ تِيمَنَّا] بكسر تاءِ العلامة.

و﴿غَدًا﴾ ظرف، أصله: «غَدْوٌ»[2] فلزم اليوم كله وبقي الغُدُوُّ والغُدْوَةُ اسمين لأول النَّهار، وقال النَّضر بنْ شميل: ما بين الفجر إلى الإسْفار يقال فيه: غُدْوَةٌ وبُكْرَةٌ.

وقرأ أبو عمرو، وأبو عامر: [نرتع ونلعب] بالنون فيهما وإسكان العيْن والباءِ، و[نرْتَعْ] ـ على هذا ـ من الرُّتوع وهي الإقامة في الخصب والمرعى في أكل وشرب، ومنه قول الغضبان بن القبعثرى:

---

(١) أما الحلواني فاسمه أحمد بن يزيد، وأما قالون فهو عيسى بن ميناء بن وردان بن عيسى المدني، مولى الأنصار، أبو موسى، من أهل المدينة مولداً ووفاة، وإليه انتهت الرياسة في زمانه في علوم العربية والقراءة بالحجاز، وكان أصمّ يُقرأ عليه القرآن وهو ينظر إلى شفتي القارئ فيرد عليه اللحن والخطأ، و(قالون) لقب دعاه به نافع القارئ لجودة قراءته، ومعناه بلغة الروم: جيِّد. (النجوم الزاهرة ٢ ـ ٢٣٥، وغاية النهاية ١ ـ ٦١٥، والتاج ٩ ـ ٣١٣).

(٢) قال في (اللسان ـ غدا): «وغَدٌ: أَصله غَدْوٌ وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك، فحذفت لامه بلا عِوَضٍ، ولم يُسْتَعْمَل تاماً إلا في الشعر، ويدخل فيه الألف واللام للتعريف».

«القَيْدُ والرَّتَعة وقلَّة التَّعْتَعة»[١] ، ومنه قول الشاعر:

. . . . وبَعْد عَطَائِكَ المائَةَ الرِّتَاعَا؟[٢]

ولعبهم هذا داخل في اللعب المباح كاللعب بالخيل والرمي ونحوه ، فلا وصم في ذلك عليهم ، وليس باللعب الذي هو ضد الحق وقرين اللهو ، وقيل لأَبي عمرو بن العلاءِ: كيف يقولون: «نلعب» وهم أَنبياءَ؟ قال: لم يكونوا حينئذ أَنبياءَ ، وقرأَ ابن كثير: [نَرْتَعِ ونَلْعَبْ] بالنون فيهما ، وبكسر العين وجزم الباءِ ، وقد رُوي عنه ، و[ويلْعَبْ] بالياءِ ، وهي قراءَة جعفر بن محمد ، و[نَرْتَع] ـ على هذا ـ من رعاية الإِبل ، وقال مجاهد: هي من المراعاة ، أَي: يراعي بعضنا بعضاً ويحرسه ، وقرأَ عاصم ، وحمزة ، والكسائي: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ بإِسناد ذلك كله إِلى يوسف وقرأَ نافع: [يَرْتعِ وَيَلْعَبْ] بالياءِ فيهما وكسر العين وجزم الباءِ ، فـ[يَرْتَع] ـ على هذا ـ من رعي الإِبل ، قال ابن زيد: المعنى: يتدرب في الرعي وحفظ المال ، ومن الارتعاءِ قول الأَعشىٰ:

تـرْتَعِـي السَّفْـحَ فَـالْكَثِيـبَ فَـذَاقَـا ... رِ فَـروْضَ الْقَطَـا فَـذاتَ الـرِّئَـال[٣]

قال أَبو علي: وقراءَة ابن كثير: [نَرْتَع] بالنون ، و[يَلْعَب] بالياءِ منزعها حسن لإِسناد النظر في المال والرعاية إِليهم ، واللعب إِلى يوسف لصباه. وقرأَ العلاءُ بن

(١) في (اللسان ـ رَتَع): «الرَّتْعُ: الرَّعي في الخصب ، ومنه حديث الغضبان الشيباني مع الحجاج أنه قال له: سمنت يا غضبان! فقال: الخَفْض والدَّعَة ، والقَيْد والرتَعَة ، وقِلَّة التَّعْتَعَة ، ومن يكن ضيف الأمير يسمن».

(٢) هذا عجز بيت لِلْقُطَامِيّ ، وهو من قصيدة يمدح بها الشاعر زُفَر بن الحارث الكلابيّ ، والبيت بتمامه:
أَكُفْـــراً بعْــدَ ردّ المـــوْتِ عَنِّـــي ... وبَعْـدَ عَطَـائِـكَ المـائَـةَ الـرِّتَـاعـا؟
قال البغدادي في الخزانة: البيت شاهد على أن العطاءَ هنا بمعنى الإعطاءِ ، ولهذا عمل عمله ، والمفعول الثاني محذوف ، أي: بعد إعطائك المائة الرتاع إِيّايَ ، وأَورده شراح الألفية على أن العطاءَ اسم مصدر ، والرِّتاع: الراعية ، والمعنى: أَأَخونك وأَكفر نعمتك وفضلك بعد أن أطلقتني ومننت عليّ وأعطيتني مائة من الإبل التي ترعى في الخصب؟.

(٣) البيت من قصيدة الأعشى التي قالها يمدح الأسود بن المنذر اللخمي ، ومطلعها:
مــا بُكَـاءُ الكَبِيـرِ بـالأطْـلالِ ... وسُـؤالـي فَهَـلْ تَـرُدُّ سُـؤَالـي؟
وكل ما في البيت أسماءٌ لمواضع مشهورة يُشير إليها ، والضمير في (ترتعي) يعود على امرأة اسمها (جُبَيْرَة) يشبهها بالبقرة التي ترعى في خصب ونماءٍ.

سيَّابة: [يَرْتَع ويَلْعَبُ] برفع الباءِ على القطع[(١)]. وقرأ مجاهد، وقتادة: [نُرْتِع] بضم النون وكسر التاءِ، و[نَلْعبْ] بالنون والجزم. وقرأ ابن كثير ـ في بعض الروايات عنه ـ: [نَرْتَعِي] بإثبات الياءِ، وهي ضعيفة لا تجوز إلا في الشعر كما قال الشاعر:

أَلَـمْ يَـأْتِيـكَ والأَنْبَـاءُ تَنْمِـي ... بِمَـا لاقَـتْ لَبُـونُ بَنـي زِيَـادِ؟[(٢)]

وقرأ أَبو رجاءٍ: [يُرْتِعْ] بضم الياءِ جزم العين، و[يَلْعَبْ] بالياءِ والجزم[(٣)].

وعَلَّلُوا طلبه والخروج به بما يمكن أَن يستهوي يوسف لصباه من الرتوع واللعب والنشاط.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ الآية. قرأ عاصم، وابن كثير، والحسن، والأَعرج، وعيسى، وأَبو عمرو، وابن محيصن: ﴿لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ بفتح الياءِ وضم الزّاي، قال أَبو حاتم: وقرأ نافع بضم الياءِ وكسر الزّاي والإدغام، ورواية ورش عن نافع بيانُ النونين مع ضم الياءِ وكسر الزاي في جميع القرآن، و﴿أَن﴾ الأُولى فاعلة، والثانية مفعولة بـ ﴿وَأَخَافُ﴾.

وقرأ الكسائي وحده [ٱلذِّيبُ] دون همز، وقرأ الباقون بالهمز وهو الأَصل، ومنه جمعهم إياه على: «ذُؤْبان»، ومنه: تذاءَبت الريح والذئاب إذا أَتت من ها هنا وها هنا. وروى ورش عن نافع [الذِّيبُ] بغير همز، وقال نصر: سمعتُ أَبا عمرو لا يهمز، قال: وأَهل الحجاز يهمزون.

وإِنما خاف يعقوب الذئب دون سواه وخصصه لأنه كان الحيوان العادي المنبث في

---

(١) قال أبو الفتح بن جني: «أما ﴿يَرْتَعْ﴾ فجزم لأنه جواب ﴿أَرْسِلْهُ﴾، و[ويلعبُ] مرفوع لأنه جعله استئنافاً، أي: هو ممن يلعبُ، كقولك: (زُرْني أُحْسِنُ إليك)، أي: أنا مِمَّن يُحْسن إليك».

(٢) هو من أبيات قالها قيس بن زهير تجدها مع قصتها في شرح الشواهد للسيوطي ٣ ـ ١، وتَنْمِي: تبلغ، واللَّبُون: جماعة الإبل ذات اللبن، والبيت في سيبويه ٢ ـ ٥٩، والخزانة ٣ ـ ٥٣٤، وسر صناعة الإعراب ٨٨، والنحويون يستشهدون به على زيادة (الباء) للضرورة في الشعر، وعلى وقوع الجملة المعترضة بين الفعل وفاعله لإفادة الكلام تقوية وتحسيناً، وتجد البيت في المغني لابن هشام في هذين الموضعين.

(٣) أي أن [نُرْتِعْ ونَلْعَبْ] مجزومان لأنهما جوابان، أحدهما معطوف على صاحبه، وهو على حذف المفعول، أي: يُرتع مطيَّته، قال ذلك ابن جني، وقال: وعلى ذكر حذف المفعول فما أعربه وأعذبه في الكلام، ألا ترى إلى قوله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تذودان إبلهما، ولو نُطق المفعول لما كان في عذوبة حذفه ولا في عُلُوِّه.

القطر، ورُوي أَن يعقوب كان رأَى في منامه ذئباً يشتد على يوسف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي ضعيف لأَن يعقوب لو رأَى ذلك لكان وحياً، فإما أَن يخرج على وجهه وذلك لم يكن، وإما أَن يعرف يعقوب لمعرفته بالعبارة مثل هذا المرئي، فكان يتشكاه بعينه، اللَّهم إلاَّ أَن يكون قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ بمعنى: أَخاف أَن يصيبه مثل ما رأَيت من أَمر الذئب، وهذا بعيد، وكذلك يقول الربيع بن ضبع:

والـــذِّئْـــبُ أَخْشَـــاهُ. . . . .[1]

إنما خصَّصه لأَنه كان حيوان قطره العادي، ويحتمل أَن يخصصه يعقوب عليه السلام لصغر يوسف، أَي: أَخاف عليه هذا الحقير فما فوقه، وكذلك خصصه الربيع لحقارته وضعفه في الحيوان، وباقي الآية بيِّن.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ الآية. أَسند الطبري إلى السدي قال: ذهبوا بيوسف وبه عليهم كرامة، فلما برزوا في البرية أَظهروا له العداوة، وجعل أَخوه يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه، فجعل لا يرى منهم رحيماً، فضربوه حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح ويقول: يا أَبتاه، يا يعقوب لو تعلم ما صَنَع بابنك بنو الإماءِ، فقال لهم يهوذا: أَلم تعطوني موثقاً أَلا تقتلوه؟ فانطلقوا به إِلى الجُب، فجعلوا يدلونه فيتعلق بالشفير، فربطوا يديه ونزعوا قميصه، فقال: يا إِخوتاه رُدُّوا عليّ قميصي أَتوارى به في الجُب، فقالوا: ادع الشمس والقمر والكواكب تُؤْنسك، فدلوه حتى إذا بلغ نصف الجُب أَلقوه إِرادة أَن يموت، فكان في الجُب ماءٌ فسقط فيه ثم قام على صخرة يبكي، فنادوه فظنَّ أَنهم رحموه فأَجابهم: فأَرادوا أَن يرضخوه بصخرة فمنعهم يهوذا، وكان يأْتيه بالطعام.

وجواب ﴿لَمَّا﴾ محذوف تقديره: فلما ذهبوا به وأَجمعوا أَجمعوا، هذا مذهب الخليل وسيبويه وهو نصٌّ لهما، ومن ذلك قول امرئ القيس:

---

(١) هذا جزءٌ من بيت، والشاعر هو الربيع بن ضبع الفزاري، وقال البيت يصور خشيته من الذئب حين كبر وبلغ من السن، والبيت بتمامه:

والـــذِّئْـــبُ أَخْشَـــاهُ إنْ مَـــرَرْتُ بِـــهِ وحْـــدِي وأَخْشَـــى الـــرِّيـــحَ والمَطَـــرَا

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وانتَحى .... [(١)]

ومثل هذا قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾[(٢)] ، وقال بعض النحاة في مثل هذا: إن الواو زائدة ، وقوله مردود لأنه ليس في القرآن شيءٌ زائد لغير معنى[(٣)].

﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾ معناه: عزموا واتفق رأيهم عليه ، ومنه قول النبي ﷺ في المسافر: «مَا لَمْ يُجْمِع مُكْثا»[(٤)] ، وعلى أن إجماع الواحد قد يتفرد بمعنى العزم والشروع ، ويُتَصَوَّر ذلك في إجماع إخوة يوسف وفي سائر الجماعات ، وقد يجيءُ إجماع الجماعة فيما لا عزم فيه ولا شروع ، ولا يُتصَوَّر ذلك في إجماع الواحد.

والضمير في ﴿إِلَيۡهِ﴾ عائد على يوسف ، وقيل: على يعقوب ، والأول أصح وأكثر ، ويحتمل أن يكون الوحي حينئذ إلى يوسف برسول ، ويحتمل أن يكون بإلهام أو بنوم ، وكل ذلك قد قيل ، وقال الحسن: أعطاه الله النبوة وهو في الجُب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد.

---

(١) هذا صدر بيت ، وهو بتمامه:

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وانتَحى ... بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذي حِقَافٍ عَقَنْقَلِ

والساحة: الفناءُ ، والحيُّ: القبيلة وجمعه أحياءٌ ، وانتَحَى: اعترض ، والخَبْتُ: أرض مطمَئنة ، والحِقْفُ من الرمل: المعوج (ويروى: «رُكام» بدلاً من «حِقافِ») ، والعقنقل: المتداخل المتعقد ، (ويروى البيت أيضاً: ذي قِفَافٍ) وهي جمع قفّ وهو ما غلظ وارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلا بعضه في بعض.

(٢) من الآية (١٠٣) من سورة الصافات.

(٣) هذا رأي أكثر الكوفيين ، وقد قالوا بزيادة الواو في البيت ، وفي آية (الصافات) ، أما البصريون فيقدرون الجواب محذوفاً ، وتقديره في آية يوسف: «فلما ذهبوا به و...... عظمت فتنتهم» ، وقيل تقديره: «جعلوه فيها» ، ورجح أبو حيان هذا إذ يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ﴾. قال بعض المفسرين: الجواب مثبت في الآية وليس محذوفاً ، وهو قولهم بعد ذلك: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾. وعلى رأي من يرى أن الجواب محذوف يكون التقدير في آية (الصافات): «فازا وظفرا بما أَحَبّا» ، وفي البيت: «هَصَرْتُ».

(٤) الحديث في (الموطأ) ، ولفظه فيه: «أُصَلِّي صلاةَ المسافر ما لم أُجْمِع مُكْثاً» ، ومن اللفظة أيضاً قوله ﷺ «لا يصوم إلا من أجْمَعَ الصيام قبل الفجر» ، رواه النسائي ، والترمذي ، والدارمي ، وأبو داود ، ومالك في الموطأ ، وقوله صلوات الله وسلامه عليه: «من أجْمَعَ إقامةَ أربع ليالٍ وهو مسافر أتمّ الصلاة» ، رواه مالك في الموطأ.

وقرأ الجمهور: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ بالتاءِ، وفي بعض مصاحف البصرة بالياءِ، وقرأ سلام بالنون، وهذا كله في العلامة التي تلي اللام.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال ابن جريج: «وقتَ التَّنْبيه أَنك يوسف»[1]، وقال قتادة: «لا يشعرون بوحينا إليه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فيكون قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ـ على التأْويل الأَول ـ مما أُوحي إليه، وعلى التأْويل الثاني ـ خبرٌ لمحمد ﷺ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قرأت فرقة: ﴿عِشَآءً﴾، أَي: وقت العشاءِ. وقرأَ الحسن: [عُشىً] على مثال دُجىً، أَي جمع «عاشٍ»، قال أَبو الفتح: عُشَاةٌ كماشٍ ومشاةٌ، ولكن حذفت الهاءُ تخفيفاً كما حذفت من «مَأْلكة»، وقال عَدِيّ:

أَبْلِــغِ النُّعْمَــانَ عَنِّــي مَــأْلُكــاً   أَنَّـهُ قـدْ طـالَ حَبْسـي وَانْتِظَـارِي[2]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومعنى ذلك أَصابهم عشاً من البكاءِ أَو شبه العشا إِذ كذلك هي هيئة عين الباكي لأَنه يتعاشى، ومثَّل شريح في امرأَة بكت وهي مُبطلة ببكاءِ هؤلاءِ وقرأَ الآية، ورُوي أَن

---

(١) أي: لا يشعرون وقت تنبيهك لهم أنك يوسف، فكلمة (وقْت) ظرف للفعل (يشعرون)، ويكون هذا دليلاً على نبوته في ذلك الوقت.

(٢) البيت لعدي بن زيد بن حماد، وهو من أُسرة بني العباد الذين كتبوا لكسرى وسفروا بينه وبين العرب، وقد نشأ في بلاط النعمان، ثم أُعجب به كسرى أنوشروان فثبته في بلاطه، وبهذا كان عديّ أول من كتب بالعربية في ديوان الأكاسرة. وقد بلغ من المنزلة عند النعمان أنه تزوج من هند بنت النعمان، ثم وشى الحساد به عند النعمان فحبسه ـ وفي سجنه أرسل إليه القصائد، والبيت مطلع واحدة من قصائده هذه. والمألك: الرسالة، وفيه يذكر النعمان بأنه قضى مدة طويلة في سجنه، وأنه لا يزال في انتظار عفوه.

يعقوب لمَّا سمع بكاءَهم قال: ما بالكم؟ أَجَرَى في الغنم شيءٌ؟ قالوا: لا ، قال: فأين يوسف؟ قالوا: ذهبنا نستبق . . فبكى وصاح وقال: أين قميصه؟ وسيأْتي قصص ذلك .

و﴿ نَسْتَبِقُ ﴾ معناه: على الأقدام ، أي: نجري غلاباً ، وقيل: بالرمي ، أي: ننتضل ، وهو نوع من المسابقة ، قاله الزجَّاج .

وقولهم: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ ﴾ أي: بمصدق ، ومعنى الكلام: أي: لو كنا موصوفين بالصدق وقيل: المعنى: ولو كنت تعتقد ذلك فينا في جميع أقوالنا قديماً لما صدقتنا في هذه النازلة خاصة لما لحقك فيها من الحزن ونالك من المشقة ولما تقدم من تُهَمَتك لنا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول ذكره الزجاج وغيره ، ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿ وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ بمعنى: وإن كنا صادقين ، قاله المبرد ، كأنهم أخبروا عن أنفسهم أنهم صادقون في هذه النازلة ، فهو تماد منهم في الكذب ، ويكون بمنزلة قوله تعالىٰ: ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾[1] . بمعنى: وإن كنا كارهين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا المثال عندي نظر ، وتخبط الرُّمَّاني في هذا الموضع وقال: «أَلزموا أباهم عناداً» ونحو هذا مما لا يلزم لأنهم لم يقولوا: وما أنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين في معتقدك . بل قالوا: وما أنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين فيما نعتقد نحن ، وأما أنت فقد غلب عليك سوءُ الظن بنا ، ولا يُنْكَر أن يعتقد الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام صدق الكاذب وكذب الصادق ما لم يُوحَ إليهم ، فإنما هم بشر ، كما قال ﷺ: «إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إليَّ ، فلعل بعضكم أن يكون أَلْحَنَ بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه . . .» الحديث[2] ، فهذا يقتضي أنه جوّز على نفسه أن يُصدِّق

---

(١) من الآية (٨٨) من سورة الأعراف .

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات ، وفي الأحكام ، وفي الحيل ، وأخرجه مسلم والدارمي في الأقضية ، والترمذي في الأحكام ، والنسائي في القضاة ، وابن ماجه في الأحكام ، والموطأ في الأقضية ، والإمام أحمد في مسنده (٦ ـ ٢٩٠ ، ٣٠٨ ، ٣٣٠) ، وبقيته كما جاءت في البخاري «فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذ فإنما أقطع له قطعة من النار» ، رواه البخاري عن أم سلمة .

الكاذب، وكذلك قد صدَّق عليه الصلاة والسلام عبد الله بن أُبَيّ حين حلف على مقالة زيد بن أَرقم وكذَّب زيداً، حتَّى نزل الوحي فظهر الحق(١)، فكلام إخوة يوسف إنما هو مغالطة ومحاجة لا إلزام عناد.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ الآية. رُوي أَنهم أَخذوا سَخْلَة(٢) أَو جَدْياً فذبحوه ولطَّخوا به قميص يوسف، وقالوا ليعقوب: هذا قميصه، فأَخذه ولطَّخ به وجهه وبكى، ثم تأَمله فلم يَرَ خَرْقاً ولا أَثر ناب فاستدل بذلك على كذبهم، وقال لهم: متى كان الذئب حليماً يأكل يوسف ولا يخرق قميصه؟ قصَّ هذا القصص ابن عباس وغيره، وأَجمعوا على أَنه استدل على كذبهم لصحة القميص، واستند الفقهاءُ إلى هذا في إِعمال الأَمارات في مسائل كالقسامة وغيرها في قول مالك، إلى غير ذلك، قال الشعبيّ: كان في القميص ثلاث آيات: دلالتُه على كذبهم، وشهادتُه في قَدِّه، وردُّ بصر يعقوب به(٣)، ورُوي أَنهم ذهبوا فأَخذوا ذئباً فلطخوا فاه بالدم وساقوه وقالوا ليعقوب: هذا أَكل يوسف، فدعاه يعقوب فأَقعى وتكلم بتكذيبهم.

ووصْف الدم بـ ﴿ كَذِبٍ ﴾ إمَّا على معنى: بِدَم ذي كذبٍ، وإمَّا أَن يكون بمعنى: مكذوب عليه، كما قد جاءَ (المعقول) بدل (العقل) في قول الشاعر:

حتَّــى إِذا لَــمْ يَتْــرُكُــوا لِعِظَــامِــهِ ... لَحْمــاً ولا لِفُــؤَادِهِ مَعْقُــولاً(٤)

---

(١) وردت قصة هذا الحديث في البخاري ومسلم عن زيد بن أرقم.

(٢) السَّخْلَةُ: الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد، والجمع: سَخْلٌ، وسِخَالٌ، وسُخْلان. (المعجم الوسيط).

(٣) قال القرطبي: «وهذا مردودٌ؛ فإن القميص الذي جاءُوا عليه بالدم غير القميص الذي قُدَّ، وغير القميص الذي أتاه البشير به، وقد قيل: إن القميص الذي قُدَّ هو القميص الذي أُتي به فارتد بصيراً».
هذا وقد اختلف العلماءُ في إعراب ﴿ عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ ﴾، فقال الزمخشري: محله النصب على الظرف كأنه قيل: وجاءُوا فوق قميصه بدم، كما تقول: «جاءَ عَلى جِمَالِهِ بأَحْمَالٍ»، وردّ أبو حيان ذلك بقوله: ولا يساعد المعنى على نصب ﴿ عَلَىٰ ﴾ على الظَّرف بمعنى فوق، لأن العامل فيه إذْ ذاك ﴿ وَجَآءُو ﴾ وليس الفوق ظرفاً لهم، بل يستحيل أن يكون ظرفاً لهم، وقال الحوفي: ﴿ عَلَىٰ ﴾ متعلق بـ ﴿ وَجَآءُو ﴾، وردّه أبو حيّان أيضاً، وقال أبو البقاءِ: ﴿ عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ ﴾ في موضع نصب حالاً من ﴿ بِدَمٍ ﴾، لأن التقرير: جاءُوا بدم كذب على قميصه، وعلّق على ذلك أبو حيان بقوله: والمعنى يرشد إليه وإن كان هناك خلاف في جواز تقديم الحال على المجرور بالحرف غير الزائد، ومن أجاز ذلك استدل عليه بشواهد كثيرة من لسان العرب.

(٤) البيت للراعي النميري، قاله من قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان ويشكو من جباة الزكاة، وقد=

فكذلك يجيءُ (التكذيب) مكان (المكذوب).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا كلام الطبري، ولا شاهد له فيه عندي، لأَن نفي (المعقول) يقتضي نفي (العقل) ولا يحتاج إِلى بدل، وإِنما الدَّمُ الكذبُ عندي وصف بالمصدر على جهة المبالغة. وقرأَ الحسن: [بِدَم كَدِبٍ] بِدَال غير معجمة، ومعناه: الطريُّ ونحوه، وليست هذه القراءَة قوية[1].

ثم قال لهم يعقوب لما بان كذبهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أَي: رضيت وجعلت سُؤْلاً[2] ومُرَاداً. ﴿أَمْرًا﴾ أَي: صنعاً قبيحاً بيوسف، وقوله ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ رفع إِمَّا على حذف الابتداءِ وإِمَّا على حذف الخبر، إِمَّا على تقدير: فَشَأْني صبرٌ جميلٌ، وإِمَّا على تقدير: فصبرٌ جميلٌ أَمْثَلُ. وذكر أَن الأَشهب، وعيسى بن عمر قرآ بالنصب: [فَصَبْراً جَمِيلاً] على إِضمار فعل، وكذلك هي في مصحف أُبي ومصحف أَنس بن مالك وهي قراءَة ضعيفة عند سيبويه، ولا يصلح النصب في مثل هذا إِلا مع الأَمر، ولذا يحسن النصب في قول الشاعر:

. . . . صَبْـراً جَميـلا فَكِـلانَـا مُبْتَلَـى

وينشد أَيضاً بالرفع، ويروى: «صَبْرٌ جميلٌ» على نداءِ الجَمَلِ المذكور في قوله:

شَكَـا إِلَـيَّ جَمَلـي طـولَ السُّرَى ... يـا جَمَلـي لَيْـس إِلَـيَّ المُشْتَكَـى

صبــرٌ جميــلٌ فكِـلانـا مُبْتَلَـى

وإِنما تصح قراءَة النصب على أَنْ يقدر أَنَّ يعقوب عليه السلام رجع إِلى مخاطبة

= وردت في (جمهرة أشعار العرب) لابن أبي الخطاب القرشي، ومعنى البيت مع البيت الذي قبله: إن جباة الزكاة ضربوا رئيس القوم بالسياط الأصبحية حتى لم يتركوا على عظامه لحماً، ولا أبقوا في فؤاده عقلا. كذلك أورده الفراءُ البيت في (معاني القرآن) في أثناءِ شرحه للآية الكريمة، قال: «وقوله: ﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ معناه: مكذوب، والعرب تقول للكذب: مكذوب، وليس له عقدُ رأي، ومعقود رأي، فيجعلون المصدر في كثير من الكلام مفعولاً، قال الشاعر: إنَّ أخا المجلود من صبرا، وقال آخر: حتَّى إذا لم يتركوا... البيت».

(١) قال أبو الفتح بن جنّي في (المحتسب ١ ـ ٣٣٥): «أصل هذا من الكَدَب وهو الفوف، يعني البياض الذي يخرج على أظفار الأحداث، فكأنه دم قد أثَّر على قميصه فلحقته أعراض كالنقش عليه».

(٢) السُّؤل والسُّول: ما سألته. (المعجم الوسيط).

نفسه أثناءَ مخاطبة بنيه، وجميلُ الصبر ألا تقع شكوى إلى بشر، وقال النبي ﷺ: «من بثَّ لم يصبر صبراً جميلا»(١) وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ تسليمٌ لأمر الله تعالىٰ وتوكُّلٌ عليه، والتقدير: على احتمال ما تصفون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

قيل: إن السيارة جاءَت في اليوم الثاني من طرحه في الجب، والسَّيَّارة: جمع سيَّار، كما قالوا: بغَّال وبغَّالة، وهذا بعكس تمرة وتَمْر، والسَّيَّارة بناءُ مبالغة للذين يردِّدون السَّيْر في الطرق، وروي أن هذه السيارة كانوا قوماً من أَهل مدين، وقيل: قوم أَعراب، والوارِدُ هو الذي يأتي الماءَ ليسقي منه لجماعته، ويروى أَن مُدْلي الدلو كان يسمَّى مالك بن ذعر، والوارد هنا يمكن أن تقع على الواحد وعلى الجماعة. ويروى أَن هذا الجب كان بالأُردن على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، ويقال: أَدْلى الدَّلْوَ إذا أَلقاه في البئر ليستقي الماءَ، ودَلاَّه يدلوه إذا استقاه من البئر، وفي الكلام هنا حذف تقديره: فتعلق يوسف بالحبل، فلما بصَر به المُدْلي قال: يا بشراي. وروي أَن يوسف كان يومئذ ابن سبع سنين، ويرجح هذا لفظة «غلام» فإنه ما بين الحولين إلى البلوغ، فإن قيلت فيما فوق ذلك فعلى استصحاب حال وتجَوُّز، وقيل: كان ابن سبع عشرة سنة، وهذا بعيد.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: [يَا بُشْرَايَ] بإضافة البشرى إلى المتكلم وبفتح الياءِ على ندائها كأَنه يقول: احضري فهذا وقتك، وهذا نحو قوله: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾(٢)، ورَوَى ورش عن نافع: [يا بُشْرَايْ] بسكون الياءِ، قال أَبو علي: وفيها جمع بيْن ساكنين على حدّ دابة وشابّة(٣)، ووجه ذلك أَنه يجوز أَن تختص بها(٤)

---

(١) الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

(٢) من الآية (٣٠) من سورة يس.

(٣) على حدّهما في مجرَّد التقاءِ الساكنين، ولكن نلحظ أن ثاني الساكنين في (بُشْرَايْ) ليْس مضعفاً.

(٤) يظهر أن الضمير في (بها) يعود على (القاعدة) وهي مفهومة من كلامه، والمعنى: يجوز أن تختص بهذه القاعدة الألفُ.

الأَلف لزيادة المدِّ الذي فيها على المدِّ الذي في أُختيها[(١)] ، كما اختصت في القوافي بالتأْسيس ، واختصت في تخفيف الهمزة نحو هباة[(٢)] ، وليس شيءٌ من ذلك في الياءِ والواو. وقرأَ أَبو الطفيل ، والجحدري ، وابن أَبي إِسحٰق ، والحسن: [يَا بُشْرَيَّ] تقلب الأَلف ياءً ثم تدغم في ياءِ الإِضافة ، وهي لغة فاشية ، ومن ذلك قول أَبي ذُؤَيْب:

سَبَقُــوا هَــوَيَّ وأَعْنَقُــوا لِهَــوَاهُــمُ   فَتُخُــرِّمُــوا وَلِكُــلِّ جَنْبٍ مَصْـرَعُ[(٣)]

وأَنشد أَبو الفتح وغيره في ذلك:

يُطَـــوِّفُ بِـــي كَعَبْـــدٍ فـــي مَعَـــدٍّ   ويَطْعُـــنُ بِـــالصُّمُلَّـــةِ فِـــي قَفَيَّـــا
فَـــإِنْ لَـــمْ تَثْـــأَرُوا لـــي فـــي مَعَـــدٍّ   فَمَـــا أَرْوَيْتُمَـــا أَبَـــداً صَـــدَيَّـــا[(٤)]

---

(١) يريد بأُختيها الياءَ والواو ، فقد ذكر بعض الفروق بين الأَلف وكل من الواو والياءِ.

(٢) أصلها (هبْأَة) بسكون الباءِ ، فنقلت حركة الهمزة إليها ، فصارت (هباة) ، والهباءُ: التراب الذي تطيره الريح ويلصق بالأشياءِ ، أو ينبث في الهواءِ فلا يبدو إلا في الشمس ، وفي التنزيل العزيز: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ ، ويقال: هبا الرمادُ يهبو ، قال الأصمعي: إذا سكن لَهَبُ النار ولم يطفأ جمرها قيل: خمدت ، فإن طفئت البَتَّةَ قيل: همدت ، فإن صارت رماداً قيل: هَبَا يَهْبُو وهو هاب غير مهموز (اللسان).

(٣) قال أبو ذؤيب هذا البيت ضمن أبيات يرثي بها أولاده ، وَهَوَيَّ: هوايَ ، وهي لغة هُذَيْل ، يقلبون ألف المقصور المضاف إلى الياءِ ياءً ثم يدغمون الياءَيْن فيقولون: هذه عَصَيَّ في عَصايَ ، وكذلك قَفَيَّ في قفايَ ، وأَعْنَقُوا: أَسْرَعُوا ، وتُخُرِّمُوا: أُخذوا واحداً بعد واحد ، قال الأصمعي: «أي: ماتوا قبلي ولم يلبثوا لهواي ، وكنت أُحب أن أموت قبلهم ، وقد جعلهم كأنهم هَوَوْا المنية لسرعتهم إليها وهم في الحقيقة لم يَهْوَوْها». والبيت من شواهد النحويين ، وقد رواه الفراءُ في (معاني القرآن) عن القاسم بن معن بلفظ آخر ، قال:

تَـــرَكُـــوا هَـــوَيَّ وأَعْنَقُـــوا لِهَـــوَاهُـــمُ   فَفَقَـــدْتُهـــم ولِكِـــلِّ حُـــبٍّ مَصْـــرَعُ

(٤) البيتان للمنخّل اليَشْكُري ، وكان قد اتُّهم بالمُتَجَرِّدَة امرأة النعمان بن المنذر ، وعرف النعمان ذلك فدفعه إلى صاحب سجنه واسمُه عِكَبٌّ اللخمي ، فقيده عِكَبٌّ هذا وعذَّبَهُ ، فقال المنخل شعراً يصف فيه حاله ، ومنه هذان البيتان ، وقد رواهما أبو الفتح في (المحتسب) عن قطرب بلفظ آخر هو:

يُطَـــوِّفُ بِـــي عِكَـــبٌّ فـــي مَعَـــدٍّ   ويطْعُـــنُ بِـــالصُّمُلَّـــة فـــي قَفَيَّـــا
فَـــإِنْ لَـــمْ تَثْـــأَرا لـــي مِـــنْ عِكَـــبٍّ   فَـــلا أَرْوَيْتُمَـــا أَبَـــداً صَـــدَيَّـــا

والصُّمُلَّة: العصا كما في (التاج ـ صَمَلَ). والشعر في الخصائص ، وشرح الحماسة للتبريزي ٢ ـ ٤٨ ، واللسان ـ عَكَبَ.

أرادَ: هَوايَ، وقَفَايَ، وصَدَايَ[1]. وقرأ حمزة، والكسائي: [يَا بُشْرايْ] بالإمالة يُميلان ولا يضيفان، وقرأ عاصم كذلك إلا أنه يفتح الراءَ ولا يُميل، واختلف في تأويل هذه القراءَة ـ فقال السُّدي: كان في أَصحاب هذا الوارد رجل اسمه بشري، فناداه وأَعلمه بالغلام[2]، وقيل: هو على نداءِ البشرى كما قدمنا.

والضمير في ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ ظاهر الآيات أنه لِوُرَّاد الماءِ، قاله مجاهد، وقال: إنهم خشَوْا أَمْر تجار الرفقة ـ إن قالوا وجدناه ـ أَن يشاركوهم في الغلام الموجود، ـ هذا إن كانوا فسقة ـ أَو يمنعوهم من تملُّكِهِ إن كانوا مؤمنين، فأَسَرُّوا بينهم أَن يقولوا: أَبْضَعَهُ معناه بعض أَهل المصر. و﴿بِضَٰعَةً﴾ حالٌ، والبِضاعَةُ: القطعة من المال يُتَّجر فيها بغير نصيب من الربح، مأخوذة من قولهم: بَضَعْتُ، أَي: قطعت، وقيل: إنهم أَسَرُّوا في أَنفسهم أَنهم يتخذونه بضاعة لأَنفسهم، أَي متجراً، ولم يخافوا من أَهل الرفقة شيئاً، ثم يكون الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ لهم أَيضاً، أَي: باعوه بثمن قليل، إذ لم يعرفوا حقه ولا قدره، بل كانوا زاهدين فيه، وروي ـ على هذا ـ أَنهم باعوه من تاجر، وقال مجاهد: الضمير في ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ لأَصحاب الدلو، وفي ﴿وَشَرَوْهُ﴾ لإخوة يوسف الأَحد عشر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بل الضمير في ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ و﴿وَشَرَوْهُ﴾ لإخوة يوسف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك أَنه رُوي أَن إخوته لما رجعوا إلى أَبيهم وأَعلموه رجع بعضهم إلى الجب ليتحققوا أَمْر يوسف، ويقفوا على الحقيقة من فقده، فلما علموا أَن الورّادَ قد أَخذوه جاءُوهم فقالوا: هذا عبد أَبَق لأُمِّنا ووهبته لنا ونحن نبيعه منكم، فقارَّهم[3] يوسف على هذه المقالة خوفاً منهم ولينفذ أَمر الله، فحينئذ أَسَره إخوته إذْ جحدوا أُخوَّته

---

(١) قال أبو علي: «إن قلْب هذه الألف ياءً لوقوع الياء بعدها كأنه عِوَض مما كان يجب فيها من كسرها لياء الإضافة بعدها، ككسرة ميم غلامِي وباءِ صاحبِي ونحو ذلك، ولم يُفعل ذلك في ألف التثنية نحو غُلامايَ وصاحبايَ خوف التباس المرفوع بالمنصوب والمجرور».

(٢) قال أبو حيان في (البحر المحيط): «إنَّ السدي أبعد في هذا التفسير».

(٣) قَارَّهُ: قَرَّ معه وسكن. (اللسان). ويقال: «أنا لا أُقارُّكَ على ما أنت عليه». وفي الحديث: «قَارُّوا الصلاة» بمعنى: اسكنوا فيها ولا تتحركوا. (المعجم الوسيط).

فأَسَرُّوها واتخذوه بضاعة، أَي متَّجراً لهم ومكسباً، وشَرَوْه أَيضاً بثمن بَخْس، أَي باعوه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾، إن كانت الضمائر لإخوة يوسف ففي ذلك توعُّد، وإن كانت الضمائر للواردين ففي ذلك تنبيه على إرادة الله تبارك وتعالىٰ ليوسف، وسوق الأَقدار بحسب بناءِ حاله، فهو ـ حينئذ ـ بمعنى قول النبي ﷺ: «يُدبِّر ابن آدم والقضاءُ يضحك». وفي الآية أَيضاً تسلية للنبي ﷺ عما يجري عليه من جهة قريش، أَي: العاقبة التي هي للمتَّقين هي المراعاة والمنتظرة.

و﴿وَشَرَوۡهُ﴾ هنا بمعنى باعوه، وقد يقال: شرى بمعنى اشترى، ومن الأَول قول يزيد بن مُفرِّغ الحِمْيَرِيُّ:

وشَـــرَيْـــتُ بُـــرْداً لَيْتَنـــي ... مِـــنْ بَعْـــدِ بُـــرْدٍ كُنْـــتُ هـــامَـــهْ[1]

و«بُرْد» اسم غلام له ندم على بيعه، والضمير يحتمل الوجهين المتقدمين.

والبَخْسُ: مصدر وصف به الثمن، وهو بمعنى النقص، وهذا أَشهر معانيه، فكأَنه القليل الناقص، وهو قول الشعبي، وقال قتادة: البَخْس هنا بمعنى الظلم، ورجحه الزجاج من حيث أَن الحُرّ لا يحل بيعه، وقال الضحاك: هو بمعنى الحرام، وهذا أَيضاً بمعنى أَنه لا يحلُّ بيعه.

وقوله تعالىٰ: ﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ عبارة عن قلة الثمن لأَنها دراهم لم تبلغ أَن توزن لقلتها، وذلك أَنهم كانوا لا يَزِنون ما دون الأُوقية وهي أَربعون درهماً. واختلف في مبلغ ثمن يوسف عليه السلام ـ فقيل: باعوه بعشرة دراهم، وقال ابن مسعود: بعشرين، وقال مجاهد: باثنين وعشرين، أَخذها إخوته درهمين درهمين[2] وقال

---

(١) البيت من شواهد أبي عبيدة في (مجاز القرآن) على أن شَرَى بمعنى باع، وقد رواه في تفسير الطبري: «مِنْ قَبْلِ بُرْدٍ» وجاء في (اللسان): وشاهد شريت بمعنى بعت قول يزيد بن مفرِّغ وقد باع غلامَهُ بُرْداً فندم بعد بيعه:

شَـــرَيْـــتُ بُـــرْداً ولَـــوْلا مَـــا تَكَنَّفَنـــي ... مِـــنَ الْحَـــوَادِثِ مـــا فَـــارَقْتُـــهُ أَبَـــداً

ومثل هذا البيت قول الشَّمَّاخ في رجل باع قوسه لرجل آخر:

فَلَمَّـــا شَـــرَاهـــا فَـــاضَـــتِ العَيْـــنُ عَبْـــرَةً ... وفـــي الصَّـــدْرِ حُـــزَّازٌ مـــن اللَّـــوْم حَـــامِـــزُ

يريد: فلما باع قوسه. ومعنى حامز: مُمِضٌ مُخرِقٌ.

(٢) أي لكل واحد منهم درهمان، فيكون المجموع اثنين وعشرين درهماً.

عكرمة: بأَربعين درهماً دفعت ناقصة فهذا كان بَخْسُها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ وصف يترتب في وُرّاد الماء، أَي: كانوا لا يعرفون قدره، فهم ـ لذلك ـ قليلٌ اغتباطهم به، لكنه أَرْتَب في إِخوة يوسف، إِذْ حقيقة الزهد في الشيءِ إِخراج حُبّه من القلب ورفضه من اليد، وهذه كانت حال إِخوة يوسف في يوسف، وأَما الوُرّاد فتمسَّكهم به وتَجْرُهم يمانع زهدهم إِلاَّ على تَجوُّز. وقوله: ﴿ فِيهِ ﴾ ليست بصلة لـ ﴿ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾، قاله الزجاج، وفيه نظر، لأَنه يقتضي وصفهم بالزهد على الإِطلاق وليس قصد الآية هذا، بل قصدها الزهد الخاص في يوسف، والظروف يجوز فيها من التقديم ما لا يجوز في سائر الصلات، وقد تقدم القول في عود ضمير الجماعة الذي في قوله: ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

رُوي أَن مُبْتاع يوسف ـ وهو الوارد من إِخوته أَو التاجر من الوُرَّاد حسبما تقدم من الخلاف ـ ورد به مصر ـ البلد المعروف ولذلك لا ينصرف ـ فعرضه في السوق، وكان أجمل الناس، فوقعت فيه مزايدة حتى بلغ ثمناً عظيماً، فقيل: وزنه من ذهب، ومن فضة، ومن حرير. فاشتراه العزيز وكان حاجب الملِك وخازنه، واسم الملِك الرَّيَّان بن الوليد، وقيل: مصعب بن الرَّيَّان، وهو أَحد الفراعنة، وقيل: هو فرعون موسى عُمِّر إِلى زمانه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وذلك أَن ظهور يوسف عليه السلام لم يكن في مُدّة كافر يخدمه يوسف. واسم العزيز المذكور: قطفير، قاله ابن عباس، وقيل: أَطفير، وقيل: قنطور، واسم امرأَته: راعيل، قاله ابن إِسحٰق، وقيل: ربيحة، وقيل: زَليخا(١)، وظاهر أَمر العزيز أَنه كان كافراً، ويدلُّ على ذلك كون الصنم في بيته ـ حسبما نذكره في

(١) يضبط بضم الزاي وفتح اللام، والأقرب إلى الصواب ضبطه بفتح الزَّاي وكسر اللام.

البرهان الذي رأى يوسف ـ وقال مجاهد: كان العزيز مُسْلماً. والمَثْوَى: مكان الإقامة، والإكرام إنما هو لِذي المثوى، ففي الكلام استعارة. وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أَي: بأَن يُعيننا في أَبواب دنيانا وغير ذلك من وجوه النفع، وقوله: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أَي نتبَنَّاهُ، وكان ـ فيما يُقال ـ لا ولد لهُ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أَي: كما وصفْنَا ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ فعلنا ذلك، و﴿ٱلْأَحَادِيثِ﴾: الرؤيا في النوم، قاله مجاهد، وقيل: أَحاديث الأَنبياءِ والأُمم. والضمير في ﴿أَمْرِهِۦ﴾ يحتمل أَن يعود على يوسف، قاله الطبري، ويحتمل أَن يعود على الله عزَّ وجلَّ، قاله ابن جبير، فيكون إِخباراً مُنبِّهاً على قدرة الله عزَّ وجلَّ ليس في شأْن يوسف خاصة بل عامّاً في كل أَمر، وكذلك الاحتمال في قول الشاعر:

رأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ ـ ورَبُّكَ غَالِبٌ   عَلَى أَمْرِهِ ـ يبغي الخِلاَفَةَ بالتَّمْر[(١)]

وأَكثرالناس الذين نفى عنهم العلم هم الكفرة، وفيهم الذين زهدوا في يوسف وغيرهم ممن جهل أَمره، ورُوي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أَنه قال: أَصحُّ الناس فِراسة ثلاثة: العزيز حين قال لامرأَته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾، وابنة شُعَيْب حين قالت: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[(٢)]، وأَبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

وقال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وَفِراسة العزيز إِنما كانت في نفس نجابة يوسف، لا أَنَّه تفرّس الذي كان كما في المثالين الآخرين، فإِنَّ ما تفرس خرج بعينه[(٣)].

---

(١) البيت غير منسوب، والشاهد فيه أن الضمير في (أمره) قد يعود على الله سبحانه وتعالى، وقد يعود على أبي بكر رضي الله عنه، وجملة «وربُّك غالبٌ على أمره» جملة معترضة.

(٢) من الآية (٢٦) من سورة القصص.

(٣) نقل القرطبي عن ابن العربي قوله تعقيباً على خبر ابن مسعود: «عجباً للمفسرين في اتفاقهم على جلْب هذا الخبر، والفراسة هي علم غريب، وليس كذلك فيما نقلوه، لأن الصِّدِّيق إنما ولَّى عمر بالتجربة في الأعمال، والمواظبة على الصحبة وطولها، والاطلاع على ما شاهد منه من العلم والمُنَّة، وليس ذلك من طريق الفِراسة، وأما بنت شعيب فكانت معها العلامة البيِّنة، وأما أمر العزيز فيمكن أن يُجعل فراسة لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة».

والأَشُدُّ: استكمال القوة وتناهي بنية الإنسان، وهما أَشُدَّان: أَوّلهما البلوغ، وقد عبَّر عنه مالك وربيعة بأَشُدّ، وذكره مُنذر بن سعيد. والثاني الذي يستعمله العرب، وقيل: هو من ثماني عشرة سنة إِلى ستِّين سنة، وهذا قول ضعيف. وقيل: الأَشُدُّ: بلوغ الأَربعين، وقيل: بل ستَّة وثلاثون، وقيل: ثلاث وثلاثون، وهذا هو أَظهر الأَقوال فيما نحسبه، وقيل: عشرون سنة، وهذا ضعيف، وقال الطبري: الأَشُدُّ لا واحد له من لفظه[1]، وقال سيبويه: الأَشُدُّ: جمع شِدَّةٍ نحو نِعْمةٍ وأَنْعُم، وقال الكسائي: أَشُدُّ جمع شَدٍّ نحو قَدٍّ وأَقُدّ، وشَدُّ النهار: معظمه وحيث تستكمل نهاريته.

وقوله تعالىٰ: ﴿حُكْمًا﴾ يحتمل أَن يريد الحكمة والنُّبُو ة، وهذا على الأَشُدِّ الأَعلى، ويحتمل العلم والحكمة دون النُّبُوَّة، وهذا أَشبه إِن كانت قصة المراودة بعد هذا. ﴿وَعِلْمًا﴾ يريد تأويل الأَحاديث وغير ذلك، ويحتمل أَن يريد بقوله: ﴿حُكْمًا﴾ أَيْ سلطاناً في الدنيا وحُكْماً بين الناس بالحق، وتدخل النُّبُوَّة وتأْويل الأَحاديث وغير ذلك في قوله: ﴿وَعِلْمًا﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أَلفاظ فيها وعد للنبي ﷺ، فلا يهولَنَّك فعل الكفرة بك وعُتُوُّهم عليك، فالله تعالىٰ يصنع للمحسنين أَجمل صنع.

---

(١) قال الطبري أيضاً: وهو جمعٌ مثل الأَضُرّ والأَسُرّ، ويجب ـ في القياس أن يكون واحده: شَد، كما أن واحد الأَضُرّ، وواحد الأَسُرّ: سرّ، كما قال الشاعر:

هــلْ غَيْــرَ كَثْــرَ الأَشُــدُّ واهْلَكَــتْ ... حَــرْبُ الْمُلــوكِ أَكَــاثِــرَ الأَمْــوَالِ

وقال حميد:

وقَــدْ أَتَــى لَــوْ تَعتِــبِ الْعَــوَاذِلُ ... بَعْــدَ الأَشُــدِّ أَرْبَــعٌ كَــوَامِــلُ

وفي (اللسان ـ شَدَدَ): «قال الأزهريُّ: الأَشُدُّ في كتاب الله تعالىٰ في ثلاثة معان يقرب اختلافها، فأما قوله في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ فمعناه الإدراك والبلوغ، وحينئذ راودته امرأة العزيز عن نفسه، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قال الزجاج: معناه: احفظوا عليه ماله حتى يبلغ أَشدَّه، فإذا بلغ أَشُدَّه فادفعوا إليه ماله، وبلوغه أَشُدَّه أن يؤنس منه الرشد مع أن يكون بالغاً، وأما قوله تعالىٰ في قصة موسى صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ فإنه قرن بلوغ الأَشُدّ بالاستواء، وهو أن يجتمع أمره وقوته ويكتهل وينتهي شبابه، وأما قول الله تعالىٰ في سورة الأحقاف: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فهو أقصى نهاية بلوغ الأشد، وعند تمامها بعث محمد ﷺ نبياً وقد اجتمعت حُنكتهُ وتمام عقله، فبلوغ الأشد محصور الأول محصور النهاية، غير محصور ما بين ذلك».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

الْمُراوَدَةُ: الملاطفة في السوق إلى غرض، وأكثر استعمال هذه اللفظة إنما هو في هذا المعنى الذي هو بين الرجال والنساءِ، ويشبه أن يكون من «راد يرُودُ» إذا تقدم لاختبار الأَرض والمرعى، فكأَن المراودَ يختبر أَبداً بأَقواله وتلطفه حال المراوَدِ من الإِجابة أَو الامتناع.

وفي مصحف ابن مسعود: [وقرعت الأَبواب]، وكذلك رويت عن الحسن[1]، ﴿ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ هي زليخا امرأَة العزيز، وقوله: [عن نفسه] كناية عن غرض المواقعة، وقوله: ﴿وَغَلَّقَتِ﴾ تضعيف مبالغة لا تعدية. وظاهر هذه النازلة أَنها كانت قبل أَن يُنَبَّأَ عليه السلام.

وقرأَ ابن كثير وأَهل مكة: [هيتُ] بفتح الهاءِ وسكون الياءِ وضم التاءِ، وقرأَ ابن عباس، وابن أَبي إِسحق، وابن محيصن، وأَبو الأَسود، وعيسى بفتح الهاءِ وكسر التاءِ، وقرأَ ابن مسعود، والحسن، والبصريون: ﴿هَيْتَ﴾ بفتح الهاءِ وسكون الياءِ، ورويت عن ابن عباس، وقتادة، وأَبي عمرو، قال أَبو حاتم: لا يعرف أَهل البصرة غيرها، وهم أَقل الناس غُلُوّاً في القراءَة، قال الطبري: وقد رُويت عن رسول الله ﷺ، وقرأَ نافع، وابن عامر: [هِيْتَ] بكسر الهاءِ، وسكون الياءِ وفتح التاءِ وهي قراءَة الأَعرج، وشيبة، وأَبي جعفر، وهذه الأَربع بمعنى واحد واختلفت باختلاف اللغات فيها[2]،

---

(١) في بعض النسخ بياض مكان (وقَرَّعتِ الأبواب)، وفي إحدى النسخ سقطت كلمة (ابن مسعود)، وعلى ما خبرناه من منهج ابن عطية فإن قوله: (وفي مصحف ابن مسعود) إلى (عن الحسن) جاءَ قبل مكانه الطبيعي، فهو يشرح الجمل والألفاظ بترتيب ورودها في القرآن الكريم، وكان الطبيعي أن يذكر ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾.

(٢) يريد أن يقول: إن المعنى في هذه القراءات الأربع واحد وهو الدعاءُ إلى الإقبال، ولكن القراءات اختلفت باختلاف اللغات.

ومعناه: الدعاءُ، أَيْ: تعال وأَقبل على هذا الأمر، قال الحسن: معناها: هَلُمَّ، ويحسن أن تتصل بها «لك» إذ حلَّت حل قولها: إقبالاً أو قرباً، فجَرَت مجرى «سقياً لك ورعياً لك»، ومن هذا قول الشاعر يخاطب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه:

أَبْلِـــغْ أَمِيــر ٱلْمُـــؤمِنِيـ ـــنَ أَخـا الْعِـرَاقِ إذا أَتَيْنَـا
إِنَّ الْعِـــرَاقَ وَأَهْلَـــهُ عُنُـقٌ إِلَيْـكَ فَهَيْـتَ هَيْتَـا[1]

ومن ذلك على اللغة الأُخرى قول طرفة:

لَيْسَ قَـوْمِـي بـالأَبْعَـديـنَ إذا مـا قـال داعٍ مـن الْعَشِيـرَةِ هَيْـتُ[2]

ومن ذلك أيضاً قول الشاعر:

قَـدْ رَابَنِـي أَن الْكَـرِيَّ أَسْكَتَـا ولَـوْ غَـدَا يُعْنَـى بنَـا لَهَيَّتَـا[3]

أَسْكَتَ: دخل في السكوت، و«هَيَّتَ» معناه: قال: هيْتَ، كما قالوا: أَفَّفَ إذ قال: أُف أُف، ومنه: سبَّح وكبَّر ودعْدعَ إذا قال: داعِ داعِ.

والتاءُ على هذه اللغات كلها مَبْنيَّة، فهي في حال الرفع مثل قَبْلُ وبَعْدُ، وفي الكسر على الباب لالتقاءِ الساكنين، وفي حال النصب ككيْفَ ونحوها. قال أبو عبيدة:

---

(١) البيتان في (مجاز القرآن) لأبي عبيدة، وفي (المحتسب) لابن جني، والرواية فيهما بكسر همزة (إن) في أول البيت الثاني على القطع والاستئناف، أو على أن (أبْلغ) بمعنى (قُلْ)، ومعنى (عُنُقٌ إليكَ) أنَّهم مائلون إليك متطلعون لك، ورواية (اللسان): «سِلْم إِلَيْكَ» بدلاً من «عُنُقٌ إِلَيْكَ»، قال أبو عبيدة: ولفظ «هيت» يكون أيضاً للاثنين وللجميع من الذكر والأنثى سواءً، إلا أن العدد فيما بعده، تقول: هيت لكما، هيت لكن، ونقل في (اللسان) عن ابن جني أن «هيت» في البيت بمعنى أسرع، قال: وفيه أربع لغات وذكرها كما أوردها ابن عطية هنا.

(٢) البيت غير موجود في الديوان ولا فيما بين أيدينا من شعر طرفة، والشاهد فيه أن «هيت» تبنى على الضم عند بعض العرب فتكون مثل قبلُ وبعدُ. والشاعر يمدح قومه بالإسراع إلى نجدة من يدعوهم إلى النجدة، إنهم يسرعون إلى الإجابة جماعات جماعات، وقد روى ابن جني في المحتسب بيتاً آخر بعد هذا هو قوله:

هُـمْ يُجيبُـون: وَاهَلُـمَّ سِـرَاعـاً كـالأَبَـابِيـلِ لا يُغَـادَرُ بَيْـتُ

(٣) البيت في التاج واللسان غير منسوب، قال في اللسان: «وَهَيَّتَ بالرجل وهوَّت به: صَوَّت به وصاح، ودعاه فقال له: هيتَ هيتَ، قال: قد رابني . . البيت». لكن الشطر الثاني فيه وفي التاج جاء بلفظ: «لو كان معنيا بها لهَيَّتا». والكريُّ هو الأجير، أو الذي يُكْريكَ دابته، وقد شرح ابن عطية «أَسْكَتَ» و«هَيَّتَ»، والمعنى: أثار ريبتي أن الأجير قد دخل في السكوت، ولو كان معنياً بالدواب لهَيَّت عليها.

و«هَيْتَ» لا تُثنى ولا تُجمع، تقول العرب: هيْت لك، وهيت لكما، وهيت لكم.

وقرأ هشام بن عامر: [هِئْتُ] بكسر الهاءِ والهمز وضم التاءِ. وهي قراءَة علي بن أَبي طالب، وأَبي وائل، وأَبي رجاءٍ، ويحيى، ورويت عن أَبي عمرو، وهذا يحتمل أَن يكون من: «هاءَ الرجل يهيءُ» إذا أَحسن هيئته على مثال: «جَاءَ يجيءُ»[(١)]، ويحتمل أَن يكون بمعنى: تَهيأْتُ، كما يقال: «فِئْتُ وتَفَيَّأْتُ» بمعنى واحد، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يتفيأ ظلاله﴾[(٢)]، وقال: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾[(٣)].

وقرأَ ابن أَبي إِسحق أَيضاً هكذا إِلا أَنه سهَّل الهمزة، وقرأَ ابن عباس أَيضاً: [هُيِّئْتُ لَكَ][(٤)]، وقرأَ الحلواني عن هشام: [هِئِتَ] بكسر الهاءِ والهمزة وفتح التاءِ، قال أَبو عليّ: ظاهر أَن هذه القراءَة وهم، لأنه كان ينبغي أَن تقول: «هِئِتَ لي» وسياق الآيات يخالف هذا[(٥)]، وحكى النحاس أَنه يقرأُ: [هِيتِ] بكسر الهاءِ وسكون الياءِ وكسر التاءِ.

و﴿مَعَاذَ﴾ نصب على المصدر، ومعنى الكلام: أَعوذ بالله، ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ فيحتمل أَن يعود الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ على الله عزَّ وجلَّ، ويحتمل أَن يريد العزيزَ سيِّده، أَي: فلا يصلح لي أَن أَخونه وقد أَكرم مثواي وائتَمَنني. قال مجاهد، والسدي: ﴿رَبِّىٓ﴾ معناه: سيِّدي، وقاله ابن إِسحٰق.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإِذا حفظ الآدميَّ لإِحسانه فهو عملٌ زاكٍ وأَحرى أَن يحفظ ربَّه.

---

(١) قال ابن جني: «وقالوا أيضاً: هِئْتُ أَهَاءُ، كخِفْتُ أخَاف، هذا بمعنى خذ قال:
أفـاطـم هَـائـي السَّيْـفَ غَيْـرَ مُـذَمَّـم

(٢) من الآية (٤٨) من سورة النحل.

(٣) من الآية (٩) من سورة الحجرات.

(٤) علَّق ابن جني عليها في المحتسب بقوله: «وأما [هُيِّئْتُ لَكَ] ففعل صريح كهِئْتُ لك، كقولك: أُصلحتُ لك، أي: فدونك وما انتظارك؟ واللام متعلقة بالفعل نفسه كقولك: أُصْلِحْتُ لك، وصَلَحْتُ لكذا».

(٥) حجة أبي علي ومن وافقه أن الفعل عند فتح التاءِ يجعل التهيؤ من يوسف، ويوسف عليه السلام لم يتهيأ لها، فلا بُدَّ من ضم التاء، وقد ردَّ صاحب النشر هذه الحجة بقوله: إن المعنى مع فتح التاءِ: تهيَّأ لي أمْرُك الآن، إذ لم يتيسَّر لها قبل ذلك أن تخلو إليه، أو المعنى: حسنت هيْئَتُك لي، واللام ـ على المعنيين ـ للبيان. والرواية ثابتة عن هشام. (روح المعاني).

ويحتمل أَن يكون الضمير للأمر والشأن، ثم يبتدئ: ﴿رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَاىَۖ﴾. والضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ﴾ مرادٌ به الأَمر والشأن فقط.

وحكى بعض المفسرين أَن يوسف عليه السلام لما قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ ثم دافع الأَمر باحتجاج وملاينة امتحنه الله تعالىٰ بالهمّ بما همَّ به، ولو قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله» ودافع بعنف. وبغير شيءٍ من ذلك ما ابتُلي بالمكروه.

وقرأ الجحدري: [مَثْويَّ]، وكذا قرأها أَبو الطفيل، وروي عن النبي ﷺ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾ الآية. لا شك أَن همَّ زليخا كان في أَن يواقعها يوسف، واختلف في همِّ يوسف عليه السلام ـ فقال الطبريُّ: قالت فرقة: كان مثل همها، واختلفوا كيف يقع من مثل يوسف وهو نبيٌّ؟ فقيل: ذلك لِيُرِيَهُ الله تعالىٰ موقع العفو والكفاية، وقيل: الحكمة في ذلك أَن يكون مثالاً للمذنبين ليَرَوْا أَن توبتهم ترجع بهم إِلى عفو الله كما رجعت بمن هو خير منهم ولم يوبقه القرب من الذنب. وذلك كله على أَن همَّ يوسف بلغ ـ فيما روت هذه الفرقة ـ إِلى أَن جلس بين رجلي زليخا وأَخذ في حلِّ ثيابه وتكته ونحو هذا، وهي قد استلقت له، قاله ابن عباس وجماعة من السلف. وقالت فرقة في همِّه: إِنما كان بخطرات القلب التي لا يقدر البشر على التحفظ منها، ونزع عن ذلك ولم يتجاوزه، فلا يبعد هذا على مثله عليه السلام، وفي الحديث: «إِن من هَمَّ بسيئة ولم يعملها فله عشر حسنات»[2]، وفي حديث آخر «حسنة»، فقد يدخل يوسف في هذا الصنف، وقالت فرقة: كان هم يوسف بضربها ونحو ذلك.

---

(١) من قوله تعالى في الآية (١٢٣) من سورة طه ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾.

(٢) الحديث رواه البخاري في الرقاق، ومسلم في مواضع كثيرة، والترمذي في تفسير سورة الأعراف، والدارمي في الرقاق، والإمام أحمد في أكثر من موضع من مسنده، ولفظه كما في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربّه عزَّ وجلَّ قال: «قال: إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيَّن ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف البَتَّةَ.

والذي أَقول: في هذه الآية: إِن كون يوسف نبياً في وقت هذه النازلة لم يصح و لا تظاهرت به رواية، وإِذا كان ذلك فهو مؤمن قد أُوتي حكماً وعلماً ويجوز عليه الهَمُّ الذي هو إِرادة الشيءِ دون مواقعته، وأَنْ يستصحب الخاطر الرديءَ على ما في ذلك من الخطيئة، وإِن فرضناه نبيّاً في ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندي إِلاَّ الهَمُّ الذي هوالخاطر، ولا يصح عليه شيءٌ مما ذُكر من حلٍّ تكَّة ونحو ذلك، لأَن العصمة مع النبوة، وما رُوي من أَنه قيل له: «تكون في ديوان الأَنبياءِ وتفعل فعل السفهاء» فإِنما معناه العِدَةُ بالنبوة فيما بعد، ولِلْهَمِّ بالشيءِ مرتبتان: فالأُولى تجوز عليه مع النبوة، والثانية الكبرى لا تقع إِلا من غير نبي، لأَن استصحاب خاطر المعصية والتَّلَذُّذ به معصية في نفسها تكتب، وقول النبي ﷺ: «إِن الله تجاوز لأُمتي ما حدثت به نفوسهم ما لم تنطق به أَو تعمل»[1] معناه: من الخواطر، وأَما استصحاب الخاطر فمحال أَن يكون مباحاً، فإِن وقع فهو خطيئة من الخطايا، لكنه ليس كمواقعة المعصية التي فيها الخاطر، ومما يؤيد أَن استصحاب الخاطر معصية قولُ النبي ﷺ: «إِنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[2]، وقولُ الله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[3]، وهذا منتزع من غير موضع من الشرع، والإِجماعُ منعقد على أَن الهمَّ بالمعصية واستصحاب التَلَذذ بها غير جائز ولا داخل في التجاوز.

واختلف في البرهان الذي رأَى يوسف. وقيل: نودي. واختلف فيما نودي به ـ فقيل: ناداه جبريل عليه السلام: يا يوسف، تكون في ديوان الأَنبياءِ وتفعل فعل

---

(١) الحديث رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه عن أبي هريرة، ورواه الطبراني في الكبير عن عمران بن حصين، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه صحيح.

(٢) أخرجه الشيخان في الصحيحين، والإمام أحمد في مسنده، وأبو داود والنسائي عن أبي بكرة، وأخرجه ابن ماجه عن أبي موسى، ونص الحديث كاملاً: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول في النار، قيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».

(٣) من الآية (١٢) من سورة الحجرات.

السفهاءِ؟ وقل: نودي: يا يوسف، لا تواقع المعصية فتكون كالطائر الذي عصَى فتساقط ريشه فبقي ملقى، ناداه بذلك يعقوب، وقيل: غير هذا مما هو في معناه. وقيل: كان البرهان كتاباً رآه مكتوباً، فقيل: في جدار المجلس الذي كان فيه، وقيل: بين عيني زليخا، وقيل: في كفٍّ من الأرض خرجت دون جسد، واخْتُلف في المكتوب ـ فقيل: قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[1]، وقيل: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[2]، وقيل غير هذا. وقيل: كان البرهانُ أَنْ رأَى يعقوبَ عليه السلام ممثلا معه في البيت عاضّاً على إبهامه، وقيل: على شفته، وقيل: بل انفرج السقف فرآه كذلك، وقيل: إن جبريل عليه السلام قال له: لئن واقعت المعصية لأمحونك من ديوان النبوة. وقيل: إن جبريل ركضه برجله فخرجت شهوته على أَنامله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وقيل: بل كان البرهان فكرته في عذاب الله ووعيده على المعصية، وقيل: بل كان البرهان الذي اتعظ به أَن زليخا قالت له: مكانك حتى أَسْتُر هذا الصنم ـ لِصَنم كان معها في البيت ـ فإني أَستحي منه أَن يراني على هذا الحال، وقامت إليه فسترته بثوب، فاتعظ يوسف وقال: من يسترني أَنا من الله القائم على كل شيءٍ؟ وإذا كنت أَنت تفعلين هذا لما لا يعقل فإني أَولى أَن أَستحي من الله.

والبرهان في كلام العرب: الشَّيْءُ الذي يعطي القطع واليقين لأَنه مما يُعلم ضرورة أَو بخبر قطعي أَو بقياس نظري، فهذه التي رُويت فيما رآه يوسف براهين.

و﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا﴾ في موضع رفع، التقدير: لولا رؤْيتُه برهان ربه، وهذه «لولا» التي يحذف معها الخبر، تقديره: لفعل أَو لارتكب المعصية، وذهب قومٌ إلى أَن الكلام تمَّ في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾، وأَن جواب «لولا» في قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾، وأَن المعنى: لولا أَنْ رأَى البرهان لَهَمَّ، أَي: فلم يَهُمَّ عليه

(١) من الآية (٣٣) من سورة الرعد.

(٢) من الآية (٣٢) من سورة الإسراء.

السلام، وهذا قول يردُّه لسان العرب وأَقوال السلف[١]، قال الزجاج: ولو كان الكلام: «وَلَهَمَّ بِهَا لولا» لكان بعيداً، فكيف مع سقوط اللام؟[٢].

والكاف في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ متعلقة بمضمر تقديره: جرت أَفعالنا وأَقدارنا كذلك لنصرف، ويصحُّ أَن تكون الكاف في موضع رفع بتقدير: عِصْمَتُنَا له كذلك لنصرف[٣]. وقرأَ الجمهور: ﴿لِنَصْرِفَ﴾ بالنون، وقرأَ الأَعمش: [لِيَصْرِفَ] بالياءِ على الحكاية عن الغائب[٤].

---

(١) قال أبو حيان في (البحر المحيط): «ليس كما ذكر، وهو موجود في لسان العرب، قال تعالىٰ: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ إما أن يتخرج على أنه الجواب، وإما أن يتخرج على ما نذهب إليه من أنه دليل الجواب، والتقدير: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به.
وأما أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيءٌ من ذلك لأنها أقوال متكاذبة، يناقض بعضها بعضاً، مع كونها قادحة وبخاصة في المقطوع لهم بالعصمة، والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب لأنهم قدروا جواب (لولا) محذوفاً ولا يدل عليه دليل لأنهم لم يقدروا الهمَّ بها، ولا يدل كلام العرب إلا على أن يكون المحذوف من معنى ما قبل الشرط لأن ما قبل الشرط دليل، ولا يحذف شيء بدون دليل».

(٢) ردَّ عليه أبو حيان أيضاً في البحر بأنه كلام لا يصح الالتفات إليه، لأنه يوهم أن قول الله تعالىٰ: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هو جواب (لولا)، ونحن لم نقل بذلك، وإنما هو دليل الجواب. وعلى تقدير أن يكون هو نفس الجواب فاللام ليست بلازمة، لأن جواب (لولا) يجوز أن يأتي ـ إذا كان بصيغة الماضي ـ باللام وبغير اللام، تقول: لولا زيد لأكرمتك، ولولا زيد أكرمتك، فمن ذهب إلى أن قوله تعالىٰ: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هو نفس الجواب لم يبعد.
ثم قال: «والذي أختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همٌّ بها البتَّة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان، كما تقول: لقد قارفت لولا أن عصمك الله، ولا نقول: إن جواب (لولا) متقدم عليها وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك، بل إن صريح أدوات الشرط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها، وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون، ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري، وأبو عباس المبرد، بل نقول: إن جواب (لولا) محذوف لدلالة ما قبله عليه كما يقول جمهور البصريين في قول العرب: (أنت ظالم إن فعلت) فإنهم يقدرونه: إن فعلت فأنت ظالم، ولا يدل قوله: (أنت ظالم) على ثبوت الظلم، بل هو مثبت على تقدير وجوب الفعل، وكذلك التقدير هنا: (لولا أن رأى برهان ربّه لَهَمَّ بها)، فكان موجود الهَمِّ على تقدير انتفاء رؤية البرهان، لكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهمُّ».

(٣) يرى الحوفي أن الكاف للتشبيه في موضع نصب، أي: أريناه البرهان كذلك، وقال أبو البقاء: الكاف في موضع رفع، والتقدير: الأمر كذلك، وقال أبو حيان: التقدير: مثل تلك الرؤية نرى براهيننا لنصرف، فالإشارة إلى الرؤية، والناصب للكاف ما دل عليه قوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، و﴿لِنَصْرِفَ﴾ متعلق بذلك الفعل الناصب للكاف.

(٤) وهو عائد على الله تعالىٰ.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، والحسن بن أبي الحسن، وأبو رجاءٍ: [ٱلْمُخْلِصِينَ] بكسر اللام في كل القرآن، وكذلك [مُخلِصاً] في سورة مريم(١)، وقرأ نافع [مُخْلِصاً] كذلك بكسر اللام، وقرأ سائر القرآن ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام، وقرأ حمزة، والكسائي، وجمهور من القراءِ ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام، و[مُخْلَصاً] كذلك في كل القرآن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ الآية. ﴿وَٱسْتَبَقَا﴾ معناه: سابق كل واحد منهما صاحبه إلى الباب، هي لترد ه إلى نفسها، وهو ليهرب عنها، فقبضت في أعلى قميصه من خلفه، فتخرق القميص عند طوقه ونزل التخريق إلى أسفل القميص، والقَدُّ: القطع، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولا، والقَطُّ يستعمل فيما لو كان عرضاً، وكذلك هي اللفظة في قول النابغة:

تَقُـدُّ السَّلُـوقِـيَّ............ .... (٢)

فإن قوله: «وتُوقِد بالصُّفَّاح» يقتضي أن القطع بالطول.

و﴿وَأَلْفَيَا﴾: وجدا، والسَّيِّد: الزوج، قاله زيد بن ثابت، ومجاهد. فيروى أنهما وجدا العزيز ورجلاً من قرابة زليخا عند الباب الذي استبقا إليه، قاله السُّدّي، فلما رأت الفضيحة فزعت إلى مطالبة يوسف والبغي عليه، فأرت العزيز أن يوسف أرادها، وقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وتكلمت في الجزاءِ، أي أن الذنب ثابت ومتقرر.

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٥١): ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

(٢) هذا جزء من بيت قاله من قصيدة يمدح بها عمرو بن الحارث، والبيت بتمامه:

تَقُـدُّ السَّلُـوقِـيَّ المُضَـاعَـفَ نَسْجُـهُ   وتُـوقِـدُ بـالصُّفَّـاح نـارَ الحُبَـاحِـبِ

والضمير في (تَقُدّ) يعود على السيوف المذكورة في الأبيات السابقة، والسَّلُوقي صفة لموصوف محذوف تقديره: تَقُدُّ الدِّرْع السَّلُوقي، وهو منسوب إلى (سَلوق) بفتح السين، وهي بلدة على نهر دجلة بالعراق سُمِّيَت باسم بانيها وهو سَلُوْقس الرومي، وكانت تصنع في سَلُوق هذه دروع جيدة متقنة. والمضاعف نسجه، أي الذي كررت حلقاته حلْقةً فوق حلْقة، وذلك يجعله أمتن فلا تقطعه السيوف، وسمَّى صنع الحديد نسجاً على طريقة المجاز. والصُّفَّاح: صفايح البَيْض فوق الرأس وصفايح الذراعين، والصُّفَّاح بضم الصاد وشدها هي والفاء المفتوحة. والحُباحِب ـ بضم الحاء الأولى كسر الثانية ـ شرارة تطير عند قدح الحديد بالحديد أو بالحجارة.

وهذه الآية تقتضي تعظيم موقع السجن من النفوس لا سيما بذوي الأقدار إذْ قد قُرِنَ بأليم العذاب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قال نوف الشامي: كان يوسف عليه السلام لم يبن على كشف القصة، فلما بغت عليه غضب فقال الحق، فأخبره أنها هي رَاوَدَتْهُ عن نفسه، فروي أن الشاهد كان الرجل ابن عمها، قال: انظر إلى القميص، فإن كان قُدَّ من دُبُرٍ فكذبت، أو من قُبُلٍ فصدقت، قال السُّدّي، وقال ابن عباس: كان رجلاً من خاصة الملك، قاله مجاهد وغيره. وقيل: إن الشاهد كان طفلاً في المهد فتكلم بهذا، قاله أيضاً ابن عباس، وأبو هريرة، وابن جبير، وهلال بن يساف، والضحاك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومما يضعف هذا أن في صحيح البخاري، ومسلم: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى بن مريم، وصاحب جريج، وابن السوداء الذي تمنت له أن يكون كالفاجر الجبار»[1]، فقال: «لم يتكلم»، وأسقط صاحب يوسف منها، ومنها أن الصبي لو تكلَّم لكان الدليل نفس كلامه دون أن يحتاج إلا الاستدلال بالقميص، وأسند الطبري إلى ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «تكلم في المهد أربعة» فذكر الثلاثة وزاد صاحب يوسف، وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ابن ماشطة فرعون تكلم في المهد فهُمْ ـ على هذا ـ خمسة، وقال مجاهد أيضاً: الشاهد القميص.

---

(١) ورواه أيضاً الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة، ولفظه فيه: «لم يتكلم في المهد إلا عيسى، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وابن ماشطة فرعون» ذكر ذلك الإمام السيوطي في (الجامع الصغير)، وقال: حديث صحيح. وفي تفسير ابن كثير أن ابن عباس رواه عن النبي ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صغار»، وذكر فيهم شاهد يوسف، وقد ذكر ذلك ابن عطية هنا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف لأنه لا يوصف بأنه من الأهل.

وقرأ جمهور الناس: ﴿مِن قُبُلٍ﴾ و﴿مِن دُبُرٍ﴾ بضم الباءَيْن وبالتنوين، وقرأ ابن يَعْمر، والجارود بن أَبي سبرة، ونوح[1]، وابن أَبي إِسحٰق: [مِنْ قُبُلُ] و[مِن دُبُرُ] بثلاث ضمات من غير تنوين، قال أَبو الفتح: هما غايتان بنيتا كقوله تعالىٰ: ﴿مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾[2]، قال أَبو حاتم: وهذا رديءٌ في العربية جدّاً، وإِنما يقع هذا البناءُ في الظروف، وقرأَ الحسن: [مِنْ قُبْلٍ] و[مِنْ دُبْرٍ] بإِسكان الباءَين والتنوين، ورويت عن أَبي عمرو، وروي عن نوح القاري أَنه أَسكن الباءَين وضم الأَواخر ولم ينون، ورواها عن أَبي إِسحٰق عن يحيى بن يَعْمر.

وسُمِّي المتكلم بهذا الكلام شاهداً من حيث دلَّ على الشاهد، ونفْس الشاهد هو تخريق القميص.

وقرأَت فرقة: [فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قطَّ مِنْ دُبُرٍ][3]، والضمير في ﴿رَءَا﴾ هو للعزيز، وهو القائل: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾، قاله الطبري، وقيل: بل الشاهد قال ذلك، والضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ يريد مقالها المتقدم في الشكوى بيوسف.

ونزع لِهٰذه الآية من يرى الحكم بالأَمارة من العلماءِ، فإِنها معتمدهم[4]،

---

(١) هو نوح القاري، من رواة الحروف المتصدرين بعد أبي عمرو بن العلاء.

(٢) من الآية (٤) من سورة الروم. ومعنى قول أبي الفتح شرحه بقوله في (المحتسب): كأنه يريد: وقدَّت قميصه من دُبُره وإن كان قميصه قُدَّ من قُبُلِهِ، فلما حذف المضاف إليه ـ وهي الهاءُ وهي مراده ـ صار المضاف غاية في نفسه بعد ما كان المضاف إليه غاية له، وهذا مفهوم في قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ﴾، فبني هنا كما بني هناك على الضَّمِّ، ووكَّد البناء أن (قُبُل ودُبُر) (يكونان ظرفين). تأمل كلامه هذا فكأن فيه إجابة عن قول أبي حاتم بعده.

(٣) جاء في بعض النسخ: (عُطَّ) بالعين المهملة، وآثرنا التي نقلها أبو حيان في (البحر) عن ابن عطية. مع العلم بأن (عَطَّ) في اللغة معناها: قَدَّ أو شَقَّ، يقال: عطَّ الثوبَ عَطّاً: شَقَّهُ طُولا أوْ عَرْضاً.

(٤) إذا كان الشاهد طفلاً صغيراً كانت شهادته كافية ولا حاجة إلى علامة أو أمارة أُخرى فإن كلامه هو نفسه أمارة، وإن كان رجلاً فإنه يحتاج إلى ذكر أمارة أو علامة على صدق كلامه، ومن رأى من العلماء أنه لا بد من أمارة على العمل ـ كشريح القاضي وإياس بن معاوية ـ فإنه يعتمد على هذه الآية في ذلك، وهذا هو معنى كلام ابن عطية.

و﴿ يُوسُفُ ﴾ في قوله: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ منادى ـ قاله ابن عباس ـ ناداه الشاهد، وهو الرجل الذي كان مع العزيز و﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ معناه: عن الكلام به، أي: اكْتُمْه ولا تتحدث به، ثم رجع إليها فقال: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ﴾ أي: استغفري زوجك وسيدك، وقال: ﴿ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ ولم يقل: «من الخاطئات» لأن الخاطئين أعم، وهو من: خطئَ يَخْطأُ خَطأً وخَطَأً، ومنه قول الشاعر:

لَعمْـرُك إنَّمـا خَطَئـي وصَـوْبـي عَلـيَّ، وإنَّ مـا أَتْلَفـتُ مـالُ(١)

وينشد بيت أُميَّة بن أَبي الصَّلْت:

عِبـادُكَ يَخْطَـؤونَ وأَنْـتَ رَبٌّ بِكَفَّيْـكَ ٱلْمنَـايـا والْحُتُـومُ(٢)

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾.

ذكّر الفعل المسند إلى النسوة لتذكير اسم الجمع. و(النِّسْوة) جمعُ قلة لا واحد له من لفظه، وجمع التكثير نساءٌ، و﴿ نِسْوَةٌ ﴾ فِعْلَة، وهو أحد الأبنية الأربعة التي هي لأدنى العدد، وقد نظمها القائل ببيت شعر:

---

(١) البيت لأوْس بن غَلْفَاء، قال ذلك في (اللسان ـ صوب)، ورواه مع بيت قبله، قال:

ألا قـالـت أُمـامَـةُ يَـوْم غَـوْلٍ تُقَطِّـعُ بـابْـنِ غَلْفَـاءَ الحِبَـالُ

دعينـي إنَّمـا خَطَئِـي وصَـوْبِـي عَلَـيَّ وإنَّ مَـا أهْلَكْـتُ مَـالُ

والصَّوب: الصواب، و(إنَّ ما) تكتب منفصلة، ومالُ بالرفع، والمعنى: وإنَّ الذي أهلكته مالُ، ولا ضير في ذلك ما دام عرضي وافراً.

(٢) البيت في (اللسان) ـ في «خَطِئَ»، والرواية فيه:

عبـادُكَ يَخْطَـؤونَ وأنْـتَ رَبٌّ كَـريـمٌ لا تَلِيـقُ بِـكَ الـذُّمُـومُ

ورواه أيضاً في «حَتَمَ» ولفظه:

حَنَـانَـيْ رَبَّنَـا ولَـهُ عَنَـوْنَـا بكَفَّيْـهِ المَنَـايَـا والْحُتُـومُ

ورواه في (الصحاح) رواية ابن عطية. والمنايا: جمع مَنِيَّة وهي الموت، والحُتُوم: جمْع حَتْم بمعنى القضاء. وفي (اللسان) ـ في «ذَمَمَ» لأميَّة أيضاً:

سَـلاَمَـكَ رَبَّنَـا فـي كُـلِّ فَجْـرٍ بَـرِيئـاً مَـا تَعَنَّتْـكَ الـذُّمُـومُ =

بِــأَفْعُــلٍ وأَفْعَــالٍ وأَفعِلَــه ... وفِعْلَة يُعْرفُ الأَدْنَى من العددْ(١)

ويُروى أَن هؤلاءِ النسوة كُنَّ أَرْبَعاً ، امرأة خباز الملك ، وامرأَة ساقيه ، وامرأَة حاجبه ، وامرأَة بوابه ، و﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: الملك ، ومنه قول الشاعر:

دُرةٌ غَــاص عَلَيْهَــا تَــاجِــرٌ ... جُلِبتْ عِنْدَ عـزيـزٍ يـومَ طُـلّ(٢)

و(الْفَتَى): الغلام: وعرفه في المملوك ، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يقل أَحدكم: عبدي ، وأَمتي ، وليقل: فتاي وفتاتي»(٣) ولكنه قد يقالُ في غير المملوك ، ومنه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ﴾(٤) ، وأَصل الفتى في اللغة: الشاب ، ولكنه لما كان جل الخدمة شباباً استعير لهم اسم الفتى. و﴿شَغَفَهَا﴾ معناه: بلغ حتى صار من قلبها موضع الشَّغاف ، وهو على أَكثر القول غلاف من أَغشية القلب ، وقيل: الشَّغافُ: سويداءُ القلب ، وقيل: الشُّغاف: داءٌ يصل إِلى القلب(٥).

وقرأَ أَبو رجاءٍ ، والأَعرج ، وعلي بن أَبي طالب ، والحسن ـ بخلاف ـ ويحيى بن يَعْمر ، وقتادة ـ بخلاف ـ وثابت ، وعوف ، ومجاهد ، وغيرهم: [قَدْ شَعَفَهَا] بالعين غير منقوطة ، ولذلك وجهان: أَحدهما أَنه علا بها كل مرتبة من الحب ، وذهب بها كل مذهب ، فهو مأْخوذ ـ على هذا ـ من شعف الجبال وهي رُؤُوسها وأَعاليها ،

---

(١) ومثل هذا قول ابن مالك في أَلفيَّته المشهورة:

أَفعِلَــةٌ أَفْعُــلُ ثُــمَّ فِعْلَــه ... ثُمَّــتَ أَفْعَــالٌ جمــوعُ قِلَّــه

(٢) هذا البيت لأَبي دُؤاد الإِيَاديِّ ، والمؤلف يستشهد به على أن العزيز بمعنى الملك ، ولم نجد في كتب اللغة ما يؤيد ذلك ، وفي المجاز متسع لاستعمال العزيز بمعنى الملك. وطَلَّ دمُه: أُهدر تستعمل مبنية للمعلوم ولكن استعمالها مبنية للمجهول أكثر وأشهر ، يقال: طُلَّ دمه فهو مطلول. وأبو دُؤاد هذا اسمه جارية بن حُمْران الحجَّاج ، اشتهر بوصف الخيل ، وركز في وصفه على الصورة والإيقاع الموسيقي أكثر من تركيزه على اللفظة المباشرة. مات بعد امرئ القيس.

(٣) أخرجه البخاري في العتق ، ومسلم في الألفاظ ، وأبو داود في الآداب ، والإمام أحمد في أماكن كثيرة من مسنده ، ولفظه كما في البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لا يقل أحدكم أطعم ربَّك ، وضِّئ ربَّك ، اسق ربَّك ، وليقل: سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم: عبدي أمتي ، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي».

(٤) من الآية (٦٠) من سورة الكهف.

(٥) ويكون حينئذ بالضم على وزن (فُعال) لأنه داءٌ مثل: سُعال وزُكام ، قال النابغة:

وقَــدْ حَــالَ هَــمٌّ دُونَ ذلِــك والِــجٌ ... مكــانَ الشُّغَــاف تبْتَغِيــهِ الأَصابِــعُ

ومنه قول النبي ﷺ: «يوشك أَن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القَطْر يفِرُّ بدينه من الفِتَن»(١) والوجه الآخر أَن يكون الشعف لذَّةٌ بِحُرْقَة يوجد من الجراحات والجرب ونحوها ، ومنه قول امرئ القيس:

أَيَقْتُلُني وقَدْ شَعَفْتُ فُؤادها ... كمَا شَعفَ المهْنُوءَةَ الرَّجُل الطَّالي(٢)

والمشعوف في اللغة: الذي أَحرق الحب قلبه ، ومنه قول الأعشى:

تَعصِي الْوُشَاةَ وكانَ الْحُبُّ آوِنَةً ... مِمَّا يُزَيِّنُ لِلْمَشْعُوفِ ما صَنَعَا(٣)

ورُوي عن ثابت البناني(٤) ، وأَبي رجاءٍ أَنهما قرآ: [قَدْ شَعِفَهَا] بكسر العين غير منقوطة ، قال أَبو حاتم: المعروف فتح العين ، وهذا قد قرئ به. وقرأ ابن مُحَيْصن: [قَدْ شَّغَفَها] أدغم الدال في الشِّين.

ورُوي أَن مقالة هؤلاءِ النسوة إِنما قصدن بها المكر بامرأَة العزيز لِيُغْضِبْنَها حتى تعرض عليهن يوسف لِيَبِينَ عذرها أَو يحقَّ لومها ، وقد قال ابن زيد: الشَّغف في الحب والشَّعف في البغض ، وقال الشعبي: الشغف والمشغوف بالغين منقوطة في الحب ، والشعف: الجنون ، والمشعوف: المجنون ، وهذان القولان ضعيفان.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان والفتن وغيرهما ، وأبو داود في الفتن ، والنسائي في الإيمان ، وابن ماجه في الفتن ، والموطأ في الاستئذان ، والإمام أحمد في مسنده (٣ـ ٦ ، ٣٠ ، ٤٣ ، ٥٧).

(٢) الرواية المشهورة (أيقتلني) بالياء ، و(شَغَفْتُ) بالغين المنقوطة ، ومعناها: بلغ حبِّي شَغاف قلبها ، والمهنوءَة: الناقة التي تُطلى بالقطران لإصابتها بالجرب ، ويروى البيت بالعين كما في اللسان ، والمعنى: إحراق الحُبُّ للقلب مع لذة يجدها المحبُّ ، كما أن الناقة التي تطلى بالقطران علاجاً لها من الجرب تجد لذة مع حرقة ، وقبل البيت أبيات يتحدث فيها الشاعر عن محبوبته وبعلها ، قال:

وصِرْنَا إلى الحُسْنى ورَقَّ كلامُنَا ... ورُضْتَ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أيَّ إذْلالِ

فَأَصْبَحْتُ مَعْشُوقاً وَأَصْبَحَ بَعْلُهَا ... عليْهِ الْقَتَامُ سَيِّئَ الظَّنِّ والْبَالِ

إلى أن يقول: أَيَقْتُلُني وقد أحرقت فؤادها بحبي حرقة تجد فيها كل اللذة والمتعة؟.

(٣) قال الأعشى هذا البيت من قصيدته المشهورة التي يمدح بها هوزة بن علي الحنفي ، والتي مطلعها:

بانَتْ سُعادُ وأمْسَى حَبْلُها انْقَطَعَا ... واحْتَلَّتِ الغَمْرَ فَالْجُدَّيْنِ فَالْفَرَعَا

والرواية في الديوان بالغين المنقوطة.

(٤) هو ثابت بن أسلم أبو محمد البناني المصري ، وردت عنه الرواية في حروف القرآن الكريم ، وتوفي سنة ١٢٧ (طبقات ابن الجزري ١ ـ ١٨٨) ، ولم يشر ابن جني إلى القراءَة بكسر العين ، بل جعل قراءة ثابت البناني مثل قراءة الجماعة الكثيرة المذكورة قبله بفتح العين ، وهذا هو معنى قول أبي حاتم: المعروف فتح العين ، وقد قرئ به.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ الآية. إنما سُمِّي قولهن مكراً من حيث أَظهرن إنكار منكر وقصدن إثارة غيظها عليهن، وقيل: مكرُهُنَّ أنهن أَفْشَيْنَ ذلك عنها وقد كانت أَطلعتهن على ذلك واسْتَكْتَمَتْهُنَّ، وهذا لا يكون مكراً إلا بأَن يظهرن لها خلاف ذلك ويقصدن بالإفشاءِ أَذاها.

ومعنى ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أَي لِيحْضُرْنَ، ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ معناه: أَعَدَّت ويَسَّرت، و﴿مُتَّكَأً﴾: ما يُتَّكأُ عليه من فرش ووسائد، وعبر بذلك عن مجلس أُعد لكرامة، ومعلوم أَن هذا النوع من الكرامات لا يخلو من الطعام والشراب، فلذلك فسر مجاهد وعكرمة المتَّكأَ بالطعام. قال ابن عباس: ﴿مُتَّكَأً﴾ معناه: مجلساً، ذكره الزهراوي، وقال القتبي: يقال: اتَّكأْنا عند فلان، أَي أَكلنا.

وقوله: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ يقتضي أَنه كان في جملة الطعام ما يقطع بالسكاكين، فقيل: كان لحماً، وكانوا لا يَنْتَهِسون اللحم وإنما كانوا يأْكلونه حزّاً بالسكاكين، وقيل: كان أُتْرُجًّا[1]، وقيل: كان زُماوَرْد[2] ـ وهومن نحو الأُتْرُج موجود في تلك البلاد ـ وقيل: هو مصنوع من سكر ولوز وأَخلاط. وقرأَ ابن عباس، ومجاهد، والجحدري، وابن عمر، وقتادة، والضحاك، والكلبي، وأَبان بن تغلب: [مُتْكاً] بضم الميم وسكون التاءِ وتنوين الكاف، واخْتُلف في معناه ـ فقيل: هو الأُترجُ، وقيل: هو اسم يعم جميع ما يقطع بالسكين من الفواكه كالأُتْرُجِّ والتفاح وغيره، وأَنشد الطبري:

نَشْـرَبُ الإِثْـمَ بـالصُّـواعِ جِهَـاراً وتَـرَى المُتْـكَ بيْنَنَـا مُسْتَعـارَا[3]

---

(١) الأُتْرُجّ: شجر يعلو، ناعم الأغصان والورق والثمر، وثمره كالليمون الكبار، وهو ذهبيُّ اللون، ذكيُّ الرائحة، حامض الماءِ (مجمع اللغة العربية بالقاهرة)، نقلاً عن (المعجم الوسيط).

(٢) الزُّمَاوَرْدُ ـ هكذا ضبطه شارح اللسان نقلاً عن القاموس، وقال: هو طعام من البيض واللحم مُعَرَّب، وقيل: هو الرقاق الملفوف باللحم، وفي اللسان أيضاً: «ابن سيدة: المُتْك: الأُتْرُجُّ، قال الجوهري: وأصل المُتْكِ: الزُّماوَرْدُ».

(٣) البيت في الطبري واللسان والقرطبي وغيرها، وهو غير منسوب، والإثم: الخمر، قاله بعضهم، واستشهد بقول الشاعر

شَـرِبْـتُ الإِثْـمَ حَتَّـى ضَـلَّ عَقْلِـي كَـذاكَ الإِثْـمُ تَـذْهَـبُ بـالعُقُـولِ

والصُّواعُ: إناءٌ يُشْرب فيه، مذكر، وفي التنزيل ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ وهو الإناءُ الذي كان الملك=

وقرأ الجمهور: ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ بشد التاءِ المفتوحة والهمز والقصر، وقرأ الزهري: [مُتَّكاً] مشدد التاءِ من غير همز، وهي قراءَة أَبي جعفر بن القعقاع، وشيبة بن نصاح، وقرأ الحسن: [مُتَّكاءً] بالمدّ على إشباع الحركة. والسكين: تذكر وتؤنث، قاله الكسائي والفراءُ(١)، ولم يعرف الأَصمعي إلا التذكير.

وقولها: ﴿ٱخْرُجْ﴾ أمرٌ ليوسف، وأَطاعها بحسب الملك، وقال مكي، والمهدي: قيل: إن في الآيَة تقديماً وتأْخيراً في القصص، وذلك أَن قصة النسوة كانت قبل فضيحتها في القميص للسيد، وباشتهار الأَمر للسيد انقطع ما بينها وبين يوسف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا محتمل إلا أَنه لا يلزم من أَلفاظ الآية. بل يحتمل أَن كانت قصة النساءِ بعد قصة القميص، وذلك أَن العزيز كان قليل الغيرة، بل قومه أَجمعون، أَلا ترى أَن الإنكار في وقت القميص إنما كان بأَن قيل: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾؟ وهذا يدل على قلة الغيرة، ثم سكن الأَمر بأَن قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ وأَنتِ ﴿وَٱسْتَغْفِرِى﴾ وهي لم تبق حينئذ إلا على إنكارها وإظهار الصحة، فلذلك تغوفل عنها بعد ذلك، لأَن دليل القميص لم يكن قاطعاً، وإنما كان أَمارة ما، هذا إن لم يكن المتكلم طفلاً.

وقوله: ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ معناه: أَعظمنه واستهولن جَماله، هذا قول الجمهور، وقال عبد الصمد بن علي الهاشمي عن أَبيه عن جَدِّه: معناه: حِضْن، وأَنشد بعض الناس حجة لهذا التأْويل:

يَـأْتـي النِّسـاءَ عَلَـى أَطْهَـارِهِـنَّ وَلاَ ... يَـأْتـي النِّسـاءَ إِذا أَكْبَـرْنَ إِكْبَـاراً(٢)

= يشرب منه، وجهَاراً: علانية، والمُتْك: الأُتْرُجّ، وسميت الأُتْرُجَّة مُتْكاً لأنها تُقطع، ومعنى (مُسْتَعَاراً): نتعاوره بأَيْدينا نَشْتَمُّه، قاله في اللسان. والرواية في اللسان: (المَسْك) بدلاً من (المُتْك).

(١) وأنشد الفراءُ:

فَعَيَّـتَ فـي السَّنـام غَـدَاةَ قُـرٍّ ... بِسِكِّيـنٍ مُـوَثَّقَـةِ النِّصَـابِ

(٢) البيت في (اللسان) و(الطبري) و(القرطبي) بلفظ «نأتي»، وبعض المفسرين مثل السدي وقتادة ومقاتل يقولون: أكبرن بمعنى حِضْن ويستشهدون بالبيت على أن هذا من كلام العرب المعروف، وبعض آخر ينكرون ذلك ومعهم اللغويون، قال أبو عبيدة: «ليس ذلك في كلام العرب، ولكن يجوز أن يكنَّ حضن من شدة الإعظام كما تفزع المرأة فيسقط ولدها»، وقال الزجاج: «يقال أكبرنه، ولا يقال: =

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف، ومعناه منكور، والبيت مصنوع مختلق، كذلك قال الطبري وغيره من المحققين، وليس عبد الصمد من رُوَاة العلم، رحمه الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أَي: أَكثرن فيها حزَّ السكاكين، وقال عكرمة: الأَيدي هنا: الأَكمام، وقال مجاهد: هي الجوارح وقطعنها حتى أَلقينها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فظاهر هذا أَنه بانت الأَيدي، وذلك ضعيف من معناه، وذلك أَن قطع العظم لا يكون إِلاَّ بشدة، ومحال أَن يسهو أَحد عنها، والقطع على المفصل لا يتهيأُ إِلا بتلطف لا بُدَّ أَن يُقصد، والذي يشبه أَنهن حملن على أَيديهن الحمل الذي كن يحملنه قبل المتْكِ فكان ذلك حزّاً، وهذا قول الجماعة، وضوعفت الطاءُ في ﴿وَقَطَّعْنَ﴾ لكثرتهن وكثرة الحزِّ، فربما كان مراراً.

وقرأَ أَبو عمرو وحده: [حَاشَا للهِ] بأَلف[١]، وقرأَ أُبيٌّ وابن مسعود: [حَاش اللهِ][٢]، وقرأَ سائر السبعة: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾[٣]، وفرقة: [حَشَى للهِ][٤]، وهي لغة، وقرأَ الحسن:

= حِضْنه»، وقد قَبِل بعض اللغويين هذا المعنى، وفي (اللسان) عن أبي منصور الأزهري: «إن صحت هذه اللفظة في اللغة بمعنى «حِضْن» فلها مخرج حسن، وذلك أن المرأة أول ما تحيض فقد خرجت من حدِّ الصغر إلى حدِّ الكبر، فقيل لها: أَكْبَرَتْ أي حاضت، وروي عن أبي الهيثم أنه قال: سألْتُ رجلاً من طيء، فقلت: يا أخا طِيءٍ أَلَكَ زوجة؟ قال: لا، والله ما تزوجت، وقد وُعِدْت ابنة عمٍّ لي، قلت: وما سنُّهَا؟ قال: قد أكبرت أو كَبِرَت، قلت: ما أَكْبَرَتْ؟ قال: حاضت». إلا أن الهاءَ في قوله سبحانه: ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ تنفي هذا المعنى، قال بعضهم: يجوز أن تكون هاءَ الوقف لا هاءَ الكناية، ورُدَّ بأن هذا خطأٌ، لأن هاءَ الوقف تسقط في الوصل، وأَمْثَلُ منه قول ابن الأنباري: «إن الهاءَ كناية عن مصدر الفعل، أي: أَكْبَرْنَ إِكْبَاراً، بمعنى: حِضْنَ حيْضاً».

(١) قال في (البحر المحيط): «بغير ألف ولام الجر».

(٢) في المحتسب (١ ـ ٣٤١): (حَاشَا اللهِ)، وكتب مُعَلِّقُه في الهامش: «وفي البحر ٥ ـ ٣٠٣ (حَاشَى اللهِ) بالإضافة»، فتأمل. وعلَّق ابن جنِّي على هذه القراءة بقوله: «هي على أصل اللفظة، وهي حرف جرٌ»، واستشهد على كلامه بقول أبي جُمَيْح:

حَاشَى أبي ثَوْبَان إنَّ بِهِ ... ضِنّاً على المَلْحَاةِ والشَّتْم

(٣) أي بغير ألف بعد الشين وبلام الجر في لفظ الجلالة.

(٤) قال أبو حيان في (البحر المحيط): «على وزْن رَمَى وبلام الجر». وقال: ومن الفرقة الأعمش.

[حَاشْ للهِ] بسكون الشين[1] ، وهي ضعيفة ، وقرأ الحسن أيضاً: [حَاشَ ٱلإِلٰهُ] محذوفاً من «حاشَى». فأما «حَاشَ» فهي حيث جرت حرفٌ معناه الاستثناءُ ، كذا قال سيبويه ، وقد ينصب به ، تقول: «حاشَ زيدٌ وحاشَ زيداً» ، قال المبرد: النصب أولى إذْ قد صحَّ أنها فعلٌ بقولهم: «حاشَ لِزَيْد» ، والحرف لا يحذف منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يظهر من مجموع كلام سيبويه والمبرد أن الحرف يُخْفَض به لا غير ، وأن الفعل هو الذي يُنصب به ، فهذه اللفظة تستعمل فعلاً وحرفاً ، وهي في بعض المواضع فعل وزنه فَاعَل ، وذلك في قراءَة من قرأ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾[2] ، معناه مأخوذ من معنى الحرف وهو إزالة الشيءِ عن معنى مقرون به ، وهذا الفعل مأخوذ من «الْحَشَى» ، أَي: هذا في حشى وهذا في حشى ، ومن ذلك قول الشاعر:

يقُولُ الَّذي يَمْشي إلى الْحِرْزِ أَهْلُهُ ... بأَيِّ الْحَشَى صارَ الْخَلِيطُ الْمُبَايِنُ؟[3]

ومنه الحاشية ، كأَنها مباينة لسائر ما هي له ، ومن المواضع التي «حَاشَى» فيها فعلٌ هذه الآية ، يدلُّ على ذلك دخولُها على حرف الجر ، والحروف لا يدخل بعضها على بعض ، ويدلُّ على ذلك حذف الياءِ منها في قراءَة الباقين: ﴿حَٰشَ﴾ على نحو حذفهم من: «لا أُبَالِ» و«لا أَدْرِ» و«لَوْ تَرَ» ، ولا يجوز الحذف من الحروف إلا إذا كان فيها تضعيف مثل: «لَعَلَّ» فيحذف وتَرْجع «عَلَّ» ، ويُعْتَرض في هذا الشرط بـ «مُنْذُ» و«مُذْ» فإِنه حذف دون تضعيف ، فتأَمله.

---

(١) عبارة البحر: «وقرأ الحسن (حَاشْ) بسكون الشين وصلا ووقفاً بلام الجر. وعلَّق عليها ابن جنِّي بقوله: وهذا ضعيف من موضعين: أحدهما التقاءُ الساكنين: الألف والشين ، وليست الشين مدغمة ، والآخر: إسكان الشين بعد حذف الألف.

(٢) أصح القراءات في هذه الكلمة قراءتان: الأولى قراءة الكوفيين: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ بفتح الشين وحذف الياء ، والثانية قراءة بعض البصريين: [حَاشَى لله] بإثبات الياءِ ، قال ذلك الطبري. وعلى هذا يمكن فهم الكثير من كلام ابن عطية ، فهو هنا يشير إلى قراءة البصريين.

(٣) البيت للمُعَطَّل الهُذَليِّ ، قال ذلك في التاج ، وفي اللسان ، والرواية فيهما:

يقولُ الذي أمْسَى إلى الحَزْنِ أهْلُه ... بأيِّ الحَشَى أمْسَى الخَلِيطُ المُبَايِنُ؟

ومعنى (الحشى): الناحية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومن ذلك في حديث خالد يوم مُؤْتة: «فَحَاشَى بالناس». فمعنى ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ ها هنا: حاش يوسف لطاعتِهِ للهِ، أَو لمكانِهِ من الله، أَو لترفيع الله له أَن يُرمَى بما رَمَيْتِهِ به[١] أَو يُدْعى[٢] إلى مثله، لأَن تلك أَفعال البشر وهو ليس منهم، إِنما هو مَلَكٌ، هكذا رتَّب أَبو عليٍّ الفارسي معنى هذا الكلام على هاتين القراءَتين اللَّتين في السَّبْع[٣]، وأَما قراءَة أُبيٍّ بن كعب، وابن مسعود فعَلى أَن (حَاشَ) حرف استثناءٍ، كما قال الشاعر:

حَــاشَــى أَبــي ثَــوْبَــانَ إِنَّ بِــهِ ... ضِنّــاً علــى المَلْحَــاةِ والشَّتْــم[٤]

وتسكين الشين في إِحدى قراءَتَيْ الحسن ضعيف، جمع بين ساكنين، وقراءَته الثانية محذوفة الأَلف من (حَاشَى).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والتشبيه بالمَلَك هو من قَبِيل التشبيه بالمستعظمات وإِن كانت لا تُرى. وقرأَ أَبو الحويرث الحنفي، والحسن: [مَا هَذا بَشَراً إِنْ هَذا إلا مَلِكٌ كَرِيمٌ] بكسر اللام في [مَلِكٌ]، وعلى هذه القراءَة فالكلام فصيح، لمَّا استعظمن حسن صورته قلن: ما يصلح أَن يكون هذا عبداً بشراً، إِنما يصلح أَن يكون مَلِكاً كريماً. ونصب ﴿بَشَرًا﴾

---

(١) كأن الكلام مُوَجَّه من النِّسوة لامرأة العزيز، فالمعنى: رفعه الله أن يرميه أحد بما رَمَيْتِهِ به يا زَليخا.

(٢) في بعض النسخ: أو (يُذْعِنَ) من الإذعان، والمعنى على اللفظتين وارد ومناسب.

(٣) يريد قراءة بعض البصريين [حَاشَى للهِ] بإثبات الياءِ، وقراءة الكوفيين: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ بحذف الياءِ.

(٤) يروى (أبا) مكان أبي، والبيت في الحقيقة من بيتين، ركَّبوا فيه صدر بيت على عجز بيت آخر، قال ذلك في (البحر المحيط) والبيتان هما:

حَــاشَــى أبــي ثَــوْبَــان إنَّ أبَــا ... ثَــوبــان لَيْــسَ ببُكْمَــةٍ فَــدْم

عَمْــرو بــن عَبْــد الله إنَّ بــهِ ... ضَنّــاً عــن المَلْحَــاةِ والشَّتْــم

أراد بالبُكْمَةِ: الأبْكَم، والفَدْم: العَيِيُّ عن الكلام في ثِقَلٍ فهم، والضِنُّ بالكسر والفتح: مصدر ضَنَّ، والمَلْحَاة: المنازعة والخصام. والبيت منسوب لِسَبُرة بن عمرو الأسدي في (مجاز القرآن) لأبي عبيدة، وفي (المفضليات) و(الأصمعيات) إلى الجميح، و(وقيل: الجميع)، واسمه: منقذ بن الطماح الأسدي، ونسبه في (اللسان) إلى سبرة، والرواية فيه: (حاشَى أبي مَرْوَانَ...) والشاعر يمدح أبا ثوبان بأنه ليس عيِيّاً ولاغبيا، وهو يترفع عن الخصومة والنزاع.

على لغة الحجاز، شبهت ﴿مَا﴾ بـ (ليس)، وأما تميم فترفع، ولم يُقرأ به[١].

ورُوي أَن يوسف عليه السلام أَعطي ثلث الحُسن، وعن النبي ﷺ أُعطي نصف الحُسن، ففي بعض الأَسانيد هو وأُمه، وفي بعضها هو وسارة جَدَّة أَبيه[٢].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا على جهة التمثيل، أَي: لو كان الحسن مما يقسم لكان حُسْن يوسف يقع في نصفه، فالقصد أَن يقع في نفس السامع عظم حُسْنه، على نحو التشبيه برؤوس الشياطين وأَنياب الأغوال[٣].

وقوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾.

قال الطبريُّ: المعنى: فهذا الذي لُمْتُنَّني فيه، أَي: هذا الذي قطعتن أَيديكن بسببه هو الذي جعلتنني ضالَّة في هواه، والضمير عائد على يوسف في ﴿فِيهِ﴾، ويجوز أَن تكون الإشارة إِلى حُبِّ يوسف والضمير عائد على الحب، فيكون ذلك إِشارة إِلى غائب على بابه.

ثم أَقرَّت امرأَة العزيز للنسوة بالمراودة، واستأْمَنت[٤] إِليهن في ذلك إِذ قد علمت أَنهن قد عَذَرْنَها. و﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ معناه: طَلب العصمة وتمسَّك بها وعصاني، ثم

---

(١) قال الزمخشري: «ومن قرأ على سليقته من بني تميم قرأ [بَشَرٌ] بالرفع، وهي قراءة ابن مسعود».

(٢) أخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أُعطي يوسف وأُمه شطر الحُسْن»، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ربيعة الجرشي رضي الله عنه قال: «قسم الله الحُسْن نصفين، فجعل ليوسف وسارة النصف، وقسم النصف الآخر بين سائر الناس» (الدر المنثور).

(٣) معنى كلام ابن عطية أن الناس تُشَبِّه برؤُوس الشياطين وبأنياب الأغوال في مواقف التقبيح أو التهويل مع أنها لم تر الشياطين ولا الأغوال، وكذلك كان تشبيه يوسف بالمَلَك في الحسن على سبيل الظن بأن صورة الملَك أحسن، مع أن النسوة لم يرين الملَك، وهذا مألوف ودارج عن الألسنة.

(٤) تأتي (استأمن) بمعنى (ائتَمَن)، والمراد أنها اطمأنت إليهن وظنت أنهن سيحفظن سر ها، وفي بعض النسخ (استنامت) بمعنى: سكنت سكون النائم، وهذا لا يفعله إلا المطمئن.

جعلت تتوعده ـ وهو يسمع ـ بقولها: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ...﴾ إلى آخر الآية.

واللام في قوله: ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ لام القسم، واللام الأُولى[١] هي المؤذنة بمجيءِ القسم، والنون هي الثقيلة والوقوف عليها بِشَدِّها، و﴿وَلَيَكُونًا﴾ نونه هي النون الخفيفة، والوقف عليها بالألف، وهي مثل قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿لَنَسْفَعًا﴾[٢]، ومثلها قول الأعشى:

وَصَلِّ عَلَى حين الْعَشِيَّاتِ والضُّحَى ... ولا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ والله فاعبدا[٣]

أراد: فاعْبُدَنْ. وقرأت فرقة: [وَلَيَكُونَنَّ] بالنون الشديدة، والصاغرون: الأذلاَّءُ الذين لَحِقَهم الصَّغار.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾. رُوي أنه لما توعدته امرأة العزيز قال له النسوة: (أَطِع مولاتك، وافعل ما أمرتك به)، فلذلك قال: ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾، قال نحوه الحَسَن. ووزن (يدعون) في هذه الآية: يفْعُلْن، بخلاف قولك: (الرجال يدعون).

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلسِّجْنُ﴾ بكسر السين، وهو الاسم. وقرأ الزهري، وابن هرمز، ويعقوب، وابن أبي إسحٰق: [ٱلسَّجْنُ] بفتح السين، وهي قراءة عثمان رضي الله عنه وطارق مولاه، وهو المصدر، وهو كقولك: الجِذْع والجَذْع.

وقوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي...﴾ إلى آخر الآية، استسلام لله تبارك وتعالىٰ، ورغبة إليه، وتوكل عليه، المعنى: وإنْ لم تُنْجني أنت هلكتُ، هذا مقتضى قرينة كلامه وحاله، والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ عائد على الفاحشة المعنية بـ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مِمَّا﴾.

---

(١) هي التي في قوله: ﴿وَلَئِن﴾.

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (١٥) من سورة العلق ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾.

(٣) البيت للأعشى الأكبر ميمون بن قيس، والبيت كما رواه ابن عطية نقلاً عن الطبري مركب من بيتين، وهما كما في الديوان:

وَذَا النُّصُبَ الْمَنْصُوبَ لاتَنْسُكَنَّهُ ... ولا تَعْبُدِ الأوْثَانَ، واللهَ فاعْبُدا

وصَلِّ عَلى حينِ الْعَشِيَّاتِ والضُّحَى ... ولا تَحْمَدِ الشَّيْطَانَ، واللهَ فاحْمَدَا

وهما من قصيدة له يمدح فيها النبي ﷺ، ومطلعها:

أَلَمْ تَغْتَمِض عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أرْمَدَا ... وعَادَكَ مَا عَادَ السَّليمَ الْمُسَهَّدَا

و﴿أَصْبُ﴾ مأخوذ من الصَّبْوة، وهي أَفعال الصِّبا، ومن ذلك قول الشاعر: ـ أَنشده الطبري ـ:

إِلــى هِنْــدٍ صَبَــا قَلْبِــي ... وهِنْــدٌ مِثْلُهَــا يُصْبِــي[(١)]

ومن ذلك قول دُرَيْد بن الصمة:

صَبَا ماصَبا حَتَّى عَلاَ الشَّيْبُ رأسَهُ ... فَلَمَّا عَلاَهُ قَال لِلْبَاطِلِ: ابْعُدِ[(٢)]

والجاهلون: هم الذين لا يراعون حدود الله تعالىٰ ونواهيه[(٣)].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ الآية. قول يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ كلام يتضمن التشكي إلى الله عزَّ وجلَّ من حاله معهن، والدعاءَ إِليه في كشف بلواه، فلذلك قال ـ بعد مقالة يوسف ـ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾، أَي: أَجابه إِلى إِرادته، وصرف عنه كيدهن في أَن حالَ بينه وبين المعصية، وقوله: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ صفتان لائقتان بقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

لما أَبى يوسف المعصية ويئست منه امرأَة العزيز طالبته بأَن قالت لزوجها: إِن هذا الغلام العبراني قد فضحني في الناس، وهو يعتذر إِليهم ويصف الأَمر بحسب اختياره، وأَنا محبوسة محجوبة، فإِمَّا أَذنت لي فخرجتُ إِلى الناس فاعتذرت

---

(١) البيت لزيد بن ضَبَّة، وهو من شواهد أبي عبيدة في (مجاز القرآن). وكذلك ذكره في (اللسان ـ صَبَا) قال: «يقال صَبَا إلى اللهو صَباً وصُبُوّاً وصَبْوَةً. قال زيد بن ضَبَّةَ: إلى هند.. البيت».

(٢) قال دُرَيْد هذا البيت من قصيدة يرثي فيها أخاه ابن أُمه، وهي أفضل شعره لما فيها من معان إنسانية، ولما فيها من شجو غنائي يغمر الأفكار والصور بغلالة رقيقة من الوجدان الحزين، يقول عن أخيه: إنه تعاطى اللهو واللعب في صباه، فلما اكتهل وظهر الشيب في رأسه ارعوى وأبعد الباطل عن فكره ونفسه، ومع أن القصيدة في رثاءٍ صادق حزين فإن الشاعر بدأها بغزل رقيق قصير، قال:

أَرَثَّ جَـديـدُ الْحَبْـلِ مِـنْ أُم مَعْبَـدِ ... بِعَـاقِبَـةٍ أَمْ أَخْلَفَـتْ كُـلَّ مَـوْعِـدِ؟

(٣) وذلك لأنهم لا يعملون بما يعلمون، ومن لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواءٌ، وقد يكون من الجهل بمعنى السَّفَهِ، لأن الوقوع في مواقعة النساءِ والميل إليهن سفاهة.

وكذبته ، وإمَّا حبسته كما أنا محبوسة ، فحينئذ بدا لهم سجنه. قال ابن عباس: فأمر به فحمل على حمار ، وضرب بالطبل ، ونودي عليه في أسواق مصر: إن يوسف العبراني أراد سيدته ، فهذا جزاؤه أن يسجن ، قال أبو صالح: ما ذكر ابن عباس هذا الحديث إلا بكى.

و﴿ بَدَا ﴾ معناه: ظهر ، والفاعل بـ﴿ بَدَا ﴾ محذوف تقديره: بدْوٌ ، أو رأي[1] ، وجُمع الضمير في ﴿ لَهُم ﴾ والساجن الملكُ وحده من حيث كان في الأمر تشاور ، و﴿ لَيَسْجُنُنَّهُۥ ﴾ جملة دخلت عليها لام القسم ، ولا يجوز أن يكون الفاعل بـ﴿ بَدَا ﴾ ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُۥ ﴾ لأن الفاعل لا يكون جملة بوجه ، هذا صريح مذهب سيبويه ، وقيل: الفاعل: ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُۥ ﴾ ، وهو خطأ ، وإنما هو مفسِّر للفاعل.

و﴿ ٱلْآيَٰتِ ﴾ ذكر فيها أهل التفسير أنها قَدُّ القميص ـ قاله مجاهد وغيره ـ وخمش الوجه الذي كان مع قَدِّ القميص ـ قاله عكرمة ـ وحزُّ النساءِ أيديهن ، قاله السدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومقصد الكلام إنما هو أنهم رأوا سجنه بعد بدو الآيات المبرئة له من التهمة ، فهكذا تبيَّن ظلمهم له ، وخمشُ الوجه وحزُّ النساءِ أيديهن ليس فيها تبرية ليوسف ، ولا تتصور تبرية إلا في خبر القميص ، فإن كان المتكلم طفلاً ـ على ما روي ـ فهي آية عظيمة ، وإن كان رجلاً فهي آية فيها استدلالٌ ما ، والعادة أنه لا يُعَبَّر بآية إلا فيما ظهوره في غاية الوضوح ، وقد تقع (الآيات) أيضاً على (المبينات) كانت في أي حدّ اتفق من الوضوح ، ويحتمل أن يكون قوله تعالىٰ: ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْآيَٰتِ ﴾ أي: من بعد ما ظهر لهم من وجوه الأمر وقرائنه أن يوسف بريءٌ ، فلم يرد تعيين آية ، بل قرائن جميع القصة.

و(الحين) في كلام العرب وفي هذه الآية: الوقت من الزمن غير محدود ، يقع

(١) قال في (البحر): التقدير: بدا لهم هو ، أي: رأيٌ أو بداءٌ ، كما قال:
بَدَا لَكَ مِنْ تِلْكَ القَلُوصِ بَدَاءُ
وقال القرطبي: وهو مصدر الفعل ، وقد حذف لأن الفعل يدل عليه ، كما قال الشاعر:
وحَقَّ لِمَنْ أبو موسى أبُوهُ يُوَفِّقُه الذي نَصَبَ الجِبَالا
أي: وحقَّ الحقُّ. فحذف.

للقليل والكثير ، وذلك بيِّن من موارده في القرآن ، وقال عكرمة: الحين هنا يراد به سبعة أعوام ، وقيل: بل يراد بذلك سنة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا بحسب ما كشف الغيب في سجن يوسف ـ وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقرأُ (عَتَّى حِين) بالعين ـ وهي لغة هذيل ـ فقال له: من أَقرأَك؟ قال: ابن مسعود ، فكتب عمر إِلى ابن مسعود: «إن الله أَنزل القرآن عربياً بلغة قريش ، فبها أَقْرِئ الناس ، ولا تقرئهم بلغة هذيل». ورُوي عن ابن عباس أَنه قال: «عَثَر يوسف عليه السلام ثلاث عثرات: هَمَّ فسُجن ، وقال: اذكرني عند رَبِّكَ فأَنساهُ الشيطان ذكر ربّه فطول سجنه ، وقال: إِنكم لسارقون ، فروجع: إِن يسرق فقد سَرَقَ أَخٌ له مِن قبل».

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ ﴾ الآية. المعنى: فسجنوه فدخل معه السجن غلامان أَيضاً ، وهذه (مع) تحتمل أَن تكون باقتران وقت الدخول ، وأَلا تكون بل دخلوا أَفذاذاً[1] ، وروي أَنهما كانا للملك الأَعظم ، الوليد بن الريان ، أَحدهما: خبَّازه ، والآخر: ساقِيه.

والفتى: الشابُّ ، وقد تقع اللفظة على المملوك وعلى الخادم الحر ، ويحتمل أَن يتصف هذان بجميع ذلك ، واللفظة من ذوات الياءِ ، وقولهم: (الفُتُوَّة): شاذٌّ ، وروي أَن الملك اتَّهمهما بأَن الخابز منهما أَراد سمَّه ، ووافقه على ذلك الساقي فسجنهما ، قاله السدي ، فلما دخل يوسف السجن استمال الناسَ فيه بحسن حديثه وفضله ونبله ، وكان يسلِّي حزينهم ، ويعود مريضهم ، ويسأَل لفقيرهم ، ويندبهم إِلى الخير ، فأَحبَّه الفَتَيَان ولزماه ، وأَحبه صاحب السجن والقيِّم عليه ، وقال له: كن في أَي البيوت شئت ، فقال له يوسف: لا تُحِبَّني يرحمك الله ، فلقد أَدخلت عليَّ المحبةُ مضرات: أَحبتني عمتي فامتحنت لمحبتها ، وأَحبني أَبي فامتحنت لمحبته لي ، وأَحبتني أمرأَة العزيز فامتحنت لمحبتها بما ترى ، وكان يوسف عليه السلام قد قال لأَهل السجن: إِني أَعْبُر الرؤيا وأُجيد ، فروي عن ابن مسعود أَن الفَتَيَيْن استعملا هذين المنَامَيْن ليجرباه ، وروي عن مجاهد أَنهما رأَيا ذلك حقيقة فأَرادا سؤاله ، فقال أَحدهما واسمه (نبو) فيما

(١) أي: أفراداً ، وهو جمع فَذَ.

رُوي[١]: إِني رأَيت حَبَلة[٢] من كرْم لها ثلاثة أَغصان حسان، فيها عناقيد عنب حسان، فكنت أَعصرها وأَسقي الملك، وقال الآخر واسمه (مجلث): كنت أَرى أَني أَخرج من مطبخة الملك وعلى رأْسي ثلاث سلال فيها خبز والطير تأْكل من أَعلاه.

وقوله: ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ قيل: إِنه سمَّى العنب خمراً بالمآل، وقيل: هي لغة أَزد عمان، يسمون العنب. خمراً، وقال الأَصمعي: حدثني المعتمر قال: لقيت أَعرابياً يحمل عنباً في وعاءٍ، فقلت: ما تحمل؟ قال: خمراً، أَراد العنب. وفي قراءَة أُبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود [إِنِّي أَراني أَعْصِرُ عِنَباً][٣]، ويجوز أَن يكون وصف الخمر بأَنها معصورة، إِذ العصر لها ومِنْ أَجلها.

وقوله: ﴿خُبْزًا﴾ يروى أَنه رأَى ثريداً فوق رأْسه، وفي مصحف ابن مسعود: [فوق رأْسي ثريداً تأْكلُ الطَّيرُ منه].

وقوله: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال الجمهور: يريدان: في العلم، وقال الضحاك وقتادة: المعنى من المحسنين في عِشْرته مع أَهل السجن وإِجماله معهم، وقيل: أَرادا إِخباره أَنهما يريان له إِحساناً عليهما ويَداً إِذا تأَول لهما ما رأَياه، ونحا إِليه ابن إِسحٰق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

---

(١) في تفسير الطبري اثبتت (نبو) بتقديم النون على الباء، وفي تفسير القرطبي (نبوه) بزيادة هاءٍ.

(٢) الحَبَلة بفتح الحاءِ والباءِ، وربما جاءت الباءُ ساكنة: القضيب من الكرم، والجمع حَبَل، وفي (النهاية): أُمُّ العنب، وفي الحديث: «لا تقولوا: العنب الكرم، ولكن قولوا: العنب الحَبَلة».

(٣) قال أبو الفتح بن جني: «هذه القراءة هي مراد قراءة الجماعة: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾، وذلك أَن المعصور حينئذ هو العنب، فسماه خمراً لما يصير إليه من بعد؛ حكايةً لحاله المستأنفة، كقول الشاعر ـ يريد أبا المهوش الأسدي، أو يزيد بن عمر بن الصَّعِق ـ:

إذا مـــا مـــاتَ مَيْـتٌ مِـــن تميـــم ... فَســـرَّك أنْ يَعيـــش فجـــيءْ بِـــزَادِ

يريد: إذا مات حيٌّ فصار ميتاً كان كذا، أو فليكن كذا.

روي عن السدي وابن إسحٰق أن يوسف عليه السلام لما علم شدة تعبير منامة رائي الخبز وأنها تؤذن بقتله ذهب إلى غير ذلك من الحديث عسى ألا يطالباه بالتعبير، فقال لهما ـ مُعَلِّماً بعظيم علمه بالتعبير ـ: إنه لا يجيئكما طعام في نومكما تريان أنكما رُزقْتماه إلا أعلمتكما بتأويل ذلك الطعام، أي: بما يؤُول إليه أمْره في اليقظة قبل أن يظهر ذلك التأويل الذي أُعْلِمَكُما به، فروي أنهما قالا: ومن أين لك ما تدَّعيه من العلم وأنت لست بكاهن ولا منجم؟ فقال لهما: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾، ثم نهض ينحي لهما على الكفر ويحسن لهما الإيمان بالله، فروي أنه قصد في ذلك وجهين: أحدهما: تنسيتهما أمْر تعبير ما سألا عنه، إذْ في ذلك النذارة بقتل أحدهما، والآخر: الطماعية في إيمانهما، ليأخذ المقتول بحظه من الإيمان وتسلم له آخرته، وقال ابن جريج: أراد يوسف عليه السلام: لا يأتيكما طعام ترزقانه في اليقظة إلا نبأتكما منه بعلم، وبما يؤول إليه أمركما قبل أن يأتيكما ذلك المآل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا إنما أعلمهم[1] بأنه يعلم مغيبات لا تَعَلُّق لها برؤْيا، وقصد بذلك أحد الوجهين المتقدمين، وهذا على ما رُوي أنه نُبِّئَ في السجن، فإخباره كإخبار عيسى عليه السلام. وقال ابن جريج: كانت عادة ذلك الملك إذا أراد قتل أحد ممن في سجنه بعث إليه طعاماً يجعله علامة لقتله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله لا يقتضيه اللفظ ولا ينهض به إسناد.

وقوله: ﴿تَرَكْتُ﴾ مع أنه لم يتشبث بها ـ جائز صحيح، وذلك أنه عبَّر عن تجنبه من أول بالترك، وساق لفظة الترك استجلاباً لهما عسى أن يتوكأ الترك الحقيقي الذي هو بَعْدَ الأخذ في الشيءِ، والقوم المتروك مِلّتهم: الملِك وأتباعه، وكرر قوله: ﴿وَهُم﴾ على جهة التأكيد، وحسن ذلك للفاصلة التي بينهما.

وقوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ﴾ الآية. تمادٍ من يوسف عليه السلام في دعائهما إلى الملَّة الحنيفة، وزوال مواجهة (مجلث) بما تقتضيه رؤْياه. وقرأ ﴿ءَابَآءِيٓ﴾ بالإسكان في

---

(١) لعله أراد أن خطابه كانه لِلْفَتَيَيْن وصاحب السجن وكل من فيه، ولذا عبَّر عنهم بضمير الجمع.

الياءِ، الأَشهبُ العقيلي وأَبو عمرو، وقرأَ الجمهور: ﴿آبائيَ﴾ بياءٍ مفتوحة، قال أَبو حاتم: هما حسنتان فاقرأْ كيف شئت، وأَما طرح الهمزة فلا يجوز، ولكن تخفيفها جيد، فتصير ياءً مكسورة بعدها ياءٌ ساكنة أَو مفتوحة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ملَّتهم وشرعهم، وكون ذلك فضلاً عليهم بيِّن، إذْ خصَّهم الله تعالىٰ بذلك، وجعلهم أَنبياءَ، وكونه فضلاً على الناس هو إذْ يدعون به إلى الدين، ويساقون إلى النجاة من عذاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ هي (من) الزائدة المؤكدة التي تكون مع الجحد، وقوله: ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ يريد الشُّكْر التَّام الذي فيه الإيمان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

وصْفُه لهما بـ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ هو: إمَّا على أَنْ يَنْسُبهما بصحبتهما للسجن من حيث سكناه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾[1]، و﴿أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾[2]، ونحو هذا، وإما أَن يريد صُحْبَتَهُما له في السجن، فأَضافهما إلى السجن لذلك، كأَنه قال: يا صاحبيَّ في السجن، وهذا كما قيل في الكفار: إن الأَصنام شركاؤُهم. وعَرْضُه عليهما بُطُولَ أَمْر الأَوثان بأَن وصفها بالتفرق[3]، وَوصْفُ الله تعالىٰ بالوحدة والقهر ـ

---

(١) في الآية (٢٠) من سورة الحشر: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤] ـ وتكررت في قوله تعالىٰ في الآية (٤٤) من سورة الحشر: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

(٢) من الآية (١١٩ من سورة البقرة)، وتكررت في الآيات (١٠، ٨٦ المائدة) و(١١٣ التوبة) و(٥١ الحج) و(١٩ الحديد).

(٣) بُطُول: مصدر الفعل (بَطَل)، والمعنى المراد أنه عرض على الفتيَيْن بطلان أمْر الأوثان بأن وصفها بالتفرق في قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾، وقد يضاف إلى التفرق دليلاً على بطلان أمرها التَّعددُ أيضاً، =

تلطُّفٌ حسن وأَخذٌ بيسير الحجة قبل كثيرها الذي ربما نفرت منه طباع الجاهل وعاندته ، وهكذا الوجه في مُحاجَّة الجاهل ، أَن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج يقبلها ، فإِذا قبلها لزمته عنها درجة أُخرى فوقها ، ثم كذلك أَبداً حتى يصل إِلى الحق ، وإِن أُخذ الجاهل بجميع المذهب الذي يساق إِليه دفعةً أَبَاهُ للحين وعانده ، وقد ابتلي بأَرباب متفرقين من يخدم أَبناءَ الدنيا ويؤملهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ ، ذهب بعض المتكلمين إِلى أَنه أَوقع في هذه الآية الأَسماءَ على المسميات وعبَّر عنها بها إِذ هي ذوات أَسماءٍ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والاسم الذي هو: (أَلف وسين وميم) قد يجري في اللغة مجرى النفس والذات والعين ، فإِن حُملت الآية على ذلك صحَّ المعنى ، وليس الاسم ـ على هذا ـ بمنزلة التسمية التي هي: رجلٌ وحجر ، وإِن أُريد بهذه الأَسماءِ التي في الآية أَسماءُ الأَصنام التي هي بمنزلة اللات والعزى ونحو ذلك من تسميتها آلهة ، فيحتمل أَن يريد: إِلاَّ ذوات أَسماءٍ ، وحذف المضاف وأَقام المضاف إِليه مقامه. ويحتمل ـ وهو الراجح المختار إِن شاءَ الله ـ أَن يريد: ما تعبدون من دونه أُلوهية ، ولا لكم تعلق بإِلٰه إِلا بحسب أَن سميتم أَصنامكم آلهة ، فليست عبادتكم لإِلٰه إِلا باسم فقط لا بالحقيقة ، وأَما الحقيقة فهي وسائر الحجارة والخشب سواءٌ ، فإِنما تعلقت عبادتكم بحسب الاسم الذي وضعتم ، فذلك هو معبودكم إِذا حُصِّل أَمركم ، فعبّر عن هذا المعنى باللفظ المسرود في الآية. ومن هذه الآية وَهِمَ من قال: (في قولنا: رجل وحجر): إِن الاسم هو المسمى في كل حال ، وقد بانت هذه المسأَلة في صدر التعليق.

ومفعول (سمَّيْتُمْ) الثاني محذوف ، تقديره: آلهةً ، هذا على أَن الأَسماءَ يراد بها ذوات الأَصنام ، وأَما على المعنى المختار من أَن عبادتهم إِنما هي لمَعَان تعطيها الأَسماءُ وليست موجودة في الأَصنام ـ فقوله: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ بمنزلة: وضعتموها ، فالضمير للتسميات ، وأَكد الضمير ليعطف عليه.

= فقد قال عنها ﴿أرباب﴾ بصغة الجمع ، وكذلك هذا الاستفهام الإنكاري أو التقريري إلى جانب ما وصف به الله سبحانه وتعالىٰ من الوحدة والقهر إزاء تعددها وتفرقها. و(تَلَطُّفٌ حَسَنٌ) هو جواب المبتدأ (عَرْضُهُ).

والسلطان: الحُجَّةُ، وقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أَي: ليس لأَصنامكم التي سميتموها آلهة من الحكم والأَقدار والأَرزاق شيءٌ، أَي: فما بالها إِذن؟ ويحتمل أَن يريد الردَّ على حُكْمهم في نصبهم آلهة دون الله تعالىٰ: وليس لهم تعدي أَمْر الله في أَلا يُعبد غيرُه. و﴿ٱلْقَيِّمُ﴾ معناه: المستقيم، و﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لجهالتهم وغلبة الكفر.

ثم نادى ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ ثانية لتجتمع أَنفسهما لسماع الجواب، فروي أَنه قال لنبو: أَمَّا أَنت فتعود إِلى مرتبتك وسقاية ربك، وقال لمجلث: أَما أَنت فتصلب، وذلك كله بعد ثلاث، فروي أَنهما قالا له: ما رأَينا شيئاً وإِنما تحالمنا لنجربك، ورُوي أَنه لم يقل ذلك إِلا الذي حدثه بالصلب، وقيل: كانا رأَيا ثم أَنكرا.

وقرأَت فرقة: ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ﴾ من سَقَى، وقرأَت فرقة: [فَيُسْقي] من أَسقى، وهما لغتان لمعنى واحد[(١)]. وقرأَ عكرمة، والجحدري، [فَيُسْقَى] بضم الياء وفتح القاف، أَي: ما يُرويه[(٢)]. وأَخبرهما يوسف عليه السلام ـ عن غيب عَلِمَهُ من قبل الله تعالىٰ ـ أَن الأَمر قد قضي ووافق القدر.

وقوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾ الآية. الظن ها هنا بمعنى اليقين، لأَن ما تقدم من قوله: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ يلزم ذلك، وهو يقين فيما لم يخرج بعد إِلى الوجود، وقال قتادة: الظن هنا على بابه لأَن عبارة الرؤْيا ظن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقول يوسف عليه السلام: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ دالٌّ على وحي، ولا يترتب قول قتادة إِلا بأَن يكون معنى قوله: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، أَي: قضي كلامي وقلت ما عندي والله أَعلم بما يكون بعد.

---

(١) وقد جمع بينهما لبيد في قوله:

سَقَى قَوْمِي بني مَجْدٍ وأَسْقَى ... نُمَيْراً والقَبَائِلَ مِنْ هِلالِ

وفاعل (سقى) ضمير المطر، و(مَجْد) هي ابنة تميم بن غالب بن فهد، وهي أم كلاب وكليب بني ربيعة.

(٢) قال ابن جني عن هذه القراءة: «هذا في الخير يضاهي في الشر قوله: ﴿فَيُصْلَبُ﴾، لأن تلك نعمة وهي نقمة. (المحتسب)».

وفي الآية تأويل آخر، وهو أن يكون ﴿ظَنَّ﴾ مسنداً إلى الذي قيل له: إنه يسقي ربّه خمراً، لأنه دخلته أُبَّهَةُ السرور بما بُشّر به، وصار في رتبة من يؤمل حين ظنَّ وغلب على معتقده أنه ناج، وذلك بخلاف ما نزل بالآخر المُعَرَّف بالصلب.

ومعنى الآية: قال يوسف عليه السلام لساقي الملك حين علم أنه سيعود إلى حالته الأُولى مع الملك: اذكرني عند الملك، فيحتمل أن يريد أن يذكره بعلمه ومكانته، ويحتمل أن يذكره بمظلمته وما امتحن به بغير حق، أو يذكره بهما.

والضمير في ﴿فَأَنسَـٰهُ﴾ قيل: هو عائد على يوسف عليه السلام[1]، أي: نسي في ذلك الوقت أن يشتكي إلى الله، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق، فروي أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله عزَّ وجلَّ في ذلك، وطوَّل سجنه عقوبة على ذلك، وقيل: أُوحي إليه: يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً لأُطيلن حبسك، وقيل: إن الضمير في ﴿فَأَنسَـٰهُ﴾ عائد على الساقي، قاله ابن إسحٰق، أي: نسي ذكر يوسف عند ربّه، فأضاف الذكر إلى ربّه إذ هو عنده، والربُّ ـ على هذا التأويل: الملك[2].

والبضع في كلام العرب اختلف فيه ـ فالأكثر على أنه من الثلاثة إلى العشرة، قاله ابن عباس. وعلى هذا هو فقه مالك رحمه الله في الدعاوي والإيمان، وقال أبو عبيدة: البضع لا يبلغ العقد ولا نصف العقد، وإنما هو من الواحد إلى الأربعة، وقال الأخفش: البضع من الواحد إلى العشرة، وقال قتادة: البضع من الثلاثة إلى التسعة، ويقوي هذا ما رُوي من أن النبي ﷺ قال لأبي بكر الصديق في قصة خطَره[3] مع قريش في غلبة الروم لفارس: (أما علمت أن البضع من الثلاث إلى التسع)[4]، وقال مجاهد:

---

(١) النسيان غير جائز على الأنبياء في أُمور الشريعة، وأما في أُمور الدنيا فهو جائز إذا أخبر الله عنهم، أما نحن فلا يجوز لنا أن نصفهم به، وقد قال ﷺ: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون»، وقال: «نسي آدم فنسيت ذريته»، ذكر ذلك القرطبي.

(٢) إطلاق الربِّ على السيد أو الملك معروف في اللغة، قال الأعشى:

ربِّي كريمٌ لا يُكَدِّرُ نِعْمَةً ... وإذا تُنُوشِدَ في المهارِقِ أَنْشَدَا

ومعنى (تُنُوشِد): نُوشد ودُعي، والمهارق: الصحف والواحدة مَهْرَق، يقول: إذا سُئِل أعْطَى.

(٣) الخَطَر بفتح الخاءِ والطاءِ: النصيب والرهان، وفي حديث عُمَر في قسمة وادي القُرى: «وكان لعثمان فيه خَطَر، ولعبد الرحمن خَطَر» أي نصيب. (المعجم الوسيط).

(٤) قصة مراهنة أبي بكر رضي الله عنه لقريش على غلبة الروم مشهورة معروفة، إذ كان المسلمون يُحبون=

من الثلاثة إلى السبعة. قال الفراءُ: ولا يذكر البضع إلا مع العشرات، لا يذكر مع مائة ولا مع ألف، والذي روي في هذه الآية أن يوسف عليه السلام سجن خمس سنين، ثم نزلت له قصة الفتيَيْن، وعوقب على قوله: ﴿ ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ بالبقاءِ في السجن سبع سنين، فكانت مدة سجنه اثنتي عشرة سنة، وقيل: عوقب ببقاءِ سنتين، وقال الحسن: قال رسول الله ﷺ: «لولا كلمته ما لبث في السجن طول ما لبث»، ثم بكى الحسن وقال: نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

المعنى: وقال الملك الأعظم: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ ﴾ يريد: في منامه، وقد جاءَ ذلك مبيَّناً في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾[2]، وحُكيت حالٌ ماضية بـ ﴿ أَرَىٰ ﴾ وهو مستقبل من حيث يستقبل النظر في الرُّؤْيَا[3].

و﴿ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ﴾، يروى أنه قال: رأيتها خارجة من نهر، وخرجت وراءَها سبع عجاف، فرأيتها أكلت تلك السمان حتَّى حصلت في بطونها، ورأى السنابل أيضاً كما ذكر، والعجَافُ: التي بلغت غاية الهزال، ومنه قول الشاعر:

= غلبة الروم على فارس لأنهم وإياهم أهل كتاب، وكانت قريش لا تحب ذلك لأنهم وأهل فارس لا يؤمنون بكتاب ولا بالبعث، وقد جعل أبو بكر الأجل بينه وبينهم ست سنين على رواية، وثلاث سنين على رواية أُخرى، فقال له النبي ﷺ: «اذهب فزائد في الخطر ومادد في الأجل»، وكان ذلك قبل تحريم الرهان، راجع صحيح الترمذي في تفسير أول سورة الروم.

(١) أخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال: «رحم الله يوسف لولا... الحديث». (الدر المنثور).

(٢) من الآية (١٠٢) من سورة الصافات، ومما يلفت النظر أن ابن عطية أحال على تفسير الرؤيا على آية الصافات هنا، وكان الأولى أن يحيل عندما ذكر له الفتيان ما رآه كل منهما.

(٣) معنى ذلك أن (أرى) حكاية حال ماضية، ولذلك جاءت بلفظ المضارع الذي يدل على الاستقبال دون (رأيت) التي تدل على الزمن الماضي. وتأمل كيف جعل الله الرؤيا ليوسف في أول أمره مع أبيه وإخوته بلاءً وشدة، ثم جعلها آخراً من هذا الملك بشرى ورحمة.

. . . . ورجـالُ مَكَّـةَ مُسْنِتُـون عجَـافُ[١]

ثم قال لجماعته وحاضريه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى﴾. قرأت فرقة بتحقيق الهمزتين، وقرأت فرقة بأن لفظت بألف ﴿أَفْتُونِى﴾ واواً. وقوله: ﴿لِلرُّءْيَا﴾ دخلت اللام لمعنى التأكيد والربط، وذلك أن المفعول إذا تقدم حسُن في بعض الأفعال أن تدخل عليه لام الجر، وإذا تأخر لم يحتج الفعل إلى ذلك، و(عبَارَةُ الرُّؤْيَا): مأخوذة من: عبَر النهر، وهو تجاوز من شط إلى شط، فكأن عابر الرُّؤْيا ينتهي إلى آخر تأويلها.

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ﴾ الآية. الضِّغْث ـ في كلام العرب ـ أقل من الحزمة وأكثر من القبضة من النبات والعشب ونحوه، وربما كان من جنس واحد، وربما كان من أخلاط النبات، فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾[٢]، وروي أنه أخذ (عثْكَالاً) من النخل[٣]، وروي أن النبي ﷺ فعل نحو هذا في حدٍّ أقامه على رجل زمِن[٤]، ومن ذلك قول ابن مُقْبل:

خَـوْدٌ كَـأَنَّ فِـرَاشَهَـا وُضِعـتْ بِـه   أَضْغَـاثُ رَيْحَـانٍ غَـدَاةَ شَمَـال[٥]

---

(١) البيت لابن الزِّبَعْرَى، وهو بتمامه:
عَمْـرو الْعُـلا هَشَـمَ الثَّـرِيـدَ لِقَـوْمِـهِ   ورجَـالُ مَكَّـةَ مُسْنِتُـونَ عِجَـافُ
ومُسْنِتُونَ: أصابتهم سنة وقحط وأجدبوا، وفي حديث أبي تميمة: «الله الذي إذا أَسْنَتَّ أَنْبَت لك»، أي: إذا أجدَبْتَ أخصب لك. وعِجَافٌ: بلغوا غاية الهزال والضعف.

(٢) من الآية (٤٤) من سورة ص.

(٣) العِثْكَالُ والعُثْكُول: العِذْقُ أو الشِّمْراخ وهو ما عليه البُسْر من عيدان الكباسة، وهو في النخل بمنزلة العنقود من الكرم.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الحدود، والإمام أحمد في مسنده (٥ ـ ٢٢٢) ولفظه فيه عن سعيد بن سعد بن عبادة قال: «كان بين أبياتنا إنسان مخدج ضعيف، لم يُرَع أهل الدار إلا وهو على أمة من إماءِ الدار يخبث بها، وكان مسلماً، فرفع شأنه سعدٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: اضربوه حدَّه، قالوا: يا رسول الله، إنه أضعف من ذلك، إن ضربناه مائة قتلناه، قال: فخذوا له عِثْكالا فيه مائة شِمْراخ فاضربوه به ضربة واحدة، وخلُّوا سبيله». والزَّمن: ذو الزمانة، أي مبتلى بالزمانة، وهي العاهة والآفة.

(٥) الخَوْد: الفتاة الحسنة الخَلْق الشابة ما لم تصر نَصَفاً، وقيل: الجارية الناعمة، والجمع: خودات وخُودٌ. والضِّغْث: الحُزْمة من الحشيش، أو كل ما ملأ الكف من النبات المختلط. والشَّمال: الريح الباردة. يقول: إن رائحة فراشها بعد النوم، كأنما وضعت فيه صنوف من الرَّيحان تنشر رائحتها ريحُ الشمال اللطيفة.

ومن الأخلاط قول العرب في أمثالها: (ضِغْثٌ على إبّالة)[١]، فيشبه اختلاط الأحلام باختلاط الجملة من النبات، والمعنى أن هذا الذي رأيتَ أيُّها الملك اختلاط من الأحلام بسبب النوم، ولسنا من أهل العلم بذلك، أي: بما هو مختلط ورديءٌ، فإنما نفوا عن أنفسهم عبر الأحلام لا عبر الرؤيا على الإطلاق، وقد قال النبي ﷺ: «الرؤيا من الله، والحُلْم من الشيطان»[٢]، وقال للذي كان يرى رأسه يُقطع ثم يردّه فيرجع: «إذا لعب الشيطان بأحدكم في النوم فلا يحدث بذلك»[٣].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالأحلام وحدثان النفس مُلغاة، الرؤيا هي التي تعبّر ويلتمس علمها. والباءُ في قوله: ﴿بِعَالِمِينَ﴾ للتأكيد، وفي قوله: ﴿بِتَأْوِيلِ﴾ للتعدية، وهي متعلقة بقوله: ﴿بِعَالِمِينَ﴾.

و(الأحلام): جمع حُلْم، يقال: حلَم الرجل ـ بفتح اللام ـ يحلُم إذا خيل إليه في منامه، والأحلام مما أثبتته الشريعة، وقال رسول الله ﷺ: «الرُّؤْيا من الله، وهي المبشِّرة، والحُلْم المحزن من الشيطان، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليتفل عن يساره ثلاث مرات، وليقل: أعوذ بالله من شَرِّ ما رأيت، فإنها لا تضره»[٤]، وما كان عن حديث النفس في اليقظة فإنه لا يلتفت إليه.

ولما سمع الساقي الذي نجا هذه المقالة من الملك ومراجعة أصحابه تذكّر يوسف

---

(١) الضِّغْث: قبضة من الحشيش أو النبات المختلط، والإبّالة: الحُزمة من الحطب، وبعضهم يقوله بالباءِ الخفيفة المفتوحة، وعليه:

لـي كُـلَّ يَـوْمٍ مِـنْ ذُؤَالَـه ... ضِغْـثٌ يُـزِيـدُ عَلـى إبَـالَـه

ومعنى المثل: بَلِيَّةٌ على أُخرى. (مجمع الأمثال ـ الميداني). وفي (المستقصى) للزمخشري: «يُضْرَب لِمَنْ حمَّلك مكروهاً ثم زادك عليه».

(٢) رواه البخاري في (التعبير) وفي (بدء الخلق)، وفي (الطب)، ورواه مسلم في (الرؤيا)، وأبو داود في (الأدب)، والترمذي في (الرؤيا)، وكذلك ابن ماجه والدارمي، ومالك في (الموطأ)، والإمام أحمد (٥ـ ٢٩٦، ٣٠٠، ٣٠٥، ٣١٠). ولفظه كما في البخاري «الرؤيا الصالحة من الله، والحُلْم من الشيطان، فمن رأى شيئاً يكرهه فلينفث عن شماله ثلاثاً وليتعوذ من الشيطان فإنها لا تضره، وإن الشيطان لا يتزيَّا بي».

(٣) رواه مسلم وابن ماجه عن جابر، ورمز له السيوطي بالصحة. (الجامع الصغير).

(٤) راجع الهامش قبل السابق على هذا.

وعلمه بتأويل الأحلام والرُّؤى ، فقال مقالته في هذه الآية.

و﴿ وَٱدَّكَرَ ﴾ أصله: اذْتكَرَ ، افتعل من الذكر ، قلبت التاءُ دالاً وأُدغم الأول في الثاني ، ثم بدلت دالاً غير منقوطة لقوة الدال وجَلَدها ، وبعض العرب يقول: (اذَّكر) ، وقرئ: [فَهَلْ مِنْ مُذَّكِرٍ][1] بالنقط ، و(مِنْ مُدَّكِرٍ) على اللغتين ، وقرأ جمهور الناس: ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ وهي المُدة من الدهر ، وقرأ ابن عباس وجماعة: [بَعْدَ أَمَهٍ][2] وهو النسيان ، وقرأ مجاهد ، وشُبَيْل بن عَزْرَة[3]: [بَعْدَ أَمْهٍ] بسكون الميم ، وهو مصدرٌ من (أَمِهَ) إذا نسي ، وقرأ الأشهب العقيلي: [بَعْدَ إِمَّةٍ] بكسر الهمزة ، والإِمَّةُ: النعمة ، والمعنى: بعد نعمة أنعمها الله على يوسف في تقريب إطلاقه وعزَّته. وبقوله: ﴿ وَٱدَّكَرَ ﴾ يقوي قول من يقول: إن الضمير في ﴿ فَأَنسَىٰهُ ﴾ عائد على الساقي ، والأمر محتمل.

وقرأ الجمهور: ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم ﴾ ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [أَنَا آتيكُمْ] ، وكذلك في مصحف أُبي بن كعب ، وقوله: ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ استئذان في المضي ، فقيل: كان السجن في غير مدينة الملك ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقيل: كان فيها[4].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويرسم الناس اليوم سجن يوسف في موضع على النيل بينه وبين الفسطاط ثمانية أَميال.

---

(١) تكررت في الآيات: (١٥ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠) من سورة القمر.

(٢) أي: بفتح الهمز والميم مخففة وهاءٍ ، والجماعة التي قرأت مع ابن عباس هي. زيد بن علي ، والضحاك ، وقتادة ، وأبو رجاءٍ ، وشُبَيْل بن عَزْرَةَ الضبعي ، وربيعة بن عمرو ، قال أبو الفتح بن جني: «والأَمَهُ: النسيان ، يقال: أَمِهَ الرجل يأمَهُ أَمَهاً: نَسِي» ، وقال الشاعر:

أَمِهْتُ وَكُنْتُ لا أَنْسَى حَدِيثاً كَذاكَ الدَّهْرُ يُودي بِالْعُقُولِ

(٣) اختلف في اسم أبيه ، فهو عَزْرَة في التاج والمحتسب ، وفي القاموس: عُروة ، وفي الفهرست: عَزْعَرَة ، وكان رافضياً ، ثم انتقل إلى الشُّراة ، وَيُعَدُّ من خطبائهم وعلمائهم ، يروي عن أنس بن مالك ، وروى عنه شعبة ، مات بالبصرة في دولة بني العباس.

(٤) وفي الكلام حذف بعد ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ ، والتقدير: «فأرسلوه إلى يوسف فأتاه فقال» ، والصِّدِّيق: بناءُ مبالغة مثل: السِّكِّير ، والشِّرِّيب ، وكان الساقي قد صحب يوسف زماناً وخَبَره وعرف صدقه في غير ما أمْر ، كتأويل رؤياه ورؤيا صاحبه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

المعنى: فجاءَ الرسول ـ وهو الساقي ـ إلى يوسف فقال له: يا يوسف، ﴿ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾، وسمَّاه صدِّيقاً من حيث كان جرب صدقه في غير شيءٍ، وهو بناءُ مبالغة من (صَدَقَ)، وسمِّي أبو بكر رضي الله عنه صدِّيقاً من (صدَّق غيرَهُ) إذ مع كل تصديق صدق، فالمصدق بالحقائق صادق أيضاً، وعلى هذا الأساس سُمِّي المؤمنون صدِّيقين في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾[1]. ثم قال: ﴿ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ ﴾ أي: فيمن رأى في المنام سبع بقرات، وحكى النقاش حديثاً روى فيه أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف في السجن وبشَّره بعطف الله تعالىٰ عليه، وأخرجه من السجن، وأنه قد أحدث للملِك منامة جعلها سبباً لفرج يوسف، ويروى أن الملِك كان يرى سبع بقرات سمان يخرجن من النهر، وتخرج وراءَها سبع عجاف، فتأكل العجافُ السمان، فكان يعجب كيف غلبتها؟ وكيف وسِعت السمانَ بطونُ العجاف[2]؟ وكان يرى سبع سنبلات خضر وقد التفَّت بها سبع يابسات حتى كانت تغطي خضرتها فعجب أيضاً لذلك.

وقوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي تأويل هذه الرؤيا فيزول همُّ الملك لذلك وهَمُّ الناس، وقيل: لعلهم يعلمون مكانتك من العلم وكُنْه فضلك فيكون ذلك سبباً لتخلصك.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ ﴾ الآية. تضمن هذا الكلام من يوسف عليه السلام ثلاثة أنواع من القول: أحدها: تعبير بالمعنى وباللفظ. والثاني: عرض رأي وأمْر بِهِ وهو قوله: ﴿ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ ﴾، والثالث: الإعلام بالغيب في أمر العام الثامن، قاله قتادة.

(١) من الآية (١٩) من سورة الحديد.

(٢) ويصح أن تضبط هكذا: وَسِعَت السِّمانُ بطونَ العجاف، كما يقال: «هذا الإناءُ يسع عشرين كيلاً، ويَسَعُه عشرون كيلاً». (المعجم الوسيط).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل هذا ألا يكون غيباً، بل علم العِبارة أعطى انقطاع الجدب بعد سبع، ومعلوم أنه لا يقطعه إلا خصب شاف، كما أعطى أن النهر مثال للزمان إذ هو أشبه شيءٍ به فجاءَت البقرات مثالاً للسنين.

و﴿ دَأَبًا﴾ معناه: ملازمة لعادتكم في الزراعة، ومنه قول امرئ القيس:

كَـدَأْبِـكَ مِـنْ أُمِّ الْحُـوَيْـرِثِ قَبْلَهَـا . . . . البيـت[1]

وقرأ جمهور السبعة: [دَأْباً] بإسكان الهمزة، وقرأ عاصم وحده: ﴿ دَأَبًا﴾ بفتح الهمزة، وأبو عمرو يُسهِّل الهمزة عند درج القراءَة، وهما مثل: نَهْر ونَهَر، والناصب لقوله: ﴿دَأَبًا﴾ ﴿تَزْرَعُونَ﴾ عند أَبي العباس المبرد، إذ في قوله: ﴿تَزْرَعُونَ﴾ (تَدْأَبُونَ)، وهي عنده مثل: (قعد القرفصاءَ)، و(اشتمل الصماءَ)[2]، وسيبويه يرى نصب هذا كله بفعل مضمر من لفظ المصدر يدل عليه هذا الظاهر، كأنه قال: (تزرعون تدأَبون دأَباً).

وقوله: ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ﴾ هي إشارة برأْي نبيل نافع بحسب طعام مصر وحنطتها التي لا تبقى عامين بوجه إلا بحيلة إبقائها في السنبل، فإن الحبة إذا بقيت في خبائها انحفظت، والمعنى: اتركوا الزرع في السنبل إلا ما لا غنى عنه للأكل، فيجتمع الطعام هكذا ويتركب، ويؤكل الأقدم فالأقدم، فإذا جاءَت السنون الجدبة تقوَّت الناسُ الأقدمَ فالأقدم من ذلك المدَّخر، وادَّخروا أيضاً الشيءَ الذي يصاب في أَعوام الجدب على قلَّته، وحملت الأعوام بعضُها بعضاً حتَّى يتخلص الناس، وإلى هذه السنين أَشار النبي عليه الصلاة والسلام في دعائه على قريش: «اللَّهم أَعِنِّي عليهم بسبع كسبع يوسف»[3]، فابتدأَ

---

(١) هذا صدر بيت لامرئ القيس من معلقته المشهورة، والبيت بتمامه:

كَـدَأْبِـكَ مِـنْ أُم الْحُـوَيْـرِثِ قَبْلَهَـا وجَـارَتِهَـا أُمِّ الـرَّبَـاب بِمَـأْسَـلِ

ويروى: «كدينك»، أي: مثل عادتك وشأنك، وأُم الحويرث هي أُخت الحارث بن حصين بن ضمضم من بني كلب، وقد تزوجت من حُجْر أبي امرئ القيس، ومأسَل بفتح السين: جبل بعينه، وبكسر السين: ماءٌ بعينه، والرواية هنا بالفتح.

(٢) جاء في (الصحاح ـ شمل): «واشْتِمَالُ الصَّمَّاءِ: أن يُجَلِّل جَسَدَهُ كله بالكساء أو بالإزار».

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات، وفي الاستسقاء وغيرهما، والترمذي في التفسير، ولفظه كما جاء في باب الاستسقاء في البخاري عن مسروق قال: «كنا عند عبد الله، فقال إن النبي ﷺ لما رأى من الناس=

ذلك بهم ، ونزلت سنَةٌ حصَّت كلَّ شيءٍ(١) ، حتى دعا لهم النبي عليه الصلاة والسلام فارتفع ذلك عنهم ولم يتماد سبع سنين ، ورُوي أَن يوسف عليه السلام لما خرج ووصف هذا الترتيب للملِك وأَعجبه أَمْرُه ، قال له الملك ، قد أَسندت إِليك تولِّي هذا الأَمر في الأَطعمة هذه السنين المقبلة ، فكان هذا أَوَّل ما وَلِيَ يوسف.

وأَسند الأَكل إِلى السنين في قوله: ﴿يَأْكُلْنَ﴾ اتِّساعاً من حيث يُؤكل فيها ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾(٢) ، وكما يقال: (نهارك بطالٌ وليلك قائم) ، وهذا كثير في كلام العرب(٣) ، ويحتمل أَن يُسَمَّى فعل الجدب وإِيباس البالات أَكلا ، وفي الحديث: «فأَصابتهم سنة حصَّت كل شيءٍ»(٤) وقال الأَعرابي في السَّنَة: (جَمَشت النَّجْمَ ، وأَلحبت اللَّحم ، وأَحجنت العظم)(٥).

و﴿تُحْصِنُونَ﴾ معناه: تُحرزون وتخزنون ، قاله ابن عباس ، وهو مأْخوذ من الحصن ، وهو الحرز والملجأُ ، ومنه تحصُّن النساءِ لأَنه بمعنى التحرز(٦).

وقوله تعالىٰ: ﴿يُغَاثُ﴾ جائز أَن يكون من الغيث ـ وهو قول ابن عباس ،

= إدباراً قال: اللهم سبْعاً كسبع يوسف ، فأخذتهم سنَة حصَّت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف ، وينظر أحدهم إلى السماءِ فيرى الدخان من الجوع ، فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد ، إنك تأمر بطاعة الله وبصلةِ الرحِم ، وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم ، قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿عَآئِدُونَ ۝ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ فالبطشة يوم بدر ، وقد مضت الدخان والبطشة واللِّزام وآية الروم».

(١) من قولهم: حصَّ الشيءَ: حَلَقه ، وحصَّ الشيءَ: أذهَبه. (المعجم الوسيط).

(٢) تكررت في الآيات (٦٧) من سورة يونس و(٨٦) من سورة النمل و(٦١) من سورة غافر.

(٣) هو من المجاز العقلي ، وأمثلته كثيرة في كلام العرب كما يقول ابن عطية ، ومنه قول الشاعر:

نَهَارُكَ يَا مَغْرُورُ سَهْوٌ وغَفْلَةٌ ... ولَيْلُكَ نَوْمٌ والرَّدَى لَكَ لازِمُ

فقد أسند الشاعر السهو والغفلة إلى النهار ، والنوم إلى الليل ، وذلك لأن السهو والغفلة يقعان في النهار ، والنوم يقع في الليل ، ولهذه الملابسة الزمانية ساغ الإسناد إلى زمان الحدث ، والعلاقة هي الزمانية.

(٤) هذا جزءٌ من الحديث السابق.

(٥) يقال: جَمَش نباتَ الأرض: حَصَدَه ، وجَمَش الشَّعْر: حَلَقَه ، والنجم هو النبات. فالمعنى: السَّنَةُ استأصلت النبات. ويقال: لحِبَ لحم فلان: نَحَل ، ويقال: حَجَن العُودَ: لواه ، فالمعنى أنها أذهبت اللحم وقوَّست العظم.

(٦) ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ من الآية (٣٣) من سورة النور.

ومجاهد ، وجمهور المفسرين ـ أي: يُمْطرون ، وجائز أن يكون من (أغاثهم الله) إذا فرج عنهم ، ومنه الغوث وهو الفرج.

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، ﴿يَعْصِرُونَ﴾ بفتح الياءِ وكسر الصاد ، وقرأ حمزة ، والكسائي ذلك بالتَّاءِ على المخاطبة ، وقال جمهور المفسرين: هي من عَصْر النباتات كالزيتون والعنب والقصب والسمسم والفجل وجميع ما يُعصر ، ومصرُ بلدُ عَصْر لأشياءَ كثيرة ، وروي أنهم لم يعصروا شيئاً مدة الجدب ، والحلْبُ منه لأنه عصر للضرع ، وقال أبو عبيدة وغيره: ذلك مأخوذ من العُصْرَة والعُصْر[1] وهو الملجأ ، ومنه قول أبي زبيد في عثمان رضي الله عنه:

صادِياً يَسْتَغِيثُ غَيْرَ مُغَاثٍ ... ولقد كانَ عُصْرَةَ المنجودِ[2]

ومنه قول عدي بن زيد:

لَوْ بِغَيْرِ الماءِ حَلْقي شَرِق ... كنْتُ كَالْغَصَّانِ بالماءِ اعْتصارِي[3]

ومنه قول ابن مقبل:

وصَاحِبِي وَهْوَهٌ مُسْتَوْهِلٌ زِعِلٌ ... يحولُ بينَ حِمَارِ الْوَحْشِ والْعَصَرِ[4]

---

(١) بضم العين وسكون الصاد فيهما ، يقال: جاء ولكن لم يُجئْ لِعُصْر ، أي: لم يجئْ حين المجيءِ.

(٢) البيت لأبي زُبَيْد الطائي ، والصادي: الشديد العطش ، والجمع: صُدَاة. ومعنى «كان عُصْرَة المنجود»: كان ملجأ المكروب. قال في (اللسان): «العَصَر بالتحريك ، والعُصْرُ والعُصْرَةُ: الملجأُ والمنجاة ، وعَصَر بالشيءِ واعْتصَر به: لجأ إليه ، وقد قيل في قوله تعالىٰ: ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾: إنه من هذا ، أي: ينجون من البلاء ويعتصمون بالخصب». وقد قيل: إن أبا زُبَيْد قال البيت في رثاءِ ابن أخته الذي مات عطشاً في طريق مكة وليس في عثمان رضي الله عنه.

(٣) قال عَدِي بن زيد هذا البيت من قصيدة أنفذها إلى النعمان يذكره بطول عهده بالسجن ويرجوه العفو عنه ، والاعتصار: أن يَغَصَّ الإنْسان بالطعام فيعتصر بالماء ، وهو أن يشربه قليلاً قليلاً ، ويقول: لو أني شرقت بغير الماءِ لكان في الماء نجاتي وإليه التجائي ، فكيف أفعل وقد شرقت به؟ وأنت مائي ، ولو كنت سجنت بأمر غيرك للجأت إليك فكيف وأنت ساجني؟.

(٤) صاحبه هنا هو فرسه ، والفرسُ الوَهْوَهُ والوَهْوَاهُ هو النشيط الحديد الذي يكاد يُفلت من كل شيءٍ من شدة حرصه على السَّبق ومن نزَقه ، والوَهْوَه أيضاً الذي يُرَدِّد صوته في جزع ، والمُسْتَوْهِل: الفَزِعُ النشيط ، والزَّعِل: النشيط ، والعَصَر: الملجأ ، يصف فرسه بالنشاط والسرعة ويقول: إذا طارد فريسة بادرها ومنعها من أن تلجأ إلى ملجئها الذي تحتمي به ، أو حال بينها وبين النجاة.

ومنه قول لبيد:

فَبَاتَ وأَسْرَى الْقَوْمِ آخِرَ لَيْلِهِمْ   وما كان وَقَّافاً بِغَيْرِ مُعَصَّرِ(١)

أي: بغير ملتجإٍ، فالآية على معنى: ينجون بالعُصْرة.

وقرأ الأعرج، وعيسى، وجعفر بن محمد: [يُعْصَرُونَ] بضم الياءِ وفتح الصاد، وهذا مأخوذ من العصرة، أي: يؤتون بعصرة، ويحتمل أن يكون من: عَصَرت السحاب ماءَها عليهم، قال ابن المستنير: معناها: يُمْطَرون، وحكى النقاش أنه قُرِئ: [يُعَصِّرون] بضم الياءِ وكسر الصاد وشدها وجعلها من عصر البلل، وردَّ الطبري على من جعل اللفظة من العُصْرَة ردّاً كثيراً بغير حجة(٢).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٠﴾.

في تضاعيف هذه الآية محذوفات يعطيها ظاهر الكلام ويدلُّ عليها، والمعنى هنا: فرجع الرسول إلى الملأ والملِك فقص عليهم مقالة يوسف، فرأى الملك وحاضروه نبل التعبير وحسن الرأي وتضمن الغيب في أمر العام الثامن، مع ما وصفه به الرسول من الصدق في المنامة المتقدمة، فعَظُم يوسف في نفس الملك، وقال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾، فلما وصل الرسول في إخراجه إليه وقال: إن الملك قد أمر بأن تخرج ـ فقال له: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي الملك وقل له: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ ومقصد يوسف عليه السلام

---

(١) استشهد صاحب (اللسان) بالشطر الثاني من البيت، والرواية فيه: «وما كان وقَّافاً بدار مُعَصَّر»، وذكر صاحب التاج البيت كاملاً، والرواية فيه كرواية (اللسان). والبيت في الديوان من قصيدة قالها لبيد يذكر مَن فَقَد مِنْ قومه ومن سادات العرب، ويتأمل في سطوة الموت وضعف الإنسان أمامه، ومطلع هذه القصيدة:

أعَاذِلُ قُومي فاعْذُلي الآن أو ذَري   فَلَسْتُ وإن أقْصَرْتِ عَنِّي بِمُقْصِرِ

والمُعَصَّر: بفتح الصاد المشددة: الملجأ والحرز، وقد نقل ابن عطية البيت عن الطبري بلفظ (بِغَيْر) وإلا فرواية الديوان هي (بدار) كما رواها التاج واللسان، والضمير في (بات) يعود على قَيْس بن جزء كما ذكر في الأبيات السابقة.

(٢) قال الطبري: «ذلك تأويل يكفي من الشهادة على خطئه خلافُه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين».

إنما كان: وقل له يستقصي عن ذنبي وينظر في أَمري ، هل سجنتُ بحق أَو بظلم؟ فرسم قصته بطرف منها إِذا وقع النظر عليه بان الأَمر كله ، ونَكَّب عن ذكر امرأَة العزيز حسن عشرة ورعايةً لزمام الملك العزيز له.

وقرأَ أَبو بكر عن عاصم ، وأَبو حيوة: [النُّسْوَة] بضم النون ، وقرأَ الباقون: ﴿ٱلنِّسْوَةِ﴾ بكسر النون ، وهما لغتان في تكسير (نساء) الذي هو اسم جمع لا واحد له من لفظه ، وقرأَت فرقة: [اللَّايي] بالياءِ ، وقرأَت فرقة: ﴿ٱلَّتِي﴾ بالتاءِ ، وكلاهما جمع (التي).

وكان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أَناةً وصبراً وطلباً لبراءَة الساحة ، وذلك أَنه ـ فيما رُوي ـ خشي أَن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أَمر ذنبه صفحاً ، فيراه الناس بتلك العين أَبداً ، ويقولون: هذا الذي راود امرأَة مولاه ، فأَراد يوسف عليه السلام أَن تبين براءَته وتتحقق منزلته من العِفَّة والخير وحينئذ يخرج للأَخطاءِ والمنزلة ، وروي عن النبي ﷺ أَنه قال: «يرحم الله أَخي يوسف ، لقدكان صابراً حليماً ، ولو لبثْتُ في السجن لبثه لأَجبت الداعي ولم أَلتمس العذر حينئذ»(١) ، وروي نحو هذا الحديث من طريق عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك في كتاب التفسير من صحيح البخاري ، وليس لابن القاسم في الديوان غيره.

وهنا اعتراض ينبغي أَن ينفصل عنه ، وذلك أَن النبي ﷺ إِنما ذكر هذا الكلام على جهة المدح ليوسف ، فما باله هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره؟ فالوجه في ذلك أَن النبي ﷺ إِنما أَخذ لنفسه وجهاً آخر من الرأْي له جهة أَيضاً من الجودة ، أَي: لو كنت أَنا لبادرت بالخروج ثم حاولت بيان عذري بعد ذلك ، وذلك أَن هذه القصص والنوازل إِنما هي معرضة ليقتدي بها الناس إِلى يوم القيامة ، فأَراد رسول الله ﷺ حمل

---

(١) أخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «يرحم الله يوسف ، إن كان لَذا أَناة حليماً ، لو كنت أنا المحبوس ثم أُرسل إلي لخرجت سريعاً». (الدر المنثور). وفي لفظ لأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر». (تفسير ابن كثير) ، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي ، ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾». (نقله القرطبي وابن كثير).

الناس على الأَحزم من الأُمور، وذلك أَن المتعمق في مثل هذه النازلة التارك فرصة الخروج من مثل ذلك السجن ربما ينتج له من ذلك البقاءُ في سجنه، وانصرفت نفس مخرجه عنه، وإِن كان يوسف عليه السلام أَمِن مِنْ ذلك بعلمه من الله فغيره من الناس لا يأْمن ذلك، فالحالة التي ذهب إِليها النبي ﷺ بنفسه حالة حزم ومدح، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلد.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ يحتمل أَن يريد بالربِّ الله عزَّ وجلَّ، وفي الآية وعيد ـ على هذا ـ وتهديد، ويحتمل أَن يريد بالربِّ العزيزَ مولاه، ففي ذلك استشهادٌ به وتقريع له، والضمير في ﴿بِكَيْدِهِنَّ﴾ للنسوة المذكورات لا للجنس لأَنها حالة توقيف على ذنب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾.

المعنى: فجمع الملِك النسوة وامرأَة العزيز معهن، وقال لهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ الآية، أَيْ: أَيُّ شيءٍ كانت قصتكن؟ فهو استدعاءٌ منه أَن يعلمنه القصة، فجاوب النساءُ بجواب جيد تظهر منه براءَة أَنفسهن جملة، وأَعطين يوسف بعض براءَة، وذلك أَن الملِك لما قرَّر لهن أَنهن راودنه قلن ـ جواباً عن ذلك ـ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾، وقد يحتمل ـ على بعد ـ أَن يكون قولهن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ في جهة يوسف عليه السلام، وقولُهن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ ليس بإِبراءٍ تام، وإِنما كان الإِبراءُ التام وصف القصة على وجهها حتى يتقرر الخطأُ في جهتهنَّ[1]، ولو قلن: (ما علمنا عليه إِلا خيراً) لكان أَدخل في التبرئة، وقد بوَّب البخاري على هذه الأَلفاظ على أَنها تزكية، وأَدخل قول أُسامة بن زيد في حديث الإِفك: (أَهلك ولا نعلم إِلا خيراً)، وأَما مالك رحمه الله فلا يقنع بهذا في تزكية الشاهد، لأَنه ليس بإِثبات العدالة.

قال بعض المفسرين: فلما سمعت زوجة العزيز مقالتهن وحَيْدَتهن عن الوقوع في

(١) يريد: حتى يتقرر الخطأ إذ كان في جهتهن، وقد تقرر أنه لا خطأ فيها بشهادتهن.

الخزي حضرتها نِيَّة وتحقيق[1] فقالت: ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾. و﴿ حَصْحَصَ ﴾ معناه: تبين بعد خفائه، كذا قال الخليل وغيره[2]، وقيل: مأخوذَة من الحِصَّة، أي بانت حِصَّته من حِصَّة الباطل، ثم أَقرت على نفسها بالمراودة، والتزمت الذنب، وأَبرأَت يوسف البراءَة التامة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾.

قال جماعة من أَهل التأْويل: هذه المقالة هي من يوسف عليه السلام، أَي: ذلك لِيَعْلَمَ العزيز سيِّدي أَني لم أَخنه في أَهله وهو غائب، ولِيَعْلَم أَيضاً أَن الله تعالىٰ لا يهدي كيد خائن ولا يرشد سعيه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والهدى للكَيْد مستعار، بمعنى: لا يكلمه ولا يمضيه على طريق إِصابة، ورُبَّ كيْدٍ مَهْدِيٌّ إِذا كان مِن تَقِيٍّ في مصلحة.

واختلفت هذه الجماعة ـ فقال ابن جريج: هذه المقالة من يوسف عليه السلام هي متصلة بقوله للرسول: ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ وفي الكلام تقديم وتأْخير، فالإِشارة بقوله: ﴿ ذَلِكَ ﴾ ـ على هذا التأْويل ـ هي إِلى بقائه في السجن والتماسه البراءَة، أَي: هذا لِيَعْلم سيدي أَني لم أَخنه، وقال بعضهم: إِنما قال يوسف هذه المقالة حين قالت امرأَة العزيز كلامها إِلى قولها: ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾، فالإِشارة ـ على هذا ـ إِلى إِقرارها وصَنيع الله تعالىٰ فيه. وهذا يضعف لأَنه يقتضي حضوره مع النسوة عند الملك، وبعد هذا يقول الملك: ﴿ ائْتُونِي بِهِ ﴾.

---

(١) خافت بعد إقرارهن ببراءة يوسف أن يشهدن عليها إن أنكرت فحضرتها نية الاعتراف، وكان ذلك لطفاً من الله بيوسف.

(٢) أصله: حَصَصَ، فقيل: حَصْحَصَ، كما قيل: كَبْكَبُو في كببوا، وكفكفوا في كففوا، وأصل الحَصِّ استئصال الشيء: حصَّ شَعْره إذا حلقه، قال أبو قيس بن الأسلت:

قَـدْ حَصَّتِ البَيْضَـةُ راسـي فَمَـا ... أَطْعَـمُ نَـومـاً غَيْـرَ تَهْجَـاع

ويقال: سنة حصَّاءُ أي جرداءُ لا خير فيها، قال جرير:

يَـأْوي إِلَيْكُـم بـلا مَـنٍّ ولا جَحَـدٍ ... مَـن سَاقَـهُ السَّنَـةُ الحَصَّـاءُ والـذِّيب

وفي الحديث: «فأصابتهم سنةٌ حصَّت كلَّ شيءٍ»، أي: أتت على كل شيءٍ.

وقالت فرقة من أهل التأويل: هذه الآية من قول امرأة العزيز، وكلامها متصل، أي: قَوْلي هذا وإقراري ليعلم يوسف أني لم أخنه في غيبته، بأن أكذب عليه أو أرميه بذنب هو بريءٌ منه، والتقدير ـ على هذا التأويل ـ: توبتي وإقراري ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي... وعلى أن الكلام من يوسف يجيءُ التقدير: وليعلم أن الله لا يهدي كيد الخائنين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾.

هذه أيضاً مختلف فيها ـ هل هي من كلام يوسف أم من كلام المرأة، حسب التي قبلها؟

فمن قال: «من كلام يوسف» روى في ذلك عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (لما قال يوسف: ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ قال له جبريل: «ولا حين هممت وحَلَلْت سراويلك»؟)[1]، وقال نحوه ابن عباس، وابن جبير، وعكرمة، والضحاك. وروي أن المرأة قالت له ذلك، قاله السدي، ورُوي أن يوسف تذكَّر من تلقائه ما كان همَّ به فقال: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً.

ومن قال: «إن المرأة قالت: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾» فوجه كلامها الاعتذار عن وقوعها فيما يقع فيه البشر من الشهوات، كأنها قالت: وما هذا ببدع ولا ذلك بنكير على البشر فأُبَرِّىءُ أنا منه نفسي، والنفوس أمارات بالسوءِ مائلة إليه.

و[أَمَّارَةٌ] بناءُ مبالغة، و[ما] في قوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ﴾ مصدرية، هذا قول الجمهور فيها، وهو ـ على هذا ـ استثناءٌ منقطع، أي: إلاَّ رحمة ربِّي[2]. ويجوز أن تكون بمعنى

---

(١) أخرج الحاكم في تاريخه، وابن مردويه، والديلمي عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، قال: لما قالها يوسف عليه السلام، قال له جبريل عليه السلام: يا يوسف اذكر هَمَّك، قال: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾.

(٢) قال الفراء في «معاني القرآن»: ، مثله: ﴿إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾، ومثله في سورة يسٓ: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا﴾، إنما هو ـ والله أعلم ـ إلا أن يُرحموا، و«أن» تضارع «ما» إذا كانتا في معنى مصدر. =

«مَنْ»، وهذا على أن تكون [ٱلنَّفْس] يراد بها النفوس، إذ النفس تجري صفة لمن يعقل كالعين والسمع، كذا قال أبو علي، فتقدير الآية: إلاَّ النفوس التي يرحمها الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإذاً (ٱلنَّفْس) اسم جنس، فصح أن تقع «ما» مكان «مَنْ» إذ هي كذلك في صفات من يعقل وفي أجناسه، وهو نص في كلام المبرد، وهو ـ عندي ـ معنى كلام سيبويه، وهو مذهب أبي عليٍّ، ذكره في «البغداديات».

ويجوز أن تكون (ما) ظرفية، والمعنى: إن النفس لأمَّارة بالسوءِ إلا مدة رحمة الله العبد وذهابه عن اشتهاءِ المعاصي.

ثم ترجَّى في آخر الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

المعنى: إن الملك لما تبينت له براءَة يوسف مما نسب إليه، وتحقق في القصة أمانته، وفهم أيضاً صبره وجَلَده ـ عظمت منزلته عنده، وتيقَّن حسن خلاله فقال: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾. وهذا الذي أَمَّ يوسف عليه السلام ـ بتَثَبُّتِهِ في السِّجْن ـ أن يرتقي إلى أعلى المنازل، فتأمل أن الملك قال أولاً ـ حين تحقق علمه ـ: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ فقط، فلما فعل يوسف ما فعل، فظهرت أمانته وصبره وعلو همته وجودة نظره قال: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾، فلما جاءَه وكلمه قال: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، فدل ذلك على أنه رأى من كلامه وحسن منطقه ما صدق به الخبر أو أربَى عليه، إذ المرءُ مخبوءٌ تحت لسانه، ثم لما زاول الأعمال مشى القُدَمِيَّة[1] حتى ولِيَ خطة العزيز.

= وقال أبو حيَّان في «البحر المحيط»: والظَّاهر أن ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ استثناءٌ متصل من قوله: ﴿لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ لأنه أراد الجنس بقوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ﴾، فكأنه قال: إلا النفس التي رحمها ربِّي فلا تأمر بالسوءِ، فيكون استثناءً من الضمير المستكن في: ﴿أمارة﴾.

(١) أي: تقدم في الشرف والفضل، ولم يتأخر عن غيره في الإفضال على الناس. وروي عن ابن عباس=

و(أَمِينٌ) من الأَمانة، وقالت فرقة: هو بمعنى آمِنٌ. وهذا ضعيف، لأَنه يخرج من نمط الكلام، وينحط إِكرام يوسف كثيراً.

ويُروى أَن الملِك لما أَدنى يوسف قال له: إِني أُشاركك في كل شيءٍ إِلا أَني أُحب أَلا تشركني في أَهلي، وأَلا تأْكل عندي[1]، فقال له يوسف: أَتَأْنف أَن آكل معك؟ أَنا أَحق أَن آنف، أَنا ابن إِبراهيم الخليل، وابن إِسحاق الذبيح[2]، وابن يعقوب الصديق، وفي هذا الحديث بُعْدٌ وضعف. وقد قال ابن ميسرة: إِنما جرى هذا في أَول أَمره، كان يأْكل مع العزيز، فلما جرت قصة المرأَة قالت للعزيز: أَتدع هذا يُؤَاكلك؟ فقال له: اذهب فكل مع العبيد، فأَنف وقال ما تقدم. أَما إِن الظاهر من قصته وقت محاورة الملك أَنه كان على عبودية، وإِلا كان اللائق به أَن يَتَنَحَّى بنفسه عن عمل الكافر، لأَن القوم كانوا أَهل أَوثان، ومحاورة يوسف لصاحبي السجن تقضي بذلك.

وسمَّى الله تعالىٰ فرعون مصر ملكاً إِذ هي حكاية اسم مضى حكمه وتصرم زمنه، ولو كان حيّاً لكان حكماً له إِذا قيل لكافر: «ملك أَو أَمير»، ولهذا كتب النبي ﷺ إِلى هرقل فقال: «عظيم الروم»، ولم يقل: ملِكاً أَو أَميراً، لأَن ذلك حكم، والحق أَن يسلم ويسلموا، وأَما كونه عظيمهم فتلك صفة لا تفارقه كيفما تقلب، ولو كتب له النبي ﷺ: «أَمير الروم» لتمسك بتلك الحجة على نحو تمسك زياد في قوله: «شهد ـ والله ـ لي أَبو الحسن».

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ الآية. فهم يوسف عليه السلام من الملك أَنه على تصريفه والاستعانة بنظره في المُلْك، فأَلْقى يده في الفعل الذي يمكنه فيه المَعْدِلة، ويترتب له الإِحسان إِلى من يجب، ووضع الحق على أَهله وعند أَهله.

قال بعض أَهل التأْويل: في هذه الآية ما يُبيح للرجل الفاضل أَن يعمل للرجل الفاجر بشرط أَن يعلم أَنه يفوض إِليه في فِعْل ما لا يعارض فيه، فيصلح منه ما يشاءُ، وأَما إِن كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز له ذلك.

= رضي الله عنهما أنه قال: «إن ابن أبي العاص مشى القُدَمِيَّة، وإن ابن الزُّبير لوى ذنبه». (عن اللسان).

(١) في إحدى النسخ: «وألا يأكل معي عبدي»، والظاهر أن يوسف عليه السلام كان إلى هذا الوقت عبداً.

(٢) المعروف والثابت أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، ولعل هذا هو الذي جعل المؤلف يقول: «وفي هذا الحديث بُعْدٌ وضعف».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وطلب يوسف للعمل إنما هي حسبة منه عليه السلام لرغبته في أَن يقع العدل، ونحو هذا هو دخول أَبي بكر الصديق في الخلافة، مع نهيه المستشير له من الأَنصار أَن يتأمر على اثنين، الحديث بكماله. فجائز للفاضل أَن يعمل وأَن يطلب العمل إذا رأَى أَلا عِوَض منه[1]، وجائز أَيضاً للمرءِ أَن يثني على نفسه بالحق إذا جُهِلَ أَمْرُهُ[2].

والخزائن لفظ عام لجميع ما تختزنه المملكة من طعام ومال وغيره. و﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ صفتان تعم[3] وجوه التثقيف والحيطة لا خلل معهما لعامل، وقد خصص الناس بهاتين الصفتين أَشياءَ مثل قولهم: حفيظ بالحساب عليم بالأَلسن، وقول بعضهم: حفيظ لما استودعتني عليم بسني الجوع، وهذا كله تخصيص لا وجه له، وإنما أَراد باتصافه أَن يعرف الملك بالوجه الذي به يستحق الكون على خزائن الأَرض، فاتصف بأَنه يحفظ المُجْبَى من كل جهة تحتاج إِلى الحفظ، ويعلم التناول أَجمع، ورُوي عن مالك بن أَنس أَنه قال: «مصر خزانة الأَرض»، واحتج بهذه الآية. وقوله: ﴿خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ يريد أَرض مصر إذ لم تكن مملكة فرعون إلا بها فقط، ويؤكد أَن تسمى خزانة الأَرض بصيتها في بلاد الأَرض وتوسطها، فمنها ينتقل الناس إِلى أَقطار الأَرض، وهي محل كل جالب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ الآية. الإشارة بـ[ذَٰلِكَ] إِلى ما تقدم من جميل صنع الله به، أَي: ولهذه الأَفعال المنصوصة درَّجناه في الرتب ونقلناه فمكَّنا له في الأَرض.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فروي أَن العزيز مات في تلك الليالي، وقال ابن إِسحاق: بل عزله الملك، ثم مات

---

(١) وأيضاً فإن يوسف سأل الولاية بالحفظ والعلم فقال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، ولم يطلبها بالحسب ولا بالنسب، ولم يقل: «إنِّي حسيب نسيب». ومع ذلك فقد روى ابن عباس أن النبي ﷺ قال: (رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنه أخَّر ذلك عنه سنة).

(٢) قال الماوردي: «وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصلة، أو تعلق بظاهر من مكسب، وممنوع فيما سواه».

(٣) هكذا في جميع النسخ المخطوطة.

قطفير فولاَّه الملك مكانه وزوجه زوجته، فلما دخلت عليه عروساً قال لها: أَليس هذا خيراً مما كنت أَردت؟ فقالت له: أَيها الصديق، كنتَ في غاية الجمال وكنتُ شابة عذراءَ، وكان زوجي لا يطأُ، فغلبتني نفسي في حبك، فدخل يوسف بها فوجدها بكراً، وولدت له ولدين، ورُوي أَن الملِك عزل العزيز وَولاَّه موضعه، ثم عظم مُلْك يوسف وتغلب على حال الملك أَجمع، قال مجاهد: وأَسلم الملِك آخر أَمره، ودَرَس أَمْرُ العزيز وذهبت دنياه ومات وافتقرت زوجته وزمنت وشاخت، فلما كان في بعض الأَيام لقيت يوسف في طريق والجنود حوله ووراءَه، وعلى رأسه بنود مكتوب عليها ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[1]، فصاحت به وقالت: سبحان من أَعَزَّ العبيد بالطاعة، وأَذل الأَرباب بالمعصية، فعرفها، وقالت له: تعطف علي وارزقني شيئاً فدعاها وكلمها، وأَشفق لحالها، ودعا الله تعالىٰ فرَدَّ عليها جمالها وتزوجها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ورُوي في نحو هذا من القصص ما لا يوقف على صحته، ويطول الكلام بسوقه.

وقرأَ الجمهور: ﴿حَيۡثُ يَشَآءُ﴾ على الإِخبار عن يوسف، وقرأَ ابن كثير وحده: [حيث نشاء] بالنون على ضمير المتكلم، أَي حيث يشاءُ الله من تصرف يوسف على اختلاف تصرفه، وحكى أَبو حاتم هذه القراءَة عن الحسن، وشيبة، ونافع، وأَبي جعفر ـ بخلاف عن الثلاثة المدنيين ـ قال أَبو علي: إِمَّا أَن يكون تقدير هذه القراءَة: «حيث يشاءُ من المحاريب والمتعبدات»، وأَحوالُ الطاعات قُرَبٌ يريدها الله تبارك وتعالىٰ ويشاؤُها، وإِمَّا أَن يكون معناها: «حيث يشاءُ يوسف»، لكن أَضاف الله عزَّ وجلَّ المشيئة التي ليوسف إِليه من حيث هو عبد من عبيده، وكانت مشيئته بقوة الله تعالىٰ وقدرته، كما قال: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله من أَبي علي نزعة اعتزالية وتحفُّظٌ من أَن أَفعال العباد من فاعلين، فتأَمله.

واللام في قوله: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ يجوز أَن تكون على حدّ التي في قوله تعالىٰ:

---

(١) الآية (١٠٨) من سورة (يوسف).

(٢) من الآية (١٧) من سورة (الأنفال).

﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾[١]، و﴿ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴾[٢] وقوله: (يَتَبَوَّأُ) في موضع نصب على الحال، و﴿ حَيۡثُ يَشَآءُ ﴾ نصب على الظرف، أو على المفعول به، كما قال الشَّمَّاخ:

. . . . حيْـثُ تُكْـوَى النَّـواحِـزُ[٣]

وباقي الآية بيِّن.

ولما تقدم في هذه الآية أن الإحسان من العبد والجري على طريق الحق لا يضيع عند الله، ولا بُدَّ من حُسْن عاقبته في الدنيا ـ أعقَب ذلك بأَن حال الآخرة أَحمد، وأَحرى أَن يُجعل غرضاً ومقصداً، وهذا هو الذي ينتزع من الآية بحسب التقيد بين الإيمان والتقوى من الناس، وفيها ـ مع ذلك ـ إشارة إلى أن حاله من الآخرة خير من حاله العظيمة في الدنيا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ۝٦٠ ﴾.

قال السدي وغيره: سبب مجيئهم أن المجاعة التي أنذر بها يوسف أصابت البلاد التي كان بها يعقوب، ورُوي أنه كان في العربات من أَرض فلسطين بغور الشام، وقيل: كان بالأدلاج من ناحية الشعب[٤]، وكان صاحب بادية، له إبل وشاءٌ، فأَصابهم الجوع، وكان أَهل مصر قد استعدوا وادخروا من السنين الخصيبة، فكان الناس

---

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (٧٢) من سورة (النمل): ﴿ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴾.

(٢) من الآية (٤٣) من سورة (يوسف).

(٣) هذا جزءٌ من بيت، وهو بتمامه:

وَجَـلاهَـا عَـنِ ذِي الأَرَاكَـةِ عَـامِـرٌ أَخو الخُضْرِ يَرْمي حيثُ تُكْوَى النَّوَاحِزُ

ذو الأراكة: موضع من اليمامة لبني عجل مشهور بكثرة نخيله. وجلاها: أخرجها وأبعدها. وعامر أخو الحضر: قانص مشهور. والحُضر: سرعة جري الفرس، ومثله الإحْضار، ولكن الحُضْر هو الاسم، والإحضار هو المصدر. وعامرٌ هذا كان سريع العدو حتى قيل عنه: أخو الحُضْر. والنَّواحِز: الإبل التي بها نحاز، والنُّحاز داءٌ يأخذ الدواب والإبل في رئاتها فتَسْعُل سعالاً شديداً، ودواؤها هو الكي في جنوبها أو أُصول أعناقها. وقد روى: النَّحائِزُ، والحُزَاحِزُ والجَزَائِزُ.

(٤) اختلفت النسخ في كلمتي (العربات) و(الأدلاج)، واخترنا ما يتفق مع كتب التفسير المحققة.

يمتارون من عند يوسف وهو في رتبة العزيز المتقدم، وكان لا يعطي الوارد أكثر من حمل بعير، يُسوِّي بين الناس، فلما ورد إخوته عرفهم يوسف عليه السلام ولم يعرفوه هم لبعد العهد وتغير سنه، ولم يقع لهم ـ بسبب مُلكه ولسانه القبطي ـ ظن عليه، ورُوي في بعض القصص أَنه لما عرفهم أَراد أَن يُخبروه بجميع أَمرهم، فباحثهم بأَن قال لهم (بترجمان): أَظنكم جواسيس، فاحتاجوا حينئذ إِلى التعريف بأَنفسهم فقالوا: نحن أَبناءُ رجل صِدِّيق، وكنا اثني عشر، ذهب واحد منا في البرية، وبقي أَصغرنا عند أَبينا، وجئنا نحن للميرة، وسقنا بعير الباقي منا، وكانوا عشرة ولهم أَحد عشر بعيراً، فقال لهم يوسف: ولم تخلف أَخوكم؟ قالوا: لمحبة أَبينا فيه، قال: فائتوني بهذا الأَخ حتى أَعلم حقيقة قولكم، وأَرى: لم أَحبه أَبوكم أَكثر منكم إِن كنتم صادقين. ورُوي في القصص أَنهم وردوا مصر، واستأْذنوا على العزيز وانتسبوا في الاستئذان، فعرفهم وأَمر بإِنزالهم، وأَدخلهم في ثاني يوم على هيئة عظيمة لمُلكه وأُبَّهة شيقة، ورُوي أَنه كان متلثماً أَبداً ستراً لجماله، وأَنه كان يأْخذ الصُّواع فينقره، ويفهم من طنينه صدق ما يُحَدَّث به أَو كذبه، فسُئِلوا عن أَخبارهم، فكلما صدقوا قال لهم يوسف: صدقتم، فلما قالوا: وكان لنا أَخ أَكله الذئب طنَّ يوسف الصواع وقال: كذبتم، ثم تغير لهم وقال: أُراكم جواسيس، وكلفهم سوق الأَخ الباقي ليظهر صدقهم. وفي ذلك قصص طويل جاءَت الإِشارة إِليه في القرآن وجيزة.

والجهاز: ما يحتاج إِليه المسافر من زاد ومتاع وكل ما يحمل، وكذلك جهاز العروس وجهاز الميت.

وقول يوسف عليه السلام: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ الآية. يرغبهم في نفسه آخراً ويؤنسهم ويستميلهم، و[ٱلْمُنْزِلِينَ]: يعني المُضيفين في قُطره ووقته. والجهاز المشار إِليه: الطعام الذي كان حمله لهم، ثم توعدهم إِن لم يجيئوا بالأَخ بأَنه لا يكيل لهم عنده في المستأْنف، وأَمرهم أَلا يقربوا له بلداً ولا طاعة، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ نهيٌ لفظاً ومعنى، ويجوز أَن يكون لفظه الخبر ومعناه النهي، وتحذف إِحدى النونين، كما قُرِىءَ: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾[1] بكسر النون، وهذا خبر لا غير، وخلط النحاس في هذا الموضع، وقال مالك رحمه الله: هذه الآية ـ وما يليها ـ تقتضي أَن كيل الطعام على البائع، وكذلك هي الرواية في الشركة والتولية أَنها بمنزلة البيع، والروايةُ في القرض أَن الكيل على

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (٥٤) من سورة (الحِجْر): ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾.

المستقرض، ورُوي أنه حبس منهم شمعون رهينة حتى يجيئوهُ ببنيامين، قاله السدي، ورُوي أنه لم يحبس منهم أحداً، ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: (كان يوسف يلقي حصاة في إناءٍ فضة مخوص بالذهب فيطنُّ، فيقول لهم: إن هذا الإناءَ يخبرني أن لكم أباً شيخاً).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كأنها حيلة وإيهامٌ لهم، ورُوي أن ذلك الإناءَ به كان يكيل الطعام إظهاراً لعزته بحسب غلائه في تلك المدة، ورُوي أن يوسف عليه السلام استوفى في تلك السنين أموال الناس ثم أملاكهم، فمن هناك ليس لأحد في أرض مصر ومزارعها ملك، وظاهر كل ما فعله يوسف معهم أنه بوحي وأمر، وإلا فكان برُّ يعقوب يقتضي أن يبادر إليه ويستدعيه، لكن الله تبارك وتعالىٰ أعلمه بما يصنع ليكمل أجر يعقوب ومحنته وتتفسر الرؤيا الأولى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ٦١ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٦٢ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣﴾.

تقدم معنى «المراودة»، أي: سنفائل[1] أباه في أن يتركه يأتي معنا إليك، ثم شدَّدوا هذه المقالة بأن التزموها لهم في قولهم: ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾، وأراد يوسف عليه السلام المبالغة في استمالتهم بأن ردَّ مال كل واحد منهم في رحله بين طعامه، وأمر بذلك فتيانه.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: [لِفِتْيَتِهِ]، وقرأ حمزة، والكسائي: [لِفِتْيَانِهِ]، واختلف عن عاصم، ففِتْيَان للكثرة ـ على مراعاة المأمورين، وفِتْيَة للقِلَّة ـ على مراعاة المتناولين وهم الخدمة ـ[2] ويكون هذا الوصف للحر وللعبد، وفي

---

(١) فاءله: لعب معه لعبة الفنال، وهي أن يخبىء فريق شيئاً في التراب ثم يقسمه قسمين، ويسأل الفريق الآخر: في أيِّهما يكون الشيءُ؟

(٢) في صيغة الكثرة يكون مثل «غلمان» و«صبيان»، وفي صيغة القِلَّة يكون مثل «غِلْمَة» و«صِبْيَة»، فإن قيل: وزن «فَتَى» فَعَل، و«فَعَل» لا يُجمع على «فِعْلَة»، قيل: لما وافق «غلماناً» في الجمع الكثير فقيل=

مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: «وقال لفتيانه وهو يكايلهم».

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ يريد: لعلهم يعرفون لها يداً أَو تكرمة يرون حقها فيرغبون فينا فلعلهم يرجعون حينئذ، وأَما مَيْزُ البضاعة فلا يقال فيه: «لَعَلَّ»، وقيل: قصد يوسف بِرَدِّ البضاعة أَن يتحرجوا من أَخذ الطعام بلا ثمن فيرجعوا لدفع الثمن، وهذا ضعيف من وجوه، وسرورُهم بالبضاعة وقولهم: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾ يكشف أَن يوسف عليه السلام لم يقصد هذا، وإنما قصد أَن يستميلهم ويَصِلَهُم فيرغبهم في نفسه كالذي كان. وخصَّ البضاعة دون أَن يعطيهم غيرها من الأَموال لأَنها أَوقع في نفوسهم، إِذْ يعرفون حلَّها، وماله هو إِنما كان عندهم مالاً مجهول الحال، غايته أَن يُسْتَجَاز على نحو استجازتهم قبول الميرة، ويظهر أَن ما فعل يوسف من صلتهم وجبرهم في تلك الشدة كان واجباً عليه، إِذ هو ملك عدل، وهم أَهل إِيمان ونبوة. وقيل: علم عدم البضاعة والدراهم عند أَبيه فردَّ البضاعة إِليهم لئلا يمنعهم العدم من الإِنصراف إِليه، وقيل: جعلها توطئة لجعل السقاية في رحل أَخيه بعد ذلك ليُبَيِّن أَنه لم يسرق لمن يتأَمل القصة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والظاهر من القصة أَنه إِنما أَراد الاستئلاف وصلة الرحم.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿نَكۡتَلۡ﴾ بالنون على مراعاة: ﴿مُنِعَ مِنَّا﴾، ويقويه: ﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾ ﴿وَنَزۡدَادُ﴾، وقرأَ حمزة، والكسائي: [يَكْتَلْ] بالياءِ، أَي: يكتل يامين كما اكْتَلْنَا، وأَصل «نَكْتَلْ»: نَكْتَيِل، وزنه نَفْتَعِل[(١)]. وقولهم: ﴿مُنِعَ مِنَّا﴾ ظاهره أَنهم أَشاروا إِلى قوله: ﴿فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي﴾ فهو مَنْعٌ في المستأْنف[(٢)]، وقيل: أَشاروا إِلى بعير يامين الذي لم يَمْتر، والأَول أَرجح، ثم تضمنوا له حفظه وحيطته.

= فيه «فتيان» جمعوا بينهما في القليل فقيل «فِتْية» ليوافقوا بينهما. قاله ابن خالويه في كتابه: «الحجة في القراءَات السبع».

(١) فاستثقلوا الكسرة على الياءِ فحذفت الكسرة، فانقلبت الياءُ أَلِفاً لانفتاح ما قبلها، فالتقى ساكنان فحذفت لالتقاءِ الساكنين.

(٢) في بعض النسخ: «فهو خوف من المستأنف»، وكان خوفهم من المنع في المستأنف حقيقة لأنهم قد كِيلَ لهم بالفعل وجاؤوا أباهم بالميرة، لكن لما أُنذروا بالمنع قالوا: (مُنِعَ).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله: ﴿هَلْ﴾ توقيف وتقرير، وتألم يعقوب عليه السلام من فرقة يامين، ولم يصرح بمنعهم من حَمْله لِمَا رَأَى في ذلك من المصلحة، لكنه أَعلمهم بقلة طمأنينته إِليهم، وأَنه يخاف عليه من كيدهم، ولكن ظاهر أَمرهم أَنهم كانوا نبُّوا وانتقلت حالُهم فلم يخف مثل ما خاف على يوسف من قبل، لكن أَعْلَم بأَن في نفسه شيئاً ثم استسلم لله تعالىٰ، بخلاف عبارته في قصة يوسف.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ: [خَيْرٌ حِفْظاً]، وقرأَ حمزة، والكسائي وحفص ـ عن عاصم ـ: ﴿خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾، ونصب ذلك ـ في القراءَتين ـ على التمييز، وقال الزجاج: يجوز أَن ينصب ﴿حَٰفِظًا﴾ على الحال، وضعف ذلك أَبو علي الفارسي، لأَنها حال لا بُدَّ للكلام والمعنى منها، وذلك بخلاف شرط الحال، وإِنما المعنى أَن حافظ الله خير من حافظكم، ومن قرأَ: [حِفْظاً] فهو مع قولهم: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾، ومن قرأَ: ﴿حَٰفِظًا﴾ فهو مع قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1]. فاستسلم يعقوب عليه السلام لله وتوكل عليه. قال أَبو عمرو الداني: قرأَ ابن مسعود: [فالله خيرُ حافظ وهو خير الحافظين].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا بُعْدٌ.

وقوله: ﴿فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ﴾ سمَّى المشدود المربوط بجملته متاعاً فلذلك حَسُن الفتح فيه، وقرأَ جمهور الناس: ﴿رُدَّتْ﴾ بضم الراءِ على اللغة الفاشية عند العرب، وتليها لغة من يُشِمُّ، وتليها لغة من يكسر، وقرأَ علقمة، ويحيى بن وثاب: [رِدَّت]

---

(١) قال ابن خالويه: «كان الأصل الإضافة، فلما حذفت خَلَفَها التنوين، فإن قيل: فما الفرق بين قولهم: «زيدٌ أَفْرَهُ عبدٍ» بالخفض، و«زيدٌ أَفْرَهُ عبداً» بالنصب؟ فقُلْ: إذا خفضوا فالفارهُ هو العبد ومَدْحَته في ذاته، وإذا نصبوا فالعبد غير زيد، ومعناه: زيد أفرهكم عبداً أو أَفْرَهُ عبداً من غيره، فهذا فرقانٌ بيِّن». (الحجة ١٩٧).

بكسر الراءِ على لغة من يكسر، وهي في بني ضبَّة، قال أَبو الفتح: وأَما المعْتَلُّ نحو قِيلَ وبِيعَ فالفاشي فيه الكسر، ثم الإِشمام، ثم الضم، فيقولون: قُولَ وبُوعَ، وأَنشد ثعلب:

. . . . وقُــولَ لا أَهْــلَ لَــهُ ولاَ مَــالْ(١)

قال الزجاج: من قرأَ: [رِدَّت] بكسر الراءِ جعلها منقولة من الدال، كما فعل في قيل وبيع لِتَدُلَّ على أَن أَصل الدال الكسرة.

وقوله: ﴿مَا نَبْغِي﴾ يحتمل أَن تكون [مَا] استفهاماً، قاله قتادة، و[نَبْغِي] من البُغْيَة، أَي: ما نطلب بعد هذه التكرمة؟ هذا مالُنَا رُدَّ إِلينا مع مِيرتنا. قال الزجاج: ويحتمل أَن تكون [مَا] نافية، أَي: ما بقي لنا ما نطلب، ويحتمل أَيضاً أَن تكون نافية و[نَبْغي] من البَغْي، أَي: ما تَعَدَّيْنَا فَكَذَبْنَا على هذا الملِك ولا في وصف إِجماله وإِكرامه، هذه البضاعة مردودة. وقرأَ أَبو حيوة: [ما تبغي] بالتاء على مخاطبة يعقوب، وهي بمعنى: ما تريد؟ وما تطلب؟ قال المهدوي: وروتها عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ.

وقرأَت فرقة: ﴿وَنَمِيرُ﴾ بفتح النون، من: مار يميرُ إِذا جلب الخير، ومن ذلك قول الشاعر:

بَعَثْتُــكَ مَــائِــراً فَمَكَثْــت حَــوْلاً مَتى يَـأْتي غِيـاثُـكَ مـنْ تُغِيثُ؟(٢)

وقرأَت عائشة رضي الله عنها: [ونُميرُ] بضم النون، وهي من قراءَة أَبي عبد الرحمن السُّلَمي، وعلى هذا يقال: مار وأَمَارَ بمعنى.

وقولهم: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ يريدون بعير أَخيهم، إِذْ كان يوسف إِنما حمَّل لهم عشرة أَبعرة ولم يحمل الحادي عشر لغيبة صاحبه، وقال مجاهد: ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أَراد: كيل حمار، قال: وبعض العرب يقول للحمار: بعير. وهذا شاذ.

---

(١) هذا عجز بيت، أورده في (اللسان ـ قول)، و(المنصف ١ـ٢٥٠)، و(المحتسب ١ـ٣٤٥)، وهو بتمامه:

وابْتُــذِلَــتْ غَضْبَــى وأُمُّ الــرِّحَــالْ وقُــولَ لا أَهْــلَ لَــهُ ولا مَــالْ

وفي (اللسان): «وابتدأت» بدلا من و«ابْتُذِلَتْ». وقال ابن جني في «المحتسب»: «وأظنه عن أحمد بن يحيى».

(٢) يقال: مارَ أولاده وأَهْله يَميرهُم مَيْراً فهو مائِرٌ، فالمائر: اسم فاعل، والمِيرَة: الطعام يأتي به الإنسان، وهم يمتارون لأنفسهم، ويُميرون غيرهم، والمَيَّار: جالب الميرة، والمُيَّار: جمع مائر.

وقولهم: ﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾ تقرير بغير ألف، أي: أذلك كيلٌ يسيرٌ في مثل هذا العام فيهمل أمره؟ وقيل: معناه: يسير على يوسف أن يعطيه، وقال الحسن البصري: وقد كان يوسف وعدهم أن يزيدهم حمل بعير بغير ثمن، وقال السدي: معنى ذلك: كيل يسير أي سريع لا نحبس فيه ولا نمطل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكأنهم ـ على هذا ـ آنسوه بقرب العودة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾.

أَراد يعقوب عليه السلام أن يتوثق منهم، والمَوْثِقُ «مَفْعَل» من الوثاقة، فلما عاهدوه أَشهد الله بينه وبينهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾، والوكيل: القيِّم الحافظ.

وقرأَ ابن كثير: [تُؤْتُونِي] بياءٍ في الوصل والوقف، ورُوِي عن نافع أنه وصل بياءٍ ووقف دونها، والباقون تركوا الياءَ في الوجهين.

وقوله: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾، قيل: خشي عليهم العين لكونهم أَحد عشر لرجل واحد، وكانوا أَهل جَمال وبسطة، قاله ابن عباس، والضحاك، وقتادة وغيرهم. والعين حقٌّ، وقد قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ العين لتُدخِل الرجل القبر، والجمل القِدْر)(١). وفي تعوذه عليه الصلاة والسلام: (أَعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، وكل عين لامة)(٢)، وقيل: خشي أَن يُسْتَراب بهم لقول يوسف قبْلُ: «أَنتم جواسيس»، ويضعف

(١) أخرجه ابن عديّ في الكامل، وأبو نعيم في الحلية عن جابر، وابن عديّ في الكامل عن أبي ذر، ولفظه في «الجامع الصغير»: (العين تدخل الرجل القبر، وتدخل الجمل القدر). ورمز له الإمام السيوطي بالصحة.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، وأبو داود في السُّنَّة، والترمذي في الطب، وكذلك ابن ماجه أخرجه في الطب، والإمام أحمد في مسنده (١ـ٢٣٦، ٢٧٠)، ولفظه فيه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يُعَوِّذ حَسَناً وحُسَيْناً يقول: (أُعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة)، وكان يقول: (كان إبراهيم أبي يُعَوِّذ بها إسماعيل وإسحاق).

هذا ظهورهم قبْلُ بمصر، وقيل: طمع بافتراقهم أَن يتسمّعوا ويتطلعوا خبر يوسف، وهذا ضعيف يردُّه ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ فإن ذلك لا يتركب على هذا المقصد.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ لفظ عام لجميع وجوه الغلبة والقسر، والمعنى: تعمكم الغلبة من جميع الجهات حتى لا تكون لكم حيلة ولا وجه تخلُّص، وقال مجاهد: المعنى: إلا أَن تهلكوا جميعاً، وقال قتادة: إلاَّ أَلاَّ تطيقوا ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا يرجحه لفظ الآية.

وانظر أَن يعقوب عليه السلام قد توثق في هذه القصة، وأَشهد الله تعالىٰ، ووصَّى بنيه، وأَخبر بعد ذلك بتوكله، فهذا توكل مع تسبب، وهو توكل جميع المؤمنين إلا من شذَّ في رفض السعي، وقنع بالماءِ وبقل البرية ونحوه، فتلك غاية التوكل، وعليها بعض الأنبياءِ عليهم السلام، والشارعون منهم مثبتون سُنن التسبب الجائز، وما تجاوز ذلك من الإلقاءِ باليد مختلف في جوازه، وقد فضله بعض المجيزين له، ولا أَقول بذلك، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

رُوي أَنهم لما ودعوا أَباهم قال لهم: «بلغوا ملك مصر سلامي، وقولوا له: إن أَبانا يصلي عليك، ويدعو لك، ويشكر صنيعك معنا». وفي كتاب أَبي منصور المهراني أَنه خاطبه بكتاب قرئ على يوسف فبكى.

وقوله: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ بمثابة قوله: لم يكن في ذلك دفع قَدَر الله، بل كان أَرَباً ليوسف قضاه، وطيباً لنفسه تمسك به وأَمر بحسبه، فجواب [لَمَّا] في معنى قوله: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾[1]،

(١) قال أبو حيان في البحر: «وفيه حجة لمن زعم أن [لَمّا] حرف وُجوب لوجوب لا ظرف زمان بمعنى (حين)، إذ لو كانت ظرف زمان ما جاز أن تكون معمولة لِمَا بعد (ما) النافية، لا يجوز: «حين قام زيد=

و﴿ إِلَّا حَاجَةً ﴾ استثناءٌ ليس من الأول، والحاجة هي أن يكون طيب النفس بدخولهم من أبواب متفرقة خوف العين، قال مجاهد: الحاجة: خيفة العين، وقاله ابن إسحاق، وفي عبارتهما تجوز، وفي نظير هذا الفعل أن النبي ﷺ سدَّ كوَّة في قبرٍ بحجر وقال: (إن هذا لا يغني شيئاً ولكنه تطْيِيبٌ لنفس الحي)[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

قوله ـ عندي ـ: ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ معناه: ما يرُدُّ عنهم قدراً، لأنه لو قضى أن تصيبهم عين لأصابتهم مفترقين أو مجتمعين، وإنما طمع يعقوب أن تصادف وصيتُه قَدَرَ السلامة فوصَّى، وقضى ـ بذلك ـ حاجة نفسه في أن يتنعَّم برجائه أن تصادف وصيتُه القدر في سلامتهم.

ثم أثنى الله عزَّ وجلَّ على يعقوب بأنه لقن ماعلمه الله من هذا المعنى، واندرج غير ذلك في العموم، وقال: إن أكثر الناس ليس كذلك، وقيل: معناه: إنه لعامل بما علمناه، قاله قتادة. وقال سفيان: من لا يعمل لا يكون عالماً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا لا يعطيه اللفظ، أما إنه صحيح في نفسه يرجِّحه المعنى وما تقتضيه منزلة يعقوب عليه السلام، قال أبو حاتم: قرأ الأعمش: [لذو علم مما علمناه]. ويحتمل أن يكون جواب [لَمَّا] في هذه الآية محذوفاً مقدراً، ثم يخبر عن دخولهم أنه ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِي ﴾ الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ الآية. المعنى أنه لما دخل إخوةُ يوسف عليه ورأى أخاه شكر ذلك لهم ـ على ما رُوي ـ وضمَّ إليه أخاه وآواه إلى نفسه، ومن هذه الكلمة: المأوى، وكان يامين شقيق يوسف فآواه. وصورة ذلك ـ فيما رُوي عن ابن إسحاق وغيره ـ أن يوسف عليه السلام أمر صاحب ضيافته أن ينزلهم رجلين رجلين، فبقي يامين وحده، فقال يوسف: أنا أُنزل هذا مع نفسي، ففعل وبات عنده، وقال له: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ ﴾، واختلف المتأولون في هذا اللفظ ـ فقال ابن إسحاق

= ما قام عمرو»، ويجوز: «لما قام زيد ما قام عمرو»، فدلَّ ذلك على أن [لَمَّا] حرف يترتب جوابه على ما بعده».

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الطب.

وغيره: أخبره بأنه أخوه حقيقة واستكتمه، وقال له: لا تبال بكل ما تراه من المكروه في تحيُّلي في أخذك منهم، وعلى هذا التأويل يحتمل أن يشير بقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إلى ما يعمله فتيان يوسف من أمر السقاية ونحو ذلك[1]، ويحتمل أن يشير إلى ما عمله الإخوة قديماً. وقال وهب بن منبه: إنما أخبره أنه أخوه في الود مقام أخيه الذاهب، ولم يكشف له الأمر بل تركه تجوز عليه الحيلة كسائر إخوته.

و﴿تَبْتَئِسْ﴾ تفتعل، من البؤس، أي: لا تحزن ولا تهتم، وهكذا عبّر المفسرون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

هذا من الكيد الذي يَسّره الله ليوسف عليه السلام، وذلك أنه كان في دين يعقوب أن يُسْتعبد السارق، وكان في دين ملك مصر أن يُضرب ويضاعف عليه الغرم، فعلم يوسف أن إخوته ـ لثقتهم ببراءَة ساحتهم ـ سيدعون في السرقة إلى حكمهم، فتَحيَّل لذلك، واستسهل الأمر على ما فيه من رمْي أبرياءَ بالسرقة وإدخال الهَمِّ على يعقوب عليه السلام وعليهم، لما علم في ذلك من الصلاح في الآجل، وبوحي لا محالة وإرادةٍ من الله محنتُهم بذلك. هذا تأويل قوم، ويُقَوِّيه قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

وقيل: إنما أُوحي إلى يوسف أن يجعل السقاية فقط، ثم إن حافظها فقدها، فنادى برأيه على ما ظهر إليه، ورجَّحه الطبريُّ، وتفتيش الأوعية يردُّ عليه.

وقيل: إنهم لما كانوا قد باعوا يوسف استجاز أن يقال لهم هذا، وأنه عوقب على ذلك بأن قالوا: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

---

(١) اعترض أبو حيان في البحر على كلام ابن عطية، قال: «ولا يحتمل ذلك، لأنه لو كان التركيب «بمَا يَعْمَلُونَ» بغير «كانوا» لأمكن عَلَى بُعْده، لأن الكلام إنما هو مع إخوة يوسف، وأما ذكر فتيانه فبعيد جداً، لأنهم لم يتقدم لهم ذكر إلا في قوله: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ﴾، وقد حال بينهما قصص، واتسق الكلام مع الإخوة اتساقاً لا ينبغي أن يعدل فيه عن ضمير عائد إليهم، وإن ذلك إشارة إلى ما كان يلقى منهم قديماً من الأذى».

وقوله: ﴿جَعَلَ﴾ أي أمر خَدَمه وفتيانه، وقرأ ابن مسعود: [وَجَعَلَ] بزيادة واو.

و﴿السِّقَايَةَ﴾: الإناءُ الذي يشرب به الملك، وبه كان يكيل الطعام للناس، هكذا نص جمهور المفسرين: ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والضحاك، وابن زيد، وفي كتب من حرَّر أَمرها أَنها شكل له رأسان ويصل بينهما مَقْبِضَ يمسك بالأيدي، فَيُكال الطعام بالرأس الواحد، ويشرب بالرأس الثاني أَو بهما، فيشبه أَن يكون لِشَراب أَضياف الملك وفي أَطعمته الجميلة التي يحتاج فيها إِلى عظم الأَواني.

وقال سعيد بن جبير: الصُّواع مثل المكُّوك الفارسي، وكان إناءَ يوسف الذي يشرب فيه، وكان إِلى الطول ما هو، قال: وحدثني ابن عباس رضي الله عنهما أَنه كان للعباس مثله يشرب به في الجاهلية.

وقال ابن جبير أَيضاً: الصُّواع: المكُّوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه، كانت تشرب فيه الأَعاجم، ورُوي أَنها كانت من فضة، وهذا قول الجمهور، ورُوي أَنها كانت من ذهب، قال الزجَّاج: وقيل: كان من مَسْك[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد رُوي هذا بفتح الميم.

وقيل: كان يشبه الطاس، وقيل: من نحاس، قاله ابن عباس أَيضاً، ولِعزَّة الطعام في تلك الأَعوام قُصِر كيلها على ذلك الإناءِ. وكان هذا الجَعْلُ بغير علم يامين. قاله السُّدِّي، وهو الظاهر.

فلما فصلت العير بأَوقارها، وخرجت من مصر فيما رُوي ـ وقالت فرقة: بل قبل الخروج من مصر ـ أَمر بهم فحبسوا، و﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾، ومخاطبة الْعِير تَجَوُّز، والمرادُ أَربابُها، وإِنما المراد: أَيتها القافلة أَو الرفقة، وقال مجاهد: كانت دوابهم حميراً، ووصفهم بالسرقة من حيث سرق ـ في الظاهر ـ أَحدهم، وهذا كما تقول: «بنو فلان قتلوا فلاناً» وإِنما قتله أَحدهم. فلما سمع إِخوة يوسف هذه المقالة أَقبلوا عليهم، وساءَهم أَن يُرْمَوا بهذه المنقبة، وقالوا: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ ليقع التفتيش فتظهر براءَتُهم، ولم يلوذوا بالإِنكار من أَول، بل سأَلوا إِكمال الدعوى عسى أَن يكون فيها

(١) المَسْك (بفتح الميم وسكون السين) الجلد.

ما تَبْطُل به فلا يحتاج إلى خصام. وقرأ أبو عبد الرحمن: [تُفْقِدُونَ] بضم التاءِ، وضعفها أبو حاتم.

﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾ وهو المكيال، وهو السقاية، رسمه أولا بإحدى جهتيه وآخراً بالثانية. وقرأ جمهور الناس: ﴿ صُوَاعَ ﴾ بضم الصاد وبألف، وقرأ أبو حَيْوة: [صِوَاع] بكسر الصاد وبألف، وقرأ أبو هريرة، ومجاهد: [صاع الملك] بفتح الصاد دون واو، وقرأ عبد الله بن عوف: [صُوعَ] بضم الصاد، وقرأ أبو رجاءٍ: [صَوْعَ][(١)]. وهذه لغات في المكيال، قاله أبو الفتح وغيره، وتؤنث هذه الأسماءُ وتذكر، وقال أبو عبيد: يؤنث الصاع من حيث سمي سقاية، ويُذكَّر من حيث هو صاع، وقرأ يحيى بن يعْمَر: [صَوْغَ] بالغين منقوطة، وهذا على أنه الشيءُ المصوغ للملك على ما رُوي أنه كان من ذهب أو فضة، فهو مصدر سُمِّي به، ورويت هذه القراءَة عن أبي رجاءٍ، قال أبو حاتم: وقرأ سعيد بن جبير، والحسن: [صُوَاغ] بضم الصاد وألف وغين معجمة.

وقوله: ﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ أَي: لمن دلَّ على سارقه وفضحه وجبر الصواع على الملك[(٢)]، وهذا جُعْل[(٣)]. وقوله: ﴿ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ حَمَالة[(٤)]، وذلك أنه لما كان الطعام لا يوجد إلا عند الملِك فُهِم عن المؤذِّن أنه إنما جعَلَ عن غيره، فلخوفه ألَا يوثَق بهذه الْجَعَالة ـ إِذ هي عن الغَيْر ـ تحمل هو بذلك. قال مجاهد: الزَّعيم هو المؤذِّن الذي قال: ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ ﴾، والزعيم: الضامن في كلام العرب، ويسمى الرئيس زعيماً لأنه يتضمن حوائج الناس.

وقوله: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ ﴾ الآية. رُوي أَن إِخوة يوسف كانوا ردُّوا البضاعة الموجودة في الرحال، وتحرجوا من أخذ الطعام بلا ثمن، فلذلك قالوا: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُم ﴾، أَي: لقد علمتم منا التحري، ورُوي أنهم كانوا قد اشتهروا في مصر بصلاح وتعفف، وكانوا يجعلون الأَكِمَّة[(٥)] في أَفواه إِبلهم لئلا تنال زرع الناس، فلذلك قالوا: لقد علمتم

---

(١) أي بفتح الصاد وسكون الواو، والعبارة في إحدى النسخ: «وقرأ أبو رجاءٍ كذلك إلا أنه فتح الصاد»، وهي أدق.

(٢) جَبَرَ: رَدَّ، يقال: جَبَرَ الله مصيبة فلان، أي رَدَّ عليه ما ذهب منه، أو عوَّضه عنه.

(٣) الجُعْل والجَعالَة: ما يُجْعل على العمل من أجر أو رشوة. وبمعناهما أيضاً الجِعال بكسر الجيم.

(٤) الحَمَالة والحَمَال: الدِّية أو الغرامة يحملها قوم عن قوم.

(٥) الأكِمَّة: جمع كِمَامٍ، وهو الغطاءُ الذي يجعل على العناقيد والكبائس إلى حين صرامها. (اللسان ـ كمم).

ما جئنا لفساد وما نحن أَهل سرقة. والتاءُ في ﴿تَاللهِ﴾ بدل من واو، كما أُبدلت في «تُراثٍ»، وفي «التَّوراة» و«تُخَمة»[١]. ولا تدخل التاءُ في القسم إلا في المكتوبة من بين أَسماءِ الله تعالىٰ لا في غير ذلك، لا تقول: «تالرحمن» ولا «تالرحيم»[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ الآية. قال فتيان يوسف: فما جزاءُ السارق إن كنتم كاذبين في قولكم: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾؟ فقال إِخوة يوسف: جزاءُ السارق الحكم الذي تتضمنه هذه الأَلفاظ ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾، فـ ﴿جزاؤُهُ﴾ الأَول مبتدأٌ، و﴿مَنْ﴾ مبتدأٌ ثانٍ، ـ و﴿مَنْ﴾ شرط، أَو بمعنى الذي. وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ خبر ﴿مَنْ﴾، والجملة خبر قوله: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ الأَول، والضمير في قوله: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ للسارق[٣]. ويصحُّ أَن تكون ﴿مَنْ﴾ خبراً على أَن المعنى: «جَزاءُ السارق من وجد في رحله»، والضمير في ﴿رَحۡلِهِۦ﴾ عائد على ﴿مَنْ﴾، ويكون قوله: ﴿فَهُوَ﴾ زيادةَ بيانٍ وتأْكيداً، وليس هذا الموضع عندي من مواضع إبراز الضمير على ما ذهب إِليه بعض المفسرين. ويحتمل أَن يكون التقدير: «جزاؤُه استرقاق من وُجد في رحله»، ثم يؤَكِّد بقوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾[٤]، وقولهم هذا قولُ من لم يَسْتَرِبْ بنفسه، لأَنهم التزموا إِرقاق من وُجد في رحله، وهذا أَكثر من موجب شرعهم، إِذ حق شرعهم أَلا يُؤْخذ إِلا من صحت

---

(١) هذا قول أكثر النحويين، وخالف السهيلي في ذلك فزعم أنها أصل وليست بدلاً من واو، وقال أبو حيان: «وهو الصحيح».

(٢) قال أبو حيان في «البحر»: «حكي عن العرب دخولها على «الرب» و«الرحمن» و«حياتك»، قالوا: «تَرَبِّ الكعبة ـ وتالرَّحمن ـ وتَحَيَاتِكَ». وابن عطية يطلق في أحيان كثيرة لفظ «المكتوبة» على اسم الجلالة «الله».

(٣) من رأي صاحب «البحر المحيط» أن هذا الإعراب لا يصح لخلو جملة الجواب من رابط يربطها بالمبتدأ.

(٤) ذكر ابن عطية هنا إعرابين آخرين للجملة. الأول في قوله: «ويصح أن يكون ﴿مَنْ﴾ خبراً على أن المعنى: جزاءُ السارق من وُجد في رحله، والضمير في ﴿رَحۡلِهِۦ﴾ عائد على ﴿مَنْ﴾، وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ زيادة بيان وتأكيد. والثاني هو قوله: ويحتمل أن يكون التقدير: جزاؤُه استرقاقُ من وُجد في رحله. . . إلخ. وقد علّق أبو حيان على الإعراب الثاني بقوله: «وهذا القول هو الذي قبله غير أنه أبرز المضاف المحذوف في قوله: (استرقاق مَنْ وُجد في رحله)، وفيما قبله، لا بد من تقديره، لأن الذات لا تكون خبراً عن المصدر، فالتقدير في الذي قبله: جزاؤُه أَخذ من وُجد في رحله، أو استرقاق من وجد في رحله، فهذا لا بد منه على هذا الإعراب». ومعنى هذا أن القولين قول واحد. وفي رأي أبي حيان أن هذا الوجه الأخير في الإعراب هو أحسن الوجوه وأبعدها من التكلف.

سرقته، وَأمْرُ يامين في السقاية كان محتملاً، لكنهم التزموا أنَّ من وُجد في رحله فهو مأخوذ على أنه سارق.

وقولهم: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أَي: هذه سُنَّتُنَا ودِيننا في أَهل السرقة، أَن يُتَمَلَّك السارق كما تَمَلَّك هو الشيءَ المسروقَ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وحكى بعض الناس أَن هذا الحكم كان في أَول الإِسلام ثم نسخ بالقطع، وهذا ضعيف، ما كان قط فيما علمت. وحكى الزهراوي عن السدي أن حكمهم إِنما كان أَن يُستخدم السارق على قدر سرقته، وهذا يضعفه رجوع الصُّواعِ، فكان ينبغي أَلا يُؤْخذ يامين إِذ لم يبق فيما يخدم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

بدؤُه أَيضاً بأَوعيتهم تمكين للحيلة، وإِبعادٌ لظهور أَنها حيلة. وقرأَ جمهور الناس: ﴿وِعَآءِ﴾ بكسر الواو، وقرأَ الحسن: [وُعاءِ] بضمها، وقرأَ ابن جُبير: [إِعَاءِ] بهمزة بدل الواو، وهذا شائع في الواو المكسورة، وهو أَكثر في المضمومة، وقد جاءَ في المفتوحة أَحد في وحَد.

وأَضاف الله تعالىٰ الكيد إِلى ضميره لَمَّا أَخرج القدر الذي أَباح به ليوسف أَخذ أَخيه مَخْرج ما هو في اعتياد الناس كيْدٌ. وقال السدي، والضحاك: ﴿كِدْنَا﴾ معناه: صنَعْنَا. و﴿دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ فسَّره ابن عباس رضي الله عنهما بسلطانه، وفسَّره قتادة بالقضاءِ والحكم. وهذا متقارب، والاستثناءُ في هذه الآية حكاية حال، التقدير: «إِلاَّ أَن شاءَ اللهُ ما وقع من هذه الحيلة»، ويحتمل أَن يقدر أَنه تَسَنُّن لما قرر النفي.

وقرأَ الجمهور: ﴿نَرْفَعُ﴾ على ضمير المعظم، و﴿نَّشَآءُ﴾ كذلك، وقرأَ الحسن، وعيسى، ويعقوب بالياءِ، أَي الله تعالىٰ، وقرأَ أَبو عمرو، ونافع، وأَهل المدينة: ﴿دَرَجَاتِ مَن﴾ بإِضافة «الدرجات» إِلى «مَنْ»، وقرأَ عاصم، وابن محيصن: ﴿دَرَجَـٰتٍ

مَن﴾ بتنوين الدرجات، وقرأ الجمهور: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ﴾، وقرأ ابن مسعود: [وفوق كل ذي عالم]، والمعنى أن البشر في العلم درجات، فكل عالم فلا بُدَّ من أعلم منه، فإمَّا من البشر، وإمَّا الله عزَّ وجلَّ، وأَمَّا على قراءَة ابن مسعود فقيل: [ذي] زائدة، وقيل: [عَالِم] مصدر كالباطل[1].

ورُوي أَن المفتش كان إذا فرغ من رَحْل رجُل فلم يجد فيه شيئاً استغفر الله عزَّ وجلَّ تائباً من فعله ذلك. وظاهر كلام قتادة وغيره أَن المستغفر كان يوسف، لأَنه كان يفتشهم ويعلم أَين الصواع، حتى فرغ منهم وانتهى إِلى رحل بنيامين فقال: ما أَظن هذا الفتى رضي بهذا، ولا أَخذ شيئاً، فقال له إِخوته: والله لا نبرح حتى تفتشه فهو أَطيب لنفسك ونفوسنا، ففتش حينئذٍ فأَخرج السقاية، وهذا التفتيش من يوسف يقتضي أَن المؤَذِّن إنما سرَّقهم برأْيه[2]، وإِمَّا أَن يقال: جميع ذلك كان بأَمر الله تعالىٰ[3]، ويُقَوِّي ذلك قوله:

---

(١) قال ابن جني في المحتَسب: هو مصدر كالفالج والباطل، فكأنه قال: «وفوق كل ذي علم عليم». وأما على تقدير زيادة [ذي] فيصبح المعنى: «وفوق كل علم عليم»، وهناك وجه ثالث في تبيين قراءة ابن مسعود ذكره ابن جني أيضاً، وهو أن تكون من باب إضافة المسمى إلى الاسم، والمعنى: «وفوق كل شخص يسمى عالماً عليم»، وقد كثر عن العرب إضافة المسمَّى إلى اسمه، فمن ذلك قول الكميت:

إِلَيْكُمْ ذَوِي آلِ النَّبِيِّ تَطَلَّعَتْ ... نَوازِعُ مِنْ نفْسِي ظِمَاءٌ وأَلْبُبُ

والنوازع هي من الحنين والميل إلى الشيءِ، وأَلْبُبُ: جمع لُبٍّ وهو العقل، والمعنى في البيت: إليكم يا آل النبي، يا مَنْ تُسَمُّون بهذا الاسم، وعليه قول الأعشى:

فَكَذَّبَهَا بما قَالَتْ فَصَبَّحَهُمْ ... ذُو آلِ حَسَّانَ يُزجِي المَوْتَ والشَّرَعَا

أي: كذبوا زرقاءَ اليمامة فصبحهم الجيش الذي يقال له: آل حسَّانَ، والشَّرَع: جمع شِرْعة وهي الحِبالة التي يصيد بها الصائد.

(٢) أي: نسبهم المؤَذِّن إلى السرقة برأيه هو.

(٣) قد يستغنى عن [إمَّا] الثانية بذكر ما يغني عنها نحو قول المثقب العبدي:

فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَخِي بِصِدْقٍ ... فَأَعْرِفَ مِنْكَ غَثِّي مِنْ سَمِينِي
وَإِلا فَاطَّرِحْنِي واتَّخِذْنِي ... عَدُواً أَتَّقِيكَ وتَتَّقِينِي

وقد يستغنى عن الأُولى لفظاً كقول النَّمر بن تولب:

سَقَتْهُ الرَّوَاعِدُ مِنْ صَيِّفٍ ... وَإِنْ مِنْ خَرِيفٍ فَلَنْ يَعْدِمَا

ومن قول ذي الرمة (ونسب للفرزدق):

تُلِمُّ بدارٍ قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهَا ... وَإِمَّا بأَمْوَاتٍ أَلَمَّ خَيَالُهَا

أي: إمَّا بدار وإمَّا بأمواتٍ ـ ويمكن أن يكون ابن عطية على هذا الثاني، أي: حذف إمَّا الأولى، وتقدير الكلام: «إمَّا هذا، وإمَّا أن يقال... إلخ».

﴿كِدْنَا﴾، وكيف لا يكون برأي يوسف وهو مضطر في محاولته لأَن يلزمهم حكم السرقة ليَتِمَّ له أَخذ أَخيه.

والضمير في قوله: ﴿ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ عائد على السقاية، ويحتمل أَن يعود على السرقة.

ورُوي أَن إِخوة يوسف لما رأَوا ذلك قالوا: يَا بِنْيَامِين بن راحيل، قبَّحك الله، ولدت أُمك أَخوين لِصَّيْن، كيف سَرَقْت هذه السقاية؟ فرفع يديه إِلى السماءِ وقال: والله ما فعلتُ، فقالوا له: فمن وضعها في رحلك؟ قال: الذي وضع البضاعة في رحالكم.

وما ذكرناه من المعنى في قوله تعالىٰ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ هو قول الحسن وقتادة، وقد رُوي عن ابن عباس، ورُوي أَيضاً عنه رضي الله عنه أَنه حدَّث يوماً بحديث عجيب، فتعجب منه رجلٌ ممن حضر وقال: «الحمد لله وفوق كل ذي علم عليم»، فقال له ابن عباس: «بئس ما قلت، إنما العليمُ اللهُ، وهو فوق كل ذي علم».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبين هذا وبين قول الْحَسَن فرقٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

الضمير في ﴿قَالُوا﴾ لإِخوة يوسف، والأَخ الذي أَشاروا إِليه هو يوسف، ونكَّروه تحقيراً للأَمر، إِذ كان مما لا علْم للحاضرين به، ثم أَلصقوه ببنْيامين إِذْ كان شقيقه.

ويحتمل قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ تأْويلَيْن:

أَحدهما: أَنهم حققوا السرقة في جانب بنيامين ويوسف عليهما السلام بحسب ظاهر الحكم، فكأَنهم قالوا: إِن كان قد سرق فغير بدع من ابْنَيْ راحيل، لأَن أَخاه يوسف كان قد سرق، فهذا من الإِخوة إِنْحاءٌ على ابنَيْ راحيل: يوسف وبنيامين.

والوجه الآخر الذي يحتمله لفظهم يتضمن أَن السرقة في جانب يوسف وبنيامين مظنونة، كأَنهم قالوا: إِن كان هذا الذي رمي به بنيامين حقاً في نفسه فالذي رُمِيَ به يوسف قبلُ حق إِذاً، وكأَن قصة يوسف والظن به قوياً عندهم أَقوى مما ظهر في جهة بنيامين.

وقال بعض المفسرين: «التقدير: فقد قيل عن يوسف إِنه سرق»، ونحو هذا من القول الذي لا ينطبق معناه على لفظ الآية.

وهذه الأَقوال منهم عليهم السلام إِنما كانت بحسب الظاهر وموجب الحكم في النازلين، فلم يعنوا غيبة ليوسف، وإِنما قصدوا الإِخبار بأَمر جرى لِتَزُول بعض المعرة عنهم ويختص بها هذان الشقيقان.

وأَما ما رُوي في سرقة يوسف فثلاثة وجوه: الجمهور منها على أَن عمته كانت ربَّته، فلما شب أَراد يعقوب أَخذه منها، فولعت به وأَشفقت من فراقه، فأَخذت مِنْطقة إِسحاق ـ وكانت متوارثة عندهم ـ فنَطَّقَتْهُ بها من تحت ثيابه، ثم صاحت وقالت: إِني قد فقدتُ المِنْطَقة ويوسف قد خرج بها، فَفُتِّش فوجدت عنده، فاسْتَرقَّتْهُ ـ حسبما كان في شرعهم ـ وبقي عندها حتى ماتت فصار عند أَبيه، وقال ابن إِدريس عن أَبيه: إِنَّمَا أكل بنو يعقوب طعاماً فأَخذ يوسف عَرْقاً[1] فخبأَه فرموه لذلك بالسرقة، وقال سعيد بن جبير، وقتادة: إنما أَمرته أُمه أن يسرق صنماً لأَبيها فسرقه وكسره، وكان ذلك ـ منها ومنه ـ تغييراً للمنكر، وفي كتاب الزجَّاج أَنه كان صنم ذهب[2].

والضمير في قوله: ﴿فَأَسَرَّها﴾ عائد يُرادُ به الحزازة التي حدثت في نفس يوسف من قولهم، والكلام يتضمنها، وهذا كما تضمن الكلام الضمير الذي في قول حاتم:

لَعَمْـرِكَ مـا يُغْنـي الثَّـراءُ عـن الفَتَـى   إِذا حشْرَجتْ يَوْماً وضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ[3]

وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4] فهو مرادٌ به الحالة المتحصلة من هذه الأَفعال المذكورة في الآية.

وقال قومٌ: أَسرَّ المجازاة، وقال قوم: أَسرَّ الحجة. وما قدمناه أَليق. وقرأَ ابن أَبي عبلة: [فأسره يوسف] بضمير تذكير.

---

(١) العَرْق بفتح العين: اللحم المطبوخ، وقيل: عظمٌ أُخذ جُلُّ لحمه.

(٢) وقيل: إن يوسف كان يسرق من طعام المائدة للمساكين، حكاه ابن عيسى. وقال الحسن: إنهم كذبوا عليه فيما نسبوه إليه.

(٣) البيت في (اللسان ـ حشرج)، وقد تمثلت به أُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين دخلت على أبيها عند موته، والرواية في (اللسان): أَماوِيَّ ما يغني... وحاتم فيه يخاطب زوجة ماوية، والحشرجة: تردد صوت النفس، وهو الغرغرة في الصدر عند الموت، والشاهد فيه أن الضمير في (حشرجت) ليس له مرجع مذكور في الكلام.

(٤) الآية (١١٠) من سورة (النحل).

وقوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ الآية. الظاهر منه أنه قالها إفصاحاً، فكأنه أسرَّ لهم كراهية مقالتهم ثم وبَّخهم بقوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي لسوءِ أفعالكم، والله يعلم إن كان ما وصفتموه حقاً، وفي اللفظ إشارة إلى تكذيبهم، ومما يُقَوِّي هذا عندي أنهم تركوا الشفاعة بأنفسهم وعدلوا إلى الشفاعة بالشيخ عليه السلام، وقالت فرقة ـ وهو ظاهر كلام ابن عباس رضي الله عنهما ـ: لم يقل يوسف عليه السلام هذا الكلام إلا في نفسه، وإنما هو تفسير للذي أسرَّ في نفسه، أي: هذه المقالة هي التي أسر. فكأن المراد: قال في نفسه: ﴿أَنتُمْ﴾.

وذكر الطبري هنا قصصاً اختصاره أنه لما استخرجت السقاية من رحل بنيامين قال إخوته: يا بني راحيل. ألا يزال البلاءُ ينالنا من جهتكم ؟ فقال بنيامين: بل بنو راحيل ينالهم البلاءُ منكم: ذهبتم بأخي فأهلكتموه، ووَضَع هذا الصواع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالكم، فقالوا: لا تذكر الدراهم وإلا أُخذنا بها، ثم دخلوا على يوسف فأخذ الصواع فنقره فطَنَّ، فقال: إنه يخبر أنكم ذهبتم بأخ لكم فبعتموه، فسجد بنيامين وقال: أيها العزيز، سل صواعك هذا يخبرك بالحق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ونحو هذا من القصص الذي آثرنا اختصاره، ورُوي أن روبيل غضب ووقف شعره حتى خرج من ثيابه، فأمر يوسف بنيًّا له فمسَّه فسكن غضبه، فقال روبيل: لقد مسَّني أحد من ولد يعقوب، ثم إنهم تشاوروا في محاربة يوسف ـ وكانوا أهل قوة لا يدانون في ذلك ـ فلما أحس يوسف بذلك قام إلى روبيل فلبَّبه وصرعه، فرأوا من قوته ما استعظموه عند ذلك، وقالوا: أيها العزيز.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

خاطبوه باسم العزيز إِذْ كان في تلك اللحظة بعزل الأَول أَو موته[1]، على ما رُوي في ذلك. وقولهم: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ يحتمل أَن يكون مجازاً وهم يعلمون أنه لا يصح أَخْذ حُرٍّ لِيُسْتَرَقَّ بدل من أَحكمت السُّنة رقَّه، وإنما هذا كما تقول لمن تكره فعله: «اقتلني ولا تفعل كذا وكذا»، وأَنت لا تريد أَن يقتلك ولكن تبالغ في استنزاله، وعلى هذا يتجه قول يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ لأَنه تعوذ من غير جائز، ويحتمل أَن يكون قولهم: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ حقيقة، وبعيد عليهم ـ وهم أَنبياءُ ـ أَن يريدوا استرقاق حُرٍّ، فلم يبق إلا أَن يريدوا بذلك طريق الحمالة، أَي: خذ أَحدنا حتى ينصرف إِليك صاحبك، ومقصدهم بذلك أَن يصل بنيامين إِلى أَبيه، ويعرف يعقوب جلية الأَمر، فمنع يوسف عليه السلام من ذلك، إِذ الحمالة في الحدود ونحوها بمعنى إِحضار المضمون جائزةٌ مع التراضي غير لازمة إِذا أَبَى الطالب، وأَما الحمالة في مثل هذا ـ على أَن يلزم الحميل ما كان يلزم المضمون من عقوبة ـ فلا يجوز ذلك إِجماعاً، وفي «الواضحة» أَن الحمالة في الوجه فقط في جميع الحدود جائزة إِلا في النفس.

وقولهم: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يحتمل أَن يريدوا وصفه بما رأَوا من إِحسانه في جميع أَفعاله معهم ومع غيرهم، ويحتمل أَن يريدوا: إِنا نرى لك إِحساناً علينا في هذه اليد إِنْ أَسديتها إِلينا، وهذا تأْويل ابن إِسحاق.

و﴿مَعَاذَ﴾ نصب على المصدر، ولا يجوز إِظهار الفعل معه، والظلم في قوله: ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ على حقيقته، إِذْ هو وضع الشيءِ في غير موضعه، وذكر الطبري أَنه رُوي أَن يوسف لما أَيْأَسهم بلفظه هذا قال لهم: إِذا أَتيتم أَباكم فاقرؤُوا عليه السلام، وقولوا له: إِن ملك مصر يدعو لك أَلا تموت حتى ترى ولدك يوسف، ليعلم أَن في أَرض مصر صدِّيقين مثله.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ الآية. يقال: يئِس واسْتَيْأَس بمعنى واحد، كما يقال: سخِر واسْتَسْخَر، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾[2]، وكما يقال: عجب واستعجب، ومنه قول أَوس بن حجر:

---

(١) يريد أنه في تلك اللحظة كان هو العزيز بعد عزل الأول وهو قطفير، أو موته.

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (١٤) من سورة (الصَّافَّات): ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾.

وَمُسْتَعْجِبٍ مِمَّا يرى مِنْ أَنَاتِنَا وَلَوْ زَبَنَتْهُ الْحَرْبُ لَمْ يَتَرَمْرَمِ(١)

ومنه: نَوِكَ واسْتَنْوَكَ(٢)، وعلى هذا يجيءُ قول الشاعر في بعض التأويلات:

. . . . واسْتَنْوَكَتْ ولِلشَّبابِ نُوكُ(٣)

وهذه قراءَة الجمهور، وقرأَ ابن كثير: [استايسوا](٤) و[لا تايسوا](٥)، و[لا يايس](٦) و[حتى إذا استايس الرسل](٧)، أَصله: اسْتَأْيَسُوا «اسْتَفْعَلُوا» من (أَيِسَ) على قلب الفعل من (يئِس) إلى (أَيِس)، وليس هذا كَجذَب وجَبذ، بل هذان أَصلان والأَول قلب، دلَّ ذلك على أَن المصدر من (يئِس وأَيِس) واحد وهو (اليأْس)، ولِجَذَبَ وجبذَ مصدران(٨).

وقوله تعالىٰ: ﴿خَلَصُواْ نَجِيّاً﴾ معناه: انفردوا عن غيرهم يناجي بعضهم بعضاً، والنَّجِيُّ لفظ يوصف به من له نجوى، واحداً أَو جماعة، مُؤنثاً أَو مُذَكراً، فهو مثل عدُوّ وعَدْل، وجمعه أَنجية، قال لبيد:

---

(١) قال في (اللسان ـ عجب): «الاستعجاب: شدَّة التعجب»، والأَنَاة: الحلم والوقار، وَزَبَنَتْهُ الحرب: دفعت به وأَذهبته، على التشبيه للحرب بالناقة التي تَزْبن وليدها أي تدفعه عنها، ومعنى «لَمْ يَتَرَمْرَم»: لم يَرُدَّ جواباً، قال الجوهري: تَرَمْرَمَ إذا حرك فاه بالكلام، واستشهد ببيت أَوْس هذا. وأَوْسٌ في بيته هذا يمضي على طريقته التي التزمها في القصيدة كلها من الاعتزاز بشعره وبصفات الحلم والفروسية عنده.

(٢) نَوِكَ: حَمُقَ، واسْتَنْوَكَ: صار أنوكَ، ويقال: اسْتَنْوَكَ فلاناً: استحمقه. (المعجم الوسيط).

(٣) البيت بتمامه في (اللسان ـ نَوَكَ)، قال: «الأنْوَكُ: الأحمق، وجمعه النَّوْكى، ويقال في الشعر: قومٌ نُوكٌ، وقومٌ نَوْكى ونُوكٌ أيضاً على القياس، مثل أَهْوَج وهُوجُ، قال الراجز:

تَضْحَكُ مِنِّي شَيْخَةٌ ضَحُوكُ واسْتَنْوَكَتْ ولِلشَّبَابِ نُوكُ»

(٤) أي بتقديم الهمزة على الياءِ، فتكون الياءُ هي عين الفعل، ثم خفف الهمزة. وكذلك في الآيات المشار إليها بعدها.

(٥) من الآية (٨٧) من هذه السورة (يوسف).

(٦) من نفس الآية السابقة.

(٧) من الآية (١١٠) من هذه السورة (يوسف).

(٨) قال الإمام ابن خالويه في كتابه «الحجة في القراءات السبع»: «وقد قرىء بتخفيف الهمزة، فالحجة لمن خففها وجعل الياءَ فاءَ الفعل أنه يجعلها ياءً مشددة، لأنه أدغم الفاءَ لسكونها في العين وحرَّكها بحركتها، والحجة لمن خففها والهمزة فاءُ الفعل أنه يجعلها ألفاً خفيفة للفتحة قبلها» اهـ. قال القرطبي: «والأصل قراءة الجماعة، لأن المصدر ما جاءَ إلا على تقديم الياءِ ـ يَأْساً ـ والإِياسُ ليس بمصدر أَيِسَ، بل هو مصدر: أُسْتُه أَوْساً وإياساً، أي أعطيته». (القرطبي ٩ـ٢٤١).

وشَهِـدْتُ أَنْجِيـةَ الأُفَـاقَـة عـالِيـاً كَعْبـي وأَرْدَافُ الْمُلـوكِ شهـودُ[1]

و﴿كَبِيرُهُمْ﴾ قال مجاهد: هو شمعون، لأنه كان كبيرهم رأياً وتدبيراً وعلماً، وإن كان روبيل أَسَنَّهم، وقال قتادة: هو روبيل لأنه أسنهم، وهذا أظهر ورجحه الطبري، وقال السدي: معنى الآية: وقال كبيرهم في العلم، وذكَّرهم أخوهم الميثاق في قول يعقوب: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾.

وقوله: ﴿مَا فَرَّطتُمْ﴾، يصح أَن تكون [مَا] صلة في الكلام لا موضع لها من الإعراب، ويصح أَن تكون في موضع رفع بالابتداءِ، والخبر قوله: ﴿فِى يُوسُفَ﴾، كذا قال أبو علي، ولا يجوز أَن يكون قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلقاً بـ ﴿مَافَرَّطتُمْ﴾، وإنما تكون ـ على هذا ـ مصدرية، التقدير: «من قبل تفريطكم في يوسف واقع أَو مستقر»، وبهذا المقدر يتعلق قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾. ويصح أَن تكون في موضع نصب عطفاً، على أَن التقدير: «وتعلموا تفريطكم» أَو «وتعلموا الذي فرطتم»، فيصح ـ على هذا الوجه ـ أَن تكون بمعنى الذي، ويصح أَن تكون مصدرية[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾، أَراد أَرض القطر أَو الموضع الذي ناله فيه المكروه المؤدي إلى سخط أَبيه، والمقصد بهذا اللفظ التحريج على نفسه والتزام التضييق، كأَنه سجن نفسه في ذلك القطر ليبلي عذراً[3].

وقوله: ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ لفظ عام لجميع ما يمكن أَن يرده من القدر كالموت أَو

---

(١) استشهد بهذا البيت أبو عبيدة في «مجاز القرآن»، واللسان في «أفق»، والأُفاقة: موضع بالحزن كانت تتبدى فيه ملوك الحيرة، وأنجية: مجالس التجمع والمناجاة، وعالياً كعبي: منتصراً مشهوراً أمري، والأرداف: جمع رِدْف وهو الذي يجلس عن يمين الملك، فإذا شرب الملك شرب بعده، وإذا غزا ناب عنه حتى يرجع، وله المرباع إذا أغارت كتيبة الملك، ويوم الأفاقة هو اليوم الذي انتصر فيه على الربيع بن زياد، ولبيد يسميه بأسماءٍ متعددة، فهو يوم الغبيط، والرجل، والفاثور، هذا وقد قال أبو عبيدة في تعليقه على البيت: «والنجي يقع لفظه على الواحد والجمع، وقد يجمع فيقال: نجيٌّ وأَنجية»، ثم استشهد بالبيت. والبيت من قصيدة قالها لبيد يذكر طول عمره وسأمه من الحياة، ويتحدث عن مآثره، ومنها بيته المشهور:

ولَقَـدْ سَئِمْـتُ مِـنَ الْحيـاةِ وطُـولِهـا وسُـؤَال هَـذَا النـاسِ: كيْـفَ لَبِيـدُ ؟

(٢) قال أبو حيان في «البحر» بعد أن اعترض على الإعرابات التي ذكرها ابن عطية هنا: وأفضل الآراءِ أن تكون [ما] زائدة.

(٣) أي: ليقدم أو يؤدي عُذراً.

النصرة وبلوغ الأَمل، وغير ذلك، وقال أَبو صالح: أَو يحكم الله لي بالسيف، ونصب ﴿يحكُم﴾ بالعطف على ﴿يَأْذَنَ﴾، ويجوز أَن تكون ﴿أَوْ﴾ في هذا الموضع بمعنى «إِلاَّ أَنْ»، كما تقول: «لألزمنك أَو تقضيني حقي»، فتنصب على هذا ﴿يَحْكُمَ﴾ بـ ﴿أَوْ﴾.

ورُوي أَنهم لما وصلوا إِلى يعقوب بكى وقال: «يا بني، ما تذهبون عني مرة إِلا نقصتم، ذهبتم فنقصتم يوسف، ثم ذهبتم فنقصتم شمعون حيث ارتهن، ثم ذهبتم فنقصتم بنيامين وروبيل».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

الأَمر بالرجوع ـ قيل: هو من قول كبيرهم، وقيل: بل هو من قول يوسف لهم، والأَول أَظهر، وقرأَ الجمهور: ﴿سرَقَ﴾ على تحقيق السرقة على «يامين» بحسب ظاهر الأَمر، وقرأَ ابن عباس، وأَبو رزين: [سُرِّق] بضم السين وكسر الراءِ وتشديدها[1]، وكأَن في هذه القراءَة لهم تحر ولم يقطعوا عليه بسرقة، وإِنما أَرادوا: جُعل سارقاً بما ظهر من الحال، ورويت هذه القراءَة عن الكسائي، وقرأَ الضحاك: [إِن ابنك سارق] بالأَلف وتنوين القاف، ثم تحروا بعد ـ على القراءَتين ـ في قولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾، أَي: وقولنا لك: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ إِنما هي شهادة عندك بما علمناه من ظاهر ما جرى، والعلم في الغيب إِلى الله، ليس ذلك في حفظنا، هذا قول ابن إِسحاق.

وقال ابن زيد: قولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أَرادوا به: وما شهدنا عند يوسف بأَن السارق يُسْترقُّ في شرعك إِلا بما علمنا من ذلك، وما كنا للغيب حافظين أَن السرقة تخرج من رحل أَحدنا، بل حسبنا أَن ذلك لا يكون البَتَّةَ، فشهدنا عنده ـ حين سأَلنا ـ بعلمنا. وقرأَ الحسن: «وما شهدنا عليه إِلاَّ بما علمنا» بزيادة «عليه».

---

(١) أي: نُسب إلى السَّرقة ورُمي بها، مثل: خَوَّنْتُه وفَسَّقْتُه وفَجَّرْتُه إذا نسبته إلى هذه الخلال، وقال الزجاج: سُرِّق يحتمل معنيين: أحدهما: عُلم منه السَّرَق، والآخر: اتُّهم بالسَّرَق. قال الجوهري: والسَّرِقُ والسَّرِقة بكسر الراءِ فيهما هو اسم الشيءِ المسروق، والمصدر: سَرَق يسرقُ سَرَقاً بالفتح.

ويحتمل قوله: ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾، أي حين واثقناك إنما قصدنا ألا يقع منا نحن من جهته شيءٌ يكرهُهُ، ولم نعلم الغيب في أنه سيأتي هو بما يوجب رقَّه، ورُوي أن معنى ﴿لِلْغَيْبِ﴾ أي: لِلَّيْلِ، والغيب: اللَّيْل بلغة حمير، فكأنهم قالوا: وما شهدنا عندك إلا بما علمناه من ظاهر حاله، وما كنا بالليل حافظين لما يقع من سرقته هو أو التدليس عليه.

ثم استشهدوا بأهل القرية التي كانوا فيها، وهي مصر، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وهذا مجاز، والمراد أهلها، وكذلك قوله: ﴿وَالْعِيرَ﴾، هذا قول الجمهور وهو الصحيح، وحكى أبو المعالي في التلخيص عن بعض المتكلمين أنه قال: هذا من الحذف وليس من المجاز، وإنما المجاز لفظة تستعار لغير ما هي له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وحذف المضاف هو عين المجاز وعُظمه، هذا مذهب سيبويه وغيره من أهل النظر، وليس كل حذف مجازاً، ورجَّح أبو المعالي في هذه الآية أنه مجاز، وحكى أنه قول الجمهور أو نحو هذا، وقالت فرقة: بل أحالوه على سؤال الجمادات والبهائم حقيقة، ومن حيث هو نبي فلا يبعد أن يُخبره بالحقيقة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا وإن جُوِّز فبعيد، والأول أقوى.

وهنا كلام مقدر يقتضيه الظاهر، تقديره: فلما قالوا هذه المقالة لأبيهم قال: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ﴾، وهذا على أن يتصل كلام كبيرهم إلى هنا، ومن يرى أن كلام كبيرهم تمَّ في قوله: ﴿ إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ فإنه يجعل الكلام هنالك تقديره: فلما رجعوا قالوا: ﴿ إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ الآية، والظاهر أن قوله: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ إنما هو ظن سَيِّءٌ بهم، كما كان في قصة يوسف قبل، فاتفق أن صدق ظنه هناك ولم يتحقق هنا.

و﴿سوَّلَتْ﴾ معناه: زَيَّنَت وخَيَّلَت وجعلته سُولا، والسُّولُ: ما يتمناه الإنسان ويحرص عليه[1].

---

(١) أصلُ السُّولِ مهموز عند العرب، استثقلوا ضغطة الهمزة فيه فتكلموا به على تخفيف الهمز، قال الراعي فيه فلم يهمزه: =

وقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ إمَّا ابتداءٌ وخبره: أَمْثَلُ وأَوْلَى، وحسُن الابتداءُ بالنكرة من حيث وُصِفت. وإمَّا خبرُ ابتداءٍ تقديره: فأَمري، أَو شأني، أَو صبري صبرٌ جميل، وهذا أَليق بالنكرة، أَن تكون خبراً، ومعنى وصفه بالجمال أَنه ليس فيه شكوى إلى بشر ولا ضجر بقضاءِ الله تعالىٰ[1].

ثم ترجَّى عليه السلام من الله أَن يجبرهم عليه، وهم: يوسف ويامين وروبيل الذي لم يبرح الأَرض، ورجاؤه هذا من جهات:

إحداها: الرؤيا التي رأَى يوسف، فكان يعقوب ينتظرها. والثانية: حسن ظنه بالله تعالىٰ في كل حال، والثالثة: ما أَخبروه به عن ملك مصر أَنه يدعو له برؤْية ابنه، فوقع له ـ من هنا ـ تُحسُّسٌ ورجاءٌ، والوصفُ بالعلم والإحكام لائق بما يرجوه من لقاءِ بنيه، وفيها تسليم لحكم الله تعالىٰ في جميع ما جرى عليه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

المعنى أَنه لما ساءَ ظنه بهم ولم يصدق قولهم بل استراب به ﴿تولى عنهم﴾ أي زال بوجهه عنهم، وجعل يتفجع ويتأَسف. قال الحسن: خُصَّتْ هذه الأُمة بالاسترجاع[2]، أَلا ترى إلى قول يعقوب: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمراد: يا أَسفِي، لكن هذه لغة من يردُّ ياءَ الإِضافة أَلفاً نحو: يا أَبتا ويا غلاما.

= اختَـارَكَ النـاسُ إذْ رَثَّـتْ خَـلائِقُهُـمْ واعْتَلَّ مَنْ كَانَ يُرْجَى عِنْدَهُ السُّولُ

والدليل على أن أصل (السُّول) همز قوله تعالىٰ: ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾، أي: أُعطيت أُمنيتك التي سأَلتَها.

(١) روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (من بَثَّ لم يصبر)، ورُوي عن الحسن رضي الله عنه: «ما مِن جرعتين يتجرعهما العبد أحب إلى الله من جرعة مصيبة يتجرعها العبد بحسن صبر وحسن عزاء، وجرعة غيظ يتجرعها العبد بحلم وعفو».

(٢) يريد أُمة محمد ﷺ، والاسترجاع هو قولنا عند المصيبة: «إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعون».

ونادى الأَسف على معنى: احضر فهذا من أَوقاتك. وقيل: قوله: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ﴾ على جهة النُّدبة، وحذَف الهاءِ التي هي في النُّدبة علامةُ المبالغة في الحزن تجلُّداً منه عليه السلام، إِذْ كان قد ارتبط إِلى الصبر الجميل. وقيل: قوله: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ﴾ نداءٌ فيه استغاثة(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا يبعد أَن يجتمع «الاسترجاع» و«يَا أَسَفَا» لهذه الأُمة وليعقوب عليه السلام.

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ أَي: من ملازمة البكاءِ الذي هو ثمرة الحزن، ورُوي أَن يعقوب عليه السلام حَزِنَ حُزْن سبعين ثَكْلَى، وأُعطي أَجر مائة شهيد، وما ساءَ ظنه بالله قط، رواه الحسن عن النبي ﷺ(٢). وقرأَ ابن عباس، ومجاهد: [الحَزْن] بفتح الحاءِ والزاي، وقرأَ قتادة بضمهما، وقرأَ الجمهور بضم الحاءِ وسكون الزاي.

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ بمعنى: كاظم، كما قال: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾(٣)، ووصف يعقوب بذلك لأَنه لم يَشْكُ إِلى أَحد، وإِنما كان يكمد في نفسه، ويُمسك همَّه في صدره، وكان يكظمه أَي يردُّه إِلى قلبه ولا يرسله بالشكوى والغضب والضجر، وقال ناس: ﴿كَظِيمٌ﴾ بمعنى: مكظوم. وقد وصف الله تعالىٰ يونس عليه السلام بمكظوم في قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾(٤)، وهذا إِنما يتجه على تقدير أَنه مليءٌ بحزنه، فكأَنه كظم بثَّه في صدره، وجَرْي ﴿كَظِيمٌ﴾ على باب «كاظم» أَبيَن، وفسَّر ناس «الكظيم» بالمكروب وبالمكدور، وذلك كله متقارب. وقال منذر بن سعيد: الأَسف إِذا كان من جهة من هو

---

(١) قال الزمخشري: «والتجانس بين لفظتي «الأسف ويوسف» مما يقع مطبوعاً غير مستعمل فيملح، ونحوه: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم﴾ و﴿هم ينهون عنه وينأون عنه﴾، و﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ و﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾». اهـ. وهذا ما يسمى تجنيس التصريف، وهو أن تنفرد كل كلمة من الكلمتين عن الأخرى بحرف وتتفق معها في بقية الحروف.

(٢) أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ليث بن أبي سليم رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فعرفه، فقال له: (أيها المَلك الكريم على ربِّه، هل لك علم بيعقوب؟ قال: نعم، قال: ما فعل؟ قال: ابيضت عيناه من الحزن عليك، قال: فماذا بلغ من حزنه؟ قال: حزن سبعين مثكلة، قال: هل له على ذلك من أجر؟ قال: نعم، أجر مائة شهيد). (الدر المنثور).

(٣) من الآية (١٣٤) من سورة (آل عمران).

(٤) من الآية (٤٨) من سورة (القلم).

أَقل من الإِنسان فهو غضب، ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[1]، ومنه قول الرجل الذي ذهبت لخادمه الشاةُ من الغنم: «فأَسفت فلطمتها»، وإِذا كان من جهة لا يطيقها فهو همٌّ وحزنٌ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتحرير هذا المنزع أَن الأَسف يقال في الغضب ويقال في الحزن، وكل واحد من هذين يحرز حاله التي يقال عليها.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ﴾ الآية. المعنى: تالله لا تَفْتأُ، فتحذف (لا) في هذا الموضع من القسم لدلالة الكلام عليها، فمن ذلك قول امرىء القيس:

فَقُلْــتُ يَمِيــنُ اللهِ أَبْــرحُ قَــاعِــداً ... ولَوْ قَطَّعوا رَأْسي لَدَيْكِ وَأَوْصالي[2]

ومنه قول الآخر:

تَــاللهِ يبْقَــى علَــى الأَيَّــامِ ذُو حِيـدٍ ... بِمُشْمخِــرٍ بِــهِ الظَّيَّــانُ والآسُ[3]

أَراد: لا يَبْرَح، ولا يبقَى. وقال الزَّجَّاجي[4]: وقد تحذف أيضاً (ما) في هذا

(١) من الآية (٥٥) من سورة (الزخرف).

(٢) البيت من قصيدة امرىء القيس الوجدانية التي يقول في مطلعها: «ألا عِمْ صَبَاحاً أَيُّها الطَّلَلُ البالي»، وفي البيت الذي قبله تقول له الحبيبة: «سَبَاكَ اللهُ إِنَّكَ فاضحي» فيجيبها: لن أبرح مكاني حتى لو أدركوني وقطَّعوا أوصالي. وهذا مما يؤكد شدة هيامه ووجده بها إلى درجة التفاخر والشجاعة التي هي خط القصيدة. و«يمينُ الله» تكون بالرفع على أنه مبتدأ خبره مضمر تقديره: يمين الله لازمني، وتكون بالنصب على إضمار فعل، مثل قول العرب: «أمانةَ الله»، و«أبرح» معناه: «لا أبرح» بحذف (لا) لدلالة المعنى عليها، وذلك لأن الفعل بعد القسم غير مؤكد، ولو كان الكلام إثباتاً لوجب توكيد الفعل بالنون فيقول: «أبرحنَّ»، والأوصال: جمع وِصْل بالكسر، وهو كل عضو ينفصل من آخر.

(٣) البيت في «الصحاح»، وقد نسبه إلى الهُذَلي، وقال محققه: هو مالك بن خالد الخناعي، و«حِيَد» بكسر الحاءِ وفتح الياءِ جمع «حَيْدة» على وزن بَدْرَة وبِدَر، قال في الصحاح: والحَيْدَةُ: كل نُتُوءٍ في قرن الوعل والجبل، والحَيْد: حَرْف شاخصٌ يخرج من الجبل. والظَّيَّان والآسُ: نوعان من الأزهار والرياحين التي تنبت في الجبال، والمُشْمَخِرّ: الجبل العالي المرتفع في السماءِ، والشاهد في البيت حذف حرف النفي (لا) لأن المعنى يدل عليه، والتقدير كما قال ابن عطية: «لا يَبْقَى على الأيام».

(٤) هو عبد الرحمن بن إسحاق النهاوندي الزَّجَّاجي، أبو القاسم، شيخ العربية في عصره، ولد في نهاوند، ونشأ في بغداد، وتوفي في طبرية، وله من الكتب المطبوعة: «الجُمل الكبرى» و«الإيضاح الكافي»، وله من الكتب التي لا تزال مخطوطة: «الزاهر» في اللغة. وكانت وفاته سنة ٣٣٧هـ، ٩٤٩م. =

الموضع، وخطَّأَهُ بعض النحويِّين. ومن المواضع التي حذفت فيها (لا) ويدل عليها الكلام، قول الشاعر:

فَـلاَ ـ وأبـي دهـمـاءَ ـ زالَـتْ عَـزِيـزَةً ... على قَوْمِها ما فَتَّلَ الزَّنْدَ قادِحُ[(١)]

وقوله: «ما فَتَّل الزَّنْدَ قادِحُ» يوجب أَن المحذوف (لا)، وليست (ما).

و(فَتِيءَ) بمنزلة زال وبَرِح في المعنى والعمل، تقول: «والله لا فتِئْتُ قاعداً» كما تقول: «لا زلت ولا برِحْت»، ومنه قول أَوس بن حجر:

فَمـا فَتِئَـتْ حَتَّـى كـأنَّ غُبَـارَهـا ... سُـرَادِقُ يَـوْمٍ ذي رِيـاح تَـرفَّـعُ[(٢)]

و«الْحَرَضُ»: الذي قد نَهَكه الهرم أَو الحب أَو الحزن إِلى حال فساد الأَعضاءِ والبدن والحِسِّ، وعلى هذا المعنى قراءَة الجمهور: ﴿حَرَضاً﴾ بفتح الراءِ والحاءِ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن بضمهما، وقرأَت فرقة: [حُرْضا] بضم الحاءِ وسكون الراءِ، وهذا كله المصدر يوصف به المذكر والمؤنث والمفرد والجمع بلفظ واحد، كعَدْلٍ وعَدُوٍّ، وقيل في قراءَة الحسن: إنه فتات الأَشْنان[(٣)]، أَي: بالياً متفتتاً، ويقال من هذا المعنى الذي هو شن الهمِّ والهرم: «رجلٌ حارضٌ»، ويُثَنَّى هذا البناءُ ويُجمع ويُؤَنَّث

= (الأعلام، بغية الوعاة، وفيات الأعيان).

(١) البيت مجهول القائل، وقد ذكره البغدادي في خزانة الأدب الكبرى شاهداً على أنه قد فصل بالجار والمجرور، أعني الجملة القسمية «وأبي الدَّهماء» بين (لا) النافية و(زال). وذكره ابن هشام في الجملة الاعتراضية شاهداً على أنها تكون بين حرف النفي ومنفيه. وقال الفراءُ في معاني القرآن: «إن (لا) قد تضمر مع الأيمان لأنها إذا كانت خبراً لا يضمر فيها (لا)، لم تكن إلا بلام، ألا ترى أنك تقول: والله لآتينَّك، ولا يجوز أن تقول: والله آتيك، إلا أن تكون تريد: لا آتيك، فلما تبيَّن موضعها وفارقت الخبر أُضمرت، قال امرىء القيس: فقلت يمينُ اللهِ أَبرح. . . البيت، وأنشد بعضهم: فلا وأبي دهماءَ زالت عزيزةً. . . البيت». ودهماءُ: اسمُ امرأة، والشاعر يقسم بوالدها، وجملة (لا زالت عزيزةً) جواب القسم، وقد روى البيت: (مَا دام للزَّنْد قادح).

(٢) قال أوس بن حجر هذا البيت من قصيدة له في وصف الخيل، وقد استشهد به ابن عطية للدلالة على أن (فتىء) بمنزلة (زال) في المعنى وفي العمل، والسرادق: كلُّ ما أحاط بشيءٍ من حائط أو مِضْرب، وقد جعل الشاعر الغبار الذي تثيره الخيل في اليوم الشديد الرياح كالسُّرادق الذي يغطي الفضاءَ كله.

(٣) الشَّنُّ: القِربة الخَلَق الصغيرة يكون الماءُ فيها أبرد من غيرها، وجمعه: شِنان، وفي اللسان عن اللحياني: قربة أَشْنَان، كأنهم جعلوا كل جزءٍ منها شَناً ثم جمعوا على هذا، قال: ولم أسمع «أشناناً» في جمع «شَنٍّ» إلا هنا.

ويذكَّر، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

إِنِّي امْرُؤٌ لَجَّ بي حُبٌّ فَأَحْرَضَني حتَّى بَلِيتُ وحتَّى شَفَّني السَّقَمُ[١]

وقد سمع من العرب «رجلٌ مُحرَضٌ»، قال الشاعر وهو امرؤُ القَيْس:

أَرى الْمَرْءَ ذا الأَذْوادِ يُصْبِحُ مُحْرَضاً كإِحْراضِ بكْرٍ في الدِّيارِ مريضِ[٢]

والْحرض ـ بالجملة ـ: الذي فسد ودنا موته، قال مجاهد: الحرَضُ: ما دون الموت[٣]، قال قتادة: الحَرَض: البالي الهرم، وقال نحوه الضحاك والحسن، وقال الحسن: [حَرَضاً]: معناه: فاسدٌ لا عقل له، فكأَنهم قالوا على جهة التعنيف له: أَنت لا تزال تذكر يوسف إلى حال القرب من الهلاك، أَو إِلى الهلاك، فأَجابهم يعقوب عليه السلام رادًّا عليهم: إِني لست ممن يجزع ويضجر فيستحق التعنيف، وإِنما أَشكو بَثِّي وحزني إِلى الله.

و«البَثُّ»: ما في صدر الإِنسان مما هو معتزم أَن يبثه وينشره، وأَكثر ما يستعمل البثُّ في المكروه، وقال أَبو عبيدة وغيره: البَثُّ: أَشد الحزن، وقد يستعمل البثُّ في المخفي على الجملة، ومنه قول المرأَة في حديث «أُمِّ زَرْعٍ»: (وَلا يُولج الكفَّ ليعلم البَثَّ)[٤]،

---

(١) البيت للعَرْجيِّ عبد الله بن عمر بن عبد الله، ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن شاهداً على أن معنى أحرضني هو: أذابني، وذكره في اللسان شاهداً على أن أحرض بمعنى: أفسد، وقال: إن معنى «شَفَّني السَّقَم»: أذابني.

(٢) الأَذْواد: جمع ذَوْدٍ، وهو الثلاثة إلى العشرة من الإبل، وقد ذكره في اللسان دليلاً على أن المُحْرَض هو الهالك مرضاً، الذي لا حيٌّ فيرجى ولا ميِّت فيُوءَسُ منه، والبَكْرُ: الفَتِيُّ من الإبل، وجمعه: أبْكُر وبكارٌ، يقول: إن المرءَ مهما كان صاحب مال يصيبه المرض الذي لا رجاءَ بعده تماماً كالبكر القوي من الإبل حين يصبح في الديار مريضاً.

(٣) ومن ذلك قول الشاعر:

سَرَى هَمِّي فَأَمْرَضَني وَقِدْماً زَادَني مَرَضَا
كَذاكَ الحُبُّ قَبْلَ اليَوْ مِ مِمَّا يُورِثُ الحَرَضَا

(٤) رواه البخاري في «كتاب النكاح» باب «حسن المعاشرة»، وهو عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن ألا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً... فقالت الأولى... الحديث)، وفيه: (قالت السادسة: زوجي إن أكل لَفَّ، وإن شرب اشْتَفَّ، وإن اضطجع الْتَفَّ، ولا يولج الكفَّ ليعلم البَثَّ). وفي آخره: (قالت عائشة: قال رسول الله ﷺ: كنتُ لك كأبي زَرْع لأم زَرْع)، وكانت أُم زَرْع أكرمهن على زوجها.

ومنه قولهم: «أَبثُّك حديثي»(١).

وقرأ عيسى: [وَحَزَني] بفتح الحاءِ والزاي.

وحكى الطبري بسند أَن يعقوب دخل على فرعون وقد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، فقال له فرعون: ما بلغ بك هذا يا إِبراهيم؟ فقالوا: إِنه يعقوب، فقال: ما بلغ بك هذا يا يعقوب؟ قال له: طول الزمان وكثرة الأَحزان، فأَوحى الله إِليه: يا يعقوب، أَتشكوني إِلى خلقي؟ قال: يا رب، خطيئة فاغفرها لي. وأَسند الطبري إِلى الحسن قال: كان بين خروج يوسف عن يعقوب إِلى دخول يعقوب على يوسف ثمانون سنة لم يفارق الحزن قلبه، ولم يزل يبكي حتى كف بصره، وما في الأَرض يومئذ أَكرم على الله من يعقوب.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يحتمل أَنه أَشار إِلى حسن ظنه بالله وجميل عادة الله عنده، ويحتمل أَنه أَشار إِلى الرؤْيا المنتظرة، أَو إِلى ما وقع في نفسه عن قول ملك مصر: إِني أَدعو له برؤْية ابنه قبل الموت، وهذا هو حسن الظن الذي قدمناه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

المعنى: اذهبوا إِلى الأَرض التي جئتم منها وتركتم أَخويكم بنيامين وروبيل. ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾، أَي: استقصوا وتفرقوا، والتَّحَسُّسُ: طلب الشيءِ بالحواس، ويستعمل في الخير والشر، فمن استعماله في الخير هذه الآية، وفي الشَّر نَهي النبي ﷺ في قوله: (ولا تحَسَّسُوا)(٢).

---

(١) حقيقة البَثِّ في اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياءِ المهلكة التي لا يتهيأُ له أن يخفيها، وهو من: بثثته أي فرقته، فسميت المصيبة بثًّا مجازاً، قال ذو الرمة:

وَقَفْتُ على رَبْعٍ لِمَيَّةَ نَاقَتي ... فما زِلْتُ أبكي عِنْدَهُ وأُخَاطِبُهْ

وأُسْقِيهِ حتَّى كَادَ مِمَّا أَبُثُّهُ ... تُكَلِّمُني أَحْجَارُهُ وَمَلاعِبُهْ

(٢) جاء هذا في حديث رواه مسلم في كتاب البر، وفيه (ولا تدابروا ولا تحسَّسُوا).

وقوله: ﴿مِن يُوسُفَ﴾ يتعلق بمحذوف يعمل فيه ﴿تَحَسَّسُوا﴾، التقدير: فتَحَسَّسُوا نبأً أو حقيقةً من أمر يوسف، لكن يحذف ما يدل ظاهر القول عليه إيجازاً.

وقرأت فرقة: ﴿تَيْأَسُوا﴾، وقرأت فرقة: [تَأْيسُوا] على ما تقدم[١]، وقرأ الأعرج: [تِيْئَسُوا] بكسر التاءِ، وخص يوسف وبنيامين بالذكر لأن روبيل إنما بقي مختاراً، وهذان قد مُنعا الأَوْبة.

والرَّوْحُ: الرحمة، ثم جعل اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين، إذْ فيه: إمَّا التكذيب بالربوبية، وإمَّا الجهل بصفات الله تبارك وتعالىٰ. وقرأ الحسن، وقتادة، وعمر بن عبد العزيز[٢]: [من رُوحِ اللهِ] بضم الراءِ، وكأن معنى هذه القراءَة: «لا تيأَسوا من حيٍّ معه رُوحُ الله الذي وهبه، فإنَّ من بقي رُوحُه فيرجى»، ومن هذا قول الشاعر:

وَفـي غَيْـرِ مَـنْ قَـدْ وارَت الأَرْضُ فـاطْمَـعِ[٣]

ومن هذا قول عبيد:

وكُـــلُّ ذي غَيْبَـــةٍ يَـــؤُوبُ وغـائِـبُ الْمَـوْتِ لا يَـؤُوبُ[٤]

ويظهر من حديث الذي قال: (إذا متُّ فأحرقوني ثم اسحقوني ثم ذرُّوني في البحر

---

(١) عند تفسير قوله تعالىٰ في الآية (٨٠) من هذه السورة: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾.

(٢) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، أبو حفص الأموي، أمير المؤمنين رضي الله عنه، وردت الرواية عنه في حروف القرآن، ومناقبه كثيرة، عرف بالصلاح والتقوى، وحكم بالعدل، وأعاد سيرة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، توفي في رجب سنة ١٠١هـ.

(٣) المعنى: لا أمل ولا رجاءَ فيمن مات، أما من بقيت فيه الروح فإنه يظل موضع الأمل والرجاءِ. هذا وقد قال ابن جني تعليقاً على هذه القراءة: ينبغي أن تكون من الروح الذي من الله، ويُعني به رُوح ابن آدم، وقد أُضيف نحو ذلك إلى الله، قال لنا أبو عليٍّ في قولهم:

إذا رَضِيَــتْ عَلَــيَّ بَنُــو قُشَيْــر لَعَمْــرُ اللهِ أعْجَبَنــي رِضَـاهَــا

أي: «وحق العمر الذي وهبه الله لي». والبيت لِلْقُحَيْف العُقَيْلي يمدح حكيم بن المُسَيَّب القُرَشي.

(٤) البيت لعبيد بن الأبرص من قصيدته المشهورة التي مطلعها:

أَقْفَــرَ مِــنْ أَهْلِــهِ مَلْحُــوبُ فَــالقُطَبِيَّــاتُ فــالــذَّنُــوبُ

وقبل هذا البيت يقول عبيد:

فَكُــلُّ ذِي نِعْمَــةٍ مَخلــوسٌ وكُــلُّ ذِي أَمَــلٍ مَكْــذوبُ
وكُــلُّ ذِي إِبِــلٍ مَــوْرُوثٌ وكُــلُّ ذِي سَلَــبٍ مَسْلُــوبُ

والبرِّ في يوم راحٍ، فلئن قَدَر اللهُ عليَّ فليعذبني عذاباً ما عذَّبه أحداً من العالمين)[١]: إنه ييئس من روح الله، وليس الأمر كذلك لأن قول النبي ﷺ في آخر الحديث: (فغفر الله له) يقتضي أنه مات مؤمناً إذ لا يَغفر الله لكافر، فبقي أن يُتأول الحديث، إما على أن (قَدَرَ) بمعنى: ضيَّق وناقش الحساب، فذلك معنى بيِّن، وإما أن تكون من «القدرة» ويكون خطؤه في أن ظن أن الاجتماع بعد السحق والتذرية مُحال لا يوصف الله تعالىٰ بالقدرة عليه، فغلط في أن جعل الجائز محالاً، ولا يلزمه بهذا الكفر.

قال النقاش: وقرأ ابن مسعود: «مِنْ فَضل»، وقرأ أُبيٌّ بن كعب: «مِنْ رَحْمة الله».

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ الآية، في هذا الموضع اختصار محذوفات يعطيها الظاهر، وهي أنهم نفذوا من الشام إلى مصر ووصلوها، والضمير في [عَلَيْهِ] عائد على يوسف. و[الضُّرّ] أرادوا به المسغبة التي كانوا بسبيلها وأَمْرُ أخيهم الذي أهمَّ أباهم وغمَّ جميعهم، و«البضاعة»: القطعة من المال يقصد بها شراءُ شيءٍ، ولزمها عرف الفقه فيما لاحظ لحاملها من الربح، و«المُزْجاةُ» معناها: المدفوعة المتحيل لها، ومنه: إزجاءُ السحاب، ومنه: إزجاءُ الإبل، كما قال الشاعر:

عَلَى زواحِفَ تُزْجى مُخُّها رِيرُ[٢]

وكما قال النابغة:

وهبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ ذي أُرُلٍ ... تُزْجي مع اللَّيْلِ مِنْ صُرَّارِها صَرِمَا[٣]

---

(١) الحديث رواه البخاري في التوحيد، والأنبياء، والرقاق، ورواه مسلم في التوبة، والنسائي في الجنائز، وابن ماجه في الزهد، والإمام أحمد في مواطن كثيرة من مسنده، ولفظه كما في البخاري في كتاب الرقاق باب الخوف من الله (عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ ذكر رجلاً فيمن كان سلف، أو قبلكم، آتاه الله مالاً وولداً ـ يعني أعطاه ـ قال: فلما حُضر قال لبنيه: أيَّ أب كنتُ لكم؟ قالوا: خير أب، قال فإنه لم يَبْتَئِر عند الله خيراً ـ فسَّرها قتادة: لم يدَّخر ـ وإن يَقْدم على الله يعذبه، فانظروا، فإذا متُّ فأحرقوني حتَّى إذا صرت فحماً فاسحقوني ـ أو قال: فاسهكوني ـ ثم إذا كان ريحٌ عاصف فأذروني فيها، فأخذ مواثقهم على ذلك وربي، ففعلوا، فقال الله: كُنْ، فإذا رجلٌ قائم، فقال: أي عبدي، ما حملك على ما فعلت؟ قال: مخافتك أو فَرَقٌ منك، فما تلافاه أنْ رحمه الله).

(٢) قال في (الصحاح): «الفَرَّاءُ: مُخٌّ رَيْرٌ وريرٌ أيْ فاسدٌ ذاهبٌ من الهزال، وأنشد:
والسَّاقُ مِنِّي بادِيَاتُ الرَّيْرِ
أي: أنا ظاهر الهزال، لأنه رقَّ عظمه ودقَّ جلده فظهر مُخُّه». وتُزْجَى: تساق وتدفع إلى السير.

(٣) البيت من قصيدة مطلعها: =

وقال الأعشى:

الـوَاهِـبُ المِـائَـةَ الْهِجـان وعبْـدَهَـا   عُـوذاً تُـزَجِّـي خَلْفَهـا أَطْفَـالَهَـا[١]

وقال الآخر:

وحَـاجَـة غَيْـرَ مُـزْجـاةٍ مِـن الْحَـاجِ[٢]

وقال حاتم:

لِيبْـك علـى مِلْحَـانَ ضيْـفٌ مُـدَفَّـعٌ   وأَرْمَلَـةٌ تُـزْجِـي مَـع اللَّيْـلِ أَرْمـلاَ[٣]

فجملة هذا أَن من يسوق شيئاً ويتلطف في تسييره فقد أَزجاه، فإذا كانت الدراهم المدفوعة نازلة القدر تحتاج أَن يعتذر معها ويشفع لها فهي مُزجَاةٌ، فقيل: كان ذلك لأَنها كانت زُيُوفاً[٤]، قاله ابن عباس، وقال الحسن: كانت قليلة، وقيل: كانت ناقصة، قاله ابن جُبَيْر، وقيل: كانت بضاعتهم عروضاً فلذلك قالوا هذا، واختلف في تلك

= بـانَـتْ سُعَـادُ وأمْسَـى حَبْلُهَـا انْجَـذَمـا   واحْتَلَّتِ الشَّرْعَ فالأَجْزَاعَ مِنْ إضَمَا

وأُرُل بضم الهمزة والراءِ: جبل بأرض غطفان، قال ابن قتيبة: إذا كانت الريح شمالاً أتت من عُرْضه، وتُزْجي: تسوق، وصُرَّارها بضم الصاد: غيم لا مطر فيه، فهو يحجب الشمس ولا يمطر، والصِّرِم: جمع صرمة وهي قطع السحاب، وأصلها: القطعة من الإبل. والبيت شاهد على أن الإزجاءَ هو السوق بالدفع.

(١) البيت لأعشى بني ثعلبة ميمون بن قيس، وهو من قصيدة يمدح بها قيس بن معد يكرب، ومطلعها:

رَحَلَـتْ سُمَيَّـةُ غُـدْوَةً أجْمَـالُهَـا   غَضْبـى عَلَيْـكَ فَمَـا تَقُـولُ بَـدَالَهَـا

والهجان: جمع هجين وهو الأبيض الكريم من الإبل، والعَوْذُ: الحديثات النتاج، يمدحه بالكرم فيقول: إنه يهب المائة من كرام الإبل وعبدها، وأطفالها تتبعها وتسعى خلفها.

(٢) ذكره في (اللسان ـ زجا) شاهداً على أن معنى «مُزْجَاة»: قليلة يسيرة، قال: «وقال ثعلب: بضاعة مُزجاةٌ: فيها إغماضٌ لم يَتِمّ صلاحها، وقيل: يسيرة قليلة، وأنشد: وحاجة... البيت»، ثم أورد كثيراً من الآراءِ في معنى (مُزْجَاة).

(٣) البيت في (اللسان ـ رمل)، وقد أنشده ابن بري شاهداً على أن الأرمل هي المرأة التي لا زوج لها، ونقل عن ابن جني قوله: «قلّما يستعمل الأرمل في المذكر إلا في التشبيه والمغالطة، قال جرير:

كـلُّ الأرامـل قَـدْ قَضَّيْـتَ حـاجَتَهَـا   فَمَـنْ لِحَـاجَـةِ هَـذَا الأرْمَـلِ الـذَّكَـرِ؟

وابن عطية يستشهد بالبيت على أن معنى تُزْجي: تَسوق وتدفع.

(٤) يقال: زافَت النقود زَيْفاً وزُيُوفاً وزُيُوفة: ظهر فيها غشٌ ورداءَة. (المعجم الوسيط).

العُروض ـ ما كانت ؟ فقيل: كانت السَّمْن والصوف، قاله عبد الله بن الحارث، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: كانت قديد وحْش، ذكره النقاش، وقال أَبو صالح، وزيد بن أَسلم: كانت الصنوبر والحبة الخضراءَ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

«وهي الفستق»[١]: وقيل: كانت المُقْل[٢]، وقيل: كانت القطن، وقيل: كانت الحبال والأَعْدال والأَقْتاب[٣]. وحكى مكي أَن مالكاً رحمه الله قال: المزْجاة: الجائزة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا أَعرف لذلك وجهاً، والمعنى يأْباه، ويحتمل أَنه صحف على مالك، وأَن لفظه بالحاءِ غير منقوطة وبالراءِ[٤]، واستند مالك رحمه الله في أَن الكيل على البائع إِلى هذه الآية، وذلك ظاهر منها وليس بنص.

وقولهم: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ معناه: بما بين الدراهم الجياد وهذه المُزْجاة، قاله السدي وغيره، وقيل: كانت الصدقة غير مُحرَّمة على أُولئك الأَنبياءِ، وإِنما حرمت على محمد ﷺ، قاله سفيان بن عُيَيْنَة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف يرُدُّهُ حديث النبي ﷺ في قوله: (نحن معاشر الأَنبياءِ لا تحلُّ لنا الصدقة)[٥].

وقالت فرقة: كانت الصدقة عليهم محرمة ولكن قالوا هذا تجوزاً واستعطافاً منهم

---

(١) في إحدى النسخ: «وهي القسمور»، ولا ندري ما هو.

(٢) هو بضم الميم وسكون القاف: حَمْل الدوم، والدوم يشبه النخل.

(٣) الأعدال: الأحمال المتساوية من المتاع، يقال: عدل الأمتعة: جعلها أعدالاً متساوية لتحمل. والأَقْتاب: جمع قَتَب وهو الرَّحْلُ الصغير على قدر سنام البعير.

(٤) فتكون: الحائرة، من الحيرة.

(٥) روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ وهو يقسم تمراً من تمر الصدقة والحسن بن علي في حجره، فلما فرغ حمله النبي ﷺ على عاتقه، فسال لعابه على النبي ﷺ، فرفع النبي ﷺ رأسه فإذا تمرٌ في فيه، فأدخل النبي ﷺ يده فانتزعها منه، ثم قال: (أما علمتَ أن الصدقة لا تحل لآل محمد ؟)، وهذا الحديث يقوي رأي سفيان بن عيينة.

في المبايعة، كما تقول لمن تساومه في سلعة: هبني من ثمنها كذا وخُذْ كذا، فلم تقصد أن يهبك، وإنما حسنت له الانفعال[1] حتى يرجع معك إلى سومك. وقال ابن جريج: إنما خصوا بقولهم: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أمر أخيهم (يامين)، أي: أوف لنا الكيل في المبايعة، وتصدق علينا بصرف أخينا إلى أبيه.

وقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾. قال النقاش: يُقال: هو من المعاريض[2] التي هي مندوحة عن الكذب، وذلك أنهم كانوا يعتقدونه مَلِكاً كافراً على غير دينهم، ولو قالوا: «إن الله يجزيك بصدقتك في الآخرة» كذبوا، فقالوا له لفظاً يوهمه أنهم أرادوه، وهم يصح لهم إخراجه منه بالتأويل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

رُوي أن يوسف عليه السلام لما قال له إخوته: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ واستعطفوه ـ رقَّ ورحمهم، قال ابن إسحاق: وارْفَضَّ[3] دمعه باكياً، فشرع في كشف أمره إليهم، فيروى أنه حسَرَ قناعه وقال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ الآية.

وقوله: ﴿مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ يريد: من التفريق بينهما في الصغر، والتمرس بهما، وإذاية[4] (يامين) بعد مغيب يوسف، فإنهم كانوا يذلونه ويشتمونه، ولم يشر إلى قصة (يامين) الأخيرة لأنهم لم يفعلوا هم فيها شيئاً، ونسبهم إمَّا إلى جهل المعصية،

(١) النص الذي نقله في «البحر» عن ابن عطية هو: إنما حسنت له الأفعال حتى يرجع ـ إلخ وهو أقرب وأشبه بالصواب من كلمة «الانفعال».

(٢) المعاريض: جمع مِعْراض، من التعريض وهو خلاف التصريح من القول، وفي الحديث الشريف: (إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب).

(٣) ارْفَضَّ الدَّمع وتَرَفَّض: نزل وسال، وفي حديث البُراق: (أنه استصعب عليَّ ـ النبي ﷺ ـ ثم ارْفَضَّ عرقاً).

(٤) المعروف في اللغة هو: آذاهُ يُؤذيه فَأذي هو أذىً وأذِيَّة، وأما إذاية فغير فصيحة وإن وردت في القاموس. (ويامين) هو (بنيامين).

وإمَّا إلى جهل الشباب وقلة الحنكة، فلما خاطبهم هذه المخاطبة ـ ويشبه أَن يكون قد اقترن بها من هيئته وبِشْره وتبسمه ما دَلَّهم ـ تنبهوا ووقع لهم من الظن القوي أَنه يوسف، فخاطبوه مستفهمين استفهام تقرير.

وقرأَت فرقة: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ بتحقيق الهمزتين، وقرأَت فرقة بإدخال أَلف بين الهمزتين وتحقيقهما: [آئِنَّكَ]، وقرأَت فرقة بتسهيل الثانية [أَينَّكَ]، وقرأَ ابن مُحيصن، وقتادة، وابن كثير: [إِنَّكَ] على الخبر وتأْكيده، وقرأَ أُبيٌّ بن كعب: [أَئِنَّكَ أَو أَنتَ يُوسُفُ]، قال أَبو الفتح: ينبغي أَن يكون هذا على حذف خبر (إِنَّ)، كأَنه قال: أَئِنَّكَ لَغَيْر يوسف أَو أَنت يوسف[١] ؟

وحكى أَبو عمرو الداني: أن في قراءَة أُبَيٍّ بن كعب: [أَوْ أَنْتَ يُوسُف]. وتأَولت فرقة ممن قرأَ: [إِنَّكَ] أَنها استفهام بإسقاط حرف الاستفهام، فأَجابهم يوسف كاشفاً أَمره، قال: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾[٢]، وقال مجاهد: أَراد: من يَتَّقِ في ترك المعصية ويصبر في السجن، وقال إِبراهيم النَّخَعي: من يتق الزنى ويصبر على العزوبة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومقصد اللفظ إِنما هو العموم في العظائم، وإِنما قال: «هذان ما خصصنا» لأَنها[٣] كانت من نوازله، ولو فرضنا نزول غيرها به لاتَّقى وصبر.

وقرأَ الجمهور: ﴿يَتَّقِ﴾ بغير ياءٍ، وقرأَ ابن كثير وحده: [يَتَّقِي] بإِثبات الياءِ، واختلف في وجه ذلك ـ فقيل: قدر الياءَ متحركة وجعل الجزم في حذف الحركة، كما قال الشاعر:

---

(١) قال أبو الفتح: «فكأنه قال: بل أنت يوسف، وقد جاء حذف خبر إنَّ كما قال الأعشى:

إنَّ مَحَــــلاً وإنَّ مُــــرْتَحَــــلا   وإنَّ فــي السَّفْــرِ إذْ مَضَــى مَهَــلا

أراد: إن لنا مَحَلاً، وإنَّ لنا مُرْتَحَلاً، فحذف الخبر، والكوفيون لا يجيزون حذف الخبر إلا إذا كان الاسم نكرة».

(٢) يظهر أن نقصاً حدث في الكلام هنا، ويُستدل عليه بالعبارة بعده، ولهذا رجعت إلى البحر فوجدت النص الآتي: «ثم ذكر سبب مَنِّ الله عليه هو بالتقوى والصبر، والأحسن ألا تُخَصّ التقوى بحالة ولا الصبر، وقال مجاهد. . .».

(٣) الضمير في (لأنها) يعود على النوازل التي نزلت بيوسف، مثل فتنة الزنى، والصبر على العزوبة، ودخول السجن، وغيرها.

أَلَـمْ يَـأْتِيـكَ والأَنْبـاءُ تَنْمِـي ... بِمَـا لاقَـتْ لَبُـونُ بَنِـي زِيـادِ؟[1]

قال أبو علي: وهذا مما لا نحمله عليه، لأنه يجيءُ في الشعر لا في الكلام، وقيل: ﴿مَن﴾ بمعنى الذي، و[يَتَّقِي] فعل مرفوع، و﴿يَصْبِرْ﴾ عطف على المعنى، لأن ﴿مَنْ﴾ وإن كانت بمعنى الذي ففيها معنى الشرط، ونحوه قوله تعالىٰ: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾[2]، وقيل: أراد: «يصْبرُ» بالرفع، لكنه سكن الراءَ تخفيفاً، كما قرأ أبو عمرو: [وَيَأْمُرْكم][3] بإسكان الراءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ الآية، هذا منهم استنزالٌ ليوسف، وإقرارٌ بالذنب في ضمنه استغفارٌ منه، و﴿ءَاثَرَكَ﴾ لفظ يعم جميع التفضيل وأنواع العطايا، والأَصل فيها همزتان وخُفِّفت الثانية، ولا يجوز تحقيقها، والمصدر: إيثارٌ.

وخاطئين: من خَطِىءَ يخْطَأُ، وهو المتعمد للخطأِ، والمُخْطِىءُ: من أَخطأَ وهو الذي قصد الصَّواب فلم يوفق إِليه، ومن ذلك قول الشاعر ـ وهو أُمية بن الأَسكر ـ:

وَإِنَّ مُهَـاجِـرَيْـنِ تَكَنَّفَـاهُ ... غَـداةَ غَـدٍ لَقَـدْ خَطِئَـا وَخَـابَـا[4]

وقوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ عفو جميل، وقال عكرمة: «أَوحى الله إِلى يوسف:

---

(١) البيت لقيس بن زهير، من أبيات تجدها مع قصتها في «شرح الشواهد» للسيوطي ١١٣. وتَنْمِي: تسير وتنتشر حتى تبلغ، واللَّبون: جماعة الإبل ذات اللبن، والبيت في سيبويه ٢ـ٥٩، والخزانة ٣ـ٥٣٤، وسرّ صناعة الإعراب ٨٨. والشاهد فيه هو إثبات الياءِ في الفعل (يأتي) بعد (لَمْ)، وللعلماءِ في ذلك آراءٌ ذكر منها ابن عطية اثنين، ويضاف إليهما ما قيل من أن الفعل مجزوم بحذف الياءِ التي هي لام الكلمة، وهذه الياءُ الموجودة إشباع.

(٢) من الآية (١٠) من سورة (المنافقون).

(٣) من قوله تعالىٰ في الآية (٢٦٨) من سورة (البقرة): ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾.

(٤) البيت لأمية بن الأسكر، ويقال: هو الأشكر بالشين، وهو من الشعراء المخضرمين، أدرك الإسلام وأسلم، والبيت من شعر له في ابنه كلاب، وكان ابنهُ قد لقي طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام فسألهما: أي الأعمال أفضل في الإسلام؟ فقالا له: الجهاد، فذهب إلى عمر رضي الله عنه وطلب إليه أن يلحقه بالجيش ففعل، وكان أبوه قد كبر وضعف، فلما طالت غيبة كلاب على أبيه قال هذا الشعر، وقد استشهد أبو عبيدة بهذا البيت في «مجاز القرآن» عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾، أي إثماً، وذلك أن الرواية في البيت و(حابا) بالحاء المهملة لا بالخاء كما هي مثبتة في الأصول هنا، ثم عاد أبو عبيدة واستشهد بالبيت عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ وقال: «خَطِئْتُ وأخطأت واحد، قال امرؤ القيس: (يا لَهْفَ هِنْدٍ إِذْ خَطِئْن كَاهلا)، أي أخطأن، وقال أُمية بن الأسكر: (وَإِنَّ مُهَاجِرَيْن... البيت)».

بعفوك عن إخوتك رفعت لك ذكرك». وفي الحديث أن أبا سفيان بن الحارث، وعبد الله بن أبي أمية لما وردا مهاجرين على رسول الله ﷺ أعرض عنهما لِقُبْح فعلهما معه قبلُ، فشق ذلك عليهما وأتيا أبا بكر رضي الله عنه فكلفاه الشفاعة، فأبى، وأتيا عمر رضي الله عنه فكذلك، فذهب أبو سفيان بن الحارث إلى ابن عمه عليٍّ رضي الله عنه، وذهب عبد الله إلى أخته أم سلمة، فقال علي رضي الله عنه: الرأي أن تلقيا رسول الله ﷺ في الحفل فتصيحان به: «تالله لقد آثرك الله علينا وإنْ كنا لَخَاطِئين»، فإنه لا يرضي أن يكون دون أحد من الأنبياء، فلا بد لذلك أن يقول: «لا تثريب عليكما»، ففعلا ذلك، فقال لهما رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ الآية[1].

والتثريب: اللوم والعقوبة وما جرى معهما من سوءٍ معتقد ونحوه، وقد عبَّر بعض الناس عن التثريب بالتعبير، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام: (إذا زنت أَمة أَحدكم فليجلدها ولا يُثَرِّب)[2]، أي: لا يُعيِّر، أخرجه الشيخان في الحدود.

ووقف بعض القرأة: [عَلَيْكُمْ]، وابتدأ: ﴿ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، ووقف أكثرهم: [اليوْمَ]، وابتدأ: ﴿يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ على جهة الدعاءِ، وهو تأويل ابن إسحاق والطبري، وهو الصحيح، و[الْيَوْمَ] ظرف، وعلى هذا فالعامل فيه ما يتعلق به [عَلَيْكُمْ]، تقديره: لا تثريب ثابت أو مستقر عليكم اليوم. وهذا الوقف أرجح في المعنى، لأن الآخر فيه حكم على مغفرة الله، اللهم إلا أن يكون ذلك بوحي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾.

---

(١) ذكر صاحب «الإصابة» هذا الخبر قائلاً: «إن علياً علم أبا سفيان بن الحارث لما جاء لِيُسْلم أن يأتي النبي ﷺ من جهة وجهه فيقول: «تالله لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ علينا»، وذكره أيضاً الرازي في تفسيره».

(٢) أخرجه البخاري في الحدود والبيوع، ومسلم في الحدود، وكذلك أبو داود، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢ـ٢٤٩، ٤٩٤). ولفظه كما في البخاري عن أبي هريرة قال النبي ﷺ: (إذا زنت الأمة فتبيَّن زناها فليجلدها ولا يُثَرِّب، ثم إن زنت فليجلدها ولا يُثَرِّب، ثم إن زنت الثالثة فليبعها ولو بحبل من شَعَر).

حُكْمُه ـ بعد الأمر بإلقاءِ القميص على وجه أَبيه ـ بأَن أَباه يأْتي بصيراً ويزول عماه ـ دليلٌ على أَن هذا كلَّه بوحي وإِعلام من الله تبارك وتعالىٰ، قال النقاش: ورُوي أَن هذا القميص كان لإِبراهيم كساه الله إياه حين خرج من النار، وكان من ثياب الجنة، وكان بعْدُ لإِسحاق، ثم ليعقوب، ثم كان دفعه ليوسف فكان عنده في حفاظ من فضة[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله يحتاج إِلى سند، والظاهر أَنه قميص يوسف الذي هو منه بمنزلة قميص كل أحد، وهكذا تبين الغرابة في أَن وجد ريحه من بُعْد، ولو كان من قُمُص الجنة لما كان في ذلك غرابة ولوجده كل أَحد.

وأَما «أَهْلُهُم» فرُوي أَنهم كانوا ثمانين نسمة، وقيل: ستة وسبعين نفساً بين رجالٍ ونساءٍ، وفي هذا العدد دخلوا مصر ثم خرج منها أَعقابهم مع موسى في ستمائة أَلف، وذكر الطبري عن السدي أَنه لما كشف أَمره لإِخوته سأَلهم عن أَبيهم: ما حاله؟ فقالوا: ذهب بصره من البكاءِ، فحينئذ قال لهم: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى﴾ الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ الآية، معناه: فصلت العير من مصر متوجهة إِلى موضع يعقوب حسبما اختلف فيه، فقيل: كان على مقربة من بيت المقدس، وقيل: كان بالجزيرة، والأَول أَصح، لأَن آثارهم وقبورهم حتى الآن هناك، ورُوي أَن يعقوب وجد ريح يوسف وبينه وبين القميص مسيرة ثمانية أَيام، قاله ابن عباس، وقال: هاجت ريح فحملت عَرْفه، ورُوي أَنه كان بينهما ثمانون فرسخاً، قاله الحسن، وابن جريج، قال: وقد كان فارقه قبل ذلك سبعاً وسبعين سنة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قريب من الأَول. ورُوي أَنه كان بينهما مسيرة ثلاثين يوماً، قاله الحسن بن أَبي الحسن، ورُوي عن أَبي أَيوب الهوزني أَن الريح استأْذنت في أَن توصل عرف يوسف إِلى يعقوب، فأُذن لها في ذلك، وكانت مخاطبة يعقوب هذه لحاضريه، ورُوي أَنهم كانوا حَفَدَتَهُ، وقيل: كانوا بعض بنيه، وقيل: كانوا قرابته.

---

(١) في بعض النسخ: «في حفاظ من قَصَب»، والقَصَب: ما كان مستطيلاً أجوف من الفضة والذهب ونحوهما، والواحدة: قصبة.

و[تُفَنِّدُون] معناه: تَرُدُّون رأيي وتدفعون في صدري، وهذا هو التفنيد في اللغة، ومن ذلك قول الشاعر:

يا عاذِلَيَّ دَعا لَوْمِي وَتَفْنيدِي   فَلَيْس ما فَاتَ مِنْ أَمْرِي بِمرْدودِ[١]

ويقال: «أَفْنَدَ الدهر فلاناً» إذا أفسده، قال ابن مقبل:

دَع الدَّهْر يفْعَلْ ما أَراد فَإِنَّهُ   إذا كُلِّفَ الإِفْنَادَ بالنَّاسِ أَفْنَدا[٢]

ومما يعطي أَن الفَنَد: الفساد في الجملة قولُ النابغة:

إلاَّ سُلَيْمَانَ إذْ قَالَ الإِلهُ لَهُ   قُمْ في الْبَرِيَّةِ فاحْدُدْهَا عن الْفَنَدِ[٣]

وقال منذر بن سعيد: يقال: شيخ مُفَنَّد، أَي قد فسد رأيه، ولا يقال: عجوز.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والتَّفْنيد يقع إما لجهل المُفَنَّد، وإما لهوىً غلبه، وإما لكذبه، وإما لضعفه وعجزه لذهاب عقله وهرمه، فلهذا فسر الناس التفنيد في هذه الآية بهذه المعاني، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: (أَوْ هَرِماً مُفَنِّداً)[٤]، قال ابن عباس، ومجاهد وقتادة: معناه:

---

(١) البيت لهانىء بن شكيم العدوي، والرواية في الطبري يا صاحبيَّ، وكذلك رواه القرطبي، وقد استشهد به أبو عبيدة في «مجاز القرآن» دليلاً على أن معنى [تُفَنِّدُون] هو تُسَفِّهون وتُعَجِّزون، وفي روايته: (ما فات من أمرٍ)، يقول الشاعر: لا داعي لِلَّوم وتسفيه الرأي فقد مضى ما مضى ولا سبيل إلى الرجوع فيه.

(٢) الخطاب في البيت لخليليه، وقد ذكرهما قبل البيت، ولهذا فالرواية (دَعَا)، ولفظ البيت كما في الديوان:

دَعَا الدَّهْرَ يَفْعَلْ مَا أَرادَ فَإِنَّهُ   إذا كُلِّف الإفْسَادَ بالنَّاسِ أفْسَدا

وعلى هذا فلا شاهد فيه. ومعنى أفْنَد: أوقع في الفَنَد، وهو الخرف وإنكار العقل من الهرم والمرض.

(٣) البيت من قصيدته المشهورة التي قالها يمدح النعمان بن المنذر، ويعتذر إليه مما بلغه عنه في أمر المتجردة، وهو هنا يشبه النعمان بسيدنا سليمان عليه السلام في عظم الملك، وقبل هذا البيت يقول النابغة:

ولا أَرى فَاعِلاً فِي النَّاسِ يُشْبِهُهُ   ولا أُحَاشِي مِنَ الأَقْوَام مِنْ أَحَدِ

(٤) هذا جزء من حديث رواه الترمذي في الزهد، وقد ورد التفنيد في أحاديث كثيرة، روى شمر في حديث واثلة بن الأسقع أنه قال: خرج رسول الله ﷺ فقال: (أتزعمون أنني من آخركم وفاة؟ ألا إني من أولكم وفاةً، تتبعوني أفناداً يهلك بعضكم بعضاً)، والمعنى تتبعونني ذوي فَنَد، أي: عجز وكفر للنعمة.

تُسَفِّهون، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً: تُجَهِّلُون، وقال ابن جُبير، وعطاء: معناه: تُكَذِّبون[1]، وقال ابن إسحاق: معناه: تُضَعِّفُونَ، وقال ابن زيد، ومجاهد: معناه: تقولون ذهب عقلك، وقال الحسن: معناه: تهرمون.

والذي يشبه أَن تفنيدهم ليعقوب عليه السلام إنما كان لأَنهم كانوا يعتقدون أَن هواه قد غلبه في جانب يوسف عليه السلام[2]، قال الطبري: أَصل التَّفْنيد الإِفساد.

وقولهم: ﴿لَفِى ضَلَٰلِكَ﴾ يريدون: انْتِكَافِكَ وتحيُّرك[3]، وليس هو بالضلال الذي هو في العُرف ضد الرشاد، لأَن ذلك من الجفاءِ الذي لا يسوغ لهم مواجهته به، وقد تأَوله بعض الناس على ذلك، ولهذا قال قتادة رحمه الله: قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أَن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله عليه السلام. وقال ابن عباس: المعنى: لفي خطئك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكان حزن يعقوب قد تجدد بقصة (يامين)، فلذلك يقال له: ذو الحزنين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ﴾.

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن البشير كان يهوذا لأَنه كان جاءَ بقميص الدم.

---

(١) ومنه قول الشاعر:

هَـلْ فـي افْتخـارِ الكَـريـمِ مِـنْ أَوَد ؟ أَمْ هَـلْ لِقَـوْلِ الصِّـدْقِ مِـنْ فَنَـدِ ؟

والأود: العوج، والفَنَد هنا الكذب.

(٢) فهو إذاً من فساد العقل، وعليه قول الشاعر:

يَـا عَـاذِلَـيَّ دَعَـا المَـلامَ وأَقْصِـرَا طَـالَ الهَـوَى وَأَطلْتُمَـا التَّفْنِيـدا

(٣) الانتكاف هو الخروج من أمر إلى أمر، ففيه معنى الحيرة، وفي بعض النسخ: «ائتلافك» بمعنى: استمالتك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

حدثني أَبي رضي الله عنه قال: سمعت الواعظ أَبا الفضل بن الجوهري على المنبر بمصر يقول: إن يوسف عليه السلام لما قال: ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى ﴾ قال يهوذا: قد علمت أَني ذهبت إِليه بقميص التَّرْحة فدعوني أَذهب إِليه بقميص الفَرْحة، فتركوه وذلك. وقال هذا المعنى السدي.

و[ٱرْتَدَّ] معناه: رجع هو، يقال: ارتَدَّ الرجل ورَدَّه غيره، و[بصِيراً] معناه: مبصراً. ثم وقفهم على قوله لهم: ﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، وهذا ـ والله أعلم ـ هو انتظاره لتأْويل الرُّؤْيا، ويحتمل أَن يشير إِلى حسن ظنه بالله تعالىٰ فقط. ورُوي أَنه قال للبشير: على أَي دين تركت يوسف؟ قال: على الإِسلام، قال: الحمد لله، الآن تمت النعمة. وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: «فلما أَن جاءَ البشير من بين يدي العير، وحكى الطبري عن بعض النحويين أَنه قال: [أَنْ] في قوله: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ ﴾ زائدة، والعرب تزيدها أَحياناً في الكلام بعد (لمَّا) وبعد (حتَّى) فقط، تقول: لما جئت كان كذا، ولما أَن جئت، وكذلك تقول: ما قام زيد حتى قمت، وحتى أَن قمت.

وقوله: ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾.

رُوي أَن يوسف عليه السلام لما غفر لإِخوته وتحققوا أَيضاً أَن يعقوب يغفر لهم قال بعضهم لبعض: ما يغني عنا هذا إِن لم يغفر الله لنا، فطلبوا حينئذ من يعقوب أَن يطلب لهم المغفرة من الله تعالىٰ، واعترفوا بالخطأ، فقال لهم يعقوب: ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ﴾، قالت فرقة: سَوَّفَهم إِلى السَّحَر، ورُوي عن محارب بن دثار أَنه قال: كان لي عمٌّ يأْتي المسجد، فسمع إِنساناً يقول: «اللهم دعوتني فأَجبت، وأَجبتني فأَطعت، وهذا سحَرٌ فاغفر لي»، فاستمع الصوت فإِذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسئل عبد الله بن مسعود عن ذلك فقال: إِن يعقوب عليه السلام أَخَّر بنيه إِلى السَّحَر، ويُقوي هذا التأْويلَ قولُ النبي ﷺ: (ينزل ربنا كل ليلة إِذا كان الثلث الآخر إِلى سماءِ الدنيا فيقول: من يدعوني فأَستجيب له؟ من يستغفرني فأَغفر له. . .) الحديث[1]، ويقويه قوله تبارك

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد، ومسلم في المسافرين، وأبو داود في السُّنَّة، والترمذي في الصلاة، وفي الدعوات، وابن ماجه في الإقامة، والدارمي في الصلاة، والموطأ في القرآن، والإمام أحمد في مسنده (٢ـ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٨٢، ٤١٩، ٤٨٧، ٥٠٤).

وتعالىٰ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾(١). وقالت فرقة: إنما سَوَّفهم يعقوب إلى قيام الليل، وقالت فرقة ـ منهم سعيد بن جبير ـ: سوَّفهم يعقوب إلى الليالي البيض، فإن الدعاءَ فيهن يستجاب، وقيل: إنما أَخَّرهم إلى ليلة الجمعة، وروى ابن عباس هذا التأويل عن النبي ﷺ، قال: أخرهم يعقوب حتى تأتي ليلة الجمعة(٢).

ثم رجَّاهم يعقوب عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟﴾ الآية. ها هنا محذوفات يدل عليها الظاهر، وهي: فرحل يعقوب بأَهله أجمعين وساروا حتى بلغوا يوسف، فلما دخلوا عليه. و﴿آوَىٰ﴾ معناه: ضَمَّ وأَظهر الحَفَاوَة بهما(٣)، وفي الحديث: (أَمَّا أَحدهم فأَوى إلى الله فآواه الله)(٤). وقيل: أَراد بالأَبوين أَبَاهُ وأُمَّه، قاله ابن إسحاق، والحسن، وقال بعضهم: أَباه وجَدَّته أُمَّ أُمِّه، حكاه الزهراوي، وقيل: أَباه وخالته، لأَن أُمه قد كانت ماتت، قاله السدي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَول أَظهر بحسب اللفظ، إلا لو ثبت بسند أَن أُمه قد كانت ماتت، وفي مصحف ابن مسعود: [آوى إليه أَبويه وإخوته].

وقوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ﴾ معناه: تمكنوا واسكنوا واستقروا، لأَنهم قد كانوا دخلوا عليه، وقيل: بل قال لهم ذلك في الطريق حين تلقاهم، قاله السدي، وهذا الاستثناءُ هو

---

(١) من الآية (١٧) من سورة (آل عمران).

(٢) أخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: (في قصة قول أخي يعقوب لبنيه): ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة. (الدر المنثور).

(٣) في بعض النسخ: «وأظهر الحفاية بهما» بكسر الحاءِ وبالياء المهملة، وهي صحيحة مثل الحفاوة بالواو مع فتح الحاءِ وكسرها، يقال: حَفِيَ بالرجل حَفاوةً وحِفاوةً وحِفايةً، وتحفَّى به واحْتَفَى: بلغ في إكرامه. (عن اللسان ـ حفا).

(٤) الحديث في البخاري، في باب «من قعد حيث ينتهي به المجلس» من كتاب العلم، ولفظه في البخاري عن أبي واقد الليثي (أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فُرْجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: ألا أُخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه). هذا وقد أخرجه البخاري أيضاً في الصلاة، ومسلم في السلام، والترمذي في الاستئذان، ومالك في الموطأ (في السلام)، وأحمد (٥/ ٢١٩).

الذي ندب إليه القرآن أن يقوله الإنسان في جميع ما ينفذه بقوله في المستقبل، وقال ابن جريج: هذا مؤخر في اللفظ وهو متصل في المعنى بقوله: ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا التأويل ضعف.

و﴿ٱلْعَرْشِ﴾: سرير المُلْك، وكل ما عُرِّش فهو عريش وعرْش، وخصصت اللغة العَرْش لسرير المُلْك. و﴿خَرُّوا﴾ معناه: تصوبوا نحو الأرض، واختلف في هذا السجود، فقيل: كان كالمعهود عندنا من وضع الجبهة بالأرض، وقيل: بل دون ذلك كالركوع البالغ ونحوه مما كان سير تحياتهم للملوك في ذلك الزمان. وأجمع المفسرون أن ذلك السجود ـ على أي هيئة كان ـ فإنما كان تحية لا عبادة، قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة، وقال الحسن: الضمير في [لهُ] للهِ عزَّ وجلَّ. ورُدَّ على هذا القول[1].

وحكى الطبري أن يعقوب لما بلغ مصر في جملته كلم يوسف عليه السلام فرعون في تلقيه، فخرج إليه وخرج الملوك معه، فلما دنا يوسف من يعقوب ـ وكان يعقوب يمشي متوكئاً على يهوذا ـ قال: فنظر يعقوب إلى الخيل والناس فقال: يا يهوذا، هذا فرعون مصر، قال: لا، هو ابنك، قال: فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدأُ بالسلام، فمنعه يعقوب من ذلك، وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل، فقال: السلام عليك يا مُذْهِب الأحزان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ونحو هذا من القصص.

وفي هذا الوقت قال يوسف ليعقوب: إن فرعون قد أحسن إلينا فادخل عليه شاكراً، فدخل عليه، فقال فرعون: يا شيخ، ما صيَّرك إلى ما أرى؟ قال: تتابع البلاءِ عليَّ، قال: فما زالت قدمه حتى نزل الوحي: يا يعقوب، أتشكوني إلى من لا يضرك ولا ينفعك؟ قال: يا ربِّ، ذنب فاغفره. وقال أبو عمرو الشيباني: تقدم يوسفُ

---

(١) قال النقاش: هذا خطأ، والهاءُ راجعةٌ إلى يوسف لقوله تعالىٰ في أول السورة: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

يعقوب في المشي في بعض تلك المواطن، فهبط جبريل فقال له: أَتتقدم أَباك؟ إِن عقوبتك لذلك أَلا يخرج من ذُرِّيتك نبي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

المعنى: قال يوسف ليعقوب: هذا السجود الذي كان منكم هو ما آلت إِليه رؤْياي قديماً في الأَحد عشر كوكباً وفي الشمس والقمر.

وقوله: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ ابتداءُ تعديد نعم الله تعالىٰ عليه، وقوله: ﴿قد أحسن بي﴾ أي: أَوقع وناط إحسانه بي، فهذا منحى في وصول الإِحسان بالباءِ، وقد يقال: أَحْسَنَ إِليَّ، وأَحْسن فيَّ، ومنه قول عبد الله بن أُبي بن سلول: يا محمد، أَحسن في مواليَّ، وهذه المناحي مختلفة المعنى، وأَليقها بيوسف قوله: [بِي] لأَنه إِحسان خُرّج فيه دون أَن يقصد هو الغاية التي صار إِليها[(١)].

وذكر يوسف إِخراجه من السجن وترك إِخراجه من الجب لوجهين:

أَحدهما أَن في ذكر إِخراجه من الجب تجديد فعل إِخوته وخزيهم بذلك وتقليع نفوسهم وتحريك تلك الغوائل وتخبيث النفوس[(٢)].

والوجه الآخر أَنه خرج من الجب إِلى الرق ومن السجن إِلى الملك، فالنعمة هنا أَوضح[(٣)].

---

(١) الأصل في (أَحْسَنَ) أن يتعدى بـ(إلى)، قال تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾، وقد يتعدى بالباء كقوله تعالىٰ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، وكذلك (أَساءَ) يقال: أساء إليه، وبه، قال الشاعر:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لا مَلُومَةً لَدَيْنَا ولاَ مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ

وقد يكون (أَحْسَن) ضُمِّن معنى (لَطَفَ) فعُدِّي بالباءِ.

(٢) وفي هذا المعنى يقول بعض الصوفية: «ذكْر الجفا في وقت الصفا جفا».

(٣) وقيل: ذكر إخراجه من السجن دون الجب لأن دخوله في السجن كان باختياره بقوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ وكان في الجب بإرادة الله، وقيل لأنه كان في السجن مع العصاة واللصوص، أما في الجب فكان مع الله، وقيل: لأن المِنَّة في الخروج من السجن كانت أكبر، لأنه دخله بسبب أمرِ هَمَّ=

وقوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ يعم جمع الشمل والتنقل من الشقاوة إلى النعمة بسكون الحاضرة، وكان منزل يعقوب عليه السلام بأطراف الشام في بادية فلسطين، وكان ربَّ إبل وغنم وبادية[١].

و[نَزَغَ] معناه: فَعَل فعلاً أَفسد به، ومنه قول النبي ﷺ: (لا يُشِرْ أَحدكم على أَخيه بالسلاح، لا ينزغ الشيطان في يده)[٢]، وإنما ذكر يوسف هذا القدر من أَمر إِخوته ليُبيِّن حسن موقع النعم، لأَن النعمة إِذا جاءَت إِثر شدة وبلاءٍ فهي أَحسن موقعاً.

وقوله: ﴿لِّمَا يَشَآءُ﴾ أَي: من الأُمور أَن يفعله.

واختلف الناس في: كم كان بين رؤْيا يوسف وبين ظهورها؟ فقالت فرقة: أَربعون سنة، هذا قول سليمان الفارسي، وعبد الله بن شداد، وقال عبد الله بن شداد: ذلك آخر ما تبطىءُ الرؤْيا، وقالت فرقة ـ منهم الحسن، وحسن بن فرقد، وفضل بن عياض ـ: ثمانون سنة، وقال ابن إِسحاق: ثمانية عشر، وقيل: اثنان وعشرون، قاله النقاش، وقيل: ثلاثون، وقيل: خمس وثلاثون، قاله قتادة، وقال السدي، وابن جبير: ست وثلاثون سنة. وقيل: إِن يوسف عليه السلام عمَّر مائة وعشرين سنة، وقيل: إِن يعقوب بقي عند يوسف نيِّفاً على عشرين سنة ثم توفي ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا وجه في ترك تعريف يوسف أَباه بحاله منذ خرج من السجن إِلى العِزَّة إِلاَّ الوحي من الله تعالىٰ لما أَراد أَن يمتحن به يعقوب وبنيه، وأَراد من صورة جمعهم. لا إِلـٰه إِلا

= به، فكان الكرب فيه أكثر، أما الجب فقد أُلقي فيه بدون ذنب، ولهذا كان كربه فيه أخف.

(١) يقال: إن يعقوب خرج إلى مكان يُسَمَّى (بَدَا)، وهو الموضع الذي عناه جميل بثينة بقوله:

وأَنْتِ التي حَبَّبْتِ شَغْباً إِلى بَدَا ... إِليَّ، وأوطاني بِلادٌ سِوَاهُمَا

وليعقوب بهذا الموضع مسجد تحت جبل هناك. (ذكر ذلك القرطبي وأبو حيان في البحر المحيط).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: من حمل علينا السلاح فليس منا، ونصه: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (لا يُشير أحدكم على أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعلَّ الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار)، فالرواية هنا بالياء في (يشير) وهي على النفي المراد به النهي، وهي أيضاً بالعين المهملة في (ينزع)، والمعنى: يرمي به في يده ويحقق ضربته، ومن رواه (ينزغ) بالمعجمة فمعناه الإغراء، أي: يُزَيِّن له الشيطان تحقيق الضربة. والرواية في (مسلم) بالعين المهملة. (راجع شرح النووي).

هو، وقال النقاش: كان ذلك الوحي في الجب، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وهذا محتمل.

ومما رُوي في أَخبار يعقوب عليه السلام: قال الحسن: لما ورده البشير لم يجد عنده شيئاً يثيبه به، فقال له: والله ما أَصبت عندَنا شيئاً، وما خبزنا منذ سبع ليال، ولكن: «هَوَّن اللهُ عليك سكرات الموت». ومن أَخباره أَنه لما اشتد بلاؤُه قال: يا رب، أَعميتَ بصري وغَيَّبْتَ عَني يوسف، أَفما ترحمني؟ فأَوحى الله إِليه: سوف أَرحمك وأَرُدُّ عليك ولدك وبصرك، وما عَاقَبْتُك بذلك إِلا أَنك طبخت في منزلك حَمَلاً، فشمه جارٌ لك، ولم تساهمه بشيءٍ، قال: فكان يعقوب بعْدُ يدعوه إِلى غذائه وعشائه. وحكى الطبري أَنه لما اجتمع شمله كلفه بنوه أَن يدعو الله لهم حتى يأْتي الوحي بأَن الله قد غفر لهم، قال: فكان يعقوب يصلي ويوسف وراءَه وهم وراءَ يوسف، ويدعو لهم، فلبث كذلك عشرين سنة ثم جاءَه الوحي، إِني قد غفرت لهم وأَعطيتهم مواثيق النبوة بعدك.

ومن أَخباره أَنه لما حضرته الوفاة أَوصى إِلى يوسف أَن يدفنه بالشام، فلما مات نفخ فيه المُرَّ وحمله إِلى الشام، ثم مات يوسف فدفن بمصر، فلما خرج موسى عليه السلام ـ بعد ذلك ـ من أَرض مصر احتمل عظام يوسف حتى دفنها بالشام مع آبائه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قرأَ ابن مسعود: [آتَيْتَنِ] و[عَلَّمْتَنِ] بحذف الياءِ على التخفيف(١)، وقرأَ ابن ذرٍّ وحده: «رَبِّ آتَيْتَني» بغير «قد».

وذكر كثير من المفسرين أَن يوسف عليه السلام لما عدَّد في هذه الآية نعم الله عنده تَشَوَّق إِلى ربه ولقاءِ الجِلَّة من صالحي سلفه وغيرهم من المؤمنين، ورأَى أَن الدنيا كلها

---

(١) وهذا واردٌ في كلام العرب، ومنه قول الأعشى:

فَهَــلْ يَمْنَعَنِّــي ارْتِيَــادِي البِــلا دَ مِــنْ حَــذرِ الْمَــوْتِ أَنْ يــأْتِيَــنْ ؟

قليلة، فتمنى الموت في قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾. وقال ابن عباس: «لم يتمن الموت نبي غير يوسف»، وذكر المهدويُّ تأويلاً آخر ـ وهو الأقوى عندي ـ: إنه ليس في الآية تمني موت، وإنما عدَّد يوسف عليه السلام نِعَم الله عنده، ثم دعا أن يتم عليه النِّعَم في باقي عمره، أي: توفني ـ إذا حان أَجلي ـ على الإسلام، واجعل لحاقي بالصالحين، وإنما تمنى الموافاة على الإسلام لا الموت. وورد عن النبي ﷺ أنه قال: (لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحدكم الموت لِضُرٍّ نزل به... الحديث بكماله)(١)، ورُوي عنه عليه الصلاة والسلام أَنه قال في بعض دعائه: (وإذا أَردت في الناس فتنة فاقبضني إليك غير مفتون)(٢)، ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنه قال: «اللهم قد رقَّ عظمي، واسْتَنْشرت رَغْبتي، فتوفني غير مقصر ولا عاجز».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فيُشبه أَن قول النبي ﷺ: (لِضُرٍّ نزل به) إنما يريد به ضرر الدنيا كالفقر والمرض ونحو ذلك، ويبقى تمني الموت مخافة فساد الدين مباحاً، ويدلك على ذلك قول النبي ﷺ: (يأْتي على الناس زمان يمر فيه الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه،

---

(١) أخرجه البخاري في أكثر من كتاب، وكذلك أخرجه مسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، وأحمد، ولفظه كما جاء في مسلم: (لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحدكم الموت لضُرٍّ نزل به، فإن كان لا بد مُتَمَنِّياً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي).

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير، والإمام مالك في الموطأ، والإمام أحمد في مسنده (٥ـ٢٤٣)، وهو حديث طويل، جاء في أوله أن معاذ بن جبل قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح، حتى كدنا نتراءى قرن الشمس، فخرج رسول الله ﷺ سريعاً فثوب بالصلاة وصلى وتجوز في صلاته، فلمَّا سلَّم قال: (كما أنتم على مصافكم)، ثم أقبل علينا فقال: (إني سأُحدثكم ما حبسني عنكم الغداة، إني أقمت من الليل فصلَّيت ما قُدِّر لي، فنعست في صلاتي حتى استيقظت فإذا أنا بِرَبِّي عزَّ وجلَّ في أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري يا رب، قال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري ربِّ، فرأيته وضع كفَّه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري، فتجلَّى لي كل شيءٍ وعرفت، فقال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفارات، قال: وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى الجُمُعات، والجلوس في المساجد بعد الصلاة، وإسباغ الوضوءِ عند الكريهات، قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام، قال: سَلْ، قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحُبَّ المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حُبَّكَ، وحبَّ من يحبُّكَ، وحُبَّ عمل يُقَرِّبني إلى حبك)، وقال رسول الله ﷺ: (إنها حقٌّ فادرسوها وتعلموها).

ليس به الدين ولكن ما يرى من البلاءِ والفتن)[1]، فقوله: (ليس به الدين) يقتضي إباحة ذلك إن لو كان عن الدين، وإنما ذكر رسول الله ﷺ حالة الناس كيف تكون.

وقوله: ﴿ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾، قيل: [مِن] للتبعيض، وقيل: لبيان الجنس، كذلك في قوله: ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، والمراد بقوله: [ٱلأَحَادِيث]: الأحلام، وقيل: قصص الأنبياءِ والأُمم.

وقوله: [فَاطِرَ] منادى، وقوله: ﴿۞ رَبِّ قَدْ﴾ أي القائم بأمري، الكفيل بنصرتي ورحمتي.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ الآية. [ذَٰلِكَ] إشارة إلى ما تقدم من قصة يوسف، وهذه الآية تعريض لقريش، وتنبيه على آية صدق محمد ﷺ، وفي ضمن ذلك الطعن على مكذبيه. والضمير في [لَدَيْهِمْ] عائد إلى إخوة يوسف، وكذلك الضمائر إلى آخر الآية. و[أَجْمَعُوا] معناه: عزموا وجزموا، و«الأَمر» هنا هو إلقاءُ يوسف في الجب، و«المكرُ» هو أَن تدبر على الإنسان تدبيراً يضره ويؤذيه، والخديعة هي أَن تفعل بإنسان وتقول له ما يوجب أَن يفعل هو فعلاً فيه عليه ضرر. وحكى الطبري عن أَبي عمران الجوْني أَنه قال: «والله ما قصَّ الله نبأَهم ليعيرهم بذلك، إنهم لأَنبياءُ من أَهل الجنة، ولكن قصَّ الله علينا نبأَهم لئلا يقنط عبيده».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفتن باب خروج النار، وفيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى تقتتل فتتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة)... إلى أن قال: (وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً...) الحديث.

هاتان الآيتان[(١)] تدلان على أن الآية التي قبلهما فيها تعريض لقريش ومعاصري محمد ﷺ، كأنه قال: فإخبارك بالغيوب دليل قائم على نبوتك، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون وإن كنت أنت حريصاً على إيمانهم، أي: إنما يؤمن من شاءَ الله، وقوله: ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ اعتراض فصيح.

وقوله: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ﴾ الآية، توبيخ للكفرة وإقامة لِلْحُجَّة عليهم، أي: ما أسفههم في أن تدعوهم إلى الله دون أن تبتغي منهم أجراً فيقول قائل: بسبب الأجر يدعوهم، وقرأ مُبشِّر بن عُبَيْد[(٢)]: [وما نسألهم] بالنون.

ثم ابتدأ الله تبارك وتعالىٰ الإخبار عن كتابه العزيز أنه ذِكر وموعظة لجميع العالم، نفعنا الله به، ووفر حظنا منه بعزته.

وقرأت الجماعة: ﴿وَكَأَيِّن﴾ بهمز الألف وشدِّ الياءِ، قال سيبويه: هي كاف التشبيه اتصلت بـ (أيّ)، ومعناها معنى (كم) في التكثير، وقرأ ابن كثير: [وَكَائِن] بمد الألف وهمز الياءِ، وهو اسم الفاعل من (كان) فهو كائن، ولكن معناه معنى (كم) أيضاً[(٣)]. وقد تقدم استيعاب القراءَات في هذه الكلمة في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ﴾[(٤)].

و«الآية» هنا: المخلوقات المنصوبة للاعتبار، والحوادثُ الدالة على الله سبحانه في مصنوعاته، ومعنى ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ الآية: إذا جاءَ منها ما يُحسُّ أو يعلم في الجملة لم يتعظ الكافر به، ولا تأمله، ولا اعتبر به بحسب شهواته وَعَمَهِهِ[(٥)]، فهو ـ لذلك ـ كالْمُعْرِض، ونحو هذا المعنى قول الشاعر:

تَمُرُّ الصَّبا صَفحاً بِسَاكِنِ ذي الغَضَا ... وَيَصْدعُ قَلْبي أَنْ يَهُبَّ هبوبُهَا[(٦)]

---

(١) يريد قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾.
(٢) في «البحر المحيط»: «وقرأ بِشْر بن عُبيد. وفي بعض الأصول: مُيَسَّر».
(٣) قال أبو حيان: «وهذا شيءٌ يروى عن يونس، وهو قول مرجوح في النحو»، ثم ذكر أن المشهور عندهم هو رأي سيبويه.
(٤) من الآية (١٤٦) من سورة (آل عمران).
(٥) العَمَه: التَّحَيُّر والتردد بحيث لا يدري أين يتوجه، وهو في البصيرة كالأعمى في البصر.
(٦) الصَّبَا: ريح معروفة تقابل الدَّبور، قال في الصحاح: «مَهَبُّها المُسْتَوِي أن تهب في موضع مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار». وفي اللسان: «لقيه صفاحاً أي استقبله بصفح وجهه»، وصَفح الوجه وصُفْحُه: عرضه، فكأنه يصف الصَّبا بأنها تمر على صفحة وجهه دون أن تؤثر فيه، لكنها تشق قلبه شقاً=

وقرأ السدي: [وَٱلْأَرْضَ] بالنصب بإضمار فعل، والوقف ـ على هذا ـ في [السَّمَوات]، وقرأ عكرمة، وعمرو بن فائد: [وَٱلْأَرْضُ] بالرفع على الابتداءِ، والخبر قوله: [يَمُرُّونَ]، وعلى القراءَة بخفض ﴿الأَرْضِ﴾ فـ ﴿يَمُرُّونَ﴾ نعت لـ «الآية»، وفي مصحف عبد الله: «والأَرْض يمشون عليها».

وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾ الآية. قال ابن عباس: هي في أَهل الكتاب الذين يؤمنون بالله ثم يشركون من حيث كفروا بنبيه، أَو من حيث قالوا: عُزَيْر ابن الله، والمسيح ابن الله، وقال عكرمه، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: هي في كفار العرب، وإِيمانهم هو إِقرارهم بالخالق والرازق والمميت، فسمَّاه إِيماناً وإِن أَعقبه إِشراكهم بالأَوثان والأَصنام، فهذا الإِيمان لغوي فقط من حيث هو تصديق مَّا. وقيل: هذه الآية نزلت بسبب قول قريش في الطواف والتلبية: لبيك لا شريك لك إِلا شريك هو لك، تملكه وما ملك، وروي أَن النبي ﷺ كان إِذا سمع أَحدهم يقول: «لا شريك لك» يقول له: (قط قط)، أَي: قف هنا ولا تزد: «إلا شريك هو لك».

و«الغاشية»: ما يغشى ويغطي ويغم، وقرأَ أَبو حفص، وبشر بن عبيد[(١)]: [أو يأتيهم الساعة بغتة] بالياءِ. و﴿بَغْتَةً﴾ معناها: فجأَة، وذلك أَصعب.

وهذه الآية من قوله: ﴿وَكَأَيِّن﴾ وإِن كانت في الكفار بحكم ما قبلها، فإِن العصاة يأْخذون من أَلفاظها بحظٍّ، ويكون الإِيمان والشرك لغوياً كالرياءِ، فقد قال ﷺ: (الرياءُ الشرك الأَصغر)[(٢)].

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ الآية، إِشارة إِلى دعوة الإِسلام والشريعة بأَسرها، قال ابن زيد: المعنى: هذا أَمري وسُنَّتي ومنهاجي. وقرأَ ابن مسعود: [قُلْ هَذَا سَبِيلي]، والسبيل: المسلك، وتُؤَنَّث وتُذَكَّر، وكذلك الطريق[(٣)].

= لأنها تذكره الأحبة، والشاهد في البيت أن المرور يكون بدون أثر، ولا تترتب عليه نتيجة.

(١) في الأصول: «وقرأ أبو حفص مبشر بن عبيد»، والتصويب عن «البحر المحيط».

(٢) أخرج الإمام أحمد في مسنده (٥ـ٤٢٨) عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياءُ، يقول الله عزَّ وجلَّ لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً؟).

(٣) في إعراب ﴿أدعو إلى الله على بصيرة﴾ آراءٌ كثيرة، أشهرها أن مفعول ﴿أدعو﴾ محذوف تقديره: أدعو=

و«الْبَصِيرَةُ»: اسم لمعتقد الإنسان في الأَمر من الحقِّ واليقين، والبصيرة أَيضاً ـ في كلام العرب ـ: الطريقة من الدَّم، وفي الحديث المشهور: (تنظر في النَّصل فلا ترى بصيرة)[١]، وبها فسَّر بعض الناس قول الأَشعر الجُعْفي:

رَاحُـوا بَصَـائِـرَهُـمْ عَلَـى أَكْتَـافِهِـمْ وبَصِيـرَتـي يَعْـدُو بهـا عَتِـدٌ وأَي[٢]

يصف قوماً باعوا دم وَلِيِّهم، فكأَن دمه حصلت منه طرائق على أكتافهم إذ هم موسومون عند الناس ببيع ذلك الدم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويجوز أَن تكون البصيرة في بيت الأَشعر على المعتقد الحق، أَي: جعلوا اعتقادهم طلب الثأر وبصيرتهم في ذلك وراءَ ظهورهم، كما تقول: طرح فلان أَمري وراءَ ظهره.

وقوله: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ يحتمل أَن يكون تأْكيداً للضمير في [أَدْعُو]، ويحتمل أَن تكون الآيةُ كلها أَمَّارَةً بالمعروف داعيةً إلى الله الكفرةَ به والعصاة. و﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيه الله، أَي وقل: سبحان الله، وقل متبرئاً من الشرك.

ورُوي أَن هذه الآية ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ إلى آخرها كانت مرقومة على رايات يوسف عليه السلام.

= الناسَ، و﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ متعلق بالفعل [أَدْعو]، و(أَنا) توكيد للضمير المستكن في [أَدْعُو] و[مَن] معطوف على [أنا]، والمعنى: أَدعو إليها أنا ومن اتبعني، ويجوز أن يكون ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ خبراً مقدماً، والمبتدأ [أنا]، و[مَنْ] معطوف عليه، ويجوز أن يكون ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ حالاً من ضمير [أدْعُو] فيتعلق بمحذوف، و[أنا] فاعلا بالجار والمجرور النائب عن ذلك المحذوف، و[مَنْ] معطوف على [أنا].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة، وأحمد في (٣ـ٥)، ولفظه فيه عن أبي سعيد أن النبي ﷺ ذكر قوماً يكونون في أُمته، يخرجون في فرقة من الناس سيماهم التحليق، هم شرُّ الخلق، أو من شرّ الخلق، يقتلهم أدنى الطائفتين من الحق، قال: فضرب النبي ﷺ لهم مثلاً، أو قال قولاً: الرجل يرمي الرمية، أو قال: الغرض، فينظر في النصل فلا يرى بصيرة، وينظر في النضي فلا يرى بصيرة، وينظر في النوق فلا يرى بصيرة، قال: قال أبو سعيد: وأنتم قتلتموهم يا أهل العراق.

(٢) قال في اللسان: «البصيرة: مقدار الدرهم من الدم، وقيل: البصيرة من الدم: ما لم يَسِلْ، وقيل: هو الدفعة منه، وقيل: البصيرة: دم البكر، قال: راحوا بصائرهم... البيت. ويعني بالبصائر دم أبيهم، يقول: تركوا دم أبيهم خلفهم ولم يثأروا به وطلبته أنا، قال في الصحاح: وأنا طلبت ثأري، وكان أبو عبيدة يقول: البصيرة في هذا البيت: الترس أو الدرع، وكان يرويه: حملوا بصائرهم، وقال ابن الأعرابي: راحوا بصائرهم يعني ثِقَل دمائهم على أكتافهم لم يثأروا بها». اهـ. مادة بَصَرَ. هذا وعَتِدٌ: مُعَدٌ مُهَيَّأ يقصد نفسه، يقال: فرسٌ عَتِدٌ: مُعَدٌ للجري، و(أي) استفهام للتهويل والتعظيم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠ ﴾.

هذه الآية تتضمن الردّ على مستغربي إرسال الرسل من البشر، كالطائفة التي قالت: ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾[١]، وكالطائفة التي اقترحت ملَكاً، وغيرهما.

وقرأ الجمهور: [يوحى إليهم] بالياءِ وفتح الحاءِ، وهي قراءَة عاصم في رواية أبي بكر، وقرأ في رواية حفص ﴿ نُّوحِيٓ ﴾ بالنون وكسر الحاءِ، وهي قراءَة أبي عبد الرحمن، وطلحة.

و[ٱلۡقُرَىٰ]: المدن، وخصصها دون القوم المنتوين[٢] أَهل العمود، فإِنهم في كل أُمَّةٍ أَهل جفاءٍ وجهالة مفرطة، قال ابن زيد: أَهل القرى أَعلم وأَحلم من أَهل العمود.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فإِنهم قليل نبلهم، ولم يُنَبِّىء الله منهم قطُّ رسولاً. وقال الحسن: لم يبعث الله رسولاً قطُّ من أَهل البادية، ولا من النساءِ، ولا من الجن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والتَّبدِّي مكروه إلا في الفتن وحين يُفَرُّ بالدين، كقوله عليه الصلاة والسلام: (يوشك أَن يكون خير مال المسلم غنماً. . .) الحديث[٣]. وفي ذلك أَذن رسول الله ﷺ لِسَلَمَةَ بن الأَكوع[٤].

---

(١) من الآية (٩٤) من سورة (الإسراء).

(٢) انتَوَى: انتقل من مكان إلى آخر، وفي حديث المرأة البدوية التي توفي عنها زوجها: (إنها تنتوي حيث انتوى أهلها)، قال في النهاية: أي: تنتقل وتتحول، يريد البدو الرحل.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب: «من الدين الفرار من الفتن»، ولفظه كاملاً عن أبي سعيد الخدري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتَّبِع بها شعف الجبال ومواقع القطر يَفِرُّ بدينه من الفتن).

(٤) أخرج البخاري في كتاب الفتن، باب «التَّعرُّب في الفتنة» عن سلمة بن الأكوع (أنه دخل على الحجاج=

وقد قال ﷺ: (لا تعرُّب في الإسلام)[١]، وقال: (من بَدَا جفا)[٢]، وروى عنه معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: (الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالمساجد والجماعات والعامة)[٣].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويعترض هذا ببدو يعقوب، وينفصل عن ذلك بوجهين:

أحدهما: أن ذلك البدو لم يكن في أهل عمود، بل هو بتَقَرٍّ وفي منازل وربوع، والثاني: أنه إنما جعله بدواً بالإضافة إلى مصر، كما هي بنات الحواضر بدو بالإضافة إلى الحواضر.

ثم أحالهم على الاعتبار في الأمم السالفة في أقطار الأرض التي كذبت رسلها فحاق بها عذاب الله، ثم حضَّ على الآخرة والاستعداد لها والاتقاءِ من الموبقات فيها، ثم وقفهم موبخاً بقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ زيادة في وصف إنعامه على المؤمنين، أي: عذَّب الكفار ونجَّى المؤمنين ولدار الآخرة أحسن لهم.

وأما إضافة الدار إلى الآخرة فقال الفراءُ: هي إضافة الشيءِ إلى نفسه، كما قال الشاعر:

فـإنَّـكَ لَـوْ حَلَلْـتَ دِيَـارَ عَبْـسٍ ... عـرَفْـت الـذُّلَ عِـرْفَـانَ الْيَقِيـنِ[٤]

= فقال: يابن الأكوع، ارتددتَ على عقبيك، تَعَرَّبْتَ؟ قال: لا، ولكن رسول الله ﷺ أذن لي في البدو)، وعن يزيد بن أبي عبيد قال: لما قُتل عثمان بن عفان خرج سلمة بن الأكوع إلى الرَّبَذَة، وتزوج هناك امرأة وولدت له أولاداً، فلم يزل بها حتى أقبل قبل أن يموت بليالٍ فنزل المدينة).

(١) الذي وجدناه في «النهاية» ما نصه: (ثلاثٌ من الكبائر منها التَّعَرُّب بعد الهجرة...) ثم فسَّر معنى «التَّعَرُّب» بقوله: هو أن يعود إلى البادية ويقيم مع الأعراب بعد أن كان مهاجراً.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢ـ٣٧١، ٤٤٠، ٤ـ٢٩٧)، ولفظه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ بَدَا جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن، وما ازداد عبد من السلطان قُرْباً إلا ازداد من الله بُعْداً).

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن معاذ رضي الله عنه، ولفظه كما في «الجامع الصغير»: (إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية، فإياكم والشِّعاب، وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد). ورمز له الإمام السيوطي بأنه حديث حسن.

(٤) هذا واحد من بيتين رواهما الفراءُ عن بعضهم في «معاني القرآن»، وهما: =

وفي رواية: «فَلَوْ أَقْوَتْ عَلَيْكَ دِيَارُ عَبْسٍ» ـ وكما يقال: «مسجد الجامع» ونحو هذا، وقال البصريون: هذه على حذف مضاف تقديره: «ولدار الحياة الآخرة»، أَو «المدة الآخرة».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه الأَسماءُ التي هي للأَجناس كمسجد وثوب وحق وجبل ونحو ذلك ـ إذا نطق بها الناطق لم يُدْرَ ما يريد بها فتضاف إلى مُعَرَّف مُخَصِّص للمعنى المقصود، فقد تضاف إلى جنس آخر كقولك: «ثَوْبُ خَزٍّ» و«جَبَلُ تُرَابٍ»، وقد تضاف إلى صفة كقولك: «مسْجِدُ الجامع» و«حقُّ اليقين»، وقد تضاف إلى اسم خاص كقولك: «جبَلُ أُحُدٍ» ونحوه.

وقرأَ الحسن، والأَعمش، والأَعرج، وابن كثير، وأَبو عمرو، وعاصم، وعلقمة: [يَعْقِلُونَ] بالياءِ، واختلف عن الأَعمش، قال أَبو حاتم: قراءَة العامة: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاءِ من فوق[1].

ويتضمن قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أَن الرسل الذين بعثهم الله من أَهل القُرى دعوا أُمَمَهُم فلم يؤمنوا بهم حتى نزلت بهم الْمَثُلات، فصاروا في حيز من يُعْتبر بعاقبته، فلهذا الْمُضَمَّن حسُن أَن تدخل «حتى» في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾[2].

= أَتَمْـدَحُ فَقْعَسـاً وَتَـذُمُّ عَبْسـاً ؟ ... الا للهِ أُمُّـكَ مِـنْ هَجِيـنِ
وَلَـوْ أَقْـوَتْ عَلَيْـكَ دِيَـارُ عَبْـسٍ ... عَـرَفْـتَ الـذُّلَّ عِـرْفَـانَ الْيَقِيـنِ

ثم قال: أضاف الدار إلى الآخرة، وهي الآخرة، وقد تضيف العربُ الشيءَ إلى نفسه، كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، وجميع الأيام تضاف إلى أنفسها لاختلاف لفظها، وكذلك شهر ربيع، والعرب تقوله في كلامها، ثم أنشد البيتين عن بعضهم.

(١) قال في «البحر المحيط»: «وقرأ الحسن، وعلقمة، والأعرج، وعاصم، وابن عامر، ونافع بالتاءِ على خطاب هذه الأمة تحذيراً لهم مما وقع فيه أُولئك فيصيبهم ما أصابهم». تأمل الاختلاف بين الذي قاله ابن عطية والذي قاله أبو حيان.

(٢) قال أبو حيان في البحر بعد أن نقل كلام ابن عطية هذا: «ولم يتحصل لنا من كلامه شيءٌ يكون ما بعد (حَتَّى) غاية له، لأنه علَّق الغاية بما ادعى أنه فهم ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ الآية». وقال القرطبي: «المعنى: وَمَا أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالاً ثم لم نعاقب أُممهم بالعقاب حتَّى إذا استيأس الرسل».

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، والحسن، وعائشة ـ بخلاف ـ وعيسى، وقتادة، ومحمد بن كعب، والأعرج، وأَبو رجاءٍ، وابن أَبي مُلَيْكَة: [كُذِّبُوا] بتشديد الذال وضم الكاف، وقرأَ الباقون: ﴿كُذِبوا﴾ بضم الكاف وكسر الذال وتخفيفها، وهي قراءَة علي بن أَبي طالب، وأُبيٍّ بن كعب، وابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وطلحة، والأَعمش، وابن جبير، ومسروق، والضحاك، وإِبراهيم، وأَبي جعفر، ورواها شيبة بن نصاح عن القاسم عن عائشة. وقرأَ مجاهد، والضحاك، وابن عباس، وعبد الله بن الحارث ـ بخلاف عنهم ـ: [كَذَبوا] بفتح الكاف والذال[1].

فأَما الأُولى فتحتمل أَن يكون الظن بمعنى اليقين، ويكون الضمير في ﴿ظَنُّوا﴾ وفي [كُذِّبوا] للرسل، ويكون المكذبون مشركي من أُرسل إِليه، والمعنى: وتيقَّن الرسلُ أَن المشركين كذَّبوهم وصمموا على ذلك، وأَن لا انحراف عنه. ويحتمل أَن يكون الظن على بابه، والضميران للرسل، والمكذبون مؤمنو من أُرسل إِليه، أَي: لمَّا طالت المواعيد حسب الرسل أَن المؤمنين أَولاً قد كذبوهم وارتابوا بقولهم.

وأَما القراءَة الثانية ـ وهي ضم الكاف وكسر الذال وتخفيفها ـ فيحتمل أَن يكون المعنى: حتى إِذا استيأَس الرسل من النصر، أَو من إِيمان قومهم ـ على اختلاف تأْويل المفسرين في ذلك ـ وظن المرسل إِليهم أَن الرسل قد كذبوهم فيما ادَّعَوْه من النبوة، أَو فيما توعدوهم به من العذاب، لمَّا طال الإِمهال واتصلت العافية، فلما كان المرسل إِليهم ـ على هذا التأْويل ـ مكذبين، بني الفعل للمفعول في قوله: ﴿كُذِبوا﴾، هذا مشهور قول ابن عباس، وابن جبير. وأَسند الطبري أَن مسلم بن يسار قال لسعيد بن جبير: يا أَبا عبد الله، آية بلغت مني كل مَبْلَغ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾، فهذا هو أَن تظن الرسل أَنهم قد كُذبوا مخففة، فقال له ابن جبير: «يا أَبا عبد الرحمن، إِنما يئس الرسل من قومهم أَن يجيبوهم، وظن قومهم أَن الرسل قد كَذَبتهم، فحينئذ جاءَ النصر»، فقام مسلم إِلى سعيد فاعتنقه وقال: فرَّجت عني فرَّج الله عنك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فرضي الله عنهم، كيف كانت خلقهم في العلم[2]، وقال بهذا التأْويل ـ في هذه

---

(١) أي الذال الخفيفة.

(٢) هكذا في جميع النسخ الأصلية «كانت» بتاء التأنيث.

القراءَة ـ ابن مسعود ومجاهد، ورجح أَبو علي الفارسي هذا التأْويل، وقال: إن ردَّ الضمير في [ظَنُّوا] وفي [كُذِبُوا] على المرسل إِليهم ـ وإِن كان لم يتقدم لهم ذكْرٌ صريح ـ جائز لوجهين:

أَحدهما: أَن ذكر الرسل يقتضي ذكر مرسل إِليه.

والآخر: أَن ذكرهم قد أُشير إِليه في قوله: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾.

وتحتمل هذه القراءَة أَيضاً أَن يكون الضمير في [ظَنُّوا] وفي [كُذِبُوا] عائد على الرسل، والمعنى: كَذَبَهم من أَخبرهم عن الله، والظن على بابه، وحكى هذا التأْويل قوم من أَهل العلم، والرُّسُلُ بشَرٌ، فضعفوا وساءَ ظنهم، قاله ابن عباس، وابن مسعود أَيضاً، وابن جبير وقال: أَلم يكونوا بشراً؟ وقال ابن مسعود لمن سأَله عن هذا: «هو الذي نَكْره»، وردّت هذا التأْويل عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها وجماعة من أَهل العلم، وأَعظموا أَن توصف الرسل بهذا، وقال أَبو علي الفارسي: «هذا غير جائز على الرسل».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الصواب، وأَين العصمة والعلم؟

وأَما القراءَة الثالثة، وهي فتح الكاف والذال، فالضمير في [ظَنُّوا] للمرسل إِليهم، والضمير في [كَذَبُوا] للرسل. ويحتمل أَن يكون الضميران للرسل، أَي: ظن الرسل أَنهم قد كَذَبوا من حيث نقلوا الكذب وإِن كانوا لم يتعمدوه، فيرجع هذا التأْويل إِلى المعنى المردود الذي تقدم ذكره.

وقوله: ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ أَي: بتعذيب أُممهم الكافرة.

ثم وصف حال مجيءِ العذاب في أَنه ينجي الرسل وأَتباعهم، وهم الذين شاءَ رحمتهم، ويحل بأْسه بالمجرمين الكفرة. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [فَنُنْجِي] بنونين، من أَنجى. وقرأَ الحسن: [فَنُنَجِّي]، النون الثانية مفتوحة والجيم مشددة، وهو من نجَّى يُنَجِّي. وقرأَ أَبو عمرو أَيضاً وقتادة [فَنُجِّي] بنون واحدة وشدِّ الجيم وسكون الياءِ، فقالت فرقة: إِنها كالأُولى أُدغمت النون الثانية في الجيم، ومنع بعضهم أَن يكون هذا موضع إِدغامٍ لتنافر النون والجيم في الصفات لا في

المخارج، وقال: إنما حذفت النون في الكتابة لا في اللفظ، وقد حكيت هذه القراءَة عن الكسائي، ونافع. وقرأ عاصم، وابن عامر ﴿فَنُجِّيَ﴾ بفتح الياءِ، على وزن فُعِّلَ، وقرأت فرقة: [فَنُنَجِّي] بنونين وفتح الياءِ، رواها هبيرة عن حفص عن عاصم، وهي غلط من هبيرة(١). وقرأ ابن محيصن، ومجاهد: [فَنَجَا] فعل ماض بتخفيف الجيم، وهي قراءَة نصر بن عاصم، والحسن بن أَبي الحسن، وابن السميفع، وأَبي حيْوة. قال أَبو عمرو الدَّاني: «وقرأْتُ لابن محيصن: [فَنَجَّى] بشد الجيم، على معنى: فَنَجَّى النصرُ».

و«البأْس»: العذاب، وقرأَ أَبو حَيْوة: [من يشاء] بالياءِ، وجاءَ الإِخبارُ عن هلاك الكافرين بقوله: ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا ﴾ الآية، إِذْ في هذه الأَلفاظ وعيد بيِّن، وتهديد لمعاصري محمد عليه الصلاة والسلام، وقرأَ الحسن: [بأْسُهُ] بالهاءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

الضمير في ﴿قَصَصِهِمْ﴾ عامٌّ ليوسف وأَبويه وإِخوته وسائر الرسل الذين ذكروا على الجملة، ولما كان ذلك كله في القرآن قال عنه: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾(٢)، فإِذا تأَملت قصة يوسف ظهر أَن في غرائبها، وامتحان الله فيها لقوم في مواضع، ولُطْفهِ لقوم في مواضع، وإِحسانه لقوم في مواضع ـ معتبراً لمن له لُبٌّ وأَجاد النظر حتى يعلم أَن كل أَمر من عند الله تبارك وتعالىٰ وإِليه.

وقوله: ﴿ مَا كَانَ ﴾ صيغة مَنْع، وقرينة الحال تقتضي أَن البرهان يقوم على أَن ذلك لا يُفْتَرَى، وذلك بأَدلة النبوة وأَدلة الإِعجاز.

---

(١) عقَّب على ذلك أبو حيان في البحر بقوله: «وليست غلطاً، ولها وجْهٌ في العربية، وهو أن الشرط والجزاءَ يجوز أن يأتي بعدهما المضارع منصوباً بإضمار (أن) بعد الفاءِ، كقراءة من قرأ: [وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفرَ] بنصب (يَغْفِرَ) بإضمار (أن) بعد الفاءِ، ولا فرق في ذلك بين أن تكون أداة الشرط جازمة أو غير جازمة». (٥ـ٣٥٥).

(٢) وقيل: إن اسم كان ضمير يعود على «القَصص»، أي: ما كان القَصص حديثاً مُخْتَلقاً، بل هو حديث صدق ناطق بالحكمة جاءَ به من لم يقرأ الكتب، ولا تتلمذ لأحد، ولا خالط العلماءَ، فمحال أن يفتري هذه القصة بحيث تطابق ما ورد في التوراة من غير تفاوت.

و«الحديث» هنا واحِدُ الأَحاديث، وليس للذي هو خلاف القديم ها هنا مدخل.

ونصب ﴿تَصْدِيقَ﴾ إما على إضمار معنى كان، وإما على أن تكون ﴿لَكِنْ﴾ بمعنى (لَكِنَّ) المشددة. وقرأ عيسى الثَّقفي[(١)]: [تَصْدِيقُ] بالرفع، وكذلك كل ما عطف عليه، وهذا على حذف المبتدأ، والتقدير: «هو تصديقُ»[(٢)]، وقال أبو حاتم: النصب على تقدير: «ولكن كان»، والرفع على تقدير: «ولكن هو»، ويُنْشَدُ بيت ذي الرمة بالوجهين:

وما كانَ مالِي مِنْ تُراثٍ وَرِثْتُهُ وَلاَ ديةً كانتْ ولا كَسْب مَأْثَمِ
ولكِنْ عطاءُ اللهِ مِنْ كُلِّ رِحْلَةٍ إِلى كُلِّ مَحْجُوبِ السُّرادِقِ خِضْرَمِ[(٣)]

رفع «عطاءُ اللهِ»، والنصب أَجود.

و﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ هو التوراة والإنجيل، والضمير في ﴿يَدَيْهِ﴾ عائد على القرآن، وهو اسم [كانَ]، وقوله: ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ يعني من العقائد والأحكام والحلال والحرام.

وباقي الآية بَيِّنٌ.

تم بعون الله وتوفيقه تفسير سورة يوسف عليه
وعلى نبينا الصلاة والسلام والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) ذكر صاحب «اللوامح» أنها قراءَة حمران بن أعين، وعيسى الكوفي، ونقل ذلك صاحب البحر المحيط.

(٢) قال أبو الفتح في «المحتَسب»: ويجوز على هذا الرفع في قوله تعالىٰ: [ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكمْ ولكن رسولُ الله وخاتم النبيين]، أي: ولكن هو رسول الله.

(٣) المأثَم: مصدر أَثِمَ بمعنى وقع في الإثم. والسُّرَادق: واحد السُّرادقات التي تُمَدُّ فوق صحن الدار، وكل بيت من كُرْسُفٍ (قطن) فهو سرادق، قال رُؤْبة: «سُرَادِقُ المَجْدِ عَلَيْكَ مَمدُودْ». والخِضْرَمُ بكسر الخاءِ: الكثير العطية، مشبه في ذلك بالبحر الخِضْرم وهو الكثير الماءِ. يقول: إن ما عندي من مال هو عطاء هذا الممدوح الكثير العطاءِ، ولم يكن ميراثاً ورثته، ولا ديَّةً انتفعتْ بها، ولا كسْباً أَخذته من حرام. والشاهد فيه هو أَن كلمة (عطاء) تكون بالرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف، وتكون بالنصب على تقدير كان، قال ابن عطية: والنصب أجود. ومثل هذا البيت قول لوط بن عبيد العائي اللص:

وَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ لا مالَ مُسْلِمٍ أَخَذْتُ ولا مُعْطي اليَمِينَ مُحالِفِ
ولكِنْ عَطَاءُ اللهِ مِنْ مَالِ فَاجِرٍ قَصِيِّ المَحَلِّ مُعْوِرٍ للمَقارِفِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الرعد

هذه السورة مكية، قاله سعيد بن جُبَيْر، وقال قتادة: هي مدنية غير آيتين: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾ الآية[٢]، حكاه الزهراوي، وحكى المهدوي عن قتادة أن السورة مكية إلا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ﴾، وقوله: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[٣]، والظاهر عندي أن المدني فيها كثير، وكل ما نزل في شأن عامر بن الطفيل، وإربد بن ربيعة فهو مدني، وقيل: السورة مدنية، حكاه مُنْذِر بن سعيد البَلُّوطي، وذكره مَكِّي بن أَبي طالب[٤].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝٢﴾.

تقدم القول في فواتح السور وذكر التأْويلات في ذلك، إلا أَن الذي يخصُّ هذا الموضع من ذلك ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما: «إن هذه الحروف من قوله: أَنا الله أَعلم وأَرى»، ومن قال: «إن حروف أَوائل السُّور هي مثال لحروف المعجم» قال: الإشارة هنا بـ ﴿تِلْكَ﴾ هي إلى حروف المعجم، ويصح ـ على هذا ـ أَن يكون ﴿الْكِتَاب﴾ يراد به القرآن، ويصح أَن يراد به التوراة والإنجيل. و﴿الٓمٓرۚ﴾ ـ على هذا ـ ابتداءٌ،

---

(١) من الآية (٣١) من السورة.

(٢) هي نفس الآية (٣١)، ولعلَّ من يقول بهذا ـ وهو قتادة ـ يعتبرهما آيتين بخلاف ما في رسم المصحف اليوم.

(٣) من الآية (٤٣) وهي آخر آية في السورة.

(٤) الذي في الأصول «بكر بن أبي طالب»، والتصويب عن تفسير «البحر المحيط».

و﴿تِلْكَ﴾ ابتداءٌ ثان، و﴿آيَاتُ﴾ خبر الثاني، والجملة خبر الأول. وعلى قول ابن عباس في ﴿الٓمٓر﴾ تكون ﴿تِلْكَ﴾ ابتداءً، و﴿آيَاتُ﴾ بدلاً منه، ويصح في ﴿الْكِتاب﴾ التأويلان اللذان تقدما.

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾. ﴿ٱلَّذِي﴾ رفع بالابتداءِ، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبره، وعلى هذا تأويل من يرى ﴿الٓمٓر تِلۡكَ﴾ حروف المعجم، و﴿تِلْكَ﴾ و﴿آيَاتُ﴾ ابتداءٌ وخبر، وعلى قول ابن عباس يكون [ٱلَّذِي] عطفاً على [تِلْكَ]، و[ٱلْحَقُّ] خبر [تِلْكَ]، وإذا أُريد بـ ﴿ٱلْكِتَاب﴾ القرآن فالمراد بـ ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ جميع الشريعة، ما تضمنه القرآن منها وما لم يتضمنه. ويصح في ﴿ٱلَّذِي﴾ أن يكون في موضع خفض عطفاً على [ٱلْكِتَاب]، فإن أَردت ـ مع ذلك ـ بـ ﴿ٱلْكِتَاب﴾ القرآن كانت الواو عطف صفة لشيءٍ واحد، كما تقول: جاءَني الظريفُ والعاقل وأَنت تريد شخصاً واحداً[١]، ومن ذلك قول الشاعر:

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وابنِ الهُمَامِ ... ولَيْثِ الكَتِيبَةِ في الْمُزْدَحَمْ[٢]

وإِن أَردتَ ـ مع ذلك ـ بـ ﴿ٱلْكِتَاب﴾ التوراة والإِنجيل فذلك بيِّن، فإن تأولت ـ مع ذلك ـ [الٓمٓر] حروف المعجم رفعت قوله: ﴿ٱلْحَقّ﴾ على إِضمار مبتدأ تقديره: هو الحق، وإن تأولتها كما قال ابن عباس رضي الله عنهما فـ ﴿ٱلْحَقّ﴾ خبر ﴿تِلْكَ﴾. ومن رفع ﴿ٱلْحَق﴾ بإضمار ابتداءٍ وقف على قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وباقي الآية ظاهر إِن شاءَ الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿الله الذي رفع السموات﴾ الآية. لمَّا تضمن قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ توبيخ الكفرة عقَّب ذلك بذكر الله تبارك وتعالىٰ الذي ينبغي أن يُوقَن به، وبذكر الأَدلة الداعية إِلى الإِيمان به. والضمير في قوله: [تَرَوْنَهَا] قالت فرقة: هو عائد على ﴿ٱلسَّمَٰوَاتِ﴾ فـ ﴿تَرَوْنَهَا﴾ ـ على هذا ـ في موضع الحال، وقال جمهور الناس: لا عمد للسمٰوات، وقالت فرقة: الضمير عائد على «العَمَد»، فـ ﴿تَرَوْنَهَا﴾ ـ

---

(١) هذا في الأصل هو رأي الفراءِ، وأجازه الحوفي مع ابن عطية، وذكره أيضاً الطبري في تفسيره، وقال: «ثم يبتدىء الحقُّ بمعنى: «ذلك الحقُّ»، فيكون رفعه بمضمر من الكلام قد استغنى بدلالة الظاهر عليه منه».

(٢) القَرْم (بفتح القاف): السَّيِّد المعظم، قيل له ذلك على التشبيه بالفَحْل الذي يُترك من الركوب والعمل ويُودع لِلْفِحْلَةِ. والكتيبة: الطائفة المحدودة من الجيش. والمُزْدَحَم: محل الازدحام، والشاهد هنا أن الواو عطفت صفات لشيءٍ واحد، والشاعر يريد: إلى الملِك القرم بن الهُمام ليث الكتيبة.

على هذا ـ صفة للعَمَد، وقالت هذه الفرقة: للسموات عَمَدٌ غير مرئية، قاله مجاهد، وقتادة. وقال ابن عباس: وما يدريك أنها بِعَمَد لا تُرى، وحكى بعضهم أن العَمَد جبل قاف المحيط بالأرض، والسماءُ عليه كالقبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله ضعيف، والحق ألاَّ عَمَد جملة، إذ العمد تحتاج إلى عمد، ويتسلسل الأمر فلا بُدَّ من وقوفه على القدرة، وهذا هو الظاهر من قوله تعالىٰ: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾(١)، ونحو هذا من الآيات. وقال إياس بنُ معاوية: السَّمَاءُ مقبية على الأرض مثل القبة. وفي مصحف أُبَيٍّ «تَرَوْنه» بتذكير الضمير.

و«ٱلْعَمَدُ» اسم جمع عمود، والباب في جمعه «عُمُد» بضم الحروف الثلاثة، كرسول ورُسُل وشِهابٍ وشُهُب، وغيره. ومن هذه الكلمة قول النابغة:

وخَبِّـرَ الجِـنَّ أنـي قَـدْ أَذِنْـتُ لَهُـمْ ... يَبْنُـونَ تَـدْمُـرَ بـالصُّفَّـاح والْعُمُـدِ(٢)

وقال الطبريُّ: «العمَد (بفتح العَيْن) جمع عمود، كما جُمع الأديم أَدَمًا»، وليس كما قال. وفي كتاب سيبويه أن الأَدَم اسم جمع، وكذلك نصَّ اللغويون على العَمَد، ولكن أبا عبيدة ذكر الأمر غير مُتيَقِّنٍ فاتَّبعه الطبري. وقرأ يحيى بن وثَّاب: ﴿بِغَيْرِ عُمُدٍ﴾ بضم العين.

وقوله: [ثُمَّ] هي هنا لعطف الجُمَل لا للترتيب، لأن الاستواءَ على العرش قبل رفع السموات، ففي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (كان الله ولم يكن شيءٌ قبل، وكان عرشه على الماءِ، ثم خلق السموات والأرض)(٣).

---

(١) من الآية (٦٥) من سورة (الحج).

(٢) ويُروى: وخَيِّسَ، بمعنى: ذَلِّلَ، وتَدْمُر: بلد بالشام بناها سيدنا سليمان عليه السلام، والصُّفَّاح: حجارة عراض رقاق. والعُمُد: جمع عمود.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب (بدء الخلق)، والترمذي في التفسير، والإمام أحمد في مسنده (٢ـ٣١٢، ٥٠١) و(٤ـ٤٣١)، ولفظه كما جاء في البخاري عن عمران بن حُصَيْن رضي الله عنهما قال: (دخلت على النبي ﷺ وعَقَلْتُ ناقتي بالباب، فأتاه ناس من تميم، فقال: اقبلوا البُشْرَى يا بني تميم، قالوا: قد بشرتنا فأعطنا، مرتين، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن، فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم، قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر، قال: كان الله ولم يكن شيءٌ غيره، وكان عرشه على الماءِ، وكتب في الذكر كل شيءٍ، وخلق السموات والأرض، فنادى=

وقد تقدم القول في كلام الناس في الاستواءِ[١]، واختصاره أن أبا المعالي رجَّح أنه استوى بقهره وغلبته، وقال القاضي ابن الطيب وغيره: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ في هذا الموضع بمعنى: استولى، والاستيلاءُ قد يكون دون قهر، فهذا فرق ما بين القولين، وقال سفيان: فعل فعلاً سمَّاه استواءً، وقال الفراءُ: رسول الله [ٱسْتَوَىٰ] ـ في هذا الموضع ـ كما تقول العرب: «فعل زيد كذا ثم استوى إِليَّ يكلمني»، بمعنى أَقْبلَ وقَصَدَ، وحُكِيَ لي عن أَبي الفضل بن النحوي أنه قال: ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ ـ في هذا الموضع ـ مصدر (عَرَشَ)، فكأنه أَرَادَ جميع المخلوقات، وذكر أَبو منصور عن الخليل أن العَرْش: المُلْك، وهذا يؤيد منزع أَبي الفضل بن النحوي إذ قال: «العرش مصدر»، وهذا خلاف ما مشى عليه الناس من أَن ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ هو أَعظم المخلوقات، وهو الشخص المشهور الذي كان على الماءِ، والذي بين يديه الكرسي، وأَيضاً فيبقى النظر على أَبي الفضل في معنى الاستواءِ قريباً مما هو على قول الجميع. وفي البخاري عن مجاهد أنه قال: «المعنى: علا على العرش»، وكذلك هي عبارة الطبري[٢]، والنظر الصحيح يرفع هذه العبارة.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ﴾ تنبيه على القدرة، و﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ في ضمن ذكرهما ذِكْرُ الكواكب، ولذلك قال: ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾، أَي كل ما هو في معنى الشمس والقمر من التَّسْخير، و(كُلٌّ) لفظة تقتضي الإِضافة ظاهرة أَو مقدرة.

والأَجلُ المُسَمَّى هو انقضاءُ الدنيا وفساد هذه البنية، وقيل: يريد بقوله: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الحدود التي لا تتعداها هذه المخلوقات، أَي: تجري على رسوم معلومة[٣].

= منادٍ: ذهبت ناقتك يا بن الحصين، فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب، فوالله لوَدِدْتُ أَني كنتُ تركتها.

(١) عند تفسير قوله تعالىٰ في الآية (٥٤) من سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

(٢) في القرطبي: «وحكى أبو عمر بن عبد البر عن أبي عبيدة في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ قال: علا، وقال الشاعر:

فأَوردتهم ماءً بفَيْفَاءَ قَفْرَةٍ ... وقَدْ حلَّقَ النَّجْمُ الْيَمَانِيُّ فاسْتَوَى

أي: عَلا وارتفع». وعُلُوُّ الله تعالىٰ عبارة عن عُلُوِّ مجده وصفاته وملكوته، أي: ليس فوقه فيما يجب له من معاني الجلال أحد.

(٣) هذا رأي ابن عباس، نقل في القرطبي عنه قوله: «أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التي ينتهيان إليها لا يتجاوزانها».

وقوله: ﴿يُدَبِّرُ﴾ بمعنى يُبْرم وينفِّذ، وعبَّر بالتدبير تقريباً للأفهام، إذ التدبير إنما هو النظر في أدبار الأُمور وعواقبها، وذلك من صفة البَشَر، و[ٱلأَمْر] عامٌ في جميع الأُمور وما ينقضي في كل أَوان في السموات والأَرض. وقال مجاهد: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ معناه يقضيه وحده. وقرأَ الجمهور: ﴿يُفَصِّلُ﴾ بالياءِ، وقرأَ الحسن بنون العظمة، ورواها الخفاف وعبد الوهاب عن أَبي عمرو، وهبيرة عن حفص، قال المهدوي: ولم يختلفا في [يُدَبِّر]، وقال أَبو عمرو الداني: إن الحسن قرأَ بالنون فيهما، والنظر يقتضي أَن قوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ ليس على حدِّ قوله: ﴿يُدَبِّرُ﴾ من تعديد الآيات، بل لما تعددت الآيات وفي جملتها تدبير الأَمر أَخبر أَنه يُفَصِّل الآيات لعل الكفرة يوقنون بالبعث، و[ٱلآيَات] هنا إِشارة إِلى ما ذكر في الآية وبعدها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾

لما فرغت آيات السماءِ ذكر آيات الأَرض. وقوله: ﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ يقتضي أَنها بسيطة لا كروية، وهذا هو ظاهر الشريعة. والرواسي: الجبال الثابتة، يقال: «رسا يرسو» إذا ثبت، ومنه قول الشاعر:

بِـهِ خـالـداتٌ مـا يُـرِمْـنَ وهَـامِـدٌ ... وأَشْعَـث أَرْسَتْـهُ الْـوَلِـيـدَةُ بـالْفِـهْـرِ[1]

والزَّوْجُ في هذه الآية هو الصنف والنوع، وليس بالزوج المعروف في المتلازمَيْن الفردين من الحيوان وغيره، ومنه قوله: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾[2] الآية،

---

(١) البيت للأحوص، ورواية (اللسان): «سوى خالداتٍ» بدلاً من «به خالدات»، وما يُرِمْنَ: ما يُطْلَبْنَ، من قولك: رُمْتُ الشيءَ أرومه رَوْماً بمعنى أطلبه، والهامد: الساكن الذي لا يتحرك، والأرض الهامدة: التي لا نبات فيها، والأشعَث: المتفرق، وأرْسَتْه: ثَبَّتته، والفِهْرُ: الحَجَر قدْر ما يُدَقُّ به الجَوْز ونحوه، أو هو حجر يملأ الكف، وفي الحديث: (لما نزل ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ جاءت امرأته وفي يدها فِهْر، قال هو الحَجَر ملءَ (الكفِّ).

(٢) من الآية (٣٦) من سورة (يس).

ومثل هذه الآية: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا﴾ الآية في (ق)[١]، وهذه الآية تقتضي أن كل ثمرة فموجود منها نوعان، فإن اتفق أَنْ وُجد من ثمرة أكثر من نوعين فغير ضارٍّ في معنى الآية.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿يُغْشِي﴾ بسكون الغين وتخفيف الشين، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ بفتح الغين وشدّ الشِّين، وكفى ذكر الواحد ذكر الآخر، وباقي الآية بيِّن. ويشبه أن الأزواج التي يراد بها الأنواع والأصناف والأجناس إنما سُمِّيَت بذلك من حيث هي اثنان اثنان في كل ثمرة ذكر أو أنثى، وأشار إلى ذلك الفراءُ عند المهدوي، وحكى عنه غيره ما يقتضي أن المعنى تم في قوله: ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، ثم ابتدأ أنه جعل في الأرض من كل ذكر وأنثى زوجين.

وقوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ﴾ جمع قطعة، وهي الأجزاءُ، وقيّد منها في هذا المثال ما تجاور وقَرُبَ بعضه من بعض لأن اختلاف ذلك في القُرْب أغرب[٢]، وقرأ الجمهور: ﴿وَجَنَّـٰتٌ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿قِطَعٌ﴾، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [وجنَّات] بالنصب بإضمار فعل، وقيل: هو عطف على [رَوَاسِي]، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ بالرفع في الكل عطفاً على ﴿قِطَع﴾، وقرأ الباقون بالْخَفض في الكل عطفاً على ﴿أَعْنَابٍ﴾، وجعل الجنة من الأعناب، ومَنْ رفع «الزَّرع» فالجنة حقيقة هي الأرض التي فيها الأعناب، وفي ذلك تَجَوُّز، ومنه قول الشاعر:

كَأَنَّ عَيْنَيَّ فِي غَرْبَيْ مُقَتَّلَةٍ ... مِنَ النَّوَاضِحِ تَسْقِي جَنَّةً سُحُقَا[٣]

---

(١) من الآية (٧) من سورة (ق).

(٢) قيل: في الكلام حذف، والمعنى: وفي الأرض قطع متجاورات وغير متجاورات، كما قال تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ أي: «وتقيكم البرد»، ثم حُذف لعلم السامع، والمتجاورات: المدن وما كان عامراً، وغير المتجاورات: الصحارى وما كان غيرَ عامر.

(٣) البيت لزهير بن أبي سُلْمى، قال في (اللسان ـ جنَنَ): «والجَنَّة: البستان، ومنه الجنات، والعرب تسمي النخيل جنَّة، قال زهير: كأن عَيْنَيَّ. . .»، والمُقَتّل: المُذَلَّل المكدود بالعمل، يقال: ناقة مُقَتّلة أي مُذَلَّلة لعمل من الأعمال، وقد استشهد صاحب اللسان على هذا المعنى بالبيت نفسه في مادة (قتَل)، والنَّواضح من الإبل: التي يستقى عليها، واحدها ناضح، ومنه ما جاء في حديث معاوية حين قال=

أي: نخيل جنَّة، إذ لا يوصف بالسحق إلا النخيل. ومَنْ خفض الزرع فالجنات من مجموع ذلك لا من الزرع وحده، لأنه لا يقال للمزرعة جَنَّة إلا إذا خالطها شجرات[١].

و﴿صِنْوَانٌ﴾ جمع صِنْو وهو الفرع تكوَّن مع الآخر في أَصل واحد، وربما كان أكثر من فرعين، قال البراءُ بن عازب: الصِّنوان: المجتمِع، وغير صنوان: المتفرق فرداً فرداً، ومنه قول النبي ﷺ: (العَمُّ صِنْوُ الأَب)[٢]، وروي أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَسرع إِليه العباس في ملاحاة، فجاءَ إِلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال: أَردت يا رسول الله أَن أَقول للعباس فذكرت مكانه منك فسَكَتُّ، فقال رسول الله ﷺ: (يرحمك الله يا عمر، العم صنو الأَب)، وجمع الصنو صنوانٌ[٣]، وهو جمع مكسَّر، قال أَبو علي: وكَسْرة الصاد في الواحد ليست التي في الجمع، وهو جار مجرى فُلْك، وتقول: صنو وصنوانٌ في الجمع بتنوين النون وإعرابه. وقرأَ عاصم ـ في رواية القواس ـ عن حفص: [صُنْوَان] بضم الصاد، قال أَبو علي: هو مثل ذِئْب وذُؤْبان، وهي قراءَة ابن مُصَرِّف، وأَبي عبد الرحمن السُّلَمي، وهي لغة تميم وقيس، وكسر الصَّاد لغة أَهل الحجاز، وقرأَ الحسن، وقتادة: [صَنْوَان] بفتح الصاد، وهو اسم جمع لا جمع، ونظير هذه اللفظة قَنْو وقَنْوان، وإنما نص على الصنوان في هذه الآية لأَنها بمثابة التجاور في القطع تظهر فيها غرابة اختلاف الأُكل. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وحمزة،

= للأنصار وقد قعدوا عن تلقِّيه لما حجَّ: ما فعلت نواضحكم؟ كأنه يُقَرِّعهم بذلك لأنهم كانوا أهل حرث وزرع وسقي. والغَرْبُ: عِرْقٌ في مجرى الدمع يسقي فلا ينقطع، وغربا العين: مُقْدمها ومؤْخرها، يصور عينيه في كثرة الدموع بعيون النواضح المذللة من الإبل التي تدور لتسقي جنة من النخيل العالي في السماء.

(١) قال في «فتح القدير»: «ذكر سبحانه الزرع بين الأعناب والنخيل لأنه يكون في الخارج كثيراً كذلك، ومثله في قوله سبحانه: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾».

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة، وكذلك الدارمي، وأخرجه الترمذي في المناقب، والإمام أحمد في مسنده (١ـ٩٤، ٤ـ١٦٥)، ولفظه كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: بعث رسول الله ﷺ عمر على الصدقة، فقيل: منع ابنُ جميل، وخالد بن الوليد، والعباسُ عمُّ رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيراً فأغناه الله، وأما خالدٌ فإنكم تظلمون خالداً، وقد احتبس أدراعه وأعتَاده في سبيل الله، وأما العباس فهي عليَّ ومثلها معها، ثم قال: (يا عمر، أما شعرت أن عمَّ الرجل صِنْو أبيه؟).

(٣) قال في (اللسان ـ صنا): «والاثنان صِنْوَانِ، والجمع صِنْوَانٌ برفع النون».

والكسائي، والحسن، وأَبو جعفر، وأَهل مكة: [تُسْقَى] بالتاءِ، وأَمال حمزة، والكسائي القاف، وقرأَ عاصم، وابن عامر: ﴿يُسْقَى﴾ بالياءِ على معنى: يُسْقَى ما ذُكر. وقرأَ الجمهور: ﴿ونُفَضِّلُ﴾ بالنون، وقرأَ حمزة، والكسائي: [وَيُفَضِّلُ] بالياءِ، وقرأَ ابن محيصن: ﴿يُسْقَى﴾ و[يُفَضِّلُ] بالياءِ فيهما، وقرأَ يحيى بن يَعْمَر، وأَبو حيْوَة: [ويُفَضَّل] بالياءِ وفتح الضاد [بَعْضُهَا] بالرفع، قال أَبو حاتم: وجدته كذلك في لفظ يحيى بن يَعْمَر في مصحفه، وهو أَول من نقط المصاحف.

و﴿ٱلْأُكُلِ﴾ اسم ما يُؤكل، بضم الهمزة والكاف، والأَكْل المصدر. وقرأَت فرقة: ﴿فِى ٱلْأُكُلِ﴾ بضم الهمزة والكاف، وقد تقدم هذا في البقرة[١].

وحكى الطبري عن غير واحد ـ ابن عباس وغيره ـ: ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أَي: واحدة سبخة والأُخرى عذبة ونحو هذا من القول، وقال قتادة: المعنى: قُرىً متجاورات، وهذا وجه من العبرة، كأَنه قال: وفي الأَرض قطع مختلفات بتخصيص الله لها بمعان فهي تسقى بماءٍ واحد ولكن تختلف فيما تخرجه، والذي يظهر من وصفه لها بالتجاور إِنما هو: من تربة واحدة ونوع واحد، والعبرة في هذا أَبين، لأَنها مع اتفاقها في التربة والماءِ تفضل القدرة والإِرادة بعض أُكلها على بعض، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام حين سئل عن هذه الآية فقال: (الدَّقَل والفارسي[٢] والحلو والحامض)[٣]، وعلى المعنى الأَول قال الحسن: هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم، كانت الأَرض في يد الرحمن طينة واحدة، فسطحها الله فصارت قطعاً متجاورة ينزل عليها ماءٌ واحد من السماءِ، فتخرج هذه زهرة وثمرة، وتخرج هذه سبخة وملحاً وخبثاً، فكذلك الناس خلقوا من آدم فنزلت عليهم من السماءِ تذكرة فرقَّت قلوب وخشعت، وقست قلوب، ولهت قلوب، ووجفت قلوب[٤]، قال الحسن: فوالله ما جالس أَحد القرآن إِلا قام عنه

---

(١) عند تفسير قوله تعالىٰ في الآية (٢٦٥): ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾.

(٢) الدَّقَل: رديءُ التمر، والفارسي: نوع جيد من التمر ينسب إلى فارس.

(٣) أخرجه الترمذي وحسنه، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، (فتح القدير).

(٤) وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

النَّـــاسُ كـــالنَّبْـــتِ والنَّبْـــتُ ألـــوانْ ... منها شجرُ الصَّنْدَلِ والكافور والبَان
ومنهـــــا شَجَـــــرٌ ينضَـــــحُ ... طـــولَ الـــدَّهْـــرِ قَطْـــران =

بزيادة أو نقصان، قال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1]، والتفضيل في الأُكُل [يشمل][2] الأذواق والألوان والملمس وغير ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾.

آية توبيخ للكفرة، أي: إن تعجب يا محمد من جهالتهم وإعراضهم عن الحق فهم أَهل لذلك، وعجب غريب، والمراد به قولهم: «أَنعود بعد كوننا تراباً خلقاً جديداً»؟ ويحتمل اللفظ منزعاً آخر، أَي: إن كُنت تزيد عجباً فهلُمَّ فإن من أَعجب العجب قولهم[3].

واختلف القراءُ في قراءَة قوله: ﴿أئذا كنا تراباً﴾ ـ فقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [آيذا كنا تراباً آينا لفي خلق جديد] جميعاً بالاستفهام، غير أَن أَبا عمرو مدَّ الهمزة ثم يأْتي بالياءِ ساكنة، وابن كثير يأْتي بياءٍ ساكنة بعد الهمزة من غير مَدٍّ. وقرأَ نافع: [أيذا كنا تراباً] مثل أَبي عمرو واختلف عنه في المدِّ، وقرأَ: [إنا لفي خلق جديد] مكسورة على الخبر، ووافقه الكسائي في اكتفائه بالاستفهام الأَول من الثاني، غير أَنه كان يهمز همزتين، وقرأَ عاصم وحمزة: ﴿أئذا كنا تراباً أئنا﴾ بهمزتين فيهما، وقرأَ ابن عامر: [إذا كنا تراباً] مكسورة الأَلف من غير استفهام [آئِنَّا] بهمز ثم بمدٍّ ثم بهمز. فمن قرأَ

= وقد روى جابر بن عبد الله قال: «سمعت النبي ﷺ يقول لعليٍّ رضي الله عنه: (الناس من شجر شتى، وأنا وأنت من شجرة واحدة)، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾. حتى بلغ قوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾.

(١) الآية (٨٢) من سورة (الإسراء).

(٢) زيادة يحتاج إليها المعنى.

(٣) قال العلماءُ: التعجب: تغيُّر النفس بما تخفى أسبابه، وذلك في حق الله تعالىٰ محال، فهو لا يتعجب ولا يجوز عليه التعجب، وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون، وقيل: الآية في منكري الصانع، أي: إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بُدَّ له من مغيِّر فهو محل التعجُّب.

بالاستفهامين فذلك للتأكيد والتَّحفي والاهتبال بهذا التقرير[١]، ومن استفهم في الأَول فقط فإنما القصد بالاستفهام الموضع الثاني، و﴿إِذَا﴾ ظرف له، و﴿إِذَا﴾ في موضع نصب بفعل مضمر تقديره: أَنُبعَث أَو نُحْشَر إِذَا ؟ ومن استفهم في الثاني فقط فهو بيِّن، والإشارة بـ﴿أُولـٰئِكَ﴾ إلى القوم القائلين: ﴿أئذا كنا تراباً﴾، وتلك المقالة إنما هي تقرير وتصميم على الجحد والإنكار للبعث فلذلك حكم عليهم بالكفر.

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ يحتمل معنيين: أَحدهما الحقيقة وأَنه أَخبر عن كون الأغلال في أَعناقهم في الآخرة، فهي كقوله تعالىٰ: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾[٢]، ويحتمل أَن يكون مجازاً وأَنه أَخبر عن كونهم مُغللين عن الإيمان، فهي إذاً تجري مجرى الطبع والختم على القلوب، وهي كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾[٣]، وباقي الآية بيِّن. وقال بعض الناس: الأَغلال هنا عبارة عن الأَعمال، أَي: أَعمالهم الفاسدة في أَعناقهم كالأَغلال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتحرير هذا هو في التأْويل الثاني الذي ذكرناه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ الآية، هذه الآية تَبْيِينٌ لخطئهم في أَن يتمنوا المصائب ويطلبوا سقوط كسف من السماءِ أَو حِجَارة تمطر عليهم[٤] ونحو هذا مع حلول ذلك في الأُمم ونزوله بأُناس كثير، ولو كان ذلك لم ينزل قط لكان لهم العذر[٥].

و﴿ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ جمع مَثُلَة كسَمُرَة وسَمُرَات وصَدُقة وصَدُقات، وقرأَ الجمهور: ﴿ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ بفتح الميم وضم الثاءِ، وقرأَ مجاهد بفتح الميم والثاءِ، وذلك جمع مُثْلَة[٦]

---

(١) الاهتبال: الاغتنام والاحتيال، وفي حديث أبي ذرّ في ليلة القدر: (فاهتبلت غفلته وافْتَرَصْتُهَا واحتلت له حتى وجدتها، كالرجل يطلب الفرصة في شيءٍ)، (اللسان).

(٢) من الآية (٧١) من سورة (غافر).

(٣) من الآية (٨) من سورة (يس).

(٤) كقولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، قال قتادة: طلبوا العقوبة قبل العافية.

(٥) في أكثر النسخ: «لكانوا أعذر».

(٦) اختلفت الأصول في ضبط قراءة مجاهد، ففي بعضها: «بضم الميم والثاء»، وفي بعضها «بفتح الميم=

في الآخرة بمعنى العِدَة بالعقوبة. وقرأ عيسى بن عمر: [ٱلْمُثُلاَت] بضم الميم والثاءِ، ورُويت عن أَبي عمرو، وقرأ يحيى بن وثاب: [ٱلْمُثْلات] بضم الميم وسكون الثاءِ، وهاتان جمع مُثْلَة[1]، وقرأ طلحة بن مصرف: [الْمَثْلات] بفتح الميم وسكون الثاءِ.

ثم رجَّى تعالىٰ بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾. قال الطبري: معناه: في الآخرة، وقال قومٌ: المعنى: إِذا تابوا، و«شَدِيدُ العِقَابِ» إِذا كفروا[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والظاهر من معنى المغفرة هنا إِنما هو: سَتْرُهُ في الدنيا وإِمْهَالُه لِلْكَفَرَة، أَلا ترى التنكير في لفظ ﴿مَغْفِرة﴾، وأَنها مُنَكَّرة مُقَلَّلة وليس فيها مبالغة كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾[3]، ونمط الآية يُعطي هذا، أَلا ترى حكمه عليهم بالنار؟ ثم قال: ﴿ويَسْتَعْجِلُونَكَ﴾، فلما ظهر سُوءُ فعلهم وجب في نفس السامع تعذيبهم فأَخبر بسيرته في الأُمم وأَنه يمهل مع ظُلْم الكفر؟ ولم يرد في الشرع أَن الله تعالىٰ يغفر ظلم العباد.

ثم خوَّف بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، قال ابن المسيب: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: (لولا عفو الله ومغفرته لما تمنى أَحدٌ عيشاً، ولولا عقابه لاتَّكَل كل أَحد)[4]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في القرآن أَرْجى من هذه

= والثاء»، وقد اخترنا ما أثبته أبو حيان في البحر، ويؤكد صحته أن ابن عطية نسب بعد ذلك قراءة ضم الميم والثاء إلى عيسى بن عمر، ولو كانت قراءة مجاهد كقراءة عيسى لما لجأ إلى هذا التفصيل.

(١) على وزن غُرْفة وغرفات، والثابت في كتب اللغة أن المُثُلات بضم الميم والثاءِ، وكذلك المَثُلات بفتح الميم وضم الثاءِ كلاهما جمع مَثُلة بالفتح والضم، وجمع مُثْلة بالضم والسكون.

(٢) الجار والمجرور في قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ في محل نصب على الحال، أي: حَالَ كونهم ظالمين، وفي الآية بشارة عظيمة لأن الإنسان حال اشتغاله بالظلم لا يكون تائباً، ولهذا قيل إنها في عصاة الموحدين خاصة، وقيل: المراد بالمغفرة هنا تأخير العقاب إلى الآخرة ليطابق ما حكاه الله من استعجال الكفار للعقوبة، وكما تفيده الجملة المذكورة بعد جملة المغفرة وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ بمعنى أنه يعاقب العصاة من الكافرين عقاباً شديداً.

(٣) من الآية (٨٢) من سورة (طه).

(٤) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس، ذكر ذلك في (الدر المنثور)، وقال في فتح القدير: «أخرجه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب»، ولفظه فيهما: (لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لأحد عيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كُل أحد).

الآية»، و﴿الْمَثُلَاتُ﴾ هي العقوبات المُنَكِّلات التي تجعل الإنسان مثلاً يُتَمَثَّل به، ومنه التمثيل بالقتلى، ومنه المُثْلة بالعبيد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية. هذه آية غَضٌّ من اقتراحاتهم المُتَشَطِّطَة التي لم يُجْرِ الله بها عادة إلا للأمة التي حتم بعذابها واستئصالها، والآية ـ هنا ـ يراد بها الأشياءُ التي سمَّتها قريش كالمُلْك والكَنْز وغير ذلك، ثم أَخبره الله بأَنه منذر، وهذا الخبر قُصِد هُوَ بلفظه والناسُ أَجمعون بمعناه.

واختلف المفسرون في قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، فقال عكرمة، وأَبو الضُّحى: المراد بالهادِ محمد عليه الصلاة والسلام. و﴿هادٍ﴾ عطف على ﴿مُنْذِر﴾ كأنه قال: «إنما أَنت منذر وهاد لكل قوم»، فيكون هذا المعنى يجري مع قوله عليه الصلاة والسلام: (بُعِثْت إلى الأَحمر والأَسود)[1]، و﴿هادٍ﴾ ـ على هذا في هذه الآية ـ داعٍ إلى طريق الهدى. وقال مجاهد، وابن زيد: المعنى: «إنما أَنت منذر، ولكل أُمَّة سلَفت هادٍ، أَي نبي يدعوهم، والمقصد: فليس أَمرك يا محمد بِبِدْع ولا بمنكر»، وهذا يشبه غرض الآية. وقالت فرقة: «الهادي ـ في هذه الآية ـ الله عزَّ وجلَّ»، رُوي ذلك عن ابن عباس، ومجاهد، وابن جُبير. و﴿هَادٍ﴾ ـ على هذا ـ معناه: مخترع للرشاد، والأَلفاظ تطلق بهذا المعنى، ويعرف أَن الله تعالىٰ هو الهادي من غير هذا الموضع. وقالت فرقة: «الهادي علي بن أَبي طالب»، ورَدَت عن النبي ﷺ من طريق ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قرأَ هذه الآية وعليّ حاضر فأَومأ بيده إلى منكب عليّ وقال: (أَنْت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي)[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي يشبه ـ إن صح هذا ـ أَن النبي ﷺ إنما جعل علياً مثالاً من علماءِ الأُمة

---

(١) أخرجه أبو داود في السير، والإمام مسلم في المساجد، والإمام أحمد في مسنده في مواضع متعددة، ولفظه كما في مسند الإمام أحمد (١ـ٣٠١): (أُعطيت خمساً لم يعطهن نبيٌّ قبلي، ولا أقولهن فخراً، بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأُحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأُعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتي فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً).

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة، والديلمي، وابن عساكر، وابن النجار. (الدر المنثور). ويظهر من كلام ابن عطية أنه يشك في صحة هذا الحديث، أو على الأقل أنه يؤوله بما وضحه في كلامه.

وهداتها إلى الدين، كأنه قال: يا عليّ أنت وصنفك، فيدخل في هذا أبو بكر وعمر وعثمان وسائر علماءِ الصحابة ـ عليهم رضوان الله أجمعين ـ ثم كذلك من كل عصر، فيكون المعنى ـ على هذا ـ: إنما أنت يا محمد منذر، ولكل قوم في القديم والحديث دعاة وهداة إلى الخير، والقول الأول أرجح ما تؤول في هذه الآية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾.

لما تقدم تعجُّبُ الكفار واستبعادُهم البعث من القبور نصَّ الله في هذه الآيات الأَمثال المنبهة على قدرة الله تبارك وتعالىٰ القاضية بتجويز البعث، فمن ذلك هذه الواحدة من الخمس التي هي مفاتيح الغيب، وهي أَن الله تبارك وتعالىٰ انفرد بمعرفة ما تحمل كل الإناث من الأجنة في كل نوع من الحيوان، وهذه البدأَة[١] تُبيِّن أنه لا يتعذر على القادر عليها الإعادة.

و[مَا] في قوله تعالىٰ: ﴿مَا تَحْمِلُ﴾ يصح أَن تكون بمعنى الذي مفعولة بـ [يعْلَمُ]، ويصح أَن تكون مصدرية مفعولة أَيضاً بـ [يَعْلَمُ]، ويصح أَن تكون استفهاماً في موضع رفع بالابتداءِ، والخبر [تَحْمِلُ]، وفي هذا الوجه ضعف[٢]. وفي مصحف أُبي بن كعب: «ما تحمل كل أُنثى وما تضع».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ معناه: ما تنقص، وذلك من معنى ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾[٣] وهو من معنى النضوب، فهي ها هنا بمعنى زوال الشيءِ عن الرَّحم وذهابه،

---

(١) البَدْءُ والبَدْأَةُ والبُدْأَةُ والبَدِيئَةُ والبَدَاءَةُ والبُدَاءَةُ كلها بمعنى واحد وهو فعل الشيءِ أولَ، وبالنسبة لله تعالىٰ يكون المعنى: هو الذي أنشأ الأشياءَ واخترعها ابتداءً من غير سابق مثال. (اللسان).

(٢) إذا كانت [مَا] اسم موصول كان العائد عليها في صِلاتِها محذوفاً، ويكون [تَغِيضُ] متعدياً، وإذا كانت مصدرية كان كل من [تَغِيضُ] و[تَزْدادُ] لازماً، وثابت عن العرب سماع تعديتهما ولزومهما، وعلى الإعراب الثالث الذي ضَعَّفه ابن عطية تكون الجملة الاستفهامية في موضع المفعول. و[تَحْمِلُ] هنا بمعنى حمل البطن وليست بمعنى الحمل على الظهر.

(٣) من الآية (٤٤) من سورة (هود).

فلما قابله قوله: ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ فُسِّر بمعنى النقصان، ثم اختلف المتأَولون في صورة الزيادة والنقصان ـ فقال مجاهد: غَيْض الرَّحِم أَن تهريق دماً على الحمل، فإِذا كان ذلك ضعف الولد في البطن وشحب، فإِذا أَكملت الحامل تسعة أَشهر لم تَضع، ويبقى الولد في بطنها زيادة من الزمن يكمل فيها من جسمه وصحته ما نقص بهراقة الدم، فهذا هو معنى قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾. وجمهور المتأَولين على أَن غيض الرحم إِرسال الدم على الحمل، وذهب بعض الناس إِلى أَن غيضه هو نضوب الدم فيه وإِمساكه بعد عادة إِرساله بالحيض، فيكون قوله: ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ بعد ذلك جارياً مجرى «تغيض» على غير مقابلة، بل غيض الرحم هو بمعنى الزيادة فيه. وقال الضحاك: غيض الرحم أَن تسقط المرأَة الولد، والزيادة أَن تضعه لمدة كاملة تامًّا في خلْقه. وقال قتادة: الغَيْض السقط، والزيادة البقاءُ فوق تسعة أَشهر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ لفظ عام في كل ما يدخله التقدير.

و[ٱلْغَيْب]: ما غاب عن الإِدراكات، و[ٱلشَّهَادَة]: ما شوهد من الأُمور، ووضع المصادر موضع الأَشياءِ التي كل واحد منها لا بد أَن يتصف بإِحدى الحالتين.

وقوله: [ٱلْكَبِيرُ] صفة تعظيم على الإِطلاق، و[ٱلْمُتَعَالِ] من العُلُوِّ، واختلف القُراءُ في الوقف على (المُتَعالِ) ـ فأَثبت ابن كثير، وأَبو عمرو ـ في بعض ما روي عنه ـ الياءَ في الوصل والوقف، ولم يثبتها الباقون في وصل ولا وقف، وإِثباتها هو الوجه والباب، واستسهل سيبويه حذفها في الفواصل كهذه الآية قياساً على القوافي في الشعر، ويقبح حذفها في غير فاصلة ولا شعر، ولكن وجهه أَنه لما كان التنوين يعاقب الأَلف واللام أَبداً، وكانت هذه الياءُ تحذف مع التنوين حَسُن أَن تحذف مع معاقبها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويتصل بهذه الآية فقه يحسن ذكره.

فمن ذلك اختلاف الفقهاءِ في الدم الذي تراهُ الحامل ـ فذهب مالك وأَصحابه والشافعي وأَصحابه وجماعةٌ إِلى أَنه حيض. وقالت فرقة عظيمة: ليس بحيض، ولو كان حيضاً لما صح استبراءُ الأَمة بحيض وهو إِجماعٌ. وروي عن مالك في كتاب محمد ما يقتضي أَنه ليس بحيض، ومن ذلك أَن الأُمَّة مجمعة على أَن أَقل مدة الحمل ستة

أَشهر، وذلك منتزع من قوله: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾(١) مع قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾(٢) وهذه الستة الأَشهر هي بالأَهلَّة كسائر أَشهر الشريعة، ولذلك قد رُوي في المذهب عن بعض أَصحاب مالك ـ وأَظنه في كتاب ابن الحارث ـ أَنه إِن نقص من الأَشهر الستة ثلاثة أَيام فإِن الولد يُلْحق لعلَّة نقص الشهور وزيادتها.

واختلف في أَكثر الحمل ـ فقيل: تسعة أَشهر، وهذا ضعيف، وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ وجماعة من العلماءِ: أَكثره حولان، وقالت فرقة: ثلاثة أَعوام، وفي المدونة: أَربعة أَعوام وخمسة أَعوام، وقال ابن شهاب وغيره: سبعة أَعوام، وروي أَن ابن عجلان ولدت امرأَته لسبعة أَعوام، ورُوي أَن الضحاك بن مزاحم بقي حولين، قال: فولدت وقد نبتت ثناياي، وروي أَن عبد الملك بن مروان ولد لستة أَشهر.

وقوله تعالىٰ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾ الآية. سواءٌ مصدر، وهو يطلب بعده شيئين يتماثلان، ورفعه على خبر الابتداءِ الذي هو [مَنْ]، والمصدر لا يكون خبراً إِلا بإِضمار كما قالت الخنساءُ:

. . . . فَــإِنَّمَــا هِــيَ إِقْبَــالٌ وإِدْبَــارُ(٣)

أَي: ذاتُ إِقبال وإِدبار، فقالت فرقة: هنا المعنى: «ذو سواءٍ»، قال الزجاج: كثر استعمال (سواء) في كلام العرب حتى جرى مجرى اسم الفاعل فلا يحتاج إِلى إِضمار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهو عندي كعدْلٍ وزَوْرٍ وضيْفٍ.

---

(١) من الآية (١٥) من سورة (الأحقاف).

(٢) من الآية (٢٣٣) من سورة (البقرة).

(٣) هذا عجز بيت قالته الخنساءُ ضمن أبيات في تصوير حيرتها وقلقها وآلامها لفقد أخيها، وشبهت نفسها بناقة فقدت وليدها فهي في حنين وشوق، وكلما نسيت عادت فتذكرت ورجعت إلى آلامها وحيرتها، والبيت بتمامه مع بيت آخر قبله:

فَمَــا عَجُــولٌ علَــى بَــوٍّ تُطِيــفُ بِــهِ ... لَهَــا حَنِينَــانِ إِصْغَــارٌ وإِكْبَــارُ
تَــرْتَــعُ مــا رَتَعَــتْ حتَّــى إِذَا ادَّكَــرَتْ ... فَــإِنَّمَــا هِــيَ إِقْبَــالٌ وإِدْبَــارُ

والبَوُّ هو الحُوَارُ الصغير، والإصغار: الحنين إذا خَفَضَتْه، والإكبَار: الحنين إذا رفَعَتْه، ورتعت: رعت في خصب وسعة.

وقالت فرقة: المعنى: «مُسْتَوٍ منكم»، فلا يحتاج إلى إضمار، وضعف هذا سيبويه بأنه ابتداءٌ بنكرة(١). ومعنى هذه الآية: مُعْتدلٌ منكم في إحاطة الله تعالىٰ وعلمه مَنْ أَسَرَّ قولَه فهمس به في نفسه ومَنْ جهر به فأَسْمَع، لا يخفى على الله تعالىٰ شيءٌ.

وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ﴾ معناه: من هو بالليل في غاية الاختفاءِ ومن هو متصرف بالنهار ذاهبٌ لوجهه سواءٌ في علم الله تبارك وتعالىٰ وإحاطته بهما. وذهب ابن عباس، ومجاهد إلى معنى مقتضاه أن المستخفي بالليل والسارب بالنهار هو راجل واحد مريب بالليل ويظهر بالنهار البراءَة في التصرف مع الناس، فهذا قسم واحد جعل الليل نهار راحة، والمعنى: هذا والذي أَمره كله واحد بريءٌ من الرِّيَب سواءٌ في اطلاع الله تعالىٰ على الكل. ويؤيد هذا التأويل عطف السارب دون تكرار «مِنْ»، ولا يأتي حذفها إلا في ضرورة الشعر.

والسارب في اللغة المتصرف كيف شاءَ، ومن ذلك قول الشاعر:

أَرَى كُلَّ قوم كارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ ... وَنَحْنُ حَلَلْنَا قَيْدَهُ فَهْوَ سَارِبُ(٢)

أي منصرف غير مدفوع عن جهة، وهذا رجل يفخر بعزة قومه، ومن ذلك قول الآخر:

أَنَّى سرَبْتِ وكُنْتِ غَيْرَ سَرُوبِ ... وتُقَرِّبُ الأَحْلامُ غَيْرَ قَرِيبِ(٣)

وتحتمل الآية أَن تتضمن ثلاثة أَصناف، فالذي يُسِرُّ طرف، والذي يجهر طرف

---

(١) علّق أبو حيان في «البحر المحيط» على ذلك فقال: «وهو لا يصح، بل يجوز أن يكون [سَوَاءٌ] مبتدأ لأنه موصوف بقوله: [مِنْكُمْ] ومن المعطوف الخبر، وكذا أعرب سيبويه قول العرب: «سواءٌ عليه الخير والشر»».

(٢) هذا البيت للأخنس بن شهاب التغلبي، ورواه اللسان:

وكُلُّ أُناسٍ قارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ ... ونَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فَهُوَ سَارِبُ

وقد روى صاحب اللسان عن الأصمعي قوله: «هذا مثل، يريد أن الناس أقاموا في موضع واحد لا يجترئون على النُّقْلة إلى غيره، وقاربوا قيد فحلهم، أي: حبسوا فحلهم عن أن يتقدم فتتبعه إبلهم خوفاً أن يُغار عليها، ونحن أعزاء نفتري الأرض، نذهب فيها حيث نشاءُ، فنحن قد خلعنا قيد فحلنا ليذهب حيث شاءَ، فحيثما نزع إلى غيث تبعناه».

(٣) الشاعر هو قيس بن الخطيم، وقد نقل صاحب اللسان عن ابن دريد قوله: «سَرَبْت» بباءٍ موحدة، لقوله: (وكُنْتِ غير سروب)، ومَن رواه سَرَيْت بالياءِ باثنتين فمعناه: كيف سريْت ليلاً وأنت لا تَسْرُبين نهاراً ؟.

مضاد للأول، والثالث متوسط مُتَلَوِّن يعصى بالليل مستخفياً ويظهر البراءَة بالنهار، والقول في الآية يطَّرد معناه في الأعمال، وقال قطرب ـ فيما حكى الزجاج ـ: ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ معناه: ظاهر، من قولهم: «خفَيْتُ الشيءَ» إذا أظهرته، قال امرؤ القيس:

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِن عَشِيٍّ مُجَلِّبِ(١)

قال: و﴿سَارِبٌ﴾ معناه: مُتَوَارٍ في سرب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا القول وإن كان متعلقاً باللغة فضعيف، لأَن اقتران الليل بالمستخفي والنهار بالسارب يردُّ على هذا القول.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾.

اختلف المتأَولون في عود الضمير من [لَهُ] ـ فقالت فرقة: هو عائد على اسم الله تعالىٰ المتقدم ذكره، و«المُعَقِّبَاتُ» ـ على هذا ـ الملائكة الحفظة على العباد أَعمالهم، والحفظة لهم أَيضاً، قاله الحسن، وروى فيه عثمان بن عفان عن النبي ﷺ حديثاً(٢)،

---

(١) البيت في وصف فرس، والأنفاق جمع نَفَق، وهو سرب في أرض إلى موضع آخر، واستعارة امرؤ القيس لحجرة الفئران، والوَدَق: المطر، والغيث المجَلِّب: المُصَوِّت، ويروى المحلب بالحاء المهملة، وفي رواية اللسان: «وَدْقٌ من سحاب مُرَكَّب». ورواية ابن عطية هي الثابتة في شعر امرىء القيس.

(٢) الحديث رواه ابن جرير الطبري عن كنانة العدوي، قال: دخل عثمان بن عفان على رسول الله ﷺ فقال: (يا رسول الله، أخبرني عن العبد كم معه من مَلَك؟ قال: مَلَك على يمينكَ على حسناتك، وهو أمير على الذي على الشمال، فإذا عملت حسنة كُتبت عشراً، وإذا عملتَ سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين: أَكْتُبُ؟ قال: لا، لعله يستغفر الله ويتوب، فإذا قال ثلاثاً قال: نعم، اكتبْ أراحنا الله منه، فبئس القرين، ما أقل مراقبته لله، وأقل استحياءَه منا، يقول الله: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾، ومَلَكان من بين يديكَ ومن خلفك، يقول الله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾، ومَلَكٌ قابضٌ على ناصيتِكَ، فإذا تواضعت لله رفعكَ، وإذا تجبرتَ على الله قصمك، ومَلَكان على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد، ومَلَك قائم على فيك لا يدع الحيَّة تدخل في فيك، ومَلَكان على عينيك، فهؤلاءِ عشرة أملاك على كل آدمي، ينزلون ملائكة الليل على =

وهو قول مجاهد، والنَّخَعي، والضمير ـ على هذا ـ في قوله [يَدَيْهِ] وما بعده من الضمائر عائد على العبد المذكور في قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالَّيْلِ﴾، و﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يكون صفة للمُعَقِّبَات، ويحتمل أن يكون المعنى: يحفظونه من كل ما جرى القدر باندفاعه، فإذا جاءَ المقدور الواقع أَسلم المرء إليه.

وقال ابن عباس أيضاً[١]: الضمير في [لَهُ] عائد على المذكور في قوله: ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ﴾ وكذا باقي الضمائر التي في الآية، قالوا[٢]: و«المَعقِّبَاتُ» ـ على هذا ـ حرس الرجل وجلاوزَتُه الذين يحفظونه[٣]، قالوا: والآية ـ على هذا ـ في الرؤَساءِ الكافرين، واختار هذا القول الطبري، وهو قول عكرمة وجماعة، قال عكرمة، هي المواكب خلفه وأمامه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويصح على التأويل الأول الذي قبل هذا أن يكون الضمير في [لَهُ] للعبد المؤمن على معنى: جعل الله له، وهذا التأويل عندي أَقوى[٤]، لأن غرض الآية إنما هو التنبيه على قدرة الله، فذكر استواءَ من هو مُسْتَخْف ومن هو سارب وأنَّ له معقبات من الله يحفظه في كل حال، ثم ذكر أن الله لا يُغَيِّر هذه الحالة من الحفظ للعبد حتى يغيّر ما بنفسه، وعلى كلا التأويلين ليست الضمائر لِمُعَيَّنِين من البشر.

وقال عبد الرحمن بن زيد: الآية في النبي ﷺ، ونزلت في حفظ الله له من أَربَد بن ربيعة، وعامر بن الطُّفَيْل في القصة التي تأْتي بعْدَ هذا في ذكر الصواعق.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية وإن كانت أَلفاظها تنطبق على معنى القصة فيُضْعِف القولَ أن النبي ﷺ لم يتقدم له ذكر فيعود الضمير في [لَهُ] عليه.

و«المُعَقِّبات»: الجماعات التي يعقب بعضُها بعضاً، فعلى التأويل الأول هي

= ملائكة النهار، فهؤلاءِ عشرون مَلَكاً على كل آدمي، وإبليس بالنهار وولده بالليل).

(١) قال: (أيضاً) لأن ابن عباس رُوي عنه القول الأول، ورُويت عنه أقوال أُخرى كثيرة.

(٢) يريد أصحاب هذا القول، وقد أشار بعد ذلك إلى أن منهم عكرمة وجماعة.

(٣) الجَلاوِزَةُ: الشُّرَطَة، والمفرد: جِلْوَز وجِلْوَازُ (المعجم الوسيط).

(٤) في بعض النسخ: «وغير هذا التأويل عندي أقوى».

الملائكة، وينظر هذا إلى قول النبي ﷺ: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة المغرب والصبح)[١]، وعلى التأويل الثاني هي الحرس والوزَعَة الذين للملوك. والمُعَقِّبَات جمع مُعَقِّبة، وهي الجماعة التي تأتي بعد الأُخرى، والتعقيب بالجملة أَن تكون حَالٌ تَعْقُبها حالٌ أُخرى من نوعها، وقد تكون من غير النوع، ومنه معاقبة الركوب، ومعقب عقبة القدر، والمعاقبة في الأَزواج، ومنه قول سلامة بن جندل:

وكَـرُّنَـا الخَيْـلَ فـي آثَـارِهِـمْ رُجُعـاً ... كُسَّ السَّنَابِكِ مِنْ بَدْءٍ وتعْقيب[٢]

وقرأ عبد الله بن زياد على المنبر: (له المعاقيب)، قال أَبو الفتح: هو تكسير معْقِب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

بسكون العين وكسر القاف كمطعم ومطاعيم ومقدِم ومقاديم، وهي قراءَة أَبي البرهسم، فكأَن معقباً جمع على معاقبة ثم جعلت الياءُ في معاقيب عوضاً من الهاءِ المحذوفة في معاقبة.

والمُعقِّبة ليست جمع مُعَقِّب كما ذكر الطبري وشبَّه ذلك برجل ورجالٍ ورجالات، وليس الأَمر كما ذكر لأَن تلك كجَمَل وجمَالٍ وجمالات، ومُعَقبة ومُعَقِّبات إِنما هي كضاربٍ وضاربات[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في المواقيت والتوحيد، ومسلم في المساجد، والنسائي في الصلاة، ومالك في الموطأ في السفر، وأحمد في مسنده (٢ـ٢٥٧، ٣١٢، ٤٨٦). ولفظه كما في صحيح مسلم: (عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون).

(٢) قال سلامة بن جندل هذا البيت من قصيدة يرثي فيها شبابه، ويفخر بنفسه وبقومه، ويذكر بعض المواقع ويعدد الأسلحة ويصف القتال، والرواية: «وكرُّنا خيلنا أدراجها...»، والأدراج: الطرق، ويقال: رجع على أدراجه بمعنى: رجع إلى المواضع التي جاء منها، ومعنى «كُسَّ السنابك» أن السَّنابك تحاتَّتْ وأكلتها الطريق لطولها، والسَّنابك جمع سُنْبك وهو مُقَدَّم الحافر، والتعقيب: الرجوع. والشاعر جاهلي مُقِلٌّ واسمه: سلامة بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم، وهو من الفرسان المعدودين، وتتمثل في شعره خشونة الصحراءِ.

(٣) قال أبو حيان في «البحر» «وينبغي أن يُتأول كلام الطبري على أنه أراد بقوله: «جمع مُعَقِّب» أنه أُطلق من حيث الاستعمال على جمع «مُعَقِّب» وإن كان أصله أن يُطلق على مؤنث «مُعقب»، وصار مثل «الواردة»=

وفي قراءة أُبيٍّ بن كعب: «من بين يديه ورقيب من خلفه»، وقرأ ابن عباس: «ورقيباً من خلفه»، وذكر عنه أبو حاتم أنه قرأ: «معقِّبات من خلفه ورقيب من بين يديه يحفظونه بأمر الله».

وقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ﴾ يحتمل معنيين: أَحدهما أَن يكون بمعنى يحرسونه ويذُبُّون عنه، فالضمير معمول الحفظ، والمعنى الثاني أَن يكون بمعنى حفظ الأَقوال وتحصيلها، ففي اللفظة حينئذ حذف مضاف تقديره: يحفظون أَعمالهم، ويكون هذا حينئذ من باب ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[1]، وهذا قول ابن جُرَيج.

وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ـ مَنْ جعل ﴿يحْفَظُونَهُ﴾ بمعنى يحرسونه كان معنى قوله: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يراد به المعقِّبات، فيكون في الآية تقديم وتأْخير، أَي: له معقبات من أَمر الله يحفظونه مِنْ بَيْن يديه ومِنْ خلفه، قال أَبو الفتح: فـ ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ في موضع رفع لأَنه صفة لمرفوع وهي «المعقِّبات»، ويحتمل هذا التأْويل في قوله: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ مع التأْويل الأَول في ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾، ومَن تأَول الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ عائد على العبد وجعل «المعقبات» الحرس وجعل الآيةفي رؤساءِ الكافرين جَعَلَ قوله: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ بمعنى: يحفظونه بزعمه من قَدَر الله ويدفعونه في ظنه عنه، وذلك لجهالته بالله تعالىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبهذا التأْويل جعلها المتأَولون في الكافرين، قال أَبو الفتح: فـ ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ـ على هذا ـ في موضع نصب، كقولك: «حفظت زيداً من الأَسد»، فـ «مِنَ الأَسد» معمول لـ «حفظت». وقال قتادة: معنى بـ﴿أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أَي يحفظونه مما أَمر الله، وهذا تحكم في التأْويل، قال قوم: المعنى: الحفظ من أَمر الله، وقد تقدم نحو هذا. وقرأَ علي بن أَبي طالب، وابن عباس، وعكرمة، وجعفر بن محمد ـ رضي الله عنهم ـ: [يحفظونه بأَمر الله][2].

= للجماعة الذين يردون وإن كان أصله أن يُطلق على مؤنث «وارد»، وتشبيه الطبري ذلك برجل ورجال ورجالات من حيث المعنى لا من حيث صناعة النحويين، فبيَّن أن «معقِّبة» من حيث أُريد به الجمع كرجال من حيث وضع للجمع، وأنّ «معقّبات» من حيث استعمل جمعاً «لمعقّبة» المستعمل للجمع كرجالات الذي هو جمع رجال». (البحر المحيط ٥ـ٣٧٢).

(١) من الآية (٨٢) من سورة (يوسف).

(٢) تعليق ابن عطية على قول قتادة بأنه تحكم في التأويل علّق عليه أبو حيان في «البحر» فقال: «وليس =

ثم أَخبر تعالىٰ أنه لايُغيِّر ما بقوم بأَن يعذبهم ويمتحنهم معاقباً حتى يقع منهم تكسُّب للمعاصي وتغيير ما أُمروا به من طاعة الله، وهذا موضع تأَمل، لأنه يداخل هذا الخبر ماقرَّرت الشريعة من أَخْذ العامة بذنوب الخاصة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[١]، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام ـ وقد قيل له: يا رسول الله أَنَهْلِكُ ومنا الصالحون ؟ ـ قال: (نعم، إِذا كثر الخبث)[٢] إِلى أَشياءَ كثيرة من هذا، فقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ﴾ معناه: حتى يقع تغييرٌ إِمَّا منهم وإِما من الناظر لهم أَو ممن هو منهم بسبب، كما عبّر تعالىٰ بالمنهزمين يوم أُحد بسبب تغيير الرماة ما بأَنفسهم، إِلى غير هذا من أَمثال الشريعة، فليس معنى الآية أَنه ليس ينزل بأَحد عقوبة إِلا بأَن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير، وثم أَيضاً مصائب يريد الله بها أَجر المصاب فتلك ليست تغييراً.

ثم أَخبر تبارك وتعالىٰ بأَنه إِذا أَراد بقوم سوءاً فلا مَرَدَّ له، ولا حفظ منه، وهذا أُجري في مقام التنبيه على عادة الله تعالىٰ وقدرته، والشَّرُّ والخير بمنزلة واحدة إِذا أَرادهما الله بعبد لم يُرَدّ، لكنه خصَّ السوءَ بالذكر ليكون في الآية تخويف.

واختلف القراءُ في [والٍ] ـ فأَماله بعضهم ولم يُمِلْه بعضهم، والوالي: الذي يلي أَمر الإِنسان كالولي، وهما من الولاية كعليم وعالم من العلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ﴾ الآية. هذه آية تنبيه على القدرة، «والبرق» رُوي فيه عن النبي ﷺ أَنه مخراق بيد مَلَك يزجر به السحاب[٣]، وهذا أَصح ما رُوي فيه،

= بتحكم وورود (من) للسبب ثابت من لسان العرب، تقول: كسوته من عُرْي وعن عُرْي، ويكون معنى (من) ومعنى (الباءِ) سواء كأنه قيل: يحفظونه بأمر الله وبإذنه، فحفظهم إياه مُتَسَبَّب عن أمر الله لهم بذلك».

(١) من الآية (٢٥) من سورة (الأنفال).

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه في الفتن، والإمام أحمد في مسنده (٦ـ٤٢٨)، ومالك في الموطأ، ولفظه كما في صحيح مسلم: عن زينب بنت جحش أن النبي ﷺ استيقظ من نومه وهو يقول: (لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من ردْم يأجوج ومأجوج مثل هذه)، وعقد سفيان بيده عشرة ـ سفيان راوي الحديث ـ قلت: يا رسول الله، أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون ؟ قال: (نعم إذا كثر الخَبَث)، وكلمة «الخبث» يمكن ضبطها بفتح الخاءِ والباء، ويمكن ضبطها بضم الخاء وسكون الباءِ ويكون معناها: الفسق والفجور.

(٣) الذي وجدناه في المراجع أن النبي ﷺ قال ذلك عن «الرعد» وصوته، وقد أخرج أحمد، والترمذي=

ورُوي عن بعض العلماءِ أنه قال: البرقُ: اصطكاك الأجرام، وهذا عندي مردود، وقال أَبو الجلد في هذه الآية: البرقُ: الماءُ، وذكَرَه مكي عن ابن عباس، ومعنى هذا القول أَنه لما كان داعية الماءِ وكان خوف المسافر من الماءِ وطمع المقيم فيه عُبِّر في هذا القول عنه بالماءِ.

وقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، من قال ذلك في الماء فهو على ما تقدم، والظاهر أَن الخوف إنما هو من صواعق البرق، والطمع في المطر الذي يكون معه، وهو قول الحسن. و﴿ٱلسَّحَابُ﴾ جمعُ سحابة، ولذلك جَمَع الصفة. و﴿ٱلثِّقَالَ﴾ معناه: يحمل الماءَ، وبذلك فسَّر قتادة ومجاهد، والعربُ تصفها بذلك، ومنه قول قيس بن الخطيم:

فَمَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْقَطَا ... كَأَنَّ الْمَصَابِيحَ حوذَانُهَا
بِأَحْسَنَ مِنْهَا وَلاَ مُزْنَةٌ ... دَلُوح تَكَشَّفُ أَدْجَانُهَا[1]

والدَّلوح: المُثْقَلَة.

= وصححه، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل، والضياء في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، إنا نسألك عن خمسة أشياءٍ فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتَّبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، قال: هاتوا، قالوا: أخبرنا عن علامة النبي، قال: تنام عينه ولا ينام قلبه، قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر، قال: يلتقي الماءان فإذا علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة أَذْكرت، وإذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل أَنَّثَتْ، قالوا: أخبرنا عما حرَّم إسرائيل على نفسه، فقال: كان يشتكي عرق النَّسا فلم يجد شيئاً يلائمه إلا أَلْبان كذا وكذا ـ يعني الإبل ـ فحرَّم لحومها، قالوا: صدقتَ، قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملَك من ملائكة الله مُوَكل بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله، قالوا: فماذا الصوت الذي نسمع؟ قال: صوتُه، قالوا: صدقْتَ، إنما بقيت واحدة وهي أن نتابعك إن أخبرتنا، إنه ليس من نبي إلا له ملَك يأتيه بالخبر، فأخبرنا مَنْ صاحبك؟ قال: جبريل، قالوا: جبريل ذلك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلْتَ ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والمطر لكان، فأنزل الله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلى آخر الآية. راجع: الدر المنثور، وفتح القدير، ومسند الإمام أحمد (١ـ٢٧٤)، أما النص الذي ذكره ابن عطية وفيه لفظ البرق فقد أخرجه أبو الشيخ عن مجاهد، ذكر ذلك في الدر المنثور.

(١) قيس بن الخطيم بن عديّ بن حارثة الغطريف، كان شاعر الأوس وبينه وبين حسّان بن ثابت منافسات، قدم مكة فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام وتلا عليه القرآن، فقال: إني لأسمع قولاً عجباً فدعني أنظر في أمري هذه السنة وأعود، فمات قبل الحول، وهو في شعره يجري مجرى الجاهليِّين. والقطا: جمع قطاة، وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء، ويتخذ أُفحوصَه في الأرض، ويطير في جماعات، ويقطع مسافات شاسعة، وبيضه مرقط. والمُزْن: السحاب يحمل الماءَ والواحدة مزنة، والأدجان جمع=

و[ٱلرَّعْدُ] مَلَك يزجر السحاب بصوته، وصوتُه هذا المسموع تسبيحٌ، والرعد اسم المَلَك، وقيل: الرَّعد اسم صوت المَلَك، وروي عن النبي ﷺ أنه كان إذا سمع الرعد قال: (اللهم لا تُهلكنا بغضبك، ولا تقتلنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك)[1].

ورُوي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه وغيره أَنهم كانوا إذا سمعوا الرَّعد قالوا: «سبحان الذي سبَّحت له»، وروى أَبو هريرة أَن النبي ﷺ كان إذا سمع الرَّعد قال: (سبحان من سبَّح الرعد بحمده)[2]، وقال ابن أَبي زكريا: «من قال إذا سمع الرَّعد: سبحان الله وبحمده لم تصبه صاعقته»، وقيل في الرعد أَيضاً: إنه ريح يختنق بين السحاب، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي لا يصح لأَنها نزعات الطبيعيين وغيرهم من الملحدة، ورُوي أَيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن المَلَك إذا غضب وزجر السحاب اضطربت من خوفه فيكون البرق، وتحتك فتكون الصواعق.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ الآية. قيل: إنه أَدخلها في التنبيه على القدرة بغير سبب ساق ذلك، وقال ابن جريج: كان سبب نزولها قصة أَرْبَد أَخي لبيد بن ربيعة، وعامر بن الطُّفَيل، وكان من أَمرهما فيما روي أَنهما قدما على رسول الله ﷺ فدعواه أَن يجعل الأَمر بعده إلى عامر بن الطفيل ويدخلا في دينه فأَبى، فقال عامر: فتكون أَنت على أَهل المدر وأَنا على أَهل الوبر[3] فأَبى، فقال له عامر: فماذا تعطيني؟ فقال النبي ﷺ: أُعطيك أَعنة الخيل فإنك رجل فارس، فقال له عامر: والله لأَملأَنها عليك خيلاً ورجلاً حتى آخذك، فقال له رسول الله ﷺ: يأبى الله ذلك وأَبناءُ قيلة[4]، فخرجا

= دَجْن، وهو ظل الغيم في اليوم المطير حين يكسو الأرض، وقد قال قيس بن الخطيم البيتين من قصيدة يردّ بها على حسان حين تعرض لأخت قيس في إحدى قصائده.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري في الأدب، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم، وابن مردويه، والخرائطي في مكارم الأخلاق عن ابن عمر رضي الله عنهما. (الدر المنثور).

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهو حديث مرفوع. (الدر المنثور).

(٣) أهل المدر: سكان البيوت المبنية، وأهل الوبر: سكان الخيام من البدو.

(٤) يريد: الأوس والخزرج.

من عنده، فقال أَحدهما لصاحبه: لو قتلناه ما انتطح فيها عنزان، فتآمرا في الرجوع لذلك، فقال عامر لأَربد: أَنا أَشغله لك بالحديث واضربه أَنت بالسيف، فجعل عامر يحدثه وأَربد لا يصنع شيئاً، فلما انصرفا قال له عامر: والله يا أَربد لا خفتك أَبداً، ولقد كنت أَخافك قبل ذلك، فقال له أَربد: والله لقد أَردت إِخراج السيف فما قدرتُ على ذلك، ولقد كنت أَراك بيني وبينه أَفأَضربك؟ فمضيا للحشد على النبي ﷺ، فأَصابت أَرْبَد صاعقة فقتلته، ففي ذلك يقول لبيد بن ربيعة أَخوه:

أَخشى على أَرْبَدَ الحُتُوفَ ولا ... أَرْهَبُ نَوْءَ السِّمَاكِ والأَسَدِ
فَجَّعَني البَرْقُ والصَّوَاعِقُ بالْـ ... ـفَارِس يَوْمَ الكَرِيهَةِ النُّجُدِ[(١)]

فنزلت الآية في ذلك، وروي عن عبد الرحمن بن صحار العبدي أَنه بلغه أَن جباراً من جبابرة العرب بعث إِليه النبي ﷺ لِيُسْلِم، فقال: أَخبروني عن إِلـٰه محمد، من لؤلؤ هو أَو من ذهب؟ فنزلت عليه صاعقة ونزلت الآية فيه[(٢)]، وقال مجاهد: إِن بعض اليهود جاءَ إِلى النبي ﷺ يناظره، فبينما هو كذلك إِذ نزلت صاعقة فأَخذت قحف رأسه فنزلت الآية فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾، يجوز أَن تكون إِشارة إِلى جدال اليهود المذكور وتكون الواو واو حال، أَو إِلى جدال الجبار المذكور، ويجوز ـ إِن كانت الآية على غير سبب ـ أَن يكون قوله: ﴿وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ إِشارة إِلى جميع الكفرة من العرب وغيرهم الذين جُلبت لهم هذه التنبيهات.

---

(١) كان أَرْبد قد وفد على الرسول ﷺ في عام الوفود مع عامر بن الطفيل وجابر بن سلمى بن مالك، ولم يوفقهم الله للإسلام، وفي عودتهم توفي عامر بالطاعون، وأَصابت أَرْبد صاعقة فقتلته حرقاً، وقد قيل: إن أربد لم يكن شقيقاً للبيد بن ربيعة وإنما هو أخوه لأمه، واسمه أَرْبد بن قيس بن جزءٍ.

والحتف: الهلاك، وجمعه حُتُوف، والنَّوْءُ: النجم في السماءِ إذا مال للغروب، وجمعه أنواء، والنُّجُد: البطل ذو النجدة. يقول لبيد: كنت أخشى على أَرْبد كل سبب من أسباب الهلاك فقد كان يتعرض لها كلها إلا سبباً واحداً لم أكن أخافه ولا أخشاه وهو أن يموت بصاعقة من السماء، ثم يتحدث عن فجيعته في هذا الفارس المعروف بالشهامة والنجدة في يوم الكريهة وعند الشدة.

(٢) أخرجه ابن جرير، والخرائطي في مكارم الأخلاق ـ وأخرج مثله النسائي، والبزّار، وأبو يعْلَى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والطَّبراني في الأوسط، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وفي الرواية أن رسول الله ﷺ إلى هذا الجبار قد ذهب إليه ثلاث مرات، وفي كل مرة يتعاظم ويتكبر.

و[ٱلْمِحَال]: القوة والإهلاك، ومنه قول الأعشى:

فَـرْعُ نَبْـعٍ يَهْتَـزُّ فـي غُصُـنِ الْمَجْـ ـدِ عَظيمُ النَّدَى شَدِيدُ المحَالِ[1]

ومنه قول عبد المطلب:

لاَ يَغْلِبَـــــنَّ صَليبُهُــــمْ وَمَحَــالُهُـمْ عَـدْواً مِحَـالَـكْ[2]

وقرأَ الأَعرج، والضحّاك: [الْمَحَال] بفتح الميم بمعنى المحالة، وهي الحيلة، ومنه قول العرب في [ذكر] المثل: «المرءُ يعز لا محالة»[3]، وهذا كالاستدراج والمكر ونحوه، وهذه استعارات في ذكر الله تعالىٰ، والميم إذا كُسرَت أَصلية، وإذا فتحت زائدة، ويقال: مَحَلَ الرجل بالرجل: مَكَر به وأَخذه بسعاية شديدة[4].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا

---

(١) البيت من قصيدته المشهورة التي قالها يمدح الأسود بن المنذر اللَّخمي، ومطلعها:

مَـا بُكَـاءُ الكَبِيـرِ بـالأَطْـلالِ وسُـؤالـي، فَهَـلْ تَـرُد سُـؤَالـي؟

ورواية الديوان «غزير النَّدى»، والمِحال: المكر والقوة، ويمكن أن يراد به العقوبة، ومنه قول ذي الرمة:

ولَبْـسَ بَيْـنَ أَقْـوَامٍ فَكُـلٌّ أَعَـدَّ لَـهُ الشَّغَـازِبَ والمِحَـالا

والشَّغْزَبِيَّةُ: ضربٌ من الحيلة في الصراع، وهي أن تلوي برجلك رجله.

(٢) وقبله يقول عبد المطلب:

لا هُـــمَّ إنَّ الْمَـــرْءَ يَمْـ ـنَـعُ رَحْلَـهُ فـامْنَـعْ حِـلالَـك

والحِلالُ بالكسر: القوم المقيمون المتجاورون، يريد بهم سكان الحرم، ويروى: «غَدْراً»، والغدر معروف، ويروى: «أبداً محالك»، هكذا رواه في «البحر المحيط».

(٣) معناه: لا تضيق الحِيَلُ ومخارج الأمور إلا على العاجز (مجمع الأمثال للميداني)، وكلمة (ذكر) وردت في بعض الأصول، والأولى أن تحذف، فالمعنى أسلم والتعبير أصح بدونها.

(٤) قال الزمخشري: «ويجوز أن يكون المعنى: شديد العقاب ويكون مثلاً في القوة والقدرة، كما جاء: «فسَاعِدُ الله أَشَدُّ، وموساه أَحَدُّ»، لأن الحيوان إذا اشتد غاية كان منعوتاً بشدة القوة والاضطلاع بما يعجز عنه غيره، ألا ترى إلى قولهم: «فَقَرَتْه الفواقر»، وذلك أن الفقار عمود الظهر وقوامه».

ضَرًّاۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾.

الضمير في [لَهُۥ] عائد على اسم الله تبارك وتعالىٰ، وقال ابن عباس: «﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّۖ﴾ لا إلـٰهَ إلا الله». وما كان من الشريعة في معناه، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «هي التوحيد»، ويصح أن يكون معناها: له دعوة العباد بالحق ودعاءُ غيره من الأوثان باطل.

وقوله: [وَٱلَّذِينَ] يُراد به ما عُبد من دون الله، والضمير في [يَدْعُونَ] لكفار قريش ونحوهم من العرب، وروى اليزيدي عن أبي عمرو بن العلاءِ ﴿تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ بالتاءِ من فوق، و[يَسْتَجِيبُونَ] بمعنى يُجيبونَ، ومنه قول الشاعر:

وَدَاعٍ دَعَا يا مَنْ يُجيبُ إلى النَّدَى ... فَلَـمْ يَسْتَجِبْـهُ عِنْـدَ ذَاكَ مُجيـبُ(١)

ومعنى الكلام: والذين يدعونهم الكفار في حوائجهم ومنافعهم لا يجيبون بشيءٍ.

ثم مثل تعالىٰ مثالاً لِإجاباتهم بالذي يبسط كفَّيْه نحو الماءِ ويشير إليه بالإقبال إلى فيه، فهو لا يبلغ فمه أبداً، فكذلك إجابة هؤلاءِ والانتفاع بهم لا يقع(٢). وقوله: [هُوَ] يريد به الماءَ وهو البالغ، والضمير في [بِبَٰلِغِهِۦ] للفم، ويصح أن يكون [هُوَ] يراد به الفم وهو البالغ أيضاً، والضمير في [بِبَٰلِغِهِۦ] للماءِ، لأن الفم لا يبلغ الماءَ أبداً على تلك الحال، ثم أخبر تعالىٰ عن دعاءِ الكافرين أنه في ضلال ولا يفيد شيئاً ولا يغني.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ الآية. يحتمل ظاهر هذه الألفاظ أنه جرى في طريق التنبيه على قدرة الله وتسخير الأشياءِ له فقط، ويحتمل أن يكون في ذلك طعن على كفار قريش وحاضري محمد ﷺ، أي: إن كنتم أنتم لا توقنون ولا تسجدون فإن جميع من

---

(١) قال هذا البيت كعب بن سعد الغَنَوِيُّ يرثي أخاه أبا المغوار، وبعده يقول:

فقُلْتُ ادْعُ أُخرَى وارْفَـعِ الصَّـوْتَ رَفْعَـةً ... لَعَـلَّ أَبـا المِغْـوَارِ مِنْـكَ قَـرِيـبُ

(٢) العرب تضرب مثلاً لمن سعى فيما لا يدركه بالقابض على الماء، قال ضابىء بن الحارث البرجمي:

فَـإنِّـي وإيَّـاكُـمْ وشَـوْقـاً إِلَيْكُـمُ ... كَقَـابِـضِ مـاءٍ لَـمْ تَسِقْـهُ أَنَـامِلُـهْ

أي: لم تحمله أنامله، وروي: «لم تُطعه»، يعني أنه ليس في يده من ذلك إلا كما في يد القابض على الماءِ، والقابض على الماء ليس في يده شيءٌ، وقال آخر:

فـأَصْبَحْـتُ مِمَّـا كـانَ بَيْنـي وبَيْنَهـا ... مِـنَ الـوُدِّ مِثْـلَ القَـابِـضِ المـاءَ بـاليَـدِ

في السموات والأَرض لهم سجود لله تعالىٰ، وإِلى هذا الاحتمال نحا الطبري، و﴿مَنْ﴾ تقع على الملائكة عموماً وسجودهم طوعاً بلا خلاف، وأَما أَهل الأَرض فالمؤمنون منهم داخلون في مَنْ سجودهم طَوْعٌ، وأَما سجود الكفرة فهو الكُرْه، وذلك على نحوين من هذا المعنى، فإِن جعلنا السجود هنا الهيئة المعهودة فالمراد من الكفرة من يضمه السيف إِلى الإِسلام ـ كما قال قتادة ـ فيسجد كرهاً، إِمَّا نفاقاً، وإِمَّا أَن يكون الكره أَول حاله فتستمر عليه الصفة وإِن صحَّ إِيمانه بعد، وإِن جعلنا السجود الخضوع والتذلُّل على حسب ما هو في اللغة كقول الشاعر:

. . . . تَرَى الأُكْمَ فيها سُجَّداً للْحَوَافِرِ(١)

فيدخل الكفار أَجمعون في [مَنْ]، لأَنه ليس من كافر إِلا ويلحقه من التذلُّل والاستكانة بقدرة الله أَنواع أَكثر من أَن تُحصى بحسب رزاياه واعتباراته، وقال النحاس، والزجَّاج: إِن الكره يكون في سجود عصاة المسلمين وأَهل الكسل منهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإِن كان اللفظ يقتضي هذا فهو قلق من جهة المعنى المقصود بالآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ۩﴾ إِخبار عن أَن «الظِّلال» لها سجود لله تعالىٰ بالبُكَر والعَشيَّات، قال الطبري: وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾(٢)، قال: وذلك هو فيئُهُ بالعشي، وقال مجاهد: «ظلُّ الكافر يسجد طوعاً وهو كاره»، وقال ابن عباس: «يسجد ظلُّ الكافر حين يفيءُ عن يمينه وشماله»، وحكى الزجَّاج أَن بعض الناس قال: إِن «الظِّلال» هنا يُراد بها الأَشخاص، وضعفه أَبو إِسحاق. و﴿ٱلْآصَالِ﴾ جمع أَصيل(٣)، وقرأَ أَبو

---

(١) هذا عجز بيت قاله زيد الخيل، والبيت بتمامه:

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ في حَجَرَاتِهِ ... ترى الأُكْمَ فيها سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ

والبَلَقُ: سوادٌ وبياضٌ، يقال فرس أبلق، وهي بلقاءُ، والعرب تقول: دابة أبلق وجبل أَبرق، والحَجَرات: الجوانب، ،الأكمة: التَّلُّ المرتفع، والجمع: أكماتٌ وأَكَمٌ، وجمع الأكَم إكامٌ مثل جبل وجِبال، وجمع الإكام أُكُمٌ مثل كِتاب وكُتُب، وجَمْع الأُكم آكامٌ مثل عُنُق وأعناق.

(٢) من الآية (٤٨) من سورة (النحل).

(٣) قال ابن جرير في تفسيره: والآصال جمع أُصُل، والأصل جمع أصيل، والأصيل هو العشي، وهو =

مجلز: [والإيصالِ]، قال أَبو الفتح: هو مصدر أَصلنا، أَي: دخلنا في الأَصيل، كأَصبحنا وأَمسينا. وروي أَن الكافر إِذا سجد لصنمه فإِن ظله يسجد لله حينئذ.

وقوله تعالىٰ: ﴿قل من رب السموات والأرض﴾ الآية. جاءَ السؤال والجواب في هذه الآية من ناحية واحدة، إِذ كان السؤال والتقرير عن أَمر واضح لا مدافعة لأَحد فيه ملتزم للحجة، فكان السبق إِلى الجواب أَفصح في الاحتجاج وأَسرع في قطعهم من انتظار الجواب منهم، إِذ لا جواب إِلا هذا الذي وقع البِدار إِليه[١]. وقال مكي: جهلوا الجواب وطلبوه من جهة السائل فأَعلمهم به السائل، فلما تقيد من هذا كله أَن الله تعالىٰ هو رب السموات والأَرض وقع التوبيخ على اتخاذهم من دونه أَولياءَ مُتَّصفين بأَنهم لا ينفعون أَنفسهم ولا يضرونها، وهذه غاية العجز، وفي ضمن هذا الكلام: «وتركتموه وهو الذي بيده ملكوت كل شيءٍ»، ولفظه ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ تقتضي ذلك.

ثم مثَّل الكفار والمؤمنين ـ بعد هذا ـ بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ بالتاءِ، وقرأَ حمزة، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم: [يَسْتَوي] بالياءِ، فالتأْنيث أَحسن لأَنه مؤنث لم يُفْصل بينه وبين فاعله بشيءٍ، والتذكير شائع لأَنه تأْنيث غير حقيقي والفعل مقدم[٢]، وشبهت هذه الآية الكافر بالأَعمى والكفر بالظلمات، وشبهت المؤمن بالبصير والإِيمان بالنور. ثم وقفهم بعْدُ، هل رأَوا خلقاً لغير الله فحملهم ذلك وٱشتباهه بما خلق الله على أَن جعلوا إِلـٰهاً غير الله. ثم أَمر محمداً عليه الصلاة والسلام بالإِفصاح بصفات الله تعالىٰ في أَنه خالق كل شيءٍ، وهذا عموم في

= ما بين العصر إلى مغرب الشمس، قال أبو ذؤيب الهُذَلي:

لَعَمْـري لأَنْـتَ البَيْـتُ أُكْـرِمُ أَهْلَـهُ وأَقْعُـدُ فـي أَفْيـائِـهِ بـالأصـائـلِ

واستشهد أيضاً بهذا البيت أبو عبيدة في (مجاز القرآن) على أن آصال جمع أُصل، وأُصل جمع أصيل، فآصال جمع الجمع، وبهذا أيضاً قال الزجاج.

(١) ومثل هذا قوله تعالىٰ: ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله﴾.

(٢) [أَمْ] في قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ منقطعة، فهي تقدر بـ (بَلْ والهمزة)، فالتقدير: «بَلْ أَهَلْ تستوي»، و(هَلْ) وإن نابت عن (الهمزة) إلا أنها تأتي معها كما في قول الشاعر: «أَهَلْ رأَونا بوادي القَفر ذي الأكَم»، فإذا جاءت معها صريحة كان من باب أولى أن تأتي مع [أَمْ] المتضمنة لها، قال ذلك صاحب البحر المحيط (٥ـ٣٧٩).

اللفظ يراد به الخصوص في كل ما هو خلْق لله تعالىٰ، ويخرج عن ذلك صفات ذاته لا ربَّ غيره، ووصف نفسه بالوحدانية من حيث لا موجود إلا به، وهو في وجوده مستغن عن الموجودات، لا إلـه إلا هو العلي العظيم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧﴾.

صدر هذه الآية تنبيه على قدرة الله تعالىٰ وإقامة الحجة على الكفر به، ثم لما فرغ ذكر ذلك جعله مثالاً للحق والباطل والإيمان والكفر والشك في الشرع واليقين به.

و«الماءُ»: يريد به المطر، و«الأَودية»: ما بين الجبال من الانخفاض والخنادق، وقوله سبحانه: [بِقَدَرِهَا] يحتمل أن يريد بما قُدِّر لها من الماء ويحتمل أن يريد بقدر ما تحمله على قدر صغرها وكبرها وقرأ جمهور الناس [بِقَدَرِهَا] بفتح الدال، وقرأ الأَشهب العقيلي بسكونها.

و«الزَّبدُ»: ما يحمله السيل من غثاءٍ ونحوه وما يرمي به ضفَّتيه من الحَباب المُلْتَبك[1] به، ومنه قول حسّان بن ثابت:

والبَحْرُ حينَ تَهُبُّ الرِّيحُ شَامِيَةً ... فَبَاطِلٌ ويرمي العِبْرَ بالزَّبَدِ[2]

و«الرَّابي»: المنتفخ الذي قَدْ رَبَا، ومنه الرَّبْوَة.

وقوله تعالىٰ: [وَمِمَّا] خبر ابتداءٍ، والابتداءُ قوله: [زَبَدٌ] و[مِثْلُهُ] نعت لـ «الزَّبَد»، والمعنى: ومن الأَشياءِ التي توقدون عليها ابتغاءَ الحلي ـ وهي الذهب والفضة ـ أَو ابتغاءَ الاستمتاع بها في المرافق ـ وهي الحديد والرصاص والنحاس ونحوها من الأَشياءِ التي توقدون عليها، فأَخبر تعالىٰ أَن من هذه أَيضاً ـ إذا أُحمي عليها ـ تكون زبداً مماثلاً للزَّبد الذي يحمله السيل، ثم ضرب تعالىٰ ذلك مثلاً للحق والباطل، أَي أَن الماءَ الذي

(١) الحَباب: الفقاقيع تظهر على وجه الماءِ، والملتبك: المختلط بعضه ببعض.

(٢) العِبْر بكسر العَيْن: الضفة أو الشاطىء وورد فيها الفتح، والزَّبَد فسَّره ابن عطية. والريح الشامية هي التي تهب من جهة الشام. وروي البيت: و«النهر» بدلاً من «البحر».

تشربه الأرض فيقع النفع به هو كالحق، والزَّبد الذي يجْفُو ويَنْفِش[١] ويذهب هو كالباطل، وكذلك ما يخلص من الذهب والفضة والحديد ونحوها هو كالحق، وما يذهب في الدخان هو كالباطل. وقوله: ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: كائناً كذا، قال مكي وغيره: ومنعوا أن يتعلق بقوله: ﴿يُوقِدُونَ﴾ لأنهم زعموا أنه ليس يوقد على شيءٍ إلا وهو في النار، وتعلق حرف الجر بـ ﴿يُوقِدُونَ﴾ يتضمن تخصيص حال من حال أُخرى[٢]. وذهب أبو علي الفارسيّ إلى تعلقه بـ ﴿يُوقِدُونَ﴾، وقال: قد يوقد على شيءٍ وليس في النار كقوله تعالىٰ: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾[٣]، فذلك البناءُ الذي أمر به أن يوقد عليه ليس في النار ولكن يصيبه لهيبها. وقوله: ﴿جُفَآءً﴾ مصدر من قولك: «جفأت القدر» إذا غلت خرج زبدها وذهب. وقرأ رؤبة: [جُفَالاً] من قولهم: «جفلت الريح السحاب» إذا حملته وفرقته، قال أبو حاتم: لا تعتبر قراءة الأعراب في القرآن[٤].

وقوله: ﴿مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ يريد الخالص من الماءِ ومن تلك الأحجار، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر، وأبو جعفر، والأعرج، وشيبة، والحسن: [تُوقِدُونَ] بالتاءِ، أي أنتم أيها الموقدون، وهي صفة لجميع أنواع الناس. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وابن محيصن، ومجاهد، وطلحة، ويحيى، وأهل الكوفة ﴿يُوقِدُونَ﴾ بالياءِ على الإشارة إلى الناس. و﴿جُفَآءً﴾ مصدر في موضع الحال، وروي عن ابن عباس أنه قال: قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يريد به الشرع والدين. وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ يريد به القلوب، أي: أخذ النبيل بحظِّه والبليد بِحَظِّه[٥].

---

(١) يجفو: يبعد، يقال: جفا الشيءُ: نَبَا وبَعُد، وينفش: يتفرق وينتشر بعد تَلَبُّد.

(٢) قال أبو حيان ردّاً على هذا: «ولو قلنا إنه لا يوقد على شيءٍ إلا وهو في النار، لجاز أن يكون متعلقاً بـ ﴿يُوقِدُونَ﴾، ويجوز ذلك على سبيل التوكيد، كما قالوا في قوله تعالىٰ: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾. البحر المحيط ٥ـ٣٨٢».

(٣) من الآية (٣٨) من سورة (القصص).

(٤) وعن أبي حاتم أيضاً: «لا يُقرأُ بقراءة رؤبة، لأنه كان يأكل الفأر»، يعني أنه كان أعرابياً جافياً.

(٥) وقيل في هذه الآية أيضاً: «هذا مثل ضربه الله تعالىٰ للقرآن والقلوب والحق والباطل، فالماءُ مثل القرآن لما فيه من حياة القلوب وبقاءِ الشرع والدين، والأودية مثل القلوب. ومعنى ﴿بِقَدَرِهَا﴾: على سعة القلوب وضيقها، فمنها ما انتفع به القلب فحفظه ووعاه وتدبر فيه فظهرت ثمرته وأدركَ تأويله ومعناه، =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول لا يصح والله أعلم عن ابن عباس لأنه ينحو إلى قول أصحاب الرموز، وقد تمسَّك به الغزالي وأهل ذلك الطريق، ولا وجه لإخراج اللفظ عن مفهوم كلام العرب بغير علَّة تدعو إلى ذلك، والله الموفق للصواب برحمته، وإنْ صحَّ هذا القول عن ابن عباس فإنما قصد أن قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ معناه: الحق الذي يتقرر في القلوب، والباطل الذي يعتريها(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾ هم المؤمنون الذين دعاهم الله على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام فأجابوه إلى ما دعاهم إليه من اتِّباع دينه.

و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هي الجنة، ويدخل في هذا النصرُ في الدنيا ونحُو ذلك من البشارات التي تكون للمؤمن وكلُّ ما يختص به المؤمنون من نعم الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾ هم الكفرة. و﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ هو التَّقصي على المحاسَب، ولا يقع في حسابه شيءٌ من التجاوز. قاله حوشب، وإبراهيم النَّخعي،

= ومنها دون ذلك بطبقة، ومنها دونه بطبقات، والزَّبد مثل الشكوك والشُّبه وإنكار الكافرين أنه كلام الله ودفعهم إياه بالباطل، والماءُ الصافي المُنتَفع به مثل الحق»، قال أبو حيان تعليقاً على هذا الكلام: «وفي الحديث الصحيح ما يؤيد هذا التأويل، وهو قوله ﷺ: (مثَل ما بُعِثْت به من الهدى كمثل غيث أصاب أرضاً، وكانت منها طائفة طيبة قبلت الماءَ وأنبتت الكلأ والعُشب الكثير، وكانت منها طائفة أجادب فأمسكت الماءَ فانتفع الناس به وسقوا ورعوا، وكانت منها قيعان لا تمسك ماءً ولا تُنبت كلأً، فذلك مثل ما جئت به من العلم والهدى، ومثل من لم يقبل هدى الله الذي جئت به).».

(١) وفي نفس الموضوع قال أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبري صاحب كتاب (سوق العروس): «إن صح هذا التفسير فالمعنى فيه أن الله سبحانه مثَّل القرآن بالماءِ، ومثَّل القلوب بالأودية، ومثَّل المحكم بالصافي، ومثَّل المتشابه بالزَّبد».

وفَرْقَدُ السَّبَخي[1] وغيره. و«المأوى» حيث يأوي الإنسان ويسكن، و﴿ٱلْمِهَادُ﴾ ما يُفترش ويُلبس بالجلوس والرقاد.

وقوله تعالىٰ: ﴿۞أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ استفهام بمعنى التقرير، والمعنى: أَيستوي مَنْ هداه الله تعالىٰ فآمن بك وعلم صدق نبوتك ومَنْ لم يهتد ولا رُزق بصيرة فبقي على كفره؟ فمثَّل عزَّ وجلَّ ذلك بالعمى، ورُوي أَن هذه نزلت في حمزة بن عبد المطلب وأَبي جهل بن هشام، وقيل: في عمار بن ياسر وأَبي جهل، وهي ـ بعد هذا ـ مثال في جميع العالم. و﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية حاصِرة، أَي: إِنما يتذكر فيُؤْمن ويراقب الله مَنْ له لبٌّ وتحصيل.

ثم أَخذ تبارك وتعالىٰ في وصف هؤلاءِ الذين يسَّرهم للإيمان فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾. وقوله: ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ اسم للجنس، أَي بجميع عهوده، وهي أَوامره ونواهيه التي وصَّى بها عبيده، ويدخل في هذه الأَلفاظ التزامُ جميع الفروض وتجنُّب جميع المعاصي.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ يحتمل أَن يريد به جنس المواثيق، أَي: إِذا عقدوا في طاعة الله عهداً لم ينقضوه، قال قتادة: وتقدم الله إِلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في بضع وعشرين آية، ويحتمل أَن يشير إِلى ميثاق معيّن وهو الذي أَخذه الله على عباده وقت مسحه على ظهر أَبيهم آدم عليه السلام.

وَوَصْلُ ما أَمر الله به أَن يُوصل ظاهِرُهُ في القرابات، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات، وسُوءُ الحساب هو أَن يُتقصَّى، ولا يقع فيه مسامحة ولا تغمّد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

الصبر لوجه الله يدخل في الرّزايا والأَسقام والعبادات، وعن الشهوات ونحو ذلك.

---

(١) بفتح السين والباءِ نِسْبةً إِلى السَّبخة، وهي موضع بالبصرة، قال فرقد: قال لي إبراهيم النَّخعي: يا فرقد، أتدري ما سوءُ الحساب؟ قلت: لا، قال: أَنْ يحاسب الرجل بذنبه كله لا يُفقد منه شيءٌ.

و[ٱبْتِغَاءَ] نصب على المصدر، أَو على المفعول من أَجله، و«الوَجْه» في هذه الآية ظاهره الجهة التي تقصد عند الله تعالىٰ بالحسنات لتقع عليه المثوبة، وهذا كما تقول: خرج الجيش لوجه كذا، وهذا أَظهر ما فيه، مع احتمال غيره، و«إِقامة الصلاة» هي الإِتيان بها على كمالها، والصلاة هنا هي المفروضة.

وقوله تعالىٰ: [وَأَنفَقُوا] يريد مواساة المحتاج، و«السِّرُّ» هو فيما أُنفق تطوعاً، والعلانية فيما أُنفق من الزكاة المفروضة، لأَن التطوع كله الأَفضل فيه التكتم. وقوله ﴿ويدرؤون بالحسنة السيئة﴾ أَي: ويدفعون من رأَوْا منه مكروهاً بالتي هي أَحسن، وقيل: يدفعون بقول «لا إِلـه إِلا الله» شِرْكَهُم، وقيل: يدفعون بالسلام غوائل الناس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبالجملة لا يُكَافئون الشرَّ بالشرِّ، وهذا بخلاف خُلُق الجاهلية. ورُوي أَن هذه الآية نزلت في الأَنصار ثم بقيت عامة ـ بعد ذلك ـ في كل من اتصف بهذه الصفات.

وقوله: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ يحتمل أَن تكون عُقْبى دار الدنيا، ثم فسَّر «العقبى» بقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ﴾ إِذ العقبى تعُمّ حالة الخير وحالة الشر، ويحتمل أَن يريد: عقبى دار الآخرة لدار الدنيا، أَي: العقبى الجنة(١) في الدار الآخرة هي لهم، وقرأَ الجمهور: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ﴾، وقرأَ النَّخَعي: [جنةُ عدنٍ يُدْخَلُونَها] بضم الياءِ وفتح الخاءِ، و[جَنَّات] بدلٌ من [عُقْبى] وتفسير لها(٢). و[عَدْن] هي مدينة الجنة ووسطها(٣)، ومنها «جنات الإِقامة»، من «عَدَن بالمكان» إِذا أَقام فيه طويلاً، ومنه المعادن، وجناتُ عدْن يقال: هي سكن الأَنبياءِ والشهداءِ والعلماءِ فقط، قاله عبد الله بن عمرو بن العاص، ويروى أَن لها خمسة آلاف باب.

وقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ أَي: من عمل صالحاً وآمن، قاله مجاهد وغيره، ويحتمل: أَي مَنْ صلح لذلك بقدر الله تعالىٰ وسابق علمه، وحكى الطبري في صفة دخول

---

(١) في بعض النسخ: «العقبى الحسنة في الدار الآخرة».

(٢) ويكون التقدير: لهم دخول جنات عدْن، لأن ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ حدَثٌ، و﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ﴾ عَيْنٌ، والحدث إنما يُفَسَّر بمثله، فالمصدر المحذوف مضاف إلى المفعول، ويجوز أن تكون ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ﴾ خبر ابتداءٍ محذوف.

(٣) في صحيح البخاري: (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة).

الملائكة أحاديث لم نطول بها لضعف أسانيدها، والمعنى: يقولون: سلام عليكم، فحذف «يقولون» تخفيفاً وإيجازاً لدلالة ظاهر الكلام عليه، والمعنى: هذا بما صبرتم(١)، والمعنى في ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ على نحو ما تقدم من المعنيين، وقرأ الجمهور: ﴿فَنِعْمَ﴾ بكسر النون وسكون العين، وقرأ يحيى بن وثاب بفتح النون وكسر العين، وقالت فرقة: معنى ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: أنْ أُعقبوا الجنة من جهنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل مبني على حديث ورَدَ وهو: (إن كل رجل في الجنة فقد كان له مقعد معروف في النار فصرفه الله عنه إلى النعيم، فيعرض عليه، ويقال له: هذا مكان مقعدك فبدَّلك الله منه الجنة بإيمانك وطاعتك وصبرك)(٢).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾.

هذه صفة مضادة للمتقدمة، وقال ابن جريج في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أنه رُوي: «إذا لم تمش إلى قريبك برجلك ولم تواسه بمالك فقد قطعته»، وقال مصعب بن سعد: سألت أبي عن قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(٣) أهُم الحرورية؟ قال: لا، ولكن الحرورية هم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وتلا هذه الآية، فكان سعد بن أبي وقاص رضي الله

---

(١) فـ [مَا] مع الفعل بمعنى المصدر، والباء في [بِمَا] متعلقة بمعنى ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾، ويجوز أن تتعلق بمحذوف تقديره: «هذا بصبركم» كما قال ابن عطية. والقول المضمر في ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ تكرر في القرآن الكريم، ومنه قوله تبارك وتعالىٰ في الآية (١٢) من سورة (السجدة): ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ﴾ أي: يقولون: [رَبَّنَا].

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، والترمذي في فضائل الجهاد، وابن ماجه في الجهاد، والإمام أحمد في مسنده (٢ـ٥٤١، ٤ـ١٣١ـ٢٠٠، ٦ـ٨٩).

(٣) الآية (١٠٣)، ومن الآية (١٠٤) من سورة (الكهف).

عنه يجعل فيهم الآيتين. و﴿ٱللَّعۡنَةُ﴾: الإبعاد من رحمة الله تعالىٰ ومن الخير جملة، و﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ ضد ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، والأظهر في الدار هنا أنها دار الآخرة، ويحتمل أن تكون الدنيا على ضعف.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ الآية. لما أخبر تعالىٰ عمن تقدمت صفته بأن لهم اللعنة ولهم سوءُ الدار أنحى بعد ذلك على أغنيائهم، وحقَّر شأنهم وشأن أموالهم، والمعنى أن هذا كله بمشيئة الله، يهب الكافر المال ليهلكه به، ويقدر على المؤمن ليعظم بذلك أجره وذخره. وقوله: ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ من التقدير، فهو مناقض لـ ﴿يَبۡسُطُ﴾، ثم استجهلهم في قوله تعالىٰ: ﴿فرحوا بالحياة الدنيا﴾ وهي بالإضافة إلى الآخرة متاع ذاهب مضمحل، يستمتع به قليلاً ثم يفنى. و«المتاع»: ما يُتَمَتَّعُ به مما لا يبقى، قال الشاعر:

تَمَتَّعْ يَا مُشَعَّثُ إِنَّ شيئاً سَبَقْتَ بِهِ الْمَمَاتَ هُوَ الْمَتَاعُ[1]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية، هذا ردٌّ على مقترحي الآيات من كفار قريش، كسقوط السماءِ عليهم كِسَفاً، ونحو ذلك من قولهم: سيّر عنا الأخشبين، واجعل لنا البطاح محارث ومغترساً كالأردنّ، وأَحْيِ لنا مُضيّنا وأسلافنا، فلما لم يكن ذلك بحسب أَن آيات الاقتراح لم تجر عادة الأنبياءِ بالإتيان بها إلا إذا أَراد الله تعذيب قوم قالوا هذه المقالة، فردّ الله عليهم، أَي أَن نزول الآية لاتكون معه ضرورة إيمانكم ولا هداكم، وإنما الأَمر بيد الله يُضل من يشاءُ ويهدي من يشاءُ إلى طاعته والإيمان به من أَناب إلى الطاعة وآمن بالآيات الدالة، ويحتمل أَن يعود الضمير في ﴿إِلَيۡهِ﴾ على القرآن الكريم، أَو على محمد ﷺ[2].

و﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلٌ مِن [منْ] في ﴿مَنۡ أَنَابَ﴾، وطمأْنينة القلوب هي الاستكانة والسرور بذكر الله والسكون به كمالاً به، ورضًى بالثواب عليه، وجودة اليقين. ثم

(١) البيت للمُشَعَّث العامري، وهو من مقطوعة له يخاطب نفسه، استشهد به صاحب اللسان على معنى المتاع، قال: «والمتاع: كل ما ينتفع به من عروض الدنيا قليلها وكثيرها»، وكذلك ذكره صاحب تاج العروس في (متع)، وذكره أبو عبيدة في «مجاز القرآن» شاهداً على معنى المتاع، وكذلك ذكره المرزباني في «معجم الشعراءِ».

(٢) قالوا: والأظهر أن يعود على الله تعالىٰ مع تقدير مضاف محذوف، والتقدير: إلى دينه وشرعه.

استفتح الإخبار بأن طمأنينة القلوب بذكر الله تعالىٰ، وفي هذا الإخبار حضٌّ وترغيبٌ في الإيمان، والمعنى: إن بهذا تقع الطمأنينة لا بالآيات المقترحة، بل ربما كفر بعدها قوم فنزل العذاب كما سلف في بعض الأمم.

و﴿ٱلَّذِينَ﴾ الثاني ابتداءٌ وخبره ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾، ويصح أن تكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلاً من الأولى. و﴿طوبى﴾ ابتداءٌ و﴿لَهُمْ﴾ خبره. وطوبى اسم، ويدل على ذلك كونه ابتداءً، وهي فُعْلى من الطيب في قول بعضهم، وذهب سيبويه بها مذهب الدعاءِ، وقال: هي في موضع رفع، ويدل على ذلك رفع ﴿وحُسْنُ﴾[1]، قال ثعلب: وقرىءَ: [وحُسْنَ] بالنصب، فـ ﴿طُوبَى﴾ ـ على هذا ـ مصدر، كما قالوا: سقْياً لك، ونظيره من المصادر: الرُّجعى والعُقْبى. قال ابن سيدة: والطُّوبى جمع طيبة ـ عن كراع ـ، ونظيره كُوسَى في جمع كيسَة، وصُوفى في جمع صِيفة[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي قرأَ: ﴿وَحُسْنَ﴾ بالنصب هو يحيى بن يَعْمَر، وابن أَبي عبلة.

واختلف في معنى [طُوبَى] ـ فقيل: معناه: خير لهم، وقال عكرمة: معناه: نعم لهم، وقال الضحاك: معناه: غبطة لهم، وقال ابن عباس: طوبى اسم الجنة بالحبشية، وقال سعيد بن مشجوح: اسم الجنة طوبى بالهندية، وقيل: طوبى اسم شجرة في الجنة، وبهذا تواترت الأَحاديث، قال رسول الله ﷺ: (طوبى شجرة في الجنة، يسير الراكب المُجِدُّ في ظلها مائة عام مجداً لا يقطعها، اقرؤوا إِن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[3]). وحكى الطبري عن أَبي هريرة، وعن مغيث بن سُمَيّ، وعتبة بن عبد يرفعه أَخباراً

---

(١) وكما يقال في الكلام: «ويلٌ لِعَمْرو»، وإنما أُوثر الرفع في «طوبى» لحسن الإضافة فيه بغير لام، وذلك أنه يقال: طوباكَ، كما يقال: ويْلَك ووَيْبَك، ولولا حسن الإضافة فيه بغير لام لكان النصب فيه أحسن وأفصح، كما أن النصب في قولهم: «تعْساً لزيد وبعْداً له وسحقاً» أحسن، إذ كانت الإضافة فيه بغير لام لا تحسن.

(٢) قال صاحب البحر المحيط تعليقاً على ذلك: «وفُعْلى ليست من ألفاظ الجموع، فلعلَّ المقصود أنها اسم جمع». ورأي الجمهور أنها مفرد مصدر مثل بُشْرَى وعُقْبى، كما أشار ابن عطية.

(٣) قال في «فتح القدير»: ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه. . . وساق الحديث. والأحاديث متواترة في أن (طُوبى) شجرة في الجنة، لكن بعض الروايات تزيد أخباراً قال عنها ابن عطية: «إنها مما لا يثبت سندها». وقوله تعالىٰ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ هو الآية (٣٠) من سورة (الواقعة).

مقتضاها أَن هذه الشجرة ليست في الجنة دار إِلا وفيها من أَغصانها، وأَنها تثمر ثياب أَهل الجنة، وأَنها تخرج منها الخيل بسُرُجِهَا ولُجُمها، ونحو هذا مما لا يثبت سنده.

و«ٱلْمَآبُ»: المرجع والمآل، من آب يؤوب، ويقال في طوبى: طِيبَى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

الكاف في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ متعلقة بالمعنى الذي في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾، أَي: كما أَنفذ الله هذا كذلك أَرسلناك، هذا قول، والذي يظهر لي أَن المعنى: كما أَجرينا العادة بأَن الله يضل من يشاءُ ويهدي، لا الآيات المقترحة، فكذلك أَيضاً فعلنا في هذه الأُمة، أَرسلناك إِليها بوحي لا بالآيات المقترحة، فيضل الله من يشاءُ ويهدي من يشاءُ[(١)].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾، قال قتادة، وابن جريج: نزلت في قريش حين عاهدهم رسول الله ﷺ عام الحديبية، فكتب الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال قائلهم: نحن لا نعرف الرحمن ولا نقر اسمه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي أَقول في هذا: إِن ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هنا يراد به الله تعالىٰ وذاته، ونسب إِليهم الكُفْر به على الإِطلاق، وقصة الحديبية وقصة أُمية بن خلف مع عبد الرحمن بن عوف إِنما هي عن إِباية الاسم فقط، وهروب عن هذه العبارة التي لم يعرفوها إِلا مِن قِبل محمد ﷺ، ثم أَمر الله نبيَّه بالتصريح بالدين والإِفصاح بالدعوة في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ

---

(١) وقال الزمخشري: «مثل ذلك الإرسال أرسلناك، يعني أرسلناك إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات»، وقال الحسن: «كإرسالنا الرسل أرسلناك»، فـ (ذلك) إشارة إلى إرساله الرسل، وقال الحوفي: «الكاف للتشبيه في موضع نصب».

﴿رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾، و«الْمَتَاب»: المرجع كالمآب، لأن التوبة: الرجوع.

ويحتمل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية أن يكون متعلقاً بقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فيكون معنى الآية الإخبار عنهم أنهم لا يؤمنون ولو نزل قرآن سُيّرت به الجبال أو قُطِّعت به الأرض، هذا تأويل الفراءِ وفرقة من المتأوّلين[١]. وقالت فرقة: بل جواب [لَوْ] محذوف تقديره: ولو أن قرآناً يكون صفته كذا لما آمنوا بوجه[٢]، قال أَهل التأْويل: ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: إن الكفار كانوا قالوا للنبي ﷺ: أَزِح عنَّا، أَو سَيِّر عنا جبلي مكة فقد ضيقا علينا، واجعل لنا أَرضاً قطع غراسة وحرث، وأَحْيِ لنا آباءَنا وأَجدادنا وفلاناً وفلاناً، فنزلت الآية في ذلك مُعْلِمة أَنهم لا يؤمنون ولو كان ذلك كله. وقالت فرقة: جواب [لَوْ] محذوف ولكنه ليس في هذا المعنى، بل تقديره: لكان هذا القرآن الذي يصنع به هذا، وتتضمن الآية ـ على هذا ـ تعظيم القرآن، وهذا قول حسن يحرر فصاحة الآية. وقوله تعالىٰ: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ يعضد التأْويل الأَخير ويترتب مع الآخرَيْن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ﴾ بمعنى: يعلم، وهي لغة هوازن، قاله القاسم بن معن، وقال ابن الكلبي: هي لغة «هَبْيل» حيٌّ من النخع، ومنه قول سُحَيْم بن وثيل الرياحي:

أَقُولُ لهُمْ بِالشِّعْبِ إِذْ يَيْسِرُونَنِي ... أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّي ابْنُ فارِسِ زَهْدم ؟[٣]

---

(١) الذي ذكره الفراءُ في معاني القرآن أن جواب (لَوْ) لم يأت، فإن شئت جعلت جوابها متقدماً: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾، وإن شئت كان جوابه متروكاً لأن أمره معلوم، والعرب تحذف جواب الشيء إذا كان معلوماً إرادة الإيجاز، قال الشاعر وهو امرؤ القيس:

وأُقْسِمُ لَوْ شَيءٌ أَتانا رَسُولُهُ ... سواكِ، ولكِنْ لَمْ نَجِدْ لكِ مَدْفَعا

ومعنى هذا أن الفراءَ ذكر التأويلين، ولكن يترتب على التأويل الأول أن يكون الجواب: «لما آمنوا»، ولا يصح أن يكون قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ جواباً، بل هو دليل الجواب، وعبارة ابن عطية توضح أنه لاحظ ذلك عند تقدير الجواب على رأي الفراء.

(٢) حذف الجواب لدلالة المعنى عليه كثير في القرآن وفي كلام العرب، ومنه في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، ومنه في كلام العرب بيت امرىء القيس الذي استشهد به الفراءُ، وقول امرىء القيس أيضاً:

فَلَوْ أنَّها نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً ... وَلَكِنَّها نَفْسٌ تَسَاقَطُ أنفُسا

(٣) قيل: إن البيت لابن سُحَيْم واسمه جابر بدليل قوله فيه: «أَني ابن فارس زهدم»، وزَهْدَم هي فرس =

ويحتمل أَن يكون «اليأس» في هذه الآية على بابه، وذلك أَنه لما أَبعد إِيمانهم في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ الآية، على التأويلين في المحذوف المقدر قال في هذه: أَفلم ييأَس المؤمنون من إِيمان هؤلاءِ الكفرة علماً منهم أَن لو شاءَ الله لهدى الناس جميعاً؟

وقرأ ابن كثير، وابن محيصن [يأَيس]، وقرأ ابن عباس، وعليٌّ بن أَبي طالب، وابن أَبي مُليكَة، وعكرمة، والجحدري، وعلي بن حسين، وزيد بن عليّ، وجعفر بن محمد: [أفلم يتبين][1].

ثم أَخبر تعالىٰ عن كفار قريش والعرب أَنهم لا يزالون تصيبهم قوارع من سرايا رسول الله ﷺ وغزواته، وقرأ ابن مسعود ومجاهد: [ولا يزال الذين ظلموا]، ثم قال: ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ أَنت يا محمد قريباً من دارهم، هذا تأْويل فرقة منهم الطبري، وعزاه إِلى ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وقال الحسن ابن أَبي الحسن: المعنى: أَوْ تحلُّ القارعةُ قريباً من دارهم، وقرأ سعيد بن جبير، ومجاهد: «أَوْ تحلُّ قريباً مِنْ دِيَارِهِمْ» بالجمع.

= سحيم بن وثيل. ويُروى البيت: «أَني ابن قاتل زهدم»، وعلى هذا يصح أن ينسب إلى سحيم نفسه، وقوله: ييْسرونني: من أيسار الجزور، أي: يجتزُّونني ويقتسمونني، ويُروى: يأسِرونني من الأسر، وقال الشاعر يَيْسرونني لأنه كان قد أُسر في صباه فضرب عليه الآسرون بالمَيْسر يتحاسبون على قسمة فدائه، والشاهد فيه أن (يَيْأس) بمعنى: يعلم، ومثله في ذلك قول مالك بن عوف:

أَلَـمْ يَيْـأسِ الأَقْـوَامُ أَنّـي أنـا ابْنُـهُ ... وإنْ كُنْتُ عَـنْ أرْضِ الْعَشِيـرَةِ نـائيـا

بمعنى ألم يعلموا ويتبينوا؟

وكان بعض الكوفيين ينكر أن «يئس» تأتي بمعنى: «علم»، ويزعم أنه لم يسمع أحداً من العرب يقول ذلك، قال الفراءُ: وأما قول الشاعر (وهو لبيد):

حتّـى إذا يَئِـسَ الـرمـاةُ وأرْسَلُـوا ... غُضْفـاً دواجِـنَ قـافـلاً أعْصَـامُهَـا

فمعناه: حتى إذا يئسوا من كل شيء مما يمكن إلا الذي ظهر لهم أرسلوا، فهو معنى: «حتى إذا علموا أن ليس وجه إلا الذي رأوا» أرسلوا، كان ما وراءه يأساً. (معاني القرآن ٢ـ٦٤). وقد علّق أبو حيان على ذلك فقال: «وقد حفظ ذلك غيره، فهذا القاسم بن معن من ثقاة الكوفيين يقول: «إنها لغة هوازن»، وكذلك نقلها ابن الكلبي» (البحر ٥ـ٣٩٢).

(١) قال أبو حيان: «وتدل هذه القراءة على أن معنى ﴿وَلَوْ أَنَّ﴾ هنا معنى العِلْم، كما تضافرت النقول أنها لغة لبعض العرب، وهذه القراءة ليست قراءة تفسير لقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ﴾ كما يدل عليه ظاهر كلام الزمخشري، بل هي قراءة مسندة إلى الرسول ﷺ، وليست مخالفة للسواد إذا كتبوا (يَيْئَس) بغير صورة الهمزة، وهذه كقراءة (فتبيَّنُوا) و(فتثبَّتُوا) وكلتاهما في السبعة».

ووعْدُ الله ـ على قول ابن عباس وقوم ـ فتحُ مكة، وقال الحسن ابن أَبي الحسن: الآية عامة في الكفار إلى يوم القيامة، وإن حال الكفار هكذا هي أبداً، ووعد الله قيام الساعة، و«القارعة»: الرزيَّة التي تقرع قلب صاحبها بفظاعتها كالقتل والأَسْر ونهب المال وكشف الحريم ونحوه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾. هذه آية تأنيس للنبي ﷺ، أَي: لا يضيق صدرك يا محمد بما ترى من قومك وتلقى منهم، فليس ذلك ببدع ولا نكير، قد تقدم هذا في الأُمم، و«أَمْلَيْتُ لَهُمْ»: أَي: مددْتُ المدة وأَطَلْتُ، والإملاءُ: الإمهال على جهة الاستدراج، وهو من الْمُلاَوة من الزمن، ومنه: تَمَلَّيْتُ حُسْنَ العَيْش[1].

وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ تقرير وتعجيب، وفي ضمنه وعيد للكفار المعاصرين لمحمد عليه الصلاة والسلام.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

هذه الآية بالمعنى راجعة إلى قوله: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾، والمعنى: أَفمن هو هكذا أَحقُّ بالعبادة أم الجمادات التي لا تضر ولا تنفع؟ هذا تأْويل، ويظهر أَن القول مرتبط بقوله: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾، كأَن المعنى: أَفمن له القدرة والوحدانية ويُجْعل له شريكٌ أَهْلٌ أَن ينتقم ويعاقب أَم لا[2]؟ و«الأَنْفُس» من مخلوقاته وهو قائم على الكلِّ

---

(١) «تملَّيت حُسْن العيش» معناها: تمتعت به، والملاوة بفتح الميم وضمها وكسرها، ويقال: «تملَّيْتُ عمري» بمعنى استمتعت به، و«تَملَّيْتُ حبيباً» أي: عشت معه مُلاوة من دهري، قال التَّميمي في يزيد بن مزيد الشيباني:

وقَـدْ كنـتُ أرجـو أنْ أُمـلاّك حقبَـةً ... فحـال قَضـاءُ الله دون رَجـائيـا
ألا فَلْيَمُـتْ مَـنْ شـاءَ بعْـدَكَ إنَّمـا ... عَلَيْـكَ مِـن الأَقـدار كـانَ حِـذاريـا

(٢) [من] موصولة، وصلتها ما بعدها، والخبر محذوف تقديره ما وضحه ابن عطية على التأويلين اللذين=

أي محيط به لِيُقرِّب الموعظة من حسِّ السامع، ثم خصَّ من أَحوال الأنفس حال كسبها ليتفكر الإنسان عند نظر الآية في أعماله وكسبه(١).

وقوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أَي: سمُّوا من له صفات يستحق بها الألُوهية، ثم أضرب عن القَول وقرَّر: هل تُعلمون الله بما لا يعلم، وقرأ الحسن: [تُنْبِؤُونَهُ] بإسكان النون وتخفيف الباءِ. و[أَمْ] بمعنى «بل» و«أَلف الاستفهام»، هذا مذهب سيبويه، وهي كقولهم: «إنها لإبلٌ أَمْ شاءٌ». ثم قررهم بعْدُ، هل يريدون تجويز ذلك بظاهر من الأَمر؟ لأَن ظاهر الأَمر له إلباسٌ مّا وموضع من الاحتمال، وما لم يكن إلا بظاهر من القول فقط فلا شبهة له. وقرأ الجمهور: ﴿زُيِّنَ﴾ على البناءِ للمفعول ﴿مَكْرُهُمْ﴾ بالرفع، وقرأ مجاهد: [زَيَّنَ] على بناية الفاعل [مَكْرَهُمْ] بالنصب، أَي: زَيَّن الله. و﴿مَكْرُهُم﴾ لفظ يعم أَقوالهم وأَفعالهم التي كانت بسبيل مناقضة الشرع. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَصُدُّوا﴾ بضم الصاد، وهذا على تعدي الفعل، وقرأ الباقون هنا وفي «حـمٓ المؤمن»(٢) [وَصَدُّوا] بفتحها، وذلك يحتمل أَن يكون: صدُّوا أَنفسهم أَو صدوا غيرهم، وقرأ يحيى بن وثاب: [وصِدُّوا] بكسر الصاد(٣).

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ﴾ الآية وعيدٌ، أَي: لهم عذاب في دنياهم بالقتل والأَسر والجدوب والبلايا في أَجسامهم وغير ذلك مما امتحنهم الله به، ثم لهم عذاب أَشَقُّ من هذا كله وهو الاحتراق بالنار. و﴿أَشَقُّ﴾: أَصعب، من المشقة، و«الواقي» هو الساتر على جهة الحماية، من الوقاية.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الآية، قال قوم: (مَثَل) معناه: صفة، وهذا من قولك:

= ذكرهما، وحذف الخبر إذا فهم جائز، وقد ورد كثيراً، ومنه قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، والتقدير ها هنا: كالقاسي قلبه، وقد دلّ على الخبر في آيتنا هنا قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، كما دلّ على القاسي قوله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾، هذا وقد جعل حذف الخبر حسناً في هاتين الآيتين أن المبتدأ يكون في مقابله الخبر المحذوف.

(١) في بعض النسخ: «عند نظر الله إليه في أعماله وكسبه».

(٢) في قوله تعالىٰ في الآية (٣٧) من سورة المؤمن (غافر): ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

(٣) وهي كقراءة: ﴿رِدَّتْ إِلَيْنَا﴾ بكسر الراءِ من قوله تعالىٰ في الآية (٦٥) من سورة (يوسف): ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾، وفي اللوامح عن الكسائي وابن يعمر: (وَصِدُّوا) بالكسر لغة.

«مثلتُ الشيءَ» إذا وصفته لأحد وقرّبتَ عليه فهم أمره، وليس بضرب مثل لها، وهو كقوله سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[١] أي الوصف الأعلى، ويظهر أن المعنى الذي يتحصل في النفس مثالاً للجنة هو جرْي الأنهار وأن أُكُلَها دائم، ورافعه عند سيبويه مُقَدّر، قيل: تقديره: فيما يُتْلى عليكم أو يُنصّ عليكم مثلُ الجنة[٢]، ورافعه عند الفراءِ قوله: [تَجْرِي]، أي: صفة الجنة أنها تجري من تحتها الأنهار، ونحو هذا موجود في كلام العرب، وتأول عليه قومٌ أن [مَثَل] مُقْحم، وأن التقدير: الجنة التي وُعد المتقون بها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قلق[٣]، وقرأ علي بن أبي طالب، وابن مسعود: [أمثال الجنة]، وقد تقدم غير مرّة معنى قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

وقوله: ﴿أُكُلُهَا﴾ معناه: ما يُؤكل فيها[٤]، «والعُقْبى» والعاقبة والعاقب: حال تتلو أُخرى قبلها. وباقي الآية بيّن، وقيل: التقدير في صدر الآية: «مثل الجنة جنة تجري»، قاله الزجاج، فتكون الآية ـ على هذا ـ ضَرْبَ مثل لجنة النعيم في الآخرة[٥].

---

(١) من الآية (٢٧) من سورة (الروم)، ومثلها قوله تعالىٰ في الآية (٦٠) من سورة النحل): ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

(٢) عبارة أبي حيّان هنا أدق من عبارة ابن عطية، فقد قال: «ارتفع [مَثَلُ] على الابتداء عند سيبويه، والخبر محذوف، أي: فيما قصصنا عليكم مَثَلُ الجنة، و﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تفسير لذلك المثل». لأن ابن عطية يجعل عامل الرفع مقدراً عند سيبويه مع أنه هو الابتداءُ نفسه، هذا وقد أنكر أبو علي الفارسيّ أن يكون [مَثَل] بمعنى صفة، قال: «إنما معناه التشبيه، ألا تراه يجري مجراه في مواضعه ومتصرفاته؟، كقولهم: مررتُ برجل مثلك، كما تقول: مررت برجل شبهك، قال: ويَفْسد أيضاً من جهة المعنى، لأننا حين نقول في شرح الآية: «صفة الجنة التي فيها أنهار» يكون كلاماً غير مستقيم المعنى، لأن الأنهار في الجنة نفسها لا صفتها» اهـ، ولكن قيل ردًّا عليه: المثل بمعنى الصفة موجود كقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

(٣) لأن إقحام الأسماءَ لا يجوز في القرآن، قال أبو حيان: وقد حكوا عن الفراءِ أن العرب تقحم كثيراً المَثَل والمِثْل، وأنه خرَّج على ذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فقال: أيْ: ليس هو كشيءٍ.

(٤) وفي الخبر: (إذا أخذت ثمرةٌ عادت مكانها أُخرى)، وقوله تعالىٰ: (وَظِلُّهَا) أي: وظِلُّها كذلك دائم، فحذف، أي: ثمرها لا ينقطع، وظلها لا يزول.

(٥) معنى كلام الزّجاج أن الله تعالىٰ مثّل لنا ما غاب عنا بما نراه، وأنكر أبو علي ذلك فقال: لا يخلو المَثَل على قوله أن يكون الصفة أو الشبه، وفي كلا الوجهين لا يصح ما قاله، لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

اختلف المتأولون فيمن عني بهذه الآية ـ فقال ابن زيد: عني به من آمن من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وشبهه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمعنى مَدْحُهم بأنهم لشدة إيمانهم يُسَرون بما يرد على النبي ﷺ من مباحات الشرع، وقال قتادة: عني به جميع المؤمنين، و[ٱلْكِتَاب] هو القرآن، و﴿ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يراد به جميع الشرع، وقالت فرقة: المراد «بالذين آتيناهم الكتاب» اليهود والنصارى، وذلك أنهم لهم فرح بما ينزل على النبي ﷺ من تصديق شرائعهم وذكر أوائلهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويُضَعَّف هذا التأويل بأن همهم به أكثر من فرحهم فلا يُعْتد بفرحهم، ويُضعَّف أيضاً بأن اليهود والنصارى ينكرون بعضه وقد فرَّق الله في هذه الآية بين الذين ينكرون بعضه وبين الذين آتيناهم الكتاب.

و[ٱلْأَحْزَاب] قال مجاهد: هم اليهود والنصارى والمجوس، وقالت فرقة: أحزاب الجاهلية من العرب، وأمره الله تعالىٰ أن يطرح اختلافهم، وأن يصدع بأنه إنما أمر بعبادة الله وترْك الإشراك والدعاءِ إليه، ، اعتقاد المآب إليه، وهو الرجوع عند البعث يوم القيامة.

وقوله: [وكَذٰلِكَ]، المعنى: كما يسَّرنا هؤلاءِ للفرح وهؤلاءِ لإنكار البعض، كذلك

= يصح، لأنك إذا قلت: صفة الجنة جنة، فجعلت الجنة خبراً لم يستقم ذلك، لأن الجنة لا تكون الصفة، وكذلك أيضاً شِبْه الجنة جنة، ألا ترى أن الشبه عبارة عن المماثلة التي بين المتماثلين، وهو حدث، والجنة غير حدث، فلا يكون الأول الثاني.

﴿أَنزَلْنَهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾، ويحتمل المعنى: والمؤمنون الذين آتيناهم الكتاب يفرحون به لفهمهم له وسرعة تَلَقِّيهم، ثم عدَّد النعمة بقوله: كذلك جعلناه، أي: سَهَّلْنَاهُ عليهم في ذلك وتَفَضَّلْنَا. و﴿حُكْماً﴾ نصب على الحال، والحُكْم: ما تضمنه القرآن من المعاني، وجعله عربياً لما كانت العبارة عنه بالعربية. ثم خاطب النبي ﷺ محذِّراً من اتباع أهواءِ هذه الفرق الضالة، والخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام وهو بالمعنى يتناول المؤمنين إلى يوم القيامة. ووقف ابن كثير وحده على: [وَاقِي] و[هَادِي] و[وَالِي] بالياءِ، قال أَبو عليّ: «والجمهور يقفون بغير ياءِ، وهو الوجه»، وباقي الآية بيّن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ الآية. في صدرها تأْنيس للنبي ﷺ، وردٌّ على المقترحين من قريش بالملائكة، المتعجبين من بعثة الله بشراً رسولاً، فالمعنى: إنَّ بعثك يا محمد ليس ببدع، فقد تقدم هذا في الأُمم، ثم جاءَ قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية، لفظه لفظ النهي والزجر، والمقصد به إنما هو النفي المحض، لكنه نفي تأْكيد بهذه العبارة، ومتى كانت هذه العبارة عن أَمر واقع تحت قدرة المنهي عنه فهي زجرٌ، ومتى لم يقع ذلك تحت قدرته فهو نفيٌ مؤكَّد. و﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ معناه: إلاَّ أَن يأْذن الله في ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لفظ عام في جميع الأَشياءِ التي لها آجال، وذلك أَنه ليس كائن فيها إلا وله أَجل في بدئه وفي خاتمته، وكل أَجل مكتوب محصور، فأَخبر الله تعالىٰ عن كتْبه الآجالَ التي للأَشياءِ عامة، وقال الضحاك، والفراءُ: المعنى: لكل كتاب أَجل[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا العكس غير لازم، ولا وجه له، إذ المعنى تام في ترتيب القرآن، بل يمكن

---

(١) قال الفراءُ في «معاني القرآن»: ومثله ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾، وذلك عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، «وجاءَت سكرة الحقّ بالموت»، لأن الحق يأتي بها وتأتي به، فكذلك تقول: «لكل أجل مؤجل ولكلِّ مؤجّل أجل» والمعنى واحد، والله أعلم اهـ. قال أبو حيان: ولا يجوز ادعاءُ القلب إلا في ضرورة الشعر، وأما هنا فالمعنى في غاية الصحة بلا عكس ولا قلب، بل ادعاءُ القلب هنا لا يصح المعنى عليه إذْ ثمّ أشياء كتبها الله أزلية ـ كنعيم أهل الجنة ـ ولا أجل لها. وهذا هو نفس الرأي الذي قدمه ابن عطية.

هدم قولهما بأَن الأَشياءَ التي كتبها الله أَزلية باقية كتنعيم أَهل الجنة وغيره يوجد كتابها ولا أَجل له.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، قرأَ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [وَيُثَبِّتُ] بتشديد الباءِ، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وعاصم بتخفيفها، وقد تخبط الناس في معنى هذه الأَلفاظ، والذي يتلخَّص من مسلكها أَن الأَشياءَ التي قدرها الله تعالىٰ في الأَزل، وعلمها بحال مّا، لا يصحُّ فيها محْوٌ ولا تبديل، وهي التي كتبت في أُم الكتاب، وسبق بها القضاءُ، وهذا مروي عن ابن عباس وغيره من أَهل العلم، وأَما الأَشياءُ التي أَخبر الله تعالىٰ أَنه يبدل فيها وينقل كغفر الذنوب بعد تقريرها، وكنَسْخ آية بعد تلاوتها واستقرار حكمها ففيها يقع المحو والتَّثبيت فيما يقيده الحفظة ونحو ذلك، وأَما إِذا رُدَّ الأَمر إِلى القضاءِ والقدر فقد محا الله ما محا وثبَّت ما ثبَّت، وجاءَت العبارة مستقبلة لمحي الحوادث[1] وهذه الأُمور فيما يستأْنف من الزمان، فينتظر البشر ما يمحو أَو ما يثبت، وبحسب ذلك خوفهم ورجاؤُهم ودعاؤُهم، وقالت فرقة منهم الحسن: هي في آجال بني آدم، وذلك أَن الله تعالىٰ في ليلة القدر ـ وقيل: ليلة نصف شعبان ـ يكتب آجال الموتى، فيُمْحى ناس من ديوان الأَحياءِ ويُثْبَتون في ديوان الموتى، وقال قيس بن عُباد: العاشر من رجب هو يوم يمحو الله ما يشاءُ ويثبت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التخصيص في الآجال وغيرها لا معنى له، وإِنما يحسن من الأَقوال هنا ما كان عامًّا في جميع الأَشياءِ، فمن ذلك أَن يكون معنى الآية: إِن الله تعالىٰ يغير الأُمور عن أَحوالها، أَعني ما من شأْنه أَن يُغَيَّر على ما قدمناه، فيمحو من تلك الحالة ويثبته في التي نقله إِليها[2]، ورُوي عن عُمر، وابن مسعود أَنهما كانا يقولان في دعائهما: «اللهم إِن كنت كتبتنا في ديوان الشقاوة فامحنا وأَثبتنا في ديوان السعادة، فإِنك تمحو ما تشاءُ

(١) في (اللسان): يقال: محا يمحو محواً ومحياً.

(٢) قال القرطبي: «مثل هذا لا يدرك بالرأي والاجتهاد، وإنما يؤخذ توقيفاً، فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده، وإلا فتكون الآية عامة في جميع الأشياء، وهو الأظهر والله أعلم»، وهو بهذا يؤيد كلام ابن عطية، وأبو حيان يقول: «الظاهر أن المحو عبارة عن النسخ من الشرائع والأحكام، والإثبات عبارة عن دوامها وتقرُّرها وبقائها، أي: يمحو ما يشاءُ محوه، ويثبت ما يشاءُ إثباته». ورأيه يوافق رأي الزمخشري، وقتادة ـ هذا وللمفسرين آراءٌ كثيرة في معنى المحو والإثبات ذكر منها ابن عطية أهمها.

وتثبت»، وهذا دعاءٌ في غفران الذنوب وعلى جهة الجزع منهما، أَي: اللهم إِن كنا شقينا بمعصيتك، وكتبت علينا ذنوب وشقاوة فامحها عنا بالمغفرة والطاعة، وفي لفظ عمر رضي الله عنه ـ في بعض الروايات ـ بعض من هذا، ولم يكن دعاؤهما البتَّة في تبديل سابق القضاءِ، ولا يُتأَوّل عليهما ذلك.

وقيل: إِن هذه الآية نزلت لأَن قريشاً لما سمعت قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قالوا: ليس لمحمد في هذا الأَمر قدرة ولا حظٌّ، فنزلت ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ أَي: ربما أَذن الله من ذلك كما تكرهون بعد أَن لم يكن بإِذن الله.

وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: يمحو الله ما يشاءُ ويثبت من أُمور عباده، إِلا السعادة والشقاوة والآجال فإِنه لا محو فيها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا نحو ما أَصَّلناه أَولاً في الآية.

وحكى عن فرقة أَنها قالت: يمحو الله ما يشاءُ ويثبت من كتاب حاشى أُم الكتاب الذي عنده لا يغير منه شيئاً، وقالت فرقة: معناه: يمحو كل ما يشاءُ ويثبت كل ما أَراد، ونحو هذه الأَقوال التي هي سهلة المعارضة. وأَسند الطبري عن إِبراهيم النَّخَعي أَن كعباً قال لعمر بن الخطاب: يا أَمير المؤمنين، لولا آية في كتاب الله لأَنبأْتك بما هو كائن إِلى يوم القيامة، قال: وما هي؟ قال: قوله تعالىٰ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وذكر أَبو المعالي في التلخيص أَن علياً رضي الله عنه هو الذي قال هذه المقالة المذكورة عن كعب، وذلك ـ عندي ـ لا يصح عن علي.

واختلفت أَيضاً عبارة المفسرين في تفسير ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما[1]: هو الذِّكر، وقال كعب: هو علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَصوب ما يُفَسَّر به ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أَنه ديوان الأُمور المحدثة[3] التي قد سبق

---

(١) دليله على ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾.

(٢) وقد رُوي هذا عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً، فقد سئل عن «أُم الكتاب» فقال: «علم الله ما هو خالق، وما خَلَقه عاملون، فقال لعلمه: كن كتاباً، ولا تبديل في علم الله».

(٣) في الأصول: «الأمور المخزونة»، والتصويب عن «البحر المحيط»، إذ نقل كلام ابن عطية بهذا اللفظ.

القضاءُ فيها بما هو كائن، وسبق ألاَّ يُبَدَّل، ويبقى المحو والتثبيت في الأُمور التي سبق في القضاءِ أَن تُبدل وتُمحى وتثبت، قال نحوه قتادة، وقالت فرقة: معنى ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: الحلال والحرام، وهذا قول الحسن بن أَبي الحسن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

«إِنْ» شرط دخلت عليها «مَا»، وهي قبل الفعل، فصارت بعدُ في ذلك بمنزلة اللام المؤكدة في القسَم التي تكون قبل الفعل في قولك: «والله لتخرجنَّ»، فلذلك يحسن أَن تدخل النون الثقيلة في قولك «نُرِيَنَّكَ» لحلولها هنا محل اللام هناك، ولو لم تدخل «ما» لما جاز ذلك إلا في الشِّعر.

وخصَّ «البعض» بالذكر إذ مفهومٌ أَن الأَعمار تقصر عن إِدراك جميع ما تأْتي به الأَقدار مما يُوعد به الكفار، وكذلك أَعطى الوجود، أَلا ترى أَن أكثر الفتوح إنما كان بعد النبي ﷺ، و[أَوْ] عاطفة.

وقوله: [فَإِنَّما] جواب الشرط[1]، ومعنى الآية: إِنْ تبْق يا محمد لترى، أَو نتوفَّينَّك

---

(١) هذا رأي الحوفي، وقد تعقبه أبو حيان في البحر، وقال: والذي تقدم شرطان، لأن المعطوف على الشرط شرط، فأما كونه جواباً للشرط الأول فليس بظاهر، لأنه لا يترتب عليه، إذ يصير المعنى: «وإما نُرِيَنَّك بعض ما نعدهم من العذاب فإنما عليك البلاغ»، وأما كونه جواباً للشرط الثاني وهو ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ فكذلك، لأنه يصير التقدير: إما نتوفينك فإنما عليك البلاغ، ولا يترتب وجوب التبليغ عليه على وفاته عليه الصلاة والسلام، لأن التكليف ينقطع بعد الوفاة، فيحتاج إلى تأويل، وهو أن يتقدر لكل شرط منهما ما يناسب أن يكون جزاءً مترتباً عليه، وذلك أن يكون التقدير والله أعلم: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ بعض الذي نعدهم من العذاب فذلك شافيك من أعدائك، ودليل على صدقك، إذ أخبرت بما يحل بهم، ولم يعين زمان حلوله بهم، فاحتمل أن يقع ذلك في حياتك، واحتمل أن يقع بهم بعد وفاتك، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي: إن نتوفَّينَّك قبل حلوله بهم فلا لوم عليك ولا عتب، إذ قد حلّ بهم بعض ما وعد الله به على لسانك من عذابهم، فإنما عليك البلاغ لا حلول العذاب بهم، إذ ذلك راجع إليَّ، وعلينا جزاؤهم في تكذيبهم إياك وكفرهم بما جئت به». (البحر المحيط ٥ـ٣٩٩).

فعلى كلا الوجهين إنما يلزمك البلاغ فقط. وقوله: ﴿نَعِدُهُمْ﴾ يحتمل أن يريد به المَضارَّ التي توعَّد الله بها الكفار، فأطلق فيها لفظة الوعد لما كانت تلك المضَارّ معلومة مصرحاً بها، ويحتمل أن يريد الوعد لمحمد عليه الصلاة والسلام في إهلاك الكفرة، ثم أَضاف الوعد إليهم لما كان في شأنهم.

والضمير في قوله: ﴿يَرَوْا﴾ عائد على كفار قريش، وهم المتقدم ضميرهم في قوله: [نَعِدُهُمْ]، وقوله: ﴿نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾ معناه: بالقدرة والأمر، كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾(1). و﴿ٱلْأَرْضَ﴾ يريد به اسم الجنس، وقيل: يريد أَرض الكفار المذكورين، وهذا بحسب الاختلاف في قوله: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾. وقرأ الجمهور: ﴿نَنقُصُهَا﴾ وقرأ الضحاك: [نُنَقِّصُهَا](2)، وقوله: ﴿مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾، مَنْ قال: «إنها أَرض الكفار المذكورين» قال: معناه: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نأْتي أَرض هؤلاءِ بالفتح عليك فننقصها بما يدخل في دينك من القبائل والبلاد المجاورة لهم، فما يؤمِّنهم أَن نمكِّنك منهم أَيضاً كما فعلنا بمجاوريهم؟ قاله ابن عباس، والضحاك، وهذا القول لا يتأَتَّى إلا بأَن يُقدّر نزول هذه الآية بالمدينة. ومن قال: «إن [الأَرضَ] اسم جنس» جعل الانتقاص من الأَطراف بتخريب العمران الذي يُحِلُّه الله بالكفرة، وهذا قول ابن عباس أَيضاً ومجاهد، وقالت فرقة: الانتقاص هو بموت البَشَر، وهلاك الثمرات، ونقص البركة، قاله ابن عباس أيضاً والشعبي، وعكرمة، وقتادة. وقالت فرقة: الانتقاص بموت الأَخيار والعلماءِ، قال ذلك ابن عباس أَيضاً ومجاهد، وكلُّ ما ذكر يدخل في لفظ الآية. والطرف من كل شيءٍ: خياره، ومنه قول علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: «العلوم أَودية، في أَي وادٍ أَخذت منها خسرت، فخذوا من كل شيءٍ طرفاً»، يعني خياراً. وجملة معنى هذه الآية الموعظة وضرْب المثل، أَي: أَلَم يروا فيقع منهم اتِّعاظ، وأَليق ما يقصد لفظ الآية هو تنقص الأَرض بالفتوح على محمد ﷺ.

وقوله: ﴿لَا مُعَقِّبَ﴾ أَي: لا رادَّ ولا مناقض يتعقَّب أَحكامه، أَي: ينظر في أَعقابها، أَمصيبةٌ هي أَم لا؟(3) وسُرْعَة حساب الله واجبة لأَنها بالإِحاطة وليست بعدد.

---

(١) من الآية (٢٦) من سورة (النحل).

(٢) بتشديد القاف، من نقَّص المتعدي بالتضعيف.

(٣) المعقِّب هو الذي يكرُّ على الشيء فيُبطله، وحقيقته الذي يعقبه بالردّ والإبطال، ومنه قيل لصاحب =

و«المَكْرُ»: ما يتمرس بالإنسان ويسعى عليه، عِلم بذلك أَو لم يعلم، فوصف الله تعالىٰ الأمم السَّالفة التي سعت على أنبيائها، كما فعلت قريش بمحمد ﷺ بالمكر، وقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾، أَي العقوبات التي أَحلَّها بهم، وسمَّاها مكراً على عرف تسمية المعاقبة باسم الذنب، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[1] ونحو هذا، وفي قوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ تنبيهٌ وتحذيرٌ في طيِّ إخبار. ثم توعدهم تبارك وتعالىٰ بقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، وقرأ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرو: [الْكافر] على الإفراد، وهو اسم الجنس، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [ٱلْكُفَّار]، وقرأ ابن مسعود: [الكافرون]، وقرأ أُبيّ بن كعب «الذين كفروا»، وتقدم القول في ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ قبل هذا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية. المعنى: ويُكذبك يا محمد هؤلاءِ الكفرة، ويقولون: لسْت مرسلاً من الله، وإنما أَنت مُدَّع، قل لهم: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا﴾، و[بِاللهِ] في موضع رفع، التقدير: كفى الله، و«شهيد» بمعنى: شاهد، وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، قيل: يريد اليهود والنصارى الذين عندهم الكتب السابقة برفض الأَصنام وتوحيد الله تبارك وتعالىٰ، يريد مَنْ آمن منهم، كعبد الله بن سلام، وتميم الدّاري، وسلمان الفارسي الذين يشهدون بتصديق محمد عليه الصلاة والسلام. وقال مجاهد: يريد عبد الله بن سلام خاصة، قال هو: فيّ نزلت ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان الأَخيران لا يستقيمان إِلا أَن تكون الآية مدنية والجمهور على أَنها مكية، قاله سعيد بن جبير، وقال: لا يصح أَن تكون الآية في عبد الله بن سلام لكونها مكية، وكان يقرأُ: ﴿وَمَنْ عِندِهِۦ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2].

= الحق: معقِّب لأنه يقفي غريمه بالاقتضاء والطلب، قال لبيد:

حتَّى تَهَجَّرَ في الرَّواح وهاجَهُ ... طَلَبُ المُعَقِّب حَقَّهُ المَظْلُومُ

أي: طلب المظلوم المعقب حقه، و«المعقب» في محلّ رفع لأنها فاعل المصدر «طَلَب»، و«المَظْلومُ» مرفوع عطفاً على موضع «المعقب».

(١) من الآية (١٥) من سورة (البقرة).

(٢) على أن [مِنْ] حرف جر، و[عِنْدِ] مجرورة بها، و[عُلِمَ] مبني للمفعول، و[الكتابُ] نائب فاعل مرفوع،=

وقيل: يريد الله تعالىٰ، كأنه استشهد بالله سبحانه، ثم ذكره بهذه الألفاظ التي تتضمن صفة تعظيم، ويعترض هذا القول بأن فيه عطف الصفة على الموصوف وذلك لا يجوز وإنما تعطف الصفات بعضها على بعض(١)، ويحتمل أن تكون [مَنْ] في موضع رفع بالابتداءِ والخبر محذوف(٢) والتقدير: أعدل أو أمضى قولاً، ونحو هذا مما يدل عليه لفظ «شهيد»، ويراد بذلك الله تعالىٰ.

وقرأ علي بن أبي طالب، وأُبيٌّ بن كعب، وابن عباس، وابن جبير، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، والحكم، وغيرهم: [وَمِنْ عندِه علمُ الكتاب] بكسر الميم مِنْ [مِنْ] وخفض الدال، قال أبو الفتح: ورُويت عن النبي عليه الصلاة والسلام، وقرأ علي بن أبي طالب أيضاً، والحسن، وابن السميفع: [وَمِنْ عندِه عُلِمَ الكِتَابُ] بكسر الميم والدال، وبضم العين وكسر اللام على ما لم يسم فاعله ورفع (الكتاب)، وهذه القراءَات يرادُ فيها الله تعالىٰ، لا يحتمل لفظها غير ذلك.

تم تفسير سورة الرَّعد والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه

* * *

= والمعنى: عُلِمَ الكتابُ من عند الله سبحانه وتعالىٰ، وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قرأ كذلك، روى ذلك محبوب عن إسماعيل بن محمد اليماني، ورُوي أيضاً أنه ﷺ قرأ: ﴿وَمِنْ عِندِهِۦ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بكسر الميم في [مِنْ] والعين والدال في (عِنْدِ)، وأن [عِلْم] مصدر مضاف إلى [الكتاب] والمعنىٰ علمُ الكتاب من عند الله روىٰ ذلك سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه قال القرطبي وفي الرواية ضعف و[الكتاب] على هاتين القراءتين هو القرآن.

(١) قال أبو حيان: «وليس ذلك كما زعم من عطف الصفة على الموصوف، لأن «مَنْ» لا يوصف بها، ولا بشيءٍ من الموصولات إلا بـ «الذي» و«التي» وفروعها، و«ذو» و«ذوات» الطائيتين، وقوله: «وإنما تعطف الصفات بعضها على بعض» ليس على إطلاقه، بل له شرط، وهو أن تختلف مدلولاتها، ويعني ابن عطية أنك لا تقول: «مررت بزيد والعالم» فتعطف «العالم» على الاسم، وهو عَلَمٌ لم يلحظ منه معنى صفة، وكذلك «الله» عَلَمٌ. ولما شعر بهذا الاعتراض من جعله معطوفاً على «الله» قدّر قوله «بالذي يستحق العبادة» حتى يكون من عطف الصفات بعضها على بعض، لا من عطف الصفة على الاسم.

(٢) والاحتمال الأظهر أن [مَنْ] ـ في قراءة الجمهور ـ في موضع خفض عطفاً على لفظ الجلالة [الله]، أو في موضع رفع عطفاً على موضعه، إذ هو في مذهب من جعل الباءَ في [باللهِ] زائدة فاعلٌ بـ [كَفَى].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام

هذه السورة مكية إلاَّ آيتين[١]، وهي[٢] قوله تعالىٰ: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ﴾ إلى آخر الآيتين، ذكره مكيّ، والنقاش.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣﴾.

تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور، و﴿كِتَابٌ﴾ رفع على خبر ابتداءٍ مضمر، تقديره: هذا كتابٌ، وهذا على أكثر الأقوال في الحروف المقطعة، وأما مَنْ قال فيها: «إنها كناية عن حروف المعجم» فـ﴿كِتَابٌ﴾ مرفوع بقوله: ﴿الٓر﴾، أي: هذه الحروف كتاب أنزلناه إليك[٣]. وقوله: [أَنزَلْنَاهُ] في موضع الصفة لـِ «الكتاب»، قال القاضي ابن الطيب، وأبو المعالي، وغيرهما: إن الإنزال لم يتعلق بالكلام القديم الذي هو صفة الذات، لكن بالمعاني التي أفهمها اللهُ جبريل عليه السلام من الكلام.

---

(١) حدد القرطبي الآيات المكية بدايةً ونهايةً، فقال: وهي قوله تعالىٰ: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، وهي بهذا ثلاث آيات كما هو ثابت في المصحف الشريف، وأرقامها (٢٨، ٢٩، ٣٠)، ونسب القرطبي هذا القول إلى ابن عباس وقتادة، وكذلك قال في «البحر المحيط»، أما الجمهور فيقولون: السورة كلها مكية.

(٢) هكذا في جميع النسخ كما هي عادة ابن عطية، وهو يقصد الآيات التي سيذكرها بعد.

(٣) جوَّز العلماءُ في إعراب [الٓر] أن تكون في موضع رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف تقديره: «هذه الٓر»، وأن تكون في موضع نصب على تقدير: «الزَم أو اقرأ الٓر»، وتكون جملة ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ مفسِّرة. ويجوز في هذه الحالة أن يكون ﴿كِتَابٌ﴾ مبتدأ، وسوَّغ الابتداء به كونه موصوفاً في التقدير، أي: كتابٌ عظيم أنزلناه إليك.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِتُخْرِجَ﴾ أسند الإخراج إلى النبي ﷺ من حيث له فيه المشاركة بالدعاءِ والإنذار، وحقيقته إنما هي لله تعالىٰ بالاختراع والهداية، وفي هذه اللفظة تشريف للنبي ﷺ، وعمَّ «النَّاس» إذ هو مبعوث إلى جميع الخلق، ثبت ذلك بآيات القرآن التي اقترن بها ما نُقل تواتراً من دعوته عليه الصلاة والسلام العالَمَ كلَّه، وفي بعثه إلى الأَحمر والأَسود، علم ذلك الصحابة مشاهدة، ونقل عنهم تواتراً، فعلم قطعاً والحمد لله. واستعير الظُّلمات للكفر والنور للإيمان تشبيهاً، وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بعلمه وقضائه وتمكينه لهم. و﴿إِلَى﴾ في قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ بدل من الأَول في قوله: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾[(١)]، أي الْمَحَجَّة المؤدية إلى طاعة الله والإيمان به ورحمته، فأَضافها إلى الله بهذه المتعلقات، و﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ صفتان لائقتان في هذا الموضع، فالعزَّة من حيث الإنزال للكتب، وما في ضمن ذلك من القدرة واستيجاب الحمد من حيث بثِّ هذه النعم على العالم في هدايتهم.

وقرأَ نافع، وابن عامر: [اللهُ الذي] برفع اسم الله على القطع والابتداء، وخبره [ٱلَّذِي]، ويصحُّ رفعه على تقدير: «هو الله الذي»، وقرأَ الباقون بكسر الهاءِ على البدل من قوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، وروى الأَصمعي وحده هذه القراءَة عن نافع، وعبّر بعض الناس عن هذا بأَن قال: التقدير: «إلى صراط اللهِ العزيز الحميد»، ثم قدم الصفات وأَبدل منها الموصوف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإذا كان هذا فليست بعْدُ بصفات على طريقة صناعة النحو، وإن كانت بالمعنى صفاته ذكر معها أَو لم يذكر[(٢)].

---

(١) ولا يضر الفصل بين البدل والمبدل منه بقوله تعالىٰ: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ لأَنَّه معمول للعامل في المبدل منه وهو ﴿لِتُخْرِجَ﴾.

(٢) عند تقديم الصفة على الموصوف يجوز في الإعراب أن تعرب الصفة نعتاً مقدماً، ويجوز أن تجعل ما بعد الصفة بدلاً، ويجوز أيضاً أن تضيف الصفة إلى الموصوف، ذكر ذلك أبو الحسن بن عصفور، ومما جاء فيه تقديم الصفة قول الشاعر:

والْمُؤْمِنِ الْعَائِذاتِ الطَّيْرَ يَمْسَحُها ... رُكْبَانُ مكَّةَ بَيْنَ الْغِيلِ والسَّعَدِ

فلو جاء على المألوف الكثير لكان نصه: «والمؤمن الطير العائذات».

وقوله: ﴿وَوَيْلٌ﴾ معناه: وشدَّةٌ وبلاءٌ ونحوه، أَي يلقونه من عذاب شديد ينالهم الله به يوم القيامة، ويحتمل أن يريد: في الدنيا، هذا معنى قوله: ﴿وَوَيْلٌ﴾، وقال بعض الناس: ﴿وَيْلٌ﴾ اسم واد في جهنم يسيل من صديد أَهل النار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا خبر يحتاج إلى سند يقطع العذر، ثم لو كان هكذا لَقَلِقَ تأْويل هذه الآية لقوله: ﴿مِّنْ عَذَابٍ﴾، وإنما يحسن تأْويله في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[1] وما أَشبهه، وأَما هنا فإنما يحسن في [ويل] أَن يكون مصدراً، ورفعه على نحو رفعهم «سَلاَمٌ عَلَيْكَ» وشبهه.

و﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلْكَافِرِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ من صفة الكافرين الذين توعدهم قَبْلُ، والمعنى: يؤثرون دنياهم وكفرهم وترك الإِذعان للشرع على رحمة الله تعالىٰ وسكنى جنَّته. وقوله: ﴿يَصُدُّونَ﴾ يحتمل أَن يتعدى وأَن يقف، والمعنى على كلا الوجهين مستقل، تقول: «صدَّ زيد» و«صدَّه غيره»، ومن تعديته قول الشاعر:

صَـدَدْتِ الْكَـأْسَ عَنَّـا أُمَّ عَمْـرٍو ... وكَـانَ الْكَـأْسُ مجْـرَاهـا الْيَمِينَـا[3]

و﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طريقة هداه وشرعه الذي جاءَ به رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يحتمل ثلاثة أَوجه من التأْويل: أَظهرها أَن يريد: ويطلبونها في حالة عِوَج منهم، ولا يُراعى إن كانوا بزعمهم على طريق نظر وبسبيل

---

(١) الآية (١) من سورة (المطففين).

(٢) ويجوز في إعراب ﴿الذينَ﴾ أن يكون مبتدأ خبره ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي: هم الذين، ويجوز أن يكون منصوباً بفعل مضمر تقديره: أَذُمُّ. أما إعرابه بدلاً من (الْكَافِرِينَ) الذي ذكره ابن عطية فهو إعراب الحوفي، واختاره الزمخشري وأبو البقاءِ، ولكن أبا حيان الأندلسي اعترض عليه في «البحر المحيط» بأنه لا يجوز، وعلَّل ذلك بأن فيه الفصل بين الصفة والموصوف بأجنبي منهما وهو قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ سواءٌ أكان ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ في موضع الصفة لـ ﴿وَيْلٌ﴾ أم متعلقاً بفعل محذوف تقديره: يضجون أو يولولون من عذاب شديد.

(٣) البيت لعمرو بن كلثوم، وهو الخامس من معلقته المشهورة: «ألا هُبي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينا»، وقد سقط مع ثلاثة أبيات أُخرى بعده من شرح الأنباري للقصائد السبع الطوال «مجموعة ذخائر العرب» تحقيق عبد السلام هارون، ويروى: «صبَنْتِ» بدلاً من «صَدَدْتِ»، يقول لها: لقد صرفت الكأس عنا، وكان مجراها اليمينا فأجريتها على اليسار، أي: تعَمَّدْتِ صرفها عنا. هذا وقد سبق الاستشهاد به.

اجتهاد واتباع الأَحسن، فقد وصف الله تعالىٰ حالهم تلك بالعوج، كأَنه قال: ويصدُّون عن سبيل الله التي هي بالحقيقة نبيلة، ويطلبونها على عوج في النظر.

والتأْويل الثاني أَن يكون المعنى: ويطلبن لها عوجاً يظهر فيها، أَي: يسعون على الشريعة بأَقوالهم وأَفعالهم، فـ ﴿عِوَجًا﴾ مفعول.

والتأْويل الثالث أَن تكون اللفظة من البغْي على معنى: ويبغون عليها أَو فيها عوجاً، ثم حذف الجار، وفي هذا بعض القلق.

وقال كثير من أَهل اللغة: العِوَجُ ـ بكسر العين ـ في الدِّين والأُمور، وبالجملة في المعاني، والعَوَجُ ـ بفتح العين في الأَجرام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويعترض هذا القانون بقوله تعالىٰ: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[1]، وقد تتداخل اللفظة مع الأُخرى، ووصْف الضلال بالبُعد عبارة عن تعمُّقهم فيه وصعوبة خروجهم منه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾.

هذه الآية رَدٌّ وطعن على المُسْتَغرِبين أَمْر محمد ﷺ، أَي: لستَ يا محمد ببدع من الرسل، وإِنما أَرسلناك لتخرج الناس من الظلمات إِلى النور على عادتنا في رسلنا في أَن نبعثهم بأَلسنة أُممهم ليقع التكلم بالبيان والعبارة المتمكنة، ثم يكون تبايُن الناس من غير أَهل اللسان عيالاً في التَّبْيين على أَهل اللسان الذي يكون للنبي عليه الصلاة والسلام، وجعل الله العلة في إِرسال الرسل بأَلسنة قومهم طلب البيان، ثم قطع[2]

---

(١) الآيتان (١٠٦، ١٠٧) من سورة (طه).

(٢) أي أن النيَّة الاستئناف لا العطف ولذلك رفع الفعل في ﴿فَيُضِلُّ﴾، ومثله قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾، قال الفراءُ: «إذا رأيت الفعل منصوباً وبعده فعل قد نسق عليه بواو أو فاءٍ أو ثم أَوْ أَوْ فإن كان يُشاكل معنى الفعل الذي قبله نسقته عليه، وإن رأيته غير مشاكل لمعناه استأنفته فرفعته».

قوله: ﴿فَيُضِلُّ﴾، أي أن النبي عليه الصلاة والسلام إنما غايته أن يُبلِّغ ويُبيِّن، وليس فيما كلف أن يهدي ويضل، ذلك بيد الله ينفذ فيه سابق قضائه، وله في ذلك العزَّة التي لا تعارض، والحكمة التي لا تُعَلَّل، لا ربّ غيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فإن اعترض أعجمي بأن يقول: من أين يبيّن هذا الرسول لي الشريعة وأنا لا أفهمه؟ قيل له: أهل المعرفة باللسان يعبّرون لك، وفي ذلك كفايتك، وإن قال: من أين يتبيّن لي المعجزة وأفهم الإعجاز وأنا لا أفهم اللغة؟ قيل له: الحجة عليك إذْعان أهل الفصاحة والذين كانوا يُظَنُّ بهم أنهم قادرون على المعارضة، وبإذعانهم قامت الحجة على البشر، كما قامت الحجة في معجزة موسى بإذعان السَّحرة، وفي معجزة عيسى بإذعان الأطباءِ.

و«اللِّسان» ـ في هذه الآية ـ يُراد به اللغة[1]، وقرأ أبو السَّمَّال: [بِلِسْنِ قَوْمه] بسكون السِّين دون الألف، كرِيْش ورياش، ونقول: لِسْن ولِسَانٌ في «اللغة»، فأما العضو فلا يقال فيه: لِسْن بسكون السين[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ الآية. آيات الله هي العصا، واليد، وسائر التِّسع[3]. وقوله: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾، تقديره: بأن أخرج، ويجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ مفسِّرةً لا موضع لها من الإعراب[4]، وأما «الظُّلمات والنُّور» هنا فيحتمل أن يراد بها: من الكفر إلى الإيمان، وهذا على ظاهر أمر بني إسرائيل في أنهم كانوا قبل بعث موسى

---

(١) ومنه قول الشاعر:

* أَتَتْني لِسَانُ بَنِي عَامِرٍ *

يعني لغة بني عامر، وقد ذهب بها إلى الكلمة فأنَّثها، وقال أعشى باهلة:

* إنِّي أتاني لِسانٌ لا أُسَرُّ بِهِ *

ذهب إلى الخبر فذكَّره.

(٢) وقرأ أبو رجاءٍ، وأبو المتوكل، والجحدري: [لُسُن] بضم اللام والسين، وهو جمع لسانٍ كعمادٍ وعُمُد، وقرىء أيضاً بضم اللام وسكون السين، كرُسُل ورُسْل.

(٣) الآيات التسع هي: الطوفان، والجراد، والقُمّل، والضفادع، والدَّم، والعصا، ويده البيضاءُ، والسنين، والنقص في الثمرات.

(٤) فتكون بمعنى «أيْ»، كقوله تعالىٰ: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ بمعنى: أي امشوا.

فيهم أَشياعاً متفرقين في الدين ففرع مع القبط في عبادة فرعون، وكلهم على غير شيءٍ، وهذا مذهب الطبري، وحكاه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإِن صحَّ أَنهم كانوا على دين إِبراهيم وإِسرائيل أَو نحو هذا فالظلماتُ: الذل أَو العبودية، والنور: العزَّة بالدين والظهور بأَمر الله تبارك وتعالىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وظاهر هذه الآية وأَكثر الآيات في رسالة موسى عليه السلام أَنها إِنما كانت إِلى بني إِسرائيل خاصة في معنى الشرع لهم، وأَمرهم ونهيهم بفروع الديانة، وإِلى فرعون وأَشراف قومه في أَن ينظروا ويعتبروا في آيات موسى فيقرُّوا بالله تعالىٰ ويؤمنوا به وبموسى وبمعجزته، ويتحققوا نبوته، ويرسلوا معه بني إِسرائيل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا يترتب هذا منهم إِلا بالإِيمان به.

وأَمَّا أَن تكون رسالته إِليهم لمعنى اتِّباعه والدخول في شرعه فليس هذا بظاهر القصة، ولا كشف الغيب ذلك، أَلا ترى أَن موسى عليه السلام خرج عنهم ببني إِسرائيل، فلو لم يُتبع لمضى بأُمته؟ وأَلا ترى أَنه لم يَدْعُ القبط بجملتهم وإِنما كان يحاور أُولي الأَمر؟ وأَيضاً فليس دعاؤُه لهم على حدّ دعاءِ نوح وهود وصالح ـ عليهم السلام ـ أُممهم في معنى كفرهم ومعاصيهم، بل في الاهتداءِ والتَّزكي وإِرسال بني إِسرائيل، ومما يؤيد هذا أَنه لو كانت دعوته لفرعون والقبط على حدّ دعوته لبني إِسرائيل فلم كان يطلب بأَمر الله أَن يرسل معه بني إِسرائيل؟ بل كان المطلوب أَن يؤمن الجميع ويتشَرَّعوا بشرعه ويستقرَّ الأَمر، وأَيضاً فلو كان مبعوثاً إِلى القبط لردَّه الله إِليهم حين أَغرق فرعون وجنوده، ولكن لم يكونوا أُمته فلم يُرَدّ إِليهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واحتجَّ من ذهب إِلى أَن موسى عليه السلام بُعث إِلى جميعهم بقوله تعالىٰ في غير آية: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾[1]، و﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾[2] والله أَعلم.

---

(١) تكررت الآيات: (١٠٣ من الأعراف، و٧٥ من يونس، و٩٧ من هود، و٤٦ من المؤمنون، و٣٢ من القصص، و٤٦ من الزخرف).

(٢) من الآية (١٢) من سورة (النمل).

وقوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ الآية. أَمَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ موسى أَن يعظ قومه بالتهديد بِنقم الله التي أَحلَّها بالأمم الكافرة قبلهم، وبالتَّعديد لنعمه عليهم في المواطن المتقدمة، وعلى غيرهم من أَهل طاعته، ليكون جَرْيُهُم على منهاج الذين أَنعم الله عليهم، وهربهم من طريق الذين حلَّت بهم النقمات، وعُبِّر عن النِّعم والنِّقم بالأَيام إِذْ هي في أَيَّام[١]، وفي هذه العبارة تعظيم هذه الكوائن المُذَكَّر بها، ومن هذا المعنى قولهم: يومٌ عصيب، ويوم عبوسٌ، ويوم بسَّام، وإِنما الحقيقة وصف ما وقع فيه من الشِّدَّة أَو السرور، وحكى الطبري عن فرقة أَنها قالت: أَيام الله: نِعَمُه، وعن فرقة أَنها قالت: أَيام الله: نِقَمُه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولفظة «الأَيام» تعم المعنَيَيْن، لأَن التذكير يقع بالوجهين جميعاً.

وقوله سبحانه: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إِنما أَراد: لكل مؤمن ناظر لنفسه، فأَخذ من صفات المؤمن صفتين تجمعان أَكثر الخصال، وتعُمَّان أَجمل الأَفعال[٢].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ

---

(١) إطلاق الأيام على النقم والبلايا مشهور وكثير في كلام العرب، وكانوا يطلقون الأيام على الوقائع والحروب، كيوم ذي قار، ويوم الفِجار، ويوم فضة، ويوم حليمة، ومن ذلك قول الشاعر:

وأَيَّامُنا مَشْهُورَةٌ في عَدُوِّنَا

وإذا كانت أيام الوقائع بلايا على المغلوب، فهي نعم على الغالب المنتصر، وكانوا يفخرون بها ويذكرونها على أنها نعم الله عليهم، قال عمرو بن كلثوم:

وأَيَّـــام لَنَـــا غُـــرٌّ طِـــوَالٍ ... عَصَيْنَـا المَلْـكَ فيهـا أَن نَـدِينَـا

فأيَّامهم غُرٌّ لِعُلُوِّهم على الملك وامتناعهم عليه، وهي طوالٌ على أعدائهم، وبهذا الفهم لمعنى البيت قد يكون من الصعب تفسير الأيام بأنها نِعَم الدنيا.

(٢) في الأصول: «فأخذ من صفات (المؤمنين) صفتين (تجمع) أكثر الخصال، (وتعمّ) أجمل الأفعال»، وهي عادة لابن عطية.

مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

هذا من التذكير بأيام الله في النعم، وكان يوم الإِنجاءِ عظيماً لعظم الكائن فيه، وقد تقدم تفسير هذه الآية وقصصها بما يغني عن إعادته[1]، غير أن في هذه الآية زيادة الواو في قوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ وفي البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بغير واو عطف، فهنالك فسر (سوءَ العذاب) بأنه التذبيح والاستحياءُ، وهنا دلَّ بـ (سوءَ العذاب) على أَنواع غير التذبيح والاستحياءِ، وعطف التذبيح والاستحياءَ عليها. وقرأ ابن محيصن: [وَيَذْبَحُونَ] بفتح الياءِ والباءُ مخففة.

و«الْبَلاَءُ» في هذه الآية يحتمل أَن يريد به المحنة، ويحتمل أَن يريد به الاختبار، والمعنى متقارب.

و(تَأَذَّنَ) بمعنى: أَذَّن، أَي: أَعلم، وهو مثل: أَكْرم وتكرم، وأَوْعد وتوعَّد، وهذا الإِعلام منه مقترن بإِنفاذٍ وقضاءٍ قد سبقه، وما في «تَفعَّل» هذه من المحاولة والشروع إِذا أُسندت إِلى البشر منفيٌّ في جهة الله تعالىٰ، وأَما قول العرب: تَعلَّم بمعنى: اعْلَم فمرفوض الماضي على ما ذكر يعقوب، كقول الشاعر:

تَعَلَّمْ ـ أَبَيْتَ اللَّعْنَ . . . .[2]

ونحوه.

وقال بعض العلماءِ: الزِّيادة على الشكر ليست في الدنيا، وإِنما هي من نعم الآخرة، والدنيا أَهون من ذلك.

---

(١) تقدم ذلك في تفسير الآية (٤٩) من سورة (البقرة)، والآية (١٤١) من سورة (الأعراف)، ولكن اللفظ في سورة (الأعراف) هو [يُقَتِّلونَ]، أما في سورة (البقرة) فهو [يُذَبِّحُونَ] بدون واو، ولفظ القتل أعم إذ يشمل الذبح وغيره.

(٢) سبق أن شرح ابن عطية معنى ﴿تأَذَّن﴾ في سورة الأعراف، واستشهد بهذا الجزء من البيت، راجع المجلد الرابع صفحة ٧٦ وما بعدها. والعرب تضع تَفَعَّل موضع أَفْعَل، فقالوا: أَوْعَدته وتَوَعَّدْته بمعنى واحد. والبيت المشهور في هذا هو قول القطاميّ:

تعَلَّـــمْ أنَّ بَعْــدَ الغَــيِّ رُشْــداً وأنَّ لهــذه الغُبْــرِ انقِشــاعــاً

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وصحيح جائز أن يكون ذلك، وأن يزيد الله تعالىٰ المؤمن على شكره من نعم الدنيا، وأن يزيده أيضاً منهما جميعاً، وفي هذه الآية تَرْجية وتخويف، ومما يقضي بأن الشكر متضمن الإيمان أنه عادله بالكفر، وقد يحتمل أن يكون الكفر كفر النعم لا كفر الجحد، وحكى الطبري عن سفيان وعن الحسن أنهما قالا: معنى الآية: لئن شكرتم لأزيدنكم من طاعتي، وضعفه الطبريّ، وليس كماقال، بل هو قويٌّ حسَنٌ فتأمله، وقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ هو جواب قَسَم يتضمنه الكلام.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ الآية. في هذه الآية تحقيرٌ للمخاطبين بشرط كفرهم وتوبيخٌ، وذلك بيِّن في الصفتين اللتين وصف بهما نفسه تبارك وتعالىٰ في آخر الآية، وقوله: ﴿لَغَنِيٌّ﴾ يتضمن تحقيرهم وعظمته. وقوله: ﴿حَمِيدٌ﴾ يتضمن توبيخهم، وذلك أنه بصفة توجب المحامد كلها دائماً كذلك في ذاته لم يزل ولا يزال، فكفركم أنتم بإلـٰه هذا حاله غاية التخلف والخذلان، وقوله أيضاً: [حَمِيدٌ] يتضمن أنه ذو آلاءٍ عليكم أيها الكافرون به كان يستوجب بها حمدكم، فكفركم به مع ذلك أذهب في الضلال، وهذا توبيخ بيِّن.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ الآية. هذا من التذكير بأيام الله في النقم من الأُمم الكافرة، وقوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ من نحو قوله: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾(١)، وفي مثل هذا قال رسول الله ﷺ: (كذب النَّسابون من فوق عدنان)(٢)، ورُوي عن ابن عباس أنه قال: «كان بين زمن موسى وبين زمن نوح قرون ثلاثون لا يعلمهم إلا الله»، وحكى عنه المهدوي أنه قال: «كان بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يُعرفون».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الوقوف على عدتهم بعيد، ونفْي العلم بها جملة أَصح، وهو لفظ القرآن.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالىٰ: ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ بحسب

---

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (٣٨) من سورة (الفرقان): ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾.

(٢) أخرجه ابن سعد، وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة في الجامع الصغير، ولفظه فيه: (كذب النَّسابون، قال الله تعالىٰ: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾).

احتمال اللفظ، و«الأَيدي» في هذه الآية قد تُتَأَوّل بمعنى الجوارح، وقد تُتَأَوّل بمعنى أَيدي النعم فيما ذكر، وعلى أَن «الأَيدي» هي الجوارح يكون المعنى: رَدُّوا أَيدي أَنفسهم في أَفواه أَنفسهم عضًّا عليها من الغيظ على الرُّسل، ومبالغةً في التكذيب، هذا قول ابن مسعود، وابن زيد، وقال ابن عباس: عجبوا ففعلوا ذلك، والعض من الغيظ مشهور(١)، وفي كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ ﴾(٢)، وقال الشاعر:

قَـدْ أَفْنَـى أَنَـامِلَـهُ أَزْمَـةً ... فَـأَضْحَـى يَعَـضُّ عَلَـيَّ الْـوَظِيفَـا(٣)

وقال الآخر:

لَـوْ أَنَّ سَلْمَـى أَبْصـرَتْ تَخَـدُّدي ... وَدِقَّـةً فـي عَظْـم سَـاقِـي ويَـدِي

وَبُعْـدَ أَهْلِـي وَجَفَـاءَ عُـوَّدِي ... عضَّتْ مِنَ الْوَجْدِ بِأَطْرَافِ الْيَدِ(٤)

ومما ذُكر أَن يكون المعنى أَنهم ردُّوا أَيدي أَنفسهم في أَفواه أَنفسهم إِشارةً على الأَنبياءِ بالسكوت، واستبشاعاً لما قد قالوه من دعوى النبوة، ومما ذكر أَن يكون المعنى: ورَدُّوا أَيدي أَنفسهم في أَفواه الرُّسل تسكيناً لهم، ودفعاً في صدر قولهم، قاله الحسن، وهذا أَشنع في الردِّ وأَذهب في الاستطالة على الرسل والنيل منهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتحتمل الأَلفاظ معنى رابعاً، وهو أَن يُتجَوَّز في لفظ الأَيدي، أَي أَنهم ردُّوا أَقوالهم ومكافحتهم ومدافعتهم فيما قالوه بأَفواههم من التكذيب، فكأَن المعنى: ردُّوا

---

(١) في إحدى النسخ زيادة: «مِن البشر».

(٢) من الآية (١١٩) من سورة (آل عمران).

(٣) الأنامل: جمع أُنْمُلَة: عُقْدَة الإصبع أَو سُلامَاهَا، وتطلق أيضاً على المفصل الأعلى من الإِصْبَع وهو الذي فيه الظفر، وأَزمةً: عَضّاً، يقال: أَزَمَ على الشيءِ أَزْماً: عضَّ بالفم عضّاً شديداً، والوظيف لكل ذي أربع: ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق، وفي اليد: ما بين الرسغ والذراع، والجمع: أَوْظِفَة. والبيت غير منسوب. والمعنى أنه قطع أنامله من شدة العضّ عليها، وانتقل إلى عض وظيفه بعد ذلك.

(٤) التَّخَدُّد: أن يَتَغَضَّن الجلد من شدة الهزال، يقال: رجل متَخَدِّد، وامرأة متخَدِّدة: مهزول قليل اللحم، والجفاءُ: الإعراض والقطيعة، والعُوَّد: جمع عائد، وهو الذي يزور المريض، والوجْد: الحزن، يقول: لو أنها رأت هزالي وضعفي ونحول جسمي مع بُعْد الأهل وقطيعة الأحبة والزائرين لعضَّت يدها من شدة الحزن عليَّ والرثاء لحالي.

جميع مدافعتهم في أفواههم، أي في أقوالهم، وعُبّر عن جميع المدافعة بالأيدي إذ الأيدي موضعُ أشد المدافعة والمرادّة، وحكى المهدوي قولاً ضعيفاً، وهو أن المعنى: أخذوا أيدي الرسل فجعلوها في أفواه الرسل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي لا وجه له.

ومما ذكر على أن «الأيدي» أيادي النعم ما ذكره الزجاج، وذلك أنهم ردُّوا الأيدي من الرسل في الإنذار والتبليغ بأفواههم، أي بأقوالهم، فوَصَل الفعلُ بـ (في) عِوَضَ وصوله بـ (الباءِ)[1]، ورُوي نحوه عن مجاهد، وقتادة. والمشهور جمع «يد» النعمة على «أيادٍ»، ولا يجمع على «أيدٍ»، إلا أن جمعه على «أيدٍ» لا يكسر باباً ولا ينقض أصلاً وبحسبنا أن الزجّاج قدّره وتأول عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل اللفظ ـ على هذا ـ معنى ثانياً، أن يكون المقصود: ردُّوا إنعام الرسل في أفواه الرسل، أي لم يقبلوه، كما تقول لمن لا يُعجبك كلامه: أمسِك يا فلان كلامك في فِيك، ومن حيث كانت أيدي الرسل أقوالاً ساغ هذا فيها، كما تقول: كسرتُ كلام فلان في فمه، أي: رَدَدْتُه عليه وقطعته بقلّة القبول وبالردّ، وحكى المهدوي عن مجاهد أنه قال: معناه: ردُّوا نعم الرُّسل في أفواه أنفسهم بالتكذيب والنَّجْه[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ يقتضي أنهم شكُّوا في صدق نبوتهم وأقوالهم وكذبوها، وتوقفوا في إمضاءِ أحد المعتقدين، ثم ارتابوا بالمعتقد

---

(١) معنى هذا الرأي: «أنهم كذبوا الرسل بأفواههم»، ولكن التعبير جاء بـ (في) بدلاً من (الباء) فقال: «في أفواههم»، بدلاً من «بأفواههم»، وذلك لأن (في) تأتي بمعنى (الباء)، تقول: جلست في البيت وبالبيت، قال الفراءُ: قد وجدنا من العرب من يجعل (في) موضع (الباء)، فتقول: أدخلك الله بالجنة، تريد: في الجنة، وأنشدني بعضهم:

وأَرْغَبُ فيها عَنْ لَقِيطٍ ورَهْطِهِ ... ولَكِنَّنِي عَنْ سِنْبِسٍ لسْتُ أَرْغَبُ

فقال: «أرغب فيها» يعني بنتاً له، أي أني أرْغَب بها عن لقيط، وسِنْبِس: حيٌّ من طيِّءٍ، وهي قبيلته، ولهذا فهو لا يرغب بها عن قبيلته.

(٢) النَّجْهُ: الرَّدُّ القبيح جداً، يقال: نَجَه فلاناً نَجْهاً: رَدَّه أقبح رَدٍّ.

الواحد في صدق نبوته، فجاءهم شك مؤكد بارتياب، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿مِمَّا تَدْعُونَّا﴾ بنون واحدة مشددة[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله: ﴿أَفِي ٱللَّهِ﴾ مُقدَّر فيه ضمير، تقديره عند كثير من النحويين: أَفي إلـٰهيته شك؟ وقال أَبو علي الفارسي: أَفي وحدانيته شك؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وزعم بعض الناس أَن أَبا عليٍّ إِنما فزع إِلى هذه العبارة حفظاً للاعتزال، وزوالاً عما تحتمله لفظة «الإلـٰهية» من الصفات بحسب عمومها، ولفظة الوحدانية مخلصة من ذلك الاحتمال.

و«ٱلْفَاطِرِ»: المخترع المبتدىء، وسوْقُ هذه الصفة احتجاج على الشَّاكِّين، أَي الشك فيمن هذه صفته، فساق الصفة التي هي منصوبة لرفع الشك، وقوله: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، ذهب بعض النحاة إِلى أَنها[٢] زائدة، وسيبويه يأْبى أَن تكون زائدة في الواجب، ويراها للتبعيض، وهو معنى صحيح، وذلك أَن الوعد وقع بغفران الشرك وما معه من المعاصي، وبقي ما يستأْنف أَحدهم بعد إِيمانه من المعاصي مسكوتاً عليه ليبقى معه في مشيئة الله تعالىٰ، فالغفرانُ إِنما يقدمه الوعد في البعض، فصحَّ معنى [مِنْ][٣].

---

(١) معنى ذلك أنه يدغم نون الرفع في الضمير كما تُدغم في نون الوقاية في مثل: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾، وقوله تعالىٰ: [مُريب] صفة توكيدية. ومعناها: موجب لِلرِّيبة، يقال: أَرَبْتُهُ إذا فعلت أمراً أوجب ريبةً وشكّاً.

(٢) الضمير في (أَنَّهَا) يعود على (مِنْ) في قوله تعالىٰ: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ والذي ذهب إلى زيادتها هو أبو عبيدة والأخفش، والبصريون لا يجيزون ذلك إلا بشروط.

(٣) يعني أن الغفران يكون لما سبق من الذنوب حتى ولو كان الذنب شركاً بما معه من المعاصي، أمَّا ما يقع=

وقوله: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾، قد تقدم القول فيه في سورة الأعراف في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ الآية[(١)]، وجلبت هذه هناك بسبب ما يظهر بيْن الآيتين من التعارض، ويليق هنا أن نذكر مسألة المقتول: هل قُطع أجله أم ذلك هو أجله المحتوم عليه؟ فالأول قول المعتزلة، والثاني قول أهل السُّنَّة، فنقول: قول المعتزلة: «إنه لو لم يقتله لعاش، وهذا سبب القَوَد»، وقالت فرقة من أهل السُّنَّة: «لو لم يقتله لمات حتف أنفه»، قال أبو المعالي: «وهذا كله تخبط، إنما هو أجله الذي سبق في القضاءِ أنه يموت فيه على تلك الصفة، فمحال أن يقع غير ذلك، فإن فرضنا أنه لم يقتله، وفرضنا مع ذلك أن علم الله تعالىٰ سبق بأنه لا يقتله بقي أمره في حيِّز الجواز في أن يعيش أو يقتل أو كيف ما كان علم الله تعالىٰ سبق فيه».

وقول الكفرة: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فيه استبعادٌ لبعثة البشر، وقال بعض الناس: بل أرادوا إحالته، وذهبوا مذهب البراهمة[(٢)] أو من يقول من الفلاسفة: إن الأجناس لا يقع فيها هذا التَّباين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وظاهر كلامهم لا يقتضي أنهم أغمضوا هذا الإغماض، ويدل على ما ذكرتُ أنهم طلبوا منهم الإتيان بآية وسلطان مبين، ولو كانت بعثتهم عندهم محالاً لما طلبوا منهم حجة، ويحتمل أن طلبهم منهم السلطان إنما هو على جهة التعجيز، أي: بعثتكم محال وإلا فأتوا بسلطانٍ مبين، أي: إنكم لا تفعلون ذلك أبداً، فيَتَقوَّى بهذا الاحتمال منحاهم إلى مذهب الفلاسفة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، المعنى: صدقتم في قولكم: «إِنَّا بَشَرٌ» في الأشخاص والخلقة، لكن تبايَنَّا بفضل الله تعالىٰ ومَنِّه الذي

= في المستقبل من الذنوب فليس داخلاً في وعد الله، بل هو مسكوت عنه، وبهذا تكون (من) للتبعيض، ويمكن أن يكون التبعيض بمعنى آخر هو أن الله يغفر ما بينه وبينهم من الذنوب، وهو بعض ذنوبهم، ويبقى بعض آخر من ذنوبهم وهو ما بينهم وبين العباد من المظالم.

(١) الآية (٣٤) من سورة (الأعراف). (راجع المجلد الثالث، صفحة ٥٥٥).

(٢) البَرَاهِمَة: طائفة من الهنود لا يجوِّزون على الله تعالىٰ بعث الأنبياء، ويحرمون لحوم الحيوان، والواحد: برهمي.

يختص به من يشاءُ، ففارقوهم بالمعنى، بخلاف قوله تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾(١) فإنَّ ذلك في المعنى لا في الهيئة.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، هذه العبارة إذا قالها الإنسان من نفسه، أو قيلت له فيما يقع تحت مقدوره فمعناها النهي والحظر، وإن كان ذلك فيما لا قدرة له عليه فمعناها نفي ذلك الأمر جملة، وكذلك هذه الآية. وقال المهدوي: لفظها لفظ الحظر ومعناها النفي. واللام في قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلْ﴾ لام الأمر، وقرأها الجمهور ساكنة، وقرأها الحسن مكسورة، وتحريكها بالكسر هو أصلها، وتسكينُها طلب للتخفيف، ولكثرة استعمالها، وللفرق بينها وبين لام كي التي أُلزمت الحركة إجماعاً(٢).

وقوله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الآية، وقفهم الرسل على جهة التوبيخ على تعليل في ألاَّ يتوكلوا على الله وهو قد أنعم عليهم، وهداهم طريق النجاة، وفضلهم على خلقه، ثم أقسموا أن يقع منهم الصبر على الإذاية في ذات الله تعالىٰ. و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ مصدرية، وهي حرف عند سيبويه بانفرادها، إلا أنها اسمٌ مع ما اتصل بها من المصدر، وقال بعض النحويين: «ما» المصدرية بانفرادها اسمٌ، ويحتمل أن تكون ﴿مَا﴾ في هذا الموضع بمعنى الذي، فيكون في ﴿ءَاذَيْتُمُونَا﴾ ضمير عائد تقديره: آذيتموناه، ولا يجوز أن يضم به بسبب إضمار حرف الجر، هذا مذهب سيبويه، والأخفش يُجيز ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾

(١) الآية (٥٠) من سورة (المدثر).

(٢) في الآيتين أمران بالتوكل، الأمر الأول وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لاستحداث التوكل، والثاني وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ للثبات على ما استحدثوه من توكلهم. وقوله تعالىٰ: [وَلَنَصْبِرَنَّ] جواب قَسَم، ويدل على سبْق ما يجب فيه الصبر، بمعنى أنه لا بد من حدوث شيء يحتاج إلى الصبر، وهو هنا: الأذى.

يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ﴾، قالت فرقة: [أَوْ] هنا بمعنى: «إلاَّ أن»، كما هي في قول امرىء القيس:

فَقُلْتُ لَهُ لا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا   نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا[1]

وتحتمل ﴿أَوْ﴾ في الآية أن تكون على بابها لوقوع أحد الأمرين، لأنهم حملوا رسلهم على أحد الوجهين، ولا يحتمل بيت امرىء القيس ذلك لأنه لم يحاول أن يموت فيعذر، فتخلصت بمعنى «إلاَّ أن» ولذلك نصب الفعل بعدها. وقالت فرقة: هي بمعنى «حتَّى» في الآية، وهذا ضعيف، وإنما يترتب ذلك في قوله: «لألْزَمنَّك أو تقضيني حَقِّي»، وفي قوله: «لا يقوم زيدٌ أو يقوم عمرو»، وفي هذه المثل كلها يحسن تقدير «إلاَّ أن». والعوْدَةُ أبداً إنما هي إلى حالةٍ قد كانت، والرُّسل ما كانوا قط في ملَّة الكفر، فإنما المعنى: أو لتعودن إلى سكوتكم عنَّا إغفالاً، وذلك عند الكفار كوْنٌ في مِلَّتهم، وخصَّص تعالىٰ الظالمين من الذين كفروا إذ جائز أن يؤمن من الكفرة الذين قالوا المقالة ناسٌ، فإنما توعَّد بإهلاك من خلص للظلم[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ﴾ الخطاب للحاضرين والمرادُ هُمْ وذريتهم، ويترتب هذا

---

(١) من قصيدة له قالها حين ذهب إلى قيصر يطلب منه المساعدة على استرداد مُلكه والأخذ بثأر والده ممن قتلوه، وقبله يقول:

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ   وأَيْقَنَ أنَّا لاحِقَانِ بِقَيْصَرَا
فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبْكِ عَيْنُكَ إنَّمَا   نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا

فقد رفع (نحاول) ونصب (نموت) على معنى: «إلا أن».

ومثله قول الأحوص:

لا أَسْتَطِيعُ نُزوعاً عَنْ مَوَدَّتِهَا   أَوْ يَصْنَعَ الْحُبُّ بي غَيْرَ الذي صَنَعَا

قال الفراءُ: ومن العرب من ينصب ما بعد (أو) ليؤذن نصبُه بالانقطاع عمّا قبله، قال أعرابي حين عاد من سفر طويل فوجد امرأته قد ولدت له غلاماً فأنكره:

لَتَقْعُدِنَّ مَقْعَدَ القَصِيِّ   مِنِّي ذي القَاذورَةِ المَقْلِيِّ
أَوْ تَحْلِفي بِرَبِّكِ العَلِيِّ   أَنِّي أَبو ذَيَّالِكِ الصَّبِيِّ

(٢) وقيل: أراد بالظالمين المشركين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

المعنى في قوله: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: يؤخركم وأعقابكم، وقرأ أبو حيْوة [لَيُهْلِكَنَّ] و[لَيُسْكِنَنَّكُمْ] بالياءِ فيهما[١]، وقوله ﴿مَقَامِي﴾ يحتمل أن يريد به المصدر من القيام على الشيءِ بالقدرة، ويحتمل أن يريد به الظرف لقيام العبد بين يديه في الآخرة، فإضافته إذا كان مصدراً إضافةُ المصدر إلى الفاعل، وإضافته إذا كان ظرفاً إضافة الظرف إلى حاضره، أي: مقام حسابي، فجائز قوله: ﴿مَقَامِي﴾، وجائز لو قال: «مقامه»، وجائز لو قال: «مقَام العرض والحساب»، وهذا كما تقول: «دار الحاكم، ودار الحُكْم، ودار المحكوم عليه»، قال أَبو عبيدة: ﴿مَقَامِي﴾ مجازٌ، حيث أُقيمُه بين يديَّ للحساب[٢].

و«الاستفتاحُ»: طلب الحُكْم، والفتَّاح: الحاكم، والمعنى: إن الرُّسل استفتحوا، أَي: سأَلوا الله تعالىٰ إنفاذ الحكم بنصرهم وتعذيب الكفرة، وقيل: بل استفتح الكفارُ على نحو قول قريش: ﴿عجِّل لنا قِطَّنا﴾[٣]، وعلى نحو قول أَبي جهل في بدر: «اللهم أَقْطَعُنَا للرحم، وآتَانا بما لا نعرف فأَحِنْهُ الغداة»[٤] هذا قول ابن دُرَيْد، وقرأَت فرقة: [واسْتَفْتِحُوا] بكسر التاءِ على معنى الأَمر للرسل، قرأَها ابن عباس، ومجاهد، وابن محيصن. و﴿خَاب﴾ معناه: خسِر ولم ينجح، و«الجَبَّارُ»: المتعظِّم في نفسه الذي لا يرى لأَحد عليه حقاً، وقيل: معناه: الذي يجبر الناسَ على ما يكرهون.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو المفهوم من اللفظ. وعبَّر قتادة وغيره عن «الجبار» بأَنه الذي يأْبى أَن يقول: «لا إِلـه إِلا الله»، و«العنيد»: الذي يعاند ولا ينقادُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾، ذكر الطبريُّ وغيره من المفسرين أَن معناه: «من أَمامه»، وعلى ذلك حملوا قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾[٥]، وأَنشد الطبريّ:

---

(١) اعتباراً بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾، إذ لفظه لفظ الغائب.

(٢) وقال الفراءُ في «معاني القرآن»: «معناه: ذلك لمن خاف مقامه بين يديَّ، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، معناه: رزقي إياكم، والعرب تضيف أفعالها إلى أنفسها وإلى ما أُوقعت عليه، فيقولون: ندمتُ على ضربي إياك ـ وندمت على ضربك، فهذا من ذلك».

(٣) يريدون: كتابَ حسابنا، أو نصيبنا. وهي من الآية (١٦) من سورة (صٓ).

(٤) أَحِنْه الغَداة: اجعل حَيْنَه (أي وقت وفاته) سريعاً في الغد.

(٥) من الآية (٧٩) من سورة (الكهف).

أَتُـوعِـدُونِـي وراءَ بنـي رِيـاحٍ كَـذَبْـتَ لَتَقْصُـرَنَّ يـداكَ دُونـي[(١)]

وليس الأمر كما ذكر، و«الوراءُ» ها هنا على بابه، أَي: هو ما يأْتي بعدُ في الزمان، وذلك أَن التقدير في هذه الحوادث بالأَمام والوراءِ إنما هو بالزمان، وما تقدم فهو أَمامٌ، وهو بين اليد، كما يقال في التوراة والإنجيل: إنهما بين يدي القرآن، والقرآن وراءَهما على هذا، وما تأَخر في الزمان هو وراءَ المتقدم، ومنه قولهم لِولَد الْولَد: الوراءُ، وهذا الجبار العنيد وجودُه وكُفره وأَعماله في وقت مَّا، ثم بعد ذلك في الزمان يأْتيه أَمر جهنم، قال: وتلخيص هذا أَن يُشَبَّه الزمان بطريق تأْتي الحوادث من جهته الواحدة متتابعة، فما تقدم فهو أَمام، وما تأَخر فهو وراءَ المتقدم، وكذلك قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾ أَيْ غَضْبُه وتَغَلُّبه يأْتي بعد حذرهم وتحفظهم[(٢)].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ﴾، وليس بِمَاءٍ، لكن لمَّا كان بدل الماءِ في العُرف عندنا[(٣)]. ثم نعته بـ[صدِيدٍ]، كما تقول: هذا خاتم حديد. و«الصَّديدُ»: القَيْحُ والدَّمُ، وهو ما يسيل من أَجساد أَهل النار، قاله مجاهد والضحاك.

---

(١) هذا البيت لجرير، وهو في الديوان، وفي (مجاز القرآن) لأبي عبيدة، وقد استشهد به الطبريُّ على أنَّ «دوني» بمعنى «عَنِّي» عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾، واستشهد به هنا على أن «وراء» بمعنى «أمام»، فالمعنى على هذا: إنك توعدني أمام بني رياح وقد كذبت فستقصر يداك عني.

(٢) يشرح ابن عطية رأيه في أن «وراء» بمعنى «بَعْد» في الزمان، ويردّ على الطبري بأدلة، وهذا هو رأي أبو عبيدة، وابن الأنباري أيضاً، ومما يؤكد كلامهم قول النابغة:

حَلَفْـتُ فَلَـمْ أَتْـرُكْ لِنَفْسِـكَ رِيبَـةً وليْـسَ وراءَ اللهِ لِلْمَـرْءِ مَهْـرَبُ

ويؤيد رأيَ الطبريِّ قطرب وأبو عبيدة أيضاً، وكذلك الزمخشري إذ قال: معناها: من بين يديه وأنشد:

عَسَـى الكَـرْبُ الـذي أمْسَيْـتُ فيـهِ يكـونُ وراءَهُ فَـرَجٌ قَـرِيـبُ

وقال الشاعر:

أَلَيْـسَ ورائـي إنْ تَـراخَـتْ مَنِيَّتـي لُـزومُ الْعَصَـا تَحْني عَلَيْهَـا الأصابع؟

وقال أبو عبيدة، والأزهري: «وراء» من الأضداد، وقال ثعلب: هي اسمٌ لما توارى عنك سواءٌ كان أمامك أم خلفك. وقيل: المعنى: من خَلْفِهِ، أي في طلبه، كما تقول: الأمر من ورائك، أي: سوف يأتيك.

(٣) يعني لمَّا كان بدل الماءِ أُطلق عليه ماءٌ.

وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ عبارة عن صعوبة أَمْرِهِ عليهم(١)، ويُرْوى أَن الكافر يؤتى بالشربة من شراب أَهل النار فيتكرهها، فإِذا أُدْنيت منه شوت وجهه وسقطت فيها فروة رأْسه، فإِذا شربها قطعت أَمعاءَه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الخبر مفرق في آيات من كتاب الله(٢).

وقوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أَي مِن كلِّ شعرةٍ في بدنه، قاله إِبراهيم التميمي، وقيل: من جميع جهاته الست، وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾، أَي: لاَ يُرَاحُ بالموت. وباقي الآية كأَوَّلها، ووصْف العذاب بالغليظ مبالغة، وقال الفضيل بن عياض: العذابُ الغليظ: حبْسُ الأَنفاس في الأَجساد، وقيل: إِنَّ الضمير في ﴿وَرَآئِهِۦ﴾ هنا هو العذابُ المتقدم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

اخْتُلِف في الشيءِ الذي ارتفع به ﴿مَثَلُ﴾، فمذهب سيبويه أَن التقدير: فيما يُتلى عليكم، أَوْ يُقَصُّ مثلُ الذين كفروا، ومذهب الكسائي والفراءُ أَنه ابتداءٌ وخبره ﴿كَرمادٍ﴾، والتقدير عندهم: مَثَلُ الذين كفروا كرمادٍ، وقد حكي عن الفراءِ أَنه يرى إِلغاءَ ﴿مثَل﴾، وأَن المعنى: الذين كفروا أَعمالهم كرماد، وقيل: هو ابتداءٌ، و﴿أَعْمَالُهُم﴾ ابتداءٌ ثان، و﴿كَرَمَادٍ﴾ خبر الثاني، والجملة خبر الأَول، وهذا عندي أَرجح الأَقوال، وكأَنك قلت:

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ معناه عند الفراء: «فهو يُسيغه»، قال: «والعرب تجعل «لا يكاد» فيما قد فُعل، وفيما لم يُفعل، فأما ما قد فُعل فهو بيِّن هنا من ذلك، لأن الله عزَّ وجلَّ يقول لِمَا جعله لهم طعاماً: ﴿إن شجرة الزقوم، طعام الأثيم، كالمهل يغلي في البطون﴾، فهذا أيضاً عذاب في بطونهم يسيغونه، وأما ما دخلت فيه (كاد) وهو لم يفعل فكقولك: ما أتيته ولا كِدت، وكقوله تعالىٰ: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ فهو لا يراها، لأنها لا تُرَى فيما هو دون هذا من الظلمات، وكيف بظلمات قد وصفت بأشد الوصف».

(٢) منها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾.

الْمُتَحَصّل في النفس الذين كفروا، هذه الجملة المذكورة، وهي: أَعمالهم كرمادٍ، وهذا يطَّرد عندي في تقدير قوله تعالىٰ: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ﴾، وشُبِّهت أَعمال الكفرة ومساعيهم ـ في فسادها وقت الحاجة وتلاشيها ـ بالرماد الذي تذروه الريح وتفرقه لشدتها، حتى لا يبقى أَثر، ولا يجتمع منه شيءٌ، ووصَف اليومَ بالعَصُوف وهي من صفة الريح بالحقيقة لمَّا كانت في اليوم، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وَقَدْ لُمْتِنَا يا أُمَّ غيلاَنَ في السُّرَى ... وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِم[1]

ومنه قول الآخر:

* يَوْمَيْنِ غَيْمَيْنِ وَيَوْماً شَمْساً *[2]

---

(١) هذا البيت لجرير، وهو في الديوان ٥٥٤، والخزانة ١ـ٢٢٣، وابن الشجري ١ـ٣٦، ٣٠١، والإنصاف ١٥١، والكامل ٧٠٠، وسيبويه ١ـ١٦٠، وأُم غيلان هي بنت جرير، والسُّرى: سير الليل، والمطيُّ: جمع مطية، وهي الراحلة يُمتطى ظهرها، أي يُركب، وأَراد: لَيْلَ رُكَّاب المطيّ، يقول: دعي عنك اللوم، فنحن لما نرجو من غِبِّ السُّرَى لا نصغي إلى لومك وعذلك، والشاهد فيه وصف الليل بالنوم اتساعاً ومجازاً.

(٢) البيت من الرَّجز، وقد أنشده الفراءُ في «معاني القرآن»، قال: «جعل العُصُوف تابعاً لليوم في إعرابه، وإنما العُصوف للريح، وذلك جائز على وجهين: أحدهما أن العصوف وإن كان للريح فإن اليوم يوصف به لأن الريح فيه تكون، فجاز أن تقول: «يومٌ باردٌ ويومٌ حارٌّ»، وهنا وصف اليومين بالغيمين، وإنما يكون الغيم فيهما، والوجه الآخر أن يريد: في يوم عاصف الريح، فتحذف الريح لأنهاقد ذكرت في أول الكلمة، كما قال الشاعر:

وَيُضحِكُ عِرْفَانُ الدُّروعِ جُلُودَنَا ... إذا جاءَ يَوْمٌ مُظلِمُ الشَّمْسِ كاسِفُ

يريد: كاسف الشمس.

هذا وقد نقل الطبري أن هذا من نعْت الريح خاصة، «غير أنه لما جاءَ بعد اليوم أتبع إعرابه، وذلك أن العرب تُتبع الخفضَ الخفضَ في النعوت، كما قال الشاعر:

تُريكَ سُنَّةَ وَجْهٍ غَيْرِ مُقْرِفَةٍ ... مَلْسَاءَ لَيْسَ بها خالٌ ولا نَدبُ

فخفض «غير» إتباعاً لإعراب «الوجه»، وإنما هي من نعت «السُّنَّة»، والمعنى: «سُنَّة وجه غَيْرَ مقرفة»، وكما قالوا: «هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ» اهـ، فقد أتبعوا «خرب» لـ «ضَبٍّ» في الإعراب، وهو في الحقيقة صفة للْجُحْر، وإن كان ابن جني قد جعل كلمة «خَرِبٍ» نعتاً سببياً لـ «ضَبٍّ» المجرور، وفاعله محذوفاً، فيكون التقدير: «خرب جُحْرُه»، وعلى هذا فلا شذوذ في: المثال، والمسألة مشهورة بين النحويين. «راجع الخصائص لابن جني».

فأعمال الكفرة لتلاشيها لا يقدرون منها على شيءٍ، وقرأ نافع وحده، وأبو جعفر: [الرِّيَاحُ]، والباقون: ﴿الرِّيحُ﴾ بالإفراد، وقد تقدم هذا ومعناه مستوفىً بحمد الله.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى كونهم بهذه الحالة، وعلى مثل هذا الغَرَر، و﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾: الذي قد تعمق فيه صاحبه وأبْعَد عن لا حب النجاة. وقرأ ابن أبي إسحاق، وإبراهيم النَّخعي، وابن أبي بكر[١]: [فِي يَومِ عَاصِف] بإضافة «يوم» إلى «عاصف»، وهذا بيّن.

وقرأ السُّلَمي: [أَلَمْ تَرْ] بسكون الراءِ، بمعنى: «أَلم تعلم»، من رؤْية القلب، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿خلق السموات﴾، وقرأ حمزة، والكسائي: [خالق السمٰوات]، فوجه الأول أنه فعل قد مضى فذكر ذلك، ووجه الثاني أنه كـ ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢] و﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾[٣]، وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بما يحق في وجوده من جهة مصالح عباده، وإنفاذ سابق قضائه، ولتدلَّ عليه وعلى قدرته، ثمَّ تَوَعَّدَ تبارك وتعالىٰ بقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي يعدمكم ويطمس آثاركم. وقوله: ﴿بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يصح أن يريد: من فرق بني آدم، ويصح غير ذلك. وقوله: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي بممْتَنع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ معناه: صاروا بالبراز، وهي الأَرض المتسعة كالبَراح والعَراءِ والخَبارِ[٤]، فاستعير ذلك ليوم القيامة، وقوله: ﴿تَبَعاً﴾ يحتمل أَن يكون

---

(١) الذي أثبته أبو حيان في «البحر المحيط» أن هذه القراءة لابن أبي إسحق، وإبراهيم بن أبي بكر، فتأمل الفرق.

(٢) من الآية (١) من سورة (فاطر).

(٣) من الآية (٩٥) من سورة (الأنعام).

(٤) الخَبارُ من الأرض: مالان واسترخى وساخت فيه قوائم الدوابّ، ويقال في المثل: «من تَجنَّبَ الخَبارَ، أمِنَ العِثَار»، (المعجم الوسيط ـ خَبَر).

مصدراً فيكون على نحو قولهم: «يوم عدل ويوم حرب»، ويحتمل أن يكون جمع «تابع» على نحو «غايبٌ وغَيَبٌ»، وهو تأويل الطبري.

وفسّر الناس ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ بالأتْباع، و«المستكبرين» بالقادة وأَهل الرأْي، وقولهم: ﴿مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ من الغَناء، وهي المنفعة التي تكون من الإِنسان للآخر في الدفاع وغيره.

والأَلف في قوله: ﴿أَجَزِعْنَا﴾ أَلِف التسوية وليست بأَلِف استفهام، بل هي كقوله: ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا﴾[1]، و«الْمَحِيصُ»: المفرُّ والملجأُ، مأْخوذ من «حاص يحيص» إذا نفرَ وفرَّ، ومنه في حديث هرقل: (فحاصُوا حَيْصَة حُمُر الوحش إِلى الأَبواب[2]، وروي عن ابن زيد، وعن محمد بن كعب أَن أَهل النار يقولون: إِنما نال أَهلُ الجنة الرحمة بالصبر على طاعة الله تعالىٰ، فلنصبر، فيصبرون خمسمائة سنة فلا ينتفعون، فيقولون: فلنجزع، فيضجُّون ويصيحون ويبكون خمسمائة سنة أُخرى فلا ينتفعون، فيقولون هذا القول الذي في الآية[3]، وظاهر الآية أَنهم يقولونها في موقف العرض وقت البروز بين يدي الله تبارك وتعالىٰ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

المراد ها هنا «بالشيطان» إِبليس الأَقدم نفسه، وروي في حديث عن النبي عليه الصلاة والسلام من طريق عقبة بن عامر أَنه قال: (يقوم يوم القيامة خطيبان: أَحدهما إِبليس، يقوم في الكفرة بهذه الأَلفاظ، والثاني عيسى بن مريم عليه السلام، يقوم

---

(١) من الآية (٦) من سورة (البقرة).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب «بدءُ الوحي»، وفي تفسير سورة النساء، وأخرجه أبو داود، والترمذي في الجهاد، وهو حديث طويل. (راجع البخاري).

(٣) أخرجه ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه في الآية، وأخرج مثله ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن كعب بن مالك رضي الله عنه، رفعه إلى النبي ﷺ فيما أحسب في قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ قال: يقول أهل النار... إلخ الحديث. (الدر المنثور).

بقوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦ﴾ الآية[١] وقال بعض العلماءِ: يقوم إِبليس خطيب السوءِ الصادق بهذه الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فعلى معنى هذه الروايات يكون معنى قوله تعالىٰ: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أَيْ: تعيَّن قومٌ لدخول النَّار، وقومٌ لدخول الجنَّة، وذلك كله في الموقف.

ورُوي في حديث أَن إِبليس إِنما يقوم بهذه الأَلفاظ في النَّار على أَهلها عند قولهم: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ في الآية المتقدمة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فعلى هذه الرواية يكون معنى قوله تعالىٰ: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، أَي: حصل أَهل النار في النَّار، وأَهل الجنَّة في الجنَّة، وهو تأْويل الطبري. و«قُضِيَ» قد يُعبَّر بها في الأُمور عن فعل كقوله تعالىٰ: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾[٢]، وقد يُعبَّر بها عن عزم على أَن يفعل كقوله: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[٣].

و«الْوَعْد» في هذه الآية على بابه في الخير، أَي أَن الله وعدهم النعيم إِنْ آمنوا، ووعدهم إِبليسُ الظفر والأَمل إِنْ كذَّبوا، ومعلوم اقتران وعد الله بوعيده، واتَّفق أَن لم يَتَّبعوا طلب وعد الله فوقعوا في وعيده، وجاءَ من ذلك كأَن إِبليس أَخلفهم.

والسلطان: الحُجَّة البيِّنة، وقوله: ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ استثناءٌ منقطع[٤]، و﴿أَنْ﴾ في موضع نصب، ويصح أَن تكون في موضع رفع على معنى: إِلا أَن النائب عن السلطان

---

(١) أخرج ابن المبارك في الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، وابن عساكر بسند ضعيف عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا جمع الله الأولين والآخرين وقضى بينهم وفرغ من القضاء يقول المؤمنون قد قضى بيننا ربنا وفرغ من القضاء) وهو حديث طويل يأتي فيه أيضاً قول الكافرين وجدالهم مع إبليس. أما النَّص الذي ذكره ابن عطية فقد أخرجه ابن جرير، وابن المنذر عن الشعبي رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٢) من الآية (٤٤) من سورة (هود).

(٣) من الآية (٤١) من سورة (يوسف).

(٤) لأن دعاءَه إياهم ليس من جنس السلطان وهو الحجة البيِّنة، وقيل: هو استثناءٌ متصل، لأن القدرة على حمل الإنسان على الشيء تارة تكون بالقهر من الحامل، وتارة تكون بتقوية الداعية في قلبه، وذلك بإلقاء الوساوس إليه، فهذا نوع من التسلط.

أَنْ دعوتكم، فيكون هذا في المعنى كقول الشاعر:

. . . . تَحِيَّـةُ بَيْنِهِـمْ ضَـرْبٌ وَجِيـعُ[(١)]

ومعنى قوله: ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أَي: رأَيتم ما دعوتكم إِليه ببصيرتكم، واعتقدتموه الرأْي، وأَتى نظركم عليه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذكر بعض الناس أَن هذا المكان يبطل منه التقليد، وفي هذه المقالة ضعف على احتمالها، والتقليد وإِن كان باطلاً ففساده من غير هذا الموضع.

ويحتمل أَن يريد بالسلطان في هذه الآية الغلبة والقدرة والملك، أَي: ما اضطررتكم ولا خوفتكم بقوة منِّي، بل عرضت عليكم شيئاً فأَتى رأْيكم عليه.

وقوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ يريد بزعمه: إِذ لا ذنب لي، ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ في سوءِ نظركم وقلَّة تثبتكم، فإِنكم إِنما أَتيتم اتباعي عن بصيرة منكم وتكسُّب. و«المُصْرِخ»: المغيث، والصَّارِخُ: المستغيث. ومنه قول الشاعر:

كُنَّـا إِذَا مَـا أَتَـانَـا صَـارِخٌ فَـزِعٌ ... كـانَ الصُّـرَاخُ لَـهُ قَـرْعَ الظَّنَـابِيـب[(٢)]

فيقال: «صرخ الرَّجُل وأَصرخ غيره»، وأَما «الصَّرِيخُ» فهو مصدر بمنزلة البريح[(٣)]،

---

(١) والضرب ليس من جنس التحية، وكأن الشيطان قال ذلك لهم مبالغة في نفيه للسلطان عن نفسه، كأنه قال: إنما يكون لي عليكم سلطان إذا كان مجرد الدعاءِ من السلطان، وليس منه قطعاً، هذا والشعر لعمرو بن معديكرب الزبيدي. والبيت بتمامه:

وَخَيْـلٍ قَـدْ دَلَفْـتُ لَهَـا بِخَيْـلٍ ... تَحِيَّـةُ بَيْنِهِـمْ ضَـرْبٌ وَجِيـعُ

(٢) البيت لسَلامة بن جَنْدل، وهو شاعر جاهلي مقلّ، من شعراء الطبقة الثانية، وهو فارس من فرسان تميم المعدودين، والبيت من قصيدة له يرثي فيها شبابه وما كان فيه من فروسية، ويقول في مطلعها:

أَوْدَى الشبـابُ حميـداً ذُو التَّعـاجِيـبِ ... أَوْدَى، وذلِـك شَـأْوٌ غَيْـرُ مَطْلُـوبِ

والظَّنَابيب: جمع ظُنْبُوب وهو عظم الساق، وقرع الظنوب هو أن يضرب الرجل ظنبوب البعير ليتنوخ له فيركبه، والمراد هنا سرعة الإجابة، لأنهم يستجيبون للمستغيث الصارخ بإناخة الجمال للركوب، فإذا تأخرت قرعوا ظنابيبها لتبرك بسرعة.

(٣) يقال: قولٌ بريحٌ: مُصَوَّبٌ به، قال الهُذَلِيّ:

فَـإِنَّ ابْـنَ تُـرْنَـى إِذَا جِئْتُكُـمْ ... يُـدَافِـعُ عَنِّـي قَـوْلاً بَـرِيحَـا

ويوصف به كما يقال: «رجلٌ عَدْلٌ» ونحوه.

وقرأ حمزة، والأعمش، وابن وثاب: [بِمُصْرِخِيِّ] بكسر الياءِ تشبيهاً بياءِ الإضمار في قوله: بمصرخيه، وردَّ الزجاج هذه القراءَة وقال: هي رديئة مرذولة(١)، وقال فيها القاسم بن معن: إنها صواب، ووجهها أَبو علي، وحكى أَبو حاتم أَن أَبا عمرٍو حسَّنها، وأَنكر أَبو حاتم ذلك على أَبي عمرٍو(٢).

وقوله: ﴿بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ﴾ أَي: مع الله في الطاعة التي ينبغي أَن يُفْرد الله بها، فـ[ما] مصدرية، وكأَنه يقول: إني الآن كافر بإشراككم إياي مع الله قبل هذا الوقت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا تبرٍّ منه، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾(٣)، ويحتمل اللفظ أَن يكون إقراراً على نفسه بكفره الأَقدم، فتكون [ما] بمعنى الَّذي، يريد «الله»

---

(١) في بعض النسخ: هي رديَّةٌ مردودة.

(٢) وقع خلاف كبير بين العلماء في هذه القراءة، قال الفراءُ: «لعلَّها من وهم القراءِ طبقة يحيى، فإنه قلَّ من سلم منهم من الوهم، ولعلَّه ظن أن الباءَ في [بِمُصْرِخِيَّ] خافضة للحرف كله، والياءُ من المتكلم خارجة من ذلك»، وقال أبو عبيد: «نراهم غلطوا ظنوا أن الباءَ تكسر ما بعدها»، وقال الأخفش: «ما سمعتُ هذا من أحد من العرب ولا من النحويين»، وقال النحاس: «صار هذا إجماعاً، ولا يجوز أن يحمل كتابُ الله على الشذوذ»، وحاول الزمخشري ـ مع اعترافه بضعفها ـ أن يستشهد لها ببيت مجهول (وقيل هو للأغلب العجلي):

قَــالَ لَهــا هَــلْ لَــكِ يَــا تَــافِـيِّ ... قَــالَــتْ لَــهُ مَــا أَنْــتَ بِــالْمَــرْضِـيِّ

كأن الشاعر قدر ياءَ الإضافة ساكنة وقبلها ياءٌ ساكنة، فحركها بالكسر لما عليه أصل التقاءِ الساكنين، قال الزمخشري: «ولكن هذا غير صحيح، لأن ياءَ الإضافة لا تكون إلا مفتوحة حيث قبلها ألف نحو عصاي، فما بالها وقبلها ياءٌ؟»، وقال القاسم بن معن عن هذه القراءة: هي صوابٌ، وسأل حسين الجعفي أبا عمرو بن العلاءِ وذكر تلحين أهل النحو، فقال: «هي جائزة»، قال أبو حيان الأندلسي: «ولا التفات إلى إنكار أبي حاتم على أبي عمرو تحسينها، فأبو عمرو إمامُ لغة، وإمامُ نحو، وإمامُ قراءة، وعربي صريح، وقد أجازها وحسَّنها، وقدَّروا بيت النابغة:

علــيَّ لعمــرٍو نِعْمَــةٌ بَعْــدَ نِعْمَــةٍ ... لِــوالــدِهِ لَيْسَــتْ بِــذَاتِ عَقَــارِب

بخفض الياءِ من «عَلَيِّ».

(٣) من الآية (١٤) من سورة (فاطر). ومثلها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾.

تعالىٰ، أَي: خطيئتي قبل خطيئتكم فلا إِصراخ عندي[١]، وباقي الآية بيِّن.

وقرأ الجمهور: ﴿وَأُدْخِلَ﴾ على بناءِ الفعل للمفعول، وقرأ الحسن: [وَأُدْخِلُ] على فعل المتكلم، أَي: يقولها الله تعالىٰ[٢]، وقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أَي: من تحت ما عَلا منها كالغُرف والمباني والأَشجار وغيره، و«الخلود» في هذه الآية على بابه في الدوام، و«الإِذْنُ» هنا عبارة عن القضاءِ والإِمضاءِ. وقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ مصدر مضاف إِلى الضمير، فجائز أَن يكون الضمير للمفعول، أَي: تُحَيِّيهم الملائكة، وجائز أَن يكون الضمير للفاعل، أَي: يُحَيِّي بعضُهم بعضاً، و﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ رفع بالابتداءِ، و﴿سَلَٰمٌ﴾ ابتداءٌ ثانٍ وخبره محذوف تقديره: عليكم، والجملة خبر الأَول، والجميع في موضع الحال من الضمير في ﴿خَٰلِدِينَ﴾، أَو يكون صفةً لـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنى: أَلم تعلم، و﴿مَثَلًا﴾ مفعول لـ ﴿ضَرَبَ﴾، و﴿كَلِمَةً﴾ مفعول أَول بها، و«ضَرَبَ» هذه تتعدى إِلى مفعولين، لأَنها بمنزلة «جَعَلَ» ونحوه، إِذ معناها، جعل ضربها، وقال المهدوي: ﴿مَثَلًا﴾ مفعول، و﴿كَلِمَةً﴾ بدل منها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا على أَنها تتعدى إِلى مفعول واحد، وإِنما أَوهم في هذا قلة التحرير في

---

(١) يَرِدُ على هذا القول أن فيه إطلاق (ما) على الله تعالىٰ، و(ما) الأصح فيها أنها لا تطلق على آحاد من يعلم ويعقل.

(٢) تثير هذه القراءة سؤالاً هو: فبمَ يتعلق قوله تعالىٰ: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾؟ لأن قوله: «أُدخِلُهُمْ أنا بإذنِ ربِّهم» كلام غير ملتئم، وكان الظاهر أن يقال: أُدخِلُهم بإذني. وحاول الزمخشري أن يجيب عن ذلك فقال: «الوجه في هذه القراءة أن يتعلق قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بما بعده، أي: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ بإذن ربهم، يعني أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم». وقال أبو حيان الأندلسي: «معنى كلام الزمخشري أن قوله ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ معمول لقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾، ولذلك قال: «إن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم»، وهذا لا يجوز، لأن فيه تقديم معمول المصدر المنحل بالفعل وبحرف مصدري عليه، وهو غير جائز».

«ضرب» هذه. والكاف في قوله: ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ في موضع الحال، أَي: مشبهة بشجرة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره: الكلمة الطيبة هي «لا إِلـه إِلا الله»، مثَّلها الله بالشجرة الطيبة وهي النخلة في قول أَكثر المتأَولين، فكأَن هذه الكلمة أَصلها ثابت في قلوب المؤمنين، وفضلها وما يصدر عنها من الأَفعال الزكية والخبيثة وما يتحصل عليها من عفو الله ورحمته هو فرعها يصعد إِلى السماءِ من قِبَل العبد، ويتنزل منها مِنْ قِبَل الله تبارك وتعالىٰ. وقرأَ أَنس بن مالك: «ثابِتٌ أَصْلُهَا»[١]، وقالت فرقة: إِنما مثَّل الله بالشجرة الطيبة المؤمنَ نفسه، إِذ الكلمة الطيبة لا تقع إِلا منه، فكأَن الكلام: كلمة طيبة قائلها، وكأَن المؤمن ثابت في الأَرض، وأَفعاله وأَقواله صاعدة، فهو كشجرة فرعها في السماءِ، وما يكون أَبداً من المؤمن من الطاعة أَو على الكلمة من الفضل والأَجر والغفران هو بمثابة الأُكل الذي تأْتي به كل حين، وقوله عن الشجرة: ﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أَي: في الهواءِ نحو السماءِ، وهذا كما تقول عن المستطيل: نحو الهواءِ، وفي الحديث: «خُلَقَ الله آدم طوله في السماءِ ستون ذراعاً»[٢]، والقيدودة: الطويل في غير سماءٍ[٣].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَنه انقاد وامتد، وقال أَنس بن مالك، وابن مسعود، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وابن زيد: الشجرة الطيبة في هذه الآية: النخلة، ورُوي في ذلك

---

(١) في هذه القراءة أُجريت الصفة على الشجرة لفظاً وإن كانت في الحقيقة للسَّبَبِيِّ، أما في قراءة الجماعة فإن الثبوت أُسند إلى السَّبَبِيِّ لفظاً ومعنى.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وأخرجه الإمامان البخاري ومسلم، عن أبي هريرة، ولفظه كما في «الجامع الصغير»: (خلق الله آدم على صورته، وطوله ستون ذارعاً، ثم قال: اذهب فسلِّم على أُولئك النَّفر ـ وهم نفر من الملائكة جلوس ـ فاستَمِع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فذهب فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه «ورحمة الله»، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم في طوله ستون ذراعاً، فلم تزل الخلق تنقص بعده حتى الآن)، وقد رمز له السيوطي بالصحة.

(٣) اختلفت الأصول في هذه الجملة، ففي بعضها: «في سماءٍ»، وفي بعضها: «في غير سماءٍ»، كما أن كلمة «القيدودة» كتبت بالدال في بعض النسخ، وبالراءِ في نسخ أُخرى.

أَحاديث[١]، وقال ابن عباس أَيضاً: هي شجرة في الجنة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن تكون شجرة غير معينة إِلا أَنها كل ما اتَّصف بهذه الصفات[٢] فيدخل فيه النخلة وغيرها، وقد شبَّه الرسول عليه الصلاة والسلام المؤمنَ الذي يقرأُ القرآن بالأُتْرُجَّة[٣]، فلا يتعذر أَن يُشَبَّه أَيضاً بشجرتها، و«الأكل»: الثَّمر، وقرأَ عاصم وحده: ﴿أُكُلَهَا﴾ بضم الكاف.

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ حِينٍ﴾، الحينُ في اللغة: القطيع من الزمان غير محدود، كقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾[٥]،

---

(١) منها ما روي عن أنس رضي الله عنه، قال: أُتي رسول الله ﷺ بقِناع من بسر ـ والقِناع: الطبق من عسب النخل يوضع فيه الطعام والفاكهة ـ فقال: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ حتى بلغ ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ قال: هي النخلة، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ حتى بلغَ ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ قال: هي الحنظلة. أخرجه الترمذي، والنسائي، والبزار، وابن جرير، وغيرهم، ومنها ما أخرجه البخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وغيرهم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: أخبروني بشجرة مثل الرجل المسلم، لا يتحات ورقها، وتؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها، قال عبد الله رضي الله عنه: فوقع في نفسي أنها النخلة، فأردت أن أقول: هي النخلة، فإذا أنا أصغر القوم، وثمَّ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما لم يتكلما بشيءٍ قال رسول الله ﷺ: هي النخلة.

(٢) وصفت هذه الشجرة بصفات أربع: الأولى أنها طيبة، أي: كريمة المنبت، والثانية رسوخ أصلها، وهذا يدل على تمكنها، وعلى أن الرياح لا تقصفها، وهي لهذا طويلة العمر، والثالثة عُلوّ فرعها، وذلك يدل على رسوخ عروقها في الأرض، والرابعة أن ثمرها دائم مستمر، وأن عطاءها لا ينقطع، فهي تعطي جناها في كل وقت أراده الله سبحانه.

(٣) أخرجه البخاري في الأطعمة، وفي فضائل القرآن، وفي التوحيد، وأخرجه مسلم في المسافرين، وأبو داود في الأدب، وكذلك الترمذي، والنسائي في الإيمان، وابن ماجه في المقدمة، والدارمي في فضائل القرآن، والإمام أحمد في مسنده (٤ـ٣٩٧، ٤٠٤، ٤٠٨)، ولفظه كما في البخاري في كتاب «فضائل القرآن» عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: (مثل الذي يقرأُ القرآن كالأُتْرُجَّة، طعمها طيب وريحها طيب، والذي لا يقرأُ القرآن كالتَّمرة، طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأُ القرآن كمثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مُرٌّ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأُ القرآن كمثل الحنظلة، طعمها مُرٌّ ولا ريح لها). والأُتْرُج: شجر يعلو، ناعم الأغصان والورق والثمر، وثمره كالليمون الكبار، وهو ذهبيّ اللون، زكي الرائحة، حامض الماءِ. (المعجم الوسيط).

(٤) من الآية (١) من سورة (الإنسان).

(٥) الآية (٨٨) من سورة (صٓ) وهي آخر السورة.

وقد تقتضي لفظة «الحين» بقرينتها تحديداً كقوله في هذه الآية: ﴿كُلَّ حِينٍ﴾، وقال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحَكَمُ، وحَمَّاد، وجماعة من الفقهاءِ، قالوا: من حلف لا يفعل شيئاً حيناً فإنه لا يفعله سنة، واستشهدوا بهذه الآية: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ أَي: كل سنة، وقال ابن عباس، وعكرمة، والحسن: أَي كل ستة أَشهر، وقال ابن المُسَيَّب: الحينُ: شهران، لأَن النخلة تدوم مثمرة شهرين، وقال ابن عباس أَيضاً والضحاك، والربيع بن أَنس: ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ أَي: كل غدوة وعشية ومتى أُريد جناها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهكذا يشبهها المؤمن الذي هو في جميع أَيامه في عمل، والكلمة التي أَخرجها والصادر عنها من الأَعمال مستمر، فيشبه أَن الله تعالىٰ إنما شبَّه المؤمن أَو الكلمة بالشجرة في حال إِثمارها، إِذ تلك أَفضل أَحوالها، وتأْويل الطبري في ذلك أَن أُكُل الطلْع في الشتاءِ، وأَن أُكل الثمر في كل وقت من أَوقات العام هو إِتيانُ أُكُل وإِن فارق النخل، وإِن فرضنا التشبيه بها على الإِطلاق وهي إنما تؤتي في وقت دون وقت فالمعنى: كشجرة لا تخل بما جعلت له من الإِتيان بالأُكل في الأَوقات المعلومة، فكذلك هو المؤمن لا يُخل بما يُسِّر له من الأَعمال الصالحة، أَو الكلمة لا تغيب بركتها والأَعمال الصادرة عنها، بل هي في حفظ النظام كالشجرة الطيبة في حفظ وقتها المعلوم، وباقي الآية بيِّن.

ومَن قال: «الحين سنة» راعَى أَن ثمر النخلة وجناها إنما يأْتي كل سنة، ومن قال: «ستة أَشهر» راعى من وقت جَداد النخلة[1] إلى حملها من الوقت المقبل، وقيل: إِن التشبيه وقع بالنخل الذي يثمر مرتين في العام، ومن قال: «شهرين» قال: هي مدة الجني في النخل، وكلهم أَفتى بقوله في الإِتيان على الحين[2].

وحكى الكسائي والفراءُ أَن في قراءَة أُبَيِّ بن كعب: «وضرب اللهُ مَثَلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ»[3]، والكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر وما قاربها من الكلام السوقي في الظلم

---

(١) الجَداد: أوان قطع ثمر النخل.

(٢) يعني أن رأي كل واحد في معنى «الإتيان» متوقف على رأيه في معنى «الحين».

(٣) نصُّ عبارة الفراءِ كما هي في كتابه «معاني القرآن»: «وهي في قراءَة أُبي: (ضَرَبَ مَثَلاً كلمةً خَبيثَة) كشجرة خبيثة، وكلٌّ صواب». أي بدون إضافة كلمة «مثل» إلى «الكلمة».

ونحوه، ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، قال أكثر المفسرين: شجرة الحنظل، قاله أَنس بن مالك، ورواه عن النبي ﷺ[(١)]، وهذا عندي على جهة المثال، وقالت فرقة: هي الثَّوْم، وقال الزجاج: هي الكَشُوثَا[(٢)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى هذه الأَقوال من الاعتراض أَن هذه كلها من النَّجْم[(٣)]، وليست من الشجر، والله تعالىٰ إنَّما مثَّل بالشجرة، فلا تسمى هذه بشجرة إلاَّ بتجوز، فقد قال عليه الصلاة والسلام في الثوم والبصل: (من أكل من هذه الشجرة)[(٤)]، وأَيضاً فإن هذه كلها ضعيفة وإن لم تخبث، اللهم إلا أَن نقول: اجتثت بالخلقة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «هذا مثل ضربه الله تبارك وتعالىٰ ولم يخلق هذه الشجرة على وجه الأَرض». والظاهر عندي أَن التشبيه وقع بشجرة غير معينة إذا وجدت فيها هذه الأَوصاف، فالخبث هو أَن تكون كالعضاة أَو كشجرة السموم ونحوها إذا اجتثت، أَي اقتلعت جثتها بنزع الأُصول، وبقيت في غاية الوهن والضعف فتقلبها أَقل ريح، فالكافر يرى أَن بيده شيئاً، وهو لا يستقر ولا يغني عنه، كهذه الشجرة التي يُظَن بها على بعد ـ أَو للجهل بها ـ أَنها شيءٌ نافع، وهي خبيثة الجنى غير باقية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ

---

(١) راجع الحديث الذي رُوي عن أنس رضي الله عنه في أن المراد بالشجرة الطيبة النخلة، هامش رقم (١) ص(٢٤٤) من هذا المجلد.

(٢) قال عنها أَبو حيَّان في تفسيره «البحر المحيط»: «هي شجرة لا ورق لها ولا أصل»، يقال: هي كَشُوثٌ، أي: لا أصل ولا ثمر. وقال الشاعر:

وهُــمْ كَشُــوثٌ فــلا أصْــلٌ ولا وَرَقٌ ... ولا نَسيــمٌ ولا ظِــلٌّ ولا ثَمَــرُ

(٣) النَّجْم من النَّبات: ما لا ساقَ له، ويقال: ليس لهذا الشيءِ نَجْمٌ، أَيْ أَصْل.

(٤) الذي رواه البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه هو: (مَن أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا، وليعتزل مسجدنا، وليقعد في بيته)، وهذا ما نقله السيوطي عنهما في «الجامع الصغير»، وقال: هو حديث صحيحٌ، ولا يوجد في اللفظ الذي رواه كل منهما كلمة «شجرة»، ولعلها موجودة في رواية غيرهما.

ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

القولُ الثابت في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرة كلمة الإِخلاص والنجاة من النار «لا إلـٰه إلا الله» والإِقرار بالنبوة، وهذه الآية تعم العالم من لدن آدم عليه السلام إِلى يوم القيامة. وقال طاوس، وقتادة، وجمهور من العلماء: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هي مدة حياة الإِنسان، ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ هي وقت سؤاله في القبر، وقال البراءُ بن عازب وجماعة: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هي وقت سؤاله في قبره، ورواه البراءُ عن النبي ﷺ في لفظ مُتأَوَّل[1]، لأَن ذلك في مدة وجود الدنيا، وقوله: ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ هو يوم القيامة عند العرض. والأَول أَحسن، ورجَّحه الطبريُّ.

و«الظَّالِمُونَ» في هذه الآية: الكافرون، بدليل أَنه عادل بهم المؤمنين، وعادل التثبيت بالإِضلال، وقوله: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ تقرير لهذا التقسيم المتقدم، وكأَن امرءاً رأَى التقسيم فطلب في نفسه علَّته فقيل له: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ بحق الملك، وفي هذه الآية ردٌّ على القدرية. وذكر الطبريُّ في صفة مُساءَلة العبد في قبره أَحاديث منها ما وقع في الصحيح، وهي من عقائد الدين، وأَنكرت ذلك المعتزلة، ولم تقل بأَن العبد يُسأَل في قبره، وجماعة السنة تقول: إِن الله يخلق له في قبره إِدراكات وتحصيلاً، إِما بحياة كالمتعارفة وإِما بحضور النفس وإِن لم تتلبس بالجسد كالعرف، كل هذا جائز في قدرة الله تعالىٰ، غير أَن في الأَحاديث أَنه يسمع خفق النعال، ومنها أَنه يرى الضوءَ كالشمس دنت للغروب، وفيها: أَنه يراجع، وفيها: فتعاد روحه إِلى جسده، وهذا كله يتضمن الحياة، فسُبْحَانَ ربِّ هذه القدرة.

---

(١) الحديث جاء موقوفاً في بعض طرق مسلم عن البراء، قال القرطبي: والصحيح فيه الرفع كما في صحيح مسلم، وكتاب النسائي، وأبي داود، وابن ماجه، وغيرهم، وذكر البخاري بسنده عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال: (إذا أُقعد المؤمن في قبره أَتاهُ آتٍ، ثم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾، وقيل: معنى يُثَبِّت: يُديمهم الله على القول الثابت، ومنه قول عبد الله بن رواحة:

يُثَبِّتُ الله مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ ... تَثْبِيتَ مُوسى ونَصْراً كالَّذي نُصِرَا

وليس في الحديث ما يفيد أن الحياة الدنيا هي في القبر، وأن الآخرة هي يوم القيامة، وليس فيه أيضاً ما يفيد العكس، ولهذا قال ابن عطية: «في لفظ مُتأَوَّل».

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾، هذا تنبيه على مثال من الظالمين، والتقدير: بدَّلوا شكر نعمة الله كفراً، وهذا كقوله سبحانه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(١)، ونعمة الله المشار إليها في هذه الآية هو محمد عليه الصلاة والسلام ودينه، أنعم الله به على قريش فكفروا النعمة ولم يقبلوها وتبدلوا بها الكفر، والمراد بالذين كفروا قريشٌ جملة، وهذا بحسب ما اشتهر من حالهم، وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم. وروي عن عمر بن الخطاب وعليّ بن أَبي طالب أَنها نزلت في الأَفْجَرَيْنِ من قريش: بني مخزوم وبني أُمية، قال عمر: فأَما بنو المغيرة فكفوا يوم بدر(٢)، وأَما بنو أُمية فمُتِّعوا إِلى حين، وقال ابن عباس: هذه الآية في جَبَلَة بن الأَيْهَم(٣).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولم يُرِد ابن عباس أَنها فيه نزلت، لأَن نزول الآية قبل قصته، وإِنما أَراد أَنها تخص مَنْ فَعَلَ فِعْلَ جَبَلَة إِلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ﴾ أَي: من أَطاعهم وكان معهم في التبديل، فكأَن الإِشارة والتعنيف إِنما هو للرؤُوس والأَعلام، و[الْبَوَار] الهلاك، ومنه قول سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

يَا رَسُولَ الْمَلِيكِ إِنَّ لِسَانِي ... راتِقٌ ما فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ(٤)

---

(١) الآية (٨٢) من سورة (الواقعة)، والتقدير فيها: وتجعلون شكر رزقكم.

(٢) الكلام عن بني مخزوم، والمراد أن الله أهلكهم يوم بدر وكفى المؤمنين شرَّهم.

(٣) في الأصول كلها: «جبلة بن إبراهيم»، وهو خطأ واضح من النساخ، والصواب ما أثبتناه، وله قصة معروفة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد أسلم، وأكرم عمر مقدمه، وخرج للحج مع عمر، فوطىء فزاري إزاره في الطواف، فضربه جبَلَة فهشم أنفه، فلما شكاه إلى عمر رضي الله عنه قال عمر: لا بد من القود، قال: هو من السوقة وأنا ملك، قال عمر: الإسلام سوى بينكما، قال: إذاً أتنصر، قال عمر: أضرب عنقك لأنك مسلم مرتد، فلما رأى الجد في كلام عمر رضي الله عنه هرب مع قومه إلى الشام وتنصر وعاش حزيناً نادماً في بلاط الروم.

(٤) نسبه في (اللسان) إلى عبد الله بن الزِّبعرى السهمي، وكذلك في سيرة ابن هشام أنشده ونسبه إلى ابن الزِّبعرى ضمن أبيات قالها حين قدم على النبي ﷺ، وكان هارباً منه في نجران، وقد ذكر ابن عطية أن الطبريّ وغيره ينسبون البيت أيضاً لابن الزِّبعرى، والرَّاتق: الذي يصلح ما تمزق من الثوب، وفَتَق: شقَّ وقطع، والمراد هنا ما أحدث في الدين، وما قاله من هجاء النبي بشعره، وهذا كله إثم يشبه الفتق في=

قاله الطبريُّ، وقال هو وغيره: إنه يُرْوى لابن الزِّبعرى، ويحتمل أَن يريد بـ﴿الْبَوَارِ﴾ الهلاك في الآخرة ففسَّره حينئذ بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾، أَي: يحترقون في حرِّها ويحتملونه، ويحتمل أَن يريد بـ [الْبَوَارِ] الهلاك في الدنيا بالقتل والخزي فتكون «الدار» قَلِيبَ بدر ونحوه. وقال عطاءُ بن يسار: نزلت هذه الآية في قتلى بدر، فيكون قوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾ نصباً على حدِّ قولك: «زيداً ضربته» بإضمار فعل يقتضيه الظاهر، و﴿الْقَرَارُ﴾ موضع استقرار الإنسان.

و«الأَنداد» جمع نِدٍّ، وهو المثل والشبيه المناوىء، والمراد الأَصنام. واللام في قوله: [لِيُضِلُّوا] بضم الياءِ لام كي. وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرٍو: [لِيَضِلُّوا] بفتح الياءِ، أَي هم أَنفسهم، فاللاَّم ـ على هذا ـ لام عاقبة وصيرورة، وقرأَ الباقون بضمها، أَي: يُضِلُّوا غيرهم. وأَمْرُهم بالتمتع هو وعيد وتهديد على حدِّ قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

العباد: جمع عبدٍ، وعرفه في التكرمة بخلاف العبيد[2]، وقوله: ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾،

= الثوب، والتوبة رَتْقٌ وإصلاح له، وبورٌ: هالِكٌ، يقالُ: رجلٌ بورٌ، وكذلك الاثنان والجمع، وقد استشهد أبو عبيدة في «مجاز القرآن» بهذا البيت منسوباً إلى ابن الزِّبعرى على أن البوار معناه الهلاك، وأنه يقال منه: بار، يبور.

(١) من الآية (٤٠) من سورة (فُصّلت)، ومثلها في الوعيد والتهديد قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾، هذا وقوله تعالى: ﴿مَصِيرَكُمْ﴾ معناه: مرجعكم، فمصيركم مصدر من صار التامة بمعنى رجع، وخبر [إنَّ] هو قوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾، ولا يقال هنا إن «صار» بمعنى انتقل ولذلك تعدى بإلى، لأنه بذلك تبقى [إنَّ] بدون خبر، قال أبو حيَّان في «البحر»: «ولا ينبغي أن يُدَّعى حذفه فيكون التقدير: فإن مصيركم إلى النار واقع لا محالة، أو كائنٌ، لأن حذف الخبر في مثل هذا التركيب قليل». ٥

(٢) في (اللسان): قال الأزهري: «اجتمع العامة على تفرقة ما بين عباد الله والمماليك، فقالوا: هذا عبد من=

قالت فرقة مِن النحويِّين: جزْمه بإضمار لام الأمر على حدِّ قول الشاعر:

مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كلُّ نَفْسٍ . . . .[(١)]

أنشده سيبويه، إلا أنه قال: إن هذا لا يجوز إلا في الشعر، وقالت فرقة ـ أبو عليٍّ وغيره ـ: هو فعل مضارع جزم لما كان في معنى فعل أمر، لأن المراد: أَقيموا، وهذا كما يبنى الاسم المتمكن في النداءِ في قولك: «يا زيد»، لما شُبِّه بـ «قبل وبعد»[(٢)]، وقال سيبويه: هو جواب شرط مقدر يتضمنه صدر الآية، تقديره: إن تقل لهم: أَقيموا يقيموا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يكون جواب الأَمر الذي يعطينا معناه قوله: ﴿قُلْ﴾، وذلك بأَن تجعل ﴿قُلْ﴾ في هذه الآية بمعنى بَلِّغ وأَدِّ الشريعة يقيموا الصلاة[(٣)]، وهذا كله على أَن المقول هو الأَمر بالإقامة والإنفاق، ويظهر أَن المقول هو الآية التي بعدُ، أَعني قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآية. و«السِّرُّ» صدقةُ النَّفل، والعلانية الصدقةُ المفروضة، هذا هو مقتضى الأَحاديث، وفسَّر ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية بزكاة الأَموال مجملاً، وكذلك فسَّر الصلاة بأَنها الخمس، وهذا عندي منه تقريب للمخاطب.

و«الْخِلاَل» مصدر من خالَّك إذا وَادَّ وصافى، ومنه الخُلَّة والخليل، قال امرؤ القيس:

= عباد الله، وهؤلاء عبيد مماليك»، وجعل بعضهم العباد لله، وغيره من الجمع لله وللمخلوقين.

(١) يقال: فدَيْتُهُ فِداءً وفِدىً، وافتديته، والبيت نُسب إلى أبي طالب، وحسَّان، والأعشى، وليس في ديوان أحد منهم، وهو في سيبويه، والخزانة، والعيني، والأشموني، وهو بتمامه:

مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ ... إذَا مَا خِفْتَ مِنْ شَيْءٍ تَبالا

والمعنى: كل النفوس فداءٌ للنبي ﷺ، والشاهد فيه أن «تَفْدِ» مجزوم بإضمار لام الأمر، والتقدير: لِتَفْدِ نَفْسَك كلُّ نَفْسٍ. والتَّبال: سوءُ العاقبة.

(٢) ردَّ بعض العلماءِ هذا بقولهم: لو كان مضارعاً بلفظ الخبر ومعناه الأمر لبَقي على إعرابه بالنون كقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ثم قال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، والمعنى: آمنوا بالله.

(٣) علَّق عليه أبو حيان في تفسيره (البحر المحيط) بقوله: «هذا الذي ذهب إليه تفكيك للكلام يخالفه ترتيب التركيب، ويكون قوله: ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ كلاماً مفلتاً من القول ومعموله، أو يكون جواباً فُصل به بين القول ومعموله، ولا يترتب أن يكون جواباً لأن قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ لا يستدعي إقامة الصلاة والإنفاق إلا بتقدير بعيد جداً».

صَرَفْتُ الْهَوى عَنْهُنَّ مِن خَشْيَةِ الرَّدَى ... ولَسْـتُ بِمَقْلِـيِّ الْخِـلاَلِ وَلاَ قَـالِ(١)

وقال الأخفش: الخِلالُ جمع خُلَّة. وقرأ نافع، وعاصم، وحمزة والكسائي، وابن عامر: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ بالرفع على إلغاءِ [لاَ]، وقرأ أبو عمرو، والحسن، وابن كثير: ﴿لَّا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ بالنصب على التبرية، وقد تقدم هذا، والمرادُ بهذا اليوم يوم القيامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية تذكير بآلاءِ الله، وتنبيه على قدرته التي فيها إحسانٌ إلى البشر؛ لتقوم الحُجَّة من وجهين، و﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأٌ، و﴿ٱلَّذِي﴾ خبره، ومن أُخبر بهذه الجملة وتقررت في نفسه آمَن وصلَّى وأنفق. و﴿ٱلسَّمَٰوَاتِ﴾ هي الأرقعة السبعة، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يريد: السحاب. وقوله: ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يجوز أَن تكون ﴿مِنْ﴾ للتبعيض، فيكون المراد بعض جنى الأشجار، ويسقط ما كان منها سُمًّا أو مجرداً للمضرات، ويجوز أَن تكون ﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس كأنه قال: فأخرج به رزقاً لكم من الثمرات(٢)، وقال بعض الناس: ﴿مِنْ﴾ زائدة، وهذا لا يجوز عند سيبويه لكونها في الجواب، ويجوز عند الأخفش، و«الْفُلْك» جمع فُلْك، وقد تقدم القول فيه مراراً.

وقوله: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ مصدر من أَمر يأمُر، وهذا راجع إلى الكلام القائم بالذات، كقوله تعالىٰ للبحار وللأرض وسائر الأَشياءِ: «كن» عند الإيجاد، إنما معناه: كن بحال كذا، أَو على وتيرة كذا، وفي هذا تدريج دوران الفلك وغيره، وفي تسخير الفُلْك ينطوي تسخير البحر وتسخير الرياح، وأَما تسخير الأَنهار فتفجيرها في كل بلد وانقيادها للسقي وسائر المنافع.

و﴿دَآئِبَيْنِ﴾ معناه: متماديين، ومنه قول النبي ﷺ لصاحب الجمل الذي بكى

---

(١) هذا البيت من قصيدته المشهورة التي بدأها بقوله:

ألا عِـمْ صَبَـاحـاً أيُّهـا الطَّلَـلُ البَـالـي ... وهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كانَ في العُصُرِ الخَالي

والمَقْلِيّ: المُبْغَض، والقالي: المُبْغِض، والخلال: الصفات، يقول: إنه لم يدع حبّ الحسان يتملكه خشية الهلاك، وهو يريد الهلاك بالشهوة والضنى والتَّيَتُّم، فإن هذا يقضي على الحبيب، ثم يقول: إنه لم ينصرف عنهن لسوءٍ في طباعه، بل نجاة من الهلاك.

(٢) قال أبو حيان: هذا ليس بجيد، لأن «مِنْ» التي لبيان الجنس إنما تأتي بعد المبهم الذي تُبَيِّنُهُ.

وأَجهش إِليه: (إِن هذا الجمل شكا إِليَّ أَنك تجيعه وتدئبه)(١) أَي تديمه في الخدمة والعمل، وظاهر الآية أَن معناه: دَائِبَيْنِ في الطلوع والغروب وما بينهما من المنافع للناس التي لا تُحصى كثرة، وحكى الطبريُّ عن مقاتل بن حيان ـ يرفعه عن ابن عباس ـ أَنه قال: معناه: دائبين في طاعة الله، وهذا قول إِن كان يُراد به أَن الطاعة انقياد منهما في التسخير فذلك موجود في قوله: [سَخَّرَ]، وإِن كان يُراد أَنها طاعة مقصودة كطاعة العباد من البشر فهذا بعيد، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ للجنس من البشر، أَي أَن الإِنسان بجملته قد أُوتي من كل ما شأنه أَن يُسأَل ويُنتفع به، ولا يطرد هذا في واحد من الناس، وإِنما تفرقت هذه النعم في البشر، فيقال بحسب هذا للجميع: «أُوتيتم كذا» على جهة التعديد للنعمة، وقيل: المعنى: وآتاكم من كل ما سأَلتموه إِن لو سأَلتموه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قريب من الأَول، و[ما] في قوله سبحانه: ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يصح أَن تكون مصدرية، ويكون الضمير في قوله: [سَأَلْتُمُوهُ] عائداً على الله تبارك وتعالىٰ، ويصح أَن تكون [مَا] بمعنى «الذي»، ويكون الضمير عائداً على «الذي»، وقرأَ الضحاك بن مزاحم(٢)، وابن عباس: ﴿مِّن كُلٍّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ بتنوين [كُلٍّ]، وهي قراءَة الحسن، وقتادة، وسلام، ورويت عن نافع، والمعنى: وآتاكم من كل هذه المخلوقات المذكورات قبلُ ما شأنه أَن يُسأَل لمعنى الانتفاع به، فـ[مَا] في قوله: ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ مفعول ثانٍ بـ[آتَاكُمْ]. وقال بعض الناس: [مَا] نافية على هذه القراءَة، أَي: أَعطاكم من كُلٍّ شيئاً، ما سأَلتموه، والمفعول الثاني هو قولنا: «شيئاً»، فعدَّد ـ على هذه ـ

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، وأحمد في مسنده (١ـ٢٠٤، ٢٠٥)، ولفظه فيه ـ عن عبد الله بن جعفر قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه، فأسرَّ إلي حديثاً لا أُخبر به أحداً أبداً، وكان رسول الله ﷺ أحب ما استتر به في حاجته هدف أو حشائش نخل، فدخل يوماً حائطاً من حيطان الأنصار، فإذا جمل قد أتاه فجرجر وذرفت عيناه، قال بهز وعفان: فلما رأى النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه، فمسح رسول الله ﷺ سراته وذِفْراهُ فسكن، فقال: من صاحب الجمل؟ فجاء فتىً من الأنصار فقال: هو لي يا رسول الله، فقال: أما تتقي الله في هذه البهيمة التي مَلَّكَكَها الله؟ إنه شكا إليَّ أنك تُجيعه وتُدْئبه.

(٢) هو الضحاك بن مُزاحم البلخي الخراساني، أبو القاسم، مفسِّر، كان يؤدب الأطفال، ذكره ابن حبيب تحت عنوان: «أشراف المعلمين وفقهاؤهم»، له كتاب في التفسير. (راجع ميزان الاعتدال ١ـ٤٧١، والمحبر ٤٧٥، والأعلام ٣ـ٣١٠).

النعمةَ في تفضله بما لم يسأله البشر من النعم، وكأن ما سألوه لم يعرض له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تفسير الضحاك. وأما القراءَة الأُولى بإضافة [كُلٍّ] إلى [مَا] فلا بُدَّ من تقدير المفعول الثاني: جُزءاً أو شيئاً أو نحو هذا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ أي: لكثرتها وعظمها في الحواس والقوى والإِيجاد من العدم إلى الهداية إلى الإيمان وغير ذلك. وقال طلق بن حبيب: إن حقَّ الله أثقل من أن يقوم به العباد، ونعمه أكثر من أن يُحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين. وقال أبو الدرداءِ: من لم ير نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قلَّ علمه وحَضر عذابه.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ﴾ يريد به النوعَ والجنسَ، المعنى: توجد فيه هذه الخلال، وهي الظلم والكفر، فإن كانت هذه الخلال من جاحد فهي بصفة، وإن كانت من عاص فهي بصفة أُخرى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

المعنى: واذكر إذ قال إبراهيم، و[الْبَلَدَ]: مكة، و[آمِناً] معناه: فيه أَمن، فوصفه بالأَمن تجوزاً، كما قال: ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾، وكما قال الشاعر:

. . . . وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِمِ(١)

و[اجْنُبْني] معناه: امنعني، يقال: جَنَبَه كذا وجَنَّبَه وأَجنبَه إذا منعه من الأَمر وحماه

(١) هذا جزء من بيت، وهو بتمامه:

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلَانَ في السُّرَى ... وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ المَطِيِّ بِنَائِمِ

وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ الآية، من هذه السورة (هامش ١ صفحة ٢٣٦).

منه، وقرأ الجحدريُّ، والثقفي: [وأَجْنِبْني] بقطع الألف وكسر النون. و﴿بَنِيَّ﴾ أراد بني صُلْبه، ولذلك أُجيبت دعوته فيهم، وأَما باقي نسله فقد عبدوا الأَصنام، وهذا الدعاءُ من الخليل عليه الصلاة والسلام يقتضي إفراط خوفه على نفسه ومن حصل في رتبته، فكيف يخاف أَن يعبد صنماً؟ لكن هذه الآية ينبغي أَن يُقتدى بها في الخوف وطلب الخاتمة.

و﴿الأَصنام﴾ هي المنحوتة على خلقة البشر، وما كان منحوتاً على غير خِلْقة البشر فهي أَوثان، قاله الطبري عن مجاهد، ونسب إلى الأَصنام أَنها أَضلت كثيراً من الناس تجوُّزاً إذ كانت عرضة الإِضلال والأَسباب المنصوبة للغي، وعليها منشأ الأَعمال، وحقيقة الإِضلال إنما هي لمخترعه.

قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ ظاهره بالكفر لمعادلة قوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾، وإذا كان ذلك، كذلك فقوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ معناه: بتوبتك على الكفرة حتَّى يؤْمنوا، لا أَنه أَراد أَن الله يغفر لكافر، ولكن حمله على هذه العبارة ما كان يأْخذ نفسه به من القول الجميل والنطق الحسن وجميل الأَدب ﷺ، قال قتادة: اسمعوا قول الخليل، والله ما كانوا طعَّانين ولا لعَّانين، وكذلك قال نبيُّ الله عيسى عليه السلام: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]، وأَسند الطبريّ عن عبد الله بن عمرو حديثاً عن النبي ﷺ أَنه تلا هاتين الآيتين، ثم دعا لأُمته فبُشِّر فيهم[2]، وكان إبراهيم التيمي يقول: من يأْمن على نفسه بعد خوف الخليل على نفسه من عبادة الأَصنام؟

وقوله: ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ يريد إسماعيل عليه السلام، وذلك أَن سارة لما غارت لهاجر بعد أَن ولدت إسماعيل تعذَّب إبراهيم عليه السلام بهما، فركب البراق هو وهاجر والطفل، فجاءَ في يوم واحد من الشام إلى بطن مكة، فنزل ونزل ابنه وأَمَته هنالك، وركب منصرفاً من يومه ذلك، وكان هذا كله بوحي من الله تبارك وتعالىٰ، فلما ولَّى دعا

---

(١) من الآية (١١٨) من سورة (المائدة).

(٢) نصُّ الحديث كما أخرجه الطبري ـ أن النبي ﷺ تلا قول إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقول عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فرفع يديه ثم قال: اللهمَّ أُمَّتي، اللهمَّ أُمَّتي، وبكى، فقال الله تعالىٰ: يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربُّك أعلم ـ فاسأله: ما يبكيه؟ فأتاه جبريل فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، قال: فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد وقل له: إنا سنرضيك في أُمتك ولا نسوؤك.

بمضمن هذه الآية، وأما كيفية بقاءِ هاجر وما صنعت وسائر خبر إسماعيل ففي كتاب البخاري والسِّير وغيره، و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ للتبعيض، لأن إسحاق كان بالشام. و«ٱلْوَادِي»: ما بين الجبلين وليس من شرطه أن يكون فيه ماءٌ، وهذه الآية تقتضي أن إبراهيم عليه السلام قد كان عَلِمَ من الله تعالىٰ أن الله لا يُضَيِّع هاجر وابنها في ذلك الوادي، وأنه يرزقهما الماءَ، وإنما نظر النظر البعيد للعاقبة فقال: ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾، ولو لم يعلم ذلك من الله لقال: «غير ذي ماءٍ» على ما كانت عليه حال الوادي عند ذلك[١].

وقوله: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ إما أن يكون البيت قد كان قديماً على ما رُوي قبل الطوفان، وكان علمه عند إبراهيم، وإما أن يكون قالها لما كان قد أعلمه الله تعالىٰ أنه سيبني هنالك بيتاً لله تعالىٰ فيكون مُحَرَّماً، والمعنى: محرَّماً على الجبابرة أن تُنتَهك حرمته ويُستخف بحقه، قاله قتادة وغيره، وجَمْعُه الضمير في قوله: ﴿لِيُقِيمُوا﴾ يدل على أن الله قد أعلمه أن ذلك الطفل سيعقب هنالك ويكون له نسل. واللام في قوله: [لِيُقِيمُوا] هي لام «كي»، هذا هو الظاهر فيها، على أنها متعلقة بـ ﴿أَسْكَنتُ﴾، والنداءُ اعتراضٌ، ويصحُّ أن تكون لام أَمْر، كأنه رغب إلى الله أن يوفقهم لإقامة الصلاة، ثم ساق عبارة ملزمة لهم إقامة الصلاة، وفي اللفظ ـ على هذا التأويل ـ بعض تجوز يربطه المعنى ويُصلحه.

و«ٱلْأَفْئِدَةُ»: القلوب، جمع فؤاد، سمي بذلك لانفآده، مأخوذ من: فَأَدَ، ومنه المُفْتَأَد وهو مستوقد النار حيث يشوى اللحم[٢]، وقرأ ابن عامر بخلاف عنه: [فاجْعَلْ أفْيدةً] بياءٍ بعد الهمزة[٣]. وقوله: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ تبعيض، ومراده: المؤمنون، قال

---

(١) قيل: إن انتفاءَ كونه ذا زرع يستلزم انتفاءَ الماء الذي لا يمكن أن يوجد زرع إلا به، فنُفي ما يتسبب عن الماءِ وهو الزرع، لانتفاءِ سببه وهو الماءُ.

(٢) قال في (اللسان): «وفَأَدَ اللحم في النار يَفْأَدُهُ فأداً: شواه، والمِفْأَدُ والمِفْأَدة: السَّفُّودُ، وهو من فأدْتُ اللحم وافتأدْتُه إذا شويتَه، ولحمٌ فَئِدٌ أي: مشويٌّ».

(٣) وقرىء: [آفِدَة] على وزن فاعلة، ويحتمل أن يكون اسم فاعل من أَفِد أي دَنَا وقرب، والمعنى: جماعات آفِدةٌ، وقرأت أم الهيثم: «أَفْوِدَةً» بالواو المكسورة بدل الهمزة، قال صاحب اللوامح: «وهو جمع وَفْد، والقراءَة حسنة ولكني لا أعرف هذه المرأة، بل ذكرها أبو حاتم»، قال أبو حيان الأندلسي: «وأم الهيثم امرأة نقل عنها شيءٌ من لغات العرب».

مجاهد: لو قال إبراهيم: «أفئدة الناس» لازدحمت على البيت فارس والروم، وقال سعيد بن جبير: «لَحَجَّته اليهود والنصارى»(١). و[تَهْوِي] معناه: تسير بجدٍّ وقصد مستعجل، ومنه قول الشاعر:

وَإِذَا رَمَيْـتَ بِـهِ الْفِجَـاجَ رَأَيْتَـهُ ... يَهْـوِي مَخَـارِمَهَـا هُـوِيَّ الأَجْـدَلِ(٢)

ومنه البيت المروي:

تَهْـوِي إِلَـى مَكَّـةَ تبغـي الْهُـدَى ... مـا مُـؤْمِنُـو الْجِنِّ كَـأَجْنَـاسِهَـا(٣)

وقرأ سلمة بن عبد الله: [تُهْوِي] بضم التاءِ، مِنْ أَهوى، وهو الفعل المذكور معدى بالهمزة، وقرأ علي بن أبي طالب، ومحمد بن علي، ومجاهد: [تَهْوَى] بفتح التاءِ والواو، ويُعَدَّى هذا الفعل ـ وهو من الهُوِيِّ ـ بـ «إلى» لما كان مقترناً بسَيْرٍ وقصد، وروي عن مسلم بن محمد الطائفي أنه لما دعا عليه السلام بأَن يرزق سكان مكة من الثمرات بعث الله جبريل عليه السلام فاقتلع بجناحه قطعة من أَرض فلسطين، وقيل ـ من الأُردن ـ فجاءَ بها وطاف حول البيت بها سبعاً ووضعها قريب مكة، فهي الطائف، وبهذه القصة سُمِّيت، وهي موضع ثقيف، وبها أَشجار وثمرات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

مقصد إبراهيم عليه السلام التنبيه على اختصاره في الدعاء، وتفويضه إلى

---

(١) المعنى: لو قال إبراهيم: «أفئدة الناس» لَحَجَّته اليهود والنصارى.

(٢) قال في (اللسان): «البيت لأبي كبير الهُذَلي»، واسمه عامر بن الحُلَيس، وهو من شعراء الحماسة، قيل: إنه أدرك الإسلام وأسلم. ويروى: «ينضو مخارمها» بدلاً من «يهوي»، والفجاج: جمع فجٍّ وهو الطريق، والمخارم: جمع مَخْرم، وتطلق المخارم على أُنوف الجبال ورؤُوسها، والأجدل: الصقر، وفي حديث مُطرِّف: يَهْوي هُوِيَّ الأجادل، وقوله: «يَهْوى مَخَارِمَها» أراد به: «يهوى في مخارمها»، فهو على هذا ظرف، كقولك: ذهبت الشام، وكقولهم: «عَسَل الطريقَ الثَّعْلَبُ»، أي: في الطريق. وقيل: «يهوي» بمعنى «يقطع»، ومخارمها مفعول صحيح.

(٣) رواه أبو حيان في «البحر»: «مَا مُؤْمِنُ الجنِّ كَكُفَّارها»، و«تَهْوِي» في البيت مثلها في الآية: تقصد في جِدٍّ وسرعة، وتبغي: تريد وتطلب. والبيت غير منسوب.

ما علم الله من رغائبه وحرصه على هداية بنيه والرفق بهم، وغير ذلك. ثم انصرف إِلى الثناءِ على الله تعالىٰ بأَنه علام الغيوب، وإِلى حمده على هباته، وهذه من الآيات المعلمة أَن علم الله تبارك وتعالىٰ بالأَشياءِ هو على التفصيل التام.

ورُوي في قوله: ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ أَنه وُلد له إِسماعيل وهو ابن مائة وسبعة عشر عاماً، ورُوي أَقل من هذا، وإِسماعيل أَسَنُّ من إِسحاق فيما روي، وبحسب ترتيب هذه الآية، ورُوي عن سعيد بن جُبير أَنه قال: بُشِّر إِبراهيم وهو ابن مائة وسبعة عشر عاماً.

وقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾. دعا إِبراهيم عليه السلام في أَمر كان مثابراً عليه، متمسكاً به، ومتى دعا الإِنسان في مثل هذا فإِنما المقصد إِدامة ذلك الأَمر واستمراره، وقرأَ طلحة والأَعمش: ﴿دعاءِ ربنا﴾ بغير ياءٍ، وقرأَ أَبو عمرٍو، وابن كثير: [دُعَائِيْ] بياءٍ ساكنة في الوصل، وأَثبتها بعضهم في الوصل دون الوقف، وقرأَ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بغير ياءٍ في وصل ولا وقف، وروى ورش عن نافع إِثبات الياءِ في الوصل، وقرأَت فرقة: ﴿[وَلِوَالِدَيَّ]﴾، واختلف في تأْويل ذلك، فقالت فرقة: كان هذا من إِبراهيم قبل يأْسه من إِيمان أَبيه وتبَيُّنِهِ أَنه عدوٌّ لله، فأَراد أَباهُ وأُمه لأَنها كانت مؤمنة، وقيل: أَراد أُمه ونوحاً عليه السلام، وقيل: أَراد آدم وحوَّاءَ لأَن أُمه لم تكن مؤمنة، وقيل: أَراد آدم ونوحاً عليهما السلام، وقرأَ سعيد بن جبير: [وَلِوَالِدِي] بإِفراد الأَب وحده، وهذا يدخله ما تقدم من التأْويلات، وقرأَ الزهري، وإِبراهيم النَّخعيّ: [وَلِوَلَدَيَّ] على أَنه دعاءٌ لإِسماعيل وإِسحاق، وأَنكرها عاصم الجحدري وقال: إِن في مصحف أُبَيِّ بن كعب: [ولأَبَوَيَّ]، وقرأَ يحيى بن يَعْمَر: [ولِوُلْدِي] بضم الواو وسكون اللام، وهي لغة في الولَد، ومنه ما أَسند أَبو عليٍّ وغيره:

فَلَيْتَ زِيَاداً كانَ في بَطْنِ أُمِّهِ ... ولَيْتَ زياداً كان وُلْدَ حِمارِ[1]

ويحتمل أَن يكون الوُلْدُ جمع وَلَد، لا كأُسْدٍ في جمع أَسَدٍ.

---

(١) رواه في (اللسان) غير منصوب بلفظ: فليت «فُلاناً». ونقل عن الزجاج قوله: الوَلَد والوُلْد واحد، مثل العَرَب والعُرْب والعَجَم والعُجْم، قال الفراءُ: وأنشد:

ولَقَدْ رَأَيْتُ مَعَاشِراً ... قَدْ ثَمَّرُوا مالاً وَوُلْدَا

ثم أنشد البيت المذكور هنا، وقال: فهذا واحد، وقيسٌ تجعل الوُلْدَ جمعاً والوَلَدَ واحداً.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ يعني: يوم يقوم الناس للحساب، فأسند القيام إلى الحساب إيجازاً إذ المعنى مفهوم، ويتوجه أن يريد قيام الحساب نفسه، ويكون القيام بمعنى ظهوره وتَلَبُّس العباد بين يدي الله به كما تقول: قامت السوقُ، وقامت الصلاة، كما قال: وقامت الحرب على ساق[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾.

هذه الآية بجملتها فيها وعيد للظالمين، وتسلية للمظلومين، والخطاب بقوله: [تَحْسَبَنَّ] لمحمد ﷺ، والمراد بالنهي غيره مِمَّن تَلَبَّس به أن يحسب مثل هذا، وقرأ طلحة بن مصرف: [ولا تحسب الله غافلاً] بإسقاط النون، وكذلك: [فلا تحسب الله مخلف وعده]، وقرأ أبو حيوة، وعبد الرحمن، والحسن، والأعرج: [نُؤَخِّرُهُمْ] بنون العظمة، وقرأ الجمهور: (يُؤَخِّرُهُمْ) بالياءِ، أي الله تعالىٰ. و[تَشْخَصُ] معناه: تُحِدُّ النظر لفزع، ولفرط ذلك يشخص المحتضر.

و«المُهْطِع»: المُسْرِعُ في مشيه، قاله ابن جبير، وقتادة، وذلك بِذِلَّة واستكانة، كإِسْراع الأَسير الخائف ونحوه، وهذا هو أَرجح الأَقوال، وقد توصف الإبل بالإهطاع على معنى الإسراع، وقلَّما يكون إسراعها إلاَّ خوف السوط ونحوه، فمن ذلك قول الشاعر:

وَبِمُهْطِعٍ سُرُحٍ كَأَنَّ عِنَانَهُ ... في رأسِ جِذْعٍ مِنْ أَوَالَ مُشَذَّبِ[2]

---

(١) في (اللسان ـ سوق): «السَّاقُ في اللغة الأمر الشديد، وكَشْفُه ـ في قولهم: يكشف عن ساقه ـ مَثَلٌ في شدة الأمر، كما يقال للشَّحيح: يده مغلولة، ولا يَدَ ثَمَّ ولا غُلَّ، وإنما هو مثل في شدة البخل، فكذلك هذا، لا ساق هناك ولا كشف». فقولهم: قامت الحرب على ساق، إنما يراد به شدة الأمر، ثم قال صاحب اللسان: ولسنا ندفع مع ذلك أن الساق إذا أُريدت بها الشدة فإنما هي مشبهة بالساق التي تعلو القدم».

(٢) البيت في (اللسان ـ أَوَل)، ونسبه ابن بري فيه لأنيف بن جبلة، وروايته فيه:

أَمَّا إِذَا اسْتَقْبَلْتَهُ فَكَأَنَّهُ ... لِلْعَيْنِ جِذْعٌ مِنْ أَوالٍ مُشَذَّبُ =

ومن ذلك قول عِمْرانَ بن حِطَّان:

إِذَا دَعَـانَـا فَـأَهْطَعْنَـا لِـدَعْـوَتِـهِ   داعٍ سميعٌ فَلَفُّـونـا وسَـاقُـونـا[١]

ومنه قول ابن مفرغ:

بِـدِجْلَـةَ دارُهُـمْ وَلَقَـدْ أَرَاهُـمْ   بِـدِجْلَـةَ مُهْطِعِيـنَ إِلَـى السَّمَـاعِ[٢]

ومن ذلك قول الآخر:

بِمُسْتَهْطِـعٍ رَسْـلٍ كَـأَنَّ جَـدِيلَـهُ   بِقَيْـدُومِ رَعْـنٍ مِـنْ صَـوامٍ مُمَنَّـعُ[٣]

وقال ابن عباس، وأبو الضحى: الإهطاع: شدة النظر من غير أن يطرف، وقال ابن زيد: الذي لا يرفع رأسه، قال أبو عبيدة: وقد يكون الإهطاع للوجهين جميعاً: الإسراع وإدامة النظر.

و«والمُقْنِع» هو الذي يرفع رأسه قدماً بوجهه نحو الشيء، ومن ذلك قول الشاعر:

يُبَـاكِـرْنَ الْعِضَـاهَ بِمُقْنَعَـاتٍ   نَـوَاجِـذُهُـنَّ كـالحِـدَأ الْـوَقِيـعِ[٤]

= وفي معجم ما استعجم للبكري: أَوَالُ: قرية بالبحرين، وقيل: جزيرة، فإن كانت قرية فهي من قُرى السِّيف، ويشهد لذلك قول ابن مُقبل: «وكأنَّها سُفُنٌ بسيفِ أوال». والمُهْطع: الذي يسرع في مشيته مع خوف، والسُّرُح: السريعة، قال في اللسان: «خيلٌ سُرُحٌ في سيرها، أي سريعة»، والجذع: الساق من الشجرة ونحوه من الأغصان المتينة، والمشذَّب: الذي هُذِّبَ وأُزيل عنه قشره.

(١) رواه أبو حيان في «البحر»: فَلَبُّونا، ولَفَّ معناها: جَمَعَ، أما لَبَّه فمعناها: ضَرَبَ لَبَّتَه، والإهطاع هو الإسراع في خضوع، وسميع معناها: مُسْمعٌ.

(٢) البيت في «اللسان» غير منسوب، أنشده الليث للتدليل على أن قوله تعالىٰ ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ يحتمل الوجهين اللَّذيْن ذكرهما ابن عطية نقلاً عن أبي عبيدة، والرواية فيه: «بِدِجْلَةَ أَهْلُهَا» بدلاً من «دارُهم».

(٣) أورده صاحب (اللسان ـ قدم)، وأورده الزمخشري في (أساس البلاغة ـ هطع)، والرواية فيه: «من رُضَامٍ مُمَتَّع» بالتاء، وقال: إنه في صفة ثور، والمُسْتَهْطِع هو المُسْرِع، ورَسْل: سَهْلٌ فيه لين، والْجَدِيل: حبْلٌ مجدولٌ أي مفتول من أدم أو شعر، يكون في عُنُق البعير أوالناقة، وجمعه جُدُل، والرَّعْن: أنف الجبل، وقيدوم كلِّ شيءٍ: صدْرُه ومقدمه، وقيدوم الجبل: أنفٌ يتقدم منه، والقيدوم الرَّعْن: هو الأنف المندفع في ارتفاعه، وصَوَام (كسَحَابِ): اسم جبل، قال ذلك صاحب اللسان، والبكري، والمُمَنَّع بالنُّون: المرتفع الصعب الذي يمتنع على الناس فلا يستطيعون الصعود والارتقاءَ فيه. وقد أورد أبو عبيدة البيت في «مجاز القرآن»، وقال: «صُؤَام: بضم الصاد وهمز الواو»، وفسَّر الرَّسْلَ بأنه الذي لا يكلفك شيئاً.

(٤) هذا البيت للشَّمَّاخ بن ضرار، والرواية في الديوان «يبَادِرْنَ» بدلاً من «يُبَاكِرْنَ» والمعنى واحد، وهو =

يصف الإبل بالإقناع عند رعيها أعالي الشجر. وقال الحسن في تفسير هذه الآية: وجوه الناس يوم القيامة إلى السماءِ، لا ينظر أَحد إلى أَحد، وذكر المبرِّد فيما حكي عنه أنَّ الإقناع يوجد في كلام العرب بمعنى خفض الرأس من الذِّلَّة، والأَول أَشهر.

وقوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أَي: لا يطرفون من الحذر والجزع وشدة الحال.

وقوله: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ تشبيه محض، لأَنها ليست بهواءٍ حقيقة، وجهة التشبيه يحتمل أَن تكون في فراغ الأفئدة من الخير والرجاءِ والطمع في الرحمة، فهي منخرقة مشبهة الهواءَ في تفرغه من الأَشياء وانخراقه، ويحتمل أَن يكون في اضطراب أَفئدتهم وجيشانها في صدورهم، وإنما تجيءُ وتذهب وتبلغ ـ على ما رُوي ـ حناجرهم، فهي في ذلك كالهواءِ الذي هو أَبداً في اضطراب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى هاتين الجهتين يشبه قلب الجبان وقلب الرجل المضطرب في أُموره بالهواءِ، فمن ذلك قول الشاعر:

ولا تَـكُ مِـنْ أَخْـدَانِ كُـلِّ يَـرَاعَـةٍ ... هَواءٍ كَسَقْبِ الْبَانِ جُوفٍ مَكَاسِرُهْ[1]

ومن ذلك قول حسَّان:

أَلا أَبْلِـغْ أَبَـا سُفْيَـانَ عَنِّـي ... فَـأَنْـتَ مُجَـوَّفٌ نَخِـبٌ هَـوَاءُ[2]

= الإسراع، والعِضاه: جمع عضاهة وهي أعظم الشجر، والمُقْنَعات: جمع مُقْنع وهو الذي يرفع رأسه نحو الشيءِ، يصف الإبل وهي تسارع إلى أعلى الشجر الكبير فترفع رؤوسها لتأكل منه، والنواجذ: أقصى الأضراس، والحِدأ: جمع حِدَأة، وهي فأسٌ ذات رأسين، والوقيع: الذي حُدِّدَ بالمِيقَعَة وهي المطرقة، يعني: طرقت حتى أصبحت حادَّةً قاطعة، يشبه أضراس الإبل بالفؤوس الحادة التي طرقت بالمطارق حتى أصبحت شديدة القطع. وقد استشهد به أبو عبيدة في «مجاز القرآن» في نفس الموضع.

(١) نسبه في (اللسان ـ يرع) إلى كعب الأمثال، والأخدان: جمع خِدْن وهو الصديق، واليَرَاعة: الجبان الذي لا عقل له ولا رأي، مشتق من القصب، فهو مثل القصب الأجوف، والهواءُ: الجبان الخفيف الفؤاد، أو الذي انتزع فؤاده، والبان: شجر من أشجار البادية، يطول ويرتفع في اعتدال، وبه يشبه الشعراء قوام الحسناء، وسَقْبُ البانِ: عمودُ الخيمة فإذا صُنع من شجر البان كان ضعيفاً لا يحتمل لِقِلَّة صلابته، وجُوفٍ: جمع أجوف، والمكاسر: مواضع الكسر، يعني أنه إذا كُسِر بان أنه أجوف ضعيف. ينهى عن صداقة الأخدان الجبناء الذين لا يعتمد عليهم، وتظهر حقيقتهم الضعيفة عند الاختبار.

(٢) أبو سفيان هو المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب، كان يهجو النبي ﷺ قبل أن يسلم، وكان حسَّان يَرُدُّ=

ومن ذلك قول زهير:

كَأَنَّ الرَّحْلَ مِنْهَا فَوْقَ صَعْلٍ مِنَ الظِّلْمَانِ جُؤْجُؤُهُ هَوَاءُ[١]

فالمعنى أنه في غاية الخفَّة في إجفاله.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ الآية. المرادُ باليوم يومُ القيامة، ونصبه على أنه مفعول بـ [أَنْذِر]، ولا يجوز أَن يكون ظرفاً لأن القيامة ليست بموطن إِنذار. وقوله: [فَيَقُولُ] رفع عطفاً على قوله: [يَأْتِيهم]. وقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ﴾ إلى آخر الآية معناه: يقال لهم، فحذف ذلك إِيجازاً إِذ المعنى يدلُّ عليه، وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ هو المقسم عليه نقل المعنى[٢]، و﴿مِّن زَوَالٍ﴾ معناه: من الأرض بعد الموت، أي: لا بعث من القبور، وهذه الآية ناظرة إِلى ما حكي عنهم في قوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[٣].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾.

يقول عزَّ وجلَّ: أَيها المعرضون عن آيات الله من جميع العالم سكنتم في مساكن الذين ظلموا أَنفسهم بالكفر من الأُمم السالفة فنزلت بهم المثلات، فكان قولكم الاعتبار والاتعاظ، وقرأَ الجمهور: [تَبَيَّنَ] بتاءٍ، وقرأَ السُّلَمي ـ فيما حكى المهدوي ـ:

= عليه. والمُجَوَّف: الخالي الجوف، وهذا دليل الجبن والضعف مع التظاهر بالشجاعة، والنَّخِب والْهَواءُ لهما نفس المعنى، وحسَّان هنا يصف أبا سفيان بالجبن والضعف، وأن هذه هي حقيقته.

(١) يصف زهير في هذا البيت ناقته، والرَّحل: ما يوضع على ظهر البعير للركوب عليه، وكذلك هو كل شيءٍ يوضع على ظهر البعير من وعاءٍ للمتاع وغيره، والصَّعْل: الصغير الرأس، ويريد به هنا ذَكَر النعام (الظَّليم) لأنه صغير الرأس، وجؤجؤه: صدره، وهواءٌ: خالٍ لا قلب فيه، وهو يريد أن يقول: إن الظليم ليس له عقل فهو كالمجنون.

(٢) هكذا في جميع الأصول.

(٣) من الآية (٣٨) من سورة (النحل).

[وَنُبَيِّنْ] بنون عظمة مضمومة وجزم على معنى: أَو لم نُبَيِّنْ، عطف على ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ﴾، قال أَبو عمرو: وقرأَ أَبو عبد الرحمن بضم النون الأُولى ورفع النون الآخرة.

وقوله: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ هو على حذف مضاف تقديره: وعند الله عقاب مكرهم، أَو جزاءُ مكرهم، ويحتمل قوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ أَن يكون خطاباً لمحمد عليه الصلاة والسلام والضمير لمعاصريه، ويحتمل أَن يكون مما يقال للظلمة يوم القيامة، والضمير للذين سُكن في منازلهم.

وقرأَ السبعة سوى الكسائي: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ بكسر اللام الأُولى وفتح الثانية، وهي قراءَة علي بن أَبي طالب وجماعة، وهذا على أَن تكون [إِنْ] نافية بمعنى «ما»، ومعنى الآية تحقير مكرهم، وأَنه ما كان لتزول منه الشرائع والنبوات وأَقدار الله بها التي هي كالجبال في ثبوتها وقوتها، وهذا تأْويل الحسن وجماعة المفسرين. وتحتمل عندي هذه القراءَة أَن تكون بمعنى تعظيم مكرهم، أَي: وإِن كان شديداً إِنما يفعل لتذهب به عظام الأُمور، وقرأَ الكسائي: [لَتَزُولُ] بفتح اللام الأُولى ورفع الثانية[(١)]، وهي قراءَة ابن عباس، ومجاهد، وابن وثاب، وهذا على أَن تكون [إِنْ] مخففة من الثقيلة، ومعنى الآية تعظيم مكرهم وشدته، أَي أَنه مما يُشقى به، ويزيل الجبال من مستقراتها بقوته، ولكن الله تعالىٰ أَبطله ونصر أَولياءَه، وهذا أَشد في العبرة.

وقرأَ علي بن أَبي طالب، وابن مسعود، وعمر بن الخطاب، وَأُبَيُّ بن كعب: [وإِن كاد مكرهم]، ويترتب مع هذه القراءَة في [لَتَزُولُ] ما تقدم[(٢)]، وذكر أَبو حاتم أَن في قراءَة أُبَيّ بن كعب: [وَلَوْلاَ كَلِمَةُ اللهِ لَزَالَ مِنْ مَكْرِهِمُ الْجِبَالُ]، وحكى الطبريُّ عن بعض المفسرين أَنهم جعلوا هذه الآية إِشارة إِلى ما فعل نمروذ، إِذْ علَّق التابوت بين الأَنسر ورفع لها اللَّحم في أَطراف الرِّماح بعد أَن أَجاعها، ودخل هو وحاجبه في

(١) قال ابن خالويه في كتاب «الحجة في القراءات السبع»: «الحُجَّة لمن فتح أنه جعل اللام للتأكيد، فلم تؤثر في الفعل، ولم تُزله عن أصل إعرابه، والحجة لمن كَسَر اللام أنه جعلها لام «كي»، وهي في الحقيقة لام الجحد»، ويترتب مع هذا الكلام ما ذكره ابن عطية في [إن] على القراءتين.

(٢) في «البحر المحيط» أن هذه القراءة بالدال بدلاً من النون تكون مع فتح اللام الأولى ورفع الثانية في [لَتَزُولُ]. ولعلَّ هذا هو ما قصد إليه ابن عطية في عبارته: «ويترتب مع هذه القراءة في [لَتزول] ما تقدم، أي: من فتح اللام الأولى ورفع الثانية، وإن كان الكلام يوهم غير ذلك».

التابوت فعلت بهما الأنسر حتى قال له النمرود: ماذا ترى؟ قال: أرى بحراً وجزيرة، يريد الدنيا المعمورة، ثم قال: ما ترى؟ قال: أرى غماماً ولا أرى جبلاً، فكأن الجبال زالت عن نظر العين بهذا المكر، وذكر ذلك عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك عندي لا يصح عن عليٍّ، وفي هذه القصة كلها ضعف من طريق المعنى، وذلك أنه غير ممكن أن تصعد الأنسر كما وصف، وبعيد أن يُغرِّر أحد بنفسه في مثل هذا.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ الآية. تثبيت للنبي ﷺ ولغيره من أُمَّتِه، ولم يكن النبي ﷺ ممن يحسب مثل هذا، ولكن خرجت العبارة هكذا، والمراد بما فيها من الزَّجر من شارك النبي ﷺ في أن قصد تثبيته. وقرأ جمهور الناس: ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ﴾ بالإضافة ﴿رُسُلَهُۥ﴾ بالنصب، وأضاف ﴿مُخْلِفَ﴾ إلى «الْوَعْدِ» إذ للإخلاف تعلق بالوعيد على تجوز، وإنما حقيقة تعلقه بالرسل، وهذا نحو قول الشاعر:

تَـرَى الثَّـوْرَ فيهـا مُـدْخِـلَ الظِّـلِّ رأسَـه   وسَـائِـرُهُ بـادٍ إِلـى الشَّـمْـسِ أَجْمَـعُ[1]

وكقولك: «هذا مُعْطِي زَيْدٍ درهماً»، وقرأت فرقة: ﴿مُخْلِفَ وَعْدَهُ رُسُلِهِۦ﴾ بنصب «الوعد» وخفض «الرسل» على الإضافة، وهذه القراءَة ذكرها الزَّجاج وضعفها، وهي تَحُول بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول، وهو كقول الشاعر:

فَــزَجَجْتُهَــا بِمَــزَجَّــةٍ   زَجَّ الْقَلُــوصَ أَبِــي مَــزادَه[2]

---

(١) استشهد الفراءُ بهذا البيت في «معاني القرآن»، وكذلك استشهد به الطبري، وأبو حيَّان في «البحر»، ولم ينسبه أحد منهم، قال الفراءُ: «فأضاف (مُدْخِلَ) إلى (الظِّلِّ)، وكان الوجه أن يضيف (مُدْخِل) إلى الرأس»، ومن كلامه هنا: «إذا كان الفعل يقع على شيئين مختلفين مثل: كسَوتُكَ الثوب، وأَدْخَلْتُكَ الدارَ، فابدأ بإضافة الفعل إلى الرجل، فتقول: هو كاسي عبد الله ثوباً، ومُدْخله الدار، ويجوز هو كاسي الثوب عبد الله، ومدخل الدار زيداً، ومنه قول الشاعر «تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّلِّ رَأسَهُ»... البيت. ومثله:

فَــرِشْنِــي بِخَيْــرٍ لا أَكُــونَــنْ وَمِــدْحَتِــي   كَنَــاحِــتِ يَــوْمٍ صَخْــرَةً بِعَسِيــلِ

والشاهد أنه أضاف (ناحِت) إلى (يوم)، ونصب (صخرةً)، ومعنى رِشْنِي: انفعني، والعسيل: مكنسة العطار، وهي من شعر يكنس به العطار الطيب، والمراد أنه لا فائدة فيه كمن ينحت الصخرة بهذه المكنسة الناعمة».

(٢) ذكره الفراءُ في «معاني القرآن» مرتين، الأولى عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾، (١٣٧ من سورة الأنعام)، والثانية هنا في سورة إبراهيم، ونقله عنه ابن عطية وغيره من المفسرين، ورواية الفراءِ: «فَزَجَجْتُهَا مُتَمَكِّناً»، والمراد: =

وأَمَّا إذا حِيلَ في مثل هذا بالظرف فهو أَشهر في الكلام كقوله:

* للهِ دَرُّ الْيَوْمَ مَنْ لاَمَهَا *[1]

وقال آخر:

كَمَا خُطَّ الْكِتَابُ بِكَفِّ يَوْماً ... يَهُودِيٍّ يُقَارِبُ أَوْ يُزِيلُ[2]

والمعنى: لا تحسب يا محمد أَنت ومن اعتبر بالأَمر من أُمَّتك وغيرهم أَن الله لا يُنْجِزُ وعده في نصر رسله وإِظهارهم، ومعاقبة من كفر بهم في الدنيا والآخرة، فإِن الله عزيزٌ لا يمتنع منه شيءٌ، ذو انتقام من الكفرة، ولا سبيل إِلى عفوه عنهم.

قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾ الآية. [يَوْمَ] ظرف للانتقام المذكور قبله، ورُوي في «تبديل الأَرض» أَقوال: منها في الصحيح أَن الله يبدل هذه الأَرض بأَرض عفراءَ بيضاءَ كأَنها قُرْصَةُ النَّقِيِّ[3]، وفي الصحيح أَن الله يبدلها خبزة يأْكل المؤمن منها من تحت قدميه[4]، وروي أَنها تبدل أَرضاً من فضة، وروي أَنها أَرض كالفضة في بياضها[5]، وروي أَنها تبدل

= زَجَجْتُ الكتيبة، أي دفعتها، والقلوص: الناقة الفتية، وأبو مزادة: كنية رجل، والشاهد فيه أنه فصل بين المضاف وهو (زَجَّ) والمضاف إليه وهو (أبي مزادة) بالمفعول وهو (القلوصَ)، وأصل الكلام: زَجَّ أبي مزادةَ القلوصَ. والفراءُ ينكر هذا على أهل المدينة، ويقول: هو باطلٌ، والصوابُ: «زَجَّ القَلُوصِ أبو مزادة».

(١) أصل الكلام: للهِ درُّ مَنْ لامها اليومَ، لكن الشاعر فصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف وهو «اليوم»، وهو كثير في كلام العرب.

(٢) هو كالشاهد السابق في الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف وهو «يوماً»، وأصل الكلام: خُطَّ الكتابُ بكفِّ يهوديٍّ يوماً.

(٣) أخرج البخاري، ومسلم، وابن جرير، وابن مردويه، عن سهل بن سعد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يُحشر الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاءَ عفراءَ كقرصة نَقِي ليس فيها معلم لأحد)، والنَّقِيُّ: دقيق خالص البياض والنقاءِ يسمى الحواريّ، وهو ما حُوِّر أي بُيِّض. والقرصة فطيرة مصنوعة من هذا النقيِّ. (الدر المنثور).

(٤) أخرج البخاريُّ، ومسلم: وابن مردويه عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفرة نزلاً لأهل الجنة...) راجع البخاري ـ كتاب الرقاق ففيه بقية الحديث، وكذلك في الدر المنثور.

(٥) أخرج البزَّار، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في البعث ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾، قال: (أرضٌ بيضاءُ كأنها فضة لم يسفك فيها دمٌ حرامٌ، ولم يعمل فيها خطيئة). (الدر المنثور) و(فتح القدير).

أَرضاً من نار(١) وقال بعض المفسرين: تبديل الأَرض هو نسف جبالها، وتفجير بحارها، وتَغْيِيرها حتى لا تَرى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً، فهذه حال غير الأُولى، وبهذا وقع التبديل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وسمعت من أَبي رضي الله عنه أَنه رُوي أَن التبديل يقع في الأَرض، ولكن يُبدَّل لكل فريق بما يقتضيه حاله، فالمؤمن يكون على خبز يأْكل منه بحسب حاجته إِليه، وفريق يكون على فضة ـ إِن صحَّ السند بها ـ، وفريق الكفرة يكونون على نار، ويجوز هذا مما كله واقع تحت قدرة الله تعالىٰ. وأَكثر المفسِّرين على أَن التبديل يكون بأَرض بيضاءَ عفراءَ لم يُعْصَ اللهُ فيها، ولا سُفك فيها دم، وليس فيها مَعْلم لأَحد. وروي فيها عن النبي ﷺ أَنَّه قال: (المؤمن وقت التبديل في ظل العرش)(٢)، وروي عنه أَنه قال: (الناس وقت التبديل على الصراط)(٣)، وعنه أَنه قال: (الناسُ حينئذ أَضياف الله فلا يعجزهم ما لديه)(٤).

[وَبَرَزُوا] مأْخوذ من الْبَراز، أَي: ظهروا بين يديه لا يواريهم بناءٌ ولا حِصْن. وقوله ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ صفتان لائقتان بهذه الحال.

---

(١) أخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: «الأرض كلها نار يوم القيامة والجنَّة من ورائها ترى أكوابها وكواعبها، والذي نفس عبد الله بيده إن الرجل ليفيض عرقاً حتى يرشح في الأرض قدمه... إلخ» (تفسير الطبري).

(٢) الذي رواه الإمام أحمد في مسنده (٥ـ٣٠٠، ٣٠٨) هو أن أبا قتادة كان له دين على أحد الناس، وكان المدين يختبىء منه، ثم علم ذات يوم أنه في البيت فناداه وسأله عن سبب اختفائه، فقال: إني معسر ـ فبكى أبو قتادة وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من نفَّس عن غريمه، أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة)، وليس لهذا صلة بالتبديل.

(٣) أخرجه أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، والحاكم ـ عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾، قلت: أين الناس يومئذ؟ قال: على الصراط. (الدر المنثور، وتفسير الطبري، وفتح القدير).

(٤) أخرجه أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الدلائل عن أبي أيوب الأنصاري. (الدر المنثور).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

المجرمون هم الكفار، و[مُقَرَّنِينَ] مربوطين في قَرَنٍ وهو الحبل الذي يُشَدُّ به رُؤُوس الإبل والبقر، ومنه قول الشاعر:

وابْـنُ اللَّبُـونِ إذَا مَـا لُـزَّ فـي قَـرَنٍ ... لم يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُزْلِ الْقَنَاعِيسِ[(١)]

و[الأَصْفَاد] الأغلال، واحدها صَفَد، يقال: صَفَده وأَصْفَدَهُ وصَفَّدَه إذا غَلَّلَهُ، والاسم الصفاد، ومنه قول سلامة بن جندل:

وَزَيْـدُ الْخَيْـلِ قَـدْ لاقَـى صِفَـاداً ... يَعَـضُّ بِسَـاعِـدٍ وبِعَظْـمِ سَـاقِ[(٢)]

وكذلك يقال في العطاءِ، ومنه قول النابغة:

.... فَلَمْ أُعرِّض ـ أَبَيْتَ اللَّعْنَ ـ بالصَّفَدِ[(٣)]

---

(١) البيت لجرير، قاله في (اللسان ـ لزز وقنعس)، واللَّبون: التي نزل اللَّبن في ضرعها، وابن اللَّبون: ولد الناقة إذا استكمل السنة الثانية ودخل في الثالثة لأن أُمَّه ولدت غيره فصار لها لبن ـ ولُزَّ: أُلْصِقَ وشُدَّ في قَرَن، والقَرَن: الحبل الذي تربط فيه الإبل والبقر. والبُزْل: جمع بازل وهو البعير الذي طلع نابه، ويكون ذلك في الثامنة أو التاسعة، والقنعاس: الجمل الضخم العظيم، وهو من صفات الذكور عند أبي عبيد، والجمع: القناعس، ويقال فيها: القناعيس.

(٢) هو سلامة بن عمرو، من بني تميم، فارس وشاعر مقل، والصِّفادُ: الغُلُّ أو الوثاق يُشدُّ به الإنسان، يقول: لقد لقي زيد الخيل وثاقاً يشد به شدّاً قوياً، فكأنما يعض من شدته على ساعديه وساقيه.

(٣) هذا عجز بيت، قاله النابغة في قصيدته التي يمدح بها النعمان ويعتذر إليه عما بلغه عنه، والتي مطلعها: «يا دَارَ مَيَّةَ بالعَلْيَاءِ فالسَّنَدِ»، والبيت بتمامه:

هَـذَا الثَّنَـاءُ ـ فَـإِنْ تَسْمَـعْ بِـهِ ـ حَسَنـاً ... فَلَمْ أُعرِّضْ ـ أَبَيْتَ اللَّعْنَ ـ بـالصَّفَـدِ

قول الشاعر: «فإن تسمع به» جملة معترضة بين «الثَّنَاءِ» و«حَسَناً»، والباءُ في «به» زائدة، وأصل المعنى: هذا الثناءُ حسناً يأتيكَ، أي: هذا مديحي لك، ومعنى تَسْمع: تقبل، يريد أن يقول: فإن تقبله مني فهو ما أُريد. و«حسَناً» حال من اسم الإشارة «هذا»، و«أَبَيْتَ اللَّعْنَ» كلمة يخاطب بها العرب ملوكهم، ومعناها: أبيت أن تفعل شيئاً تُلْعَن به، فأنت لا تفعل إلا الحسن الجميل، وأُعرِّض: أقُول كلاماً أكني به عن شيءٍ يستلزمه معناه، يريد: لم أَقُلْ شيئاً فيه تعريض، و«بالصفد» معناها: بالعطاءِ، أي: لم أقصد بمديحي أيَّ عطاءٍ، بل أردتُ رضاكَ فقط. والشاهد أن الصفد جاء بمعنى العطاءِ. وقد=

و«السَّرَابِيل»: القُمُص[1]، و«الْقَطِرَان» هو الذي تُهْنَأُ به الإبل، وللنار فيه اشتعال شديد، فلذلك جعل الله قُمُص أَهل النار منه، ويقال بفتح القاف وكسر الطاءِ، وبكسر القاف وسكون الطاءِ، وبفتح القاف وسكون الطاءِ، وقرأَ عُمَرُ، وعلِيٌّ، والحسن ـ بخلاف ـ وابن عباس، وأَبو هريرة، وعلقمة، وسِنانُ بن سَلَمة، وعكرمة، وابن سيرين، وابن جُبَيْر، والكَلْبِيُّ، وقتادة، وعمرو بن عبيد: [قَطِرٍ آنٍ][2]، والقَطِرُ: القصدير، وقيل: النحاس. وروي عن عمر رضي الله عنه أَنه قال: ليس بالقطران، ولكنه النحاس يُسَرْبلونه، و[آن] صفة، وهو الذائب الحارُّ الذي قد تناهى حرُّه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: يعذبون به، وقال الحسن: قد سُعِّرَت عليه جهنم منذ خلقت فتناهى حرُّه. وقرأَ جمهور الناس: ﴿وُجُوهَهُمُ﴾ بالنَّصب ﴿النَّارُ﴾ بالرفع، وقرأَ ابن مسعود بالعكس، فالأَول على نحو: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾[3] فهي حقيقة الغشيان، والثاني على نحو قول الشاعر:

يُغْشَوْنَ حَتَّى ما تَهِرُّ كِلابُهُمْ لا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ المُقْبِلِ[4]

فهو بِتَجَوُّزٍ في الغشيان، كأَن ورود الوجوه على النار غشيان.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ﴾ أَي: لكي يجزي الله، واللام متعلقة بفعل مضمر

= روي الشطر الأول: «هذا الثناءُ فإن تَسْمَعْ لِقائِلِه». . . .

(١) واحد السَّرابيل: سِرْبَال، والفعل سَرْبَلْتُ وتَسَرْبَلْتُ، قال كعب بن مالك:

تَلْقَاكُمُ عصَبٌ حَوْلَ النَّبِيِّ لَهُمْ مِنْ نَسْجِ داودَ في الهَيْجا سَرابِيلُ

(٢) مكونة من كلمتين: صفة وهي (آن)، وموصوف وهو (قَطِر). وقد فسَّر العلماءُ معنى كل منهما على ما ذكر ابن عطية.

(٣) الآية الأولى من سورة (اللَّيْل).

(٤) ذلك لأنه يريد بالغشيان هنا الزيارة، فمجرد قدوم الزوار إليهم غشيان، والهرير: صوت الكلب دون النباح، يقول: يأتيهم الضيوف ويطرقون أبوابهم في كل وقت حتى أن كلابهم قد اعتادت ذلك فهي لا تنبح ولا تهرُّ أحداً، وهم لا يسألون عن القادم إذا رأوا سواداً لشجاعتهم ولكرمهم. هذا والبيت لحسَّان بن ثابت قاله يمدح جَبَلَة بن الأيهم الغساني، وهو من قصيدته التي مطلعها:

للهِ دَرُّ عِصَابَةٍ نَادَمْتُهُمْ يَوْماً بِجِلَّقَ في الزَّمانِ الأوَّل

وفيها يقول:

بيضُ الوُجُوهِ كَرِيمَةٌ أَحْسَابُهُمْ شُمُّ الأنوفِ مِنَ الطِّرَازِ الأوَّلِ

تقديره: أُنفذ على المجرمين هذا العقاب ليكون في ذلك جزاءُ المسيءِ على إساءَته، وجاءَ من لفظة الكسب بما يعم المسيءَ والمحسنَ لِيُنَبِّه على أَن المحسن أَيضاً يجازى بإحسانه خيراً.

وقوله تعالىٰ: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أَي: فاصله بين خلقه بالإحاطة التي له بدقيق أُمورهم وجليلها، لا إِلٰه غيره، وقيل لِعَلي بن أَبي طالب رضي الله عنه: كيف يحاسبُ الله العبادَ في وقت واحد مع كثرتهم؟ قال: كما يرزقهم في وقت واحد.

وقوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ الآية إِشارة إِلى القرآن والوعيد الذي تضمنه[(١)]، ووصفه بالمصدر في قوله: [بَلاَغٌ]، والمعنى: هذا ذو بلاغ للناس، وهو لينذروا به[(٢)]. وقرأَ الجمهور: [وَلِيُنْذَرُوا] بضم الياءِ وفتح الذال على بناءِ الفعل للمفعول، وقرأَ يحيى بن عمارة، وأَحمد بن يزيد بن أُسيد: [وَلِيَنْذَرُوا] بفتح الياءِ والذال، تقول العرب: «نَذِرْتُ بكذا» إِذا أُشعرتَ به، وتحَرَّزْتَ منه، وأَعْدَدْتَ له[(٣)].

ورُوي أَن قوله سبحانه: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ نزلت في أَبي بكر الصديق رضي الله عنه[(٤)].

انتهى تفسير سورة إِبراهيم عليه الصلاة والسلام
والحمد لله كثيراً، وصلى الله على سيدنا محمد
المبعوث بشيراً ونذيراً وعلى آله وصحبه وسلم

* * *

(١) وقيل: الإشارة إلى السورة. وقيل: الإشارة إلى ما ذكِّر به تعالىٰ من قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾ إلى قوله: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

(٢) معنى ﴿بَلَاغٌ﴾: كفاية في الوعظ والتذكير، والواو في ﴿وَلِيُنذَرُواْ﴾ زائدة عند الماوردي، وقال المبرد: هي واو عطف مفرد على مفرد، فالمعنى عنده: هذا بلاغٌ وإنذار، والمعنى عند الماوردي: هذا بلاغ للإنذار. وهذا من تفسير المعنى لا تفسير الإعراب. والمعنى الذي يفهم من كلام ابن عطية أنه بلاغ للناس، وهو لينذروا به، فجعل ﴿وَلِيُنذَرُواْ﴾ في موضع رفع خبر لمبتدأ تقديره: هو.

(٣) قالوا: لم يُعرف للفعل «نَذِرَ بِهِ» مصدر، فهو مثل «عسى» وغيرها مما استعمل من الأفعال ولم يعرف له أصل.

(٤) رَوَى ذلك يَمَان بنُ رئاب، وقد سئل بعضهم: هل لكتاب الله عنوان؟ فقال: نعم، قيل: وأين هو؟ قال: قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الحِجْر

هذه السورة مكية(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾.

[الٓر]، تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور، و﴿تِلْكَ﴾ يمكن أن تكون إشارة إلى حروف المعجم بحسب بعض الأقوال، ويحتمل أن تكون إشارة إلى الحِكَم والعِبَر ونحوها التي تضمنتها آيات التوراة والإنجيل، وعطف القرآن عليه، قال مجاهد، وقتادة: [الكتاب] في هذه الآية ما نزل من الكتب قبْل القرآن، ويحتمل أن يراد بـ[الكتاب] القرآن، ثم تعطف الصفة عليه(٢).

وقرأ نافع، وعاصم: ﴿رُبَمَا﴾ بتخفيف الباءِ، وقرأ الباقون بشدها، إلا أن أبا عمرو قرأها على الوجهين، وهما لغتان(٣)، ورُوي عن طلحة بن مصرف [رُبَّتما] بزيادة التاءِ،

---

(١) قال الشوكاني: «وهي مكية بالاتفاق كما قال القرطبي»، وأخرج النحاس في ناسخه، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نزلت سورة الحِجْر بمكة»، وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله.

(٢) تنكير «القرآن» هنا للتفخيم، كأنه قيل: تلك آيات الكتاب الكامل، والقرآن الجامع للكمال والغرابة في الشأن.

(٣) قال ابن خالويه في كتاب «الحجة»: «الحجة لمن خفف أن الأصل عنده في التشديد ياءان، أُدغمت إحداهما في الأخرى، فأسقط واحدة تخفيفاً، والحجة لمن شدَّد أنه أتى بلفظها على الأصل، وهو الاختيار، قال الشاعر:

يــا رُبَّ ســارٍ بــاتَ لــنْ يُــوَسَّــدا   إلا ذراعَ العَنْــس أَو كَــفَّ الْيَــدَا =

وهي لغة، و«رُبَّمَا» للتقليل، وقد تجيءُ شاذة للتكثير، وقال قومٌ: إن هذه من تلك[١]، ومنه:

رُبَّ كَــأْسٍ هَــرَقْــتَ يَــابْــنَ لُــؤَيٍّ ....[٢]

وأنكر الزَّجَّاج أَن تجيءَ «رُبَّ» للتكثير[٣].

و«ما» التي تدخل عليها «رُبَّ» قد تكون اسماً نكرةً بمنزلة «شيءٍ»، وذلك إذا كان في الكلام ضمير عائد عليه كقول الشاعر:

رُبَّمَــا تَكْــرَهُ النُّفُــوسُ مِــنَ الأَمْــ ـــرِ لَــهُ فَــرْجَــةٌ كَحَــلِّ الْعِقَــالِ[٤]

التقدير: رُبَّ شيءٍ. وقد تكون حرفاً كافًّا لِـ «رُبَّ» وَمُوَطِّئاً لتدخل على الفعل، إذْ ليس من شأنها أَنْ تدخل إلا على الأَسماءِ، وذلك إذا لم يكن ثَمَّ ضمير عائدٌ، كقول الشاعر:

= (والعَنْس: الناقة الصلبة). وأحكام «رُبَّ» كثيرة، وعلى الرغم من كثرة ورودها في لسان العرب فإنها لم تقع في القرآن إلا في هذه السورة.

(١) يعني أن «رُبَمَا» في هذه الآية من تلك التي جاءَت للتكثير.

(٢) هذا صدر بيت، نقل صاحب اللسان عن الجوهري أنه يقال: هراقَ الماء يُهرَيقه بفتح الهاءِ هِرَاقَةً، أي صَبَّه، وأنشد ابن برِّي:

رُبَّ كَــأْسٍ هَــرَقْتها ابــنَ لُــؤَيٍّ حَــذَرَ المــوتِ لــم تَكُــنْ مُهْــرَاقَــهْ

وابن عطية يستشهد بالبيت على أن «ربَّ» فيه للتكثير.

(٣) قال الزجاج: «من قال: إن رُبَّ يعني بها التكثير فهو ضد ما تعرفه العرب، فإن قال قائل: فلم جازت ربَّ في قوله تعالىٰ: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وربَّ للتقليل؟ فالجواب في هذا أن العرب خوطبت بما تعلمه في التهديد، والرجل يهدد الرجل فيقول له: لعلَّك ستندم على فعلك، وهو لا يشك في أنه يندم، ويقول: ربما ندم الإنسان من مثل ما صنعت، وهو يعلم أن الإنسان يندم كثيراً، ولكن مجازه أن هذا لو كان مما يُوَدُّ في حال واحدة من أحوال العذاب، أو كان الإنسان يخاف أن يندم على الشيءِ لوجب عليه اجتنابه، والدليل على أنه على معنى التهديد قوله تعالىٰ: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾.

(٤) البيت لأُميَّةَ بن أبي الصَّلْت، والفَرْجة: انكشاف الهَمِّ والغَم، والنحويون يستشهدون بهذا البيت على أن «ربَّ» تدخل على مضارع في لفظه، ولكنه ماض في زمنه، بقرينة تدل على المضيِّ الزمني، فالشاعر يقول البيت لرجل هارب من حاكم توعده بالقتل، ثم جاءه الخبر بموت ذلك الحاكم، فهو يريد: ربما جزعتَ، ولا يصلح زمن المضارع هنا إلا للمضي، لأن الجزع لن يقع في المستقبل بعد موت الحاكم وزوال سبب الجزع. والبيت في الكتاب، والخزانة، والعيني، والأشموني، واللسان، وابن الشجري، وابن يعيش.

رُبَّمَا أَوْفَيْتُ فِي عَلَمٍ ... تَرْفَعَنْ ثَوْبِي شَمَالاتُ[١]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكذلك تدخل «ما» على «مِنْ» كافَّةً في نحو قوله: «وكان رسول الله ﷺ مِمَّا يُحرك شفتيه»[٢]، ونحو قول الشاعر:

وإِنَّا لمِمَّا نَضْرِبُ الْكَبْشَ ضَرْبَةً ... عَلَى رَأْسِهِ تُلْقِي اللِّسَانَ مِنَ الْفَمِ[٣]

قال الكسائي، والفراءُ: الباب في «رُبَّما» أَن تدخل على الفعل الماضي، ودخلت هنا على المستقبل إِذ هذه الأَفعال المستقبلة في كلام الله تعالىٰ لمَّا كانت صادقةً واقعةً ولا بُدَّ تجري مجرى الماضي الواقع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد تدخل «رُبَّ» على الماضي الذي يراد به الاستقبال، وتدخل على العكس.

والظاهر في «رُبَّما» في هذه الآية أَن «ما» حرف كافٌّ، هكذا قال أَبو عليٍّ، قال: ويحتمل أَن تكون اسماً، ويكون في [يَوَدُّ] ضمير عائد عليه، التقدير: رُبَّ ودٍّ، أَو شيءٍ يوده الذين كفروا لو كانوا مسلمين، ويكون ﴿لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ بدلاً من [ما].

---

(١) البيت لجذيمة بن مالك الأبرش يفتخر بأنه يصعد الجبل بنفسه ليستطلع أعداءه، ولا يعتمد في ذلك على غيره، وأَوْفَيْت: أشرفت، والعَلَم: الجبل، والشمالات: رياح الشمال الشديدة، وفي البيت الشاهد الذي ذكره ابن عطية وهو أن «ما» هيأت لـ «رُبَّ» أن تدخل على الفعل، وهو شاهد آخر على أن «ربَّما» هنا للتكثير، لأن البيت مسوق للافتخار، ولا يناسبه التقليل، وفيه شاهد ثالث على إدخال نون التوكيد للضرورة، والبيت في سيبويه، وفي الخزانة، وفي مغني اللبيب.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي، والتوحيد، وفضائل القرآن ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾، قال: (كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان مِمَّا يحرك شفتيه، فقال ابن عباس: فأنا أُحركهما لك كما كان رسول الله ﷺ يحركهما، فحرَّك شفتيه، فأنزل الله تبارك وتعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، قال: جَمْعَه لك صدرُك وتقرأهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، قال: فاستمعْ له وأنصت، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، ثم إن علينا أَنْ تَقرَأَهُ، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأ).

(٣) البيت لأبي حيَّةَ النميري، واسمه: الهيثم بن الربيع، وهو شاعر مجيد، وراجز فصيح، من أهل البصرة ومخضرمي الدولتين، والمراد بالكبش سيِّدُ القوم، والبيت في الخزانة، وفي سيبويه، والشاهد فيه أن «ما» تدخل على «من» فتجعلها صالحة لأن يليها الفعل.

وقالت فرقة: تقدير الآية: ربما كان يود الذين كفروا، قال أبو علي: وهذا لا يجيزه سيبويه، لأن «كان» لا تضمر عنده.

واختلف المتأولون في الوقت الذي يود فيه الذين كفروا لو كانوا مسلمين ـ فقالت فرقة: هو عند معاينة الموت في الدنيا، حكى ذلك الضحاك، وفيه نظر؛ إذ لا يقين للكافر حينئذ بحسن حال المسلمين، وقالت فرقة: هو عند معاينة أهوال يوم القيامة، قاله مجاهد، وهذا بيِّن؛ لأن حُسْن حال المسلمين ظاهر فيُوَدُّ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وأنس بن مالك رضي الله عنه: هو عند دخولهم النار ومعرفتهم بدخول المؤمنين الجنة، واحتج لهذا القول بحديث رُوي في هذا من طريق أبي موسى الأشعري، وهو أن الله تعالىٰ إذا أدخل عصاة المسلمين النار نظر إليهم الكفار فقالوا: أليس هؤلاءِ من المسلمين ؟ فماذا أغنت عنهم لا إلـٰه إلا الله ؟ فيغضب الله تعالىٰ لقولهم، فيقول: أخرجوا من النار كل مسلم ؟ قال رسول الله ﷺ: «**فحينئذ يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين**»[1]. وهذا يقينهم فيه متمكن بحُسْن حال المسلمين، فمن حيث هذا كله موطن واحد في كلٍّ قول فـ [رُبَمَا] للتقليل، لأنهم كانوا في الدنيا لا يودون الإسلام في كل أوقاتهم، ومن حيث موطن الآخرة يدوم ودُّهم فيه جعل بعض الناس [رُبَمَا] هذه للتكثير، إذْ كلما تذكر أمره ودَّ أن لو كان مسلماً.

و[لَوْ] في هذه الآية هي التي للتمني، ويدخلها الامتناع من الشيءِ لامتناع غيره بإضمار يوضحه المعنى، وذلك أنهم وَدُّوا لو كانوا مسلمين فينجون النجاءَ الذي مانعه أن لم يكونوا مسلمين.

---

(١) أخرج ابن أبي عاصم في السنة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث والنشور عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفارُ للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار ؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأُخذنا بها، فسمع الله ما قالوا، فأمر بكل من كان في النار من أهل القبلة فأُخرجوا، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا، ثم قرأ رسول الله ﷺ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾، (الدر المنثور).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومن العِبَر في هذه الآية حديث الوابصي الذي في ذيل الأَمالي، ومقتضاه أَنه ارتد ونسي القرآن إلاَّ هذه الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ الآية، وعيدٌ وتهديد، وما فيه من المهادنة منسوخ بآية السيف. وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ ثان، وحكى الطبري عن بعض العلماءِ أَنه قال: الأَول في الدنيا، والثاني في الآخرة، فكيف تطيب حياةٌ بين هذين الوعيدين؟ ومعنى قوله: ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ أي يشغلهم أملهم في الدنيا والتَّزيُّد فيها عن النظر والإِيمان بالله ورسوله.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا﴾ الآية، أَي: لا تَسْتَبْطِئَن هلاكهم، فليس من قرية إلاَّ مُهْلَكَة بأَجل وكتاب. ومعنى [مَعْلُومٌ] محدود، والواو في قوله: ﴿وَلَهَا﴾ هي واو الحال، وقرأَ ابن أَبي عَبْلَة: [إِلَّا لَهَا] بغير واو، وقال منذر بن سعيد: هذه الواو هي التي تعطي أَنَّ الحالةَ التي بعدها هي في الزمان قبل الحالة التي قبل الواو[1]، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[2]. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ

---

(١) للعلماء في هذه الواو آراءٌ كثيرة، ذكر ابن عطية رأيين، وقال الفراءُ: يجوز هذا التعبير بالواو وبدون الواو، فكل اسم نكرة جاءَ خبره بعد إلا والكلام في النكرة تامٌّ فافعل ذلك بصلتها بعد إلا، فإن كان الذي وقع على النكرة ناقصاً فلا يكون إلا بطرح الواو، قال الشاعر:

إذا ما سُتور البَيْتِ أُرْخِينَ لم يَكُنْ ... سراجٌ لَنَا إلا وَوَجْهُكِ أنْوَرُ

فلو قيل: إلا وَجْهُكِ أنورُ جاز، وقال الآخر:

وَما مَسَّ كَفِّي مِنْ يدٍ طابَ ريحُها ... مِنَ النَّاسِ إلا ريحُ كَفَّيْكِ أَطْيَبُ

وقال الزمخشري: الجملة واقعة صفة لـ [قَرْيَة]، والقياسُ ألا تتوسط الواو بينهما، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾، وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، ووافقه على ذلك أبو البقاءِ. وعقَّب على قول كل منهما أبو حيان الأندلسي فقال: وهذا الذي قاله الزمخشري، وتبعه فيه أبو البقاءِ لا نعلم أحداً قاله من النحويِّين، قال الأخفش: لا يُفصل بين الصفة والموصوف بـ «إلا».

(٢) من الآية (٧٣) من سورة (الزُّمَر).

ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾.

الضمير في [قَالُوا] يُراد به كفارُ قريش، ويروى أَن القائلين كانوا: عبد الله بن أَبي أُميَّة، والنضر بن الحارث وأَشباههما، وقرأَ الأَعمش: [يَاأَيُّها ٱلَّذِي أُلْقِيَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ]. وقولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ كلامٌ على جهة الاستخفاف، أَي بزعمكَ ودعواكَ، وهذه المخاطبة كما تقول لرجل جاهل أَراد أَن يتكلم فيما لا يُحْسِن: يأَيُّها العالِم أَنت لا تُحْسِن تتوضأ.

و﴿لَوْما﴾ بمعنى «لولا» فتكون تحضيضاً كما هي في هذه الآية، وقد تكون دالةً على امتناع شيءٍ لوجوب غيره، كما قال ابن مقبل:

لَـوْلاَ الحيـاءُ ولَـوْمَـا الـدِّيـنُ عِبْتُكُمَـا ... بِبَعْضِ ما فيكُمَا إِذْ عِبْتُمَا عَوَري[1]

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: [ما تَنزل الملائكةُ] بفتح التاءِ والرفع[2]، وقرأَ عاصم في رواية أَبي بكر كذلك إِلاَّ أَنه ضم التاءَ، وهي قراءَة يحيى بن وثاب، وقرأَ حمزة، والكسائي، وحفص: ﴿نُنَزِّلُ﴾ بنون العظمة ﴿ٱلْمَلاَئِكَةَ﴾ نصباً، وهي قراءَة طلحة بن مصرف.

وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، قال مجاهد: المعنى: بالرسالة والعذاب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والظاهر أَن معناه: كما يجب ويحق من الوحي والمنافع التي أَراها الله لعباده، لا على اقتراح كافر، ولا باختيار معترض. ثم ذكر عادة الله في الأُمم من أَنه لم يأْتهم بآية اقتراح إِلا ومعها العذاب في أَثرها إِن لم يؤمنوا، وكأَن الكلام: ما نُنَزِّل الملائكة إِلا بحق واجب لا باقتراحكم، وأَيضاً فلو نزلت لم يُنظروا بعد ذلك بالعذاب، أَي: لم

---

(١) البيت شاهد على أن «لَوْمَا» بمعنى «لَوْلا»، ولهذا تستعمل في امتناع الشيءِ لوجود غيره، وقد قال أبو عبيدة في معاني القرآن: «لوما» مجازها ومجاز «لولا» واحد، ثم استشهد ببيت ابن مقبل، واستشهد به الطبري، وعنهما أخذ ابن عطية.

(٢) يعني رفع كلمة «الملائكة» على أنها فاعل للفعل «تَنَزَّل».

يؤخروا، والنَّظِرَة: التأخير، والمعنى: فهذا لا يكون أبداً إذ كان في علم الله أَن منهم من يؤمن، أَو يلد من يؤمن.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ ردٌّ على المستخفِّين في قولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾، وهذا كما يقول لك رجل على جهة الاستخفاف: «يا عظيم القدر»، فتقول له على جهة الرَّدِّ والنَّجْه[1]: نعم أَنا عظيم القدر، ثم تأْخذ في قولك، فتأَمله. وقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾، قالت فرقة: الضمير في [لَهُ] عائد على محمد عليه الصلاة والسلام، أَي: نحفظه من أَذاكم، ونحوطه من مكركم وغيره، ذكر الطبري هذا القول ولم ينسبه، وفي ضمن هذه العِدَة كان رسول الله ﷺ حتى أَظهر الله به الشرع وحان أَجله، وقالت فرقة ـ وهي الأَكثر ـ: الضمير في [لَهُ] عائد على القرآن، وقاله مجاهد، وقتادة، والمعنى: لحافظون من أَن يبدل أَو يغير كما جرى في سائر الكتب المنزلة، وفي آخر ورقة من البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن التبديل فيها إِنما كان في التأْويل، وأَما في اللفظ فلا، وظاهر آيات القرآن أَنهم بدلوا اللفظ، وَوَضْع اليَدِ على آية الرجم هو في معنى تبديل الأَلفاظ[2]. وقيل: لحافظون باختزانه في صدور الرجال، والمعنى متقارب، وقال قتادة: هذه الآية نحو قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ الآية تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام، وعَرْض أُسوة، أَي: لا يضيق صدرك يا محمد بما يفعله قومك من الاستهزاءِ في قولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ وغير ذلك، فقد تقدم منا إِرسال الرسل في شِيَع

---

(١) يقال: نَجَهَ فلاناً نَجْهاً: ردَّه أقبح ردٍّ. (المعجم الوسيط).

(٢) وضع اليد على آية الرجم ورد في حديث رواه البخاري وغيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويُجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما، قال عبد الله: فرأيت الرجل يَجْنَأُ على المرأة يقيها الحجارة. (البخاري ـ باب المناقب). قال ابن الأثير في النهاية: (يُجْنِىء) أي: يُكِبُّ عليها ويميل، أَجْنَأَ يُجْنِىءُ إجناءً، وفي رواية أُخرى: (يُجَانِىءُ عليها)، مفاعلة، ويروى بالحاء المهملة.

(٣) من الآية (٤٢) من سورة (فُصلت).

الأولين، وكانت تلك سيرتهم في الاستهزاءِ بالرسل، و«الشِّيَعُ» جمع شِيعَةٍ، وهي الفرقة التابعة لرأس، إمَّا مذهب أَو رجل أَو نحوه، وهي مأخوذة من قولهم: شيعت النار إِذا استدمت وقدها بحطب أَو غيره، فكأَن الشيعة تصل أمر رأسها وتظهره وتمده بمعونة. وقوله: ﴿أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ تقتضي «رُسُلاً»، ثم اختصر ذكرهم لدلالة ظاهر القول على ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

الضمير عائد على الاستهزاءِ أَو الشرك ونحوه، وهو قول الحسن، وقتادة، وابن جريج، وابن زيد، ويكون الضمير في [بِهِ] يعود على ذلك بعينه، وتكون باءُ السبب، أَي: لا يؤمنون بسبب شِرْكهم واستهزائهم، ويكون قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ في موضع الحال. ويحتمل أَن يكون الضمير في ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ عائداً على «الذِّكْر المحفوظ» المتقدم الذكر وهو القرآن، أَي: مكذَّباً به مردوداً مُسْتَهْزَءاً به ندخله في قلوب المجرمين، ويكون الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائداً عليه أَيضاً، أَي: لا يصدقون به. ويحتمل أَن يكون الضمير في ﴿نسْلُكُهُ﴾ عائداً على الاستهزاءِ والشرك، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود على القرآن، فيختلف على هذا عَوْد الضميرين، والمعنى في ذلك كله ينظر بعضه إِلى بعض.

و﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ معناه نُدْخِلُه، يقال: سلكْتُ الرجل في الأَمر إِذا أَدخلته فيه، ومن هذا قول الشاعر:

وَكُنْـتُ لِـزَازَ خَصْمِـكَ لَـمْ أُعَـرِّدْ ... وَقَـدْ سلكُـوكَ فـي أَمْـرٍ عَصِيـبِ[(١)]

ومنه قول الآخر:

حَتَّـى إِذا أَسْلَكُـوهُـمْ فـي قُتَـائِـدَةٍ ... شَلاً كما تَطْرُد الْجَمَّالَةُ الشُّرُدَا[(٢)]

---

(١) البيت لعديّ بن زيد العباديّ، وقد سبق أن استشهد به ابن عطية في تفسير سورة هود، عند قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾، وقد ذكره في اللسان شاهداً على أن السَّلْكَ بالفتح هو مصدر سَلَكْتُ الشيءَ في الشيءِ فانسلَكَ، أي: أدخلته فيه فدخل. وَلِزاز خَصْم معناه: مُقَارِنه ومُلْتَصِقٌ به لا أُفارقه مع القدرة عليه. ولم أُعَرِّدْ: لم أُحْجِم ولم أَفِرَّ من المعركة.

(٢) البيت لعبد مناف بن رِبْع الهُذَلي، وهو في (اللسان ـ جمل وسلك)، وهو هنا شاهد على أن أسلك =

ومنه قول أَبي وَجْزَة يصف حُمُر وَحْشٍ:

حَتَّى سَلَكْنَ الشَّوى مِنهُنَّ في مَسَكٍ ... مِن نَسْلِ جَوَّابَةِ الآفاقِ مِهْدَاجِ(١)

قال الزَّجاج: ويُقرأُ: [نُسْلِكُهُ] بضم النون وكسر اللام. و﴿المُجْرِمِينَ﴾ في هذه الآية يُراد بهم كفار قريش ومعاصري رسول الله ﷺ.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ عموم معناه الخصوص فيمن ختم عليه. وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَي: على هذه الوتيرة، وتقول: سلَكْتُ الرجلَ في الأَمر وأَسْلَكْتُه بمعنى واحد، ويُروى:

حَتَّى إِذَاْ أَسْلَكُوهُمْ في قُتَائِدَةٍ ... .

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ الضمير عائد على قريش وكفرة العصر المختوم عليهم، والضمير في قوله: ﴿فَظَلُّوا﴾ يحتمل أَن يعود عليهم، وهو أَبلغ في إِصرارهم، وهذا هو تأْويل الحسن. و﴿يَعْرُجُونَ﴾ معناه: يصعدون، وقرأَ الأَعمش، وأَبو حيوة: [يَعْرِجُونَ] بكسر الراءِ(٢)، والمعارج: الأَدراج، ومنه المِعْرَاج، ومنه قول كثير:

إِلَى حسَبٍ عَوْدٍ بَنى الْمَرْءَ قَبْلَهُ ... أَبُوهُ لَهُ فِيهِ مَعَارِجُ سُلَّمِ(٣)

= بالهمزة في أوله مثل سَلَك التي في بيت عديّ بن زيد، وهو أيضاً في خزانة الأدب شاهداً على أن جواب إذا محذوف، والتقدير: بلغوا أملهم، وهذا هو رأي الرضي شارح كافية ابن الحاجب، وقال البغدادي أيضاً: إن أسلك لغة في سلك، يقال: أسلكت الشيءَ في الشيءِ، مثل سلكته فيه، بمعنى أدخلته فيه، فهو من رأي ابن عطية، وكذلك الطبريُّ من رأيهما، وقُتَائِدَة: جَبَلٌ بين المنصرف والروحاءِ، قال ذلك البكري، وقيل: هي ثَنِيَّة، والشَّلُّ: الطَّرْدُ، والجَمَّالة: أصحاب الجمال، وهي في الوزن مثل الحَمَّارة لأصحاب الحمير، وهي فاعل للفعل تَطْرُد، والشُّرُد: جمع شرود، يريد: من الجمال.

(١) البيت لأبي وجْزَةَ، قال صاحب (اللسان ـ مَسَك) بعد أن ذكر أن المَسَك أسْوِرَةٌ من ذَبْلٍ أو عاج: «واستعاره أبو وجزة فجعل ما تُدخل فيه الأُتن أَرْجُلَها من الماءِ مَسَكاً فقال: حتى سلكن... البيت». وفي التهذيب: «المَسَك الذَّبْل من العاج كهيئة السِّوار تجعله المرأة في يديها، فذلك المسك، والذَّبْل: القرون». والشَّوَى: القوائم، وقيل: هي اليدان والرجلان، والمرادُ واحد. وجابَ يجوب جوباً: قَطع وخَرَقَ، ورجُلٌ جَوَّابٌ: مُعتادٌ لذلك إذا كان قطَّاعاً للبلاد سَيَّاراً فيها، والمِهْدَاجُ: العطوفُ الحنون على ولدها، يقول: إن هذه الحمر أدخلت قوائمها أو أرجلها فيما يشبه المَسَك من الماء، ثم جعل ذلك الماء من نَسل ريح تجوب البلاد، فجعل الماءَ للريح كالولد لأن الريح حملته.

(٢) وهي لغة هذيل في العروج بمعنى الصعود.

(٣) الحَسَب: الشرف الثابت في الآباءِ، أو ما يَعُدُّه الإنسان من مفاخر آبائه، والعَوْد: القديم الضخم، =

ويحتمل أن يعود على الملائكة لقولهم: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، فكأن الله تعالىٰ قال: «ولو رأوا الملائكة يصعدون ويتصرفون في باب مفتوح في السماءِ لما آمنوا»، وهذا هو تأويل ابن عباس رضي الله عنهما.

وقرأ السبعة سوى ابن كثير: ﴿سُكِّرَتْ﴾ بِضَمِّ السِّين وشد الكاف، وقرأ ابن كثير وحده بتخفيف الكاف، وهي قراءَة مجاهد، وقرأ الزهري بفتح السين وتخفيف الكاف، على بناءِ الفعل للفاعل، وقرأ أبان بن تغلب: «سُحِّرت أبصارنا»، ويجيءُ قوله: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ انتقالاً إلى درجة عُظمى من سحر العقل. وتقول العرب: «سَكَرَت الريحُ تَسْكُر سُكُوراً» إذا ركدت ولم تنفذ لما كانت بسبيله أولاً، وتقول: «سَكِر الرَّجُلُ من الشراب يَسْكَرُ سُكْراً» إذا تغيرت حاله وركد ولم ينفذ فيما للإنسان أن ينفذ فيه، ومن هذا المعنى «سَكْران لا يَبتُّ»، أي: لا يقطع أمراً، وتقول العرب: «سَكَرْتُ الفَتْق في مجاري الماءِ سَكْراً» إذا طَمسته وصرفتَ الماءَ عنه فلم ينفذ لوجهه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذه اللفظة: ﴿سُكِّرَتْ﴾ بشَدِّ الكاف، إن كانت من سُكْر الشراب، أو من سُكُورِ الرِّيح فهي فعل عُدِّي بالتضعيف، وإن كانت من سَكْر مجاري الماءِ فتضعيفها للمبالغة لا للتعدية، لأن المخفف من فعله مُتَعَدٍّ، ورجَّح أبو حاتم هذه القراءَة، لأن «الأبصار» جمع، والتثقيل مع الجمع أكثر، كما قال: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾[1]، ومن قرأ: [سُكِرَتْ] بضم السِّين وتخفيف الكاف، فإن كانت اللفظة من سَكْر الماءِ فهو فعل مُتَعَدٍّ، وإن كانت من سُكْر الشراب، أو من سُكُور الرِّيح فتضمنا أن الفعل بني للمفعول إلى أن ننزله متعدياً، ويكون هذا الفعل من قبيل: رجع زَيْدٌ ورَجَعه غيرُه، وغارت العين وغارها الرجلُ، فتقول ـ على هذا ـ: سكِرَ الرجلُ وسَكَرَهُ غيرُه، وسَكَرت الريحُ وسَكَرَها شيءٌ غيرها، ومعنى هذه المقالة منهم: أي غُيِّرت أبصارُنا عما كانت عليه، فهي لا تعطينا حقائق الأشياءِ كما كانت تفعل. وعبَّر بعض المفسرين عن هذه اللفظة بقوله: غشي على أبصارنا، وقال بعضهم: عميت أبصارنا، وهذا ونحوه تفسير بالمعنى لا يرتبط باللفظ، ويقال أيضاً: هؤلاء المبصرون عروج الملائكة أو عروج أنفسهم بعد

= والمعارج: جمع مَعْرج (بالفتح والكسر في الميم) وهو ما يصعد فيه، والعروج هو الصعود.

(١) من الآية (٥٠) من سورة (ص).

قولهم: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ بل سُحِرْنا حتَّى لا نعقل الأشياءَ كما يجب، أي صرف فينا السحر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾.

لما ذكر أنهم لو رأَوا الآية المذكورة قبل في السماءِ لعاندوا فيها عقَّب ذلك بهذه الآية، كأَنه قال: وإن في السماءِ لعِبَراً منصوبة غير هذه المذكورة، وكفرهم بها وإِعراضهم عنها إِصرارٌ منهم وعُتُوٌّ، والبروج: المنازل، واحدها بُرْج، وسُمِّي بذلك لظهوره ووضوحه، ومنها تبرُّج المرأَة ظهورها وبدوها، والعرب تقول: «برج الشيءُ» إِذا ظهر وارتفع.

وحفظ السماءِ هو بالرجم بالشهب على ما تضمنته الأَحاديث الصحاح، قال رسول الله ﷺ: (إِن الشياطين تقرب من السماءِ أَفواجاً قال: فينفرد المراد منها فيعلو فيسمع فيرمى بالشهاب، فيقول لأَصحابه وهو يلهث: إِنه من الأَمر كذا وكذا، فيزيد الشيطان في ذلك، ويلقون إِلى الكهنة، فيزيدون مع الكلمة مائة)، ونحو هذا الحديث[1]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إِن الشهب تَجْرَحُ وتؤذي ولا تقتل، وقال الحسن: تقتل، وفي الأَحاديث ما يدل على أَن الرجم كان في الجاهلية ولكنه

(١) روى البخاري في تفسير سورة الحِجْر عن أبي هريرة يَبْلُغ به النبي ﷺ، قال: «إذا قضى الله الأمر في السماءِ ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان، قال علي وقال غيره: صفوانٍ يَنفُذُهم ذلك، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحقَّ وهو العليُّ الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا، واحد فوق آخر، ووصف سُفيان بيده، وفرَّج بين أصابع يده اليمنى، نصبها بعضها فوق بعض ـ فربما أدرك الشهابُ المستمع قبل أن يرمي إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض، وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض ـ فتلقى على فم الساحر، فيكذب معها مائة كذبة، فيصدُق فيقولون: ألَم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقّاً للكلمة التي سمعت من السماء»، والأحاديث في ذلك كثيرة وصحيحة.

اشتد في وقت الإسلام، وحفظ السماءَ حفظاً تامًّا. وقال الزَّجاج: لم يكن إلا بعد النبي عليه الصلاة والسلام؛ بدليل أن الشعراءَ لم يشبهوا به في السرعة إلا بعد الإسلام، وذكر الزهراوي عن أَبي رجاءٍ العطاردي: كنا لا نرى الرجم بالنجوم قبل الإسلام، و﴿رَجِيمٍ﴾ بمعنى مرجوم، فعيل بمعنى مفعول، فإمَّا من رجْم الشهب، وإما من الرجم الذي هو الشتم والذم. ويقال: تَبِعْت الرجل واتَّبَعْتُه بمعنى واحد[١]، و﴿إِلاَّ﴾ بمعنى لكن، هذا قول، والظاهر أَن الاستثناءَ من الحفظ، وقال محمد بن يحيى عن أَبيه: إلاَّ منِ اسْتَرَقَ السَّمع فإنها لم تحفظ منه، ذكره الزهراوي.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا﴾ روي في الحديث أَن الأَرض كانت تتكفَّأُ بأَهلها كما تتكَفَّأُ السفينة فثبتها الله تبارك وتعالىٰ بالجبال، ويقال: رَسَا الشيءُ يرسو إذا رسخ وثبت، وقوله: ﴿مَّوْزُونٍ﴾، قال الجمهور: معناه: مقدر محدد[٢] بقصد وإرادة، فالوزن على هذا مستعار، وقال ابن زيد: المراد ما يوزن حقيقة كالذهب والفضة وغير ذلك مما يوزن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَول أَعَمُّ وأَحسن[٣].

و«المعايش» جمع معيشة، وقرأَها الأَعرج بالهمز، وكذلك روى خارجة عن نافع، والوجه ترك الهمز، لأَن الأَصل في ياءِ «معيشة» الحركة، فيردها الأَصل إلى الجمع، بخلاف «مدينة ومدائن»[٤]، وقوله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ يحتمل أَن تكون ﴿مَنْ﴾

---

(١) قال في (اللسان ـ تبع): «تَبِعْتُ الشيءَ تُبُوعاً: سِرْتُ في أثره، واتَّبَعْه وأَتْبَعَه وتَتَبَّعَهُ قفاه وتَطَلَّبَه مُتَّبِعاً له»، ونقل عن سيبويه أنه قال: إنَّ (تَتَبَّعْتُ) في معنى (اتَّبَعْتُ).

(٢) في بعض النسخ: (مُحَرَّر) بالراء، وهو النَّص الذي نقله عنه أبو حيان في «البحر المحيط».

(٣) نقل القرطبي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير أنهما قالا: «إنما قال: [مَوْزُون] لأن الوزن يُعرف به مقدار الشيءِ»، ثم أنشد:

قـد كنْـتُ قَبْـلَ لِقَـائِكُـمْ ذا مِـرَّةٍ ... عِنْـدِي لكُـلِّ مُخَـاصِـمٍ مِيـزانُـه

وقال قتادة: موزون يعني مقسوم، وقال مجاهد: موزون معدود.

(٤) يقول النحويون: إن الهمزة إنما تكون في هذه الياءِ إذا كانت زائدة، مثل صحيفة وصحائف، فأما معايش فالياءُ أصلية لأنها من العيش، ومَعيشة وزنها مَفْعِلة، والياءُ أصلها متحركة فلا تنقلب في الجمع همزة، وبهذا يتضح كلام المؤلف.

في موضع نصب على ثلاثة أوجه: أَحدها أَن يكون عطفاً على ﴿مَعَايِشَ﴾، كأَن الله تعالىٰ عدَّد النِّعم في المعايش وهي ما يُؤْكل ويُلْبس، ثم عدَّد النعم في الحيوان والعبيد والضياع وغير ذلك مما ينتفع به الناس وليس عليهم رزقهم، والوجه الثاني أَن تكون ﴿مَنْ﴾ معطوفة على موضع الضمير في ﴿لَكُمْ﴾، وذلك أَن التقدير: وأَعَشْناكم وأَعشْنا(١) أُمماً غيركم من الحيوان، وكأَن الآية ـ على هذا ـ فيها اعتبار وعرض آية، والوجه الثالث أَن تكون [مَنْ] منصوبة بإضمار فعل يقتضيه الظاهر وتقديره: وأَعَشْنا مَنْ لسْتُم له برازقين، ويحتمل أَن تكون ﴿مَنْ﴾ في موضع خَفْض عطفاً على الضمير في ﴿لَكُمْ﴾، وهذا قلق في النحو، لأَنه العطف على الضمير المجرور وفيه قُبْح، فكأَنه قال: ومن لَسْتُمْ له برازقين وأَنتم تنتفعون به.

وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾(٢)، قال ابن جريج: هو المطر خاصة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وينبغي أَن يكون أَعَمَّ من هذا في كثير من المخلوقات، و«الخزائن» المواضع الحاوية، وظاهر هذا أَن الماءَ والريح ونحو ذلك موجود مخلوق، وهو ظاهر قولهم في الريح: «عتَت على الخزائن، وانفتح منها قدر حلقة الخاتم، ولو كان قدر منخر الثور لأَهلك الأَرض»، إلى غير ذلك من الشواهد، وذهب قوم إلى أَن كونها في القدرة هو خَزْنُهَا، فإذا شاءَ الله أَوجدها، وهذا أَيضاً ظاهر في أَشياءَ كثيرة، وهو لازم في الأَعراض إذا عَمَّمْنا لفظة «شيءٍ»، وكيفما كان الأَمر فالقدرة تسعه وتُتْقنه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾، ما كان من المطر ونحوه فالإنزال فيه متمكن، وما كان من غير ذلك فإيجاده والتمكين من الانتفاع به إنزالٌ على تجوز، وقرأَ الأَعمش: [وَمَا نُرْسِلُهُ إلاَّ بِقَدَرٍ معْلُوم](٣)، وقوله: ﴿بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ روي فيه ابن مسعود وغيره أَنه ليس عامٌ أَكثر مطراً من عام، ولكن ينزله الله في مواضع دون مواضع.

---

(١) في بعض الأصول: «وأمعشناكم وأمعشنا أُمماً غيركم» بالميم، وفي بعض آخر: «وأنْعَشْناكم...» بالنون.

(٢) [إنْ] نافية، و[مِنْ] زائدة، وأصل الكلام: لا شيءَ إلا عندنا خزائنه.

(٣) قال أبو حيان في البحر المحيط: «وهي قراءة تفسير معنى، لا أنها لفظ قرآن لمخالفتها سواد المصحف».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

يقال: لقحت الناقة والشجرة فهي لاقحة إذا حملت، والرياح تلقح الشجر والسحاب، فالوجه في الريح أَنها مُلَقِّحَة لا لاقحة، وتتجه صفة الرياح بـ[لَوَاقح] على أَربعة أَوجه: أَولها وأَوْلاها أَن جعلها لاقحة حقيقة؛ وذلك أَن الريح منها ما فيه عذاب أَو ضر أَو نار، ومنها ما فيه رحمة أَو مطر أَو نصر أَو غير ذلك، فإِذاً هي تَحْمِلُ مَا حَمَّلَتها القدرة، أَو ما علقته من الهواءِ أَو التراب أَو الماءِ الذي مرت عليه، فهي لاقحة بهذا الوجه، وإِن كانت أَيضاً تلقح غيرها وتصير إِليه نفعها، والعرب تُسمِّي الجنوب الحامل واللاقحة، وتسمِّي الشمال الحايل[1] والعقيم ومَحْوة لأَنها تمحو السحاب، روى أَبو هريرة أَن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «الرِّيح الجنوب من الجنة، وهي اللواقح التي ذكر الله، وفيها منافع للناس»[2]، ومن هذا قول الطِّرِمَّاح:

قَلِقٌ لأَفْنَانِ الرِّيَا ... حِ لِلاَقِحٍ منها وحائل[3]

وقول أَبي وجزة:

. . . . مِنْ نَسْلِ جَوَّابَةِ الآفَاقِ. . .[4]

---

(١) أي التي لا تحمل خيراً، يقال: حالت النَّاقة تحيل حيالاً: لم تحمل، قال الشاعر:

مِنْ سَرَاةِ الهِجَانِ صَلَّبَهَا العُضْـ ... ـضُ ورَعْيُ الحِمَى وطولُ الحِيَالِ

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السحاب، وابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، والديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه، وللحديث بقية هي «والشمال من النار تخرج فتمر بالجنة فيصيبها نعمة منها فَبَرْدها هذا من ذلك». (الدر المنثور، وفتح القدير).

(٣) اللاَّقح: الجنوب، والحائل: الشمال، وتسمى الشمال عقيماً، كما سمَّاها الطِرِمَّاحُ حائلاً، وقال أبو عليٍّ في الحجة: «الرياح أربع: الشمال، والجنوب، والصَّبا، والدبور، فأما الشمال فمن عن يمين القبلة، والجنوب من عن شمالها، والصَّبا والدبور متقابلتان، فالصَّبا من قِبَل المشرق، والدبور من قِبَل المغرب، وإذا جاءت الريح بين الصَّبا والشمال فهي النكباء».

(٤) هذا جزء من البيت، وقد سبق الاستشهاد به والحديث عنه في هذا الجزء عند تفسير قوله تعالىٰ في الآية (١٢) من هذه السورة: ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾، والبيت بتمامه: =

فجعلها حاملاً بنسل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويخرج هذا على أَنها ملقحة فلا حجة فيه.

والثاني أَن يكون وصفها بـ [لَوَاقِحَ] من باب قولهم: «ليل نائِمٌ»، أَي: فيه نوم ومعه، «ويوم عاصف» ونحوه، فهذا على طريق المجاز. والثالث أَن توصف الرياح بـ [لَوَاقح] على جهة النسب، أَي: ذات لقح، كقول النابغة:

كِلِينــي لِهَـمٌ يــا أُمَيْمَــةَ نَــاصِــبِ . . . . (١)

أَي: ذي نصب. والرابع أَن يكون [لَوَاقح] جمع «ملقحة» على حذف زوائده، فكأَنه «لَقِحة» فجمعها كما تجمع «لاقحة»، ومثله قول الشاعر:

لِيُبْــك يَــزِيــدٌ ضَــارعٌ لِخُصــومَــةٍ ... وأَشعَثُ مِمَّن طَـوَّحَتْـهُ الطَّـوَائِـحُ(٢)

وإِنما طَوَّحَتْهُ المطاوح، وعلى هذا النحو فسَّرها أَبو عبيدة في قوله: «لواقح ملاقح»، وكذلك العبارة عنها في كتاب البخاري: «لواقح ملاقح ملقحة».

= حَتَّـى سلَكْـنَ الشَّـوَى مِنْهُـنَّ فـي مَسَـكٍ ... مِـنْ نَسْـلِ جَـوَّابَـةِ الآفَـاقِ مِهْـدَاج

والشاهد هنا أنه جعل الريح التي تجوب الآفاق حاملاً بماءٍ تكونت منه بعد ذلك بِرَكٌ أَدخلت فيها الحمر الوحشية قوائمها.

(١) البيت بتمامه:

كِلِينِــي لِهَــمٌ يــا أُمَيْمَــةَ نــاصِــبِ ... وَلَيْــلٍ أُقــاسيــه بَطِــيءِ الْكَــوَاكِــبِ

وهو مطلع قصيدة للنابغة يمدح بها عمرو بن الحارث الأعرج، حين هرب من النعمان بن المنذر، وفيه يطلب إلى أُميمة أن تتركه لهذا الهم الذي ينصب فيه ويتعب، ولهذا الليل الطويل الذي لا يريد أن يفارقه. والشاهد هنا أن «ناصب» بمعنى «ذي نصب» على جهة النسب، وهذا رأي من الآراء التي قيلت في البيت، وقال الأصمعي: ناصب: ذي نصب، مثل: ليل نائم، أي ذو نوم، ورجل دارع، أي ذو درع، وكذلك قال سيبويه، وقال في اللسان: هَمٌّ ناصب: مُنْصب، وحكى أبو علي نَصْبَه لـ (هَمٌّ). فهل يا تُرى يريد أنه اسم فاعل قياسي جارٍ على فعله، وليس على النَّسَب ولا على التجوز في الإسناد؟.

(٢) هذا البيت لنهشل بن حريّ، وقد استشهد به أبو عبيدة عند تفسير هذه الآية ونسبه لنهشل، وكذلك نسبه البغدادي لنهشل، وأورده صاحب (اللسان ـ طيح) مع اختلاف في بعض الألفاظ، قال: وأنشد سيبويه ـ البيت، ثم قال ـ أي سيبويه ـ: «الطوائح» على حذف الزائد، أو على النسب.

وقرأ الجمهور: [الرِّيَاحَ] بالجمع، وقرأ الكوفيون: حمزة، وطلحة بن مصرف، والأعمش، ويحيى بن وثاب: [الرِّيحَ] بالإفراد، وهي للجنس فهي في معنى الجمع، ومثَّلها الطبريُّ بقولهم: «قميص أَخلاقٌ، وأَرضٌ أَغفال»(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله من حيث هو أَجزاءٌ كثيرة تجمع صفته، فكذلك «ريح لواقح» لأَنها متفرقة الهبوب، وكذلك «دارٌ بلاقع»، أَي: كل موضع منها بلقع. وقال الأَعمش: إن في قراءَة عبد الله «وأَرْسَلْنَا الرِّيحَ تَلْقَح»، وروي عن النبي ﷺ أَنه قال: «الريح من نفس الرحمن»(٢). ومعنى الإضافة هنا إضافة خَلْق إِلى خالق، كما قال: «من روحي»، ومعنى «من نفس الرحمن» أَي من تنفيسه وإِزالته الكُرَب والشدائد، فمن التنفيس بالريح النَّصْر بالصبا(٣)، ودُرُور الأَرزاق بها، وما لها من الخدمة في الأَرزاق وجَلْب الأَمطار وغير ذلك مما يكثر عدُّه، ولقد حُدِّثْتُ أَن ابن أَبي قحافة رحمه الله فَسَّر هذا الحديث نحو هذا، وأَنشد في تفسيره:

فَإِنَّ الصَّبا رِيحٌ إِذا ما تنفَّسَتْ ... على نفْسِ مَهْمُوم تَجلَّت همومها(٤)

وهذا من جملة التنفيس.

---

(١) عبارة الطبري تقول: «إن الريح وإن كان لفظها واحداً فمعناها الجمع، لأنه يقال: جاءَت الريح من كل جانب، فقيل: لواقح لذلك، فيكون معنى جمعهم نعتها وهي في اللفظ واحدة معنى قولهم: أرض سباسب، وأرض أغفال، وثوب أخلاق، كما قال الشاعر:

جَـاءَ الشِّتَاءُ وقَمِيصِي أَخْلاقْ ... شَرَازِمٌ يَضْحَكُ مِنْهُ التَّوَّاقْ

وكذلك تفعل العرب في كل شيءٍ اتسع». اهـ. والسباسب: جمع سَبْسَب، وهي المفازة أو الأرض البعيدة المستوية، وأَغفال: لا عَلَم فيها، والتَّوَّاق في البيت هو ابن الراجز، قال ذلك في (اللسان ـ خَلَق).

(٢) النَّص الذي وجدناه في هذا المعنى هو ما رواه البخاري في الأدب، وأبو داود، والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة: «الريح من روح الله، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبوها، واسألوا الله خيرها، واستعيذوا بالله من شرها»، قال الإمام السيوطي: حديث صحيح. (الجامع الصغير).

(٣) الصَّبَا: ريح مَهَبُّهَا من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار (مؤنث). (المعجم الوسيط).

(٤) ويروى: «على قلب محزون»، وتَجَلَّت همومها: ذهبت وانكشفت عنها. والبيت غير منسوب.

والعرب تقول: أَسقَى وسقى بمعنى واحد، قال لبيد:

سَقَى قَوْمِي بَنِي مجدٍ وأَسْقَى نُمَيْراً والقَبَائِلَ مِنْ هِلاَلِ[1]

فجاء باللغتين، وقال أَبو عبيدة: أَما إِذا كان من سَقْيِ الشفة خاصة فلا يقال إِلاَّ سَقَى، وأَما إِن كان لسَقْيِ الأَرض والثمار وجملة الأَشياءِ فيقال: أَسقى، وأَما الداعي لأَرض أَو غيرها بالسقي فإِنما يقال فيه: أَسقى، ومنه قول ذي الرمة:

وَقَفْتُ عَلَى رسْمٍ لِمَيَّةَ نَاقَتِي فمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وأُخاطِبُهْ
وأَسْقِيهِ حتَّى كادَ مِمَّا أَبُثُّهُ تُكَلِّمُني أَحْجَارُهُ وَمَلاعِبُهْ[2]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

على أَن بيت لبيد دعاءٌ وفيه اللغتان.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ الآية. هذه الآية مع الآيات التي قبلها تضمنت العبرة والدلالة على قدرة الله تعالىٰ، وما يوجب توحيده وعبادته، فمعنى هذه الآية: وإِنا نحن نحيي من نشاءُ بإِخراجه من العدم إِلى وجود الحياة، ونردُّه عند البعث من مرقده ميتاً، ونميت بإِزالة الحياة عمن كان حيًّا. ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أَي: لا يبقى شيءٌ سوانا، وكل شيٍ هالك إِلا وجهه، لا ربَّ غيره.

ثم أَخبر تعالىٰ بإِحاطة علمه بمن تقدم من الأُمم وبمن تأَخر في الزمن، من لدن أُهبط آدم إِلى الأَرض إِلى يوم القيامة، وأَعلم أَنه هو الحاشر لهم، الجامع لِعرض يوم القيامة على تباعدهم في الأَقطار والأَزمان، وأَنَّ حِكْمَته وعِلْمه يأْتيان بهذا كله على أَتَمِّ غاياته التي قدرها وأَرادها. وقرأَ الأَعرج: [يَحْشِرُهُم] بكسر الشين.

---

(١) قال صاحبُ (اللسان ـ سقى): «سقاه اللهُ الغيثَ وأَسقاه، وقد جمعها لبيد في قوله: سقى قومي... البيت» ثم قال: «ويقال: سقيته لشفته، وأسقيته لماشيته وأرضه». وهذا يتفق تماماً مع ما قاله ابن عطية، ومع ما نقله عن أبي عبيدة.

(٢) البيتان في الديوان، وقد استشهد بهما الطبري في تفسيره، وأبو عبيدة في كتابه «مجاز القرآن»، قال: يقال: سقيت الرجل ماءً وشراباً من لبن وغير ذلك، وليس فيه إلا لغة واحدة بغير ألف، إذا كان في الشَّفة، وإذا جعلت له شِرْباً فهو أَسْقَيْته وأَسْقَيت أرضه وإبله، لا يكون غير هذا، وكذلك إذا استسقيت له. وهو يتفق مع كلام المؤلف هنا إلا في النقطة الأخيرة، لأن ابن عطية يقول: «بيت لبيد دعاءٌ وفيه اللغتان». والرسم: الأثر الباقي من الدار بعد أن عَفَتْ وأَسْقِيه: أَدعو له بالسقيا. وأَبُثُّه أشكو إليه، وقد أبدع الشاعر في تصويره وكاد يحرك الأحجار والملاعب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا سياق معنى الآية، وهو قول جمهور المفسرين. وقال الحسن: معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ أي: في الطاعة والبدار إلى الإيمان والخيرات، و﴿ٱلْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ بالمعاصي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإن كان اللفظ يتناول كل من تقدم وتأَخر على جميع وجوهه، فليس يطرد سياق معنى الآية إلا كما قدمناه. وقال ابن عباس، ومروان بن الحكم، وأَبو الجوزاءِ: نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ الآية في قوم كانوا يصلون مع النبي ﷺ، وكانت امرأَة جميلة تصلي وراءَه، فكان بعض القوم يتقدم في الصفوف لئلا تفتنه، وكان بعضهم يتأَخر ليسرق النظر إليها في الصلاة، فنزلت الآية فيهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وما تَقَدَّم الآية من قوله: ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ وما تأَخر من قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ يضعف هذه التأْويلات، لأَنها تُذهب إِيصال المعنى، وقد ذكر ذلك محمد بن كعب القرظي لعون بن عبد الله[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الآية. ﴿الإنسان﴾ هنا للجنس، والمراد آدم عليه السلام، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سُمِّي بذلك لأَنه عُهد إِليه فنسي، ودخل مَنْ بعده في ذلك إِذ هو من نسله. و«الصلصال» الطين الذي إِذا جف صَلْصَل، هذا قول فرقة، منها من قال: هو طين الخزف، ومنها قول الفراءِ: هو الطين الحر يخالطه رمل دقيق. وقال ابن عباس: خلق من ثلاثة: من طين لازب، وهو اللازق الجيد، ومن

(١) أما القرظي فهو محمد بن كعب بن سليم بن أسد أبو حمزة القرظي، المدني، نزل الكوفة مدة، ثقة، عالم، من الطبقة الثالثة، ولد سنة أربعين على الصحيح، قال البخاري: إن أباه كان ممن لم ينبت من بني قريظة. (تقريب التهذيب).

وأما عون، فهو عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي، خطيب، راوية، ناسب، شاعر، كان من آدب أهل المدينة، وسكن الكوفة فاشتهر فيها بالعبادة والقراءة، كان يقول بالإرجاء، ثم رجع، وخرج مع ابن الأشعث ثم هرب، وصحب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في خلافته. (تهذيب التهذيب ـ الأعلام).

صلصال، وهو الأَرض الطيبة يقع عليها الماءُ ثم ينحسر فتشقق وتصير مثل الخزف، ومن حمإٍ مسنون، وهو الطين فيه الحمأة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكان الوجه ـ على هذا المعنى ـ أَن يقال: «صلال»، لكن ضوعف الفعل من فائه، وأُبدلت إِحدى اللامين من «صلال» صاداً، وهذا مذهب الكوفيين، وقاله ابن جني، والزبيدي، ونحوهما على نحو البصرة، ومذهب جمهور البصريين أَنهما فعلان متباينان، وكذلك قالوا في ثَرَّار وثَرْثَارة، قال بعضهم: تقول: صلَّ الخزف ونحوه إِذا صوت بتمديد، فإِذا كان في صوته ترجيع كالجرس ونحوه قلت: صَلْصَلَ، ومنه قول الكُميت:

فيهـا الْعَنَـاجِيـج تَـرْدي فـي أَعِنَّتِهَـا ... شُعْثاً تُصلْصِلُ في أَشْدَاقِهَا اللُّجُمُ[1]

وقال مجاهد وغيره: [صَلْصَال] هنا إِنما هو من: «صَلَّ اللَّحْم» إِذا أَنْتَن، فجعلوا معنى [صَلْصَالٍ] و[حَمَإٍ] في لزوم النَّتَن شيئاً واحداً.

و«المَسْنُون»، قـال معمـر: معنـاه: المنتـن، وهـو مـن «أَسِـن المـاءُ» إِذا تغيـر، والتصريف يرُدُّ هذا القول، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المسنون: الرطب، ، هذا تفسير لا يخص اللفظة، وقال الحسن: المعنى: سن ذريته على خلقه، ، الذي يترتب في [مَسْنُون] إِما أَن يكون: محْكُوك مُحْكم العمل أَملس السطح، فيكون من معنى المسنّ والسنان وقولهم: «سننت السكين، وسننت الحجر» إِذا أَحكمت مَلْسه، ومن ذلك قول الشاعر:

ثُـمَّ دافَعْتُهَـا إِلَـى القُبَّـةِ الْخَضْـ ... ـراءِ تَمْشِـي فـي مَـرْمَـرٍ مَسْنُـونِ[2]

---

(١) العَنَاجيج: جمع عُنْجُوج، وهو الرائع من الخيل، وقد استعمل في الإبل أيضاً، ولكن الوصف هنا للخيل، ومعنى تَرْدِي أنها تَرْجُم الأرض في عدوها، نقل صاحب اللسان عن الأصمعي قوله: إذا عدا الفرسُ فرجم الأرض رجماً قيل: رَدَى بالفتح يردِي رَدْياً ورَدَياناً، والشُّعْث: التي تَلَبَّد شعرها واغْبَرَّ، وصَلْصَلة اللجام: صوتُه إذا ضوعف، قال الليث (ونقله عنه في اللسان): يقال: صلَّ اللجامُ إذا توهمتَ في صوته حكايةَ صوت صَلْ، فإن توهمت ترجيعاً قلتَ: صلصل اللجام، وهو ما قاله ابن عطية هنا واستشهد عليه بالبيت.

(٢) نسب هذا البيت إلى عبد الرحمن بن حسَّان، وذلك أن يزيد بن معاوية قال لأبيه: ألا ترى إلى عبد الرحمن بن حسَّان يُشَبِّب بابنتك؟ فقال معاوية: ما قال؟ فقال: قال: =

أَي: مُحْكم الإملاس، وإما أَن يكون بمعنى الْمَصْبُوب: تقول: «سَنَنتُ التراب والماءَ» إذا صببْتَهُ شيئاً بعد شيءٍ، ومنه قول عمرو ابن العاص رضي الله عنه لمن حضر وفاته: «إِذَا أَدخلتُموني في قبري فسُنُّوا علي التراب سنًّا»، ومن هذا سنُّ الغارة. وقال الزَّجاج: هو مأْخوذ من كونه على سُنَّة الطريق، لأَنه إنما يتغير إذا فارق الماءَ، فمعنى الآية على هذا: من حمإٍ مصبوب يوضع بعضه فوق بعض على مثال وصورة.

[وَٱلْجَانَّ] يراد به جنس الشياطين، ويُسَمَّون جنَّة وجَانًّا وجِنًّا لاستتارهم عن العين، وسئل وهب بن مُنَبِّه عنهم فقال: هم أَجناس، فأَما خالص الجِنِّ فهم ريح لا يأْكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون، ومنهم أَجناس تفعل هذا كله، منها السعالي والغول وأَشباه ذلك. وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: «الجأن» بالهمز[1]، والمراد بهذه الخلقة إبليس أَبو الجن، وفي الحديث: «إن الله تعالىٰ خلق آدم من جميع أَنواع التراب، الطيب والخبيث، والأَسود والأَحمر»[2]، وفي سورة البقرة إيعاب هذا. وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ لأَن إبليس خلق قبل آدم بمدة، وخلق آدم آخر الخلق. و«السَّمُومُ»

= هِــي زَهْــرَاءُ مِثْــلُ لُــؤْلُــؤَةِ الغَــوْ ... وَاصِ مِيــزَتْ مِــنْ جَــوْهَــرٍ مَكْنُــونِ

فقال معاوية: صدق، فقال يزيد: إنه يقول:

وإذا مــــا نَسَبْتَهَــــا لَـــمْ تَجِــدْهَــــا ... فِــي سَنَــاءٍ مِــنَ الْمَكَــارِمِ دُونِ

قال: وصدق، قال: فأَيْنَ قوله:

ثُــم خَــاصَــرْتُهَــا إلــى القُبَّــةِ الْخَضْــ ... ــراءِ تَمْشِــي فــي مَــرْمَــرٍ مَسْنُــونِ

قال معاوية: كذب.

قال ابن بري: وتُروى هذه الأبيات لأبي رَهْبَل، وهي في شعره، يقولها في رمْلَة بنت معاوية، وأول القصيدة:

طَــالَ لَيْلــي وَبِــتُّ كــالمَجْنُــونِ ... وَمَلِلْــتُ الثَّــوَاءَ بــالمَــاطِــرُونِ

(راجع اللسان ـ سَنَن) فللخبر بقية.

(١) وهي أيضاً قراءة عمرو بن عبيد، قاله في «البحر المحيط».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود، والترمذي، والحاكم في مستدركه، والبيهقي في السنن، عن أبي موسى، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة، ولفظه كما في «الجامع الصغير»: «إن الله تعالىٰ خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحسن والخبيث والطيب وبين ذلك».

في كلام العرب إفراط الحرّ حتى يقتل، من نارٍ أو شمس أو ريح، وقالت فرقة: السَّموم بالليل، والحرُور بالنهار، وأما إضافة النار إلى السموم في هذه الآية فيحتمل أن تكون النار أنواعاً ويكون السموم أمراً يختص بنوع منها فتصح الإضافة حينئذ، وإن لم يكن هذا فَيُخَرَّج هذا على قولهم: «مسجد الجامع» و«دار الآخرة» على حذف مضاف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

[إِذْ] نصبت بإضمار فعل مقدر، تقديره: واذكر إذ قال ربك، و«البشر» ها هنا آدم، وهو مأخوذ من البشرة، وهي وجه الجلد في الأشهر من القول، ومنه قول النبي ﷺ: «وأَنْقوا البشرة»[١]. وقيل: البشرة ما يلي اللحم، ومنه قولهم في المثل: «إنما يُعَاتَبَ الأديمُ ذُو البَشَرة»[٢]؛ لأن تلك الجهة هي التي تبشر، وأخبر الله تعالىٰ الملائكة بعجب عندهم، وذلك أنهم كانوا مخلوقين من نور، فهي أجسامٌ لطاف، فأخبرهم أنه يخلق جسماً حيًّا ذا بشرة، وأنه يخلقه من صلصال، والبِشْر والبِشارة أيضاً أصلهما البَشَرة لأنهما فيها يظهران.

و[سَوَّيْتُهُ] معناه: كمَّلته وأتقنته حتى إذا استوت أجزاؤُه على ما يجب، وقوله: ﴿ مِن رُّوحِى ﴾ إضافة خلق وملك إلى خالق مالك، أي: من الروح الذي هو لي، ولفظ الروح هنا للجنس، وقوله: [فَقَعُوا] من وقع يَقَع، وفتحت القاف لأجل حرف الحلق، وهذه اللفظة تُقَوِّي أن سجود الملائكة إنما كان كالمعهود عندنا، لا أنه خضوع وتسليم وإشارة كما قال بعض الناس، وشبهوه بقول الشاعر:

---

(١) «فاغسلُوا الشعر وأَنْقوا البشرة»، هكذا رواه الترمذي، وابن ماجه في الطهارة. (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي).

(٢) جاء في «مجمع الأمثال» للميداني: «المعاتبة: المعاودة، وبشرة الأديم: ظاهره الذي عليه الشعر، أي: إنَّما يُعاد إلى الدِّباغ من الأديم ما سلمت بَشَرته، يُضربُ لمن فيه مراجعة ومُسْتَعْتب، قال الأصمعي: كل ما كان في الأديم محتمل ما سلمت البشرة، فإذا نغلت البشرة بطل الأديم».

فَكِلْتَاهُمَا خرَّتْ وأَسْجَدَ رأْسُهَا كَمَا سَجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحَنَّفِ(١)

وهذا البيت يشبه أَن يكون السجود فيه كالمعهود عندنا، وحكى الطبري في تفسير هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «خلق الله ملائكة وأَمرهم بالسجود لآدم فأَبوا، فأَرسل عليهم ناراً فأَحرقتهم، ثم خلق آخرين فكذلك، ثم خلق آخرين فأَمرهم بالسجود فأَطاعوا إِلا إِبليس فإِنه كان من الأَولين»، وقوله: «من الأَولين» يحتمل أَن يريد: من الأَولين في حالهم وكفرهم، ويحتمل أَن يريد أَنَّه بقِيَ منهم.

وقوله: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ هو عند سيبويه تأكيد بعد تأكيد، يتضمن الآخر ما تضمن الأَول، وقال غيره: [كُلُّهُمْ] لَوْ وُقف عليه لصلحت للاستثناءِ، وصلحت على معنى المبالغة مع أَن يكون البعض لم يسجد، وهذا كما يقول القائل: «كلُّ الناس يعرف كذا»، وهو يريد أَن المذكور أَمر مشتهر، فلما قال: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ رفع الاحتمال في أَن يبقى منهم أَحد، واقتضى الكلامُ أَن جميعهم سجد، وقال المبرّد: لو وُقف على ﴿كُلُّهُمْ﴾ لاحتمل أَن يكون سجودهم في مواطن كثيرة، فلما قال: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ دلَّ على أَنهم سجدوا في موضع واحد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واعترض قول المبرّد بأَنه جعل قوله تعالىٰ: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ حالاً بمعنى «مُجْتَمِعِينَ»، ويلزمه ـ على هذا ـ أَن يكون ﴿أَجْمَعُونَ﴾ هنا على أَن يقرب من التنكير إِذ هو معرفة لكونه يلزم إِتباع المعارف، والقراءَة بالرفع تأْبَى قوله.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾، قيل: إِنه استثناءٌ من الأَول، وقيل: إِنه ليس من

---

(١) تأتي «خَرَّ» بمعنى سجد، فقد نقل صاحب (اللسان ـ خَرَرَ) أن الأخفش قال: «خَرَّ: صار في حال سجوده»، وتأتي «أسجد» بمعنى «سجد»، قال الزمخشري في (أساس البلاغة ـ سَجَدَ): «وسَجَدَ البعير وأَسْجَد: طامن رأسَه لراكبه». «ولم تَحَنَّف» لم تُسْلِمْ، وابن عطية يستشهد بالبيت على أن السجود هنا سجود حقيقي كالمألوف عندنا، وليس مجرد خضوع وتسليم وإشارة.

هذا والبيت لأبي الأخزر الحماني، وهو في (سيبويه)، وفي (اللسان ـ نصر)، وأنشده في (الإنصاف ٤٤٥)، وفيه يصف الشاعر ناقتين خَرَّتا من الإعياء، أو نُحِرتا فطأطأتا رأسيهما، فشبه إسجادهما بسجود النصرانة، والنحويون يستشهدون بالبيت على أن (نصرانة) مؤنثة بالهاءِ، وأن المذكر منها (نصران) وإن لم يستعمل في الكلام إلا بياء النسب (نصراني)، وأن (النصارى) جمع (نصران) كما أن ندامى جمع ندمان.

الأول، وهذا متركب على الخلاف في إبليس، هل هو من الملائكة أم لا ؟ والظاهر من كثير من الأحاديث ومن هذه الآية أنه من الملائكة، وذلك أن الله تعالىٰ أمر الملائكة بالسجود، ولو لم يكن إبليس من الملائكة لم يذنب في ترك السجود، وقد روي عن الحسن بن أبي الحسن أن إبليس إنما كان من قبيل الجن، ولم يكن قط ملكاً، ونسب ابن فُورك القول إلى المعتزلة، وتعلَّق من قال هذا بقوله تعالىٰ في صفته: ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾[1]، وقالت الفرقة الأخرى: لا حجة في هذا لأن الملائكة قد تُسمَّى جنًّا لاستتارها، وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿قال يا إبليس﴾، قيل: إنه حينئذ سمَّاه إبليس، وإنما كان اسمه قَبْلُ عَزَازيل[3]، وهو من الإبلاس، وهو الإبْعَاد، أي: يا مُبْعَد. وقالت طائفة: إبليس كان اسمه، وليس باسم مشتق، بل هو أعجمي، ويقضي بذلك أنه لا ينصرف، ولو كان عربياً مشتقاً لكان كإجفيل، من أجفل، وغيره، ولكان منْصرفاً، قاله أبو علي الفارسي.

وقوله: ﴿ أَلَّا تَكُونَ ﴾، [أَنْ] في موضع نصب، وقيل: في موضع خفض، والأصل: «مالك في ألا تكون»، وقول إبليس: ﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ ﴾ ليس هذا موضع كفره عند الحذاق، لأن إبايته إنما هي معصية فقط، وأما تعليله فإنما يقتضي أن الله خلق خلقاً مفضولاً وكَلَّف خلقاً أفضل منه أن يذلَّ له، فكأنه قال: «وهذا جور»، وذلك أن إبليس لما ظن أن النار أفضل من الطين ظن أن نفسه أفضل من آدم من حيث النار تأكل الطين، فقاس وأخطأ في قياسه، وجهل أن الفضائل إنما هي حيث جعلها المالك للجميع، لا ربَّ غيره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾

---

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (٥٠) من سورة (الكهف): ﴿ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾.

(٢) من الآية (١٥٨) من سورة (الصافات).

(٣) وقيل: كان اسمه (الحارث)، والاسمان منقولان عن ابن عباس رضي الله عنهما، (راجع الطبري).

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

الضمير في [مِنْها] للجنة وإن لم يجر ذكرها، فالقصة تتضمنها، ويحتمل أن يعود الضمير على صيغة الملائكة. و«الرجيم» المشؤوم، أي: المرجوم بالقول والشتم، و﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاءِ، ومنه قول الشاعر:

ولَمْ يبْقَ سِوَى ٱلْعُدْوا ... نِ دِنَّاهُمْ كما دَانُوا[1]

وسأَل إبليس النَّظرة إلى يوم البعث فأعطاه الله إياها إلى وقت معلوم، واختُلف فيه ـ فقيل: إلى يوم القيامة، أي يكون آخر من يموت من الخلق، قاله الطبري وغيره. وقيل: إلى وقت غير معين ولا مرسوم بقيامة ولا غيرها، بل علمه عند الله وحده. وقيل: بل أمره كان إلى يوم بدر، وأنه قتل يوم بدر، وهذا ـ وإن كان رُوي ـ فهو ضعيف. والمُنْظر: المؤخَّر. وقوله: ﴿رَبِّ﴾ مع كفره يخرج على أنه يُقِرُّ بالربوبية والخلق، وهو الظاهر من حاله وما تقتضيه فيه الآيات والأحاديث، وهذا لا يدفع في صَدْر كفره.

وقوله: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾، قال أبو عبيدة، وغيره: «أَقْسَمَ بالإِغواءِ»، كأَنه جعله بمنزلة قوله: «ربِّ بقدرتك عليَّ وقضائك»، ويحتمل أن يكون بالسبب، كأَنه قال: «ربِّ والله لأُغوينهم بسبب إغوائك لي ومن أَجله وكفاءً له»، ويحتمل أَن يكون المعنى تجلداً منه ومبالغة في الجد، أَي: «بحالي هذه وبعدي من الخير والله لأفعلن ولأُغوِيَنَّ» ومعنى ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي الشهوات والمعاصي. والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ لذرية آدم وإن كان لم يجر لهم ذكر، فالقصة بجملتها حيث وقعت كاملةً تَتَضَمَّنُهم، والإِغواءُ: الإِضلال».

وقرأ ابن كثير، وأَبو عمرو، وابن عامر، والحسن، والأَعرج: [ٱلْمُخْلَصِين] بفتح

---

(١) المعنى: جازيناهم كما جازَوْا، ومن نفس المعنى قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قال قتادة: معناه: مالك يوم يُدان فيه العباد، أي يجازون بأعمالهم، وفي المثل: «كما تَدين تُدان»، أي كما تجازي تُجازَى، وقال خُوَيْلد بن نوفل الكلابي للحارث بن أبي شَمر الغَسَّاني وكان اغتصبه ابنته أبياتاً منها:

يا حارِ أيقِنْ أنَّ مُلْكَكَ زَائِلٌ ... واعلَمْ بأنَّ كما تَدِينُ تُدانُ

اللام، أَي الذين أَخلصتهم أَنت لعبادتك وتقواك، وقرأَ الجمهور بكسر اللام، أَي الذين أَخلصوا الإِيمان بك وبرسولك.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، القائل هو الله تبارك وتعالىٰ، ويحتمل أَن يكون ذلك بواسطة، وقرأَ الضحاك، وحُميْد، والنَّخَعي، وأَبو رجاءٍ، وابن سيرين، وقتادة، وقيس ابن عبَّاد، ومجاهد، وغيرهم: [عليٌّ مستقيم] من العُلُوِّ والرفعة، والإِشارة بـ[هَذَا] ـ على هذه القراءَة ـ إِلى الإِخلاص، لما استثنى إِبليس من أَخلص قال الله له: هذا الإِخلاص طريق رفيع مستقيم لا تنال أَنت بإِغوائك أَهله. وقرأَ جمهور الناس: (عَلَيَّ) بياءٍ مشددة مفتوحة، والإِشارة بـ[هَذَا] ـ على هذه القراءَة ـ إِلى انقسام الناس إِلى غاو ومخلص، لما قَسَّم إِبليس الناس هذين القسمين قال الله له: هذا طريق إِلَيَّ، أَي: هذا أَمر مصيره إِلَيَّ، والعرب تقول: «طريقك في هذا الأَمر على فلان»، أَي: إِليه يصير النظر في أَمرك. وهذا نحو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[1]، والآية ـ على هذه القراءَة ـ خبر تتضمن وعيداً[2].

ثم ابتدأَ الإِخبار عن سلامة عباده المتقين من إِبليس، وخاطبه بأَنه لا حجة له عليهم ولا ملكة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والظاهر من قوله: (عِبَادِي) الخصوص في أَهل الإِيمان والتقوى لا عموم الخلق، وبحسب هذا يكون ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ﴾ مستثنى من غير الأَول، والتقدير: لكن من اتبعك من الغاوين لك عليهم سلطان، وإِن أَخذنا العباد عاماً في عباد الناس، إِذ لم يقدر الله لإِبليس سلطاناً على أَحد، فإِنا نقدر الاستثناءَ في الأَقل في القدر[3] من حيث لا قدر للكفار، والنظر الأَول أَصوب، وإِنما الغرض أَلا نقع في استثناءِ الأَكثر من الأَقل وإِن

---

(١) الآية (١٤) من سورة (الفجر).

(٢) قال أبو الحسن في معنى الآية على قراءة الجمهور: «هو كقولك: الدلالة اليوم عليَّ، أي: هذا صراط في ذمتي وتحت ضماني، كقولك: صحة هذا المال عليَّ، وتوفية عدته عليَّ، وليس معناه عنده أنه مستقيم عليَّ، كقولنا: قد استقام عليَّ الطريق، واستقر عليَّ كذا»، وقال ابن جني: «وما أحسن ما ذهب إليه أبو الحسن فيه».

(٣) في إحدى النسخ: «في الأقل عَلَى القدر».

كان الفقهاءُ قد جوزوه، وقال أبو المعالي: ليس معروفاً في استعمال العرب، وهذه الآية أمثل ما احتج به مُجَوِّزوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا حجة لهم في الآية على ما بيَّنته.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ أي موضع اجتماعهم، والموعد يتعلق بزمان ومكان، وقد يذكر المكان ولا يحدد زمان الموعد. و[أَجْمَعِينَ] تأكيد، وفيه معنى الحال[1]، وقوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ قيل: إن النار بجملتها سبعة أطباق، أعلاها جَهَنَّم، ثم لظَى، ثم الحُطَمَة، ثم السَّعير، ثم سَقَر، ثم الجَحِيم وفيه أبو جهل، ثم الهاوية، وإن في كل طبق منها باباً، فالأبواب ـ على هذا ـ بعضها فوق بعض، وعُبِّر في هذه الآية عن النار جملة بجهنم، إذ هي أشهر منازلها وأولها، وهي موضع عصاة المؤمنين الذين لا يخلدون، ولهذا روي أن جهنم تخرب وتبلى. وقيل: إن النار أطباق كما ذكرنا، لكن الأبواب السبعة كلها في جهنم على خط استواءٍ، ثم ينزل من كل باب إلى طبقة الذي يفضي إليه. واختصرت ما ذكر المفسرون في المسافات بين الأبواب، وفي هواءِ النار، وفي كيفية الحال، إذ هي أقوال كثيرة أكثرها لا يستند، وهي في حيِّز الجائز، والقدرة أعظم منها، عافانا الله من ناره، وتغمدنا برحمته بِمَنِّه.

وقوله: [جُزْءٌ]، قرأ الجمهور بالهمز، وقرأ ابن شهاب بضم الزاي[2]، وقرأت فرقة: [جُزٌّ] بشد الزاي دون همز، وهي قراءَة ابن القعقاع[3].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا

---

(١) قال أبو حيان في البحر: «وهذا جنوح لمذهب من يزعم أن [أَجْمَعِينَ] تدل على اتحاد الوقت، والصحيح أن مدلوله مدلول «كلهم».

(٢) قال أبو حيان في البحر: «لعلَّه تصحيف من الناسخ، لأني وجدت في التحرير: وقرأ ابن وثَّاب بضمها مهموزاً» فهي قراءة ابن وثاب لا ابن شهاب.

(٣) وجهه أنه حذف الهمزة، وألقى حركتها على الزَّاي، ووقف بالتشديد، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف.

ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

ذكر الله تعالىٰ ما أعد لأهل الجنة عَقِب ذكره ما أعد لأهل النار ليظهر التباين، وقرأ الجمهور: [وَعُيُونٍ] بضم العين، وقرأ نُبَيح، والجراح، وأبو واقد، ويعقوب ـ في رواية رُوَيْس ـ بكسر العين، مِثْل بيوت وشيوخ.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ على الأمر بمعنى يقال لهم: ادخلوها، وقرأ رويس عن يعقوب: [أُدْخِلُوها] على بناءِ الفعل للمفعول بضم الهمزة وكسر الخاءِ وضم التنوين في ﴿عُيُونٍ﴾ ألْقى عليه حركة الهمزة[١]. و«السَّلام» ها هنا يحتمل أن يكون السلامة، ويحتمل أن يكون التحية، و«الغِلُّ»: الحقد، وذكر الله تعالىٰ في هذه الآية أنه ينزع الغِلَّ من قلوب أهل الجنة، ولم يذكر لذلك موطناً، وجاءَ في بعض الحديث أن ذلك على الصراط، وجاءَ في بعضها أن ذلك على أبواب الجنة، وفي لفظ بعضهاأن الغِلَّ ليبقى على أبواب الجنة كمعاطن الإبل[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا على أن الله تعالىٰ يجعل ذلك تمثيلاً بكون يخلقه هناك ونحوه، وهذا كحديث ذبح الموت[٣]، وقد يمكن أيضاً أن يُسلَّ من الصدور، ولذلك جواهر سود فيكون

---

(١) وعلى هذا تكون قراءة رويس عن يعقوب هي ﴿في جنات وعيون ادخلوها﴾ من الإدخال مع تنوين النون في (عُيُون) بالضم لإلقاء حركة الهمزة في لفعل «أُدْخِلَ» عليها، وقرأ الحسن كذلك مع إبقاء تنوين النون في (عيونٍ) مكسوراً. وفي الرواية عن رُوَيْس خلاف.

(٢) من هذه الأحاديث ما أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «يُحْبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظُلماتهم في الدنيا، ويدخلون الجنة وليس في قلوبهم على بعض غِلٌّ». ومنها ما أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن قتادة في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾، قال: حدثنا أبو المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يَخْلُص المؤمنون من النار فيُحْبَسُون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسي بيده لأحدهم أهدى لمنزله في الجنة من منزله كان في الدنيا»، قال قتادة: وكان يقال: ما يُشَبَّه بهم إلا أهل جمعة انصرفوا من جمعتهم.

(٣) أخرجه البخاري، ومسلم، وأحمد، وغيرهم، ولفظه كما في مسند الإمام أحمد (٢ـ١١٨): عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صار أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، جيء بالموت حتى يوقف بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة خلود لا موت، يا أهل النار خلود لا موت، فازداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، وازداد أهل النار حزناً على حزنهم».

كمبارك الإبل، وجاءَ في بعض الأحاديث أَن نزع الغل إنما يكون بعد استقرارهم في الجنة، والذي يقال في هذا أَن الله ينزعه في موطن من قوم، وفي موطنٍ من آخرين، وقال عليٌّ بن أَبي طالب رضي الله عنه: «إني لأَرجو أَن أَكون أَنا وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، وذكر أَن ابناً لطلحة كان عنده[١]، فاستأْذن الأَشتر فحبسه مدة، ثم أَذن له فدخل، فقال: أَلهذا حبستني؟ وكذلك لو كان ابن عثمان حبستني له؟ فقال عليٌّ: نعم، إني أَنا وعثمان وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ الآية. وقد رُوي أَن المستأْذن غير الأَشتر.

و[إِخْوَاناً] نصب على الحال[٢]، وهذه أُخُوَّة الدِّين والوُدّ. والأَخ من ذلك يجمع على إِخوان وإِخْوة، والأَخ من النسب يجمع إِخوة وآخاء[٣]، ومنه قول الشاعر:

. . . . وأَيُّ بَني الآخاءِ تصْفُو مَذاهِبُهْ؟[٤]

و«السُّرُر»: جمع سرير، و﴿مُتَقَابِلِين﴾ الظاهر أَن معناه: في الوجوه، إذ الأَسِرَّة متقابلة، فهي أَحسن في الزينة، قال مجاهد: لا ينظر أَحدهم في قفا صاحبه، وقيل: متقابلين في المودة، وقيل غير هذا مما لا يعطيه اللفظ.

و«النَّصَب»: التَّعب، يقع على القليل من ذلك والكثير، ومن الكثير قول موسى عليه

---

(١) أي كان عند عليٍّ رضي الله عنه، ومعنى قوله: «فحبسه مدة»: أمهله مدة فلم يأذن له بالدخول فوراً.

(٢) يجوز أن يكون حالاً من ﴿المُتَّقِين﴾، أو من المضمر في ﴿ادْخُلُوهَا﴾، أو من المضمر في ﴿آمِنِينَ﴾، أو يكون حالاً مقدرة من الهاء والميم في ﴿صُدُورِهِم﴾، وقد جوَّز أبو البقاءِ أن يكون حالاً من الضمير في الظرف في قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾، واعترض في «البحر» على كونها حالاً من الضمير في ﴿صُدُورهم﴾، لأن الحال من المضاف إليه إذا لم يكن معمولاً لما أُضيف على سبيل الرفع أو النصب تَنْدر، ولهذا قال بعضهم: إذا كان المضاف جزءاً من المضاف إليه كما في هذا المثال حيث أن الصدور بعض ما أُضيفت إليه جاءت الحال من المضاف، قال أبو حيان: ونحن نقرر أن ذلك لا يجوز، والأفضل هنا أنها منصوبة على المدح، أي: أمدح إخواناً.

(٣) نقل صاحب اللسان عن الجوهري أن الأخ أصله أَخَوٌ بالتحريك، لأنه جمع على آخاءٍ مثل آباءٍ، والذاهب منه الواو، لأنك تقول في التثنية: أخوان.

(٤) هذا عجز بيت ورواية اللسان: «تنبو مناسِبُه»، قال: ويدلُّ على أن أخاً فَعَلٌ مفتوحة العين جمعهم إيَّاها على أفْعَال نحو آخاءٍ، حكاه سيبويه عن يونس، وأنشد أبو عليٍّ:

وجَــدْتُــمْ بَنيكُــمْ دُونَنَــا إذْ نُسِبْتُــمْ ... وَأَيُّ بَنـي الآخَـاءِ تَنْبُـو منـاسِبُـهْ؟

السلام: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾[١]، ومنه قول الشاعر:

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ . . . .[٢]

وقوله تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ﴾ معناه: أَعْلِم، و﴿عِبَادِي﴾ مفعول بـ ﴿نَبِّئْ﴾، وهي تتعدى إلى ثلاثة مفاعيل، فـ ﴿عِبَادِي﴾ مفعول، و[أَنَّ] تسد مسَدَّ المفعولين الباقيين، واتفق ذلك وهي مع ما عملت فيه بمنزلة اسم واحد، أَلا ترى أَنك إِذا قلت: «أَعجبني أَنَّ زيداً منطلق» إنما المعنى: أَعجبني انطلاق زيد، لأَن دخولها إِنما هو على جملة ابتداءٍ وخبر، فسدت تلك مسَدَّ المفعولين، وقد يتعدى «نَبَّأ» إِلى مفعولين فقط، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا﴾[٣]، وتكون في هذا الموضع بمعنى: أَخْبِر وعرِّف، وفي هذا كله نظر.

وهذه آية ترجية وتخويف، وروي في هذا المعنى عن النبي عليه الصلاة والسلام أَنه قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم قدر عذابه لَبَخَع نفسه»[٤]، ورُوي في هذه الآية أَن سببها أَن رسول الله ﷺ جاءَ إِلى جماعة من أَصحابه عند باب بني شيبة في الحرم فوجدهم يضحكون، فزجرهم ووعظهم، ثم ولى، فجاءَه جبريل عن الله فقال: يا محمد، أَتقنط عبادي؟ وتلا عليه الآية، فرجع بها رسول الله ﷺ إِليهم وأَعلمهم[٥]. ولو لم يكن هذا السبب لكان ما قبلها يقتضيها، إِذ قد تقدم ذكر ما في النار وما في الجنة فأَكد تعالىٰ تنبيه الناس بهذه الآية.

---

(١) من الآية (٦٢) من سورة (الكهف).

(٢) هذا صدر بيت قاله النابغة في مطلع قصيدة يمدح بها عمرو بن الحارث الأعرج حين هرب من النعمان بن المنذر، والبيت بتمامه:

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ ... وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ

(٣) من الآية (٣) من سورة (التَّحْريم).

(٤) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾. (الدر المنثور)، وأخرج الترمذي مثله عن أبي هريرة، ورمز له السيوطي بأنه حديث حسن. (الجامع الصغير).

(٥) أخرجه ابن أبي جرير، وابن مردويه، من طرق عطاء بن أبي رباح، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، وأخرج مثله ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مصعب بن أبي ثابت، وأخرج مثله البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة. (الدر المنثور) و(فتح القدير).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝٥٦ ﴾.

قرأ أبو حيوة: [ونَبِّهُمْ] بضم الهاءِ من غير همز، وهذا ابتداءُ قصص بعد انصرام الغرض الأول[1]، و«الضَّيف» مصدر وُصف به فهو للواحد وللاثنين والجمع والمذكَّر والمؤنث بلفظ واحد، قال النحاس وغيره: التقدير: عن أصحاب ضيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويغني عن هذا أن هذا المصدر عومل معاملة الأسماءِ، كما فعل في «رهن» ونحوه، والمراد بالضيف هنا الملائكة الذين جاؤُوا لإهلاك قوم لوط وبشروا إبراهيم ـ عليهما السلام ـ، وقد تقدم قصصهم.

وقوله: ﴿سَلَامًا﴾ مصدر منصوب بفعل مضمر تقديره: سلَّمنا، أو نُسَلِّم سلاماً، والسلام هنا التحية، وقوله: ﴿سَلَامًا﴾ حكاية قولهم، فلا يعمل القول فيه، وإنما يعمل إذا كان ما بعده ترجمة عن كلام ليس يحكى بعينه، كما تقول لمن قال: «لا إلٰه إلا الله»: قُلْت حَقًّا، ونحو هذا.

وقوله: ﴿ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: فزعون، وإنما وجل إبراهيم عليه السلام منهم لمَّا قدم إليهم العجل الحنيذ فلم يرهم يأكلون، وكان عندهم العلامة المؤمِّنة أكل الطعام، وكذلك هو في غابر الدهر أَمَنَةٌ للنازل والمنزول به.

وقرأ الجمهور: [تَوْجلْ] مستقبل «وَجِل»، وقرأ الحسن بضم التاءِ على بناءِ الفعل للمفعول من «أَوجل»، لأن «وَجِلَ» لا يتعدى، وكانت هذه البشارة بإسحق، وذلك

---

(١) في قوله تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ الآية ترجيح لجهة الخير، لأن الله تبارك وتعالىٰ أمر رسوله ﷺ بهذا التبليغ فكأن الله أشهده على نفسه بالتزام المغفرة والرحمة، ولأنه أضاف العباد إليه وفي هذا تشريف لهم، ولأنه أكَّد اسم ﴿أَنَّ﴾ بقوله: (أنَا)، وأدخل (ألْ) على صفتي الغفران والرحمة، وجاء بهما في صيغة المبالغة، وبدأ بالصفة السَّارة وهي الغفران، ثم أتبعها بالصفة التي نشأ عنها الغفران وهي الرحمة، وقد أخرج مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد».

بعد مولد إسماعيل بمدة، وقول إبراهيم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾(١) ليس يقتضي أنه حينئذ وهبهما، بل قبل الحمد بكثير.

وقرأ الجمهور: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بألف استفهام، وقرأ الأعرج: [بشَّرْتُمُونِي] بغير ألف، وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ﴾ أي: في حالة قد مسني الكبر فيها، وقرأ ابن محيصن [الكُبْرُ] بضم الكاف وسكون الباءِ، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿تُبَشِّرُونَ﴾ بفتح النون التي هي علامة الرفع، والفعل ـ على هذه القراءَة ـ غير مُعَدًّى، وقرأ الحسن البصري: [تُبَشِّرُونِّي] بنون مشددة وياءٍ، وقرأ ابن كثير بشَدِّ النون دون ياءٍ، وهذه القراءَة أُدغمت فيها نون العلامة في النون التي هي للمتكلم موطئة للياءِ، وقرأ نافع: [تُبَشِّرُونِ] بكسر النون، وغلَّط أبو حاتم نافعاً في هذه القراءَة، وقال: إن شاهد الشعر في هذا اضطرار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا حمْل منه، وتقدير هذه القراءَة أنه حُذفت النون التي للمتكلم، وكُسرت النون التي هي علامة الرفع بحسب الياءِ، ثم حذفت الياءُ لدلالة الكسرة عليها، ونحو هذا قول الشاعر ـ أنشده سيبويه ـ:

تَـراهُ كـالثَّغَـام يُعَـلُّ مِسْكـاً ... يَسُـرُّ الْفَـالِيَـاتِ إِذَا فَلَيْنِـي(٢)

---

(١) من الآية (٣٩) من سورة (إبراهيم).

(٢) البيت لعمرو بن معديكرب الزُّبيدي، وبعده يقول:

فَـأُقْسِـمُ لَـوْ جَعَلْـتُ عَلـيَّ نَـذْراً ... بِطَعْنَـةِ فَـارِسٍ لَقَضَيْـتُ دَيْنِـي

ورواية اللسان: «يسوءُ الْفَالِيَاتِ»، وكذلك رواه الفراءُ في «معاني القرآن»، وهو في الأصول هنا «يَسُرّ الْفَالِيَاتِ»، والشاهد فيه حذف النون، إذ أراد «فَلَيْنَنِي» بنونين، فحذف إحداهما استثقالاً للجمع بينهما، قال الأخفش: حذفت النون الأخيرة؛ لأن هذه النون وقاية للفعل وليست باسم، فأما النون الأولى فلا يجوز طرحها لأنها الاسم المضمر، وقال الفراءُ: وقد خففت العرب النون من أن الناصبة ثم أنفذوا لها نصبها، وهي أشدُّ من ذا، قال الشاعر يخاطب زوجه عندما طلبت منه الطلاق:

فَلَـوْ أَنْـكِ فـي يَـوْمِ الـرَّخَـاءِ سَـأَلْتِنـي ... فِـرَاقَـكِ لَـمْ أَبْخَـلْ وَأَنْـتِ صَـدِيـقُ

فَمَـا رُدَّ تَـزْوِيـجٌ عَلَيْـهِ شَهَـادَةٌ ... وَمَـا رُدَّ مِـنْ بَعْـدِ الْحَـرَارِ عَتِيـقُ

إذ الأصل: سَأَلْتِينَني. والثَّغام بالفتح: نبت على شكل الحَلِيِّ، وهو أغلظ منه وأَجَلُّ عُوداً، يكون في الجبل، ينبت أخضر ثم يَبْيَضُّ إذا يبس، وله سنمة غليظة، ولا ينبت إلا في قُنَّة سوداء، قال ذلك في=

ومنه قول الآخر:

أَبِالْمَوْتِ الَّذِي لا بُدَّ أَنِّي مُلاقٍ ـ لا أَبَاكِ ـ تُخَوِّفِينِي ؟[1]

ومن حذف هذه النون قول الشاعر:

قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ الْخُبَيْبَيْنِ قَدِي[2]

يريد عبد الله ومصعباً ابني الزبير، وكان عبد الله يكنى أبا خبيب.

وقرأ الحسن [فَبِمَ تَبْشُرونِ] بفتح التاءِ وضم الشين.

وقول إبراهيم: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ تقرير على جهة التعجب والاستبعاد لكبرهما، أو على جهة الاحتقار وقلة المبالاة بالمسرات لمضيِّ العمر واستيلاءِ الكبر. قال مجاهد: عجب من كبره وكبر امرأته، وقد تقدم ذكر سنِّه وقت البشارة.

وقولهم: ﴿بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ فيه شدَّة ما، أي: أَبْشِر بما بُشرت به ودع غير ذلك، وقرأ جمهور الناس: ﴿الْقَانِطِينَ﴾، والقنوطُ: أَتَمُّ اليأس، وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش، وابن مصرف، ورويت عن أبي عمرو: [الْقَنِطِينَ]. وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ بفتح النون في كل القرآن. وقرأ أبو

= اللسان، وفي حديث النبي ﷺ أنه أُتي بأبي قحافة يوم الفتح وكان رأسه ثَغامة، فأمرهم أن يغيروه. وفَلَى رأسه فلياً: بحثه عن القمل، وعَلَّه: سقاه مرة بعد مرة، أو سقاه تباعاً، فمعنى «يُعَلُّ مسكاً» أنه يدهن بالمسك مرة بعد مرة، أو يدهن تباعاً. والضمير الأول في (تراه) لزوجه التي كانت زوج أبيه من قبله، والضمير الثاني لشعر رأسه، أي أن زوجه ترى شعر رأسه كالثغام.

(١) البيت لأبي حَيَّة النُّمَيْري، أراد: تُخَوِّفينَنِي فحذف، قال في (اللسان ـ فلا): وعلى هذا قرأ بعض القراءِ: [فَبِمَ تُبَشِّرُونِ] فأذهب إحدى النونين استثقالاً. يقول: إنه لا يخاف من الموت لأنه يعلم أنه لا بُدَّ ملاقيه ولهذا يستنكر أن تخوفه به.

(٢) هذا الرجز لحميد بن مالك الأرقط، وقيل: إنه لأبي بحدلة، وهو في كتاب سيبويه، وفي ابن عقيل وفي خزانة الأدب. وبعده:

لَيْسَ الإِمَامُ بِالشَّحِيحِ المُلْحِدِ ولا بِوَتْنٍ بِالحِجَازِ مُفْرَدِ

ومعنى «قدني»: حسبي، والخُبَيْبَيْن: عبد الله بن الزبير، وابنه خُبَيْب، أو هما عبد الله وأخوه مصعب بن الزبير، والإمام في البيت الثاني هو عبد الملك بن مروان، والمعنى: حسبي منهما ما نلتُ، ولن أطلب نصرتهما، فإن عبد الملك خير وأفضل، لأنه ليس شحيحاً ولا ملحداً، وقيل: أراد بالإلحاد هنا الظلم. ويقال: الملحد: الظالم في الحرم، والوَتْنُ بمعنى واتِن، أي: ولا بدائم ثابت في أرض الحجاز مفرد، ويقال للماءِ المعين الدائم الذي لا يذهب: واتن، وكذا واثن بالثاءِ المثلثة.

عمرو، والكسائي بكسرها، وكلهم قرأ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾(١) بفتح النون، وردَّ أبو عبيدة قراءَة أهل الحرمين، وأنكر أن يقال: «قَنِطَ» بكسر النون، وليس كما قال، لأنهم لا يُجمعون إلا على قويٍّ في اللغة مرويٍّ عندهم، وهي قراءَة فصيحة، يقال: قَنَط يقنِط، وقَنِط يقنَط، مثل: نَقَم ونَقِم، وقرأ الأعمش هنا: [يَقْنِطُ] بكسر النون، وقرأ: [مِنْ بَعدِ ما قَنِطُوا] بكسر النون أيضاً، فقرأ باللغتين، وقرأ الأشهب: [يَقْنُط] بضم النون، وهي قراءَة الحسن، والأعمش أيضاً، وهي لغة تميم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ۝٦٢ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ۝٦٣ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ۝٦٥﴾.

القائل هنا إبراهيم عليه السلام، وقوله: [مَا خَطْبُكُمْ]؟ سؤال فيه عنف مَّا، كما تقول لمن تنكر حاله: ماذا دهاك؟ وما مصيبتك؟ وأنت إنما تريد استفهاماً عن حاله فقط، لأَن «الخطب» لفظة إنما تستعمل في الأُمور الشداد، على أن قول إبراهيم: ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾، وكونهم أيضاً قد بشَّروه، يقتضي أَنه قد كان عرف أَنهم ملائكة حين قال: ﴿مَا خَطۡبُكُمَا﴾؟ فيحتمل قوله: ﴿مَا خَطۡبُكُمَا﴾ مع هذا أَنه أَضاف الخطب إِليهم من حيث هم حملته إِلى القوم المعذبين. أَي: ما هذا الخطب الذي تحملونه؟ وإِلى أَي أُمَّة؟

و«القوم المجرمون» يراد بهم أَهل مدينة سدوم الذين بعث فيهم لوط عليه السلام، والمجرم: الذي يجرُّ الجرائم ويرتكب المحظورات، وأَصل جَرم وأَجْرَمَ: كَسَب، ومنه قول الشاعر:

جَـريمَـةُ نَـاهِـضٍ فـي رأسِ نيـق . . . .(٢)

---

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (٢٨) من سورة (الشورى): ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥ﴾.

(٢) هذا صدر بيت قاله أبو خِرَاشٍ الهُذَليُّ يصف عُقَاباً تَرْزق طفلها وتكسب له، والبيت بتمامه: =

أي: كسْب عقاب في قُنَّة شامخ، ولكن اللفظة خُصَّت في عرفها بالشر، لا يقال لكاسب الأجر مجرم.

وقولهم: ﴿إِلَّآ ءَالَ﴾ استثناءٌ منقطع، و«الآلُ»: القوم الذين يؤول أمرهم إِلى المضاف إِليه، كذا قال سيبويه، وهذا نصٌّ في أن لفظة «آلٍ» ليست لفظة «أَهْلٍ» كما قال النحاس، ويجوز ـ على هذا ـ إِضافة «آلٍ» إِلى الضمير وأَما «أُهيْل» فتصغير «أَهْل»، واحترزوا به عن تصغير «آلٍ»، فرفضوا «أُويْلا». وقرأ جمهور السبعة: ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي بالتَّخفيف، والضمير في «مُنَجُّوهُم» في موضع خفض بالإِضافة، وانحذفت النون للمعاقبة، هذا قول جمهور النحويِّين، وقال الأَخفش: الضمير في موضع نصب، وانحذفت النون لأنه لا بُدَّ من اتصال هذا الضمير.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثناءٌ بعد استثناءٍ، وهما منقطعان فيما حكى بعض النحاة، لأَنهم لم يجعلوا امرأَته الكافرة من آله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر، لأَنها قبل الاستثناءِ داخلة في اللفظ الذي هو «الآل»، وليس كذلك «الآل» مع المجرمين، فيظهر الاستثناءُ الأَول منقطعاً، والثاني متصلاً، والاستثناءُ بعد الاستثناءِ يردُّ المستثنى الثاني في حكم الأَمر الأَول، ومثَّل بعض الناس في هذا بقولك: «عندي مائة درهم إِلا عشرة دراهم إِلا درهمين»، فرجعت الدرهمان في حكم التسعين درهماً. وقال المبرّد: ليس هذا المثال بجيد، لأَنه من خلف الكلام وردِّه، إِذْ لَه طريق إِلى أَداءِ المعنى بأَجمل من هذا التحليق، وهو أَن يقول: «عندي مائة إِلا ثمانية»، وإِنما ينبغي أَن يكون مثلاً للآية قولك: «ضربت بني تميم إِلا بني دارم إِلا حاجباً»، لأَن

=

جَـرِيمَـةُ نَـاهِـضٍ فـي رَأْسِ نِيـقٍ ... تَـرَى لِعِظَـامِ مَـا جَمَعَـتْ صَلِيبـاً

وجريمة هنا بمعنى: كسْب، وقال في اللسان: بمعنى: كاسبة، وفي التهذيب عن هذا البيت: «يصف عقاباً تصيد فرخَها الناهضَ ما تأكله من لحم طير أكلته، وبقي عظامه يسيل منها الودك»، أي: تصيد له. هذا وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت.

«حاجباً» من بني دارم، فلما كان المستثنى الأول في ضمنه ما لا يجري الحكم عليه، والضرورة تدخله في لفظه، ولا يمكننا العبارة عنه دون ذلك الذي لا يجري الحكم عليه، اضطررت إلى استثناءٍ ثانٍ[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ونزعة المبرد في ذلك نبيلة. وقرأ جميعهم سوى عاصم في رواية أبي بكر: (قَدَّرْنا) بتشديد الدَّال في كل القرآن، وقرأ عاصم بتخفيفها وثَقَّل في رواية حفص، والتخفيف يكون بمعنى التثقيل، كما قال الهذليُّ أبو ذؤيب:

وَمُفْرِهَةٍ عَنْسٍ قَدَرْتُ لِسَاقِهَا فَخَرَّت كَمَا تَتَابَعُ الرِّيحُ بالقَفْل[٢]

يريد: قدَّرْتُ ضربي لساقها، وكقول النبي ﷺ في الاستخارة: «واقْدُرْ لي الخير حيث كان»[٣]، ويَكُونُ أيضاً بمعنى: يَسِّر ووَفِّق، ومنه قول الشاعر:

بِقُنْدُهَارَ ومَنْ تُقْدَرْ مَنِيَّتُهُ بِقُنْدُهَارَ يُرَجَّمْ دُونَهُ الْخَبَرُ[٤]

---

(١) يرى الزمخشري أنه ليس استثناءً من استثناءٍ، يقول: «لأن الاستثناءَ من الاستثناءِ إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه، وأن يقال: أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته، كما اتخذ الحكم في قول المطلق: أنتِ طالق ثلاثاً إلا اثنتين إلا واحدة، فأما في الآية فقد اختلف الحُكمان، لأن (آل لوط) متعلق بـ (أرسَلْنَا) أو بـ (مُجْرِمينَ) و﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ قد تعلق بـ (مُنَجُّوهُمْ)، فأنّى يكون استثناءً من استثناءٍ؟.

(٢) الناقة المُفْرِهَةُ: التي تَلِدُ الفُرْهَةَ، أي: الملاحَ، يقال: جارية فارهة إذا كانت حسناءَ مليحة، والعَنْس: الناقة القوية، شُبِّهَت بالصخرة لصلابتها. وخرَّت: سقطت، والقَفْل: الشجر اليابس، يقول: قدَّرت ضربي لساق هذه الناقة القوية الصلبة التي تلد الملاح فسقطت وتدحرجت كما تفعل الريح بالشجر اليابس حين تدفعه على الرمال.

(٣) هذا جزءٌ من حديث شريف أخرجه البخاري في التَّهجد، والتوحيد، والدعوات، وأخرجه أبو داود، والترمذي في الوتر، والنسائي في النكاح، وابن ماجه في الإقامة، والإمام أحمد في مسنده (٣ـ٣٤٤)، ولفظه كما في كتاب التوحيد في البخاري عن جابر بن عبد الله السَّلَمي، قال: كان رسول الله ﷺ يُعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلم السورة من القرآن، يقول: «إذا هَمَّ أَحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم فإن كنت تعلم هذا الأمر ـ ثم يُسَمّيه بعينه ـ خيراً لي في عاجل أمري وآجله، ـ قال: أو في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ فاقْدُرْهُ لي، ويسِّره لي، ثم بارك لي فيه، اللهم إن كنت تعلم أنه شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال: في عاجل أمري وآجله ـ فاصرفني عنه، واقْدُرْ لي الخير حيث كان، ثم رَضِّني به».

(٤) البيت ليزيد بن مفرّغ، وقُنْدُهار ـ بضم القاف والدال وسكون النون بينهما مدينة في الإقليم الثالث كما=

وكسرت الألف من [إِنَّهَا] بسبب اللام التي في قوله تعالىٰ: ﴿لَمِنَ﴾، و«الغَابر»: الباقي في الدهر وفي غيره. وقالت فرقة ـ منهم النحاس ـ: هو من الأضداد، يقال في الماضي وفي الباقي(١)، وأما في هذه الآية فهي للبقاءِ، أي: من الغابرين في العذاب.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ الآيات. تقدم القولُ وذِكْرُ القصص في أَمر لوط، وصورة لقاءِ الرسل له، وقيل: إن الرسل كانوا ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقيل: كانوا اثني عشر. وقوله: ﴿مُنكَرُونَ﴾ أَي لا تُعرفون في هذا القطر، وفي هذه اللفظة تحذير، وهو من نمط ذمِّه لقومه، وجريه أَلا ينزل هؤلاءِ القوم في تلك المدينة خوفاً منه أَن يظهر سوءُ فعلهم وطلبهم الفواحش، فقالت الرسل للوط: بل جئناك بما وعدك الله من تعذيبهم على كفرهم ومعاصيهم(٢)، وهو الذي كانوا يشكون فيه ولا يحققونه.

وقرأَت فرقة: [فَاسْرِ] بوصل الألف، وفرقة بقطعها، يقال: سَرَى وَأَسْرَى بمعنى إِذا سار ليلاً، قال النابغة:

= قال الحموي في «معجم البلدان»، قال: غزا عبَّاد بن زياد ثغر السند وسجستان، فأتى «سَنَارُوزَ» ثم نزل «كِسَّ» وقطع المفازة حتى أتى «قُنْدُهار» فقاتل أهلها فهزمهم وقتلهم، وفتحها بعد أن أُصيب من المسلمين، فرأى قلانس أهلها طوالاً فعمل عليها فسُمِّيت العبادية، وقال يزيد بن مفرغ:

كَمْ بالجُرُوم وأَرْضِ الهِنْدِ مِنْ قَدَمٍ ... ومِنْ سَرَابيلَ قَتْلَى لَيْتَهُمْ قُبِرُوا
بِقُنْدُهَارَ وَمَنْ تُقْدَرْ مَنِيَّتُهُ ... بقُنْدُهَارَ يُرَجَّمْ دونَهُ الْخَبَرُ

وترجيم الخبر أو الكلام معناه: يقال عن غير يقين.

(١) أما في الباقي فمنه ما ورد في الحديث الشريف: «أنه اعتكف العشر الغوابر من شهر رمضان» أي البواقي، ويقال عن النافلة: «بها غُبَّرٌ من لبن»، أي بقية من لبن، وقال ابن حلِّزة:

لا تَكْسَعِ الشَّوْلَ بأَغْبَارِهَا ... إِنَّكَ لا تَدْري مَنِ النَّاتِجُ

وأما في الماضي فمنه قول الأعشى:

عَضَّ بِمَا أَبْقَى المَوَاسِي لَهُ ... مِنْ أُمِّهِ فِي الزَّمَنِ الغَابِرِ

يريد ما تركته الموسى عند ختان أمه.

(٢) قال العلماءُ: ﴿بَلْ﴾ هنا إضرابٌ عن قولٍ محذوف، أي: ما جئناك بشيءٍ تخافه، بل جئناك بالعذاب لقومك، لأنهم كانوا يشكون فيه.

أَسْــرَتْ عَلَيْــهِ مِــنَ الْجَــوْزَاءِ سَــارِيَــةٌ . . . .[1]

فجمع بين اللغتين[2]، وقرأ اليماني: «فَسِرْ بِأَهْلِكَ»، وهذا الأمر بالسُّرى هو عن الله تعالىٰ، أي: يقال لَكَ، و«القِطْعُ»: الجزءُ من الليل، وقرأت فرقة: [بِقِطَع] بفتح الطاءِ، حكاه منذر بن سعيد.

وقوله: ﴿ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ ﴾ أي: كن خلفهم وفي ساقهم حتى لا يبقى منهم أحد ولا تلْوي[3]. و«حَيْثُ» في مشهورها ظرف مكان، وقالت فرقة: أُمِرَ لوطٌ أَن يسير إِلى زُغَر[4]، وقيل: إِلى موضع نجاة غير معروف عندنا، وقالت فرقة: «حيث» قد تكون ظرف زمان، وأنشد أبو علي في هذا بيت طرفة:

لِلْفَتَــى عقْــلٌ يَعِيــشُ بِــهِ حَيْــثُ تَهــدِي سَــاقَــهُ قَــدَمُــه[5]

كأنه قال: مُدَّة مَشْيِهِ وتنقله، وهذه الآية من حيث أُمر أَن يسري بقطع من الليل، ثم قيل له: «حيث تُؤمر»، ونحن لا نجد في الآية أَمراً إِلا في قوله: ﴿ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ أمكن أَن تكون «حيثُ» ظرف زمان. و﴿ يَلْتَفِتْ ﴾ مأخوذ من الالتفات الذي هو نظر العين، قال

---

(١) هذا صدر بيت سبق الاستشهاد به، والبيت بتمامه:

أسْـرَتْ عَلَيْـهِ مِـنَ الجَـوْزَاءِ سَـارِيَـةٌ تُـزجِـي الشَّمَـالُ عَلَيْـهِ جَـامِـدَ الْبَـرَدِ

والسارية هي السحابة الممطرة التي تكون ليلاً، وجمعها: سواري. ويروى البيت: «سَرَتْ عليه. . .».

(٢) في بعض النسخ: «فجمع بين اللغتين في بيت واحد».

(٣) أي: لا تلتفت، لأن من معاني «لفت» أنها تكون بمعنى «لوى» كما سيوضح ذلك ابن عطية. وقد وردت هكذابالياء على إرادة العطف على «لا يبقى».

(٤) «زُغَر» بوزن «زُفَر»: قرية بمشارف الشام، وإياها عنى أبو دؤاد الإيادي حيث قال:

كَكِتَـابَـةِ الـزُّغَـرِيِّ غَشَّـا هَـا مِـنَ الـذَّهَـبِ الـدُّلامِـص

وقيل: «زُغَر»: اسم بنت لوط عليه السلام، نزلت بهذه القرية فسميت باسمها، قال حاتم الطائي:

سَقَـى اللهُ رَبُّ النَّـاسِ سَحّـاً وَديمَـةً جَنُـوبَ السَّـرَاةِ مِـن مـآب إلـى زُغَـرْ

بـلادَ امـرِىءٍ لا يعـرِفُ الـذَّمَّ بَيْتُـهُ لَهُ المَشْرَبُ الصَّافي ولا يُطْعَم الكدرْ

(٥) هو آخر بيت في قصيدة له مطلعها:

أشجَـاكَ الـرَّبْـعُ أم قِـدَمُـهْ أم رمـادٌ دارسٌ حُمَمُـهْ ؟

وفيها يخاطب بني تغلب ويفخر عليهم في الحرب التي كانت بينهم وبين قومه بكر.

مجاهد: المعنى: لا ينظر أَحد وراءَه، ونُهوا عن النظر مخافة الغفلة وتعلق النفس بمن خلف، وقيل: بل لئلا تتفطَّر قلوبهم من معاينة ما جرى على القرية في رفعها وطرحها، وقيل: ﴿يَلْتَفِتْ﴾ معناه: يلوي، من قولك: «لَفَتُّ الأمر» إذا لويته، ومنه قولهم للقصيدة: لفيتة، لأنها ملويٌّ بعضها على بعض[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

المعنى: وقضينا ذلك الأمر، أَي: أَمضياهُ وحتمناه، ثم أَدخل في الكلام ﴿إِلَيْهِ﴾ من حيث أَوحى إِليه ذلك وأَعلمه الله به، فجلب هذا المعنى بإِيجاز، وحذف ما يدل الظاهر عليه. و﴿أَنَّ﴾ في موضع نصب، قال الأَخفش: هي بدل من ﴿ذلك﴾، وقال الفراءُ: التقدير: «بأَن دابر» فحذف حرف الجر[2]، والأَول أَصوب.

و«الدَّابِرُ»: الذي يأْتي في آخر القوم، أَي في أَدبارهم، وإِذا قطع ذلك وأُتي عليه فقد أَتى العذاب من أَولهم إِلى آخرهم، وهذه أَلفاظ دالَّة على الاستئصال والهلاك التام، يقال: «قطع الله دابره»، و«استأْصل شأْفته»، و«أَسكَتَ نأْمته» بمعنى. و﴿مُصْبِحِينَ﴾ معناه: إِذا أَصبحوا ودخلوا في الصباح.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يحتمل أَن يرجع إِلى وصف أَمر جرى قبل إِعلام لوط بهلاك أُمَّته، ويدل على هذا أَن محاجَّة لوط لقومه في الأَضياف تَقتضي ضعف من لم يعلم إِهلاكهم وأَن الأَضياف ملائكة. ويحتمل أَن يكون قوله:

---

(١) في بعض النسخ: «لأنها يلتوي بعضها على بعض».

(٢) عبارة الفراءِ تشير إِلى احتمالين حيث قال في «معاني القرآن»: «أَنَّ مفتوحة على أَنْ تردَّ على الأمر، فتكون في موضع نصب بوقوع القضاء عليها، وتكون نصباً آخر بسقوط الخافض منها، أَي: قضينا ذلك الأمر بهذا، وهي في قراءَة عبد الله «وَقُلْنَا إِنَّ دابِرَ»، فعلى هذا لو قرىء بالكسر لكان وجهاً»، ولو رجعت إِلى الطبريّ لوجدت هذا الكلام بنصه فيه.

﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ بعد علمه بهلاكهم، وكان قولهم ما يأتي من المحاورة على جهة التكتم عنهم، والإملاءِ لهم، والتَّربُّص بهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والاحتمال الأول عندي أرجح، وهو الظاهر من آيات غير هذه السورة. وقوله: (يَسْتَبْشِرُونَ) أي: بالأضياف طمعاً منهم بالفاحشة، والضَّيف مصدر وُصف به فهو يقع للواحد والجميع والمذكر والمؤنث.

وقولهم: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، رُوي أنهم كانوا قد تقدموا إليه في ألاَّ يضيف أحداً ولا يجيره، لأنهم لا يراعونه ولا يكفون عن طلب الفاحشة فيه، وقرأ الأعمش: [إِنَّ دَابِرَ] بكسر الهمزة، ورُوي أن في قراءَة عبد الله: [وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ وقُلْنَا إِنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ]، وذكر السديُّ أنهم كانوا يفعلون الفاحشة مع الغرباءِ ولا يفعلونها بعضهم ببعض، فكانوا يتعرضون الطرق.

وقول لوط عليه السلام: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ اختلف في تأويله ـ فقيل: أراد نساءَ أُمَّته، لأَنَّ زوجات البنين أُمهات الأُمم وهو أَبوهم، فالنساءُ بناته في الحرمة، والمراد بالتزوج، ويلزم من هذا التأويل أن يكون في شرعه جواز زواج الكافر للمؤمنة، وقد ورد أن المؤمنات به قليل جداً. وقيل: إنما أراد بنات صلبه، ودعا إلى التزويج أيضاً، قاله قتادة، ويلزم هذا التأويل ما لزم المتقدم في ترتيبنا. ويحتمل أن يريد عليه السلام بقوله: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ بنات صلبه، ويكون ذلك على طريق المجاز، وهو لا يحقق في إباحة بناته، وهذا كما تقول لإنسان تراه يريد قَتْل آخر: اقتلني ولا تقتله، فإنما ذلك على جهة التشنيع عليه، والاستنزال من جهة ما، واستدعاءِ الحياءِ منه، وهذا كله من مبالغة القول الذي لا يدخله معنى الكذب، بل الغرض منه مفهوم، وعليه قول النبي ﷺ: «وَلَوْ كَمَفْحَص قَطاةٍ»(١) إلى غير هذا من الأمثلة.

و«العَمْرُ» و«العُمْرُ» بفتح العين وضمها واحد، وهما عُمْر الحياة ومدتها، ولا يستعمل في القَسَم إلا بالفتح، وفي هذه الآية شرف لمحمد ﷺ لأن الله تعالىٰ أقسم

---

(١) أخرجه ابن ماجه، والإمام أحمد في مسنده (١ـ٢٤١)، ولفظه: «مَنْ بَنَى لله مسجداً ولو كمَفْحَص قَطاة لبيضها بنى الله له بيتاً في الجنة» ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة. (الجامع الصغير).

بحياته، ولم يفعل ذلك مع بشر سواه، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، والقَسَم بـ «لَعَمْرِكَ» في القرآن وبـ «لَعَمْري» ونحوه في أشعار العرب وفصيح كلامها في غير موضع، كقوله:

لَعَمْـري وَمَـا عَمْـري عَلَـيَّ بِهَيِّـنٍ . . . .(١)

وقول الآخر:

لَعَمْـرُ أَبِيـكَ مـا نُسِـبَ الْمُعَلَّـى . . . .(٢)

وكقول الآخر:

لَعَمْـرُكَ إِنَّ الْمَـوْتَ مَـا أَخْطَـأَ الْفَتَـى   لَكَالطِّوَلِ الْمُرْخَى وثِنْيَاهُ بالْيَدِ(٣)

---

(١) هذا صدر بيت للنابغة، وهو من قصيدة يمدح بها النعمان بن المنذر ويعتذر إليه مما وشت به بنو قريع بن تميم، وهو بتمامه:

لَعَمْـري ومـا عَمْـري عَلَـيَّ بِهَيِّـنٍ   لَقَـدْ نَطَقَـتْ بُطْـلاً عَلَـيَّ الأَقَـارِعُ

واللام في «لَعَمْري» لام ابتداءٍ يقصد بها توكيد الجملة، و«لَعَمْري» مبتدأ وخبره محذوف تقديره: يميني، و«ما عُمَري» رويت بضم العين وبفتحها، وبُطْلا ـ بضم الباء وسكون الطاء ـ مصدر بَطَل إذا كان غير حق، والأقارع: بنو قريع بن عوف.

(٢) هذا صدر بيت لأبي علي البصير، وهو واحد من بيتين ذكرهما صاحب الأمالي، قال: أنشد علي بن سليمان لأبي عليّ البصير:

لَعَمْـرُ أَبِيـكَ مـا نُسِـبَ الْمُعَلَّـى   إلـى كَـرَمٍ وفـي الـدُّنْيَـا كَـرِيـمُ
ولَكِـنَّ البـلادَ إذا اقْشَعَـرَّتْ   وَصَـوَّحَ نَبْتُهَـا رُعِـيَ الْهَشِيـمُ

ومعنى صَوَّح: يَبِسَ وتشقق، والهجاءُ في البيتين قاس ومؤلم.

(٣) الشاعر هو طَرَفة بن العبد، والبيت من معلقته التي امتازت بالحكمة وبالنظر الصائب في أُمور الحياة، وقوله: «ما أخطأ الفتى» يحتاج إلى شيءٍ من البيان، إذ أن (ما) مع الفعل هنا بمنزلة مصدر حلَّ محلَّ الزمان، نحو قولهم: «آتيك خفوق النجم ومقدم الحاج» أي: وقت خفوق النجم، ووقت مقدم الحاج، والطِّوَل: الحبل الذي يطول للدابة ويعطيها فرصة الرعي على مسافة كبيرة، والإرخاءُ: الإرساءُ، والثِّنْيُ: الطرف والجمع الأثناءُ، يقسم طَرَفة أن الموت في مدة تركه للفتى، أو مجاوزته إياه بمنزلة حبل طويل ترك على طوله لترعى الدابة فيه وطرفاه بيد صاحبها، فكما أن الدابة لا يمكن أن تفلت ما دام صاحبها آخذاً بطرفي الحبل فكذلك الموت لا يمكن للفتى أن يتخلص منه، ولما جعل الموت بمنزلة صاحب الدابة التي أرخى طولها قال: متى شاءَ الموت قاد الفتى لهلاكه، ومن كان في حبل الموت انقاد له.

والعرب تقول: «لَعَمْرُ الله»، ومنه قول الشاعر:

إِذَا رَضِيَتْ عَلَيَّ بنو قُشَيْرٍ لَعَمْرُ اللهِ أَعْجَبَنِي رضاهَا[1]

وقال الأعشى:

وَلَعَمْرُ مَنْ جَعَلَ الشُّهورَ عَلامَةً فينَا فبَيَّن نِصْفَها وكَمالها[2]

وقال بعض أَصحاب المعاني: لا يجوز هذا لأَنه لا يقال: لله تعالىٰ عُمْر، وإِنما يقال: بقاءٌ أَزلي، ذكره الزهراوي، وكره إِبراهيم النَّخَعي أَن يقول الرجل: «لعمري»، لأَنه حلف بحياة نفسه، وذلك من كلام ضعفة الرجال، ونحو هذا. وقوْلُ مالك في

(١) البيت لِلقُحَيْف العُقَيْلِيِّ، وبعده يقول:

ولا تَنْبو سُيُوفُ بَنِي قُشَيْرٍ ولا تَمْضِي الأَسِنَّةُ في صَفَاهَا

يقال: رضيتُ عنْك وعليك، وقد عدَّاها الشاعر في بيتنا بـ «على» لأنه إذا رضيت عنه أحبته وأقبلت عليه، فلذلك استعمل على بمعنى عن، قال صاحب اللسان: وكان أبو علي يستحسن قول الكسائي في هذا، لأنه لما كان رضيت ضد سخطت عدَّى رضيت بـ «على» حملاً للشيءِ على نقيضه كما يحمل على نظيره.

(٢) الرواية في الديوان: «فَلَعَمْر بالفاء، و«فبيَّن نصفها وهلالها»، ويُروى: «نَقْصَهَا»، وهو من قصيدة للشاعر يمدح بها قيس بن معديكرب، وبعده يقول مخاطباً الممدوح:

مـا كُنْتَ فـي الحَرْبِ العَـوَانِ مُغَمَّـراً إِذْ شَبَّ حَـرُّ وَقُـودهـا أَجْـزَا لَهَـا

ومن الشواهد الشعرية على استعمال العرب «لَعَمْري» و«لَعَمْرك» قول الشاعر:

لَعَمْـرُك مـا يـدْري الفَتَـى أيُّ أمْـرِهِ وإنْ كانَ مَخروصاً على الرُّشْدِ أَرْشَدُ
أفـي عـاجِـلاتِ الأمـرِ أمْ آجِـلاتِـهِ أمِ اليـوْمُ أدْنـى لِلسَّعَـادَةِ أَمْ غَـدُ؟

وقول العباس بن الأحنف:

لَعَمْـري لَئِـنْ كـانَ المُقَـرَّبُ مِنْكُـمُ هـوىً صادِقاً إنِّي لَمُسْتَوْجِبُ القُرْبِ

وقد استعمله أبو خِراشٍ في الطير فقال:

لَعَمْـرُ أبـي الطَّيْـرِ الْمُـرِبَّـةِ غُـدْوَةً علَى خالِـدٍ لَقَـدْ وقَعْتِ على لَحْـم

وتأتي «عَمْر» بدون اللام، قال عُمر بن أبي ربيعة:

أيُّهَـا المُنْكِـحُ الثُّـرَيَّـا سُهَيْـلا عَمْـرَكَ الله، كَيْـفَ يَجْتَمِعَـانِ؟

قيل: معنى «عَمْرَكَ الله» هنا، عبادتُك الله، ولذلك نصب الشاعرُ لفظ الجلالة. وتأتي «عَمْر» بالراءِ بدلاً من اللام في أولها فيقال: «رَعَمْرُك».

«لَعَمْرِي ولَعَمْرِكَ» أنها ليست بيمين، وقال ابن حبيب: ينبغي أَن تصرف «لعمرك» في الكلام اقتداءً بهذه الآية.

و﴿يَعْمَهُونَ﴾ أَي يَرْتَبِكون ويتحيرون، والضمائر في «سَكْرَتِهِمْ» يراد بها قوم لوط المذكورون، وذكر الطبري أَن المراد قريش، وهذا بعيد لأَنه ينقطع مما قبله ومما بعده. وقوله: ﴿في سَكْرَتِهم﴾ مجازٌ وتشبيه، أَي: في ضلالتهم وغفلتهم عن الحق ولهوهم، و﴿يَعْمَهُونَ﴾ معناه: يترددون في حيرتهم. و﴿مُشْرِقِينَ﴾ معناه: قد دخلوا في الإِشراق، وهو سطوع ضوءِ الشمس وظهوره، قاله ابن زيد، وهذه الصيحة هي صيحة الوجبة(١)، وليست كصيحة ثمود، وأُهلكوا بعد الفجر مصبحين، واستوفاهم الهلاك مشرقين. وخبر قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ محذوف تقديره: لَعَمْرك قسمي أَو يميني، وفي هذا نظر. وقرأَ ابن عباس: [وَعَمْرك]، وقرأَ الأَشهب العقيلي: [لفي سُكْرَتِهِمْ] بضم السِّين، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [سَكَرَاتِهِمْ]، وقرأَ الأَعمش: [لفي سُكْرِهِمْ] بغير تاء، وقرأَ أَبو عمرو في رواية الجهضمي: [أَنَّهُمْ] بفتح الهمزة [في سكرتهم].

ورُوِي في معنى قوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أَن جبريل عليه السلام اقتلع المدينة بجناحه ورفعها حتى سمعت ملائكة السماءِ صراخ الديكة ونباح الكلاب، ثم قلبها وأَرسل الكل، فمن سقط عليه شيءٌ من ردم المدينة مات، ومن أَفلت منهم أَصابته حجارة من سِجِّيل، و«سِجِّيل» اسم من أَسماءِ سماءِ الدنيا، وقيل: هي لفظة فارسية، وهي الحجارة المطبوخة من الطين كالآجُرِّ ونحوه، وقد تقدم القول في هذا.

و«المُتَوَسِّمُونَ» قال مجاهد: المتفَرِّسون، وقال الضحاك: الناظرون، وقال قتادة: المعتبرون، وقيل غير هذا مما هو قريب منه، وهذا كله تفسير لها بالمعنى، وإِنما تفسيرها باللفظ، فإِن المعاني التي تكون في الإِنسان وغيره من خير أَو شرٍّ يلوح عليه وَسْم على تلك المعاني كالسكون والديانة والهيبة التي تكون عن الخير ونحو هذا، فالمتوسِّم هو الذي ينظر في وَسْم المعنى ليستدل به على المعنى، وكأَن معصية هؤلاءِ أَبقت من العذاب والإِهلاك وسْماً، فمن رأَى الوَسْم استدل على المعصية به، واقتاده

(١) هكذا في جميع النسخ الأصلية، ولا نرى لها معنى، وقد وجدناها في «البحر المحيط» نقلاً عن ابن عطية: «صيحة الوَحْشَة».

النظر إلى تجنب المعاصي لئلا ينزل به ما نزل بهم، ومن الشعر في هذه اللفظة قول الشاعر:

تَوَسَّمْتُه لَمَّا رَأَيْتُ مَهَابَةً عَلَيْهِ وقلْتُ الْمَرْءُ مِنْ آلِ هَاشِمِ(١)

وقال آخر:

* وظَلَلْتُ فيهَا واقِفاً أَتَوَسَّمُ *(٢)

وقال آخر:

إِنِّي تَوسَّمْتُ فيكَ الْخَيْرَ نَافِلَةً . . . .(٣)

والضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهَا﴾ يحتمل أن يعود على المدينة المهلكة، أي: أنها في طريق ظاهر للمعتبر، وهذا تأويل مجاهد، وقتادة، وابن زيد، ويحتمل أن يعود على الآيات، ويحتمل أن يعود على الحجارة، ويقوي هذا التأويل ما روي أن النبي ﷺ قال: «إن حجارة العذاب معلقة بين السماءِ والأرض منذ أَلْفَيْ عام لعصاة أُمَّتي»(٤).

وقوله: ﴿لآية﴾ أي أمارة وعلامة، كما تقول: آيةٌ ما بيني وبينك كذا وكذا.

---

(١) رواه الزمخشري في أساس البلاغة: «وقلْتُ الشَّيْخُ من آل هاشم»، قال: توسَّمْتُ فيه الخير: تبيَّنت فيه أثره، ثم ذكر البيت، والمهابة: الإجلال والمخافة، وابن عطية يستشهد به على أن التوسم هو النظر في العلامات الدالة على المعنى ليستدل بها عليه.

(٢) قال في التاج: «التَّوسُّم: التَّفرُّس كما في الصحاح، قال شيخنا: وأصله: عَلِمَ حقيقته بسمته، ويقال: توسَّمه إذا نظر من قرنه إلى قدمه واستقصى وجوه معرفته»، فالتوسم هنا هو استقصاء وجوه معرفة الشيءِ. ومثله ما استشهد به سيبويه وهو قول طريف بن تميم العنبري:

أَوَ كُلَّمَا وَرَدَتْ عُكَاظَ قَبِيلَةٌ بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُمْ يَتَوَسَّمُ؟

(٣) هذا صدر بيت قاله عبد الله بن رواحة يخاطب النبي ﷺ، والبيتُ بتمامه كما رواه في القرطبي:

إِنِّي تَوَسَّمْتُ فِيكَ الخَيْرَ أَعْرِفُهُ والله يَعْلَمُ أَنِّي ثَابِتُ الْبَصَرِ

(٤) لم نعثر على هذا الحديث في المراجع التي بين أيدينا، ولكن وجدنا في القرطبي حديثين يدلان على أن العذاب بالحجارة ينتظر من يفعل فعل قوم لوط من أُمة محمد ﷺ، ولفظ الأول: «سيكون في آخر أُمتي قوم يكتفي رجالهم بالرجال، ونساؤهم بالنساء، فإذا كان ذلك فارتقبوا عذاب قوم لوط أن يرسل الله عليهم حجارة من سجيل»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾. ولفظ الثاني: «لا تذهب الليالي والأيام حتى تستحل هذه الأمة أدبار الرجال كما استحلوا أدبار النساء، فتصيب طوائف من هذه الأمة حجارة من ربك».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾ . .

﴿ٱلْأَيْكَةِ﴾: الغيْضة والشجر الملتف المخضر، يكون السِّدر ونحوه، قال قتادة: رُوي أن أَيكة هؤلاءِ كانت من شجر الدوم، وقيل: من المقل، وقيل: من السِّدْر، وكان هؤلاءِ قوماً يسكنون غَيْضة ويرتفقون بها في معايشهم، فبعث الله إِليهم شعيباً عليه السلام فكفروا، فسلَّط الله عليهم الحر فدام عليهم سبعة أيام، ثم رأَوا سحابةً فخرجوا فاستظَلُّوا تحتها فاضطرمت عليهم ناراً، وحكى الطبريُّ قال: بُعث شُعَيْبٌ إِلى أُمتين كفرتا فعُذِّبتا بعذابين مختلفين: أَهل مدين عذبوا بالصيحة، وأَصحاب الأيكة عذِّبوا بالظُّلَّة، ولم يختلف القراءُ في هذا الموضع في إِدخال الألف واللام على «أَيكَة»، وأَكثرهم همز أَلف «أَيكة» بعد اللام، ورُوي عن بعضهم أنه سهَّلها ونقل حركتها إِلى اللام فقرأَ: [الأَيْكَةَ] دون همز، واختلفوا في سورة الشعراءِ، وفي سورة صَ(١).

و﴿إِنْ﴾ هي المخففة من الثقيلة على مذهب البصريين، وقال الفراءُ: ﴿إِنْ﴾ بمعنى «ما»، واللام في قوله: ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾ بمعنى «إِلاَّ»، قال أَبو علي: الأَيْكُ: جمع أَيكة كتَمرة وتَمْر، ومن الشاهد على اللفظة قول أُمَيَّة بن أَبي الصلت:

كَبُكَــا الْحَمــام عَلَــىٰ غُصُــو ... نِ الأَيْـكِ فـي الطَّيْـرِ الْجَـوَانـح(٢)

---

(١) أما في الشعراء ففي قوله تعالىٰ في الآية(١٧٦): ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، وأما في صَ ففي قوله تبارك وتعالىٰ في الآية(١٣): ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾.

(٢) قال أُمية هذا البيت من قصيدة له يرثي بها قتلى بدر، ومطلعها:

الا بَكَيْــتِ عَلَــى الكــرَا ... مِ بَنـي الْكِـرَامِ أُولـي الْمَمَـادحْ

والأيك: الشجر الملتف، واحدته أيكة، والجوانح: الموائل، يقال: جَنَح إذا مال. وفي اللسان: الأيكة: الشجر الكثير الملتف، وقيل: هي الغيضة تنبت السِّدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر، وخصَّ بعضهم به منبت الأثل ومجتمعه. وقد رُوي البيت: «على فروع» بدلاً من: «على غصون».

وقول جرير:

وقَفْتُ بهـا فهَـاجَ الشَّـوْقَ مِنـي ... حَمـامُ الأيْـكِ يسعِـدُهـا حَمـامُ(١)

ومنه قول الآخر:

أَلا إِنَّمـا الـدُّنيـا غَضـارةُ أَيْكَـةٍ ... إِذَا اخْضَرَّ مِنها جانِبٌ جَفَّ جَانِبُ(٢)

ومنه قول الهذلي:

مُـوَشَّحَـةٌ بـالطُّـرَّتَيْـنِ دَنَـا لَهَـا ... جَنى أَيْكَةٍ يَضْفُو عَلَيْهَا قِصَارُهَا(٣)

وأَنشد الأَصمعي:

ومـا خلِيـجٌ مـن.... ذو حَـدَبٍ ... يَرْمِي الصَّعيدَ بخُشْبِ الأَيْك والضَّالِ(٤)

---

(١) «هاج» يهيج: ثار لمشَقَّة أو ضرر، يتعدَّى ولا يتعدَّى، والذي حرَّك الشوق هنا هو الحمام السعيد في الأيك بأليفه، وقد اعتاد الشعراءُ تداول هذا المعنى، قال الشاعر:

وَمَـا هَـاجَ هـذا الشَّـوْقَ إلا حَمَـامَـةٌ ... تَغَنَّـتْ على خَضْـرَاءَ سُمْـرٌ قُيُـودُهَـا
صَدوحُ الضُّحَى مَعروفةُ اللَّحن لـم تَزَلْ ... تَقـودُ الهَـوَى مِـن مُسْعِـدٍ ويَقُـودُهـا

وقال آخر:

إذا تَغَنَّـى الحَمَـامُ الـوُرْقُ هَيَّجَنِـي ... ولَـوْ تَعَـزَّيْـتُ عَنْهَـا أُمَّ عَمَّـار

(٢) يقال: غَضُرَ غَضارةً: كان في سعة وطيب عيش، وغَضُر النباتُ: نَعُم فهو غاضر وغضير، يصور الدنيا في صورة الأَيْكة، إذا اشتدت خضرة النبات في جانب منها جفَّ منها جانب آخر، وكذلك الدنيا تعطي وتأخذ، والبيت غير منسوب.

(٣) قال أبو ذؤيب هذا البيت من قصيدة يرثي بها نُشَيْبَة بن مُحرِّث، أحد بني مُؤَمَّل، ومطلعها:

هَـلِ الـدَّهْـرُ إلا لَيْلَـةٌ ونَهَـارُهَـا ... وإلا طُلُـوعُ الشَّمْـسِ ثُـمَّ غِيَـارُهَـا

والموشَّحةُ من الظباءِ والشاءِ والطير: التي لها طُرَّتان مسبلتان من جانبيها، ويروى «مُوَلَّعَةٌ»، والتَّوْليع: ألوان مختلفة، و«الطُّرَّتان»: طريقتان في جنبيها، وهو حيث ينقطع اختلاف لون الظهر من لون البطن، و«دَنَا لَهَا» قَرُبَ لها، و«الجَنَى»: الثمر الذي يُجتنى، و«يَضْفُو»: يكثر ويَسْبغُ عليها، فإذا سبغَ عليها القصار من الأغصان فالطوال أحرى أن تكون أسبغ، والشاعر يصف ظبية ويقول في هذا البيت وما بعده: إنها ملونة جميلة تأكل ما تشاءُ من الثمار، وقد نعمت بالربيع، ومع ذلك فإنها ليست أجمل ولا أحسن من حبيبته.

(٤) لم أقف على قائله، ومكان النقط كلمة غير واضحة في النسخ الخطية، وتختلف صورتها وحروفها من نسخة إلى أُخرى، والخليج من البحر: شَرْمٌ منه، أو نهر في شق من النهر الأعظم إلى موضع ينتفع به، وذو حَدَب: ذو موج مرتفع، وحَدَب الماءِ: ما ارتفع من أمواجه. والصعيد: الأرض المرتفعة، وقيل: =

والضمير في قوله: [وَإِنَّهُمَا] يحتمل أَن يعود على المدينتين اللَّتين تقدم ذكرهما، مدينة قوم لوط، ومدينة أَصحاب الأَيكة، ويحتمل أَن يعود على النَّبيَّين لوطٍ وشُعيب في أَنهما على طريق من الله وشرع مبين.

و«الإِمامُ» في كلام العرب: الشيءُ الذي يهتدى به ويُؤْتَمُّ، يقولونه لخيط البناءِ، وقد يكون الطريق، وقد يكون الكتاب المفيد، وقد يكون القياس الذي يعمل عليه الصناع، وقد يكون الرجل المُقْتدى به، ونحو هذا، ومن رأَي عود الضمير في [إِنَّهُما] على المدينتين قال: الإِمامُ: الطريق، وقيل على ذلك: الإِمامُ: الكتاب الذي سبق فيه إِهلاكهما.

و﴿أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ ثمود، وقد تقدم قصصهم، و[ٱلْحِجْر] مدينتهم، وهي ما بين المدينة وتبوك، وقال: [ٱلْمُرْسَلِينَ] من حيث يجب بتكذيب رسول واحد تكذيب الجميع، إِذ القول في المعتقدات واحد للرسل أَجمع، فهذه العبارة أَشنع على المكذبين.

والآيات التي آتاهم الله هي الناقة وما اشتملت عليه من خرق العادة حسب ما تقدم تفسيره وبسْطه، وقرأَ أَبو حيْوة: [وآتَيْناهم آيَتَنا] مفردة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ﴾ الآية. يصف قوم صالح بشدة النظر للدنيا والكسب منها، فذكر من ذلك مثالاً أَن بيوتهم كانوا ينحتونها في حجر من الجبال، والنحتُ: النقر بالمعاول ونحوها في الحجارة والعود ونحوه، وقرأَ جمهور الناس بكسر الحاءِ، وقرأَ الحسن بفتحها وذلك لأَجل حرْف الحلق، وهي قراءَة أَبي حيوة، وقوله: [آمِنِينَ]، قيل: معناه: من انهدامها، وقيل: من حوادث الدنيا، وقيل: من الموت لاغترارهم بطول الأَعمار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله ضعيف، وأَصح ما يظهر في ذلك أَنهم كانوا يأْمنون عواقب الآخرة،

= ما ارتفع من الأرض في أرض منخفضة، وقيل: وجه الأرض عموماً، والأَيْكَة: الغيضة تُنبت السِّدرَ والأراك ونحوهما من ناعم الشجر، وعن ابن الأعرابي: أيكة من أَثْل، ورهْطٌ من عُشر، وقصيمة من عضا. والضَّال: السِّدْرُ البَرِّي، غير مهموز، واحدته ضالة، وألفه منقلبة عن ياء. والشاهد في البيت أن الأيكة بمعناها المعروف مستعملة في الشعر العربي.

فكانوا لا يعملون بحسبها، بل كانوا يعملون بحسب الأمن منها.

ومعنى ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي عند دخولهم في الصباح، وذُكر أن ذلك كان يوم سبت، وقد تقدم قصص عذابهم وميعادهم وتغيُّر ألوانهم، ولم تغن عنهم شدة نظرهم للدنيا وتكسُّبهم شيئاً، ولا دفع عذاب الله.

و[ما] الأُولى للنفي، وتحتمل التقرير[١]، والثانية مصدريَّة[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية. المراد أن هؤلاءِ المكتسبين للدنيا الذين لم يغن عنهم اكتسابهم ليسوا في شيءٍ، فإن السموات والأرض وجميع الأشياءِ لم تخلق عبثاً ولا سُدى ولا لتكون طاعة الله كما فعل هؤلاءِ ونظراؤُهم، وإنما خلقت بالحق، ولواجب مقصود وأغراض لها نهايات من عذاب ونعيم، وإنَّ الساعة آتية على جميع أُمور الدنيا، أي: فلا تهتم يا محمد بأعمال قومك، فإن الجزاءَ لهم بالمرصاد، فاصفح عن أعمالهم، أي: ولِّها صفحة عنقك بالإعراض عنها، وأكَّد الصفح بِنَعْت الجَمَال إذ المرادُ منه أن يكون لا عَتْب فيه ولا تعرض. وهذه الآية تقتضي مهادنة، ونسختها آية السيف، قاله قتادة.

ثم سلاَّه في آخر الآيات بأن الله تعالىٰ يخلق ما شاءَ لمن شاءَ، ويعلم تعالىٰ وجه الحكمة في ذلك، لا هذه الأوثان التي تعبدونها. وقرأ جمهور الناس: ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾، وقرأ الأعمش والجحدري: [ٱلْخَالِقُ].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما، وابن مسعود، وابن عمر، ومجاهد، وابن جبير: السَّبع هنا هي السبع الطُّوَل: البقرة، وآل عمران، والنساءُ، والمائدة، والأنعام،

---

(١) قال أبو حيان في البحر: «وتحتمل الاستفهام المراد منه التعجب».

(٢) يصح أن تكون بمعنى «الذي» والضمير محذوف، والتقدير: فما أغنى عنهم الذي كانوا يكسبونه في البيوت المتينة والأموال والعَدَد.

والمَص، والأنفال مع براءة[١]، وقال ابن جبير: بل السابعة يونس: وليست الأنفال وبراءة منها. و﴿المَثَانِي﴾ ـ على قول هؤلاءِ ـ القرآن كله، كما قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾[٢]، وسُمِّي بذلك لأن القصص والأخبار تُثَنَّى فيه وتُرَدَّد.

وقال عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن عباس أيضاً، وابن مسعود، والحسن، وابن أبي مُلَيْكة، وعبيد بن عمير، وجماعة: السبع هنا هي آيات الحمد، قال ابن عباس: هُنَّ سبع بالبسملة، وقال غيره: هُنَّ سبع دون البسملة، ورَوى في هذا حديث أُبَيٍّ بن كعب ونَصُّه: قال أُبَيٌّ: قال رسول الله ﷺ: «أَلا أُعلمك يا أُبَيُّ سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها»؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: «إنِّي لأرجو أَلا تخرج من ذلك الباب حتى تعلمها»، فقام رسول الله ﷺ وقمت معه، ويدي في يده، وجعلت أبطىءُ مخافة أَن أخرج، فلما دنوت من المسجد قلت: يا رسول الله، السورة التي وعدتنيها؟ فقال: «كيف تقرأُ إذا قُمت في الصلاة؟» قال: فقرأتُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حتى أكملت فاتحة الكتاب، فقال: «هي هي، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتيت»، كذا أَو نحوه، ذكره مالك في الموطأ، وهو مروي في البخاري، ومسلم عن أبي سعيد بن المعلى أيضاً. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ «أنها السبع المثاني، وأُم القرآن، وفاتحة الكتاب»[٣]، وفي كتاب الزهراوي: «وليس فيها بسملة». و«المثاني» ـ على قول هؤلاءِ ـ يحتمل أَن تكون القرآن، فـ ﴿مِن﴾ للتبعيض، وقالت فرقة: بل أَراد الحمد نفسها، كما قال: ﴿ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾[٤] فـ ﴿مِن﴾ لبيان الجنس، وسميت بذلك لأنها تثنى في كل ركعة، وقيل: سميت بذلك لأَنها يثنى بها على الله تبارك وتعالىٰ، جوّزه الزجاج، وفي هذا القول من جهة التصرف نظر[٥]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سميت

---

(١) لأنهما في حكم سورة واحدة، ولذلك لم يفصل بينهما بالبسملة.

(٢) من الآية (٢٣) من سورة (الزُمَر).

(٣) قال في (فتح القدير): (أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ: قال رسول الله ﷺ: «أُمُّ القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»). وفي القرطبي: (وخَرَّج الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني»).

(٤) من الآية (٣٠) من سورة (الحَجِّ).

(٥) قال أبو حيان في البحر: «ولا نظر في ذلك، لأنها جمع مُثْنى بضم الميم، مُفعل من أثنى رباعياً، أي مقر=

بذلك لأن الله تعالىٰ استثناها لهذه الأمة ولم يعطها لغيرها، وقال نحوه ابن أبي مُلَيْكة. وقرأت فرقة: ﴿وَٱلْقُرْآن﴾ بالخفض عطفاً على ﴿ٱلْمَثَانِي﴾، وقرأت فرقة: [وَٱلْقُرْآنَ] بالنصب عطفاً على قوله: ﴿سَبْعاً﴾.

وقال زياد بن أبي مريم[1]: المراد بقوله: ﴿سَبْعاً﴾ أي سبع معانٍ من القرآن خوَّلناك فيها شرف المنزلة في الدنيا والآخرة، وهي: مُرْ، وانْهَ وبَشِّر، وأَنْذِرْ، واضرب الأمثال، واعدد النعم، وفُضَّ الغيوب.

وقال أبو العالية: السبع المثاني هي آي فاتحة الكتاب، وقد نزلت هذه السورة وما نزل من السبع الطُّوَل شيءٌ[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية. حكى الطبري عن سفيان بن عُيَيْنَة أنه قال: هذه الآية أمر بالاستغناءِ بكتاب الله عن جميع زينة الدنيا، وهي ناظرة إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[3]، أي: يستغني به، فكأنه قال: ولقد آتيناك عظيماً خطيراً، فلا تنظر إلى غير ذلك من أُمور الدنيا وزينتها التي متعنا بها أنواعاً من هؤلاءِ الكفرة، ومن هذا المعنى قول النبي ﷺ: «من أُوتي القرآن فرأى أن أحداً أُعطي أفضل مما أُعطي فقد عظَّم صغيراً وصغر عظيماً»[4]، وكأن مدَّ العين يقترن به تَمَنٍّ، ولذلك عبَّر عن الميل إلى زينة الدنيا بِمَدِّ العين. و«الأزواج» هنا: الأنواع والأشباه.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: لا تتأسف لكفرهم وهلاكهم، واصرف وجهك وتَحَفِّيك إلى من آمن بك، واخفض لهم جناحك، وهذه استعارة بمعنى: ليِّن جانبك

= ثناءِ على الله تعالىٰ، أي: فيها ثناءٌ على الله تعالىٰ».

(١) هو زياد بن أبي مريم الجزري، وثَّقه المعجلي، من الطبقة السادسة.

(٢) يَرُدُّ أبو العالية بذلك على من قال إنها السبع الطُّوَل. وأُجيب بأن الله تعالىٰ أنزل القرآن إلى السماء الدنيا، ثم أنزله منها نجوماً، فما أنزله إلى السماء الدنيا فكأنما آتاه محمداً ﷺ وإن لم ينزل بعد عليه.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، وأبو داود في الوتر، والدارمي في الصلاة وفي فضائل القرآن، والإمام أحمد (١٧٢٠١، ١٧٥، ١٧٩)، وفي رواية الإمام أحمد بعد أن ذكر الحديث قال وكيع: «يعني: يستغني به»، ووكيع هو الراوي.

(٤) رواه أبو القاسم الطبراني عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً بلفظ: «من قرأ القرآن فرأى أن أحداً أُوتي أفضل مما أُوتي فقد استصغر ما عظَّم الله»، (راجع ج١ ص١٣) من هذا الكتاب.

ووطىء أكنافك، و«الجناح»: الجانب والجنب، ومنه قوله: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾[(١)]، فهو أمر بالميل إليهم، والجنوحُ: المَيْلُ.

﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾، أي: تمسَّك بهذا القدر العظيم الذي وهبناك، والكاف من قوله: ﴿كَمَا﴾ متعلقة بفعل محذوف تقديره: وقل إني أنا النذير بعذاب كالذي أنزلناه على المقتسمين، والكاف اسمٌ في موضع نصب، هذا قول المفسرين، وهو عندي غير صحيح[(٢)]؛ لأن ﴿كَما﴾ ليست مما يقوله محمد ﷺ، بل هو من قول الله تعالىٰ له، فينفصل الكلام، وإنما يترتب هذا القول بأن يقدر أن الله تعالىٰ قال له: تنذر عذاباكما، والذي أقول في هذا: إن المعنى: وقل إني أنا نذير كما قال قبلك رسلنا، وأنزلنا عليهم كما أنزلنا عليك. ويحتمل أن يكون المعنى: وقل أنا النذير كما أنزلنا في الكتب أنك ستأتي نذيراً، وهذا على أن ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ أهل الكتاب.

واختلف الناس في ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾. من هم؟ ـ فقال ابن زيد: هم قوم صالح الذين اقتسموا بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وأهله[(٣)]، فالمقتسمون ـ على هذا ـ من القسم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويقلق هذا التأويل مع قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾.

وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير: المقتسمون هم أهل الكتاب الذين فرقوا دينهم، وجعلوا كتاب الله أعضاءً، آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وقال نحوه مجاهد.

وقالت فرقة: المقتسمون هم من كفار قريش الذين اقتسموا الطرق وقت المواسم ليُعَرِّفوا الناسَ بحال محمد ﷺ، وجعلوا القرآن سحراً وشعراً وكهانة، فعضهوه بهذا وعضَّوه أعضاءً بهذا التقسيم.

---

(١) من الآية (٢٢) من سورة (طه).

(٢) علّق أبو حيان في البحر على قوله: «وهذا عندي غير صحيح» فقال: «استعذر بعضهم عن ذلك فقال: الكاف متعلقة بمحذوف دلَّ عليه المعنى، تقديره: أنا النذير بعذاب مثل ما أنزلنا، وإن كان المنزل هو الله، كما يقول بعض خواص الملك: «أمَرْنا بكذا» وإن كان الملك هو الآمر».

(٣) إشارة إلى قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾، الآية (٤٩) من سورة (النمل). ومثل هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾، وقوله: ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾، فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيءٍ إلا أقسموا عليه، فسُمُّوا مقتسمين.

وقال عكرمة: المقتسمون هم قوم كانوا يستهزئون بِسُوَر القرآن، ويقول الرجل منهم: هذه السورة لي، ويقول الآخر: وهذه لي.

وقوله: ﴿عِضِينَ﴾ مفعول ثان، و﴿جَعَلُوا﴾ بمعنى «صَيَّروا»، أَي بأَلسنتهم ودعواهم، وأَظهر ما فيه أَنه جمع عِضَة، وهي الفرقة من الشيءِ، والجماعة من الناس كثُبَةٍ وثُبين، وعِزةٍ وعِزين، وأَصلها عِضْهَة وثُوبَة، فالياءُ والنون عوض من المحذوف، كما قالوا: سَنَةٌ وسنون، إذ أَصلها سَنْهَة[1]. وقال ابن عباس وغيره: ﴿عِضِينَ﴾ مأْخوذ من الأَعضاءِ، أَي عضَّوه فجعلوه أَقساماً وأَعضاءً، ومن ذلك قول الراجز:

وَلَيْسَ دِينُ اللهِ بِالْمُعَضَّى[2].

وهذا هو اختيار أَبي عبيدة. وقال قتادة: ﴿عِضِين﴾ مأْخوذ من العَضْهِ وهو السَّبُّ المفحش، فقريش عَضَهوا كتاب الله بقولهم: هو شعر، هو سحر، هو كهانة، وهذا هو اختيار الكسائي. وقالت فرقة: ﴿عِضِين﴾ جمع عِضَة، وهو اسم للسِّحْر خاصة بلغة قريش، ومنه قول الراجز:

لِلْمَاءِ مِنْ عِضَاتِهِنَّ زَمْزَمَهْ[3]

قال هذا القول عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: العَضْه: السِّحْر،

---

(١) استثقلوا الجمع بين هاءَين فقالوا: عِضَة، كما قالوا: شَفَة، والأصل شَفْهة، وسَنَة، والأصل سَنْهَة، ومن علماء العربية من قال: عِضِين واحدتها عِضَة، ولكن أصلها عِضْوة من: عَضَّيْتُ الشيءَ إذا فرقتَه، جعلوا النقصان هو الواو. اتفقوا على أَن الأصل (عِضَة) ولكن اختلفوا في المحذوف، أهو واو أو هاءٌ؟.

(٢) الراجز هو رؤبة بن العجاج، والبيت من قصيدة له يمدح بها تميم ونفسه. يقول: «إن دين الله ليس أقساماً ولا أجزاءَ»، وفي مطلع القصيدة يقول:

دايَنْتُ أَرْوَى والديونُ تُقْضَى ... فَمَطَلَتْ بَعْضاً وأَدَّتْ بَعْضا

(٣) جاء في (اللسان ـ عَضَه): «العِضَهُ: السِّحْر والكهانة، والعاضه: السَّاحر، الفعل كالفعل والمصدر كالمصدر، قال:

أَعُوذُ بِرَبِّي مِنَ النَّافِثَا ... تِ فِي عِضَهِ العَاضِهِ المُعْضِهِ

وسُمِّي السِّحر عِضَهاً لأنه كذب وتخييل لا حقيقة له». وعلى هذا نفهم كلام هذه الفرقة، والرجز الذي ساقه ابن عطية يشهد بأن العِضَة اسم للسِّحر، والزَّمْزَمة: صوت خفيٌّ لا يكاد يفهم، وزمزمة الماء: كثرته، يقول: إن للماء من سحرهن كثرة، أو صوت خفي لا يكاد يُفهم. ولم نقف على قائل هذا الرجز.

وهم يقولون للساحرة: العاضِهة، وفي الحديث: «لعن الله العاضهة والمُسْتَعْضِهَة»[(١)]، وهو اختيار الفراءِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومن قال: «جعلوه أَعضاءً» فإِنما أَراد: قسَّموه كما يُقَسَّم الجزور أَعضاءً.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إلى آخر الآية، ضمير عام، ووعيد محضٌ يأخذ كل أَحد منه بحسب جرمه وعصيانه، فالكافر يُسأَل عن «لا إِلـٰه إِلا الله»، وعن الرسل، وعن فكره وقصده، والمؤمن العاصي يُسأَل عن تضييعه، والإِمام عن رعيته، وكلُّ مكلف عما كلف القيام به، وفي هذا أَحاديث.

وقال أَبو العالية في تفسير هذه الآية: يسأَل العباد كلهم عن خلَّتين يوم القيامة: عما كانوا يعبدون، وبماذا أَجابوا المرسلين. وقال في تفسيرها أَنسُ بن مالك، وابن عمر، ومجاهد: إِن السؤال عن «لا إِلـٰه إِلا الله»، وذكره الزهراوي عن النبي ﷺ.

وقال ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[(٢)]، قال: يقال لهم: لِم عملتم كذا وكذا؟ قال: وقوله تعالىٰ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾[(٣)] معناه: لا يقال له: ما أَذنبت؟ لأَن الله تعالىٰ أَعلم بذنبه منه، ونفيُ السؤال هو نفي الاستفهام المحض، وإِيجاب السؤال هو على جهة التقرير لهم والتوبيخ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

«أَصدع»: معناه: أَنفذ وصرِّح بما بعثت به، والصَّدع: التفريق بين مُلْتحم، كصدع الزجاجة ونحوه، فكأَن المصرِّح بقول يُرْجع إِليه يصْدع به ما سواه مما يضادُّه،

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية: «هي الساحرة والمستسحرة، سُمِّي السِّحر عضهاً لأنه كذب وتخييل لا حقيقة له».

(٢) قال الزمخشري: أقسم تعالىٰ بذاته وربوبيته مضافاً إلى رسوله على جهة التشريف.

(٣) من الآية (٣٩) من سورة (الرحمن).

والصَّديعُ: الصُّبْح(١)، لأنه يصدع الليل. وقال مجاهد: نزلت في أن يجهر بالقرآن في الصلاة.

وفي [تُؤْمَر] ضمير عائد على ﴿مَا﴾، تقديره: تؤمر به، أو تؤمره، وفي هذين تنازع. وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ من آيات المهادنات التي نسختها آية السيف، قاله ابن عباس، ثم أعلمه تعالىٰ أنه كفاه المستهزئين به من كفار مكة ببوائق من الله أصابتهم، لم يسع بها محمد، ولا تكلف فيها مشقة.

وقال عروة بن الزُّبير، وسعيد بن جبير: المستهزئون خمسة نفر: الوليدُ بن المغيرة، والعاصُ بن وائل، والأسود بن المطلب أبو زمعة، والأسود بن عبد يغوث، ومن خزاعة الحارث بن الطُّلاطلة، وهو ابن غيطلة، وهو ابن قيس. قال أبو بكر الهذليُّ: قلت للزهري: إن ابن جبير، وعكرمة اختلفا في رجل من المستهزئين، فقال ابن جبير: هو الحارث بن غيطلة، وقال عكرمة: هو الحارث بن قيس، فقال الزهري: صَدَقَا، أُمُّه غيطلة وأبوه قيس، وذكر الشَّعْبي في المستهزئين هَبَّار بن الأسود، وذلك وهم، لأن هَبَّار أسلم يوم الفتح ورحل إلى المدينة. وذكر الطبريُّ عن ابن عباس أن المستهزئين كانوا ثمانية، كلهم مات قبل بدر، وروي أن رسول الله ﷺ كان في المسجد، فأتاه جبريل، فجاء الوليدُ فأوماً جبريل بإصبعه إلى ساقه وقال: كُفيت، ثم جاءَ العاصي فأوماً إلى أَخْمَصيه وقال: كفيت، ثم جاءَ أبو زمعة فأوماً إلى عينه، ثم مرَّ الأسود بن عبد يغوث فأوماً إلى رأسه وقال: كفيت، ثم مرَّ الحارث فأوماً إلى بطنه وقال: كفيت، وكان الوليد قد مرَّ بقَيْن في خزاعة فتعلق سهم من نبله بإزاره فجرح(٢) ساقه، ثم برىء، فانتقض به ذلك الخدش بعد إشارة جبريل عليه السلام فقتله، وقيل: إن السهم قطع أَكْحَلَهُ(٣)، قاله قتادة، ومقسم. وركب العاصي بغلة في حاجة، فلما جاءَ

---

(١) قال عمرو بن معديكرب:

تَـرَى السِّـرْحـانَ مُفْتَـرِشـاً يَـدَيْـهِ ... كـأَنَّ بيـاضَ لَبَّتِـهِ صَـديـعُ

(٢) في بعض النسخ: «فخدش ساقه»، وهو مناسب لقولك بعد ذلك: «فانتقض به ذلك الخدش».

(٣) الأكحَل: عِرْقٌ في اليد يُفصد، قال ابن سيدة: يقال له النَّسَا في الفخذ، وفي الظهر الأَبْهَر، وقيل: الأَكْحَلُ: عِرْقُ الحياة، يُدْعى نهر البَدَن، وفي كل عضو منه شعبة لها اسمٌ على حدة، فإذا انقطع في اليد لم يرقأ الدم. (اللسان).

ينزل وضع أَخْمُصَه على شِبْرِقة[١]، فورمت قدمه فمات، وعمي أَبو زمعة، وكان يقول: دعا عليَّ محمد بالعمى فاستجيب له، ودعوت عليه بأَن يكون طريداً شريداً فاستجيب لي، وتمخض رأسُ الأَسود بن عبد يغوث قيحاً فمات، وامتلأ بطن الحارث ماءً فمات حيناً[٢].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي ذكر هؤلاءِ وكفايتهم اختلاف بين الرواة، وفي صفة أَحوالهم وما جرى لهم جلبت أَصحَّه مختصراً طلباً للإيجاز.

ثم قرر الله تبارك وتعالىٰ ذنبهم في الكفر، واتخاذ الأَصنام آلهة مع الله، ثم توعَّدهم بعذاب الآخرة الذي هو أَشق.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ آية تأْنيس للنبي ﷺ وتسلية عن أَقوال المشركين وإِن كانت مما يقلق، وضيق الصدر يكون من امتلائه غيظاً بما يكره الإِنسانُ، ثم أَمر تعالىٰ بملازمة الطاعة، وأَن تكون مَسْلاته عند الهموم. وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ يريد: من المصلين، فذكر من الصلاة حالة القرب من الله تعالىٰ وهي السجود، وهي أَكرم حالات الصلاة وأَقمنها بنيل الرحمة، وفي الحديث: «كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أَمْرٌ فزع إِلى الصلاة»[٣]، فهذا منه عليه الصلاة والسلام أَخذٌ بهذه الآية.

و﴿ٱلْيَقِينُ﴾: الموتُ، بذلك فسَّره هنا ابن عمر، ومجاهد، وقتادة، والحسن، وابن زيد، ومنه قول النبي ﷺ عند موت عثمان بن مظعون: «أَما هو فقد رأَى اليقين»[٤]،

---

(١) الشِّبْرِقُ بالكسر: نبات ثمرتُه شاكَّة، صغيرة الحجم، حمراءُ مثل الدَّم، مَنْبَتُها السباخ والقيعان، واحدته: شِبْرِقَة، وقيل: إذا يبس الضريع فهو الشِّبرق، وهو نبت كأظفار الهِرِّ (اللسان ـ شبرق).

(٢) الحَيْن: الهلاك. يقال: حان يحين حَيْناً: هَلَك، وأَحَانَه الله.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٥ـ٣٨٨)، والنسائي في المواقيت، عن حذيفة، ولفظه في المسند: «كان إذا حَزَبَهُ أَمرٌ صَلَّى».

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز، والتعبير، ومناقب الأنصار، والشهادات، وأخرجه الإمام أحمدفي مسنده (٦ـ٤٣٦)، (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) ـ ولفظه كما في المسند: عن أم العلاءِ الأنصارية، قالت: اشتكى عثمان بن مظعون عندنا فمرضناه، حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك يا أبا السائب، شهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال =

ويروى: «فقد جاءَه اليقين»، وليست اليقين من أَسماءِ الموت، وإِنما العلم به يقين لا يمتري فيه عاقل، فسمَّاه هنا يقيناً تَجَوُّزاً، أَي: يأْتيك الأَمر اليقين علْمُه ووقوعُه، وهذه الغاية معناها: مُدَّة حياتك، ويحتمل أَن يكون المعنى: حتى يأْتيك اليقين في النصر الذي وُعِدْتَه[1].

نجز تفسير سورة الحِجْر، ولله الحمد والمنة،
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* * *

= رسول الله ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمه ؟ قالت: فقلت: لا أدري، بأبي أنت وأُمي، فقال رسول الله ﷺ: أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري ـ وأنا رسول الله ـ ما يُفعل بي. ـ قال يعقوب (الراوي): به ـ قالت: والله لا أُزكِّي أحداً بعده أبداً، فأحزنني ذلك، فنِمت فأُريت لعثمان عيناً تجري، فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته ذلك، فقال رسول الله ﷺ: ذاك عمله».

(١) قال بعض العلماء: حكمة التَّغْيِيَة باليقين وهو الموت أنه يقتضي ديمومة العبادة ما دام حيّاً، بخلاف الاقتصار على الأمر بالعبادة دون غاية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة النحل

هذه السورة كانت تُسمى سورة النِّعم بسبب ما عدَّد الله فيها من نعمه على عباده، وهي مكية غير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ الآية، نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة رضي الله عنه وقتلى أُحد، وغير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، وغير قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ الآية، وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ فمكيٌّ في شأن هجرة الحبشة(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾.

رُوي أن رسول الله ﷺ لمّا قال جبريل عليه السلام في سرد الوحي: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وثب رسول الله ﷺ قائماً، فلما قال: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ سكن(٢).

وقوله: ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ قال فيه جمهور المفسِّرين: إنه يريد القيامة، وفيه وعيد للكفار،

---

(١) قال الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر: السورة مكية كلها. وقال ابن عباس: هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة رضي الله عنه، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى قوله: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هذا والآيات التي ذكرها المؤلف على أنها مدنية هي على حسب ترتيبه لها رقم (١٢٦)، ورقم (١٢٧)، ورقم (١١٠)، أما الآية التي أكد أنها مدنية فهي رقم (٤١) من السورة.

(٢) الذي وجدناه في (الدر المنثور)، و(فتح القدير) ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ ذعر أصحاب رسول الله ﷺ، حتى نزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فسكنوا»، وما أخرجه عبد الله بن أحمد في (زوائد الزهد)، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي بكر بن حفص قال: «لما نزلت ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ قاموا، فنزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾». وفي القرطبي عن ابن عباس: «نزلت ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ فوثب رسول الله ﷺ والمسلمون وخافوا، فنزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فاطمأنوا».

وقيل: المرادُ نصر محمد ﷺ، وقيل: المرادُ تعذيب كفار مكة بقتل محمد عليه الصلاة والسلام لهم وظهوره عليهم، ذكر نحو هذا النقاشُ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: المراد فرائض الله وأَحكامه في عباده وشرعه لهم، هذا قول الضحاك، ويُبعده قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، لأَنَّا لا نعرف استعجالاً إلاَّ ثلاثة: اثنان منها للكفار في القيامة وفي العذاب، والثالث للمؤمنين في النصر وظهور الإسلام، وقوله: [أَتَى] ـ عَلَىٰ هذا القول ـ إخبارٌ عن إتيان ما سيأتي، وصحَّ ذلك على جهة التأكيد، وإذا كان الخبر حقًّا يُؤكَّد المستقبل بأَن يخرج في صيغة الماضي، أَي كأَنه لوضوحه والثقة به قد وقع، ويحسن ذلك في خبر الله تبارك وتعالىٰ لصدق وقوعه.

وقال قومٌ: [أَتَى] بمعنى قَرُبَ، وهذا نحو ما قلتُ، وإنما يجوز الكلام بهذا عندي لمن يعلم قرينة التأكيد ويفهم المجاز، وأَما إن كان المخاطب لا يفهم القرينة فلا يجوز وضع الماضي موضع المستقبل، لأَن ذلك يفسد الخبر ويوجب الكذب، وإنما جاز في الشرط لوضوح القرينة بـ (إنْ)، ومن قال: «إن الأَمر القيامة» قال: إن قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ردٌّ على القائلين: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾[1] ونحوه من العذاب، أَو على مستبطئي النصر من المؤمنين في قراءَة من قرأَ بالتاءِ ـ وهي قراءَة الجمهور ـ على مخاطبة المؤمنين، أَو على مخاطبة الكافرين، بمعنى: قُلْ لهم: فلا تستعجلوه. وقرأَ سعيد بن جبير بالياءِ على غيبة المشركين، وقرأَ حمزة، والكسائي: [تُشْرِكُونَ] بالتاءِ من فوق، وجميع الباقين قرؤُوا بالياءِ، ورجح الطبري القراءَة بالتاءِ من فوق في الحرفين، قال أَبو حاتم: قرأَ [يُشْرِكُونَ] بالياءِ من تحت في هذه والتي بعدها الأَعرجُ، وأَبو جعفر، ونافع، وأَبو عمرو، وابن نَصَّاح، والحسن، وأَبو رجاءٍ، وقرأَ عيسى الأُولى بالتاءِ من فوق، والثانية بالياءِ من أَسفل، وقرأَهما جميعاً بالتاءِ من فوق أَبو العالية، وطلحة، والأَعمش، وأَبو عبد الرحمن، ويحيى بن وثاب، والجحدري، وقد روى الأَصمعي عن نافع التاءَ في الأُولى.

وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ﴾ معناه: تنزيهاً له، وحكى الطبري عن ابن جريج قال: لما نزلت ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ قال رجالٌ من الكفار: إن هذا يزعم أَن أَمر الله قد أَتى، فأَمسكوا عما أَنتم بسبيله حتى ننظر، فلما لم يروا شيئاً عادوا، فنزلت ﴿اقْتَرَبَ

(١) من الآية (١٦) من سورة (صٓ).

لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾[(١)]، فقالوا مثل ذلك، ثم عادوا فنزلت ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾[(٢)] الآية. وقال أبو بكر بن حفص: لمَّا نزلت ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ رفعوا رؤوسهم فنزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، وحكى الطبري عن أبي صادق أنه قرأ: «يا عبادي أَتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ»، و[سُبْحَانَهُ] نصب على المصدر، أي: تنزيهاً له.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ بالياءِ وشد الزاي، ورجحها الطبريُّ لما فيها من التكثير، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بتخفيف الزاي مكسورة وسكون النون، وقرأ ابن أَبي عبلة بالنون للعظمة وشدّ الزاي، وقرأ قتادة بالنون وتخفيف الزاي وسكون النون، وفي هذه والتي قبلها شذوذ كثير[(٣)]، وقرأ أبو بكر عن عاصم [تُنَزَّلُ] بضم التاءِ وفتح النون والزاي وشدها ورفع [الْمَلاَئِكَةُ] على ما لم يُسَمَّ فاعله، وهي قراءَة الأعمش، وقرأ الجحدري بالياءِ مضمومة وسكون النون وفتح الزاي، وقرأ الحسن، وأَبو العالية، وعاصم، والجحدري، والأَعرج بفتح التاءِ ورفع [الْمَلاَئِكَةُ] على أَنها فاعلة، ورواها المفضل عن عاصم، و[الْمَلاَئِكَةُ] ها هنا جبريل عليه السلام.

واختلف المتأَولون في «الرُّوح» ـ فقال مجاهد: الروح: النبوة، وقال ابن عباس: الوحي، وقال قتادة: بالرحمة والوحي، وقال الربيع بن أَنس: كل كلام الله روح، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[(٤)]، وقال ابن جريج: الروح: شخص له صورة كصورة بني آدم، ما نزل جبريل قط إلاَّ وهو معه، وهم كثير، وهم ملائكة. وهذا قول ضعيف لم يأْت به سند، وقال الزجاج: الروح: ما تحيا به القلوب من هداية الله تعالىٰ لها.

---

(١) الآية (١) من سورة (الأنبياء).

(٢) من الآية (٨) من سورة (هود).

(٣) قال أبو حيان تعقيباً على كلام ابن عطية: «وشذوذهما أن ما قبله وما بعده ضمير غيبة، ووجْهُه أنه التفات».

(٤) من الآية (٥٢) من سورة (الشورى)، هذا وقد قيل أيضاً: الروح: حفظة على الملائكة، لا تراهم الملائكة، كما أن الملائكة حفظة علينا ولا نراهم، وقيل: الباءُ بمعنى (مع)، وقال مجاهد أيضاً: الروح: اسم مَلَك، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول حسن، وكأن اللَّفظة على جهة التشبيه بالمقايسة، أي: إن هذا الذي أمر الأنبياءُ أن ينذروا به الناس من الدعاءِ إلى التوحيد هو بالمقايسة إلى الأوامر التي هي في الأفعال والعبادات كالروح للجسد، ألا ترى قوله تعالىٰ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾[1]، و﴿مِنْ﴾ في هذه الآية ـ على هذا التأويل الذي قدرناه ـ للتبعيض، وعلى سائر الأقوال لبيان الجنس. و﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ هي للأنبياءِ، و﴿أَنْ﴾ في موضع خفض بدل من ﴿ٱلرُّوحِ﴾، ويصح أن تكون في موضع نصب بإسقاط الخافض، على تقدير: بأن أنذروا، ويحتمل أن تكون مفسِّرة بمعنى «أي». وقرأ الأعمش: [لِيُنْذِرُوا]، وحسنت النِّذارة هنا وإن لم يكن في اللفظ ما فيه خوف من حيث كان المُنْذَرون كافرين بالألوهية، ففي ضمن أمرهم مكان خوف، وفي ضمن الإخبار بالوحدانية نهي عَمَّا كانوا عليه ووعيد.

ثم ذكر تعالىٰ ما يقال للأنبياءِ بالوحي على المعنى، ولم يذكره على لفظه، لأنه لو ذكره على اللفظ لقال: أَنْ أنذروا أنه لا إلـٰه إلا الله، ولكنه إنما ذكر ذلك على معناه، وهذا شائع في كل الأقوال إذا حكيت أن تحكى على لفظها، أو تحكى بالمعنى فقط.

وقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ آية تنبيه على قدرة الله تعالىٰ. وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالواجب اللائق، وذلك أنها تدل على صفات يحق لمن كانت له أن يخلق ويخترع ويعيد، وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة النافذة، بخلاف شركائهم الذين لا يحق لهم شيءٌ من صفات الربوبية. وقرأ الأعمش بزيادة فاءٍ: [فَتَعَالَىٰ].

وقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ يراد بالإنسان الجنس، وأخذ له الغايتين ليظهر البعد بينهما بقدرة الله، ورُوي أن الآية نزلت لقول أُبيِّ بن خلف: «مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟»[2] وقوله: ﴿خَصِيمٌ﴾ يحتمل أن يريد به الكفرة الذين يختصمون في الله، ويجادلون في توحيده وشرعه، ذكره ابن سلام عن الحسن البصري، ويحتمل

---

(١) من الآية (١٢٢) من سورة (الأنعام).

(٢) ورد ذلك في قوله تعالىٰ في الآية (٧٨) من سورة (يسٓ): ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾.

أن يريد أعم من هذا، على أن الآية تعديد نعمة الذهن والبيان على البشر، ويظهر أنها إذ تقرر في خصام الكافرين ينضاف إلى العبرة وعيد مَّا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾.

﴿الأَنْعَام﴾: الإبل والبقر والغنم، وأكثر ما يقال: نعَم وأنعام للإبل، ويقال للجموع، ولا يقال للغنم مفردة، ونصبها إما عطفاً على ﴿ٱلإِنْسَان﴾، وإما بِفعْل مقدر، وهو أَوْجَه(١).

و«الدِّفْءُ»: السَّخَانَةُ(٢) وذهاب البرد بالأكسية، وذكر النحاسُ عن الأَموي قال: الدفْءُ في لغة بعضهم: تناسل الإبل، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نسْل كل شيءٍ، والمعنى الأول هو الصحيح. وقرأَ الزهري، وأَبو جعفر: «دِفٌّ» بضم الفاءِ وشدها وتنوينها(٣).

و«ٱلْمَنَافِع»: أَلبانُها وما تصرف منها، ودهونُها وحرثُها والنضحُ عليها، وغير ذلك، ثم ذكر «الأَكْل» الذي هو من جميعها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أَي: في النظر، ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ معناه: حين

---

(١) قال الفراءُ: «نصبت بـ ﴿خَلَقَهَا﴾ لما كانت في ﴿الأَنْعَامَ﴾ واو، وكذلك كُلُّ فعل عاد على اسم بذكره وقبل الاسم واو أو كلام يحتمل نُقْلة الفعل إلى ذلك الحرف الذي قبل الاسم ففيه وجهان: الرفع والنصب، أما النصب فأن تجعل الواو ظرفاً للفعل، والرفع أن تجعل الواو ظرفاً للاسم الذي هي معه، ومثله ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾. وقرأ عليٌّ بعض العرب من سورة يٰسٓ ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ رفعاً، قرأها غير مرة». ومعنى ذلك أنه يجوز رفع ﴿الأَنْعَام﴾، وقد قرىء بذلك في الشاذ، قاله أبو حيان في البحر.

(٢) السَّخَانة والسُّخونة مصدران للفعل سَخُن (بضم الخاءِ). راجع اللسان.

(٣) قال أبو الفتح عثمان بن جني: «خفف بأن حذف الهمزة، وألقى حركتها على الفاءِ قبلها، كقولك في مسألة: مَسَلَة، وفي يَزْئِرُ: يَزِرُ». وزاد أبو حيان الأندلسي على ذلك فقال: «ثم شدد الفاءَ إجراءً للوصل مجرى الوقف إذ يجوز تشديدها في الوقف». وقرأ زيد بن علي مثل قراءة الزهري ولكن بدون تنوين.

تردُّونها وقت الرواح إلى المنازل فتأتي بطاءً ممتلئة الضروع. و﴿تَسْرَحُونَ﴾ معناه: تخرجونها غدوة إلى السرح، تقول: «سرَحْتُ السائمةَ» إذا أرسلتها تسرح، فسرحَت هي، كرَجَع ورجَعْتُه، وهذا الجمَالُ لمالكها ولمُحِبِّيه وعلى حسدته[١]، وهذا في المعنى كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٢]، وقرأ عكرمة، والضحاك: «حيناً تُريحُونَ وحيناً تسْرَحونَ»[٣]، وقرأت فرقة: «حيناً تَريحون».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهي ضعيفة، وأظنها تصحيفاً.

و«ٱلْأَثْقَالُ»: الأَمتعة، وقيل: المراد هنا الأجسام، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[٤]، أَي بني آدم، واللفظ يحتمل المعنيين، قال النقاش: ومنه سمِّي الإِنس والجن الثقلان. وقوله: ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ أَي: إِلى أَيِّ بلدٍ توجهتم بحسب اختلاف أَغراض الناس، وقال عكرمة، وابن عباس، والربيع بن أَنس: المراد مكة[٥]، وفي الآية ـ على هذا ـ حضٌّ مَّا على الحج. و«الشِّقُّ»: المشقَّة، ومنه قول الشاعر:

وذي إِبـلٍ يَسْعَـى ويحْسِبُهَـا لَـهُ ... أَخـي نَصَـبٍ مـن شِقِّهَـا ودؤُوبِ[٦]

---

(١) الجَمَالُ: الحُسْن، يقال: جَمُل الرجل جمالاً فهو جميل، والمرأة جميلة، وقد يقال: جَمْلاءُ، وأنشد الكسائي على ذلك:

فَهِـيَ جَمْـلاءُ كَبَـدْرٍ طـالِـعٍ ... بَـذَّتِ الْخَلْـقَ جَميعـاً بـالْجَمَـالِ

(٢) من الآية (٤٦) من سورة (الكهف).

(٣) بالتنوين وفك الإضافة، وجعلا الجملتين صفتين حذف منهما العائد، كقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى﴾، ويكون العامل في (حِيناً) ـ على هذا ـ إمَّا المبتدأُ لأنه في معنى «التَّجَمُّل»، وإما خبرُه بما فيه من معنى الاستقرار.

(٤) الآية (٢) من سورة (الزلزلة).

(٥) وقيل: مدينة الرسول، وقيل: مصر. قال أبو حيَّان: «وينبغي حمل هذه الأقوال على التمثيل لا على المراد، إذ المنَّة لا تختص بالحمل إليها».

(٦) البيت للنَّمر بن تولب، قال ذلك في (اللسان ـ شَقَق). وفيه: الشَّقُّ: المشقَّة. وقد ينشد البيت بكسر الشين وبفتحها، قال أبو عبيدة في «معاني القرآن»: إلا بشِقِّ الأنفس. بكسر أوله ويفتح، ومثل هذا البيت قول العجاج:

أَصْبَحَ مَسْحُولٌ يُوَازي شِقّاً

ومسحُول هو بَعيره، ويوازي: يقاسي. والشِقُّ: المَشَقَّة.

أي: من مَشقَّتها. ويقال فيها: شِقٌّ وشَقٌّ، أي: مَشقَّة، وقرأ أبو جعفر القاري، وعمرو بن ميمون، وابن أرقم، ومجاهد، والأعرج: [بشَقٍّ] بفتح الشين، ورويت عن نافع، وأبي عمرو، وذهب الفراءُ إلى أن معنى ﴿بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ أي: بذهاب نصفها، كأنها قد ذابت تعباً ونصباً، كما تقول لرجل: لا تَقْدرُ على كذا إلاَّ بذهاب جُلِّ نفسك، وبقطعة من كبِدِ لك، ونحو هذا من المجاز، وذهبوا في فتح الشين إلى أنه مصدر: شقَّ يَشُقُّ. ثم أوجب الله رأفته ورحمته في هذه النعم التي أذهبت المشقات ورفعت الكلف.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾ عطف، أي: وخلَق الخيلَ، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿والخيلُ والبغالُ والحميرُ﴾ بالرفع في كلها، وسميت الخيل خيلاً لاختيالها في المشية، أفهمه أعرابي لأبي عمرو بن العلاءِ. وقوله: ﴿وَزِينَةً﴾ نصبت بإضمار فعل تقديره: «وجعلناها زينة»، وقرأ أبو عياض: [لتركبوها زينة] دون واو، والنصب حينئذ على الحال من الهاءِ في [تَرْكَبُوهَا][1]. وقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عبرة منصوبة على العموم، أي أن مخلوقات الله تعالىٰ من الحيوان وغيره لا يُحيط بعلمها بشر، بل ما يخفى عنه أكثر مما يُعْلم وقد روي أن الله تعالىٰ خلق ألف نوع من الحيوان، منها في البرِّ أربعمائة، وبثَّها بأعيانها في البحر، وزاد فيه مائتين ليستا في البر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكل من خصَّص في هذه الآية شيئاً ـ كقول من قال: سُوس الثياب وغير ذلك ـ فإنما هو على جهة المثال، لا أن ما ذكره هو المقصود في نفسه، وقال الطبري: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو ما أُعدَّ في الجنة لأهلها، وفي النار لأهلها، مما لم تره عين، ولا سمعته أُذن، ولا خطر على قلب بشر. واحتج بهذه الآية مالك ومن ذهب مذهبه في كراهية لحوم الخيل والبغال والحمير وتحريمها بحسب الاختلاف في ذلك، وذكره الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال ابن جبير: سُئل ابن عباس عن لحوم الخيل والبغال والحمير فكرهها واحتج بهذه الآية، وقال: جعل الله الأنعام للأكل وهذه للركوب، وكان الحكم بن عيينة يقول: الخيل والبغال والحمير حرام في كتاب الله تعالىٰ، ويحتج بهذه الآية، وهذه الحجة غير لازمة عند جماعة من العلماءِ، قالوا: إنما ذكر الله تعالىٰ عظم منافع الأنعام، وذكر عظم منافع هذه وأهم ما فيها، وليس يقضي

(١) وقال الزمخشري: «التقدير: خلقها زينةً لتركبوها».

ذلك بأَن ما ذكره لهذه لا تدخل هذه فيه، قال الطبري: وفي إِجماعهم على جواز ركوب ما ذكر للأكل دليل على جواز أَكل ما ذكر للركوب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر، ولحوم الخيل عند كثير من العلماءِ حلال، وفي جواز أَكلها حديث أَسماءَ بنت أَبي بكر رضي الله عنهما، وحديث جابر بن عبد الله: «كنا نأْكل الخيل في عهد النبي عليه الصلاة والسلام»(١) والبغال والحمير مكروهة عند الجمهور، وهو تحقيق مذهب مالك رحمه الله، وحُجَّة من أَلْحَق الخيل بالبغال والحمير في الكراهية القياسُ، إِذ قد تشابهت وفارقت الأَنعام في أَنها لا تجْتَرُّ، وأَنها ذات حوافر، وأَنها لا أَكراش لها، وأَنها متداخلة في النسل، إِذ البغال بين الخيل والحمير، فهذا من جهة النظر، وأَما من جهة الشرع فإِنها قرنت في هذه الآية وأُسقطت الزكاة فيها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ الآية. هذه أَيضاً من أَجَلِّ نعم الله تبارك وتعالىٰ، أَي: على الله تقويم طريق الهدى وتبيينه، وذلك بِنَصْب الأَدلة وبعث الرسل، وإِلى هذا ذهب المتأَوِّلون، ويحتمل أَن يكون المعنى: إِن من سلك السبيل القاصد فعلى الله رحمته ونعيمه وطريقه، وإِلى ذلك مصيره، فيكون هذا مثل قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾(٢)، وقول النبي ﷺ: «والشَّرُّ ليس إِليك»، أَي: لا يُفضي إِلى رحمتك، و«طَرِيقٌ قاصدٌ» معناه: بيِّن مستقيم قريب، ومنه قول الراجز:

فَصَدَّ عنْ نَهج الطَّرِيقِ ٱلْقَاصِدِ(٣)

---

(١) هذا هو لفظ حديث جابر، أما حديث أسماء فلم يذكره، ولفظه: «نَحَرْنَا فَرَساً على عهد رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة فأكلناه»، رواه مسلم، ورواه الدارقطني بزيادة تبين سبب الذبح، «قالت أسماءُ: كان لنا فرسٌ على عهد رسول الله ﷺ أرادت أن تموت فذبحناها فأكلناها»، فذبحها إنما كان لخوف الموت لا لغير ذلك من الأحوال.

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٥١) من سورة (آل عمران): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، وتكررت في سورة (مريم) في الآية (٣٦) في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، وفي قوله تعالىٰ في الآية (٦١) من سورة (يسٓ): ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ وفي سورة (الزخرف) في الآية (٦١) في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، وفي الآية (٦٤) في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

(٣) النَّهجُ: الطريق المستقيم، ونَهج الطريق: وَضَحُه، وطريق نَهجٌ: واضحٌ بيِّنٌ، والطَّريق القاصِدُ: السهل =

والألف واللام في ﴿السَّبِيلِ﴾ للعهد، وهي سبيل الشرع، وليست للجنس، ولو كانت للجنس لم يكن فيها جاير.

قوله: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ يريد طريق اليهود والنصارى وغيرهم كعباد الأصنام، والضمير في [مِنْهَا] يعود على [السُّبُلِ] التي يتضمنها معنى الآية، كأنه قال: «ومن السُّبُل جائر»، فأعاد عليها وإن كان لم يَجْرِ لها ذكر لِتَضَمُّن لفظة [السَّبيل] بالمعنى لها، ويحتمل أن يعود الضمير في [مِنْهَا] على سبيل الشرع المذكورة، وتكون [مِنْ] للتبعيض، ويكون المراد فِرَق الضلالة من أمة محمد ﷺ، كأنه قال: «ومنْ بُنَيات الطريق في هذه السبيل ومن شُعَبها جاير»[١].

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ معناه: لَخَلق الهداية في قلوب جميعكم ولم يَضل أَحد، وقال الزَّجاج: معناه: لو شاءَ لعرض عليكم آية تضطركم إلى الإيمان والاهتداءِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول سوءٍ لأهل البِدَع الذين يرون الله لا يخلق أفعال العباد لم يُحصِّله الزجاج، ووقع فيه رحمة الله عليه من غير قصد[٢]، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «ومنكم جائر»، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «فمنكم جائر»، والسَّبيل تُذَكَّر وتُؤَنَّث.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

هذا تعديد نعمة الله في المطر، وقوله: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي: يكون منه بالتدريج،

= المستقيم، و﴿على الله قصد السبيل﴾: أي: على الله تَبْيِينُ الطريق المستقيم، والدعاءُ إليه بالحجج والبراهين الواضحة. (اللسان).

(١) قيل: إن (ألْ) في [السَّبيل] للجنس، وانقسمت إلى طريق الحق وطريق الباطل.

(٢) قال أبو حيَّان تعقيباً على هذا: «ولم يعرف ابن عطية أن الزجاج معتزلي، فلذلك تأول عليه أنه لم يحصله، وأنه وقع فيه من غير قصد».

إذْ يَسقي الأَرض فينبت عن هذا السقي الشجر، وهذا من التَّجَوُّز، كما قال الشاعر:

أَسْنِمَةُ الآبَالِ في رَبَابِهْ[1]

وكما سَمَّى الآخر الغَيْثَ سماءً في قوله:

إذَا نَــزَلَ السَّمَــاءُ بِــأَرْضِ قَــوْمٍ رَعَيْنَــاهُ وَإنْ كَــانُــوا غِضَــابــا[2]

قال أَبو إِسحق: يقال لكل ما ينبت على الأَرض: شَجَرٌ، وقال عكرمة: لا تأْكلوا ثمر الشجر فإِنه مسحت، يعني الكلأَ.

و﴿تُسِيمُونَ﴾ معناه: ترعون أَنعامكم، وسَوْمها من الرعي، وتسرحونها، ويقال للأَنعام: السائمة، قال رسول الله ﷺ: «في سائمة الغنم الزكاة»[3]، يقال: أَسامَ الرجلُ ماشيته إِسامةً إِذا أَرسلها ترعى، وسَوَّمها أَيضاً فسامَتْ هي، ومن ذلك قول الأَعشى:

وَمَشَــى القَــوْمُ بِــالْعِمَــادِ إِلــى الــرَّزْ حَى، وأَعْيَا المُسِيمُ أَيْن المَساقُ[4]

---

(١) الأَسْنِمَة: جمع سنام وهو الجزء المرتفع من ظهر الجمل، والآبال: جمع إبل، وإبل جمع لا مفرد له، وربما قالوا (إبْل) بسكون الباء. والرَّبابُ: السحاب الأبيض، وقيل: هو السحابُ المتعلّق الذي تراه كأنه دون السحاب، والواحدة: رَبَابة، وبهذا سُمِّيت المرأة الرَّباب، قال الشاعر:

سَقَــى دارَ هِنْــدٍ حَيْــثُ حَــلَّ بهــا النَّــوَى مُسِــفُ الــذُّرَى دَانــي الــرَّبَــابِ سَخِيــنُ

والشاهد أنه جعل الأسْنِمة في السحاب، وهذا من التجوز، إذ المراد أن الأسنمة تنمو من أكل النبات الذي ينشأ عن المطر النازل من السحاب.

(٢) البيت لمعَوِّد الحكماءِ معاوية بن مالك، وسُمِّي مُعَوِّد الحكماءِ لقوله في قصيدته التي منها هذا البيت:

أُعَــوِّدُ مِثْلَهــا الحُكَمَــاءَ بَعْــدي إذا مــا الْحَــقُّ فــي الحــدثــانِ نــابَــا

وهو في الأمالي للقالي (١ـ١٨١)، الرواية فيها «إذا سقط السماءُ»، والبيت تصوير لشجاعتهم وهيبتهم، فهم يرعون في أي أرض وإن كان أصحابها غضاباً محافظين على حقوقهم، والشاهد كما قال المؤلف أنه أطلق على الغيث اسم السماءِ، وفيه أيضاً من التَّجَوُّز أنه جعل الرعي للغيث، مع أن الإبل ترعى النبات الذي ينبت بسبب الغيث.

(٣) الحديث في الموطأ، وأخرجه أبو داود، والدارمي في كتاب الزكاة، ولفظه في الدارمي: «عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كتب الصدقة، وكان في الغنم في كل أربعين سائمة شاة إلى العشرين ومائة، فإذا زادت ففيها شاتان إلى مائتين، فإذا زادت ففيها ثلاث شياه إلى ثلاثمائة، فإذا زادت شاة لم يجب فيها إلا ثلاث شياه حتى تبلغ أربعمائة، فإذا بلغت أربعمائة شاةففي كل مائة شاة، ولا تؤخذ في الصدقة هرمة، ولا ذات عوار ولا ذات عيب».

(٤) البيت من قصيدة له قالها بنجران يتشوق إلى قومه مفتخراً بهم، والرَّزْحَى: التي لا تستطيع المشي من=

ومنه قول الآخر:

مِثْلِ ابنِ بزْعَةَ أَوْ كآخَرَ مِثْلِهِ ... أَوْلَى لَكَ ابْنَ مُسِيمَةِ الأَجْمَالِ(١)

أَي: راعية الأَجمال. وفسَّر المتأولون [تُسِيمُونَ] بـ «تَرْعَوْنَ».

وقرأَ الجمهور: ﴿يُنْبِتُ﴾ بالياءِ، على معنى: يُنْبِت اللهُ، يُقال: نبت الشجر وأَنبته الله، ويقال: أَنبت الشجرُ بمعنى نبَتَ، وكان الأَصمعي يأْبى ذلك ويتهم قصيدة زهير التي فيها:

. . . . حَتَّى إِذا أَنْبَتَ الْبَقْلُ(٢)

وقرأَ أَبو بكر عن عاصم: [نُنْبِتُ] بنون العظمة، وخَصَّ عزَّ وجلَّ ذكر هذه الأَربعة لأَنها أَشرف ما يَنْبُت وأَجمعها للمنافع، ثمَّ عمَّ بقوله: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، ثم أَحال القول على الفكرة في تصاريف النبات والأَشجار، وهي موضع عبرة في أَلوانها واطراد خلقها وتناسب أَلطافها فسبحان الخلاق العظيم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ الآية. قرأَ الجمهور بإِعمال ﴿سَخَّرَ﴾ في

= الهزال، وكانوا يضعون العماد تحت بطونها ليرفعوها، والمُسِيمُ: الراعي، والمساق: المكان الذي تساق إليه الماشية، والرواية في الطبري: «إلى المرعى» بدلاً من «إلى الرَّزْحَى».

(١) البيت للأخطل وهو في الديوان من قصيدة قالها في مدح عكرمة بن ربعي الفياض، ويروى: «كابْنِ البَزِيعَة»، ويعني بابن بَزْعَة شدَّاد بن المنذر أخا حُصَين الذُّهَليّ، ويعني بقوله: «كَآخَرَ مِثْلِهِ» حَوْشَبَ بنَ رُؤَيْم، وقبل هذا البيت يقول مخاطباً عكرمة:

وَلَقَدْ مَنَنْتَ عَلَى رَبِيعَةَ كُلِّهَا ... وكَفَيْتَ كُلَّ مُوَاكِلٍ خَذَّالِ

إلى أن يقول: مثل ابن بَزْعَة... إلخ، وهو يعيره بأن أُمَّه ترعى الإبل كالإماءِ، والشاهد هنا أن كلمة «مُسِيمَة» معناها: التي ترعى الإبل من «السَّوْم» وهو الرَّعْي.

(٢) هذا جزءٌ من بيت قاله زهير بن أبي سُلْمى، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

إذا السَّنَةُ الشَّهْبَاءُ بالنَّاس أجْحَفَتْ ... وَنَالَ كِرَامَ النَّاس في الحَجْرَةِ الأكْلُ
رَأَيْتَ ذَوي الحَاجَاتِ حَوْلَ بُيُوتِهِم ... قَطِيناً لَهُمْ حَتَّى إذا أنْبَتَ البَقْلُ

والسَّنة الشهباءُ: البيضاءُ من شدة الجذب لأنها تَبْيَضُّ بالثلج أو بعدم النبات، والحَجْرَةُ: السَّنة الشديدة التي تَحْجُر الناسَ في بيوتهم فينحرون كرام إبلهم ليأكلوها، والقَطِينُ: الحَشَمُ وسُكَّان الدار، وأجْحَفَتْ: أضرَّتْ بهم وأهلكت أموالهم. وأنبت البَقْلُ: نَبَتَ، وهو الشاهد في الشعر. يقال: نبت وأنبت بمعنى واحد، مثل: مَطَر وأمطر، وإن كان ذلك لا يرضي الأصمعي.

جميع ما ذكر، ونصب [مُسَخَّرَاتٍ] على الحال المؤكدة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾(١)، وكما قال الشاعر:

أَنَــا ابْــنُ دَارَةَ مَعْــرُوفــاً بِهَــا نَسَبِــي . . . . (٢)

ونحو هذا، وقرأ ابن عامر: [والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ] برفع هذا كله، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿والنجومُ مسخراتٌ﴾ بالرفع، ونصب ما قبل ذلك، والمعنى في هذه الآية أن هذه المَخْلُوقات مُسَخَّرات على رتبة قد استمر بها انتفاع البشر من السكون بالليل والمعايش وغير ذلك بالنهار، وأما منافع الشمس والقمر فأكثر من أن تُحصى، وأما النجوم فهدايات، ولهذا الوجه اعتدت في جملة النعم على بني آدم، ومن النعمة بها ضياؤُها أحياناً، قال الزجاج: وعلم عدد السنين والحساب بها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر.

وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وطلحة بن مصرف: «والرِّياحُ مُسَخَّرات» في موضع «والنجوم». ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾ لعظم الأمر، لأن كل واحد مما ذكر آية في نفسه لا يشترك مع الآخر، وقال في الآية قَبْلُ: [لآية] لأن شيئاً واحداً يعم تلك الأربعة وهو النبات، وكذلك في ذكر ما ذرأ لِيَسَارَته بالإضافة، وأيضاً فإنه بمعنى «آيات»، واحد يراد به الجمع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى

---

(١) من الآية (٩١) من سورة (البقرة).

(٢) البيت لابن دارة، واسمه سالم بن دارة، ودارة أُمُّه، سميت بذلك لجمالها، تشبيهاً لها بدارة القمر، واسم أبيه مسافع، وهو من بني عبد الله بن غطفان بن قيس، والبيت بتمامه هو:

أنــا ابْــنُ دارةَ مَعْــرُوفــاً بِهَــا نَسَبِــي وَهَــلْ بِــدَارَةَ يــا لَلنَّــاسِ مِــنْ عَــارِ ؟

وهو في أمالي ابن الشجري ٢ـ٢٨٥، والخصائص ٢ـ٢٦٨، ٣١٧، ٣٤٠، ٣ـ٦٠، والخزانة ١ـ٥٥٣، والعيني ٣ـ١٨٦، وابن يعيش ٢ـ٦٤، وسيبويه ٢ـ٧٩، والأشموني ٢ـ١٨٥، والبيت من قصيدة يهجو بها بني فزارة، والشاهد فيه أنه نصب «معروفاً» على الحال المؤكدة لجملة «أنا ابن دارة».

ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: بَثَّ ونشر، و«الذُّرية» من هذا في أحد الأَقوال في اشتقاقها، وقوله: [أَلْوَانُه] معناه: أَصنافه، كما تقول: هذه أَلوان من الثَّمر ومن الطعام، ومن حيث كانت هذه المبثوثات في الأَرض أَصنافاً عُدّت في النعمة، وظهر الانتفاع بها أَنه على وجوه، ولا يظهر ذلك من حيث هي متلونة حُمرة وصُفرة وغير ذلك، ويحتمل أَن يكون التنبيه على اختلاف الأَلوان حمرة وصفرة، والأَول أَبيَن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ الآية، تعديد نعم الله، وتسخير البحر هو تمكين البشر من التصرف فيه، وتذليله للركوب والأَرفاد[1] وغيره.

والبحر: الماءُ الكثير ملحاً كان أَو عذباً، كلُّه يسمى بحراً، والبحر هنا اسم جنس، وإِذا كان كذلك فمنه أَكل اللحم الطري، ومنه استخراج الحلية، وأَكل اللحم يكون من ملحه وعذبه، وإِخراج الحلية إِنما هو ـ فيما عرف ـ من الملح فقط، ومما عُرف من ذلك اللُّؤلؤ والمرجان والصدف البحري، وقد يوجد في العَذْب لؤلؤٌ لا يلبس إِلا قليلاً، وإِنما يُتَدَاوى به، ويقال: إِن في الزُّمرد بحرياً، وقد خُطِّىءَ الهذليُّ في قوله في وصف الدُّرَّة:

فَجَـاءَ بِهَـا مِـنْ دُرَّةٍ لَطَمِيَّـةٍ ... عَلَى وَجْهِهَا مَاءُ الْفُرَاتِ يَمُوجُ[2]

---

(١) الأَرْفاد: جمع رِفْد، وهو العطاءُ والصِّلة.

(٢) رُوي البيت في أكثر النسخ «يَدُوم» بدلاً من «يموج»، والقصيدة جيمية، وتعليق ابن عطية على البيت بقوله: (وتأمل قوله: «يموج») لا يتفق مع رواية «يدوم»، والرواية في «شرح أشعار الهذليين»:

فَجَـاءَ بهـا مـا شِئْـتَ مِـنْ لَطَمِيَّـةٍ ... تَـدومُ البحـارُ فَـوْقَهَـا وتَمُـوجُ

والضمير في (بها) يعود على دُرَّة شبه بها الشاعر ابنة السَّهْمي التي يتغزل فيها بقوله قبل هذا البيت بأبيات:

كـأن ابنَـةَ السَّهْمِـيِّ دُرَّةَ قَـامِـسٍ ... لَهَـا بَعْـدَ تَقْطِيـعِ النُّبُـوحِ وَهِيـجُ

والقَامِسُ هو الغواص، وعليه يعود الضمير في (جاء) من بيت الشاهد، والنُّبُوح: أَصوات الناس وضجتهم، واللطيمَةُ: عِيرٌ تحمل التجارة والعِطْر، فإن لم يكن فيها عطرٌ فليست بلطيمة، فجعل هذه الدُّرَّة تحملها غير اللَّطيمة، وتدوم البحارُ: تَسْكُن فوقها، وتموج: تتحرك فتجيءُ وتذهب، والفُرات: العَذْبُ، ومن هنا قالوا: لا يجيءُ منه الدُّر، إلا أن الشاعر غلط، وظن أن الدُّرة إذا كانت في الماءِ=

فجعلها من الماءِ الحلو.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتأَمل قوله: «يموج» على أَنه أَراد وصف بريقها ومَائِيَّتِهَا فشبَّهه بماءِ الفرات، ولم يذهب إِلى الغرض الذي خُطِّىءَ فيه. و«اللَّحم الطريُّ»: السمك، و«الحِلْيَةُ»: ما تقدم، و«الفُلْك» هنا جمع، و[مَوَاخِر]: جمع ماخرة، و«المَخْر» في اللغة الصوتُ الذي يكون من هبوب الريح على شيءٍ يُشَقُّ، أَو يصحب في الجملة الماءَ، فيترتب منه أَن يكون «المَخْر» من الريح، وأَن يكون من السفينة ونحوها، وهو في هذه الآية من السفن، ويقال للسحاب: «بَنَات مَخْر» تشبيهاً، إِذ في جريها ذلك الصوت الذي هو عن الريح، والماء الذي في السحاب وأَمرها يشبه أَمر البحر، على أَن الزَّجاج قد قال: «بَنَاتُ ٱلْبَخْر»: سحاب بيض لا ماءَ فيها، وقال بعض اللغويين: المَخْر في كلام العرب: الشَّقُّ، يقال: مَخَر الماءُ في الأَرض، فهذا بيِّنٌ أَن يقال فيه للفُلْك: مواخر، وقال قوم: [مَوَاخر] معناه: تجيءُ وتذهب بريح واحدة، وهذه الأَقوال ليست تفسيراً لِلَّفظة، وإِنما أَرادوا بها أَنها مواخر لهذه الأَحوال، فنصُّوا على هذه الأَحوال؛ إِذ هي موضع النعم المعدودة؛ إِذْ نفس كون الفلك ماخرة لا نعمة فيه، وإِنما النعمة في مخرها بهذه الأَحوال في التجارات، والسفر فيها، وما يمنح الله فيها من الأَرباح والمِنَن، وقال الطبري: «المَخْر» في اللغة: صوت هبوب الريح، ولم يقيد ذلك بكونٍ في ماءٍ، وقال: إِن من ذلك قول واصل مولى أَبي عُيَيْنَة: إِذا أَراد أَحدكم البول فَلْيَتَمَخَّر الريح، أَي: لينظر في صوتها في الأَجسام من أَين تهب فيتجنب استقبالها لئلا تردَّ عليه بوله.

وقوله: [وَلِتَبْتَغُوا] عطف على قوله: [تَأْكُلُوا]، وهذا ذكر نعمة لها تفاصيل لا تُحْصى، وفيه ركوب البحر للتجارة وطلب الأَرباح، فهذه ثلاثة أَسباب في تسخير البَحْر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية. قال المتأَولون: [أَلْقَى] بمعنى خلق وجَعَل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

= العذب فليس لها شبه، ولم يعلم أنها لا تكون في العذب.

وهي عندي أَخصُّ من خلَق وجعَل، وذلك أنَّ أَلْقَى تقتضي أن الله أَحدث الجبال ليس من الأَرض، لكن من قدرته واختراعه، ويؤيد هذا النظر ما رُوي في القصص عن الحسن عن قيس بن عباد أن الله تعالىٰ لما خلق الأَرض جعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هذه بمُقرَّة على ظهرها أحداً، فأَصبحت ضحى وفيها رواسيها، و«الرَّواسي»: الثوابت، رسَا الشيءُ يرسو إذا ثبت، ومنه قول الشاعر في وصف الوتد:

. . . . وَأَشْعَثَ تُرْسِيهِ الْوَلِيدَةُ بِالْفِهْرِ(١)

و﴿أَنْ﴾ مفعولٌ من أَجله، و«الْمَيْدُ»: الاضطراب، وقوله: ﴿أَنْهَاراً﴾ منصوب بفعل مضمر، تقديره: وجَعَلَ أَو خَلَق أَنهاراً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإجماعهم على إِضمار هذا الفعل دليل على خصوص ﴿أَلْقَى﴾، ولو كان ﴿أَلْقَى﴾ بمعنى «خَلَقَ» لم يحتج إلى الإِضمار. و«السُّبُل»: الطُّرق، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يحتمل أَن يكون: لعلكم تهتدون في مشيكم وتصرفكم في السُّبل، ويحتمل لعلكم تهتدون بالنظر في دلالة هذه المصنوعات على صانعها، وهذا التأْويل هو البارع، أَي: سخَّر وأَلقى وجعل أَنهاراً وسُبُلاً لعلَّ البشر يعتبرون ويرشدون، ولتكون علامات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ

---

(١) هذا عجز بيت للأحوص، ذكر صاحب اللسان أن ابن برِّي قال: يقال أرسيتُ الوتد في الأرض إذا ضربتها فيها، قال الأحوص:

سِوَى خَالِدَاتٍ مَا يُرِمْنَ وَهَامِدٍ وَأَشْعَثَ تُرْسِيهِ الْوَلِيدَةُ بِالْفِهْرِ

والفِهْرُ: الحَجَر، يُذكَّر ويُؤنَّث. والشاهد هنا أن «رسا» بمعنى ثَبَتَ، وهذا مثال للشيء المحسوس، وتستعمل «رسا» بمعنى ثَبَت أيضاً في المعنويات، قال عنترة يصور شجاعته وثبات نفسه في المواقف الصعبة:

وَعَلِمْتُ أنَّ مَنِيَّتِي إنْ تَأْتِنِي لا يُنْجِني مِنْهَا الْفِرَارُ الأَسْرَعُ
فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لِذلِكَ حُرَّةً تَرْسُو إذا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطَلَّعُ

يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ نصب على المصدر، أي: فعل هذه الأشياءَ لعلَّكم تعتبرون بها، وعلامات، أيْ عبرة وإعلاماً في كل سلوك، فقد يُهتدى بالجبال والأنهار والسُّبل، واختلف الناس في معنى قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ على أن الأظهر عندي ما ذكرتُ ـ فقال ابن الكلبي: العلامات: الجبال، وقال إبراهيم النَّخَعي ومجاهد: العلامات: النجوم، منها ما سُمِّي علامات، ومنها ما يهتدى بها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: العلامات: معالم الطرق بالنهار، والنجوم هداية بالليل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والصواب ـ إذا قدرنا الكلام غير معلَّق بما قبله ـ أَن اللفظة تعم هذا وغيره، وذلك أَن كل ما دلَّ على شيءٍ أَو علم به فهو علامة، وأَحسن الأَقوال المذكورة قول ابن عباس رضي الله عنهما لأَنه عموم بالمعنى فتأَمله، وحدثني أَبي رحمه الله أَنه سمع بعض أَهل العلم بالمشرق يقول: إن في بحر الهند الذي يجري فيه من اليمن إلى الهند حيتاناً طوالاً رقاقاً كالحيَّات في أَلوانها وحركتها والتوائها، وأَنها تُسمَّى العلامات، وذلك أَنها علامة الوصول إلى بلاد الهند، وأَمَارة النجاة والانتهاءِ إلى الهند لطول ذلك البحر وصعوبته، وأَن بعض الناس قال: إنها التي أَراد الله تعالىٰ في هذه الآية، قال أَبي رضي الله عنه: وأَنا ممن شاهد تلك العلامات في البحر المذكور وعاينها، فحدثني منهم عدد كثير.

وقرأَ الجمهور: ﴿وَبِالنَّجْمِ﴾ على أَنه اسم الجنس، وقرأَ يحيى بن وثاب: [وَبالنُّجْم] بضم النون وإسكان الجيم على التخفيف من ضمها، وقرأَ الحسن بضمهما، وذلك جمعٌ، كسَقْف وسُقُف، ورَهْن ورُهُن، ويحتمل أَن يُراد به النُّجوم، فحذف الواو[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي توجيه ضعيف.

---

(١) ورد في الشعر العربي النُّجُم والمراد النجوم، قال الشاعر:

إنَّ الفقيـــر بيْنَنَـــا قـــاضٍ حَكَـــمْ ... أنْ تَـــرِدَ المَـــاءَ إذا غَـــابَ النُّجُـــمْ

أراد: النُّجُوم ولكنه قصر.

وقال الفراءُ: المرادُ الجدْيُ والفرقدان[١]، وقال غيره: المراد القطب الذي لا يجري، وقال قوم غير هذا، وقال قوم: هو اسم الجنس، وهذا هو الصواب.

ثم قررهم تعالىٰ على التفرقة بين من يخلق الأشياءَ ويخترعها وبين من لا يقدر على شيءٍ من ذلك، وعبَّر عن الأصْنامِ بـ[مَنْ] لوجهين: أَحدهما أن الآية تضمنت الرَّدَّ على جميع من عبد غير الله، وقد عبدت طوائف ممن تقع عليه العبارة بـ«من»، والآخر أن العبارة جرت في الأَصنام بحسب اعتقاد الكفرة فيها من أَن لها تأْثيراً وأَفعالاً[٢]، ثم وبَّخهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، أَي: إِن حاولتم إِحصاءَها عدداً حتى لا يشذَّ منها شيءٌ لم تقدروا على ذلك، ولا اتَّفق لكم إِحصاؤُها؛ إِذ هي في كل دقيقة من أَحوالكم، و«النِّعْمَة» هنا مفردة يراد بها الجمع، وبحسب العجز عن عدد نعم الله تبارك وتعالىٰ يلزم أَن يكون الشكر لها مقصراً عن بعضها، فلذلك قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أَي تقصيركم في الشكر عن جميعها، نحا هذا المنحى الطبري، ويرد عليه أَن نعمة الله في قول العبد: «الحمدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِين» مع شرطها من النِّيَّة والطاعة يوازي جميع النعم، ولكن أَين قولها بشروطها؟ والمخاطبة: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ عامة لجميع الناس.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، متصل بما قبله، أَي: إِنَّ الله الغفور الرحيم في تقصيركم عن شكر ما لا تحصونه من نعم الله، وإِنَّ الله تعالىٰ يعلم سِرَّكُم وعَلَنكم، فيغني ذلك عن التزامكم بشكر كل نعمة، هذا على قراءَة من قرأَ: [تُسِرُّونَ] بالتَّاءِ مخاطبة للمؤمنين، فإِن جمهور القراءِ قرأَ: [تُسِرُّونَ] بالتَّاءِ من فوق، و[تُعْلِنُونَ] و[تَدْعُونَ] كذلك، وهي قراءَة الأَعرج، وشيبة، وأَبو جعفر، ومجاهد، على

(١) الجَدْيُ: برج في السماء بجوار الدَّلْوِ، والفَرْقَدان: نجمان في السماء، نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريباً، ولهذا يهتدى به، وهو المُسَمَّى «النجم القطبي» وبقربه نجم آخر مماثل له وأصغر منه، قال القرطبي: «وسأل ابن عباس رسول الله ﷺ عن النجم فقال: «هو الجَدْي، عليه قبلتكم، وبه تهتدون في برّكم وبحركم»، وعلَّل القرطبي ذلك بقوله: «وذلك أن آخر الجَدْي بنات نعش الصغرى، والقطب الذي تستوي عليه القِبلة بينها».

(٢) ومثل هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾. قال الفراءُ: «والعرب تقول: اشتبه عليَّ الراكبُ وجمله فما أدري مَنْ ذا ومَنْ ذا؟ حيث جَمَعَهُما وأَحَدُهما إنسان صلحت (مَنْ) فيهما جميعاً».

معنى: قُلْ يا محمد للكفار. وقرأ عاصم: ﴿تُسِرُّونَ﴾ و﴿تُعْلِنُونَ﴾ بالتاءِ من فوق، و﴿يَدْعونَ﴾ بالياءِ من تحت على غيبة الكفار، وهي قراءَة الحسن بن أَبي الحسن. وروى هبيرة عن حفص عن عاصم كلَّ ذلك بالياءِ على غيبة الكفار، ورُوي عن الكسائي، وأَبي بكر عن عاصم كلُّ ذلك بالتاءِ من فوق، وقرأَ الأَعمش وأَصحاب عبد الله: «يعلم الذين تُبدون وما تكتمون» و[تَدْعُونَ] بالتَّاءِ من فوق في الثلاثة، وقرأَ طلحة: «ما تُخْفُونَ وما تُعْلِنُون» و[تدْعُونَ] بالتَّاءِ من فوق في الثلاثة. و[يَدْعُونَ] معناه: يدعونه إلـهاً، وعبَّر عن الأَصنام بـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ على ما قدمناه من أَن ذلك يعُمُّ الأَصنام ومَنْ عُبد من دون الله من غيرها.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أَجمع عبارة في أَحوال الربوبية عنهم، وقرأَ محمد اليماني: ﴿وَٱلَّذِينَ يُدْعَوْنَ﴾ بضم الياءِ وفتح العين على ما لم يُسَمَّ فاعله.

و﴿أَمْوَاتٌ﴾ يراد به الذين يدعون من دون الله، ورفع على ابتداءِ خبر مضمر تقديره: هم أَموات، ويجوز أَن يكون خبراً لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ بعد الخبر في قوله: ﴿لاَ يَخْلُقُونَ﴾، ووصفهم بالموت مجازاً، وإنما المراد أَنَّهم لم يقبلوا حياةً قط ولا اتَّصفوا بها، وعلى قراءَة من قرأَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ بالياءِ على غيبة الكفار يجوز أَن يراد بالأَموات الكفار الذين ضميرهم في [يَدْعُونَ]، شبَّههم بالأَموات غير الأَحياءِ من حيث هم ضلال غير مهتدين، ويستقيم ـ على هذا ـ فيهم قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ والبعث هنا هو الحشر من القبور. و[أَيَّانَ] ظرف زمان مبني، وقرأَ أَبو عبد الرحمن السُّلَمِي: [إِيَّانَ] بكسر الهمزة، والفتح فيها والكسر لغتان، وقالت فرقة: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أَي الكفار ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ الضميران لهم، وقالت فرقة: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أَي الأَصنام أَيان يبعث الكفار، ويحتمل أَن يكون الضميران للأَصنام الأَمارة، كما تقول: «بعثت النائم من نومه» إذا نبهته، وكما تقول: «بعث الراعي سهمه»، فكأَنه وصفهم بغاية الجمود، أَي: وإن طلبتَ حركاتهم بالتحريك لم يشعروا بذلك، وعلى تأْويل من يرى الضميرين للكفار ينبغي أَن يُعتقد في الكلام الوعيد، أَي: وما يشعر الكفار متى يُبعثون إلى التعذيب، ولو اختصر هذا المعنى لم يكن في وصفهم بأَنهم لا يشعرون أَيان يُبعثون طائل؛ لأَن الملائكة والأَنبياءَ والصالحين كذلك هم في الجهل بوقت البعث. وذكر

بعض المفسِّرين أن قوله: ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ظرف لقوله: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، وأن الكلام تَمَّ في قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[1]، ثم أخبر عن يوم القيامة أن الإله فيه واحد، وفي هذا توعُّد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

لما تقدم وصف الأصنام جاءَ الخبر الحق بالوحدانية، وهذه مخاطبة لجميع الناس مُعلمة بأن الله تعالىٰ متحدٌ وحدانية تامة، لا يحتاج لكمالها إلى مضاف إليها، ثم أخبر عن إنكار قلوب الكافرين، وأنهم يعتقدون إلهية أشياءَ أُخر، ويستكبرون عن رفض معتقدهم فيها واطِّراح طريقة آبائهم في عبادتها، ووسمهم بأنهم لا يؤمنون بالآخرة، إذ هي أقوى رُتَب الكفر، أعني الجمع بين التكذيب بالله تبارك وتعالىٰ وبالبعث، لأن من صدق بالبعث فمحالٌ أن يُكذِّب بالله تبارك وتعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: [لاَ جَرَمَ] عبَّرت فرقة من اللغويين عن معناها بـ «لاَ بُدَّ، ولا محالة»، وقالت فرقة: معناها: «حقٌّ أن الله»، ومذهب سيبويه أنَّ (لاَ) نفيٌ لما تقدَّم من الكلام، و(جَرَمَ) معناه: وَجَبَ أو حقَّ، ونحو هذا من مذهب الزَّجاج، ولكن مع مذهبهما (لاَ) ملازمة لـ (جَرَمَ)، لا تنفكُّ هذه من هذه، وفي جرم لغات قد تقدم ذكرها في سورة هود[2]، وأنشد أبو عبيدة:

. . . . جَـرَمَـتْ فَـزَارَةُ. . . . . . .[3]

---

(١) قال أبو حيان في (البحر) تعقيباً على ذلك: «لا يصح هذا القول، لأن (أيَّان) إذ ذاك تخرج عما استقر فيها من كونها ظرفاً إما استفهاماً وإما شرطاً، وفي هذا التقدير تكون ظرفاً بمعنى وقت مضافاً للجملة بعدها معمولاً لقوله (وَاحِدٌ)، كقولك: (يوم يقوم زيد قائماً)».

(٢) راجع المجلد الرابع، ص ٥٥٩ـ ٥٦٠.

(٣) هذا جزءٌ من بيت لأبي أسماءَ بن الضريبة، أو لعطية بن عفيف، وهو بتمامه:

ولقَـدْ طَعَنْـتَ أبـا أُمَيْمَـةَ طَعْنَـةً   جَـرَمَـتْ فَـزَارَةُ بَعْدَهـا أن يَغْضَبـوا =

وقال: معناها: حقت عليهم وأوجبت أَن يغْضبوا. و[أَنَّ] على مذهب سيبويه فاعلة بـ [جَرَمَ]. وقرأ الجمهور: [أَنَّ] مفتوحة، وقرأ عيسى الثَّقفي: [إِنَّ] بكسر الألف على القطع، قال يحيى بن سلام، والنقاش: المراد هنا بـ ﴿ مَا يُسِرُّونَ ﴾ تشاورهم في دار الندوة في قتل النبي ﷺ. وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ عامٌّ في الكافرين والمؤمنين، يأخذ كل واحد منهم بقسطه، وفي الحديث: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من كبر»(١)، وفيه «إِنَّ الكِبْر منع الحق وغمط الناس»(٢)، ويروى عن الحسن بن عليٍّ أنه كان يجلس مع المساكين ويحدثهم ثم يقرأُ: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾، ورُوي في الحديث أنه «من سجد للهِ سجدة من المؤمنين فقد برىءَ من الكبر»(٣).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ الآية. الضمير في [لَهُمْ] لكفار مكة، ويقال: إِن سبب الآية كان أَن النضر بن الحارث سافر عن مكة إِلى الحيرة وغيرها، فجاءَ إِلى مكة وكان قد اتَّخذ كتب التاريخ «كليلة ودِمنة، وأَخبار اسفنديار ورستم»، فكان يقول: إِنما يحدث محمد بأَساطير الأَولين، وحديثي أَجمل من حديثه. وقوله: [مَاذَا] يجوز أَن تكون [مَا] استفهاماً و[ذَا] بمعنى: الذي، وفي [أَنْزَلَ] ضمير عائد، ويجوز أَن يكون [مَا] و[ذَا] اسماً واحداً مركباً، كأَنه قال: أَي شيءٍ؟ وقولهم: «أَسَاطِيرُ

= وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ الآية (٢٢) من سورة (هود) ـ ولنا عليه تعليق فارجع إليه في المجلد الرابع ص ٥٥٩.

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، والدارمي، والإمام أحمد في مسنده، ولفظه كما في المسند (١ـ٣٩٩) عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبَّة من كِبْر، فقال رجل: يا رسول الله: إني ليعجبني أن يكون ثوبي غسيلاً، ورأسي دهيناً، وشراك نعلي جديداً، وذكر أشياء حتى ذكر علاقة أسواطه ـ أفَمِنَ الكبر ذاك يا رسول الله؟ قال: لا، ذاك الجمال، إن الله جميل يحب الجمال، ولكن الكبر من سفه الحق وازدرى النَّاس». (المعجم المفهرس)، وفي (الدر المنثور): أخرجه ابن أبي شيبة، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي.

(٢) أخرجه أبو داود، والحاكم في مستدركه ـ عن أبي هريرة، ولفظه كما في الجامع الصغير «الكبر من بطر الحق وغمط الناس». وقد رمز له الإمام السيوطي بالصحة.

(٣) أخرجه الترمذي في السِّير، وفي لفظه: «وهو بريءٌ من الكبر والغلول». (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي).

الأَوَّلين» ليس بجواب عن السؤال الأَول، لأَنهم لم يريدوا أَنه نزَل شيءٌ، ولا أَن ثم منزلاً، ولكنهم ابتدءُوا الخبر بأَن هذه أَساطير الأَولين، وإِنما الجواب عن السؤال قول المؤمنين في الآية المستقبلة: خيراً، وقولهم: «أَساطيرُ الأَوَّلين» إِنما هو جواب بالمعنى. فأَما على السؤال وبحسبه فلا.

واللّام في قوله: [لِيَحْمِلُوا] يحتمل أَن تكون لام المعاقبة[1]، لأَنهم لم يقصدوا بقولهم: «أَساطِير الأَولين» أَن يحملوا الأَوزار، ويحتمل أَن تكون صريح لام كيْ على معنى: قَدَّرَ هذا[2]، ويحتمل أَن تكون لام الأَمر على معنى الحتم عليهم بذلك والصغار الموجب لهم. و«الأَوْزار»: الأَثقال، وقوله: [وَمِن] للتبعيض[3]، وذلك أَن هذا الرأس المضل يحمل وزر نفسه كاملاً، ويحمل وزراً من أَوزار كل من ضلَّ بسببه، ولا تنقص أَوزار أُولئك. وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ يجوز أَن يريد بها المضِلّ، أَي: أَضلَّ بغير برهان قام عنده، ويجوز أَن يريد: بغير علم من المقلِّدين الذين يضلونهم. ثم استفتح الله تعالىٰ الإِخبار عن سوءِ ما يتحملونه للآخرة، وأَسند الطبري وغيره في معنى هذه الآية حديثاً نصه: «أَيُّمَا داع دعا إِلى ضلالة فاتُّبع فإِن عليه مثل أَوزار من اتَّبعه من غير أَن ينقص من أَوزارهم شيءٌ، وأَيُّما داع دعا إِلى هدى فاتُّبع فله مثل أُجورهم من غير أَن ينقص من أُجورهم شيءٌ»[4]، و[سَاءَ] فعل مسند إِلى [مَا]، ولا يحتاج في ذلك هنا إِلى صلة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره من المفسرين: الإِشارة بـ ﴿ٱلَّذِينَ مِن

---

(١) في إحدى النسخ «لام العاقبة»، وهو التعبير المشهور بين النحويين.

(٢) صريحُ لام كَيْ هي لام التعليل، لكنه لم يعلقها بقوله: [قَالُوا]، بل أضمر فعلاً آخر هو: قَدَّر هذا ليحملوا أوزارهم.

(٣) قال الواحدي: ليست [مِنْ] للتبعيض، لأنه يستلزم تخفيف الأوزار عن الأتباع وذلك غير جائز لقوله ﷺ: «من غير أن ينقص من أوزارهم شيءٌ». وقال الأخفش: [مِنْ] زائدة، أي: وأوزار الذين يُضِلُّونهم، والمعنى: ومثل أوزار الذين يضلونهم.

(٤) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم ـ عن الربيع بن أنس. (الدر المنثور).

قَبْلِهِمْ﴾ إلى نمروذ الذي بنى الصرح ليصعد به إلى السماءِ على زعمه، فلما أفرط في غُلُوِّه وطوَّله في السّماءِ فرسخين على ما حكى النقاش بعث الله عليه ريحاً فهدمه، وخَرَّ سقفه عليه وعلى أتباعه، وقيل: إن جبريل عليه السلام هدمه بجناحه، وألقى أعلاه في البحر، وانجعف[1] من أسفله. وقالت فرقة أخرى: المراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ جميع من كفر من الأمم المتقدمة ومكر، ونزلت به عقوبة من الله تعالىٰ، وقوله ـ على هذا ـ: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ إلى آخر الآية تمثيل وتشبيه، أي: حالهم كحال من فُعل به هذا. وقالت فرقة: المراد بقوله: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ أي: جاءَهم العذاب من قِبَل السماءِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ينحو إلى اللّغز.

ومعنى قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ رفع الاحتمال في قوله: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ﴾، فإنك تقول: «انهدم على فلان بناؤُه» وهو ليس تحته، كما تقول: «انفسد عليه متاعه». وقوله: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ ألزم أنهم كانوا تحته.

وقوله: ﴿فَأَتَى﴾ أي: فأتى أَمْرُ الله وسلطانه، وقرأ الجمهور: ﴿بُنْيَانَهُمْ﴾، وقرأت فرقة «بِنْيَتَهُمْ»، وقرأ جعفر بن محمد: «بَنِيَّتَهُمْ»، وقرأ الضحاك: «بُيُوتَهُم». وقرأ الجمهور: [ٱلسَّقْف] بسكون القاف، وقرأت فرقة بضمها، وهي لغة فيه، وقرأ الأعرج بضم السين والقاف، وقرأ مجاهد بضم السّين وسكون القاف.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ الآية، لما ذكر الله تعالىٰ في الآية المتقدمة حال هؤلاءِ الماكرين في الدنيا، ذكر في هذه حالهم في الآخرة، وقوله: [يُخْزِيهِمْ] لفظ يعم جميع المكاره التي تنزل بهم، وذلك راجع إلى إدخالهم النار، وهذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾[2]. وقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ توبيخ لهم، وأضافهم إلى نفسه في مخاطبة الكفار، أي: على زعمكم ودعواكم، قال أبو عليٍّ: وهذا كما قال

(١) انجَعَف مطاوع جَعَفَ، يقال: جَعَفَه جَعْفاً: قلبه وقَلَعه، فانجعف.

(٢) من الآية (١٩٢) من سورة (آل عمران).

تعالىٰ حكاية: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾(١)، وكما قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾(٢).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والإضافات تترتب معْقُولَةً وملفوظاً بها بأرَقِّ سبب، وهذا كثير في كلامهم، ومنه قول الشاعر:

إذَا قُلْتُ قَدْنِي قَالَ بِاللهِ حلْفَةً ... لتُغْني عَنِّي ذا إنَائِكَ أجْمَعَا(٣)

فَأضَافَ الإناءَ إلى حاسِيهِ. وقرأ البزي عن ابن كثير: [شُرَكَايَ] بقصر الشركاءِ وفتح الياءِ، مثل هدايَ، وقرأ الجمهور بالمدِّ وفتح الياءِ بعد الهمزة، وقرأت فرقة بالمدِّ وياءٍ ساكنة.

وقوله: ﴿تُشَاقُّون﴾ معناه: تحاربون وتحاجُّونَ، أي: تكونون في شقٍّ والحق في شقٍّ، وقرأ الجمهور: (تُشَاقُّونَ) بفتح النون، وقرأ نافع وحده بكسرها، ورويت عن الحسن بخلاف، وضعَّف هذه القراءَة أبو حاتم، وقد تقدم القول في مثله في «الحِجْر» في ﴿تُبَشِّرُونَ﴾(٤)، وقرأت فرقة: [تُشَاقُّونِّي] بشدِّ النون وكسرها وياءٍ بعدها. و﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ هم الملائكة فيما قال بعض المفسرين، وقال يحيى بن سلام: «هم المؤمنون، وهذا الخطاب منهم يوم القيامة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والصواب أن يعم جميع من آتاه الله علم ذلك من جميع من حضر الموقف من ملَك وإنسي وغير ذلك. وباقي الآية بيِّنٌ.

---

(١) الآية (٤٩) من سورة (الدخان).

(٢) من الآية (٤٩) من سورة (الزُّخرف).

(٣) البيت لحُرَيْث بن عناب الطائي، وهو في (الخزانة)، وفي (اللسان ـ لوم)، ورواية اللسان:

إذَا هُوَ آلَى حِلْفَةً قُلْتُ مِثْلَهَا ... لِتُغْنِي عَنِّي ذا أتَى بِكَ أجْمَعَا

وقال: أراد: لَيُغْنِيَنَّ، فأسقط النون وكسر اللام، ويُرْوَى: لَتَغْنِنَّ. أما على رواية المؤلف والخزانة فإن قَدْنِي بمعنى: حَسْبِي، وذا إنَائِكَ: صاحب إنائك، يريد به اللَّبن، والمعنى أنه حلف أن أغني عنه لبن الإناءِ جميعاً، أي: أشربه عنه. والشاهد فيه هو إضافة الإناءِ إلى شاربه كما ذكر المؤلف.

(٤) من قوله تعالىٰ في الآية (٥٤) من سورة (الحِجر): ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾.

قوله عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ نعت لـ ﴿ٱلْكَافِرِينَ﴾ في قول أكثر المتأوِّلين، ويحتمل أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مرتفعاً بالابتداءِ منقطعاً مما قبله، وخبره في قوله: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ فزيدت الفاءُ في الخبر، وقد يجيءُ مثل هذا. و﴿ٱلْمَلَائِكَةُ﴾ يريد بهم القابضين لأَرواحهم، وقوله: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حال. و[ٱلسَّلَم] هنا: الاستسلام، أَي: رموا بأَيديهم وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ فحذف «قالوا» لدلالة الظاهر عليه، قال الحسن: هي مواطن، فمرَّة يقرون على أنفسهم، كما قال: ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾[(١)]، ومرَّة يجحدون كهذه الآية، ويحتمل قولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ وجهين: أَحدهما أنهم كذبوا وقصدوا الكذب اعتصاماً منهم به، على نحو قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[(٢)]، والآخر أَنهم أَخبَروا عن أَنفسهم أَنهم لم يكونوا يعملون سُوءاً، فأَخبروا عن ظنهم بأَنفسهم، وهو كذب في نفسه، وحَسُن الردُّ عليهم في الوجهين جميعاً بـ [بَلَى]، أَي يقال لهم: بَلَى، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وعيد وتهديد، وظاهر الآية أَنها عامة في جميع الكفار. وإلقاؤهم السَّلَم ضدُّ مُشَاقَّتهم قَبْلُ، وقال عكرمة: نزلت في قوم من أَهل مكة آمنوا بقلوبهم ولم يهاجروا، فأَخرجهم كفار مكة مكرهين إِلى بدر فقتلوا هنالك، فنزلت فيهم هذه الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإِنما اشتبهت عليه بالآية الأُخرى التي نزلت في أُولئك باتفاق من العلماءِ، وعلى هذا القول يحسن قطع ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ورفعه بالابتداءِ، فتأَمله. والقانون أَن «بَلَى» تجيءُ بعد النفي، و«نعم» تجيءُ بعد الإِيجاب، وقد تجيءُ بعد التقرير، كقولك: أَلَيْسَ كذا؟

---

(١) من الآية (١٣٠) من سورة (الأنعام).

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٢٣) من سورة (الأنعام): ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

ونحوه، ولا تجيءُ بعد نفي سوى التقرير: وقرأ الجمهور ﴿تَتَوَفَّاهُمُ﴾ بالتَّاءِ من فوق، وقرأها حمزة بالياءِ، وهي قراءَة الأعمش، قال أَبو زيد: أَدغم أَبو عمرو: [السَّلَم مَّا].

وقوله تعالىٰ: ﴿فادْخُلُوا﴾ من كلام الذي يقول: [بَلَى]، و«أَبْوَابُ جَهَنَّم» مفضية إِلى طباقها التي هي بعض على بعض، والأَبواب كذلك بابٌ على باب، و﴿خَالِدِينَ﴾ حالٌ، واللام في قوله: ﴿فَلَبِئْسَ﴾ لام التأْكيد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذكره سيبويه، وهو إِجماعٌ من النحويين فيما علمتُ أَن لام التأْكيد لا تدخل على الفعل الماضي، وإِنما يدخل عليه لام القسم، ولكن دخلت على «بئس» لأَنها لمَّا لم تتصرف أَشبهت الأَسماءَ وبعدت عن حال الفعل في هذا، وهي بعيدة أَيضاً عن حال الفعل من جهة أَنها لا تدخل على زمان. و«المَثْوى»: موضع الإِقامة، ونعم وبئس إِنما يدخلان على معرَّف بالأَلف واللام، أَو مضاف إِلى معرَّف بذلك، و«المَثْوَى» هنا محذوف تقديره: ولبئس المثوى مثوى المتكبرين، والمتكَبِّر هنا هو الذي أَفضى به كِبْره إِلى الكفر.

وقوله تعالىٰ: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ﴾ الآية. لما وصف الله تعالىٰ مقالة الكفار الذين قالوا: «أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ» عادَلَ ذلك بذكر مقالة المؤمنين من أَصحاب النبي ﷺ، وأَوْجَب لكلِّ فريق ما يستحق لتباين المنازل بين الكفر والإِيمان، و﴿مَاذَآ﴾ تحتمل ما ذكر في التي قبلها[1]، وقولهم: ﴿خَيْرًا﴾ جواب بحسب السؤال، واختلف المتأَوِّلون في قوله تعالىٰ: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ إِلى آخر الآية ـ فقالت فرقة: هو ابتداءُ كلام من الله تعالىٰ مقطوع مما قبله، ولكنه بالمعنى وعْدٌ متصل بذكر إِحسان المتقين في مقالتهم، وقالت فرقة: هو من كلام الذين قالوا: ﴿خَيْرًا﴾، وهو تفسير للخير الذي أُنزل، أَي: أَنزل الله في الوحي على نَبِيِّنا[2] خيراً، أَي: من أَحسن في الدنيا بالطاعة فله حسنة في الدنيا ونعيم في الآخرة بدخول الجنة، وروى أَنس بن مالك أَن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الله لا يظلم المؤمن حسنة، يثاب عليها الرزق في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة»[3]، وقد

---

(١) يريد ﴿مَاذَآ﴾ التي سبقت في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾.
(٢) في بعض النسخ «أنبيائه» بدلاً من «نَبِيِّنَا»، وفي نسخ أُخرى الكلمتان: «نَبِيِّنا»، ثم بين قوسين «أنبيائه».
(٣) أخرجه مسلم، والإمام أحمد، ولفظُه كما في مسنده (٣ـ١٢٥) عن أَنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ=

تقدم القول في إضافة الدار إلى الآخرة، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾.

يحتمل أن يرتفع ﴿جَنَّاتُ﴾ على خبر ابتداءٍ مضمر بتقدير: هي جنات عدن، ويحتمل أن ترتفع بقوله: (ولنعم دار المتقين جنات عدن)، ويحتمل أن يكون التقدير: لهم جناتُ عدن، ويحتمل أن تكون ﴿جَنَّاتُ﴾ مبتدأً، وخبره: ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾، وقرأ زيد بن ثابت، وأبو عبد الرحمن: [جَنَّاتَ] بالنَّصب، وهذا على نحو قوله: «زيداً ضربته»، وقرأ جمهور الناس: ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ وقرأ إسماعيل عن نافع: [يُدْخَلُونَهَا] بضم الياءِ وفتح الخاءِ، ولا يصح هذا عن نافع، ورويت عن أبي جعفر، وشيبة بن نصاح. وقوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ في موضع الحال، وباقي الآية بيِّن.

وقرأ الجمهور: ﴿تَتَوَفَّاهُمْ﴾ بالتاءِ، وقرأ الأعمش، وحمزة: [يَتَوَفَّاهُم] بالياءِ من تحت، وفي مصحف ابن مسعود [تَوَفَّاهُم] بتاءٍ واحدة في الموضعين[1]. و﴿طَيِّبِينَ﴾ عبارة عن صلاح حالهم واستعدادهم للموت، وهذا بخلاف ما قال في الكفرة: ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾، والطَّيب: الذي لا خبث معه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[2]. وقول الملائكة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ بشارة من الله تعالىٰ، وفي هذا أحاديث صحاح يطول ذكرها[3]. وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: بما كان في

= قال: «إن الله عزَّ وجلَّ لا يظلم المؤمن حسنة، يثاب عليها الرزق في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيعطى بحسناته في الدنيا، فإذا لقي الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً».

(١) أي في هذه الآية، وفي قوله تعالىٰ قبلها: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾.

(٢) من الآية(٧٣) من سورة (الزُّمَر).

(٣) أخرج ابن مالك، وابن جرير، وابن المنذر وغيرهم عن محمد بن كعب القرظي قال: إذا استفاقت نفس العبد المؤمن جاءه الملَك فقال: السلام عليك يا وليَّ الله، الله يقرأُ عليك السلام، ثم نزع بهذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾. (الدر المنثور)، وفي القرطبيّ: (إذا استَنْقَعَت نَفْس العَبْد المؤمن) ـ ومعنى استنقعت: تجمعت في فيه لتخرج، من قولهم: استنقع الماء بمعنى تجمع وثبت=

أعمالكم من تكسبكم، وهذا على التجوز، علّق دخولهم الجنة بأعمالهم من حيث جعل الأعمال أمارة لإدخال العبد الجنة، ويعترض في هذا قول رسول الله ﷺ: «لا يدخل أحدٌ الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلاَّ أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة»(١)، وهذه الآية تُرَدُّ بالتأويل إلى معنى الحديث، ومن الرحمة والتغمد أن يوفق الله العبد إلى أعمال برّة، ومقصد الحديث نفي وجوب ذلك على الله تعالىٰ بالعقل كما ذهب إليه فريق من المعتزلة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾.

[يَنْظُرُونَ] معناه ينتظرون، و«نَظَرَ» متى كانت من رؤْية العين فإنما تُعَدِّيها العرب بإلى، ومتى لم تتعدَّ بإلى فهي بمعنى انتظر، كما قال امرؤُ القيس:

فَــإِنَّكُمَــا إِنْ تَنْظُــرَانِــي سَــاعَــةً ... مِنَ الدَّهْرِ تَنْفَعُني لَدَى أُمِّ جُنْدبِ(٢)

ومنه قوله تعالىٰ حكاية: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾(٣)، وقد جاءَ شاذًّا نظرتُ بمعنى الرؤْية متعدياً بغير إلى كقول الشاعر:

= ـ وقال ابن مسعود: إذا جاءَ ملَك الموت يقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام.

(١) أخرجه البخاري، وابن ماجه، والدارمي، ومسلم، وأحمد. (المعجم المفهرس).

(٢) يقول مخاطباً صديقين له ـ على عادته ـ: إن انتظرتماني ساعة من الزمن تنفعني عند أم جندب، فالفعل (تنظر) هنا بمعنى (تنتظر) لأنه من النظر بالعين ولم يتعدَّ بـ (إلى)، وأُمُّ جُنْدَب: زوج الشاعر تزوجها في بني طيّ، وقد فضَّلت عليه علقمة في الشِّعر في قصة معروفة فطلقها، وقبل هذا البيت يقول ـ وهو مطلع القصيدة:

خَليلَــيَّ مُــرَّا بــي عَلَــى أُمِّ جُنْــدبِ ... نُقَــضِّ لُبَــانَــاتِ الفُــؤادِ المُعَــذَّبِ

والجُنْدب في الأصل نوع من الجراد يصِرُّ ويقفز ويطير، وجمعه جنادب، و«أم جُنْدب» الداهية والغدر والظلم، ويقال: ركب أُمَّ جندب: غَدَرَ وظَلَم.

(٣) من الآية (١٣) من سورة (الحديد).

بَـاهِـرَاتُ الْجَمَـالِ وَالْحُسْـنِ ينظُـرْ نَ كمـا يَنْظُـرُ الأَرَاكَ الظِّبَـاءُ(١)

وقرأ الجمهور: ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾ بالتاءِ من فوق، وقرأ حمزة والكسائي: [يَأْتِيَهُمُ] بالياءِ، وهي قراءَة يحيى بن وثاب، وطلحة، والأعمش،/ ومعنى الكلام أن تأتيهم الملائكة لتقبض أرواحهم ظالمي أنفسهم، وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وعيد يتضمن قيام الساعة أَو عذاب الدنيا. ثم ذكر تعالىٰ أَن هذا كان فعل أَسلافهم من الأُمم، أَي: فَعُوقبوا، ولم يكن ذلك ظلماً لأَنه لم يوضع ذلك العقاب في غير موضعه، ولكن هم ظلموا أَنفسهم بأَن وضعوا كفرهم في جهة الله تعالىٰ، وميلَهم إِلى الأَصنام والأَوثان، فهذا وضع الشيءِ في غير موضعه. وظلموا أَنفسهم، أَي: آذوها بنفس فعلهم وإِن كانوا لم يقصدوا ظلمها ولا إِذايتها.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾، أَي جزاءُ ذلك في الدنيا والآخرة. ﴿وَحَاقَ﴾ معناه نزل وأَحاط، وهنا محذوف يدل عليه الظاهر من الكلام، تقديره: جزاءً بما كانوا به يستهزئون.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الآية جدل من الكفار، وذلك أَن أَكثر الكفار كانوا يعتقدون وجود الله تعالىٰ، وأَنه خالقهم ورازقهم، فإِن كان أَهل هذه الآية من هذا الصنف فكأَنهم قالوا: يا محمد، نحن من الله بمرأَى في عبادتنا الأَوثان، واتخاذها لتنفع وتقرِّب زُلفى، ولو كره الله فعلنا لغيَّره منذ مدة، إِمَّا بإِهلاكنا وإِمَّا بهدايتنا. وكان من الكفار فريق لا يعتقدون بوجود الله، فإِن كان أَهل هذه الآية من هذا الصنف فكأَنهم أَخذوا الحجة على النبي عليه الصلاة والسلام من قوله، أَي: إِن الرَّبَّ الذي تثبته يا محمد وهو على ما تصفه يعلم ويقدر، ولا شَكَّ أَنه يعلم حالنا، ولو كرهها لغيَّرَها. والرَّدُّ على هذين الفريقين هو أَن الله تعالىٰ ينهى عن الكفر وقد أَراده بقوم، وإِنما نصب الأَدلة وبعث الرسل ويَسَّرَ كلاً لما حتم عليه، وهذا الجدال ـ بين أَيِّ الصِّنفين فَرَضْتَهُ ـ

---

(١) امرأةٌ باهرة الحُسْن: تفوق غيرها من النساءِ فيه، والأراك، أو شجر المِسْوَاك: نبات شجيري، من الفصيلة الأراكية، كثير الفروع، خوَّار العود، متقابل الأوراق، له ثمار حُمْرٌ دكناءُ تؤكل، ينبت في البلاد الحارة، ويوجد في صحراء مصر الجنوبية الشرقية، يُشَبِّهُهُنَّ وهن ينظرن بالظباءِ وهي تنظر إلى شجر الأراك في صورة باهرة من الجمال والحسن، والشاهد أن (نظر) هنا بمعنى الرُّؤية والنظر بالعين، ولم تَتَعَدَّ بإلى كما اعتادت العرب.

ليس فيه استهزاءٌ، لكن أَبا إِسحق الزجاج قد قال: إن هذا الكلام على جهة الهُزْءِ، فذهب أَبو إسحق ـ والله أَعلم ـ إلى أنَّ الطائفة التي لا تقول بالإِثم، ثم أَقامَت الحجة من مذهب خصمها كأَنها مستهزئة في ذلك، وهذا جدالٌ محض، والرَّدُّ عليه كما ذكرناه، وقوله: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ يُشير إلى ما ذكرناه.

وقوله: ﴿وَلَا حَرَّمْنَا﴾ يريدون البَحِيرَة والسائبة والوصيلةَ وغير ذلك مما حرَّموه، وأَخبر الله تبارك وتعالىٰ أنَّ هذه النزعة قد سبقهم الأَولون من الكفار إليها، وكأَنه قال: والأَمر ليس على ما ظنُّوه من أَن الله تعالىٰ إذا أَراد الكفر لا يأْمر بتركه، بل قد نصب الله لعباده الأَدلة، وأَرسل الرسل منذرين، وليس عليهم إلاَّ البلاغ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

لما أَشار قوله: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ إلى إقامة الحجة حسب ما ذكرناه بيَّن ذلك في هذه الآية، أَي أَنه بعث الرسل آمِراً بعبادته وتجنب عبادة غيره. و«الطَّاغُوت» في اللغة كلُّ ما عُبد من دون الله من آدميٍّ راضٍ بذلك أَو حجر أَو خشب، ثم أَخبر أَن منهم من اعتبر وهداه الله ونظر ببصيرته، ومنهم من أَعرض وكفر فحقت عليه الضلالة، وهي مؤدية إلى النار حتماً، ومنهم من أَدّته إلى عذاب الله في الدنيا، ثم أَحالهم في علم ذلك على الطلب في الأَرض، واستقراءِ الأُمم، والوقوف على عواقب الكافرين المكذبين.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَحْرِصْ﴾، الحِرْصُ: أَبلغ الإِرادة في الشيءِ، وهذه تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام، أَي أَنَّ حرصك لا ينفع، فإنها أُمور محتومة. وقرأَ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرو، وابن عامر، والحسن، والأَعرج، وأَبو جعفر، وشيبة، ومجاهد، وشبل، ومزاحم الخراساني، وأَبو رجاءِ العطارديّ، وابن سيرين: [لا يُهْدَى] بضم الياءِ وفتح الدال[1]، وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿لَا يَهْدِى﴾ بفتح الياء وكسر

(١) قال الفراءُ في (معاني القرآن): وهو وجه جيِّد، لأنها في قراءَة أُبيٍّ: «لا هَادِيَ لِمَنْ أَضَلَّ».

الدال، وهي قراءَة ابن مسعود، وابن المسيب، وجماعة، وذلك على معنيين: أَي أَن الله لا يَهْدِي من قضى بإِضلاله، والمعنى الآخر أَن العرب تقول: «يَهْدِي الرجل» بمعنى «اهتدى»، حكاه الفراءُ[١]، وفي القرآن: ﴿لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۚ﴾[٢]، وجعله أَبو علي وغيره بمعنى «يهتدي»، وقرأَت فرقة بفتح الياءِ وكسر الهاءِ والدَّال، وقرأَت فرقة: [يُهْدِي] بضم الياءِ وكسر الدال، وهي ضعيفة[٣]، وفي مصحف أُبيّ بن كعب [فإِنَّ الله لا هَادِيَ لِمَنْ أَضَلَّ]، وحكاها أَبو حاتم: «فَإِنَّه لا هادِيَ لِمَنْ أَضَلَّ»، قال أَبو عليٍّ: «الراجع إِلى اسم ﴿إِنَّ﴾ مقدر في ﴿يُضِلُّ﴾ على كل قراءَة إِلاَّ قراءَة ﴿يَهْدِي﴾ بفتح الياءِ وكسر الدال، أَي: يهدي الله، فإِنَّ الراجع مقدر في ﴿يَهْدِي﴾. وقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ضمير على معنى ﴿منْ﴾، وتقول العرب: حَرَصَ يَحْرُصُ[٤] وَحَرَصَ يَحْرِصُ، والكسر في المستقبل لغة أَهل الحجاز. وقرأَ الحَسَن، وإِبراهيم، وأَبو حيوة بفتح الراءِ في قوله [تَحْرَصْ] وقرأَ إِبراهيم: «وإِنْ تَحْرِصْ» بزيادة واو.

والضمير في قوله: ﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾ لكفار قريش، وذكر أَن رجلاً من المسلمين جاور رجلاً من المشركين، فقال في حديثه: «لا والذي أَرجوه بعد الموت»، فقال له الكافر: «أَوَتُبعث بعد الموت»؟ قال: «نعم»، فأَقسم الكافر مجتهداً في يمينه أَن الله لا يبعث أَحداً بعد الموت، فنزلت الآية بسبب ذلك، و﴿جَهۡدَ﴾ مصدر، ومعناه: بغاية جهدهم، ثم ردَّ الله تعالىٰ عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ فأَوجب بذلك البعث. وقوله: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ مصدران مؤكدان، وقرأَ الضحاك: [بلى وعدٌ عليه حقٌّ] بالرفع في المصدريْن[٥]،

---

(١) الذي حكاه الفراءُ هو أن العرب تقول: «قَدْ هَدَّى الرَّجل» يريدون: اهتَدى، ثم استشهد بالآية وهي بتشديد الدال المكسورة، ثم عاد الفراءُ فنقل عن الأعمش أنه قرأ: [يَهْدِي] بفتح الياءِ وكسر الدال. وقال محقق «معاني القرآن» للفراءِ: إنه يريد قراءَة حمزة، والكسائي، «بفتح الياءِ وإسكان الهاء وتخفيف الدال»، وبهذا يكون ما ذكره ابن عطية عن الفراء صحيحاً إذا كان قد فهم ما يريده الفراء كما فهمه المحقق.

(٢) من الآية (٣٥) من سورة (يونس).

(٣) قال أبو حيان تعقيباً على هذا: «وإذا ثبت أن «هدى» لازمة بمعنى «اهتدى» لم تكن ضعيفة، لأنه أدخل على اللازم همزة التعدية، فالمعنى: لا يجعل مهتدياً من أضلَّه».

(٤) ضبطها محقق (اللسان) طبعة دار المعارف ـ القاهرة ـ بضم الراءِ، وضبطها محقق المحتسب لابن جني بفتح الراءِ. أما لغة أهل الحجاز وهي الكسر فلا خلاف فيها.

(٥) وعلى هذا تكون [وعْدٌ] خبر لمبتدإِ محذوف، والتقدير: بَعْثُهم وعدٌ عليه حقٌّ، و[حَقٌّ] صفة لـ [وَعْدٌ].

وأَكثر الناس في هذه الآية الكفار المكذبون بالبعث، والبعث من القبور مما يُجَوِّزه العقل، وأَثبته خبر الشريعة على لسان جميع النَّبِيِّين، وقال بعض الشيعة: إن الإِشارة بهذه الآية لعلي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وإِن الله سيبعثه في الدنيا، وهذا هو القول بالرجعة، وقولهم هذا باطل وافتراءٌ على الله، وبهتان من القول ردَّه ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

اللام في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ متعلقة بما في ضمن قوله: ﴿بَلَىٰ﴾، لأَن التقدير: بلى يبعث ليبين، وقيل: هي متعلقة بقوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾، والأَول أَصوب في المعنى، لأَن به يَتَصور كذب الكفار في إِنكار البعث.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ الآية. «إِنَّمَا» في كلام العرب هي للمبالغة وتحقيق وتحضيض على المذكورين، وقد تكون ـ مع هذا ـ حاصرةً إِذا دلَّ على ذلك المعنى، كقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[١]، وأَما قول النبي عليه الصلاة والسلام: «إنما الربا في النَّسيئة»[٢]، وقول العرب: «إِنما الشجاع عنترة» فبقي فيها معنى المبالغة فقط. و﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية هي للحصر، وقاعدة القول في هذه الآية أَن نقول: إِن الإِرادة والأَمر اللذين هما صفتان من صفات الله تبارك وتعالىٰ القديمة هُما قديمان أَزليَّان، وإِن ما في أَلفاظ هذه الآية من معنى الاستقبال والاستئناف إِنما هو راجع إِلى المراد لا إِلى الإِرادة، وذلك أَن الأَشياءَ المرادة المكوَّنة في وجودها استئناف واستقبال، لا في إِرادة ذلك، ولا في الأَمر به، لأَن ذينك قديمان، فمن أَجل المراد عبَّر بـ ﴿إِذَا﴾ و﴿نَقُول﴾. ونرجعُ الآن على هذه الأَلفاظ فنوضِّحُ الوجه فيها واحدةً واحدةً: أَما قوله: ﴿لِشَيْءٍ﴾ فيحتمل وجهين: أَحدهما أَن هذه الأَشياءَ التي هي مُرادة وقيل لها: ﴿كُنْ﴾ معلوم أَن

---

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (١٧١) من سورة (النساء): ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والنسائي، وابن ماجه ـ عن أُسامة بن زيد، ورمز له الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» بالصحة.

الوجود يأتي على جميعها بطول الزمن وتقدير الله تعالىٰ، فلما كان وجودها حتماً جاز أَن تسمى «أَشياءَ» وهي في حالة عدم، والوجه الثاني أَن يكون قوله: ﴿لِشَيْءٍ﴾ تَنْبيهاً لنا على الأَمثلة التي ننظر فيها، أَي أَنَّ كل ما تأْخذونه من الأَشياءِ الموجودة فإنما سبيله أَن يكون مراداً وقيل له: «كُنْ» فكان، ويكون ذلك الشيءُ المأْخوذ من الموجودات مثالاً لما يتأَخر من الأُمور وما تقدم، فبهذا نتخلص من تسمية المعدوم شيئاً، وقوله: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ مُنَزَّل منزلة مراد، ولكنه أَتَى بهذه الأَلفاظ المستأْنفة بحسب أَن الموجودات تجيءُ وتظهر شيئاً بعد شيءٍ فكأَنه قال: «إِذا ظهر المراد منه»، وعلى هذا الوجه تخرج قوله تعالىٰ: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾[(١)]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[(٢)]، ونحو هذا مِمَّا معناه: ويقع منكم ما رآه الله تعالىٰ في الأَزل كلِّه وعَلِمَه.

وقوله: ﴿أَن نَّقُولَ﴾ نزل منزلة المصدر، كأَنه قال: «قولنا»، ولكن «أَنْ» مع الفعل تعطى استئنافاً ليس في المصدر في أَغلب أَمرها، وقد تجيءُ في مواضع لا يُلحظ فيها الزمن كهذه الآية، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾[(٣)] وغير ذلك.

وقوله: ﴿لَهُۥ﴾ ذهب أَكثر الناس إِلى أَن «الشَّيْءَ» هو الذي يقال له كالمخاطَب، وكأَن الله تبارك وتعالىٰ قال في الأَزل لجميع ما خلق: «كُنْ» بشرط الوقت والصفة، وقال الزَّجَّاج: ﴿لَهُۥ﴾ بمعنى: من أَجله، وهذا ممكن أَن يُرَدَّ بالمعنى إِلى الأَول، وذهب قومٌ إِلى أَن قوله: ﴿أَن نَّقُولَ﴾ مجازٌ، كما تقول: قال برأْسه فرفعه، وقال بيده فضرب فلاناً، وردَّ على هذا المنزع أَبو منصور، وذهب إِلى أَن الأَول هو الأَول. وقرأَ الجمهور: ﴿فَيَكُونُ﴾ برفع النون، وقرأَ ابن عامر، والكسائي هنا وفي «يسٓ»[(٤)] [فَيَكُونَ] بنصبها، وهي قراءَة ابن محيصن[(٥)].

---

(١) من الآية (١٠٥) من سورة (التوبة).

(٢) من الآية (١٤٠) من سورة (آل عمران).

(٣) من الآية (٢٥) من سورة (الروم).

(٤) من قوله تعالىٰ في الآية (٨٢): ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

(٥) قال القرطبي: في الآية دليل على أن القرآن غير مخلوق، لأنه لو كان قوله: (كُنْ) مخلوقاً لاحتاج إلى قول ثان، والثاني إلى ثالث وتسلسل، وكان محالاً، وفيها دليل على أن الله سبحانه مريد لجميع الحوادث كلها خيرها وشرها نفعها وضرها، والدليل على ذلك أن من يرى في سلطانه ما يكرهه ولا يريده فلأحد شيئين: إما لكونه جاهلاً لا يدري، وإما لكونه مغلوباً لا يطيق، ولا يجوز ذلك في وصفه سبحانه، وقد قام الدليل على أنه خالق لاكتساب العباد، ويستحيل أن يكون فاعلاً لشيءٍ وهو غير=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأول أبْعَدُ على التعقيب الذي يصحب الفاءَ في أغلب حالها، فتأمله.

وفي هذه النُّبذة ما يُطَّلع منه على عيون هذه المسألة، وشرط الإيجاز منع من بسط الاعتراضات والانفصالات، والمقصود بهذه الآية إعلامُ مُنكري البعث بهوان أمره على الله تعالىٰ وقربه في قدرته، لا رَبَّ غيره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

لمَّا ذكر الله تعالىٰ كفار مكة الذين أَقسموا أن الله لا يبعث من يموت وردَّ عليهم قولهم ذكَر مؤمني مكة المعارضين لهم، وهم الذين هاجروا إلى أَرض الحبشة، هذا قول الجمهور، وهو الصحيح في سبب هذه الآية، لأَن هجرة المدينة لم تكن وقت نزول الآية، وقالت فرقة: سبب الآية أَبو جندل بن سهيل بن عمرو(١)، وهذا ضعيف، لأَن أَمر أَبي جندل إنما كان والنبي ﷺ بالمدينة، وقالت فرقة: نزلت في عمَّار وصهيب وخبَّاب وأَصحابهم الذين أُوذوا بمكة وخرجوا عنها، وعلى كل قول فالآية تتناول بالمعنى كل من هاجر أَوَّلاً وآخراً.

وقرأ الجمهور: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾، وقرأ ابن مسعود، ونعيم بن ميسرة، والربيع بن خُثَيم(٢)،

= مريد له، لأنَّ أكثر أفعالنا يحصل على خلاف مقصودنا وإرادتنا، فلو لم يكن الحق سبحانه مريداً لها لكانت تحصل من غير قصد، وهو قول الطَّبيعيين، وهو فاسد.

(١) قيل: اسمه عبد الله، وكان من السابقين إلى الإسلام، وممَّن عُذِّب بسبب إسلامه، ثبت ذكره في صحيح البخاري في قصة الحديبية، قال: وجاءَ أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، فقال: يا معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مُسلماً، ألا ترون إلى ما لقيتُ؟ وكان مجيئه قبل أن يتم كتاب الصلح، ولم يرض المشركون بأن ينضم إلى المسلمين مع أن النبي ﷺ طلب ذلك، وقال من يمثلهم: هذا أول ما أُقاضيك عليه، استشهد أبو جندل باليمامة وهو ابن ثمان وثلاثين سنة. (الإصابة).

(٢) ذكر في أكثر النسخ أن اسمه: الربيع بن تميم، والصواب ما ذكرناه، والتصويب عن كتب التفسير والقراءات، وهو أبو يزيد الكوفي الثوري، تابعي جليل، وردت عنه الرواية في حروف القرآن، أخذ=

وأَمير المؤمنين علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: [لَنُثْوِيَنَّهُم](١)، وهاتان اللفظتان معناهما التقرير في موضع، فقالت فرقة: «الْحَسَنَةُ» عِدَةٌ ببقعة شريفة كشف الغيب أَنها كانت بالمدينة، وإِليها كانت الإشارة بقوله: [حسَنَة]، وقالت فرقة: الحَسَنَةُ هنا لسانُ الصدق الباقي عليهم في غابر الدهر، وفي قوله: [لَنُبَوِّئَنَّهُم] أَوْ [لَنُثْوِيَنَّهُم] على هذا التأْويل في لسان الصدق تَجَوُّز كثير واستعارة بعيدة، وهذا على أَن «الحسنة» هي الحياة والمثوى، وأَن الفعل الظاهر عامل فيها، وقال أَبو الفتح: نصبها على معنى: «نُحْسن إِليهم في ذلك إِحساناً»، وجعلت [حَسَنَة] موضع «إِحساناً»، وذهبت فرقة إِلى أَن الحسنة عامة في كل أَمر مستحسن يناله ابن آدم، وتخف الاستعارة المذكورة على هذا التأْويل، وفي هذا القول يدخل ما رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنه كان يعطي المال وقت القسمة الرجلَ من المهاجرين ويقول له: خُذ ما وعدك الله في الدنيا ولأَجر الآخرة أَكبر، ثم يتلو هذه الآية، ويدخل في هذا القول النصرُ على العدو وفتح البلاد وكل أَمل بلغه المهاجرون، و«أَجر الآخرة» هنا إِشارة إِلى الجنة، والضمير في [يَعْلَمُونَ] عائد على كفار قريش، وجواب [لَوْ] مقدر محذوف، ومفعول [يَعْلَمُونَ] كذلك، وفي هذا نظر.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ من صفة المهاجرين الذين وعدهم الله، والصبر يَجْمَع: عن الشهوات، وعلى المكاره في الله تعالىٰ، والتوكل بتفاصيل مراتبه، فَمُطيل فيه وذلك مباحٌ حَسَن، ما لم يَغل حتى يُسَبِّب الهلاك، ومتوسط يسعى جميلاً ويتوكل، وهذا مع قول النبي ﷺ: «قَيِّدها وتوكل»(٢)، ومقصِّر لا نفع في تقصيره، وإِنَّما لَهُ مَا قُدِّر له.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ الآية، هي ردٌّ على كفار قريش الذين

= القراءَة عن عبد الله بن مسعود، وقال له ابن مسعود: لو رآك محمد ﷺ لأحبك، وما رأيتك إلا ذكرتُ المخبتين، مات في ولاية عبيد الله بن زياد. (طبقات القراء لابن الجوزي).

(١) بالثاء المثلثة، مضارع أَثْوَى المنقول بهمزة التعدية من ثَوَى بالمكان بمعنى أقام فيه. وعلى هذه القراءة تُنصب [حَسَنَة] على تقدير: إثْوَاءَةً حسنة، أو على نزع الخافض، أي في حسنة، يعني في دار حسنة، أو منزلة حسنة.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عمرو بن أُمية الضمري، ولفظه كما في الجامع الصغير: «قَيِّد وتوكل» ـ ورمز له الإمام السيوطي بالصحة.

استبعدوا أَن يكون البشر رسولاً من الله تعالىٰ، فأعلمهم اللهُ مخاطباً لمحمد ﷺ أنه لم يرسل إِلى الأُمم إِلا رجالاً، ولم يرسل ملكاً ولا غير ذلك، و﴿رِجَالاً﴾ منصوب بـ ﴿أَرسلْنَا﴾، و﴿إِلاَّ﴾ إِيجابٌ، وقرأَ الجمهور: [يُوحَى] بضم الياءِ وفتح الحاءِ، وقرأَت فرقة بضم الياءِ وكسر الحاءِ، وقرأَ عاصم من طريق حفص وحده[١] ﴿نُوحِي﴾ بالنون وكسر الحاءِ، وهي قراءَة ابن مسعود، وطلحة بن مصرف، وأَبي عبد الرحمن. ثم قال تعالىٰ: ﴿فَاسْأَلُوا﴾، أَي: قل لهم فاسأَلوا، و«أَهْلَ الذِّكْرِ» هنا اليهود والنصارى، قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن. وقال الأَعمش، وسفيان بن عُيَيْنَة: المرادُ من أَسلم منهم، وقال أَبو جعفر، وابن زيد: «أَهْلَ الذِّكْرِ»: أَهْلُ القرآن، وهذان القولان فيهما ضعف؛ لأَنه لا حجة على الكفار في إِخبار المؤمنين بما ذكر، لأَنهم يكذبون هذه الصنائف، وقال الزجاج: «أَهْلُ الذِّكْرِ» عام في كل من يُعزى إِلى علم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَظهر في هذا كله قول ابن عباس رضي الله عنهما أَن يكون أَهل الذكر هنا أَحبار اليهود والنصارى الذين لم يسلموا، وهم في هذه النازلة خاصة إِنما يُخْبِرُونَ بأَن الرسل من البشر، وأَحبارهم حجة على هؤلاءِ، فإِنهم لم يزالوا مُصَدِّقين لهم، ولا يتهمون بشهادة لنا لأَنهم مدافعون في صدر ملة محمد ﷺ قاتلهم الله، وهذا هو كسْر حجتهم من مذهبهم، لا أَنَّا[٢] افتقرنا إِلى شهادة هؤلاءِ، بل الحق واضح في نفسه، وقد أَرسلت قريش إِلى يهود يثرب يسأَلونهم ويُسْنِدون إِليهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ متعلق بفعل مضمر تقديره: أَرسلناهم بالبيِّنات، وقالت فرقة: إِنها متعلقة بـ ﴿أَرْسَلْنا﴾ في أَول الآية[٣]، والتقدير ـ على هذا ـ: وما أَرسلنا من قبلك بالبينات والزُّبُرِ إِلا رجالاً، ففي الآية تقديم وتأْخير، و«الزُّبُر»: الكتب المزْبُورَة،

---

(١) يعني وحده من السبعة، وإِلا فقد قرأ بها معه كثيرون.

(٢) في أكثر النسخ «لكنا» بدلاً من «لا أَنَّا». وقد نقلها أبو حيان في «البحر» كماأثبتناها هنا وهي الملائمة للمعنى.

(٣) وأجاز الزمخشري أن تكون صفة لـ ﴿رجالاً﴾، أي: رجالاً متلبسين بالبينات، فيتعلق بمحذوف، وهذا وجه سائغ لأنه في موضع صفة لما بعد «إلا»، وبهذا يكون الله تعالىٰ قد وصف «الرجال» بأنهم يوحى إليهم، وبذلك العامل في ﴿البيِّنَات﴾، كما تقول: ما أكرمت إلا رجلاً مسلماً مُتَلبِّساً بالخير، وأجاز أيضاً أن يتعلق بـ ﴿نُوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾، وان يتعلق بـ ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾.

تقول: «زبرت ودبرت» إذا كتبتَ، و[الذِّكر] في هذه الآية القرآن. وقوله: [لِتُبيِّنَ] يحتمل أن يريد: لِتُبيِّن بِسَرْدِك نص القرآن ما نزل، ويحتمل أن يريد: لِتُبيِّن بتفسيرك المجمل وبشرحك ما أَشكل مما نُزِّل، فيدخل في هذا ما تُبيِّنه السُّنَّة من أَمر الشريعة، وهذا قول مجاهد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

هذه آية تهديد لأَهل مكة، وهم المراد ـ [ٱلَّذِينَ] في قول الأكثرين، وقال مجاهد: المراد نمروذ بن كنعان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأَول أَظهر، ونصب [ٱلسَّيِّـَٔاتِ] يحتمل وجهين، أَحدهما أَن ينصب بقوله: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ﴾، وتكون السيئات ـ على هذا ـ العقوبات التي تسوءُ من تنزل به، ويكون قوله: ﴿أَن يَخْسِفَ﴾ بدلاً منها، والوجه الثاني أَن تنصب بـ [مَكَرُوا]، وعُدِّي [مَكَرُوا] لأَنه في معنى «عملوا» أَو «فعلوا»، و[ٱلسَّيِّـَٔات] ـ على هذا ـ معاصي الكفر وغيره، قاله قتادة. ثم توعدهم بما أَصاب الأُمم قبلهم من الخسف، وهو أَن تبتلع الأَرض المخسوف به ويقعد إِلى أَسفل، وأَسند النقاش عن بعض أَهل العلم أَن قوماً في هذه الأُمة أُقيمت الصلاة فتدافعوا الإِمامة وتَصَلَّفُوا في ذلك[1]، فما زالوا كذلك حتى خُسِفَ بهم.

و[تَقَلُّبِهِم]: سفرهم ومحاولتهم المعايش بالسفر وبالرعاية وغيرها، و«ٱلْمُعْجز»: المُفْلت هرباً، كأَنَّه عجَّز طالبه، وقوله: ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾، أَي: على جهة التَّخَوُّف، والتَّخوُّف: التَّنقُّص، ومنه قول الشاعر يصف ناقة:

---

(١) المراد أنهم وصلوا إلى درجة أبغض بعضهم فيها بعضاً، يقال: صَلِف فلان: لم يحظ عند الناس وأبغضوه، وأَصْلَفَه الله: بَغَّضه إلى الناس، ويقال: صَلَفه صَلْفاً: أَبغضه.

تَخَوَّفَ السَّيْرُ مِنْهَا تَامِكاً قَرِداً ... كما تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ(١)

فالسَّفَن: المِبْرد، ويُروى أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خفي عليه معنى «التَّخَوُّف» في هذه الآية، وأَراد الكتب إلى الأمصار يسأَل عن ذلك حتى سمع هذا البيت، ويروى أَنه جاءَ فتىً من العرب وهو قد أَشكل عليه أَمر لفظة التخوف، فقال له: يا أَمير المؤمنين، إِن أَبي يَتَخَوَّفَني مالي، فقال عمر رضي الله عنه: الله أكبر، ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾، ومنه قول طرفة:

وَجَامِلٍ خَوَّفَ مِنْ نِيبِهِ ... زَجْرُ المُعَلَّى أُصُلاً والسَّفِيحْ(٢)

ويروى: من نفسه، ومنه قول الآخر:

أَلامُ عَلَى الْهِجَاءِ وكُلَّ يَوْمٍ ... يُلاَقِينِي مِنَ ٱلْجِيرَانِ غُولُ
تَخَوَّفَ عَدْوُهُمْ مَالِي وَأَهْدَى ... سَلاَسِلَ في الْحُلُوقِ لَهَا صَلِيلُ(٣)

يريد الأَهاجي. ومنه قول النابغة:

---

(١) البيت لابن مقبل، (اللسان ـ خوَف)، والتَّخَوُّف: التَّنَقُّص، وقال الفراءُ: «إنه التنقيص، والعرب تقول: تَحَوَّفته (بالحاء المهملة) بمعنى: تَنَقَّصْته من حافاته، وقد جاء التفسير بالحاء»، وقال ابن الأعرابي: «تَحَوَّفته وتَحَيَّفته، وتَخَوَّفته وتَخَيَّفته». والتَّامِكُ: السَّنام، وقيل: السَّنَام المرتفع، والقَرِدُ: الذي تَجَمَّع شَعْره، أو الذي تراكم لحمُهُ من السمن، والنَّبْعَةُ: واحدة النَّبع، وهو من شجر الجبال، تُتَّخذ منه القِسِيُّ لصلابته، والسَّفَن: الحديدة التي تبرد بها القِسِيُّ. يقول ابن مقبل: إن السَّيْر قد أخذ ينقص من سنام هذه الناقة ومن لحمها السمين كما ينتقص المبرد من خشب القِسِيِّ. ويروى: «تَخَوَّف الرَّحْلُ» بدلاً من: «تخَوَّف السَّيْرُ».

(٢) هذا البيت لطرفة، وهو من أبيات قالها يصف مرضه ويسأل عن عُوَّاده فيه، والجامِلُ: القطيع من الإبل، وخوَّف: نَقَّص، ويروى «خَوَّعَ» وهي بمعنى نَقَّص أيضاً، ولكن لا يصلح شاهداً، وفاعِلُ الفعل (خَوَّفَ) هو قوله: «زَجْرُ الْمُعَلَّى» في الشطر الثاني، والنِّيبُ: جمع ناب وهي النَّاقة المُسِنَّة. والمُعَلَّى: سابع سهام المَيْسِر، والسَّفيح: قَدَحٌ من قداح الميْسر لا نصيب له، وأُصُلا: جمع أَصِيل، وهو الوقت بين العصر والمغرب، يقول: إن هذا القطيع من الإبل قد أتى على نياقه النقص بسبب ما خسره صاحبه منه في لعب الميسر في وقت الأصيل. وفي (اللسان ـ خوف) أن أبا إسحاق رواه: «من نَبْتِهِ» بدلاً من «نِيبِهِ».

(٣) استشهد أبو عبيدة بهذين البيتين في «مجاز القرآن» على أن «التَّخَوّف» هو «التَّنَقُّص» والشاهد في البيت الثاني، أي: تَنَقَّص عَدْوُهم مالي، والعَدْوُ هو العدوان أو الاعتداءُ، ويروى «غَدْرُهُمْ» بالغين والراءِ، ويريد بالسلاسل: قوافي الشعر التي تنشد، وهي قلائد في الأعناق، وصليل القوافي هو صوتها حين تنشد.

تَخَــوَّفَهُــمْ حَتَّــى أَذَلَّ سَــرَاتِهِــمْ بِطَعْنٍ ضِرَارٍ بَعْدَ نَفْحِ الصَّفَائِحِ[1]

وهذا التنقيص يتجه الوعيد به على معنييْن: أَحدهما: أَن يهلكهم ويخرج أَرواحهم على تخوف، أَي أَفذاذاً، يتَنَقَّصهم بذلك الشيءَ بعد الشيءِ، وهذا لا يدعي أَحد أَنه يأْمنه، وكأَن هذا الوعيد إِنما يكون بعذاب ما يلقون بعد الموت، وإِلا فهكذا تهلك الأُمم كلها، ويؤيد هذا قوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، أَي أَن هذه الرتبة من الوعيد فيها رأْفة ورحمة وإِمهال ليتوب التائب ويرجع الراجع، والآخرُ: ما قال الضحاك: أَن يأْخذ بالعذاب طائفة أَو قرية ويترك أُخرى، ثم كذلك حتى يهلك الكل. وقالت فرقة: التخوُّف هنا من الخوف، أَي: يأْخذهم بعد تخوف ينالهم يعذبهم به.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا تكلُّف مًا.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ الآية، قرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: ﴿أولم يروا﴾ بالياءِ، على لفظ الغائب، وكذلك في العنكبوت[2]، فهي جارية على قوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ﴾ وقوله: ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾، ورجَّحها الطبري. وقرأَ حمزة، والكسائي: [أَوَلَمْ تَرَوا] بالتاءِ من فوق في الموضعين، وهي قراءَة الحسن، والأَعرج، وأَبي عبد الرحمن، وذاك يحتمل من المعنى وجهين: أَحدهما على معنى: قُلْ لهم يا محمد أَوَلَمْ تَرَوْا، والوجه الثاني أَن يكون خطاباً عاماً لجميع الخلق ابتدأَ به القول آنفاً، وقرأَ عاصم في النحل بالتاءِ من فوق، واختلف عنه في العنكبوت. وقوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ لفظ عام في كل ما اقتضته الصفة في قوله: ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ﴾ لأَن ذلك صفة لما عرض للعبرة في جميع الأَشخاص التي لها

---

(١) التَّخَوُّف: التَّنَقُّص، والسَّراة: اسم جمع سَرِيٍّ، وليس جمعاً، لأن فعيل لم يُجمع على فَعَلَة، قال سيبويه: الدليل على أنه ليس جمعاً قولهم: سَرَوات، أو هو جمع سَرِيٍّ على غير قياس، والسَّرِيُّ: الشريف النفس الرفيع المنزلة: ذو المروءَة، والطعن ضراراً هو الطعن عن قرب شديد (راجع أساس البلاغة)، والصفائح: السيوف العراض، ونفحت بالسيف: ضربت ضرباً خفيفاً، أو التناول بالسيف من بعيد شذراً واحتقاراً للمضروب، فهو طعن شديد بالرماح بعد ضرب خفيف بالسيوف، أو طعن بالرماح عن قرب بعد تناول بالسيوف من بعيد، ولم أجد البيت في ديوان النابغة. (طبع ونشر الشركة التونسية للتوزيع ـ الجزائر، وتحقيق الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، طبعة مكملة).

(٢) في قوله تعالىٰ في الآية (١٩): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

ظل، والرؤية هنا هي رؤية القلب، ولكن الاعتبار برؤية القلب هنا إنما تكون في مرئيات بالعين، وقرأ أبو عمرو وحده: [تَتَفَيَّأُ] بالتاءِ من فوق، وهي قراءَة عيسى ويعقوب، وقرأ الجمهور: ﴿يَتَفَيَّأُ﴾، قال أبو علي: إذا تقدم الفعل المسند إلى مثل هذا الجمع فالتذكير والتأنيث فيه حسنان. و«فَاءَ الظِّلُّ»: رجع بعكس ما كان بُكْرة إلى الزوال، وذلك أن الشمس من وقت طلوعها إلى وقت الزوال إنما هي في نسخ الظِّلِّ العام قبل طلوعها، فإذا زالت ابتدأ رجوع الظل العام، ولا يزال ينمو حتى تغيب الشمس فيعم، والظل الممدود في الجنة لم يذكر الله له فيئاً لأنه لم يرجع بعد أن ذهب، وكذلك قول حُميد بن ثور الهلالي:

فَلاَ الظِّلُّ مِنْ بَرْدِ الضُّحَى تَسْتَطِيعُهُ ... ولاَ الْفَيْءُ مِنْ بَرْدِ الْعَشِيِّ تَذُوقُ[1]

فهو على المهيع[2]، وكذلك قول علقمة بن عبدة:

تَتَبَّــعُ أَفْيَــاءَ الظِّــلاَلِ عَشِيَّــةً ... عَلَــى طُــرُقٍ كَــأنَّهُــنَّ سُيُــوبُ[3]

وكذلك قول امرىء القيس:

. . . . يَفِيءُ عَلَيْهَا الظِّلُّ. . . . . . .[4]

---

(١) قال حميد هذا البيت يصف سَرْحَةً، وكَنَى بها عن امرأة، وقال في (اللسان ـ فَيَأ): «وإنَّمَا سُمِّيَ الظِّلُّ فَيْئاً لرجوعه من جانب إلى جانب»، ونقل عن ابن السكيت قوله: «الظِّل: ما نسخته الشمس، والفيْءُ: ما نَسَخَ الشمس»، وقد وضح الشاعر في هذا البيت أن الظِّلَّ بالغداة، وهو ما لم تَنَله الشمسُ، وأن الفَيْءَ بالعَشِيِّ، وهو ما انصرفت عنه الشمس. والسَّرْحَةُ: واحدة السَّرْح، وهو شجر عظام طوالٌ.

(٢) المَهْيَعُ من الطُّرُق: البَيِّنُ، وجمعه مهايع. (المعجم الوسيط).

(٣) هذا البيت من قصيدة قالها علقمة الفحل في مدح الحارث ملك الغساسنة في الشام على أثر الموقعة المعروفة باسم «يوم حليمة»، وهو في وصف الناقة، حيث بدأ الشاعر بالغزل: «طَحَابِكَ قَلْبٌ في الحِسَانِ طَرُوبُ»، ثم قال: «فَدَعْهَا وسَلِّ الْهَمَّ عَنْكَ بجَسْرَةٍ» فهذه الناقة تَتَبَّعُ أفياءَ الظلال على طول الطريق، والطريق أمامها كأنها مجاري المياه لرطوبتها، والسُّيُوب: مجاري المياه. وفي رواية «سُبُوب»، وهي جمع سُبٍّ وهي قطع الكتَّان.

(٤) هذا جزء من بيت، وهو بتمامه:

تَيَمَّمَــتِ الْعَيْــنَ الَّتــي عنْــدَ ضَــارِجٍ ... يَفِــيءُ عَلَيْهَــا الظِّــلُّ عَــرْمَضُهَــا طَــامِ

وهو من قصيدة له يرُدُّ على سُبَيْع بن عوف بن مالك الذي قال فيه أبياتاً يذمه، وضارج: جبل معروف، والعين نبع عند ضارج، والعرْمض: الطُّحْلُب الأخضر الذي يتغشى الماءَ كأنه نسج العنكبوت، ويُسمَّى بالطُّحْلب إذا كان في جوانب الماء، يقال: عرْمض الماءُ عرمضةً: علاهُ العرْمضُ، =

وأما النابغة الجعدي فقال:

فَسَــلامُ الإلَــهِ يَغْــدُو عَلَيْهِــمْ وَفُيُــوءُ الْفِــرْدَوْسِ ذَاتُ الظِّــلاَلِ[١]

فَتَجوَّزَ في أَنْ جعل الفَيْءَ حيثُ لا رجوع، وقال رؤْبة بن العجّاج: يقال بعد الزوال: فيءٌ وظِلٌّ، ولا يقال قبله إلاَّ ظِلٌّ فقط، ويقال: فاءَ الظِّلُّ إذا رجع من النقصان إلى الزيادة، ويُعدَّى (فَاءَ) بالهمزة، كقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾[٢]، ويُعدَّى بالتضعيف، فيقال: أَفَاءهُ الله وفيَّأَهُ، وتَفَيَّأَ مضارع فَيَّأَ، ولا يقال الفيْءُ إلا من بعد الزوال في مشهور كلام العرب، لكن هذه الآية الاعتبار فيها من أول النهار إلى آخره، فكأن الآية جارية في بعض التأْويلات على تجوز كلام العرب واقتضائه وضع (تَتَفَيَّأ) مكان (تَتَنَقَّل) و(تميل)، وأَضافَ الظلال إلى ضمير مفرد حملاً على لفظ [مَا]، أو لفظ [شَيْءٍ]، وهو بالمعنى لجميع، وقرأ الثَّقَفِيُّ: [ظُلَلُهُ] بفتح اللام الأُولى وضم الثانية وضم الظاءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾، أَفرد [ٱلْيَمِين] وهو يراد به الجمع فكأَنه للجنس، والمراد: عن الأيمان والشمائل، كما قال الشاعر:

الــوَارِدُونَ وتَيْــمٌ فــي ذُرَى سَبَــأٍ قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُم جِلْدُ ٱلْجَوَامِيسِ[٣]

وقال الآخر:

بِفِي الشَّامِتِينَ الصَّخْرُ إنْ كانَ هَدَّني رَزِيَّةُ شِبْلَيْ مُخْدَرٍ في الضَّرَاغِمِ[٤]

= وطام: مرتفع، يقول: إن ناقتي قصدت العين التي عند ضارج، وهي عين يفيءُ عليها الظل، ويرتفع فوقها الطحلب.

(١) الفِرْدَوس: البستان الجامع لكل ما يكون في البساتين «مذكر ومؤنث»، أو الوادي الخصيب، أو المكان تكثر فيه الكروم، وكل ذلك جائز هنا، والشاهد في البيت أن النابغة الجعدي تجوَّز لأنه جعل الفُيُوءَ حيث لا رجوع، بخلاف المألوف المعروف في الأمثلة الأخرى.

(٢) من الآية (٧) من سورة (الحشر).

(٣) البيت لجرير، وهو في هجاءِ عمر بن لجأ التَّيْمي، والرواية في الديوان: «تدعوك تيْمٌ وتيْمٌ»، ويريد بقوله: «عضَّ أَعْنَاقَهُم جِلْدُ الجواميس» أنهم أسرى وفي أعناقهم أطواقٌ من جلد الجواميس، وهو جلد غليظ متين، والشاهد أن الشاعر هنا أفرد فقال: «جِلْد الجواميس»، ولم يقل: «جُلُود الجواميس» في مقابلة قوله: «أعْنَاقهُمْ».

(٤) البيت للفرزدق، وهو من قصيدة له يرثي ابْنَين له. والشامتون: جمع شامت وهو الذي يفرح في بليَّة=

والمنصوب للعبرة في هذه الآية هو كل شخص وجرم له ظل كالجبال والشجر وغير ذلك، والذي يترتب فيه أيمان وشمائل إنما هو البشر فقط، ولكن ذكر الأيمان والشمائل هنا هو على جهة الاستعارة لغير البشر، أي: تُقَدِّرُهُ ذات يمين وشمال، وتُقدِّرُه يستقبل أيَّ جهة شئت ثم تنظر ظله فتراه يميل إما إلى جهة اليمين وإما إلى جهة الشمال، وذلك في كل أقطار الدنيا، فهذا وجه يعمم لك ألفاظ الآية، وفيه تجوُّز واتساعٌ، ومن ذهب إلى أن اليمين من غدوة النهار إلى الزوال، ثم يكون من الزوال إلى المغيب عن الشمال ـ وهو قول قتادة، وابن جريج ـ فإنما يترتب له ذلك فيما قدره مستقبِل الجنوب، والاعتبار في هذه الآية عندي إنّما هو في مستقبل الجنوب، وما قاله بعض الناس من «أن اليمين أول دفعة للظل بعد الزوال، ثم الآخر إلى الغروب هي عن الشمائل، ولذلك جمع الشمائل وأفرد اليمين» فتخليط من القول يبطل من جهات، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا صليت الفجر كان ما بين مطلع الشمس إلى مغربها ظلاً، ثم جعل الله عليه الشمس دليلاً فقبض إليه الظل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا فأول ذرور الشمس فالظل عن يمين مستقبل الجنوب، ثم يبدأُ الانحراف فهو عن الشمائل، لأنها حركات كثيرة وظلال مقطعة، فهي شمائل كثيرة، وكان الظل عن اليمين متصلاً واحداً عامًّا لكل شيءٍ، وفي هذا القول تجوُّز في [يَتَفَيَّأُ]، وعلى ما قدَّرنا من استقبال الجنوب يكون الظل أبداً مندفعاً عن اليمين إلى الزوال، فإذا تحرَّك بعْدُ فارَق الأيمان جملة وصار اندفاعه عن الشمائل، وقالت فرقة: الظلال هنا: الأَشخاص، وهي المراد أنفسها، والعرب تُعبِّر أحياناً عن الأَشخاص بالظلال، ومنه قول عَبْدة بن الطبيب:

= الإنسان، وهدَّني: أوهن رُكْني، والمُخْدَر: الأسد، والضَّراغِم: جمع ضِرْغام وهو الأسد أيضاً، فهو يتجلد ويتحمل مصيبته في فقد ولديه حتى لا يشمت فيه الشامتون الحاقدون، والشاهد أنه أفرد فقال: «بِفِي» ولم يقل: «بأفواه»، وهذا دليل على جواز إفراد اليمين وجمع الشمائل، لأن معنى الكلام في الآية الكريمة: أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيءٍ يتفَيَّأُ ظلال ما خلق من شيءٍ عن يمينه ـ أي: ما خلقَ ـ وشمائله، فلفظ [مَا] لفظ واحد ومعناه معنى الجمع، فقال سبحانه: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ بمعنى: عن يمين ما خلق، ثم رجع إلى معنى [مَا] في [الشمائل].

إِذَا نَـزَلْنَـا نَصَبْنَـا ظِـلَّ أَخْبِيَـةٍ وَفَـارَ لِلْقَـوْمِ بِاللَّحْمِ الْمَرَاجِيلُ(١)

وإنما تُنصب الأخبية، ومنه قول الآخر:

تَتَبَّـعُ أَفْيَـاءَ الظِّـلاَلِ عَشِيَّـةً . . . .(٢)

أَي أَفياءَ الأشخاص، وهذا كله محتمل غير صريح، وإن كان أَبو علي قد قرره.

واختلف المتأوِّلون في هذا السجود ـ فقالت فرقة: هو سجود عبادة حقيقية، وذكر الطبري عن الضحاك قال: إذا زالت الشمس سجد كل شيءٍ قِبَل القبلة من بيتٍ أَو شجر، ولذلك كان الصالحون يستحبون الصلاة في ذلك الوقت، وقال مجاهد: إنما تسجد الظلال لا الأَشخاص، وقالت فرقة ـ منهم الطبري ـ: عبَّر عن الخضوع والطاعة وميلان الظلال ودورانها بالسجود، كما يقال للمشير برأسه نحو الأَرض على جهة الخضوع: ساجد، ومنه قول الشاعر:

فَكِلْتَـاهُمَـا خَـرَّتْ وَأَسْجَـدَ رَأْسُهَـا كَمَا سَجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحْنَفِ(٣)

و«الدَّاخِر»: المتصاغر المتواضع، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

فَلَـمْ يَبْـقَ إِلاَّ داخِـرٌ فـي مُخَيَّـسٍ وَمُنْجَحِرٍ في غَيْرِ أَرْضِكَ في جُحْرِ(٤)

---

(١) عبدة بن الطبيب من بني عَبْشَمْس بن كعب، وهو شاعر مخضرم، أدرك الإسلام وأسلم، وشهد مع المثنى قتال هرمز، وله في ذلك آثار مشهورة. والأخبية: جمع خباءٍ، وهو البيت من الوبر أو الشعر أو الصوف يكون على عمودين أو ثلاثة، والمراجيل: قدور من الطين أو النُّحاس يطبخ فيها، وقد وضح المؤلف الشاهد في البيت.

(٢) هذا صدر بيت قاله علقمة الفحل، وقد سبق الاستشهاد به قبل ذلك بقليل ص٣٦٢ هامش ٣ من هذا المجلد، والبيت بتمامه:

تَتَبَّـعُ أفيـاء الظِّـلالِ عَشِيَّـةً عَلَـى طُـرُقٍ كَـأنَّهُـنَّ سُيُـوبُ

(٣) البيت لأبي الأَخْزَر الحِمَّانِيِّ، وفيه يصف الشاعر ناقتين خرَّتا من الإعياء والتَّعب، أو نُحِرتا فطأطأتا رأسيهما، فشبَّه الشاعر سجودهما بسجود النصرانة، وقد سبق الاستشهاد به في هذا المجلد (ص٢٩٠، هامش١) والشاهد هنا أنه عبر عن طأطأة الرأس بالسجود.

(٤) البيت شاهد على أن معنى الدَّاخر: الصاغر، وقد استشهد به أبو عبيدة في «مجاز القرآن»، وذكره صاحب اللسان في (خَيَسَ)، ونسبه إلى الفرزدق، قال في اللسان: «وكل سجن: مُخَيَّسٌ ومُخَيِّسٌ ـ بتشديد الياءِ مفتوحة ومكسورة، والمُنْجَحر ـ بتقديم الجيم على الحاء ـ: الداخل في الجحر، يقال: أجحره: أدخله الجحر فدخله، والجحر: كل مكان تحتفره الهوام والحيوانات لأنفسها، والجمع: أجحارٌ وجحَرة، يَقولُ: إن أعداءَك جميعاً أذلاءُ صاغرون في السجون والأجحار. ورواية الديوان: =

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

وقعت ﴿ما﴾ في هذه الآية لما يعقل، قال الزجاج: قوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعمُّ ملائكة السماءِ وما في السحاب وما في الجوِّ من حيوان، وقوله: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ بيِّن، ثم ذكر ملائكة الأَرض في قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يكون قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ هو الذي يَعُمُّ ملائكة السموات والأَرض، وما قبل ذلك لا يدخل فيه مَلَك، إِنما هو الحيوان أَجمع. وقوله: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ يحتمل معنَيَيْن: أَحدهما الفوقية التي يوصف الله بها تعالىٰ، فهي فوقيَّة القَدر والعظمة والقهر والسلطان، والآخر أَن يتعلق قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ بقوله: ﴿يَخَافُونَ﴾، أَي: يخافون عذاب ربهم من فوقهم، وذلك أَن عادة عذاب الله للأُمم إِنما يأْتي من جهة فوق. وقوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾، أَمَّا المؤمنون فبحسب الشرع والطاعة، وأَما غيرهم من الحيوان فبالتسخير والقَدَر الذي يسوقهم إِلى ما تقدم من أَمر الله تبارك وتعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ نهيٌ من الله تبارك وتعالىٰ عن الإِشراك به، ومعناها: لا تَتَّخِذُوا إِلـٰهَيْنِ اثْنين فصاعداً بما ينصه قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، قالت فرقة: المفعول الأَول لـ ﴿تَتَّخِذُوا﴾ قوله: ﴿[إِلـٰهَيْنِ]﴾ وقوله: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ تأْكيدٌ وبيانٌ بالعدد، وهذا معروف في كلام العرب، أَن يبيِّن المعدود بذكر عدده تأْكيداً، ومنه قوله: ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[1]، لأَن لفظة الإِلـه تقتضي الانفراد، وقال قومٌ منْهم: المفعول الثاني محذوف، تقديره: مفرداً، أَو معبوداً، أَو مطاعاً، ونحو هذا، وقالت فرقة:

= ومُنْحَجر بتقديم الحاء على الجيم».

(١) ورد ذلك في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، وتكرر ذلك في القرآن الكريم مرات كثيرة.

المفعول الأول قوله: [ٱثۡنَيۡنِ]، والثاني قوله: [إِلَٰهَيۡنِ]، وتقدير الكلام: لا تتخذوا اثنين إلٰهين، ولا يحتاج إلى اعتذار بالتأكيد، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ﴾(١)، ففي هذه الآية ـ على بعض الأقوال ـ تقديم المفعول الأول لـ [تَتَّخِذُوا]، وقوله: [فَإِيَّايَ] منصوب بفعل مضمر تقديره: فارهبوا إِيَّايَ فارهبون، ولا يعمل فيه الفعل الظاهر، لأنه قد عمل في الضمير المتصل به.

وقوله تعالىٰ: و﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآية، الواو في قوله: [وَلَهُۥ] عاطفة على قوله: ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، وجائز أَن تكون واو ابتداءٍ(٢)، و[مَا] عامة جميع الأَشياءِ مما يعقل وما لا يعقل، والسموات هنا كل ما ارتفع من الخلق في جهة فوق، فيدخل فيه العرش والكرسي، و[ٱلدِّينُ]: الطاعة والمُلك كما قال زهير:

. . . . في دين عَمْرٍو وحَالَتْ بَيْنَنَا فَدَكُ(٣)

في طاعته وملكه. و«الواصِبُ»: الدائم، قاله ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقال الشاعر:

لا أَبْتَغِي الْحَمْدَ القَلِيلَ بقاؤُهُ ... يَوماً بِذَمِّ الدَّهْرِ أَجْمَعَ واصِبا(٤)

---

(١) من الآيتين (٢ و٣) من سورة (الإسراء).

(٢) قال أبو حيان في البحر تعقيباً على ذلك: «لا يقال واو ابتداءٍ إلا لواو الحال، ولا يظهر هنا الحال، فهي عاطفة على الخبر، أو على الجملة بأسرها، أو تكون الجملة في تقدير المفرد».

(٣) هذا عجز بيت، وهو بتمامه مع بيت آخر بعده:

لَئِنْ حَلَلْتِ بجَوٍّ في بَنِي أَسَدٍ ... في دِينِ عَمْرٍو وحَالَتْ بَيْنَنَا فَدَكُ
لَيَأْتِيَنَّكِ مِنِّي مَنْطِقٌ قَذِعٌ ... بَاقٍ كَمَا دَنَّسَ القِبْطِيَّةَ الوَدَكُ

وفَدَكُ بالتحريك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، وقيل: ثلاثة، أفاءَها الله على رسوله ﷺ صلحاً، والشَّاهد أن «الدِّين» هنا بمعنى الطاعة، أي: في طاعة عمرٍو ومُلكه.

(٤) البيت لأبي الأسود الدُّؤَلي، وقد استشهد به القرطبي، والشطر الثاني فيه: (بِذَمِّ يكون الدَّهْرَ أجمعَ واصباً)، ثم قال: وأنشد الغزنوي والثعلبي وغيرهما:

مـا أبتغي الحَمْدَ القَلِيلَ بَقَاؤُهُ ... يَوماً بِذَمِّ الدَّهْرِ أجْمَعَ وَاصِبَا

وهي كرواية ابن عطية ما عدا (ما)، واستشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن، واستشهد به الطبريّ أيضاً، والرواية فيهما كرواية ابن عطية. والشاهد فيه أن (واصب) تأتي بمعنى (دائم).

ومنه قول حسّان بن ثابت:

غَيَّرَتْهُ الرِّيحُ تَسْفِي بِهِ وهَزِيمٌ رَعْدُهُ وَاصِبُ[(١)]

وقالت فرقة: هو من الوصَب وهو التعب: أَي: وله الدِّين على تعبه ومَشَقَّتِهِ، فـ «واصب» ـ على هذا ـ جارٍ على النسب، أَي: ذَا وَصَبٍ، كما قال:

. . . . أَضْحَى فُؤَادِي بِهِ فاتِنا[(٢)]

وهذا كثير، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أَيضاً: الواصِبُ: الواجب، وهذا نحو قوله: الواصب: الدائم.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ توبيخ في لفظ استفهام، ونصب ﴿غَيْرَ﴾ بـ ﴿تَتَّقُونَ﴾، لأنه فعل لم يعمل في سوى [غَيْرَ] المذكورة.

والواو في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم﴾ يجوز أَن تكون واو ابتداءٍ، ويجوز أَن تكون واو الحال ويكون الكلام متصلاً بقوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾، كأَنه يقول على جهة التَّوبيخ: أَتَتَّقُون غير الله ولا يُنْعِم عليكم سواهُ؟ والباءُ في قوله: [بِكُمْ] متعلقة بفعل تقديره: وما نزَلَ أَو أَلَمَّ، ونحو هذا، و﴿مَا﴾ بمعنى «الذي»، والفاءُ في قوله: ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ دخلت بسبب الإِبهام الذي في ﴿مَا﴾ التي هي بمعنى «الذي»، فأَشبه الكلام الشرط[(٣)]، ومعنى الآية التذكير بأَن الإِنسان في جليل أَمره ودقيقه إِنما هو في نعمة الله

---

(١) هو البيت الثاني من قصيدة، وقبله المطلع، وهو:

قَدْ تَعَفَّى بَعْدَنَا عاذِبُ مَا بِهِ بَادٍ وَلا قَارِبُ

وتَسْفي به: تحمل إليه التراب، والهزيم: السحاب المتشقق بالمطر، يقول: لقد غَيَّرَ هذا المكان ما حملته الريح إليه من التراب، وما ساق السحابُ من مطر دائم الرَّعْد.

(٢) هذا جزء من عجز بيت ذكره في (اللسان ـ فتن) شاهداً على أن (فَاتِناً) تأتي بمعنى (مُفْتَتِن)، والبيت بتمامه كما في اللسان:

رَخِيمُ الكَلامِ قَطِيعُ القِيَا مِ أَمْسَى فُؤَادِي بِهِ فَاتِنَا

وابن عطية يستشهد به على أن المعنى: ذَا فِتْنَة، أو ذَا فُتُون، ونلحظ أن رواية اللسان: «أَمْسَى» ورواية المؤلف: «أَضْحَى».

(٣) هذا هو رأي الفراءِ، قال في (معاني القرآن): «[ما] في معنى جزاءٍ، ولها فعل مضمر، كأنك قلتَ: ما يكن بكم من نعمة فمن الله؛ لأن الجزاءَ لا بُدَّ له من فعل مجزوم، إن ظهر فهو جزم، وإن لم يظهر=

وأَفضاله، إِيجاده داخل في ذلك فما بعده، ثم ذكَر تعالىٰ بأَوقات المرض لِكَوْن الإِنسان الجاهل يُحِسُّ فيها قدر الحاجة إِلى لطف الله، و«الضُّرُّ» ـ وإِن كان يَعُمُّ كل مكروه ـ فأَكثرُ ما يجيءُ عبارة عن أَرزاءِ البدن. و[تَجْأَرُونَ] معناه ترفعون أَصواتكم باستغاثة وتضرع، وأَصله من جؤار الثور والبقرة وصياحهما، وهو عند جهد يلحقهما، أَو في أَثر دَمٍ يكون من بقر يُذبح، فذلك الصراخ يشبه به انتحاب الداعي المستغيث بالله إِذا رفع صوته، ومنه قول الأَعشى:

يُـــرَاوِحُ مِـــنْ صَلَـــوَاتِ الْمَلِيـ ـــكِ طَوْراً سُجُوداً وَطَوْراً جُؤَارَا[1]

وأَنشد أَبو عبيدة:

. . . . بِــأَبِيــلٍ كُلَّمَــا صَلَّــى جَــأَرْ[2]

= فهو مضمر، كما قال الشاعر:

إِنِ العَقْـلُ فـي أَمْـوَالِنَـا لا نَضِـقْ بِـهِ ذِرَاعـاً وإِنْ صَبْـراً فَنَعْـرِفُ لِلصَّبْـرِ

أراد: «إِن يكن» فأضمرها، ولو جعلت ﴿ما بكم﴾ في معنى (الذي) جاز، وجعلت صلته [بكُمْ] و[ما] حينئذ في موضع رفع بقوله: ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، وأدخل الفاءَ كما قال تبارك وتعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾، وكل اسم وصل مثل (من) و(ما)، و(الذي) فقد يجوز دخول الفاءِ في خبره؛ لأنه مضارع للجزاءِ، والجزاءُ قد يجاب بالفاء». وقد ناقشه أبو حيان في إضمار الفعل، وقال: إن هذا ضعيف جداً، ولا يجوز إلا بعد (إنْ) وحدها في باب الاشتغال، واستشهد على ذلك فارجع إليه (٥ـ٥٠٢) إن شئت.

(١) هذا البيت من قصيدة للأعشى يمدح بها قيس بن معديكرب، وقبله يقول:

وَمَـا أَيْبُلِـيٌّ عَلَـى هَيْكَـلٍ بَنَـاهُ وَصَلَّـبَ فِيـهِ وصَـارَا

والأَيْبُلِيُّ: الراهب: أو رئيس الرهبان، أو الذي حرَّم على نفسه النساءَ، والهيكل: مكان في صدر الكنيسة يقدم فيه القربان، وصَلَّب: صوَّر صورة الصَّليب، وصَارَ: صوَّر كما قال في اللسان عن أبي عليٍّ الفارسي، والمراد أنه رَسَمَ صورة الصليب بيده فأشار إلى جبهته فقلبه، ثم إلى صدره يسرة ويمنة، والمراوحة: المداولة بين الأمرين أو العملين، يفعل هذا مرَّة، وذاك مرة، وهما هنا السجود والجؤار، وجأر رفع صوته بالدعاءِ والاستغاثة، والمعنى الذي يقوله الأعشى هو: إن الراهب المتبتل الضارع إلى الله في الهيكل المقدس أمام الصليب، الدائب على السجود والاستغاثة والتضرع إلى الله ـ ليس بأعظم منه ولا أكثر تقى. . . وخبر (ما) يأتي في بيتٍ تالٍ لهذا حيث يقول:

بِـأَعْظَـمَ مِنْـهُ تُقـىً فـي الحِسَـابِ إذا النَّسَمَـاتُ نَفَضْـنَ الغُبَـارَا

(٢) هذا عجز بيت قاله عديُّ بن زيد، والبيت بتمامه:

إِنَّنِـي واللهِ فَـاسْمَـعْ حَلِفِـي بِـأَبِيـلٍ كُلَّمَـا صَلَّـى جَـأَرْ =

والأَصوات تأْتي غالباً على فُعال أَو فَعِيل. وقرأَ الزهري [تَجَرونَ] بفتح الجيم دون همز، حذفت وأُلقيت حركتها على الجيم، كما خُفِّف تَسَلُون من تَسْأَلُون.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾، قرأَ الجمهور: (كَشَفَ)، وقرأَ قتادة: [كَاشف]، وَوَجْهُهَا أَنه فاعل من واحد بمعنى «كشف»، وهي ضعيفة. و«الفريقُ» هنا يراد به المشركون الذين يرون أَن للأَصنام أَفعالاً من شفاءِ المرضى وجلب الخير ودفع الضر، فهم إِذا شفاهم اللهُ عظموا أَصنامهم وأَضافوا ذلك الشِّفَاءَ إِليها.

وقوله تعالىٰ: (لِيَكْفُرُوا) يجوز أَن تكون اللام لام الصيرورة، أَي: فصار أَمرهم ليكفروا، وهم لم يقصدوا بأَفعالهم تلك أَن يكفروا، ويجوز أَن تكون لام أَمرٍ على معنى التهديد والوعيد، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾[(١)]، والكفر هنا يحتمل أَن يكون كفر الجحد بالله والشرك، ويؤيده قوله: ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، ويحتمل أَن يكون كفر النعمة، وهو الأَظهر؛ لقوله: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ﴾، أَي: بما أَنعمنا عليهم. وقرأَ الجمهور: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ على معنى: قل لهم يا محمد، وروى أَبو رافع عن النبي ﷺ: [فيُمتَّعوا فسوف يعلمون] بياءٍ من تحت مضمومة، و[فسوف يعلمون] على معنى ذكر الغائب، وكذلك في الروم[(٢)]، وهي قراءَةُ أَبي العالية، وقرأَ الحسن: [فَتَمَتَّعُوا] كالجماعة على الأَمر [فسوف يعلمون] بالياءِ على ذكر الغائب، كقراءَة أَبي رافع، فيكون [يُمَتَّعُوا] في قراءَة أَبي رافع في موضع نصب عطفاً على [يَكْفُرونَ] إِن كانت اللام لام (كَيْ)، ونصباً بالفاء في جواب الأَمر إِن كانت لام الأَمر، ومعنى «التَّمَتُّعْ» في هذه الآية: بالحياة الدنيا التي مصيرها إِلى الفناءِ والزوال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ

= والأَبِيلُ بوزن أَمِير: الراهب، وهو الأَيْبُلِيُّ والأَيْبُل ـ على خلاف بين اللغويين ـ وفي الحديث: «كان عيسى بن مريم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ يُسَمَّى أَبِيلَ الأَبِيلِين»، وقد سُمِّي الراهب بذلك لتأَبُّلِهِ عن النساءِ وترك غشيانهن، والفعل منه: أَبَلَ يَأْبُلُ أَبَالَةً إِذا تَنَسَّك وترهب.

(١) من الآية (٤٠) من سورة (فُصِّلت).

(٢) في قوله تعالىٰ في الآية (٣٤): ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

الضمير في ﴿يَجْعَلُونَ﴾ للكفار، ويريد بـ ﴿ما لا يَعْلَمُون﴾ الأصنام، أي: لا يعلمون فيها حجة ولا برهاناً، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ الأصنام، أي: يجعلون للجمادات ـ وهي لا تعلم شيئاً ـ نصيباً، فالمفعول محذوف، ثم عبَّر عنهم بعبارة من يعقل بحسب مذهب الكفار الذين يسندون إليها ما يُسند إلى من يعقل، وبحسب أنه إسناد منفيٌّ، وهذا الاحتمال كله ضعيف. و«النصيب» المشار إليه هو ما كانت العرب سنَّته من الذبح لأصنامها، والإهداءِ إليها، والقسم لها من الغلات.

ثم أمر الله تبارك وتعالىٰ نَبيَّه عليه الصلاة والسلام أن يُقْسم لهم أنهم سَيُسْأَلون عن افترائهم في أَن تلك السُّنَن هي الحق الذي أمر الله به كما قال بعضهم، و«الفِرْية» اختلاقُ الكذب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ الآية. هذا تعديد لقبيح قول الكفار: «الملائكة بناتُ الله»، ورَدَّ عليهم من وجهين: أَحدهما نِسْبَة النسل إلى الله تعالىٰ عن ذلك، والآخر أَنهم نسبوا من النسل الأَخسَّ المكروه عندهم، و[مَا] في قوله: ﴿مَّا يَشْتَهُونَ﴾ مرتفعة بالابتداءِ، والخبر في المجرور، وأَجاز الفراءُ أَن تكون في موضع نصب عطفاً على ﴿الْبَنَاتِ﴾[1]، والبصريون لا يجيزون هذه الآية من باب: ضربني، وكان يلزم عندهم أَن يكون: «ولأنفسهم ما يشتهون»، والمراد بـ ﴿مَّا يَشْتَهُونَ﴾ الذُّكْران من الأَولاد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾ الآية. لما صرَّح بالشيءِ المبَشَّر به حسُن ذكر البشارة فيه، وإِلاَّ فالبشارة مطلقةً لا تكون إلاَّ في خير. وقوله: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ عبارة عن العبوس والقطوب الذي يلحق وجه المغموم، وقد يعلو وجه المغموم سواد

---

(١) هذا رأي الفراءِ والحوفي، ووافقهما عليه الزمخشري، وقال أبو البقاء: «ذهل هؤلاء عن قاعدة في النحو، وهي أن الفعل الرافع لضمير الاسم المتصل لا يتعدَّى إلى ضميره المتصل المنصوب، فلا يجوز: «زيد ضربه زيد» تريد: ضرب نفسه، إلا في باب ظنَّ وأخواتها من الأفعال القلبية، أو (فَقَدَ) و(عَدِمَ)، فيجوز: «زيد ظنه قائماً، وزيد فَقَده، وزيد عَدِمَه»، والضمير المجرور بالحرف كالمنصوب المتصل، فلا يجوز: «زيد غضب عليه» تريد: غضب على نفسه، فعلى هذا الذي تقرر لا يجوز النصب؛ إذ يكون التقدير: ويجعلون لهم ما يشتهون». انتهى كلام أبي البقاء، وعلَّق عليه أبو حيان الأندلسي في البحر بقوله: «وفيه نظر».

وزبد، وتذهب شراقته، فلذلك يذكر له السَّواد. و[كَظِيمٌ] بمعنى كاظِم كعليم وعالم، والمعنى أنه يُخفي وجهه وهَمَّه بالأنثى.

وقوله: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ الآية، هذا التواري الذي ذكره الله تعالىٰ إنما هو بعد البشارة بالأُنثى، وما يحكى أَن الرجل منهم كان إِذا أَصاب امرأَته الطَّلْق؛ توارى حتى يُخبَر بأَحد الأَمرين. فليس المراد في الآية. ويُشْبه أَن ذلك كان لكي: إِنْ أُخبر بسَارٍّ خرج، وإِنْ أُخبر بِسُوءٍ بَقِي على تواريه ولم يحتج إِلى إِحداثه. ومعنى ﴿يَتَوَارَىٰ﴾: يتغيب، وتقدير الكلام: يَتَوارى من القوم مدبراً، أَيُمْسكه أم يدُسُّه؟ وقرأَت فرقة ﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ على لفظ ﴿ما﴾، [أم يَدُسُّها] على معنى الأُنثى. وقرأَ الجحدري: [أَيُمْسِكُهَا]، [أم يَدُسُّها] على معنى الأُنثى في الموضعين. وقرأَ الجمهور: ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ بضم الهاءِ، وقرأَت فرقة بفتحها، وقرأَ عيسى بن عمر: [على هوان] وهي قراءَة عاصم الجحدري، وقرأَ الأعمش: [عَلَى سُوءٍ]، ومعنى الآية: يُدَبِّر: أَيُمْسك هذه الأُنثى على هوان يتحمله، وهمٌّ يتخلد له، أَم يَئِدُها فيدفنها حيَّة، فهو الدَّسُّ في التراب. ثم استفتح الله تعالىٰ الإِخبار عن سوءِ فعلهم وحكمهم بهذا في بناتهم ورزق الجميع على الله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

قالت فرقة: ﴿مَثَلُ﴾ هنا بمعنى صفة، أَي: لهؤلاءِ صفة السوءِ، ولله الوصف الأعلى، وهذا لا نَضطر إِليه؛ لأَنه خروج عن اللفظ، بل قوله: ﴿مَثَلُ﴾ على حاله، وذلك أَنهم إِذا قالوا: «إن البنات لله» فقد جعلوا له مثلاً فالبنات من البشر، وكثرة البنات عندهم مكروه ذميم، فهو المثل السوءِ الذي أَخبر الله تعالىٰ أَنه لهم وليس في البنات فقط، لكن لما جعلوه هم في البنات جعله هو لهم على الإِطلاق في كل سوءٍ، ولا غاية بعد عذاب النار.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ على الإطلاق أيضاً، أي: الكمال المستقر[١]، وقال قتادة: المثل الأعلى: لا إلـه إلاَّ الله. وباقي الآية بيِّن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ الآية. [يُؤَاخِذُ] هو يُفَاعِل من أَخَذ، كأَن أَحد المؤاخذين يأخذ من الآخر مأخذاً كما هي في حق الله تعالىٰ، أَو بإذاية من جهة المخلوقين، فيأخذ الآخر من الأول بالمعاقبة والجزاءِ، وهي لغتان: وَاخَذَ، وآخَذَ، ويُؤَاخذ يصح أَن تكون من آخَذ، وأَما كونها من واخذ فبيِّن، والضمير في [عَلَيْهَا] عائد على الأَرض، ويمكن ذلك مع أَنه لم يجر لها ذكر لشهرتها، ويمكن الإِشارة إِليها كما قال لبيد في الشمس:

حَتَّـى إذا أَلْقَـتْ يَـداً فـي كَـافِـرٍ ... وَأَجَـنَّ عَـوْرَاتِ البِـلاَدِ ظَـلاَمُهَـا[٢]

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾[٣]، ولم يجر للشمس ذكر. وقوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾، [مِنْ] دخلت لاستغراق الجنس، وظاهر الآية أَن الله تعالىٰ أَخبر أَنه لو آخذ النَّاسَ بعقابٍ يستحقونه بظلمهم في كفرهم ومعاصيهم لكان ذلك العقاب يهلك عنه جميع ما يدب على الأَرض من حيوان، فكأَنه بالقحوط أَو بأَمر يصيبهم من الله تعالىٰ، وعلى هذا التأْويل قال بعض العلماءِ: كاد الْجُعَل[٤] أَن يهلك بذنوب بني آدم، ذكره الطبريُّ، ورُوي عن النبي ﷺ أَنه قال: «إن الله تعالىٰ لَيُهْزِل الحوتَ في الماءِ والطير في الهواءِ بذنوب العصاة»[٥]، وسمع أَبو هريرة رجلاً يقول: «إن الظالم لا يهلك إِلاَّ

---

(١) في إحدى النسخ: الكمال المستغني.

(٢) هذا البيت من معلقة لبيد، ومعنى «ألقت يداً في كافر» بدأت في المغيب، والكافر هو الليل، وذلك لأنه يكفر كل شيءٍ، أي يغطيه ويستره، وأَجَنَّ: سَتَر، وفي الديوان: «عورات الثغور» بدلاً من «البلاد»، والثغور: جمع ثغر وهو الموضع الذي تأتي المخافة منه: لأنه على الحدود مع الأعداءِ.

(٣) من الآية (٣٢) من سورة (صٓ). ومثل هذه الآية وبيت لبيد في رجوع الضمير إلى غير مذكور قولُ حاتم الطائي:

أَمَـاوِيَّ مـا يُغْنـي الثَّـراءُ عـن الفَتَـى ... إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وضاقَ بها الصَّدْرُ

إذ يعني بقوله: «حشرجت وضاق بها» النَّفسَ، ولم يجر لها ذكرٌ قبلُ.

(٤) الجُعَل: حيوان كالخنفساءِ يكثر في المواضع الندية وقد نقل الطبري هذا الكلام عن أبي الأحوص.

(٥) لم نعثر على هذا الحديث فيما بين أيدينا من مراجع.

نفسه»، فقال أبو هريرة: «إن الله ليهلك الحبارى في وكورها هُزالاً[١] بذنوب الظلمة»، وقد نطقت الشريعة في أخبارها بأن الله أهلك الأمم برّها وعاصيها بذنوب العصاة منهم. وقالت فرقة: قوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ يريد: من أولئك الظلمة فقط، ويدلُّ على هذا التخصيص أن الله تعالىٰ لا يعاقب أحداً بذنب أحد، واحتجت بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٢]، وهذا كلُّهُ لا حجة فيه؛ وذلك أن الله تعالىٰ لا يجعل العقوبة تقصد أحداً بسبب إذناب غيره، ولكنه إذا أرسل عذاباً على أمة عاصية لم يمكن البريء التخلص من ذلك العذاب، فأصابه العذاب لا بأنه له مجازاة، ونحو هذا قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[٣]، وقيل للنبي ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثُرَ الخبث»[٤]. ثم لا بدَّ من تعلق ظلم ما بالأبرياءِ؛ وذلك بترك التغيير ومداجنة أهل الظلم ومداومة جوارهم، و«الأَجَلُ الْمُسَمَّى» في هذه الآية هو بحسب شخص شخص، وفي معنى الآية ضمائر كثيرة تركتها اختصاراً وإيجازاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ يريد البنات، و﴿ما﴾ في هذا الموضع تقع لمن يعقل من حيث هو صنف، وقرأ الحسن: [أَلْسِنْتُهم الْكَذِبَ] بسكون النون خوفاً من توالي الحركات. وقرأ الجمهور: ﴿الْكَذِبَ﴾ بكسر الذال وفتح الباءِ، فـ﴿أَنَّ﴾ بدلٌ منه، وقرأ معاذ بنُ جبل رضي الله عنه وبعض أهل الشام بضم الكاف والذال والباءِ على صفة الألسنة، و﴿أَنَّ﴾ مفعولةٌ بـ﴿تَصِفُ﴾. و﴿الْحُسْنَىٰ﴾ قال مجاهد، وقتادة: يريد المذكور من الأولاد، وهو الأسبق من معنى الآية، وقالت فرقة: يريد الجنَّة، ويؤيد هذا قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾، ومعنى الآية على هذا التأويل: يجعلون لله المكروه ويدَّعون مع ذلك أنهم يدخلون الجنَّة، كما تقول لرجل: أنت تعصي الله وتقول ـ مع ذلك ـ إنَّكَ

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، والبيهقي في الشُّعَب. (الدر المنثور).
(٢) من الآية (١٦٤) من سورة(الأنعام).
(٣) من الآية (٢٥) من سورة (الأنفال).
(٤) أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، ومالك في الموطأ، والإمام أحمد (٦ـ٤٢٨، ٤٢٩)، ولفظه كما رواه البخاري في الفتن: «عن زينب بنت أمِّ سلمة، عن أمِّ حبيبة، عن زينب بنة جحش رضي الله عنهن أنها قالت: استيقظ النبي ﷺ من النوم مُحْمَرّاً وجهه يقول: لا إلـه إلا الله، ويل للعرب من شرٍ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج، مثل هذه ـ وعقد سفيان تسعين أو مائة ـ قيل: أنهلكُ وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث».

تنجو، أي: إنَّ ذلك لبعيد مع هذا، ثم حكم عليهم بعد ذلك بالنار، وقد تقدم القول في ﴿لَاجَرَمَ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿أَنَّ لَهُمُ﴾ بفتح الهمزة، وإعرابها بحسب تقدير ﴿جَرَمَ﴾، فمن قَدَّرَها بـ «كسب فعلهم» فهو نصب، ومن قدرها بـ «وجب» فهو رفع، وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر: [إنَّ] بكسر الهمزة، وقرأ السبعة سوى نافع: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ بفتح الراءِ خفيفة، ومعناه: مقدمون إلى النار والعذاب، وهي قراءَة الحسن، والأعرج، وأصحاب ابن عباس، وقد رُويت عن نافع، وهو مأخوذ من «فرط الماءِ»، وهم القوم الذين يتقدمون إلى المياه لإصلاح الدِّلاءِ والأرشاءِ[١]، ومنه قول النبي ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض»[٢]، ومنه قول القطاميِّ:

واسْتَعْجَلونَا وكانوا مِن صَحَابَتِنَا ... كَمَا تَعَجَّلَ فُرَّاطٌ لِوُرَّادِ[٣]

وقالت فرقة: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ معناه: مُخَلَّفون متروكون في النار مَنْسِيُّون فيها، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد، وابن هند، وقال آخرون: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ معناه: مُبعدون في النار، وهذا قريب من الذي قبله، وقرأ أَبو جعفر بن القعقاع: [مُفَرِّطونَ] بكسر الراءِ وتشديدها وفتح الفاءِ، ومعناه: مُقَصِّرون في طاعة الله تبارك وتعالىٰ، وقد رُوي فتح الرَّاءِ مع شدِّها، وقرأ نافع وحده: [مُفْرِطُونَ] بكسر الراءِ وخفتها، وهي قراءَة ابن مسعود، وابن عباس، وأَبي رجاءٍ، وشيبة بن نصاح، وأَكثر أَهل المدينة، أَي: متجاوزون للحدِّ في معاصي الله.

---

(١) جمع رشاءٍ، وهو الحبل، أو حبل الدَّلْو ونحوها.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق والفتن، ومسلم في الطهارة والإمارة، وابن ماجه في الزهد، وأحمد في مسنده (١ـ٢٥٧، ٣٨٤، ٤٠٢)، ولفظه كما في البخاري ـ كتاب الرقاق ـ «عن عتبة بن عامر أن رسول الله ﷺ خرج يوماً فصلى على أهل أُحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال: إنِّي فَرَطٌ لكم، وأنا شهيد عليكم، وإنِّي والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني قد أُعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإنِّي والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها».

(٣) رواية الديوان «فاستعجلونا» بالفاء، ومعناها: أعجلونا، يريد أنهم تقدمونا، والفُرَّاط: الذين يتقدمون الوُرَّاد فيصلحون الحبال والدلاءَ، وقد ذكره في اللسان، قال: فَرَطَ القوم يفرطهم فرطاً (من باب قتل) وفراطة: تقدمهم إلى الورد لإصلاح الأرشية والدلاءِ ومدر الحياض والسقي فيها، ثم ذكر البيت. والرواية فيه (تقدم) بدلاً من (تَعَجَّل)، وفي الصحاح (تَعَجَّل).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

هذه آية ضرب مثل لهم بمن تقدم، وفي ضمنها وعيد لهم وتأنيس للنبي ﷺ، وقوله: [الْيَوْم] يحتمل أن يريد به يوم الإخبار بهذه الآية، وهو بعد موت أُولئك الأمم المذكورة، أي: لا وليَّ لهم مذ ماتوا واحتاجوا إلى الغوث إلا الشيطان، ويحتمل أن يريد يوم القيامة، والألف واللام فيه للعهد، أي: هو وليُّهم في اليوم المشهود، وهو وقت الحاجة والفصل، ويحتمل أن يريد: فهو وليُّهم مدة حياتهم ثم انقطعت ولايته بموتهم، وعبَّر عن ذلك بقوله: [الْيَوْمَ] تمثيلاً للمخاطبين بمدة حياتهم، كما تقول لرجل شابٍّ تحضُّه على طلب العلم: يا فلان لا يدرس أَحد من الناس إلا اليوم، تريد: في مثل سنك هذه، فكأَنه قال لهؤلاءِ: فهو وليُّهم في مثل حياتكم هذه، وهي التي كانت لهم، وسائر الآية وعيد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يريد القرآن، وقوله: ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ﴾ في موضع المفعول من أَجله، وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ عطف عليه، كأَنه قال: إلا للبيان، أَي لأَجل البيان، وقوله: ﴿الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ لفظ عام لأَنواع كفر الكفرة من الجحد بالله تعالىٰ وبالقيامة، أَو بالنُّبُوَّات وغير ذلك، ولكن الإشارة في هذه الآية إنما هي لجحدهم الربوبية، وتشريكهم الأَصنام في الإلـٰهية، يدل على ذلك أَخذه بعد هذا في إثبات العِبَر الدَّالة على أَن الأَنعام وسائر الأَفعال إنما هي من الله تعالىٰ لا من الأَصنام.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ الآية. لما أَمره تبيين ما اختلف فيه نصَّ العِبَر المؤدية إلى بيان أَمر الربوبية، فبدأَ بنعمة المطر التي هي أَبين العبر، وهي ملاك الحياة، وفي غاية الظهور، لا يخالف فيها عاقل، وحياة الأَرض وموتها استعارة وتشبيه بالحيوان؛ إذ هي هامدة غبراءُ غير مُنْبِتة فهي كالميت، وإذ هي مُنْبِتة مخضرَّة مهتزَّة رابية فهي كالحيِّ. وقوله: [يَسْمَعُونَ] يدل على ظهور هذا المعتبر فيه وبيانه؛ لأَنه لا يحتاج

إلى تفكُّر ولا نظر قلب، وإنما يحتاج المنبه إلى أن يسمع القول فقط.

و[ٱلأَنْعَام] هي الأَصناف الأَربعة: الإِبل والبقر والضأن والمعز، و«العِبْرَةُ»: الحال المعتبر فيها، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ وابن مسعود ـ بخلاف ـ والحسن، وأهل المدينة: [نَسْقِيكُم] بفتح النون، من أَسْقَا يسقي، وقرأ الباقون، وحفص عن عاصم بضم النون، وهي قراءَة الكوفيين وأَهل مكة، وقال بعض أَهل اللغة: هما لغتان بمعنى واحد، وقالت فرقة: تقول لمن سقيته بالشَّفة أَو في مرة واحدة: سَقَيْتُه، وتقول لمن تُمِرُّ سَقْيه أَو تمنحه شرباً: أَسْقَيْتُهُ، وهذا قول من قرأَ: [نَسْقِيكُم]، لأَن أَلبان الأَنعام من المُسْتَمِرِّ للبشر، وأَنشد من قال: «إِنهما لغتان بمعنى» قولَ لبيد:

سَقَى قَومي بني بَدْرٍ وأَسْقَى ... نُمَيْراً والقَبَائِلَ مِن هِلاَلِ[1]

وذلك لازم؛ لأَنه لا يدعو لقومه بالقليل. وقرأ أَبو رجاءٍ: [يَسْقِيكُم] بالياءِ، أَي: يسقيكم الله، وقرأَت فرقة: [تَسْقِيكُم] بالتاءِ، وهي ضعيفة، وكذلك اختلف القراءُ في سورة «المؤمنون»[2]، وقوله: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ الضمير عائد على الجنس، وعلى المذكور، كما قال الشاعر:

* مِثْلُ الْفِرَاخِ نُتِفَتْ حَوَاصِلُهْ *[3]

---

(١) البيت من قصيدة له يصف فيها حيوان الصحراء، ويعاتب قومه لأنهم أسلموا قيادهم إلى رجل سيىء الخليقة، وأبعدوا عن شيمهم، وسَقَى وأَسْقَى بمعنى واحد، والرواية في الديوان، وفي لسان العرب: «بنى مَجْدٍ»، ومَجْد اسم امرأة هي ابنة تيم بن غالب، وهي أُمُّ كلاب وكليب ابني ربيعة بن عامر، وبسببها عُدَّ بنو عامر من الحُمْس؛ لأنها قرشية، والضمير في «سَقَى وأَسْقَى» يعود على بَرِيقٍ في سحاب أَلقى ماءه على كل البقاع، وقد ذكره في الأبيات السابقة، وبدأها بقوله:

أصاح تَرَى بريقاً هَبَّ وَهْناً ... كَمِصْبَاحِ الشَّعِيلَةِ فِي الذُّبَالِ

(٢) في قوله تعالىٰ في الآية (٢١) من سورة (المؤمنون): ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾.

(٣) ورد هذا الشاهد في كل من (اللسان ـ نعِم)، و«الطبري»، و«البحر المحيط»، و«معاني القرآن» فقد جاءت «نُتِفَتْ» بمعنى: سمنت وبرزت وارتفعت، وقد علّق محقق (اللسان) طبعة دار المعارف بالقاهرة على الرواية الأولى وقال: هو خطأٌ صوابه «نَتَقَتْ» بالقاف وبالبناء للفاعل، كما في التهذيب. وفي اللسان: قال الكسائي في قوله تعالىٰ: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾: أراد في بطون ما ذكرنا، ومثله قوله: مثل الفراخ... إلخ أي: حواصل ما ذكرنا. وقال الفراءُ في «معاني القرآن»: «ولم يقل بطونها والأنعام مؤنثة؛ لأنه ذهب به إلى النَّعَم والنَّعَم ذَكَر، وإنما ذهب به إلى واحدها لأن الواحد يأتي في المعنى على=

وهذا كثير، كقوله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾[1]، وقيل: إنما قال: ﴿بُطُونِهِۦ﴾ لأن الأنعام والنَّعَم واحد فردٌ، والضمير على معنى النَّعَم، وقالت فرقة: الضمير عائد على «البعض»؛ لأن الذكور لا ألبان فيها، فكأن العبرةَ إنما هي في بعض الأنعام. و«الْفَرْثُ»: ما ينزل إلى الأمعاءِ، و«السَّائِغُ»: المُسَهَّل في الشرب اللَّذيذُ، وقرأت فرقة: «سيِّغاً» بشدِّ الياءِ، وقرأ عيسى الثقفي: «سَيْغاً» بسكون الياءِ، وهي تخفيف من «سَيِّغ» كمَيْتٍ وهَيْنٍ، وليس وزنها فِعْلاً؛ لأن اللَّفظة واوية، فَفَعْل منها «سَوْغ»، ورُوي أن اللبن لم يشرق به أحد قط، روي ذلك عن النبي ﷺ[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٦٧ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩﴾.

قال الطبريُّ: التقدير: ومن ثمرات النخيل والأعْناب ما تتخذون. وقالت فرقة: التقدير: ومن ثمرات النخيل والأعناب شيءٌ تتخذون منه، ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ﴾ عطفاً على ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، أي: ولكم من ثمرات النخيل والأعناب عبرة، ويجوز أن يكون عطفاً على ﴿مِّمَّا﴾، أي: ونسقيكم أيضاً مشروبات من ثمرات.

= معنى الجمع»، ثم استشهد بنماذج من الشعر العربي منها هذا الشاهد، ومثله قول الأسود بن يَعْفُر:

إنَّ المَنِيَّـةَ والْحُتُـوفَ كـلاهُمَـا ... يـوفـي الْمَخَـارِمَ يَـرْقُبَـانِ سَـوَادي

فقال: كلاهما، ولم يقل: كلتاهما، وقول الصَّلَتان العَبْديِّ:

إنَّ السَّمَـاحَـةَ والمُـرُوءَةَ ضُمِّنَـا ... قَبْـراً بِمَـرْوَ عَلَـى الطَّـرِيـقِ الْـوَاضِـحِ

وذلك لأنه قال: ضُمِّنَا، ولم يقُل: ضُمِّنَتَا، وقول الآخر:

وعَفْـرَاءُ أدْنَـى النَّـاسِ مِنِّـي مَـوَدَّةً ... وعَفْـرَاءُ عَنِّـي المُعْـرِضُ المُتَـوَانـي

إذ قال: المعرض المتواني، ولم يقل: المعرضة المتوانية.

(١) الآيتان (١١ و١٢) من سورة (عبس).

(٢) أخرج ابن مردويه، عن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي كبشة، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: «ما شرب أحدٌ لبناً فشرق»، إن الله يقول: ﴿لَبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

و«السَّكَر»: ما يُسْكر، هذا هو المشهور في اللغة، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر، وأراد «بالسَّكَر» الخمر، و«بالرزق الحسن» جميع ما يُشرب ويؤكل حلالاً من هاتين الشجرتين، فالحَسَنُ ها هنا الحلالُ، وقال هذا القول ابن جبير، وإبراهيم، والشعبي، وأبو رزين، وقال الحسن بن أبي الحسن: ذكر الله نعمته في السَّكَر قبل تحريم الخمر، وقال الشعبي، ومجاهد: السَّكَر: المايع من هاتين الشجرتين كالخَلِّ والرُّبِّ والنَّبيذ، والرزق الحسن: العنب والتمر، قال الطبري: والسَّكَر أيضاً في كلام العرب: ما يطعم، ورجح الطبريُّ هذا القول. ولا يدخل الخمر[1] فيه، ولا نسخ من الآية شيءٌ، وقال بعض الفرقة التي رأت السَّكر الخَمْرَ: إن هذه الآية منسوخة بتحريم الخمر، وفي هذه المقالة دركٌ؛ لأن النسخ إنما يكون في حكم مستقر مشروع، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «حُرمت الخمر لعينها، والسَّكَرُ من غيرها»[2]، هكذا روي، والرواية الصحيحة بفتح السِّين والكاف، أي: جميع ما يُسْكر منه حُرِّم على حدِّ تحريم الخمر قليله وكثيره، ورواه العراقيون و«السُّكْر» بضم السين وسكون الكاف، وهو مبني على فقههم من أن ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فقليله حلال، وباقي الآية بيِّنٌ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ الآية. الوحي في كلام العرب إلقاءُ المعنى من الموحِي إلى الموحَى إليه في خفاءٍ، فمنه الوحي إلى الأنبياءِ برسالة الملك، ومنه وحْي الرُّؤيا، ومنه وحْيُ الإلهام وهو الذي ها هنا باتفاق المتأوِّلين، والوحْيُ أيضاً بمعنى الأمر، كما قال تعالىٰ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[3]، وقرأ يحيى بن وثاب: [إلى النَّحَلِ] بفتح الحاءِ، و﴿أَنِ﴾ في قوله: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾ مفسِّرة. وقد جعل الله بيوت النحل في هذه الثلاثة: إمَّا في الجبال وكُواها، وإمَّا في متجوّف الأَشجار، وإمَّا فيما يعرش ابن

---

(١) في بعض النسخ «ولا يدخل الخبر فيه»، والمعنى بها غير صحيح، ولا يستقيم.

(٢) الحديث الذي رواه مسلم هو: «كلُّ شرابٍ أسكَر فهو حرام»، وكذلك «كلُّ شراب مُسْكر حرام»، وكذلك «كلُّ مسكر حرام»، وهذا يؤيد فهم المؤلف لهذا الحديث على رواية فتح السين مشددة وفتح الكاف، ومثل هذا ما أخرجه النسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما «حرَّم الله الخمر، وكل مسكر حرام»، وفي القرطبي وغيره من الكتب مناقشة طويلة للمراد بالخمر، وجلَّة العلماء ينتهون إلى تحريم الخمر وكل مسكر سواء من ذلك القليل والكثير.

(٣) الآية (٥) من سورة (الزَّلزلة).

آدم من الأَجْبَاحِ[1] والحيطان ونحوها. «وعَرَشَ» معناه: هيَّأَ، وأَكثرُ ما يستعمل فيما يكون من اتفاق الأَغصان والخشب وترتيب ظلالها، ومنه العريش الذي صُنِعَ لرسول الله ﷺ يوم بدرومن هذا هي لفظة العَرْشِ، ويقال: عَرَشَ يَعْرِشُ ويَعْرُشُ بكسر الراءِ وضمها، وقرأَ ابن عامر بالضم، وسائرهم بالكسر، واختلف عن عاصم، وجمهور الناس على الكسر، وقرأَ بالضم أَبو عبد الرحمن، وعُبَيْد بن نضلة، وقال ابن زيد في قوله: (يَعْرِشُونَ) قال: الكروم، وقال الطبري: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يعني: ما يبنون من السقوف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا منهما تفسير غير مُتْقن.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الآية. المعنى: ثم أَلْهمها أَن كُلِي، بعطف (كُلِي) على (اتَّخِذِي)، و[مِنْ] للتبعيض، أَي: كُلي جزءاً أَو شيئاً من كل الثمرات، وذلك أَنها إِنما تأْكل النَّوَّار من الأَشجار. و«السُّبُل»: الطُّرق، وهي مسالكها في الطيران وغيره، وأَضافها إِلى الرَّبِّ من حيث هي مِلْكُه وخَلْقه، أَي: التي يسَّر لكِ ربُّكِ. وقوله: (ذُلُلاً) يحتمل أَن يكون حالاً من (النَّحْلِ)، أي: مطيعة منقادة لما يُسِّرت له، قاله قتادة، وقال ابن زيد: فهُمْ يخرجون بالنحل ينتجعون، وهي تتبعهم، وقرأَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ إِلى قوله: ﴿يَأْكُلُونَ﴾[2]، ويحتمل أَن يكون حالاً من «السُّبُل»، أَيْ: مُسَهَّلَةً مستقيمة، قال مجاهد: لا يتوعَّر عليها سبيل تسلكه.

ثم ذكر تبارك وتعالىٰ ـ على جهة تعديد النعمة والتنبيه على العبرة ـ أَمْرَ العسل في قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾، وجمهور الناس على أَن العسل يخرج من أَفواه النحل، وورد عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أنه قال في تحقيره للدنيا: «أَشرف لباس ابن

---

(١) الجُبْحُ بالجيم المثلثة: حيث تُعَسِّل النحل إذا كان غير مصنوع، والجمع: أَجْبُحٌ وجِبَاحٌ وجُبُوحٌ، وفي التهذيب: وأَجباحٌ كثيرة، وقيل: هي مواضع النحل في الجبل وفيها تُعَسِّل، قال الطِّرِمَّاح يخاطب ابنه:

وإن كُنْتَ عندي أنتَ أحلى مِنَ الْجَنَى   جَنَى النَّحْلِ أضْحَى واتِناً بَيْنَ أَجْبُحِ

واتِناً: مُقيماً، وقيل: الأجباح: حجارة الجبل. (عن اللسان ـ جبح).

(٢) الآية (٧١) من سورة (يسۤ).

آدم فيها لُعاب دودة، وأَشرف شرابه رجيع نحلة». فظاهر هذا أَنه من غير الفم، واختلاف الأَلوان في العسل بحسب اختلاف النحل والمراعي، وقد يختلف طعمه بحسب اختلاف المرعي، ومن هذا المعنى قول زينب رضي الله عنها للنبي ﷺ: «جَرسَتْ نَحلُهُ العُرْفُط»، حيث شبهت رائحته برائحة المغافير[1].

وقوله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾، الضمير للعسل، قاله الجمهور، ولا يقتضي العموم في كُلِّ علَّة، وفي كُلِّ إِنسان، بل هو خبر عن أَنه يشفي كما يشفي غيره من الأَدوية في بعضٍ، وعلى حالٍ دون حال، ففي الآية إِخبارٌ منبِّه على أَنه دواءٌ لمَّا كثر الشفاءُ به وصار خليطاً ومعيناً للأَدوية والأَشربة والمعاجن، وقد رُوي عن ابن عمر رضي الله عنهما أَنه كان لا يشكو شيئاً إِلاَّ تداوى بالعسل، حتى أَنه كان يدهن به الدمل والقرصة ويقرأُ: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا يقتضي أَنه يرى الشفاءَ به على العموم، وقال مجاهد: الضمير للقرآن، أَي: فيه شفاءٌ، وذهب قوم من أَهل الجهالة إِلى أَن هذه الآية إِنما يراد بها أَهل البيت من بني هاشم، وأَنهم النحل، وأَن الشراب القرآنُ والحكمة، وقد ذكر بعضهم هذا في مجلس المنصور أَبي جعفر العباسي، فقال له رجل ممن حضر: جعل الله طعامك وشرابك ما يخرج من بطون بني هاشم، فأَضحك الحاضرين وأَبهتَ الآخر، وظهرت سخافة قوله، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية: المعنى: أَكَلَتْ النَّحْلُ، والعُرْفط: شجر، وفي المعجم الوسيط: جَرَسَ النَّحْلُ نَوْرَ الشَّجرة: لَحَسَهُ للتَّعْسيل، والعُرْفط: نبات من العضاه من الفصيلة القرنية، والمغافير: جمع مِغْفار، وهو صمغ حلوٌ يسيل من شجر العُرْفط يؤكل، أو يوضع في ثوب ثم ينضح بالماء فيشرب، وحديث المغافير أو العسل رواه البخاري، ولفظه: «عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنة جحش ويمكث عندها، فواطأتُ أنا وحفصة عن أَيَّتنا دخل عليها فلتقل له: أكلتَ مغافير، إني أجد منك ريح مغافير، قال: لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنة جحش، فلن أعود، وقد حلفتُ لا تُخبري بذلك أحداً».

أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

هذا تنبيه على الاعتبار في إيجادنا بعد العدم وإماتتنا بعد ذلك، ثم اعترض بمن ينكّس من الناس لأنهم موضع عبرة[1]، و«أرذل العمر»: آخره الذي تفسد فيه الحواس ويختل النطق، وخصَّ ذلك بالرذيلة ـ وإن كانت حالة الطفولة كذلك ـ من حيث كانت هذه لا رجاءَ معها، والطفولة إنما هي بُداءَة والرجاءُ معها متمكن، وقال بعض الناس: أول أرذل العمر خمسٌ وسبعون سنة، رُوي ذلك عن عليٍّ رضي الله عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا في الأغلب، وهو لا ينحصر إلى مدة معينة، وإنما هو بحسب إنسان وإنسان. والمعنى: ومنكم من يرتَدُّ إلى أرذل عمره، ورُبَّ من يكون ابن خمسين سنة وهو في أرذل عمره، ورُبَّ ابن مائة أو تسعين وليس في أرذل عمره، واللام في [لِكَيْلَا] يشبه أن تكون لام صيرورة، وليس ببيِّن، والمعنى: ليصير أمره بعد العلم بالأشياءِ إلى ألاَّ يعلم شيئاً، وهذه عبارة عن قِلَّة علمه، لا أنه لا يعلم شيئاً البَتَّةَ، ولم تَحُل (لا) بين كي ومعمولها لتصرفها، وأنها قد تكون زائدة. ثم قرر تبارك وتعالىٰ علمه وقدرته التي لا تتبدَّل، ولا تحيلها الحوادث، ولا تتغير.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ إخبارٌ يراد به العبرة، وإنما هي قاعدة بني المثل عليها، والمثل هو أن المفضَّلين لا يصح منهم أن يساهموا مماليكهم فيما أُعطُوا حتى تستوي أَحوالهم، فإذا كان هذا في اليسير فكيف تنسبون أَنتم أَيها الكفرة إلى الله تعالىٰ أنه يسمح بأَن يشرك في أُلُوهيته الأَوثان والأَنصاب وهم خلْقُه، وغير هذا مما عُبِد كالملائكة والأَنبياءِ وهم عبيده وخلْقه؟ هذا تأْويل الطبري، وحكاه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وحُكي عنه أَن الآية مشيرة إلى عيسى عليه السلام. قال المفسرون: هذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية[2]، ثم وقفهم على جحدهم بنعمة الله في تنبيهه لهم على مثل هذا من مواضع النظر المؤدي إلى

---

(١) يقال: نكَّسَ اللهُ فلاناً في العمر: أطال عُمْرَه إلى أرذل العمر فعاد إلى حال كحال الطفولة في الضَّعف والعجز، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾.

(٢) من الآية (٢٨) من سورة (الروم).

الإيمان. وقرأ الجمهور، وحفص عن عاصم: [يَجْحَدُونَ] بالياءِ من تحت، وقرأها أبو بكر عن عاصم بالتاءِ، وهي قراءَة أَبي عبد الرحمن، والأعرج ـ بخلاف عنه ـ، وهي على معنى: قل لهم يا محمد، قال قتادة: لا يكون الجَحْدُ إلاَّ بعد معرفة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ الآية آية تعديد نِعَم، و«الأَزْوَاجُ»: الزوجات، ولا يترتب في هذه الآية الأنواع ولا غير ذلك، وقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يحتمل أن يريد خَلْقَه حواءَ من نفس آدم وجسمه، فمن حيث كانا مبتدأ الجميع ساغ حمل أَمرهما على الجميع حتى صار الأمر كأَن النساءَ خُلقن من أَنفس الرجال، وهذا قول قتادة، والأَظهر عندي أَن يريد بقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أَي: من نوعكم وعلى خِلْقَتِكُم، كما قال ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية[1]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ﴾ ظاهر في تعديد النعمة في الأَبناءِ، واختلف الناس في قوله: [وَحَفَدَةً] ـ قال ابن عباس: الحفدة: أَولاد البنين، وقال الحسن: هم بَنُوك وبنو بنيك، وقال ابن مسعود، وأَبو الضحى، وإِبراهيم، وسعيد بن جبير: الحفدة: الأَصهار، وهم قرابة الزوجة، وقال مجاهد: الحفدةُ: الأَنصار والأَعوان والخدم، وحكى الزجاج أَن الحفدة البنات في قول بعضهم، قال الزهراوي: لأَنهن خدم الأَبوين، ولأَن لفظة «البنين» لا تدل عليهن، أَلا ترى أَنهن لَسْنَ في قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾[2]، وإِنما الزينة في الذكور، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أَيضاً: الحفدة: أَولاد زوجة الرجل من غيره، ولا خلاف أَن معنى «الحَفْدِ» هو الخدمة والبرُّ والمشي في الطاعة مسرعاً، ومنه في القنوت: «وإِليك نسعى ونحفد»، والحفَدَانُ: خَبَبٌ فوق المشي، ومنه قول الشاعر وهو جميل بن معمر:

حَفَدَ الْوَلاَئِدُ بَيْنَهُنَّ وَأُسْلِمَتْ ... بِأَكُفِّهِنَّ أَزِمَّةُ الأَجْمَالِ[3]

---

(١) من الآية (١٢٨) من سورة (التوبة).

(٢) من الآية (٤٦) من سورة (الكهف).

(٣) الرواية في (اللسان ـ حفد): «حَفَدَ الولائِدُ حَوْلَهُنَّ»، وكذلك استشهد به أبو عبيدة في «مجاز القرآن»، ونسبه أيضاً لجميل بن عبد الله بن معمر العذريّ، قال: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: أعواناً وخُدَّاماً، قال جميل: «حَفَدَ الولائد... إلخ) واحِدُهُم: حافِدٌ، خرج مخرج كامل، والجميع: كَمَلَة». وقال في اللسان: رُوي عن عُمَر أنه قرأ في قنوت الفجر: وإليك نسْعى ونَحْفد، أي: نُسرع في العمل والخدمة، قال أبو عبيد: أصْل الحَفْد «الخِدْمَةُ والعمل». والبيت يصور ما يقوم به الولائد من خدمة وسَعْي، ومن إمساك=

ومنه قول الآخر:

كَلَّفْتُ مجْهُولَهَا نُوقاً يَمَانِيَةً ... إِذَا الْحُدَاةُ عَلَى أَكْسَائِهَا حَفَدُوا(١)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه ٱلْفِرَق التي ذكرتُ أقوالها إنما بنت على أن كل أحد جُعل له من أزواجه بنين وحفدة، وهذا إنما هو في الغالب وعُظْم الناس، ويحتمل عندي أن قوله: ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ إنما هو على العموم والاشتراك، أي: إن من أزواج البشر جعل الله لهم البنين، ومنهم جعل الخدمة، فمن لم يكن له زوجة فقد جعل الله له حفدة وحصل تلك النعمة، وأُولئك الحفدة هم من الأزواج، وهكذا تترتب النعمة التي تشمل جميع العالم، وتستقيم لفظة «الحَفَدة» على مجراها في اللغة، إذ البشر بجملتهم لا يستغني أحد منهم عن حفدة(٢). وقالت فرقة: الحَفَدَة هم البنون.

= بأزِمَّة الأجْمَال. وقد استشهد ابن عباس رضي الله عنهما بهذا البيت على أن معنى الحفدة: الخَدَم، قال للسائل: «من أعانك فقد حفَدَك، أما سمعت قوله:

حَفَدَ الْوَلائِدُ حَوْلَهُنَّ وَأسْمَعَتْ ... .

هكذا بلفظ «وأسْمَعَتْ» بدلاً من: وأُسْلِمَتْ». و(الولائد): الخدم، والواحدة: وليدة، وقد نسب القرطبي البيت لِكُثَيِّر عزَّة، وهذا غير صحيح؛ لأن ابن عباس رضي الله عنهما قد استشهد به، وكُثَيِّر ولد بعد زمن ابن عباس.

(١) نسبه القرطبي للأعشى، ولم أجده في ديوانه (ط دار صادر. بيروت)، والحَدْو: سوق الإبل والغناءُ لها، يقال: حَدَا الإبلَ، وحَدَا بها يَحْدو حَدْواً وحُداءً بضم الحاءِ وبكسرها في الأخيرة. والأكساءُ: جمع كُسْءٍ (بضم الكاف وسكون السين)، وهو مؤخَّر العَجُز. والشاهد أن حَفَد في البيت بمعنى: خَدَمَ وأسْرَعَ في العمل.

ومن الشواهد على هذا أيضاً قول جميل:

فَلَوْ أنَّ نَفْسِي طَاوَعَتْنِي لأصْبَحَتْ ... لَهَا حَفَدٌ مِمَّا يُعَدُّ كَثِيرُ
ولَكِنَّهَا نَفْسٌ عَلَيَّ أَبِيَّةٌ ... عَيُوفٌ لأصْحَابِ اللِّئَامِ قَذُورُ

(٢) يريد ابن عطية أن يبين سبب اختلاف العلماء في معنى قوله: [وَحَفَدَة]، وهو أنهم فهموا أنه لا بدَّ أن يكون لكل واحد من البشر بنين وحفدة، وهذا غير وارد؛ لأن المراد العموم والاشتراك بين أغلب الناس، لا أن كل واحد يجب أن يكون له البنين والحفدة، ورأيه في معنى [حفدة] يتفق مع المعروف في اللغة، وقد وضحه ابن العربي بقوله: «الأظهر عندي في قوله ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ أن البنين أولادُ الرجل لصلبه، والحفدة أولاد أولاده، ويكون تقدير الآية على هذا: وجعل لكم من أزواجكم بنين، ومن البنين حفدة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يستقيم على أن تكون الواو عاطفة صفة لهم، كما لو قال: جعلنا لهم بنين وأعواناً، أي: وهم لهم أعوان، فكأنه قال: وهم حفدة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يريد: المُلِذَّ من الأشياءِ التي تطيب لمن يُرْزقها، ولا يقتصر هنا على الحلال؛ لأنهم كفار ولا يكتسبون بشرع، وفي هذه الآية ردٌّ على من قال من المعتزلة: «إن الرزق إنما يكون الحلال فقط»، ولهم تَعَلُّق في لفظة [مِنْ] إذ هي للتبعيض، فيقولون: ليس الرزق المعدد عليهم من جميع ما بأيديهم إلاَّ ما كان حلالاً.

وقرأ الجمهور: [يُؤْمِنُونَ]، وتجيءُ الآية ـ على هذه القراءَة ـ توقيفاً لمحمد عليه الصلاة والسلام على إيمانهم بالباطل وكفرهم بنعمة الله، وقرأ أبو عبد الرحمن بالتاءِ من فوق، ورويت عن عاصم، على معنى: قل لهم يا محمد، ويجيءُ قوله[1] بعد ذلك: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ﴾ إخباراً مجرداً عنهم، وحُكْماً عليهم لا توقيفاً، وقد يحتمل التوقيف أيضاً على قلة اطراد في القول.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

هذه آية تقريع للكفار وتوبيخ، وإظهارٌ لفساد نظرهم، ووضع لهم من الأصنام في الجهة التي فيها سعي الناس وإليها مهمهم، وهي طلب الرزق، وهذه الأصنام لا تملك إنزال المطر ولا إنبات نعمة، مع أنها لا تملك ولا تستطيع أن تحاول ذلك من مُلْك الله تعالىٰ. وقوله: [رِزْقاً] مصدر، ونصبه على المفعول بـ[يَمْلِكُ].

وقوله: [شَيْئاً] ذهب كثير من النحويين إلى أنه منصوب على البدل من قوله: [رِزْقاً]، و[رِزْقاً] اسم، وذهب الكوفيون ـ وأبو علي معهم ـ إلى أنه منصوب بالمصدر

---

(١) في النسخ الأصلية: «ويجيءُ قولهم...»، إلا نسخة واحدة، وعليها اعتمدنا لأنها هي الصواب.

في قوله: [رزقاً]، ولا نقدره اسماً، وهو كقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾[1]، ومنه قوله: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا﴾[2]، فنصب ﴿يتيماً﴾ بـ ﴿إطْعام﴾، ومنه قول الشاعر:

فَلَوْلاَ رجاءُ النَّصْرِ مِنْكَ ورَهْبَةٌ عِقَابَكَ قَدْ صَارُوا لَنَا كالمَوَارِدِ[3]

والمصدر يعمل مضافاً باتفاق؛ لأنه في تقدير الانفصال، ولا يعمل إذا دخله الألف واللام؛ لأنه قد توغَّل في حال الأسماءِ، وبَعُد عن الفعلية، وتقدير الانفصال في الإضافة حسَّن عمله، وقد جاءَ عاملاً مع الألف واللام في قول الشاعر:

ضَعِيفُ النِّكَايَةِ أَعْدَاءَهُ . . . .[4]

وقوله:

. . . . عَنِ الضَّرْبِ مِسْمَعَا[5]

---

(١) الآيتان (٢٥) و(٢٦) من سورة (المرسلات).

(٢) الآيتان (١٤) و(١٥) من سورة (البلد).

(٣) البيت ذكره ابن يعيش ٦ـ٦١. والشاعر يقول: لولا رجاؤنا في نصرك إيَّانا عليهم، ورهبتنا لعقابك لنا إن انتقمنا منهم بأيدينا نحن لأذْلَلْنَاهم ووطئناهم كما توطأُ الموارد، وهي الطرق التي يرد الناس منها إلى الماءِ، وخصَّها الشاعر بالذكر لأنها تكون عادة أكثر الطرق استعمالاً، وأعمرها بالناس. والشاهد فيه أنه أعْمل (رَهْبَةٌ) مع أنها مصدر مُنَوَّن.

(٤) البيت في خزانة الأدب ٣ـ٤٣٩، وشرح الشواهد للعيني، وابن يعيش، وكتاب سيبويه، وأكثر كتب النحو المعروفة، وهو من الأبيات الخمسين التي لم يعرف لها قائل، وهو بتمامه:

ضَعِيفُ النِّكَايَةِ أَعْدَاءَهُ يَخَالُ الفِرَارَ يُرَاخِي الأَجَلْ

والنكاية: مصدر نكيْتُ العدوَّ، ونكيت فيه إذا أثَّرت، يتعدَّى ولا يتعدَّى، قال أبو النجم:

نَحْنُ مَنَعْنَا وَادِيَيْ لِصَافَا نَنْكِي العِدَى ونُكْرِمُ الأَضْيَافَا

ويُراخي الأجل: يُبْعِدهُ ويُطيله، والشاعر يهجو رجلاً ويصفه بأنه ضعيف لا يستطيع أن يؤثر في أعدائه، وهو جبان لا يثبت في المعركة بل يَفِرُّ ظناً منه أن الفرار يطيل في عمره ويُبْعد أجله، والشاهد فيه إعمال المصدر المعرف بالألف واللام وهو (النكاية)؛ لأن اللام هنا معاقبة للتنوين، فهو يعمل عمل المنون.

(٥) هذا جزءٌ من بيت الشنتمري إلى المُرَّار الأسدي، ونسبه في الخزانة وابن يعيش إلى مالك بن زغبة الباهلي، وهو مذكور ومشروح أيضاً في شواهد العيني، والبيت بتمامه:

لَقَدْ عَلِمَتْ أُولى المُغِيرةِ أنَّنِي لَحِقْتُ فَلَمْ أَنْكِلْ عن الضَّرْبِ مِسْمَعَا =

وقوله تعالىٰ: [يَمْلِكُ] على لفظ [ما]، وقوله: [يَسْتَطِيعُونَ] على معناها بحسب اعتقاد الكفار في الأَصنام أَنَّها تعقل، ويحتمل أَن يكون الضمير في [يَسْتَطِيعُونَ] للذين يعبدون، والمعنى: لا يستطيعون ذلك ببرهان يُظهرونه وحُجَّة يُبَيِّنُونَهَا.

وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا﴾ أَي: لا تُمَثِّلوا لله الأَمثال، وهو مأْخوذ من قولك: «هذا ضريب هذا» أَي مثيله، والضَّرْب: النوع، تقول: الحيوان على ضروب، وهذا من ضَرْبٍ واحد، وباقي الآية بيِّن.

قوله تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ الآية. الذي هو مثال في هذه الآية هو عبدٌ بهذه الصفة مملوك، لا يقدر على شيءٍ من المال ولا من أَمر نفسه، وإِنما هو مُسخَّر بإِرادة سيِّده مدبَّر، ولا يلزم من الآية أَن العبيد كلَّهم بهذه الصفة كما انتزع بعض من ينتحل الفقه، وقد قال في المثل الثاني: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾، فيلزم ـ على هذا الانتزاع ـ أَن يكون البُكْم لا شيءَ لهم، وَبِإِزاءِ العبد في المثال رجل مُوَسَّع عليه في المال فهو يتصرف فيه بإِرادته، ولا يلزم من نفس المثال أَن يكون مؤمناً ينفق بحسب الطاعة، أَما إِنه أَشرف أَن يكون مثالاً.

و«الرِّزْق»: ما صحَّ الانتفاع به، وقال أَبو منصور في عقيدته[(١)]: «الرزق ما وقع الاغتذاءُ به»، وهذه الآية تردُّ على هذا التخصيص، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[(٢)]، و﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾[(٣)]، وغير ذلك من قول النبي ﷺ:

= والمُغيرة: الخيل التي تخرج للغارة، وأُولى المُغيرة: أول هذه الخيل، والمراد فرسانها، والنُّكُولُ: النُّكُوص والرجوع خوفاً وجُبناً ويقال: نَكَلَ عنه ينكل (كضرب ونصر وعلم) نكولاً، ومِسْمع (بكسر الميم) هو مِسْمع بن شيبان، من بني قيس بن ثعلبة، يقول: لقد علم أوائل المغيرين من الفرسان أني لقيتهم وهزمتهم ولحقت قائدهم وفارسهم فلم أتراجع عن ضربه بسيفي، وقد روي: (لقيت) بدلاً من (لحقت)، وروي أيضاً (كررت)، والشاهد فيه إعمال المصدر المقرون بالألف واللام وهو (الضَّرْب) في (مِسْمعاً) ـ والبيت يحتمل أن يكون من باب التنازع بإعمال (لحقت) في (مِسْمعاً)، وعلى هذا الاحتمال لا شاهد فيه.

(١) أبو منصور الماتُريدي هو محمد بن محمد بن محمود، مات بسمرقند سنة ٣٣٣هـ. «والعقيدة» اسمُ كتاب له ذكر فيه هذا الرأي في الرزق. راجع (كشف الظنون).

(٢) تكررت في الآيات: (٣) من سورة (البقرة)، و(٣) من سورة (الأنفال)، و(٣٥) من سورة (الحج)، و(٥٤) من سورة (القصص)، و(١٦) من سورة (السجدة)، و(٣٨) من سورة (الشورى).

(٣) من الآية (٢٥٤) من سورة (البقرة).

«وَجُعِلَ رزقي في ظِلِّ رُمْحِي»(١) وقوله: «أرزاق أُمتي في سنابك خيلها وأَسِنَّة رماحها»(٢)، فالغنيمة كلها رزق. والصحيح أن ما صح الانتفاع به هو الرزق، وهو مراتب: أعلاها ما تُغُذِّي به، وقد حصر رسول الله ﷺ وجوه الانتفاع في قوله: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهلْ لك من مالك إلاَّ ما أكلْتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليت، أو تصدقت فأَمْضَيْت؟»(٣). وفي معنى اللباس يدخل الركوب.

واختلف الناس في الذي له هذا المثل ـ فقال قتادة، وابن عباس: هو مثل الكافر والمؤمن، فكأن الكافر مملوك مصروف عن الطاعة، فهو لا يقدر على شيءٍ لذلك، ويشبه العبد المذكور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والتمثيل ـ على هذا التأويل ـ إنما وقع في جهة الكافر فقط، جعل له مثلاً، ثم قرن بالمؤمن المرزوق، إلاَّ أن يكون المرزوق ليس بمؤمن، وإنما هو مثال للمؤمن، فيقع التمثيل من جهتين. وقال مجاهد، والضحاك: هذا المثال، والمثال الآخر الذي بعده، إنما هو لله تعالىٰ والأصنام، فتلك هي كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيءٍ، والله تعالىٰ تتصرَّف قدرته دون معقِّب، وكذلك فسَّر الزجاج على نحو قول مجاهد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل أصوب؛ لأن الآية تكون من معنى ما قبلها وما بعدها في تبيين أمر الله تبارك وتعالىٰ والرَّد على الأصنام. وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، والإمام أحمد في مسنده (٢ـ٥٠، ٩٢)، ولفظه كما في المسند عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بالسيف حتى يُعبد الله لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبَّه بقوم فهو منهم».

(٢) رواه الطبراني في الأوسط، وفيه صالح بن موسى الطلحي، وهو متروك. انظر: مجمع الزوائد ٥/ ٦١٩ وضعفه أيضاً الألباني في السلسلة الضعيفة برقم ١٦٩٤.

(٣) الحديث في مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة، ولفظه فيه أن النبي ﷺ قال: «يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأقنىٰ، ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس» (٢ـ٣٦٨). ورواه مسلم في كتاب الزهد عن مطرِّف عن أبيه، قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾، قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، قال: وهل لك يابن آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تَصَدَّقْتَ فأمضيتَ».

ومعنى (أمضيت): أكملت عطاءَك وأتممته.

نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان رضي الله عنه وعبْد كان له، ورُوي تعيين غير هذا لا يصح إسناده، والمثال لا يحتاج إلى تعيين أَحد، وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ شكر على بيان الأَمر بهذا المثال، وعلى إِذعان الخصم له، كما تقول لمن أَذعن لك في حُجَّة وسلَّم ما ينبني عليه قولك: الله أَكبر، وعلى هذا يكون كذا وكذا، فلما قال هنا: ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ فكأَن الخصم قال له: لا، فقال: الحمد لله، ظهرت الحجة، وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يريد: لا يعلمون أَبداً ولا يداخلهم إِيمان، ويتمكن على هذاقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾؛ لأَن الأَقل من الكفار هو الذي يؤمن، وهو الذي آمن مِنْ أُولئك، ولو أَراد بقوله: ﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أَي الآن لكان قوله: ﴿أَكْثَرُهُم﴾ بمعنى الاستيعاب؛ لأَنه لم يكن أَحد منهم يعلم قوله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

هذا مثل لله تعالى وللأصنام، فهي كالأَبكم لا نطق له ولا يقدر على شيءٍ، وهو عيالٌ على من والاه من قريب أَو صديق، و«الكَلُّ»: الثقل والمؤونة، وكل محمول فهو كَلٌّ وسُمِّي اليتيم كلاًّ، ومنه قول الشاعر:

أَكُـولٌ لِمَـالِ الْكَـلِّ قَبْـلَ شَبَـابِـهِ ... إِذَا كَـانَ عَظْـمُ الْكَلِّ غيْـرَ شَـدِيـدِ[1]

كما أَن الأَصنام تحتاج إِلى أَن تنقل وتخدم ويُتَعَذَّب بها، ثم لا يأْتي من جهتها خير البَتَّة، هذا قول قتادة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو مثل للكافر. وقرأَ ابن

---

(١) البيت في (اللسان) غير منسوب، والكَلُّ هو اليتيم، سمّي بذلك لأنه ثقيل على من يكفله، يقول هاجياً: إنه يأكل مال اليتيم في صغره ووقت ضعفه عن حماية نفسه.

مسعود: [يُوَجِّهْ][(١)]، وقرأ علقمة: [يُوَجَّهْ][(٢)]، وقرأ الجمهور: ﴿يُوَجِّهْهُ﴾، وهي خطُّ المصحف، وقرأ يحيى بن وثَّاب: [تَوَجَّه]، وقرأ ابن مسعود أيضاً: [تُوَجِّهْهُ] على الخطاب، وضعف أبو حاتم قراءة علقمة لأن الجزم لازم[(٣)]، و«الذي يأمر بالعدل» هو الله تعالىٰ، وقال ابن عباس: هو المؤمن، «والصراط»: الطريق.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية، أخبر تعالىٰ أن الغيبَ له يملكه ويعلمه، وقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ إخبارٌ بالقدرة، وحجة على الكفار، والمعنى على ما قال قتادة وغيرُه: «ما تكون الساعة وإقامتها في قدرة الله تعالىٰ إلاَّ أن يقول لها: كن»، فلو اتفق أن يقف على ذلك محصّل من البشر لكانت من السرعة بحيث يقول: هل هي كلمح البصر أو هي أقرب من ذلك؟ فـ [أو] ـ على هذا ـ على بابها للشَّك، وقيل: هي للتخيير[(٤)]، و«لَمحُ ٱلْبصر» هو وقوعه على المرئيِّ، وقوّى هذا الإخبار بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، يريد: على كل شيءٍ مقدور، ومَن قال: «﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: وما إتيانها ووقوعها بكم، على جهة التخويف من حصولها» ـ ففيه بُعْدٌ وتجوُّز كثير.

---

(١) بهاءٍ واحدة ساكنة مبنياً، والفاعل ضمير يعود على (مَوْلاه)، وضمير المفعول محذوف لدلالة المعنى عليه، والتقدير عند ابن جني: أينما يُوَجِّهْ وجْهَهُ، ويجوز أن يكون ضمير الفاعل عائداً على «الأبكم»، ويكون الفعل لازماً، لأن (وَجَّهَ) تأتي بمعنى (توَجَّه)، كأن المعنى: أينما يَتَوَجَّه. وهي قراءة علقمة أيضاً، وابن وثاب، ومجاهد، وطلحة.

(٢) بهاءٍ واحدة ساكنة أيضاً، ولكن الفعل مبني للمفعول، وهي أيضاً قراءة ابن وثاب، وطلحة.

(٣) قال أبو حيَّان في البحر المحيط (٥ـ ٥٢٠): تعليقاً على قراءة علقمة «والذي تُوَجَّه عليه هذه القراءة ـ إن صحَّتْ ـ أنَّ [أيْنَمَا] شرط حملت على (إذَا) لجامع ما اشتركا فيه من الشرطية، ثم حذفت الياءُ من [يَأتِ] تخفيفاً، أو لجزمه على توهم أنه نطق بـ [أيْنَمَا] المهملة معملةً كقراءة من قرأ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ في أحد الوجهين، ويكون معنى [يُوَجَّهْ] يَتَوَجَّه، فهو فعل لازم لا متعدٍّ».

(٤) قال أبو حيَّان تعقيباً على ذلك: «والشك والتخيير بعيدان؛ لأن هذا إخبار من الله تبارك وتعالىٰ عن أمر الساعة فالشَّك مستحيل عليه، ولأن التخيير إنما يكون في المحظورات، كقولهم: خُذ من مالي ديناراً أو درهماً، أو في التكليفات كآية الكفارات ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ و[أوْ] هنا للإبهام على المخاطب، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ وهو تعالىٰ قد عَلم عددهم، ومتى يأتيها أمره كما علم أمر الساعة، ولكنه أوهم على المخاطب». وكون ﴿أوْ﴾ في الآية للإبهام هو رأي الزجاج، وقد عارض فيه القاضي وقال: لا يصح، لأسباب طويلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

مِنْ قول النبي ﷺ: «بُعثت أَنا والساعة كهاتين»[١]، ومِنْ ذِكْره ما ذكر من أَشراط الساعة ومهلتها، ووجه التأْويل أَن القيامة لما كانت آتية ولا بُدَّ جُعلت من القرب كلمح البصر، كما يقال: ما السَّنَة إِلا لحظة، إِلا أَن قوله: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ يردُّ أَيضاً هذه المقالة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ الآية تعديد نعمة بيِّنة لا ينكرها عاقل، وهي نعمة يقبح معها كفرها وتصريفها في الإِشراك بالذي وهبها، فالله تعالىٰ أَخبر أَنه أَخرج ابن آدم لا يعلم شيئاً، ثم جعل حواسَّه التي قد وهبها له في البطن سُلَّماً إِلى إِدراك المعارف ليشكر على ذلك ويؤمن بالمنعم عليه. و«أُمَّهات» أَصله أُمَّات، وزيدت الهاءُ مبالغة وتأْكيداً، كما زادوا الهاءَ في «أَهرقت الماءَ»، قاله أَبو إِسحق. وفي هذا المثال نظر، وقيل غير هذا، وقرأَ حمزة، والكسائي: [إِمَّهَاتكم] بكسر الهمزة، وقرأَ الأَعمش: [في بُطُونِ مِهَاتِكم] بحذف الهمزة وكسر الميم، وقرأَ ابن أَبي ليلة بحذف الهمزة وفتح الميم مُشَدَّدة، قال أَبو حاتم: «حذف الهمزة رديءٌ، ولكن قراءَة ابن أَبي ليلى أَصوب»[٢]، والتَّرجِّي الذي في «لَعَلَّ» هو بحسبها، وهذه الآية تعديد نِعَمٍ وموضع اعتبار[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ الآية، قرأَ طلحة بن مصرف، والأَعمش، وابن هرمز: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ﴾ بالتاءِ، وقرأَ أَهل مكة والمدينة: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ بالياءِ على الكناية عنهم، واختُلف عن الحسن، وعاصم، وأَبو عمرو، وعيسى الثقفي. و«الْجَوّ»: مسافة ما بين السماءِ والأَرض، وقيل: هو ما يلي الأَرض منها، وما فوق ذلك هو اللوح، والآية عبرة بيِّنة المعنى، تفسيرها تكلُّف بحت.

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وابن ماجه، والدارمي، والإمام أحمد في مسنده. ولفظه كما في البخاري: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهذه من هذه، أو قال: كهاتين، وقرن بين السبابة والوسطى».

(٢) لأن كسر الميم إنما كان لإتباعها حركة الهمزة، فإن كانت الهمزة محذوفة زال الإتباع. أما في قراءة ابن أبي ليلة فقد أبقى حركة الميم على حالها.

(٣) قال بعض العلماء: إن قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ يتضمن إثبات النطق؛ لأن من لم يسمع لا يتكلم، وإذا وجدت حاسة السمع وجدت حاسة النُّطق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

هذه آية تعديد نعمة الله على الناس في البيوت، فذكر أولاً بيوت التمدن وهي التي للإقامة الطويلة، وهي عُظم بيوت الإنسان، وإن كان الوصف بالسَّكَنِ يعم جميع البيوت، و«السَّكَنُ» مصدر يوصف به الواحد، ومعناه: يسكن فيها وإليها، ثم ذكر تعالىٰ بيوت النقلة والرحلة.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾ يحتمل أن يعم به بيوت الأدم وبيوت الشعر وبيوت الصوف؛ لأن هذه من الجلود لكَوْنها ثابتة فيها، نحا إلى ذلك ابن سلام، ويكون قوله: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا﴾ ابتداءُ كلام، كأنه قال: «جعل أَثَاثاً»، يريد الملابس والوطاءَ وغير ذلك، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ بيوت الأدم فقط، ويكون ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا﴾ عطفاً على قوله: ﴿مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، أي: جعل بيوتاً أيضاً، ويكون قوله: [أَثَاثاً] نصباً على الحال، و[تَسْتَخِفُّونَهَا] أي تجدونها خفافاً، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: [ظَعَنِكُم] بفتح العين، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي بسكون العين، وهما لغتان وليس بتخفيف، و(ظَعَن) معناه رَحَل، والأصواف للغنم، والأوبار للإبل، والأشعار للمعز والبقر، ولم تكن بلادهم بلاد قطن وكتان، ولذلك اقتصر على هذا، ويحتمل أن تُرك ذكْرُ القطن والحرير والكتان إعراضاً عن السرف؛ إذْ ملبس عباد الله الصالحين إنما هو الصوف، وأيضاً فقد أُشير إلى القطن والكتان في لفظة السرابيل. و«الأثاث»: متاع البيت، واحدها أثاثة، هذا قول أبي زيد الأنصاري، وقال غيره: الأثاث: جميع أنواع المال، ولا واحد له من لفظه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والاشتقاق يقوي هذا المعنى الأعم؛ لأن حال الإنسان تكون بالمال أثيثةً، كما تقول: «شعر أثيث، ونبات أثيث» إذا كثر والتف. وقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ يريد به وقتاً غير معين، وهو بحسب كل إنسان، إمَّا بموته، وإمَّا بفقد تلك الأشياءِ التي هي أثاث،

ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

أَهَاجَتْكَ الظَّعَائِنُ يَوْمَ بَانُوا ... بِذِي الزِّيِّ الْجَمِيلِ مِنَ الأَثَاثِ؟(١)

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ الآية. نِعم عدَّدَها عليهم بحسب أَحوالهم وبلادهم، وأَنها الأَشياءُ المباشرة لهم؛ لأَن بلادهم من الحرارة وصهر الشمس بحيث للظل غنى عظيم ونفع ظاهر. وقوله: ﴿مِّمَّا خَلَقَ﴾ يعم جميع الأَشخاص المظلِّلة. و«الأَكنان»: جمع كِنٍّ، وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك. و«السَّرابيل»: جميع ما يلبس على البدن كالقميص والقَرْقَل والمجول والدِّرع والجَوْشَن والحفتان ونحوه(٢). وذكر وقاية الحرِّ إِذ هو أَمَسُّ في تلك البلاد على ما ذكرنا، والبَرْدُ فيها معدوم في الأَكثر، وإِذا جاءَ في الشتوات فإِنما يُتَوَقَّى بما هو أَكثف من السربال من الأَثاث المتقدم الذكر، فبقي السرابيل لتوقي الحرِّ فقط، قاله الطبريُّ عن عطاءٍ الخراساني، أَلا ترى أَن الله تعالىٰ قد نبههم إِلى العبرة في البرد ولم يذكر لهم الثلج لأَنه ليس في بلادهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إِن الثَّلج شيءٌ أَبيض ينزل من السماءِ ما رأَيته قط، وأَيضاً فذِكر أَحدهما يدلُّ على الآخر، ومنه قول الشاعر:

وَمَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضاً ... أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي؟(٣)

---

(١) البيت لمحمد بن نُمَيْر الثَّقَفِيِّ، وله قصة مع الحجاجِ؛ لأنه كان يشبب بزينب أُخت الحجاج، فتوعده فهرب منه (ارجع إِلى الكامل للمبرد)، ويروى: «أَشاقتك»... بدلاً من أهاجتك، و«بِذِي الرِّئْي»... بدلاً من «بِذي الزِّيِّ»، قال في (اللسان ـ رأى): «هو ما رأته العين من حالٍ حسنة وكُسوة ظاهرة، وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نُمَيْر الثَّقَفي:

أَشَاقَتْكَ الظَّعَائِنُ يَومَ بَانُوا ... بِذِي الرِّئْيِ الْجَمِيلِ مِنَ الأَثَاثِ؟

والظَّعائنُ: جمع ظعينة، وهي الراحلة يرتحل عليها، أو الهودج، أو الزوجة. ولعله المراد هنا، وبانوا: سافروا وبعدوا».

(٢) القَرْقَل: ضرب من الثياب، قيل: هو ثوب بغير كُمَّيْن، وقيل: قميص من قُمُص النساء بلا لَبِنَة، وجمعه قَرَاقِل، ونساءُ أهل العراق يقولون: قرقر، والجوشن: الدِّرع على الصدر، أو هو الصدر نفسه، والمراد هنا الدرع. والدرع: قميص المرأة، وثوب صغير تلبسه الجارية في البيت. ويغلب على الظن أن المجول والحفتان من أنواع الملابس التي تختلف أسماؤها باختلاف البلاد والزمان.

(٣) البيت لسُحَيْم بن وثيل الرِّيَاحي، وقد استشهد به الفراءُ في معاني القرآن، قال: وقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾، ولم يقل: والبردَ، فترك لأن معناه معلوم، ثم ذكر البيت، ويروى ـ «يمَّمْتُ وجهاً»، يريد: أيُّ الخير والشَّر يليني؟ لأنه إذا أراد الخير فهو يتقي الشر، وقد وضَّح الشاعر ما يريد في البيت الذي بعده: =

وهذه التي ذكرناها هي بلاد الحجاز، وإلاَّ ففي بلاد العرب ما فيه بردٌ شديد، ومنه قول مُتَمِّم:

. . . . إِذَا القَشْعُ مِنْ بَرْدِ الشِّتَاءِ تَقَعْقَعَا(١)

وقول الآخر:

فِي لَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أَنْدِيَةٍ . . . .(٢)

البيتين، وغير هذا، والسَّرابيل التي تقي البأسَ هي الدروع، ومنه قول كعب بن زهير:

شُمُّ الْعَرَانِينِ أَبْطَالٌ لَبُوسُهُمُ مِنْ نَسْجِ داودَ في الْهَيْجَا سَرَابِيلُ(٣)

= آلْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ أَمِ الشَّرُّ الَّذِي هُوَ يَبْتَغِينِي ؟

والبيتان من قصيدته المشهورة التي مطلعها:

أَفَاطِمُ قَبْلَ بَيْنِكِ مَتِّعِينِي وَمَنْعُكِ مَا سَأَلْتِ كَأَنْ تَبِينِي

(١) مُتَمِّمُ بن نُوَيْرة هو شقيق مالك بن نُوَيْرة الذي قُتل في حرب الرِّدَّة، وتزوج خالد بن الوليد امرأته، وما ذكره ابن عطية هو عجز بيت، والبيت بتمامه:

وَلاَ بَرَماً تُهْدِي النِّسَاءُ لِعِرْسِهِ إذا القَشْعُ مِنْ بَرْدِ الشِّتَاءِ تَقَعْقَعَا

والبَرَم: الذي لا يدخل مع القوم في الميْسر، والجمع: أَبْرَامٌ، وفي المثل: أَبَرَماً قَروناً ؟، أي: هو بَرَم ويأكل مع ذلك تمرتين تمرتين، وقيل: الأبْرام: اللئام، والعِرْسُ: الزوجة (هنا)، ويقال: هو عِرْسُهَا، وهي عِرْسه، وهما عِرْسان، والقَشْعُ: بيت من أدم، وقيل: من جِلْدٍ، والجمع: قِشَعٌ. وتَقَعْقَعَ: أحدث صوتاً عند التحريك لأنه صار يابساً من البَرد الشديد.

(٢) هذا صدر بيت لِمُرَّةَ بن مَحْكان، والبيت بتمامه:

فِي لَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذاتِ أَنْدِيَةٍ لاَ يُبْصِرُ الكَلْبُ مِنْ ظَلْمَائِهَا الطُّنُبَا

والأندية: جمع النَّدَى على غير قياس، والندى: ما يسقط بالليل. والطُّنُبُ (بضم النون وبسكونها): حبل يُشَدُّ به الخِباءُ والسُّرادق ونحوهما. يصف الليلة بشدة البرد وشدة الظلام. قال في اللسان بعد أن أورد البيت: «قال الجوهري: هو شاذٌّ؛ لأنه جمع ما كان ممدوداً مثل كِساءٍ وأكْسية، وقيل: جمع نَدَىً على أَنداءٍ، وأَنْداءٍ على نِدَاءٍ، ونداءٍ على أندية، كرداءٍ وأرْدية».

(٣) العَرَانين: جمع عِرْنين، وهو أول الشيءِ والمراد هنا: أول الأنف، والشَّمَمُ: الارتفاع، والسَّرابيل: الدروع، وهي مصنوعة من الحديد، وهو المراد بقوله: «من نسج داود»، حيث أعطاه الله القدرة على استخدام الحديد في صناعة الدروع لتحمي قومه من بأس الحروب.

وقال أَوسُ بن حجر:

. . . . وَلَنِعْـمَ حَشْـوُ الـدِّرْعِ والسِّـرْبَـالِ[1]

فهذا يراد به القميص:

و«الْبَأْسُ»: مسُّ الحديد في الحرب. وقرأَ الجمهور: ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ﴾، وقرأَ ابن عباس: [تتم نعمته]، على أَن النعمة هي التي تتم، ، رُوي عنه [تتم نعمه] على الجمع. وقرأَ الجمهور: ﴿تُسْلِمُونَ﴾ من الإِسلام، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما: [تَسْلَمُونَ] من السلامة، فتكون اللفظة مخصوصة في بأس الحر، وما في «لَعَلَّ» من التَّرَجِّي والتَّوَقُّع فهو في حيِّز البشر المخاطبين، أَي: لو نظر الناظر في هذه الحالة لترجَّى منها إِسلامهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

هذه الآية فيها موادعة نسختها آية السيف، والمعنى: إِن أَعرضوا فلستَ بقادر على خلق الإِيمان في قلوبهم، وإِنما عليك أَن تبلِّغ أَمر الله ونهْيَه، ثم قرعهم ووبَّخهم بأَنهم يعرفون نعمة الله في هذه الأَشياءِ المذكورة، ويقولون إِنها من عنده ثم يكفرون به تعالىٰ، وذلك فعل المنكر للنعمة الجاحد لها. هذا قول مجاهد، فسماهم منكرين للنعمة تَجَوُّزاً؛ إِذْ كانت لهم أَفعال المنكرين من الكفر برَبِّ النعم، ولشركهم في النعم الأَوثان على جهة ما، وهو ما كانوا يعتقدون للأَوثان من الفعل في النفع والضر، وقال السُّدي: النعمة هنا: محمد عليه الصلاة والسلام. ووصفهم تبارك وتعالىٰ بأَنهم يعرفون

---

(١) هذا عجز بيت قاله أوس في قصيدة يرثي بها فضالة بن كلدة. وهو بتمامه:

فَلَنِعْـمَ رِفْـدُ الحَـيِّ يَنْتَظِـرُونَـهُ وَلَنِعْـمَ حَشْـوُ الـدرع والسِّـرْبَـالِ

ورِفْدُ الحيِّ: مُعينهم ومُساعِدهم ومقدم العطاءِ لهم، ومعنى «لَنِعْمَ حَشو الدِّرع والسِّربال» نعم الرجل فُضَالةَ في الفزع والأمن، فهو حشو الدرع في الفزع، وحشو السربال في الأمن، ويكون السربال هو القميص.

معجزاته وآيات نبوته وينكرون ذلك بالتكذيب، ورجَّحه الطبري، ثم حتم على أكثرهم بالكفر وهم أَهل مكة؛ لأنه كان فيهم من قد داخله الإسلام ومن أَسلم بعد ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ آية وعيد، التقدير: واذكر يوم نبعث شهيداً على كفرهم وإيمانهم، فـ «شَهِيدٌ» بمعنى «شاهد»، وذكر الطبري أَن المعنى: ثم ينكرونها اليوم، ويوم نبعث، أَي: ينكرون كفرهم فيُكَذِّبهم الشهيد. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي في المعذرة، وهذا في موطن دون موطن؛ لأَن في القرآن ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾[1]، ويترتب أَن تجيءَ كل نفس تجادل، فإذا استقرت أَقوالهم بعث الله الشهود من الأُمم فتكذب الكفار فلا يؤذن للكاذبين بعْدُ في معذرة، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ بمعنى: يُعْتَبون، تقول: «عتَبْتُ الرجل» إِذا كفيتَهُ ما عتب فيه، كما تقول: «أَشْكَيْتُه ما شكا»، كأَنه قال: ولا هم يكفون ما يُعتبون فيه ويشق عليهم، والعرب تقول: استفعل بمعنى أَفعل، تقول: أَدْنَيْتُ الرجلَ واستدْنَيْتُه، وقال قوم: لا يسأَلون أَن يرجعوا عمَّا كانوا عليه في الدنيا[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا استعتاب معناه طلب عُتْبَاه، وقال الطبري: معناه: يطلبون الرجوع إِلى الدنيا فلا يعطون فيقع منهم توبة وعمل[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾، أَخبر الله تعالىٰ في هذه الآية أَن هؤلاءِ الكفرة الظَّالمين في كفرهم إِذا أَراهم الله عذاب النار وشارفوها وتحققوا كُنْه شدتها فإِن ذلك الأَمر الهائل الذي نزل بهم لا يُخَفف بوجه ولا يُؤَخَّر عنهم، وإِنما مقصد الآية الفرق بين ما يحل بهم وبين رزايا الدنيا، فإِن الإِنسان لا يتوقع أَمراً من

---

(١) من الآية (١١١) من سورة (النحل).

(٢) جاءت هذه العبارة في بعض النسخ كالآتي: «لا يشكون أن يرجعوا كما كانوا عليه في الدنيا».

(٣) قال القرطبي: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يعني يسترضون، أي: لا يكلفون أن يرضوا ربهم؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون. اهـ. وقال المهدوي: أصل الكلمة من العَتْبِ وهي الموجدة، يقال: عَتَب عليه يُعْتِب إذا وجد عليه، فإذا فاوضه ما عتب عليه فيه قيل: عاتبه، فإذا رجع إلى مسَرَّتك فقد أَعْتَبَ، والاسم: العُتْبى، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب» اهـ. وقال النابغة:

فَإِنْ كُنْتُ مظلوماً فَعَبْداً ظَلَمْتَهُ ... وإِنْ كُنْتَ ذَا عُتْبى فَمِثْلُكَ يُعْتِبُ

خطوب الدنيا إلاَّ وله طمع في أَن يتأَخر عنه، وأَن يجيئه في أَخف ما يتوهم برجائه، وكذلك متى حلَّ به كان طامعاً في أَن يخف، وقد يقع ذلك في خطوب الدنيا كثيراً، فأَخبر الله تعالىٰ أَن عذاب الآخرة ـ إذا عاينه الكافر ـ لا طماعية فيه بتخفيف ولا تأْخير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

أَخبر سبحانه وتعالىٰ أَنهم إذا رأَوا يوم القيامة بأَبصارهم الأَوثان والأَصنام وكلَّ معبود من دون الله ـ لأَنها تُحْشر معهم توبيخاً لهم على رؤوس الأَشهاد ـ أَشاروا إليهم وقالوا: هؤلاءِ كنا نعبدهم من دون الله، كأَنهم أَرادوا بذلك تذنيب المعبودين وإدخالهم في المعصية، وأَضافوا الشركاءَ إلى أَنفسهم من حيث هم جعلوهم شركاءَ، وهذا كما يصف رجلٌ آخرَ بأَنه خَيْر فتقول له أَنْتَ: ما فعل خيرُكَ؟ فأَضَفْتَهُ إليه من حيث وصَفَه هو بتلك الصفة، والضمير في «القول» عائد على الشركاءِ، فمن كان من المعبودين من البشر أَلقى القول المعهود بلسانه، وما كان من الجمادات تكلمت بقدرة الله بتكذيب المشركين في وصفهم بأَنهم آلهة وشركاءُ لله، ففي هذا وقع الكذب لا في العبادة. وقال الطبري: المعنى: إنكم لكاذبون، ما كنا ندعوكم إلى عبادتنا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فكأَنهم كذبوهم في التذنيب لهم.

وقوله: ﴿ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، الضمير في [أَلْقَوا] عائد على المشركين، والمعنى: أَلْقوا إليه الاستسلام، وأَلقوا بأَيديهم وذلُّوا لحكمه ولم تكن لهم حيلة ولا دفع، و[السَّلَم]: الاستسلام، وقرأَ الجمهور: [ٱلسَّلَم] بفتح اللام، وروى يعقوب عن أَبي عمرو سكون اللام، وقرأَ مجاهد: [السُّلُم] بضم السين واللام.

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ الآية في ضِمْنِ قوله: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أَنه

حلَّ بهم عذاب الله وباشروا نقمته، ثم فسَّره فأَخبر أَن الذين كفروا ومنعوا غيرهم من الدخول في الدين وسلوك سبيل الله زادهم عذاباً أَجلَّ من العذاب العام لجميع الكفار عقوبة على إِفسادهم، فيحتمل أَن يكون قوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلاً من الضمير في ﴿يَفْتَرُونَ﴾ و﴿زِدْنَاهُمْ﴾ فعل مستأنف إخباره، ويحتمل أَن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ابتداءً وخبره ﴿زِدْنَاهُمْ﴾، وروي في ذلك أَن الله تعالىٰ سلَّط عليهم عقارب وحيَّاتٍ لها أَنياب كالنخل الطِّوال، قاله ابن مسعود، وقال عبيد بن عمير: حيَّات لها أَنياب كالنخل، وعقارب كالبغال الدُّلْم[1]، ونحو هذا، وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أَن لجهنم سواحل فيها هذه الحيَّات وهذه العقارب، فيفر الكفار إِلى السواحل من النار فتتلقاهم هذه الحيَّات والعقارب، فيفرون منها إِلى النار، فتتبعهم حتى تجد حرّ النار فترجع، قال: وهي في أَسراب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ الآية، في ضمنها وعيد، والمعنى: واذكر يوم نبعث في كل أُمَّة شاهداً عليها، وهو رسولها الذي شاهد في الدنيا تكذيبها وكفرها وإِيمانها وهداها، ويجوز أَن يبعث الله شهيداً من الصالحين مع الرسل، وقد قال بعض الصحابة: إِذا رأَيت أَحداً على معصية فانْهَه، فإِن أَطاعك وإِلاَّ كنت شهيداً عليه يوم القيامة.

وقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ بحسب أَن بعثة الرسل كذلك هي في الدنيا، وذلك أَن الرسول الذي مِنْ نفس الأُمَّة في اللسان والسِّيرة وفهم الأَغراض والإِشارات متمكن له إِفهامهم والردّ على معاندتهم، ولا يتمكن ذلك مِن غير مَنْ هو منَ الأُمَّة، فلذلك لم يبعث الله نبيًّا قطُّ إِلاَّ من الأُمة المبعوث إِليهم. وقوله: ﴿هَٰؤُلَآءِ﴾ إِشارة إِلى هذه الأُمة. و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآن، وقوله: ﴿تِبْيَٰناً﴾ اسم وليس بمصدر، كالنقصان، والمصادر في مثل هذا التأْويل منها مفتوحة كالتَّرداد والتَّكرار[2]، ونصب ﴿تِبْيَٰناً﴾ على الحال[3]، وقوله: ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما نحتاج في الشرع ولا بُدَّ منه في المِلَّة، كالحلال والحرام والدعاءِ إِلى الله والتخويف من عذابه، وهذا حصر ما اقتضته عبارات المفسرين، وقال

---

(١) أي السَّوداءُ، يقال: دَلِمَ الشَّيْءُ دَلَماً: اشْتَدَّ سواده في مُلوسة، ويقال: دَلِم الرجل: اسْوَدَّ وطال.

(٢) ومثل (تِبْيان) في كسر الأول (تلقاء).

(٣) ويجوز أن تنصب على أنها مفعول لأجله.

ابن مسعود رضي الله عنه: «أُنزِلَ في القرآن كلُّ علم، وكلُّ شيءٍ وقد بُيِّن لنا في القرآن»، وتلا هذه الآية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ۝٩١﴾.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أَجمعُ آية في كتاب الله آيةٌ في سورة النحل، وتلا هذه الآية، ورُوي عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه أنه قال: لما نزلت هذه الآية قرأتُها على عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فعجب وقال: «يا آل غالب اتَّبعوه تفلحوا، فوالله إن الله أَرسله إليكم ليأمر بمكارم الأخلاق»، وحكى النقاش قال: كان يقال: «زكاة العدل الإحسان، وزكاة القدرة العفو، وزكاة الغنى المعروف، وزكاة الجاه كتْبُ الرجل إلى إخوانه».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

العدل هو فعل كل مفروض[1] من عقائد وشرائع، وسيرٌ مع الناس في أَداءِ الأَمانات وتركِ الظلم، والإنصافُ وإعطاءُ الحق، والإحسان هو فعل كل مندوب إليه، فمن الأَشياءِ ما هو كله مندوب إليه، ومنها ما فرض إلاَّ أَن أَحد الأَجزاءِ منه داخل في العدل، والتكميل الزائد على حدّ الأَجزاءِ داخل في الإحسان، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما حكى الطبري: العدل: لا إلـه إلاَّ الله، والإحسان: أَداءُ الفرائض.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا القسم الأَخير نظر؛ لأَن أَداءَ الفرائض هي الإسلام حسب ما فسَّره رسول الله ﷺ في حديث سؤال جبريل عليه السلام، وذلك هو العدل، وإنما الإحسانُ: التكميلاتُ والمندوبُ إليه حسب ما يقتضيه تفسير النبي ﷺ لسؤال جبريل عليه السلام بقوله: «أَن تعبد الله كأَنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2]، فإن صح هذا عن ابن

(١) في بعض النسخ: «هو فعل كل معروف»، وقوله في تحديد معنى الإحسان: «هو فعل كل مندوب» يؤدي أنه أراد هنا: كل مفروض. وكذلك تقسيمه الأشياء إلى مندوب ومفروض.

(٢) الحديث في الصحيحين، وفي رواية مسلم ـ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن عند=

عباس رضي الله عنهما فإنما أراد أداءَ الفرائض مُكمَّلة.

﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ لفظة تقتضي صلة الرحم، وتَعُمُّ جميع إسداءِ الخير إلى القرابة. وتركُهُ مبهماً أبلغ؛ لأن كل من وصل في ذلك إلى غاية ـ وإن عَلَت ـ يرى أنه مقصِّر، وهذا المعنى المأمور به في جانب ذي القربى داخل تحت العدل والإحسان، لكنه تعالىٰ خصَّه بالذكر اهتماماً به وحثّاً عليه.

و[ٱلْفَحْشَآءِ]: الزِّنَى ـ قاله ابن عباس ـ وغيره من المعاصي التي شُنْعَتها ظاهرة، وفاعلها أبداً مستتر بها، وكأنَّهم خصوها بمعاني الفروج [وَٱلْمُنكَرِ] أعم منه؛ لأنه يعم جميع المعاصي والرذائل والإدانات على اختلاف أنواعها، [وَٱلْبَغْيِ] هو إنشاءُ ظلم الإنسان والسعاية فيه، وهو داخل تحت المنكر، لكنه تعالىٰ خصَّه بالذكر اهتماماً لشدَّة ضرره بين الناس، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا ذنب أسرع عقوبة من بغي»[(١)]، وقال عليه الصلاة والسلام: «الباغي مصروع»، وقد وعد الله من بُغِيَ عليه بالنصر، وفي بعض الكتب المنزلة: «لو بَغى جبل على جبل لجعل الله الباغي منهما دكّاً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتغيير المنكر فرضٌ على الولاة، إلا أن المغيِّر لا يعِنُّ لمستور، ولا يُعمل ظنًّا، ولا يتَجَسَّس، ولا يُغَيِّر إلاَّ ما بدت صفحته، ويكون أَمرُهُ ونهيُهُ بمعروف، وهذا كلُّه

= رسول الله ﷺ ذات يوم إذْ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كَفَّيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إلَهَ إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتَحُجَّ البيت إن استطعتَ إليه سبيلاً، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويُصَدِّقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكُتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعْلَم من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: أن تلد الأمة ربَّتَها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رِعَاءَ الشاءِ يتطاولون في البنيان، قال: ثم انطلق، فلبثت ملِيّاً ثم قال لي: يا عُمر، أتدري من السائل؟ قلتَ: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم.

(١) أخرج مسلم في الزهد، وأبو داود في الأدب، والترمذي في القيامة، وأحمد في مسند ٥ـ٣٦، عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يعجل بصاحبه العقوبة مع ما يؤخر له في الآخرة من بَغْي أو قطيعة رحم» واللفظ عن المسند.

لغير الولاة أَلزم، وفرض على المسلمين عامة، ما لم يَخَف المغيِّر إذاية أَو ذُلاً، ولا يغير المؤمن بيده ما وجد سلطاناً، فإنْ عدِمَه غيَّر بيده، إلاَّ أنه لا يصل إلى نصب القتال والمداراة وإعمال السلاح إلاَّ مع الرياسة والإمام المتَّبع، وينبغي للناس أَن يغيِّر المنكَرَ كلُّ أَحد منهم، تقي وغير تقي، ولو لم يغير إلاَّ تقي لم يتغير منكر في الأَغلب، وقد ذَمَّ الله قوماً بأَنهم لم يتناهوا عنه[١]، وكل مُنكَر فيه مدخل للنظر فلا مدخل لغير حملة العلم فيه، فهذه نبذة من القول في تغيير المنكر تضمنت ثمانية شروط، وروي أَن جماعة من الصحابة[٢] رفعت على عاملها إلى أَبي جعفر المنصور، فحاجَّها العامل وغلبها بأَنهم لم يُثبتوا عليه كبير ظلم ولا جَوْرَه في شيءٍ. فقام فتًى من القوم فقال: يا أَمير المؤمنين، إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإنه عَدَل ولم يُحْسن، قال: فعجب أَبو جعفر من إصابته وعزل العامل.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ الآية. يتضمن قوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ الآية التي قبلها: «افعلوا كذا وانتهوا عن كذا»، فعطف على ذلك التقدير قوله: [وَأَوْفُوا]، و«عَهْدُ اللهِ» لفظ لجميع ما يُعقد باللسان ويلزمه الإنسان، من بيع أَو صلة أَو مُوَاثقة في أَمر موافق للديانة، وقوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ خصَّ في هذه الآية الأَلفاظ المعهودة التي يُقرن بها أَيمانٌ تهَمُّماً بها وتنبيهاً عليها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله فيما كان الثبوت فيه على اليمين طاعة لله تعالىٰ، وما كان الانصراف عنه أَصوب في الحق فهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين فرأَى غيرها خيراً منها فليكفِّر عن يمينه وَلْيَأْتِ الذي هو خير»[٣]، ويقال: توكيد وتأْكيد، ووكَّد

---

(١) يشير إلى قوله تعالىٰ في وصف اليهود: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾، (٧٨، ٧٩ المائدة).

(٢) لا يصح قوله: «من الصحابة» مع كون الحادثة في زمن أبي جعفر المنصور، ولهذا أسقطتها بعض النسخ، وكذلك ذكرها القرطبي بدون قوله: «من الصحابة».

(٣) الحديث رواه الشيخان، ولفظه كما رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، عن عبد الرحمن بن سَمُرَة قال: قال النبي ﷺ: «يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنَّك إن أُوتيتها عن مسألة وُكِلْتَ =

وأكّد، وهما لغتان، وقال الزجاج: الهمزة مبدلة من الواو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا غير بيّن؛ لأنه ليس في وجود تصريفه ما يدلُّ على ذلك.

و[كَفِيلاً] معناه: متكفِّلاً بوفائكم، وباقي الآية وعيد في ضمن خبر بِعِلْم الله تعالىٰ بأفعال عباده، وقالت فرقة: نزلت هذه الآية في الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، رواه أبو ليلى عن بريدة، وقال قتادة، ومجاهد، وابن زيد: نزلت فيما كان من تحالف الجاهلية في أمر بمعروف أو نهي عن منكر، فزادها الإسلام شدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كما قال ﷺ: «لاَ حِلْفَ في الإسلام وما كان من حِلْفٍ في الجاهلية فلم يزده الإسلام إلاَّ شِدَّة»[1]، وهذا حديث معنى، وإن كان السبب بعْض هذه الأشياءِ فألفاظ الآية عامة على جهة مخاطبة العالمين أجمعين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

شبهت هذه الآية الذي يحلف أو يعاهد ويبرم عقده بالمرأة تغزل غزلها وتفتله محكماً، وشبه الذي ينقض عهده بعد الإحكام بتلك الغازلة إذا نقضت قويَّ ذلك الغزل

= إليها، وإن أُوتيتها من غير مسألة أُعِنْت عليها، وإذا حلفتَ على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فَكَفِّر عن يمينك، وائتِ الذي هو خَيْرٌ».

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، وأبو داود في الفرائض، والبخاري في الكفالة والأدب، والترمذي في السِّير، وكذلك الدارمي، والإمام أحمد في المسند في مواضع كثيرة، ولفظه كما في سنن الدارمي عن ابن عباس، قيل لشريك عن النبي ﷺ: قال: «نعم، لا حِلْف في الإسلام، والحلف في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شِدَّةً وجِدَّة». وعلّق القرطبي عليه فقال: «يعني في نُصرة الحق والقيام به والمواساة، وهذا كنحو حلف الفضول، . . . قال العلماءُ: فهذا الحِلْف الذي كان في الجاهلية هو الذي شدَّه الإسلام، وخصَّه النبي ﷺ من عموم قوله: «لا حِلْف في الإسلام»؛ لأن الشرع جاء بالانتصار من الظالم وأخذ الحق منه».

فحلَّته بعد إبرامه، ويُروى أَن امرأَة حمقاءَ كانت بمكة تُسَمَّى رَيْطَة بنت سعد كانت تفعل ذلك، فَبِهَا وقع التشبيه، قاله عبد الله بن كثير، والسُّدّي، ولم يُسَمِّيا المرأَة، وقيل: كانت امرأَة موسوسة تسمَّى خطية تغزل عند الحجر وتفعل ذلك، وقال مجاهد، وقتادة: ذلك ضرب مثل لا على امرأَة معينة. و[أَنكَاثاً] نصب على الحال، والنكث: النَّقْض. و«القُوَّة» في اللغة واحدةُ قُوَى الغَزْل والحبل وغير ذلك مما يضفر، ومنه قول الأَغلب الراجز:

. . . . حَبْلَ عَجُوزٍ فَتَلَتْ سَبْعُ قُوى[1]

ويظهر لي أَن المراد بالقوَّة في الآية الشدَّة التي تحدث من تركيب قُوى الغزل، ولو قدرناها واحدة القُوى لم يكن معها ما ينتقض أَنكاثاً، والعرب تقول: انتكث الحبل إِذا انتقضت قواه، أَما إِنَّ عرف الغزل أَنه قوة واحدة ولكن لها أَجزاءٌ كأَنها قوى كثيرة له، قال مجاهد: المعنى: من بعد إِمْرار قوة.

و«الدَّخل»: الدَّغل بعينه، وهي الذَّرائع إِلى الخدع والغدر، وذلك أَن المحلوف له مطمئن فيتمكن الحالف من ضرّه بما يريد.

وقوله: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾، قال المفسرون: نزلت هذه الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم إِذا حالفت أُخرى، ثم جاءَت إِحداهما قبيلة كبيرة قوية فداخلتها غدرت الأُولى ونقضت معها ورجعت إِلى هذه الكبرى، فقال الله تعالىٰ[2]: لا تنقضوا العهود من أَجل أَن تكون قبيلة أَزْيَد من قبيلة في العَدَد والعُدَّة، و«الرِّبَا»: الزيادة، ويحتمل أَن

---

(١) الأغلب الراجز، هو الأغلب بن جُشَم العِجْلي، من سعد بن عِجْل، كان جاهلياً إسلامياً، عاش تسعين سنة، وقتل بنهاوند، وهو أول من شبَّه الرَّجز بالقصيد وأطاله بعد أن كان قبله مجرد بيت أو بيتين يقولهما الراجز، وهذا عجز البيت، وهو كاملاً:

كَأَنَّ عِرْقَ أَيْرِهِ إذا وَدَى حَبْلَ عَجوزٍ فَتَلَتْ سَبْعَ قُوَى

وهو من أرجوزة في سجاح، قالها حين تزوجت من مسيلمة الكذاب، ويروى «ضَفَرَتْ» بدلاً من «فَتَلَتْ»، و«خَمس» بدلاً من «سبع»، ووَدَى: خرج منه الودي، وقوَى: جمع قُوَّة، وهي الخصلة الواحدة من قوى الحبل، أو الطاقة الواحدة من طاقات الحبل، وفي حديث ابن الدَّيْلَميِّ: «ينقض الإسلام عُروة عُروة كما ينقض الحبلُ قوَّة قوةً»، ويجمع قُوَة على قُوًى، كما جمعت صُوَّة على صُوًى، وهُوَّةٌ على هُوًى.

(٢) يريد: كأن الله تعالىٰ قال ما معناه كذا وكذا.

يكون القول معناه: لا تنقضوا الأَيْمَان من أَجل أَن تكونوا أَرْبى من غيركم، أَي: أَزيد خيراً، فمعناه: لا تطلبوا الزيادة بعضكم على بعض بنقض العهود. و[يَبْلُوَكُم] معناه: يختبركم، والضمير في [بِهِ] يحتمل أَن يعود على الوفاءِ الذي أَمر الله به، ويحتمل أَن يعود على الرِّبا، أَي أَن الله ابتلى عباده بالتحاسد وطلب بعضهم الظهور على بعض، واختبرهم بذلك ليرى من يجاهد نفسه ممن يُتْبعها هواها، وباقي الآية وعيدٌ بيوم القيامة.

وقوله: ﴿هِىَ أَرْبَىٰ﴾، موضع [أَربَى] عند البصريين رفع، وعند الكوفيين نصب و[هِيَ] عماد، ولا يجوز العماد هنا عند البصريِّين؛ لأَنه لا يكون مع النكرة، و[أُمَّةٌ] نكرة، وحجة الكوفيين أَن [أُمَّة] وما جرى مجراها من أَسماءِ الأَجناس تنكيرها قريب من التعريف، أَلا ترى أَن إِدخال الأَلف واللام عليها لا يخصصها كبير تخصيص؟ وفي هذا نظر.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ الآية. أَخبر الله تعالىٰ في هذه الآية أَنه يبتلي عباده بالأَوامر والنواهي ليذهب كل واحد إِلى ما يُسِّر له، وذلك منه تعالىٰ بحق المِلْك، ولا يُسأَل عما يفعل، ولو شاءَ لكان الناسُ كلهم في طريق واحد، إِمَّا في هدًى وإِمَّا في ضلالة، ولكنه تعالىٰ شاءَ أَن يفرق بينهم، ويخص قوماً بالسعادة وقوماً بالشقاوة. و[يُضِلُّ] [وَيَهْدِي] معناه: «يخلق ذلك في القلوب» خلافاً لقول المعتزلة، ثم توعَّد في آخر الآية بسؤال كل أَحد يوم القيامة عن عمله، وهذا سؤال توبيخ، وليس ثَمَّ سؤال تفهُّم، وذلك هو المنفي في آيات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

كرَّر النهي عن اتخاذ الأَيمان تَهَمُّماً بذلك، ومبالغة في النهي عنه لعظم موقعه من

الدين، وتردُّده في معاشرات الناس[١]، و«الدَّخل» ـ كما قلنا ـ الغوائل. وقوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ استعارة للمستقيم الحال يقع في شرٍّ عظيم ويسقط فيه؛ لأن القدم إذا زلّت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شرٍّ، ومن هذا المعنى قول كُثَيِّر:

. . . . فَلَمَّـا تَـوَافَيْنَـا ثَبَـتُّ وَزَلَّـتِ[٢]

أي: تنقلت من حال إلى حال، فاستعار لها الزلل، ومنه يقال لمن أخطأ في الشيء: زَلَّ فِيه. ثم توعَّد بعْدُ بعذاب في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة. وقوله: ﴿بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يدل على أن الآية فيمن بايع رسول الله ﷺ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ الآية. هذه آية نهي عن الرشا وأخذ الأموال على فعل ما يجب على الآخذ تركه، أو ترك ما يجب عليه فعله، فإن هذه هي التي عهد الله إلى عباده فيها، فمن أخذ على ذلك مالاً فقد أعطى عهد الله وأخذ قليلاً من الدنيا، ثم أخبر تبارك وتعالىٰ أن ما عنده من نعيم الجنة ومواهب الآخرة خيرٌ لمن اتّقى وعلم واهتدى، ثم بيّن الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هذه تنفد وتنقضي عن الإنسان أو ينقضي عنها، وأن الآخرة باقية دائمة. وقرأ ابن كثير، وعاصم: [وَلَنَجْزِيَنَّ]

---

(١) وقيل: إنما كرَّر لاختلاف المعنيَيْن، لأن الأول فيه نهي عن الدخول في الحِلْف ونقض العهد بالقلة والكثرة، وهنا نهي عن الدَّخَل في الأيمان التي يراد بها اقتطاع حقوق، فكأنه قال: دخَلاً بينكم لتواصلوا بها إلى قطع أموال المسلمين.

ومن رأي أبي حيّان الأندلسي أنه لم يتكرر النهي عن اتِّخاذ الأيمان دخَلاً، فَمَا سبق إخبارٌ بأنهم اتَّخذوا أيمانهم دخلا معللاً بشيءٍ خاص، وهو أن تكون أُمة هي أربى من أُمة، وجاء النهي هنا بقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾ استئناف إنشاءٍ عن اتخاذ الأيمان دخلاً على العموم، فيشمل جميع الصور من الحلف في المبايعة وقطع الحقوق المالية وغير ذلك.

(٢) هذا عجز بيت قاله كثيِّر من قصيدة له قال عنها أبو عليٍّ القالي: هي من منتخبات شعر كثيِّر، ومطلعها:

خَلِيلَـيَّ هَـذَا رَبْـعُ عَـزَّةَ فَـاعْقِـلا ... قَلُـوصَيْكُمَـا ثُـمَّ ابْكِيَـا حيْـثُ حَلَّـتِ

والبيت بتمامه:

وكُنَّـا سَلَكْنَـا فـي صَعُـودٍ مِـنَ الهَـوَى ... فَلَمَّـا تَـوَافَيْنَـا ثَبَـتُّ وَزَلَّـتِ

والقصيدة في الديوان، ومنها مختارات في الأمالي، وفي الشعر والشعراء، وفي الأغاني. والصَّعُود: العقبة الشاقة أو الطريق الصاعد، ويريد هنا أنه وصل مع عزة في الهوى إلى مرحلة بالغة الصعوبة والمشقة، ولم تستطع هي الثبات لما فيها من عناءٍ، أما هو فبقي على حبه صابراً ثابتاً على ما يلاقي من تعب ومشقة.

بنون، وقرأ الباقون: [وَلَيَجْزِيَنَّ] بالياءِ، ولم يختلفوا في قوله: [وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ] أنه بالنون، كذا قال أبو علي، وقال أبو حاتم: إن نافعاً رُوي عنه: [وَلَيَجْزِيَنَّهُمْ] بالياءِ. و[صَبَرُوا] معناه: عن الشهوات وعلى مكاره الطاعة، وهذه إشارة إلى الصبر عن شهوة كسب المال بالوجوه المذكورة، وقوله: [بِأَحْسَنِ] أي: بقدر أحسن ما كانوا يعملون.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يعُمُّ جميع أعمال الطاعة، ثم قيَّده بالإيمان، واختلف الناس في الحياة الطيبة ـ فقال ابن عباس، والضحاك: هو الرزق الحلال، وقال الحسن، وعليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه: هي القناعة، وهذا أَطيب عيش الدنيا، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أَيضاً: هي السعادة، وقال الحسن البصريُّ أَيضاً: الحياة الطيبة هي حياة الآخرة ونعيم الجنة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هناك هو الطيب على الإطلاق، ولكن ظاهر هذا الوعد أَنه في الدنيا، والذي أَقول: إن طيب الحياة اللازم للصالحين إنما هو بنشاط نفوسهم ونُبلها وقوة رجائهم، والرجاءُ للنفس أَمرٌ مُلِذٌّ، فبهذا تطيب حياتهم، وبأَنهم احتقروا الدنيا فزالت همومها عنهم، فإِن انضاف إِلى هذا مالٌ حلالٌ وصحةٌ أَو قناعة فذلك كمالٌ، وإِلاَّ فالطيب فيما ذكرناه راتب، وجاءَ قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ على لفظ [مَنْ]، وجاءَ قوله: [وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ] على معناها، وهذا وعْدٌ بنعيم الجنة، وباقي الآية بيِّن.

وحكى الطبري عن أَبي صالح أنه قال: نزلت هذه الآية بسبب قوم من أَهل المِلَل تفاخروا، وقال كل منهم: مِلَّتي أَفضل، فعَرَّفهم الله في هذه أَفضل المِلَل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

الفاءُ في [فَإِذَا] واصلة بين الكلامين، والعرب تستعملها في مثل هذا، وتقدير الآية:

فإذا أخذت في قراءة القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى﴾[1]، وكما تقول لرجل: إذا أكلت فقل بسم الله. والاستعاذة ندب عند الجميع، وحكى النقاش عن عطاءٍ أنَّ التعوُّذ واجب، ولفظ الاستعاذة هو على رتبة هذه الآية، وقد ذكرت الخلاف الذي قيل فيه في صدر هذا الكتاب. و[ٱلرَّجِيم]: المرجوم باللَّعنة، وهو إبليس.

ثم أَخبر تبارك وتعالىٰ أَن إِبليس ليس له ملكة ولا رياسة، هذا ظاهر «السلطان» عندي في هذه الآية، وذلك أَن السلطان إِن جعلناه الحجة فليس لإِبليس حجة في الدنيا على أَحد، لا مؤمن ولا كافر، اللهم إِلاَّ أَن يتأَوَّل متأَوِّل: «ليس له سلطان يوم القيامة»، فيستقيم أَن يكون بمعنى الحجة، لأَن إِبليس له حجة على الكافرين أَنه دعاهم بغير دليل فاستجابوا له من قِبَل أَنفسهم، وهؤلاءِ الذين لا سلطان ولا رياسة لإِبليس عليهم هم المؤمنون أَجمعون؛ لأَن الله تعالىٰ لم يجعل سلطانه إِلا على المشركين الذين يتولونه، والسلطان منفي ها هنا في الإِشراك؛ إِذْ له عليهم ملكة ما في المعاصي، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[2]، وهم الذين قال فيهم إِبليس: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[3].

و[يَتَوَلَّوْنَهُ] معناه: يجعلونه وليًّا، والضمير في [بِهِ] يحتمل أَن يعود على اسم الله عزَّ وجلَّ، والظاهر أَنه يعود على اسم إِبليس، بمعنى: من أَجْله وبسببه، كما تقول لمعلمك: أَنا أَعلم بسببك، فكأَنه قال: والذين هم بسببه مشركون بالله، وهذه الأَخبار بأَن لا سلطان للشيطان على المؤمنين بعقب الأَمر بالاستعاذة تقتضي أَن الاستعاذة تَصْرف كيده كأَنها متضمنة للتوكل على الله والانقطاع إِليه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾، كان كفار مكة إِذا نسخ الله لفظ آية بلفظ أُخرى أَو معناها وإِن بقي لفظها ـ لأَن هذا كله يقع عليه التبديل ـ يقولون: لو كان من عند الله لم يتبدل، وإِنما هو من افتراءِ محمد، فهو يرجع من خطأٍ يبدو له إِلى صواب يراه بعْدُ، فأَخبر الله تعالىٰ أَنه أَعلم بما يصلح للعباد برهة من الدهر، ثم

---

(١) من الآية (٦) من سورة (المائدة).

(٢) من الآية (٤٢) من سورة (الحِجْر).

(٣) الآية (٤٠) من سورة (الحجْر).

ما يصلح لهم بعد ذلك، وأنهم لا يعلمون هذا. وقرأ الجمهور: [يُنَزِّلُ] بفتح النون وشد الزاي، وقرأ أبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاي، وعبَّر بالأكثر مراعاة لما كان عند قليل منهم من موقف وقِلَّة مبالغة في التكذيب وظن، ويحتمل أن يكون هذا اللَّفظ قرَّر على قليل منهم أنهم يعلمون ويكفرون تَمَرُّداً وعناداً.

وأمر نبيَّه أن يخبر أن القرآن ناسخَه ومنسوخَه إنما نزَّله جبريل عليه السلام، وهو روح القدس، لا خلاف في ذلك، [وٱلْقُدُس]: الموضع المطهر، فكأن جبريل أُضيف إلى الأمر المطهر بإطلاق، وسُمِّي روحاً إمَّا لأنه ذو روح من حملة روح الله الذي بثَّه في خلقه، وخُصَّ هو بهذا الاسم، وإما لأنه يجري من الهدايات والرسالات ومن الملائكة أيضاً مجرى الروح من الأجساد لِشَرفه ومكانته، وقرأ ابن كثير: [ٱلْقُدْس] بسكون الدال، وقرأ الباقون بضمها، وقوله: [بِالْحَقِّ] أي: مع الحق في أوامره ونواهيه وأحكامه ومصالحه وأخباره، ويحتمل أن يكون قوله: [بِالْحَقِّ] بمعنى حقًّا، ويحتمل أن يريد: بالحقِّ في أن ينزل، أي أنه واجب لمعنى المصلحة أن ينزل، وعلى هذا الاحتمال اعتراضات عند أصحاب الكلام على أُصول الدين، وباقي الآية بيِّن.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان في مكة غلام أعمى لبعض قريش يُقال له بلعام، فكان رسول الله ﷺ يكلمه ويعلمه الإسلام ويرومه عليه، فقالت قريش: هذا يعلم محمداً من جهة الأعاجم، فنزلت الآية بسببه، وقال عكرمة وسفيان: كان اسم الغلام يعيش، وقال عبد الله بن مسلم الحضرمي: كان بمكة غلامان، أحدهما اسمه جَبْر، والثاني يسار، وكانا يقرآن بالرومية، وكان رسول الله ﷺ يجلس إليهما، فقالت قريش ذلك، ونزلت الآية، وقال ابن إسحق: الإشارة إلى جَبْر، وقال الضحاك: الإشارة إلى سلمان الفارسي، وهذا ضعيف، لأن سلمان إنما أسلم بعد الهجرة بمكة. وقرأت فرقة: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى﴾، وقرأ الحسن البصري: «اللِّسانُ ٱلَّذي» بالتعريف وبغير تنوين في راءِ [بَشَر][1]. وقرأ نافع، وابن كثير: [يُلْحِدُونَ] بضم الياءِ، مِنْ «أَلْحَدَ» إذا مالَ، وهي قراءَة أبي عمرو، وعاصم،

---

(١) قال ابن جني: «ليس قوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ جملة في موضع الصفة لـ [بَشَر]، ألا تراها خالية من ضميره؟ ولأن المعنى أيضاً ليس على كونها صفة، وإنما الوقف على قوله: [بَشَر]، ثم استأنف الله تعالىٰ القول ردّاً عليهم».

وابن عامر، وأَبي جعفر بن القعقاع، وقرأَ حمزة، والكسائي: [يَلْحَدُون] بفتح الياءِ والحاءِ، من «لَحَدَ»، وهي قراءَة عبد الله، وطلحة، وأَبي عبد الرحمن، والأَعمش، ومجاهد، وهما بمعنى، ومنه قول الشاعر:

قَـدْنِـيَ مِـنْ نَصْـر الخُبَيْبَيْـنِ قَـدِي   لَيْسَ أَميـري بـالشَّحيح المُلْحِـدِ[١]

يريد: المائل عن الجود وحال الرياسة.

وقوله: [أَعْجَمِيّ] إضافة إِلى «أَعْجَم» لا إِلى «الْعَجَم»؛ لأَنه كان يقول: «عَجَمِيّ»، والأَعجم: هو الذي لا يتكلم بعربيّة، وأَما العجميُّ فقد يتكلم بالعربية ونسبته قائمة[٢].

وقوله: [وَهَذَا] إشارة إِلى القرآن، والتقدير: وهذا سرْدُ لسان، أَو نُطْقُ لسان، فهو على حذف مضاف، وهذا على أَن نجعل اللسان هنا الجارحة، واللسان ـ في كلام العرب ـ: اللغة، ويحتمل أَن يراد في هذه، واللسان: الْخَبَر، ومنه قول الأَعشى:

إِنِّـي أَتَتْنـي لِسَـانٌ غَيْـرُ كَـاذِبَـةٍ   . . . .[٣]

ومنه قول الآخر:

لِسَـانُ السُّـوءِ تُهْـدِيهَـا إِلَيْنَـا   وحِنْـتَ ومـا حَسِبْتُـكَ أَنْ تَحِينَـا[٤]

---

(١) هذا الرجزي لحُميد بن مالك الأرقط، وقيل: لأبي بحدله، وهو في الكتاب لسيبويه، والخزانة، وابن عقيل. وقدني: حَسْبي، والخُبَيْبَيْن: عبد الله بن الزبير وابنه خُبيب، أو هما عبد الله وأخوه مصعب، والأمير هو عبد الملك بن مروان، ويروى: «ليس الإمام»، والمعنى: يكفيني منهما ما نلت، ولن أطلب نصرتهما؛ فإن عبد الملك خير منهما، فهو ليس شحيحاً ولا ملحداً، وقيل: أراد بالإلحاد هنا الظلم، وقد سبق الاستشهاد بهذا الشعر قبل ذلك.

(٢) أَعْجَميّ من أَعْجَمَ بمنزلة أَحْمَريّ من أحمر، وأَشقريٌّ من أَشقر، وكلأَبِيٌّ من كَلاَّب، قاله أبو عثمان بن جني في المحتسب، وقال: إن العجمي هو المنسوب للعجم وإن كان فصيحاً، ألا ترى أن سيبويه كان عجمياً وإن كان لسانه العربية.

(٣) هذا صدر بيت لأعشى باهلة، قال ذلك في (اللسان)، والبيت بتمامه على رواية اللسان:

إِنِّـي أَتَتْنـي لِسَـانٌ لا أُسَـرُّ بِهَـا   مِـنْ عَلْـوَ لا عَجَـبٌ مِنْهَـا ولا سَخَـرُ

قال: قد يكنى باللسان عن الكلمة فيؤنث حينئذ، وقال ابن برّي: اللسان هنا: الرسالةُ والمقالة، ومثله:

أَتَتْنـي لِسَـانُ بَنِـي عَـامِـرٍ   أَحَـادِيثُهَـا بَعْـدَ قَـوْلٍ نُكُـرْ

(٤) البيت في الطبريّ، ورواه في القرطبي: (وَخُنْتَ وما حَسِبْتُكَ أن تَخُونَا) بالخاء من الخيانة، أما هنا وفي الطبريّ فهو بالحاءِ المهملة، وهو من الحَيْن بمعنى الهلاك، يقالُ: حانَ يحين حيناً بمعنى: هَلَك. =

وحكى الطبري عن سعيد بن المسيَّب أن الإشارة بقولهم: [بَشَرٌ] إنما هي إلى كاتب كان يكتب لرسول الله ﷺ، فيقول له رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في أواخر الآيات: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فيكتب هو «عزيز حكيم» أو نحو هذا، ثم يشتغل باستماع الوحي فيبدل هو بـ «غفور رحيم» أو نحوه، فقال له عليه الصلاة والسلام في بعض الآيات: هو ما كتبت، فَفُتن وقال: أنا أُعلم محمداً وارتد ولحق بمكة فنزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هذا نصراني أَسلم وكتَب ثم ارتدَّ ومات فلفظته الأَرض، وإلاَّ فهذا القول يضعف؛ لأن الكاتب المشهور الذي ارتدَّ لهذا السبب ولغيره من نحوه هو عبد الله بن أَبي سَرْح العامريّ، ولسانه ليس بأَعجمي، فتأَمَّل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

المعهود[1] من الوجود أَن الذين لا يهديهم الله لا يؤمنون بآياته، ولكنه قدم في هذا الترتيب وأَخَّرَ تَهَمُّماً بقبيح فعلهم والتشنيع بخطئهم، وذلك كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2]، والمراد ما ذكرناه، فكأَنه قال: إِنَّ الذين لم يؤمنوا لم يهدهم الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾ بمعنى: إنما يكذب، وهذه مقاومة للذين قالوا لمحمد ﷺ: «إنما أَنْتَ مُفْتَر»، و[إِنَّمَا] حاصرةٌ أَبداً، لكن حصرها يختلف باختلاف المعاني التي تقع فيها، فقد يربط المعنى أَن يكون حصرها حقيقياً، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[3]، وقد يقتضي المعنى أَن يكون حصرها تجوُّزاً ومبالغة، كقولك:

= والشاهد هنا أن اللسان بمعنى الخَبَر، لكنْ في القرطبي وفي الطبري أنه بمعنى القصيدة، لأن العرب تقول للقصيدة والبيت لساناً، أو هذا لسان فلان: تريد قصيدته.

(١) في بعض النسخ: «المفهوم» بدلاً من «المعهود».
(٢) من الآية (٥) من سورة (الصَّفّ).
(٣) من الآية (١٧١) من سورة (النساء).

«إِنما الشجاع عنترة»، وهكذا هي في هذه الآية، قال الزجاج: يفتري هذا الصنف لأَنهم إذا رأَوا الآيات التي لا يقدر عليها إلا الله كذبوا بها، فهذا أَفحشُ الكذب. وكرَّر المعنى في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ لفائدة إِيقاع الصفة بالكذب عليهم، إذ الصفةُ بالشيءِ أَبلغ من الخبر به؛ لأَن الصفة تقتضي الدوام أَكثر مما يقتضيه الخبر، فبدأَ في هذه الآية بالخبر ثم أَكَّد بالصفة، وقد اعترض هذا النظر مكيٌّ، وليس اعتراضه بالقوي. و[مَنْ] في قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بدل من قوله: [ٱلْكَٰذِبُونَ]، ولم يُجز الزجاج غير هذا الوجه؛ لأنه رأَى أَن هذا الكلام إلى آخر الاستثناءِ غير تام، فعلَّقه بما قبله، والذي أَبى الزجاجُ سائغ على ما أُورده الآن إن شاءَ الله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا يتأَيد بما رُوي من أَن قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ يراد به عبد الله بن أَبي سَرْح، ومقبس بن صبابة وأَشباههما ممن كان آمن برسول الله ﷺ ثم ارتَدَّ، فلما بيَّن في هذه الآية أَمْر الكاذبين بأَنهم الذين كفروا بعد الإِيمان أَخرج من هذه الصفة القوم المؤمنين المعذَّبين بمكة وهم بلال وعمَّار وسُمَيَّة أُمُّه وخبَّاب وصُهَيْب وأَشباههم، وذلك أَن كفار مكة كانوا في صدر الإسلام يؤذون من أَسلم من هؤلاءِ لضعفه، ويُعذِّبونهم ليرتدُّوا، فربما سامحهم بعضهم بما أَرادوا من القول، رُوي أَنَّ عمَّار بن ياسر فعل ذلك فاستثناه الله في هذه الآية، وبقيت الرخصة عامَّة في الأَمر بعده. ثم ابتدأَ في الإِخبار بأَن ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ﴾، وهذا الضمير على معنى ﴿مَنْ﴾ لا على لفظها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا من الاعتراض أَن أَمر ابن أَبي سَرْح وأُولئك إِنما كان ورسول الله ﷺ بالمدينة، والظاهر من هذه الآيات أَنها مكِّيَّة، وقالت فرقة: ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَن كَفَرَ﴾ ابتداءٌ، وقوله: ﴿مَّن شَرَحَ﴾ تخصيص منه، ودخل الاستثناءُ لما ذكرنا من إِخراج عمَّار وشبهه، وَدَنا من الاستثناءِ الأَول الاستدراكُ بلكن. وقوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ﴾ خبر عن ﴿مَنْ﴾ الأولى والثانية؛ إِذ هو واحد بالمعنى؛ لأَن الإِخبَار في قوله إِنما قصد به الصنف الشارح بالكفر[1]، فـ ﴿صَدْراً﴾ نصب على التمييز، وقوله: ﴿شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ

(١) عقَّب أبو حيان على هذا بقوله: «وهذا وإن كان كما ذكر فهاتان جملتان شرطيتان وقد فُصل بينهما بأداة=

صَدْرًا﴾ معناه: انبسط للكفر باختياره، ويُرْوى أَن عَمَّار بن ياسر شَكَا إِلى رسول الله ﷺ ما صنع به من العذاب، وما سامح به من القول، فقال له: «كيف تجد قلبك؟» قال: أَجده مطمئناً بالإيمان، قال: «فَأَجِبْهُم بلسانك فإِنَّهُ لا يضرك، وإِن عادوا فَعُدْ»(١)، ويتعلق بهذه الآية شيءٌ من مسائل الإكراه، أَمَّا من عذَّبه كافر قادر عليه ليكفر بلسانه، وكان العذاب يؤدي إِلى قتله فله الإجابة باللسان قولاً واحداً فيما أَحفظ، فإِن أَراد منه الإجابة بفعل كالسجود للصنم ونحو ذلك ففي هذا اختلاف ـ فقالت فرقة وهي الجمهور: يجيب بحسب التَّقية، وقالت فرقة: لا يجيب، ويسلم نفسه، وقالت فرقة: إِن كان الصنم نحو القبلة أَجاب واعتقد السجود لله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وما أَحراه أَن يسجد لله حينئذ حيثما توجه، وهذا مباح في السفر لتعب النزول عن الدابة في التَّنقل، فكيف بهذا؟ واحتجت فرقة على التفريق في المنع بقول ابن مسعود: «ما من كلام يدرأُ عني سوطين من ذي سلطان إِلا كنتُ متكلماً به»، فقصر الرخصة على القول دون الفعل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس هذا بحجة، لأَنه يحتمل أَن جعل الكلام مثالاً وهو يريد أَن الفعل في حكمه،

= الاستدراك، فلا بد لكل واحدة منهما من جواب على انفراده لا يشتركان فيه، فتقدير الحذف أحرى على صناعة الإعراب، وقد ضعَّفوا مذهب أبي الحسن في ادعائه أن قوله: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ وقوله: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ جواب لـ [أمَّا] ولـ [إنْ]، هذا وهما أداتا شرط إحداهما تلي الأخرى».

(١) أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أراد رسول الله ﷺ أن يهاجر إلى المدينة قال لأصحابه: تفرقوا عني، فمن كانت به قوة فليتأخر إلى آخر الليل، ومن لم تكن به قوة فليذهب في أول الليل، فإذا سمعتم بي قد استقرت بي الأرض فالحقوا بي، فأصبح بلال المؤذن وخباب وعمَّار وجارية من قريش كانت أسلمت، فأصبحوا بمكة، فأخذهم المشركون وأبو جهل، فعرضوا على بلال أن يكفر فأبى، فجعلوا يصنعون درعاً من حديد في الشمس ثم يلبسونها إياه، فإذا ألبسوها إياه قال: أَحدٌ أَحدٌ، وأما خباب فجعلوا يجرونه في الشوك، وأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تَقِيَّة، وأما الجارية فوتد لها أبو جهل أربعة أوتاد، ثم مدَّها فأدخل الحربة في قُبُلها حتى قتلها، ثم خلُّوا عن بلال وخبّاب وعمّار، فلحقوا برسول الله ﷺ، فأخبروه بالذي كان من أمرهم، واشتد على عمار الذي كان تكلم به، فقال له رسول الله ﷺ: كيف كان قلبك حين قلت الذي قلت؟ أكان منشرحاً بالذي قلت أم لا؟ قال: لا، قال: وأنزل الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

وأمَّا الإكراه في البيع والطلاق والعتق والفطر في رمضان وشرب الخمر ونحو هذا من المعاصي التي بين العبد وبين الله تبارك وتعالىٰ فلا يلزم المكره شيءٌ من ذلك، قاله مطرّف، ورواه مالك، وقاله ابن عبد الحكم وأَصبغ، وروياه عن ابن القاسم عن مالك، وفرق ابن عباس رضي الله عنهما بين ما منها قول كالعتق والطلاق فجعل فيها التَّقية، وقال: لا تقيّة فيما كان فعلاً كشرب الخمر والفطر في رمضان، ولا يحل فعلهما لمكره، وأَما المظلوم فيضغط حتى يبيع متاعه، فذلك بيع لا يجوز عليه، وهو أَولى بمتاعه يأْخذه بلا ثمن، ويبيع المشتري بالثمن ذلك الظالم، فإن فات المتاع رجع بثمنه أَو بقيمته ـ بالأَكثر من ذلك ـ على الظالم إذا كان المشتري غير عالم بظلمه، قال مطرّف: ومن كان من المشترين يعلم حال المُكْره فإنه ضامنٌ لما ابتاع من رقيقه وعروضه كالغاصب، وأَما من لا يعلم فلا يضمن العروضَ والحيوان، وإنما يضمن ما كان تلفه بسببه، مثل طعام أَكله، أَو ثَوْب لبسه، والغَلَّةُ ـ إذا عَلِم أَو لم يَعْلَم ـ ليست له بحال، هُوَ لها ضامن كالغاصب، وقال أَصبغ وعبد الحكم: قال مطرف: وكل ما أَحدث المبتاع في ذلك من عِتْق أَو تدبير أَو تحبيس فلا يلزم المكرَه، وله أَخذ متاعه.

وأَما الإكراه على قتل مسلم أَو جَلْدِه وأَخذ مالِه أَو بيع متاعه فلا عذر فيه، ولا استكراه في ركوب معصية تُنْتَهَك من أَحد كالزِّنى والقتل ونحوه، قال مطرّف، وأَصبغ، وابن عبد الحكم: لا يفعل أَحد ذلك وإن قُتل إنْ لم يفعله، فإنْ فَعَله فهو آثم ويلزمه الحدُّ والقَود، وقال مالك: القيْد إكراهٌ، والسِّجن إكراهٌ، والوعيد المخوف إكراهٌ وإن لم يقع إذا تحقق ظُلْمَ ذلك المُتَعَدِّي وإنفاذَه لما يتوعَّد به، ويعتبر الإكراه عندي بحسب هِمَّة المُكْرَه وقدره في الدين، وبحسب الشيءِ الذي يُكْرَهُ عليه، فقد يكون الضرب إكراهاً في شيءٍ دون شيءٍ، فلهذه النوازل فقه الحال، وأَما يمين المُكْرَه كما قلنا فهي غير لازمة، قال ابن الماجشون: وسواءٌ حلف فيما هو لله تبارك وتعالىٰ طاعة أَو معصية إذا أُكره على اليمين، قاله أَصبغ، وقال مطرف: إن أُكْره على اليمين فيما هو لله تعالىٰ معصية أَو فيما ليس في فعله طاعة ولا معصية فاليمين فيه ساقطة، وإن أُكْرِه على اليمين فيما هو طاعة ـ مثل أَن يأْخذ الوالي رجلاً فاسقاً فَيُكْرِهه على أَن يحلف بالطلاق لا يشرب خمراً، أَو لا يفسق، أَو لا يغشُّ في عمله، أَو الوالد يحلف ولده في مثل هذا تأْديباً له ـ فإن اليمين تلزم وإن كان المُكْره قد أَخطأ فيما تكلف من ذلك، وقال به ابن حبيب. وأَما إن أُكْرِهَ

رجلٌ على أن يحلف وإلا أُخذ له مال ـ كأصحاب المَكْس[1]، وظَلَمة السعاة، وأهل الاعتداءِ ـ فقال مطرّف: لا تقية في ذلك، وإنما يدرأُ المرءُ بيمينه عن بدنه لا عن ماله، وقال ابن الماجشون: لا يحنث وإن درأ عن ماله ولم يخف على بدنه. وقال ابن القاسم: بقول مطرّف، ورواه عن مالك رحمه الله، وقاله ابن عبد الحكم، وأصبغ، وابن حبيب. وقال مطرّف، وابن الماجشون: وإن يدرأ الحالف بيمينه للوالي الظالم قبل أن يسأله ليذُبَّ بها عما خاف عليه من بدنه وماله فحلف بها فإنها تلزمه، وقاله ابن عبد الحكم وأصبغ، وقال أيضاً ابن الماجشون فيمن أخذه ظالم فحلف له بالطلاق البَتَّة من غير أن يحلفه وتركه وهو كاذب، وإنما حلف خوفاً من ضربه وقتله أو أخذ ماله، فإن كان إنما يتبرع باليمين غلبة خوفٍ ورجاءَ النجاة من ظُلْمِه فقد دخل في الإكراه ولا شيءَ عليه، وإن لم يحلف على رجاء النجاة فهو حانث، وإذا اتَّهم الوالي أحداً بفعل أمر فقال له: لا بُدَّ من عقوبتك إلا أن تحلف لي، فإن كان ذلك الأمر مما لذلك المُكْرَه فعلُه ـ إمَّا أن يكون طاعة، وإمَّا أن يكون لا طاعة ولا معصية ـ فالتَّقية في هذا، وأما إن كان الأمر ممَّا لا يحلُّ له فِعْلُه ويكون حظر الوالي فيه صواباً فلا تقية في اليمين، وهو حانث، قاله مالك، وابن الماجشون، فهذه نُبْذة من مسائل الإكراه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

[ذَلِكَ] إشارة إلى الغضب والعذاب الذي توعَّد به قبل هذه الآية[2]، والضمير في [أَنَّهُمْ] لمن شرح بالكفر صدراً، ولما فعلوا فعل من استحبَّ ألزموا ذلك وإن كانوا غير

---

(١) المَكْسُ: واحد المكوس، وهي الضرائب التي يأخذ المُكَّاسُ ممن يدخل البلد من التُّجار. (المعجم الوسيط).

(٢) وقيل: إن [ذَلِكَ] إشارة إلى الارتداد والإقدام على الكفر؛ لأجل أنهم رجَّحوا الدنيا على الآخرة، ولأنه تعالىٰ ما هداهم إلى الإيمان.

مصدقين بالآخرة، لكن الأمر في نفسه بيِّن، فمن حيث أَعرضوا عن النظر فيه كانوا كمن استحب غيره، وهذه الآية عُلِّق فيها العقاب بتكسبهم، وذلك أَن استحبابهم زينة الدنيا ولذَّات الكفر هو التكسُّب.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إشارة إلى اختراع الله الكفر في قلوبهم، ولا شكَّ أَن كفر الكافر الذي تعلَّق به العقاب إنما هو باختراع من الله وتكسُّب من الكافر، فجمعت الآية بين الأمرين، وعلى هذا مرَّت عقيدة أَهل السُّنَّة[1]. وقوله: ﴿لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عموم على أَنه لا يهديهم من حيث هم كفار في نفس كفرهم، أَو عموم يراد به الخصوص فيمن يوافي.

قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، عبارة عن صرف الله لهم عن طريق الهدى، واختراع الكفر المظلم[2] في قلوبهم، وتغليب الإِعراض على نظرهم، فكأَنه سدَّ بذلك طرق هذه الحواس حتَّى لا تنفع في اعتبار وتأَمُّل، وقد تقدم القول وذِكْر الاختلاف في الطبع والختم في سورة البقرة، وهل هو حقيقة أَو مجاز[3]. و«السَّمْع»: اسم جنس، وهو مصدر في الأَصل، فلذلك وُحِّد، ونبَّه على تكسُّبهم الإِعراض عن النظر فوصفهم بالغفلة، وقد سبق شرح ﴿لَا جَرَمَ﴾ في هذه السورة[4].

قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾ الآية. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان قوم من أَهل مكة أَسلموا، وكانوا يستخفون بالإِسلام، فأَخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأُصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أَصحابنا هؤلاء مسلمين وأُكرهوا فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾[5] إلى آخر الآية، قال: فكتب بها إلى من بقي من المسلمين بمكة، وأَن لا عذر لهم، فخرجوا فلحقهم المشركون فأَعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية[6]، فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا ويئسوا من

---

(١) في هذا الكلام ردٌّ واضح على ابن تيمية الذي اتهم ابن عطية بالاعتزال.

(٢) في بعض النسخ: «واختراع الكفر والظلم».

(٣) راجع المجلد الأول صفحة ١١٣.

(٤) عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾، الآية (٦٢).

(٥) من الآية (٩٧) من سورة (النساء).

(٦) من الآية (٨) من سورة (البقرة).

كل خير، ثم نزل فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ فكتبوا إليهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجاً، فخرجوا فلحقهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا، وقُتل من قُتل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

جاءت الرواية هكذا أنهم بعد نزول الآية خرجوا، فيجيءُ الجهاد الذي ذُكر في الآية جهادهم مع رسول الله ﷺ على الإسلام، وروت طائفة أنهم خرجوا واتُّبعوا وجاهدوا مُتَّبعيهم، فقتل من قُتل، ونجا من نجا، فنزلت الآية حينئذ، فمعنى الجهاد المذكور جهادهم لِمُتَّبِعِيهم.

وقال ابن إسحاق: نزلت هذه الآية في عمَّار بن ياسر، وعيَّاش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذِكْرُ عمَّار في هذا عندي غير قويم، فإنه أرفع من طبقة هؤلاءِ، وإنما هؤلاءِ مَنْ تاب مِمَّنْ شرح بالكفر صدراً[1]، فتح الله عليهم باب التوبة في آخر الآية.

وقال عِكْرمة، والحسن: نزلت هذه الآية في شأن عبد الله بن أبي سَرْح وأشباهه، فكأنه قال: من بعد ما فتنهم الشيطان. وهذه الآية مدنية، ولا أعلم في ذلك خلافاً، وإن وُجد فهو ضعيف.

وقرأ الجمهور: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ بضم الفاءِ وكسر التاءِ، وقرأ ابن عامر وحده بفتحهما، فإن كان الضمير للمعذَّبين فتجيءُ بمعنى: فَتَنُوا أنفسهم بما أعطوا المشركين من القول، كما فعل عمَّار بن ياسر، وأما على قراءَة الجمهور فإن كان الضمير للمعذَّبين فهو بمعنى: من بعد ما فَتَنَهم المشركون، وإن كان الضمير للمشركين فهو بمعنى: من بعد ما فتنهم الشيطان. والضمير في [بَعْدِهَا] عائد على الفتنة، أو على الفعلة، أو الهجرة، أو التوبة، والكلام يعطيها وإنْ لم يجر لها ذكر صريح.

قوله تعالىٰ: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ﴾، المعنى: لغفورٌ رحيمٌ يومَ، وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: «كل ذي نفس». ثم أجرى الفعل على المضاف إليه المذكور فأنَّث

(١) جاءت هذه الجملة في بعض النسخ: «وإنما هؤلاء من باب: فمن شرح بالكفر صدراً».

العلامة، و﴿نَفْس﴾ الأولى هي النفس المعروفة، والثانية هي بمعنى الذات، كما تقول: نفس الشيءِ وعينه، أي ذاته. ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: تُجَازى، كُلٌّ من أحسن بإحسانه، وكلٌّ من أساءَ بإساءَته.

وظاهر الآية أن كلَّ نفس تجادل، مؤمنة كانت أو كافرة، فإذا جادل الكفار بكذبهم وجحدهم الكفر شهدت عليهم الجوارح والرسل وغير ذلك بحسب الطوائف، فحينئذ لا ينطقون، ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[1]، فتجتمع آيات القرآن باختلاف المواطن، وقالت فرقة: قول كل أحد من الأنبياءِ وغيرهم: نفسي نفسي، وهذا ليس بجدال ولا احتجاج، وإنما هو مجرَّد رغبة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد، وقتادة: القرية المضروب بها المثل مكَّةُ، كانت بهذه الصفة التي ذكر الله؛ لأنها كانت لا تُغْزَى ولا يُغير عليها أحد، وكانت الأَرزاق تجلب إليها، وأنعم الله عليها برسوله ﷺ، والمراد بهذه الضمائر كلها أهل القرية فكفروا بأَنْعُم الله في ذلك وفي جملة الشرع والهداية، فأصابتهم السنون والخوف وسائر سرايا رسول الله ﷺ وغزواته، هذا إن كانت الآية مدنية، وإن كانت مكِّيَّة فجوع السنين وخوف العذاب من الله بسبب الكفر والتكذيب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإذا كانت هي التي ضربت مثلاً فإنما ضربت لغيرها مما يأتي بعدها ليحذر أن يقع فيما وقعت هي فيه، وحكي الطبري عن حفصة أُم المؤمنين رضي الله عنها أنها كانت تسأَل في وقت حصر عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما صنع الناس؟ وهي صادرة من

---

(١) الآية (٣٦) من سورة (المرسلات).

الحج من مكة، فقيل لها: قتل، فقالت: والذي نفسي بيده إنها للقرية ـ تعني المدينة ـ التي قال الله فيها: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فأدخل الطبري هذا على أن حفصة رضي الله عنها قالت: إن الآية نزلت في المدينة وإنها هي التي ضربت مثلاً، والأمر عندي ليس كذلك، وإنما أرادت أن المدينة قد حصلت في محذور المثل، وحلّ بها ما حلّ بالتي جعلت مثالاً، وكذلك يتوجه عندي في الآية أنها قُصد بها قرية غير معينة جعلت مثلاً، لكنه على معنى التحذير لأهلها ولغيرها من القرى إلى يوم القيامة.

و[رَغَداً] نصب على الحال، و[أَنْعُم] جمع نِعْمَة، كَشِدَّة وأَشُدّ، كما قال سيبويه، وقال قطرب: أَنْعُم: جمع نُعْم، وهو بمعنى النعيم، يقال: هذه أيام نُعْم وطُعْم[1]، وقوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ استعاراتٌ، أي: لما باشرهم ذلك صار كاللِّبَاس، وهذا كقول الأعشى:

إِذَا مَــا الضَّجِيــعُ ثَنَــى جِيــدَهَــا ... تَثَنَّــتْ عَلَيْــهِ فَصَــارَتْ لِبَــاسَــا[2]

ونحوه قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[3]، ومنه قول الشاعر:

---

(١) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن: واحدها نُعْم «بضم النون وسكون العين»، ومعناها: نِعْمة، وهما واحد، قالوا: نادى منادي النبي ﷺ بمنى: «إنها أيام طُعْم ونُعْم فلا تصوموا»، وعلى هذا يكون معنى الآية: فكفرت بنعمة الله، أو بنعيمه، واستشهد القائلون بذلك على كلامهم بقول الشاعر:

وعِنْـدِي قُـروضُ الْخَيْـرِ والشَّـرِّ كُلِّـهِ ... فَبُـؤْسٌ لِـذِي بُـؤْسٍ ونُعْـم بـأَنْعُـمِ

(٢) البيت للنَّابغة الجعْدي وليس للأعشى، قال في (اللسان ـ لبس): «ولِبَاسُ الرجل: امرأته، وزوجها لباسُها، وقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ أي: مثل اللباس، والعرب تسمِّي المرأة لباساً وإزاراً، قال الجعديُّ يصف امرأة:

إذا مــا الضَّجيــعُ ثَنَــى عِطفَهَــا ... تَثَنَّــتْ عَلَيْــهِ فَكَــانَــتْ لِبَــاســاً

ويقال: لبستُ امرأةً أيْ: تمتعت بها زماناً». ورواه في «الشِّعر والشعراء» للنابغة الجعدي أيضاً، وهو من قصيدته التي يقول فيها:

لَبِسْــتُ أُنَــاســاً فَــأَفْنَيْتُهُــمْ ... وأَفْنَيْــتُ بَعْــدَ أُنَــاسٍ أُنَــاسَــا

(٣) من الآية (١٨٧) من سورة (البقرة).

لَقَـدْ لَبِسَـتْ بَعْـدَ الـزُّبَيْـرِ مُجَـاشِـعٌ ثياب الَّتي حاضَتْ وَلَمْ تَغْسِلِ الدِّمَا[1]

كأن العار لما باشرهم وأُلصق بهم جعلهم لبسوه.

وقوله: ﴿أَذَاقَها﴾ نظير قوله: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾[2]، ونظير قول الشاعر:

دُونَكَ ما جَنَيْتَه فاخْشَ وذُقْ[3]

وقرأ الجمهور: ﴿وَٱلۡخَوۡفِ﴾ عطفاً على ﴿ٱلۡجُوعِ﴾، وقرأ أبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ: ﴿وَٱلۡخَوۡفَ﴾ عطفاً على قوله: ﴿لِبَاسَ﴾[4]، وفي مصحف أُبي بن كعب رضي الله عنه: [لباسَ الخوفِ والجوع]، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: [فأذاقها اللهُ الخوفَ والجوعَ]، ولا يذكر «لباس»[5].

---

(١) البيت لجرير يردُّ على البعيث، وهو في الديوان، ومجاشع: قبيلة الفرزدق والبعيث، وحاضت: نزل عليها الدم، يقال: حاضت تحيضُ حيْضاً ومَحيضاً فهي حائضة، أنشد الجوهري:

رأيْـتُ حُيُـونَ العَـامِ والعَـامِ قَبْلَـهُ كحَـائضَـةٍ يُـزْنَـى بِهَـا غَيْـرَ طَـاهِـرِ

وجمع الحائض: حوائض وحُيَّض، والشاهد فيه هو الاستعارة التي في (لبست)، كما وضحها ابن عطية.

(٢) الآية (٤٩) من سورة (الدخان).

(٣) دونَك الشيءَ، ودونَك به: أي خذه، ويقال في الإغراء بالشيءِ، والذَّوْقُ يستعمل أصلاً في الأجسام، ولكنه يستعمل مجازاً في المعاني.

(٤) قال صاحب اللوامح: ويجوز أن يكون نصبه بإضمار فعل، وقال الزمخشري: يجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وأصله: «ولباس الخوف».

(٥) يرى أبو حيَّان الأندلسي أن هذا تفسير للمعنى وليس قراءة؛ لأن المنقول عنه مستفيضاً مثلُ ما في سواد المصحف.

هذا وقد ذكر الزمخشري تعليلاً لطيفاً لإيقاع الإذاقة على اللباس مع أن الإذاقة مستعارة، واللباس أيضاً مستعار، قال: «لأنه لمَّا وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكأنه قيل: فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف، ولهم في نحو هذا طريقان: أحدهما أن ينظروا إلى المستعار له كما قال كُثيِّر:

غَمْـرُ الـرِّداءِ إذا تَبَسَّـمَ ضَـاحِكـاً غَلِقَـتْ لِضَحْكَتِـهِ رِقَـابُ الْمـالِ

فقد استعار الرداءَ للمعروف لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه، ووصفه بالغَمْر الذي هو وصف المعروف والنوال لا صفة الرداءِ، وهكذا الأمر في الآية. والثاني أن ينظروا فيه إلى المستعار، كقول الشاعر: =

والضمير في ﴿جَاءَهُمْ﴾ لأهل مكة، والرسول محمد عليه الصلاة والسلام، و«العذاب»: الجوع وأَمْر بدرٍ ونحو ذلك إن كان التمثيل بمكة وكانت الآية مدنية، وإن كانت مكِّيَّة فهو الجوع فقط، وذكر الطبري أنه القتل ببدر، وهذا يقتضي أن الآية نزلت بالمدينة، وإن كان التمثيل بمدينة قديمة غير معينة فيحتمل أن يكون الضمير في ﴿جَاءَهُمْ﴾ لأهل تلك المدينة، ويكون هذا مما جرى كمدينة شعيب وغيره، ويحتمل أن يكون الضمير المذكور لأهل مكة، فتأمل.

قوله تعالىٰ: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية، هذا ابتداءُ كلام آخر ومعنى حُكم، والفاءُ في قوله: [فَكُلُوا] لصلة الكلام واتساق الجُمَل، خرج من ذكر الكافرين والمثل عليهم إلى أمر المؤمنين بشرع مَّا فوصل الكلام بالفاءِ، وليست المعاني موصلة. هذا قولٌ، والذي عندي أن الكلام متصل المعنى، أي: وأنتم أيُّها المؤمنون لستم كهذه القرية، فكلوا واشكروا الله على تباين حالكم من حال الكفرة، وهذه الآية بسبب أن الكفار كانوا قد سنُّوا في الأنعام سُنَناً، وأَحلُّوا بعضاً وحرَّموا بعضاً، فأمر الله المؤمنين بأكل جميع الأنعام التي رزقها عباده.

واختلف العلماءُ في قوله: ﴿طَيِّبًا﴾، والصحيح أنه «مُسْتَلَذٌّ» بعد قوله: ﴿حَلَالًا﴾، ووقع النَّصُّ في هذا على المُسْتَلَذِّ إذْ فيه ظهور النِّعمة، وهو عُظْم النِّعم، وإن الحلال قد يكون غير مُسْتَلَذٍّ، ويحتمل أن يكون الطيب بمعنى الحلال، كرَّره مبالغة وتوكيداً، وباقي الآية بيِّن.

وقوله: ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إقامة للنفوس، كما تقول لرجل: إن كنتَ من الرجال فافعل كذا، على معنى إقامة نفسه، وروى الطبري أن بعض الناس قال: نزلت هذه خطاباً للكفَّار عن طعام كان رسول الله ﷺ بعثه إليهم في جوعهم، وأنحى الطبريُّ على هذا القول، وكذلك هو فاسد من غير وجه.

= يُنَازِعُني رِدَائِي عَبْدُ عَمْرٍو ... رُوَيْدَكَ يا أخا عمرو بن بَكْرِ
لِيَ الشَّطْرُ الَّذي مَلَكَتْ يَمِيني ... ودونَكَ فاعْتَجِزْ مِنْهُ بِشَطْرِ

أراد بردائه سيفه، ثم قال: فاعتجر منه بشطر، فنظر إلى المستعار في لفظ الاعتجار، ولو نُظِر إليه في الآية الكريمة لقيل: فَكَسَاهُمْ لباسَ الجوع والخوف، ولو نظر إليه كُثَيِّر لقال: ضافي الرداءِ إذا تبسَّم ضاحكاً». اهـ. بتصرف.

قوله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

حصرت ﴿إِنَّمَا﴾ هذه المُحَرَّمات وقت نزول الآية، ثم نزلت المحرَّمات بعد ذلك.

وقرأ جمهور النَّاس: ﴿الْمَيْتَةَ﴾ مخففاً، وشددها أبو جعفر بن القعقاع، وهو الأصل، والتخفيف طارىءٌ عليه، والعامل في نصبها ﴿حَرَّمَ﴾، وقرأت فرقة: [المَيْتَةُ] بالرفع على أن تكون [مَا] بمعنى «الذي».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكون ﴿مَا﴾ متصلة بـ ﴿إِنَّ﴾ يضعف هذا ويحكم بأنها حاصرة و﴿مَا﴾ كافة، وإذا كانت بمعنى «الذي» فيجب أن تكون منفصلة، وذلك خلاف خط المصحف. وقرأ الجمهور: ﴿حَرَّمَ﴾ على معنى: حرَّم الله. وقرأت فرقة: [حُرِّم] على ما لم يُسَمَّ فاعله، وهذا برفع [الْمَيْتَة] ولا بُدَّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والميتة المحرمة هي ما مات من حيوان البرِّ الذي له نفسٌ سائِلة حتْفَ أنفه، وأما ما ليس له نفس سائِلة كالجراد والذباب والبراغيث ودود التين وحيوان الفول وما مات من الحوت حتف أنفه وطفا على الماءِ ففيه قولان في المذهب، وما مات حتف أنفه من الحيوان الذي يعيش في الماءِ وفي البرِّ كالسلاحف ونحوها ففيه قولان، والمنْع هنا أظهر، إلاَّ أن يكون الغالب عليه العيش في الماءِ.

والدّم المحرَّم هو المنسفح الذي يسيل إن ترك مفرداً، وأمَّا ما خالط اللحم وسكن فيه فحلال طبخ ذلك اللحم به، ولا يكلف أحد تتبُّعه، ودم الحوت مختلف في تحليله وإن كان ينسفح لو تُرك.

ولحم الخنزير هو معظمُه والمقصودُ الأظهر فيه، فلذلك خصَّه بالذكر، وأجمعت الأمة على تحريم شحمه وغضاريفه، ومن تخصيصه استدلت فرقة على جواز الانتفاع بجلده إذا دُبغ ولبسه، والأولى تحريمه جملة، وأما شَعْره فالانتفاع به مباحٌ، وقالت فرقة: ذلك غير جائز، والأول أرجح.

﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، يريد كل ما نوي بذبحه غير التقرب إلى الله والقرب إلى سواه، وسواءٌ تكلم بذلك على الذبيحة أو لم يتكلم، لكن خرجت العبارة عن ذلك بـ [أُهِلَّ]، ومعناه صحيح على عادة العرب، وقصد الغَضّ منها، وذلك أَنها كانت إذا ساقت ذبيحة إلى صنم جهرت باسْم ذلك الصنم وصاحت به.

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾، قالت فرقة: معناه: أُكْرِه، وقال الجمهور: معناه: اضطرَّهُ جوع واحتياج، وقرأَت فرقة: [فَمَنُ] بضم النون [ٱضْطُرّ] بضم الطاءِ، وقرأَت فرقة: [فَمَنِ] بكسر النون [ٱضْطِرَّ] بكسر الطاءِ على أَن الأَصل: «ٱضْطُرِرَ»، فنقلت حركة الراءِ إلى الطاءِ وأُدغمت الراءُ في الراءِ. [وقوله: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾][1] قالت فرقة: هو صاحب البغي على الإمام، أَو في قطع الطريق، وبالجملة في سفر المعاصي، والعادي بمعناه في أَنه من ينوي المعصية، وقال الجمهور: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ معناه: غير مستعمل لهذه المحرمات مع وجود غيرها، ﴿وَلَا عَادٖ﴾ معناه: لا يعدو حدود الله في هذا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا القول أَرجح وأَعمُّ في الرخصة.

وقالت فرقة: باغٍ وعادٍ في الشِّبَع والتَّزوُّد، واختلف النَّاسُ في صورة الأَكل من الميتة ـ فقالت فرقة: الجائز من ذلك ما يُمسك الرَّمَق فقط، وقالت فرقة: بل يجوز الشبع التَّام، وقالت فرقة ـ منهم مالك رحمه الله ـ: يجوز الشِّبع والتَّزوُّد، وقال بعض النحويين في قوله: [عَاد]: إِنه مقلوب من عائِدٍ، فهو كشاكي السلاح، وكيوم راحٍ، وكقول الشاعر:

لَاثٍ بِهِ الأَشاءُ والْعُبْرِيُّ[2]

---

(١) ما بين العلامتين [. . . . . .] زيادة يقتضيها سياق الكلام، وهو غير موجود بالأصل.

(٢) استشهد به صاحب اللسان في (لوث) وفي (عبر)، قال في (لوث): «ولاثَ الشجرُ والنباتُ فهو لائثٌ ولاثٌ ولاثٍ: لبس بعضه بعضاً وتَنَعَّم. . . ولاثٍ مقلوب عن لائثٍ، من لاثَ يلوثُ فهو لائثٌ، وزنه فاعِلٌ، قال: (لاثٍ به الأشاءُ والعُبري)، وهذا هو موضع الاستشهاد الذي قصده ابن عطية، والأشاءُ (بالفَتح والمدّ): صغار النَّخل، أَو النخل عامة، واحدته أشاءَةٌ، والعُبْري من السِّدْر: ما نبت على عِبْر النهر وعظم، منسوبٌ إليه، نادرٌ، وقيل: هو ما لا ساقَ له منه، وإنما يكون ذلك فيما قارب العبْر، وفي (اللسان ـ عبر): قال يعقوب: العُبْرِيُّ والعُمْري منه ما شرب الماء، وأنشد: (لاث به الأشاءُ والعُبْرِيّ)، وعلى هذا يكون المعنى: إن صغار النخل والسِّدر الذي نبت على شاطىء النهر قد التف بعضه على بعض».

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقتضي منه الإباحة للمضطر، وخرجت الإباحة في هذه الألفاظ تحرجاً فيها وتَضْيِيقاً في أَمرها، ليدل الكلام على عظم الحظر في هذه المحرمات، فغاية هذا المرخَّص له غفرانُ الله له، وحطُّه عنه ما كان يلحقه من الإثم لولا ضرورته، وهذا التخريج الذي ذكرناه يفهمه الفصحاءُ من اللفظ، وليس في المعنى منه شيءٌ، وإنما هو إيحاءٌ، وكذلك جعل غايته في موضع آخر أن لا إثم عليه[1]، وإن كان «لاَ إِثْمَ عَلَيْهِ» وقوله: «هو له مباح» يرجعان إلى معنى واحد فإن في هيئة اللفظتين خلافاً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

هذه مخاطبة للكفار الذين حرَّموا البحائر والسوائب وأَحلُّوا ما في بطون بعض الأنعام وإن كان ميتة، يدل على ذلك قوله حكاية عنهم: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾[2]، والآية تقتضي كل ما كان لهم من تحليل وتحريم، فإنه كلَّه افتراءٌ منهم، ومنه ما فعلوه في الشهور[3]. وقرأَت السبعةُ وجمهور النَّاس: [ٱلْكَذِبَ] بفتح الكاف والباءِ وكسر الذَّال، و﴿مَا﴾ مصدرية، فكأَنه قال: لوصف أَلسنتكم. وقرأَ الأَعرج، وطلحة، وأَبو معمر، والحسن: [ٱلْكَذِبِ] بخفض الباءِ على البدل من [مَا]. وقرأَ بعض أَهل الشام، ومعاذ بن جبل، وابن أَبي عبلة: [ٱلْكُذُبُ] بضم الكاف والذال والباءِ، على صفة الأَلسنة. وقرأَ مسلمة بن محارب: [ٱلْكُذُبَ] بفتح الباءِ على أَنه جمع كِذاب كَكُتُبٍ وكِتَاب.

---

(١) هذا الموضع هو قوله تعالىٰ في الآية (١٧٣) من سورة (البقرة): ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(٢) من الآية (١٣٩) من سورة (الأنعام).

(٣) ذكر الله تعالىٰ في الآية (٣٧) من سورة (التوبة) في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ الآية.

وقوله: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ﴾ إشارة إلى ميتة بطون الأنعام وكل ما أَحلُّوا، وقوله: ﴿وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ إشارة إلى البحائر والسَّوائب وكل ما حرَّموا، وقوله: ﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ إشارة إلى قولهم في فواحشهم التي هي إحداها: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾(١)، ويحتمل أَن يريد أَنه كان شرعهم لاتباعهم سُنَناً لا يرضاها الله افتراءً عليه، لأَن من شرع أَمراً فكأَنه قال لأَتباعه: هذا هو الحق، وهذا مرادُ الله. ثم أَخبرهم الله أَن الذين يفترون على الله الكذب لا يبلغون الأَمل، والفلاحُ: بلوغ الأَمل، فتارةً يكون في البقاءِ، كما قال الشاعر:

. . . . والمُمْسِي والصُّبْحُ لا بَقَاءَ مَعَهْ(٢)

ويشبه أَن هذه الآية من هذا المعنى، يُقَوِّي ذلك قوله: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾، وقد يكون في نجح المساعي، ومنه قول عبيد:

أَفْلِحْ بِمَا شِئْتَ فَقَدْ يُبْلَغُ بالضْـ ـضَعْفِ وقَدْ يُخْدَعُ الأَرِيبُ(٣)

وقوله: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ إشارةٌ إلى عيشتهم في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بعد ذلك في الآخرة.

---

(١) من الآية (٢٨) من سورة (الأعراف).

(٢) هو للأضبط بن قُرَيْع السَّعديّ، ذكر ذلك صاحب اللسان، قال: المساءُ ضد الصباح، والمُمْسِيُ من المساء كالصُّبْح من الصباح، . . . والاسم المُمْسِيُ والصُّبح، قال الأضبط بن قُرَيْع السَّعْدِيُّ:

لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الأمورِ سَعَهْ
والمُمْسِيُ والصُّبْحُ لا فَلاحَ مَعَهْ

وقد جاءَ في بعض النسخ «لا فلاح» كرواية اللسان بدلاً من «لا بقاءَ».

(٣) البيت من قصيدة لعبيد بن الأبرص يعدُّها ابن قتيبة أجود شعره، وواحدة من المعلقات السبع، وعدَّها التبريزي من القصائد العشر، ومطلعها:

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ فَالْقُطَبِيَّاتُ فَالذَّنُوبُ

ومعنى أَفْلح: عِشْ، من الفلاح وهو البقاءُ، وفي المنتهى: أفلج، ويروى (يُدرك) بدلاً من (يُبلغ)، وفي اللسان (بالنَّوْك) بدلاً من (بالضَّعف)، وضبطها محقق الديوان بضم النون المشددة، يقول: عش كيف شئت، فقد يدرك الضعيف بضعفه ما لا يدركُ القويُّ، وقد يخدع الأريبُ العاقِلُ عن عقله، قيل: سأل سعيد بن العاصي الحطيئة: من أشعر الناس؟ قال: الذي يقول: أفلح بما شئت.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ الآية، لما قصَّ الله تبارك وتعالىٰ على المؤمنين ما حرَّم أَعْلم أَيضاً بما حرَّم على اليهود؛ ليبين تبديلهم الشرع فيما استحلوا من ذلك وفيما حرَّموا من تلقاءِ أَنفسهم. وقوله: ﴿مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ إشارةٌ إِلى ما في سورة الأَنعام من ذي الظُّفُر والشحوم[1]. وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ أَي: لم نضع العقوبة عليهم بتحريم تلك الأَشياءِ عليهم في غير موضعها، بل هم طرقوا إِلى ذلك، وجاءَ من تَشَبُّثهم بالمعاصي ما أَوجب ذلك.

قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ الآية. هذه آية تأْنيس لجميع العالم، أَخبر الله تعالىٰ فيها أَنه يغفر للتائب، والآية إِشارة إِلى الكفار الذين افتروا على الله، وفعلوا الأَفاعيل المذكورة، فهم إِذا تابوا من كفرهم بالإِيمان، وأَصلحوا بأَعمال الإِسلام ـ غفر الله لهم، وتناولت هذه ـ بعد ذلك ـ كل واقع تحت لفظها من كافر وعاص، وقالت فرقة: الجهالة: العَمْد، والجهالة عندي في هذا الموضع ليست ضد العلم، بل هي تعدِّي الطور وركوب الرأْس، ومنه قول النبي ﷺ: «أَوْ أَجْهَل أَو يُجْهَل عَلَيّ»[2]، وهي التي في قول الشاعر:

أَلاَ لا يَجْهَلَــنْ أَحَــدٌ عَلَيْنَــا ... فَنَجْهَـلَ فَـوْقَ جَهْـلِ ٱلْجَـاهِلِينا[3]

ومنه لفظة الجاهلية، والجهالة التي هي ضد العلم تصحب هذه الأُخرى كثيراً، ولكن يخرج منها المتعمد، وهو الأَكثر، وقَلَّما يوجد في العُصاة من لم يتقدم له علم بحظر المعصية التي تُواقع. والضمير في [بَعْدِهَا] عائد على التوبة.

---

(١) في قوله تعالىٰ في الآية (١٤٦): ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ الآية، وهذا يدل على أن سورة الأنعام نزلت قبل سورة النَّحل.

(٢) هذا جزءٌ من حديث أخرجه ابن ماجه في الدعاءِ، وأبو داود في الأدب، والترمذي في الدعوات، والنسائي في الاستعاذة، والإمام أحمد في مسنده ٦ـ٣٠٦، ٨ـ٣، ٣٢٢، ولفظه كما في المسند ٦ـ٣٠٦: عن أُم سَلَمة أن النبي ﷺ كان إذا خرج من بيته قال: «بسم الله، توكلت على الله، اللهم إني أعوذُ بك من أن نزلَّ أو نَضلّ، أو نَظْلم أو نُظْلَم أو نَجهلَ أو يُجْهَلَ علينا».

(٣) البيت لعمرو بن كلثوم، من معلقته المشهورة، والجهل هو الطيش والغضب، أي: لا يغضب أحد علينا لئلا نثور فنقابلهم بأشد من غضبهم.

قوله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

لمَّا كَشَفَ الله فعل اليهود وتحكمهم في شرعهم بذكر ما حرَّم عليهم أَراد أَن يبيِّن بُعدهم عن شرع إِبراهيم والدعوى فيه، وأَن يصف حال إِبراهيم ليُبيِّن الفرق بين حاله وحالهم وحال قريش أَيضاً.

والأُمَّة في اللغة لفظة مشتركة تقع للخير، والعامة، والجمع الكثير من الناس، ثم يُشبَّه الرجلُ العالم أَو الملك أَو المنفرد بطريقة وحده بالناس الكثير فيُسَمَّى أُمَّة، وعلى هذا الوجه سُمِّي إِبراهيم عليه السلام أُمَّة، قال ابن مسعود رضي الله عنه: الأمة: مُعَلِّم الخير، وقال في بعض أَوقاته: إِن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان أُمَّة قانتاً، فقال له: أَبو قُرَّة الكندي، أَو فروة بن نوفل: ليس كذلك، إِنما هو أَن إِبراهيم كان أُمَّةً قانتاً، فقال: أَتدري ما الأُمة؟ هو معَلِّم الخير، وكذلك كان معاذ يُعَلِّم الخير ويطيع الله ورسوله. وقال مجاهد: سُمِّي إِبراهيم أُمَّة لانفراده بالإِيمان في وقته مدة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي البخاري أَنه قال لسارة: ليس على الأَرض اليوم مؤمن غيري وغيرك، وقال بعض النحويين ـ أَظنه أَبا الحسن الأَخفش ـ: الأُمة فُعْله من أَمَّ يؤُم، فهو كالهُمزة والضُّحكَة، أَي: يُؤْتَمُّ به.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

[أُمَّة] ـ على هذا ـ صفة، وعلى القول الأَول اسمٌ ليس بصفة. و«القَانِتُ»: المطيع الدائم على العبادة، و«الْحَنِيفُ»: المائل إِلى الخير والإِصلاح، وكانت العرب تقول لمن يَخْتَتِن ويَحُجُّ البيت: حنيفاً، وحذف النون من ﴿لَمْ يَكُ﴾ لكثرة الاستعمال، كحذفهم من: لا أُبالِ ولا أَدْرِ، وهو أَيضاً لشبه النون في حال سكونها حروفَ العلة لُغُنتها وخفَّتها وأَنها قد تكون علامة وغير ذلك، فكأَن (لَمْ) هنا دخلت على (يَكُنْ) في

حال جزم، ولا تحذف النون إذا لم تكن ساكنة في نحو قوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[1]، ولا تحذف من مثل هذا إلا في الشِّعر فقد جاءَت محذوفة، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ مُشيرٌ إلى حال تَبَرِّي إبراهيم عليه السلام من حال مشركي العرب ومشركي اليهود، إذْ كلُّهم ادَّعاه، ويلزم الإشراكُ اليهودَ من جهة تَجْسِيمهم.

و﴿شَاكِرًا﴾ صفةٌ لإبراهيم تابعة ما تقدم، و«الأَنْعُم»: جمع نعمة، و﴿ٱجْتَبَاهُ﴾ معناه: تَخَيَّره. وباقي الآية بيِّن.

قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، الحَسَنَةُ: لسانُ الصدق وإمامَتُه لجميع الخلق، هذا قول جميع المفسرين، وذلك أَن كل أُمَّة متشرعة فهي مُقِرَّة أَن إيمانها إيمانُ إبراهيم، وأَنه قُدْوتها، وأَنه كان على الصواب. وقوله: ﴿لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ بمعنى: المُنْعَم عليهم، أَي: من الصالحين في أَحوالهم ومراتبهم، أَو بمعنى أَنه في الآخرة ممَّن يُحْكم له بحكم الصالحين في الدنيا، وهذا على أَن الآية وصف حاليْهِ في الدَّارَيْن، ويحتمل أَن يكون المعنى: في أَعمال الآخرة، فعلى هذا وصف حالته في الأَعمال الدنيويَّة والأُخْرَويَّة.

قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الآية. الوحيُ إلى محمد ﷺ بهذا من جملة الحسنة التي أَتاها الله إبراهيم عليه السلام، قال ابن فُورك: وأَمَر الفاضلَ باتباع المفضول لما تقدم إلى قول الصواب والعمل به[2]، و[أَنْ] في قوله: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ﴾ مفسِّرة، ويجوز أَن تكون مفعولة، و«المِلَّة»: الطريقة في عقائد الشرع، و[حَنِيفاً] حال، والعامل فيها الفِعْلِيَّة التي في قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾، ويجوز أَن تكون حالاً من الضمير المرفوع في ﴿ٱتَّبِعْ﴾، قال مكي: ولا يكون حالاً من ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾؛ لأَنه مضاف إليه[3]، وليس كما قال؛

(١) من الآية (١) من سورة (البيِّنَة).

(٢) نقل أبو حيان عبارة ابن فُورك بلفظ: «لمَّا كان سابقاً»، وهي أوضح في الدلالة على المراد، وعلَّل الزمخشري أمر محمد باتّباع ملَّة إبراهيم بقوله: «في [ثَمّ] هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ، وإجلال محلِّه، والإيذان بأن أشرف ما أُوتي إبراهيم من الكرامة، وأجلَّ ما أُوتي من النعمة اتباعُ رسول الله ﷺ ملَّته، من قِبَل أنَّها دلَّت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها».

(٣) هذا التعليل ليس على إطلاقه، لأنه إذا كان المضاف إليه في محلّ رفع أو نصب جازت الحال منه، نحو: يُعجبني قيامُ زيد مسرعاً، وشرب السويق ملتوتاً، وقال بعض النحويين: يجوز أيضاً إذا كان =

لأن الحال قد تعمل فيها حروفُ الخفض إذا عملت في ذي الحال، كقولك: مررت بزيد قائماً[١].

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾، أي: لم يكن من ملَّة إبراهيم، وإنما جعله الله فرضاً عاقب به القوم المختلفين فيه، قاله ابن زيد، وذلك أن موسى عليه السلام أمر بني إسرائيل أن يجعلوا من الجمعة يوماً مختصاً بالعبادة، وأمرهم أن يكون يوم الجمعة، فقال جمهورهم: بل يكون يوم السبت لأن الله فرغ فيه من خلق مخلوقاته، وقال غيرهم: بل نقبل ما أمر به موسى عليه السلام، فراجعهم الجمهور، فتابعهم الآخرون، فألزمهم الله يوم السبت إلزاماً قويًّا عقوبة منه لهم، فلم يكن منهم ثبوت، بل عصوا فيه وتعدوا فأهلكهم.

وقرأ الأعمش: «إنما نزلنا السبت»، وهي قراءَة ابن مسعود، وقرأ أبو حيوة: [جَعَلَ] بفتح الجيم والعين، وورد في الحديث أن اليهود والنصارى اختلفوا في اليوم الذي يختص من الجمعة، فأخذ هؤلاءِ السبت، وهؤلاءِ الأحد، فهدانا الله إلى يوم الجمعة، قال رسول الله ﷺ: «فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه»[٢]. فليس الاختلاف

= المضاف جزءاً من المضاف إليه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾، أو كالجزء منه كقوله تعالىٰ: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾.

(١) علَّق أبو حيَّان على كلام ابن عطية هذا بقوله: «إنه بعيد عن قول أهل الصنعة؛ لأن الباءَ في (بزيدٍ) ليست هي العاملة في (قائماً)، وإنما العامل في الحال: (مَرَرْتُ)، والباءُ وإن عملت الجرَّ في (زيد) فإن زيداً في موضع نصب بـ (مررت)، وكذلك إذا حذف حرف الجر ـ حيث يجوز حذفه ـ نصب الفعل ذلك الاسم الذي كان مجروراً بالحرف». ومعنى كلام أبي حيان أن المثال الذي ذكره ابن عطية صحيح لأن المجرور في محلِّ نصب، فهو في حدود القاعدة التي ذكرناها في التعليق السابق تكميلاً لرأي ابن فورك.

(٢) أخرج الشافعي في الأم، والبخاري، ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بَيْدَ أنهم أُوتوا الكتاب من قبلنا وأُوتيناه من بعدهم، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم يوم الجمعة فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تَبَع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد». (الدر المنثور) فقوله: «هذا يومهم الذي فرض عليهم» يؤيد قول من يقول: إن الله عيَّن يوم الجمعة لليهود فخالفوا ولم يختلفوا، ولكن رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «أضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا» ـ أخرجه أحمد ومسلم عن أبي هريرة وحذيفة ـ وهذا يؤيد قول من يقول: إن الله لم يُعَيِّنه لهم، بل أمرهم باختيار يوم فاختلفوا، وتأمل بعد ذلك قول المؤلف: «فليس الاختلاف في المذكور في الآية هو الاختلاف الذي في الحديث» ـ والله الموفق للصواب.

المذكور في الآية هو الاختلاف الذي في الحديث، وباقي الآية وعيدٌ وبيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنته للمشركين، أَمره الله تعالىٰ أَن يدعو إِلى دين الله وشرعه بتَلَطُّف، وهو أَن يُسمِع المدعو حكمة، وهو الكلام الصواب القريب الواقع في النفس أَجمل موقع، و«ٱلْمَوْعِظَةُ ٱلْحَسَنَةُ»: التخويف والتوجيه والتَّلطُّف بالإِنسان، بأَن يُجِلَّه وَيُنَشِّطَهُ[1] ويجعله بصورة من يقبل الفضائل ونحو هذا، فهذه حالة من يُدعى، وحالة من يُجادل دون مخاشنة فتظهر عليه دون قتال، والكلام يعطي أَن جدَّك وهمَّك وتعبَك لا يغني؛ لأَن الله قد علم من يؤمن منهم ويهتدي، وعلم من يَضِل، فجملة المعنى: اسلك هذه السبيل ولا تلجأ للمخاشنة فإِنها غير مجدية، لأَن علم الله قد سبق بالمهتدي منهم والضال. وقالت فرقة: هذه الآية منسوخة بآية القتال، وقالت فرقة: هي مُحْكَمة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويظهر لي أَن الاقتصار على هذه الحال، وأَلاَّ يتعدي مع الكفرة متى احتيج إِلى المخاشنة وهو منسوخ لا محالة. وأَما من أَمكنت معه هذه الأَحوال من الكفار، ويرجى إِيمانه بها دون قتال، فهي فيه محكمة إِلى يوم القيامة، وأَيضاً فهي محكمة في جهة العصاة، فهكذا ينبغي أَن يوعظ المسلمون إِلى يوم القيامة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟﴾ الآية، أَطبق أَهل التفسير أَن هذه الآية مدنية نزلت في شأن التمثيل بحمزة رضي الله عنه في يوم أُحد، ووقع ذلك في صحيح البخاري، وفي كتاب السِّير، وذهب النحاس إِلى أَنها مكيَّة.

---

(١) في بعض النسخ: ويبْسُطه، والمعنى معها يصح، إذ يقال: بَسَطَ فلانٌ فلاناً: سرَّه، وفي حديث فاطمة: «يَبْسُطني ما يَبْسُطها».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمعنى متصل بما قبلها من المكي اتصالاً حسناً، لأنها تتدرَّجُ الرُّتَب من الذي يُدْعى ويوعظ، إلى الذي يجادل، إلى الذي يُجازَى على فعله، ولكن ما رَوَى الجمهور أثبت، وأيضاً فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ تعلَّق بمعنى الآية على ما روى الجمع أن كفار قريش لما مثَّلوا بحمزة رضي الله عنه وقع ذلك من نفس رسول الله ﷺ فقال: «لَئِن أَظْفَرَنِي الله بهم لأُمَثِّلَنَّ بثلاثين ـ وفي كتاب النحاس وغيره: بسبعين ـ منهم»، فقال الناسُ: إن ظفرنا لنفعلن ولنفعلن، فنزلت هذه الآية[1].

ثم عزم على رسول الله ﷺ في الصبر في الآية بعدها وسمَّى الإذايات في هذه الآية عقوبةً، والعقوبة حقيقة إنما هي الثانية، وإنَّما فعل ذلك ليستوي اللفظان وتتناسب ديباجة القول، وهذا بعكس قوله تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾[2]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[3]، فإن الثاني هو المجازيّ، والأول هو الحقيقة. وقرأ ابن سيرين: «وَإِن عَقَّبْتُم فَعَقِّبُوا».

وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: إنما نزلت هذه الآية فيمن أُصيب بظُلامة ألاَّ ينال من ظالميه إذا تمكَّن إلاَّ مثْل ظلامته، لا يتعداه إلى غيره، واختلف أهل العلم فيمن ظلمه رجل في أخذ مالٍ، ثم ائتمن الظالم والمظلوم على مالٍ، هل يجوز له خيانته في القدر الذي ظلمه؟ ـ فقالت فرقة: «له ذلك»، ومنهم ابن سيرين، وإبراهيم النَّخَعي، وسفيان، ومجاهد، واحتجت بهذه الآية وعموم لفظها، وقال مالك ـ رحمه الله ـ وفرقة معه: «لا يجوز له ذلك»، واحتَجُّوا بقول رسول الله ﷺ: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك

(١) أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، عن عطاء بن يسار، قال: نزلت سورة النحل كلها بمكة إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة يوم أُحد حيث قتل حمزة ومثل به، فقال رسول الله ﷺ: لئن ظهرنا عليهم لنُمَثِّلَنَّ بثلاثين رجلاً منهم، فلما سمع المسلمون ذلك قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم لنُمَثِّلَنَّ بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط، فأنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ إلى آخر السورة. والأحاديث كثيرة في هذه القصة عن أبي هريرة، وعن ابن عباس، وعن أُبيّ بن كعب رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين.

(٢) من الآية (٥٤) من سورة (آل عمران).

(٣) من الآية (١٥) من سورة (البقرة).

ولا تخن من خانك»[١]، ووقع في مسند ابن إسحاق أن هذا الحديث إنما ورد في رجل زنا بامرأة آخر، ثم تمكن الآخر من زوجة الثاني بأن تركها عنده وسافر، فاستشار ذلك الرجل رسول الله ﷺ في الأمر، فقال له هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويَتَقَوَّى في أَمر المال قولُ مالك رحمه الله؛ لأن الخيانة لاحقة في ذلك، وهي رذيلة لا انفكاك عنها، ولا ينبغي للمرءِ أَن يتأَسَّى بغيره في الرذائل، وإنما ينبغي أن يتجنَّبها لنفسه، وأَما الرجلُ يظلم في المال، ثمَّ يتمكن من الانتصاف دون أَن يُؤتمن فيشبه أَن ذلك جائز، يرى أن الله حكم له كما لو تمكن له بالحكم من الحاكم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، هذه عزيمة على رسول الله ﷺ في الصبر على المجازاة على التمثيل بالقتلى، وقال ابن زيد: هذه الآية منسوخة بالقتال، وجمهور الناس على أنها مُحكمة، ويروى أنه ﷺ قال لأَصحابه: «أَمَّا أَنا فأَصبر كما أُمرتُ، فماذا تصنعون؟»، قالوا: نصبر يا رسول الله كما ندبنا[٢]. وقوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أَي: بمعونة الله وتأْييده لك على ذلك، والضمير في قوله: [عَلَيْهِمْ]، قيل: يعود على الكفار، أَي: لا تتأَسف على أَن لم يُسلموا، وقالت فرقة: بل يعود على القتلى: حمزة وأَصحابه رضوان الله عليهم الذين حزن عليهم رسول الله ﷺ، والأَول أَصوب؛ إذ يكون عود الضمائر على جهة واحدة.

وقرأ الجمهور: ﴿فِي ضَيْقٍ﴾ بفتح الضاد، وقرأ ابن كثير: [في ضِيقٍ] بكسرها،

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع، وكذلك الترمذي، والدارمي، وأخرجه أحمد ٣ـ٤١٤، ولفظه كما في مسند أحمد: عن رجل من أهل مكة يقال له: يوسف، قال: كنت أنا ورجل من قريش نلي مال أيتام، قال: وكان رجل قد ذهب مني بألف درهم. قال: فوقعت له في يدي ألف درهم، قال: فقلت للقرشي: إنه قد ذهب لي بألف درهم، وقد أصبت له ألف درهم، قال: فقال القرشي: حدثني أبي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أَدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك».

(٢) في نفس المعنى ونفس الآية أخرج الإمام أحمد في مسنده (٥ـ١٣٥) عن أُبيِّ بن كعب قال: لما كان يوم أحد قتل من الأنصار أربعة وستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنربيَنَّ عليهم، فلما كان يوم الفتح قال رجل لا يُعرف: لا قريش بعد اليوم، فنادى منادي رسول الله ﷺ: أَمِنَ الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً ـ ناساً سماهم ـ فأنزل الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «نصبر ولا نعاقب».

ورويت عن نافع، وهو غَلَط ممن رواه، قال بعض اللغويين: الكسر والفتح في الضاد لغتان في المصدر، وقال أَبو عبيدة: الضِّيقُ مصدر، والضَّيْق مخفف من ضَيِّق، كَمَيْتٍ ومَيِّت، وهَيْن وهَيِّن، وقال أَبو علي الفارسي: والصواب أَن يكون الضَّيْق لغة في المصدر؛ لأَنه إِن كان مخففاً من ضَيِّق لزم أَن تقام الصفة مقام الموصوف، وليس هذا موضع ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

إِنما تقوم الصفة مقام الموصوف إِذا تخصص الموصوف من نفس الصفة، كما تقول: «رأَيْتُ ضاحكاً»، فإِنها تخصص الإِنسان، ولو قلت: «رأَيْتُ بارداً» لم يَحْسُن، وبِبَارِدٍ مثَّل سيبويه رحمه الله، و«ضَيِّق» لا تخصص الموصوف. وقال ابن عباس، وابن زيد: إِن ما في هذه الآيات من الأَمر بالصبر منسوخ.

وقوله: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ أَي: بالنصر والمعونة والتأْييد، و﴿ٱتَّقَوا﴾ يريد: المعاصي، و﴿مُحْسِنُونَ﴾ معناه: يزيدون فيما نَدَب إِليه من فعل الخير.

نجز تفسير سورة النحل والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه وسلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الإسراء(١)

هذه السورة مكيَّة إلاَّ ثلاث آيات(٢): قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾، وقوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾، نزلت حين جاء رسولَ الله ﷺ وفدُ ثقيف، وحين قالت اليهود: «لسيت هذه بأرض الأنبياء»، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ الآية، وقال ابن مسعود: في بني إسرائيل والكهف: «إنهن من العتاق الأول، وهنَّ في تلادي»(٣)، يريد أنَّهنَّ من قديم كسبه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

لفظ الآية يقتضي أن الله عزَّ وجلَّ أسرى بعبده، وهو محمد ﷺ، قال المفسرون:

---

(١) الذي في الأصول: (تفسير سورة سبحان)، وقد آثرنا الاسم المألوف الذي سميت به في المصاحف المطبوعة. وتُسمى أيضاً سورة (بني إسرائيل)، وبه سمَّاها الطبري في تفسيره، وقد أخرج النحاسُ، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: نزلت سورة بني إسرائيل بمكة.

(٢) المذكور هنا أربع آيات لا ثلاث، ولعله اعتبر الآيتين الأولى والثانية بمثابة آية واحدة، والقرطبي والشوكاني في (فتح القدير) لم يذكرا الآية الأولى هنا، واكتفيا بذكر الثلاث الباقية، أما أبو حيان في (البحر الميحيط) فقد نقل كثيراً من الأقوال، نقل عن صاحب (الغنيان) الإجماع على أن السورة مكية، ونقل قولا بأن المدني فيها آيتان فقط، هما الأولى والثانية من المذكور هنا، ثم نقل قولاً ثالثاً بأن المدني أربع آيات هي التي ذكرها ابن عطية هنا، وأرقام الآيات المدنية المذكورة هنا هي على الترتيب الذي ذكره المؤلف: (٧٣، ٧٦، ٨٠، ١٠٧)، وقد قيل أيضاً: إن المدني فيها هو الآيات: (٢٦، ٣٢، ٣٣، ٥٧)، وهذا مذكور في المصاحف المطبوعة.

(٣) أخرجه البخاري، وابن الضريس، وابن مردويه، عن ابن مسعود رضي الله عنه، واللفظ «الدُّرّ» يذكر ثلاث سور هي: بنو إسرائيل والكهف ومريم، وذكر ذلك الشوكاني في «فتح القدير»، وزاد محقق القرطبي أيضاً سورة «مريم».

معناه: سَرَى بعبده، ويظهر أن [أَسْرَى] مُعَدَّاة بالهمز إلى مفعول محذوف، تقديره: أسرى الملائكة بعبده، وذلك لأنه يقلق أن يُسْند [أَسْرى] ـ وهو بمعنى (سَرَى) ـ إلى الله عزَّ وجلَّ، إذْ هو فعل يُعطي النقلة كَمَشَى وجَرَى وأحضر وانتقل، فلا يحسن إسناد شيءٍ من هذا ونحن نجد مندوحة، فإذا صرحت الشريعة بشيءٍ من هذا النحو كقوله تعالى في الحديث: (أَتَيْتَه سعياً، وأَتَيْتُه هَرْوَلَةً)[١] حُمل ذلك بالتأويل على الوجه المخلِّص من نفي الحوادث، و[أَسْرى] ـ في هذه الآية ـ تخريج فصيحة كما ذكرنا، ولا تحتاج إلى تَجَوُّز قَلق في هذا اللفظ، فإنه ألزم للنقلة من (أَتَيْتُهُ)[٢] و﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم﴾[٣]. ويحتمل أَنْ يكون [أَسْرَى] بمعنى: (سَرى) على حذف مضافٍ، كنحو قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾[٤]. ووقع الإسراءُ في مُصنَّفات الحديث، ورُوي عن الصحابة في كل أقطار الإسلام، فهو من المتواتر بهذا الوجه. وذكر النقاش ممَّن رواه عشرين صحابيّاً، فروى جمهور الصحابة، وتَلَقَّى جلُّ العلماء منهم أن الإسراءَ كان بشخصه ﷺ، وأنه ركب البراق من مكة ووصل إلى بيت المقدس وصلَّى فيه. وروى حذيفة وغيره أن رسول الله ﷺ لم ينزل من البراق في بيت المقدس ولا دخله، ـ قال حذيفة: ولو صلَّى فيه لكُتب عليكم الصلاةُ فيه ـ وأنه ركب البراق بمكة ولم ينزل عنه

---

(١) ورد هذا في حديث قدسي رواه البخاري في التوحيد، ومسلم في التوبة والذكر، والترمذي في الزهد والدعوات، وابن ماجه في الأدب، والدارمي في الرقاق، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، ولفظه كما في مسلم، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلَّ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ خير منهم، وإن تقرَّب منِّي شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً، وإن تقرَّب إلي ذراعاً تقرَّبت منه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيتُهُ هرْوَلةً».

(٢) يريد (أَتَيْتُه) التي في الحديث القدسي، وفيها مع الانتقال والحركة.

(٣) من الآية (٢٦) من سورة النحل، وقد نقل صاحب (البحر المحيط) كلام ابن عطية هذا عن (أَسْرَى)، ثم عقَّب عليه بقوله: «وإنما احتاج ابن عطية إلى هذه الدعوى اعتقاداً منه بأنه إذا كان (أَسْرَى) بمعنى (سَرَى) لزم من كون الباء للتعدية مشاركة الفاعل للمفعول، وهذا شيءٌ ذهب إليه المبرد، فإذا قلتَ: «قمتُ بزيد» لزم منه قيامك وقيام زيد عنده، وهذا ليس كذلك، والْتَبَستْ عنده باءُ التعدية بباءِ الحال، فباءُ الحال يلزم فيها المشاركة إذ المعنى: قمتُ مُلْتَبساً بزيد، وباءُ التَّعدية مرادفة للهمزة، فقولك: «قمتُ بزيد» والباءُ للتعدية مثل قولك: «أقمتُ زيداً»، ولا يلزم من إقامتك إياه أن تقوم أنت، اهـ بتصرف.

(٤) من الآية (١٧) من سورة البقرة. قال أبو حيان في البحر: «يعني أن يكون التقدير: سرت ملائكته بعبده، فحذف المضافُ وأُقيم المضاف إليه مقامه، وهذا مبني على أنه يلزم المشاركة والباءُ للتعدية».

حتى انصرف إلى بيته إلاَّ في صعوده إلى السماء. وقالت عائشة ومعاوية: إنما أُسري بنَفْس رسول الله ﷺ، ولم يفارق شخصُه مضجعه، وإنها كانت رؤْيا رأى فيها الحقائق من ربّه عزَّ وجلَّ. وجوَّزه الحسن وابن إسحاق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والحديث مطوَّل في البخاري ومسلم وغيرهما فلذلك اختصرنا نصَّه في هذا الكتاب، وركوب البراق على قول هؤلاء يكون من جملة ما رُئي في النوم، قال ابن المسيب، وأبو سلمة بن عبد الرحمن في كتاب الطبري: البراق هو دابة إبراهيم عليه السلام الذي كان يزور عليه البيت الحرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يريدان: يجيءُ من يومه ويرجع، وذلك من مسكنه بالشام. والصحيح ما ذهبَ إليه الجمهور، ولو كانت منامية ما أمكن قريش أن تُشَنِّع، ولا فُضِّل أبو بكر رضي الله عنه بالتصديق، ولا قالت له أمُّ هانئٍ: لا تحدث الناس بهذا فيكذبوك، إلى غير هذا من الدلائل.

واحتُجَّ لقول عائشة رضي الله عنها قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يحتمل القول الآخر؛ لأنه يقال لرؤْية العين: رُؤْيا. واحتُجَّ أيضاً بأن في بعض الأحاديث: (فاستيقظت وأنا في المسجد الحرام)، وهذا يحتمل أن يُرَدَّ من الإسراء إلى نوم. واعترض قول عائشة بأنها كانت صغيرة لم تشاهد ولا حدثت عن النبي ﷺ، وأما معاوية فكان كافراً في ذلك الوقت، غير مشاهد للحال، صغيراً، ولم يحدث عن النبي عليه الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: [سُبْحَانَ] مصدر غير متمكن؛ لأنه لا يجري بوجوه الإعراب، ولا تدخل عليه الألف واللام، ويجيءُ منه فعل، وسبَّح معناه: قال سبحان الله، فلم تستعمل سبَّح إلاَّ إشارة إلى سبحان، ولم يتصرف لأن في آخره زائدتين، وهو معرفة

(١) من الآية (٦٠) من هذه السورة (الإسراء).

بالعملية، وإضافته لا تزيده تعريفاً، هذا كله مذهب سيبويه فيه. وقالت فرقة: نصبه على النداءِ، كأنه قال: يا سبحان الذي أَسْرى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، ومعناه: تنزيهاً لله. وروى طلحة بن عبيد الله الفيَّاض أحد العشرة[١] أنه قال للنبي ﷺ: ما معنى (سبحان الله)؟ فقال: (تنْزيه الله من كُلِّ سُوءٍ)، والعامل فيه على مذهب سيبويه الفعْلُ الذي هو من معناه لا من لفظه إذ لم يَجْر من لفظه فعل، وذلك مثل: «قَعدَ القُرْفُصاءَ واشْتَمَل الصَّمَّاءَ»[٢]، فالتقدير عنده: أُنَزِّه الله تنزيهاً، فوقع [سُبْحَانَ] مكان قولك: تنزيهاً.

وقال قوم من المفسرين: [أَسْرَى] فعلٌ غير مُتَعَدٍّ، عَدَّاه هنا بحرف الجَرِّ، تقول: أَسْرَى الرجل وَسَرَى إذا سارَ بالليل بمعنى. وقد ذكرتُ ما يظهر في اللفظة من جهة العقيدة. وقرأ حذيفة وابن مسعود: «أسرى بعبده من الليل من المسجد الحرام».

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾. قال أنس بن مالك: أراد المسجد المحيط بالكعبة نفسها، ورجَّحه الطبري، وقال: هو الذي يُعرف إذا ذُكر هذا الاسم، وروى الحسن بن أبي الحسن عن النبي ﷺ أنه قال: (بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان)[٣]، وذكر عبد بن حميد الكمشي في تفسيره، عن سفيان الثوري أنه قال:

---

(١) هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي القريش المدني، وهو أحد العشرة المُبَشَّرين بالجنة، وأحد السِّتَّة أصحاب الشورى، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام، كان من دهاة قريش، وكان يقال له ولأبي بكر: القرينان، ويقال له: «طلحة الجود» و«طلحة الخير»، و«طلحة الفيَّاض»، وكل ذلك لقَّبه به النبي ﷺ في مناسبات مختلفة، ودعاه مرة: «الصبيح المليح الفصيح»، أُصيب في أُحُد بعد أن ثبت مع الرسول ﷺ بأربعة وعشرين جرحاً، قتل يوم الجمل وهو بجانب عائشة رضي الله عنهما، ودفن بالبصرة، له ٣٨ حديثاً.

(٢) القُرْفصاءُ: جلسة المحتبي بيديه، وهي أن يجلس على أليتيه ويلصق فخذيه ببطنه ويحتبي بيديه يضعهما على ساقيه. والصماءُ: ضرب من الاشتمال، واشتمالُ الصماءِ أن تُجَلِّل جسدك بثوبك نحو شملة الأعراب بأكسيتهم، وهو أن يردَّ العربي الكساءَ من ناحية يمينه على يده اليسرى وعاتقه الأيسر، ثم يرده ثانية من خلفه على يده اليمنى وعاتقه الأيمن فيغطيهما جميعاً.

(٣) أخرجه ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، قال في (الدرِّ المنثور): «عن الحسن بن الحسين رضي الله عنه»، والذي في تفسير ابن جرير: «عن الحسن بن أبي الحسن» ـ واللفظ فيهما: «بينا أنا نائم في الحجر جاءني جبريل فهزني برجله فجلست». . . الخ.

أُسْري بالنبي ﷺ من شِعْب أبي طالب. وقالت فرقة: «المسجد الحرام» مكَّةُ كلها، واستندوا إلى قوله تعالى ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾(١)، وعُظم المقصد هنا إنما هو مكة. ورَوَى بعض هذه الفرقة عن أم هانىءٍ أنها قالت: كان رسول الله ﷺ ليلة الإسراء في بيتي(٢)، ورويَ بعضُها عن النبي ﷺ أنه قال: (فُرج سقف بيتي)، وهذا يلتئم مع قول أم هانىء رضي الله عنها.

وكان الإسراءُ فيما قال مقاتل قبل الهجرة بعام، وقاله قتادة، وقيل: بعام ونصف، قاله عروة عن عائشة رضي الله عنها، وكان ذلك في رجب، وقيل: في ليلة سبع عشرة من ربيع الأول، والنبي ﷺ ابن إحدى وخمسين سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً، والمتحقق أن ذلك كان بعد شق الصحيفة(٣)، وقيل: بيعة العقبة، وقع في الصحيحين لِشُرَيْك بن أبي نمر وَهْمٌ في هذا المعنى، فإنه روى حديث الإسراء وقال فيه: «وذلك قبل أن يوحى إليه». ولا خلاف بين المحدِّثين أن هذا وهم من شريك(٤).

و«المسجدُ الأَقْصى» مسجد بيت المقدس، وسمَّاه «الأقصى» أي في ذلك الوقت، كان أقصى بيوت الله الفاضلة من الكعبة، ويحتمل أن يريد بـ[الأَقْصَى]: البعيد، دون مفاضلة بينه وبين سواه، ويكون المقصد إظهار العجب في الإسراء إلى هذا البُعْد في ليلة.

---

(١) من الآية (٢٧) من سورة (الفتح).

(٢) أخرجه الطبراني، وابن مردويه، عن أم هانىء رضي الله عنها، وأخرج نحوه أبو يعلى وابن عساكر، وأخرج أيضاً نحوه ابن إسحاق، وابن جرير (الدر المنثور).

(٣) روى ابن إسحاق أن قريشاً حين رأت أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وبعد إسلام عمر وحمزة، فاجتمعت قريش، وائتمرت على أن تكتب فيما بينها كتاباً تتعاقد فيه قبائلها على بني هاشم، وبني المطلب، على أن لايُنْكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، وكتبوا ذلك في صحيفة، وتعاهدوا وتواثقوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة. وهذه الصحيفة كانت موضع نقد من أهل العقل في قريش، وانتهت إلى أن شقت ومزقت.

(٤) حديث شريك بن نمير هذا أخرجه البخاري، ومسلم، وابن جرير، وابن مردويه، وقال فيه الحافظ عبد الحق رحمه الله في كتابه (الجمع بين الصحيحين): «هذا الحديث بهذا اللفظ من رواية شريك بن أبي نمر، عن أنس، وقد زاد فيه زيادة مجهولة، وأتى فيه بألفاظ غير معروفة، وقد روى حديث الإسراء جماعة من الحفاظ المتقنين، والأئمة المشهورين، كابن شهاب، وثابت البناني، وقتادة ـ عن أنس ـ فلم يأت أحد منهم بما أتى به شريك، وشريك ليس بالحافظ عند أهل الحديث». وقد انتقد رواية شريك هذه أيضاً سنداً ومتناً الشهابُ الخفاجي في كتاب (نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض).

والبَرَكَة حوله من جهتين: إحداهما النبوة والشرائع والرسل الذين كانوا في ذلك القطر وفي نواحيه ونواديه، والأخرى النِّعَمُ من الأشجار والمياه والأرض المفيدة التي خصَّ الله الشَّام بها، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الله بارك فيما بين العريش والفرات، وخصَّ فلسطين بالتقديس).

وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ يريد: لنري محمداً بعينيه آياتنا في السموات، والملائكة، والجنة، ، والسِّدرة، وغير ذلك مما رآه تلك الليلة من العجائب، ويحتمل أن يريد: لنري محمداً ﷺ للناس آية، أي: يكون النبي ﷺ آية في أن يصنع اللهُ لبشرٍ هذا الصُّنع، وتكون الرُّؤْية ـ على هذا ـ رؤْية قلب.

ولا خلاف أَن في هذا الإسراء فُرضت الصلواتُ الخمس على هذه الأمة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وعيدٌ من الله تبارك وتعالى للكفار على تكذيبهم محمداً ﷺ في أمر الإسراء، فهي إشارة لطيفة بليغة إلى ذلك، أي: هو السميع لما تقولون، البصير بأفعالكم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾.

عطف قوله تعالى: ﴿وآتَيْنَا﴾ على ما في قوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ من تقدير الخبر، كأنه قال: أَسْرَيْنَا بعبدنا وأريناه آياتنا، و﴿الكتاب﴾: التوارة، والضمير في ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ يحتمل أن يعود على ﴿الكتاب﴾، ويحتمل أن يعود على ﴿مُوسَى﴾ عليه السلام. وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ يجوز أن يكون في موضع نصب بتقدير: كراهية، وأن يكون في موضع خفض بتقدير: بألاَّ تتَّخذُوا، ويجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ مفسِّرة بمعنى: أيْ، كما قال: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟﴾(١)، فهي في هذا مع أمرٍ، وهي في آيتنا هذه مع نَهْيٍ، والمعنى في هذه التقديرات: جعلنا ذلك لئلا تتخذوا يا ذُرِّيَّةَ، ويحتمل أن تكون [ذُرِّيَّةَ] مفعولاً، ويحتمل أن تكون ﴿أَنْ﴾ زائدة، ويضمر في الكلام قول تقديره: قلنا لهم: لا تتخذوا،

---

(١) من الآية (٦) من سورة (ص).

وأمَّا أن يُضمر القول ولا تجعل [أنْ] زائدة فلا يتَّجه؛ لأن ما بعد القول إمَّا أن يكون جملة تُحْكَى، وإمَّا أن يكون ترجمة عن كلام لا هو بعينه، فيعمل القول في الترجمة، كما تقول ـ لمنْ قال لا إله إلا الله ـ: قلْت حقّاً، وقوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ ليس بواحد من هذين، قاله أبو علي. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ على المخاطبة، وقرأ أبو عمرو وحده: [ألاّ يَتَّخِذوا] بالياء على لفظ الغائب، وهي قراءة ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وعيسى، وأبي رجاء. و«الْوَكيلُ» فعيل من التوكل، أي: مُتَوَكَّلاً عليه في الأمور، فهو يؤلهه بهذا الوجه، قال مجاهد: [وَكيلاً]: شريكاً.

وقرأ جمهور الناس: (ذُرِّيَّةَ) بضم الذال، وقرأ عامر بفتحها، وقرأ زيد بن ثابت، وأبان بن عثمان، ومجاهد أيضاً بكسرها، وكل هذا بشد الراء والياء، ورُويت عن زيد بن ثابت بفتح الذال وتسهيل الراء وشدِّ الياء، على وزن فَعيلَة، و(ذُرِّيَّة) وزنها فعولة، أصلها (ذُرُورَة)، أُبدلت الراءُ الثانية ياءً وأُدغمت ثم كسرت الراءُ لتناسب الياء. وكل هؤلاء قرؤوا: [ذُرِّيَّةَ] بالنصب، وذلك مُتَّجه، إمَّا على المفعول بـ[تَتَّخذُوا]، ويكون المعنى: ألاَّ تتخذوا بشراً إلهاً من دون الله، وإمَّا على النداءِ، أي: يا ذُرِّيَّةَ، فهي مخاطبة للعالَم ـ قال قومٌ: وهذا لا يتَّجه إلاَّ على قراءة من قرأ: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ بالتاء من فوق، ولا يجوز على قراءة من قرأ بالياء من تحت؛ لأن الفعل لغَائبٍ والنداء لمخاطب، والخروج من الغيبة إلى الخطاب إنما يُسْتَسْهل مع دلالة الكلام على المراد، وفي النداء لا دلالة إلاَّ على غاية التكلف ـ، وإمَّا على النصب بإضمار أَعْني، وإمَّا على البدل من قوله: [وَكيلاً]، وهذا أيضاً فيه تكلُّف. وقرأَت فرقة: [ذُرِّيَّةُ] بالرفع على البدل من الضمير المرفوع في [تَتَّخذُوا]، وهذا أيضاً يتوجه على القراءة بالياء، ولا يجوز على القراء بالتاء؛ لأنه لا يبدل من ضمير مخاطب، ولو قلت: «ضربتك زيداً» على البدل لم يجز. وقوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ إنما عبَّر بهذه العبارة عن الناس الذين عناهم في الآية بحسب الخلاف المذكور، ولأن في هذه العبارة تعديد النعمة على الناس في الإنجاء المؤدِّي إلى وجودهم، ويقبح الكفر والعصيان مع هذه النعمة، والذي حُملوا مع نوح عليه السلام وأَنْسلوا هم بنوه لصُلْبه؛ لأنه آدم الأصغر، وكل من على الأرض من نسله، هذا قول الجمهور، وذكره الطبري عن قتادة ومجاهد، وإن كان معه غيره فلم يُنْسل. قال النقاش: اسم نوح عبدُ الجبار، وقال ابن الكلبي: اسمُهُ فرج، ووصفه بالشكر لأنه كان يحمد الله في كل حالٍ، وعلى كل نعمة، على

المطعم والمشرب والملبس والبراز وغير ذلك، ﷺ. قاله سلمان الفارسي، وسعيد بن مسعود، وابن أبي مريم، وقتادة.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية، قال الطبري: معنى [قضينا]: فَرَغْنَا، وحكى عن غيره أنه قال: [قضَيْنَا] هنا بمعنى: أخبرنا، وحكى عن آخرين أنهم قالوا: [قَضَيْنَا] معناه: في أم الكتاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما يُلْبِس في هذا المكان تعديةُ [قضَيْنَا] بـ[إلى]، وتلخيص الكلام عندي أن هذا الأمر هو مما قضاه الله تعالى في أم الكتاب على بني إسرائيل وألزمهم إيَّاه، ثم أخبرهم به في التوراة على لسان موسى، فلما أراد هنا الإعلام بالأمرين جميعاً في إيجاز جعل [قضينا] دالَّةً على النفوذ في أُم الكتاب، وقَرَن بها [إِلَى] دالة على إنزال الخبر بذلك إلى بني إسرائيل، والمعنى المقصود مفهوم خلال هذه الألفاظ، ولهذا فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما مرَّةً بأن قال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ معناه: أعلمناهم، وقال مرَّةً: معناه: قضينا عليهم و«الْكِتَابُ» هنا التوراة؛ لأن القَسَم في قوله تبارك وتعالى: [لَتُفْسِدُنَّ] غير متوجِّه مع أن يُجعل «الكتابُ» هو اللوح المحفوظ. وقرأ سعيد بن جبير، وأبو العالية الرياحي: [في الكُتُب] على الجمع، قال أبو حاتم: قراءة الناس على الإفراد. وقرأ الجمهور: (لَتُفْسِدُنَّ) بضم التاء وكسر السين، وقرأ عيسى الثَّقَفي [لَتَفْسُدُنَّ] بفتح التاء وضم السين والدال، وقرأ ابن عباس، ونصر بن عاصم، وجابر بن زيد: [لَتُفْسَدُنَّ] بضم التاء وفتح السين وضم الدال. وقوله تعالى: [وَلَتَعْلُنَّ] أي: لَتَتَكَبَّرُنَّ عن طاعة الآمرين بطاعة الله، وتطلبون في الأرض العلوّ والفساد، وتظلمون من قدرتم على ظلمهم، ونحو هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومقتضى هذه الآيات أن الله تعالى أعلم بني إسرائيل في التوارة أنه سيقع منهم عصيان وطغيان وكفر لنعم الله تعالى عندهم في الرُّسل والكتب وغير ذلك، وأنه سيرسل عليهم أُمَّةً تغلبهم وتقتلهم وتذلهم، ثم يرحمهم بعد ذلك ويجعل لهم الكرَّة ويردُّهم إلى حالهم الأولى من الظهور، فتقع منهم المعاصي وكُفْر النعم، والظلمُ والقتلُ، والكفرُ بالله من بعضهم، فيبعث الله عليهم أُمَّةً أخرى تخرب ديارهم وتقتلهم

وتجليهم جلاء مبرحاً[(١)]، وأعطى الوجود بعد ذلك هذا الأمر كله، وقيل: كان بين المرَّتَين: آخر الأولى وأول الثانية مائتا سنة وعشر سنين[(٢)] ملكاً مُؤيداً بأنبياءَ، وقيل: سبعون سنة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧﴾.

الضمير في قوله تعالى: [أُولاَهُمَا] عائد على قوله: [مَرَّتَيْن]، وعبَّر عن الشَّرِّ بالوعد لأنه قد صرَّح بذكر المعاقبة، وإذا لم يجيء الوعد مطلقاً فجائز أن يقع في الشَّرِّ.

وقرأ علي بن أبي طالب، والحسن بن أبي الحسن: [عَبيداً]، واختلف الناس في العبيد المبعوثين وفي صورة الحال اختلافاً شديداً متباعداً. عُيُونه أن بني إسرائيل عَصَوا وقتلوا زكريا عليه السلام فغزاهم سَنْحاريب مَلك بابل[(٣)]، كذا قال ابن إسحاق، وابن جبير. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: غزاهم جالوت من أهل الجزيرة، وروي عن عبد الله بن الزبير أنه قال في حديث طويل: غزاهم آخراً ملك اسمُه خردوش، وتولَّى قتلهم على دم يحيى بن زكريا قائدٌ لخردوش اسمه هورزادان، وكف عن بني إسرائيل وسكن برعاية دم يحيى بن زكريا عليهما السلام، وقيل: غزاهم أولاً صخابين ملك رومة، وقيل: بختنصر، ورُوي أنه دخل قبلُ في جيش من الفرس وهو خامل يسير في مطبخ الملك، فاطلع من جور بني إسرائيل على ما لم تعلمه الفرس؛ لأنه كان يُداخلهم، فلما انصرف الجيش ذكر ذلك للملك الأعظم، فلما كان بعد مدة جعله رئيس الجيش وبعثه، فخرب بيت المقدس وقتلهم وجلاهم، ثم انصرف فوجد الملك قد مات فملك موضعه، واستمرت حاله حتى ملك الأرض بعد ذلك.

وقالت فرقة: إنما غزاهم بختنصر في المرة الأخيرة حين عصَوْا وقتلوا يحيى بن

---

(١) أي شاقاً قاسياً.

(٢) في إحدى النسخ: «وعشرين سنة»، وما في البحر المحيط يوافق ما أثبتناه.

(٣) ملك آشور، وهو سنحاريب بن سنجور وخليفته، حمل على بلاد الكلدانيين وأرمينية.

زكريا عليهما السلام، وصورة قتله أن الملك أراد أن يتزوج بنت امرأته، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك، فعزَّ ذلك على امرأته، فزينت بنتها وجعلتها تسقي الملك الخمر، وقالت لها: إذا راودك عن نفسك فتمنَّعي حتَّى يعطيك ما تَتَمَنَّيْ، فإذا قال لك: تمنَّيْ عليَّ ما أردت فقولي له: رأس يحيى بن زكريا، ففعلت الجارية ذلك، فردَّها الملك مرتين، وأجابها في الثالثة، فجيء بالرأس في طست ولسانه يتكلم ويقول: لا تحلُّ لك، وجرى دم يحيى عليه السلام فلم ينقطع، فجعل الملك عليه التراب حتى ساوى سور المدينة والدم ينبعث، فلما غزاهم الملك الذي بعث الله عليهم ـ بحسب الخلاف فيه ـ قتل منهم على الدَّم حتى سكن بعد قتل سبعين ألفاً. وهذا مقتضى هذا الخبر، وفي بعض رواياته زيادة أو نقص، فَرَوَتْ فرقة أن أشعياء النبي عليه السلام وعَظَهم وذكَّرهم الله ونِعَمَه في مقام طويل نصَّه الطبري، وذكر أشعياءُ في آخره محمداً ﷺ وبشَّر به، فابتدره بنو إسرائيل، فَفَرَّ منهم، فلقي شجرة فتفلَّقت له حتى دخلها فالتأَمَت عليه، فعرض الشيطان عليهم هُدْبَةً من ثوبه، فأخذوا منشاراً فنشروا الشجرة وقطعوه في وسطها فقتلوه، وحينئذ بعث الله عليهم في المرة الأخيرة.

وذكر الزهراوي عن قتادة قصصاً أن زكريا هو صاحب الشجرة، وأنهم لمَّا حملت مريم قالوا: ضيَّع بنت سيدنا حتى زنت، فطلبوه فهرب منهم حتى دخل في الشجرة فنشروه. وروت فرقة أن بختنصر كان حفيد سَنْحاريب الملك الأول، وروت فرقة أن الذي غزاهم آخراً هو سابور ذو الأكتاف(١). وقال أيضاً ابن عباس رضي الله عنهما: سلَّط الله عليهم حين عادوا ثلاثة أملاك من فارس: سَنْدبَادان وشَهْرَيَازَانٍ وآخر. وقال مجاهد: إنما جاءَهم في الأولى عسكر من فارس فجاسَ خلال الديار وتقلَّب، ولكن لم يكن قتال ولا قتل في بني إسرائيل، ثم انصرفت عنهم الجيوش، وظهروا وأُمدُّوا بالأموال والبنين حتى عَصَوْا وطغوا، فجاءَه في المرة الثانية من قتلهم وغلبهم على بيضتهم وأهلكهم آخر الدهر.

قوله تعالى: ﴿فَجَاسُواْ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾، وهي المنازل والمساكن، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يردُّ على قول مجاهد: إنه لم يكن في المرة

---

(١) هذا لقبٌ لُقِّب به سابور لأنه أمر بفكِّ أكتاف الأسرى في الحرب، وقد حارب العرب لأنهم حالفوا الروم ضد فارس.

الأولى غلبة ولا قتال، وهل يدخل المسجد إلاَّ بعد غَلبة وقتال؟ وقد قال مؤرّخ: جاسوا خلال الأزقَّة وقد ذكر الطبري في هذه الآية قَصَصاً طويلا، منه ما يخص الآيات، وأكثره لا يخص، وهذه المعاني ليست بالثابتة فلذلك اختصرتها.

وقوله تعالى: [بَعَثْنَا] يحتمل أن يكون الله تعالى بعث إلى ملك تلك الأمة رسولاً يأمره بغزو بني إسرائيل، فتكون البعثة بأمر، ويحتمل أن يكون عَبَّر بالبعث عمّاً أُلقى في نفس الملك الذي غزاهم. وقرأ الناس: (فَجَاسُوا) بالجيم، وقرأ أبو السَّمال: [فَحَاسُوا] بالحاء، وهما بمعنى الغلبة والدخول قَسْراً، منه الحَوْس، وقيل لأبي السَّمَّال: إنما القراءة (جَاسُوا) بالجيم، فقال: جاسوا وحاسُوا واحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا يدل على تَخَيُّر لا على رواية، ولهذا لا تجوز الصلاة بقراءته وقراءة نظرائه(١).

وقرأ الجمهور: (خلال)، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [خَلَلَ]، ونصبه في الوجهين على الظرف.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية عبارةٌ عما قال الله تعالى لبني إسرائيل في التوارة، وجعل [رَدَدْنَا] في موضع (نَرُدُّ) إذْ وقت إخبارهم لَمْ يقع الأمر بعد، لكنه لما كان وعد الله في غاية الثقة أنه يقع عبَّر عن مستقبله بالماضي، وهذه الكرَّة هي بعد الجلوة الأولى كما وصفنا، فغلبت بنو إسرائيل على بيت المقدس وملكوا فيه، وحسنت حالهم برهة من الدهر، وأعطاهم الله الأموال والأولاد وجعلهم إذا نفروا إلى أمر أكثر الناس، قال الطبري: وصيَّرناكم أكثر عدد نافر منهم. قال قتادة: كانوا أكثر نَفيراً في زمن داود عليه السلام. و[نفيراً] يحتمل أن يكون جمع نَفْر، كَكَلْب وكليب، وعبْد وعبيد، ويحتمل أن يكون فعيلاً بمعنى فاعل، أي: وجعلناكم أكثر نافراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعندي أنَّ النَّفير اسم للجمع الذي يَنْفرُ، سُمِّي بالمصدر، وقد قال تُبَّع الحمْيَري:

فَـأَكْـرِمْ بقَحْطَـانَ مِـنْ وَالِـدٍ ... وبـالْحِمْيَـرِيِّيـنَ أَكْـرِمْ نَفِيـراً(٢)

---

(١) القراءة سُنَّة مُتَّبعة، وهي كلها مأثورة عن النبي ﷺ، فإذا قامت قراءة القارىء على الاختيار لا الرواية فهي قراءة غير صحيحة.

(٢) تُبَّع الحِميَر هو حسَّان بن أسعد أبي كرب الحميري، من أعظم تبابعة اليمن، و(تُبَّع) لَقَب كان يلقب به=

وقالوا: «لاَ في العير ولا في النفير»[١]، يريدون جمع قريش الخارج من مكة إلى بدر.

فَلَمَّا قال الله تعالى لهم: إنِّي سأفعل بكم هكذا عقَّب ذلك بوصيتهم في قوله سبحانه: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾، والمعنى: إنكم بعملكم تؤخذون، ولا يكون ذلك ظلماً ولا تشرعاً إليكم، و﴿وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ معناه: من المرتين المذكورتين، وقوله تعالى: ﴿لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾، اللام لام أمر، وقيل: المعنى: بعثناهم ليسؤوا، فهي لام (كَيْ) كلها، والضمير للعباد أولي البأس الشديد، وقرأ الجمهور: ﴿لِيَسُـُٔوا۟﴾ بالياء، جمع وهمزة بين واوين، وقرأ عاصم ـ في رواية أبي بكر ـ، وابن عامر: [لِيَسُوءَ] بالياء وهمزة مفتوحة على الإفراد[٢]، وقرأ الكسائي ـ وهي مروية عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : [لِنَسُوءَ] بنون العظمة، وقرأ أُبيُّ بنُ كعب: [لِنَسُوأَنْ] بنون خفيفة، وهي لام الأمر[٣]، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: [لَيَسُوأَنَّ] بفتح اللام ـ وهي لام القَسَم ـ والفاعل الله عزَّ وجلَّ، وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب: [لِيُسيءَ] بياءٍ مضمومة بغير واو، وفي مصحف أنس: [لِيَسُوْءَ وجْهَكم] على

= الملك الأكبر من ملوك الدولة الحميرية الثانية في اليمن، والمظنون أنه كان في القرن العاشر قبل الهجرة، قيل: إنه هو الذي قضى على قبائل جديس باليمامة، وغزا كثيراً من البلاد، ووصل إلى سمرقند، ودمشق، ومرَّ بمكة، ونفر من عبادة الأصنام. وقد ثار عليه جماعة من قومه فقتلوه. وقحطان: أبو اليمن، وحِمْيَر: أبو قبيلة من اليمن، من نسل قحطان، ومنها كانت الملوك في الزمن القديم. وتُبَّع يمدح آباءَه وأجداده، والشاهد أن نفيراً اسم للجمع الذي ينْفِر.

(١) وأول من قال هذا المثل هو أبو سفيان بن حرب، وذلك أنه أقبل بالعير التي لقريش عائداً من الشام، فلما علم بخروج المسلمين له ضرب وجوه العير فساحَلَ بها وترك بدراً على يساره، وكانت قريش قد أقبلت من مكة لنجدته، فأرسل إليهم أبو سفيان يخبرهم أنه قد نجا بالعير ويطلب منهم العودة، ولكن القرشيين أبوا الرجوع، ورجعت بنو زهرة فقط، وصادفت أبا سفيان في عودتها من طريق الساحل، فقال أبو سفيان: يا بني زهرة، لا في العير ولا في النفير، قال الأصمعي: يُضرب هذا للرجل يُحَطُّ أمره ويصغر قدره.

(٢) ومعنى هذا أن الفاعل مضمر، ويعود على الله تعالى، أو على الوعد، أو على البعث الدالّ عليه جملة الجزاء المحذوفة.

(٣) قال أبو الفتح بن جني: «كما تقول: إذا سألتني فالأعطكَ، كأنك تأمر نفسك، ومعناه: فَلأعطينك، واللامان بعده للأمر أيضاً: وهما: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾، ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾، ويقوِّي ذلك أنه لم يأت لإذا جواب فيما بعد، فدلَّ على أن تقديره: فلْنسوأنْ وجوهكم».

الإفراد، وخصَّ بالذكر الوجوه لأنها المواضع الدالة على ما بالإنسان من خير أو شَرٍّ. و«المسجد»: مسجد بيت المقدس. و«تبَّر» معناه: أفْسَد وأهلك بغشم، وقوله: ﴿مَا عَلَوْا﴾ أي: ما تغلبوا عليه من الأقطار وملكوه من البلاد[١]، وقيل: [ما] ظرفية، والمعنى: مُدَّةَ عُلُوِّهم وغلبتهم على البلاد. و«تبَّر» تحريره: ردَّ الشيءَ فُتاتاً كتِبْر الذهب والحرير ونحوه، وهو تفتيته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾.

يقول الله تعالى لبقية بني إسرائيل: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ إن أطعتم في أنفسكم واستقمتم ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ﴾، و«عَسَى» ترجٍّ في حقهم، وهذه العِدَة ليست برجوع دولة، وإنما بأن يرحم المطيع منهم، وكان من الطاعة اتِّباعهم لعيسى عليه السلام، ولمحمد ﷺ، فلم يفعلوا، وعادوا إلى الكفر والمعصية، فعاد عقاب الله تعالى، فضرب عليهم الذلَّ وقتلهم، وأذلَّهم بيد كل أُمة، وهنا قال ابن عباس رضي الله عنهما: سلَّط عليهم ثلاثة ملوك.

و«الْحَصير» فَعيل من الحصر، فهي بمعنى السجن، أي: تَحْصُرُهم، وبنحو هذا فسَّر مجاهد وقتادة وغيرهما، ويقال: الحصير أيضاً من الحصْر للْمَلِك، ومنه قول لبيد:

وَمَقَامَةٍ غُلْبِ الرِّقَابِ كَأَنَّهُمْ ... جِنٌّ لَدَى بَابِ الْحَصِيرِ قِيَامُ[٢]

---

(١) معنى هذا أن [ما] مفعول به في هذا التقدير، أما في التقدير التالي فهي ظرفية كما قال ابن عطية.

(٢) البيت من قصيدة قالها لبيد يفتخر، وهو في الديوان، وفي اللسان (حَصَرَ)، وفي (مجاز القرآن) لأبي عبيدة، ورواية اللسان (وَقَماقِمٍ غُلْبٍ). ورواية الديوان: (لَدَى طَرَفِ الحَصير). والمقامَةُ: أهل المجلس، وغُلْبُ الرقاب: غلاظُ الأعناق كالأسود، والحصيرُ: الْمَلِكُ، قيل له: حصيرٌ لأنه محجوبٌ عن الناس، وهذا موضع الاستشهاد هنا.

أما كلمة (قماقم) فمعناها العدد الكثير. وقد أشار في اللسان إلى الرواية الأخرى، قال: «الجوهري: ويُرْوَى (ومَقَامَةٍ غُلْبِ الرقاب) على أن يكون (غُلْب الرقاب) بدلاً من (مَقَامَةٍ)، كأنه قال: ورُبَّ غُلْبِ الرقاب».

ويقال لجَنْبَي الإنسان: حصيران لأنهما يحصرانه، ومنه قول الطِّرِمَّاح:

قَليـلاً تَتَلَّـى حـاجَـةً ثُـمَّ عُـولِيَـتْ عَلَى كُلِّ مَفْرُوشِ الْحَصِيرَيْنِ بادنِ[1]

وقال الحسن: «الْحَصيرُ» في الآية أراد به ما يُفْتَرَش ويُبْسَط كالحصير المعروف عند الناس[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذلك الحصير مأخوذ من الحصر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى﴾ الآية. ﴿يَهْدي﴾ في هذه الآية بمعنى: يُرْشد، ويتوجه فيها أن تكون بمعنى: يدعو، و﴿الَّتي﴾ يريد بها الحالة والطريقة. وقالت فرقة: ﴿للتي هي أقوم﴾ هي لا إله إلا الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأول أعم، وكلمة الإخلاص وغيرها من الأقوال والأفعال داخلة في الحال التي هي أقوم من كل حال تجعل بإزائها، والاختصار على ﴿أَقْوم﴾ ولم يذكر: «من كذا» إيجازٌ، والمعنى مفهوم، أي: لِلَّتي هي أقوم من كل ما غايرها، فهي النهاية في القوام، وقيّد المؤمنين بعمل الصالحات إذْ هو كمال الإيمان وإن لم يكن في نفسه، والمؤمن المفرد في العمل له بإيمانه حظٌّ في عمل الصالحات، و«الأجْرُ الكبيرُ»: الجنَّةُ، وكذلك حيث وقع في كتاب الله تعالى: «فَضْلٌ كبيرٌ وأَجْرٌ كبيرٌ» فهو الجنَّة.

---

(١) البيت للطِّرِمَّاح بن حكيم، ومعنى الطرِمَّاح: الطويل القامة، وهو من فحول الشعراءِ الإسلاميين، نشأ بالشام، وانتقل إلى الكوفة، واعتقد مذهب الأزارقة الشراة، وهم من الخوارج. والبيت في الديوان، وتَتَلَّى: تتبَّع، يقال: تَلَّى الرَّجل صلاتَه: أتبع المكتوبة التَّطَوُّع، أو أتبع الصلاة الصلاة. وتَتَلَّى أيضاً: بقي بقية من دينه (ارجع اللسان)، وَعُلِيَت: ذهب بها إلى العالية. والحصيران: جَنْبا الإنسان، سُمِّيَا بذلك لأنهما يحصرانه، وهذا موضع استشهاد ابن عطية بالبيت، والبادِنُ: السمين، يقال للذكر والأنثى، وقد يقال للأنثى: بادنة، والجمع بُدْنٌ وبُدَّنٌ.

(٢) وهو الذي يُبْسَط في البيوت، وهو منْسُوجٌ من بَرْدِيٍّ وأَسَل، سُمِّي حصيراً لأنه حُصرت طاقتَهُ بعضها مع بعض، ولهذا أشار المؤلف في كلامه، وفي الحديث الشريف أنه ﷺ قال لأزواجه: (أفضل الجهاد وأكمله حجٌّ مبرور، ثم لزوم الحصير)، أي لزوم البيوت بعد أداء فريضة الحج. ويجمع الحصير على حُصُر. وعلى هذا المعنى في (الحصير) يكون معنى الآية أن جهنم صارت للكافرين فراشاً ومهاداً، قال الثعلبي: وهو وجْهٌ حسن.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ﴾ الأولى في موضع نصب بـ[يُبَشِّرُ]، و﴿أَنَّ﴾ الثانية عطف على الأولى، وهي داخلةٌ في جملة بشارة المؤمنين. بَشَّرهم القرآن بالجنة وبأن الكفار لهم عذاب أليم، وذلك أن علْم المؤمنين بهذا مسرَّة لهم، وفي هذه البشارة وعيدٌ للكفار بالمعنى، وهذا الذي تقتضيه ألفاظ الآية. وقرأ الجمهور: ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ بضم الياء وفتح الباء وكسر الشين، وقرأ ابن مسعود، ويحيى بن وثاب، وطلحة: [وَيَبْشُرُ] بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين. و﴿أَعْتَدْنَا﴾ معناه: أحضرنا وأعددنا، ومنه العتاد. و«الأليمُ»: الموجع.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾. سقطت الواو من ﴿يَدْعُ﴾ في خط المصحف لأنهم كتبوا المسموع. وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد: هذه الآية نزلت ذامَّةً لما يفعله الناسُ من الدعاء على أموالهم وأولادهم في وقت الغضب والضجر، فأخبر الله تعالى أنهم يدعون بالشَّرِّ في ذلك الوقت كما يدعون بالخير في وقت التثبت، فلو أجاب الله دعاءهم لأهلكهم، ولكن الله تعالى يصفح ولا يجيب دعاء الضَّجِر المستعجل. ثم عذر بعض العذر في أن الإنسان له عجلة فطرية، و﴿الإِنْسَانُ﴾ هنا، قيل: يراد به الجنس بحسب ما في الخلق من ذلك. قاله مجاهد وغيره. وقال سلمان الفارسي، وابن عباس: إشارته إلى آدم عليه السلام في أنه لما نفخ الروح في رأسه عطس وأبصر، فلما مشى الروح في بدنه قبل ساقيه أعجبته نفسه فذهب يمشي مستعجلاً لذلك فلم يقدر، فأشارت ألفاظ الآية إلى ذلك. والمعنى: فأنتم ذوو عجلة موروثة من أبيكم، ويُروى أن رسول الله ﷺ جعل أسيراً في قيد في بيت سودة بنت زمعة، فسمعت سودةُ أنينَهُ فأَشفقت، فقالت له: ما بالك؟ فقال: أَلَمُ القيد، فقامت فأرخت من ربطه فسكت، ثم نامت، فَتحَيَّل في الانحلال وفرَّ، فطلبه النبيُّ ﷺ عند الصبح فأُخبر الخبر، فقال: (قطع الله يديها)، ففزعت سودة ورفعت يديها نحو السماء وهي تخاف الإجابة، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد جعل دعائي في مثل هذا رحمة على المدعو له؛ لأنِّي بشر أغضب وأعجلُ، فَلْتَرُدَّ سودةُ يديها»(١).

---

(١) ذكر القرطبي هذا الخبر ثم قال: «ذكره القُشيري أبو نصر رحمه الله»، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إنما محمد بشر، يغضب كما يغضب البشر، وإني قد اتخذت عندك عهداً لن تخلفنيه، فأيما مؤمن آذيتُه أو سببتُه أو جلدتُه فاجعلها له كفارةً وقُرْبة تقربه بها إليك يوم القيامة».

وقال فرقة: هذه الآية نزلت في شأن قريش، قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية[1]، وكان الأولى أن يقولوا: «فاهدنا إليه وارحمنا به»، فذمَّهم الله تعالى في هذه الآية.

وقالت فرقة: معنى هذه الآية معاتبة الناس على أنهم إذا نالهم شرٌّ وضرٌّ دعوا ولجُّوا في الدعاء الذي كان يجب أن يدعوه في حالة الخير ويلزمه الكل، من ذكر الله تعالى وحمده والرغبة إليه، لكن الإنسان يقصر حينئذ، فإذا مسَّه الضُّرُّ ألَحَّ واستعجل الفرج، فالآية ـ على هذا ـ نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

«الآيةُ»: العلامة المنصوبة للنظر والعبرة. وقوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا﴾، قالت فيه فرقة: سبب تعقيب الفاء أن الله تعالى خلق الشمس والقمر مضيئين، فَمَحَا بعد ذلك القمر، محاه جبريل عليه السلام بجناحه ثلاث مرات، فمن هنالك كَلَفُه وكونه منيراً فقط وقالت فرقة ـ وهو الظاهر ـ: إن قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا﴾ إنما يريد: في أصل خلقته، وهذا كما تقول: «بنيتُ داري فبدأت بالأُس[3] ثم تابعت»، فلا تريد بالفاء التعقيب، وظاهر لفظ الآية يقتضي أربع آيات، لا سيما لمن بنى على أن القمر هو المَمْحُوُّ، والشمس هي المبصرة، فَأَمَّا من قدَّر أن المَحْوَ في ظلام الليل والإبصَار في ضوء النهار أمكن أن تتضمن الآية آيتين فقط، على أن يكون فيها طرف من إضافة الشي إلى نفسه. وقوله تعالى: ﴿مُبْصِرَةً﴾ مثل قولك: «الليلٌ نائم وقائم»، أي: يُنَام ويُقَام فيه، وكذلك: «آيةٌ مُبْصِرة» أي: يبصر فيها ومعها.

وحكى الطبري عن بعض الكوفيين أنه قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

---

(١) من الآية (٣٢) من سورة (الأنفال).
(٢) من الآية (١٢) من سورة (يونس).
(٣) الأَسُ، والأُسُّ، والإِسُّ: الأساسُ، وهو قاعدة البناء التي يُقام عليها.

سَلُوا عما شئتم، فقال ابن الكواء: ما السواد الذي في القمر؟ فقال له علي: قاتلك الله، هلاَّ سألت عن أمر دينك وآخرتك؟ ذلك مَحْوُ الليل.

وجعل الله تعالى النهار مبصراً ليبتغي الناس الرزق وفضل الله، وجعل القمر مخالفاً لحال الشمس ليعلم به العدد من السنين والحساب للأشهر والأيام، ومعرفة ذلك في الشرع إنما هو من جهة القمر لا من جهة الشمس.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ منصوب بفعل مضمر يدل عليه الظاهر، تقديره: وفصلنا كل شيء تفصيلا، وقيل: [وَكُلَّ] عطف على [وَالْحِسَابَ]، فهو معمول [لِتَعْلَمُوا]، و«التَّفْصِيلُ»: البيانُ بأن تُذكر فصول ما بين الأشياء وتُزَال أسْبَابُهَا حتى يتميز الصواب من الشبهة العارضة فيه.

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ الآية. قوله: [كُلَّ] منصوب بفعل مقدر، وقرأ الحسن، وأبو رجاءٍ، وابن مجاهد (طيره في عنقه). قال ابن عباس رضي الله عنهما: «طَائِرَهُ»: ما قُدِّرَ عليه وله، وخاطب الله تبارك وتعالى العربَ في هذه الآية بما تعرف، وذلك أنه كان من عادتها التَّيَمُّن والتَّشاؤُم بالطير في كونها سانحة وبارحة[١]، وكثر ذلك حتى فعلته بالظباء وحيوان الفلوات، وسمَّت كل ذلك تطيراً، وكانت تعتقد أن تلك الطِّيَرَة قاضية بما يلقى الإنسانُ من خير وشر، فأخبرهم الله تعالى في هذه الآية في أوجز لفظ وأبلغ إشارة أن جميع ما يلقى الإنسان من خير أو شرٍّ قد سبق به القضاءُ، وأُلزم حظَّه وعمله وتكسبه في عنقه، وذلك في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾، فعبَّر عن الحظ والعمل - إذ هما متلازمان - بالطائر، قاله مجاهد وقتادة، بحسب معتقد العرب في التطَيُّر، وقولهم في الأُمور: «على الطَّائر الميمون»، و«بأَسْعَد طائر»، ومنه ما طار في المحاصة والسَّهْم[٢]، كقول أمِّ العلاء الأنصارية: «فطار لنا من القادمين مع رسول الله ﷺ في الهجرة عثمان بن مظعون»[٣]، أي: كان ذلك حظَّنا،

---

(١) السَّانح: ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك، والبارح: ما أتاك من ذلك عن يسارك.

(٢) أي في الاقتسام والتخصيص، أو في الاختيار وفي حديث رُوَيْفع: إن كان أحدنا ليطير له النَّصْل وللآخر القِدْح، معناه أن الرجلين كانا يقتسمان السهم، فيقع لأحدهما نَصْله وللآخر قِدْحهُ.

(٣) حديث أم العلاء أخرجه البخاري في الجنائز والتعبير، وأحمد (٦/٤٣٦)، ففي البخاري، عن ابن شهاب، قال: أخبرني خارجة بن زيد بن ثابت أن أم العلاء - امرأة من الأنصار - بايعت النبي ﷺ، أخبرته أنه اقتُسِم المهاجرون قرعة، فطار لنا عثمان بن مظعون، فأنزلناه في أبياتنا، فَوَجع وجعه الذي=

وأصل هذا كله من الطير التي تقضي عندهم بلقاء الخير والشر، وأبطل ذلك قولُ النبي ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة»[١].

وقوله تعالى: ﴿فِي عُنُقِهِۦٓ﴾ جرى أيضاً على مقطع العرب في أن تنسب ما كان إلزاماً، وقلادة، وأمانةً، ونحو هذا ـ إلى العُنُق، كقولهم: «دَمي في عُنق فلان»، وكقول الأعشى:

قَلَّـدْتُـكَ الشِّعْـرَ يَـا سَـلاَمَـةَ ذا الـ ... تَّفْضَـالِ، والشـيءُ حَيْثُمَـا جُعِـلاَ[٢]

وهذا كثير، ونحوهُ جَعْلُهم ما كان تكسُّباً وجنايةً وإثماً منسوباً إلى اليد؛ إذ هي الأصْلُ في التَّكَسُّب.

وقرأ أبو جعفر، ونافع، والناسُ: ﴿وَنُخْرِجُ﴾ بنون العظمة ﴿كِتَابًا﴾ بالنصب، وقرأ الحسن، ومجاهد، وابن محيصن: [يَخْرُجُ] بفتح الياء وضم الرَّاءِ على الفعل المستقبل ﴿كِتَابًا﴾، أي طائرهُ الذي كنَّى به عن عمله يَخْرُجُ له ذا كتاب. وقرأ الحسن ـ من هؤلاء: [كِتَابٌ] بالرفع، وقرأ أبو جعفر أيضاً: [وَيُخْرَجُ] بضم الياء وفتح الراء ـ على ما لم يُسَمَّ فاعله. ﴿كِتَابًا﴾، أي: طائرُهُ. وقرأ أيضاً: [كِتَابٌ]، وقرأت فرقة: [وَيُخْرِجُ] بضم الياء وكسر الراء، أي: يُخْرِجُ اللهُ، وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب: [في عنقه يقرأه

= تُوُفِّي فيه، فلما تُوفي وغُسِّل وكُفِّن في أثوابه دخل رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال النبي ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمه؟ فقلت: بأبي أنت رسول الله، فمن يكْرمه الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أمَّا هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعَل بي، قالت: فوالله لا أُزكِّي أحداً بعده أبداً.

(١) أخرجه البخاري في الطب، ومسلم في السلام، وأبو داود في الطب، وابن ماجه في المقدمة والطب، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، ولفظه كما في بعض روايات مسلم، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ، قال: «لا عَدْوى ولا طِيَرةَ ويُعجبني الفألُ، قال: قيل: وما الفألُ؟ قال: الكلمة الطيبة»، وفي رواية: «وأحبُّ الفأل الصالح».

(٢) البيت من قصدة للأعشى يمدح سلامة ذا فائش، ومطلعها:

إنَّ مَحَـلاً وَإنَّ مُـرْتَحَـلا ... وإنَّ فـي السَّفْـرِ مـا مَضَـى مَهَـلا

وقبله يقول:

يَـا خَيْـرَ مَـنْ يَـرْكَـبُ الْمَطِـيَّ وَلا ... يَشْـرَبُ كَـأْسـاً بِكَـفِّ مَـنْ بَخِـلا

والتَّفْضَال: الإحسانُ، وأن يكون للإنسان فضل على غيره في القدر والمنزلة.

يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً]. وهذا الكتاب هو عمل الإنسان وخطيئاته(١).

وقرأ الجمهور: ﴿يَلْقَاهُ﴾ بفتح الياء وسكون اللام وخفَّة القاف، وقرأ ابن عامر وحده(٢): [يُلَقَّاهُ] بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف، وهي قراءة الحسن ـ بخلاف ـ وأبي جعفر الجحدري.

وقوله: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ حُذِفَ من الكلام «يُقَالُ لَهُ» اختصاراً لدلالة الظاهر عليه. و«الحَسِيبُ»: الحاسِبُ، ونصبه على التمييز، وأسند الطبري، عن الحسن أنه قال: «يا بن آدم، بُسطت لك صحيفة، ووكل بك ملَكَان كريمان، أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يحفظ سيآتك، فامْلِك ما شئت أَو أَقْلِلْ أَوْ أكثر، حتَّى إذا متَّ طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً، اقرأ كتابك، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، قد عدل والله فيك مَنْ جَعَلَكَ حسيب نفسك».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى هذه الألفاظ التي ذكر الحسن يكون الطائر ما يتحصل مع ابن آدم من عمله في قبره، فتأمَّل لفظه، وهذا هو قول ابن عباس رضي الله عنهما. وقال قتاد في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾: إنه سيقرأُ يومئذ من لم يكن يقرأ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

معنى هذه الآية أن كل أحد إنما يحاسَبُ عن نفسه لا عن غيره، ورُوي أن سببها أن الوليد بن المغيرة المخزومي قال لأهل مكَّةَ: اكفروا بمحمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وإثْمُكُم عليَّ، فنزلت هذه الآية، أي: إن الوليد لا يحمل آثامكم، وإنما إثم كلٍّ

---

(١) قال الطبري: «وأولى القراءات في ذلك بالصواب قراءةُ من قرأ: ﴿ونُخْرِجُ﴾ بالنون وضمها؛ لأن الخبر جرى قبل ذلك عن الله تعالى أنه الذي ألزم خَلقه ما ألزمه من ذلك، فالصواب أن يكون الذي يليه خبراً عنه، أنه هو الذي يخرج لهم يوم القيامة، أن يكن بالنون كما كان الخبر الذي قبله بالنون».

(٢) أي: قرأ وحده من السبعة، وإلا فقد قرأ بها غيره كالحسن، والجحدري.

أحد عليه. وقالت فرقة: نزلت الإشارة في الهدى إلى أبي سَلَمَة بن عبد الأسد[١]، والإشارة بالضلال إلى الوليد بن المغيرة.

و«وَزَرَ» معناه: حَمَل، و«الْوِزْرُ»: الثِّقل[٢]، ومنه: وَزير السلطان، أي: الذي يحمل ثقل دولته، وبهذه الآية نزعت عائشة أمُّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها في الردِّ على من قال: إن الميت يُعَذَّب ببكاء الحي عليه، ونكتة ذلك المعنى إنما هيَ أن التعذيب إنما يقع إذا كان البكاءُ من سنَّة الميت وتسبُّبه، كما كانت العربُ تفعل[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، قالت فرقة هي الجمهور: وهذا في حكم الدنيا، أي أن الله لا يُهلك أُمة بعذاب إلا من بعد الرسالة والإنذار، وقالت فرقة: هذا عام في الدنيا والآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتلخيص هذا المعنى أن مقصد الآية في هذا الموضع الإعلامُ بعبادة الله تعالى مع الأمُم في الدنيا، وبهذا يقرب الوعيد من كفار مكَّة. ويؤيد هذا ما يجيءُ بعْدُ من وصفه ما يكون عند إرادة الله إهلاك قرية، ومن إعلامه بكثرة ما أهلك من القرون، ومع هذا فالظاهر من كتاب الله تعالى في غير هذا الموضع، ومن النظر، أن الله تعالى لا يعذب

---

(١) هو أبو سلمة بن عبد الأسد، بن هلال، بن عبد الله بن عمر، بن مخزوم، المخزومي، أحد السابقين إلى الإسلام، اسمه عبد الله، وأُمه برَّة بنت عبد المطلب بن هاشم، كان ممن هاجر بامرأته أم سلمة بن أبي أمية إلى الحبشة، ثم شهد بدراً بعد أن هاجر الهجرتين، ومات من جرح جرحه يوم أحد، وتزوج رسول الله ﷺ امرأته أم سلمة رضي الله عنهما (الإصابة والاستيعاب).

(٢) في بعض النسخ: و«وَزَرَ» معناها: حَمَل الوِزرَ، أي: الثقل.

(٣) الذي قال: إن الميتَ يُعذَّب ببكاءِ أهله عليه هو ابن عمر رضي الله عنهما. قال العلماءُ: ولا وجه لإنكار السيدة عائشة رضي الله عنها؛ فإن الرواة لهذا المعنى كثير، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وابنه، والمغيرة بن شعبة، وقيَلَة بنت مخرمة، وهم جازمون بالرواية فلا وجه لتخطئتهم، ولأنه لا معارضة بين الآية والحديث، فإن الحديث محمول على ما إذا كان البكاءُ من وصية الميت وسنته كما كانت العرب تفعل، وقد ذكر ابن عطية هذا، ومنه قول طرفة:

إذا متُّ فانعيني بما أنا أهْلُهُ ... وشُقِّي عَلَيَّ الْجَيْبَ يا بنْةَ مَعْبَدِ

وقول غيره موصياً بأن يمتد البكاءُ عليه حولاً كاملاً:

إلى الْحَوْل ثُمَّ اسْمُ السَّلام عَلَيْكُما ... ومن يَبْكِ حَوْلاً كاملا فقَد اعتَذَرْ

وقد نحا إلى هذا الرأي الإمام البخاري.

في الآخرة إلا بعد بعثة الرسل، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ﴾[١]، وظاهر [كُلَّمَا] الحَصْر، وكقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾[٢]، وأما من جهة النظر فإن بعثة آدم عليه السلام بالتوحيد، وبعث المعتقدات في بنيه، ونصب الأدلة الدَّالَّة على الصانع، مع سلامة البصر، يوجب على كل أحدٍ من العالم الإيمان واتباع شريعة الله، ثم تجدَّد ذلك من مدة نوح عليه السلام بعد غرق الكفار، وهذه الآية أيضاً يُعطي احتمال ألفاظها نحو هذا، ويجوز مع الفرض وجود قوم لم تصلهم رسالةٌ، ومنهم أهل الفترات الذين قد قدَّرَ وجودَهم بعضُ أهل العلم، وأما ما رُوي أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال، فحديثٌ لم يصح، ولا يقتضيه ما تقضيه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً﴾ الآية. هي في مصحف أُبَيٍّ بن كعب: [بَعَثْنَا أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا]، و«الْقَرْيَةُ»: المدينة المجتمعة، مأخوذٌ من: قَرَيْت الماء في الحوض، إذا جمعته، وليست من (قرأ) الذي هو مهموز، وإن كان فيهما جميعاً معنى الجمع.
وقرأ الجمهور: ﴿أَمَرۡنَا﴾ على صيغة الماضي، من: أَمَر ضد نَهَى، وقرأ نافع، وابن كثير ـ في بعض ما رُوي عنهما ـ: [آمَرْنَا] بمدِّ الهمزة، بمعنى: كَثَّرْنَا، ورُويت عن الحسن، وهي قراءة علي بن أبي طالب، وابن عباس ـ بخلاف عنه ـ، عن الأعرج، وقرأ بها ابن أبي إسحاق، وتقول العربُ: «أَمِرَ الْقَوْمُ» إذا كثروا، وآمَرَهُمْ الله تعالى فيتعدى بالهمزة.
وقرأ أبو عمرو ـ بخلاف ـ: [أَمَّرْنَا] بتشديد الميم، وهي قراءة أبي عثمان النهدي، وأبي العالية، وابن عباس رضي الله عنهما، ورويت عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقال الطبري: القراءة الأولى معناها: أمرناهم بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها، وهو قول ابن عباس، وابن جبير، والثانية معناها: كثَّرناهم، والثالثة هي من الإمارة، أي: ملَّكناهم على الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

قال أبو عَليٍّ الفارسي: «الجيِّد في ﴿أَمَرۡنَا﴾ أن تكون بمعنى: كَثَّرْنَا، يتعدى الفعل

---

(١) من الآيتين (٨ـ٩) من سورة الملك.
(٢) من الآية (٢٤) من سورة فاطر.

بلفظ غير متعدد، كما تقول: رَجَعَ وَرَجَعْتُه، وشَتِرَتْ عَيْنُه وشَتَرْتُهَا[١]، فتقول: أَمَرَ القومُ وأمرهم الله، أي كثَّرهم[٢]، وآمَرْنَا مبالغة في أَمَرْنَا بالهمزة، وأَمَّرْنَا مبالغة فيه بالتضعيف، ولا وجه لكون أَمَّرْنَا من الإمارة؛ لأن رياستهم لا تكون إلا واحداً بعد واحد، والإهلاكُ إنما يكون في مدة واحد منهم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وينفصل عن هذا الذي قاله أبو علي بأن الأمر وإن كان يعُمُّ المترف وغيره، فخَصَّ المترف بالذكر إذْ فِسْقُهُ هو المؤثر في فساد القرية، وهم عُظم الضلالة وسواهم تبع لهم. وأمَّا أمَّرْنا من الإمارة فمتوجه على وجهين: أحدهما ألاَّ يريد إمارة المُلْك، بل كونهم يأمرون ويُؤْتمر لهم؛ فإنَّ العرب تقول لمن يأمر الإنسان ـ وإن لم يكن مِلكاً ـ: هو أمير، ومنه قول الأعشى:

إذا كـان هـادي الْفَتَـى فـي الْبـلا ... د صَـدْرَ الْقَنَـاةِ أَطَـاعَ الأميـرَا[٣]

ومنه قول معاوية لعمر رضي الله عنه حين أمره بالاستقادة من لطمة عمرو بن العاص: إنَّ عليَّ أميراً لا أقطع أمراً دونه، أراد معاوية أباه، وأراد الأعشى أنه إذا شاخ الإنسانُ وعَمِي واهتدى بالعصى أطاعَ كلَّ من يأمره، ومنه قول الآخر:

والنَّـاسُ يَلْحَـوْنَ الأَميـرَ إِذَا هُـمُ ... خَطِئُوا الصَّوَابَ وَلاَ يُلاَمُ الْمُرْشِدُ[٤]

---

(١) شَتِرَتْ عينُه: انشقَّتْ، وشَتَرْتُها: شَقَقْتُهَا وجعلتها شَتْرَاءَ.

(٢) استدل أبو عبيدة على صحَّة هذه اللغة بما جاء في الحديث الشريف: (خيرُ المال مُهْرَةٌ مَأمورة، أوْ سكَّةٌ مأبورة)، أي: خير المال مُهْرَةٌ كثيرة النَّسْل، وسِكَّةٌ ـ أيْ طريقة مُصْطَفَّة من النخل ـ مأبُورةٌ، أيْ مُلَقَحَةٌ. وقد. أنكر بعض العلماء هذا، وقالوا: إنما قيل: (مأمورة)، على الإتباع، لمجيء (مأبورة) بعدها، كما جاء: (ارْجِعْنَ مأزوراتٍ غير مأجورات)، فقد همزت (مأزورات) لأن (مأجورات) جاءت بعدها مهموزة.

(٣) البيت من قصيدة للأعشى يمدح هَوْذة بن علي الحنفي، وفي مطلعها يقول:

غَشِيـتَ لِلَيْلَـى بلَيْـلٍ خُـدُورَا ... وطَـالَبْتَهَـا وَنَـذَرْتَ النُّـذُورَا

والهادي: المرشد، والقَنَاةُ هنا: العَصَى التي يحملها الأعمى ليَتَحَسَّس بها الطريق، يقول: إذا كبر الفتى وأصابه العَمَى، واعتمد على عصاه في سيره فإنه يطيع كلَّ من يأمُرُه أو ينصحه بأمرٍ في سَيْرِهِ، فقد جعل النصيحة هنا أمراً وجعل المرشد الناصح أميراً، لأنه يأمر فيطاع.

(٤) يَلْحَوْنَ: يَلُومُونَ ويشتمون أو ينازعون ويخاصمون، وفي الحديث: (نُهيت عن مُلاحاة الرجال)، أي: نهيت عن مخاصمتهم ومنازعتهم، وخَطِىءِ الرَّجلُ يَخْطَأُ خِطأً عَلى فِعْلَةٍ: أذنب. يقول: إن الناس =

وأيضاً فلو أراد إمارة المُلْك في الآية لحَسُنَ المعنى؛ لأن الأُمَّةَ إذا مَلَّك الله تعالى عليها مُتْرَفاً ففسق، ثم ولَّى مثله بعده، ثم كذلك، عَظُمَ الفَساد وتوالى الكُفْر واستحقوا العذاب فنزل بهم على رجل الأخير من ملوكهم[١]، وقرأ الحسن، ويحيى بن يَعْمَر: [أَمِرْنَا] بكسر الميم، وحكاها النحاس عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولا أَتَحَقَّقُ وجهاً لهذه القراءَة؛ إلا إن كان (أَمِرَ القَوْمُ) يتعدى بلفظه، فإنَّ العرب تقول: «أَمِرَ بَنُو فلان» إذا كثروا، ومنه قول لبيد:

إنْ يُغْبَطُوا يُهْبَطُوا وإنْ أَمِرُوا ... يَوماً يَصيرُوا للْقُلِّ والنَّفَدِ[٢]

ومنه: (لَقد أَمِر أَمْرُ ابنُ أبي كَبْشَة)[٣]، وردَّ الفراءُ هذه القراءة، وقد حكي (أَمِرَ) متعدياً عن أبي زيد الأنصاري، و«الْمُتْرفُ»: الغني من المال المتَنَعِّم، والتُّرْفَةُ: النَّعْمةُ، وفي مصحف أُبَيِّ بن كعب: «قرية بَعثْنَا أَكَابر مُجْرميها فمكروا فيها». وقوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي وعيد الله لها الذي قاله رسولهم. و«التَّدْميرُ»: الإهلاكُ مع طمس الآثار وهدم البناء، ومنه قول الفرزدق:

وكَانَ لَهُمْ كَبَكْرِ ثَمُود لمَّا ... رَغَا ظُهْراً فَدَمَّرَهم دَمارَا[٤]

= يلومون الناصح الذي يرشدهم عندما يخطئون، وهذا عيب كبير فيهم فإن من العقل ألا يلام الناصح المرشد، فقد سمَّى الناصح أميراً.

(١) في صحيح الترمذي: (إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب من عنده)، وَرَوَى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذابُ من كان فيهم ثم بُعثوا على أعمالهم)، فالعذاب يَعُمُّ، وهو للفاسقين نقمة، وللمؤمنين طُهْرة.

(٢) قال لبيد هذا البيت من قصيدة يرثى بها أربد بن قيس بن جزءٍ، وكان أخاً للبيد من الأم، وفد على رسول الله ﷺ مع عامر بن الطفيل، وجابر بن سلمى، وعرض عليهم الرسول ﷺ الإسلام فلم يسلموا، وتوفي عامر بالطاعون، وأصابت أربد صاعقة فأحرقته. ويروى البيت: «يصيروا لِلْهُلْكِ والنَّكَد»، ويروى: «يوماً فهم للفناء والنفَد»، والغِبْطة: تمني مثل ما للإنسان من النعمة من غير أن يُراد زوالها عنه. ويُهْبَطوا: يموتوا، وأَمِرُوا: كثروا، والقُل: القِلَّةُ، والنَّفَد: الفناءُ. والشاهد أن أَمِرُوا بمعنى: كثروا.

(٣) كان المشركون يقولون للنبي ﷺ: «ابن أبي كبشة»، شبهوه بأبي كبشة، وهو رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان، أو هي كُنْية وهْب بن عبد مناف جدِّه ﷺ لأمِّه؛ لأنه كان ينزع إليه في الشَّبَه، وقيل: هي كُنْية زوج حليمة السعدية مرضعة النبي ﷺ. والذي قال ذلك هو أبو سفيان بن حرب، قال: «لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة وارتفع شأنه».

(٤) البيت من قصيدة قالها يردُّ على جرير فيناقضه، وقبله يقول ـ وهو مطلع القصيدة: =

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الآية، [كَمْ] في موضع نصب بـ[أَهْلَكْنَا]، وهذا الذكر لكثرة من أهلك الله من القرون مثالٌ لقريش ووعيد، أَي: لستُم ببعيد ممَّا حصلوا فيه من العذاب إذا أنتم كذبتم نبيكم، واختلف الناس في القرن ـ فقال ابن سيرين عن النبي ﷺ: أربعون، وقيل غير هذا مما هو قريب منه، وقال عبد الله بن أبي أوفى[١]: القَرْن مائة وعشرون سنة، وقالت طائفة: القرن مائة سنة، وهذا هو الأصح الذي يعضده الحديث في قوله ﷺ: (خير الناسّ قرني)[٢]. وروى محمد بن القاسم في ختنه عبد الله بن بُسْر قال: وضع رسول الله ﷺ يده على رأسي وقال: (سيعيش هذا الغلام قرناً)، قلت: كم القرن؟ قال: (مائة سنة)، قال محمد بن القاسم: فما زلنا نعُدُّ له حتى أكمل مائة سنة، ثم مات رحمه الله[٣]، والباءُ في قوله تعالى: [بِرَبِّكَ] زائدة، والتقدير: كفى ربك، وهذه الباءُ إنما تجيءُ في الأَغلب في مدح أو ذم، وكأَنها تعطي معنى: اكتف بربِّك، أي: ما أكفاه في هذا، وقد تجيءُ (كفى) بدون باءٍ، كقول الشاعر:

= جَـرَّ المُخْـزِيَـاتِ عَلَـى كُلَيْـبٍ ... جَـرِيـرٌ ثـمَّ مـا مَنَـعَ الـذِّمَـارَا

والبَكْرُ: الفَتِيُّ من الإبل، ويريد به هنا الفصيل الذي خرج لثمود بعد أن عقروا أُمَّه الناقة التي جعلها الله هي وابنها آية لثمود، وجعل الماء قسمة بينهم وبين الناقة، فلما عقروها خرج عليهم الفصيل فرغا، وكانت النتيجة هي دمارهم عن آخرهم، يشبِّه جريراً في قومه كليب بهذا الفصيل في ثمود.

(١) عبد الله بن أبي أَوْفَى، اسمه علقمة بن خالد الحارث الأسلمي، صحابي، شهد الحديبية، وعمِّر بعد النبي ﷺ، مات سنة سبع وثمانين، وهو آخر من مات بالكوفة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. (تقريب التهذيب).

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات، وفضائل الصحابة، والرقاق، والإيمان، وأخرجه الترمذي في الفتن، والشهادات، والمناقب، وابن ماجه في الأحكام، والإمام أحمد في أكثر من موضع، ولفظه كما جاء فيه (١ـ٣٧٨)، عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي بعد ذلك قومٌ تسبق شهاداتهم أيمانهم وأيمانهم شهاداتهم).

(٣) أخرج أحمد في مسنده، عن أبي عبد الله الحسن بن أيوب الحضرمي، قال: أراني عبد الله بن بُسْر شامة في قرنه، فوضعتُ إصبعي عليها، فقال: وضع رسول الله ﷺ إصبعه عليها ثم قال: «لتبلُغَنَّ قَرْناً»، قال عبد الله: وكان ذا جُمَّةٍ. وروى البخاري في التاريخ الصغير، عن عبد الله بن بُسْر، أن النبي ﷺ قال له: «يعيش هذا الغلام قَرْناً»، فعاش مائة سنة، وروى البخاري في الصحيح من طريق حريز بن عثمان: سألتُ عبد الله بن بُسْر: رأيتَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: كان في عنفقته شعراتٌ بيض. هذا والخَتَنُ: كلُّ من كان من قِبَل المرأة كأبيها وأخيها وكذلك زوج البيت، وزوج الأخت.

. . . . كَفَى الشَّيْبُ وَالإِسْلاَمُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا(١)

وكقول الآخر:

وَيُخْبِرُنِي عَنْ غَائِبِ الْمَرْءِ هَدْيُهُ كَفَى الْهَدْيُ عَمَّا غَيَّبَ الْمَرْءُ مُخْبِرَا(٢)

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾.

المعنى: من كان يريد الدنيا العاجلة، ولا يعتقد غير هذا، ولا يؤمن بآخرة، فهو يُفَرِّغ أمله ومعتقده للدنيا، فإن الله تعالى يعجل لمن يريد من هؤلاء ما يشاء هذا المريد، أو ما يَشاءُ الله تعالى ـ على قراءة من قرأ: [يَشَاءُ] بالنون ـ وقوله سبحانه: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ شرطٌ كاف على القراءتين، ثم يجعل الله تعالى جهنم لجميع من يريد العاجلة ـ على جهة الكفر ـ مَنْ أعطاه فيها ما يشاءُ ومَنْ حرمه. وقال أبو إسحق الفزاري: لمن نريد هلكته. وقرأ الجمهور: (نَشَاءُ) بالنون، وقرأ نافع أيضاً: [يَشَاءُ] بالياء. و«الْمَدْحُورُ»: المُهَانُ المُبْعَد المذلَّل المسخوط عليه.

---

(١) هذا عجز بيت قاله سُحَيم عبْد بني الحَسْحَاس، والبيت بتمامه:

عُمَيْـرَةَ ودِّعْ إنْ تَجَهَّـزْتَ غَـادِيَـا كَفَـى الشَّيْبُ والإِسْلامُ لِلْمَـرْءِ نَـاهِيـا

وهو في الديوان، وابن يعيش، وشرح شواهد المغني، والعيني. وعُمَيْرَةَ: تصغير عَمْرة وهي مؤنث عَمْر واحد عُمور الأسنان أي أصولها. وقيل: إن العَمْرَة هي الشَّذْرة من الخَرز يُفَصَّل بها النظم، وبها سميت المرأة عَمْرَة، وقيل: العَمْرةُ: خَرزَة الحُبُّ، وفي (طبقات ابن سلام) أن الشاعر أنشد عمر بن الخطاب بيته هذا، فقال له: لو قلتَ شعرَك مثل هذا أعطيتك عليه، فلما قال الأبيات التي بعده وفيها من الغزل الجنسي ما فيها قال له عمر رضي الله عنه: ويلك إنك مقتول. وروي عن الحسن أن رسول الله ﷺ تمثل بهذا الشعر فقال: «كَفَى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا»، فقال له أبو بكر: إنما قال الشاعر: كفى الشيبُ والإسلامُ للمرء ناهيا، فأعادها النبي ﷺ كالأول، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: أشهد إنك لرسول الله ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾.

(٢) هذا البيت لزيادة بن زيد العَدَوِيّ، والهَدْي: الطريقةُ والسِّيرَةُ، يقال: فلانٌ حَسَن الهَدْي والهَديَّة، أي: الطريقة والسيرة، ويقول: إنَّ فِعْلَ الإنسان وسيرته في الحياة يرشداني عما يخبئه في سريرته، والشاهد أن (كَفَى) جاءت بدون الباء.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ الآية. المعنى: ومن أراد الآخرة إرادة يقين بها وبالله وبرسالته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذلك كلُّه مرتبط بتَلازُم.

ثم شرط في مُريد الآخرة أن يسعى لها سعيها، وهو ملازمة أعمال الخير وأقواله على حكم الشرع وطرقه، فأُولئك يشكر الله سعيهم، ولا يشكر الله تعالى عملاً ولا سعياً إلاَّ إذا أثاب عليه وغفر بسببه، ومنه قول النبي ﷺ في حديث الرجل الذي سقى الكلب العاطش، فشكر اللهُ له، فغفر له[1].

قوله تعالى: (كُلاًّ نُمِدُّ﴾ الآية. نصب ﴿كُلاًّ﴾ بـ﴿نُمِدُّ﴾. وأَمْدَدْتُ الشيءَ إذا زدت فيه من غير نوعه، ومَدَدْتُ إذا زدتَ فيه من نوعه، وقيل: هما بمعنى واحد، يقال: مَدَّ وأَمَدَّ. و﴿هَؤُلاء﴾ بدلٌ من ﴿كُلاًّ﴾، فهو في موضع نصب. وقوله تعالى: ﴿ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ يحتمل أن يريد: من الطاعات لمن يريد الآخرة، والمعاصي لمن يريد العاجلة، ورُوي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أن يريد بالعطاء رزْق الدنيا، وهذا هو تأويل الحسن بن أبي الحسن وقتادة، أي أن الله تبارك وتعالى يرزق في الدنيا مُريدي الآخرة المؤمنين، ومُريدي العاجلة الكافرين، ويُمدهم بعطائه منها، وإنما يقع التفاضل والتَّباين في الآخرة، ويتناسب هذا المعنى مع قوله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾، أي أنَّ رزقه في الدنيا لا يضيق عن مؤمن ولا كافر وقلَّما تصلح هذه العبارة لمن يُمد بالمعاصي التي تُوبقُه.

و«المَحْظُورُ»: الممنوع.

وقوله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ آية تدلُّ دلالةً على أن العطاء في

---

(١) حديث الكلب أخرجه البخاري في الشرب والمظالم والأدب، ومسلم في السلام، وأبو داود في الجهاد، ومالك في موطئه في صفة النبي ﷺ، وأحمد في مسنده (٣ـ٣٧٥ـ٥١٧)، ولفظه كما في مسلم، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بَلغ هذا الكَلْبَ من العطش مِثْلُ الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خُفَّه ماءً ثم أمسك بفيه حتَّى رقي فسَقى الكلب، فشكر الله له فغفر له)، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في هذه البهائم لأجراً، فقال: (في كل كبد رطبة أجْرٌ).

الآية التي قبلها هو الرزق، وفي ذلك يترتب أن ينظر محمد ﷺ إلى تفضيل الله تبارك وتعالى لبعض على بعض في الرزق ونحوه من الصور والشرف والجاه والحظوظ، وبيِّنٌ أن يكون التفضيل الذي ينظر إليه النبي ﷺ أن أعطى اللهُ قوماً الطاعة المؤدية إلى الجنَّة، وأعطى آخرين الكفر المؤدي إلى النار، وهذا قول الطبري، وهذا النظر في تفضيل فريق على فريق، وعلى التأويل الآخر فالنظر في تفضيل شخص على شخص من المؤمنين والكافرين كيفما قرنتهما. ثم أخبر عزَّ وجلَّ أن التفضيل الأكبر إنما يكون في الآخرة، وقوله: ﴿أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ﴾ ليس في اللفظ: «من أي شيء»، لكنه في المعنى ـ ولا بد ـ أكبر درجات من كل ما يضاف بالوجود أو بالفَرْض إليه، وكذلك قوله تعالى: ﴿أكبر تفضيلاً﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ورأى بعض العلماء أن هذه الدرجات والتفضيل إنما هو فيما بين المؤمنين، وأسند الطبري في ذلك حديثاً نصُّه: (إنَّ بين أعلى أهل الجنة درجة وأسفلهم كالنجم يُرى في مشارق الأرض ومغاربها)[(١)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

قيل: وقد رضَّى[(٢)] الله الجميع فما يغبط أحدٌ أحداً ولا يتمنى ذلك بدلاً.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية. الخطاب لمحمد ﷺ، والمراد: جميع الخلق، قاله الطبريُّ وغيره، و«الذَّم» هنا لا حق من الله تعالى ومن ذوي العقول في أن يكون الإنسان يجعل عُوداً أو حجراً أفضل من نفسه، ويخُصُّه بالكرامة، وينسب إليه الأُلوهية، ويشركه مع الله الذي خلقه ورزقه وأنعم عليه. و«الخذلان» في هذا يكون بإسلام الله تعالى، وألا يكفل له النصر، و«المخذول»: الذي لا ينصره من يجب أن ينصره، و«الخاذلُ» من الظباءِ التي تترك ولدها، ومن هذه اللفظة قول الراعي:

قَتَلُوا ابْنَ عَفَّانَ الْخَلِيفَةَ مُحْرِماً ... وَدَعَا فَلَمْ أَرَ مِثْلَهُ مَخْذُولاً[(٣)]

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، وذكره في (الدر المنثور)، وفي ابن كثير ما يأتي: «وفي الصحيحين أن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء».

(٢) رضَّى بمعنى: أرضى.

(٣) الرَّاعي اسمه: حصين بن معاوية، من بني نمير، وقيل له الرَّاعي لأنه كان يصف راعي الإبل في شعره، =

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

[قَضَى] في هذه الآية بمعنى: أَمر وألزم وأوجب عليكم، وهكذا قال الناس. وأقول: المعنى: وقضى ربك أمره ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وليس في هذه الألفاظ إلا أمر بالاقتصار على عبادة الله، فذلك هو الْمَقْضِيُّ، لا نفس العبادة. و(قَضَى) في كلام العرب: أَتَمَّ الْمَقْضيَّ محكماً، والْمَقْضِيُّ هنا هو الأمر(١)، وفي مصحف ابن مسعود: «وَوَصَّى»، وهي قراءَة أصحابه وقراءة ابن عباس، والنَّخَعي، وسعيد بن جُبَيْر، وميمون بن مهران، وكذلك عند أُبيٍّ بن كعب. وقال الضحاك: تصحَّف على قوم (وَصَّى) بـ(قَضَى) حين اختلطت الواو بالصاد وقت كتْب المصحف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وإنما القراءة مَرْوِيَّةٌ بسند وقد ذكر أبو حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما مثل قول الضحاك، وقال عن ميمون بن مهران: إنه قال: «إنَّ على قول ابن عباس رضي الله عنهما لنوراً، قال الله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ

= وولدهُ وأهل بيته بالبادية سادة أشراف، وقيل: اسمه عبيد بن حصين بن معاوية النميري، والبيت في اللسان (حَرَمَ)، والرواية فيه: (مقتولا) بدلا من (مَخذولاً) والحُرْمَة: الذمَّةَ، وأَحْرَمَ الرجلُ فهو مُحْرِم إذا كانت له ذمَّةٌ، وعلى هذا جاء بيت الراعي كما ذكر صاحب اللسان، فالمعنى أنهم قتلوه وهو صاحب ذِمَّةٍ، وقيل: قتلوه صائماً، والصيام إحرام، ويقال للصائم: محرم. وقال ابن برِّي: لَيس مُحْرِماً في بيت الراعي من الإحرام ولا من الدخول في الشهر الحرام، قال: وإنما هو مثل البيت الذي قبله، وإنما يريد أن عثمان في حرمة الإسلام وذمَّته لم يُحِلَّ من نفسه شيئاً يُوقعُ به، والمخذول: الذي لم يَنْصُرْهُ من يجب أن ينصره، ويقال للظبية إذا تخلفت عن صواحبها: خاذلٌ وخذولٌ قال طرفة:

خَـذُولٌ تُـرَاعِـي رُبْـرَبـاً بِخَمِيلَـةٍ ... تنَـاوَلُ أَطْـرَافَ البَـرِيـرِ وتَـرْتَـدِي

(١) قال أبو حيان في البحر تعقيباً على كلام ابن عطية هذا: «كأنه رام أن يترك [قضى] على مشهور موضعها بمعنى: قَدَّر، فجعل مُتَعَلَّقه الأمر بالعبادة لا العبادة نفسها؛ لأنه لا يستقيم أن يقضي شيئاً بمعنى أن يُقَدِّر إلا ويقع، والذي فهم المفسرون غيره أن مُتَعَلق [قَضَى] هو ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ سواءٌ كانت [أَنْ] تفسيرية أم مصدرية». (البحر المحيط ٦ـ٢٥).

أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾[1]». ثم ضعَّف ابن حاتم أن يكون ابن عباس رضي الله عنهما قال ذلك، وقال: «لو قلنا هذا لطعن الزنادقة في مصحفنا». والضمير في ﴿تَعْبُدُوا﴾ لجميع الخلق، وعلى هذا التأويل مضى السلف والجمهور، وسأل الحسنَ بن أبي الحسن رجلٌ فقال: إنه طلَّق امرأته ثلاثاً، فقال له الحسنُ: عصيت ربك وبانتْ منك امرأتك ثلاثاً، فقال له الرجل: قضى الله ذلك عليَّ، فقال له الحسن ـ وكان فصيحاً ـ: ما قَضَى اللهُ، أي: ما أمر الله، وقرأ هذه الآية، فقال الناسُ، تكلَّم الحسن في القدر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن تكون ﴿قَضَى﴾ على مشهورها في الكلام، ويكون الضمير في ﴿تَعْبُدُوا﴾ للمؤمنين من الناس إلى يوم القيامة، لكن على التأويل الأول يكون قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ﴾ عطفاً على ﴿أن﴾ الأولى، أي: أمر الله ألاَّ تعبدوا إلاّ إياه وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً، وعلى هذا الاحتمال الذي ذكرناهُ يكون قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ﴾ مقطوعاً من الأول؛ فإنه أخبرهم بقضاء الله تبارك وتعالى، ثم أمرهم بالإحسان إلى الوالدين.

و﴿إِمَّا﴾ شَرْطِيَّةٌ، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿يَبْلُغَنَّ﴾، ورُوي عن ابن ذكوان [يَبْلُغَنْ] بتحفيف النون، وقرأ حمزة، والكسائي: [يَبْلُغَانِّ]، وهي قراءة أبي عبد الرحمن، ويحيى، وطلحة، والأعمش، والجحدري، وهي النون الثقيلة دخلت مُؤَكِّدَة، وليست بنون تثنية، فعلى القراءتين الأُولَيَيْن يكون قوله: ﴿أَحَدُهُمَا﴾ فاعلاً، وقوله: ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ معطوفاً عليه، وعلى هذه القراءة الثالثة يكون قوله: [أَحَدُهُمَا] بدلاً من الضمير في [يَبْلُغَانِّ]، وهو بدل مُقَسِّم كقول الشاعر:

وكُنْتُ كَذِي رِجْلَيْنِ: رِجْلٍ صَحِيحَة ... ورِجْل رَمَى فيها الزَّمَانُ فَشَلَّتِ[2]

---

(١) من الآية (١٣) من سورة الشورى.

(٢) البيت لِكُثَيِّر عزَّة، وهو في الديوان، والكتاب لسيبويه، وخزانة الأدب، وشرح شواهد العيني، وابن يعيش، وقبله يقول:

فَلَيْتَ قَلُوصي عِنْدَ عَزَّةَ قُيِّدَتْ ... بحَبْلٍ ضَعِيفٍ عَزَّ مِنْهَا فَضَلَّتِ
وغُودِرَ في الحَيِّ المُقيمينَ رَحْلُها ... وَكَانَ لَهَا بَاغٍ سِوَايَ فَبَلَّتِ

تمنَّى أن تشل إحدى رجليه وهو عندها، وأن تضل ناقته فلا يرحل عنها، فيكون قوله: (وكنتُ كذي=

ويجوز[1] أن يكون: [أَحَدُهُمَا] فاعلاً، وقوله: ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ عطف عليه، ويكون ذلك على لغة من قال: «أكلوني البراغيث»، وقد ذكر هذا في هذه الآية بعضُ النحويين، وسيبويه لا يرى لهذه اللغة مدخلاً في القرآن الكريم.

وقرأ أبو عمرو: [أُفِ] بكسر الفاء وترك التنوين، وهي قراءة حمزة، والكسائي، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ، وقرأ نافع، والحسن، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، وعيسى: (أُفٍّ) بالكسر والتنوين، وقرأ ابن كثير، وابن عامر: [أُفَّ] بفتح الفاءِ، وقرأ أبو السَّمَّال: [أُفُ] بضم الفاء[2]، وقرأ ابن عباس: [أُفَ] خفيفة، وهذا كله بناءٌ، إلاَّ أن قراءة نافع تعطي التنكير، كما تقول: «إيه». وفيها لغاتٌ لم يُقْرأْ بها: «أُفٌّ» بالرفع والتنوين، على أن هارون حكاها قراءة ـ و«أُفًّا» بالنصب والتنوين، و«أُفي» بياءٍ بعد الكسرة، حكاها الأخفش الكبير، و«أُفَا» بألف بعد الفتحة، و«أُفّ» بسكون الفاء المشددة، و«أُفْ» مثل رَبْ، ومن العرب من يُميل «أُفَا»، ومنهم من يزيد فيها هاءَ السَّكْت فيقول: «أُفَاهُ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومعنى اللفظة أنها اسم فعل، كأن الذي يريد أن يقول: أَضْجَرُ، أو: أَتَقذَّرُ[3]، أو:

= رجْلَيْنِ. . .) معطوفاً على قوله: (قُيِّدَت) ليدخل في التمنِّي. وقال ابن سيدة: لما خانت عزة العهد، وثبت هو عليه، صار كذي رجلين: رجل صحيحة وهي ثباتُه على العهد، ورجل مريضة وهي خيانتها وزَلَلُها عن العهد، وقال بعضهم: معنى البيت أنه بين الخوف والرجاء والقرب والتنائي. وقيل غير هذا في معنى البيت، وهذا البيت من شواهد النحويين، فيروى (رجْلٍ) بالجرِّ على أنه بدلٌ مع أُخرى مفصَّل من (رِجْلَيْن)، ويجوز أن يكون الجرُّ على الصفة، ويروى بالرفعَ على القَطْع وأنَّهُ خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هما رجلٌ صحيحة ورجلٌ أُخرى، أو إحداهما صحيحة والأخرى رجْلٌ. . . والبيت في هذا كقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾، أي: إحداهما فئة تقاتل. . . إلخ.

هذا وقد علَّق أبو حيان الأندلسي على قول ابن عطية هنا: «وهو بدلٌ مقسَّم» بقوله: «هذا ليس من بدل التقسيم؛ لأن شرط ذلك العطف بالواو، وأيضاً فالبدل المقسم لا يصدق المبدل فيه على أحد قسميه، و[كِلاَهُمَا] يصدق عليه الضمير، وهو المبدل منه، فليس من المقسم».

(١) أي على هذه القراءة الثالثة.

(٢) قال في البحر المحيط: «بضم الفاءِ من غير تنوين».

(٣) يَتَقَذَّرُ منهما لما يجد في حال كبرهما من نزول لعاب، أو ظهور مُخاط، وفي حال مرضهما من بَوْلٍ ونحوه.

أَكْرَهُ، أو نحو هذا، يُعبِّر إيجازاً بهذه اللفظة فتعطي معنى الفعل المذكور، وجعل الله تعالى هذه اللفظة مثلاً لجميع ما يمكن أن يقابَل به الآباءُ مِمَّا يكرهون، فلم تُرَدْ هذه اللفظة في نفسها وإنما هي مثالُ الأعظم منها والأقل، فهذا هو مفهوم الخطاب المسكوت عنه حكمه حكم المذكور.

«الانتِهَارُ» إظهار الغضب في الصوت واللفظ. و«القولُ الكريم»: الجامعُ للمحاسن، من اللِّين وجودة المعنى وتَضَمُّن البر، وهذا كما تقول: ثوبٌ كريم، تريد أنه جَمٌّ المحاسن. و«الأُفُّ»: وسَخ الأظفار، فقالت فرقة: إن هذه اللفظة التي في هذه الآية مأخوذة من ذلك، وقال مجاهد في قوله تعالى ﴿ولا تقل لهما أف﴾: معناه: إذا رأيت منهما في حال الشيخ[1] الغائط والبول الذي رأَياه منك في الصغر، فلا تَقْذرْهُمَا[2]، ولا تقل: أُفٍّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والآية أعمُّ من هذا القول، وهو داخلٌ في جملة ما تقتضيه. قال أبو السَرَّاج التُّجيبي[3]: قلت لسعيد بن المسيب: كلُّ ما في القرآن من بِرِّ الوالدين قد عرفته إلاَّ قوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، ما هذا القول الكريم؟ قال ابن المسيب: قولُ العبد المذنب للسيد الفَظِّ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ استعارة، أي: أقطعهما جانب الذل منك، ودَيِّثْ[4] لهما نفسك وخُلُقك. وبُولغ بذكر الذُّلِّ هنا ولم يذكر في قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[5]، وذلك بحسب عِظَم الحق هنا. وقرأ الجمهور: [الذُّلِّ] بضم الذال، وقرأ سعيد بن جبير، وابن عباس، وعروة بن الزبير: [الذِّلِّ] بكسر الذال، ورويت عن عاصم بن أبي النُّجود، و«الذِّل» في الدواب

(١) الشَّيْخ: الشَّيْخُوخةُ، وهما مصدر «شَاخَ» إذا أَسَنَّ وكبر.
(٢) أي: لا تَكْرَهْهُمَا ولا تجتنبهما لِقَذَرٍ أوْ وساخة.
(٣) في بعض النسخ: «أبو الهدَّاج»، وهو موافق لما في الطبري، والدرِّ المنثور، وفي القرطبي: أبو البَدَّاح.
(٤) أي: اجعل نفسك لينة سهلة، يقال: ديَّثَ الأمْرَ: لَيَّنَهُ، وديَّثَ الطريقَ: وطَّأه، وفي كلام الإمام عليٍّ كرَّم الله وجهه: «وديُّثَ بالصَّغَار» أي: ذُلِّلَ. وقد نقلت الكلمة محرفة في (البحر) إلى: دمث.
(٥) سورة الشعراء: ٢١٥. ومثلها قوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

ضدُّ «الصُّعوبة»، ومنه: الجَمَلُ الذَّلُول[١]، والمعنى يتقارب. وينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفْسه مع أبويه في حيِّز ذلَّةٍ في أقواله وسَكَنَاتِهِ ونظره، ولا يُحِدُّ لهما بصره، فإن تلك هي نظرة الغاضب. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «أبعده الله وأسحقه» قالوا: من يا رسول الله؟ قال: «من أدركَ أبويه أو أحدهما فلم يغفر له»[٢].

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾، ﴿مِنَ﴾ هنا لبيان الجنس، أي إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة في النفس، لا بأن يكون ذلك استعمالاً، ويصح أن تكون لابتداء الغاية.

ثم أمر الله تعالى عباده بالتَّرَحُّم على آبائهم، وذكر مِنَنِهما على الإنسان في التربية؛ ليكون تذكُّر تلك الحالة مما يزيد الإنسان إشفاقاً لهما، وحناناً عليهما، وهذا كله في الأبوين المؤمنين، وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ولو كانوا أُولِي قُرْبى، وذُكر عن ابن عباس هنا لفظ النسخ، وليس هذا موضع نَسْخ.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾ أي: من اعتقاد الرحمة بهما والحُنُوِّ عليهما، أو من غير ذلك، ويجعلون ظاهر بِرِّهِمَا رياءً. ثم وَعَدَ سبحانه وتعالى في آخر الآية بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة إلى طاعة الله. واختلفت عبارة الناس في «الأَوَّابِين» ـ فقالت فرقة: هم المصحلون، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم المسبِّحون، وقال أيضاً: هم المطيعون والمحسنون، وقال ابن المنكدر[٣]: هم الذين يصلون بين المغرب والعشاء، وذلك أن رسول الله ﷺ سئل عن الصلاة في ذلك الوقت فقال: «تلك صلاة الأَوَّابين»[٤].

---

(١) ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾ [البقرة: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢].

(٢) أخرجه أحمد، والبيهقي، عن أبي مالك رضي الله عنه، ولفظه كما في الدر المنثور: «من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار بعد ذلك فأبعده اللهُ وأَسْحَقَه»، والأحاديث الصحيحة في هذا كثيرة، ومنها المشهور المتداول بين الناس.

(٣) هو محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهُدَيْر ـ بالتصغير ـ التيمي، المدني، ثقة حافظ، مات سنة ثلاثين أو بعدها. (تقريب التهذيب).

(٤) الحديث أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، عن ابن المنكدر، وقال عنه: إنه يرفعه إلى النبي ﷺ، ولكن في صحيح مسلم، وفي مسند أحمد عن زيد بن أرقم أن النبي ﷺ قال: «إنَّ صلاة الأوابين حين تَرْمَضُ الفصال»، قال النووي في شرح صحيح مسلم: «هو بفتح التاء والميم، يقال: رَمِضَ يَرْمَضُ =

وقيل غير ذلك من المستغفرين ونحوه. قال عَوْن العَقِيلِيّ[1]: هم الذين يصلون صلاة الضحى. . حقيقة اللفظة أنها من: آبَ يَؤُوبُ إذا رَجَع، وهؤلاء كلهم لهم رجوع إلى طاعة الله تبارك وتعالى، ولكنها لفظة لزم عرفها أهل الصلاح. قال ابن المسيب: هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب. وفسَّر الجمهور «الأَوَّابين» بالراجعين إلى الخير، وقال ابن جبير: أراد بقوله: «غَفُوراً للأَوَّابِين» الزَّلَّة والفَلْتَة تكون من الرجل لأحد أبويه، وهو لم يُصِرَّ عليها بقلبه، ولا علمها اللهُ من نفسه. وقالت فرقة: «خَفْضُ الجناح» هو ألاَّ يمتنع من شيءٍ يريدانه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

اختلف المتأولون في «ذي القُرْبَى» ـ فقال الجمهور: الآية وصيَّةٌ للناس كلهم بصلة قرابتهم، خوطب بذلك النبي ﷺ والمراد الأمة. و«الْحَقُّ» في هذه الآية ما يتعيَّن له من صلة الرَّحِم، وسَدِّ الخُلَّة، والمواساة عندالحاجة بالمال والمعونة بكل وجه. قال بنحو هذا: الحسنُ، وعكرمة، وابن عباس، وغيرهم. وقال عليُّ بن الحسين في هذه: هم قرابة النبي ﷺ، أُمر رسول الله ﷺ بإعطائهم حقوقهم من بيت المال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقول الأول أبين، ويعضده العطف بالمسكين وابن السبيل. و«ابْنُ السَّبيل» هنا يعم الغني والفقير؛ إذْ لكل واحد منهما حق وإن اختلفا، و«ابنُ السبيل» في آية الصدقة أخصُّ.

و«التَّبْذِيرُ»: إنفاق المال في إفساد، أو في سرف في مباح، وهو من البذر، ويحتمل

= كعَلِم يَعْلَم، والرَّمضاءُ: الرمل الذي اشتدت حرارته بالشمس، والمعنى: حين تحترق أخفاف الفصال، وهي الصغار من أولاد الإبل، جمع فصيل».

(١) هو عَوْن بن أبي شداد العَقِيلِيُّ، وقيل: العبدي، أبو معمر البصري، مقبول، من الخامسة. (تقريب التهذيب).

قوله تعالى: (الْمُبَذِّرِينَ) أن يكون اسم جنس، ويحتمل أن يعني أهل مكة مُعَيَّنين، وذكره النقاش. وقوله تعالى: ﴿إِخْوَانَ﴾ يعني: في حكمهم؛ إذ المبذر ساعٍ في فسادٍ، والشيطان أبداً ساعٍ في فسادٍ، والإخوان: جمع أخٍ من غير النسب، وقد يشذُّ، ومنه قوله تعالى في سورة النور: ﴿أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ﴾[١]، والإخْوَةُ: جمع أخٍ في النسب، وقد يشذُّ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٢]، وقرأ الحسن، والضحاك: [إِخْوَان الشَّيْطَانِ] على الإفراد، وكذلك ثبت في مصحف أنس بن مالك. ثم ذكر تبارك وتعالى كُفْر الشيطان ليقع التحذير من التَّشَبُّه به في الإفساد مستوعباً بيّناً.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ﴾ الآية. الضمير في ﴿عَنْهُمْ﴾ عائد على من تقدم ذكره من المساكين وبني السبيل، فأمر الله تعالى نبيّه ﷺ في هذه الآية ـ إذا سأله منهم أحدٌ فلم يجد عنده ما يعطيه، فقابله رسولُ الله ﷺ بالإعراض تأدُّباً منه في أن يردَّه تصريحاً، وانتظاراً لرزق من الله تعالى يأتي فيُعطي منه ـ أن يكون يُؤنسه بالقول الميسور، و هو الذي فيه الترجية بفضل الله، والتأنيس بالميعاد الحسن، والدعاءُ في توسعة الله تعالى وعطائه. ورُوي أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول بعد نزول هذه الآية ـ إذا لم يكن عنده ما يُعطي ـ: (يرزقنا الله وإياكم من فضله)[٣]، فالرَّحْمة ـ على هذا التأويل ـ الرزقُ المنتظر، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقال ابن زيد: الرَّحمة: الأجر والثواب، وإنما نزلت الآية في قوم كانوا يسألون رسول الله ﷺ فيأبى أن يعطيهم، لأنه كان يعلم منهم نفقة المال في فساد، فكان يعرض عنهم رغبة الأجر في منعهم، لئلا يعينهم على فسادهم، فأمره الله تبارك وتعالى بأن يقول لهم قولاً ميسوراً يتضمن الدعاء في الفتح لهم والإصلاح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقال بعض أهل التأويل الأول: نزلت الآية في عمّار بن ياسر وصنفه، و«الْمَيْسُورُ» مفعولٌ من لفظة اليُسْرِ، تقول: يَسَّرْتُ لك كذا إذا أعددته.

---

(١) من الآية (٣١) من سورة النور.

(٢) من الآية (١٠) من سورة الحجرات.

(٣) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله: ﴿قَوْلًا مَيْسُورًا﴾، قال: «قولاً جميلا، رزقنا الله وإياكَ، بارك الله فيك»، هكذا ذكره السيوطي ولم يرفعه ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ الآية. رُوي عن قالون: [كل البصط] بالصاد، ورواه الأعمش عن أبي بكر، واستعير لليد المقبوضة جملةً عن الإنفاق المتَّصِفَةِ بالبخل الغلُّ إلى العنق، واستعير لليد التي تستنفد جميع ما عندها غاية البسط، ضد الغل، وكل هذا في إنفاق الخير، وأما إنفاق الفساد فقليله وكثيره حرام.

وهذه الآية ينظر إليها قول النبي ﷺ: (مَثَل البخيل والمتصدق...) الحديث[١] بكماله. والملامة هنا لاحقة ممن يطلب من المستحقين فلا يجد ما يُعطى.. و«الْمَحْسُورُ»: المقعد الذي قد استُنْفِذت قُوَّتُه، تقول: حَسَرْتُ البعير إذا أَتْعَبْتَهُ حتَّى لم يبق له قوة، فهو حسير، ومنه قول الشاعر:

لَهُنَّ الْوَجَا لِمْ كُنَّ عَوْناً على السُّرَى ... ولا زَال مِنْهَـا طَـالِـعٌ وَحَسِيـرُ[٢]

ومنه: البصر الحسير، وهو الكالُّ. وقال ابن جريج وغيره في معنى هذه الآية: لا تُمسك عن النفقة فيما أمرتك به من الحق، ولا تبسطها كل البسط فيما نهيتك عنه. وقال قتادة: التبذيرُ: النَّفَقَةُ في معصية، وقال مجاهد: لو أنفق الإنسانُ ماله كلَّه في حق لم يكن تبذيراً، ولو أنفق مُدًّا في باطل كان تبذيراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا فيه نظر، ولا يُعطي البَسْط معنى لم يُبح فيما نهي عنه، ولا يقال في المعصية:

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والزكاة والطلاق واللباس، ومسلم والنسائي في الزكاة، وأحمد في مسنده (٢ـ٣٨٩ـ٥٣٣)، ولفظه كما أخرجه مسلم، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ، (مَثَل البخيل والمتصدق مثل رجلين عليهما جُبَّتَان من حديد، إذاهمَّ المتصدق بصدقة اتَّسعت عليه حتَّى تُعَفِّي أثره، وإذا همَّ البخيل بصدقة تقلَّصت عليه، وانضمت يداه إلى تراقيه، وانقبضت كل حلقة إلى صاحبتها)، قال: فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «فَيَجْهَدُ أَنْ يُوَسِّعها فلا يستطيع». ومعنى (تُعَفِّي أَثَرَهُ): تمحو أثر مشيه على الأرض لطولها وسبوغها عليه. ومعنى (تَقَلَّصَت): ضاقت وانضمَّ بعضها إلى بعض وارتفعت.

(٢) لم أقف على قائله، والوَجَا: الحَفَا، وقيل: شِدَّة الحَفَا، وقيل: الوَجَا قَبْل الحَفَا، ثم الحَفَا ثم النقَبُ، والسُّرَى: سير الليل عامته أو كُلِّه، تذكره العرب وتؤنثه، والطالع من الإبل: أوّلها، والحَسِير: الذي وصل إلى درجة الإعياء من التعب، يقال: دابةٌ حاسِرٌ وحَسِيرٌ وحاسِرَةٌ، الذَّكر والأنثى سواءٌ، والبيت شاهد على أن الحسير هو المُتعب الذي لم يبق له قوة، وفي الحديث الشريف (الحَسِيرُ لا يُعْقَر)، أي: لا يجوز للغازي الذي تعبت دابته أن يعقرها خوفاً من أن يأخذها العدوُّ، بل عليه أن يتركها سليمة دون عقر.

«وَلاَ تُبَذِّرْ»، وإنما يُقَال: «ولا تُنفق ولو باقتصاد وقوام»، ولله درُّ ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهما فإنَّهما قَالا: «التبذير: الإنفاق في غير حق»، فهذه عبارة تَعُمُّ المعصية والسَّرف المباح، وإنما نبَّهَت هذه الآية على استفراغ الجهد(١) فيما يطرأُ أولاً من سؤال المؤمنين؛ لِئَلاَّ يبقى من يأتي بعد ذلك لا شيء له، ولِئَلاَّ يُضَيِّع المنفقُ عيالاً، ونحوُه من كلام الحكمة: «ما رأَيتُ سرفاً قط إلاَّ ومعه حق مضيَّع»، وهذا من آيات فقه الحال، ولا يبين حكمها إلاَّ باعتبار شخص من الناس.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾، المعنى: كن أنت يا محمد على ما رسم لك من الاقتصاد وإنفاق القوام، ولا يهمنك فقر من تراه كذلك، فإنه بِمَرْأَى من الله وبِمَسْمَع، وبمشيئته. و[يَقْدِرُ] معناه: يُضَيِّق.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾، ايْ: يعلم مصلحة قوم في الفقر، ويعلم مصلحة آخرين في الغنى. وقال بعض المفسرين ـ وحكاه الطبري ـ: إن الآية إشارة إلى حال العرب التي كانت يُصلحها الفقر، وكانت إذا شبعت طغت وقتلت غيرها وأَغارتْ، وإذا كان الجوع والقحط شغلهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾.

قرأ الأعمش، وابن وثاب: [ولا تُقَتِّلُوا] بتضعيف الفعل.

وهذه الأية نهيٌ عن الوَأْد الذي كانت العرب تفعله، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾﴾(٢)، ويقال: كان جهلهم يبلغ إلى أن يُعِزَّ واحدٌ منهم كلبه ويقتل ولده، و[خَشْيَةَ] منصوب على المفعول لأجله، و«الإِمْلاَقُ»: الفقر وعدم المال، أَمْلَقَ الرجلُ: لم يبق له إلاَّ المَلَقَاتُ، وهي الحجارة العظام المُلْس السُّودُ. وقرأ الجمهور: (خِطْئاً) بكسر الخاء وسكون الطاء، وبالهمز والقصر، وقرأ ابن عامر: [خَطَأً] بفتح

---

(١) في بعض النسخ «استفراغ الوَجْد»، والوَجد مثله الواو بمعنى: السَّعة واليسار.

(٢) الآية (٨) من سورة (التكوير).

الخاء والطاء والهمزة مقصورة، وهي قراءة أبي جعفر، وهاتان قراءتان مأخوذتان من: خَطِئَ إذا أتى الذنب على عمد، فهي: كحِذْر وحَذَر ومِثْل ومَثَل وشِبْه وَشَبَه اسم مصدر، ومنه قول الشاعر:

الْخِطْءُ فَاحِشَةٌ والبِرُّ نَافلَةٌ ... كَعَجْوَةٍ غُرِسَتْ في الأَرْض تُؤْتَبَرُ(١)

قال الزجاج: خَطِئَ الرجلُ يَخْطَأُ خِطْئاً، مثل: أَثِمَ يَأْثَمُ إثماً، فهذا هو المصدر، وخَطَأُ اسمٌ منه، وقال بعض العلماء: خَطِئَ معناه واقع الذنب مع التعمد، وأخطأ إذا واقعه من غير تعمد، ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾(٢)، وقال أبو علي الفارسي: قد يقع هذا موضع هذا وهذاموضع هذا، فأخطأ بمعنى تعمَّد في قول الشاعر:

عِبَادُكَ يُخْطِئُونَ وَأَنْتَ رَبٌّ ... كَرِيمٌ لاَ يَلِيقُ بِكَ الذُّمُومُ(٣)

وخطىء بمعنى لم يتعمد في قول الآخر:

والنَّاسُ يَلْحَوْنَ الأَمِيرَ إذا هُمُ ... خَطِئُوا الصَّوَابَ وَلاَ يُلاَمُ المُرْشِدُ(٤)

---

(١) يستشهد ابن عطية بهذا البيت على أن الخِطْء بكسر الخاء وسكون الطاء قد وردت في اللغة مثل الخَطَأِ بفتح الخاء والطاء، وقال: إنهما في ذلك مثل: شِبْهٍ وشَبَهٍ، وحِذْرٍ وحَذَرٍ، ومِثْلٍ ومَثَلٍ. والفاحِشَةُ: القبيح الشنيع من قول أو فعل، والنافِلَةُ: ما زاد على النصيب أو الحقِّ، والعجوة: نوع جيِّد من تمر المدينة، وتُؤْتَبَر: تُلَقَّح، يقال: أَبَرَ النَّخل وأَبَّرَهُ: لَقَّحه. والبِرُّ هو الخير، وقد جعله الشاعر مقابلاً للخطأِ، وجعل الخير مصدراً للمنفعة.

(٢) من الآية (٢٨٦) آخر آية في سورة (البقرة).

(٣) هذا شاهد يذكره ابن عطية نقلا عن الفارسي دليلاً على أن (أَخطَأَ) قد تأتي إذا فعل الإنسان الذنب مع التعمد، أي: تأتي في موضع (خَطِئَ)، والبيت في اللسان، وقد ذكره شاهداً على أن (خَطِئَ) بمعنى: أَثِمَ، وضبط الفعل بفتح الياء والطاء (يَخْطَؤونَ) على أنها مضارع (خَطِئَ)، كذلك ذكره ابن جني في المحتَسَب، والرواية فيه «وأنت ربٌّ بكفَّيك المنايا والحتوم» وهي جمع حتم، وهو القضاءُ وإيجابه، أما أبو علي الفارسي فيجعلها مضارع (أخطأ)، وتبعه ابن عطية، وعلى كلا الفهمين فإن الخطأ في البيت بمعنى الإثم، والذُّمُومُ: العيوب، وقد أنشد سيبويه لأمية بن أبي الصلت:

سَلاَمَكَ ربَّنَا فِي كُلِّ فَجْرٍ ... بَرِيئاً مَا تَغَنَّثُكَ الذُّمُومُ

أي: ما تَنْسب إليك العيوب. ومعنى بَيْتِنَا هنا: إن عبادك يا رب يرتكبون الآثام وأنت ربٌّ رحيم كريم لا تلحق بك العيوب.

(٤) سبق الاستشهاد بهذا البيت في هذه السورة عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا﴾=

وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما: [خَطْأً] بفتح الخاء وسكون الطاء وهمزة، وقرأ ابن كثير: [خِطَاءً] بكسر الخاء وفتح الطاء ومدِّ الهمزة، وهي قراءة الأعرج ـ بخلاف ـ وطلحة، وشبل، والأعمش، وعيسى، وخالد بن إلياس، وقتادة، والحسن ـ بخلاف ـ، قال النحاس: ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً، وكذلك جعلها أبو حاتم غَلَطاً، قال أبو علي الفارسي: هي مصدر خاطأ يخاطىءُ، وإن كنَّا لم نجد خاطَأ، ولكن وجدنا تخاطأ، وهو مضارع خاطأ، فَدَلَّنا عليه، ومنه قول الشاعر:

تَخَطَّـأَتِ النَّبْـلُ أَحْشَـاءَهُ ... وَأَخَّـرَ يَـوْمِـي فَلَـمْ أَعْجَـلِ(١)

وقال الآخر في صفة كمأة:

تَخَـاطَـأَهُ الْقَنَّـاصُ حَتَّـى وَجَـدْتُـهُ ... وَخُرطُومُهُ في مِنْقَعِ الْمَاءِ رَاسِبُ(٢)

فكأن هؤلاء الذين يقتلون أولادهم يخاطئون الحق والعدل. وقرأ الحسن ـ فيما رُوي عنه ـ: [خَطَاءً] بفتح الخاء والطاء والمدِّ في الهمزة. قال أبو حاتم: لا يُعْرفُ هذا

= فِيهَا﴾، وكان شاهداً على أن كلمة (الأمير) تأتي بمعنى المرشد والناصح، وهو هنا شاهد على أن (خَطِىءَ) قد تأتي بمعنى مواقعة الذنب دون تعمد على خلاف المشهور في اللغة.

(١) هذا بيت قاله أَوْفَى بن مَطَر المازني، قال ذلك في اللسان (خَطَأ)، وذكره مع بيت قبله، قال: «وتَخَاطَأَهُ وتَخَطَّأهُ أي أخطَأَه، قال أَوْفَى بن مَطَر المازني:

أَلاَ أَبْلِغَـا خُلَّتِـي جَـابِـراً ... بِـأَنَّ خَلِيلَـكَ لَـمْ يُقْتَـلِ
تَخَطَّـأَتِ النَّبْـلُ أَحْشَـاءَهُ ... وَأَخَّـرَ يَـوْمِـي فَلَـمْ يَعْجَـلِ

هكذا بلفظ (تَخَطَّأت)، وعلى هذا فلا شاهد فيه لأبي علي الفارسي، فقد ذكره شاهداً على أن (تَخَاطَأَ) مضارع (خاطأ) قد سُمع عن العرب، وأنه دليل لنا على أن (خَاطَأ) موجودة، ومصدرها (خِطَاءٌ) التي قرأ بها ابن كثير وغيره. أما كلمة (أَخَّر) فمعناها: تأخَّرَ، ويجوز ضبطها (أُخِّر) بضم الهمزة وكسر الخاء المشددة، ورواية اللسان (يَعْجل) يريد اليوم، ورواية ابن عطية (أَعْجل) يريد نفسه، يبشر خليله بأن النبال قد أخطأته أو تَخَطَّته فلم تصبه، وأن يومه قد تأجل.

(٢) وهذا أيضاً شاهد على أن (تَخَاطَأ) موجودة، وهي مضارع (خَاطَأ)، وعلى هذا جاءت قراءة ابن كثير [خِطَاءً] التي هي مصدر خاطأ. والقَنَّاصُ: الصائد، والخُرْطوم: الأنف، أو طَرَفُه، وقيل: الوجه كله. ومِنقَع الماء: المكان الذي اجتمع فيه الماءُ وثَبَت. والرُّسوبُ: الذهابُ في الماء سُفْلاً. وقد ذكر ابن عطية هنا وأبو حيان في البحر أن البيت في صفة كمأة، وهي اسم للجمع من الكَمْءِ، وهو فُطر من فصيلة أرضية تنتفخ في باطن الأرض، وتجمع وتؤكل مطبوخة، ويختلف حجمها بحسب الأنواع، وقال في القرطبي إن البيت وصف مهاة.

في اللغة، وهي غلط غير جائز، وليس كما قال أبو حاتم. قال أبو الفتح: الخَطَاءُ من «أَخْطَأْتُ» بمنزلة العَطَاءِ من «أعطيت»، هو اسمٌ بمعنى المصدر. وقرأ الحسن ـ بخلاف ـ: [خَطَأً] بفتح الخاء والطاءِ مُنَوَّنةً من غير همْز. وقرأ أبو رجاءٍ، والزهري: [خِطَأً] بكسر الخاءِ وفتح الطاءِ كالتي قبلها، وهاتان مخففتان من: خَطَأٍ وخِطَأٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ تحريم، والزنى يُمَدُّ ويُقصر، فمِنْ قصْرِهِ الآية، وهي لغة جميع كتاب الله، ومِنْ مَدِّه قول الفرزدق:

أَبَا حَازِمٍ مَنْ يَزْنِ يُعْرَفْ زِنَاؤُهُ ... وَمَنْ يَشْرَبِ الْخُرْطُومَ يُصْبِحْ مُسَكَّرَا[(١)]

ويُرْوى: أبا خالد، و«الْفَاحِشَة»: ما يُستتر به من المعاصي لقبحه.

و[سَبِيلاً] نصب على التميز، والتقدير: وسَاءَ سبيلُه سبيلا، أي لأنه يؤدي إلى النار.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ وما تقدم قبله من الأفعال جزم بالنهي.

وذهب الطبري إلى أنها عطف على قوله: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، والأول أصوب وأبرع للمعنى.

والألف واللام التي في [النَّفْسَ] هي للجنس، و«الحَقّ» الذي تقتل به النفس هو ما فسَّره النبي ﷺ في قوله: «لايُحِلُّ دمَ المسلم إلاَّ إحدى ثلاث خصال: كفرٌ بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفس أُخرى»[(٢)].

---

(١) البيت في اللسان (سَكَرَ)، والرواية فيه: أبَا حاضرٍ، والخُرْطوم: الخمر السريعة الإسكار، وقيل: هو أوَّل ما يجري من العنب قبل أن يُداس، وفي «المُحْكَم»: وأنشد أبو حنيفة:

وكأنَّ ريقتَها إذا نَبَّهْتَها ... بَعْدَ الرُّقادِ تُعَلُّ بالخُرْطُومِ

والمُسَكَّرُ: المخمور. والشاهد في البيت أن الزنى جاء ممدوداً في قوله: «يعرف زناؤه»، ومثله في ذلك قول النابغة الجعدي:

كانَتْ فَرِيضَةُ ما تَقُولُ كَمَا ... كَانَ الزِّنَاءُ فَرِيضَةَ الرَّجْمِ

(٢) أخرجه البخاري في تفسير المائدة، وفي الديَّات، وأخرجه مسلم وأبو داود في الحدود، والنسائي في التحريم، وابن ماجه في الحدود، وأحمد في مسنده (١ـ٦١)، ولفظه كما جاء في مسند أحمد، عن أبي أُمامة بن سهل قال: كنا مع عثمان رضي الله عنه وهو محصور في الدار، فدخل مدخلاً كان إذا دخله يسمع كلامه من على البلاط، قال: فدخل ذلك المدخل وخرج إلينا فقال: إنهم يتوعدونني بالقتل آنفاً، قال: قلنا يكفيكهم الله يا أمير المؤمنين، قال: وبم يقتلونني؟ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا يحل=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتتصل بها أشياءٌ هي راجعة إليها، فمنها قَطْعُ الطريق لأنه في معنى قتل النفس، وهي الحِرَابَة، ومن ذلك الزندقة، ومسألة ترك الصلاة لأنها في معنى الكفر بعد الإيمان، ومنه قَتْلُ أبي بكر رضي الله عنه مَنَعَةَ الزكاة، وقتل من امتنع في المدن من فروض الكفاية.

وقوله: [مَظْلُوماً] نصب على الحال، ومعناه: بغير هذه الوجوه المذكورة.

و«الْوَلِيُّ»: القائم بالدَّم وهو من وَلَدَ المَيِّتَ، أَوْ وَلَدَهُ الْمَيِّتُ، أَوْ جَمَعَهُ وإياه أبٌ، ولا مدخلِ للنساءِ في ولاية الدم عند جماعة من العلماء، ولهُنَّ ذلك عند آخرين. و«السُّلْطَانُ»: الحجة والملك الذي جعل الله إليه من التَّخيير في قبول الديَّة أو العفو، قاله ابن عباس والضحاك. وقال قتادة: السلطانُ: القود.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ بالياء، وهي قراءة الجمهور، أي الولي، لا يتعدى أمر الله، والتَّعَدِّي هو أن يقتل غير قاتل وَلِيِّه من سائر القبيلة، أو يقتل اثنين بواحد، وغير ذلك من وجوه التعدي، وهذا كله كانت العرب تفعله، فذلك وقع التحذير منه، وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ من أَعْتَى الناس ثلاثة: رجل قتل غير قاتل وليّه، أو قتل بدخن الجاهلية، أو قتل في حَرَم الله»[1]. وقالت فرقة: المراد بقوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ القاتلُ الذي يتضمنه الكلام، والمعنى: فلا يكن أحد من المسرفين بأن يقتل نفساً، فإنه يحصل في سياق هذا الحكم. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: [فلا تسرف] بالتاء من فوق، وهي قراءة حذيفة، ويحيى بن وثاب، ومجاهد ـ بخلاف ـ والأعمش، وجماعة. قال الطبريُّ: على معنى الخطاب للنبي ﷺ ولأُمته بعده، أي: فلا تقتلوا غير القاتل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويصحُّ أن يراد به الوليُّ، أي: فلا تسرف أيها الوليُّ في قتل أحد متحصل في هذا

= دم امرىءٍ مسلم إلاَّ بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفساً فيقتل بها)، فوالله ما أحببت أن لي بديني بدلاً منذ هداني الله، ولا زنيت في جاهلية ولا في إسلام قط، ولا قتلت نفساً، فبم يقتلونني؟.

(١) الحديث أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، والدَّخَن: الفساد والاختلاف.

الحكم. وقرأ أبو مسلم السَّراج صاحب الدعوة العباسية[١]: ﴿فَلَا يُسْرِفُ﴾ بضم الفاء، على معنى الخبر لا على معنى النهي. والمراد ـ على هذا التأويل ـ الوليُّ فقط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي الاحتجاج بأبي مسلم في القراءة نظر. وفي قراءة أُبي بن كعب «فلا تُسرفوا في القتْل إنَّ وليَّ المقتول كان منصوراً»[٢]. والضمير في قوله تعالى: [إنَّهُ] عائد على الوليِّ، وقيل: على المقتول، وهو عندي أرجح الأقوال؛ لأنه المظلوم ولفظة النصر تقابل أبداً الظلم، كقوله عليه الصلاة والسلام: (وَنَصْرِ المظلوم وإبْرَار القَسم)[٣]، وكقوله ﷺ: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)[٤]، إلى كثير من الأمثلة. وقيل: على القتل، وقال أبو عبدة: على القاتل؛ لأنه إذا قُتلَ في الدنيا وخلص بذلك من عذاب الآخرة فقد نُصر.

---

(١) هو أبو مسلم الخراساني، عبد الرحمن بن مسلم، اتصل في شبابه بإبراهيم ابن الإمام محمد (من بني العباس). فأرسله إلى خراسان داعية، فأقام فيها واستعمل أهلها، ثم وثب على والي نيسابور (علي بن الكرماني) فقتله واستولى على نيسابور، ثم سيَّر جيشاً لمقاتلة مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية، فلما هزمت جيوش مروان فرَّ إلى مصر، وقتل هناك، وصفا الجو للسفاح العباسي، فلما مات خلفه أخوه المنصور الذي خاف من أبي مسلم فقتله، وكان أبو مسلم فصيحاً بالعربية والفارسية، وفارساً، داهية، حازماً، كان أسمر قصير القامة، رقيق البشرة، حلو المعشر، وهو صاحب الفضل في قيام الدولة العباسية. وفي هامش النسخة التونسية بالخط الكبير أمَامَ قوله: أبو مسلم السَّراج عنوان كبير يقول: أبو مسلم الخراساني، وقال الزمخشري: «أبو مسلم صاحب الدولة».

(٢) قال أبو حيان في (البحر المحيط): «الأولى حمل قوله: (إن وليَّ المقتول) على التفسير لا على القراءة؛ لمخالفته السواد، ولأن المستفيض عنه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ۝٣٣﴾ كقراءة الجماعة.

(٣) أخرج هذا الحديث البخاري في الجنائز والنكاح والأشربة والأدب والاستئذان، وأخرجه مسلم في اللباس، والترمذي في الأدب، والنسائي في الإيمان، وأحمد في مسنده (٤ـ٢٨٤، ٢٨٧، ٢٩٩)، ولفظه كما في كتاب الجنائز في البخاري، عن البراء رضي الله عنه قال: أمرنا النبي ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع، أمرنا باتباع الجنائز، وعيادة المريض، وإجابة الداعي، ونصر المظلوم، وإبرار القسم، وردِّ السلام، وتشميت العاطس، ونهانا عن آنية الفضة، وخاتم الذهب، والحرير والديباج والقَسِّيِّ والاستبرق (القَسِّي: نوع من الحرير).

(٤) ذكره السيوطي في الجامع الصغير بلفظ: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قيل: كيف أنصره ظالماً؟ قال: تحجزه عن الظلم فإن ذلك نصره)، وقال: أخرجه أحمد، والبخاري، والترمذي، وهو عن أنس رضي الله عنه، ثم رمز له بالصحة، ثم ذكر رواية أخرى عن جابر رضي الله عنه، أخرجها الدارمي وابن عساكر، ورمز لها السيوطي بالحسن، ولفظها: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، إن يك ظالماً فاردده عن ظلمه، وإن يك مظلوماً فانصره).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف بعيد المقصد.

وقال الضحاك: هذه أول ما نزل من القرآن بشأن القتل، وهي مكِّيَّة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

الخطاب في هذه الآية للأوصياء الذين هم مُعَدُّونَ لقُرْبِ مال اليتيم، ثم هي لمن تَلَبَّسَ بشيءٍ من أمرهم من غير وصيٍّ، و«ٱلْيَتِيمُ»: الفَرْدُ من الأبناء، واليُتْمُ: الانفراد، يقال: يتَمَ الصبيُّ يَيْتَم إذا فقد أباه. وقال ابن السكيت: اليُتْمُ في البشر من قِبَلِ الأب، وفي البهائم من قِبَل الأُم. وفي كتاب الماوردي: إنَّ اليُتْمَ في البشر من قِبَل الأُم أيضاً، وجمع اليتيم أيتام، كشريف وأشراف، وشهيد وأشهاد، ويُجمع يَتَامَى كأسير وأَسَارَى، كأَنها في الأمور المكروهة التي تدخل على المرء غلبة. قال ابن سيدة: وحكى ابن الأعرابي (يَتْمَان) في (يتيم)، وأنشد في ذلك.

فَبِتُّ أُشَوِّي صِبْيَتِي وَحَلِيلَتِي   طَرِيًّا وجِرْوُ الذِّئْبِ يَتْمَانُ جَائِعُ[(١)]

ويجوز أن يكون (يَتَامَى) جمع (يَتْمَان). وفي الحديث: (لا يُتْمَ بَعْدَ حُلُم)[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ يريد: إلاَّ بأحسن الحالات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذلك في الوصيِّ الغنِيِّ، أن يُثَمِّر المال ويحوطه، ولا يحبس منه شيئاً على جهة الانتفاع به. هذا هو الورع، والأولى ألا يكون يشتغل في مال اليتيم ويشح عليه، فالفقه أن تفرض له أُجرة. وأمَّا الوصي الفقير الذي يشغله مال اليتيم عن معاشه، فاختلف

---

(١) البيت لأبي العارم الكلابي، وهو في اللسان (يَتَمَ)، وأُشَوِّي: أُطعم الشِّواء، والصبيُّ: الصغير الذي لم يُفطم، أو الصغير دون الغلام. وحليلةُ الرجل: زوجُهُ، والطريُّ: اللَّيِّن الغَضُّ، وجَرْوُ الذئب: صغيره، واليَتْمان: لغة في اليتيم، وهي موضع الشاهد في البيت.

(٢) أخرجه أبو داود في الوصايا، ولفظه فيه: (لا يُتْمَ بعد احتلام)، أي: بلوغ.

الناسُ في أكله منه بالمعروف، كيف هو؟ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يتسَلَّف منه، فإذا أَيْسَرَ ردَّ فيه، وقال ابن المسيِّب: لا يشرب الماء من مال اليتيم، قيل: فما معنى: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾[1]؟ قال: إنما ذلك لخدمته وغسل ثوبه، وقال مجاهد: لا يَقْرَبُ إلا بتجارة ولا يستقرض منه، قال: قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ من مال نفسه. وقال أبو يوسف: لعلَّ قوله: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ منسوخٌ بقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[2]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يأكل منه الشَّرْبَة من اللَّبن، والطُّرْفة من الفاكهة، ونحو هذا مما يخدمه، ويَلُوط الحوض[3]، ويَجدُّ النَّخْل[4]، ويَنْشُد الضَّالَّة[5]، فيأكل غير مُضِرٍّ بِنَسْل[6]، ولا ناهِك في الحلب[7]، وقال زيد بن أسلم: يأكل منه بأطراف أصابعه بُلْغَةً[8] من العيش بتَعَبِهِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه استعارة للتَّقَلُّل[9]، وقال مالك رحمه الله، وغيره: يأخذ منه أجرة بقدر تعبه، فهذه كلها تدخل فيما هو أحْسَن. وكمال تفسير هذه المعاني في سورة النساء بحسب ألفاظ تلك الآيات[10]، وفي الخبر عن قتادة أن هذه الآية لما نزلت شَقَّت على المسلمين، وتجنبوا الأكل معهم في صحيفة، فنزلت ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ﴾[11].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غاية الإمساك عن مال اليتيم، ثم بعد الغاية قد سنَّتْهُ

---

(١) من الآية (٦) من سورة (النساء).

(٢) من الآية (١٨٨) من سورة (البقرة).

(٣) لاط الحوض بالطِّين: طلاه وملَّسَه به.

(٤) جذَّ النخل جذّاً: قطع ثمره وجناه.

(٥) نَشَد الضَّالةَ: طلبها وبحث عنها.

(٦) النَّسْل: الولد والذُّرِّيَّة، وجمع أنْسَال، والمراد هنا: النتاج.

(٧) أي: غير مبالغ في الحلب بحيث يجهد الدابة المحلوبة، يقال: نَهَك الضرعَ إذا بالغ في حلبه حتى استوفى جميع ما فيه.

(٨) البُلْغَةُ: ما يكفي لِسَدِّ الحاجة ولا يفضُل عنها.

(٩) أي: لا يأخذ إلا أقل شيء.

(١٠) راجع المجلد الثاني صفحة ٤٧١ وما بعدها.

(١١) من الآية (٢٢٠) من سورة (البقرة).

آية أُخرى، وما بعد هذه الغايات أبداً موقوف حتى يقوم فيه دليل شرعي، أو يقتضي ذلك الإنصاف في النازلة، ومثل هذا قول عائشة رضي الله عنها: «أنا فَتَلْتُ قلائد هَدْي رسول الله ﷺ بيدي، وبعثت بها، فلم يحرم على رسول الله ﷺ شيءٌ أحلَّه اللهُ له حتَّى نحر الهدي».

و«الأشُدّ»: جمع (شَدٍّ) عند سيبويه[1]، وقال أبو عبيدة: لا واحد له من لفظه، ومعناه: قُوَاهُ في العقل والتجربة والنظر لنفسه، وذلك لايكون إلاَّ مع البلوغ، فالأَشُدُّ في مذهب مالك إقران البلوغ بالاحتلام أو ما يقوم مقامه حسب الخِلاف في ذلك، والرُّشد في المال. واختلف، هل من شروط ذلك الرُّشد في الدِّين على قولين: فابن القاسم لا يراعيه إذا كان ضابطاً لماله، وراعاه غيره من أصحاب مالك، ومذهبُ أبي حنيفة أن الأشُد هو البلوغ فقط، فلا حجر عنده على بالغ إلاَّ أن يعرف منه السَّفَة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولستُ من هذا التقييد في قوله على ثقة.

وقال أبو إسحق الزَّجاج: الأشُدُّ في قول أن يأتي على الصبي ثماني عشرة سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما أراد أنه بعض ما قيل في حدِّ البلوغ لمن لا يحتلم، وأمَّا أن يكون بالغاً رشيداً فلا يدفع إليه مالُه حتَّى يبلغ هذه المدَّة فَشَيْءٌ لا أحفظ من يقوله:

وقوله تعالى: ﴿وأفوا بالعهد﴾ لفظ عام لكل عهد وعقد بين الإنسان وبين ربه، أو بينه وبين المخلوقين في طاعة، وقوله: ﴿إن العهد كان مسؤلاً﴾ أي: مطلوباً ممن عُهِد إليه أو عوهد، هل وفَّى به أم لا؟

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ الآية. أمر الله تعالى في هذه الآية أهل التَّجر والوزن والكيل أن يعطوا الحق في كيلهم ووزنهم، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقف في السوق ويقول: يا معشر الموالي، إنكم وليتم أمرين بهما هلاك الناس قبلكم، هذا المكيال وهذا الميزان.

---

(١) في اللسان (شَدَدَ): «قال أبو عُبَيْد: واحدها شَدٌّ في القياس، قال: ولم أسمع لها بواحدة، وقال سيبويه: واحدتها شِدَّةٌ، كنِعْمَةٍ وأنْعُم، ابن جني: جاء على حذف التاء كما كان ذلك في نِعْمَة وأنعم»، تأمل هذا وتأمل قول ابن عطية عن سيبويه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتقتضي هذه الآية أن الكيل على البائع؛ لأن المشتري لا يقال له: «أَوْف الكيل»، هذا هو ظاهر اللفظ والسابق منه، و«ٱلْقِسْطَاسُ»، قال الحسن: هو القَبَّان، ويقال فيه: القَفَّان، وهو القاسْطُون، ويقال القَرْطَسُون، وقيل: القِسْطَاسُ الميزان كان صغيراً أو كبيراً، وقال مجاهد: القِسْطاسُ: العَدْلُ، وكان يقول: هي لغة رومية، فكأَنَّ الناسَ قيل لهم: زِنُوا بمعدلةٍ في وزنكم. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم ـ في رواية أبي بكر: [بالْقُسْطَاسِ] بضم القاف، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: [بِالْقِسْطَاسِ]، وهما لغتان، واللفظة منه للمبالغة من القِسْط[(١)]، والمراد بها في الآية جنس الموازين العدْلة على أي صفة كانت.

قال أبو حاتم: «إنَّما قرأ بكسر القاف أهل الكوفة، وكلُّ قراءة لا تجاوز الكوفة إلى الحرمين والبصرة فاقرأ بغيرها». وقرأت فرقة: [بِالْقِصْطَاسِ] بالصاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكان مذهب مجاهد في هذا، وفي ميزان القيامة، وكل ذلك، أنها استعاراتٌ للعدل، وقوله: «ميزان القيامة» مردودٌ، وعقيدة أهل السُّنَّة أنه ميزان له عمود وكفَّتان. وسمعت أبي رضي الله عنه يقول: رأيت الواعظ أبا الفضل بن الجوهري في جامع عمرو بن العاص يعظ الناسَ في الوزن، فقال في جملة كلامه: إنَّ في هيئة اليد بالميزان عظةً، وذلك أن الأصابع يجيءُ منها صورة المكتوبة: أَلِفٌ ولامان وهاءُ، فكأن الميزان يقول: الله الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا وعظٌ جميلٌ.

و«التَّأْويلُ» في هذه الآية: المآلُ، قاله قتادة، ويحتمل أن يكون «التَّأْويلُ» مصدر تأَوَّل، أي: يتأول عليكم الخير في جميع أموركم إذا أحسنتم في الكيل والوزن.

---

(١) علَّق أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط) على ذلك فقال: «ولا يجوز أن يكون من القِسْطِ لاختلاف المادتين، لأن القِسْطَ مادتُه (قَ سَ طَ)، وذلك مادته (قَ سْ طَ سَ)؛ إلا إن اعتقد زيادة السين آخِراً (كسِين قَدْمُوس وضَغْبُوس) فيمكن، لكنه ليس من مواضع زيادة السِّين المقيسة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والغرض من الكيل والوزن تحرِّي الحق، فإن غلب الإنسان بعد تَحَرِّيه لشيء يسير من تطفيف شاذٍّ، أو لم يقصده، فذلك نزرٌ موضوعٌ عنه إثْمُه، وذلك مالا يكون الانفكاك عنه في وُسْع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ معناه: وَلاَ تَقُلْ ولا تَتَبعْ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لكنها لفظة تستعمل في القذف والعظة، ومنه قول النبي ﷺ: «نحن بنو النضر لا نَقْفُو أُمَّنَا ولا ننتفي من أبينا»[١]، وتقول: فلان قِفْوتي، أي: موضع تُهْمَتي، وتقول: «رُبَّ سامِع عِذْرَتي ولمْ يسْمَع قِفْوَتي»[٢] أي: ما رميت به، وهذا مثل للذي يُفْشي سرَّه ويعتذر من ذنب لم يسمعه المُعْتَذَرُ إليه. وقد قال ابن عباس أيضاً، ومجاهد: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ معناه: لا تَرْمِ، ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

ومِثْلُ الدُّمَى شُمُّ العَرَانِينِ سَاكِنٌ بِهِنَّ الْحَيَاءُ لا يُشِعْنَ التَّقَافِيَا[٣]

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الحدود، وأحمد في مسنده (٥/٢٢١، ٢١٢)، ولفظه كما في المسند، عن الأشعث بن قيس قال: أتيت رسول الله ﷺ في وفدٍ لا يَرَوْنَ أني أفضلهم، فقلت: يا رسول الله، إنَّا نزعُم أنكم منَّا، قال: (نحن بنو النضر بن كنانة، لا نقْفُوا أُمَّنا، ولا نَنْتَفي من أبينا، قال: فكان الأشعث يقول: لا أوتى برجل نفى قريشاً من النضر بن كنانة إلاَّ جلدته الحدَّ. ومعنى (لا نَقْفُو أُمَّنَا): لا نسُبُّ أُمَّنا.

(٢) العِذْرة: المعذرة، والقَفْوَة: الذَّنب، يقال: قَفَوْتُ الرَّجُلَ إذا قذفته بفجور صريحاً، وفي الحديث الشريف: «لا حدَّ إلاَّ في القَفْو البيِّن». وهذا المثل يقوله الرجل يعتذر من أمر شتم به إلى الناس، ولو سكت لم يعلم به. ويروى هذا المثل: «رُبَّ سامع قَفْوتي ولم يسمع عِذْرتي»، قال الأصمعي: معناه: سمع ما أكره من أمري، ولم يسمع ما يغسله عني.

(٣) هذا البيت للنابغة الجعدي، وهو عبد الله بن قيس، أبو لَيْلَى، وقد استشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن على أن معنى التَّقَافي: التَّقاذف. وقد نقل صاحب اللسان عن أبي عبيد أن الأصل في القَفْو والتَّقَافي: البهتان يَرْمي به الرجلُ صاحِبَهُ. ويقال: قَفَا فلانٌ فلاناً: أتبعه أمراً كلاماً قبيحاً، وقال الفراءُ عن هذه الآية: أكثر القُرَّاءِ يجعلونها من قَفَوْتُ، والدُّمَى: جَمْعُ دُمْية، وهي التمثال من العاج أو المرمر ونحوهما. والعَرَانين: جمع عِرنين، وهو ما صلُب من عظم الأنف، أي القصبة، والشَّمَمُ في العرانين هو ارتفاعها، وهو من علامات الجمال، ويصفهن بالجمال فيشبههن بالدمى، وبجمال الأنوف المرتفعة، وبالحياء الذي يكسبهن الوقار والكمال، ثم يختم ذلك بأنهن لا يعرفن تَتَبُّع الأقاويل، ولا يبحثن عن عيوب الناسِ وأخبارهم.

وقال الكميت:

وَلا أَرمِـي البَـرِيءَ بِغيْـرِ ذنْـب   وَلاَ أَقْفُـو الحـواصِـنَ إنْ قُفِينَـا[١]

وأصل هذه اللفظة من اتّباع الأثر، تقول: قَفَوْتُ الأثر، ويُشْبه أن هذا مأخوذ من «القَفَا»، ومنه قافية الشِّعر لأنها تقفو البيتَ، وتقول: «قُفْتُ الأثر»، ومن هذا: هو القائف، وتقول: «فُقْتُ الأثر» بتقديم الفاء على القاف، ويشبه أن يكون هذا من تلعُّب العرب في بعض الألفاظ، كما قالوا: «رَعَمْلِي» في «لَعَمْري»، وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: قَفَا وقَافَ، مثل عَتَا وعاتَ، فمعنى الآية: ولا تتبع لسانك من القول مالا علم لك به، وذهب مُنْذر بن سعيد إلى أن قفا وقاف مثل جَذَبَ وجَبَذَ، فهذه الاية بالجملة تنهى عن قول الزُّور والقذف وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة الرديئة.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾، وقرأ بعض الناس ـ فيما حكى الكسائي ـ: [ولا تَقُفْ] بضم القاف وسكون الفاء.

وقرأ الجراح: [وَالْفَوَادَ] بفتح الفاء، وهي لغة، وأنكرها أبو حاتم وغيره[٢]، وعبَّر عن «السَّمع والبصر والفؤاد» بـ[أولئك] لأنها حواس لها إدراك، وجعلها في هذه الآية مسؤلة فهي حالة من يعقل، فلذلك عبَّر عنها بـ[أولَئِكَ]، وقد قال سيبويه رحمه الله في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝٤﴾[٣]: إنه إنما قال: [رَأَيْتُهُمْ] في نجوم لأنه لما وصفها بالسجود وهو من فعل من يعقل عبَّر عنها بكناية من يعقل. وحكى الزجاج أن العرب تعبِّر عما يعقل وعما لا يعقل بالإدراك، وأنشد هو والطبري:

---

(١) هذا البيت شاهد أيضاً على أن القَفْو هو تتبع عورات الناس وعُيُوبهم. ورَمَى فلانٌ فلاناً بأمر قبيح: قذفه به، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، يقول: إنه لا يرمي بريئاً ولا يقذفه بأمر قبيح وهو لم يرتكب ذنباً، والحواصِنُ: جمع حاصِن من النساء، يقال: حَصُنت المرأة تَحْصن حِصْناً وحُصْناً إذا عفَّت عن الريبة، وقيل: الحواصِنُ من النساء: الحبالى: فهو أيضاً لا يَتَّهم المحصنات من النساء إذا تتبعهن غيرُه من الناس، وظاهرٌ من بيت الكميت أنه تأثر كثيراً بالقرآن الكريم، لفظاً ومعنى.

(٢) قال أبو الفتح بن جنِّي: «لم يذكر أبو حاتم هو ولا ابن مجاهد الهمز ولا تَرْكه، وقد يجوز ترك الهمز مع فتح الفاء، كأنه كان (الْفُؤَادَ) بضم الفاء وبالهمز، ثم خففت فخلصت في اللفظ واواً، وفتحت الفاءُ على ما في ذلك. فبقيت واواً»، ومعنى ذلك أنه يختار مع فتح الفاء تَرْكَ الهمز.

(٣) من الآية (٤) من سورة (يوسف).

ذُمَّ الْمَنَازِلَ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللِّوَى   وَالْعَيْشَ بَعْدَ أُولَئِكَ الأَيَّامِ(١)

فأمَّا حكاية أبي اسحاق عن اللغة فأَمْرٌ يوقف عنده، وأمَّا البيت فالرواية «الأقوام». والضمير في [عَنْهُ] يعود على ما ليس للإنسان به علم، ويكون المعنى: إن الله تعالى يسأل سمع الإنسان وبصره وفؤاده عما قال مما لا علم له به، فيقع تكذيبه من جوارحه، وتلك غاية الخِزْي. ويحتمل أن يعود الضمير في [عَنْهُ] على [كُلُّ] التي هي للسمع والبصر والفؤاد، والمعنى: إن الله تعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده، فكأنه قال: كل هذه كان الإنسان عنه مسؤولاً، أي عمَّا حصل لهؤلاء من الإدراكات، ووقع منها من الخطايا، فالتقدير «عن أعمالها مسؤولاً»، فهو على حذف مضاف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

قرأ الجمهور: (مَرَحاً) بفتح الراء، مصدرٌ من: مَرِحَ يَمْرَحُ إذَا تَبَخْتَر مسروراً بدنياه مقبلاً على راحته، فهذا هو ٱلْمَرَحُ، فَنُهِيَ الإنسانُ في هذه الآية أن يكون مشيه في الأرض على هذا الوجه، ثم قيل له: إنك لن تقطع الأرض وتمسحها بمشيك، ولن تبلغ أطوال الجبال فتنالها طولاً، فإذا كنت لا تستوي في الأرض بمشيك فقصرُكَ نفسك على ما يوجبه الحقُّ من المشي والتَّصرف أَوْلى وأحق. وخوطب النبي ﷺ بهذه الآية والمراد الناسُ كلهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإقبال الإنسان على الصيد ونحوه تنزهاً دون حاجة إلى ذلك داخل في هذه الآية، وأما الرجل يستريح في اليوم النادر والساعة من يومه فيجمُّ فيها نفسه في التفرج والراحة

---

(١) هذا البيت لجرير، قاله من قصيدة يجيب بها الفرزدق، ومطلعها:

سَرَتِ الْهُمُومُ فَبِتْنَ غَيْرَ نِيَامِ   وَأَخُو الْهُمُومِ يَرُومُ كُلَّ مَرَامِ

والشاهد فيه عند الزجاج والطبري هو الإشارة إلى الأيام بأولئك، وابن عطية يقول: إن الرواية هي الأقوام بدلا من الأيام، وعلى هذا فلا شاهد في البيت.

ليستعين بذلك على شغل من البرّ كقراءة عِلْم أو صلاةٍ، فليس ذلك بداخل في هذه الآية.

وقرأ فرقة ـ فيما حكى يعقوب ـ: [مَرِحاً] بكسر الراء على بناء اسم الفاعل، وهذا المعنى يترتب على هذه القراءة، ولكن يحسُنُ معها معنى آخر ذكره الطبري مع القراءة الأُولى، وهو بهذه القراءة أَلْيَق، وهو أن قوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ أراد بذلك: أيها المرح المختال الفخور، لا تخرق الأرض، ولا تطاول الجبال بفخرك وكبرك، وذهب بالألفاظ إلى هذا المعنى، ويحسن ذلك مع القراءة بكسر الراء من المرح؛ لأن الإنسان نُهي حينئذ عن التَّخلُّق بالمرح في كل أوقاته؛ إذ المشي في الأرض يفارقه، فلم يُنْهَ إلاَّ عن أن يكون مرحاً، وعلى القراءة الأُخرى إنما نُهِيَ من ليس بمرح عن أن يمشي في بعض أوقاته مرَحاً، فيترتَّب في المرِح ـ بكسر الراء ـ أن يؤخذ بمعنى المتكبر المختال.

وخَرْقُ الأرض: قطعها، والخرق: الواسع من الأرض، ومنه قول الشاعر:

وخَـــرْقٍ تَجَـــاوَزْتُ مَجْهُـــولَـــهُ بِـوجْنَـاءَ خـرِقٍ تَشَكَّـى ٱلْكَـلالاَ[1]

ويقال لثقب الأرض: خَرْق، وليس هذا المعنى في الآية، ومنه قول رؤْبة بن العجاج:

وقَاتِمُ الأَعمَاقِ خَاوِي المُخْتَرَقْ[2]

---

(١) الخَرْقُ: الأرض البعيدة، مستوية كانت أو غير مستوية، وقيل: هي الفلاة الواسعة، سميت بذلك لانخراق الريح فيها، وأراد هنا المكان من الأرض الذي تنطبق عليه هذه الصفات.
وتَجَاوَزَهُ: قَطَعَه ومَرَّ منه سالماً، وناقَةٌ وجناءُ: تامة الخَلْق، غليظة لحم الوجنة صُلْبة شديدة، أو هي: العظيمة الوجنتين. والناقة الخرقاءُ: التي يقع منسمها بالأرض قبل خفها، أو لا تتعهد مواضع قوائمها. والكلال: التعب، يقول: إنه قطع هذا المكان الواسع من الأرض بهذه الناقة الوجناء التي تضرب في الأرض بسرعة وتشتكي التعب والكلال.

(٢) هذا مطلع قصيدة قالها رؤبة في وصف المفازة، وفيها يقول:

وقَـــاتِـــمِ الأَعْمَـــاقِ خَـــاوي المخْتَـــرَقْ مُشْتَبِـــه الأعْـــلامِ لمَّـــاعِ الْخَنَـــقْ

وهي قصيدة طويلة محبوكة، وقد أكثر اللغويون من الاستشهاد بأبياتها. وقاتم الأعماق: واد مظلم الجوانب لما فيه من غبار كثيف ثائر يكاد يحجب الرؤية. والخاوي: الخالي، والمُخْتَرق: الممر والمقطع. وهذا هو موضع الشاهد، وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن) على ذلك، قال بعد أن=

وقرأ الجراحُ، والأعرابي: [لن تَخْرُقَ الأرض] بضم الراء، قال أبو حاتم: لا تُعرف هذه اللغة.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، والأعرج: [سَيِّئَةً]، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، والحسن، ومسروق: (سَيِّئُهُ) على إضافة (سَيِّء) إلى الضمير، والإشارة ـ على القراءة الأُولى إلى ما تقدم ذكره مما نهي عنه، كقول: أُفٍّ، وقَذْف الناس، والمرح، وغير ذلك، والإشارة ـ على القراءة الثانية ـ إلى جميع ما ذكر في هذه الآيات من بِرٍّ ومَعْصية، ثم اختصَّ ذكر السَّيِّء منه بأنه مكروه عند الله تعالى، فأمَّا من قرأ: [سَيِّئُهُ] بالإضافة إلى الضمير فإعرابُ قراءته بيِّنٌ، و[سَيِّءٌ] اسم [كَانَ]، و[مَكْرُوهاً] خبرُه، وأما من قرأ: [سَيِّئَةً] فهي الخبر لـ[كَانَ][1]. واختلف الناس في إعراب [مَكْرُوهاً] ـ فقالت فرقة: هو خبرٌ ثان لـ[كَانَ] حمله على لفظ [كُلُّ]، و[سَيِّئَةً] محمول على المعنى في جميع هذه الأشياء المذكورة قبْلُ، وقال بعضهم: هو نعتٌ لـ[سَيِّئَةً]» لأنه لما كان تأنيثها غير حقيقي جاز أن توصف بمذكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وضعَّفه أبو علي الفارسي، وقال: إن المؤنث إذا ذكر فإنما ينبغي أن يكون ما بعده وفْقه، وإنما التساهل أن يتقدم الفعل المسند إلى المؤنث وهو في صيغة ما يسند إلى المذكَّر، ألا ترى أن قول الشاعر:

فَـلاَ مُـزْنَـةٌ وَدَقَـتْ وَدْقَهَـا ... وَلاَ أَرْضَ أَبْقَـلَ إِبْقَـالَهَـا[2]

= روى البيت: «أي: المقطع». والأعلام: العلامات التي يهتدي بها المسافرون في الصحراء الواسعة، يقول: إنها متشابهة لا تساعد المسافر على معرفة الطريق.

(١) قال الزمخشري: «السَّيِّئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب، والاسم زال عنه حُكْم الصفات، فلا اعتبار بتأنيثه، ولا فرق بين من قرأ: [سَيِّئَةً] ومن قرأ: [سَيِّئاً]، ألا تراك تقول: الزِّنى سيئة، كما تقول: السرقة سيئة، فلا تفرق بين إسنادها إلى مذكر ومؤنث»، وهذا تخريج جيد.

(٢) البيت لعامر بن جُوَيْن الطائي، وهو في الخزانة، والكتاب، وابن يعيش، وهمع الهوامع، والعيني، والمغني، وابن الشجري، يصف أرضاً بالخصب لكثرة الغيث، والمُزْنة: واحدة المُزْن وهو السحاب يحمل الماءَ، والوَدْق: المطر، وأبْقَلَت: أخرجت البقل، وهو ما ليس بشجر من النبات، والبيت شاهد عند النحويين على حذف التاء من (أبْقَلَتْ) لضرورة الشعر، ويُسوِّغ ذلك أن الأرض بمعنى المكان. وقد=

مُسْتَقْبَح عندهم؟ ولو قال قائل: أَبْقَلَ أَرْضٌ لم يكن قبيحاً. قال أبو عليٍّ: ولكن يجوز في قوله تعالى: [مَكْرُوهَا] أن يكون بدلاً قوله: [سَيِّئَةً]، قال: ويجوز أن يكون حالاً من الذكر الذي في قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، ويكون قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ في موضع الصفة لـ[سَيِّئَةً]. وقرأ عبد الله بن مسعود: [كَانَ سَيِّئَاتُهُ]، وروي «كان سَيِّئَاتُ» بغير هاءٍ، ورُوي عنه [كَانَ خَبِيثُهُ]. وذهب الطبري إلى أن هذه النواهي كلها معطوفة على قوله أولاً: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وليس ذلك بالبيِّن.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ الآية. الإشارة بـ[ذَٰلِكَ] إلى هذه الآداب التي تضمنتها هذه الآياتُ المتقدمة، أي: هذه من الأفعال المُحكمة التي تقتضيها حكمة الله تبارك وتعالى في عباده وخلقه لهم محاسن الأخلاق. و«الحكمة»: قوانين المعاني المحكمة والأفعال الفاضلة، ثم عطف قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ﴾ على ما تقدم من النواهي. والخطاب للنبي ﷺ والمرادُ كلُّ من سمع الآية من البشر، و«الْمَدْحُورُ»: الْمُهَانُ الْمُبْعَد.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ الآية، خطاب للعرب التي كانت تقول: الملائكة بناتُ الله، فقَرَّرَهم الله تعالى على هذه الحجة، أي: أنتم أيها البشر لكم الأعلى من النسل ولله البنات؟ فلما ظهر هذا التباعد الذي في قلوبهم عظَّم الله عليهم فساد ما يقولونه وشُنعته، ومعناه: عظيماً في المنكر والوخامة. و[أَصْفَاكُمْ] معناه: جعلكم أصحاب الصفوة. وحكى الطبري عن قتادة عن بعض أهل العلم أنه قال: نزلت هذه الآية في اليهود لأنهم قالوا هذه المقالة، من أن الملائكة بنات الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأول هو الذي عليه جمهور المفسرين.

= يُعَبَّر عن ذلك بأنه تذكير الصفة للمؤنث حملا على المعنى للضرورة. وهو قبيح كما قال أبو علي. وهناك تخريجات كثيرة للبيت غير ما أشرنا إليه. وعامر بن جُوَيْن هذا واحد من الخُلَعَاءِ الفُتَّاك، وقد تبرأ قومه من جرائره، وقد نزل به امرؤ القيس. وقد قُتل حين غزت كلبٌ بني جَرْم فجعل بعض فرسانها يدفعونه، فقال لهم: لا يكن لعامر بن جُوَيْن الهوانُ، فقالوا: وإنك لَهُوَ؟ قال: نعم، فذبحوه ومضوا، وجاء ابنه واسمه الأسود بن عامر وتتبعهم وأخذ منهم ثمانية، وقتلهم واحداً واحداً أخذاً بثأر أبيه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾.

قرأ الجمهور: (صرَّفْنَا) بتشديد الراء، على معنى: صرفنا فيه الحِكَم والمواعظ. وقرأ الحسن: [صَرَفْنَا] بتخفيف الراء، على معنى: صَرَفنا فيه الناس إلى الهدى بالدعاء إلى الله، وقال بعض من شَدَّد الراء: إن قوله: [في] زائد، والتقدير: صَرَّفْنَا هذا القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وقرأ الجمهور: (لِيَذَّكَّرُوا)، وقرأ حمزة، والكسائي: [لِيَذْكُرُوا] بسكون الذَّال وضم الكاف، وهي قراءة طلحة، ويحيى، والأعمش. وما في ضمن الآية من ترجٍّ وطماعية فهو في حق البشر وبحسب ظنهم فيمن يفعل الله معه هذا.

و«النُّفُورُ» عبارة عن شِدَّة الإعراض، تشبيهاً بنفور الدَّابة، وهو في هذه الآية مصدرٌ لا غير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ورُوي أن في الإنجيل في معنى هذه الآية: «يا بني إسرائيل، شوَّقناكم فلم تشتاقوا، ونُحْنَا لكم فلم تبكوا».

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ﴾ الآية، إخبار بالحجة. واختلف الناس في معنى قوله: ﴿لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ ـ فحكى الطبري وغيره من المفسرين أن معناه: لَطَلَبَ هؤلاء الآلهة الزُّلْفَى إلى ذي العرش، والقُرْبة إليه بطاعته، فيكون «السَّبِيلُ» ـ على هذا التأويل ـ بمعناها في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾[1]، وقال سعيد بن جُبَيْر، وأبو علي الفارسي، والنقاش ـ وقاله المتكلِّمون، أبو منصور وغيره ـ: إن معنى الكلام: لابْتَغَوْا إليه سبيلاً في إفساد مُلْكِهِ ومُضَاهاته في قدرته.

(١) تكررت في الآيتين (١٩) من سورة (المزمِّل)، و(٢٩) من سورة (الإنسان).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا التأويل تكون الآية بياناً للتمانع، وجاريةً مع قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1]، وتَقْتَضِبُ شيئاً من الدليل على أنه لا يجوز أن يكون مع الله تبارك وتعالى غيره، وذلك على ما قال أبو المعالي وغيره: إنَّا لَوْ فَرَضْنَاهُ لَفَرَضْنَا أن يريد أحدهما تسكين جسم، والآخر تحريكه، ومستحيل أن تنفذ الإرادتان، ومستحيل ألاَّ تنفذا جميعاً، فيكون الجسم لا متحركاً ولا ساكناً، فإذا تمت إرادة أحدهما دون الآخر فإن الذي لم تتم إرادته ليس بإله، فإن قلنا بفرضهما لا يختلفان، قلنا: اختلافهما جائز غير ممتنع عقلاً، والجائز في حكم الواقع. ودليلٌ آخر، لو كان الاثنان لم يمتنع أن يكونوا ثلاثة، وكذلك إلى ما لا نهاية له، ودليل آخر: إن الجزء الذي لا يتجزَّأُ من المخترعات لا تتعلق به إلا قدرة واحدة لا يصح فيها اشتراك، والآخر كذلك، والآخر كذلك دأباً، فكل جزءٍ فيها اشتراك، والآخر كذلك، والآخر كذلك دأباً، فكل جزءٍ إنما يخترعه واحد، وهذه نُبْذَة شَرْحُهَا بحسب التقصي يطول.

وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم: ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ بالياء من تحت، وقرأ الجمهور: [كما تقولون] بالتاء.

و﴿سُبْحَانَهُ﴾ مصدرٌ لفعل متروك إظهاره، فهو بمعنى التنزيه، فموضعها هنا موضع (تنَزَّه)، فلذلك عطف الفعل عليه في قوله: ﴿وَتَعَالَى﴾. و«التَّعَالي» تفاعلٌ، أما في المشاهد في الأجرام فهو من اثنين؛ لأن الإنسان إذا صعد في منزلة أو في جبل، فكأن ذلك يُعاليه وهو يُعالي ويرتقي، وأما في جهة الله عزَّ وجلَّ فالتعالي هو بالقدر لا بالإضافة إلى شيءٍ آخر. وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ بالياء، وقرأ حمزة، والكسائي: [عما تقولون] بالتاء من فوق. و﴿عُلُوًّا﴾ مصدرٌ على غير الفعل، فهو كقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[2]، وهذا كثير.

قوله تعالى ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ﴾ الآية. المعنى: يُنَزِّهه عن هذه المقالة التي لكم، والإشراك الذي أنتم بسبيله، السموات السبعُ والأرضُ، ثم أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل لمَّا أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح، وقوله:

---

(١) من الآية (٢٢) من سورة (الأنبياء).
(٢) الآية (١٧) من سورة (نوح).

﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ يريد الملائكة والإنس والجن، ثم عمَّ بعد ذلك الأشياء كلَّها في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، أي: يُنَزِّهُ الله ويمجده.

واختلف أهل العلم في هذا التسبيح ـ فقالت فرقة: هو تجوُّز، ومعناه أن كل شيء تبدو فيه صنعة الصانع الدَّالَّة عليه، فتدعو رؤْية ذلك إلى التسبيح من المُعْتَبِر، ومن حُجَّة هذا التأويل قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ﴾[(١)].

وقالت فرقة: قوله تعالى: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ لفظ عموم ومعناه الخصوص في كل حيٍّ ونام، وليس ذلك في الجمادات البحتة، فمن ذلك قول عكرمة: الشجرة تُسَبِّح، والأسطوانة لا تُسَبِّح. وقال يزيد الرقاشي للحسن وهما في طعام وقد قدم الخوان: أَيُسَبِّح هذا الخوان يا أبا سعيد؟ قال: قد كان يُسبِّح مرة، يريد أن الشجرة في زمان نموها واعتدالها كانت تسبح، فمذ صارت خِواناً مدهوناً ونحوه صارت جماداً.

وقالت فرقة: هذا التسبيح حقيقة، وكل شيءٍ على العموم يسبح تسبيحاً لا يسمعه البشر ولا يفقهونه، ولو كان التسبيح ما قاله الآخرون من أنه أثر الصنعة لكان أمراً مفهوماً، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يُفْقَهُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وينفصل عن هذا الاعتراض بأن يريد بقوله سبحانه: ﴿لاَ تَفْقَهُونَ﴾ الكفار والغَفَلة، أي أنهم يُعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله تبارك وتعالى في الأشياء.

وقال الحسن: بلغني أن معنى هذه الآية في التوارة، ذكر فيه ألف شيءٍ مما يُسبح، سبحت له السموات، وسَبَّحَتْ له الأرض، سبَّح كذا، سبَّح كذا.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ وابن عامر: [يُسَبِّحُ له] بالياء، وقرأ أبو عمرو، وعاصم ـ في رواية حفص ـ وحمزة والكسائي، : ﴿تُسَبِّحُ له﴾ بالتاء. والقراءتان حسنتان. وقرأ عبد الله بن مسعود، وطلحة، والأعمش: [سَبَّحَتْ لَهُ السَّمَوات]. وقوله تعالى: ﴿إنه كان حليما غفورا﴾ فيه تنبيه على إملائه لهم، وصَفْحه عنهم في الدنيا، وإمهاله لهم، مع شنيع هذه المقالة، أي: تقولون قولاً يُنزِّهه عنه كل شيءٍ من المخلوقات، إنه كان حليماً غفوراً، فلذلك أمهلكم.

---

(١) من الآية (١٨) من سورة (ص).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

هذه الآية تحتمل معنيين: أحدهما أن الله تعالى أخبر نبيَّهُ ﷺ أنه يحميه من الكفرة؛ أهل مكة الذين كانوا يؤذونه في وقت قراءته القرآن وصلاته في المسجد، ويريدون مدَّ اليد إليه، وأحوالهم في هذا المعنى مروية مشهورة. والمعنى الآخر أنه تعالى أعلمه أنه يجعل بين الكفرة وبين فهم ما يقرؤه محمد ﷺ حجاباً، فالآية ـ على هذا التأويل ـ في معنى التي بعدها، وعلى التأويل الأول هما آيتان لمعنيَيْن.

وقوله: [مَسْتُوراً] أظهر ما فيه أن يكون نعتاً للحجاب، أي مستوراً عن أعين الخلق، فلا يدركه أحد برؤية كسائر الحُجُب، وإنما هو من قدرة الله وكفايته أو إضلاله بحسب التأويلين المذكورين، وقيل: التقدير: مستوراً به، على حذف العائد، وقال الأخفش: «مَسْتُور» بمعنى: ساتر، كَمَشْؤُم وميمون، بمعنى: شائم ويامن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ـ لغير داعية إليه ـ تكلُّف، وليس مثاله بمُسَلَّم. وقيل: هو على جهة المبالغة، كما قالوا: شعرٌ شاعرٌ، وهذا معترض بأن المبالغة أبداً إنما تكون باسم الفاعل ومن اللفظ الأول، فلو قال تعالى: «حجاباً حاجباً» لكان التنظير صحيحاً.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الآية. «الأَكِنَّةُ»: جمع كنان، وهو ما غطَّى الشيء، ومنه كنانة النبل، و«الوَقْرُ»: الثقل في الأذن المانع من السمع، فهو الصمم، وهذه كلها استعاراتٌ للإضلال الذي حفهم الله به، فعبَّر عن كثرة ذلك وعِظَمه بأنهم بمثابة من غُطِّي قلبه وصُمَّت أذنه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ﴾ الآية، يريد: إذا جاءت مواضع التوحيد في القرآن أثناء قراءتك فرَّ كفار مكة من سماع ذلك إنكاراً له واستبشاعاً؛ إذ فيه رفْضُ آلهتهم واطراحها. وقال بعض العلماء: إنَّ ملأ قريش دخلوا على أبي طالب يزورونه، فدخل عليهم رسول الله ﷺ، فقرأ ومرَّ بالتوحيد، قال: يا معشر قريش: قولوا: «لا إله

إلا الله» تملكون بها العرب، وتدين لكم العجم، فَوَلَّوْا ونفروا، فنزلت هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأن تكون الآية وصف حال الفارِّين عنه في وقت توحيده في قراءته أبْيَن وأجرى مع اللَّفظ.

وقوله تعالى: ﴿نُفُوراً﴾ يصحُّ أن يكون مصدراً في موضع الحال، ويصح أن يكون جمع نافر، كشاهد وشهود؛ لأن فُعولا من أبنية فاعل في الصفات، ونصبه على الحال، أي: نافرين. وقوله تعالى: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾، ﴿أَنْ﴾ نصب على المفعول، أي: كراهة أن، أو منع أنْ، والضمير في [يَفْقَهُوهُ] عائد على القرآن. وحكى الطبريُّ عن فرقة أنها قالت: إنما عنى بقوله: ﴿وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ الشياطين، وأنهم يفرون من قراءة القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يريد أن المعنى يدل عليهم وإنْ لم يَجْرِ لهم ذكْرٌ في اللفظ، وهذا نظير قول النبي ﷺ: (إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطانُ له حُصاصٌ)(١).

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ الآية. هذا كما تقول: فلان يستمع بحرص وإقبال، أو بإعراضٍ وتغافل واستخفاف، فالضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائدٌ على ﴿ما﴾ وهي معنى (الذي)، والمراد بالذي ما ذكرناه من الاستخفاف والإعراض، فكأنه قال: نعم أعلم بالاستخفاف والاستهزاء الذي يستمعون به، أي هو ملازمهم، يفضح الله بهذه الآية سرَّهم، والعامل في ﴿إِذْ﴾ الأولى وفي المعطوف عليها ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ الأولى. وقوله تعالى: ﴿إذ هم نجوى﴾ وصفهم بالمصدر، كما قالوا: قوم رضى وعدْلٌ، وقيل:

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان، والعمل في الصلاة والسهو، وبدء الخلق، وأخرجه مسلم في الصلاة، والمساجد، وأخرجه أبو داود، والدارمي في الصلاة، والنسائي في الأذان، والسهو، ومالك في النداء في موطئه، وأحمد في مسنده (٢ـ٣١٣، ٤٦٠، ٥، ٥٢٢)، واللفظ هنا لفظ مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، والحُصاصُ: شدة العَدْو، وقيل: هو الضراط، وإنما ضرط لثقل الأذان عليه، كمايضرط الحمار من ثقل الحمل، قاله ابن مالك. وفي رواية أخرى: (إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضُراط حتَّى لا يسمع التأذين، فإذا قُضي التأذين أقبل، حتى إذا ثُوِّب بالصلاة أدبر، حتَّى إذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه، يقول له: اذكر كذا، واذكر كذا، لما لم يكن يذكر من قبل، حتى يظلَّ الرجل ما يدري كم صلى)، (راجع مُسْلم في الصلاة).

المراد بقوله تعالى: ﴿إذ هم نجوى﴾ اجتماعهم في دار الندوة، ثم انتشرت عنهم.

وقوله تعالى: ﴿مَسْحُوراً﴾ الظاهر فيه أن يكون من السِّحْر، فشبهوا الخبال الذي عنده بزعمهم وأقواله الوخيمة برأيهم بما يكون من المَسْحور الذي قد خبل السِّحْر عقله، وأفسد كلامه. وتكون الآية ـ على هذا ـ شبيهة بقول بعضهم: «بِهِ جِنَّةٌ» ونحو هذا، وقال أبو عبيدة: ﴿مَسْحُوراً﴾ معناه: ذا سَحْر، وهي الرئة، يقال لها: «سَحْر وسُحْر» بضم السِّين، ومنه قول عائشة رضي الله عنها: «توفي رسول الله ﷺ بين سَحْري ونَحْري»[١]، ومنه قولهم للجبان «انْتُفِخَ سحْرُه» لأن الجازع تنتفخ رئته، فكأن مقصد الكفار بهذا التشبيه على أنه بشر، أي: ذا رِئَةٍ، قال: ومن هذا يقال لكل من يأكل ويشرب من آدمي وغيره: «مَسْحور ومُسحَّر»، ومنه قول امرىء القيس:

. . . . ونُسْحَـر بـالطَّعَـام وبـالشَّـراب[٢]

وقول لبيد:

فَـإِنْ تَسْـأَلِينَـا فيـمَ نَحْـنُ فَـإِنَّنَـا ... عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الأَنَامِ المُسَحَّرِ[٣]

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأحمد، ولفظه كما في مسند أحمد (٦ـ١٢١)، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: (قُبِضَ رسول الله ﷺ ورأسُه بين سحري ونحري، قالت: فلما خرجت نفسه لم أجد ريحاً أطيب منها).

(٢) هذا عجز بيت جعله امرؤ القيس مطلع أبيات يتعجب فيها من صروف الدهر ومن أحوال الزمن معه، والبيت بتمامه:

أرَانَـا مُـوضِعِيـنَ لأمْـرِ غَيْـبٍ ... ونُسْحَـرُ بـالطَّعَـامِ وبَـالشَّـرَابِ

وموضعين: مُسرعين، وأمر الغيب هو الموت، ونُسْحَر: نُغَذَّى، وهو الشاهد هنا، وقيل: نُسْحَرُ: نُلْهُو، ومن أبيات هذه القصيدة البيت المشهور:

وقَـدْ طَـوَّفْـتُ بـالآفَـاقِ حَتَّـى ... رَضِيـتُ مِـنَ الْغَنِيمَـةِ بـالإيَـابِ

والبيت في اللسان، ومجاز القرآن، والبيان والتبيين، والحيوان، وتفسير الطبري، والقرطبي، والبحر المحيط، وأمالي المرتضى. ويروى: (أرَانا مُرْصَدِينَ لأمر غيب).

يقول: إننا في هذه الدنيا نُسرع إلى شيء رهيب هو الموت، أو شيء مجهول لا ندري عنه شيئاً، ونحن نُعلَّل بالطعام وبالشراب عن هذا الشيء المجهول، أو نعلل باللهو عن الموت، فكأنه يقول: كيف يستمتع باللهو أو بالطعام والشراب من هو ماضٍ في سرعة نحو هذا المجهول المخيف؟.

(٣) البيت من قصيدة له يذكر فيها من فقد من قومه ومن سادات العرب، ويتأمل في سطوة الموت وضعف الإنسان أمامه ومطلعها:

=

ومنه: السَّحور، وهو إلى هذه اللَّفظة أقرب منه إلى السِّحْر، ويشبه أن يكون من السَّحَر كالصَّبُوح من الصباح، والآية التي بعد هذا تُقَوِّي أن اللفظة التي في الآية من السِّحْر بكسر السِّين؛ لأن (. . . . . . .)[1] حينئذ في قولهم ضَرْبُ مثل له، وأما على أنها من السَّحْر الذي هو الرِّئة، ومن التَّغذِّي، وأن تكون الإشارة إلى أنه بشر، فلم يُضرب له في ذلك مثل، بل هو صفة حقيقية له.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴾.

ضَرْبُ المثل له هو قولهم: مسحور، ساحر، مجنون، متكهن؛ لأنه لم يكن عندهم مُتَيَقَّناً بأحد هذه، فإنما كانت منهم على جهة التشبيه، ثم رأى الوليد بن المغيرة أن أقرب الأمور على تخيُّل الطارئين عليهم هو أنه ساحر، ثم حكم الله تبارك وتعالى عليهم بالضلال.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: لا يستطيعون سبيلاً إلى الهدى والنظر المُؤَدِّي إلى الإيمان، فتجري الآيةُ مجرى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾[2] ونحو هذا. والآخر: لا يستطيعون سبيلاً إلى إفساد أمرك،

= أَعَاذِلَ قُومي فاعْذُلي الآنَ أوْ دَعِي　　فَلَسْتُ وإنْ أقْصَرْتِ عَنِّي بِمُقْصِرِ

وعصافير معناها: ضعاف لا حول لنا ولا قوة أمام الموت وجبروته، والمُسَحَّر: الذي يُعَلَّل بالطعام والشَّراب، والأنام: جميع ما على الأرض من الخلق. والبيت في فكرته كبيت امرىء القيس السابق، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ من هذا المعنى. والبيت كذلك في اللسان، ومجاز القرآن، والبيان والتبيين، والحيوان، والطبري والقرطبي، والبحر المحيط.

(١) في جميع الأصول يوجد بياض بين قوله: لأن، وقوله: حينئذ. وقد نقل أبو حيان في البحر المحيط هذه العبارة كاملة عن ابن عطية، وفيه أيضاً إشارة إلى هذا البياض في الأصول؛ والأقرب أن تكون الكلمة الساقطة من الجملة هي «مَسْحُوراً».

(٢) في الآية (٤٦) من هذه السورة، وهي قبل هذا بقليل.

وإطفاء نور الله بِضربهم الأمثال لك، واتباعهم كل حيلةٍ[١] في جهتك.

وحكى الطبري أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾. هذه الآية في إنكارهم البعث، وهذا منهم تعجُّبٌ وإنكارٌ واستبعادٌ. و«الرُّفَاتُ» من الأشياء: ما مرَّ عليه الزَّمن حتى بلغ به غاية البِلَى، وقرَّبَه من حالة التراب، يقال: رُفِتَ رَفْتاً فهو مَرْفُوتٌ[٢]، وفُعَالٌ بناءٌها لهذا المعنى، كالحُطَامِ والفُتات والرُّضاض والدُّقاق. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿رُفَٰتًا﴾: غباراً، وقال مجاهد: تراباً.

واتلف القراءُ في هذين الاستفهامين، فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [أئذا، أئنا] جميعا بالاستفهام، غير أن أبا عمرو يَمُدُّ الهمزة ثم يأتي بالياء ساكنة، وابن كثير يأتي بياء ساكنة بعد الهمزة من غير مَدٍّ. وقرأ نافع في الأولى مثل أبي عمرو، واختلف عنه في المَدِّ، وقرأ الثانية: [إنَّا] مكسورة على الخبر، ووافقه الكسائي في اكتفائه بالاستفهام الأولى من الثاني، غير أنه كان يهمز بهمزتين، وقرأ عاصم، وحمزة: ﴿أئذا كنا﴾. ﴿أئنا﴾ بهمزتين فيهما، وقرأ ابن عامر: [إذا كنا] مكسورة الألف من غير استفهام [آئِنَّا] يهمز ثم يمد ثم يهمز، وروي عنه مثل قراءة حمزة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي سورة الرعد توجيه هذه القراءات[٣].

و«جَدِيدٌ» صفة لما قرب حدوثه من الأشياء، وهكذا يوصف به المذكر والمؤنث، فيقال: ملحفة جديد، وقولهم: جديدة لغة ضعيفة، كذا قال سيبويه.

قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ الآية. المعنى: قل لهم يا محمد: كونوا إن استطعتم هذه الأشياء الصعبة الممتنعة التأتِّي لا بُدَّ من بعثكم. وقوله: ﴿كُونُوا﴾ هو الذي يُسَمِّيه المتكلمون التعجيز، من أنواع لفظة: افْعَل، وبهذه الآية مَثَّل بعضهم، وفي هذا عندي نظر، وإنما التعجيز حيث يقضي بالأمر فعلُ ما لا يقدر عليه المخاطَب،

---

(١) في بعض النسخ: «واتباعهم كلَّ خليقة».

(٢) في اللسان (رَفَتَ): «وَرَفَتَ العظمُ يَرْفِتُ رَفْتاً: صار رُفَاتاً، وفي حديث ابن الزبير لما أراد هدم الكعبة وبناءها بالورس، قيل له: إنَّ الوَرْسَ يتَفَتَّتُ ويَصيرُ رُفَاتاً».

(٣) راجع المجلد الخامس ص ١٧٦.

كقوله تعالى: ﴿فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾(١) ونحوه، وأما هذه الآية فمعناها: كونوا بالتوهُّم والتقدير كذا وكذا، الذي فطركم كذلك هو يعيدكم. وقال مجاهد: أراد بالخلق الذي يكبر في الصدور السموات والأرض والجبال. وقال ابن عباس، وعبد الله بن عمر، والحسن وابن جبير، والضحاك: أراد الموتَ، وقال قتادة ومجاهد: بل أحال على فطرتهم عموماً، ورجَّحه الطبري.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الأصح؛ لأنه بدأ بشيء صلب، ثم تدرج القول إلى أقوى منه، ثم أحال على فِطْرَتهم إن شاء، وفي أَشَدَّ من الحديد فلا وجه للتخصيص بشيءٍ دون شيء. ثم احتجَّ عليهم عزَّ وجلَّ في الإعادة بالفطرة الأولى من حيث خلقهم واخترعهم من تراب، وكذلك يعيدهم إذا شاء، لا رَبَّ غيره. وقوله: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ معناه: يرفعون ويخفضون على جهة التكذيب، قال ابن عباس رضي الله عنهما: والاستهزاء. قال الزجاج: تحريك من يُبطل الشيء ويستبطئه، ومنه قول الشاعر:

أَنْغَضَ نحوي رَأْسَهُ وَأَقْنَعَا ... كَأَنَّمَا أَبْصَرَ شَيْئاً أَطْمَعَا(٢)

ويقال: نَغَضَت السِّنُّ إذا تحركت، وقال ذو الرُّمَّة:

ظَعَائِنُ لَمْ يَسْكُنَّ أَكْنَافَ قَرْيَةٍ ... بِسيفٍ ولَمْ تَنْغُضْ بِهِنَّ الْقَنَاطِرُ(٣)

وقال الطبري، وابن سلام: و﴿عَسى﴾ من الله واجبة، فالمعنى: وهو قَرِيب.

---

(١) من الآية (١٦٨) من سورة (آل عمران).

(٢) يستشهد ابن عطية بهذا الرجز على أن (أَنْغَضَ) بمعنى: حرَّك رأسه حركة من يُبطِل الشيء ويستَبْطِئُه، قال الفراء: «أَنْغَضَ رأسه إذا حركه إلى فوق وإلى أسفل». وفي اللسان: الرأسُ ينغُض ويَنْغِضُ، لغتان»، وأَقْنَعَا: رفع بصره ووجهه إلى ما حيال راسه من السماء مع شخوص البصر نحو الشيء لا يصرفه عنه، وفي التنزيل العزيز: ﴿مقنعي رؤوسهم﴾. يصفه في البيتين بأنه حرَّك رأسه حركة من لا يقبل الشيء، وشخص ببصره نحو السماء لا يصرفه كأنه رأى شيئاً طمع فيه.

(٣) الظعَّائن: جمع ظعينة، والظعينة في الأصل: الجمل يُظعن عليه، أو الهودج، ثم قيل للمرأة في الهودج: ظعينة، سُمِّيت بذلك على حَدِّ تسمية الشيء باسم الشيء لقربه منه. والأكناف: جمع كَنَف وهو ناحية الشيء، فأكناف القرية: نواحيها، والسِّيفُ: ساحل البحر، وقال ابن الأعرابي: الموضع النقيُّ من الماء، وفي حديث جابر: (فأتينا سيفَ البحر) أي: ساحله. وقد استشهد في اللسان (نَغَضَ) بالجزء الأخير من البيت، قال: «وكلُّ حركة في ارتجاف نَغْضٌ، يقال: نَغض رحلُ البَعير وثَنِيَّةُ الغلام نَغْضاً ونَغَضاناً، قال ذو الرمة: ولم تنْغُض بِهِنَّ القَنَاطِرُ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه إنما هي من النبي ﷺ، ولكنها بأمر الله تعالى له، فيقربها ذلك من الوجوب، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: (بعثت أنا والساعة كهاتين)[١]، وفي ضمن اللفظة توعُّدٌ لهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾ بدل من قوله تعالى: ﴿قَرِيباً﴾، ويظهر أن يكون المعنى: هو يوم، جواباً لقولهم: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾، ويريد: يدعوكم من قبوركم بالنفخ في الصُّور لقيام الساعة. وقوله: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أي: بالقيام والعودة والنهوض نحو الدعوة، وقوله: ﴿بِحَمْدِهِ﴾، حكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: معناه: بأمره، وكذلك قال ابن جريج، وقال قتادة: معناه: بطاعته ومعرفته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله تفسير لا يعطيه اللفظ، ولا شك أن جميع ذلك بأمر الله تعالى، وإنما معنى ﴿بحَمْده﴾: إمَّا أن جميع العالمين ـ كما قال ابن جبير ـ يقومون وهم يحمدون الله تعالى ويُمَجِّدونه لما يظهر لهم من قدرته، وإمَّا أن قوله: ﴿بِحَمْدِهِ﴾ هو كما تقول لرجل إذا خاصمته أو حاورته في علم: قد أخطأت بحمد الله[٢]، وكأن النبي ﷺ يقول لهم في

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والبخاري، ومسلم، والترمذي، عن أنس رضي الله عنه، وأخرجه الإمام أحمد أيضاً في مسنده، والبخاري، ومسلم، عن سهل بن سعد، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة في الجامع الصغير.

(٢) قال أبو حيان الأندلسي توضيحاً لهذا: «إن قولك: بحمد الله» ليس حالاً من فاعل «أخطأتُ»، بل المعنى: أخطأت والحمد لله، وهذا معنى مُتَكَلَّف نحا إليه الطبري، وكأن «بحمده» يكون اعتراضاً، إذ معناه: والحمد لله، ونظيره قول الشاعر:

فَــإنِّــي بِحَمْــدِ اللهِ لا ثَــوْبَ فَــاجِــرٍ ... لَبِسْــتُ، ولا مِــنْ غَــدْرَةٍ أَتَقَنَّــعُ

هذه الآيات: «عسَى أن الساعة قريبة يوم تُدعون فتقومون، بخلاف ما تعتقدون الآن، وذلك بحمد الله تعالى على صدق خبري»، نحا هذا النحو الطبري، ولم يُلَخِّصهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أنه أخبر أنهم لما رجعوا إلى حالة الحياة وتصرف الأجساد، وقع لهم ظن أنهم لم ينفصلوا عن حال الدنيا إلاَّ قليلاً، لمغيب علم مقدار الزمن عنهم؛ إذْ مَنْ في الآخرة لا يقدر زمن الدنيا؛ إذْ هم لا محالة أشدُّ مفارقة لها من النائمين، وعلى هذا التأويل عوَّل الطبري، واحتج بقوله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[(١)]. والمعنى الاخر أن يكون الظن بمعنى اليقين، فكأنه قال لهم: يومَ تُدعون فتستجيبون بحمد الله، وتَتَيَقَّنُونَ أنكم إنما لبثتم قليلاً، من حيث هو مُنْقَض مُنْحَسِر، وهذا كما يقال في الدنيا بأسْرِهَا: متاع قيل، فكأنه قلة قدر، على أن الظَنَّ بمعنى اليقين يقلق ها هنا؛ لأنه شيءٌ قد وقع. وإنما يجيءُ الظن بمعنى اليقين فيما لم يخرج بعد إلى الكون والوجود، وفي الكلام تقوية للبعث كأنه يقول: أيها المكذِّب بالحشر الذي تعتقد أنك لا تبعث أبداً لا بُدَّ لك أن تُدْعَى للبعث فتقوم وترى أنك إنما لبثت قليلاً مُنْقَضِياً منصرماً، وحكى الطبري عن قتادة أنهم لمَّا رأوا هول يوم القيامة احتقروا الدنيا فظنوا أنهم لبثوا فيها قليلاً.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. اختلف النحويون في قوله سبحانه: [يَقُولُوا]، فمذهب سيبويه أنها جواب شرط مقدر، تقديره: «وقل لعبادي، إنك إن تقل لهم يقولوا»، وهذا على أصله في أن الأمر لا يُجاب، وإنما يجاب معه شرط مقدر، ومذهب الأخفش أن الأمر يُجاب، وأن قوله تعالى ها هنا: [يَقُولُوا] إنما هو جواب [قُلْ].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا يصح المعنى على هذا بأن يجعل «قُلْ» مختصة بهذه الألفاظ، على معنى أن

= أي: فإنِّي ـ والحمد لله ـ، فهذا اعتراض بين اسم إنَّ وخبرها، كما أن ـ بحمده ـ اعتراض بين المتعاطفين. . .

ثم اعترض على تعبير لابن عطية فقال: «ووقع في لفظ ابن عطية حين قرر هذا المعنى قوله: (عسى أن الساعة قريبة)، وهو تركيب لا يجوز، ولا تقول: عسى أن زيداً قائم، بخلاف: عسى أن يقوم زيد».

(١) من الآيتين (١١٢، ١١٣) من سورة (المؤمنون).

يقول لهم النبي ﷺ: «قُولوا التي هي أحسن»، وإنما يصحُّ بأن يكون ﴿قُلْ﴾ أمْراً بالمحاورة في هذا المعنى بما أمكن من ألفاظٍ، كأنه قال: «بيِّنْ لعبادي»، فيكون ثمرة ذلك القول والبيان قولُهم التي هي أحسن، وهذا المعنى يُجَوِّزُه مذهب سيبويه الذي قدمنا. ومذهب أبي العباس أنَّ ﴿يَقُولُوا﴾ جوابٌ لأمر محذوف، تقديره: «وقُل لعبادي قولوا التي هي أحسن يقولوا» فحذف وطُوي الكلامُ. ومذهب الزجاج أن ﴿يَقُولُوا﴾ جزم بالأمر، بتقدير: «قُلْ لعبادي يقولوا»، فحذفت اللام لتقدير الأمر، وحكى أبو علي في «الحليتان» في تضاعيف كلامه أن مذهب أبي عثمان المازني في ﴿يَقُولُوا﴾ أنه فعلٌ مبني؛ لأنه مضارعٌ حلَّ محل المبني الذي هو فعل الأمر؛ لأن المعنى: «قلْ لعبادي: قولوا»[1].

واختلف الناس في ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ـ فقالت فرقة: هي «لا إله إلاَّ الله»، ويلزم ـ على هذا ـ أن يكون قوله تعالى: ﴿لِعِبَادِي﴾ يريد به جميع الخلق؛ لأن جميعهم مدعُوٌّ إلى «لا إله إلاَّ الله»، ويجيءُ قوله سبحانه بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ غير مناسب للمعنى إلاَّ على تكرُّه، بأن يجعل ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بمعنى «خلالهم وأثناءهم»، ويُجعل «النَّزْغُ» بمعنى الوسوسة والإضلال. وقال الجمهور: التي هي أحسن هي المحاورة الحسنى، بحسب المعنى معنى، قال الحسن: «يقول: يغفر الله لك، يرحمك الله».

وقوله تعالى: ﴿لِعِبَادِي﴾ خاصٌّ بالمؤمنين، فكأن الآية بمعنى قوله ﷺ: «وكونوا عباد الله إخواناً»[2]، ثم اختلفوا ـ فقالت فرقة: أمر الله تعالى المؤمنين فيما بينهم بحسن الأدب، وخفْض الجناح، وإلانَةِ القول، واطِّراح نزغات الشيطان. وقالت فرقة: إنما أمر الله تبارك وتعالى في هذه الآية المؤمنين بإلانَةِ القول للمشركين بمكة أيام المهادنة.

وسبب الآية أن عُمر بن الخطاب رضي الله عنه شتمه بعض الكفرة، فسبَّه عمر وهمَّ

---

(١) هذه الأقوال كلُّها جرت في قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح والفرائض والأدب، ومسلم في البرّ، وأبو داود في الأدب، وابن ماجه في الأطعمة والدعاء، ومالك في موطئه في حسن الخلق، وأحمد في مسنده (١ـ٣، ٥، ٧ـ٢ـ١٥٦)، ولفظه في البخاري في الأدب، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إيَّاكُم والظنَّ فإن الظنَّ أكذب الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تناجشوا، ولاتحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عبادَ الله إخواناً). والتَّنَاجُش في البيع ونحوه هو التزايد في تقدير الأشياء إغراءً وتمويهاً.

بقتله، فكاد أن يثير فتنة، فنزلت الآية، وهي منسوخة بآية السيف[١].

وقرأ الجمهور: [يَنْزَغُ] بفتح الزاي، وقرأ طلحة بن مصرف: [يَنْزِغُ] بكسر الزاي، على الأصل، قال أبو حاتم: «لعلَّها لغةٌ، والقراءةُ بالفتح». ومعنى النَّزْغ حركة الشيطان بسرعة ليوجب فساداً، ومنه قول النبي ﷺ: (لا يُشِرْ أحدكم على أخيه بالسِّلاح لا ينزغ الشيطان في يده)[٢]، فهذا يخرج اللفظ عن الوسوسة، وعداوةُ الشيطان البيِّنةُ هي من قصته مع آدم عليه السلام فيما بعد.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ الآية. هذه الآية تُقَوِّي أن التي قبلها هي ما بين العباد المؤمنين وكفار مكة، وذلك أن هذه المخطابة في قوله سبحانه ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ هي لكفار مكة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾، فكأن الله عزَّ وجلَّ أمر المؤمنين ألا يخاشنوا الكفار في الدين، ثم قال للكفار: إنه أعلم بهم، ورَجَّاهم وخَوَّفهم. ومعنى ﴿يَرْحَمْكُمْ﴾ بالتوبة عليكم من الكفر، قاله ابن جريج وغيره. ثم قال للنبي ﷺ: فإنما عليك البلاغ، ولست بوكيل على إيمانهم ولا بد، فتتناسب الآيات بهذا التأويل.

ثم قال تبارك وتعالى لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: ربُّكَ أعلم بمن في السموات والأرض، وهو الذي فضل بعض الأنبياء على بعض بحسب علمه فيهم، فهذه إشارة إلى محمد ﷺ، وإلى استبعاد قريش أن يكون الرسول بشراً، والمعنى: لا تُنكروا أمر محمد وأن أوتي قرآناً، فقد فُضِّل النَّبِيُّون، وأُوتي داود زبوراً، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

وتفضيل بعض الرسل إمَّا بهذا الإخبار المجمل دون أن يُسَمَّى المفضول، وعلى هذا يتَّجه لنا أن نقول: محمد أفضل البشر، وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن تَعْيين أحد منهم في قصة موسى ويونس عليهما السلام، وإما أن يكون التفضيل مُقَسَّماً بينهم:

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول، وذكر سبباً آخر نقله عن الكلبي، ونقله أيضاً القرطبي، قال الكلبي: كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بالقول والفعل، فشكوْا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وفي القرطبي أن المسلمين قالوا: «إئذَنْ لنا يا رسول الله في قتالهم فقد طال إيذاؤُهم لنا»، فقال: (لم أُومر بعد بالقتال).

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه كما ذكره في الدر المنثور: (قال رسول الله ﷺ: لا يُشيرَنَّ أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعلَّ الشيطان ينزغ في يده فيقع في حفرة من نار).

أُعطي هذا التكليم، وأُعطي هذا الخُلَّة، ومحمدٌ الخَمْس، وعيسى الإحياء، فكلُّهم مفضولٌ في وجه، فاضل على الإطلاق.

وقوله تعالى: ﴿بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. الباءُ متعلقة بفعل تقديره: «عَلِم بمن في السموات»، ذهب إلى هذا أبو عليٍّ؛ لأنه لو علَّقها بـ[أَعْلَمُ] لاقتضى أنه ليس بأعلم بغير ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا لا يلزم، ويصح تعلقها بـ[أَعْلَمُ]، ولا يلتفت إلى دليل الخطاب[١].

وقرأ الجمهور: (زَبُوراً) بفتح الزاي، وهو فَعُولٌ بمعنى مَفْعول، وهو قليل، لم تجيءْ إلاَّ في قَرُوع ورَكُوب وحَلُوب، وقرأ حمزة، ويحيى، والأعمش: [زُبُوراً] بضم الزاي، وله وجهان: أحدهما أن يكون جمع زَبور بحذف الزائد[٢]، كما قالوا في جمع طَرِيق: طُرُوق، والآخر أن يكون جمع زَبْر[٣]، كأن ما جاء به داود جُزِّيءَ أجزاءً، كلُّ جزءٍ منها زَبْرٌ، سُمِّي بمصدر زَبَرَ يَزْبُر، ثم جمع تلك الأجزاء على زُبُور، فكأنه قال: «آتينا داود كتاباً»، ويحتمل أن يكون جمع (زَبْر) الذي هو العَقْل وسَدَادُ النَّظَرِ[٤]، لأن داود أُوتي من المواعظ والوصايا كثيراً، ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ في آخر كتاب مسلم: (وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له)[٥]، قال قتادة: زبور داود مواعظ وحِكَم ودعاءٌ، ليس به حلالٌ ولا حرام.

---

(١) أيّد أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط) هذا الكلام، وقال: «وأيضاً فإن (عَلِم) لا يتعدى بالباء، إنما يتعدى لواحد بنفسه لا بوساطة حرف الجرّ»، ثم قال: «و[بِمَنْ] متعلق بـ[أَعْلَمُ] كما تعلق [بِكُمْ] قبله بـ[أَعْلَمُ]، ولا يدل تعلقه به على اختصاص أعْلَمِيَّته تعالى بما تعلَّق به، كقولك: «زيد أعْلَمُ بالنحو» إذ لا يَدلُّ هذا على أنه ليس أعلم بغير النحو من العلوم».

(٢) وهو الواو. قال ذلك أبو حيان.

(٣) وهذا مثل فَلْس وفُلُوس.

(٤) في اللسان (زَبَرَ): «ماله زَبْرٌ، أي: مَالَه رأيٌ، وقيل: ماله عقلٌ وتماسُك».

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ومسلم في صحيحه، ولفظ المسند هو، عن عياض بن حمار أن النبي ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: (إن ربِّي عزَّ وجلَّ أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا، كلُّ مال نَحَلْتُه عبادي حلالٌ، وإني خلقتُ عبادي حُنَفَاءَ كلَّهم، وإنَّهم أتَتْهم الشياطين فأضَلَّتهم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحْلَلْتُ لهم، وأمَرَتْهُمْ أن يُشْرِكوا بي ما لم أُنزِّل به سلطاناً، ثم إنَّ الله عزَّ وجلَّ نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عَجَمِيَّهُم وعَرَبِيَّهُم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾﴾.

الذين أُمر رسول الله ﷺ أن يقول لهم في هذه الآية ليسوا عبدة الأصنام، وإنما هم عبدة من يعقل، واختلف في ذلك ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي في عبدة العُزَيْر والمسيح وأُمه ونحوهم، وقال ابن عباس أيضاً، وابن مسعود: هي في عبدة الأوثان والقمر والكواكب وعُزَيْر والمسيح وأُمه وأي ذلك كان. [وقال ابن عباس أيضاً، وابن مسعود: هي في عبدة الملائكة، وقال ابن مسعود أيضاً: هي في عبادة شياطين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، فأسلم أولئك الشياطين، وبقي عَبَدَتُهم يعبدونهم، فنزلت الآية في ذلك][1].

فمعنى الآية: قُل لهؤلاء الكفرة: ادعوا عند الشدائد والضر هؤلاء المعبودين فإنهم لا يملكون كشفه ولا تحويله عنكم، ثم أخبرهم ـ على قراءة ابن مسعود، وقتادة:

= لأبْتَلِيكَ وأبْتَلِيَ بك، وأنزلتُ عليك كتاباً لا يغسله الماءُ، تقرؤه نائماً ويقظاناً، ثم إن الله عزَّ وجلَّ أمرني أن أُحَرِّق قريشاً، فقلت: يا رب إذا يَثْلَغُوا رأسي فيدعوه خبزة، فقال: اسْتَخْرِجهم كما استخرجوك، فاغزُهم نُغْزِك، وأنفِق عليهم فَسَنُنْفِقْ عليك، وابعث جُنداً نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك. وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مُقْسط متصدِّق مُوَفَّق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قُرْبَى ومُسْلم، ورجلٌ فقيرٌ عفيفٌ متصدقٌ، وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له، الذين هم فيكم تبعاً ـ أو تُبَعَاءَ، شك يحيى ـ لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى عليه طمع وإن دَقَّ إلاَّ خانه، ورجلٌ لا يصبح ولا يمسي إلاَّ وهو يخادعك عن أهلك ومالك، وذكَرَ البُخْلَ والكذبَ والشِّنْظير الفاحش).

ومعنى (لا يغسله الماءُ): محفوظ في الصدور، لا يتطرق إليه الذهاب، بل يبقى على ممر الزمان. وأما قوله: (تقرؤه نائماً ويقظاناً) فمعناه: يكون محفوظاً لك في حالتي النوم واليقظة، وقيل: تقرؤه في سهولة ويُسر، وفي رواية مسلم: (نائماً يقظان). ومعنى (يَثْلَغُوا): يَشْدَخُوا ويَشُجُوا. ونُغْزِك: نُعِينُك، ومعنى (لا زَبْرَ له): لا عقل له يَزْبُره ويمنعه مما لا ينبغي. وفي رواية مسلم: (والشِّنْظِيرَ الفَحَّاش). صدق رسول الله ﷺ.

(١) ما بين العلامتين [. . . .] سقط في كثير من النسخ، وبخاصة النسخة التونسية.

[تَدْعُونَ] بالتاء ـ، أو أخبر النبي ﷺ ـ على قراءة الجمهور: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء من تحت ـ أن هؤلاء المعبودين يطلبون التقرُّب إلى الله والتَّزلُّف إليه، وأن هذه حقيقة حالهم، وقرأ ابن مسعود: [إلى رَبِّكَ]. والضمير في ﴿رَبِّهِمْ﴾ للمُتَّبِعين أو للجميع.

و«الْوَسِيلَةُ» هي القربةُ وسببُ الوصول إلى البُغية، وتوسَّل الرجلُ إذا طلب الدُّنُوَّ والنيل لأمر مَّا، وقال عنترة:

إنَّ الــرِّجَــالَ لَهُــمْ إلَيْــكِ وسِيلَــةٌ . . . .[1]

ومنه قول النبي ﷺ: (من سأل الله لي الوسيلة. . . الحديث)[2]. و﴿أَيُّهُمْ﴾ ابتداءٌ، و﴿أَقْرَبُ﴾ خبره، و﴿أُولئك﴾ يراد به المعبودون. وهو ابتداءٌ خبره ﴿يَبْتَغُونَ﴾، والضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ للكفار، وفي ﴿يَبْتَغُونَ﴾ للمعبودين، والتقدير: نظرهم وَوَكْدُهُمْ[3] أَيُّهم أقرب، وهذا كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث الرَّاية بخيبر: «فبات الناس يَدُوكُون أَيُّهم يُعطاها»[4]، أي: يتبارون في طلب القرب، وطفَّف الزجاج في هذا الموضع فتأمله.

---

(١) كان لعنترة امرأةٌ من بَجيلة لا تزال تذكر خَيْلَه وتلومه في فرس كان يحبه ويؤثره على خيله ويسقيه ألبان إبله، فقال أبياتاً ينهاها فيها عن لومه، وفي مطلعها يقول:

لا تَــذْكُــري مُهْــري ومَــا أَطْعَمْتُــهُ ... فَيَكُــونَ جِلْــدُكِ مِثْـلَ جِلْـدِ الأجْـرَب

ثم يقول لها هذا البيت، وهو بتمامه وبعده بيت آخر:

إنَّ الــرِّجــالَ لَهُــمْ إلَيْــكِ وَسِيلَــةٌ ... إنْ يَــأخُــذُوكِ تَكَحَّلِــي وتَخَضَّبِــي
ويكــونُ مَــرْكَبَــكِ القَعُــودُ ورَحْلُــهُ ... وابْــنُ النَّعــامَــةِ يَــوْمَ ذَلِــكَ مَــرْكَبِــي

القعود: ما اتَّخذه الراعي من الإبل للركوب، وابن النعامة: صدر القدم، يقول لها: لا تذكري مهري بسوء وإلاَّ نفرتُ منك كما ينفر الإنسان من الأجرب، إذا أسَرَكِ الرجال أركبوك على القعود، أمَّا أنا فإذا أسروني مشيتُ على الأقدام.

(٢) أخرجه مسلم، وأبو داود في الصلاة، والترمذي في المناقب، والنسائي في الأذان، وأحمد في مسنده (٢ـ١٦٨)، ولفظه كما في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليَّ، فإنه من صلَّى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلاَّ لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلَّت له الشفاعة). ومعنى (حَلَّت): وجبت، وهي من الحلول بمعنى النزول، لا من الحلِّ، لأنها لم تكن محرَّمة حتى تَحِلَّ، والمراد: استحق شفاعتي مجازاة لدعائه.

(٣) الوُكْدُ ـ بضم الواو ـ: السَّعْيُ والجهد، والوَكْد ـ بضم الواو وفتحها ـ: القَصْد والمرادُ والهَمُّ.

(٤) أخرجه الشيخان: البخاري ومسلم في فضائل الصحابة، وأخرجه أحمد في المسند (٥ـ٣٣٣). =

وقال ابن فُورك، وغيره: إن الكلام من قوله تبارك وتعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ راجع إلى النَّبِيِّين المتقدم ذكرهم، و﴿يَدْعُونَ﴾ ـ على هذا ـ من الدعاء بمعنى الطلبة إلى الله تعالى، والضمائر لهم في ﴿يَدْعُونَ﴾ وفي ﴿يَبْتَغُونَ﴾. وباقي الآية بيِّنٌ.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ الآية. أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه ليس مدينة من المدن إلاَّ هي هالكة قبل يوم القيامة بالموت والفناء، وهذا مع السلامة وأخذها جزءًا جزءًا، أو هي معذبة مأخوذة مرة واحدة، فهذا عموم في كل مدينة، و﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس[١]، وقيل: المراد الخصوص، [والتقدير] وإن مِنْ قَرية ظالمة[٢]. وحكى النقاش أنه وُجد في كتاب الضحاك بن مزاحم في تفسير هذه الآية استقراءُ البلاد المعروفة اليوم، وذكر لهلاك كل قطر منها صفة، ثم ذكر نحو ذلك عن وهب بن منبه، فذكر فيه أن هلاك الأندلس وخرابها يكون بسنابك الخيل واختلاف الجيوش فيها، وتركْتُ سائرها لعدم الصحة في ذلك، والمعلوم أن كل قرية تهلك إما من جهة القحوط والخسف غرقاً، وإمَّا من جهة الفِتن، أو منهما، وصور كثيرة لا يعلمها إلاَّ الله تعالى، فأمَّا ما هلك بالفتنة فمن ظُلْم ولا بُدَّ، إمَّا في كفرٍ أو معاص أو تقصير في دفاع، وأما القحط فيصيب الله به من يشاءُ وكذلك الخسف. وقوله تعالى: [مُهْلِكُوهَا] الضمير لها وفي ضمن ذلك الأهل. وقوله: ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ هو على حذف مضاف، فإنه لا يعذب

= والحديث عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يحبُّ اللهَ ورسوله ويحبه اللهُ ورسولُهُ»، قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها؟ قال: فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال: (أين علي بن أبي طالب)؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: «فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فَبَرَأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية... الخ الحديث». وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطينَ هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه»، قال عمر بن الخطاب: ما أحببت الإمارة إلاَّ يومئذ... الخ الحديث.

(١) علَّق أبو حيان على كلام ابن عطية هذا بقوله: «والَّتي لبيان الجنس ـ على قول من يثبت لها هذا المعنى ـ هو أن يتقدم قبل ذلك ما يفهم منه إبهامٌ ما، فتأتي [مِنْ] لبيان الجنس، أي بيان ما أريد بذلك الذي فيه إبهامٌ ما، كقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾. وهنا لم يتقدم شيء مبهم تكون [مِنْ] فيه بياناً له، ولعلَّ قوله: «لبيانِ الجنْسِ» من الناسخ، ويكون ابن عطية قد قال: «لاستغراق الجنس»، ألا ترى أنه قال بعد ذلك: «وقيل المراد الخصوص»؟ اهـ بتصرف.

(٢) يُقَوِّي ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.

وما بين العلامتين [....] زيادة لتوضيح المعنى وسلامة العبارة.

إلاَّ الأهل. وقوله سبحانه: ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ يريد: في سابق القضاء وما خطَّه القلم في اللوح المحفوظ. و«الْمَسْطُورُ»: المكتوب أسْطَاراً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ﴾ الآية. هذه العبارة في [مَنَعَنَا] هي على ظاهر ما تفهم العرب، فسمَّى سَبْقَ قضائه بتكذيب من كذَّب وتعذيبه مَنْعاً. و[أَنْ] الأولى في موضع نصب، والثانية في موضع رفع، والتقدير: ما مَنَعَنَا الإرسالَ إلاَّ التَّكذيبُ.

وسبب هذه الآية أن قريشاً اقترحوا على رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصَّفَا ذهباً، واقترح بعضهم أن يُزيل عنهم الجبال حتى يزرعوا الأرض، فأوحى الله تعالى إلى محمد ﷺ: إن شئت أفعلُ ذلك لهم، فإن تأخروا عن الإيمان عاجلتهم العقوبة، وإن شئت استأنيت بهم عسى أن أجْتبي منهم مؤمنين، فقال رسول الله ﷺ: (بل تَسْتَأْني بهم يا رب)، فأخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لم يمنعه من إرسال الآيات المُقْتَرَحة إلاَّ الاستيناءُ؛ إذْ أنه قد سلفت عادته بمعاجلة الأمم الذين جائتهم الآية المُقْتَرَحة فلم يُؤْمنوا. قال الزجاج: أخبر الله تعالى أن موعد كفار هذه الأمة الساعة، لقول سبحانه: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾[1]، فهذه الآية تنظر إلى ذلك.

ثم ذكر الله تعالى أمر ثمود احتجاجاً إن قال منهم قائل: نحن كنا نؤمن لو جاءتنا آية اقترحناها ولا نكفر بوجه، فذكر الله تعالى ثمود، بمعنى: لا تأمنون أن تَظْلِمُوا بالآية كما ظلمت ثمود بالناقة. وقرأ الجمهور: (ثَمُودَ) بغير تنوين، قال هارون: أهل الكوفة يُنَوِّنون (ثَمُوداً) في كل وجه، قال أبو حاتم: لا تُنَوِّنُ العامة والعلماءُ بالقراءات (ثَمُودَ) في وجه من الوجوه، وفي أربعة مواطن ألِفٌ مكتوبة، ونحن نقرؤُها بغير ألف.

وقوله تعالى: [مُبْصِرَةً] على جهة النسب، أي: معها إبصارٌ، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[2]، أي: مَعَهَا إبصارٌ لمن ينظر، وهذه عبارة عن بيان أمرها ووضوح إعجازها. وقرأ قومٌ: [مُبْصَرَةً] بضم الميم وفتح الصاد، حكاه الزجاج، ومعناه: مُتَبَيِّنَةً. وقرأ قتادة: [مَبْصَرَةً] بفتح الميم والصاد، وهي مَفْعَلَةٌ من البصر، ومنه قوله عنترة:

(١) من الآية (٤٦) من سورة (القمر).

(٢) من الآية (١٢) من هذه السورة (الإسراء).

. . . . والكُفْـرُ مَخْبَثَـةٌ لِنَفْـسِ المُنْعِـمِ[(١)]

وقوله تعالى: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾، أي: وضعوا الفعل غير موضعه، أي: بعَقْرِها، وقيل: بالكفر في أمرها. ثم أخبر تعالى أنه إنما يرسل بالآيات غير المُقْتَرَحَة تخويفاً للعباد، وهي آيات معها إمْهالٌ لا معاجلة فمن ذلك الكسوف والرعد والزَّلزلة وقوس قُزَح وغير ذلك. قال الحسن: والموت الذريع[(٢)]، وروي أن الكوفة رجفت في مدة عبد الله بن مسعود فقال: أيها الناس، إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه، ومن هذا قول النبي ﷺ في الكسوف: (فافْزَعُوا إلى الصَّلاَةِ) الحديث[(٣)]، وآياتُ الله المُعْتَبر بها ثلاثة أقسام: فقسم عامٌ في كل شيءٍ؛ إذ حيثما وضعت نظرك وجدت آية، وهنا فكرة العلماء، وقِسْم معتادٌ غِبًّا كالرعد والكسوف ونحوه، وهنا فكرة الجهلة فقط، وقسم خارق للعادة، وقد انقضى بانقضاء النبوة، وإنما يُعتبر به توهماً لما سلف منه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

قال الطبري: معنى قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي: في منعك

---

(١) هذا عجز بيت من المعلَّقة، وهو في اللسان (خبث)، والبيت بتمامه:

نُبِّئْـتُ عَمْـراً غَيْـرَ شـاكِـرِ نِعْمَتـي ... والكُفْـرُ مَخْبَثَـةٌ لِنَفْـسِ المُنْعِـمِ

ونُبِّئْتُ: أُخبرتُ وأُعْلِمتُ، وهي واحدة من أفعال سبعة تتعدى إلى ثلاثة مفاعيل. والمفعول الأول هنا هو التَّاءُ في (نُبِّئْتُ) أقيم مقام الفاعل وأسند الفعل إليه، والثاني هو (عَمْراً)، والثالث هو (غَيْرَ شاكِرِ). يقول: لقد أُعْلِمتُ أن عمراً لا يشكر نعمتي، وهذا نوع من الكفر يُغَيِّر نفس المنعم وينفرها ويمنعها من الإنعام في المستقبل. والشاهد هو (مَخْبَثَة) فقد جاءت بفتح الميم والباء، فهي صيغة مَفْعَلة، من الخَبْث، والمعنى: الكفر مَفْسَدَةٌ.

(٢) الموتُ الذريع: الموت الفاشي، لا يكاد الناس يتدافنون.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥ـ٤٢٨)، عن محمود بن لبيد، قال: كسفت الشمس يوم مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ، فقالوا: كسف الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عزَّ وجلَّ، ألا وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما كذلك فافزعوا إلى المساجد)، ثم قام فقرأ فيما نرى بعض «الـرَ كتابٌ»، ثم ركع، ثم اعتدل، ثم سجد سجدتين، ثم قام ففعل مثل ما فعل في الأولى، وأخرج الحديث مسلم في الكسوف، وفيه وصف لصلاة الرسول ﷺ عندما كسفت الشمس، وروايته عن ابن عباس رضي الله عنهما.

يا محمد وحياطتك وحفظك، فالآية إخبارٌ له بأنه محفوظ من الكفرة، آمِنٌ أن يُقتل أو يُنال بمكروه عظيم، أي: فَلْتُبَلِّغ رسالة ربك ولا تتهيَّب أحداً من المخلوقين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تأويلٌ بيِّنٌ جار مع اللفظ، وقد رُوي نحوه عن الحسن بن أبي الحسن، والسُّدي، إلاَّ أنه لا يناسب ما بعده مناسبةً شديدةً، ويحتمل أن يجعل الكلام مناسباً لما بعده، توطئةً له، فَأَقولُ: اختلف الناسُ في الرُّؤْيا ـ فقال الجمهور: هي رؤيا عينٍ ويقظةٍ، وهي ما رآه رسول الله ﷺ في ليلة الإسراء، قالوا: فلما أخبر رسول الله ﷺ صبيحة الإسراء بما رأى تلك الليلة من العجائب، قال الكفار: إنَّ هذا لعجيب، تخبُّ الحُداةُ إلى بيت المقدس شهرين إقبالاً وإدباراً، ويقول محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنه جاءه من ليلته وانصرف عنه، فافتتن بهذا التَّلْبيس قومٌ من ضعفة المسلمين فارتَدُّوا، وشق ذلك على رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآيات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا يحسن أن يكون معنى قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِۚ﴾، أي: في إضلالهم وهدايتهم، وأنَّ كلَّ واحد مُيَسَّر لما خلق له، أي: فلا تهتم أنت بِكُفْرِ من كَفر، ولا تحزن عليهم، فقد قيل لك: لا تحزن عليهم، إن الله محيطٌ بهم، مالِكٌ لأمرهم، وهو جعل هذه فتنةً ليكفر من سبق عليه الكفر. وسُمِّيت الرُّؤْية في هذا التأويل رُؤيا إذ هما مصدران من: رأى.

قال النقاش: جاء ذلك على اعتقاد من اعتقد أنها منامة وإن كانت الحقيقة غير ذلك.

وقالت عائشة رضي الله عنها: الرؤيا في الإسراء رؤيا منام، وهذا قولٌ الجمهورُ على خلافه، وهذه الآية تقتضي بفساده، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها، وما كان أحد لينكرها، وقد ذُكر هذا مُسْتَوْعباً في صدر السورة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الرؤيا التي في هذه الآية هي رؤيا رسول الله ﷺ أن يدخل مكة، فعجَّل في سَنَة الحديبية، فَرُدَّ، فافتتن المسلمون لذلك، فنزلت الآيات.

وقال سهلُ بن سعد: إنما هذه الرؤيا أن رسول الله ﷺ كان يرى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة، فاهتَمَّ لذلك وما استجمع ضاحكاً من يؤمئذ حتى مات، فنزلت الآية مخبرة أن ذلك من تملكهم وصعودهم على المنابر، وإنما يجعلها الله فتنة للناس وامتحاناً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويجيءُ قوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾، أي: بإقداره، وأن كل ما قدَّره نافذ، فلا تهتم بما يكون بعدك من ذلك. وقد قال الحسن بن علي في خطبته في شأن بيعته لمعاوية: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا التأويل نظر، ولا يدخل في هذه الرُّؤيا عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولا عمر بن عبد العزيز، ولا معاوية.

وقوله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ معطوفة على قوله سبحانه: [الرُّؤْيا]، أي: جعلنا الرؤية والشجرة فتنةً، و«الشَّجَرَةُ» هنا ـ في قول الجمهور ـ هي شجرة الزقوم، وذلك أن أمرها لما نزل في سورة الصَّافَّات قال أبو جهل وغيره: هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنها تُنبتُ الشَّجر، وما نعرف الزَّقوم إلاَّ التمر بالزبد، ثم أمر أبو جهل جاريةً له فأحضرت تمراً وزبداً وقال لأصحابه: تَزَقَّمُوا، فافْتتن أيضاً بهذه المقالة بعض الضعفاء، فأخبر الله تعالى نبيَّه ﷺ أنه إنما جعل الإسراء وذِكْرَ شجرة الزَّقوم اختباراً ليكفر من سبق عليه الكفر، ويُصدِّق من سبق له الإيمان، كما رُوي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قيل له صبيحة الإسراء: إن صاحبك يزعم أنه جاء البارحة بيت المقدس وانصرف منه، فقال: إن كان قال ذلك فقد صدق، فقيل له: أفتصدق قبل أن تسمع منه؟ فقال: أين عقولكم؟ أنا أصدقه بخبر السماء فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس، والسماءُ أبعد منها بكثير؟[2]

---

(١) الآية (١١١) من سورة (الأنبياء)، استشهد بها الحسن رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن إسحق من حديث طويل عن الإسراء، قال: «كان من الحديث ما بلغني عن مسراه ﷺ، عن عبد الله بن مسعود، وأبي سعيد الخدري، وعائشة، ومعاوية بن أبي سفيان، والحسن بن أبي الحسن، وابن شهاب الزهري، وقتادة، وغيرهم من أهل العلم، وأُمِّ هانىء بنت أبي طالب، اجتمع في هذا=

وقال فرقة: الشجرة إشارةٌ إلى القوم المذكورين قبْلُ في الرُّؤْيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف مُحْدَث، وليس هذا عن سهل بن سعد ولا مثله. وقال الطبري ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ: إن الشجرة الملعونة: يعني: الملعون آكلها لأنها لم يجيء لها ذكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويصح أن يراد: الملعونة هنا: فأكَّد الأمر بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ﴾، وقالت فرقة: الملعونة: المُبْعَدَةُ المكروهةُ، وهذا أراد؛ لأنه لَعَنَها بلفظ اللَّعنة المتعارف، وهذا قريب في المعنى من الذي قبله. وأيضاً فما ينبتُ في أصل الجحيم فهو في نهاية البعد من رحمة الله.

وقوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾، يريد: إمَّا كُفَّارَ مكَّة، وإمَّا الملوك من بني أميَّة بعد الخلافة التي قال فيها النبي ﷺ: (الخلافةُ بعدي ثلاثون، ثم تكون ملكاً عضوداً)[1]، والأول منهما أصوب كما قلنا قبْلُ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ يريد كفرهم وانهماكهم فيه، كقول أبي جهل في الزقوم والتَّزقُّم، فقد قال النقاش: إن في ذلك نزلت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي نحوه، وقرأ الأعمش: [وَيُخَوِّفُهُمْ] بالياء، وقرأ الجمهور: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بالنون.

= الحديث، كل يحدث عن بعض ما ذكر من أمره حين أُسري به ﷺ»، إلى أن قال: «قال الحسن في حديثه... وساق ما حدث من أبي بكر رضي الله عنه...».

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥ـ٢٢٠، ٢٢١)، عن سفينة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الخلافة ثلاثون عاماً، ثم يكون بعد ذلك الملك)، قال سفينة: أمسك خلافة أبي بكر رضي الله تعالى عنه سنتين، وخلافة عمر رضي الله عنه عشر سنين، وخلافة عثمان رضي الله عنه اثنى عشر سنة، وخلافة علي رضي الله عنه ست سنين، رضي الله عنهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

المعنى: واذكر إذ قلنا، وكذلك [إذْ] في الآية المتقدمة هي منصوبة بفعل مضمر، وقد تقدم في غير موضع ذكْرُ خلق آدم عليه السلام وأمْر السجود له. واختلف في قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ ـ فقيل: هو استثناءٌ منقطع؛ لأن إبليس لم يكن من الملائكة، وقيل: هو متصل؛ لأن إبليس من الملائكة. وقوله: [طِيناً] يصحُّ أن يكون تمييزاً، ويصحُّ أن يكون حالاً. وقاسَ إبليس في هذه النازلة فأخطأ؛ وذلك أنه رأى الفضيلة لنفسه من حيث رأى أن النار أفضل من الطين، وجهل أن الفضائل في الأشياء إنما تكون حيث خصصها الله تبارك وتعالى، ولا يُنْظر إلى أصولها.

وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن إبليس هو الذي أمره الله تعالى، فأخذ من أديم الأرض طينة، فخلق آدم، والمشهور أنه مَلَك الموت. وكُفر إبليس في أن جهل صفة العدل من الله تعالى حين لحقته الأنفة والكبر، وكان أصل ذلك الحَسَد ولذلك قيل: «أول ما عُصي اللهُ تعالى بالحسد»، وظهر ذلك من إبليس من قوله: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ﴾ و﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾(١) حسبما ذكر الله تعالى في آية أُخرى، فهذا هو النَّصّ بأن فعلك غير مستقيم.

والكاف في قوله: [أَرَأَيْتَكَ] هي كاف خطاب ومبالغة في التَّنبيه، لا موضع لها من الإعراب؛ فهي زائدة. ومعنى «أَرَأَيْتَ»كأتأمَّلْتَ، ونحوه: كأن المخاطِب بها يُنبِّه المخاطَبَ ليستجمع لما ينُصُّه عليه بعْدُ. وقال سيبويه: هي بمعنى: أخبرني، ومثَّل بقوله: أرَأيْتَك زيداً أيُؤمِنُ هو؟

---

(١) من الآية (٧٦) من سورة (ص).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقاله الزجاج في آيتنا، ولم يُمثِّل، وقول سيبويه صحيح حيث يكون بعدها استفهام كمثاله، وما في هذه فهي كما قلْتُ، وليس الذي ذكره سيبويه رحمه الله[١].

وقرأ ابن كثير: [أَخَّرْتَني] بالياء في الوصل والوقف، وهذا هو الأصل، وليس هذا الموضع كالقافية التي يحسن فيها الحذف، كمثل قول الأعشى:

فَهَـلْ يَمْنَعَنِّـي ارْتِيَـادِي ٱلْبِـلاَ ... دَ مِنْ حَـذَرِ الْمَـوْتِ أَنْ يَـأْتِيَـنْ؟[٢]

وقرأ نافع، وأبو عمرو بالياء في الوصل وبحذفها في الوقف، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿أَخَّرْتَنِ﴾ بحذف الياء في الوصل والوقف، وهذا تشبيه بياء (قاضٍ) ونحوه، لكونها ياءً متطرفة قبلها كسرة، ومنها قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[٣].

وقوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ معناه: لأُمِيلَنَّ ولأَجُرَّنَّ، وهو مأخوذ من تحنيك الدَّابَّة، وهو أن يُشَدَّ على حنكها بحبل أو غيره فتنقاد، والسَّنة تَحْتَنِكُ المال، أي: تجتره، ومنه قول الشاعر:

نَشْكُـو إِلَيْـكَ سَنَـةً قَـدْ أَجْحَفَـتْ ... جَهْـداً إِلَـى جَهْـدٍ بِنَـا فَـأَضْعَفَـتْ

واحْتَنَكَتْ أَمْوَالَنَا وجَنَّفَتْ[٤]

---

(١) يرى الحوفي أن ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾ بمعنى: عَرِّفْني وأخبرني، و﴿هَٰذَا﴾ منصوب بـ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾، والمعنى: أخبرني عن هذا الذي كرَّمته عليَّ، لم كرَّمتَه عليَّ وقد خلقتني من نار وخلقته من طين؟ وحُذف هذا لما في الكلام من الدليل عليه. ويرى الزمخشري تقريباً نفس الرأي، وقد نقل أبو حيان الأندلسيُّ كلامهما وكلام ابن عطية، ثم قال: «وما ذهب إليه الحوفي والزمخشري هو الصحيح، ولذلك قُدِّر الاستفهام وهو: لِمَ كَرَّمْتَهُ عليَّ؟ فقد انعقد من قوله: «هذا الذي كرَّمته عليَّ، لِمَ كَرَّمْتَه عليَّ؟» جملة من مبتدأ وخبر، وصار مثله: زيداً أيؤمِنُ هُوَ؟، فالاستفهام مُقَدَّرٌ».

(٢) هذا البيت من قصيدة الأعشى التي يمدح بها قيس بن معديكرب الكندي، والتي يشكو فيها طول الزمن. ويقول: إن الدهر لا يترك بصروفه شيخاً كبيراً ولا شاباً يافعاً، وإن الحذر من الموت وطول التطواف في البلاد لا يحميني من الموت، والشاهد هو حذف النون من (يأتيني) لأنها قافية يحسن فيها الحذف.

(٣) من الآية (١٠٥) من سورة (هود) والشاهد حذف الياء من (يَأْتِي).

(٤) هذه ثلاثة أبيات من مشطور الرجز، والبيتان الأول والثاني مثبتان ضمن الأرجوزة السادسة في بقية ديوان الزفيان السعدي، (عطاء بن أسيد الراجز)، وقد استشهد أبو عبيدة في (مجاز القرآن) بهذه الأبيات، =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن هذا الشعر قال الطبري في ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ﴾: لأَسْتَأْصِلَنَّ، وعبَّر ابن عباس رضي الله عنهما في ذلك بـ لأَسْتَوْلِيَنَّ، وقال ابن زيد: لأُضِلَّنَّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بدل اللفظ لا تفسير.

وحكم إبليس بهذا الحكم على ذرية آدم عليه السلام من حيث رأى الخِلْقة مجوفة مختلفة الأجزاء، وما اقترن بها من الشهوات والعوارض كالغضب ونحوه، ثم استثنى القليل لعلمه أنه لا بدَّ أن يكون في ذريته من يصلب في طاعة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ﴾ وما بعده من الأوامر هي صيغة افْعَلْ، بمعنى التهديد، كقوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾[1] و﴿تَبِعَكَ﴾ معناه: في طريق الكفر الذي تدعو إليه. فالآية في الكفار وفيمن ينفذ عليه الوعيد من العصاة. وقوله تعالى: ﴿جَزَآءً﴾ مصدر في موضع الحال، و«المَوْفورُ»: المكتمل.

و﴿ٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ معناه: استخفَّ واخدَعْ حتَّى يقع في إرادتك، تقول: اسْتَفَزَّني فلانٌ في كذا، إذا خدعك حتَّى تقع في أمرٍ أراده، ومن الخفة قيل لولد البقرة: فَزٌّ، ومنه قول زهير:

كَمَا اسْتَغَاثَ بِسَيْءٍ فَزُّ غَيْطَلَةٍ ... خَافَ الْعُيُونَ فَلَمْ يُنْظَر بِهِ الْحَشَكُ[2]

= قال: «يقال: احْتَنَك فلانٌ ما عند فلان أجمع من مالٍ أو علم أو حديث أو غيره: أخذه كلَّه واستقصاه، قال: نشكو إليك... الخ الأبيات»، واستشهد بها الطبري في تفسيره، وكذلك القرطبي، والبيتان المثبتان في بقية ديوان الزفيان السعدي يختلفان في الرواية عما هنا، وهما:

نَشْكُو إليكَ سَنَةً قَدْ جَلَّفَتْ ... أَمْوَالَنَا مِنْ أَصْلِهَا وَجَرَّفَتْ

وَأَجْحَفَتْ: اشتدت في الإضرار بنا وبجهودنا، يقال: أَجْحَفَ بهم الدهر: استأصلهم، وأجْحَف بهم الفقر: أذهب أموالهم، واحتنكت: استأصلت أموالنا. والجنف: الميل والظُّلْم والجور. والشاهد هنا أن الاحتناك معناه: الاستئصال. وفي رواية: وجَلَّفَتْ بدلاً من جَنَّفت، ومعناها: قشرت الجلد مع شيءٍ من اللحم.

(١) من الآية (٤٠) من سورة (فصلت).

(٢) البيت من قصيدة قالها زهير لمَّا أغار الحارث بن ورقاء الصيداوي ـ من بني أسد ـ على بني عبد الله بن غطفان، فغنم واستاق إبل زهيرٍ وراعيه يساراً، فقال زهير القصيدة يطالبه بردِّ يسارٍ ويهدده بالهجاء =

و«الصَّوْتُ» هنا قيل: هو الغناءُ والمزامير والملاهي؛ لأنها أصوات كلها مختصة بالمعاصي، فهي مضافة إلى الشيطان، قاله مجاهد، وقيل: معناه: بدعائك إياهم إلى طاعتك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: صوته دعاءُ كل عاص إلى معصية الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والصواب أن يكون «الصَّوْتُ» يعُمُّ جميع ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ﴾ أي: هوِّل، والجَلَبَةُ: الصوت الكثير المختلط الهائل، وقرأ الحسن: [وَاجْلُبْ] بوصل الألف وضمِّ اللام. وقوله سبحانه: ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾، قيل: هذا مجازٌ واستعارة بمعنى: اسْعَ سعيك وابلغ جهدك، وقيل: معناه أن له من الجن خيلاً ورجلا، قاله قتادة، وقيل: المرادُ فرسان الناس ورجالتهم المتصرفون في الباطل، فإنهم كلهم أعوان لإبليس على غيرهم، قاله مجاهد. وقرأ الجمهور: [وَرَجْلِكَ] بسكون الجيم، وهو جمع راجِلٍ، كتاجِرٍ وتَجْر، وصاحِبٍ وصَحْب، وشارِبٍ وشَرْب، وقرأ حفصٌ عن عاصم: ﴿وَرَجِلِكَ﴾ بكسر الجيم، على وزن فَعِل، وكذلك قرأ الحسن، وأبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ وهي صفةٌ، تقول: فلانٌ يمشي رَجِلاً، أي غير راكب، ومنه قول الشاعر:

أَمَا أُقَاتِلُ عَنْ دِينِي عَلَى فَرَسِي ... ولا كَذَا رَجُلاً إلاَّ بِأَصْحَابِ؟[1]

= القبيح الفاحش. والسَّيْءُ: ما يكون في الضَّرع من اللبن قبل نزول الدِّرَّة، والفَزُّ: ولد البقرة الوحشية، والغيطلة: البقرة. ويُنْظِر: ينتظر. والحَشَكُ: دف الدرة وامتلاؤها. وقيل: هو سرعة تجمع اللبن في الضرع. قال في اللسان (حَشَكَ): «الحَشَكَ: اسم للدِّرَّة المجتمعة، وقيل: إن الشاعر أراد الحشْكَ فحرَّك للضرورة، أي: لم تنتظر به أُمه حُشُوكَ الدِّرَّة». أي: أعجلته بالسَّيء ولم تنتظر امتلاء ضرعها باللبن.

(١) البيت في اللسان (رَجَلَ)، وقد ذكره مع بيت بعده، وأطال في توضيح المعنى نقلاً عن علماء اللغة، قال: «وقد يأتي رَجُلٌ بمعنى راجِلٍ، قال الزبرقانُ بن بدر:

آلَيْتُ للهِ حَجّاً حَافِياً رَجُلاً ... إنْ جَاوَزَ النَّخْلَ يَمْشِي وَهُوَ مُنْدَفِعُ

ومثله ليحيى بن وائل، وأدرك قطَريَّ بن الفُجَاءَةِ الخارجيَّ أحدُ بني مازن حارثي:

أَمَا أُقَاتِلُ عَنْ دينِي عَلَى فَرَسٍ ... وَلاَ كَذَا رَجُلاً إلاَّ بِأَصْحَابِ؟
لَقَدْ لَقِيتُ إذاً شَرّاً وَأَدْرَكَنِي ... مَا كُنْتُ أَرْغَمُ في جِسْمِي مِنَ الْعَابِ

قال أبو حاتم: (أَمَا) مخفَّفُ الميم مفتوح الألف، وقوله: (رَجُلاً) أي: راجلاً، كما تقول العرب: =

وقرأ قتادة وعكرمة: [بخيلك ورجالك].

وقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ عامٌ لكلِّ معصية يصنعها الناسُ بالمال، فإن ذلك المصرف في المعصية هو حظُّ إبليس، فمن ذلك السجائر وشبهها، ومن ذلك مهر البغيِّ وثمن الخمر وحلوان الكاهن والرِّبا وغير ذلك مما يوجَد في النَّاس دأباً، وقوله: ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ عامٌ لكل ما يصنع في أمر الذرِّيَّة من المعاصي، فمن ذلك الإيلادُ بالزِّنَى، ومن ذلك تسميتهم عبد شمس، وعبد الحارث، وأبا الكويفر، وكل اسم مكروه، ومن ذلك الوأد الذي كانت العرب تفعله، ومن ذلك صبغهم في أديان الكفر، وغير هذا، وما أدخل النقاش من وطء الجن وأنه يحبل المرأة من الإنسان فضعيف كلُّه[١].

وقوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ أيْ: مَنِّهم بما لا يتم لهم، وبأنهم غير مبعوثين، فهذا مشاركة في النفوس، ثم أخبر الله تعالى أنه إنما يعدهم غروراً منه؛ لأنه لا يُغني عنهم شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ قولٌ من الله تبارك وتعالى لإبليس، وقوله: [عِبَادِي] يريد المؤمنين في الكفر، والمُتَّقِين في المعاصي، وخَصَّهم بأنهم العباد، وإن كان اسْماً عامّاً لجميع الخلق من حيث قصد تشريفهم والتنويه بهم، كما يقول رجلٌ لأَحَدِ بَنِيهِ إذا رأى منه ما يحب: «هذا ابني»، على معنى التَّنْبيه والتشريف له، ومنه قول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقَّاص: «هذا خالي، فَلْيُرِني امرؤٌ خاله»[٢]. و«السُّلْطَانُ»: الملكية والتغلُّب، وتفسيره هنا بالْحُجَّة قَلِقٌ. ثم قال تعالى لِنَبِيِّه عليه الصلاة والسلام: وكفى بِرَبِّك يا محمد حافظاً للمؤمنين وقَيِّماً على هدايتهم.

= جاءنا فلانٌ حافياً رجُلاً، أي: راجلاً، كأنه قال: أما أُقَاتِلُ فارساً ولا راجلاً إلاَّ ومعي أصحابي، لقد لقيتُ إذاً شرّاً إن لم أُقاتل وحدي. وأبو زيد مِثْلُه، وزاد: ولا كذا أُقاتل راجلاً، فقال: إنه خرج يقاتل السلطان، فقيل له: أتخرج راجلاً تقاتل؟ فقال البيت، وقال ابن الأعرابي: قوله: (ولا كذا راجلاً) أي: ما ترى رجلاً كذا، وقال المُفَضَّل: (أمَا) خفيفة بمنزلة (ألا) و(ألا) تنبيه يكون بعدها أمرٌ أو نهيٌ أو إخبارٌ، فالذي بعد (أمَا) هنا إخبارٌ، كأنه قال: أما أُقاتل فارساً وراجلاً؟ وقال أبو علي في الحجة بعد أن نقل عن أبي زيد ما تقدم: فَرَجُلٌ ـ على ما حكاه أبو زيد ـ صفة، ومثله: نَدُسٌ وفَطُنٌ وحَذُرٌ وأحرف نحوها، ومعنى البيت: كأنه يقول: اعلموا أني أقاتل عن ديني وعن حسبي، وليس تحتي فرسٌ ولا معي أصحاب» اهـ. (اللسان ـ رَجَلَ).

(١) العلم الحديث لا يقر مسألة التزواج بين الإنس والجن.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

«الإزْجَاءُ»: سوقُ الثَّقيل السَّيْرِ؛ إمَّا لضعفٍ أو ثِقَل حمل أو غيره، فالإبل الضعاف تُزْجَى، ومنه قول الفرزدق:

. . . . عَلَى زَوَاحِفَ نُزْجِيهَا مَحَاسِيرِ[1]

والسَّحابُ تُزْجَى، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ﴾[2]، والبضاعة المُزْجَاةُ هي التي تحتاج لاختلالها أن تُساقَ بشفاعَةٍ وتُدْفع بمعاونٍ إلى الذي يقبضها، وإزجاءُ الفُلْك سوقُه بالريح اللَّيِّنة والمجاديف. و«الْفُلْكُ» هنا جمع. و«الْبَحْرُ»: الماءُ الكثير عذباً كان أو مِلْحاً، وقد غلب الاسم على هذا المشهور[3] والفلك تجري فيه، وقوله: ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ لفظ يعم البحرَ وطلَب الأجر في حجٍّ أو غزوٍ أو نحوه، ولا خلاف في جواز ركوبه للحجِّ والجهاد والمعاش، واختُلف في وجوبه للحجِّ، أعني الكثير منه. واختُلف في كراهيته للثروة وتزيداً لمال، وقد أخبر رسول الله ﷺ بركوبه للغزو في حديث أم حرام، وقد رُوي عنه أنه قال: (البحر لا أركبه أبداً)، وهو حديث يحتمل أنه رأيٌ رآه لنفسه، ويحتمل أنه أوحي إليه ذلك، وهذه الآية توقيف على آلاءِ الله تعالى وفضله على عباده.

---

(١) هذا عجز بيت قاله الفرزدق من قصيدة يمدح بها يزيد بن عبد الملك ويهجو يزيد بن المهلب، والبيت بتمامه:

عَلَى عَمَائِمِنَا يُلْقَى وَأَرْحُلِنَا عَلَى زَوَاحِفَ نُزْجِيهَا مَحَاسِيرِ

الرَّحْلُ: ما يوضع على ظهر البعير للركوب، وكلُّ شيء يُعَدُّ للرحيل من وعاءٍ لمتاع وغيره. والزواحف: النياق التي تعبت من السير فهي تسير ببطءٍ وكأنها تزحف، نُزْجِيهَا: نَسوقها وندفعها، وهي موضع الشاهد هنا ـ والمحاسير: جمع محسورٍ وهو الكليل الضعيف، صفةٌ أخرى للنياق التي يركبونها.

(٢) من الآية (٤٣) من سورة (النور).

(٣) هكذا في الأصول، والمراد: غلب الاسم على الماء الكثير المالح.

و«الضُّرُّ» لفظ يعمُّ خوف الغرق، والإمساك عن المشي، وأهول حالاته اضطرابه وتموجه. وقوله تعالى: (ضَلَّ) معناه: تلف وفقد، وهي عبارة تحقير لمن يدعي إلهاً من دون الله تبارك وتعالى. والمعنى في هذه الآية أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة، وأن لها فضلاً، وكل واحد منهم بالفطرة يعلم علماً لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها في الشدائد العظام، فَوَقَفَهُم الله من ذلك على حالة البحر، وقوله تعالى: (كَفُوراً) أي بالنِّعَم. و(ٱلإِنسَانُ) هنا للجنس، وكل واحد لا يكاد يؤدي شكر الله تعالى كما يجب. وقال الزجاج: (ٱلإِنسَانُ) يراد به الكفار.

قال القاضي: أبو محمد رحمه الله:

وهذا غير بارع.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ الآية.

المعنى: أفأمنتم أيها المعرضون النَّاسون الشِّدَّة حين صِرْتم إلى الرخاء أن يخسف الله بكم مكانكم من البر؛ إذْ أنتم في قبضة القدرة في البحر وفي البر.

و«الحاصِبُ»: العارضُ الرامي بالبَرَد والحجارة ونحو ذلك، ومنه قول الشاعر:

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا ... بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ الْقُطْنِ مَنْثُورِ[(١)]

ومنه قول الأخطل:

تزمِي العِضَاهَ بِحَاصِبٍ مِنْ ثَلْجِهَا ... حَتَّى يَبِيتَ عَلَى العِضَاهِ جفالاً[(٢)]

---

(١) هذا البيت من نفس القصيدة التي قالها الفرزدق في مدح يزيد بن عبد الملك، والتي أشرنا إليها في الحديث عن بيت الشعر السابق، بل هو البيت الذي قبل الشاهد السابق. والحاصِبُ: الريح الشديدة تحمل الحصباء وهذا هو الشاهد هنا، ومعنى تضربنا: تلطمنا بشدة، ونديف القطن: قطع القطن المتناثرة، يريد البَرَد، شبَّهَهُ بنديف القطن في اللون.

(٢) هذا بيت قاله الأخطل من قصيدة يهجو بها جريراً، ويفتخر على قيس، وقبله يقول:

ولَقَدْ عَلِمْتُ إذَا العِشَارُ تَرَوَّحَتْ ... هَدَجَ الرِّئَالِ تَكُبُّهُنَّ شَمَالاً

والعشار: الإبل التي حَمَلَت ومَضَى على حملها عشرة أشهر، وتَرَوَّحَتْ: عادت إلى حظائرها في وقت الرواح والعودة من المرعى، والرِّئال: جمع رأل، وهو ولد النعامة، والهَدَج: عدوٌ متقارب، وتكُبُّهُنَّ: تُسْقِطُهُنَّ على وجوههِنَّ، يريد أن الريح وهي تهبُّ شمالاً تدفعهن فتُسْقِطهُنَّ. والضمير في=

ومنه الحاصِبُ الذي أصاب قوم لوط. والحَصْبُ: الرَّمْيُ بالحصباءِ، وهي الحجارة الصغار.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يَخْسِفَ﴾ بالياء، على معنى: يخسف اللهُ، وكذلك ﴿يُرْسِلَ﴾ و﴿يُعِيدَكُمْ﴾ و﴿فَيُرْسِلَ﴾ و﴿فَيُغْرِقَكُمْ﴾، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو ذلك كلَّه بالنون، وقرأ أبو جعفر، ومجاهد: [فَتُغْرِقَكُمْ] بالتاء، أي الريح. وقرأ حميد [فَنُغْرِقْكُمْ] بالنون خفيفة[1]، وأدغم القافَ في الكاف، ورويت عن أبي عمرو، وابن محيصن، وقرأ الحسن، وأبو رجاءٍ: [فَنُغَرِّقَكُمْ] بشدِّ الراء. و«الوَكِيلُ»: القائم بالأمور، و«القَاصِفُ»: الذي يكسر كلَّ ما يُلْقَى ويقْصِفُه. و﴿تَارَةً﴾ جمعُهَا تاراتٌ وتِيَرٌ، ومعناها: مرَّة أُخرى، وقرأ أبو جعفر: [من الرياح] بالجمع. و«التَّبِيعُ»: الذي يطلب ثأراً أو دَيْناً أو نحو هذا، ومنه قول الشاعر:

غَـدَوْا وَغَـدَتْ غِـزْلانهُـمْ فَكَـأَنَّهَـا ضَـوَامِـنُ غُـرْمٍ لَـزَّهُـنَّ تَبِيـعُ[2]

ومن هذه اللَّفظة قول النبي ﷺ: «إذا أُتْبِعَ أحدكم على مَلِيٍّ فلْيَتَّبع»[3]، فالمعنى: لا تجدون من يتبع فعلنا بكم ويطلب نُصرتكم.

= (تزمي) يرجع إلى ريح الشمال، والعِضَاهُ: كل شجر له شوكٌ، والواحدة: عِضَة، والحاصب: ما تناثر من الثلج الصغير والجفال: ما تراكم من الثلج بعضه فوق بعض، والشاهد في كلمة (حاصب) كالبيت السابق.

(١) أي: خفيفة الراء.

(٢) قال في اللسان (تبع): «التَّبيع: الذي يتبعك بحق يطالبك به، وهو الذي يتبع الغريم بما أحيل عليه»، ثم حكى عن الفراء أنه قال في معنى الآية: «أي ثائراً ولا طالباً بالثأر لإغراقنا إياكم»، وحكى عن الزجاج قوله: «معناه: لا تجدوا من يتبعنا بإنكار ما نزل بكم ولا يتبعنا بأن يصرفه عنكم». والغُرمُ: ما ينوب الإنسان في ماله من ضَرَر بغير جناية منه أو خيانة، والضامن: الكفي أو الملتزم أو الغارم الذي يلزمه مالا يجب عليه. ولزَّهن: لَزِمَهُنَّ والتصق بهنَّ ليجبرهن على ما يريد.

(٣) هذا جزءٌ من حديث أخرجه البخاريُّ، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والدارمي، ومالك في الموطأ، وأحمد في مسنده، واللفظ برواية البخاري في الحوالات عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَطْلُ الغنيِّ ظُلْم، ومَن أُتبِعَ على مَلِيٍّ فَلْيَتَّبِع»، والمعنى: إذا أُحيل أحدكم على مليٍّ فليتحمل، وهو أمرٌ على الرفق والأدب والإباحة، وليس أمراً على الوجوب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

[كَرَّمْنَا] تضعيف (كرم)، فالمعنى: جعلنا لهم كَرَماً، أي شرفاً وفضلاً، وهذا هو كرم نَفْي النقصان، لا كرم المال، وإنما هو كما تقول: «ثوبٌ كريمٌ»، أي: جَمَّةٌ محاسنُه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية عدَّدَ الله تعالى فيها على بني آدم ما خصَّهم به من دون سائر الحيوان. والجِنُّ هو الكثير المفضول، والملائكة منهم الخارجون عن الكثير المفضول. حَمْلُهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يتَحَمَّل بإرادته وقصده وتدبيره في البرِّ والبحر جميعاً. والرِّزقُ من الطيبات لا ينتفع به حيوان انتفاع بني آدم؛ لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان، ويلبسون الثياب، ويأكلون المركبات من الأطعمة، ، غاية كل حيوان أن يأكل لحماً نَيّئاً، أو طعاماً غير مركب. و«الرِّزْقُ»: كل ما صحَّ الانتفاع به، وحكى الطبري عن جماعة أنهم قالوا: التفضيل هو أن يأكل بيديه؛ وسائر الحيوان بالفم. وقال غيره: وأن ينظر من إشرافٍ أكثر من كل حيوان، ويمشي قائماً، ونحو هذا من التفضيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله غير محذق[1]، وذلك أن للحيوان من هذا النوع ما كان يفضل به ابن آدم، كجري الفرس وسمعه وإبصاره، وقوة الفيل وشجاعة الأسد وكرم الديك، وإنما التكريم والتفضيل بالعقل الذي به يملك الحيوانَ كله، وبه يعرف الله تعالى، ويفهم

(١) يريد: غير قاطع في معناه، أو لا يدل على مهارة صاحبه وحِذْقِه.

كلامه ويوصل إلى نعيمه. وقالت فرقة: هذه الآية تقضي بفضل الملائكة على الإنس من حيث هم المستثنون، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا غير لازم من الآية، بل التفضيل بين الإنس والجن لم تعن له الآية، بل يحتمل أن الملائكة أفضل، ويحتمل التساوي، وإنما صحَّ تفضيل الملائكة من مواضع أُخرى من الشرع.

قوله تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ الآية. يحتمل قوله: ﴿يَوْمَ﴾ أن يكون منصوباً على الظرف، والعامل فيه فعل مضمر تقديره: اذْكر[2]، أو فعل يدلُّ عليه قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾، تقديره: ولا يُظلمون يوم ندعو، ثم فسره ﴿يُظْلَمُونَ﴾ الآخر، ويجوز أن يعمل فيه ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾، وذلك أن فضل البشر على سائر الحيوان يوم القيامة بيِّن؛ لأنهم المُنَعَّمون المُكَلَّمُون المُحَاسبونَ الذين لهم القدر، إلاَّ أنَّ هذا يردُّه أن الكفار يؤمئذ أخسُّ من كل حيوان؛ إذ يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[3]، ولا يعمل فيه ﴿نَدْعُو﴾ لأنه مضاف إليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن يكون ﴿يَوْمَ﴾ منصوباً على البناء لمَّا أُضيف إلى غير متمكن، ويكون موضعه رفعاً بالابتداء، والخبر في التقسيم الذي أتى بعْدُ في قوله: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن كَانَ﴾[4].

---

(١) من الآية (١٧٢) من سورة (النساء).

(٢) قال أبو حيان الأندلسي: «على تقدير: اذكر، لا يكون ظرفاً بل هو مفعول به».

(٣) من الآية (٤٠) من سورة النبأ).

(٤) علَّق أبو حيان الأندلسي على كلام ابن عطية هذا بعد أن نقله بقوله: «قوله: «منصوباً على البناء»، كان ينبغي أن يقول: «مبنياً على الفتح»، وقوله: «لمَّا أُضيف إلى غير متمكن» ليس بجيد؛ لأن الذي ينقسم إلى متمكن وغير متمكن هو الاسم لا الفعل، وهذا أُضيف إلى فعل مضارع، ومذهب البصريين أنه إذا أُضيف إلى فعل مضارع معرب لا يجوز بناؤه، وهذا الوجه الذي ذكره هو على رأي الكوفيين، وأما قوله: «والخبر في التقسيم» فالتقسيم عارٍ من رابط لهذه الجملة التقسيمية بالمبتدأ؛ إلاَّ إن قدر محذوفاً فقد يمكن، أي: مِمَّن أوتي كتابه فيه بيمينه، وهو بعد هذا التخريج تخريج مُتكلَّف». (البحر المحيط ٦ـ٦٢).

وقرأ الجمهور: ﴿نَدْعُو﴾ بنون العظمة، وقرأ مجاهد: [يَدْعُو] بالياء، على معنى: يدعو اللهُ، ورُويت عن عاصم، وقرأ الحسن: [يُدْعَوْ] بضم الياء وسكون الواو، وأصلها: يُدْعَى، ولكنها لغة لبعض العرب، يقلبون هذه الألف واواً فيقولون: أَفْعَوْ، وحُبْلَوْ(١).

ذكر هاتين أبو الفتح وأبو عليٍّ في ترجمة أعمى بعد. وقرأ الحسن: [كُلُّ] بالرفع، على معنى: يُدْعَوْ كلُّ. وذكر أبو عمرٍو الداني عن الحسن أنه قرأ: «يُدْعَى كُلُّ»، و«الأُناسُ» اسْمُ جمع لا واحد له من لفظه.

وقوله: [بِإِمَامِهِمْ] يحتمل أن يريد: باسم إمامهم، ويحتمل أن يريد: مع إمامهم، فعلى التأويل الأول يقال: يا أُمَّةَ محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ويا أتباع فرعون، ونحو هذا، وعلى التأويل الثاني تجيءُ كلُّ أُمَّة معها إمامُها من هادٍ أو مُضِل، واختلف المفسرون في الإمام ـ فقال مجاهد، وقتادة: نَبِيُّهم، وقال أبو زيد: كتابهم الذي أُنزل عليهم، وقال ابن عباس، والحسن: كتابهم الذي فيه أعمالهم، وقالت فرقة: مُتَّبَعُهُم من هادٍ ومُضل. ولفظة «الإمام» تعمُّ هذا كله؛ لأن الإمام هو ما يُؤْتَمُّ به ويُهتدى به في القصد، ومنه قيل لخَيْط البَنَّاء: إمامٌ، وقال الشاعر يصف قدحاً:

وقَــوَّمْتُــهُ حَتَّــى إذَا تَــمَّ واسْتَــوَى كَمُخَّــةِ ســاقٍ أو كَمَتْــنِ إِمَــامِ(٢)

---

(١) في أفْعَى وحُبْلَى. قال أبو الفتح: «هذا على لغة من أبدل الألف في الوصل واواً، ذكر ذلك سيبويه، وأكثر هذا القلب إنما هو في الوقف؛ لأن الوقف من مواضع التغيير، وهو أيضاً في الوصل محكي عن حاله في الوقف».

وعلى قراءة الحسن التي ذكرها الداني وهي رفع [كُلّ]، تكون [كُلُّ] مرفوعة بالفعل، وتكون الواو ضميراً مفعولا لم يُسَمَّ فاعله، وأصله: يُدْعَوْنَ، فحذفت النون كما حذفت في قوله:

أَبِيــتُ أَسْــرِي وتَبِيتِــي تَــدْلُكِــي وَجْهَــكِ بــالْعَنْبَــرِ والمِسْــكِ الــزَّكِــي

أي: وتبيتين تَدْلُكِينَ.

(٢) البيت في اللسان (أَمَمَ) غير منسوب، قال: «والإمامُ: الخيط الذي يُمَدُّ على البناء فَيُبْنى عليه ويُسَوَّى عليه سافُ البناء، وهو من ذلك، قال: وخَلَّقْتُهُ حَتَّى إذا... البيت، أي: كهذا الخيط الممدود على البناء في الأملاس والاستواء، يصف سهماً، يدلُّ على ذلك قوله:

قَــرَنْــتُ بِحَقْــوَيْــهِ ثَــلاثــاً فَلَــمْ يَــزِغْ عَــنِ الْقَصْــدِ حَتَّــى بُصِّــرَتْ بِــدِمَــامِ

والحَقْوُ: الخَصْر، وحَقْوَا الثَّنِيَّةِ: جانباها. ولم يَزِغْ: لم يَحِدْ أو يَمِلْ عن القصد، أي الهدف =

ومنه قيل للطريق: إمامٌ؛ لأنه يُؤْتَمُّ به في المقاصد حتَّى ينتهي إلى المراد.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ حقيقة في أن في القيامة صحائف تتطاير وتوضع في الأيْمَان لأهل الإيمان، وفي الشمائل لأهل الكفر، وتوضع في أيمان المذنبين الذين ينفذ هم الوعيد فيستفيدون منها أنهم غير مخلدين في النار. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ﴾، عبارة عن السرور بها، أي: يُرَدِّدُنها ويتناقلونها، وقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، أي: ولا أقلَّ ولا أكثر، فهذا هو مفهوم الخطاب، حُكْم المسكوت عنه كحُكْم المذكور، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾[1] وكقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[2]، وهذا كثير. ومعنى هذه الآية أنهم لا يبخسون من جزاء أعمالهم الصالحة شيئاً، و«الفَتِيلُ» هو الخيط الذي في شق نواة التمر، يُضرب به المثل في القلَّة وتفاهة القدر.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ الآية. قال محمد بن أبي موسى[3]: الإشارة بـ[هَٰذِهِۦ] إشارة إلى النعم التي ذكرها سبحانه وتعالى في قوله: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، أي: مَنْ عَمِيَ عن شكر هذه النعم والإيمان بِمُسْديها فهو في أمور الآخرة وشأنها أعمى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل [أَعْمَىٰ] الثاني أن يكون بمنزلة الأول، على أنه تشبيه بأعمى البصر، ويحتمل أن يكون صفة تفضيل، أي: أشد عمًى، و«العَمَى» في هذه الآية هو عَمَى القلب في الأول والثاني، وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: الإشارة بـ[هَٰذِهِۦ] إلى الدنيا، أي: من كان في هذه الدار أعمى عن النظر في آيات الله تبارك وتعالى وعِبَره والإيمان بآياته ﴿فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾، إمَّا أن يكون على حذف مضاف، أي: في شأن الآخرة، وإما أن يكون: فهو في يوم القيامة أعمى، على معنى أنه حيران لا يتوجه إليه صواب، ولا يلوح له نُجح. قال مجاهد: في الآخرة أعمى عن حجته.

= المقصود. والذِّمام: كل ما طُلِيَ به.

(١) من الآية (٢٣) من هذه السورة (الإسراء).

(٢) من الآية (٤٠) من سورة (النساء).

(٣) قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني في تقريب التهذيب: «مستورٌ، من الرابعة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر أن الإشارة بـ[هَذِهِ] إلى الدنيا، أي: من كان في دنياه هذه ووقت إدراكه وفهمه أعمى عن النظر في آيات الله تعالى، فهو في الآخرة أشد حيرة وأعمى؛ لأنه قد باشر الخيبة، ورأى مخايل العذاب. وبهذا التأويل تكون معادلةً للَّتي قبلها مِنْ ذِكْرِ مَنْ يُؤْتَى كتابه بيمينه، وإذا جعلنا قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْآخِـرَةِ﴾ بمعنى: «في شأن الأخرة» لم تطرد المعادلة بين الاثنين.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: (أَعْمَى) في الموضعين بغير إمالة، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم ـ بخلاف عنه ـ في الموضعيْن بإمالة، وقرأ أبو عمرو بإمالة الأول وفتح الثاني، وتأَوَّله بمعنى: «أشد عَمَى»، ولذلك لم يُمِلْه. قال أبو عمرو: لأن الإمالة إنما تحسُنُ في الأواخر، و[أَعْمَى] ليس كذلك؛ لأن تقديره: أعمى من كذا، فليس يتم إلاَّ في قولنا: «مِنْ كذا» على ما هو شبيه به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما جعله في الآخرة أضلَّ سبيلاً لأن الكافر في الدنيا ممكن أن يؤمن فينجو، وهو في الآخرة لا يمكنه ذلك، فهو أضلُّ سبيلاً، وأشدُّ حيرة، وأقرب إلى العذاب. وقول سيبويه: «لا يقال أعمى من كذا، كما لا يقال: ما أَيْدَاهُ»[1] إنما هو في عَمَى العين الذي لا تفاضل فيه، وأما في عمى القلب فيقال ذلك لأنه يقع فيه التفاضل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذكر مكي في هذه الآية أن العمى الأول هو عمى العين عن الهُدى. وهذا بيِّن الاختلال، والله المعين.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الآية. [إنْ] هذه عند سيبويه المخَفَّفَة من الثقيلة، واللام في قوله سبحانه: [لَيَفْتِنُونَكَ] لام تأكيد، و[إنْ] هذه عند الفراء بمعنى (ما)، واللام بمعنى (إنما)، والضمير في قوله تعالى: [كَادُوا] قيل: هو لقريش، وقيل: لثقيف، فأمَّا لقريش فقال ابن جبير، ومجاهد: نزلت الآية لأنهم

(١) قال سيبويه: إن عمى العين خلقة بمنزلة اليد والرجل، فلا يقال: ما أعماه، كما لا يقال: ما أيداه، لأنه لا يقبل التفاضل.

قالوا لرسول الله ﷺ: لا ندعك تستلم الحجر الأسود حتَّى تمس أوثاننا، على جهة التشرع بذلك، قال الطبري وغيره: فهَمَّ رسول الله ﷺ أن يظهر لهم ذلك وقلْبُه له منكر، فنزلت الآية في ذلك، قال الزجاج: وقال رسول الله ﷺ في نفسه: وما عَلَّي أن أفعل لهم ذلك والله تعالى يعلم ما في نفسي؟ وقال ابن إسحق وغيره: إنهم اجتمعوا ليلة فعظَّموه وقالوا له: أنت سيدنا، ولكن: أقْبِل على بعض أمرنا ونُقْبل على بعض أمرك، فنزلت الآية في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهي في معنى قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[1]. وحكى الزجاج أن الآية قيل: إنما هي فيما أرادوه من طرد فقراء أصحابه.

وأمَّا لثقيفٍ فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره: لأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يؤخرهم بعد إسلامهم سنة يعبدون فيها اللأَت، وقالوا: إنَّا نريد أن نأخذ ما يهدى لها، ولكن إن خفت أن تنكر ذلك عليك العربُ فقل: أوحى الله ذلك إليَّ، فنزلت الآية في ذلك. ويلزم قائل هذا القول أن يجعل الآية مدنية، وقد رُوي ذلك، ورَوَى قائلو الأقوال الأُخر أنَّه مكيَّة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وجمع ما أُريد من النبي ﷺ بحسب هذا الاختلاف قد أوحى الله تعالى إليه خلافه، إمَّا في مُعْجز، وإمَّا في غير معجز، وفعله هو ـ إن لو وقع ـ افتراءٌ على الله، إذ أفعاله وأقواله إنما هي كلها شرع.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ توقيف على ما نجَّاه الله تعالى منه من مخالفته الكفار والولاية لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ الآية... تعديد نِعَمِهِ على النبي ﷺ، ورُوي أن رسول الله ﷺ لمَّا نزلت هذه الآية قال: (اللَّهُمَّ لا تَكِلْنِي إلى نفسي طرفة عين)[2].

---

(١) الآية (٩) من سورة (القلم).

(٢) أخرج أبو داود في الأدب، وأحمد في مسنده (٥ـ٤٢، ٥٠)، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة أنه قال لأبيه: يا أبت، إني أسمعك تدعو كل غداة: اللهم عافني في بدني، اللهم عافني في سمعي، اللهم عافني في بصري، لا إله إلا أنت، تعيدها ثلاثاً حين تصبح، وثلاثاً حين يُمْسي، وتقول: اللهم إني أعوذ=

و«الرُّكُونُ»: شدّ الظهر إلى الأمر، أو الجزم على جهة السكون إليه، كما يفعل الإنسان بالركن من الجدران، ومنه قوله تعالى حكاية: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[1]، وقرأ الجمهور: (تَرْكَنُ) بفتح الكاف، وقرأ ابن مصرف، وقتادة، وعبد الله بن أبي إسحق: [تَرْكُنُ] بضم الكاف، ورسول الله ﷺ لم يركن، ولكنه كاد بحسب همِّه بموافقتهم طمعاً منه في استئلافهم، وذهب ابن الأنباري إلى أن معناه: لقد كاد أن يخبروا عنك أنك ركنْتَ، ونحو هذا، ذهب في ذلك إلى نفي الهمِّ بذلك عن النبي ﷺ، فحمَّل اللفظ ما لم يحتمل. وقوله تعالى: ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ يبطل ذلك. وهذا الهمُّ من النبي ﷺ إنما كان خَطْرَةً مما لا يمكن دفعه، ولذلك قيل: ﴿كِدتَّ﴾، وهي تُعطي أنه لم يكن رُكُون[2]، ثم قيل: ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ إذ كانت المقاربة التي تتضمنها ﴿كِدتَّ﴾ قليلة، خَطْرَةً لم تتأكد في النفس، وهذا الهمُّ هو كهَمِّ يوسف عليه السلام، والقول فيهما واحد. وقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ﴾ يبطل أيضاً ما ذهب إليه ابن الأنباري.

وقوله تعالى: ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك: يريد: ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

على معنى أن ما يستحقه هذا الذنب من عقوبتنا في الدنيا والآخرة كنَّا نضعِّفُه لك، وهذا التضعيف شائع مع النبي ﷺ في أجره وألمه وعقاب أزواجه[3]. وباقي الآية بيِّن.

= بك من الكفر والفقر، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، لا إله إلا أنت، تعيدها حين تصبح ثلاثاً، وثلاثاً حين تمسي، قال: نعم يا بني، إني سمعت النبي ﷺ يدعو بهن، فأُحب أن أَسْتَنَّ بسُنَّته، قال: وقال النبي ﷺ: (دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، أصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت). لكن هذه الرواية لا تثبت ما ذكره ابن عطية من أن النبي ﷺ قال ذلك عندما نزلت الآية الكريمة، إلا أنها أيضاً لا تنفي ذلك، فقد ذكر الراوي أنه سمع الرسول ﷺ يدعو بكذا، وأنه عليه الصلاة والسلام قال كذا، فتأمله. ورواية المؤلف عن قتادة. وقد أخرجها ابن جرير الطبري بسنده، عن محمد بن بشار، عن سليمان، عن أبي هلال، عن قتادة رضي الله عنه. وقد ذكرها أبو حيان في البحر المحيط نقلاً عن الطبري.

(١) من الآية (٨٠) من سورة (هود).

(٢) في بعض النسخ «ولم يقع ركون».

(٣) من المعروف أن جواب (لَوْلا) إذا كان مثبتاً يكون مُمْتَنِعَ الوقوع لوجود ما قبله، فمقاربةُ الركون لم تقعْ أصْلاً والمانع من ذلك هو وجود تثبيت الله تعالى له، فالآية بهذا الفهم الواضح تنفي حتى مجرد قربه ﷺ=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾.

قال حضرمي: الضمير في [كَادُوا] ليهود المدينة وناحيتها، كَحُيَيِّ بن أخطب وغيره، وذلك أنهم ذهبوا إلى المكر برسول الله ﷺ فقالوا: إن هذه الأرض ليست بأرض أنبياء، وإنما أرض الأنبياء الشامُ، ولكنك تخاف الرُّوم، فإن كنت نبيّاً فاخرج إليها فإن الله سيحميك كما حمى غيرك من الأنبياء، فنزلت الآية في ذلك، وأخبر الله تعالى أن رسوله لو خرج لم يُلْبِثْهُم بعده إلاَّ قليلاً.

وحكى النقاش أن رسول الله ﷺ خرج بسبب قولهم، وعسكر بذي الحليفة، وأقام ينتظر أصحابه، فنزلت الآية عليه فرجع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، لم يقع في سيرة ولا كتاب يعتمد عليه، وذو الحليفة ليس في طريق الشام.

وقالت فرقة: الضمير في [كَادُوا] هو لقريش، وحكى الزجاج أن استفزازهم هو ما كانوا أجمعوا عليه في دار الندوة من قتله، و[الأرض] ـ على هذا ـ عامة في الدنيا، كأنه قال: يخرجوك من الدنيا، وعلى سائر الأقوال هي أرض مخصوصة، إمَّا مكة وإمَّا المدينة، كما قال تعالى: ﴿ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾[1]، وإما معناه: من الأرض التي بها تصرفهم وتمتعهم. وقال ابن عباس، وقتادة: استفزاز قريش هو ما كانوا ذهبوا إليه من إخراج رسول الله ﷺ من مكة، كما ذهبوا قبلُ إلى حصره في الشِّعب. ووقع استفزازهم هذا بعد نزول الآية، وضيقوا عليه حتى خرج واتبعوه إلى الغار وغير ذلك، ونفذ عليهم

= من الركون إليهم، ثم إن (كاد) فعل من أفعل المقاربة، وهي تعطي معنى (مقاربة) الشيء، ومقاربة الشيء غير الوقوع فيه، بل هي تؤكد عدم الوقوع في فعل الشيء، والآية الكريمة بهذا تنفي ركون النبي ﷺ إليهم، وتنفي أيضاً مقاربته للركون.

(١) من الآية (٣٣) من سورة (المائدة).

الوعيد في أن لم يلبثوا خلفه إلاَّ قليلاً يوم بدر. وقال مجاهد: ذهبت قريش إلى هذا ولكنه لم يقع منها؛ لأنه لمَّا أراد الله تعالى استبقاء قريش وألاَّ يسْتَأْصلها أذن لرسول الله ﷺ في الهجرة، فخرج من الأرض بإذن الله تعالى لا بقهر قريش، واستبقيت قريش يُسْلم منها ومن أعقابها من أسلم، قال: ولو أخرجته قريش لعُذِّبوا، فذهب مجاهد رحمه الله إلى أن الضمير في ﴿يَلْبَثُونَ﴾ عامٌّ في جميعهم. وفي مصحف عبد الله بن مسعود: [وَإذاً لاَ يَلْبَثُوا] بحذف النون وإعمال ﴿إذاً﴾، وسائر القراء أَلْغَوْهَا وأثبتوا النون. وقرأ عطاءُ بن أبي رباح: [يُلَبَّثُونَ] بضم الياء وشد الباء وفتح اللام، وروي مثله عن يعقوب إلاَّ أنه كسر الباء. وقرأ عطاءٌ: «بَعْدَكَ إلاَّ قَلِيلاً»[1]، وقرأ الجمهور: [خَلْفَكَ]، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿خِلاَفَكَ﴾، والمعنى واحد، ومنه قول الشاعر:

عَقَبَ الـرَّذَاذ خِـلاَفَهَـا فَكَـأَنَّمَـا ... بَسَـطَ الشَّـواطِـبُ بَيْنَهُـنَّ حَصِيـرَا[2]

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾[3]، على بعض تأويلاته، أي: بعد خروج رسول الله ﷺ، وهذه اللفظة قد لزم فيها حذف المضاف؛ لأن التقدير في آيتنا: «خلاف خروجك»، وفي بيت الشاعر: «خلاف انبساط الشمس» أو نحوه.

قال أبو عليٍّ: أصابوا[4] هذه الظروف تضاف إلى الأسماء الأعيان التي ليست أحداثاً، فلم

---

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط: «الأحسن أن يُجعل تفسيراً لقوله تعالى: ﴿خِلافَكَ﴾ لا قراءة، لأنها تخالف سواد المصحف، فأراد أن يُبيِّن أن ﴿خِلافَكَ﴾ هنا ليست ظرف مكان، إنما تُجُوِّز فيها فاستعملت ظرف زمان بمعنى بَعْدَك».

(٢) سبق الاستشهاد بهذا البيت في المجلد الرابع ص ٣٧٥، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾، وهو في اللسان، وقد نسبه للحارث بن خالد المخزومي، والرواية في سورة التوبة: (عَقَبَ الرَّبيع خلافهم)، و(نَشَطَ الشَّوَاطِبُ). والرواية في القرطبي وفي البحر المحيط: (عفَت الديارُ خلافهم)، وفي اللسان (عقب): (عَقَبَ الرَّذاذُ خلافهم). وفي مجاز القرآن لأبي عبيدة (عفت الديار)، وعلى كلٍّ فهو شاهد على أن (خلافك) بمعنى (بَعْدَك). والشَّوَاطِبُ من النساء: اللاتي يشْقُقْنَ الخوصَ ويَقْشُرْنَ العُسَبَ لِيَتَّخِذْنَ منه الحُصُر، ثم يُلْقين ما شَقَقْنَ إلى المنقِّيات، والمنقِّية هي التي تأخذ كل شيءٍ على العسيب بِسِكيِّنها حتى تتركه رقيقاً صالحاً لعمل الحصر منه.

(٣) من الآية (٨١) من سورة (التوبة).

(٤) أي وَجَد العلماءُ هذه الظروف. . . الخ.

يَسْتَحِبُّوا إضافتها إلى غير ما جرى عليه كلامهم، كما أنها لما جرت منصوبة في كلامهم تركوها على حالها إذا وقعت في موقع النصب، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾(٢).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله.

وقوله تعالى: (سُنَّةَ) نصب على المصدر، وقال الفراءُ: نصبه على حذف الخافض؛ لأن المعنى: «كَسُنَّةِ»، فحذف الكاف ونصب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويلزمه على هذا ألا يقف على قوله: (قَلِيلاً).

ومعنى الآية الإخبارُ أنَّ سُنَّةَ الله تعالى في الأمم الخالية وعادَتَه أنها إذا أخرجت نَبِيَّها من بين أظهرها نالها العذاب، واستأصلها الهلاك، فلم تلبث بعده إلاَّ قليلاً.

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ الآية. هذه بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة.

فقال ابن عمر، وابن عباس، وأبو بُرْدة، والحسن، والجمهور: «دُلوك الشمس»: زوالها، والإشارة إلى الظهر والعصر، و«غَسَق الليل» أُشير به إلى المغرب والعشاء، و«قرآن الفجر» أريد به صلاة الصبح، فالآية ـ على هذا ـ تعُمُّ جميع الصلوات» وروى ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: (أتاني جبريلُ لدلوك الشمس حين زالت فصلَّى بي الظهر)(٣)، وروى جابر أن النبي ﷺ خرج من عنده وقد طعم وزالت الشمس، فقال: (اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس)(٤).

---

(١) من الآية (١١) من سورة (الجن).

(٢) من الآية (٣) من سورة (الممتحنة). يستشهد أبو علي الفارسي بهذه الآيات على ما يقوله في الظروف التي تضاف إلى الأعيان لا إلى الأحداث من الأسماء.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره، والذي في جميع الأصول هنا أن الراوي هو ابن مسعود رضي الله عنه، وأول ما يتبادر إلى الذهن أنه الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، المعروف، وفي الدر المنثور أيضاً ما يؤيد ذلك، فقد قال: «أخرجه ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه»، ولكن الثابت في ابن جرير الطبري أن الحديث عن أبي مسعود (عقبة بن عمرو)، والنَّص على أنه (عقبة بن عمرو) يقطع بأنه (أبو مسعود) وليس (ابن مسعود). ولهذا لزم التنويه.

(٤) رواه الطبري، عن جابر، من طريق ابن أبي لَيْلى، ورواه من طريق نُبَيْح العَنَزِيِّ، عن جابر أيضاً. قال=

وقال ابن مسعود، وابن عباس، وزيد بن أسلم: «دُلوك الشمس»: غروبها، والإشارة بذلك إلى المغرب. و«غَسَق الليل»: اجتماع ظُلْمته، فالإشارة إلى العتمة، و«قرآن الفجر»: صلاة الصبح، ولم تقع إشارة ـ على التأويل ـ إلى الظهر والعصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقول الأول أصوب لعمومه الصلوات، وهما من جهة اللغة حَسَنان، وذلك أن «الدُّلوك» هو المَيْل في اللغة، فأوّل الدُّلوك هو الزوال، وآخره هو المغرب، ومن وقت الزوال إلى الغروب يُسَمَّى دُلُوكاً، لأنها في حالة ميل، فذكر الله الصلوات التي تكون في حالة الدُّلوك وعنده، فيدخل في ذلك الظهر والعصر والمغرب، ويصح أن تكون المغرب داخلة في «غسق اللَّيل»، ومن الدُّلوك الذي هو المَيْل قول الأعرابي للحسن بن أبي الحسن: أَيُدَالِكُ الرجلُ امرأته؟ يريد: أيميل بها إلى المَطْل في دَيْنَها؟ فقال له الحسن: نعم إذا كان ملحفاً، أي: عديماً[1]، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ بِاللَّوَاتِي تَقُودُهَا ... نُجُومٌ وَلاَ بِالآفِلاَتِ الدَّوَالِكِ[2]

ومن ذلك قول الشاعر:

هَذَا مَكَانُ قَدَمَيْ رَبَاحِ ... غُدْوَةً حَتَّى دَلَكَتْ بَرَاحِ[3]

= العلماءُ: ونُبَيْح هذا مجهول، وقد جاء في تفسير الطبري هذا اللفظ: (يقول جابر: دعوتُ رسولَ الله ﷺ من شاءَ من أصحابه، فَطَعِموا عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج رسول الله ﷺ، وقال: . . . الحديث).

(١) وقع في هذا الخبر تحريف في بعض ألفاظه، وهو في تفسير الطبري، وفي اللسان (دَلَكَ)، فكلمة (دَيْنَهَا) ذُكرت في بعض النسخ (دِيَتِهَا) لأن اللسان ذكر تفسير أبي عبيدة للكلام وهو: «قوله: يُدَالِكُ، يعني المَطلَ بالمَهْر». واللفظة في الطبري: (بِحَقِّهَا). وكلمة (مُلْحِفاً) وردت في اللسان (مُلْفَجاً)، وذكرت في بعض الأصول (مليحاً). ومن معاني الإلحاف التي تلائم المعنى هنا أنه الإضرار لغيره، يقال: أَلْحَفَ به: أضرَّ، أمَّا أَلْفج فهي أكثر ملاءمة للمعنى، إذ من معانيها: أفْلَسَ وذهب ماله، فيكون المعنى المراد: أنه إذا أفلس وذهب ماله دَالَكَ امرأته، أي: ما طلها في حَقِّهَا، وهذا يناسب التفسير الذي في الخبر بعد ذلك وهو قوله: (أيْ: عديماً)، أمَّا (مليحاً) فلا نرى لها وجهاً هنا يلائم المعنى.

(٢) البيت في الديوان، وفي اللسان، والتاج، وفي تفسير القرطبي وتفسير البحر المحيط، وهو أيضاً في غريب القرآن، والبيت في وصف الإبل، يقول: إنها تصبح في مباركها، والآفلات: الغائبات، يقال: أفل النجم: غاب، والدَّوالك: التي غابت أو قاربت الغروب» قال في اللسان: إن هذا البيت يُقوِّي أن دُلُوك الشمس بمعنى الغروب؛ لأنه نفى عنها الأفول والدُّلُوك.

(٣) البيت في اللسان (دَلَكَ)، والرواية فيه: (هَذَا مَقَامُ) و(ذَبَّبَ بدلاً من (غُدْوَةً)، وهو أيضاً في (معاني=

ويروى (بِرَاح) بكسر الباء، قال أبو عبيدة، والأصمعي، وأبو عمر الشيباني: معناه: براحة الناظر يستكف بها أبداً لينظر كيف ميلها وما بقي لها، وهذا نحو قول العجاج:

والشَّمْسُ قَدْ كَادَتْ تكُونُ دَنَفَا ... أَدْفَعُهَا بِالرَّاحِ كَيْ تَزَحْلَفَا[(١)]

وذكر الطبري عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «دَلَكَتْ بِرَاح، يعني: بِرَاح مكاناً»، قال: فإن كان هذا من تفسير ابن مسعود فهو أعلم، وإن كان من كلام راوٍ فأهل الغريب أعلم بذلك[(٢)].

ويُرْوَى البيت الأول: (غُدوَةً حتَّى هَلَكَتْ بَرَاحِ) بفتح الباء، على وزن قَطَام وحَزَامِ، وهو اسم من أسماء الشمس.

و«غَسَقُ اللَّيْلِ»: اجتماعه وتكاثف ظلمته، قال الشاعر:

= القرآن) للفراء، والرواية فيه كرواية اللسان. وقد قال الفراءُ: «قال أبو زكريَّا: ورأيتُ العرب تذهب بالدلوك إلى غياب الشمس، أنشدني بعضهم: (هذا مقام... البيت)، وفي اللسان: «دلَكَتْ بَرَاحِ وبِرَاحِ»، أي: قد مالت للزوال حتَّى كاد الناظر يحتاج إذا تَبَصَّرَهَا أن يكسر الشُّعاع عن بصره براحته، وبَرَاحِ، مثل قَطَام: اسمٌ للشمس، وقال ابن الأعرابي: دَلَكَتْ بَرَاحِ: استُرِيحَ منها». أما قوله: (ذَبَّبَ) فمعناه كما قال الفراءُ: السَّاقي ذَبَّبَ: طرد الناسَ. وقال أبو عبيدة في (مجاز القرآن): «دُلُوك الشمس: من عند زوالها إلى أن تغيب»، وروى البيت ثم قال: «ألا ترى أنها تدفع بالراح، يضع كفَّه على حاجبيه من شعاعها لينظر ما بقي من غيابها». هذه هي التفسيرات التي قالها علماءُ اللغة في معنى الدلوك، وفي البيت. قد اختصرنا بعضها، وأغفلنا بعضاً آخر قد ذكره ابن عطية أو أشار إليه.

(١) هذان بيتان من مشطور الرجز، قالهما العَجاج بن رؤبة، وهما في الديوان، واللسان، ومجاز القرآن، وغريب القرآن، والطبري، والقرطبي، وفي الجمهرة وتهذيب الألفاظ، قال في اللسان: «ويقال للشمس إذا مالت للمغيب، إذا زالت عن كبد السماء نصف النهار: قد تَزَحْلَفَتْ، قال العجاج: والشمس.. الخ البيتين». أما قوله: (دَنَفَا) فمعناه أنها صارت صفراءَ كالمريض، يقال: دَنِفَت الشمس وأدنفَت إذا دَنَتْ للمغيب واصفرت.

(٢) من المفيد أن ننقل لك هنا نصَّ كلام الطبري الذي لخَّصه ابن عطية هنا، فإن كلام الطبري أوضح، قال: «وقد ذكرتُ في الخبر الذي رويتُ عن عبد الله بن مسعود أنه قال حين غربت الشمس: دَلَكَت بِرَاح، يعني: بِرَاح مكاناً، ولستُ أدري هذا التفسير، أعني قوله: «بَراح مكاناً» من كلام من هو مِمَّن في الإسناد؟ أو من كلام عبد الله؟ فإن يكن من كلام عبد الله، فلا شك أنه كان أعلم بذلك من أهل الغريب الذين ذكرتُ قولهم، وأن الصوابَ في ذلك قولُه دون قولهم. وإن لم يكن من كلام عبد الله، فإن أهل العربية كانوا أعلم بذلك منه».

آبَ هَـــذَا اللَّيْــــلُ إذْ غَسَقَــــا . . . .[(١)]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: غَسَقُ اللَّيْل: بدؤُه.

ونُصب قوله تعالى: ﴿قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ بفعل مضمر، تقديره: واقرأ قرآنَ، ويصحُّ أن يُنْصب عطفاً على [ٱلصَّلَاةَ]، أي: وأقِمْ قرآنَ الفجر، وعبَّر عن صلاة الصبح خاصةً بالقرآن لأن القرآن هو عُظْمُهَا[(٢)]؛ إذْ قراءتُهَا طويلة مجهودٌ بها، ويَصِح أن ينصب قولُه: [قُرْآنَ] على الإغراء. وقوله: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ معناه: يشهده حفظة النهار وحفظة اللَّيل من الملائكة حسبما ورد في الحديث المشهور من قوله عليه الصلاة والسلام: (يَتَعَاقَبُونَ فيكم ملائكة باللَّيل وملائكة بالنَّهار، ويجتمعون في الصبح وصلاة العصر) الحديث بطوله من رواية أبي هريرة وغيره[(٣)]. وعلى القول بذلك مضى الجمهور.

وذكر الطبريُّ حديثاً عن ابن عَسْكَر، من طريق أبي الدرداء في قوله تعالى: ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾، قال محمد بن سهل بن عسكر: (يشهده الله وملائكته)، وذكر في ذلك الحديث أن الله تبارك وتعالى ينزل في آخر الليل، ونحو هذا مما ليس بقوي[(٤)].

---

(١) هذا صدر بيت لعبيد الله بن قيس الرُّقَيَّات، والبيت بتمامه:

آبَ هَـــذَا اللَّيْــــلُ إذْ غَسَقَــــا ... واشْتَكَيْـــتُ الْهَـــمَّ والأرَقَــا

وهو في (مجاز القرآن)، واللسان (غَسَقَ)، والقرطبي، والبحر المحيط، والطبري، والرواية في اللسان ومجاز القرآن والقرطبي: (إنَّ هذا اللَّيْلَ قَدْ غَسَقَا)، وهو شاهد على أن (غَسَقَ) بمعنى: أظلم وتكاثفت ظلمته. قال في اللسان: «وغَسَق الليلُ يَغْسِق غَسْقاً وغَسَقاً وغَسَقَاناً: انْصَب وأظْلَم، ومنه قول ابن قيس الرَّقَيَّات: (إن هذا الليلَ... البيت).

(٢) عُظْمُ الشَّيْءُ: مُعْظَمُه. اللسان (عظم).

(٣) أخرجه البخاري في المواقيت والتوحيد، ومسلم في المساجد، والنسائي في الصلاة، والموطأ في السفر، وأحمد (٢ـ٢٥٧) ولفظه كما في البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار؛ ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون).

(٤) الحديث في تفسير الطبري، وهو حديث طويل، رواه محمد بن سهل بن عسكر، عن أبي الدرداء، من طريق الليث بن سعد، وكذلك رواه محمد بن سهل، عن آدم، عن الليث بن سعد، وفي هذا الحديث ما اشار إليه ابن عطية من أن الله تعالى يفتح الذكْرَ في ثلاث ساعات يبقين من الليل... الخ، (مما ليس بقوي).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾، [مِنْ] للتبعيض، والتقدير: ووقتاً من الليل، أي: وأَقِمْ وقْتاً من الليل، والضمير في [بِهِ] عائد على هذا المقدر[١]، ويحتمل أن يعود على القرآن وإن كان لم يجر له ذكرٌ مطلق، كما هو الضمير مطلق، لكن جرى مضافاً إلى الفجر. و«تَهَجَّدْ» معناه: اطرح الهجود عنك، والهجودُ: النومُ، يقال: هَجَدَ يَهْجُدُ ـ بضم الجيم ـ هُجُوداً إذا نامَ، ومنه قول الشاعر:

أَلاَ طَــرَقَتْنَــا والــرِّفَــاقُ هُجُــودُ فَبــاتَــتْ بِعَــلاَّتِ النَّــوَالِ تَجُــودُ[٢]

ومنه قول الحطيئة:

فَحَيَّــاكِ وُدٌّ مــا هَــدَاكِ لِفِتْيَــةٍ وَخُوصٍ بِأَعْلَى ذِي طوالَةَ هُجَّدِ[٣]

وهذا الفعل جار مجرى: تحرَّب وتحرَّج وتأثَّمَ وتحَنَّث، ومثله ﴿فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾[٤]، فمعناه: تَنَدَّمون، أي تطرحون الفاكهة عن أنفسكم[٥]، وهي انبساط النفس وسرورها، يقال: رجلٌ فَكِهٌ إذا كان كثير السرور والضحك، فالمعنى: وَوَقْتاً من اللَّيل اسْهَرْ به في صلاةٍ وقراءة، وقال الأسود، وعلقمة، وعبد الرحمن بن الأسود: التَّهَجُّد بعد نومة، وقال الحجاج بن عمرو: إنما التَّهَجُّد بعد رقدة، وقال الحسن: التَّهَجُّد ما كان بعد العشاء الآخرة.

---

(١) المقدر هو (وقت)؛ إذ التقدير عند ابن عطية: وأَقِمْ وَقْتاً من الليل.

(٢) البيت في تفسير الطبري، وتفسير القرطبي، وفي البحر المحيط. وفي اللسان (هَجَدَ) أنَّ (هَجَدَ وتَهَجَّدَ): نام وأنَّ (هَجَدَ وتَهَجَّدَ) أيضاً: سَهِرَ، وأنه من الأضداد، ولكن فيه أيضاً عن جمهرة كبيرة من اللغويِّين أنَّه يقال: هَجَدَ إذا نام بالليل، وهَجَّدَ إذا صلَّى بالليل، وعن الأزهري أن الهاجدَ هو النائم، وهَجَدَ هجوداً إذا نام، وأمَّا المتهجِّد فهو القائم إلى الصلاة من النوم، وكأنه قيل له مُتَهَجِّد لإلقائه الهجود وهو النوم عن نفسه، وهذا هو معنى قول ابن عطية: جار مجرى تحرَّج وتأثَّم.. الخ، بمعنى: ألقى الحرج والإثم عن نفسه. فمعنى (هُجُود) في البيت: نائمونَ. والعَلاَّت هنا كالتَّعلَّة، وهي ما يُتَعَلَّلُ به، يقول: إنه تجود علينا بالأماني، وتعطينا من الأمل ما نَتَعَلَّلُ به ونَتَلَهَّى ولا تزورنا زيارة حقيقية بدلاً من هذه الأماني والتَّعلات.

(٣) البيت في اللسان (هَجَدَ)، قال: «والهاجدُ: النائم، والهاجدُ والهَجُودُ: المصلِّي بالليل، والجمع هُجودٌ وهُجَّدٌ، قال الحطيئة فحيَّاكِ... البيت»، وذكر أيضاً شاهداً آخر على هُجُود.

(٤) من الآية (٦٥) من سورة (الواقعة).

(٥) هكذا في كل الأصول، وفي العبارة قلق، والتَّنَدُّمُ في اللغة هو أن يَتَّبع الإنسان أمراً نَدَماً، وفي المثل «التَّقدم قبل التَّندم»، والندامى يطرحون الفاكهة بينهم لا عن أنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾، قال ابن عباس وغيره: معناه: زيادةً لك في الفرض، قالوا: وكان قيام الليل فرضاً على النبي ﷺ[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتحتمل الآية أن يكون هذا على جهة الندب في التّنفل، ويكون الخطاب للنبي ﷺ والمرادُ هو وأمته، كخطابه في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾. وقال مجاهد: إنما هي نافلة للنبي ﷺ؛ لأنه مغفور له، والناس يحطون بمثل هذا خطاياهم، وبيَّن أن النبي ﷺ منذ غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر عام الحديبية، فإنما كانت نوافله واستغفاره فضائل من العمل، وقُرْباً أشرف من نوافل أُمّته؛ لأن هذه إما أن تجيء بها فرائضهم، وإمَّا أن تحط بها خطيئاتهم، وقد يتصور من لا ذنب له يتنفَّل، فيكون تنفُّله فضلاً، كنصراني يسلم وصبي يحتلم، وضعَّفَ الطبري قول مجاهد[٢].

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ عِدَةٌ من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ، وهو أمر الشفاعة الذي يتدافعه الأنبياءُ حتى ينتهي إليه عليه الصلاة والسلام، والحديث بطوله في البخاري ومسلم فلذلك اختصرناه[٣]، ولأجل ذلك الاحتمال الذي له في مرضات جميع العالم مؤمنهم وكافرهم قال: (أنا سيِّد ولد آدم ولا فخر)[٤]. و﴿عَسَى﴾ من الله واجبة، و﴿مَقَاماً﴾ نصب على الظرف.

---

(١) قال العلماء: في هذا التأويل بعدٌ لوجهين: أحدهما تسمية الفرض بالنفل، وذلك مجازٌ لا حقيقة، والثاني قوله ﷺ: (خمس صلوات فرضهن الله على العباد)، وفي الخبر أن الله تعالى قال: (هُنَّ خمس وهُنَّ خمسون، لا يُبَدَّل القولُ لدي)، وهذا نصٌّ. فكيف يقال إن الله افترض عليه صلاة زائدة على الخمس).

(٢) قال الطبري: أما ما ذُكر عن مجاهد في ذلك فقولٌ لا معنى له؛ لأن رسول الله ﷺ فيما ذُكر عنه أكثر ما كان استغفاراً لذنوبه بعد نزول قول الله عزَّ وجل عليه: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، وذلك أن هذه السورة أنزلت عليه بعد منصرفه من الحديبية، وأنزل عليه ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ عام قُبض، وقيل له: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، فكان يُعَدُّ له ﷺ في المجلس الواحد استغفار مائة مرة، ومعلوم أن الله لم يأمره أن يستغفر إلا لما يغفر له باستغفاره ذلك، فبَيِّنٌ إذاً وجه فساد ما قاله مجاهد».

(٣) الحديث أخرجه البخاري في التوحيد والرقاق والأنبياء وتفسير سورة آل عمران، وأخرجه مسلم في الإيمان، والترمذي في تفسير سورة الإسراء، والقيامة، وابن ماجه في الزهد، والدارمي في المقدمة، والإمام أحمد في أماكن كثيرة من مسنده.

(٤) أخرجه أبو داود في السُّنَّة، وابن ماجه في الزهد، وأحمد في المسند (١/ ٥، ٣ـ٢)، ولفظه كما في=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن غريب حديث الشفاعة اقتضابه المعنى، وذلك أن صدر الحديث يقتضي أن النبي ﷺ يُستنهض للشفاعة أن يُحَاسَب الناس، وينطلقون من الموقف، فيذهب لذلك، وينص بأثر ذلك على أنه شفع في إخراج المذنبين من النار، فمعناه الاقتضاب والاختصار؛ لأن الشفاعة في المذنبين لم تكن إلا بعد الحساب والزوال من الموقف ودخول قوم الجنة ودخول قوم النار، وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياءُ، بل يشفعون ويشفع العلماءُ، وذكر الطبري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (المقام المحمود هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي)[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وينبغي أن يُتأوَّل هذا على ما قلناه: لأمته وغيرها، أو يُقال: كل منهما مقامٌ محمود. وقال النقاش: لرسول الله ﷺ ثلاث شفاعات: العامة، وشفاعة في السبق إلى الجنة، وشفاعة في أهل الكبائر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمشهور أنهما شفاعتان فقط. حكى الطبري عن فرقة منها مجاهد أنها قالت: المقام المحمود هو أن الله عزَّ وجلَّ يُجْلِس محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ معه على عرشه، وروت في ذلك حديثاً، وعضَّد الطبري جواز ذلك بِشَطَطٍ من القول، وهو لا يخرج إلاَّ على تَلَطُّف في المعنى، وفيه بُعْدٌ، ولا يُنْكر مع ذلك أن يُرْوى، والعلم يتأوله. وقد ذكر النقاش عن أبي داود السجستاني أنه قال: من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متهم، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

من أنكر جوازه على تأويله.

= المسند، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا سيِّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع يوم القيامة ولا فخر).

(١) أخرجه أحمد، والترمذي وحسَّنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، ولفظه كما في الدر المنثور: في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾، وسئل عنه قال: (هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾.

ظاهر هذه الآية والأحسن فيها أن تكون دعاءً في أن يُحَسِّن الله حالته في كل ما يتناول من الأُمور، ويحاول من الأسفار والأعمال، وينتصر من تصرف المقادير في الموت والحياة، فهي على أتمِّ عموم، ومعناها: ربِّ أصلح لي وِرْدي في كل الأمور وصَدري[1]، وذهب المفسرون إلى أنها في غرض مخصوص، ثم اختلفوا في تعيينه ـ فقال ابن عباس، والحسن، وقتادة: أراد: أدخلني المدينة وأخرجني من مكة، وتقدم في هذا التأويل المتأخِّرُ في الموضوع، فإنه متقدم في القول لأن الإخراج من مكة هو المتقدم، اللهم إنَّ مكان الدخول والفرار هو الأهم. وقال أبو صالح، ومجاهد: أدخلني في أمر تبليغ الشرع، وأخرجني منه بالإعداد التام، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الإدخال بالموت في القبر، والإخراج البعث. وما قدمت من العموم التام الذي يتناول هذا كله أصوب.

وقرأ الجمهور: (مُدْخَلَ) و(مُخْرَجَ) بضم الميم، فهو جرى على: أدخلني وأخرجني. وقرأ أبو حيوة، وقتادة، وحميد: [مَدْخَلَ] و[مَخْرَجَ] بفتح الميم، فهو غير جار على: أدخلني، ولكن التقدير: «أَدْخلني فأَدْخُل مَدْخَلَ» لأنه إنما يجري على دخلَ، و«الصدق» هنا صفة تقتضي رفع المذام واستيعاب المدح، كما تقول: «رجل صدق» أي: جامع للمحاسن.

وقوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾، قال مجاهد وغيره: حُجَّةً، يريد: تنصرني ببيانها على الكفار، وقال الحسن وقتادة: يريد: مَنَعَةً ورياسةً وسيفاً ينصر دين الله تعالى، فطلب رسول الله ﷺ ذلك بأمر الله إياه رغبةً في نصر الدين، فرُوي أن الله تعالى وعده بذلك، ثم أنجز له في حياته وتَمَّمه بعد وفاته.

---

(١) أي: في بداية الأمور ونهايتها، أو في إقبالي عليها وانصرافي عنها، والمراد: في جميع الأمور من أولها إلى آخرها.

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ الآية. قال قتادة: ﴿ٱلْحَقُّ﴾: القرآن، و﴿ٱلْبَاطِلُ﴾: الشيطان، وقالت فرقة: الحقُّ: الإيمان، والباطلُ: الكفر، وقال ابن جريج: الحق: الجهاد، والباطلُ: الشِّرْك، وقيل غير ذلك، والصواب تعميم اللَّفظ بالغاية الممكنة، فيكون التعبير: جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه، وزهق الكفر بجميع ما انطوى فيه، و«الباطلُ»: كلُّ ما لا ينال به غاية نافعة. وقوله سبحانه: ﴿ كَانَ زَهُوقًا ﴾، ليست ﴿كَانَ﴾ إشارة إلى زمن مضى، بل المعنى: كان وهو يكون، وهذا كقولك: كان الله عالماً قادراً، ونحو هذه.

وهذه الآية نزلت بمكة، ثم إن رسول الله ﷺ كان يستشهد بها يوم فتح مكة، وقت طعنه الأصنام، وسقوطها لطعنه إياها بمخصرة[1] حسبما في السيرة لابن هشام وغيرها. وقرأ الجمهور: ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ بالنون، وقرأ مجاهد: [وَيُنْزِلُ] بالياء خفيفة، ورواها المروزي عن حفصٍ. وقوله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾، يصحُّ أن تكون ﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، ويصحُّ أن تكون لبيان الجنس[2]، كأنه قال ونُنَزِّل ما فيه شفاءٌ من القرآن، وأنكر بعض المتأولين أن تكون ﴿مِنْ﴾ للتَّبْعيض، لأنه تحفَّظ من أن يلزمه أن بعضه لا شفاءَ فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس يلزمه هذا، بل يصح أن تكون ﴿مِنْ﴾ للتَّبعيض بحسب أن إنزاله إنما هو مُبَعَّض، فكأنه قال: ونُنَزِّل من القرآن شيئاً شيئاً ما فيه كله شفاءٌ. واستعارته الشفاء للقرآن هو بحسب إزالته الريب، وكشفه غطاء القلب لفهم المعجزات والأمور الدَّالَّة على الله تعالى، المقرِّرة لشرعه. ويحتمل أن يراد بالشفاء نفعه من الأمراض والرُّقي

---

(١) المِخْصَرة: ما يُتَوَكَّأُ عليها كالعصا ونحوه، وقضيب يشار به في أثناء الخطابة، وكان يتخذه الملوك والخطباءُ. وقد روى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ دخل مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً)، أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، من طُرقٍ، عن سفيان بن عُيَيْنَة، عن بن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أبي معمر، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) قال ذلك الأخفش وأبو البقاء أيضاً، وقال أبو حيان: «إنَّ [مِنْ] التي لبيان الجنس لا تتقدم على المبهم الذي تُبيِّنه، وإنما تكون متأخرة عنه».

والتعويذ ونحوه(١) وكونه رحمة ظاهرة. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ بمعنى أنه عليهم عمًى؛ إذ هم معرضون بحالة من لا يفهم ولا يلقن.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ الآية. «الإنسانُ» في هذه الآية لا يُرَادُ به العموم، وإنما يراد به بعضه وهم الكفرة، وهذا كما تقول عند غضب: «لا خير في الأصدقاء ولا أمانة في الناس»، فأنت تعمم مبالغة، ومرادك البعض، وهذا بحسب ذكر الظالمين والخسارة في الآية، قيل: فاتَّصل ذكر الكفرة، ويحتمل أن يكون «الإنسان» في هذه الآية عامًّا للجنس، على معنى: إن هذا الخُلُق الذميم في سجيته، فالكافر يبالغ في الإعراض، والعاصي يأخذ بحظه منه. وقد قال رسول الله ﷺ في مؤمن: (فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ الله عنه)(٢). ومعنى ﴿أَعْرَضَ﴾ وَلَّانَا عُرْضَه(٣)، ﴿وَنَـَٔا﴾ أي: بَعُدَ وهذه، وهذا استعارة، وذلك أنه يفعل أفعال المُعْرِض النائي في تركه الإيمان بالله وشكر نعمه عليه. وقرأ ابن عامر وحده: [وَنَاءَ]، ومعناه: نهض متباعداً، هذا قول طائفة، وقال أخرى: هو قلب الهمزة بعد الألف في (نَأَى) بعينه، وهي لغةٌ كَرَأَى ورَاءَ، ونحو هذه اللفظة قول الشاعر في وصف رامٍ:

حَطاً إذَا مـا الْتَـأَمَـتْ مَفَـاصِلُـهُ ... وَنَـاءَ فـي شِـقِّ الشِّمَـالِ كَـاهِلُـهُ(٤)

---

(١) الرُّقَى: جمع رُقْيَة، وهي العُوذَةُ التي يُرقَى بها المريض، والتَّعْوِيذ: الاعتصام بالرُّقْية من الشيطان، والمؤمن لا يَتَعَوَّذ إلا بالله تعالى.

(٢) أخرجه مسلم في السلام، وأحمد في المسند (٥ـ٢١٩)، ولفظه كما في صحيح مسلم، عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ، بينما هو جالسٌ في المسجد والناس معه إذ أقبل نفرٌ ثلاثة، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ، وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأمَّا أحدهما فرأى فُرْجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: (ألا أُخبركم عن النفر الثلاثة، أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعْرض الله عنه).

(٣) عُرْضُ الشيء: جانبه وناحيته، وعُرْضُ العُنُق والوجه: جانبه.

(٤) هذا البيت شاهد على أن (ناء) بمعنى: نَهَضَ مُتَوَكِّئاً على شِمَاله، فهو من النَّوْء، وهو النهوض والقيام. واللغويون يرون أن (نَاءَ) تأتي على القلب من (نأى) في اللفظ ولكن المعنى واحد وهو البعد، ويرى بعضهم أن (نَأَى) بمعنى: بَعُدَ، و(نَاءَ) بمعنى: أعرض وتكبر مستغنياً ومعنى «الْتَأَمَتْ مفاصله»: اجتمعت وتوافقت على وضع معين، وشِقُّ الشِّمَال: جانبه. والكاهِلُ: مُقَدَّم أعلى الظَّهر مما يلي العنق، وهو الثلث الأعلى من الظهر، وفيه سِتُّ فِقَر، وفي اللسان أن الكاهل هو الحارك، وهو فروع الكتفين. هذا وقد أنشد المبرد:

=

أي: نهض مُتَوَرِّكاً على شماله.

والذي عندي أن نَاءَ ونَأَى فعلان متباينان[(١)]. ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ عبارة عن التَّحير[(٢)] والاستبداد، و(نَاءَ) عبارة عن البُعْد والفراق.

ثم وصف الله تعالى الكفرة بأنهم إذا مَسَّهم شرٌّ من مرض أو مصيبة في مال أو غير ذلك يَئِسُوا من حيث لا يؤمنون بالله، ولا يرجون تصرُّف أقداره.

ثم قال عزَّ وجلَّ: قُلْ يا محمد: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، أي: طريقته وبحسب نِيَّتِهِ ومذهبه الذي يشبهه. وهو شكل له، وهذه تدل دلالة على أن «الإنْسَان» أولاً لم يُرَدْ به العموم، أي أن الكفار بهذه الصفات، والمؤمنون بخلافها، وكلٌّ منهم يعمل على ما يليق به، والرَّبُّ تعالى أعلم بالمهتدي. وقال مجاهد: ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ معناه: على طبيعته، وقال أيضاً: معناه: على حِدَته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: على ناحيته، وقال قتادة: معناه: على حدته وعلى ما ينوي، وقال ابن زيد: معناه: على دينه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأرجح هذه العبارات قول ابن عباس وقتادة. وقوله تعالى: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ توعُّدٌ بيِّنٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ

= أعَـاذِلُ إنْ يُصْبِـح صَـدَايَ بِقَفْـرَةٍ ... بَعِيـداً نَـآنِـي زائـري وقَـرِيبِـي

وقال: (نآني) هنا فيه وجهان: أحدهما أنه بمعنى أبْعَدَني، والثاني أنه بمعنى نأى عني، قال أبو منصور، وهذا هو المعروف، تقول: نأيْتُ الدمع عن خدي بإصبعي ومنه:

إذا مـا التَقَيْنَـا سـالَ مِـنْ عَبَـرَاتِنَـا ... شَـآبِيبُ يُنْـأى سَيْلُهَـا بـالأصَـابِـعِ

(١) معنى هذا أن ابن عطية يرى أن (نَأى) بمعنى: بَعُد، وأنَّ (نَاءَ) بمعنى: نَهَضَ، وكأنه يستشهد بالبيت الذي أنشده على ذلك.

(٢) هكذا في الأصول، ولعل الصواب: (التَّجَبُّر).

عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾.

الضمير في [يَسْأَلُونَكَ] قيل: هو لليهود وأن الآية مدنية، ورُوي عن عبد الله بن مسعود أنه كان مع رسول الله ﷺ، فَمَرَّ على حرث بالمدينة ـ ويروى على خرب ـ وإذا فيه جماعة من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الرُّوح فإن أجاب فيه عرفتم أنه ليس بنبي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذلك أنه كان عندهم في التوارة أن الرُّوح مما انفرد الله بعلمه، ولا يُطْلع عليه أحداً من عباده. قال ابن مسعود: وقال بعضهم: لا تسألوه لئَلاَّ يأتي فيه بشيءٍ تكرهونه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يعني ـ والله أعلم ـ من أنه لا يفسره فتقوى الحجة عليهم في نبوته، قال: فسألوه، فوقف رسول الله ﷺ مُتَوَكِّئاً على عسيب، فظننت أنه يوحى إليه، ثم تلا عليهم الآية[(١)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقيل: الآية مكيَّة، والضمير لقريش، وذلك أنهم قالوا: نسأل عن محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أهل الكتاب من اليهود، فأرسلوا إليهم إلى المدينة النَّضْر بن الحارث وعُقبة بن أبي مُعَيط، فقال اليهود: جربوا بثلاث مسائل، سلوه عن أهل الكهف وعن ذي القرنين وعن الرُّوح، فإن فسَّر الثلاثة فهو كذاب، وإن سكت عن الرُّوح فهو نبيٌّ، فسألته قريش عن الرُّوح، فيروى أن النبي ﷺ قال لهم: «غداً أخبركم به»، ولم يقل: «إن شاءَ الله»، فاستمسك الوحي عنه خمسة عشر يوماً معاتبةً على وعده لهم دون استثناء، ثم نزلت هذه الآية[(٢)].

---

(١) أخرج هذا الحديث أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن حبان، وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل، عن ابن مسعود رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٢) أخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن المنذر، وابن حبان، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي، كلاهما في الدلائل، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه=

واختلف الناس في الرُّوح المسؤول عنه، أي روح هو؟ فقالت فرقة هي الجمهور: وقع السؤال عن الأرواح التي في الأشخاص الحيوانية، ما هي؟ فالروح اسمُ جنس على هذا، وهذا هو الصواب، وهو المشكل الذي لا تفسير له. وقال قتادة: الرُّوح المسؤول عنه جبريل عليه السلام، قال: وكان ابن عباسٍ يكتمه. وقالت فرقة: هو عيسى بن مريم عليهما السلام، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: مَلَك له سبعون ألف وجه، في كل وجه سبعون ألف لسان، لكل لسان سبعون ألف لغة، يسبح الله لسانُه بكل تلك اللُّغات، فيُخلق من كل تسبيحة مَلَك يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة، ذكره الطبري. وما أظن القول يصحُّ عن علي رضي الله عنه. وقالت فرقة: الرُّوح القرآن، وهذه كلها أقوال مفسِّرة، والأول أظهرها وأصوبها.

وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ يحتمل تأويلين: أحدهما أن يكون «الأَمْرُ» اسم جنس للأُمُور، أي: الرُّوح من جملة أُمور الله التي استأثر بعلمها، فهي إضافة خلْق إلى خالق، والثاني أن يكون مصدراً، من أمر يأمُرُ، أي: الرُّوح مِمَّا أَمَرَ الله تعالى أَمْراً بالكَوْن فكان. وقرأ ابن مسعود، والأعمش: [وما أوتوا]، ورواها ابن مسعود عن النبي ﷺ، وقرأ الجمهور: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾.

واختلف فيمن خوطب بذلك ـ فقالت فرقة: السائلون فقط، ترجم الطبري بذلك، ثم أدخل تحت الترجمة عن قتادة أنهم اليهود. وقالت فرقة: المراد اليهود بجملتهم، وعلى هذا هي قراءة ابن مسعود. وقالت فرقة: العالم كله، وهذا هو الصحيح؛ لأن قول الله تعالى له: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ إنما هو أمر بالقول لجميع العالم؛ إذ كذلك هي أقواله كلها، وعلى ذلك تمَّت الآية من مخاطبة الكل. ويحتمل أيضاً أن تكون مخاطبة من الله تعالى للنبي ﷺ ولجميع الناس. ويتَّصف ما عند جميع الناس من العلم بالقِلَّة بإضافته إلى علم الله عزَّ وجلَّ الذي هو بهذه الأمور التي عندنا من عِلْمها طرف يسير جدّاً، كما قال الخَضْر عليه السلام لموسى عليه السلام: «ما نقص علمي وعلمك وعلم الخلائق من علم الله إلاَّ كما نقص هذا العصفور من البحر»، وأراد الخَضْر علم الله بهذه

= فنزلت ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرا كثيراً، فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾.

الموجودات التي عند البشر من علمها طرف يسير جداً نِسْبَةً إلى ما يخفى عنهم، نِسْبة النقطة إلى البحر، وأمَّا عِلْم الله تبارك وتعالى على الإطلاق فغير مُتَنَاهٍ، ويحتمل أن يكون التجوز في قول الخَضْر عليه السلام: «كما نقص هذا العصفور»، أي: إنَّا لا ينقص عِلْمنا شيئاً من علم الله تعالى على الإطلاق، ثم مثَّل بنقرة العصفور في عدم النقص؛ إذ نقصه غير محسوس فكأنه معدوم، فهذا احتمال، ولكن فيه نظر، وقد قالت اليهود لرسول الله ﷺ: كيف لم نُؤْت من العلم إلاَّ قليلاً وقد أُوتينا التوراة وهي الحكمة، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً؟ فعارضهم رسول الله ﷺ بعلم الله فَغُلِبوا، وقد نصَّ رسول الله ﷺ في بعض الأحاديث بقوله: (كُلاًّ). يعني أنَّ المراد بـ[أُوتِيتُمْ] جميع العالم، وذلك أن يهود قالت له: أَنَحْنُ عنيت أم قومك؟ فقال: (كُلاًّ)[1]، وفي هذا المعنى نزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾[2]، حكى ذلك الطبري رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الآية، آيةٌ فيها شدَّة على النبي ﷺ، وهي عتابٌ على قوله: (غداً أُعْلِمُكُمْ)، فأُمر أن يقول: ﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، فَيُذْعِن بالتسليم لله في أنه يُعْلِمُ بما شاء، ويُمْسك عن عباده ما شاء، ثم قيل له: وَما أُوتيتم يا محمد وجميع الخلائق من العلم إلاَّ قليلاً، فالله تعالى يُعْلِمُ من عِلْمِهِ بما شاءَ، ويَدَعُ ما شاءَ، ولئن شاءَ لذهب بالوحي الذي آتاك، ثم لا ناصر لك منه، فليس بعظيم ألاَّ تجيءَ بتفسير في الرُّوح الذي أردتَ تفسيره للناس ووعدتهم بذلك. وروى ابن مسعود أنه ستخرج ريح حمراءُ مِن قِبَلِ الشَّام فتزيل القرآن من المصاحف ومن الصدور، وتذهب به، ثم يتلو هذه الآية[3].

---

(١) حكى الطبري عن عطاء بن يسار، قال: نزلت بمكة ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فلما هاجر رسول الله ﷺ أتاه أحبارُ يهود، فقالوا: يا محمد، ألم يبلغنا أنَّكَ تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أَفَعَنَيْتَنَا أم قومك؟ قال: كُلاًّ قد عَنَيتُ، قالوا: فإنَّكَ تتلو أنَّا أُوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيءٍ، فقال رسول الله ﷺ: هي في علم الله قليل، وقد آتاكم ما إن عملتم به انتفعتم، فأنزل الله: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ . . . إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

(٢) من الآية (٢٧) من سورة (لقمان).

(٣) أخرج هذا الخبر عن ابن مسعود عددٌ كبير من الرواة، وقد اختلفت الألفاظ باختلافهم، فقد أخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي، وابن مردويه في شعب الإيمان، عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: إنَّ هذا=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أراد ابن مسعود بتلاوة الآية أن يُبْدي أن الأمر جائز الوقوع ليظهر مصداق خبره من كتاب الله عزَّ وجلَّ. و«الوكيل»: القائم بالأمر في الانتصار أو المخاصمة ونحو ذلك من وجوه النفع.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ استثناءٌ منقطع، أي: لكن رحمةً من ربك يمسك ذلك عليك، وهذا الاستثناءُ المَنقطع يُخَصِّص تخصيصاً مَّا، وليس كالمتصل؛ لأن المتصل يُخَصِّص من الجنس أو الجملة، والمنقطع يُخَصص أجنبياً من ذلك، ولا ينكر وقوع المنقطع في القرآن إلاَّ أعجمي، وقد حُكي ذلك عن ابن خويز مقداد. ثم عدَّد عليه عزَّ وجلَّ كِبَرَ فضله في اختصاصه بالنبوَّة، وحمايته من المشركين، إلى غير ذلك مما لا يُحصى.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ﴾ الآية.

سبب هذه الآية أن جماعةً من قريش قالت لرسول الله ﷺ: يا محمد، جئنا بآية

= القرآن سيرفع، قيل: كيف يرفع وقد أثبته الله في قلوبنا، وأثبتناه في المصاحف؟، قال: يُسْرَى عليه في ليلة واحدة فلا يترك منه آية في قلب ولا مصحف إلا رفعت، فتصبحون وليس فيكم منه شيءٌ، ثم قرأ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾. وأخرج ابن أبي داود، عن ابن مسعود رضي الله عنه نحوه، وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود رضي الله عنه نحوه. وقد ذكر الإمام السيوطي كل هذه الروايات في (الدُّرِّ المنثور). وقد ردَّ أبو سليمان الدمشقي صحة هذا الحديث بقوله عليه الصلاة والسلام: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً)، وهو حديث أخرجه البخاري ومسلم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال بعض العلماء: وحديث ابن مسعود مروي من طرق حسان، فيحتمل أن يكون النبي ﷺ قد أراد بالعلم في حديث عبد الله بن عمرو ما سِوَى القرآن، أي: ينقرض العلم حتى يرفع القرآن في آخر الأمر، ويؤيدون ذلك بحديث رواه ابن ماجه عن حذيفة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتَّى لا يُدْرَى ما صيامٌ ولا صلاة ولا نُسُك ولا صدقة، فيُسْرى على كتاب الله تعالى في ليلة فلا يبقى منه في الأرض آية، وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة «لا إله إلا الله»، وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيامٌ ولا نُسُك ولا صدقة. قال له صِلَة (أحد رجال سند الحديث). ما تُغني عنهم «لا إله إلا الله» وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة، ثم ردَّدَها ثلاثاً، كل ذلك يُعْرَض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه حذيفة فقال: يا صلة، تُنَجِّيهم من النار ثلاثاً. ومثل هذا أيضاً ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما: لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دويٌّ كدوي النحل، فيقول الله: ما بالك، فيقول: يا رب منك خرجت وإليك أعود، أُتلى فلا يُعمل بي، أُتلى ولا يُعْمل بي. وأخرج مثله محمد بن نصر في كتاب الصلاة عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

غريبة غير هذا القرآن فإنَّا نقْدِر نحن على المجيء بمثل هذا، فنزلت هذه الآية المصرِّحة بالتعجيز، المُعْلِمة بأن جميع الخلائق إنساً وجِنّاً لو اجتمعوا على ذلك لم يقدروا عليه.

والعجز عن معارضة القرآن إنما وقع في النظم والرصف لمعانيه، وعلَّة ذلك الإحاطة التي لا يتَّصف بها إلاَّ الله تعالى، والبَشَر مقصِّر ضرورة بالجهل والنسيان والغفلة وأنواع النقص، فإن نظم كلمة خفي عنه ـ لِلْعِلَل التي ذكرنا ـ أليق الكلام بها في المعنى، وقد ذكرتُ هذه المسألة في صدر هذا الديوان.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ في موضع رفع، و[لاَ] مُلْتقيةٌ قَسَماً، واللام في قوله تعالى: [لَئِنْ] مؤذنة غير لازمة، قد تحذف أحياناً، وقد تجيءُ هذه اللام مؤكدة فقط ويجيءُ الفعل المنفي مجزوماً، وهذا اعتمادٌ على الشرط، ومنه قول الأعشى:

لَئِـنْ مُنِيـتَ بِنَـا عَـنْ غِـبِّ مَعْـرَكَـةٍ ... لاَ تُلْفِنَـا عـنْ دِمـاءِ الْقَـوْم نَنْتَفِـلُ[1]

و«الظَّهِيرُ»: المُعِينُ، ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾[2] الآية.

---

(١) هذا البيت من قصيدة الأعشى المشهورة التي قالها ليزيد بن مسهر أبي ثابت الشيباني، والتي يقول في مطلعها:

وَدِّعْ هُـرَيْـرَةَ إنَّ الـرَّكْـبَ مُـرْتَحِـلُ ... وَهَـلْ تُطِيـقُ وَدَاعـاً أيُّهَـا الـرَّجُـلُ؟

والتي يخاطبه فيها قائلا في معنى هذا البيت: إنَّنا لا نَمل القتال ولا نركن إلى الراحة، ولو كان من قدرك أن تُبْتَلَى بنا في أعقاب معركة طاحنة خضناها فلن تجد منَّا وهناً ولا ضعفاً، بل وجدت فينا قوة على القتال وصبراً وجلداً. ومُنيت: أُصبتَ أو رُميتَ، وغِبّ: بَعْد أو عَقِب، نَنْتَفِلُ: نتبرأُ، يقال: انْتَفَل من القوم بمعنى: ابتعد عن نصرتهم ومعونتهم.

والبيت شاهد عند النحويِّين على أنه يجوز في الشِّعر ـ بِقِلةٍ ـ أن يكون الجواب للشرط إذا اجتمع مع القَسَم وتأخر عنه، فإن لام (لَئِن) هنا موطئة للقسم، وقول الشاعر: (لا تُلْفِنَا) هو جواب للشرط لا للقسم، بدليل الجزم، ولو كان جواباً للقسم لما جاء مجزوماً، وقد قال بعض النحويين: إن اللام في (لَئِن) زائدة، وابن عطية من هذا الرأي، وعليه أيضاً ابن هشام في المغني، قال: وهذا كقول الآخر:

لَئِـنْ كَـانَـتِ الـدُّنْيـا عَلَـيَّ كَمَـا أَرَى ... تَبَـارِيـحَ مِـنْ لَيْلَـى فَلَلْمَـوْتُ أَرْوَحُ

فإن الشرط قد أُجيب بجملة مقرونة بالفاء، ولو كانت اللام موطئةً للقسم لم يُجب إلا القسم. والخلاف طويل، ولكلٍّ حجته، فليرجع إلى الموضوع في كتب النحو وشاهده، كالخزانة، والمغني، والأشموني وشروحه.

(٢) من الآية (٤) من سورة (التحريم).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفَهِمت العربُ بخلوص فَهْمها في مَيْز الكلام ودُرْبتها به مالا نفهمه نحن ولا كل من خالطته حضارة، ففهموا العجز عنه ضرورةً ومُشاهدةً، وعَلِمَه الناسُ بعدهم استدلالاً ونظراً، ولكلٍّ حصل علمٌ قطعي لكن ليس في مرتبة واحدة، وهذا كما علمت الصحابةُ شَرْعَ النبي عليه الصلاة والسلام وأعمالَه مشاهدةً عِلْمَ ضرورة، وعلمنا نحنُ المتواتِرَ من ذلك بنقل التَّواتر، فحصل للجميع القَطْعُ، لكن في مرتبتين، وفَهِم إعجازَ القرآن أربابُ الفصاحة الذين لهم غرائب في مَيْز الكلام. ألا ترى إلى فَهْم الفرزدق شعْرَ جرير في شعر ذل الرُّمَّة في قوله:

يَعُـدُّ النَّـاسِبُـون إلـى تَمِيـمٍ . . . .[1]

الأبيات كلها. وألا ترى قصة جرير في توارده مع الفرزدق في قول الفرزدق:

عَـلاَمَ تَلَفَّتِيـنَ. . . . .

(١) تروي كُتُب الأدب أن جرير بن عطية الشاعر المشهور مَرَّ ذات يوم على ذي الرُّمة، فقال له: يا غيلان، أنشدني ما قُلْتَ في المَرَئِيِّ (وهو شاعرٌ عرف بهذا الاسم)، فأنشده:

نَبَـتْ عَيْنَـاكَ عَـنْ طَلَـلٍ بِحُـزْوَى ... عَفَتْـهُ الـرِّيـحُ وامْتُنِـحَ الْقِطَـارَا

ومنها:

إذَا الْمَـرَئِـيُّ شَـبَّ لَـهُ بَنَـاتٌ ... عَقَـدْنَ بِـرَأسِـهِ إبَّـةً وَعَـارَا

فقال جرير: ألا أُعينُكَ؟ قالَ: بَلَى، بأبي وأُمِّي، فقال جرير:

يَعُـدُّ النـاسبـونَ إلـى تَمِيـمٍ ... بُيُـوتَ المَجْـدِ أَرْبَعَـةً كِبَـارَا
يَعُـدونَ الـرِّبَـابَ وآلَ سَعْـدٍ ... وعَمْـراً ثُـمَّ حَنْظَلَـةَ ٱلْخِيَـارَا
ويَهْلِـكُ وَسْطَهَـا الْمَـرَئِـيُّ لَغْـواً ... كَمَـا ٱلْغَيْـتَ فـي الـدِّيَـةِ ٱلْحُـوَارَا

قالوا: فَمَرَّ ذو الرُّمة بعد ذلك بالفرزدق، فقال له: أنشدني ما قلت في المَرَئِيِّ، فأنشده القصيدة، فلما انتهى إلى هذه الأبيات، قال الفرزدق: حَسٌّ، أعِدْ عَلَيَّ! فأعاد، فقال: «تالله لقد عَلَكَهُنَّ أشَدُّ لَحْيَيْنِ مِنْكَ».

وابن عطية يشير إلى هذه القصة، ويريد أن يقول: إن الفرزدق بغريزته وفطرته فهم أن هذه الأبيات ليست من شعر ذي الرُّمة، وإنما هي من شعر جرير، ولهذا قال له: لقد عَلَكَهُنَّ (أيْ: أدار هذه الكلمات في فمه)، والمعنى: لقد أنشأها من هُوَ أشَدُّ منك قدرة على قول الشعر، وهو جرير، وهذا هو الفهم بالفطرة، وهو معرفة أسرار البلاغة في الكلام عن ضرورة ومشاهدة.

وفي قوله:

تَلَفَّتُ أَنَّهَا تَحْتَ ابْنِ قَيْنٍ . . . . (١)

وألا ترى قول الأعرابي: «عزَّ فحكم فقطع»؟ وألا ترى إلى الاستدلال الآخر على البعث بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾(٢)، فقال: إن الزيارة تقتضي الانصراف.

ومنه علم بشار بقول أبي عمرو بن العلاء في شعر الأعشى:

وأَنْكَرَتْني وَمَا كَانَ الَّذي نَكِرَتْ . . . . (٣)

---

(١) يشير ابن عطية بهذا إلى أبيات من الشِّعر قالها كلٌّ من الفرزدق وجرير في خبر روته عنهما كتب الأدب، وفيه دليل على أن الفطرة هي التي هدتهم إلى معرفة أسرار البلاغة في الكلام، ولهذا عرفوها وفهموها ضرورة، وفهموا وعرفوا أن القرآن فوق مستواهم، وأن عجزهم عنه ضرورة وخبرة وإحساس، والخبر يقول:

خرج جرير والفرزدق مُرْتَدِفَيْن على ناقة إلى هشام بن عبد الملك، فنزل جرير يَبُول، فجعلت الناقة تحت الفرزدق تَتَلَفَّت، فضربها الفرزدق وقال:

عَلامَ تَلَفَّتِينَ وَأَنْتِ تَحْتي ... وخَيْرُ النَاسِ كُلُّهُمُ أَمَامِي؟
مَتَى تَرِدِي الرُّصَافَةَ تَسْتَريحِي ... مِنَ التهْجيرِ والدَّبَرِ الدَّوَامِي

ثم قال لنفسه: الآن يجيءُ جرير، فأنشدُه هذين البيتين، فَيَرُدُّ علي ويقول:

تَلَفَّتُ أنهَا تَحْتَ ابْنِ قَيْنٍ ... إلى الكِيرَيْنِ والفَأسِ الْكَهَامِ
مَتَى تَرِدِ الرُّصَافَةَ تَخْزَ فِيهَا ... كَخِزْيِكَ في الْمَوَاسِمِ كُلَّ عَامِ

ثم جاء جرير والفرزدق يضحك، فقال له: ما يُضْحِكك يا أبا فراس؟، قال: لقد قلتُ بيتين، وأنشده ببيتين: (عَلامَ تَلَفَّتِين. . .)، فقال جرير: وأنا أقول: (تَلَفَّتُ أنهَا. . .) كما قال الفرزدق سواءً، فقال الفرزدق: والله لقد قلتُ هذين البيتين قبلك، قال جرير: أما علمتَ أن شيطاننا واحد؟

(٢) من الآية (٢) من سورة (التكاثر)، وابن عطية يشير إلى قصة أعرابي سمع هذه الآية فقال: «بُعِثَ القومُ للقيامة وربِّ الكعبة، فإن الزائر منصرف لا مقيم»، وهذا مبني على تأويل ذكره بعض المفسرين، يقولون: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ معناه: حتى مُتُّم وجئتموها زائرين، ثم ستنصرفون عن هذه القبور إلى بيوتكم الدائمة، إما إلى الجنة، وإما إلى النار، والتعبير بالزيارة يُعطي معنى الانصراف عنها إلى المقر الدائم للإنسان.

(٣) هذا صدر بيت هو ثاني قصيدة قالها الأعشى يمدح هَوْزَةَ بن علي الحنفي، قال:

بَانَتْ سُعَادُ وَأَمْسَى حَبْلُهَا انْقَطَعَا ... وَاحْتَلَّتِ الْغَمْرَ فالْجُدَّيْنِ فالْفَرَعَا
وَأَنْكَرَتْني وَمَا كَانَ الَّذي نَكِرَتْ ... مِنَ الْحَوَادِثِ إلاَّ الشَّيْبَ والصَّلَعَا

والبيت في اللسان (نكر)، قال: «أَنكرتُ الشيءَ وأَنا أُنكِرُه إنكاراً، نَكِرْتُه مِثْلَه. قال الأعشى: =

ومنه قول الأعرابي للأصمعي:

مَن أَحْوَجَ الكريم إلى أن يقسم؟

ومن فهمهم أنهم ببدائههم يلقون بكلمة منثورة تفضُل المُنَقَّح من الشعر، وأمثلة ذلك محفوظة، ومن ذلك أَجْوبتُهم المُسْكتة، إلى غير ذلك من براعتهم في الفصاحة وكونهم فيها النهاية، كما كان السِّحر في زمن موسى عليه السلام، والطب في زمن عيسى عليه السلام، فهم مع هذه الأفهام أَقَرُّوا بالعجز، ولجأ المُحَادُّ[1] منهم إلى السيف، ورضي بالقتل والسباء وكشف الحُرَم، وهو كان يجد المندوحة عن ذلك بالمعارضة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكذلك التحدي بالعشر السُّور، والتحدي بالسُّورة، إنما وقع كله على حدٍّ واحد في النظم خاصة، وقيَّد العشر بالافتراء[2] لأنهم قالوا: إن القرآن مفترى، فدعاهم بعقب ذلك إلى الإتيان بعشر سُوَر مفتريات، ولم يذكر الافتراء في السُّورة لأنهم لم يجر عنهم

= وأنكرتني... البيت»، ومن نفس المعنى قوله تعالى: ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

ومما يروى عن بيت الأعشى أن الخليل بن أحمد خرج مع صديق له يكنى أبا المُعَلَّى، وكان شديد الصَّلَع، ثم مرت بهما امرأة ومعها بنات لها، فأراد أبو المعَلَّى أن يكلمها فنهاه الخليل فلم ينته، وقال لها: يا أمَةَ اللهِ، أَلَكِ زوج؟ قالت: لا، ولا لواحدة منا، قال: فهل لكن في أزواج؟ قالت: وَدِدْنا والله، قال: فأنا أتزوجك، ويتزوج هذا إحدى بناتك، قالت له: لقد ابتلاك الله بأن قَرَعَ رأسك بمسحاة، وجعل لك عِقْصَةً بيضاءَ في قفاك، وبلغ من جهلك أنك خضبتها بحمرة، فلو كنت خَضَبْتَ بسواد لغطيت عوارك وأظنك من رهط الأعشى، الذي قال: وأنكرتني... البيت. وهكذا لم يَسْلَم هو والخليل من طول لسانها.

أما ما ذكره ابن عطية من فهم بشار وعلمه بقول أبي العلاء في شعر الأعشى فقد أورده الأصفهاني في الأغاني، قال: «حدثني أبو عبيدة: قال: سمعت بشاراً يقول وقد أُنشد في شعر الأعشى: (وأنكرتني وما كان الذي نكرت) البيت: هذا بيتٌ مصنوعٌ ما يُشْبه كلام الأعشى، فعجبت لذلك، فلما كان بعد هذا بعَشر سنين كنتُ جالساً عند يونس فقال: حدثني أبو عمرو بن العلاء أنه صنع وأدخله في شعر الأعشى، فجعَلْتُ حينئذ أزدادُ عجباً من فطنة بشار وصحة قريحته وجودة نقده للشعر».

(١) المُحَادُّ: المخالف المعاند، من المُحَادَّة، وهي العِنَاد والمخالفة.

(٢) وذلك في قوله تعالى في الآية (١٣) من سورة (هود): ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾.

ذكر ذلك قَبْلُ، بل قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾(١)، على أنه قد جاء ذكر السُّورة مع ذكرهم الافتراء في سورة هود، وقد اختلف الناس في هذا الموضع ـ فقيل: دُعُوا إلى السورة المماثلة في النظم والغيوب وغير ذلك من الأوصاف، وكان ذلك من تكليف مالا يطاق، فلما عسر عليهم خُفِّفَ بالدعوة إلى المفتريات، وقيل غير هذا مما ينحلُّ عند تحصيله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾.

هذه آية تنبيه على فضل الله تعالى في القرآن على العالم، وتوبيخ للكفار منهم على قبيح فعلهم. و«تَصْرِيف القول» هو ترديد البيان عن المعنى. وقرأ الجمهور: [صَرَّفْنَا] بتشديد الراء، وقرأ الحسن: [صرَفْنَا] بفتح الراء خفيفة.

وقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يجوز أن تكون [مِنْ] لابتداء الغاية، ويكون المفعول بـ[صَرَّفْنَا] مقدراً، تقديره: ولقد صرَّفنا في هذا القرآن التنبيه والعِبَرَ من كل مثل ضربناه، ويجوز أن تكون مؤكدة زائدة، والتقدير: ولقد صرَّفنا كلَّ مثل، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾(٢).

وقوله تعالى: [فَأَبَى] عبارة عن تكسُّب الكفار الكفر، وإعراضهم عن الإيمان، وفي العبارة بـ[أَبَى] تغليظ، والكفر بالخلق والاختراع هو من فعل الله تعالى، وبالتَّكَسُّب والدُّءُوب هو من الإنسان. و[كُفُوراً] مصدر كالخروج.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ الآية. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: [حتى تُفَجِّرَ لنا](٣)، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ﴾ بفتح التاء

---

(١) من الآية (٢٣) من سورة (البقرة).

(٢) من الآية (١٢٥) من سورة (البقرة). وهي مثلها في أن [مِنْ] زائدة، والتقدير: واتخذوا مَقامَ إبراهيم مُصَلى.

(٣) بضم التاء وفتح الفاء وتشديد الجيم مع الكسرة. وهي تدلُّ على كثرة الانفجار من الينبوع، وقراءة التخفيف تتجه إلى أن الينبوع واحد.

وضم الجيم، وفي القرآن [فَانْفَجَرَتْ][(١)]، وانْفَجَرَ مطاوع فَجَرَ، فهذا ممَّا يقوي القراءة الثانية، وأمَّا الأولى فتقتضي المبالغة في التفجير. و«الينبوع»: الماءُ النابع، وهي صفة مبالغة إنما تقع للماء الكثير.

وطلبت قريش هذا من رسول الله ﷺ بمكَّة، وإيَّاها عنوا بـ[ٱلأَرْضِ]، وإنما يراد بإطلاق لفظة الأرض هنا الأرضُ التي يكون فيها المعنى المتكلم فيه، كقوله تعالى: ﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ﴾[(٢)]، فإنما يُرادُ: من أرض تصرُّفهم وقطعهم السُّبل ومعاشهم، وكذلك أيضاً اقتراحهم بالجنَّة إنما هو بمكة لامتناع ذلك فيها، وإلاَّ ففي سائر البلاد كان ذلك يمكنه، وإنما طالبوه بأمر إلهي في ذلك الموضع الجدب. وقرأ الجمهور: (جَنَّةٌ). وقرىء: [حبة]، ذكره المهدوي. وقوله تعالى: [فَتُفَجِّرَ] تضعيف مبالغة لا تضعيف تعدية، كقوله سبحانه: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾[(٣)]، و[خِلاَلَهَا] ظرف، ومعناه: أثناءَها وفي داخلها.

ورُوي في قول هذه المقالة لرسول الله ﷺ حديث طويل، مقتضاه أن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وعَبْد الله بن أبي أُمية، والنضْر بن الحارث، وغيرهم من مشيخة قريش وساداتها اجتمعوا فعرضوا عليه أن يُمَلِّكوه ـ إن أراد ـ المُلْك، ويجمعوا له كثيراً من المال إن أراد الغنى، أو يُطبُّوه إن كان به داءٌ، ونحو هذا من الأقاويل، فدعاهم رسول الله ﷺ عند ذلك إلى الله، وقال: إنما جئتكم من عند الله بأمر فيه صلاح دينكم ودنياكم، فإن سمعتم وأطعتم فحسن، وإلاَّ صبرت لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم بما شاء، فقالوا له حينئذ: فإن كان ما تزعمه حقّاً فَفَجِّر ينبوعاً ونؤمن لك، ولتكن لك جنة، إلى غير ذلك مما كلفوه، فقال لهم رسول الله ﷺ: هذا كله إلى الله، ولا يلزمني اقتراح هذا ولا غيره، وإنما أنا مستسلم لأمر الله تعالى[(٤)].

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٦٠) من سورة (البقرة): ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ﴾.

(٢) من الآية (٣٣) من سورة (المائدة).

(٣) من الآية (٢٣) من سورة (يوسف).

(٤) الحديث طويل، وهو بنصه الطويل في تفسير الطبري، والقرطبي، وفي الدر المنثور، وتفسير ابن كثير، وقد أخرجه ابن جرير، وابن إسحق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي الألفاظ اختلاف باختلاف الروايات كما قال المؤلف رحمه الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هذا هو معنى الحديث، وفي الألفاظ اختلاف وروايات متشعبة يطول سَوْقُ جميعها، فاختصرتُ لذلك.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ﴾ الآية. قرأ الجمهور: ﴿أَوْ تُسْقِطَ﴾ بضم التاء ﴿ٱلسَّمَاءَ﴾ بالنصب، وقرأ مجاهد: [أو تَسْقُطَ السماءُ] برفع «ٱلسَّمَاءِ» وإسناد الفعل إليها. وقوله: ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ إشارة إلى ما تَلا عليهم قبل ذلك في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1]. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [كِسْفاً] بسكون السين، إلاَّ في الرُّوم[2] فإنهم حرَّكوها، ومعناها: قطعاً واحداً، قال مجاهد: السماء جميعاً، وتقول العرب: «كَسَفْتُ الثَّوْبَ» ونحوه: قطعته، فالكِسَف ـ بفتح السين ـ المصدر، والكِسْف: الشيءُ المقطوع، قال الزجاج: المعنى: أَوْ تُسقط السماءَ علينا طبَقاً، واشتقاقه من: كَسَفْتُ الشيء إذا غَطَّيْتَهُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس بمعروف في دواوين اللغة (كَسفَ) بمعنى (غَطَّى)، وإنما هو بمعنى (قطعَ)، وكأن كسوف الشمس والقمر قطع منهما، وقرأ نافع، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ[3] [كِسَفاً] بفتح السِّين، أي: قطعاً، جمع (كِسْفَة).

وقوله: [قَبِيلاً] معناه: مقابلةً وعياناً، وقيل: معناه: ضامناً وزعيماً بتصديقك، ومنه القبالة، وهي الضمان، والقَبيلُ: المُتَقَبِّلُ الضامن، وقيل: معناه: نوعاً وجنساً لا نظير له عندنا. وقرأ الأعرج: [قُبُلاً] وهو بمعنى المقابلة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ

(١) من الآية (٩) من سورة (سبأ).
(٢) في قوله تعالى في الآية (٤٨): ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾.
(٣) وهي أيضاً قراءة عاصم في رواية حفص كما هو ثابت في المصحف، فلا مبرِّر لهذا التخصيص.

ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾.

قال المفسرون: «الزُّخْرُف»: الذهب في هذا الموضع، والزخرف: ما تُزَيِّن به، كان بذهب أو غيره، ومنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾[١]، وفي قراءة عبد الله بن مسعود«أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذَهَبٍ». وقوله: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يريد: في الهواءِ عُلُوّاً، والعربُ تسمِّي الهواءَ علوّاً سماءً، لأنه في حيِّز السُّمُوِّ، ويحتمل أن يريد السماء المعروفة، وهو الظاهر؛ لأنه أعلمهم أنَّ إله الخَلْق فيها[٢]، وأنه يأتيه خبرها. و[تَرْقَى] معناه: تصعد، والرُّقِيُّ: الصعود.

ويُرْوى أن قائل هذه المقالة هو عبد الله بن أبي أُمية، فإنه قال لرسول الله ﷺ: إنا لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب ـ أراد هنا كِتابَه[٣] ـ فيه: من الله عزَّ وجلَّ إلى عبد الله بن أبي أُمية. ورُوي أن جماعتهم طلبت هذا النحو منه، فأمره الله تعالى أن يقول: ﴿سُبْحَانَ رَبِّى﴾، أي: تنزيهاً له من الإتيان إليكم مع الملائكة قبيلاً، ومن أن يخاطبكم بكتاب كما أردتم، ومن أن أقترح عليه هذه الآشياء، وهل أنا إلاَّ بشر منكم أُرسلتُ إليكم بالشريعة، فإنما عليَّ التبليغ فقط. وقرأ ابن كثير، وابن عامر: [قال سبحان ربي]، على معنى الخبر عن رسول الله ﷺ أنه سبَّح عند قولهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾. هذه الآية على معنى التوبيخ والتَّلَهُّف من النبي ﷺ، كأنه يقول متعجباً منهم: ما شاء الله كان، ما منع الناس أن يؤمنوا إذْ جاءهم الهدى إلاَّ هذه العلَّةُ النزرة[٤] واستبعاد الذي لا يستند إلى حجَّة، وبعثةُ الْبَشَر رُسُلاً غير بدع ولا غريب، فَبِهَا يقع الإفهامُ والتمكنُ من النظر، كما لو كان في الأرض ملائكةٌ يسكنونها [مطْمَئِنِّينَ] أي: وادعين فيها مُقيمين لكان الرسول إليهم من الملائكة، لِيقَع الإفهام، وأمَّا البَشَر فلو بُعث إليهم مَلَك لنفرت طبائعهم من رؤيته، ولم تحتمله أبصارهم، ولا تجلَّدت له قلوبهم، وإنما الله أجرى أحوالهم على معتادها.

---

(١) من الآية (٢٤) من سورة (يونس).

(٢) هكذا في الأصول، والله سبحانه وتعالى في كل مكان.

(٣) لأنهم في بعض الروايات طلبوا كتاباً لكل واحد باسمه، كما قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾.

(٤) التافهة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾.

رُوي أن الملأ من قريش قالوا لرسول الله ﷺ المقالات التي تقدم ذكرها، من عرض المُلْك عليه والغنى وغير ذلك، وقالوا له في آخر قولهم: فَلْتَجِئْ معك طائفة من الملائكة تشهد لك بصدقك في نبوتك. قال المهدوي: رُوي أنهم قالوا له: فمن يشهد لك؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومعنى أقوالهم إنما هو طلب شهادة دون أن يذكروها، ففي ذلك نزلت هذه الآية، أي: الله يشهد بيني وبينكم، الذي له الخبر والبصر بجميعنا، صادقنا وكاذِبنا. ثم ردَّ الأمر إلى خلق الله واختراعه الهدى والضلال في قلوب البشر، أي: ليس بيدي من أمركم أكثر من التبليغ، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ﴾ وعيدٌ.

ثم أخبر تعالى أنهم يحشرون على الوجوه عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً، وهذا قد اخْتُلِف فيه ـ فقيل: هي استعارات، إمَّا لأنهم من الحيرة والهَمِّ والذهول يشبهون أصحاب هذه الصفات، وإمَّا من حيث لا يرون ما يسرهم، ولا يسمعون، ولا ينطقون بحجَّة. وقيل: هي حقيقة كلها، وذلك عند قيامهم من قبورهم، ثم يردُّ الله تعالى إليهم أبصارهم وسمعهم ونطقهم، فعند ردِّ ذلك إليهم يرون النار، ويسمعون زفيرها، ويتكلمون بكل ما حكي عنهم في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويقال للمنصرف عن أمرٍ خائباً مهموماً: انْصَرَفَ على وجهه، ويقال لِلْبَعِير: كأنما يمشي على وجهه، ومَنْ قال ذَلِكَ في الآية حقيقةٌ قال: أقدرهم الله تعالى على النُّقلة على الوجوه كما أقدرهم في الدنيا على النقلة على الأقدام، وفي هذا المعنى حديثٌ، قيل: يا رسول الله، كيف يمشي الكافر على وجهه؟ قال: (أليس الذي أمشاه في الدنيا

على رجلين قادر أن يمشيه في الآخرة على وجهه)؟[١] قال قتادة: بلى وعزَّة ربنا.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي: كلما فرغت من إحراقهم، فيسكن اللهيب القائِمُ عليهم قدر ما يعادون ثم يثور، فتلك زيادة السعير، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالزيادة في حَيِّزهم، وأما جهنم فعلى حالها من الشِّدّة لا يصيبها فتور. و«خَبَت النَّارُ» معناه: سكن اللهبُ والجمر على حاله، و«خَمَدَت» معناه: سكن الجمر وضعف، و«همدت» معناه: طفيت جملة، ومن هذه اللَّفظة قول الشاعر:

لِمَـــنْ نَـــارٌ قُبَيْـــلَ الصُّبْـــحِ عِنْـدَ الْبَيْـتِ مـا تَخْبُـو
إذا مـــا أُخْمِـــدَتْ يُلْقَـــى عَلَيْهَـا الْمَنْـدَلُ الـرَّطْـبُ؟[٢]

ومنه قول عديِّ بن زيد:

وَسْطُـهُ كَـالْيَـرَاعِ أَوْ سُـرُجِ المِجْـدَلِ حينـاً يَخْبُـو وحينـاً يُنِيـرُ[٣]

---

(١) أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وأبو نعيم في المعرفة، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن أنس رضي الله عنه. ولفظه كما ذكره في الدر المنثور: قال: قيل: يا رسول الله، كيف يحشر الناسُ على وجههم؟ قال: الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم. وأخرج ابن جرير مثله عن الحسن رضي الله عنه، وأخرج مثله أبو داود، والترمذي وحسَّنه، وابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي أوله زيادة على ما هنا جاء فيها: قال رسول الله ﷺ: (يحشر الناسُ يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنف مشاة، وصنف ركبان، وصنف على وجوههم، قيل: يا رسول الله، وكيف يمشون على وجههم... الحديث).

(٢) البيتان في اللسان (ندل)، وقد نسبهما إلى عمر بن أبي ربيعة، وهما أيضاً بالديوان (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب) وقد صدرت سنة ١٩٧٨، واعتمدت على أكثر الطبعات السابقة، وأشارت في الهامش إلى أن البيتين من الشعر المنسوب إلى عمر. ورواية البيت الثاني في اللسان والديوان: (إذا ما أُوقِدَتْ). والشاهد هنا أن (أُخمدت) من لفظ: «خَمَدت النار» بمعنى: سكن الجمر وضعف. والمَنْدَل: العود الرَّطْبُ الذي يُتَبَخر به، وهو المَنْدَلِي، نُسب إلى بلد بالهند اسمُها مَنْدل، وقد استعملت هذه الكلمة في بيت كثير الذي يقول:

بِـأَطْيَـبَ مِـن أَرْدَانِ عَـزَّةَ مَـوْهِنـاً وَقَدْ أُوقِـدَتْ بِـالمَنْدَلِ الرَّطْبِ نـارُهَـا

(٣) البيت لعديِّ بن زيد العابدي، وهو في تفسير الطبري، والبحر المحيط. قال محقق الطبري: «وهو مما كتب به إلى النعمان، وهو من غُرر قصائده». واليراعُ كما قال في اللسان (يرع): «اليراعُ كالبعوض=

ومنه قول القطامي:

. . . . فَيَخْبُـو سَـاعَـةً ويَهُـبُّ سَـاعَـا(١)

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾، الآية إشارة إلى الوعيد المتقدم بجهنم. وقوله: [بِآيَاتِنَا] يعُمُّ الدلائل والحُجَج التي جاء بها محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويَعُمُّ آيات القرآن الكريم وما تضمَّن من خبر وأمر ونهي. ثم عظم عليهم أمر إنكار البعث، وخصَّه بالذكر مع كونه في عموم الكفر بآيات القرآن الكريم، وَوَجْهُ تخصيصه التعظيم له، والتنبيه على خطارة(٢) الكفر في إنكاره، وقد تقدم اختلاف القراء في الاستفهامين في غير هذا الموضع.

و«الرُّفاتُ»: بقية الشيء التي قد أصارها البِلَى إلى حالة التراب، و«الْبَعْثُ»: تحريك الشيء الساكن، وهذا الاستفهام منهم على جهة الإنكار والاستبعاد لِلْمُحال بزعمهم.

= يغشى الوجهَ؛ واحدتُه يراعة. واليَرَاعُ: فراشةٌ إذا طارت في الليل لم يشك من لم يعرفها أنها شرارةٌ طارت عن نار، قال عمرو بن بحر: نارُ اليراعة قيل: هي نار حُبَاحِبٍ، وهي شبيهة بنار البرق. قال: واليراعة طائر صغير، إن طار بالنهار كان كبعض الطير، وإن طار بالليل كان كأنه شهاب قُذف أو مصباحٌ يطير». والمِجْدَل بكسر الميم وسكون الجيم: القَصْر المشرف، لوثاقة بنائه، قال في اللسان: «وجمعه مجادل»، وقال الأعشى:

فــي مِجْــدَلٍ شُــدِّدَ بُنْيَــانُــهُ يَــزِل عَنْــهُ ظُفُــرُ الطــائِــرِ

والشاهد هنا هو استعمال الفعل (يَخْبُو) بمعنى: تَسْكُن ناره وتضعف.

(١) هذا عجز بيت، والبيت بتمامه:

وكُنـا كـالْحَـرِيـقِ أَصَـابَ غَـابَـا فَيَخْبُـو سَـاعَـةً ويَهُـبّ سَـاعَـا

وهو في الديوان، وفي اللسان (سوع). قال: «الساعة جزءٌ من أجزاء الليل والنهار، والجمع ساعاتٌ وساعٌ، قال القطامي: وكنا كالحريق لَدَى كفاحٍ . . . البيت»، ثم نقل عن ابن بري أن المشهور في صدر البيت: «كنا كالحريق أصاب غابا». وقد استُشهد في (مجاز القرآن) أيضاً بعَجُز هذا البيت، قال: «خَبَتْ: سكنت، ثم أنشد العَجُز» وقال: «ولم يذكر هاهنا جلودهم فيكون الخُبُوُّ لها». والقطامي بفتح القاف وضمها: لقب غلب على الشاعر، وهو اسم من أسماء الصَّقْر، معناه: المحدِّد البصر إلى الصيد. والاسم الأصلي للشاعر هو عُمَيْر بن شُيَيْم بن عمرو، وهو من بني تغلب، وخاله هو الأخطل التغلبي الشهير.

(٢) هكذا في الأصول.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾.

هذه الآية احتجاج عليهم فيما استبعدوه من البعث، وذلك أنهم قُرِّروا على خلق الله واختراعه لهذه الجملة التي البشر جزءٌ منها، فهم لا ينكرون ذلك، فكيف يصح لهم أن يُقرُّوا بخلقه للكل وإخراجه من خمول العدم وينكرون إعادته للبعض؟ فحصل الأمر في حيِّز الجواز. وأخبر الصادق الذي قامت دلائل معجزاته بوقوع ذلك الجائز. والرؤية في هذه الآية رؤيةالقلب، و«الأَجلُ» هاهنا يحتمل أن يريد القيامة، ويحتمل أن يريد أجل الموت، والأَجلُ ـ على هذا التأويل ـ اسم جنس؛ لأنه وضعه موضع الآجال. ومقصد هذا الكلام بيان قدرة الله عزَّ وجلَّ وملكه لخلقه، وبتقدير ذلك يقوى جواز بعثه لهم حين يشاء لا إله إلاَّ هو. وقوله تعالى: [فَأَبَى] عبارة عن تكسُّبهم وجنوحهم، وقد مضى تفسير هذه الآية آنفاً.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ الآية. حكم (لَوْ) أن يليها الفعلُ، إمَّا مُظهراً وإمَّا مضمراً يفسره الظاهر بعد ذلك، فالتقدير هنا: قل لو تملكون أنتم تملكون خزائن، فـ[أَنتُمْ] رفع على تبع الضمير[1]. و«الرَّحْمَةُ» في هذه الآية: المالُ والنعم التي تصرف في الأرزاق، ومن هذا سميت رحمة. و«الإِنْفَاقُ» المعروف: إذهابُ المال. وهو مؤدٍّ إلى الفقر، فكأن المعنى: خشيةَ عاقبة الإنفاق. وقال بعض اللغويِّين: «أنفق الرجلُ» معناه: افتقر.

---

(١) يتفق ابن عطية في هذا مع الزمخشري، وأبي البقاء، والحوفي. لكن هذا يخالف مذهب البصريين، قال ابن عصفور: «لا يَلي (لو) إلا الفعل ظاهراً، ولا يليها مضمراً إلا في ضرورة أو نادِرِ كلام، مثل ما جاء في المثل من قولهم: (لَوْ ذاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْني)». وقال ابن الصائغ: «البصريون يصرحون بامتناع (لو زيدٌ قام لأكرمته) على الفصيح، ويجيزونه شاذاً، كقولهم: (لوْ ذاتُ سوار لطمتني)، وهو عندهم على فعل مضمر، وهو من باب الاشتغال، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾. وخرَّجه أبو الحسن عليُّ بن فضال المجاشعي على إضمار (كان)، والتقدير: «قلْ لو كنتم أنتم تملكون»، على خلاف في حذف (كان) وحدها، أو حذفها مع الضمير (كنتم). ويميل أبو حيان إلى حذف (كان) وانفصال الضمير المرفوع، وقال: إن حذف (كان) بعد (لو) معهود في لسان العرب.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ معناه: مُمْسكاً، يريد أن في طبعه ومُنتهىٰ نظره أن الأشياء تتناهى وتفنى، فهو لو مَلَكَ خزائن رحمة الله تعالى لأمسك خشية الفقر، وكذلك يظن أن قدرة الله تبارك وتعالى تقف دون البعث، والأمر ليس كذلك، بل قدرته لا تتناهى، فهو يخترع من الخلق ما يشاءُ، ويختزن من الرحمة الأرزاق، فلا يخاف نفاذ خزائن رحمته، وبهذا النظر تلتبس هذه الآية بما قبلها، والله وليُّ التوفيق برحمته، ومن الإقتار قول أبي دُوَاد:

لا أَعُــدُّ الإقْتَــارَ عُــدْمــاً وَلَكِــنْ فَقْــدُ مَــنْ قَــدْ رُزِئْتُــه الإعْــدَامُ(١)

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾. اتفق المتأولون والرواة أن الآيات الخمس التي في سورة الأعراف هي من بين هذه التِّسع، وهي: الطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم. واختلفوا في الأربع ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي يَدُه، ولسانُه حين انحلَّت عقدتُه، وعصاه، والبحر. وقال محمد بن كعب القرظي: هي: البحر، والعصا، والطَّمْسة، والحجَر، وقال: سألني عن ذلك عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فأخبرته، فقال: وما الطَّمْسَةُ؟ فقلت: دعا موسى وأمَّن هارون عليهما السلام، فطمس الله أموالهم وردَّها حجارة. فقال عمر: وهل يكون الفقه إلاَّ هكذا؟ ثم دعا بخريطة فيها غرائب كانت لعبد العزيز بن مروان جمعها بمصر، فاستخرج منها الحوزة والبيضة والعدسة، وهي كلها أحجار كانت من بقايا أموال فرعون، وقال الضحاك: هي إلقاءُ العصاء مَرَّتين، واليد، وعُقدة لسانه. وقال عِكْرمة، ومطر الورَّاق، والشعبي: هي العصا، واليد، والسنون، ونقص الثمرات. وقال الحسن: هي العصا في كونها ثعباناً، واليد، والسنون، وتلقف العصا ما يأفكون. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي السنون في بواديهم، ونقص الثمرات في قراهم،

---

(١) أبو دُوَاد (بواوٍ غير مهموزة، بعدها ألف، وقد همزت في كثير من الكتب مثل الشعر والشعراء). واسمه جارية بن الحجاج، وقيل: حنظلة بن الشرقي، والأول أصح. والبيت من قصيدة مشهورة.، وهي الأصمعية (٦٥)، ومنها مختارات في الشعر والشعراء، والإقْتارُ: قلة المال وضيق العيش، وهو الشاهد هنا، والعُدْمُ والإعْدَامُ: الفَقْرُ. يقول: لا أعتبر قلة المال فقراً، إنما الفقر الحقيقي هو فقد الكرام من الرجال. قيل للحطيئة: من أشعر الناس؟ قال الذي يقول: (لا أعُدُّ الإقْتارَ عُدْماً... البيت). ثم يصف الشاعر هؤلاء الرجال بالشجاعة والسماحة ورجاحة العقول، إلى أن يقول:

فَعَلَــى إثْــرِهِــمْ تَسَــاقَــطُ نَفْسِــي حَسَــرَاتٍ وَذِكْــرُهُــمْ لــي سَقَــامُ

واليد، والعصا. وروى مصرف عن مالك أنها العصا، واليد، والجبل إذ نتق، والبحر. وروى ابن وهب عنه مكان البحر الحَجَر، والذي يلزم من الآية أن الله تعالى خصَّ من آيات موسى ـ إذْ هي كثيرة تنيف على أربع وعشرين ـ تسعاً بالذكْر، ووصفها بالبيان ولم يعيّنها، واختلف العلماءُ في تعيينها بحسب اجتهادهم في بيانها، أو رواياتهم التوقيفية في ذلك. وقالت فرقة: آياتُ موسى عليه السلام إنما أريد بها آياتُ التوراة التي هي أوامر ونواه، وروى في هذا صفوان بن عسَّال[١] أن يهودياً من يهود المدينة قال لآخر: سِرْ بنا إلى هذا النبي نسأله عن آيات موسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ، فقال الآخر: لا تقل إنه نبيٌّ، فإنه لو سمعك صار له أربعة أعين، قال: فساروا إلى رسول الله ﷺ: فسألوه، فقال: هي ألاَّ تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلاَّ بالحق، ولا تمشوا ببريءٍ إلى سلطان ليقتله، ولا تسخروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا المحصنة، ولا تفِرُّوا يوم الزحف، وعليكم خاصة يهود: ولا تعدوا في السبت[٢].

وقرأ الجمهور: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وروي عن الكسائي: [فَسَلْ] على لغة من قال: «سَالَ يَسَالُ»[٣]، وهذا كله على معنى الأمر لمحمد ﷺ، أي: اسأل معاصريك عمَّا أعلمناك به من غيب القصة، ثم قال: ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾، يريد: آباءهم، وأدخلهم في الضمير إذا هم منهم، ويحتمل أن يريد: فاسْأَل بني إسرائيل الأولين الَّذين جاءهم موسى عليه السلام، وتكون إحالته إياه على سؤالهم بطلب أخبارهم والنظر في أحوالهم وما في كتبهم، نحو قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾[٤]، وهذا كما تقول لمن تعظه: سَلِ الأمم الخالية هل بقي منها مخلد؟ ونحو هذا مما يجعل النظر فيه

---

(١) هو صَفْوَانُ بن عَسال (بِمُهْمَلَتَين)، المرادي، صحابي معروف، نزل الكوفة (تقريب التهذيب).

(٢) أخرجه الطيالسي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وأبو يعلى، والبيهقي معاً في الدلائل، عن صفوان بن عسَّال. ذَكَر ذلك في (الدر المنثور). وفي آخر الحديث زيادة على ما هنا (فقَبَّلا يديه ورجليه وقالا: نشهد أنك نبيٌّ، قال: فما يمنعكما أن تُسْلِما؟ قالا: إن داود دعا الله ألاَّ يزال في ذُرِّيته نبيٌّ، وإنا نخاف ـ إن أسْلَمنا ـ أن تقتلنا اليهود).

(٣) نقل في اللسان (سأل) عن الأخفش قوله: «يقال: خرجنا نسأل عن فلانٍ وبفلانٍ، وقد يخفف فيقال: سَالَ يَسَالُ، والأمْرُ منه سَلْ، قال الشاعر:

وَمُرْهَقٍ سَالَ إمْتَاعاً بأُصْدَتِهِ ... لَمْ يَسْتَعِنْ وَحَوَامِي الْمَوْتِ تَغْشَاهُ»

(٤) من الآية (٤٥) من سورة (الزخرف).

مكان السؤال. قال الحسن: سؤالك إيَّاهم نظرُك في القرآن.

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: [فَسَأَلَ بني إسرائيلَ]، أي: سأل موسى بني إسرائيل، أي طلبهم لينجيهم من العذاب.

وقوله تعالى: ﴿مَسْحُوراً﴾، اختلف فيه المتأولون ـ فقالت فرقة: هو مفعول على بابه، أي: إنك قد سحرتَ فكلامك مختل وما تأتي به غير مستقيم. وقال الطبري: هو مفعول بمعنى فاعل، كما قال تعالى: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[1]، وكما قالوا: مَشْؤُومٌ وَمَيْمُون، وإنما هو: شائِمٌ ويامن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا لا يتخرج إلاَّ على النَّسب، أي: ذا سِحْرٍ مَلَكْتَه وعَلِمْتَه، فأنتَ تَأْتي بهذه الغرائب لذلك. وهذه مخاطبةُ تَنَقُّصٍ، فيستقيم أن يكون [مَسْحُوراً] مفعولاً على ظاهره، وعلى أن يكون بمعنى: ساحر يعارضنا، (أمَّا)[2] ما حُكيَ عنهم أنهم قالوا له ـ على جهة المدح ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾[3]، فإمَّا أن يكون القائلون هنالك ليس فيهم فرعون، وإمَّا أن يكون فيهم لكنه تنقل من تَنَقُّصه إلى تعظيمه. وفي هذا نظر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾.

رُوي عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وغيره، أنه قرأ: [عَلِمْتُ] بتاء المتكلم مضمومة، وقال: «وما علم عدوُّ الله قط، وإنما علم موسى».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتتقوى هذه القراءة لمن تأوَّل ﴿مَسْحُوراً﴾ على بابه، فلمَّا رماهُ فرعون بأنه قد سُحر

(١) من الآية (٤٥) من هذه السورة (الإسراء).

(٢) زيادة تقتضيها سلامة العبارة.

(٣) ورد هذا في الآية الكريمة رقم (٤٩) من سورة (الزخرف)، في قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾.

فَفَسَد نظره وعقله وكلامه، ردَّ هو عليه بأنه يعلم آيات الله تعالى، وأنه ليس بمسحور، بل مُحَرِّر لما يأتي به. وهي قراءة الكسائي. وقرأ الجمهور: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ بتاء المخاطب مفتوحة، فكأن موسى عليه السلام رماهُ بأنه يكفر عناداً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن قال بوقوع الكفر عناداً فَلَه تعلُّق بهذه الآية، وجعلها كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[١]، وقد حكى الطبري ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، ونحا إليه الزَّجاج وهي، بعد معرضة للاحتمال على أن يكون قول موسى عليه السلام إبلاغاً على فرعون في التوبيخ، أي: أنت بحال من يعلم هذا، وهي من الوضوح بحيث تعلمها، ولم يكن ذلك على جهة الخبر عن علم فرعون.

وقوله تعالى: [بَصَائِرَ] جمع بصيرة، وهي الطريقة، أي طرائق يهتدي بها، وكذلك غلب على البصيرة أنها تستعمل في طريقة النفس في نظرها واعتقادها، ونصب [بَصَائِرَ] على الحال[٢].

و«المَثْبُورُ»: المُهْلَك، قاله مجاهد، وقال ابن عباس، والضحاك: هو المغلوب، وقال ابن زيد: هو المخبول، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسَّره بالملعون. وقال بعض العلماء: كان موسى عليه السلام في أول أمره يجزع، ويُؤْمر بالقول اللَّيِّن، ويطلب الوزير، فلما تقوَّتْ نفسه بقوى النبوَّة وتجلَّد قابل فرعون بأكثر مما أُمر به، بحسب اجتهاده الجائز له. قال ابن زيد: اجترأ موسى أن يقول له فوق ما أمره الله به. وقالت فرقة: بل المثبور: المغلوب المُخرَّع[٣]، وما كان موسى عليه السلام ليكون لعَّاناً، ومن اللفظة قول عبد الله بن الزِّبَعْرى:

إذْ أُجارى الشَّيطانَ في سَنَنِ الْـ ـغَيِّ، وَمَنْ مالَ مَيْلَهُ مَثْبورُ[٤]

(١) من الآية (١٤) من سورة (النمل).

(٢) أي: حال من [هؤلاء]، قال أبو حيان الأندلسي: «وهذا لا يجوز إلا على مذهب الكسائي والأخفش»، والجمهور يؤولون ما ظاهره كذلك، فيقدرون فعلاً يدلُّ عليه ما قبله، فيقولون هنا: التقدير: «أنزلها بصائر».

(٣) أي: الضعيف اللَّين المُسْترخي.

(٤) قال ابن الزِّبَعْرى هذا البيت من أربعة أبيات قالها حين جاء معتذراً للنبي ﷺ عن هجائه السابق له، وقبله يقول:

=

وقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ الآية. [يَسْتَفِزَّهُمْ] معناه: يَستخفَّهُم ويُقلقهم، إمَّا بقتل أو بإجلاءٍ، و[الأرْض] هي أرض مصر، وقد تقدم أنه متى ذكرت «الأرض» عموماً فإنما يراد بها ما يناسب القصة المتكلَّم فيها، وقد يحسُن عمومها في بعض القصص.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واقتضبت هذه الآية قصص بني إسرائيل مع فرعون، وإنما ذَكَرَتْ عُظْمَ الأمر وخطيره، وذلك طَرَفَاه: أراد فرعون غلَبتهم وقتْلهم، وهذا كان بدْءَ الأمر، فأغرقه الله تبارك وتعالى وأغرق جنوده، وهذا كان نهاية الأمر. ثم ذكر الله تعالى بني إسرائيل بعد إغراق فرعون بسُكْنى أرض الشَّام.

و﴿وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ هو يوم القيامة. و«اللَّفِيفُ»: الجمع المختلِط الذي قد لُفَّ بعضه ببعض، فليس ثَمَّ قبائل ولا انحياز. وقال بعض اللُّغويِّين: هو من أسماء الجموع، ولا واحد له من لفْظِهِ. وقال الطبريُّ: هو بمعنى المصدر كقول القائل: لَفَفْتُه لَفّاً ولفِيفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر فتأمله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾.

الضمير في قوله تعالى: [أَنزَلْنَاهُ] عائد على القرآن المذكور في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[1]، ويجوز أن يكون الكلام آنفاً، وأشار

= يـا رَسُـولَ الْمَلِيـكِ إنَّ لِسَـانِـي رَاتِـقٌ مـا فَتَقْـتُ إذْ أنَـا بُـورُ

وأُجاري: أُباري وأُماشي، ويروى: أُباري، والسَّنَن: وسط الطريق، والغَيِّ: الضلال والفساد، ومثبور: هالك، وهو الشاهد هنا. وفي اللسان عن مجاهد: (مَثْبُوراً) أي: هالكاً، وفيه أيضاً أن الثبور هو الهلاك والخسران والويل.

(١) سبق ذلك في الآية (٨٩) من هذه السورة.

بالضمير إلى القرآن على غير ذلك متقدمٍ لشهرته، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾(١)، وهذا كثيرٌ.

قال الزهراوي: معناه: بالواجب الذي هو المصلحة والسَّداد للناس والحق في نفسه، وقوله سبحانه: ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ يريد: بالحق في أوامره ونواهيه وأخباره، فبهذا التأويل يكون تكرار اللَّفظ لمعنى غير الأول، وذهب الطبري إلى أنهما بمعنى واحد، أي: بأخباره وأوامره، وبذلك نزل.

وقوله تعالى: ﴿وَقُرْآناً﴾. مذهب سيبويه أن نصبه بفعل مضمر يفسره الظاهر بعد، أي: وفرَقنا قرآناً، ويصح أن يكون معطوفاً على الكاف في ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾، من حيث كان إرسال هذا وإنزال هذا لمعنى واحد.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ بتخفيف الراء، ومعناه: بيَّنَّاه وأوضحناهُ وجعلناه فرقاناً. وقرأ ابن عباس، وقتادة، وأبو رجاء، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن مسعود، وأبيُّ بن كعب، والشعبي، والحسن ـ بخلاف ـ وحُمَيْد، وعمرو بن قائد: [فَرَّقْنَاهُ] بشدِّ الراء، إلاَّ أن في قراءة ابن مسعود، وأُبي بن كعب: [فَرَّقْنَاهُ عَلَيْكَ لِتَقْرَأَهُ]، أي: أنزلناه شيئاً بعد شيء، لا جملةً واحدة، ويتناسق هذا المعنى مع قوله تعالى: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾، وهذا كان بما أراد الله تعالى من نزوله بأسباب تقع في الأرض من أقوال وأفعال في أزمان محدودة معيَّنة.

واختلف أهلُ العلم، في كم نزل القرآن من المدة؟ فقيل: في خمس وعشرين سنة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: في ثلاث وعشرين، وقال قتادة: في عشرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بحسب الخلاف في سنِّ رسول الله ﷺ، وذلك أن الوحي جاء وهو ابن أربعين سنة، وتَمَّ بموته. وحكى الطبريُّ عن الحسن البصري أنه قال: نزل القرآن في ثماني عشرة سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ مُخْتَلٌّ: لا يصح عن الحسن، والله أعلم.

(١) من الآية (٣٢) من سورة (ص).

وتأول فرقة قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾، أي: على ترسُّلٍ في التلاوة وترتيل، هذا قول مجاهد، وابن عباس، وابن جريج، وابن زيد. والتأويل الآخر، أي: على مُكْثٍ وتطاول في المدة شيئاً بعد شيء. وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ مبالغة وتأكيد بالمصدر للمعنى المتقدم ذكره في ألفاظ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأجمع القراءُ على ضمِّ الميم من [مُكْثٍ]، ويقال: مُكْثٌ ومَكْثٌ بضم الميم وبفتحها، ومِكْثٌ بكسرها.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ﴾ الآية. هذه آية تحقير للكفار، وفي ضمنه ضربٌ من التوعُّد، والمعنى: إنكم لستم بحُجَّة، فسواءٌ علينا آمنتم أو كفرتم، وإنما ضررُ ذلك على أنفسكم، وإنما الحُجَّةُ أهلُ العلم من قبله، هم بالصفة المذكورة.

واختلف الناس في المراد بالذين أوتوا العلم من قبله ـ فقالت فرقة: هم مؤمنو أهل الكتاب. وقالت فرقة: هم ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل، ومن جرى مجراهما، وقيل: إن جماعة من أهل الكتاب جلسوا وهم على دينهم فتذاكروا أمر النبي عليه الصلاة والسلام وما أنزل عليه، وقرىء عليهم منه شيءٌ فخشعوا وسبَّحوا الله وسجدوا له، وقالوا: هذا وقتُ نُبُوَّة المذكور في التوراة، وهذه صفته، ووعْدُ الله به واقع لا محالة، وجنحوا إلى الإسلام هذا الجنوح، فنزلت الآية فيهم، وقالت فرقة: المراد بالذين أوتوا العلم من قبله محمد ﷺ، والضمير في [قَبْلِهِ] عائد على القرآن، حَسَب الضمير في [بِهِ]، ويُبَيِّن ذلك قوله: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾. وقيل: الضميران لمحمد ﷺ، واستأنف ذكر القرآن في قوله: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾، أي: لِنَاحِيَتِها، وهذا كما تقول: ساقطٌ لليد والفم، أي: لِنَاحِيَتِهما وعليهما، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: لِلْوجوه، وقال الحسن: لِلِّحَى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأذقان أسافل الوجوه حيث يجتمع اللَّحيان، وهي أقرب ما في رأس الإنسان إلى الأرض لا سيَّما عند سجوده، وقال الشاعر:

فَخـرُّوا لأذْقَـانِ الـوُجُـوهِ تَنُـوشُهُـمْ سِبَاعٌ مِنَ الطَّيْرِ الْعَوَادِي وَتَنْتِفُ[(١)]

و[إنْ] في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ هي عند سيبويه المخففة من الثقيلة. واللام بعدها لام التأكيد، وهي عند الفراء النافية واللام بمعنى: إلاَّ. ويتوجَّه في هذه الآية معنى آخر، وهو أن يكون قوله: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ۚ﴾ مخلصاً للوعيد دون التحقير. والمعنى: فَسَتَرَوْن ما تُجَازَوْن به، ثم ضرب لهم المثَلَ ـ على جهة التقريع ـ بمن تقدم من أهل الكتاب، أي: إن الناس لم يكونوا كما أنتم في الكفر، بل كان الذين أوتوا التوراة والإنجيل والزبور والكتب المنزَّلة في الجملة إذا يُتْلى عليهم ما نزل عليهم خشعوا وآمنوا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩) قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا (١١١)﴾.

هذه مبالغة في صفتهم، ومدْحٌ لهم، وحضٌّ لكل من توسم بالعلم وحصَّل منه شيئاً أن يجري إلى هذه الرُّتبة. وحكى الطبريُّ عن التَّيْمِيِّ[(٢)] أنه قال: إن من أوتي من العلم ما لم يُبْكِه لخليق ألاَّ يكون أوتي علماً ينفعه؛ لأن الله تعالى نعت العلماء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ إلى آخر الآيتين.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ الآية.

سبب نزول هذه الآية أن المشركين سمعوا رسول الله ﷺ يدعو: يا الله، يا رحمن، فقالوا: كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد، وهو يدعو إلهين. قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وقال مكي: تهجّد رسول الله ﷺ ليلةً، فقال في دعائه: يا رحمن يا رحيم،

---

(١) هذا البيت شاهد على أنَّ (خرُّوا للأذْقَان) معناها: سَقَطوا ووقعوا، ولم يذكره أحد من المفسرين إلا صاحب (البحر المحيط)، ولم نقف على نسبته فيما بين أيدينا من المراجع. وتَنُوشهم: تتناولهم وتأخذهم، وتَنْتِفُ: تنزع لحومهم من على عظامهم، وقد كثر استعمال اللفظة في نزع الشعر ونحوه، والسِّباع جمع سبع، وهو كل ما له نابٌ أو مِخلب ويعدو على الناس والدواب. وسباع الطير: الجوارح من ذوات المخالب في الطير.

(٢) اسمه عبد الأعلى التَّيْمي.

فسمعه رجل من المشركين ـ وكان باليمامة رجلٌ يسمى الرحمان ـ فقال ذلك السامع: ما بال محمد يدعو رحمان اليمامة، فنزلت الآية مبينة أنها أسماءٌ لشيء واحد، فإن دعوتموه بالله فهو ذلك، وإن دعوتموه بالرحمن فهو ذلك.

وقرأ طلحة بن مصرف: «أَيّاً مَنْ تَدْعُو فَلَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَى»، أي: وله سائر الأسماء الحسنى، أي التي تقتضي أفضل الأوصاف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهي بتوقيف، لا يصحُّ وضع اسم لله تعالى إلاَّ بتوقيف من القرآن والحديث. وقد رُوي: (إنَّ لله تسعةً وتسعين اسماً)... الحديث، ونصها كلها الترمذي وغيره بسندٍ صحيح[١]. وتقدير الآية: أيُّ الأسماء تدعو به فأنت مصيب، له الأسماءُ الحُسْنى.

ثم أمر رسول الله ﷺ ألاَّ يجهر بصلاته، وألا يخافِتَ بها، وهو الإِسْرَارُ الذي يسمعه المتكلم به، هذه هي حقيقته، ولكنه في الآية عبارة عن خفض الصوت وإن لم يَنْتَه إلى ما ذكرناه. واختلف المتأولون في «الصَّلاة»، ما هي؟ فقال ابن عباس، وعائشة رضي الله عنهما، وجماعة: هي الدعاءُ. وقال ابن عباس أيضاً: هي قراءة القرآن في الصلاة، فهذا على حذف مضاف، والتقدير: ولا تجهر بقراءة صلاتك، قال: والسبب أن رسول الله ﷺ جهر بالقراءة فسمعه المشركون فسبُّوا القرآن ومن أنزله، فأُمر رسول الله ﷺ بالوسط، لِيُسْمع أصحابه المصلين معه ويذهب عنه أذى المشركين[٢].
وقال ابن سيرين: كان الأعراب يجهرون بتشهُّدهم فنزلت الآية في ذلك، وكان أبو بكر رضي الله عنه يُسِرُّ قراءته، وكان عمر رضي الله عنه يجهر بها، فقيل لهما في ذلك، فقال

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري، والبخاري في التوحيد والشروط والدعوات، ومسلم في الذكر، والترمذي، وابن ماجه في الدعوات، ولفظه كما في الطبري: (إن لله تسعةً وتسعين اسْماً كلُّهن في القرآن، من أحصاهن دخل الجنة).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور، وأحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، والطبراني، والبيهقي في سُنَنِه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (نزلت ورسول الله ﷺ بمكة مُتَوارٍ، فكان إذا صلَّى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع المشركون ذلك سبُّوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ ـ أي بقراءتك ـ فيسمع المشركون فيسبُّوا القرآن، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تُسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، يقول: بين الجهر والمخافتة). ذكر ذلك الإمام السيوطي في (الدر المنثور).

أبو بكر: إنما أناجي ربِّي وهو يعلم حاجتي، وقال عمر: أنا أطرح الشيطان وأوقظ الوسنان، فلما نزلت هذه الآية قيل لأبي بكر رضي الله عنه: ارفع أنت قليلاً، وقيل لعمر رضي الله عنه: اخفض أنت قليلاً. وقالت عائشة أيضاً رضي الله عنها: الصلاة يُراد بها في هذه الآية التشهد، وقال ابن عباس، والحسن: المراد: لا تُحَسِّن صلاتك في الجهر، ولا تُسِئْها في السِّر، بل اتَّبع طريقاً وسطاً يكون دائماً في كل حالة. وقال ابن زيد: معنى الآية النهيُ عما يفعله أهل الإنجيل والتوارة من رفع الصوت أحياناً فيرفع الناس معه، ويخفض أحياناً فيسكت من خلفه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: إن معناها: ولا تجهر بصلاة النهار، ولا تخافت بصلاة اللَّيل، وابتغ سبيلاً من امتثال الأمر كما رسم لك، ذكره يحيى بن سلام، والزهراوي. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لم يخافت من أسمع أذنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وما رُوي من أنه قيل لأبي بكر رضي الله عنه: «ارفع أَنْتَ قليلاً» يردُّ هذا، ولكن هذا الذي قال ابن مسعود رضي الله عنه هو أصل اللُّغة، ويستعمل الخفوتُ بعد ذلك في أرفع من ذلك[١].

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾[٢]. هذه الآية رادَّةٌ على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذاً: «عُزَيْر وعيسى والملائكة ذرِّيَّة الله»، سبحانه وتعالى عن أقوالهم. ورادَّةٌ على العرب في قولهم: «لولا أولياءُ الله لذلَّ»، وقيَّد لفظُ الآية نفي الولاية لله عزَّ وجلَّ بطريق الذل، وعلى جهة الانتصار؛ إذ ولايته موجودةٌ بتفَضُّله ورحمته لمن وَالى من صالح عباده. قال مجاهد: المعنى: لم يُحالف أحداً، ولا ابتغ نصر أحد.

وقوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال، ثم أكَّدها بالمصدر تحقيقاً لها، وإبلاغاً في معناها[٣].

---

(١) أي: في أعلى من ذلك.

(٢) أخرج الإمام أحمد، والطبراني، عن معاذ بن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (آيةُ العِزِّ ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ (الآية كلها).

(٣) أخرج ابن أبي شيبة في المصنف، من طريق عبد الكريم، عن عمرو بن شعيب رضي الله عنه، قال: كان=

وروى مُطَرِّفٌ عن عبد الله بن كعب قال: «افتتحت التوراةُ بفاتحة سورة الأنعام، وختمت بخاتمة هذه السورة».

نجز تفسير سورة الإسراء ولله الحمد والمِنَّة

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم

* * *

= الغلام إذا أفصح من بني عبد المطلب علَّمه النبي ﷺ هذه الآية سبع مرات: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآية، وأخرجه ابن السُّنِّي في عمل اليوم الليلة، من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده.

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الفرج، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن إسماعيل بن أبي فديك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (ما كربني أمر إلا تمثل لي جبريل عليه السلام: يا محمد؛ قل: توكلتُ على الحيِّ الذي لا يموت، والْحَمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولمْ يَكُنْ لَهُ شريكٌ في ٱلْمُلْكِ).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الكهف

هذه السُّورة مكيَّة في قول جميع المفسرين، ورُوي عن فرقة أن أول السُّورة نزل بالمدينة، إلى قوله تعالى: [جُرُزاً]، والأول أصح.

وهي من أفضل سور القرآن، رُوي أن النبي ﷺ قال: (ألاَ أُخبركم بسورة (مَلأَ)[١] عِظَمُهَا ما بين السموات والأرض، ولمن جاء بها من الأجر مثل ذلك)؟ قالوا: أي سورة هي يا رسول الله؟ قال: (سورة الكهف، من قرأ بها يوم الجمعة غفر له ما بين الجمعة إلى الجمعة الأخرى ـ وزيادة ثلاثة أيام في رواية أنس ـ، ومن قرأ بها أُعطي نوراً بين السماء والأرض، وَوُقي بها فتنة القبر)[٢].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ۝٥﴾.

كان حفص عن عاصم يسكت عند قوله تعالى: (عِوَجَا) سكتةً خفيفةً، وعند (مَرْقَدِنَا) في يَس[٣]، وسبب هذه البُدَاءَةِ في هذه السورة أن رسول الله ﷺ لما سألته

(١) زيادة عن القرطبي وفتح القدير.

(٢) أخرجه ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها، وذكره إسحق بن عبد الله بن أبي فروة، كما ذكره الثعلبي والمهدوي بمعناه. وأخرج أحمد، والبخاري، ومسلم، وابن الضريس، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن أبي العالية، قال: قرأ رجل سورة الكهف وفي الدار دابَّة، فجعلت تنفر، فينظر فإذا ضبابة أو سحابةٌ غشيته، فذكر للنبي ﷺ، قال اقرأ فلانُ فإنها السكينة نزلت للقرآن. وأخرج الطبراني أن هذا الرجل هو أُسَيد بن حضير.

(٣) في قوله تعالى في الآية (٥٢): ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

قريش عن المسائل الثلاث: الرُّوح والكهف وذي القرنين ـ حسبما أمرتهم به يهود ـ قال لهم رسول الله ﷺ: (غداً أُخبركم بجواب سؤالكم)، ولم يقل: «إن شاء الله»، فعاتبه الله تعالى بأن أمسك عنه الوحي خمسة عشر يوماً، فأرجف به كفار قريش، وقالوا: إن محمداً قد تركه رئيُّه الذي كان يأتيه من الجن، وقال بعضهم: قد عجز عن أكاذيبه، إلى غير ذلك، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، وبلغ منه، فلما أن قضي الأمر الذي أراد الله تعالى عتاب محمد ـ ﷺ ـ عليه، جاء الوحي من الله تعالى بجواب الأسئلة وغير ذلك، فافتتح الوحي بحمد الله الذي أنزل على عبده الكتاب، أي: بزعمكم أنتم يا قريش، كما تقول لرجل يحبُّ مساءَتَك فلا يرى إلاَّ نعمتك: الحمد لله الذي أنعم عليَّ وفعل بي كذا، على جهة النعمة عليه. و«الكتاب» هو القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ أي: لم يُزِلْه عن طريق الاستقامة، و«الْعِوَجُ» فقدُ الاستقامة، وهو بكسر العين في الأمور والطرق وما لا يحسُّ منتصباً شخصاً، و«الْعَوَجُ» بفتح العين في الأشخاص، كالعصا والحائط ونحوه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يجعله مخلوقاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ يعم هذا وجميع ما ذكر من أنه لا تناقض فيه، ومن أنه لا خَلَلَ ولا اختلاف فيه.

وقوله تعالى: (قَيِّماً) نصب على الحال من (ٱلْكِتَابَ)، فهو بمعنى التقديم مُؤَخَّر في اللفظ، أي: أنزل الكتاب قيِّماً، واعترض بين الحال وذي الحال قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾. ذكر الطبريُّ هذا التأويل عن ابن عباس رضي الله عنهما، ويجوز أن يكون [مَنْصُوباً][(١)] بفعل مضمر تقديره: أنزله، أو جعله قيِّماً، وفي بعض مصاحف الصحابة: «وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا وَلَكِنْ جَعَلَهُ قَيِّماً»، قاله قتادة. ومعنى «قَيِّم»: مستقيم، هذا قول ابن عباس، والضحاك، وقيل: معناه أنه قَيِّمٌ على سائر الكتب بتصريفها. ذكره المهدوي.

---

(١) ما بين العلامتين زيادة لتوضيح المعنى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا محتمل، وليس من الاستقامة. ويحتمل أن يكون معنى «قَيِّم» قيامُه بأمر الله تبارك وتعالى على العالم، وهذا المعنى يؤيده ما بعده من النِّذارة والبشارة اللَّذَيْنِ عَمَّا العالم. و«الْبَأْسُ الشَّدِيدُ»: عذابُ الآخرة، ويحتمل أن يندرج معه في النذارة عذاب الدنيا ببذرٍ وغيرها، ونصبه على المفعول الثاني، والمعنى: لِيُنْذر العالَم، وقوله تعالى: (مِنْ لَدُنْهُ) أي: من عنده ومِنْ قِبَله، والضمير عائد على الله تعالى. وقرأ الجمهور: ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ بضم الدال وسكون النون وضم الهاء، وقرأ عاصم من رواية أبي بكر: [مِنْ لَدْنِه] بسكون الدال وإشْمام الضم فيها وكسر النون والهاء. وفي (لدن) لغات، يقال: لَدُن مثل سَبُع، ولَدْن بسكون الدال، ولُدْن بضم اللام، ولَدَن بفتح اللام والدال، وهي لفظة مبنية على السكون، ويلحقها حذف النون مع الإضافة، وقرأ عبد الله، وطلحة: [وَيَبْشُرَ] بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين. وقوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا﴾ تقديره: بأن لهم أجراً، و«الأجر الحسن»: نعيم الجنة، ويتقدمُه خير الدنيا. و(مَاكِثِينَ) حالٌ من الضمير في (لَهُمْ)، و(أَبَداً) ظرف؛ لأنه دالٌّ على زمن غير متناهٍ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد أشرنا في تفسير هذه الآية إلى أمر اليهود قريشاً بسؤال رسول الله ﷺ عن المسائل الثلاث، وينبغي أن نَنُصَّ كيف كان ذلك.

ذكر ابن إسحق عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند أنه قال: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهما: سلاهم عن محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وصِفَا لهم صفته، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ، فقالت لهما أحبار اليهود: سَلُوهُ عن ثلاث، فإن أخبركم بهنَّ فهو نبيٌّ مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل فَرَوْا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنهم كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الرُّوح، فأقبل النَّضْرُ وعُقْبة إلى مكة، وسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك[1]، وكان من الأمر ما ذكرناه.

---

(١) أخرجه ابن إسحق، وابن جرير الطبري، وابن المنذر، وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن ابن=

وقوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ الآية. أهل هذه المقالة هم بعض اليهود في عُزَير، والنصارى في المسيح، وبعض العرب في الملائكة. والضمير في [بِهِ] يحتمل أن يعود على القول الذي يتضمنه [قَالُوا] المتقدم، وتكون جملة قوله: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ في موضع الحال، أي: قالوا جاهلين. ويحتمل أن يعود على «الولد»، أي: لا علم لهم بهذا الولد الذي ادَّعَوْه، فتكون الجملة صفةً لقوله: «وَلَداً»، قاله المهدوي، وهو معترض؛ لأنه لا يصفه إلاَّ القائل، وهم ليس في مقصدهم أن يصفوه. والصواب عندي أنه نفي مُؤْتَنف، أخبر الله تعالى به بجهلهم في ذلك، فلا موضع للجملة من الإعراب، ويحتمل أن يعود على الله تعالى، وهذا التأويل أذَمُّ لهم، وأقضى بالجهل التَّامّ عليهم، وهو قول الطبري[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾، يريد الذين أخذ هؤلاء هذه المقالَة عنهم.

وقرأ الجمهور: (كَبُرَتْ كلمةً) بنصب [كَلِمَةً]، كما تقول: نعم رجلاً زيد، وفسَّر الكلمة وصْفُها بالخروج من أفواههم، وقال بعضهم: نصبها على التفسير، على حدِّ نصب قوله: ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[2]، وقالت فرقة: نصبها على الحال، ، التقدير: كبرت فِرْيَتُهم ـ أو نحو هذا ـ كلمةً، وسُمِّيت هذه الكلمات كلمةً من حيث هي مقالة واحدة، كما يقولون للقصيدة: كلمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه المقالة قائمة هي في التفسير معنىً واحداً فيَحْسُن أن تُسَمَّى كلمة. وقرأ الحسن، ويحيى بن يَعْمَر، وابن محيض، والقواس عن ابن كثير: [كَلِمَةٌ] بالرفع على أنها فاعلةٌ بـ[كَبُرَتْ]. وقوله تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾، أي: ما يقولون إلاَّ كذباً، فهي النافية.

= عباس رضي الله عنهما. وقول المؤلف: «وسألوا» يعني قريشاً.

(١) ويحتمل أيضاً أن يعود الضمير في [بِهِ] على «الاتخاذ» المفهوم من قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾، والمعنى: ما لهم بحكمة الاتخاذ من عِلْم.

(٢) من الآية (٢٩) من هذه السورة (الكهف).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾.

هذه آية تسلية للنبي ﷺ، وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ تقرير وتوقيف بمعنى الإنكار عليه، أي: لا يكن كذلك. و«الباخِعُ نفْسَهُ» هو مُهْلكها وَجْداً وحزناً على أمرٍ ما، ومنه قول الشاعر:

أَلاَ أَيّهـذَا البـاخِـعُ الـوَجْـدُ نفْسـهُ   لِشَـيْءٍ نحَتْـهُ عَـنْ يـدَيْـهِ الْمَقـادِرُ[1]

يريد: (نَحَّتْه) فخفف.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ استعارة فصيحة، من حيث لهم إدبارٌ وتباعد عن الإيمان، وإعراضٌ عن الشرع، فكأنهم من فرط إدبارهم قد بعدوا فهو في آثارهم يحزن عليهم. وقوله سبحانه: ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾، أي: بالقرآن الذي نحدثك به، و[أَسَفاً] نصب على المصدر، قال الزجاج: والأسف: المبالغة في حُزْن أو غضب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأسف ـ في هذا الموضع ـ الحزن؛ لأنه على من لا يملك ولا هو تحت يد الآسِفِ، ولو كان الأَسَفُ من مُقْتدرٍ على من هو في قبضته ومُلْكه لكان غضباً، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾[2]، أي: أغضبونا، وإذا تأملت هذا في كلام العرب اطَّرَد، وذكره منذر بن سعيد، وقال قتادة هنا: ﴿أَسَفاً﴾: غضباً، وقال مجاهد: ﴿أَسَفاً﴾: جَزَعاً، وقال قتادة أيضاً: حُزْناً، ومن هذه اللفظة قول الأعشى:

أَرَى رَجـلاً مِنكُـمْ أَسِيفـاً كَـأَنَّمَـا   يَضُـمُّ إلَـى كَشْحَيْـهِ كَفّـاً مُخَضَّبـاً[3]

---

(١) قائل هذا البيت هو ذو الرُّمَّة، وهو في اللسان والتاج والأساس (بَخَ)، وفي مجاز القرآن، والطبري، والقرطبي، ، الراغب، والصحاح، وفتح الباري، والبحر المحيط، ونسبه فيه للفرزدق. والباخِعُ: المُهْلِكُ نفسَه. ونَحَّتْه: أبعدته وصرفته عن يديه، وهو بتشديد الحاء ولكن الشاعر خفف لضرورة الشعر.

(٢) من الآية (٥٥) من سورة (الزخرف).

(٣) البيت من قصيدة قالها الأعشى يهجو عمرو بن المنذر، ويعاتب بني سعد بن قيس، ويقول في مطلعها: =

يريد: حزيناً كأنه مقطوع اليد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ الآية بَسْطٌ في التَّسلية، أي: لا تهتم للدنيا وأهلها، فأمرها وأمرهم أقلُّ لفنائه وذهابه، فإنا إنما جعلناها على الأرض زينة أو امتحاناً وخبرة.

واختُلف في المراد بها ـ فقال ابن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: أراد الرجال، وقاله مجاهد. وروي عن عكرمة عن ابن عباس أن الزينة الخلفاءُ والعلماءُ والأمراءُ. وقالت فرقة: أراد النعم والملابس والثمار والخضرة والمياه ونحو هذا مما فيه زينة، ولم تدخل في هذا الجبال الصم وكل ما لا زيْن فيه كالحيَّات والعقارب. وقالت فرقة: أراد كل ما على الأرض، وليس شيءٌ إلا وفيه زينة من جهة خلقه وصنعته وإحكامه، وفي معنى الآية قول النبي ﷺ: (الدنيا حلوةٌ خَضِرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتَّقوا الدنيا، واتَّقوا النساء)(١). و[زينَةً] مفعول ثان، أو

= كَفَى بِالَّذِي تُولِينَهُ لَوْ تَجَنَّبَا ... شِفَاءً لِسُقْمٍ بَعْدَ مَا عَادَ أَشْيَبَا

والأسيف: الحزين، والكَشْحان: مُثنّى كَشْح، وهو ما بين الخاصرة والضلوع، والمُخَضَّب: المصبوغ بالدم، يصف الرجل بأنه حزين جدّاً كأنما قد تخضبت كفه بالدماء فهو يضمها إلى جنبه.

(١) أخرجه الترمذي في الفتن والزهد، وابن ماجه في الفتن، والدارمي في الرقاق، وأحمد في مسنده (٣ـ٧، ١٩، ٣٣، ٤٦، ٦١، ٧٤، ٦ـ٦٨). ولفظه كما في مسند أحمد (٣ـ١٩)، عن أبي سعيد الخدري، قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة بعد العصر إلى مُغَيْربان الشمس، حفظها منَّا من حفظها، ونسيها منّا من نسي، فحمد الله ـ قال عفَّان وقال حماد: وأكثر حفظي أنه قال: بما هو كائن إلى يوم القيامة ـ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن الدنيا خَضِرَةٌ حُلْوة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظِرٌ كيف تعملون، ألا فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، ألا إنَّ بني آدم خُلِقوا على طبقات شتَّى، منهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً، ومنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً، ألا إن الغضب جمرة توقَّدُ في جوف ابن آدم، ألا تَرَوْن إلى حُمْرَة عينيه وانتفاخ أوداجه؟ فإذا وجد أحدكم شيئاً من ذلك فالأرضَ الأرضَ، ألا إن خير الرجال من كان بطيءَ الغضب سريع الرِّضا، وشَرَّ الرجال من كان سريع الغضب بطيء الرضا، فإذا كان الرجل بطيء الغضب بطيء الفيْءِ وسريع الغضب وسريع الفيء فإنها بها. ألا إن خير التجار من كان حَسَن القضاء حَسَن الطلب، وشرَّ التجار من كان سَيِّءَ القضاء سَيِّءَ الطلب، فإذا كان الرجل حسن القضاء سَيِّءَ الطلب أو كان سَيِّءَ القضاء حسن الطلب فإنها بها، ألا إن لكلِّ غادرٍ لواءً يوم القيامة بقدر غدرته، ألا وأكبر الغدر غدر أمير عامة. ألا لا يمنعن رجلاً مهابةُ الناس أن يتكلمَ بالحق إذا علمه، ألا إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر. فلما كان عند مغيربان =

مفعول من أجلهَ بحسب معنى (جعلَ)[(١)].

وقوله تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ معناه: لنختبرهم، وفي هذا وعيدٌ مَّا. قال سفيان الثوري: أحسنهم عملاً: أزهدهم فيها، وقال أبو عصام العسقلاني: أَحْسَنُ عَمَلاً: أترَكُ لها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكان أبي رحمه الله يقول: أَحْسَنُ العمل: أَخْذٌ بحق، وإنفاق في حق مع الإيمان، وأداءُ الفرائض، واجتنابُ المحارم، والإكثارُ من المندوب إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾، أي: يرجع كلُّ ذلك تراباً غير مُتزَيِّن بنباتٍ ونحوه، و«الْجُرُزُ»: الأرض التي لا شيء فيها من عمارة وزينة، وهي البلقع، وهي حالة الأرض العامرة بالزَّيْن، ولا بُدَّ لها من هذا الدنيا جزءاً جزءاً من الأرض، ثم يعمُّهَا ذلك بأجمعها عند القيامة، يقال: جرزت الأرض بقحط أو جرادٍ ونحوه إذا ذهب نباتها وبقيت لا شيء فيها ولا نفع. وأرضون أجراز. وقال الزجاج: الجُرُزُ: الأرض التي لا تُنْبِتُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما ينبغي أن يقول: التي لم تُنْبت. و«الصَّعيدُ»: وجه الأرض، وقيل: الصَّعيد: التراب خاصة، وقيل: الصعيد: الأرض الطيبة، وقيل: الصعيد: الأرض المرتفعة من الأرض المنخفضة.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ الآية. مذهب سيبويه في (أَمْ) إذا جاءت قبل أن تتقدمها ألف استفهام أنَّها بمعنى (بَلْ) و(أَلِف الاستفهام)، كأنه قال: بل أحَسِبْتَ؟ إضراباً عن الحديث الأول واستفهاماً عن الثاني. وقال بعض النحويين: هي بمنزلة ألف الاستفهام، وأما معنى الكلام فقال الطبريُّ: هو تقرير للنبي ﷺ على حسابه أن أصحاب الكهف أَتَوْا عجباً، بمعنى إنكار ذلك عليه، أي: لا تُعَظِّم ذلك بحسب ما عظَّمه عليك السائلون من الكفرة، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم وأشنع، وهو قول ابن

= الشمس قال: ألا إن مثل ما بقي من الدنيا فيما مضى منها مثل ما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه.

(١) تكون مفعولاً ثانياً إذا كانت (جَعَلَ) بمعنى: صَيَّر. وتكون مفعولاً من أجله إذا كانت (جَعَلَ) بمعنى: خَلَق وأَوْجَد، ويجوز في هذه الحالة أيضاً أن تكون حالاً.

عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن إسحق. وذكر الزهراوي أن الآية تحتمل معنىً آخر، وهو أن تكون استفهاماً له، هل عَلِمَ أن أصحاب الكهف كانوا عجباً؟ بمعنى إثبات أنهم عجبٌ، وتكون فائدة تقريره جمع نفسه للأمر؛ لأن جوابه أن يقول: لم أحسب ذلك ولا علمته، فيقال له وَصْفُهُم عند ذلك، والتَّجوز في هذا التأويل هو في لفظة [حَسِبْتَ]، فتأمَّله.

و«الكَهْفُ»: الثُّقب المُتَّسع في الجبل، وما لم يتسع منها فهو غارٌ. وحكى النحاسُ عن أنس بن مالك أنه قال: الكهْفُ: الجبلُ، وهذا غير شهير في اللغة. واختلف الناس في «الرَّقيم» ـ فقال كعب: الرَّقيم: القرية التي كانت بإزاء الكهف، وقال ابن عباس، وقتادة: الرَّقيم: الوادي الذي كان بإزائه، وهو واد كان بين غضبان وأيلة(١) دون فلسطين. وقال ابن عباس أيضاً: هو الجبل الذي فيه الكهف. وقال السدي: الرَّقيم: الصخرة التي كانت على الكهف، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الرَّقيم: كتابٌ مرقوم كان عندهم، فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام، وقيل: من دين قبل عيسى عليه السلام، وقال ابن زيد: كتاب عمَّى الله تعالى علينا أمره ولم يشرح قصته. وقالت فرقة: الرَّقيم: كتاب في لوح من نحاس، وقال ابن عباس: في لوحين من رصاص كَتَب فيهما القومُ الكفارُ الذين فرَّ الفتية منهم قصَّتَهم، وجعلوها تاريخاً لهم، ذكروا وقت فقدهم، وكم كانوا، وبني من كانوا. وقال سعيد بن جبير: الرَّقيم: لوح من حجارة كتبوا فيها قصة أصحاب الكهف، ووضعوه على باب الكهف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويظهر من هذه الروايات أنهم كانوا قوماً مؤرخين للحوادث، وذلك من قبل المملكة(٢)، وهذا أمر مفيد، وهذه الأقوال مأخوذة من الرَّقْم، ومنه: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾(٣)،

---

(١) الذي في الطبري: (بين عُسْفان وأيْلَة)، والخبر في الدر المنثور بدون ذكر أيٍّ واحدة منهما، وكذلك في القرطبي. وأيْلَة: مدينة صغيرة على ساحل بحر القُلْزم (البحر الأحمر) مما يلي الشام. قاله في معجم البلدان، وهي معروفة الآن، وتقع في رأس خليج العقبة.

(٢) في بعض النسخ: (من نُبْل المملكة)، (أي مما يتصف به أهلها من النُّبْل)، فهم يدوِّنون التاريخ لمن بعدهم.

(٣) الآيتان (٩، ٢٠) من سورة (المطففين).

ومنه: «الأَرْقَمُ» لِتَخْطيطه[(١)]، ومنه: «رَقْمَةُ الْوَادي»، أي: مكان جَرْيِ الماء وانعطافه، يقال: عليك بالرقمة وخَلِّ الضَّفة[(٢)].

وقال النقاش عن قتادة: الرَّقيم: دراهِمُهُم، وقال أنس بن مالك، والشعبي: الرَّقيم: الكلب، وقال عكرمة: الرَّقيم: الدَّواة، وقالت فرقة: الرَّقيم كان لِفِتْيَةٍ آخرين جرى لهم ما جرى لأهل الكهف. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما أدري ما الرَّقيم، أَكِتَابٌ أَمْ بُنْيَانٌ؟ وروي أنه قال: كلُّ القرآن أعلمه إلاَّ: الحَنَان، والأَوَّاه، والرَّقيم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾.

[ٱلْفِتْيَةُ] فيما رُوي: قومٌ من أبناء أشراف مدينة دَقْيوس الملك الكافر، ويقال فيه: دَقْليوس، ويقال: دقينوس. ورُوي أنهم كانوا مُطَوَّقين مُسوَّرين بالذهب، وهم من الرُّوم، واتبعوا دين عيسى عليه السلام، وقيل: كانوا قبل عيسى، وأما أسماؤهم فهي أعجميَّة والسَّند في معرفتها واهٍ، ولكن التي ذكر الطبريُّ هي هذه: مَكْسَيْلَمينا، وهو أكبرهم والمتكلم عنهم، ومَجْسَيْلَمينيا، وتَمْلِيخا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهو الذي مضى بالورق إلى المدينة عند بعثهم من رقدتهم. ومَرْطوس، وكَشُوطُوقش، وبَيْرُونس، ودِينَمُوس، ويُطُونِس[(٣)].

واختلف الرواة في قصص هؤلاءِ الفتية، وكيف كان اجتماعهم وخروجهم إلى

---

(١) في اللسان: الأرقم من الحيَّات: ما فيه سوادٌ وبياضٌ.

(٢) قال الطبري: «هذا بمعنى: عليك برَقْمة الوادي حيث الماءُ، ودَعِ الضَّفة الجانبة، والضفتان: جانبا الوادي». وقد ضبطها محقق القرطبي بالصاد المهملة، والصواب ما ذكرناه. والضَّفة تكون بفتح الضاد المشددة وتكون بكسرها.

(٣) اختلفت النسخ الأصلية في ضبط هذه الأسماء، وفي حروفها، وقد تحرينا الصواب بقدر الإمكان، وقد أحسن المؤلف حين قال: «والسَّند في معرفتها واهٍ».

الكهف، وأكْثَرَ المؤرخون في ذلك، ولكن نختصر من حديثهم، ونذكر ما لا تستغني الآية عنه، ونذكر من الخلاف عيونه بحول الله.

روى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هؤلاء الفتية كانوا في دين مِلك يعبد الأصنام، ويذبح لها، ويكفر بالله سبحانه وتعالى، وقد تابعه على ذلك أهل المدينة، فوقع لِلْفِتية علم من بعض الحواريِّين ـ حسبما ذكره النقاش ـ أو من بعض مؤمني الأمم قبلهم ـ بحسب الخلاف الذي ذكرناه ـ، فآمنوا بالله، ورأوْا ببصائرهم قبيح فعل الناس، فأخذوا نفوسهم بالتزام الدين وعبادة الله تعالى، فَرُفع أمرهم إلى الملك، وقيل له: إنهم فارقوا دينك، واستخَفُّوا بآلهتك وكفروا بها، واستحضرهم الملك في مجلسه، وأمرهم باتباع دينه والذبح لآلهته، وتوعدهم على فراق ذلك بالقتل، فقالوا له ـ فيما روي ـ: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية، إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾.

ورُوي أنهم قالوا نحو هذا الكلام، وليس به، فقال لهم الملك: إنكم شباب أغمارٌ، لا عقول لكم، وأنا لا أعجل بكم بلْ أسْتأْني، فاذهبوا إلى منازلكم فدبِّرُوا أمركم وارجعوا إلى أمري، وضرب لهم في ذلك أجلاً، ثم إنه سافر خلال الأجل، فتشاور الفتية في الهروب بأديانهم، فقال لهم أحدهم: إني أعرف كهفاً في جبل كذا كان أبي يدخل فيه غنمة، فلنذهب إليه فنختفي فيه حتى يفتح الله لنا، فخرجوا ـ فيما رُوي ـ يلعبون بالصولجان والكُرَة، وهم يدحرجونها إلى نحو طريقهم لئلا يشعر الناس بهم، وقيل: إنهم كانوا مُثَقَّفين فحضر عيد خرجوا له فركبوا في جملة الناس، ثم أخذوا في اللعب بالصولجان حتى خلصوا بذلك.

وروت فرقة أن أمر أصحاب الكهف إنما كان أنهم كانوا من أبناء الأشراف، فحضر عيدٌ لأهل المدينة، فرأى الفتيانُ ما يمتثله الناس في ذلك العيد من الكفر وعبادة الأصنام والذبح لها، فوقع الإيمان في قلوبهم، وأجمعوا على مفارقة الناس لئلاً ينالهم العذاب معهم، فزايلوا الناس وذهبوا إلى الكهف.

وروى وهبُ بن منبه أن أمرهم إنما كان أن حوارياً لعيسى بن مريم عليه السلام جاء إلى مدينة أصحاب الكهف يريد دخولها، فأجر نفسه من صاحب الحمَّام، فكان يعمل فيه، فرأى صاحب الحمَّام في أعماله بركة عظيمة، فألقى إليه بكل أمر، وعرف ذلك

الرجلَ فتيانٌ من أهل المدينة، فنشر فيهم الإيمان، وعرَّفهم الله تعالى، فآمنوا واتبعوه على دينه، واشتهرت خُلْطتهم به، فأتى يوماً إلى ذلك الحمَّام وَلَدُ الملك بامرأة بَغِيٍّ أراد الخلوة بها، فنهاه ذلك الحواري فانتهى، ثم جاءه مرَّة أخرى فنهاه وشتمه، فأمضى عزمه على دخول الحمَّام مع البغي، فدخل فماتا به جميعاً، فاتُّهم ذلك الحواري وأصحابه بقتله، ففروا جميعاً حتى دخلوا الكهف.

وقال عبيد بن عمير: إن أصحاب الكهف كانوا فتية من أبناء العظماء مطوَّقين مسوَّرين ذوي ذوائب، قد داخلهم الإيمان أفذاذاً[1]. وأزمع كل واحد منهم الفرار بدينه من بلد الكفر، فأخرجهم الله في يوم واحد أراد بهم، فخرج أحدهم فجلس في ظِلِّ شجرة على بعد من المدينة، فخرج ثانٍ، فلما رأى الجالس جلس إليه، ثم الثالث، ثم الباقون حتى كمل جمعهم في ظلِّ الشجرة، فألْقى الله في نفوسهم أن غرضهم واحد، فتساؤلوا، ففزع بعضهم من بعض وتكتموا، ثم تراضوا برجليْن منهم، وقالوا: انْفَرِدَا وتَوَاثَقَا ولْيُفْشِ كلٌّ واحد منكما سرَّه إلى صاحبه، فإن اتَّفَقْتُما كنَّا معكما، فنهضا بعيداً فأفصحا بالإيمان والهروب بالدين، فرجعا وفضحا الأمر، وتابعهما الآخرون، ونهضوا إلى الكهف.

وأما الكَلْبُ فرُوي أنه كان كلب صيد لبعضهم، ورُوي أنهم وجدوا في طريقهم راعياً له كلبٌ، فاتَّبعهم الراعي على رأيهم، وذهب الكلب معهم، واسم الكلب حمران، وقيل: قطمير. فدخلوا الغار على جميع هذه الأقوال.

فروت فرقة أن الله تعالى ضرب على آذانهم عند ذلك لِمَا أراد من سترهم، وخفي على المملكة مكانهم، وعجب الناسُ من غرابة فقدهم فأرَّخوا ذلك ورقموه في لوحين من رصاص أو نحاس، وجعلوه على باب المدينة، فيه أسماؤُهم وأسماءُ آبائهم وذكر شرفهم، وأنهم فقدوا بصورة كذا في وقت كذا. وقيل: إن الذي كتب هذا وتهَمَّمَ به رجلان قاضيان مؤمنان يكتمان إيمانهما من أهل بيت المملكة، وتسَتَّرا بذلك ودفنا اللوحين عندهما، وقيل على هذه الرواية: إن الملك أتى باب الغار، وأنهما دفنا ذلك في بناء الملك على الغار.

وروت فرقة أن الملك لما ذهب الفتية أمر بقَصِّ آثارهم، فانتهى ذلك لمُتَّبِعِيهِم إلى

---

(١) أي: أفراداً.

باب الغار، فعرف الملك فركب في جنده حتى وقف عليه، فأمر بالدخول عليهم، فهاب الرجال ذلك، فقال له بعض وزرائه: أَلَسْتَ أيها الملك إنْ أخرجتهم قتلتهم؟ قال: نعم، قال: فأي قتلة أبلغ من الجوع والعطش، ابنِ عليهم باب الغار ودعهم يموتون فيه، فَفَعَل، وضرب الله تعالى على آذانهم قبل ذلك لما أراد من تأمينهم، وأرَّخ الناسُ أمرهم في اللوحين، أو أرخه الرجلان بحسب الخلاف، واسم أحد الرجلين ـ فيما ذكر الطبري ـ نيدروس، واسم الآخر روقاس.

ورُوي أن هذا الملك الذي فرَّ الفتية من دينه كان قد امتحن الله به المؤمنين حيث أحسَّ بهم، يقتلهم يُعَلِّقهم أشخاصاً ورؤوساً على أسوار مدينته، وكان يريد أن يذهب في ذلك ـ كما ذكر ـ دين عيسى عليه السلام، وكان هو وقومه من الرُّوم.

ثم أخبر الله تعالى عن الفتية أنهم لما آوَوْا إلى الكهف، أي: دخلوه وجعلوه مأوى لهم وموضع اعتصام، دعوا الله تعالى بأن يُؤْتيهم رحمةً من عنده، وهي الرِّزْق فيما ذكره المفسرون، وأن يُهَيِّىءَ لهم من أمرهم رشداً، أي: خلاصاً جميلاً، وقرأ الجمهور: ﴿رَشَدًا﴾ بفتح الراء والشين، وقرأ أبو رجاءٍ: [رُشْداً] بضم الراء وسكون الشين، والأول أرجح لشبهها بفواصل الآيات قبلُ وبعدُ. وهذا الدعاءُ منهم كان في أمر دنياهم، وألفاظه تقتضي ذلك، وقد كانوا على ثقة من رشد الآخرة ورحمتها.

وينبغي لكل مؤمن أن يجعل دعاءه في أمر دنياه هذه الآية فقط، فإنها كافية. ويحتمل ذكر الرحمة أن يُراد بها أمْرُ الآخرة. وقد اختصرتُ هذا القَصَصَ، ولم أُغْفِل من مُهِمِّه شيئاً بحسب اجتهادي. والله المعين برحمته.

وقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ الآية، عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم، ويُعَبَّر عن هذا ونحوه بالضرب لِتَتَبَيَّن قوةُ المباشرة وشدةُ اللصوق في الأمر المتكلَّم فيه والإلزامُ. ومنه ضرْبُ الذل والمسكنة، ومنه ضرْبُ الجزية وضربُ البعث، ومنه قول الفرزدق:

ضَـرَبَـتْ عَلَيْـكَ العَنْكَبُـوتُ بِنَسْجِهَـا وَقَضَى عَلَيْكَ بِهِ الكِتَابُ المُنْزَلُ(١)

---

(١) البيت من قصيدته المشهورة التي قالها في هجاء جرير وقومه، والتي بدأها قائلاً:

إنَّ الَّـذي سَمَـكَ السَّمـاء بَنَـى لَنَـا بَيْتـاً دَعَـائِمُـهُ أَعَـزُّ وأَطْـوَلُ =

فهو يستعمل في اللزوم البليغ.

وأما تخصيص الآذان بالذكر فلأنها الجارحة التي منها عُظْم فساد النوم، وقلَّما ينقطع نوم نائم إلاَّ من جهة أُذنه، ولا يستحكم النوم إلاَّ مع تعطُّل السَّمع، ومن ذِكْر الأُذن في النوم قوله ﷺ: (ذلك رجلٌ بال الشيطان في أُذنه)[1]، أشار عليه الصلاة والسلام إلى رجل طويل النوم، لا يقوم باللَّيْل.

وقوله تعالى: [عَدَداً] نعتٌ لِلسِّنين، والقصد به العبارة عن التكثير، أي: تحتاج إلى عدد، وهي ذاتُ عدد. قال الزجاج: ويجوز أن يكون نصب [عَدَداً] على المصدر.

و«البَعْثُ»: التحريك بعد سكون، وهذا مطردٌ مع لفظة البعث حيث وقعت، وقد يكون السكون في الشخص، أو عن الأمر المبعوث فيه وإن كان الشخص متحركاً. وقوله تعالى: (لِنَعْلَمَ) عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود، وهذا على نحو كلام العرب، أي: لنعلم ذلك موجوداً، وإلاَّ فقد كان الله تعالى عَلِمَ أيُّ الحزبَيْن أحصى الأمد. وقرأ الزهري: [لِيَعْلَمَ] بالياء. و«الْحِزْبانِ»: الفريقان، والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذا ظنوا لبثهم قليلاً، والحزب الثاني هم أهل المدينة الذين بُعث الفتية على عهدهم حتى كان عندهم التاريخ بأمر الفتية. وهذا قول الجمهور من المفسرين. وقالت فرقة: هما حزبان من الكافرين اختلفا في مدة أصحاب الكهف. وقالت فرقة: هما حزبان من المؤمنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا لا يرتبط من ألفاظ الآية.

وأمَّا قوله تعالى: [أَحْصَى] فالظاهر الجيد فيه أنه فعل ماض، و(أَمَداً) منصوب به

= ثم يمضي بعد تمجيد قومه إلى بيت جرير فيصفه بأنه زريبة للبهائم، وأن العنكبوت قد ضربت عليه خيوطها، وأن الفقر والذلة والهوان أُمور قد قضى بها الكتاب المنزل، فلا يملك جرير وقومه الفرار منها. والشاهد أن (ضَرَبَ) هنا بمعنى: إلزامهم بالذلة والمسكنة.

(١) أخرجه البخاري في التهجد وبدء الخلق، ومسلم في المسافرين، والنسائي في قيام الليل، وابن ماجه في الإمامة، وأحمد (١ـ٣٧٥، ٤٢٧، ٢/ ٢٦٠، ٤٢٧)، ولفظه كما في البخاري، عن عبد الله رضي الله عنه، قال: ذُكر عند النبي ﷺ رجلٌ، فقيل: ما زال نائماً حتى أصبح ما قام إلى الصلاة، فقال: (بالَ الشيطانُ في أُذنه).

على المفعول، و«الأَمَدُ»: الغاية، ويأتي عبارة عن المدة من حيث للمدة غاية هي أمدها على الحقيقة. وقال الزجاج: ﴿أَحْصَى﴾ هو أفعل، و﴿أَمَداً﴾ ـ على هذا ـ نصب على التفسير، ويلحق هذا القولَ من الاختلال أن (أَفْعَلَ) لا يكون من فعل رباعي إلاَّ في الشَّاذ، و﴿أَحصَى﴾ فعل رباعي. ويحتج لقول أبي إسحق بأن (أَفْعَل) من الرباعي مذكر، كقولك: ما أعطاه للمال وآتاه للخير، وقال النبي ﷺ في صفة جهنم: (هي أسود من القار)[1]، وقال في صفة حوضه عليه الصلاة والسلام: (أبيض من اللَّبن)[2]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «فهو لما سواها أَضْيع»، وهذه كلها (أَفْعَل) من الرباعي[3]، وقال مجاهد: ﴿أَمَداً﴾ معناه: غاية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تفسير بالمعنى، وعلى جهة التقريب، وقال الطبري: نصب ﴿أَمَداً﴾ بـ﴿لَبِثُوا﴾، وهذا غير مُتَّجه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾.

لما اقتضى قوله تعالى: ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ اختلافاً وقع في أمر الفتية عقَّب بالخَبر عن أنه عزَّ وجلَّ يعلم من أمرهم بالحق الذي وقع. وفي مجموع هذه الآيات جواب قريش عن سؤالهم الذي أمرتهم به بنوا إسرائيل. و«القَصُّ»: الإخبارُ بأمر

(١) أخرجه مالك في الموطأ، (جهنم) ـ (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، والترمذي في التفسير، وابن ماجه في الزهد. ولفظه كما رواه البخاري، عن عبد الله بن عمرو، قال النبي ﷺ: (حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منها فلا يظمأ أبداً).

(٣) من المعروف أن (أبيض وأسود) ليسا مبنيين من الرباعي، وقد وضَّح أبو حيان آراء بعض العلماء في بناء أفعل للتعجب وللتفضيل، وطبقها على ﴿أَحْصَى﴾ في هذه الآية، ويمكن الرجوع إلى ذلك في (البحر المحيط ٦ـ١٠٤).

يُسرد، لا بكلام يُرْوَى شيئاً شيئاً، لأن تلك المخاطبة ليست بقصص. وقوله تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ أي: يَسَّرْناهم للعمل الصالح، والانقطاع إلى الله عزَّ وجلَّ، ومباعدة الناس، والزهد في الدنيا، وهذه زيادات على الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عبارة عن شدَّة عزم وقوة صبر أعطاها الله لهم، ولما كان الفزع وخورَ النفس يشبه بالتناسب الانحلال، حَسُن في شِدَّة النفس وقُوَّة التَّصميم أن يشبه الرَّبْط، ومنه يقال: «فلانٌ رابط الجأش» إذا كان لا تفترق نفسه عند الجزع والحرب وغيرها، ومنه الرَّبط على قلب أُمِّ موسى. وقول تعالى: ﴿إذا قاموا فقالوا﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون وصف مقامهم بين يدي الملك الكافر؛ فإنه مقام يحتاج إلى الرَّبط على القلب، حيث طُلِبوا عليه، وخالفوا دينه، ورفضوا في ذات الله هيبته. والمعنى الثاني أن يُعَبَّر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى ومنابذة الناس، كما تقول: «قام فلان إلى أمر كذا» إذا عزم عليه بغاية الجد، وبهذه الألفاظ التي هي: ﴿قَامُوا فَقَالُوا﴾ تعلَّقت الصوفية في القيام والقول[1]، وقرأ الأعمش: «إذْ قَامُوا قِيَاماً فقالوا».

وقولهم: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾، اي: لو دعونا من دون ربنا إلهاً، و«الشَّطَطُ»: الجَوْرُ وتعدِّي الحدِّ والغُلُوُّ بحسب أمْرٍ أمْرٍ، ومنه: «اشْتَطَّ الرجل في السَّوْم» إذا طلب في سلعته فوق قيمتها، ومنه: شطوط النَّوى والبعد، ومنه قول الشاعر:

أَلاَ يـا لَقَـوْمِي قَـدْ أَشَطَّـتْ عَـوازلـي   وَيَزْعُمْنَ أَنْ أَوْدَي بِحَقِّيَ بَاطِلِي[2]

---

(١) نقل القرطبي قول ابن عطية هذا، ثم علَّق عليه بقوله: «وهذا تعلُّق غير صحيح، هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته، وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم، خائفين من قومهم، وهذه سنَّة الله في الرُّسل والأنبياء والفضلاء الأولياء، أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام؟ وخاصة في هذا الزمان عند سماع الأصوات الحسان من المُرْدِ والنسوان، هيهات، بينهما والله ما بين الأرض والسماء، ثم هذا حرام عند جماعة العلماء».

(٢) البيت للأحوص بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت الأنصاري، وهو في اللسان (شطط). قال: «وشاهد أشَطَّ بمعنى أبعد قول الأحوص: ألا يا لَقَوْمي . . البيت».

وهو أيضاً من شواهد أبي عبيدة في (مجاز القرآن)، ذكر الآية، وذكر البيت وبعده بيتاً آخر هو:

وَيَلْحَيْنَنِـــي فـــي اللَّهْـــوِ ألاَّ أُحِبَّـــهُ   وَلِلَّهْـوِ داعٍ دائـبٌ غَيْـرُ غَـافِـلِ

وللأحوص حديث في كتب الأدب يتناول نفيه إلى قرية باليمن لمجونه وفسقه، وأن بعض الناس =

وقوله تعالى: ﴿ هَٰؤُلَآءِ قَوْمُنَا ﴾ مقالة يصلح أن تكون مما قالوه في مقامهم بين يدي الملك، ويصِح أن تكون من قول بعضهم لبعض عند قيامهم للأمر الذي عزموا عليه. وقولهم: ﴿ لَّوْلَا يَأْتُونَ ﴾ تَخْضِيضٌ بمعنى التعجيز؛ لأنه تَخْضِيضٌ على ما لا يمكن؛ وإذا لم يمكنهم ذلك لم يجب أن يُلتفت إلى دعواهم. و«السُّلْطَان»: الحُجَّة، وقال قتادة: المعنى: بِعُذْرٍ بيِّن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه عبارة محلقة.

ثم عظَّم جُرْم الداعين مع الله آلهةً وظُلْمَهم بقوله ـ على جهة التقرير ـ: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ ﴾ الآية. إنْ كان «القيامُ» في قوله سبحانه: ﴿ إِذْ قَامُوا ﴾ عَزْماً ـ كما تضمن التأويل الواحد، وكان «القول» منهم فيما بينهم ـ فهذه المقالةُ يصح أن تكون من قولهم الذي قالوه عند قيامهم؛ وإن كان «القيام» المذكور مقامَهم بين يدي الملك فهذه المقالة لا تترتب أن تكون من «مقالهم» بين يدي الملك، بل يكون في الكلام حذف تقديره: وقال بعضهم لبعض.

وبهذا يترجَّح أن قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا ﴾ إنما المراد به: إذْ عزموا ونفذوا لأمرهم.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾، إن فرضنا الكفار الذين فَرَّ أهل الكهف منهم لا يعرفون الله تعالى، ولا عِلْمَ لهم به، إنَّمَا يعتقدون الأُلوهية في أصنامهم فقط، فهو استثناءٌ منقطع ليس من الأول، وإن فرضناهم يعرفون الله تعالى ويعظمونه كما كانت تفعل العرب، لكنهم يشركون أصنامهم معه في العبادة، فالاستثناءُ متصل؛ لأن الاعتزال وقع في كل ما يعبد الكفَّار إلاَّ في جهة الله تعالى. وفي مصحف ابن مسعود: «وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ»، قال قتادة: هذا تفسيرها، قال هارون: وفي بعض مصاحفه: «وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِنَا».

= كلم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ليعيده فرفض مستشهداً بكثير من شعره في المجون، مع أنه من ذرية الصحابي الجليل عاصم بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه «حميِّ الدَّبْر»، أي الذي حمته النحل من أن يُمثل الكفار بجثته بعد قتله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى ما قال قتادة تكون ﴿إِلَّا﴾ بمنزلة «غَيْر»، و﴿مَا﴾ من قوله: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ في موضع نصب عطفاً على الضمير في ﴿اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ وَمُضَمَّن هذه الآية أن بعضهم قال لبعض: إذْ فارَقْنَا الكفار وانفردنا بالله تعالى فَلْنَجْعَل الكهف مَأْوى، ونتّكل على الله تعالى، فإنه يبسط لنا رحمته، وينشرها علينا، ويُهَيِّىءْ لنا من أمرنا مرفقاً، وهذا كله دعاءٌ بحسب الدنيا، وعلى ثقة كانوا من الله تعالى في أمر آخرتهم.

وقرأ نافع، وابن عامر: [مَرْفِقاً] بفتح الميم وكسر الفاء، وهو مصدر كالرِّفْق فيما حكى أبو زيد، وهي قراءة أبي جعفر، والأعرج، وشيبة. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرٍو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، والحسن، وطلحة، والأعمش، وابن أبي إسحق: ﴿مِرْفَقًا﴾ بكسر الميم وفتح الفاء، ويقالان جميعاً في الأمر وفي الجارحة، حكاه الزجاج، وذكر مكيٌّ عن الفراء أنه قال: لا أعرف في الأمر وفي اليد وفي كل شيءٍ إلاَّ كسر الميم، وأنكر الكسائي أن يكون «المَرْفِق» من الجارحة إلاَّ بفتح الميم وكسر الفاء، وخالفه أبو حاتم وقال: «المَرْفِق» بفتح الميم الموضعُ كالمسجد، وهما بعد لغتان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾.

بيْن هاتَيْن الآيَتَيْن اقتضاب يُبَيِّنُه ما تقدم من الآيات، وتقديره: فَأوَوْا وضَرَب الله على آذانهم، ومكثوا كذلك.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: [تَزَّاوَرُ] بتشديد الزاي وإدغام التاء، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿تَزَاوَرُ﴾ بتخفيفها، بتقدير: تَتَزاوَرُ، فحذفت إحدى التاءين، وقرأ ابن عامر، وابن أبي إسحاق، وقتادة: [تَزْوَرُّ] على وزن تَحْمَرُّ، وقرأ الجحدري، وأبو رجاءٍ: [تَزْوَارُّ] بألف بعد الواو. ومعنى اللفظة على كل هذا التصريف: تَعْدِلُ وتزوغُ وتميل، وهذه عباراتُ المفسرين، أما إن الأخفش قال:

[تَزْوَرُّ] معناه: تَنْقَبِضُ، والزَّوَرُ: المَيْلُ[(١)]، والأَزْوَرُ في العين: المائل النظر إلى ناحية، ويستعمل في غير العين، كقول ابن أبي ربيعة:

. . . . وجَنْبِي خيفَةَ الْقَوْمِ أَزْوَرُ[(٢)]

ومن اللفظة قول عنترة:

فَازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ الْقَنَا بِلَبَانِهِ . . . .[(٣)]

ومنه قول بشر بن أبي خازم:

تَؤُمُّ بهَا الحُدَاةُ مِيَاهَ نَخْلٍ وفيهَا عَنْ أَبَانَيْنِ ازْوِرَارُ[(٤)]

---

(١) الزَّوَرُ ـ بفتح الواو ـ هو المَيْلُ والعِوَجُ، أمّا بسكون الواو فهو الجزءُ المعروف في أعلى الصدر، وقيل: هو نفس الصدر، أو وسط الصدر.

(٢) هذا جزءٌ من البيت، وهو من قصيدته المشهورة: (أمِنْ آل نُعْمٍ أنتَ غَادٍ فَمُبْكِرُ)، والبيت بتمامه كما في الديوان:

وخُفِّضَ عَنِّي الصَّوْتُ أقْبَلْتُ مِشْيَةَ الْـ ـحُبَابِ وشَخْصِي خَشْيَةَ الحَيِّ أزْوَرُ

والحُبَابُ: الحية، وهو في أبيات قبل هذا يصف كيف تمنى أن يلقاها، وكيف دلَّه القلبُ على مكانها بعد أن عرف ريَّاهَا، قال:

فَلَمَّا فَقَدْتُ الصَّوْتَ مِنْهُمْ وأُطْفِئَتْ مصابِيحُ شُبَّتْ بالعَشَاءِ وأنْؤُرُ
وغَابَ قُمَيْرٌ كُنْتُ أرْجُو غِيَابَهُ وَرَوَّحَ رُعْيَانٌ ونَوَّمَ سُمَّرُ

(وأقبَلْتُ) في البيت هي جواب لمّا في البيت الأول هنا. والشاهد أن (أَزْور) بمعنى: مائل.

(٣) وهذا صدرُ بيت من المعلقة قاله عنترة يفتخر بشجاعته وفروسيته فقد ظلَّ يقاتل مع أن فرسه قد تعب واشتكى، والبيت بتمامه:

فازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ الْقَنَا بِلَبَانِهِ وَشَكَا إلَيَّ بِعِبْرَةٍ وتَحَمْحُمِ

واللَّبَانُ: الصَّدْرُ، والتَّحَمْحُم: مِن صهيل الفرس وهو ما كان فيه تقطع وحنين ليرقَّ له صاحبه. يقول: تعب فرسي ومال من شدة وقع الرماح في صدره، وشكا إليَّ بعَبْرته وصوته المتقطع لأرقَّ له وأرحمه مما أصابه.

(٤) البيت من قصيدة حماسية له، بدأها بحديث الغزل الذي يصف فيه رحلة الحبيبة، وهي رقم ٩٨ في المُفَضَّليات، والبيت هو الثاني من أبياتها. والحُداة: جمع الحادي وهو الذي يسوق الإبل بالغناء. ونَخْل: اسم موضع. وأبَانَيْن: مُثنَّى أبَان، وهما أبان وسَلْمى، جبلان، والتثنية هكذا جاءت على أساس التغليب، كما تقولُ العُمَرَيْن. وازوِرَارُ: انحرافٌ ومَيْلٌ وعُدُولٌ عنهما. فقد رحلت القافلة، وساق الحُداةُ الظعائن قاصدين مياه نَخْل، ومنحرفين عن جبي أبان وسَلْمى.

وفي حديث غزوة مُؤتة أن النبي ﷺ رأى في سرير عبد الله بن رواحة ازْوِراراً عن سريري جعفر وزيد بن حارثة(١).

وقرأ الجمهور: (تَقْرِضُهُمْ) بالتاء، وقرأت فرقة: [يَقْرِضُهُمْ] بالياء، أي الكهف، كأنه من القَرْضِ وهو القطع، أي: يَقْتَطِعُهم الكهفُ بظلِّه من ضوء الشمس. وجمهور من قرأ بالتاء فالمعنى أنهم كانوا لا تصيبهم شمس البتَّة، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، فيتأولون (تَقْرِضُهُمْ) بمعنى: تتركهم، أي: كأنها عنده تقطع كل ما لا تناله عن نفسها، وفرقة ممن قرأ بالتاء تأولت أنها كانت بالعشيِّ تنالهم فكأنها تقرضهم، أي تقطعهم مما لا تناله، وقالوا: كان في مسِّها لهم بالعشيِّ صلاح لأجسامهم. وحكى الطبريُّ أن العرب تقول: قرضتُ موضع كذا، أي قطعتهُ، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

إلى ظُعُنٍ يَقْرِضْنَ أَجْوَازَ مُشْرِفٍ ... شِمالاً وَعَنْ أَيْمَانِهِنَّ الْفَوَارِسُ(٢)

ومنه: أقرضني درهماً، أي: اقطعه لي من مالك. وهذ الصفة مع الشمس تقتضي أنه كان لهم حاجبٌ من جهة الجنوب، وحاجب من جهة الدَّبور، وهم في زاويته. وحكى الزجاج وغيره قال: كان باب الكهف ينظر إلى بنات نعش، وقال عبد الله بن مسلم، وهذا نحو ما قلناه، غير أن الكهف كان مستور الأعلى من المطر. وذهب الزجاج إلى أن فِعْل الشمس كان آية من الله تعالى دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ و﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ يحتمل أن يريد: ذات يمين الكهف، بأن تقدر باب الكهف بمثابة وجه إنسان، فإن الشمس تجيءُ منه أول النهار عن

(١) الحديث رواه ابن إسحق في السيرة، قال: ولَمَّا أُصيب القوم ـ يعني في غزوة مؤتة ـ قال رسول الله ﷺ، فيما بلغني: أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتَّى قُتل شهيداً، ثم أخذها جعفرٌ فقاتل بها حتَّى قُتل شهيداً، قال: ثم صمت رسول الله ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار، وظنوا أنه كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون، ثم قال: ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قُتل شهيداً، ثم قال: لقد رُفعوا إليَّ في الجنة، فيما يرى النائم، على سُرُرٍ من ذهب، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحه ازوراراً عن سريري صاحبيه فقلت: عمَّ هذا؟ فقيل لي: مضيا وتردد عبد الله بعض التردّد، ثم مضى.

(٢) البيت في الديوان، والطبري، ومجاز القرآن، و(إلى ظُعُنٍ) معناها: نظرتُ إلى ظُعُن، وهي جمع ظعينة، والظعينة هي المرأة في الهودج على جملها. ويَقْرِضْنَ: يَمِلْنَ عن أجواز مشرف، أو يقطعن هذه الأجواز، وهي موضع الشاهد هنا، والأجواز: جمع جَوْز، وهو وسط الشيء، ومُشرف والفوارس: موضعان بنجد، ذكر ذلك صاحب معجم ما استعجم، والبيت في وصف رحلة الظعائن.

يمين وآخره عن شمال، ويحتمل أن يريد: ذات يمين الشمس وذات شمالها، بأن تقدر الشعاع الممتد منها إلى الكهف بمثابة وجه الإنسان. والوجه الأول أوضح.

و«الْفَجْوَةُ»: المُتَّسَع، وجَمْعها فِجَاءٌ، قال قتادة: في فضاءٍ منه، ومنه الحديث: كان رسول الله ﷺ يَسِيرُ العَنَقَ، فإذا وجد فجوة نصّ[1]. وقال ابن جبير: ﴿فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾: في مكان داخل.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى الأمر بجُمْلته، وعلى قول الزجاج «إن الشمس كانت تزَّاور وتَقْرض دون حجاب» تكون الإشارة إلى هذا المعنى خاصة. ثم تابع بتعظيم الله عزَّ وجلَّ والتسليم له وما يقتضي صرف الآمال إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ الآية... صفةُ حالٍ قد انقضت، وجاءت أفعالها مستقبلة تَجَوُّزاً واتِّساعاً.

و[أَيْقَاظاً] جمع يَقُظ، كَعَضُدٍ وأعضاد، وهو المُنْتَبه. قال أهل التفسير: كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون، فلذلك كان الرائي يحسبهم أيقاظاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن يحسب الرائي ذلك لشدة الحفظ الذي كان عليهم، وقِلَّة التَّغير، وذلك أن الغالب على النُّوَّام أن يكون لهم استرخاءٌ وهيئات تقتضي النوم، ورُبَّ نائم على أحوال لم تتغير على حالة اليقظة، فيحسبه الرائي يقظاناً وإن كان مسدود العين، ولو صحَّ فتح أعينهم بسند يقطع العذر كان أبْيَن في أن يحسب عليهم التيقُّظ.

وقرأ الجمهور: (وَنُقَلِّبُهُمْ) بنون العظمة، وقرأ الحسن: [وَتَقَلُّبُهُم] بالتاء المفتوحة وضم اللام والباء، وهو مصدر مرتفع بالابتداء، قاله أبو حاتم. وحكى ابن جنِّي القراءة عن الحسن بفتح التَّاء وضم اللام وفتح الباء، وقال: هذا نصب بفعل مقدر، كأنه قال: وتَرَى، أو تُشاهد تَقَلُّبَهُم[2].

---

(١) أخرجه البخاري في الحج والجهاد والمغازي، ومسلم في الحج، وأبو داود في المناسك، وكذلك النسائي وابن ماجه، وأحمد في مسنده (٥ـ٢٠٥، ٢١٠). ولفظه كما في مسند أحمد: سُئل أُسامة عن سير رسول الله ﷺ فقال: كان سيره العَنَق، فإذا وجد فَجْوَةً نَصَّ، والنَّصُّ فوق العَنَق، وأنا رديفه. اهـ. والعَنَق: ضربٌ من السَّيْر فسيحٌ سريعٌ منبسط، والنَّصُّ: التحريك حتَّى تستخرج من الناقة أقصى سيرها.

(٢) قال أبو الفتح: «فإن قيل: إن التَّقَلُّب حركة، والحركة غير مرئية، قيل: هذا غورٌ آخر ليس من القراءة=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأبو حاتم أثبت.

ورأت فرقة أن التَّقَلُّب هو الذي من أجله كان الرائي يحسبهم أيقاظاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ـ وإن كان التَّقَلُّب لمن صادف رؤيته دليلاً على ذلك ـ فإن ألفاظ الآية لم تَسُقْه إلاَّ خبراً مُسْتَأْنفاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان هذا التقلب مرتين في السنة، وقالت فرقة: كل سنة مرة، وقالت فرقة: كل سبع سنين مرة، وقالت فرقة: إنما قُلِّبُوا في التسع الأواخر، وأما الثلاثمائة فَلاَ. وذكر بعض المفسرين أن تَقَلُّبهم إنما كان حِفْظاً من الأرض، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لو مسَّتهم الشمس لأحرقتهم، ولولا التقلُّب لأكلتهم الأرضُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وآية الله تعالى في نومهم هذه المدة الطويلة وحياتهم دون تَغَذٍّ أذهبُ في الغرابة من حفظهم من مَسِّ الشمس ولزوم الأرض، ولكنها روايات تختلف وتُتَأَمَّل بعد[1]، وظاهر كلام المفسرين أن التَّقَلُّب كان بأمر الله تعالى وفِعْل ملائكته. ويحتمل أن يكون ذلك بإقدار الله إياهم على ذلك وهم في غمرة النوم وهم لا ينتبهون كما يعتري كثيراً من النوام؛ لأن القوم لم يكونوا موتى.

وقوله تعالى: [وَكَلْبُهُمْ]. أكثر المفسرين على أنه كلْبٌ حقيقة، كان لصيد أحدهم فيما رُوي، وقيل: كان لراعٍ مَرُّوا عليه فصحبهم وتَبِعَه الكلبُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وحدَّثني أبي رضي الله عنه قال: سمعتُ أبا الفضل بن الجوهر في جامع مصر يقول على مِنْبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة: إنَّ من أحب أهل الخير نال من بركتهم، كلْبٌ أحبَّ أهل فضل وصَحِبَهم فذكره الله تعالى في محكم تنزيله. وقيل: كان أَنْمر[2]،

= في شيء إلا أنك تراهم يتقلبون، والمعنى مفهوم، وليس كل أحد يقول: إن الحركة لا تُرى».

(١) اختلفت النسخ الأصلية في إثبات هاتين الكلمتين: (تختلف وتتأمل)، واخترنا أقربها ملاءمة للمعنى.

(٢) النُّمْرَةُ: النكتة من أي لون كان، والأنْمَر: الذي فيه نُمْرَةٌ بيضاءُ وأخرى سوداءُ. والأنثى: نمراءُ، وسُمِّي=

وقيل: كان أحمر، وقالت فرقة: كان رجلاً طباخاً لهم، حكاه الطبري ولم يُسَمِّ قائله، وقالت فرقة: كان أحدهم، وكان قعد عند باب الغار طليعة لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فَسُمِّي باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع من الناس، كما سُمِّي النجم التابع للجوزاء كلباً لأنه منها كالكلب من الإنسان، ويقال له: كلب الجبَّار. أما إن هذا القول يضعفه ذكر بسط الذراعين فإنها في العرف في صفة الكلب حقيقة، ومنه قول النبي ﷺ: (ولا يبسط أحدكم ذراعيه في السجود انبساط الكلب)[1]، وقد حكى أبو عُمَرَ المطَرِّزُ في كتاب اليواقيت أنه قرىء: «وَكَالِبُهُمْ باسِطٌ ذِرَاعَيْه»، فيحتمل أن يريد بالكالب هذا الرجل على ما رُوي؛ إذْ بَسْط الذراعين واللُّصوق بالأرض مع رفع الوجه للتطلع هي هيئة الربيئة[2] المستخفي بنفسه، ويحتمل أن يريد بالكالب الكلب. وقوله تعالى: ﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ أعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المُضِيِّ لأنها حكاية، ولم يقصد الإخبار عن فعل الكلب.

و«الْوَصِيدُ»: العتَبَةُ التي لباب الكهف، أو موضعها حيث ليست، وقال ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير: الوصيدُ: الفِناءُ. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً: الوصيد: الباب، وقال ابن جُبير أيضاً: الوصيدُ: الترابُ، والقول الأول أصحُّ، والبابُ الموصد هو المغْلق، أي: وقف على وصيده.

ثم ذكر الله تعالى ما حفَّهم من الرُّعب واكتنفهم من الهيبة، وقرأ: ﴿لو اطَّلَعْتَ﴾ بكسر الواو جمهورُ القراء، وقرأ الأعمش، وابن وثاب: [لَوُ اطَّلَعْتُ] بضمها، وقد ذُكر ذلك عن نافع، وشيبة، وأبي جعفر، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عباس رضي الله عنهما، وأهل مكة والمدينة: [لَمُلِّئْتَ] بشدِّ اللاَّم على تضعيف المبالغة، أي: مُلِئْتَ ثم

= النَّمِرُ بذلك لأن فيه نُمَراً. (عن اللسان).

(١) أخرجه البخاري في المواقيت والأذان، ومسلم والترمذي في الصلاة، والنسائي في الافتتاح، وابن ماجه في الإقامة، والدارمي في الصلاة، وأحمد في المسند (٣ـ١١٥، ١٧٧، ١٧٩ وأماكن أخرى)، ولفظه كما في مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (اعتدلوا في السجود، ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب).

(٢) الرَّبيئَةُ والرَّبيءُ: الطليعة الذي يرقب العدوَّ من مكان عالٍ لئلا يدهم قومه، والجمع رَبَايَا. (المعجم الوسيط).

مُلِئْتَ، وقرأ الباقون: ﴿لَمُلِئْتَ﴾ بتخفيف اللام، والتخفيف أشهر في اللغة، وقد جاء التثقيل في قول المُخَبَّل السعدي:

وَإِذْ فَتَكَ النُّعْمَانُ بالنَّاسِ مُحْرِماً فَمُلِّىءَ مِنْ كَعْبِ بن عوْفٍ سلاسِلُهْ[1]

وقالت فرقة: إنما حفَّهم هذا الرعب لطول شعورهم وأظفارهم، ذكره المهدوي والزجاج، وهذا قولٌ بعيد، ولو كانت حالهم هكذا لم يقولوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، وإنما الصحيح في أمرهم أن الله عزَّ وجلَّ حفظ لهم الحالة التي قاموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيها آية، فلم يبل لهم ثوب، ولا تغيَّرت صفة، ولا أنكر الناهض إلى المدينة إلاَّ معالم الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهم، ولروي ذلك.

وقرأ الجمهور: ﴿رُعْباً﴾ بسكون العين، وقرأ [رُعُباً] بضمها أبو جعفر وعيسى، قال أبو حاتم: هما لغتان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

الإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الأمر الذي ذكره الله تعالى في جهتهم والعِبْرة التي جُعِلَت فيهم. و«الْبَعْثُ»: التحريك عن سكون، واللام في قوله تبارك وتعالى: ﴿لِيَتَسَاءَلُوا﴾ لام الصيرورة؛ لأن بعثهم لم يكن لنفس تساؤلهم، وقول القائل: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ يقتضي أنه هجس بخاطره طول نومهم، واستشعر أن أمرهم خرج عن العادة بعض الخروج، وظاهر أمرهم أنهم انتبهوا في حال من الوقت والهواء الزمني لا تباين التي ناموا فيها، وأما أن يُحَدِّدَ الأمر جداً فذلك بعيد.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿بِوَرِقِكُمْ﴾

---

(١) المخَبَّل: المجنون، وبه سُمِّي الشاعر، واسمه الأصلي ربيعة بن مالك، وهو شاعر مخضرم، يقال إنه مات في خلافة عثمان، والفَتْكُ: قَتْلُ الناسِ مجاهرة، أو غَدْراً، والمُحْرِم: الداخل في الشهر الحرام. والبيت شاهد على أن التثقيل واردٌ في (مُلِىءَ)، ويفيد المبالغة في المعنى.

بكسر الراء، وقرأ أبو عمرٍو، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم: [بِوَرْقِكُمْ] بسكون الراء، وهما لغتان، وحكى الزجاج قراءة [بِوِرْقِكُمْ] بكسر الواو وسكون الراء دون إدغام، ورُوي عن أبي عمرو الإدغام، وإنما هو إخفاءٌ؛ لأن الإدغام مع سكون الراء متعذر، وأدغم ابن محيصن القاف في الكاف، قال أبو حاتم: وذلك إنما يجوز مع تحريك الراء، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: [بِوَارِقِكُمْ]، اسم جمع كالجائل والباقر، وقرأ أبو رجاءٍ: [بِوِرِقكمْ] بكسر الواو والراء والإدغام.

ويروى أنهم انتبهوا أحياناً، وأن المبعوث هو تَمْلِيخا، وروي أنهم صلوا كأنهم ناموا ليلة واحدة وبعثوا تَمْلِيخا في صبيحتها.

وروي أن باب الكهف انهدم بناءُ الكفار منه لطول السنين، وروي أن راعياً هدمه ليدخل فيه غنمه. فأخذ تَمْلِيخا ثياباً منكرة رثَّة ولبسها وخرج من الكهف فأنكر ذلك البناء المهدوم؛ إذ لم يعرفه بالأمس، ثم مشى فجعل يذكر الطريق والمعالم ويتحير، وهو في ذلك لا يشعر شعوراً تامّاً، بل يكذب ظنه فيما تغير عنده، حتى بلغ باب المدينة، فرأى على بابها أمارة الإسلام فزادت حيرته وقال: كيف هذا ببلدة دقنيوس وبالأمس كنا معه حيثما كنَّا؟ فنهض إلى باب آخر فرأى نحواً من ذلك حتى مشى الأبواب كلها، فزادت حيرته ولم يميز بشراً، وسمع الناس يقسمون باسم عيسى فاستراب بنفسه وظن أنه جُنَّ وانفسد عقله، فبقي حيران يدعو الله تعالى، ثم نهض إلى بائع الطعام الذي أراد شراءه، فقال: يا عبد الله بعني من طعامك بهذا الورق، فدفع إليه دراهم كأخفاف الرُّبَع[1] فيما يذكر، فعجب لها البياع ودفعها إلى آخر يُعَجِّبُه، وتعاطاها الناسُ وقالوا له: هذه دراهم عهد فلان الملك، من أين أنت؟ وكيف وجدت هذا الكنز؟ فجعل يبهت ويعجب، وقد كان بالبلدة مشهوراً هو وفتيته، فقال: ما أعرف غير أني وأصحابي خرجنا بالأمس من هذه المدينة، فقال الناس: هذا مجنون، اذهبوا به إلى الملك، ففزع عند ذلك، فذُهب به حتى جيء به إلى الملك، فلما لم ير دقنيوس الكافر تأنس، وكان ذلك الملك مؤمناً فاضلاً يُسمَّى تَيْرُوسيس، فقال له الملك: أين وجدت هذا الكنز؟ فقال له: إنما خرجت أنا وأصحابي أمس من هذه المدينة، فأوينا إلى

(١) الرُّبَع: الفصيل ينتج في الربيع، وهو أول النتاج ـ والفَصيل هو ولد الناقة أو البقرة بعد فطامه وفصله عن أُمّه.

الكهف الذي في جبل أنجلوس، فلما سمع الملك ذلك قال ـ في بعض ما روي ـ: لعل الله قد بعث لكم أيها الناسُ آية، فَلْنسر إلى الكهف معه حتى نرى أصحابه، فسار. ورُوي أنه أو بعض جلسائه قال: هؤلاء هم الفتية الذين أُرِّخ أمرهم على عهد دقنيوس الملك وكتب لوح النحاس بباب المدينة، فسار الملك إليهم وسار الناسُ معه، فلما انتهوا إلى الكهف قال تَمْليخا: أدْخُل عليهم لئلا يرعبوا، فدخل عليهم وأعلمهم بالأمر وأن الأمة أُمَّة إسلام، فيروى أنهم سُرُّوا وخرجوا إلى الملك وعظموه وعظمهم، ثم رجعوا إلى كهفهم، وأكثر الروايات على أنهم ماتوا حين حدثهم تَمْلِيخا، فانتظرهم الناس، فلما أبطأ خروجهم دخل الناس إليهم، فرعب كل من دخل، ثم أقدموا فوجدوهم موتى، فتنازعوا بحسب ما يأتي في الآية التي بعد هذه.

وفي هذا القصص من اختلاف الروايات والألفاظ ما تضيق به الصحف، فاختصرته وذكرتُ المهم الذي تتفسَّر به ألفاظ هذه الآية، واعتمدتُ الأصح، والله المعين برحمته.

وفي هذه البعثة بالوَرِق الوكالةُ وَصِحَّتُها، وقد وكَّل علي بن أبي طالب رضي الله عنه أخاه عقيلاً عند عثمان رضي الله عنهم[(١)].

وقرأ الجمهور: (فَلْيَنْظُرْ) بسكون لام الأمر، وقرأ الحسن: [فَلِيَنْظُر] بكسرها. و[أَزْكَى] معناه: أكثر، فيما ذكر عكرمة، وقال قتادة: معناه: خير، وقال مقاتل: المرادُ: أطيب، وقال ابن جُبَيْر: المراد: أحَلُّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

من جهة ذبائح الكفرة وغير ذلك، فروي أنه أراد شراء زبيب، وقيل: بل شراء تمر.

وقوله تعالى: (وَلْيَتَلَطَّفْ)، أي: في اختفائه وتَحَيُّله، وقرأ الحسن: [وَلِيَتَلَطَّف] بكسر اللام.

والضمير في [إِنَّهُمْ] عائد على الكفار آل دقينوس، و﴿إِن يَظْهَرُواْ﴾ معناه:

---

(١) قال بعض العلماء: في هذه الآية جواز الشَّركة لأن الورق كان لهم جميعاً، وجواز الوكالة لأنهم بعثوا من وكلوه بالشراء، وجواز خلط الطعام وأكل الرفقاء، وإن كان بعضهم أكثر أكلاً من بعض، ومثله في ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾.

يثقفوكم بعلومهم وغلبتهم. وقوله تعالى: ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾، قال الزجاج: معناه: بالحجارة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهو الأصح؛ لأنه كان عازماً على قتلهم لو ظفر بهم. والرجْم فيما سلف هي كانت ـ على ما ذُكر ـ قِتْلة مخالف دين الناس، إذْ هي أشفى لجملة ذلك في الدين، ولهم فيها مشاركة، وقال حجاج: ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ معناه: بالقول. وباقي الآية بيِّنٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾.

الإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إلى بعثهم ليتساءلوا، أي: كما بعثناهم أعثرنا عليهم.

و(أَعْثَرَ) تعْدية (عَثَر) بالهمزة، وأصل العثار في القوم، فلما كان العاثر في الشيء مُشْبِهاً له شُبِّه به، من شبه العلم بشيءٍ عنَّ له وثار بعد خفائه. والضمير في ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ يحتمل أن يعود على الأمة المسلمة الذين بعث أهل الكهف على عهدهم، وإلى هذا ذهب الطبري، وذلك أنهم ـ فيما روي ـ دخلتهم حينئذ فتنة في أمر الحشر وبعث الأجساد من القبور، فشك في ذلك بعض الناس واستبعدوه، وقالوا: إنما تحشر الأرواح، فشق ذلك على ملكهم، وبقي حيران لا يدري كيف يبيِّن مره لهم حتى لبس المسوح وقعد على الرماد، وتضرع إلى الله في حُجَّة وبيَان، فأعثر الله على أهل الكهف، فلما بعثهم الله تعالى وتبيَّن الناسُ أمرهم سُرَّ الملك، ورجع من كان شك في بعث الأجسام إلى اليقين به، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ على هذا التأويل. ويحتمل أن يعمل في ﴿إِذْ﴾ ـ على هذا التأويل ـ ﴿أَعْثَرْنَا﴾، ويحتمل أن يعمل فيه ﴿لِيَعْلَمُوا﴾.

والضمير في قوله: ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ يحتمل أن يعود على أصحاب الكهف، أي: يجعل الله تعالى أمرهم آية لهم دالَّة على بعث الأجساد من القبور. وقوله: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ ـ على هذا التأويل ـ ابتداءُ خبر عن القوم الذين بُعثوا على عهدهم، والعامل

في [إذْ] فعل مضمر تقديره: واذكر، ويحتمل أن يعمل فيه: ﴿فَقَالُوا﴾، ويكون المعنى: فقالوا إذ يتنازعون: ابنوا عليهم، والتَّنازع ـ على هذا التأويل ـ إنما هو في أمر البناء والمسجد لا في أمر القيامة. و«الرَّيْبُ»: الشَّك، والمعنى: إنَّ الساعة في نفسها وحقيقتها لا شك فيها، وإن كان الشك وقع لِنَاسٍ فذلك لا يلحقها منه شيءٌ. وقد قيل: إن التنازع إنما هو في أن اطلعوا عليهم فقال بعضهم: أمواتٌ، وقال بعضهم: أحياءٌ، ورُوي أن بعض القوم ذهب إلى طمس الكهف عليهم وتركهم فيه مغيبين، فقالت الطائفة الغالبة على الأمر: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ فاتَّخذوه، وقال قتادة: الذين غَلَبُوا هم الوُلاة. وقرأ الحسن، وعيسى الثقفي: [غُلِبُوا] بضم الغين وكسر اللام، والمعنى: إن الطائفة التي أرادت المسجد كانت أولاً تريد ألاَّ يبنى عليهم شيءٌ وألا يعرض لموضعهم. ورُوي أن طائفة أخرى مؤمنة أرادت ولا بُدَّ طمس الكهف، فلمَّا غُلِبت الأولى على أن يكون بنيان ولا بُدَّ قالت: يكون مسجداً، فكان. وروي أن الطَّائفة التي دعت إلى البنيان إنما كانت كافرة أرادت بناءَ بيعة أو مصنع لكفرهم، فمانعهم المؤمنون وقالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾. ورُوي عن عبيد بن عمير أن الله تعالى عَمَّى على الناس حينئذ أمرهم وحَجَبَهم عنهم، فذلك دعا إلى بناء البنيان ليكون معلماً لهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

الضمير في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ﴾ يراد به أهل التوارة من معاصري محمد ﷺ، وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص.

وقرأ الجمهور: ﴿ثَلَاثَةٌ﴾، وقرأ ابن محيصن: [ثَلَاثٌّ] بإدغام التاء في الثاء، وقرأ شبل عن ابن كثير: [خَمَسَةٌ] بفتح الميم إتباعاً لِعَشَرة، وقرأ ابن محيصن: [خِمِسَةٌ] بكسر الخاء والميم.

وقوله تعالى: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ معناه: ظَنّاً، وهو مستعارٌ من الرجم، كأن الإنسان

يرمي الموضع المُشكل المجهول عنده بِظَنِّه المرَّة بعد المرَّةِ، يرجمه به عسى أن يصيب، ومن هذا: الترجمان، وتَرْجَمة الكتب، ومنه قول زهير:

وَمَا الْحَرْبُ إلاَّ ما عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ ... وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرَجَّمِ[١]

والواو في قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ طريق النحويِّين فيها أنها واو عطف دخلت في آخر إخبار عن عددهم، لتفصل أمرهم، وتدل على أن هذا نهاية ما قيل، ولو سقطت لصح الكلام، [ولو كانت فيما قبل من قوله: ﴿رَابِعُهُمْ﴾ و﴿سَادِسُهُمْ﴾ لصَحَّ الكلام][٢]، وتقول فرقة منها ابن خالويه: هي واو الثمانية، وذكر ذلك الثعلبي عن أبي بكر بن عياش، وأن قريشاً كانت تقول في عددها: ستة، سبعة، وثمانية، تسعة، فتدخل الواو في الثمانية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد تقدم شرحها[٣]، وهي في القرآن في قوله تعالى: ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[٥]، وأما قوله تعالى: ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾[٦]، وقوله: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾[٧] فتوهم في هذين الموضعين أنها واو الثمانية وليست بها، بل هي لازمةٌ لا يستغني الكلام عنها[٨].

---

(١) البيت من المعلقة، والعِلْمُ والذَّوْقُ يكونان في الخبرة والتجربة، و(هُوَ) في قوله: (وما هو عنها) يعود على مفهوم من الكلام، والمعنى: وما الخبر عنها بحديث يُرَجَّم بالظن، والمُرَجَّم: الذي يُرمى فيه بالظن، وهو موضع الاستشهاد هنا، يقول: ما الحرب إلاَّ ما قد جرَّبتم وخَبَرْتم وذُقتم، فإياكم أن تعودوا إليها، وما الحديث عنها بحديث يرجَّم فيه بالظن، ولكن هو حديث التجربة المُرَّة والخبرة القاسية، فإياكم أن تغدروا وتعودوا إلى الحرب.

(٢) ما بين العلامتين (ولو كانت. . .) سقط من جميع النسخ، ولم نجده إلاَّ في النسخة التونسية.

(٣) راجع المجلد الرابع صفحة ٤٢٠.

(٤) من الآية (١١٢) من سورة (التوبة).

(٥) من الآية (٧٣) من سورة (الزُّمَر).

(٦) من الآية (٥) من سورة (التحريم).

(٧) من الآية (٧) من سورة (الحاقة).

(٨) وقد سبق أن تحدثنا طويلاً عن واو الثمانية في سورة التوبة، المجلد الرابع صفحة ٤٢٠، ورجَّحنا قول القشيري الذي يرى أن كلام ابن خالويه في مناظرة جرت بينه وبين أبي علي الفارسي، وكلام أبي بكر بن عياش، هذا الكلام تحكم منهما، وقد نقض القرآن الكريم هذه القاعدة في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية، حيث لم يذكر الاسم الثامن من أسماء الله عز وجل بالواو. وإنما ذكرت الواو هنا=

وقد أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ في هذه أن يَرُدَّ عِلْم عدَّتهم إليه عزَّ وجلَّ، ثم أخبر أن عالِم ذلك من البشر قليل، والمراد به قومٌ من أهل الكتاب، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «أنا من ذلك القليل، وكانوا سبعة وثامنهم كلبهم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويُستدل على هذا من الآية، فإن القرآن لما حكى قول من قال ثلاثة وخمسة قَرَن بالقول أنه رُجْمٌ بالغيب، وقدح ذلك فيهما، ثم حكى هذه المقالة ولم يقدح فيها بشيءٍ، بل تركها مسجلة، وأيضاً فَيَقْوَى ذلك على القول بأنها واو الثمانية لأنها إنما تكون حيث عدد الثمانية صحيح.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا﴾ معناه على بعض الأقوال، أي: بظاهر ما أوحينا إليك وهو ردُّ علم عِدَّتهم إلى الله تبارك وتعالى، وقيل: معنى الظاهر أن يقول: ليس كما تقولون، ونحو هذا، ولا يحتج هو على أمْرٍ مقدَّرٍ في ذلك، فإن ذلك يكون مراءً في باطن من الأمر، وقال التبريزي: [ظَاهِراً] معناه: ذاهباً، وأنشد:

. . . . وَتِلْكَ شَكاةٌ ظَاهِرٌ عَنْك عَارُهَا[1]

ولم يُبِح له في هذه الآية أن يماري، ولكن قوله: ﴿إِلَّا مِرَآءً﴾ استعارة، من حيث يماريه أهل الكتاب سُمِّيت مراجعته لهم مراءً، ثم قُيِّد بأنه ظاهر ففارق المراءَ الحقيقي المذموم. و«المِرَاءُ» مشتق من المِرْية، وهي الشَّك، فكأنه المُشَاكَكَةُ. والضمير في قوله تعالى: [فِيهِمْ] عائد على أهل الكهف، وفي قوله سبحانه: [مِنْهُمْ] عائد على أهل الكتاب المعاصرين. وقوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ يعني: في عِدَّتهم، وحُذِفَت العِدَّةُ لدلالة ظاهر القول عليها.

= كما قال ابن عطية لتُفَصِّل أمْرَهم، ولتدُلَّ على أن هذا نهاية ما قيل فيهم.

(١) هذا عجز بيت قاله أبو ذؤيب من قصيدة يرثي بها نُشَيْبَة بن مُحرِّث، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

أَبَى القَلْبُ إلاَّ أُمَّ عَمْرٍو وأصْبَحَتْ تُحَرِّقُ نَارِي بالشَّكَاةِ وَنَارَهَا
وَعَيَّرَهَا الوَاشُونَ أَنِّي أُحِبُّهَا وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكِ عَارُهَا

تُحَرِّق ناري: توقدها بالشكاة، يقول: أوقدتْ لي ناراً فاشتهرنا بها، وانتشر أمري وأمرها لَمَّا لم أُقلع عن حبها، وذلك التَّعبير ظاهر عنك، أي: لا يلحق بكِ عارُه، ولا يلصق بك، يقال: ظهر عن الشيء: تباعد وذهب. وهذا موضع الاستشهاد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ﴾ الآية. عاتب الله تعالى نبيَّه ﷺ على قوله للكفار: غَداً أُخبركم بجواب أسئلتكم، ولم يستثنى في ذلك، فاحتبس عنه الوحيُ خمسة عشر يوماً حتى شق ذلك عليه، وأرجف الكفار به، فنزلت عليه هذه السُّورة مفرجة، وأمر في هذه الآية ألاَّ يقول في أمر من الأمور: إني أفعل غداً كذا وكذا إلاَّ وأن يُعلِّق ذلك بمشيئة الله عزَّ وجلَّ. واللام في قوله تعالى: [لِشَيْءٍ] بمنزلة (في)، أو كأنه قال: لأجل شيءٍ. وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، في الكلام حذف يقتضيه الظاهر ويُحَسِّنه الإيجاز، تقديره: إلاَّ أن تقول «إلاَّ أن يشاءَ الله»، أو إلاَّ أن تقول «إن شاء الله». فالمعنى: إلاَّ أن تذكر مشيئة الله، فليس ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ من القول الذي نُهي عنه. وقالت فرقة: قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ استثناءٌ من قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ حكاه الطبري ورُدَّ عليه، وهو من الفساد بحيث كان من الواجب ألاَّ يُحْكَى[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾، قال ابن عباس، والحسن: معناه والإشارة به إلى الاستثناء، أي: وَلْتَسْتَثْنِ بعد مُدَّة إذا نسيت الاستثناء أوَّلاً لتخرج من جملة من لم يعلِّق فعله بمشيئة الله، وقال عكرمة: المعنى: واذكر ربَّك إذا غضبت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتكلم الناس في هذه الآية في الاستثناء في اليمين، والآية ليست في الأيمان، وإنما هي في سنة الاستثناء في غير اليمين، ولكن من حيث تكلم الناس فيها ينبغي أن نذكر شيئاً من ذلك.

---

(١) هذا نصُّ كلام الطبري: «وكان بعض أهل العربية يقول: جائز أن يكون معنى قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ استثناء من القول، لا من الفعل، كأن معناه عنده: لا تقولنَّ قولاً إلاَّ أنْ يَشَاء الله ذلك القول. وهذا وجه بعيد من المفهوم بالظاهر من التنزيل، مع خلافه تأويل أهل التأويل»، وممن قال ذلك الزمخشري، قال: «إن الاستثناء متعلق بالنهي لا بالفعل، وتعلقه به على وجهين: أحدهما ولا تقولنَّ ذلك القول إلا أن يشاء الله أن تقوله بأن ذلك فيه، والثاني لا تقولنَّه إلاَّ بأن يشاء الله، أي: إلاَّ بمشيئته، وهو في موضع الحال، أي: إلاَّ متلبساً بمشيئة الله قائلاً إن شاء الله»، أمَّا ما اختاره المؤلف فهو رأي الكسائي، والفراء، والأخفش.

أما مالك رحمه الله وجميع أصحابه ـ فيما علمت ـ وكثير من العلماء فيقولون: لا ينفع الاستثناءُ ويُسقط الكفارة إلاَّ أن يكون متصلاً باليمين. وقال عطاءٌ: له أن يستثني في قدر حَلَب النَّاقة الغزيرة.

وقال قتادة: إن استثنى قبل أن يقوم فَلَه ثُنْياه. وقال ابن حنبل: له الاستثناءُ ما دام في ذلك الأمر، وقاله ابن راهويه. وقال طاوس، والحسن: ينفع الاستثناءُ ما دام الحالف في مجلسه. وقال ابن جبير: ينفع الاستثناءُ بعد أربعة أشهر فقط، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ينفع الاستثناءُ ولو بعد سنة. وقال مجاهد: بعد سنتين، وقال أبو العالية: ينفع أبداً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واختلف الناس في التأويل عن ابن عباس رضي الله عنهما، فقال الطبري وغيره: إنما أراد ابن عباس أنه ينفع في أن يجعل الحالف في رتبة المستثنين بعد سنة من حلفه، وأما الكفارة فلا تسقط عنه، قال الطبري: ولا أعلم أحداً يقول (ينفع الاستثناءُ بعد مُدَّةٍ) يقول بسقوط الكفارة، قال: ويَرُدُّ ذلك قولُ النبي ﷺ: «من حلف على يمين ثم رأى غيرها خيراً منها فَلْيُكفِّر وَلْيَأْت الذي هو خير»[1]، فلو كان الاستثناءُ يسقط الكفارة لكان أخف على الأُمَّة، ولم يكن لذكر الكفارة فائدة.

وقال الزهراوي: إنما تكلَّم ابن عباس رضي الله عنهما في أن الاستثناء بعد سنة لمن قال: أنا أفعل كذا، لا الحالف أراد حلَّ يمينه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذهبت فرقة من الفقهاء إلى أن مذهب ابن عباس رضي الله عنهما سقوط الكفارة، وألزموا كل من يقول (ينفع الاستثناءُ بعد مدة) إسقاط الكفارة، وردُّوا على القول بعدم إلزامه، وليس الاستثناءُ إلاَّ في اليمين بالله، لا يكون في طلاق ونحوه، ولا في مشي إلى مكة، وهذا قول مالك وجماعة.

وقال الشافعي رحمه الله، وأصحاب الرأي، وطاوس، وحماد: الاستثناءُ في ذلك

---

(١) اخرجه أحمد في مسنده، ومسلم، والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورمز له الإمام السيوطي في (الجامع الصغير) بأنه صحيح.

جائز، وليس في اليمين الغموس[1] استثناءٌ ينفع، ولا يكون الاستثناءُ بالقلب، وإنما يكون قولاً ونطقاً.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾ الآية. قال محمد الكوفي المفسِّر: إنَّها بألفاظها مِمَّا أُمر أن يقولها كلُّ من لم يستثن، وإنها كفارة لنسيان الاستثناء. وقال الجمهور: هو دعاءٌ مأمورٌ به دون هذا التخصيص.

وقرأ الجمهور: [يَهْدِيَنِي] بإثبات الياء، وهي قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو. وقرأ طلحة بن مصرف: (يَهْدِيَنِ) دون ياءٍ في الوصل، وهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي.

والإشارة بـ[هَٰذَا] إلى الاستدراك الذي يقع من ناسي الاستثناء وقال الزجاج: المعنى: عسى أن يُيَسِّر الله من الأدلَّة على نبوتي أقرب من دليل أصحاب الكهف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وما قدَّمته أصوب، أي: عسى أن يرشدني فيما أستقبل من أمري. وهذه الآية مخاطبة للنبي ﷺ، وهي بعد تَعُمُّ جميع أُمته، لأنه حكم يتردد في الناس بكثرة وقوعه، والله الموفق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعٗا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدٗا ﴿٢٧﴾﴾.

قال قتادة، ومطر الوراق، وغيرهما: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ﴾ الآية حكاية عن بني إسرائيل أنهم قالوا ذلك، واحتجَّا بأن في قراءة عبد الله بن مسعود وفي مصحفه: «وَقَالوا لَبِثُوا في كَهْفِهِمْ»، وذلك عند قتادة ـ على غير قراءة عبد الله ـ عطف على ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ﴾، ذكره الزهراوي.

---

(١) اليمين الغَمُوسُ: الكاذبة، تغمس صاحبها في الإثم، وفي الحديث الشريف: (اليمين الغموس تذر الديار بلاقع)، وفي البخاري عن عبد الله بن عمرو قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: الإشراك بالله، قال: ثم ماذا؟ قال: عقوق الوالدين، قال: ثم ماذا؟ قال: اليمين الغَموس، قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: التي يقتطع بها مال امرئٍ مسلم هو فيها كذاب.

ثم أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بأن يرُدَّ العلم إليه ردّاً على مقالتهم وتفنيداً لهم، قال الطبري: «وقال بعضهم: لو كان ذلك خبراً من الله لم يكن لقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ﴾ وجه مفهوم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أين ذهب بهذا القائل؟ وما الوجه المفهوم البارع إلاَّ أن تكون الآية خبراً عن لبثهم، ثم قيل لمحمد ﷺ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ﴾ بخبره، هذا هو الحق من عالم الغيب، فليزل اختلافكم أيها المتخرصون.

وقال المحققون: بل قوله تعالى: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ﴾ الآية خبر من الله تعالى عن مدة لبثهم، ثم اختلف في معنى قوله بعد الإخبار: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ﴾ ـ فقال الطبريُّ: إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإعثار عليهم إلى مدة النبي ﷺ، فقال بعضهم: إنهم لبثوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وأخبر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن هذه المدة في كونهم نياماً، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر، فأمره الله تعالى أن يرُدَّ علم ذلك إليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فقوله تعالى ـ على هذا التأويل ـ: [لَبِثُوا] الأول يريد: في نوم الكهف، و[لَبثُوا] الثاني يريد: بعد الإعثار موتى إلى مدة محمد ﷺ، أو إلى وقت عدمهم بالبلى، على الاختلاف الذي سنذكره بعد. وقال بعضهم: إنه لمَّا قال: ﴿ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ لم تَدْرِ الناسُ أهي ساعاتٌ أم أيَّام أم جمع أم شهور أم أعوام، واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك، فأمره الله تعالى برَدِّ العلم إليه، يريد: في التسع، فهي ـ على هذا ـ مبهمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وظاهر كلام العرب والمفهوم عنه أنها أعوامٌ، والظاهر من أمرهم أنهم قاموا ودخلوا الكهف بعد عيسى عليه السلام بيسير، وقد بقيت من الحواريِّين بقية. وحكى النقاش ما معناه أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية بحساب الأُمم، فلما كان الإخبار هنا للنبي العربي ﷺ ذكرت التِّسع؛ إذ المفهوم عنده من السنين القمرية، فهذه الزيادة هي ما بين الحسابين.

وقرأ الجمهور: ﴿ثَلَٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ بتنوين [مِائَةٍ] ونصب [سِنِينَ] على البدل من [ثَلاَثَمائة]، أو عطف البيان، وقيل: على التفسير والتمييز[1]، وقرأ حمزة، والكسائي، ويحيى، وطلحة، والأعمش بإضافة [مِائَةٍ] إلى «السِّنين» وترْك التنوين، وكأنهم جعلوا [سِنِينَ] بمنزلة (سَنَة)؛ إذ المعنى بهما واحد. قال أبو علي: إذ هذه الأعداد التي تضاف في الشهور إلى الآحاد نحو ثلاثمائة رجل أو ثوب قد تضاف إلى الجموع، وانْحى أبو حاتم على هذه القراءة، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «ثلاثمائة سنةٍ»، وقرأ الضحاك: «ثَلاَثَمائةٍ سنون» بالواو. وقرأ أبو عمرو ـ بخلاف ـ: [تَسْعاً] بفتح التاء، وقرأ الجمهور: [تِسْعاً] بكسر التاء.

وقوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾، أي: ما أبصره وأسمعه، قال قتادة: لا أحد أبصر من الله تعالى ولا أسمع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه عباراتٌ عن الإدراك، ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ﴾ أيْ: بوحيه وإرشاده، هداك وحججك والحق من الأمور، وأسمع به العَالَمَ، فيكونان أمْرَيْن لا على وجه التعجب. وقوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ يحتمل أن يعود الضمير في [لَهُمْ] على اصحاب الكهف، أي: هذه قُدرتُه وحده، لم يُوَالِهِم غيرُه بتلَطُّف لهم، ولا اشترك معه أحد في هذا الحكم. ويحتمل أن يعود الضمير في [لَهُمْ] على معاصري رسول الله ﷺ من الكفار ومُشَاقِّيه، وتكون الآية اعتراضاً بتهديد.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ بالياء من تحت، على معنى الخبر عن الله تبارك وتعالى، وقرأ ابن عامر، والحسن، وأبو رجاءٍ، وقتادة، والجحدري: [ولا تشرك] بالتاء من فوق، على جهة النهي للنبي ﷺ، ويكون قوله: [ولا تشرك] عطفاً على قوله سبحانه: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾. وقرأ مجاهد: ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ بالياء من

---

(١) وحكى أبو البقاء أن قوماً أجازوا أن يكون [سِنِينَ] بدلاً من [مَائَة]؛ لأن [مَائَة] في معنى (مِئات). وقال أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط): «فأما عطف البيان فلا يجوز على مذهب البصريين، وأما نصبه على التمييز فالمحفوظ من لسان العرب المشهور أن (مائة) لا يُفَسَّر إلا بمفرد مجرور، وأن ما سمع من قولهم: «إذا عاش الفتى مائتين عاماً» من الضرورات، ولا سيما وقد انضاف إلى ذلك كون [سِنِينَ] جمعاً».

تحت وبالجزم، قال يعقوب: لا أعرف وَجْهَهُ.

وحكى الطبري عن الضحاك بن مزاحم أنه قال: نزلت هذه الآية ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾ فقط، قال الناس: أهِيَ أَشْهُرٌ أم أيَّامٌ أم أَعْوامٌ؟ فنزلت ﴿سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأما هل دام أهل الكهف وبقيت أشخاصهم محفوظة بعد الموت؟ فاختلفت الروايات في ذلك ـ فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه مرَّ بالشام في بعض غزواته مع ناسٍ على موضع الكهف وجبله، فمشى الناس إليه فوجدوا عظاماً، فقالوا: هذه عظام أصحاب الكهف، فقال لهم ابن عباس رضي الله عنهما: لا، أولئك فنوا وعدموا منذ مدة طويلة، فسمعه راهب فقال: ما كنت أحسب أن أحداً من العرب يعرف هذا، فقيل له: هذا ابن عمِّ نبينا ﷺ. وقالت فرقة: إن رسول الله ﷺ قال: لَيَحُجَّن عيسى بن مريم ومعه أصحاب الكهف فإنهم لم يحجوا بعد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبالشَّام ـ على ما سمعتُ من ناس كثير ـ كهف كان فيه موتى يزعم مجاوروه أنهم أصحاب الكهف، وعليه مسجد وبناءٌ يُسَمَّى الرَّقيم، ومعهم كلب رمة، وبالأندلس في جهة غرناطة بقرب قرية تُسَمَّى لوشة كهف فيه موتى ومعهم كلب رمة، وأكثرهم قد انجرد لحْمُه، وبعضهم متماسكٌ، وقد مضت القرون السالفة ولم نجد من علم شأنهم إثارة، ويزعم ناسٌ أنهم أصحاب الكهف، دخلت إليهم ورأيتهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة، وعليهم مسجد، وقريب منهم بناءٌ رومي يسمَّى الرَّقيم مما يلي القبلة، وآثار مدينة قديمة رومية يقال لها دقنيوس، وجدنا في آثارها غرائب في قبور ونحوها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما استسهلت ذكر هذا مع بُعْده لأنه عجب يتخلد ذكره ما شاء الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ الآية. من قرأ: [ولا تُشْرِكْ] بالنهي عطف قوله: ﴿وَٱتْلُ﴾ عليه، ومن قرأ: ﴿وَلَا يُشْرِكُ﴾ جعل هذا أمراً بُدِىء به كلام آخر ليس من

الأول، وكأن هذه الآية في معنى العتاب للنبي ﷺ عقب العتاب الذي كان على تركه الاستثناء، كأنه يقول: هذه أجوبة الأسئلة، فاتْل وحْيَ الله إليك، أي: اتبع في أعمالك، وقيل: اسْرُد بتلاوتك ما أُوحي إليك من كتاب ربك، لا نقص في قوله، ولا مبدل لكلماته، وليس لك سواه جانب تميل إليه وتستند.

و«المُلْتَحَدُ»: الجانب الذي يمال إليه، ومنه اللَّحْدُ، كأنه الميْلُ في أحد شقَّي القبر، ومنه: الإلحادُ في الحق، هو الميل عن الحق، ولا يفسد قوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ أمر النسخ؛ لأن المعنى إمَّا أن يكون: لا مُبَدِّلَ سواهُ فتبقى الكلماتُ على الإطلاق، وإما أن يكون أراد من «الكلمات» الخَبَر ونحوه مما لا يدخله النسخ، والإجماع أن الذي لا يتبدل هو الكلام القائم بالذات الذي بِحَسبه يجري القدر، فأما الكتب المنزلة فمذهب ابن عباس رضي الله عنهما أنها لا تبدَّل إلاَّ بالتأويل، ومن العلماء من يقول: إن بني إسرائيل بدَّلوا ألفاظ التوراة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

سبب هذه الآية أن عظماء الكفار ـ قيل: من أهل مكة، وقيل عُيَيْنَة بن حصن وأصحابه، والأول أصوب لأن السورة مكية ـ قالوا لرسول الله ﷺ: لو أبعدتَ هؤلاء عن نفسك لجالسناك وصحبناك، يريدون: عمَّار بن ياسر، وصهيب بن سنان، وسلمان الفارسي، وعبد الله بن مسعود، وغيرهم من الفقراء كبلال ونحوه، وقالوا: إن ريح جِبَابهم[1] تؤذينا، فنزلت الآية بسبب ذلك، وروي أن رسول الله ﷺ خرج إليهم، وجلس بينهم وقال: «**الحمد لله الذي جعل من أُمتي من أمرت أن أصبر نفسي معه**»[2]،

---

(١) الجبَابُ: جمع جُبَّة، وهي ثوب سابغ، واسع الكُمَّيْن، مشقوق المُقَدَّم، يلبس فوق الثياب. ويجمع أيضاً «جُبَب».

(٢) أخرجه ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه، عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال: نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾، فخرج =

وروي أنه قال لهم: (مرحباً بالذين عاتبني فيهم ربي)، وروى سلمان أن المؤلفة قلوبهم، عُيَيْنَة بن حصن، والأقرع، وذويهم قالوا ما ذُكر فنزلت الآية[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالآية ـ على هذا ـ مدنية، ويُشبه أن تكون الآية مكية وفَعَل المؤلفةُ فعل قريش فردَّ عليهم بالآية.

و﴿ٱصْبِرْ﴾ معناه: احْبِس، ومنه المصبورة التي جاء فيها الحديث (نهى رسول الله ﷺ عن صبر الحيوان)[2]، أي: حبسه للرَّمي ونحوه.

وقرأ الجمهور: ﴿بِٱلْغَدَاةِ﴾، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: [بِالْغُدْوَةِ]، وهي قراءة نصر بن عاصم، ومالك بن دينار، وابي عبد الرحمن، والحسن، وهي في الخَطِّ على القراءتين بالواو، فمن يقرأ ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾ فيكتبها كما تكتب «الصَّلوٰةُ والزَّكوٰةُ»، وفي قراءة من قرأ: [بِالْغُدْوة] ضعف؛ لأن (غُدْوة) اسم معرَّف فحقُّه ألا يدخل عليه الألف واللام، ووجه القراءة بذلك أنهم ألحقوها ضرباً من التنكير؛ إذ قالوا: «جئتُ غُدْوةً»، يريدون: من الغَدَوات، فَحَسُن دخول الألف واللام، كقولهم: الفَيْنَة، وفَيْنَةُ اسم مُعرَّف.

= يلتمسهم، فوجد قوماً يذكرون الله، فيهم ثائر الرأس، وجاف الجلد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم وقال: (الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم).

(١) أخرجه ابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان، عن سلمان، ولفظه كما ذكره في الدر المنثور: جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ، عُيَيْنة بن بدر [هكذا][*] والأقرع بن حابس، فقالوا: يا رسول الله، لو جلست في صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم ـ يعنون سلمان، وأبا ذرٍّ وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جبابُ الصوف ـ جالسناك أو حادثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾، يهددهم بالنار.

(٢) أخرجه البخاري في الذبائح، ومسلم في الصيد، وأبو داود في الأضاحي، والنسائي في الضحايا، وأحمد في مسنده (٢ـ٩٤ـ٣ـ١١٧)، ولفظه كما في مسلم، عن جابر بن عبد الله يقول: نهى رسول الله ﷺ أن يقتل شيءٌ من الدواب صبراً، وفي رواية لمسلم عن سعيد بن جبير قال: مرَّ ابن عمر بنفر قد نصبوا دجاجةً يترامَوْنها، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا عنها، فقال ابن عمر رضي الله عنهما: من فعل هذا؟ إن رسول الله ﷺ لعن من فعل هذا. وفي رواية عن أنس رضي الله عنه أخرجها ابن ماجه في الذبائح، وأحمد في المسند (٣ـ١٨٠)، قال: نهى رسول الله ﷺ عن صبر البهيمة.

(*) هذه الرواية ذكرها الإمام السيوطي في الدر المنثور، ولكن في القرطبي: (عُيَيْنة بن حصن). وفي الطبري أشار المحقق إلى أنها في الأصل (ابن بدر) وقد صوبها إلى: (ابن حصن).

والإشارة لقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ إلى الصلوات الخمس، قاله ابن عمر، ومجاهد، وإبراهيم. وقال قتادة: المراد صلاة الفجر وصلاة العصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويدخل في الآية من يدعو في غير صلاة، ومن يجتمع لمذاكرة علم. وقد روي عن عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: (لَذِكْر الله بالغداة والعشي أفضل من حطْم السيوف في سبيل الله، ومن إعطاء المال سحا)[١].

وقرأ أبو عبد الرحمن: [بِالْغُدُو] دون هاءٍ، وقرأ ابن أبي عبلة: «بالغَدَوَاتِ والعَشِيات» على الجمع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾، أي: لا تتجاوز إلى أبناء الدنيا والملابس من الكفار. وقرأ الحسن: [ولا تُعَدِّ] بضم التاء وفتح العين وشدّ الدال المكسورة، أي: لا تُجاوزها أنت عنهم، ورُوي عنه: [ولا تُعْدِ] بضم التاء وسكون العين[٢]. وقوله: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا﴾، قيل: إنه أراد بذلك مُعَيَّناً وهو عُيَيْنَة بن حصن، والأقرع، قاله خبَّاب، وقيل: إنما أراد من هذه صفته، وإنما المراد أوّلاً كفار قريش لأن الآية مكية. وقرأ الجمهور: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ بنصب الباء، على معنى: جعلناه غافلاً، وقرأ عمرو بن فائد، وموسى الأسواري: [أغْفَلَنا قلبُه][٣]، على معنى: أهمل ذكْرَنا وتركه، قال ابن جِنِّي: المعنى: من ظَنَّنَا غافلين عنه، وذكر أبو عمرو الداني: إنها قراءة عمرو بن عبيد.

و«الْفُرُط» يحتمل أن يكون بمعنى التفريط والتَّضْييع، أي أمره الذي يجب أن يلتزم، ويحتمل أن يكون بمعنى الإفراط والإسراف، أي أمْرهُ وهواه الذي هو بسبيله، وقد فسَّر المتأولون بالعبارتين، أعني التَّضْييع والإسراف، وعبَّر عنه خبَّاب بالهلاك، وداودُ بالندامة، وابن زيد بالخلاف للحق، وهذا كله تفسير بالمعنى.

---

(١) وروى البيهقي في (الدعوات الكبير) عن عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ أنه كان يقول: (لكل شيءٍ صَقَالَةٌ ـ تَجْلية وتَصْفية ـ وصَقَالَةُ القلوب ذِكْرُ الله، وما من شيءٍ أنْجى من عذاب الله من ذِكْر الله)، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: (ولا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع).

(٢) قال أبو الفتح بن جني: «هذا منقول من: عَدَتْ عيناك، أي: جَاوَزَتَا، من قولهم: جاءَ القومُ عدا زيداً، أي: جاوز بعضهم زيداً، ثم نقل إلى: أَعْدَيْتُ عيني عن كذا، أي: صرفتُها عنه». (المحتسب ٢ـ٢٧).

(٣) أي: بفتح اللام من [أَغْفَلَنَا]، وبضم الباء في [قَلْبُهُ] ـ فقلبُه أغفَلَ ذِكْرَ الله تبارك وتعالى، هذا تحليلُ ابن جني وهو مذكور في المحتسب ٢/ ٢٨.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ الآية. المعنى: وقل لهم يا محمد: هذا الحق من ربكم، أي: هذا القرآن، أو هذا الإعراض عنكم، وتَرْكُ الطاعة لكم، وصَبْرُ النفس مع المؤمنين. وقرأ قَعْنَب أبو السَّمَّال[1]: [وَقُلَ] بفتح اللام، قال أبو حاتم: وذلك رديءٌ في العربية. وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن﴾ الآية، تَوَعُّدٌ وتهديد، أي: فَلْيَختر كلُّ امرئٍ لنفسه ما يجده غداً عند الله عزَّ وجلَّ. وتأولت فرقة: فمن شاء اللهُ إيمانَهُ فليؤمن، ومن شاء كفْرَهُ فَلْيَكْفُر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا متوجه، أي: فحقُّه الإيمان وحقُّه الكفر، ثم عبَّر عن ذلك بلغة الأمر إلزاماً وتحريضاً من حيث للإنسان في ذلك التَّكَسُّبُ الذي يتعلق به ثواب الإيمان وعقاب الكفر. وقرأ الحسن، وعيسى الثقفي: [فلِيؤمن.. ولِيكفر] بكسر اللامين.

و﴿أَعْتَدْنَا﴾ مأخوذ من العتاد، وهو الشيءُ المُعَدُّ الحاضر.

و«السُّرَادِقُ» هو الجدار المحيط كالحجارة التي تدور وتحيط بالفسطاط، وقد تكون من نوع الفسطاط أديماً أو ثوباً أو نحوه، ومنه قول رؤْبة:

يَا حَكَمَ بْنَ الْمُنْذِرِ بنَ الْجَارُودْ   سُرَادِقُ الْمَجْدِ عَلَيْكَ مَمْدُودْ[2]

---

(١) ضبطه في المغني بفتح القاف والنون وسكون العين، وهو أبو السَّمَّال العدوي.

(٢) هذان البيتان من أرجوزة قصيرة لرؤبة، وهي في ديوانه ضمن أبيات مفردات منسوبة إليه، والأرجوزة سبعة أبيات، والبيت الثاني في الديوان: (أنتَ الجوادُ ابن الجوادِ المحْمُودْ)، أما البيت الثاني هنا فهو هناك الخامس، و البيتان في الأشموني، والعيني، واللسان، والطبري، والقرطبي، والكتاب لسيبويه، وابن يعيش، وقال في العيني: «نسب الجوهري الأبيات إلى رؤبة، وليس بصحيح، بل هي لراجز من بني الحِرْمَاز، وكذلك نسب الكتاب البيت الأول لراجز بني الحِرْمَاز، والراجزُ يمدح أحد بني المنذر بن الجارود العبدي، واسمه (حَكَم)، وقد ولي البصرة هشام بن عبد الملك، وسُمِّي جدُّه الجارود لأنه أغار على قوم فاكتسح أموالهم، فأشبه السيل الذي يجرد ما يمر عليه. والنحويون يستشهدون بالبيت الأول على إتباع الموصوف للصفة؛ لأن النعتَ والمنعوت كاسمٍ ضمَّ إلى اسم، وعلى هذا تبع (حَكَم) (ابْنَ). أما الشاهد هنا فهو في كلمة (سرادق)، والسرادق: كلُّ ما أحاط بالشيء، نحو الشقة في المِضرَب (الخيمة)، أو الحائط المشتمل على الشيء، وكل بيت من كُرْسف فهو سُرَادق، والكُرسُف: القطن.

ومنه قول سلامة بن جندل:

هُوَ الْمُولِجُ النُّعْمَانَ بَيْتاً سَمَاؤُهُ صُدُورُ الْفُيُولِ بَعْدَ بَيْت مُسَرْدَقِ(١)

وقال الزجاج: السُّرادق: كلُّ ما أحاط بالشيء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي أخصُّ مما قال الزجاج.

واختُلف في سرادق النار ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: سرادقها حائط من نار، وقالت فرقة: سرادقها دخان محيط بالكفار، وهو قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾(٢). وقالت فرقة: الإحاطة هي في الدنيا، والسرادق: البحر، ورُوي هذا المعنى من طريق يَعْلَى بن أُميَّة عن النبي ﷺ، فيجيءُ قوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ﴾، أي: بالبشر، ذكر الطبريُّ الحديث عن يَعْلَى، قال: قال رسول الله ﷺ: (البحر هو جهنم)، وتلا هذه الآية، ثم قال: (والله لا أدخله أبداً، أو ما دمْتُ حياً)(٣)، وروي عنه أيضاً عليه الصلاة والسلام من طريق أبي سعيد الخدري أنه قال: ﴿لِسُرادق النَّارِ أربعةُ جُدُرٍ كُثُف، عرض كل جدارٍ مسيرة أربعين سنة)(٤).

وقوله تعالى: ﴿يُغَاثُواْ﴾ أي يكون لهم مقام الغوث، وهذا نحو قول الشاعر:

---

(١) البيت لسلامة بن جندل، الشاعر الجاهلي القديم، من قصيدة له اختارها الأصمعي في كتابه (الأصمعيات)، وعدد أبياتها أربعون بيتاً، وهي أيضاً في الديوان، والبيت في اللسان ـ والطبري، والقرطبي. وقد ذكر صاحب اللسان أن الجوهري نسب البيت للأعشى، وصحح هو نسبة البيت. والرواية في اللسان والأصمعيات: (هو المُدْخِل النعمانَ...)، والبيت المُسَرْدَقُ هو أن يكون أعلاهُ وأسفله مشدوداً كله، والشاعر هنا يشير إلى ما فعله كسرى أبرويز من إدخاله النُّعمانَ بيتاً فيه ثلاثة أفيال فَوَطِئَتْهُ حتى قتلته، وكما أخطأ الجوهري في نسبة البيت للأعشى أخطأ كذلك حين قال: إنَّ (ابْنَ وَبْر) قتل النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة، والصواب أنه (أبرويز).

(٢) الآية (٣٠) من سورة (المرسلات).

(٣) أخرجه أحمد، والبخاري في تاريخه، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن يعلى بن أُمية، ولفظه كما ذكره السيوطي في الدرّ المنثور: قال رسول الله ﷺ: (إن البحر من جهنم) ثم تلا: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾.

(٤) أخرجه أحمد، والترمذي، وابن أبي الدنيا في صفة النار، وابن جرير، وأبو يَعْلى، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. (الدر المنثور)، والكُثُف: جمع كثيف، وهو الغليظ الثخين.

. . . . تَحِيَّـةُ بَيْنِهِـمْ ضَـرْبٌ وَجِيـعُ[١]

أي: القائم مقام التحية.

و[ٱلْمُهْلِ]، قال أبو سعيد عن النبي ﷺ: هو دُرْدي[٢] الزيت إذا انتهى حرُّه، وقالت فرقة: هو كل مائع سخن حتى انتهى حرُّه، وقال ابن مسعود وغيره: كل ما أُذيب من ذهب أو فضة أو رصاص أو نحو هذا من الفِلِزِّ حتى تَمَيَّع، وروي أن عبد الله بن مسعود أُهديت إليه سقاية من ذهب أو فضة فأمر بها فأُذيبت حتى تميَّعت وتلَوَّنت ألواناً، ثم دعا مَنْ ببابه من أهل الكوفة فقال: ما رأيت في الدنيا شيئاً أدنى شبهاً بالمُهْل من هذا، يريد: أدنى شبهاً بشراب أهل النار. وقالت فرقة: المُهْلُ: الصديد والدم إذا اختلطا، ومنه قول أبي بكر الصدِّيق رضي الله تعالى عنه في الكفن: «إنما هو للمهلة»، يريد: لما يسيل من الميت في قبره، ويقوي هذا بقوله تعالى: ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ الآية[٣].

وقوله تعالى: ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ رُوي في معناه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (تُقَرَّبُ الشَّرْبَةُ من الكافر، فإذا دَنَت تَكَرَّهَها، فإذا دنت أكثر شوت وجهه وسقطت فيها فروة وجهه، وإذا شرب تقطَّعت أمعاؤه)[٤]. و«المُرْتَفَقُ»: الشيء الذي يُرْتَفَق به،

---

(١) هذا عجز بيت لعمرو بن معديكرب، وهو في الكتاب، ونوادر أبي زيد، والعمدة، وابن يعيش، والخزانة، والتصريح، والخصائص، والمرزوقي، والبيت بتمامه:

وَخَيْـلٍ قَـدْ دَلَفْـتُ لَهَـا بِخَيْـلٍ   تَحِيَّـةُ بَيْنِهِـمْ ضَـرْبٌ وَجِيـعُ

يريد بالخيل: الفرسان، ودَلَفَ: زحف، والوجيع: المُوجع، يقول: إذا تلاقوا في الحرب جعلوا الضرب الموجع بينهم بدلاً من التحية، والشاهد فيه أنه جعل الضرب الموجع تحية على الاتساع والمجاز، وسيبويه يجعل ذلك دليلاً على جواز البدل فيما لم يكن من جنس المبدل منه حقيقة. وابن عطية يستشهد بالبيت على أن الآية الكريمة يجوز فيها الاتساع، وجعل المُهْل الذي يشوي الوجوه قائماً مقام الغوث الذي يطلبه أهل النار.

(٢) الدُّرْدِي: ما رسب أسفل العَسَل والزيت ونحوهما من كل شيء مائع كالأشربة والأدهان. (المعجم الوسيط).

(٣) من الآية (١٦) من سورة (إبراهيم).

(٤) أخرج الترمذي عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿كَالْمُهْلِ﴾، قال: (كَعَكَر الزيت فإذا قَرَّبه إلى وجهه سقطت فروة وجهه)، قال القرطبي: «قال أبو عيسى: هذا حديث إنما نعرفه من حديث رِشْدِينَ بْنِ سعد، ورِشْدِين قد تُكُلِّم فيه من قِبَل حفظه، وخرَّج عن أبي أُمامة عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ويسقى من ماء صديد يتجرعه﴾، قال: (يُقَرَّبُ إلى فيه فيكرهه، فإذا أُدْنِيَ منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا =

أي يطلب رفقه، والمُرْتَفَق الذي هو المُتَّكأُ أخصُّ من هذا الذي في الآية؛ لأنه في شيء واحد من معنى الرِّفق، على أن الطبريَّ فسَّر الآية به، والأظهر عندي أن يكون «المُرْتَفَق» بمعنى الشيء الذي يطلب رفقه بِاتِّكَاءٍ وغيره. وقال مجاهد: المرتفق: المجتمع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كأنه ذهب بها إلى موضع الرِّفاقة، ومنه الرفقة، وهذا كلُّه راجع إلى الرِّفق، وأنكر الطبري أن يعرف لقول مجاهد معنى، والقول بيِّن الوجه، والله المعين(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ اعتراضٌ مُؤكِّد للمعنى، مذكِّر بأفضال الله تعالى، مُنبِّه على حُسْن جزائه، بيْن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ﴾، فقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ، جملةٌ هي خبر [إنَّ] الأولى، ونحو هذا من الاعتراض قول الشاعر:

إِنَّ الْخَلِيفَــــةَ ـ إِنَّ اللهَ أَلْبَسَــــهُ سِرْبَالَ مُلْكٍ ـ بِهِ تُرْجَى الْخَوَاتِيمُ(٢)

= شربه قطَّع أمعاءه حتى يخرج من دُبُره، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾، ويقول: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾. قال حديث غريب».

(١) لم يقل الطبري رحمه الله: إنه لا يعرف لقول مجاهد معنى، وإنما قال بالنَّصِّ: «ولستُ أعرفُ الارتفاق بمعنى الاجتماع في كلام العرب، وإنما الارتفاق: افتعال، إما من المِرفق، وإما من الرِّفق». راجع الجزء ١٦ـ٢٤٢ من تفسير الطبري.

(٢) البيت من شواهد الفراء في (معاني القرآن ٢ـ١٤٠)، قال: «خبر ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ في قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾، وهو مثل قول الشاعر: (إنَّ الخليفةَ إنَّ اللهَ سَرْبَلَهُ البيت)، كأنه في المعنى: إنَّا لا نُضيع أجر من عمل صالحاً، فترُك الكلام الأول واعتمد على الثاني بِنِيَّةِ التكرار، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾، ثم قال: ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾، يريد: عن قتالٍ فيه بالتكرار، ويكون أن تجعل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في مذهب جزاء، كقولك: إن من عمل صالحاً فإنَّا لا نضيع أجره، فتضمر، فتضمَّن الفاءُ في قوله: [فَإِنَّا] وإلقاؤها جائز، وهي أحبُّ الوجوه إليَّ، وإن شئتَ جعلت خبرهم =

قال الزجاج: ويجوز أن يكون خبر [إنَّ] في قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾؛ لأن المحسنين هم المؤمنون، فكأن المعنى: لا نضيع أجرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومذهب سيبويه أن الخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ على حذف العائد، وتقديره: من أحسن عملاً منهم.

و«العَدْنُ»: الإقامة، ومنه المَعْدِنُ؛ لأن حَجَرَهُ مقيمٌ فيه ثابت، وقوله تعالى: ﴿مِن تَحْتِهِمُ﴾ يريد: تحت غُرَفهم ومبانيهم. وقرأ الجمهور: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾، وروى أبان عن عاصم: [مِنْ أَسْوِرَة] بغير ألف وبزيادة هاءٍ، وواحدة الأساور: إسوارٌ وحذفت الياءُ من الجمع؛ لأن الباب: أساوير، وهي ما كان في الذراع من الحلي، وقيل: أساور جمع أَسْوِرَةٍ، وأَسْوِرَةٌ جمع سِوَار، وإنما الإِسْوَارُ بالفارسية القائد ونحوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويقالُ في حُلِيِّ الذراع: إِسْوَارٌ، ذكره أبو عبيدة معمر، ومنه قول الشاعر:

واللهِ لَــوْلاَ فِتْيَــةٌ صِغَــارُ ... كَــأَنَّمَــا وُجُــوهُهُــمْ أَقْمَــارُ
تَضُمُّهُــمْ مِــنَ الْعَتِيــكِ دَارُ ... أَخَــافُ أَنْ يُصِيبَهُــمْ إِقْتَــارُ
أَوْ لاطِــمٌ لَيْــسَ لَــهُ إِسْــوَارُ ... لَمَــا رَآنِــي مَلِــكٌ جَبَّــارُ
بِبَــابِــهِ مَــا وَضَــحَ النَّهَــارُ(١)

= مُؤَخَّراً، كأنك قلتَ: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم جنات عدن». هذا، والسِّرْبال: الدِّرْعُ.

(١) يستشهد ابن عطية بهذه الآبيات على أن (إسْوَار) تأتي بمعنى الحليِّ التي توضع في الذراع، على خلاف الأصل الذي هي فيه بمعنى القائد. وذلك لأنها جاءت في قول الشاعر: (أو لاطم ليس له إسْوَارُ)، أي: لاطم من الرجال، لا يلبس أسورة في يده. والعَتيك: الأحمر من القِدَم، قاله في اللسان، والإقْتَارُ: الفقر والحاجة، وقد ذكر ابن عطية أنه قرأ هذه الأبيات التي أنشدها ابن الأنباري في حاشية كتاب أبي عبيدة، على أن اللسان أورد كثيراً من الشواهد التي تدل على أن الإسْوَار لغة في السوار، ومنها قول المُرَّار بن سعيد الفَقْعَسي:

كَمَــا لاحَ تِبْــرٌ فــي يَــدٍ لَمَعَــتْ بِــهِ ... كعــابٌ بَــدَا إِسْــوَارُهَــا وخَضِيبُهَــا

وقول العَرَنْدَس الكلابي:

بَــلْ أَيُّهَــا الــرَّاكِــبُ الْمُفْنــي شَبِيبَتَــهُ ... يَبْكِــي عَلَــى ذاتِ خَلْخَــالٍ وَإِسْــوَارِ =

أنشده أبو بكر بن الأنباري حاشية في كتاب أبي عبيدة.

و«السُّنْدُسُ»: رقيق الديباج، و«الإسْتَبْرَقُ»: ما غلظ منه، وقال بعض المفسرين: هي لفظة أعجمية عربت، وأصلها: استبره، وقال بعضهم: هو الفعل العربي سُمِّي به، فهو إستبرق، من البريق، فعُبِّر حين سُمِّي به بقطع الألف، ويُقَوِّي هذا القول أن ابن محيصن قرأ: ﴿مِن سُندُسٍ وَإِستَبْرَقٍ﴾، فجاء به موصول الهمزة حيث وقع، ولا يَجُرُّه بل يفتح القاف، ذكره الأسواري، وذكره أبو الفتح وقال: هذا سهْوٌ أو كالسَّهْو.

و«الأَرَائِك»: جمع أريكة، وهو السرير في الحجال، والضمير في قوله: [وَحَسُنَتْ] للجنات، وحكى النقاش عن أبي عمران الجوني أنه قال: الاستبرق: الحرير المنسوج بالذهب، وحكى مكي والزهراوي وغيرهما حديثاً مُضَمَّنه أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية نزلت في أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله تعالى عنهم، سأل أعرابي رسول الله ﷺ عن الآية، فقال النبي ﷺ للأعرابي: (أَعْلِمْ قومك أنها نزلت في هؤلاء الأربعة)(١) وهم حضور.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾.

الضمير في [لَهُمْ] عائد على الطائفة المتحيرة التي أرادت من النبي ﷺ أن يطرد فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، وعلى أولئك الداعين أيضاً، فالمثل مضروب للطائفتين؛ إذ الرجل الكافر صاحب الجنَّتين هو بإزاء متجبِّري قريش، أو بني تميم، على الخلاف المذكور أولاً، والرجل المؤمن المقر بالربوبية هو بإزاء بلالٍ وعمَّارٍ وصُهَيْب وأقرانهم.

---

(١) رواه البراءُ بن عازب، قال: إن أعرابياً قام إلى رسول الله ﷺ في حَجَّة الوداع، والنبي ﷺ واقف بعرفات على ناقته العضباء فقال: إني رجل مسلم، فأخبرني عن هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: (ما أنت منهم ببعيد، ولا هم ببعيد منك، هم هؤلاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فأَعْلِم قومك أن هذه الآية نزلت فيهم)، ذكره الماوردي، وأسنده النحاسُ في كتاب (معاني القرآن)، عن البراء بن عازب، وأسنده السهيلي في كتاب (الأعلام)، ورواه القرطبي وقال: «وقد روينا جميع ذلك بالإجازة، والحمد لله».

و[حَفَفْنَاهُمَا] بمعنى: جعلنا ذلك لها من كل جهة، تقول: حفَّك الله بخير، أي: عمَّك به من جميع جهاتك، والحِفاف: الجانب من السرير ونحوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وظاهر هذا المثل أنه بأمر وقع وكان موجوداً، وعلى هذا فسَّره أكثر أهل التأويل، ويحتمل أن يكون المثل مضروباً بمن هذه صفته وإن لم يقع ذلك في وجودٍ قط. والأول أظهر.

ورُوي في ذلك أنهما كانا أخوين من بني إسرائيل ورثا أربعة آلاف دينار، فصنع أحدهما بماله ما ذكر، واشترى عبيداً وتزَوَّج وأثرى، وأنفق الآخر ماله في طاعة الله تعالى حتى افتقر، والتقيا ففخر الغني ووبَّخ المؤمن، فجرت بينهما هذه المحاورة، ورُوي أنهما كانا شريكين حدَّادين كسبا مالاً كثيراً وصنعا نحو ما رُوي في أمر الأخوين، فكان من أمرهما ما قصَّ الله في كتابه. وذكر إبراهيم ابن القاسم الكاتب في كتابه (في عجائب البلاد) أن بحيرة تِنِّيس[1] كانت ما بين الجنتين، وكانت للأخوين، فباع أحدهما نصيبه من الآخر، وأنفق في طاعة الله حتى عيَّره الآخر، فجرت بينهما هذه المحاورة، فغرَّقها اللهُ في ليلة، وإيَّاها عنى بهذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي بسط قصصهما طول فاختصرته واقتصرت على معناه لقلَّة صحته، ولأن في هذا ما يفي بفهم الآية.

وتأمل هذه الهيئة التي ذكر الله تعالى، فإن المرء لا يكاد يتخيل أجلَّ منها في مكاسب الناس: جنَّتا عنب أحاط بها نَخْلٌ بينهما فسحة هي مزدرعٌ لجميع الحبوب، والماءُ الغَيْلُ[2] يسقي جميع ذلك من النهر الذي جمَّل هذا المنظر، وعظَّم النفع، وقرَّب الكد، وأغنى عن النواضح وغيرها.

---

(١) ضبطها الحموي في (معجم البلدان) بكسر التاء والنون مع تشديد النون، وقال: هي جزيرة في بحر مصر قريبة من البرِّ، ما بين الفَرَما ودمياط، ثم وصف بحيرتها، وتكلم عن تاريخها وعلمائها وأطال في ذلك. فهل هي المقصودة هنا؟.

(٢) الغَيْل: الماءُ الجاري على وجه الأرض، وقد نقل أبو حيان في البحر كلام ابن عطية هنا، وجاءت العبارة فيه: «والماءُ المعين يسقي جميع ذلك».

وقرأ الجمهور: ﴿كِلْتَا﴾، وفي مصحف عبد الله: [كِلاَ]، والتاءُ في ﴿كِلْتا﴾ منقلبة عن واو عند سيبويه، وهو بالتَّاءِ أو بغير التَّاء اسم مفرد واقع على الشيء المُثَنَّى، وليس باسمٍ مُثَنًّى، ومعناه: كل واحدة منهما[1]، و«الأُكُلُ»: ثمرها الذي يُؤكل منها، قال الفراءُ: وفي قراءة ابن مسعود: «كلُّ الجَنَّتَيْن أَتَى أُكله». وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾، أي: لم تنقص عن العرف، ومنه قول الشاعر:

تَظَلَّمَنِـي مـالـي كـذا وَلَـوَى يَـدِي ... لَـوَى يَـدَهُ اللهُ الَّـذي هُـو غَـالِـبُ[2]

وقرأ الجمهور: ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ بتشديد الجيم، وقرأ سلاَّم، ويعقوب، وعيسى بن عمر: [وَفَجَرْنَا] بفتح الجيم دون شدٍّ. وقرأ الجمهور: ﴿نَهَرًا﴾ بفتح الهاء، وقرأ أبو السَّمَّال، والفياض بن غزوان، وطلحة بن سليمان: [نَهْراً] بسكون الهاء، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وابن عباس، ومجاهد، وجماعة قراء المدينة ومكة: [ثُمُرٌ] [وَأُحِيطَ بِثُمُره] بضم الثاء والميم، جمع ثمارٍ. وقرأ أبو عمرو، والأعمش، وأبو رجاء بسكون الميم فيهما تخفيفاً، وهي في المعنى كالأولى، ويتَّجه أن يكون جمع ثَمَرَة، كَبَدَنَةٍ وبُدْن، وقرأ عاصم ﴿ثَمَرٌ﴾ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ بفتح الميم والثاء فيهما، وهي قراءة أبي جعفر، والحسن، وجابر بن زيد، والحجاج.

واختلف المتأولون في «الثُّمُرِ» بضم الثاء والميم، فقال ابن عباس، وقتادة: الثُّمُر:

---

(١) هذا هو مذهب البصريين، وقالوا: إن كِلا وكِلْتَا في توكيد الاثنين نظير «كُلٌّ» في المجموع. وقال الفراءُ «كِلاَ» مثنى، وهو مأخوذ من «كُلٌّ»، فخففت اللام وزيدت الألف للتثنية، وكذلك «كِلتا» للمؤنث، ولا يكونان إلا مضافين، ولا يتكلم بواحد، ولو تُكُلِّم به لقيل: «كِلٌ» و«كِلْت»، واستدل على ذلك بشواهد من الشعر، وردَّ البصريون على ذلك بكلام تجده في كتب النحو، وقد ذكره بعض المفسرين وأطال فيه.

(٢) البيت واحد من تسعة أبيات قالها فُرْعان بن الأعرف في ابن له اسمه مُنازل، وهو في الحماسة، واللسان، ومجاز القرآن، والطبري، ورواية اللسان: (تظلَّم مالي هكذا. . .)، ورواية الحماسة: (تَغَمَّد حَقِّي ظالماً ولَوَى يدي. . .). و(تَظَلَّم مَالِي) بمعنى ظلمني مالي، أي: أخذه ظلماً وبدون حق. ولوى يدي: فَتَلَهَا وأزالها عن حالها وغلبني. قال في اللسان: «وظَلَمَه حَقَّه وتَظَلَّمه إيَّاه» يعني أنهما بمعنى واحد. وفُرْعان بضم الفاء وسكون الراء بعدهما عين مهملة، وهو من بني مُرَّة بن عبيد رهط الأحنف بن قيس، وكان شاعراً لصّاً، يسرق إبل الناس، فسرق يوماً جملا لرجل، فجاء صاحب الجمل فأخذ بشعره فجذبه فنزل على ركبتيه، فقال له القوم: لقد كبرت يا فُرْعان، فقال: لا والله، ولكنه جَذَبني جَذْبة مُحِقٍّ.

جميع المال من الذهب والفضة وغير ذلك، ويستشهدون لهذا القول ببيت النَّابغة:

. . . . وَمَـا أُثَمِّـرُ مِـنْ مـالٍ ومِـنْ وَلَـدِ(١)

وقال مجاهد: يراد بها الذهب والفضة خاصة، وقال بن زيد: الثُّمُر هي الأصول التي فيها الثَّمَر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كأنها ثمارٌ وثُمُرٌ، ككتابٍ وكُتُب. وأما من قرأ بفتح الثاء والميم فلا إشكال في أن المعنى ما في رؤوس الأشجار من الأكل، ولكن فصاحة الكلام تقتضي أن يعبر إيجازاً عن هلاك الثَّمر والأصول بهلاك الثَّمر فقط، خصَّها بالذكر إذْ هي مقصد المستغل، وإذ هلاك الأصول إنما يسوءُ منه هلاك الثَّمر الذي كان يُرجى في المستقبل، وكما يقتضي قوله «إنَّ له ثمراً» أنَّ له أصولاً، كذلك يقتضي الإحاطة المطلقة بالثمرات والأصول قد هلكت. وفي مصحف أُبي: «وآتيناه ثمراً كثيراً». وقرأ أبو رجاءٍ [وكان له ثمرٌ] بفتح الثاء وسكون الميم. و«المُحَاوَرَةُ»: مراجعة القول، وهو من: حارَ يحور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واستدلَّ بعض الناس من قوله سبحانه: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ على أنه لم يكن أخاه. وقال المناقض: أراد بالنَّفَر العَبيدَ والخَوَلَ؛ إذْ هُمُ الذين ينفرون في رغائبه، وفي هذا الكلام من الكِبْر والزَّهْو والاغترار ما بيانه يغني عن القول فيه. وهذه المقالة بإزاء مقالة عُيَيْنة والأقرع للنبي ﷺ: نحن سادات العرب، وأهل الوَبَر والمَدَر، فَنَحِّ عنَّا سلمان وقرناءَه.

---

(١) هذا عجز بيت قاله النابغة من قصيدته المعروفة التي مدح بها النعمان بن المنذر، واعتذر إليه مما بلغه عنه في أمر المتجردة، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

أُنبئْـتُ أَنَّ أَبَـا قَـابـوسَ أَوْعَـدَنِـي ... وَلاَ قَـرَارَ عَلَـى زَأْرٍ مِـنَ الأَسَـدِ
مَهْـلاً فِـدَاءً لَـكَ الأَقْـوَامُ كُلُّهُـمُ ... وَمَـا أُثَمِّـرُ مِـنْ مَـالٍ ومِـنْ وَلَـدِ

وابن عطية يشير بهذا البيت إلى أن (الثُّمُر) بضم الثاء والميم هو الذهب والفضة وغير ذلك؛ إذ أن النابغة سحب التَّثمير على المال والولد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾.

أفرد الجنة من حيث الوجود، كذلك إذ لا يدخلهما معاً في وقت واحد، وظُلْمُه لِنَفْسِهِ: كفرُهُ وعقائده الفاسدة في الشك في البعث، فقد نصَّ على ذلك قتادة، وابن زيد، وفي شكِّه في حدوث العالم وإن كانت إشارته بـ[هَٰذِهِ] إلى الهيئة في السموات والأرض وأنواع المخلوقات، وإن كانت إشارته إلى جنته فقط فإنما في الكلام تساخف واغترارٌ وقلَّة تحصيل، كأنه من شدَّة العجب بها والسرور أَفْرط في وصفها بهذا القول، ثم قاس أيضاً الآخرة على الدنيا، وظنَّ أنه لم يُمْل[1] له في الدنيا إلا لكرامة يستوجبها في نفسه، قال: فإن كان ثم رجوعٌ كما تزعم فسيكون حالي كذا وكذا، وليست مقالة العاصي بن وائل لِخَباب على حدٍّ هذه، بل قصد العاصي الاستخفاف على جهة التصميم على التكذيب.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وابن الزبير، وثبت في مصاحف المدينة [مِنْهُمَا] يريد الجنتين المذكورتين أولاً، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، والعامة، وكذلك هو في مصحف البصرة: [مِنْهَا]، يريد الجنة المدخولة.

وقوله: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ حكاية أن المؤمن من الرجلين لمَّا سمع كلام الكافر وَقَفه ـ على جهة التوبيخ ـ على كفره بالله تعالى، وقرأ أُبيُّ بن كعب: «وهو يخاصمه»، وقرأ ثابت البناني: «وَيْلَكَ أَكَفَرْتَ»، ثم جعل يعظم الله تعالى عنده بأوصاف تضمنت النعم والدلائل على جواز البعث من القبور. وقوله: ﴿مِن تُرَابٍ﴾ إشارة إلى آدم ﷺ. وقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ كما تقول: سوَّاك شخصاً أو حيّاً أو نحو هذا من التأكيدات، وقد يحتمل أنَّه قصد تخصيص الرجولة على وجه تعديد النعمة في أن لم يكن أُنثى ولا خُنثى، وذكر الطبري نحو هذا.

(١) من الإملاء وهو الإمهال والتمتع بالحياة ونعيمها.

واختلفت القراءة في قوله: ﴿لَكِنَّا﴾، فقرأ ابن عامر، ونافع ـ في رواية الْمَسِيلِيِّ(١) ـ: ﴿لَكِنَّا﴾ في الوصل والوقف. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، [لَكِنْ] في الوصل، و[لَكِنَّا] في الوقف، ورجَّحها الطبري، وهي رواية ورش، وقالون عن نافع. وقرأ ابن مسعود، وأُبيُّ بن كعب، والحسن: [لَكِنْ أَنَا هُوَ اللهُ رَبِّي]، وفي قراءة عيسى الثقفي، والأعمش ـ بخلاف ـ [لكِنْ هُوَ اللهُ رَبِّي]، فأما هذه الأخيرة فَبَيِّنٌ على الأمر والشأن، وأما الذي قبلها فعلى معنى: لكن إنما أقول. ومن هذه الفرقة من قرأ: [لَكِنَنَا] على حذف الهمزة وتخفيف التنوين، وفي هذا نظر، وأما من قرأ: ﴿لكِنَّا﴾ فأصله عنده «لكِنْ أَنَا» حذفت الهمزة على غير قياسٍ وأُدغمت النون في النون، وقال بعض النحويين: نُقلت حركة الهمزة إلى النون فجاءَ «لَكِنَنَا» ثم أُدغمت بعد ذلك فجاء «لكِنَّا»، فرأى بعض القُرَّاءِ أنَّ بالإدغام استُغني عن الألف الأخيرة، فمنهم من حذفها في الوصل، ومنهم من أثبتها في الوصل والوقف لتدلَّ على أصل الكلمة. ويتوجَّه في ﴿لَكِنَّا﴾ أن تكون «لَكِنْ» لحقتها نون الجماعة التي في «خَرَجْنَا وَضَرَبْنَا»، ووقع الإدغام لاجتماع المِثْلين، ووحَّد في ﴿رَبِّي﴾ على المعنى، ولو اتبع اللفظ لقال: «رَبُّنَا»، ذكره أبو علي. ويترجَّح بهذا التعليل قول من أثبت الألف في حالي الوصل والوقف. ويتوجه في ﴿لَكِنَّا﴾ أن تكون المشهورة من أخوات «إنَّ»، والمعنى: «لكنَّ قولي هو الله ربِّي»، إلاَّ أنِّي لا أعرف من يقرأ بها وصلاً ووقفاً، وذلك يلزم من يُوَجِّه هذا الوجه. وَرَوى هارون عن أبي عمرو [لَكِنَّهُ هو اللهُ رَبِّي] بضمير لَحِقَ «لَكِنْ». وباقي الآية بَيِّنٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ﴾ الآية. وصيةٌ من المؤمن للكافر، و﴿لَوْلَآ﴾ تحضيض بمعنى: هَلاَّ، و﴿ما﴾ يحتمل أن تكون بمعنى «الذي»، بتقدير: «الذي شاء الله كائن»، وفي [شاءَ] ضمير عائد، ويحتمل أن تكون شَرْطِيَّة بتقدير: «ما شاء الله كان»، ويحتمل أن تكون خبر ابتداء محذوف تقديره: «هو ما شاء الله، أو الأمر ما شاء الله». وقوله: ﴿لا قوة إلا بالله﴾ تسليمٌ وضدٌّ لقول الكافر: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، وروي عن النبي ﷺ أنه قال لأبي هريرة: (ألا أَدُلُّك على كلمة من كنز الجنة)؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: «لاَ قُوَّة إلاَّ بالله، إذا قالها العبد قال الله عزَّ وجلَّ: أسلم عبدي واستسلم»(٢).

---

(١) نسبة إلى بلدة بالجزائر تُسَمَّى مَسِيلة، على وزن سفينة، وهو أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد.

(٢) تفرَّد به أحمد، قال ذلك الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير في تفسيره، وذكر ذلك أيضاً الإمام=

وفي حديث أبي موسى أن النبي ﷺ قال له: «يا عبد الله بن قيس: ألاَ أَدُلُّك على كنز من كنوز الجنة»؟ قال: افعل يا رسول الله، قال: «لا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العلي العظيم»[١].

واختلفت القراءة في حذف الياء من ﴿تَرَنِ﴾ وإثباتها، فاثبتها ابن كثير وصلاً ووقفاً، وحذفها ابن عامر، وعاصم، وحمزة فيهما، وأثبتها نافع، وأبو عمرو في الوصل فقط. وقرأ الجمهور: ﴿أَقَلَّ﴾ بالنصب على المفعول الثاني، وقوله: [أَنَا] فاصلة مُلْغَاةٌ، وقرأ عيسى بن عمر: [أَقَلُّ] بالرفع على أن يكون [أَنَا] مبتدأ و[أَقَلُّ] خبره، والجملة في موضع المفعول الثاني، والرُّؤْية رؤْية قلب في هذه الآية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

هذا التَّرَجِّي بـ(عَسَى) يحتمل أن يريد به: في الدنيا، ويحتمل أن يريد: في الآخرة، وتمني ذلك في الآخرة أشرف مقطعاً، وأذهب مع الخير والصلاح، وأن يكون ذلك يراد به في الدنيا أذهبُ في نكاية هذا المخاطب، وأشد إيلاماً لنفسه.

و«الحُسْبَانُ»: العذاب كالبرد والصر ونحوه، واحِدُ الحُسْبَان: حُسْبَانة، وهي المرامي من هذه الأنواع المذكورة، وهي سهام تُرمى دفعة بآلة لذلك. و«الصَّعِيدُ»: وجهُ الأرض، و«الزَّلَقُ»: الذي لا يثبت فيه قدم، يعني أنه تذهب أشجاره ونباته، ويبقى أرضاً قد ذهبت منافعها حتى منفعة المشي، فهي وحْل لا تُنْبت ولا تَثْبُت فيها قدم.

= السيوطي في الدر المنثور، ولفظه كما في المسند: قال رسول الله ﷺ: (الا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟ قلت: نعم، قال: أن تقول: لا قوة إلا بالله)، قال عمرو بن ميمون: قلت لأبي هريرة رضي الله عنه: لا حول ولا قوة إلا بالله. فقال: لا، إنها في سورة الكهف ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾.

(١) أخرجه مسلمٌ في صحيحه، وذكر ذلك القرطبي.

و«الْغَوْرُ» مصدر يوصف به الماءُ المفرد والمياه الكثيرة، كقولك: رجل عَدْل وامرأة عَدْل ونحوه، ومعناه: ذاهباً في الأرض لا يُستطاع تناوله، وقرأت فرقة: [غُوراً] بضم الغين، وقرأت فرقة: [غُؤُراً] بضم الغين وهمز الواو، و«غَوْرٌ» مثل «نَوْح» يوصف به الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث، ومنه قول الشاعر:

تَظَـلُّ جِيَـادُهَـا نَـوْحـاً عَلَيْـهِ ... مُقَلَّـدَةً أَعِنَّتَهـا صُفُـونَـا[1]

وهذا كثير، وباقي الآية بيِّن.

وقوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ الآية. هذا خبر من الله تعالى عن إحاطة العذاب بحال هذا المُمَثَّل به، وقد تقدم القول في الثَّمر، غير أن الإحاطة كناية عن عموم العذاب والفساد. و﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ يريد: يضع بطن إحداهما على ظهر الأخرى، وكذلك فِعْل المتلهِّف المتأسِّف على فائتٍ او خسارة أو نحوهما، ومن عبَّر بـ«يُصَفِّق» فلم يُتقن. وقوله: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ يريد أن السقوف وقعت، وهي العروش، ثم تهدَّمت الحيطان عليها فهي خاوية والحيطان على العروش. ﴿ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً﴾، قال بعض المفسرين: هي حكاية عن قول الكافر هذه المقالة في الآخرة، ويحتمل أن يريد أنه قالها في الدنيا على جهة التوبة بعد حُلُول المصيبة، ويكون فيها زجرٌ للكفرة من قريش أو غيرهم؛ لئلا تجيء لهم حالٌ يؤمنون فيها بعد نِقَمٍ تحل بهم.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم، وأبو عمرو، والحسن، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿وَلَمْ تَكُن﴾ بالتاء على لفظ الْفِئَة، وقرأ حمزة، والكسائي، ومجاهد، وابن وثاب: ﴿وَلَمْ يَكُن﴾ بالياء على المعنى. و«الْفِئَةُ»: الجماعة التي يلجأ إلى نصرها، وقال مجاهد: هي العشيرة.

---

(١) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته المشهورة، والرواية في شرح الأنباري والتبريزي والزوزني: (تَرَكْنَا الْخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ مُقَلَّدَةً...)، وكذلك أجمعت كل المصادر على رواية: (تَظَلُّ جِيَادُهُ) بخلاف ما هو ثابت هنا، والضمير يعود على السَّيِّد الذي قتلوه وأبَوْا الخضوع له في قوله قبل هذا البيت:

وَسَيِّـدِ مَعْشَـرٍ قَـدْ تَـوَّجُـوهُ ... بِتَـاجِ الْمُلْـكِ يَحْمِـي الْمُحْجَـرِينَـا

والصُّفُون: جمع صافِن، يقال: صَفَن الفرسُ صُفُوناً: إذا قام على ثلاث، وثنى سنبكه الرابع، والشاهد أن (نَوْحاً) هنا جاءت وصْفاً للجمع، والمعنى: نائحات عليه، قال أبو عبيدة في مجاز القرآن: «والعرب قد تصف الفاعل بمصدره، وكذلك الاثنين والجمع، على لفظ المصدر، قال عمرو بن كلثوم: تَظَلُّ جِيَادُهُ نَوْحاً عليه... البيت».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي من: فاءَ يفيءُ، وزنها فِعْلة «فِيئَة» حذفت العين تخفيفاً[١]، وقد قال أبو علي وغيره: هي من فَأَوْتُ وليست من فاء، وهذا الذي قالوه أدخل في التصريف، والأول أحكم في المعنى. وقرأ ابن أبي عبلة: [فئة تنصره].

وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ يحتمل أن يكون ظرفاً لقوله: ﴿مُنتَصِرًا﴾، ويحتمل أن تكون ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ مبتدأ و﴿هُنَالِكَ﴾ خبره، وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، ويحيى بن وثاب: [ٱلْوِلَايَةُ] بكسر الواو، وهي بمعنى الرياسة والزعامة ونحوه، وقرأ الباقون: ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ بفتح الواو، وهي بمعنى الموالاة والصلة ونحوه. وحُكي عن أبي عمرو، والأصمعي أن كَسْرَ الواو هنا لحن؛ لأن (فِعَالَة) إنما تجيءُ فيما كان صنعة أو معنى متقلداً، وليس هنا تولي أمر.

وقرأ أبو عمرو، والكسائي: [ٱلْحَقُّ] بالرفع على جهة النعت لـ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾، وقرأ الباقون: (ٱلْحَقِّ) بالخفض على النعت للهِ عزَّ وجلَّ، وقرأ أبو حيوة: [لله الحَقَّ] بالنصب. وقرأ الجمهور: [عُقُباً] بضم العين والقاف، وقرأ عاصم، وحمزة، والحسن: ﴿عُقْبًا﴾ بضم العين وسكون القاف وتنوين الباء، وقرأ عاصم أيضاً: [عُقْبَى] بياءِ التأنيث[٢]. والعُقْبُ والعُقُبُ بمعنى المعاقبة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يريد حياة الإنسان بما يتعلق بها من نعم وثروة، وقوله:

---

(١) في اللسان: «الفِئَةُ: الطائفة، والهاءُ عوض عن الياء التي نقصت من وسطه، أصله فِيْءٌ، مثال فِيْع؛ لأنه من فاءَ، ويُجْمع: فِئُونَ وفئات. وقال ابن بَرِّي: هذا الذي قاله الجوهريُّ سهوٌ، وأصله فِئْو مثلَ فِعْوٍ، فالهمزة عينٌ لا لام، والمحذوف لامها وهو الواو».

(٢) هذه من رواية أبي بكر عن عاصم، أما القراءة السابقة عن عاصم بضم العين وسكون القاف فهي من رواية حفص عنه.

﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يريد: هي كماءٍ، وقوله: ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ أي: فاختلط النَّباتُ بعضه ببعض بسبب الماء، فالباءُ في [بِهِ] باءُ السبب؛ فـ[أَصْبَحَ] عبارة عن صيرورته إلى ذلك، لا أنه[1] أراد اختصاصاً بوقت الصباح، وهذا كقول الرَّبيع بن ضَبُع:

أَصْبَحْتُ لاَ أَحْمِلُ السِّلاَحَ وَلاَ ... أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا[2]

و«الْهَشِيمُ»: المُتفَتِّت من يابس العُشب، ومنه قوله تعالى: ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾[3]، ومنه: هشم الثريد، و[تَذْرُوهُ] بمعنى: تُفَرِّقُه، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «تُذْرِيهِ» والمعنى: تقلعه وترمي به. وقرأ الحسن: [تَذْرُوهُ الريح] بالإفراد، وهي قراءة طلحة، والنَّخعي، والأعمش.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ عبارة للإنسان عن أن الأمر قبل وجود الإنسان هكذا كان إذ كان، إذ نفسه حاكمة بذلك في حال غفلة، هذا قول سيبويه، وهو معنى صحيح. وقال الحسن: [كَانَ] إخبارٌ عن الحال قبل إيجاد الموجودات، أي أن القُدرة كانت، وهذا أيضاً حسَنٌ. وقوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ يريد: من الأشياء المُقدَّرَة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لا المُحَالات وغيرها من الأشياء التي لا يوصف الله تبارك وتعالى بالقدرة عليها، ولا بالعجز عنها، وهذا على تسمية المحال شيئاً، من حيث هو معقول لا واقع، وقد جاء أن زلزلة الساعة شيءٌ.

---

(١) في أكثر الأصول: (لأنَّه)، وهو خطأ من النساخ.

(٢) الرَّبيعُ بن ضَبُع بن وهب الفزاري، من المعمرين، أدرك الإسلام ولم يسلم، وهذا البيت خامسُ سبعة أبيات قالها لما بلغ الأربعين بعد المائتين، وقد بدأ الأبيات بقوله:

أَصْبَحَ مِنِّي الشَّبَابُ قَدْ حَسَرَا ... إِنْ يَنْأَ عَنِّي فَقَدْ ثَوَى عُصُرَا

وختمها بقوله:

مِنْ بَعْدِ مَا قُوَّةٍ أُسَرُّ بِهَا ... أَصْبَحْتُ شَيْخاً أُعَالِجُ الْكِبَرَا

وقد استشهد المفسرون بقوله: (أَصْبَحْتُ لا أَحْمِلُ... البيت) عند تفسير قوله تعالى في سورة (يس): ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾، عَلَى أن المِلْكَ بمعنى الضَّبْطِ والتسخير، لأن معنى (لا أَمْلِكُ البعير): لا أضبطُه ولا أتحَكَّمُ فيه، كما استشهدوا به هنا دليلاً على أنَّ (أَصْبَحَ) بمعنى: (صار)، وليست مختصة بوقت الصباح.

(٣) من الآية (٣١) من سورة (القمر).

فمعنى هذا المثال تشبيه حال المرء في حياته وماله وعزته وزَهْوه وبَطَره بالنبات الذي له خُضرة ونُضرة عن المطر النَّازل، ثم يعود بعد ذلك هشيماً، ويصير إلى عدم، فمن كان له عمل صالح يبقى في الآخرة فهو الفائز، فكأن الحياة بمثابة الماء، والخضرة، والنضارة بمنزلة النعيم والعزة ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ لفظه لفظ الخبر، لكن معه قرينة الضَّعَة للمال والبنين؛ لأنه في المثل قبْلُ حقَّر أمر الدنيا وبيَّنَهُ، فكأنه يقول في هذه: المالُ والبنون زينة هذه الحياة الدنيا المحقَّرة، فلا تُتبِعُوهَا أنفسكم. وقوله: [زِينَةُ] مصدرٌ، وقد أخبر به عن أشخاص، فإما أن يكون على تقدير محذوف، تقديره: مَقَر زينة الحياة، وإما أن يضع المال والبنين بمنزلة الغنى والكثرة.

واختلف الناسُ في «ٱلْبَاقِيَات ٱلصَّالِحَات» ـ فقال ابن عباس، وابن جبير، وأبو ميسرة، وعَمْرُو بن شُرَحْبيل: هي الصلوات الخمس.

وقال الجمهور: هي الكلماتُ المأثور فضلها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العلِّي العظيم.

ورُوي في هذا حديث: (أكثروا من الباقيات الصالحات)(١). وقاله ابن عباس أيضاً، ورُوي عن رسول الله ﷺ من طريق أبي هريرة وغيره أن هذه الكلمات هي الباقيات الصالحات(٢)

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً: الباقيات الصالحات: كلُّ عمل صالح من

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور، وأحمد، وأبو يَعْلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قالك(استكثروا من الباقيات الصالحات)، قيل: وما هنَّ يا رسول الله؟ قال: (التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله). (الدر المنثور).

(٢) أخرجه النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الصغير، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (خذوا جُنَّتكم)، قيل: يا رسول الله، أمِنْ عدو قد حضر؟ قال: (لا، بل جُنَّتَكُمْ من النار: قول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات محسنات، وهن الباقياتُ الصالحاتُ). (الدر المنثور).

قولٍ أو فعل يبقى للآخرة، ورجحه الطبري[١]، وقول ابن عباس رضي الله عنهما لكل الأقوام دليل على قوله بالعموم.

وقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾، أي: صاحبها ينتظر الثواب وينبسط أَمَلُه على خير من حال ذي المال والبنين دون عمل صالح.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ الآية. التقدير: واذكر يوم، وهذا أفصح ما يُتَأَوَّل في هذا هنا. وقرأ نافع، والأعرج، وشيبة، وعاصم، وابن مصرف، وأبو عبد الرحمن: (نُسَيِّرُ) بنون العظمة. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والحسن، وشبل، وقتادة، وعيسى: [تُسَيَّرُ] بالتاء وفتح الياء المشددة [ٱلْجِبَالُ] بالرَّفع. وقرأ الحسن: [يُسَيَّرُ] بياءٍ مضمومة والثانية مفتوحة مشددة [ٱلْجِبَالُ] رفعاً. وقرأ ابن محيصن: [تَسِيرُ] بتاءٍ مفتوحة وسين مكسورة، أسند الفعل إلى الجبال، وقرأ أُبيُّ بن كعب: [وَيَوْمَ سُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ].

وقوله تعالى: (بَارِزَةً)، إمَّا أن يريد أن الأرض لذهاب الجبال والظراب والشجر برزت وانكشفت، وإما أن يريد بروز أهلهاوالمحشورين من سكان بطنها. (وَحَشَرْنَاهُمْ) أي أقمناهم من قبورهم وجمعناهم لعرضة القيامة. وقرأ الجمهور: (نُغَادِرْ) بنون العظمة، وقرأ قتادة: [تُغَادِرْ] على الإسناد إلى القدرة أو إلى الأرض. وروى أبان بن زيد عن عاصم: [يُغَادَرُ] بياءٍ مضمومة وفتح الدال [أَحَدٌ] بالرفع.

وقرأ الضحاك: [فَلَمْ نُغْدِرْ] بنون مضمومة وكسر الدال وسكون الغين.

والمغادرةُ: التَّرْكُ، ومنه: غدير الماء، وهو ما تركه السيل.

وقوله تعالى: (صَفًّا) إفرادٌ نُزِّلَ منزلة الجمع، أي: صفوفاً، وفي الحديث الصحيح: (يجمع اللهُ الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفاً يُسْمِعُهُم الداعي وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ) الحديث[٢]. وفي حديث آخر: (أهل الجنة يوم القيامة مائة وعشرون

---

(١) وكذلك اختاره القرطبي، قال: «وهو الصحيح إن شاء الله؛ لأن كل ما بقي ثوابه جاز أن يُقال له هذا».

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، وتفسير سورة الإسراء، ومسلم في الإيمان والبر، والترمذي في القيامة، والدارمي في الرقاق، وأحمد في مسنده، وهو حديث طويل، عن أبي هريرة، ولفظه كما في البخاري في تفسير سورة الإسراء، قال: (أُتي رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع ـ وكانت تعجبه ـ فنهس منها نهسةً ثم قال: أنا سيِّد الناس يوم القيامة، وهل تدرون ممَّ ذلك؟ يجمع الناس الأولين والآخرين في =

صفًّا، أنتم منها ثمانون صفًّا)[(١)]. وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ إلى آخر الآية، مقاولةٌ للكفار والمنكرين[(٢)] للبعث، ومُضَمَّنها التقريع والتوبيخ. والمؤمنون المعتقدون في الدنيا أنهم يبعثون يوم القيامة لا تكون هذه المخاطبة لهم بوجه، وفي الكلام حذف يقتضيه القول ويُحَسِّنه الإيجاز، تقديره: يقال للكفرة منهم. و﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يفسره قول النبي ﷺ: (إنكم تحشرون إلى الله حفاةً عراةً غُرْلاً)، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[(٣)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

[ٱلْكِتَابُ] اسم جنس يراد به كُتُب الناس التي أحصتها الحفظة لواحدٍ واحدٍ، ويحتمل أن يكون الموضوع كتاباً واحداً حاضراً، و«إِشْفَاقُ ٱلْمُجْرِمِينَ»: فزعُهم من كشفه لهم وفَضْحه، فشكاية المجرمين إنما هي من الإحصاء، لا من ظلم ولا حيف.

= صعيد واحد، يُسْمِعُهُم الداعي، ويَنْفُذُهُم البصرُ، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟...) وهو حديث طويل عن الشفاعة يوم القيامة.

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد، والترمذي في الجنة، والدارمي في الرقاق، وأحمد في مسنده (١/ ٤٥٣)، ولفظه كما جاء في المسند، عن ابن مسعود، قال: قال لنا رسول الله ﷺ: (كيف أنتم وربع أهل الجنة، لكم ربعها ولسائر الناس ثلاثة أرباعها، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فكيف أنتم وثلثها؟ قالوا: فذاك أكثر، فقال: فكيف أنتم والشطر؟ قالوا: فذلك أكثر، فقال رسول الله ﷺ: أهل الجنة يوم القيامة عشرون ومائة صف، أنتم منها ثمانون صفّاً).

(٢) في بعض النسخ: «مقاولة للكفار المنكرين».

(٣) أخرجه مسلم في الجنة، والبخاري في التفسير والأنبياء، والترمذي في القيامة والتفسير، والنسائي في الجنائز، وأحمد في مسنده (١ـ٢٢٣ـ٢٢٩)، ولفظه كما في مسلم، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يحشر الناس يوم القيامة حفاةً عراةً غُرْلاً)، قلت: يا رسول الله! الرجال والنساءُ ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: (يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض)، ومعنى غُرْلاً: غير مختونين. وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ من الآية (١٠٤) من سورة (الأنبياء).

وقدَّم «الصغيرة» اهتماماً بها لِيُنَبِّه منها ويدلَّ أن الصغيرة إذا أُحصيت فالكبيرة أحرى بذلك، والعرب أبداً تقدم في الذكر الأقل من كل مقترنين، ونحو هذا قولهم: القمران والعمران(١)، سَمُّوا باسم الأَقَلِّ تنبيهاً منهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الصغيرة: الضحك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا مثالٌ، وباقي الآية بَيِّنٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾ الآية، هذه الآية مُضَمَّنها تقريع الكفرة وتوقيفهم على خطابهم في ولايتهم العدوَّ دون الذي أنعم بكل نعمة على العموم، صغيرها وكبيرها، وتقدير الكلام: واذكر إذْ قلنا، وتكررت هذه العبارة حيث تكررت هذه القصة إذ هي توطئة النازلة، فأما ذكر النازلة هنا فمقدمة للتوبيخ، وذكرها في البقرة إعلامٌ بمبادىء الأُمور.

واختلف المتأولون في السجود لآدم ـ فقالت فرقة: هو السجود المعروف ووضع الوجه بالأرض، جعله الله تعالى من الملائكة عبادةً له وتَكْرِمَةً لآدم، فهذا كالصلاة للكعبة. وقالت فرقة: بل كان إيماءاً منهم نحو الأرض، وذلك يُسَمَّى سجوداً؛ لأن السُّجود في كلام العرب عبارة عن غاية التواضع، ومنه قول الشاعر:

. . . . تَرَى ٱلأُكْمَ فيها سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ(٢)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا جائز أن يكلفه الخالقُ للفاضل، وجائز أن يتكلفه الفاضل للفاضل، ومنه قول

---

(١) «القمران» تقال للشمس والقمر، و«العمران» تقال لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويسمى هذا التغليب.

(٢) هذا عجز بيت قاله زيد الخيل بن مهلهل. وهو في اللسان (سَجَدَ)، وفي الطبري، والبيت بتمامه:

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ فِي حَجَرَاتِهِ ... تَرَى الأُكْمَ فيها سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ

والبَلَقُ: سوادٌ وبياض في اللون، والحَجَرَاتُ: الجوانب والنواحي، والأُكْمُ: جمع أكَمَةَ (جمع الجمع). وهي التلُّ، أو المكان المرتفع، والسجودُ: الخضوعُ، وهو موضع الشاهد هنا. هذا وكان زيد الخيل قد اسلم وسمَّاه الرسول ﷺ «زيد الخير»، ثم مات عقب وفادته على النبي ﷺ.

النبي ﷺ: (قوموا إلى سيِّدكم)[١]، ومنه تقبيل أبي عبيدة بن الجراح يد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما حين تلقَّاه في سفر إلى الشام، ذكره سعيد بن منصور في مُصَنَّفه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾، قالت فرقة: هو استثناءٌ منقطع؛ لأن إبليس ليس من الملائكة، بل هو من الجن وهم الشياطين المخلوقون من مارج من نار، وجميع الملائكة إنما خلقوا من نور، واختلفت هذه الفرقة ـ فقال بعضها: إبليس من الجن، وهو أولهم وبدأتهم، كآدم من الإنس، وقالت فرقة: بل كان إبليس وقبيله جنًّا، ولكن جميع الشياطين اليوم من ذريته، فهو كنوح في الإنس، واحتجوا بهذه الآية، وتعنيف إبليس على عصيانه يقتضي أنه أُمر مع الملائكة.

وقالت فرقة: بل الاستثناءُ متصل، وإبليس من قبيل من الملائكة خلقوا من نار، فإبليس من الملائكة، وعُبِّر عن الملائكة بالجن من حيث أنهم مستترون، فهي صفة تعم الملائكة والشياطين، وقال بعض هذه الفرقة: كان في الملائكة صنف يُسَمَّى الجن، وكانوا في السماء الدنيا وفي الأرض، وكان إبليس مدبِّر أمرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا خلاف أن إبليس كان من الملائكة في المعنى؛ إذ كان متصرفاً بالأمر والنهي مرسلاً، والمَلكُ مشتق من المَألُكَة وهي الرسالة[٢]، فهو في عداد الملائكة يتناوله قوله: [ٱسْجُدُوا]، وفي سورة البقرة وسورة الأعراف استيعاب هذه الأمور.

وقوله تعالى: [فَفَسَقَ] معناه: فخرج وانتزح، وقال رؤْبة:

يَهْـوِيـنَ فـي نَجْـدٍ وغَـوْرٍ غَـائِـرَا فَـوَاسِقـاً عَـنْ قَصْـدِهَـا جَـوَائِـرَا[٣]

---

(١) أخرجه البخاري في العتق والاستئذان، وأبو داود في الأدب، وأحمد في مسنده (٣ـ٢٢)، ولفظه كما في المسند: عن أبي سعيد الخدري، قال: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، قال: فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد فأتاه على حمار، قال: فلما دنا قريباً من المسجد قال رسول الله ﷺ: (قوموا إلى سيدكم أو خيركم)، ثم قال: (إن هؤلاء نزلوا على حكمك)، قال: تُقتل مقاتلتهم، وتُسبى ذراريهم، قال: فقال رسول الله ﷺ: «لقد قضيت بحكم الله»، وربما قال: (قضيت بحكم الملك).

(٢) قال أبو عبيدة: «هو من ألَك إذا أرسل، والألوكة والمألَكةُ والمألُكَةُ: الرسالة. قال الشاعر ـ عدي بن زيد ـ:

أَبْلِـغ النُّعْمَـانَ عَنِّـي مَـالُكـاً إنَّنـي قَـدْ طَـال حَبْسـي وانْتِظَـاري

(٣) هذان بيتان من مشطور الرجز من الأبيات المتفرقة المنسوبة إلى رؤبة، وهما في آخر ديوانه، ومعهما=

ومنه يقال: «فَسَقَت الرُّطَبَةُ» إذا خرجت عن قشرتها، و«فَسَقت الفأْرة» إذا خرجت من جحرها، وجميع هذا الخروج المستعمل في هذه الأمثلة إنما هو في فساد، وقول النبي ﷺ: (خمس فواسق يقتلن في الحِلِّ والحرم)(١) إنما هن مفسدات.

وقوله تعالى: ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، يحتمل أن يريد: خرج عن أمر ربّه إيَّاه، أي فارقه، كما يفعل الخارج عن طريق واحد، أي: منه، ويحتمل أن يريد: فخرج عن الطاعة بعد أمر ربّه بها، و(عَنْ) قد تجيءُ بمعنى (بَعْد) في مواضع كثيرة، كقولك: «أطعمته عن جوع»، ونحوه، فكأن المعنى: فسق بسبب أمر ربّه بأن يطيع، ويحتمل أن يريد: فخرج بأمر ربّه، أي مشيئته ذلك له، ويعبر عن المشيئة بالأمر؛ إذْ هي أحد الأُمور، وهذا كما تقول: فعلت ذلك عن أمرك، أي بجدِّك وبحسب مرادك.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قصص هذه الآية: كان إبليس من أشرف صنف، وكان له سلطان السماء وسلطان الأرض، فلما عصى صارت حاله إلى ما تسمعون. وقال بعض العلماء: إذا كانت خطيئة المرء من الخطإ فلْتَرْجُه كآدم، وإذا كانت من الكفر فلا تَرْجُه كإبليس.

ثم وقف عزَّ وجلَّ الكفرة ـ على جهة التوبيخ ـ بقوله: [أَفَتَتَّخِذُونَهُ]، يريد: أَفَتَتَّخِذُونَ إبليس، وقوله: [وَذُرِّيَّتَهُ] ظاهر اللَّفظة يقتضي المُوَسْوِسِينَ مِنَ الشياطين الذين يأمرون بالمنكر ويحملون على الباطل. وذكر الطبري أن مجاهداً قال: ذُرِّيَّةُ إبليس الشياطين، وكان يعدُّهم: «زَلَنْبُور» صاحب الأسواق، يضع رايته في كل سوق،

= بيت ثالث، نصُّه:

يَسْلُكْنَ في نَجْدٍ وَغَوْراً غَائِرَا

هكذا كالبيت الأول فيما عدا الكلمة الأولى، والنَّجد: الأرض المرتفعة، والغور: الأرض المنخفضة، والقَصْدُ: الهدف والغرض، وجار عن القصد: مال عنه وحاد وعدل. والفواسق: جمع فاسق، وهو الذي خرج عن قصده السليم، وهو موضع الشاهد هنا.

(١) أخرجه البخاري في الصيد وبدء الخلق، ومسلم والترمذي في الحج، والنسائي في المناسك، وأحمد في المسند (١/ ٢٥٧، ٦ـ١٦٤، ٢٥٩)، ولفظه كما في المسند، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: (خمس كلهن فاسقة، يقتلهن المحرم، ويقتلن في الحرم)، وفي رواية من طريق الليث عن طاوس حدد رسول الله ﷺ هذه الخمسة، وهي (الفأرة، والعقرب، والحيَّة، والكلب العقور، والغراب).

و«تُبْن»[١] صاحب المصائب، و«الأعورُ» صاحب الرِّياء، و«مِسْوَطٌ» صاحب الأخبار، يأتي بها فيلقيها في أفواه الناس ولا يجدون لها أصلاً، و«دَاسِمٌ» الذي إذا دخل الرجل بيته فلم يسلِّم ولم يذكر اسم الله بصَّره من المتاع ما لم يرفع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا وما جانسه مما لم يأت به خبر صحيح فلذلك اختصرته. وقد طوَّل النقاش في هذا المعنى، وجلب حكايات تبعد من الصحة، فتركتها إيجازاً، ولم يمر بي في هذا صحيح إلاَّ ما في كتاب مسلم من أن للوضوء[٢] والوسوسة شيطاناً يُسَمَّى «خِنْزَب»، وذكر الترمذي أن للوضوء شيطاناً يسمى «الولهان»، والله أعلم بتفاصيل هذه الأمور، لا ربَّ غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ أي: أعداءٌ، فهو اسم الجنس.

وقوله: ﴿بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾، أي: بدل ولاية الله عزَّ وجلَّ بولاية إبليس وذريته، وذلك هو التعوض من الحق بالباطل، وهذا هو نفس الظلم لأنه وَضْع الشيء في غير موضعه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾.

الضمير في [أَشْهَدْتُهُمْ] عائد على الكافر وعلى الناس بالجملة، فَتَتضمَّن الآية الردَّ على طوائف المنجمين وأهل الطبائع والمتحكمين من الأطباء وسواهم من كلِّ مُتَخَرِّصٍ في هذه الأشياء. وحدثني أبي رضي الله عنه قال: سمعتُ الفقيه أبا عبد الله محمد بن معاذ المهدوي بالمهدية يقول: سمعت عبد الحق الصقلِّي يقول هذا القول، ويتأول هذا

---

(١) هكذا في الأصول، والذي وجدناه في الطبري والقرطبي هو «ثُبَر» بالراء، وعلى كل فجميع هذه الأسماء موضع تحريف، وما أصدق ابن عطية حين أعرض عن ذكر الكثير مما نراه عند غيره من المفسرين، وقال: «وهذا وما جانسه مما لم يأتِ به خبر صحيح».

(٢) في بعض النسخ: «من أن للصلاة».

التأويل في هذه الآية، وأنها رادَّة على هذه الطوائف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذكر هذا بعض الأصوليين. وقيل: الضمير في ﴿أَشْهَدْتُهُمْ﴾ عائد على ذُرِّيَّة إبليس، فهذه الآية ـ على هذا ـ تتضمن تحقيرهم. والقول الأول أعظم فائدة، وأقول: إن الغرض المقصود أولاً بالآية هم إبليس وذرِّيَّته، وبهذا الوجه يتَّجه الردُّ على الطوائف المذكورة، وعلى الكهان والعرب المصدقين لهم والمعظِّمين للجن حين يقولون: أعوذ بعزيز هذا الوادي، إذ الجميع من هذه الفِرق متعلقون بإبليس وذرِّيَّته، وهم أضلوا الجميع، فهم المرادُ الأول بالمُضِلِّين، وتندرج هذه الطوائف في معناهم.

وقرأ الجمهور: (أَشْهَدْتُهُمْ)، وقرأ أبو جعفر وعوف العقيلي، وأيوب السختياني: [أَشْهَدْنَاهُم]، وقرأ الجمهور: ﴿وَمَا كُنْتُ﴾ وقرأ أبو جعفر الجحدري، والحسن ـ بخلاف ـ: [وَمَا كُنتَ][1]. والصفة بـ﴿ٱلْمُضِلِّينَ﴾ تترتب في الطَّوائف المذكورة وفي ذرِّيَّة إبليس لعنه الله. و«العَضُد» استعارة للمعين والمُؤَازر، وهو تشبيه بعَضد الإنسان الذي يستعين به. وقرأ الجمهور: (عَضُداً) بفتح العين وضم الضاد، وقرأ أبو عمرو، والحسن بضمهما، وقرأ الضحاك بكسر العين وفتح الضاد، وقرأ عكرمة: [عُضْداً] بضم العين وسكون الضاد، وقرأ عيسى بن عمر: [عَضَداً] بفتح العين والضاد، وفيه لغات غير هذا لم يُقْرأ بها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾، الآية وعيدٌ، والمعنى: واذكر يومَ، وقرأ طلحة، ويحيى، والأعمش، وحمزة: [نَقُولُ] بنون العظمة، وقرأ الجمهور بالياء، أي: يقول الله تعالى للكفار الذين أشركوا به من الدنيا سواه: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ﴾ على وجه الاستغاثة بهم، وقوله: [شُرَكَائِيَ]، أي: على دعواكم أيها المشركون، وقد بَيَّن هذا بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾. وقرأ ابن كثير وأهل مكة: ﴿شُرَكَائِيَ﴾ بياءٍ مفتوحة، وقرأ الجمهور: [شُرَكَائِي] بهمزة، فمنهم من حقَّقها، ومنهم من خَفَّفَها، و«الزَّعْمُ» إنما هو مستعمل أبداً في غير اليقين، بل أغلبه في الكذب، ومنه هذه الآية، وأرفع مواضعه أن تستعمل «زعم» بمعنى «أخبر» حيث تلقي عهدة الخبر على المخبر، كما يقول سيبويه

---

(١) بفتح التاء، والخطاب للنبي ﷺ، والضبط عن كتب التفسير والقراءات.

رحمه الله: «زعم الخليل»، وقوله تعالى: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ ظاهره أن ذلك يقع حقيقة، ويحتمل أن يكون استعارة، كأن فكرة الكفار ونظرهم في أن تلك الجمادات لا تغني شيئاً ولا تنفع هي بمنزلة الدعاء وترك الإجابة، والأول أَبْيَن.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿مَوْبِقاً﴾ ـ قال عبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، ومجاهد: هو واد في جهنم يجري بدم وصديد، قال أنس رضي الله عنه: يحجز بين أهل النار وبين المؤمنين، فقوله ـ على هذا ـ: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ظرفٌ. وقال الحسن: ﴿مَوْبِقاً﴾: عداوة، و﴿بَيْنَهُمْ﴾ ـ على هذا ـ ظرف. وبعض هذه الفرقة يرى أن الضمير في قوله تعالى: [بَيْنَهُمْ] يعود على المؤمنين والكافرين، ويحتمل أن يعود على المشركين ومعبوداتهم في الدنيا، وأما التأويل الأول فالضمير فيه عائد على المشركين ومعبوداتهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿مَوْبِقاً﴾ معناه: مهلكاً، بمنزلة: موضع، وهو من قولك: وَبَقَ الرجلُ وَأَوْبَقَهُ غَيْرُه إذا أهلكه، فقوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ـ على هذا التأويل ـ يصح أن يكون ظرفاً، والأظهر فيه أن يكون اسماً بمعنى: وجعلنا تواصهم أمراً مهلكاً لهم، ويكون ﴿بَيْنَهُمْ﴾ مفعولاً أولاً لـ﴿جَعَلْنَا﴾. وعبَّر بعضهم عن «المَوْبِق» بالوعيد، وهذا ضعيف.

ثم أخبر عزَّ وجلَّ عن رؤية المجرمين النار ومعاينتهم لها، ووقوع العِلْم لهم بأنهم مُبَاشِرُوها، وأطلق الناس أن «الظَّنَّ» هنا بمعنى اليقين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولو قال تعالى بدل «ظَنُّوا»: «أَيْقَنُوا» لكان الكلام مُتَّسقاً على مبالغة فيه، ولكن العبارة بالظَّن لا تجيءُ أبداً في موضع يقين تام قد ناله الحسُّ، بل أعظم درجاته أن يجيءَ في موضع عِلْم متحقق لكنه لم يقع ذلك المظنون، وإلاَّ فما يقع ويُحَسُّ لا يكاد يوجد في كلام العرب العبارة عنه بالظَّنِّ، وتأمل هذه الآية، وتأمل قول دُرَيْد:

فَقُلْتُ لَهُمْ ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ . . . .(١)

---

(١) هذا صدر بيت قاله دُرَيْدُ بن الصِّمَّة من قصيدة له يرثي بها أخاه عبد الله، وهي قصيدة مشهورة انتقاها القرشي صاحب الجمهرة، ومطلعها:

أَرَثَّ جَدِيدُ الْحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ لِعَاقِبَةٍ أَمْ أَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ؟ =

وقرأ الأعمش: [فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُلاقُوهَا]، وكذلك في مصحف ابن مسعود[(١)]، وحكى أبو عمرو الداني عن علقمة أنه قرأ: [مُلاَفُّوهَا] بالفاء مشددة، من لفَّفت. وروى أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: (إن الكافر لَيَرَى جنهم ويظن أنها مواقعتُه من مسيرة أربعين سنة)[(٢)]. و«الْمَصْرِفُ»: الْمَعْدِلُ، ومنه قول أبي كبير الهذلي:

أَزُهَيْـرُ هَـلْ عَـنْ شَيْبَـةٍ مِـنْ مَصْـرِفِ ... أَمْ لاَ خُلُـودَ لِبَـاذِلٍ مُتَكَلِّـفِ؟[(٣)]

وهذا مأخوذ من الانصراف من شيءٍ إلى شيءٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ الآية. المعنى: ولقد خوَّفنا ورَجَّيْنا وبالغنا في البيان، وهذا كله بتمثيل وتقريب للأذهان. وقوله: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، أي: من كلِّ مثل له نفعٌ في الغرض المقصود بهم وهو الهداية. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ خبرٌ مُقْتَضَب في ضمنه: فلم ينفع فيهم تصريف الأمثال، بل هم قوم منحرفون يجادلون بالباطل. وقوله تعالى: (ٱلْإِنْسَانُ) يريد به الجنس، ورُوي أن سبب الآية هو النضر بن الحارث، وقيل: ابن الزِّبَعْرى، ورُوي أن رسول الله ﷺ دخل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد نام عن صلاة الليل فأَيقظه وعاتبه، فقال له عليٌّ: إنما نفسي بيد الله، ونحو هذا، فخرج رسول الله ﷺ وهو يضرب فخذه بيده ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[(٤)]. فقد استعمل الآية على العموم في جميع الناس، و«الْجَدَلُ»:

= والبيت بتمامه:

فَقُلْـتُ لَهُـمْ ظُنُّـوا بِـأَلْفَـيْ مُـدَجَّـجٍ ... سَـرَاتُهُـمُ فـي ٱلْفَـارِسِـيِّ الْمُسَـرَّدِ

وظُنُّوا بمعنى: أَيْقِنوا، وهو موضع الاستشهاد هنا، والمُدَجَّج: التَّامُّ السلاح، وسَرَاتهم: خِيَارُهُم، والفارسي المُسَرَّد: الدروع الفارسية المتقنة الصنع المتابعة الحلقات.

(١) قال أبو حيان: الأولى حمل ذلك على التفسير لمخالفته سواد المصحف.

(٢) أخرجه أحمد، وأبو يَعْلَى، وابن جرير، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ولفظه ـ كما ذكره السيوطي في الدرِّ المنثور ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (ينصب الكافر يوم القيامة مقدار خمسين ألف سنة كما لم يعمل في الدنيا، وإن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة والله أعلم).

(٣) البيت في ديوان الهذليين ٢ـ١٠٤، وهو مطلع قصيدة لأبي كبير، وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن)، والمَصْرف: المَعْدِلُ، وهو الشاهد هنا.

(٤) أخرج البخاريُّ، ومسلم، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عليٍّ رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ طرقه=

الخصام والمدافعة بالقول، فالإنسان أكثر جَدَلاً من كلِّ ما يجادِلُ من ملائكة وجنٍّ وغير ذلك إن فُرِض. وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ تعليم تَفَجُّع مَّا على الناس، ويَتَبَيَّن فيما بعد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾.

هذه آية تأَسُّف عليهم، وتنبيهٌ على فساد حالهم؛ لأن هذا المنع لم يكن بِقَصْد منهم أن يمتنعوا لِيجيئَهم العذابُ، وإنما امتنعوا هم مع اعتقادهم أنهم مصيبون، لكن الأمر في نفسه يسوقهم إلى هذا، فكأن حالهم يقتضي التَّأَسُّف عليهم، و(ٱلنَّاسَ) يرادُ به كفار عصر محمد رسول الله ﷺ الذين تَوَلَّوْا دفع الشريعة وتكذيبها[1] و(ٱلْهُدَىٰ) هو شرع الله تعالى، والبيانُ الذي جاء به محمد ﷺ، و«الاسْتِغْفَارُ» هنا هو طلب المغفرة على فارط الذَّنب كُفْراً وغيره. و﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هي عذابُ الأمم المذكورة من الغَرَق والصيحة والظُّلَّة والريح وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾، أي: مقابلةً عياناً، والمعنى عذاب غير المعهود، فتظهر فائدة التقسيم، وكذلك صدق هذا الوعيد في بدر. وقال مجاهد: [قُبُلاً] معناه: فجأة. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، ومجاهد، وعيسى بن عمر: [قِبَلاً] بكسر القاف وفتح الباء، وقرأ عاصم، والكسائي، وحمزة،

= وفاطمة ليلاً، فقال: ألا تُصَلِّيان؟ فقلت: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله، إن شاء أن يبعثنا بعثنا، وانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إليَّ شيئاً، ثم سمعته يضربُ فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

(١) قال الزمخشري: «[أَنْ] الأولى نصب، والثانية رفعٌ، وقبلها مضاف محذوف، تقديره: وما منع الناسَ الإيمانَ إلا الانتظارُ أن تأتيهم سنة الأولين وهي الإهلاك، أو انتظار أن يأتيهم العذاب، يعني عذاب الآخرة». وقال أبو حيان بعد أن نقل هذا الكلام عن الزمخشري: «وهو مسترق من قول الزجاج».

والحسن، والأعرج: [قُبُلاً] بضم القاف والباء، ويحتمل مَعْنَيَيْن: أحدهما أن يكون بمعنى: (قِبَل)؛ لأن أبا عيسى حكاهما بمعنى واحد في المقابلة، والآخر أن يكون جمع (قَبِيل)، أي: يجيئهم العذاب أنواعاً وألواناً. وقرأ أبو رجاءٍ، والحسن أيضاً: [قُبْلاً] بضم القاف وسكون الباء(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الآية. كأنه لمَّا تفجَّع عليهم وعلى ضلالهم ومصيرهم بآرائهم إلى الخسار ـ قال: وليس الأمر كما ظنُّوا، والرُّسُلُ لم نبعثهم لِيُجَادَلُوا، ولا لِتُتَمَنَّى عليهم الاقتراحات، وإنما بعثناهم مبشرين مَنْ آمن بالجنَّة، ومُنذرين من كفر بالنار. و«يُدْحِضُوا» معناه: يزهقوا، والدَّحض: الطِّين الذي يُزْلَق فيه، ومنه قول الشاعر:

رَدِيتُ ونَجَّى الْيَشْكُرِيَّ حِذَارُهُ ... وحَادَ كما حَاد الْبَعِيرُ عَنِ الدَّحْضِ(٢)

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى﴾ إلى آخر الآية توعُّد. و«الآيات» تجمع آيات القرآن والعلامات التي تظهر على لسان محمد ﷺ. وقوله: ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾ يريد: من عذاب الآخرة، والتقدير: وما أُنذروه، فحذف الضمير. و«الهُزْءُ»: السخر والاستخفاف، كقولهم: «أساطير الأولين»، وقولهم: «لو نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا».

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام بمعنى التقرير، وهذا من أفصح التقرير، أن يُوقف المرءُ على مالا جواب له فيه إلاَّ الذي يريد خَصْمُه، فالمعنى: لا أحد أظلم مِمَّن

---

(١) راجع المجلد الثالث صفحة ٤٤٢.

(٢) البيت منسوب لطرفة بن العبد، قال ذلك في اللسان (دَحَضَ)، وذكره الزمخشري في أساس البلاغة غير منسوب، وهو غير موجود في الديوان، ولكن توجد قصيدة ضادية مطلعها:

أَبَا مُنْذِرٍ كَانَتْ غُرُوراً صَحِيفَتِي ... وَلم أُعْطِكُمْ بالطَّوْعِ ما لي ولا عِرْضِي

وأبو منذر هو عمرو بن هند، ويمكن أن يكون هذا البيت منها، على أن محقق الديوان قال عن هذه القصيدة: إنها مما نُسب إلى طرفة، وأنه قالها وهو في السجن يخطب عَمْرو بن هند. والبيت من شواهد أبي عبيدة في (مجاز القرآن)، واستشهد به الطبري، والقرطبي، لكن القرطبي رواه بلفظ آخر، هو: (أبا مُنْذِرٍ رُمْتَ الْوَفَاءَ فَهِبْتَهُ... وَحِدْتَ... البيت). والرَّدَى: الهلاك، وحاد: مالَ وابتعد. والدَّحْضُ: مصدرٌ ويوصف به على لفظه، فيقال: مكان دحضٌ بمعنى: زَلِقٌ. وهو موضع الشاهد هنا. يقول مخاطباً الملك عمرو بن هند: إنه أخطأ فهلك، وكان مصيره السجن، أما اليشكرى فكان حذراً، ونجَّاه حَذَرُه كما ينجو البعير الذي يميل في طريقه عن المكان الزَّلق. واليَشْكُرِيُّ هو الحارث بن حِلِّزَةَ اليشكرى.

هذه صفتُه، أن يُعرض عن الآيات بعد الوقوف عليها بالتذكير، وينسى ويَطَّرح كبائره التي أسلفها، هذه غاية الإهمال. ونسب السيئات إلى اليَدَيْن من حيث كانت اليدان آلة التَّكسُّب في الأُمور الجِزْمِيَّة[1]، فجعلت كذلك في المعاني استعارةً.

ثم أخبر الله تعالى عنهم وعن فعله بهم جزاءً عن اعتراضهم وتكسُّبهم القبيح بأن الله تعالى جعل على قلوبهم أَكِنَّةً، وهي جمع كِنانٍ، وهو الغلاف الساتر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واختلف الناسُ في هذا وما أشبهه من الخَتْم والطَّبْع ونحوه، هل هو حقيقة أو مجاز؟ والحقيقة في هذا غير مستحيلة، والتَّجوُّز أيضاً فصيح، أي: لما كانت هذه المعاني مانعةً في الأجسام وحائلةً استُعيرت للقلوب التي قد أنساها الله تعالى وأقْصاها عن الخير. وأمَّا «الْوَقْرُ في الآذانِ» فاستعارة بيِّنةٌ لأن الكفرة يسمعون الدعاء إلى الشَّرع سماعاً تاماً، ولكن لمَّا كانوا لا يُؤَثِّر ذلك فيهم إلاّ كما يؤثِّر في الذي به وَقْر فلا يَسْمع، شُبِّهوا به، وكذلك العمى والصمم والبكم كلها استعارات، وإنما الخلاف في أوصاف القلب، هل هي حقيقة أو مجاز؟ و«الوَقْرُ»: الثِّقل في السَّمع.

ثم أخبر الله تعالى عنهم أنَّهم وإن دُعُوا إلى الهدى فإنهم لا يهتدون أبداً، وهذا يُخَرَّجُ على أحد تأويلين: أحدهما أن يكون هذا اللفظ العام يراد به الخاصُّ ممَّن حتم الله عليه أنه لا يؤمن ولا يهتدي أبداً، ويَخْرُج عن العموم كل من قضى الله بهداه في ثاني حالٍ، والآخر أن يريد: وإن تَدْعُهُم إلى الهدى فلن يؤمنوا جميعاً أبداً، أي: أنهم ربما آمن منهم الأفراد، ويضطرنا إلى أحد هذين التأويلين أنَّا نجد المُخْبَر عنهم بهذا الخبر قد آمن منهم واهتدى كثيرٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾.

لمَّا أخبر الله تعالى عن القوم الذين حتم بكفرهم أنهم لا يهتدون أبداً، عقَّب ذلك

(١) الجِزم هو الجسد، يريد ما يقابل الأمور المعنوية.

بأنه للمؤمنين الغفور ذو الرَّحمة، ويتحصل للكفار من صفته تبارك وتعالى بالغفران والرَّحمة تَرْكُ المُعاجلة، ولو أُخِذوا بحسب ما يستحقُّونه لبادرهم بالعذاب المُيَسَّر لهم، ولكنه تعالى أخَّرهم إلى موعد لا يجدون منه منجى، قالت فرقة: هو أجل الموت، وقالت فرقة: هو عذاب الآخرة، وقال الطبري: هو يوم بدر والحشر، و«المَوْئِلُ»: المَنْجَى، يقال: وأَلَ الرَّجُلُ يَئِلُ إذا نَجَا(١)، ومنه قول الشاعر:

لا وَأَلَتْ نَفْسُكَ خَلَّيْتَهَا ... لِلْعَامِرِيَّيْنِ وَلَمْ تُكْلَمِ(٢)

ومنه قول الأعشى:

فَقَدْ أُخَالِسُ رَبَّ الْبَيْتِ غَفْلَتَهُ ... وَقَدْ يُحَاذِرُ مِنِّي ثُمَّ مَا يَئِلُ(٣)

ثم عقَّب تعالى توعُّدَهم بذكر الأمثلة من القرى التي نزل بها ما توعَّد هو لا بمثله.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ حذف مضاف، تقديره: وتلك أهل القُرى، و[الْقُرَى]: المدن، وهذه الإشارة إلى عادٍ وثمودَ ومَدْين وغيرهم، و[تِلْكَ] ابتداءٌ،

---

(١) وألَ في الأصل بمعنى: لَجَأ طلباً للنجاة، ومنه: المَوْئِلُ بمعنى: المَلْجَأ، وفي اللسان: «وقد وألَ إليه يَئِل وَالاً وَوُءُولاً، على فعولٍ: لَجَأ، وَوَاءَلَ منه، على فاعَلَ: طلب النجاة».

(٢) البيت في التاج واللسان (وأل)، وفي الطبري، والرواية فيها (لا وَاءلَتْ نَفْسُك...)، وهو أيضاً في (معاني القرآن) للفراء، وفي القرطبي، والرواية فيهما (لا وَأَلَتْ نَفْسُك)، ولم ينسبه أحد، والذي أنشده هو الفراءُ، وعنه نقل الباقون، قال: «المَوْئِلُ: المَنْجَى، وهو الملجأ، والعرب تقول: إنه لَيُوَائِل إلى موضعه وحِرْزِه، وقال الشاعر: لا وأَلَتْ نَفْسُك... البيت، يريدون: لا نَجَتْ». وخَلَّى: تَرَكَ، والكَلْم: الجرح، والشاهد أنَّ (وَأَلَ) بمعنى لجأ ونَجَا.

(٣) البيت من لامية الأعشى المعروفة التي بدأها بقوله:

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ ... وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ

وقبله يقول:

إمَّا تَرَيْنَا حُفَاةً لا نِعَالَ لَنَا ... إنَّا كذلك، مَا نَحْفَى، وَنَنْتَعِلُ

وأُخالِسُ: آخُذُ الشيء خلسةً وسرقةً، وما يَئِلُ: ما ينجو. يقول مخاطباً من يتغزل بها: إن هذا الذي ترينه حافياً فتنبو عنه عيناكِ قد أمتع نفسه بكثيرات من الغانيات، وإنه ليَسْتَبِي العقيلة التي يخاف عليها زوجها ويحاذر فلا ينفعه الحذر.

والبيت من شواهد أبي عبيدة في (مجاز القرآن) في تفسير قوله تعالى: ﴿لن يجدوا من دونه مؤئلا﴾، وهو كالشاهد السابق دليل على أن (وَأَلَ يَئِلُ) بمعنى: نَجَا ينجو.

و﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾ صفة، و﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ خبر، ويصحّ أن تكون ﴿تِلْكَ﴾ منصوباً بفعل يدل عليه ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾.

وقرأ الجمهور: [لِمُهْلَكِهِمْ] بضم الميم وفتح اللام، وهو من: (أَهْلَكَ)، ومُفْعل في مثل هذا يكون لزمن الشيء، ومكانه، ويكون مصدراً، فالمصدر ـ على هذا ـ مضاف إلى المفعول. وقرأ عاصم ـ في رواية أبي بكر ـ: ﴿لِمَهْلَكِهِمْ﴾ بفتح الميم واللام، وقرأ ـ في رواية حفص ـ: ﴿لِمَهْلِكِهِم﴾ بفتح الميم وكسر اللام، وهذا مصدر من: «هَلَكَ»، وهو في مشهور اللُّغة غير مُتَعَدٍّ، فالمصدر ـ على هذا ـ مضاف إلى الفاعل، لأنه بمعنى: وجعلنا لأن هلكوا موعداً، وقالت فرقة: إن «هَلَكَ» يتعدى، تقول: أَهْلَكْتُ الرَّجلَ وَهَلَكْتُهُ بمعنى واحد، وأنشد أبو عليٍّ في ذلك:

وَمَهْمَهٍ هَالِكِ مَنْ تَعَرَّجَا[1]

فعل هذا يكون المصدر في كل وَجْه مضافاً إلى المفعول.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ الآية... ابتداءُ قصة ليست من الكلام الأول، والمعنى: واذكر أَوِ ٱتْلُ، و﴿مُوسَىٰ﴾ هو موسى بن عمران بمقتضى الأحاديث والتواريخ، وبظاهر القرآن؛ إذ ليس في القرآن موسى غير واحد، وهو ابن عمران، ولو كان في هذه الآية موسى غيره لَبَيَّنَهُ. وقالت فرقة منها نوف ٱلْبِكَالي: إنه ليس ابن عمران، وهو موسى بن مَنْشَى، ويقال: موسى بن مَنْشَى، وأمّا فتاه فعلى قول من قال هو موسى بن عمران فهو يوشع بن نون بن إفراييل بن يوسف بن يعقوب، وأما من قال هو موسى بن مشنى فليس الفتى بيوشع بن نون، ولكنه قول غير صحيح ردَّه ابن عباس رضي الله عنهما وغيره. و«الفتى» في كلام العرب: الشَّاب، ولما كان الخَدَمة ـ أكثر ما يكون ـ فتياناً قيل للخادم: فتًى على جهة حسن الأدب، وإنْ أَسَنَّ، وندبت الشريعة إلى ذلك في قول النبي ﷺ: (لا يَقُل أحدكم عبدي ولا أَمَتي، وليقل فتاي

---

(١) هذا البيت للعَجَّاج، وقد ذكره في اللسان (هَلَكَ) شاهداً عَلَى أن (هَلَكَ) يتعدى بنفسه، وأنه مثل أَهْلَكَ وهَلَّك، وذكر بعده بيتاً آخر، وهو:

هَائِلَةٍ أَهْوَالُهُ مَنْ أَدْلَجَا

وقال: «وهي لغة تميم». وتعرَّج: مال وانحرف عن الطريق المألوف، وأدلج: سار في الليل، وقيل: في أوَّله، والمَهْمَه: المفازة البعيدة، والمعنى أن هذه المفازة البعيدة تُهْلِكُ من يتنكَّب الطريق المألوف، وتهول بأهوالها من يسير فيها ليلاً.

وفتاتي)[١]، فهذا ندب إلى التواضع، و«الفتى» في الآية هو الخادم، ويوشع بن نون يقال: هو ابن أخت موسى عليه السلام.

وسبب هذه القصة فيما روي عن النبي ﷺ أن موسى جلس يوماً في مجلس لبني إسرائيل، وخطب فأبلغ، فقيل له: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال: لا، فأوحى الله تعالى إليه: بَلَى، عبدنا خضر[٢]، فقال: يا رب، دلَّني على السبيل إلى لُقِيِّه[٣]، فأوحى الله تعالى إليه أن يسير بطول سيف البحر حتى يبلغ مجمع البحرين، فإذا فقدت الحوت فإنه هنالك، وأُمر أن يتزود ويرتقب زواله عنه، ففعل موسى ذلك، وقال لفتاه على جهة إمضاء العزيمة: لا أَبْرَح السَّيْر، أي: لا أزال، وإنما قال هذه المقالة وهو سائر، ومن هذا قول الفرزدق:

فَمَـا بَـرِحُـوا حَتَّـى تَهَـادَتْ نِسَـؤُهُـم ... بِبَطْحَـاءَ ذي قَـارٍ عِيَـابَ اللَّطَـائِـمِ[٤]

وذكر الطبريُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لمَّا ظهر موسى عليه السلام وقومه على مصر أنزل قومه بمصر، فلمَّا استقر الحال خطب يوماً فذكَّر بآلاء الله وأيامه عند بني إسرائيل، ثم ذكر نحو ما تقدَّم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وما مرَّ بي قطُّ أن موسى عليه السلام أنزل قومه بمصر إلاَّ في هذا الكلام، وما أُراه يصح، بل المتظاهر أن موسى عليه السلام مات بفحص التِّيه قبل فتح ديار الجبَّارين،

---

(١) أخرجه مسلم في الألفاظ، وأحمد في مسنده (٢ـ٤٤٤، ٤٩٦)، ولفظه كما في المسند، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يَقُل أحدكم لعبده: عبدي، ولكن ليقل: فتاي، ولا يَقُل العبد لسَيِّده: رَبِّي، ولكن ليَقُل: سيدي).

(٢) في بعض النسخ: «بل عبدنا خضر».

(٣) اللُّقِيُّ: مصدر لَقِيَ، يقال: لَقِيَه لقاءً، وتِلقاءً، ولُقِيّاً، ولُقْيَاناً، ولُقْيَة، بمعنى: استقبله وصادفه.

(٤) البيت من قصيدة للفرزدق يمدح بها عبد الله بن عبد الأعلى الشيباني، وهو في الديوان، ومطلعها:

إنِّـي وإنْ كـانَـتْ تَمِيـمٌ عِمَـارَتِـي ... وكنْتُ إلى القُـدْمُـوسِ مِنْهَـا القُمَـاقِـمُ

والبَطْحَاءُ: المكان المتَّسع يمرُّ به السيل فيترك فيه صغار الحصى والرمل. وذو قار: مكان معروف، والعياب: جمع عيْبَة وهي ما يجعل فيه الثياب وغيرها. واللطائم: جمع لَطيمة، وهي وعاءُ المِسْك، يقال: فاحت اللطيمة، وكأنَّ فاها لطيمة تاجر. والبيت هنا للاستشهاد على أن (لا أبرح) بمعنى: لا أزال.

وفي هذه القصة من الفِقْه الرحلةُ في طلب العلم، والتواضع للعالِم.

وقرأ الجمهور: [مَجْمَعَ] بفتح الميمين، وقرأ الضحاك: [مَجْمِعَ] بكسر الميم الثانية.

واختلف الناس في «مَجْمَع البَحْرَيْنِ»، أين هو؟ فقال مجاهد، وقتادة: هو مجمع بحر فارس وبحر الروم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب في أرض فارس من وراء أذربيجان، فالركن الذي لاجتماع البحرين ممَّا يلي برَّ الشام، وهو مجمع البحرين على هذا القول، وقالت فرقة منهم محمد بن كعب: مجمع البحرين هو عند طنجة، وهو حيث يجتمع البحر المحيط والبحر الخارج منه السائر من دبور إلى صبا، وروي عن أُبيٍّ بن كعب أنه قال: مجمع البحرين بأفريقية، وهذا يقرب من الذي قبله. وقال بعض أهل العلم: هو بحر الأندلس من البحر المحيط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله واحد، حكاه النقاش، وهذا مما يُذكر كثيراً. ويذكر أن القرية التي أبت أن تضيفهما هي الجزيرة الخضراءُ، وقالت فرقة: مجمع البحرين، يريد بحراً ملحاًوبحراً عذباً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا إنما كان الخضر عند موقع نهر عظيم في البحر. وقالت فرقة: البحران إنما هما كناية عن موسى عليه السلام والخضر؛ لأنهما بَحْرَا عِلْم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف، والأمر بيِّن من الأحاديث أنه إنما رُسِمَ له بحرٌ مَّا. وقوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ معناه: أوْ أمضي على وجهي زماناً، واختلف القراءُ ـ فقرأ الحسن، والأعمش، وعاصم: [حُقْباً] بسكون القاف[1]، وقرأ الجمهور: ﴿حُقُبا﴾ بضمّه، وهو

(١) هذه قراءة عاصم في رواية أبي بكر، أما رواية حفص عنه فهي كقراءة الجمهور ﴿حُقُباً﴾ بضم الحاء والقاف كما هو ثابت في المصحف.

تثقيل (حُقْبٍ)، وجمع الحُقْب أحقابٌ. واختلف في الحقب ـ فقال عبد الله بن عمرو: ثمانون سنة، وقال مجاهد: سبعون سنة، وقال الفراءُ: الحُقب: سنةٌ واحدة، وقال ابن عباس وقتادة: الحقب أزمان غير محدودة، وقالت فرقة: الحُقب جمع حقبة وهي السنة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾.

الضمير في قوله: ﴿بَيْنِهِمَا﴾ للبحرين، قاله مجاهد، وقيل: هو لموسى والخضر، والأول أصوب. وقرأ عبد الله بن مسلم: [مَجْمِعَ] بكسر الميم الثانية: وقال: ﴿نَسِيَا﴾ وإنما كان النسيان من الفتى وحده، نسي أن يعلم موسى عليه السلام بما رأى من حاله من حيث كان لهما زاداً، وكان بسبب منه، فنسب فعل الواحد فيه إليهما، وهذا كما يقال: فَعَل بنو فلان الأمر، وإنما فعله منهم بعض. ورُوي في الحديث أن يوشع رأى الحوت قد حشر من المِكْتَل[١] إلى البحر، فرآه قد اتَّخذ السرب، وكان موسى عليه السلام نائماً، فأشفق أن يوقظه، وقال: أُؤَخِّر حتَّى يستيقظ، فلما استيقظ نَسي يوشع أن يعلمه، ورحلا حتى جاوزا، و«السَّبيلُ»: المَسْلَك، و«السَّرْبُ»: المَسْلَك في جوف الأرض، فشبه به مسلك الحوت في الماء حين لم ينطبق الماءُ بعده كالطَّاقِ[٢] وهذا الذي ورد في الحديث عن النبي ﷺ[٣]، وقاله جمهور المفسرين، إن الحوت بقي موضع سلوكه ماءً جامداً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بل صار موضع سلوكه

---

(١) المِكْتَلُ: زِنْبيل يعمل من الخوص، (المقطف).

(٢) الطَّاقُ: ما عُطِفَ عليه وجعل كالقَوْس من الأبنية.

(٣) الحديث الذي يشير إليه المؤلف حديث طويل، أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، من طريق سعيد بن جبير، عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، قال: حدثنا أُبيُّ بن كعب رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن موسى قام خطيباً. . . الحديث)، وقد تكررت الإشارة إلى هذا الحديث في كلام المؤلف.

حجراً صلداً، وقال ابن زيد: إنما اتَّخذ سبيله سرباً في البرِّ حتى وصل إلى البحر ثم عام على العادة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهؤلاء يتأولون ﴿سَرَبًا﴾ بمعنى: تصرفاً وجولاناً، من قولهم: فَحْلٌ ساربٌ أي مُهْمَل يرعى من حيث يشاءُ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ﴾[1]، أيْ متصرف. وقالت فرقة: اتَّخَذ سرباً في التُّراب من المكتل إلى البحر، وصادف في طريقه حجراً فنقبه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وظاهر الأمر أن السَّرَب إنما كان في الماء، ومن غريب ما روي في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصص هذه الآية أن الحوتَ إنما حَيِيَ لأنه مسَّه ماءُ عَيْن هناك تدعى عين الحياة، ما مَسَّت شيئاً قط إلاَّ حَيي. ومن غريبه أيضاً أن بعض المفسرين ذكر أن موضع سلوك الحوت عاد حجراً طريقاً، وأن موسى عليه السلام مَشَى عليه تبعاً للحوت حتى أفضى به ذلك الطريق إلى جزيرة في البحر، وفيها وجد الخضر عليه السلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وظاهر الكتاب والروايات أنه إنما وجد الخضر في ضفة البحر، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، وروي في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أن موسى عليه السلام نزل عند شجرة عظيمة في ضفة البحر فنسي يوشع الحوت هنالك، ثم استيقظ موسى، ورحلا مرحلة بقية اللَّيل وصَدْر يومهما، فجاع موسى ولحقه تعب الطريق فاستدعى الغداء.

قال لي أبي رضي الله عنه: وسمعت أبا الفضل بن الجوهري يقول في وعظه: مشى موسى إلى المناجاة فبقي أربعين يوماً لم يحتج إلى طعام، ولمَّا مشى إلى بشر لحقه الجوع في بعض يوم. و«النَّصَبُ»: التعب والمشقة. وقرأ عبد الله بن عبيد بن عمير: [نُصُباً] بضم النون والصاد، ويشبه أن يكون جمع (نَصْبٍ)، وهو تخفيف (نَصَبٍ).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ﴾ الآية. حكى الطبري عن فرقة أنها قالت: الصخرة هي بالشام عند نهر الذيب.

---

(١) من الآية (١٠) من سورة (الرَّعد).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد تقدم ذكر الخلاف في موضع هذه القصة.

وقوله تعالى: ﴿نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾، يريد: نسيت ذكر ما جرى فيه لك، وأمال الكسائي وحده [أَنْسَانِيهُ]. وقرأ ابن كثير في الوصل: [أَنْسَانِيهِي] بياءٍ بعد الهاء، وفي مصحف عبد الله: «وَمَا أَنْسَانِيهُ أَنْ أُذَكِّرَ لَهُ إلاَّ ٱلشَّيْطَانُ». وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلْحُوتَ﴾، بدل اشتمال. وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ يحتمل أن يكون من قول يوشع لموسى عليه السلام، أي: اتَّخذ الحوت سبيله عجباً للناس، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ تمام الخبر، ثم استأنف التعجُّب فقال ـ من قِبَل نفسه ـ: ﴿عَجَبًا﴾ لهذا الأمر، وموضع العجب أن يكون الحوت قد مات وأُكل شِقُّه الأيسر، ثم حيي بعد ذلك، قال أبو شجاع في كتاب الطبري: رأيته، أوتيت به فإذا هو شقة حوت وعين واحدة، وشقٌّ آخر ليس فيه شيءٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأنا رأيته، والشِّقُّ الذي ليس فيه شيءٌ عليه قشرة رقيقة يشفُّ تحتها شوكه وشقه الآخر[(١)].

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ إخباراً من الله تعالى، وذلك على وجهين: إما أن يُخبر عن موسى أنه اتخذ سبيل الحوت من البحر عجباً، أي: تعجَّب منه، وإمَّا أن يخبر عن الحوت أنه اتخذ سبيله عجباً للناس. وقرأ أبو حيوة: ﴿واتخاذ سبيله﴾، فهذا مصدر معطوف على الضمير في ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ الآية. المعنى: قال موسى لفتاه: أمر الحوت وفقده هو الذي كنَّا نطلب، فإن الرجل الذي جئنا له ثَمَّ، فرجعا يقُصَّان أثرهما لئلا يخطئا طريقهما. وقرأ الجمهور: [نَبْغِي] بثبوت الياء، وقرأ عاصم وقومٌ: ﴿نَبْغِ﴾ دون ياءٍ، وكان الحسن يثبتها إذا وصل ويحذفها إذا وقف. و«قَصُّ الأَثَرِ»: اتِّباعه وتطلُّبه في موضع خفاية.

---

(١) اختلفت النسخ الأصلية في كتابة هذه العبارة، وكذلك اختلف ما نقله في البحر المحيط منها، ففيه: «والشق الذي فيه شيءٌ عليه قشرة رقيقة ليست تحتها شوكة».

والعَبْدُ هو الخضر في قول الجمهور بمقتضى الأحاديث، وخالف من لايعتد بقوله فقال: ليس صاحب موسى بالخضر، بل هو عالمٌ آخر، والخضر نبيٌّ عند الجمهور، وقيل: هو عبد صالح غير نبي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والآية تشهد بنبوته؛ لأن بواطن أفعاله هل كانت إلاَّ بوحي إليه؟ ورُوي في الحديث أن موسى وجد الخضر عليهما السلام مُسَجًّى في ثوبه مستلقياً على الأرض، فقال له: السلام عليك، فرفع الخضر رأسه وقال: وَأَنَّى بأرضك السلام؟ ثم قال له: من أنت؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال له: ألم يكن لك في بني إسرائيل ما يشغلك عن السفر إلى هنا؟ قال: بلى، ولكني أحببتُ لقاءك وأن أتعلم منك، قال له: إنِّي على عِلْم من عِلْم الله علمنيه ولا تعلمه أنت، وأنت على عِلْم من عِلْم الله علَّمَكه الله لا أعلمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كان علم الخضر معرفة بواطن قد أُوحيت إليه لا تعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها، وكان علم موسى عليه السلام علم الأحكام والفُتْيَا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم. ورُوي أن موسى وجد الخضر قاعداً على ثبج البحر، وسُمِّي الخضر خضراً لأنه جلس على فروة يابسة فاهتزت تحته خضراء، رُوي ذلك عن النبي ﷺ[1]، و«الرَّحْمَةُ» ـ في هذه الآية ـ النُّبُوَّةُ. وقد ذكرنا الحديث المُضَمَّن أن سبب هذه القصة أن موسى عليه السلام قيل له: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال: لا. وحكى الطبري حديثاً آخر، مُضَمَّنَهُ أن مُوسى عليه السلام قال من قِبَل نفسه: أيْ رَبِّ، أيُّ عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة خير تهديه، قال: رب، فهل في الأرض أحدٌ؟ قال: نعم، فسأل السبيل إلى لُقِيِّه[2].

---

(١) أخرجه البخاري، وأحمد، والترمذي، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: (إنما سُمِّي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء). وأخرج مثله ابنُ عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما. والمراد بالفروة هنا: الحشيش اليابس.

(٢) الحديث في تفسير الطبري.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والحديث الأول في صحيح البخاري.

وقرأ الجمهور: ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ بتشديد النون، وقرأ أبو عمرو: (من لدنا) بضم الدال وتخفيف النون، قال أبو حاتم: هما لغتان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾.

هذه مخاطبة المستنزل المبالغ في حُسْن الأدب. المعنى: هل يتَّفق لك ويخِفُّ عليك؟ وهذا كما في الحديث: هل تستطيع أن تُرِيَني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأُ[١]؟ وعلى بعض التأويلات يجيءُ كذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[٢]؟

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم: ﴿رُشْداً﴾ بتخفيف الشين، وهي قراءة حمزة، والكسائي، وقرأ ابن عامر: [رُشُداً]، وقرأ أبو عمرو: [رَشَداً] بفتح الراء والشين. ونصبه على وجهين: أحدهما أن يكون مفعولاً ثانياً بـ[تُعَلِّمَنِي]، والآخر أن يكون حالاً من الضمير في قوله: [أَتَّبِعُكَ].

ثم قال الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾، أي: إنَّك يا موسى لا تُطيق أن تصبر على ما تراه من عملي؛ لأن الظواهر التي هي علمك لا تعطيه، وكيف تصبر على

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء، عن عمرو بن يحيى المازني، عن أبيه، أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد، وهو جَدُّ عمرو بن يحيى: أتستطيع أن تُرِيَني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بماءٍ فأفرغ على يديه فغسل مرَّتين، ثم مَضْمَض واسْتَنْثَر ثلاثاً. ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرَّتين مرتين إلى المِرْفقين، ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدْبَر، بدأ بمُقَدم رأسه حتى ذهب بهما إلى قفاه ثم ردَّهما إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه.

(٢) من الآية (١١٢) من سورة (المائدة).

ما تراه خطأً ولم تُخْبَر بوجه الحكمة فيه ولا وجه الصواب؟ فقرب له موسى الأمر بِوَعْده أنه سيجده صابراً، ثم استثنى حين حكم على نفسه بأمر، فقوى الخضر وصاته، وأمره بالإمساك عن السؤال والإكنان لما يراه حتى يبتدئه الخضر بشرح ما يجب شرحه.

وقرأ نافع: [فلا تَسْأَلَنِّيَ] بفتح اللام وتشديد النون وإثبات الياء. وقرأ ابن عامر كذلك إلا أنه حذف الياء فقال: [فلا تَسْأَلَنِّ]، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِي﴾ بسكون اللام وثبوت الياء، وقرأ الجمهور: ﴿خُبْرًا﴾ بسكون الباء، وقرأ الأعرج: [خُبُراً] بضمها.

وقوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا﴾، روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنهما انطلقا ما شِيَيْن على سيف البحر حتَّى مرَّت بهما سفينة، فعُرف الخضر فَحُمِلاَ بغير نول إلى مقصد أُمة الخضر. وعُرِّفت السفينة بالألف واللام تعريف الجنس لا لِعَهْد عَيْنها. فلمَّا ركبا عمد الخضر إلى وتد فجعل يضرب به في جنب السفينة حتى بلغ به ـ فيما رُوي ـ لوحين من ألواحها، فذلك هو معنى ﴿خَرَقَهَا﴾، فلما رأى ذلك موسى عليه السلام غلبه ظاهر الأمر على الكلام حين رأى فعلاً يُؤَدِّي إلى غرق من في السفينة، فوقفه بقوله: ﴿أَخَرَقْتَهَا﴾؟ وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ بالتاء، وقرأ أبو رجاء: [لتغَرِّق أهلها] بشدِّ الراء وفتح الغين، وقرأ حمزة، والكسائي: [ليغْرَقَ أهلُها] برفع الأهل وإسناد الفعل إليهم.

و«الإِمْرُ»: الشَّنيعُ من الأمور كالداهية والإِدِّ ونحوه، ومنه: «أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة»[1]، ومنه: «أَمِرَ الْقومُ» إذا كثروا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

و«الإِمْرُ أَخصُّ من «النُّكرِ».

فقال الخضر مجاوباً لموسى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، فتنبَّه موسى لما أتى معه فاعتذر بالنسيان، وذلك أنه نسي العهد الذي كان بينهما، هذا قول الجمهور، وفي كتاب التفسير من صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: (كانت الأولى من

---

(١) هذا من حديث قاله أبو سفيان بن حرب، ويعني به النبي ﷺ، يريد: ارتفع شأنه بين الناس، وكان هذا قبل أن يسلم.

موسى نسياناً)[١]، وفيه عن مجاهد قال: كانت الأولى نسياناً، والثانية شرطاً، والثالثة عمداً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الكلام معترض؛ لأن الجميع شرطٌ، ولأن العمد يبعد على موسى عليه السلام، وإنما هو التأويل إذا جنب صيغة السؤال والنسيان.

وروى الطبري عن أُبيٍّ بن كعب أنه قال: إن موسى عليه السلام لم يَنْس، ولكنها من معاريض الكلام[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومعنى هذا القول صحيح، والطبريُّ لم يُبيِّنه، ووجهه عندي أن موسى عليه السلام إنما رأى العهد في أن يسأل، ولم ير إنكار هذا الفعل الشنيع سؤالاً، بل رآه واجباً، فلما رأى الخضر قد أخذ العهد على أعمٍّ وجوهه فضمَّنه السؤال والمعارضة والإنكار وكلَّ اعتراضٍ ـ إذ السؤال أخف من هذه كلها ـ أخذ معه في باب المعاريض التي هي مندوحة عن الكذب، فقال له: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾، ولم يقل: «إنِّي نسيت العهد»، بل قال لفظاً يعطي للمتأول أنه نسي العهد، ويستقيم أيضاً تأويله وطلبه مع أنه لم ينس العهد؛ لأن قوله تعالى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ كلام جيد طلبه، وليس فيه للعهد ذكر، هل نسيه أم لا، وفيه تعريض أنه نسي العهد، فجمع في هذا اللَّفظ بين العذر والصدق وما يخل بهذا القول إلاَّ أن الذي قاله وهو أُبيٌّ روى عن النبي ﷺ أنه قال: (كانت الأولى نسياناً).

و[تُرْهِقْنِي] معناه: تكلِّفني وتضيِّق عليَّ.

ومِمَّا قُصَّ من أمرهما أنهما لمَّا ركبا السفينة وجَرَتْ نَزَل عصفور على جنب السفينة، فنقر في الماء نَقْرة، فقال الخضر لموسى: ماذا ترى هذا العصفور نقص من ماء البحر؟ قال موسى: قليلاً، فقال: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلاَّ ما نقص هذا العصفور من ماء البحر.

---

(١) هذا جزءٌ من الحديث الطويل الشامل الذي رواه البخاري وغيره وأشرنا إليه من قبل في بداية قصة موسى والخضر عليهما السلام.

(٢) المعاريض جمع مِعْراض، وهو التورية وفحوى الكلام، وفي الحديث: (إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فقيل: معنى هذا الكلام وضع العلم موضع المعلومات، وإلاَّ فَعِلْمُ الله تبارك وتعالى لا يُشَبَّهُ بمتناهٍ؛ إذ لا يتناهى، والبحرُ لو فرضت له عصافير على عدد نقطه لانْتَهى، وعندي أن الاعتراض يحتمل أن يريد: من علم الله الذي أعطاه العلماء قبلهما وبعدهما إلى يوم القيامة، فتجيءُ نسبة علمه إلى علم البشر نسبة تلك النقطة إلى البحر[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول حسن لولا أن في بعض طرق الحديث: (ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلاَّ كنقرة هذا العصفور)، فلم يبق مع هذا إلاَّ أن يكون التشبيه بتجوُّز؛ إذ لا يوجد في المحسوسات أقوى في القلَّة من نقطة بالإضافة إلى البحر، فكأنَّها لا شيء؛ إذ لا توجد لها إلى البحر نسبة معلومة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾.

انطلقا في موضع نزولهما من السفينة، فمرَّا بغلمان يلعبون، فعمد الخضر إلى غلام حسن الهيئة وضيءٍ فاقتلع رأسه، ويقال: رضَّها بحجر، ويقال: ذبحه، وقال بعض الناس: كان هذا الغلام لم يبلغ الحُلُم، ولذلك قال موسى: [زَكِيَّةً]، أي: لم تذنب، وقالت فرقة: بل كان غلاماً شاباً، والعرب تُبقي على الشاب اسم الغلام، ومنه قول ليلى الأخيلية:

. . . . غُــلاَمٌ إِذَا هَــزَّ الْقَنَــاةَ سَقَــاهَــا[2]

---

(١) سقطت هذه الفقرة من النسخة التونسية.

(٢) هذا عجز بيت قالته ليلى الأخيلية من قصيدة مدحت بها الحجاج بن يوسف، والبيت بتمامه مع بيت قبله: =

وهذا في صفة الحَجَّاج. وفي الخبر أن هذا الغلام كان يفسد في الأرض ويقسم لأبويه ما فعل فيقسمان على قَسَمه ويحميانه ممن يطلبه، وقرأ ابن عباس، والأعرج، وأبو جعفر، ونافع، والجمهور: [زَاكِيَةً] وقرأ الحسن، وعاصم، والجحدري: ﴿زَكِيَّةً﴾، والمعنى واحد، وقد ذهب قوم إلى الفَرْق، وليس بِبيِّن[1]. وقوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يقتضي أنه لو كان عن قتل نَفْس لم يكن به بأسٌ، وهذا يدل على كبر الغلام؛ وإلاَّ فلو كان لم يحتلم لم يجب قتله بنفس ولا بغير نفس، وقرأ الجمهور: ﴿نُكْراً﴾، وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر، وشيبة: [نُكُراً] بضم الكاف، واختلف عن نافع، ومعناه: شيءٌ يُنْكَر.

واختلف الناس أيُّهما أبلغ؟ قوله: ﴿إِمْراً﴾ أو قوله: ﴿نُكْراً﴾ ـ فقالت فرقة: هذا قتل بيِّنٌ وهنالك مُتَرَقَّب، و﴿نُكْراً﴾ أبلغ، وقالت فرقة: هذا قتلُ واحدٍ وذلك قتلُ جماعةٍ، فـ﴿إِمْراً﴾ أبلغ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعندي أنهما لِمَعْنَيَيْن: قوله: ﴿إِمْراً﴾ أفظع وأهول من حيث هو متوقع عظيم، و﴿نُكْراً﴾ أبيَن في الفساد لأن مكروهه قد وقع.

[ونصف القرآن بعد الحرف «ن» أو ينتهي إلى النون من قوله: [نُكُراً].][2].

وقوله: ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ فيه زجْرٌ وإغلاظٌ ليس في قوله أوَّلاً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، وقوله: ﴿بَعْدَهَا﴾ يريد: بعد هذه القصة، فأعاد الضمير عليها وإن كانت لم يتقدم لها ذكرٌ صريح من حيث كانت في ضمن القول.

= إذَا نَـزَلَ الحَجَّـاجُ أَرْضـاً مَـرِيضَـةً ... تَتَبَّـعَ أَقْصَـى دائِهَـا فَشَفَـاهَـا
شَفَـاهَـا مِـنَ الـدَّاءِ العُضَـالِ الَّـذِي بِهَـا ... غُـلامٌ إذا هَـزَّ القَنَـاةَ سَقَـاهَـا

والقناة: الرمح، وسقاها: بَلَّلَهَا من دم الأعداء.

(١) يعني أن قوماً من العلماء ذهبوا إلى أن بينهما فرقاً، فقد قال ثعلب: الزَّكِيَّةُ أبلغ، وقال أبو عمرو: الزَّاكِيَةُ التي لم تُذنب قط، والزَّكِيَّةُ التي أذنب ثم تابت، لكن ابن عطية يرى أن ما ذكراهُ غير بيِّن.

(٢) نقل القرطبي كلام ابن عطية عن الفرق بين ﴿إمرا﴾ ﴿ونكرا﴾ لكنه ترك الجملة الأخيرة التي وضعناها بين العلامتين [.....]، وهي في نفسها تحتاج إلى بيان، وصلتها بما قبلها أيضاً في حاجة إلى توضيح، والظاهر أن فيها نقصاً نتيجة سهو من النساخ خفي بسببه المعنى، على أنها سقطت من بعض النسخ.

وقرأ الجمهور: ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾، ورواها أُبيّ عن النبي ﷺ، وقرأ عيسى، ويعقوب: (فلا تَصْحَبْني)، وقرأ عيسى أيضاً: [فلا تُصْحِبْني] بضم التاء وكسر الحاء، ورواها سهلٌ عن أبي عمرٍو، والمعنى: فلا تُصْحِبْني علمك، وقرأ الأعرج: [فلا تَصْحَبَنِّي] بفتح التاء والباء وشدِّ النون. وقوله: ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾، أي: قد أَعْذَرْتَ إليَّ وبلغتَ إلى العُذْر من قِبَلي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويُشبه أن تكون هذه القصة أصلاً للآجال في الأحكام التي هي ثلاثة أيام، وأيام التلوُّم ثلاثة، فتأمله. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿مِن لَّدُنِّي﴾ بفتح اللام وضم الدال وشد النون، وهي (لَدُن) اتصلت بها نون الكناية التي في «ضربني» ونحوه[١]، فوقع الإدغام، وهي قراءة النبي ﷺ، وقرأ نافع، وعاصم: [من لدُنِي] كالأولى إلاَّ أن النون مُخَفَّفة، فهي (لَدُن) اتصلت بها ياءُ المتكلم التي في «غلامي» وكُسِر ما قبل الياء كما كُسِر في هذه[٢]، وقرأ أبو بكر عن عاصم: [من لَدْني] بفتح اللام وسكون الدال وتخفيف النون، وهي تخفيف [لَدُنِي] التي ذكرناها قبل هذه، ورُوي عن عاصم: [من لُدْني] بضم اللام وسكون الدال، قال مجاهد: وهي غلط، قال أبو عليٍّ: هذا التغليط يشبه أن يكون من جهة الرواية، فأما على قياس العربية فهي صحيحة. وقرأ الحسن: [من لَدْني] بفتح اللام وسكون الدال[٣].

وقرأ الجمهور: ﴿عُذْراً﴾، وقرأ أبو عمرو، وعيسى: [عُذُراً] بضم الذال، وحكى الداني أن أُبَيّاً روى عن النبي ﷺ: [عُذْرِي] بكسر الراء وياءٍ بعدها، وأسند الطبريُّ قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعا لأحدٍ بدأ بنفسه، فقال يوماً: (رحمة الله علينا وعلى موسى، لو صبر على صاحبه لرأى العجب، ولكنه قال: ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾[٤].

---

(١) يريد نون الوقاية التي تسبق ياء المتكلم لتقي الفعل من الكسر.

(٢) قال أبو حيان في البحر المحيط: «وهو القياسُ؛ لأن أصل الأسماء إذا أُضيفت إلى ياء المتكلم لم تلحق بها نون الوقاية نحو غلامي وفرسي».

(٣) هي القراءة التي رواها أبو بكر عن عاصم، وكان الأفضل أن يذكرهما معاً.

(٤) ذكر السيوطي الحديث في الدرِّ المنثور، وقال: أخرجه ابن أبي شيبة، وأبو داود، والترمذي، =

وفي البخاري عن النبي ﷺ: (يرحم الله موسى، لوددنا أنه صبر حتَّى يقص علينا من أمرهما)[١]. ورُوي في تفسير هذه الآية أن الله تعالى جعل هذه الأمثلة التي وقعت لموسى مع الخضر حجة على موسى وعجباً له، وذلك أنه لما أنكر خَرْق السفينة نودي: يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في التَّابوت مطروحاً في اليم؟ فلما أنكر أمر الغلام قيل له: أين إنكارك هذا من وكزك للقبطيِّ وقضائك عليه؟ فلما أنكر إقامة الجدار نودي: أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر؟

وقوله: [فَانْطَلَقَا]، يريد: انطلق الخضر وموسى يمشيان لارتياد الخضر أمراً ينفذ فيه ما عنده من علم الله تعالى، فمرَّا بقرية فطلبا من أهلها أن يطعموهما فأبَوْا. وفي الحديث أنهما كان يمشيان على مجالس أولئك القوم يستطعمانهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه عبارة مصرِّحة بهوان الدنيا على الله عزَّ وجلَّ.

واختلف الناس في القرية ـ فقال محمد بن سيرين: هي الأُبُلَّة، وهي أبخل قرية وأبعدها من السماء، وقالت فرقة: هي أَنْطَاكِيَة. وقالت فرقة: هي بَرقة، وقالت فرقة: هي بجزيرة الأندلس، روي ذلك عن أبي هريرة، ويذكر أنها الجزيرة الخضراءُ. وقالت فرقة: هي أبو جودان[٢]، وهي بناحية أَذْرَبِيجان.

= والنسائي، والحاكم وصححه، وابن مردويه، ولفظه كما ذكره السيوطي أن النبي ﷺ قال: (رحمة الله علينا وعلى موسى ـ فبدأ بنفسه ـ، لو كان صبر لقَصَّ علينا من خبره، ولكن قال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾.

(١) هذا جزءٌ من الحديث الذي رواه البخاري في تفسير سورة الكهف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنهم، وقد أشرنا إليه من قبل.

(٢) الذي في القرطبي: باجَرْوَان، وفي البحر المحيط: أبو حوران. والأُبُلَّة: بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها، هكذا قال الحموي في (معجم البلدان)، وقال الزَّجَّاجيُّ: هي الِفدرة من التَّمْر، وهي على شاطىء دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة. أما أنطاكيَة فضبطها الحموي بالفتح ثم السكون والياءُ مخففة، وأمَّا بَرْقَة ـ بفتح الأول والقاف ـ فاسم صُقْع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وأفريقية، ثم ذكر الحموي مدينتين أُخريين بهذا الضبط، ثم ذكر مائة مكان كل منها يُسَمَّى بُرْقة بضم أوله مع فتح القاف وبالإضافة إلى اسم آخر. وضبط أَذْرَبيجان بالفتح ثم السكون وفتح الراء وكسر الباء وسكون الياء، وذكر من المدن المجاورة لها بَاجَرْوان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله بحسب الخلاف في أيِّ ناحية من الأرض كانت قصة موسى عليه السلام، والله أعلم بحقيقة ذلك.

وقرأ الجمهور: (يُضَيِّفُوهُمَا) بفتح الضاد وشد الياء، وقرأ أبو رجاءٍ [يُضِيفُوهُمَا] بكسر الضاد وسكون الياء، وهي قراءة ابن محيصن، والزُّبير، وأبي رزين. و«الضَّيْفُ» مأخوذ من: ضاف إلى المكان إذا مال إليه، ومنه الإضافة وهي إمالة شيءٍ إلى شيءٍ. وقرأ الأعمش: «فَأَبَوْا أَنْ يُطْعِمُوهُمَا».

وقوله تعالى في الجدار: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ استعارة، وجميع الأفعال التي حقُّها أن تكون للحيِّ الناطق متى أُسندت إلى جماد أو بهيمة فإنما هي استعارة، أي: لو كان الجماد إنسان لكان متمثِّلاً لذلك الفعل، فمن ذلك قول الأعشى:

هَلْ تَنْتَهُونَ؟ وَلاَ يَنْهَى ذَوِي شَطَطٍ كالطَّعْنِ يَذْهَبُ فيهِ الزَّيْتُ والفُتُلُ(١)

فأسند النَّهي إلى الطَّعن، ومن ذلك قول الشاعر:

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ وَيَرْغَبُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عُقَيْلِ(٢)

(١) البيت من قصيدته المعروفة: (وَدِّع هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحل)، والشَّطَط: المبالغة ومجاوزة الحدِّ في الأمور، يقول: إن كل من يجاوز حدَّه، ويخرج عن الحق والصواب لا ينهاه عن ذلك إلا الطعن الشديد الذي يصيبه بجراح واسعة يغيب فيها الزيت والفُتل. والشاهد أنه أسند النَّهْيَ إلى الطعن على سبيل الاستعارة.

(٢) البيت في اللسان (رود) غير منسوب، قال: «وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾، أي أقامه الخضر، وقال: (يُرِيدُ) والإرادة إنما تكون من الحيوان، والجدار لا يُريد إرادة حقيقية؛ لأن تهيُّؤَه للسقوط قد ظهر كما تظهر أفعال المريدين، فوصف الجدار بالإرادة إذ كانت الصورتان واحدة، ومثل هذا كثيرٌ في الشعر واللغة، قال الرَّاعي:

فِـي مَهْمَـهٍ قَلِقَـتْ بِـهِ هَـامَـاتُهَـا قَلَـقَ الفُـؤُوسِ إذا أَرَدْنَ نُصـولا

وقال آخر: يُريدُ الرمحُ صَدْرَ أبي بَراءٍ. . . . البيت» والبيت أيضاً من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن، وقد نسبه للحارثي، قال: «ليس للحائط إرادةٌ ولا للموت، ولكنه إذا كان في هذه الحال من رثة فهي إرادتُه، وهذا قول العرب في غيره قال الحارثي: يريد الرُّمْحُ. . . البيت». وما يقال عن إسناد الإرادة للرمح يقال عن إسناد الرغبة عن الشيء إليه أيضاً، والرغبة عن الشيء: تركه والزُّهْدُ فيه، أما الرغبة فيه فهي الحرص عليه والطمع فيه.

ومنه قول عنترة:

. . . . وَشَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وتَحَمْحُمِ

وفَسَّر هذا المعنى بقوله:

لَوْ كَانَ يَدْرِي ما الْمُحَاوَرَةُ اشْتَكَى البيت. . . . .(١)

ومنه قول الناس: «داري تنظر إلى دار فلان»(٢)، ومنه قول النبي ﷺ: «لا تَرَاءَى ناراهُمَا»(٣) وهذا كثير جداً.

وقرأ الجمهور: ﴿يَنْقَضَّ﴾، أي: يسقط. وقرأ النبي ﷺ ـ فيما روي عنه ـ [أن يُنْقَضَ] بضم الياء وتخفيف الضاد، وهي قراءة أُبيٍّ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعكرمة: [أن ينقاص] بالصاد غير منقوطة، بمعنى: ينشق طولاً، يقال: انْقَاصَ الجِدَارُ وَطَيُّ البئرِ(٤)، وانقاصت السِّنُّ إذا انشقت طولاً، وقيل: إذا تصدعت كيف

---

(١) استشهد ابن عطية بعجز بيت من الشعر قاله عنترة بن شداد، ثم وضح كلامه بصدر البيت التالي، والبيتان كاملان معاً هما:

فَازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ الْقَنَا بِلَبَانِهِ وَشَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ
لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا الْمُحَاوَرَةُ اشْتَكَى وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامَ مُكَلِّمِي

وهو يتحدث عن فرسه الذي شارك معه في الهجوم على الأعداء، وتلقى كثيراً من الهجمات والضربات. والإزورار: الْمَيْلُ، والقنا: جمع قناةٍ، وهي الرمح، واللَّبان: صدر الفرس، والتَّحَمْحُم: صوت الفرس المنخفض إذا كان فيه شجن الحنين لِيَرِقَّ له صاحبه، يقول: مال فرسي من رماح الأعداء التي أصابت صدره، ونظر إليَّ وحَمْحَمَ لأرقَّ له وأرْحَمه من هذه الضربات، ولو كان يعلم لغة الخطاب والكلام لاشتكى إليَّ وعبَّر عن آلامه بحديث واضح مفهوم. وإسناد هذه الأفعال إلى الفرس تجوُّز.

(٢) أي تقع أمامها وتشاهدها، فقد أسند النظر إلى الدار وهي جماد على سبيل المجاز.

(٣) هذا جزءٌ من حديث أخرجه أبو داود في الجهاد، والنسائي في القسامة. والحديث كاملاً: (أنا بريءٌ من كل مسلم مَعَ مُشْرِكٍ، قيل: لِمَ يا رسول الله؟ قال: لا تَرَاءَى نارَاهُمَا)، قال ابن الأثير في شرح هذا الحديث: «أي: يلزم المُسْلِمَ ويجب عليه أن يباعد منزله عن منزل المشرك، ولا ينزل بالموضع الذي إذا أُوقدت فيه نارهُ تلوح وتظهر لنار المشرك إذا أوقدها في منزله»، والتَّرائي: تَفَاعُلٌ من الرُّؤية، يقال: تراءى القومُ إذا رأى بعضهم بعضاً، وإسناد الترائي إلى النار مجاز، يقول: ناراهما مختلفتان، هذه تدعو إلى الله، وهذه تدعو إلى الشيطان، فكيف يتَّفقان؟ والأصل في (تَرَاءَى) تَتَرَاءَى، فحذفت إحدى التَّاءَين تخفيفاً». اهـ. بتصرف.

(٤) يقال للبئر التي تُبنى بالحجارة: الطَّويُّ، وطَوَاهَا: أحاطها بالحجارة والآجُرِّ، فإذا قيل: انْقاصَ طيُّ البئر، كان المعنى: انشق بناؤها وتَصدَّع.

كان، ومنه قول أبي ذُؤَيب:

فِـرَاقٌ كقَيْـصِ السِّـنِّ فـالصَّبْـرَ إنَّـهُ   لِكُـلِّ أُنَـاسٍ عَثْـرةٌ وَجُبُـوَرُ(١)

ويروى البيت: عبرةٌ وحبور؛ بالباء والحاء. وقرأ ابن مسعود، والأعمش: [يُرِيدُ لِيَنْقَضَّ].

واختلف المفسرون في قوله: ﴿فَأَقَامَهُ﴾ ـ فقالت فرقة: هدمه وقعد يبنيه، ووقع هذا في مصحف ابن مسعود، ويؤيد هذا التأويل قول موسى عليه السلام: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ لأنه فعلٌ يستحق أجراً. وقال سعيد بن جبير: بلْ مَسَحَه بيده وأقامه فقام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وَرُوي في هذا حديث، وهو الأشبه بفعل الأنبياء عليهم السلام.

فقال موسى للخضر: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: طعاماً نأكله. وقرأ الجمهور: ﴿لاتَّخَذْتَ﴾، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [لَتَخِذْتَ]، وهي قراءة ابن مسعود، والحسن، وقتادة، وأدغم بعض القراء الذَّال في التَّاء، ولم يدغمها بعضهم(٢)، ومن قولهم: (تَخِذَ) قول الشاعر:

وَقَدْ تَخِذَتْ رِجْلِي إلى جَنْبِ غَرْزِهَا   نَسِيفاً كَأُفْحُوصِ ٱلْقَطَاةِ ٱلْمُطَرَّقِ(٣)

---

(١) البيت من قصيدة لأبي ذؤيب الهذلي يصور فيها عودته إلىديار المحبوبة بعد غيبة طويلة، ويتحدث عن عتابها له حين رأته فقالت له: إنَّك صبَوْتَ بعدنا وتغيرتَ بعد أن كبرتَ، وأنه أجابها بأن فَقْد الأحبة هو السبب، وأن هذا الفراق كان كانشقاق السِّنِّ ولا دواء لذلك إلاَّ الصبر، والناس دائماً يَعْثُرون ثم يُجْبرون. والشاهد أن قَيْص السِّن هو انشقاقها، أما قوله: فالصَّبْرَ، فإن معناه: علينا أن نصبر، وهو منصوب على الإغراء، والتقدير: الزمي الصبرَ، ورواية الأصمعي، فالصَّبْرُ، والمعنى عليها: فالصَّبْرُ دَوَاءٌ. وقد روى أبو عمرو البيت: فراقٌ كنَقْض السِّن، أي: تحرُّكها.

(٢) قال ابن خالويه: «الحُجَّةُ لمن قرأ بفتح التاء وكسر الخاء وإظهار الذال أنه أخذه من: تَخِذَ يَتْخَذُ، كما تقول: شَرِبَ يَشْرَبُ، فأتى بالكلام على اصله مُبَيَّناً غير مُدْغَم. والحُجَّة لمن قرأ بذلك وأدغم مقاربة الذَّال للتاء لأن مخرجهما من طرف اللسان وأطراف الثنايا العُلْيَا، والحجة لمن قرأ بألف الوصل أن وزنه افتعلت، من الأخذ، وأصله: إيتَخَذْتَ؛ لأن همزة الوصل تصير ياءً لانكسار ما قبلها ثم تُقلب تاءً وتُدغم في تاءِ افْتَعَلْتُ فتصيران تاءً شديدةً». انتهى بتصرف وزيادة إيضاح.

(٣) البيت لِلْمُمَزَّق العبدي، واسمُهُ شأسُ بن نهار، من عبد القيس، وهو ابن أُخت المثَقَّب العبدي ولُقِّب بالممزَّق لقوله:

فَـإنْ كنـتُ مَـأكُـولاً فَكُـنْ خَيْـرَ آكِـلٍ   وَإلاَّ فَـأدرِكْنِـي وَلَمَّـا أُمَـزَّقِ =

وفي حرف أُبَيٍّ: «لَوْ شِئْتَ لأَوتيتَ عليهِ أجراً».

ثم قال الخضر لموسى بحسب شرطهما: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، واشترط الخضر، وأعطاه موسى ألاَّ يقع سؤالٌ عن شيءٍ، والسؤالُ أقلُّ وجوه الاعتراضات، فالإنكار والتخطئة أعظم منه، وقوله: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ـ وإنْ لم يكن سؤالاً ـ ففي ضمنه الإنكارُ لفعله والقولُ بتصويب أخذ الأجر، وفي ذلك تخطئة ترك الأجر، وأمَّا فصْله وتكريرُه ﴿بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ وعُدُولُه عن «بَيْنِنا» فَلِمَعْنى التأكيد، والسِّينُ في قوله: [سَأُنَبِّئُكَ] مُفرقة بين المحاورتيْن والصحبتيْن، ومُؤْذنةٌ بأن الأولى قد انقطعت.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾.

قرأ الجمهور: (لِمَسَاكِينَ) بتخفيف السِّين، جمع مِسْكين، واختلف في صفتهم ـ فقالت فرقة: كانت لقوم تجار، ولكنهم من حيث هم مسافرون على قَلَتٍ[1] وفي لجة بحر وبِحَالِ ضعف عن مدافعة غصب جائر، عَبَّر عنهم بـ[مَسَاكِينَ]؛ إذ هم في حالٍ يُشْفَق عليهم بسببها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كما تقول لرجل غنِيٍّ ـ إذا وقع في وَهْلَةٍ[2] أوْ خَطْبٍ ـ: مِسْكين. وقالت

= والممزَّق بفتح الزاي وكسرها، قال ذلك في اللسان. والبيت من القصيدة التي منها بيته الذي ذكرناه، وهو في اللسان، ومن شواهد أبي عبيدة في (مجاز القرآن)، وتَخِذَ من باب فَرِحَ، يقال في المضارع يَتْخَذُ كيَفْرَحُ، كما قال ابن خالويه في الهامش السابق. وهي موضع الاستشهاد، والغَرْزُ لِلْجَمل مثل الركاب للبغل، وهو ما يضع الراكب قدمه فيه عند الركوب، والنَّسِيف: أثر عضِّ الغَرْزِ في جنب الناقة من عَضَّة أو تساقط وَبَر، والقَطَاة: طائر صغير من نوع اليمام يُؤْثر الحياة في الصحراء، ويتخذ أفحوصه في الأرض ويطير جماعات، ويقطع مسافات شاسعة، وبيضه مُرَقَّطٌ، والأفحوصُ هو الحفرة التي يحفرها في الأرض ليضع بيضة فيها ويرقد عليه، وهي تناسب حجمه،، المُطرَّق: التي خرج منها نصف ولدها ثم نشب ـ غذا كانت امرأة ـ أو بيضها ـ إذا كانت طائراً، يصف القطاة بأنها كالمرأة المطرق، وقيل: تطريق القطاة أن تتخذ الأفحوص للبيض.

(١) على قَلَتٍ: على تَعَرُّضٍ للهلاك أو الخوف.

(٢) أي: في خوف وفزع.

فرقة: كانوا عشرة إخوة أهْلِ عاهات، خمسة منهم عاملون في السفينة، وخمسة لا قدرة بهم على العمل.

وقرأت فرقة: [لِمَسَّاكِينَ] بشدِّ السين، واختلف في تأويل ذلك ـ فقالت فرقة: أراد بالمَسَّاكين مَلاَّحي السفينة، وذلك أن المسَّاكَ هو الذي يُمسك رجل المركب، وكل الخدمة يصلح لإمساكه، فسُمي الجميع مسَّاكين، وقالت فرقة: أراد بالمسَّاكِين دَبَغَة المُسُوك وهي الجلود واحدها مَسْكٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأظهر في ذلك القراءة الأولى، وأنَّ معناها أنَّ السفينة لقوم ضعفاء ينبغي أن يشفق عليهم، واحتج الناس بهذه الآية في أن المسكين الذي له البُلْغة من العيش، كالسفينة لهؤلاء، وأنه أصلح حالاً من الفقير، واحتج من يرى خلاف هذا بقول الشاعر:

أَمَّا الْفَقيرُ الَّذي كانَتْ حَلُوبَتُهُ ... وَفْقَ الْعِيَالِ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبَدُ(١)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتحرير هذا عندي أنهما لفظان يدلأن على ضعف الحال جداً، ومع المسكنة انكشافٌ وذلٌّ بسؤال، ولذلك جعلهما الله تعالى صنفين في قسم الصدقات، فأمَّا حديث النبي ﷺ الذي هو: (ليس المسكين بهذا الطَّوَّاف)(٢) فجعل المساكين في اللغة أهل الحاجة الذين كشفوا وجوههم، وأما قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٣) فجعل الفقراء الذين لم يكشفوا وجوههم. وقد تقدم القول في هذه المسألة بأوعبَ من هذا(٤).

---

(١) البيت للراعي، وهو حُصَيْنُ بن معاوية النُّمَيْري، ولُقب بالراعي لأنه أكثر من وصف الإبل ورعاتها، وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت في المجلد الرابع صفحة ٣٤١، وهو من قصيدة قالها الشاعر يمدح عبد الملك بن مروان، والشاهد هنا أن الفقير هو من كان عنده شيءٌ لعياله.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة والتفسير، ومسلم في الزكاة، وكذلك كل من أبي داود، والنسائي، والدارمي، وخرجه مالك في موطئه في صفة النبي ﷺ، وأحمد في مسنده (١ـ٣٨٤)، ولفظه فيه: (قال رسول الله ﷺ: ليس المسكين بالطَّوَّاف، ولا بالذي تردُّه التَّمْرَةُ ولا التمرتان، ولا اللقمة ولا اللقمتان، ولكن المسكين المتعفِّف الذي لا يسأل الناسَ شيئاً ولا يُفْطَنُ له فيُتَصَدَّق عليه).

(٣) من الآية (٢٧٣) من سورة (البقرة).

(٤) راجع المجلد الرابع صفحة ٣٤١.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾، قال قوم: معناه: أمامهم، وقالوا: «وراءُ» من الأضداد. وقال ابن جبير، وابن عباس: وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة، وقرأ عثمان بن عفان رضي الله عنه: «وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوله: ﴿وَرَاءَهُمْ﴾ هو عندي على بابه، وذلك أن هذه الألفاظ إنما تجيءُ مراعى بها الزمن، وذلك أن الحادث المقدّم الوجود هو الأمام، وبين اليد لما يأتي بعده من الزمان، والذي يأتي بعد هو الوراءُ وهو ما خلف، وذلك بخلاف ما يظهر ببادىء الرأي، وتأمل هذه الألفاظ في مواضعها حيث وردت تجدها تطرد، فهذه الآية معناها: إنَّ هؤلاء وعملهم وسعيهم يلي بعده في الزمن غَصْبٌ من الملك، ومن قرأ: «أَمَامَهُمْ» أراد: في المكان، أي أنهم كانوا يسيرون إلى بلده. وقوله تعالى في التوراة والإنجيل إنهما «بين يدي القرآن»[١] مطرد على ما قلنا في الزمان، وقوله سبحانه: و﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾[٢] مطرد كما قلنا من مراعاة الزمان، وقول النبي ﷺ: (الصلاة أمامك)[٣] يريد في المكان، وإلاَّ فكونهم في ذلك الوقت كان أمام الصلاة في الزمن، فتأمل هذه المقالة فإنها مريحة من شغب هذه الألفاظ. ووقع لقتادة في كتاب الطبري: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾، قال قتادة: أمامهم، ألا ترى أنه يقول: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾[٤] وهي بين أيديهم.

---

(١) ورد هذا في آيات كثيرة، كقوله تعالى في الآية (٣) من سورة (آل عمران): ﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه﴾، وكقوله تعالى في الآية (٩٧) من سورة (البقرة): ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

(٢) من الآية (١٠) من سورة (الجاثية).

(٣) الحديث في الجمع بين المغرب والعشاء بالمزدلفة، وقد أخرجه البخاري في الحج، والنسائي في المواقيت، والدارمي في المناسك، وأحمد في المسند (٥ـ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٨، ٢١٠)، ولفظه كما جاء في المسند أن كُرَيْبا سأل أُسامة بن زيد، قال: قلت أخبرني كيف صنعتم عشية ردفت رسول الله ﷺ، قال: جئنا الشِّعب الذي يُنيخ فيه الناسُ للمغرب، فأناخ رسول الله ﷺ ناقته، ثم بال، قال: اهراق الماء، ثم دعا بالوضوء فتوضأ وضوءاً ليس بالبالغ جداً، قال: قلت: يا رسول الله، الصلاة، قال: الصلاةُ أمامك، قال: فركب حتى قدم المزدلفة فأقام المغرب، ثم أناخ الناس في منازلهم ولم يحلوا حتى أقام العشاء، ثم حلَّ الناس، قال: فقلت: كيف فعلتم حين أصبحتم؟ قال: ردفه الفضل بن عباس، وانطلقت أنا في سباق قريش على رجلي.

(٤) من الآية (١٠) من سورة (الجاثية).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا القول غير مستقيم، وهذه هي العجمة التي كان الحسن بن أبي الحسن يضجُّ منها. قاله الزجاج[1]. ويجوز أن كان رجوعهم في طريقهم على الغاصب فكان وراءهم حقيقة. وقيل: اسم هذا الغاصب هُدَد بن بُدَد، وقيل: الجَلَنْدى، وهذا كله غير ثابت. وقوله تعالى: ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ عموم معناه الخصوص في الجِيادِ منها الصحاحِ المارَّةِ به.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

تقدم القول في الغلام والخلاف في بلوغه أو صغره، وفي الحديث أن ذلك الغلام طبع يوم طبع كافراً، وهذا يؤيد ظاهره أنه كان غير بالغ، ويحتمل أن يكون خبراً عنه مع كونه بالغاً، وقيل: اسم الغلام جَيْسور بالراء، وقيل: جَيسون بالنون، وهذا أمر كلُّه غير ثابت. وقرأ أُبيُّ بن كعب: «فَكَانَ كَافِراً وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ»، وقرأ أبو سعيد الخدري: «فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَانِ»، فجعلها (كان) التي فيها الأمر والشأن[2].

وقوله: [فَخَشِينَا] قيل: هو في جهة الخضر، فهذا متخلص، والضمير عندي للخضر وأصحابه الصالحين الذين أهمهم الأمر وتكلموا فيه، وقيل: هو في جهة الله تعالى وعبَّر عنه الخضر. قال الطبري: معناه: فَعَلِمْنَا، وقال غيره: فَكَرِهْنَا.

---

(١) نقل الإمام القرطبي كلام ابن عطية كلَّه من أول قوله: «وقوله: [وَرَاءَهُم] هو عندي على بابه»، ثم علَّق عليه بقوله: «وما اختاره هذا الإمام قد سبقه إليه في ذلك ابن عرفة»، ثم نقل كلام ابن عرفة وقال: «وأشار إلى هذا القول أيضاً القشيري».

(٢) قال أبو الفتح بن جنِّي: يجوز في الرفع هنا تقديران: أحدهما أن يكون اسم (كان) ضمير الغلام، أي: فكان هو أَبَوَاهُ مؤمنان، والجملة بعده خبر كان. والآخر أن يكون اسم (كان) مضمراً فيها، وهو ضمير الشأن والحديث، أي: فكان الشأنُ أو الحديث أَبَوَاهُ مؤمنان، والجملة بعده خبر (كان) على ما مضى، إلا أنه على هذا الوجه الثاني لا ضمير عائداً على اسم (كان)، لأن ضمير الشأن لا يحتاج إلى ضمير يعود عليه من الجملة بعده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأظهر عندي في توجيه هذا التأويل ـ وإن كان اللَّفظ يدافعه ـ أنها استعارة، أي: على ظن المخلوقين والمخاطبين لو علموا حالَه لوقعت منهم خشية الرهق للأبوين. وقرأ ابن مسعود: «فَخَافَ رَبُّكَ»، وهذا بيِّن في الاستعارة، وهذا نظير ما يقع في القرآن في جهة الله تعالى من «لَعَلَّ وعَسَى»، فإن جميع ما في هذا كله من تَرَجٍّ وتَوَقُّع وخوف وخشية إنما هو بِحَسَبِكُم أيُّهَا المخاطبون. و﴿يُرْهِقَهُمَا﴾ معناه: يُجَشِّمُهُمَا ويُكلِّفهما بشدَّة، والمعنى أن يلقيهما حُبُّهما في اتِّباعه.

وقرأ الجمهور: [أن يُبَدِّلَهما] بفتح الباء وشدِّ الدال، وقرأ ابن محيصن، والحسن، وعاصم: ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ بسكون الباء وتخفيف الدال. و«الزَّكَاةُ»: شرف الخُلُق والوقار والسكينة المنطوية على خير، و«الرُّحْمُ»: الرحمة، والمراد ـ عند فرقة ـ أيْ: يرحمهما، وقيل: أي: يرحمانه، ومنه قول رؤبة بن العجاج:

يَـا مُنْـزِلَ الـرُّحْـمِ عَلَـى إِدْرِيسَـا ... وَمُنْـزِلَ اللَّعْـنِ عَلَـى إِبْلِيسَـا[(١)]

وقرأ ابن عامر: [رُحُماً] بضم الحاء، وقرأ الباقون: ﴿رُحْماً﴾ بسكونها، واختلف عن أبي عمرو. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «رَبُّهُمَا أَزْكَى مِنْهُ وَأَقْرَبَ رُحْماً»، وروي عن ابن جريج «أنهما بُدِّلا غلاماً مُسلماً»، وروي عن ابن جريج «أنهما بُدِّلا جارية»، وحكى النقاش أنها ولدت هي وذريتها سبعين نبياً، وذكره المهدوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو بعيد، ولا تعرف كثرة الأنبياء إلاَّ في بني إسرائيل، وهذه المرأة لم تكن فيهم، وروي عن ابن جريج أن أُمَّ الغلام يوم قتل كانت حاملاً بغلام مسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ﴾. هذان الغلامان صغيران بقرينة وصفهما باليُتْم، وقد قال النبي ﷺ: (لا يُتْم بَعْد بُلُوغ)[(٢)]، هذا الظاهر، وقد يحتمل أن يبقى

---

(١) الذي في الديوان هو البيت الأول فقط، وهو في الأبيات المفردة الملحقة بالديوان، والرواية فيه: (عَلَى إِدْرِيس)، وكذلك استشهد به صاحب اللسان (رَحِمَ)، قال: «والرُّحْمُ بالضم: الرّحْمة، وما أقرب رُحْم فلان إذا كان ذا مرحمة وَبِرٍّ، أي: ما أرحمه وأبرَّه، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾»، وبعد أن استشهد بأبيات من الشعر ذكر هذا البيت لرؤبة بنفس الرواية التي في الديوان.

(٢) أخرجه أبو داود، عن عليٍّ رضي الله عنه، ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في الجامع الصغير: (لا يُتْم بعد احتلام، ولا صمات يوم إلى الليل)، وقد رمز له السيوطي بأنه حديث حَسَن.

عليهما اليُتم بعد البلوغ، أي: كانا يتيمين، على معنى التشفيق عليهما. واختلف الناسُ في الكنز ـ فقال قتادة، وعكرمة: كان مالاً جسيماً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان علماً في صحف مدفونة، وقال عمر مولى غُفْرَة[١]: كان لوحاً من ذهب قد كتب فيه: «عجباً للموقن بالرزق يتعب، وعجباً للموقن بالحساب كيف يغفل، وعجباً للموقن بالموت كيف يفرح»، ورُوي نحو هذا مما هو في معناه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾، ظاهر اللفظ والسابق منه أنه والدهما دِنْيَةً[٢]، وقيل: الأب السابع، وقيل: العاشر فحفظا فيه وإن لم يذكرا بصلاح، وفي الحديث: (إن الله تعالى يحفظ الرجل الصالح في ذريته)[٣].

وجاء في أنباء الخضر عليه السلام في أول قصة ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وفي الثانية ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾، وفي الثالثة ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ﴾، وإنما انفرد أوَّلاً في الإرادة لأنها لفظة عَيْبٍ فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلاَّ لنفسه، كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٤]، فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله تعالى، وأسند المرض إلى نفسه؛ إذْ هو معنى نقْص ومصيبة، وهذا المنزع يطرد في فصاحة القرآن كثيراً، ألا ترى إلى تقديم فعل البشر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٥]، وتقديم فعل الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾[٦]، وإنما قال الخضر في الثانية: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ لأنه أمل كان قد رَوَّاه[٧] هو وأصحابه الصالحون،

(١) هو عُمر بن عبد الله المدني، مولى غُفْرة بضم الغين وسكون الفاء، قال عنه صاحب تقريب التهذيب: «ضعيف، وكان كثير الإرسال، من الخامسة، مات سنة خمسٍ أو ستٍّ وأربعين».

(٢) دِنْيَةً: الأب الأقرب والأدنى.

(٣) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «إن الله يُصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده، ويحفظه في ذريتَّه والدويرات حوله، فما يزالون في ستر من الله وعافية». وأخرج ابن مردويه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده وولد ولده وأهل دويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم)، وأخرجه ابن المبارك، وابن أبي شيبة عن محمد بن المنكدر موقوفاً. (الدر المنثور).

(٤) الآية (٨٠) من سورة (الشعراء).

(٥) من الآية (٥) من سورة الصَّف).

(٦) من الآية (١١٨) من سورة (التوبة).

(٧) من قولهم: رَوَّى فلانٌ في الأمر بمعنى: نظر فيه وتفكَّر.

وتكلم فيه في معنى الخشية على الوالدين وتمنى التبديل لهما، وإنما أسند الإرادة في الثالثة إلى الله تعالى لأنها في أمرٍ مستأنف في الزمن طويل غيب من الغيوب، فحسُن إفراد هذا الموضع بذكر الله تعالى، وإن كان الخضر قد أراد أيضاً ذلك الذي أعلمه الله تعالى أنه يريده، وهذا توجيه فصاحة هذه العبارة بحسب فهمنا المقصِّر، والله أعلم.

و«الأَشُدُّ»: كمالُ الخُلُق والعقل، واختلف الناسُ في قدر ذلك من السنين ـ فقيل: خمسة وثلاثون، وقيل: ستة وثلاثون، وقيل: أربعون، وقيل غير هذا مما فيه ضعف.

وقول الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ يقتضي أن الخضر نبيٌّ، وقد اختلف الناسُ فيه ـ فقيل: هو نبيٌّ، وقيل: هو عبد صالحٌ وليس بنبيٍّ. وكذلك جمهور الناس على أن الخضر ماتَ، وتقول فرقة: إنه حيٌّ لأنه يشرب من عين الحياة، وهو باقٍ في الأرض، وأنه يحج البيت وغير هذا، وقد أطنب النقاشُ في هذا المعنى، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره، كلها لا تقوم على ساق، ولو كان الخضر عليه السلامُ حياً يحجُّ لكان له في ملَّة الإسلام ظهور، والله العليم بتفاصيل الأشياء لا ربَّ غيره. ومما يقضي بموت الخضر الآن قول النبي ﷺ: (أرأيتكم ليلتكم هذه، فإنه لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحدٌ)(١).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ﴾ أي مآلُ، وقرأت فرقة: [تَسْتَطِعْ]، وقرأ الجمهور: ﴿تَسْطِعْ﴾، قال أبو حاتم: كذا تُقرأ، نتبع المصحف.

وانتزع الطبري من اتصال هذه القصة بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ أن هذه القصة إنما جُلبت على معنى المثل للنبي ﷺ في قومه، أي: لا تهتم بإملاء الله لهم، وإجراء النعم لهم على ظاهرها، فإن البواطن سائرة إلى الانتقام منهم، ونحو هذا مما هو محتمل لكن بتعسُّف مَّا، فتأمله.

---

(١) هذا الحديث خرَّجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر، قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته، فلمَّا سلَّم قام فقال: (أرأيتكم ليلتكم هذه، فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد)، فَوَهَلَ الناسُ في مقالة رسول الله ﷺ تلك فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة، ـ وَهَل: غلط وذهب وَهْمُه إلى خلاف الصواب ـ، وإنما قال عليه الصلاة والسلام: (لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد)، يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن. ورواه مسلم أيضاً من حديث جابر بن عبد الله، قال القرطبي: وعن أبي سعيد الخدري نحو هذا الحديث.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾.

اختلف فيمن سأله عن هذه القصة ـ فقيل: سألته طائفة من أهل الكتاب، وروى في ذلك عقبةُ بن عامر حديثاً ذكره الطبري، وقيل: إنما سألتهُ قريش حين دلَّتها اليهود على سؤاله عن الرُّوح والرَّجُلِ الطَّوَّاف وفِتيَة ذهبوا في الدهر ليقع امتحانه بذلك[1].

وذو القرنين هو الإسكندر اليوناني المقدوني، وقد تُشَدَّد قافُه فيقال: المَقَّدوني، وذكر ابن إسحق في كتاب الطبري أنه يوناني، وقال وهب بن مُنبِّه: هو رومي، وذكر الطبري حديثاً عن النبي ﷺ أن ذا القرنين شاب من الروم، وهو حديث واهي السند، عن شيخين من تجيب[2].

واختلف الناس في وجه تسميته بذي القرنين، فأَحْسَن الأقوال أنه كان ذا ضفيرتيْن من شعْرِهما قرناه، فسُمِّي بهما، ذكره المهدوي وغيره، والضفائر قرون الرأس، ومنه قول الشاعر:

فَلَثَمْتُ فَاهَا آخِذاً بِقُرُونِهَا ... شُرْبَ النَّزِيفِ لِبَرْدِ ماءِ الحَشْرَج[3]

ومنه الحديث في غسل بنت النبي ﷺ، قالت أُمُّ عطية: «فضفَرْنَا رأسها ثلاثة

---

(١) أما الرُّوح فمعروفة، وقد قال الله تبارك وتعالى في سورة الإسراء: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، وأما الرجُل الطواف فهو ذو القرنين، وأما الفِتْية الذين ذهبوا في الدهر فهم أصحاب الكهف، وفي هذه السورة كانت الإجابة عن الأخِيريْن.

(٢) هذا الحديث هو ما أشار إليه المؤلف قبل ذلك حين قال: «وروَى في ذلك عقبة ابن عامر حديثاً ذكره الطبري». راجع الطبري. وزاد السيوطي في الدر المنثور نسبته إلى ابن عبد الحكم في فتوح مصر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي.

(٣) البيت لعمر بن أبي ربيعة، وهو من أبيات في ديوانه قيل: إنها منسوبة إليه، وآخذاً بقرونها: مُمْسكاً بضفائرها، وقد استشهد أبو منصور ـ كما قال في اللسان ـ بالنصف الثاني من البيت على أن (النَّزِيف) هو الذي عطش حتى يبست عروقه. وقيل: إن النَّزيف هو السكران لأن عقله نزف، والحشْرج: النُّقرة في الجبل يجتمع فيها الماءُ فيصفو. والشاهد هنا أن الضفائر تُسمَّى قروناً.

قُرون»[١]، وكثيراً تجيءُ تسمية النواصي قروناً.

ورُوي أنه كان في أول مُلْكه يرى في نومه أنه يتناول الشمس ويُمسك قرنين لها بيديه، فَقَصَ ذلك، فَفُسِّر أنه سيغلب على ما ذَرَّت عليه وسُمِّي ذا القرنين، وقالت فرقة: سُمِّي ذا القرنين لأنه بلغ المغرب والمشرق، فكأنه حاز قرني الدنيا، وقالت فرقة: إنه لما بلغ مطلع الشمس كشف بالرؤية قَرْنيها فَسُمِّي بذلك، أو قرني الشيطان بها، وقال وهب بن منبه: سُمِّي بذلك لأن جَنْبَتَيْ رأسه كانتا من نحاس، وقال وهب بن منبه أيضاً: كان له قرنان تحت عمامته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله بعيد، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنَّما سُمِّي ذا القرنين لأنه ضُرب على قَرْن رأسه فمات، ثم حيي، ثم ضرب على قرن رأسه الآخر فمات، فسُمِّي بذلك لأنه جُرح على قرني رأسه جرحين عظيمين في يومين عظيمين من أيام حربه، فسُمِّي بذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قريب.

والتَّمْكِينُ له في الأرض أنه ملَكَ الدنيا ودانت له الملوك كلُّها، فرُوي أن جميع ملوك الدنيا أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان سليمان بن داود عليه السلام، والإسكندر، والكافران نمروذ وبختنصر. وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ معناه: علماً في كل أَمْرٍ، وأَقْيِسَةً يتوصل بها إلى معرفة الأشياء. وقوله﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ عموم معناه الخصوص في كل ما يمكن أن يعلمه ويحتاج إليه، وثَمَّ لا محالة أشياءُ لم يُؤْت منها سبباً يعلمها به.

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي في الجنائز، ولفظه كما جاء في مسلم، عن حَفْصة بنت سِيرينَ، عن أُمِّ عطية، قالت: لما ماتت زينب بنت رسول الله ﷺ قال لنا رسول الله ﷺ: (إغْسلنها وِتْراً، ثلاثاً أو خمساً، واجعلن في الخامسة كافوراً، أو شيئاً من كافور، فإذا غَسَلْتُنَّها فأَعْلِمْني)، قالت: فأعلمناهُ فأعطانا حِقْوَه وقال: (أَشْعِرْنَهَا إيَّاه). وفي رواية أخرى ذكرها مسلم من طريق هشام بن حَسَّان: وقال في الحديث: قالت: فَضَفَرْنَا شعرها ثلاثة أثلاثٍ، قَرْنيها ونَاصِيَتَهَا. وفي رواية البخاري أن أم عطية قالت: «وَمَشَطْنَاهَا ثلاثة قرون». والحِقْوُ هو الإزارُ. ومعنى قوله ﷺ: (أَشْعِرْنَهَا إيَّاهُ): اجْعَلْنَهُ شِعَاراً لها، أي غَطِّينَ جَسَدَهَا به.

واختلف في ذي القرنين، فقيل: هو نبيٌّ، وهذا ضعيف، وقيل: هو مَلَك ـ بفتح اللام ـ، ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يدعو آخر: يا ذا القرنين، فقال: أما كفاكم أن تسمَّيتم بأسماء الأنبياء حتى تسَمَّيْتم بأسماء الملائكة؟ وروي عن النبي ﷺ أنه سُئل عنه فقال: (مَلَكَ مَسَحَ الأض من تحتها بالأسباب)[1]، وقيل: هو عبدٌ مَلِك ـ بكسر اللام ـ صالحٌ نصح اللهَ فأيَّدَه، قاله عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال: «فيكم اليوم مثله»، وعنى بذلك نفسه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ الآية. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: [فاتَّبَعَ سَبَبًا] بشد التاء، وقرأ عاصمٌ، وابن عامرٍ، وحمزة، والكسائي: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ بسكون التاء، على وزن أَفْعَل، قال بعض اللغويين: هما بمعنى واحد، وكذلك (تَبِعَ)، وقالت فرقة: (أَتْبَعَ) بقطع الألف عبارةٌ عن المُجِدِّ المُسْرع الحثيث الطلب، و(اتَّبَعَ) إنما يتضمن معنى الاقتفاء دون هذه القرائن، قاله أبو زيد وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واستقراءُ هذا القائل هذه المقالة من القرآن، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾[2]، وكقوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾[3]، وكقوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾[4]، وهذا قولٌ حكاه النقاش عن يونس بن حبيب، وإذا تأملت (اتَّبَعَ) بشد التَّاءِ لم يرتبط لك هذا المعنى ولا بُدَّ. و«السَّبَبُ» في هذه الآية: الطريقُ المسلوكة؛ لأنها سبب الوصول إلى المقصد.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: ﴿ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ على وزن فَعِلَة، أي: ذات حمأةٍ، وقرأ عاصم ـ في رواية أبي بكر ـ، والباقون: [في عين حامية]، أي حارَّة، وقد اختلف في قراءة ذلك معاوية وابن عباس، فقال ابن عباس رضي الله عنهما [حَمِئَةٍ]، وقال معاوية: [حَامِيَةٍ]، فبعث إلى كعب الأحبار ليخبرهم

---

(١) أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة، عن خالد بن معدان الكلاعي، وأخرج ابن أبي حاتم، عن الأحوص بن حكيم عن أبيه، أن النبي ﷺ سُئل عن ذي القرنين فقال: (هو مَلَك مسح الأرض بالإحسان).

(٢) من الآية (١٠) من سورة (الصَّافات).

(٣) من الآية (٩٠) من سورة (يونس).

(٤) من الآية (١٧٥) من سورة (الأعراف).

بالأمر كيف هو في التوراة، فقال لهما: أمَّا العربية فأنتما أعلم بها منِّي، ولكن أجد في التوراة أنها تغرب في عين ثأْطٍ، والثَّأط: الطين، فلما انفصلا قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: لَوَدِدْتُ يا أبا العباس فكنتُ أُنجدك بشعر تُبَّع الذي يقول فيه في ذكر ذي القرنين:

قَدْ كَانَ ذو الْقَرْنَيْنِ جَدِّي مُسْلِماً ... مَلِكاً تَدِينُ لَهُ الْمُلُوكُ وَتُحْشَدُ
بَلَغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ يَبْتَغِي ... أَسْبَابَ أَمْرٍ مِنْ حَكِيمٍ مُرْشِدِ
فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا ... في عَيْنِ ذي خُلُبٍ وَثَأْطٍ حَرْمَدِ[1]

فالخُلُبُ: الطِّين، والثَّأط: الحمأة، والحَرْمَد: الأَسْوَد. ومن قرأ: [حَامِيَةٍ] وجَّهها إلى الحرارة، وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ نظر إلى الشمس وهي تغيب فقال: (في نار اللهِ الحامية، لولا ما يَزَعُها من الله لأحرقت ما على الأرض)[2]. وروى أبو ذَرٍّ أن رسول الله ﷺ نظر إلى الشمس عند غروبها فقال: (أتدري أين تغرب يا أبا ذَرٍّ؟ قلت: لا، قال: إنها تغرب في عين حامية)[3]، فهذا يدل على أن العين هناك حارَّة، و[حَامِيَةٍ] هي قراءة طلحة بن عبد الله، وعمرو بن العاص، وابنه، وابن عمر، وذهب الطبري إلى الجمع بين الأمرين فقال: يحتمل أن تكون العين حارة ذات حمأة، فكلٌّ قراءةٍ وصف بصفة من أحوالها، وذهب بعض البغداديين إلى أن [في] بمنزلة (عند)، كأنها مسامته من الأرض فيما يرى الرائي لعَيْنٍ حمئة. وقال بعضهم: قوله: ﴿فِي عَيْنٍ﴾ إنما المراد أن ذا القرنين كان فيها، أي: هي آخر الأرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وظاهر هذه الأقوال محتمل، والله أعلم. قال أبو حاتم: وقد يمكن أن تكون [حَامِيَةٍ] مهموزة، بمعنى: ذات حمأةٍ، فتكون القراءتان بمعنى واحد. واستدل بعض

---

(١) الأبيات في الدر المنثور، والقرطبي، وآخرها في البحر المحيط. وتُروى: (قد كان ذو القرنين قبلي)، و(تدين له الملوك وتَسْجُدُ).

(٢) أخرجه أحمد، وابن أبي شيبة، وابن منيع، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن مردويه، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: نظر رسول الله ﷺ إلى الشمس حين غابت فقال: (في نار الله... الحديث).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن مردويه، والحاكم وصححه، عن أبي ذَرٍّ قال: كنت ردف رسول الله ﷺ وهو على حمار، فرأى الشمس حين غربت، فقال: (أتدري أين تغرب؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (فإنها تغرب في عين حامية)، غير مهموزة.

الناس على أن ذا القرنين نبيٌّ بقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾، ومن قال إنه ليس بنبي قال: كانت له هذه المقالة من الله بإلهام.

وقوله: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ معناه: بالقتل على الكفر، ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ بالحمل على الإيمان واتباع الهدى، فكأنه قيل له: هذه لا تعطها إلاّ إحدى خطتين: إمّا أن تكفر فتعذبها، وإمّا أن تؤمن فتحسن إليها. وذهب الطبري إلى أن «اتِّخاذ الْحُسْن» هو الأسْرُ مع كفرهم، فالمعنى ـ على هذا ـ أنهم كفروا ولا بُدَّ، فخيَّره الله تعالى بين قتلهم أو أسرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن يكون «الاتِّخاذُ» ضربَ الجزية. ولكن تَقْسيم ذي القرنين بعد هذا الأمر إلى كفر أو إيمان يرُدُّ هذا القول بعض الرَّدِّ، فتأمله[1].

وقوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾.

﴿ظَلَمَ﴾ في هذه الآية بمعنى: كفر، ثم توعَّد الكافرين بتعذيبه إياهم قبل عذاب الله، وعقَّب لهم بذكر عذاب الله لأن تعذيب ذي القرنين هو الأحق عندهم، المحبوس لهم، الأقرب نكاية. فلما جاء وعد المؤمنين قدَّم تنعيم الله تعالى الذي هو الأحق عند المؤمنين، والآخر بإزائه حقير، ثم عقَّب أخيراً بذكر إحسانه في قول اليُسْر، وجعله قولاً إذ الأفعال كلها خَلْق لله تعالى، فكأنه سلَّمها ولم يراع تكسُّبه.

وقرأت فرقة: (نُكُراً) بضم الكاف، وقرأت فرقة: [نُكْراً] بسكون الكاف، ومعناه: المنكر الذي تنكره الأوهام لِعِظَمِه وتستهويه. وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿جَزَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بإضافة الجزاء إلى الحسنى، وذلك يحتمل معنيين: أحدهما أن يريد بـ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الجنة، والجنة هي الجزاءُ، فأضاف

---

(١) تقسيم ذي القرنين للقوم جاء في الآية التالية وما بعدها، ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ الآية ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾، الآية.

ذلك، كما قال: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ﴾[(١)] والآخرة هي الدار، والثاني أن يريد بـ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أعمالَهم الصَّالحة في إيمانهم، فوعدهم بجزاء الأعمال الصالحة. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفصٌ عن عاصم: ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بنصب «الجزاء» على المصدر[(٢)] في موضع الحال. و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ابتداءٌ، وخبره في المجرور، ويراد بها الجنة، وقرأ عبد الله بن أبي إسحق: [جَزَاءٌ] بالرفع والتنوين [ٱلْحُسْنَىٰ]، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما، ومسروق: [جَزَاءَ] بالنصب بغير تنوين [ٱلْحُسْنَىٰ] بالإضافة. قال المهدوي: يجوز حذف النون لالتقاءِ الساكنين، ووعدهم بعد ذلك بأنه يُيَسِّر عليهم أمور دنياهم. وقرأ ابن القعقاع: [يُسُراً] بضم السين.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾، المعنى: ثم سلك ذو القرنين الطرق المؤدية إلى مقصده، فهي سبب الوصول، فكانَ ذو القرنين ـ على ما وقع في كتب التاريخ ـ يدوس الأرض بالجيوش الثقال، والسِّيرة الحميدة، والإعداد الموفَّى، والحزم المستيقظ المتَّقد، والتأييد المتواصل، وتقوى الله عزَّ وجلَّ، فما لقي أُمَّةً ولا مَرَّ بمدينة إلاَّ دانت له ودخلت في طاعته، وكلُّ من عارضه وتوقَّف عن أمره جعله عظةً وآية لغيره، وله في هذا المعنى أخبار كثيرة، وغرائب كرهْتُ التطويل بها لأنها علْم تاريخ. وقرأ الجمهور (مَطْلِعَ) بكسر اللام، وقرأ الحسن ـ بخلاف ـ، وابن كثير، وأهل مكة: [مَطْلَعَ] بفتح اللام.

و«القوم»: الزِّنْج، قاله قتادة، وهم الهنود وما وراءهم[(٣)].

وقال الناس في قوله: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ معناه: إنهم ليس لهم بنيان؛ إذ لا تحتمل أرضهم البناء، وإنما يدخلون من حرِّ الشمس في أسراب، وقيل: يدخلون في ماء البحر، قاله الحسن، وقتادة، وابن جريج. وكثَّر النقاشُ وغيره في هذا المعنى، والظاهر من الألفاظ أنها عبارة بليغة عن قُرْب الشمس منهم، وفعلها بقدرة الله تبارك وتعالى فيهم، ونَيْلُها منهم، ولو كان لهم أسرابٌ تغني لكان سِتْراً كثيفاً، وإنما هم في

---

(١) من الآية (١٠٩) من سورة (يوسف)، وتكررت في الآية (٣٠) من سورة (النحل).

(٢) أي: مع التنوين.

(٣) الزِّنج ـ بفتح الزاي المشددة وبكسرها ـ: جيل من السودان يتميز بالجلد الأسود، والشعر الجَعْد، والشَّفة الغليظة، والأنف الأفطس، وهذا الجيل يسكن حول خط الاستواء، وتمتد بلادهم من المغرب إلى الحبشة. وبهذا نعرف أن الهنود لا علاقة لهم بالزنوج، بل هم جنس آخر.

قبضة القدرة سواءٌ كان لهم أسراب أو دُورٌ أَوْ لم يكن، ألا ترى أن السِّتْر عندنا بحق إنما هو من السحاب والغمام وبَرْد الهواء، ولو سلَّط الله علينا الشمس لأحرقتنا، فسبحان المنفرد بالقدرة التامة.

وقوله: [كَذَٰلِكَ] معناه: فَعَل معهم كفِعْله مع الأولين أهل المغرب، فأوجز بقوله: [كَذَٰلِكَ]. ثم أخبر الله تعالى عن إحاطته بجميع ما لدى ذي القرنين، وما تصرف من أفعاله، ويحتمل أن يكون [كَذَٰلِكَ] استئناف قول، ولا يكون راجعاً على الطائفة الأولى، فتأمله، والأول أصوب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾.

قرأت فرقة: [أَتَّبَعَ] بشدِّ التاءِ، وقرأت فرقة بتخفيفها، وقد تقدم. وهذا يقتضي أنه لما بلغ مطلع الشمس اتَّبع بعد ذلك سبباً، أي: طريقاً آخر، فهو ـ والله أعلم ـ إمَّا يَمْنَة وإما يسْرَةَ من مطلع الشمس. و«السَّدَّان» ـ فيما ذكر أهل التفسير ـ: جبلان سدّاً مسالك تلك الناحية من الأرض، وبين طريقي الجبلين فَتْحٌ هو موضع الرُّوم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الجبلان اللَّذان بينهما السَّدُّ أرمينية وأذربيجان. وقالت فرقة: هما من وراء بلاد الترك، ذكره المهدوي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله غير متحقق، وإنما هما في طرف الأرض مما يلي المشرق، ويظهر من ألفاظ التواريخ أنهما إلى ناحية الشمال، وأما تعيين موضع فضعيف.

وقرأ نافع، وعاصم[١]، وابن عامر: [ٱلسُّدَّيْن] بضم السين، وكذلك (سُداً) حيث وقع، وقرأ حفص عن عاصم بفتح ذلك كله في جميع القراءات، وهي قراءة مجاهد، وعكرمة، وإبراهيم النَّخعي، وقرأ ابن كثير: (ٱلسَّدَّيْن) بفتح السِّين، وضم [سُدّاً] في (يسن)[٢].

---

(١) في قراءة أبي بكر عنه.

(٢) في قوله تعالى في الآية (٩): ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

واختلف بعد ـ فقال الخليل وسيبويه: الضم هو الاسم، والفتح المصدر، وقال الكسائي: الضم والفتح لغتان بمعنى واحد، وقال عكرمة، وأبو عمرو بن العلاء، وأبو عبيدة: ما كان من خلقة الله تعالى لم يشارك فيه أحد بعمل فهو بالضَّم، وما كان من صنع البشر فهو بالفتح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويلزم أهل هذه المقالة أن نقرأ: [بَيْنَ السُدَيْنِ] بالضم، وبعد ذلك ﴿سَدّاً﴾ بالفتح، وهي قراءة حمزة، والكسائي. وحكى أبو حاتم عن ابن عباس وعكرمة عكْسَ ما قال أبو عبيدة، وقال ابن إسحق: ما رأته عيناك فهو (سُدٌّ) بضم السين، وما لا يُرى فيه (سَدٌّ) بالفتح. والضمير في ﴿دُونهمَا﴾ عائد إلى الجبلين، أي: وجدهم في الناحية التي تأتي إلى المغرب. واختلف في «القَوْم» ـ فقيل: هم بشر، وقيل: جنٌّ، والأول أصح من وجوه. وقوله: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ عبارة عن بعد لسانهم عن ألسنة الناس، لكنهم فقهوا أو فهموا بالترجمة ونحوها. وقرأ حمزة، والكسائي: [يُفْقِهُونَ] من أفْقَهَ، وقرأ الباقون: ﴿يَفْقَهُونَ﴾ من فَقهَ.

والضمير في ﴿قَالُوا﴾ للقوم الذين من دون السَّدَّيْن، ويأجوج ومأجوج قبيلتان من بني آدم، لكنهم ينقسمون أنواعاً كثيرة اختُلف في عددها، فاختصرت ذكره لعدم الصحة، وفي خَلْقهم تشويه، منهم المفرط الطول، ومنهم المفرط القِصَر على قدر الشِّبْر وأَقَلَّ وأكْثَر، ومنهم صنف عظيم الآذان، الأذن الواحدة وبرة والأُخرى زعراءُ، يصَيِّف في الواحدة ويشتو في الأُخرى وهي تعمُّه. واختلف القراءُ ـ فقرأ عاصم وحده: ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ بالهمز، وقرأ الباقون بغير همز، فأما من همز فاختلف فيه ـ فقالت فرقة: هو أعجمي، علَّتُه في منع الصرف التعريف والتأنيث، وأما من لم يهمز فإمَّا أن يراهما اسمين أعجَميَّيْن، وإما أن يُسَهِّل من الهمز، وقرأ رؤبة بن العجَّاج: [آجُوج وماجُوج] بهمزة بدل الياء.

واختلف الناس في إفسادهم الذي وصفوهم به ـ فقال سعيد بن عبد العزيز: إفسادهم أكل بني آدم، وقالت فرقة: إفسادهم إنما كان عندهم مُتَوَقَّعاً، أي: سيفسدون، فطلبوا وجه التحرز منهم، وقالت فرقة: إفسادهم هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر، وهو أظهر الأقوال؛ لأن الطائفة الشاكية إنما

شكت من ضُرٍّ قد نالهم. وقولهم ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ استفهامٌ على جهة حسن الأدب.

و«الْخَرْجُ»: المُجْبَى، وهو الخراج، وقال قوم: «الخَرْجُ»: المال يخرج مرة، و«الخَرَاجُ» المُجْبَى المتكرر، فعرضوا عليه أن يجمعوا له أموالاً يقيم بها أمر السد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (خَرْجاً): أجراً. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم: [خَرْجاً]، وقرأ حمزة، والكسائي: [خَراجاً]، وهي قراءة طلحة ابن مصرف، والأعمش، والحسن ـ بخلاف عنه ـ، ورُوي في أمر يأجوج ومأجوج أن أرزاقهم من التنين يرزقونها ويمطرونها، ونحو هذا مما لا يصح، ورُوي أيضاً أن الذكر منهم لا يموت حتى يولد له ألف ولد، والأُنثى لا تموت حتى يخرج من بطنها ألف، فهم لذلك إذا بلغوا العدد ماتوا، ورُوي أيضاً أنهم يتناكحون في الطرق كالبهائم، وأخبارهم تضيق بها الصحف فاختصرتها لضعف صحتها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾، المعنى: قال لهم ذو القرنين: ما بسط الله لي من القدرة والملك خير من خرجكم وأموالكم، ولكن أعينوني بقوة الأبدان، وبعمل منكم بالأيدي. وقرأ ابن كثير وحده: [ما مكنني] بنونين، وقرأ الباقون ﴿مَا مَكَّنِّي﴾ بإدغام النون الأولى في الثانية. وهذا: من تأييد الله تعالى لذي القرنين، فإنه تهدَّى في هذه المحاورة إلى الأنفع والأنزه، فإنهم لو جمعوا له خراجاً ومالاً لم يُعِنْه منهم أحد ولَوكَلُوهُ إلى البنيان، ومعونتهم له بالقوة أجمل به، وأمْرٌ يطاول مدة العمل، وربما أَرْبَى على الخرج.

و«الرَّدْمُ» أبلغ من «السَّدِّ»؛ إذ السَّدُّ كلُّ ما يُسَدُّ به، والرَّدْم وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه حتى يقوم من ذلك حجاب منيع، ومنه: رَدَّم ثوبَه إذا رَقَّعَهُ برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض، ومنه قول عنترة:

هَـلْ غَـادَرَ الشُّعَـرَاءُ مِـنْ مُتَـرَدَّمِ؟ . . . . (١)

أي: من قول يركب بعضه على بعض.

---

(١) هذا صدر بيت هو مطلع المعلقة، والبيت بتمامه:

هَـلْ غَـادَرَ الشُّعَـرَاءُ مِـنْ مُتَـرَدَّمِ؟ أمْ هَـلْ عَـرَفْـتَ الـدَّارَ بَعْـدَ تَـوَهُّـمِ؟

وَالمُتَرَدَّم: الموضع الذي يُرْدَم ويُستصلح ويُسْتَرْقع لما أصابه من الوهن، هذا هو الأصل، والمعنى المراد هنا: هل ترك الشعراء قولاً يُصْلَح ويُرَقَّع؟ أي: هل تركوا قولاً لقائل بعدهم، أو فنّاً لم يسلكوه في=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾.

قرأ عاصم[1]، وحمزة: [إيتُونِي] بمعنى: جيئوني، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: ﴿آتُونِي﴾ بمعنى: أعطوني، وهذا كله متقارب، إنما هواستدعاءُ المناولة لا استدعاءُ العطية والْهبة؛ لأنه قد ارتبط من قوله ألاَّ يأخذ منهم الخَرْجَ، فلم يبق إلا استدعاءُ المناولة وأعمال القوة، و[إيتُوني] أشبه بقوله: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾، ونصب «الزُّبَرَ» على نحو قول الشاعر:

أَمَـــرْتُـــكَ الْخَيْـــرَ. . . . .[2]

حذف الجار فنصب الفعل. وقرأ الجمهور: ﴿زُبَرَ﴾ بفتح الباء، وقرأ الحسن بضمها، وكل ذلك جمع (زُبْرَة)، وهي القطعة العظيمة منه. والمعنى: فَرَصَفَهُ وَبَنَاهُ حَتَّى إذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْن، فاختصر ذلك لدلالة الظاهر عليه. وقرأ الجمهور: ﴿سَاوَى﴾، وقرأ قتادة: [سَوَّى]، و«الصَّدَفان»: الجبلان المتناوحان[3]، ولا يقال للواحد: صدف، وإنما يقال (صدفان) لاثنين أحدهما يصادف الآخر. وقرأ نافع، وحمزة،

= الشِّعر؟ أمَّا قوله: «أم هل عرفت الدار بعد توهم؟» فمعناه: لمْ أعرفها إلاَّ توهُّماً أنها هي الدار التي كنت أعهد لما أصابها من تغيرُّ. هذا والبيت في اللسان (ردم).

(١) أي: في رواية أبي بكر، أما قراءة حفص عن عاصم فهي: ﴿آتُوني﴾.

(٢) هذا جزءٌ في صدر بيت قاله عمرو بن معديكرب الزبيدي، والبيت بتمامه:

أَمَـرْتُـكَ الخَيْـرَ فـافْعَـلْ مـا أُمِـرْتَ بِـهِ ... فَقَـدْ تَـرَكْتُـكَ ذا مـالٍ وذَا نَشَـبِ

وهذا، وقد قيل إن البيت للعباس بن مرداس، وقيل: لزرعة بن السائب، وقيل: لخفاف ابن ندبة، ورُوي في شعر لأعشى طرود. والنَّشَبُ: المالُ الثَّابتُ كالضياع ونحوها، والمالُ: الإبل والغَنَم، أو المالُ عامٌ في كل ما يمتلك. والشاهد في (أمرتك الخير)، أصله أمرتك بالخير، فحذف حرف الجر وتعدى الفعل إلى المفعول الثاني، ومثله في ذلك قول الشاعر:

أَسْتَغْفِـــرُ اللهَ ذَنْبـــاً لَسْـتُ مُحْصِيَـــهُ ... رَبَّ العِبَـادِ إليـه الْـوَجْـهُ والْعَمَـلُ

(٣) أي: المتقابلان.

والكسائي: ﴿الصَّدَفَيْنِ﴾ بفتح الصَّاد وشدِّها، وهي قراءة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه(١)، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو: [ٱلصُّدُفَيْنِ] بضم الصاد والدال، وهي قراءة مجاهد، والحسن، وقرأ عاصم ـ في رواية أبي بكر ـ: [ٱلصُّدْفَيْنِ] بضم الصاد وسكون الدال، وهي قراءة أبي رجاءٍ، وأبي عبد الرحمن السُّلَمي، وقرأ الماجشون بفتح الصاد وضم الدال، وقرأ قتادة: [بَيْنَ الصَّدْفين] بفتح الصاد وسكون الدال. وكلٌّ ذلك بمعنى واحد، وهما الجانبان المتناوحان، وقيل: الصَّدفان: السطحان الأعليان من الجبلين، وهذا نحو من الأول.

وقوله: ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ الآية، معناه أنه كان يأمر بوضع طاقة من الزُّبَر والحجارة، ثم يوقد عليها حتى تحمى، ثم يُؤْتى بالنحاس المذاب أو بالرصاص أو بالحديد ـ بحسب الخلاف في «الْقِطْر» ـ فيفرغه على تلك الطاقة المنضدة، فإذا التأم واشتد استأنف رصف طاقة أخرى إلى أن استوى العمل، وقرأ بعض الصحابة: «بِقِطْرٍ أُفرِغْ عَلَيْه».

وقال أكثر المفسرين: «القِطْرُ»: النحاس المذاب، ويؤيد هذا ما رُوي عن رسول الله ﷺ، جاء رجلٌ فقال: يا رسول الله، إنِّي رأيتُ سدَّ يأجوج ومأجوج، قال: كيف رأيتَهُ؟ قال: رأيته كالبُرْد المُحَبَّر، طريقة صفراءُ، وطريقة حمراءُ، وطريقة سوداءُ، فقال رسول الله ﷺ: قد رأيتَه(٢). وقالت فرقة: «القِطْر»: الرصاص المذاب، وقالت فرقة «القِطْر: الحديد الذائب. وهو مشتق من قَطَر يَقْطر.

والضمير في قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوٓاْ﴾ ليأجوج ومأجوج. وقرأ فرقة: [فما اسطاعوا] بسكون السين وتخفيف الطَّاءِ، وقرأت فرقة بشَدِّ الطَّاء، وفيها تكلُّف للجمع بين السَّاكنين. و[يَظْهَرُوهُ] معناه: يَعْلُوه بصعود فيه، ومنه قوله في الموطأ: (والشَّمس في حُجْرتها قَبْلَ أَنْ تَظْهَر)(٣). ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ لبُعد عرضه وقوته، ولا سبيل

---

(١) وبها قرأ عاصم في رواية حفص.

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن مردويه، عن أبي بكرة النسفي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في المواقيت، ومسلم في المساجد، وأبو داود في الصلاة وكذلك الترمذي، والنسائي في المواقيت، والدارمي في الصلاة، وهو كذلك في الموطأ في الصلاة، وهو في البخاري حديث طويل، ذكر فيه أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أخَّر الصلاة يوماً فدخل عليه عروة بن الزبير وأخبره أن المغيرة بن شعبة أخَّر الصلاة يوماً وهو بالعراق فدخل عليه ابن مسعود فقال: ما هذا يا مغيرة..... ثم قال عروة في آخر الحديث: ولقد حدثتني عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ كان يصلي =

سوى هذين، إمَّا ارتقاءٌ وإمَّا نَقْبٌ. وروي أن في طوله ما بين طرفي الجبلين مائة فرسخ وعرضه خمسون فرسخاً، ورُوي غير هذا مما لا ثبوت له فاختصرناه إذْ لا غاية للتخرص، وقوله في هذه الآية: [أنفُخُوا] أي بالأكوار. وقوله: ﴿ٱسْطَٰعُوا﴾ بتخفيف الطاء على قراءة الجمهور، قيل: هي لغة بمعنى: استطاعوا، وقيل: استطاعوا بعينه كثر في كلام العرب حتى حذف بعضهم منه التاء فقال: اسْطاع، وحذف بعضهم الطاء فقال: اسْتَاعَ يستيع، بمعنى استطاع يستطيع، وهي لغة مشهورة. وقرأ حمزة وحده: [فَمَا أسطّاعُوا] بتشديد الطاء، وهي قراءة ضعيفة الوجه. قال أبو علي: هي غير جائزة، وقرأ الأعمش: [فما اسْتَطاعوا أن يَظهَروه وَما اسْتَطاعوا لَه نَقْبا] بالتاء في الموضعين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ الآية. القائل هو ذو القرنين، وأشار بهذا إلى الردم والقوة عليه والانتفاع به، وقرأ ابن أبي عبلة: [هذه رحمة]. و«الْوَعْدُ» يحتمل أن يريد به يوم القيامة، ويحتمل أن يريد به وقت خروج يأجوج ومأجوج. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عمر: [دكًّا] مصدر دَكَّ يَدُكُّ إذا هدم ورضَّ، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿دَكَّآءَ﴾ بالمدِّ، وهذا على التشبيه بالناقة الدكاء،، هي التي لا سنام لها، وفي الكلام حذف تقديره: جعله مثل دكَّاءَ، وأما النصب في [دكّاً] فيحتمل أن يكون مفعولاً ثانياً بـ[جَعَلَ]، ويحتمل أن يكون ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى خَلَق وينصب [دكّاً] على الحال، وكذلك أيضاً النصب في قراءة من مَدَّ يحتمل الوجهين.

والضمير في ﴿تَرَكْنَا﴾ لله تعالى، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يحتمل أن يريد به القيامة لأنه قد تقدم ضميره، فالضمير في قوله: ﴿بَعْضَهُمْ﴾ على ذلك ـ لجميع الناس، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم كمال السَّدِّ، فالضمير في قوله: ﴿بَعْضَهُمْ﴾ ليأجوج ومأجوج، واستعارة «المَوْج» لهم عبارة عن الحَيْرَة وتَرَدُّد بعضهم في بعض كالوالهين من همٍّ وخوف، فشَبَّهَهُم بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض.

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ الآية. المعنى به يوم القيامة، فلا احتمال لغيره، فَمَنْ تأول الآية كلَّها في يوم القيامة اتَّسق تأويله، ومن تأول الآية إلى قوله: ﴿يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾ في أمر يأجوج ومأجوج تأول القول: «وتركناهم يموجون» دأباً على مرِّ الدهر

= العصر والشمس في حُجْرتها قبل أن تظهر.

وتناسل القرون بينهم وقيامهم، ثم نفخ في الصُّور فيجتمعون. و«الصُّورُ» في قول الجمهور وظاهر الأحاديث الصحاح هو القرن الذي ينفخ فيه للقيامة، وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ: (كيف أنعم وصاحب القرن قد التقط القرن وحنَى الجبهة وأصغى بالأُذن متى يؤمر)، فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقال: (قولوا: حسبنا الله، وعلى الله توكلنا، ولو اجتمع أهل منى ما أجلوا ذلك القرن)[1] وأما النفخات فأسند الطبري رحمه الله إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (الصُّور قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام﴾[2]، وقال بعض الناس: النفخات اثنتان: نفخة الفزع وهي نفخة الصعق، ثم الأخرى التي هي للقيام. ومَلَك الصُّور هو إسرافيل عليه السلام. وقالت فرقة: الصُّور جمع صورة، فكأنه أراد صور البشر والحيوان نفخ فيها الروح. والأول أَبْيَن وأكثر في الشريعة.

وقوله: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ معناه: أبرزناها لهم لتجمعهم وتحطمهم، ثم أكَّد بالمصدر عبارةً عن شدة الحال، وروى الطبري في هذا حديثاً مضمنه أن النار ترفع لليهود والنصارى كأنها السراب، فيقال لهم: هل لكم في الماء حاجة؟ فيقولون: نعم، ونحو هذا مما لا صحة له.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ

---

(١) أخرجه أحمد، والطبراني في الأوسط، والحاكم، والبيهقي في البعث، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقد سبق الاستشهاد بهذا الحديث عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأنعام (٥ـ٢٥٠)، وينتهي الحديث كما ذكره في الدرِّ المنثور بقوله: و﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

(٢) الحديث في الطبري، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (لما فرغ الله من خلق السموات والأرض خلق الصور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه شاخص بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر)، قال أبو هريرة: يا رسول الله، مالصور؟ قال: (قَرْن)، قال: وكيف هو؟ قال: قَرْن عظيم يُنفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى: نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخة القيام لرب العالمين). وفي حديث عن الدجال أخرجه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ ذكر أنه ينفخ في الصُّور المرة الأولى فيصعق من في السموات والأرض، ثم ينفخ فيه أخرى).

سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَعْيُنُهُمْ﴾ كناية عن البصائر؛ لأن عين الجارحة لا نسبة بينها وبين الذِّكْر، والمعنى: الذين فِكْرهم بينها وبين ذكْري والنَّظَرِ في شرعي حجابٌ وعليها غطاءٌ، ثم قال: إنهم كانوا لا يستطيعون سمعاً، يريد: لإعراضهم ونِفارهم عن دعوة الحق.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ﴾ بكسر السين، بمعنى: أظَنُّوا، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحسن البصري، وابن يَعْمَر، ومجاهد، وابن كثير ـ بخلاف عنه ـ ﴿أَفَحَسْبُ ٱلَّذِينَ﴾ بسكون السين وضم الباء، بمعنى: أكافيهم ومنتهى غرضهم؟ وفي مصحف ابن مسعود: «أَفَظَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا»، وهذه حجَّة لقراءة الجمهور. وقال جمهور المفسرين: يريد كلَّ من عُبد من دون الله تبارك وتعالى، كالملائكة، وعُزَيْر، وعيسى، فيدخل في ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بعضُ العرب واليهودُ والنصارى، والمعنى: إن ذلك ليس كظنهم، بل ليس لهم من ولاية هؤلاء المذكورين شيءٌ، ولا يجدون عندهم منتفعاً.

و﴿أَعْتَدْنَا﴾ معناه: يَسَّرْنَا، و«النُّزُلُ»: موضع النزول، و«النُّزُلُ» أيضاً: مَا يُقدَّم للضيف والقادم من الطعام عند نزوله، ويحتمل أن يراد بالآية هذا المعنى، إن المُعَدَّ لهم بدل النُّزُل جهنم، كما قال الشاعر:

. . . . تحيَّـــة بَيْنِهِـــمْ ضَـــرْبٌ وَجِيـــعُ[1]

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ الآية.

المعنى: قل لهؤلاء الكفرة ـ على جهة التوبيخ ـ: هَلْ نخبركم بالذين خسر عملُهم وضلَّ سعيُهم في الحياة الدنيا، وهم ـ مع ذلك ـ يظنون أنهم يحسنون فيما يصنعونه؟ فإذا طلبوا ذلك فقل لهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾. وقرأ ابن وثاب: «قل سَنُنَبِّئُكُمْ»، وهذه صفة المخاطبين من كفار

(١) سبق الاستشهاد بهذا البيت عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ من هذه السورة ص ٦٠١ هامش ٤.

العرب المكذبين بالبعث، و[حَبِطَتْ] معناه: بطلت، و﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ يريد: ما كان لهم من عمل خير، وقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ يحتمل أنه لا حسنة لهم توزن في موازين القيامة، ومن لا حسنة له فهو في النار لا محالة، ويحتمل أن يريد المجاز والاستعارة كأنه يقول: لا قَدْر لهم عندنا يومئذ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا معنى الآية عندي، وروى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: (يُؤْتى بالأكول الشروب الطويل فلا يزن جناح بعوضة، ثم قرأ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[1]، وقالت فرقة:

إن الاستفهام تَمَّ في قوله تعالى: ﴿أَعْمَالًا﴾، ثم قال: هم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنْعاً، فقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: هم عُبَّاد اليهود والنصارى وأهل الصوامع والديارات، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هم الخوارج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا إن صحَّ عنه فهو على جهة مثال فيمن ضلَّ سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب أنه محسن. ورُوي أن ابن الكواء سأله عن «الأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً» فقال له: أنت وأصحابك، ويضعف هذا كلّه قوله تبارك وتعالى بعد ذلك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾، وليس من هذه الطوائف من يكفر بلقاء الله تعالى، وإنما هذه صفة مشركي عَبَدة الأوثان، فاتجه بهذا ما قلناه أوّلاً، وعليٌّ وسعدٌ رضي الله عنهما ذكرا قوماً أخذوا بحظهم من صدر الآية. وقوله: ﴿أَعْمَالًا﴾ نصب على التمييز، وقرأ الجمهور: ﴿فَحَبِطَتْ﴾ بكسر الباء، وقرأ ابن عباس، وأبو السَّمّالِ: [فَحَبَطَتْ] بفتح الباء، وقرأ كعب بن عُجْرَة[2]، والحسن، وأبو عمرو، ونافع، والناس: ﴿فَلَا نُقِيمُ﴾ بنون العظمة،

---

(١) أخرجه ابن عدي، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرج البخاري، ومسلم، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾. وقد ذكر الحافظ في (الفتح) هذا الحديث من رواية ابن مردويه.

(٢) هو كعب بن عُجرة الأنصاري، المدني، أبو محمد، صحابي مشهور، مات بعد الخمسين، وله نيف وسبعون حديثاً. (تقريب التهذيب).

وقرأ مجاهد: [فلا يقيم] بياء الغائب، يريد: فلا يقيم اللهُ عزَّ وجلَّ، وقرأ عبيد بن عمير: [فَلاَ يَقُومُ]، ويلزمه أن يقرأ: [وَزْنٌ]، وكذلك قرأ مجاهد: [فلا يقوم لهم يوم القيامة وزنٌ].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ترك إقامة الوزن، و﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ خبر الابتداء في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾، وقوله: ﴿جَهَنَّمُ﴾ بَدَلٌ منه، و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ مصدرية. و«الهُزْءُ»: الاستخفاف والسخرية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾.

لما فرغ من ذكر الكفرة والأخسرين أعمالاً عقَّب بذكر حالة المؤمنين ليظهر التباين، وفي هذا بعث النفوس على اتِّباع الحَسَن القويم.

واختلف المفسرون في ﴿ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ ـ فقال قتادة: إنه أعلى الجنة وربوتها، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إنه جبل تتفجر منه أنهار الجنة، وقال أبو أُمامة: إنه سُرَّة الجنة ووسطها، وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه يتفجر منه أنهارُ الجنة، وقال عبد الله بن الحارث بن كعب: إنه جنات الكروم والأعناب خاصة من الثمار، وقاله كعب الأَحبار، واستشهد قومٌ لذلك بقول أُمَيَّةَ بن أَبي الصَّلْت:

كَــانَــتْ مَنَــازِلُهُــمْ إِذْ ذَاكَ ظَــاهِــرَةً ... فيها الْفَرَادِيسُ والْفُومَانُ والْبَصَلُ(١)

---

(١) البيت في اللسان (فوم)، قال: «وقال أُمَيَّةُ في جمع الفوم: (كانتْ لَهُمْ جنَّةٌ إِذْ ذاكَ ظَاهِرَةٌ... البيت)، ويروى: (الفراريس) ـ بالراء ـ، قال أبو الإصبع: الفراريس: البصل، وقال ابن دُرَيْد: الفُومةُ: السنبلة»، وقال في مكان آخر: «قال ابن جنِّي: ذهب بعض أهل التفسير في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا﴾ إلى أنه أراد الثُّوْمَ، فالفاءُ ـ على هذا ـ عنده بدلٌ من الثاء، والصواب عندنا أن الفوم: الحِنطة وما يُختبز من الحبوب. وجمعوا الجمع فقالوا: فُومان». وقال في (فَرْدَسَ): «الفِرْدوس: البستان، قال الفراءُ: هو عربي، وقال ابن سيدة: الفِرْدوس: الوادي الخصيب عند العرب كالبستان، والفِرْدوس: الروضة (عن السيرافي)، وقال الزجاج: حقيقته أنه البستان الذي يجمع ما يكون في البساتين».

وقال الزجاج: قيل: إن الفردوس سريانية، وقيل: رومية، ولم يسمع بالفردوس في كلام العرب إلاَّ في بيت حسَّان بن ثابت:

وإنَّ ثَـوَابَ اللهِ كُـلَّ مُـوَحِّـدٍ جِنَانٌ مِنَ الْفِرْدَوْسِ فِيهَا يُخَلَّدُ(١)

وروي أن النبي ﷺ قال: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس»(٢)، وقالت فرقة: الفردوس: البستان بالرومية. وهذا اقتضابُ القول في [الْفِرْدَوْس] وعيونُ ما قيل فيه.

وقوله تعالى: ﴿نُزُلاً﴾ يحتمل الوجهين اللَّذيْن قدمناهما قَبْلُ. و«الحِوَلُ» بمعنى: التحول. وقال مجاهد: مُتَحَوَّلاً، ومنه قول الشاعر:

لِكُـلِّ دَوْلَـةٍ أَجَـلْ ثُـمَّ يُتَـاح لَهَـا حِـوَل(٣)

وكأنه اسم جمع، وكأنَّ واحدة حِوَالَة، وفي هذا نظر. وقال الزجاج عن قوم: هو بمعنى الحِيلَةِ في الشغل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف متكلف.

وأما قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا﴾ الآية، فروي أن سبب الآية أن اليهود قالت للنبي ﷺ: كيف تزعم أنك نبيُّ الأمم كلِّها ومبعوث إليها، وأنك أُعطيت ما يحتاجه الناسُ من العلم، وأنت مُقَصِّرٌ قد سُئِلْتَ في الرُّوح ولم تجب فيه، ونحو هذا من القول، فنزلت الآية مُعْلمة باتساع معلومات الله عزَّ وجلَّ، وأنها غير متناهية، وأن

(١) وهذا البيت أيضاً في اللسان والتاج واستشهدا به على أن الفردوس عربية، ففي اللسان: «قال أبو بكر: ومما يدلُّ أن الفردوس بالعربية قول حسَّان: (وإن ثواب الله.... البيت)، وقال الزجاج، الفردوس أصله رومي ولكن عرِّب».

(٢) أخرج البخاري، ومسلم، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تُفَجَّر أنهار الجنة). والحديث في تفسير الطبري، قال: «عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة، أو أبي سعيد الخدري»، ثم ذكر الحديث مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(٣) البيت شاهد على أن الحِوَل بمعنى: التحوُّل، قال في اللسان (حول): «والحِوَل»: يجري مجرى التحويل، يقال: حوَّلوا عنه تحويلاً وحِوَلاً، والتحويل مصدر حقيقي من حوَّلت، والحِوَل اسم يقوم مقام المصدر، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾، أي تحويلاً، وقال الزجاج: لا يريدون عنها تَحَوُّلاً، يقال: قد حال من مكانه حِوَلاً، كما قالوا في المصادر: صَغُرَ صِغَراً، وعادني حبُّهَا عِوَداً».

الوقوف دونها ليس ببدع ولا نكرٍ، فعبَّر عن هذا بتمثيل ما يستكثرونه وهو قوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى ﴾. و«الْكَلِمَاتُ» هي المعاني القائمة بالنفس، وهي المعلومات، ومعلومات الله سبحانه وتعالى لا تتناهى، والبحر متناه ضرورةً.

وقرأ الجمهور: ﴿تَنْفَدَ﴾ بالتاء من فوق، وقرأ عمرو بن عبيد: [يَنْفَدَ] بالياء، وقرأ عبد الله بن مسعود، وطلحة بن مصرف: «قَبْلَ أن تُقْضَى كلماتُ رَبِّي».

وقوله: ﴿مِدَاداً﴾ أي: زيادة، وقرأ الجمهور: (مِدَاداً)، وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، والأعمش، ومجاهد، والأعرج: [مَدَداً]، فالمعنى: لو كان البحر مداداً تكتب به معلومات الله عزَّ وجلَّ لنفد قبل أن يستوفيها، وكذلك إلى ماشِئت من العدد؛ لأن مالا يتناهى أكثر منه، فليس بِبِدْعٍ أن أجهل شيئاً من معلوماته تعالى، وإنَّما أنا بشرٌ مثلكم لمْ أُعْطَ إلاَّ ما أُوحي إليَّ وكُشف لي. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: [يَنْفَدَ] بالياء من تحت، وقرأ الباقون بالتاء من فوق[(١)].

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ الآية. المعنى: إنما أنا بشر ينتهى علمي إلى حيث يُوحَى إليَّ، ومُهِمٌ مَا يوحَى إلي أنَّما إلٰهكم إلهٌ واحد، وكان كفرهم بعبادة الأصنام فلذلك خصص هذا الفصل مما أوحي إليه، ثم أخذ في الموعظة والوصايا البيّنَةِ الرُّشد. و﴿يَرْجُو﴾ على بابها، وقالت فرقة: ﴿يَرْجُو﴾: يخاف، وقد تقدم القول في هذا إذ المقصد: ممَّنْ كان يؤمن بلقاء ربه، وكلُّ مؤمن بلقاء ربِّه فلا محالة أنه بحالتي خوف ورجاء، فلو عبَّر بالخوف كان المعنى تامّاً على جهة التخويف والتحذير، وإذا عبَّر بالرجاء فعلى جهة الإطماع وبَسْط النفوس إلى إحسان الله سبحانه وتعالى. أي: من كان يرجو النعيم المؤبد من ربِّه فليعمل عملاً صالحاً، وباقي الآية بيِّن في الشِّرك بالله تبارك وتعالى. وقال سعيد بن جبير في تفسيرها: لا يرائي في عمله، وقد رُوي حديث أنها نزلت في الرياء حين سئل رسول الله ﷺ عمَّن يجاهد ويحمده الناس[(٢)]. وقال

---

(١) قد يسأل سائل: لماذا قال الله تبارك وتعالى في أول الآية: ﴿مِدَاداً﴾، وقال في آخرها: ﴿مَدَداً﴾، والمعنى واحد، والاشتقاق غير مختلف؟ أجاب ابن الأنباري عن ذلك فقال: أواخر الآيات السابقة على فُعُلٍ وفِعَل، كقوله: ﴿نُزُلاً﴾، ﴿هُزُواً﴾، ﴿حِوَلاً﴾، ولهذا فإن الأشبه بها هو ﴿مَدَداً﴾ لأنه يحقق اتفاق المقاطع، وتمام السجع مما يجعل الكلام أخف على الألسن، وأحلى في الأسماع.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وابن أبي الدنيا في الإخلاص، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم عن طاوس قال: قال رجل: يا نبي الله، إني أقف مواقف أبتغي وجه الله وأحبُّ أن يرى موطني، فلم يردَّ عليه شيئاً=

معاوية بن أبي سفيان: هذه آخر آية نزلت من القرآن[1].

كمل تفسير سورة الكهف، والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

= حتى نزلت هذه الآية ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾. قال في (الدر المنثور): «وأخرجه الحاكم وصححه، والبيهقي موصولاً، عن طاوس، عن ابن عباس رضي الله عنهما».

(١) أخرج هذا الخبر ابن جرير، وابن مردويه، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره: «وهذا أَثَرٌ مُشْكِل، فإن هذه الآية آخر سورة الكهف، والكهف كلها مكيَّة. ولعلَّ معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغيِّر حكمها، بل هي مُثْبَتَة مُحْكَمَة، فاشتبه ذلك على بعض الرواة، فروى بالمعنى على ما فهمه، والله أعلم».

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة مريم

هذه السُّورة مكِّيَّة بإجماع، إلاَّ السجدة منها، فقالت فرقة: هي مكيَّة، وقالت فرقة: هي مدنية(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كهيعص ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾.

اختلف الناس في الحروف التي في أوائل السُّور على قولين: فقالت فرقة: هي سرُّ الله تبارك وتعالى في القرآن، لا ينبغي أن يُعرض له، يُؤمن بظاهره ويُترك باطنه. وقال الجمهور: بل ينبغي أن يُتَكَلَّم فيها وتطلب معانيها؛ فإن العرب قد تأتي بالحرف الواحد دالاً على كلمة، وليس في كتاب الله تبارك وتعالى ما لا يُفهم، ثم اختلف هذا الجمهور على أقوال قد استوفينا ذكرها في سورة البقرة، ونذكر الآن ما يختص بهذه السُّورة.

قال ابن عباس، وابن جبير، والضحاك: هي حروف دالَّةٌ على أسماءٍ من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ، الكافُ من (كبير)، وقال ابن جبير أيضاً: هي من (كافٍ)، وقال أيضاً: هي من (كريم).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فمقتضى أقواله أنها دالة على كل اسم فيه كافٌ من أسماء الله تبارك وتعالى. قالوا: والهاءُ من (هادٍ)، والياءُ من عليٍّ)، وقيل: من (حكيم)، وقال الربيع بن أنس: هي

---

(١) آية السجدة هي الآية رقم (٥٨).

من: «يا من يُجير ولا يُجارُ عليه». قال ابن عباس رضي الله عنهما: والعين من (عزيز)، وقيل: من (عليم)، وقيل: من (عدْل)، والصاد من (صادق). وقال قتادة: بل [كَهيعَصَ] بجملته اسم السورة، وقالت فرقة: بل هي اسم من أسماء الله تبارك وتعالى، وروي عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقول: «يا كَهيعَصَ اغفر لي».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا يحتمل أن تكون الجملة اسماً من أسماء الله تعالى، ويحتمل أن يريد علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن ينادي الله تعالى بجميع الأسماء التي تضمَّنها [كَهيعَصَ]، كأنه أراد أن يقول: يا كريم يا هادي يا عليُّ يا عزيز يا صادق اغفر لي، فجمع هذا كله باختصار في قوله: «يا كَهيعَصَ». وقال ابن المستنير وغيره: [كَهيعَصَ] عبارة عن حروف المعجم، ونسبه الزجاج إلى أكثر هذه اللغات، أي: هذه الحروف منها ذكْرُ رحمة ربك عبده زكريَّا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا يتركب قول من يقول: ارتفع [ذِكْرُ] بأنه خبر عن [كَهيعَصَ]، وهي حروف تهَجٍّ يوقف عليها بالسكون.

وقرأ الجميع: (كَافْ) بإثبات الألف والفاء، وقرأ نافع (الهاءَ والياءَ) بين الكسر والفتح، ولا تدغم الدال في الذال[1]، وقرأ ابن كثير، ونافع أيضاً بفتح الهاء والياء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن بضم الهاء وفتح الياء، وقد رُوي عنه بضم الياء، ورُوي عنه أنه قرأ: [كافُ] بضم الفاء، قال أبو عمرو الداني: معنى الضم في الهاء والياء إشباع التفخيم، وليس بالضم الخالص الذي يوجب القلب. وقرأ أبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء، وقرأ عاصم بكسرهما[2]، وقرأت فرقة بإظهار النون من [عَيِينْ]، وهي قراءة حفص عن عاصم، وهو القياس؛ إذ هي حروف منفصلة، وقرأ الجميع: [عَيِين] بإخفاء النون، جعلوها في حكم الاتصال، وقرأ الأكثر بإظهار الدال من (صاد)، وقرأ أبو عمرو بإدغامه في الذال من قوله: [ذِكْرُ]، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع بإظهار هذه الحروف كلها وتخْليصِ بعضها من بعض.

---

(١) يريد الدال من (صادْ) والذال من (ذكْر).

(٢) قراءة عاصم ـ في رواية حفص ـ بفتح الهاء والياء.

وارتفع قوله: [ذِكْرُ] ـ فيما قالت فرقة ـ بقوله: [كٓهيعٓصٓ]، وقد تقدم وجه ذلك. وقالت فرقة: ارتفع على خبر مبتدإٍ تقديره: هذا ذكر. وقالت فرقة: ارتفع بالابتداء والخبر مُقدَّر، تقديره: «فيما أُوحي إليك ذِكْرُ». وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وابن يَعْمَر: «ذَكَّرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ»، بفتح الذال والكاف [المشددة][1] والراء، على معنى: هذا المَتْلُوُّ ذَكَّرَ رحمةَ ربك عبده، ومن قال «في الكلام تقديمٌ وتأخير» فقد تعسَّف. وقرأ الجمهور: [زَكَرِيَّاء] بالمدِّ، وقرأ الأعمش، ويحيى، وطلحة: [زَكَرِيَّا] بالقصر، وهما لغتان، وفيه لغات غيرهما.

وقوله تعالى: [نَادَى] معناه: بالدعاء والرغبة. واختلف في معنى إخفائه هذا النداء ـ فقال ابن جريج: ذلك لأن الأعمال الخفية أفضل وأبعد من الرياء، ومنه قول النبي ﷺ: (خيرُ الذِّكر الخفيُّ)[2]، وقال غيره: يستحب الإخفاءُ بين العبد ومولاه في الدعاء الذي هو في معنى القبول والمغفرة، لأنه يدل من الإنسان على أنه خير، فإخفاؤه أبعد من الرياء، وأما دعاءُ زكريا وطلبه فكان في أمر دنيا وهو طلب الولد فإنما أخفاه لئلا يلومه الناس في ذلك، وليكون على أوَّل أمره، إن أُجيب نال بُغيته، وإن لم يُجَب لم يعرف أحد بذلك. ويقال: وصف بالخفاء لأنه كان في جوف الليل.

و(وَهنَ) معناه: ضَعُفَ، والوَهَنُ في الشخص والأمر: الضَّعْفُ. وقرأ الأعمش: [وَهِنَ] بكسر الهاء. [وَٱشْتَعَلَ] مستعارٌ للشيب من اشتعال النار، على التشبيه به، و[شَيْباً] نصب على المصدر في قول من رأى [ٱشْتَعَلَ] في معنى شابَ، وعلى التمييز في قول من لا يرى ذلك، بل رآه فعلا آخر، فالأمر عنده كقولهم: امتلأتُ غيظاً.

قوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ شُكْر لله تعالى على سالف أياديه عنده، معناه: قد أحسَنْت إليَّ فيما سلف، وسعدت بدعائي إيَّاكَ، فالإنعام يقتضي أن يشفع آخره أوله.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾. الآية، اختلف الناسُ في المعنى

---

(١) ما بين العلامتين [......] زيادة عن ابن جني في (المحتسب).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن سعد بن أبي وقاص، ولفظه: (خير الذكر الخفيُّ، وخير الرزق ما يكفي)، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة في (الجامع الصغير).

الذي من أجله خاف الموالي ـ فقال ابن عامر، ومجاهد، وقتادة، وأبو صالح: خاف أن يَرِثُوا ماله وأن تَرِثَه الكلالة، فأشفق من ذلك، وروى قتادة، والحسن عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (يرحم الله أخي زكريا، ما كان عليه مِمَّن يرث ماله)[١]، وقالت فرقة: إنما كان مواليه مهملين للدِّين، فخاف بموته أن يضيع الدِّين فطلب وليًّا يقوم بالدِّين بعده، حكى هذا القول الزجاج، وفيه أنه لا يجوز أن يسأل زكريا من يرث مالَه إذ الأنبياءُ لا تورث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يؤيده قول النبي ﷺ: (إنَّا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة)[٢]، ويوهنه ذكر العاقِر، والأكثر من المفسرين على أنه أراد وراثة المال، ويحتمل قول النبي ﷺ: (إنَّا معشر الأنبياء لا نورث) ألا يريد به العموم، بل على أنه غالب أمرهم، فتأمله. والأظهر الأليق بزكريًا عليه السلام أنه يريد وراثة العلم والدين، فتكون الوراثة مستعارة، ألا ترى أنه إنما طلب وليّاً ولم يخصص ولداً فبلَّغه اللهُ أمله على أكمل الوجوه؟ وقال أبو صالح وغيره: قوله: [يَرِثُنِي] يريد المالَ، وقوله: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ يريد به العلم والنبوة، وقال السدي: رغب زكريا في الولد.

و[خِفْتُ] من الخوف، وهي قراءة الجمهور، وعليه هو هذا التفسير، وقرأ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وزيد بن ثابت، وابن عباس، وسعيد بن العاص، وابن يَعْمرَ، وابن جُبَيْر، وعليُّ ابن الحسين، وغيرهم: [خَفَّتِ] بفتح الخاء وفتح الفاء وشدِّها وكسر التاء، وعلى إسناد الفعل إلى [ٱلْمَوَالي]، والمعنى ـ على هذا ـ: انقطع أوليائي وماتوا، وعلى هذه القراءة فإنما طلب وليّاً يقوم بالدِّين. و[ٱلْمَوَالي]: بنو العَمِّ والقرابة الذين يَلُون بالنسب. وقوله: ﴿مِن وَرَآءِى﴾ أي: من بعْدي في الزمن، فهم

---

(١) أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، قال: نبُوَّته وعِلْمه، وقال رسول الله ﷺ: (يرحم الله أخي زكريا، ما كان عليه من ورثة، ويرحم الله لوطاً إن كان ليأوي إلى ركن شديد). (الدر المنثور).

(٢) أخرجه أحمد في المسند، عن أبي هريرة، ولفظه: قال رسول الله ﷺ: (إنَّا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركتُ بعد مؤْنَة عاملي ونفقة نسائي صدقة) ورواه البخاري ومسلم بلفظ (إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقة)، ورواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

الوراءُ على ما بيَّناه في سورة الكهف(١)، وقال أبو عبيدة في هذه الآية: أي من بين يديَّ ومِنْ أمامِي، وهذا قِلَّة تحرير. وقرأ ابن كثير: ﴿مِن وَرَآءِى﴾ بالمدِّ والهمز وفتح الياء، وقرأ أيضاً ابن كثير: [من وراي] بالياء المفتوحة مثل (عَصَايَ)، والباقون همزوا ومدُّوا وسكَّنوا الياء.

و«العَاقِرُ» من النساء التي لا تلد من غير كِبَر، وكذلك العاقر من الرجال، ومنه قول عامر بن الطُّفَيْل:

لَبِئْسَ الْفَتَى إنْ كُنْتُ أَعْوَرَ عَاقِراً ... جباناً فَمَا عُذْرِي لدَى كُلِّ مَحْضَرِ؟(٢)

وزكريَّا عليه السلام لما رأى من حاله إنما طلب وليّاً، ولم يصرح [بالولد](٣) لِبُعْدِ ذلك بسبب المرأة، ثم وصف الولِّي بالصفة التي هي قصده، وهي أن يكون وارثاً، وقالت فرقة: بل طلب الولد، ثم طلب أن تكون الإجابة في أن يعيش حتى يرثه، تحفُّظاً من أن تقع الإجابة في الولد ثم يُخْتَرم(٤) فلا يتحصل منه الغرض المقصود.

وقرأ الجمهور: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ﴾ برفع الفعلين على معنى الصفة لِلْوَلِّي، وقرأ أبو عمرٍو، والكسائي: [يرثني ويرث] بجزم الفعلين، وهذا على مذهب سيبويه ليس هو جواب [هَبْ]، إنما تقديره: إنْ تَهَبْهُ يَرِثْني، والأول أصوب في المعنى؛ لأنه طلب وارثاً موصوفاً، ويضعف الجزم أنه ليس كلُّ موهوب يرث. وقرأ علي بن أبي طالب،

---

(١) عند تفسير قوله تعالى في الآية (٧٩): ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩﴾.

(٢) البيت في الديوان، وفي الشعر والشعراء، وهو من المفضَّليَّة ١٠٦، وقد فخر فيها بنفْسه، وكان فارساً مغواراً، وفي يوم من أيامهم يُسَمَّى (فيف الريح) كان بين بني عامر وبين بني الحارث حدث قتال شديد، وخرج عامر يتفقد أصحابه في المعركة، ويقول: من أبلى شيئاً فليرني سيفه أو رمحه، فخدعه رجل اسمه مُسْهَرٌ، وكان من أعدائه واندسَّ في صفوف قومه، وقال: انظر يا أبا عليٍّ ما فعلت برمحي، فلما أقبل عامر لينظر إلى الرمح وجَأَه به في وجنته ففلقها وانشقَّت عين عامر، وكان النصر مع ذلك لبني عامر، وقال القصيدة، وقبل هذا البيت يقول مشيراً إلى حادثة مُسْهَرٍ هذا:

لَعَمْـرِي ومـا عَمْـرِي عَلَـيَّ بِهَيِّـنٍ ... لَقَـدْ شَـانَ حُـرَّ الْـوَجْـهِ طَعْنَـةُ مُسْهَـرِ

والرواية في الديوان والمفضليات: (فبئس الفتى)، والشاهد أن الرجل الذي لا يولد له يقال له: عاقر، وفي اللسان: «وَرَجُلٌ عَاقِرٌ وَعَقِيرٌ: لا يولد له».

(٣) زيادة من كتب التفسير لتوضيح المراد.

(٤) اخترمته المَنِيَّةُ: أخذته. وخَرَم الوباءُ القوم واخترمهم: استأصلهم وأفناهم.

وابن عباس رضي الله عنهما، وغيرهما: «يَرِثُني وارثٌ من آل يعقوب»، قال أبو الفتح: وهذا معناه التجريد، والتقدير: يَرِثُني منه أَوْ به وارثٌ[1]، وقرأ مجاهد: «يَرِثُني أُوَيْرِثٌ» على التصغير، وقوله تعالى: ﴿مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ يريد: يرث منهم الحكمة والعلم والنبوة، والميراث في هذا كله استعارة. و«رَضِيٌّ» معناه: مَرْضِيٌّ، فهو فعيل بمعنى مفعول.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾.

المعنى: قيل له بأثر دعائه: إنَّا نبشِّرك بغلام يولد لك اسمه يحيى، وقرأ الجمهور: (نُبَشِّرُكَ) بفتح الباء وكسر الشِّين مشددة، وقرأ أصحاب ابن مسعود: [نَبْشُرُكَ] بسكون الباء وضم الشين.

قال قتادة: سُمِّي يحيى لأن الله تعالى أحياه بالنبوة والإيمان، وقال بعضهم: سُمِّي لأن الله أحيا به الناس بالتدين، وقوله: [سَمِيّاً] معناه في اللغة: لم نجعل له مشاركاً في هذا الاسم، أيْ: لم يُسَمَّ قبل بيحيى، وهذا قول قتادة، وابن عباس، وابن أسلم، والسدي، وقال مجاهد وغيره: [سَمِيّاً] معناه: مثلاً ونظيراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كأنه من المساماة والسمُوِّ، وفي هذا بُعْدٌ؛ لأنه لا يفضل على إبراهيم وموسى عليهما السلام إلاَّ أن يفضل في السؤدد والحصر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: لم تلد العواقر مثله.

وقول زكريا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ اختلف الناس فيه فقالت فرقة: إنما طلب الوليَّ

---

(١) قال أبو الفتح: «وهو الوارثُ نفسه، فكأنه جرَّد منه وارثاً، ومثله قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾، فهي نفسها دار الخلد، فكأنه جرَّد من الدَّار داراً».

دون تخصيص وَلَد، فلما بُشِّر بالولد استفهم عن طريقه مع هذه الموانع منه، وقالت فرقة: إنما كان طلب الولد وهو بحال يوجد الولد فيها بزواج غير العاقر، أوْ بُشِّرَ ولم تقع إجابته إلاَّ بعد مُدَّة طويلة صار فيها إلى حال من لا يولد له، فحينئذ استفهم وأخبر عن نفسه بالكِبَر والعُتُوِّ فيه، وقالت فرقة: بل طلب الولد فلما بُشِّر به لحين الدعوة استفهم على جهة السؤال لا على جهة الشك. كيف طريق الوصول إلى هذا؟ وكيف نفذ القدر به؟ لاَ أنه بَعُد عنده هذا في قدرة الله.

والعِتِيُّ والعِسِيُّ: المبالغة في الكِبَر ويبْسُ العود أو شيب الرأس ونحو هذا، وقرأ حمزة، والكسائي[1]: (عِتِيّاً) بكسر العين، والباقون بضمها، وقرأ ابن مسعود: [عَتِيّاً] بفتح العين، وحكى أبو حاتم أن ابن مسعود قرأ: «عُسِيّاً» بضم العين وبالسين، وحكاها الداني عن ابن عباس أيضاً، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لا أدري، أكان رسول الله ﷺ يقرأُ في الظهر والعصر، ولا أدري أكان يقرأُ: [عِتِيّاً] أو [عِسِيّاً] بالسين، وحكى الطبري عن السدي أنه قال: نادى جبريل زكريَّا «إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ٱسْمُهُ يَحْيَى»، فلقيه الشيطان فقال له: إن ذلك الصوت لم يكن لِمَلك وإنما كان لشيطان، فحينئذ قال زكريا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؟ ليتَثَبَّت أن ذلك من عند الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وزكريَّا هو من ذرية هارون عليه السلام، وقال قتادة: جرى له هذا الأمر وهو ابن بضع وسبعين سنة، وقيل: ابن سبعين، وقال الزجاج: ابن خمس وستين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فقد كان غلب على ظنه ألاَّ يولد له.

وقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾، قيل: إن المعنى: قال له المَلَك: كذلك فليكن الوجود، كما قيل لك: قال رَبُّك: خَلْقُ الغُلاَم عليَّ هَيِّنٌ، أيْ: غَيْرُ بِدْعٍ، وكما خلقتك قَبْلُ وأخرجتك من عدم إلى وجودٍ كذلك أفعل الآن. وقال الطبري: معنى قوله: [كَذَٰلِكَ] أي: الأمران اللذان ذكرتَ من المرأة العاقر والكِبَر هو كذلك ولكن قال ربُّك.

---

(١) وكذلك قرأ عاصم كما هو ثابت في المصحف، وابن وثاب كما قال القرطبي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمعنى عندي: قال الملك كذلك، أي: على هذه الحال قال ربك هو عليَّ هَيِّنٌ.

وقرأ الجمهور: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي: [وقد خلقناك]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩﴾، أي: موجوداً. قال زكريًا: ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾، أي: علامةً أعرف بها صِحَّة هذا وكونه من عندك، وروي أن زكريًا عليه السلام لما عَرَفَ ثمَّ طَلَبَ الآية بعد ذلك عاقبه الله بأن أصابه بذلك السكوت عن كلام الناس، وذلك وإن لم يكن عن مرض ـ خرسٍ أو نحوه ـ ففيه على كل حال عقابٌ مَّا، ورُوي عن ابن زَيْدٍ أن زكريا عليه السلام لما حملت زوجُه منه بيحيى أصبح لا يستطيع أن يكلم أحداً، وهو مع ذلك يقرأ التوراة، ويذكر الله، فإذا أراد مناداة أحد لم يُطقه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل مع هذا أن يكون قوله: ﴿ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ معناه: علامةً أعرف بها أن الحمل قد وقع، وبذلك فسَّر الزجاج.

ومعنى قوله: [سَوِيًّا] فيما قال الجمهور: صحيحاً من غير علَّة ولا خَرَسٍ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ أيضاً: ذلك عائد على الليالي، أراد: كاملاتٍ مستوياتٍ.

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، المعنى أن الله تعالى أظهر الآية بأن خرج زكريًا من محرابه وهو موضع الصلاة، و«المحْرابُ» أرفع المواضع والمباني؛ إذ هي تحارب من ناوأها، ثم خصَّ بهذا الاسم مبنى الصلاة، وكانوا يتخذونها فيما ارتفع من الأرض، واختلف الناس في اشتقاقه ـ فقالت فرقة: هو مأخوذ من الْحَرْب، كأن مُلازِمه يحارب الشيطان والشهوات، وقالت فرقة: هو مأخوذ من الْحَرَب ـ بفتح الراء ـ، كأن مُلازِمه يلقَى فيه حرباً وتعباً ونصباً، وفي اللفظ بعد هذا نظر.

وقوله: [فَأَوْحَى]، قال قتادة، وابن منبه: كان ذلك بإشارة، وقال مجاهد: بل بأن كتبه في التراب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكلا القولين وحْيٌ. وقوله: ﴿أَن سَبِّحُواْ﴾، [أَنْ] مُفَسِّرة، بمعنى أيْ[1]،

(١) وهذا أيضاً رأي الزمخشري، وقال أبو البقاء: يجوز أن تكون مصدرية، وأن تكون بمعنى (أي)، وقال=

و[سَبِّحُوا] قال قتادة: معناه: صلُّوا، والسبحة: الصلاة، وقالت فرقة: بل أمرهم بذكْر الله وقَوْل: سبحان الله، وقرأ طلحة: ﴿أن سبحوه﴾ بضمير، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

المعنى: «فَوُلِدَ لَهُ، وقال الله للمولود: يا يَحْيَى». وهذا اختصار ما يدلُّ الكلامُ عليه. و«ٱلْكِتَابِ»: التوراة بلا خلاف؛ لأنه وُلد قبل عيسى عليه السلام ولم يكن الإنجيل موجوداً عند الناس، وقوله: [بِقُوَّةٍ]، أي: العلم به، والحفظ له، والعملُ به، والالتزام للوازمه.

ثم أخبر الله تعالى فقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾، واختلف في «الحكم» ـ فقالت فرقة: الأحكام والمعرفة بها، و[صَبِيّاً] يريد: شاباً لم يبلغ حدَّ الكهولة، وقال الحسن رحمه الله: الحُكْمُ: النُّبوة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي لفظة (صَبِيٍّ) ـ على هذا ـ تجوُّز واستصحابُ حال.

وقالت فرقة: الحُكْمُ: الحِكْمَة، وروى معمر في ذلك أن الصبيان دَعَوْهُ وهو طفل إلى اللعب فقال لهم: إني لم أُخلق للَّعب، فتلك الحِكْمَة التي آتاه الله عزَّ وجلَّ وهو صبي، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فقد أُوتي الحُكْمَ صبياً.

وقوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ عطف على قوله: [ٱلْحُكْمَ]، و[زَكَاةً] عطف عليه، أُعمل في جميع ذلك [آتَيْنَا]، ويجوز أن يكون [وَحَنَاناً] عطف على صَبِيّاً]، أي: وبحال حنانٍ مَّا وتزكية له. و«الحَنَانُ»: الرحمة والشفقة والمحبة، قاله جمهور المفسرين، وهو تفسير اللغة، وهو فعل من أفعال النفس، ويقال: حنانك وحنانيك، قيل: هما لغتان بمعنى واحد، وقيل: حنانيك تثنية الحنان، وقال عطاءُ بن أبي رباح: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾: تعظيماً من لدنا.

= الحوفي: ﴿أَن سَبِّحُوا﴾، [أنْ] نصب بـ[أَوْحَى].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والحنان في كلام العرب أيضاً ما عظم من الأمور في ذات الله، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل في خبر بلال بن رباح رضي الله عنه: «والله لئن قتلتم هذا العبد لأتَّخذنَّ فيه حناناً»، وقد روي عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «والله ما أدري ما الحنان». و«الزَّكاةُ» التَّطهير والتنمية في وجوه الخير والبر، و«التَّقِي» فعيل من تقوى الله عزَّ وجلَّ، وروي في تفسير هذه الآية من طريق عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (كلُّ ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذَنْبٌ؛ إلاَّ ما كان من يحيى بن زكريَّا صلوات الله عليه[1]، وقال قتادة رحمه الله: «إن يحيى بن زكريَّا عليه السلام لم يعص الله قطُّ بكبيرة ولا صغيرة ولا همَّ بامرأة»، قال قتادة: وكان طعامه صلوات الله عليه العُشب، وكان للدمع في خدِّه مجارٍ ثابتة. ومن الشواهد في الحنان قول امرىء القيس:

ويمْنحها بَنو شَمَجَى بنِ جَرْمٍ مَعيزَهُمُ، حَنَانَكَ ذَا الْحَنَانِ[2]

---

(١) أخرجه ابن إسحق، وابن أبي حاتم، والحاكم، عن عمرو بن العاص. وأخرج نحوه أحمد، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، والحاكم، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرج نحوه عبد الرزاق، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، وبنفس السند عن قتادة رفع الخبر الذي ذكره ابن عطية بعد ذلك عن قتادة، عن الحسن إلى النبي ﷺ.

(٢) البيت في الديوان، وفي اللسان والتاج (حنن)، ومختار الشعر الجاهلي، والطبري، والقرطبي، والبحر المحيط. وهو واحد من ثلاثة أبيات قالها امرؤ القيس في وصف الزمان وتقلبه، وفي الشكوى من بني شَمَجَى بن جرم، وكان في غاية الألم منهم والزِّراية عليهم، وقبله يقول:

مُجَاوِرَةً بَنِي شَمَجَى بْنِ جَرْمٍ هَوَاناً مَا أُتِيحَ مِنَ الْهَوَانِ

وقوله: (وَيَمْنَحُهَا) هي رواية الأصمعي، أما رواية ابن الأعرابي فهي (وَيَمْنَعُهَا)، والمعنى على رواية الأصمعي: يعطيها، وفسر قوله: (حَنَانَكَ ذَا الْحَنَانِ) فقال: رَحْمَتَكَ يا رَحمن، أي: أنزلْ عليهم رحمتكَ ورزْقَك، أما رواية ابن الأعرابي وهي التي في الديوان وفي اللسان والتاج فقد فسرها بقوله: (حَنَانَكَ ذَا الحَنَانِ) معناه: رحْمَتَكَ يا رَحمن، فأَغْنِني عنهم، قال صاحبُ اللسان: «فرواية ابن الأعرابي تسخُّطٌ وذَمٌّ، وكذلك تفسيره، ورواية الأصمعيِّ تَشَكُّرٌ وحَمْدٌ ودعاءٌ لهم، وكذلك تفسيره». ونقطع بأن رواية ابن الأعرابي هي الأصح لأنها تتفق في المعنى مع الأبيات السابقة التي جعلت جيرة بني شَمَجَى بن جرم لامرىء القيس وقومه هواناً ما أُتيح من قبل.

وقول النابغة:

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَنَا حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ(١)

وقول الآخر:

فقالت: حنانٌ ما أَتَى بِكَ هَا هُنَا؟ أَذُو نَسَبٍ أَمْ أَنْتَ بالْحَيِّ عَارِفُ؟(٢)

قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، البَرُّ: الكثير البِرِّ، والجبَّار: المتكبِّر، كأنه يجبر الناس على أخلاقه، والجَبَّارَةُ: النخلة العالية العظيمة، والعَصِيُّ أَصْلُه عَصُويٌ، فعولٌ بمعنى فاعل، وروي أن يحيى عليه السلام لم يواقع معصية صغيرة ولا كبيرة.

قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾، قال الطبري وغيره: معناه: أمانٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة، فهي أشرف وأشبه من الأمان؛ لأن الأمان متحصل له بنفي العصيان عنه، وهي أقلُّ درجاته، وإنما الشرف في أن سلَّم الله عليه وحيَّاهُ في المواطن التي الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله وعظيم الهول.

وذكر الطبري عن الحسن رحمه الله أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريَّا صلوات الله

---

(١) البيت لطرفة بن العبد لا للنابغة، ولعل الخطأ من النساخ، وهو في الديوان واحد من ثمانية أبيات نسبت إلى طرفة، وقيل إنه أنشدها وهو في السجن يخاطب عمرو بن هند، والبيت أيضاً في (مجاز القرآن)، و(الكتاب)، و(الكامل)، و(الطبري)، و(الجمهرة)، و(القرطبي)، و(الشنتمري)، و(البحر المحيط)، وفي اللسان، والتاج (حَنَنَ)، وفي (الهَمْع) و(ابن يعيش)، ويستشهد به النحويون على أن (حَنَانَيْكَ) نصبت على المصدر النائب عن الفعل، وقد ثني (حنانيك) لإرادة التكثير؛ لأن التثنية أول مراتب التكثير، وأبو مُنْذر هو عمرو بن هند، وقد اشتهرت قصة طرفة مع هذا الملك، والنصف الثاني من البيت مثل يضرب عند ظهور شرَّيْن أحدهما أقْسَى من الثاني.

(٢) البيت للمنذر بن درهم الكلبي، قال ذلك في خزانة الأدب وفي معجم البلدان، وهو من شواهد سيبويه في الكتاب على أن (حنانٌ) رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: أمْرُنَا حنان، قال: «لم تُرِدْ: تَحَنَّنْ، ولكنها قالت: أَمْرُنَا حَنانٌ، أو ما يُصيبنا حنانٌ»، والحنان: الرحمة والتَّحَنُّن بالعطف والمودة والرقَّة. والبيت في اللسان، والتاج (حَنَنَ) وفي (الكامل)، و(ابن يعيش)، وهي تسأله عن سبب مجيئه، هلْ جاء لأن له قرابة أم لأنه يعرف الحيَّ وأهله؟ وقد قالت ذلك حين فاجأها فأنكرته أو تظاهرت بأنها لا تعرفه.

عليهما التقيا، وهما أبناءُ الخالة، فقال يحيى لعيسى: ادْعُ لي فأَنت خير منِّي، فقال له عيسى: بل أنت ادْعُ لي فأنت خيرمنِّي، سلَّمَ الله عليك وأنا سلَّمت على نفسي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

قال لي أبي رحمه الله: انتزع بعضُ العلماء من هذه الآية في التسليم فضل عيسى بأن قال: إدْلالُه في التسليم على نفسه ومكانته من الله تعالى التي اقتضت ذلك حين قرر وحكى في محكم التنزيل أعظم في المنزلة من أن يُسَلَّم عليه. ولكُلٍّ وَجْهٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾.

هذا ابتداءُ قصة ليست من الأولى، والخطاب لمحمد ﷺ. و«ٱلْكِتَاب»: القرآن، و«مريم» ابنة عمران أُمُّ عيسى أُخْتُ أُمِّ يحيى. واختلف الناس، لم انْتَبَذَت، والانتباذ: التَّنَحِّي ـ فقال السدي: انتبذت لتطهر من حيض، وقال غيره: لتعبد الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا أحسن؛ وذلك أن مريم كانت وقفاً على سدانة المتعبد وخدمته والعبادة فيه، فتنحت عن الناس لذلك، وقوله: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ يريد جهةَ الشرق من مساكن أهلها، وسبب كونه في الشرق أنهم كانوا يُعَظِّمُون جهة الشرق من حيث تطلع الأنوار، وكانت الجهات الشرقية من كل شيءٍ أفضل من سواها، حكاه الطبري رحمه الله.

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: إني لأَعْلَم الناس لِمَ اتَّخذ النصارى المشرق قبلة؛ لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، فاتخذوا ميلاد عيسى قِبلة. وقال بعض الناس: الحجابُ هي اتَّخذته لِتَسْتَتِر به عن الناس لعبادتها، وقال السدي: كان من جُذْران، وقيل: من ثياب، وقال بعض المفسرين: اتخذت المكان بشرقي المحراب.

و«الرُّوحُ»: جبريل عليه السلام، وقيل: عيسى، حَكَى الزجاج القولين، فمن قال

إنه جبريل قدَّر الكلام: فتمثل هو لها، ومن قال إنه عيسى قدَّر الكلام: فتمثَّل لها المَلَك. قال النقاش: ومن قرأ: «روحَنَّا» بتشديد النون جعله اسمَ مَلَك من الملائكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولم أر هذه القراءة لغيره.

واختلف الناس في نُبُوَّة مريم ـ فقيل: كانت نَبِيَّةً بهذا الإرسال وبالمحاورة مع الملك، وقيل: لم تكن نبيَّةً، وإنما كلَّمها مِثَالُ بَشَرٍ، ورُؤْيتها للمَلَك كما رُئي جبريل في صفة دحية، وفي سؤاله عن الإيمان والإسلام، والأول أظهر.

قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾، المعنى: قالت مريم للملك الذي تمثَّل لها بشراً لمَّا رأتهُ قد خرق الحجاب الذي اتخذته فأساءَتْ به الظن، قالت: إنِّي أعوذ بالرحمن منك إن كُنْتَ ذا تُقَى، قال أبووائل: علمت أن التَّقِيَّ ذو نُهْيَة، وقال وهب بن منبه رضي الله عنه: تعني اسم رجل فاجر كان في ذلك الزمان في قومها، فلما رأته مُتَسَوِّراً عليها ظنته إياه فاستعاذت بالرحمن منه، حَكَى هذا مكيٌّ رحمه الله وغيره. وهو ضعيف ذاهب مع التَّخرص. قال لها جبريل عليه السلام: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ﴾، جعل الْهِبَةَ من قِبَله لمَّا كان الإعلام بها من قبله.

وقرأ الجمهور: ﴿ لِأَهَبَ لَكِ ﴾ كما تقدم، وقرأ نافع، وأبو عمرو: [ليهب لك] بالياء، أي: لِيَهَبَ لَكِ الله، واختلف عن نافع رحمه الله، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لِيَهَبَ ٱللَّهُ لَكِ».

فلما سمعت مريم بذلك واستشعرت ما طرأ عليها، استفهمت عن طريقه، وهي لم يمسسها بشَر بنكاح ولم تك زانية. و«الْبَغِيُّ»: المجاهرة المشتهرة في الزِّنى، فهي طالبة له، أصله بَغُوي على وزن فعُول كَبتُولٍ، ولو كانت فعيلاً لقويَ أن تلحقها هاءُ التأنيث فيقال: بَغِيَّة(١).

---

(١) الذي قال بأن الأصل في بَغِيٍّ: (بَغُوي) هو المبرد، قال: اجتمعت الواو والياءُ وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياءً وأُدغمت الياءُ في الياء، وكسر ما قبلها لأجل الياء كما كسرت في عصي.
وقال ابن جني: هي فعيلٌ، ولو كانت فعولا لقيل: بَغُوٌّ، كما قيل: فلانٌ نَهُوٌّ عن المنكر، وقيل: لمَّا كان هذا اللفظ خاصّاً بالمؤنث لم يحتج إلى علامة تأنيث، فصار مثل حائض وطالق، والرَّجل يقال له: باغٍ، وقيل: (بَغِيٌّ فعيل بمعنى: مفعول، كما قيل: عينٌ كَحِيلٌ بمعنى: مكحولٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾.

قال لها المَلَك: كذلك هو كما وصَفْتِ، ولكن قال ربُّك، ويحتمل أن يريد: على هذه الحال قال ربُّك، والمعنى متقارب، و«الآيَةُ»: العِبْرة المعرضة للنظر، والضمير في قوله: [وَلِنَجْعَلَهُ] للغلام، ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾، أي: طريق هُدًى لعالم كثير، فينالون الرحمة بذلك. ثم أعلمها بأن الأمر قد قُضي وانتجز، و«الأمر» هنا واحدُ الأُمور، وليس بمصدر: أَمَرَ يَأْمُرُ، وروي أن جبريل عليه السلام ـ حين قال لها هذه المقالة ـ نفخ في جيب دِرْعها، فَسَرَت النفخة بإذن الله تعالى حتَّى حملتْ منها، قاله وهب بن منبه وغيره. وقال ابن جُرَيْج: نفخ في جيب دِرْعها وكفِّها، وقال أُبَيُّ بن كعب رضي الله عنه: دخل الرُّوحُ المنفوخ من فمها، فذلك قوله: [فَحَمَلَتْهُ]، أي: فحملت الغلام.

ويُذكر أنها كانت بنت ثلاث عشرة سنة، فلمَّا أحسَّت بذلك وخافت تعنيف الناس وأن يُظَنَّ بها الشر انتبذت به، أي: تنحَّت مكاناً بعيداً حياءً وفِراراً على وجهها، وروي في هذا أنها فرَّت إلى بلاد مصر ونحوها، قاله وهب بن منبه، ويُروى أيضاً أنها خرجت إلى موضع يعرف ببيت لَحْم، بينه وبين إيلياء أربعة أميالٍ.

و[أَجَاءَهَا] معناه: اضطرها، و(أَجَاءَ) هو تعدية (جاءَ) بالهمزة، وقرأ شُبيْلُ بنُ عَزْرَةَ[1] ـ ورويت عن عاصم ـ: [فَاجَأَهَا]، من المفاجأة، وفي مصحف أُبَيِّ بن كعب: «فَلَمَّا جَاءَهَا الْمَخَاضُ»، وقال زهير:

---

(١) في الأصل: شِبْلُ بن عزْرَة، والتصويب عن كتب القراءات، قال في تقريب التهذيب: «شُبَيْل ـ بالتصغير ـ ابن عَزْرَةَ ـ بفتح المهملة بعدها زايٌ ساكنة ثم راءٌ ـ الضُّبَعِيُّ، أبو عمرو البصري النحوي، صدوق، من الخامسة»، وفي الأصول أن القراءة [فَاجاَهَا] بفاءٍ فألف ممدودة بدون همز، ولكن قال أبو الفتح ابن جنِّي في المحتَسَب: «[فَاجَأَهَا] مثل فَأَلْجَأَهَا، ورواها ابن مجاهد أيضاً أنها من المفاجأة، إلا أن ترك همزها إنما هو بدلٌ لا تخفيف قياسي، وقد يجوز أن تكون القراءة على التخفيف القياسي، إلاَّ أنه لطفت لضعف الهمزة بعد الألف، فظنها القراءُ ألفاً ساكنةً مَدَّةً، إلاَّ أن قوله: مثل (ألجأها) يشهد لقراءة الجماعة (فَأَجاءَهَا) وقد يمكن أن يكون المراد: مثل أجاءها إذا أُبدلت همزته ألفاً، فيكون التشبيه لفظياً لا معنويا».

وجَـــارٍ سَـــارَ مُعْتَمِـــداً إلَيْكُـــمْ   أَجَـاءَتْـهُ الْمَخَـافَـةُ والـرَّجَـاءُ(١)

وقرأ الجمهور: [ٱلْمَخَاضُ] بفتح الميم، وقرأ ابن كثير فيما رُوي عنه ـ بكسرها، وهو الطَّلْقُ وشدَّةُ الولادة وأوجاعها، وروي أنها بلغت إلى موضع كان فيه جذع نخلة بالٍ يابسٌ في أصله مدود بقرة على جرية ماءٍ، فاشتد بها الأمر هنالك، واحتضنت الجذع لشدة الوجع، فولدت عيسى عليه السلام، وقالت عند ولادته ـ لما رأته من الآلام والتغرب وإنكار قومها وصعوبة الحال من غير ما وَجْه ـ: يا ليتني متُّ ولم يجْر عليَّ هذا القَدَر.

وقرأ الحسن، وأبو جعفر، وشيبة، وعاصم(٢)، وأبو عمرو، وجماعة: [مُتُّ] بضم الميم، وقرأ الأعرج، وطلحة، ويحيى، والأعمش بكسرها، واختلف عن نافع. وتمنت مريم الموت من جهة الدِّين؛ إذ خافت أن يُظن بها الشَّرُّ في دينها، وتُعَيَّر فيفتنها ذلك، وعلى هذا الحدِّ تمناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة من الصالحين، ونَهْيُ النبي ﷺ عن تمني الموْتِ إنما هو لِضُرٍّ نزل بالبدن(٣)، وقد أباحه ﷺ في قوله:

---

(١) البيت من قصيدة له معروفة، قالها في هجاء (آل حِصْن)، ومنها بيته المشهور:

وَمَـــا أَدْرِي وَسَـــوْفَ إخَـــالُ أَدْرِي   أَقَـــوْمٌ آلُ حِصْـــنٍ أَمْ نِسَـــاءُ؟

وسببها أنهم أجاروا رجلا يحب القمار، فنهوه عنه ولكنه خالفهم ثلاث مرات، فتركوه لشأنه دون جوار بعد أن خسر زوجته وابنه في الرهان، فخرج عنهم وشكاهم إلى زهير، فقال هذه القصيدة، ثم لما علم الحقيقة ندم على هجائه، وقال: ما خرجتُ في ليلة ظلماء إلاّ خفتُ أن يصيبني الله بعقوبة لهجائي قوماً ظلمتهم، وفي هذا البيت يتحدث عن هذا الجار الذي سارَ إليهم معتمداً عليهم بعد أن ألجأته إليهم المخافة والرجاءُ. والشاهد هنا أن (أجاءَتْهُ) بمعنى: ألجأته واضطرته.

(٢) في رواية أبي بكر، أمَّا قراءة عاصم ـ في رواية حفص ـ فهي [مِتُّ] بكسر الميم كما هو ثابت في المصحف.

(٣) نهى النبي ﷺ عن تمني الموت في حديث أخرجه البخاري في المرضى، والدعوات، والتمني، ومسلم في الذكر، وأبو داود والنسائي في الجنائز، وابن ماجه في الزهد، والدارمي في الرقاق، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، ولفظه في البخاري كما جاء في كتاب التمني، باب ما يُكْرَهُ من التمني، قال أنس رضي الله عنه: لولا أني سمعت النبي ﷺ يقول: (لا تَتَمَنَّوُا المَوْتَ) لتَمَنَّيْت، وفي رواية عن سعد بن عبيد مولى عبد الرحمن بن أزهر أن رسول الله ﷺ قال: (لا يَتَمَنَّى أحدكم الموتَ، إمَّا محسناً فلعله أن يزداد، وإمَّا مُسيئاً فلعلَّه يستعتب)، وعن خالد بن قيس قال: أتينا خبَّاب ابن الأرَتِّ نعوده وقد اكتوى سبعاً فقال: لولا أن رسول الله ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به.

(يأتي على الناس زمان يمرُّ الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه)[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لأنه زمن فتَن تتصل بالدِّين.

وقالت: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾، أي: شيئاً متروكاً محتقراً، والنِّسْيُ في كلام العرب: الشيءُ الحقير الذي من شأنه أن يُنْسى فلا يُتَأَلَّم لفقده كالوتد والحبل للمسافر ونحوه، يقال: نَسْيٌ ونِسْيٌ بفتح النون وكسرها، وقرأ الجمهور بالكسر، وقرأ حمزة وحده بالفتح، واختلف عن عاصم، وكقراءة حمزة قرأ طلحة، والأعمش، ويحيى، وقرأ محمد بن كعب القُرظي: [نِسْئاً] بالهمز وكسر النون، وقرأ نوف البكالي: [نَسْئاً] بفتح النون، وحكاه أبو الفتح، وأبو عمرو الداني عن محمد بن كعب القُرظي، وقرأ بكر بن حبيب: [نَسّاً] بشد السِّين وفتح النون دون همز، وقال الشَّنْفَرَى:

كــأَنَّ لهــا فــي الأَرْض نِسْيـاً تَقُصُّــهُ   إذا ما غَدَتْ وإِنْ تُحَدِّثْك تَبْلَتِ[٢]

وحكى الطبري رحمه الله في قصصها أنها لمَّا حملت بعيسى حملتْ أيضاً أُختها بيحيى، فجاءتها أُختها زائرة فقالت: يا مريم، أشعرت أني حملتُ؟ فقالت لها مريم: أشعرتِ أنتِ أني حملتُ؟ قالت لها: وأنِّي أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك، وذلك أنه رُوي أنها أحسَّت جنينها يخرُّ برأسه إلى ناحية بطن مريم، قال السُّدِّي: فذلك قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[٣].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن.

(٢) والبيت للشَّنْفَرى الأزدي، ومعنى الشَّنْفَرَى: عظيم الشَّفة، وهو ابن أخت تأبَّط شرّاً، والبيت من المفضلية العشرين، قالها حين علم أن القوم الذين تربَّى فيهم وهم بنو سلامان ابن مفرج قد قتلوا أباه وأخذوه أسيراً، فتوعدهم بقتل مائة منهم، وفي القصيدة تحدث عن شدة بأسه وقوته، وفخر باستهانته بالحياة ومجازاته الخير والشَّرَّ بمثلهما. والبيت أيضاً في اللسان (نسى)، والنِّسْيُ: الشيءُ المنسيُّ الذي لا يُذكر، وقال الأخفش: النسْي: ما أُغفل من شيءٍ حقير ونُسي، وقال الزجاج: النَّسْي: الشيء المطروح الذي لا يُؤْبَه له، تقصُّه: تَتَبعها، من القَصِّ وهو اتباع الأثر، والرواية في المفضليات: (عَلَى أَمِّهَا، وإِنْ تُكَلِّمْكَ تَبْلَتِ) والأَمُّ بفتح الهمزة: الشيءُ المقصود الذي تريده. وتَبْلت: تنقطع في كلامها فلا تطيل الحديث، يقول: كأنها من شدة حيائها إذا مَشَتْ تطلب شيئاً ضاع منها خفضت رأسها فلا ترفعها ولا تلتفت، وإن حدثتها فإنها لا تستطيع أن تجاريك أو تجاوبك من شدة الخجل.

(٣) من الآية (٣٩) من سورة (آل عمران).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا كلِّه ضعف، فتأمله. وكذلك ذكر الطبري في قصصها أنها خرجت فارَّة مع رجل من بني إسرائيل يقال له يوسف النجار كان يخدم معها المسجد، وطوّل الطبري في ذلك فاختصرته لضعفه، وهذه القصة تقتضي أنها حملت واستمرت حاملاً على عرف البشر، واستحيت من ذلك وفرَّت بسببه وهي حامل، وهو قول جمهور المتأولين، وروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ليس إلاَّ أن حملت فوضعت في ساعة واحدة، والله أعلم.

وظاهر قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ يقتضي أنها كانت على عرف النساء، وتظاهرت الروايات أنها ولدته لثمانية أشهر؛ ولذلك لا يعيش ابن ثمانية أشهر حفظاً لخاصية عيسى عليه السلام، وقيل: ولدته لسبعة أشهر، وقيل: لِستَّة أشهر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾.

قرأ ابن كثير، وأبو عمرٍو، وعاصم[1]، وابن عامر، وابن عباسٍ، والحسن، وزِرُّ بن حبيش، ومجاهد، والجحدري، وجماعة: ﴿فَنَادَىٰهَا مَن تَحْتَهَآ﴾ على أن [مَنْ] فاعلٌ بـ[نَادَى]، والمراد بـ[مَنْ] عيسى، أي: ناداها المولود، قاله مجاهد، والحسن، وابن جُبَيْر، وأُبَيُّ بن كعب. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد جبريل عليه السلام، ولم يتكلم عيسى حتَّى أتت به قومها، وقال علقمة والضحاك، وقتادة: ففي هذه آية لها وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التي لله فيها مرادٌ عظيم، لا سيَّما والمنادي عيسى، فإنه يتبين به عذر مريم، ولا تبقى به استرابة، فلذلك كان النداءُ ألاَّ يقع حُزْن.

وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، والبراءُ بن عازب، والضحاك، وعمرو بن ميمون، وأهل المدينة، وأهل الكوفة، وعبد الله بن عباس ـ

(١) أي في رواية أبي بكر عنه، أما رواية حفص فبكسر الميم من [مِنْ].

رضي الله عنهما ـ أيضاً، والحسن: ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ بكسر الميم على أنها لابتداء الغاية، واختلفوا ـ فقال بعضهم: هو عيسى عليه السلام، وقالت فرقة: المراد جبريل المجاور لها قَبْلُ، قالوا: وكان في بقعة من الأرض أخفض من البقعة التي كانت هي عليها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأول أظهر، وعليه كان الحسن بن أبي الحسن يقسم.

وقرأ علقمة، وزِرُّ بن حبيش: ﴿فَخَاطَبَهَا من تحتها﴾[(١)]، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما «فَنَادَاهَا مَلَكٌ مِنْ تَحْتِهَا».

وقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ تفسير للنداء، فـ[أَنْ] مفسِّرة بمعنى: أيْ، و«السَّرِيُّ» من الرجال: العظيمُ الخصال السَّيِّدُ، و«السَّرِيُّ» أيضاً: الجدولُ من الماء، وبحسب هذا اختلف الناس في هذه الآية ـ فقال قتادة، وابن زيد: أراد: جعل تحتك عظيماً من الرجال له شأن، وقال الجمهور: أشار لها إلى الجدول الذي كان قرب جذع النخلة، ورُوي أن الحسن فسَّر الآية فقال: أجل، لقد جعله الله سريّاً كريماً، فقال حميد بن عبد الرحمن الحميري: يا أبا سعيد، إنما نعني بالسَّري الجدولَ، فقال: لهذه وأشباهِها أُحبُّ قربك، ولكن غلبتنا عليك الأمراءُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن الشاهد في السَّرِيِّ قول لبيد:

فَتَوَسَّطَا عُرْضَ السَّرِيِّ وصَدَّعَا مَسْجُورَةً مُتَجَاوِراً قُلاَّمُهَا[(٢)]

ثم أمرها بهزِّ الجذع اليابس لترى آية أُخرى في إحياء موات الجذع، فقالت فرقة:

---

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط: «وينبغي أن يكون ذلك تفسيراً لا قراءة؛ لأنها مخالفة لسواد المصحف المجمع عليه».

(٢) البيت من معلقة لبيد، والضمير في (فتوسَّطَا) يعود على العَيْر والأتان اللتين سبق الحديث عنهما، ويُرْوى: (فرمى بها عُرض السَّرِيِّ) وعليه فالضمير يعود على ناقته، والعُرْضُ: النَّاحية، ورُوي (عَرْضَ) بفتح العين، والسَّرِيُّ: جدول الماء، وصدَّعَا: شَقَّقَا وحطَّمَا النبت الذي على الماء، والمسجورة: المملوءة، والقُلاَّمُ: نَبْتٌ يَنْبُتُ على الأنهار وجداول الماء، وقيل: هو نوع من الحمض، وقُلاَّمُها فاعل مُتَجاوِراً، ، مُتَجاوراً نعتٌ لمسجورةٍ لأنه يراد بها العين المملوءة. والشاهد في قوله: (السَّرِيّ)، إذْ أنه النهر الصغير، أو جدول الماء.

كانت النخلة مطعمة رطباً، وقال السدي: كان الجذع مقطوعاً، وأُجري تحتها النهر لحينه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر من الآية أن عيسى هو المكلِّمُ لها، وأن الجذع كان يابساً، وعلى هذا تكون آية تُسَلِّيها وتسْكُن إليها، والباءُ في قوله: [بِجِذْعِ] زائدة مؤكدة، قال أبو علي: كما يقال: أَلْقى بيده، أي: أَلْقى يَدَه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا المثال نظر، وأنشد الطبري رحمه الله:

بِـوَادٍ يَمَـانٍ يُنْبِـتُ السِّـدْرَ صَـدْرُهُ وَأَسْفَلُـهُ بِـالْمَـرْخِ والشَّبَهَـانِ[1]

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، والجمهور من الناس: [تَسَّاقطْ] بفتح التاء وشدِّ السين، يريد النخلَة، وقرأ البراءُ بن عازب رضي الله عنه، والأعمش رحمه الله: [يَسَّاقَطْ] يريد الجذع، وقرأ حمزة وحده: [تَسَاقط] بفتح التاء وتخفيف السين، وهي قراءة مسروق، ويحيى بن وثاب، وطلحة ابن مصرف، وأبي عمرٍو ـ بخلاف ـ وقرأت فرقة: [يُسَاقِطْ] بالياء على ما تقدم من إرادة النخلة أو الجذع، وقرأ عاصم ـ في رواية حفص ـ: [تُسَاقِطْ] بضم التاء وفتح السين وتخفيفها، وقرأ أبو حيوة: [يُسْقِطْ] بضم الياء، وحكى أبو علي في الحجة أنه قرىء: [يَتَسَاقَطْ] بياءٍ وتاءٍ، وروي عن مسروق: [تُسْقِطْ] بضم التاء وكسر القاف، وكذلك عن أبي حيوة، وقرأ أبو حيوة أيضاً: [يَسْقُطْ] بفتح الياء وضم القاف ﴿رُطَبٌ جنيٌّ﴾.

---

(١) البيت في التاج واللسان (شبه)، وقد نقلا عن ابن دريد أنه لرجل من عبد القيس، ونقلا عن ابن بري أن أبا عبيدة قال: «البيت للأحْول اليشكري، واسمه يَعْلَى». أما السِّدْر فهو شجر النَّبْق، والمفرد: سِدْرة، والمَرْخ: شجر سريعُ الوَرْي كثيرُه، والشَّبَهان ـ ويقال أيضاً الشُّبُهان بضم الشين والباء ـ: نَبْت يشبه الثُّمَام، أو هو الثُّمام ـ والثُّمَام: عُشْب من الفصيلة النجيلية يرتفع إلى مائة وخمسين سنتيمتراً، فروعه مزدحمة متجمعة، والنَّوْرة سُنْبلةٌ مُدَلاَّة، ومنه الثُّمام السنبلي وهو الدُّخن كما يسمَّى في السودان ـ يقول الشاعر: إن هذا الوادي ينبت الأصناف الثلاثة: السِّدْرَ، والمَرْخَ، والشَّبَهان، لكن السِّدْر ينبت في أعلاهُ، أما المرخُ والشَّبَهان فينبتان في أسفله. والشاهد في البيت أن الباء في (بالمرخ) زائدة، والتقدير: ويُنْبتُ أسْفَلُه المرخَ. وقال في اللسان: «وإن شئتَ قدَّرته: وينبُتُ أسْفَلُه بالمرْخ، فتكون الباء للتعدية لمَّا قدَّرتَ الفعل ثلاثياً». هذا وقد قال ابن بري وحكاه في اللسان: «إن الشَّبَه كالسَّمُرِ كثير الشوك».

ونصب [رُطَباً] يختلف بحسب معاني القراءات المذكورة، فمرة يستند الفعل إلى الجذع، ومرة إلى الهزّ، ومرة إلى النخلة، و[جَنِيّاً] معناه: قد طابَ وصلح[١] للاجتناءِ، وهو من جنيتُ الثمرةَ، وقرأ طلحة بن سليمان[٢]: [جِنِيّاً] بكسر الجيم، وقال عمرو بن ميمون: ما من شيءٍ خير للنُّفَساءِ من التمر والرطب، وقال محمد بن كعب: [رُطَباً]: عجوة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واستدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوماً فإن الله تعالى قد وكل ابن آدم إلى سعيٍ مَا فيه؛ لأنه أمر مريم بهَزِّ الجذع لترى آية، وكانت الآية تكون بألا تهزَّ.

وحكى الطبريُّ عن ابن زيد أنه قال لها عيسى: «لا تَحْزَنِي»، فقالت: وكيف لا أحزنُ وأنت معي، لا ذات زوج [فأَقول من زوج، ولا مملوكة فأقول من سيدي، أيُّ شيءٍ عذري عند الناس؟ ﴿يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا﴾، فقال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام][٣].

قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ الآية. قرأ الجمهور: (وَقَرِّي) بفتح القاف، وحكى الطبري قراءة [وَقِرِّي] بكسر القاف، وقُرَّة العين مأخوذة من القَرِّ، وذلك أنه يحكى أن دمع الفرح بارد ودمع الحزن سخن، وضعَّفت فرقة هذا وقالت: الدمع كله سخن، وإنما معنى قُرة العين أن البكاء الذي يسخن ارتفع، أيْ: لا حُزْن من الأمر الذي قرت به العين، وقال الشيباني: ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ معناه: نامي، حضَّها على الأكل والشرب والنوم، وقوله: [عيْناً] نصب على التمييز، والفعل في الحقيقة إنما هو للعين، فنقل ذلك إلى ذي العين، وينصب الذي كان فاعلا في الحقيقة على التفسير، ومثله: طبتُ نفساً، وتفقَّأْتُ شحماً، وتصبَّبْتُ عرقاً، وهذا كثير.

---

(١) في الأصل: «قد طابت وصلحت للاجتناء».

(٢) في الأصل: «وقرأ طلحة ابن سليم»، والتصويب عن كتب التفسير والقراءات.

(٣) ما بين العلامتين [.....] هو تتمة الخبر، وقد أخذناه عن المصدر الأصلي الذي ذكره المؤلف وهو الطبري.

وقرأ الجمهور: [تَرَيِنَّ]، وأَصْلُه: (تَرْأَيِينَ)(١)، حذفت النون للجزم، ثم نقلت حركة الهمزة إلى الراء، ثم قلبت الياء الأولى ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، فاجتمع ساكنان، الألف [المنقلبة عن الياء](٢)، والياءُ، فحذفت الألف فصار (تَرَيْ)، وعلى هذا النحو قول الأفوه:

إمَّـا تَـرَيْ رَأْسِـي أَزْرَى بِـهِ ... البيـت. . . . .(٣)

ثم دخلت النون الثقيلة، وكسرت الياءُ لاجتماع ساكنين منها ومن النون، وإنما دخلت النون هنا توطئة، كما توطىء لدخولها أيضاً لام القسم. وقرأ أبو عمرو ـ فيما رُوي عنه ـ: [تَرَئِنَّ] بالهمزة(٤). وقرأ طلحة، وأبو جعفر، وشيبة: [تَرَيْنَ] بسكون الياء وفتح النون خفيفة، قال أبو الفتح: «وهي شاذة»(٥)

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى أمرها ـ على لسان جبريل أو ابنها عليهما السلام،

---

(١) أي قبل دخول الجازم والتأكيد بالنون.

(٢) زيادة لتوضيح المراد، أما الياء التي التقت مع هذه الألف فهي ياء التأنيث.

(٣) هذا صدر بيت للأفوه الأودي، والبيت بتمامه:

إمَّـا تَـرَيْ رَأْسِـي أَزْرَى بِـهِ ... مَـأْسُ زمـانٍ ذِي انْتِكـاسٍ مَئُـوسِ

وأزرَى به إزراءً: قصَّر به وحقَّره وهوَّنه، وفي اللسان: «وقد مَسَأَ ومَأَس ـ كمنع وفرح ـ بينهم يَمْأَسُ: أَفْسَدَ. . . ورجُلٌ مائِسٌ ومَئُوسٌ ومِمْأَسٌ: نمَّامٌ، وقيل: هو الذي يسعى بين الناس بالفساد». يقول: إنَّ رأسي قد قصَّر به وحقَّره وهوَّنَ من شأنه هذا الزمان الفاسد، وابن عطية يستشهد بالبيت على أن (تَرَى) فيه كانت (ترأَيِينَ) ثم بالحذف والإعلال صارت كما هي، ومثل هذا أيضاً (تَرَيْ) في قول الشاعر:

إمـا تَـرَيْ رَأسِـي حـاكَـى لَـوْنُـهُ ... طُـرَّةَ صُبْـحٍ تَحْـتَ أَذْيَـالَ الـدُّجَـى

والأفوه الأودي هو صلاءَةُ بن عمرو، من مذحج، ويكنى أبا ربيعة، وهو القائل للبيت المشهور:

لاَ يَصْلُـحُ النَّـاسُ فَـوْضَـى لاَ سَـرَاةَ لهُـم ... وَلاَ سَـرَاةَ إذَا جُهَّـالُهُـمْ سَـادُوا

(٤) قال ابن جنِّي في (المحتسَب): «الهمز هنا ضعيف؛ وذلك لأن الياء مفتوح ما قبلها، والكسرة فيها لالتقاء الساكنين، فليست محتسبة أصلاً، ولا يكثر مُسْتَثْقَلُه، وعليه قراءة الجماعة [تَرَيِنَّ] بالياءِ.

(٥) وقال في بقية كلامه: «ولستُ أقول إنها لحنٌ لثبات عَلَم الرفع، وهو النون في حالة الجزم، ولكن تلك لغةٌ أن تثبت هذه النون في الجزم، وأنشد أبو الحسن:

لَـوْلا فَـوَارِسُ مِـنْ ذُهْـلٍ وَأُسْـرَتِهِـمْ ... يَـوْمَ الصُّلَيْفَـاءِ لَـمْ يُـوفُـونَ بِـالْجَـارِ

هكذا بالنون، وقد يكون على تشبيه (لم) بـ(لا).

على الخلاف المتقدم ـ بأن تمسك عن مخاطبة البشر، وتُحيل على ابنها في ذلك، ليرتفع عنها خجلها وتَتَبَيَّنَ الآية فيقوم عُذرها، وظاهر الآية أنها أُبيح لها أن تقول هذه الكلمات التي في الآية، وهو قول الجمهور، وقالت فرقة: معنى [قُولي] بالإشارة لا بالكلام، وإلاَّ كان التناقض بيِّنا في أمرها.

وقرأ ابن عباس، وأنس بن مالك: «إنِّي نَذَرْتُ للرَّحْمَنِ وصُمْتُ»(١)، وقال قومٌ: معناه: صوماً عن الكلام؛ إذْ أصل الصيام الإمساكُ، ومنه قول الشاعر:

خَيْــــــلٌ صِيَـــــامٌ . . . .(٢)

وقال ابن زيد، والسدي: كانت سُنَّة الصيام عندهم الإمساكُ عن الأكل والكلام، وقرأت فرقة: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا يجوز في شرعنا أن ينذر أحد صوماً، ولقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق والكلام، وقالت فرقة: أُمرت مريم بهذا ليكفيها عيسى الاحتجاج.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾.

رُوي أن مريم عليها السلام لمَّا اطمأَنت بما رأت من الآية، وعلمت أن الله تعالى سيبيِّن عذرها، أتت به تحمله من المكان القَصِي الذي انتبذت فيه، وروي أن قومها

---

(١) الذي في كتب التفسير يختلف عن ذلك، وأوْضحهُ وأصحُّه مافي القرطبي، ونصُّه: «﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: صمتاً، قاله ابن عباس، وأنس بن مالك»، ونعتقد أن صحة العبارة: وقرأ ابن عباس، وأنس بن مالك: «إنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً وَصَمْتاً»، قال القرطبي: واختلاف اللفظين ـ الصوم والصوت ـ يدل على أن الحرف ذكر تفسيراً لا قراءة. وكلام الطبري يؤكد أن ذلك كان قولا من ابن عباس ومن أنس رضي الله عنهما، وليس قراءة.

(٢) هذا جزءٌ من بيت للنابغة الذبْياني، وهو من ميميَّته المشهورة: (بانتْ سعادُ وأمسى حَبْلُهَا انْصَرَمَا)، وهو في اللسان (صوم)، قال: «وصام الفرسُ صوماً أي قام على غير اعتلاف، وقيل: الصائم من الخيل: القائم الساكن الذي لا يطعم شيئاً، قال النابغة الذبياني:

خَيـــلٌ صِيَـــامٌ وَخَيْــلٌ غَيْــرُ صَــائِمَــةٍ تَحْتَ العَجاجِ وَأُخْرَى تَعْلُكُ اللُّجُمَا

والعجاج: الغُبَارُ ودخان المعركة، وتَعْلُكُ اللُّجُمَا: تلوكُها وتُحرِّكها في فيها.

خرجوا في طلبها فلقوها وهي مقبلة. و«الفَرِيُّ»: العظيم الشَّنيع، قاله مجاهد والسدي، وافتراه: اختلقه، وهو من الفِرْيَة، وفَرَاه يفْرِيه: شَقَّه وأَفْسَدَه، وأَفْراهُ: أصلحه، من قولهم: فريت الأديم: قطعته على جهة الإصلاح، وأما قولهم في المثل: «فلان يَفري الْفَرِيَّ» فمعناه: جاء بعمل عظيم، في قول أو فعل أو قصد ضرب المثل له، وهو مستعمل فيما يختلق ويفعل، والفَرِيُّ من الأسقية الجديد، وقرأ أبو حيوة: ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ بسكون الراء.

واختلف المفسرون في معنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يا أخت هارون﴾ فقالت فرقة: كان لها أخٌ اسمه هارون؛ لأن هذا الاسم كان كثيراً في بني إسرائيل تبركاً باسم هارون أخي موسى عليهما السلام، وروى المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ أرسله إلى نجران في أمر من الأمور، فقالوا: إن صاحبك يزعم أن مريم هي أخت هارون، وبينهما في المدة ستمائة سنة، قال المغيرة: فلم أدر ما أقول فلما قدمتُ على رسول الله ﷺ ذكرتُ ذلك له، فقال: (ألم يعلموا أنهم كانوا يُسمُّون بأسماء الأنبياء والصالحين)؟[(١)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالمعنى أنه اسمٌ وافق اسماً، وقال السدي وغيره: بل نسبوها إلى هارون أخي موسى لأنها كانت من نسله، وهو كما تقول لرجل من قبيلة: يا أخا فلانة، ومنه قول النبي ﷺ: (إن أخا صداءٍ أذَّن، ومن أذَّن فهو يقيم)[(٢)]، وقال كعب الأحبار بحضرة عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها: «لَيْسَت بأُخت هارون أخي موسى»، فقالت عائشة: كذبت، فقال لها: يا أُمَّ المؤمنين، إن كان رسول الله ﷺ قاله فهو أصدق وأخبر، وإلاَّ

---

(١) حديث المغيرة بن شعبة أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل. (الدر المنثور).

(٢) أخرجه الترمذي في الصلاة، وابن ماجه في الأذان، وأحمد في مسنده (٤ـ١٦٩)، ولفظه كما في مُسْند أحمد، عن زياد بن الحارث الصدائي أنه أذَّن، فأراد بلال أن يقيم، فقال النبي ﷺ: (يا أخا صداءٍ، إن الذي أذَّن فهو يقيم)، وفي رواية أخرى ذكرها أيضاً الإمام أحمد، عن زياد بن الحارث الصدائي قال: قال رسول الله ﷺ: (أذِّن يا أخا صداءٍ)، قال: فأذَّنت، وذلك حين أضاء الفجر، قال: فلما توضأ رسول الله ﷺ قام إلى الصلاة، فأراد بلالٌ أن يقيم، فقال رسول الله ﷺ: (يُقيم أخو صداءٍ، فإن من أذَّن فهو يقيم).

فإني أجد بينهما من المدة ستمائة سنة، قال: فسكتت[١]، وقال قتادة: كان في ذلك الزَّمَن في بني إسرائيل رجلٌ عابد منقطع إلى الله عزَّ وجلَّ يُسمى هارون، فنسبوها إلى أُخُوَّته من حيث كانت على طريقته، قيل: إذْ كانت موقوفة على خدمة البِيَع، أي: يا هذه المرأة الصالحة ما كنت أهلاً لما أتيت به، وقالت فرقة: بل كان في ذلك الزَّمن فاجر اسمه هارون، فنسبوها إليه على جهة التَّعْيير والتوبيخ، ذكره الطبري ولم يُسَمِّ قائله، والمعنى: ما كان أبوك ولا أُمُّك أهلاً لهذه الفعلة، فكيف جئت بها أنتِ؟ و«البَغِيُّ»: التي تبغي الزِّنى، أيْ تطلبه، أَصْلُها: بغوي، فعول، وقد تقدم ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾.

الْتَزَمَت مريم عليها السلام ما أُمرت به من ترك الكلام، ولم يرد في هذه الآية أنها نطقت بـ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾، وإنما ورد أنها أشارت، فيقوى بهذا قولُ من قال: إن أمْرها في [فقُولي] إنما أُريد به الإشارة، ويُرْوى أنهم ـ لمَّا أشارت إلى الطفل ـ قالوا: استخفافها بنا أشد علينا من زناها، ثم قالوا لها ـ على جهة التقرير ـ ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴾؟

و[كَانَ] هنا ليس يرادُ بها المضيُّ[٢]؛ لأن كل واحد قد كان في المهد صبيّاً، وإنما هي في معنى: هو [الآن][٣]، ويحتمل أن تكون الناقصة، والأظهر أنها التَّامة، وقد قال أبو عبيدة: [كَانَ] هنا لغوٌ[٤]. وقال الزَّجَّاج والفراءُ: [مَنْ] شرطية في قوله تبارك وتعالى: ﴿ مَن كَانَ ﴾[٥].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، عن ابن سيرين. (الدر المنثور).

(٢) في بعض النسخ: «ليس يُراد بها الماضي».

(٣) ما بين العلامتين [....] زيادة لتوضيح المعنى، إذ المرادُ أن المعنى: «كيف نُكَلِّم من هو الآن صَبيٌّ في مهده»؟.

(٤) أي: زائدة، والمعنى على ذلك: «كيف نُكلِّم صَبِيّاً في المهد»؟ وهي في هذا كقول الشاعر:

فَكَيْــفَ إذَا رَأَيْــتَ دِيَــارَ قَــوْمٍ ... وَجِيــرَانٍ لَنَــا كَـانُــوا كِــرَامِ؟

(٥) يقولان: إن [مَنْ] شرطية، و[كَانَ] بمعنى يَكُنْ، والتقدير: «من يكُنْ في المهد صَبِيّاً فكيف نُكلِّمه»؟ قال=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ونظير «كان» هذه قول رؤبة:

والرَّأْسُ قَدْ كَانَ لَهُ قَتِيرُ[(١)]

و[صَبِيّاً] إمَّا خبر [كَانَ] على تجوُّز وتخيل في كونها ناقصة، وإمَّا حالٌ [إذَا قُدِّرَت زائدةً أو تامَّةً][(٢)] لاستقرار المقدر في الكلام[(٣)].

ورُوي أن المَهْدَ يُرادُ به حِجْر أُمِّه، قال لهم عيسى من مرقده: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ الآية، ورُوي أنه قام متَّكئاً على يساره، وأشار إليهم بِسَبَّابته اليمنى. و[ٱلْكِتَابَ]: التوراة، ويحتمل التوراة والإنجيل، و[آتَانِيَ] معناه: قضى بذلك وأنفذه في سابق حكمه، وهذا نحو قوله عزَّ وجلّ: ﴿أتى أمر الله﴾[(٤)] وغير هذا، وأمال الكسائي [آتَانِي] و[أَوْصَانِي]، والباقون لا يُميلون، قال أبو علي: الإمالةُ في [آتَانِيَ] أحسن لا في [أَوْصَانِي]. و[مُبَارَكاً] قال مجاهد: معناه: نفَّاعاً، وقال سفيان الثوري: معناه: معلم خَير[(٥)]،

= ابن الأنباري: وهذا كما تقول: كيف أُعطي من كان لا يقبل عَطِيَّةً؟ أي: من يكن لا يقبل العطية؟، والماضي قد يذكر بمعنى المستقبل في الجزاء كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: إن يشأ يجعل، وتقول: مَنْ كَانَ إليَّ منه إحسانٌ كان إليه مني مثلُه، أي: من يكن منه إليَّ إحسانٌ يَكُنْ إليه مِنِّي مثلُه.

(١) هذا البيت من الشعر المنسوب إلى رؤبة، وقد وجدته في ديوانه المسمَّى «مجموع أشعار العرب» المشتمل على ديوان رؤبة، وهو ضمن أبيات مفردة منسوبة إلى رؤبة بن العجاج. والقَتِيرُ: الشيبُ، وقيل: هو أوَّل ما يظهر منه، وفي الحديث أن رجلا سأل النبي ﷺ عن امرأة أراد نكاحها، قال: وبقَدْر أيِّ النساء هي؟ قال: قد رأت القَتِير، قال: دعها، والقتير: المشيب، وأصله رؤُوس مسامير حَلَق الدروع تلوح فيها، شُبِّه بها الشيب إذا نَقَب في سواد الشعر. (راجع اللسان ـ قتر)، و(كان) في البيت بمعنى وقع وحدث، وابن عطية يرى أنها في الآية الكريمة بهذا المعنى. وبهذا يتضح أن في [كان] أربعة أقوال ـ (١) أن تكون زائدة. (٢) أن تكون بمعنى: وقع وحدث. (٣) أن تكون بمعنى المضارع، على أن [مَنْ] شرطية. (٤) أن تكون ناقصة بمعنى: (صار)، وهذا الأخير قاله قُطْرب. وقال ابن الأنباري: «لا يجوز أن يقال زائدة وقد نصبت [صَبِيّاً]، ولا أن يقال إن [كَانَ] بمعنى حديث ووقع؛ لأنها لو كانت كذلك لاستغني عن الخبر، تقول: كان الحرُّ، وتكتفي بذلك». ا.هـ بتصرف، وقد ناقشه أبو حيان في ذلك.

(٢) ما بين العلامتين [....] زيادة للتوضيح قالها أبو حيان في البحر.

(٣) أي أن العامل في الحال هو الاستقرار المقدر في الكلام.

(٤) من الآية (١) من سورة (النحل).

(٥) في بعض النسخ: «معلم غيره».

وقيل: آمِراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، قال رجلٌ لبعض العلماء: ما الذي أُعْلِنُ من علمي؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإنه دِين الله الذي بعث به أنبياءَه، وأسند النقاشُ عن الضحاك أنه قال: [مُبَارَكاً] معناه: قضَّاءً للحوائج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوله تعالى: [مُبَارَكاً] يعُمُّ هذه الوجوه وغيرها.

و«الصَّلاةُ والزَّكاةُ» قيل: هما المشروعتان في البَدَن والمال، وقيل: زكاة البدن[1] في الفِطْر، وقيل: الصلاةُ الدعاءُ، والزكاةُ التَّطهر من كل عيب وتقصير ومعصية. وقرأ [دُمْتُ] بضم الدالِ عاصمٌ وجماعة، وقرأ [دِمْتُ] بكسرها أهلُ المدينة، وابن كثير، وأبو عمرو، وجماعة.

وقرأ الجمهور (وَبَرًّا) بفتح الباء ـ وهو الكثير البِرِّ ـ ونصبه عطفاً على قوله: [مُبَارَكاً]، وقرأ أبو نهيك، وأبو مجلز، وجماعة [وَبِرًّا] بكسر الباءِ، فقال بعضهم: نصبه على العطف على قوله: [مُبَارَكاً]، كأنه قال: ذا بِرٍّ، فاتصف بالمصدر كَعَدْلٍ ونحوه، وقال بعضهم: نصبه بقوله: [وَأَوْصَانِي]، أي: وأَوْصَاني بِرًّا بوالدتي، حذف الجار، يريد: وأوصاني بِبِرٍّ والدتي[2]، وحكى الزهراوي في هذه القراءة [وَبِرٍّ] بالخفض عطفاً على [ٱلزَّكَاةِ]، وقوله: [بِوَالِدَتِي] بيانٌ لأنه لا والِد لَهُ، وبهذا القول برَّأَها قومها.

و«ٱلجَبَّارُ»: المتعظم، وهي خلق مقرونة بالشقاء لأنها مناقضة لجميع الناس فلا يلقى صاحبها من أحد إلاَّ مكروهاً، وكان عيسى صلوات الله عليه في غاية التواضع، يأكل الشجر، ويلبس الشَّعْر، ويجلس على التراب، ويأوي حيث جنه الليل إذْ لا مسْكَنَ له، قال قتادة: وكان عيسى عليه السلام يقول: سلُوني فإني ليِّن القلب صغير في نفسي، وقد تقدم ذكر تسليمه على نفسه وإدلاله في ذلك، وذَكَر المواطن التي خصَّها لأنها أوقات حاجة الإنسان إلى رحمة الله.

---

(١) في بعض النسخ: «زكاة الرُّؤوس في الفطر».

(٢) ومثل هذا قول لبيد:

فَـإِنْ لَـمْ تَجِـدْ مِـنْ دُونِ عَـدْنَـانَ وَالِـداً ... وَدُونَ مَعَــدٍّ فَلْتَــزَعْــكَ الْعَــوَاذِلُ

فقد عطف (دُون) الثانية على موضع (من دون) الأولى.

وقال مالك بن أنس رضي الله عنه في هذه الآية: ما أشدها على أهل القدر، أخبر عيسى بما قضي من أمره وبما هو كائن إلى أن يموت، وفي قصص هذه الآية عن ابن زيد وغيره أنهم لما سمعوا كلام عيسى وهو في المهد أذعنوا وقالوا: إن هذا لأمرٌ عظيم، ورُوي أن عيسى عليه السلام إنما تكلم في طفولته بهذه الآية ثم عاد إلى حالة الأطفال حتى نشأ على عادة البشر، وقالت فرقة: إن عيسى عليه السلام كان أُوتي ذلك الكتاب وهو في ذلك السن، وكان يصلي ويصوم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا في غاية الضعف، مُصَرِّح بجهالة قائله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾.

المعنى: قلْ يا محمد لمعاصريك من اليهود والنصارى: ذلك الذي هذه قصته عيسى بن مريم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما قدَّرنا في الكلام «قُلْ» لأنه يجيءُ في الآية بعْدُ ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾، وهذه مقالة بشر، وليس يقتضي ظاهر الآية قائلاً من البشر سوى محمد ﷺ، وقد يحتمل أن يكون قوله: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ﴾ إلى قوله: [فَيَكُونُ] إخباراً لمحمد ﷺ واعتراضاً أثناء كلام عيسى، ويكون قوله: [وَأَنَّ] بفتح الألف عطفاً على قوله: [ٱلْكِتَابَ]، وقال وهب بن منبه: عهد عيسى عليه السلام إليهم أنَّ الله ربِّي وربكم، ومن كسر الألف عطف على قوله: ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وحمزة، والكسائي، وعامة الناس: [قولُ الحق][1]، وقرأ عاصم، وابن عامر، وابن أبي إسحق: ﴿ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ﴾ بنصب «القول» على

(١) أي: بالرفع، قال الكسائي: ﴿قولُ ٱلْحَقِّ﴾ نعت لعيسى، أي: ذلك عيسى بن مريم قولُ الحق، سُمِّي [قولُ الحق] كما سُمِّي [كلمةُ الله]، والحقُّ هو الله عزَّ وجلَّ. وقال أبو حاتم: المعنى: هُو قولُ الحق. وقيل: التقدير: هذا الكلامُ قولُ الحق.

المصدر(١)، وقال أبو عبد الرحمن المقري(٢): كان يجالسني ضرير ثقة، فقال: رأيت النبي ﷺ في النوم يقرأ: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ نصباً، قال أبو عبد الرحمن: وكنت أقرأ بالرفع فحسب، فصرتُ أقرأ بها جميعاً، وقرأ عبد الله ابن مسعود: «قالُ اللهِ»(٣) بمعنى: كلمةُ اللهِ، وقرأ عيسى: «قالُ ٱلْحَقِّ»(٤).

وقرأ نافع والجمهور: (يَمْتَرُونَ) بالياء على الكناية عنهم، وقرأ نافع أيضاً وأبو عبد الرحمن السُّلَمي، وداود بن أبي هند: [تَمْتَرُونَ] بالتاء على الخطاب لهم، والمعنى: تختلفون أيها اليهود والنصارى، فيقول بعضهم: هو لِزَنْيَة ونحو هذا، ويقول بعضهم: هو ابن الله تعالى، فهذا هو امتراؤُهم، وسيأتي شرح ذلك من بعد هذا.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۢ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ معناه النفي وهذا هو معنى هذه الألفاظ حيث وقعت، ثم يضاف إلى ذلك بحسب المذكور فيها، إمَّا زجرٌ ونهي كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟﴾(٥)، وإمَّا تعجيزٌ كقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾(٦)، وإمَّا تبرئة كهذه الآية، وقوله: ﴿مِن وَلَدٍۢ﴾ دخلت [مِنْ] مؤكدة للجَحْد، لينفي الواحد فما فوقه مما يحتمله نظير هذه العبارة إذا لم تدخل (مِنْ)، وقوله: [أَمْرًا] أيْ: واحداً من الأُمور، وليس بمصدر «أَمَرَ يأْمُرُ»، فمعنى قَضَى أوجد وأخرج من العدم وهذه التصاريف في هذه الأفعال من

---

(١) فهو مصدر مؤكد لمضمون الجملة، أي: هذه الأخبارُ عن عسى بأنه ابن مريم أمرٌ ثابت صدق، أي: أقولُ الحقَّ، فيكون «الحق» هنا هو الصدق، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته، أي: القول الحق، كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾، أي: الوعد الصدق.

(٢) اسمه عبد الله بن يزيد. قاله ابن حجر العسقلاني في تقريب التهذيب.

(٣) أي: بالألف مع رفع اللام، وفي القرطبي أن قراءة عبد الله بن مسعود هي: «قالُ ٱلْحَقِّ»، وهي التي ذكرها ابن عطية هنا منسوبة إلى عيسى.

(٤) هكذا ضبطت في الأصول، وفي البحر المحيط قال أبو حيان: «وقرأ طلحة والأعمش ـ في رواية زائدة ـ: [قالَ] بألف، جعله فعلاً ماضياً [ٱلْحَقُّ] برفع القاف على الفاعلية، والمعنى: قال الحقُّ ـ وهو الله ـ: ذلك الناطق الموصوف بتلك الصفات هو عيسى بن مريم». ولسنا ندري: هل هذه القراءة هي المنسوبة هنا إلى عيسى أم هي قراءة أخرى لم يذكرها ابن عطية؟.

(٥) من الآية (١٢٠) من سورة (التوبة).

(٦) من الآية (٦٠) من سورة (النمل).

مُضِيٍّ واستقبال هي بحسب تجوُّز العرب واتِّساعها، وقد تقدم القول في قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾[1].

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿وأنَّ الله﴾ بفتح الألف، وذلك عطف على قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى﴾ كذلك، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ بكسر الألف، وذلك بيِّنٌ على الاستئناف، وقرأ أُبَيُّ بن كعب رضي الله عنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ بكسر الألف دون واو.

وقوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾، وقف ثم ابتدأ: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾، أي: ما أعلمتكم به عن الله تعالى من وحدانية، ونَفْي الولد عنه، وغير ذلك مما يتنزه عنه، طريقٌ واضح مُفْضٍ إلى النجاة ورحمة الله تعالى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

هذا ابتداءُ خبر من الله عزَّ وجلَّ لمحمد ﷺ بأن بني إسرائيل اختلفوا أحزاباً، أي: فِرَقاً، وقوله: ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ معناه أن الاختلاف لم يخرج عنهم، بل كانوا المختلفين، وروي في هذا عن قتادة أن بني إسرائيل جمعوا من أنفسهم أربعة أحبار غاية في المكانة والجلالة عندهم، وطالبوهم بأن يُبيِّنُوا أمر عيسى عليه السلام، فقال أحدهم: عيسى هو الله نزل إلى الأرض فأحيا من أحْيا وأمات من أمات ثم صعد، فقال له الثلاثة: كذَبْتَ، واتَّبعه اليعقوبية، ثم قيل للثلاثة، فقال أحدهم: عيسى هو ابن الله، فقال له الإثنان: كذبْتَ، واتَّبعه النسطورية، ثم قيل للاثنين، فقال أحدهما: عيسى أحد ثلاثة، عيسى إله، ومريم إله، والله إله، فقال له الرابع: كَذَبْتَ، واتَّبعه الإسرائيلية، فقيل للرابع، فقال: عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، فاتَّبع كلَّ واحد من الأربعة فريق من بني إسرائيل، ثم اقتتلوا فغُلب المؤمنون وقُتلوا، وظهرت اليعقوبية على الجميع.

---

(١) تكررت في أكثر من آية، فهي في الآيات: (١١٧) من سورة (البقرة)، و(٤٧) و(٥٩) من سورة (آل عمران)، و(٧٣) من سورة (الأنعام)، و(٤٠) من سورة (النحل)، و(٨٢) من سورة (يس)، و(٦٨) من سورة (غافر)، وهي في آيتنا هذه من سورة (مريم).

وروي أن في ذلك نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾[(1)].

و«الْوَيْلُ»: الحُزْن والثُّبور، وقيل: الْوَيْلُ وادٍ في جهنم. ومَشْهَد اليوم العظيم هو مشهد يوم القيامة، ويحتمل أن يريد بـ﴿مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ يوم قتل المؤمنين حين اختلف الأحزاب، وقد أشار إلى هذا المعنى قتادة رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي: ما أسمعهم وأبصرهم يوم يرجعون إلينا ويرون ما نصنع بهم من العذاب، فإنَّ إعراضهم حينئذ يزول، ويقبلون على الحقيقة حيث لا ينفعهم الإقبال عَلَيْها وهم في الدنيا صمٌّ عُمْيٌ؛ إذ لا ينفعهم النظر مع إعراضهم، ثم قال: لكنهم اليوم في الدنيا في ضلال، وهو جهل المسلك، و«الْمُبِينُ»: البيِّن في نفسه وإنْ لم يَتَبَيَّن لهم، وحكى الطبريُّ عن أبي العالية أنه قال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ بمعنى الأمر لمحمد ﷺ، أي: أَسْمع الناسَ اليوم وأبصرهم بهم وبحديثهم، ماذا يصنع بهم من العذاب إذا أَتَوْا محشورين مغلولين.

واختلف في ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ فقال الجمهور: هو يوم ذبح الموت، وفي هذا حديث صحيح وقع في البخاري وغيره أن الموت يجاءُ به في صورة كبش أملح، وقال عبيد بن عمير: كأنه دابَّة، فيذبح على الصراط بين الجنة والنار، وينادى: يا أهل الجنة خلود لا موت، ويا أهل النار خلود لا موت. ويروى أن أهل النار يشرئبون إليه رجاء أن يُخرجوا مما هم فيه، وأن أهل الجنة يشرئبون خوفاً على ما هم فيه[(2)]، و«الأمر المقضي» هو ذبح الكبش الذي هو مثال الموت، وهذا عند حذاق العلماء كما يقال:

---

(١) الآية (٢١) من سورة (آل عمران).

(٢) حديث ذبح الموت أخرجه البخاري، عن ابن عمر، ومسلم عن أبي سعيد الخدري، وابن ماجه من حديث أبي هريرة، والترمذي عن أبي سعيد يرفعه، وقال فيه: حديث حسنٌ صحيح، ولفظه كما في صحيح مسلم: قال رسول الله ﷺ: (إذا دخل أهل الجنةِ الجنَّةَ وأهل النارِ النَّارَ يجاءُ بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح ـ أيْ نقيُّ البياض، أو بياضه أكثر من سواده ـ فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبُّون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت ـ قال ـ ثم يقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبُّون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال فيؤمر به فيُذْبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

تدفن الغوائل ويجعل التراب تحت القدم ونحو ذلك، وعند ذلك تصيب أهل النار حسرةٌ لا حسرة مثلها.

وقال ابن زيد وغيره: يومُ الحسرة هو يوم القيامة، وذلك أن أهل النار قد حصلوا من أول أمرهم في سخط الله وأمارته، فهم في حال حسرة، والأمر المقضي ـ على هذا ـ هو الحتم عليهم بالعذاب وظهور إنفاذ ذلك عليهم. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: يومُ الحسرة حين يرى الكفار مقاعدهم التي فاتتهم من الجنة لو كانوا مؤمنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن يكون يومُ الحسرة اسم جنس لأن هذه حسرات كثيرة في مواطن عِدَّة، ومنها يوم القيامة، ومنها وقت أخذ الكتاب بالشمال وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ يريد: في الدنيا الآن وهم لا يؤمنون كذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ﴾ تجوُّزٌ وعبارةٌ عن فناء المخلوقات وبقاء الخالق، فكأنها وراثة، وقرأ عاصم، ونافع، وأبو عمرو، والحسن، والأعمش: (يُرْجَعُونَ) بالياء، وقرأ الأعرج [تُرْجَعُونَ] بالتاء من فوق، وقرأ أبو عبد الرحمن، وابن أبي إسحق، وعيسى: [يَرْجِعُونَ] بالياء مفتوحة وكسر الجيم، وحكى عنهم أبو عمرو: [تَرْجِعُونَ] بالتاء.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ﴾ معناه: واتْلُ وَبَلِّغْ، لأن الله تعالى هو الذاكر، و«الكِتَابُ» هو القرآن، وهذا ما أشبهه من لسان الصدق الذي ألقاه الله عليهم، و«الصِّدِّيق» فِعِّيل، بناءُ مبالغة من الصدق، وقرأ أبو البَرَهْسَمِ(١): ﴿إنه كان صادقا﴾، والصِّدْق عُرفه في

(١) اختلفت النسخ الأصلية في كتابة هذا الاسم، ففي بعضها: البرهسيم»، وفي بعضها: «أبو إبراهيم»، واخترنا ما يتفق مع ما في البحر المحيط. وأبو البرهسم هو عمران بن عثمان الزبيدي الشامي صاحب=

اللسان، وهو مُطَّردٌ في الأفعال والخُلُق إلاَّ أنَّه يُسْتعار لما لا يعقل، يقال: صدقني الطعام كذا وكذا قفيزاً[١]، ويقال: «عُودٌ صَدْقٌ» للصلْب الجيِّد.

فكان إبراهيم عليه السلام يوصف بالصِّدْق على العموم في أقواله وأفعاله، وبذلك يفترق صدق اللسان الذي يضاد الكذب، وأبو بكر رضي الله تعالى عنه وُصف بصدِّيق لكثرة ما صَدَقَ في تصديقه بالحقائق، وصدق في مبادرته إلى الإيمان وما يُقَرِّب من الله تبارك وتعالى. وللصِّدِّيق مراتب، ألا ترى أن المؤمنين صِدِّيقون لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾[٢].

وقوله: ﴿يا أبت﴾، اختلف النحاة في التاء من [أَبَتِ] ـ فذهب سيبويه إلى أنها عِوَض من ياء الإضافة، فالوقوف عليها عنده بالهاء، ومذهبُ الفراء أن يوقف عليها بالتاء لأن الياء التي للإضافة عنده مُنَوَّنة، وجمهور القراء على كسر التاء، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «وَا أَبَتِ» بواو النداء، وقرأ ابن عامر، والأعرج، وأبو جعفر: ﴿يا أبت﴾ بفتح التاء، ووجهها أنه[٣] أراد: «يَا أَبَتا» فحذف الألف وترك الفتحة دالَّةً عليها، ووَجْه آخر أن تكون التاءُ المقحمة كالتي في قولهم: «يا طلحَة أقبل»، وفي هذا نظر، وقد لَحَّنَ هارون هذه القراءة. و«الَّذي لا يُبصر ولا يَسْمع» هو الصنم، ولو سمع وأبصر كما هي حال الملائكة وغيرهم مِمَّن عُبِد لم تحسن عبادتها، ولكن بيَّن إبراهيم عليه السلام بِنَفْي السمع والبصر شُنْعَةَ الرأي في عبادتها وفَسَادَه.

وقوله: ﴿قَدْ جَآءَنِى﴾ يدلُّ أن هذه المقالة بعد أن نُبِّىءَ، و«الصِّرَاطُ السَّوِيُّ» معناه: المستقيم، وهو طريق الإيمان.

وقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ مخاطبة بِرٍّ واستعطاف على حالة كفره، وقوله: ﴿لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ يحتمل أن يكون أبوه مِمَّن عَبد الجن، ويحتمل أن يجعل طاعة الشيطان الْمُغْوِي في عبادة الأوثان والكفر بالله عبادَةً له. و«العَصِيُّ» فَعِيلٌ من عَصَى يعصي إذا خالف الأمر.

= القراءة الشاذة. انظر غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري.

(١) الْقَفِيزُ: مِكْيَال كان يكال به قديماً، ويختلف مقداره باختلاف البلاد، ويعادل بالتقدير المصري الحديث نحو ستة عشر كيلوا جراماً. (المعجم الوسيط).

(٢) من الآية (١٩) من سورة (الحديد).

(٣) يريد: ووجهها أن القارىء أراد. . . الخ.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾، قال الطبري وغيره: [أَخَافُ] بمعنى: أعلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر عندي أنه خوفٌ[1] على بابه؛ وذلك أن إبراهيم عليه السلام لم يكن في وقت هذه المقالة آيساً من أبيه، فكان يرجو ذلك، وكان يخاف ألاَّ يؤمن ويتمادى على كفره إلى الموت فيمسُّه العذاب. و«الْوَلِيُّ»: الخالِص المصاحب القريب بنسب أو مَوَدَّة.

قال آزَر ـ وهو تارخ ـ: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي﴾، والرغبة: مَيْلُ النفس، فقد تكون الرغبة في الشيء، وقد تكون عنه. وقوله: ﴿أَرَاغِبٌ﴾ رفع بالابتداء، و[أَنْتَ] فاعل يسد مَسَدَّ الخبر، وحسَّن ذلك وقرَّبه اعتمادُ [رَاغِبٌ] على ألف الاستفهام، ويجوز أن يكون [رَاغِبٌ] خبراً مقدماً، و[أَنْتَ] مبتدأ، والأول أصوب، وهو مذهب سيبويه[2]. وقوله: ﴿عَنْ ءَالِهَتِي﴾ يريد الأصنام، وكان ـ فيما روي ـ ينحتها وينجزها بيده ويبيعها ويحضُّ عليها، فقرَّر ابنه إبراهيم عليه السلام على رغبته عنها على جهة الإنكار عليه، ثم أخذ يتوعده.

وقوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ اختلف فيه المتأولون ـ فقال السدي، وابن جريج، والضحاك: معناه: بالقول، أي: لأشتمنك واهجرني أنت إذا شئت مدة من الدهر، أو سالِماً، حسب الخلاف الذي سنذكره، وقال الحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله: معناه: لأرجمنك بالحجارة، وقالت فرقة: معناه: لأقتلنَّك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان بمعنى واحد، وقوله: [وَٱهْجُرْنِي] ـ على هذا التأويل ـ إنما يترتب على أنه أمر على حياته، كأنه قال: إن لم تنته قتلتك بالرجم، ثم قال له: واهجرني، أي: مع انتهائك، كأنه جزم الأمر بالهجرة، وإلاَّ فمع الرجم لا تترتب الهجرة. و[مَلِيّاً]

(١) في بعض النسخ: «أنه حرف على بابه».

(٢) وجه الصواب أمران: الأول أنه لا تقديم فيه ولا تأخير؛ إذ رتبة الخبر أن يتأخر عن المبتدأ، والثاني أنه ليس فيه فصل بين العامل الذي هو [أَرَاغِبٌ] وبين معموله الذي هو ﴿عَنْ ءَالِهَتِي﴾ بما ليس بمعمول للعامل؛ لأن الخبر ليس عاملاً في المبتدأ، بخلاف كن [أَنتَ] فاعلاً، فإنه معمولٌ لـ[أَرَاغِبٌ]، فلم يفصل بين [أَرَاغِبٌ] وبين ﴿عَنْ ءَالِهَتِي﴾ بأجنبي، إنما فصل بمعمول له. (قاله في البحر المحيط).

معناه: دهراً طويلاً، مأخوذ من الملوَيْن، وهما الليل والنهار، هذا هو قول الجمهور: الحسن، ومجاهد، وغيرهما، فهو ظرفٌ(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: [مَلِيّاً] معناه: سليماً سوِيّاً، فهو حالٌ من [إِبْرَاهِيم] عليه السلام(٢).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتلخيص هذا أن يكون بمعنى قوله: مُسْتَبِدّاً بحالك عنِّي غنيّاً، مَلِيّاً بالاكتفاء(٣).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾.

قرأ أبو البرهسم: [سَلَاماً] بالنصب. واختلف أهل العلم في معنى تسليمه عليه ـ فقال بعضهم: هي تحية مُفارق، وجوَّزوا تحية الكافر، وأن يُبدأ بها، وقال الجمهور: ذلك التسليم بمعنى الْمُسَالمة لا بمعنى التحية، وقال الطبري: معناه: أَمَنَةً منِّي لك، وهذا قول الجمهور، وهم لا يرون ابتداء الكافر بالسلام. وقال النقاش: حليم خاطب سفيهاً، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾(٤)، ورفع «السلام» بالابتداء، وجاز ذلك مع كونه نكرة لأنها نكرة مُخَصَّصة، فقربت من المعرفة، ولأنه في موضع المنصوب الذي هو: سلمت سلاماً، وهذا كما يجوز ذلك فيما هو في معنى الفاعل، كقولهم: «شرٌّ ما أهَرَّ ذا ناب»(٥)، وهذا مثال سيبويه رحمه الله.

---

(١) وعليه قول الشاعر:

نهـــارٌ ولَيْـــلٌ دائِـــمٌ مَلَـــوَاهُمَـــا ... عَلَـى كُـلِّ حـالِ الْمَـرْءِ يَخْتَلِفَـانِ

(٢) والمعنى: اهجرني سالماً بعرضك، لا تصيبنَّك منِّي مَعَرَّة، وقد اختار الطبري هذا المعنى.

(٣) ومن استعمال [مَلِيّاً] في الدهر الطويل قول المهلهل:

فَتَصَـدَّعَـتْ صُـمُّ الْجِبَـالِ لِمَـوْتِـهِ ... وَبَكَـتْ عَلَيْـهِ الْمُـرْمِـلاتُ مَلِيّـاً

(٤) من الآية (٦٣) من سورة (الفرقان).

(٥) هذا مَثَل يضرب في ظهور أمارات الشر ومخايله، ويقال: أَهَرَّه، إذا حمله على الهرير، والهرير: صوت الكلب دون النباح، وصوت القوس وغيرها، وذو النَّاب: السَّبُع. و(شرٌّ) هنا رفع بالابتداء وهو نكرة، وشرط النكرة ألا يُبتدأ بها حتى تُخَصَّص بصفة، كقولنا: «رجلٌ من بني تميم فارسٌ»، ولكنهم =

وقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ﴾ معناه: سأدعو الله تعالى في أن يهديك، فيغفر لك بإيمانك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا أظهر من أن يُتأوَّل على إبراهيم الخليل صلوات الله عليه أنه لم يعلم أن الله تعالى لا يغفر لكافر، وقد يجوز أن يكون إبراهيم عليه السلام أول نبي أوحى الله إليه أن الله لا يغفر لكافر؛ لأن هذه العقيدة إنما طريقها السمع، فكانت هذه المقالة منه لأبيه قبل أن يوحى إليه ذلك، وإبراهيم عليه السلام إنما تبيَّن له في أبيه أنه عدوٌّ لله بأحد وجهين: إمَّا بموته على الكفر كما رُوي، وإمَّا بأن أوحى الله إليه الحتم عليه. وقال مكيٌّ عن السدي: أخره بالاستغفار إلى السَّحر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تعَسُّفٌ، وإنما ذكر ذلك في أمر يعقوب وبنيه، وأما هذا فوعد باستغفار كثير مؤتنف، فالسين[1] متمكنة.

و«الْحَفِيُّ»: المهتبل[2] المتلطف، وهذا شكر من إبراهيم عليه السلام لنعم الله عليه. ثم أخبره أنه يعتزلهم، أي: يصير عنهم بمعزل، ويروى أنهم كانوا بأرض كوثا، فانتقل إبراهيم عليه السلام إلى الشام، وفي هجرته تلك لقي الجبار الذي أخدم هاجر لسارة... الحديث بطوله. و[تَدْعُونَ]: تعبدون. وقوله: [عَسَى] تَرَجٍّ وفي ضمنه خوف شديد.

وقوله: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية إخبارٌ من الله تبارك وتعالى لنبيِّه محمد ﷺ أن إبراهيم عليه السلام لما رحل عن بلد أبيه وبلد قومه عوَّضه الله من ذلك ابنه إسحق وابن ابنه يعقوب عليهما السلام، وجعل له الولد تسلية وشدّاً لعضده، وإسحق أصغر من إسماعيل عليهما السلام؛ ولمَّا حملت هاجر بإسماعيل غارت سارة فحملت بإسحق فيما رُوي.

= ابتدأوا بالنكرة هنا من غير صفة لأن المعنى: ما أهر ذا ناب إلاَّ شَرٌّ.

(١) أي التي في سأستغفر.

(٢) هكذا في الأصول، ومعاني الاهتبال هي: الاغتنام للفرصة، والكذب، والثكل، والاحتيال والاستعداد، واهتبال الصيد: تكسُّبه، وليس في هذه المعاني ما يناسب التعبير هنا، ولعلَّ الصواب: «المحْتَفِلُ» من الاحتفال بالشيء بمعنى الاهتمام به والمبالغة في برِّه.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾، يريد العلم والمنزلة والشرف في الدنيا والنعيم في الآخرة، كل ذلك من رحمة الله، و«لِسَانُ الصِّدْقِ» هو الثناءُ الباقي عليهم آخر الأبد، قاله عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. واللسان في كلام العرب القالة الذائعة كانت في خيرٍ أو شرٍّ، ومنه قول الشاعر:

إنِّي أَتَتْنِي لِسَانٌ لا أُسَرُّ بِهَا ... مِنْ عَلْوَ لا كَذِبٌ فيها وَلاَ سَخَرُ[1]

وقال آخر:

نَدِمْتُ عَلَى لِسَانٍ فَاتَ مِنِّي ... .[2]

وإبراهيم عليه السلام ـ وذريته ـ مُعَظَّم في جميع الأُمم والممالك، صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين.

---

(١) البيت لأعشى باهلة، وهو في اللسان (لَسَنَ)، قال: «اللسان: جارحة الكلام، وقد يكنى بها عن الكلمة فيؤنث حينئذ، قال أعشى باهلة: إنِّي أَتَتْنِي لِسَانٌ... البيت»، ورواية البيت في الأصمعيات، وفي موسوعة الشعر العربي:

قَدْ جَاءَ مِنْ عَلِ أَنْبَاءٌ أُنَبَّؤُهَا ... إِلَيَّ لا عَجَبٌ مِنْهَا وَلا سَخَرُ

و(عَلَ) بالحركات الثلاث في اللام، والمعنى: من فوق، أي من أعْلَى نَجْد، والسَّخَرُ بفتحتين وبضمتين: السخرية، يريد أنه لا يعجب من هذه الأنباء ولا يسخر، وقد ذكر النحاة أن (عَلُ) بني على الضم لأنه علَمٌ مفرد، وإذا جعل نكرة نُوِّنَ وصُرِفَ فقيل: (من عَلٍ)، وإن شئت رددتَ إليه ما ذهب منه وهي ألفٌ منقلبة من واو فقلت: (مِنْ عَلْوَ).

يقول: وصلتني أنباءٌ من أعلى نجد لم أستغربها، ولم أسخر منها، وهذه الأنباءُ خاصة بنعي أخي.

هذا والبيت في (المؤتلف والمختلف): إني أتتني لسانٌ ما أُسَرُّ بها... مِنْ عُلْوَ» وفي الكامل للمبرد: (من عَلُ)، وفي أمالي المرتضي: إنِّي أُتِيتُ بشيءٍ لا أُسَرُّ به... مِنْ عَلْوَ لا عجب منه».

(٢) هذا صدر بيت للحطيئة، وهو في اللسان (لَسَن) و(عَكَمَ)، وقد استشهد به على أن (اللسان) يُذَكَّر، قال: «وقد يُذَكَّر على معنى الكلام، قال الحطيئة:

نَدِمْتُ عَلَى لِسَانٍ فَاتَ مِنِّي ... فَلَيْتَ بِأَنَّهُ فِي جَوْفِ عِكْمِ

واستشهد به على أن العِكْمَ داخلُ الجَنْب، قال: «والعِكْمُ: النَّمَطُ تجعله المرأة كالوعاء تدَّخِر فيه متاعها، والعِكْمُ: داخلُ الجَنْب على المثل بالعِكْم النَّمط، قال الحطيئة: ندمتُ على لسانٍ... البيت» على أنه رواه هنا: «وَدِدْتُ بأَنَّه» بدلا من «فَلَيْتَ بأنَّه».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾.

هذا أمرٌ من الله تعالى بذكر موسى بن عمران صلوات الله عليه على جهة التشريف، وأعلمه بأنه كان مُخْلَصاً، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم(١): ﴿مُخْلِصاً﴾ بكسر اللام، وهي قراءة الجمهور، أي: أخلص نفسه لله تعالى، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم(٢): ﴿مُخْلَصاً﴾ بفتح اللام، وهي قراءة أبي رزين، ويحيى، وقتادة، أي: أخلصه الله تعالى للنبُوَّة والقيادة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ﴾(٣)، والرسول من الأنبياء: الذي يكلف تبليغ أُمته، وقد يكون نبيٌّ غير رسول.

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ هو تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام، و«الطُّور»: الجبل المعروف بالشام، وقوله: [الْأَيْمَنِ] صفة للجانب، وكان على يمين موسى عند وقوفه، وإلاَّ فالجبل نفسه لا يمنة له ولا يسرة، ولا يوصف بشيءٍ من ذلك إلاَّ بالإضافة إلى ذي يمين ويسار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن يكون [الْأَيْمَنِ] مأخوذٌ من اليُمْن، كأنه قال: الأَبْرك والأَسْعد، فيصح على هذا أن يكون صفة للجانب وللجبل بجملته. وقوله: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ هو التقريب بالتشريف بالكلام والنبوة. وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: بل أُدني موسى للملكوت، ورفعت له الحجب حتى سمع صريف الأقلام، وقاله ميسرة رحمه الله، وقال سعيد: أردفه جبريل عليه السلام، والنَّجِيُّ، قيل: من المناجاة وهي المسارة بالقول، وقال قتادة: معناه: نجا بصدقه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا مختل، وإنما النَّجِيُّ المنفردُ بالمناجاة، وكان هارون أسنَّ من موسى عليهما

(١) أي في رواية أبي بكر عنه.
(٢) وذلك في رواية حَفص عنه.
(٣) من الآية (٤٦) من سورة (ص).

السلام فطلب من الله أن يشُدَّ أَزْره بنُبوَّته ومعونته فأجابه الله إلى ذلك، وعدَّها في نعمه عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ هو أيضاً من لسان الصدق والشرف المضمون بقاؤه على آل إبراهيم عليه السلام. وإسماعيل عليه السلام هو أبُ العرب اليوم، وذلك أن اليمنية والمضرية ترجع إلى ولد إسماعيل عليه السلام، وهو الذي أسكنه أبوه بوادٍ غير ذي زرع، وهو الذبيح في قول الجمهور، وقالت فرقة: الذبيح إسحق عليه السلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأوَّلُ يترجح بجهات: منها قول الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾[(١)]، فَوَلَدٌ قد بُشِّر أبواه أنه سيكون منه وَلَدٌ هو حفيد لهم كيف يؤمر بعد ذلك بذبحه وهذه العِدَةُ قد تقدمت؟ وجهة أخرى هي أن أمر الذبح لا خلاف بين العلماء أنه كان بمنى عند مكة، وما رُوي قطُّ أنَّ إسحق دخل تلك البلاد، وإسماعيل بها نشأ، وكان أبوه يزوره بها مراراً كثيرة يأتي من الشام على البراق ويرجع من يومه، والبراق هو مركب الأنبياء عليم الصلاة والسلام، وجهة أخرى وهي قول النبي ﷺ: (أنا ابن الذبيحين)[(٢)]، وهما أبوه عبد الله بن عبد المطلب، لأنه فُدي بالإبل من الذبح، والذبيح الثاني هو أبوه إسماعيل عليه السلام، وجهة أخرى وهي الآيات في سورة (الصَّافَّات)، وذلك أنه لما فرغ من ذكْر الذبح وحاله قال: ﴿وبشرناه بإسحق﴾[(٣)]، فترتيب تلك الآيات يكاد ينص على أن الذبيح غير إسحق عليه السلام.

---

(١) من الآية (٧١) من سورة (هود).

(٢) أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره، عن الصنابِحِيِّ، قال: «كنَّا عند معاوية ابن أبي سفيان، فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحق، فقال: على الخبير سقطتم، كنَّا عند رسول الله ﷺ، فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، عُدْ عليَّ مِمَّا أفاءَ الله عليك يا بن الذبيحَيْن، فضحك عليه الصلاة والسلام، فقلنا له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله لئن سَهُلَ عليه أمْرُها ليذبحن أحَدَ ولده، قال: فخرج السهم على عبد الله، فمنعه أخواله، وقالوا: افْد ابنك بمائة من الإبل. ففداه بمائة من الإبل، وإسماعيل الثاني» والحديث ضعيف.

(٣) من الآية (١١٢) من سورة (الصَّافات).

ووصف الله تعالى إسماعيل بصدق الدعوة لأنه كان مبالغاً في ذلك، رُوي أنه وعد رجلاً أن يلقاه في موضع، فجاء إسماعيل عليه السلام وانتظر الرجل يومه وليلته، فلما كان في اليوم الآخر جاءَ الرجل، فقال له: ما زلتُ في انتظارك هنا منذ أمس، وفي كتاب ابن سلام أنه انتظره سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد غير صحيح، والأول أصح، وقد فعل مثله نبينا محمد ﷺ قبل بعثه، ذكره النقاش، وخرجه الترمذي، وغيره، وذلك في مبايعة وتجارة[١]، وقيل: وصفه بصدق الدعوة لوفائه بنفسه في أمر الذبح؛ إذ قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[٢]. قال سفيان بن عيينة رحمه الله: أَسْوَأُ الكذب إخلاف الوعد ورمْيُ الأبرياء بالتُّهم، وقد قال رسول الله ﷺ: (العِدَةُ ديْنٌ)[٣]، فناهيك بفضيلة الصدق في هذا.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ﴾، يريد قومَه وأُمّته، قاله الحسن، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «وكان يأمر قومه»، وقوله: [مَرْضِيّاً] أصله: مرْضُوي، لقيت الواو وهي ساكنةٌ الياءَ فأُبدلت ياءً، وأُدغمت، ثم كسرت الضاد للتناسب في الحركات، وقرأ ابن أبي عبلة: «وكَانَ عِنْدَ ربِّهِ مَرْضُوّاً».

---

(١) خرَّجه الترمذي عن عبد الله بن الحَمْساءِ ورواه أبو داود في سُنَنه، وأخرجه الخرائطي في كتابه (مكارم الأخلاق) عن ابن الحَمْساء، قال: بايعت النبي ﷺ ببَيْع قبل أن يُبْعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيت، ثم ذكرتُ بعد ثلاثة أيام-فجئت فإذا هو في مكانه، فقال: «يا فتى لقد شققْت علي، أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك»، واللفظ لأبي داود.

(٢) من الآية (١٠٢) من سورة (الصَّافات).

(٣) العِدَةُ: الوَعْد، والهاءُ عوض عن الواو، ويجمع على عِدَاتٍ، ولا يجمع الوعد، وفي معنى العِدَة ألوَأي، وفي الأثر (وَأيُ المؤمن واجب)، أي في أخلاق المؤمنين، ومما يؤيد ما ذكره ابن عطية الحديث الذي أخرجه البخاري في (الكفالة)، عن جابر رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: (لو جاء مالُ البحرين قد أعطيتك هكذا وهكذا)، فلم يجيء مال البحرين حتى قُبض النبي ﷺ، فلما جاء مال البحرين أمر أبو بكر فنادى: من كان له عند النبي ﷺ عِدَةٌ أو دَيْن فليأتنا، فأتيتهُ فقلت: إن النبي ﷺ قال لي كذا وكذا، فحثا لي حَثْيَةً فعددتها فإذا هي خمسمائة، وقال: خذ مِثْلَيْها. وحديث (العِدَةُ دَيْن) أخرجه الطبراني في الأوسط عن عليٍّ وعن ابن مسعود، وقد رمز له الإمام السيوطي «في الجامع الصغير» بأنه حديث ضعيف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾.

إدريس عليه السلام هو من أجداد نوح، وهو أول نبي بُعث إلى أهل الأرض فيما رُوي بعد آدم صلوات الله عليه، وهو أول من خطَّ بالقلم، وكان خيَّاطاً، ووصفه الله تعالى بالصدق، والوجه أن يُحمل ذلك على العموم في الأحاديث والأعمال، قال ابن مسعود رضي الله عنه: هو إلياس، بعث إلى قومه بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويعملوا ما شاؤوا، فأبَوْا فأُهلكوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأشهر أنه لم يبعث بإهلاك أمة، وأنه نبيٌّ فقط.

واختلف الناس في قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ - فقال جماعة من العلماء: هذا هو رفع النبوة والتشريف والمنزلة، وهو في السماء كسائر الأنبياء. وقالت فرقة: بل رُفع إلى السماء، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان ذلك بأمر الله كما رفع عيسى عليه السلام، وهنالك مات إدريس عليه السلام، وكذلك قال مجاهد إلاَّ أنه قال: ولم يمت، وكذلك قال وهب بن منبه، وقال كعب الأحبار لابن عباس: كان له خليل من الملائكة فحمله على جناحه وصعد به حتى بلغ السماء الرابعة، فلقي هناك مَلَك الموت. فقال له: إنه قيل لي: اهْبط إلى السماء الرابعة فاقبض روح إدريس، وإنِّي لأعجب كيف يكون هذا، فقال له المَلك الصاعد: هذا إدريس معي، فقبض روحه. وروي أن هذا كله كان في السماء السادسة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وكذلك هي رتبته في حديث الإسراء في بعض الروايات، وحديث أنس بن مالك وأبي هريرة رضي الله عنهما في الإسراء يقتضي أنه في السماء الرابعة.

قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ﴾ الآية. الإشارة بـ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إلى من تقدم ذكره، وقوله: ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ﴾ يريد إدريس ونوحاً عليهما السلام، و﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ يريد إبراهيم عليه السلام، و﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ يريد إسماعيل وإسحق ويعقوب عليهم السلام، و﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يريد موسى وهارون وزكريا

ويحيى وعيسى بن مريم عليهم السلام. وقوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَآ﴾ معناه: اخترنا واصطفينا، وكأنه من: «جَبَيْتُ الماءَ» إذا جمعته، ومنه جباية المال، كأن جابيه يصطفيه. وقرأ الجمهور: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ﴾ بالتاء من فوق، وقرأ نافع، وشيبة، وأبو جعفر: (إذا يتلى) بالياء. و«الآياتُ» هنا الكُتُب المنزلة، و[سُجَّداً] نصب على الحال لأن مبدأ السجود سجود، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والجمهور: [وَبُكِيّاً]، قالت فرقة: هو جمع باكٍ، كما يُجْمَع عاتٍ وجاثٍ عَلَى: عُتيٍّ وجُثِيٍّ، وقالت فرقة: هو مصدرٌ بمعنى البكاء، والتقدير: وَبَكَوْا بُكِيّاً، واحتج الطبريُّ ومكيٌّ لهذا القول بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رُوي أنه قرأ سورة مريم فسجد ثم قال: هذا السجود فأين البُكِيُّ؟ يعني البكاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واحتجاجهما بهذا فاسد؛ لأنه يحتمل أن يريد عمر رضي الله عنه: فأين الباكون؟ فلا حجة فيه لهذا، وهذا الذي ذكروه عن عمر رضي الله عنه ذكره أبو حاتم عن النبي ﷺ. وقرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ويحيى، والأعمش: [وَبِكيّاً] بكسر الباء، وهو مصدر على هذه القراءة لا يحتمل غير ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾.

«الخَلَف» ـ بفتح اللام ـ: القَرْن يأتي بعد آخر يمضي، والابن بعد الأب، وقد يستعمل في سائر الأمور، و«الْخَلْفُ» ـ بسكون اللام ـ إذا كان الآتي مذموماً، وهذا مشهور كلام العرب، وقد ذكر عن بعضهم أن الخَلَف والخَلْف بمعنى واحد، وحجة ذلك قول الشاعر:

لَنَا الْقَدَمُ الأولى إلَيْكَ وَخَلْفُنَا ... لِأَوَّلِنَا في طَاعَةِ اللهِ تَابِعُ[1]

(١) البيت لحسان بن ثابت الأنصاري، وهو في اللسان شاهد على أنَّ (الخَلْف) ـ بسكون اللام ـ هو الآتي=

وقرأ الجمهور: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بالإفراد، وقرأ الحسن: ﴿أضاعوا الصلوات﴾ بالجمع، وهو كذلك في مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، والمراد بـ«الخَلْفِ» من كفر وعصى بَعْدُ من بني إسرائيل، وقال مجاهد: المراد النصارى، خلفوا بعد اليهود، وقال محمد بن كعب القرظي، ومجاهد، وعطاءٌ: هم قوم من أمة محمد ﷺ في آخر الزمن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أي: يكون في هذه الأُمَّة مَنْ هذه صفته، لا أنهم المراد بهذه الآية، وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (يكون الخلف بعد ستين سنة)[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا عرف إلى يوم القيامة.

واختلف الناس في «إضاعةِ الصَّلاةِ» منهم، فقال محمد بن كعب القرظي وغيره: كان إضاعةَ كُفْرٍ وجَحْدٍ بها، وقال القاسم ابن مخيمرة[٢]، وعبد الله بن مسعود: كانت إضاعة أوقاتها، و[عدم][٣] المحافظة على أوانها، وذكره الطبري عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في حديث طويل. و«الشَّهَوَاتُ» عمومٌ، وكل ما ذُكر من ذلك فمثال.

= بعد الماضي ويكون محموداً، قال: «والخَلْف: الباقي بعد الهالِكِ، والتابعُ له، هو في الأصل أيضاً من خَلَف يَخْلُفُ خَلْفاً، ويكون محموداً ومذموماً، فشاهد المحمود قول حسَّان بن ثابت الأنصاري: لنا القدم الأولى... البيت... فالخلْف ها هنا هو التابع لمن مضى، وليس من معنى الخَلَف الذي هو البدل»، ثم قال صاحب اللسان: «وقيل: الخَلْف هنا المتخلفون عن الأولين، أي الباقون، وعليه قوله تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾، فسمي بالمصدر، فهذا قول ثعلب، قال الأزهري: وهو الصحيح».

(١) أخرجه أحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في الدر المنثور: سمعت رسول الله ﷺ، وتلا هذه الآية: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾، فقال: (يكون خَلْف من بعد ستين سنة، أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيّاً، ثم يكون خَلْف يقرءون القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر).

(٢) القاسمُ بن مُخَيْمرة ـ بالخاء المعجمة ـ مُصَغَّراً، أبو عروة الهَمْداني ـ بالسكون ـ الكوفي، نزيل الشام، ثقة، فاضل، من الثالثة، مات سنة مائة. (تقريب التهذيب).

(٣) زيادة تقتضيها سلامة التعبير.

و«الغَيُّ»: الخُسْران والحصول في الورطات، ومنه قول الشاعر:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ ... وَمَنْ يَغْوِ لا يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لائِماً(١)

وبه فسَّر ابن زيد رحمه الله هذه الآية. وقد يكون الغَيُّ أيضاً الضَّلَال، فيكون هذا هنا على حذف مضاف تقديره: «يلقون جزاءَ الغيِّ»، وبه فسَّر الزجاج. وقال عبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود: الغَيُّ وادٍ في جهنم، وبه وقع التوعُّد في هذه الآية. وقيل: الغَيُّ [والآثام](٢) نهران في جهنم، رواه أبو أُمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم(٣).

قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ استثناء يحتمل الاتصال والانفصال، وقوله: [وَآمَنَ] يقتضي أن الإضاعة أوَّلاً هي إضاعةُ كفر، هذا مع اتصال الاستثناء، وعليه فسَّر الطبري. وقرأ الجمهور: [يُدْخَلُونَ] بضم الياء وفتح الخاء، وقرأ الحسن كلَّ ما في القرآن (يَدْخُلُونَ) بفتح الياء وضم الخاء.

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ قرأ جمهور الناس: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بنصب الجنَّات على البدل من ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾، وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر، وأبو حيوة برفعها على تقدير: ذلك، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: [جَنَّةَ] على الإفراد والنصب، وكذلك في مصحف عبد الله بن مسعود، وقرأها الأعمش. و«العُدْنُ»: الإقامة المستمرة، وقوله: [بِالْغَيْبِ] أي: أخبرهم من ذلك بما غاب عنهم، وفي هذا مدح لهم على سرعة إيمانهم وقرارهم إذ لم يعاينوا، و«الْمَأْتِيُّ» مفعول على بابه، والأَتِيُّ هو

---

(١) البيت للمرقِّش الأصغر، وهو ربيعة بن سفيان بن سعد، وهو ابن أخٍ للمرقِّش الأكبر، وعمُّ طرفة بن العبد، وقد عشِق فاطمة بنت المنذر، وعرف بأنه من عشاق العرب، وهو أشعر المرقشيْن وأطولهما عُمْراً، والبيت من قصيدة له يصف فيها حبه لفاطمة، ويتحدث عن قصة ترويها كتب الأدب، ويمكن الرجوع إليها في المفضليات. واستشهد بهذا البيت في اللسان على أن الغي هو الضلال.

(٢) زيادة ليست في الأصول ولكنها في حديث أُمامة، ويقتضيها التعبير.

(٣) أخرجه ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: لو أن صخرة زنة عشر أواقٍ قُذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها سبعين خريفاً، ثم تنتهي إلى غَيٍّ وآثام، قلت: وما غيٌّ وآثام؟ قال: نهران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار، وهما اللذان ذكر الله في كتابه: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾. (الدر المنثور). والحديث ضعيف، فيه زكريا بن أبي مريم ضعيف وانظر ميزان الاعتدال ٣/ ١١٠، ولسان الميزان: ٢/ ٤٨٢.

الإنجاز والفعل الذي تضمنه الوعد، وكان إتيانه إنما يقصد به الوعد الذي تقدمه، وقالت جماعة من المفسرين: هو مفعول في اللفظ بمعنى: آتٍ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد، والنظر الأول أصوب.

و«اللَّغْوُ»: السَّقط من القول، وهو أنواع مختلفة كلُّها ليست في الجنة، وقوله: ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ استثناءٌ منقطع، والمعنى: لكن يسمعون سلاماً، وهو تحية الملائكة لهم في كل الأوقات، وقوله: ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ يريد في التقدير، أيْ: يأتيهم طعامهم مرتين في مقدار اليوم والليلة من الزمان، ويروى أن أهل الجنة تنْسَدُّ لهم الأبواب بقدر الليل في الدنيا، فهم يعرفون البُكْرة عند انفتاحها والعَشِيَّ عند انسدادها، وقال مجاهد رحمه الله: ليس بُكْرَةً ولا عَشِياً، ولكن يُؤْتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد ذكر نحوه قتادة، أن تكون مخاطبة بما تعرفه العرب وتستغربه من رفاهة العيش، وجعل ذلك عبارة عن أن رزقهم يأتي على أكمل وجوهه. قال الحسن: خوطبوا على ما كانت العرب تعلم من أفضل العيش، وذلك أن كثيراً من العرب إنما كان يجد الطعام المرَّة في اليوم، وهي غايته، وكان أكثر عيشهم من شجر البَرِّيَّة، ومن الحيوان، ونحوه، ألا ترى قول الشاعر:

أَوْ وَجْبَــةٌ مِــنْ جَنــاةِ أَشْكَلَــةٍ إنْ لَـمْ يُـرِغْهَـا بـالْقَـوْسِ لَـمْ تُنَـلِ[1]

الوجبة: الأَكْلَة في اليوم.

---

(١) الوَجْبَةُ: الأَكْلَة في اليوم والليلة، وفي حديث الحسن: «يطعم عشرة مساكين وجْبَةً واحدةً»، والأشْكَلَةُ: واحدة الأشْكَل وهو السِّدْرُ الجبلي، وفي اللسان (شكل): «قال أبو حنيفة: أخبرني بعض العرب أن الأشكل شجر مثلُ شجر العُنَّاب في شوكه وعَقَفِ أغصانه، غير أنه أصغر ورقاً وأكثر أفناناً، وهو صُلْب جداً، وله نُبَيْقَة حامضة شديدة الحموضة، منابته شواهق الجبال، تُتخذ منه القِسِيُّ، وإذا لم تكن شجرته عتيقة متقادمة كان عودها أصفر شديد الصفرة، وإذا تقادمت شجرته جاء عودها نصفين، نصف شديد الصفرة، ونصف شديد السواد». ويُرِغْها: يطلبها ويريدها، من أراغ بمعنى أراد وطلب. والنصف الأول من البيت شاهد في اللسان على أن الأشكلة هي السِّدرة الجبلية، وهو غير منسوب. والشاعر يصف أكلة العربي في البادية بأنها مرة واحدة في اليوم، وأنها من شجر البرية، ولا يحصل عليها إلا ببحث ومشقة وتعب.

وقرأ الجمهور: (نُورِثُ) بسكون الواو، وقرأ الحسن، والأعرج، وقتادة: [نُوَرِّثُ] بفتح الواو وشدِّ الراء[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾.

قرأ الجمهور: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ بالنون، كأن جبريل عليه السلام عنى نفسه والملائكة، وقرأ الأعرج: [وما يتنزل] بالياء على أنه خبر من الله تعالى أن جبريل لا يتنزَّل، قال هذا التأويل بعضُ المفسرين، ويردُّه قوله: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ لأنه لا يطَّرد معه، وإنما يتَّجه أن يكون خبراً من جبريل عليه السلام أنَّ القرآن لا يتنزَّل إلاَّ بأمر الله تبارك وتعالى في الأوقات التي يقدرها، ورُويت قراءة الأعرج بضم الياء، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: «إلاَّ بقول ربِّكَ».

قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: سبب هذه الآية أن النبي ﷺ أبطأ عنه جبريل مرة، فلمَّا جاءه قال له: (يا جبريل قد اشتقت إليك، أفلا تزورنا أكثر مما تزورنا)؟[٢] فنزلت هذه الآية.

وقال مجاهد، والضحاك: سببها أن جبريل عليه السلام تأخر عن النبي ﷺ عند قوله في الأسئلة المتقدمة في سورة الكهف[٣]: (غداً أُخبركم) حتى فرِح بذلك المشركون، واهتم رسول الله ﷺ، ثم جاءه جبريل عليه السلام، فنزلت هذه الآية في ذلك المعنى، فهي كالتي في الضُّحى[٤].

---

(١) وهي أيضاً قراءة رُوَيس، وحُمَيْد، وابن أبي عبلة، وأبو حيوة، وقرأ الأعمش: [نُورِثُهَا] بإبراز الضمير العائد على الموصول.

(٢) رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: حديث حسن غريب، ورواه البخاري أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما، وجاء في روايته أن النبي ﷺ قال لجبريل: ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية، وذكر السيوطي في «الدر المنثور» أن هذا الحديث أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، وعبد بن حميد، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم، والبيهقي في الدلائل.

(٣) وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

(٤) يعني قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾.

وهذه الواو التي في قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ هي عاطفة جملة كلام على أخرى، وواصلةٌ بين القولين، وإن لم يكن معناهما واحداً، وحكى النقاش عن قوم أن قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ متصل بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ لفظٌ يحتاج إلى ثلاث مراتب، واختلف المفسرون فيها ـ فقال أبو العالية: ما بين الأيدي: الدنيا بأسرها إلى النَّفخة الأولى، وما خَلْفُ: الآخرة إلى وقت البعث، وما بين ذلك: ما بين النفختين. وقال ابن جريج: ما بين الأيدي هو ما مرَّ من الزمن قبل إيجاد من في الضمير، وما خَلْفُ هو ما بعد موتهم إلى استمرار الآخرة، ، ما بين ذلك هو مدَّة الحياة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والآية إنما المقصد بها الإشعار بملك الله تعالى لملائكته، وأنَّ قليل تصرفهم وكثيره إنما هو بأمره، وانتقالهم من مكان إلى مكان إنما هو لخدمته؛ إذ الأمكنة له وهُمْ له، فلو ذُهب بالآية إلى أن المراد بما بين الأيدي وما خلف الأمْكِنَةُ التي تصرُّفهم فيها، وأن المراد بما بين ذلك هُمْ أنفسهم ومقاماتهم ـ لكان وجهاً، كأنه قال: نحن مُقَيَّدُون بالقدرة، لا ننتقل ولا نتنزَّل إلاَّ بأمر ربك(١).

وقال ابن عباس، وقتادة ـ فيما رُوي وما أراه صحيحاً عنهما ـ: ما بين الأيدي هي الآخرة، وما خَلْف هي الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا مختل المعنى إلاَّ على التشبيه بالمكان، كأن ما بين اليد إنما هو ما تقدم

= وهذا الحديث أخرجه ابن جرير عن مجاهد، وأخرج نحوه سعيدُ بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد. (راجع الدر المنثور)، قال الإمام السيوطي: إن هذا القول قال به أيضاً عكرمة، ومقاتل، والكلبي. ولكنهم اختلفوا في المدة التي تأخرها جبريل عليه السلام عن النبي ﷺ.

(١) قال أبو حيان في البحر: «وما قاله ابن عطية ذهب إلى نحوه الزمخشري، قال: له ما قدامنا وما خلفنا من الجهات والأماكن، وما نحن فيه، فلا نملك إلا أن ننتقل من جهة إلى جهة، ومن مكان إلى مكان إلاَّ بأمر المليك ومشيئته، والمعنى أنه محيط بكل شيء، لا تخفى عليه خافية».

وجوده في الزمان بمثابة التوراة والإنجيل من القرآن، وقول أبي العالية إنما يتصور في بني آدم، وهذه المقالة هي للملائكة، فتأمَّلْه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أيْ ممَّن يلحقه نسيان لِبَعْثِنا إليك في وقت المصلحة به، فإنما ذلك عن قدَرٍ له، أي: فلا تطلب أنت يا محمد من الزيارة أكثر مما شاء الله، هذا على ما تقتضيه قوة الكلام على التأويل الواحد، أو فلا تهتم يا محمد بتأخري، ولا تلتفت إلى فرح المشركين بذلك على التأويل الثاني. و[نَسِيّاً] فعيلٌ من النسيان والذهول عن الأمور، وقالت فرقة: [نَسِيّاً] معناه: تاركاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا ضعف لأنه إنما نفى النسيان مطلقاً، فيتمكن ذلك في النسيان الذي هو نص، وأما التَّرْكُ فلا ينْتفي مطلقاً، أَلاَ ترى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾[1]، وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾[2]، فلو قال: نَسِيكَ، أو نحوه من التَّقْييد لهم يصح حمله على الترك، ولا حاجة بنا إلى أن نقول: إن التَّقييد في النِّيَّة لأن المعنى الآخر أظهر. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: «وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا نَسِيَكَ رَبُّكَ»، وروى أبو الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: (مَا أَحَلَّ اللهُ في كِتَابِهِ فَهُوَ حَلالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حرام، وما سكت عنه فهو عافيته فاقبلوا)، ثم تلا هذه الآية[3].

قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الآية. [رَبُّ] بدل من قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾، وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أمرٌ بحمل تكاليف الشرع وإشعارٌ مَّا بصعوبتها، كالجهاد والحج والصدقات، فهي شريعة تحتاج إلى اصطبار، أعاننا الله عليها. وقرأ الجمهور: ﴿هَلْ تَعْلَمُ﴾ بإظهار اللام، وقرأ علي بن نصر عن أبي عمرو بإدغام اللام في التاء، وهي قراءة عيسى، والأعمش، والحسن، وابن محيصن. قال أبو عليٍّ: سيبويه يجيز إدغام اللام في الطاءِ والتَّاءِ والذال والثاء والصاد والزاي والسين،

(١) من قوله تعالى في الآية (١٧) من سورة (البقرة): ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

(٢) من الآية (٩٩) من سورة (الكهف).

(٣) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبزار، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، والحاكم وصححه، عن أبي الدرداء، وذكر الإمام السيوطي في «الدر المنثور» أن أبا الدرداء رفع الحديث، قال: (ما أَحَلَّ الله في كتابه فهو حلال، وما حرَّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً، ثم تلا ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾).

وقرأ أبو عمرو: ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾[١] بإدغامها في الثاء وإدغامها في التَّاء أحق لأنها أدخل معها في الفم، ومن إدغامها في التاء ما روي من قول مزاحم العقيلي:

فَــذَرْ ذا وَلَكِــنْ هَتُّعِيــنُ مُتَيَّمــاً عَلَى ضَوْءِ بَرْقٍ آخِرَ اللَّيْلِ نَاصِبِ؟[٢]

وقوله: ﴿سَمِيًّا﴾ قال قومٌ ـ وهو ظاهر اللفظ ـ: معناه: موافقاً في الاسم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يحسن فيه أن يريد بالاسم ما تقدم من قوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: هل تعلم من يُسَمَّى بهذا ويُوصف بهذه الصفة؟ وذلك أن الأُمم[٣] لا يُسَمُّون بهذا الاسم وثناً ولا شيئاً سوى الله تعالى، وأما الأُلوهية والقدرة فقد يوجد السميُّ فيها، وذلك باشتراك لا بمعنى واحد. وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ سَمِيًّا معناه: مثيلاً أو شبيهاً أو نحو ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ حسن، وكأن السَّمِيَّ بمعنى المسامي والمضاهي، فهو من السُّمُوِّ، وهذا القول يحسن في هذه الآية ولا يحسن فيما تقدَّم في ذكر يحيى عليه السلام[٤].

---

(١) من الآية (٣٦) من سورة (المطففين)، وفي البحر المحيط أن الجمهور قرأ: ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ بإظهار لام هَلْ، والنحويان، وحمزة، وابن محيصن بإدغامها في الثاء، والنحويان هما أبو عمرو بن العلاء، وعليُّ بن حمزة الكسائي.

(٢) مُزاحم بن الحارث العقيلي شاعر إسلامي، كان بدوياً فصيحاً، وكان في زمن جرير والفرزدق، وكان جرير يقرظه ويقدمه، والبيت في الكتاب لسيبويه، والرواية فيه: «فَدَعْ ذا»، والمُتَيَّم: الذي تَيَّمه الحبُّ واستعبده، ، النَّاصب: المُصِب المُتْعِب، وهو غير جار على فعله؛ لأن الفعل (أنصب) فهو منصب، وإنما هو على النسب كتامرٍ ولابنٍ. وقد جعل البرقَ مُتْعِباً له لما يعانيه من مراعاته وتعرف المكان الذي ينزل فيه مطره، هل يكون في مكان المحبوب أم في غيره، ولهذا سأل أن يُعَانَ على مراعاته، أو طلب من يعينه على السهر معه لما يحدثه البرق من شجو وحنين. والشاهد فيه إدغام اللام في التاء، أي: لام (هل) في تاء (تُعِينُ) لأنهما متقاربان في المخرج، إذ هما من حروف طرف اللسان الصعبة في النطق، فهي أحوج إلى الإدغام من غيرها، ولهذا فإن بعض القراء أدغم اللام في التاء في قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ فقرأ: [بَتُّؤْثِرُونَ].

(٣) في بعض النسخ: «وذلك أن الأمم والفِرَق».

(٤) أي قوله تعالى قبل ذلك: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴿٦٩﴾ ﴾.

[الإِنْسَانُ] اسم للجنس يُراد به الكافرون، ورُوي أن سبب هذه الآية هو أن رجالاً من قريش كانوا يقولون هذا ونحوه، ورُوي أن القائل هو أُبيٌّ بن خلف، جاء إلى النبي ﷺ بعظم رفات ونفخ فيه وقال: أيبعث هذا؟ وكذَّب وسخر، وقيل: إن القائل هو العاصي بن وائل، وقرأ الأعرج، وأبو عمرو: [أئِذَا] بالاستفهام الظاهر، وقرأت فرقة: [إذَا] دون ألف استفهام، وقد تقدم هذا مستوعَباً[(١)]. وقرأت فرقة: (مِتُّ) بكسر الميم، وقرأت فرقة بضمها واللام في قوله: [لَسَوْفَ] مجلوبة على الحكاية لكلام معلَّم بهذا المعنى، كأن قائلاً قال لكافر: إذا مِتَّ يا فلان لسوف تخرج حَيّاً، فقرَّره الكافر على جهة الاستبعاد، وكرر الكلام حكاية للقول الأول[(٢)]. وقرأ جمهور الناس: (أُخْرَجُ) بضم الهمزة، وقرأ الحسن ـ بخلاف ـ وأبو حيوة: [أَخْرُجُ] بفتح الهمزة وضم الراء.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الآية احتجاجٌ، خاطب الله تبارك وتعالى نبيَّه محمداً ﷺ رادّاً على مقالة الكافر. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ﴾، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [أولا يذَّكَّر] بشد الذال والكاف، وقرأ أُبَيُّ بن كعب رضي الله عنه: [أولا يَتَذَكَّرُ]، والنشأة الأولى والإخراج من العدم إلى الوجود أوضح دليل على جواز البعث من القبور، ثم قرَّرَ ذلك وأوجبه السمعُ، وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ دليلٌ على أن المعدوم لا يُسَمَّى شيئاً، قال أبو علي الفارسي: أراد شيئاً موجوداً.

---

(١) قرأ الجمهور [أئِذَا]، وقرأ ابن ذكوان وجماعة [إذَا] على الخبر، وقد تقرر ذلك في كثير من الآيات، وقد قال أبو حيان في البحر المحيط: «ومن قرأ من القراء على صورة الخبر فلا يريد الخبر حقيقة لأن ذلك يكون تصديقاً بما هو موضع الاستفهام والإنكار، لكنه يحذف همزة الاستفهام لدلالة المعنى عليه».

(٢) نقل أبو حيان الأندلسي هذا الكلام في البحر المحيط، ثم عقب عليه بقوله: «ولا يُحتاج إلى هذا التقدير، ولا إلى أن هذا حكاية لقول تقدم، بل هذا من الكافر استفهام فيه معنى الجحد والإنكار، ومن قرأ: ﴿إذا ما مت﴾ تكون الهمزة قد حذفت لدلالة المعنى عليها، وقد يكون إخباراً على سبيل الهُزْءِ والسُّخْرِية بمن يقول ذلك إذ لم يرد به مطابقة اللفظ للمعنى».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه نزعة اعتزالية فتأملها.

وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ الآيةَ وعيدٌ يكون ما بعده على أصعب وجوهه، والضمير في قوله: ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾، عائد على الكفار القائلين ما تقدم، ثم أخبر أنه يقرن بهم الشياطين المُغْوِينَ لهم، وقوله: ﴿جِثِيًّا﴾ جمع جاثٍ كقاعد وقعود وجالس وجلوس، وأصله: جُثُوواً، وليس في كلام العرب واوٌ متطرفة قبلها ضمة فوجب أن تُعَلَّ، ولم يُعتَدَّ ها هنا بالساكن الذي بينهما لِخِفَّته وقِلَّة حوله فقلبت ياءً فجاءَ جُثُوياً، فاجتمع الواو والياءُ وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت ياءً، ثم أُدغمت الياءُ في الياء ثم كسرت الثاءُ للتناسب بين الكسر والياء. وقرأ الجمهور ﴿جُثِيًّا﴾ و﴿صُلِيًّا﴾[1] بضم الجيم والصاد، وقرأ ابن وثاب والأعمش: ﴿جِثِيًّا﴾ و﴿صِلِيًّا﴾ بكسر الجيم والصاد. وأخبر الله تعالى أنه يُحضر هؤلاء المنكرين للبعث مع الشياطين فيجثون حول جهنم، وهي قعدة الخائف الذليل على ركبتيه كالأسير ونحوه، وقال قتادة: ﴿جِثِيًّا﴾ معناه: على ركبهم، وقال ابن زيد: الجثي شرُّ الجلوس.

و«ٱلشِّيعَةُ»: الفرقة المرتبطة بمذهب واحد، المتعاونة فيه، كأن بعضهم يشيع بعضاً، أيْ ينبِّه منه، ومنه تشييع النار بالحطب، وهو وَقْدُهَا بالحطب شيئاً بعد شيء، ومنه قيل للشجاع: مشيع القلب، فأخبر الله تعالى أنه ينزع من كل شيعة أعتاها وأولاها بالعذاب فتكون تلك مقدمتها إلى النار، وقال أبو الأحوص: المعنى: نبدأ بالأكابر جُرْماً. ثم أخبر تعالى في الآية بَعْدُ أنه أعلم بمستحقِّي ذلك وأبصر؛ لأنه لم يَخْف عليه حالهم من أولها إلى آخرها.

وقرأ بعض الكوفيين، ومعاذ بن مسلم، وهارون القارىء: [أَيَّهُمْ] بالنصب، وقرأ الجمهور: (أَيُّهُمْ) بالضم، إلاَّ أن طلحة والأعمش سكَّنا ميم [أَيُّهُمْ]، واختلف الناس في وجه رفع (أَيٌّ) ـ فقال الخليل: رَفْعُه على الحكاية بتقدير: الذي يُقال فيه من أجل عُتُوِّه: أَيُّهُمْ أَشَدُّ، وقرنه بقول الشاعر:

---

(١) في قوله تعالى بعد ذلك بآية واحدة: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠﴾، ونُعَقِّب على كلام المؤلف بأن قراءة عاصم في رواية حفص بالكسر في الكلمتين.

ولَقَــدْ أبيــتُ مــنَ الْفَتَــاةِ بِمَنْــزِلٍ   فَــأَبِيــتُ لاَ حَــرِجٌ ولا مَحْــرُومُ[1]

أي: فأبيتُ يقال فيَّ: لا حرِجٌ ولا محروم، ورجَّح الزجاج قول الخليل، وذكر عنه النحاسُ أنه غَلَّط سيبويه في هذه المسألة[2]، قال سيبويه: ويلزم على هذا أن يجوز: «اضرب السارق الخبيثُ»، أي الذي يقال له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس بلازم؛ من حيث هذه أسماءٌ مفردة والآية جملة، وتسلُّط الفعل على المفرد أعظم منه على الجملة، ومذهب سيبويه أن [أَيُّهُمْ] مبني على الضمِّ؛ إذ هي أُخت لـ«الذي» ولِـ«ما»، وخَالَفَتْهُما في جواز الإضافة فيها فأُعربت لذلك، فلما حذف من صلتها ما يعود عليها ضعفت فرجعت إلى البناء، وكان التقدير: أَيُّهُمْ أَشَدُّ. وقال أبو علي: حُذف ما الكلام مفتقر إليه فوجب البناءُ، وقال يونس: عُلِّق عنها الفعل فارتفعت بالابتداء، قال أبو علي: معنى ذلك أنه يعمل في موضع ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ إلاَّ أنه ملغىٰ لأنه تعلق جملة، إلاَّ أفعال الشك كظننت ونحوها مما لم يتحقق وقوعه. وقال الكسائي: ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ معناه: لَنُنَادِيَنَّ، فعومل معاملة الفعل المراد فلم يعمل في [أي]. وقال المبرد: ﴿أَيُّهُمْ﴾ متعلق بـ﴿شِيعَةٍ﴾ فلذلك ارتفع، والمعنى: من الذين تشايعوا أَيُّهم أشد، كأنهم يتبارون إلى هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويلزمه أن يقدر مفعولاً لـ[نَنْزِعَنَّ] محذوفاً.

وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿أَيُّهُمْ أكبر﴾. و﴿عِتِيّاً﴾ مصدر، وأصله: عتووا، أُعِلَّ بما أُعل به ﴿جِثيّاً﴾، وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: ينذلقُ عُنُقٌ من النار

---

(١) البيت للأخطل، وهو في الديوان، وابن الشجري، وابن يعيش، والخزانة، والإنصاف، وروح المعاني، والقرطبي، و«بمنزلٍ»: في مكان قريب مكين، لا حرجٌ: لا أتحرج من لذة، ولا محروم: لا أُحْرم ما اشتهي، والشاهد في أنه رفع «حرِجٌ ومحرومٌ»، وكان وجه الكلام أن ينصبا على الحال. وفي البيت من الخلاف مثل ما في إعراب الآية الكريمة.

(٢) نقل عنه القرطبي أنه قال: «وما علمتُ أحداً من النحويين إلا وقد خطَّأ سيبويه في هذا، وسمعت أبا إسحق يقول: ما يَبِينُ لي أن سيبويه غَلِطَ في كتابه إلاَّ في موضعين هذا أحدهما، قال: وقد علمنا أن سيبويه أعرب (أيّاً) مُفردة لأنها تضاف، فكيف يبنيها وهي مضافة؟».

فيقول: إنِّي أُمرت بكل جبّار عنيد، فتلفظهم. . . الحديث[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾.

أي: نحن في ذلك النَّزع لا نضع شيئاً في غير موضعه؛ لأننا قد أحطنا علماً بكل أحد، والأولى بصلي النار نعرفه، و«الصِّلِي» مصدرُ صَلِيَ يَصْلَى إذا باشر. قال ابن جريج: المعنى: أولى بالخلود.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ حَتْمٌ، والواو تقتضيه، ويفسره قول النبي ﷺ: (من ماتَ له ثلاثة من الولد لم تمسَّه النَّارُ إلاَّ تحِلَّة القَسَم)[٢]. وقرأ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة، وجماعة: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ بالهاء، على إرادة الكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فلا شَغْب في هذه القراءة.

وقالت فرقة من الجمهور القارئين [مِنْكُمْ]: المعنى: قلْ لهم يا محمد، فإنما المخاطب بـ[مِنْكُمْ] الكفرةُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتأويل هؤلاء أيضاً سهل التناول.

وقال الأكثر: المخاطبُ العالَمُ كلُّه، ولا بُدَّ من ورود الجميع، واختلفوا في كيفية

---

(١) أخرجه الترمذي، والإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه في رواية، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في رواية أخرى. ولفظه كما رواه عن أبي سعيد (٣ـ٤٠): (عن نبي الله ﷺ أنه قال: يخرج عنق من النار يتكلم، يقول: وُكِّلْت اليوم بثلاثة: بكل جبار، وبمن جعل مع الله إلهاً آخر، وبمن قتل نفساً بغير نفس، فينطوي عليهم فيقذفهم في غمرات جهنم).

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرج الطبراني نحوه عن عبد الرحمن بن بشير الأنصاري رضي الله عنه. (الدر المنثور). والحديث يدل على أنه أيضاً يرد النار، والورود له معان سيذكرها ابن عطية، وأقربها أنها ستكون برداً وسلاماً على المؤمنين.

ورود المؤمنين ـ فقال عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وخالد بن معدان، وابن جريج، وغيرهم: وُرود دخولٍ، لكنها لا تعدو على المؤمنين، ثم يخرجهم الله منها بعد معرفتهم بحقيقة ما نَجَوْا منه. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في هذه المسألة لنافع بن الأزرق الخارجي: أمَّا أنا وأنت فلا بُدَّ أن نردها، أما أنا فينجيني الله منها، وأما أنت فما أظنه يُنجيك، وقالوا: في القرآن أربعة أوْراد معناها الدخول، هذا أحدها، وقوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[3]، وقالوا: كان دعاءُ بعض السَّلَف: «اللهم أدخلني النَّار سالماً، وأخرجني منها غانماً»، وروى جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: (الورود في هذه الآية هو الدخول)[4]، وأشفق كثير من العلماء من تحقيق الورود والجهل بالصدور[5].

وقالت فرقة: بل هو ورود إشراف واطلاع وقرب، كما تقول: «وردت الماءَ» إذا جئته، وليس يلزم أن تدخل فيه، قالوا: وحَسْبُ المؤمنين بهذا هوْلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾[6].

---

(١) من الآية (٩٨) من سورة (هود).

(٢) من الآية (٨٦) من هذه السورة (مريم).

(٣) من الآية (٩٨) من سورة (الأنبياء).

(٤) أخرجه أحمد، وعَبْد بن حميد، والحكيم الترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورود، فقال بعضها: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا: يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذين اتقوا، فلقيت جابر بن عبد الله، فذكرت له، فقال ـ وأَهْوَى بإصبعيه إلى أُذنيه صمتاً ـ إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا يبقى بَرٌّ ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً).

(٥) روي أن ابن رواحة أراد الخروج إلى الشام، فأتاه المسلمون يودعونه، فبكى، فقال: والله ما بي حب الدنيا، ولا صبابة لكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾، فقد علمت أنِّي وارد النار، ولا أدري كيف الصدور بعد الورود، وعن الحسن أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا التقوا يقول الرجل لصاحبه هل أتاكَ أنَّك وارد؟ فيقول: نعم، فيقول: هل أتاك أنَّك خارج؟ فيقول: لا، فيقول: ففيم الضَّحك إذاً؟.

(٦) من الآية (٢٣) من سورة (القصص).

وروت فرقة أن الله تعالى يجعل النار يوم القيامة خامدة الأعْلَى كأنها هالة، فيأتي الخلق كلهم بَرُّهم وفاجرهم، فيقعون عليها، ثم تسوخ بأهلها، ويخرج المؤمنون الفائزون ولم ينلهم ضر، فقالوا: هذا هو الورود.

وروت حفصة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (لا يدخل النار أحد من أهل بدر والحديبية)، قالت: فقلت: يا رسول الله، وأين قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: (فَمَه، ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾)[١]، ورجَّح الزَّجاج هذا القول بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[٢].

وذكر النقاش عن بعضهم أنه قال: نُسخ قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وليس هذا موضع نسخ.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: وُرودُهُم هو جوازهم على الصراط، وذلك أن الحديث الصحيح تضمن أن الصراط مضروب على جسر جهنم، فيمر الناس كالبرق الخاطف، وكالرِّيح، وكالجواد من الخيل، وعلى مراتب، ثم يسقط الكافر في جهنم وتأخذهم كلاليب[٣]، قالوا: فالجواز على الصراط هوالورود الذي تضمنته هذه الآية.

وقال مجاهد: وُرودُ المؤمنين هو الْحُمَّى التي تصيبهم في دار الدنيا، وفي الحديث (الحُمَّى من فَيْح جهنم، فَأَبْرِدوها بالماء)[٤]، وفي الحديث أيضاً (الحُمَّى حظ كل

---

(١) أخرجه مسلم، من حديث أُمّ مُبَشِّر، قالت: سمعتُ النبي ﷺ يقول عند حفصة الحديث، وزاد الإمام السيوطي في «الدر المنثور» نسبته إلى ابن سعد، وأحمد، وهناد، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، والطبراني، وابن مردويه. هذا وأُمُّ مُبَشِّر هي امرأة زيد بن حارثة.

(٢) الآية (١٠١) من سورة (الأنبياء).

(٣) أخرجه أحمد، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، والترمذي، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث، وابن مردويه، عن ابن مسعود، وأخرج مثله عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن مسعود أيضاً، وأخرج نحوه عن ابن مسعود أيضاً ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه. (ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور).

(٤) أخرجه مسلم في السلام، وابن ماجه في الطب، وأحمد (٥ـ٢١٦، ٦ـ٣٤٦)، ولفظه كما في صحيح مسلم، عن رافع بن خديج، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (إن الحمَّى فوْرٌ من جهنم فأبردوها بالماء).

مُؤمِنٍ من النار)[١]، وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لرجل عاده من الحُمَّى: (إن الله يقول: هي ناري أُسَلِّطها على عبدي المؤمن لتكون حظه من نار الآخرة)[٢]، فهذا هو الورود.

و«الْحَتْمُ»: الأمر المنفذ المجذوم[٣]، وقرأ أُبَيُّ بن كعب، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: [ثَمَّ] بفتح الثاء على الظرف، وقرأ ابن أبي ليلى: [ثَمَّه] بفتح الثاء وهاء السكت، وقرأ نافع وابن كثير، وجمهور الناس: (نُنَجِّي) بفتح النون الثانية وشد الجيم، وقرأ يحيى، والأعمش: [نُنْجِي] بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم، وقرأت فرقة: [نُجِّي] بضم النون الواحدة وشد الجيم وكسرها، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: [ثَمَّ] بفتح الثاء [نُحِّيَ] بالحاء غير منقوطة.

و﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ معناه: اتقوا الكفر. وقال بعض العلماء: «لا يضيع أحدٌ بين الإيمان والشفاعة»، و[نَذَرُ] دالَّة على أنهم كانوا فيها، و«الظُّلْمُ» هنا هو ظُلْم الكفر. وقد تقدم القول في قوله: [جِثِيّاً]، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا مِنْهَا وَنَتْرُكُ ٱلظَّالِمِينَ».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾.

قرأ الأعرج، وابن محيصن، وأبو حيوة: ﴿وإِذَا يُتْلَىٰ﴾ بالياء من تحت.

وسبب هذه الآية أن كفار قريش لما كان الرجل منهم يكلم المؤمن في معنى الدين فيقرأُ المؤمن عليه القرآن، ويبهره بآيات النبي ﷺ، كان الكافر منهم يقول: إن الله إنما يُحسِن لأَحب الخلق إليه، وإنما يُنْعِم على أهل الحق، ونحن قد أنعم علينا دونكم، فنحن أغنياءُ وأنتم فقراءُ، ونحن أحسن مجلساً وأجمل شارةً، فهذا المعنى ونحوه هو المقصود بالتوقيف في قوله تعالى: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾؟

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد، قال: (الحمَّى حظ كل مؤمن من النار)، ثم قرأ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، هكذا ذكر في «الدر المنثور»، وهو غير مرفوع.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة.

(٣) هذا رأي مجاهد وآخرين، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الحَتْمُ المَقْضيُّ: القَسَم الواجب.

وقرأ نافع، وابن عباس رضي الله عنهما: (مَقَاماً) بفتح الميم، و﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾[١] بالفتح أيضاً، وهو المصدر من قام، أو الظرف منه في[٢] موضع القيام. وهذا يقتضي لفظ المَقَام، إلاَّ أن المعنى في هذه الآية يجوز أنه واقع على الظرف فقط، وقرأ أُبَيٌّ رضي الله عنه: «في مُقَام أمين»[٣]، بضم الميم، وقرأ ابن كثير: [مُقَاماً] بضم الميم، وهو ظرف من أقام، وكذلك أيضاً من المصدر منه مثل ﴿مَجْرِنهَا وَمُرْسَنهَآ﴾[٤]، وقرأ: ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ و﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ بالفتح، وقرأ أبو عمرو، والكسائي، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم جميعَهُنَّ بالفتح، وروى حفصٌ عن عاصم ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ بالضم.

و«النَّدِي» والنَّادي: المجلس فيه الجماعة، ومنه قول حاتم الطائي:

وَدُعِيتُ فِي أُولَى النَّدِيِّ وَلَمْ ... يُنْظَرْ إِلَيَّ بِأَعْيُنٍ خُزْرِ[٥]

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ مخاطبة من الله تبارك وتعالى لنبيِّه محمد ﷺ، خبر يتضمن كسر حُجَّتهم واحتقار أمرهم؛ لأن التقدير: هذا الذي افتخروا به لا قَدْر له عند الله، وليس بِمُنْجٍ لهم، فكم أهلك الله من أُمم لمَّا كفروا وهم أَشَدُّ من هؤلاء وأكثر أموالاً وأجمل منظراً. و«القَرْنُ»: الأمَّة يجمعها العصر الواحد، واختلف الناس في قدر المُدَّة التي إذا اجتمعت أُمة سُمِّيت تلك الأمة قرناً ـ فقيل: مائة سنة، وقيل: ثمانون سنة، وقيل: سبعون، وقد تقدم القول في هذا غير مرة. و«الأَثاثُ»: المالُ العَيْن والعَرَض والحيوان، وهو اسمٌ عام، واختلف، هل هو جمع أو إفراد؟ فقال الفراءُ: هو اسمُ جَمْع لا واحد له من لفظه كالمتاع، وقال خلف الأحمر، هو جَمْعٌ واحده أثاثة، كحمامَةٍ وحمامٍ، ومنه قول الشاعر:

---

(١) من قوله تعالى في الآية (١٣) من سورة (الأحزاب): ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾.
(٢) في بعض النسخ «أي» بدلا من «في» وهي أشبه.
(٣) من قوله تعالى في الآية (٥١) من سورة (الدخان): ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾.
(٤) من الآية (٤١) من سورة (هود).
(٥) البيت من أبيات قالها حاتم يمدح بني بدر، وهو في الديوان، وفي اللسان (خزر)، والنَّدِيُّ: المجلسُ ما دام القوم مجتمعين فيه، والجمع: الأندية. والخُزْرُ: جمع خَزْراءَ، وهو ضيق العين، وقيل: هو أن يكون الإنسان كأنه ينظر بمؤخرها. والبيت هنا شاهد على أن النَّدِيَّ هو المجلس فيه الجماعة.

أَشَـاقَتْـكَ الظَّعـائِـنُ يَـوْمَ بـانُـوا بِذِي الرِّئْيِ الْجَميلِ مِنَ الأَثَاثِ؟[١]

وأنشد أبو العباس:

لَقَـدْ عَلِمَـتْ عُـرَيْنَـةُ حَيْـثُ كـانُـوا بِـأَنَّـا نَحْـنُ أَكْثَـرُهُـمْ أَثَـاثـاً[٢]

وقرأ نافع ـ بخلاف ـ وأهل المدينة: [وَرِيّاً] بياءٍ مشددة، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه فيما روي عنه، وطلحة: [وَرِياً] بياءٍ مخففة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي: (وَرِئْياً) بهمزة بعدها ياءٌ، على وزن رِعْياً، ورويت عن نافع، وابن عامر، رواها أشهب عن نافع، وقرأ أبو بكر عن عاصم: [وَرِيْئًا] بياءٍ ساكنة بعدها همزة، وهو على القلب، وزنها فِلْعًا، وكأنه من راءَ[٣]، وقال الشاعر:

وكُـلُّ خَليـلٍ راءَنـي فَهْـوَ قـائِـلٌ مِنَ أَجْلِكَ: هذا هامَةُ الْيَوْمِ أَوْ غَدِ[٤]

---

(١) البيت لمحمد بن نمير الثقفي، وأنشده أبو عبيدة، وهو في، القرطبي والطبري، واللسان، والكامل، وقد قاله الشاعر من أبياتٍ يُشبب فيها بزينب أُختِ الحجاج بن يوسف الثقفي، فتوعَّده فهرب منه، والقصة في الكامل للمبرد، والظّعائن: جمع ظعينة، وهي الزوجة في الهودج عند الرحيل، وبانُوا: سافروا وابتعدوا، والرِّئْيُ: المنظر، وهو ما رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة، هذا إذا كانت الكلمة مهموزة، قال الفراءُ في الآية: «أهلُ المدينة يقرؤونها: [رِيّاً] بغير همز، قال: وهو وجه جيِّدٌ من رأيت». والبيت هنا شاهد على أن الأثاث هو المتاع وما كان من مالٍ، وقيل: هو كثرة المال، أو هو المال كله: الإبل والغنم والعبيد والمتاع.

(٢) عُرَيْنَةُ حيٌّ من اليمن، وعَرِين حيٌّ من تميم، ولهم يقول جرير:

عَـرِيـنٌ مِـنْ عُـرَيْنَـةَ لَيْـسَ مِنَّـا بَـرِئْـتُ إلـى عُـرَيْنَـةَ مِـنْ عَـرِيـن

والأثاث في الأصل: الكثرةُ والعِظَمُ من كلِّ شيءٍ، وهو هنا الكثير من المال، بل قيل: هو المالُ كله، وما كان من لِبَاسٍ وحشو للفراش فاسْمُه المتاع، وواحدته أثاثةٌ. يفخر الشاعر على عُرينة في كل مكان بأنهم أكثر منهم مالاً ومتاعاً.

(٣) في بعض النسخ: «وكأنه من وراء»، وما اخترناه هو الصواب.

(٤) البيت لكثيِّر، وهو في اللسان (رأى) و(هوم)، قال: «ويقال: رَاءَهُ في رَآهُ، قال كُثَيِّر: وكلُّ خليل... البيت» فهو شاهد على أن رَاءَ لغة في رَأَى، ووزنه فَلَع، ومثله في ذلك قول قيس بن الخطيم:

فَلَيْـتَ سُـوَيْـداً راءَ مَـنْ فَـرَّ مِنْهُـمُ وَمَـنْ جَـرَّ إذْ يَحْدُونَهُـمْ بـالـرَّكَـائِـبِ

وفي التهذيب: «ومن قلب الهمزة من رَأَى قال: راءَ، كقولك: نأَى وناءَ». والهامة أعْلَى الرأس، وفيه الناصية والقصة، وفيه المفرق، وكانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لم يُؤخذ بثأره تصير هامةً فتزقو عند قبره، تقول: اسقوني اسقوني، ويقال: هذا هامَةُ اليوم أو غدٍ، أيْ يموت اليومَ أو غداً. فهو قد صار عليلاً بسبب حبها حتى يحسب الرائي أنه سيموت قريباً.

فأَما القراءتان المهموزتان فهما من رؤية العين، الرِّئْيُ اسمُ المَرْئي الظاهر للعين كالطِّحْن والسِّقي، قال ابن عباس: الرِّئْي: المنظر، قال الحسن: ورياً بمعناه، وأما المشدَّدة الياء فقيل: هي بمعنى المهموزة إلا أن الهمزة خففت لتستوي رؤُوس الآي. وذكر منذر بن سعيد عن بعض أهل العلم أنه من الرِّي في السُّقْيا، كأنه أراد أنهم خير منهم بلاداً وأطيب أرضاً وأكثر نعماً؛ إذْ جملة النِّعم إنما هي من المطر، وأما القراءة المخففة الياء فضعيفة الوجه، وقد قيل: هي لحنٌ. وقرأ سعيد بن جبير، ويزيد البربري، وابن عباس أيضاً: [وَزِيّاً] بالزاي، وهي بمعنى الملبس وهيئته، تقول: زَيَّيْتُ بمعنى: زَيَّنْتُ[1].

وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ فقولٌ يحتمل معنيَيْن: أحدهما أن يكون بمعنى الدعاء والابتهال، كأنه يقول: الأَضَلُّ منا ومنكم مدَّ اللهُ له حتى يؤُول ذلك إلى عذابه. والمعنى الآخر أن يكون بمعنى الخبر كأنه يقول: من كان ضَالاً من الأمم فعادة الله فيه أن يمد له ولا يعاجله حتى يُفْضي ذلك إلى عذابه في الآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فاللام في قوله تعالى: [فَلْيَمْدُدْ] على المعنى الأول لاَمُ رغبة في صيغة أمر، وعلى المعنى الثاني لاَمُ أمر دخلت على معنى الخبر ليكون أوكد وأقوى، وهذا موجود في كلام العرب وفصاحتها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾.

[حَتَّى] في هذه الآية حرف ابتداءٍ دخلت على جملة، وفيها معنى الغاية، و[إذَا]

---

(١) وقيل: يجوز أن يكون من زويت بمعنى جمعْتُ، فيكون أصلها: زِوْيَا، فقلبت الواو ياءً، قال ﷺ: زُوِيَتْ لي الأرض، أيْ جُمِعَت، وقال الأعشى:

يَـزِيـدُ يَغُـضُّ الطَّـرْفَ دُونـي كَـأنَّمَـا ... زَوَى بَيْـنَ عَيْنَيْـهِ عَلَـيَّ الْمَحَـاجِـم

شرط، وجوابها في قوله تعالى: [فَسَيَعْلَمُونَ]، و«الرُّؤْيَةُ» رُؤْية العين، و[ٱلْعَذَاب] و[ٱلسَّاعَةَ] بدلٌ من [مَا] التي وقعت عليها [رَأَوْا]. و[إِمَّا] هي المدخلة للشك في أول الكلام، والثانية عطف عليها. و[ٱلْعَذَابَ] يريد به عذاب الدنيا ونُصْرَةَ المؤمنين عليهم، و«الْجُنْدُ» النُّصْرةُ والقائمون بأمر الحرب، و﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ بإزاء قولهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾، و﴿أَضْعَفُ جُنْدًا﴾ بإزاء قولهم: ﴿أَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

ولما ذكر ضلالة الكفر، وارتباكهم في الامتحان بنعم الدنيا وعماهم عن الطريق المستقيم، عقب ذلك بذكر نعمته على المؤمنين، في أنه يزيدهم هدى في الارتباط إلى الأعمال الصالحة، والمعرفة بالدلائل الواضحة، وزيادة العلم دأباً، قال الطبري عن بعضهم: المعنى: بناسخ القرآن ومنسوخه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا مثالٌ.

و﴿البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ إشارةُ إلى ذلك الهدى الذي يزيدهم الله، وهذه النعم على هؤلاء خير عند الله ثواباً وخير مرجعاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقول في زيادة الهُدَى سهلٌ بَيِّنُ الوجوه[1].

و﴿البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ كلُّ عملٍ صالح يرفع الله به درجة عامله، وقال الحسن: هي الفرائض، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي الصلوات الخمس، ورُوي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنها الكلمات المشهورات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر، فقد قال ﷺ لأبي الدرداء رضي الله عنه: (خُذْهُنَّ قبل أن يحال بينك وبينهن، فهُنَّ الباقيات الصالحات، وهُنَّ من كُنوز الجنَّة)[2]، وروي

---

(١) سبق بيان ذلك في مواضع مختلفة، وخلاصة الآراء خمسة: (١) ويزيد الله الذين اهتدوا بالتوحيد إيماناً، (٢) يزيدهم بصيرة في دينهم، (٣) يزيدهم إيماناً بزيادة الوحي، كلما نزلت سورة زادتهم إيماناً، (٤) يزيدهم إيماناً بالناسخ والمنسوخ، (٥) يزيد الذين اهتدوا بالمنسوخ هدىً بالناسخ.

(٢) أخرج الطبراني، وابن شاهين في الترغيب في الذكر، وابن مردويه، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله هُنَّ الباقيات الصالحات، وهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها، وهن من كنوز الجنة). (الدر المنثور)، =

عنه ﷺ أنه قال يوماً: (خُذُوا جُنَّتكم)، قالوا: يا رسول الله، أَمِنْ عدوٍّ حضر؟ قال: (من النار)، قالوا: ما هي يا رسول الله؟ قال: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر، هنَّ الباقيات الصالحات)[١]، وكان أبو الدرداءِ رضي الله عنه إذا ذكر هذا الحديث يقول: «لأُهَلِّلَنَّ ولأُكبِّرَنَّ الله ولأُسبِّحَنَّهُ حتى إذا رآني الجاهل ظنَّني مجنوناً».

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾. الفاءُ في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ عاطفة بعد ألف الاستفهام، وهي عاطفة جملة على جملة، و﴿ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ يعني به العاصي بن وائل السهمي، قاله جمهور المفسرين، وخبره أن خَبَّاب بن الأَرَتِّ كان قَيْناً[٢] في الجاهلية، فعمل له عملاً، فاجتمع له عنده دين، فجاءه يتقاضاه، فقال له العاصي بن وائل: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقال خَبَّاب: لا أكفر بمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى يميتك الله ثم يبعثك، قال العاصي: أوَ مبعوثٌ أنا بعد الموت؟ قال خبَّاب: نعم، قال: فإذا كان ذلك فسيكون لي مالٌ وولد، وعند ذلك أقضيك دينك، فنزلت الآية في ذلك[٣].

وقال الحسن: نزلت في الوليد بن المغيرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد كانت للوليد أيضاً أقوالٌ تشبه هذا الغرض.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: (وَوَلَداً) على معنى اسم الجنس، بفتح الواو واللام،

= وفي رواية لقتادة ذكر نحو ذلك، ثم زاد عليه أنه قال صلوات الله وسلامه عليه: (خُذْهن إليك يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن، فإنهن من كنوز الجنة وصفايا الكلام، وهن الباقيات الصالحات)، قال القرطبي: ذكره الثعلبي، وخرجه ابن ماجه بمعناه من حديث أبي الدرداء، وأخرجه الترمذي من حديث الأعمش عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(١) أخرجه النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبرني في الصغير، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي هريرة رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٢) القَيْن: الحدَّاد.

(٣) أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والترمذي، والبيهقي في الدلائل، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، عن خبَّاب بن الأرت، قال: كنتُ رجلاً قيناً... الحديث. (الدر المنثور).

وكذلك كل ما في سائر القرآن، إلاَّ في سورة نوح[(١)] فإنهما قرأا بضم الواو وسكون اللام. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر بفتح الواو في كل القرآن، وقرأ حمزة، والكسائي: [وَوُلْداً] بضم الواو وسكون اللام، وكذلك في جميع القرآن، وقرأ ابن مسعود: «وِلْداً» بكسر الواو وسكون اللام، واختُلِف مع ضم الواو ـ فقال بعضهم: هو جَمْع وَلَد كأَسَد وأُسْد واحتجوا بقول الشاعر:

فَلَقَـــدْ رَأَيْـــتُ مَعَـــاشِـــراً ... قَـــدْ ثَمَّـــرُوا مـــالاً وَوُلْـــداً[(٢)]

وقال بعضهم: هو مفرد، واحتجوا بقول الشاعر:

فَلَيْـتَ فُـلانـاً كـانَ فـي بَطْـنِ أُمِّـهِ ... وَلَيْـتَ فُـلانـاً كـانَ وُلْـدَ حِمَـارِ[(٣)]

قال أبو عليٍّ رحمه الله: وفي قراءة حمزة والكسائي ما كان مفرداً قصد به المفرد، وما كان جمعاً قصد به الجمع، وقال الأخفش: الوَلد: الابن، والوُلْد: الأهل والوالد، وقال غيره: الوَلَد: بطن الرجل الذي هو منه، حكاه أبو علي في الحجة.

وقوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ توقيف، والألف للاستفهام، وحذفت في الوصل للاستغناء عنها[(٤)]، و«اتِّخاذُ العهد» معناه: بالإيمان والأعمال الصالحة. و[كَلاَّ] زجرٌ وردعٌ، ثم أخبر تعالى أن قول هذا الكافر سيكتب، على معنى حِفْظه عليه ومعاقبته به، وقرأ عاصم[(٥)]، والأعمش: [سَيُكْتَبُ] بياءٍ مضمومة، وقرأ: (سَنَكْتُبُ) بالنون أبو

---

(١) يعني قوله تعالى في الآية (٢١): ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾.

(٢) قال هذا البيت الحارثُ بن حِلِّزة، وهو سابع أبيات قالها يصف غدْر الدهر، ويُنَدِّد بمن يكنز الأموال، وهو في اللسان (ولد)، واستشهد به الفراءُ في (معاني القرآن)، وقال: والوَلَدُ والوُلْدُ لغتان مثل ما قالوا: العَدَمُ والعُدْمُ.

(٣) هذا البيت في اللسان (ولد) غير منسوب، وقد استشهد به على أن الوُلْدَ مفرد، وقد اختلفت الأقوال في الوَلَد والوُلْد، وذكرها صاحب اللسان، قال ابن سيدة: الوَلَدُ والوُلْدُ: ما وُلد أيّاً كان، وهو يقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى، وقد يجوز أن يكون الوُلْد جمع وَلَد كوُثْن ووَثَن، وقال الزجاج: الوَلَدُ والوُلْد واحد، مثل العَرَب والعُرْب والعَجَم والعُجْم... الخ، وقيل: إن قيساً تجعل الوُلْد بالضم جميعاً، والوَلَد بالفتح واحد.

(٤) يفهم من هذا الكلام أن الألف التي للاستفهام حذفت في الوصل، وهذا غير صحيح، فهي موجودة، ولكن أصل الكلمة (أَاْطَّلَع) فحذفت الألف الثانية لأنها ألف وصل. ونُرَجِّح أن أصل الكلام «وحذفت ألفه في الوصل للاستغناء عنها» فسقطت كلمة (أَلِفُهُ).

(٥) يعني في رواية أبي بكر عنه.

عمرو، والحسن، وعيسى[1]. و«مَدُّ العذاب» هو إطالته وتعظيمه، وقوله تعالى: ﴿مَا يَقُولُ﴾، أي: هذه الأشياءُ التي سمَّاها وقالَ إنه يُؤتاها في الآخرة يَرِثُ الله ماله منها في الدنيا بإهلاكه وتركه لها، فالوراثة مستعارة، ويحتمل أن تكون خيبته في الآخرة كوراثة ما أَمَّل. وفي حرف ابن مسعود رضي الله عنه: «ونرثه ما عنده»، وقال النحاس: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ معناه: نَحْفَظُه عليه فنعاقبه، ومنه قول النبي ﷺ: (العلماءُ ورثة الأنبياء)[2]، أي حفظة ما قالوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكأن هذا الجُزم[3] يورث هذه المقالة. وقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ يتضمن ذلَّته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

«اتَّخَذَ» افتعل من (أخذ) لكنه يتضمن إعْدَاداً من المتَّخِذ للمُتَّخَذِ، وليس ذلك في (أَخَذَ)، والضمير في [اتَّخَذُوا] لِعَبَدَة الأوثان، و«الآلهةُ»: الأصنامُ وكُلُّ من عُبِدَ من دون الله تبارك وتعالى، ومعنى [عِزّاً] العموم في النُّصْرة والمنفعة وغير ذلك من أوجه الخير.

وقوله تعالى: [كَلاَّ] زجْرٌ وردٌّ، وهذا المعنى لازم لـ(كَلاَّ)، فإنْ كان القول المردود منصوصاً عليه بان المعنى، وإن لم يكن منصوصاً عليه فلا بدَّ من أمر مردود يتضمنه

---

(١) وكذلك قرأها عاصم في رواية حفص عنه.

(٢) جزء من حديث صحيح أخرجه أحمد وأهل السنن إلا النسائي عن أبي الدرداء. أخرجه ابن النجار عن أنس رضي الله عنه، ولفظه كما في الجامع الصغير: (العلماء ورثة الأنبياء، يحبهم أهل السماء، وتستغفر لهم الحيتان في البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة)، ورمز له الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» بأنه ضعيف، وفي رواية أخرى عن علي رضي الله عنه أخرجها ابن عدي في الكامل، قال ﷺ: (العلماءُ مصابيح الأرض، وخلفاءُ الأنبياء، وورثتي وورثة الأنبياء)، وقد رمز له الإمام السيوطي أيضاً في «الجامع الصغير» بأنه ضعيف.

(٣) في بعض النسخ: «فكأن هذا المجرم».

القول كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾[١]، فإن قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ يتضمن مع ما قبله أن الإنسان يزعم من نفسه ويرى أن له حوْلاً مًا ولا يتفكَّر جدّاً في أن الله علّمه ما لم يعلم وأنعم عليه بذلك.

وقرأ الجمهور: [كَلاَّ] على ما فَسَّرْناه، وقرأ أبو نهيك: [كَلاًّ] بفتح الكاف والتنوين، حكاه عنه أبو الفتح، وهو نعت للآلهة[٢]. وحكى عنه أبو عمرو الداني [كُلاًّ] بضم الكاف والتنوين، وهو منصوب بفعل مضمر يدلُّ عليه [سَيَكْفُرُونَ]، تقديره: يرفضون أو يتركون أو يجحدون ونحوه.

واختلف المفسرون في الضمير الذي في [سَيَكْفُرُونَ] وفي [بِعِبَادَتِهِمْ] ـ فقالت فرقة: الأول للكفار والثاني للمعبودين، والمعنى أنه سيجيءُ يوم القيامة من الهول على الكفار والشدة ما يدفعهم إلى جحد الكفر وعبادةِ الأوثان، وذلك كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٣]. وقالت فرقة: الأول للمعبودين والثاني للكفار، والمعنى أن الله تعالى يجعل للأصنام حياةً تنكر بها ومعها عبادة الكفار وأن يكون لها هي من ذلك ذنب، وأما المعبودون من الملائكة وغيرهم فهذا منهم بَيِّنٌ. وقوله تعالى: [ضِدّاً] معناه: يجيئُهم منه خلاف ما أَمَّلُوه فيؤول بهم ذلك إلى ذِلَّةٍ ضدَّ ما أَمَّلُوه من العز، ـ وهذه صفة عامة، وقال قتادة: معناه: قُرَنَاءَ[٤]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: أعواناً، وقال الضحاك: أعداءً، وقال ابن زيد: بلاءً، وقيل غير هذا مما لفظ القرآن أعم منه وأجمع للمعنى المقصود، و«الضِّدُّ» هنا مصدرٌ يوصف به الجمع كما يوصف به الواحد.

---

(١) الآية (٦) من سورة (العَلَق)، وقوله تعالى ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ هو الآية (٥) من سورة (العَلَق).

(٢) هكذا في جميع النسخ، والذي ذكره أبو الفتح ابن جني في كتابه «المحْتَسَب» هو أنه ينبغي أن تكون (كَلاًّ) هذه مصدراً، كقولك: كَلَّ السيفُ كَلاًّ، فهو إذاً منصوب بفعل مضمر، فكأنه سبحانه لمَّا قال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ قال: [كَلاًّ]، أي: كلَّ هذا الرأي والاعتقادُ كلاًّ، كما يقال: ضَعْفاً لهذا الرأي وَفَيَالَةً (أيْ ضعفاً وخطأً)، وتم الكلام، ثم استأنف سبحانه وتعالى الكلام بقوله: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾، فالوقفُ إذاً عَلَى [عِزّاً]، ثم استأنف تعالى فقال: كلَّ رأيُهُم كلاًّ، ووقف، ثم قال من بعد: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾.

(٣) من الآية (٢٣) من سورة (الأنعام).

(٤) في الأصول كلها: فِرَقاً ـ والتصويب عن الطبري وغيره من المفسرين الذين نقلوا قول قتادة.

وحكى الطبري عن ابن نهيك أنه قرأ: [كُلٌّ] بالرفع، ورفعت بالابتداء[١].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ الآية. الرُّؤْيةُ رؤية قلب، و[أَرْسَلْنَا] معناه: سَلَّطنا، أو لم نَحُل بينهم وبينهم فهو تسليط، وهو مثل قوله تعالى: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾[٢]، وتعديته بـ[عَلَى] دالَّة على أنه تسليط. و[تَؤُزُّهُمْ] معناه: تُقْلقهم وتحركهم إلى الكفر والضلال، وقال قتادة: تزعجهم إزعاجاً، وقال ابن زيد: تُشْليهم إشلاءً[٣]، ومنه أَزيز القِدْر، وهو غَلَيَانه، ومنه ما في الحديث: أتيت رسول الله ﷺ فوجدته يصلي وهو يبكي، ولصدره أزيز كأزيز المرجل[٤].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: فلا تستبطئ عذابهم وتُحب تعجيله، وقوله: ﴿نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي مُدَّة نعمتهم وقبيح أعمالهم لنصير بهم إلى العذاب إمَّا في الدنيا، وإلاَّ ففي الآخرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نعدُّ أنفاسهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وما تضمنته هذه الألفاظ من الوعيد بعذاب الآخرة هو العامل في قوله تعالى: [يَوْمَ]، ويحتمل أن يعمل فيه فعل مقدر، تقديره: واذكر، أو احْذَر، ونحو هذا. و«الْحَشْرُ»: الجمعُ، وقد صار في عرف ألفاظ الشرع: البعث من القبور، وقرأ الحسن: «يَوْمَ يُحْشَرُ الْمُتَّقُونَ وَيُسَاقُ الْمُجْرِمُونَ»، وروي عنه: «ويسوقُ الْمُجْرِمين»، و«الْمُتَّقُونَ»: المؤمنون الذين غفر لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وظاهر هذه الوِفادة أنها بعد انقضاء الحساب، وإنما هي النهوض إلى الجنة، وكذلك «سَوْقُ المجرمين» إنما هو لدخول النار. و[وَفْداً] قال المفسرون: معناه:

---

(١) ذكر المفسرون أن [كَلاَّ] لم تذكر في النصف الأول من القرآن، وقال الألوسي: وأول موضع ذكرت فيه في القرآن هو قوله تبارك وتعالى في هذه السورة: ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾، ثم تكررت في النصف الثاني فذكرت في ثلاثة وثلاثين موضعاً. قيل: وتأتي بمعنيين: الأول بمعنى: حَقًّا، والثاني بمعنى: لا.

(٢) من الآية (٣٦) من سورة (الزخرف).

(٣) أي: تُغْويهم وتدفعهم. يقال: أشْلَى الكلبَ على الصيد بمعنى أغراه.

(٤) الحديث في تفسير الطبري، قال: «ومنه حديث مُطَرِّف عن أبيه، أنه انتهى إلى النبي ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيزٌ كأزيز المرجل».

رُكْبَاناً، وهي عادة الوفود؛ لأنهم سَراة الناسِ[١] وأحسنهم شكلا، فشَّبه أهل الجنة بأولئك، لا أنهم في معنى الوفادة إذ هو مُضَمَّن الانصراف، وإنما المراد تشبيههم بالوفد هيئة وكرامة. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنهم يجيئون رُكْباناً على النُّوق المُحَلاَّة بحلية الجنة، خُطُمها[٢] من ياقوت وزبرجد ونحو هذا. وروى عمرو بن قيس المُلاَئِيُّ[٣] أنهم يركبون على تماثيل من أعمالهم الصالحة هي في غاية الحُسْن، ورُوي أنهم يركب كل واحد منهم ما أحبَّ، فمنهم من يركب الإبل، ومنهم من يركب الخيل، ومنهم من يركب السُّفُن فتجيءُ عائمة بهم، وقد وَرَد في الضحايا (إنها مطاياكم إلى الجنة)، وفي أكثر هذا بُعْدٌ لكن ذكرناه بحسب الجمع للأقوال. و«السَّوْقُ» يتضمن هواناً لأنهم يُحْفَزُون[٤] من ورائهم. و«الْوِرْدُ»: العِطاش، قاله ابن عباس، وأبو هريرة، والحسن، رضي الله عنهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهم القوم الذين ينحفزون من عطشهم لورود الماء، ويحتمل أن يكون المصدر، والمعنى: نوردهم وِرْداً، وهكذا يجعله من رأى أن في القرآن أربعة أوراد، وقد تقدم ذكر ذلك[٥].

واختلف المتأولون في الضمير في قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ﴾ ـ فقالت فرقة: هو عائد على [ٱلْمُجْرِمِينَ]، أي: لا يملكون أن يُشْفَع لهم ولا سبيل لهم إليها، وعلى هذا التأويل فهم مشركون خاصة، ويكون قوله سبحانه ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ استثناءً منقطعاً، أي: لكن من اتَّخذ عهداً يُشفع له، و«العَهْدُ» ـ على هذا ـ الإيمانُ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: العهدُ لا إله إلاَّ الله، وفي الحديث: (يقول الله تعالى يوم القيامة: من كان له عندي عهد فليقم)[٦]، وفي الحديث: (خمس صلوات كتبهن الله

---

(١) سَرَاةُ: جمع سَرِيٍّ، وهو الشريف.

(٢) الخُطُم: جمع خِطام، وهو ما وضع على خَطْم الجمل ليقاد به.

(٣) عمرو بن قيس المُلائِيُّ ـ بضم الميم وتخفيف اللام والمد ـ أبو عبد الله، الكوفي، قال عنه في «تقريب التهذيب»: ثقة متقن عابد، من السادسة، مات سنة بضع وأربعين.

(٤) حَفَزَه حفزاً: دفعه مِنْ خَلْفه بالسَّوق أو بغيره.

(٥) وذلك عند تفسير قوله تعالى في الآية (٧١) من هذه السورة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن مسعود=

على العباد، فمن جاءَ بهن تامَّات كان له عند الله عهدٌ أن يُدخله الجنة)[١] و«العَهْدُ» أيضاً الأمان، وبه فُسِّر قوله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن يكون «المجرمون» يعُمُّ الكفرة والعصاة، ثم أخبر أنهم لا يملكون الشَّفاعة إلاَّ العصاةَ من المؤمنين فإنه يُشفع فيهم، فيكون الاستثناءُ متصلاً، وقد قال رسول الله ﷺ: (لا أزال أشفع حتى أقول: يا رب شفِّعني فيمن قال لا إله إلاَّ الله، فيقول الله: يا محمد ليست لك، ولكنها لي)[٣].

وقالت فرقة: الضمير في قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ﴾ للمتقين، وقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أي: إلاَّ من كان له عمل صالح مُبرِّز يحصل به في حيِّز من يشفع، وقد تظاهرت الأحاديث أن أهل العلم والفضل والصلاح يَشْفَعون فَيُشَفَّعُون، رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: (في أُمتي رجل يُدخل الله بشفاعته الجنة أكثر من بني تميم)[٤]، قال

= رضي الله عنه. ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في «الدر المنثور» أنه قرأ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾، قال: إن الله يقول يوم القيامة: من كان له عندي عهد فَلْيَقُم، فلا يقوم إلاَّ من قال هذا في الدنيا، قولوا: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في الحياة الدنيا أنك إن تكلني إلى عملي تقربني من الشر وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلاَّ برحمتك، فاجعل لي عندك عهداً تؤديه إليَّ يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد. وذكره بهذا النص أيضاً الإمام الشوكاني في فتح القدير.

(١) أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (من جاءَ بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئاً جاءَ وله عند الله عهدٌ ألاَّ يعذبه، ومن جاءَ قد انتقص منهن شيئاً فليس له عند الله عهد، إن شاءَ عذبه)، (الدر المنثور وفتح القدير).

(٢) من الآية (١٣٤) من سورة (البقرة).

(٣) خرَّجه مسلم بمعناه، واستشهد به القرطبي في تفسير هذه الآية.

(٤) أخرج الإمام أحمد في مسنده (٤ـ٢١٢) عن عبد الله بن قيس قال: سمعت الحارث بن أُقيش يحدث أن أبا بَرْزَة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (إن من أُمتي لَمَن يشفع لأكثر من ربيعة ومضر، وإن من أُمتي لمن يعظم للنار حتى يكون ركناً من أركانها)، وأخرج أيضاً الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (قد أُعطي كل نبي عطية، فكلٌّ قد تعَجَّلها، وإني قد أخرت عطيتي شفاعةً لأمَّتي، وإن الرجل من أُمتي ليشفع للفئام من الناس فيدخلون الجنة، وإن الرجل ليشفع للقبيلة، وإن الرجل ليشفع للعُصْبة، وإن الرجل ليشفع للثلاثة وللرجلين وللرجل)، (المسند ٣ـ٢٠).

قتادة رحمه الله: وكنا نحدث أن الشهيد يشفع في سبعين.

وقال بعض هذه الفرقة: معنى الكلام: إلاَّ لمن اتَّخذ عند الرحمن عهداً، أي: لا يملك المتقون الشفاعة إلاَّ لهذه الصنيعة فتجيءُ [مَنْ] في التأويل الواحد للشافعين، وفي الثاني للمشفوع فيهم[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتحتمل الآية أن يراد بـ[مَنْ] محمد ﷺ وبـ(الشفاعة) الخاصة له ﷺ لعامة الناس، ويكون الضمير في [يَمْلِكُونَ] لجميع أهل الموقف، ألا ترى أن سائر الأنبياء يتدافعون الشفاعة حتى تصير إليه فيقوم إليها ﷺ، فالعهد ـ على هذا ـ النصُّ على أمر الشفاعة[٢] في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[٣].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾.

الضمير في [قَالُوا] للكفار من العرب في قولهم: الملائكة بنات الله، وللنصارى، ولكل من كفر بهذا النوع من الكفر، وقوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ﴾ ـ بعد الكناية عنهم ـ بمعنى: قل لهم يا محمد، و«الإِدُّ»: الأمر الشنيع الصعب، وهي الدواهي والشُّنع العظيمة، ويروى عن النبي ﷺ أن هذه المقالة أوَّلَ ما قيلت في العالم شاكَ الشَّجَرُ واستعرت

---

(١) وضَّح الطبري هذا الرأي فقال: «ومَن نصب [مَنْ] على أن معناه: إلاَّ لِمَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً، فإنه ينبغي أن يجعل قوله ﴿لَّا يَمْلِكُونَ﴾ للمتقين، فيكون معنى الكلام حينئذ: يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً، لا يملكون الشفاعة إلاَّ من اتَّخَذَ عِند الرَّحْمن عَهْداً، فيكون معناه عند ذلك: إلاَّ لمن اتَّخَذَ عندَ الرَّحمْن عهْداً، فأمَّا إذا جعل ﴿لايملكون. . .﴾ خبراً عن المجرمين فإن [مَنْ] تكونَ حينئذ نصباً على أنه استثناءٌ منقطع، فيكون معنى الكلام: لا يملكون الشفاعة، لكن من اتَّخذ عندَ الرَّحمن عهداً يملكه».

(٢) اضطربت الأصول في كتابة هذه العبارة، واخترنا أقربها إلى الصواب في نظرنا، والعصمة لله وحده.

(٣) من الآية (٧٩) من سورة (الإسراء).

جهنمُ وغضبت الملائكة[١]. وقرأ الجمهور: (إِدًّا) بكسر الهمزة، وقرأ أبو عبد الرحمن: [أَدًّا] بفتح الهمزة، ويقال: إِدٌّ، وأَدٌّ، وآدٌّ[٢]، وقرأ ابن كثير هنا، وفي [عَسَقَ][٣]: (تَكَادُ) بالتاءِ (يَتَفَطَّرْنَ) بياءٍ وتاءٍ وفتح الطَّاءِ وشدِّها، ورواها حفصٌ عن عاصم، وقرأ أبو عمرو، وعاصم ـ في رواية أبي بكر: [تَكَادُ] بالتاءِ [يَنْفَطِرْنَ] بياءٍ ونون وكسر الطاء، وقرأ نافع، والكسائي: [يَكَادُ] بالياء وإزالة علامة التأنيث [يَتَفَطَّرْنَ] بالياءِ والتاءِ وشدِّ الطاءِ وفتحها في الموضين، وقرأ حمزة، وابن عامر في مريم مثل أبي عمرٍو، وفي [عَسَقَ] مثل ابن كثير، وقال أبو الحسن، والأخفش: [يَكَادُ] بمعنى: يريد، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾[٤]، وأنشد على أن (كاد) بمعنى (أراد) قولَ الشاعر:

كَـادَتْ وكِـدْتُ وتِلْـكَ خَيْـرُ إِرَادَةٍ ... لَوْ عَادَ مِنْ زَمَنِ الصَّبَابَةِ مَا مَضَى[٥]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا حجَّة في هذا البيت، وهذا قول قَلِقٌ.

وقال الجمهور: إنها استعارة لشُنْعَة الأمر، أيْ: هذا حقُّه لو فهمت الجماداتُ قَدْره، وهذا المعنى مَهْيَع[٦] العرب، فمنه قول جرير:

---

(١) نقل ابن جرير في تفسيره هذا الخبر، عن ابن جريج، عن مجاهد، قال: «ذُكِر لنا أن كعباً كان يقول... الخ»، ولم يرفعه.

(٢) الأولى هي قراءة الجمهور، والثانية قراءة أبو عبد الرحمن السلمي ـ كما قال المؤلف ـ والثالثة هي قراءة ابن عباس، وأبي العالية، فقد قرأ: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا آدًّا﴾، مثل مادًّا، ذكر ذلك الشوكاني في (فتح القدير).

(٣) في قوله تعالى في الآية (٥): ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

(٤) من الآية (١٥) من سورة (طه).

(٥) البيت في اللسان (كيد) غير منسوب، وقد استشهد به على أن (كاد) تكون بمعنى: طلب وأراد، قال: «بلغوا الأمر الذي كادوا، يريد: طلبوا أو أرادوا، وأنشد أبو بكر في (كاد) بمعنى (أراد): كادتْ وكدتُ وتلك... البيت. قال: معناه: أرادتْ وأردْتُ». وابن عطية يرى أن المعنى هنا هو أنني وإياها قاربنا الفعل ولم نفعل، وهو المعنى الأساسي في (كاد)، أما المعنى الذي ذكره أبو بكر، والحسن، والأخفش فهو قلقٌ في نظره.

(٦) المَهْيَع: الطريق الواسع المنبسط، والمراد هنا أنه أسلوب مألوف اتبعه العرب.

لَمَّا أَتَى خَبَرُ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ ... سُورُ المدينة والجِبَالُ الخُشَّعُ(١)

ومنه قول الآخر:

أَلَمْ تَرَ صَدْعاً في السَّمَاءِ مُبيناً ... عَلَى ابْن لُبَيْنى الحارثْ بن هشام؟(٢)

وقال الآخر:

وأَصْبَحَ بَطْنُ مَكَّةَ مُقْشَعِرّاً ... كَأَنَّ الأَرْضَ لَيْسَ بِهَا هِشَامُ(٣)

و«الانْفطَارُ»: الانشقاق على رتبة غير مقصودة، و«الهَدُّ»: الانهدام والتفرُّق في سرعة، قال محمد بن كعب: كاد أعداءُ الله أن يقيموا علينا الساعة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ نفي على جهة التنزيه له عن ذلك، وقد تقدم ذكر هذا المعنى وأقسام هذا اللفظ في هذه السورة.

وقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية. [إنْ] نافيةٌ بمعنى (ما)، وقرأ الجمهور: ﴿ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بالإضافة، وقرأ طلحة: ﴿آتٍ الرحمنَ﴾ بتنوين [آتٍ] والنصب

---

(١) البيت من قصيدة طويلة تجاوزت أبياتها المائة والعشرين بيتاً، وهي من النقائض، وقد قالها جرير يهجو الفرزدق وجميع الشعراء ومطلعها:

بَانَ الخَلِيطُ بِرَامَتَيْنِ فَوَدَّعُوا ... أَوَ كُلَّمَا رفعُوا لِبَيْنٍ تَجْزَعُ؟

والشاهد فيه أنه أخبر عن الجبال بأنها اصبحت خاشعة خاضعة حين جاءها خبر الزبير، وهو في القصيدة يذم مجاشعاً قوم الفرزدق ويتهمهم بأنهم غَرُّوا الزبير وضيعوه.

(٢) الصَّدْع: الشَّقُّ في الشيءِ الصُّلْب كالزجاجة والحائط وغيرهما، وجمعه صدوع، والمُبين: الواضح الظاهر، والحارث بن هشام صحابي جليل، أسلم يوم فتح مكة وحَسُن إسلامه، ومات في طاعون عمواس، وقيل: بل استشهد يوم اليرموك، وهو أخو أبي جهل، وابن عم خالد بن الوليد، وقد شهد بدراً مع المشركين وكان ممن فرُّوا فعيَّره حسَّان بن ثابت بقوله:

إنْ كنْتِ كاذِبَةَ الَّذي حَدَّثْتِني ... فَنَجَوْتِ مَنْجى الحارث بن هِشَام
ترك الأحِبَّةَ أنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ ... ونَجَا بِرَأسِ طَمِرَّةٍ وَلِجَام

واعتذر الحارث عن فراره بأبيات مشهورة، والشاهد هو استعمال الصدع الواضح في السماء حزناً على الحارث بن هشام.

(٣) اقْشَعَرَّ فهو مُقْشَعِرٌّ: تَقَبَّضَ وتجمَّع، وفي حديث عمر رضي الله عنه: «قالت له هند لما ضرب أبا سفيان بالدِّرَّة: لرُبَّ يوم لو ضربتَه لا قْشَعَرَّ بطن مكة، فقال: أجل»، وبطن مكة: وسَطُها، ولم نقف على قائل البيت، والشاهد فيه استعارة القشعريرة والتَّقَبُّض لمكة.

في النون، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: «لَمَّا أَتَى ٱلرَّحْمَن»، واستدل بعض الناس بهذه الآية على أن الولد لا يكون عبداً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا انتزاعٌ بعيد، و[عَبْداً] حالٌ.

ثم أخبر تعالى عن إحاطته ومعرفته بعبيده، فذكر «الإحصاءَ»، ثم كرر المعنى بغير اللفظ، وقرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لَقَدْ كَتَبَهُمْ وَعَدَّهُم»، وفي مصحف أُبَيٍّ رضي الله عنه: «لَقَد أَحصَاهم فَأَجْمَلَهم عدداً». وقوله: [عَدًّا] توكيد للفعل وتحقيقٌ له. وقوله: [فَرْداً] يتضمن معنى قلَّة النصير والحول والقوة، فلا مُجير له ممَّا يريده الله به.

قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾. ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا هو القبول الذي يضعه الله لمن يحبه من عباده حسب ما في الحديث المأثور(١)، وقال عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه: إنها بمنزلة قول النبي ﷺ: (من أَسَرَّ سريرةً أَلْبسه اللهُ رداءها)(٢)، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (ما من عبد إلاَّ وله في السماء صيت، فإن كان حسناً وُضع في الأرض حسناً، وإن كانَ سيِّئاً وُضع كذلك)(٣).

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: إنَّ الآية نزلت فيه، وذلك أنه لما هاجر من مكة استوحش بالمدينة، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فنزلت الآية في ذلك(٤)، أي: ستستقر نفوس المؤمنين ويوَدُّون حالهم ومنزلتهم، وذكر النقَّاش أنها نزلت في علي ابن

---

(١) هو الحديث المشهور الذي خرجه البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وغيرهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إذا أحبَّ الله عبداً نادى جبريل: إني قد أحببت فلاناً فأحبه، فينادي في السماء، ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾، وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل: إني قد أبغضت فلاناً، فينادي في أهل السماء، ثم ينزل له البغضاء في أهل الأرض.

(٢) في تفسير ابن جرير وتفسير ابن كثير أن قتادة روى هذا عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولم يرفعه إلى النبي ﷺ.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٥٢٤٨) وابن عدي في الكامل ٢/ ١٦٣ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.. وصححه الألباني في الصحيحة (٢٢٧٥).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، وابن المنذر، وابن مردويه، وفي «الدر المنثور» أنَّه عن عبد الله بن عوف، وصوابه: عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

أبي طالب رضي الله تعالى عنه[١]، قال ابن الحنفية: «لا يوجد مؤمن إلاَّ وهو يحب عليَّ بن أبي طالب وأهل بيته رضي الله عنهم».

وقرأ الجمهور: (وُدًّا) بضم الواو، وقرأ أبو الحارث الحنفي بفتح الواو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتحتمل الآية أن تكون متَّصلة بما قبلها في المعنى، أيْ أن الله تبارك وتعالى لمَّا أخبر عن إتيان كل من في السموات والأرض في حال العبودية والانفراد، آنس المؤمنين بأنه سيجعل لهم في ذلك اليوم وُدّاً وهو ما يظهر عليهم من كرامته؛ لأن محبة الله للعبد هي ما يظهر عليه من نِعَمه وأمارات غُفرانه له.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾.

الضمير في [يَسَّرْنَاهُ] للقرآن، وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾[٢]؛ لأن المعنى يقتضي المراد وإن لم يتقدَّم ذكره، ووقع التَّيسير في كونه بلسان محمد ﷺ، وبلُغته المفهومة المبينة. وبشارةُ المتَّقين هي بالجَنَّة والنَّعيم الدائم والعزِّ في الدنيا. و«القومُ اللُّدُّ» هم قريش، ومعناه: مجادلين ومخاصمين بباطل، والألَدُّ: المُخَاصم المبالغ في ذلك. وقال مجاهد: [لُدًّا] معناه: فُجَّاراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي فجور الخصومة، ولا يلد إلاَّ المبطل. وفي الحديث: (أَبْغَضُ الرجال إلى الله الألَدُّ الْخَصم)[٣].

ثم لما وصفهم تعالى بأنهم لُدٌّ ـ وهي صفة سُوءٍ بحكم الشرع والحق ـ وجب أن يَقْسو عليهم بالوعيد والتمثيل بإهلاك من كان أشد منهم وألَدَّ وأعظم قَدْرَ ما كان يسرُّهم

---

(١) أخرج ذلك ابن مردويه، والديلمي عن البراء، وأخرجه الطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه الحكيم الترمذي، وابن مردويه، عن علي رضي الله تعالى عنه.

(٢) من الآية (٣٢) من سورة (ص).

(٣) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها..

في أنفسهم من الوصف بـ[لُدّ]، فإن العرب بجهالتها وعتوِّها وكفرها كانت تتمدَّح باللَّدَد، وتراه إدْراكاً وشهامة، فمن ذلك قول الشاعر:

إنَّ تَحْتَ التُّرَاب عَزْماً وحَزْماً وَخَصيماً أَلَدَّ ذا مِغْلاَقِ[1]

فمثَّل لهم بإهلاك من قبلهم ليحتقروا أنفسهم ويتبيَّن صغَر شأنهم، وعبَّرَ المفسرون عن «اللُّدِّ» بالْفَجَرة وبالظَّلمة، وتلخيص معناها ما ذكرناه.

و«الْقَرْنُ»: الأمَّة، و«الرِّكْزُ»: الصوتُ الخفي دون نُطْق بحروف ولا فم، وإنما هو صوت الحركات وخَشْفُهَا[2]، ومنه قول لبيد:

وتَوَجَّسَتْ رِكْزَ الأَنِيس فَرَاعَهَا عَنْ ظَهْر غَيْب والأنيسُ سَقَامُها[3]

فكأنه قال: أو تسمع من أخبارهم قليلاً أو كثيراً، أو طرفاً خفيّاً ضعيفاً، وهذا يُرادُ به من تقدم أمره من الأمم ودَرَس خَبَرُه، وقد يحتمل أن يريد: هل بقي لأحد منهم كلام أو تصويت بوجه من الوجوه؟ فيدخل في هذا من عُرف هلاكه من الأُمم.

تمَّ تفسير سورة مريم والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

(١) الخَصيم هو الخَصْمُ الذي يخاصمك، وجمعه خُصَمَاءُ وخُصْمان، والخُصُومة: الجدل، والمِغْلاق في أحد معاونيه: السهم السابع من قداح الميسر، يكون لصاحبه الفوز، ولعله المراد هنا، والشاعر قد قرن بين العَزْم والحزم واللَّدد في الخصومة مع الفوز في الميسر، وجعل ذلك كله من الصفات التي يعتز بها العربي، وموضع الاستشهاد هنا التمدح باللدد في الخصومة.

(٢) الخَشْفُ والخَشْفَةُ والخَشَفَةُ: الحركةُ والحس، وقيل: الحِسُّ الخفيُّ، روي عن النبي ﷺ أنه قال: (ما دخلت مكاناً إلا سمعتُ خَشْفَةً، فالتفتُّ فإذا بلالٌ).

(٣) البيت من مُعَلَّقه لبيد، وهو واحد من الأبيات التي يصف فيها بقرة وحشية، فالضمير في (تَوَجَّسَتْ) يعود عليها، ومعنى تَوَجَّسَتْ: تَسَمَّعتْ إلى صوت خفيٍّ، وفيها معنى الخوف عند التَّسَمُّع، والرِّكْز: الصوتُ الخفيُّ، ويروى البيت: «وتوجست رزَّ الأنيس»، كما يُروى: «وتَسَمَّعَت رزَّ الأنيس»، والأنيس: الإنْس، ورَاعَها: من الروع وهو الخوف والفزع، و«عَنْ ظَهْرِ غيب»: من وراء حجاب، و«الأنيس سَقَامُهَا»: أي الإنسان سبب مرضها وهلاكها لأنه يصيدها. يقول: إن البقرة الوحشية تسمعت الصوت الخفي الذي يحدثه الإنسان من وراء حجاب، والإنسان هو السبب في هلاك هذه البقرة.

وقد طرق الشعراءُ هذا المعنى بكثرة، ومن ذلك قول ذو الرُّمَّة يصف ثوراً تسمَّع إلى صوت صائد وكلابه:

إذا تَوَجَّسَ رِكْزاً مُقْفِرٌ نَدِسٌ بنَبْأَةِ الصَّوْتِ مـا فـي سَمْعِهِ كَـذِبُ

فهو نَدِسٌ أي حاذق ما في سمعه كذب، أي هو صادق الاستماع بهذه النَّبْأة، وهي الصوتُ الخفي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة طه

هذه السورة مكيَّة[١] وآياتها خمس وثلاثون ومائة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

اختلف الناس في قوله تعالى: ﴿طه﴾ بحسب اختلافهم في كل الحروف المتقدمة في أَوائل السُّور، إلاَّ قول من قال هناك: «إن الحروف إشارة إلى حروف المعجم، كما تقول: «ا، ب، جـ»، فإنه لا يترتب هاهنا؛ لأَن ما بعد ﴿طه﴾ من الكلام لا يصح أن يكون خبراً عن ﴿طه﴾.

واختصت ﴿طه﴾ بأَقوال لا تترتب في أَوائل السُّور المذكورة، فمنها قول من قال: ﴿طه﴾ اسم من أَسماءِ محمد ﷺ، وقول من قال: ﴿طه﴾ معناه: «يا رجل» بالسريانية وقيل: بغيرها من لغات العجم، ورُوي أَنها لغة يمنية في عَكٍّ[٢]، وأَنشد الطبري في ذلك:

دَعَوْتُ بِطَهَ فِي القِتَالِ فَلَمْ يُجِبْ ... فَخِفْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُوَائِلا[٣]

---

(١) قال القرطبي: في قول الجميع، نزلت قبل إسلام عمر رضي الله عنه.

(٢) عَكّ: اسم قبيلة من قبائل اليمن.

(٣) هذا البيت لِمُتَمِّم بن نويرة، شقيق مالك بن نويرة، وهو في الطبري والقرطبي، ويروى: هتفتُ بطَهَ، والموائل: طالبُ النجاة الذي يلجأُ إِلى الشيء لينجو بنفسه. والمزايل: المفارق المبارح، يقول: دعوت في القتال بقولي: يا رجل، فلم يجب، فخفت عليه أن يكون قد فارقنا طلباً للنجاة، والشاهد أن ﴿طه ﴿١﴾﴾ هنا بمعنى: يا رجل.

ويروى: مزايلاً. وقال الآخر:

إِنَّ السَّفَـاهَـةَ طَـهَ مِـنْ خَـلاَئِقِكُـمْ لاَ بَارَكَ اللهُ فِي الْقَوْمِ الْمَلاَعِين(١)

وقالت فرقة: سبب نزول هذه الآية إنما هو ما كان رسول الله ﷺ يتحمله من مشقَّة الصلاة حتى كانت قدماه تتورم وتحتاج إلى الترويح(٢)، فقيل له: طَأَ الأَرض، أَي: لا تتعب حتى تحتاج إلى الترويح(٣)، فالضمير في ﴿طه﴾ للأَرض، وخُفِّفَت الهمزة فصارت أَلفاً ساكنة.

وقرأت فرقة: [طَهْ]، وأَصله: طَأْ، فحذفت الهمزة وأُدخلت هاءُ السكت، وقرأَ ابن كثير، وابن عامر: [طَهَ] بفتح الطاءِ والهاءِ، ورُوي ذلك عن قالون عن نافع، وروى يعقوب عنه كسرها، وروي عنه بين الفتح والكسر، وأَمالت فرقة، وفخمت فرقة، والتفخيم لغة الحجاز والنبي ﷺ، وقرأَ عاصم(٤)، وحمزة، والكسائي: [طِهِ] بكسر الطاءِ والهاءِ، وقرأَ أَبو عمرو: [طَهِ] بفتح الطاءِ وكسر الهاءِ، ورُوي عن الضحاك وعمرو بن فائد أَنهما قرآ: [طَاوِي].

وقوله تعالى: ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾ معناه التبليغ من نفسك في العبادة والقيام في الصلاة، وقالت فرقة: إِنما سبب الآية أَن قريشاً نظرت إِلى عيش رسول الله ﷺ وشظفه وكثرة عياله، فقالت: إِن محمداً مع ربه في شقاءٍ، فنزلت الآية رادَّةً عليهم، أَي: إِن الله تعالى لم يُنزل القرآن ليجعل محمداً شقياً، بل ليجعله أَسعد بني آدم في النعيم المقيم في أَعلى المراتب، فالشقاءُ الذي رأَيتم هو تَنَعُّم النفس، ولا شقاءَ مع ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

---

(١) البيت ليزيد بن المُهَلْهِل، ويروى:

إِنَّ السَّفَـاهَـةَ طَـهَ مِـنْ شَمَـائِلِكُـمْ لاَ قَـدَّسَ اللهُ أَرْوَاحَ الْمَـلاَعِيـن

والخلائق: جمع خليقة، وهي الطبيعة التي يخلق المرءُ بها، والبيت شاهد على أن معنى ﴿طه﴾ يا رجل عند بعض العرب.

(٢) هكذا في الأصول، والظاهر أن يقال: «تَتَوَرَّمَان وتحتاجان»

(٣) يريد أنه من تعبه يقف على قدم ويريح الثانية، ثم يبدلهما فيقف على التي ارتاحت ويريح الأخرى، وهكذا.

(٤) قراءة عاصم برواية حفص عنه بفتح الطاءِ والهاءِ مع مدهما، أَما هذه فرواية أُخرى.

فهذا التأويل أعم من الأول في لفظ الشقاءِ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ يصح أن ينصب على البدل من موضع ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾، ويصح أن ينصب بفعل مضمر تقديره: لكن أنزلناه تذكرة. و﴿يَخْشَىٰ﴾ يتضمن الإيمان والعمل الصالح؛ إذ الخشية باعثة على ذلك. وقوله: ﴿تَنزِيلًا﴾ نصب على المصدر، وقوله: ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ صفة أقامها مقام الموصوف، وأفاد ذلك العبرة والتذكرة وتحقير الأوثان وبعث النفوس على النظر. و﴿ٱلْعُلَى﴾ جمع عُلْيا، فُعْلى.

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ رفع بالابتداء، ويصح أن يكون بدلاً من الضمير المستقر في ﴿خَلَقَ﴾. وقوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ قالت فرقة: هو بمعنى: استولى، وقال أبو المعالي وغيره من المتكلمين: هو بمعنى استواءِ القهر والغلبة، وقال سفيان الثوري: فَعَل فعلاً في العرش سماه استواءً، وقال الشعبي وجماعة غيره: هذا من متشابه القرآن، نؤمن به ولا نعرض لمعناه، وقال مالك بن أنس لرجل سأله عن هذا الاستواء، فقال له مالك: «الاستواءُ معلوم، والكيفية مجهولة، والسؤال عن هذا بدعة، وأظنك رجل سوءٍ، أخرجوه عني»، فأدبر السائل وهو يقول: يا أبا عبد الله، لقد سألت عنها أهل الشام وأهل العراق فما وفِّق فيها أحد توفيقك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وضعّف أبو المعالي قول من قال: «لا يتكلم في تفسيرها»، فإن قال: «إن كل مؤمن يجمع على أن لفظة الاستواءِ ليست على عرفها في معهود الكلام العزيز»، فإذا فعل هذا فقد فسّره ضرورة ولا فائدة في تأخُّره عن طلب الوجه والمخرج البيِّن، بل في ذلك إلباسٌ على الناس، وإيهامٌ لِلْعَوامِّ، وقد تقدم القول في مسألة الاستواءِ.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تمادٍ في الصفة المذكورة المُنَبِّهَة على الخالق المنعم، وفي قوله: ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ قصص في أمر الحوت ونحوه اختصرته لعدم صحته، والآية مُضَمَّنَةٌ أن كل موجود مُحْدث فهو لله بالملك والاختراع، ولا قديم سواه تعالى. و﴿ٱلثَّرَىٰ﴾: التراب الندي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ الآية، معناه: وإن كنتم أيها الناس إذا أردتم إعلام

أَحد بأَمر، أَو مخاطبة أَوثانكم وغيرها، فأَنتم تجهرون بالقول، فإِن الله الذي هذه صفاته يعلم السِّرَّ وأَخفى، فالمخاطبة بـ﴿تَجْهَرْ﴾ لمحمد ﷺ، وهي مراد بها جميع الناس إِذ هي آية اعتبار.

واختلف الناس في ترتيب السِّرَّ وما هو أَخفى منه ـ فقالت فرقة: السِّرُّ هو الكلام الخفيُّ الخافت كقراءة السِّرِّ في الصلاة، والأَخْفَى ما هو في النفس متحصل. وقالت فرقة: السِّرُّ هو ما في نفوس البشر وكلُّ ما يمكن أَن يكون فيها في المستأْنف بحسب الممكنات من معلومات البشر، والأَخفى ما هو من معلومات الله تعالى، ولا يمكن أَن يعلمه البشر البَتَّة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا كله معلوم لله عزَّ وجلَّ، وقد تُؤُوِّل على بعض السلف أَنه جعل [وأَخْفى] فعلاً ماضياً، وهذا ضعيف.

و﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يراد بها المُسَمَّيات التي تضمنت المعاني التي هي في غاية الحُسْن، ووحَّد الصفة مع جَمْع الموصوف لمَّا كانت المُسَمَّيات لا تعقل، وهذا جارٍ مجرى ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾(١)، و﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى﴾(٢) وغيره، وذكر أَهل العلم أَن هذه الأَسماء هي التي قال فيها رسول الله ﷺ: «إِن لله تسعةً وتسعين اسماً، مائة إِلاَّ واحداً، من أَحصاها دخل الجنة»(٣).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾.

هذا الاستفهام هو توقيف مضمنه تنبيه النفس إِلى ما يُورد عليها، وهذا كما تبدأُ

(١) من الآية (١٨) من سورة (طه).

(٢) من الآية (١٠) من سورة (سبأ).

(٣) الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة.

الرجل إذا أردت إخباره بأمر غريب فتقول: أعلمتَ كذا وكذا؟ ثم تبدأُ تخبره، والعامل في [إِذْ] ما تضمنه قوله سبحانه: ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ من معنى الفعل، وتقديره: وهل أتاك ما فعل موسى إِذْ رأى ناراً، ونحوه.

هذا، وكان من قصة موسى عليه السلام أنه رحل من مَدْيَن بأهله بنت شعيب وهو يريد أَرض مصر، وقد طالت مدة جنايته هنالك، فرجا خفاءَ أَمره، وكان ـ فيما يزعمون ـ رجلاً غيوراً، فكان يسير الليل بأَهله ولا يسير النهار مخافة كشفة الناس، فضلَّ عن طريقه في ليلة مظلمة ندية، ويُروى أَنه فقد الماءَ فلم يدر أَين يطلبه، فبينا هو كذلك ـ وقد قدح زَنْده فلم يُور شيئاً ـ إِذْ رأَى ناراً، فقال لأَهله: امكثوا، أَي أَقيموا، وذهب هو إِلى النار فإِذا هي مضطرمة في شجرة خضراءَ يانعة، قيل: كانت من عُنَّاب، وقيل: من عوسج، وقيل: من عُلَّيقة، فكلما دنا منها تباعدت منه ومشت، فإِذا رجع عنها اتَّبعته، فلما رأَى ذلك أَيقن أَن هذا أَمر من أُمور الله تعالى الخارقة للعادة، ونودي وانقضى أَمره في تلك الليلة، هذا قول الجمهور، وهو الحق، وحكى النقاش عن ابن عباس أَنه أَقام في ذلك الأَمر حولاً، ومكث أَهله، قالوا: وهذا أَمر غير صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما وضعيف في نفسه.

و[آنَسْتُ] معناه: أَحْسَسْتُ، ومنه قول الحارث بن حِلِّزة:

آنَسَـــتْ نَبْـــأَةً وأَفْـــزَعَهَـــا القُنْـ ـنَـاصُ عَصْـراً وَقَـدْ دَنَـا الإِمْسَـاءُ[1]

والنار على البعد لا تُحَسُّ إِلاَّ بالبصر، ولذلك فسَّر بعضهم اللفظة بـ«رَأَيْتُ»، و«آنَسَ» أَعَمُّ من رَأَى لأَنك تقول: آنسْتُ من فلانٍ خيراً أَو شرّاً. و«القَبَسُ»: الجذوة من النار على رأْس العود أَو القصبة أَو نحوه، و«الهُدَى» أَراد هدي الطريق، أَي: لعلِّي أَجد ذا هدى مرشداً لي أَو دليلاً وإِن لم يكن فخبراً، و«الهُدى» يعُمُّ هذا كله، وإِنما رجا موسى عليه السلام هُدى نازِلَتِهِ فصادف الهدى على الإِطلاق.

---

(١) البيت من معلقته التي أنشدها في مجلس عَمْرو بن هند مدافعاً عن قبيلته إزاء بني تغلب، وفيها يصف الناقة ورحلته عليها، ويشبهها بالنعامة. وآنَسَتْ: أَحسَّت ـ وهي موضع الشاهد ـ والنَّبْأَةُ: الصوتُ الخفيُّ، والقُنَّاصُ: جمع القانص وهو الصَّيَّادُ، يقول: إن تلك النعامة التي شبهت بها ناقتي قد سمعت صوتاً خَفياً عند المساءِ، فارتاعت له.

وفي ذكر قصة موسى عليه السلام بأَسرها في هذه السورة تسلية للنبي ﷺ عمَّا لقي في تبليغه من المشقات وكُفْر الناس، فإِنما هي له على جهة التمثيل في أَمره، ورُوي عن نافع وحمزة [فقال لأَهْلِهُ امكُثوا] بضم الهاء، وكذلك في القَصَص[1]، وكسر الباقون الهاءَ فيهما.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾، الضمير عائد على النار، وقوله: [نُودِيَ] كناية عن تكليم الله له، وفي [نُودِيَ] ضمير يقوم مقام الفاعل، وإِن شئت جعلته موسى إِذ قد جرى ذكره، وقرأَ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [إِنِّي] بكسر الأَلف على الابتداء، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [أَنِّي] بفتح الأَلف على معنى: لأَجل أَني أَنا ربك فاخلع نعليك. و«نُودي» قد توصل بحرف الجر، وأَنشد أَبو علي:

نَـادَيْـتُ بِـاسْـمِ رَبِيعَـةَ بْـنِ مُكَـدَّمٍ   إِنَّ المنـوَّهَ بِـاسْمِـهِ الْمَـوْثُـوقُ[2]

واختلف المتأَولون في السبب الذي من أَجله أُمر بخلع النَّعلين ـ فقالت فرقة: كانتا من جلْد حمارميت، فأُمر بطرح النجاسة، وقالت فرقة: بل كانت نعْلاه من جلد بقرة ذُكِّي، ولكن أُمر بخلعهما لينال بركة الوادي المقدس وتمسّ قدماه تربة الوادي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتحتمل الآية معنى آخر هو الأَليق بها عندي، وذلك أَن الله تعالى أَمره أَن يتواضع لعظيم الحال التي حصل فيها، والعُرف عند الملوك أَن تخلع النعلان ويبلغ الإنسان إِلى غاية تواضعه، فكأَن موسى عليه السلام أُمر بذلك على هذا الوجه، ولا تبالي كانت نعلاه من ميتة أَو غيرها.

---

(١) في قوله تعالى في الآية (٢٩) من سورة القصص: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾.

(٢) نوَّهْتُ باسْمِهِ: رفعتُ ذكْره، يقال: نوَّه فلانٌ بفلان إِذا رفعه وطيَّر به وقوَّاه، وفي حديث الزبير: أَنَّه نوَّه به عليٌّ، أَي: شَهَره وعرَّفه. والموْثُوق: يريد الموثوق به، يقال: وثِقَ به يَثِقُ: ائْتَمَنَهُ، فالشاعر هنا يرفع ذكر ربيعة هذا ويثق به لأَنه موضع الثقة والشاهد أَنه وصل الفعل (نادى) بحرف الجر حين قال: (ناديت باسم ربيعة)، هذا وربيعة بن مُكدَّم فارسٌ جاهليٌّ مشهور، وبنته أُم عمرو، ولها شعر ترثيه به، قال ذلك في «التاج»، ولعل هذا البيت من شعرها فيه. وقال في اللسان: رجل مُكدَّم إِذا لقي قتالاً فأَثرت فيه الجراح.

و﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾ معناه: المُطَهَّر، و﴿طُوًى﴾ معناه: مرَّتين مرَّتين، فقالت فرقة: معناه: قدِّسْ مرتين، وقالت فرقة: معناه: طويْتَهُ أنتَ، أيْ سرتَ فيه، أي طُويت لك الأَرضُ مرتين من ظنك. وقرأَ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [طُوًى] بالتنوين على أَنه اسم المكان، وقرأَ نافع، وابن عامر، وأَبو عمرٍو: [طُوَى] على أَنه اسم البقعة، بدون تنوين، وقرأَ هؤلاءِ كلهم بضم الطاءِ، وقرأَ ابن زيد عن أَبي عمرو بكسر الطاء، وقرأَت فرقة: [طاوِي]، قالت فرقة: هو اسم الوادي، و[طُوًى] على التأْويل الأَول بمنزلة قولهم ثُنًى وثِنًى، أَيْ: مَثْنِياً.

وقرأَ السبعة غير حمزة: [وأَنا اخترتك]، ويؤيد هذه القراءة تناسبها مع قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، وفي مصحف أُبَيِّ بن كعب: [وَإِنِّي ٱخْتَرْتُكَ]، وقرأَ حمزة وحده: [وَأَنَّا ٱخْتَرْنَاكَ] بالجمع وفتح الهمزة وشدِّ النون، والآية على هذا بمنزلة قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[1]، ثم قال: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾[2]، فخرج من إفرادٍ إِلى جمع، وقرأَت فرقة: [وَإِنَّا ٱخْتَرْنَاكَ] بكسر الأَلف، وحدثني أَبي رحمه الله يقول: سمعت أَبا الفضل الجوهري يقول: (لمَّا قيل لموسى عليه السلام (استمع لما يوحى) وقف على حجر، واستند إِلى حجر، ووضع يمينه على شماله، وأَلقى ذقنه إِلى صدره، ووقف يستمع، وكان كل لباسه صوفاً)، وقرأَت فرقة: [بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طَاوِي]. وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ يحتمل أَن يريد: لتذكرني فيها، أَو يريد: لأَذكرك في عِلِّيِّين بها، فالمصدر ـ على هذا ـ يحتمل الإِضافة إِلى الفاعل أَو إِلى المفعول، واللامُ لام السبب. وقالت فرقة: قوله ـ ﴿لِذِكْرِىٓ﴾ أَي عند ذكري، أَي إِذا ذكرتني وأَمْري لك بها، فاللام ـ على هذا ـ بمنزلتها في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾[3] وقرأَت فرقة: [لِلذِّكْرَى]، وقرأَت فرقة: [لِذِكْرَى] بغير تعريف[4]، وقرأَت فرقة: [لِلذِّكْرِ].

---

(١) من الآية (١) من سورة (الإسراء).

(٢) من الآية (٢) من سورة (الإسراء).

(٣) من الآية (٧٨) من سورة (الإسراء).

(٤) أَي: بأَلف التأنيث وبغير لام التعريف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ تحذيرٌ ووعيدٌ، أَي: اعبدني فإن عقابي وثوابي بالمرصاد، و«السَّاعَةُ» في هذه الآية: القيامة، بلا خلاف.

وقرأَ ابن كثير، والحسن، وعاصم[1]: [أَكَادُ أَخْفِيهَا] بفتح الهمزة، بمعنى: أُظهرها، أَي أَنها من صِحَّةِ وقوعها وتَيَقُّن كونها تكاد تظهر، لكن تنحجب إلى الأَجل المعلوم، والعرب تقول: «أَخْفَيْتُ الشيءَ» بمعنى: أَظْهَرته، ومنه قول امرىء القيس:

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا ... خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِنْ عَشِيٍّ مُجَلِّبِ[2].

ومنه قوله أَيضاً:

فَإِنْ تَدْفِنُوا الدَّاءَ لاَ نَخْفِهِ ... وَإِنْ تَبْعَثُوا الْحَرْبَ لاَ نَقْعُدُ[3]

---

(١) أَي: في رواية أَبي بكر عنه، أَما رواية حفص فهي بالضم كالجمهور.

(٢) البيت من قصيدة امرىء القيس (خَلِيلَيَّ مُرَّا بي على أُمِّ جُنْدِبُ) التي قالها في وصف الفرس، وعارضه علقمة بأخرى مثله، وفَضَّلَت (أُمُّ جندب) زوجة امرىء القيس علقمة على زوجها، فطلقها. وضمير الفاعل في (خفاهُنَّ) يعود على الفرس الذي يصفه امرؤ القيس، أَما المفعول فيها فهو عائد على (اليرابيع) التي عبَّر عنها بالفَأْر في البيت السابق، ومعنى خَفَاهُنَّ: أَخرجهن أَو أَظهرهُنَّ، والأَنْفَاق: جمع نَفَق، وهو السرب تحت الأَرض، يريد الأَنفاق التي اختبأَت فيها الفئران تحت الأَرض، والوَدْقُ: المطر، والمُجَلِّبُ: الذي له جَلَبَةٌ وضجيج، ورُوي: «من سحاب مُركَّب»، يقول: إن الفرس من شدة جريه وركضه قد أَخرج الفئران من أَنفاقها، كأَنما أَخرجها دَوِيُّ المطر الشديد وجَلَبَتُه. والشاهد أَن (خَفَى) بمعنى: أَظهرَ وأَخرج.

(٣) هذا البيت أَنشده الفراءُ في (معاني القرآن)، وهو في اللسان، والتاج، والقرطبي، ومجاز القرآن، والطبري، وهو من قصيدة امرىء القيس التي يتهدد فيها بني أَسد، والتي بدأَها بقوله:

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالإِثْمِدِ ... وَنَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ تَرْقُدِ

ورواية الفراء (لا نَخْفِهِ) بفتح النون، من خفَيْتُه أَخْفيه، وهذا هو موضع الشاهد هنا كما أَراد ابن عطية، ولكن البيت رُوي بضم النون في (لا نُخْفِهِ)، ومعناها: لا نُظْهره، كما قال الطبري، وقال: «إن الذين وجهوا الإخفاءَ في هذا الموضع إلى الإظهار اعتمدوا على ما ذكروا من سماعهم هذا البيت على ما وصفت من ضم النون، ولكن الصواب أنه بفتح النون». والآراء كثيرة في معنى قوله تعالى: ﴿أَكَادُ

قال أَبو علي: المعنى: أُزيل خفاءها وهو ما تُلَفُّ به القربة ونحوها.

وقرأ الجمهور: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ بضم الهمزة، واختلف المتأَولون في معنى الآية فقالت فرقة: معناها أُظهِرُها، و«أَخْفَيْتُ» من الأَضداد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول مختل.

وقالت فرقة: معناها أكاد أُخفيها من نفسي، على معنى العبارة عن شدة غموضها على المخلوقين، وقالت فرقة: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ﴾ وتمَّ الكلام، بمعنى: أَكادُ أُنفذها لقربها وصحة وقوعها، ثم استأْنف الإخبارَ بأَنه يُخفيها[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول قلق.

وقالت فرقة: [أَكَادُ] زائدة[2] لا دخول لها في المعنى، بل تضمنت الآية الإِخبار بأَن الساعة آتية، وأَن الله يخفي وقت إِتيانها عن الناس.

= أُخْفِيهَا﴾. وقد ذكر المؤلف أكثرها.

(١) واستشهدوا لذلك بقول ضابىء بن الحارث البرجمي:

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي ... تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي أَقَارِبه

وذلك أَن عثمان بن عفان رضي الله عنه أَراد تأديبه لفحشه وهجائه للناس، فلما دُعي ليقابل الخليفة ربط سكِّيناً إِلى ساقه ليقتله بها، لكن أَمره افتضح فضرب ووضع في السجن، وقد مات فيه. والشاهد في قوله: (كِدْتُ)، أَي: كدت أَفعل ما نويت من قتل عثمان، وعلى هذا قالوا: إن معنى الآية: إن الساعة آتية أَكاد آتي بها، ثم ابتدأ سبحانه وتعالى فقال: ولكني أُخْفِيها لِتُجْزَى كل نفس بما تسعى.

(٢) كذلك استشهد هؤلاء بكثير من الشعر، وما استشهدوا به قول ذي الرُّمَّة:

إِذَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَ لَمْ يَكَدْ ... رَسِيسُ الْهَوَى مِنْ حُبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ

والنَّأْيُ: البُعد، ورَسيس الهوى: أَوَّله، أَو ما خفي منه، أَو مَسُّه، فالمعنى عندهم: «لم يبرح رسيس الهوى من حب مية» وعلى هذا تكون (يَكَدْ) زائدة، ويؤيد هذه الرواية الأُخرى التي ذكرها اللسان في البيت، وهي: (لَمْ أَجِدْ رسيسَ الهوى)، والحقيقة أَن لهذه الرواية خبراً، فقد انتقد ابنُ شبرمة قاضي البصرة ذا الرُّمَّة حين سمعه ينشد القصيدة في المربد، فعدل ذو الرُّمَّة إِلى الرواية الثانية، لكن أَكثر النقاد قالوا: إِن بديهة ذي الرُّمَّة في الرواية الأُولى أَجود من رويَّته وتفكيره في الثانية، وقالوا: إِن معنى (لَمْ يَكَدْ): لَم يَقْرُب، وإِن نفي مقاربة الشيء أَبلغ من نَفْي الشيء، فيكون معنى البيت: إِذا غيَّر البعاد قلوب المحبين فبعاد مَيَّةَ عنِّي لا يذهب بما أُحِسُّ لها من حبٍّ مقيم، ولا يقارب حتَّى أَن يذهب به.

وقالت فرقة: ﴿أَكَادُ﴾ بمعنى: أُريد، فالمعنى: أُريد إخفاءَها عنكم لِتُجْزَى كل نفس بما تسعى، واستشهد قائل هذه المقالة بقول الشاعر:

كَـادَتْ وَكِـدْتُ وَتِلْـكَ خَيْـرُ إِرَادَةٍ . . . . (١)

وقد تقدم هذا المعنى.

وقالت فرقة: [أَكَادُ] على بابها، بمعنى أَنها لمقاربة ما لم يقع، لكن الكلام جارٍ على استعارة العرب ومجازها، فلما كانت الآية عبارة عن شدة خفاءِ أَمْرِ القيامة ووقتها، وكان القطع بإِتيانها مع جهل الوقت أَهيب على النفوس، بالغ قوله تعالى في إِعْتام وقتها فقال: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ حتى لا تظهر البَتَّة، ولكن ذلك لا يقع، ولا بُدَّ من ظهورها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا تلخيص هذا المعنى الذي أَشار إِليه بعض المفسرين، وهو الأَقوى عندي. وروى بعض القائلين بأَن المعنى: «أَكَادُ أُخْفيها من نفسي» ما في القول من القلق، فقالوا: معنى «من نفسي»: من تلقائي ومن عندي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا رفض للمعنى الأَول ورجوع إِلى هذا القول الذي اخترناه أَخيراً، فتأَمله.

واللام في قوله تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ﴾ متعلقة بقوله: ﴿ءَاتِيَةٌ﴾، وهكذا بترتيب الوعيد، و﴿تَسْعَىٰ﴾ معناه: تكتسب وتجترح. والضمير في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ عائد على «السَّاعَة»، يريد: الإِيمان بالساعة، فأَوقع الضمير عليها، ويحتمل أَن يعود على الصلاة، وقالت فرقة: على «لا إِله إِلا الله».

(١) هذا صدر بيت، وهو بتمامه:

كَـادَتْ وَكِـدْتُ وَتِلْـكَ خَيْـرُ إِرَادَةٍ لَـوْ عَـادَ مِنْ عَهْـدِ الصَّبَابَـةِ مَا مَضَى

وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالى: ﴿تكاد السموات يتفطرن منه﴾ [مريم: ٩٠]، وهو في اللسان (كيد)، وهو شاهد على أن (كاد) بمعنى (أراد)، ومثله في ذلك ما أَنشده أبو بكر للأَفوه الأَودي:

فَـإِن تَجَمَّـعَ أَوْتَـادٌ وَأَعْمِـدَةٌ وَسَـاكِـنٌ بَلَغُـوا الأَمْـرَ الَّـذِي كَـادُوا

أَي: الأَمر الذي أرادوا. (راجع اللسان والتاج).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا متَّجه، والأوَّلان أبين وجهاً.

وقوله تعالى: [فتردى] معناه: تَهْلِكَ، والرَّدَى: الهلاك، ومنه قول دُرَيْد بن الصِّمَّة:

تَنَادَوا فَقَالُوا: أَرْدَتِ الخيلُ فَارساً فقلت: أَعَبْدُ اللهِ ذَلِكُمُ الرَّدِي(١)؟

وهذا الخطاب كلُّه لموسى عليه السلام، وكذلك ما بعده، وقال النقاش: الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ لمحمد ﷺ، وهذا بعيد، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [أَكَادُ أُخْفِيها مِنْ نَفْسِي]، وعلى هذه القراءة تركَّب ذلك القول المتقدم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ تقديره ومُضَمَّنُه التنبيه وجمع النفس لتلقي ما يورد عليها، وإلاَّ فقد علم الله تعالى ما هي في الأزل. وقوله: ﴿بِيَمِينِكَ﴾ من صلة ﴿تِلْكَ﴾، وهذا نظير قول الشاعر:

عَدَسْ مَا لِعَبَّاد عَلَيْكِ إِمَارَةٌ نَجَوْتِ وَهَذَا تَحْمِلِينَ طَلِيقُ(٢)

قال ابن الجوهري: رُوي في بعض الآثار أن الله تعالى عتب على موسى إضافة

---

(١) البيت من قصيدة له يرثي بها أخاه عبد الله، وهو في الأغاني، والعيني، والحماسة، والشعر والشعراء، والجمهرة، ولباب الآداب، وتفسير البحر، وأَرْدَتْ: أهلكت، والرَّدِي: الهالك. يقول: حين أعلنوا أن الخيل قد أهلكت أحد الفرسان أحسست بالمصيبة وقلت: أهو عبد الله هذا الذي هلك؟ هذا والقصيدة هي الأصمعية الثامنة والعشرون.

(٢) هذا البيت ليزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري، وهو في الخزانة، وحاشية الأمير، والأغاني، والطبري، والمحتسب، واللسان، وابن الشجري، والإنصاف، وابن يعيش، والشذور، والعيني، والهمع، والتصريح، والأشموني، وشرح شواهد المغني، والديوان. وقوله: (عَدَسْ) هو زجرٌ للبغل، وربما سمَّوا البغل عدس، وعَبَّاد هو أخو عبيد الله بن زياد، وكان أميراً على سجستان، وكان قد سجن الشاعر لشعر قاله، إلاَّ أن اليمانية كلموا معاوية بشأنه فأرسل بريداً خاصاً يحمل أمراً بإطلاقه، ولمَّا أطلق سراحه قُدِّم له بغل من بغال البريد ليركبه فقال هذا البيت في مطلع أبيات تجدها مع القصة كاملة في خزانة الأدب. و(هذا) اسم إشارة، وقد وُصِلَ بجملة (تحملين)، فصار من الأسماء الموصولة في رأي بعض النحويين. فيكون (هذا) مبتدأً، وجملة (تحملين) صلة، و(طليق) خبر، أي: والذي تحملينه طليق.

العصا إلى نفسه في ذلك الموطن، فقال له: ﴿أَلْقِهَا﴾ ليرى منها العجب فيعلم أنه لا ملك له عليها ولا تنضاف إليه.

وقرأ الحسن، وأبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ [عَصَايِ] بكسر الياء مثل غلامي[1]، وقرأت فرقة: [عَصَيَّ]، وهي لغة هُذَيْل، ومنه قول أبي ذؤيب:

سَبَقُوا هَوَيَّ وَأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ . . . .[2]

وقرأ الجمهور: [عَصَايَ] بفتح الياء، وكذلك ابن أبي إسحاق قرأ: [عَصَايْ] بياءٍ ساكنة.

ثم ذكر موسى عليه السلام من منافع عصاه عُظْمها وجُمْهورها[3]، وأجمل سائر ذلك. وقرأ الجمهور: [وَأَهُشُّ] بضم الهاءِ والشين المنقوطة، ومعناه: أخبط بها الشجر حتى ينتشر الورق للغنم، وقرأ إبراهيم النَّخَعي: [وَأَهِشُّ] بكسر الهاءِ، والمعنى كالذي تقدم، وقرأ عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما: [وَأَهُسُّ] بضم الهاءِ والسِّين غير منقوطة، ومعناه: أزجرها وأُخوِّف، وقرأت فرقة: [على غنمي] بالجرِّ، وقرأت فرقة:

---

(١) قال هذا ابن مجاهد، ورفضه ابن جني، فقال في المحتَسَب: «وقول ابن مجاهد: «مثل غلامي» وجه له؛ لأن الكسرة في ياء (عَصَايِ) لالتقاء الساكنين، والكسرة في ميم (غُلامِي) هي التي تحدثها ياءُ المتكلم، أفترَى أن في (عَصَايِ) بعد ياء المتكلم ياءٌ له أُخرى حتى يكون للمتكلم ياءان ؟ وهذا محال، وإنما غرضه أن الياءَ في (عَصَايِ) مكسورة كما أن ميم (غُلامي) مكسورة، وأساء التمثيل على ما ترى». ثم قال: «وكسر الياء في هذا ضعيف».

(٢) هذا صدر بيت، وهو بتمامه مع بيت قبله:

وَلَقَـدْ أَرَى أَنَّ الْبُكَـاءَ سَفَـاهَـةٌ ... وَلَسَـوْفَ يُـولَـعُ بِـالْبُكَـى مَـنْ يُفْجَـعُ

سَبَقُـوا هَـوَيَّ وَأَعْنَقُـوا لِهَـوَاهُـمُ ... فَتُخِـرِّمُـوا وَلِكُـلِّ جَنْـبٍ مَصْـرَعُ

وأبو ذُؤَيْب يرثي أولاده ويبكيهم، فقد ماتوا واحداً بعد الآخر وتركوه وحيداً على غير هواه، فالضمير في (سَبَقُوا) يعود على أولاده، وهَوَيَّ لغة هُذَيْل في (هَوَايَ)، يقولون ذلك في جميع المقصور، فيقولون: عَصَيَّ وتُقَيّ. وأعنقوا: تبع بعضهم بعضاً وماتوا قَبْلي، ولم يلبثوا كما كنتُ أهوى، وكنتُ أُحب أن أموت قبلهم ولكنهم خالفوا ذلك فكأن هذا كان هوًى لهم. وقيل: جعل موْتهم مُضِيّاً لهوَاهم من باب ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ فالله تعالى لا يمكر، ولكن لمَّا قال: ﴿مَكَرُواْ﴾ جرى اللفظ على الأول، وهنا فإن موتهم لم يكن هوًى لهم، ولكن جرى اللفظ على الأول. أمَّا قوله: (وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ) فمعناه أن كلَّ حيٍّ لا بُدَّ أن يموت.

(٣) عُظْمُ الشيء: أكثَرُهُ، وجُمْهُور الشيء: أكثره. فالمراد أنه ذكر أكثر منافع عصاه.

[عَلَيَّ غَنَمِي] فأَوقعوا الفعل على الغنم، وقرأَت فرقة: [غَنْمِي] بسكون النون، ولا أَعرف لها وجهاً، وقوله: [أُخْرَى] ـ فوَحَّد مع تقدم الجمع ـ هو المَهْيَع في توابع جمع ما لا يعقل والكناية عنه، فإن ذلك يجري مجرى الواحدة المؤنثة، كقوله: ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]، وكقوله: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠]، وقد مرَّ القول في هذا المعنى غير مرة(١).

وعصا موسى عليه السلام هي التي كان أَخذها من بيت عِصِيِّ الأَنبياء الذي كان عند شعيب عليه السلام حين اتفقا على الرعية، وكانت عصا آدم عليه السلام هبط بها من الجنة، وكانت من العين الذي في ورق الريحان، وهو الجسم المستطيل في وسطها، وقد تقدم شرح أَمرها فيما مضى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

لما أَراد الله تبارك وتعالى أَن يُدَرِّبه في تلقِّي النبوة وتكاليفها أَمره بإِلْقاء العصا، فأَلقاها موسى عليه السلام، فقلب اللهُ أَوصافها وأَغراضها، وكانت عصا ذات شعبتين، فصارت الشعبتان لها فماً، وصارت حيَّةً تسعى، أَي تنتقل وتمشي وتلتقم الحجارة، فلما رآها موسى عليه السلام رأَى عبرة فولَّى مُدْبِراً ولم يُعقِّب، فقال الله له: خذها ولا تخف، وذلك أَنه أَوجس في نفسه خيفة، أَي لحقه ما يلحق البشر، ورُوي أَن موسى عليه الله تناولها بِكُمَّي جُبَّته، فنُهي عن ذلك فأَخذها بيده فصارت عصا كما كانت أَول مرة، وهي سيرتها الأُولى.

ثم أَمره الله تعالى أَن يضم يده إِلى جَنْبِه، وهو الجناح استعارة ومجازاً، ومنه قول الراجز:

---

(١) آخرها عند تفسير قوله تعالى في الآية (٨) من هذه السورة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

أَضُمُّـــهُ لِلصَّـــدْرِ وَالْجَنَـــاحِ(١)

وبعض الناس يقول: «الجناح»: اليد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله صحيح على طريق الاستعارة، أَلا ترى أَن جعفر بن أَبي طالب رضي الله تعالى عنه سُمِّي ذا الجناحين بسبب يديه حين أُقيمت له الجناحان مقام اليد، شبه بجناح الطائر(٢).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكلُّ مرعُوبٍ من ظُلْمة أَو نحوها فإِنه إذا ضمَّ يده إلى جناحه فتر رعبه وجمع جأْشه، فجمع الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام تفتير الرعب مع الآية في اليد. ورُوي أَن يد موسى عليه السلام خرجت بيضاءَ تشِفُّ وتضيءُ كالشمس.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أَي: من غير بَرَصٍ ولا مُثْلَة، بل هو أَمر يَنْحَسر ويعود بحكم الحاجة إليه، وقوله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ يحتمل أَن يريد وصف الآيات بالكبر على ما تقدم من قوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ و﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ ونحوه، ويحتمل أَن يريد تخصيص هاتين الآيتين بأَنهما أَكبر الآيات، كأَنه قال: لِنُرِيَكَ الكبرى من آياتنا، فهما معنيان. ثم أَمره الله تبارك وتعالى بالذهاب إلى فرعون، وهو مصعب بن الرَّيَّان في بعض ما قيل، وقيل غير هذا، ولا صحة لشيءٍ من ذلك. و[طغى] معناه: تجاوز الحدَّ في فساد.

---

(١) لم أقف على قائل هذا الرجز، وفي اللسان (جنح): «وجناح الإنسان: يده، ويَدَا الإنسان: جناحاه، وفي التنزيل ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾، وفيه: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾، وقال الزجاج: معنى جناحك العَضُد، ويقال: اليَدُ كلها جناح، وجمْعُه أَجْنِحَة وأَجْنُح».

(٢) هو جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب، أخو علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، كان من السابقين إلى الإسلام، وقد حضر معركة مُؤتة بالبلقاء في الشام، فنزل عن فرسه وقاتل، ثم حمل الراية وتقدم الصفوف فقطعت يمناه، فحملها بيُسراه وقاتل فقطعت أيضاً، فاحتضن الراية إلى صدره وقاتل حتى وقع شهيداً وفي جسمه نحو تسعين طعنة ورَمْية، وقيل: إن الله تبارك وتعالى عوّضه عن يديه بجناحين في الجنة، وقال حسَّان فيه:

فَــلاَ يَبْعِــدَنَّ الله قَتْلَــى تَتَــابَعُــوا ... بِمُــؤْتَــةَ مِنْهُــمْ ذُو الْجَنَــاحَيْــن جَعْفَــرُ

ولقد لُقِّبَ جعفر بالطَّيَّار، روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن النبي ﷺ قال: «دخلت الجنة فرأيت جعفر يطير مع الملائكة وجناحاه مضرجان بالدم».

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ الآية، لما أَمره الله تعالى بالذهاب إِلى فرعونَ علم أَنها الرسالة، وفهم قدْر التكليف، فدعا الله في المعونة إِذْ لا حولَ له إِلاَّ به، وقوله: ﴿ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ معناه: لفهم ما يرِد علي من الأُمور، و«الْعُقْدَة» التي دعا في حَلِّها هي التي اعترته من الجمرة التي جعلها في فمه حين جرَّبه فرعون، ورُوي في ذلك أَن فرعون أَراد قتله وهو طفل حين مدَّ يده إِلى لحية فرعون، فقالت له امرأَته: إِنه لا يعقل، فقال: بَلَى، هو يعقل وهو عدوٌّ لي، فقالت له: نُجَرِّبه، قال: أَفعل، فدعت بجمرات من نارٍ وطبق فيه ياقوت، فقال: إِن أَخذ الياقوت علمنا أَنه يعقل، وإِن أَخذ النار عذرناه، فمدَّ موسى يده إِلى جمرة فأَخذها فلم تَعْدُ على يده فجعلها في فيه فأَحرقته وأَورثت لسانه عُقْدة في كِبَرِه، أَي حَبْسَة مُلْبِسَةً في بعض الحروف. قال ابن الجوهري رحمه الله: كفَّ الله النار عن يده لئلا تقول النار: طبعي، وأَحرقت لسانه لئلا يقول موسى: مكانتي، وموسى عليه السلام إِنما طلب من حلِّ العقدة قدْر أَن يُفْقَه قولُه، فجائز أَن يكون ذلك كله زال، وجائز أَن يكون بقي منه القليل، فيجتمع أَن يُؤْتى سُؤْلَه وأَن يقول فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[1]، ولو فرضناه زال جملةً لكان قول فرعون سبّاً لموسى عليه السلام لحالته القديمة.

و«الْوَزِيرُ»: المُعين القائم بِوِزْر الأُمور، وهو ثقلها، ويحتمل الكلام أَن طلب الوزير من أَهله على الجملة، ثم أَبدل هارون من الوزير المطلوب، ويحتمل أَن يريد: واجعل هارون وزيراً، فإِنما ابتداءُ الطلب فيه، فيكون ـ على هذا ـ مفعولاً أَولاً بـ[ٱجْعَلْ]. وكان هارون عليه السلام أَكبر من موسى عليه السلام بأَربعة أَعوام.

وقرأَ ابن عامرٍ وحده: [أَشْدُدْ] بفتح الهمزة [وَأُشْرِكْهُ] بضمها على أَن موسى عليه السلام أَسند هذه الأَفعال إِلى نفسه، ويكون الأَمر هنا لا يريد به النبُوَّة بل يريد تدبيره ومساعيه؛ لأَن النُّبُوَّة لا يكون لموسى عليه السلام أَن يشرك فيها بشراً، وقرأَ الباقون: [أُشْدُدْ] بضم الهمزة [وَأَشْرِكْهُ] على معنى الدعاء في شدِّ الأَزر وتشريك هارون عليه السلام في النُّبُوَّة، وهذه هي الوَجْه لأَنها تناسب ما تقدم من الدعاء، ويعضدها آياتٌ غير هذه تقضي بطلبه تصديق هارون إِيَّاه. و«الأَزْرُ» يعني الظهر، قاله أَبو عبيدة، كأَنه قال: شُدَّ به عوني، واجعله مُقَاومي فيما أُحاول من الأُمور، وقال امرؤُ القيس:

---

(١) من الآية (٥٢) من سورة (الزخرف).

بِمَحْنِيَّــةٍ قَــدْ آزَرَ الضَّــالَ نَبْتُهَــا مَجَــرَّ جُيُــوش غَــانِمِيــنَ وَخُيَّــبِ(١)

أَي: قاوَمَهُ وصار في طوله. وفتح أبو عمرو وابن كثير الياءَ من [أَخِي] وسكَّنها الباقون، ورُوي عن نافع [وَأَشْرِكْهُو] بزيادة واوٍ في اللفظ بعد الهاءِ. ثم جعل موسى عليه السلام ما طلب من نعم الله تعالى سبباً يلزم كثرة العبادة والاجتهاد في أَمر الله. وقوله: [كَثِيراً] نعت لمصدر محذوف، تقديره: تسبيحاً كثيراً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾.

المعنى: قال الله تعالى: قد أَعطيتك يا موسى طلبتك في شرح الصدر وتيسير الأَمر وحلّ العُقدة، إمَّا بالكُلِّ وإمَّا على قدر الحاجة في الأَفعال، وإِيتاءُ هذا السؤال مِنَّة من الله عزَّ وجلَّ، فقرن إِليها قديم مِنَّته عنده على جهة التوقيف عليها ليَعْظُم اجتهاده وتَقْوى بصيرته.

وكان من قصة موسى عليه السلام ـ فيما روي ـ أَن فرعون ذُكر له أَن خراب ملكه يكون على يدي غلام من بني إِسرائيل، فأَمر بقتل كل ولد يولد لبني إِسرائيل، ثم إِنه رأَى مع أَهل مملكته أَن فناءَ بني إِسرائيل يعود على القبط بالضرر؛ إِذ هم كانوا عملة الأَرض والصناع ونحو هذا، فعزم على أَن يقتل الولدان سنة ويستحييهم سنة، فوُلد

(١) هذا البيت من قصيدته «أُم جندب» التي وصف فيها الفرس وصفاً دقيقاً طويلاً، ولكنه في بعض أبياتها يشبه ناقته بحمار وحشي وقف يأكل العشب في مَحْنِيَّة، والمَحْنِيةُ: حيث ينحني الوادي وهو أخصب موضع فيه، والضَّال: نوع من الشجر في الصحراء، هو السِّدْرُ البري، وآزَرَ: حاذى وساوى، أَيْ صار مثله طولاً وغضارة لخصوبة الأرض، مَجَرَّ جُيُوشٍ: مَمَرَّ جيوش، غانمين: منتصرين، خُيَّبُ: مهزومين، أَي هذه المنطقة في الوادي تمر بها الجيوش المنتصرة والمهزومة بكثرة، ولذلك لا ترعى فيها الحيوانات، ولا يقصدها الرعاة خوفاً من الجيوش، ولهذا بقيت خصيبة.

وهذا البيت في اللسان (أَزر) شاهد على أَن (آزَرَ) بمعنى: ساوى، ولكن آزر بمعنى قَوَّى لا تتأتى فيه، وأَظهر منه في هذا المعنى البيت الذي استشهد به اللسان ولم ينسبه، قال: وأَزَّر الزرع وتأَزَّر: قوَّى بعضه بعضاً فالتف وتلاحق واشتد، قال الشاعر:

تــأَزَّرَ فيــه النَّبْــتُ حَتَّــى تَخَــايَلَــتْ رُبَـاهُ وَحَتَّـى مـا تُـرَى الشَّـاءُ نُـوَّمَـا

هارون عليه السلام في سنة الاستحياءِ فكانت أُمَّه آمنة، ثم وُلد موسى عليه السلام في العام الرَّابع سنة القتل، فخافت أُمه عليه الذبح فبقيت مهتمة، فأَوحى الله إِليها، قيل: بمَلك جاءَها فأَخبرها وأَمرها، قال بعض من روى هذا: ولم تكن نَبِيَّةً؛ لأَنا نجد في الشرع ورواياته أَن الملائكة قد كلَّمت من لم يكن نبيّاً، وقال بعضهم: بل كانت أم موسى رسول الله ﷺ السلام نَبِيَّة بهذا الوحي، وقال بعضهم: بل كان هذا الوحي رؤْيا رأَتها في النوم، وقالت فرقة: بل هو وحي إِلهام وتسديد كوحي الله إِلى النحل وغيرها، فأَلهمها الله تبارك وتعالى إِلى أَن اتَّخذت تابوتاً فقذفت فيه موسى راقداً في فراش، ثم قذفته في يمِّ النيل، وكان فرعون جالساً في موضع يشرف على النيل إِذ رأَى التابوت، فأَمر به فَسِيق إِليه وامرأَته معه، ففتح فرآه، فرحمته امرأَته وطلبته لتتخذه ابناً فأَباح لها ذلك، وروي أَن التابوت جاءَ في الماء إِلى المشرعة التي كان جواري امرأَة فرعون يستقين فيها الماءَ، فأَخذن التابوت وحَمَلْنَه إِليها، فأَخرجته وأَعلمت فرعون وطلبته منه، ثم إِنها عرضته للرضاع فلم يقبل امرأَة، فجعلت تنادي عليه في المدينة ويُطاف به يعرض للمراضع، فكلما عرضت عليه امرأَة أَباها، وكانت أُمه حين ذهب عنها في النيل بقيت مغمومة وفؤادها فارغ إِلاَّ من هَمِّه، فقالت لأُخته: اطلبي أَثره في المدينة عسى يقع إِلينا منه خبر، فبينا الأُخت تطوف إِذْ بَصُرَتْ به وفهمت أَمره، فقالت لهم: أَنا أَدلكم على أَهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون، فتعلقوا بها وقالوا لها: أَنت تعرفين هذا الصبي، قالت: لا، غير أَني أَعلم من أَهل هذا البيت الحرص على التقرُّب إِلى الملكة والجدَّ في خدمتها وإِرضائها، فتركوها وسأَلوها الدلالة، فجاءَت بأُمِّ موسى فلما قَرَّبَنْه شرب ثدييها، فسُرَّت آسية امرأَة فرعون، وقالت لها: كوني معي في القصر، فقالت لها: ما كنت لأَدع بيتي وولدي، ولكنه يكون عندي، فأَحسنت إِلى أَهل ذلك البيت غاية الإِحسان، واعتزَّ بنو إِسرائيل بهذا الرضاع، والسبب من الملكة، وأَقام موسى حتى كمل رضاعه، فأَرسلت إِليها آسية أَن جيئي بولدي ليوم كذا، وأَمرت خدمها ومن لها أَن يَلْقَيْنه بالتُّحف والهدايا واللباس، فوصل إِليها على ذلك وهو بخير حال وأَجمل شباب، فسُرَّت به ودخلت به على فرعون ليراه ويحبه، فرآه وأَعجبه وقرَّبه، فأَخذ موسى عليه السلام بلحية فرعون وجَبَذَهَا[1]، فاستشاط فرعون وقال: هذا عدوٌّ لي، وأَمر بقتله،

(١) جَبَذَ وجَذَبَ بمعنى واحد.

فناشدته فيه امرأته وقالت: إنه لا يعقل، فقال فرعون: بل يعقل، فاتَّفقا على تجربة بالجمرة والياقوت حسبما ذكرنا آنفاً في حلِّ العُقْدة، فنجاه الله من فرعون وردَّه إلى أمه فشَبَّ عندها إلى أن ترعرع، وكان فتًى جلْداً فاضلاً، فاعتزت به بنو إسرائيل بظاهر ذلك الرضاع، وكان يحميهم ويكون ضلعه معهم وهو يعلم من نفسه أنه منهم ومن صميمهم، فكانت بصيرته في حمايتهم، وكان يعرف ذلك أعيان بني إسرائيل.

ثم إن قصة القبطي المقاتل مع الإسرائيلي نزلت، وذِكْرُها في موضعها مَسْتَوْعَب، فخرج موسى عليه السلام من مصر حتى وصل إلى مدين، فكان من أمره مع شعيب رسول الله عليه السلام ما هو مُسْتَوْعَب في موضعه، من أنه تزوج ابنته الصغرى على رعيه الغنم عشر سنين، ثم اعتزم الرحيل بزوجته إلى بلاد مصر، فجاءَ في طريقه فَضَلَّ في ليلة مظلمة فرأى النار حسبماتقدم ذكره، فعدَّد الله تبارك وتعالى على موسى في هذه الآية ما تضمنته هذه القصة من لطف الله به في كل فضل، وتخليصه له من قصة إلى أُخرى، وهذه الفتون التي فتنه بها، أَي اختبره وخلَّصه حتى صلح للنبوة وسَلِم لها.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ إيهامٌ يتضمن عِظَم الأمر وجلالته في النعم، وهذا نحو قوله سبحانه: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾[1]، وهو كثير في القرآن والكلام، و﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ بدلٌ من [مَا]، والضمير الأول في [ٱقْذِفِيهِ] عائد على موسى، وفي الثاني على التابوت[2]، ويجوز أَن يعود على موسى عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ﴾ خبر خرج في صيغة الأمر مبالغةً، إذ الأَمر أَقطع الأفعال وأَوجب، ومنه قول النبي ﷺ: «قُوموا فَلأصَلِّ لكم»[3]، فأَخرج الخبر في صيغة الأَمر لنفسه مبالغةً، وهذا كثير، ومن حيث خرج الفعل مخرج الأمر حسن جوابه كذلك. و«العَدُوُّ» الذي كان لله تبارك وتعالى ولموسى عليه السلام هو فرعون، ولكن أُم موسى أَخبرت به على الإيهام،

---

(١) الآية (١٦) من سورة (النجم).

(٢) يريد أَن يقول: والضمير في [ٱقْذِفِيهِ] الأُولى عائد على موسى، وفي [فَٱقْذِفِيهِ] الثانية عائد على التابوت.

(٣) هذا جزءٌ من حديث أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، ومالك، والدارمي، عن أنس، ولفظه في البخاري (أَن جدَّته ـ أَي أَنس ـ مُلَيكه دعت رسول الله ﷺ لطعام صنعته له، فأكل منه ثم قال: (قُوموا فلأُصَلِّي لكم)، قال أَنس: فقمت إلى حصير لنا قد اسودَّ من طول ما لُبس فنضحته بماء، فقام رسول الله ﷺ، وصففت واليتيم وراءه والعجوز من ورائنا، فصلى لنا رسول الله ﷺ ركعتين ثم انصرف)، وعلى هذه الرواية فلا شاهد في الحديث لأن الصيغة فيه ليست صيغة أَمر

ولذلك قالت لأُخته: قُصِّيه، وهي لا تدري أَين.

ثم أَخبر الله تعالى موسى عليه السلام أَنه أَلقى عليه مَحَبَّة منه، فقال بعض الناس: أَراد محبة آسية، لأَنها كانت من الله وكانت سبب حياته، وقالت فرقة: أَراد القبول الذي يضعه الله في الأَرض لخيار عباده، وكان حظ موسى عليه السلام منه غاية الوفر، فقالت فرقة: أَعطاه إِجلالاً يُحِبُّه به كل من رآه، وقالت فرقة: أَعطاه ملاحة العينين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان فيهما ضعف، وأَقوى الأقوال أَنه القبول.

وقرأَ الجمهور: [ولتصنع على عيني] بكسر اللام وضم التاءِ على معنى: ولِتُغذى ولِتُطعم وتُربى، وقرأَ أَبو نُهَيْك: [وَلِتَصْنَعَ] بفتح التاء، قال ثعلب: معناه: لتكون حركتك وتصرفك على عين مني، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [وَلِيُصْنَعْ] بالياءِ وكسر اللام على الأمر للغائب، وذلك مُتَّجه، وقوله: ﴿عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ معناه: بمرأَى مني وأَمر مدرك مبصر مراعَى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾.

العامل في [إِذْ] فعل مضمر تقديره: ومَنَنَّا إِذْ، وتقدم تفسير هذه الآية في القصص المذكورة آنفاً، وقرأَت فرقة: [كي تقر] بفتح القاف، وقرأَت فرقة: [كي تَقِر] بكسر القاف، والنَّفْسُ التي قتلها هي نفس القبطي الذي كان يقاتل الإِسرائيلي فوكزه موسى فقضى عليه، و«الغَمُّ»: همُّ النفس، وكان هم موسى عليه السلام بأَمر مَن طلبه ليثأَر به.

وقوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ معنا: خَلَّصْنَاك تخليصاً[1]، هذا قول جمهور المفسرين، وقالت فرقة: معناه: اختبرناك، وعلى هذا التأْويل لا يُراد إِلاَّ ما اختُبر به

(١) تعبير الطبري، والقرطبي وغيرهما من المفسرين: «أخلصناك إخلاصاً»، وهذا القول منسوب إلى مجاهد رضي الله عنه، والمعنى: خلَّصه من كل ما لا يلائم النبوة حتى أصبح صالحاً لها.

موسى عليه السلام بعد بلوغه وتكليفه، وما كان قبل ذلك فلا يدخل في اختبار موسى عليه السلام.

وعدَّة سنيه في أَهل مدين عشرة أَعوام؛ لأَنه إِنما قضى أَوفى الأَجلين، وقوله تبارك وتعالى: ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ أَي: بميقات محدود[١] للنبوة التي قد أَرادها الله بك، ومنه قول الشاعر:

نَـالَ الْخِـلاَفَـةَ أَوْ كَـانَـتْ لَـهُ قَـدَراً كَمَـا أَتَـى رَبَّـهُ مُـوسَـى عَلَـى قَـدَرِ[٢]

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ معناه: جعلتك موضع الصنيعة ومقرَّ الإِجمال والإِحسان، وقوله: [لِنَفْسِي] إِضافة تشريف، وهذا كما تقول: «بيت الله» ونحوه. «والصِّيامُ لي وأَنَا أَجْزِي به»[٣]، وعبَّر بالنفس عن شدَّة القرب وقوة الاختصاص.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

أَمر الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام في هذه الآية بالنفوذ إِلى دعوة فرعون، وخاطب موسى وحده تشريفاً له، ويحتمل أَن هارون أُوحي إِليه مع مَلَك أَن ينفذ، و[بِآيَاتِي] معناه: بعلاماتي التي أَعطيتكما من معجزة وآية وحي وأَمْر ونهي كالتوراة، و[تَنِيَا] معناه: تضعفا وتبطئا، تقول: وَنَى فلان في أَمْر كذا إِذا تباطأَ فيه عن ضعف، ومنه قول الشاعر:

---

(١) الأَصح أَنَ يقال: بميقات مُحَدَّد؛ لأَن الشيء المحدود هو القليل.

(٢) البيت لجرير، وهو من قصيدة له يمدح بها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وهو في الديوان، والطبري، والبحر، والقرطبي، والمغني، والرواية فيه: جاءَ الخلافة، وفي الديوان: (نال الخلافة إِذْ كانت)، ويروى: (عزَّ الخلافة بل كانت له قدراً) ومعناها: أَخذ الخلافة بِعِزٍّ وقَهْرٍ، قال صاحب اللسان: «يقال: قَدَر الإِله كذا تقديراً، وإِذا وافق الشيءُ الشيءَ قلتَ: جاء قَدَرُه، وقال ابن سيدة: القَدَر والقَدْرُ ـ بسكون الدال وفتحها ـ: القضاءُ والحكم، وهو مايُقدِّره الله عزَّ وجلَّ من القضاء، ويحكم به من الأَمور»، فالشاهد في البيت قوله: (عَلى قدَر)، إِذ المعنى: بقضاء الله وتوفيقه.

(٣) هذا جزءٌ من حديث متفق عليه.

. . . . فَمَا أَنَا بِالْوَانِي وَلاَ الضَّرَعِ الْغُمْرِ[١]

والوَنَى: الكلالُ والفَشَل في البهائم والإنس، وفي مصحف ابن مسعود: [وَلاَ تَهِنَا فِي ذِكْرِي]، ومعناه: وَلاَ تَلِينا، من قولك: هيِّنٌ ليِّنٌ.

و«الْقَوْلُ اللَّيِّنُ»، قالت فرقة: معناه: كَنِّيَاهُ[٢]، وقالت فرقة: بل أمرهما بتحسين الكلمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الوجه، وذلك أن كل من يريد دعاءَ إنسان إلى أمر يكرهه، فإنما الوجه أن يحرر في عبارته المعنى الذي يريد حتى لا يخل به ولا يخرمنه، ثم يجتهد بعد ذلك في أن تكون عبارته لطيفة ومقابلته ليِّنَة، فذلك أَجلب للمراد، فأمر الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام أن يَسْلُكَا مع فرعون إكمال الدعوة في لين من القول.

وقوله: [لَعَلَّهُ] معناه: على رجائكما وطمعكما، فالتوقع فيها إنما هو راجع إلى جهة البشر، وقرأ الجمهور [يَفْرُط] بفتح الياءِ وضم الراءِ، ومعناه: يَعْجَل ويتسرع بمكروه فينا، ومنه الفارط في الماءِ، وهو الذي يتقدم القوم إليه، قال الشاعر:

فَاسْتَعْجَلُونَا وَكَانُوا مِنْ صَحَابَتِنَا كَمَا تَقَدَّمَ فُرَّاطٌ لِوُرَّادِ[٣].

---

(١) هذا عجز بيت، والبيت بتمامه في اللسان (ضرع)، وهو غير منسوب، قال: الضَّرَعُ هو الغُمْرُ الضعيف من الرجال، وقال الشاعر:

أَنَاةً وَحِلْماً وَانْتِظَاراً بِهِم غَداً فَمَا أَنَا بِالْوَانِي وَلاَ الضَّرَعِ الْغُمْرِ

ورجلٌ ضارع: بيِّن الضُّروع والضَّراعة: ناحلٌ ضعيف. والغُمْرُ: الذي لم يجرب الأمور ولا خبرة له بحرب ولا أمْر ولم تُحَنِّكه التجارب. والشاهد في البيت هو أن الواني بمعنى الضعيف المتباطىء في الأمر بسبب ضعفه وعجزه.

(٢) أي خاطباه بالكنية، وهي ما يُجْعَلُ علماً على الشخص غير الاسم واللقب، وتُستعمل مع الاسم واللقب أو بدونهما تفخماً لشأن صاحبها أن يُذكر اسمه مجرداً، وتكون لأشراف الناس.

(٣) البيت للقُطَاميِّ ـ عمير بن شُتَيم التغلبي ـ وهو من قصيدة له يمدح بها زُفَر بن الحارث الكلابي، وهي في الأغاني، وأورد منها ابن قتيبة أبياتاًفي «الشعر والشعراء»، والبيت في اللسان (فرط)، وفي تفسير البحر المحيط. قال في اللسان: «وفَرط القوم يَفرطُهم فَرْطاً وفَرَاطة: تقدمهم إلى الورْد لإصلاح الأرْشية والدِّلاء ومَدْر الحياض والسَّقْي فيها، وفَرَطْتُ القوم أفرطُهُم فَرْطاً، أي سبقتهم إلى الماء، فأنا فارطٌ وهم الفُرَّاط، قال القطامي: «فاستعجلونا. . . البيت». والوُرَّاد: هم الذين يردون الماءَ، يقال: وردتُ الماءَ أَرِدهُ وُروداً إذا حَضَرْتَه لتشرب، ويروى البيت: «كما تقدم فارط الوُرَّاد».

وقرأَت فرقة: [يُفرِطَ] بضم الياءِ وكسر الراءِ، ومعناه: يَشْتَطُّ، وقرأ ابن محيصن: [يُفْرَطَ] بضم الياءِ وفتح الراءِ، ومعناها أَن يحمله حامِلٌ على التسرع إِلينا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ أَي بالنصر والمعونة والقدرة على فرعون، وهذا كما تقول: «الأمير مع فلان» إِذا أَردت أَنه يحميه. ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ عبارة عن الإِدراك الذي لا تخفى معه خافية، تبارك الله رب العالمين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾.

المعنى: فأْتِيا فرعون فأَعلماه أَنكما رسولان إِليه، وعبَّر لفرعون بـ[رَبِّكَ] تحقيراً له؛ إِذْ كان يدَّعي الربوبية، ثم أَمر بدعوته إِلى أَن يَبْعَث معهما بني إِسرائيل ويُخرجهم من ذُلِّ خدمة القبط، وقد تقدم في هذه الآية دعاؤُه إِلى الإِيمان، وهذه جملة ما دُعي إِليه فرعون «الإِيمان وإِرسال بني إِسرائيل»، والظاهر أَن رسالته إِليه ليست على حدِّ إِرساله إِلى بني إِسرائيل، وتعذيبُ بني إِسرائيل كان ذبح أَولادهم وإِذلالهم. و«الآية» التي أَحالاَ عليها هي العصا واليد. وقال: [جِئْنَاكَ] ـ والجائي بها موسى ـ تجوُّزاً من حيث هما مشتركان.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ يحتمل أَن يكون آخر كلام وفَصْله، فيقوى أَن يكون «السلام» بمعنى التحية، كأَنما رغبا بها عنه، وجَرَيا على العُرف في التسليم عند الفراغ من القول فسلَّما على من اتبع الهدى، وفي هذا توبيخ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى هذه الجملة استعمال الناس هذه الآية في مخاطبتهم ومحاوراتهم. ويحتمل أَن يكون في درج القول متصلاً بقوله سبحانه: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ﴾ فيحتمل على هذه أَن يكون خبراً بأَن السلامة للمهتدين، وهذان المعنيان قالت كلَّ واحد منهما فرقةٌ لكن دون هذا التلخيص، وقالوا: [السَّلَامُ] بمعنى: السَّلامة، و[على] بمعنى «اللام»، أَي: السَّلامةُ لمن اتَّبع الهدى.

ولما فرغا من المقالة التي أُمرا بها عند قوله: [وَتَوَلَّى] خاطبهما فرعون، وفي سرد هذه الآية حذف يدل عليه ظاهر الكلام، تقديره: فأَتَياهُ فلما قالا جميع ما أُمِرَا به قال لهما فرعون: فمن ربكما؟ وقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ بغير جمعه مع «هارون» في الضمير نداءٌ له بمعنى التخصيص والتوقيف؛ إِذْ كان صاحب عُظْم الرسالة ولزيم الآيات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾.

استبد موسى عليه السلام بجوابه من حيث خصه بالسؤال، ثم أَعلمه من صفات الله بالتي لا تشريك لفرعون فيه ولا بوجه مجاز. واختلف المفسرون في قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ فقالت فرقة: أَعطى الله الذَّكَر من كل حيوان ـ نوعه وخلقته ـ أُنثى، ثم هدى للإِتيان، وقالت فرقة: أَعطى الله كل موجود من مخلوقاته خِلْقَتَهُ وصورتَهَ، أَي أَكْمَلَ ذلك له وأَتقنه، ثم هَدَى أَي: يسَّر كل شيء لمنافعه ومرافقه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا القول أَشرف معنًى وأَعم في الموجودات.

وقرأَت فرقة: [خَلَقَهُ] بفتح اللام، ويكون المفعول الثاني بـ[أَعْطَى] مُقَدَّرا، تقديره: كماله أَو مصلحته.

وقول فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ يحتمل أَن يريد محاجَّته بحسب ما تقدم من القول ومناقضته فيه، فليس يتَّجه على هذا أَن يريد إلاَّ: ما بال القرون الأُولى لم تُبعث إِليها ولم يوجد أَمْرُكَ عندها؟ فردَّ موسى عليه السلام عِلْم ذلك إِلى الله تعالى. ويحتمل أَن يريد فرعون قطْع الكلام الأَول والرجوع إِلى سؤال موسى عمَّن سلف من الناس روغاناً في الحجة وحيدة، وقيل: «ٱلْبَالُ»: الحال، كأَنه سأَله عن حالهم، كما جاءَ في الحديث: «يهديكم الله ويصلح بالكم»[1]، قال النقاش: إِنما قال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ لمَّا سمع مؤمن آله يقول: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝٣٠

(١) البخاري (٦٢٢٤) في كتاب الأدب من صحيحه.

مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ﴾[1] الآية، وردَّ موسى العلم إلى الله لأنه لم تأته التوراة بعد. وقوله: ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ يريد اللوح المحفوظ، أو فيما كتبته الملائكة من أحوال البشر.

وقرأت فرقة: ﴿لَّا يَضِلُّ﴾ بفتح الياءِ وكسر الضاد، واختُلف في معنى هذه القراءة فقالت فرقة: هو ابتداءُ كلام، تنزيهٌ لله تبارك وتعالى عن هاتين الصفتين، وقد كان الكلام تمَّ في قوله: ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾، و[يَضِلُّ] معناه: يتلف[2]، وقالت فرقة: بل قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ من صفة الكتاب، أي أن الكتاب لا يغيب عن الله تعالى، تقول العرب: «ضَلَّني الشَّيْءُ» إذا لم أجده، و«أَضْلَلْتُهُ أنَا»، ومنه قول النبي ﷺ حكاية عن الإسرائيلي الذي طلب أن يُحرق بعد موته: (لعلي أُضِل الله) الحديث[3]، ﴿وَلَا يَنسَى﴾ أظهر ما فيه أن يعود ضميره إلى الله تعالى، ويحتمل أن يعود إلى الكتاب في بعض

---

(١) من الآيتين (٣٠، ٣١) من سورة (المؤمن) وهي سورة(غافر)، ومؤمن آل فرعون هو الذي تتحدث عنه الآيات من قوله تعالى في سورة غافر: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ الآية (٢٨) وما بعدها، ولهذا سميت السورة سورة المؤمن.

(٢) ومعنى يتلفُ يَهْلِكُ، وبهذا عبَّر أكثر المفسرين، قال الزجاج: معنى لا يَضِلُّ: لا يهْلِك من قوله تعالى: ﴿أئذا ضللنا في الأرض﴾، وقيل: ﴿لَّا يَضِلُّ﴾: لا يُخطِىء، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، أي: لا يخطىء في التدبير، فمن أنظره فَلِحكمة أنظره، ومن عاجله فَلِحكْمة عاجَلَه، وقيل: ﴿لَّا يَضِلُّ﴾: لا يغيب، قال ابن الأعرابي: «أصل الضلال الغيبوبة، يقال: ضلَّ النَّاسي إذا غاب عنه حفظ الشيء، ومعنى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا يغيب عنه شيءٌ ولا يغيب عن شيء».

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد والأنبياء والرقاق، ومسلم في التوبة، والنسائي في الجنائز، وابن ماجه في الزهد، والدارمي في الرقاق، ومالك في الجنائز من الموطأ، وأحمد في مواضع كثيرة، والرواية التي فيها هذا اللفظ أخرجها أحمد، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه، قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: ما أَتيتك حتى حلفت عدد أصابعي هذه ألاَّ آتيك، ثم سأله عن أُمور، وفي نهاية الحديث قال: (إنَّ رجلاً ممَّن كان قبلكم رَغَسَهُ الله تعالى مالاً وولداً حتى ذهب عصر وجاء آخر، فلما احتضر قال لِوَلَدِه: أَيُّ أَبٍ كنتُ لكم؟ قالوا: خير أَب، فقال: هل أنتم مطيعي وإلاّ أخذت مالي منكم، انظروا إذا أنا مِتُّ أن تحرقوني حتى تدعوني حُمماً، ثم اهرسوني بالمهراس ـ وأدار رسول الله ﷺ يديه حذاءَ ركبتيه ـ قال رسول الله ﷺ: ففعلوا والله، وقال نبي الله ﷺ بيده هكذا، ثم اذروني في يوم راحٍ لعلي أُضلُّ الله تعالى، كذا قال عفان ـ أَجد الرواة ـ قال أبي: وقال مهني أبو شبل عن حماد: أَضل الله، ففعلوا والله ذلك، فإذا هو قائم في قبضة الله تعالى، فقال: يا بن آدم، ما حملك على ما فعلته؟ قال: من مخافتك، قال: فَتلاَفاَهُ الله تعالى بها).

ومعنى: (رَغَسَهُ الله): كثَّر ماله وأولاده وبارك له فيهما ـ والحُمَم: الفحم والرماد وكل ما احترق من النار ـ والرَّاح من الأيام: الشَّديد الرِّيح).

التأويلات، يصفه بأنه لا ينسى، أي: لا يَدَعُ شيئاً، فالنسيان هنا استعارة، كما قال في موضع آخر: ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾[1]، فوصفه بالإحصاء من حيث حصرت فيه الحوادث.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾.

انظر هذه الأَشياء التي ذكرها موسى عليه السلام، هي مما تقضي بداية العقولُ أَن فرعون وكل بشر بعيدٌ عنها؛ لأَنه لو قال: هو الرزاق القادر المريد العالم ونحوه من العبارات لأَمكن فرعون أَن يغالط ويقول: أنا أَفعل هذا كله، فإنما أَتاه موسى عليه السلام بصفات لا يمكن فرعون أَن يقول: إِن ذلك له.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عباس: [مِهَاداً] بكسر الميم وبأَلف، و«المِهَادُ» هو جمع مَهْدٍ، وقيل: هو اسم مفرد كفَرْش وفِرَاش، وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي: [مَهْداً] بفتح الميم وسكون الهاء، وقوله: [سَلَكَ] بمعنى: نَهَجَ ولَحَبَ[2]، و«السُّبُل»: الطُّرُق. وقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ يحتمل أَن يكون من كلام موسى عليه السلام، على تقدير: يقول عزَّ وجلَّ: [فَأَخْرَجْنَا]، ويحتمل أَن يكون كلام موسى تمَّ عند قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ثمَّ وصل الله تعالى كلام موسى بإِخباره لمحمد ﷺ، والمراد الخلق أَجمع بهذه الآيات المنبَّه عليها. و«الأَزْوَاج» بمعنى: الأَنواع، وقوله: [شَتَّى] نعت للأزواج، أَي: مختلفات.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْۗ﴾ بمعنى هي صالحة أَن يؤكل منها وترعى الغنم فيها، فأَخرج العبارة في صيغة الأَمر؛ لأَنه أَوحى الأَفعالِ وأَهزُّها للنفس، و[النُّهَى] جمع نُهْيَة، والنُّهْيَةُ: العقل الناهي عن القبائح.

قوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾، أَي: من الأَرض، وهذا من حيث خلق آدم عليه السلام من تراب، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ يريد: بالموت والدفن والفَنَاءِ كيف كان، وقوله: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ يريد: بالبعث يوم القيامة.

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٤٩) من سورة الكهف: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾.

(٢) يقال: نَهَجَ الطريق: بيَّنَه، ويقال: لَحَبَ الطريق: أَوْضَحه وبيَّنه. فمتى (سَلَكَ): أَوْضَحَ وَبيَّنَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ إخبارٌ من الله تعالى لمحمد ﷺ عن فرعون، وهذا يؤيد أَن الكلام من قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ إنما هو خطاب لمحمد ﷺ، وقوله: [كُلَّهَا] عائد على الآيات التي رآها، لا أَنه رَأَى كلَّ آية لله، وإنما المعنى أَن الله أَراه آياتٍ مَّا، وهي العصا واليد والطمسة وغير ذلك، وكانت رؤيته لهذه الآيات مستوعبة، يرى الآية كلَّها كاملة، كأَنه قال: «لقد أَريناهُ آياتنا بكمالها»، وأَضاف الآيات إلى ضمير العظمة تشريفاً لها. وقوله تعالى: [وَأَبَى] يقتضي تَكَسُّبَ فرعون، وهذا هو الذي يتعلق به الثواب والعقاب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾.

هذه المقاولة من فرعون تدل على أَن أَمر موسى عليه السلام قد كان قَوِيَ، وكَثُر مُتَّبِعُوه من بني إسرائيل، ووقع أَمْرُه في نفوس الناس، وذلك أَنهامُقاولة من يحتاج إلى الحُجَّة لا من يصدع بأَمْر نفسه. وأَرْضُهم هي أَرْضُ مصر.

وقرأَت فرقة: [لا نخلِفُه] بالرفع، وقرأَت فرقة: [لا نُخْلِفْه] بالجزم حملاً على جواب الأَمر، و[نَحْنُ] تأْكيد للضمير من حيث احتاج الكلام إلى العطف عليه أُكِّد. و[مَوْعِداً] مفعول أَول لـ[اْجْعَلْ]، و[مَكَاناً] مفعول ثانٍ. وهذا الذي اختارَ أَبو علي، ومنع أَن يكون [مَكَاناً] معمولاً لقوله: [مَوْعِداً] لأَنه قد وُصف، وهذه الأَسماءُ العاملةُ عمل الفعل إذا نُعتت أَو عُطف عليها أَو أُخبر عنها أَو صُغِّرت أَو جُمعت وتوغَّلت في الاسمية بمثل هذا لم تعمل ولا تَعَلَّق بها شيءٌ هو منها، وقد يُتَوَسَّع في الظروف فتُعلَّق بعد ما ذكرناه، كقوله تعالى: ﴿يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾[1]، فقوله: [إِذْ] معلق بقوله: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ وهو قد أُخبر عنه، وإنما جاز هذا في الظَّرف خاصة، وكذلك منع أَبو علي أَن يكون [مَكَاناً] نصب على الظرف السَّادَّ مَسَدَّ المفعول.

---

(١) من الآية (١٠) من سورة (غافر).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر، ومنع قومٌ أن يكون [مَكَاناً] نصباً على المفعول الثاني بـ[نُخْلِفُهُ]، وجوَّزه كثير من النحاة، ووجهه أن يتَّسع في أن يخلف الموعد. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي: [سِوَى] بكسر السِّين، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة: [سُوًى] بضمها، والجمهور نوَّن النون، وقرأ الحسن: [سِوَى] بكسر السين غير منون الواو، قال أبو الفتح: «تَرْكُ الصرف هنا مشكل، والذي ينبغي أن يكون محمولاً على الوقف»[١]، وقرأت فرقة: [سَوَاءً]، ذكره أبو عمرو عن ابن أبي عيلة، ومعنى [سُوًى] أي: عدْلاً ونَصَفة، قال أبو علي: فكأنه قال: مكاناً قريباً منَّا قُرْبه منكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما أراد: حالنا فيه مستوية، فيعُمُّ ذلك القُرب، وأن تكون المنازل فيه واحدة في تعاطي الحق، أي: لا تعترضكم فيه الرياسة، وإنما بقصد الحجة، و[سُوًى] لغةٌ في (سِوًى)، ومن هذه اللَّفظة قول الشاعر:

وَإِنَّ أَبَانَا كَانَ حَلَّ بِبَلْدَةٍ ... سِوًى بَيْنَ قَيْسٍ قَيْسِ عَيْلانَ وَالْفِزْرِ[٢]

وقالت فرقة: معناه: مستوياً من الأرض لا وَهْدَ فيه ولا نَجْد[٣]، وقالت فرقة: معناه: سوَى مكاننا هذا[٤].

---

(١) إنَّما كان ترك الصَّرْفِ مُشْكِلاً لأنه وصْفٌ على فُعَل، وذلك مصروف عند اللغويين والنحويين، يقال: (مَالٌ لُبَدٌ ـ ورَجُلٌ حُطَمٌ، ودليلٌ خُتَعٌ ـ، «واللبُدُ: الكثير، والحُطَمُ: الظَّلوم، والخُتَعُ: الحاذق في الدلالة».

(٢) البيت لموسى بن جابر الحنفي، قال ذلك في اللسان (سوى)، والرواية فيه: (وَجَدْنا أَبانا...)، والبيت في الطبري، والقرطبي، والبحر، وقد نقل صاحب اللسان عن الأخفش قوله: «سِوًى وسُوًى إذا كان بمعنى (غير) أو بمعنى العَدْل يكون فيه ثلاث لغات: إن ضَمَمْتَ السين أو كسرت قصَرْتَ فيهما جميعاً، وإن فتحت مددت، تقول: مكانٌ سِوًى وسُوًى وسواءٌ، أي: عَدْلٌ ووسط فيما بين الفريقين» ثم استشهد ببيت موسى بن جابر هذا. ثم نقل عن ابن بَرِّي قوله: «ولم يأت سَواءٌ مكسور السين ممدوداً إلاَّ في قولهم: هو في سِوَاءِ رأسه، إذا كان في نعمة وخصب». والفِزْرُ هو سعد بن زيد بن مناة، أبو قبيلة من تميم.

(٣) الوَهْد: الأرض المنخفضة، والنَّجْد: الأرض المرتفعة.

(٤) قال أبو حيان في البحر المحيط: «وليس بشيءٍ؛ لأن (سوى) إذا كانت بمعنى (غير) لا تستعمل إلاَّ مضافة لفظاً، ولا تنقطع عن الإضافة».

فقال موسى عليه السلام: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾، اتَّسع في الظرف من قرأه برفع [يَوْمُ] فجعله خبراً، وقرأ الحسن، والأعمش، والثَّقفي: [يَوْمَ] بالنصب على الظرف، والخبر مقدر، ورُوي أَن يوم الزينة كان عيداً لهم ويوماً مشهوداً، وصادف يوم عاشوراءَ، وكان يوم سبت، وقيلَ: هو كسر الخليج الباقي إلى اليوم. وقوله: ﴿وَأَن يُحْشَرَ﴾ عطف على [الزِّينَةِ] فهو في موضع خفض، ويحتمل أَن يكون في موضع رفع على تقدير: موعدكم أَن يُحشر، وتعلق عطفه على [يَوْمُ]، وفيه نظر. وقرأ الجمهور: [يُحْشَرَ] برفع الياء، وقرأ ابن مسعود، وأَبو سعيد الخدري: [يَحْشُر] بفتح الياءِ وضم الشين ونصب [النَّاسَ]، وقرأت فرقة: [نَحْشر] بالنون، و«الْحَشْرُ»: الجمع، ومعناه: نحشر الناس لمشاهدة المعارضة والتَّهَيُّؤ لقبول الحق حيث كان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝٦٣ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ۝٦٤﴾.

المعنى: فجمع السَّحرة ووعدهم وأَمرهم بالإعداد لموسى، فهذا هو كيده، ثم أَتى فرعون بجمعه وأَهل دولته، والسحرة معه، وكانت عصابة لم يخلق الله تعالى أَسْحر منها، وجاءَ أَيضاً موسى عليه السلام ببني إسرائيل معه، فقال موسى عليه السلام للسَّحرة: [وَيْلَكُمْ]، وهذه مخاطبة مُحَذِّر، وندبهم في هذه الآية إلى قول الحق إذا رأَوه، وأَلاَّ يباهتوا بكذب.

وقرأ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ونافع، وعاصم[١]، وأَبو عمر، وابن عامر: [فَيَسْحَتَكُمْ] بفتح الياءِ، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: [فَيُسْحتكُمْ] بضم الياءِ، وهما لغتان بمعنى واحد، يقال: سَحَتَ وأَسْحَتَ بمعنى: أَهْلَكَ وَأَذْهَبَ، ومنه قول الفرزدق:

---

(١) في راوية أَبي بكر عنه.

وَعَضُّ زَمَانٍ يَا بْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ مِنَ الْمَالِ إِلاَّ مُسْحَتاً أَوْ مُجَلَّفُ[1]

فهذا من أَسْحَتَ.

فلما سمع السحرةُ هذه المقالة هالهم هذا المنزع، ووقع في نفوسهم من مهابته رعبٌ شديد، وتنازعوا أَمرهم، و«التَّنازع» يقتضي اختلافاً كان بينهم في السِّر، أَي: قال بعضهم لبعض: هو محق، وقال بعضهم: هو مبطل، وقال بعضهم: إِن كان من عند الله فَسَيَغْلِبنا، ونحو هذا من الأَقوال التي تعهد من الجموع الكثيرة في وقت الخوف كالحرب ونحو هذا، ومعلوم أَن جميع تناجيهم إِنما كان في أَمر موسى عليه السلام، وقالت فرقة: إِنما كان تناجيهم بالآية التي بعد هذا ﴿إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأَظهر أَنَّ تلك قيلت علانية، ولو كان تناجيهم ذلك لم يكن ثَمَّ تنازع، و«النَّجْوى»: السِّرُّ والمُسَارَّةُ، أَي: كان كل رجل منهم يناجي من يليه، ثم جعلوا ذلك سرّاً مخافة فرعون أَن يتبيَّن فيهم ضعفاً؛ لأَنهم حينئذ لم يكونوا مُصَمِّمين على غلبة

---

(١) البيت من قصيدة للفرزدق: (عَزَفْتَ بأَعْشَاشٍ وما كِدْتَ تَعْزِفُ)، وهو في التاج واللسان (جلف وسحت)، وفي مجاز القرآن، وشرح المفضليات، والجمهرة، والخزانة، والطبري، والقرطبي، وقبله يقول الشاعر:

إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَمَتْ بِنَا هُمُومُ الْمُنَى وَالْهَوْجَلُ الْمُتَعَسَّفُ

فقول الشاعر: (وَعَضُّ زمانٍ) مرفوع بالعطف على (هُمُومُ الْمُنَى)، والهوجل: الفلاة التي لا علامات فيها، والمُتَعَسَّفُ: التي يُسَارُ فيها بدون دليل. وعَضُّ الزَّمان: شِدَّتُهُ، والمُسْحَتُ: المُسْتأْصَل الذي لم يبق منه بقية، والمُجَلَّف: الذي ذهب معظمه وبقي منه شيءٌ يسير. وهذا البيت صعبٌ في إِعرابه، قال الزمخشري عنه: لا تزال الركب تصطك في تسوية إِعرابه، وقال ابن قتيبة: رفع الفرزدق آخر البيت ضرورة، وأَتعب أَهل الإِعراب في طلب الحيلة، وقد سأَل عبد الله بن أَبي إِسحق النحوي، سأَل الفرزدق: بِمَ رفعتَ (أَو مُجَلَّفُ)؟ فقالَ: بما يسوءُك وينوءُك، علينا أَن نقول، وعليكم أَن تتأَولوا، والتأْويلات كثيرة: قيل: مُجَلَّفٌ مرفوع على المعنى، أَي مرفوع بفعلٍ محذوف دلَّ عليه (لم يدع)، قال ذلك ابن جني في المحتَسَب، قال: إِن قوله: (لم يدع من المال إِلاّ مسحتاً) دلَّ على أَنه بقي، فأَضمر ما يدل عليه، وهو: بقي مجلَّفُ، وقال ثعلب: (مجلف) مستأْنف، والتقدير: هو مُجَلَّف، وقال الفارسي: (مجلَّف) معطوف على (عَضُّ)، وهو مصدر جاء على صيغة المفعول، والتقدير: وعضُّ زمانٍ أَو تجليفٌ، وقال الفراءُ: (مجلَّف) مبتدأٌ وخبره محذوف. وهناك إِعرابات أُخرى تعتمد على روايات تختلف الكلمات فيها عما رويناه.

موسى عليه السلام، بل كان ظنًّا من بعضهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ الآية. قرأَ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [إِنَّ] مُشَدَّدة النون [هَذَانِ] بألفٍ ونون مخففة للتَّثنية، وقرأَ أبو عمرو وحده: [إِنَّ هذين لساحران]، وقرأَ ابن كثير: [إِنْ هذانِّ لساحران] بتخفيف نون [إِنْ] وتشديد نون [هَذانِّ لَسَاحِرَانِ]، وقرأَ حفص عن عاصم: (إِنْ) خفيفة (هَذَان) خفيفة أيضاً (لَسَاحِرَانِ). وقرأَت فرقة: [إِنْ هذانِ إلا ساحران][1]، وقرأَت فرقة: [إِنْ ذَانِ لَسَاحِرَانِ][2]، وقرأَ فرقة: [مَا هَذَانِ إِلاَّ سَاحِرَانِ]، وقرأَت فرقة: [إِنَّ هَذَانِّ] بتشديد النون من [هَذَانِ].

فأَمَّا القراءَة الأولى، فقالت فرقة: [إِنَّ] بمعنى: نعم، كما روي أَنَّ رسول الله ﷺ قال في خطبة (إِنَّ الحمدُ للهِ) برفع (الحمد)[3]، وقال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: «إِنَّ وراكِبَهَا» حين قال له رجل: لعن اللهُ ناقةً حملتني إِليك، ويدخل في هذا التأْويل أَنَّ اللام لا تدخلُ في خبر الابتداء، وهو مما يجوز في الشِّعر، ومنه قول الشاعر:

أُمُّ الْحُلَيْسِ لَعَجُوزٌ شَهْرَبَهْ ... تَرْضَى مِنَ اللَّحْمِ بِعَظْمِ الرَّقَبَهْ[4].

---

(١) وهي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وتخريج هذه القراءة كالتخريج الذي سنذكره في الهامش التالي مباشرة.

(٢) [إِنْ] هي المخففة من الثقيلة، و[ذَانِ] مبتدأٌ، و[لَسَاحِرَانِ] الخبر، واللام للفرق بين (إِنْ) النافية و(إِنْ) المخففة من الثقيلة على رأْيِ البصريين، أَما الكوفيون فيزعمون أَنَّ (إِنْ) نافية وأَنَّ اللام بمعنى (إِلاَّ).

(٣) روى القرطبي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَنه قال: «لا أُحْصي كم سمعتُ رسول الله ﷺ يقول على مِنْبره: (إِنَّ الحمدُ لله، نحمده ونستعينه)، ثم يقول: (أَنا أَفصح قريش كُلِّها، وأَفصحها بعدي أَبان بن سعيد بن العاص). فكأَنه ﷺ يقول: نَعَمْ. الحمد لله... وقد جرت عادة الخطباء في الجاهلية أَن يفتتحوا خطبهم بقولهم: نعم، وقد رُوِي كثير من الشعر الذي استعملت فيه (إِنَّ) بمعنى (نعم)، ومن ذلك قول عبد الله بن قيس الرُّقَيَّات:

بَكَرَ الْعَوَاذِلُ فِي الصَّبَا ... حِ يَلُمْنَنِي وَأَلُومُهُنَّهْ
وَيَقُلْنَ شَيْبٌ قَدْ عَلاَ ... كَ وَقَدْ كَبِرْتَ فقلت إِنَّهْ

وإِجابة عبد الله بن الزبير لمن لَعَن ناقته: (إِنَّ وراكِبَها) معناها: نعَمْ. ولَعَنَ راكِبها.

(٤) ينسب هذا الشعر إِلى رؤبة، وهو في ديوانه المسمى: (مجموع أشعار العرب) تحت عنوان: «أبيات مفردات، وهي منسوبة إِلى رؤبة بن العجاج»، وقيل: هو لعنترة بن عروس، وقيل: لزيد بن ضبة. وهو في معنى اللبيب، واللسان، والخزانة، وابن عقيل. وأُمُّ الحُلَيْس: كنية امرأَة، وشَهْرَبَةٌ: عجوزٌ كبيرة. والشاهد أَن اللام فيه دخلت على الخبر، ويقول ابن عطية هنا: إِنه مما يجوز في الشعر، وكثير من =

وذهبت فرقة إلى أن هذه الآية بِلُغة بني الحارث بن كعب، وهي إِبْقاءُ أَلف التَّثْنِية في حالي النصب والخفض، فمن ذلك قول الشاعر:

تَـــزَوَّدَ مِنَّـــا بَيْـــنَ أُذْنَـــاهُ طَعْنَـــةً ... دَعَتْـهُ إِلـى هَـابِي التُّـرَابِ عَقِيـمِ[١].

وقول الآخر:

فَـأَطْـرَقَ إِطْـرَاقَ الشُّجَـاعِ وَلَـوْ يَـرَى ... مَسَـاغـاً لِنَـابَـاهُ الشُّجَـاعُ لَصَمَّمَـا[٢].

= النحويين يرفضون ذلك حتى في الشعر، ويقولون: إن اللام زائدة، أو هي ضرورة هنا، ولا يقاس عليه، وقيل: إنها لام الابتداءِ والتقدير: لهي عجوز، وقد أكثر النحويون من الكلام في هذا البيت، ومثله في هذا قول الشاعر:

خَـالِـي لأَنْـتَ، ومَـنْ جَـرِيـرٌ خـالُـه ... يَنَـلِ الْعَـلاَءَ وَيُكْـرِمِ الأَخْـوَالا

(١) البيت لهَوْبر الحارثي، قال ذلك في اللسان (هبا) ـ واستشهد به على أن الهَابي من التراب هو ما ارتفع ودَقَّ، وهَوْبَر هذا من بني الحارث الذين يبقون ألف التثنية في حالي النصب والخفض كما ذكر ابن عطية، والشاهد هنا هو إبقاءُ الألف في كلمة (أُذْنَاه) مع أنها مجرورة بالإضافة، واللغة الفصيحة أن يقال: بين أُذنيه، وقال بعض أهل اليمن:

أَيَّ قَلُـــوصِ رَاكِـــبٍ تَـــرَاهَـــا ... طَـــارُوا عَـــلاهُـــنَّ فَطِـــرْ عَـــلاَهَـــا

أي: طاروا عليهن فطر عليها، وقال النحاس: إن هذه اللغة معروفة، وقد حكاها من يُرتضى بعلمه أو أمانته كأبي زيد الأنصاري، وأبي الخطاب الأخفش، والكسائي، والفراء. كلهم قالوا هذا على لغة بني الحارث بن كعب، ونقله القرطبي. ومن الشواهد المشهورة في ذلك ما أنشده الجوهري لأبي النجم:

واهـــاً لِـــرَيَّـــا ثُـــمَّ واهـــاً وَاهَـــا ... هِـــيَ الْمُنَـــى لَـــوْ أَنَّنَـــا نِلْنَـــاهَـــا
يَـــا لَيْـــتَ عَيْنَـــاهَـــا لَنَـــاوَفَـــاهَـــا ... بِثَمَـــنٍ نُـــرْضِـــي بِـــهِ أَبَـــاهَـــا
إِنَّ أَبَـــاهَـــا وَأَبَـــا أَبَـــاهَـــا ... قَـــدْ بَلَغَـــا فِـــي الْمَجْـــدِ غَـــايَتَـــاهَـــا

فقد استعمل المثنى بالألف في حالة النصب في قوله: (غَايَتَاهَا)، وكان القياس أن يقول: (غَايَتَيْها) لأَنه مفعول الفِعْل (بَلَغَ)

(٢) البيت لِلْمُتَلَمِّس، وهو من قصيدة له يدافع فيها عن نسبه، ويمدح الرجل الغيور على كرامته، وفي مطلعها يقول:

يُعَيِّـــرنِـــي أُمِّـــي رِجَـــالٌ وَلاَ أَرَى ... أَخَـــا كَـــرَمٍ إِلاَّ بِـــأَنْ يَتَكَـــرَّمَـــا

والشجاع: الحيَّة، وصمَّمَ الشجاع في عضَّته: نَيَّبَ ولم يترك ما عَضَّه، ومساغ: مَفْعَل من ساغ يسوغ، أي يُسهَلُ فعْله، وهذا البيت يضرب مثلاً للمفكر الذي يتروَّى في الأمور، يقول: إنه أطرق إطراق الحية، ولو أنه وجد مجالاً لعضَّة نابية لفعَل. والشاهد هنا أنه استعمل المثنى بالألف في حالة الخفض في قوله: (لناباه)، والقياس (لنابيه) وقد روي بها البيت.

وتُعزى هذه اللغة لِكِنَانَة، وتُعزى لِخَثْعم، وقال الفراءُ: الأَلف في [هَذَانِ] دعامةٌ وليست مجلوبة للتثنية، وإنما هي أَلف (هذا) تُركت في حال التَّثنية، كما نقول: (الذي) ثم في الجمع نزيد نوناً ونترك الياءَ في حال النصب والرفع والخفض، وقال الزجاج: في الكلام ضمير تقديره: إِنَّه هذان لَسَاحران.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا التأْويل دخول اللام في الخبر، وقال بعض النحاة: أَلِف [هَذَانِ] مُشَبَّهَة هنا بأَلف تَفْعلان، وقال ابن كيسان: لما كان [هَذَا] بحال واحدة في رفعه ونصبه وخفضه تركت تثنيته هنا كذلك. وقالت جماعةٌ ـ منهم عائشة رضي الله عنها، وأَبو عمرو ـ: هذا ممَّا لَحَنَ الكاتب فيه وأُقيم بالصواب وهو تخفيف النون من [إِنْ].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الأَقوال مُعْتَرَضة، إِلاَّ ما قيل من أَنها لغة، و[إِنَّ] بمعنى: أَجَل ونعم، أَوْ إِنَّ في الكلام ضمير.

وأَمَّا من قرأَ [إِنْ] خفيفة، فهي عند سيبويه المخففة من الثقيلة ويرتفع بعدها الاسم، ويقول الفراءُ: هي بمعنى (ما) واللام بمعنى (إِلاَّ) وَوَجْه سائر القراءَات بيِّنٌ.

وعبَّر كثير من المفسرين عن «الطريقة» بـ«السَّادة»(١)، وإِنما يراد أَهل العقل والسنِّ والحِجَى، وحُكي أَن العرب تقول: «فلان طريقة قومه»، أَي: سَيِّدهم، والأَظهر في الطريقة هنا أَنها السِّيرة والمملكة والحال التي هم عليها، و[الْمُثْلَى] تأْنيث الأَمْثَل، أَي: الفاضلة الحسنة.

وقرأَ جمهور القراء: [فَأَجْمِعُوا] بقطع الأَلف وكسر الميم، على معنى: اعزموا، وقرأَ أَبو عمرو وحده: [فَاجْمَعُوا] مِنْ (جَمَعَ)، أَي: ضُمُّوا سحركم بعضه إِلى بعض، وقرأَ ابن كثير: [ثُمَّ] بفتح الميم [ايتُوا] بسكون الياءِ، وقرأَ أَيضاً في رواية شبل عنه: [ثُمِّ ايِتُوا] بكسرهما، قال أَبو علي: وهذا غلط، ولا وجه لكسر الميم من [ثُمَّ]، وقرأَ الجمهور: ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟﴾ بفتح الميم وهمزة بعد الأَلف. وقوله تعالى: ﴿صَفًّا﴾ حالٌ،

(١) أي: سادة القوم ورؤسائهم.

أي: مُصْطَفِّين، وتداعَوْا إلى هذا لأنه أَهْيَب وأَظهر لهم. و[أَفْلَحَ] معناه: ظفر ببغيته، و[ٱسْتَعْلَى]: طلب العُلُوَّ في أَمره وسَعَى سَعْيَه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾.

خيَّر السَّحرة موسى عليه السلام في أَن يبتدىء بالإِلقاءِ أَو يتأَخر بعدهم، ورُوي أَنهم كانوا سبعين أَلف ساحر، ورُوي أَنهم كانوا ثلاثين أَلفاً، ورُوي أَنهم كانوا خمسة عشر أَلفاً، وروي أَنهم كانوا تسعمائة أَلف، ثلاثمائة من الفيوم، وثلاثمائة من الفرما، وثلاثمائة من الإِسكندرية، وكان مع كل رجل منهم حبل وعصي قد استعمل فيها السحر.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ﴾ هي للمفاجأَة، كما تقول: خرجتُ فإِذا زيد، وهي التي تليها الأَسماءُ. وقرأَت فرقة: [عِصِيُّهُمْ] بكسر العين، وقرأَت فرقة بضمها، وقرأَ فرقة: [يُخَيَّلُ] على بناءِ الفعل للمفعول، فقوله: [أَنَّها] في موضع رفع على ما لم يُسَمَّ فاعله، وقرأَ الحسن، والثقفي: [تُخَيِّلُ] بضم التاءِ المنقوطة من فوق وكسر الياءِ وإِسناد الفعل إِلى الحبال والعِصِيِّ، فقوله: [أَنَّها] في موضع نصب، وقرأَت فرقة: [تَخَيَّلُ] بفتح التاءِ والياءِ وإِسناد الفعل إِلى الحبال والعِصِيِّ، فقوله: [أَنَّها] مفعول من أَجله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر من الآيات والقصص في كتب المفسرين أَن الحبال والعِصِيَّ كانت تتحرَّك وتنتقل بِحِيَل السِّحر، وبِدَسِّ الأَجسام الثقيلة الميَّاعة فيها، وكان تحرُّكها يشبه تحرَّك الذي له إِرادة كالحيوان، وهو السَّعْي، فإِنه لا يُوصف بالسَّعْي إِلاَّ من يمشي من الحيوان، وذهب قوم إِلى أَنها لم تتحرَّك، ولكنهم سحروا أَعين الناس وكان الناظر يُخَيَّل إِليه أَنها تتحرَّك وتنتقل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والله أَعلم أَي ذلك كان.

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ﴾ عبارة عمَّا يعتري نفس الإنسان إذا وقع ظنُّه في أَمرٍ على شيءٍ يسوءُه، وظاهر الأَمر كله الصلاح، فهذا الفعل من أَفعال النفس يسمى الوجيس، وعبَّر المفسرون عن [أَوْجَسَ] بِأَضْمَرَ، وهذه العبارة أَعمُّ بكثير من الوجيس. و[خِيْفَةً] يصح أَن يكون أَصلها «خِوْفَةً» فقلبت الواو ياءً للتناسب، ويحتمل أَن يكون «خَوْفَةً» بفتح الخاءِ، قلبت الواو ياءً ثم كسرت الخاءُ للتناسب. وخوف موسى عليه السلام إنما كان على الناس أَن يضلُّوا لهول ما رأَى. والأول أَصوب؛ لأَنه أَوجس في نفسه على الجملة وبقي ينتظر الفرج. وقوله: ﴿أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أَي الغالب لمن ناوأَك في هذا المقام.

وقرأَ جمهور القراء: [تَلَقَّفْ] بالجزم وشدّ القاف على جواب الأَمر، وقرأَ ابن عامر وحده: [تَلَقَّفُ]، وهو في موضع الحال، ويصح أَن يكون من المُلْقِي على الاتساع، ويصح أَن يكون من المُلْقَى وهي العصا، وهذه حالٌ وإِن كانت لم تقع بعد، كقوله تعالى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾[1]، وهذا كثير، وقرأَ حفص عن عاصم: [تَلْقَفْ] بسكون الفاء وتخفيف القاف، وأَنَّث الفعل وهو مسند إِلى ما في اليمين من حيث كانت العصا مُرادة بذلك. ورَوى البزي عن قنبل[2] أَنه كان يشدد الفاءَ من [تَلْقَف]، كأَنه أَراد: تتلقف فأَدغم، وأَنكر أَبو علي هذه القراءة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويشبه أَن قارئها إِنما يَلْتَزِمُها في الوصل حيث يستغني عن جلب أَلف، وقرأَ الجمهور: [كَيْدُ] بالرفع، وقرأَت فرقة: [كَيْدَ] بالنصب، وهذا على أَن [مَا] كافةٌ و[كَيْدَ] منصوب بـ[صَنَعُوا]، ورفع [كَيْدُ] على أَن [ما] بمعنى الذي. و[يُفْلِحُ] معناه: يظفر ببغيته، وقالت فرقة: معناه أَن الساحر يقتل حيث ثقف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا جزءٌ من عدم الفَلَاح، وقرأَت فرقة: [أَيْنَ أَتَى]، والمعنى فيهما متقارب.

ورُوي من قصص هذه الآية أَن فرعون لعنه الله جلس في علّية له طولها ثمانون ذراعاً والناسُ تحته في بسيط، وجاء سبعون أَلف ساحر فأَلقوا من حبالهم وعصيهم ما فيه

---

(١) من الآية (٩٥) من سورة (المائدة).
(٢) في بعض النسخ، «عن ابن كثير».

وِقْر[1] ثلاثمائة بعير، فهال الأمر، ثم إن موسى عليه السلام أَلقى عصاه من يده فاستحالت ثعباناً، وجعلت تنمو حتى رُوي أَنها عبرت النهر بذنبها، وقيل: البحر، وفرعون في هذا يضحك ويرى أَن الاستواء حاصل، ثم أَقبلت تأْكل الحبال والعصي حتى أَفنتها، ثم فغرت نحو فرعون، ففزع عند ذلك وقال: يا موسى، فمد موسى عليه السلام يده إِليها فرجعت عصاً كما كانت، فنظر السحرة وعلموا الحق ورأَوا عدم الحبال والعصى فآمنوا رضي الله عنهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾.

في خلال هذه الآية تقدير وحذف يدل عليه ظاهر القول، فالمقدَّر من ذلك هنا: «فأَلقى موسى عصاه فَالْتَقَمَتْ كل ما جاءُوا به»، أَو نحو هذا، وروي أَن السَّحرة لما رأَت العصا لا أَثر فيها للسِّحر ثم رأَت انقلابها حيَّةً وأَكلها الحبال والعصيَّ ثم رجوعها إِلى حالتها وعدم الحبال والعصي، أَيقنوا بنبوَّة موسى عليه السلام، وأَن الأَمر من عند الله تعالى، وقدّم [هَارُونَ] قبل [مُوسى] لتستوي رؤُوس الآي بنقل معنى قول السحرة، وهذا مثل قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾[2]، فتأَخير [شَتَّى] إِنما هو لتعتدل رءُوس الآي، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾[3]، فتأَخير قوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ إِنما هو لتستوي رءُوس الآي.

وقرأَ ابن كثير، وحفص عن عاصم، وورش عن نافع: [آمَنْتُمْ] على الخبر، وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: [أَآمَنْتُمْ] بهمزة بعدها مدَّة، وقرأَ حمزة، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم [أَأَمَنْتُمْ] بهمزتين. وقوله: ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ مُقاربة منه وبعضُ إِذعان. وقوله: ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ يريد قطع اليد اليُمْنى مع الرِّجْل الشمال، وقوله: ﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ اتِّساع من حيث هو مربوط في الجذع، وليست على حدِّ قولك: زيد في

(١) الوِقْر: الحِمْل.
(٢) من الآية (٥٣) من سورة (طه).
(٣) الآية (١٢٩) من سورة (طه).

الدار، ويصلح في هذا المعنى (عَلَى) من حيث هو مربوط في أعلاها، وليست على حدِّ قولك: ركبتُ على الفرس، وقوله: [أَيُّنَا] يريد نفسَه وربَّ موسى عليه السلام، وقال الطبري: يريد نفسَه وموسى عليه السلام، الأول أذهب مع مخرقة فرعون[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾.

قال السَّحرة لفرعون لمَّا توعَّدهم: ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾، أي: لن نفضِّلك ونفضِّل السلامة منك على ما رأينا من حُجَّة الله تعالى وآياته المبينات وعلى الذي فطرنا، هذا على قول جماعة إن الواو في قوله: [وَٱلَّذِي] عاطفة، وقالت فرقة: هي واو القسم، و[فَطَرَنَا] معناه: خلقنا واخترعنا، فافعل يا فرعون ما شئت، وإنما قضاؤُك في هذه الحياة الدنيا، والآخرة من وراءِ ذلك لنا بالنعيم ولك بالعذاب.

وهؤلاء السحرة اختلف الناس هل نفذ فيهم وعيد فرعون؟ فقالت طائفة: صلبهم على الجذوع كما قال، فأصبح القوم سحرةً وأمسوا شهداءَ بلُطْف الله ورحمته، وقالت فرقة: إن فرعون لم يفعل ذلك، وقد كان الله تعالى قد وعد موسى عليه السلام أنه ومن معه الغالبون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله محتمل، وصَلْب السَّحرة وقَطْع أيديهم لا يدفع في أن موسى عليه السلام ومن معه غَلَب إلاَّ بظاهر العموم، والانفصال عن ذلك بيِّن.

وقوله: ﴿ وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾، قالت فرقة: أرادوا ما ضمهم إليه من معارضة موسى عليه السلام وحملهم عليه من ذلك، وقالت فرقة: بل كان فرعون قديماً يأخذ ولدان الناس بتعليم السِّحر ويجبرهم على ذلك، فأشار السَّحرة إلى ذلك. وقولهم: ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ ردٌّ على قوله: ﴿ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾.

---

(١) المَخْرقة: الجهل والحمق.

قوله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

قالت فرقة: هذه الآية بِجُمْلَتِها هي من كلام السَّحرة لفرعون على جهة الموعظة له والبيان فيما فعلوه، وقالت فرقة: بل هي من كلام الله تبارك وتعالى لمحمد ﷺ تنبيهاً على قُبْح ما فعل فرعون، وحُسْن ما فعل السحرة، وموعظة وتحذيراً، وقد تضمنت القصة المذكورة مثاله والمجرم الذي اكتسب الجرائم والخطايا. وقوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ مختصٌّ بالكافر، فإنه معذب عذاباً ينتهي به إلى الموت، ثم لا يُجهز عليه فيستريح، بل يُعَادُ جِلْدهُ ويُجَدِّدُ عذابُه، فهو لا يحيا حياةً هنية، وأَما من يدخل النار من المؤمنين بالمعاصي فهم قبل أَن تخرجهم الشفاعة في غمرة قد قاربوا الموت إلاَّ أَنهم لا يُجهز عليهم ولا يُجدَّد عذابهم، فهذا فرق ما بينهم وبين الكفار، وفي الحديث الصحيح أَنهم يموتون إماتة، وهذا هو معناها، لأَنه لا موت في الآخرة.

و«الدَّرَجَاتُ الْعُلَى» هي القربُ من الله تعالى، و[تَزَكَّى] معناه: أَطاع الله وأَخذ بأَزْكَى الأُمُور، وتأَمَّل التكسُّب في لفظة [تَزَكَّى] فإِنَّهُ بيِّن.

قوله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾.

هذا استئناف إِخبار عن شيءٍ من أَمر موسى، بينه وبين مقال السحرة المتقدم مدة من الزمان حدث فيها لموسى وفرعون حوادث، وذلك أَن فرعون لما انقضى أَمر السحرة وغَلَب موسى وقوي أَمره، وعَدَهُ فرعون أَن يرسل معه بني إِسرائيل، فأَقام موسى عليه السلام على وعده حتى غدره فرعون ونكث وأَعلمه أَنه لا يرسلهم معه، فبعث الله تعالى حينئذ الآيات المذكورة في غير هذه الآية: الجراد والقُمَّل إِلى آخرها، وكلما جاءت آية وعد فرعون أن يرسل بني إسرائيل عند انكشاف العذاب، فإِذا انكشف العذاب نكث حتى تأْتي أُخرى، فلمَّا كانت الآيات أَوحى الله تعالى إِلى موسى عليه السلام أَن يخرج ببني إِسرائيل من مصر في الليل سارياً، و«السُّرَى»: سير اللَّيل، و[أَنْ] في قوله تعالى:

﴿أَنْ أَسْرِ﴾ يجوز أن تكون مفسِّرة لا موضع لها من الإعراب، كقوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾[١]، ويجوز أن تكون الناصبة للأفعال، وتكون في موضع نصب بـ﴿أَوْحَيْنَا﴾. وقوله: ﴿بِعِبَادِي﴾ إضافة تشريف لبني إسرائيل، وكل الخلق عباد الله، ولكن هذا كقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[٢].

وروي في قصص هذه الآية أن بني إسرائيل لمَّا أشعرهم موسى عليه السلام بليلة الخروج استعاروا من معارفهم من القبط حلياً وثياباً، ويروى أن موسى عليه السلام أذن لهم في ذلك وقال لهم: إنَّ الله سينفلكموها، ويروى أنهم فعلوا ذلك دون رأيه، وهو الأشبه به ﷺ، وسيأتي في جمع الحليِّ ما يؤيد ذلك، ويروى أن بني إسرائيل عجنوا زادهم ليلة سراهم ووضعوه ليختمر، فأعجلهم موسى عليه السلام في الخروج، فطبخوه فطيراً، فهي سُنَّتهم في ذلك الوقت من العام إلى هُلمَّ، ويُروى أن موسى عليه السلام نهض ببني إسرائيل وهم ستمائه ألف إنسان، فسار بهم من مصر يريد بحر القلزم، فاتصل الخبر بفرعون، فجمع جنوده وحشرهم ونهض وراءَه، فأوحى الله إلى موسى أن يقصد البحر، فجزع بنو إسرائيل، رأوا أن العدو من ورائهم والبحر أمامهم، وموسى عليه السلام يثق بصنع الله تعالى.، فلما رآهم فرعون قد نهضوا نحو البحر طمع فيهم، وكان مقصدهم إلى موضع تنقطع فيه الفحوص[٣] والطرق الواسعة. واختلف الناس في عدد جنود فرعون ـ فقيل: كان في خيله سبعون ألف أدهم، ونسبة ذلك من سائر الألوان، وقيل أكثر من هذا مما اختصرته لقلَّة صحته، فلما وصل موسى إلى البحر وقارب فرعون لحاقه وقوي فزع بني إسرائيل أوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى عليه السلام أن اضرب بعصاك البحر، ويُروى أن الوحي إليه بذلك كان متقدماً بمصر، وهو ظاهر الآية، ويروى أنه إنما أُوحي إليه بذلك في موطن وقوعه، واتصل الكلام في هذه الآية على جهة وصف الحال وضم بعض الأُمور إلى بعض، فضرب موسى عليه السلام البحر فانفرق اثنتي عشرة فرقة، طُرُقاًواسعة بينها حيطان ماءٍ واقف، فدخل موسى عليه السلام بعد أن بعث الله تعالى ريح الصَّبا فجففت تلك الطرق حتى يبست، ودخل بنو

---

(١) من الآية (٦) من سورة (ص).

(٢) من الآية (٢٩) من سورة (الحجر) وتكررت في الآية (٧٢) من سورة (ص).

(٣) فَحَصَ الأرض: حفرها.

إسرائيل، ووصل فرعون إلى المدخل وبنو إسرائيل كلهم في البحر، فرأى الماءَ على تلك الحال، فجزع قومه واستعظموا الأمر، فقال لهم لعنه الله: إنما انفلق من هيبتي، وهاهنا كمال إضلاله لهم، وحمله الله على الدخول، وجاءَ جبريل عليه السلام راكباً على فرس أُنثى فاتَّبعها فرس فرعون، وتابعه الناس حتى تكاملوا في البحر فانطبق عليهم، وسمع بنو إسرائيل انطباق الماءِ وهم قد خرجوا بأجمعهم من البحر فعجبوا، فأَخبرهم موسى عليه السلام أَن فرعون وقومه قد هلكوا فيه، فطلبوا مصداق ذلك فلفظ البحر الناس، وأَلقى الله تعالى فرعون على نجوة من الأَرض بِدرْعه المعروفة له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا اختصار قصص هذه الآية بحسب أَلفاظها، وقد مضى أَمر فرعون بأَوعب من هذا في موضع اقتضاه.

وقوله تعالى: ﴿يَبَسًا﴾ مصدر وصف به، وقرأَ بعض الناس: [يابساً]، وأَشار إِلى ذكره الزجاج، وقرأَ حمزة وحده: [لاَ تَخَفْ] إِمَّا على جواب الأَمر، وإِمَّا على نَهْي مستأْنف، وقرأَ الجمهور: [لا تخاف] على أَن يكون حالاً من موسى عليه السلام، ويحتمل أَن يكون صفة للطريق على تقدير: لا تخاف فيه، أَي يكون بهذه الصفة، ومعنى هذا القول: لا تخاف دركاً[١] من فرعون وجنوده، ولا تخشى غرقاً من البحر. وقرأَ أَبو عمرو ـ فيما رُوي عنه ـ: [فَاتَّبَعَهُمْ] بشدِّ التَّاءِ، وتَبِع واتَّبع إِنما يتعدى إِلى مفعول واحد، كقولك: شويت واشتويت، وفديتُ وافتديت، وحفرت واحتفرت. وقوله: [بِجُنُودِهِ]، إِمَّا أَن تكون الباءُ مع ما جُرَّ بها في موضع الحال، كما تقول: خرج زيد بسلاحه، وإِمَّا أَن يكون لتعدي الفعل إِلى مفعول ثانٍ إِذْ لا يتعدى دون حرف جرٍّ إِلاَّ إِلى واحد. وقرأَ الجمهور: [فَأَتْبَعَهُمْ] بسكون التاءِ، وهذا يتعدى إِلى مفعولين، فالباءُ ـ على هذا ـ إِمَّا زائدة، والتقدير: فأَتْبعهم فرعونُ جنودَه، وإِمَّا أَن تكون باءَ الحال، ويكون المفعول الثاني مقدراً، كأَنك قلت: رُؤَسَاءَه أَو عزمه، ونحو هذا، والأول أَظهر[٢]. وقرأَت فرقة: [فَغَشِيَهُمْ]، وقرأَت فرقة: [فَغَشَّاهُمُ اللهُ]. وقوله: ﴿مَا

(١) الدَّرَكُ والدَّرْك: اسمان من الإدراك، وقد قرىء أيضاً بسكون الدال كما قرىء بفتحها.

(٢) وأَتْبَع ـ بسكون التاء ـ قد يكون بمعنى (تَبِعَ). فيتعدى إلى واحد فقط، كقوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾.

غَشِيَهُمْ﴾ إيهامٌ أَهْوَلُ من النَّصِّ على قَدْرٍ مَا، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ يريد: من أول أمره إلى هذه النهاية، ثم أَكَّد تعالى بقوله: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ مقابلة لقول فرعون لعنه الله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

ظاهر هذه الآيات أَن هذا القول قيل لبني إسرائيل حينئذ عند حلول هذه النِّعم التي عددها الله تعالى عليهم، وبَيْن خروجهم من البحر وبيْن هذه المقالة مُدَّةٌ وحوادث، ولكن يخص الله بالذكر ما يشاءُ من ذلك. ويحتمل أَن تكون هذه المقالة خوطب بها مُعَاصروا رسول الله ﷺ، فالمعنى: هذا فعلنا بأَسلافكم، ويكون قوله سبحانه [كُلُوا] بتقدير: قيل لهم: كُلُوا، وتكون الآية ـ على هذا ـ اعتراضاً في أَثناء قصة موسى عليه السلام القَصْدُ به توبيخ هؤلاء الحضور إِذْ لم يصبر سَلَفهم على أَداءِ شكر نعم الله تبارك وتعالى، والمعنى الأَول أَظهر وأَبين.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأَبو عمرو: [أَنْجَيْنَا ـ وَوَاعَدْنَا ـ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ ـ وَرَزَقْنَاكُمْ]، إِلاَّ أَن أَبَا عمرٍو قرأَ: [وَعَدْنَاكُمْ] بغير أَلف في كل القرآن[3]، وقرأَ حمزة، والكسائي: [أَنْجَيْتُ ـ وَوَاعَدْتُ ـ وَنَزَّلْتُ ـ وَرَزَقْتُكُمْ]. وقوله: [وَوَاعَدْنَاكُمْ] قيل: هي لغةٌ في (وَعَدَ) لا تقتضي فِعْل اثنين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإِن حُمِلَتْ على المعهود فَلأَنَّ التَّلَقِّي والعهد والعزم على ذلك يقوم مقام المُوَاعَدة.

---

(١) من الآية (١٦) من سورة (النجم).

(٢) من الآية (٢٩) من سورة (غافر).

(٣) اختار أبو عبيد هذه القراءة؛ لأن الوَعد إنما هو من الله تعالى لموسى خاصة، و«المُوَاعَدةُ» لا تكون إلا من اثنين، وابن عطية يردُّ على هذا حين ينقل عن بعضهم أن (وَاعَدَ) لغة في (وَعَدَ)، وحين يقول: إن التَّلقي والعزم على العهد يقوم مقام المواعدة.

وقصص هذه الآية أن الله تعالى لمَّا أنْجى بني إسرائيل، وَغرِقَ فرعونُ، وَعَدَ سبحانه وتعالى بني إسرائيل وموسى عليه السلام أن يسيروا إلى جانب طور سيناءَ ليكلِّم فيه موسى ويناجيه بما فيه صلاحهم بأوامرهم ونواهيهم، فلمَّا أخذوا في السَّيْر تعجَّل موسى عليه السلام لِلقاءِ ربِّه حسبما يأتي ذكرُه بعد.

وقالت فرقة: هذا الطُّور الذي كلَّم الله تعالى فيه موسى أولاً حيث رأى النَّار وكان في طريقه من الشام إلى مصر، وقالت فرقة: ليْس به، و«الطُّور»: الجبل الذي لا شَعْرَاءَ فيه[1]، وقوله: ﴿ٱلْأَيْمَنَ﴾ إمَّا أن يريد به اليُمْن، وإمَّا أن يريد به اليمين فالإضافة إلى «ذي يَمِين»، إنْسان أو غيره. و«ٱلْمَنُّ والسَّلْوَى» طعامهم، وقد مضى في سورة البقرة استيعاب تفسيرهما.

وقوله تعالى: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ يريد الحلال المِلْكَ؛ لأن المعنى في هذا الموضع قد جمعهما، واختلف الناسُ ما المقصود الأول بلفظ «الطَّيِّب» في القرآن ـ فقال مالك رحمه الله: الحلال، وقال الشافعي رحمه الله: ما يطيب للنفوس، وساق إلى هذا الخلاف تَفَقُّههم في الخَشَاش[2] والمستقذر من الحيوان.

وقوله تعالى: ﴿تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ معناه: تتعدون الحدَّ وتَتَعَسَّفُونَ كالذي فعلوا. وقرأ جمهور الناس: [فَيَحِلَّ] بكسر الحاءِ، و[يَحْلِلْ] بكسر اللام، وقرأ الكسائي وحده[3]: [فَيَحُلَّ] بضم الحاءِ، و[يَحْلُلْ] بضم اللام، ومعنى الأول: فيجب ويحقُّ، ومعنى الثاني: فيقع وينْزِل. وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ معناه: سقط من عُلُوٍّ إلى سُفْل، ومنه قول خُنافر:

* فهَوَى هُوِيَّ ٱلْعُقَاب *[4]

---

(١) الشَّعْرَاءُ: الأرض أو الروضة الكثيرة الشجر. (المعجم الوسيط).

(٢) الخَشَاش: حشرات الأرض، وفي الحديث الشريف: (دخلت امرأة النار في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض).

(٣) لعله يريد: من السبعة، فقد ذكرت كتب التفسير أنها قراءة قتادة، وأبي حيوة، والأعمش، وطلحة.

(٤) قال الصاغاني: خُنافر مثل عُلابط اسم كاهن، وهو خنافر بن التَّوأم الحميري، وفي اللسان «هَوَى بالفتح يَهْوِي هَوِيّاً وهُوِيّاً: سقط من فوق إلى أسفل، وهوى العُقاب تهْوِي هُوِيّاً إذا انقضت على صَيْد أو غيره ما لَمْ تُرغِه، فإذا أراغته قيل: أهْوَتْ له إهواءً، قال زهير:

أَهْـوَى لَهَـا أَسْفَـعَ الْخَـدَّيْـنِ مُطَّـرِقٌ ... رِيشُ الْقَـوَادِمِ لَـمْ يُنْصَـبْ لَـهُ الشَّبَـكُ =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإن لم يكن سقوطاً فهو تشبيه بالسَّاقط، والسُّقوط حقيقة قول الآخر:

. . . . هَـوِيَّ الـدَّلْـوِ أَرْسَلَـهُ الـرِّشَـاءُ(١)

وشبَّه الذي يقع في طامَّة أو ورطة بعد أن كان بنجوة منها بالساقط، فالآية من هذا، أي: هوى في جهنم وفي سخط الله، وقيل: أُخذ الفعل من الهاوية وهي قعر جهنم.

ولما حذَّر الله تبارك وتعالى غضبه والطُّغيان في نعمه فَتَح باب الرَّجاءِ للتَّائبين، والتوبة فرضٌ على جميع الناس لقوله تعالى في سورة النور: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٢) [النور: ٣١]، والناس فيها على مراتب: أمَّا مُواقع الذَّنب وقدرته على ذلك باقية فتوبتُه النَّدمُ على ما مضى والإقلاع التَّام عن مثله في المستقبل، وأمَّا الذي واقَعَ الذَّنب ثمَّ زالت قُدرته على ذلك مِمَّن شَيَّخَ أو بآفة فتوبته النَّدم واعتقاد التَّرك إن لو كانت قُدرة، وأمَّا من لم يُواقع ذنباً فتوبته العزم على ترك كل ذنب، والتوبةُ من ذنب تصحُّ مع الإقامة على غيره، وهي توبة مقيَّدة، وإذا تاب العبد ثم عاود الذَّنب بعينه بعد مُدَّة فيحتمل حُذَّاق أهل السُّنَّة ألاَّ يعيد الله تعالى عليه الذَّنب الأول؛ لأن التَّوبة كانت محضة، ويحتمل أن يعيده لأنها توبة لم يُوَفَّ بها.

واضطرب الناس في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ من حيث وجدوا الهُدى ضِمْنَ الإيمان والعمل ـ فقالت فرقة: معناه: ثُمَّ لزم الإسلام حتَّى يموت عليه، وقالت فرقة: معناه: لم يشك في إيمانه، وقالت فرقة: معناه: ثم استقام، وقالت فرقة: ثم أخذ بِسُنَّة

= والإراغة أن يذهب الصيد هكذا وهكذا والعُقابَ تَتْبعه» والشاهد أن الهُوِيَّ والهَوِيُّ هو السقوط من أعلى إلى أسفل.

(١) هذا عجز بيت، ذكره صاحب اللسان في (هَوَى) شاهداً على أن الهَوِيَّ بفتح الهاء إلى أسفل، وبضمها إلى فوق، يقال: هَوَى هَوِيّاً بالفتح إذا هبط، وهَوَى هُوِيّاً بالضم إذا صعد، ثم استشهد به مرة أخرى على أن الهُوِيَّ بالضم هو العَدْوُ السريع، يقال: هَوَت الناقة هُوِيّاً إذا عَدَتْ عدواً شديداً أرفع العَدْوِ، والبيت بتمامه:

فَشَـدَّ بِهَـا الأَمَـاعِـزَ وَهِـيَ تَهْـوِي هُـوِيَّ الـدَّلْـوِ أَرْسَلَـهُ الـرِّشَـاءُ

ويروى: أَسْلَمَهَا الرِّشَاءُ، وهي رواية اللسان، والرِّشاءُ: حبل الدَّلو الذي يحمله إلى أسفل وإلى أعلى. والدَّلْوُ تُذَكَّر وتُؤَنَّث، والتأنيث أعلى وأكثر، هذا ولم ينسب صاحب اللسان البيت لأحد.

(٢) من الآية (٣١) من سورة (النور).

نبيِّه ﷺ، وقالت فرقة: معناه: ثم أَصاب العمل، وقالت فرقة: معناه: ثمَّ عرف أمر مَشيبه، وقالت فرقة: معناه: والىٰ أَهلَ البيت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه كلها تخصيص واحد منها دون ما هو من نوعه بعيدٌ ليس بالقوي، والذي يقوى في معنى ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أَن يكون: ثم حفظ معتقداته من أَن يخالف الحق في شيءٍ من الأَشياء، فإِن الاهتداءَ ـ على هذا الوجه ـ غير الإِيمان وغير العمل، ورُبَّ مؤمن عمل صالحاً قد أَوبقه عدم الاهتداءِ كالقدرية والمُرْجِئة وسائر أَهل البِدع والخوارج، فمعنى ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾: ثُمَّ مَشَى في عقائد الشَّرع على طريق قويم، جعلنا الله تعالى منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي حفظ المعتقدات ينحصر عُظْم أَمر الشَّرع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًاۚ﴾.

قصص هذه الآية أَن موسى عليه السلام لمَّا شرع في النُّهوض ببني إِسرائيل إِلى جانب الطُّور الأَيمن حيث كان الموعد أَن يكلم الله موسى بما فيه لهم شرف العاجل والآجل، رأَى ـ على جهة الاجتهاد ـ أَن يتقدم وحده مبادرةً إِلى الله عزَّ وجلَّ، وحرصاً على القرب، وشوقاً إِلى مناجاته، واستخلف هارون عليه السلام على بني إِسرائيل، وقال لهم موسى عليه السلام: تسيرون إِلى جانب الطُّور، فلمَّا انتهى موسى عليه السلام وناجى ربه، زاده في الأَجل عَشْراً، وحينئذ وقفه على معنى استعجاله دون القيام ليخبره موسى أَنهم على الأَثر فيقع الإِعلام له بما صنعوا.

وقرأَت فرقة: [أُولاَءِ]، وقرأَت فرقة أُخرى: [أُولاَيَ] بفتح الياءِ[1]، وقوله: [على

(١) حكى ذلك الفراءُ، وقال الزجاج: إِنَّ هذا لا وَجْه له، قال النحاس: وهو كما قال؛ لأَن هذا ليس مما يضاف فيكون مثل هُدَايَ، ولا يخلو من إِحدى جهتين: إِما أَن يكون مبهماً فإِضافته محال، وإِما أَن يكون بمعنى الذين فلا يضاف أَيضاً؛ لأَن ما بعده من تمامه وهو معرفة. =

أَثري] يحتمل أَن يكون في موضع رفع خبراً بعد خبر، ويحتمل أَن يكون في موضع نصب على الحال، وقرأَت فرقة: (عَلَى أَثَرِي) بفتح الهمزة والثاءِ، وقرأَت فرقة: [على إِثري] بكسر الهمزة وسكون الثاءِ.

وأَعلمه موسى عليه السلام أَنه إِنما استعمل طلب الرِّضا، فأَعلمه الله تعالى أَنه قد فَتَنَ بني إِسرائيل، أَي اختبرهم بما صنع السَّامري، ويحتمل أَن يريد: أَلقيناهم في فتنة، أَي في مَيْل مع الشهوات، ووقع في اختلاف كلمة، وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ أَي من بعد فراقك لهم. وقرأَت فرقة: [وأَضلهم السامري] بإِسناد الفعل إِلى السَّامري، وقرأَت فرقة: [وأَضلُّهم السامريُّ] بضم اللام على الابتداء والخبر عن السَّامريِّ أَنه أَضَلُّ القوم.

و«السَّامِرِيُّ» رجلٌ من بني إِسرائيل، ويقال: إِنه كان ابن خال موسى عليه السلام، وقالت فرقة: لم يكن من بني إِسرائيل، بل كان أَصْله من العجم من أَهل كرمان، والأَول أَصح، وكان من قصص السَّامري أنه كان منافقاً عنده حِيَلٌ وسحرٌ، وقبض القبضة من أَثر جبريل عليه السلام، وعلم بما أَقدره الله عليه لِفِتْنَةِ القوم أَنه يتهيَّأُ له بتلك القبضة ما يريد مما يخور على الله تعالى، لأَنه لو ادَّعى النبوَّة مع ذلك العجل لما صحَّ ولا جاز أَن يخور ولا أَن تتم الحيلة فيه، لكنه لمَّا ادَّعى له الربوبية وعلامات كذِبِه قائمة لائحة صحت الفتنة به وجاز ذلك على الله تعالى، كقصة الدَّجَّال الذي تخرق له العادات لأَنه مدعي الربوبية، ولو كان مدعي النبوة لما صحَّ شيءٌ من ذلك. فلمَّا رأَى السَّامري موسى قد غاب ورأَى بقية بني إِسرائيل في طلبهم من موسى آلهة حين مروا على قوم يعبدون أَصناماً على صفة البقر ـ وقيل: كانت بقراً حقيقية ـ علم أَنه سيفتنهم من هذا الطريق، فيروى أَنه قال لهم: إِنَّ الحليَّ الذي عندكم من مال القبط قبيح بكم حَبسُه، ولكنِ اْجمعوه عندي حتى يحكم الله لكم فيه، ويروى أَن هارون عليه السلام أَمر بجمعه ووضعه في حفرة حتى يجيءَ موسى ويستأْذن فيه ربَّه، وقيل: بل كان المال الذي جمعوه للسَّامري ممَّا لَفَظَ البحرُ من أَموال القبط الغارقين مع فرعون، فيروى ـ مع هذا الاختلاف ـ أَن الحليَّ اجتمع عند السَّامري، وأَنه صنع العجل وأَلقى القبضة فيه فَخَار. ورُوي ـ وهو الأَصحُّ والأَكثر ـ أَنه أَلقى الناس الحلي في حفرة أَو نحوها، وأَلقى هو

= هذا وأهل الحجاز يقولون: «أولاءِ» ممدودة، وبنو تميم يقولون: «هُمْ أُولى» مقصورةً مرسلة، حكى ذلك عيسى.

عليهاالقبضة فتجسَّد العجل، وهذا هو وجْه فتنة الله تعالى لهم، وعلى هذا نقول: انخرقت للسَّامريِّ عادة، وأَما على أَن يصوغه فلم ينخرق له عادة، وإِنما فُتنوا حينئذ بِخُواره فقط، وذلك الصوت قد يولد في الأجرام بالصنعة، فلما أَخبر الله تعالى موسى عليه السلام بما وقع رجع موسى إِلى قومه غضبان أَسفاً عليهم من حيث له قدرة على تغيير منكرهم.

وقوله: ﴿أَسَفًا﴾ أَي حزيناً، من حيث علم أَنه موضع عقوبة لا يَدَ له بِدَفْعِها، ولا بُدَّ منها، و«الأَسَفُ» في كلام العرب متى كان من ذي قدرة على من دونه فهو غضب، ومتى كان من الأَقل على الأَقوى فهو حُزْن، وتأَمّل ذلك فهو مُطَّرد إِن شاءَ الله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾.

وبَّخ موسى عليه السلام قومه بهذه المقالة، و«الْوَعْدُ الْحَسَن» هو ما وعدهم من الوصول إِلى جانب الطُّور الأيمن، وما بعد ذلك من الفُتوح في الأَرض، والمغفرة لمن تاب وآمن، وغير ذلك مِمَّا وَعَدَ الله به أَهل طاعته. وقوله: وَعْداً إِمَّا أَن يكون نصباً على المصدر والمفعول الثاني مُقدَّر، وإِمَّا أَن يكون بمعنى الموعود ويكون هو المفعول الثاني بعينه.

ثم وقفهم على أَعذارٍ لم تكن ولا تصحُّ لهم، وهي طول العهد حتى يتبيَّن لهم خلف في الموعد، وإِرادة غضب الله تعالى، وذلك كلُّه لم يكن ولكنهم عملوا عمل من لم يتديَّن. وسُمِّي العذاب غضباً من حيث هو ناشىءٌ عن الغضب، والغضبُ إِنْ جُعل بمعنى الإِرادة فهو صفةُ ذات، وإِن جُعل ظهور النقمة والعقاب فهو صفة فعل، فهو من التردد بين الحالين.

وقرأَ نافع، وعاصمٌ: [بِمَلْكِنَا] بفتح الميم، وقرأَ حمزة، والكسائي: [بِمُلْكِنَا] بضمها، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وابن عامر: [بِمِلْكِنَا] بكسرها، قال أَبو علي: هذه لغات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ظاهر الكلام أنها بمعنى واحد، ولكن أَبا علي ـ وغيره ـ فرَّق بين معانيها، فأَمَّا ضم الميم فمعناه ـ على قول أَبي علي ـ لم يكن لنا مُلْك فنُخلف موعدك بقوته وسلطانه، وإنما أَخلفناه بنظر أَدَّى إليه ما فعل السَّامري، وليس المعنى أَن لهم مُلْكاً، وإنما هو كقول ذي الرُّمَّة:

لاَ يُشْتَكَى سَقْطَةٌ مِنْهَا وَقَدْ رَقَصَتْ   بِهاَ الْمَفَاوِزَ حَتَّى ظَهْرُهَا حَدِبُ[(١)]

أَي: لا يكون منها سَقْطَةٌ فَتُشْتكى، قال: وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[(٢)]، أَي: ليس منهم سؤال فيكون منهم إِلْحاف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كلُّه في هذه الأَمثلة غير متقن من قول أَبي علي، وإنما مشى في ذلك أَثر الزجاج دون تعقب، وقد شرحتُ هذا المعنى في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾، وتبين أَن هذه الآية ليست كهذه الأَمثلة لأَنهم لم يرفعوا الاختلاف، والأَمثلة فيها رفع الوجهين[(٣)].

---

(١) البيت من قصيدته التي مطلعها: «ما بالُ عينِكَ منها الماءُ ينسكبُ»، والتي اختارها أبو زيد القرشي ضمن المُلْحَمات السبع في الجمهرة، والسقطة: السقوط والعثرة. والمفاوز: جمع مفازة وهي الصحراءُ التي لا ماء فيها، وقالوا: إذا عبرها الإنسان فقد فاز، والحَدَبُ: خروج الظهر ودخول البطن والصدر، والبيت في وصف ناقته، وهو ضمن أبيات طويلة تكلم فيها عن ناقته التي صحبته في سيره الطويل بالصحراء، والشاهد أن النفي في البيت منصب على السقوط فلا تكون هناك شكوى، كما أن النفي في الآية الكريمة منصب على السؤال فلا يكون هناك إلحاف. هكذا قال الزجاج وتبعه أبو علي، لكن ابن عطية لا يقبل هذا الفهم، وقد شرحه في سورة البقرة عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

(٢) من الآية (٢٧٣) من سورة (البقرة).

(٣) راجع المجلد الثاني ص٩١ وما بعدها. وخلاصة الكلام الذي هناك أن الزجاج يقول: «لا يكون منهم سؤال فلا يكون إلحاف، وهذا كما قال امرؤ القيس:

عَلَى لاَحِبٍ لاَ يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ   إِذَا سَافَهُ الْعَوْدُ النُّبَاطِيُّ جَرْجَرَا

وقول زهير:

قِفْ بالطُّلولِ التي لَمْ يُعْفِهَا الْقِدَمُ   بَلَى، وَغَيَّرَهَا الأَرْوَاحُ وَالدِّيَمُ

بمعنى أَنه ليس هناك منارٌ فلا يكون هناك اهتداءٌ، وليس هناك قِدَم فلا يكون هناك عَفَاءٌ»، وعلَّق ابن=

وأما فتح الميم فهو مصدرٌ من مَلَك، والمعنى: ما فعلنا ذلك بأَنَّا ملكنا الصواب ولا وُفِّقنا له، وإنما غَلَبتنا أنفسنا.

وأمَّا كسر الميم فقد كثر استعماله فيما تحوزه اليد، ولكنه يستعمل في الأُمور التي يُبْرمها الإنسان، ومعناها كمعنى التي قبلها، والمصدر مضاف في الوجهين إلى الفاعل، والمفعول مُقَدَّر، أَي: بِمَلْكِنَا الصواب، وهذا كما قد يضاف أَحياناً إلى المفعول والفاعلُ مُقدَّر، كقوله تعالى: ﴿بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾[2].

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: [حُمِّلْنَا] بضم الحاءِ وشدِّ الميم، وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [حَمَلْنَا] بفتح الحاءِ والميم[3]. و«الأَوْزَارُ»: الأَثقال، ويحتمل أَن تكون هذه التسمية من حيث هي ثقيلة الأَجرام، ويحتمل أَن تكون من حيث تأَثَّمُوا في قذفها وظهر لهم أَن ذلك هو الحق فكانت آثاماً لمن حملها. وقوله: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أَي: فكما قذفنا نحن فكذلك أَلقى السَّامريُّ ما كان بيده.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه الأَلفاظ تقتضي أَن العِجْل لم يصفه السَّامري.

ثم أَخبر الله تعالى عن فعل السامريِّ بقوله: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا﴾، ومعنى

= عطية على ذلك بأَنه إذا أَراد الزجاج أَنه لا يكون منهم سؤال البَتَّة فهذا لا تعطيه أَلفاظ الآية، وأَن المعنى في بيت امرىء القيس أنه لا يُهْتدى بالمنار وإن كان المنار موجوداً وفي بيت زهير ينتفي العَفَاءُ وإن وُجِدَ القِدَمُ. .» لأن نفي الإلحاف لا ينفي السؤال، والشعر المذكور ينتفي فيه الأَمر الأول لعدم وجود الثاني. وراجع أيضاً تعليقنا رقم (٢) ص٤٧٢ من نفس الجزء.

(١) من الآية (٢٤) من سورة (ص).

(٢) من قوله تعالى في الآية (٤٩) من سورة (فصلت): ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾.

(٣) قال ابن خالويه: «الحجة لمن شدَّد أنه جعل الفعل لما لم يُسَمَّ فاعله، ودلّ عليه بضم أوله، وكان أصله: ولكنا حمَّلنا السامريَّ، فلما خُذل الفاعل أُقيم المفعول مقامه، فرُفع؛ لأَن الفعل الذي كان حديثاً عن الفاعل صار عن المفعول فارتفع، والحجة لمن خفَّف أنه أرادهم بالفعل، وجعل النون والألف المتصلين به في موضع رفع»، أَي: على أَنه فاعل.

[جَسَداً] أي شَخْصاً لا روح فيه، وقيل: معنى [جَسَداً]: لا يتغذَّى، و«الخُوَارُ»: صوتُ البقر، وقالت فرقة: كان هذا العجل يخور ويمشي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهكذا تكون الفتنة من قِبَلَ الله تعالى، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقالت فرقة: إنما كان خواره بالرِّيح، كانت تدخل من دُبره وتخرج من فمه فيصوت لذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾.

الضمير في قوله: [فَقَالُوا] لبني إسرائيل، أي: ضلُّوا حين قال كبارهم لصغارهم، و[هَذَا] إشارة إلى العجل، وقوله تعالى: [فَنَسِيَ] يحتمل أن يكون من كلام بني إسرائيل، أي: فنسي موسى عليه السلام ربَّه وإلهه وذهب يطلبه في غير موضعه، ويحتمل أن يكون [فَنَسِيَ] إخباراً من الله تعالى عن السَّامري أنه نسي دينه وطريق الحق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالنسيان في التأويل الأول[1] بمعنى الذُّهول، وفي الثاني بمعنى الترك.

ثم قرن الله تعالى موضع خطابهم بقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾، والمعنى: أفلم يتبيَّن هؤلاء الذين ضلُّوا أن هذا العجل إنما هو جماد لا يتكلم ولا يرجع قولاً ولا يضر ولا ينفع؟ وهذه خلال لا يخفى معها الحدوث والعجز؛ لأن هذه الخلال لو حصلت له أوجبت كونه إلهاً. وقرأت فرقة: ﴿أَلاَّ يَرْجِعُ﴾ بضم العين، و[أَنْ] ـ على هذه القراءة ـ مخففة من الثقيلة، والتقدير: أنه لا يرجع، وقرأت فرقة: ﴿أَلَّا يَرْجِعَ﴾[2]، و[أَنْ] ـ على هذه القراءة ـ هي الناصبة.

وأخبر عزَّ وجلَّ أن هارون عليه السلام قد قال لهم في أول حال العجل: إنماهو فتنة وبلاءٌ وتمويه من السَّامري، وإن ربكم الرَّحْمنُ الذي له القدرةُ والعِلْم والخَلْق

---

(١) في بعض النسخ: «في هذا التأويل».

(٢) أي: بالنصب، والرؤية في قراءة النصب بصرية، أما على قراءة الرفع في بمعنى العلم والظن.

والاختراع، فاتَّبعوني إلى الطُّور الذي واعدكم الله تعالى إليه، وأَطيعوا أَمري فيما ذكرته لكم، وقرأَت فرقة: [إِنَّما] [وإن ربكم الرحمن] بكسر الهمزتين، وقرأَت فرقة: [أَنَّما] [وَأَنَّ] بفتح الهمزة، وقرأَت فرقة: [إِنَّما] بالكسر و[أَنَّ] بالفتح، والقراءَة الوسطى ضعيفة.

فقال بنو إسرائيل حين وعظهم هارون عليه السلام ونَدَبهم إلى الحق: لن نبرح عابدين لهذا الإله، عاكفين عليه، أي: ملازمين له، و«العكوف»: الانحناءُ على الشيء من شدة ملازمته، ومنه قول الراجز:

* عَكَفَ النَّبِيطِ يَلْعبُونَ الْفَنْزَجَا *(1)

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾.

في سرد القصص اقتضاب يدل عليه ما ذُكر تقديره: فرجع موسى عليه السلام فوجد الأَمر كما ذكر الله تعالى له، فجعل يؤنب هارون بهذه المقالة. وقرأَ الجمهور: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ بحذف الياء، وقرأ ابن كثير، وأَبو عمرو بإِثباتها في الوصل، ويقف ابن كثير بالياءِ وأَبو عمرو بغير الياءِ. ويحتمل قوله: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أَي ببني إسرائيل نحو جبل الطُّور، فيجيءُ اعتذار هارون عليه السلام بمعنى: إِني لو فعلت ذلك مشت معي طائفة وأَقامت طائفة على عبادة العجل، فتفرق الجمع، فخفْتُ لومك على التفريق. ويحتمل قوله: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أَي أَلاَّ تسير بسيرتي وعلى طريقتي في الإِصلاح والتسديد، فيجيءُ اعتذار هارون عليه السلام بمعنى: إِنَّ الأمر كان متفاقماً، فلو تقويت عليه وقع القتال واختلاف الكلمة فكان تفريقاً بين بني إسرائيل، وإنما لايَنْتُ جهدي.

(1) البيت للعجاج يصف ثوراً، وهو في اللسان (عكف ـ فنزج)، قال: «عكف على الشيء يعكُف ويعكِف عكفاً وعكوفاً: أقبل عليه مواظباً لا يصرف عنه وجهه، وقيل: أقام... قال العجاج يصف ثوراً:

فَهُنَّ يَعْكُفْنَ بِهِ إِذا حَجَا
عَكْفَ النَّبِيطِ يَلْعَبُونَ الفَنْزَجَا

أي: يُقْبِلْنَ عَلَيه». والنَّبيط: جيل ينزلونَ السواد، وهم الأَنباط. والفَنْزَجَة: النَّزوان، وقيل: هو رقص المجوس، وفي الصحاح: رقصُ العجم إذا أَخذ بعضهم يد بعض وهم يرقصون، ثم استشهد بهذا البيت من الرجز.

وقوله: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ بمعنى: ما منعك أن تتبعني، واختلف الناس في وجه دخول [لاَ] ـ فقالت فرقة: هي زائدة، وذهب حذاق النحاة إلى أنها مؤكدة، وأن في الكلام فِعْلاً مقدراً، كأنه قال: ما منعك ذلك، أو خصك، أو نحو هذا على ألاَّ تتبعني؟ وما قبْل وما بعْد يدل على هذا ويقتضيه.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: [يا بن أم]، فيحتمل أن يريد: «يَا بْنَ أُمَّا» فحذف الألف تخفيفاً، ويحتمل أن يجعل الاسمين اسماً واحداً: وبناه كخمسة عشر، وقرأ أبو بكر عن عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿يابن أمِ﴾ بالكسر على حذف الياء تخفيفاً، وهو شاذٌّ لأنها ليست كالياءِ في قولك: يا غلامي، وإنما هي كالياءِ في قولك: يا غلامَ غلامي، وهذه ياءٌ لا تحذف[1]، ويحتمل أن يجعل الاسمين اسماً واحداً ثم أضاف إلى نفسه فحذف الياءَ كما تحذف من الأسماء المفردة إذا أُضيفت، نحو يا غلام، وقالت فرقة: لم يكن هارون أخا موسى عليه السلام إلاَّ من أُمِّه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيفٌ، وقالت فرقة: كان شقيقه، وإنما دعاه بأُمه لأن التداعي بالأُمِّ أشفق وأشد استرحاماً، وأخذ موسى عليه السلام بلحية هارون غضباً، وكان حديد الخُلُق عليه السلام.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾.

---

(١) قال ابن خالويه في كتابه (الحجة): «والوجه في العربية إثبات الياءِ هاهنا؛ لأن هذه الياءَ إنما تحذف في النداءِ المضاف إليك، إذا قلت: يا غلامي؛ لأنها وقعت موقع التنوين، والتنوين لا يثبت في النداء»، ومعنى هذا الاسم الذي فيه الياءُ هنا مضاف إلى المنادى الذي هو (ابن)، وليس بمنادى، وهذا كما قال الشاعر:

يَا بْنَ أُمِّي وَلَوْ شَهِدْتُكَ إِذْ ... تَدْعُو تميماً وَأَنْتَ غَيْرَ مُجَابِ

ولكن لما كثُر به الكلام، وصار المضاف والمضاف إليه كالشيء الواحد، حذفت الياءُ.

المعنى: قال موسى عليه السلام مخاطباً للسَّامري: فما خطبك؟ وقوله: ﴿فَمَا خَطْبُكَ﴾ كماتقول: ما شأْنك؟ وما أَمْرُك؟، ولكن لفظة الخطب تقتضي انتهاراً؛ لأَن الخطب مستعمل في المكاره، فكأَنه قال: ما نَحْسُك؟ وما شُؤمك؟ وما هذا الخطْب الذي جاءَ من قبَلك[1] و«السَّامِرِيُّ» قيل: هو منسوب إِلى قبيلة من بني إِسرائيل، ويقال: إِلى قرية يقال لها: سامرة[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهي معروفة اليوم ببلاد مصر، وقيل: كان اسمه موسى بن ظفر.

قوله تعالى: [بَصُرْتُ]، قرأَت فرقة بضم الصَّاد على معنى: صارت بصيرتي بصورة مَّا، فهو كَظَرُفتُ وشَرُفت، وقرأَت فرقة: [بَصِرْتُ] بكسر الصاد، فيحتمل أَن يريد من البصيرة، ويحتمل أَن يريد من البَصَر، وذلك أَن في أَمر السامري ما زاد على الناس بالبصر، وهو وجه جبريل عليه السلام وفرسه، وبالبصيرة، وهو ما علمه من أَنَّ القبضة إِذا نبذها مع الحليِّ جاءَه من ذلك ما يريد. وقرأَ الجمهور: [يُبْصِرُوا بِهِ] بالياء، يريد بني إِسرائيل، وقرأَ حمزة والكسائي: [تُبْصِرُوا] بالتاءِ من فوق، يريد موسى عليه السلام مع بني إِسرائيل.

وقرأَ الجمهور: (قَبْضَةً) بالضاد منقوطة، بمعنى: أَخذت بكفي مع الأَصابع، وقرأَ عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن الزبير، وأُبيُّ بن كعب رضي الله عنهم، وغيرهم: [فقبصتُ قَبصةً] بالصاد غير منقوطة، بمعنى: أَخذت بأَطراف أَصابعي فقط، وقرأَ الحسن ـ بخلاف عنه ـ [قُبْصَةً] بضم القاف[3]. و«الرَّسُولُ» هو جبريل عليه السلام، و«الأَثَرُ» هو ترابٌ تحت حافر فرسه.

---

(١) نقل أبو حيان الأَندلسي كلام ابن عطية هذا في (البحر المحيط) ثم عقَّب عليه بقوله: «وهذا ليس كما ذكَر، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، وهو قول إبراهيم عليه السلام لملائكة الله، فليس هذا يقتضي انتهاراً ولا شيئاً مما ذكر».

(٢) في معجم البلدان للحموي أنها قرية بين مكة والمدينة.

(٣) أَي: بضم القاف والصاد المهملة كما وضَّح أَبو حيان في البحر المحيط، ونسبها أيضاً إلى قتادة، ونصر بن عاصم، وقال أَبو الفتح في المحتسب: «وأَما (القُبْصَة) بالضم فالقدر المقبوض، كالحُسْوَة لِلْمَحْسُوِّ، والحَسْوَةَ فِعْلُك أَنت، والقَبْضَةُ والقَبْضَةُ جميعاً على ذلك إنما هما حدثان موضوعان موضع الجثة، كالخلْق في معنى المخلوق، وضرْب الأَمير في معنى المضرب».

وسبب معرفة السَّامري لجبريل عليه السلام ومَيْزه فيما رُوي أَنَّ أُمَّ السَّامري ولدته عام الذَّبح فطرحته في مغارة، فكان جبريل عليه السلام يغذوه فيها ويحميه حتى كبر وشبَّ، فميَّزه لذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وقوله: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أَي على الحلي فكان منها ما تراه، وهذا محذوف من اللفظ يقتضيه الحال والمخاطبة، ثم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾، أَي: كما وقع وحدث قربت لي نفسي وجعلته لي سؤلاً ورأياً حتى فعلتُه. وكان موسى عليه السلام لا يقتل بني إِسرائيل إِلا في جدٍّ أَو وَحْي، فعاقبه باجتهاد نفسه بأَن أَبعده ونحَّاه عن الناس، وأَمر بني إِسرائيل باجتنابه واجتناب قبيلته، وأَلاَّ يُؤَاكلُوا ويُنَاكَحُوا، ونحو هذا، وعلمه مع ذلك، وجعل له أَن يقول مدة حياته: [لا مساس]، أَي: لاَ مُمَاسَّة ولا إِذاية، وقرأَ الجمهور: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ بكسر الميم وفتح السين، على النصب بالتَّبرئة، وهو اسم ينصرف، ومنه قول النَّابغة:

فَأَصْبَحَ مِنْ ذَاكَ كَالسَّامِرِيِّ ... إِذْ قَالَ مُوسَى لَهُ لاَ مِسَاسَا[(١)]

ومنه قول رؤْبة:

* حتَّى تَقُولَ الأَزْدُ لاَ مِسَاسَا *[(٢)]

واستعماله على هذا كثير، وقرأَ أَبو حيوة: [لا مَسَاسِ] بفتح الميم وكسر السين،

---

(١) لم أَجد هذا البيت في ديوان النابغة الذي جمعه وحققه وشرحه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، والذي نشرته الشركة التونسية للتوزيع بالاشتراك مع الشركة الوطنية للتوزيع بالجزائر. كذلك لم أعثر على قائله فيما بين يدي من المراجع، ولم أجده في التاج ولا في اللسان أو الأساس أو كتب التفسير، اللهم إلاّ في البحر المحيط غير منسوب، قال في اللسان: «لا مِسَاسَ: أَي لا تَمَسَّنِي.. وقد قُرِىء بفتح السين منصوباً على التبرئة»، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا. على أَن اسم النابغة يطلق على ثمانية من الشعراء، فلعله لواحد منهم.

(٢) كذلك لم أجد هذا البيت في ديوان رؤبة المسمى: (مجموع أشعار العرب ـ المكتب التجاري بيروت)، وقد أورده القرطبي في لفظ آخر مع بيت قبله، وهما:

حَمَّالُ رَايَاتٍ بِهَا قَنَاعِسَا ... حَتَّى تَقُولَ الأَزْدُ لاَ مَسَابِسَا

وعلق عليه المحقق بقوله: «هكذا في الأصول، ولم نقف عليه».

وهو معدول عن المصدر كَفَجَارِ ونحوه، وشبَّهه أبو عبيدة وغيره بنَزَالِ ودَرَاكِ ونحوه، والشَّبه صحيح من حيث هي معدولات، وفارقه في أَن هذه عدلت عن الأمر، و(مَسَاسِ) و(فَجَارِ) عدلت عن المصدر، ومن هذا قول الشاعر:

تَمِيمٌ كَـرَهْـطِ السَّـامِـرِيِّ وَقَـوْلِـهِ ... أَلاَ لاَ يُـرِيـدُ السَّـامِـرِيُّ مَسَـاسِ(١)

وقرأ الجمهور: [تُخْلَفَهُ] بفتح اللام، على معنى: أَن يقع فيه خُلْف، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [لَنْ تُخْلِفَهُ] بكسر اللام، على معنى: لن تستطيع الزوغان عنه والحيدة، فتزول عن موعد العذاب، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن: [لَنْ نُخْلَفَهُ] بالنون، قال أَبو الفتح: المعنى: لن نصادفه مُخْلَفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكلها بمعنى الوعيد والتهديد.

ثمَّ وبَّخه عليه السلام بقوله: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ الآية أَي: انظر صنيعك وتغييرنا له وردِّنا الأَمر فيه إِلى الواجب. وقرأَت فرقة: [ظَلْتَ] بفتح الظاءِ، على حذف اللام الواحدة، وقرأَت فرقة: [ظِلْتَ] بكسر الظاءِ على نقل حركة اللام إِلى الظاءِ ثم حذفها بعد ذلك، نحوقول الشاعر:

خَـلاَ أَنَّ العِتَـاقَ مِـنَ الْمَطَـايَـا ... أَحَسْـنَ بِـهِ فَهُـنَّ إِلَيْـهِ شُـوسُ(٢)

---

(١) الرَّهْط: الجماعة من ثلاثة أو سبعة إلى عشرة، أو ما دون العشرة، جمعه أَرْهُط وأرهاطٌ، ولم نقف على قائل البيت، والشاهد فيه أن (مَسَاسِ) معدولة عن المصدر، ويوافقه الزمخشري في ذلك، فقد قال: إن (مَسَاسِ) بوزن (فجارِ)، وقال صاحب اللوامح: «هو على صورة نَزَالِ ونَظَار من أسماء الأفعال، بمعنى: انزل وانظر، وهذه الأسماءُ التي بهذه الصيغة معارف، ولا تدخل عليها (لا) النافية التي تنصب المنكرات، نحو: لا مال لك، لكن فيه نفي للفعل، وتقديره: لا يكون منك مساسٌ، ولا أقول: مساس، ومعناه النهي، أي: لا تمسني»، وأكد ابن جني هذا الكلام في المحتسب.

(٢) البيت لأبي زُبَيْد الطائي، وهو في اللسان (حَسَنَ)، والرواية فيه (حَسَيْن به)، وهي التي أَشار إليها ابن عطية، قال صاحب اللسان: «أما قولهم: «أَحَسْتُ بالشيء» فعلى الحذف كراهية التقاء المثلين»، ونقل عن الأزهري أنه يقال: أحسَسْتُ الخير وأحسَسْتُه وحسَيْت وحِسْتُ: إذا عرفت منه طرفاً، وقد استشهد اللغويون ببيت أبي زبيد هذا، وقد قال سيبويه: «وكذلك يُفعل في كل بناءٍ يُبنى اللاَّم مِنَ الفعل منه على السكون، ولا تصل إليه الحركةُ، شبهوها بأقمتُ»، وهذا ينطبق على (ظللت) التي هي أصل البحث هنا. العِتَاق: النجائب الكريمة، والشَّوَس: أَن ينظر بإحدى عينيه ويميل وجهه في شق العين التي ينظر بها، ويكون ذلك في الخلق، ويكون من الكِبْر.

أَراد: أَحْسَسْن، فنقلت حركة السِّين إِلى الحاءِ ثم حذفت تخفيفاً، وفي بعض الروايات: حَسَيْنَ. وقرأَت فرقة: [ظَلْلْتَ]، و(ظَلَّ) معناه: أَقام يفعل الشيءَ نهاراً، ولكنه قد يستعمل في الدَّائب ليلاً ونهاراً، بمثابة طَفِقَ. و[عَاكِفاً] معناه: ملازماً.

وقرأَت فرقة: [لَنَحْرِقَنَّه] بتخفيف الراءِ بمعنى: بالنار، وقرأَ علي بن أَبي طالب، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم: [لَنَحْرُقَنَّهُ] بفتح النون وضم الرَّاء خفيفة[1]، بمعنى: لَنَبْرُدَنَّهُ بالمِبْرَد[2]، وقرأَ نافع وغيره: [لَنُحَرِّقَنَّهُ] بضم النون وكسر الرَّء وشدِّها، وهذا تضعيف مبالغة لا تعدية، وهي قراءة تحتمل الحرق بالنار، وتحتمل بالمبرد، وفي مصحف أُبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنهما: [لَنَذْبَحَنَّهُ ثمَّ لَنَحْرِقَنَّهُ ثمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ]، وهذه القراءة مع رواية من روى أَن العجل صار لحماً ودماً، وعلى هذه الرواية يتركَّب أَن يكون هناك حرق بنارٍ، وإِلاَّ فإِذا كان جماداً من ذهب فإِنما هو حَرْق بالمِبْرَد، اللهم إِلاَّ أَن يكون أَذابه، ويكون النَّسف مستعاراً لتفريقه في اليَمِّ مذاباً. وقرأَت فرقة: [لَنَنسِفَنَّهُ] بكسر السِّين، وقرأَت فرقة: [لَنَنْسُفَنَّهُ] بضم السين، و«النَّسْفُ»: تفريق الريح الغُبَار، وكل ما هو مثله كتفريق الغربال ونحوه فهو نسف. و«الْيَمُّ»: غمر الماءِ من بحر أَو نهر، وكل ما غمر الإِنسان من الماءِ فهو يَمٌّ. و[نَسْفاً] تأْكيد بالمصدر، واللام في قوله: [لَنُحَرِّقَنَّهُ] لام القسم.

وفي هذه الآية من القصص أَن موسى عليه السلام بَرَدَ العِجْلَ حتى ردَّه كالغبار ثُمَّ ذرَّاه في البحر، ثم أَمر بني إِسرائيل أَن يشرب جميعهم من الماءِ، فمن شرب ممن كان في قلبه حُب العجل خرج على شاربه من الذهب فضيحةً له، وقال مكيٌّ رحمه الله ـ

---

(١) في الأصول أخطأ النساخ في ضبط الحروف، والتصويب عن كتب التفسير وكتب القراءة.

(٢) هذا من قولهم: «حرقتُ الشيءَ أحرقه حرْقاً» بمعنى: بَرَدْتُهُ وحَكَكْتُ بعضه ببعض، ومنه قولهم: «حَرَقَ نَابَهُ يحرِقُه ويحرُقُه» أَي: سحقه حتى يُسمع له صريف، ويقال للمِبْرَد: المحْرَق. قال ابن جني: «حرقتُ الحديد: إذا بَرَدْتَه فتَحَاتَّ وتساقط، ومنه قولهم: «إنه لَيَحْرُقُ عليَّ الأُرَّم»، أَي: يحك أسنانه بعضها ببعض غيظاً عليَّ، قال زهير:

أَبَى الضَّيمَ النُّعمانُ يَحْرُقُ نَابَهُ ... عَلَيْهِ فَأَفضَى وَالسُّيُوفُ مَعَاقِلُهُ

وأنشد أبو زيد، ورويناه عنه:

نُبِّئْتُ أَحْمَاءَ سُلَيْمَى أَنَّمَا ... بَاتُوا غِضَاباً يَحْرُقُونَ الأُرَّمَا

فكأن [لَنُحَرِّقَنَّه] ـ على هذا ـ: لَنَبْرُدَنَّه ولَنَحُتَّنَّه حَتّاً».

وأَسْنَدَ ـ: إنَّ موسى عليه السلام كان مع السبعين في المناجاة، وحينئذ وقع أَمر العجل، وإن الله تبارك وتعالى أَعلم موسى بذلك فكتمه عنهم، وجاءَ بهم حتى سمعوا لغط بني إسرائيل حول العجل، فحينئذ أَعلمهم موسى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه روايةٌ الجمهورُ على خلافها، وإنما تعجَّل موسى وحده فوقع أَمر العجل، ثم جاءَ موسى عليه السلام وصنع بالعجل ما صنع، ثم خرج بعد ذلك بالسبعين على معنى الشفاعة في ذنب بني إسرائيل، وأَن يطلعهم أيضاً على أَمر المناجاة فكان لموسى عليه السلام نهضتان، والله أَعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

هذه مخاطبة من موسى عليه السلام لجميع بني إسرائيل مُبيِّناً لهم، وقوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ بمعنى: وسع علمُه كلَّ شيءٍ، و[عِلْماً] تمييز، وهذا كقولهم: «تفقَّأْتُ شحماً» و«تَصَبَّبْتُ عَرَقاً»، والمصدر في الأَصل فاعل، ولكن يسند الفعل إلى غيره وينصب هو على التمييز. وقرأَ مجاهد، وقتادة: [وَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ] بفتح السِّين وشدِّها، بمعنى: خَلَقَ الأَشياءَ وكثَّرها بالاختراع فوسَّعها موجودات.

وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ مخاطبةٌ لمحمد ﷺ، أَي: كما قَصَصْنا عليك نبأَ بني إسرائيل هذا في خبر العجل كذلك نقصُّ عليك، فكأَنه قال: هكذا نقصُّ عليك، فكأَنَّها تعديد نعمة، وقوله: ﴿ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ يريد به ما قد سبق مدَّة محمد ﷺ. و«الذِّكْرُ»: القرآن. وقرأَت فرقة: (يَحْمِلُ) بكسر الميم، وقرأَت فرقة أُخرى: [يُحَمَّل] بفتح الميم وشدها، وقوله: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ يريد: بالكفر به والتكذيب له، و«الوِزْرُ»: الثقل، وهو هنا ثقل العذاب بدليل قوله: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهِ ﴾، و[حِمْلاً] تمييز، و[يَوْمَ] ظرف، و[يَوْمَ] الثاني بدل منه. وقرأَ الجمهور: [يُنْفَخُ] بضم الياءِ وبناءِ الفعل للمفعول، وقرأَت فرقة: [يَنْفُخُ] بفتح الياءِ وإسناد الفعل للفاعل، أَي يَنْفُخ المَلَك، وقرأَ أَبو عمرو وحده: [نَنْفُخُ] بالنون، أَي: بأَمرنا وإِذْنِنا، وهذه القراءة

تناسب قوله: [نَحْشُرُ]. وقرأ الجمهور: ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾ بسكون الواو، ومذهب الجمهور أنه القَرن الذي ينفخ فيه إسرافيل، وبهذا جاءت الأَحاديث، وقالت فرقة: الصُّور: جمع صورة، كتمرة وتَمْر، وقرأ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ﴿فِي ٱلصُّوَرِ﴾ بفتح الواو، وهذه صريحة في بعث الأَجساد من القبور، وقرأت فرقة هي الجمهور: [وَنَحْشُرُ] بالنون، وقرأت فرقة: [وَيَحْشُرُ] بالياءِ، وقرأت فرقة: [وَيُحْشَرُ] بضم الياءِ [ٱلْمُجْرِمُونَ] على المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله، وهي قراءة مخالفة لخط المصحف.

وقوله: [زُرْقاً] اختلف الناس في معناه ـ فقالت فرقة: بحشرهم أَول قيامهم سود الأَلوان زُرق العيون، فهو تشويهٌ مَّا، ثم يعمون بعد ذلك، وهي مواطن. وقالت فرقة: إِنهم يحشرون عطاشاً، والعطش الشديد يردُّ سواد العيون إِلى البياض، فكأَنهم يَبْيَضُّ سواد عيونهم من شدة العطش. وقالت فرقة: أَراد: زُرْق الأَلوان، وهي غاية في التشويه لأَنهم: يجيئون كلون الرماد، ومَهْيَعٌ في كلام العرب أَن يُسَمَّى هذا اللون أَزرق، ومنه زرقة الماء، قال الشاعر:

فَلَمَّـا وَرَدْنَ الْمـاءَ زُرْقـاً جِمَـامُـهُ ... وَضَعْنَ عِصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ(١)

ومنه قولهم: «سنان أَزرق» لأَنه نحو ذلك اللون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾.

---

(١) هذا البيت لزهير بن أبي سُلْمى، وهو من معلقته المشهورة، وزُرْقة الماءِ كنايةٌ عن صفائه. والجمامُ، قال الأَصمعي: يقال للماء إذا خرج من عيونه فارتفع في البئر: قد جَمَّ يَجِمُّ جُموماً، ويُسَمَّى الماءُ نفسهُ جَمّاً، ويقال: بئر جموم، أي سريعةُ رجوع الماءِ. وأما قوله: «وضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المتُخَيِّم» فمعناه: أَقَمْنَ كما يطرح الذي لا يريد السفر عصاه ويُقيم، فالمتَخَيِّم هو الذي يتخذ خَيْمة ليقيم فيها، والحاضر هو المقيم، قال بعضهم: وصفهن بأنهن في أَمْن ومنعة، فإذا أنزلْن كُنَّ آمنات كنزول من هو في أهله ووطنه. و«زُرْقاً» منصوب على الحال من (الماء)، و(الجمام) رُفع بمعنى (زُرْق) والشاهد في البيت غير ملائم؛ لأن زرقة الماء كناية عن صفائه، وصفاءُ الماءِ شيءٌ محبوب ممدوح، أما الزُّرقة التي في الآية فالغرض منهاالتشويه والتقبيح كما قال ابن عطية، وقد يقال: إنه أراد من ذكر البيت أن الزُّرقة في الماء تعطيه لون البياض، وبياض العيون من شدة العطش لون من الدمامة والتشويه.

«يَتَخَافَتَ المجرمون بينهم»: يَتَسَارُّون، المعنى أَنهم لهول المطلع وشدَّة ذهاب أَذهانهم قد عزب عنهم قَدْرُ المدَّة التي لبثوها، واختلف الناس في هذا ـ فقالت فرقة: في دار الدنيا ومُدَّة العمر، وقالت فرقة: في الأَرض مدَّة البرزخ، وقالت أُخرى: ما بين النفختين في الصُّور.

و﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ معناه: أَثبتهم نفساً وأَعلمهم بالحقيقة بالإِضافة إِليهم، فهم في مدة المقالة يظنون أَن هذا قَدْر لُبْثهم.

والضمير في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾، قيل: إِن رجلاً من ثقيف سأَل رسول الله ﷺ عن الجبال، ما يكون أَمرها يوم القيامة؟ وقيل: بل سأَله عن ذلك جماعةٌ من المؤمنين. وقد تقدَّم معنى النَّسف، وروي أَن الله تعالى يرسل على الجبال ريحاً فيدكدكها حتى تكون كالعهن المنفوش، ثم تتوالى عليها حتى تعيدها كالهباءِ المنبثِّ، فذلك هو النَّسف، وقوله تعالى: [فَيَذَرُهَا] يحتمل أَن يريد مواضعها، ويحتمل أَن يريد ذلك التراب الذي نسفه؛ لأَنه إِنما يقع على الأَرض باعتدال حتى تكون الأَرض كلها مستوية. و«الْقَاعُ»: المستوي من الأَرض المعتدل الذي لا نَشزَ فيه، ومنه قول ضرار بن الخطَّاب:

لَتَكُـونَـنَّ بِـالْبِطَـاحِ قُـرَيْـشٌ ... بُقْعَـةَ الْقَـاعِ فِـي أَكُـفِّ الإِمَـاءِ[1]

و«الصَّفْصَفُ» نحوه في المعنى.

و«الْعِوَجُ» ما يعتري اعتدال الأَرض من الأَخْذ يَمْنة ويَسْرة بحسب النَّشْز من جبل وظَرِبٍ وكُدْيَةٍ[2] ونحوه، و«الأَمْتُ»: ما يعتري الأَرض من ارتفاع وانخفاض، يقال: «مدَّ حبله حتى ما ترك فيه أَمْتاً»، فكأَنَّ الأَمت في الآية العوج في السماء تجاه الهواء، والعِوَج في الآية مختص بالخفض[3]، وفي هذا نظر.

---

(١) البطحاءُ: مَسيل الوادي يتجمع فيه دُقاق الحَصَى، وهو أيضاً الأبطَح، والجمع بِطَاحٌ وَبَطْحَاوات، ويروى البيت: «لتكونن بالبلاد». والقاع: الأرض المستوية التي لا ارتفاعات فيها، أما البقعة ـ بضم الباء وفتحها ـ فهي القطعة من الأرض على غير هيئة التي بجنبها، فالمعنى أن قريشاً ستكون مختلفة عن غيرها من القبائل كما تختلف البقعة عما جاورها.

(٢) النَّشْز: الارتفاع، ويكون في الأرض وفي غيرها. والظَّرِب: الجبل المنبسط، وجمعه ظِرَابٌ، وفي حديث الاستسقاء: «اللهم على الآكام والظِّراب وبطون الأودية»، والكُدْيَة: الأرض الغليظة أو الصلبة التي لا تستعمل فيها الفأس، وجمعها كُدًى.

(٣) اختلف الأصول في هذه الكلمة وفي جملتها، ففي بعض النسخ: «العوج في الأرض»، وفي بعضها=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾.

المعنى: يوم تُنسف الجبال يَتْبع الخلائقُ داعيَ الله تعالى إلى المحشر، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾[1]. وقوله: ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ يحتمل أن يريد الإخبار به، أَي: لا شكَّ فيه، ولا يخالف وجوده خبره، ويحتمل أَن يريد: لا محيد لأَحد عن اتِّباعه، والمشي نحو صوته. و«الخُشُوعُ»: التَّطامنُ والتَّواضعُ، وهو في الأَصوات استعارة بمعنى الخفاء والاستسراء، ومعنى: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾: لِهَيْبَتِهِ وهوْل مطلع قدْرته[2]. و«الهَمْسُ»: الصَّوْتُ الخفي الخافت، وقد يحتمل أَن يريد «بالهَمْسِ المسموع» تخافتَهم بينهم وكلامَهُم السِّرَّ، ويحتمل أَن يريد صوت الأَقدام، وأَن أَصواتَ النطق ساكتة.

و[مَنْ] في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يحتمل أَن يكون الاستثناءُ متصلاً، ويكون [مَنْ] في موضع نصب يُراد بها المشفوع له، فكأَن المعنى: إلاَّ من أَذن له الرَّحمن في أَن يشفع له، ويحتمل أَن تكون استثناءً منقطعاً على تقدير: لكن من أَذن له الرَّحمن يَشفع، فـ[مَنْ] في موضع نصب بالاستثناء، ويصلح أَن يكون في موضع رفع، كما يجوز الوجهان في قولك: «ما في الدَّارِ أَحدٌ إلاَّ حماراً، وإلاَّ حمارٌ»، والنصب أَوجه، و[مَنْ] ـ على هذه التأْويلات ـ للشافع، ويحتمل أَن تكون للمشفوع فيه.

وقوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، قالت فرقة: يريد الملائكة، وقالت فرقة: يريد خلقه أَجمع، وقد تقدم القول في ترتيب ما بين اليد وما خلفه في غير

= «مختص بالعرض»، وفي بعضها «مختص بالأرض». وهكذا.

(١) من قوله تعالى في الآية (٨) من سورة (القمر): ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾. والدَّاعي هو إسرافيل عليه السلام إذا نفخ في الصور، لا يملك أحد أن يتخلف عن دعوته، بل يسرعون إليه، ولا يحيدون عنه، وهذا هو معنى ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾، وقيل: المعنى: لا عِوَجَ لدعائه، وقيل: يتبعون الداعي اتِّباعاً لا عِوَجَ له، فالمصدر مضمر، والضمير عائد على ذلك المصدر.

(٢) نقل أبو حيان عبارة ابن عطية هنا، وجاءت فيه «لهيبته وهو مطلع قدرته».

موضع، على أن جماعة من المفسرين قالوا في هذه الآية: ما خلفهم: الدنيا، وما بين أيديهم: أَمر الآخرة والثواب والعقاب، وهو بأَن يعرضها حالة وقوف حتى يجعلها كالأَجرام، وأَمَّا إِن قدرناها في نسق الزمان فالأَمر على العكس بحكم ما بيَّنَّاه قَبْلُ.

وقوله تعالى: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ معناه: ذلَّت، والعاني: الأَسير، ومنه قول النبي ﷺ في أَمر النِّساء: «هُنَّ عوان عندكم»[(١)]، وهذه حالة الناس يوم القيامة. قال طلق بن حبيب: أَراد تعالى سجودَ الناس على الوجوه والآراب السبعة[(٢)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

إِن كان روى هذا أَن للناس يوم القيامة سجوداً وجعل هذه الآية إِخباراً عنه فقوله مستقيم، وإِن كان أَراد سجود الدنيا فقد أَفسد المعنى. و«ٱلْقَيُّوم» بناءُ مبالغة من قيامه عزَّ وجلَّ على كل شيءٍ بما يجب فيه. و[خَابَ] معناه: لم ينجح ولا ظَفِرَ بمطلوبه، و«الظُّلْمُ» يعم الشِّركَ والمعاصي، وخيبة كل حاملٍ بقدر ما حمل من الظُّلم، فخيبة المشرك على الإِطلاق، وخيبة العاصي مقيَّدة بوقت وحدٍ في العقوبة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ﴾ معادل لقوله: ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾، وفي قوله سبحانه: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تَيْسير في الشَّرع؛ لأَنها[مِنْ] التي للتبعيض، و«الظُّلْمُ» أَعمُّ من «الْهَضْمِ»، وهما متقاربان في المعنى ويتداخلان، ولكن من حيث تناسقا في هذه الآية ذهب قوم إِلى تخصيص كل واحد منهما بمعنى، فقالوا: الظُّلْمُ أَن تَعْظُم عليه سَيِّآته وتكثر أَكثر ممَّا يجب، والهَضْمُ أَن يُنْقص من حسناته ويُبْخسها، وكلُّهم قرأَ: [فلا

(١) هذا جزءٌ من حديث صحيح، وقد أوصى فيه بالنساء، قال صلوات الله وسلامه عليه، كما في مسند الإمام أحمد، عن أبي حرة الرقاشي، عن عمه: «فاتقوا الله عزَّ وجلَّ في النساء؛ فإنَّهنَّ عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإن لهنَّ عليكم حَقّاً ولكم عليهن حقّاً». والحديث طويل، ورواه الترمذي وابن ماجه عن عمرو بن الأحوص.

(٢) هكذا في الأصول، وفي بعض النسخ: «والآداب السبعة».

يخاف] على الخبر، غير ابن كثير فإنه قرأ: [فلا يَخفْ] على النهي.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾، أي: كما قدرنا هذه الأُمور وجعلناها حقيقة بالمرصاد للعباد، كذلك حذَّرنا هؤلاء أمرها، وأنزلنا قرآناً عربياً، وتوعدنا فيه بأَنواع من الوعيد، لعلَّهم ـ بحسب توقع البشر وتَرَجِّيهم ـ يتَّقون ويخشَوْن عقابه فيؤمنون ويتذكرون نِعَمَه عندهم وما حذَّرهم من أَليم عقابه، هذا تأْويل فرقة في قوله: ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾، وقالت فرقة: معناه: أَو يُكسبهم شرفاً، ويُبقي عليهم إِيمانهم وذِكْراً صالحاً في الغابرين. وقرأَ الحسن البصري: [أَو يُحدِثْ] ساكنة الثاءِ، وقرأَ مجاهد: [أَو نُحدِثْ] بالنون وسكون الثاءِ، ولا وَجْه للجزم إِلاَّ على تسكين حرف الإِعراب استثقالاً لحركته، وهذا نحو قول جرير:

. . . . ولاَ تَعـرِفْكُـم الْعَـرَبُ[1]

وقوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ ختم للقول؛ لأنه لما قدم صفة سلطانه يوم القيامة وعِظَمَ قدرته وذِلَّة عبيده وتَلَطُّفَه بهم، ختم ذلك بهذه الكلمات، وجعل بعد ذلك الأَمر بنوع آخر من القول. وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾، قالت فرقة: سببه أَن النبي ﷺ كان يخاف وقت تكليم جبريل عليه السلام له أن ينسى أول القرآن، فكان يقرأ قبل أن يستتم جبريل عليه السلام الوحي، فنزلت الآية في ذلك[2]، وهي بمعنى قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾[3]، وقالت فرقة أُخرى: سبب هذه الآية أن النبي ﷺ كان إِذا أُوحيَ إِليه القرآن أَمر بكتبه للحين، فأَمر الله تعالى في هذه الآية أَن

---

(١) هذا جزءٌ من بيت، وهو ثاني ثلاثة أبيات قالها جرير يهجو بني العم وقد أعانوا عليه الفرزدق، والبيت بتمامه:

سيـروا بنـي العَـمِّ فـالأَهْـوازُ مَنْـزِلكُـمْ ونَهْـرُ تِيـرَى ولا تَعْـرِفْكُـمُ الْعـرَبُ

ونهر تيري: بلد من نواحي الأهواز، والشاهد فيه كما قال ابن جني ونقله عنه ابن عطية أنه مما سُكِّن استثقالاً، وأصل الكلام: «ولا تَعْرِفُكُم العرب» بضم الفاءِ، ولكن الشاعر سكنها لاستثقال الضمة عليها.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه جبريل بالقرآن أتعب نفسه في حفظه حتى يشق على نفسه، يتخوف أن يصعد جبريل ولم يحفظه فينسى ما علمه، فقال الله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾، وقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾.

(٣) من الآية (١٦) من سورة (القيامة).

يتأنَّى حتى تُفَسَّرَ له المعاني وتقرر عنده(١)، وقالت فرقة: سبب الآية أن امرأةً شكت إلى رسول الله ﷺ أن زوجها لطمها، فقال لها رسول الله ﷺ: «بَيْنَكما القصاصُ»، ثمَّ نزلت ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ﴾(٢)، ونزلت هذه الآية بمعنى التَّثبُّت في الحكم بالقرآن حتى يتبيَّن(٣)، والله أعلم. وقرأ الجمهور: [من قبل أن يُقضَى إليك وحيُهُ]، وقرأ عبد الله بن مسعود: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾، وباقي الآية بيِّن، رغبة في خير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾.

قال الطبري رحمه الله: المعنى: وإنْ يعرض ـ يا محمدُ ـ هؤلاء الكفرة عن آياتي ويخالفوا رُسُلي ويطيعوا إبليس، فَقديماً ما فعل ذلك أبوهم آدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تأْويل ضعيف، وذلك أَن كون آدم مثالاً للكفار الجاحدين ليس بشيءٍ، وآدم إنما عصى بتأْويل، ففي هذا غضاضة عليه ﷺ، وأَمَّا الظاهر في هذه الآية إِمَّا أَن يكون ابتداءَ قصص لا تعلُّق له بما قبله، وإِمَّا أَن يجعل تعلُّقه أنه لَمَّا عهد إلى محمد ﷺ أَلاَّ يعجل بالقرآن مثل له بنبيٍّ قبله عُهد إليه فنسي فعوقب ليكون أَشدَّ في التحذير وأَبلغ في العهد إلى محمد ﷺ. والعهد هنا في معنى الوصيَّة، و[نَسِيَ] معناه: ترك، ونسيان الذهول لا يمكن هنا لأَنه لا يتعلَّق بالنَّاسي عقاب، وقرأ الأعمش: [فَنَسِيْ] بسكون الياءِ، ووجهها طلب الخفَّة. و«العَزْمُ»: المُضِيُّ على المعتقد في أَي شيٍ كان، وآدم عليه السلام قد كان معتقده أَلاَّ يأْكل من الشجرة، لكنه لمَّا وسوس إِليه إِبليس لم يعزم

---

(١) أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ قال: لا تُمْلِهِ على أحد حتى نُتِمَّهُ لك، وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد نحوه عن قتادة رضي الله عنه.

(٢) من الآية (٣٤) من سورة (النساء).

(٣) أخرجه الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن الحسن البصري رضي الله عنه. (الدر المنثور) وهو مرسل.

على معتقده، وعبَّر بعض المفسرين عن العزم هنا بالصبر والحفظ وغير ذلك مما هو أَعمُّ من حقيقة العزم، والشيءُ الذي عهد لآدم عليه السلام هو ألاَّ يقرب الشجرة، وأُعلم مع ذلك أَن إِبليس عدوٌّ له. وقال أَبو أُمامة رضي الله عنه: لو أَن أَحلام بني آدم جُمعت منذ خلق الله الخلق إِلى يوم القيامة ووضعت في كفَّة ميزان ووضع حلم آدم عليه السلام في كفَّة أُخرى لرجحهم، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ الآية ابتداءُ قصة، والعامل في [إِذْ] فعلٌ مضمر، وقد تقدم استيعاب هذه القصة، ولكن نذكر من ذلك ما تقتضيه أَلفاظ هذه الآية، فالملائكة قيل كان جميعهم مأموراً بذلك، وقيل: بل فرقة فاضلة منهم عددهم اثنان وعشرون. و«السُّجودُ» الذي أُمروا به سجود كرامة لآدم صلوات الله عليه، وعبادة لله تعالى. وقوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ استثناءٌ متصل في قول من جعل إِبليس من الملائكة، ومنقطع في قول من قال: هو من قبيلة غير الملائكة يقال لها الجن. وقوله: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾، أَي: لا يقع منكما طاعةٌ له في إِغوائه فيكون ذلك سبب خروجكما من الجنَّة. ثم خصَّص آدم عليه السلام بقوله: [فَتَشْقَى] من حيث كان المخاطبَ أَوَّلاً المقصودَ في الكلام، وقيل: بل ذلك لأَن الله تعالى جعل الشَّقاءَ في معيشة الدُّنيا في حيِّز الرِّجال. ورُوي أَنَّ آدم عليه السلام لمَّا أُهبط معه ثور أَحمر، فكان يحرث ويمسح العرق، فهذا هو الشَّقاءُ الذي خُوِّف منه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾.

المعنى: إِن لك يا آدم نعمة تامَّة وعطية مستمرة أَلاَّ يصيبك جوعٌ ولا عري ولا ظمأٌ ولا بروز للشمس تؤذيك، وهو الضُّحى[1]، وقرأَ نافع، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ: [وَإِنَّكَ] بكسر الأَلف، وقرأَ الباقون وحفص عن عاصم: [وَأَنَّكَ] بفتح الأَلف،

(١) الضحِيُّ بالياءِ هو مصدر: ضَحَا الرَّجُلُ، بمعنى: برز للشمس، ومثلها في ذلك الضُّحُوُّ بالواو ـ قال في اللسان: «ضَحَا الرَّجلُ ضَحْواً وضُحُوّاً وضُحيّاً: برز للشمس، وضَحَا الرجُلُ وضَحِيَ يَضْحَى في اللغتين معاً ضُحُواً وضُحياً: أصابته الشمس».

وجعل الله تبارك وتعالى في هذه الآية الجوع مع العري، والظمأ مع الضحى؛ وكان عرف الكلام أن يكون الجوع مع الظمأ للتناسب، والعُرْيُ مع الضُّحيِّ لأنها لا تتضاد، والعري يمس بسببه البرد فيؤذي، والحرُّ يفعل ذلك بالضَّاحي، وهذه الطريقة مهيع في كلام العرب أن تفرق النسب، ومنه قول امرىء القيس:

كَـأَنِّـي لَـمْ أَرْكَـبْ جَـوَاداً لِلَـذَّةٍ ... وَلَـمْ أَتَبَطَّـنْ كَـاعِبَـاً ذَاتَ خَلْخَـالِ
وَلَـمْ أَسْبَـإِ الـزِّقَّ الـرَّوِيَّ وَلَـمْ أَقُـلْ ... لِخَيْلِـيَ كَـرِّي كَـرَّةً بَعْـدَ إِجْفَـالِ[(١)]

وذهب بعض الأُدباء إلى أن بيتي امرىء القيس فيهما محافظة للنسب، وأن ركوب الخيل للصيد وغيره من اللَّذَّات يناسب تبطن الكاعب. ومن الضُّحِيِّ قول الشاعر:

رَأَتْ رَجُلاً أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ ... فَيَضْحَـى وَأَمَّـا بِـالْعَشِـيِّ فَيَخْصَـرُ[(٢)]

و«وَسْوَسَةُ الشَّيْطَانِ» قالوا: كانت دون مشافهة إلقاءً في النفس، وقيل: بل كانت بالمشافهة والمخاطبة، وهو ظاهر القصة من غير ما موضع، وكان دخوله إلى الجنَّة ـ

(١) البيتان من لاميته المعروفة: (أَلا أنْعِمْ صَبَاحاً أَيُّها الطَّلَلُ البَالِي)، وتعتبر من أفضل شعره بعد المعلقة، وهي قصيدة وجدانية يصور فيها الشاعر مجونه وتصابيه وصيده وقنصه وسعيه إلى المجد وعشقه للنساء، والتَّبَطُّن: المباشرة والملامسة، والكاعِبُ هي الفتاة التي برز ثديها، والخلخال: حلية معروفة تلبسها المرأة في رجلها، والزِّقُّ: وعاءُ الخمر، وسَبَأَ الزِّقَّ: اشترى الخمر ليشربها، والرَّوِيُّ: الممتلىء، والكَرُّ: العودة للهجوم، والإِجْفال: الفزع والهروب في الحرب. قالوا: وقد جعل امرؤ القيس ركوب الخيل للصيد واللذة مع مباشرة الكاعب ذات الخلخال، وجعل شراءَ الخمر وشربها مع الفروسية وركوب الخيل للهجوم في الحرب، وكان عُرْف الكلام أن يجمع بين ركوب الخيل للصيد واللذة وركوبها للفروسية والهجوم في الحرب، وأن يجمع بين شرب الخمر ومباشرة الكاعب الحسناء، ولكن مهيع الكلام كما يقول ابن عطية أن تفرق العرب النسب، وألا تجمع بين الأشياء المُتَناسبة، وبعض الأدباء قالوا: إن هناك تناسباً في بيتي امرىء القيس، حيث قرن لذة ركوب الخيل بلذة ركوب النساء في البيت الأول، وهكذا تختلف آراء النقاد في العمل الفني من حيث التناسب والتضاد.

(٢) البيت لعمر بن أبي ربيعة، وهو في الديوان، وفي اللسان (ضَحا) غير منسوب، وهو من قصيدته التي يقول في مطلعها:

أَمِـنْ آلِ نُعْـمٍ أَنْـتَ غَـادٍ فَمُبْكِـرُ ... غـداة غَـدٍ أَمْ رَائِـحٌ فَمُهَجِّـرُ؟

ومعنى يَضْحى: يصيبه حرُّ الشمس، نقل ذلك في اللسان عن الزهري، واستشهد بهذا البيت، وفيه: «ويقال لكل من كان بارزاً في غير ما يُظِلُّه ويُكِنُّه: إنه لَضَاحٍ، ويَخْصَر هو من الخَصَر بالتحريك، وهو البرد يجده الإنسان في أطرافه»

فيما رُوي ـ في فم الحيَّة، وكان آدم عليه السلام قد قال الله له: لا تأكل من هذه الشجرة، وعيَّن له شجرة قد تقدمَّ الخلاف في جنسها، فلمَّا وصفها له إبليس أنها شجرة الخُلْد التي من أكلها كان ملكاً مخلَّداً، عَمَد آدم عليه السلام إلى غير تلك التي نهي عنها من جنسها فأكلها بتأويل أن النَّهي كان على النَّدب لا على التَّحريم، وسارعت إلى ذلك حوَّاءُ وكانت معه في النهي، فلمَّا رآها آدم عليه السلام قد أكلت أكل، فطارَت عنهما ثيابهما، وظهر تبرُّء الأشياء منهما، وبدت سوآتهما. وقوله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ معناه: جعلا يفعلان ذلك دائماً، و[يَخْصِفَانِ] معناه: يلفقان ويضُمَّان شيئاً إلى شيء، فكانا يستتران بالورق، وروي أنه كان من ورق التِّين.

ثمَّ نصَّ[١] تعالى على آدم أنه عصى، و[غَوَىَ] معناه: ضلَّ من الغيِّ الذي هو ضد الرشد، ومنه قول الشاعر:

فَمَـنْ يَلْـقَ خَيْـراً يَحْمَـدِ النَّـاسُ أَمْـرَهُ ... وَمَنْ يَغْوَ لاَ يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لائما[٢]

وقرأت فرقة: [وأَنَّكَ لا تَظْمَأُ] بفتح الألف عطفاً على قوله: ﴿أَلَّا تَجُوعَ﴾، وقرأت فرقة: [وإِنَّكَ لا تظمأُ] عطفاً على قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ﴾[٣].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ

---

(١) في بعض النسخ: «ثم قَصَّ تعالى على آدم».

(٢) هذا البيت من المعاني التي سبق إليها المرقِّش الأصغر، ربيعةُ بن سفيان بن سعد، وهو عمُّ طرفة، وابن شقيق المرقِّش الأكبر، وهو من قصيدة له يقول في مطلعها:

أَلاَ يَا أَسْلَمِي لاَ صُرْمَ لِي الْيَوْمَ فَاطِمَا

وهي من المفضليات تحت رقم ٥٦، والبيت هو رقم ٢٢ من المفضلية، وهو في حماسة البحتري، وفي المرزباني، وشعراء الجاهلية. واللسان (غوى)، قال: «الغَيُّ: الضلالُ والخيبةُ، غَوَى غَيّاً وَغَوِيَ غَوَايَةً: ضلَّ، . . . وأغواه هو، وأنشد للمرقِّش: فمن يلق خيراً. . . البيت.

هذا وفي القرطبي نقلاً عن بعض العلماء أن معنى (غوى) فَسَد، وأن الغَيَّ هو الفساد، وعلى هذا فمعنى الآية: ففسد عيشُه بنزوله إلى الدنيا، يعني آدم عليه السلام، قال القرطبي: وهو تأويل حسن، وهو أولى من تأويل من يقول: (غَوَى) معناه ضَلَّ.

(٣) قال أبو حيان: ويجوز أن يكون على الابتداء.

مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾.

[ٱجْتَبَاهُ] معناه: تخيَّره واصطفاه، و﴿تَابَ عَلَيْهِ﴾ معناه: رجع به من حال المعصية إلى حال النَّدم وهداه لصالح الأقوال والأعمال، وأمضى عقوبته عزَّ وجلَّ في إهباطه من الجنة.

وقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطَا﴾ مخاطبة آدم وحواء، ثم أخبرهما بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ أن إبليس والحيَّة يهبطان معهما، وأن العداوة بينهم وبين أنسالهم إلى يوم القيامة، و﴿عَدُوٌّ﴾ يوصف به الواحد والاثنان والجمع. وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ شرطٌ، وجوابه في قوله: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ وما بعده إلى آخر القسم الثاني، والهدى معناه دعوة شرعي. ثم أعلمهم أن من اتَّبع هداهُ وآمن به فإنه لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، وأنَّ من أعرض عن ذِكر الله وكفر به فإنَّ له معيشة ضنكاً، و«الضَّنْكُ»: النَّكِدُ الشَّاق من العيش في المنازل أو في مواطن الحرب ونحوها، ومنه قول عنترة:

. . . . وَإِنْ نَزَلُوا يَوْماً بِضَنْكٍ أَنْزِلِ(١)

يوصف به الواحد والجمع والمؤنث، وقرأت فرقة: [ضَنْكَى](٢)، أتبعت بالصفة لفظة «المعيشة». واختلف الناس في المعيشة الضَّنك، متى هو الوقت الذي هي فيه ـ فقالت فرقة: هي الدنيا، ومعنى ذلك عندهم أن الكافر وإن كان متسع الحال والمال

---

(١) هذا جزء من بيت لعنترة، وهو من قصيدة له يُعَرِّض فيها بقيس زهير سيد بني تميم، فقد حَمَى عنترة بني عبس من تميم في إحدى المعارك، فقال قيس: «والله ما حَمَى الناس إلاَّ ابن السوداء»، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

إِنِّـي ٱمْـرُؤٌ مِـنْ خَيْـرِ عَبْـسٍ مَنْصِبـاً ... شَطْـرِي وَأَحْمِـي سَـائِـرِي بِـالْمُنْصُـلِ
إِنْ يُلْحَقُـوا أَكْـرُرْ وَإِنْ يُسْتَلْحَمُـوا ... أَشْـدُدْ وَإِنْ يُلْفَـوْا بِضَنْـكٍ أَنْـزِلِ

والمعنى: إن لحقهم العدوُّ يوماً فإني لا أهرب بل أعود فأقابل العدوَّ بالهجوم، وإن اشتبكوا في معركة والتحموا بعدوهم في القتال أشدِّد من هجومي وقتالي، وإن اشتدت الضائقة عليهم في المعركة نزلت عن فرسي حتى أتجنب التحام الخيل، وفي القصيدة نفسها يقول:

إِنَّ الْمَنِيَّـةَ لَـوْ تُمَثَّـلُ مُثِّلَـتْ ... مِثْلِـي إِذَا نَـزَلُـوا بِضَنْـكِ ٱلْمَنْـزِلِ

وهو شاهد لمعنى الضنك مثل الشاهد في البيت الذي ذكره المؤلف.

(٢) على وزن «فَعْلَى».

فمعه من الحرص والأَمل والتعذيب بأُمور الدنيا والرغبة واتساع صفاءِ العيش بذلك ما يصيِّر معيشته ضنكاً، وقالت فرقة: هي ضنك بأَكل الحرام، وقالت فرقة: بل المعيشة الضَّنك هي في البرزخ، وهو أَن يرى مقعده من النَّار غُدوّاً ورواحاً، وبالجملة عذاب القبر على ما رُوي فيه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وحَمَل هذه الفرقة على هذا التأْويل أَن لفظ الآية يقتضي أَن المعيشة الضَّنك قبل يوم القيامة بقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾، وبقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾. وقالت فرقة: بل المعيشة الضنك في الآخرة، وهي عذابهم في جهنم وأَكلهم الزَّقُّوم وغيره، وذكر الله تعالى ذلك من وعيده لهم، ثم أَخبر عن حالة أُخرى هي أيضاً يوم القيامة وهي حشرهم عمياً، ثم يجيء قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ بمعنى هذا الذي ذكرناه من المعيشة الضَّنك والعمى ونحوه هو عذابه في الآخرة، وهو أَشد وأَبقى من كل ما يقع عليه الظَّن والتَّخيُّل، فكأَنه ذكر نوعاً من عذاب الآخرة ثم ذكر أَن عذاب الآخرة أَشد وأَبقى.

وقرأَت فرقة: [وَنحشُرُهُ] بالنون، وقرأَت فرقة: [وَيَحْشُرُهُ]، وقرأَت فرقة: [وَنَحْشُرْهُ] بسكون الرَّاءِ، وقرأَت فرقة: [أَعْمَى] بفتح الأَلف، وقرأَت فرقة: [أَعْمَى] بالإِمالة، وقالت فرقة: العَمَى هنا عَمَى البصيرة عن الحجة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولو كان هذا لم يُحسَّ الكافر بذلك؛ لأَنه مات أَعمى البصيرة ويُحشر كذلك، وقالت فرقة: العَمَى هنا عَمَى البصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الأَوجه، مع أَن عمى البصيرة حاصل في الوجهين، وأَما قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ فمن رآه «في العين» فلا بد أَن يتأَولها مع هذا إِمَّا أَنَّها في طائفتين وإِمَّا في موطنين.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا﴾، [ذَلِكَ] إِشارة إِلى العَمَى الذي حلَّ به، أَي مثل هذا في الدنيا أَن أَتتك آياتُنا فنسيتها، و«النِّسْيَان» في هذه الآية بمعنى الترك، ولا مدخل

للذهول في هذا الموضع، و[تُنْسَى] بمعنى: تُترك في العذاب، ورُوي أن هذه الآية نزلت في القرشي[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.

المعنى: وكما وصفنا من أليم الأفعال نجزي المسرفين المعتدين الكفَّار بالله عزَّ وجلَّ. وقوله سبحانه: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ إن كانت معيشة الضَّنك في الدنيا أَو في البرزخ فجاءَ هذا وعيداً بعذاب الآخرة بعد وعيد، وإن كانت المعيشة [الضَّنْك][(٢)] في الآخرة فأَكَّد الوعيد بعينه بهذا القول الذي جعل به عذاب الآخرة فوق كل عذاب يتخيَّله الإنسان أَو يقع في الدنيا.

ثمَّ ابتدأَ يُوَبِّخُهم ويذكر العِبَر بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾. وقرأَت فرقة: [يَهْدِ] بالياءِ بمعنى: يُبيِّن، واختلفت هذه الفرقة في الفاعل ـ فقال بعضهم: الفاعل [كَمْ]، وهذا قول كوفيٌّ، ونُحاة البصرة لا يجيزونه؛ لأَن [كَمْ] لها صدر الكلام، وفي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ مَنْ أَهْلَكْنَا»، فكأَن هذه القراءَة تناسب ذلك التأْويل في [كَمْ]، وقال بعضهم: الفاعلُ الله عزَّ وجلَّ، والمعنى: أَفلم يَهْدِ لهم ما جعل الله لهم من الآيات والعِبَر، فأَضاف الفعل إلى الله تعالى بهذا الوجه، قاله الزجاج. وقال بعضهم: الفاعل مُقدَّر، الهدى أَو الأَمر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أَو النَّظر والاعتبار، وهذا أَحسن ما يُقدَّر به عندي[(٣)].

---

(١) أي في القرشي الذي سأل النبي ﷺ عن الجبال، فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿ينسفها ربي نسفاً﴾.

(٢) زيادة لتوضيح المعنى.

(٣) نقل أبو حيان في البحر المحيط هذا الكلام، ثم علَّق عليه بقوله: «وهو قول المبرد، وليس بجيد، إذ فيه حذف الفاعل وهو لا يجوز عند البصريين». وقال أَبو البقاء: «الفاعل ما دلَّ عليه (أَهْلَكْنَا) والجملة مُفَسِّرَة له».

وقرأَت فرقة: [نَهْدِ] بالنُّون، وهذه القراءة تناسب تأْويل من قال في التي قبلها: الفاعل الله، و[كَمْ] ـ على هذه الأَقوال ـ نصب بـ[أَهْلَكْنَا]. ثم قيّد «القُرُون» بأَنهم يمشي هؤلاء الكفرة في مساكنهم، فإِنما أَراد عاداً وثمود والطَّوائف التي كانت قريش تجوز على بلادهم في المرور إِلى الشَّام وغيره. وقرأَت فرقة: [يَمْشُونَ] بفتح الياءِ، وقرأَت فرقة: [يُمَشُّونَ] بضم الياءِ وفتح الميم وشدّ الشين، و«النُّهَى» جمع نُهْيَةٍ، وهو ما ينهى الإِنسان عن فِعْل القبيح.

ثمَّ أَعلم عزَّ وجلَّ أَن العذاب كان يصير لهم لزاماً لولا كلمة سبقت من الله عزَّ وجلَّ في تأْخيره عنهم إِلى أَجل مسمًّى عنده، فتقدير الكلام؛ ولولا كلمة سبقت في التأْخير لأَجل مُسمًّى لكان العذاب لِزاماً، كما تقول: لكان حتماً وواجِباً واقِعاً، لكنه قدَّم وأَخَّر لِتَتَشَابَه رُءُوس الآي.

واختلف الناسُ في الأجل ـ فيحتمل أَن يريد يوم القيامة، والعذاب المتوعَّد به ـ على هذا ـ هو عذاب جهنَّم، ويحتمل أَن يريد بالأَجل مَوْتَ كل واحد منهم، فالعذاب ـ على هذا ـ ما يَلْقَى في قبره وما بعده، ويحتمل أَن يريد بالأَجل يوم بدرٍ، فالعذاب ـ على هذا ـ هو قتلهم بالسيف، وبكل احتمال مما ذكرناه قالت فرقة، وفي صحيح البخاري أَن يوم بدرٍ هو اللِّزام، وهو البطشة الكبرى.

ثمَّ أَمره تبارك وتعالى بالصبر على أَقوالهم: إِنه ساحر، إِنه كاهن، إِنه كذَّاب، إِلى غير ذلك، والمعنى: لا تعجل بهم فهم بمدرجة المهلكة، وكون اللِّزام يوم بدر أَبلغ في آيات نبينا ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، قال أَكثر المتأَوِّلين: هذه إِشارة إِلى الصلوات الخمس: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾: صلاةُ الصُّبح، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾: صلاة العصر، ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ﴾: العتمة[1]، ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾: المغرب والظُّهر. وقالت فرقة: ﴿من آناء الليل﴾: المغربُ والعشاءُ، و﴿أطراف النهار﴾: الظُّهر وحدها[2]، ويحتمل اللَّفظ أَن

---

(١) أَي صلاة العشاء.

(٢) الرأي القائل بأن الآية إشارة إلى الصلوات الخمس يؤيده الحديث الذي رواه جرير بن عبد الله مرفوعاً؛ قال: كنَّا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألاَّ تغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» ـ يعني=

يُرادبه قول: «سُبحانَ الله وبحمده» من بعد صلاة الصبح إلى ركعتي الضُّحى، وقبل غروب الشَّمس؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «من سبَّح عند غُروب الشَّمس تسبيحة غربت بذنوبه»(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وسَمَّى الطَّرفين أَطرافاً على أَحد وجهين: إمَّا على نحو قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾(٢)، وإمَّا على أَن يجعل النهار للجنس فلِكُلِّ يوم طرف، وهي التي جمع. وأَمَّا من قال: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ لصلاة الظهر وحدها فلا بُدَّ له من أَن يتمسَّك بأَن يكون النهار للجنس كما قلنا، أَو يقول: إن النهار ينقسم قسمين فَصَلَهُما الزَّوال، ولكل قسم طرفان، فعند الزَّوال طرفان، الآخِر من القسم الأَول، والأَول من القسم الآخر، فقال عن الطرفين: أَطرافاً على نحو ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، وأَشار إِلى هذا النَّظر أَبو بكر بن فُورك في «المشكل».

و«الآناءُ» جمع (إِنْيٍ) وهي الساعة من اللَّيل، ومنه قول الهُذَلِّي:

حُلْـوٌ وَمُـرٌّ كعِطْـفِ القِـدْحِ مِـرَّتُـهُ ... فِي كُلِّ إِنْيٍ قَضَاهُ اللَّيْلُ يَنْتَعِلُ(٣)

= العصر والفجر ـ ثم قرأ جرير: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾، وهذا الحديث متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(١) أخرج أحمد في مسنده، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من أضحى يوماً مُحرماً مُلَبِّياً حتى غربت الشمس غربت بذنوبه كما ولدته أُمه»، والرأي القائل بأن المراد بالآية تسبيح الله تعالى بعد صلاة الصبح وقبل صلاة المغرب هو رأي عطاءٍ الخراساني وأبي الأَحوص.

(٢) من الآية (٤) من سورة (التحريم)، وقد قال العلماءُ في جمع القلوب هنا: إن من شأن العرب إذا ذكروا الشيئين من اثنين أن يجمعوهما لأنه لا يُشكل، وقيل: كلُّ ما ثبتت الإضافة فيه مع التثنية فلفظ الجمع أليق به لأنه أمكن وأخف، وقيل في آيتنا هنا: النهار له أربعة أطراف: عند طلوع الشمس، وعند غروبها، وعند زوال الشمس، وعند وقوعها للزوال، وقيل: المراد بالأطراف الساعات لأن الطرف آخر الشيء.

(٣) الهُذَليُّ القائل لهذا البيت هو المُتَنَخِّل، مالك بن عمرو بن عُثْم بن سويد اللِّحياني الهُذَليُّ، والبيت أحد أبيات قالها في رثاء ابنه أُثَيلَةَ، وهو في اللسان (أنى)، وفي «الشعر والشعراء»، و(الطبري)، وعِطفُ الشيءِ: جانبُه، والقِدْحُ السَّهم قبل أن يُنَصَّل أو يُراش. والمِرَّة: القوة والشكيمة والإرادة، أصلها من إمرار الحبل، أي إحكام فتله، والإِنْيُ: واحد آناءِ الليل وهي ساعاتُه، قال الزجاج: «يقال فيه إِنْيٌ وإِنًى، فمن قال إِنْيٌ فهو مثل نِحْيٍ وأَنْحَاءٍ، ومن قال إِنًى فهو مثل مِعًى وأَمْعَاءٍ، وينتعل: يركب الأرض الصلبة وما فيها من حرّات، وقد روى ابن الأنباري البيت بلفظ آخر، ذكر ذلك صاحب اللسان، وهو: =

وقالت فرقة: الآية إشارة إلى نوافل، فمنها آناءَ اللَّيل، ومنها قبل طلوع الشمس، وركعتا الفجر والمغرب أطراف النهار. وقرأ الجمهور: [لعلك ترضى] بفتح التاءِ، أي: لعلَّك تُثاب على هذه الأعمال بما ترضى به، وقرأ الكسائي، وأبو بكر عن عاصم: [لعلّك تُرْضَى]، أي: لعلَّك تُعطى ما يُرضيك[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾.

قال بعض الناس: سبب هذه الآية أن رسول الله ﷺ نزل به ضيف فلم يكن عنده شيءٌ، فبعث إلى يهودي ليسلفه شعيراً، فأبى اليهودي إلاّ برهن، فبلغ الرسول ذلك النبي ﷺ فقال: «والله إنِّي لأَمين في السماء أَمين في الأَرض»، فرهنه درعه، فنزلت الآية في ذلك[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا مُعترضٌ أن يكون سبباً؛ لأَن السُّورة مكية والقصة المذكورة مدنية في آخر عُمْر النبي ﷺ؛ لأَنه مات ودرعه مرهونة بهذه القصة التي ذكرت، وإنما الظاهر أَن الآية متناسقة مع ما قبلها، وذلك أَن الله تعالى وبَّخهم على ترك الاعتبار بالأُمم السابقة، ثمَّ توعَّدهم بالعذاب المؤجل، ثمَّ أَمر نبيه ﷺ بالاحتقار لشأْنهم والصبر على أَقوالهم والإعراض عن أَموالهم وما في أَيديهم من الدنيا؛ إذ ذلك منصرم عنهم، صائر بهم إلى خِزي[٣].

= السَّالِكُ الثَّغْرَ مَخْشِياً مَوَارِدُهُ ... بِكُلِّ إِنِّي قَضَاهُ اللَّيْلُ يَنْتَعِلُ

والحقيقة أنه جمع بين صدر بيت آخر وبين عجز هذا البيت، والروايتان في اللسان، والأبيات كاملة في الشعر والشعراء، ويروى: (حذاه الليل) بدلاً من (قضاه الليل).

(١) وهي أيضاً قراءة أبي حيوة، وطلحة، وأبي عمارة، قال ابن خالويه في كتابه «الحجة»: (والأَمر في القراءتين قريب، لأَنَّ من أُرضي فقد رَضِيَ، ودليله قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن راهويه، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والخَرَائطي، وأبو نعيم، عن رافع. «فتح القدير والدر المنثور».

(٣) نقل القرطبي كلام ابن عطية هذا، ثم عقَّب عليه بقوله: (قلتُ: وكذلك ما رُوي عنه عليه الصلاة والسلام أنه مرَّ بإبل بني المصطلق وقد عَبِسَتْ في أبوالها وأبعارهم من السِّمَن فتقنَّع بثوبه ثم مضى لقوله=

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أبلغ من «ولا تنظر»، لأَن الذي يمد بصره إِنما يحمله على ذلك حرصٌ مقترن، والذي ينظر قد لا يكون ذلك معه، و«الأَزْوَاجُ»: الأنواع، فكأَنه قال: إِلى ما متَّعنا به أَقواماً منهم وأَصنافاً، وقوله: ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ شبه نعيم هؤلاءِ الكفار بالزَّهر، وهو ما اصفر من النَّوْر، وقيل: الزهْرُ: النَّوْرُ جملة؛ لأَن الزهر له منظر ثم يضمحل، فكذلك حال هؤلاءِ، ونصب [زَهْرَةَ] يجوز أَن يكون بإِضمار فعل تقديره: جعلناه زهرةَ، ويجوز أَن ينصب على الحال، وذلك أَن تعريفها ليس بمحض[(١)]. وقرأَت فرقة: [زَهْرَةً] بالتنوين، وقرأَت فرقة: [زَهْرَهْ] بالهاء مُسكَّنه، وقرأَت فرقة: [زَهَرَةَ] بفتح الهاءِ[(٢)]. ثم أَخبر تعالى نبيَّه ﷺ أَن ذلك إِنما هو ليختبرهم به، ويجعله فتنةً لهم وأَمْراً يجازون عليه بالسوءِ لفساد تقلُّبهم فيه، ورزْقُ الله تعالى الذي أَحلَّه للمتَّقين من عباده خيرٌ وأَبقى، أَي: ورزق الدنيا خير، ورزق الآخرة أَبقى، وبيَّن أَنه خير من رزق الدنيا.

ثم أَمره تبارك وتعالى بأَن يأْمر أَهله بالصلاة ويمتثلها معهم ويصطبر عليها ويلازمها، وتكفَّل هو برزقه، لا إله إلاَّ هو، وأَخبره أَن العاقبة لأُولي التقوى وفي حيِّزها، فَثَمَّ نصرُ الله في الدنيا ورحمتُه في الآخرة، وهذا الخطاب للنبي ﷺ، ويدخل في عمومه جميع أُمَّته، ورُوي أَن عُروة بن الزُّبير رضي الله عنه كان إِذا رأَى شيئاً من أَخبار السَّلاطين وأَحوالهم بادر إِلى منزله ودخله وهو يقرأُ هذه الآية ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، ثمَّ يُنادي: الصلاةَ الصلاةَ يرحمكم الله، ويصلِّي، وكان أَمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

= عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ الآية). ومعنى: (عَبِسَتْ في أبوالها): أن أبوالها وأبعارها قد جفَّت على أفخاذها، وهذا يكون من الشحم.

(١) كثرت الآراءُ في إعراب قوله تعالى: ﴿زَهْرَةَ﴾ ـ فقيل: هي مفعول ثان لـ(مَتَّعْنَا) على تضمينه معنى (أَعْطَيْنَا)، وقيل: منصوبة على الذم، وقيل: بل هي بدل من محلّ الجار والمجرور، وقيل: هي بدل من [أَزْوَاجاً] على تقدير: ذوي زهرة، وقيل غير ذلك.

(٢) أجاز الزمخشري في [زَهَرَة] بفتح الهاءِ أن تكون جمع زاهر، مثل كافر وكَفَرة، قال: «وصفهم بأنهم زاهرو هذه الدنيا لصفاء ألوانهم مما يلهون ويتمتعون، وتهلُّل وجوههم، وبهاء زيّهم، بخلاف ما عليه المؤمنون من شجوب الألوان وتقشف الثياب».

يوقظ أهل داره لصلاة الليل ويُصلي ويتمثَّل بهذه الآية(١). وقرأ الجمهور: [نحن نرزقك] بضم القاف، وقرأت فرقة: [نَحْنُ نَرْزُقْكَ] بسكونها.

ثم أخبر تعالى عن طوائف من الكفار قالوا عن محمد ﷺ: ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أي بعلامة مما اقترحناها عليه، أو ممَّا يبهر ويضطر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ورسل الله تعالى إنما اقترنت معهم آيات معرضة للنظر، محفوفة بالبراهين العقلية، ليضلَّ من سبق في علم الله ضلاله، ويهتدي من سبق هداه، فوبَّخهم الله تعالى بقوله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني التوراة، أعظم شاهد وأكبر آية له. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: [تَأْتِهِمْ] على لفظ [بَيِّنَةُ]، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم: [يَأْتِهِمْ] بالياء على المعنى، وقرأت فرقة: [بَيِّنَةُ ما في الصُّحُفِ] بالإضافة إلى [مَا]، وقرأت فرقة: [بَيِّنَةٌ] بالتنوين، و[مَا] بدلٌ على هذه القراءَة، وقرأت فرقة: [بَيِّنَةً مَا] بالنصب، و[مَا] ـ على هذه القراءَة ـ فاعله بـ[تَأْتِي]، وقرأ الجمهور: ﴿فِى ٱلصُّحُفِ﴾ بضمِّ الحاءِ، وقرأت فرقة: [في ٱلصُّحْفِ] بسكونها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

أخبر الله تعالى نبيَّه محمداً ﷺ أنه لو أهلك هذه الأُمَّة الكافرة قبل إرساله إليهم محمداً ﷺ لقامت لهم حُجَّة وقالوا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ الآية. وروى أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ، قال: «يحتج على الله تعالى يوم القيامة ثلاثة: الهالك في الفترة، والمغلوب على عقله، والصبي الصغير، فيقول المغلوب على عقله: رَبِّ، لِمَ لَمْ تَجْعَل لي عقلاً؟ ويقول الصبي نحوه، ويقول الهالك في

(١) ومن هذا الباب ما أخرجه أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، والطبراني في «الأوسط»، وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «شعب الإيمان» بسند صحيح عن عبد الله بن سلام، قال: كان النبي ﷺ إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة، وتلا: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآية «الدر المنثور».

الفترة: يا ربِّ، لِمَ لَمْ تُرسل إليَّ رسولاً؟ ولو جاءَني لكنت أَطوع خلقك لك، قال: فتُرفع لهم نارٌ، ويقال لهم: رِدُوها، قال: فَيَرِدُهَا من كان في علم الله أنه سعيد، ويكعُّ عنها الشَّقِّي، فيقول الله تبارك وتعالى: إيَّاي عصيتم، فكيف برسلي لَوْ أَتَتْكُم؟»[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فأَمَّا الصَّبيُّ والمغلوب على أَمره فَبيِّنٌ أَمرهما، وأَمَّا صاحب الفترة فليس ككفَّار قريش قبل النبي ﷺ؛ لأَن كفار قريش وغيرهم مِمَّن علم وسمع عن نُبُوَّة ورسالة في أَقطار الأَرض فليس بصاحب فترة، والنبي ﷺ قد قال للرجل الذي سأَله عن أَبيه: «أَبي وأَبوك في النار»[٢]، ورأَي عمرو بن لحي في النار، إلى غير هذا مما يطول ذكره، وإنما صاحب الفترة يفرض أَنه آدمي لم يصل إليه أَن الله تعالى بعث رسولاً ولا دَعَا إلى دين، وهذا قليل الوجود، اللهمَّ إلاَّ أَن يشذ في أَطراف الأَرض المنقطعة عن العمران، والذُّلُّ والخِزْيُ مقترنان بعذاب الآخرة.

ثمَّ أَمر الله نبيَّه محمداً ﷺ أَن يتوعدَّهم ويحملهم ونفسه على التَّربُّص وانتظار الفرج، و«التَّرَبُّصُ»: التَّأَنِّي، و«الصِّرَاطُ»: الطريق. وقرأَت فرقة: ﴿ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ ﴾[٣]، وقرأَت فرقة: [ٱلصِّرَاطِ ٱلسَّوَاءِ][٤]، فكأَن هذه الآية قسمت الفريقين،

---

(١) أخرجه أبو داود في الحدود، والترمذي في الطلاق، وأخرج نحوه أحمد في مسنده (٤/ ٢٤)، عن الأسود بن سريع، وفيه أن نبي الله ﷺ قال: «أَربعة يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: ربِّ جاء الإسلام ولم أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: ربِّ لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبَعْر، وأما الهَرِم فيقول: ربِّ، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: ربِّ ما أتاني لَكَ رسولٌ، فيأخذ مواثيقهم ليطيعُنَّه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، قال: فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً»، وعن أبي هريرة مثل هذا غير انه قال في آخره: «فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن لم يدخلها يُسْحب إليها».

(٢) أخرجه أبو داود في السُّنَّة، وأحمد ين حنبل (٤/ ١٤)، ولفظه فيهما: أين أبي؟ قال: «أبوك في النار»، وفي صحيح مسلم في كتاب الإيمان وفي المسند للإمام أحمد، عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رجل للنبي ﷺ أين أبي؟ قال: «في النار»، قال: فلما رأى ما في وجهه قال: «إنَّ أبي وأباك في النار».

(٣) على وزن فَعِيل، أي: المستوي.

(٤) أي: الوسط، وهي قراءة أبي مجلز، وعمران بن حدير.

أَي: سَتَعْلَمُون هذا من هذا، وقرأَت فرقة: [ٱلصِّرَاطِ ٱلسَّوَّا] بشدِّ الواو وفتحها[1]، وقرأَت فرقة: [ٱلصِّرَاطِ ٱلسُّوءَى] بضم السين وهمزة على الواو، على وزن فُعْلَى[2].

و﴿ مَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ معناه: رشد.

كمل تفسير سورة طه والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) اختلفت الأصول في ضبط هذه القراءة، وتداخلت الألفاظ فيها وفي القراءة التالية.

(٢) قال أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط»: (على وزن فُعْلَى أُنث لتأنيث الصراط، وهو مِمَّا يُذكَّر ويُؤنَّث).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الأنبياء

هذه السُّورة مكِّيَّة بإجماع، وكان عبد الله بن مسعود يقول: (الكهف ومريم وطٰه والأَنبياء من العتاق الأُول، وهنَّ من تلادي)[1]، يريد: من قديم ما كسبت وحفظت من القرآن، كالمال التِّلاد[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾.

رُوي أَن رجلاً من أَصحاب رسول الله ﷺ كان يبني جداراً، فمرَّ به آخر في يوم نزول هذه السُّورة، فقال الذي كان يبني الجدار: ماذا نزل اليوم من القرآن؟ فقال له الآخر: نزل اليوم ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾، فنفض يده من البنيان وقال: والله لا بنيت أَبداً وقد اقترب الحساب.

وقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ عام في جميع الناس وإن كان المشار إليه في ذلك الوقت كفار قريش، ويدل على ذلك ما بعده من الآيات، وقوله: ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ يريد الكفار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويتَّجه من هذه الآية على العصاة من المؤمنين قسطهم.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم﴾ وما بعده مختصٌ بالكفَّار، وقوله: ﴿مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم﴾، قالت فرقة: المراد ما ينزلُ من القرآن، وقوله: ﴿مُّحْدَثٍ﴾ يريد نزوله وإِتْيَانه

---

(١) أخرجه البخاري، وابن الضريس، عن ابن مسعود، والرواية كما في «الدر المنثور» و«فتح القدير»: (بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، .... الخ الحديث).

(٢) المالُ التِّلاد: المالُ الأَصلي القديم، وقيل: هو الموروث.

إِيَّاهم، لا هو في نفسه. وقالت فرقة: المراد بالذكر أَقوالُ النبي ﷺ في أَمر الشريعة، ووعْظُه وتذْكيرُه، فهو مُحْدثٌ على الحقيقة، وجعله «مِنْ رَبِّهم» من حيث إن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، ولا يقول إِلاَّ ما هو من عند الله، وقالت فرقة: «الذِّكْرُ» الرَّسُولُ نفسه، واحتجت على ذلك بقوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾[1]، فهو محدث على الحقيقة، ويكون معنى ﴿ٱسْتَمَعُوهُ﴾ بمعنى: استمعوا إِليه. وقوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ جملة في موضع الحال، أَي: استماعهم في حال لعب، فهو غير نافع ولا واصل النفس.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤﴾.

قوله: ﴿لَاهِيَةً﴾ حالٌ بعد حال[2]، واختلف النحاة في إِعراب قوله سبحانه: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ـ فمذهب سيبويه أَن الضمير في قوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟﴾ فاعل، وأَن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلٌ منه، وأَن لغة «أَكَلُوني البراغيث» ليست في القرآن، وقال أَبو عبيدة وغيره: الواو والأَلف علامة أَن الفاعل مجموع، كالتاءِ في قولكِ: «قامت هند»، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعل بـ﴿وَأَسَرُّوا۟﴾، وهذا على لغة من قال: «أَكَلُوني البراغيث»، وقالت فرقة: الضمير فاعل، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ مرتفع بفعل تقديره: أَسَرَّها الذين، أَو قالها الذين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والوقوف على [ٱلنَّجْوَى] في هذا القول وفي القول الأَول أَحسن، ولا يحسن في الثاني. وقالت فرقة: [ٱلَّذِينَ] مرتفع على خبر ابتداءٍ مضمر، تقديره: هم الذين ظلموا، والوقف مع هذا حسن. وقالت فرقة: [ٱلَّذِينَ] في موضع نصب بفعل تقديره: أَعني الذين. وقالت فرقة: [ٱلَّذِينَ] في موضع خفض بدل من [ٱلنَّاسِ] في قوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

---

(١) من الآيتين (١٠ـ ١١) من سورة (الطلاق).

(٢) هذا إذا جعلناه حالاً من الضمير في ﴿استمعوا﴾، ويمكن أن تكون حالاً من الضمير في ﴿يَلْعَبُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه أقوال ضعيفة.

ومعنى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾: تكلَّموا بينهم بالسِّرِّ والمناجاة بعضهم لبعض، وقال أبو عبيدة: [أَسَرُّوا]: أظهروا، وهو من الأضداد، ثمَّ بيَّن تعالى الأمر الذي تناجوا به وهو قول بعضهم لبعض: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، ثم قال بعضهم لبعض ـ على جهة التوبيخ في الجهالة ـ: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾، أي ما يقول، شبَّهوه بالسِّحر، المعنى: أفتتَّبعون السِّحر؟ ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، أي تدركون أنه سِحر، وتعلمون ذلك، كأنَّهم قالوا: تضلُّون عن بيِّنة ومعرفة، ثم أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يقول لهم وللناس جميعاً: ﴿رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: يعلم أقوالكم هذه وهو بالمرصاد في المجازاة عليها.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: [قُلْ ربي]، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿قَالَ رَبِّي﴾ على معنى الخبر عن نبيِّه ﷺ، واختلف عن عاصم، قال الطبري رحمه الله: وهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأمصار.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾.

لما اقتضت الآية التي قبل هذه أنهم قالوا إن ما عنده سحرٌ، عدَّد الله تعالى في هذه الآية جميع ما قالته طوائفهم، ووقع الإضراب بكل مقالة عن المتقدمة لها ليبيِّن اضطراب أمرهم، فهو إضراب عن جَحْد متقدم لأن الثاني ليس بحقيقة في نفسه. و«الأَضْغَاثُ»: الأخلاط، وأَصلُ الضِّغث: القبضة المختلطة من العشب والحشيش، فشبِّهت تخاليط الحُلْم بذلك، وهو ما لا يتفسَّر ولا يتحصل، ثمَّ حكى قول من قال: إنَّه مُفتر قاصد للكذب، ثم حكى قول من قال: شاعر، وهي مقالة فرقة عاميَّة منهم، لأَن نبلاءَ العرب لم يخف عليهم بالبديهة أن مباني القرآن ليست مباني شِعْر، ثم حكى

اقتراحهم وتمنيهم آيةً تضطرهم وتكون في غاية الوضوح كناقة صالح عليه السلام وغيرها، وقوله: ﴿كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ دالٌّ على معرفتهم بإتيان الرُّسل الأُمم المتقدمة.

وقوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ﴾ قبله كلام مقدرٌ يدل عليه المعنى، تقديره: والآية التي طلبوها عادتُنا أَن القوم إِن كفروا بها عاجلناهم، وما آمنت قرية من القرى التي نزلت بها هذه النازلة، فهذه كانت تؤمن؟ وقوله: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ﴾ جملة في موضع الصفة للقرية، والجُمل إذا أُتبعت النكرات فهي صفات لها، وإِذا أُتبعت المعارف فهي أَحوال منها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ ردٌّ على فرقة منهم كانوا يستبعدون أَن يبعث الله من البشر رسولاً يشِفُّ[1] على نوعه من البشر بهذا القدر من الفضل، فمثل الله تعالى في الردّ عليهم بمن سبق من الرُّسل من البشر، وقرأَ الجمهور: [يُوحى] على بناء الفعل للمفعول، وقرأَ حفص عن عاصم: [نُوحِي] بالنون، ثم أَحالهم على سؤال أَهل الذّكر من حيث لم يكن عند قريش كتاب ولا أَثارة من علم.

واختلف الناس في أَهل الذِّكر، من هم؟ فرُوي عن عبد الله بن سلام أَنه قال: أَنا من أَهل الذّكر، وقالت فرقة: هم أَحبار أَهل الكتاب، ورُوي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَنه قال: أَنا من أَهل الذِّكر، وقالت فرقة: هم أَهل القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا موضع ينبغي أَن يُتَأَمَّل[2]؛ وذلك أَنَّ الذكر هو كل ما يأْتي من تذكير الله عباده، فأَهل القرآن أَهل ذكر، وهذا أَراد عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، وأَمَّا المحال على سؤالهم في هذه الآية فلا يصح أَن يكونوا أَهل القرآن في ذلك الوقت؛ لأَنهم كانوا خصومهم، وإِنما أُحيلوا على سؤال أَحبار أَهل الكتاب من حيث كانوا موافقين لهم على ترك الإِيمان بمحمد ﷺ، فتجيءُ شهادتهم ـ بأَن الرُّسل قديماً من البشر لا مطعن فيها ـ لازمة لكفار قريش.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا﴾، قيل: الجسد من الأَشياء يقع على ما لا

(١) أي يزيد: الشَّفُّ: الرِّبح والفضل والزيادة، وهو أيضاً النقصان، يقال: شَفَّ الدرهم يشفُّ إِذا زاد وإِذا نقص.

(٢) في بعض النسخ: ينبغي أن يتأول.

يتغذى، ومنه قوله سبحانه: ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾[(١)]، فمعنى هذا: ما جعلناهم أجساداً لا تتغذَّى، وقيل: الجسد يعم المتغذِّي من الأجسام وغير المتغذي، فالمعنى: ما جعلناهم أجساداً وجعلناهم مع ذلك لا يأكلون الطعام كالجمادات أو كالملائكة، فـ﴿جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا﴾ على التأويل الأول منفيٌّ، وعلى الثاني موجب والنَّفْيُ واقع على صفته، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ كناية عن الحدث، ثم نفى عنهم الخُلْد لأنه من صفات القديم، وكل محدث فغير خالد في الدنيا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾.

هذه وعيد في ضِمْن وَصْفه تعالى سِيرَتَهُ في الأنبياء عليهم السلام من أنه يصدق مواعيدهم، فكذلك يصدق لمحمد ﷺ ولأصحابه ما وعدهم من النصر وظهور الكلمة. وقوله: ﴿مَن نَّشَاءُ﴾ يعني من المؤمنين، و«المسرفون»: الكفارُ المفرطون في غيِّهم وكفرهم، وكل من ترك الإيمان مسرف.

ثم وبَّخهم تبارك وتعالى بقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، والكتابُ: القرآن، وقوله: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ يحتمل أن يريد: فيه الذِّكر الذي أنزله الله إليكم بأمر دينكم وآخرتكم ونجاتكم من عذابه، فأضاف الذِّكر إليهم من حيث هو في أمرهم، ويحتمل أن يريد: فيه شرفكم وذكركم آخر الدهر كما تُذكر عظام الأُمور، وفي هذا تحريض، ثمَّ أكَّد التحريض بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وحركهم بذلك إلى النَّظر.

ثم مثَّل لهم على جهة التوعُّد بمن سلف من الأمم المعذَّبة، و[كَمْ] للتكثير، وهي في موضع نصب بـ[قَصَمْنَا]، و[قَصَمْنَا] معناه: أهلكنا، وأصل القَصْم: الكسر في الأجرام، فإذا استعير للقوم والقرية ونحوه فهو ما يشبه الكسر، وهو إهلاكهم، فأوقع هذه الأمور على القرية والمراد أهلها، وهذا مَهْيَع كثير، ومنه: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ معناه: خلقنا وأثبتنا أمة أخرى غير المُهْلَكة.

---

(١) من الآية (٨٨) من سورة (طه).

(٢) من الآية (٦) من سورة (الأنبياء).

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ وصف عن قرية من القُرى المجملة أَولاً، قيل: كانت باليمن تسمَّى حَضُوراءِ بعث الله تعالى إِلى أَهلها رسولاً فقتلوه، فأَرسل إِليهم بختنصر صاحب بني إِسرائيل، فهزموا جيشه مرتين، فنهض في الثالثة إِليهم بنفسه، فلما هزمهم وأَعمل القتل فيهم ركضوا هاربين، ويحتمل أَلا يريد بالآية قرية بعينها، وأَنه واصف كلَّ قرية من القرى المعذبة، وأَن أَهل كل قرية كانوا إِذا أَحسُّوا العذاب من أَي نوع كان أَخذوا في الفِرار، و«أَحَسُّوا»: باشروا بالحواسِّ. و«الرَّكْضُ»: تحريك القدم على الصفة المعهودة، والفَارُّ والجاري بالجملة راكضٌ، إِمَّا دابة وإِمَّا الأَرض تشبيهاً بالدَّابة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾.

يحتمل قوله تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ إِلى آخر الآية أَن يكون من قول رجال بختنصر على الرواية المتقدمة، فالمعنى على هذا أَنهم خدعوهم واستهزءُوا بهم بأَن قالوا للهاربين منهم: لا تفرُّوا وارجعوا إِلى مواضعكم لعلَّكم تسأَلون صلحاً أَو جزية أَو أَمراً يتفق عليه، فلما انصرفوا أَمر بختنصر أَن ينادي فيهم: يا ثارات النبي المقتول، فقتلوا بالسَّيف عن آخرهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله مروي. ويحتمل أَن يكون ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ إِلى آخر الآية من كلام ملائكة العذاب على التأْويل الآخر، أَن الآيات وصف قصة كل قرية، وأَنه لم يُرد تعيين حَضُوراء ولا غيرها، فالمعنى على هذا أَن أَهل هذه القرى كانوا باغترارهم يرون أَنهم من الله بمكان، وأَنه لو جاءهم عذاب أَو أَمر لم ينزل بهم حتى يخاصموا أَو يسأَلوا عن وجه تكذيبهم لنبيِّهم، فيحتجون هم عند ذلك بِحُجَجٍ تنفعهم في ظنهم، فلمَّا نزل العذاب دون هذا الذي أَمَّلوه وركضوا فارِّين نادتهم الملائكة ـ على وجه الهُزْءِ بهم ـ: لا تركضوا وارجعوا لعلَّكم تُسأَلون كما كنتم تطمعون بسفه رأَيكم، ثم يكون قوله: ﴿حَصِيدًا﴾ أَي بالعذاب تُركوا كالحصيد. و«الإِتْراف»: التَّنعيم، و﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ معناه:

دعاؤُهم وكلامهم، أَي: لم ينطقوا بغير التأَسُّف، و«الْحَصِيدُ» يشبه بحصيد الزرع بالمنجل، أَي ردَّهم الهلاك كذلك، و﴿خَٰمِدِينَ﴾ أَي موتَى دون أَرْواحٍ، مشبَّهين بالنَّار إِذا طفيت.

ولمَّا فرغ وصف هذه الحال وعظ الله تعالى السَّامعين بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾، أَي: كما ظنَّ هؤلاء الذين نزل بهم ما نزل، وكما تظنُّون أَيُّها الكفرة الآن، ففي الآية وعيد بهذا الوجه، والمعنى: إِنما خلقنا هذا كله لِيُعتبر به ويُنْظر فيه ويُؤْمن بالله بِحَسَبِهِ.

قال بعض الناس: [تُسْأَلُونَ] معناه: تفهمون وتفقهون.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تفسير لا يعطيه اللَّفظ، وقالت فرقة: [تُسْأَلُونَ] معناه: شيئاً من أَموالكم وعَرَض دنياكم، على جهة الهُزْءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

ظاهر هذه الآية الرَّدُّ على من قال من الكفار أَمر مريم وما ضارعه من الكفر، تعالى الله عن قول المبطلين، و«اللَّهْوُ» في هذه الآية: المرأَةُ، ورُوي أَنها في بعض لغات العرب تقع على الزوجة، و[إِنْ] في قوله: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ يحتمل أَن تكون الشرطية، بمعنى: لَوْ كُنَّا فَاعِلِينَ، ولَسْنَا كذلك، وللمتكلِّمين هنا اعتراض وانفصال، ويحتمل أَن تكون نافية، بمعنى (ما)، وكل هذا قد قيل.

و«الْحَقُّ» عامٌّ في القرآن والرِّسالة والشَّرع وكل ما هو حق، و«الْبَاطِلُ» أيضاً عامٌّ كذلك، [يَدْمَغُهُ] معناه: يصيب دماغَه، وذلك مُهْلِك في البشر، فكذلك الحق يهلِك الباطل، و«ٱلْوَيْلُ»: الخِزْيُ والهَمُّ، وقيل: هو اسم وادٍ في جهنَّم فهو المراد في هذه الآية، وهذه مخاطبة للكفَّار الذين وصفوا الله تبارك وتعالى بما لا يجوز عليه وما لا يليق به، تعالى الله وتبارك وتقدَّس وتنزَّه عن قولهم، بل هو كما وصف نفسه، وفوق ما نعته به خلقه، لاَ رَبَّ غيره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ﴾ يحتمل أَن يكون ابتداءَ كلام، ويحتمل أَن يكون معادلاً لقوله: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾، كأَنه تقسيم الأَمر في نفسه، أَي: للمختلقين هذه المقالة الويلُ وله تعالى من في السموات والأَرض، واللاَّم في ﴿لَهُۥ﴾ لام المِلْك، و﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ يعم الملائكة والنَّبيِّين وغيرهم، ثم خصص من هذا العموم من أَراد تشريفه من الملائكة بقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾؛ لأَن [عِنْد] هنا ليست في المسافات، وإِنما هي تشريف في المنزلة، فوصفهم تعالى بأَنهم لا يستكبرون عن عبادة الله، ولا يسأَمونها ولا يكلُّون فيها. و«ٱلْحَسِيرُ» من الإِبل: المُعْيِي، ومنه قول الشاعر:

لَهُنَّ ٱلْوَجَى كَمْ كُنَّ عَوْناً عَلَى النَّوَى ... وَلاَ زَالَ مِنْهَا ضَالِعٌ وَحَسِيرُ[1].

و«حَسَرَ» و«اسْتَحْسَرَ» بمعنى واحد، وهذا موجود في كثير من الأفعال، وإِن كان في استفعل لطلب الشيء.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾، روي عن كعب الأَحبار رحمه الله تعالى أَنه قال: جعل الله لهم التَّسبيح كالنَّفَس وطَرْف العين للبشر، يقع منهم دائماً دون أَن تلحقهم فيه سآمة، وقال قتادة رحمه الله: ذُكر لنا أَن رسول الله ﷺ بينما هو جالسٌ مع أَصحابه إِذ قال: «تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيءٍ يا رسول الله. قال: «إِنِّي لأَسمع أَطيط السماء، وحقَّ لها أَن تئِط، ليس فيها موضع راحة إِلاَّ وفيها مَلَكٌ ساجدٌ أَو قائم»[2].

---

(١) الوَجَى: الحَفَى، يقال: وَجِيَ الماشي إِذا حَفِيَ، وهو أَن يرقَّ القدم، يقال للإنسان والحيوان، والنَّوَى: البُعْد والفراق، والضَّالع: القوي الشديد الأَضلاع، يصف الإبل بأنها أصيبت بالحفى من كثرة ما سافرت وأبعدت الناس، وبأن فيها القوي الذي لا يزال قادراً على السير، وفيها الضعيف الذي أصيب بالعجز عن السير.

(٢) الحديث في الطبري، عن قتادة، وأخرجه الترمذي، وابن ماجه في الزهد، كما أخرجه أحمد في مسنده عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، (٥/ ١٧٣).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

هذه [أَمْ] التي هي بمنزلة ألف الاستفهام، وهي هنا تقرير وتوقيف، ومذهب سيبويه أَنها بمنزلة (بل) مع ألف الاستفهام، كأَن في القول إِضراباً عن الأَول ووقفهم الله تعالى بقوله: هل اتَّخَذُوا آلِهَةً يُحْيُونَ ويخترعون؟ أَيْ: ليست آلهتهم كذلك، فهي غير آلهة؛ لأَن مِنْ صِفة الإِله القدرةُ على الإِحياءِ والإِماتة. وقرأَت فرقة: [يُنْشِرُونَ] بضم الياء، بمعنى: يُحْيُون غيرهم، وقرأَت فرقة أُخرى: [يَنْشُرُونَ][1] بمعنى يَحْيَون هم وتدوم حياتهم، يقال: نَشَر الميتُ وأَنشره الله.

ثمَّ بيَّن تبارك وتعالى أَمر التمانع بقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[2]، وذلك بأَنه كان يبغي بعضهم على بعض ويذهب بما خلق، واقتضاب القول في هذا أَنَّ إِلهَيْن لو فُرضا فرَّق بينهما الاختلاف في تحريك جِرْم وتَسْكِينه، فمحال أَن تتم الإِرادتان، ومحالٌ أَلاَّ تتما جميعاً، وإِذا تمَّت الواحدة كان صاحب الأُخرى عاجزاً، وهذا ليس بإِله، وجواز الاختلاف عليهما بمنزلة وقوعه منهما. ونظَرٌ آخر، وذلك أَن كل جزءٍ يخرج من العدم إِلى الوجود فمحال أَن تتعلَّق به قدرتان، فإِذا كانت قدرة أَحدهما توجد بَقِيَ الآخر فَضْلاً لا معنى له في ذلك الجزء، ثمَّ يتمادى النَّظر هكذا جُزْءاً جُزْءاً. ثم نزَّه تبارك وتعالى نفسه عما وصفه به أَهل الجهالة والكفر.

ثم وصف تعالى نفسه بأَنه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، وهذا وصف يحتمل معنَيَيْن: إِمَّا أَن

---

(١) أي بفتح الياءِ وضم الشين، فهي مضارع (نَشَرَ)، أَمَّا القراءةُ بضم الياء وكسر الشِّين فهي على ان الفعل مضارع (أَنشَر)، وهما لغتان، نَشَرَ وأَنشَر متعديان، ونَشَر يأتي لازماً، تقول: أَنْشَر اللهُ الموتى فَنَشِرُوا، أي: فَحَيُوا، قال ذلك صاحب البحر.

(٢) قال الكسائي وسيبويه: [إِلاَّ] هنا بمعنى (غير)، فلما جعلت (إِلاَّ) في موضع (غير) أُعرب الاسم الذي بعدها بإِعراب (غير)، كما قال الشاعر:

وكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخوه ... لَعَمْرُو أَبِيكَ إِلاَّ الفَرْقَدَانِ

وقال الفراءُ: [إِلاَّ] هنا في موضع (سِوَى)، والمعنى: لو كان فيهما آلهةٌ سوى الله لفسدتا.

يريد أنه بحق ملكه وسُلطانه لا يُعارض ولا يُسْأل عن شيءٍ يفعله؛ إِذْ له أَن يفعل في مُلْكِهِ ما يشاءُ، وإِمَّا أَن يريد أنه مُحْكَمُ الأَفعال وواضع كل شيءٍ في موضعه، فليس في أَفعاله سؤالٌ ولا اعتراض. وهؤلاء من البَشَر يُسْأَلون لهاتين العِلَّتين؛ لأَنهم ليسوا مالكين، ولأَنهم في أَفعالهم خَلَل كثير[١].

ثم قرَّرهم تعالى ثانية على اتخاذ الآلهة، وفي تكرار هذا التقرير مبالغة في نكيره وبيان فساده، وفي هذا التقرير زيادة على الأول، وهي قوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾، فكأَنه قَرَّرهم هنا على قصد الكفر بالله عزَّ وجلَّ، ثم دعاهم إِلى الحُجَّة والإِتيان بالبرهان.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ يحتمل أَن يريد بـ[هَذَا] جميع الكتب المنزلة قديمها وحديثها، أَي: ليس فيها برهان على اتخاذ الآلهة من دون الله، بل فيها ضد ذلك، ويحتمل أَن يريد بقوله: [هَذَا] القرآن، والمعنى: فيه ذِكْرُ الأَولين وذكر الآخرين، فذكر الآخرين بالدعوة وبيان الشَّرع لهم وردّهم على طريق النجاة، وذكر الأولين بقصِّ أَخبارهم وذكر الغيوب في أُمورهم. ومعنى الكلام ـ على هذا التأْويل ـ عرض القرآن في معرض البرهان، أَي: هاتوا برهانكم فهذا برهاني أَنا ظاهرٌ في ذكر من مَعي وذكر مَن قَبْلي. وقرأَت فرقة: [هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي] بالإِضافة فيهما، وقرأَت فرقة: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ بالإِضافة [وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي] بتنوين [ذِكْرٌ] الثاني وكسر الميم في قوله: ﴿مِّن قَبْلِى﴾، وقرأَ يحيى بن سعيد[٢]، وابن مصرف بالتنوين في [ذِكْر] من المَوْضِعَيْن وكسر الميم في [مِنْ] في المَوْضِعين، وضَعَّف أَبو حاتم هذه القراءة، كسر الميم في الأَول، ولم يَرَ لها وَجْهاً[٣].

---

(١) رُوي أن رجلاً قال للإمام علي رضي الله عنه: أيحبُّ ربنا أن يُعصى؟ قال: أفيُعصى ربنا قهراً؟ قال: أرأيت إن منعني الهُدى ومنحني الرَّدَى أَحْسَنَ إِليَّ أَمْ أَسَاءَ؟ قال: إن منعك حقك فقد أساء، وإن منعك فضلَه فهو فضلُه يؤتيه من يشاء. ثم تلا الآية: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾.

(٢) في كتب التفسير والقراءات: «يَحْيَى بن يَعْمَر»، وهو غير يحيى بن سعيد الأنصاري، ولعلَّ الخطأ من النساخ.

(٣) قال: لأن (مَنْ) دخلت على (مَعْ)، وقال أبو الفتح: «هذا أحد ما يدل على أن (مع) اسم، وهو دخول (مِن) عليها، حكى صاحب الكتاب، وأبو زيد ذلك عنهم: جئتُ مِنْ مَعِهِمْ، أَي: مِن عندهم، فكأنه قال: هذا ذِكْرٌ مِن عندي ومِنْ قَبْلي، أي: جئتُ انا به كما جاءَ به الأنبياءُ من قَبْلي، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾».

ثم حكم عليهم تعالى بأن أكثرهم لا يعلمون الحقَّ لإعراضهم عنه، وليس المعنى: فهم مُعرِضون لأنهم لا يعلمون، بل المعنى: فهم معرضون ولذلك لا يعلمون الحقَّ، وقرأ الحسن، وابن محيصن: [ٱلْحَقُّ] بالرَّفع على معنى: هذا القول هو الحقُّ، والوقف في هذه القراءَة على ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

لمَّا أخبرهم تبارك وتعالى أنهم لا يعلمون الحق لإعراضهم أَتبع ذلك بإعلامه أنه ما أَرسل رسولاً قَطُّ إِلاَّ أَوْحَى إِليه أَن الله تعالى فردٌ صمدٌ، وهذه عقيدة لم تختلف فيها النُّبوَّات، وإِنما اختلفت في الأَحكام. وقرأ حمزة، والكسائي: [نُوحِي] بنون مضمومة، وقرأ الباقون: [يُوحَى] بياءٍ مضمومة، واختلف عن عاصم[2].

ثمَّ عدَّد الله تعالى بعد ذلك نوعاً آخر من كفرهم، وذلك أَنهم مع اتخاذهم آلهةً كانوا يُقرُّون بأَن الله تعالى هو الخالق الرَّازق إِلاَّ أَنهم قال بعضهم: اتَّخَذَ الملائكة بنات، وقال نحو هذه المقالة النصارى في عيسى بن مريم، واليهود في عُزَير، فجاءَت هذه الآية رادَّة على جميعهم مُنبِّهة عليهم. ثم نزَّه تعالى نفسه عن مقالة الكفرة، وأَضرب عن مقالهم، ونَصَّ ما هو الأَمر في نفسه بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، وهذه عبارةٌ تشمل الملائكة وعيسى وعُزَيراً.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ عبارة عن حُسْن طاعتهم وعبادتهم ومراعاتهم لامتثال الأمر. وقوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أَي: ما تقدم من أَفعالهم وأَعمالهم والحوادث التي لها إِليهم تسبب، وما تأَخَّر، ثم أَخبر أَنهم لا يشفعون إِلاَّ لمن ارتضى الله أَن يشفع لهم، قال بعض المفسرين: لأَهل لا إله إلا الله. و«المُشْفِقُ»: المُبالغ في الخوف المحترقُ النفس من الفزع على أَمْرٍ مَّا.

---

(١) ويكون قوله سبحانه ﴿ٱلْحَقَّ﴾ مستأنفاً، وتقدير الكلام: «هذا الحقُّ»، فهو خبر مبتدأ محذوف، ويوقف أيضاً على ﴿ٱلْحَقَّ﴾ ثم يستأنف الكلام فيقال: ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

(٢) فروى حفص عنه القراءة بالنون، وروى أبو بكر عنه القراءة بالياء.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

المعنى: من يَقُل منهم كذا إن لو قاله، وليس منهم من قال هذا، وقال بعض المفسرين: المراد بقوله: ﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ ﴾ الآية... إبليسُ(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف؛ لأن إبليس لم يُرْوَ قطُّ أنَّه ادَّعى رُبوبيَّة.

وقرأ الجمهور: [نَجْزِيهِ] بفتح النون، وقرأ أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد(٢). [نُجْزِيْهِ] بضم النون والهاءِ، ووَجْهُها أن المعنى: نجعلها تكتفي به، من قولك: أَجزأَني الشيءُ، ثم خففت الهمزة ياءً(٣). وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي كجزائنا هذا القائل جزاؤنا الظالمين.

ثم وَقَفهم تعالى على عِبْرَة دالَّة على وحدانية الله جلَّت قدرته. و«الرَّتْقُ»: الملتصق بعضه ببعض الذي لا صَدْع فيه ولا فتح، ومنه: «امرأةٌ رَتْقاء»(٤). واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾، فقالت فرقة: كانت السماءُ ملتصقة بالأَرض ففتقهما الله بالهواء، وقالت فرقة: كانت السماءُ ملتصقة بعضها ببعض والأَرض كذلك ففتقهما الله سبعاً سَبْعاً.

---

(١) القائل بأن المراد بالآية إبليس هو قتادة والضحاك، على اعتبار أنه ادَّعى الشركة.

(٢) في بعض النسخ: «عبد الله بن سعيد»، وهو خطأ، والمراد عبد الله بن يزيد المكي، أبو عبد الرحمن المقرىء أصله من البصرة أو الأهواز، قال عنه في التقريب: «ثقة فاضل، أقرأ القرآن نيفاً وسبعين سنة، من التاسعة، وهو من كبار شيوخ البخاري، مات سنة ثلاث عشرة» يعني ومائتين.

(٣) قال ابن مجاهد عن هذه القراءة: لا أدري ما ضم النون، لا يقال إلاَّ: جَزَيْتُ، كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ﴾ وقال ابن جني عنها: «هذا لعمري غريب عن الاستعمال، إلاَّ أن له وجهاً أذكره»، وهو الذي لخصه هنا ابن عطية رحمه الله.

(٤) جاء في اللسان (رتق): «وهي رتقاءُ بيِّنه الرَّتَق: التصق ختانُها فلم تُنَل لارتِتَاق ذلك المواضع منها، فهي لا يستطاع جماعها».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى هذين القولين فالرُّؤْيَة المُوقَف عليها رؤْية القلب.

وقالت فرقة: السماءُ قبل المطر رَتْق، والأرض قبل النبات رَتْق، ففتقهما الله تعالى بالمطر والنبات، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾[1]، وهذا قولٌ حسن يجمع العِبْرة وتَعْدِيد النِّعمة والحُجَّة بمحسوسٍ بيِّن، ويناسب قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾، أَي: من الماء الذي أَوجده الفتق، فيظهر معنى الآية ويتوجَّه الاعتبار. وقالت فرقة: السماءُ والأَرض رتق بالظلمة ففتقهما الله تعالى بالضوء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والرُّؤْية على هذين القولين رؤْية العين، والأَرض هنا اسمٌ للجنس، فهو جمع.

وقرأَ الجمهور: [رَتْقاً] بسكون التاءِ، و«الرَّتْقُ»: مصدرٌ وُصف به كالزُّوْر والعَدْل. وقرأَ الحسن، والشَّعبي، وأَبو حيوة: [كَانَتَا رَتَقاً] بفتح التاء، وهو اسم المرتوق كالنَّفْض والنَّفَض والخَبْط والخَبَط[2]، وقال: [كَانَتَا] من حيث هما نوعان، ونحوه قول عمرو بن شُيَيْم[3]:

أَلَـمْ يَحْـزُنْـكَ أَنَّ حِبَـالَ قَيْـسٍ ... وَتَغْلِـبِ قَـدْ تَبَـايَنَتَـا ٱنْقِطَـاعـاً[4]

---

(١) الآيتان (١١ـ ١٢) من سورة (الطارق).

(٢) قال ابن جنِّي في المُحْتَسِب: «قد كثر عنهم مجيءُ المصدر على فَعْل ساكن العين، واسم المفعول منه على فَعَل مفتوحها، وذلك قولهم: النَّفْض للمصدر والنَّفَض للمنفوض، والخَبْط المصدر والخَبَط الشيءُ المخبوط، والطَّرْد المصدر والطَّرَد المطرود، وإن كان يستعمل مصدراً نحو الحَلْب والحَلَب، فقراءة الجماعة: ﴿كَانَتَا رَتۡقٗا﴾ كأنه مما وُضع من المصادر موضع اسم المفعول، كالخَلْق بمعنى المخلوق، وأما [رَتَقاً] بفتح التاءِ فهو المرتوق، أي: كانتا شيئاً واحداً مرتوقاً».

(٣) هكذا في الأصول، وهو خطأٌ من النساخ، فالاسم الحقيقي للشاعر هو عُمَيْر بن شُيَيم، من بني تغلب، وهو المعروف باسم القُطامي ـ بضم القاف وفتحها ـ، راجع ترجمته في الأغاني، وخزانة الأَدب، والاشتقاق، والمؤتلف، والجُمحي، والمرزباني.

(٤) هذا البيت من قصيدة للقطامي، ومطلعها: «قِفِي قبْلَ التَّفرق يا ضباعاً»، وقد قالها يمدح زُفَر بن الحارث الكلابي الذي أسره في حرب كانت بين قيس عيلان وتغلب، وأرادت قيس قتل القطامي، لكن زُفر حال بينهم وبينه، ومَنْ عليه، ووهب له مائة ناقة، وردَّه إلى تغلب مكرماً، فقال:

أَأَكْفُـــرُ بَعْـــدَ رَدِّ الْمَـــوْتِ عَنِّـــي ... وَبَعْـدَ عَطَـائِـكَ الْمَـائَـةَ الـرِّتَـاعَـا؟ =

وقوله: ﴿كَانَتَا﴾ في القولين بمنزلة قولك: «كَانَ زيدٌ حَيّاً»، أَي: ثم لم يكن، وفي القولين الآخرين بمنزلة قولك: «كان زيد عالماً»، أَي: وهو كذلك. وقرأ ابن كثير وحده: [أَلَمْ يَرَ] بإسقاط الواو.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ﴾ بيِّنٌ أنه ليس على عمومه، فإن الملائكة والجن قد خرجوا من ذلك، ولكن الوجه أن يُحمل على أعم ما يمكن، فالحيوانُ أَجمع والنَّباتُ ـ على أن الحياة فيه مستعارة ـ داخلٌ في هذا. وقالت فرقة: المراد بالماء المنيُّ الذي في جميع الحيوان. ثم وقفهم على ترك الإيمان توبيخاً وتقريعاً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

الرَّواسي جمع راسية، أَي ثابتة، يقال: رسا يرسو إذا ثبت واستقر، ولا يستعمل إلاَّ في الأَجرام الكبار كالجبال والسَّفينة ونحوها[1]. ويُروى أَن الأَرض كانت تكفأُ بأَهلها حتى ثقلها الله بالجبال فاستقرَّت. و«المَيَد»: التحرُّك، و«الْفِجَاجُ»: الطرق المتَّسعة في الجبال وغيرها و[سُبُلاً]: جمع سبيل، والضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ يحتمل أَن يعود على الرَّواسي، ويحتمل أَن يعود على الأَرض، وهو أَحسن. و﴿يَهْتَدُونَ﴾ معناه: في مسالكهم وتصرُّفهم.

= والمراد بالجبال في البيت ما بين قيس وتغلب من علاقات وعهود، وتباينت: تفرقت واختلفت، أَي: انقطعت الصِّلات بينهما، والشاهد أن الشاعر قال: تباينَتا بلفظ التثنية، مع أن (حبال) جمع، فكان الظاهر أن يقول: تبايَنَت انقطاعاً، وأن يراعي الجمع في الحبال، ولكنه راعى أنهما نوعان، حبال لقيس وحبال لتغلب. ومثل هذا البيت قول الأَسود بن يَعْفُر:

إِنَّ المَنِيَّـةَ والحُتُـوفَ كـلاهُمـا ... تُـوفـي المَخَـارِمَ يَـرقُبَـان سَـوَادِي

فقد قال: يرقبان، ولو جرى على ما يقتضيه الظاهر لقال: ترقُب سوادي، لأن المنيّة والحتوف عدة أشياء.

(١) في بعض النسخ: ونحوه.

و«السَّقْفُ»: ما عَلاَ، والْحِفْظُ هنا عامٌ في الْحِفْظ من الشياطين ومن الوهى والسُّقوط وغير ذلك من الآفات.

و«آيَاتُهَا»: كواكبُها وأَمطارها والرَّعد والبرق والصَّواعق وغير ذلك مما يشبهه. وقرأَت فرقة: ﴿عَنْ ءَايَتِهَا﴾ بالإفراد الذي يراد به الجنس.

و«ٱلْفَلَكُ»: الجِسْم الدائر دورة اليوم واللَّيلة، فالكلُّ في ذلك سابح متصرف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعن بعض المفسرين إلى الكلام فيما هو الفَلَك[1]، فقال بعضهم: كحديدة الرحى، وقال بعضهم: كالطَّاحونة، وغير هذا مما لا ينبغي التَّسَوُّر عليه[2]، غير أَنَّا نعرف أَن الفَلَك جسم مستدير، و﴿يَسْبَحُونَ﴾ معناه: يتصرَّفون، وقالت فرقة: الفَلَك موجٌ مكفوف، ورأَوْا قوله: [يَسْبَحُونَ] من السِّباحة وهي العوم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قيل: إِن سبب هذه الآية أَن بعض المسلمين قال: إِنَّ محمداً لن يموت وإِنما هو مخلَّد، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأَنكره، ونزلت هذه الآية. والمعنى: لم نُخلِّد أَحداً، ولا أَنت نخلِّدك، وينبغي أَلاَّ يَنتَقِمَ أَحدٌ من المشركين عليك في هذا أَفَهُمْ مُخَلَّدون إِنْ مت أَنت فيصح لهم انتقام[3]؟

وقيل: إِن سبب الآية أَن كفار مكة طعنوا على النبي ﷺ بأَنه بشرٌ، وأَنه يأْكُل الطعام

---

(١) هكذا في جميع الأصول، ولعلَّ بعض الكلام قد سقط من النساخ.

(٢) هكذا في جميع الأصول، ولعلَّه يريد: مما ينبغي الهجوم عليه، لأن التَّسَوُّر على الشيء فيه هجوم عليه، يقال: تَسَوَّرتُ الحائط: هجمت عليه ـ راجع اللسان.

(٣) في اللسان (نقم): (انتَقَمَ وَنَقِمَ الشيءَ ونَقَمَه: أَنكره، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾، فالمعنى المراد من عبارة المؤلف هنا: ينبغي أَلاَّ يُنكر أَحد من المشركين عليك، أَفَهُم مخلدون ليصح لهم الإنكار عليك؟ وفي هذا المعنى يقول الإمام الشافعي:

تَمَنَّى رِجالٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أَمُتْ ... فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فيها بِأَوْحَدِ

ويموت، فكيف يصح إرساله؟ فنزلت الآية رادَّة عليهم. وألف الاستفهام داخلةٌ في المعنى على جواب الشرط، وقُدِّمت في أول الجملة لأن الاستفهام له صدر الكلام، والتقدير: أفَهُمُ الخالدون إنْ مِتَّ؟ والفاءُ في قوله تعالى: ﴿أفإن﴾ عاطفة جملة على جملة، وقرأت فرقة: [مُتَّ] بضم الميم، وقرأت فرقة: [مِتَّ] بكسرها.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ عموم يُراد به الخصوص، والمراد كلُّ نفس مخلوقة. و«الذَّوْقُ» هاهنا مستعار، و[نَبْلُوكُمْ] معناه: نختبركم، وقدم الشَّر لأن الابتلاءَ به أكثر، ولأن العرب من عادتها أن تقدم الأقلَّ والأرْدَأ، فمنه قوله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾[2]، فبدأ بتقسيم أُمَّة محمد ﷺ بالظُّلم. وقال الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنه جعل الخير والشَّر هاهنا عامّاً في الغنى والفقر والصحة والمرض والطاعة والمعصية والهدى والضلالة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر أن المراد من الخير والشَّر هنا كلُّ ما يصح أن يكون فتنةً وابتلاءً، وذلك خير المال وشرُّه، وخير البَدَن وشرُّه، وخير الدنيا في الحياة وشرِّها، وأما الهدى والضلال فغير داخل في هذا، ولا الطَّاعة والمعصية؛ لأن من هُدِيَ فليس نفْسُ هُداه اختباراً، بل قد تَبَيَّن خيره، فعلى هذا ففي الخير والشَّرِّ ما ليس فيه اختبارٌ، كما يوجد أيضاً اختبار بالأوامر والنواهي وليس بداخل في هذه الآية.

و[فِتْنَةً] معناه: امتحاناً وكشفاً[3]. ثم أخبر عزَّ وجلَّ عن الرَّجعة إليه والقيام من القبور، وفي قوله سبحانه: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ وعيدٌ. وقرأت فرقة: [تُرْجَعُونَ] بضم التاءِ، وقرأت فرقة: [تَرْجِعُونَ] بفتحها، وقرأت فرقة: [يُرْجَعُونَ] بالياءِ مضمومة، على الخروج من الخطاب إلى الغيبة.

---

(١) من الآية (٤٩) من سورة (الكهف).
(٢) من الآية (٣٢) من سورة (فاطر).
(٣) وهو منصوب على أنه مفعول به، أو مصدر في موضع الحال، أو مصدر من معنى [نَبْلُوكم].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

رُوي أَن أَبا سفيان وأَبا جهل بن هشام رأَيا رسول الله ﷺ في المسجد فاستهزءا به فنزلت الآية[(١)] بسببها، وظاهر الآية أَن كفار قريش وعظماءهم يعمهم هذا المعنى من أَنهم ينكرون أَخذ رسول الله ﷺ في أَمر آلهتهم، وذكره لهم بفساد. و[إِنْ] بمعنى (ما)، وفي الكلام حذف تقديره: يقولون: أَهذا الذي؟ وقوله: ﴿يَذْكُرُ﴾ لفظ يعمُّ المدح والذم لكن قرينة المقال أَبداً تدل على المراد من الذِّكر، وتَمَّ ما حكى عنهم في قوله: ﴿ءَالِهَتَكُمْ﴾.

ثم ردَّ عليهم بأَن قرن بإِنكارهم ذِكر الأَصنام كُفْرَهم بذكر الله، أَي: فهم أَحق بالملام، وهم المخطئون. وقوله تعالى: ﴿بِذِكْرِ﴾ أَي: بما يجب أَن يُذكر به، و«لا إِله إِلا الله» منه. وقوله سبحانه: ﴿بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، روي أَن الآية نزلت حين أَنكروا هذه اللَّفظة وقالوا: ما نعرف الرَّحمن إِلاَّ باليمامة، وظاهر الكلام أَن [ٱلرَّحْمَٰن] قُصد به العبارة عن الله تعالىٰ، كما لو قال: وهم بذكر الله، وهذا التأْويل أَغرق في ضلالهم وخطئهم.

وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ توطئة للرَّدِّ عليهم في استعجالهم العذاب، وطلبهم آية مقترحة، وهي مقرونة بعذاب مُجَهَّز إِن كفروا بعد ذلك. وَوَصَفَ تعالى الإِنسان الذي هو اسم الجنس بأَنه خُلق من عجل، وهذا على جهة المبالغة، كماتقول للرجل البَطَّال: أَنت من لعب ولَهو، وكما قال رسول الله ﷺ: «لَسْتُ من دَدٍ وَلاَ دَدٌ مِنِّي»[(٢)]. وهذا نحو قول الشاعر:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه، قال: مرَّ النبي ﷺ على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان: هذا نبي بني مناف، فغضب أبو سفيان فقال: ما تنكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي، فسمعها النبي ﷺ فرجع إلى أبي جهل فوقع به وخوفه، وقال: ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك، وقال لأبي سفيان: أما إنك لم تقل ما قلت إلاَّ حمية، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ الآية. «الدر المنثور».

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٧٨٥) والطبراني في الأوسط (٤١٣) عن أنس مرفوعاً وإسناده ضعيف. وذكر هذا الحديث ابن الأثير في النهاية بلفظ: «ما أنا مِن دَدٍ ولا الدَّدُ مِنِّي»، وكذلك ذكره ابن منظور في=

وَأَنَّا لَمِمَّا نَضْرِبُ الْكَبْشَ ضَرْبَةً   عَلَى رَأْسِهِ تُلْقِي اللِّسَانَ مِنَ الْفَمِ[١]

كأَنهم لمَّا كانوا أَهل ضرب للهام وملازمة للحرب قال: إِنهم من الضرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأْويل يتم به معنى الآية المقصود في أَن ذمت عَجَلتهم وقيل لهم على جهة الوعيد: إِن الآيات ستأْتي فلا تستعجلون، وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾: إِنَّه من المقلوب، كأَنه أَراد: خُلق العَجَل من الإِنسان، على معنى أَنه جعل طبيعة من طبائعه وجزءاً من أَخلاقه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأْويل ليس فيه مبالغة، وإِنما هو إِخبارٌ مجرد، وإِنما حمل قائليه عليه عَدَمُهم وجه التجوُّز والاستعارة في أَن يبقى الكلام على ترتيبه، ونظير هذا القلب الذي قالوه قولُ العرب: «إِذا طلعت الشِّعرى استوت العود على الحِرْباء»، وكما قالوا: «عرضت النَّاقة على الحوض»[٢]، كما قال الشاعر:

حَسَرْتُ كَفِّي عَنِ السِّرْبَالِ آخُذُهُ   فَرْداً يُجَرُّ عَلَى أَيْدِي ٱلْمُفَدِّينَا[٣]

= «اللسان» بهذا اللفظ، والدَّدُ: اللهو واللعب، وهي محذوفة اللام، وقد استعملت مُتَممة، فقيل: دَداً كنَدَىً، ودَدَنٌ بالنون، قال ابن الأثير: وتنكير الدَّدِ في الجملة الأولى يفيد الشياع والاستغراق، أي: ما أنا في شيءٍ من اللهو واللعب، وعرَّفه في الجملة الثانية لأنه صار معهوداً بالذكر، كأنه قال: ولا ذلك النوع مني، وقيل: إن اللام فيه لاستغراق الجنس، وفي الموضعين مضاف محذوف، والتقدير: ما أنا من أهل دَدٍ، ولا الدَّدُ من أشغالي.

(١) هذا البيت لأبي حَيَّةَ النُّمَيْري، وهو في الخزانة، وأمالي ابن الشجري، والكتاب، والهمع، وشرح شواهد المغني، والكَبْش: رئيس القوم يحميهم ويدافع عنهم، وقد سبق الفرزدق بقوله:

وَإِنَّا لَمِمَّا نَضْرِبُ الْكَبْشَ ضَرْبَةً   عَلَى رَأْسِهِ وَالْحَرْبُ قَدْ لاَحَ نَارُهَا

وقد وضح ابن عطية موضع استشهاده بالبيت، على أن النحويين يستشهدون به على أنَّ (ما) تأتي بعد (مِن) فتكونان معاً بمنزلة كلمة واحدة، مثل (رُبَّما)، وبهذا يصير المعنى: مِن أَمْرِنَا وَشَأْنِنا، وهذا هو الذي وضحه المؤلف.

(٢) هذا من المقلوب في كلام العرب، والأصل: «استوت الحرباءُ على العود»، و«عرضت الحوض على الناقة». والشِّعْرى: كوكب نَيِّرٌ يطلع عند شدة الحرِّ، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝٤٩﴾، وهما شِعْريان: الشِّعْرَى العَبُور، والشِّعْرَى الغُمَيْصَاءُ.

(٣) البيت لتميم بن مُقْبل، وهو من قصيدة له اختارها القرشي في «جمهرة أشعار العرب»، ومطلعها: =

وأَما المعنى في تأْويل من رأَى الكلام من المقلوب فكالمعنى الذي قدَّمناه، وقالت فرقة من المفسِّرين: قوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ إنما أَراد أَن آدم عليه السلام خلقه الله تعالى في آخر ساعة من يوم الجمعة فتعجَّل به قبل مغيب الشمس، وروى بعضهم أَن آدم عليه السلام قال: يا ربِّ أَكمل خلقي فإِنَّ الشمس على الغروب أَو قد غربت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ ضعيف، ومعناه لا يناسب معنى الآية. وقالت فرقة: العَجَلُ: الطِّينُ، والمعنى: خُلق آدم من طين، وأَنشد النقاش:

. . . . وَالنَّخْلُ يَنْبُتُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْعَجَلِ(1)

وهذا أَيضاً ضعيف مغايرٌ لمعنى الآية. وقالت فرقة: معنى ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ أَي بقوله تعالى: ﴿كُن﴾، فهو بحال عَجَلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا أَيضاً ضعيف، وفيه تخصيص ابن آدم بشيءٍ كل مخلوق يشاركه فيه، وليس في هذه الأَقوال ما يصح معناه ويلتئم مع الآية إِلاَّ القول الأَول.

وقرأَت فرقة: [خُلِقَ الإنسانُ] على بناءِ الفعل للمفعول، وقرأَت فرقة: [خَلَقَ الإنسانَ] على معنى: خَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ، فمعنى الآية بجملتها ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾، على معنى التعجُّب من تعجُّل هؤلاء المقصودين بالردِّ. ثم توعَّدهم بقوله: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾، أَي: سيأْتِي ما يَسُوؤُكُم إذا مُتُّم على كفركم، يريد يوم بدر وغيره، ثم فسَّر

= طَافَ الْخَيَالُ بِنَا رَكْباً يَمَانِياً وَدُونَ لَيْلَى عَوَادٍ لَوْ تُعَدِّينَا

والرواية في الجمهرة: (حَسَرتُ عَن كَفَّيَ السِّربَال)، والسِّربَالُ: القميصُ والدِّرع، والمُفَدُّون: الذي يقولون لي: فديناك من المكاره، أو نحن فداؤك، والشاهد أنه يريد أن يقول: حسرت السربال عن كفِّي لشجاعتي، فهو من المقلوب.

(1) هذا عجز بيت، استشهد به في اللسان (عجل) على أن العَجَل بمعنى الطين، قال: «وقيل: العَجَلُ هاهنا: الطِّينُ والحمأَةُ، وهو العَجَلَة أيضاً، قال الشاعر:

وَالنَّبْعُ فِي الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ مَنْبَتُهُ وَالنَّخْلُ يَنْبُتُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْعَجَلِ

قال الأزهري: وليس عندي في هذا حكاية عمَّن يُرجع إليه في علم اللغة». وفي البحر المحيط أن أبا عبيدة أنشد هذا البيت، وهو لبعض الحِمْيَرِيِّين، وأن العَجَل بلغة حِمْيَر هو الطين.

تعالى استعجالهم بقوله: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وكان استفهامهم على جهة الهُزْءِ والتكذيب، وقولهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يريدون محمداً ﷺ ومَنْ آمَنَ بِهِ؛ لأَن المؤمنين كانوا يتوعدونهم على لسان الشَّرع، وموضع [مَتَى] رفع عند البصريين، وقال بعض الكوفيين: موضعه نصب على الظَّرف، والعامل فعل مُقَدَّر تقديره: يكون أَو يجيءُ، والأَول أَصوب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾.

حُذف جواب [لَوْ] إِيجازاً لدلالة الكلام عليه، وأُبهم قدر العذاب لأَنه أَبلغ وأَهيب من النَّص عليه، وهذا محذوف نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[1]، وتقدير المحذوف في جواب هذه الآية: لَمَا استعجلوا، ونحوه. وقوله تعالى: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ يريد يومَ القيامة، وذكر الوجوه خاصة لشرفها من الإِنسان وأَنها موضع حواسِّه وهو أَحرص على الدِّفاع عنها، ثم ذكر الظُّهور لِيُبَيِّن عموم النار لجميع أَبدانهم.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ استدراك مُقَدَّر قبله نفيٌ تقديره: إِنَّ الآيات لا تأْتي بحسب اقتراحهم بل تأْتيهم بغتة، والضمير للسَّاعة التي تُصَيِّرهم إِلى العذاب، ويحتمل أَن يكون للنار، وقرأَت فرقة: [بَلْ يَأْتِيهِمْ] بالياءِ على أَن الضمير للوعد، [فَيَبْهَتُهُمْ] بالياءِ على أَن الضمير للوَعْد أَيضاً، و«الْبَغْتَةُ»: الفجأَة عن غير مقدِّمة، و[يَنْظُرُونَ] معناه: يُؤَخَّرُونَ.

ثم آنس الله تعالى محمداً ﷺ بما جرى على سائر الأَنبياء من استهزاءِ قومهم بهم وحلول العذاب بالمستهزئين، و[حَاقَ] معناه: نَزَل وحلَّ، وهي مستعملة في العذاب والمكاره. وقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟﴾ فيه محذوف تقديره: جزاءَ ما كانوا، ونحوه، ومع هذا التأْنيس الذي لمحمد ﷺ وعيدٌ للكفرة وضَرْبُ مَثَلٍ له بمن سلف من الأُمم.

(١) من الآية (٣١) من سورة (الرعد).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

المعنى: قل يا محمد لهؤلاء الكفرة المستهزئين بك وبما جئتَ به الكافرين بذِكر الرحمن الجاهلين به، قل لهم على جهة التقريع والتوبيخ: من يحفظهم؟ و«كَلأَ» معناه حَفِظَ، ومنه قول النبي ﷺ «اكْلأْ لَنَا الْفَجْرَ»[(١)]، وفي آخر الكلام تقدير محذوف، كأنه قال: ليس لهم مانع ولا كالِىءٌ، وعلى هذا المعنى[(٢)] تركبت [بَلْ] في قوله سبحانه: ﴿ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴾، ثم يقضي عليهم التقرير[(٣)] في أنه لا مانع لهم من الله بأَن كشف أَمر آلهتهم، والمعنى: يظنُّون أَن آلهتهم التي بهذه الصفة تمنعهم من دوننا، بل لا يمنعهم أَحد إلاَّ نحن، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴾ يحتمل تأْويلين: أحدهما: يُجَارونَ ويُمْنَعون، والآخر: ولاَ هُمْ مِنَّا يُصحبون بخير ولا بركة ونحو هذا، وفي الكلام تقدير محذوف، كأَنه قال: ليس ثَمَّ شيءٌ من هذا كله، بل ضلَّ هؤلاء لأَنَّا متَّعناهم ومتَّعنا آباءهم فنسوا عقاب الله وظنُّوا أَنَّ حالهم لا تبيد[(٤)]، والمعنى: طال العمر في رخاءٍ.

ثم وقفهم تعالى على مواضع العبرة في الأُمم وفي البشر بحسب الخلاف في الأَطراف، و«الرُّؤْيَة» في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَرَوۡنَ ﴾ رؤْية العين تتبعها رؤْية القلب، و[نَأْتِي] معناه: بالقدرة والبأس، و[ٱلۡأَرۡض] عامة في الجنس، وقوله سبحانه: ﴿ مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ ﴾ إمَّا أَن يريد: فيما يخرب من المعمور فذاك بعض الأَرض، وإمَّا أَن يريد موت البشر فهو تَنَقُّص للقرون، ويكون المراد حينئذ أَهل الأَرض، وقال قوم: النقص

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد، وأبو داود في الصلاة، والترمذي في تفسير سورة (طه)، وابن ماجه في الصلاة، وكذلك أخرجه مالك في موطئه في الصلاة. «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي». واللفظ في هذه الكتب: (اكْلأْ لنا الليل، أو الصبح).

(٢) في بعض النسخ: «وعلى هذا النفي» يريد النفي في المحذوف المقدر.

(٣) في بعض النسخ: «ثم يقضي عليهم العقوبة».

(٤) في بعض النسخ: «وظنوا أن حالهم لا تَبِين».

من الأَطراف موت العلماء، ثم وقفهم ـ على جهة التوبيخ ـ أَهُم يغلبون من غلب جميع أهل الأَرض وقهر الكلَّ بسلطانه وعظمته؟ أَي إنَّ ذلك محال بيِّنٌ، بل هم مغلوبون مقهورون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

المعنى: قل يا أَيها المُقْترحون المتشططون إنما أُنذركم بوحي يوحيه الله إِليَّ، وبدلالات على العبر التي نصبها الله تعالى لِيُنظر فيها، كنُقصان الأَرض من أَطرافها وغيره، ولم أُبعث بآية مُطَّردة ولا بما تقترحونه، ثم قال: [ولا يسمع] بمعنى: وأَنتم معرضون عمَّا أُنذر به، فهو غير نافع لكم، ومَثَّل أَمرهم بالصُّمِّ. وقرأَ جمهور القراءِ: [وَلاَ يَسْمَعُ] بالياءِ وإِسناد الفعل إِلى [ٱلصُّم]، وقرأَ ابن عامر وحده: [وَلاَ يُسْمِعُ] بضم الياءِ وكسر الميم ونصب [الصُّمَّ][1]، وقرأَت فرقة: ﴿وَلَا تُسْمِعُ﴾ بالتاء مضمومة وفتح الميم وبناءِ الفعل للمفعول، والفرقتان نصبتا [ٱلدُّعَاءَ][2]، وقرأَت فرقة: [وَلاَ يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَاءِ] بإضافة [ٱلصُّمُّ] إلى [ٱلدُّعَاءِ]، وهي قراءة ضعيفة وإِن كانت متوجهة[3].

ثم خاطب الله تعالى محمداً ﷺ متوعِّداً لهم بقوله: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾، والنَّفْحة: الخَطْرَة والمسَّةُ، كما تقول: نفح بيده إِذا مال بها هكذا ضارباً إِلى جهة، ومنه «نَفْحَة الطِّيب» كأَنه يخطر خطرات على الحاسَّة[4]، ومنه: نَفَح له من

---

(١) وهي قراءة ابن جبير عن أبي عمرو، وابن الصلت عن حفص، وهي أن الفاعل ضمير المخاطب وهو الرسول ﷺ. ذكر ذلك أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط».

(٢) وردت هذه القراءة في بعض النسخ، وسقطت في بعض النسخ.

(٣) قال ابن خالويه في كتابه «الحجة»: «الحجة لمن قرأ بالياءِ أنه أفردهم بالفعل فرفعهم بالحديث عنهم، والحجة لمن قرأ بالتاءِ أنه قصد النبي ﷺ بالفعل، ونصب ﴿ٱلصُّمَّ﴾ بتعدي الفعل إليهم، ودليله قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] لأن من لم يلتفت إلى وعظ الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يسمع عن الله ما يخاطبه به كان كالميت الذي لا يسمع ولا يجيب»، ولم أجد القراءة بالإضافة في القرطبي، ولا في الطبري، ولا في البحر المحيط، ولم يذكرها ابن جنِّي في «المحتسب» الذي جعله لبيان وجوه شواذ القراءات.

(٤) في اللسان: «نَفَحَ الطيبُ يَنْفَح نَفْحاً ونُفوحاً: أَرَّجَ وفاح، وقيل: النَّفْحة دُفعة الريح، طيبةً كانت أو خبيثة».

عطاياه إذا أخذ منها نصيباً(١)، ومنه: «نَفَحَ الفَرَسُ برجله» إذا ركض(٢)، والمعنى: ولئن مسَّ هؤلاء الكفرة صدمة عذاب في دنياهم لَيَنْدَمُنَّ وليُقِرُّنَّ بظلمهم(٣).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

لمَّا توعدهم بنفحة من عذاب الدنيا عقَّب ذلك بتوعُّد بوضع الموازين، وإنما جمعها وهي ميزان واحد لأن لكل أحد وزناً يخصه، ووحَّد [ٱلْقِسْطَ] وهو قد جاءَ بلفظ الموازين مجموعاً من حيث «القِسْط» مصدرٌ وصف به، كما تقول: «قومٌ عدْلٌ ورضَى». وقرأت فرقة: [ٱلْقِصْطَ] بالصاد. وقوله سبحانه: ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: لحساب يوم القيامة، أو لحكم يوم القيامة، فهو بتقدير حذف مضاف.

والجمهور على أن الميزان في يوم القيامة بعمود وكفَّتين توزن به الأعمال، ليبين للناس المحسوس المعروف عندهم، والخفة والثقل متعلِّقة بأجسام يقرنها الله تعالى يوم القيامة بالأعمال، فإمَّا أن تكون صحف الأعمال أو مثالات تُخلق أو ما شاءَ الله تبارك وتعالى.

وقرأَ نافع وحده: [مِثْقَالُ] بالرفع على أن تكون مستأنفة، وقرأَ جمهور الناس: [مِثْقَالَ] بالنصب على معنى: وإن كان الشيءُ أو العمل مثقال. وقرأَ الجمهور: [أَتَيْنَا] على معنى: جئنا، وقرأَ ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: [آتَيْنَا] على معنى: وَاتَيْنَا من المواتاة(٤)، ولا يقدر ولا يفسر ﴿ءَاتَيْنَآ﴾ بأعطينا لمَّا تعدَّت بحرف جرٍّ.

---

(١) في الحديث الشريف: «المكثرون هم المقلُّون إلاَّ من نفح فيه يمينه وشماله، أي ضرب يديه في العطاء»، وعلى هذا يقال: نَفَحه بشيءٍ أي أعطاه، ونفحه بالمال نفحاً: أعطاه.

(٢) وفي اللسان أيضاً: «ونفحت الدابة تنفح نَفْحاً: رمحت برجلها ورَمَت بحدِّ حافرها ودفعت، وقيل: النَّفح بالرجل الواحدة، والرَّمح بالرجلين معاً».

(٣) نقل الليث عن أبي الهيثم أنه قال في قوله الله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾، يقال: أصابتنا نفحة من الصَّبا أي روحةٌ وطيب لا غمَّ فيه، وأصابتنا نفحةٌ من سَمُوم، أي حرٌّ وغمٌّ وكرب.

(٤) فالمعنى: جازَيْنَا بها، يقال: آتَى يُؤَاتي مؤاتاة، بمعنى: جَازَى. وقال الزمخشري: هي مفاعلة من الإتيان بمعنى المجازاة والمكافأة؛ لأنهم أتوه بالأعمال وآتاهم بالجزاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويوهن هذه القراءَة أَن تبديل الواو المفتوحة بهمزةٍ ليس بمعروف، وإنما يعرف ذلك في المضمومة أَو المكسورة، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ تَوَعُّدٌ.

ثمَّ عقَّب سبحانه وتعالى بأَمر موسى عليه السلام.

و«ٱلْفُرْقَان» فيما قالت فرقة: التَّوراة، وهي «الضِّياءُ والذِّكْرُ»، وقرأَ ابن كثير، وحمزة: [ضِئَاءً] بهمزتين قبل الأَلف وبعدها، وقرأَ الباقون: [ضِيَاءً] بهمزة واحدة بعد الأَلف، وقرأَ ابن عباس: [ٱلْفُرْقَانَ ضِيَاءً] بغير واو، وهي قراءَة عكرمة والضحاك، وهذه القراءَة تؤيد قول من قال: المراد بذلك كله التوراة، وقالت فرقة: «الفرقان» هو ما رزقه الله من نصرٍ وظهور حُجَّةٍ وغير ذلك ممَّا فرَّق بين أَمره وبين أَمر فرعون لَعَنَه الله، و«الضِّيَاءُ» التوراة، و«الذِّكْرُ» بمعنى التَّذَكُّر. وقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ يحتمل ثلاثة تأويلات: أَحدها في غيبهم وخلواتهم وحيث لا يطَّلع عليهم أَحد، وهذا أَرجحها، والثاني أَنهم يخشون الله على أَن أَمره تعالى غائب عنهم، وإنما استدلوا بدلائل لا بمشاهدة، والثالث أَنهم يخشون الله ربهم بما أَعلمهم به مما غاب عنهم من أَمر آخرتهم ودنياهم، و«الإِشْفَاقُ»: أَشَدُّ الخشية، و«السَّاعة»: القيامة، وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَآ﴾ إشارة إِلى القرآن، و﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ إِمَّا أَن يكون بمعنى أَثبتناه، كما تقول: أَنزل الشيطان فلاناً بمكان كذا إِذا أَثبته، وإِمَّا أَن يتعلَّق النزول بالملك، ثم وقفهم تبارك وتعالى تقريراً وتوبيخاً، هل يصح لهم إِنكار بركته وما فيه من الدعاء إِلى الله تعالى وإِلى صالح العمل؟

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

الرُّشْد عام في هدايته إِلى رفض الأَصنام، وفي هدايته في أَمر الكوكب والشمس والقمر وغير ذلك من النُّبُوَّة فما دونها. قال بعضهم معناه: وُفِّق للخير صغيراً، وهذا

كلُّه متقارب. وقوله سبحانه: ﴿مِن قَبْلُ﴾ معناه: من قبل موسى وهارون عليهما السلام، فبهذه الإضافة هو قبل كما هي نسبة نوح عليه السلام منه. وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ مدح لإبراهيم عليه السلام، أي أنه يستحق ما أُهِّل له، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(١)، والعامل في [إِذْ] قوله: ﴿ءَاتَيۡنَآ﴾، و«ٱلتَّمَاثِيلُ»: الأصنام؛ لأنها كانت على صورة الإنسان من خشب، و«ٱلۡعُكُوفُ»: المُلازمة للشيء. وقوله: [فَطَرَهُنَّ] عبارة عنها كأنها تعقل، وهذه من حيث لها طاعة وانقياد، وقد وصفت في مواضع بما يوصف به من يعقل(٢).

قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ﴾ الآية. رُوي أنهم حضرهم عيدٌ لهم فعزم قوم منهم على حضور إبراهيم عليه السلام معهم طمعاً منهم أن يستحسن شيئاً من أخبارهم، فمشى معهم، فلما كان في الطريق عزم على التخلُّف عنهم، فقعد وقال لهم: إنِّي سقيم، فمرَّ به جمهورهم، ثم قال في خلوة من نفسه: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾، وسمعه قوم من ضعفتهم ممن كان يسير في آخر الناس. وقوله: ﴿بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ معناه: إلى عيدهم، ثم انصرف إبراهيم عليه السلام إلى بيت أصنامهم وحده فدخل ومعه قدوم، فوجد الأصنام قد وقفت، أكبرها في الأول ثم الذي يليه فالذي يليه، وقد جعلوا أطعماتهم في ذلك اليوم بين يدي الأصنام تبركاً بها لينصرفوا من ذلك العيد إلى أكله، فجعل عليه السلام يقطعها بذلك القدوم ويهشمها، حتى أفسد أشكالها كلها، حاشى الكبير فإنه تركه بحاله وعلَّق القدوم في يده وخرج عنها. و[جُذَاذاً] معناه قطعاً صغاراً، والجذ: القطع، وقرأ الجمهور: [جُذَاذاً] بضم الجيم، وقرأ الكسائي وحده بكسرها، وقرأ ابن عباس، وأبو نُهيك، أبو السّماك بفتحها، وهي لغات، والمعنى واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمۡ﴾ ونحوه معاملة للأصنام بحال من يعقل من حيث كانت تُعْبد وتُنَزَّل منزلة من يعقل، والضمير في ﴿إِلَيۡهِ﴾ أظهر ما فيه أنه عائد على إبراهيم عليه السلام، أي فعل هذا كله توخيّاً منه أن يعقب ذلك منهم رجعة إليه وإلى شرعه،

---

(١) من الآية (١٢٤) من سورة (الأنعام).

(٢) نقل أبو حيان كلام ابن عطية هنا عن قوله: [فَطَرَهُنَّ] ثم علَّق عليه بقوله: «وكأن ابن عطية تخيل أن (هُنَّ) من الضمائر التي تخص من يعقل من المؤنثات، وليس كذلك، بل هو لفظ مشترك بين من يعقل ومن لا يعقل من المؤنث المجموع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾، والضمير عائد على الأربعة الحرم».

ويحتمل أَن يعود الضمير إِلى الكسر المتروك، ولكن يضعف ذلك دخول الترجِّي في الكلام.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

المعنى: فانصرفوا من عيدهم فرأَوا ما حدث بآلهتهم فأكبروا ذلك، وحينئذ قالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا﴾ على جهة البحث والإنكار، و﴿قَالُوا۟﴾ الثانية الضمير فيها يعود للقوم الضعفة الذين سمعوا إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿تالله لأكيدن﴾، واختلف الناس في وجه رفع قوله: ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾ ـ فقالت فرقة: هو مرتفع بتقدير النداءِ، كأَنهم أَرادوا: الذي يقال له عندما يدعىٰ: يا إبراهيم، ـ وقالت فرقة: رفعه على إِضمار الابتداءِ، تقديره: هو إبراهيم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَول أَرجح. وقال الأُستاذ أَبو الحجاج الأَشبيلي الأَعلم: هو رفع على الإِهمال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لما رأَى وجوه الرَّفع كأَنها لا توضِّح المعنى الذي قصدوه ذهب إِلى رفعه بغير شيءٍ، كما قد يرفع التَّجرُّد والعُرُوُّ عن العوامل الابتداءَ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والوجه عندي أَنه مفعول لم يُسَمَّ فاعله، على أَن تجعل ﴿إبرَاهِيمَ﴾ غير دالٍّ على الشخص، بل تَجعل النُّطق به دالاً على بناءِ هذه اللفظة، وهذا كما تقول: «زَيْدٌ وزن فَعْل»، أَو «زيد ثلاثة أَحرف»، فلم تدل بوجه على الشخص بل دَللت بنطقها على نفس اللفظة، وعلى هذه الطريقة تقول: «قلت إبراهيم»، ويكون مفعولاً صحيحاً أَنزلته منزلة قول وكلام فلا يتعذَّر بعد ذلك أَن يبنى الفعل فيه للمفعول[1].

---

(١) هذا أيضاً هو اختيار الزمخشري، وقد ذكره القرطبي نقلاً عن ابن عطية، وذكره أيضاً صاحب البحر وعلَّق عليه بقوله: «وهو مُخْتَلَف في إجازته، فذهب الزجاج، والزمخشري، وابن خروف، وابن مالك=

وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ يريد: في محفل وبمحضر الجمهور، وقوله: ﴿يَشۡهَدُونَ﴾ يحتمل أَن يراد به الشهادة عليه، يريدون بفعله أَو بقوله: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾، ويحتمل أَن يراد به المشاهدة، أَي: يشاهدون عقوبته أَو غلبته المؤديَّة إِلى عقوبته، المعنى: فجاءَ إِبراهيم عليه السلام حين أُتي به فقالوا له: أَأَنت فعلت هذا بالآلهة؟ فقال لهم إِبراهيم عليه السلام: بل فعله كبيرهم هذا، على جهة الاحتجاج عليهم، أَي أَنه غار من أَن يُعبد هو ويُعْبد الصغار معه ففعل هذا بها لذلك. وقالت فرقة هي الأَكثر: إِن هذا الكلام قاله إِبراهيم عليه السلام لأَنها كذبة في ذات الله تؤدي إِلى خزي قوم كافرين. والحديث الصحيح يقتضي ذلك وهو قول النبي ﷺ: «لم يكذب إِبراهيم إِلاَّ ثلاث كذبات: قوله: «إِنِّي سقيم» وقوله: «بل فعله كبيرهم هذا»، وقوله للمليك: هي أُختي»[1]. ثم تطرَّق إِلى موضع خزيهم بقوله: ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾ على جهة التوقيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذهبت فرقة إِلى نفي الكذب عن هذه المقالات. وقالت فرقة: معنى قول النبي ﷺ: «لم يكذب إِبراهيم إِلاَّ ثلاث كذبات. . .» أَي لم يقل كلاماً ظاهره الكذب، أَو يشبه الكذب، وذهبت إِلى تخريج هذه المقالات، فخرَّجت هذه الآية على معنى أَنه أَراد تعليق فعل الكبير بنطق الآخرين، كأَنه قال: بل هو الفاعل إِن نطق هؤلاءِ، ولم يجزم الخبر على أَن الكبير فعل هذا، وفي الكلام تقديم ـ على هذا التأْويل ـ في قوله: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾. وذهب الفراءُ إِلى جهة أُخرى بأَن قال: قوله ﴿فَعَلَهُۥ﴾ ليس من الفعل،

= إِلى تجويز نصب القول للمفرد مما لا يكون مقتطعاً من جملة نحو قول الشاعر:

إِذا ذُقْتَ فَاهَا قُلْتَ طَعْمَ مُدَامَةٍ

ومما لا يكون مفرداً معناه معنى الجملة نحو قلت خطبةً، ولا مصدراً نحو قلت قولاً، ولا صفةً نحو قلت حقّاً، بل لمجرد اللفظ نحو قلت زيداً، ومن النحويين من منع ذلك وهو الصحيح؛ إِذ لا يُحفظ من لسانهم: قال فلان زيداً، ولا قال ضرب، ولا قال ليت، وإنما وقع القول في كلام العرب لحكاية الجُمَل» اهـ كلام أبي حيان في البحر المحيط (٦/ ٣٢٤).

(١) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وأخرجه أبو داود، والإمام أحمد في مسنده (٢/ ٤٠٣)، وفيه بقية توضح قصة إِبراهيم وزوجه والملِك الذي أرادها، فحماها الله منه.

وإنما هو: «فَلَعَلَّهُ» على جهة التَّوقُّع، حذف اللام، على قولهم: «عَلَّهُ» بمعنى «لَعَلَّهُ» ثمَّ خُفِّفَت اللام[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تكلُّف[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

المعنى: فظهر لهم ما قال إبراهيم عليه السلام من أن الأَصنام التي أَهَّلوها للعبادة ينبغي أَن تُسأَل وتُستَفسَر، فقالوا: إنكم أَنتم الظالمون في توقيف هذا الرجل على هذا الفعل وأَنتم معكم من تسأَلون، ثم ارتبكوا في ضلالهم ورأَوا بالفكرة وبديهة العقل أَن الأَصنام لا تنطق، فساقهم ذلك حين نطقوا عنه إلى موضع قيام الحجَّة عليهم. وقوله: ﴿نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ استعارة للذي يرتطم في غيِّه كأنه منكوس على رأْسه، فهي أَقبح هيئة للإنسان، وكذلك هذا هو في أَسوأَ حالات النظر، فقالوا لإبراهيم عليه السلام حين نكسوا في حيرتهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾، أَي: فما بالك تدعو إلى ذلك؟ فوجد إبراهيم عليه السلام عند هذه المقالة موضع الحجة فوقفهم موبِّخاً على عبادتهم تماثيل لا تنفع بذاتها ولا تضر، ثم حقَّر شأْنها وأَزْرى بها في قوله: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾.

---

(١) قال الفراءُ في «معاني القرآن»: «قال بعض الناس ـ يريد محمد بن السَّمَيْفَع ـ: بل فَعَلَّه كبيرهم مشددةً، يريد: فَلَعَلَّه كبيرهم». هذا هو نصُّ كلامه، ومنه يتضح أنه يوضح قراءة ابن السَّمَيْفَع وليس مذهباً له كما قال ابن عطية.

(٢) وقال الكسائي: «الوقف عند قوله»: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ﴾، أي فعَلَه مَن فعَله، ثم يبتدىء: ﴿كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقيل: إن المعنى: لِمَ يُنْكرون أن يكون الفاعل كبيرهم؟ وهذا إلزامٌ بلفظ الخبر، أي: من اعتقد عبادتها يلزمه أن يثبت لها فِعْلاً وعَملاً، ويكون المعنى: بل فَعَلَه كبيرهم هذا فيما يلزمكم.

وقرأ ابن كثير: [أُفَّ لكم] بالفتح[١]، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ: [أُفِّ لَكُمْ] بالكسر وترك التنوين نفيها، وقرأ نافع وحفص عن عاصم: [أُفٍّ لَكُمْ] بالكسر والتنوين. و«أُفّ» لفظة تقال عند المستقذرات من الأشياء فيُستعار ذلك للمكروه من المعاني كهذا وغيره.

فلمَّا غلبهم إبراهيم عليه السلام من جهة النظر والحجَّة نكسوا رؤوسهم وأخذتهم عزَّةٌ بإثم وانصرفوا إلى طريق الغشم والغلبة فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ﴾، ورُوي أن قائل هذه المقالة هو رجل من الأكراد من أعراب فارس، أي من باديتها، فخسف الله به الأرض فهو يتلجلج فيها إلى يوم القيامة. وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ تحريض، كما تقول: اعزم على كذا إن كنت عازماً.

ورُوي أنهم لما اجتمع رأيهم على تحريقه حبسه نمرود الملك، وأمر بجمع الحطب فجُمع في مدة أشهر، وكان المريض يجعل على نفسه نذراً إذا هو برىء أن يجمع كذا وكذا حزمة حتى اجتمع من الحطب ـ مما تبرَّع به الناس وممَّا جُلب للملك من أهل الرساتيق[٢] ـ كالجبل من الحطب، ثم أضرم ناراً، فلما أرادوا طرح إبراهيم عليه السلام فيه لم يقدروا على القرب منه، فجاءَهم إبليس في صورة شيخ فقال لهم: أنا أصنع لكم آلة يلقى بها في النار، فعلَّمهم صنعة المنجنيق، ثم أُخرج إبراهيم عليه السلام فشُدَّ برباط وَوُضع في كفة المنجنيق ورمي به فوضع في النار، وقد قيل للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فاحترق الحبل الذي رُبط به فقط، ورُوي أن جبريل عليه السلام جاءَه وهو في الهواءِ فقال له: أَلَكَ حاجةٌ؟ فيروى أنه قال: أمَّا إليك فلا، ويُروى أنه قال له: إنِّي خليل، وإنما أطلب حاجتي من خليلي لا من رسوله، فقال الله تعالى: يا إبراهيم قطعت الواسطة بيني وبينك لا قطعتها بيني وبين النار، يا نار كوني برداً

---

(١) أي وبدون تنوين كما وضحه الحافظ الدمشقي في كتابه: «النشر في القراءات العشر»، وقال: إنها أيضاً قراءة ابن عامر ويعقوب، وهذه القراءات وردت في قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾.

(٢) الرَّسَاتيق جمع رُسْتَاق، وهو الرُّزْتاق والرُّذاق والرَّزدَقُ، وهو الصَّفُّ، قال الجوهري: الرَّزدق السَّطر من النخل والصف من الناس، وهو معرَّب، وأصله بالفارسية رَسْتَه، قال ابن ميَّادة:

تَقُولُ خَودٌ ذَاتُ طَرفٍ بَرَّاق ... هَلاَّ اشْتَرَيْتَ حِنْطَةً بِالرُّسْتَاقِ

وقال ابن السِّكِّيت: رُسْدَاق ورُزداق، ولا تقل رُسْتاق.

وسلاماً، ورُوي أنه حين خُوطبت النار خمدت كلُّ نار في الأرض، ورُوي أن الغراب كان ينقل الحطب إلى نار إبراهيم عليه السلام، ورُوي أن الوزغة[1] كانت تنفخ عليه لتضرم، وكذلك البغل، ورُوي أن العَضْرَفُوط والخُطَّافُ[2] والضفدع كانوا ينقلون الماءَ لتطفأ النار، فألقى الله على هذه الوقاية وسلَّط على تلك الأُخرى النوائب والأيدي، وقال بعض العلماءِ فيما رُوي: إن الله تعالى لو لم يقل: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لهلك إبراهيم من برد النار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد أكثر الناس في قصص حرق إبراهيم عليه السلام، وذكروا تحديد مدَّة بقائه في النار وصورة بقائه فيها مِمَّا رأيت اختصاره لقلَّة صحته، والصحيح من ذلك أنه أُلقي في النار فجعلها الله تعالى عليه برداً وسلاماً فخرج منها سالماً، وكانت أعظم آية، ورُوي أنهم قالوا: إنها نارٌ مسحورة لا تحرق، فرموا فيها شيخاً منهم فاحترق، ورُوي أن إبراهيم عليه السلام كان له بسطة وطعام في تلك النار، كل ذلك من الجنة، وروي أن العيدان أينعت وأثمرت له هنالك ثمارها التي كانت أُصولها.

وقوله: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ معناه: وسلامة، وقال بعضهم: هي تحية من الله تعالى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وكان الوجه أن يكون مرفوعاً.

و«ٱلْكَيْدُ» هو ما أرادوا من حرقه، وكانوا في خسارة من كفرهم وغلبته لهم وحرق الشيخ الذي جرَّبوا به النار، ورُوي أن الملِك بنى بنياناً واطَّلع منه على النار فرأى إبراهيم عليه السلام ومعه ناسٌ فعجب وسأل: هل طُرح معه أحد؟ فقيل له: لا، فناداه فقال: من أُولئك؟ فقال: هم ملائكة ربِّي.

---

(١) الوزغة: سامٌّ أبرص (للذكر والأنثى)، أو الوزغة الأنثى، والذكر الوزغُ، والجمع وَزَغٌ وأَوْزَاغٌ. «المعجم الوسيط».

(٢) العَضْرَفُوط: دُوَيْبة بيضاءُ ناعمة، ويقال: هي ذكر العِظاء. (اللسان ـ عضرف)، والخطاف: العصفور الأسود، وهو الذي تدعوه العامة عصفور الجنة، وجمعه خطاطيف. (اللسان ـ خطف).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمرويُّ في هذا كثير غير صحيح.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

روي أَن إِبراهيم عليه السلام لما خرج من النار أَحضره النمرود وكلَّمه، ثم ختم الله عليه بالكفر فلَجَّ وقال لإِبراهيم في بعض قوله: يا إِبراهيم أَين جنود ربِّك الذي تزعم؟ فقال له: سيريك فعل أَضعف جنوده، فبعث الله تعالى على نمرود وأَصحابه سحابة من بعوض فأَكلتهم عن آخرهم ودوابهم حتى كانت العظام تلوح بيضاً، ودخلت منها بعوضة في رأْس نمرود فكان رأْسه يضرب بالعيدان وغيرها، ودام تعذيبه بها زمناً طويلاً وهلك منها، وخرج إِبراهيم عليه السلام وابن أَخيه لوط عليه السلام من تلك الأَرض مهاجرين، وهي كوثا من العراق، ومع إِبراهيم عليه السلام ابنة عمه سارة زوجه، وفي تلك السفرة لقي الجبَّار الذي رَامَ أَخذها منه.

واختلف الناس في الأَرض التي بورك فيها ونجَّى الله إِليها إِبراهيم ولوطاً عليهما السلام ـ فقالت فرقة: هي مكَّة، وذكروا قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾[1]، وقال الجمهور: هي أَرض الشَّام، وهي الأَرض التي بارك الله فيها، أَمَّا من جهة الآخرة فبالنُّبوَّة والإِيمان، وأَمَّا من جهة الدنيا فهي أَطيب بلاد الله أَرضاً، وأَعذبها ماءً، وأَكثرها ثمرة ونعمة، وهو الموضع المعروف بسكنى إِبراهيم وعَقِبِهِ، ورُوي أَنه ليس في الأَرض ماءٌ عذب إِلاَّ وأَصله وخروجه من تحت صخرة بيت المقدس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف. وهي أَرض المحشر، وفيها يجمع الناس، وفيها ينزل عيسى بن مريم عليه السلام، وبها يهلك المسيح الدَّجَّال، ورُوي عن النبي ﷺ أَنه قال يوماً في خطبة: «إِنه يكون بالشَّام جند، وبالعراق جند، وباليمن جند»، فقال رجل:

---

(١) من الآية (٩٦) من سورة (آل عمران).

يا رسول الله، خِرْ لي، فقال: «عليك بالشَّام فإن الله قد تكفَّل لي بالشَّام وأهله، ومن بقي فليلحق بأَمْنِهِ»[١]، وقال عمر رضي الله تعالى عنه لكعب الأحبار: أَلا تتحول إلى المدينة؟ فقال: يا أمير المؤمنين إني أجد في كتاب الله المنزَّل أن الشَّام كنز الله من أرضه، وبها كنزه من عباده، وروي أن إبراهيم ولوطاً عليهما السلام هاجرا من كوثا ومَرًّا بمصر، وليست بالطريق ولكنَّهم نكَّبوا[٢] خوف الاتباع حتى جاءُوا الشَّام، فنزل إبراهيم السَّبع من أرض فلسطين وهي بريَّة الشَّام، ونزل لوط بالمؤتفكة.

و«إسحق» هو ابن إبراهيم عليهما السلام، و«يعقوب» ولد إسحق عليهما السلام، و«النَّافلة»: العطيَّة، كما تقول: نَفَلَني الإمام كذا، ونافلة الطاعة كأنَّها عطيَّة من الله تعالى لعباده يُثيبهم عليها، وقالت فرقة: الموهوب إسحق، والنافلة يعقوب عليهما السلام، والأول أَبين، و﴿يَهْدُونَ﴾ معناه: يرشدون غيرهم، و﴿إِقَامَ﴾ مصدر، وفي هذا نظر[٣].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

التقدير: وآتينا لوطاً، فهو منصور بفعل مضمر يدل عليه الظاهر، و«الحكم» فصل القضاء بين الناس، و«الخبائث» إتيان الرجال وضراطهم في مجالسهم إلى غير ذلك من كفرهم. وقوله في نوح عليه السلام: ﴿مِن قَبْلُ﴾ بالإضافة إلى إبراهيم ولوط عليهما

(١) هذا الحديث أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره عن أبي قلابة، قال: «وَذُكِرَ لنا أن رسول الله ﷺ قال... الخ»، وفي آخره: «فَمَنْ أَبَى فَلْيَلْحَق بأَمْنِهِ وليَسْقِ بقَدَرِه». وهذا مرسل وفيه تصحيف صوابه: «فليلحق بيمنه وليسق بغدره» كما هو عند عبد الرزاق في مصنفه عن أبي قلابة ورواه أحمد ٥/ ٣٣ وأبو داود (٢٤٨٣) عن عبد الله بن حواله مرفوعاً بنحوه وصححه ابن حبان والحاكم والألباني.

(٢) نَكَّبُوا: عَدَلُوا وتَنَحَّوا عن الطريق الأصلي.

(٣) جاء في «البحر المحيط» (٦/ ٣٢٦): «وقال ابن عطية: والإقام مصدر، وفي هذا نظر. انتهى. وأيُّ نظر في هذا. وقد نصَّ سيبويه على أنه مصدر بمعنى الإقامة، وإن كان الأكثر «الإقامة» بالتَّاء، وهو المقيس في مصدر أفعل إذا اعتلت عينه، وحسَّن ذلك هنا أنه قابل (وإيتَاءَ) وهو بغير تاءٍ فتقع الموازنة بين قوله تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾، وقال الزجاج: حذفت الهاءُ من «إقامة» لأن الإضافة عوضٌ عنها انتهى، وهذا قول الفراء، زعم أن تاءَ التأنيث قد تحذف للإضافة، وهو مذهب مرجوح».

السلام، و﴿ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ هو الغرق وما نال قومه من الهلكة بدعائه عليهم الذي استجيب، وقوله سبحانه: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ﴾ لمَّا كان جل نُصرته النجاة وكانت غلبة قومه بغير يده بل بأَمر أَجنبي منه حسن أَن يقول: ﴿نصرناه من﴾، ولا تتمكَّن هنا «عَلَى» كما تتمكَّن في أَمر محمد ﷺ مع قومه[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذكر هؤلاء الأَنبياء عليهم السلام ضَرْبُ مثل لقصة محمد ﷺ مع قومه، ونجاةُ الأَنبياء وهلاك مكذِّبيهم ضمنها توعُّدٌ لكفار قريش.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

المعنى: واذكر داود وسليمان، هكذا قدره جماعة من المفسرين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل عندي ويقوى أَن يكون المعنى: «وَآتَيْنَا دَاود» عطفاً على قوله: ﴿وَنُوحًا﴾، وذلك عطف على قوله: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، والمعنى على هذا التأْويل مُتَّسق.

وسليمان هو ابن داود عليهما السلام من بني إِسرائيل، وكان[2] مَلِكاً عدلاً نبيّاً يحكم بين الناس فوقعت بين يديه هذه النَّازلة، وكان ابنه إِذ ذاك قد كبر، وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إِلى داود عليه السلام من باب آخر، فتخاصم إِلى داود عليه السلام رجل له زرع، وقيل: كَرْمٌ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

و«الْحَرْثُ» يقال فيهما، وهو في الزَّرع أَبعد عن الاستعارة، دخلت حَرْثَه غنم رجل

---

(١) كأنه قد تضمن معنى: «نجيناه» أو «عصمناه» فتعدى بمِن، وقال أبو عبيدة: «إن «مِنْ» بمعنى (على) أي: ونصرناه على القوم». ومعنى ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾: نصرناه من مكروه القوم، أي: عصمناه ومنعناه من شرِّهم وأذاهم، قال تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾.

(٢) أي داود عليه السلام.

آخر فأفسدته، فرأى داود عليه السلام أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث، فقالت فرقة: على أن يبقى كَرْمُه بيده، وقالت فرقة: بل دفع الغنم إلى صاحب الحَرْثِ والحَرْثَ إلى صاحب الغنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فيشبه على القول الواحد أنه رأى الغنم تقاوم الغلة التي أُفسدت، وعلى القول الثاني رآها تقاوم الحَرْث وغَلَّته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا يُظَنُّ بداود عليه السلام إلاَّ أن حكمه بنظر متوجه. فلما خرج الخصمان على سليمان عليه السلام تشكَّى صاحب الغنم، فجاءَ سليمان إلى داود فقال: يا نبي الله، إنَّما حكمت بكذا، وإني رأيت ما هو أرفق بالجميع، قال: وما هو؟ قال: أن يأْخذ صاحب الغنم الحرث فيقوم عليه ويصلحه حتى يعود كما كان، ويأْخذ صاحب الحرث الغنم في تلك المدة ينتفع بمرافقها من لبن وصوف ونسل وغير ذلك، فإذا كَمُل الحرث وعاد إلى حاله صرف كل واحد مالَ صاحبه، فرجعت الغنمُ إلى ربِّها والحَرْثُ إلى ربِّه، فقال داود عليه السلام: وُفِّقْتَ يا بُنَيَّ، وقضى بينهما بذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا شك أن سليمان عليه السلام رأى ما يتحمَّله صاحب الغنم من فقد مرافق غنمه تلك المدة، ومن مؤونة إصلاح الحرث، يُوازي ما فسد في الحرث، وفَضل حُكمُه حُكْمَ أبيه في أنه أحرز أن يبقى ملك كل واحد منهما على متاعه، وتبقى نفسه بذلك طيبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذهبت فرقة إلى أن هذه النَّازلة لم يكن الحُكْم فيها باجتهاد، وإنما حَكَم داود بوحي، وحَكَمَ سليمان بوحي نسخ الله به حُكْم داود، وجعلت فرقة ـ منها ابن فُورك ـ قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ أيْ فَقَّهناه القضاءَ الفاصل الناسخ الذي أراد الله تبارك وتعالى أن يستقر في النَّازلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتحتاج هذه الفرقة في هذه اللَّفظة إلى هذا التعب ويبقى لها المعنى قَلِقاً.

وقال جمهور الأُمَّة: إن حكمهما كان باجتهاد، وأَدخل العلماءُ هذه الآية في كتبهم على مسأَلة اجتهاد العَالِمَيْن، فينبغي أَن يُذكر هنا تلخيص مسأَلة الاجتهاد، واختلف أَهل السُّنَّة في العَالِمَيْن ـ فما زاد ـ يُفتيان من الفروع والأَحكام في المسأَلة فيختلفان ـ فقالت فرقة: الحق في مسائل الفروع في طرف واحد عند الله تعالى، وقد نصب على ذلك أَدلَّة وحمل المجتهدين على البحث عنها والنظر فيها، فمن صادف العين المطلوبة في المسأَلة فهو المصيب على الإِطلاق، وله أَجران، أَجر في الاجتهاد وأَجر في الإِصابة، ومن لم يصادفها فهو مصيب في اجتهاده مخطىءٌ في أَنْ لم يُصب العين، فله أَجر وهو غير معذور، وهذا هو الذي قال النبي ﷺ: «إِذا اجتهد العالِم فأَخطأَ فله أَجرٌ»(١)، وكذلك أَيضاً يدخل في قوله ﷺ: «إِذا اجتهد العالِم فأَخطأَ» العالِم يجتهد فيخالف نصّاً لم يَمُرَّ به، كقول سعيد بن المسيب في النكاح: إِنه العقد في مسأَلة التحليل للزوج المطلَّق ونحوه، وهذا يجمع بين قوله ﷺ: «إِذا اجتهد العالِم فأَخطأَ» وبين قوله: «كلُّ مجتهد مصيب» أَي أَخطأَ العين المطلوبة وأَصاب في اجتهاده، ورأَت هذه الفرقة أَن العالم المخطىء لا إِثم عليه في خطئه وإِن كان غير معذور. وقالت فرقة: الحق في طرف واحد ولم ينصب الله تعالى عليه دليلاً، بل وكل الأَمر إِلى نظر المجتهدين، فمن أَصابه أَصاب، ومن أَخطأَه فهو معذور ومأْجور، ولم نُتَعَبَّد بإِصابة العين بل تعبدنا بالاجتهاد فقط. وقال جمهور أَهل السُّنَّة ـ وهو المحفوظ عن مالك وأَصحابه ـ: الحق في مسائل الفروع في الطرفين، وكل مجتهد مصيب، والمطلوب إِنما هو الأَفضل في الظن، فكل مجتهد قد أَدَّاه نظره إِلى الأَفضل في نظره، والدليل على هذه المقالة أَن الصحابة فَمَن بعدهم قرَّر بعضهم خلاف بعض ولم ير أَحد منهم أَن يقع الاعتماد على قوله دون قول مخالفه، ومنه رد مالك رحمه الله للمنصور أَبي جعفر عن

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام، ومسلم وأبو داود في الأقضية، والترمذي في الأحكام، والنسائي وابن ماجه في القضاء، وأحمد في مسنده (٢/ ١٨٧، ٤/ ١٩٨، ٢٠٤، ٢٠٥)، ولفظه فيه أن خصمين اختصما إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه فقضى بينهما، فسخط المقضى عليه، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «إذا قضى القاضي فاجتهد فأصاب فله عشرة أُجور، وإذا اجتهد فأخطأ كان له أجر أو أجران»، فالحديث على هذا في القضاء لا في الفُتيا، وفي رواية: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر».

حمل الناس على الموطإ إلى كثير من هذا المعنى، وإذا قال العالِم في أمرٍ مَّا: حلالٌ، فذلك هو الحق فيما يختصُّ بذلك العالِم عند الله تعالى وبكلِّ من أَخذ بقوله، وإذا قال آخر: حرام ـ وكلٌّ ذلك باجتهاد، فذلك أيضاً حقٌّ عند الله تعالى فما يختص بذلك العالِم وبكلٍّ من أَخذ بقوله، فأَمَّا من قال إنَّ الحقَّ في طرف فرأَى مسأَلة داود وسليمان عليهما السلام مطّردة على قوله، وأَن سليمان عليه السلام صادف العين المطلوبة وهي التي فهم، ومن رأَى أَنَّ الحقَّ في الطرفين رأَى أَن سليمان عليه السلام فهم القضيَّةَ المُثْلى والتي هي أَرجح، لا أَن الأُولى خطأ، وعلى هذا يحملون قول النبي ﷺ: «إذا اجتهد العالِم فأَخطأَ» أَي: أَخطأَ الأَفضل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكثيراً ما يكون بين الأَقوال في هذه المسائل قليل تبايُن إلاَّ أَن ذلك الشُّفوف يشرف القول وكثيراً ما يتبيَّن الفضل بين القولين بأَدنى نظر، ومسائل الفروع تخالف مسائل الأُصول في هذا، ومسأَلة المجتهدين في نفسها مسأَلة أَصل، والفرق بين مسائل الفروع ومسائل الأُصول أن مسائل الأصول الكلام فيها إنما هو في وجود شيءٍ مَّا، كيف هو؟ كقولنا: «يُرى الله يوم القيامة» فقالت المعتزلة: «لا يُرى»، وكقولنا: «الله واحد»، وقالت النصارى: «ثلاثة»، وهكذا هَلْ للمسائل عينٌ مطلوبة؟ ومسائلُ الفروع إنما الكلام فيها على شي متقرر الوجود، كيف حُكمه من تحليل أَو تحريم ونحو هذا؟ والأَحكام خارجة عن ذاته ووجوده، وإنما هي بمقاييس واستدلالات، وتعتبر مسائل الفروع بأَنها كل ما يمكن أَن يَنْسَخ بعضُه بعضاً، ومسائل الأُصول ما لو تقرر الوجه الواحد لم يصح أَن يطرأَ عليه الآخر ناسخاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومسأَلة الاجتهاد طويلة ومتشعبة، إلاَّ أَن هذه النبذة تليق بالآية وتقتضيها حرصاً على الإِيجاز.

ويتعلَّق بالآية فصلٌ آخر لا بد من ذكره وهورجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاد إلى اجتهاد آخر أَرجح من الأَول، وأَن داود عليه السلام فعل ذلك في هذه النازلة، واختلف فقهاءُ المذهب المالكي في القاضي يحكم في قضية، ثم يرى بعد ذلك أَن غير ما حكم به أَصوب، فيريد أَن ينقض الأَول ويقضي بالثاني ـ فقال عبد الملك، ومطرف في

(الواضحة): ذلك له ما دام في ولايته، فأَمَّا إذا كانت ولاية أُخرى فليس ذلك له، وهو بمنزلة غيره من القضاة، وهذا هو ظاهر قول مالك رحمه الله في «المدونة». وقال سحنون في رجوعه من اجتهاد فيه قول إلى غيره مما رآه أَصوب: ليس له ذلك. وقال ابن عبد الحكم، ويستأنف الحكم بما قوي عنده آخراً، قال سحنون: إلاَّ أَن يكون نسي الأَقوى عنده أَوْ وهم فحكم بغيره فله نَقْضه، وأَمَّا إن حكم بحكم وهو الأَقوى عنده في ذلك الوقت ثم توجَّه عنده غير ذلك فلا سبيل له إلى نقض الأَول، [قاله سحنون في كتاب ابنه. وقال أَشهب في كتاب ابن المواز: إن كان رجوعه إلى الأَصوب في مالٍ فله نقض الأَول][1]، وإن كان في طلاق أَو نكاح أَو عتق فليس له نقضه، وقد تقدم القول في الحرث، وروت فرقة أنه كان زرعاً، وروت فرقة أَنه كان كرماً.

و«النَّفَشُ»: تسرُّب البهائم في الزورع وغيرها باللَّيل[2]، و«الْهَمَلُ»: تسرُّبها في ذلك بالنهار واللَّيل، وقال ابن سيده: لا يقال الْهَمَل في الغنم، وإنما هو في الإِبل[3]، ومضى الحكم في الإِسلام بتضمين أَرباب الغنم ما أَفسدت باللَّيل لأَن على أَهلها أَن يثقفوها[4]، وعلى أَهل الزروع وغيرها حفظها بالنهار، وهذا هو مقتضى الحديث في ناقة البراءِ بن عازب[5]، وهذا مذهب مالك وجمهور الأُمَّة، ووقع في كتاب ابن

---

(١) سقط من بعض النسخ ما بين العلامتين [....]. ونقل القرطبي هذا الكلام بالنص الذي أثبتناه هنا.

(٢) في اللسان: «يقال: نَفَشَت الإبل تَنْفُشُ وتَنفِشُ، ونَفَشَتْ تَنْفَشُ إذا تفرقت فَرَعَتْ بالليل من غير عِلم راعيها، والاسم النَّفَش، ولا يكون النَّفَشُ إلاَّ بالليل، والهَمَل يكون ليلاً ونهاراً».

(٣) في اللسان عن ابن الأعرابي: «إِبلٌ هَمْلَى مُهْمَلَة، وإبلٌ هَوَامل مُسَيَّبَةٌ لا راعي لها»، وفيه أيضاً: «وفي الحديث: ولنا نَعَم هَمَلٌ، أي مُهملة لا رعاءَ فيها ولا فيها مَن يُصلحها ويهديها فهي كالضالة».

(٤) أي: عليهم أن يطلبوها ويدركوها حتى لا تفسد الزروع.

(٥) حديث ناقة البَرَاءِ بن عازب رواه مالك عن ابن شهاب عن حرام بن سعيد بن مُحَيِّصة: «أن ناقة للبراءِ دخلت حائط رجل فأفسدت فيه، فقضى رسول الله ﷺ أن على أهل الحوائط حفظها بالليل، وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضامنٌ (أي مضمون) على أهلها»، قال القرطبي: هكذا رواه جميع الرواة مرسلاً، وكذلك رواه أصحاب ابن شهاب عن ابن شهاب، إلا ابن عُيَيْنة فإنه رواه عن الزهري عن سعيد وحرام بن سعد بن مُحَيِّصة، ورواه ابن أبي ذئب عن ابن شهاب، ولكنه لم يذكر حرام بن سعد، ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن حرام بن مُحَيِّصة عن أبيه، ورواه ابن جريج عن ابن شهاب. قال أبو عمرو: وهذا الحديث ـ وإن كان مُرْسلاً ـ فهو حديث مشهور أرسله الأئمة وحدَّث به الثقات واستعمله فقهاءُ الحجاز وتلقوه بالقبول، وجرى في المدينة العمل به.

سُحنون أَن الحديث إنما جاء في أَمثال المدينة التي هي حيطان مُحْدِقة[١]، وأَمَّا البلاد التي هي زروع متصلة غير محظرة وبساتين كذلك فيضمن أَرباب النَّعم ما أَفسدت من ليل أَو نهار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَنه ذهب إلى أَن ترك تثقيف الحيوان في مثل هذه البلاد تَعَدٍّ لأَنها لا بد تفسد. وقال أَبو حنيفة في ذلك: لا ضمان، وأَدخله في عموم قول النبي ﷺ: «جرح العجماءِ جُبَارٌ»[٢]، فقاس جميع أَفعالها على جروحها.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ تأَول قومٌ منه أَن داود عليه السلام لم يخطىء في هذه النازلة، بل فيها أُوتي الحُكْم والعِلْم، وقالت فرقة: بل لأَنه لم يصب العين المطلوبة في هذه النازلة مدحه الله تعالى بأَن له حُكماً وعِلْماً يُرجع إليه في غير هذه النَّازلة.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ مبالغة في الخير وتحقيق له، وفي اللَّفظ معنى: وكان ذلك في حقه وعند مستوجبه منَّا، فكأَنه قال: وكنَّا فعالين لأَجل استجابة ذلك وحذف اختصاراً لدلالة ظاهر القول على ما حُذف منه، وقوله: ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ يريد داود وسليمان والخصمين، لأَن الحكم ينضاف إلى جميعهم وإن اختلفت جهات الإِضافة، وقرأَت فرقة: ﴿لِحُكْمِهِما﴾.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ ـ فذهب فرقة ـ وهي الأَكثر ـ إلى أَنه قوله «سبحان الله»، وذهبت فرقة منها منذر بن سعيد إلى أَنه بمعنى: يُصَلِّين معه بصَلاته.

---

(١) الحيطان: جمع حائط وهو البستان، وتجمع كذلك على حوائط. ومُحْدِقَة من «أَحدقت الأَرض» إذا صارت حديقة، والحديقة: كل أَرض ذات شجر مثمر ونخل أَحاط به حاجز.

(٢) أخرجه البخاري وابن ماجه وأبو داود في الديات، ومسلم في الحدود، والترمذي في الأحكام، والنسائي والدارمي في الزكاة، ومالك في موطئه في العقول، وأحمد في مسنده في مواضع كثيرة. وأبو حنيفة يأخذ بهذا الحديث ويرى انه ناسخ لحديث ناقة البراء، ومالك يذهب إلى الأخذ بحديث البراء، ويرى العلماءُ أن شروط النسخ غير متوافرة هنا، والتعارض بين الحديثين إنما يصح إذا لم يمكن استعمال أحدهما إلاَّ بنفيِ الآخر، وحديث «العَجْمَاءُ جرحها جُبَار» ـ أي هَدَرٌ ـ حديث عموم متفق عليه، وقد خصَّص حديثُ ناقة البراءِ الزرع والحوائط، فهو من باب العموم والخصوص، حديث الجُبَار حديث عموم، وحديث ناقة البراء خاص بالحوائط والزروع، ولا تعارض بنيهما ولا نسخ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾.

عدَّد الله تعالى على البشر أن علَّم داود عليه السلام صنعة الدُّروع وألان له الحديد فكان يصنعها أَحكم صنعة لتكون وقاية في الحرب وسَبَبَ نجاة من العدو، و«اللَّبُوس» في اللُّغة: السلاح، فمنه الدِّرع والسيف والرُّمح وغير ذلك، ومنه قول الشاعر:

وَمَعِــي لَبُــوسٌ لِلْبَئِيــسِ كَــأَنَّــهُ ... رَوْقٌ بِجَبْهَــةِ ذِي نَعَــاجٍ مُجْفَــلِ[1].

يعني الرُّمح.

وقرأ نافع والجمهور: [لِيُحْصِنَكُم] بالياءِ على معنى: لِيُحصِنَكم داود عليه السلام أَو اللَّبوس، وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم: [لِتُحْصِنَكُمْ] بالتاءِ على معنى: لِتُحصنكم الصنعة أَو الدُّروع التي أَوقع عليها اللَّبوس، وقرأ أَبو بكر عن عاصم: [لِنُحْصِنَكُمْ] بالنون على معنى ردِّ الفعل لله تعالى، ويُروى أَنه كان الناس يتَّخذ القوي منهم لباساً من صفائح الحديد، فكان ثقله يقطع بأَكثر الناس، وقرأَت فرقة: [ٱلرِّيحَ] بالنصب على معنى: وسخَّرنا الرِّيح، وقرأَت فرقة: ﴿الرِّيحُ﴾ بالرَّفع على الابتداء والخبرُ في المجرور قبله. ويُروى أَن الرِّيح العاصفة كانت تهب على سرير سليمان عليه السلام الذي فيه بساطه، وقد مَدَّ حول البساط بالخشب والأَلواح حتى صنع سريراً يحمل جميع عسكره وأَقواته فتُقِلُّه من الأَرض في الهواءِ ثم تتولاه الريح الرخاءُ بعد ذلك فتحمله إِلى حيث أَراد سليمان عليه السلام.

---

(١) هذا البيت لأبي كبير الهذلي، واسمه عامر بن الحليس، وهو من قصيدة مطلعها:

أَزُهَيْــرُ هَــلْ عَــنْ شَيْبَــةٍ مِــنْ مَعْــدَلِ ... أَمْ لاَ سَبِيــلَ إِلــى الشَّبَــابِ الأَوَّلِ؟

وهو هنا يخاطب ابنته «زهيرة» فيقول لها: أَزُهَيْرُ، والبَئِيسُ: الشجاعُ، والرَّوْقُ: القَرْنُ، وذو نعاج: يعني ثوراً له نعاجٌ ويقود قطيعاً، والنِّعَاج: البقر الوحشي، والجفول: الشرود في فزع وسرعة، واللَّبوس: ما يُلْبَس، وهو أيضاً الثيابُ والسلاح، قال في اللسان: «مذكَّر، فإن ذهبتَ به إلى الدرع أنثت، وقال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم﴾، قالوا: هي الدرعُ تُلبس في الحرب، والشاهد هنا أَن اللَّبُوس عامٌّ في السِّلاح كلِّه: الدرع والسيف والرمح، وقد أَراد به الشاعر هنا الرمح وشبهه بِرَوْق الثور الفزع الشارد في سرعة وهو يدافع عن نعاجه».

وقوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾، اختلف الناس فيها ـ فقالت فرقة: هي أرض الشام وكانت مسكنه وموضع مُلْكِهِ، وخصَّص في هذه الآية انصرافه من سفراته إلى أَرضه لأَن ذلك يقتضي سفره إلى المواضع التي سافر إليها، والبَرَكَةُ في أَرض الشَّام بيِّنة الوجوه، وقد قال بعضهم: إن العاصفة هي في القبول على عادة البشر والدَّواب في الإسراع إلى الوطن، والرُّخاءُ في البدأَة حيث أَصاب، أَي حيث يقصد؛ لأَن ذلك وقت تَأَنٍّ وتدبير وتقلب رأي، وقال منذر بن سعيد: في الآية تقديم وتأْخير، والكلام تام عند قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ صفة للرِّيح.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يريد الأَرض التي يسير إليها سليمان عليه السلام كائنة ما كانت، وذلك أَنه لم يكن يسير إلى أَرض إلاَّ أَصلحها، وقتل كفَّارها، وأَثبت فيها الإيمان، وبثَّ فيهاالعدل، ولا بركة أَعظم من هذا، فكأَنه قال: إلى أَي أَرض باركنا فيها فبعثنا سليمان إليها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾
وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ
مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

يحتمل أَن يكون قوله: ﴿يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في موضع نصب على معنى: وسخَّرنا من الشياطين، ويحتمل أَن يكون في موضع رفع على الابتداء، ويتناسب هذا مع القراءَتين المتقدمتين في قوله سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ بالنصب والرفع. وقوله: ﴿يَغُوصُونَ﴾ جمع على معنى [مَنْ] لا على لفظها، و«الغوص»: الدخول في الماء والأَرض، والعلم دون ذلك البنيان وغيره من الصنائع والخدمة ونحوه، وقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾، قيل: معناه: من إفسادهم ما صنعوه، فإنهم كان له حرصٌ على ذلك لولا ما حال الله بينهم وبين ذلك، وقيل: معناه: عادلين وحاضرين، أَي لا يشذ عن علمناوتسخيرنا أَحد منهم.

وقوله تعالى: ﴿﴿وَأَيُّوبَ﴾، أَحسن ما فيه النصب بفعل مضمر تقديره: واذكر أَيوب، وفي قصص أَيوب عليه السلام طول واختلاف من المفسرين، وتلخيص ذلك أَنه

رُوي أَن أَيوب عليه الصلاة والسلام كان نبياً مبعوثاً إلى قوم، وكان كثير المال من الإبل والبقر والغنم، وكان صاحب البَثَنية من أَرض الشام، فغبر كذلك مدة، ثم إن الله تبارك وتعالى لمَّا أَراد محنته وابتلاه أَذِن لإبليس في أَن يفسد ماله، فاستعان بذرِّيته فأَحرقوا ماله ونَعمه أَجمع، فكان كلَّما أُخبر بشيءٍ من ذلك حَمَدَ الله تعالى وقال: هي عارية استردها صاحبها والمُنْعم بها، فلما رأَى إِبليس ذلك جاءَ فأَخبر بعجزه عنه، فأَذن الله له في إِهلاك بنيه وقرابته ففعل ذلك أَجمع فدام أَيوب عليه السلام على شكره، فأَخبر إِبليس بعجزه، فأَذن الله تعالى له في إِصابته في بدنه، وحجر عليه لسانه وعينيه وقلبه، فجاء إِبليس وهو ساجد فنفخ في أَنفه نفخة احترق بدنه منها، وجعلها الله أَكلة في بدنه، فلما عظمت وتقطع أَخرجه الناس من بينهم وجعلوه على سُباطة[1]، ولم يبق معه بشر حاشا زوجته، ويقال: كانت بنت يوسف الصديق، وقيل: اسمها رحمة، وقيل في أيوب: إنه من بني إسرائيل، وقيل: إنهُ من الروم من ذرية عيصو، فكانت زوجته تسعى عليه وتأْتيه بما يأْكل وتقوم عليه، فدام في هذا العذاب مدة طويلة، قيل: ثلاثين سنة، وقيل: ثماني عشرة سنة، وقيل: اثنتي عشرة سنة، وقيل: تسعة أَعوام، وقيل: ثلاثة، وهو في كل ذلك صابر شاكر حتى جاءَه ـ فيما رُوي ـ ثلاثة ممَّن كان آمن به فوقروه بالقول وأَنَّبوه ونَجَهُوهُ[2] وقالوا: ما صنع بك ربك هذا إِلاَّ لخبثٍ باطنه فيك، فراجعهم أَيوب في آخر قولهم بكلام مقتضاه أَنه ذليل لا يقدر على إقامة حُجَّة ولا بيان ظُلامة، فخاطبه الله تعالى معاتباً على هذه المقالة ومُبيِّناً أَنه لا حُجَّة لأَحد مع الله، ولا يسأَل عمَّا يفعل، ثمَّ عرَّفه سبحانه وتعالى بأَنه قد أَذن في صلاح حاله، وعاد عليه بفضله، فدعا أَيوب عليه السلام عند ذلك فاستُجِيب له.

ويُروى أَن أَيوب عليه السلام لم يزل صابراً لا يدعو في كشف ما به، وكان ـ فيما رُوي ـ يقع الدود منه فيردُّهُ بيده حتى مرَّ به قوم كانوا يعادونه فشمتوا به فتأَلَّم لذلك ودعا حينئذ فاستُجيب له، وكانت امرأَته غائبة عنه في بعض شأْنها فأَنبع الله له عيناً وأُمر بالشرب منها فبرىء باطنه، وأُمر بالاغتسال فبرىء ظاهره ورُدَّ إِلى أَفضل حاله، وأُتِي

---

(١) السُّباطة: الموضع الذي يُرمى فيه التراب والأوساخ وما يُكنس من المنازل، وفي بعض الكتب: «وضعوه على تل وجعلوا عليه عريشة».

(٢) النَّجْهُ: استقبالك الرجل بما يكره وردُّك إيّاه عن حاجته، وفي الحديث: (بعدما نَجَهَهَا عُمَر)، أَي بعدما ردَّها وانتهرها.

بأَحسن الثياب، وهبَّ عليه رجْلٌ[1] من جراد من ذهب فجعل يحثو منها في ثوبه، فناداه الله تعالى: يا أَيُوب أَلم أَكن أَغْنَيتك عن هذا؟ قال: بَلَى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك، فبينما هو كذلك إِذ جاءَت امرأَته فلم تره على السباطة فجزعت وظنَّت أَنه أُزيل عنها وجعلت تتَوَلَّه[2]. فقال لها: ما شأْنك أَيتها المرأَة؟ فهابته لحسن هيئته، فقالت: إِني فقدتُ مريضاً كان لي في هذا الموضع، ومعالم المكان قد تغيرت، وتأَمَّلته في أَثناءِ المقالة فرأَت أَيوب، فقالت له: أَنت أَيوب؟ فقال لها: نعم، فاعتنقها وبكى، فروي أَنه لم يُفارقها حتى أَراه الله جميع ماله حاضراً بين يديه.

واختلف الناسُ في أَهله وولده الذين آتاه الله، فقيل: كان ذلك كله في الدنيا، فردَّ الله عليه بصره وولده بأَعيانهم، وجعل مثلهم عدةً له في الآخرة، وقيل: بل أُوتي جميع ذلك في الدنيا من أَهل ومال.

وقوله تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ أَي: وتذكرة وموعظة، ولا يعبد الله إِلاَّ مؤمن، والذكرى إِنما هي في محنته، والرحمة في زوال ذلك. وقوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ تقديره: بأَنِّي مَسَّني، فحذف الجار وبقيت [أَنِّي] في موضع نصب، ورُوي أَن سبب محنة أَيوب عليه السلام أَنه دخل مع قوم على مَلِك جار عليهم فأَغلظ له القول ولَيَّن له أَيوب القول خوفاً منه على ماله، فعاقبه الله على ذلك، ورُوي أَنه كان يقال له: مالك لا تدعو في العافية؟ فكان يقول: إِني لأَستحي من الله أَن أَسأَله زوال عذابه حتى يمرَّ علي فيه ما مرَّ من الرَّخاء، وأَصابه البلاءُ ـ فيما رُوي ـ وهو ابن ثمانين سنة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

المعنى: واذكر إِسماعيل، وهو إِسماعيل بن إِبراهيم الخليل عليهما السلام، وهو أَبو العرب المعروفين اليوم في قول بعضهم، وإِدْريسُ هو خنوخ، وهو أَول نبيٍّ بعث الله من بني آدم، ورُوي أَنه كان خيَّاطاً يسبح الله عند إِدخال الإِبرة ويحمده عند إِخراجها، وذو الكفل كان نبيّاً، ورُوي أَنه بُعث إِلى رجل واحد، وقيل: لم يكن نبيّاً

---

(١) الرَّجْل: الطائفة العظيمة من الجراد.
(٢) وَلَه وتوَلَّه: حزن حزناً شديداً.

ولكنه كان عبداً صالحاً، ورُوي أن (ٱلْيَسَعَ) جمع بني إسرائيل فقال: من يتكفَّل لي بصيام النهار وقيام اللَّيل وألاَّ يغضب وأُوليه النظر للعباد بعدي؟ فقام إليه شاب فقال: أَنا لك بذلك، فراجعه ثلاثاً في ذلك يقول: أَنا لك بذلك، فاستعمله، فلمَّا مات (ٱلْيَسَعُ) قام بالأمر فجاءَ إبليس ليغضبه ـ وكان لا ينام إلاَّ في القائلة ـ فكان يأْتيه وقت القائلة أَياماً فيوقظه ويشتكي ظلامته ويقصد تضييق صدره، فلم يضق به صدراً، ومضى معه لينصفه بنفسه، فلمَّا رأَى إبليس ذلك أَبلَس عنه، وكفاه الله شرَّه، وسُمِّي (ذا الكفل) لأَنه تكفَّل بأَمر فوفَّى به، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

التقدير: واذكر ذا النون، والنون: الحوت، وصاحبه يونس بن متَّى عليه السلام، ونسب إلى الحوت الذي التقمه على الحالة التي يأْتي ذكرها في موضعها الذي تقتضيه، وهو نبي أَهل نينوى، وهذا هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «مَنْ قال أَنا خير من يونس بن مَتَّى فقد كذب»[(١)]، وفي حديث آخر: «لا ينبغي لأَحد أَن يقول أَنا خير من يونس بن متَّى»[(٢)]، وهذا الحديث وقوله: «لا تفضِّلوني على موسى»[(٣)] يتوهم أَنهما يعارضان قوله عليه الصلاة والسلام على المِنْبر: «أَنا سَيِّد ولد آدم ولا فخر»[(٤)]،

---

(١) رواه البخاري (٤٦٠٤، ٤٨٠٥) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرج مثله عبد بن حميد، والبخاري، والنسائي، وابن مردويه، عن ابن مسعود رضي الله عنه، وأخرج مثله البخاري، ومسلم، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وفي رواية ابن عباس رضي الله عنهما زيادة (نسبه إلى أبيه، أصاب ذنباً ثم اجتباه ربه) «الدر المنثور».

(٣) أخرجه البخاري (١٩٣ من الجزء السابع)، ومسلم في كتاب الفضائل.

(٤) هذا جزءٌ من حديث طويل هو حديث الشفاعة، وقد اخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، والإمام أحمد، وفي مسنده (١/ ٥) نصُّ الحديث عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه، وفيه: «فيقول عيسى: ليس ذاكم عندي ولكن انطلقوا إلى سيِّد ولد آدم»، ثم جاء فيه «فيقول: أي ربِّ، خلقتني سيِّد ولد آدم ولا فخر»، وأخرج الحديث أيضاً ابن ماجه في الزهد، وأبو داود في السُّنَّة. وفي حديث آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ وأخرجه البخاري، ومسلم وأحمد وغيرهم ـ قال ﷺ: «إنه لم يكن نبي=

والانفصال عن هذا بوجهين: أحدهما ذَكَرَهُ الناس وهو أن يكون قوله: «أنا سيِّد ولد آدم» يتأَخَّر في التاريخ، وأنها منزلة أعلمه الله تعالى بها لم يكن عَلِمَهَا وقت تلك المقالات الأُخر، والوجه الثاني وهو عندي أَجرى مع حال النبي ﷺ أنه إنما نهى عن التفضيل بين شخصين مذكورين وذهب مذهب التواضع ولم يزل سيِّد ولد آدم، ولكنه نهى أَن يفضَّل على موسى كراهة أَن يغضب لذلك اليهود فيزيد نفارها عن الإِيمان، وسبب الحديث يقتضي هذا، وذلك أَن يهودياً قال: لا والذي فضل موسى على العالمين، فقال له رجل من الأنصار: أتقول هذا ورسول الله ﷺ بين أَظْهُرنا؟ فسرى الأَمر وارتفع إِلى النبي ﷺ فنهى عن تفضيله عن موسى، ونَهَى عليه الصلاة والسلام عن تفضيله على يونس لئلا يظن أَحد بيونس عليه السلام نقصُ فضيلةٍ بسبب ما وقع له، فنهيه ﷺ عن التفضيل على شخص معيَّن، وقوله عليه الصلاة والسلام في حديث ثالث: «لا تفضِّلوا بين الأَنبياء»[1] هذا كله مع قوله: «أنا سيِّد ولد آدم ولا فخر» وإِطلاق الفضل له دون اقتران بأَحدٍ بيِّن صحيح. وتأَمل هذا فإِنه يلوح، فقد قال عمر رضي الله عنه للحطيئة: امدح ممدوحك ولا تفضِّل بعض الناس على بعض.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولفظة «سيِّد» ولفظة «خير» سيَّان، وهذا مبدأُ جَمْع آخر بين الأَحاديث يُذهب ما يُظَنُّ من التعارض.

وقوله تعالى: ﴿مُغَٰضِبًا﴾، قيل: إِنه غاضب قومه حين طال عليه أَمرهم وتعنتهم فذهب فاراً بنفسه، وقد كان الله تعالى أَمره بملازمتهم والصبر على دعائهم، فكان ذنبه في مخالفة هذا الأَمر، ورُوي أَنه كان شاباً ولم يحتمل أَثقال النُّبوَّة وتفسَّخ تحتها كما

= إِلاَّ له دعوة قد تنجزها في الدنيا، وإني قد أخبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وأنا سيِّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر» والحديث طويل، ونصه في المسند (١/ ٢٨١).

(١) أخرجه أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: «جاءَ يهودي إلى رسول الله ﷺ قد ضرب في وجهه، فقال له: ضربني رجل من أصحابك، فقال له النبي ﷺ: لم فعلتَ؟ قال: يا رسول الله فضَّل موسى عليك، فقال النبي ﷺ: لا تفضلوا بعض الأنبياء على بعض فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يرفع رأسه من التراب فأجد موسى عليه السلام عند العرش، لا أدري أكان فيمن صُعق أم لا». وأخرج الحديث مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، وعن أبي سعيد الخدري أيضاً واللفظ فيه: (لا تُخَيِّرُوا بين الأنبياء).

يتفسخ الرُّبَع[١] تحت الحمل، ولهذا قيل للنبي ﷺ: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾[٢] أي: فاصبر ودم على الشقاء بقومك، وقالت فرقة: إنما غاضب الملِك الذي كان على قومه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا نحو من الأَول فيما يلحق منه يونس عليه السلام. وقال الحسن بن أَبي الحسن وغيره: إنما ذهب مغاضباً ربَّه واستفزَّه إبليس[٣]، ورَوَوْا في ذلك أَن يونس عليه السلام لمَّا طال عليه أَمر قومه طلب من الله عذابهم، فقيل له: إنَّ العذاب يجيئهم يوم كذا، فأَخبرهم يونس عليه السلام بذلك، فقالوا: إن رحل عنَّا فالعذاب نازل، وإن أَقام بيننا لم نبالِ، فلمَّا كان سحر ذلك اليوم قام يونس فرحل فأَيقنوا بالعذاب فخرجوا بأَجمعهم إلى البَرَازِ[٤]، وفرَّقوا بين صغار البهائم وأُمهاتها وتضرعوا وتابوا فرفع الله عنهم العذاب، وبقي يونس في موضعه الذي خرج إليه ينتظر الخبر، فلمَّا عرف أَنهم لم يُعذَّبوا ساءَه أَن عدُّوه كاذباً، وقال: والله لا انصرفت إليهم أَبداً، ورُوي أَنه كان من دينهم قتل الكذاب، فغضب حينئذ على ربه وخرج على وجهه حتى دخل في سفينة في البحر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا القول من الضعف ما لا خفاءَ به مما لا يتَّصف به نبي.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ فقالت فرقة: استفزَّه إبليس ووقع في ظنِّه إمكان أَن لن يقدر الله عليه بمعاقبة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ مردود.

وقالت فرقة: معنى ﴿ظن أن له نقدر عليه﴾ أَن لن نُضَيِّق عليه في مذهبه، من قوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾[٥]، وقالت فرقة: هو من القَدَر، أَي ظن أَن لن يقضي الله عليه بعقوبة[٦]، وقالت فرقة: الكلام بمعنى الاستفهام، أَي: أَفظن أَنْ لن

---

(١) الربع: الفصيل إذا ولد في الربيع وكان أول النتاج.

(٢) من الآية (٤٨) من سورة (القلم).

(٣) في بعض النسخ: «فاستزلَّه إبليس»، وهي أيضاً في القرطبي.

(٤) البَرَازُ: الفضاءُ الواسع الخالي من الشجر ونحوه.

(٥) من الآية (٢٦) من سورة الرعد. ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ أَي ضُيِّق.

(٦) أَي: هي من القَدَر الذي هو القضاءُ والحُكمُ، وهو قول قتادة ومجاهد والفراء.

نقدر عليه؟ وحكى منذر بن سعيد أن بعضهم قرأ: [أَفَظَنَّ] بالألف، وقرأ الزهري: [نُقَدِّرَ] بضم النون وفتح القاف وشد الدال[1]، وقرأ الحسن: [فَظَنَّ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ]، وعنه أيضاً: ﴿نَّقْدِرَ﴾[2]، وبعد هذا الكلام حذف كثير اقتضب لبيانه في غير هذه الآية. المعنى: فدخل البحر وكذا وكذا حتى التقمه الحوت وصار في ظُلْمة جوفه.

واختلف الناس في جمع «الظُّلُمات» ما المراد به؟ فقالت فرقة: ظلمة اللَّيل، وظلمة البحر، وظلمة الحوت، وقالت فرقة: ظلمة البحر، وظلمة حوت التقم الحوت الأَول، وظلمة الحوت الأَول الذي التقم يونس عليه السلام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويصح أَن يعبَّر بالظلمات عن جوف الحوت الأَول فقط، كما قال: ﴿فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾[3]، وكل جهاته ظُلْمة فَجَمعها سائغ، ورُوي أَن يونس عليه السلام سجد في جوف الحوت حين سمع تسبيح الحيتان في قعر البحر، ثم قال في دعائه: «اللهم إِني قد اتَّخذت لك مسجداً في موضع لم يتَّخذه أَحد قبلي». و[أَنْ] مفسِّرة نحو قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱمْشُواْ﴾[4]، وفي هذا نظر، وقوله: ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يريد فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبر عليهم، هذا أَحسن الوجوه، وقد تقدم ذِكْر غيره، فاستجاب الله له وأخرجه إِلى البرِّ، وَوَصْفُ هذا يأْتي في موضعه. و﴿ٱلْغَمِّ﴾ ما كان ناله حين التقمه الحوت.

وقرأ جمهور القراءِ: [نُنْجِي] بنونين الثانية ساكنة، وقرأ عاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ: [نُجِّي] بنون واحدة مضمومة وشد الجيم، ورويت عن أَبي عمرو، وقرأت

---

(١) وحكى الماوردي هذه القراءة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) روي عن أبي العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب أنه قال في قول الله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ هو من التقدير وليس من القدرة، يقال منه: قدَّر الله لك الخير يُقَدِّره قدراً، وأنشد ثعلب:

فَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ اللِّوَى بِرَوَاجِعٍ ... لَنَا أَبَداً مَا أَوْرَقَ السَّلَمُ النَّضْرُ
وَلاَ عَائِدٌ ذَاكَ الزَّمَانُ الَّذِي مضى ... تَبَارَكْتَ مَا تَقْدِرْ يَقَعْ وَلَكَ الشُّكْرُ

يعني: ما تُقَدِّرْهُ وتقضي به يقع، وليس المراد: ما تَقْدِرُ عليه.

(٣) من الآية (١٥) من سورة يوسف. وقراءة المدنيِّيْن بالألف على الجمع.

(٤) من قوله تعالى في الآية (٦) من سورة ص: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾. وكانت [أَنْ] في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ تفسيرية لأن ما قبلها في معنى القول وهو قوله: ﴿فَنَادَىٰ﴾، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة، ويكون التقدير: «بأنه لا إله إلا أنت»، وبهذا يكون قد حصر الألوهية فيه سبحانه وتعالى، ثم نزَّهه عن سمات النقص، ثم أقرَّ بما بعد ذلك.

فرقة: [نُنَجِّي] بنونين الأُولى مضمومة والثانية مفتوحة والجيم مشددة، فأَمَّا القراءة الأُولى والثالثة فَبَيِّنَتَان، والأُولى فعلها معدى بالهمزة، والأُخرى بالتضعيف، وأَمَّا القراءة الوسطى التي هي بنون واحدة مضمومة وجيم مشددة وياءٍ ساكنة فقال أَبو علي: لا وجه لها، وإنما هي وهم من السامع، وذلك أَن عاصماً قرأَ: [نُنْجِي] والنون الثانية لا يجوز إِظهارها لأَنها تخفى مع هذه الحروف، يعني الجيم وما جرى مجراها، فجاءَ الإِخفاءُ يشبهها بالإِدغام، ويمتنع أَن يكون الأَصل (ننجي) ثم يدعو اجتماع النونين إِلى إِدغام إِحداهما في الجيم؛ لأَن اجتماع المثلين إِنما يدعو إِلى ذلك إِذا كانت الحركة فيهما متفقة، ويمتنع أَن يكون الأَصل (ننجي) وتسكن الياءُ ويكون المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله المصدر، كأَنه قال: نُجِّيَ النجاءُ المؤمنين؛ لأَن هذه لا تجيءُ إِلاَّ في ضرورة، وليست في كتاب الله تعالى، والشاهد فيها قول الشاعر:

وَلَوْ وَلَدَتْ قُفَيْرَةُ جَرْوَ كَلْبٍ ... لَسُبَّ بِذَلِكَ الْجَرْوِ الْكِلاَبَا[1]

وأَيضاً فإِن الفعل الذي بني للمفعول إِذا كان ماضياً لم يسكن آخره.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمصاحف فيها نون واحدة كتبت كذلك من حيث النون الثانية مخفاة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

تقدَّم أَمر زكريَّا عليه السلام في سورة مريم، وإِصلاح الزوجة، قيل: بأَن جعلها

(١) (قُفَيْرَة) على وزن جهينة هي أُم الفرزدق، والبيت لجرير، قاله من قصيدة يهجو بها الفرزدق. والجرو: الصغير من ولد الكلب والأسد والسباع، ومن هنا تظهر فائدة الإضافة إلى الكلب، لأنها تحدد المراد من الجرو بأنه ابن كلب، وقد كان جرير قاسياً في هجائه، وكثيراً ما ذكر قُفَيْرَة ونعتها بأقبح الصفات، وهو القائل فيها:

وَهَلْ أُمٌّ تَكُونُ أَشَدَّ رعياً ... وَصَرّاً مِنْ قُفَيْرَةَ وَاحْتِلاَبَا؟

والتقدير في البيت: لَسُبَّ السَّبُّ بذلك الجَرْوِ، وهذا شاذٌّ، كما تقول: ضُرِبَ زيداً، بمعنى: ضُرِبَ الضَّرْبُ زيداً، وتسكين الياء في الآية لغة عربية. ولكن ابن عطية يرفض هذا في الآية.

تحمل وهي عاقر، فحاضت وحملت، وهذا هو الذي يشبه الآية، وقيل: بأن أُزيل بذاءٌ كان في لسانها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وعموم اللَّفظة يتناول كلَّ وجوه الإصلاح.

وقرأت فرقة: [وَيَدْعُونَنَا]، وقرأت فرقة: [وَيَدَعُونَا]، وقرأت فرقة: [رَغَباً] بفتح الراءِ والغين، و﴿رَهَبًا﴾ كذلك، وقرأت فرقة بضم الراءِ فيهما وبسكون الغَيْن والهاءِ، وقرأت فرقة بفتح الراءِ فيهما وبسكون الغَيْن والهاءِ، والمعنى أنهم يدعون في وقت تعبدهم وهم بحال رغبة ورجاءٍ ورهبة وخوف في حال واحدةٍ؛ لأن الرَّغبة والرَّهبة متلازمتان، وقال بعض الناس: الرغب أن ترفع بطون الأكُفِّ نحو السماء، والرهب أن ترفع ظهورهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتلخيص هذا أن عادة كل داع من البشر أن يستعين بيديه، فالرَّغب ـ من حيث هو طلب ـ يحسن معه أن يوسع باطن الراح نحو المطلوب منه؛ إذ هو موضع الإعطاء، وبها يتملَّك، والرَّهَب ـ من حيث هو دفع مضرَّة ـ يحسن معه طرح ذلك والإشارة إلى ذهابه وتَوَقِّيه بنفض اليدين ونحوه.

و«ٱلْخُشُوعُ»: التذلُّل بالبدن المتركِّبُ على التذلُّل بالقلب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

المعنى: واذكر التي أَحصنت فرجها، وهي مريم بنتُ عمران أُمُّ عيسى عليهما السلام. و«ٱلْفَرْجُ» ـ فيما قال الجمهور، وهو ظاهر القرآن ـ: الجارحة المعروفة، وفي إِحصانها هو المدح. وقالت فرقة: الفَرْج هنا فَرْجُ ثوبها الذي منه نفخ المَلَك، وهذا ضعيف، وأَمَّا نفخ الولد فيها فقال كثير من العلماءِ: إِنما نفخ من جيب درعها، وأَضاف

«الروح» إضافة المِلْك إلى المَالك، و«ابْنها»: عيسى بن مريم عليه السلام، وأَراد تعالى أَنه جعل مجموع قصة عيسى وقصة مريم عليهما السلام من أَولها إِلى آخرها آيةً لمن اعتبر في ذلك. و﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يريد: لمن عاصر فما بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ يحتمل الكلام أَن يكونَ مُنْقَطِعاً خطاباً لمعاصري محمد عليه الصلاة والسلام، ثم أَخبر عن الناس أَنهم تقطعوا، ثم وَعَدَ وأَوْعَدَ، ويحتمل أَن يكون متصلاً، أَي: جعلنا مريم وابنها آية للعالمين بأَن بُعِثَ لهم بملَّة وكتاب، وقيل لهم: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾، أَي دعا الجميع إِلى الإِيمان بالله تبارك وتعالى وعبادته، ثم أَخبر تعالى بعد ذلك أَنهم اختلفوا وتقطعوا أَمرهم، ثم فرَّق بين المحسن والمسيء فذكَّر المحسن بالوعد، أَي: فمن عمل من الصالحات وهو مؤمن فهو بِسَعْيه يُجازى، وذكَّر المسيءَ بالوعيد في قوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ الآية، فتأَمل الوعيد فيها على كل قول تذكره فإِنه بيِّن، و«ٱلْكُفْرَانُ» مصدرٌ كالكفر، ومنه قول الشاعر:

رَأَيْتُ أُنَاساً لاَ تَنَامُ خُدُودُهُم ... وَخَدِّي وَلاَ كُفْرَانَ للهِ نَائِمُ[١]

واختلف القراءُ في قوله تعالى: [وحرام] ـ فقرأَ عكرمة وغيره: [وَحَرِمٌ] بفتح الحاءِ وكسر الراءِ، وقرأَ جمهور السبعة: [وَحَرَامٌ]، وقرأَ حمزة والكسائي، وحفص عن عاصم: [وَحِرْمٌ] بكسر الحاءِ وسكون الراءِ[٢]، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما ـ بخلاف عنه ـ: [وَحَرْمٌ] بفتح الحاءِ وسكون الراءِ، وقرأَت فرقة: [وَحَرَّمَ] بفتح الحاءِ والراءِ وشدِّ الراءِ، وقرأَت فرقة: [وَحُرِّمَ] بضم الحاءِ وكسر الراءِ وشدها، وقرأَ قتادة، ومطر الوراق: [وَحَرُمَ] بفتح الحاءِ وضم الراءِ[٣]. والمستفيض من هذه القراءات قراءةَ

---

(١) هذا البيت شاهد على أَن «الكفران» مصدر «كفر» كالكفر والكفور، وهو في البحر، وفي الطبري، والرواية فيه: «من الناس ناسٌ ما تنامُ خدودهم». وفي اللسان: «وتقول: كفر نعمةَ الله، وبنعمة الله، كُفْراً وكُفْراناً وكفوراً».

(٢) قراءة حفص عن عاصم كما هي ثابتة في المصحف: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ إِلى آخر الآية، ولعلَّ الخطأَ من النساخ.

(٣) قال ابن جني: «أما [حَرِمَ] فالماضي من حَرِمٍ، مثل قَلِقَ من قَلِقٍ، قالوا: حَرِمَ زيدٌ إذا سُلِبَ ما لَه، قال زهير:

وَإِنْ أَتَــاهُ خَلِيــلٌ يَــوْمَ مَسْغَبَــةٍ ... يَقُــولُ لاَ غَــائِــبٌ مَــالِـي وَلاَ حَــرِمُ =

من قرأ: [وَحِرْمٌ]، وقراءَة من قرأَ: [وَحَرَامٌ]، وهما مصدران مثل «حلٌّ وَحَلاَلٌ».

وأَمَّا معنى الآية فقالت فرقة: حرامٌ وحِرْمٌ معناه: جَزْمٌ وحَتْم على قرية أَهلكناها أَنهم لا يرجعون إِلى الدنيا فيتوبون ويستعتبون، بل هم صائرون إِلى العذاب، وقال بعض هذه الفرقة: «الإِهْلاَكُ» هو بالطَّبع على القلوب ونحوه، و«الرُّجُوعُ» هو إِلى التوبة والإِيمان، وقالت طائفة: المعنى: وحَرَامٌ، أَي ممتنع ـ وحِرْمٌ كذلك ـ على قرية أَهلكناها أَنهم لا يرجعون، وقالوا: لا زيادة في الكلام. واختلفوا في «الإِهلاك والرجوع» بحسب القولين المذكورين، قال أَبو علي: يحتمل أَن يرتفع ﴿حَرَامٌ﴾ بالابتداءِ، والخبر رجوعهم، و﴿لا﴾ زائدة، ويحتمل أَن يرتفع ﴿حَرَامٌ﴾ على خبر الابتداء، كأَنه قال: والإِقالة والتوبة حرام، ثم يكون التقدير بأَنهم لا يرجعون، فتكون ﴿لا﴾ على بابها، كأَنه قال: هذا عليهم ممتنعٌ بسبب كذا، فقال تحريم في الآية بالجملة ليس كتحريم الشرع الذي إِن شاءَ المنهيُّ عنه ركبه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويتَّجه في الآية معنى ضمنه وعيدٌ بيِّن، وذلك أَنه ذكر من عمل صالحاً وهو مؤمن، ثم عاد إِلى ذكر الكفرة الذين من كفرهم ومعتقدهم أَنهم لا يُحشرون إِلى ربٍّ، ولا يرجعون إِلى مَعَادٍ، فهم يظنون بذلك أَنه لا عقاب ينالهم، فجاءَت الآية مكذِّبة لظن هؤلاء، أَي: «مُمْتَنِعٌ على الكفرة المهلَكين أَنهم لا يرجعون، بل هم راجعون إِلى عقاب الله وأَليم عذابه»، فتكون ﴿لا﴾ على بابها، والحرام على بابه، وذلك الحِرْم فتأَمله[1].

= ومعنى هذا الكلام أن (حَرِمَ) لازمٌ ولهذا يكون الوصف منه على فَعِلٍ، مثل قَلِقَ وبَطِرَ من قَلِقَ وبَطِرَ. ثم قال ابن جني: «وأَمَّا [حَرُمَ] فمن حَرَمْتُهُ الشيءَ: إذا منعته إِيَّاهُ، فقد عادإِذاً إِلى معنى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾».

(١) وقال الزجاج: «إن في الكلام إضماراً، والتقدير: وحرامٌ على قرية حَكَمْنَا باستئصالها، أو بالخَتْم على قلوبها أن يُتَقَبَّل منهم عمل لأنهم لا يرجعون، أيْ لا يتوبون، و[لاَ] غير زائدة. وقال النحاس: الآية مشكلة، ومن أحسن ما قيل فيها ما روي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، حيث قال: «وَجَبَ أنَّهم لا يرجعون، قال: لا يتوبون»، وقد قيل: الحرام يأتي بمعنى الواجب، ويدل على ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ وترك الشرك واجب، وقالت الخنساءُ:

حَـرَامٌ عَلَـى أَلاَّ أَرَى الـدَّهْـرَ بَـاكِيـاً عَلَـى شَجْـوِهِ إِلاَّ بَكَيْـتُ عَلَـى صَخْـر =

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

تحتمل ﴿حَتَّىٰٓ﴾ - في هذه الآية - أن تكون متعلِّقة بقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ﴾، وتحتمل - على بعض التأويلات المتقدمة - أن تتعلَّق بـ﴿يَرۡجِعُونَ﴾، وتحتمل أن تكون حرف ابتداءٍ: وهو الأظهر بسبب ﴿إِذَآ﴾؛ لأنها تقتضي جواباً هو المقصود ذكْره.

واختلف هنا في الجواب - فقالت فرقة: الجواب قوله: ﴿اقترب الوعد﴾ والواو زائدة، وقالت فرقة - منها الزجاج وغيره: الجواب في قوله تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾، والتقدير: قالوا يا ويلنا، وليست الواو بزائدة. والذي أقول: إن الجواب في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ﴾، وهذا هو المعنى الذي قُصد ذكره لأنه رجوعهم الذي كانوا يكذبون به وحُرِّم عليهم امتناعه.

وقرأ الجمهور: [فُتِحَتْ] بتخفيف التاءِ، وقرأ ابن عامر وحده: [فُتِّحَتْ] بتثقيلها. ورُوي أن يأْجُوج ومأْجوج يشرفون في كل يوم على الفتح فيقولون: غداً يُفتح، ولا يردُّون المشيئة إلى الله تعالى، فإذا كان الغَدُ وجدوا الرَّدْمَ كأوله، حتى إذا أَذِنَ الله في فتحه قال قائلهم: غداً نفتحه إن شاءَ الله، فيجدونه كما تركوه قريب الانفتاح فيفتحونه حينئذ. وقرأ عاصم وحده: [يأجوج ومأجوج] بالهمزة، وقرأ الجمهور بالتسهيل، وقد تقدم في سورة الكهف توجيه ذلك وكثيرٌ من حال يأْجوج ومأْجوج فغنينا هنا عن إعادة ذلك.

و﴿الحدب﴾ كلُّ مُسَنَّم من الأَرض كالجبل والظَّرِب والكُدْية والقَبر ونحوه، وقالت فرقة: المراد بقوله: ﴿وَهُم﴾ يأجوج ومأْجوج، يعني أَنهم يطلعون من كل ثنيَّة ومرتفع ويَعُمُّون الأَرض، وذلك أَنهم من الكثرة بحيث قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم أَخرج بعث النار من ذرِّيتك، فيخرج من كل أَلف تسعمائه وتسعة وتسعين» قال[1]: ففزع الناسُ، فقال رسول الله ﷺ: «إن منكم رجلاً ومن يأْجوج

= «وقيل: هذا البيت لعبد الرحمن بن جمانة المحاربي الجاهلي، قال ذلك في اللسان - حرم».

(١) أَي الراوي.

ومأجوج ألف رجل»(١)، ويروى أن الرجل منهم لا يموت حتى يولد له ألف ولد بين رجل وامرأة. وقالت فرقة: المراد بقوله: ﴿وَهُم﴾ جميع العالم، وإنما هو تعريف بالبعث من القبور. وقرأ ابن مسعود: [من كل جدث]، وهذه القراءة تؤيد هذا التأويل.

و﴿يَنسِلُونَ﴾ معناه: يُسرعون في تطامن(٢)، ومنه قول الشاعر:

عَسَلاَنَ الـذِّئْـبِ أَمْسَـى قَـارِبـاً ... بَـرَدَ اللَّيْـلُ عَلَيْـهِ فَنَسَـلْ(٣)

وقرأت فرقة بكسر السين، وقرأت فرقة بضمها.

وأسند الطبري عن أبي سعيد قال: «يخرج يأجوج ومأجوج فلا يتركون أحداً إلاَّ قتلوه إلاَّ أهل الحصون، فيمرون على بحيرة طبرية، فيمر أحدهم فيقول: كان هاهنا ماءٌ، فيبعث الله عليهم النَّغف حتى يكسر أعناقهم، فيقول أهل الحصون: لقد هَلَك أعداءُ الله، فيدلُّون رجلاً ينظر فيجدهم قد هلكوا، قال: فينزل الله ماءً من السماءِ فيقذف بهم في البحر فيطهر الأرض منهم»(٤)، وفي حديث حذيفة نحو هذا، وفي آخره: «قال: وعند ذلك طلوع الشمس من مغربها»(٥) ورُوي أن ابن عباس رضي الله عنهما

---

(١) حديث بعث النار أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، وفي تفسير سورة الحج، وفي الرقاق والتوحيد، وأخرجه مسلم في الإيمان والفتن، والترمذي في تفسير سورة الحج، والإمام أحمد في مواضع كثيرة من مسنده.

(٢) تَطَامَنَ: أصلها الهمزة، يقال: تَطَأْمَنَ، وهي مطاوع طَأمنه إذا سكن أو انخفض، وتخفف الهمزة فيقال: تَطَامَنَ. «المعجم الوسيط».

(٣) البيت في اللسان (عَسَلَ)، وقد نسبه إلى لبيد، ثم قال: «وقيل: وهو للنابغة الجعدي»، ونسبه في القرطبي إلى النابغة. وعَسَل الذئب والثعلب يَعْسِل عسلاً وعسلاناً: مضى مسرعاً واضطرب في عدوه، والقاربُ: الذي يسير ليلاً في طلب الماءِ ويكون مسرعاً، ونَسَل: أَسْرَعَ، وأصل النسلان في الذئب ثم استعمل في غيره، يقال: نَسَل ينسل ـ بالكسر ـ وينسُل ـ بالضم ـ نسْلاً ـ بالسكون ـ ونَسَلا ـ بالتحريك: أَسرع في مشيه.

(٤) حديث أبي سعيد الخدري عن يأجوج ومأجوج حديث طويل، والرواية المذكورة هنا أخرجها ابن جرير من طريق ابن عطية، أما الرواية الأخرى فقد قال في الدر المنثور: أخرج أحمد، وأبو يعلى، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: يفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس كما قال الله: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦﴾، فيغشون الناس، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض حتى يتركوها يبساً، حتى إن بعضهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان ههنا مرة ماءٌ.. الخ.

(٥) حديث حذيفة أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، وفي هذا الحديث تفسير للمراد بالنَّغف، إذْ جاء=

رأى صبياناً يلعبون ويَنْزو بعضهم على بعض فقال: هكذا خروج يأجوج ومأجوج.

وقوله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ يريد يوم القيامة، وروي في الحديث «إن الرجل ليتخذ الفلو من بعد يأجوج ومأجوج فلا يبلغ منفعته حتى تقوم الساعة»[١]، وقوله: ﴿هِىَ﴾ مذهب سيبويه أنها ضمير القصة، كأنه قال: فإذا القصة أو الحادثة شاخصة أبصارَ، وجوَّز الفراءُ أن تكون ضمير «الأبصار» تقدمت لدلالة الكلام، ويجيءُ ما يفسِّرها، وأنشد على ذلك:

فـــلا وَأَبِيهَـــا لاَ تَقُـــولُ خَلِيلَتِـــي ... أَلاَ فَرَّ عَنِّي مَالِكُ بنُ أَبِي كَعْبِ[٢]

والشخوص بالعين: إحْدادُ النَّظر دون أن يطرف، وذلك يعتري من الخوف المُفْرط أو علَّة أو نحوه.

وقوله: ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ تقديره: يا ويلنا لقد كانت بنا غفلة عمَّا وجدنا الآن وتبيَّنَّا من الحقائق، ثم تركوا الكلام الأول ورجعوا إلى نقد ما كان يُداخلهم من تعمُّد الكفر وقصد الإعراض فقالوا: ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

هذه مخاطبة لكفار مكة، أي: إنكم وأصنامكم حصب جهنم، و«الْحَصْبُ»:

= فيه: «فيبعث الله عليهم دابة يقال لها: النغف، تدخل في مناخرهم فيصبحون موتى».

(١) أخرجه ابن جرير عن حذيفة رضي الله عنه، ولفظه كما في «الدر المنثور»: «قال: لو أن رجلاً اقتنى فلواً بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة»، والفِلْوُ والفُلُوُّ: الجحش أو المهر يُفطم أو يبلغ السنة. والجمع أفلاءٌ.

(٢) البيت لمالك بن أبي كعب، وهو من شعر يقوله في حرب كانت بينه وبين رجل من بني ظفر. (انظر: «الأغاني»)، والرواية في «معاني القرآن» للفراءِ: «لَعَمْرُو أَبِيها لا تَقُولُ ظعينتي». وكذلك ذكره الطبري، والفراءُ في كتابه «معاني القرآن» يقول: «تكون (هي) عماداً يصلح في موضعها (هو) فتكون كقوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾، ومثله قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، فجاء التأنيث لأن الأبصار مؤنثة والتذكير للعماد، وسمعتُ بعض العرب يقول: كان مرَّةً وهو ينفع الناس أحسابهم، فجعل (هُوَ) عماداً، وإن شئت جعلت (هِيَ) للأبصار، كنِّيت عنها ثم أظهرت الأبصار لتفسرها، كما قال الشاعر: «لَعَمْرُ أبيها. . .» البيت، فذكر الظعينة، وقد كنَّى عنها في (لَعَمْرُ أبيها).

ما توقد به النار، إمَّا لأنها تُحصب به أي تُرمى، وإمَّا أن تكون لغة في الحطب إذا رمى، وأما قبل أن تُرمى فلا يُسمَّى حصباً إلاَّ بتجوُّز.

وقرأ الجمهور: [حَصَبُ] بالصاد مفتوحة، وسكَّنها ابن السَّمَيفع؛ وذلك على إيقاع المصدر موقع اسم المفعول، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأُبي بن كعب، وعائشة، وابن الزُّبير رضي الله تعالى عنهم: [حَطَبُ جهَنَّمَ] بالطَّاءِ، وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: [حَضَبُ جهَنَّمَ] بالضاد منقوطة مفتوحة، وسكَّنها كثير غيره، والحَضَبُ أيضاً ما يُرمى به في النار لتوقد به، والمِحْضَبُ العُودُ الذي تُحَرَّك به النار أو الحديدة ونحوه، ومنه قول الأعشى:

فَـلاَ تَـكُ فِـي حَـرْبِنَـا مِحْضَبـاً ... لِتَجْعَـلَ قَـوْمَـكَ شَتَّـى شُعُـوبَـا[1]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ يريد الأصنام، وحرقها بالنار على جهة التوبيخ لعابدها، ومن حيث تقع ﴿مَآ﴾ لمن يعقل في بعض المواضع اعترض في هذه الآية عبد الله بن الزِّبَعْرىٰ على رسول الله ﷺ فقال: إن عيسى وعُزَير ونحوهما قد عُبدا من دون الله فيلزم أن يكونا حصباً لجهنم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ الآية، ثم قرَّر الأمر بالإشارة إلى الأصنام التي أراها في قوله: ﴿وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ فقال: ﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ﴾، وعبَّر عن الأصنام بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ من حيث هي عندهم بحال من يعقل، و«الوُرودُ» في هذه الآية ورود الدخول.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾.

---

(١) البيت في اللسان (حَضَب، وهو شاهد على أن (المِحْضَب) هو العود الذي تُحَرَّك به النار عند الإيقاد، قال: «والحَضَبُ»: الحطب في لغة اليمن، ومنه قرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿حَضَبُ جَهَنَّمَ﴾ منقوطة، قال الفراءُ: يريد الحصب، وحَضَبَ النار يحضِبُهَا: رفعها، وقال الكسائي: حَضَبْتُ النار إذا خبت فألقيت عليها الحطب لتقد، والمِحْضَب: المِسْعَر، وهو العود الذي تُحَرَّك به النار عند الإيقاد، قال الأعشى: «فَلاَ تَكُ في حَرْبِنَا... البيت». يقول: لا تحرِّك الفتنة وتشعل نار الحرب فتُفَرِّق قومك وتجعلهم شعوباً مختلفة).

الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ عائد على من يعقل ممَّن تُوُعِّد. و«ٱلزَّفِيرُ»: صوتُ المعذَّب، وهو كشهيق الحمير وشبهه إلاَّ أنه من الصدر، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ قالت فرقة: معناه: لا يسمعون خيراً ولا سارّاً من القول، وقالت فرقة: إن عذابهم أن يجُعلوا في توابيت في داخل توابيت أُخر فيصيرون هنالك لا يسمعون شيئاً.

ولمَّا اعترض ابن الزِّبَعْرىٰ بأمر عيسى بن مريم، وعُزَيْر نزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ مُبيِّنة أن هؤلاء ليسوا تحت المراد لأنهم لم يرضوا ذلك ولا دعوا إليه، و«ٱلْحُسْنَىٰ» يريد كلمة الرَّحْمة والحَتْم بالتفصيل. و«ٱلْحَسِيسُ»: الصوت، وهو بالجملة ما يتأدَّى إلى الحسِّ من حركة الأجرام، وهذه صفةٌ لهم بعد دخولهم الجنة، لأن الحديث يقتضي أن في الموقف تزفر جهنم زفرة لا يبقى نبيٌّ ولا مَلَك إلاَّ جثا على ركبتيه.

و«ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ» عامٌّ في كل هول يكون في يوم القيامة، فكأن يوم القيامة بجملته هو الفزع الأكبر، وإن خصص شيءٌ من ذلك فيجب أن يقصد الأعظم هوْله. قالت فرقة في ذلك: هو ذبْح الموت، وقالت فرقة: هو وقوع طبق جهنم على جهنم، وقالت فرقة: هو الأمر بأهل النار إلى إلى النار، وقالت فرقة: هو وقت النفخة الآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا وما قبله من الأوقات أشبه أن يكون فيها الفزع لأنها وقت لرجم الظنون وتعرض الحوادث، فأما وقت ذبح الموت ووقع طبق جهنم فوقت قد حصل فيه أهل الجنة في الجنة، فذلك فزع بيِّن أنه لا يصيب أحداً من أهل الجنة فضلاً عن الأنبياء، اللهم إلاَّ أن يريد: لا يحزنهم الشيءُ الذي هو عند أهل النار فزع أكبر، فأمَّا إن كان فزعاً للجميع فلا بد مما قلنا من أنه قبل دخول الجنة.

وقد ذهب بعض الناس إلى أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ يعُمُّ كل مؤمن[1]، ورُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: عثمان منهم.

---

(١) في القرطبي أنه روي عن النبي ﷺ «ثلاثة يوم القيامة في كثيب من المسك الأذفر، ولا يحزنهم الفزع الأكبر: رجلٌ أمَّ قوماً محتسباً وهم له راضون، ورجل أذَّن لقوم محتسباً، ورجل ابتلي برق في الدنيا فلم يشغله عن طاعة ربه». وهذا حديث لا أصل له.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا مِرْيَة أَنها مع نزولها في خصوص مقصود تتناول كلَّ من سعد في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ يريد بالسلام عليهم والتبشير لهم، أَي: هذا يومكم الذي وعدتم فيه الثواب والنعيم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

قرأَت فرقة: [نَطْوِي] بنون العظمة، وقرأَت فرقة: [يَطْوِي] بياءٍ مفتوحة على معنى: يَطْوِي اللهُ. وقرأَت فرقة: [تُطْوَى] بتاءٍ مضمومة وبرفع [ٱلسَّمَاء] على ما لم يُسَمَّ فاعله.

واختلف الناس في ﴿ٱلسِّجِلِّ﴾ ـ فقالت فرقة: السِّجل: مَلَك يطوي الصحف، وقالت فرقة: السِّجل: رجل كان يكتب للنبي ﷺ. وهذا كله وما شاكله ضعيف. وقالت فرقة: السِّجلُّ: الصحيفة التي يكتب فيها، المعنى: ﴿كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ أَي: كما يطوى السجل من أَجل الكتاب الذي فيه، فالمصدر مضاف إِلى المفعول، ويحتمل أَن يكون المصدر مضافاً إِلى الفاعل، أَي: كما يطوي السِّجلُّ الكتاب الذي هو فيه، فكأَنه قال: يوم نطوي السجل كالهيئة التي فيها طيُّ السِّجلِّ للكتاب، ففي التشبيه تجوُّز.

وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [ٱلسِّجْلَ] بشد السين وسكون الجيم وتخفيف اللام، وفتح أَبو السَّمّال السِّين فقرأَها: [ٱلسَّجِلَ]، وقرأَ أَبو زرعة بن عمرو بن جرير: [ٱلسُّجُلَّ] بضم السِّين وشدها وضم الجيم، وقرأَ الجمهور: [لِلْكِتَابِ]، وقرأَ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: [لِلْكُتُبِ].

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أَن يكون خبراً عن البعث، أَي: كما اخترعنا الخلق أَوّلاً على غيرِ مثال كذلك نُنْشِئُهُم تارة أُخرى فنبعثهم من القبور، والثاني أَن يكون خبراً عن أَنَّ كل شخص يُبعث يوم القيامة على هيئته التي خرج بها إِلى الدنيا، ويؤيد هذا التأْويل أَن رسول الله ﷺ قال: «يُحشر الناس

يوم القيامة حفاةً عُراةً غُرْلاً، كما بدأنا أَوَّل خَلْق نُعيده»(١). والكاف في قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ﴾ متعلِّقة بقوله: ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ تأكيدٌ للأمر، بمعنى أَن الأَمر واجب فيه ذلك.

وقالت فرقة: «ٱلزَّبُور»: اسمٌ يعُمّ جميع الكُتب المُنَزَّلَة لأَنه مأْخوذ من «زَبَرْتُ الْكِتَابَ»: إِذا كَتَبْتُهُ، قالت فرقة: و«ٱلذِّكْرُ» أَراد به اللَّوح المحفوظ، وقال بعضهم: الذِّكر الذي في السماء. وقالت فرقة: الزَّبُورُ هو زبور داود عليه السلام، والذِّكْر أَراد به التوراة، وقالت فرقة: الزَّبور ما بعد التوراة من الكُتب، والذِّكْر التوراة. وقرأَ حمزة وحده: [ٱلزُّبُور] بضم الزاي.

وقالت فرقة: «ٱلأَرْضُ» أَراد بها أَرض الدنيا، أَي كل ما يناله المؤمنون من الأَرض، وقالت فرقة: أَراد أَرض الجنة، واستشهدوا بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقالت فرقة: إِنما أَراد بهذه الآية الإِخبارَ عمَّا كان صنعه مع بني إِسرائيل، أَي: فاعلموا أَنَّا كُنَّا وَفَّيْنَا لهم بما وعدناهم، فكذلك نُنْجز لكم ما وعدناكم من النُّصرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قالت فرقة: الإِشارة بقوله تعالى: ﴿فِى هَٰذَا﴾ إِلى هذه الآيات المتقدمة، وقالت

---

(١) أخرجه مسلم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حُفاة عُراةً غُرلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾، ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام». وروى النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «يُحشَر الناس يوم القيامة حُفاة عُراة غرلاً، أول الخلق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾». وعن عائشة رضي الله عنها أخرج ابن جرير، قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وعندي عجوز من بني عامر، فقال: من هذه العجوز يا عائشة؟ فقلت: إحدى خالاتي، فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال: إن الجنة لا يدخلها العجوز، فأخذَ العجوز ما أخذها، فقال: إن الله تعالى ينشئهن خلقاً غير خلقهن، ثم قال: تحشرون حُفاة عُراةً غُرلاً، فقالت: حاشى لله من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: بلى، إن الله تعالى قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ فأول من يُكسى إبراهيم خليل الرحمن.

فرقة: الإشارة إلى القرآن بجملته، والعبادة تتضمن الإيمان بالله تعالى، وقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ قالت فرقة: عمَّ العالمين وهو يُريد من آمن فقط، وذلك أن النبي ﷺ ليس برحمة على من كفر به ومات على كفره، وقالت فرقة: العالمون عامٌّ ورحمته للمؤمنين بيِّنة، وهي للكافرين بأن الله تعالى رفع عن الأُمم أن يُصيبهم ما كان يصيب القرون قبلهم من أنواع العذاب المستأصِلة كالطوفان وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل الكلام أن يكون معناه: وما أرسلناك للعالمين إلاَّ رحمةً، أي: هو رحمة في نفسه وهدًى، أخذ به مَنْ أخذ، وأعرض عنه مَنْ أعرض.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ﴾ معناه: عرَّفتكم بنذارتي، وأردت أن تُشاركوني في معرفة ما عندي من الخوف عليكم من الله.

ثم أعلمهم بأنه لا يعرف تعيين وقت لعقابهم، بل هو مُتَرَقَّبٌ في القرب والبعد، وهذا أهول وأخوف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائد على الله تعالى، وفي هذه الآية تهديد، أي: يعلم جميع الأشياء الواقعة منكم، وهو بالمرصاد في الجزاءِ عليها.

وقرأ يحيى بن عامر: [وَإِنْ أَدْرِيَ لَعَلَّهُ] [وَإِنْ أَدْرِيَ أَقَرِيبٌ] بفتح الياءِ فيهما، وأنكر ابن مجاهد فتح هذه الياءِ، وَوَجَّهه أبو الفتح[(١)].

---

(١) قال أبو الفتح في كتابه: «المحتسب»: «أنكر ابن مجاهد تحريك هاتين الياءين، وظاهر الأمر لعمري كذلك، لأنها لام الفعل بمنزلة ياء أرمي وأقضي، إلا أن تحريكها بالفتح في هذين الموضعين لشبهة عرضت هناك، وليس خطأً ساذجاً بحتاً.

وذلك أنك إذا قلت: «أدري» فلك هناك ضمير وإن كان فاعلاً، فأشبه آخره مالَكَ فيه ضمير وإن كان مضافاً، مثل غلامي وداري، فلما تشابه الآخِرَان بكونهما ياءين، وهناك أيضاً للمتكلم ضميران، وهما المرفوع في (أدري) والمجرور في (غلامي) أشبه آخِرُ (أدري) ـ لما ذكرنا ـ آخِرَ (غلامي) ففتحت الياءُ في (أدري كما تفتح في نحو (غلامي وداري)

=

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ الضمير فيه عائد على الإملاء لهم، وصَفْح الله تعالى عن عذابهم، وتمادي النعمة عليهم. و﴿فِتْنَةٌ﴾ معناه: امتحانٌ وابتلاءٌ، و«ٱلْمَتَاعُ» ما يُستمتع به مدة الحياة الدنيا.

ثم أَمره الله تعالى أَن يقول على جهة الدعاءِ: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾، والدعاء بهذا هنا فيه توعُّد، أَي: إِن الحق هو نصرتي عليكم، وأَمر الله تعالى بهذا الدعاء دليل على الإِجابة والعِدَة بها.

وقرأَت فرقة: ﴿رَبِّ ٱحْكُم﴾، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [رَبُّ] بالرَّفع على المنادى المفرد، وقرأَت فرقة: [رَبِّي أَحْكَمُ] على وزن أَفْعَل، وذلك على الابتداءِ والخبر، وقرأَت فرقة: [رَبِّي أَحْكَمَ] على أَنه فعل ماض، ومعاني هذه القراءَات بيِّنة.

ثم توكَّل في آخر الآية واستعان بالله تعالى، وقرأَ جمهور القراءِ: [قُلْ رَبِّ ٱحْكُمْ]، وقرأَ عاصم ـ فيما رُوي عنه ـ: [قَالَ رَبِّ ٱحْكُمْ]. وقرأَ ابن عامر وحده: [عَلَى مَا يَصِفُونَ] بالياءِ، وقرأَ الباقون والناس: [عَلَى مَا تَصِفُونَ] بالتاءِ من فوق على المخاطبة.

كمل تفسير سورة الأنبياء والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

= ثم أطال في بيان أوجه الشبه بين الكلمات مهما كانت تبدو لأَول مرة بعيدة ليؤكد أن هناك شبهاً بين الياء في (أدري) والياء في (غُلامي)، ثم قال: فاعرفه معنًى كالعُذْر أو عُذْراً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الحج

هذ السُّورة مكِّيَّة إِلاَّ ثلاث آيات، قوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الحج: ١٩] إلى تمام ثلاث آيات، قاله ابن عباس ومجاهد، ورُوي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنهن أَربع آيات، إلى قوله تعالى: ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، وقال الضحاك: هي مدنية، وقال قتادة: سورة الحج مدنية إلاَّ أَربع آيات، من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الحج: ٥٢]، إلى قوله: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾، فهن مكِّيَّات، وعدَّ النقاش ما نزل بالمدينة عشر آيات، وقال الجمهور: السُّورة مختلطة، منها مكِّي ومنها مدني، وهذا هو الأَصح ـ والله أعلم ـ لأَن الآيات تقتضي ذلك[1]، ورُوي عن أَنس بن مالك أَنه قال: نزل أَول السُّورة في السفر على رسول الله ﷺ فنادى بها فاجتمع الناس إليه، فقال: أَتدرون أَي يوم هذا؟ فبهتوا، فقال: يوم يقول الله: يا آدم أَخرج بعث النار، فيخرج من كل أَلف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال: فاغتم الناسُ، فقال رسول الله ﷺ: «أَبشروا، فمنكم رجل ومن يأْجوج ومأْجوج أَلف رجل. . . الحديث»[2].

---

(١) لأن فيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهو مكي، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهو مدني، قال الغزنوي: «هي من أعاجيب السور، نزلت ليلاً ونهاراً، وسفراً وحضراً، مكيّاً ومدنيّاً، سلميّاً وحربيّاً، ناسخاً ومنسوخاً، محكماً ومتشابهاً، مختلف العدد».

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن أنس رضي الله عنه، أخرج نحوه سعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه من طرق عن الحسن وغيره، عن عمران ابن حصين. وكذلك أخرج نحوهما البزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وحديث (بعث النار) أخرجه أيضاً البخاري عن أبي سعيد الخدري في تفسير هذه السورة (الحج)، وفي الأنبياء، وفي الرقاق، وفي التوحيد، وأخرجه مسلم في الإيمان، وفي الفتن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾.

صدر الآية تحذير لجميع العالم، ثم أَوجب الخبر وأَكَّده بأَمر زلزلة القيامة، وهي إحدى شرائطها، سمَّاها شيئاً لأَنها حاصلةٌ مُتيَقَّن وقوعها يُستسهل لذلك أَن تُسَمَّى شيئاً وهي معدومة؛ إذ اليقين بها يشبه الموجودات، وإمَّا على المآل، أَي هي إذا وقعت شيءٌ عظيم، فكأَنه لم يُطلق الاسم الآن، بل المعنى: إنها إذا كانت فهي حينئذ شيءٌ عظيم.

و«ٱلزَّلْزَلَة»: التحريك العظيم[(١)]، وذلك مع نفخة الفزع، ومع نفخة الصعق حسبما تضمن حديث أبي هريرة[(٢)] من ثلاث نفخات. ومن لفظة الزلزلة قول الشاعر:

يَعْرِفُ الْجَاهِلُ الْمُضَلَّلُ أَنَّ الدَّهْـ ـرَ فِيهِ النَّكْرَاءُ وَالزَّلْزَالُ[(٣)]

فيحتمل أَن تكون الزَّلْزلة في الآية عبارة عن أَهوال يوم القيامة، كما قال: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ﴾[(٤)]، وكما قاله عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ اهزمهم وزلزلهم»[(٥)]،

---

(١) في بعض النسخ «التحريك العنيف».

(٢) هذا حديث طويل، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، وقال عنه: أخرجه عبد بن حميد، وعلي بن سعيد في كتاب «الطاعة والعصيان»، وأبو يعلى، وأبو حسن القطَّان في «المطولات»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو موسى المديني، كلاهما في «المطولات»، وأبو الشيخ في «العظمة»، والبيهقي في «البعث والنشور»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه ثلاث نفخات، نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث.

(٣) يستشهدون بهذا البيت على أَن مصدر الفعل الرباعي المضعف إذا جاء على «فعلال» كان بكسر الفاء، فإذا فُتحت الفاءُ كان اسماً للمصدر وليس مصدراً، نقل صاحب اللسان عن أبي إسحق قوله في الآية الكريمة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾: «المعنى: إذا حُرِّكت حركة شديدة، والقراءَة ﴿زِلْزَالَهَا﴾ بكسر الزاي، ويجوز في الكلام زَلْزَالَهَا»، وليس في الكلام «فَعْلاَل» بفتح الفاءِ إلاَّ في المضاعف نحو الصَّلْصال والزَّلْزال، والزِّلزال بالكسر المصدر، والزَّلزال بالفتح الاسم، وكذلك الوسواسُ المصدر، والوَسْوَاسُ الاسم.

(٤) من الآية (٢١٤) من سورة (البقرة).

(٥) هذا جزءٌ من حديث شريف أخرجه البخاري في الجهاد والمغازي والتوحيد والدعوات، وأخرجه كلٌّ من=

والجمهور على أن زلزلة الساعة هي كالمعهودة في الدنيا إلاَّ أَنها في غاية الشِّدَّة.

واختلف المفسرون في الزلزلة المذكورة، هل هي في الدنيا على القوم الذين تقوم عليهم القيامة، أَم هي في يوم القيامة على جميع العالم؟ فقال الجمهور: هي في الدنيا، والضمير في ﴿تَرَوْنَهَا﴾ عائد على الزَّلْزلة، وقوَّى قولهم أَن الرضاع والحمْل إنما هو في الدنيا، وقالت فرقة: الزَّلْزَلة في يوم القيامة، واحتجت بحديث أَنس المذكور آنفاً؛ إِذْ قرأَ رسول الله ﷺ الآية ثم قال: «إِنه اليوم الذي يقول فيه لآدم: أَخْرج بعث النار».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الحديث لا حُجَّة فيه؛ لأَنه يحتمل أَن النبي ﷺ قرأَ الآية المُتَضَمِّنَة ابتداءَ أَمر السَّاعة ثم قصد في تذكيره وتخويفه إِلى فصل من فصول يوم القيامة فنص ذكره، وهذا من الفصاحة، والضمير عند هذه الفرقة عائد على الساعة، أَي: يوم يرون ابتداءها في الدنيا، فيصح لهم بهذا التأْويل أَلاَّ يلزمهم وجود الرضاع والحمل في يوم القيامة، وإِن أَعادوه على الزَّلْزلة فسد قولهم بما يلزمهم. على أَن النقاش ذكر أَن المراد بـ«كُلِّ ذَاتِ حَمْلٍ» من مات من الإِناث ولدُها في جوفها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

و«الذُّهُولُ»: الغفلة عن الشيءِ بطُروء[1] ما يشغل عنه من همٍّ أَو وجع أَو غيره، قال ابن زيد: المعنى: تترك ولدها للكرب الذي نزل بها. وقرأَ ابن أَبي عبلة: [تُذْهِلُ] بضم التاءِ وكسر الهاءِ ونصب [كُلَّ][2]. ، وأَلحق الهاءِ في ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ لأَنه أَراد فاعلات ذلك في ذلك اليوم فأَجراه على الفعل، وأَمَّا إِذا أَخبرتَ عن المرأَة بأَن لها طفلاً ترضعه

= مسلم والترمذي وابن ماجه في الجهاد، وأخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٥٣ـ٣٥٥، ٣٨١)، ولفظه كما في المسند، عن ابن أبي خالد، وهو إسماعيل، قال: سمعتُ ابن أبي أوفى يقول: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، هازم الأحزاب، اهزمهم وزَلْزِلْهُمْ».

(١) في الأصل: «بطَرَيَان ما يشغل عنه».

(٢) قال الفراءُ في «معاني القرآن»: «ولو قيل: تُذْهِل كلَّ مرضعة، وأنت تريد الساعة أنها تُذْهل أهلها كان وجْهاً، ولم أسمع أحداً قرأ به». هذا وقد قرأ به اليماني أيضاً مع ابن أبي عبلة كما قال صاحب البحر المحيط.

فإنما تقول: «مُرْضِعٌ» مثل «حَامِل»[(١)]، قال عليُّ بن سليمان: هذه الهاءُ في ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ تردُّ على الكوفيِّين قولهم: إن الهاءَ لا تكون فيما لا تلبُّس له بالرجال، وحكى الطبري أن بعض نحويِّي الكوفة قال: أمُّ الصبيِّ مرضعةٌ، والمُسْتأجَرة له مرضعٌ.

و«ٱلْحَمْلُ» بفتح الحاءِ: ما كان في بطنٍ أو على رأسِ شجرة. وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ تشبيه لهم، أي: من الهَمِّ، ثم نفي عنهم السُّكْر الحقيقي الذي هو من الخمر، قاله الحسن وغيره.

وقرأ جمهور القراءِ: ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ بضم السِّين وثبوت الألف، وكذلك في الثاني، وهذا هو الباب، فمرَّةً جعله سيبويه جمعاً، ومرَّةً جعله اسم جمع، وقرأ أبو هريرة بفتح السِّين فيهما، وهذ أيضاً قد يجيءُ في هذه الجموع، قال أبو الفتح: هو تكسير، وقال أبو حاتم: هي لغة تميم، وقرأ حمزة والكسائي: [سَكْرَى] في الموضعين، ورواه عمران بن حُصين، وأبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ، وهي قراءة ابن مسعود، وحذيفة، وأصحاب عبد الله. قال سيبويه: وقوم يقولون «سَكْرَى»، جعلوه مثل «مَرْضَى» لأنهما شيئان يدخلان على الإنسان، ثم جعلوا «رَوْبَى» مثل «سَكْرَى» وهم المستثقلون نوماً من شرب الرائب، وقال أبو علي: ويصح أن يكون [سُكَارَى] جمع «سَكِرٍ» كزَمْنَى وَزَمِنٍ، وقد حكى سيبويه: رجل سَكِرٌ بمعنى سكران، فيجيءُ سَكْرَى حينئذ لتأنيث الجمع، كما العلامة في «طائفة» لتأنيث الجمع. وقرأ سعيد بن جبير: [وَتَرَى ٱلنَّاسَ سَكْرَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى] بالضم والألف. وحكى المهدوي عن الحسن أنه قرأ: [وَتَرَى ٱلنَّاسَ سَكْرَى ومَا هُمْ بِسَكْرَى]، وقرأ الحسن[(٢)]، والأعرج، وأبو

---

(١) قال الخليل ما خلاصته: إذا وصَفْتَ المرأة بفعل هي تفعلُه قلت مُفْعِلَةٌ، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، أما إذا وصفتها بفعل واقع منها أو لازم لها قلت: مُفْعِل، كقولك: امرأةٌ مُطْفِلٌ، أي ذاتُ طِفْلٍ، بلا هاءٍ، وعلى هذا نفهم الوجه في قول امرىء القيس:

فَمِثْلُكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعٍ ... فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمَ مُغْيِلِ

وقول الآخر:

كَمُرْضِعَةٍ أَوْلادَ أُخْرَى وَضَيَّعَتْ ... بَنِي بَطْنِهَا، هَذَا الضَّلالُ عَنِ القَصْدِ

(٢) لم أجد في كتب التفسير من نسب قراءة ﴿سَكْرى﴾ بفتح السين إلى الحسن إلاّ ابن عطية هنا نقلاً عن المهدوي، أمَّا قراءته بالضم ﴿سُكْرى﴾ فقد نسبها له أبو الفتح في المحتسب. وصاحب البحر المحيط. وقد رواها عن الحسن بن مجاهد.

زُرْعة بن عمرو بن جرير في الموضعين: [سُكْرَى] بضم السين، قال أبو الفتح: «هو اسم مفرد كالبُشْرى، وبهذا أفتاني أبو علي، وقد سألته عن هذا»(١). وقرأ أبو زُرْعَة بن عمرو بن جرير، وأبو هريرة، وأبو نُهَيْك: [وتُرَى] بضم التاء، [ٱلنَّاسَ] بالنصب، قال: وإِنَّما هي بحَسَبه(٢)، ورويت هذه القراءة [وتُرى الناسُ] بضم التاءِ والسين، أي: تُرى جماعة الناس(٣).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية. قال ابن جريج: نزلت في النضر بن الحارث، وأُبيِّ بن خلف، وقيل: في أَبي جهل بن هشام، ثم هي بَعْدُ تتناول كلَّ من يتصف بهذه الصفة. و«المُجادَلَةُ»: المُحاجَّة، والمادَّة مأْخوذة من «الْجَدَل» وهو الفَتْل، والمعنى: ﴿يُجَٰدِلُ﴾(٤) في قدرة الله وصفاته(٥). وكان سبب الآية كلامُ من ذُكر في أَن الله تبارك وتعالى لا يبعث الموتى، ولا يقيم الأَجساد من القبور. و«الشَّيْطَانُ» هنا هو مُغْويهم من الجن، ويحتمل أَن يكون الشيطان من الإنس، والإنحاءُ على مُتَّبعيه. و«الْمَرِيدُ»: المتجرِّد من الخير إِلى الشَّرِّ، ومنه الأَمرد، وشجرةٌ مرداءُ أَي عارية من الورق، وصَرْحٌ

---

(١) راجع المحتسب (٢/ ٧٤).

(٢) أي بحسب ظنِّه وتَخَيُّلِهِ، كأنه قال: تظنُّ ويُخيَّل إليك. قال أبو حيان في البحر المحيط: «عُدِّي (تُرَى) إلى مفاعيل ثلاثة، أحدها الضمير المستكن في (تُرَى) وهو ضمير المخاطب مفعول لم يُسَمَّ فاعله، والثاني والثالث ﴿ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾».

(٣) أي أن التأنيث جاء لمعنى الجماعة من الناس.

(٤) زيادة لتوضيح المعنى المراد.

(٥) قيل: كان النضر جدِلاً يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، ولا يقدر الله أن يحيي من بلي وصار تراباً. راجع (أسباب النزول) للسيوطي ١٥٠ من رواية ابن أبي حاتم، وراجع «الدر المنثور» (٤/ ٣٤٤) فقد قال: «أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي مالك، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج مثله».

مُمَرَّد أَي مُمَلَّسٌ من زجاج، وصخرةٌ مرداءُ أَي ملساءُ. والضمير في ﴿عَلَيۡهِ﴾ عائد على «الشَّيْطَان»، قاله قتادة، ويحتمل أَن يعود على «المُجَادل». و﴿أَنَّهُۥ﴾ في موضع رفع على المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله، و﴿أَنَّهُۥ﴾ الثانية عطف على الأُولى مؤكدة مثلها، وقيل: هي مكررة للتأكيد فقط، وهو معترض بأَن الشيءَ لا يؤكد إلاَّ بعد تمامه وتمام ﴿أَنَّهُۥ﴾ الأُولى إنما هو بصلتها في قوله: ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾، وكذلك لا يُعطف عليه، ولسيبويه في مثل هذا أنه بدلٌ، وقيل ﴿أَنَّهُۥ﴾ الثانية خبر ابتداء محذوف تقديره: فشأْنه أَنه يضله، وقدره أَبو علي: فَلَه أَن يُضِلَّه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويظهر لي أَن الضمير في ﴿أَنَّهُۥ﴾ الأُولى للشيطان، وفي الثانية لـ﴿مَنْ﴾ الذي هو المتولي. وقوله: ﴿وَيَهۡدِيهِ﴾ بمعنى: يدلُّه على طريق ذلك، وليست بمعنى الإِرشاد على الإِطلاق. وقرأَ أَبو عمرو: [إِنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ] بالكسر فيهما.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ الآية. هذا احتجاجٌ على العالم بالبدأَة الأُولى، وضرب الله تعالى في هذه الآية مثلين إذا اعتبرهما الناظر جوَّز في العقل البعثة من القبور، ثم ورد خبر الشرع بوجوب ذلك ووقوعه. و«الرَّيْبُ»: الشَّك، وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ﴾ شرط مضمنه التوقيف، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [البعث] بفتح العين، وهي لغة في «البَعْث» عند البصريين، وهي عند الكوفيين تخفيف «بَعْث».

وقوله: ﴿خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ يريد آدم ثم سلَّط الفعل عليهم من حيث هم ذريته، وقوله: ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ يريد المنيَّ الذي يكون من البشر، و«النُّطفة» تقع على قليل الماءِ وكثيره، وقال النقاش: المراد نطفة آدم، وقوله: ﴿ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ يريد من الدَّم الذي تعود النُّطفة إِليه في الرَّحِم، أَو المقارن للنطفة، و«الْعَلَقُ»: الدَّم العبيط، وقيل: «العَلَق»: الشديد الحمرة، فسمي الدَّم لذلك، وقوله: ﴿ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ﴾ يريد بضعة لحم على قدر ما يُمضغ، وقوله: ﴿مُّخَلَّقَةٖ﴾ معناه: مُتَمَمَة الْبِنْيَة ﴿وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ غير مُتَمَمة، أَي التي تسقط، قاله مجاهد، وقتادة، والشعبي، وأَبو العالية، فاللفظة بناءُ مبالغة من «خَلَق»، ولمَّا كان الإِنسان فيه أَعضاءٌ متباينة وكلٌّ منها مختص بخَلْق حَسُنَ في جملته تضعيف الفعل لأَن فيه خَلْقاً كثيرة، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [مُخَلَّقَةً] بالنصب [وَغَيْرَ] بالنصب في الراءِ.

ويتصل بهذا الموضع من الفقه أَن العلماءَ اختلفوا في أُمِّ الولد إِذا أَسقطت بضْعَة لم تُصَوَّر، هل تكون أُمَّ ولد بذلك؟ فقال مالك، والأَوزاعي، وغيرهما: هي أُمُّ ولد بالمضغة إِذا علم أَنها مضغة الولد، وقال الشافعي، وأَبو حنيفة: حتى يتبيَّن فيه خلق ولو عضو واحد.

وقوله: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، قالت فرقة: معناه: لنبين أَمر البعث، فهو اعتراض بين الكلامين، وقرأَت هذه الفرقة بالرَّفع في [نُقِرُّ]، والمعنى: ونحن نُقِرُّ، وهي قراءة الجمهور. وقالت فرقة: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ معناه: تكون المضغة غير مُخَلَّقَة وطرح النِّساء إِيَّاها كذلك نُبَيِّن للناس أَن المناقل في الرَّحِم هي هكذا، وقرأَت هذه الفرقة: [وَنُقِرَّ] بالنصب، وكذلك قرأَت: [نُخْرِجَكُمْ] بالنصب، وهي رواية المفضل عن عاصم، وحكى أَبو عمرو الداني أَن رواية المفضل هذه هي بالياءِ في ﴿يُقِرُّ﴾ ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾، والرفع على هذا التأْويل شائع، ولا يجوز النصب على التأْويل الأَول. وقرأَ ابن وثاب: [مَا نِشَاءُ] بكسر النون. و«الأَجَلُ المُسَمَّى» هو مختلف بحسب جنينٍ جنينٍ، فَثَمَّ من يسقط، وثَمَّ من يَكْمُل أَمْرُه ويخرج حياً.

واختلف الناس في «الأَشُدِّ» من ثمانية عشر، إِلى ثلاثين، إِلى اثنين وثلاثين، إِلى ستة وثلاثين، إِلى أَربعين، إِلى خمسة وأَربعين، واللَّفظة تُقال باشتراك، فأَشُدُّ الإِنسان على العموم غير أَشُدِّ اليتيم الذي هو الاحتلام[1]. و«الأَشُدُّ» في الآية يحتمل المعنيين، والرَّدُّ إِلى أَرذل العمر هو حصول الإِنسان في زمانةٍ[2] واختلال قوة حتى لا يقدر على إِقامة الطاعات، واختلال عقل حتى لا يقدر على إِقامة ما يلزمه من المعتقدات، وهذا أَبداً يلحق مع الكبر، وقد يكون أَرذل العمر في قليل من السن بحسب شخص مَّا لحقته زمانة، وقد ذكر عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَن أَرذل العمر خمس وسبعون سنة، وهذا فيه نظر، وإِن صحَّ عن علي رضي الله عنه فلا يتوجه إِلاَّ أَن يريد: على الأَكثر، فقد نرى كثيراً أَبناءَ ثمانين سنة ليسوا في أَرذل العمر، وقرأَ الجمهور: [الْعُمُرِ]

---

(١) يريد أن أَشُدَّ الإنسان على العموم هو الاحتلام، وهو غير الذي أَشُدُّ اليتيم يراد به: القدرة على التصرف وحسن إدراك الأمور، لقوله تعالى في الآية (١٥٢) من سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ راجع المجلد الثالث ص٤٩٢.

(٢) الزَّمانة: المرض.

مشبعة، وقرأ نافع: [ٱلْعُمْرِ] مخففة الميم، واختلف عنه.

وقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ﴾ أي: لينسى معارفه وعِلْمه الذي كان معه فلا يعلم من ذلك شيئاً، فهذا مثال واحد يقضي للمُعْتَدِّ به أن القادر على هذه المناقل المُتْقِن لها قادرٌ على إعادة تلك الأجساد التي أوجدها بهذه المناقل إلى حالها الأُولى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾.

هذا هو المثال الذي يعطي للمعتبر فيه جواز بعث الأجساد، وذلك أن إحياء الأرض بعد موتها بيِّن، وكذلك الأجساد، و﴿هَامِدَةً﴾ معناها: ساكنة ودارسة بالية، ومنه قيل: همد الثوبُ إذا بلي، قال الأعشى:

قَالَتْ قُتَيْلَةُ مَا لِجِسْمِكَ شَاحِباً ... وَأَرَى ثِيَابَكَ بَالِيَاتٍ هُمَّداً[1]

و«اهتِزاز الأَرض» هو حركتها بالنبات وغير ذلك مما يعتريها بالماءِ، و﴿ربت﴾ معناه: نشرت وارتفعت، ومنه الربوة، وهي المكان المرتفع، وقرأ أبو جعفر بن القَعْقَاع[2]: [وَرَبَأَتْ] بالهمز، ورويت عن أبي عمرو، وقرأها عبد الله بن جعفر[3]،

---

(١) قال الأعشى هذا البيت من قصيدة خاطب بها كسرى حين أراد منهم رهائن بعد أن أغار الحارث بن وعلة على بعض السواد، ومطلعها:

أَثْوَى وَقَصَّرَ لَيْلَةً لِيُزَوَّدَا ... وَمَضَى وَأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْلَةَ مَوْعِدَا

ورواية الديوان: «مَا لِجِسْمِكَ سَايِئاً» أي يسوءُ من يراك. والثوبُ الهامد: المتقطع من طول طيِّه، ينظر إليه الناظر فيحسبه سليماً، فإذا لمسه تناثر قطعاً من البلَى. وهذا هو الشاهد هنا.

(٢) هو أبو جعفر القارىء المدني المخزومي، مولاهم، اسمه يزيد بن القَعْقَاع، وقيل: بل اسمه جندب بن صيرور، وقيل: فيروز، قال عنه الحافظ العسقلاني في «تقريب التهذيب»: «وهو ثقة، من الرابعة، مات سنة سبع وعشرين، وقيل: سنة ثلاثين».

(٣) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي، أحد الأجواد، ولد بأرض الحبشة، وله صحبة، مات سنة ثمانين وله من العمر ثمانون سنة.

وخالد بن إلياس[١]، وهي غير وجيهة، وَوَجْهُها أَن تكون من: «رَبَأْتُ القَوْمَ» إذا علوتَ شرفاً من الأَرض طليعة، فكأَن الأَرض بالماءِ تتطاول وتعلو[٢]. و«الزَّوْجُ»: النوع، و«الْبَهِيجُ» فَعِيلٌ من البهجة وهي الحُسْن، قاله قتادة وغيره.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره، فـ﴿ذَٰلِكَ﴾ ابتداءٌ، وخبره ﴿بِأَنَّ﴾، أَي: هو بأن الله حقٌّ مُحْيِي قادِرٌ، وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ ليس بسبب لما ذُكِرَ، لكن المعنى أَن الأَمر مرتبط بعضه ببعض، أَو على تقدير: والأَمْرُ أَن الساعة.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾ الآية. الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ إلى القوم المتقدم ذكرهم، وحكى النقاش عن محمد بن كعب أَنه قال: نزلت هذه الآية في الأَخنس بن شريق، وكرر هذه على جهة التوبيخ، فكأَنه يقول: وهذه الأَمثال في غاية الوضوح والبيان، ومن الناس مع ذلك مَنْ يجادل، فكأَن الواو واو الحالِ، والآية المتقدمة الواوُ فيها واو عطفت جملة الكلام على ما قبلها، والآية على معنى الإخبار، وهي هاهنا مكررة للتوبيخ، و﴿ثَانِىَ﴾ حالٌ من الضمير في ﴿يُجَٰدِلُ﴾، ولا يجوز أَن يكون مِنْ ﴿مَن﴾ لأَنها ابتداءٌ، والابتداءُ عمله الرفع لا النصب، وإضافة ﴿ثَانِىَ﴾ غير مُعْتَدٍّ بها؛ لأَنها في معنى الانفصال إِذْ تقديرها: ثانياً عِطْفَهُ. وقوله سبحانه: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ عبارة عن المتكبر المُعْرِض، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك أَن صاحب الكِبْر يرُدُّ وجهه عما يتكبَّر عنه، فهو يرَدُّ وجهه يصعِّر خدَّه ويلوي عنقه، ويثني عطفه، وهذه هي عبارات المفسرين. و«العِطْفُ»: الجانب. وقرأَ الحسن: [عَطْفِهِ] بفتح العين، والعِطَافُ: السيف؛ لأَن صاحبه يَتَعَطَّفُه، أَي يصله

---

(١) هو خالد بن إلياس ـ وقيل: ابن إياس ـ بن صخر بن أبي الجهم بن حذيفة، أبو الهيثم العدوي، المدني، إمام المسجد النبوي، قال عنه الحافظ العسقلاني في «تقريب التهذيب»: «متروك الحديث، من السابعة».

(٢) الطليعة الذي يبعثه القوم يقال له: رَبِيءٌ ورَبِيئَةٌ، قال الشاعر:

بَعَثْنَا رَبِيئاً قَبْلَ ذَلِكَ مُخْمَلاً ... كَذِئْبِ الغَضَا يَمْشِي الضَّراءَ وَيَتَّقِي

والأصل أن يؤنث لأنه يقال له: العَيْن إذ هو ينظر بعينه، والعين مؤنثة، أما من ذكَّره فعلى أنه نقل من الجزءِ إلى الكُلِّ. قال ذلك سيبويه. راجع اللسان.

بجنبه[١]. وقرأ الجمهور: [لِيُضِلَّ] بضم الياءِ، وقرأَ مجاهد وأَهل مكة: [لِيَضِلَّ] بفتح الياءِ، وكذلك قرأَ أَبو عمرو. و«الخِزْيُ»: الذي تُوُعِّدَ به النضرُ بن الحارث صدق في أَسره يوم بدر، وقَتْلِهِ صَبْراً[٢]، و«الْحَرِيقُ»: طبقة من طبقات جهنم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ بمعنى: يقال له، ونسب التقديم إِلى اليدين إِذْ هُما آلة الاكتساب، واختلف في الوقف على ﴿يَدَاكَ﴾ ـ فقيل: لا يجوز لأَن التقدير: «وبأَن الله»، أَي أَنَّ هذا هو العدل فيك بجرائمك، وقيل: يجوز بمعنى: والأَمْر أَن الله تعالى ليس بظَلاَّمٍ. و«الْعَبِيد» ذُكر هنا في معنى مسكنتهم وقلَّة قدرتهم، فلذلك جاءَت هذه الصيغة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾.

وهذه الآيات نزلت في أَعراب وقوم لا يقين لهم، كان أَحدهم إِذا أَسلم فاتفقت له اتصافات حسان من نُمُوٍّ مالٍ وولد ذَكَرٍ يُرْزقه وغير ذلك قال: هذا دين جيِّدٌ، وتمسَّك به لهذه المعاني، وإِن كان الأَمر بخلافٍ تشاءم به وارتد كما صنع العُرَنِيُّون[٣] وغيرهم. قال هذا المعنى ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ معناه: على انحراف منه عن العقيدة البيضاء، أَو على شَفَا منها[٤]، مُعَدٌّ للزهوق، و«الفِتْنَةُ»: الاختبار، وقوله: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ عبارةٌ

---

(١) في اللسان (عطف): «العِطَافُ: السيف؛ لأن العرب تسميه رداءً، قال الشاعر:

وَلاَ مَالَ إِلاَّ عِطَافٌ وَمِدْرَعٌ   لَكُمْ طَرَفٌ مِنْهُ حَدِيدٌ وَلِي طَرَفُ

يريد بالطرف الأول حدَّه الذي يُضْرَب به، وبالطرف الثاني المِقْبض الذي يمسك به».

(٢) في الأصول: «وقتله بالصفراء»، والمعروف أن النبي ﷺ قتل النضر بن الحارث يوم بدر صبراً.

(٣) بنو عَرِين: بَطْنٌ من تميم، وعُرَيْنة ـ مُصَغَّرٌ ـ: بطنٌ من بَجيلة، وفي اللسان: «العُرَنِيُّونَ مثالُ الجُهَنِيِّين: ارتدُّوا فقتلهم النبي ﷺ».

(٤) الشَّفا: حَرْفُ الشيءِ وحدُّه، قال تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾، وقال: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

للمُوَلِّي عن الأمور. و«خَسَارَته الدنيا والآخرة» أما الدنيا فبالمقادير التي جرت عليه، وأَما الآخرة فبارْتداده وسوءِ معتقده. وقرأ مجاهد، وحمزة، والأعرج: [خَاسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةَ] نصباً على الحال.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَا يَضُـرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ يريد الأوثان، ومعنى ﴿يَدْعُوا﴾: يعبد، ويدعو أَيضاً في مُلِمَّاتِهِ. واختلف الناس في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ ـ فقالت فرقة من الكوفيين: اللام مُقَدَّمة على موضعها، وإِنما التقدير: يدعو من يضره، ويؤيد هذا التأويل أَن عبد الله بن مسعود قرأَ: [يَدْعُو مَنْ ضَرُّه]، وقال الأَخفش: ﴿يَدْعُوا﴾ بمعنى يقول: و﴿مَنْ﴾ مبتدأ، و﴿ضَرُّهُۥٓ﴾ مبتدأ، و﴿أَقْرَبُ﴾ خبره، والجملة صلة، وخبر ﴿مَنْ﴾ محذوف، والتقدير: يقول: لمن ضرُّه أَقرب من نفعه إِلهٌ، وشبه هذا بقول عنترة:

يَـدْعُـونَ عَنْتَـرَ وَالـرِّمَـاحُ كَـأَنهـا . . . .(١)

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول فيه نظر، فتأَمل إِفساده للمعنى إِذْ لم يعتقد الكافر قط أَن ضرر الأَوثان أَقرب من نفعها، واعتذار أَبي عليٍّ هنا مموه، وأَيضاً فهو لا يشبه البيت الذي استشهد به(٢). وقيل: المعنى في (يدعو) يُسَمِّي، وهذا كالقول الذي قبله إِلاَّ أَن المحذوف آخراً مفعول تقديره: إِلهاً(٣). وقال الزجاج: يجوز أَن يكون ﴿يَدْعُوا﴾ في موضع الحال وفيه هاءٌ محذوفة، والتقدير: ذلك هو الضلال البعيد، أَي: يدعوه، فيوقف على هذا(٤). قال أَبو علي: ويحسن أَن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ بمعنى «الذي»، أَي: الذي هو

---

(١) هذا صدر بيت من المعلقة، والبيت بتمامه:

يَـدْعُـونَ عَنْتَـرَ وَالـرِّمَـاحُ كَـأَنَّهَـا أَشْطَـانُ بِئْـرٍ فِـي لِبَـانِ الأَدْهَـمِ

والأشطان: جمع شَطَن وهو حبل البئر، واللَّبَان ـ بفتح اللام ـ: الصدر، والأدهم: الفرس، يقول: إن الرماح في صدر هذا الفرس بمنزلة حبال البئر من الدلاءِ، لأن البئر إذا كانت كثيرة الجَرَفَة اضطربت الدلو فيها فيجعل لها حبلان حتى لا تضطرب.

(٢) وعلى هذا الرأي يكون قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ مستأنفاً لأنه لا يصح دخوله في الحكاية لأن الكفار لا يقولون عن أصنامهم: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾.

(٣) وهذا لا يتم إلاَّ بتقدير زيادة اللام، أي: «يدعو من ضَرُّه».

(٤) وقَدَّر «يَدْعُوه» مَدْعُوّاً، ولهذا قيل: هذا الرأي ضعيف؛ لأن «يدعوه» لا يقدر «مَدْعُوّاً»، إنما يقدر «داعياً».

الضلال البعيد يدعو، فيكون قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ موصولاً بقوله: ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾، ويكون ﴿يَدْعُوا۟﴾ عاملاً في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كون ﴿ذَٰلِكَ﴾ بمعنى «الذي» غير سهل[1]، وشبهه المهدوي بقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾[2]. وقد يظهر في الآية أن يكون قوله: ﴿يَدْعُوا۟﴾ متصلاً بما قبله، ويكون فيه معنى التوبيخ، كأنه قال: يدعو من لا يضر ولا ينفع، ثم كرَّر ﴿يَدْعُوا۟﴾ ـ على جهة التوبيخ ـ غيرَ مُعَدًّى؛ إذْ قد عُدِّي في أول الكلام، ثم ابتدأ الإخبار بقوله: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ واللام مُؤذنة بمجيءِ القسم، والثانية التي في ﴿لَبِئْسَ﴾ لام القسم وإن كان أبو علي مال إلى أنها لام الابتداءِ والثانية لام اليمين، ويظهر أيضاً في الآية أن يكون المراد: «يَدْعُو من ضرُّه»، ثم علَّق الفعل باللام، ويصحُّ أن يقدَّر هذا الفعل من الأفعال التي تعلَّق وهي أفعال النفس كظننت وحسبت، وأشار أبو عليٍّ إلى هذا وردَّ عليه.

و«ٱلْعَشِيرُ»: القريب المعاشر في الأمور، وذهب الطبري إلى أن المراد بـ«ٱلْمَوْلَى» و«ٱلْعَشِيرِ» هو الوثن الذي ضرُّه أقرب من نفعه، وهو قول مجاهد، والله أعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

لمَّا ذَكَر الله تبارك وتعالى من يعبد الله على حرف وسفَّه رأيهم وتوعَّدهم بخسارة

---

(١) وقال أبو حيان في البحر تعليقاً على رأي أبي عليٍّ هذا: «وهو لا يصح إلاَّ على قول الكوفيين؛ إذ يجيزون في اسم الإشارة أن يكون موصولا، والبصريون لا يجيزون ذلك إلاَّ في «ذا» بشرط أن يتقدمها الاستفهام بـ(ما) أو (من).

(٢) الآية (١٧) من سورة طه ـ ووجه الشبه أن ﴿تِلْكَ﴾ في هذه الآية اسم إشارة بمعى «الذي»، كأنه قال: ما الذي بيمينك؟ فرأي المهدوي يعود إلى ما ذكره أبو عليٍّ من أن ﴿ذَٰلِكَ﴾ في آيتنا بمعنى «الذي» وهي في محل نصب بوقوع ﴿يَدْعُوا۟﴾ عليه، ويكون قوله: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ كلام مستأنف.

الآخرة، عقَّب ذلك بذكْر حالة مخالفيهم من أَهل الإيمان، وذِكْر ما وعدهم به من إدخاله إيَّاهم الجنة، ثم أَخذت الآية في توبيخ أُولئك الأَولين وإسلامهم إلى رأْيهم وإحالتهم على ما فيه عنتهم وليس فيه راحتهم، كأَنه يقول: هؤلاءِ العابدون على حرف صحبهم القَلَق وظنُّوا أَن الله تعالى لن ينصر محمداً عليه الصلاة والسلام وأَتباعه، ونحن إنما أَمرناهم بالصبر وانتظار وعدنا، فمن ظنَّ غير ذلك فليمدد بسبب وليختنق وينظر هل يذهب بذلك غيظه؟ قال هذا المعنى قتادة، وهو على جهة المثل السائر، قولهم: «دونك الحبل فاختنق»، يقال ذلك للذي يريد من الأَمر ما لا يمكنه.

و«السَّبَبُ»: الحبل، والنَّصْرُ معروف، إِلاَّ أَنَّ أَبا عبيدة ذهب به إلى معنى الرِّزْق، كما قالوا: «أَرْض منصورة» أَي ممطورة[1]، وكما قال الشاعر:

وَإِنَّــكَ لاَ تُعْطِـي امْـرَءًا فَـوْقَ حَقِّـه ... وَلاَ تَمْلِكُ الشِّقَّ الَّذِي الْغَيْثُ نَاصِرُه[2]

وقال: وقف بنا سائل من بني أَبي بكر فقال: من ينصرني ينصره الله، و«السَّمَاءُ» ـ على هذه الأَقوال ـ: الهواءُ عُلُوّاً، فكأَنه أَراد: سقْفاً أَو شجرةً أَو نحوه، وقال ابن زيد: السماءُ هي المعروفة، وذهب إلى معنى آخر، كأَنه قال لمن يظن أَن الله لا ينصر محمداً: إنْ كنتَ تظن ذلك فامدد سبباً إلى السماء واقطعه إن كنت تقدر على ذلك، فإن عجزت فكذلك لا تقدر على قطع سبب محمد عليه الصلاة والسلام من السماء؛ إذْ نصرته من هنالك، والوحي الذي يأْتيه.

---

(١) في اللسان: «قال ابن الأعرابي: النَّصْرَةُ: المَطَرَةُ التامة، وقال أبو عبيد: نُصرت البلادُ إذا مُطرت، ونُصر القوم إذا غيثوا، وفي الحديث: إن هذه السحابة تنصر أرض بني كعب، أي تمطرهم».

(٢) البيت للْفَقْعَسي، وفقعس حيٌّ من بني أسد، أبوهم فَقْعَس بن طريف بن عمرو بن الحارث، واسمه: المَرَّارُ ـ بفتح الميم وتشديد الراءِ الأولى ـ ينسب تارة إلى فقعس أحد أقرباء آبائه الأقربين، وتارة إلى جده الأعلى: أسد بن خزيمة بن مدركة. وفي «المؤتلف والمختلف» للآمدي إنه المَرَّار بن سعيد بن حبيب... إلى أن ينتهي بفقعس بن طريف. والشاهد في البيت قوله: «الغيث ناصِرُه»، والناصر هو ما جاء من مكان بعيد إلى الوادي، يقال: نصر البلاد إذا أتاها، ونصرت أرض بني فلان أي أتيتها، ونصر الغيث الأرض: أغاثها وسقاها وأنبتها، قال الشاعر:

مَـنْ كَـانَ أَخْطَـأَهُ الـرَّبِيـعُ فَـإِنَّمَـا ... نُصِـرَ الْحِجَـازُ بِغَيْـثِ عبـد الـوَاحـد

راجع اللسان (نصر).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

و«الْقَطْعُ» ـ على هذا التأويل ـ ليس بالاختناق، بل هو جَزْم السبب، وفي مصحف ابن مسعود: [ثُمَّ لْيَقْطَعْهُ بِهَا]، والجمهور على أَن القطع هنا هو الاختناق. قال الخليل: «وَقَطَعَ الرَّجُلُ» إذا اختنق بحبل أَو نحوه، ثم ذكر الآية.

وتحتمل الآية معنى آخر، وهو أَن يراد به الكفار وكل من يغتاظ بأَن ينصره الله ويطمع أَلاَّ يُنْصَر، قيل لهم: من ظنَّ أَن هذا لا يُنْصر فليمت كمداً، هو منصور لا محالة، فليختنق هذا الظَّانُّ غيظاً وكمداً، ويؤيد هذا أَن الطبري والنقاش قالا: ويقال: نزلت في نفر من بني أَسد وغطفان قالوا: نخاف أَن يُنصر محمد فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من يهود من المنافع.

والمعنى الأَول الذي قيل للعابدين على حرف ليس بهذا، ولكنه بمعنى: مَنْ قَلِقَ واستبطأَ النصر وظن أَن محمداً عليه الصلاة والسلام لا يُنصر فليختنق سفاهةً إِذْ تعدَّى الأَمر الذي حُدَّ له في الصبر وانتظار صنع الله تعالى. وقال مجاهد: الضمير في ﴿يَنصُرَهُ﴾ عائد على ﴿مَن﴾، والمعنى: من كان من القلقين من المؤمنين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والضمير في التأْويل الذي ذكرناه في أَن يُراد الكفار لا يعود إِلاَّ على النبي ﷺ فقط. وقالت فرقة: الضمير عائد على الدِّين والقرآن.

وقرأَ أَبو عمرو، وابن عامر: [لِيَقْطَعْ فَلِيَنْظُر] بكسر اللام فيهما على الأَصل، وهي قراءة الجمهور، وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي بسكون اللام فيهما وفي لام الأَمر في كل القرآن مع الواو والفاءِ وثُمَّ، واختُلف عن نافع، وهي قراءة الحسن، وأَبي عمرو، وعيسى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

أَما الفاءُ والواو ـ إِذا دخلت (إِحداهما)[1] على لام الأَمر ـ فحكى سيبويه أَنهم يرونها كأَنها من الكلمة فسكون اللام تخفيف، وهو أَفصح من تحريكها، وأَمَّا «ثُمَّ» فهي كلمة مستقلَّة فالوجه تحريك اللام بعدها.

---

(١) ما بين العلامتين (. . .) زيادة لسلامة التعبير وللتوضيح.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد رأَى بعض النحويين الميم من «ثُمَّ» بمنزلة الفاء والواو.

وقوله: ﴿مَا يَغِيظُ﴾ يحتمل أَن تكون ﴿مَآ﴾ بمعنى الذي، وفي ﴿يَغِيظُ﴾ عائد عليها، ويحتمل أَن تكون مصدرية حرفاً فلا عائد عليها، و«الكَيْدُ» هو مده السبب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَبْيَن وجوه هذه الآية أَن تكون مثلاً، ويكون النصر المعروف، والقطعُ الاختناقُ، والسماءُ الارتفاعُ في الهواءِ بسقف أَو شجر أَو نحوه فتأَمَّله.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ إلى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، المعنى: وكما وعدنا بالنصر وأَمَرْنَا بالصبر كذلك أَنزلنا القرآن آية بيِّنةً لمن نظر واهتدى، لا ليُقترح معها ويُستعجل القَدَر، وقال الطبري: المعنى: كما بيَّنْتُ حُجَّتي على من جَحَدَ قُدرتي على إحياء الموتى كذلك أَنزلناه. والضمير في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ عائد على القرآن، وجاءت هذه الضمائر هكذا وإِنْ لم يتقدَّم لها ذكر لشُهْرة المشار إِليه نحو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾(١) وغيره.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ في موضع خبر الابتداء، والتقدير: والأَمر أَن الله يهدي من يريد، وهداية الله تبارك وتعالى هي خلْقُه الرَّشاد والإِيمان في نفس الإِنسان.

ثم أَخبر الله تعالى عن فعله بالفِرَق المذكورين وهم المؤمنون بمحمد ﷺ وغيره. واليهود. والصابئون. وهم قوم يعبدون الملائكة ويستقبلون القِبْلَة ويوحدون الله ويقرؤون الزبور، قاله قتادة. والنصارى. والمجوس وهُمْ عَبَدَةُ النار والشمس والقمر. والمشركون وهم عَبَدَة الأَوثان. قال قتادة: الأَديان ستَّة، خمسة للشيطان وواحد للرَّحمن. وخبر ﴿إِنَّ﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾، ثم دخلت ﴿إِنَّ﴾ على الخبر مؤكدة، وحَسُن ذلك لطول الكلام فهي وما بعدها خبر ﴿إِنَّ﴾ الأُولى، وقرن الزجاج هذه الآية بقول الشاعر:

إِنَّ الْخَلِيفَـةَ إِنَّ اللهَ سَـرْبَلَـهُ ... سِرْبَالَ مُلْكٍ بِهِ تُرْجَى الخَوَاتِيمُ(٢)

---

(١) من الآية (٣٢) من سورة (ص).

(٢) هذا البيت لجرير، وهو من قصيدة يمدح بها عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك، ويُروى البيت: «يَكْفِي=

نقله الطبري.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس هذا البيت كالآية لأن الخبر في البيت قوله: «به تُرْجى الخواتيم»، و(إِن) الثانية وجملتها معترضة بين الكلامين. ثُمَّ تمَّ الكلام في قوله تعالى: ﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، واستأنف الخبر عن أَن الله تبارك وتعالى على كل شيء شهيدٌ وعالم به، وهذا خبر مناسب للفصل بين الفِرَق، وفَصلُ الله تعالى بين هذه الفِرَق هو بإِدخال المؤمنين الجنة والكافرين النار.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنبيهٌ، من رؤْية القلب، وهذه آية إِعلام بتسليم المخلوقات جميعها لله تعالى وخضوعها. وذكر في الآية كلَّ ما عَبَدَ الناس إِذْ في المخلوقات أَعظمُ ممَّا ذكر كالبحار والرياح والهواءِ، فـ﴿مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾: الملائكة، و﴿مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من عُبد من البشر. و«الشَّمس» كانت تعبدها حمير، وهم قوم بلقيس، و«الْقَمَرُ» كانت كنانة تعبده، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكانت تميم تعبد الدَّبران، وكانت لَخم تعبد المشترى، وكانت طي تعبد الثُّريَّا، وكانت قريش تعبد الشِّعرى، وكانت أَسد

= الخَلِيفَةَ أَنَّ اللهَ سَرْبَلَهُ»، ويُروى أيضاً: «بِهِ تُزْجَى الْخَوَاتِيمُ»، بمعنى: تُساق خواتيم الإمارة، والسِّرْبَال: القميص، وفي اللسان بعد أن ذكر البيت عن الزجاج قال: «إنَّما جمع خاتماً على خواتيم اضطراراً»، وقيل: إن خواتيم جمع خَاتَام، وهي لغة في الخاتِم، فهو الخَتْم والخاتِمُ والخاتَم والخَاتَام والخَيتَام، والبيت شاهد على أن [إنَّ] دخلت على جزأي الجملة، أي على المبتدأ والخبر لزيادة التأكيد، وحسَّن ذلك طولُ الفصل في الكلام، على أنه يجوز في البيت وجه آخر لا يجوز في الآية، وهو أن يكون خبر [إنَّ] الأولى هو قول الشاعر: «بِهِ تُرْجَى الْخَوَاتِيمُ»، وجملة «إِنَّ اللهَ سَرْبَلَهُ» جملة معترضة بين اسم (إِنَّ) وخبرها. راجع «خزانة الأدب» و«شرح شواهد الكشاف».

تعبد عُطارد، وكانت ربيعة تعبد المرزم، و«الجبال والشَّجر» منها النار وأَصنام الحجارة والخشب، و«الدَّوابُّ» منها البقر وغير ذلك ممَّا عُبد من الحيوان كالديك ونحوه.

وا«السُّجُودُ» في هذه الآية هو بالخضوع والانقياد للأَمر، وهذا كما قال الشاعر:

. . . . تَرَى الأُكْمَ فِيهَا سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ(١).

وهذا مما يتعذر فيه السجود المتعارف. قال مجاهد: سجود هذه الأَشياءِ هو بطلانها، وقال بعضهم: سجودها هو بظهور الصنعة فيها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا وهم، وإِنما خلط هذه الآية بآية التسبيح، وهنالك يحتمل أَن يقال: هي بآثار الصنعة.

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ يحتمل أَن يكون معطوفاً على ما تقدَّم، أَي: وكثير حق عليه العذاب سَجَدَ، أَي كراهيةً وعلى رَغْمِه، إِمَّا بِظِلِّه وإِمَّا بخضوعه عند المكاره ونحو ذلك، قاله مجاهد، وقال: سجوده بظلِّه، ويحتمل أَن يكون رفعاً بالابتداءِ مقطوعاً ممَّا قبله، وكأَن الجملة معادلةٌ لقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ لأَن المعنى أَنهم مرحومون بسجودهم، ويؤيد هذا قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ الآية.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ بكسر الراءِ، وقرأَ ابن أَبي عبلة بفتح الراءِ على معنى: من موضع، أَو على أَنه مصدر كمدخل، وقرأَ جمهور الناس: ﴿وَٱلدَّوَابُّ﴾ مشدَّدة الباءِ، وقرأَ الزهري وحده مخففة الباءِ، وهي قليلة ضعيفة، وهي تخفيف على

---

(١) هذا عجز بيت قاله زيد الخيل، والبيت بتمامه:

بِجَمْعٍ تَضِلُّ الْبُلْقُ فِي حَجَرَاتِهِ ... تَرَى الأُكْمَ فِيها سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ

والبَلَق: سوادٌ وبياضٌ في الدابة، أو هو ارتفاع التحجيل الفخذين، والحَجَرَات: النواحي، والأَكَمَة: المكان المرتفع، وجمعها أكمات وأَكَمَ، وجمع الأكم إكامٌ، وجمع الإكام: أُكُمٌ، وتخفف هذه فيقال أُكْمٌ، وسجود الأكم للحوافر كناية عن خضوعها لها لأن السجود بمعناه المتعارف عليه غير ممكن في الأَكَم.

هذا وزيد الخيل شاعر من طيىء، جاهلي وأدرك الإسلام، ووفد على النبي ﷺ، وسماه «زيد الخير» وقال له: «مَا وُصِفَ لي أحد في الجاهلية فرأيته في الإسلام إلاَّ رأيته دون الصفة ليسك».

غير قياس كما قالوا: ظَلْتُ وأَحَسْتُ، وكما قال علقمة:

كَأَنَّ إِبْرِيقَهُمْ ظَبْيٌ عَلَى شَرَفٍ ... مُفَدَّمٌ بِسَبَا الْكَتَّانِ مُلْثُومُ[1]

أَراد: بِسَبَائِبِ الكتَّان، وأَنشد أبو علي في مثله:

حَتَّى إذا مَا لَمْ أَجِدْ غَيْرَ الشَّرِ ... كُنْتُ امْرَءًا مِنْ مَالِكِ بْنِ جَعْفَرِ[2].

وهذا بابٌ إنما استعمل في الشعر فلذلك ضعَّفت هذه القراءَة.

قوله تعالى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ الآية. اختلف الناسُ في المشار إليه بقوله: ﴿ ۞ هَٰذَانِ ﴾ ـ فقال قيس بن عُبَادة، وهلال بن يساف: نزلت هذه الآية في المتبارزين يوم بدر، وهم ستَّة: حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث، برزوا لعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة[3]، وروي عن علي بن أَبي طالب رضي الله

---

(١) البيت من قصيدة لعَلْقمة يقدم فيها آراءه وخواطره في الحياة، وهو واحد من أبيات يصف فيها الخمر التي يحبها ويعشقها، والإبريق هنا هو الإناءُ الذي توضع فيه الخمر لتصب في الكؤوس، والشَّرَفُ: المكان المرتفع، والمُفَدَّم: الذي غُطِّي فمه، يقال: فَدَّم الإبريق إذا غَطَّى فمه. و(سَبَا الْكَتَّان) أصلها: سَبَائِبُ الكتان حذف منها المحذوف على غير قياس للتخفيف، وهي موضع الشاهد هنا، والسَّبائب جمع سِبٌّ، وهي شُقَّةُ كتَّان رقيقة، وقيل: السَّبائب واحدها سَبِيبَة وهي الثوب الرقيق يصنع من الحرير. ولَثَمَ الإبريق: شدَّ الفِدَامَ ـ أي الغِطَاءَ ـ على بعض رأسه وتركَ بعضه للنَّفَس. ويُروى: مَرْثُومُ ـ بالراء ـ ومعناها: في أنفه بياضٌ، أو أنه مكسور وقد تفطَّر منه الدم، يريد أن أنف الإبريق فيه بياض، أو أنه مكسور تتقطر منه قطرات الخمر والشاعر في البيت يشبه الإبريق في انتصابه وبياضه بظبي وقف على مكان مرتفع، ويصور مدى العناية بالخمر إذ يضعونها في الإبريق ويغطون طرفه بنسيج رقيق من الكتان الأبيض.

(٢) البيت في المحتسب، وقد قال عن قراءة الزهري ﴿والدوابُ﴾ بتخفيف الباءِ: إنها ضعيفة قياساً وسماعاً، ولكن للتخفيف ضرب من العُذر، فهم إذا كرهوا تضعيف الحرف فقد يحذفون أحدهما فيقولون في (ظَلَلْتُ): ظَلْتُ، وفي (أَحْسَسْتُ): أَحَسْتُ، وقد أنشد أبو عليٍّ هذا البيت. والشاهد فيه أنه قال: (الشَّرِ) فحذف الراءَ الثانية، وكان المفروض أن يقول: (غير الشَّرِّ).

(٣) في أسباب النزول للنيسابوري عن قيس بن عبادة قال: سمعتُ أبا ذرٍّ يقول: أُقسم بالله لنزلت ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ في هؤلاء الستة: حمزة، وعبيدة، وعلي بن أبي طالب، وعُتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة. ثم قال: رواه البخاري عن حجاج بن منهال، عن هشيم بن هاشم. وفي «الدر المنثور»: «أخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، عن أبي ذرٍّ رضي الله تعالى عنه أنه كان يُقسم أن هذه الآية... الخ الحديث».

تعالى عنه أنه قال: أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الله يوم القيامة(١)، وأقسم أبو ذرٍّ رضي الله عنه على هذا القول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ووقع أن الآية فيهم في صحيح البخاري رحمه الله.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الإشارة إلى المؤمنين وأهل الكتاب، وذلك أنه وقع بينهم تخاصم، فقالت اليهود: نحن أقدم ديناً منكم ونحو هذا، فنزلت الآية. وقال عكرمة: المخاصمة بين الجنة والنار، وقال مجاهد، وعطاءُ بن أبي رباح، والحسن بن أبي الحسن، وعاصم، والكلبي: الإشارة إلى المؤمنين والكفار على العموم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول تعضده الآية، وذلك أنه تقدم قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، المعنى: فهم مؤمنون ساجدون، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾، ثم أشار إلى هذين الصنفين بقوله: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾، والمعنى أن الإيمان وأهله والكفر وأهله خصمان مذ كانا إلى قيام الساعة بالعداوة والجدال والحرب. وقوله: ﴿خَصْمَانِ﴾ يريد: طائفتين لأن لفظة خَصْمٍ هي مصدرٌ يوصف به الجمع والواحد، ويدل على أنه أراد الجمع قوله تعالى: ﴿ٱخْتَصَمُوا۟﴾، فإنها قراءة الجمهور، وقرأ ابن أبي عبلة: [ٱخْتَصَمَا فِي رَبِّهِم]. وقوله: ﴿فِي رَبِّهِمْ﴾ معناه: في شأن ربهم وصفاته وتوحيده، ويحتمل أن يريد: في رضى ربهم، وفي ذاته. ثم بيَّن حكم الفريقين، فتوعَّد تبارك وتعالى الكفَّار بعذاب جهنم، و﴿قُطِّعَتْ﴾ معناه: جُعلت لهم بتقدير كما يفصل الثَّوب، ورُوي أنها من نحاس، وقيل: ليس شيءٌ من الحجارة أَحَرَّ منه إذا حمي. ورُوي في صَبِّ الحميم ـ وهو الماءُ المغلي ـ أنه تُضرب رءوسهم بالمقامع فتنكشف أدمغتهم فيُصَبُّ الحميم حينئذ، وقيل: بل يصب الحميم أوَّلاً فيفعل ما وصف ثم تُضرب بالمقامع بعد ذلك. و﴿ٱلْحَمِيمُ﴾: الماءُ المغلي، و﴿يُصْهَرُ﴾ معناه: يُذاب، وقيل: معناه: يُعصر، وهذه العبارة قلقة، وقيل: معناه: ينضح، ومنه قول الشاعر:

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، والبخاري، والنسائي، وابن جرير، والبيهقي، من طريق قيس بن عبادة.

. . . . تَصْهَــرُهُ الشَّمْــسُ وَلاَ ينْصَهِــرْ[(١)]

وإنما يُشْبِه ـ فيمن قال: يعصر ـ أنه أراد أن الحميم بحرارته يهبط ـ كُلَّما يُلْقى ـ في الجوف ويكشطه ويَسْلِتُهُ، وقد روى أبو هريرة نحوه عن النبي ﷺ «أنه يَسْلِتُهُ ويَبْلُغُ به قدميه ويديه ثم يعاد كما كان»[(٢)]. وقرأ الجمهور: [يُصْهَرُ]، وقرأت فرقة: [يُصَهَّر] بفتح الصاد وشدِّ الهاءِ. و«المِقْمَعَةُ» ـ بكسر الميم ـ مقرعة من حديد يُقْمَع بها المضروب[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿أَرَادُوٓاْ﴾ رُوي فيه أَن لهب النار إِذا ارتفع رفعهم فيصلون إِلى أَبواب النار فيريدون الخروج فيُضربون بالمقامع وتردُّهم الزبانية. و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْهَآ﴾ لابتداءِ الغاية، وفي قوله: ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ يحتمل أَن تكون لبيان الجنس، ويحتمل أَن تكون لابتداءِ غاية أيضاً، وهي بدلٌ من الأُولى. وقوله: ﴿وَذُوقُواْ﴾ هنا حذف تقديره: ويقال لهم: ذوقوا، و«ٱلْحَرِيق» فَعِيلٌ بمعنى مُفْعل، أَي: محرق.

وقرأ الجمهور: ﴿هَٰذَانِ﴾ بتخفيف النون، وقرأ ابن كثير وحده: ﴿هَٰذَانِّ﴾

---

(١) هذا عجز بيت قاله ابن أحمر يصف فرخ قطاة، والبيت بتمامه:

تَــرْوِي لَقَــىً أُلْقِــيَ فــي صَفْصَــفٍ ... تَصْهَــرُهُ الشَّمْــسُ فَمَــا ينْصَهِــرْ

وهو في اللسان (صَهَرَ) كما أثبتناه، وفي الطبري «ولا يَنْصَهِرْ» كما ذكره المؤلف. وتَرْوِي معناه: تَسْقِي، أي: تسوق إليه الماءَ فتصير له كالرواية، يقال: رويتُ أَهلي وعليهم إذا أتيتهم بالماءِ، واللَّقى كل شيءٍ مطروح متروك مُلْقى على الأرض لهوانه، والصَّفْصف: الأرض الملساء المستوية. والصَّهر: إذابة الشحم، يقال: صَهَر الشحم يصهره صهراً: أذابه.

(٢) أخرجه عبد بن حميد، والترمذي وصححه في صحيحه، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد»، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وأبو نعيم في «الحلية»، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه أنه تلا هذه الآية فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحَميم ليُصَبُّ على رءُوسهم فينفذُ الجمجمة حتى يخلُصَ إلى جوفه فَيَسْلِتَ ما في جوفه حتى يمرق من قدمه ـ وهو الصَّهر ـ ثم يعادُ كما كان».

(٣) وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ معطوف على ﴿مَآ﴾ في قوله سبحانه: ﴿مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾، فالجلود تصهر أيضاً مع ما في البطون، وقيل: بل التقدير: يُصْهَر ما في البطون وتحرق الجلود؛ لأن الجلود لا تذاب إنما تجتمع على النار وتنكمش، وهذا كقول الشاعر:

عَلَفْتُهَا تِبْناً وَمَاءً بَارِداً

أي: وسقيتها ماءً.

بتشديد النون، وقرأها شبلٌ، وهي لغة لبعض العرب في المبهمات كالَّذانِ وهَذانِ، وقد ذكر ذلك أبو علي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

هذه الآية معادلةٌ لقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ﴾. وقرأ الجمهور: [يُحَلَّون] بفتح الياءِ واللام وتخفيفها، يقال: حَلِيَ الرجلُ وحَلِيَت المرأةُ إذا صارت ذات حَلْي. وقيل: هي من قولهم: «لم يَحْلُ فلانٌ بطائِلٍ»[1]. و﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ هي لبيان الجنس، ويحتمل أن تكون للتبعيض. و«الأَسَاوِر» جمع سِوَارٍ وإِسْوَارٍ بكسر الهمزة، وقيل: أساور جمع أَسْوِرَة، وأَسْوِرة جمع سِوَار. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: [من أَسْوِرَةٍ مِنْ ذَهَبٍ].

و«اللُّؤْلُؤُ»: الجوهر، وقيل: صغاره، وقيل: كباره، والأشهر أنه اسمٌ للجوهر. وقرأ نافع، وعاصم ـ في رواية أبي بكر[2] ـ: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب عطفاً على موضع «الأَسَاوِر»؛ لأن التقدير: يُحَلَّوْنَ فيها أَسَاوِرَ، وهي قراءَة الحسن، والجحدري، وسلام، ويعقوب، والأعرج، وأبي جعفر، وعيسى، وابن عمر، وحمل أبو الفتح نصبه على إضمار فِعْل، وقرأ الباقون من السبعة: [ولُؤْلُؤٍ] بالخفض عطفاً إمَّا على لفظة «الأَسَاوِرِ»، ويكون «اللؤلؤ» في غير الأَساور، وإمَّا على «الذَّهَب» لأن الأَساور تكون أيضاً من ذهب ولؤلؤ قد جمع بعضها إلى بعض، ورُويت هذه القراءَة عن الحسن بن أبي الحسن، وطلحة، وابن وثاب، والأعمش، وأهل مكة، وثبتت في (الإمام) ألف بعد الواو، قاله الجحدري، وقال الأصمعي: ليس فيها ألف، ورَوى يحيى عن أبي بكر،

(١) أي لم يظفر بطائل، فكأنه جعل ما يُحَلَّوْن به هناك أمراً ظفروا به.

(٢) الثابت في المصحف أن رواية حفص عن عاصم بالنصب أيضاً، فلا معنى لهذا التخصيص، ولهذا لم يذكره أحد من المفسرين.

عن عاصم بهمز الواو الثانية دون الأُولى، وروى المعلَّى بن منصور، عن أَبي بكر، عن عاصم ضِدَّ ذلك، قال أَبو عليٍّ: فهمزهما وتخفيفهما وهمز إِحداهما دون الأُخرى جائز كله. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: [لِئْلِئاً] بكسر اللامين.

وأَخبر الله تعالى عنهم بلباس الحرير لأَنها من أَكمل حالات الآخرة، وقد رُوي عن النبي ﷺ أَنه قال: «مَنْ لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»(١). وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تشبه أُمور الآخرة أُمورَ الدنيا إِلاَّ في الأَسماءِ فقط، وأَما الصفات فمتباينة.

و«الطَّيِّبُ من القول»: لا إِله إِلا الله وما جرى معها من ذكر الله تبارك وتعالى وتسبيحه وتقديسه، وسائر كلام أَهل الجنة من محاورة وحديث طيب، فإِنها لا تسمع فيها لاغية، و«صِرَاطُ ٱلْحَمِيدِ» هو طريق الله تعالى الذي دعا عباده إِليه، ويحتمل أَن يريد بـ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ نفس الطريق، فأَضاف إِليه على حدٍّ إِضافته في قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ﴾ الآية. قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ تقديره: وهم يصدون، وبهذا حَسُن عطف المستقبل على الماضي، وقالت طائفة: الواو زائدة، و﴿يَصُدُّونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا مفسد للمعنى المقصود، وإِنما الخبر محذوف مقدرٌ عند قوله: ﴿وَٱلْبَادِ﴾، تقديره: خَسِرُوا أَوْ هَلكوا، وجاءَ ﴿يَصُدُّونَ﴾ مستقبلاً إِذْ هو فعل يُديمونه، كما

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن عمر رضي الله عنه. وأخرج النسائي والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربه في الآخرة، ومن شرب في آنية الذهب والفضة لم يشرب في الآخرة»، ثم قال رسول الله ﷺ: «لباس أهل الجنة وشراب أهل الجنة وآنية أهل الجنة»، وأخرج النسائي والحاكم وابن حبان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه». «الدر المنثور».

(٢) من قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ من الآية (١٠٩) من سورة (يوسف) ـ وتكررت في قوله تعالى في الآية (٣٠) من سورة (النحل): ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

جاءَ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾(١) ونحوه.

وهذه الآية نزلت عام الحديبية حين صُدَّ رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام، وذلك أنه لم يُعلم لهم صدٌّ قبل ذلك الجمع، إلاَّ أن يراد صدهم الأفراد من الناس فقد وقع ذلك في صدر المبعث، وقالت فرقة: «المسجد الحرام» أراد به مكة كلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا صحيح لكنه قصد بالذكر المهم المقصود من ذلك.

وقرأ جمهور الناس: [سَوَاءٌ] بالرفع، وهو على الابتداءِ، و﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾ خبر، وقيل: الخبر ﴿سَوَآءٌ﴾ وهو مقدم، وهو قول أبي علي، والمعنى: الذي جعلناه للناس قِبْلَةً أو مُتَعبَّداً، وقرأ حفص عن عاصم: [سَوَاءً] بالنصب، وهي قراءَة الأعمش، وذلك يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون مفعولاً ثانياً لـ«جَعَلَ» ويرتفع ﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾ به لأنه مصدر في معنى «مُسْتَو» أُعمل عمل اسم الفاعل، والوجه الثاني أن يكون حالاً من الضمير في ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾، وقرأت فرقة: [سَوَاءً] بالنصب [العاكفِ] بالخفض عطفاً على ﴿ٱلنَّاسِ﴾(٢)، و«العَاكِفُ»: المقيم في البلد، و«البَادِي»: القادم عليه من غيره. وقرأ ابن كثير في الوصل والوقف: [البادي] بالياءِ، ووقف أبو عمرو بغيرياءٍ وَوَصَلَ بالياءِ، وقرأ نافع: [الباد] بغير ياءٍ في الوصل والوقف في رواية المسيِّبي، وأبو بكر وإسماعيل بن أبي أُويس(٣)، وروى ورش الوصل بالياءِ، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بغير ياءٍ وصلاً ووقفاً، وهي في «الإمام» بغير ياءٍ.

وأجمع الناسُ على الاستواءِ في المسجد الحرام واختلفوا في مكة ـ فذهب عمر بن

---

(١) من الآية (٢٨) من سورة (الرعد).

(٢) قال أبو حيان في «البحر المحيط»: «كأنه يريد عطف البيان، والأولى أن يكون بدل تفصيل».

(٣) أما أبو بكر فهو عبد الحميد بن عبد الله بن عبد الله بن أويس الأصبحي ـ أبو بكر بن أبي أويس ـ مشهور بكنيته، كأبيه، ثقة، من التاسعة، قال الإمام الحافظ العسقلاني: «ووقع عند الأزدي: أبو بكر الأعشى، في إسناد حديث، فنسبه إلى الوضع فلم يُصب، مات سنة اثنتين ومائتين».

وأما إسماعيل فهو إسماعيل بن عبد الله بن أُويس الأَصْبَحي، أبو عبد الله بن أبي أُويس المدني، صدوق، أخطأ في أحاديث من حفظه، من العاشرة، مات سنة ست وعشرين ومائتين. والأَصْبَحِي ـ بفتح فسكون ففتح ـ نسبة إلى ذي أصبح، واسمه الحارث بن عوف، من يعرب بن قحطان. وأصبح صارت قبيلة.

الخطاب، وابن عباس، ومجاهد، وجماعة معهم إلى أن الأمر كذلك في دُور مكة، وأَن القادم له النزول حيث وُجِدَ، وعلى رَبِّ المنزل أن يُؤْويه شاءَ أَو أَبَى، وقال ذلك سفيان الثوري وغيره، وكذلك كان الأمر في الصدر الأَول، قال ابن سابط[١]: وكانت دورهم بغير أَبواب حتى كَثُرت السرقة فاتخذ رجل باباً فأَنكر عليه عمر رضي الله عنه وقال: أَتغلق باباً في وجه حاج بيت الله؟ فقال: إنما أَردت حفظ متاعهم من السرقة، فتركه فاتَّخذ الناس الأَبواب. وقال جمهور من الأُمة منهم مالك رحمه الله: ليست الدور كالمسجد، ولأَهلها الامتناع بها والاستبداد، وعلى هذا هو العمل اليوم.

وهذا الخلاف متركب على الاختلاف في مكة، هل هي عَنْوَة[٢] كما روي عن مالك والأَوزاعي؟ أَو صلح كما روي عن الشافعي؟ فمن رآها صلحاً فإن الاستواءَ عنده في المنازل بعيد، ومن رآها عَنْوة أَمكنه أَن يقول: الاستواءُ فيها قدَّره الأَئمة الذين لم يُقطعوها أَحداً وإنما سُكْنى من سكن من قِبَل نفسه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وظاهر قول النبي ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً»[٣] يقتضي الاستواءَ، وأَنها مُتَمَلَّكَةٌ ممنوعة على التأويلين في قوله ﷺ؛ لأَنه تُؤُوِّل بمعنى أَنه وَرِث جميع منازل أَبي طالب وغيره، وتُؤُوِّل بمعنى أَنه باع منازل بني هاشم حين هاجروا. ومن الحجة لتملُّك أَهلها دورهم أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اشترى من صفوان بن أُمية داراً للسجن بأَربعة آلاف، ويصح مع ذلك أَن يكون الاستواءُ في وقت الموسم للضرورة والحاجة فيخرج الأَمر حينئذ عن الاعتبار بالعَنْوة والصلح.

وقوله تعالى: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾، قال أَبو عبيدة: الباءُ زائدة، ومنه قول الشاعر:

بِـوَادٍ يَمَـانٍ يُنْبِـتُ الشَّـثَّ صَـدْرُهُ ... وَأَسْفَلُـهُ بِـالْمَـرْخِ وَالشَّبَهَـانِ[٤]

---

(١) هو عبد الرحمن بن سابط ـ بكسر الباء كما في المغني ـ ويقال: ابن عبد الله بن سابط، قال العسقلاني: وهو الصحيح، ثقة، كثير الإرسال، من الثالثة، مات سنة ثمان عشرة.

(٢) يعني: هل هي مفتوحة عَنْوة بقوة السلاح، أو مفتوحة صلحاً؟

(٣) أخرجه أبو داود في الفرائض.

(٤) البيت للأحول اليشكري، واسمه يعلى، وهو في اللسان (شث) و(سدر) ذلك لأنه رُوي أيضاً: (يُنْبِتُ السِّدْرَ)، والسِّدْر هو شجر النبق، والواحدة سدرة. والشَّث: شجر طيب الريح، مُرُّ الطعم، يدبغ به، وينبت في جبال الغور وتهامة ونجد، والمَرْخُ: شجر كثير الوري سريعه، والشَّبَهان: نبت يُشْبه الثُّمام، =

ومنه قول الأعشى:

ضَمِنَتْ بِرِزْقِ عِيَالِنَا أَرْمَاحُنَا . . . . (١)

وهذا كثير(٢). ويجوز أن يكون التقدير: ومَنْ يُرِدْ فيهِ الناسُ بإلْحاد.

و«الإِلْحَادُ»: المَيْلُ، وهذا الإلحاد والظلم يجمع جميع المعاصي من الكفر إلى

= قال ابن سيدة: والشَّبَهان ـ بالتحريك وبضمتين ـ ضرب من العضاه، وقيل: الشَّبَهَان نبت شائك له وردٌ لطيف أحمر، والشاهد في البيت هو زيادة الباء في (بالمَرْخ)، إذ الأصل: يُنبت المرخ، وقيل أيضاً: إن الباء ليست زائدة، بل هي للتعدية، والتقدير: وينبت أسفله بالمرخ.

(١) في الطبري أن البيت لأعشى بني ثعلبة، وهو غير موجود في الديوان، بل ليس فيه قصيدة دالية مكسورة من بحر الكامل، وفي اللسان (جرد) نسب للأعشى بيتاً يقول فيه:

ضَمِنَتْ لَنَا أعجَازَهُ أَرْمَاحُنَا مِلْءَ الْمَرَاجِلِ وَالصَّرِيحَ الأَجْرَدَا

وفي الديوان قصيدة دالية منصوبة فيها بيت يلتقي مع هذا البيت في كثير من الأمور، إذ يتحدث الشاعر قبله عن الإبل، ويقول: إن الله جعل طعامنا فيها، وهي ضخمة كالهضاب، ومضمونة لنا لا يطرُدها مُغير، ولا يُرَوِّعُها مروِّع، ثم يقول:

ضَمِنَتْ لَنَا أَعْجَازُهُنَّ قُدُورَنَا وَضُرُوعُهُنَّ لَنَا الصَّرِيحَ الأَجْرَدَا

والصريح الأجرد هو اللبن الصافي، أي أن أعجازها تملأ قدُورنا وتضمن لنا اللحم الذي يكفي ضيوفنا ولا ينفذ، وأعجزاها ضمنت لنا اللبن الصافي. لكن ليس في هذا البيت ولا في بيت اللسان شاهداً يصلح هنا، لأن الشاهد هو زيادة الباء في (بِرِزْق)، والتقدير: ضمنت رِزْق.

(٢) من ذلك قوله تبارك وتعالى في سورة مريم ـ الآية ٢٥ ـ: ﴿وهزي إليك بجذع النخلة﴾، والعرب تقول: خُذ الخطام، وخُذ بالخطام، وتقول: زوَّجتك فلانة، وزوَّجتك بفلانة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾، أي: تنبت الدُّهْنَ، ومن ذلك قول قيس بن زُهير العبسي

أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالأَنْبَاءُ تَنْمِي بِمَا لاَقَتْ لَبُونُ بَنِي زِيَادِ؟

وقول امرىء القيس:

أَلاَ هَلْ أَتَانَا وَالْحَوَادِثُ جَمَّةٌ بِأَنَّ امْرَأَ الْقَيْسِ بنَ تَمْلِكَ بَيْقَرَا

أي: هاجر من أرض إلى أرض، أو ذهب إلى حيث لا يدري. لكن الباء هنا دخلت على (إنَّ) وهي في موضع رفع، أما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ﴾ فقد دخلت على (إلْحَادٍ) وهو في موضع نصب، وفي بيت قيس بن زهير دخلت على (ما)، قال هذا الفراءُ في «معاني القرآن». من زيادة الباء أيضاً قول الشاعر:

نَحْنُ بَنُو جَعْدَةَ أَصْحَابُ الْفَلَجْ نَضْرِبُ بِالسَّيْفِ وَنَرْجُو بِالْفَرَجْ

أي: ونرجو الفَرَج. أما (الفَلَجُ) فهو موضع لبني جعدة بنجد. ويظهر من هذه الشواهد صدق ما قاله المؤلف من أن هذا كثير.

الصغائر، فَلِعِظَم حُرمة المكان توعد الله تعالى على نِيَّة السيئة فيه، ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب بذلك إلاَّ في مكة، هذا قول ابن مسعود رضي الله تعالى عنه وجماعة من الصحابة وغيرهم، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: الإِلْحادُ في هذه الآية: الشِّرك، وقال أيضاً؛ وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: وقَوْلُ «لا والله وبلى والله» بمكة من الإلْحاد، وقال حبيب بن أَبي ثَّاب: الحكرة بمكة من الإِلْحاد بالظلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والعموم يأْتي على هذا كله.

وقرأَت فرقة: [ومن يَرِدْ] من الوُرُود، حكاه الفراءُ، والأول أَبْيَن وأَعم وأَمدح للبقعة. و﴿مَن﴾ شرط جازمة للفعل، وذلك منع من عطفها على ﴿ٱلَّذِينَ﴾ والله المستعان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾.

المعنى: واذكر إِذْ بَوَّأْنا، و[بَوَّأَ] هي تعدية بالتضعيف، و(باءَ) معناه: رَجَع، فكأَن المُبَوِّىءَ يردُّ المُبَوَّأَ إِلى المكان، واستعملت اللفظة بمعنى (سَكَنَ)، ومنه قوله تعالى: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾(١)، وقال الشاعر:

كَمْ صَاحِبٍ لِيَ صَالِحٍ ... بَوَّأْتُهُ بِيَدَيَّ لَحْدَا(٢)

واللام في قوله تعالى: ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ قالت فرقة: هي زائدة، وقالت فرقة: ﴿بَوَّأْنَا﴾

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٧٤) من سورة (الزُّمَر): ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ بمعنى: نتزل ونسكن.

(٢) هذا البيت لعَمْرُو بن معديكرب الزُّبيدي، فارس العرب المشهور، ويروى: (كَمْ مِنْ أَخٍ لِيَ مَاجِدٍ)، واللَّحْدُ ـ بفتح اللام المشدَّدة وبضمها ـ: الشق الذي يكون في جانب القبر موضعِ الميت؛ لأنه قد أُميل عن وسطه إِلى جانبه، قاله صاحب اللسان، فإِن كان في وسطه فهو الضَّريح والضَّريحة. وبوَّأْته: هيَّأْتُ له وأنزلته فيه، وهو موضع الشاهد هنا.

نازلةٌ منزلة فعل يتعدى باللام نحو جعلنا[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأظهر أَن يكون المفعول الأول بـ﴿بَوَّأْنَا﴾ محذوفاً تقديره: (الناس) أَو (العالم)، ثم قال: ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾، بمعنى: له كانت هذه الكرامة وعلى يديه بُوِّئوا[٢].

و«الْبَيْتُ» هو الكعبة، وكان ـ فيما رُوي ـ قد جعله الله تعالى مُتَعَبَّداً لآدم عليه السلام، ثم درس بالطُّوفان وغيره، فلمَّا جاءت مُدَّة إِبراهيم عليه السلام أَمره الله تعالى ببنائه، فجاءَ إِلى موضعه وجعل يطلب أَثراً، فبعث الله ريحاً فكشفت له عن أَسَاس آدم فرتَّب قواعده عليه.

وقوله تعالى: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ هي مخاطبة لإِبراهيم عليه الصلاة والسلام في قول الجمهور حُكِيَت لنا، بمعنى قيل له: [ألا يُشْرِكَ بي شيئاً]، وقرأَ عكرمة: [أن لا يُشرك بي] بالياءِ على معنى نقل معنى القول الذي قيل له، قال أَبو حاتم: ولا بُدَّ مِنْ نصب الكاف على هذه القراءة، بمعى: لِئَلاَّ يشرك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يحتمل أَن تكون ﴿أَنْ﴾ في قراءة الجمهور مفسِّرة، ويحتمل أَن تكون مُخَفَّفة من الثقيلة[٣].

وفي الآية طعن على من أَشرك من قُطَّان البيت، أَي: هذا كان الشرط على أَبيكُمْ فَمَنْ بَعده وأَنتم، فلم تفوا بل أَشركتم، وقالت فرقة: الخطاب من قوله: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ﴾ لمحمد ﷺ، وأُمِر بتطهير البيت والأَذان بالحج.

---

(١) وقيل: اللام في قوله: ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾ صلة للتأكيد، كقوله تعالى: ﴿رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾، يقال: بَوَّأْتُه منزلاً وبوأت له، كما يقال: مكَّنْتُك ومكَّنْت لك. وقد ذكر الفراءُ القولين، وقال: إنَّ قوله تبارك وتعالى: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ معناه: رَدِفَكُمْ.

(٢) فاللام في ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾ لام العلَّة، أي: لأجل إبراهيم وكرامة له.

(٣) ويحتمل أن تكون زائدة، كقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾، وقد أجاب الزمخشري عن سؤال يَعْرِض إذا قدرنا ﴿أَنْ﴾ مفسرة، وتقدير السؤال: كيف يكون النهي عن الشِّرك والأمر بتطهير البيت تفسيراً للتَّبوئة؟ أجاب الزمخشري بقوله: «كانت التَّبوئة مقصودة من أجل العبادة، فكأنه قيل: تَعبَّدنا إبراهيم، قلنا له: لا تُشْرِكْ بي شيئاً وطهِّر بيتي من الأصنام والأوثان والأَقذار أن تُطرح حوله».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والجمهور على أن ذلك إبراهيم عليه السلام، وهو الأَصحُّ.

و«تَطْهِير البَيْت» عامٌّ في الكفر والبِدَع وجميع الأَنجاس والدماءِ وغير ذلك، و«القائمون» هم المصلُّون، وذكر الله تعالى من أَركان الصلاة أَعظمها وهي: القيام والرُّكوع والسُّجود.

وقرأَ جمهور الناس: [وَأَذِّنْ] بشد الذال، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، وابن مُحَيْصن: [وَآذِنْ] بمدَّة وتخفيف الذال، وتصحَّف هذا على ابن جني؛ فإِنه حكى عنهما «وَآذِنَ» على أَنه فعل ماض وأَعرب على ذلك بأَن جعله عطفاً على ﴿ بَوَّأْنَا﴾[1]. ورُوي أَن إِبراهيم عليه السلام لمَّا أُمر بالأَذان بالحج قال: يا رب وإِذا ناديت فمن يسمعني؟ قيل له: ناد يا إِبراهيم، فعليك النداءُ وعلينا البلاغ، فصعد على أَبي قُبَيْس ـ وقيل: على حجر المقام ـ ونادى: أَيُّها الناس، إِن الله قد أَمركم بحجِّ هذا البيت فحجُّوا، واختلفت الروايات في أَلفاظه عليه السلام، واللازم أَن يكون فيها ذكر البيت والحج، ورُوي أَنه يوم نادى أَسمع كلَّ من يحج إِلى يوم القيامة في أَصلاب الرجال، وأَجابه كل شيءٍ في ذلك الوقت من جمادٍ وغيره: لَبيك اللهم لَبيك، فجرت التلبية على ذلك، قاله ابن عباس وابن جبير.

وقرأَ جمهور الناس: [بِٱلْحَجِّ] بفتح الحاءِ، وقرأَ ابن أَبي إِسحق في كل القرآن بكسرها، و﴿ رِجَالًا ﴾ جمع راجلٍ كتاجرٍ وتِجار، [وصاحب وصحاب][2]، وقرأَ عكرمة، وابن عباس، وأَبو مجلز، وجعفر بن محمد: [رُجَّالاً] بضم الراءِ وشد الجيم، ككاتب وكُتَّاب. وقرأَ عكرمة أيضاً، وابن أَبي إِسحق: [رُجَالاً] بضم الراءِ وتخفيف

(١) نقل القرطبي كلام ابن عطية هذا عن ابن جني ولم يعلِّق عليه، ونقله أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط وعلّق عليه بقوله: «وليس بتصحيف، بل قد حكى أَبو عبد الله الحسين بن خالويه في «شواذ القراءات» من جَمْعه، وحَكى صاحب «اللوامح» أبو الفضل الرازي ذلك عن الحسن وابن مُحَيْصن، قال صاحب اللوامح: وهو عطف على ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا ﴾، فيصير في الكلام تقديم وتأخير، ويصير ﴿ يَأْتُوكَ ﴾ جزماً على جواب الأمر الذي هو ﴿ وَطَهِّرْ ﴾. وإذا رجعنا إلى كلام ابن جني في «المحتسب» نجد أنه يقول نفس الكلام تقريباً، إذ قال: «فأما قوله ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ فإنه انجزم لأنه جواب قوله: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ ﴾، وهو على قراءة الجماعة جواب قوله: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾».

(٢) زيادة من القرطبي الذي نقل كلام ابن عطية منسوباً إليه هكذا.

الجيم، وهو قليل في أَبنية الجمع، ورويت عن ابن مجاهد، وقرأَ مجاهد: [رُجَالَى] على وزن فُعَالَى، فهو مثل كُسَالَى.

و«الضَّامِرُ» قالت فرقة: أَراد بها الناقة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك أَنه يقال: ناقة ضامر، ومنه قول الأَعشى:

عَهْدِي بِهَا فِي الْحَيِّ قَدْ دُرِّعَتْ ... هَيْفَاءَ مِثْلَ الْمُهْرَةِ الضَّامِرِ[1]

فيجيءُ قوله تعالى: ﴿يَأْتِينَ﴾ مستقيماً على هذا التأويل. وقالت فرقة: «الضَّامِرُ» كل ما اتصف بذلك من جملٍ وناقة وغير ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الأَظهر، لكنه يتضمن معنى الجماعات أَو الرفاق، فيحسن لذلك قوله: ﴿يَأْتِينَ﴾. وقرأَ أَصحاب ابن مسعود رضي الله عنه: [يأْتُونَ]، وهي قراءة ابن أَبي عبلة، والضحاك.

وفي تقديم ﴿رِجَالًا﴾ تفضيل للمُشاة في الحج، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما آسى على شيءٍ فاتني إِلاَّ أَن أَكون حَجَجْتُ مَاشياً، فإِني سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾، وقال ابن أَبي نجيح: حجَّ إِبراهيم وإِسماعيل عليهما السلام مَاشِيَين، واستدل بعض العلماءِ بسقوط ذكر البحر في هذه الآية على أَن فرض الحج بالبحر ساقط.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

قال مالك في المَوَّازِيَّة: لا أَسمع للبحر ذكراً.

---

(١) البيت من قصيدة للأعشى قالها يهجو علقمة بن عُلاثة ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما، والرواية في الديوان: (قَد سُرْبِلَتْ)، وبعد هذا البيت يقول:

قَدْ نَهَدَ الثَّدْيُ عَلَى صَدْرِهَا ... فِي مُشْرِقٍ ذِي صَبَحٍ نَائِرِ
لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتاً إِلَى نَحْرِهَا ... عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ
حَتَّى يَقُولُ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا: ... يَا عَجَبَاً لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ

فذهبت أبياته في الناس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تأنُّس، لا أَنه يلزم من سقوط ذكر البحر سقوط الفرض، وذلك أَن مكَّة ليست في ضفة بحر فيأْتيها الناس في السُّفن، ولا بد لمن ركب البحر أَن يصير في إتيان مكة إمَّا راجلاً وإمَّا على ضامر، فإنَّما ذُكرت حالتا الوصول، وإسقاط فرض الحج بمجرد [عدم ذِكْر](١) البحر ليس بالكثير ولا بالقويّ، فأَما إذا اقترن به عدوٌّ أَو خوف أَو هولٌ شديد أَو مرض يلحق شخصاً مَّا فمالك والشافعي وجمهور االناس على سقوط الوجوب في ذلك، وأَنه ليس بسبيل يُستطاع، وذكر صاحب كتاب (الاستظهار) في هذا المعنى كلاماً ظاهره أَن الوجوب لا يُسقطه شيءٌ من هذه الأَعذار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيفٌ(٢).

و«الفَجُّ»: الطريق الواسعة، و«العَمِيقُ» معناه: البعيد، قال الشاعر:

إذا الْخَيْـلُ جـاءَتْ مِـنْ فِجَـاجٍ عَمِيقَـةٍ   يَمُدُّ بهاَ فِي السَّيْرِ أَشْعَثُ شَاحِبُ(٣).

و«الْمَنَافِعُ» في هذه الآية: التجارة في قول أَكثر المتأَولين، ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وقال أَبو جعفر محمد بن علي: أَراد الأَجر ومنافع الآخرة، وقال مجاهد بعموم الوجهين.

وقوله تعالى: ﴿ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾، يصح أَن يريد بالاسم هاهنا المُسمَّى، بمعنى: ويَذْكُرُوا اللهَ، على تجوُّز في هذه العبارة، إلاَّ أَن يقصد ذكر القلوب، ويحتمل أَن يريد بالاسم التسميات، وذكر الله تعالى إنما هو بذكر أَسمائه، ثم يذكر القلب السلطان والصفات، وهذا كله على أَن يكون الذِّكْر بمعنى حمده وتقديسه شكراً على نعمته في

(١) ما بين العلامتين [....] زيادة للتوضيح وسلامة التعبير.

(٢) نقل القرطبي كلام ابن عطية كله عن «البَحْرِ» إلى أن قال: وهذا ضعيف، ثم علَّق بقوله: «قلت: وأضعف من ضعيف».

(٣) الفِجَاج: جمع فجٍّ وهو الطريق الواسعة بين جبلين، والعميق: البعيد، وأصله البُعْد سفلاً، يقال: بئر عميقة، أي بعيدة القَعْر، وهذا هو موضع الشاهد في البيت، وتَشَعَّثَ شعره: تَلَبَّدَ واغْبَرَّ، والشَّعث والأشعث: المُغْبَرُّ الرأس، المُنْتَف الشعر، والشَّاحِبُ: المتغير من هُزَالٍ، أو جوع، أو سفر، أ وعمل، ولم يقيده في الصحاح، بل قال: شحب جسمه على تغير، ولم أقف على قائل هذا البيت فيما بين يَدَيَّ من المراجع.

الرِّزق، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «إنها أَيام أَكل وشرب وذكر الله»[١]، وذهب قوم إلى أَن المراد ذكْر اسم الله تعالى على النحر والذبح، وقالوا: إن في ذكر الأَيام دليلاً على أَن الذبح في اللَّيل لا يجوز، وهو مذهب مالك وأَصحاب الرأي. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: الأَيام المعلومات هي أَيام العشر ويوم النحر وأَيام التشريق، وقال ابن سيرين: هي أَيام العشر فقط، وقالت فرقة: بل أَيام التشريق، ذكره القتيبي، وقالت فرقة فيها مالك وأَصحابه: بل الأَيام المعلومات يوم النحر، ويومان بعده، وأَيام التشريق الثلاثة هي المعدودات، فيكون يوم النحر معلوماً لا معدوداً، واليومان بعده معلومات ومعدودات والرابع معدود لا معلوم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وحمل هؤلاء على هذا التفصيل أَنهم أَخذوا«ذكر اسم الله» هنا على الذبح للأَضاحي والهَدْي وغيره، فاليوم الرابع لا يُضَحَّى فيه عند مالك وجماعة، وأَخذوا التَّعجل والتأَخر بالنَّفْر في الأَيام المعدودات، فتأَمل هذا يَبِنْ لك قصدهم، ويظهر أَن تكون المعلومات والمعدودات بمعنى، أَي تلك الأَيام الفاضلة كلها، ويبقى أَمر الذبح وأَمر الاستعجال لا يتعلق بمعدود ولا بمعلوم، وتكون فائدة قوله: ﴿مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ و﴿مَّعۡدُودَٰتٍ﴾ التحريض على هذه الأَيام وعلى اغتنام فضلها؛ إذ ليست كغيرها، فكأَنه قال: هي مخصوصات فَلْتُغْتَنَم.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ﴾ ندب، واستحب أَهل العلم للرجل أَن يأْكل من هديه أَو ضحيته مع التَّصدُّق[٢] بأكثرها، مع تجويزهم الصدقة بالكل وأَكل الكل. و«الْبَائِس»: الذي قد مسَّه ضُرُّ الفاقة وبؤسها، يقال: بأَس الرجل يبؤُس[٣]، وقد يستعمل فيمن نزلت به نازلة دهر وإن لم تكن فقراً، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لكن البائس

(١) أخرجه مسلم في الصيام، وأبو داود في الأضاحي، والترمذي في الصوم، والنسائي في الحج، وابن ماجه في الصيام، وكذلك الدارمي، ومالك في الحج في موطئه، والإمام أحمد (٥/ ٧٥)، ولفظه فيه عن نبيشه الهذلي، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله عزَّ وجلَّ»، وفي رواية أخرى عنه: «وقال رسول الله ﷺ: إنا كنَّا نهيناكم أن تأكلوا لحومها فوق ثلاث كي تسعكم، فقد جاء الله بالسَّعة، فكلوا وادَّخروا واتَّجروا، ألا وإن هذه الأيام أيام أكل وشرب وذكر الله تبارك وتعالى».

(٢) في بعض النسخ «وأنَّ يتصدق».

(٣) الذي في اللسان (بأس) هو: «بَؤُسَ الرجلُ يَبْؤُس بأساً إذا كان شديد البأس شجاعاً، فهو بئيس، أي شجاع، وبَئِسَ يَبْأَسُ بُؤْساً وبأْساً وبَئِيساً على افتقر واشتدت حاجته، فهو بائس، أي فقير».

سعد بن خولة»[١]، والمراد في هذه الآية أهل الحاجة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَٰنِ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

اختلفت القراءَة في سكون اللام من قوله تعالى: [ثم لْيقضوا تفثهم ولْيوفوا نذورهم ولْيطوفوا] وفي تحريك جميع ذلك بالكسر، وفي تحريك [ليقضوا] وتسكين الاثنتين، وقد تقدم في قوله تعالى: [فلْيمدد بسبب إلى السماء][٢] توجيه جميع ذلك.

و«ٱلتَّفَثُ» ما يفعله المُحْرِم عند حلِّه من تقصير شعره وحلقه وإزالة شعث ونحوه من إقامة الخمس من الفطرة حسب الحديث[٣] وفي ضمن ذلك قضاءُ جميع مناسكه إذْ لا يقضي التفثَ إلاَّ بعد ذلك. وقرأ عاصم وحده ـ في رواية أَبي بكر ـ: [وَلْيُوَفُّوا] بفتح الواو وشدِّ الفاءِ، و(وَفَّى) و(أَوفى) لغتان مستعملتان في كتاب الله تعالى و(أَوْفَى) أَكثر[٤]. و«ٱلنُّذُور»

---

(١) هذا جزءٌ من حديث أخرجه البخاري في باب الجنائز ومناقب الأنصار والفرائض، وأخرجه مسلم في الوصية، وأخرجه مالك في موطئه أيضاً في الوصية، ولفظه كما في البخاري، عن سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي، فقلت: إني قد بلغ بي من الوجع، وأنا ذو مالٍ، ولا يرثني إلاَّ ابنة، أفأتصدق بثُلُثَيْ مالي: قال: لا، فقلت: بالشطر؟ فقال: لا، ثم قال: الثُّلث والثُّلث كبير أو كثير، إنك إنْ تَذَرْ ورثتك أغنياء خير من أن تَذَرهم عالةً يتكفَّفُون الناس، وإنك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلاَّ أُجِرْتَ بها حتى ما تجعل في امرأتك، فقلت: يا رسول الله، أُخلَّف بعد أصحابي، قال: إنك لن تُخَلَّفَ فتعمل عملاً صالحاً إلاَّ ازدَدْت به درجةً ورفعةً، ثم لعلك تُخَلَّف حتى ينتفع بك أقوامٌ ويُضَرَّ بك آخرون، اللهم أَمْضِ لأصحابي هجرتهم، ولا تردَّهم على أعقابهم، لكن البائس سعد بن خولة يرثي له رسول الله ﷺ أن مات بمكة».

(٢) من الآية (١٥) من هذه السورة (الحج) راجع ص٢٢٣ من هذا المجلد.

(٣) حديث خمسٌ من الفطرة أخرجه البخاري في اللباس، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه في الطهارة، وأبو داود في الترجُّل، والترمذي في الأدب، ومالك في موطئه في صفة النبي ﷺ، وأحمد في مسنده (٢/٢٢٩، ٢٣٩، ٢٨٣، ٤١٠)، ولفظه فيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خمسٌ من الفطرة: قصُّ الشارب، وتقليمُ الأظافر، ونتف الإبط، والاستحداد، والختان».

(٤) مما جاء بوَفَّى قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧]، ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩]، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [النساء: ١٧٣]، ومِمَّا جاء بأَوْفى =

ما معهم من هدْي وغيره، و«الطَّوافُ» المذكور في هذه الآية هو طواف الإفاضة الذي هو من واجبات الحج، قال الطبري: لا خلاف بين المتأولين في ذلك. قال مالك: هو واجب يرجع تاركه من وطنه إلاَّ أَن يطوف طواف وداع فإنه يجزيه منه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل بحسب الترتيب أَن تكون الإشارة إلى طواف الوداع إذ المستحسن أَن يكون ولا بد، وقد أَسند الطبري عن عمرو بن أَبي سلمة قال: سأَلت زهيراً[1] عن قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فقال: هو طواف الوداع. وقال مالك في الموطأ: واختلف المتأَولون في وجه وصف البيت بالعتيق ـ فقال مجاهد، والحسن: العَتيق: القديم، يقال: سيف عتيق، وقد عَتُق الشيءُ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول يعضده النظر؛ إذ هو أَول بيت وضع للناس، إلاَّ أَن الزبير قال: سُمِّي عتيقاً لأَن الله تعالى أَعتقه من الجبابرة بمنعه إياه منهم، وروى في هذا حديثاً عن النبي ﷺ، ولا نظر مع الحديث[2]. وقالت فرقة: سُمِّي عتيقاً لأَنه لم يُملك موضعه قط، وقالت فرقة: سُمِّي عتيقاً لأَن الله تعالى يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا يردُّه التصريف[3]. وقيل: سُمِّي عتيقاً لأَنه أُعتق من غرق الطوفان، قاله ابن

= قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

(١) في بعض النسخ: «سألت زيداً»، واخترنا ما يوافق الطبري.

(٢) أخرجه البخاري في تاريخه، والترمذي وحسَّنه، وابن جرير، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، ولفظه كما في «الدر المنثور»: قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سُمِّي البيت العتيق لأن الله أعتقه من الجبابرة، فلم يظهر عليه جبارٌ قط». قالوا: قصده تبَّع ليهدمه فأصابه الفالج فأشار الأخيار عليه أن يكف عنه، وقالوا: له ربٌّ يمنعه، فتركه وكساه، وهو أول من كساه، وقصده أبرهة فأصابه ما أصابه من الطير الأبابيل، أمَّا الحجَّاج فلم يقصد التسلُّط على البيت، لكن تحصَّن به عبد الله بن الزبير فاحتال لإخراجه ثم بناه.

(٣) قال أبو حيان في البحر: «ولا يردُّه التصريف لأنه فسَّره تفسير معنى، وأما مِنْ حيث الإعراب فلأن (العتيق) فعيل بمعنى مُفْعِل، أي مُعْتِق رقاب المذنبين، ونسب الإعتاق إليه مجازاً إذ بزيارته والطواف به يحصل الإعتاق».

جبير، ويحتمل أَن تكون ﴿ٱلْعَتِيقِ﴾ صفة مدح تقتضي جودة الشيء، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حَمَلْتُ على فرس عتيق» الحديث[1]، ونحوه قولهم: «كلام حر».

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يحتمل أَن يكون في موضع رفع بتقدير: فَرْضُكم ذلك، أَو الواجب ذلك، ويحتمل أَن يكون في موضع نصب بتقدير: امتثلوا ذلك ونحو هذا الإِضمار، وأَحسن الأَشياءِ مضمراً أَحسنها مُظهراً، ونحو هذه الإِشارة البليغة قول زهير:

هَـذَا وَلَيْـسَ كَمَـنْ يَعْيَـا بِخُطَّتِـهِ   وَسْطَ النَّدِيِّ إذا مَا نَـاطِـقٌ نَطَقَا[2]

و«ٱلْحُرُمَاتُ» المقصودة هاهنا هي أَفعال الحج المشار إِليها في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾، ويدخل في ذلك تعظيم المواضع، قاله ابن زيد وغيره، ووعد على تعظيمها بعد ذلك تحريضاً وتحريصاً، ثم لفظ الآية ـ بعد ذلك ـ يتناول كل حرمة لله تعالى في جميع الشرع. وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ﴾ ظاهره أَنها ليست للتفضيل، وإِنما هي عِدَةٌ بخير، ويحتمل أَن يجعل ﴿خَيْرٌ﴾ للتفضيل على تجوُّز في هذا الموضع.

وقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ إِشارة إِلى ما كانت العرب تفعله من تحريم أَشياءَ برأْيها كالبحيرة والسائبة، فأَذهب الله تعالى جميع ذلك وأَحلَّ لهم جميع الأَنعام إِلاَّ ما يُتلى عليهم في كتاب الله تبارك وتعالى في غير موضع، ثم أَمرهم باجتناب الرِّجس من الأَوثان، والكلام يحتمل معنيين: أَحدهما أَن تكون [مِنْ] لبيان الجنس فيقع

---

(١) أخرجه مسلم في الهبات، ومالك في الزكاة، ولفظه كما في مسلم: حَمَلْتُ على فرس عتيق في سبيل الله ـ أي تصدقت به ـ فأضاعه صاحبه، فظننت أنه بائعه برُخص، فسألتُ رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: لا تَبْعُه، ولا تَعُد في صدقتك، فإن العائد في صدقته كالكلب يعود في قيئه.. ومعنى (أضاعه): همله.

(٢) البيت من قصيدة زهير بن أبي سُلْمى التي يمدح بها هرم بن سنان وأباه وإخوته، والتي بدأها بقوله:

إن الخَليـطَ أَجَـدَّ البَيْـنَ فـانفَـرَقَـا   وعُلِّـقَ القَلْـبُ مِـنْ أَسْمَـاءَ مَـا عَلِقَـا

والبيت يصف هرماً بالبلاغة والفصاحة، وبأنه لا يعيا بخُطَّتِهِ في النديّ، أي في مجلس القوم، وذلك بعد أن وصفه في الأبيات السابقة بالكرم وبالشجاعة، والشاهد فيه الإشارة البليغة بقوله في أول البيت: «هذا».

نهيه عن رجس الأَوثان فقط، وتبقى سائر الأَرجاس نَهْيُها في غير هذا الموضع، والمعنى الثاني أَن تكون [مِنْ] لابتداءِ الغاية، فكأَنه نهاهم عن الرِّجس عاماً ثم عيَّن لهم مبدأَه الذي منه يلحقهم؛ إِذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس، ويظهر أَن الإِشارة إِلى الذبائح التي كانت للأَوثان، فيكون هذا مما يتلى عليهم. ومن قال: إِن [مِنْ] للتبعيض قَلَب معنى الآية وأَفسده، والمروي عن ابن عباس، وابن جُريج أَن الآية نهي عن عبادة الأَوثان.

و«الزُّور» عامٌّ في الكذب والكفر، وذلك أَن كلَّ ما عدا الحق فهو كذب وباطل وزور، وقال ابن مسعود، وأَيمن بن خُرَيْم(١): إِن رسول الله ﷺ قال: «عدلت شهادة الزُّور بالشِّرك» وتلا هذه الآية(٢)، و«الزُّورُ» مشتق من الزَّوَر وهو الميل، ومنه في جانب فلان زَوَرٌ، ويظهر أَن الإِشارة إِلى زُور أَقوالهم في تحريم وتحليل ما كانوا قد شَرَّعوه في الأَنعام.

و﴿حُنَفَآءَ﴾ معناه: مستقيمين أَو مائلين إِلى الحق بحسب أَن لفظة «الْحَنَف» من الأَضداد، تقع على الاستقامة وتقع على الميل. و[حُنَفاءَ] نصب على الحال. وقال قوم: ﴿حُنَفَآءَ﴾ معناه: حُجَّاجاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تخصيص لا حُجَّة معه.

---

(١) هو أيمن بن خُرَيم ـ بالمعجمة ثم الرَّاءِ مصغراً ـ ابن الأخرم، الأسدي، أبو عطية الشامي الشاعر، مختلف في صحبته، وقال العجلي: تابعي ثقة.

(٢) أخرج أحمد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، عن أيمن بن خُرَيْم قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: «يا أيها الناس، عَدَلَت» شهادة الزُّور إشراكاً بالله ـ ثلاثاً ـ ثم قرأ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾، وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والخرائطي في مكارم الأخلاق، والبيهقي، عن ابن مسعود قال: شهادة الزُّور تعدل الشرك بالله، ثم قرأ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾. والحديث المشهور في ذلك هو ما رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، وأحمد، عن أبي بكرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين ـ وكان مُتَّكِئاً فجلس ـ فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت».

و﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ﴾ يجوز أَن تكون حالاً أُخرى، ويجوز أَن تكون صفة لقوله: ﴿حُنَفَآءَ﴾.

ثم ضرب الله تعالى مثلاً للمشرك بالله سبحانه وتعالى أَظهره به في غاية السقوط ويحتمل الهول والانبتات من النجاة، بخلاف ما ضرب للمؤمن في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ومثله قول علي بن أَبي طالب رضي الله تعالى عنه: «إِذا حدَّثتكم عن رسول الله ﷺ فلئن أَخِرَّ من السماء إِلى الأَرض أَهون عليَّ من أَن أَكذب عليه» الحديث.

وقرأَ نافع وحده: [فَتَخَطَّفُهُ ٱلطَّيْرُ] بفتح الخاءِ وشد الطاءِ على حذف تاء التفعل، وقرأَ الباقون: ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ بسكون الخاءِ وتخفيف الطاءِ، وقرأَ الحسن ـ فيما رُوي عنه: [فَتِخِطَّفُهُ] بكسر التاءِو الخاءِ وفتح الطاءِ مشددة، وقرأَ الحسن أيضاً وأَبو رجاءٍ بفتح التاءِ وكسرِ الخاء، والطاءِ وشدها، وقرأَ الأَعمش: [مِنَ ٱلسَّمَاءِ تَخْطِفُهُ] بغيرِ فاء وعلى نحو قراءَة الجماعة. وعطف المستقبل على الماضي لأَنه بتقدير: فهو نَخْطَفُهُ الطير. وقرأَ أَبو جعفر: [ٱلرِّيَاحُ].

و﴿السحيق﴾: البعيد، ومنه قولهم: أَسْحَقَهُ اللهُ، ومنه قوله ﷺ: «فَأَقُولُ سُحْقاً سُحْقاً»[(١)]، ومنه: «نَخْلَةٌ سحوق» للبعيدة في السماء.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق والفتن، ومسلم في الطهارة والفضائل والزهد، وابن ماجه في الزهد، ومالك في الزهد، وأحمد (٢/ ٣٠٠، ٣/ ٢٨، ٥/ ٣٣٣)، ولفظه فيه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه أتى المقبرة فسلم على أهل المقبرة فقال: «سلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون، ثم قال: وَدِدْتُ أنَّا قد رأينا إخواننا، قال: فقالوا: يا رسول الله أَلَسْنَا بإخوانك؟ قال: بل أنتم أصحابي، وإخواني الذي لم يأتوا بعد، وأنا فرطهم على الحوض، قالوا: يا رسول الله كيف تعرف من لم يأت من أمَّتك بعد؟ قال: أرأيت لو أن رجلاً كان له خيل غير محجلة بين ظهراني خيل بهم دهم ألم يكن يعرفها؟ قالوا: بَلَى، قال: فإنهم يأتون يوم القيامة غُرّاً مُحَجَّلين من أثر الوضوء، وأنا فَرَطُهم على الحوض، ثم قال: ألاَ لَيُذَادَنَّ رجالٌ منكم عن حوضي كما يُذاد البعير الضال، أُناديهم: ألا هَلُمَّ، فيقال: إنهم بدَّلوا بعدك، فأقول: سُحْقاً سُحْقاً»، وفي رواية البخاري: «فأقول: سُحقاً سُحقاً لمن بدَّل بعدي». قال ابن الأثير في كتاب «النهاية في غريب الحديث والأثر»: «أنا فَرَطُكم على الحوض، أي: مُتَقدِّمكم إليه، يقال: فَرَط يَفْرِط فهو فارطٌ وفَرَطٌ إذا تقدم وسبق القوم ليرتاد لهم الماء، ويُهَيِّيء لهم الدِّلاء والأَرْشية».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

التقدير في هذا الموضع: الأمر ذلك. و«الشَّعَائِرُ» جمع شعيرة، وهو كلُّ شيءٍ لله تعالى فيه أَمْرٌ أَشْعَرَ به وأَعْلَم، وقالت فرقة: قصد بالشعائر في هذه الآية الهَدْي والأنعام المشعرة، ومعنى «تعظيمها» التسمين والاهتبال بأمرها والمغالات بها، قاله ابن عباس، ومجاهد، وجماعة. وعود الضمير في ﴿فَإِنَّهَا﴾ على التعظمة والفَعْلة التي تضمنها الكلام، وقرىء ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ بالرفع على أنها فاعلة بالمصدر الذي هو ﴿تَقْوَى﴾، ثم اختلف المتأَولون في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ الآية ـ فقال مجاهد وقتادة: أَراد أَن للناس في أَنعامهم منافع من الصوف واللبن وغير ذلك ما لم يبعثها ربُّها هدياً، فإذا بعثها فهو «الأَجَلُ المُسَمَّى»، وقال عطاءُ بن أَبي رباح: أَراد: لكم في الهَدْي المبعوث منافع من الركوب والاحتلاب من اضطر، و«الأَجَلُ الْمُسَمَّى»: نحرها، وتكون ﴿ثُمَّ﴾ لترتيب الجُمَل، لأَن «المَحِلَّ» قبل «الأجل»، ومعنى الكلام عند هاتين الفرقتين: ثمَّ مَحِلُّها إلى موضع النحر، فذكر البيت لأَنه أَشرف الحرم وهو المقصود بالهَدْي وغيره، وقال ابن زيد، وابن عمر، والحسن: تلك الشعائر في هذه الآية مواضع الحج كلها ومَعَالمه بمنى وعرفة والمزدلفة والصفا والمروة والبيت وغير ذلك، وفي الآية التي تأْتي أَن البُدْن من الشعائر، و«الْمَنَافِعُ»: التجارة وطلب الرِّزق، ويحتمل أَن يريد كسب الأَجر والمغفرة، وبكلٍّ احتمال قالت فرقة، و«الأَجَلُ»: الرجوع إِلى مكة وطواف الإِفاضة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ مأْخوذٌ من إِحْلال المُحْرِم معناه، ثم أَخَّر هذا كله إِلى طواف الإِفاضة بالبيت العتيق، فالبيت ـ على هذا التأْويل ـ مراد بنفسه، قاله مالك في «الموطأ».

ثم أَخبر تعالى أَنه جعل لكل أُمة من الأُمم مَنْسكاً، أَي موضع نُسُك وعبادة، ثم أَن المَنْسَك ظرفٌ كالمذبح ونحو هذا، ويحتمل أَن يريد المصدر، كأَنه قال: عبادة

ونحوها، والنَّاسِكُ: العابد، وقال مجاهد: سُنَّة في إِراقة دماءِ الذبائح، وقرأ معظم القراءِ: [مَنْسَكاً] بفتح السين، وهو من: نَسَك يَنْسُك بضم السين في المستقبل، وقرأ حمزة والكسائي: [مَنْسِكاً] بكسر السين، قال أَبو الفتح: «الفتح أَولى؛ لأَنه إِما المصدر وإِما المكان وكلاهما مفتوح، والكسر في هذا من الشَّاذِّ في اسم المكان أَن يكون (مَفْعِل) من: فَعَلَ يَفْعَلُ، مثل مَسْجِد، من: سَجَدَ يَسْجُدُ، ولا يسوغ فيه القياسُ، ويشبه أَن الكسائي سمعه من العرب».

وقوله تعالى: ﴿لِيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ معناه: أَمرناهم عند ذبائحهم بذكر الله، وأَن يكون الذبح له لأَنه رازق ذلك، ثم رجع اللفظ من الخبر عن الأُمم إِلى إِخبار الحاضرين بما معناه: فالإِله واحد لجميعكم، فكذلك الأَمر في الذَّبيحة إِنما ينبغي أَن تُخلص له، و﴿أَسْلِمُوا۟﴾ معناه: لِحَقِّه ولِوَجْهِه ولإِنْعَامِه آمنوا وأَسْلموا، ويحتمل أَن يريد الاستسلام.

ثم أَمر تبارك وتعالى نبيَّه ﷺ أَن يبشِّر بشارة على الإِطلاق، وهي أَبلغ من المفسَّرة لأَنها مرسلة مع نهاية التخيل، و﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾: المتواضعين الخاشعين من المؤمنين، و«الخبت»: ما انخفض من الأَرض، والمُخْبِتُ: المتواضع الذي مشيه متطامن كأَنه في حدورٍ من الأَرض، وقال عمرو بن أَوْسٍ[1]:

المُخْبِتُون: الذين لا يَظْلِمُون وإِنْ ظُلِمُوا لم ينتصروا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا مثال شريف من خلق المؤمن الهيِّن اللَّيِّن، وقال مجاهد: هم المطمئنون بأَمر الله تعالى، ووصفهم تعالى بالخوف والوجل عند ذكر الله، وتلك لِقُوَّة يقينهم ومراعاتهم لربِّهم وكأَنهم بين يديه، ووصفهم تبارك وتعالى بالصَّبر والصَّلاة وإِقامة الصَّلاة وإِدامتها، وقرأ الجمهور: [ٱلصَّلَاةِ] بالخفض، وقرأ ابن أَبي إِسحق، والحسن: [ٱلصَّلَاةَ] بالنصب على توهم النون وأَن حذفها للتخفيف، ورُويت عن أَبي عمرو[2]،

---

(١) في الأصول: عمرو بن أُويس، وفي بعض النسخ: عمرو بن أبي أويس، والتصويب عن تفسير القرطبي، وهو: عمرو بن أَوْس بن أبي أَوْسٍ، الثقفي الطائفي، تابعي كبير، من الثانية، قال عنه الحافظ العسقلاني في تقريب التهذيب: «وَهِمَ من ذكره في الصحابة، مات بعد التسعين من الهجرة».

(٢) شُبِّه ذلك بحذف النون من اللَّذَيْن والَّذين في قول الأخطل:

أَبَنِي كُلَيْبٍ إِنَّ عَمَّيَّ اللَّذَا ... قَتَلاَ الْمُلُوكَ وَفَكَّكَا الأَغْلاَلاَ =

وقرأ الأعمش: [والمقيمين الصلاة] بالنون والنصب في [الصلاة]، وقرأ الضحاك: [وَٱلْمُقِيمَ ٱلصَّلَاةَ]. وروي أن هذه الآية ـ قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ ـ نزلت في أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليٍّ رضي الله تعالى عنهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

«البُدْنُ»: جمع بَدَنَة، وهي ما أُشعر من ناقة أو بقرة، قاله عطاءٌ وغيره، وسميت بذلك لأنها تَبْدُن، أي تَسْمُن، وقيل: بل هذا الاسم خاص بالإبل، وقالت فرقة: «البُدْنُ»: جمع بَدَن ـ بفتح الباءِ والدال ـ، ثم اختلفت، فقال بعضها: البُدْن مفردٌ اسمُ جنس يُراد به العظيم السمين من الإبل والبقر، ويقال للسمين من الرِّجال: بَدُن[1]، وقال بعضها: البُدْن جمع بَدَنَةٍ كثَمَرَةٍ وثُمْر، وقرأ الجمهور: [وَٱلْبُدْنَ] ساكنة الدال، وقرأ ابن جعفر، وشيبة، والحسن، وابن أَبي إِسحق: [وَٱلْبُدُنَ] بضم الدال، فيحتمل أن يكون جمع بَدَنَة كثُمُر، وعدَّد الله تعالى في هذه الآية نِعمه على الناس في هذه البُدْن، وقد تقدم القول في الشعائر. و«الْخَيْرُ» قيل فيه ما قيل في «المنافع» التي تقدم ذكرها، والصواب عمومه في خير الدنيا والآخرة. وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَآ﴾ يريد: عند نحرها.

وقرأ جمهور الناس: [صَوَافَّ] بفتح الفاءِ وشدها، جمع صافَّةٍ، أَي: مطيعة في قيامها، وقرأ الحسن، ومجاهد، وزيد بن أَسلم، وأَبو موسى الأَشعري، وشقيق،

= وفي قول أشهب بن رُمَيْلَة:

وَإِنَّ الَّذي حَانَتْ بِفَلْجٍ دِمَاؤُهُم ... هُمُ القَوْم كُل القَوْم يا أُمَّ خَالِدِ

قال سيبويه: حذفوا النون منهما حيث طال الكلامُ وكان الاسمُ الأول منتهاه الاسم الآخر.

(١) قال في اللسان: (بَدَنَ الرَّجُل بالفتح يَبْدُن فهو بادِنٌ إذا ضَخُم، وكذلك بَدُنَ بالضم) وقال: «وَبَدَّن الرَّجُلُ: أَسَنَّ وضعُف، وفي حديث النبي ﷺ: «لا تُبَادِروني بالرُّكوع ولا بالسُّجود؛ فإنه مهما أسبقكم به إذا ركعت تدركوني إذا رُفعت، ومهما أسبقكم إذا سجدتُ تدركوني إذا رُفعتُ، إني قد بَدُنْتُ»، هكذا رُوي بالتخفيف، قال الأُمويُّ: إنما هو بَدَّنْتُ بالتشديد، يعني كبِرْتُ وأَسْنَنْتُ، والتخفيف من البدانة، وهي كثرة اللحم».

وسليمان التيمي، والأعرج: [صَوَافِي] جمع صافية، أي: خالصة لوجه الله تعالى، لا شركة فيها لشيءٍ كما كانت الجاهلية تشرك، وقرأ الحسن أيضاً: [صَوَافٍ] بكسر الفاءِ وتنوينها مخففة، وهي بمعنى التي قبلها لكن حذفت الياءُ تخفيفاً على غير قياس، وفي هذا نظر، وقرأ ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وأبو جعفر محمد بن علي: [صَوَافِنَ] بالنون جمع صافِنَةٍ، وهي التي قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب، والصافن من الخيل: الرافع لفراهته إحدى يديه وقيل إحدى رجليه، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾[1]، وقال عمرو ابن كلثوم:

تَـرَكْنَـا الْخَيْـلَ عَـاكِفَـةً عَلَيْـهِ ... مُقَلَّـدَةً أَعِنَّتَهَـا صُفُـونَـا[2]

و﴿وَجَبَتْ﴾ معناه: سقطت بعد نحرها، ومنه: وجبت الشمس، ومنه قول أَوْس ابن حجر:

أَلَـمْ تُكْسَـفِ الشَّمْـسُ وَٱلْبَـدْرُ وَٱلْـ ... ـكَـوَاكِـبُ لِلْجَبَـلِ ٱلْـوَاجِـبِ[3]

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا﴾ ندبٌ، وكل العلماءِ يستحب أَن يأْكل الإنسانُ من هديه، وفيه أَجرٌ وامتثال إذ كان أَهل الجاهلية لا يأْكلون من هديهم، وقال مجاهد، وإبراهيم، والطبري: هي إباحة.

---

(١) من الآية (٣١) من سورة (ص).

(٢) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم، وقبله يقول:

وَسَيِّـدِ مَعْشَـرٍ قَـدْ تَـوَّجُـوهُ ... بِتَـاجِ الْمُلْـكِ يَحْمِـي الْمُحْجَـرِينَـا

فالضمير في قوله: «عليه» يعود على «سيِّد المعشر»، ومعنى «عاكفة عليه» أنها وقفت مقيمة عليه، والأعِنَّة: جمع عِنَان، وهو سير اللجام الذي تُمسك به الدابة، وهو طاقان مستويان، ومُقلَّدة: لابِسَةً أعِنَّتها، والصُّفُون: جمع صافِن، وقال الفراءُ: الصَّافِنُ: القائم على ثلاث، قال الشاعر:

أَلِـفَ الصُّفُـونَ فمـا يَـزَالُ كَـأَنَّـهُ ... مِمَّـا يَقُـومُ عَلَـى الثَّـلاَثِ كَسِيـراً

و«عاكفةً» نصب بِتَرَكْنَا، ومُقَلَّدة تابعٌ لعاكفة، وكذلك صفونا.

(٣) هذه هي رواية الديوان، ويروى البيت: «ألم تكسِف الشَّمْسُ ضوءَ النهار»، والجبل: هنا: رجُلٌ عظيمٌ، قالوا: يريد بن فضالة بن كلدة، والبيت من قصيدة يرثيه بها، وفيها يصرح باسمه ويقول:

لِهُلْـكُ فَضَـالَـةَ لاَ تَسْتَـوِي الـ ... ـفُقُـودُ وَلاَ خَلَّـةُ الـذَّاهِـبِ

والواجب: الذي ماتَ، يقال: وَجَبَ الرجل يجب وجوباً: مات، يقول: إن الشمس والبدر والكواكب كلها كسفت لموت فضالة والبيت شاهد على أن وَجَبَ بمعنى: سقط على جنبه.

و«القَانِعُ»: السائل، يقال: قَنَع الرجل يَقْنَع قنوعاً إذا سأل، بفتح النون في الماضي، وقنِع بكسر النون يَقْنَع قناعة فهو قَنِعٌ إذا تَعَفَّفَ واستغنى بِبُلْغَتِهِ، قاله الخليل، ومن الأول قول الشماخ:

لَمَالُ ٱلْمَرْءِ يُصْلِحُهُ فَيُغْنِي ... مَفَاقِرَه أَعَفُّ مِنَ ٱلْقُنُوعِ[1]

فَمُحَرِّرُوا القول من أهل العلم قالوا: القانع: السائل.

و«ٱلْمُعْتَرُّ»: المعترض من غير سؤالٍ، قاله محمد بن كعب القرظيُّ، ومجاهد، وإبراهيم، والكلبي، والحسن بن أبي الحسن، وعكست فرقة هذا القول، حكى الطبري، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: القانِع: المستغني بما أعطيته، والمُعْتَرُّ هو المعترض، وحكى عنه أنه قال: القانع: المُتَعَفِّف، والمُعْتَرُّ: السائل، وحكى عن مجاهد أنه قال: القَانِع: الجارُ وإن كان غنيّاً، وقرأ أبو رجاءٍ ﴿ٱلْقَانِعَ﴾، فعلى هذا التأويل معنى الآية: أطعموا المتعفف الذي لا يأتي معترضاً، وذهب أبو الفتح ابن جنّي إلى أنه أراد «القَانِع» فحذف الألف تخفيفاً[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد؛ لأن توجيهها على ما ذكرته آنفاً أحسن، وإنما يُلْجَأُ إلى هذا إذا لم توجد مندوحة، وقرأ أبو رجاءٍ، وعمرو بن عُبيد: ﴿المعتري﴾، والمعنى واحد[3]، ويروى

---

(١) البيت في اللسان (قنع)، قال: «فالقانع: الذي يَسْأل، والمعْترُّ: الذي يتعرض ولا يسأل، قال الشَّماخُ: لَمَالُ المرءِ... البيت»، ثم فسَّر القُنُوعَ بأنه مسألة الناس، ثم نقل عن ابن السِّكِّيت قوله: «ومن العرب من يجيز القُنُوع بمعنى القناعة، وكلام العرب الجيِّد هو الأول، ويُروى (البيت) من الكنوع ـ بالكاف ـ والكنوع: التَّقبض والتصاغر».

(٢) استشهد أبو الفتح على حذف الألف تخفيفاً بقول الشاعر:

أَصْبَحَ قَلْبِي صَرِدَا ... لاَ يَشْتَهِي أَنْ يَرِدَا
إِلاَّ عَرَداً عَرِدَا ... وَصِلِّيَاناً بَرِدَا

يريد: عارداً وبارداً.

(٣) المُعْتَرِي خفيفة، قال أبو الفتح: من اعتريت، يقال: عَرَاهُ يَعْرُوهُ عَرْواً، واعتراه يعتريه اعتراءً، فهو مُعْتَرٍ، قال طرفة:

فِي جِفَانٍ تَعْتَرِي نَادِيَنَا ... وَسَدِيفٍ حِينَ هَاجَ الصَّنَّبِرْ

والسَّديف: شحم السنام، والصَّنَّبِرْ: أشدُّ البرد، يريد أنهم يطعمون الطعام وقت الشِّدَّة.

عن أبي رجاءٍ ﴿وَٱلْمُعْتَرَ﴾ بتخفيف الراء، وقال الشاعر:

لَعَمْـرُكَ مَـا ٱلْمُعْتَـرُّ يَغْشَـى بِـلاَدَنَـا لِنَمْنَعَـهُ بِـٱلضَّـائِـعِ ٱلْمُتَهَضَّـمِ[١]

وذهب ابن مسعود رضي الله عنه إلى أن الهديَ أثلاث، فقال جعفر بن محمد عن أبيه: أُطعم القانع والمُعْتَر ثلثاً، والبائس الفقير ثلثاً، وأَهلي ثلثاً، وقال ابن المسيِّب: ليس لصاحب الهَدْي منه إلاّ الرُّبع.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله على جهة الاستحسان لا على الفرض، ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أَي: كما أَمرتكم فيها بهذا كله سخَّرناها لكم، و﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تَرَجٍّ في حقنا وبالإضافة إلى نظرنا.

وقوله تعالى: ﴿يَنَالَ﴾ عبارة مبالغة وتوكيد، وهي بمعنى: لن يرتفع عنده ويتحصل سبب ثواب[٢]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أَهل الجاهلية كانوا يُضَرِّجُونَ[٣] البيت بالدماءِ فأَراد المؤمنون فعل ذلك فنهى الله تعالى عن ذلك ونزلت هذه الآية، والمعنى: ولكن ينالُ الرفعةَ عنده والتحصل حسنةً لديه التقوى، أَي الإخلاص وعمل الطاعات. وقرأ مالك بن دينار، والأَعرج، وابن يَعْمَر، والزهري: [لَنْ تَنَالَ]، [وَلَكِنْ تَنَالُهُ] بتاءٍ فيهما.

والتسمية والتكبير على الهَدْي والأُضحية أَن يقول الذابح: باسم الله والله أكبر، ورُوي أَن قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ نزلت في الخلفاءِ الأَربعة رضي الله تعالى عنهم حسبما تقدم في التي قبلها[٤]، فأَمّا ظاهر اللّفظة فيقتضي العموم في كل محسن.

---

(١) المُعْتَرُّ: الفقير، أو المُتَعَرِّض للمعروف من غير أن يسأل. ويغشى البلادَ: يأتيها، والضائع: المُهْمَل، يقال: ضاع الشيءُ يضيع ضيعةً وضَياعاً ـ بالفتح ـ: هَلَك، والمَتَهَضَّم: المظلوم المغصوب المقهور، وفي اللسان: «قال أبو عبيد: المُتَهَضَّم والهَضيمُ جميعاً: المظلوم، والهضيمة: أن يتهَضَّمك القوم شيئاً، أي يظلموك».

(٢) النيل لا يتعلق بالله تعالى، ولكنه تعبير مجازي عن القبول عند الله.

(٣) أي: يصبغونه ويلطِّخونه، مبالغة في ضَرَجَ.

(٤) يريد قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ في الآية (٢٤).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾.

روي أَن هذه الآية نزلت بسبب المؤمنين، لمَّا كثروا بمكة وآذاهم الكفار وهاجر من هاجر إِلى أَرض الحبشة أَراد بعض مؤمني مكة أَن يقتل من أَمكنه من الكفار ويغتال ويغدر ويحتال، فنزلت هذه الآية إِلى قوله تعالى: ﴿كَفُورٌ﴾، ووعد فيها بالمدافعة، ونهى أَفصح نَهْي عن الخيانة والغدر. وقرأَ نافع، والحسن، وأَبو جعفر: [يُدَافِعُ] [وَلَوْلاَ دِفَاعُ]، وقرأَ أَبو عمرو، وابن كثير: [يَدْفَعُ]، [وَلَوْلاَ دَفْعُ]، وقرأَ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [يُدَافِعُ]، [وَلَوْلاَ دَفْعُ]، قال أَبو علي: أُجريت (دَافَعَ) في هذه القراءَة مجرى (دَفَعَ)، كعاقبت اللصَّ وطارقت النعل، فجاءَ المصدر دَفْعاً، قال أَبو الحسن الأَخفش: أَكثر الكلام أَن الله يدفع، ويقولون: دافع الله عنك إِلاَّ أَن دَفَعَ أَكثر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يحسن في الآية ﴿يُدَٰفِعُ﴾ لأَنه قد عنَّ للمؤمنين من يدفعهم ويؤذيهم فتجيءُ معارضته ودفعه مدافعةً عنهم، وحكى الزهراوي أَن (دفاعاً) مصدر (دَفَعَ)، كحسبت حساباً. ثم أَذن الله تعالى في قتال المؤمنين لمن قاتلهم من الكفار بقوله: ﴿أُذِنَ﴾[1]، وصورة الإِذن مختلفة بحسب القراءَات، فبعضها أَقوى من بعض، فقرأَ نافع، وحفص عن عاصم: [أُذِنَ] بضم الأَلف ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾ بفتح التاءِ، أَي: في أَن يقاتلوهم، فالإِذْن في هذه القراءَة ظاهرٌ أَنه في مجازاة، وقرأَ أَبو عمرو، وأَبو بكر عن عاصم، والحسن، والزهري: [أُذِنَ] بضم الأَلف [يُقَاتِلُونَ] بكسر التاءِ، فالإِذن في هذه القراءَة في ابتداءِ القتال، وقرأَ ابن كثير، وحمزة، والكسائي: [أَذِنَ] بفتح الأَلف [يُقَاتِلُونَ] بكسر التاءِ، وقرأَ ابن عامر بفتح الأَلف والتاءِ جميعاً، وهي في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه:

---

(١) روى الترمذي والنسائي، عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: لمَّا أُخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، لَيَهْلِكُنَّ، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾، فقال أبو بكر رضي الله عنه: لقد علمتُ أنه سيكون قتال.

[أَذن لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ] بكسر التاءِ، وفي مصحف أُبيٍّ [أُذِنَ] بضم الهمزة [لِلَّذِينَ قَاتَلُوا]، وذلك قرأَ طَلحة والأعمش إلاَّ أَنهما فتحا همزة [أَذِنَ].

وقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ معناه: كان الإذن بسبب أَنهم ظُلموا، قال ابن جريج: وهذه الآية أَول ما نقض الموادعة. قال ابن عباس، وابن جبير: نزلت عند هجرة رسول الله ﷺ إِلى المدينة، وقال أَبو بكر الصديق رضي الله عنه: لمَّا سمعتُ علمتُ أَنه سيكون قتال، وقال مجاهد: الآية في مؤمنين بمكة أَرادوا الهجرة إِلى المدينة فمنعوا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وما بعد هذه الآية يردُّ هذا القول؛ لأَن هؤلاءِ مُنعوا الخروج لا أُخرجوا. ثم وعد تعالى بالنصر في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يريد كلَّ من نَبَتْ به مكة وآذاه أَهلها حتى أَخرجوه بإِذايتهم، طائفة إِلى الحبشة وطائفة إِلى المدينة، ونسب الإِخراج إِلى الكفار لأَن الكلام في معرض تقرير الذنب وإِلزامه[(١)]. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ استثناء منقطع ليس من الأَول، هذا قول سيبويه، ولا يجوز عنده فيه البدل، وجوَّزه أَبو إِسحق، والأَول أَصوب[(٢)].

---

(١) أي أن سبب الإخراج يرجع إلى الكفار، ولذلك قال العلماء: إن في هذه الآية دليلاً على صِحَّة نسبة الفعل الواقع من المُلْجأ المُكْرَه إلى الذي أَلْجَأه وأَكْرَهه، وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾.

(٢) الاستثناءُ المنقطع يجعل قوله تعالى: ﴿أَن يَقُولُوا﴾ في موضع نصب، لأنه لا يمكن توجيه العامل عليه، فهو مقدر بلَكِن من حيث المعنى، أما لو كان الاستثناءُ متصلاً لجازَ في ﴿أَن يَقُولُوا﴾ أن يكون في موضع النصب أو في موضع الرفع.

وقد أجاز أبو إسحق فيه الجرَّ على البدل، وتبعه في ذلك الزمخشري، فهو عندهما مبدل من قوله تعالى: ﴿حَقٍّ﴾، والتقدير: بغير موجبٍ سوى التوحيد الذي ينبغي أَن يكون موجب الإقرار والتمكين لا موجب الإخراج والتبشير، ومثله قوله تعالى: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا﴾. وقد ناقشهما أبو حيان الأندلسي في ذلك مناقشة مستفيضة، وقال: إن البدلَ لا يجوز؛ لأنه لا يكون إلاَّ إذا سبقه نفي أو نَهْيٌ أو استفهامٌ في معنى النفي، أمَّا إذا كان الكلام موجباً أو أمراً فلا يجوز البدل، لأن البدل لا يكون إلاَّ حيث يتسلط عليه العامل، وفي الآية يستحيل أن يتسلَّط العامل على البدل إذ يفسد المعنى، ثم إن الزمخشري حين مثَّل البدل قدَّر: «بغير موجب سوى التوحيد»، وهذا تمثيل للصفة جعل (إلاَّ) بمعنى (سوى)، =

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ الآية تقويةٌ للأمر بالقتال، وذكر الحجة بالمصلحة فيه، وذكر أنه متقدم في الأُمم، وبه صلحت الشرائع واجتمعت المُتَعَبَّدات[١]، فكأنه قال: أُذن في القتال فليقاتل المؤمنون، ولولا القتال والجهاد لَتَغَلَّب على الحق في كل أُمة. هذا أَصوب تأْويلات الآية. ثم ما قيل بَعْدُ من مُثُل الدفاع تبع للجهاد، وقال مجاهد: ولولا دفع الله ظلم قوم لشهادة العدول ونحو هذا، وقالت فرقة: ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعدل الولاة، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: ولولا دفع الله بأَصحاب محمد ﷺ الكفار عن التابعين فمن بعدهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله فيه دفع قوم بقوم إِلاَّ أَن معنى القتال أَليق بما تقدم من الآية. وقالت فرقة: ولولا دفع الله العذاب بدعاءِ الفُضلاءِ والأَخيار ونحوه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا وما شاكله مفسد لمعنى الآية، وذلك أَن الآية تقتضي ولا بُدَّمدفوعاً من الناس ومدفوعاً عنه، فتأَمله.

وقرأَ نافع، وابن كثير: [لَهُدِمَتْ] مخففة الدال، وقرأَ الباقون: [لَهُدِّمَتْ] مشدَّدة الدال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه تَحْسُن من حيث هي صوامع كثيرة ففي هدمها تكرارٌ وكثرة، كما قال تعالى: ﴿فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[٢] فثقَّل الياءَ، وقال: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[٣] فخفف لكونه فرداً، ومنه ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾[٤]، و﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾[٥].

= ويصح على الصفة، فقد التبس عليه باب الصفة بباب البدل. . راجع «البحر المحيط» (٦/ ٣٧٤) ففيه أمثلة وتحليل طويل

(١) في بعض النسخ: «واجتمعت المعتقدات»، وما أثبتناه هو الموافق لما في القرطبي.

(٢) من الآية (٧٨) من سورة (النساء).

(٣) من الآية (٤٥) من سورة (الحج).

(٤) من الآية (٢٣) من سورة (يوسف).

(٥) من الآية (٥٠) من سورة (ص).

و«الصَّوْمَعَةُ»: موضع العبادة، وزنها فَوْعَلَةٌ، وهي بناءٌ مرتفع منفرد حديد الأَعلى، والصَّوْمَعُ من الرجال: الحديد القلب، وكانت قبل الإسلام مختصة بالرهبان النصارى وبعُبَّاد الصابئين ـ قاله قتادة ـ ثم استعمل في مئذنة المسلمين.

و«الْبِيَعُ»: كنائس النصارى، واحدتُها بِيَعَة، وقال الطبري: وقيل: هي كنائس اليهود.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ثم أَدخل عن مجاهد ما لا يقتضي ذلك(١).

و«الصَّلَوَاتُ» مشتركة لكل ملَّة، واستُعير الهدم للصلوات من حيث تُعَطَّل، أَو أَراد: موضع صلوات، وذهبت فرقة إِلى أَن «الصَّلَوات» اسم لكنائس اليهود، وأَن اللَّفظة عبرانية عُرِّبت، وليست بجمع صلاة. وقال أَبو العالية: الصَّلَوات مساجد الصابئين. واختلفت القراءَة فيها ـ فقرأَ جمهور الناس: ﴿صَلَوَاتٌ﴾ بفتح الصاد واللام وبالتاءِ بنقطتين، وذلك إِمَّا بتقدير: مواضع صلوات، وإِمَّا على أن تعطيل الصلوات هدمها، وقرأَ جعفر بن محمد: [صَلْوَاتٌ] بفتح الصاد وسكون اللام، وقرأَت فرقة: [صِلْوَاتٌ] بكسر الصاد وسكون اللام، حكاهما ابن جنِّي، وقرأَ الجحدري ـ فيما رُوي عنه ـ: [وَصُلُوتٌ] بنقطتين من فوق وبضم الصاد واللام، على وزن فُعُول، قال: وهي مساجد النصارى، وقرأَ الجحدري، والحجاج بن يوسف: [وَصُلُوبٌ] بضم الصاد واللام وبالباء، على أَنه جمع صليب، وقرأَ الضحاكُ والكلبي: [وَصُلُوثٌ] بضم الصاد واللام والثاءِ منقوطة ثلاثاً، قالوا: وهي مساجد اليهود، وقرأَت فرقة: [صَلْوتٌ] بفتح الصاد وسكون اللام(٢)، وقرأَت فرقة: [وَصُلُوَاتٌ] بضم الصاد واللام، حكاها ابن جنِّي، وقرأَت فرقة: (صُلُوتَى) بضم الصاد واللام وقصر الأَلف بعد التاءِ، وحكى ابن جنِّي أَن خارج باب الموصل بيوت تدفن فيها النصارى يقال لها: صَلَوات، وقرأَ عكرمة، ومجاهد: [صِلْوِتَى] بكسر الصاد وسكون اللام وكسر الواو وقصر الأَلف بعد التاءِ(٣).

---

(١) فقد نقل عن مجاهد أنه قال: «البيع: الكنائس» ولم ينسبها لأحد.

(٢) لم يبين هل هي بألف بعد الواو أو بدون ألف، واخترنا أن تكون بغير ألف حتى لا تتكرر مع القراءة التي نقلها عن جعفر بن محمد.

(٣) ذكر القرطبي عشر قراءات في [صَلَوَاتٌ]، وقال: ذكر ابن عطية تسع قراءات، وذكر من بينها ما لم نجده=

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذهب خصيف إِلى أَن هذه الأَسماءَ قصدها تقسيم متعبدات الأُمم، فالصوامع للرهبان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقيل: للصابئين، والبِيعُ للنصارى، والصَّلَوات لليهود، والمساجد للمسلمين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَظهر أَنه قُصد بها المبالغة في ذكر المتعبدات، وهذه الأَسماءُ تشترك الأُمم في مُسَمَّياتها إِلاَّ البِيَعة فإِنها مختصة بالنصارى في عرف لغة العرب، ومعاني هذه الأَسماء هي في الأُمم التي لهم كتاب على قديم الدهر، ولم يذكر هذه الآية المجوس ولا أَهل الشِّرك لأَن هؤلاءِ ليس لهم ما تجب حمايته، ولا يوجد ذكر الله تعالى إِلاَّ عند أَهل الشرائع.

وقوله تعالى: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ الضمير عائد على ما تقدَّم. ثم وعد الله تبارك وتعالى بنصره ونصر دينه وشرعه، وذلك حضٌّ على القتال والجدِّ فيه، ثم الآية تعمُّ كلَّ من نصر حقّاً إِلى يوم القيامة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾.

قالت فرقة: هذه الآية في الخلفاء الأَربعة رضي الله عنهم.

= في الأصول مثل: [صُلْوَاتٌ] بضم الصاد وسكون اللام وبالتاء المثناة بعد الألف، و[صُلُولَى] بلامين على وزن فُعُولى، و[صِلْوِثَى] بكسر الصاد والواو وسكون اللام وبالثاء المثلثة والألف المقصورة. وأشار محققة في الهامش إِلى أَن هذه الأخيرة هي عبارة أبي حيان، وما في أُصول القرطبي يختلف عنها. وفي المحتَسَب لابن جني ضَبَط محققوه قراءة جعفر بن محمد بضم الصاد واللام وفتح الواو وتاء مثناة بعد الألف، وزادوا في ضبط قراءة عكرمة ياءً بعد الواو المكسورة وقبل التاء، وهذا يختلف عما وجدناه في الأصول هنا، والله أعلم بالصواب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومعنى هذا التخصيص أن هؤلاءِ خاصة مُكِّنُوا في الأرض من جملة الذين يُقاتَلُونَ المذكورين في صدر الآية، والعموم في هذا كله أبْيَن، ويتَّجه الأمر في جميع الناس، وإنما الآية آخذةً عهداً على كل من مكَّنه الله تعالى، كلّ على قدر ما مُكِّن، فأما الصلاة والزكاة فكلٌ مأخوذ بإقامتها، وأمَّا الأمر بالمعرف والنهي عن المنكر فكلٌ بحسب قوته، والآية أمكن ما هي في الملوك، والمعروف والمنكر يعُمَّان الإيمان والكفر فما دونهما.

وقالت فرقة: نزلت هذه الآية في أصحاب محمد ﷺ خاصةً من الناس، وهذا على أن ﴿ ٱلَّذِينَ﴾ بدل من قوله تبارك وتعالى: ﴿ يُقَـٰتَلُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أَو على أن ﴿ ٱلَّذِينَ﴾ تابع لـ﴿ مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ توعُدٌ للمخالف عن هذه الأوامر التي تقتضيها الآية لمن مُكِّن.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني قريشاً، وهذه آية تسلية للنبي ﷺ ووعيد لقريش، وذلك أنه مثّلهم بالأُمم المكذِّبة المعذَّبة. وأَسند فعلاً فيه علامة التأْنيث إِلى ﴿ قَوْمُ﴾ من حيث أَراد والقبيلة ليطَّرد القول في عادٍ وثمود، وقومُ نوح هم أَول أُمة كذَّبت نبيَّها، ثم أَسند التكذيب في موسى عليه السلام إِلى ما لم يُسَمَّ فاعله من حيث لم يكذبه قومه بل كذبه القبط وقومه مؤمنون به. و﴿ أَمْلَيْتُ﴾ معناه: أَمهلت، وكأَن الإِملاءَ أَن تُمهل من تنوي فيه المعاقبة وأَنت في حيِّز إِمهالك عالمٌ بفعله. و«النَّكِيرُ» مصدر كالغدير بمعنى الإِنكار والإِعذار، وهو في هذه المصادر بناءُ مبالغة، فمعنى هذه الآية: فكما فعلتُ بهذه الأُمم كذلك أَفعل بقومك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿كأين﴾ هي كاف التشبيه دخلت على «أي»: قاله سيبويه، وقد أَوعبت القول في

معنى هذه اللَّفظة وقراءَتها في سورة آل عمران، في قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ ﴾[١]، وهي لفظة إِخبار، وقد تجيءُ استفهاماً، حكى الفراءُ: كأَيِّن مالُك؟ أَي: كمْ مالُك؟ وقرأَت فرقة: [هْلَكْنَاهَا]، وقرأَت فرقة: [أَهْلَكْتُهَا] بالإِفراد، والمراد أَهل القرية، و﴿ ظَالِمَةٌ ﴾ معناه: بالكفر، و﴿ خَاوِيَةٌ ﴾ معناه: خالية، ومنه: خوى النجم إِذا خلا من القوة، ونحوه «ساقطةٌ على عروشها»، و«العُرُوشُ»: السُّقُوف، فالمعنى أَن السُّقُوف سقطت ثم وقعت الحيطان عليها فهي على العروش.

وقوله تعالى: ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾، قيل: هو معطوف على «العروش»، وقيل: على «القرية»، وهو أَصوب[٢]، وقرأَت فرقة: [وبئر] بهمزة على الياء، وسهَّلها الجمهور، وقرأَت فرقة: [مُعْطَلَةٍ] بفتح الميم وسكون العين وفتح الطاء وتخفيفها، والجمهور على ﴿ مُعَطَّلَةٍ ﴾ بضم الميم وفتح العين وشد الطاءِ. و«الْمَشِيدُ»: المبني بالشِّيدِ وهو الجِصُّ، وقيل: الْمَشِيدُ: المُعَلَّى بالآجُرِّ ونحوه فمن المَشيد قول عديٍّ بن زيد:

شَـــادَهُ مَـــرْمَـــراً وَجَلَّلَـــهُ كِلْـ ـــسـاً فَلِلطَّيْـرِ فِـي ذُرَاهُ وُكُـورُ[٣]

(١) من الآية (١٤٦) من سورة (آل عمران)، راجع المجلد الثاني ص ٣٧٥ ومابعدها. وكثير من اللغويين يرون أَن (كأين) غير مركبة، بل هي بسيطة وهي كلمة وضعتها العرب للإخبار بعدد كثير نحو: (كم)، ولا دليل على أنها مركبة، والدليل على أنها بسيطة إثبات نونها في الخط لأن الأصل في نون التنوين عدم إثباتها، وأن العرب يتلاعبون بها، إذ فيها خمس لغات، وأبو حيان الأندلسي يميل إلى هذا الرأي.

(٢) قال الفراءُ في «معاني القرآن»: «البئر والقصر يخفضان على العطف على «العروش»، وإذا نظرت في معناها وجدتها ليست تَحْسُن فيها (على)؛ لأن العروش أعالي البيوت، والبئر في الأرض وكذلك القصر، لأن القرية لم تخو على القصر، ولكنه أتبع بعضه بعضاً»، وهذا يوضح سبب الضعف في العطف على «العروش»، ولهذا قال أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط»: «وجَعْل ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ معطوفين على ﴿ عُرُوشِهَا ﴾ جهلٌ بالفصاحة». ومع هذا فقد عاد الفراءُ في نهاية كلامه إلى تفضيل العطف على العروش قائلاً: «إِنَّهُ أحبُّ إليَّ».

(٣) البيت من قصيدة نظمها عديّ بن زيد وهو في السجن، وتحدث فيها عن صروف الدَّهر وعِبَر الأيَّام، وأورد أسماءَ الملوك والأباطرة والأكاسرة الذين أدركوا غاية الثراءِ والأُبَّهَة والسُّلطة، ثم تركوا كل ذلك مخلفين قصورهم المرمريَّة كشاهد على هزيمة الإنسان أمام الزَّمن، وهو في هذا البيت يصل الحديث عن قصر يُسمَّى (الحَضْر) بناه الضَّيْزَنُ بن معاوية القضاعي فيقول: إنه قد شيَّد هذا القصر بالمرمر، وجلَّله بالكِلس فارتفع وشمخ حتى أوت الطُّيور إلى أعاليه تبني أعشاشها. والكلْسُ هو الجير، والذُّرى: جمع ذِرْوَة وهي أعلى الشيء، والذَّرى ـ بالفتح ـ الْكِنُّ وما سترك وكنَّك من حائط أو شجر. والبيت ورد في اللسان شاهداً على أَن المَشِيد هو المبني بالشِّيد. وفي اللسان أيضاً مناقشة طويلة بين اللغويين في الفرق بين (مَشِيد) و(مُشَيَّدة). هذا والشِّيد: كل شيء طليت به الحائط من بلاط أو جص.

شَادَهُ: بناه بالشِّيد، والأظهر في البيت أنه أَراد: علاه بالمرمر، وقالت فرقة في هذه الآية: إن «مَشِيداً» معناه: مُعلًّى مُحصَّناً، ومعنى الآية يقتضي أنه كان كذلك قبل خرابه.

ثم وبَّخهم على الغفلة وترك الاعتبار بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، أَي: في البلاد فينظروا في أَحوال الأُمم المكذِّبة المعذَّبة، وهذه الآية تقتضي أَن العقل في القلب، وذلك هو الحق، ولا ينكر أَن للدماغ اتصالاً بالقلب يوجب فساد العقل إذا اختل الدماغ. وقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ﴾ نصب بالفاء في جواب الاستفهام، صُرف الفعل من الجزم إلى النصب.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ لفظة مبالغة كأَنه قال: ليس العمى عمى الأَبصار وإنما العمى حق العمى عمى القلب، ومعلوم أَن الأَبصار تَعْمَى ولكن المقصود ما ذكرناه، وهكذا قوله عليه الصلاة والسلام: «ليس الشديد بالصُّرَعة»[1]، و«ليس المسكين بهذا الطَّوَّاف»[2]، والضمير في ﴿فَإِنَّهَا﴾ للقصة ونحوها من التقدير. وقوله تعالى: ﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ مبالغة، كقوله تعالى: ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾[3]، وكما تقول: نظرتُ إليه بعيني، ونحو هذا.

والضمير في ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ لقريش، وقوله: ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ وعيدٌ وإخبارٌ بأَن كلَّ شيءٍ إلى وقت محدود، والوعد هنا مقيد بالعذاب فلذلك ورد في مكروه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾، قالت فرقة: وإن يوماً من أَيام

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورمز له الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» بأنه حديث صحيح، ولفظه كما ذكره: «ليس الشَّديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». ولفظه في «النهاية» لابن الأثير: «ما تعدُّون الصُّرَعة فيكم؟ قالوا: الذي لا يصرعه الرجال، قال: هو الذي يملك نفسه عند الغضب»، ثم فسَّر الصُّرَعة بقوله: المبالغ في الصراع الذي لا يُغْلَب.

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، وأحمد في مسنده، وأبو داود، والنسائي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه كما ذكره في «الجامع الصغير» «ليس المسكين الذي يطوف على الناس فتردُّه اللُّقمة واللُّقمتان والتَّمرة والتَّمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفْطَن له فيُتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس».

(٣) من قوله تعالى في الآية (١٥) من سورة (النور) ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾، ومن قوله تعالى في الآية (٤) من سورة (الأحزاب): ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾.

عذاب الله تعالى كألف سنة ممَّا تَعُدُّون من هذه لِطُول العذاب وبؤسه، فكأن المعنى: فما أَجهل من يستعجل هذا، وقالت فرقة: وإنَّ يوماً عند الله لإحاطته به وعلمه وإنفاذ قدرته كألف سنة عندكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا التأويل يقتضي أَن عشرة آلاف سنة إلى ما لا نهاية من العدد في حكم الألف، ولكنهم قالوا: ذكر الألف لأَنها منتهى العدد دون تكرار فاقتصر عليه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل لا يناسب الآية[1]. وقالت فرقة: إن المعنى أَن اليوم عند الله تعالى أَلف سنة من هذا العد، فمن ذلك قول النبي ﷺ: «إنِّي لأَرجو أَن تؤخر أُمتي نصف يوم»[2]، وقوله: «يدخل فقراءُ المسلمين الجنة قبل الأَغنياء بنصف يوم، وذلك خمسمائة سنة»[3]، ومنه قول ابن عباس رضي الله عنهما: «مقدار الحساب يوم القيامة أَلف سنة»، فكأَن المعنى: وإن طال الإمهال فإنه في بعض يوم من أَيام الله.

وكرر قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن﴾ لأَنه جلب معنى آخر، ذكر أَولاً القُرى المُهلكة دون إملاءٍ بل بعقب التكذيب، ثم ثنَّى بالمهلة لِئلاً يفرح هؤلاءِ بتأخر العذاب عنهم. وقرأَت فرقة: [تَعُدُّونَ] بالتَّاءِ، وقرأَت فرقة: [يَعُدُّونَ] بالياءِ على الغائب.

---

(١) اختلف المفسرون في التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾، فقيل: إن التشبيه في الطول، وهو الذي ذكره ابن عطية أولاً، وسبب الطول في هذا اليوم هو ما فيه من شدة وعذاب؛ لأن أيام المحنة يراها الإنسان طويلة ممتدة لا تنتهي. وقيل: إن التشبيه وقع بالنسبة لعلم الله تعالى وقدرته وإنفاذه ما يريد، وهذا هو القول الثاني في كلام ابن عطية، وعلّق عليه بأنه لا يناسب الآية، أي لا يناسب موردها ولا الغاية منها، وقيل: إن التشبيه في العدد، وهذا ما ذكره ابن عطية ثالثاً، واستشهد عليه بحديثين شريفين.

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم.

(٣) رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة كما أخرجه ابن أبي حاتم عن صفوان بن سليم، ولفظه كما في «الدر المنثور» أن رسول الله ﷺ قال: «فقراءُ المسلمين يدخلون الجنة قبل الأَغنياء من المسلمين بنصف يوم، قيل: وما نصف اليوم؟ قال: خمسمائة عام، وتلا ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾، وأخرجه ابن جرير، وابن مردويه من طريق ضمير بن نهار عن أبي هريرة، وأخرجه أحمد في الزهد عن ضمير بن نهار عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. «الدر المنثور»، والذي في ابن جرير الطبري: عن (سُمَيْر بن نهار) بدلاً من (ضُمَيْر بن نهار)».

قوله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾.

المعنى: قل يا محمد: إنما أَنا نذير عذاب الله، ليس إِليَّ أَن أُعجِّل عذاباً ولا أَن أُؤخِّره عن وقته(١)، ثم قسَّم حالة المؤمنين والكافرين بأَن للمؤمنين سُتْرَةُ ذنوبهم ورِزْقُه إِيَّاهم في الجنة، و«الكريم» صفة نفي المذام، كما تقول: ثوب كريم، وبأَن للكافرين المعاجزين عذاب الجحيم، وهذا كلُّه ممَّا أُمر أَن يقوله، أَي: هذا معنى رسالتي لا ما تتمنَّوْن أَنتم.

وقوله تعالى: ﴿سَعَوْاْ﴾ معناه: تحيَّلوا وكادوا، من السِّعاية، و«الآيات»: آيات القرآن، أَيْ: كادوا بالتكذيب وسائر أَقوالهم. وقرأَت فرقة: [مُعَاجِزِينَ]، معناه: مغالبين، كأَنهم طلبوا عجز صاحب الآيات، والآيات تقتضي تعجيزهم، فصارت مُفاعلة. وعبَّر بعض الناس في تفسير ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ بِظانِّين أَنهم يغلبون الله تعالى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تفسير خارج عن اللَّفظة. وقرأَت فرقة: [مُعَجِّزِينَ] بغير أَلف وبشد الجيم، ومعناه: معجِّزين الناس عن الإِيمان، أَي جاعلوهم بالتثبيط عجزة عن الإِيمان. وقال أَبو علي: [مُعَجِّزِينَ] معناه: ناسبين أَصحاب النبي ﷺ إِلى العجز، كما تقول: فَسَّقتُ فلاناً وزَنَّيْتُه، أَي نَسَبْته إِلى ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ الآية تسلية للنبي ﷺ عن النازلة التي أَلقى الشيطان فيها في أُمنية النبي ﷺ.

---

(١) وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾، وقوله: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾، والآيات بهذا المعنى كثيرة جداً.

و﴿تَمَنَّىٰ﴾ معناه المشهور: أَراد وأَحبَّ، وقالت فرقة: هو معناها في الآية، والمراد أَن الشيطان أَلقى أَلفاظه بسبب ما تَمَنَّاه رسول الله ﷺ من مقاربة قومه وكونهم متبعين له، قالوا: فلما تمنى رسول الله ﷺ من ذلك ما لم يَقْضِهِ الله تبارك وتعالى وجد الشيطان السبيل، فحين قرأ رسول الله ﷺ سورة النجم في مسجد مكة وقد حضر المسلمون والمشركون بلغ إِلى قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾[1] أَلقى الشيطان «تلك الغرانيق العُلَى وإِنَّ شفاعتهن لَتُرْتَجَى»، فقال الكفار: هذا محمد يذكر آلهتنا بما نريد، وفرحوا بذلك، فلما انتهى إِلى السجدة[2] سجد الناسُ أَجمعون إِلاَّ أُمية بن خلف، فإِنه أَخذ قبضة من تراب فرفعها إِلى جبهته وقال: يكفيني هذا، قال البخاري: هو أُمية بن خلف، وقال بعض الناس: هو الوليد بن المغيرة، وقال بعض الناس: هو أَبو أُحَيْحَة سعيد بن العاصي، ثم اتصل بمهاجرة الحبشة أَن أَهل مكة اتبعوا محمداً ﷺ ففرحوا لذلك، وأَقبل بعضهم فوجدوا أُلْقِية الشيطان قد نُسخت وأَهل مكة قد افتُتنوا[3].

وقالت فرقة: ﴿تَمَنَّىٰ﴾ معناه: تَلاَ، والأُمنية: التِّلاوة، ومنه قول الشاعر:

---

(١) الآيتان (١٩ـ ٢٠) من سورة (النجم).

(٢) في قوله تعالى في الآية الأخيرة من السورة ورقمها (٦٢): ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩﴾.

(٣) قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق، ولكنها من طُرق كلها مرسلة، ولم أرها مُسْندةً من وجه صحيح، والله أعلم»، ثم ذكر أهم الروايات، وبيَّن أنها مُرْسَلة، وقال أبو بكر البزار: «وهذا الحديث لا نعلمه يُروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره، إلاَّ ما رواه شُعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فيما أحسب، والشك في هذا الحديث أن النبي ﷺ كان بمكة، ولم يسنده عن شُعبة إلاَّ أُمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يُعرف عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس»، ويُتَمِّم هذا الكلام أن نوضح الآتي: أن طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير هو الوحيد الذي يجوز ذكره عند أهل السَّند، ومع ذلك وقع الشَّك في وصله، ولم يرو هذا الخبر عن سعيد بن جبير إلاَّ أُمية بن خالد، وهو وإن كان ثقة فقد شَكَّكَ في وصلها، وقد قال البزَّار: «إنما يُروى من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، والكلبي متروك».

وقال القاضي عياض في كتاب «الشفا»: «هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه بسند سليم متصل ثقة، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم». ونلحظ أن ابن عطية لم يذكر الخبر على أنه حديث، وإنما اكتفى بقوله: «قالوا: فلما تمنى رسول الله ﷺ...» بالإضافة إلى ما سنذكره بعد ذلك من تعليق. وقال القرطبي: «الأحاديث المروية في نزول الآية، ليس منها شيءٌ يصح».

تَمَنَّـــى كِتَـــابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلَـــةٍ وَآخِـرَهَـا لاَقَـى حِمَـام الْمَقَـادِرِ[١]

ومنه قول الآخر:

. . . . تَمَنِّـيَ دَاودَ الـزَّبُـور عَلَـى رِسْـلِ[٢]

وتأوَّلوا قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾[٣]، أَي: إِلاَّ تلاوة. وقالت هذه الفرقة في معنى سبب إِلقاء الشيطان في تلاوة النبيِّ ﷺ ما تقدم آنفاً من ذكر الآلهة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الحديث الذي فيه هذه الغرانقة وقع في كتب التفسير ونحوها، ولم يدخله البخاري ولا مسلم، ولا ذكره ـ في علمي ـ مصنف مشهور[٤]، بل يقتضي مذهب أَهل الحديث أَنَّ الشيطان أَلْقَى، ولا يُعَيِّنون هذا السبب ولا غيره، ولا خلاف أَن إِلقاءَ الشيطان إِنما هو لأَلفاظ مسموعة بها وقعت الفتنة، ثم اختلف الناس في صورة هذا الإِلقاء ـ فالذي في التفاسير ـ وهو مشهور القول ـ أَنَّ النبي ﷺ تكلم بتلك الأَلفاظ، وأَن الشيطان أَوهمه ووسوس في قلبه حتى خرجت تلك الأَلفاظ على لسانه، ورُوي أَنه نزل إِليه جبريل عليه السلام بعد ذلك فدارسه سورة النجم، فلما قالها رسول الله ﷺ قال له جبريل: لم آتِكَ بهذا، فقال رسول الله ﷺ: افتريت على الله وقلت ما لم يقل لي، وجعل يتفجع ويغْتَمُّ، فنزلت هذه الآية ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وحدثني أَبي رحمه الله أَنه لقي بالمشرق من شيوخ العلماءِ والمتكلمين من قال:

---

(١) البيت في اللسان، والتاج، ومجاز القرآن، وهو لحسَّان بن ثابت في عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، ومعنى ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾: قرأ وتلا، والحِمَام: قضاءُ الموت وقدره

(٢) هذا عجز بيت ذكر أيضاً للاستشهاد به على أَن (تمنَّى) تأتي بمعنى (قرأ وتَلاَ)، وهو في اللسان، والتاج، ومجاز القرآن، والبيت بتمامه:

تَمَنَّـــى كِتَـــابَ اللهِ آخِـــرَ لَيْلِـــهِ تَمَنِّـيَ دَاوُدَ الـزَّبُـورَ عَلَـى رِسْـلِ

و(عَلَى رِسْلٍ): على تُؤَدَة ورفق ودون تَعَجُّل.

(٣) من قوله تعالى في الآية (٧٨) من سورة البقرة: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾.

(٤) يتفق هذا مع ما ذكره ابن كثير في تفسيره، وما نقلناه عن القاضي عياض، وأبو بكر البزار، والقرطبي وهو كلام المحققين.

هذا لا يجوز على النبي ﷺ وهو المعصوم في التبليغ، وإنما الأمر أن الشيطان نطق بلفظ أسمعه الكفار عند قول النبي ﷺ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾[(١)]، وقرَّب صوته من صوت النبي ﷺ حتى التبس الأمر على المشركين وقالوا: محمد قرأها[(٢)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

و﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ ـ على هذا التأويل ـ بمعنى: (تلا) ولا بُدَّ، وقد ورد هذا التأويل عن الإمام أبي المعالي رحمه الله وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والرَّسول أخص من النبي، وكثير من الأنبياءِ لم يُرْسَلُوا، وكل رسول نبي،

---

(١) الآيتان (١٩ـ ٢٠) من سورة (النجم).

(٢) بهذا التأويل أخذ كثير من العلماء، ومنهم القرطبي الذي نقل عن القاضي عياض قوله: «والذي يظهر ويترجَّح في تأويله ـ على تسليمه ـ أن النبي ﷺ كان كما أمره ربُّه يرتِّل القرآن ترتيلاً، ويفصل الآي تفصيلاً في قراءته، كما رواه الثقات عنه، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكنات ودسُّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكياً نغمة النبي ﷺ، بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار، فظنوها من قول النبي ﷺ وأشاعوها، ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله، وتحققهم من حال النبي ﷺ في ذم الأوثان وعيبها ما عُرف عنه، فيكون ما رُوي من حزن النبي ﷺ لهذه الإشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ اهـ. وكلام القاضي عياض واضح في أن هذا الإلقاء كان من الشيطان للكافرين، ولم يكن للمسلمين، وأن النبي ﷺ لمَّا عرف حزن وتألَّم، ولكن الله آنسه بالآية الكريمة. ويلتقي مع هذا التأويل ما قاله سليمان بن حرب من أن [في] في الآية بمعنى (عند)، أي: أَلْقَى الشيطان عند أُمنية النبي ﷺ، أي عند تلاوته، وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، أي: ولبثت عندنا. وقال القاضي أبو بكر العربي: «وهذه الآية نصٌّ في براءة النبي ﷺ مما ينسب إليه أنه قاله، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي: في تلاوته، فأخبر الله تعالى أن من سنَّته في رسله وسيرته في أنبيائه إذا قالوا عن الله تعالى قولاً زاد الشيطان فيه من قِبَل نفسه كما يفعل سائر المعاصي، فهذا نصٌّ في الشيطان أنه زاد في الذي قاله النبي ﷺ، لا أن النبي ﷺ تكلم به.

وقال الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن حسين البيهقي: «هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، وإن رواتها مطعون عليهم، وليس في الصحاح ولا في التصانيف الحديثية شيءٌ مما ذكروه فوجب إطراحه، والعجب ممن نقل هذا وهم يتلون في كتاب الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ الآية، وقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾، فالتثبيت واقع، والمقاربة منفيَّة، وقال: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ وقال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، وقال آمراً نبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾، وهذه نصوص تشهد بعصمته ﷺ.

و«النَّسْخُ» في هذه الآية: الإذهابُ، كماتقول: نسخت الشمسُ الظِّلَّ، وليس برفع ما استقر من الحكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وطوَّف الطبري وأَشبع الإسناد في أَن إِلقاءَ الشيطان كان على لسان النبيِّ ﷺ، واختلفت الروايات في الأَلفاظ ففي بعضها: «تلك الغرانقة»، وفي بعضها: «تلك الغرانيق» وفي بعضها: «وإِن شفاعتهم»، وفي بعضها: «وإن شفاعتهن»، وفي بعضها: «منها الشفاعة تُرْتَجَى».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والغَرَانِيق: السَّادة العظام الأَقدار، ومنه قول الشاعر:

أَهْلاً بِصَائِدَةِ ٱلْغُرَانِقِ[1]

قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الآية. اللام في قوله تعالى: [ليجعل] متعلِّقة بقوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ﴾[2]، و«الفتنة»: الامتحان والاختبار، و«الَّذِين في قُلُوبهم مَرَض» هم عامة الكفار، و«الْقَاسِيَةُ قُلُوبُهم» خواص منهم عُتاة كأَبي جهل، والنَّضْر، وعُقْبة. و«الشِّقَاقُ»: البعد عن الخير، والضلالُ، والكونُ في شق غير شق الصلاح، و﴿بَعِيدٍ﴾ معناه أَنه انتهى بهم وتعمق فَرَجْعَتُهم منه غير مرجوة.

و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ هم أَصحاب محمد ﷺ، والضمير في ﴿أَنَّهُ﴾ عائد على القرآن، و﴿فَتُخْبِتَ﴾ معناه: تتطامن وتخضع، وهو مأْخوذ من الخَبْت، وهو المطمئن من الأَرض. وقرأَت فرقة: [لَهَادِ] بغير ياءٍ بعد الدال، وقرأَت فرقة: [لَهَادِي] بياءٍ، وقرأَت فرقة: [لَهَادٍ] بالتنوين وترك الإِضافة، وهذه الآية معادلةٌ لقوله تعالى قبل: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

---

(١) جاء في اللسان (غرنق): «الغُرْنُوق والغِرْنُوق والغِرْنَاقُ والغُرَانِقُ، كلُّه: الأبيض الشاب الناعم الجميل، وفي حديث عليٍّ رضي الله تعالى عنه: فكأَنِّي أَنظر إلى غُرْنُوق من قريش يتشحَّط في دمه، أي شاب ناعم، وامرأة غُرَانِقَة وغُرَانِق: شابة ممتلئة». وفيه أن الغرانيق طيرٌ مثل الكراكي، واحدها: غِرْنَوْقٌ وغِرْنَيْق، سمِّي به لبياضه.

(٢) وقال الحوفي: متعلقة بـ[يُحْكِمُ]، وقيل: متعلقة بـ[أَلْقَى]، وقال أَبو حيان الأَندلسي: الظاهر أَنها للتعليل، وقيل: هي لام العاقبة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ
عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ
عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ
ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ
هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾.

«المِرْيَةُ»: الشَّك، والضمير في قوله تعالى: [منه] قالت فرقة: هو عائد على القرآن، وقالت فرقة: على محمد ﷺ، وقالت فرقة: على ما أَلقى الشيطان، وقال سعيد بن جبير أَيضاً: على سجود النبي ﷺ في سورة النجم، و[السَّاعَةُ]: قالت فرقة: أَراد يوم القيامة و«اليوم العقيم» يوم بدر، وقالت فرقة: [السَّاعَةُ] ساعة موتهم أَو قتلهم في الدنيا كيوم بدر ونحوه، و«اليوم العقيم» يوم القيامة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان جيّدان لأَنهما أَحرزا التقسيم بـ(أَوْ)، ومن جعل «الساعة واليوم العقيم» يوم القيامة فقد أَفسد رتبة (أَوْ)، وسمي يوم القيامة أَو يوم الاستئصال عقيماً لأَنه لا ليلة بعده ولا يوم، والأَيام كأَنها نتائج؛ لمجيءِ واحد إِثر واحد، فكأَن آخر يوم قد عقم، وهذه استعارة، وجُملة هذه الآية توعد.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ السابق منه[1] أَنه يوم القيامة حيث لا مُلْكَ فيه لأَحد، ويجوز أَن يريد به يوم بدر ونحوه من حيث ينفذ قضاءُ الله وحده ويبطل ما سواه، ويمضي حكمه فيمن أَراد تعذيبه، فأَمّا من تأَوّله في يوم القيامة فاتّسق له قوله: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إِلى قوله: ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾، ومن تأَوّله في يوم بدر ونحوه جعل قوله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ابتداءَ خبر عن حالهم المتركبة على حالهم في ذلك اليوم العقيم من الإِيمان والكفر.

(١) يعني: المتبادر إِلى الذهن.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية ابتداءُ معنى آخر، وذلك أنه لمَّا مات بالمدينة عثمان بن مظعون، وأَبو سلمة بن عبد الأَسد قال بعض الناس: مَنْ قتل من المهاجرين أَفضل ممن مات حتف أَنفه، فنزلت هذه الآية مُسَوِّية بينهم في أَن الله تبارك وتعالى يرزق جميعهم رزقاً حسناً. وليس هذا بقاضٍ بتساويهم في الفضل، وظاهر الشريعة أَن المقتول أَفضل، وقد قال بعض الناس: المقتول والميت في سبيل الله شهيدان، ولكن للمقتول مزيَّة ما أَصاب في ذات الله تعالى، و«الرِّزق الحسن» يحتمل أَن يريد به رزق الشهداء عند ربهم في البرزخ، ويحتمل أَن يريد به بعد يوم القيامة في الجنة.

وقرأَت فرقة: [مَدْخَلاً] بفتح الميم من (دَخَلَ)، فهو محمول على فعل مقدر تقديره: فَيَدْخُلُون مَدخلاً، وقرأَت فرقة: ﴿مُّدْخَلًا﴾ بضم الميم من (أَدخل)[(١)].

وأَسند الطبري عن سلمان بن عامر[(٢)] قال: كان فَضَالة[(٣)] برُودِس أَميراً على أَرباع، فخرج بجنازتَي رجلين أَحدهما قتيل والآخر متوفى، فرأَى ميل الناس مع جنازة القتيل، فقال: أَراكم أَيها الناس تميلون مع القتيل وتفضلونه، فوالَّذي نفسي بيده ما أُبالي من أَيِّ حفرتيهما بعثت، اقرؤوا قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ إلى ﴿لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ المعنى: الأَمر ذلك. ثم أَخبر تعالى عمن عاقب مِنَ المؤمنين مَنْ ظَلَمَه مِنَ الكفرة،

---

(١) قال الإمام ابن خالويه في كتاب «الحجة في القراءات السبعة»: «الحُجَّة لمن ضمَّ أنه جعله مصدراً من أدخل يُدخل، ودليله قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾، والحُجَّة لمن فتح أنه جعله مصدراً من دَخَل يُدْخُلُ مَدْخَلاً ودُخُولاً، ودليله قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾، ويجوز أن يكون الفتح اسماً للمكان، وربما جاءَ بالضم».

(٢) اختلفت الأصول وكتب التفسير في هذا الاسم، فهو في بعض الأصول، وفي الطبري: (سلامان بن عامر)، وفي بعض الأصول (سلمان بن عامر)، وفي تفسير القرطبي (سليمان بن عامر). وهو سَلْمان بن عامر بن أَوْس بن حُجْر بن عمرو بن الحارث الضَّبِّي، قال عنه الحافظ العسقلاني في تقريب التهذيب: إنه صحابي سكن البصرة.

(٣) هو فَضَالَة بن عُبَيد بن نَافِذ بن قيس الأنصاري، أول ما شهد أُحد، ثم نزل دمشق ووليَ قضاءَها، ومات سنة ثمان وخمسين، وقيل: مات قبل ذلك.

ووعد المبغيَّ عليه بأنه ينصره، وسمَّى الذنب في هذه الآية باسم العقوبة كما تُسمَّى العقوبة كثيراً باسم الذنب، وهذا كلُّه تجوُّزٌ واتِّساع.

وذُكر أَن هذه الآية نزلت في قوم من المؤمنين لقيهم كفار في الشَّهر الحرام، فأَبى المؤمنون من قتالهم، وأَبى المشركون إلاَّ القتال، فلمَّا اقتَتَلُوا جَدَّ المؤمنون ونصرهم الله تعالى فنزلت الآية فيهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ معناه: نصر الله تعالى أَولياءَه ومَنْ بُغِيَ عليه بأَنه القادر على العظائم، الذي لا تُضاهى قدرته، فأَوجز العبارة بأَن أَشار بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى النصر، وعبَّر عن القدرة بتفصيلها، فذكر منها مثلاً لا يُدَّعى لغير الله تعالى، وجعل تقصير اللَّيل وزيادة النهار وعكسها إيلاجاً تَجَوُّزاً وتشبيهاً، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ معناه نحو ما ذكرناه. وقرأَت فرقة: [تَدْعُوْنَ] بالتاءِ من فوق، وقرأَت فرقة: ﴿يَدْعُونَ﴾، والإشارة بما يدعى من دونه، قالت فرقة: هي إلى الشيطان، وقالت فرقة: هي إلى الأَصنام، والعموم هاهنا أَحسن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنبيهٌ[1] وبعده خبر أَن الله أَنزل من السماءِ ماءً فظلت الأَرض تخضر عنه. وقوله: ﴿فَتُصْبِحُ﴾ بمنزله قوله: فتضحى أَو فتصير، عبارة عن استعجالها أَثر نزول الماءِ واستمرارها كذلك عادة، ووقع قوله: ﴿فَتُصْبِحُ﴾ من حيث

---

(١) قال الفراءُ في «معاني القرآن»: المعنى في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خبرٌ، كأنَّك قلت في الكلام: اعْلَم أن الله ينزل من السماء ماءً فتصبح الأرضُ، وهو مثل قول الشاعر:

أَلَـمْ تَسْـأَلِ الـرَّبْـعَ الْقَـدِيـمَ فَيَنْطِـقُ فَهَـلْ تُخْبِـرَنْـكَ الْيَـوْمَ بَيْـدَاءُ سَمْلَـقُ؟

وقال سيبويه: «وسأَلْتُ الخليل عن ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فقال: هذا واجب وهو تنبيه، كأنك قلت: أَتَسْمَع؟ أنزل الله من السماء ماءً فكان كذا وكذا» ثم ذكر البيت السابق، والبيت لجميل بثينة، والسَّمْلَق: الأَرض السهلة المستوية التي لا تُنبت. اهـ.

الآية خَبَراً، والفاءُ عاطفة وليست بجواب لأَن كونها جواباً لقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فاسد المعنى[١]، ورُوي عن عكرمة أَنه قال: هذا لا يكون إلاَّ بمكة أَو تِهامة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومعنى هذا أَنه أَخذ قوله: ﴿فَتُصْبِحُ﴾ مقصوداً به صباح ليلة المطر، وذهب إلى أَن ذلك الاخضرار في سائر البلاد يتأخر[٢].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد شاهدتُ هذا في السوس الأَقصى، نزل المطر ليلاً بعد قحط وأَصبحت تلك الأَرض الرملة التي نسفتها الرياح قد اخضرت بنبات ضعيف دقيق. وقرأَ الجمهور: ﴿مُخْضَرَّةً﴾، وقرأَت فرقة: ﴿مَخْضَرَةً﴾[٣]. و«اللَّطِيفُ»: المُحكِم للأُمور برفق، واللام في ﴿لَهُۥ﴾ لام الملك، و﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ الذي لا حاجة به إلى شيءٍ، هكذا هو على الإطلاق.

وقوله تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يريد: من الحيوان والمعادن وسائر المرافق، وقرأَ الجمهور: ﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ بالنصب، وذلك يحتمل وجهين من الإعراب: أَحدهما أَن يكون عطفاً على ﴿مَّا﴾ بتقدير: وسخَّر الفُلْكَ، والآخر أَن يكون عطفاً على المكتوبة[٤]، بتقدير: وأَن الفُلْكَ، وقوله: ﴿تَجْرِى﴾ على الإعراب الأَول في موضع

---

(١) لأنك إذا أجبت النفي بالفاء كان على معنيين ينتفي الجواب في كل منهما: إذا قلت: ما تأتينا فَتُحَدِّثنا بالنصب فالمعنى: ما تأتينا محدِّثاً، إنما يأتي ولا يُحَدِّث، ويجوز أن يكون المعنى: إنك لا تأتي فكيف تُحدِّث؟ فالحديث مُنتَف في الحالتين، والتقرير بأداة الاستفهام كالنفي المحض في الجواب، يَثْبُتُ ما دخلته الهمزة وينتفي الجواب، فيلزم من هذا الذي تقرر إثبات الرؤية في الآية ونفي الاخضرار، وهو خلاف المقصود. هذا هو المراد بقوله: «فاسد المعنى». وأيضاً قالوا: إن جواب الاستفهام ينعقد منه مع الاستفهام السابق شرطٌ وجزاءٌ، ولا يصح في الآية هنا أن يتقدر أن ترى إنزال المطر فتصبح الأرض مخضرة، لأن الاخضرار ليس مترتباً على علمك أو رؤيتك، إنما هو مترتب على إنزال المطر. قال ذلك الفراءُ.

(٢) إذا جعلنا ﴿فَتُصْبِحُ﴾ بمعنى: (فتَصِير) لا يلزم أن يكون الاخضرار في وقت الصباح، وقد خصَّ الله تعالى وقت الصباح بالذكر دون سائر أوقات النهار لأن رؤية الأشياء المحبوبة في أول النهار أبهج للعين وأسَرُّ للنفس.

(٣) قال في «البحر المحيط»: «على وزن مَسْبَعة».

(٤) يريد بالمكتوبة لفظ الجلالة.

الحال، وعلى الإعراب الثاني في موضع الخبر. وقرأت فرقة: [وَٱلْفُلْكُ] بالرفع، فـ﴿ تَجْرِي﴾ خبر على هذه القراءة.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ يحتمل أن يريد يوم القيامة، كأن طيّ السماءِ ونقص هذه الهيئة كوقوعهما، ويحتمل أن يريد بذلك الوعيد لهم في أنه إنْ أَذِنَ في سقوط السماءِ عليكم سقطت، ويحتمل أن يعود قوله: ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ على «الإمساك»؛ لأن الكلام يقتضي: بغير عَمَد ونحوهِ فكأنه أَراد: إلاَّ بإذْنِهِ فَبِهِ نُمسكها. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

الإحياءُ والإماتة في هذه الآية ثلاث مراتب، وسقط منها الموت الأَول الذي نصَّ عليه في غيرها[(١)]، إلاَّ أنه بالمعنى في هذه، و«ٱلْمَنسَكُ» المصدر، فهو بمعنى العبادة والشريعة، وهو أيضاً موضع النُسك، وقرأت فرقة بفتح السين وفرقة بكسرها، وقد تقدم القول فيه في هذه السورة[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ﴾ يعطي أن «المَنْسَكَ» المصدر، ولو كان الموضع لقال: هم ناسكون فيه[(٣)]، ورِوت فرقة أَن هذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار في أَمر الذبائح، وقولهم للمؤمنين: تأْكلون ما ذبحتم وهو من

---

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

(٢) في قوله تعالى في الآية (٣٤): ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾، راجع ص(٢٤٧) من هذا المجلد.

(٣) قال أبو حيان الأندلسي: «ولا يتعين ما قال؛ إذ قد يتسع في معمول اسم الفاعل كما يتسع في معمول الفعل، فهو موضعٌ اتُّسع فيه فأُجري مجرى المفعول به على السَّعة، ومن الاتساع في ظرف المكان قول الشاعر:

وَمَشْرَبٍ أَشْرَبُهُ ... لاَ آجِنُ المَاءِ وَلاَ وَبِيلُ

فإن (مَشْرَب) مكان الشرب، وقد عاد الضمير، وكان أصله: «أشرب فيه» فاتَّسع فيه فتعدى الفعل إلى ضميره».

والوَبِيلُ: الوخيمُ الثقيلُ «المعجم الوسيط».

قتلكم، ولا تأكلون مما قتل الله من الميتة، فنزلت الآية بسبب هذه المنازعة. قوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾. هذه البِنْيَةُ من الفعل والنهي تحتملُ معنى التخويف وتحتمل معنى احتقار الفاعل وأنه أقلُّ من أن يُفاعل، وهذا هو المعنى في هذه الآية، وقال أبو إسحاق: المعنى: فلا تنازعهم فينازعوك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التقدير الذي قَدَّر إنما يَحْسُن مع معنى التخويف، وإنما يحسن أن يُقَدَّر هنا المعنى: فلا تبدأهم بمنازعتك، فالنهي إنما يراد به معنى من غير اللفظ، كما يراد في قولهم: «لا أَرينك هاهنا»، أي: لا تكن هاهنا. وقرأت فرقة: [فلا يَنْزَعَنَّكَ]، وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ معناه ـ على تأويل أن «المَنْسَك» الشريعة ـ: لا ينازعنك في الدين والكتاب ونحوه، وعلى أن «المَنْسَك» موضع الذبح على ما روت الفرقة المذكورة من أن الآية نزلت في الذبائح، فيكون ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾: الذبح. و«ٱلۡهُدَى» في هذه الآية: الإرشاد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ الآية موادعةٌ محضة، ونسختها آية السيف، وباقي الآية وعيد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ٧١ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٢﴾.

لمَّا أَخبر الله تعالى في الآية قبلها بأَنه يحكم بين الناس يوم القيامة فيما اختلفوا فيه أَتبَعَ ذلك الخبر بأَن عنده علْم كل شيءٍ ليقع الحكم في معلوم، فخرجت العبارة على طريق التشبيه على علم الله تعالى وإِحاطته، وأَن ذلك كله في كتاب وهو اللوح المحفوظ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ يحتمل أَن تكون الإشارة إِلى كون ذلك

في كتاب وكونه معلوماً، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى الحكم في الاختلاف.

ثم ذكر تعالى ـ على جهة التوبيخ ـ فعل الكفرة في أنهم يعبدون من الأَصنام من دون الله ما لم يُنَزِّل الله فيه حُجَّة ولا بُرهاناً، و«السُلْطَانُ»: الحُجَّة حيث وقع في القرآن الكريم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ توعُّد.

والضمير في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ عائد على كفار قريش، والمعنى أَنهم كانوا إذا سمعوا القرآن من النبي ﷺ، أَو من أَحد أَصحابه، وسمعوا ما فيه من رفض آلهتهم والدعاء إلى التوحيد، عُرفت المساءَة في وجوههم، و«ٱلْمُنكَر» مِن معتقدهم وعداوتهم وأَنهم يدبِّرون ويسرعون إلى السطوة بالتالي، والمعنى أَنهم يكادون يسطون دهرهم أَجمع، وأَما في الشَّاذِّ من الأَوقات فقد يُسْطى بالتَّالين نحو ما فُعِل بعبد الله بن مسعود وبالنبي ﷺ حين أَغاثه وحل الأَمر أَبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وبعمر رضي الله عنه حين أَجاره العاصي بن وائل، وبأَبي ذرٍّ رضي الله عنه وغير ذلك، و«السَّطْوُ» إيقاع بمباطشة أَوْ أَمْر بها.

ثم أَمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أَن يقول لهم على جهة التوعُّد والتقريع: أَأُنَبِّئُكُمْ، أَي أُخبركم بشَرٍّ من ذلكم، والإشارة بـ«ذلكم» إلى السَّطْو، ثم ابتدأَ ينبىءُ، كأَن قائلاً قال له: وما هو؟ قال النارُ، أَي نار جهنم، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾ يحتمل أَن يكون أَراد أَن الله وعدهم بالنار، فيكون الوَعْد بالشرِّ ونحو ذلك لمَّا نصَّ عليه ولم يجيءْ مطلقاً، ويحتمل أَن يكون أَراد أَن الله تعالى وعد النار بأَن يطعمها الكفار، فيكون الوعد على بابه الذي يقتضيه تسرعها إلى الكفار وقولها: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ [ق: ٣٠] ونحو ذلك من مساوئها. و«ٱلْمَصِيرُ» مَفْعَل من (صار) على تحوَّل من حال إلى حالٍ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويقتضي كلام الطبري في هذه الآية أَن الإشارة بـ[ذلكم] هي إلى أَصحاب محمد ﷺ التَّالين، ثم قال: أَلاَ أُخبركم بأَكْرَهَ إِليكم من هؤلاء أَنتم الذين وُعِدْتُم النار[1]، وأَسند نحو هذا القول إلى قائل لم يُسَمِّه، وهذا كله ضعيف.

---

(١) عبارة الطبري أوضح من هذه العبارة التي قالها ابن عطية، قال الطبري: «وقد ذُكر عن بعضهم أنه كان يقول: إن المشركين قالوا: والله إن محمداً وأصحابه لشَرٌّ خلق الله، فقال الله لهم: قل أفأنبئكم أيها=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾.

الخطاب بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ قيل: هو خطاب يعم جميع العالم، وقيل: هو خطاب للمؤمنين حينئذ الذين أراد الله تعالى أن يبين عندهم خطأَ الكافرين، ولا شك أَن المخاطب هم ولكنه خطاب يعم جميع الناس، متى نظره أحد في أمر عبادة الأَوثان توجَّه له الخطاب.

واختلف المتأولون في فاعل (ضَرَبَ)، من هو؟ فقالت فرقة: المعنى: ضَرَب أَهلُ الكفر مثلاً لله أَصنامَهُم وأَوْثَانَهُمْ[(١)]، فاستمعوا أَنتم أَيها الناسُ لأَمر هذه الآلهة، وقالت فرقة: المعنى: ضَرَبَ اللهُ تعالى مثلاً لهذه الأَصنام وهو كذا وكذا، فالمثال والمثل في القول الأَول هي الأَصنام، والذي جُعل له المثال الله تعالى، والمثال الذي في التأْويل الثاني هو في الذباب وأَمره، والذي جُعل له هي الأَصنام، ومعنى ﴿ ضُرِبَ ﴾: أُثبت وأُلزم، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ ﴾[(٢)]، وقولنا: ضُربت الجزية وضُرب البعث، ويحتمل أَن يكون «ضَرْبُ المثلِ» من الضَّرْب الذي هو المثل، ومن قولك: «هَذَا ضَرْبُ هذا»، فكأَنه قال: مُثِّلَ مَثَلٌ.

وقرأَت فرقة: [يَدْعونَ] بالياءِ من تحت والضمير للكفار، وقرأَت فرقة: [يُدْعونَ] بضم الياءِ وفتح العين[(٣)] على ما لم يُسَمَّ فاعله والضمير للأَصنام.

وبدأَ تعالى بنفي الخَلْق والاختراع عنهم من حيث هي صفة ثابتة له مختصة به،

= القائلون هذا القول بِشَرٌ من محمد ﷺ؟ أَنتم أيها المشركون الذين وعدهم الله النار». وقوله: «بِشَرٌ من محمد» يعني على زعمهم.

(١) يعني أن الكفار جعلوا لله مَثَلاً حين عبدوا غيره، فكأنه قال: جعلوا لي شبيهاً في عبادتي، فاستعموا خبر هذا الشَّبه، وليس ثَمَّ مَثَلٌ، وهذا هو قول الأخفش.

(٢) من الآية (٦١) من سورة (البقرة)، وتكررت في (١١٢) من سورة (آل عمران).

(٣) القراءة الأولى قراءَة الحسن، ويعقوب، وهارون، والخفاف، ومحبوب عن أبي عمرو، والثانية قراءة اليماني، وموسى الأسواري، أَمَّا قراءة الجمهور فهي بالتاء مع البناء للفاعل.

فكأَنه قال: ليس لهم صفتي، ثم ثَنَّى بالأَمر الذي بلغ بهم غاية التعجيز، وذكر تعالى أَمر سلْب الذباب لأَنه كان كثيراً محسوساً عند العرب، وذلك أَنهم كانوا يُضَمِّخُون أَوثانهم بأَنواع الطيب فكان الذباب يذهب بذلك[١]، وكانوا متأَلمين من هذه الحجة فجعلت مثلاً. والذُّباب جمعه أَذِبَّة في القليل وذِبَّان في الكثير كغُراب وأَغربة وغِرْبان، ولا يقال ذبابات إلاَّ في الذيول لا في الحيوان[٢].

واختلف المتأَولون في قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ فقالت فرقة: أَراد بالطالب الأَصنام وبالمطلوب الذباب، أَي أَنهم ينبغي أَن يكونوا طالبين لما سُلب من طيبهم على معهود الأَنفة في الحيوان. وقالت فرقة: معناهُ ضَعْفُ الكفار في طلبهم الصواب والفضيلة من جهة الأَصنام، وضَعْفُ الأَصنام عن إِعطاء ذلك وإِنالته.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يريد: ضَعُفَ الطالبُ وهو الذُّبابُ في استلابه ما على الأَصنام، وضَعُف الأَصنام في أَلاَّ مَنَعَة لهم، وعلى كل قول فدلَّ ضَعْفُ الذباب الذي هو محسوسٌ مُجمع عليه وضَعْفُ الأَصنام في أَلاَّ منعة لهم عن هذا المُجْمع على ضعفه على أَن الأَصنام في أَحط رُتْبة وأَخَسِّ منزلة.

وقوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ خطابٌ للناس المذكورين، والضمير في ﴿قَدَرُواْ﴾ للكفار، والمعنى: ما وفَّوه حقَّه من التعظيم والتوحيد. ثم أَخبر بقوَّة الله تعالى وعزَّته، وهما صفتان مناقضتان لعجز الأَصنام.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾.

روي أَن هذه الآية إِلى قوله تعالى: ﴿ٱلْأُمُورُ﴾ نزلت بسبب قول الوليد بن المغيرة:

---

(١) يعني أن الذباب يأكل هذا الطيب ويذهب به من على الأصنام.

(٢) يريد بالذيول الأطراف والنهايات؛ إذ ذباب السيف حَدُّ طرفه الذي يُضرب به، والذباب من أذن الإنسان والفرس: ما حدَّ من طرفها، فهذا ونحوه يقال فيه: ذبابات، ولا يقال ذلك في الحيوان المعروف.

﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ ﴾[(١)] الآية، فأخبر الله تعالى أنه ﴿ يَصْطَفِى ﴾ أي ﴿ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ إلى الأنبياء وغيرهم حسبما ورد في الأحاديث، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾ وهم الأنبياءُ المبعوثون لإصلاح الخلق الذين اجتمعت لهم النُّبُوَّة والرسالة.

وقوله تعالى: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ ﴾ عبارة عن إحاطة علمه بهم، وحقيقتها: ما قبلهم من الحوادث وما بعدهم، و﴿ ٱلْأُمُورُ ﴾ جمع أمر، ليس يراد به المصدر.

ثم أمر الله تعالى بعبادته، وخصَّ الرُّكوع والسُّجود بالذِّكر تشريفاً للصَّلاة.

واختلف الناس، هل في هذه الآية سجدة؟ ومذهب مالك رحمه الله ألاَّ يُسْجد هاهنا[(٢)]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ ﴾ ندبٌ فيما عدا الواجبات التي صحَّ وجوبها من غير هذا الموضع. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ترجٍّ في حق المؤمنين، كقوله سبحانه: ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[(٣)]، و«الفَلاَحُ» في هذه الآية نَيْلُ البُغْيَة وبلوغ الأَمل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾.

قالت فرقة: هذه الآية أمر الله تعالى فيها بالجهاد في سبيله، وهو قتال الكفار، وقالت فرقة: هي أعم من ذلك، وهو جهاد النفس، وجهاد الكافرين، وجهاد الظَّلَمة، وغير ذلك، أمر الله عباده بأن يفعلوا ذلك في ذات الله حق فعله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والعُموم حسَنٌ، وبيِّنٌ أن عرف اللَّفظة يقتضي الجهاد في سبيل الله[(٤)]، وقال هِبَةُ الله

---

(١) من الآية (٨) من سورة (ص).

(٢) وهو مذهب أبي حنيفة أيضاً، وحُجَّتُهما في ذلك أن الله تعالى قرن الركوع بالسجود في هذه الآية فدلَّ ذلك على أن المراد هو الصلاة، فالآية الكريمة تأمر بالصلاة، وقد خصَّ الله تعالى الركوع والسجود بالذكر لتشريفهما وتشريف الصلاة على غيرها من العبادات.

(٣) من الآية (٤٤) من سورة (طه).

(٤) في القرطبي ما يدل على أن هنا كلاماً سقط في الأصول، فقد نقل كلام المؤلف هنا قائلاً: «قال ابن =

وغيره: إن قوله تعالى: ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ وقوله في الأخرى: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] منسوخ بالتخفيف إلى الاستطاعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومعنى الاستطاعة في هذه الأوامر هو المرادُ من أوَّل الأمر، فلم يستقر تكليف بلوغ الغاية شرعاً ثابتاً فيقال إنه نُسخ بالتخفيف، وإطلاقهم النسخ في هذا غير محدق[١]. و﴿ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ معناه: تخيَّركم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ معناه: من تضييق، يريد: في شرعة المِلَّة، وذلك أنها حنيفية سَمْحَة، ليست كشدائد بني إسرائيل وغيرهم، بل فيها التَّوبة والكفَّارات والرُّخص ونحو هذا ممَّا كثر عدُّه. و«الحَرْجة»: الشجر المُلْتَفُّ المتضايق، ورفع الحَرَج صحَّ لجمهور هذه الأُمَّة ولمن استقام على منهاج الشَّرْع، وأما السَّلاَّبَةُ والسُّرَّاقُ وأصحاب الحدود فعليهم الحرج، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدين، وليس في الشَّرع أعظم حرجاً من إلزام ثبوت[٢] رجلٍ لاثنين في سبيل الله تعالى[٣]، ومع صحَّة اليقين وجودة العزم ليس بِحَرجٍ.

وقوله: ﴿مِّلَّةَ﴾ نصب بفعل مضمر تقديره: بل جعلها، أو نحوه من أفعال الإغراء، وقال الفراءُ: هو نصب على تقدير حذف الكاف كأنه قال: «كَمِلَّة»[٤]، وقيل: هو كما ينصب المصدر. وقوله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾، قال أبو زيد: الضمير لإبراهيم والإشارة إلى قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[٥]. وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد: الضمير لله تعالى، و﴿مِن قَبْلُ﴾ معناه: في الكتب القديمة، ﴿وَفِى هَٰذَا﴾: في القرآن، وهذه اللَّفظة تضعف قول مَنْ قال: الضمير لإبراهيم، ولا يتوجَّه إلاَّ على تقدير محذوف من الكلام

= عطية: وقال مقاتل: وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، وكذا قال هِبَة الله وغيره: إن قوله تعالى.... الخ».

(١) هكذا في جميع النسخ، من التحديق وهو شدة النظر.

(٢) الثبوت مصدر ثَبَت.

(٣) ثبت هذا في قوله تعالى في الآية (٦٦) من سورة (الأنفال): ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

(٤) في الأصول: كأنه قال: «كَلِمَة»، والتصويب عن «معاني القرآن» للفراء.

(٥) من الآية (١٢٨) من سورة (البقرة).

مستأنف. وقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي بالتبليغ، وقوله: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي بتبليغ رسلهم إليهم على ما أخبركم نبيُّكُم.

وأَسند الطبريُّ إلى قتادة أنه قال: أُعطيت هذه الأمة ما لم يُعْطَه إلاَّ نبيٌّ، كان يقال للنبي: أَنت شهيد على أُمَّتك، وقيل لهذه الأمة: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، وكان يقال للنبي: ليس عليك حرجٌ، وقيل لهذه الأُمَّة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، وكان يقال للنبي: سَلْ تُعْطَ، وقيل لهذه الأُمَّة: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(١).

ثم أَمر الله تعالى بالصلاة المفروضة أَن تُقام ويُدَاوم عليها بجميع حدودها، وبالزكاة أَن تُؤَدَّى، كما أَنعم عليكم فافعلوا كذا، ثم أَمر بالاعتصام بالله تعالى، أَي بالتَّعَلُّق به والخُلُوصِ له وطلبِ النجاة منه ورَفْضِ التوكُّل على سِواه. و«الْمَوْلَى» في هذه الآية معناه: الذي يُليكم نصره وحفظه. وباقي الآية بيِّن.

كمل تفسير سورة الحج بحمد الله تعالى وعونه

* * *

(١) من الآية (٦٠) من سورة (غافر).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة (المؤمنون)(١)

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾.

أَخبر الله تبارك وتعالى عن فلاح المؤمنين وأَنهم نالوا البُغْية وأَحرزوا البقاءَ الدائم، وروي عن كعب الأَحبار أَن الله تعالى لمَّا خلق جنة عدن قال لها: تكلَّمي، فقالت: «قد أفلح المؤمنون»، وروي عن مجاهد أَن الله تعالى لمَّا خلق الجنة وأَتْقن حسنها قال: «قد أفلح المؤمنون». وقرأَ طلحة بن مصرف: (قَدْ أَفْلَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ) بضم الحاءِ، يريد: قد أَفلحوا، وهي قراءَة مردودة(٢)، وروي عنه [قد أُفلِح المؤمنون] بضم الهمزة وكسر اللام.

ثم وصف تعالى هؤلاء المفلحين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾، والخشوعُ:

---

(١) هذه السورة مكية بإجماع. وقد روى الإمام أحمد في مسنده، والترمذي في التفسير، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ إذا أُنزل عليه الوحي سُمع عند وجهه كدويِّ النحل، وأُنزل عليه يوماً فمكثنا ساعة فسُرِّي عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه وقال: (اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأَرْضنَا وارض عنا)، ثم قال: (أُنزل عليَّ عشر آيات من أَقامَهُنَّ دخل الجنة)، ثم قرأَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وقد ذكر الإمام السيوطي هذا الحديث في «الدر المنثور»، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، وعبد الرزاق، وابن المنذر، والعقيلي، والبيهقي في الدلائل، والضياء في المختارة، وقيل: إن في سنده «يونس بن سليم» وهو مجهول.

(٢) قال عيسى بن عمر: «سمعت طلحة بن مصرف يقرأُ: [قَدْ أَفْلَحُوا ٱلْمُؤْمِنُون]، فقلت له: أتلحن؟ قال: نعم كما لحن أصحابي»، قال أبو حيان الأندلسي تعقيباً على ذلك: «يعني أن مرجوعه في القراءة إلى ما روي، وليس بلحن لأنه على لغة «أكلوني البراغيث»، وقال الزمخشري: «أو على الإبهام والتفسير»، وفي كتاب ابن خالويه كتبت بواو بعد الحاء، وفي اللوامح: وحذفت واو الجمع بعد الحاء لالتقائهما في الدَّرْج، وكانت الكتابة عليها محمولة على الوصل، نحو ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾.

التَّطامن وتساكن الأَعضاءِ والوقار، وهذا إِنما يظهر في الأَعضاءِ لمن في قلبه خوف واستكانة، ورُوي عن بعض العلماءِ أَنه رأَى رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: لو خشع هذا خشعت جوارحه[١]، وروي أَن سبب هذه الآية أَن المسلمين كانوا يلتفتون في صلاتهم يَمْنة ويَسْرة، فنزلت هذه الآية، وأُمروا أَن يكون بصر المصلِّي حذاءَ قبلته أَو بين يديه، وفي الحرم إِلى الكعبة، وروي عن ابن سيرين وغيره أَن رسول الله ﷺ كان يلتفت في صلاته إِلى السماءِ فنزلت الآية في ذلك[٢].

و«اللَّغْوُ»: سقط القول، وهذا يعم جميع ما لا خير فيه، ويجمع آداب الشرع، وكذلك كان النبي ﷺ وأَصحابه، وكأَن الآية فيها موادعة.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾، ذهب الطبري وغيره إِلى أَنها الزكاة المفروضة في الأَموال، وهذا بيِّن، ويحتمل اللفظ أَن يريد بالزكاة الفضائل، كأَنه أَراد الأَزكى من كل فعل، كما قال تعالى: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ صفة العفة[٤]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ الآية، يقتضي تحريم الزنى والاستمناء ومواقعة البهائم، وكل ذلك في قوله سبحانه: ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾، ويريد: وراءَ هذا الحدِّ الذي حُدَّ، ومعنى ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ من النساء، ولما كان ﴿حافظون﴾ بمعنى (محجوزون) حسُن استعمال ﴿عَلَىٰٓ﴾، و«العَادِي»: الظالم.

---

(١) أخرج الحكيم الترمذي، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال: «لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور، وابن جرير، والبيهقي في سننه. «الدر المنثور». وفي القرطبي أن المُعْتَمَد رواه عن خالد، عن ابن سيرين.

(٣) من الآية (٨١) من سورة (الكهف).

(٤) قال ابن العربي: «من غريب القرآن أن هذه الآيات العشر عامة في الرجال والنساء، كسائر ألفاظ القرآن التي هي محتملة لهم فإنها عامة فيهم، إلا قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ فإنما خاطب بها الرجال خاصة دون الزوجات، بدليل قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾، وإنما عُرف حفظ المرأة فرجها من أدلة أُخرى كآيات الإحْصان عموماً وخصوصاً، وغير ذلك من الأدلة».

وعلى هذا فإنه لا يحل للمرأة أن تَتَسَرَّرَ بغلامها المملوك لها بالإجماع من العلماء؛ لأنها غير داخلة في الآية. وقد حدث ذلك في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأراد أن يرجم المرأة لولا أنها قررت له أنها فهمت الآية على أنها عامة في الرجال والنساء، فدرأ الحد عنها لأنها تأولت الآية، وعاقبها بأنه لن يحلها لحر بعده أبداً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

قرأَ جمهور الناس: ﴿ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ ﴾ بالجمع، وقرأَ ابن كثير: [لأَمَانَتِهِمْ] بالإِفراد، والأَمانةُ والعهدُ يجمع كل ما يحمله الإِنسان من أَمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيدَ وغير ذلك، ورعايةُ ذلك: حفظُه والقيام به، والأَمانة أَعمُّ من العهد؛ إِذ كلُّ عهد فهو أَمانة فيما تقدم فيه قول أَو فعل أَو معتقد، وقد تَعِنُّ الأَمانة فيما لم يعهد فيه تقدم، وهذا إِذا أَخذناهما بنسبتهما إِلى العبد، فإِن أَخذناهما من حيث هُما[1] ـ عَهْد الله إِلى عباده وأَمانته التي حَمَّلَهم ـ كانا في رتبة واحدة.

وقرأَ الجمهور: ﴿ صَلَوَٰتِهِمْ ﴾، وقرأَ حمزة، والكسائي: [صَلاَتِهِمْ] بالإِفراد، وهذا الإِفراد اسم جنس فهو بمعنى الجمع، والمحافظةُ على الصلوات ترقُّبُ أَوقاتها والمبادرةُ إِلى وقت الفضل فيها. و﴿ الْوَٰرِثُونَ ﴾ يريد: الجنة. ورُوي في حديث أَبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أَن الله تعالى جعل لكل إِنسان مسكناً في الجنة ومسكناً في النار، فأَما المؤمنون فيأَخذون منازلهم ويرثون الكفار، ويحصل الكفار على منازلهم في النار[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يسمي الله تعالى الحصول على الجنة وراثة من حيث حصلوها دون غيرهم، فهو اسمٌ مستعار على الوجهين. و«الفِرْدَوْسُ»: مدينة الجنة، وهي جنة الأَعناب، واللفظة ـ فيما قال مجاهد ـ روميَّة عُرِّبت، وقيل: هي فارسية عُرِّبت، والعرب تقول للكروم: فراديس، وقال رسول الله ﷺ لأُمِّ حارثة: «إِنها جنات كثيرة، وإِن ابنك قد أَصاب الفردوس»[3].

---

(١) في بعض النسخ: «من حيث صلحا».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وكان تخريج ابن ماجه له بمعناه، وقال عنه القرطبي: إسناده صحيح.

(٣) أخرج عبد بن حميد، عن أنس أن الرُّبَيِّعَ بنت النضر أتت رسول الله ﷺ، وكان ابنها الحارث بن سُراقة=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

هذا ابتداءُ كلام، والواو في أَوله عاطفة جملة الكلام على جملة وإِن تباينت في المعاني. واختلف المفسرون في قوله: ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ فقال قتادة وغيره: أَراد آدم عليه السلام لأَنه استُلَّ من الطين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويجيءُ الضمير في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ﴾ عائداً على ابن آدم ـ وإِن كان لم يذكره ـ لشهرة الأَمر، وأَن المعنى لا يصلح إِلاَّ له، نظير ذلك ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ وغيره. ـ وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ وغيره: المراد بقوله: ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ ابن آدم. و﴿سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ صفوة الماءِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا على أَنه اسم الجنس، ويترتب عليه أَنه سلالة من حيث كان الكل عن آدم عليه السلام أَو عن الأَبوين المتقدمين بما يكون من الطين، وذلك السبع التي جعل الله تعالى رزق ابن آدم فيها، وسيجيءُ قول ابن عباس رضي الله عنهما فيها إِن شاءَ الله[1]، وعلى هذا يجيءُ قول ابن عباس رضي الله عنهما: إِن السلالة هي صفوة الماء، يعني المنِيَّ. وقال مجاهد: ﴿سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾: بني آدم.

= أُصيب يوم بدر، أصابه سهم غَرْبٌ، فقالت: أخبرني عن حارثة، فإن كان أصاب الجنة احتسبت وصبرت، وإن كان لم يصب الجنة اجتهدت في الدعاء، فقال النبي ﷺ: «يا أُمَّ حارثة إنها جنانٌ في جنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى، والفردوس رَبْوَة الجنة وأوسطها وأفضلها» اهـ. والسيف الغَرْبُ هو القاطع الحديد، قال الشاعر:

غَرْباً سريعاً في العِظام الخُرْس

(١) سيأتي ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾، وسيبين المؤلف السبع التي جعل الله تعالى رزق ابن آدم فيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بيِّن؛ إذ آدم من طين وذريته من سلالة، وما يكون عن الشيءِ فهو سلالته، وتختلف وجوه ذلك الكون، فمنه قولهم للخمر: «سلالةٌ»؛ لأَنها سلالة العنب، ومنه قول الشاعر:

إذا أُنْتِجَتْ مِنْهَا المَهَارَى تَشَابَهَتْ   عَلَى ٱلْعَوْد إلاَّ بِالأُنُوفِ سَلاَئِلُهُ(١)

ومن اللفظة قول هند بنت النعمان بن بشير:

. . . .   سَلِيلَةُ أَفْرَاسٍ تَجَلَّلَهَا بَغْلُ(٢)

ومنه قول الآخر:

فَجَاءَتْ بِهِ عَضْبَ الأَدِيم غَضَنْفَرَا   سُلاَلَةَ فَرْجٍ كَانَ غَيرَ حَصِينِ(٣).

وهذه الفِرقة يترتب مع قولها عود الضمير في ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ و﴿أَنشَأْنَٰهُ﴾.

---

(١) البيت شاهد على أن السلائل جمع سلالة، وأن السُّلالة هي ما يكون عن الشيء، أو ما يَنْسَلُّ منه، ويختلف الانسلال باختلاف الأشياء، والمهْر ولد الفرس، والإبل المهْرية منسوبة إلى حيٍّ عظيم هم ولد مَهْرَة بن حيدان، وجمعها مهارى ومَهَار، والعَوْدُ: الجمل المُسِنُّ وفيه بقية، والرواية في الطبري: «على القود»، ولم أجد هذا البيت في معاجم اللغة، ولا في كتب التفسير إلا الطبري، ولا في معاني القرآن للفراء، أو في مجاز القرآن لأبي عبيدة.

(٢) هذا عجز بيت ذكره في اللسان (سَلَلَ) ونسبه إلى هند بنت النعمان كما قال ابن عطية، والبيت بتمامه:

وَمَا هِنْدُ إلاَّ مُهْرَةٌ عَرَبِيَّةٌ   سَلِيلَةُ أَفْرَاسٍ تَحَلَّلَهَا بَغْلُ

والرواية في الطبري: (وهل كنت إلا مهرة) والمهر، أول ما ينتج من الخيل والحمر الأهلية، والأنثى مهرة. وتَجَلَّلها: علاها، ويروى: تَحَلَّلها ـ بالحاء المهملة ـ أي جعلها حليلةً له، والسليلة: بنت الرجل من صلبه، والمراد بالبغل هنا الرجل الذي يشبه البغل، والبغل مذموم مكروه. تندب حظها وتقول: إنها مهرة عربية أصيلة وقد تزوجت رجلاً فظاً يشبه البغل في صفاته وطباعه، وقد قيل: إن كلمة بغل تصحيف عن نغل بالنون، وهو الخسيس من الناس والدواب، وذلك لأن البغل لا ينسل، ونميل إلى غير هذا؛ لأنها إنما أرادت سوء حظها، وأنها برقتها وجمالها وأصالتها قد نكبت بهذا البغل بما فيه من فظاظة وجلافة وانعدام الحساسية والذوق.

(٣) البيت لحسان بن ثابت، وهو في اللسان أيضاً (سلل)، وفي الطبري، والقرطبي، ورواية الطبري: «حَمَلَتْ به» بدلاً من «فجاءت به»، ويستشهدون به على أن السلالة هي نطفة الإنسان، وأن سلالة الشيءِ هي ما اسْتُلَّ منه، وعَضْب الأديم: غليظ الجلد، يعني أنه شديد قوي الجلد، وقد قال محقق اللسان: «لعلَّه بالصاد المهملة بدلاً من الضاد؛ لأن هذا التعبير غير موجود في اللغة».

و«النُّطْفَةُ» تقع في اللغة على قليل الماءِ وكثيره، وهي هنا لمني ابن آدم، و«القَرَارُ الْمَكِينُ» من المرأة هو موضع الولد، و«الْمَكِينُ»: المتمكن، فكأن «القرار» هو المتمكن في الرحم. و«العَلَقَةُ»: الدم الغريض، و«المُضْغَةُ»: بضعة اللحم قَدْر ما يُمْضَغ.

وقرأ الجمهور: ﴿عِظَـٰمًا﴾ في الموضعين، وقرأ ابن عامر، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ: [عَظْماً] بالإفراد في الموضعين، وقرأ سلمة، وقتادة، والأعرج، والأعمش بالإفراد أولاً وبالجمع في الثاني، وقرأ مجاهد، وأبو رجاءٍ، وإبراهيم بن أبي بكر بعكس ذلك، وفي قراءة ابن مسعود: [ثم جعلنا المُضْغَةَ عَظْماً وعَصَباً فكسوناها لحماً].

واختلف الناس في الخلق الآخر ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما، والشعبي، وأبو العالية، والضحاك، وابن زيد: هو نَفْخُ الروح فيه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: خروجه إلى الدنيا، وقال قتادة ـ عن فِرْقَة ـ: نبات شعره، وقال مجاهد: كمال شبابه، وقال ابن عباس أيضاً: تصرفه في أُمور الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التخصيص كله لا وجه له، وإنما هو عام في هذا، وغيرُه من وجوه النطق والإدراك وحسن المحاولة هو بها آخر، وأول رتبة من كونه آخرَ هو نفْخ الروح فيه، والطرف الآخر من كونه آخَر تحصيله المعقولات إلى أن يموت.

و«تَبَارَكَ» هو مطاوع «بارك»، كأنها بمنزلة «تعالى وتقدّس»، من معنى البركة، وهذه الآية يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما سمع صدر الآية إلى قوله: ﴿ءَاخَرَ﴾ قال: «فتبارك اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أُنزلت»(١).

---

(١) أخرج الطيالسي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر، عن أنس قال: قال عمر: وافقتُ ربي في أربع: قلت: يا رسول الله، لو صليت خلف المقام، فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وقلت: يا رسول الله، لو اتخذت على نسائك حجاباً فإنه يدخل عليك البَرُّ والفاجر، فأنزل الله ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾، وقلت لأزواج النبي ﷺ: لتَنْتَهُنَّ أو ليبدلنه الله أزواجاً خيراً منكن، فأنزلت ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ الآية، ونزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ الآية. . . إلى قوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾، فقلتُ أنا: «فتبارك الله أحسن الخالقين» فنزلت ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾.

وأخرج الطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما نزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا=

ويروى أَن قائل ذلك معاذ بن جبل رضي الله عنه(١)، ويروى أَن قائل ذلك عبد الله بن أَبي سَرْح، وبهذا السبب ارتدَّ وقال: أَنا آتي بمثل ما يأْتي به محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وفيه نزلت: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ معناه: أَحسن الصانعين، يقال لمن صَنَعَ شيئاً: خلقه، ومنه قول الشاعر:

وَلأَنْــتَ تَفْــرِي مَــا خَلَقْــتَ وَبَعْـ ... ــضُ الْقَـوْمِ يَخْلُـقُ ثُـمَّ لاَ يَفْـرِي(٣)

وذهب بعض الناس إِلى نفي هذه اللفظة عن الناس، فقال ابن جُرَيْج: إِنما قال:

= ﴿ ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ الآية قال عمر رضي الله عنه: «فتبارك الله أحسن الخالقين» فنزلت ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن صالح أبي الخليل، قال: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ قال عمر: «فتبارك الله أحسن الخالقين»، فقال: والذي نفسي بيده إنها خُتمت بالذي تكلمت به يا عمر.

(١) أخرج ابن راهويه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، عن زيد بن ثابت قال: أملى عليَّ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ فقال معاذ بن جبل: «فتبارك الله أحسن الخالقين»، فضحك رسول الله ﷺ، فقال له معاذ: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: إنها خُتمت ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾.

(٢) هذه هي الآية (٩٣) من سورة الأنعام، وقد قيل: إنها نزلت في عبد الله بن أبي سَرحْ الذي كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ثم ارتد ولحق بالمشركين، وسبب ذلك أنه لما نزلت آية المؤمنين هذه دعاهُ النبي ﷺ وأملاها عليه، فلما انتهى إلى قوله: ﴿ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ قال عبد الله متعجباً من هذا التفصيل: «تبارك الله أحسن الخالقين» فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت عليَّ»، فشكَّ عبد الله حينئذ وقال: لئن كان محمدٌ صادقاً لقد أوحي إليَّ كما أُوحي إليه، ولئن كان كاذباً لقد قلتُ كما قال، فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين، راجع المجلد الثالث صفحة ٤٩١ وما بعدها.

(٣) البيت لزهير بن أبي سُلْمى، وهو في الديوان، والطبري، والقرطبي، واللسان، والتاج، ومختار الشعر الجاهلي، وهو من قصيدة له يمدح بها هرم بن سنان، ومطلعها: «لِمنِ الديارُ بقُنَّة الحَجْر»، وتَفْري: تَقْطَع، و«ما خلقت» معناها: ما قدرتَ وهيأتَ للقطع، والفَرْيُ: القَطْعُ بعد التقدير، ويقال: خَلَقَ الأديم خلقاً، بمعنى قدَّره لما يريد قبل القطع، وقاسه ليقطع منه مزادةً أو قربة، ولذلك تسمي العرب كل صانع كالنجار والخيَّاط خالقاً، وهذا هو موضع الشاهد، يقول لهرم: أنت إذا قدرتَ أمراً قطعته، أي أنفذته وأمضيته، وغيرك يُقدِّر ثم لا ينفذ لأنه ليس مثلك ماضي العزم.

﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ لأنه تبارك وتعالى قد أَذِنَ لعيسى عليه السلام في أَن يخلق، واضطرب بعضهم في ذلك[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا تُنْفَى اللفظة عن البشر في معنى الصنع، وإِنما هي منفية بمعنى الاختراع والإِيجاد من العدم، ومن هذه الآية قال ابن عباس لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حين سأَله مشيخة الصحابة عن ليلة القدر فقالوا: الله أَعلم، فقال عمر رضي الله عنه: ما تقول يا بن عباس؟ فقال: يا أَمير المؤمنين، إِن الله تعالى خلق السموات سبعاً والأَرض سبعاً، وخلق ابن آدم من سبع، وجعل رزقه في سبع، فأَراها في ليلة سبع وعشرين، فقال عمر: أَعَجَزَكُمْ أَن تأْتُوا بمثل ما أَتى به هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأْسه، وهذا الحديث بطوله في مسند ابن أَبي شيبة، فأَراد ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: «خلق ابن آدم من سبع» هذه الآية، وبقوله: «وجعل رزقه في سبع» قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾[2] الآية، السَّبع منها لابن آدم، والأَبُّ للأَنعام، والقَضْبُ يأْكله ابن آدم وتسمن به النساءُ، وهذا قول، وقيل: القضب: البقول لأَنها تقضب، فهي رزق ابن آدم، وقيل: القَضْب والأَبُّ للأَنعام والسِّتَّة الباقية لابن آدم، والسابعة هي الأَنعام إِذْ هي من أَعظم رزق ابن آدم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إِشارة إِلى ما ذكر من هذه الأَحوال، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [لَمَائِتُونَ]

---

(١) كثر الكلام في المعنى المراد بهذه الآية، وفي الجمع بينها وبين قوله تعالى في الآية (٣) من سورة (فاطر): ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾، ومن أحسن ما قيل في ذلك هو ما أشار إليه ابن عطية في تفسيره لمعنى قول الله هنا: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، وهو أن الخلق يكون بمعنى الإيجاد ولا موجد سوى الله، ويكون بمعنى التقدير كما في قول زهير، وهو المراد هنا. فأبناءُ آدم قد يصنعون ويقدِّرون، والله تعالى هو خير الصانعين والمقدرين.

(٢) الآيات (٢٧ـ ٣١) من سورة (عبس).

بالألف، و﴿تُبْعَثُونَ﴾ معناه: من قبوركم أحياءً، وهذا خبر بالبعث والنشور، و«الطَّرَائِقُ» كل ما كان من طبقات بعضه فوق بعض، ومنه: طارقت نعلي، ويريد بالسَّبع الطرائق السموات، ويجوز أَن تكون «الطرائق» بمعنى المبسوطات، من: طرقت الشيءَ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ نفيٌ عام، أَي: في إِتقان خلقهم وعن مصالحهم وعن أعمالهم.

وقوله تعالى: ﴿مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ قال بعض العلماءِ: أَراد المطر، وقال بعضهم: إِنما أَراد الأَنهار الأَربعة: سيحان وجيحان والفرات والنيل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والصواب أَن هذا كله داخل تحت الماء الذي أَنزل الله تعالى.

وقال مجاهد: ليس في الأَرض ماءٌ إلاَّ وهو من السماء.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويمكن أَن يقيد هذا بالعذب، وإِلاَّ فالأُجاج ثابت في الأَرض مع القحط، والعذب يقل مع القحط، وأيضاً فالأَحاديث تقتضي الماءَ الذي كان قبل خلق السموات والأَرض، ولا محالة أَن الله تعالى قد جعل في الأَرض ماءً وأَنزل من السماءِ ماءً.

وقوله تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾ أَي على مقدار مصلح؛ لأَنه لو كثر أَهلك.

و﴿فَأَنشَأْنَا﴾ معناه: أَوجدنا وخلقنا، وذكر تعالى النخيل والأَعناب لأَنها ثمرة الحجاز بالطائف والمدينة وغيرهما، قاله الطبري، ولأَنها أَيضاً أَشرف الثمار، فذكره مثالاً لا تشريفاً لها وتنبيهاً عليها.

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ يحتمل أَن يعود الضمير على «الجنَّات» فيريد حينئذ جميع أَنواع الفواكه، ويحتمل أَن يعود على «النخيل والأَعناب» خاصة إِذْ فيها مراتب وأَنواع، والأَول أَعم لسائر الثمرات.

وقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على قوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ويريد بها الزيتونة، وهي كثيرة في طور سيناءَ من أَرض الشام، وهو الذي كلم الله تعالى فيه موسى عليه السلام، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره. و«الطُّور»: الجبل في كلام العرب، وقيل: هو مما عُرِّب من كلام العجم. واختلف في ﴿سَيْنَآءَ﴾ فقال قتادة: معناه: الحسن، ويلزم

على هذا التأويل أن ينون «الطُّور»، وقال مجاهد: معناه: مبارك، وقال مَعْمر عن فرقة: معناه: ذو شجر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويلزمهم أن يُنَوِّن «الطُّور». وقال الجمهور: هو اسم الجبل، كما تقول: جبل أُحد، و﴿سَيْنَآءَ﴾ اسم مضاف إليه الجبل.

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن كثير: [سِيْنَاءَ] بكسر السين، وقرأ الباقون وعمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿سَيْنَآءَ﴾ بفتح السين، وكلُّهم بالمدِّ، فعلى فتح السين لا ينصرف الاسم بوجه، وعلى كسر السين فالهمزة كهمزة حِرباءٍ، ولم ينصرف في هذه الآية لأنه جعل اسم بُقعة أو أرض.

وقرأ الجمهور: ﴿تَنْبُتُ﴾ بفتح التاءِ وضم الباءِ، فالتقدير: تَنْبُت ومعها الدهن، كما تقول: خرج زيد بسلاحه، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [تُنْبِتُ] بضم التاءِ وكسر الباءِ، واختلف في التقدير على هذه القراءَة، فقالت فرقة: الباءُ زائدة، وهكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1] ، وهذا المثال عندي معترض وإن كان أبو علي قد ذكره، كقول الشاعر:

نَحْـنُ بَنُـو جَعْـدَةَ أَرْبَـابُ الْفَلَـجْ نَضْرِبُ بِالْبِيْضِ وَنَرْجُو بِالْفَرَجْ[2]

ونحو هذا، وقالت فرقة: التقدير: تُنبت جناها ومعه الدهن، فالمفعول محذوف، قاله أبو علي الفارسي أيضاً، وقد قيل: نَبَتَ وأَنبتَ بمعنى، فيكون المعنى كما مضى في قراءَة الجمهور، والأصمعي يُنكر أَنبت ويتَّهم قصيدة زهير التي فيها:

---

(١) من الآية (١٩٥) من سورة (البقرة).

(٢) هذا الرجز للنابغة الجعدي، وهو في الديوان، والخزانة، ومعجم البكري، ومغني اللبيب، والطبري، والقرطبي. والفَلَج: الماءُ الجاري، وهو في هذا الرجز موضع لبني جعدة، وهو في أعلى بلاد قيس. والبِيض ـ بكسر الباءِ ـ: السيوف، أي: نقاتل بالسيوف، و(نَحْنُ) مبتدأ وخبره (بَنُو جعدة)، وروي البيت (بني جعدة) بالنصب على الاختصاص، فيكون خبر المبتدإِ هو (أربابُ)، والشاهد في البيت هو زيادة الباءِ في (بالفرج)، قال ابن عصفور في (الضرائر): زيادة الباءِ هنا ضرورة. ولكن ابن السيِّد قال في «شرح أَدب الكاتب»: إنما عدَّى الرجاءَ بالباءِ لأنه بمعنى الطَّمع، والطَّمعُ يتعدى بالباءِ، قال الشاعر ـ وهو البعيث ـ:

طَمِعْـتُ بِلَيْلَـى أَنْ تَجُـودَ وَإِنَّمَـا تُقَطِّـعُ أَعْنَـاقَ الـرِّجَـالِ الْمَطَـامِـعُ

. . . . أَنْبَـتَ الْبَقْـلُ[(١)]

وقرأ الزهري، والحسن، والأعرج: [تُنْبَتُ] برفع التاءِ ونصب الباءِ، قال أبو الفتح: هي باءُ الحال، أي: تُنْبَتُ ومعها دهنها[(٢)]، وفي قراءَة ابن مسعود رضي الله عنه: «تخرجُ بالدُّهْن»، وهي أيضاً باءُ الحال، وقرأ زرُّ بن حُبَيْش: [تُنْبِتُ] بضم التاءِ وكسر الباءِ [ٱلدُّهْنَ] بحذف الباءِ ونصبه، وقرأ سليمان بن عبد الملك، والأشهب: [بِٱلدِّهَانِ]. والمراد في هذه الآية تعديد نعمة الزيت على الإنسان، وهي من أركان النِّعم التي لا غنى للصحة عنها، ويدخل في معنى الزيتونة شجر الزيت كله على اختلافه بحسب الأمصار.

وقرأت فرقة: ﴿وَصِبْغٍ﴾، وقرأت فرقة: [وَأَصْبَاغٍ] بالجمع، وقرأ عامر بن قيس: [وَمَتَاعًا لِلآكِلِينَ][(٣)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢١ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٢٢﴾.

«الأَنْعَامُ» هي الإبل والبقر والضأن والمعز، و«العِبْرَة» في خلقها وسائر أَخبارها.

وقرأ الجمهور: ﴿نُّسْقِيكُمْ﴾ بضم النون من «أسقي»، ورويت عن عاصم. وقرأ

---

(١) هذه آخر جملة في بيت قاله زهير بن أبي سُلْمى من قصيدة له يمدح فيها سنان بن أبي حارثة المري، يقول في مطلعها: (صَحَا القلبُ عن سَلْمَى وَقَدْ كَادَ لاَ يَسْلُو)، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

إذا السَّنَـةُ الشَّهْبَـاءُ بـالنَّـاس أَجْحَفَـتْ ... وَنَـالَ كِـرَامَ المَـالِ فِي الحَجْـرَةِ الأَكْـلُ
رَأَيْـتَ ذَوِي الْحَـاجَـاتِ حَـوْلَ بُيُـوتِهِـمْ ... قَطِينـاً بِهَـا حَتَّـى إذا أَنْبَـتَ الْبَقْـلُ

والبيت في الديوان، وفي اللسان، والطبري، والقرطبي. والسنة الشهباء هي البيضاء من شدة الجدب لشدة ما فيها من ثلج وعدم النبات، وأجْحفت: أضرت ضرراً بالغاً وأهلكت الأموال، والحَجْرة: السَّنة الشديدة التي تحْجر الناس في البيوت، والمراد بقوله (نال كرام المال الأكلُ) أنهم لشدة الحاجة أكلوا أكرم ما عندهم وهو الإبل، والقطين: السكان المقيمون. والبيت يذكر شاهداً على أن نَبَتَ وأَنْبَتَ بمعنى واحد، قال الفراء: هما لغتان، والأصمعي يتهم القصيدة.

(٢) فهي كقولك: خرج بثيابه، أي: وثيابه عليه، كأنه قيل: خرج لابساً ثيابه. بهذا عبَّر أبو الفتح في المحتسب.

(٣) قال أبو حيان الأندلسي في البحر: «كأنه يريد تفسير الصِّبغ».

نافع، وعاصم وابن عامر: [نَسْقِيكُمْ] بفتح النون من «سَقَى»، فمن الناس من قال: هما لغتان بمعنى، ومنهم من قال: سَقَيْتُه إِذا أَعطيته للشَّفة، وأَسْقَيْتُه إِذا جعلت له سقيا لأَرض أَو ثمرة أَو نحوه، فكأَن الله جعل الأَنعام لعباده سقيا يشربون وينتجعون. وقرأَ أَبو جعفر: [تَسْقِيكُمْ] بالتاءِ من فوق، أَي: تسقيكم الأَنعام.

و«المنافع»: الحَمْلُ عليها، وجلودها، وأَصوافها، وأَوبارها، وغير ذلك مما يطول عدُّه.

و«الفُلْك»: السفن، واحدها فُلْك، الحركاتُ في الواحد كحركات قُفْل وبُرْد، والحركات في الجمع كحركات أُسْد وكُتُب[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

هذا ابتداءُ تمثيل لكفار قريش بأُمم كفرت بأَنبيائها فأُهلكوا، وفي ضمن ذلك الوعيد بأَن يحل لهم بلاءٌ نحو ما حلَّ بأُولئك.

ونوح عليه السلام أَول نبي أُرسل إِلى الناس، وإِدريس عليه السلام أَول من نُبِّىء ولم يُرْسَل.

و«المَلأُ»: الأَشراف لأَنهم عنهم يصدر الملأُ، وهو جمع القوم، وفي قول هؤلاءِ استبعادُ بعثة البشر، وهم قوم مُقِرُّون بالملائكة، وذلك لا شك مستقر عندهم من بقايا نبوة آدم وإِدريس عليهما السلام وغيرهما، ولم يكن ذلك عن علم صحيح ولا معرفة بأَخبار نُبُوَّة.

و«الجِنَّةُ»: الجنون، و﴿ تَرَبَّصُوا۟ ﴾ معناه: اصبروا وانتظروا هلاكه، و﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾

---

(١) قال في اللسان (فلك): «والفُلْك بالضم: السفينةِ تُذَكَّر وتؤنث وتقع على الواحد والاثنين والجمع، فإِن شئت جعلته من باب جُنُب، وإِن شئت من باب دِلاص وهجان، وهذا الوجه الأَخير مذهب سيبويه، أَعني أَن تكون ضمة الفاء من الواحد بمنزلة ضمة باءِ بُرْد وخاءِ خُرج، وضمة الفاءِ في الجمع بمنزلة ضمة حاءِ حُمْر وصاد صُفر في جمع أَحمر وأَصفر».

معناه: إلى وقت، ولم يُعَيِّنُوه، وإنما أرادوا: إلى وقت يريحكم القدر منه.

ثم إنَّ نوحاً عليه السلام دعا على قومه حين يئس منهم وإن كان دعاؤُه في هذه الآية ليس بنصٍّ، وإنما هو ظاهر من قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾، فهو يقتضي طلب العقوبة، وأَمَّا النُّصرة بمجردها فكانت تكون بِرَدِّهم إلى الإيمان.

وقرأَ أَبو جعفر، وابن مُحيصن: [رَبُّ ٱنْصُرْنِي] برفع الباءِ، وكذلك [رَبُّ ٱحْكُم](1) وشبهه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

قد تقدم القول في صفة السفينة وقدرها في سورة هود، و«الفُلْك» هنا مفرد لا جمع.

وقوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ عبارة عن الإدراك على مذهب الحذاق، ووقفت الشريعة على أَعْيُن وعَيْن، ولا يجوز أَن يقال: عينان من حيث لم توقف الشريعة على التثنية، و﴿وحينا﴾ معناه: في كيفية العمل ووجه البيان، وذلك أَن جبريل عليه السلام نزل إلى نوح عليه السلام فقال له: اصنع كذا وكذا لجميع حكم السفينة وما يحتاج إليه. واستَجَنَّ الكفار نوحاً لادعائه النبوة بزعمهم أنها دعوى، وسخروا منه لعمله السفينة على غير مجرى، أَو لكونها أَول سفينة إن صح ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَمْرُنَا﴾ يحتمل أَن يكون مصدراً بمعنى أَن نأمر الماءَ بالفيض، ويحتمل أَن يريد واحد الأُمور، أَي إهلاكنا للكفرة، وقد تقدم القول في معنى قوله تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾. والصحيح من الأَقوال أَنه تنُّور الخُبز، وأَنه أَمارةٌ كانت بين الله تبارك وتعالى وبين نوح عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْلُكْ﴾ معناه: فَأَدْخِلْ، ومنه قول الشاعر:

---

(1) من الآية (١١٢) من سورة (الأنبياء).

حَتَّى سَلَكْنَ الشَّوَى مِنْهُ فِي مَسَكٍ ... مِنْ نَسْلِ جَوَّابَةِ الآفَاقِ مِهْدَاجِ(١)

وقال الآخر:

وَكُنْتَ لِزَازَ خَصْمِكَ لَمْ أُعَرِّدْ ... وَقَدْ سَلَكُوكَ فِي يَوْمٍ عَصِيبِ(٢)

يقال: سَلَكَ وأَسْلَكَ بمعنى.

وقرأ حفص عن عاصم: ﴿مِن كُلٍّ﴾ بتنوين [كُلٍّ]، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم بإضافة [كُلِّ] دون تنوين(٣)، و«الزَّوْجَانِ» كل ما شأنه الاصطحاب من كل شيء كالذكر والأنثى من الحيوان ونحو النِّعال وغيرها كل واحد زوج للآخر، هذا موقع اللفظة في اللغة، والعدديُّون يوقعون الزوج على الاثنين، وعلى هذا أَمْرُ استعمال العامة للزوج.

وقوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ يريد قرابته، ثم استثنى من سبق عليه القول بأنه كافر وهو ابنه وامرأته. ثُم أَمَرَ الله نوحاً عليه السلام أَلا يراجع ربه ولا يخاطبه شافعاً في أَحد من الظالمين، والإشارة إِلى من استثني إِذ العُرف من البشر الحُنُوُّ على الأَهل، ثم أَمره تعالى بأَن يحمد ربَّه على النجاة من الظَّلَمة عند استوائه وتمكنه في الفلك، ثم أَمره

---

(١) البيت لأبي وَجْزَةَ السَّعْدِي، واسمه يزيد بن عُبَيْد، من بني سعد بن بكر أَظْآر رسول الله ﷺ، وهو في اللسان (مَسَكَ وهَدَجَ)، وسَلَكَ الشيءَ في الشيءِ: أَدخله فيه، سَلْكاً أَي: إدخالاً، كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهذا هو موضع الشاهد هنا، والشَّوَى هنا: اليدان والرجلان من الأُتن، والمَسَك: الأَسْوِرَةُ والخلاخيل من الذَّبْل والقرون والعاج، واحدته مَسَكَة، وقد استعاره أبو وجزة هنا فجعل ما تُدْخِل فيه الأتن أرجلها من الماءِ مَسَكاً، وجوَّابة الآفاق: السحابة التي تجوب آفاق السماء من مكان إِلى مكان، والمهداج هنا: الريح التي لها حنين، يعني أَن الماءَ من نسل الريح التي تستدر السحاب وتلقحه فيمطر، فهو من نسلها. يصف أبو وجزة الأُتُن التي وردت الماء ليلا ونزلت فيه بقوائمها أي أدخلت قوائمها في الماء فصار لها مثل الأساور التي تجعلها المرأة في يديها، وهذا الماءُ الذي أدخلت الأتن قوائمها فهي كان من نسل سحاب مهداج عصرته الريح منه.

(٢) هذا البيت لِعَدِيِّ بن زيد العباديِّ، وهو في اللسان، وقد تكرر الاستشهاد به في هذا التفسير، وفيه يخاطب الشاعر النعمان في قصيدة اعتذار، ويقول: إني ظللت ملازماً لأعدائك لا أتراجع ولا أَفِرُّ حين وقعت في يوم عصيب شديد، ولزاز الخصم: الملازم له، والتَّعريد: الفِرار وسرعة الذهاب في الهزيمة، وسلكوك: أدخلوك، والعصيب: الشديد. والشاهد هنا هو أن سَلَكَ بمعنى أدخل.

(٣) من قرأ بالتنوين حذف المضاف إليه، والتقدير: من كل حيوان أو نحوه، ومن قرأ بالإضافة أعمل ﴿ٱسْلُكْ﴾ في قوله: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾، وجاء قوله تعالى: ﴿زَوْجَيْنِ﴾ بمعنى العموم، أي: من كلٍّ ماله ازدواج، قال ذلك أبو علي الفارسي.

بالدعاءِ في بركة المنزل. وقرأ عاصم ـ في رواية أبي بكر ـ: [مَنْزِلاً] بفتح الميم وكسر الزاي، وهو موضع النزول، وقرأ الباقون وحفصٌ عن عاصم: ﴿مُنزَلًا﴾ بضم الميم وفتح الزاي، وهو مصدر بمعنى الإنزال، ويجوز أن يراد به موضع النزول[١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ خطاب لمحمد ﷺ، أي: إن فيما جرى على هذه الأمم لعبراً أو دلائل لمن له نظر وعقل، ثم أخبر تعالى أنه يبتلي عباده الزَّمن بعد الزَّمن على جهة الوعيد لكفار قريش بهذا الإخبار، و[إنْ] عند سيبويه هي المخفَّفة من الثقيلة، واللام لام تأكيد، والفراءُ يقول: [إنْ] نافية واللام بمعنى «إلاَّ»، و﴿مبتلين﴾ معناه مصيبين ببلاءٍ ومُختَبِرين اختباراً يؤدي إلى ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٣١ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٣٤﴾.

قال الطبري رحمه الله: إن هذا القَرْن هم ثمود، ورسولهم صالح عليه السلام، وفي الروايات ما يقتضي أن قوم عادٍ أقدم إلاَّ أنهم لم يهلكوا بصيحة[٢]، وفي هذا احتمالات كثيرة، والله أعلم.

و﴿أترفناهم﴾ معناه: نعَّمناهم وبسطنا لهم الآمال والأرزاق، ومقالة هؤلاءِ أيضاً تقتضي استبعاد بعثة البشر، وهذه الطائفة وقوم نوح لم يذكر في هذه الآيات أن المعجزة ظهرت لهم وأنهم كذبوا بعد وضوحها، ولكن ذلك مقدر معلوم وإن لم يعين لنا المعجزة، والعقاب لا يتعلق بأحد إلا بعد تركه الواجب عليه، ووجوب الاتباع إنما هو

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن نوحاً قال ذلك حين خرج من السفينة، وقال بعضهم: بل حين دخلها، وعلى كل فالآية الكريمة تعليم من الله عزَّ وجلَّ لعباده إذا ركبوا أو نزلوا أن يقولوا هذا، قال العلماء: بل وإذا دخلوا بيوتهم، وروي عن علي رضي الله عنه أنه كان إذا دخل المسجد قال: اللهم أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين.

(٢) يعني أن بعض الروايات تقول: إن القَرْن المقصود هم قوم عادٍ لأنهم بعد نوح وكانوا قبل ثمود، ولكن قوم عادٍ لم يهلكوا بصيحة، والقرن المقصود أهلكهم الله بصيحة بدليل قوله تبارك وتعالى بعد هذا في الآية (٤١): ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾.

قيام الحجة على المرء أو على من هو المقصد والجمهور، كالعرب في معجزة القرآن، والأطباءِ لعيسى، والسحرة لموسى، فقيام الحجة على هؤلاء قامت على جميع من وراءَهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ استفهام بمعنى التوقيف، على جهة الاستبعاد، وبمعنى الهزءِ بهذا الوعد، و﴿إِنَّكُمْ﴾ الثانية بدل من الأُولى عند سيبويه، وفيها معنى تأْكيد الأَول، وكُرِّرت لطول الكلام، وإِن كان المبرد أَبَى عبارة البدل لكونه غير مستقل إِذ لم يذكر خبر «أَنَّ» الأُولى، والخبر عند سيبويه محذوف وتقديره: «أَنكم تبعثون إِذا متم»، وهذا المقدر هو العامل في ﴿إِذَآ﴾، وفي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أَيَعِدُكُم إِذا متم وكنتم تراباً وعِظاماً أَنَّكم مُخرَجُونَ» بحذف ﴿إِنَّكُمْ﴾ الأُولى. ويعنون بالإِخراج النشور من القبور.

وقولهم: ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ استبعادٌ، وهذه كلمة لها معنى الفعل، التقدير: بَعُدَ كذا، فطوراً يليها الفاعل دون لام، تقول: هيهات مجيءُ زيد، أَي: بَعُدَ ذلك، ومنه قول جرير:

فَهَيْهَـاتَ هَيْهَـاتَ الْعَقِيـقُ وَمَـنْ بِـهِ ... وَهَيْهَـاتَ خِـلٌّ بِـالْعَقِيـقِ نُـوَاصِلُـه[1]

وأَحياناً يكون الفاعل محذوفاً، وذلك عند اللام كهذه الآية، والتقدير: بَعُدَ الوجود

---

(١) البيت لجرير بن عطية الخطفي كما قال المؤلف، وهو من قصيدة له يرد على الفرزدق فيما كان بينهما، والرواية في الديوان:

فَـأَيْهَـاتَ أَيْهَـاتَ الْعَقِيـقُ وَمَـنْ بِـهِ ... وَأَيْهَـاتَ وَصْـلٌ بِـالْعَقِيـقِ تُـوَاصِلُـهْ

والبيت في اللسان (هيه)، والرواية فيه:

فَهَيْهَـاتَ هَيْهَـاتَ الْعَقِيـقُ وَأَهْلُـهُ ... وَهَيْهَـاتَ خِـل بِـالْعَقِيـقِ نُحَـاوِلُـهْ

والعقيق: وادٍ بالعالية. قال في اللسان: «وهيهات: كلمة معناه البُعْد، والتاءُ مفتوحة مثلُ كيف وأَصلها هاءٌ، وناسٌ يكسرونها على كل حالٍ بمنزلة نون التثنية».

لما توعدون، ومن حيث كانت هذه اللفظة بمعنى الفعل أَشبهت الحروف مثل «مَهْ» وغيرها، فلذلك بنيت على الفتح[(١)]، وهذه قراءة الجماعة بفتح التاءِ، وهي مفرد سُمِّي به الفعل في الخبر، أَي: بَعُدَ، كما أَن «شَتَّانَ» اسم «افترق»، وعُرْف تسمية الفعل أَن تكون في الأَمر كصَهْ وهَسْ[(٢)].

وقرأَ أَبو جعفر: [هَيْهَاتِ] بكسر التاءِ غير منونة. وقرأَها عيسى بن عمر، وأَبو حيوة ـ بخلاف عنه ـ بتاءٍ مكسورة منونة، وهي على هاتين القراءَتين عند سيبويه جمع «هَيْهَاتَ»، وكان حقها أَن تكون «هَيْهَيَاتٍ» إِلاَّ أَن ضعفها لم يقتض إِظهار الياءِ، وقال سيبويه رحمه الله: هي مثل «بَيْضَات»، أَراد: «في أَنها جمع»، وظن بعض النحاة أَنه أَراد: «في اتفاق المفرد» فقال: واحد «هَيْهَاتٍ»: «هَيْهَه»، وليس كما قال، وتنوين عيسى أَراد التنكير، وتَرْك أَبي جعفر التنوين على إِرداة التعريف. وقرأَ عيسى الهمداني: [هَيْهَاتْ هَيْهَاتْ] بتاءٍ ساكنة، وهي ـ على هذا ـ جماعة لا مفرد، وقرأَها كذلك الأَعرجُ، ورُويت عن أَبي عمرو، وقرأَ أَبو حيوة: [هَيْهَاتٌ] بتاءٍ مرفوعة منونة، وهذا على أَنه اسم معرب مستقل وخبره ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾، أَي: البُعْد لوعدكم، كما تقول: النجمُ لسعيكم[(٣)]، ورُوي عن أَبي حيوة [هَيْهَاتُ] بالرفع دون تنوين، وقرأَ خالد بن إِلياس: [هَيْهَاتاً هَيْهَاتاً] بالنصب والتنوين. والوقف على ﴿۞ هَيْهَاتَ﴾ من حيث هي مبنيَّة بالهاءِ، ومن قرأَ بكسر التاءِ وقف بالتاءِ، وهي في اللفظة لغاتٌ: هَيْهَا، وهَيْهَاتَ،

---

(١) مذهب البصريين أن هذه الألفاظ (هيهات، وصَهْ، ومَهْ) وأمثالها أسماءٌ حقيقة ونابت عن الفعل في لفظه فهي بمعناه، وهي المعروفة بأنها «أسماءُ الأفعال»، ومذهب الكوفيين أنها أفعال حقيقة، وهذه الأسماء لا موضع لها من الإعراب، وهيهات اسم فعل ماض بمعنى بَعُد، كما أن «شَتَّان» بمعنى افترق، و«مَهْ» اسم فعل أمر بمعنى: انكَفِفْ عن فعل هذا الشيءِ.

(٢) «صَهْ»: اسم فعل أمر بمعنى اسكت، و«هَسْ»: اسم فعل أمر فيه زجر للغنم كما أن «عَدَسْ» زجرٌ للبغل، و«هَلا» للجواد.

(٣) قال أبو الفتح بن جنِّي: «من قال: هَيْهَاةٌ هَيْهَاةٌ» فإِنه يكتبها بالهاء لأن ذلك يحتمل أمرين: أحدهما أن يكون أخلصها اسماً معرباً فيه معنى البعد ولم يجعله اسماً للفعل فيبنيه كما بنى الناسُ غيره، وقوله تعالى: ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ خبر عنه، كأنه قال: البُعْد لوعدكم، كما يقول القائل: الخُلْف لموعدك. والأمر الآخر أن تكون مبنية على الضم، كما بنيت «نحنُ» عليه، ثم اعتقد فيه التنكير فلحقه التنوين». ولكن مذهب أبي عليٍّ الفارسي أنها تكتب بالتاء.

وهَيْهَان، وأَيْهَاتَ، وهَيْهَاتِ، وهَيْهَاتُ، وهيهاتٌ، وهَيْهَاهْ[1]، قال رؤْبة:

هَيْهَاتَ مِنْ مُنْخَرِقٍ هَيْهَاؤُهُ[2]

وقرأ ابن أَبي عبلة: [هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ مَا تُوعَدُونَ] بغير لام.

وقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أرادوا أنه لا وجود لنا غير هذا الوجود، وإنما تموت منا طائفة فتذهب وتجيءُ طائفة جديدة، وهذا كفر الدهرية. و﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ معناه: بِمُصَدِّقينَ، ثم دعا عليهم نبيُّهم وطلب عقوبتهم على تكذيبهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

المعنى: قال الله تعالى لهذا النبي الداعي: عمَّا قليل يندم قومك على كفرهم حين لا ينفعهم الندم. ومن ذِكْر الصيحة ذهب الطبري إلى أنهم قوم ثمود، وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ معناه: بما استحقوا بأفعالهم وبما حقَّ منا في عقوبتهم. و«الغُثَاءُ»: ما يحمله

---

(١) حكى بعض العلماء في «هيهات» ستاً وثلاثين لغة: هَيْهَاه، وأَيْهَاه، وهيهات، وأيهات، وهيهَان، وأيهان، وكل واحدة من هذه الست مضمومة الآخر ومفتوحته ومكسورته، وكل واحدة منونة وغير منونة، بل حكى بعضهم زيادة على ذلك: هيهاكَ، وأيْهَاكَ، وأيْهَاء، وأيهاه، وهيهاء، وهيهاه. (حاشية الصبان على شرح الأشموني).

(٢) هذا البيت من قصيدة لرؤبة بن العجاج يصف المفازة والسراب، يقول في مطلعها:

وَبَلَدٍ عَامِيَةٍ أَعْمَاؤه
كَأَنَّ لَوْنَ أَرْضِهِ سَمَاؤُهُ

والرواية في الديوان «في مُنْخَرِق» بدلاً من «مِنْ مُنْخَرِق»، قال أبو الفتح: «كأنه قال: بَعُد بُعْدُه، وهو كقولهم: جُنَّ جُنُونُهُ، وضلَّ ضَلالُه، وقولهم: موتٌ مائتٌ، وشِعْرٌ شاعِرٌ على طريقة المبالغة، وهَيْهَاؤهُ إذاً فَعْلالُهُ، كزَلْزَالِهِ وَقَلْقَالِهِ، والهمزة فيه منقلبة عن ياءٍ؛ لأنه من باب حاحَيْتُ وعَاعَيْت».

والبيت في اللسان (هيه)، وقد نسبه لِلْعَجَّاج، وذكر بعده عن ابن سِيدَه أن ابن جنّي أنشده ولم يفسره، ثم قال ابن سِيدَه: «ولا أدري ما معنى «هيهاؤه». وقد رأيت ما نقلناه عن ابن جني من توضيح للمراد بـ: هَيْهَاؤهُ. وبهذا فسَّره ابن بَرِّي أيضاً».

السيل من زَبَدِهِ ومعتاده الذي لا يُنتفع به، فَيُشَبَّهُ كل هامدٍ وتالفٍ بذلك. و﴿ بُعْدًا ﴾ منصوب بفعل متروك إظهاره.

ثم أَخبر تعالى عن أنه أَنشأ بعد هؤلاءِ أُمماً كثيرة، كل أُمَّة بأَجل وفي كتاب لا تتعداه في وجودها وعند موتها.

و﴿ تَتْرًا ﴾ مصدر بمنزلة فِعْلى مثل الدعوى والعدوى ونحوهما، وليس ﴿ تَتْرًا ﴾ بفعل، وإنما هو مصدر من: تَوَاتَرَ الشيءُ، وقرأَ الجمهور: ﴿تَتْرَى﴾ كما تقدم، ووقفهم بالأَلف، وحمزة والكسائي يميلانها، قال أَبو حاتم: هي أَلف تأنيث[1]، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [تَتْرًى] بالتنوين، ووقفهما بالأَلف، وهي أَلِف إلحاق[2]، قال ابن سِيدَهْ: يقال: جاءُوا تَتْرَى وتَتْرًى، أَي متواترين، التاءُ مُبْدلة من الواو على غير قياس؛ لأَن قياس إِبدال الواو تاءً إِنما هو في «افْتَعَلَ» وما تَصَرَّف منها إِذا كانت ياؤُه واواً، فإِن فاءَه تنقلب تاءً وتُدغم في تاءِ «افْتَعَلَ»، وذلك نحو «اتَّزَنَ واتَّجَهَ».

وقوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا ﴾ أَي: في الإِهلاك. وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ يريد أَحاديث مَثَل[3]، وقلَّما يستعمل الجعل حديثاً إِلاَّ في الشَّرِّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

﴿ ثُمَّ ﴾ هنا على بابها لترتيب الأُمور واقتضاء المُهْلَة، و«الآيَاتُ» التي جاء بها موسى وهارون هي اليَدُ والعصا اللتان اقترن بهما التحدي، وهما «السُّلْطَان المُبِيْن»، ويدخل في عموم اللفظ سائر آياتهما كالبحر والمرسلات السِّت[4]، وأَما غير ذلك مما جرى بعد الخروج من البحر فليست تلك لفرعون بل هي خاصة ببني إِسرائيل.

---

(١) فهي بمنزلة الألف في «سَكْرَى وَغَضْبَى».

(٢) فهي بمنزلة الألف في «أَرْطَى ومِعْزَى».

(٣) أي أحاديث عِبْرَة ومَثَل للآخرين، والأحاديث جمع أُحدوثة وهي ما يُتحدث به، كأعاجيب جمع أُعجوبة وهي ما يُتعجب منه، ويجوز أن يكون الحديث بالخير إذا قُيِّد بذلك، فهو حديث حَسَن، قال ابن دريد:

وَإِنَّمـــا الْمَـــرْءُ حَـــدِيـــثٌ بَعْـــدَهُ   فَكُـــنْ حَـــدِيثـــاً حَسَنـــاً لِمَـــنْ وَعَـــى

(٤) المرسلات السِّتُّ هي التي أرسلها الله عليهم وذكرها في سورة الأعراف، وهي: الطوفانُ والجرادُ والقُمَّل والضَّفادعُ والدَّمُ والرِّجْزُ.

و«الْمَلأُ» هاهنا: الجمع، يعمُّ الأشراف وغيرهم، و﴿ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ معناه: عن الإيمان لموسى وأخيه عليهما السلام لأنهم أَنِفوا من ذلك. و﴿ عَالِينَ ﴾ معناه: قاصدين العُلُوَّ بالظلم والكبرياء.

وقوله تعالى: ﴿ عَـٰبِدُونَ ﴾ معناه: خادمون مُتَذَلِّلُونَ، ومن هذا قيل لعرب الحيرة: العِبَادُ؛ لأَنهم دخلوا من بين العرب في طاعة كسرى، وهذا أَحد القولين في تسميتهم، والطَّرِيق المُعَبَّد: المذلَّل، وعلوُّ هؤلاءِ هو الذي ذكر الله تعالى في قوله: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾(١). وقولُه: ﴿ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴾ يريد: بالغرق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ هو التوراة، و﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ يريد بني إسرائيل لأَن التوراة إنما نزلت بعد هلاك فرعون والقبط، والترجِّي في «لعل» في حيِّز البشر، أَي: كان من فعلنا معهم ما يرجو معه ابن آدم إيمانهم وهداهم، والقضاءُ قد حكم بما حكم.

و«ابنُ مَرْيَم» عيسى عليه السلام، وقصتهما كلها آية عظمى بمجموعها، وهي آيات مع التفصيل، وأَخذها من كلا الوجهين متمكن، و«آوَى» معناه: ضَمَّ، واستعمال اللفظة في الأَماكن، أَي أَقررناهما، و«الرَّبْوَة»: المرتفع من الأَرض. وقرأَ جمهور الناس: [رُبْوَةٍ]، وقرأَ عاصم، وابن عامر بفتحها، وهي قراءَة الحسن وأَبي عبد الرحمن. وقر ابن عباس، ونصر عن عاصم بكسرها. وقرأَ محمد بن إِسحاق: [رُبَاوَةٍ] بضم الراءِ، وقرأَ الشهب العقيلي بفتحها، وقرأَت فرقة بكسرها، وكلها لغات قرِئَ بها. و«القَرَارُ»: المتمكن، فمعنى هذا أَنها مستوية بسيطة للحرث والغراسة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقال قتادة: القرار هنا: الثمار والحبوب(٢).

ومعنى الآية أَنها من البقاع التي كملت خصالها فهي أَهلٌ أَن يُسْتَقَر فيها، وقد يمكن

---

(١) من الآية (٨٣) من سورة (القصص).

(٢) لأن الثمار والحبوب تعمل على الاستقرار في المكان.

أَن يُسْتَقرَّ على الكمال في البقاع التي ماؤُها آبارٌ، فَيَبِينُ بَعْدُ أَن ماءَ هذه الربوة يُرى معيناً جارياً على وجه الأَرض، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا كمال الكمال.

و«المَعِينُ»: الظاهرُ الجري للعين، فالميم زائدة، وهو الذي يُعايَن جريه، لا كالبئر ونحوه، وكذلك أَدخل الخليل هذه اللفظة في باب (ع ي ن)، وقد يحتمل أَن يكون من قولهم: «مَعَن الماءُ» إذا كثُر، ومن قولهم: المعنُ المعروف والجود، فالميم فاءُ الفعل، وأَنشد الطبري على هذا قول عبيد بن الأَبرص:

وَاهِيَــــةٌ أَوْ مَعِيـــنٌ مُمْعِــــنٌ ... أَوْ هَضْبَـــةٌ دُونَهَـــا لُهُـــوبُ[1]

وقد قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله هاجر لو تركت زمزم لكانت عيناً معيناً»[2]، وهذا يحتمل الوجهين، وهذه الربوة هي الموضع الذي فرت إِليه مريم حين استحيت في قصة عيسى عليه السلام، وهو الذي قيل لها فيه: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[3]، هذا قول بعض المفسرين.

واختلف الناس في موضع الربوة ـ فقال ابن المسيب سعيد: هي الغوطة بدمشق ـ. وهذا أَشهر الأَقوال لأَن صفة الغوطة أَنها ذات قرار ومعين على الكمال. وقال أَبو هريرة رضي الله عنه: هي الرملة في فلسطين، وأَسْنَدهُ الطبريُّ، عن كريب، عن مُرَّةَ البَهْزِيِّ،

---

(١) البيت من قصيدة عبيد المشهورة: «أَقْفَرَ من أَهْلِهِ مَلْحُوبُ»، وهو من أبيات البداية التي صوَّر فيها المنازل المقفرة وتقلُّب صروف الدهر عليها، وقبل هذا البيت يقول عبيد:

عَيْنَــــاكَ دَمْعُهُـــــا سَـــــرُوبُ ... كَـــأَن شَـــأْنَيهِمَـــا شَعِيـــبُ

فهو يقول: إن دمع عينيك دائم الجريان، كأن عروق الدمع في رأسك قِرْبَة ماءٍ ممزقة، وسروب: دائمة السيلان، والشأن واحد الشئون وهي عروق تجري منها الدموع، والشَّعيب هي السقاءُ البالي، أو القربة الممزقة. ثم في بيتنا يصف القربة بأنها واهية، أي ضعيفة ممزقة، والمَعِينُ: الماءُ، والمُمْعِنُ: الجاري، واللُّهوب: جمع لِهْبٍ وهو الشّعب في الجبل أو الفُرجة بين جبلين. والهَضْبَةُ: المكان المرتفع. وهو يقول: الماءُ يجري من هذه القربة الواهية كأنه الماءُ الجاري على وجه الأرض في سهولة، أو الماءُ الهابط من الهضبة العالية إلى شق منحدر في الجبل.

(٢) أخرجه البخاري في المساقاة، وأحمد في مسنده (١/٣٤٧)، عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أُمَّ إسماعيل، لو تركت زمزم ـ أو قال: لو لم تغْرف من الماءِ ـ لكانت معيناً، وأقبل جرهم فقالوا: أتأذنين أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولا حقَّ لكم في الماءِ، قالوا: نعم».

(٣) من الآية (٢٤) من سورة (مريم).

عن النبي ﷺ[١]، ويعارض هذا القول أن الرملة ليس يجري بها ماءٌ البتَّةَ، ذكره الطبري وضعَّف القول به، وقال كعب الأحبار: الرَّبوة بيت المقدس، وزعم أن في التوراة أن بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء، وأنه يزيد على الأرض ثمانية عشر ميلاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويترجَّح أن الربوة في بيت لحم من بيت المقدس لأن ولادة عيسى هنالك كانت، وحينئذ كان الإيواءُ. وقال أبو زيد: الرَّبوة بأرض مصر، وذلك أنهارُبَى يجري فيض النيل إليها فيملأُ الأرض ولا ينال تلك الرُّبَى وفيها القرى وبها نجاتها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويضعف هذا القول أنه لم يُرْوَ أن عيسى عليه السلام ومريم كانا بأرض مصر ولا حفظت لهما بها قصة.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ يحتمل أن يكون معناه: وقلنا يا أيُّها الرسل، فتكون هذه بعض القصص التي ذَكَر، وكيف كان قول المعنى[٢]، فلم يخاطبوا قطُّ مجتمعين وإنما خوطب كل واحد في عصره. وقرأت فرقة: الخطابُ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ لمحمد ﷺ، ثم اختُلف ـ فقال بعضهم: أقامه مقام الرسل، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾[٣]، وقيل غير هذا مما لا يثبت مع النظر. والوجه في هذا أن يكون الخطاب لمحمد ﷺ، وخرج بهذه الصيغة ليفهم وجيزاً أن هذه المقالة قد خوطب بها كل نبي، أو هي طريقتهم التي ينبغي لهم الكون عليها، وهذا كما تقول لتاجرٍ: يا تُجَّار ينبغي أن تجانبوا الرِّبَا، فأنت تخاطبه بالمعنى، وقد اقترن بذلك أن هذه

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، وابن عساكر، عن مُرَّة البَهْزِيِّ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الرَّمْلة الرَّبْوَة».

وأخرج الطبراني، وابن السكن، وابن منده، وأبو نعيم، وابن عساكر ـ من طرق ـ عن الأقرع بن شفي العكي رضي الله عنه، قال: دخل عليَّ النبي ﷺ في مرض يعودني، فقلت: لا أحسب إلاَّ أني ميِّت من مرضي، قال: «كلاَّ، لتبقيَنَّ ولتُهَاجرَنَّ منها إلى أرض الشام وتموت وتدفن بالربوة من أرض فلسطين»، فمات في خلافة عمر رضي الله عنه ودفن بالرملة.

(٢) اختلفت النسخ الأصلية في هذه الجملة، ففي بعضها: «فكيف بأمور من المعنى»، وفي بعضها: «وكيف ما تحول المعنى».

(٣) من الآية (١٧٣) من سورة (آل عمران).

المقالة تصلح لجميع صنفه، وقال الطبريُّ: الخطاب بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ لعيسى عليه السلام، ورُوي أنه كان يأكل من غزل أُمه، والمشهور أنه كان يأكل من بقل البريَّة، ووجه خطابه لعيسى عليه السلام ما ذكرناه من تقديره لمحمد ﷺ.

و«الطَّيِّبَاتُ» هنا: الحلالُ بِلَذَّة وبغير ذلك[1].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ تنبيه على التحفظ، وضرب من الوعيد بالمباحثة، صلى الله على جميع أنبيائه ورسله، وإذا كان هذا معهم فما ظنُّ كل الناسِ بأنفسهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ﴾ بكسر الألف وشدِّ النون. وقرأ ابن عامر: [وَأَنْ هَذِهِ] بفتح الألف وتخفيف [أَنْ]. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: [وَأَنَّ هَذِهِ] بفتح الألف وتشديد [أَنَّ]. فالقراءة الأُولى بيِّنَةٌ على القطع، وأما فتح الألف وتشديد النون فمذهب سيبويه أنها متعلقة آخراً بـ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ على تقدير: «لأَن»، أي: فاتَّقُونِ لأَنَّ أُمتكم أُمَّة واحدة وأَنِّي ربكم، وهذا عنده نحو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[2]، و[أَنَّ] عنده في موضع خفض، وهي عند الخليل في موضع نصب لما زال الخافض، وقد عكس هذا الذي نسبتُ إليهما بعضُ الناس. وقال الفراءُ: [أَنَّ] متعلقة بفعل مضمر تقديره: واعلموا أَو احفظوا.

وقرأ الحسن، وابن أَبي إسحاق: [أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ] بالرفع على البدل. وقرأ نافع، وعاصم، وأَبو عمرو: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بالنصب على الحال، وقيل على البدل من [هَذِهِ]، وفي هذا نظر.

وهذه الآية تقوِّي أَن قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ إنما هو مخاطبة لجميعهم، وأَنه

---

(١) كذلك اختلفت الأصول في كتابة هذه الجملة، ففي بعضها «الحلال ملذة وغير ذلك».

(٢) الآية (١٨) من سورة (الجن).

بتقدير حضورهم، وتجيءُ هذه الآية بعد ذلك بتقدير: وقلنا للناس، وإذا قدرت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ مخاطبة لمحمد ﷺ قَلِقَ اتصالُ هذه واتصالُ قوله: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾، أما إن قوله: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ وإن كان قيل للأنبياء فأُممهم داخلون فيه بالمعنى فيحسن بعد ذلك اتصال ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ ﴾، ومعنى «الأُمَّة» هنا المِلَّة والشريعة[1]، والإشارة بـ﴿ هَٰذِهِۦٓ﴾ إلى الحنيفية السمحة ملَّةِ إبراهيم عليه السلام وهو دين الإسلام. وقوله: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ يريد الأمم، أي: افترقوا، وليس بفعل مطاوع كما تقول «تقطَّع الثوبُ»، بل هو فعل متعد بمعنى «قطعوا»، ومثله تجهَّمني الليل، وتخوَّفني السَّيْر، وتَعَرَّفني الزمن.

وقرأ نافع: ﴿ زُبُرٗاۖ﴾ بضم الزاي والباءِ، جمع زبور. وقرأ الأعمش، وأبو عمر ـ بخلاف ـ: [زُبَرًا] بضم الزاي وفتح الباءِ. فأَما الأُولى فتحتمل معنيين: أَحدهما أَن الأُمم تنازعت أَمرها كُتُباً منزلة، فاتبعت فرقة الصُّحف وفرقة التوراة وفرقة الإنجيل، ثم حَرَّفَ الكلُّ وبدَّل، وهذا قول قتادة، والثاني أَنهم تنازعوا أَمرهم كُتباً وضعوها وضلالات أَلَّفوها، وهذا قول ابن زيد، وأَما القراءة الثانية فمعناها: فِرَقاً كزُبَر الحديد.

ثم ذكر تعالى أَن كل فريق منهم معجب برأيه وضلالته، وهذا غاية الضلال؛ لأَن المرتاب بما عنده ينظر إلى طلب الحق، ومن حيث كان ذكر الأُمم في هذه الآية مثالاً لقريش خاطب محمداً عليه الصلاة والسلام في شأْنهم متصلاً بقوله: ﴿ فَذَرۡهُمۡ﴾، أَي: فذَرْ هؤلاءِ الذين هم بمنزلة من تقدم. و«الغَمْرَةُ»: ما عمَّهم من ضلالهم وفَعَلَ به مفعل الماءِ الغَمْرِ[2] بما حصل فيه، وقرأَ أَبو عبد الرحمن: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمَرَاتِهِمْ﴾. و﴿ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أَي إلى وقت فتحٍ فيهم غير محدود. وفي هذه الآية موادعة منسوخة بآية السيف.

ثم وقفهم على خطأ رأْيهم في أَن نعمة الله عندهم بالمال ونحوه إنما هي لرضاه عن حالهم، وبيَّن تعالى أَن ذلك إنما هو إملاءٌ واستدراج، وخبر [أَنَّ] في قوله: ﴿ نُسَارِعُ﴾.

وقرأ جمهور الناس: ﴿ نُسَارِعُ﴾ بنون العظمة، وفي الكلام ـ على هذه القراءَة ـ ضمير

---

(١) ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾، وقول النابغة:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنفسِكَ ريبَةً ... وهَلْ يَأْثَمَنْ ذو أُمَّةٍ وَهُوَ طَائِعُ؟

(٢) الماءُ الغَمْرُ: الماءُ الكثير لأنه يغْمُر وجه الأرض، أي يغطيها، والمراد هنا أن الغفلة والضلالة قد غطت على قلوبهم.

عائد تقديره: «لَهُمْ بِهِ»(١). وقرأ عبد الرحمن بن أَبي بكرة(٢): [يُسَارِعُ] بالياءِ وكسر الراءِ بمعنى أَن إمدادنا يسارع، ولا ضمير مع هذه القراءَة إلاَّ ما يتضمن الفِعْل(٣)، ورُوي عن أَبي بكرة المذكور [يُسَارَعُ] بفتح الراءِ، وقرأَ الحرُّ النحوي: [نُسْرِعُ] بالنون وسقوط الأَلف، و«الْخَيْرَات» هنا تعم الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ وعيد وتهديد، و«الشُّعور» مأْخوذ من الشِّعار وهو ما يلي الإِنسان من الثياب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

لما فرغ من ذِكر الكفرة وتوعُّدهم عقَّب ذلك بذكر المؤمنين ووعدهم، وذكر ذلك بأَبلغ صفاتهم. و«الإِشْفَاقُ» أَبلغ التوقع والخوف، و[مِنْ] في قوله تعالى: ﴿مِّنْ خَشْيَةِ﴾ لبيان جنس الإِشفاق، والإِشفاقُ إنما هو من عذاب الله تعالى، و«مِنْ» في قولنا: «مِنْ عذاب الله» هي لابتداءِ غاية.

و«الآيَةُ» تعمُّ القرآن وتعمُّ العِبَر والمصنوعات التي لله تعالى وغير ذلك مما فيه نظر واعتبار.

وَفِـــي كُـــلِّ شَـــيْءٍ لَـــهُ آيَـــةٌ . . . .(٤)

---

(١) وقد حذفت «بِهِ» للعلم بها، وهذا كما حذف الضمير في قولهم: «السَّمن مَنَوَان بدرهم»، أي: مَنَوَان منه بدرهم، وكأَن [بِهِ] المتقدمة في الصلة من قوله تعالى: ﴿نُمِدُّهُم بِهِ﴾ قد صارت عوضاً أو مغنية عن الثانية.

(٢) هو عبد الرحمن بن أبي بكرة الثقفي، أول مولود بالبصرة، روى عن أبيه، وروى عنه ابن سيرين وجماعة، وثَّقه ابن حجر العسقلاني، من الثانية، واسمه نُفَيع ـ بالتصغير ـ ابن الحارث. مات سنة ست وثلاثين، وقيل: بل سنة ست وثلاثين بعد المائة. «تهذيب التهذيب»، و«تقريب التهذيب»، و«خلاصة تذهيب الكمال».

(٣) أي: لا حاجة إلى تقدير الضمير، لأن في الفعل ضميراً يعود على [ما] في قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ﴾. قال ذلك أبو الفتح بن جني في المحتسب.

(٤) هذا صدر بيت معروف متداول، وهو بتمامه:

=

ثم ذَكَرَهُم تعالى من الطرف الآخر وهو نَفْي الإشراك؛ لأَن لِكُفَّار قريش أَن يقولوا: ونحن نؤمن بآيات ربنا، ونريد أَن نصدق بأَنه المخترع الخالق، فذكر تعالى نفي الإشراك الذي لا حظَّ لهم فيه بسبب أَصنامهم(١).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ على قراءة الجمهور معناه: يُعطون ما أَعطوا، وقال الطبري: يريد الزكاة المفروضة وسائر الصدقة، وروي نحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما، ومجاهد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإنما ضمَّهم إلى هذا التخصيص أَن العطاءَ مستعمل في المال على الأَغلب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وابن جبير: هو عامٌّ في جميع أَعمال البرِّ، وهذا حسن، كأَنه قال: والذين يُعطون من أَنفسهم في طاعة الله ما بلغه جهدهم. وقرأَت عائشة أُم المؤمنين، وابن عباس، وقتادة، والأَعمش: «يَأْتُونَ مَا أَتَوْا»، ومعناه: يفعلون ما فعلوا، ورويت هذه القراءَة عن النبي ﷺ(٢). وذهبت فرقة إلى أَن معناه: من

= وَفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ تَـدُلُّ عَلَـى أَنَّـهُ الْـوَاحِـدُ

(١) وقيل: ليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفي الشِّرْك لله؛ لأن ذلك داخل في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾، بل المراد نفي الشِّرْك للحق، وهو أن يخلصوا في العبادة، فلا يقدم عليها المؤمن إلا خالصة لوجه الله وطلباً لرضوانه.

(٢) أخرج سعيد بن منصور، وأحمد والبخاري في تاريخه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أشته وابن الأنباري معاً في «المصاحف»، والدارقطني في «الأفراد»، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن عبيد بن عمير أنه سأل عائشة رضي الله عنها: كيف كان رسول الله ﷺ يقرأُ هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ أو ﴿وَالَّذِينَ يَأْتُونَ مَا أَتَوْا﴾؟ فقالت: أيهما أحبُّ إليك؟ قلت: والذي نفسي بيده لإحداهما أحبُّ إليَّ من الدنيا جميعاً، قالت: أيهما؟ قلت: ﴿وَالَّذِينَ يَأْتُونَ مَا أَتَوْا﴾، فقالت: أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها، وكذلك أُنزلت، ولكن الهجاءَ حُرِّف. «الدُّرُّ المنثور».

ولنا وقفة أمام هذا وخصوصاً ما ذكر عن تحريف الهجاء؛ لأنه لو كان الأمر أمر تحريف لما غفل عنه القراءُ والمحققون، لأنهم أصحاب غيرة على القرآن بالذات، وعلى الحقيقة في أي روايةٍ، وهم دائماً يتحرون وجه الصواب في كل ما يُروى ويُنقل حتى ولو كان في غير القرآن، وإذاً فالأمر أمر رواية لا تحريف.

ولو كان الأمر أمر تحريف فلنا أن نسأل: هل وقع هذا التحريف في بعض المصاحف أم في كل المصاحف؟ لو أن هذا التحريف وقع في بعض المصاحف فكيف اتفق عليه كل القراء أو أكثرهم بهذه الصورة؟ وكيف لم يقرأ «بالصواب» إلا قلة ضئيلة؟ هل يعقل أن تتفق الكثرة على الخطأ وأن يكون =

المعاصي، وذهبت فرقة إلى أن ذلك في جميع الأعمال طاعتها ومعصيتها، وهذا أمدح، وأسند الطبري عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: قلتُ: يا رسول الله، قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ الذي يزني ويسرق؟ قال: «لا يا بنت أبي بكر، هي في الرجل يصوم ويتصدق وقلبُه وجل يخاف ألاَّ يُتقبل منه»(١).

= الصواب موضع اتجاه القلة؟ ولو أن هذا التحريف وقع في جميع المصاحف لما كان تحريفاً، بل هو اتفاق وإجماع، ولا يمكن أن نقول عنه تحريف.

ولو تصورنا أن التحريف واردٌ في ﴿ءَاتوا﴾ لأن الفرق بين رسم المدة فوق الألف فيها وبين رسم الهمزة في ﴿أَتَوا﴾ لما كان وارداً أبداً في قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ﴾، لأن الفرق في الرسم بينها وبين الرسم في ﴿يَأْتُونَ﴾ واضح قوي لا يتأتى معه الخطأ من القارىء وبخاصة في القرآن الكريم.

ومن ناحية أُخرى يقول الفراءُ: «ولو صحَّت هذه القراءةُ عن عائشة رضي الله عنها لم تخالف قراءَة الجماعة، لأن الهمز من العرب من يلزم فيه الألف في كل الحالات إذا كتب، فيكتب «سُئِلَ الرجلُ» بألف بعد السين، و«يستهزئون» بألف بين الزاي والواو، «شيءٌ» و«شيءٍ» بألف بعد الياء، فغير مُسْتَنْكَر أن يكتب «يُؤْتُون» بألف بعد الياء، وكلام الفراءِ يوضح أمرين: أولهما أنه يَشُكُّ في صحة الرواية بدليل قوله: «لو صحَّت»، والثاني أنه يبين السبب في رسم الهمزة على ألف بعد الياءِ بأن هذه قاعدة يلتزمها بعض العرب، وعليه فتكون القراءة للرَّسْم بالألف هي كالقراءة للرسم بالواو.

وإذا تأملنا في رواية ابن جرير الطبري في تفسيره نراه ينقلها عن أبي خلف، وفيها يقول: «دخلت مع عبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها، فسألها عبيد: كيف نقرأ هذا الحرف ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾، فقالت: ﴿يَأْتُونَ مَا أَتَوا﴾، وكأنها تأولت في ذلك: والذين يفعلون ما يفعلون من الخيرات وهم وجلون من الله. وليس فيها أنها سألته وأنه أجاب، ثم قالت: أشهد... الخ.. لأنه من غير المعقول أن تسأل عائشة رضي الله عنها أحداً مثل هذا السؤال، والقرآن ليس على هوى الناس، فهو توقيف من الله فكيف نجعله عرضة للأهواء والميول؟ هذا السؤال نفسه يجعلنا نشك في هذه الرواية، ونؤيد رواية أبي خلف التي ينص فيها على أن عائشة رضي الله عنها تأولت الآية، فهو فهم منها وتأويل. وقد روي الحديث عن أبي مُلَيْكَة أنها قالت: لأن تكون هذه الآية كما أقرأ أحبُّ إليَّ من حُمر النعم، فقال لها ابن عباس رضي الله عنهما ما هي؟ فقالت: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ هكذا في «الدر المنثور». فكيف نجمع بين هذه الرواية وبين الرواية الأخرى، مع ملاحظة أن كلمة التحريف والتصحيف كلمة عُرفت وأُلفت بعد عائشة رضي الله تعالى عنها، فلم تكن الكتابة والقراءة في أيامها بالكثرة التي حدثت بعد ذلك ودخل فيها التحريف والتصحيف كما اتفق عليه المحققون. فهو في رأينا اصطلاح لاحق ورد على ألسنة بعض الناس وليس من صلب الحديث، وصحيح أنها وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، ولكن من الصحيح أيضاً أن عائشة رضي الله عنها لا يمكن أن تقصد هذا المعنى الذي أوردته الآية الكريمة، والله أعلم».

(١) رواه أحمد في مسنده، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم وصححه، والذهبي، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»، وزاد أن ممن رواه عبد بن حميد، وابن جرير، والفريابي، وابن أبي الدنيا في «نعت الخائفين»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا نظر مع الحديث.

و«الوَجَلُ» نحو الإِشفاق والخوف، وصورة هذا الوجل أَمَّا المخلِّط فينبغي أَن يكون أَبداً تحت خوف من أَن يكون ينفذ عليه الوعيد بتخليطه، وأَما التَّقي التائب فخوفه من الخاتمة وما يطلع عليه بعد الموت، وفي قوله سبحانه: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ تنبيه على الخاتمة. وقال الحسن: معناه: الذين يفعلون ما يفعلون من البر ويخافون أَلاَّ يُنجيهم ذلك من عذاب ربهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه عبارة حسنة.

ورُوي عن الحسن أَيضاً أَنه قال: المؤمن يجمع إِحساناً وشفقة، والمنافق يجمع إِساءَةً وأَمْناً.

وقرأَ الجمهور: ﴿أَنَّهُمْ﴾ بفتح الأَلف، والتقدير: بأَنَّهم أَو لأَنهم أَو من أَجل أَنهم، ويحتمل أَن يكون قوله: ﴿وَجِلَةٌ﴾ عاملاً في [أَنَّ] من حيث هي بمعنى: خائفة. وقرأَ الأَعمش: [إِنَّهُمْ] بكسر الأَلف على إِخبارٍ مقطوع في ضمنه تخويف.

ثم أَخبر تعالى عنهم أَنهم يبادرون إِلى فعل الخيرات، وقرأَ الجمهور: ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾، وقرأَ الحُرُّ النحوي: [يُسْرِعُون] و«أَنَّهُمْ إِلَيْهَا سَابِقُونَ»، وهذا قول بعضهم في قوله تعالى: ﴿لَهَا﴾، وقالت فرقة: معناه: من أَجلها سابقون، فالسباق ـ على هذا التأْويل ـ هو إِلى رضوان الله، وعلى الأَول هو إِلى الخيرات، وقال الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: سبقت لهم السعادة في الأَزل فهم لها، ورجحه الطبري بأَن اللام متمكنة في المعنى[1].

---

(١) ورجح القرطبي وأبو حيان الأندلسي أن اللام بمعنى «إلى»، وهي كاللام في قوله تبارك وتعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾، أي أوْحَى إليها، وأنشد سيبويه شاهداً لذلك قول الأعشى:

تَجَانَفُ عَنْ جَوِّ اليَمَامَةِ نَاقَتِي … وَمَا قَصَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا لِسِوَائِكَا

أي: إلى سواك، والتجانف: الميْل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ نَسْخٌ لجميع ما ورد في الشرع من تكليف ما لا يطاق على الحقيقة، وتكليف ما لا يُطاق أربعة أَقسام: ثلاثة حقيقة ورابع مجازي، وهو الذي لا يطاق الاشتغال بغيره مثل الإِيمان للكافر والطاعة للعاصي، وهذا التكليف باقٍ وهو تكليف أَكثر الشريعة، وأَما الثلاثة فورد اثنان منها، وفيها وقع النسخ المحال عقلاً في نازلة أَبي لهب والمحال عادة في قوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾(١) الآية، والثالث لم يرد فيه شيءٌ، وهو النوع المهلك لأَن الله تعالى لم يكلفه عباده، فأَما قتل القاتل ورجم الزاني فعقوبته بما فعل، وقد مضى القول مستوعباً في مسأَلة تكليف ما لا يطاق في سورة البقرة(٢)، وفي قولنا «ناسخ» نظر من جهة التواريخ وما نزل بالمدينة وما نزل بمكة، والله المعين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ أَظهر ما قيل فيه أَنه أَراد كتاب إِحصاءِ الأَعمال الذي ترفعه الملائكة، وفي الآية ـ على هذا التأْويل ـ تهديدٌ وتأْنيس من الحيف والظلم، وقالت فرقة: الإِشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾ إِلى القرآن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا يحتمل، والأَول أَظهر.

وقوله تعالى: ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ يريد: في ضلال قد غمرها كما يفعل الماءُ الغَمْرُ بما حصل فيه، وقوله سبحانه: ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ يحتمل أَن يشير إِلى القرآن، ويحتمل [أَن يشير](٣) إِلى كتاب الإِحصاءِ، ويحتمل أَن يشير إِلى الأَعمال الصالحة المذكورة قبل، أَي: هم في غمرة من اطِّراحها وتركها، ويحتمل أَن يشير إِلى الدين بجملته، أَو إِلى محمد ﷺ، وكل تأْويل من هذه قد قالته فرقة.

---

(١) من الآية (٢٨٤) من سورة (البقرة).

(٢) راجع المجلد الثاني صفحة (١٣٨) وما بعدها. وهناك وضحنا المراد بنازلة أبي لهب وعلَّقنا على كثير من الآراء التي ذكرها ابن عطية رحمه الله.

(٣) زيادة يحتاج إليها التعبير.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾، الإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الغَمْرة والضلال المحيط بهم، فمعنى الآية: بل هم ضالُّون معرضون عن الحق، وهم ـ مع ذلك ـ لهم سعايات فساد، فوسمهم تعالى بحالتي شرٍّ، قال هذا المعنى قتادة وأبو العالية، وعلى هذا التأويل فالإخبار عما سلف من أعمالهم وعمَّا هم فيه. وقالت فرقة: الإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ فكأنه قال: لهم أعمال من دون الحق أو القرآن ونحوه، وقال الحسن بن أبي الحسن ومجاهد: إنما أخبر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾ عما يُستأنف من أعمالهم، أي أنهم لهم أعمال من الفساد سيعملونها.

و﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرفُ ابتداءٍ لا غير، و﴿إِذَآ﴾ الأولى و﴿إِذَآ﴾ الثانية[1] ـ التي هي جواب ـ تمنعاه من أن تكون غاية لـ﴿عَٰمِلُونَ﴾.

و«المُتْرَفُ» هو المنعَّم في الدنيا الذي هو منها في سَرَف، وهذه حال شائعة في رؤساء الكفرة من كل أُمة.

و﴿يَجْـَٔرُونَ﴾ معناه: يستغيثون بصياح كصياح البقر، وكثر استعمال الجأر في البشر، ومنه قول الأعشى:

يـــرَاوِحُ مِـــنْ صَلَـــوَاتِ الْمَلِيـ ـكِ طَوْراً سُجُوداً وَطَوراً جُؤَارا[2]

وذهب مجاهد وغيره إلى أن العذاب المذكور هو الوعيد بيوم بدر، وفيه نقد على مترفيهم. والضمير في قوله: ﴿إِذَا هُمْ﴾ يعود على «المُترفين» فقط لأنهم صاحوا حين نزل بهم الهزم والقتل يوم بدر، ويحتمل أن يعود على الباقين بعد المُعَذَّبين، وقد حكى

---

(١) نصُّ الكلام في الأصول «وإذا والثانية هي جواب».

(٢) البيت من قصيدة للأعشى يمدح بها قيس بن معد يكرب، وقبله يقول:

وَمَـــا أَيْبُلِـــيٌّ علـــى هَيْكَـــلٍ بَنَـــاهُ وَصَلَّـــبَ فِيـــهِ وَصَـــارَا

والأَيْبُلِيُّ هو الراهب الذي يحمل العصا التي يضرب بها الناقوس وتسمى الأَيْبُل، ويُرَاوِح بين الأمرين: يفعل هذا مرَّةً ويفعل هذا مرَّةً، والجُؤَار: رفع الصوت مع تضرع واستغاثة، والجُؤَار كالخُوَار، معناهما واحد، وجواب قوله: «وَمَا أَيْبُلِيٌّ..» يأتي في بيت ثالث يقول فيه: «بأَعْظَمَ مِنْهُ تُقًى في الحِسَابِ»، فالأعشى يقول عن ممدوحه الذي وصفه قبل ذلك بالكرم والشجاعة: إنه تَقِيٌّ يرعى الله ويخافه، ويتضرع إليه في صلواته، وحتى الراهب المنقطع للعبادة والصلاة، والذي لا يكف عن السجود والجؤار لله ليس بأتقى من قيس هذا. والمؤلف يستشهد بالبيت على أن الجؤار هو رفع الصوت بالدعاء، وأنه يوصف به البشر كما يوصف به البقر.

ذلك الطبري عن ابن جريج، قال: المُعَذَّبون: قتلى بدرٍ، والذين يجأرون: أهل مكة لأنهم ناحوا واستغاثوا[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

المعنى: يقال يوم العذاب عند حلوله: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾، وهذا القول يجوز أَن يكون حقيقة، أَي تقول لهم ذلك الملائكة، ويحتمل أَن يكون مجازاً، أَي: لسانُ الحال يقول ذلك، وهذا على أَن الذين يجأرون هم المعذبون، وأَما على قول ابن جريج فلا يحتمل أَن تقول ذلك الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ الآية يريد بها القرآن. و﴿تَنكِصُونَ﴾ معناه: ترجعون وراءكم، وهذه استعارة للإعراض والإدبار عن الحق، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «على أَدباركم تَنْكُصُونَ» بضم الكاف وبذكر الأَدبار بدلاً من الأَعقاب. و﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ حالٌ، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ قال الجمهور: هو عائد على الحَرَم والمسجد وإن لم يتقدم له ذكرٌ لشهرته في الأَمر، والمعنى: إنكم تعتقدون في أَنفسكم أَن لكم بالمسجد والحَرَم أَعظمَ الحقوق على الناس والمنازل عند الله، فأَنتم تستكبرون لذلك، وليس الاستكبارُ من الحق، وقالت طائفة: الضمير «في ﴿بِهِۦ﴾»[2] عائد على القرآن من حيث ذكرت الآيات، والمعنى: يُحدث لكم سماع الآيات كفراً وطغياناً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ جيِّد.

وذكر مُنذر بن سعيد أَن الضمير لمحمد ﷺ، وهو متعلق بما بعده، وكأَن الكلام تمَّ في قوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾، ثم قال لمحمد ﷺ: ﴿سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

---

(١) وبهذا يكون قد جمع بين الرأيين الواردين في معنى الآية، والذين يعرفان من كلام المؤلف رحمه الله.
(٢) في الأصول: الضمير عائد على القرآن.

وقوله: ﴿سَٰمِرًا﴾ حالٌ، وهو مفرد بمعنى الجمع(١)، يقال: قومٌ سَمْرٌ وسُمَّرٌ وسَامِرٌ، ومعناه سَهَرُ الليل، مأخوذ من السَّمَر وهو ما يقع على الأشخاص(٢) من ضوء القمر، فكانت العرب تجلس للسَّمر تتحدث(٣)، وهذا أوجب معرفتها بالنجوم؛ لأنها تجلس في الصحراء فترى الطوالع مع الغوارب. وقرأ الجمهور: ﴿سَٰمِرًا﴾، وقرأ أبو رجاءٍ: [سُمَّاراً]، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة، وابن محيصن: [سُمَّراً](٤)، ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

مِـــنْ دُونِهِـــمْ إِنْ جِئْتَهُـــمْ سَمَـــراً ... عَــزْفُ الْقِيَــانِ وَمَجْلِــسٌ غَمْــرُ(٥)

وكانت قريش تسْمُر حول الكعبة مجالسُ في أَباطيلها وكفرها. وقرأ الجمهور: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بفتح التاءِ وضم الجيم، واختلف المتأولون في معناها ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناها: تَهْجُرون الحقَّ وذِكْرَ الله تعالى، من الهَجْر المعروف، وقال ابن زيد: هو من هَجَرَ المريضُ إذا هَذَى، أَي: تقولون اللَّغْوَ من القول، وقاله أَبو حاتم. وقرأ نافع وحده من السبعة: [تُهْجِرُونَ] بضم التاءِ وكسر الجيم، وهي قراءَة أَهل

(١) وهذا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: أطفالاً، وكقول العرب: الحَاضر، وهم القوم النازلون على الماء، والبَاقِرُ لجمع البقر، والجمال لجمع الإبل، للذكور والإناث.

(٢) نقل القرطبي كعادته كلام ابن عطية هنا ولم يشر إليه، وذكر كلمة «الأشجار» بدلاً من «الأشخاص».

(٣) كانت تجلس تتحدث حول الكعبة في ضوءِ القمر أو في سَمَره، فسُمِّيَ التَّحَدُّث سَمَراً.

(٤) أما قراءة أبي رجاءٍ ﴿سُمَّاراً﴾ فهي مثل كاتبٍ وكُتَّاب، وشارب وشُرَّاب، وأما قراءة ابن عباس وعكرمة رضي الله عنهم [سُمَّراً] فقد قرأ بها أيضاً عبد الله بن مسعود والسُّمَّر: جمع سامِرٍ، والسَّامِرُ: القوم يَسْمُرون، قال ذو الرُّمَّة:

وَكَـمْ عَـرَّسَـتْ بَعْدَ السُّرَى مِـنْ مُعَـرَّسٍ ... بِـهِ مِـنْ كَـلامِ الْجِـنِّ أَصْـوَاتُ سَـامِـرِ

يتحدث عن الناقة، والتَّعْرِيس: النزول آخر الليل للنوم والراحة.

(٥) البيت في اللسان (سمر) ـ ذكره مرتين، في المرة الأولى استشهد به على أنَّ السَّمَر هو حديث الليل، ورواه كما رواه ابن عطية هنا، ولم يَنْسبُه، ثم عاد وذكره مرة ثانية شاهداً على أن السَّمَر هو الليل، ونسبه إلى ابن أحمر، ولفظه:

مِـــنْ دُونِهِـــمْ إِنْ جِئْتَهُـــمْ سَمَـــراً ... حَـــيٌّ حِـــلالٌ لَمْلَـــمٌ عَكِـــرُ

فالسَّمِرُ هنا: الليل، والحيُّ الحِلالُ ـ بكسر الحاء ـ هم القوم النازلون على الماء أو نحوه، ولَمْلَمٌ: كثير مجتمع، والعَكِرُ: الكثير المتراكم بعضه فوق بعض أو المجتمع بعضه إلى بعض، أما المجلسُ الغَمْرُ ـ على رواية المؤلف ـ فهو الجماعة الكثيرة يجتمعون للحديث والسَّمر.

المدينة، وابن محيصن، وابن عباس أيضاً، ومعناه: تقولون الفُحْش والهُجْر من القول، وهذه إِشارة إِلى سبِّهم رسول الله ﷺ وأَصحابه، قاله ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً وغيره، وفي الحديث: «كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هُجْراً»[1]، وقرأ ابن محيصن، وأبو نهيك [تُهَجِّرُونَ] بضم التاءِ وفتح الهاءِ وشدِّ الجيم مكسورة، وهو تضعيف هَجَر وتكثير الهَجْر أَو الهُجْر على المعنيَيْن المتقدمين، وقال ابن جني: لو قيل إِن المعنى أَنكم تبالغون في المهاجرة حتى إِنكم وإِن كنتم سُمَّراً باللَّيل فكأَنكم تُهَجِّرون في الهَاجِرَةِ على غاية الافتضاح لكان وجهاً[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا تكون هذه القراءة تكثير «تُهْجِرُونَ» بضم التاءِ وكسر الجيم لأَن أَفعل لا يتعدى ولا يُكَثَّر بتضعيف؛ إِذ التضعيف والهمزة متعاقبان.

ثم وبخهم على إِعراضهم بعد تدبُّر القول لأَنهم ـ بعد التدبر والنظر الفاسد ـ قال بعضهم: شِعْرٌ، وقال بعضهم: سِحْرٌ، وسائر ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَآءَهُم﴾ كذلك توبيخ أيضاً، والمعنى: أَأَبْدَعَ لهم أَمراً لم يكن في الناس قبلهم؟بل قد جاءَ الرسلُ قَبْلُ كنوح وإِبراهيم وإِسماعيل عليهم السلام، وفي هذا التأْويل من التجوز أَن جعل سالف الأُمم آباءَ؛ إِذ الناس في الجملة آخرهم من أَولهم.

---

(١) أخرجه النسائي في الجنائز، ومالك في الموطأ في الضحايا، وأحمد في مسنده (٣/ ٦٣، ٦٦، ٢٣٧، ٢٥٠، ٥، ٣٦١)، ولفظه في مسند أحمد عن محمد بن عمرو بن ثابت عن أبيه، قال: مرَّ بي ابن عمر رضي الله عنهما فقلت: من أين أصبحت غادياً أبا عبد الرحمن؟ ـ وفي رواية أين تريد يا أبا عبد الرحمن؟ ـ قال: إلى أبي سعيد الخدري، فانطلقت معه، فقال أبو سعيد رضي الله عنه: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إني نهيتكم عن لحوم الأضاحي وادخاره بعد ثلاثة أيام، فكلوا وادَّخروا فقد جاء الله بالسَّعة، ونهيتكم عن أشياءَ من الأشربة والأنبذة، فاشربوا، وكلُّ مسكر حرام، ونهيتكم عن زيارة القبور، فإن زرتموها فلا تقولوا هُجْراً»، والحديث في لسان العرب (هجر)، وقد نقل بعد أن ذكر الحديث أن الكسائي والأصمعي قالا: الهُجْر: الإفحاش في المنطق والخَنَا، وهو بالضَّمِّ من الإهجار، ويقال منه: يُهْجِرُ.

(٢) ومن كلام ابن جني الذي ذكره لتوضيح رأيه: «فهذا كقولك لصاحبك: أنت مُساتراً مُعْلن، وأنت مُحْسناً مُسيءٌ، أي: أنت في حال مُسَاترتك مُعْلن، وأنت في حال إحسانك عندي مسيءٌ». وقياساً على ذلك يقال: أنت في حال سَمَرك ليلاً مُهَجِّر، أي كأنك تفعل الشيء الفاضح في وقت الهاجرة ولو كنت في سواد الليل لأنك مجاهر لا تحتشم.

ويحتمل اللفظ معنى آخر على أن يُراد بآبائهم الأولين مَن فرَطَ من سلفهم في العرب، كأنه قال: أفلم يَدَّبَّروا القول أم جاءَهم أمر غريب من عند الله لم يأْت آباءَهم فبهر عقولهم، ونَبَتْ عنه أذهانُهم، فكأن التوبيخ يتَّسق بأن يُقدَّر الكلام: أفلم يدَّبَّروا أم بُهرت عقولهم ونَبَت أذهانهم عن أمر من أُمور الله غريب في سلفهم؟ والمعنى الأول أبين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾.

هذا أيضاً توبيخ، والمعنى: ألم يعرفوه صادقاً مدة عمره ولم يقع قط منهم إنكار لمعرفة وجه محمد ﷺ، وإنما أنكروا صدقه.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ توبيخٌ أيضاً لأن الفرق بين الحكمة وفصل الخطاب الذي جاءَ به وبين ذي الجِنَّة لا يخفى على ذِي فِطْرة. ثم بيَّن تعالى حاله عليه الصلاة والسلام في مجيئه بالحق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾، قال ابن جريج وأَبو صالح: الحقُّ: الله تعالى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ليس من نَمَط الآية. وقال غيرهما: الحقُّ هنا: الصوابُ والمستقيم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الأحرى، على أن يكون المذكور قبْلُ[1] الذي جاءَ به محمد رسول الله ﷺ، ويستقيم ـ على هذا ـ فساد السموات والأَرض ومن فيهن لو كان بحكم هوى هؤلاء، وذلك أَنهم جعلوا لله شركاءَ وأَولاداً، ولو كان هذا حقّاً لم تكن لله تبارك وتعالى الصِّفاتُ العليَّة، ولو لم يَكُن له لم تكُن له تلك الصنعة ولا القدرة، وكان ذلك فساد السموات والأَرض ومن فيهن، ومن قال إن الحق في الآية الله تعالى تشَعَّبت له

(١) في قوله تعالى: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾.

لفظة ﴿اتَّبَعَ﴾ وصعُب عليه ترتيب الفساد المذكور في الآية؛ لأن لفظة الاتِّباع ـ على كلا الوجهين ـ إنما هي استعارة بمعنى أن تكون أهواؤُهم يصونها الحقُّ ويُقرِّرها، فنحن نجد الله تعالى قد قدَّرَ كُفْر أُمَم وأهواءَهم، فليس في ذلك فساد سموات، وأما الحق نفسه الذي هو الصواب فلو كان طبْق أهوائهم لفسد كلُّ شيءٍ، فتأَمَّلْهُ.

وقرأ ابن وثاب: [وَلَوُ اتبَعَ] بضم الواو، قال أبو الفتح: الضَّمُّ في هذه الواو قليل، والوجه تشبيهها بواو الجمع كقوله تعالى: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿بِذِكْرِهِمْ﴾ يحتمل أن يريد: بوَعْظِهِم والبيان لهم، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقرأ[2] قتادة: [نُذَكِّرُهُمْ] بنون مضمومة وذال مفتوحة وكسر الكاف مشددة[3]. ويحتمل أن يريد: بِشَرَفهم، وهو مروي. وقرأ عيسى بن عمر، وابن أبي إسحاق: [أَتَيْتُهُمْ بِذِكْرِهِمْ] بضم تاءِ المتكلم، وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً: [بَلْ أَتَيْتَهُمْ] خطاباً لمحمد ﷺ، وقرأ الجمهور: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أي جئناهم، ورُوي عن أبي عمرو ﴿آتَيْنَاهُم﴾ بالمدِّ، بمعنى أعطيناهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٧٢ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ۝٧٤ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥﴾.

هذا توبيخ لهم كأنه قال: أَم سألناهم مالاً فقلقوا لذلك واستثقلوك من أَجله؟

وقرأ حمزة والكسائي: [خَرَاجاً فَخَرَاجُ]. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿خَرْجًا فَخَرَاجُ﴾. وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: [خَرْجاً فَخَرْجُ]، وهو المال الذي يُجْبَى ويُؤْتَى به لأوقاف محدودة، قال الأصمعي: الخَرْجُ الجُعْل مرة واحدة، والخَرَاجُ ما تَرَدَّد لأوقات مَّا.

---

(١) من الآية (١٦) من سورة (البقرة). وذلك أنهم حركوا الواو بالضم لالتقاء الساكنين لأنها واو جمع، على أن بعضهم قد شبه واو الجمع في ﴿ٱشْتَرَوُا۟﴾ بواو ﴿لو اتبع﴾ هذه وحركها بالكسر فقرأ: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾. راجع المحتسب لابن جني.

(٢) في الأصل: وقال قتادة. وفي بعض النسخ سقطت الكلمة فليس فيها قال ولا قرأ.

(٣) أي مع الفعل ﴿أَتَيْنَٰهُم﴾ بمعنى جئناهم، وهي قراءة الجمهور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا فرق استعمالي، وإلاّ فهما في اللغة بمعنى، وقد قرئ [خَرَاجاً] في قصة ذي القرنين[١].

وقوله: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ يريد ثوابُه، سمَّاهُ خراجاً من حيث كان معادلاً للخراج في هذا الكلام، ويحتمل أن يريد بخراج ربك رِزْقَ ربك، ويؤيد هذا قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ﴾. و«الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ»: دين الإسلام. و﴿ناكبون﴾ معناه: عادلون ومعرضون.

ثم أَخبر الله تعالى عنهم أنهم لو زال عنهم القحط ومَنَّ الله عليهم بالخصب ورحمهم بذلك لبقوا على كفرهم ولَجُّوا في طغيانهم. وهذه الآية نزلت في المدة التي أَصابت فيها قريشاً السنون الجدبة والجوع الذي دعا به رسول الله ﷺ في قوله: «اللَّهُم سبعاً كسني يوسف...» الحديث[٢].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

هذا إِخبارٌ من الله عزَّ وجلَّ عن استكبارهم وطغيانهم بعدما نالهم من الجوع، هذا قول رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن جريج أَن «العذابَ» هو الجوع والجدب المشهور نزوله بهم حتى أَكلوا الجلود وما جرى مجراها، وأَن «الباب» المتوعد يومُ

---

(١) في قوله تعالى في الآية (٩٤) من سورة الكهف: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الدخان، ومسلم في المنافقين، وأحمد في منسده (١/ ٣٨٠، ٤٣١، ٤٤١)، وقد رواه البخاري من طرق عن مسروق، وفي الطريق الأول قال: دخلت على عبد الله فقال: إن من العلم أن تقول لما لا تعلم: الله أعلم، إن الله قال لنبيِّه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ إن قريشاً لما غلبوا النبي ﷺ واستعصوا عليه قال: اللهم أعنِّي عليهم بسبع كسبع يوسف، فأخذتهم سنةٌ أكلوا فيها العظام والميتة من الجَهْد حتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع، قالوا: ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون، فقيل له: إن كشفنا عنهم عادوا، فدعا ربَّه فكشف عنهم فعادوا فانتقم الله منهم يوم بدر، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ إلى قوله جلَّ ذكره: ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾.

بدر، وهذا القول يردُّه أَن الجدب الذي نالهم إِنما كان بعد وقعة بدر، ورُوي أنهم لما بلغهم الجهد جاءَ أَبو سفيان إِلى النبي ﷺ فقال: أَلست تزعم يا محمد أَنك بُعثت رحمة للعالمين؟ قال: بلى، قال: فقد قتلت الآباءَ بالسيف والأَبناءَ بالجوع، وقد أَكلنا العِلْهِز، فنزلت الآية[1]. و﴿ٱسْتَكَانُوا۟﴾ معناه: انخفضوا وتواضعوا، ويحتمل أَن يكون من السُّكون، ويلزمه أَن يكون «اسْتَكَنُوا»، ووجهه أَن فتحة الكاف مطلت فتولدت أَلف، ويعطي التصريف أَنه من «كان»، وأَن وزنه (اسْتَفْعَلَ)، وعلى الأَول وزنه (افْتَعَلَ)، وكونه من «كان» أَبْين، والمعنى: فما طلبوا أَن يكونوا لربهم أَهل طاعة، وعبيد خير. ورُوي عن الحسن رحمه الله أَنه قال: «إِذا أَصاب الناس من قِبَل الشيطان بلاءٌ فإِنما هي نعمة، فلا تستقبلوا نعمة الله بالحميَّة، ولكن استقبلوها بالاستغفار، واستكينوا وتضرعوا إِلى الله»، وقرأَ هذه الآية ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾.

و«ٱلْعَذَابُ ٱلشَّدِيدُ» إِمَّا يوم بدر بالسيوف كما قال بعضهم، وإِمَّا توعُّدٌ بعذاب غير معين، وهو الصواب لما ذكرناه من تقدم بدر للمجاعة، وروي عن مجاهد أَن العذاب والباب الشديد هو كله في مجاعة قريش.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا حَسَنٌ، كان «الأَخْذُ» في صدر الأَمر، ثم فتح الباب عند تناهيه حيث أَبْلَسوا وجاءَ أَبو سفيان.

و«الْمُبْلِسُ»: الذي قد نزل به شرٌّ ويئس من زواله ونسخه بخير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ

---

(١) أخرج ابن جرير، وأبو نعيم في المعرفة، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ثمامة بن أثال الحنفي لما أتى النبي ﷺ فأسلم وهو أسير فخلَّى سبيله لحق باليمامة فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العِلْهِز، فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: أليس تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ قال: بلى، قال: فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ هذا والعلهز هو الوَبَرُ بالدم.

مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا
هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

ابتدأ تعالى بتعديد نعم في نفس تعديدها استدلال بها على عظيم قدرته، وأنها لا يعزب عنها أمر البعث ولا يعظم.

و﴿أَنشَأَ﴾ بمعنى اخترع، و«السَّمْعُ» مصدر، فلذلك وُحِّد، وقيل: أراد الجنس، و﴿ٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾: القلوب، وهذه إشارة إلى النطق والعقل، وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره: شكراً قليلاً ما تشكرون، وذهبت فرقة إلى أنه أراد: قليلاً منكم من يشكر، أي من يؤمن ويشكر حق الشكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأول أظهر.

و﴿ذَرَأَ﴾ معناه: بثَّ وخلق، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيه حذف مضاف، أي: إلى حكمه وقضائه، و﴿تُحْشَرُونَ﴾ يريد آية البعث.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: له القدرة التي عنها ذلك. و«الاختلاف» هنا التعاقب والكون خلفة، ويحتمل أن يكون الذي هو المغايرة البيِّنة.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ﴾ إضرابٌ، والجَحْدُ قبله مقدر، كأنه قال: ليس لهم نظر في هذه الآيات، أو نحو هذا، و«الأَوَّلُونَ» يشير به إلى الأمم الكافرة كعاد وثمود، وقوله تعالى: ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي لَمُعادونَ أحياءً، وقولهم: ﴿وَءَابَآؤُنَا﴾ إنْ حكَى المقالة عن العرب فمرادهم من سلف من العالَم، جعلوهم آباءً من حيث النوع واحد، وإن حكَى ذلك عن الأولين فالأمر مستقيم فيهم. و«الأَسَاطِيرُ» قيل: هي جمع أُسطورة كأعجوبة وأعاجيب وأُحدوثة وأحاديث، وقيل: هي جمع جمع، يقال: سطْرٌ وأَسْطَارٌ وأساطير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ
مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ
بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ
فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

أَمر الله تعالى نبيه ﷺ بتوقيفهم على هذه الأَشياء التي لا يمكنهم إلا الإِقرار بها، ويلزم من الإِقرار بها أَن يؤمنوا بِبَارِئِهَا ويذعنوا لِشَرْعِه ورسالة رسوله.

وقرأَ الجميع في الأَول: ﴿لِلَّهِ﴾ بلا خلاف، واختلف في الثاني والثالث، فقرأَ أَبو عمرو: ﴿اللهُ﴾ جواباً على اللفظِ، وقرأَ باقي السبعة: ﴿لِلَّهِ﴾ جواباً على المعنى، كأَنه قال في السؤال: لِمَنْ ملك السموات السبع؟ إذ قولك: لمن هذه الدار؟ وقولك: من مالك هذه الدار؟ واحدٌ في المعنى(١).

ثم جعل التوبيخ مدرجاً بحسب وضوح الحجة شيئاً شيئاً، فوقف على الأَرض ومَنْ فيها وجعل بِإزاءِ ذلك التذكُّر، ثم وقف على السموات السبع والعرش وجعل بإزاء ذلك التقية وهي أَبلغ من التذكر، وهذا بحسب وضوح الحجة، وفي قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وعيد، ثم وقف على ملكوت كل شيء، وفي الإِقرار بهذا التزام ما تقع به الغلبة في الاحتجاج، فوقع التوبيخ بعده في غاية البلاغة بقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾. ومعنى ﴿أَنَّىٰ﴾: كيف؟ ومن أَين؟، وفي هذا تقرير سحرهم، وهو سؤال عن الهيئة التي سحروا بها، والسحر هنا مستعار لهم، وهو تشبيه لما وقع منهم من التخليط ووضع الأَفعال والأَقوال غير مواضعها بما يقع من المسحور، عبَّر عنهم بذلك. وقالت فرقة: ﴿تُسْحَرُونَ﴾ معناه: تمنعون، وحكى ذلك بعضُهم لغةً.

وقرأَ ابن محيصن: ﴿العظيمُ﴾ برفع الميم، و﴿مَلَكُوتُ﴾ مصدر في بنائه مبالغة(٢). و«الإِجارة»: المنع من الإِنسان، والمعنى أَن الله تبارك وتعالى إِذا منع أَحداً فلا يقدر عليه، وإِذا أَراد أَحداً فلا مانع له، وكذلك في سائر قدرته وما نفذ من قضائه، لا يُعارض ذلك شيءٌ ولا يحيله عن مجراه.

---

(١) لا خلاف في الأول بين القراء فهو: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لأن اللام تقدمت في قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ﴾ عند السؤال فجاءت في الجواب، واختلف القراءُ في الثاني والثالث حملاً على اللفظ أو على المعنى لأن السؤال خلا من اللام، فمن قرأ: ﴿اللهُ﴾ نظر إلى اللفظ، ومن قرأ ﴿لِلَّهِ﴾ نظر إلى المعنى، ومن هذا قول الشاعر:

إذا قِيـلَ مَـنْ رَبُّ الْمَـزَالِـفِ وَالْقُـرَى ... وَرَبُّ الْجِيَـادِ الْجُـرْدِ قُلْـتُ لِخَـالِـدِ

إذ التقدير: لِمَن المزالف؟ وهي القرى التي تقع بين البرو البحر.

(٢) وهو كالجَبَرُوت والرَّهبُوت.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

المعنى: ليس الأمر كما يقولون من نِسبتهم إلى الله تعالى ما لا يليق به، بل أتَيْناهُم. وقرأ ابن أبي إسحاق: ﴿أَتَيْتَهُمْ﴾ على الخطاب لمحمد ﷺ، و﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ يراد به: فيما ذكروا لله تعالى من الصاحبة والولد والشريك، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ دليل التمانع، وهذا هو الفساد الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1]، والخبر المُخترع محالٌ أن تتعلق به قدرتان فصاعداً، ولو اختلف إلهان في إدارة فمُحال نفوذهما ومحال عجزهما، فإذا انفردت إرادة الواحد فهو العالي والآخر ليس بإله، فإن قيل: نُقَدِّرهما[2] لا يختلفان في إرادةٍ قيل: ذلك يعرض فإذا جوَّزه الكفار قامت الحجة عليهم فإن ما التزم جوازه جارٍ[3] في الحُجَّة مجرى ما التزم وقوعه.

وقوله تعالى: ﴿إِذًا﴾ جواب لمحذوف تقديره: لو كان معه إله إذاً لذهب كلُّ إله. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿عَالِمِ الغَيْبِ﴾ بكسر الميم إتباعاً للمكتوبة[4] في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم: [عَالِم الغَيْبِ] بالرفع، والمعنى: هو عالم، قال الأخفش: الجَرُّ أَجْوَد ليكون الكلام من وجه واحد، وقال أبو علي: ووجه الرفع أن الكلام قد انقطع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والابتداءُ عندي[5] أَبرع.

---

(١) من الآية (٢٢) من سورة (الأنبياء).

(٢) في بعض النسخ: «فإن قيل: بِقُدْرتهما لا يختلفان».

(٣) في بعض النسخ: «يجري في الحُجَّة».

(٤) المكتوبة هي لفظ الجلالة «الله».

(٥) في بعض النسخ «عنده» أي عند أبي عليٍّ، واخترنا التي نقلها أبو حيان عن ابن عطية وهي التي تتفق مع سياق الكلام، وكذلك جاء في بضع النسخ: «والابتداءُ عندي أبدع» «بدلاً من أبرع».

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَىٰ﴾ عاطفة بالمعنى، كأنه قال: «عالم الغيب والشهادة فتعالى»، وهذا كما تقول: «زيد شجاعٌ فعظمت منزلته»، أي: شَجُع فعظمت، ويحتمل أَن يكون المعنى: فأَقول تعالى عما يشركون على إِخبار مؤتنف، و«الْغَيْبُ»: ما غاب عن الناس، و«الشَّهَادَةُ»: ما شهدوه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

أَمر الله تعالى نبيه ﷺ أَن يدعو لنفسه بالنجاة من عذاب الظَّلَمة إِن كان قضي أَن يرى ذلك، و﴿إِن﴾ شرطٌ و﴿مَآ﴾ زائدة، و﴿تُرِيَنِّي﴾ جزم بالشرط لزمته النون الثقيلة، وهي لا تفارق«إِمَّا» عند المبرد، ويجوز عند سيبويه أَن تفارقها فيقال: «إِمَّا تُرِيَنِي»، لكن استعمال القرآن لزومها فمن هنالك التزمه المبرد.

وهذا الدعاءُ فيه استصحاب الخشية والتحذير من الأَمر المُعَذَّب من أَجله[1]، ثم نظيره لسائر الأُمَّة دعاءٌ في جودة الخاتمة. وفي هذه الآية بجملتها إِعلامٌ بقرب العذاب منهم كما كان في يوم بدر. وقوله ثانياً: ﴿رَبِّ﴾ اعتراضٌ بين الشرط وجوابه.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ الآية... أَمْرٌ بالصفح ومكارم الأَخلاق، وما كان منها لهذا فهو محكم باق في الأُمة أَبداً[2]، وما فيها من معنى موادعة الكفار وتَرْك التعرض لهم والصفح عن أُمورهم منسوخٌ بالقتال؛ وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ يقتضي أَنها آية موادعة. وقال مجاهد: الدَّفع بالتي هي

---

(١) من المعلوم أن النبي ﷺ معصوم مما يكون سبباً لجعله مع القوم الظالمين، وكان صلوات الله وسلامه عليه يعلم ذلك، ويعلم أَن الله تعالى لا يجعله في القوم الظالمين إِذا نزل بهم العذاب، لكن الله تعالى أَمره بذلك إشهاراً للعبودية، وليزيد أجره، وليكون دائماً على ذكر لربِّه، ولهذا كان ﷺ كثير الاستغفار لربه.

(٢) نقل القرطبي معنى هذه الآية عن ابن عطية دون أن يشير إليه، وهذه الجملة عنده جاءَت في عبارة أوضح، نَصُّها: «فما كان منها لهذه الأُمة فيما بينهم فهو محكم باقٍ في الأمة أبداً»، ونعتقد أنها هي العبارة الصحيحة لابن عطية.

أَحسن هو السلام، تسلِّم عليه إِذا لقيته، وقال الحسن: والله لا يُصيبها أَحد حتى يكظم غيظه ويصفح عما يكره.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذان الطرفان(١)، وفي هذه الآية عِدَةٌ للنبي ﷺ، أَي: اشتغل أَنت بهذا وكِلْ تعذيبهم والنقمة منهم إِلينا، وأَمره بالتعوُّذ من الشيطان في همزاته، وهي سورات الغضب التي لا يملك الإِنسان فيها نفسه، وكأَنها هي التي كانت تصيب المؤمنين مع الكفار فتقع المُحَادَّة(٢)، فلذلك اتصلت بهذه الآية، وقال ابن زيد: هَمْزُ الشيطان: الجنون.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي مصنف أَبي داود أَن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إِني أَعوذ بك من الشيطان همزه ونفخه ونفثه»(٣)، قال أَبو داود: وهمْزةُ المُوتَة وهي الجنون(٤)، ونَفْخه الكِبر، ونَفْثُهُ السحر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والنَّزَعَاتُ وسوراتُ الغضب من الشيطان، وهي المُتَعَوَّذ منها في الآية، والتَّعوذ من الجنون أيضاً وكيد، وفي قراءَة أُبيِّ بن كعب: «ربِّ عائذاً بك من همزات الشياطين، وعائذاً بك ربِّ أَن يحضرون». وقوله: ﴿أَن يَحۡضُرُونِ﴾ معناه: أَن يكونوا معي في أُموري، فإِنهم إِذا حضروا الإِنسان كانوا معدين للهمز، فإِذا لم يكن حضورٌ فلا همز.

---

(١) لعل المقصود أنهما طرفا هذه المنزلة، فأدناها كظم الغيظ، وأعلاها الصفح عن المكروه.

(٢) الحدَّة: الغضب والغلظة في القول، والعنف في المجادلة والحوار، والمحادَّةُ: المخالفة والمعاداة والمنازعة، وهي مفاعلة من الحَدِّ، كأن كل واحد منهما يجاوز حده إلى الآخر. (لسان العرب).

(٣) والحديث أيضاً في مسند الإمام أحمد، (٣/ ٥٠، ٥/ ٢٥٣)، ولفظه فيه عن أبي أُمامة الباهلي: كان نبي الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة كبَّر ثلاث مرات، ثم قال: لا إله إلا الله ثلاث مرات، وسبحان الله وبحمده ثلاث مرات، ثم قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه.

(٤) ذكر في اللسان (همز) الحديث كما سبق ثم زاد عليه: «قيل: يا رسول الله، ما هَمْزُه ونَفْثُه ونَفْخُه؟ قال: أمَّا هَمْزُه فالمُوتَةُ، وأمَّا نَفْثُه فالشعرُ، وأمَّا نَفْخُه فالكِبْرُ»، وساق هذا على أنه جزءٌ من الحديث، والتفسير للنبي ﷺ، ثم حكى بعد ذلك عن أبي عبيدة أن المُوتَةَ هي الجنون. وفي كتاب «النهاية في غريب الحديث والأثر» «الهَمْزُ: المُوتَةُ، الهَمْزُ: النَّخْسُ والغَمْزُ، وكل شيء دفعتَه فقد همزته، والمُوتَةُ: الجنون، والهَمْزُ أيضاً: الغِيبَةُ والوقيعة في الناس وذكر عيوبهم».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَصل الهمزِ الدفعُ والوخز بيدٍ وغيرها، ومنه هَمْز الخيل وهمز الناس باللسان، وقيل لبعض العرب: أَتهمز الفارةَ؟ سُئل بذلك عن اللفظة فظن أَن المراد شخص الفأرة فقال: الهِرُّ يهمزها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في هذا الموضع ابتداءٌ، ويحتمل أَن تكون غاية مجردة بتقدير كلامٍ محذوف، والأَول أَبْيَن لأَن ما بعدها هو المعنيُّ به المقصودُ ذِكْرُه[1]. والضمير في ﴿أَحَدَهُمُ﴾ للكفار، وقوله: ﴿ٱرْجِعُونِ﴾ معناه: إِلى الحياة الدنيا. وجَمْعُ الضمير يتخرج على معنيين: إِمَّا أَن يخاطبه مخاطبة الجمع تعظيماً، على نحو إِخباره تعالى عن نفسه بنون الجماعة في غير موضع، وإِمَّا أَن تكون استغاثته بربِّه أَوَّلاً ثم خاطب ملائكة العذاب بقوله: ﴿ٱرْجِعُونِ﴾. وقال الضحاك: هي في المشرك، وقال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «إِذا عاين المؤمن قالت له الملائكة: نُرجِعك؟ فيقول: إِلى دار الهموم والأَحزان؟ بل قدما إِلى الله تعالى، وأَما الكافر فيقول: (ارجعون لعليَّ أَعمل صالحاً)[2]. وقرأَ الحسن والجمهور: ﴿لَعَلِّىٓ﴾ بسكون الياء، وقرأَ طلحة بن مصرِّف:

---

(١) نقل أبو حيان الأندلسي هذا الكلام عن ابن عطية، ثم علَّق عليه بقوله: «توهم ابن عطية أن (حتَّى) إذا كانت حرف ابتداءٍ لا تكون غاية، وهي إذا كانت حرف ابتداء لا تفارقها الغاية، ولم يبين الكلام المحذوف، والذي يظهر لي أن قبلها جملة محذوفة تكون (حتى) غاية لها، يدل عليها ما قبلها، والتقدير: فلا أكون كالكفار الذين تهمزهم الشياطين ويحضرونهم، حتى إذا جاء أحدهم الموت، ونظير حذف هذه الجملة قول الشاعر:

فيا عَجَباً حتَّى كُلَيْبٌ تَسُبُّني

أي: يَسُبُّني الناسُ حتى كليب، فدلَّ ما بعد حتَّى على الجملة المحذوفة، وفي الآية دلَّ ما قبلها عليها».

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج، ذكر ذلك في «الدر المنثور»، وفيه: «قال: زعموا أن النبي ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها... الخ الحديث»، وليس في ابن جرير الطبري كلمة (زعموا) هذه.

[لَعَلِّيَ] بفتح الياء، و﴿ كَلَّآ ﴾ كلمة زجر وهي من كلام الله تعالى.

وقوله: ﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ يحتمل ثلاثة معان: أَحدها: الإِخبار المؤكد بأَن هذا الشَّيْءَ يقع ويقول هذه الكلمة، والآخر: أَن يكون المعنى: إِنها كلمة لا تغني أَكثر من أَن يقولها، ولا نفع له فيها ولا غوث، والثالث: أَن تكون إِشارةً إِلى أَنه لو رُدَّ لعادَ، فتكون آية ذمٍّ لهم. والضمير في [ورائهم] للكفار، أَي يأْتي بعد موتهم حاجزٌ من المُدَّة، و«البَرْزَخُ» في كلام العرب: الحاجز بين المسافتين، ثم يستعار لما عدا ذلك، فهو هنا للمُدَّة التي بين موت الإِنسان وبين بَعْثه، هذا إِجماعٌ من المفسرين. و﴿ يَوْمِ ﴾ مضاف إِلى ﴿ يُبْعَثُونَ ﴾[1].

وقرأَ الجمهور: ﴿ فِى ٱلصُّورِ ﴾ وهو القَرْن، وقرأَ ابن عياض[2]: [فِي ٱلصُّوَرِ] بفتح الواو جمع صورة، وقوله تعالى: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾، اختلف المتأَولون في صفة ارتفاع الأَنساب ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: هذا عند النفخة الأُولى، وذلك أَن الناس بأَجمعهم يموتون فلا يكون بينهم نسب في ذلك الوقت وهم أَموات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التأْويل يزيل ما في الآية من ذكر هول الحشر.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره: إِنما المعنى أَنه عند النفخة الثانية وقيام الناس من القبور فهم حينئذ لهول المطلع قد اشتغل كل امرىء بنفسه، قد انقطعت بينهم الوسائل وزال انتفاع الأَنساب، فلذلك نفاها، فالمعنى: فلا أَنساب نافِعَة، وروي عن قتادة أَنه ليس أَحد أَبغض إِلى الإِنسان في ذلك اليوم ممن يعرف، لأَنه يخاف أَن يكون عنده مظلمة، وفي ذلك اليوم يفر المرءُ من أَخيه وأُمه وأَبيه وصاحبته وبنيه، ويفرح كل أَحد يومئذ أَن يكون له حق على ابنه وأَبيه، وقد ورد بهذا حديث. وكذلك ارتفاع التساؤل لهذه الوجوه التي ذكرناها، ثم يأْتي في القيامة مواطن يكون فيها السؤال والتعارف.

---

(١) في الأصول وردت هذه الجملة «و﴿ يَوْمِ ﴾ مضاف إلى ﴿ يُبْعَثُونَ ﴾» بعد قول المؤلف: «وقرأ ابن عياض ﴿ ٱلصُّورِ ﴾ بفتح الواو جمع صورة»، وقدمناها هنا لتكون في الموضع المناسب من الآية التي ذكرت فيها.

(٢) في بعض النسخ: «وقرأ ابن عياض»، وفي نسخة أخرى: «وقرأ ابن عباس»، وفي نسخة ثالثة: «وقرأ ابن عامر»، والذي في البحر المحيط: «وقرأ ابن عباس، والحسن، وابن عياض».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل حسن، وهو مروي المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وثقل الموازين هو بالحسنات، والثقل والخفة إنما يتعاقبان بأجرام يخترع الله تعالى فيها ذلك، وهي فيما روي براءات[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾.

جمع «الموازين» من حيث المَوْزون جمع وهي الأعمال، ومعنى الوزن: إقامةُ الحجة على الناس بالمحسوس على عادتهم وعرفهم، ووزن الكافر على أحد وجهين: إما أن يوضع كُفره في كفَّة فلا يجد شيئاً يعادله به في الكفَّة الأُخرى، وإما أن توضع أعماله من صلة رحم ووجْه بِرٍّ في كفَّة الحسنات ثم يوضع كُفره في الكِفَّة الأُخرى فتخف أعماله.

و«لَفْحُ النار»: إصابتها بالوهج والإحراق، وقرأ أبو حيوة: [كَلِحُونَ] بغير ألف، و«الكَلْحُ»: انكشاف الشفتين عن الأسنان، وهذا يعتري الإنسان عند المباطشة عند الغضب، ويعتري الرؤوس عند النار، وقد شبَّه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ما في هذه الآية بما يعتري رؤوس الكباش إذا شيطت بالنار فإنها تكْلَح[2]، ومنها كُلُوح الكلب والأَسد، ويستعار للزمان والخطوب.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ قبله محذوف تقديره: يقال لهم،

---

(١) راجع تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ في المجلد الثالث ص ٥١٥.

(٢) أخرج الإمام أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن أبي الدنيا في صفة النار، وأبو يُعْلَى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ قال: تشويه النار فَتَقْلِصُ شفته العُلْيا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى سُرَّته.

و«الآياتُ» هنا: القرآن، وأَخبر عنهم تعالى أَنهم إذا سمعوا هذا التقرير أَذعنوا، وأَقروا على أَنفسهم، وسلموا بقولهم: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾. وقرأَ جمهور الناس: [شِقْوَتُنَا] بكسر الشين دون أَلف، وهي قراءَة الحرميَّيْن، وقرأَ حمزة والكسائي: ﴿شَقَاوَتُنَا﴾ بفتح الشين وأَلف بعد القاف، وهي قراءَة ابن مسعود، وخيَّر عاصم في الوجهين، وهما مصدران من شَقِيَ يَشْقَى[1]، ثم تدرجوا من الإِقرار إِلى الرغبة والتضرع، وذلك أَنهم ذلُّوا؛ لأَن الإِقرار بالذنب اعتذار وتنصُّل، فوقع جواب رغبتهم بحسب ما حَتَم الله تعالى من عذابهم بقوله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، وجاء ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ بلفظ نهي وهم لا يستطيعون الكلام على ما رُوي، فهذه مبالغة في المنع، ويقال: إِن هذه الكلمة إِذا سمعوها يئسوا.

وحكى الطبري حديثاً طويلاً في مقاولة تكون بين الكفار وبين مالك خازن النار، ثم بينهم وبين ربهم، وآخرها هذه الكلمة «اخْسَئُوا فيها»، قال: فتنطبق عليهم جهنم، ويقع اليأسُ، ويبقون يَنْبَح بعضهم في وجه بعض[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واختصرت ذلك الحديث لعدم صحته، لكن معناه صحيح، عافانا الله من ناره بِمنِّه.

وقوله تعالى: ﴿اخْسَئُوا﴾ زجرٌ، وهو مستعمل في زجر الكلاب، ومنه قول النبي ﷺ لابن صياد: (اخْسأْ فلن تعدو قَدْرَك)[3].

---

(١) يقال: شَقِيَ يَشْقَى شَقاً وشَقاءً وشَقَاوةً وشَقْوةً وشِقْوَةً، فهذه كلها مصادر للفعل شَقِي. قال الفراءُ: إِن (شِقْوَة) كثيرة في كلام العرب، وأَنشد أَبو ثَرْوان:

كُلِّفَ مِنْ عَنَائِهِ وشِقْوَتِهْ ... بِنْتَ ثَمَانِي عَشْرَةٍ مِنْ حَجَّتِهْ

(٢) الحديث أَيضاً في «الدر المنثور»، وقد ذكر من رواته غير ابن جرير الطبري، الترمذي، وابن أَبي شيبة، وابن المنذر، وابن أَبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في البعث. وهو عن أَبي الدرداء رضي الله عنه.

(٣) أَخرجه البخاري في الجنائز والجهاد والقدر والأَدب، ومسلم والترمذي في الفتن، وأَبو داود في الملاحم، والدارمي في المقدمة، وأَحمد في المسند (١/ ٣٨٠)، ولفظه كما في مسند أَحمد عن عبد الله قال: كنا نمشي مع النبي ﷺ، فمرَّ بابن صياد، فقال: إِني قد خبأْتُ لك خبأً، قال ابن صياد: دُخٌ، قال: فقال رسول الله ﷺ: «اخسأْ فلن تعدو قدرك»، فقال عمر: يا رسول الله دعني أَضرب عنقه، قال: لا، إِن يكن الذي نخاف فلن تستطيع قتله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قرأ هارون: [أَنَّهُ كَانَ] بفتح الألف، وهي قراءة أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه، ورُوي أَنَّ في مصحف أُبي بن كعب «أَنْ كان»، وهذا كله متعاضد، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: [وَلاَ تُكَلِّمُونِ كَانَ فَرِيقٌ] بغير «إنه»، وهذه تعضد كسر الألف من ﴿إِنَّه﴾ لأنها استئناف، وهذه الهاءُ مبهمة ضمير الأمر، والكوفيون يُسَمُّونَهَا المجهولة، وهي عبارة فاسدة. وهذه الآية كلها ممَّا يقال للكفرة على جهة التوبيخ.

والفريق المشار إليه كلُّ مستضعف من المؤمنين يتفق أَن يكون حاله مع كفار مثل هذه الحال، ونزلت الآية في كفَّار قريش مع صهيب وعمَّار وبلال رضي الله عنهم ونظرائهم، ثم هي عامة فيمن جرى مجراهم قديماً وبقية الدهر.

وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي: [سُخْرِيّاً] بضم السين، وقرأ الباقون: ﴿سِخْرِيًّا﴾ بكسرها، قالت طائفة هما بمعنى واحد، ذكر ذلك الطبري، وقال أَبو زيد الأَنصاري: إنهما بمعنى الهزءِ، وقال أَبو عبيدة وغيره: إن ضم السين من السخرة والتخديم، وكسر السين من السخر وهو الاستهزاءُ، ومنه قول الأَعشى:

إِنِّـي أَتَـانِـي حَـدِيـثٌ لا أُسَـرُّ بِـهِ ... مِنْ عَلْوَ لاَ كَذِبٌ فِيهِ وَلاَ سَخَرُ[1]

---

(١) البيت لأَعشى باهلة، عامر بن الحارث بن رباح، وهو مطلع قصيدة يرثي بها أخاه المنتشر، وهي من المراثي المعدودات، والبيت في اللسان (لَسَنَ)، وقد استشهد به على أن (اللسان) بمعنى الرسالة والمقالة، إذ االرواية فيه: (إِنِّي أُتتني لِسَانٌ لا أُسَرُّ بها)، ولهذا أنث الشاعر الفعل فقال: (أَتَتْنِي)، كما استشهد به صاحب اللسان في (سخر) على أن السُّخْر والسَّخَر بمعنى الهُزْءِ، وقال إنه يروى بضم السين وسكون الخاء، ويروى بفتحهما، والقصيدة كاملة في الأصمعيات، والبيت فيها مختلف كثيراً، عن هذه الروايات التي ذكرناها، فهو:

قَـدْ جَـاءَ مِـنْ عَـلُ أَنْبَـاءٌ أُنَبَّـؤُهَـا ... إِلَـيَّ لا عَجَـبٌ منهـا ولا سَخَـرُ

وضبط المحقق كلمة (سَخَر) بفتح السين والخاء وبضمهما معاً، والقصيدة في «جمهرة أشعار العرب»، وفي «مختارات ابن الشَّجري»، وفي «أمالي الشريف المرتضي»، وفي «خزانة الأدب»، مع الاختلاف في بعض الألفاظ، وفي عدد الأبيات.

قال أَبو علي: قراءَة كسر السين أَوجه لأَنه بمعنى الاستهزاء والكسر فيه أَكثر، وهو أَليق بالآية، أَلا ترى إِلى قوله تعالى: ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

أَلا ترى إِلى إجماع القراءِ على ضم السين في قوله تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾(١) لما تخلَّص الأَمر للتخديم، قال يونس: إِذا أُريد التخديم فهو بضم السِّين لا غير، وإِذا أُريد الهُزْءُ فهو بالضم والكسر. وقرأَ أَصحابُ عبد الله، والأَعرجُ، وابن أَبي إِسحاق كلَّ ما في القرآن بضم السين، وقرأَ الحسن، وأَبو عمرو كلَّ ما في القرآن بالكسر إِلاَّ التي في الزخرف فإِنهما ضما السين كما فعل الناسُ لأَنها من التخديم، وأَضاف الإِنساء إِلى الفريق من حيث كان بسببهم، والمعنى أَن اشتغالهم بالهزءِ بهؤلاءِ أَنساهم ما ينفعهم.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بفتح الأَلف، فـ﴿جَزَيْتُهُمُ﴾ عامل في ﴿أَنَّ﴾، ويجوز أَن يعمل في مفعول محذوف، ويكون التقدير: لأَنهم. وقرأَ حمزة، والكسائي، وخارجة عن نافع: [إِنهم هم الفائزون] بكسر الأَلف، فالمفعول الثاني لـ﴿جزيت﴾ مقدر، تقديره: الجنَّة والرضوان. و﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾: المُنْتهون إِلى غايتهم التي كانت أَملهم. ومعنى الفوز: النجاة من هلكة إِلى نعمة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾.

قرأَ نافع، وعاصم، وأَبو عمر، وابن عامر: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾، و﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ﴾، وروى البَزِّي(٢) عن ابن كثير (قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ) على الخبر، وأَدغم أَبو عمرو، وحمزة،

---

(١) في الآية (٣٢)، وفيها يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

(٢) هو أحمد بن محمد بن عبد الله البَزِّي، أبو الحسن، من كبار القراء، من أهل مكة، وتوفي بها، قال ابن الجزري عنه: هو أستاذٌ محقق ضابط متقن، وعرَّفه ابن الأثير في «اللباب» بصاحب قراءة ابن كثير، =

والكسائي التَّاءَ، والباقون لا يدغمونها، فمعنى الأول: الإخبارُ بأَن الله يوفقهم للسؤال عن المدة ثم يعلمهم آخراً بلبثهم قليلاً، ومعنى الثانية: الأمر لواحد منهم مُشَارٌ إليه، بمعنى: يقال لأحدهم قل كذا، فإذا قال غير القويم قيل له: قل: إن لَبثتم، ومعنى رواية البزي: التوقيفُ ثم الإخبارُ، وفي المصاحف ﴿قَالَ﴾ فيهما، إلا في مصحف الكوفة فإن فيه [قُلْ] بغير أَلف.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، قال الطبري: معناه: في الدنيا أَحياءً، وعن هذا وقع السؤال، ونسوا لفرط هول العذاب حتى قالوا: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والغرض من هذا توقيفهم على أَن أَعمارهم قصيرة، أَدَّاهم الكفر فيها إلى عذاب طويل.

وقال جمهور المتأَولين: في جوف التراب أَمواتاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الأَصوب من حيث أَنكروا البعث وكان قولهم: إنهم لا يقومون من التراب، قيل لهم لمَّا قاموا: كم لبثتم؟ وقوله آخراً: ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ يقتضي ما قلناه.

و﴿عَدَدَ﴾ نصب بـ﴿كَمْ﴾ على التمييز. وقرأَ الأَعمش: [عَدَداً سِنِينَ] بتنوين [عدداً].

وقال مجاهد: أَرادوا بـ﴿ٱلْعَآدِّينَ﴾ الملائكة، وقال قتادة: أَرادوا أَهل الحساب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وظاهر اللفظة أَنهم أَرادوا من يتصف بهذه الصفة ولم يعيِّنوا ملائكة ولا غيرها؛ لأَن النائم والميت لا يعد الحركة فيقدِّر له الزمان.

وقوله تعالى: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ مقصده ـ على القول بأَن المكث في الدنيا ـ أَي قليل القدر في جنب ما تُعَذَّبُونَ، وعلى القول بأَن المكث في القبور معناه أَنه قليلٌ،

= وكان ضعيفاً في الحديث. «اللباب، وغاية النهاية، والأعلام».

إذْ كُلُّ آتٍ قريبٌ، ولكنكم كذبتم به إذ كنتم لا تعلمون؛ إذ لم ترغبوا في العلم والهدى.

و﴿عَبَثًا﴾ معناه: باطلاً لغير غاية مُراده. وقرأ الجمهور: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بضم التاءِ وفتح الجيم، وقرأ حمزة والكسائي: [تَرْجِعُونَ] بفتح التاءِ وكسر الجيم، والمعنى فيهما بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

المعنى: فتعالى الله عن مقالتهم في جهته من الصاحبة والولد، ومن حسابهم أنهم لا يرجعون، أَي: تَنَزَّه الله عن تلك الأُمور وتعالى عنها. وقرأ ابن محيصن: [ٱلْكَرِيمُ] بالرفع صفةً للرَّبِّ.

ثم توَّعد جلَّت قدرته عَبَدَةَ الأَوثان بقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية، والوعيد قولُه: ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾.

و«ٱلْبُرْهَانُ»: الحُجَّة، وظاهر الكلام أَن ﴿مَن﴾ شرط، وجوابه في قوله: ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾، وقوله: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ في موضع الصفة. وذهب قومٌ إِلى أَن الجواب في قوله: ﴿لَا بُرْهَٰنَ﴾، وهذا هروب من دليل الخِطَاب من أَن يكونَ ثمَّ داع له بُرهان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تحفُّظ مما لا يلزم، ويلحقه حذف الفاءِ من جواب الشرط وهو غير فصيح، قاله سيبويه. وفي حرف عبد الله: [عِنْدَ رَبِّكَ]، وفي حرف أُبيٍّ: [عند الله]، ورُوي أَن فيه «عَلَى الله». ثم حتم وأَكَّد أَن الكافر لا يبلغ أُمنيته ولا ينجح سعيُه. وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ﴾ بكسر الأَلف، وقرأ الحسن وقتادة: [أَنَّهُ لا يُفْلِحُ] بفتحها، والمعنى أَنه إِذْ لا يَتَذَكَّر ولا يفلح يؤخر حسابه وعذابه حتى يلقى ربَّه. وقرأ الحسن: [يَفْلَحُ] بفتح الياءِ واللام[1].

(١) يقول بعض العلماء: «افتتح الله السورة بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وأورد في ختامها قوله: ﴿إِنَّهُۥ=

ثم أَمر رسول الله ﷺ بالدعاءِ في المغفرة والرحمة والذِّكر له تعالى بأَنه خير الرَّاحمين؛ لأَن كلَّ راحم فمتصرفٌ على إِرادة الله تعالى وتوفيقه وتقديره لمقدار هذه الرحمة. ورحمته تعالى لا مشاركة لأَحدٍ فيها، وأيضاً فرحمة كلِّ راحم في أَشياءَ وبأَشياءَ حقيرات بالإضافة إلى المعاني التي تقع في رحمة الله تبارك وتعالى من الاستنقاذ من النار، وهيئة نعيم الجنة، وعلى ما في الحديث فرحمة كل راحم مجموعها كلها جزءٌ من مائة من رحمة الله تعالى جلَّت قدرته؛ إِذْ بثَّ في العالَم واحدة وأَمسك عنده تسعاً وتسعين[1].

وقرأَ ابن محيصن: [وَقُلْ رَبُّ ٱغْفِرْ] بضم الباءِ من [رَبُّ][2].

تمَّ تفسير سورة المؤمنون والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

= ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، فانظر تفاوت ما بين الافتتاح والاختتام».

(١) يشير إلى حديث شريف أخرجه البخاري في التوبة والرقاق، ومسلم في التوبة، والترمذي في الدعوات، وابن ماجه في الزهد، والدارمي في الرقاق، وأحمد في مسنده (٢/ ٤٣٣، ٥١٤ـ٣ـ٥٥، ٥٦ـ٥ـ٤٣٩)، وهو في البخاري عن أبي هريرة، ولفظه فيه أنه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم يَيأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكلِّ الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار».

(٢) أسند الثعلبيُّ من حديث ابن لَهِيْعَة، عن عبد الله بن هبيرة، عن حنش بن عبد الله الصنَّعاني، عن عبد الله بن مسعود أنه مرَّ بمصاب مُبْتَلًى فقرأَ في أُذنه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا﴾ حتى ختم السورة فبرىء، فقال رسول الله ﷺ: «ماذا قرأتَ في أذنه»؟ فأخبره، فقال: «والذي نفسي بيده لو أن رجلاً موقناً قرأَها على جبل لزال».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة النور

هذه السُّورة كلها مدنية(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾.

قرأ الجمهور: ﴿سُورَةٌ﴾ بالرفع، وقرأ عيسى بن عمر، ومجاهد: [سُورَةً] بالنصب، ورُوي ذلك أيضاً عن عمر بن عبد العزيز، وعن أُمِّ الدرداءِ(٢)، فوَجْه الرفع أنه خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: هذه سورة، أو ابتداءٌ وخبره مفهوم تقديره: فيما يُتلى عليكم، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿سُورَةٌ﴾ ابتداءٌ، وما بعدها صفةٌ لها أخرجتها عن حدِّ النكرة المحضة، فحسُن الابتداءُ لذلك، ويكون الخبر في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ وفيما بعد ذلك، والمعنى: السورةُ المُنزَّلَةُ المفروضة كذا وكذا؛ إذ السورة عبارة عن آيات مسرودة لها بدءٌ وخَتْمٌ، ولكن يلحق هذا القول أن كون الابتداءِ هو الخبر ليس بالبيِّن إلاَّ أن يُقدَّر الخبر في السُّورة بأَسْرِها، وهذا بعيد في القياس(٣).

---

(١) بلا خلاف بين العلماء، وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما، والزُّبَيْر أنهما قالا: «أُنزلت سورة النور بالمدينة».

(٢) في بعض النسخ: «وعن أبي الدرداء»، وأبو الدرداء اسمه عُوَيْمَر بن زيد بن قيس الأنصاري، مشهور بكنيته، وقيل: اسمه عامر، وعويمر لقب، وهو صحابي جليل، كان عابداً، مات في آخر خلافة عثمان رضي الله عنه، أمَّا أُم الدرداء فهي زَوْجُه، واسمها هُجَيْمَة، وقيل: جُهَيْمَة الأوصابية الدمشقية، قال عنها الحافظ العسقلاني: «ثقة، فقيهة، ماتت سنة إحدى وثمانين».

(٣) نقل أبو حيان في «البحر المحيط» هذه الفقرة عن ابن عطية مع اختلاف في بعض الألفاظ عمَّا هنا؛ إذ جاء فيه «إلاَّ أن يكون المبتدأُ ليس بالبيِّن أنه الخبر، إلا أن يقدر الخبر في السورة كلها»، ومعنى هذا أن قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ وهو مبتدأ ومعطوف عليه ليس بالبيِّن أنه خبر عن المبتدأ الأول وهو قوله=

ووَجْه النصب إضمار فعل قدَّره بعضهم: اتْلُ سورةً، أَو نحوه، وجعله بعضهم: أَنزلنا سورةً أَنزلناها[(١)]، وقال الفراءُ: هي حالٌ من الهاء والأَلف، والحال من المكنى يجوز أَن تتقدم عليه[(٢)].

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ بتخفيف الراء، ومعناه الإثبات والإيجاب بأَبلغ وجوهه، إذ هو مشبَّه بالفرض في الإلزام. وقرأ مجاهد وغيره، وأبو عمرو، وابن كثير، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وابن مسعود رضي الله عنه: [وَفَرَّضْنَاهَا] بشدِّ الرَّاءِ، ومعناه: جعلناها فرائض، فمن حيث تردَّد ذلك ضُعِّف الفعل للمبالغة والتكثير[(٣)]. وقرأ الأعمش: [وَفَرَضْنَاهَا لَكُمْ]، وحكى الزهراوي عن بعض العلماء أَنه قال: كلُّ ما في السُّورة من أَمر ونهْي فرض.

و«الآيَاتُ البيِّنَاتُ»: أَمثالُها ومواعظها وأَحكامها، وقال الزهراوي: المعنى: ليس فيها مشكل، تأْويلها موافق لظاهرها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تحكُّم.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أَي على توقُّع البشر ورجائهم.

وقرأ جمهور الناس: ﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾ بالرفع، وقرأ عيسى الثقفي: [ٱلزَّانِيَةَ] بالنصب، وهو أَوجه عند سيبويه لأَنه عنده كقولك: زيداً اضرب. ووجه الرفع عنده أَنه أَخبر ابتداءٍ

= تعالى: ﴿سُورَةٌ﴾، لكن لو قدَّرنَا أن الخبر في السورة كلها لأصبح الأمر بيِّناً واضحاً. وقد جاء في كثير من النسخ زيادة عما هنا قوله: وقول الشاعر: «فارسٌ مَّا تركوه» فقد جاز الابتداء بالنكرة هنا لأنها وصفت بصفة أخرجتها عن حدِّ النكرة المحضة وجاء الخبر بعد ذلك، فأي تخصيص للنكرة يجعلها صالحة للابتداء.

(١) فيكون من باب اشتغال الفعل عن الفاعل بضميره، ولا محلَّ هنا لجملة ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾ لأنها جملةٌ مفسِّرةٌ، بخلاف الوجه الأول فإن ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾ في محلٍّ نصب على أنها صفة لقوله سبحانه: ﴿سُورَةٌ﴾، ولكن يترتب على القول بالاشتغال الابتداءُ بالنكرة من غير مُسَوِّغ، إلا إذا قدرنا لها صفة بحيث يكون التقدير: سورةٌ عظيمة.

(٢) وقيل: إنها منصوبة على الإغراء، أي: «دُونك سورة»، قال ذلك الزمخشري في الكشاف، وقد ردَّه أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط» وقال: إنه لا يجوز حذف أداة الإغراء.

(٣) وقد يكون التضعيف لبيان أن الله أنزلها قطعاً قطعاً أو نُجُماً نُجُماً، لأن الفرض هو القطع. قال ذلك القرطبي.

تقديره: فيما يُتلى عليكم الزانية والزاني، وأَجمع الناس على الرفع وإن كان القياس عند سيبويه النصب. وأَما الفرَّاءُ والمُبرِّد والزَّجاج فإن الرفع عندهم هو الأَوجه، والخبر في قوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوا﴾؛ لأَن المعنى: إِن الزانية والزاني مجلودان بحكم الله تبارك وتعالى، وهذا قول جيد. وهو قول أَكثر النحاة، وإِن شئتَ قدرتَ الخبر: ينبغي أَن يُجلدوا. وقرأَ ابن مسعود: [وَالزَّانِ] بغير ياءٍ، وقُدِّمت الزانية في اللفظ من حيث كان في ذلك الزمن زنى النساءِ أَفْشَى[١]، وكان لإماءِ العرب وبغايا الوقت رايات، وكنَّ مجاهرات بذلك، والعارُ بالنساء أَلْحَق إذ موضوعهن الحجب[٢] والصيانة، فقدم ذكرهن تغليظاً واهتماماً. والأَلف واللام في قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ للجنس، وذلك يُعطي أَنها عامة في جميع الزناة، وهذه الآية باتِّفاقٍ ناسخةٌ لآية الحبس وآية الأَذى اللتين في سورة النساء[٣]. وجماعة من العلماءِ على عموم هذه الآية، وأَن حكم المحصنين منسوخ منها، واختلفوا في الناسخ، فقالت فرقة: النَّاسخُ السُّنَّة المتواترة في الرَّجْم، وقالت فرقة: بل القرآن الذي ارتفع لفظه وبقي حكمه، وهو الذي قرأَه عُمر رضي الله تعالى عنه على المنبر بمحضر الصحابة رضي الله عنهم «الشَّيْخُ والشَّيْخَةُ إِذا زنَيَا فَارْجُمُوهُمَا البَتَّة» وقال: إِنَّا قرأْناهُ في كتاب الله تعالى[٤]، واتَّفق الجميع على أَن لفظهُ

---

(١) نقل القرطبي كلام ابن عطية هنا دون أن يشير إليه، وجاءت هذه الكلمة في نقله: «كان في ذلك الزمن زنى النساء فاشياً».

(٢) في الأصول: «إذ موضوعهن الحجبة».

(٣) أما آية الحبس فهي في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥]، وأما آية الأذى فهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

(٤) في صحيح مسلم عن عُبَيْد الله بن عبد الله بن عُتبة أنه سمع عبد الله بن عباس يقول: قال عمر بن الخطاب وهو جالسٌ على منبر رسول الله ﷺ: «إن الله قد بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم، قرأناها ووعَيْناها وعقلناها، فرجَمَ رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمانٌ أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرَّجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البيِّنة أو كان الحَبَل أو الاعتراف»، وليس في هذا النص ذكر للآية المنسوخة لفظاً لا حُكماً، أما لفظها فقد ورد في حديث آخر أخرجه في الحدود أبو داود، وابن ماجه، ومالك في موطئه، أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ١٨٣)، ولفظه فيه عن كثير بن الصلت قال: كان ابن العاص وزيد بن ثابت يكتبان المصاحف فمروا على هذه الآية، =

رفع وبقي حكمه، وقال الحسن بن أَبي الحسن، وابن راهويه: ليس في هذه الآية نسخٌ، بل سنَّة الرجم جاءَت بزيادة، فالمُحْصَنُ ـ على رأْي هذه الفرقة ـ يُجلد ثم يرجم، وهو قول علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وفعله بشُراحة(١)، ودليلهم قول النبي ﷺ: «والثَّيِّب بالثَّيب جلْدُ مائة والرجم»(٢)، ويردُّ عليهم فعل النبي ﷺ حيثُ رجم ولم يجلد، وبه قال جمهور الأُمَّة إِذْ فعله كقوله رفع الجلد عن المحصن، وقال ابن سلام وغيره: هذه الآية خاصة في البِكْرَيْن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لأَنه لو لم يبق مَنْ هذا حكْمه إِلا البِكْرَان، واستدلوا على ذلك بقول النبي ﷺ: «البِكْرُ بالبِكْر جَلْدُ مائة وتغريب عام»(٣)، وبقوله: «على ابنك جَلْدُ مائة»(٤)، واستدلوا

= فقال زيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»، فقال عمرو: لما أُنزلت هذه أتيت رسول الله ﷺ فقلت: أَكْتِبْنِيهَا، قال شعبة ـ أحد الرواة ـ: فكأنه كره ذلك، فقال عمرو رضي الله عنه: ألا ترى أن الشيخ إذا لم يحصن جلد وأن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم؟.

(١) هي شُراحة الهمدانية، ثبتت عليها جريمة الزنى فجلدها علي بن أبي طالب رضي الله عنه مائة جلدة ورجمها بعد ذلك، وقال جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنَّة رسول الله ﷺ، يعني أن الجلد تنفيذ لهذه الآية ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾، والرجم اتباع لما فعله رسول الله ﷺ، فقد رجم الغامدية وماعِزاً.

(٢) أخرجه مسلم في الحدود، والبخاري في تفسير سورة النساء، وكلٌّ من أبي داود، والترمذي، وابن ماجه، والدارمي في الحدود، وأحمد في مسنده (٣/ ٤٧٦، ٥/ ٣١٣، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٠)، والحديث كما جاء في مسلم عن عبادة بن الصامت قال: كان نبي الله ﷺ إذا أُنزل عليه كُرب لذلك وتَرَبَّد له وجهُه، قال: فأُنزل عليه ذات يوم فلُقِي كذلك، فلما سُرِّي عنه قال: «خذوا عنِّي فقد جعل الله لهنَّ سبيلاً، الثَّيب بالثَّيب والبِكْرُ بالبِكْر الثيب جَلْدُ مائةٍ ثم رجمٌ بالحجارة، والبكر جلْد مائة ثم نفي سنة».

(٣) راجع حديث عبادة بن الصامت الذي ورد في الهامش السابق، وفي رواية أخرى عن سلمة بن المحبق قال رسول الله ﷺ: «خذوا عنِّي خذوا عنِّي، قد جعل الله لهنَّ سبيلاً، البِكْر بالبِكْر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة ورجم»، وقوله: ﴿قد جعل لهن سبيلاً﴾ يشير إلى الآية الكريمة من سورة النساء: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾.

(٤) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، ومالك في الموطأ، وأحمد في مسنده، ولفظه كما جاء في مسلم في كتاب الحدود عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني أنهما قالا: إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله، فقال الخصم الآخر ـ وهو أفقه منه ـ: نعم فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لي، فقال رسول الله ﷺ: قل، قال: إن ابني كان عسيفاً ـ أجيراً ـ على هذا، فزنى بامرأته، وإني أُخبرت أن على ابني الرجم، فافتديتُ منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أنَّ ما على ابني جَلْد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لأقضينَّ بينكم =

على أَنها غير عامة بخروج الإماءِ والعبيد وغيرهم منها، وقد تقدم بسط كثير من هذه المعاني في سورة النساء(١).

والجَلْد يكون والمجلود قاعد عند مالك، ولا يُجزي عنده إلاَّ في الظهر، وأَصحاب الرأي والشافعيُّ يرون أَن يُجلد الرجل وهو واقف، وهو قول علي بن أَبي طالب رضي الله تعالى عنه، ويُفرَّق الضربُ على كل الأَعضاء، وأَشار ابن عمر رضي الله عنهما بالضرب إلى رِجْلَيْ أَمة جلدها في الزنى، والإجماع في تسليم الوجه والعورة والمَقَاتل، ويترجَّح قول مالك رحمه الله بقول النبي ﷺ: «أَوْ حَدٌّ في ظهرك»(٢)، وقال عمر رضي الله عنه: «أَوْ لأُوْجِعَنَّ مَتْنَكِ»(٣)، ويُعرَّى الرجل عند مالك، والنَّخعي، وأَبي عبيدة بن الجراح، وابن مسعود، وعمر بن عبد العزيز، والحسن، والشعبي، وغيرُهم يرون أَن يُضرب على قميص، وهو قول عثمان، وابن مسعود رضي الله عنهما أيضاً، وأَما المرأَة فتُسْتَر قولاً واحداً.

وقرأَ الجمهور: ﴿رَأْفَةٌ﴾ بهمزة ساكنة على وزن فَعْلة، وقرأَ ابن كثير: [رَأَفَةٌ] على وزن فَعَلة بفتح العين، وقرأَ عاصم أيضاً: [رَآفَةٌ] على وزن فَعَالَة، كَسَآمة وكآبة، وهذه مصادر أَشهرها الأُولى، من «رَؤُفَ» إذا رقَّ ورحم، وقرأَ الجمهور: ﴿تَأْخُذْكُم﴾ بالتاءِ

= بكتاب الله، الوليدة والغنم ردٌّ، وعلى ابنك جَلْد مائة وتغريب عام، واغْدُ يا أُنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها، قال: فغدا عليها فاعترفت، فأمر رسول الله ﷺ فرُجمت.

(١) راجع ذلك في المجلد الثاني ص ٤٨٩ وما بعدها.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، وكل من أبي الدرداء، والنسائي، وابن ماجه في الطلاق، ولفظه كما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هلال بن أُميَّة قذف امرأته عند النبي ﷺ بشَريك بن سحماءَ، فقال النبي ﷺ: «البيِّنَة أو حَدٌّ في ظهرك، فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البيِّنة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: البيِّنة وإلاَّ حدٌّ في ظهرك، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق فَلَيُنْزِلَنَّ الله ما يُبَرِّىء ظهري من الحدِّ، فنزل جبريل وأنزل عليه: ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾، فقرأَ حتى بلغ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليها، فجاء هلالٌ فشهد والنبي ﷺ يقول: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب؟ ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقَّفوها وقالوا: إنها موجبة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت فقال النبي ﷺ: أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الإليتين خَدَلَّجَ الساقين فهو لشَريك بن سحماءِ، فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن».

(٣) المَتْنُ: الظهر، يُذَكَّر ويُؤنَّث.

من فوق، وقرأ أبو عبد الرحمن: [يَأْخُذْكُمْ] بالياءِ من تحت.

واختلف الناس في الرأفة المنهي عنها، فيم هي؟ فقال أَبو مِجْلَز لاحقُ بن حُمَيد[١] ومجاهد، وعكرمة، وعطاءٌ: هي في إسقاط الحدِّ، أَي: أَقيموه ولا بُدَّ، وهذا تأْويل ابن عمر رضي الله عنهما، وابن جبير، وغيرهما، ومن رأيهم أَن الضرب في الزنى والفِرية والخمر على نحو واحد. وقال قتادة، وابن المسيب، وغيرهما: الرأفة المنهيُّ عنها هي تخفيف الضرب عن الزنى، ومن رأيهم أَن يُخَفَّف ضرب الخمر والفِرْية ويشتد ضرب الزنى، وقال سليمان بن يسار[٢]: نُهي عن الرأفة في الوجهين، وقال أَبو مِجْلَز: إِنَّا لنَرْجُم المحدود ولكن لا نُسقط الحدَّ، وقول النبي ﷺ في السوط: «دون هذا»[٣] ضربٌ من الرأفة. وقال عمر رضي الله عنه: «اضْرِب ولا تُبْدِيَنَّ إِبطك»، واتفق الناس على أَن الضرب سوطٌ بين سوطين، وقال الزهري: ضرب الزنى والفِرية مشدَّد لأَنهما بمعنى واحد، وضرب الخمر مخفف. وقوله تعالى: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ بمعنى: في الإِخلال بدين الله، أَي بشرعه، ويحتمل أَن يكون الدِّين هنا بمعنى الحكم[٤].

ثم قررهم على معنى التثبيت والحضِّ بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، وهذا كما تقول لرجل تَحضُّه: إِن كنت رجلاً فافعل كذا، أَي: هذه أَفعال الرجال.

---

(١) في الأصول «فقال أبو مِجْلُز ولاحق بن حُميد»، والصحيح أنهما رجل واحد، هو لاحق بن حُميد بن سعيد الدوسي البصري، أبو مُجْلَز، بكسر الميم وسكون الجيم وفتح اللام بعدها زاي ـ وهو مشهور بكنيته، قال عنه العسقلاني في كتابه «تقريب التهذيب»: «ثقة، من كبار الثالثة، مات سنة ست، وقيل تسع ومائة، وقيل قبل ذلك».

(٢) سليمان بن يسار الهلالي، المدني، مولى ميمونة، وقيل أم سلمة، ثقة فاضل، أحد الفقهاء السبعة، مات بعد المائة، وقيل قبلها. «تقريب التهذيب».

(٣) روى مالك عن زيد بن أسلم أن رجلاً اعترف على نفسه بالزنى على عهد رسول الله ﷺ، فدعا له رسول الله ﷺ بسَوْط، فأُتي بسوط مكسور، فقال: «فوق هذا»، فأُتي بسَوْط جديد لم تُقطع ثمرته، فقال: «دون هذا»، فأُتي بسَوْطٍ قد رُكب به ولان، فأمر به رسول الله ﷺ فجُلِدَ... الحديث. قال أبو عمر: «هكذا روى هذا الحديث مرسلاً جميع رواة الموطأ، ولا أعلمه يستند بهذا اللفظ بوجه من الوجوه»، وقد روى مَعْمَر عن يحيى بن أبي كثير عن النبي ﷺ مثله سواءً. وقول الراوي في الحديث: «لم تُقطع ثمرتُه» يريد أن طرفه مُحَدَّد، لم تنكسر حِدَّته ولم يصر ليِّناً. ومعنى «رُكب به ولان» أنه لان لكن ليس لدرجة التَّفَتُّت والبلى.

(٤) ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾، أي: في حكمه.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، المقصد بالآية الإغلاظ على الزُّناة والتوبيخ بحضرة الناس، فلا خلاف أَن الطائفة كلَّما كثرت فهي أَليق بامتثال الأَمر. واختلف الناس في أَقل ما يُجزي ـ فقال الحسن بن أَبي الحسن: لا بُدَّ من حضور عشرة، وقال: إِن هذا العدد عقد خارج عن الآحاد وهي أَقل الكثرة، وقال ابن زيد وغيره: لا بُدَّ من حضور أَربعة، ورأَوا أَن شهادة الزنى كذلك وأَن هذا باب منه. وقال الزهري: الطائفة ثلاثة فصاعداً، وقال عطاءٌ وعكرمة: لا بُدَّ من اثنين، وهذا مشهور قول مالك، فرآها موضع شهادة، وقال مجاهد: يجزي الواحد ويُسمى طائفة، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما، ونزعا[١] بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ﴾[٢] وقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾[٣] ونزلت في تقاتل رجلين.

واختلف العلماءُ في التغريب، وقد غرَّب الصديق رضي الله عنه إِلى فدك، وهو رأْي عمر وعثمان وعلي وأَبي ذرٍّ وابن مسعود وأُبيٍّ ابن كعب رضي الله تعالى عنهم، ولكن عمر رضي الله عنه بعد أَن نفى رجلاً فَلَحِقَ بالرُّوم فقال: لا أَنفي أَحداً بعدها، وفيه عن مالك قولان، ولا يرى تغريب النساء والعبيد، واحتج بقوله ﷺ: «لا تُسافر المرأَةُ مسيرة يوم إِلاَّ مع ذي محرم»[٤]، وممن أَبى التغريب جملةُ أَصحاب الرأْي، وقال الشافعي: ينفى البِكر رجلاً كان أَو امرأَة، ونفى علي رضي الله تعالى عنه امرأَة إِلى البصرة.

---

(١) يقال: نزع معنًى جيِّداً من الآية، أي: استخرج منها معنًى جيداً.

(٢) من الآية (١٢٢) من سورة (التوبة).

(٣) من الآية (٩) من سورة (الحجرات).

(٤) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة والصوم، ومسلم في الحج، والترمذي في الرضاع، وابن ماجه في المناسك، ومالك في الاستئذان من موطئه، وأحمد في مسنده (١/ ٢٢٢، ٢/ ١٢، ٣/ ٣٤) ومواضع كثيرة. ولفظه في مُسند أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن رسول الله ﷺ قال: «لا يخلُوَنَّ رجل بامرأة، ولا تُسافر امرأة إلا ومعها ذو مَحْرَم»، وجاء رجل فقال: إن امرأتي خرجت إلى الحج وإني اكتتبتُ في غزوة كذا وكذا، قال: «انطلق فاحجج مع امرأتك»، هكذا بدون تحديد للأيام، وفي البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لا تُسافر المرأة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم»، وفيه أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة ليس معها حُرْمَة».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾.

في هذه الآية أَربعة أَوجُه من التأْويل:

أَحدها أَن يكون مقصد الآية تشنيع وتبشيع أَمره، وأَنه مُحَرَّم على المؤمنين، واتصالُ هذا المعنى بما قبْلُ حسنٌ بليغ، ويريد بقوله سبحانه: ﴿لَا يَنكِحُ﴾ أَي لا يطأُ، فيكون النكاح بمعنى الجماع، وردَّد القصةَ مبالغة وأَخذاً من كلا الطرفين، ثم زاد تقسيم المشرك والمشركة من حيث الشرك أَعم في المعاصي من الزنى، فالمعنى: الزاني لا يطأُ في وقت زناه إِلاَّ زانيةً من المسلمين أَو من هي أَخَسُّ منها من المشركات، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وأَصحابه أَن النكاح في هذه الآية الوَطْءُ، وأَنكر الزجاج وقال: لا يُعرف النكاح في كتاب الله تعالى إِلا بمعنى التزويج.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس كما قال، وفي القرآن ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾[1]، وقد بيَّنه النبي ﷺ أَنه بمعنى الوطءِ، وذكر الطبري ما ينحو إِلى هذا التأْويل عن سعيد بن جبير، وابن عباس، وعكرمة، ولكن غير ملَخَّص ولا مكمَّل.

والثاني أَن تكون الآية نزلت في قوم مخصوصين، وهذا قول روي معناه عن عبد الله ابن عمر، وعن ابن عباس وأَصحابه رضي الله تعالى عنهم، قالوا: وهم قومٌ كانوا يزنون في جاهليتهم ببغايا مشهورات، فلما جاءَ الإِسلام وأَسلموا لم يمكنهم الزنى، فأَرادوا ـ لفقرهم ـ زواج أُولئك النسوة؛ إِذ كان من عادتهن الإِنفاق على من ارتسم بزواجهن، فنزلت الآية بسببهن، والإِشارة بـ﴿ٱلزَّانِى﴾ إِلى أَحد أُولئك، حمل عليه اسم الزنى الذي كان في الجاهلية، وقوله تعالى: ﴿لَا يَنكِحُ﴾ أَي لا يتزوج، وفي الآية ـ على هذا التأْويل ـ معنى التفجع عليهم، وفي ذلك توبيخٌ كأَنه يقول: أَيُّ مصاب؟ الزاني لا يريد أَن يتزوج إِلاَّ زانية أَو مشركة، أَي: تنزع نفوسهم إِلى هذه الخسائس لقلة انضباطهم. ويَرِدُ على هذا التأْويل الإِجماعُ على أَن الزانية لا يجوز أَن يتزوجها مشرك، ثمَّ قوله:

(١) من الآية (٢٣٠) من سورة (البقرة).

﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي نكاح أُولئك البغايا، فيزعم أَهل هذا التأْويل أَن نكاح أُولئك البغايا حرَّمه الله تعالى على أُمَّة محمد ﷺ، ومن أَشهرهن عَنَاق البغي، وكان الذي همَّ بتزوُّجها دَلْدَلُ[١]، كان يستخرج ضعفة المسلمين من مكة سِرّاً، ففطنت له ودعته إِلى نفسها فأَبى الزنى وأَراد التزويج، واستأْذن النبي ﷺ فنزلت الآية، ولمَّا دعته وأَبى قالت له: أَنَّى تبرز؟ والله لأَفضحنَّك[٢]، وذكر الطبري أَن من البغايا المذكورات أُم مَهزول جارية السائب المخزوميِّ، ويقال فيها: أُم مهزوم، وأُم غُلَيط[٣] جارية صفوان ابن أُميَّة، وحنَّة القبطية جارية العاص بن وائل، ومُزْنة[٤] جارية مالك بن عميلة بن السباق بن عبد الدار، وجلالة[٥] جارية سهيل بن عمرو، وأُم سويد جارية عمرو بن عثمان المخزوميِّ، وشريفة[٦]. جارية زمعة بن الأَسود، وفرسة جارية هشام بن ربيعة، ومرثنا[٧] جارية هلال بن أَنس، وغيرهن ممن كان لهن رايات تعرف منازلهن بها، وكذلك كان بالمدينة إِماءُ عبد الله بن أُبيٍّ وغيره مشهورات.

وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال في سياق هذا التأْويل: «كانت بيوت في الجاهلية تُسمى المواخير، كانوا يؤجرون فيها فتياتهم، وكانت معلومة للزنى، فحرَّم الله ذلك على المؤمنين».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يكون هذا الكلام في التأْويل الذي ذكرته قبل هذا. وواحد المواخير:

---

(١) اسمه مَرْثد بن أبي مَرْثد، وكان رجلاً قوياً شديداً، وكان يساعد الضعفاء من المسلمين على الخروج من مكة سراً.

(٢) كان يحمل رجلاً من أسارى مكة، قال: فجئت به حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، فعرفته عناق ودعته فأبى، فقالت له: أنَّى تستطيع البروز بمن معك؟ والله لأفضحنك، ثم نادت: يا أهل الخيام، هذا رجل يحمل أسراكم، فتبعه القوم، قال: فاختبأت منهم في كهف.. الخ القصة، وتجدها في «الدر المنثور» في خبر رواه جمع كبير منهم ابن جرير، والبيهقي وعبد بن حميد وغيرهم.

(٣) في الطبري: (أم عُليط) بالعين، وهي في جميع الأصول هنا بالغين المعجمة.

(٤) هكذا في الأصول، وفي الطبري: «مَرِيَّة».

(٥) في الطبري: «حلالة».

(٦) في الطبري: «سريفة» بالسِّين.

(٧) في الطبري «قريباً»، وقد رجعنا إلى الطبري لأن ابن عطية نقل الكلام عنه.

ماخورٌ، ومنه قول بعض المحدثين:

فِـي كُـلِّ وَادٍ هَبَطْنَـا فِيـهِ دسَكْـرَة فِي كُلِّ نَشْزٍ صَعَدْنَا فِيهِ مَاخور[١]

والتأويل الثالث ذَكَرَهُ الزجاج وغيره عن الحسن، وذلك أنه قال: المرادُ الزاني المحدود والزانية المحدودة[٢]، قال: وهذا حكم من الله تعالى، فلا يجوز لزانٍ محدُودٍ أَن يتزوج إلاَّ محدودة، ورُوي أَن محدوداً تزوج غير محدودة فردَّ علي بن أَبي طالب نكاحهما، وقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد الزِّنى، وحكى الزهراوي في ذلك حديثاً من طريق أبي هريرة أَن رسول الله ﷺ قال: «لا ينكح الزاني المجلود إلاَّ مثله»، وهذا حديث لا يصح، وقولٌ فيه نظر، وإِدخال «المشرك» في الآية يردُّه، وأَلفاظ الآية تأْباه وإِن قُدرت «المشركة» بمعنى الكتابية فلا حيلة في لفظ المشرك.

والرابع قد روي عن سعيد بن المسيب، وذلك أَنه قال: هذا حكم كان في الزُّناة عامة، أَلا يتزوج زانٍ إلاَّ زانية، ثم جاءت الرُّخصة ونُسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾[٣]، ورُوي ترتيب هذا النسخ أيضاً عن مجاهد، إلاَّ أَنه قال: إِن التحريم كان في أُولئك النفر خاصةً لا في الزُّناة عامة، ذكر ذلك عنهما أَبو عبيدة في ناسخه، وذكر عن مجاهد أَنه قال: حُرِّمَ نكاحُ أُولئك البغايا على أولئك النفر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذكر «الإِشراك» في الآية يضعِّف هذه المناحي.

وقرأَ أَبو البرهثيم: [وحرَّم اللهُ ذلك على المؤمنين][٤].

واختلف فيمن زنى بامرأَةٍ وأَراد نكاحها ـ فأَجاز ذلك أَبو بكر الصديق، وابن عُمر، وجابر بن عبد الله، وطاوس، وابن المسيب، وجابر بن زيد، وعطاءٌ، والحسن،

---

(١) الدَّسْكَرة: القرية العظيمة، والجمع دساكر، والنَّشْزُ: ما ارتفع وظهر من الأرض، والجمع نشوزٌ ونشازٌ. والماخور: بيت الريبة، وفيه حديث زياد حين قدم البصرة أميراً عليها: ما هذه المواخير؟ الشراب عليه حرامٌ حتى تُسَوَّى بالأَرض هدماً وإِحراقاً، قال في اللسان: «هي مجلس الريبة، ومجمع أهل الفسق والفساد، وبيوت الخمارين».

(٢) يريد: الذي أقيم عليه الحدُّ بالجلد والتغريب.

(٣) من الآية (٣٢) من سورة (النور).

(٤) في «البحر المحيط»: «وقرأَ أبو البرهثيم ﴿وَحَرَّمَ﴾ مبنياً للفاعل، أي الله»، ومعنى ذلك أن القارىء لم يذكر لفظ الجلالة في الآية.

وعكرمة، وابن عباس، ومالك والثوري، والشافعي[١]. ومَنَعه ابن مسعود، والبراءُ بن عازب، وعائشة، وقالوا: لا يزالان زانِيَيْن ما اجتمعا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

هذه الآية نزلت في القاذفين، قال سعيد بن جبير: كان سببها ما قيل في عائشة أُم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، وقيل: بل نزلت بسبب القذف عامة لا في تلك النازلة. وذكر الله تعالى في الآية قذف النساءِ من حيث هو أَهَمُّ، ورَمْيُهُنَّ بالفاحشة أَبْشَع وأَنكى للنفوس، وقذف الرجال داخل في حكم الآية بالمعنى وإِجماع الأُمة على ذلك، وهذا نحو نصه تعالى على لحم الخنزير ودخول شحمه وغضاريفه ونحو ذلك بالمعنى والإجماع، وحكى الزهراوي أَن المعنى: الأَنْفُس المحصنات، فهي تعُمُّ بلفظِها الرجال والنساءَ، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[٢]، والجمهور على فتح الصاد من ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، وكسرها يحيى بن وثاب. و[المحْصِنات] العفائف في هذا الموضع؛ لأَن هذا هو الذي يجب به جَلْد القاذف، والعِفَّةُ أَعلى معاني الإِحصان، وفي طيِّه الإِسلام، وفي هذه النازلة الحرية[٣]، ومنه قول حسان:

---

(١) أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، من طريق سعيد مولى ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت مع ابن عباس فأتاه رجل فقال: إني كنت أتبع امرأة فأصبت منها ما حرَّم الله عليَّ، وقد رزقني الله منها توبة فأردت أن أتزوجها فقال الناس: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾، فقال ابن عباس: ليس هذا موضع هذه الآية، إنما كُنَّ نساءً بغايا متعالنات، يجعلن على أبوابهن رايات، يأتيهن الناس يُعرفن بذلك، فأنزل الله هذه الآية. تزوجها فما كان فيها من إثم فَعَلَيَّ.

(٢) من الآية (٢٤) من سورة (النساء).

(٣) يعني أن الوصف بالإحصان يستلزم الإسلام والحرية، وهو يشير بذلك إلى أن للقذف شروطاً منها في المقذوف به أن يكون عاقلاً بالغاً مسلماً حرّاً عفيفاً عن الفاحشة التي رُمي بها، قال العلماءُ: إنما اشترط في المقذوف العقل والبلوغ لأن الحدَّ إنما وضع للزجر على الأذى الذي يلحق بالمقذوف، ولا ضرر يلحق بالمجنون أو بغير البالغ، وهما شرطان أيضاً في القاذف لأنهما أصلان في التكليف، ولا تكليف بدونهما.

حَصَـــــانٌ رَزَانٌ . . . .(١)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ [الأنبياء: ٩١]. وذكر الله تعالى من صفات النساءِ العفةَ المنافية للرمي بالزنى، ولتخرج من ذلك من ثبت عليها الزنى وغير ذلك ممن لم يبلغ الوطءَ من النساء حسب الخلاف في ذلك.

وعبَّر عن القذف بالرَّمي من حيث معتاد الرمي أنه مُؤْذٍ كالرمي بالحجر والسهم، فلما كان قول القاذف مؤذياً جعل رمياً، وهذا كما قال:

. . . . وَجُـرْحُ اللِّسَـانِ كَجُـرْحِ الْيَـدِ(٢)

والقذف والرمي بمعنى واحد.

وشدَّد الله تعالى على القاذف في أَربعة شهداءَ رحمةً بعباده وستراً لهم. وقرأ جمهور الناس: ﴿بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ على إضافة الأَربعة إِلى الشهداء، وقرأ عبد الله بن مسلم بن

---

(١) هذا بداية بيت قاله حسَّان بن ثابت في السيدة عائشة رضي الله عنها، والبيت بتمامه:

حَصَـــانٌ رَزانٌ مَـــا تُـــزَنُّ بِـــرِيبَـــةٍ ... وتُصْبِـح غَـرْثَـى مِـنْ لُحُـوم الغَـوَافِـلِ

والحَصَان: العفيفة أو المتزوجة، وكلُّ امرأة عفيفة مُحْصَنة ومُحْصِنة، وكل متزوجة مُحْصَنة، وكان جمهور القراء على فتح الصاد من ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ﴾ لأن المراد النساء المتزوجات اللاتي قد أحصنهن أزواجُهن، ومن قرأ بالكسر ذهب إلى أنها أحصنت نفسها فهي مُحْصِنة. والرَّزَانُ: الوقور من النساء، يقال: امرأةُ رزان: ذات ثبات ووقار وعفاف، رزينة في مجلسها. وما تُزَنُّ بريبةٍ: لا ترمى ولا تتهم بما يريبها أو يعيبها. والغَرَثُ: الجوع، وقيل: الجوع الشديد، يقال في الرجل: غِرثَ فهو غَرِثٌ، وفي المرأة: غَرِثَتْ فهي غَرْثَى وغرثانة. والغوافل: كأنه مفهوم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾. وحسَّان يصفها بالعفة والوقار والبعد عن الريبة والظن، وبأنها لا تأكل لحوم الغافلات من المؤمنات، فهي لا تتحدث عنهن بما يشين. والبيت في اللسان: (حصن ـ زنن ـ غرث).

(٢) هذا عجز بيت من الشعر، قاله امرىء القيس من قصيدة له يتهدد بني أسد، وفيها يقول:

تَطَــاوَلَ لَيْلُــكَ بِــالإثمِــدِ ... ونَــامَ الخَلِــيُّ ولَــمْ تَــرْقُــدِ
وبَــاتَ وبَــاتَــت لَــهُ لَيْلَــةٌ ... كلَيْلَــةِ ذي العَــائِــرِ الأَرْمَــدِ
وذلِــك مِــن نَبَــاءٍ جَــاءَنِــي ... وخُبِّــرْتُــهُ عَــن أبِــي الأَسْــوَدِ
ولَــوْ عَــن ثَنَــا غَيْــرِهِ جَــاءَنِــي ... وجُــرْحُ اللِّسَــانِ كَجُــرْحِ الْيَــدِ

والثَّنَا: ما خُبِّرتَ به عن الرجل من حَسَن أو سيِّءٍ، والجَرح بالفتح: الفِعْل، والجُرْح بالضم: الاسم، يقول: إنه قد يُبلغ باللسان والوقل من هجاءٍ وذم ما يُبلغ بالسيف إذا ضُرب به. وأبو الأسود: رجل من كنانة هجا امرأ القيس. هذا وقد نسب القرطبي في تفسيره هذا الشعر إلى النابغة.

يسار، وأَبو زُرْعَة بن جرير: [بأربعة] بالتنوين، و﴿ شُهَدَآءَ ﴾ على هذا إِمَّا بدلٌ وإما صفة للأَربعة وإِمَّا حالٌ وإِمَّا تمييز، وفي هذين نظرٌ؛ إذ الحال من نكرة والتمييز مجموع، وسيبويه يرى أَن تنوين العدد وترك إِضافته إنما يجوز في الشِّعر، وقد حسَّن أَبو الفتح هذه القراءَة ورجَّحها على قراءَة الجمهور(١). وحكم شهادة الأَربعة أَن تكون على معاينة كالمرود والمكحلة في موطن واحد، فإِن اضطرب منهم واحد جُلد الثلاثة والقاذف، كما فعل عمر بن الخاطب رضي الله تعالى عنه في أَمْر المغيرة بن شعبة، وذلك أَنه شهد عليه بالزِّنى أَبو بكرة نُفَيْع بن الحارث وأَخوه نافع ـ وقال الزهراوي: عبد الله بن الحارث ـ وزياد أَخوهما لأُمٍّ ـ وهو مستلحق معاوية ـ وشبل بن معبد الجبلي، فلما جاؤوا لأَداءِ الشهادة توقف زيادٌ ولم يؤدِّها كاملةً، فَجَلَد عمر رضي الله عنه الثلاثة المذكورين(٢).

والجَلْدُ: الضربُ، والمجَادلة: المضاربة في الجلود أَو بالجلود، ثم استعير الجلد لغير ذلك من سيف وغيره، ومنه قول قيس بن الخطيم:

أُجَالِدُهُمْ يَوْمَ الْحَدِيقَةِ حَاسِراً ... كَأَنَّ يَدِي بِالسَّيْفِ مِخْرَاقُ لاَعِبِ(٣)

---

(١) قال أبو الفتح في تعليل ذلك: «إن أسماء العدد من الثلاثة إلى العشرة لا تضاف إلى الأَوصاف، لا يقال: عندي ثلاثة ظريفين، إلاَّ في ضرورة إلى إقامة الصفة مقام الموصوف، وليس ذلك في حسن وضع الاسم هناك، والوجه عندي: ثلاثةٌ ظريفون، وكذلك قوله: ﴿ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ لتجري ﴿ شُهَدَآءَ ﴾ على ﴿ أَرْبَعَةِ ﴾ وصفاً، فهذا هذا». «المحتسب» (٢/ ١٠١).

(٢) المغيرة بن شعبة أحد دهاة العرب وقادتهم وولاتهم، صحابي، يقال له: مغيرة الرأي، تردَّد في دخول المنهاج ثم أسلم، وشهد الحديبية واليمامة وفتوح الشام واليرموك ـ وفيها ذهبت إحدى عينيه ـ والقادسية ونهاوند، ولاَّه عمر رضي الله عنه على البصرة ثم الكوفة، وله ١٣٦ حديثاً، وهو أول من سُلِّم عليه بالإمرة في الإسلام، والخبر المذكور هنا عن قذفه من قِبل ثلاثة أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن سعيد بن المسيب، وكذلك أخرجه ابن جرير في تفسيره، والأربعة الذين قذفوه هم: نُفيع بن الحارث ـ ولكن الزهراوي يقول: إن اسمه عبد الله بن الحارث ـ وأخوه نافع، وأخوهما لأمهما زياد، وشبل بن معبد، لكن عندما تقدموا لأداء الشهادة توقف زيادٌ، فما كان من عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلا أن جلد الثلاثة وقال لهم: توبوا نقبل شهادتكم، فتاب رجلان هما نافع وشبل، ولم يتب أبو بكرة نُفيع، وقد حلف ألا يكلم أخاه زياداً بسبب تراجعه عن الشهادة، ولم يكلمه فعلاً حتى مات.

(٣) هذا البيت من قصيدة قالها قيس بن الخطيم في حرب سميت حرب حاطب، ومن أيامها يومُ الحديقة، وهي قرية من أعراض المدينة في طريق مكة كانت بها وقعة بين الأوس والخزرج قبل الإسلام، وكانت=

ونصب ﴿ثَمَٰنِينَ﴾ على المصدر، و﴿جَلۡدَةً﴾ على التمييز. ثم أَمر الله تبارك وتعالى أَلاَّ نقبل للقذفة المحدودين شهادةً أَبداً، وهذا يقتضي مدةَ أعمارهم، ثم حكم عليهم بأَنهم فاسقون، أَي خارجون عن طاعة الله عزَّ وجلَّ.

ثمَّ استثنى جلَّ وعزَّ من تاب وأَصلح من بعد القذف، فإِنه وعدهم بالرحمة والمغفرة، فتضمنت الآية ثلاثة أَحكام في القاذف: جَلْدُه، وردُّ شهادته أَبداً، وفسقه، فالاستثناءُ غير عامل في جَلْده بإِجماع[(١)]، وعامل في فسقه بإِجماع[(٢)]، واختلف الناس في عمله في الشهادة ـ فقال شريح القاضي، وإِبراهيم النَّخَعي، والحسن، والثوري، وأَبو حنيفة: لا يعمل الاستثناءُ في ردِّ شهادته[(٣)]، وإِنما يزول فسقه عند الله تعالى، وأَما شهادة القاذف فلا تقبل البتَّة ولو تاب وأَكذب نفسه ولا بحالٍ من الأَحوال. وقال جمهور الناس: الاستثناءُ عامل في ردِّ الشهادة، فإِذا تاب القاذف قبلت شهادته، ثم اختلفوا في صورة توبته ـ فمذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والشعبي وغيره أَن توبته لا تكون إِلاَّ بأَن يكذب نفسه في ذلك القذف الذي حُدَّ فيه، وهكذا فعل شبل بن معبد، ونافع، تابا عن القول في المغيرة، وأَكذبا أَنفسهما فقبل عمر رضي الله عنه شهادتهما، وأَبى أَبو بكرة نُفَيْع من إِكذاب نفسه فردَّ عمر رضي الله عنه شهادته حتى مات. وقالت فرقة ـ منها مالك رحمه الله، وغيره ـ: توبتُه أَن يَصْلُح وتَحْسُن حاله وإِن لم يرجع عن قوله بتكذيب.

واختلف فقهاءُ المالكيين، متى تسقط شهادة القاذف؟ فقال ابن الماجشون: بنفس قذفه، وقال أَبو القاسم، وأَشهب، وسُحنون: لا تسقط حتى يُجلد، فإِن منع من جَلْده

= للخزرج، وفي الأغاني عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ جلس يوماً إلى جماعة من الخزرج فاستنشدهم هذه القصيدة، فأنشده بعضهم إياها، فلما بلغ هذا البيت التفت إليهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه وسألهم: هل كان كما ذكر؟ فشهد له ثابت بن قيس. والمِخْرَاق: ما يلعب به الصبيان من الخِرَق المفتولة، قال ابن سيده: «هو منديل أو نحوه يُلْوى فيضرب به، وهو لعبة يلعب بها الصبيان»، وهو المعروف في مصر باسم: الطُّرَّة.

(١) لأن الحدَّ حق للمقذوفة، والتوبة لا تُسقط حقًّا، وحقوق الآدميين التي أوجبها الله لبعضهم على بعض لا تزول إلا بأدائها أو عفو أصحابها.

(٢) لأن الفِسْق صفة ذميمة يتصف بها العبد، فإن تاب عفا الله عنه ووضع عنه عقوبة التسمية الذميمة.

(٣) لأن الآية خصتها بالرَّفض الأبدي، والله تعالى يقول: ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾.

مانع ـ عفوٌ أَو غيره ـ لم تُرَدَّ شهادته. قال الشيخ أَبو الحسن اللخمي: شهادته في مدة الأَجل في الإِثبات موقوفة، ورجَّح القول بأَن التوبة إِما أَن تكون بالتكذيب في القذف وإِلاَّ فأَيُّ رجوع لعدل إِنْ قَذف وحُدَّ وبقي على عدالته، و﴿ تَابُواْ﴾ معناه: رجعوا[١]؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ترجيح، وقد رجَّح الطبريُّ وغيره قول مالك.

واخْتُلف أيضاً ـ على القول بجواز شهادته بعد التوبة ـ في أَي شيءٍ تجوز شهادته؟ فقال مالك رحمه الله: تجوز في كل شيءٍ بإِطلاق، وكذلك كلُّ من حُدَّ في شيءٍ من الأَشياءِ. وقال سُحْنون رحمه الله: من حُدَّ في شيءٍ من الأَشياءِ فلا تجوز شهادته في مثل ما حُدَّ فيه.

وقال مطرِّف، وابن الماجشون: من حُدَّ في قذف أَو زِنى فلا تجوز شهادته في شيءٍ من وجوه الزنى ولا في قَذْفٍ ولا في لِعَانٍ وإِن كان عدلاً، رويا هذا القول عن مالك، واتفقوا ـ فيما أَحفظه ـ على ولد الزنى أَن شهادته لا تجوز في الزِّنى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

لما نزلت الآية المتقدمة في الذين يرمون المحصنات تناول ظاهرُها الأَزواج وغيرَهُم، فقال سعد بن عُبادة: يا رسول الله إِنْ وجدت مع امرأَتي رجلاً أُمهله حتى آتي بأَربعة؟ والله لأَضربنَّه بالسيف غير مُصْفح عنه، فقال رسول الله ﷺ: «أَتعجبون من غيرة سعد؟ لأَنا أَغير من سعد والله أَغير مني»[٢]، وفي أَلفاظ سعد روايات مختلفة، وهذا

---

(١) نقل القرطبي كل هذا الكلام عن ابن عطية.

(٢) أخرجه أحمد، وعبد الرزاق، والطيالسي، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما وفي بعض الروايات ـ على ما ذكره السيوطي في «الدر المنثور» أن الآية لما نزلت قال سعد بن عبادة: أهكذا أُنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيِّدكم؟ قالوا: يا رسول الله لا تَلُمْهُ فإنه رجل=

نحو معناها، ثم جاءَ بعد ذلك هلال بن أُمَيَّة الواقفي فرمى زوجته بشَريك بن السَّحْمَاءِ البَلَوي، فعزم رسول الله ﷺ على ضربه حدَّ القذف فنزلت هذه الآية، فجمعهما رسول الله ﷺ في المسجد وتلاعنا فتلكأَت المرأَة عند الخامسة لما وُعِظَتْ وقيل: إنها مُوجبة، فقالت: لا أَفضح قومي سائر اليوم ولجَّت، وفرق رسول الله ﷺ بينهما، وولدت غلاماً كأَنه جمل أَورق[1]، ثم كان ـ بعد ذلك ـ الغلامُ أَميراً بمصر وهو لا يعرف لنفسه أَباً. وجاءَ أيضاً عُوَيْمر العَجْلاني فرمى امرأَته ولاَعَنَ[2]، والمشهور أَن نازلة هلال قَبْلُ وأَنها سبب الآية، وقيل: نازلة عُوَيْمر قَبْلُ، وهو الذي وسط إلى رسول الله ﷺ عاصم بن عدي[3].

و«الأَزْوَاجُ» في هذا الحُكْم يعُمُّ المسلمات والكافرات والإِماءَ، فكلهنَّ يلاعنهنَّ الزوج للانتفاءِ من الحمل، وتختص الحرَّة برفع حدِّ القذف عن نفسه[4].

= غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً، وما طلّق امرأة قط فاجترأ رجلٌ منا على أن يتزوجها من شدة غيرته، فقال سعد: يا رسول الله إني لأعلم أنها حق وأنها من الله، ولكني تعجبت، إني لو وجدت لكاعاً قد تفخَّذها رجلٌ لم يكن لي أن أهيجه ولا أُحركه حتى آتي بأربعة شهداءَ، فوالله لا آتي بهم حتى يقضي حاجته. ثم حدثت قصةُ هلال بن أُمية، وقال الأنصار: قد ابتُلينا بما قال سعد بن عبادة الآن. وقد ذكرنا الخبر كاملاً في الهامش (٢) من صفحة ٣٣٣ من هذا المجلد.

(١) الأَوْرَقُ من كلِّ شيءٍ: ما كان لونه لون الرماد، ومن الناس: الأسمر، ومن الإبل: ما في لونه بياض إلى سواد.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، عن سهل بن سعد، وفي الخبر ـ كما ذكره الإمام السيوطي في «الدر المنثور» ـ أن عُوَيْمر جاءَ إلى عاصم بن عدي فقال: سلْ رسول الله ﷺ: أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فقتله أَيُقْتَلُ به أمْ كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ فعاب رسول الله ﷺ المسائل، فلقيه عُوَيْمر فقال: ما صنعت؟ فقال: إنك لم تأتني بخير، سألت رسول الله ﷺ فعاب المسائل، فقال: والله لآتين رسول الله ﷺ ولأَسأَلنه، فأتاه فوجده قد أُنزل عليه، فدعا بهما فلاعن بينهما.

(٣) نقل القرطبي عن أبي عبد الله بن أبي صفرة، قال: الصحيح أن القاذف لزوجه عُوَيْمر، وهلال بن أُمية خطأ، ثم نقل عن الطبري أنه استنكر أن يكون هو هلال بن أُمية، وأنه قال: «وإنما القاذف عُوَيْمر بن زيد بن الجَدِّ بن العجلاني، شهد أُحُداً مع النبي ﷺ، رماها بشَريك بن السَّحْماء، والسَّحْماء أُمُّه، قيل لها ذلك لسوادها، وهو ابن عبدة بن الجَدِّ بن العجلاني، كذلك كان يقول أَهل الأَخبار» راجع القرطبي (١٢/ ١٨٤).

(٤) يعني أنه يلاعنها لرفع حد القذف عن نفسه.

وقرأ الجمهور: ﴿أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ﴾ بالنصب، وهو كانتصاب المصدر، والعامل في ذلك قوله: ﴿فَشَهَٰدَةُ﴾، ورفع «الشهادة» على خبر ابتداءٍ تقديره: فالحُكْمُ أَو فالواجبُ، أَو على الابتداءِ بتقدير: فعَلَيْهم أَن يشهدوا، أَو بتقدير حذف الخبر وتقديره في آخر الآية: كافيةٌ أَو واجبةٌ.

وقوله تعالى: ﴿بِٱللَّهِ﴾ من صلة ﴿شَهَٰدَٰتٍۭ﴾، ويجوز أَن يكون من صلة ﴿فَشَهَٰدَةُ﴾.

وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾ بالرفع، وذلك على خبر قوله تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ﴾، قال أَبو حاتم: لا وجه للرفع لأَن الشهادة ليست بأَربع شهاداتٍ، و﴿بِٱللَّهِ﴾ ـ على هذه القراءَة ـ من صلة ﴿شَهَٰدَٰتٍۭ﴾، ولا يجوز أَن يكون من صلة ﴿فَشَهَٰدَةُ﴾ لأَنك كنت تفصل بين الصلة والموصول بالخبر الذي هو ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قول من نصب ﴿أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ﴾ يجوز أَن يكون من صلة ﴿شهادةُ﴾، وهي جملة في موضع نصب لأَن «الشهادة» أَوقعتها موقع المفعول به، ومن رفع ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾ فقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ من صلة ﴿شَهَٰدَٰتٍۭ﴾ لعلة الفصل المتقدمة في قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾.

وقرأَ حفص عن عاصم: [وَٱلْخَامِسَةَ] بالنصب في الثانية، وقرأَها بالنصب فيهما طلحةُ ابن مصرف، وأَبو عبد الرحمن، والحسن، والأَعمش، وقرأَ الجمهور فيهما: [وَٱلْخَامِسَةُ] بالرفع، فأَمّا من نَصَب فإِنْ كانَ في قراءته نصب قوله تعالى: ﴿أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ﴾ فإِنه عطف ﴿ٱلْخَامِسَةَ﴾ على ذلك لأَنها من الشهادات، وإِن كان يقرأُ: ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾ بالرفع فإِنه جعل نَصْب قوله: ﴿وَٱلْخَامِسَةَ﴾ على فعل يدل عليه متقدم الكلام، تقديره: وتشهد الخامسة، وأَما من رفع قوله: ﴿وَٱلْخَامِسَةُ﴾ فإِن كان يقرأُ: [أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ] بالرفع فقوله: ﴿وَٱلْخَامِسَةُ﴾ عطف على ذلك، وإِن كان يقرأُ ﴿أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ﴾ بالنصب فإِنه حمل قوله: ﴿وَٱلْخَامِسَةُ﴾ على المعنى؛ لأَن معنى قوله: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾: عليهم أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ والْخَامِسَةُ، واستشهد أَبو عليٍّ لهذا بحمل الشاعر:

وَمُشَجَّجٌ أَمَّا سَوَاءُ... البيت . . . .

على قوله:

. . . . إلاَّ رَوَاكِدَ جَمْرُهُنَّ هَبَاءُ[(١)]

لأَن المعنى: ثَمَّ رَوَاكِدُ. ولا خلاف في السَّبْعِ في رفع قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَامِسَةُ﴾ في الأُولى، وإنما خلاف السَّبع في الثانية فقط، فنصبه حَمْلٌ على قوله: ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ﴾، ﴿وَٱلْخَامِسَةُ﴾ على القطع والحمل على المعنى[(٢)].

---

(١) هذه أجزاءٌ من بيتين استشهد بهما ابن عطية، وعلى عادته اكتفى بموضع الشاهد فقط من كل بيت، والبيتان في كتاب سيبويه، وهما بتمامهما:

بَادَتْ وغَيَّرَ آيَهُنَّ مَعَ الْبِلَى ... إلاَّ رواكِدَ جَمْرُهُنَّ هَبَاءُ
ومُشَجَّجٌ أَمَّا سَوَاءُ قَذَالِهِ ... فَبَدَا وغَيَّرَ سَارَهُ المَعْزَاءُ

وسيبويه يستشهد بهما في مجال العطف على المجرور، فأنت تقول: «هذا ضاربُ زيدٍ وعمروٍ» إذا أشركت بين الآخر والأول في الجار لأنه لا مانع من ذلك، وإن شئت نصبتَ على المعنى وتُضمر له ناصباً، فتقول: «هذا ضاربُ زيدٍ وعَمْراً» كأنه قال: ويضرب عَمْراً أو ضاربٌ عَمْراً، وإنما جاز هذا الإضمار عنده لأن معنى الكلام في قولك: «هذا ضاربُ زيدٍ»: هذا ضربَ زيداً، فيجوز لك أن تقول: وضربَ عَمْراً، وهذا حمل على المعنى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢﴾، فالمعنى في الآية: لَهُمْ فيها لَحْمُ طَيْرٍ، ولهذا رُفع ﴿حُورٌ﴾ حَمْلاً على المعنى، ثم استشهد بالبيتين، وفيهما رفع الشاعر قوله: ﴿ومُشَجَّجٌ﴾ مع أنه في أصل الكلام معطوف على «رواكد» في البيت السابق، وحقه النصب، لكنه رفعه حملاً على المعنى، كأنه قال: بها رواكدُ ومُشَجَّجٌ. ومعنى بادت: بليت وذهبت، والآيُ: جمع آية وهي آثارُ الديار وعلاماتُها، والبلى: تقادم العهد، والرواكد: يريد بها الأثافي وهي الأحجار التي توضع عليها القدر عند طهي الطعام، سميت بذلك لثبوتها وبقائها في مكانها، والراكد هو الثابت الساكن في موقعه، والهَبَاءُ: الغبارُ، جعل الجَمْر كالهباءِ لِقِدَمِهِ وانسحاقه، والمُشَجَّجُ: الوَتَد من أوتاد الخباءِ، وشجُّه أو تشجيجه هو شقه بالضرب على رأسه لتثبيته، والقذال: جماع مؤخر الرأس من الإنسان والفرس، والمراد به هنا أعلى الوتد، وسواؤُه: وسَطُهُ، وسَارَهُ: سائره وجميعه، وهي لغةٌ في سائره، قال في اللسان: «وسارهُ: جميعُهُ، يجوز أن يكون من الباب لسعة الباب (س ي ر)، وأن يكون من الواو لأنها عين، وكلاهما قد قيل»، وقال الشنتمري: «حذف عين الفعل لاعتلاله، ونظيره هار بمعنى هائر، وشاكٍ بمعنى شائك». والمَعْزَاءُ: الأرض الحَزْنة الغليظة ذات الحجارة، وجمعها الأماعز، وكانوا يتحرَّون أن ينزلوا في الأراضي الصلبة ليكونوا بمعزل عن السبيل، والمَعْزَاءُ بفتح الميم، وقد ضبطها بعضهم بالكسر وهو خطأ.

هذا والبيت الثاني في اللسان والتاج وأساس البلاغة، وقد ضبطه محقق اللسان «ومُشَجَّجِ» بالكسر، والأحسن ما ذكرناه هاهنا وهو الموافق لرأي سيبويه.

(٢) هكذا في الأصول، والذي نفهمه من كلامه أنه حدث خلاف في قراءة ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ﴾ الثانية، فمن نصبها فقد عطفها على قوله: ﴿أربعَ شَهَٰدَٰتٍ﴾ إذا كان يقرؤها بنصب ﴿أربعَ﴾، ومن قرأ [وَٱلْخَامِسَةُ] بالرفع فقد=

وقرأ نافع: [أَنْ لَعْنَةُ اللهِ](١)، و[أَنْ غَضِبَ اللهِ](٢)، وقرأ الأعرج، والحسن، وقتادة، وأبو رجاءٍ، وعيسى: [أَنْ لَعْنَةُ اللهِ](٣)، و[أَنْ غَضَبُ اللهِ](٤)، وهذا على إضمار الأمر، وهي الخفيفة كما هي في قول الشاعر:

فِي فِتْيَةٍ كَسُيُوفِ الْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا ... أَنْ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ(٥)

وقرأ باقي السبعة: ﴿أَنَّ لعنَةَ اللهِ﴾ و﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ﴾ بتشديد النون فيهما ونصب اللعنة والغضب، ورجَّح الأخفش القراءَة بتثقيل النون لأن الخفيفة إنما يراد بها التثقيل ويضمر معها الأمر والشأن، وما لا يُحتاج معه إلى إضمارٍ أولى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لا سيما وأن الخفيفة ـ على قراءة نافع ـ في قوله تعالى: [أَنْ غَضِبَ ٱللَّهُ] قد وَلِيَهَا

= حملها على المعنى في قوله: ﴿أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍ﴾، لأن المعنى فيها: عليهم أَرْبَعُ شهادات.

(١) بتخفيف [أَنْ] ورفع ﴿لَعْنَةُ﴾ ولفظ الجلالة مضاف إلى ﴿لعنة﴾.

(٢) بتخفيف [أَنْ]. و[غَضِبَ] فعلٌ ماضٍ، ولفظ الجلالة مرفوع، وهي «أَنْ» المخففة من الثقيلة لمَّا خُفِّفَت حذف اسمها وهو ضمير الشأن.

(٣) كقراءة نافع، وفي قراءة الأعرج بها خلاف، وهي أيضاً قراءة سلام، وعمرو بن ميمون، ويعقوب ـ بخلاف عنه ـ.

(٤) بتخفيف [أَنْ] و[غَضَبُ] مصدر مرفوع.

(٥) البيت للأعشى، وهو في الديوان، ورواية العَجُز فيه «أنْ ليسَ يَدْفَعُ عن ذي الحِيلَةِ الحِيَلُ»، وهو أيضاً في العيني، وابن يعيش، وخزانة الأدب، والخصائص لابن جنِّي، والمنْصف، والإنصاف، وابن الشجري، والهمع، وفي كتاب سيبويه، استشهد به أكثر من مرة. وهو من قصيدة الأعشى المعروفة التي بدأها بقوله:

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ ... وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ؟

يقولها ليزيد بن مسهر الشيباني. والشاعر في البيت وما قبله وبعده يتحدث عن أصدقائه ويصفهم بأنهم كالسيوف الهندية مضاءً وعزيمة، او استقامة ورشاقة، وأنهم يعلمون أن الحياة فانية، وكل من عليها ذاهب، ولهذا فهم يقبلون على اللذات. والشاهد في البيت تقدير ضمير الشأن، وهذا ما عناه ابن عطية حين قال: «وهذا على إضمار الأمر، وهي الخفيفة»، فـ«أَنْ» في البيت مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، والجملة بعدها هي الخبر، قال ابن الحاجب في شرح المفصل: «لولا أن ضمير الشأن مقدر هاهنا لم يستقم تقدير الخبر، فالذي سوَّغ تقدير الخبر كون الجملة واقعة خبراً لا كون «أَنَّ» بطل عملها فصار ما بعدها مبتدأ وخبراً؛ لأنهم يعتبرون مع التخفيف ما يعتبرونه مع التشديد من امتناع تقديم خبرها».

الفِعْل، قال أَبو علي: وأَهل العربية يستقبحون أَن يليها الفعل إلا أَن يفصل بينها وبينه شيءٌ نحو قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾[٢]، وأَما قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[٣] فذلك لقلة تمكن «لَيْسَ» في الأَفعال، وأَما قوله تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾[٤] فـ﴿بُورِكَ﴾ على معنى الدعاء فلم يجز دخول الفاصل لئلا يفسد المعنى[٥].

و«ٱلْعَذَابُ ٱلْمُدْرَأُ» في قول العلماءِ: الحدُّ، وحكى الطبري عن آخرين أَنه الحبس، وهذا قول أَصحاب الرأْي، وأَنه لا حدَّ عليها إِن لم تُلاعن، وليس يوجبه عليها قول الزوج.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وظاهر الحديث الوقفة في الخامسة حين تلكأَت ثم مرت في لعانها أَنها كانت تحدُّ لقول النبي ﷺ لها: «فعذاب الدنيا أَيسر من عذاب الآخرة»[٦].

وجُعلت اللعنةُ للرجل الكاذب لأَنه مُفْتر مباهت بالقول فأُبعد باللَّعنة، وجُعل الغضب الذي هو أَشَدُّ على المرأَة التي باشرت المعصية بالفعل ثم كذبت وباهتت بالقول، فهذا معنى هذه الأَلفاظ، والله أَعلم.

ولا بُدَّ أَن نذكر في تفسير هذه الآية ما يتعلق بها من مسائل اللعان إِذ لا يستغنى عنها في معرفة حكمه وحيث يجب، وأَجمع مالك وأَصحابه على وجوب اللعان بادعاءِ رؤْية زنى لا وطءَ بعده من الزوج[٧]، وكذلك مشهور المذهب، وقول مالك أَنَّ اللعان

---

(١) من الآية (٢٠) من سورة (المزمل).

(٢) من الآية (٨٩) من سورة (طه).

(٣) من الآية (٣٩) من سورة (النجم).

(٤) من الآية (٨) من سورة (النمل).

(٥) علَّق أبو حيان في «البحر المحيط» على هذا بقوله: «ولا فرق بين ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ﴾ و﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ في كون الفعل بعد [أَنْ] دعاءً، ولم يتبيَّن ذلك ابن عطية، وبكون ﴿غَضِبَ﴾ دعاءً مثَّل النحاةُ أنه إذا كان الفعل دُعاءً لا يفصل بينه وبين (أَنْ) بشيء».

(٦) راجع حديث هلال بن أُمية الذي رمى زوجته بشَريك بن السحماء، وقد سبق، وفيه أن المرأة تلكأت عند الخامسة حين قيل لها: إنها موجبة حتى ظن السامعون أنها ستراجع، ثم مضت في شهادتها وقالت: لا أفضح قومي بقية اليوم.

(٧) أي يقول بعد أن يشهد بأنه رآها تزني: «وما وطئتُها بعد رؤيتي».

يجب بنفي حَمْل يدعى قبله استبراءٌ، وحكى اللخمي عن مالك أنه قال مرة: لا يُنفى الولد بالاستبراءِ لأَن الحيض يأتي على الحَمْل، وقاله أَشهب في كتاب ابن المواز، وقاله المغيرة، وقال: لا يُنْفَى الولد إلاَّ بخمس سنين(١).

واختلف المذهب في أَن يقذف الرجل أَو ينفي حملاً ولا يُعَلِّل ذلك لا برؤْيَة ولا باستبراء ـ فَجُلُّ رُواة مالك على أَن ذلك لا يوجب لعاناً، بل يُحَدُّ الزوج، قاله ابن القاسم، ورُوي عنه أيضاً أَنه قال: يلاعن ولا يُسأَل عن شيءٍ(٢).

واختُلف ـ بعد هذا القول باللعان بالاستبراء ـ في قدر الاستبراء، فقال مالك، والمغيرة ـ في أَحد قوليه ـ: يجزي في ذلك حَيْضَةٌ، وقال أيضاً مالك: لا ينفيه إلا ثلاث حِيَض(٣).

وأَما موضع اللعان ففي المسجد وعند الحاكم، والمستحب أَن يكون في المسجد بحضرة الحاكم، وكذلك يستحب [أَن يكون](٤) بعد العصر تغليظاً بالوقت، وكل وقت مُجْز.

ومن قذف امرأَته وهي كبيرةٌ لا تحمل تَلاَعَنا، هو لِرَفْع الحدِّ، وهي لِدَرْءِ العذاب، وإِن كانت صغيرة لا تحمل لاَعَن هو لرفْع الحدِّ، ولم تلاعن هي لأَنها لو أَقرت لم يلزمها شيءٌ(٥)، وقال ابن الماجشون: لا حدَّ على قاذف من لم تبلغ، قال اللَّخميُّ: فَعَلَى هذا لا لعان على زوج الصغيرة التي لا تحمل.

والمستحب من أَلفاظ اللعان أَن يمشي مع ترتيب القرآن ولفظه، فيقول الزوج:

---

(١) لأن هذه السنين هي أكثر مدة الحمل كما يرى فقهاء المالكية.

(٢) يرى القرطبي أن هذا هو الصحيح لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾، ويقول ابن العربي: «وظاهر القرآن يكفي لإيجاب اللعان بمجرد القذف من غير رؤية، فَلْتُعَوِّلوا عليه، لا سيَّما وفي الحديث الصحيح: أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً؟ فقال النبي ﷺ: «فاذهب فأت بها»، ولم يكلِّفه ذكر الرؤية».

(٣) قال في اللسان: «الحَيْضَةُ: المرة الواحدة من دُفع الحيض ونُوَبه، والحَيْضات جماعة، والحِيَضَةُ: الاسم ـ بالكسر ـ، والجمع الحِيَض، وقيل: الحِيَضَةُ الدَّمُ نفسه، وفي حديث أُم سَلَمة «لَيْسَت حِيضَتُك في يدك».

(٤) ما بين العلامتين زيادة يحتاج إليها التعبير ليكون أوضح.

(٥) لأن البلوغ شرط من شروط التكليف.

أَشهد بالله لرأَيت هذه المرأَة تزني[١]، وإِنّي في ذلك لمن الصادقين، ثم يقول في الخامسة: لعنةُ الله عليَّ إِن كنت من الكاذبين، وقال أَصبغ: لا بُدَّ أَن يقول: «كالمِرْود في المُكْحَلة»، وقيل: لا يلزمه ذلك، وكذلك يقول أَشهب: لا بُدَّ أَن يقول: بالله الذي لا إله إلاَّ هو، وأَما في لعان نفي الحمل فقيل: يقول الرجل ما هذا الولد منِّي ولَزَنت، وقال ابن القاسم في الموازية: لا يقول «وَزَنَت» من حيث يمكن أَن تغضب، ثم تقول: غَضَبُ الله عليَّ إِن كان من الصادقين، فإِن منع جهلهما من ترتيب هذه الأَلفاظ وأَتيا بما في معناها أَجزأَ ذلك.

وحكى اللَّخمي عن محمد بن أَبي صفرة أَنه قال: اللعان لا يرفع العصمة لقول عويمر: كذبت عليها يا رسول الله إِنْ أَمسكتها، قال: (فأَحْدثْ طلاقاً)، ومشهور المذهب أَن نفس تمام اللعان بينهما فرقة، ولا يحتاج معها إِلى تفريق حاكم، وابن أَبي صفرة هذا ليس بعدد[٢] يُزاحم به الجمهور. ومذهب الشافعي أَن الفرقة حاصلة إِثر لعان الزوج وحده، وقال أَبو حنيفة وأَصحابه: لا تفريق إِلا بحكم السلطان بعد تمام لعانهما، فإِن مات أَحدهما بعد تمام لعانهما وقبل حكم القاضي ورثه الآخر، ومذهب «المدونة» أَن اللعان حكم تفريقه حكم الطلاق، ويعطى لغير المدخول بها نصف الصداق، وفي مختصر ابن الجلاب: لا شيء لها، وهذا على أَن تفريق اللعان فسخٌ، وقال ابن القصار: تفريق اللعان عندنا فسخ.

وتحريم اللعان أَبديٌّ بإِجماع فيما أَحفظ من مذهب مالك رحمه الله، ومن فقهاءِ الكوفة وغيرهم من لا يراه متأَبِّداً، وإِن أَكذب نفسه بعد اللعان لم ينتفع بذلك، وروي عن عبد العزيز بن سلمة أَنه إِن أَكذب نفسه بعد اللعان كان خاطباً من الخطاب. وإِن تقدمت المرأة في اللعان فقال ابن القاسم: لا تعيد، وقال أَشهب: تعيد[٣].

والجواب في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ الآية محذوفٌ، تقديره:

---

(١) يقتضي كلامه السابق أنَّ عليه أنْ يقول بعد ذلك: «وما وطئتُها بعد رؤيتي».

(٢) في بعض النسخ: «ليس بعود»، المراد هنا أنه فردٌ وليس بذي منزلة كبيرة يكون له معها رأيٌ يقابل رأي الجمهور.

(٣) من رأي القرطبي أن البدءَ بالمرأة لا يجوز لأنه خلاف القرآن، وليس له أصل يُرَدُّ إليه ولا معنى يُقوَّى به، بل المعنى لعدم الجواز؛ لأن المرأة إذا بدأت باللعان تكون كأنها تنفي ما لم يثبت، وهذا لا وجه له.

لَكَشَفَ الزناة بأَيسر من هذا، أَو لأَخذهم بعقاب من عنده، ونحو هذا من المعاني التي أَوجب تقديرها إِبهامُ الجواب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

هذه الآية وما بعدها إِلى ست عشرة آية أُنزلت في عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها وما اتصل بذلك من أَمر الإفك، وفي البخاري في غزوة بني المصطلق عن عائشة رضي الله عنها قالت: وأَنزل الله تعالى العشر الآيات، ثم أَنزل الله هذا في براءتي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فكأَنها عدت ما يختص بها.

و«الإِفْكُ»: الزُّور والكذب، والأَفَّاكُ الكذَّابُ، والإِفك قلب الحقيقة عن حالها بالأَقوال وصرفها عن جهة الصواب، وبذلك شبه بالكذب.

واختصار حديث الإِفك أَن رسول الله ﷺ خرج بعائشة رضي الله عنها معه في غزوة بني المصطلق، وهي غزوة المريسيع[١]، قال ابن إِسحاق: وكانت سنة ستٍّ، وقال موسى بن عقبة: كانت سنة أَربع[٢]، فضاع لها هناك عقد، فلما انصرفت إِلى الرحل شعرت بضياعه فرجعت تطلبه، وسار الناسُ حينئذ، فوجدته وانصرفت فلم تجد أَحداً، وكانت شابة قليلة اللحم رفع الرجال هودجها ولم يشعروا بزوالها، فلما لم تجد أَحداً اضطجعت في مكانها رجاءَ أَن تُفتقد فيُرجع إِليها، فنامت في الموضع ولم يوقظها إِلاَّ قول صفوان بن المعطل: إِنَّا لله وإِنا إِليه راجعون، وذلك أَنه تخلف وراءَ الجيش لحفظ

---

(١) هو ماءٌ لبني المصطلق يقال له: المُرَيْسِيع، وهو من ناحية قُدَيْد إلى الساحل، وقد لقيهم الرسول ﷺ على هذا الماء فسميت الغزوة باسمه.

(٢) وقيل: بل كانت سنة خمس، قال الحاكم في «الإكليل»: وهذا أشبه من قول ابن إسحق، ويؤيد هذا ما ثبت في حديث الإفك من تنازع كل من سعد بن معاذ الأنصاري وسعد بن عبادة في أصحاب الإفك، ولو كانت غزوة المُرَيْسيع سنة ست كما قال ابن إسحق لكان ذكر سعد بن معاذ في حديث الإفك خطأً؛ لأنه مات أيام قريظة سنة خمس على الصحيح. هذه حجة من قال إنها كانت سنة خمس، واعتمد على ذكر ابن معاذٍ في مسلم والبخاري، أما ابن إسحاق الذي ذكر أنها كانت سنة ست فلا يذكر سعد بن معاذ، بل يذكر أُسيد بن حُضَير على أنه هو الذي وقع بينه وبين سعد بن عبادة نزاع.

الساقة، وقيل: اتفاقاً، فلما مرَّ بسوادها قرب منها فعرفها فاسترجع وقال: ظعينة رسول الله ﷺ خُلِّفت هاهنا؟ ونزل عن ناقته وتنحَّى عنها حتى ركبت عائشة رضي الله عنها، وأَخذ يقودها حتى بلغ بها الجيش في نحْر الظهيرة، فوقع أَهل الإِفك في مقالتهم، وكان الذي يُجتمع إِليه فيه ويَسْتَوْشِيهِ[١] ويُشْعله عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول المنافق، وكان من أَهل قالته حسان بن ثابت، ومسْطَح بن أُثاثة، وحَمْنَةُ بنت جحش، هذا اختصار الحديث، وهو بكماله وإِتقانه في البخاري ومسلم، وهو في مسلم أَكمل[٢].

وكان صفوان صاحب ساقة رسول الله ﷺ في غزواته لشجاعته، وكان من خيار الصحابة، قال لمَّا سمع ما قال الناسُ فيه: «سبحان الله، والله ما كشفت كَنف[٣] أُنثى قط، أَراد: بِزنَى[٤]، ويدل على ذلك حديثه المروي مع امرأَته، وقول النبي ﷺ في ابنَيْه: «لَهُمَا أَشْبه به من الغراب بالغراب»[٥]، وقيل: كان حصوراً لا يأْتي النساءَ، ذكره

(١) يَسْتَوْشِيه: يستخرجه بالبحث والسؤال عنه ثم يُفشيه ويشيعه وينشره في الناس.

(٢) حديث الإفك مشهور، وهو حديث طويل، وقد رواه البخاري في غزوة بني المصطلق، ورواه مسلم في كتاب التوبة، وذكر الإمام السيوطي في «الدر المنثور» أن من رواته أحمد في مسنده، والترمذي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، وهو عن عائشة رضي الله عنها. وقد نقل ابن كثير في تفسيره حديث الإفك عن الإمام أحمد وعن البخاري ومسلم، كذلك ذكر الحديث مطولاً الإمام الحافظ ابن حجر في كتاب «فتح الباري».

(٣) الكَنَف: جانب الشيء، وكنفا الإنسان: حِضْناه عن يمينه وشماله. «المعجم الوسيط»، وقد ورد في بعض الكتب «كتف» بالتاء.

(٤) جاء في حديث الإفك ما يأتي على لسان السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها: «وبلغ الأمرُ ذلك الرجل الذي قيل له، فقال: سبحان الله، والله ما كشفْتُ كَنَفَ أُنثى قط» وهذا يتفق مع ما قاله ابن إسحاق من أن صفوان كان حصوراً لا يأتي النساء، ولكن ذلك يتناقض مع ما رواه أبو داود من طريق أبي صالح عن أبي سعيد، قال: «جاءت امرأة صفوان إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن زوجي صفوان يضربني. . .» فكيف تكون له زوجة ويقول: ما كشفت كنف امرأة قط؟ يجيب ابن عطية عن هذا بقوله: «أراد بزنى» يعني: لم أكشف كنف امرأة في زنى، أما الحلال فلم ينفه، وقد أورد البخاري هذا الإشكال قديماً، ومال إلى تضعيف حديث أبي سعيد عن قصة امرأته وضربه لها، وأجاب صاحب «الإصابة» بقوله: إنه تزوج بعد قصة الإفك، أما عند قصة الإفك فلم يكن قد كشف كنف امرأة قط، وهو صادق في يمينه.

(٥) هذا جزءٌ من حديث رواه البخاري في كتاب اللباس، وهو عن رفاعة الذي طلَّق امرأته فتزوجها عبد الرحمن بن الزبير القرظي، وشكت المرأة أن زوجها الجديد ليس معه إلا مثل هدبة الثوب، وكذَّبها=

ابن إسحاق من طريق عائشة رضي الله عنها، وقُتل شهيداً رضي الله عنه في غزوة أرمينية سنة تسع عشرة في زمن عمر رضي الله عنه، وقيل: في بلاد الروم سنة ثمان وخمسين في زمن معاوية.

وقوله تعالى: ﴿عُصۡبَةٞ﴾ رفع على البدل من الضمير في ﴿جَآءُو﴾، وخبر ﴿إِنَّ﴾ في قوله سبحانه: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ﴾، والتقدير: إنَّ فِعْلَ الذين، وهذا أنسق في المعنى وأكثر فائدة من أن تكون ﴿عُصۡبَةٞ﴾ خبراً، و«العُصْبَةُ»: الجماعة من العشرة إلى الأربعين، قاله يعقوب وغيره، ولا يقال عُصبة لأقل من عشرة، ولم يُسم من أهل الإفك إلاَّ حسان، ومِسْطَح، وحَمْنَة، وعبد الله[1]، وجُهل الغير، قاله عروة بن الزبير وقد سأله عن ذلك عبد الملك بن مروان، وقال: إلاَّ أنهم كانوا عصبةً كما قال الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ﴾ خطاب لكلِّ من ساءَه من المؤمنين، وقوله: ﴿بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ يريد أنه تَبْرِئة في الدنيا، وترفيع من الله تبارك وتعالى في أن نزل وحيه بالبراءَة من ذلك، وأجر جزيل في الآخرة، وموعظة للمؤمنين في غابر الزمن، ونقمة من المفترين في الدنيا والآخرة ففي ذلك شفاءٌ وخير، وهذه خمسة وجوه. وقوله: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ عائد على العصبة المذكورة، و«ٱكۡتَسَبَ» مستعملة في المآثم ونحوها لأنها تدل على اعتمالٍ وقصد هو أبلغ في الترتيب، و«كَسَبَ» مستعملٌ في الخير، وذلك أن حصوله مُغْنٍ عن الدلالة على اعتمالٍ فيه، وقد تستعمل «كَسَبَ» في الوجهين، ومِثْلُهُ:

. . . . فَحَمَلْتُ بَرَّةَ وَٱحْتَمَلْتَ فَجَارِ[2].

= زوجها وقال إنها ناشز وتريد العودة إلى رفاعة، وكان معه ابنان له من غيرها، فقال لها النبي ﷺ: «هذا الذي تزعمين ما تزعمين، فوالله لهما أشبه به من الغراب بالغراب»، ولم نقف على مثل هذا النص من حديث عن صفوان إلاَّ هذه الفقرة التي ذكرها المؤلف، ونقلها عنه القرطبي فيما نقل، وهي أيضاً في كتاب الإصابة، والله أعلم بالصواب.

(١) وقد ضرب النبي ﷺ حسان، ومسْطحاً، وحَمْنَة بعد أن برأ القرآن الكريم عائشة رضي الله عنها، فقد أقام عليهم حدَّ القذف، واختلف هل أُقيم الحدُّ على عبد الله بن أُبي بن سلول أم لا، ومِسْطح لقبٌ، واسمه عوف. وحَمْنة هي أُخت زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ.

(٢) هذا عجز بيت للنابغة الذبياني، والبيت بتمامه:

إِنَّـــا اقْتَسَمْنَـــا خُطْتَيْنَـــا بَيْنَنَـــا ... فَحَمَلْــتُ بَــرَّةَ وَاحْتَمَلْــتَ فَجَــارِ

وهو من قصيدة قالها النابغة في هجاءِ زرْعَة بن عمرو بن خويلد الكلابي، لأن زرْعة كان قد طلب إلى النابغة أن يشير على قومه بقتال بني أسد، فأبى النابغة فتوعده زرْعة، فقال النابغة قصيدته وفيها: =

والإشارة بقوله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ إلى عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول، والعذابُ المتوعَّد به هو عذاب الآخرة، وهذا قول الجمهور، وهو ظاهر الحديث، ورُوي عن عائشة رضي الله عنها أن حسَّان بن ثابت دخل عليها يوماً وقد عَمِيَ فأنشدها مدحه فيها:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُوم الغَوَافِلِ(١)

فقالت له عائشة رضي الله عنها: لكنك لستَ كذلك، تريد أنه وقع في الغوافل فأنشد:

فَإِنْ كَانَ مَا قَدْ قِيلَ عَنِّي قُلْتُهُ ... فَلاَ رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ أَنَامِلِي(٢)

فلما خرج قال لها مسروق: أَيدخل هذا عليك وقد قال ما قال وتوعَّده الله بالعذاب على تولِّيه كِبْر الإفك؟ فقالت عائشة رضي الله عنها: أَيُّ عذاب أَشد من العمى وضرب الحدِّ؟ وفي رواية: وضربة بالسيف؟

= نُبِّئْتَ زرعَةَ والسَّفَاهَةُ كاسْمِها ... يُهْدِي إِلَيَّ غَرَائِبَ الأَشْعَارِ

وقد استشهد صاحب اللسان بالنصف الثاني أيضاً من البيت، وقال: «عبَّر عن البَرَّةِ بالحَمْل، وعن الفُجْرة بالاحتمال؛ لأن حَمْل البَرَّة بالإضافة إلى احتمال الفجرة أمْرٌ يسير ومستصغر، ومثله قول الله عزَّ اسمه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾. وبرَّة عَلَم لِلْبرِّ، وفَجَار عَلَم على الفجور، وهو مبني على الكسر، وقد قيل: إن (احْتَمَل) بمعنى (حَمَل)، وأصله مطاوع (حَمَّلَهُ) فاحتمل، ولكن تُنوسي معنى المطاوعة بكثرة الاستعمال فصار بمعنى حَمَل، والنابغة يقول لزرعة: لقد ذهب كل منها بحظه ونَصيبه في الحياة، فذهبتُ أنا بالخَيْر والبرِّ، وذهبتَ أنت بالشرِّ والفجور.

(١) سبق الاستشهاد بهذا البيت في هذه السورة عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾. راجع صفحة (٣٤٠).

(٢) هذا بيت آخر من الأبيات التي قالها حسَّان بن ثابت في مدح أُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وهو في هذه الآيات يعتذر عمَّا كان منه، وقد رواها ابن إسحاق وتجدها في السيرة النبوية لابن هشام، وهذه هي الأبيات كما رواها، وتختلف في عددها وترتيب الأبيات فيها عما في الديوان:

حَصَانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بِريبَةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِن لُحوم الغَوافِلِ
عَقيلَةُ حَيٍّ مِنْ لُؤَيِّ بنِ غالِبٍ ... كِرَامِ المَسَاعِي مَجْدُهُمْ غَيرُ زَائِلِ
مُهَذَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ الله خِيمَهَا ... وَطَهَّرَها مِن كُلِّ سُوءٍ وَبَاطِلِ
فإن كُنتُ قد قلتُ الذي قد زَعَمْتُمُوا ... فَلاَ رَفَعَتْ سَوطِي إلَيَّ أَنامِلي
وكيفَ وَوُدِّي ما حَيِيتُ ونُصْرَتي ... لآلِ رسولِ الله زَيْنِ المَحَافِلِ
لَهُ رَتَبٌ عالٍ على الناس كُلِّهِمْ ... تَقَاصَرُ عَنْهُ سَوْرَةُ المُتَطَاوِلِ
فإنَّ الذي قد قيلَ لَيْسَ بِلائِطٍ ... ولكنَّه قَوْلُ امْرِىءٍ بِي ماحِلِ

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فأَمَّا قوله عن الحدِّ فإن حسَّان ومِسْطحاً وحَمْنة حُدُّوا، ذكر ذلك ابن إسحاق، وذكره الترمذي، وفي تفسير ابن عباس رضي الله عنهما أَن ابن أُبيٍّ حُدَّ، وهذا عندي لا يصح عن ابن عباس رضي الله عنهما لأنه لم يُحْفَظ عن عبد الله الرَّمْيُ، قال عروة في البخاري: «أُخبرتُ أَنه كان يُشاع ويُتحدَّث به عنده فيُقِرُّهُ ويَسْتمعه ويستوشيه»(١).

وأَما ضربة السيف فإن صفوان بن المعطل لما بلغه قول حسَّان في الإفك جاءَ فضربه بالسيف ضربةً على رأسه، وقال:

تَلَـقَّ ذُبَـابَ السَّيْـفِ عَنِّـي فَـإِنَّنِـي ... غُـلَامٌ إِذا هُـوجِيـتُ لَسْـتُ بِشَـاعِـرِ

فأَخذ جماعةٌ صفوان ولَبَّبُوه وجاؤوا به رسول الله ﷺ، فأَهدر رسول الله ﷺ جرح حسَّان واستوهبه إِيَّاه، وهذا يقتضي أَن حسَّان ممن تولَّى الكِبْرَ(٢).

وقد قال قوم: الإشارة بـ﴿ٱلَّذِى﴾ إلى البادىء بهذه الفرية والذي اختلقها، فلكُلِّ أَحد منهم ما اكتسب، وللبادىء المفتري عذابٌ عظيم، وهو ـ على هذا ـ غير معين، وهذا قول الضحاك، والحسن، وقال ابن زيد وغيره: هو عبد الله بن أُبيٍّ.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿كِبْرَهُۥ﴾ بكسر الكاف، وقرأَ حميد الأَعرج، ويعقوب الزهري، وأَبو رجاءٍ، والأَعمش، وابن أَبي عبلة: [كُبْرَهُ] بضم الكاف، وهما

(١) أورد البخاري ذلك في حديث الإفك، وذكر بعده عن عُروة أيضاً قوله: «لم يُسَمَّ من أهل الإفك أيضاً إلاَّ حسَّان بن ثابت، ومِسْطح بن أُثاثة، وحَمْنَةُ بنت جحش في ناسٍ آخرين لا علم لي بهم غير أنهم عُصبة كما قال الله تعالى». والكلام من أول قول ابن عطية: «وذكره الترمذي...» إلى آخر ما نقله عن عروة سقط من أكثر النسخ المخطوطة.

(٢) قصة ضرب صفوان لحسان بالسيف ذكرها ابن إسحق في السيرة، وفيها أن ثابت بن قيس بن الشَّماس وثب على صفوان بن المعطَّل حين ضرب حسَّان، فجمع يديه إلى عنقه بحبل، ثم انطلق به إلى دار بني الحارث بن الخزرج، فلقيه عبد الله بن رواحة، فقال: ما هذا؟ قال: ما أُعجِبُكَ، ضرب حسان بالسيف، والله ما أراه إلا وقد قتله، قال له عبد الله بن رواحة: هل علم رسول الله ﷺ بشيءٍ مما صنعت؟ قال: لا والله، قال: لقد اجترأت، أطْلق الرجل، فأطلقه، ثم أتوا رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له، فدعا حسَّان وصفوان، فقال ابن المعطَّل: يا رسول الله، آذاني وهجاني فاحتملني الغضب فضربته، فقال رسول الله ﷺ لحسان: أحْسِنْ يا حسَّان، أتَشَوَّهتَ على قومي أن هداهم الله للإسلام، أحسِنْ يا حسَّانُ في الذي أصابك، قال: هي لك يا رسول الله. قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن إبراهيم أن رسول الله ﷺ أعطاه عوضاً منها بيرحاءَ.

مصدران، من كبر الشيءِ وعظمه، ولكن استعملت العرب ضم الكاف في السِّن، تقول: هذا كُبْر القوم، أي كبيرهم سناً ومكانة، ومنه قول النبي ﷺ في قصة حُوَيِّصَة ومُحَيِّصة: «الكُبْرَ»(١) ومن استعماله في المعنى الثاني قول ابن الخطيم:

تنـامُ عَـنْ كُبْـرِ شَـأْنِهـا فـإذا قَـامَـتْ رُوَيْـداً تَكَـادُ تَنْغَـرِفُ(٢).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

الخطاب بهاتين الآيتين لجميع المؤمنين حاشا من تولَّى الكِبْر، ويحتمل دخولهم في الخطاب، وفي هذا عتاب للمؤمنين، أي: كان الإنكار واجباً عليهم، والمعنى أنه كان ينبغي أن يقيس فضلاءُ المؤمنين والمؤمنات الأمر على أنفسهم، فإذا كان ذلك يبعد فيهم فكانوا يقضون بأنه في صفوان وعائشة أبْعَدُ لفضلهما رضي الله عنهما، وروي أن هذا النظر السديد وقع من أبي أيوب الأنصاري وامرأته، وذلك أنه دخل عليها فقالت

(١) أخرجه البخاري في الأدب، ومسلم في القسامة، والترمذي في الديات، والنسائي في القسامة، والدارمي في الفرائض، ولفظه كما في البخاري، عن رافع بن خديج وسهل بن أبي حَثْمة، أن عبد الله بن سهل، ومُحَيِّصَة بن مسود أتيا خيبر، فتفرقا في النخل، فقُتل عبد الله بن سهل فجاء عبد الرحمن بن سهل، وحُوَيِّصَة ومُحَيِّصة ابنا مسعود إلى النبي ﷺ، فتكلموا في أمر صاحبهم، فبدأ عبد الرحمن ـ وكان أصغر القوم ـ، فقال النبي ﷺ: كَبِّر الكُبْرَ، قال يحيى: لِيَلِي الكلامَ الأكبرُ، فتكلموا في أمر صاحبهم، فقال النبي ﷺ: أتَسْتَحِقُّونَ قتيلكم ـ أو قال صاحبكم ـ بأيمان خمسين منكم؟ قالوا: يا رسول الله، أمر لم نَرَهُ، قال: فَتُبَرِّئُكم يهود في أيمان خمسين منهم، قالوا: يا رسول الله، قوم كفار، فَوَدَاهم رسول الله ﷺ من قِبله.

(٢) قال ابن الخطيم هذا البيت من الشعر في حرب كانت بين قومه وبين بني خطمة، وهو في الديوان، وخبر هذه الحرب في الأغاني وفي الخِزانة، والبيت مع أبيات قبله في وصف امرأة نشأت في نعمة ورفاهية، فهي لا تعمل، وهي تنام عن معظم شأنها لأنها ليست في حاجة إلى العمل، إذ لها من الخدم من يُغنيها عن ذلك، حتى إذا قامت قامت في سكون وضعف. وتنغرف: تسقط، يقال: انْغرف الغصن من الشجرة إذا انقطع، ورويت: (تكاد تنعطف)، كما رويت: (تنقصف) أي: تنكسر لرقَّة خصرها وثقل ردفها. ورويداً معناه: برفق ودعة وتكاسل، وهو منصوب على الحال، أو صفة لموصوف محذوف، والتقدير: قياماً رويداً. والبيت شرحه ابن السِّكيت في كتابه «إصلاح المنطق»، والبطليوسي في «الاقتضاب»، وروي «تمشي رويداً»، وفي الحماسة البصرية: «قامت تَمَشَّى»، وهو في «المحتسب» لابن جني كما رواه هاهنا.

له: يا أَبا أَيوب أَسمعت ما قيل؟ قال: نعم، وذلك الكذب، أَكنت أَنت يا أُمَّ أَيوب تفعلين ذلك؟ فقالت: لا والله، قال: فعائشة والله أَفضل منك، قالت أُمَّ أَيوب: نعم[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فذلك الفعل ونحوه هو الذي عاتب الله المؤمنين [عليه][٢] إِذ لم يفعله جميعهم، والضمير في قوله: ﴿جَآءُو﴾ لأُولئك الذين تولوا الكبر، وإِذا كانوا عند الله كذبة فهي الحقيقة فيهم، وعند هذا حُدُّوا، ولم يُرْوَ في شهير الدواوين أَن عبد الله بن أُبيٍّ حُدَّ، ويشبه أَن ذلك لم يكن لأَنه لم تقم عليه بالمقالة بينة لنفاقه وتستُّره، وإِنما كان يخوض فيه مع من يذيعه ولا يسأَل عن شهادته كما قال عروة في البخاري: «وأُخبرت أَنه كان يُقرُّه ويستوشيه».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولكن النبي ﷺ استعذر منه على المنبر، ووقذه بالقول، ووقع في أَمره بين الأوس والخزرج ما هو مطوَّل في مسلم في حديث الإِفك[٣].

---

(١) أخرجه ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر، عن بعض الأنصار، ذكر ذلك الإمام السيوطي في «الدر المنثور»، وذكر أيضاً أنه أخرجه الواحدي، وابن عساكر، والحاكم، عن أفلح مولى أبي أيوب الأنصاري.

(٢) ما بين العلامتين غير موجود في الأصول، كذلك نقل القرطبي كلام ابن عطية هذا بدون كلمة ابن عطية هذا بدون كلمة (عليه).

(٣) في حديث الإفك كما رواه البخاري ومسلم وغيرهما قالت عائشة رضي الله عنها: «فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أُبي وهو على المنبر، فقال: يا معشر المسلمين، من يَعْذِرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي؟ والله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلي إلا معي، فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل فقال: أنا يا رسول الله ﷺ أعذرك، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام رجل من الخزرج ـ وكانت أُم حسان بنت عمِّه من فخذه ـ وهو سعدُ بنُ عُبادة، وهو سيد الخزرج، قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد: كذبت لَعَمْرُ الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل، فقام أُسيد بن حُضَيْر ـ وهو ابن عم سعد ـ فقال لِسَعد بن عُبادة: كذبت لَعَمْرُ الله لَنَقْتُلَنَّه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، قالت: فثار الحيّان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يخَفِّضُهم حتى سكتوا وسكت»، وابن عطية يشير إلى ذلك على أنه السبب=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

هذا عتاب من الله تعالى بليغ، ذكر أَن حالتهم التي وقع فيها جميعهم من تعاطيهم الحديث وإن لم يكن المُخبِر ولا المُخبَر مصدِّقين، ولكن نفس التعاطي والتَّلقِّي من لسان إلى لسان والإفاضة في الحديث هو الذي وقع العتاب فيه.

وقرأ محمد بن السَّميفَع: [إذْ تُلْقُونَهُ] بضم التاءِ وسكون اللام وضم القاف، من الإلقاء، وهذه قراءَة بيِّنَةٌ، وقرأ أُبيُّ بن كعب، وابن مسعود: [إذْ تتَلقَّوْنَهُ] من التلقي بتاءَين، وقرأ جمهور السبعة: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ بحذف التاءِ الواحدة وإظهار الذال دون إدغام، وهو أيضاً من التلقِّي، وقرأ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [إذ تَّلقَّوْنَهُ] بإدغام الذال في التاءِ، وقرأ ابن كثير: [إذْ تَّلقَّوْنَهُ] بإظهار الذال وإدغام التاءِ في التاءِ، وهي قراءَة قلقة لأَنها تقتضي اجتماع ساكنين، وليست كالإدغام في قراءَة من قرأَ: [فَلاَ تَّناجَوْا][1]. ﴿وَلَا تَّنَابَزُوا﴾[2] لأَن لدونة الأَلف الساكنة وكونها حرف ليِّن حسَّنت هنالك ما لا يحسن مع سكون الذَّال، وقرأ ابن يَعْمر وعائشة رضي الله عنها ـ وهي أَعلم الناس بهذا الأَمر ـ: [إذْ تَلِقُونَهُ] بفتح التاءِ وكسر اللام وضم القاف، ومعنى هذه القراءَة من قول العرب: «وَلَقَ الرَّجلُ ولَقاً» إذا كذب، قال ابن سيدة في «المحكم»: «قرىء: [إذْ تَلِقُونَهُ]، وحكى أَهل اللغة أَنها من وَلَق إذا كذب، فجاؤوا بالمتعدي شاهداً على غير المتعدي، وعندي أَنه أَراد: إذْ تَلِقُونَ فيه، فحذف حرف الجر ووصل الضمير»[3]،

= في عدم إقامة الحدِّ على عبد الله بن أُبي لعنه الله.

(١) من قوله تعالى في الآية (٩) من سورة (المجادلة): ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوْا بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾.

(٢) من قوله تعالى في الآية (١١) من سورة الحجرات: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾.

(٣) نقل القرطبي كلام ابن عطية من أول قوله: «وقرأ محمد بن السميفع...» إلى قوله: «ووصل الضمير» ولم ينسبه إلى ابن عطية إلا من أول قوله: «وعندي أنه أراد»، فقد قال: «وقال ابن عطية: وعندي... إلخ» مع أن هذا الكلام الأخير ليس من كلام ابن عطية بل هو من كلام ابن سيدَه، ويدل على ذلك أن اللسان نقل هذا الكلام عن ابن سيده وفيه هذه الجملة (راجع اللسان ـ ولق ـ)، وأيضاً اعتاد ابن عطية =

وحكى الطبريُّ وغيرُه أَن هذه اللفظة مأْخوذة من الْوَلَق الذي هو إِسراعك بالشيءِ بعد الشيءِ، كعَدْو في أَثر عَدْو، وكلام في أَثر كلام، يقال: ولق في سيره إذا أَسرع، ومنه قول الشاعر:

جَاءَتْ بِهِ عَنْسٌ مِنَ الشَّأْم تَلِقْ[1]

وقوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾ مبالغة وإِلْزامٌ وتأْكيد، والضمير في قوله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ﴾ للحديث والخوض فيه والإذاعة له، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ إلى ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عتابٌ لجميع المؤمنين، أَي: كان ينبغي عليكم أَن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأَن تُنَزِّهُوا الله تعالى عن أَن يقع هذا من زوج نبيِّه ﷺ، وأَن تحكموا على هذه المقالة بأَنها بُهتان، وحقيقة البهتان أَن يقال في الإنسان ما ليس فيه، والغِيبة أَن يقال في الإنسان ما فيه. ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة، و﴿أَن﴾ مفعول من أَجله بتقدير: «كراهيةَ أَن» ونحوه. وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ توقيف وتأْكيد، كما تقول: ينبغي لك أَن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلاً. وسائر الآية بيِّن، و﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ صفتان تقتضيهما الآية.

= عندما يكون الكلام أو الرأي له أن يبين ذلك بقوله: «قال القاضي أبو محمد» أو نحو ذلك، ولم أجد مثل هذه الإشارة في الأصول».

(١) هذا بيت من عدَّة أبيات من مشطور الرجز، قالها القُلاخُ بن حَزْن المِنقَرِيُّ، ذكرها صاحب اللسان (زلق)، وهي:

إِنَّ الْجُلَيْـــــدَ زَلِــــقٌ وَزُمَّلِــــقْ
كَــذَنَــبِ الْعَقْــرَبِ شَــوَّالٌ غَلِــقْ
جَــاءَتْ بِــهِ عَنْــسٌ مِــنَ الشَّــأْمِ تَلِــقْ
يُــدْعَــى الْجُلَيْــدَ وَهُــوَ فِينَــا الــزُّمَّلِــقْ
لا آمِــــنٌ جَلِيسُـــــهُ وَلاَ أَنِــــقْ
مُجَـــوَّعُ الْبَطْــنِ كِــلاَبِــيُّ الْخُلُــقْ

ويروى (الحُصَيْن) بدلاً من (الجُلَيْد)، قال صاحب اللسان: وهو خطأ لقوله بعد ذلك: يُدْعَى الْجُلَيْد، والزَّلِقُ: السريع الغضب، والزُّمَّلِقُ: الخفيف الطائش أو الذي يُنزل من مجرد الحديث مع المرأة قبل المباشرة، والغَلِقُ: السيء الخلق، والعَنْس: الناقة القوية، ومعنى (تَلِق): تُسْرِع، وهو الشاهد هنا، فالوَلَقُ بمعنى الإسراع، ومن العجيب أن صاحب اللسان أعاد الاستشهاد بهذه الأبيات في (وَلَق) بمعنى أسرع، لكنه نسبها للشَّماخ، ولم نجدها في ديوانه. وحَذْفُ حرف الجرِّ ووَصْل الضمير الذي نقله ابن عطية عن ابن سيدَهْ أَمر معروف في اللغة، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾، أي: اختار من قومه، فحذف حرف الجر ووصل الضمير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قال مجاهد، وابن زيد: الإشارة بهذه الآية إلى المنافقين، عبد الله بن أُبيٍ ومن أَشبهه، وهي خاصَّةٌ في أَمر عائشة رضي الله عنها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فحبُّهم شِياع[1] الفاحشة في المؤمنين متمكنٌ على وجهه لعدواتهم في أَهل الإِيمان، وعذابُهم الأَليم في الدنيا الحدودُ، وفي الآخرة النارُ.

وقالت فرقة ـ وقولُها هو الأَظهر ـ: الآية عامةٌ في كلِّ قاذفٍ منافقاً كان أَو مؤمناً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والقاذف المؤمن مَنْ لا يتصف بِحُب شِياع الفاحشة في المؤمنين جملة، لكنه يحبها لمقذوفه، وكذلك آخر لمقذوفه، وآخر حتى تشيع الفاحشة من مجموع فعلهم، فهم لها محبون بهذا الوجه من حيث أَحب كل واحد جزءاً من شياعها، والعذاب الأَليم في الدنيا الحُدُود، وفي الآخرة يحتمل وجهين: أَحدهما أَن يكون القاذفُ مُتوعَّداً من بين العُصاة بعذاب في الآخرة لا يزيله الحدُّ حسب مقتضى حديث عبادة بن الصامت[2]، ويكون أَمرُه كأَمر المحاربين إِذا صلبوا، خزيٌ في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب. والوجه الثاني أَن يحكم بأَن الحدَّ مُسْقط عذاب الآخرة حسب حديث عبادة، وأَن قوله: ﴿ وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾

(١) الشِّياع: الظهور والانتشار، يقال: شاع الأمر شَيْعاً وشِياعاً وشيعاناً وشيوعاً وشَيْعُوعَة ومَشيعاً: ظهر وتفرق.

(٢) حديث عُبادة بن الصامت في أن الحدود كفارة لأهلها أخرجه البخاري في الإيمان ومناقب الأنصار والتفسير والحدود والأحكام والتوحيد، وأخرجه مسلم والترمذي في الحدود، والنسائي في البيعة، والدارمي في السير، وأحمد في مسنده (٥/ ٣١٤)، ولفظه كما في مسلم عن عبادة بن الصامت قال: (كنا مع رسول الله ﷺ في مجلس فقال: تبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله عليه فأمره إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذَّبه).

لا يريد به عموم القذفة، بل يريد إمَّا المنافقين وإمَّا من لم يُحَدّ. وقال الطبري: معناه: إن مات مصرّاً غير تائب.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ معناه: يعلم البريءَ من المُذْنب، وسائرَ الأُمور، وَوَجْهَ الحكمة في ستركم والتغليظ في الوعيد والعذاب على قاذفيكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ الآية. جواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه، تقديره: لفضحكم بذنوبكم ولم يستركم، ولعذَّبكم فيما أَفضتم فيه من قول الباطل والبهتان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢١﴾.

هذا الخطاب عام لجميع المؤمنين، و«خُطُوَاتُ» جمع خطوة، وهي ما بين القدمين في المشي، فكأَن المعنى: لا تمشوا في سُبُله وطرقه من الأَفعال الخبيثة. وقال منذر بن سعيد: يجوز أَن يكون «خُطُوات» جمع خَطَأ من الخطيئة وسُهِّلَت الهمزة فنطق بها خطوات. وقرأَ بضم الطاءِ من [خُطُوَات] الجمهورُ، وقرأَ بسكونها عاصم[1]، والأَعمش.

وقرأَ الجمهور: ﴿مَا زَكَىٰ﴾ بتخفيف الكاف، أَي: ما اهتدى ولا أَسلم ولا عرف رشداً، وقرأَ أَبو حيوة، والحسن، والأَعمش: [مَا زَكَّىٰ] بشد الكاف، أَي: تزكيته لكم وتطهيره وهدايته إنما هي بفضله لا بأَعمالكم وتحرُّزكم من المعاصي. ثم ذكر تعالى أَنه يزكِّي من يشاءُ ممن سبقت له السعادة وكان عمله الصالح أَمارة على سبق السعادة له.

ثم أَخبر تعالى بأَنه سميع لجميع أَقوالهم وكلامهم من قذف وغيره، عليم بحق ذلك من باطله، لا يجوز عليه في ذلك وهْمٌ ولا غلط.

---

(١) في راوية أبي بكر عنه، أما رواية حفص فهي بضم الطاءِ كما هي ثابتة في المصحف الشريف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

المشهور من الروايات أَن هذه الآية نزلت في قصة أَبي بكر الصديق ابن أبي قحافة رضي الله عنه ومِسْطَح بن أُثَاثَةَ، وذلك أَنه كان ابن بنت خالته، وكان من المهاجرين البدريِّين المساكين، وهو مِسْطَح بن أُثاثة بن عباد بن المطلب، بن عبد مناف، وقيل: اسمه عوف، ومِسْطح لقب، وكان أَبو بكر رضي الله عنه ينفق عليه لمسكنته، فلما وقع أَمر الإِفك وقال مسْطَح ما قال حلف أَبو بكر رضي الله عنه أَلاَّ ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أَبداً، فجاءَ مِسْطَح فاعتذر وقال: إنما كنت أَغشى مجلس حسَّان فأَسمع ولا أَقول، فقال له أَبو بكر رضي الله عنه: لقد ضحكت وشاركت فيما قيل، ومرَّ على يمينه فنزلت الآية.

وقال الضحاكُ وابن عباس رضي الله عنهما: إِن جماعة من المؤمنين قطعوا منافعهم عن كل من قال في الإِفك وقالوا: والله لا نصل من تكلم في شأْن عائشة، فنزلت الآية في جميعهم. والأَول أَصحُّ، غير أَن الآية تتناول الأُمة إِلى يوم القيامة، بأَلاَّ يغتاظ ذو فضل وسعة فيحلف أَلا ينفع مَن هذه صفته غابر الدهر.

ورأَى الفقهاءُ أَن من حلف أَلاَّ يفعل سُنَّة من السنن أَو مندوباً وأَبَّد ذلك أَنها جرحة في شهادته، ذكره البلخي في المنتفي، ومنه قول النبي ﷺ: «أَيُّكم المُتَأَلِّي على الله لا يفعل المعروف»[1]؟

و﴿ يَأْتَلِ ﴾ معناه: يحلف، وزنها يفتعل، من الأَلية وهي اليمين[2]. وقالت فرقة: معناه: يقصِّر، من قولك: أَلَوْتُ في كذا إِذا قصَّرت فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح، ومسلم في المساقاة، ولفظه كما في البخاري أن عَمْرَةَ بنت عبد الرحمن قالت: سمعتُ عائشة رضي الله عنها تقول: سمع رسول الله ﷺ صوتَ خصوم بالباب عاليةً أصواتهم، وإذا أحدهما يستوضع الآخر ويسترفقه في شيءٍ وهو يقول: والله لا أفعل، فخرج عليهما رسول الله ﷺ فقال: أين المُتَأَلِّي على الله لا يفعل المعروف؟ فقال: أنا يا رسول الله، وله أيّ ذلك أحبَّ.

(٢) ومنه قول عاتكة بنت زيد العدوية ترثي زوجها عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهم:

فَـــآلَيْــتُ لاَ تَنفَــكُّ عَيْنِـــي حَــزِيْنَــةً   عَلَيْــكَ وَلاَ يَنفَــكُّ جِلْــدِي أَغْبَــرَا

خَبَالًا﴾(١)، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: [وَلاَ يَتَأَلَّ]، وهذا وزنه يَتَفَعَّل من الأَلية بلا خلاف، وهي في المصحف «ياءٌ تاءٌ لام» فلذلك ساغ هذا الخلاف لأبي جعفر وزيد فروياه، وذكر الطبري أن خط المصحف مع قراءة الجمهور، فظاهر قوله أَنَّ ثمَّ أَلفاً قبل التاءِ. و«الفَضْلُ والسَّعَةُ» هنا: المالُ، وقوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ الآية تمثيلٌ وحُجَّة، أَي: كما تحبون غفران الله لكم عن ذنوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم، وينظر إِلى هذا المعنى قول النبي ﷺ: «من لا يَرْحَم لايُرْحَم»(٢)، فروي عن أَبي بكر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية أنه قال: «إِنِّي لأُحِبُّ أَن يغفر الله لي»، ورجع إِلى مِسْطح النفقة والإِحسان الذي كان يجري عليه، قالت عائشة رضي الله عنها: «وكفَّر عن يمينه». وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه، وسفيان بن حسين: ﴿وَلْتَعْفُو وَلْتَصْفَحُوا﴾ بالتاءِ من فوق فيهما، ورويت عن النبي ﷺ.

وقال بعض الناس: هذه أَرجى آية في كتاب الله عزَّ وجلَّ من حيث لطف الله تعالى فيها بالقذفة العصاة بهذه اللفظة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإِنما تعطي الآية تفضلاً من الله عزَّ وجلَّ في الدنيا، وإِنما الرجاءُ في الآخرة، أَما إِن الرجاءَ في هذه الآية بقياس، أَي إِذا أَمر أُولي السعة بالعفو، فطرد هذا التَّفضُّل بسعة رحمته لا ربَّ سواه، وإِنما آيات الرجاءِ في قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾(٤)، وسمعت أَبي رحمه الله يقول:

---

(١) من قوله تعالى في الآية (١١٨) من سورة (آل عمران): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾، ومنه قول الشاعر:

وَإِنَّ كَنَائِنِي لَنِسَاءُ صِدْقٍ ... فَمَا آلَى بَنِيَّ وَلاَ أَسَاءُوا

أي: ما قصَّر أبنائي.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، ومسلم في الفضائل، وأبو داود في الأدب، والترمذي في البرِّ، وأحمد في مسنده (٢/٢٢٨، ٢٤١)، ولفظه كما في مسند أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: دخل عُيَيْنَة بن حصن على رسول الله ﷺ فرآه يقبل حَسَناً أو حُسَيناً، فقال له: لا تقبله يا رسول الله، لقد وُلد لي عشرة ما قبَّلت أحداً منهم، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَنْ لا يَرحم لا يُرحم».

(٣) من الآية (٥٣) من سورة (الزمر).

(٤) من الآية (١٩) من سورة (الشورى).

أرجى آية في كتاب الله تعالى عندي قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾[1]، وقد قال الله تبارك وتعالى في آية أخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[2] فشَرَح الفضل الكبير في هذه الآية وبشَّر به المؤمنين في تلك، وقال بعضهم، أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[3]، وذلك أن رسول الله ﷺ لا يرضى ببقاء أحد من أمته في النار.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

قال سعيد بن جبير: إن هذه الآية التي تضمنت لعْن القاذف وتوعُّده الشديد إنما هي خاصة في رُماة عائشة رضي الله عنها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، والضحاك، وغيرهما: بل هذه لجميع أزواج النبي ﷺ، غلَّظ الله أمر رَمْيهن لمكانهن من الدين، فلعن قاذفهن ولم يقرن بآخر الآية توبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقاذف غيرهن له اسم الفسق وذُكرت له التوبة.

وقال جماعة من العلماءِ: بل هي في شأن عائشة رضي الله تعالى عنها إلاَّ أنه يراد بها كل من اتصف بهذه الصفة، وقال بعض هذه الفرقة: إن هذه الآية نزلت أولاً في القاذفين، ثم نزلت بعد ذلك الآية في صدر السورة التي فيها التوبة، وقد تقدم القول في «الْمُحْصَنَاتِ» ما معناه.

و«اللَّعْنة» في هذه الآية: الإبعادُ، وضربُ الحدِّ، واستيحاشُ المؤمنين منهم وهجرُهم لهم، وزوالُهم عن رُتبة العدالة، وعلى قول من قال إن هذه الآية خاصة

---

(١) من الآية (٤٧) من سورة (الأحزاب).
(٢) من الآية (٢٢) من سورة (الشورى).
(٣) من الآية (٥) من سورة (الضحى).

بعائشة رضي الله عنها ترتبت هذه الشدائد في جانب عبد الله بن أُبيٍّ وأشباهه[١]. وفي ضمن رمي المحصنة رمي الرجل معها، وقد يكون مؤمناً.

والعامل في قوله: ﴿يَوۡمَ﴾ فعل مضمر يقتضيه العذاب، أي: يُعذَّبُونَ يومَ، أو نحوه[٢]، وأخبر الله تعالى أن جوارحهم تشهد عليهم، وذلك من أعظم الخزي والتنكيل، فيشهد اللسان وقلب المنافق لا يريد ما يشهد به، وتشهد الأيدي والأرجل [وتتكلم][٣] كلاماً يقدرها الله تعالى عليه. وقرأ جمهور السبعة: ﴿تَشۡهَدُ﴾ بالتاءِ من فوق، وقرأ حمزة والكسائي: [يَشْهَدُ] بالياءِ.

و«الدِّينُ» في هذه الآية: الجزاءُ، ومنه قول الشاعر:

وَلَـمْ يَبْـقَ سِـوَى الْعُـدْوَا ... نِ دِنَّـاهُـمْ كَمَـا دَانُـوا[٤]

(١) قال الزمخشري: «ولو قلَّبْتَ القرآن كلَّه وفتَّشت عما أوعد به العصاة لم تر الله عزَّ وجلَّ قد غلَّظ في شيءٍ تغليظه في الإفك، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها حيث جعل القَذَفة ملعونين في الدارين جميعاً، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم، وأنه يوفيهم جزاء الحق الذي هم أهله حتى يعلموا أن الله هو الحق، فأوجز وأشبع، وفصَّل وأجمل، وأكد وكرَّر، وجاءَ بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة».

(٢) نقل القرطبي كلام ابن عطية هنا عن معنى «اللعنة»، وفيه زيادة على ما هنا يقتضيها تمام الكلام ونعتقد أنها من كلام ابن عطية، وهي: «وعلى قول من قال: نزلت في مشركي مكة فلا كلام، فإنهم مُبعدون، ولهم في الآخرة عذاب عظيم، ومن أسلم فالإسلام يجب ما قبله».

(٣) ما بين العلامتين زيادة يحتاج إليها المعنى.

(٤) هذا البيت لِلفِنْد الزِّمَّانِيِّ، واسمه شَهْل بن شيبان بن ربيعة بن زِمَّان الحنفي، والفِنْد لقب له، وهو في الأصل: القطعة من الحبل، ولقِّب بذلك لشجاعته مع كبر سنه. والبيت من قصيدة قالها في حرب البسوس، وهو في الحماسة، والبيت في الأمالي للقالي، وفي شرح شواهد المغني، وفي العيني والهمع والأشموني والتصريح وخزانة الأدب، وقبله بقول الشاعر:

فَلَمَّـا صَـرَّحَ الشَّـرُّ ... فَـأَمْسَـى وَهُـوَ عُـرْيَـانُ

فقوله: «ولم يبق سوى العدوان» معطوف على «صرَّحَ»، وقوله: «دنَّاهُمْ»، جواب «لَمَّا»، والعدوان: الظلم الواضح، والدِّين: الجزاءُ، وأورد البيضاوي هذا البيت في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، والمعنى: لما أصرُّوا على البغي وأبَوْا أن يبتعدوا عن ظلمنا، ولم يبق أمامنا إلا أن ندفع عنا عدوانهم، جازيناهم بفعلهم القبيح كما فعلوا معنا، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا، وإطلاق اسم الدِّين على المجازاة هنا من باب المشاكلة، على حد قوله تبارك وتعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾.

أَي جازيناهم كما فعلوا، ومنه المثل «كَمَا تُدِينُ تُدَان»[١]. وقرأ جمهور الناس: ﴿الحَقَّ﴾ بالنصب على الصفة للدِّين، وقرأ مجاهد: [ٱلْحَقُّ] بالرفع على الصفة لله تعالى، وفي مصحف ابن مسعود وأُبيٍّ بن كعب رضي الله عنهما: [يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ الله ٱلْحَقُّ دِينَهُم] بتقديم الصفة على الموصوف، ورويت عن النبي ﷺ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ يقوِّي قول من ذهب إلى أن الآية في المنافقين عبد الله بن أُبيٍّ وغيره، وذلك أن كل مؤمن في الدنيا يعلم أن الله هو الحق المبين، وإلاَّ فليس بمؤمن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

اختلف المتأَولون في الموصوف في هذه الآية بالخبث والطيب ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، والضحاك، وقتادة: هي الأَقوال والأَفعال، ثم اختلفت هذه الجماعة، فقال بعضهم: المعنى: الكلمات والفعلات الخبيثات لا يقولها ويرضاها إلا الخبيثون من الناس، فهي لهم وهم بها بهذا الوجه، وكذلك الطيبات للطيبين، وقال بعضها: المعنى: الكلمات والفعلات الخبيثات لا تليق ولا تلصق عند رمي الرامي وقذف القاذف إلا بالخبيثين من الناس، فهي لهم وهم لها بهذا الوجه.

وقال ابن زيد: الموصوف بالخبث والطيب النساءُ والرجال، وإنما الآية على نحو التي تقدمت وهي قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾، فمعنى هذه: التفريق بين حكم عبد الله بن أُبيٍّ وأَشباهه وبين حكم النبي عليه الصلاة والسلام وفضلاءِ الصحابة رضوان الله عليهم وأُمته، أَي: إن النبي ﷺ طيب فلم يجعل الله له إلاَّ كل طيبة، وأُولئك خبيثون فهم أَهل النساءِ الخبيثات.

---

(١) معنى هذا المثل: كما تُجَازِي تُجَازَى، يعني: كما تعمل تُجَازَى، فإن عملتَ حسناً كان جزاؤك حسناً، وإن عملت سيئاً كان جزاؤك سيئاً، ومعنى «تُدِين»: تصنع، سُمِّي الابتداءُ جزاءً للموافقة والمطابقة، كقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، ويجوز أن يجري كلا الفعلين على الجزاء، أي: كما تجازِي أنت الناس على صنيعهم كذلك تُجَازَى على صنيعك، والكاف في «كما» في محل نصب نعتاً للمصدر، أي: تُدَان دَيْناً مثل دَيْنِكَ. «مجمع الأمثال للميداني».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبهذه الآية قيل لأزواج النبي ﷺ: الطيبات المبرآت.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى «الطيِّبين في قوله: ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾. وقال النقاش: الإشارة بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ﴾ إلى صفوان وعائشة رضي الله عنهما، وجمعهما في الضمير على حدِّ قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾[1] والمراد: أخوان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا التمثيل بآية الإخوة نظر، وبحسب هذه المعاني يتقدر المراد بالضمير في ﴿يَقُولُونَ﴾، فتأمله. ثم وعد الله تعالى الطيبين من المؤمنين بالمغفرة عند الحساب، وبالرزق الكريم في الجنة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

سبب هذه الآية فيما ذكر الطبري عن عدي بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، إني أكون في منزلي على الحال التي لا أُحب أن يراني عليها والدٌ ولاولد، وإنه لا يزال يدخل عليَّ رجلٌ من أهلي وأنا على تلك الحال، فنزلت هذه الآية[2]، ثم هي عامة في الأُمة غابر الدهر من حيث هذه النازلة تختص بكل أحد في نفسه، وبيت الإنسان هو البيت الذي لا أحد معه فيه، أو البيت الذي فيه زوجه وأَمته، وما عدا هذا فهو غير بيته، قال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره: ينبغي للإنسان ألاَّ يدخل البيت الذي فيه أُمُّه إلاَّ بعد الاستئناس. وروي في ذلك عن النبي ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، أَستأذن على أُمِّي؟ قال: نعم. قال: إنما هي أُمِّي ولا خادم لها غيري، قال: أَتحب أن تراها عريانة؟ قال: لا، قال: فاستأذن عليها[3]، وكذلك كل

---

(١) من الآية (١١) من سورة (النساء).

(٢) أخرجه الفريابي، وابن جرير، من طريق عديِّ بن ثابت، عن رجل من الأنصار.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري، عن ابن جريج، عن ابن زياد، عن صفوان، عن عطاء بن يسار. وهو مرسل صحيح

ذات محرم منه لأنه لا ينبغي له أَن يراهن عاريات، وقالت زينب امرأة ابن مسعود: كان ابن مسعود إِذا جاءَ بيته تنحنح مخافة أَن يهجم على ما يكره.

و﴿تَسْتَأْنِسُواْ﴾ معناه: تستعلموا، أَي: تستعلموا من في البيت وتستبصروا، تقول: آنَسْتُ إِذا علمتَ عن حسٍّ وإِذا أبصرت، ومنه قوله تعالى: ﴿ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ﴾(١)، وقوله: ﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾(٢)، ومنه قول حسَّان بن ثابت:

انْظُـرْ خَلِيلـي بِبَـابِ جِلَّـقَ هَـلْ ... تُـؤْنِـسُ دُونَ الْبَلْقَـاءِ مِـنْ أَحَـدِ(٣)

وقول الحارث:

آنَسَـتْ نَبْـأَةً... البيـت ... .(٤)

ووزن آنَسَ: أَفْعَل، واستأْنس وزنه: استفعل، فكأَن المعنى في ﴿تستأنسون﴾: تطلبون ما يُؤْنسكم ويؤنس أَهل البيت منكم، وإِذا طلب الإِنسان أَن يعلم أَمر البيت الذي يريد دخوله فذلك يكون بالاستئذان على من فيه، أَو بأَن يتنحنح ويُشعر بنفسه بأَيِّ وجه أَمكنه، ويتأَنَّى قدر ما يتحفظ، ويدخل إِثر ذلك.

---

(١) من الآية (٦) من سورة (النساء).

(٢) من الآية (١٠) من سورة (طه) وتكررت في الآية (٧) من سورة (النمل)، وفي الآية (٢٩) من سورة (القصص).

(٣) جلَّق بكسر الجيم وتشديد اللام: دِمَشق، وفيها أيضاً يقول حسان بن ثابت:

لله دَرُّ عِصَـابَـةٍ نَـادَمْتُهُـمْ ... يَـوْمـاً بِجِلَّـق فِـي الـزَّمَـانِ الأَوَّلِ

وآنَسَ الشيءَ: أحسَّه، وآنَس الشخصَ: رآه وأبصره، والبلقاءُ: أرضٌ بالشام، وقيل: مدينة. والبيت في اللسان شاهداً على أن البلقاءَ أرض بالشام، وهو أيضاً في تاريخ ابن عساكر مع اختلاف في الألفاظ. أما الشاهد هنا فهو «تُؤْنِسُ» لأنها بمعنى: ترى وتُحسّ أو تعلم وترى.

(٤) البيت للحارث بن حِلِّزَة، وهو من معلقته التي بدأها بقوله: (آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسماءُ)، والبيت من أبيات يصف فيها ناقته وهو بتمامه:

آنَسَـتْ نَبْـأَةً وَأَفْـزَعَهَـا الْقَنَّـاصُ ... عَصْـراً وَقَـدْ دَنَـا الإِمْسَـاءُ

ومعنى (آنَسَت): أحسَّت، وهي موضع الشاهد هنا. والنَّبأَة: الصوتُ الخفيُّ لا يُدْرى من أين هو، والقَنَّاصُ: الصَّيَّادُ، والقنص: الصيد. وأفزَعها القَنَّاصُ: أخافها، وعصْراً هنا: عَشِيّاً، قال ابن الأنباري في شرح المعلقات: وإنما سميت العصرُ في الصلاة عصراً لأنها في آخر النهار، والعَصْر في غير هذا: الدهر، وفاعل «آنست» ضمير يعود على النعامة التي شبه بها ناقته في البيت السابق، وعصْراً منصوب على الوقف، والواو في (وقَدْ دَنا) واو الحال، والإِمْسَاءُ فاعل بالفعل (دنا)، وهو مصدر (أَمسى).

وذهب الطبريُّ في ﴿ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ إلى أنه بمعنى: حتى تُؤْنسوا أَهل البيت من أَنفسكم بالتَّنحنح والاستئذان ونحوه، وتُؤْنسوا أَنفسكم بأن تعلموا أَنْ قد شُعر بكم. وتصريف الفعل يأبى أن يكون من أَنس.

وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأُ: «حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا»، وهي قراءة أُبي بن كعب، وحكاها أَبو حاتم «حَتَّى تُسَلِّمُوا وَتَسْتَأْذِنُوا»، قال ابن عباس: «تَسْتَأْنِسُوا» خطأٌ أَو وهم من الكُتَّاب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

مصاحف الإسلام كلُّها قد ثبت فيها ﴿ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾، وصحَّ الإِجْماعُ فيها من لدن مُدَّة عثمان رضي الله عنه، فهي التي لا يجوز خلافها، والقراءَة «تَسْتَأْذِنُوا» ضعيفة، وإِطلاق الخطأ والوهم على الكُتَّاب في لفظٍ أَجمع الصحابة عليه قولٌ لا يصح عن ابن عباس رضي الله عنهما، والأَشبه أَن يقع «تَسْتَأْذِنُوا» على التفسير، وظاهر ما حكى الطبري أَنها قراءَة، ولكن قد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أَنه قال: ﴿ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ بمعنى: تَسْتَأْذِنُوا، ومما ينفي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن «تَسْتَأْنِسُوا» متمكنة في المنعى، بَيِّنَةُ الوجه في كلام العرب، وقد قال عمر رضي الله عنه للنبي عليه الصلاة والسلام: أَسْتَأْنِسُ يا رسول الله؟ وعمر واقف على باب الغرفة.. الحديث المشهور[1]، وذلك يقتضي أَنه طلب الأُنس به ﷺ، فكيف يخطِّىء ابن عباس رضي الله

(١) الحديث مشهور وطويل، وقد رواه البخاري في المظالم والنكاح، والترمذي في التفسير، وأحمد في مسند (١/ ٣٤). وهو عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر رضي الله عنه عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ قال الله لهما: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ ﴾، وقد قصَّ عمر عليه ما كان بين النبي صلوات الله وسلامه عليه وبين زوجاته حين أُشيع أنه طلقهن، وذهب عمر رضي الله عنه ليعلم الخبر فوجد النبي ﷺ في مشْرُبة، فقال لغلام أسود: استأذن لعمر، ولكن الغلام دخل ثم خرج وقال: ذكرتك له فصمت، وهكذا ثلاث مرات، وبعد الثالثة دعاه الغلام، قال عمر: (فدخلتُ عليه فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش، قد أثَّرَ الرّمال بجنبه، مُتَّكِىءٌ على وسادة من أدَم حشوها ليف، فسلمتُ عليه ثم قلت وأنا قائم: طلقت نساءَك؟ فرفع بصره إليَّ فقال: لا، ثم قلتُ وأنا قائم أستأنس: يا رسول الله لو رأيتني وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على قوم تغلبهم نساؤهم، فتبسم النبي ﷺ) إلى آخر الحديث. واللفظ فيما سقناه هنا من الحديث للبخاري.

عنهما أَصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه في مثل هذا[١]؟

وحكى الطبريُّ أيضاً بسنده عن ابن جريج، عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن بن أَبي الحسن أَنهم قالوا: نُسخ واستثنى من هذه الآية الأُولى قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾، وهذا أيضاً لا يترتب فيه نسخٌ ولا استثناءٌ؛ لأَن الآية الأُولى في البيوت المسكونة والمقصورة، والآية الثانية في البيوت المباحة، وكأَن من ذهب إِلى الاستثناءِ رأَى الأُولى عامة.

وصورة الاستئذان أَن يقول الرجل: السلام عليكم، أَدخل؟ فإِن أُذن له دخل، وإِن أُمر بالرجوع انصرف، وإِن سُكت عنه استأْذن ثلاثاً ثم ينصرف بعد الثلاث، فأَما ثبوت ما ذكرته من صورة الاستئذان فروى الطبريُّ أَنَّ رجلاً جاءَ إِلى بيت النبي ﷺ فقال: أَلِجُ؟ أَو أَتَّلِجُ؟ فقال رسول الله ﷺ لأَمَةٍ له يقال لها روضة: «قولي لهذا: يقول: السلام عليكم، أَدْخُل؟»، فسمعه الرجل فقالها، فقال له النبي ﷺ: ادْخُل[٢].

ورُوي أَن ابن عمر رضي الله عنهما آذته الرمضاءُ فأَتى فُسطاط امرأَة من قريش، فقال: السلام عليكم، أَدْخُلُ؟ فقالت المرأَة: ادْخُلْ بسلام، فأَعاد فأَعادتْ، فقال لها: قولي: ادْخُلْ، فقالت ذلك فدخل، فكأَنه توقف لما قالت: بسلام؛ لاحتمال اللفظ أَن تُريد: ادخل بسلامك لا بشخصك. ثم لكلِّ قوم في الاستئذان عُرْفهم في العبارة. وأَما ثبوت الرجوع بعد الاستئذان ثلاثاً فلحديث أَبي موسى الأَشعري الذي استعمله مع عمر رضي الله عنه، وشهد به لأَبي موسى أَبو سعيد الخدري، ثم أُبي بن كعب، الحديث المشهور[٣]، وقال عطاءُ بن أَبي رباح: الاستئذان واجب على كل محتلم، وسيأْتي ذكر

---

(١) نقل القرطبي هذا الكلام عن ابن عطية وأيده في رأيه، ونقل أبو حيان خلاصته، ثم زاد عليه فقال: «ومن روى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما فهو طاعنٌ في الإسلام، ملحدٌ في الدين، وابن عباس بريءٌ من هذا القول».

(٢) أخرجه ابن جرير، عن عمرو بن سعد الثقفي. «الدر المنثور»، وهو في تفسير ابن جرير الطبري.

(٣) أخرجه مالك، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، عن أبي سعيد الخدري، قال: كنت جالساً في مجلس من مجالس الأنصار، فجاء أبو موسى فزعاً، فقلنا له: ما أفزعك؟ قال: أمرني عمر أن آتِيَهُ فأتيتهُ فاستأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعتُ، فقال: ما منعك أن تأتيني؟ قلت: قد جئت فاستأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي، وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع»، قال: لتأتيني على هذا بالبيِّنة، فقالوا: لا يقوم إلا أصغر القوم، فقام أبو سعيد معه فشهد له، فقال عمر لأبي موسى رضي الله عنهما: إني لم أتهمك، ولكن الحديث عن رسول الله ﷺ شديد.

هذا. ورَوى أَبو هريرة رضي الله عنه أَن رسول الله ﷺ قال: «رسول الرجل إِذنُه»[(١)]، أَي: إِذا أُرسل في أَحد فقد أُذن له في الدخول. وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ تم الكلام عنده، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ معناه: فعلنا ذلك بكم ونبَّهناكم لعلكم.

والضمير في قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا﴾ للبيوت التي هي بيوت الغير، وحكى الطبري عن مجاهد أَنه قال: معنى قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾: إِنْ لم يكن لكم فيها متاع، وضعَّف الطبري هذا التأْويل، وكذلك هو في غاية الضعف، وكأَن مجاهد رأَى أَن البيوت غير المسكونة إِنما تُدخل دون إِذن إِذا كان للداخل فيها متاع، ورأَى لفظة «المتاع» متاع البيت الذي هو البُسُط والثياب، وهذا كله ضعيف.

وأَسند الطبري عن قتادة أَنه قال: قال رجل من المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أَدركتها، أَن استأْذن على بعضِ إِخواني فيقول لي: ارجع، فأَرجع وأَنا مغتبط لقوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ توعُّد لأَهل التجسُّس على البيوت وطلب الدخول على غفلة للمعاصي والنظر إِلى مالا يحلُّ، ولغيرهم ممن يقع في محظور.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

رُوي أَن بعض الناس لمَّا نزلت آية الاستئذان تعمق في الأَمر، فكان لا يأْتي موضعاً خرباً ولا مَسْكُوناً إِلاَّ سلَّم واستأْذن، فنزلت هذه الآية، أَباح الله تعالى فيها رفع الاستئذان في كل بيت لا يسكنه أَحد: لأَن العلَّة إِنما هي في الاستئذان خوف الكشفة على الحُرُمات، فإِذا زالت العلَّة زال الحكم

ومثَّل أَهل التأْويل من هذه البيوت أَمثلة، فقال محمد بن الحنفية، وقتادة، ومجاهد: هي الفنادق التي في طرق المسافرين، قال مجاهد: لا يسكنها أَحد، بل هي

(١) أخرجه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه، ويؤيده ما أخرجه أبو داود أيضاً عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: «إذا دُعي أحدكم إلى طعام فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن».

موقوفة ليأوي إليها كل ابن سبيل، وفيها متاع لهم، أي استمتاع بمنفعتها، ومثَّل عطاءٌ في بيوت غير مسكونة بالخِرَب[١] التي يدخلها الإنسان للبول والغائط، ففي هذا أيضاً متاعٌ، وقال ابن زيد والشعبي: هي حوانيت القَيْسارِيَّات[٢] والأسواق، قال الشعبي: لأنهم جاؤوا ببيوعهم فجعلوها فيها وقالوا للناس: هلُمَّ، وهذا قول غلط قائله، وذلك أن بيوت القَيْسَاريَّة محظورة بأموال الناس، غير مباحة لكل من أراد دخولها بإجماع، ولا يدخلها إلاَّ من أُذن له بها، بل إن أربابها مُوَكَّلون بدفع الناس عنها. وقال محمد بن الحنفية أيضاً: أراد تعالى دور مكَّة، وهذا على القول بأنَّها غير مُتملَّكة، وأن الناس شركاءُ فيها، وأن مكَّة أُخذت عنوة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو في هذه المسألة القول الضعيف، يردُّه قوله عليه الصلاة والسلام: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً»[٣]، وقوله: «من دخل دار أبي سفيان، ومن دخل داره»[٤]، وغير ذلك من وجوه النظر.

وباقي الآية بيِّن، وظاهره التوعُّد.

---

(١) جمع خِرْبَة، وهي موضع الخراب، وفي حديث بناء مسجد المدينة: «كان فيه نخل وقبور المشركين وخِرَبٌ، فأمر بالخِرَب فسُوِّيت».

(٢) جاء في معجم البلدان للحموي أن «قَيْسَارِية» بالفتح ثم السكون وسين مهملة وبعد الألف راءٌ وياءٌ مشددة، ثم قال: «وهي بلد على ساحل بحر الشام في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، وكان قديماً من أعيان أُمهات المدن، وقيسارية أيضاً مدينة عظيمة كبيرة في بلاد الروم...». فالمراد إذاً: المدن الكبيرة العظيمة المتسعة، والحوانيت جمع حانوت وهو دكان الخمار ومحل التجارة، فالمراد بالجملة: محلات التجارة في المدن الكبيرة.

(٣) أخرجه البخاري، وأبو داود، ولفظه في البخاري في غزوة الفتح، عن أُسامة بن زيد أنه قال زمن الفتح: يا رسول الله أين ننزل غداً؟ قال النبي ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل من منزل؟» ثم قال: «لا يرثُ المؤمن الكافرَ ولا الكافرُ المؤمنَ»، قيل للزهري ـ أحد رواة الحديث ـ: ومن ورث أبا طالب؟ قال: ورثه عقيلٌ وطالب.

(٤) جاء هذا في فتح مكة، ورواه البخاري، ومسلم، وابن إسحاق، وغيرهم، وهو حديث طويل، وفيه أن أبا سفيان جاءَ إلى النبي ﷺ يوم الفتح مع العباس فأسلم، فقال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجلٌ يحب الفخر، فاجعل له شيئاً، قال: (نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن).. (واللفظ عن السيرة النبوية لابن هشام)

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بمنزلة قوله: انْهَهُمْ، فقول: ﴿يَغُضُّواْ﴾ جواب الأَمر، وقال المازني: المعنى: قل لهم غُضُّو يغضُّوا، ويلحق هذين من الاعتراض أَن الجواب خبر من الله تعالى، وقد يوجد من لا يغض، وينفصل بأَن المراد: يكونون في حكم من يغض. وقوله: ﴿مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾، أَظهر ما في [مِنْ] أَن تكون للتبعيض، وذلك أَن أَول نظرة لا يملكها الإنسان، وإنما يغض فيما بعد ذلك، فقد وقع التبعيض، ويؤيد هذا التأْويل ما روي من قوله عليه الصلاة والسلام لعلي بن أَبي طالب رضي الله تعالى عنه: «لا تُتبع النظرة النظرة فإن الأُولى لك، وليست لك الثانية» الحديث[(١)]. وقال جرير بن عبد الله: سأَلت النبي ﷺ عن نظرة الفجأَة فقال: «اصرف بصرك»[(٢)]، ويصح أَن تكون [مِنْ] لبيان الجنس[(٣)]، ويصح أَن تكون لابتداءِ الغاية، والبصر هو الباب الأَكبر للقلب وأَعمر طرق الحواسِّ إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه.

و«حِفْظ الفرج» يحتمل أَن يريد به: في الزنى، ويحتمل أَن يريد: بستر العورة، والأَظهر أَن الجميع مرادٌ واللفظ عام، وبهذه الآية حرَّم العلماءُ دخول الحمام بغير

(١) أخرجه أبو داود في النكاح، والترمذي في الأدب، والدارمي في الرقاق، وأحمد في مسنده (٥/ ٣٥١، ٣٥٣)، ولفظه في مسند أحمد، عن بريدة عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه قال لعلي: «لا تُتبع النظرة النظرة، فإن الأولى لك والآخرة عليك». واللفظ في سنن الدارمي: (لا تُتبع النظرة النظرة؛ فإن الأولى لك والآخرة عليك).

(٢) أخرجه مسلم في الأدب، وأبو داود في النكاح، والترمذي في الأدب، والدارمي في الاستئذان، وأحمد في مسنده (٤/ ٣٥٨)، وهو عن أبي زرعة، عن عمرو بن جرير، عن أبيه عن جده قال: سألتُ النبي ﷺ عن نظرة الفجأة فقال: «اصرف بصرك». وفي رواية الإمام أحمد: «فأمرني أن أصرف بصري». وزاد الإمام السيوطي في «الدر المنثور» نسبته إلى ابن أبي شيبة، والنسائي، وابن مردويه.

(٣) قال أبو حيان تعقيباً على ذلك: «ولم يتقدم مبهم فتكون [مِنْ] لبيان الجنس، على أن الصحيح أن ﴿مِنْ﴾ ليس من موضوعاتها أن تكون لبيان الجنس».

مئزر، وقال أَبو العالية: كل فرج ذُكر في القرآن فهو من الزنى إِلاَّ في هاتين الآيتين فإِنه يعني التستُّر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا وجه لهذا التخصيص عندي.

وباقي الآية بيِّن، وظاهره التَّوعُّد.

وقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية، أَمَرَ الله تعالى النساءَ في هذه الآية بغض البصر عن كل ما يُكره من جهة الشرع النَّظرُ إِليه، وفي حديث أُم سلمة قالت: كنت أَنا وعائشة رضي الله عنهما عند النبي ﷺ، فدخل ابن أُم مكتوم، فقال النبي ﷺ: «احتجبن» فقلنا: إِنه أَعمى، فقال النبي ﷺ: «أَفَعَمْيَاوَانِ أَنتما؟»[1]، [مِنْ] يحتمل ما تقدم في الأُولى، و«حفظ الفروج» يعُمُّ الفواحش وستْرَ العورة وما دون ذلك مما فيه حفظ.

وأَمر الله تعالى بأَلاَّ يُبدين زينتهن للناظرين، إِلاَّ ما استثناه من الناظرين في باقي الآية، ثم استثنى ما يظهر من الزينة، فاختلف الناسُ في قدر ذلك ـ فقال ابن مسعود رضي الله عنه: ظاهر الزينة هو الثياب، وقال سعيد بن جبير: الوجه والثيابِ، وقال سعيد بن جبير أَيضاً، وعطاءٌ، والأَوزاعي: الوجه والكفان والثياب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة، والمِسْوَرُ بن مخرمة[2]: ظاهر الزينة هو الكحل والسِّواك والخضابُ إِلى نصف الذراع والقِرَطَةُ والفَتَخُ[3]، ونحو هذا فمباح أَن تبديه المرأَة لكل من دخل عليها من الناس، وذكر الطبري عن قتادة في معنى نصف الذراع حديثاً عن النبي ﷺ[4]، وذكر آخر عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ[5].

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس، والترمذي في الأدب، وأحمد في مسنده (٦/ ٢٩٦). ولكن في مسند أحمد عن الزهري أن نبهان حدَّثه أن أُم سلمة حدَّثته قالت: كنت عند رسول الله ﷺ أنا وميمونة. بدلاً من عائشة كما هو هنا.

(٢) هو المِسْورُ بن مَخْرَمَةَ بن نوفل بن أُهيب بن عبد مناف بن زُهرة، له ولأبيه صُحبة، مات سنة ٦٤ للهجرة.

(٣) الفَتَخُ بفتحتين: جمع الفَتْخَة وهي خواتيم كبار تلبس في الأيدي. وقيل: الفَتْخَة حلقة من ذهب او فضة لا فصَّ لها تُلبس في البنصر. والقِرَطَةُ: جمع قُرْط وهو ما يعلّق في الأذن.

(٤) ونصُّه: قال قتادة: وبلغني أن النبي ﷺ قال: «لا يحِلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تخرج يدها إلا إلى هاهنا، وقبض نصف الذراع». وهذا مرسل.

(٥) أخرجه ابن جرير عن ابن جريج عن عائشة رضي الله عنها، وهو: وقالت عائشة: القُلْب والفَتَخة، قالت=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بألاَّ تُبدي، وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ويقع الاستثناءُ في كل ما غلبها فظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك، فما ظهر على هذا الوجه فهو المعفي عنه، فغالب الأمر أن الوجه والكفين يكثر منهما الظهور، وهو الظاهر في الصلاة، ويحسن[١] بالحسنة الوجه أن تستتر إلاَّ من ذي حرمة محرمة، ويحتمل لفظ الآية أن الظاهر من الزينة لها أن تبديه، ولكن يقوي ما قلناه الاحتياطُ ومراعاة فساد الناس، فلا يظن أن يباح للنساء من إبداء الزينة إلاَّ ما كان بذلك الوجه، والله الموفق للصواب برحمته.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ بسكون اللام التي هي للأمر، وقرأ أبو عمرو ـ في رواية عباس عنه ـ: [وَلِيَضْرِبْنَ] بكسر اللام على الأصل؛ لأن أصل لام الأمر الكسر في «لِيَذْهب ولِيَضْرِب»، وإنما تسكينها كتسكين «عَضُد وفَخِذ»[٢].

وسبب هذه الآية أن النساءَ كن في ذلك الزمان إذا غطَّين رءوسهن بالخمرة سدَلْنها من وراءِ الظهر، قال النقاش: كما يصنع النبط، فيتبقى النحر والعنق والأُذنان لا ستر على ذلك، فأمر الله تعالى بِلَيِّ الخمار على الجيوب، وهيئة ذلك [أن تضرب المرأة بخمارها على جيبها][٣] فيستر جميع ما ذكرناه.

وقالت عائشة رضي الله عنها: رحم الله المهاجرات الأُول، لما نزلت هذه الآية عَمَدْنَ إلى أكثف المروط فَشَقَقْنَها أخمرة، وضَرَبْن بها على الجيوب، ودخلت على عائشة حفصةُ بنت أخيها عبد الرحمن وقد اختمرت بشيءٍ يشِفُّ عن عنقها وما هنالك،

= عائشة: دخلت عليَّ ابنة أخي لأمي عبد الله بن الطفيل مُزَيَّنة، فدخل النبي ﷺ فأعرض، فقالت عائشة: يا رسول الله إنها ابنة أخي وجارية، فقال: إذا عَرَكَت المرأة لم يحل لها أن تظهر إلا وجهها وإلا ما دون هذا، وقبض على ذراع نفسه، فترك بين قبضته وبين الكف مثل قبضة أُخرى، وأشار به أبو علي. والحديث فيه انقطاع، ومعنى: عركت تَعْرُكُ: حاضَتْ. أما القُلْبُ فهو السِّوار يكون نظماً واحداً.

(١) في بعض النسخ: (ويُخَصِّصُ) بدلاً من (ويحسن).

(٢) إذ يقال فيهما: عَضْد وفَخْذ.

(٣) ما بين العلامتين زيادة عن القرطبي، فقد نقل كلام ابن عطية هنا من أول قوله: «وسبب هذه الآية... إلى هنا»، ووردت فيه هذه الزيادة، ونعتقد أنها سقطت من النساخ. والجيب هو فتحة الثوب على الصدر.

فَشَقَّته عليها وقالت: إنما يُضرب بالكثيف الذي يستر.

ومشهور القراءة ضم الجيم من ﴿جُيُوبِهِنَّ﴾، وقرأ بعض الكوفيين بكسرها بسبب الياءِ كقراءَتهم ذلك في بُيوت وشُيوخ، ذكره الزهراوي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

المعنى في هذه الآية: ولا يقصدن بذلك الإخفاء للزينة الباطنة كالخلخال والأقراط ونحوه، ويطرحن مؤونة التحفظ إِلاَّ مع من سمَّى. وبدأَ بالبعولة وهم الأَزواج لأَن اطلاعهم يقع على أَكثر من هذا، ثم ثَنى بذوي المحارم وسوَّى بينهم في إِبداءِ الزينة، ولكنهم تختلف مراتبهم في الحرمة بحسب ما في نفوس البشر، فلا مرية أَن كشف الأَب والأَخ على المرأَة أَحوط من كشف ولد زوجها، وتختلف مراتب ما يُبدَى لهم، فيُبدَى للأَب ما لا يجوز إِبداؤه لولد الزوج.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني جميع المؤمنات، فكأَنه قال: أَو صنفهن، ويدخل في هذا الإِماءُ المؤمنات، ويخرج منه نساءُ المشركين من أَهل الذمة وغيرهم، وكتب عمر رضي الله عنه إِلى أَبي عبيدة رضي الله عنه: إِنه بلغني أَن نساءَ أَهل الذمة يدخلن الحمامات مع نساءِ المسلمين، فامنع من ذلك وحُلْ دونه، فإِنه لا يجوز أَن ترى الذمية عِرْيَة المسلمة[1]، قال: فعند ذلك قام أَبو عبيدة وابتهل وقال: أَيما امرأَة تدخل الحمام من غير عذر، لا تريد إِلاَّ أَن تُبَيِّض وجهها فسَوَّد الله وجهها يوم تَبْيَضُّ الوجوه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ يدخل فيه الإِماءُ الكتابيات[2]، ويدخل فيه العبيد عند جماعة من أَهل العلم، وهو الظاهر من مذهب عائشة وأُمِّ سلمة رضي الله عنهما، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة العلماءِ: لا يدخل العبد على سيدته فيرى شعرها ونحو ذلك إِلاَّ أَن يكون وغداً، فمنعت هذه الفرقة الكشف بمِلْك اليمين،

---

(١) يعني: ما يُعرى منها ويُكشف.

(٢) الكتابيات؛ أي اليهوديات والنصرانيات من الإماء.

وأَباحته بأَن يكون من التابعين غير أُولي الإِرْبة، وفي بعض المصاحف [أَوْ ما مَلَكَتْ أَيمانُكُم] فيدخل فيه عبْد الغير.

وقوله: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ﴾ يريد الأَتباع [الذين يدخلون] ليطعموا الفضول، وهم من الرجال الذين لا إِرْبة لهم في الوطءِ، فهي شرطان، ويدخل في هذه الصيغة المجبوب(١) والمعتوه والمُخَنَّث والشيخ الفاني والزَّمِنُ الموقوذ بزمانته(٢)، ونحو هذا هو الغالب في هذه الأَصناف، ورُبَّ مُخَنَّث لا ينبغي أَن يكشف، أَلا ترى إِلى حديث «هِيت» ونَهْي رسول الله ﷺ عن كشفه على النساءِ لمَّا وصف بَادِيَةَ بنة غيلان بن معتب(٣)؟ وتأَمل ما روي في أَخبار الدَّلاَّل المُخَنَّث، وكذلك الحمقى والمعتوهون فيه ممن لا ينبغي أَن يكشف، والذي لا إِربة له من الرجال قليل.

و«الإِرْبَةُ»: الحاجة إِلى الوطءِ(٤)، وعبَّر عن هذا بعض المفسرين فقال: هو الذي يتبعك لا يريد إِلاَّ الطعام وما يأكله، وقرأَ عاصم(٥)، وابن عامر: [غَيْرَ] بالنصب، وهو على الحال من الذِّكر الذي في ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾، أَو على الاستثناءِ من ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾، وقرأَ الباقون: ﴿غَيْرِ﴾ بالخفض على النعت لـ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾، والقول

---

(١) المجبوب: المقطوع الذكر، وفي بعض النسخ: «المجنون» بدلاً من المحبوب.

(٢) الزَّمِنُ: المريض مرضاً يدوم طويلاً، والموقوذ: الشديد المرض المشرف على الموت.

(٣) حديث هَيْت أخرجه مسلم، وأبو داود، ومالك في الموطأ، وعبد بن حميد، وعبد الرزاق، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رجلٌ يدخل على أزواج النبي ﷺ مُخَنَّث، فكانوا يعُدُّونه من غير أُولي الإرْبة، فدخل النبي ﷺ يوماً وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة، قال: إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمانٍ، فقال النبي ﷺ: «لا أرى هذا يَعرف ما هاهنا، لا يدخُلَنَّ عليكم»، فحجبوه، وفي رواية لابن مردويه أن اسمه هيت، وقد ذكر الواقدي والكلبي أن هِيتاً هذا قال لعبد الله بن أُمية المخزومي وهو أخو أُمِّ سلمة رضي الله عنها، قال له في بيت أُخته: إن فتح الله عليكم الطائف فعليك ببادية بنت غيلان الثقفي فإنها تقبل بأربع وتُدبر بثمانٍ، مع ثغر كالأقحوان، إن جَلَسَتْ تَبَنَّتْ، وإن تكلَّمت تَغَنَّت الخ، فسمعه رسول الله ﷺ، فقال: لقد غَلْغَلْتَ النظر إليها يا عدوَّ الله، ثم أجلاه عن المدينة إلى الحِمى، هذا وبادية بالياء، ويقال لها بادنة بالنون، والصواب بالياء، ومعنى (تقبل بأربع وتدبر بثمان): تقبل بأربع طيات من لحم جسمها وتدبر بثمانٍ منها. وتَبَنَّت: صارت كالمبنَّاة لِسِمَنِهَا.

(٤) أي في هذا الموضع، أما في غير ذلك فإن الإِرْبَةَ هي الحاجة، ومثلها الأَرَبُ والمأْرُبَةُ والإِربُ، والجمع مآرب، قال الله تعالى: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ١٨﴾.

(٥) أي في رواية أبي بكر عنه، أما رواية حفص عنه فهي بالخفض كما هو ثابت في المصحف.

فيها كالقول في ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾ اسم جنس بمعنى الجمع[٢]، ويقال «طِفْل» ما لم يراهق الحُلُم، و﴿يَظْهَرُواْ﴾ معناه: يَطَّلِعُوا بالوطءِ[٣]، والجمهور على إسكان الواو من ﴿عَوْرَٰتِ﴾، وروي عن ابن عامر فتح الواو، وقال الزجاج: الأكثر سكون الواو كجَوْزَات وبيْضَات لثقل الحركة على الواو والياءِ، ومن قرأ بالفتح فعلى الأصل في فَعْلَة وفَعَلات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾.

أَسند الطبري عن المعتمر عن أَبيه قال: زعم حضرمي أَن امرأَةً اتَّخذت بُرَتَيْن[٤] من فضة، واتخذت جَزْعاً[٥]، فجعلت في ساقها فمرت على القوم فضربت برجلها الأرض، فوقع الخلخال على الجزع فصوَّت، فنزلت هذه الآية، وسماع هذه الزينة أَشدُّ تحريكاً للشهوة من إبدائها، ذكره الزجاج.

قال مكي رحمه الله: ليس في كتاب الله تعالى آية أَكثر ضمائر من هذه، جمعت خمسة وعشرين ضميراً للمؤمنات من مخفوض ومرفوع. وقرأَ عبد الله بن مسعود: «ليُعْلَمَ ما سُرَّ مِنْ زينتهنَّ»[٦].

ثم أَمر عزَّ وجلَّ بالتوبة مطلقة، وقد قيَّد الكفار بالإخلاص وبالانتهاء في آية

---

(١) من الآية (٧) من سورة (الفاتحة).

(٢) بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ﴾. فإن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نعت للطِّفْلِ، والضمير في ﴿يَظْهَرُواْ﴾ ضمير جمع.

(٣) يعني لم يكشفوا عن عورات النساءِ لهذا الغرض بسبب صغر السِّن.

(٤) مُثَنَّى «بُرَة» بضم الباء وفتح الراء خفيفة: وهي الخلْخَالُ، وقيل: هي كلُّ حَلْقَة من سوار وقُرْطٍ وخَلْخال، قال الشاعر: (وَقَعْقَعْنَ الخَلاخِلَ والبُرِينَا). قال أبو عليٍّ: أَصْلُ البُرَة: بَرْوَة؛ لأنها جُمِعت على بُرىً مثل قَرْيَةٍ وقُرَى.

(٥) الجَزْعُ: ضربٌ من العقيق يعرف بخطوطٍ متوازية مستديرة مختلفة الألوان.

(٦) في بعض النسخ: «لِيُعْلَمَ مَا يَسْتُرْنَ من زينتهن». أما كلمة «سُرَّ» فلعلها فيه بمعنى: أُخْفي وسُتِر.

أُخرى[١]، وتوبة أَهل الذّمة بالتَّبيين، يريد لأَمر محمد ﷺ[٢]، وأَمر بهذه التوبة مطلقة عامة من كلٍّ شيءٍ صغير وكبير.

وقرأَ ابن عامر: [أَيُّهُ ٱلْمُؤْمِنُونَ] بضم الهاءِ من [أَيُّهُ]، ووجهه أَن يجعل الخاءَ كأَنها من نفس الكلمة، فيكون إِعراب المنادى فيها، وضعَّف أَبو عليٍّ ذلك جدّاً[٣]، وبعضهم يقف [أَيُّهْ]، وبعضهم يقف [أَيُّهَا] بالأَلف، وقوّى أَبو عليٍّ الوقف بالأَلف لأَن علَّة حذفها في الوصل إِنما هو سكونها وسكون اللام، فإِذا كان الوقف ذهبت العلَّة فرجعت الأَلف كما ترجع الياءُ إِذا وقفت على ﴿مُحِلِّي﴾ من قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾[٤]، والاختلاف الذي ذكرناه في ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كذلك هو ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾[٥]، و﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾، هذه المخاطبة لكل من تصور أَن ينكح في نازلة ما، فهم المأْمورون بتزويج من لا زوج له ومن لا زوجة له، وظاهر الآية أَن المرأَة لا تتزوج إِلاَّ بِوَليٍّ، و«الأَيِّمُ» يقال للرجل والمرأَة، ومنه قول الشاعر:

للهِ دَرُّ بَنِـــــــــي عَلِـــــيٍّ أَيِّـم مِنْهُـم وَنَـاكِـح[٧]

---

(١) هي قوله تعالى في الآية (١٤٦) من سورة النساء: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾.

(٢) جاء ذلك في الآية (١٦٠) من سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾.

(٣) قال: لأن آخر الاسم هو الياءُ الثانية من «أيّ»، فالمضموم ينبغي أن يكون آخر الاسم، ولو جاز هنا أن نضم الهاءَ لاقترانها بالكلمة لجاز ضمُّ الميم من «اللَّهُمَّ» لاقترانها بالكلمة أيضاً، وعلّق العلماءُ على ذلك فقالوا: إذا ثبتت القراءة عن النبي ﷺ فلا حجَّة لِلُغَوِيٍّ بعد ذلك، فإن القرآن هو الحجة، وبه تصبح اللغة صحيحة.

(٤) من الآية (١) من سورة (المائدة).

(٥) من الآية (٤٩) من سورة (الزخرف).

(٦) من الآية (٣١) من سورة الرحمن. . هذا وقد قال ابن خالويه في كتاب «الحجة في القراءات السبع»: «والحجة لمن حذف وأسكن الهاءَ أنه اتَّبع خط السواد، واحتج بأن النداء مبني على الحذف، وإنما فُتحت الهاء لمجيءِ ألف بعدها، فلما ذهبت الألف عادت الهاءُ إلى السكون، وإنما يوقف على مثل هذا اضطراراً لا اختياراً».

(٧) هذا البيت لأمية بن أبي الصلت، قال ذلك القرطبي واستشهد به، و«الدَّرُّ» في الأصل: اللَّبن، والمراد به هنا الخَيْر، يقال: لله درُّك من رجل، أي لله عَمَلُكَ، يقال هذا لمن يُمدح ويُتَعَجَّب من عمله. ، فإذا=

ولعموم هذه اللفظة قالت فرقة: إن هذه الآية ناسخةٌ لحُكم قوله تعالى: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١)، وقوله: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ يريد: للنكاح(٢). وقرأ الحسن ابن أبي الحسن: [مِنْ عَبِيدِكُمْ]، والجمهور على ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ﴾، والمعنى واحد، إلاَّ أن قرينة الترفيع بالنكاح تؤيد قراءة الجمهور.

وهذا الأمر بالنكاح يختلف بحسب شخص شخص، ففي نازلة يُتصور وجوبه، وفي نازلةِ الندبُ، وغير ذلك، وهذا بحسب ما قيل في النكاح.

ثم وعد الله تبارك وتعالى بإغناءِ الفقراءِ المتزوجين طلباً لرضى الله عنهم واعتصاماً من معاصيه، وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: «التمسوا الغنى في النكاح»، وقال عمر رضي الله عنه: «عجبي ممن لا يطلب الغنى بالنكاح»، وقد قال الله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾(٣). قال النقاش: هذه الآية حجةٌ على من قال إن القاضي يفرق بين الزوجين إذا كان الزوج فقيراً لا يقدر على النفقة، لأن الله تعالى قال: ﴿يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: «يفرق بينهما».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا انتزاعٌ ضعيف، وليست هذه الآية حُكماً فيمن عجز عن النفقة، وإنما هي وعْدٌ بالإغناء، كما وعد به تعالى مع التفرق في قوله: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾(٤)، ونفحات رحمة الله تعالى مأمولةٌ في كل حالٍ، موعودٌ بها.

= شتموا أو سبُّوا قالوا: لا دَرَّ دَرُّه، أي لا كثُر خيرُه، والأيِّم: من لازوج له رجلاً كان أو امرأة، والنَّاكحُ: المتزوج، فهو يثني على آل عليٍّ جميعاً المتزوجين منهم وغير المتزوجين. والشاهد استعمال الأيِّم هنا للرجل وللمرأة.

(١) من الآية (٣) من سورة (النور).

(٢) وقيل: (المراد بالصالحين المستقيمين المؤدين لواجباتهم، وخصهم الله بالذكر ليحصِّن لهم دينهم بالزواج ويحفظ عليهم صلاحهم، لأن الصالحين من العبيد يكونون موضع رعاية وإشفاق ممن ملكوهم، فهم يُنزلونهم منزلة الأولاد في المودة والرعاية، فهم مظنة الاهتمام بشأنهم وتقبُّل الوصية فيهم، بخلاف المفسدين فحالهم عند واليهم على عكس ذلك).

(٣) وأخرج ابن ماجه في سننه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة كلُّهم حقٌّ على الله عونه، المجاهد في سبيل الله، والناكح يريد العفاف، والمُكَاتَب يريد الأداء».

(٤) من الآية (١٣٠) من سورة (النساء).

وقوله تعالى: ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ صفتان نحو المعنى الذي فيه القول، أي واسع الفضل، عليمٌ بِمُسْتَحِقِّ التوسعةِ والإغناءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾.

«استعفف» وزنه استَفْعَل، ومعناه: طلب أَن يكون عفيفاً، فأَمر الله تعالى في هذه الآية كل من يتعذر عليه النكاح ولا يجده بأَي وجه تعذَّر أَن يستعف، ثم لما كان أَغلب الموانع على النكاح عدم المال وعَدَ بالإغناءِ من فضله، فعلى هذا التأْويل يعمُّ الأَمر بالاستعفاف كلَّ من تعذَّر عليه النكاح بأَي وجه تعذَّر.

وقالت جماعة من المفسِّرين: النكاحُ في هذه الآية اسم ما يُمْهَر ويُنْفق في الزواج كاللِّحاف واللباس لما يُلْتَحف به ولما يلبس، وحملهم على هذا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، فظنوا أَن المأْمور بالاستعفاف إِنما هو من عدم المال الذي يتزوج به، وفي هذا القول تخصيص المأْمورين بالاستعفاف، وذلك ضعيف[1].

ثم أَمر الله تعالى المؤمنين كافة أَن يكاتِب منهم كلُّ من له مملوك وطَلَب المملوك الكتابة وعَلم سيِّدُه منه خيراً، قال النقاش: سببها أَن غلاماً لحويطب بن عبد العُزَّى سأَل مولاه الكتابة فأَبى عليه، وقال مكي: هو صُبَيْح القبطي غلام حاطب بن أَبي بلتعة، ولفظ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ في الآية مصدر كالقتال والجلاد ونحوه من مصادر فاعَلَ، و«الكتابة» فِعالة من حيث هذا يكتب على نفسه، وهذا على نفسه.

واختلف الناس، هل هذا الأَمر بالكتابة على الوجوب أَو على الندب، على قولين: فمذهب مالك رحمه الله أَن ذلك على الندب، وقال عطاءٌ: ذلك واجب، وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لأَنس بن مالك رضي الله عنه في سيرين، حين سأَل سيرين الكتابة فتلكَّأَ أَنس، فقال له عمر: كاتبهُ أَو لأَضربنَّك بالدِّرَّة، وهو قول عمرو بن دينار والضحاك[2].

---

(١) نقل القرطبي كلام ابن عطية في هذه الفِقرة، وزاد عليه قوله: «بل الأمر بالاستعفاف متوجه لكل من تعذّر عليه النكاح بأي وجه».

(٢) وحجة القائلين بالندب وهم الجمهور أن الإجماع منعقد على أنه لو سأل العبد سيده أن يبيعه لم يجبر=

واختلف الناس في المراد بالخير ـ فقالت فرقة: هو المال، ولم تَرَ على سيِّد عبد أَن يكاتب إِلاَّ إِذا علم أَن له مالاً يؤدي منه أَو من التَّجْر فيه[1]، وروي عن ابن عمر وسلمان أَنهما أَبيا من كتابة عبدين رغبا في الكتابة ووعدا باسْتِرْفَاق الناس، فقال كل واحد منهما لعبده: أَتريد أَن تطعمني أَوساخ الناس؟ وقال مالك: إِنه ليقال: يراد بالخير القوة والأَداءُ، وقال الحسن بن أَبي الحسن: الخير هو صدقُ الموعد، وقلَّة الكذب، والوفاءُ، وإِن لم يكن للعبد مالٌ، وقال عُبيدةُ السَّلْمَاني: الخيرُ هو الصلاح في الدين، وهذا في زمنه القول الذي قبله.

والْمُكَاتَبُ عبدٌ ما بقي عليه درهم، وحرمة العتق إِنما يتلبَّس بها بعد الأَداء، هذا قول جمهور الأُمَّة، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إِذا أَدَّى ثُلُث الكتابة فهو عتيق غريم، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: العتاقة تجري فيه بأَول نَجْم يؤديه[2].

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾، قال المفسرون: هو أَمر لكل مكاتب أَن يضع للعبد من مال كتابته، واستحسن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَن يكون ذلك ربع الكتابة، قال الزهراوي: ورُوي ذلك عن النبي ﷺ[3]، واستحسن الحسن بن أَبي الحسن، وابن مسعود ثُلُثَها، وقال قتادة: عُشْرَها، ورأَى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَن يكون ذلك من أَول نجومه مبادرةً إِلى الخير وخوف أَلاَّ يُدرك آخرها، ورأَى مالك رحمه الله، وغيره أَن يكون الوضع في آخر نَجْم، وعلة ذلك أَنه إِذا وضع من أَول نجْم ربما عجز العبد فرجع هو ومالُه إِلى السيِّد، فعادت إِليه وضيعته، وهي شبه الصدقة، وهذا قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ورأَى مالك رحمه الله هذا الأَمر على الندب، ولم يَرَ لقدر الوضيعة حدّاً، ورأَى الشافعي رحمه الله وغيره الوضيعة

= على ذلك ولو ضوعف له الثمن، كذلك لو طلب العبد من سيده أن يعتقه أو يُدَبِّره أو يزوجه لم يلزمه ذلك بالإجماع، فكذلك المكاتبة، وهي مفاعلة لا تتم إلا عن تراض، وقالوا: إن الآية فيها أمر مطلق وهو يقتضي الوجوب إذا لم تكن هناك قرينة تمنع من ذلك، وهي هنا علم الخير من السَّيِّد في العبد، فلو قال العبد: كاتبني. قال السَّيِّد: لا أعلم فيك خيراً، أخذ بقول السَّيد، والله أعلم.

(١) التَّجْر: مصدر تَجَرَ، يقال: تَجَرَ في كذا بمعنى: مارس البيع والشراء

(٢) النَّجْم هو: ما يُؤَدَّى من دَيْن في وقت مُعَيَّن، والذي يعرف الآن بأنه «القِسْطُ».

(٣) أخرجه عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والديلمي، وابن المنذر، والبيهقي، وابن مردويه، من طريق عبد الله بن حبيب، عن عليٍّ، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ﴾، قال: يُترك للمُكَاتَب الربع. «الدر المنثور».

واجبة يحكم بها الحاكم على المكاتب وعلى ورثته، وقال الحسن، والنَّخعيُّ، وبُرَيْدَة: إنما الخطاب بقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾ للناس أجمعين في أن يتصدَّقوا على المكاتَبين، وأن يعينوهم في فكاك رقابهم، وقال زيد بن أسلم: إنما الخطاب لولاة الأمور بأن يعطوا للمكاتَبين من مال الصدقة حظَّهم، وهو الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

روي أن سبب هذه الآية هو أن عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول كانت له أَمَةٌ تسمى مُسيْكَة، وقيل: معاذة[2]، فكان يأمرها بالزنى والكسب به، فشكت ذلك إلى النبي ﷺ، فنزلت الآية فيه وفيمن فعل فعله من المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ راجع إلى «الفتيات»، وذلك أن الفتاة إذا أرادت التَّحصُّن فحينئذ يمكن ويُتصور أن يكون السَّيِّد مكرِهاً، ويمكن أن يُنْهى عن الإكراه، وإذا كانت الفتاة لا تريد التَّحصُّن فلا يُتصوَّر أن يقال للسيِّد: لا تُكْرِهْها؛ لأن الإكراه لا يُتصور فيها وهي مريدةٌ للزنى، فهذا أمر في [سادةٍ وفتيات][3] حالهم هذه، وذهب هذا النظر عن كثير من المفسرين، فقال بعضهم: قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ راجعٌ إلى [ٱلْأَيَٰمَىٰ] في قوله سبحانه: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾، وقال بعضهم: هذا الشرط في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ﴾ مُلغى، ونحو هذا مما ضُعِّف، والله الموفق للصواب برحمته.

و«عَرَضُ الحياةِ الدُّنيا» في هذه الآية: الشيءُ الذي تكتسبه الأَمَةُ بفرجها، ومعنى

---

(١) من الآية (٦٠) من سورة التوبة، وهي الآية التي بينت مصارف الزكاة.

(٢) وقيل: هما أمتان مُسَيكَة ومعاذة، وقيل: بل كان عنده عدد كبير منهن، مُعاذة ومُسَيكَة وأُمَيمة وعَمْرة وأَرْوى وقتيلة، والأخبار في ذلك كثيرة، وقد أخرج مسلم في صحيحه، عن جابر أن جارية لعبد الله بن أُبي يقال لها مُسَيكة، وأخرى يقال لها: أُميمة، فكان يريدهما على الزِّنى، فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾.

(٣) ما بين العلامتين زيادة عن القرطبي الذي نقل كلام ابن عطية في هذه الفقرة كاملاً.

باقي الآية: فإن الله بعد إكراههن غفورٌ رحيم بهن، وقد يُتصوَّر الغُفران والرحمةُ بالمُكْرَهين بعد أن تقع التوبة من ذلك، فالمعنى: غفور لمن تاب، وقرأ ابن مسعود، وجابر بن عبد الله، وابن جبير: «لَهُنَّ غفورٌ رحيمٌ» بزيادة «لَهُنَّ».

ثم عدَّد تعالى على المؤمنين نعمته فيما أَنزل إليهم من الآيات المنيرات، وفيما ضرب لهم من أَمثال الماضين من الأمم ليقع التحفُّظ مما وقع أُولئك فيه، وفيما ذكر لهم من المواعظ. وقرأ جمهور الناس: [مُبَيَّنَاتٍ] بفتح الياءِ، أَي: بيَّنَها الله تعالى وأَوضحها، وقرأ الحسن، وطلحة، وعاصم، والأعمش: ﴿مُبَيِّنَـٰتٍ﴾ بكسر الياءِ، أَي: بيَّنت الحقَّ وأَوضحته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

النُّور في كلام العرب: الأَضواءُ المدركة بالبصر، ويستعمل مجازاً فيما صحَّ من المعاني ولاح، فيقال: «كلام له نور»، ومنه «الكتابُ المنير» ومنه قول الشاعر:

نَسَبٌ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى ... نُوراً وَمِنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ عَمُوداً[1]

والله تعالى ليس كمثله شيءٌ، فبين أَنه ليس كالأَضواء المُدْركة، ولم يبق للآية معنى إلاَّ أَنه أَراد: الله ذو نور السموات والأَرض، أَي بقدرته أَنارت أَضواؤُها، واستقامت

---

(١) البيت في القرطبي أيضاً غير منسوب، وهو من الأبيات المشهورة لأبي تمام، وقد استشهد به مع بيتين آخرين إبراهيم بن العباس الصولي على أن أبا تمام أشعر أهل زمانه، ذكر ذلك الأصفهاني في كتاب الأغاني، والأبيات الثلاثة هي:

مَطَرٌ أَبُوكَ أَبُو أَهِلَّةِ وائِلٍ ... مَلأَ الْبَسِيطَةَ عُدَّةً وَعَدِيدا
نَسَبٌ كَأَنَّ عَلَيهِ مِن شَمس الضُّحى ... نُوراً ومِن فَلَق الصَّبَاح عَمُودا
وَرِثُوا الأُبُوَّةَ والْحُظُوظَ فَأَصْبَحُوا ... جَمَعُوا جُدُوداً فِي الْعُلا وَجُدُودا

والنَّسب: القرابة، ويقال: إنه في الآباء خاصة، والفَلَقُ ـ بفتح الفاء واللام ـ: ما انشقَّ من عمود الصبح، وقيل: هو الصبح بعينه، وقيل: هو الفجر، وكلُّه راجع إلى معنى الشَّق، وفَلَق الصبح: ضوءُه وناره، وفي الحديث أن النبي ﷺ كان يرى الرؤيا فتأتي مثل فلق الصبح، والشاهد أن النور هنا بمعنى الأضواء المدركة بالبصر.

أُمُورُها، وقامت مصنوعاتها، فالكلام على التقرير للذهن، كما تقول: المِلِكُ نور الأمَّة، أَي به قوام أُمورها وصلاحُ جُملتها، والأَمر في المِلك مجازٌ، وهو في صفة الله تعالى حقيقة محضة؛ إِذ هو الذي أَبدع الموجودات، وخلق العقل نوراً هادياً؛ لأَن ظهور الوجود به حصل، كما حصل بالضوء ظهور المُبْصَرَاتِ، تبارك الله لا ربَّ سواه[1].

وقالت فرقة: التقدير: دينُ الله نور السموات والأَرض، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: هادي أَهل السموات والأَرض. والأَول أَعمُّ للمعاني وأَوضح مع التأَمل.

وقرأَ عبد الله بن عياش بن أَبي ربيعة، وأَبو عبد الرحمن السُّلَمي: [الله نوَّرَ] بفتح النون والواو المشددة وفتح الراءِ على أَنه فِعْل[2].

وروي أَن اليهود لما نزلت هذه الآية جسموا في تأْويلها، واعترضوا محمداً ﷺ بأَن قالوا: كيف هو نور الأَرض والسماء بيننا وبينه، فنزلت حينئذ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ الآية، أَي: ليس الأَمر كما ظننتم، وإِنما هو نور بأَنه قوامُ كل شيءٍ وخالقُه ومُوجده، مثل نوره كذا وكذا.

واختلف المتأَولون في الضمير في ﴿نُورِهِۦ﴾ على من يعود؟ فقال: كعب الأَحبار، وابن جبير: هو عائد على محمد ﷺ، أَي: مَثَل نور محمد ﷺ، وقال أُبيَّ بن كعب رضي الله عنه، وابن جبير، والضحاك: هو عائد على المؤمنين، وفي قراءة أُبي بن كعب: «مَثَل نُور المؤمنين»، ورُوي أَن في قراءَته «مَثَل نُور المؤمن»، وروي أَن فيها

(١) أخرج البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا تهجَّد في الليل يدعو: «اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيام السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، وقولك حق، ووعدك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدَّمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت».

(٢) وهي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأبي جعفر، وعبد العزيز المكي، وزيد بن علي، وثابت ابن أبي حفصة، والقوصِي، ومسلمة بن عبد الملك، قال ذلك أبو حيَّان في «البحر المحيط».

«مَثَلُ نُور من آمَنَ بِهِ»، وقال الحسن: هو عائد على القرآن والإِيمان، وقال مكي بن أَبي طالب: وعلى هذه الأَقوال يوقف على قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه أَقوال فيها عود الضمير على من لم يجر له ذكر، وفيها قطع المعنى المراد بالآية.

وقالت فرقة: الضمير في ﴿نُورِهِۦ﴾ عائد إِلى الله تعالى، ثم اختلفت هذه الفرقة في المراد بالنور الذي أُضيف إِلى الله تعالى إِضافة خلق إِلى خالق، كما تقول: سماءُ اللهِ، وناقةُ اللهِ ـ فقال بعضها: هو محمد ﷺ[(١)]، وقال بعضها: هو المؤمن، وقال بعضها: هو الإِيمان والقرآن[(٢)]، وهذه الأَقوال متَّجهة مُطَّرد معها المعنى، فكأَن اليهود لما تأَولوا ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ الآية بمعنى الضوء قيل لهم: ليس كذلك، وإِنما هو نور بأَنه قوام كل شيءٍ وهاديه، مثل نوره في محمد ﷺ، أَو في المؤمن، أَو في القرآن والإِيمان كمشكاة، وهي الكُوَّةُ غير النافذة فيها القنديل ونحوه.

وهذه الأَقوال الثلاثة تضطرد فيها مقابلة جزءٍ من المثال لجزءٍ من المُمَثَّل، فعلى قول من قال: «المُمَثَّل محمد ﷺ ـ وهو قول كعب الخير ـ فرسول الله ﷺ هو المشكاة، أَو صدره، والمصباح هو النبوة وما يتصل بها من علمه وهذه، والزجاجة قلبه، والشجرة المباركة هي الوحيُ والملائكة رسل الله إِليه وسببه المتصل به، والزيت هو الحجج والبراهين والآيات التي تضمنها الوحي.

وعلى قول من قال: «المُمَثَّل به المؤمن» ـ وهو قول أُبيِّ بن كعب ـ فالمشكاة صدره، والمصباح الإِيمان والعلم، والزجاجة قلبه، والشجرة القرآن، وزيتُها هو الحجج والحكمة التي تضمنها، قال أُبي: فهو على أَحسن الحال يمشي في الناس كالرجل الحيِّ يمشي في قبور الأَموات.

ومن قال: «إِنَّ المُمَثَّل به القرآن والإِيمان» فتقدير الكلام: مثل نوره ـ الذي هو الإِيمان في صدر المؤمن ـ في قلبه كمشكاة، أَي: كهذه الجملة. وهذا القول ليس في مقابلة التشبيه كالأَولين، لأَن المشكاة ليست تقابل الإِيمان.

---

(١) فقد سماه الله تعالى نوراً في قوله: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة: ١٥].

(٢) وقد سمَّاه الله تعالى نوراً في قوله: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤].

وتحتمل الآية معنى آخر ليس فيه مقابلة جزءٍ من المثال لجزءٍ من المُمَثَّل به، بل وقع التشبيه فيه جملة بجملة، [وذلك أن يريد: مثل نور الله الذي هو هُداه وإتقانه صنعةَ كل مخلوق وبراهينُه الساطعة على الجملة][1] كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه أَنتم على هذه الصفة التي هي أَبلغ صفات النور الذي بين أَيدي الناس، أَي: فمَثَلُ نور الله في الوضوح كهذا الذي هو منتهاكم أَيُّها البشر.

و«المِشْكَاةُ»: الكُوَّة في الحائط غير النافذة، قاله ابن جُبير، وسعيد بن عياض، وجمهور المفسرين، وهي أَجمع للضوءِ، والمصباح فيها أَكثر إِنارة منه في غيرها، وقال مجاهد: المشكاة: العمود الذي يكون المصباح على رأسه، وقال أَبو موسى: المشكاة: الحديدة أَو الرصاصة التي يكون فيها الفتيل في جوف الزجاجة، وقال مجاهد أيضاً: المشكاة: الحدائد التي يعلق بها القنديل. والأَول أَصحُّ هذه الأَقوال.

وقوله تعالى: ﴿فِي زُجَاجَةٍ﴾ لأَنه جسم شفاف، المصباح فيه أَنورُ منه في غير الزجاج. و«المِصْبَاحُ»: الفتيل بناره. وأَمال الكسائي ـ فيما روى عنه أَبو عمرو الداني ـ الأَلف من [مشكاة] فكسر الكاف التي قبلها، وقرأَ نصر بن عاصم: [فِي زَجَاجَة] بفتح الزاي و[الزَجاجة] كذلك، وهي لغة[2].

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أَي في الإِنارة والضوءِ، وذلك يحتمل معنيين: إِمَّا أَن يريد أَنها بالمصباح كذلك، وإِمَّا أَن يريد أَنها في نفسها لصفائها وجودة جوهرها كذلك، وهذا التأويل أَبلغُ في التعاون على النور، قال الضحاك: الكوكب الدُّرِّيُّ هو الزُّهْرة، وقرأَ نافع، وابن عامر، وحفص: ﴿دُرِّيٌّ﴾ بضم الدال وشد الياءِ، ولهذه القراءة وجهان: إِمَّا أَن يُنْسب الكوكبُ إِلى الدُّرِّ لبياضه وصفائه، وإِما أَن يكون أَصله «دُرِّيءٌ» مهموز من الدَّرأِ وهو الدفع، وخُفِّفَت الهمزة. وقرأَ حمزة، وأَبو بكر عن عاصم: [دُرِّيءٌ] بالهمز، وهو فُعِّيل من الدَّرأِ، بمعنى أَنها تدفع بعضها بعضاً، أَو بمعنى أَن بها ما يدفع خفاءَها، وفُعِّيل بناءٌ لا يوجد في الأَسماء إِلاَّ في قولهم: مُرِّيق

(١) ما بين العلامتين [. . .] سقط من كل النسخ الأصلية إلا نسخة واحدة، واتفق معها كلام القرطبي الذي نقل هذه الفقرة كاملة عن ابن عطية دون أن يشير إليه.

(٢) قال أبو الفتح: «فيها ثلاث لغات: زَجَاجة، وزُجاجة، وزِجاجة ـ بالفتح والضم والكسر ـ وفي الجمع: زَجَاجٌ، وزُجَاجٌ، وزِجاجٌ ـ كنعامة ونَعَامٌ، ورُقاقة ورُقاق، وعِمامة وعِمامٌ ـ».

للعُصْفُر(١) وفي السُّرِّية إذا اشتقت من السِّر(٢)، وَوَجَّه هذه القراءة أبو عليٍّ وضعَّفَها غيره. وقرأ أبو عمرو، والكسائي: [دِرِّيءٌ] على وزن فِعِّيل بكسر الفاءِ، من الدَّرْءِ، وهذه متوجهة. وقرأ قتادة: [دَرِّيءٌ] بفتح الدال والهمزة، قال أبو الفتح: وهذا عزيزٌ، وإنما حُفظ منه «السَّكِّينَة» بشد الكاف، وقرأ سعيد بن المسيب، وأبو رجاءٍ، ونصر بن عاصم: [دَرِّيٌّ] بفتح الدال دون همز.

وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وطلحة، والأعمش، والحسن، وقتادة، وابن وثاب، وعيسى: [تُوقَدُ] بضم التاءِ، أي الزجاجة. وقرأ أبو عمرو، وأهل الكوفة، والحسن، وابن محيصن: [تَوَقَّدُ] بفتح التاءِ والواو وشد القاف وضم الدال، أي الزجاجة. وقرأ أبو عمرو أيضاً، وابن كثير: [تَوَقَّدَ] بفتح التاءِ والدال، أي المصباحُ، وقرأ عاصم ـ فيما روى عنه إسماعيل(٣) ـ ﴿يُوقَدُ﴾ بالياءِ المرفوعة، على معنى: يُوقَدُ المصباح، قال أبو الفتح: وقرأ السُّلَمي، والحسن، وابن محيصن، وسَلاَّم، وقتادة: [يُوَقَّد] بفتح الياءِ والواو والقاف المشددة ورفع الدال، أصله: يَتَوَقَّدُ.

وقوله تعالى: ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ أي: من زيت شجرة، و«المباركة»: المُنَمَّاة، والزيتون من أعظم الثمار نماءً واطِّرادَ أفنان وغضارةً لا سيما بالشام، والرُّمان كذلك، والعيان يقضي بذلك، وقول أبي طالب يرثي مسافر بن أبي عمرو بن أُمية بن عبد شمس:

لَيْتَ شِعْرِي مُسَافَرَ بنَ أَبي عَمْـ ـرٍو، وليتٌ يَقُولُها الْمَحْزُون
بُوركَ الْمَيِّتُ الْغَرِيبُ كَمَا بُو رِكَ نَبْعُ الرُّمَّان والزَّيْتُونُ(٤)

---

(١) جاء في اللسان (درأ): «وكوكبٌ دُرِّيءٌ عَلَى فُعِّيل: مندفع في مضيِّه من المشرق إلى المغرب» ثم نقل عن ابن بَرِّي أن سيبويه حكى أنه يدخُل في الكلام فُعِّيلٌ وهو قولهم للعُصْفُر: مُرِّيق وكوكبٌ دُرِّيءٌ.، وجاء فيه في (مرق): «والمُرِّيْقُ: حَبُّ العُصْفُر، وفي التهذيب: شحم العُصْفُر» فضبطه بتشديد الرَّاء وفتحها كقُبَّيْط، وعلَّق محققه على ذلك بقوله: «ضبطه الصاغاني بضم فكسر الراء المشددة، وكذلك مجد الدين في (درأ)، وضَبْطُه هنا كقُبَّيْط مناقض لما تقدم في (درأ)، أفاده شارح القاموس».

(٢) قال أبو حيان في البحر: «إذا قيل إنها مشتقة من السرور وأُبدل من أحد المضعفات الياءُ فأُدغمت فيها ياءُ فعيل، وسمع أيضاً (مُرِّيخ) للذي في داخل القرن اليابس».

(٣) وكذلك فيما رواه حفص كما هو ثابت في المصحف.

(٤) ليْتَ شعري: ليت عِلْمي، ويقال: ليت شعري لفلان ما صنع، وليت شعري عن فلان ما صنع، وليت شعري فلاناً، وأنشدوا شاهداً على الأخيرة البيت الأول، وهو في اللسان (شعر)، والبيت الثاني في=

وقوله تعالى: ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قرأ الجمهور فيهما بالخفض عطفاً على ﴿زَيْتُونَةٍ﴾، وقرأ الضحاك: [لا شَرْقيَّةٌ ولا غَرْبيَّةٌ] بالرفع[1]، واختلف المتأولون في معناه ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ فيما حكى عنه الطبري ـ: معناه أَنها شجرة في دوحة قد أَحاطت بها فهي غير منكشفة من جهة الشرق ولا عن جهة الغرب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول لا يصح عندي عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ لأَن الوجود يقتضي أَن الشجرة التي تكون بهذه الصفة ينفذ جناها.

وقال الحسن: ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا، وإِنما هو مثل ضربه الله تعالى لنوره، ولو كانت في الدنيا لكانت إِما شرقية وإِما غربية.

وقال أَبو زيد: أَراد أَنها من شجر الشام؛ لأَن شجر الشام من أَفضل الشجر، ومن الأَرض المباركة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة، وقتادة، وغيرهم: المعنى في قوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أَنها في منكشف من الأَرض، تصيبها الشمس طول النهار، تستدير عليها، فليست خالصة للشرْق فتُسمَّى شرقية، ولا للغرب فتُسمَّى غربية.

وقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ مبالغة في صفة من صفاته وحُسنْ وجودته، وقرأَ الجمهور: ﴿تَمْسَسْهُ﴾ بالتاءِ من فوق، وقرأَ ابن عباس، والحسن بالياءِ من تحت. وقوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أَي هذه كلها معادن تكامل بها هذا النور المُمَثَّل به، وفي هذا الموضع تم المثال.

ثم ذكر تبارك وتعالى هداه لنوره من شاءَ وأَسعد من عباده، وذكر تفضُّله في ضرب الأَفعال للعباد ليقع لهم العبرة والنظر المؤدي إِلى الإِيمان.

= اللسان أيضاً (برك)، وليت: كلمة تَمَنٍّ، والنبع في الأصل: شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسي لصلابته، وكلُّ القِسِيِّ إذا ضُمَّت إلى قوس النَّبع كرَمَتْها قوسُ النَّبع، ولا يكون العود كريماً حتى يكون ذلك، ولهذا يطلقون على كل شجر كريم اسم النبع، وشجر كل من الرمان والزيتون من أكرم الأشجار وأنفعها للناس.

(١) وتكون الجملة في موضع الصفة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾.

الباءُ في ﴿بُيُوتٍ﴾ تُضم وتُكسر، واختُلف في الفاء من قوله: ﴿فِي﴾ فقيل: هي متعلقة بـ﴿مِصْبَاحٌ﴾، قال أبو حاتم: وقيل: متعلقة بـ﴿يُسَبِّحُ﴾ المتأخر، فعلى هذا التأويل يوقف على ﴿عَلِيمٌ﴾، قال الرماني: هي متعلقة بـ﴿يُوقَدُ﴾.

واختلف الناس في البيوت التي أَرادها بقوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن، ومجاهد: هي المساجد المخصوصة لله تعالى التي من عادتها أَن تُنَوَّر بذلك النوع من المصابيح، وقال الحسن بن أَبي الحسن: أَراد بيت المقدس، وسمَّاه بيوتاً من حيث فيه مواضع يتحيز بعضها عن بعض، ويؤثر أَن عادة بني إِسرائيل في وقيد بيت المقدس كانت غاية في التَّهمُّم به، وكان الزيت منتخباً مختوماً على ظروفه، وقد صُنع صنعة وقُدِّس حتى لا يجري الوقيد بغيره، فكان أَضوأَ بيوت الأَرض. وقال عكرمة: أَراد بيوت الإِيمان على الإِطلاق، مساجد ومساكن، فهي التي يستصبح فيها بالليل للصلاة وقراءَة العلم، وقال مجاهد: أَراد بيوت النبي ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ يُقَوِّي أَنها المساجد.

وقوله تعالى: ﴿أَذِنَ﴾ بمعنى أَمَرَ وقَضَى، وحقيقة الإِذن العلمُ والتمكن دون حظر، فإِن اقترن بذلك أَمْرٌ وإِنفاذ كان أَقوى، و﴿تُرْفَعَ﴾ قيل: معناه تُبْنى وتُعَلَّى، قاله مجاهد وغيره، فذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾[1]، وقال رسول الله ﷺ: «من بنى مسجداً من ماله بنى الله له بيتاً في الجنة»[2]، وفي هذا المعنى

(١) من الآية (١٢٧) من سورة (البقرة).

(٢) أخرجه مسلم في المساجد والمسافرين والزهد، والبخاري في الصلاة، وأبو داود في التطوع، والترمذي في الصلاة، والنسائي في المساجد وقيام الليل، وابن ماجه في المساجد والتجارات، والدارمي في الصلاة، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، وتختلف الألفاظ باختلاف الرواة.

أَحاديث. وقال الحسن بن أَبي الحسن: معناه تُعظَّم ويُرفع شأْنها. و«ذِكْرَ اسْمه تعالى» هو بالصلاة والعبادة قولاً وفعلاً.

وقرأَ ابن كثير، وعاصم[1]: [يُسَبَّحُ] بفتح الباءِ المشددة، وقرأَ الباقون وحفص عن عاصم: ﴿يُسَبِّحُ﴾ بكسر الباءِ المشددة، فـ﴿رِجَالٌ﴾ ـ على القراءَة الأُولى ـ مرتفع بفعل مضمر يدل عليه [يسبَّح]، تقديره: يُسبِّحُه رجال، فهذا عند سيبويه نظير قول الشاعر:

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ . . . . [2]

أَي: يبكيه ضارعٌ، و﴿رِجَالٌ﴾ ـ على القراءة الثانية ـ مرتفع بـ﴿يُسَبِّحُ﴾ الظاهر، وروي عن يحيى، بن وثاب أَنه قرأَ: [تُسَبِّحُ] بالتاءِ من فوق. و«الغُدُو والآصال» قال الضحاك: أَراد الصبح والظهر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَراد ركعتي الضحى والعصر، وإِن ركعتي الضحى لفي كتاب الله تعالى، وما يغوص عليهما إِلا غواص.

وقرأَ أَبو مجْلَز: [والإِيصَالِ].

ثم وصف الله تعالى المسبحين بأَنهم لمراقبتهم أَمر الله تعالى وطلبهم لرضاه لا يشغلهم عن الصلاة وذكر الله شيءٌ من أُمور الدنيا. وقال كثير من الصحابة رضوان الله عليهم: نزلت هذه الآية في أَهل الأَسواق الذين إذا سمعوا النداءَ بالصلاة تركوا كل شغل وبادروا إِليها، ورأَى سالم بن عبد الله بن عمر أَهل الأَسواق وهم مقبلون إِلى الصلاة فقال: هؤلاءِ الذي أَراد الله تعالى بقوله: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وروى ذلك عن ابن مسعود.

---

(١) في رواية أبي بكر عنه.

(٢) هذا صدر بيت نسبه سيبويه في الكتاب للحارث بن نَهِيك، ونسبه في خزانة الأدب لِنَهْشَل بن حَرِيّ، وقد ذكر نسبته أيضاً إلى لبيد، وإلى مزرد، وإلى الحارث بن ضرار النهشلي، والبيت بتمامه:

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ ... وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ

والبيت من شواهد النحويين، واستشهدوا به على رفع (ضارع) بإضمار فعل دلَّ عليه ما قبله كما ذكر ابن عطية هنا، وهو موجود في العيني، وابن يعيش. و(يزيد) المذكور في البيت هو يزيد بن نهشل، والضارع: الذليل الخاضع، ولِخُصُومةٍ، أي: لأجل الخصومة، والمتخبط: طالب العُرْف، وتطيح: تَذهب وتُهلك، والطوائح أراد بها المطاوح لأنه جمع مطيحة، جمع على حذف الزيادة، كقوله تعالى: ﴿لَوَٰقِحَ﴾ جمع مُلقحة، والاستشهاد بالبيت عند سيبويه وغيره من النحويين تمَّ بناءً على رواية (لِيُبْكَ) بالبناء للمفعول، و(يزيد) نائب فاعل، وقد روي البيت ببناءِ الفعل (يَبْكِ) للفاعل، وعلى هذا فالفاعل هو ضارعٌ، و(يزيدَ) مفعوله، ولا حذف ولا شاهد. (راجع الخزانة والكتاب).

و﴿إقام﴾ مصدرٌ من أَقام يُقيم، أَصله إِقْوَام، نقلت حركة الواو إِلى القاف فبقيت ساكنة والأَلف ساكنة، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين، فجاءَ «إِقام»، فقال بعض النحويين: هو مصدر بنفسه قد لا يضاف، وقيل: لا يجوز أَقمته إِقاماً، وإِنما يستعمل مضافاً، ذكره الرماني، وقال بعضهم من حيث رأَوْهُ لا يستعمل إِلا مضافاً: أُلْحقت به هاءٌ عِوَضاً من المحذوف فجاءَ «إِقامه»، فهم إِذا أَضافوه حذفوا العِوَض لاستغنائهم عنه، فإِن المضاف والمضاف إِليه كاسم واحد. و«الزكاة» هنا عند ابن عباس رضي الله عنهما: الطاعة لله، وقال الحسن: هي الزكاة المفروضة في المال. و«اليوم المخوف» الذي ذكره الله تبارك وتعالى هو يوم القيامة.

واختلف الناس في تقلُّب القلوب والأَبصار، كيف هو؟ فقالت فرقة: يرى الناس الحقائق عياناً فتتقلب قلوب الشَّاكين ومعتقدي الضلال عن معتقداتها إِلى اعتقاد الحق على وجهه، وكذلك الأَبصار، وقالت فرقة: هو تقلب على جمر جهنم، ومقصد الآية هو وصف هول يوم القيامة. فأَما القول الأَول فليس يقتضي هَوْلاً، وأَما الثاني فليس التقلب في جمر جهنم في يوم القيامة، وإِنما هو بعده، وإِنما معنى الآية عندي أَن ذلك ـ لشدة هوله ومطلعه ـ القلوب والأَبصار فيه مضطربة قلقة متقلبة من طمع في النجاة إِلى طمع، ومن حذر هلاك إِلى حذر، ومن نظر في هول إِلى النظر في الآخر. والعرب تستعمل هذا المعنى في الحروب ونحوها، ومنه قول الشاعر:

بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحَيْ طَائِرِ[1]

ومنه قول بشَّار:

كَأَنَّ فُؤَادَهُ كُرَةٌ تَنَزَّى . . . .[2]

وهذا كثير.

---

(١) جناح الطائر: ما يخفق به في الطيران، ويقال: «فلان في جناحي طائر» إذا كان قلقاً دهشاً، قال في اللسان: «وللعرب أمثال في الجناح، منها قولهم في الرجل إذا جدَّ في الأمر واحتفل: ركب فلان جناحيْ نعامة، ويقال: «ركب القوم جناحيْ الطائر» إذا فارقوا أوطانهم، ويقال: «فلانٌ في جناحيْ طائر» كان إذا قلقاً دهشاً.. والقلوب هي موضع القلق والاضطراب والتقلب، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا.

(٢) هذا صدر بيت قيل: هو من شعر نُصَيْب، وقيل: بل من شعر بشَّار، قال صاحب اللسان حين استشهد بأبيات على أن التَّنَزِّي هو التوثُّب والتَّسَرُّع، والأبيات هي: =

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

اللام في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ متعلقة بفعل مضمر تقديره: فعلوا ذلك، ويسَّروا لذلك، ونحو هذا، ويحتمل أن تكون متعلقة بقوله سبحانه: ﴿يُسَبِّحُ﴾. وقوله: ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ فيه حذف مضاف تقديره: ثواب أَحسنَ ما عملوا، ثم وعدهم عزَّ وجلَّ بالزيادة من فضله على ما تقتضيه أَعمالهم، فأَهل الجنة أَبداً في مزيد، ثم ذكر أَنه يرزق من يشاءُ، ويخصه بما يشاءُ من رحمته دون حساب ولا تعديد، وكل تفضُّل لله فهو بغير حساب، وكل جزاءٍ على عمل فهو بحساب.

ولما ذكر الله تعالى فيما تقدم من هذه الآية حالة الإِيمان والمؤمنين وتنويره قلوبهم، عقَّب ذلك بذكر الكفرة وأَعمالهم، فمثَّل لها ولهما تمثيلين: الأَول منهما يقتضي حال أَعمالهم في الآخرة من أَنها غير نافعة ولا مجدية، وذلك يقتضي حالها في الدنيا من أَنها في الغاية من الضلال والغُمَّة التي مثالها ما ذكر من تناهي الظُّلمة في قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾.

و«السَّرَابُ»: ما ترقرق من الهواءِ في الهجير في فيافي الأَرض المنبسطة، وأَوهم الناظر إِليه على بُعْد أَنه ماءٌ، سُمِّي بذلك لأَنه ينسرب كالماءِ، فكذلك أَعمالُ الكافر، يظن في دنياه أَنها نافعته، فإِذا كان يوم القيامة لم يجدها شيئاً، فهي كالسراب الذي يظنه الرائي العطشان ماءً، فإِذا قصده وأَتعب نفسه بالوصول إِليه لم يجد شيئاً، و«القِيعَة»: جمع قاعٍ، كجارٍ وجيرة، والقاعُ: المنخفض البساط من الأَرض، ومنه قول النبي ﷺ

=
أَقُــولُ ولَيْلَتِــي تَــزْدادُ طُــولاً ... أَمَــا لِلَّيْــلِ بَعْــدَهُــمُ نَهَــارُ؟
جَفَــتْ عَيْنِــي عَــنِ التَّغْمِيضِ حَتَّــى ... كَــأَنَّ جُفُــونَهَــا عَنْهَــا قِصَــارُ
كَــأَنَّ فُــؤَادَهُ كُــرَةٌ تَنَــزَّى ... حِــذَارَ البَيْــنِ لَــوْ نَفَــعَ الحِــذَارُ

يشبه فؤاده بالكرة التي تتوثَّب وتضطرب إِشفاقاً من الفراق وخوفاً لو كان ينفع الفراق الخوفُ.

في مانع زكاة الأنعام: «فَيُبْطَحُ لها بقاع قَرْقَرٍ»[(١)]. وقيل: القيعان مفرد، وهو بمعنى القاع. وقرأ مسلمة بن محارب: [بِقِيعَاتٍ][(٢)]، وقرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع ـ بخلاف ـ: [الظَّمَان] بفتح الميم وطرح حركة الهمزة على الميم وترك الهمزة.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ يريد: شيئاً نافعاً في العطش، أو يريد: شيئاً موجوداً على العموم، ويريد بـ﴿جَآءَهُۥ﴾: جاءَ موضعه الذي تخيله فيه، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿جَآءَهُۥ﴾ على السراب، ثم يكون في الكلام بعد ذلك متروك يدل عليه الظاهر تقديره: «فكذلك الكافر يوم القيامة يظن عمله نافعاً حتى إذا جاءَه لم يجده شيئاً»، ويحتمل الضمير أن يعود على العمل الذي يدل عليه قوله: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾، ويكون تمام المثل في قوله: ﴿مَآءً﴾، ويستغنى الكلام عن متروكٍ على هذا التأويل، لكن يكون في المثل إيجازٌ واقتضاب لوضوح المعنى المراد به.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي: بالمجازَات، والضمير في ﴿عِندَهُۥ﴾ عائد على العلم، وباقي الآية بيِّن، فيه توعدٌ وسُرعةُ الحساب من حيث هو بعلم لا تكلف فيه.

---

(١) هذا جزءٌ من حديث طويل أخرجه كلٌّ من مسلم، وأبو داود، والنسائي، والدارمي في الزكاة، وأخرجه أحمد في أكثر من موضع، ولفظه كما جاء في مسلم، عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلاَّ كان يومُ القيامة صُفِّحت له صفائح من نار، فأُحمي عليها في نار جهنم، فيُكْوَى بها جنبه وظهره، كلما بَرَدَت أُعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد فيرى سبيله، إما إلى الجنة وإما إلى النار، قيل: يا رسول الله فالإبل؟ قال: ولا صاحبُ إبلٍ لا يؤدي منها حقَّها ـ ومنْ حقِّها حَلَبُها يوم وِردها ـ إلاَّ إذا كان يومُ القيامة بُطِحَ لها بقَاع قَرْقَرٍ أوْفر ما كانت، لا يفقد منها فصيلاً واحداً تطؤُه بأخفافها، وتَعَضُّه بأفواهها، كلما مرَّ عليه أُولاها رُدَّ عليه آخرها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»... إلخ الحديث الذي سأل فيه الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بعد ذلك عن البقر والغنم، ثم عن الخيل، ثم عن الحُمُر، والرسول ﷺ يجيب موضحاً عقوبة من لا يؤدي حق كل نوع. والحديث صريح في وجوب الزكاة في الذهب والفضة والإبل والبقر والغنم والخيل. ومعنى (بُطح): أُلقي على وجهه مبسوطاً على الأرض، والقاع: المستوي الواسع من الأرض يعلوهُ ماءُ السماء فَيُمْسكه، وهو موضع الشاهد هنا، والقَرْقَر: المستوي أيضاً من الأرض مع اتساع. وهو بفتح القافين.

(٢) في الأصول: «مسلم بن محارب»، والتصويب عن البحر لأبي حيان والمحتسب لابن جني، قال ابن جني: «قد يجوز أن يكون قيعات بالتاء جمع قِيعَةٍ كقيمةٍ وقيمات وديمة ودِيمات، ويجوز أن يكون جمع قاع كجارٍ وجيرَة ونارٍ ونيرَة»، وذكر تعليلات أُخرى نقل بعضها القرطبي.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ عطف على قوله: ﴿كَسَرَابٍ﴾، وهذا المثال الأخير تضمن صفة أَعمالهم في الدنيا، أَي أَنهم من الضلال ونحوه في مثل هذه الظلمة المجتمعة من هذه الأَشياء، وذهب بعض الناس إِلى أَن في هذا المثال أَجزاءٌ تقابل أَجزاءَ من المُمَثَّل، فقال: الظلمات: الأَعمال الفاسدة والمعتقدات الباطلة، والبَحْرُ اللُّجيُّ: صدر الكافر وقلبه، واللُّجِّيُّ معناه ذو اللُّجَّة وهي معظم الماءِ وغمره، واجتماع مائه أَشدُّ لظُلْمَته، والموجُ هو الضلال أَو الجهالة التي غمرت قلبه، والفِكَر المعوجة، والسَّحاب هو شهوته في الكفر وإِعراضه عن الإِيمان وما رِين به على قلبه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التأْويل سائغ، وأَلاَّ يُقَدَّر هذا التقابل سائغ.

وقرأَ سفيان بن حسين(١): [أَوَ كَظُلُمَاتٍ] بفتح الواو، وقرأَ جمهور السبعة: ﴿سَحَابٌ﴾ بالرفع والتنوين ﴿ظُلُمَاتٌ﴾، وقرأَ ابن كثير ـ في رواية قنبل ـ: ﴿سَحَابٌ﴾ بالرفع والتنوين [ظُلُمَاتٍ] بالخفض على البدل من [ظُلُمَاتٍ] الأَول، وقرأَ ابن أَبي بزة عن ابن كثير: [سَحَابُ] بغير تنوين على الإِضافة إِلى [ظُلُمَاتٍ].

وقوله: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ لفظ يقتضي مبالغة الظُّلْمَة، واختلف الناس في هذا اللفظ، هل يقتضي أَن هذا الرجل ـ المقدر في هذه الأَحوال وأَخرج يده ـ رأَى يده أَو لم يرها البَتَّة؟ فقالت فرقة: لم يرها جملة، وذلك أَن (كادَ) معناه قاربَ، فكأَنه قال: إِذا أَخرج يده لم يقارب رؤْيتها، وهذا يقتضي نفي الرؤْية جملة، وقالت فرقة: بل رآها بعد عُسْر وشدَّة، وكاد أَلاَّ يراها، ووجه ذلك أَن (كادَ) إِذا صحبها حرف النفي وجب الفعل الذي بعدها، وإِذا لم يصحبها انتفى الفعل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا لازم متى كان حرف النفي بعد (كادَ) داخلاً على الفعل الذي بعدها، تقول: «كاد زيد يقوم» فالقيام منفي، فإِذا قلت: «كاد زيد أَلاَّ يقوم» فالقيام واجبٌ واقع، وتقول: «كاد النعام يطير»، فهذا يقتضي نفي الطيران عنه، فإِذا قلت: «كاد النعام أَلاَّ

(١) سُفيان بن حسين بن حسن، أبو محمد، أو أبو الحسن الواسطي، ثقة ـ في غير الزهري ـ باتفاقهم، من السابعة، مات بالريِّ مع المهدي، وقيل: مات في أول خلافة الرشيد. «تقريب التهذيب».

يطير» وجب الطيران له، فإذا كان حرف النفي مع (كادَ) فالأمر محتمل، مرة يوجب الفعل، ومرة ينفيه، تقول: «المفلوج لا يكاد يسكن»، فهذا كلام صحيح تضمن نفي السكون، وتقول: «رجل متكلم[1] لا يكاد يسكن»، فهذا كلام صحيح يتضمن إيجاب السكون بعد جهد ونادراً، ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[2] نفيٌ مع (كادَ) تضمن وجوب الذبح، وقوله في هذه الآية: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ نَفْيٌ مع (كادَ) يتضمن في أحد التأويلين نفي الرؤية، ولهذا ونحوه قال سيبويه رحمه الله: «إن أفعال المقاربة لها نحو آخر» بمعنى أنها دقيقة التصرف[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾، قالت فرقة: يريد: في الدنيا، أي: من لم يهده الله لم يهتد، وقالت فرقة: أراد: في الآخرة، أي: من لم يرحمه الله ويُنَوِّر حاله بالعفو والرحمة فلا رحمة له، والأول أبين وأليق بلفظ الآية، وأيضاً فذلك متلازمٌ، نور الآخرة إنما هو لمن نُوِّر قلبه في الدنيا وهُدِي، وقد قررت الشريعة أن من مَرَّ لآخرته على كفره فهو غير مرحوم ولا مغفور له.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنبيهٌ، و«الرُّؤْيَةُ» رؤية الفكر، قال سيبويه: كأنه قال: انْتَبِهْ، الله يُسَبِّح له من في السموات، و«التسبيح» هنا التعظيم والتنبيه، فهو من العقلاءِ بالنطق وبالصلاة من كل ذي دين، واختُلف في تسبيح الطير وغير ذلك مما قد ورد الكتاب بتسبيحه ـ فالجمهور على أنه تسبيح حقيقي، وقال الحسن وغيره: هو لفظ تجوُّز، وإنما تسبيحه بظهور الحكمة فيه، فهو ـ لذلك ـ يدعو إلى التسبيح.

وقال المفسرون: قوله تعالى: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عامةٌ لكل شيءٍ، من له عقلٌ وسائر الجمادات، لكنه لمَّا اجتمع ذلك عبَّر عنه بـ﴿مَن﴾ تغليباً لحكم من

---

(١) في بعض النسخ: «رجل متصرف...».

(٢) من الآية (٧١) من سورة (البقرة).

(٣) قال النحاس: «وأصحُّ الأقوال في هذا المعنى: لم يقارب رُؤيتها، فإذا لم يقارب رؤيتها فهو لم يرها رؤية بعيدة ولا قريبة».

يعقل. و﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ معناه: مصطفة في الهواءِ، وقرأَ الأَعرج: [وَٱلطَّيْرَ] بنصب الراءِ، وقرأَ الحسن: [وَٱلطَّيْرُ صَافَّاتٌ] مرفوعتان.

وقوله تعالى: ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾، قال الحسن: المعنى: كلٌّ قد عَلِم صلاةَ نفسه وتسبيح نفسه، فهو يثابر عليهما ويؤديهما. وقال مجاهد: الصلاة للبشر والتسبيح لما عداهم، وقالت فرقة: المعنى: كلٌّ قد علم صلاة الله وتسبيح الله اللَّذيْن أَمر بهما وهَدَى إِليهما، فهذه إِضافة خلق إِلى خالق، وقال الزجاج وغيره: المعنى: كلٌّ قد علم الله صلاتَهُ وتسبيحَهُ، فالضميران للكُلِّ. وقرأَت فرقة: [عُلِمَ صَلاتُه وتَسبيحُه] بالرفع وبناءِ الفعل للمفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله، ذكرها أَبو حاتم، وقرأَ الجمهور: ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ بالياءِ، على معنى المبالغة في وصف قدرة الله وعلمه بخلقه، وقرأَ عيسى، والحسن: [تَفْعَلُون] بالتاءِ من فوق، ففيه المعنى المذكور وزيادة الوعيد والتخويف من الله تعالى، وإِعلامٌ بَعْدُ بكون المُلْك على الإِطلاق له، وتذكيرُه بأَمر المصير إِليه والحَشْر يُقَوِّي معنى التخويف من الله تبارك وتعالى. وفي مصحف أُبي بن كعب رضي الله عنه، وابن مسعود رضي الله عنه: «وَاللهُ بَصيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾.

«الرُّؤْيَةُ» في هذه الآية رؤْية عيْن، والتقدير: أَن أَمْر الله وقدرته. و﴿يُزۡجِي﴾ معناه: يسوق، والإِزْجاءُ إِنما يستعمل في سوق كل ثقيل ومدافعته كالسحاب والإِبل المزاحيف، كما قال الفرزدق:

. . . . عَلَى مَزَاحِفَ تُزْجِيهَا مَحَاسِيرِ(1)

---

(1) هذا عجز بيت قاله الفرزدق من قصيدة له يمدح فيها يزيد بن عبد الملك، ويهجو يزيد بن المهلَّب، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا ... بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ القُطْنِ مَنْثُورِ
عَلَى عَمَائِمِنَا يُلْقَى وَأَرْحُلِنَا ... عَلَى مَزَاحِفَ نُزْجِيهَا مَحَاسِيرِ

والبيتان في اللسان، والرواية فيه وفي الديوان: «عَلَى زَوَاحِفَ»، والحاصب: الريح الشديدة تحمل=

والبضاعةُ المُزْجَاةُ: التي تحتاج من الشفاعة والتحسين إلى ما هو كسوق الثقيل، ومنه قول حبيب في الشيب: «وَنَحْنُ نُزْجِيهِ» ـ وسيبويه أبداً يقول في كلامه: «فأنت تزجيه إلى كذا»، أي تسوقه ثقيلاً متباطئاً.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ أي بين مفترق السحاب نفسه؛ لأن مفهوم السحاب يقتضي أن بينه فروجاً، وهذا كما تقول: جلست بين الدور، ولو أُضيفت «بين» إلى مفرد لم يصح إلاَّ أن تريد آخر، لا تقول: «جلست بين الدار» إلا أن تريد: «وبين كذا»(١).

وورش عن نافع لا يهمز [يُوَلِّف]، وقالون عن نافع، والباقون يهمزون ﴿يُؤَلِّفُ﴾، وهو الأصل.

و«الرُّكَامُ»: الذي يركب بعضه بعضاً ويتكاثف، والعرب تقول: إن الله تعالى إذا جعل السحاب ركاماً بالريح عصر بعضُه بعضاً فخرج الودق منه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾(٢)، ومن ذلك قول حسان بن ثابت:

كِلْتَاهُمَا حَلَبُ الْعَصِيرِ فَعَاطِنِي ... بِزُجَاجَةٍ أَرْخَاهُمَا لِلْمَفْصِلِ(٣)

= الحصباءَ، والزَّواحِفُ: النياق التي أصابها التعب والإعياءُ، يقال: ناقة زحوف من إبل زُحُف، وناقة مزحاف من إبل مزاحيف ومزاحف، وتُزْجي: تَسُوق وتدفع دفعاً رفيقاً، وهو موضع الشاهد هنا، وفي الحديث الشريف «كان يتخلف في السَّيْر فيُزْجي الضعيف»، أي يسوقه ليلحق بالرفاق، والفرزدق يصور هنا رحيله مع صحبه إلى يزيد بن عبد الملك في شمال الشام، والريح ترميهم بالثلج المتساقط كأنه نديف القطن، وهو يتناثر على عمائمهم وأرحلهم، وهم يقومون بهذه الرحلة على إبل تزحف من شدة الإعياء والتعب فيسوقونها سوقاً رفيقاً رحمة بها.

(١) وقيل: إن ﴿بَيْنَهُۥ﴾ في الآية لجماعة السحاب، كما تقول: هذا الشجر قد جلستُ بينه؛ لأنه جمع، وتذكير الكناية يأتي تبعاً للَّفظ، قال الفراءُ في «معاني القرآن»: «هو واحد في اللفظ ومعناه جمع؛ ألا ترى قوله: ﴿ينشىء السحاب الثقال﴾؟ ألا ترى أنَّ واحدتَهُ سحابة، فإذا أُلقيت الهاءُ كان بمنزلة نَخْلَة ونَخْل وشجرة وشجر، وأنت قائل: فلان بين الشجر وبين النخل».

(٢) من الآية (١٤) من سورة (النبأ).

(٣) هذا البيت من قصيدة حسَّان التي يقول في مطلعها: «أسألْتَ رسْمَ الدارِ أمْ لَمْ تَسْأَلِ»، وقبل هذا البيت يقول في وصف الخمر:

إِنَّ التي نَاوَلْتَنِي فَرَدَدْتُهَا ... قُتِلَتْ، قُتِلْتَ، فهاتهَا لَمْ تُقْتَلِ

وقد ورد بيت الشاهد هنا في لسان العرب بروايتين، إحداهما كما هنا، والثانية تقول: (كِلْتَاهُمَا=

ويُروى «لِلمفْصَل» بكسر الميم وفتح الصاد، فالمِفْصَلُ: واحد الْمَفَاصِل، والمَفْصِل: اللِّسَان(١)، ويروى بالقاف، أَراد حسَّان الخمر والماءَ الذي مزجت به، أَي: هذه من عصر العنب وهذه من عصر السحاب، فسَّر هذا التفسير قاضي البصرة عبد الله بن الحسن للقوم الذين حلف صاحبهم بالطلاق أَن يسأَل القاضي عن تفسير بيت حسان.

و«الوَدْقُ»: المطر، ومنه قول الشاعر:

فَــلاَ مُــزْنَــةٌ وَدَقَــتْ وَدْقَهَــا ... وَلاَ أَرْضَ أَبْقَــلَ إِبْقَــالُهَــا(٢)

وقرأَ جمهور الناس: ﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ وهو جمع خَلَ، كَجَبَل وجبال، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما، والضحاك: [مِنْ خَلَله]. وقرأَ عاصم، والأَعرج: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ على المبالغة، والجمهور على التخفيف.

وقوله تعالى: ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ قيل: تلك حقيقة، وقد جعل الله تعالى في السماءِ جبالاً من بَرد، وقالت فرقة: ذلك مجاز، وإِنما أَراد وصف كثرته، وهذا كما تقول: عند فلان جبالٌ من المال، أَو جبالٌ من العلم، أَي في الكثرة مثل الجبال، وحُكي عن الأخفش تقديره زيادة ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾، وهو قول ضعيف، و﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هي لابتداءِ الغاية، وفي قوله: ﴿مِن جِبَالٍ﴾ هي للتبعيض، وفي قوله: ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ هي لبيان الجنس.

= عَرَقُ الزُّجَاجَةِ فَاسْقِنِي)، والضمير في (كلتاهما) راجع إلى النوعين اللَّذين ذكرهما في البيت السابق، التي قُتِلَتْ ـ أي مُزِجَتْ بالماءِ فخفت حدتها ـ والتي لم تُقْتَل، والعَصيرُ: ما تعصَّر من الشيء أو تحلَّب منه عند عصره. والحَلَبُ: المحلوب، وحَلَبُ العصير: الخَمْرُ، يطلب منه أن يقدم له خمراً خالصة غير ممزوجة لأنها هي التي تؤثر فيه.

(١) ذكر ذلك صاحب اللسان واستشهد عليه ببيت حسان هذا، ثم ذكر أن في الصحاح: المِفْصل ـ بكسر الميم ـ هو اللسان، وأنشد ابن بَرِّي هذا البيت شاهداً على ذلك، ومعنى هذا أنه ضبطه بالكسر للميم.

(٢) هذا البيت لعامر بن جُوَيْن الطَّائي، وهو في اللسان (ودق)، وقد استشهد به على أن الودق: المطر كلُّه شديده وهيِّنه، وأنه يقال: وَدَقَ يَدِق وَدقاً، والمُزْنُ: السحاب عامة، وقيل: السحابة البيضاء، وقيل: السحاب الممطر، وأَبْقَل إِبْقَالُها: أَنبتت البقل، ولم يقل أبقَلَت لأن تأنيث الأرض ليس بتأنيث حقيقي، وقيل: إن هذا إذا أُسند الفعل للظاهر نحو طلعت الشمس وطلع الشمس، أما إذا أُسند للضمير فيستوي فيه الحقيقي والمجازي ويتعين التأنيث نحو: الشمس طلعت، ولا يجوز: الشمس طلع، وهذا البيت شاذٌ أو مُؤَوَّل، نص على ذلك النحويون.

و«السَّنا» (مقصوراً): الضوءُ، و«السَّناءُ» (ممدوداً): المجد والارتفاع في المنزلة، وقرأ الجمهور: ﴿سَنَا﴾ بالقصر، وقرأ طلحة بن مصرف: [سَنَاءُ] بالمدِّ والهمز، وقرأ طلحة أيضاً: [بُرَقِهِ] بضم الباءِ وفتح الراءِ، وهي جمع بُرْقة ـ بضم الباءِ وسكون الراءِ ـ فُعْلة، وهي القدر من البرق، كلُقْمَة ولُقَم وغُرْفَة وغُرَف، وقرأ الجمهور: ﴿يَذْهَبُ﴾ بفتح الياءِ، وقرأ أبو جعفر: [يُذْهِبُ] بضمها، من أذهب، كأن التقدير: يُذهب النفوس بالأبصار، نحو قوله: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾[1]، ويحتمل أن يكون كقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ [الحج: ٢٥] فالباءُ زائدة دالة على فعل يناسبها.

ثم اقتضت ألفاظ الآية الإخبار عن تقليب الليل والنهار، والإتيان بهذا بعد هذا دون توطئة، وهذا هو الذي تعجز عنه الفصحاءُ حتى يقع منهم التخليط في الألفاظ والتوطئة بالكلام، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

هذه آية اعتبار، وقرأ حمزة، والكسائي: [وَاللَّهُ خَالِقُ كُلِّ] على الإضافة، وقرأ الجمهور: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ﴾، و«الدَّابةُ»: كلُّ ما يدبُّ من الحيوان، أي يتحرك متنقلاً أمامهُ قُدُماً، ويدخل فيه الطير إذ قد يدبُّ، ومنه قول الشاعر:

. . . . دَبِيب قَطَا الْبَطْحَاءِ فِي كُلِّ مَنْهَلِ[2]

---

(١) من الآية (٢٠) من سورة (المؤمنون)، وقد قيل فيه إن الباءَ زائدة على قراءة ﴿تُنْبِتُ﴾ بضم الباءِ، فيكون التقدير: تُنبت الدُّهن، وقيل: إن التقدير: تُنبت جناها ومعه الدهن، فالمفعول محذوف، راجع تفسير هذه الآية.

(٢) الدَّبيب: المَشْيُ، والقَطَا: نوعٌ من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء، ويتخذ أفحوصه في الأرض، ويطير في جماعات، ويقطع مسافات شاسعة، وبيضه مُرَقَّط، والبَطْحاءُ: المكان المُتَّسع يمرُّ به السيل فيترك=

ويدخل فيه الحوت، وفي الحديث «دابَّةٌ من البحر مثل الظَّرب»[1]، وقوله: ﴿مِن مَّآءٍ﴾ قال النقاش: أراد أَمْنِيَة الذكور، وقال جمهور النَّظَرة: أراد أن خلقة كل حيوان فيها ماء كما خلق آدم من الماءِ والطين، وعلى هذا يتخرج قول النبي ﷺ للشيخ الذي سأله في غزاة بدر: ممن أنتما؟ فقال النبي ﷺ: «نحن من ماء»[2]، الحديث.

والمشي على البطن للحيَّات والحوت ونحوه من الدود وغيره، وعلى الرِّجْلَيْن للإنسان والطير إذا مشى، والأربع لسائر الحيوان، وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب: «ومنهم من يمشي على أكثر»، فعمَّ بهذه الزيادة جميع الحيوان، ولكنه قرآن لم يثبته الإجماع، لكن قال النقاش: إنما اكتفى القول بذكر ما يمشي على أربع عن ذكر ما يمشي على أكثر لأن جميع الحيوان إنما اعتماده على أربع، وهي قوام مشيه، وكثرة الأرجل في بعضه زيادة في الخِلْقة لا يحتاج ذلك الحيوان في مشيه إلى جميعها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر أن تلك الأرجل الكثيرة ليست باطلاً، بل هي محتاج إليهافي تنقل الحيوان، وهي كلها تتحرك في تصرفه.

وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ﴾ يعم كلَّ ما نصب الله تعالى من آية وصنعة للعبرة، وكل ما نص في كتابه من آية تنبيه وتذكير، وأخبر تعالى أنه أنزل الآيات ثم قيَّد الهداية إليها لأنه من قِبَله لبعض دون بعض.

= فيه الرمل والحصى الصغار، والمَنْهل: المورد، أي الموضع الذي فيه المشرب، وهذا الشطرشاهد على أن الدبيب يكون للطير أيضاً كما هو للحيوان.

(١) أخرج النسائي والدارمي في الصَّيد حديثاً عن جابر رضي الله عنه قال: «بعثنا رسول الله ﷺ في ثلاثمائة، فأصابنا جوع حتى أتينا البحر وقد قذف دابة، فأكلنا منها حتى ثابت أجسامنا، فأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعها فوضعه، ثم حمل أطول رجل في الجيش على أعظم بعير في الجيش فمرَّ تحته، هذا معناه»، وليس فيه لفظ الظرب، وقد جاء التشبيه بالظَّرب في راوية البخاري، والموطأ، وأحمد في مسنده، وفيه: «ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الظرب، فأكل منه ذلك الجيش ثمانية عشرة ليلة»، ولكن ليس في هذه الرواية لفظ الدابة، والحديث واحد، رواه جابر عن بعث للنبي ﷺ قِبَل الساحل تحت إمرة أبي عبيدة بن الجرَّاح.

(٢) من ذلك قوله ﷺ لعبد الله بن سلام حين سأله عن ثلاث خصال، الثالثة منها هي: ومن أين يشبه الولد أباه وأُمَّه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة نزع إليه الولد، وإذا سبق ماءُ المراة ماءَ الرجل نزع إليها». أخرجه البخاري في الأنبياء، وأحمد في مسنده (٣/ ١٠٨).

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية، نزلت في المنافقين، وسببهافيما روي أن رجلاً من المنافقين اسمه بشر كان بينه وبين رجل من اليهود خصومة، فدعاه اليهود إلى التحاكم عند رسول الله ﷺ، وكان المنافق مبطلاً، فأبى من ذلك ودعا اليهودي إلى كعب بن الأشرف، فنزلت هذه الآية فيه[١]، وأسند الزهراوي عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال: من دعاه خصمه إلى حكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم. و﴿مُذْعِنِينَ﴾ أي مظهرين للانقياد والطاعة، وهم إنما فعلوا ذلك حيث أيقنوا بالنُّجح، وأما إذا طُلبوا بحق فهم عنه معرضون. ثم وَقَفَهم تعالى على أسباب فعلهم توقيف توبيخ، أي لِيُقِرُّوا بأحد هذه الوجوه التي عليهم في الإقرار بها ما عليهم، وهذا التوقيف يستعمل في الأُمور الظاهرة مما يُوبَّخ به أو مما يُمدح به، فهو بليغ جداً، ومنه قول جرير:

أَلَسْتُـمْ خَيْـرَ مَـنْ رَكِـبَ الْمَطَـايَـا البيت. . . . .[٢]

ثم حكم عليهم بأنهم هم الظالمون، وقال: ﴿أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ من حيث إن

---

(١) أخرجه الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكر ذلك النيسابوري في أسباب النزول، وذكر أن هذه القصة هي أيضاً سبب نزول قوله تعالى في سورة النساء: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾، وأخرجه ابن جرير عن الربيع بن أنس، كما أخرجه الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما. «الدر المنثور»، و«أسباب النزول».

(٢) هذا البيت من قصيدته المشهورة التي بدأها بقوله: (أتَصْحُو أَمْ فؤادُكَ غيْرُ صاحِ)، والبيت بتمامه كما في الديوان:

أَلَسْتُـمْ خَيْـرَ مَـنْ رَكِـبَ الْمَطَـايَـا وَأَنْـدَى الْعَـالَمِيـنَ بُطُـونَ رَاحِ؟

قالوا: هذا أمدح بيت قالته العرب، وقال عبد الملك بن مروان حين سمع هذا البيت: من أراد أن يمدح فبمثل هذا البيت أو ليسكت، والاستفهام في البيت للتقرير، وهو ما يريده ابن عطية بقوله: توقيف، وأراد بقوله: «ألستم»: أنتم. والمطايا: جمع مطيَّة، وهي البعير أو الناقة يمتطى ظهرها، وأندى، أكرم وأكثر عطاءً، والراح: جمع راحة وهي كف الإنسان، يمدحهم بالفروسية والكرم كعادة العرب. وأسلوب الاستفهام التقريري في العربية كثير، ومنه في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾، وقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾، ومنه حديثاً قول شوقي:

أَرَأَيْـتَ أَفْضَـلَ أَوْ أَجَـلَّ مِـنَ الَّـذِي يَبْنِـي وَيُنْشِـىءُ أَنْفُسـاً وَعُقُـولا؟

ومن المبالغة في الذَّمِّ قول الشاعر:

أَلَسْتُـمْ مِـنَ الْقَـوْمِ الَّـذِيـنَ تَعَـاهَـدُوا على اللُّؤْمِ وَالْفَحْشَاءِ في سَالِفِ الدَّهْرِ؟

الرسول عليه الصلاة والسلام إنما يحكم بأمر الله وشرعه. والحَيْف: المَيْلُ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعْرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

قرأ الجمهور: ﴿قَوْلَ﴾ بالنصب، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحسن، وابن أبي إسحاق: [قَوْلُ] بالرفع، واختلف عن الأخيرين. قال أبو الفتح: شرط «كان» أن يكون اسمها أعرف من خبرها، فقراءَة الجمهور أقوى: والمعنى: إنما كان الواجب أن يقوله المؤمنون إذا دُعوا إلى حكم الله ورسوله أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، فـ﴿كَانَ﴾ هذه ليست إخباراً عن الماضي، وإنما هي كقول الصِّدِّيق رضي الله عنه «ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله ﷺ»(١)، وجُعل الدعاءُ إلى الله من حيث هو إلى شرعه ودينه. وقرأ الجمهور: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ على بناءِ الفعل للفاعل، وقرأ أبو جعفر، والجحدري، وخالد بن إلياس، والحسن: [لِيُحْكَمَ] على بناءِ الفعل للمفعول، و«الْمُفْلِحُونَ»: البالغون آمالهم في دنياهم وآخرتهم.

و«جَهْدُ الْيَمِينِ» بلوغ الغاية في تعقيدها، و﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ معناه: إلى الغزو، وهذه في المنافقين الذين تولَّوا حين دُعوا إلى الله ورسوله. وقوله: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعْرُوفَةٌۚ﴾ يحتمل معاني: أحدها النهي عن القَسَم الكاذب؛ إذ عرف أن طاعتهم دغْلَةٌ رديَّةٌ، فكأنه يقول: لا تُغالطوا فقد عرف ما أنتم عليه، والثاني أن يكون المعنى: لا تتكلفوا القسم، طاعة عرف متوسطة على قدر الاستطاعة أَمْثل وأَجْدى عليكم، وفي

---

(١) ومثل هذه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾، واسم ﴿كَانَ﴾ في آيتنا هنا هو ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾، وهو أعرف من قول المؤمنين الذي جعلناه خبراً لكان، قال أبو الفتح: وهو أعرف لأن «أنْ» وصلتها تشبه المضمر من حيث لا يجوز وصفُها كالمضمر، والمُضمر أعرف من قول المؤمنين، وقال أبو حيان: هو أعرف لأنه لا سبيل عليه للتنكير.

هذا الوجه إبقاءً عليهم، والثالث أن يكون المعنى: لا تقنعوا بالقسم، طاعة تُعرف منكم وتظهر عليكم هو المطلوب منكم، والرابع أن يكون المعنى: لا تقنعوا لأنفسكم بإرضائنا بالقسم، طاعة الله معروفة، وشرعه وجهاد عدوه مهيع لائح، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ متصل بقوله: ﴿لَّا تُقۡسِمُواْۖ﴾ و﴿طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾ اعتراضٌ بليغ.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية مخاطبةٌ لأُولئك المنافقين وغيرهم من الكفار وكل من يستعلي عن أمر محمد ﷺ، وقوله: ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ معناه: تَتَوَلَّوْا، محذوف التاءِ الواحدة، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾، ولو جعلنا ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ فعلاً ماضياً وقدرنا في الكلام خروجاً من خطاب الحاضر إلى ذكر الغائب لاقتضى الكلامُ أن يكون بعد ذلك: «وعليهم ما حُمِّلُوا». والذي حُمِّل رسول الله ﷺ هو التبليغ ومكافحة الناس بالرسالة وإِعْماله الجهد في إنذارهم، والذي حُمِّل الناسُ هو السمع والطاعة واتِّباع الحق. وباقي الآية بيِّنٌ.

وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، ونافع ـ رواية ورش ـ: [وَيَتَّقِهِي] بياءٍ بعد الهاءِ، قال أبو عليٍّ: وهو الوجه، وقرأ قالون عن نافع: [وَيَتَّقِهِ] بكسر الهاءِ لا يبلغ بها الياءَ، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ: [وَيَتَّقِهْ] جزماً للهاءِ، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾ بسكون القاف وكسر الهاءِ[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

قرأ الجمهور: [ٱسۡتُخۡلِفَ] على بناءِ الفعل للمفعول، وروي أن سبب هذه الآية أن بعض أصحاب النبي ﷺ شكا جهد مكافحة العدو، وما كانوا فيه من الخوف على

---

(١) وهذا على نيّة الجزم، أما الباقون فقد كسروها لأن جزم الفعل بحذف آخره، قال ذلك القرطبي.

أَنفسهم، وأَنهم لا يضعون أَسلحتهم، فنزلت هذه الآية عامة لأُمة محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يريد: في البلاد التي تجاورهم والأَصقاع التي قضى بامتدادهم إِليها، واستخلافُهم هو أَن يُمَلِّكهم البلاد ويجعلهم أَهلها كما جرى في الشام وفي العراق وخراسان والمغرب، وقال الضحاك في كتاب النقاش: هذه الآية تتضمن خلافة أَبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم لأَنهم أَهل الإِيمان وعمل الصالحات، وقد قال رسول الله ﷺ: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة»(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والصحيح في الآية أَنها في استخلاف الجمهور.

واللام في قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ لام القَسَم. وقرأَ حمزة، والكسائي، وابن عامر: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ بفتح الباءِ وشدّ الدال، وقرأَ ابن كثير، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ والحسن، وابن محيصن بسكون الباءِ وتخفيف الدال(٢)، وجاءَ في معنى تبديل خوفهم بالأَمن أَن رسول الله ﷺ لمَّا قال أَصحابه: أَما يأْتي علينا يوم نأْمن فيه ونضع السلاح،؟ قال رسول الله ﷺ: «لا تغبرون إِلا قليلاً حتى يجلس الرجل منكم في الملإِ العظيم محتبياً ليس فيه حديدة»(٣)، وقوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ فعل مستأْنف، أَي هم

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٢٢٠، ٢٢١) عن سُفَيْنة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخلافة ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك المُلْك»، قال سفينة: أمسك خلافة أبي بكر رضي الله عنه سنتين، وخلافة عمر رضي الله عنه عشر سنين، وخلافة عثمان رضي الله عنه اثنتي عشر سنة، وخلافة عليٍّ رضي الله عنه ست سنين، رضي الله عنهم. «هذا وسُفينة هو مولى رسول الله ﷺ». وأخرجه بلفظ «خلافة النبوة ثلاثون سنة» كلٌّ من أبي داود، والترمذي، وأحمد أيضاً، عن النعمان بن بشير.

(٢) قراءة تشديد الدال من بَدَّل، وقراءة التخفيف من أَبْدَل، واختار أبو عبيدة قراءة التشديد لأنها أكثر ما في القرآن، قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾. واختار أبو حاتم قراء التخفيف، وقال بعض العلماءِ: هما لغتان.

(٣) أخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية، قال: كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وعبادته وحده لا شريك له سراً وهم خائفون، لا يؤمرون بالقتال، حتى أُمروا بالهجرة إلى المدينة، فقدموا إلى المدينة فأمرهم الله بالقتال، وكانوا بها خائفين، يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح، فغبروا بذلك ما شاء الله، ثم إن رجلاً من أصحابه قال: يا رسول الله، أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع فيه السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ: لن تغبروا إلا قليلاً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليست فيهم حديدة، فأنزل الله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية. و(غَبَرَ) معناها: مكث. =

يعبدونني، وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ يريد: كفر هذه النعم إذا وقعت، ويكون الفسق ـ على هذا ـ غير المُخرج عن المِلَّة، قال بعض الناس في كتاب الطبري: ظهر ذلك في قَتَلة عثمان رضي الله عنه، ويحتمل أن يريد الكفر والفسق المُخْرجَيْن عن المِلَّة، وهو ظاهر قول حذيفة بن اليمان، فإنه قال: كان على عهد النبي ﷺ نفاق وقد ذهب ولم يبق إلاَّ كفر بعد إيمان.

ولمَّا قدم تعالى عَمَل الصالحات بيَّنها في هذه الآية، فَنَص على عُظْمها وهي إقامة الصلاة وإيتاءُ الزكاة، وعَمَّ بطاعة الرسول لأنها عامة لجميع الطاعات. و﴿لَعَلَّكُمْ﴾ معناه: في حقكم ومعتقدكم.

ثم أَنحى القول على الكفرة بأن نبَّه على أنهم ليسوا بِمُفْلِتِين من عذاب الله تعالى. وقرأ جمهور السبعة: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاءِ على المخاطبة للنبي ﷺ، وقرأها الحسن بن أبي الحسن بفتح السين، وقرأ حمزة، وابن عامر: [لاَ يَحْسَبَنَّ] بالياءِ، قال أَبو علي: وذلك يحتمل وجْهَين: أَحدهما أَن يكون التقدير: لا يحسبن محمد، والآخر أَن يسند الفعل إلى الذين كفروا والمفعول أَنفسهم، وأَعْجَزَ الرجل إذا ذهب في الأَرض فلم يُقْدَر عليه، ثم أَخبر بأن مأْواهم النار، وأَنها بئس الخاتمة والمصير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ يُراد به الرجال خاصةً، وقال أَبو عبد الرحمن السُّلَمي: يرادُ به النساء خاصةً، وسبيل الرجال أَن يستأْذنوا في كل وقت[1]، وحكى الزهراوي عن ابن عمر رضي الله عنهما نحوه، وقيل: الرجال والنساءُ

= وأخرج مثله ابن المنذر، والطبراني في الأوسط، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، وابن مردويه، عن أُبي بن كعب رضي الله عنه.

(١) ضَعَّف العلماءُ قول السُّلَمي هذا لأن «الَّذِينَ» لا يكون للنساء في كلام العرب، إنما يكون لهن «اللاتي، واللائي، واللواتي».

كلُّهم مرادٌ، ورجَّحه الطبري. وقرأ جمهور الناس: ﴿ٱلْحُلُمَ﴾ بضم اللام، وقرأ الحسن ابن أَبي الحسن: [ٱلْحُلْمَ] بسكون اللام، وكان أَبو عمرو يستحسنها.

وهذه الآية مُحْكَمَةٌ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: تركها الناس، وكذلك تَرَكَ الناسُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(١)، فأَبى الناس إلاَّ أَن الأَكرم هو الأَنسب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه العبارة بترك [الناس](٢) إغْلاظٌ وزجرٌ، إذ لم تُلْتَزَم حق الالتزام، وإلاَّ فما قال الله تعالى هو المعتقد في ذلك عند العلماءِ المكتوب في تواليفهم، أَعني أَن الكرم التقوى، وأَما أَمر الاستئذان فإن تغيير المباني والحُجُب أَغنت عن كثير من الاستئذان، وصيرته على حدٍّ آخر، وأَين أَبواب المنازل اليوم من مواضع النوم؟ وقد ذكر المهدوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: كان العمل بهذه الآية واجباً إذ كانوا لا غلق ولا أَبواب، ولو عادت الحال لعاد الوجوب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهي الآن واجبة في كثير من مساكن المسلمين في البوادي والصحارى ونحوها.

ومعنى الآية عند جماعة من العلماءِ أَن الله تعالى أَدَّب عباده بأَن يكون العبيدُ ـ إذْ لا بالَ لهم ـ والأَطفال الذين لم يبلغوا الحُلُم إلاَّ أَنهم عقلوا معاني الكشفة ونحوها، يستأْذنون على أَهليهم في هذه الأَوقات الثلاثة، وهي الأَوقات التي تقتضي عادةُ الناس الانكشاف فيها وملازمة التَّعري في المضاجع، وهي: عند الصباح لأَن الناس في ذلك الوقت عراة في مضاجعهم، وقد ينكشف النائم فمن مشى ودخل وخرج فحكمه أن يستأذن لئلا يطلع على ما يجب ستره، وكذلك في وقت القائلة ـ وهي الظهيرة ـ لأَن النهار يظهر فيها إذا عَلاَ واشتد حرُّه، وبعد العشاءِ لأَنه وقت التعري للنوم والتبذُّل للفراش(٣)، وأَما في غير هذه الأَوقات التي هي عورة، أَي ذات انكشاف، فالعرف من

(١) من الآية (١٣) من سورة (الحجرات).

(٢) في الأصول: «وهذه العبارة بترك إغلاظ وزجر»، وواضح أن المقصود هو ما ذكرناه وأن كلمة الناس سقطت من النُّسَّاخ. وما بين العلامتين [. . .] زيادة للإيضاح.

(٣) يقال: «تَبَذَّلَ الرجل» أَي: ترك التَّصوُّنَ والتَّحرُّز.

الناس التَّحفُّظ والتَّحرُّز، فلا حرج في دخول هذه الصنيفة[1] بغير إذن؛ إذ هم طوَّافون يمضون ويجيئون ولا يجد الناس بُدّاً من ذلك. وقرأ ابن أَبي عبلة: [طَوَّافِينَ] بالياءِ، وقال الحسن: إذا أَبات الرجل خادمه معه فلا استئذان عليه حتى في هذه الأَوقات الثلاثة. وقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿طَوَّٰفُونَ﴾، و﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ نصب على الظرف لأَنهم لم يُؤمَروا بالاستئذان ثلاثاً، إنما أُمروا بالاستئذان في ثلاثة مواطن، فالظرفين في ﴿ثلاثَ﴾ بيِّنةٌ.

وقرأَ جمهور السبعة: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾ برفع ﴿ثلاثُ﴾، وكذا على الابتداء، وقرأَ حمزة، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم: [ثَلاَثَ عَوْرَاتٍ] بنصب [ثَلاَثَ]، وهذه على البدل من الظرف في قوله: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾، وهذا البدل إنما يصح معناه بتقدير: أَوقات ثلاث عورات، فحذف المضاف وأَقيم المضاف إليه مقامه. و«عَوْرَات» جمع عورة، وبابه في الصحيح أَن يجيءَ على «فَعَلاتٍ» بفتح العين، كَجَفْنَة وَجَفَنَاتٍ ونحو ذلك، وسكَّنوا العين في المعتل كَبَيْضَةٍ وَبَيْضَاتٍ وجَوْبَةٍ وَجَوْبَاتٍ ونحوه، لأَن فتحه داعٍ إلى اعتلاله فلم يفتح لذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

المعنى أَن الأَطفال أُمروا بالاستئذان في الأَوقات الثلاثة المذكورة، وأُبيح لهم الأَمر في غير ذلك من الأَوقات، ثم أَمر الله تعالى في هذه الآية أَن يكونوا ـ إذا بلغوا الحلم ـ على حكم الرجال في الاستئذان في كل وقت، وهذا بيان من الله عزَّ وجلَّ.

و«القواعد» يريد النساءَ اللاتي قد أَسْنَنَّ وقعدن عن الولد، واحِدَتُهم قاعد، وقال ربيعة: هي هنا التي تُستقذر من كبرها، قال غيره: وقد تقعد المرأَة عن الولد وفيها مُسْتَمتع، فلما كان الغالب من النساء أَن ذوات هذا السن لا مذهب للرجال فيهن أُبيح

(١) هكذا في الأصول، والمألوف أن يقال: «هذه الأصناف».

لهنَّ ما لم يُبح لغيرهن، وأُزيل عنهن كلفة التحفظ المتعب؛ إذ علَّة التحفظ مرتفعة فيهن. وقرأ ابن مسعود: [أَنْ يَضَعْنَ مِن ثِيَابِهِنَّ]، وهي قراءَة أُبيّ، وروي عن ابن مسعود أَيضاً: «مِن جَلاَبِيبِهِنَّ»، والعرب تقول: «امرأَة واضع» للتي كبرت فوضعت خمارها، ثم استثنى عليهن في وضع الثياب أَلا يقصدن به التبرج وإِبداءَ الزينة، فرُبَّ عجوز يبدو منها الحرص على أَن يظهر لها جمال ونحو هذا مما هو أَقبح الأَشياءِ وأَبعده عن الحق.

والتَّبَرُّج طلب البُدُوِّ والظهور، ومنه: «بروج مشيدة»، وأَصل ذلك بروج السماءِ والأَسوار، والذي أُبيح وضعه لهذه الصنيفة الجلبابُ الذي فوق الخمار والرداءِ، قاله ابن مسعود، وابن جبير، وغيرهما.

ثم ذكر تعالى أَن تحفُّظ الجميع منهن واستعفافهن عن وضع الثياب والتزامهن ما يلتزمه الشباب من الستر، أَفضل لهن وخيرٌ، وقرأَ ابن مسعود: [وَأَنْ يَتَعَفَّفْنَ] بغير سين، ثم ذكر تعالى أَنه سميع لما يقول كل قائل وقائلة، عليم بمقصد كل أَحد في قوله، وفي هاتين الصفتين توعُّد وتحذير، والله الموفق للصواب برحمته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

اختلف الناسُ في المعنى الذي رفع الله فيه الحرج عن الأَصناف الثلاثة ـ فظاهر الآية وأَمر الشريعة أَن الحرج مرفوع عنهم في كل ما يضطرهم إِليه العذر، وتقتضي نيتهم الإِتيان فيه بالأَكمل، ويقتضي العذر أَن يقع منهم الأَنقص، فالحرج مرفوع عنهم في هذا. فأَما ما قال الناس في الحرج هنا، فقال ابن زيد: هو الحرج في الغزو، أَي: لا حرج عليهم في تأَخرهم، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ الآية معنى مقطوع من الأَول وقالت فرقة: الآية كلها في معنى المطاعم، قالت: وكانت العرب ومَنْ بالمدينة

قبل المبعث تتجنب الأكل مع أهل الأعذار، فبعضهم كان يفعل ذلك تقذراً لِجَوَلان اليد من الأعمى، ولانْبساط الجلسة من الأعرج، ولرائحة المريض وعِلاَّته، وهي أخلاق جاهلية وَكِبْر، فنزلت الآية مؤدبة، وبعضهم كان يفعل ذلك تحرجاً من غير أهل الأعذار إذ هم مقصورون في الأكل عن درجة الأصحاء، لعدم الرؤية في الأعمى، وللعجز عن المزاحمة في الأعرج، ولضعف المريض، فنزلت الآية في إباحة الأكل معهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الزهراوي: إن أهل هذه الأعذار تحرجوا في الأكل مع الناس لأجل عذرهم فنزلت الآية مبيحة لهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: الآية من أولها إلى آخرها إنما نزلت بسبب أن الناس لما نزلت: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[1] قالوا: لا مال أعز من الطعام، وتحرَّجوا من أن يأكل أحد مع هؤلاءِ فيغبنهم في الأكل فيقع في أكل المال بالباطل، وكذلك تحرجوا عن أكل طعام القرابات لذلك، فنزلت الآية مبيحة جميع هذه المطاعم، ومُبَيِّنةً أن تلك إنما هي في التعدِّي والقمار وكل ما يأكله المرءُ من مال الغير والغيرُ كاره، أو بصفة فاسدة ونحوه.

وقال عُبَيْد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: قوله في الأصناف الثلاثة إنما نزل بسبب أن الناس كانوا إذا نهضوا إلى الغزو وخلَّفوا أهل العذر في منازلهم وأموالهم، فكان أهل العذر يتجنبون أكل مال الغائب، فنزلت الآية مبيحة لهم أكل الحاجة من طعام الغائب إذا كان الغائب قد بنى على ذلك.

وقيل: كان الرجل إذا ساق أهل العذر إلى بيته فلم يجد فيه شيئاً ذهب بهم إلى بيت قرابته، فتحرَّج أهل الأعذار من ذلك فنزلت الآية.

وذكر الله تعالى بيوت القرابات وسقط منها بيوت الأبناءِ، فقال المفسرون: ذلك داخل في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾؛ لأن بيت ابن الرجل بيته. وقرأ طلحة بن مصرف [إِمَّهَاتِكُمْ] بكسر الهمزة.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ يعني ما حُزْتُم وصار في قبضتكم، فعُظْمه ما ملكه الرجل في بيته وتحت غلقه، وذلك هو تأويل الضحاك ومجاهد، وعند

---

(١) من الآية (١٨٨) من سورة (البقرة).

جمهور المفسرين يدخل في الآية الوكلاءُ والعبيد والأُجراءُ بالمعروف، وقرأَ جمهور الناس: ﴿مَلَكْتُم﴾ بفتح الميم واللام، وقرأَ سعيد بن جُبير: [مُلِّكْتُمْ] بضم الميم وكسر اللام وشدها، وقرأَ جمهور الناس: ﴿مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾، وقرأَ سعيد بن جبير: [مَفَاتِيحَهُ] بياءٍ بين التاءِ والحاءِ، الأُولى على جمع مَفْتح، والثانية على جمع مِفْتَاح(١)، وقرأَ قتادة: [مَلَكْتُمْ مِفْتَاحَهُ]. وقَرَن تعالى في هذه الآية الصَّديق بالقرابة المحضة الوَكيدَة؛ لأَن قرب المودة لصيق، قال معمر: قلتُ لقتادة: أَلا أَشربُ من هذا الحُبِّ(٢)؟ فقال: أَنت لي صديق فما هذا الاستئذان؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب النقاش: الصديق أَوكد من القرابة، أَلا ترى في استغاثة الجهنَّميِّين: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ ردٌّ لمذهب جماعة من العرب كانت لا تأْكل أَفراداً البَتَّةَ، قاله الطبري، ومن ذلك قول بعض الشعراء:

إذا مَا صَنَعْتُ الزَّادَ فَالْتَمِسِي لَهُ ... أَكِيلاً فَإِنِّي لَسْتُ آكُلُهُ وَحْدِي(٤)

وكان بعض العرب إِذا كان له ضيف لا يأْكل إِلاَّ أَن يأْكل مع ضيفه، فنزلت هذه الآية مُبَيِّنةً سُنَّة الأَكل، ومُذْهِبَةً كل ما خالفها من سنَّة العرب، ومبيحة من أَكل المنفرد ما كان

---

(١) جاء في اللسان: «جمع المِفْتَاح الذي يُفْتح به المِغْلاق: مَفَاتِيح، وجمع المَفْتَح الخزانة: المَفَاتِح»، فالمَفْتَح هو الكنز أو الخزانة التي توضع فيها الكنوز، قال تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾، فالمراد: ما في خزائنه من مال، أو الخزائن نفسها.

(٢) الحُبُّ: وِعَاءُ الماءِ كالزِّير والجَرَّة، جمعه: أَحْبَابٌ وحِبَبَةٌ وحِبَابٌ. «المعجم الوسيط».

(٣) الآيتان (١٠٠، ١٠١) من سورة (الشعراء). والأكل من بيت الصديق من غير استئذان أمر لا بأس به، وقد كان النبي ﷺ يدخل حائط أبي طلحة المسمَّى بَيْرحَا ويشرب من ماءٍ فيها طيب بغير إذنه، قال العلماءُ: والماُء مُتَمَلَّك لأهله، وإذا جاز الشرب من ماءِ الصديق بغير إذنه جاز الأكل من ثماره وطعامه إذا علم أن نفس صاحبه تطيب به.

(٤) الزَّاد: الطعام في السفر والحضر جميعاً، والجمع أزواد، ومعنى «صَنَعْتِ الزَّادَ»: أعددت الطعام، والأكيل هو الذي يأكل معك، تقول: فلان أكيلي، وهي من المؤاكلة، يقال: آكَلْتُه مُؤَاكلة: أكلتُ معه، ومثله في ذلك الشَّريب: فالأكيل والشَّريب هو الذي يصاحبك في الأكل والشرب، يقول لزوجه: إذا ما أعددت الطعام فابحثي عمن يأكل معي فإني لا آكل وحدي، وهذه عادة لبعض العرب كما قال ابن عطية.

عند العرب محرماً، نَحَتْ به نحو كرم الخُلُق فأفرطت في إلزامه، وإن إحضار الأكيل لحسنٌ ولكن بألاّ يحرم الإنفراد.

وقال بعض أهل العلم: هذه الآية منسوخة بقوله ﷺ: «إنَّ دِماءَكم وأَموالكم عليكم حرام»[1]، وبقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾[2] الآية، وبقوله ﷺ من حديث ابن عمر رضي الله عنه: «لا يَحْلُبَنَّ أَحَدٌ مَاشية أحد إلاّ بإذنه» الحديث[3].

ثم ختم الله تعالى الآية بِتَبْيِينِهِ سُنَّة السلام في البيوت، واختلف الناس في أي البيوت أراد ـ فقال إبراهيم النَّخعي: أراد المساجد، والمعنى: سلِّموا على من فيها من صنفكم، فهذا كما قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[4]، فإن لم يكن في المساجد أحد فالسلام أن يقول المرءُ: السلام على رسول الله، وقيل: يقول: السلام عليكم، يريد الملائكة، ثم يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وقوله تعالى: ﴿تَحِيَّةً﴾ مصدر[5]، ووصفها بالبركة لأن فيها الدعاءَ واستجلاب مودة المسلم عليه، والكاف من قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كاف تشبيه، و«ذلك» إشارة إلى هذه السُّنَن، أي: هذا الذي وصف يطَّرد تَبيين الايات لعلكم تعقلونها وتعملون لها.

وقال بعض الناس في هذه الآية: إنها منسوخة بآية الاستئذان الذي أُمر به الناسُ، وهي المتقدمة في السُّورة، فإذا كان الإذن محجوراً فالطعام أحرى، وكذلك فرضت فرقة نسخاً بينها وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[6].

---

(١) هذا جزء من خطبة الوداع، وهي طويلة ومعروفة، وقد أخرجها البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، والإمام أحمد.

(٢) من الآية (٢٧) من سورة (النور).

(٣) أخرجه كل من البخاري ومسلم في اللُّقطة، وأبو داود في الجهاد، ولفظه كما جاء في البخاري، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَحْلِبَنَّ أحد ماشية امرىء بغير إذنه، أيحبُّ أحدكم أن تُؤتَى مَشْرُبَتُه فتكسر خِزانته فيُنْتقل طعامه؟ فإنما تَخْزُن لهم ضروع مواشيهم أطعماتهم، فلا يَحْلُبَنَّ أحد ماشية أحد إلا بإذنه».

(٤) من الآية (١٢٨) من سورة (التوبة).

(٥) وذلك لأن قوله تعالى قبلها: ﴿فَسَلِّمُوا۟﴾ معناه: فَحَيُّوا، وقد وصفها الله بالبركة لما فيها من الدعاء واكتساب مودة المسلمين كما قال ابن عطية، ووصفها بالطيب لأن سامعها يجد لها وقعاً طيباً في نفسه.

(٦) من الآية (١٨٨) من سورة (البقرة).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والنسخ لا يتصور في شيءٍ من هذه الآيات، بل هي كلها محكمة، أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ ففي التعدي والخدع والغرر واللهو والقمار ونحوه، وأما هذه الآية ففي إباحة طعام هذه الأصناف التي يَسُرُّها استباحة طعامها على هذه الصفة، وأما آية الإذن فعِلَّةُ إيجاب الاستئذان خوف الكشف، فإذا استأذن الرجل خوف الكشفة ودخل المنزل بالوجه المباح صحَّ له بعد ذلك أكل الطعام بهذه الإباحة، وليس يكون في الآيات نسخٌ، فتأمله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية للحصر، اقتضى ذلك المعنى؛ لأنه لا يتم إيمانٌ إلاَّ بأن يؤمن المرءُ بالله ورسوله، وبأن يكون من الرسول سامعاً غير معنت في أن يكون الرسول ﷺ يريد أمراً فيريد هو إفساده بزاوله في وقت الجمع ونحو ذلك.

و«الأمر الجامع» يُراد به ما للإمام حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة، فأدب الإسلام اللازم في ذلك ـ إذا كان الأمر حاضراً ـ ألاَّ يذهب أحد لعذر إلاَّ بإذنه، فإذا ذهب بإذن ارتفع عنه الظن السيءُ، والإمامُ الذي يُرتقب إذنه في هذه الآية هو إمامُ الإمرة، وقال مكحول، والزهراوي: الجمعة من الأمر الجامع، وإمام الصلاة ينبغي أن يُستأذن إذا قدمه إمامُ الإمرة إذا كان يرى المستأذن، ومشى بعض الناس دهراً على استئذان إمام الصلاة، وروي أن هرم بن حبان كان يخطب، فقام رجل فوضع يده على أنفه، وأشار إلى هرم بالاستئذان فأذن له، فلما قُضيت الصلاة كشف عن أمره أنه إنما ذهب لغير ضرورة، فقال هرم: اللهم أخر رجال السوء لزمان السوء.

وظاهر الآية إنَّما يقتضي أن يُستأذن أمير الإمرة الذي هو في مقعد النبوة؛ فإنه ربما كان له رأي في حبس ذلك الرجل لأمر من أُمور الدين، فأما إمام الصلاة فقط فليس ذلك إليه؛ لأنه وكيل على جزءٍ من أجزاءِ الدين للذي هو في مقعد النبوة.

ثم أَمر تبارك وتعالى نبيه ﷺ أَن يأْذن لمن عرف منه صحة العذر وهم الذين يشاء.

وروي أَن هذه الآية نزلت في وقت حفر رسول الله ﷺ خندق المدينة، وذلك أَن بعض المؤمنين كان يستأْذن لضرورة، وكان المنافقون يذهبون دون استئذان، فأَخرج الله تعالى الذين لا يستأْذنون عن صنيفة المؤمنين، وأَمر النبيَّ ﷺ أَن يأْذن للمؤمن الذي لا تدعوه ضرورة إِلى حبسه، وهو الذي يشاء، ثم أَمره بالاستغفار لصنفي المؤمنين من أُذن له ومن لم يُؤذن له، وفي ذلك تأْنيس للمؤمنين ورأْفة بهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤) ﴾.

هذه الآية مخاطبة لجميع معاصري رسول الله ﷺ، وأَمرهم الله تعالى أَلاَّ يجعلوا مخاطبة رسول الله ﷺ في النداءِ كمخاطبة بعضهم لبعض، فإِن سيرتهم كانت التداعي بالأَسماءِ، وعلى غاية البدواة وقلة الاهتمام، فأَمرهم الله تعالى في هذه الآية وفي غيرها[١] أَن يدعوا رسول الله ﷺ بأَشرف أَسمائِه، وذلك هو مقتضى التوقير والتعزير[٢]، فالمبتغى في الدعاء أَن يقول: يا رسول الله، ويكون ذلك بتوقير وخفض صوت وبر، وأَلا يجري ذلك على عادتهم بعضهم لبعض، قاله مجاهد وغيره.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى في هذه الآية إِنما هو: لا تحسبوا دعاءَ الرسول عليكم كدعاءِ بعضكم على بعض، أَي: دعاؤه عليكم مجاب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولفظ الآية يدفع هذا المعنى، والأَول أَصح.

---

(١) كقوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾، وقوله تعالى في سورة الفتح: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾.

(٢) من معاني عَزَّره: فَخَّمه وعَظَّمه، قال في اللسان: «وعزَّره: فخَّمه وعظَّمه، والعَزْرُ: النصر بالسيف، وعَزَرَه عَزْراً وعَزَّرَهُ: أعانه وقوَّاه ونصره».

ثم أَخبرهم الله تعالى أَن المتسلِّلين منهم لواذاً قد علمهم، واللِّواذ: الرَّوَغان والمخالفة، وهو مصدر «لاوَذَ» وليس بمصدر «لاذَ»؛ لأَنه كان يقال له: «لِيَاذاً»[1]، ذكره الزجاج وغيره.

ثم أَمرهم بالحذر من عذاب الله تعالى ونقمته إِذا خالفوا عن أَمره، وقوله تعالى: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ معناه: يقع خلافِهم بعد أَمره، وهذا كما تقول: كان المطر عن ريح، و«عَنْ» هي لِمَا عَدَا الشيء[2]، و«الفتنة» في هذا الموضع: الاختبار والرزايا في الدنيا، أَو بالعذاب الأَليم في الآخرة، ولا بد للمنافقين من أَحد هذين.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ﴾ استفتح الكلام وأَخبر أَن الله تعالى له ما في السموات والأَرض مِلْكاً وخَلْقاً، ثم أَخبرهم أَنه قد علم ما أَهل السماءِ والأَرض عليه، وخصَّ بالذكر منهم المخاطبين لأَن ذلك موضع الحجة عليهم، وهم به أَعني، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ﴾ يجوز أَن يكون معمولاً لقوله: ﴿يَعْلَمُ﴾، ويجوز أَن يكون التقدير: والعلم الظاهر لكم ـ أَو نحو هذا ـ يَوْم، فيكون النصب على الظرف. وقرأَ الجمهور: ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بضم الياءِ وفتح الجيم، وقرأَ يحيى بن يَعْمَر، وابن أَبي إِسحاق، وأَبو عمرو: [يَرْجِعُونَ] بفتح الياءِ وكسر الجيم.

وقال عقبة بن عامر الجهني: رأَيت النبي ﷺ يقرأُ هذه الآية خاتمة النُّور فقال: [وَاللهُ بِكُلِّ شَيءٍ بَصِيرٌ][3]، وباقي الآية بيِّنٌ.

كمل تفسير سورة النور والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أَجمعين.

* * *

---

(١) في اللغة: «لاذَ به إذا التجأ إليه وانضم واستغاث، ولاوَذَه لواذاً: راوغه» راجع اللسان. وانتصب قوله تعالى: ﴿لِوَاذًا﴾ على المصدر في موضع الحال، أي: مُتلاوذين.

(٢) الفعل «خالف» يتعدى بنفسه، تقول: خالفت أمر فلان، ويتعدى بإلى، تقول: خالفت إلى كذا، وهنا ضُمِّن الفعل «خالف» معنى «صَدَّ» فعُدِّي بِعَنْ، وقال أبو عبيدة والأخفش: (عَنْ) زائدة، أي: يخالفون عن أمره.

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائله، والطبراني بسند حسن، عن عقبة بن عامر، وفيه كما ذكره في «الدر المنثور» زيادة على ما هنا قوله: «يعني خاتمة سورة النور، وهو جاعلٌ إصبعيه تحت عينيه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الفرقان

هذه السورة مكية في قول الجمهور، وقال الضحاك: هي مدنية، وفيها آيات مكية، قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ الآيات[١].

قال عزَّ وجلَّ:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾.

(تَبَارَكَ) وزنه تفاعل، وهو فعل مضارع. (بارَكَ)، من البركة، و(بَارَكَ) فاعل من واحد، ومعناه: زادَ، و[تَبَارَكَ] فعل مختصٌّ بالله تعالىٰ، لم يستعمل في غيره، ولذلك لم يصرَّف منه مستقبل، ولا اسم فاعل، وهو صفة فعل[٢]، أي: كثُرت بركاته، ومن جُمْلتها إنزال كتابه الذي هو الفُرقان بين الحق والباطل. وصدر هذه الآية إنما هو ردٌّ على مقالات كانت لقريش، فمن جُمْلتها قولهم: «إن القرآن افتراه محمد، وإنه ليس من عند الله»، فهو ردٌّ على هذه المقالات.

وقرأ الجمهور: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾، وقرأ عبد الله بن الزُّبير: [عَلَى عِبَادِهِ]، والضمير في قوله: (لِيَكُونَ) يحتمل أن يكون لمحمد ﷺ، وهو عبده المذكور، وهذا تأويل ابن

(١) وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة: هي مكية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة، وهي: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

(٢) هو صفة فعل على التأويل الذي ذكره ابن عطية، وقد يكون صفة ذات ولكن على التأويلات الأخرى التي ذكرها المفسرون، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: تبارك: لم يزل ولا يزول، وقال الخليل: تمجَّد، وقال الضحاك: تعظَّم.

زيد، ويحتمل أَن يكون للقرآن، وأَما على قراءَة ابن الزبير فهو للقرآن، لا يحتمل غير ذلك إلاَّ بِكُرْه. وقوله تعالىٰ: (لِلْعَالَمِينَ) عامٌّ في كل إنسي وجني، عاصَرَه أَو جاءَ بعده، وهذا مؤيد من غير ما موضع من الحديث المتواتر وظاهر الآيات. و«النذير»: المُحَذِّر من الشَّرِّ، والرسول من عند الله نذير، وقد يكون النذير ليس برسول، كما روي في ذي القرنين، وكما ورد في رُسُل رسول الله ﷺ إِلى الجن، فإِنهم نذر وليسوا برسل.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية، هي من الرَّدِّ على قريش في قولهم: «إِن لله شريكاً»، وفي قولهم: «اتَّخذ البنات»، وفي قولهم في التلْبية: «إِلاَّ شريك هو لك». وقوله تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ عامٌّ في كل مخلوق، وتقديرُ الأَشياءِ هو حدُّها بالأَمكنة والأَزمان والمقادير والمصلحة والإِتقان.

ثم عقَّب ذكر هذه الصفات التي هي للأُلوهية بالطعن على قريش في اتخاذهم آلهة ليست لهم هذه الصفات، فالعقل يعطي أَنهم ليسوا بآلهة. وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يحتمل أَن يريد: يخلقهم البشر بالنحت، وهذا التأْويل أَشد إِبداءً لخساسة الأَصنام، وخلق البشر يجوز، ولكن العرب تستعمله[١]، ومنه قول زهير:

وَلأَنْـتَ تَفْـرِي مَـا خَلَقْـتَ وَبَعْـ ... ـضُ الْقَـوْمِ يَخْلُـقُ ثُـمَّ لا يَفْـرِي[٢]

وهذا من: خلَقْتُ الجلد، إِذا عملتَ فيه رسوماً يقطع عليها، فالفَرْيُ هو أَن يُقطَّع على تلك الرسوم. وقوله تعالىٰ: ﴿مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً﴾ يريد: إِماتة ولا إِحياءً، و«النُّشور»: بعث الناس من القبور.

---

(١) هكذا في الأصول، ونعتقد أن الصواب: «وخَلْق البشر لا يجوز، ولكن العرب تستعمله» حتى لا يكون هناك تناقض في الكلام، ومع ذلك ففي اللسان أن الخَلْق في كلام العرب: ابتداع الشيءِ على مثال لم يُسبق إليه، وفيه أيضاً: الخلق بمعنى التقدير، يقال: خلق الأديم يخلقه خلقاً: قدَّره قبل القطع وقاسه ليقطع منه مزادةً أو قربةً أو خُفّاً ـ فقد يُنْسب الخلق إلى البشر بهذا المعنى، وعليه جاء قول زهير.

(٢) خَلَق هنا بمعنى: قَدَّر الأمر، من قولهم: خلَق الأديم يخلُقُه، بمعنى: قَدَّره وقاسه قبل القَطْع ليقطع منه ما يريد من مصنوعات كالقربة أو الخف أو المزادة، وأما الفريُ فهو التقطيع نفسه، يقال: فَرَيْتُ الشيءَ أَفْرِيهِ فرياً: شققته وقطَّعته ـ على جهة الإصلاح ـ وأفْرَيْتُه: قطَّعته على جهة الإفساد، والمراد هنا الإصلاح، ومعنى البيت: أنت تُنفِّذ ما تعزم عليه وتُقَدِّرُهُ. قال في (اللسان ـ فرا): وهو مثلٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦﴾.

المرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ قريش، وذلك أن بعضهم قالوا: هذا كذبٌ افتراه محمد، واختلف الناس في المُعِينين لمحمد ﷺ ـ على زَعْم قريش ـ فقال مجاهد: أشاروا إلى قوم من اليهود، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أشاروا إلى عَبيد كانوا للعرب من الفرس، أحدهم أبو فُكَيْهة مولى الحضرميِّين، وجبر، ويسار، وعدَّاس، وغيرهم. ثم أخبر الله تعالىٰ أنَّهم ما جاؤوا إلاَّ إثْماً وزوراً، أي: ما قالوا إلاَّ بهتاناً وزوراً. و«الزُّور»: تحسين الباطل، هذا عرفه، وأصله التحسين مطلقاً، ومنه قول عمر رضي الله عنه: «فأردت أن أُقدم بين يدي أبي بكر مقدمةً كنتُ زَوَّرْتُها».

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، قال ابن عباس: يعني بذلك قول النضر بن الحارث، وذلك أنَّهم قالوا: كلُّ ما في القرآن من ذكر أساطير الأولين فإنما هو بسبب النضر بن الحارث المشهور في ذلك. ثم رمَوْا محمداً ﷺ بأنه اكْتَتَبها. وقرأ طلحة بن مصرف: [اكتُتِبها] بضم التاءِ الأُولى وكسر الثانية، على معنى: اكْتُتِبَتْ له، ذكرها أبو الفتح[1]. وقرأ طلحة: «تُتْلَى» بتاءٍ بدل الميم. ثم أمره الله تعالىٰ أن يقول: الذي أنزله هو الله الذي يعلم سرَّ جميع الأشياءِ التي في السموات والأرض، ثم أعلم أنه غفور رحيم لِيُرَجِّي كل سامع في عفوه ورحمته مع التوبة والإنابة، والمعنى أن الله غفور رحيم في إبقائه على أهل هذه المقالات والكفر لعلهم أن يؤمنوا.

---

(١) قال أبو الفتح عثمان بن جني في «المحتسب»: «إن قراءة العامة: (اكْتَتَبَهَا)، معناه: استكتبها، ولا يكون معناه: كَتَبها أي: كَتَبها بيده؛ لأنه ﷺ كان أُمِّيّاً لا يكتب، وهو من تمام إعجازه... وإذا كان كذلك فمعنى: [اكْتُتِبَهَا] إنما هو: استُكْتِبَهَا، وهو على القَلْب، أي: استُكْتِبتْ له، ومثله في القَلْب قراءة من قرأ: [قُدِّروها تقديرا]، أي: قُدِّرت لهم». وبعد أن ساق شواهد شعرية على القلب في العربية قال: «وليس ممتنعاً أن يكون قوله: (اكْتَتَبَهَا): كتَبَهَا، وإنْ لَم يَكُ ذلك بيده، إلا أنه لما كان عن رأيه أو أمره؛ نُسب ذلك إليه، وفي الحديث: «مَن اكْتَتَبَ ضَمِناً كان له كذا»، أي: زَمِناً، يعني كتب اسمه في الفرض، فعلى هذا يكونُ [اكْتُتِبَهَا] أي: اكْتُتِبَتْ له». هذا هو كلام ابن جني كاملاً ذكرناه لأن ابن عطية اختصره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾.

الضمير في قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ لقريش، وذلك أنهم كان لهم مع رسول الله ﷺ مجلس مشهود، ذكره ابن إسحاق في السير، وغيرُه، مضمنه أن سادتهم ـ عتبة وغيره ـ اجتمعوا معه، فقالوا: يا محمد، إن كنت تحب الرياسة وَلَّيْنَاكَ علينا، وإن كنت تُحب المال جمعنا لك من أَموالنا[1]. . . فلما أَبَى رسول الله ﷺ رجعوا في باب الاحتجاج عليه، وقالوا له: ما بالك ـ وأَنت رسول من الله ـ تأكل الطعام، وتقف بالأَسواق تريد التماس الرزق؟ أَي: من كان رسول الله مستغن عن جميع ذلك، ثم قالوا له: سلْ ربَّك أَن يُنزل معك مَلَكاً يُنْذر معك، أَو يُلقى إِليك كنزٌ تُنفق منه، أَو يرُدُّ لك جبال مكة ذهباً، أَو تُزالُ الجبال ويكون مكانها جنات تطَّرد فيها المياه، وأَشاعوا هذه المحاجَّة، فنزلت هذه الآية.

وكُتبت اللام مفردة من قولهم: ﴿مال هذا﴾ إمَّا لأَن مُمْلي المصحف قطع لفظه فاتَّبعه الكاتب؛ وإمَّا لأَنهم رأَوْا أَن حرف الجرّ بإنهاءِ الاتصال، نحو مِنْ، وفي، وعَنْ، وعَلَىٰ. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: [يَأْكُلُ مِنْهَا] بالياءِ، وقرأَ حمزة، والكسائي [نَأْكُلُ] بالنون، وهي قراءَة ابن وثاب، وابن مُصرِّف، وسليمان بن مهران[2]. ثُمَّ أَخبر تعالىٰ عنهم ـ وهُمُ الظالمون الذين أُشير إِليهم ـ أَنهم

---

(١) أخرجه ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس رضي الله عنهما، والخبر طويل تجده في السيرة، وفي الدر المنثور، وفيه من أسماء المشركين: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل، وغيرهم.

(٢) لُقِّب بالأعمش، واعتاد ابن عطية رحمه الله قبل ذلك أن يذكره بلقبه، واسمه سليمان بن مهران، أبو محمد، أسدي بالولاء، تابعي مشهور، أصله من بلاد الريِّ، نشأ وتوفي بالكوفة، وكان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض، وروى نحو ١٣٠٠ حديث، قال عنه الذهبي: كان رأساً في العلم النافع والعمل الصالح، وقال السخاوي: لم يُرَ السلاطين والملوك والأغنياءُ في مجلس أحقر منهم في مجلس. =

قالوا ـ حين يَئِسوا من محمد ﷺ ـ: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾، يجوز أن يكون من السَّحْر وهي الرئة[1]، فكأنهم ذهبوا إلى تحقيره، أي: رجل منكم في الخلقة، ذكره مكي وغيره. ثم نبَّهه الله تعالىٰ مسلِّياً عن مقالتهم فقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟﴾، أي: أخطؤوا الطريق فلا يجدون سبيلاً لهداية، ولا يطيقونه لالتباسهم بضدِّه من الضلال.

وقوله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ﴾ الآية، رجوع بأُمور محمد ﷺ إلى الله، أي: هذه جهتك، لا هؤلاءِ الضَّالُّون في أمرك، والإشارة بـ (ذَٰلِكَ) ـ قال مجاهد: هي إلى ما ذكروه في النَّقاشِ من الكنز والجنة في الدنيا، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي إلى أكله الطعام ومشيه في الأسواق، قال الطبري: والأول أظهر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لأن التأويل الثاني يوهم أن الجنات والقصور التي في هذه الآية ـ وهو تأويل الثعلبي وغيره ـ يَرُدُّه قوله بعد ذلك: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾[2]، والكل محتمل.

وقرأ عاصمٌ في رواية أبي بكرٍ وحفصٍ ـ ونافعٌ، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: (وَيَجْعَلْ) بالجزم، على العطف على موضع الجواب في قوله: (جَعَلَ)؛ لأن التقدير: إن يشأ يجعل. وقرأ أبو بكر عن عاصم أيضاً، وابنُ كثير، وابن عامر: [وَيَجْعَلُ] بالرفع والاستئناف، وهي قراءة مجاهد، ووجهُه العطفُ على المعنى في قوله: (جَعَلَ)؛ لأن جواب الشرط هو موضع استئناف، ألا ترى أن الجمل من الابتداءِ والخبر قد تقع موقع جواب الشرط؟ وقرأ عبد الله بن موسى، وطلحةُ بن سليمان: [وَيَجْعَلَ] بالنصب،

= الأعمش مع شدة حاجته وفقره: (ابن سعد، وتذكرة الحفاظ، وتاريخ بغداد، والوفيات).

(١) قال في (اللسان ـ سحر): والسَّحْر أيضاً: الرئة، والجمع أسْحار، وسُحْر، وسُحُور، وقد يحرك فيقال: سَحَرٌ، مثل نَهْر ونَهَر، وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «مات رسول الله ﷺ بين سَحْري ونحري»، أي: مات رسول الله ﷺ وهو مستند إلى صدرها وما يحاذي سَحْرها منه.

ويظهر أن في الكلام نقصاً، وأن بعضه قد سقط من النساخ قبل قوله: يجوز أن يكون من السَّحْر، ومما رُوي عن العلماء في ذلك أن يكون المعنى: غَلَب على عقله السِّحْر، أو يُسْحَر بالطعام وبالشراب، أي: يُغَذَّى بهما، أو أُصيب سحره، كما تقول: رأَسْته، أي: أصبْت رأسَهُ.

(٢) قيل: لا يردُّه؛ لأن المعنى به متمكن، وهو عطف على ما حُكي عنهم، يقول: بل أُتي بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم بالساعة. وقد قال ابن عطية: والكلُّ محتمل.

وهي على تقدير (أن) في صدر الكلام، قال أبو الفتح: هي على جواب الجزاءِ، قالوا: وهي قراءَةٌ ضعيفة، وأدغم الأعرج [جَعَلْ لَّكَ] و﴿وَيَجْعَل لَّكَ﴾، وروي ذلك عن ابن محيصن.

و«القصور»: البيوت المبنية الجدران، قاله مجاهد وغيره، فكانت العرب تُسمِّي ما كان من الشَّعر والصوف والقصب(١) بيتاً، وتُسمِّي ما كان بالجدران قصراً؛ لأنه قُصر على الداخلين(٢).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

المعنى: ليس بهم في تكذيبك مشيُك في الأسواق، بل إنهم كفرة لا يفهمون الحق، فقوله: (بَلْ) تَرْكٌ لنفس اللَّفظ المتقدم لا لمعناه، على ما تقتضيه «بَلْ» في مشهور معناها، (وَأَعْتَدْنَا): جَعَلْنَا مُعَدًّا، والعَتَادُ: مَا يُعَدُّ من الأشياءِ، و«السَّعيرُ»: طَبَقٌ من أطباق جهنم.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ يريد: جهنم؛ إذ اقتضاها لفظ «السعير». ولفظ (رأَتْهُمْ) يحتمل الحقيقة، ويحتمل المجاز على معنى: صارت منهم قدْر ما يرى الرائي من البعد. إلاَّ أَنه ورد حديث يقتضي الحقيقة في هذا، ذكره الطبري، وهو أَن رسول الله ﷺ قال: «من كذب عليَّ متعمداً فَلْيَتَبَوَّأْ مقعده من النار بين عيني جهنم»، فقيل: يا رسول الله، أَوَ لجهنم عينان؟ فقال: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾(٣)، وروي في بعض الآثار أن البعد الذي تراهم منه مسيرة سنة، وروي أَنه مسيرة خمسمئة سنة.

---

(١) القَصَب: كل نبات كانت ساقُه أنابيب وكعوباً، ونبات مائي من الفصيلة النجيلية له سوق طوال (الغاب البلدي).

(٢) في القرطبي: «لأن مَن فيه مقصور عن أن يوصل إليه».

(٣) وأخرجه الطبراني، وابن مردويه من طريق مكحول عن أبي أُمامة، وأخرج مثله عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق خالد بن دريك عن رجل من الصحابة.

وقوله تعالىٰ: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ لفظ فيه تجوُّز، وذلك أَن التَّغيُّظ لا يُسمع، وإِنما المسموع أَصوات دالة على التَّغيُّظ، وهي ولا شكَّ احتداماتٌ في النَّار كالذي يسمع في نار الدُّنيا، فَنِسْبَةُ هذا المسموع الذي في الدنيا من ذلك نِسْبَةُ الإِحراق من الإِحراق، وهي سبعون درجة كما ورد في الصحيح. و«الزَّفير»: صوتٌ ممدود كصوت الحمار المرجع في نهيقه، قال النَّقاش: الزَّفير: صوت الحمار عند نهيقه، وقال عبيد بن عمير: إِن جهنم لتَزْفِر زَفْرة لا يبقَى ملَك ولا نبيٌّ إِلاَّ خرَّ، ترعد فرائصه.

و«المكان الضَّيِّق» فيها هو مقصد إِلى التضييق عليهم من المكان في النار، وذلك نوع من التعذيب، قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّهم ليُكرهون في النَّار كما يُكره الوتد في الحائط»(١)، أَي: يدخلون كرهاً وعنفاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تُضيَّق عليهم كما يُضيَّق الزُّج على الرمح، وقرأَ ابن كثير، وعبيد عن أَبي عمرو: [ضَيْقاً] بتخفيف الياءِ، والباقون يُشدِّدون.

ومعنى (مُقَرَّنِينَ) مربوطٌ بعضهم إِلى بعض، ورُوي أَن ذلك بسلاسل من نارٍ، والقرينان من الثيران: ما قُرِنا بحبل للحرث، ومنه قول الشاعر:

إِذَا لَـمْ يـزَلْ حَبْـلُ الْقَـرينَيْـنِ يلتـوي ... فَلاَ بُدَّ يَوْماً مِنْ قوىً أن تجذَّمَا(٢)

وقرأَ أَبو شيبة المهري صاحب معاذ بن جبل رضي الله عنه: [مُقَرَّنُون] بالواو، وهي قراءَة شاذة، والوجه قراءَة الناس، وقوله: (ثُبُوراً) مصدر، وليس بالمدعُوِّ، ومفعول (دَعَوْا) محذوف، تقديره: دعَوْا من لا يُجيبهم، ونحو هذا من التقديرات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويصح أن يكون الثُّبور هو المدعُوّ، كما يدعى الحسرة والويل، و(الثُّبُورُ) قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الويل، وقال الضحاك: هو الهلاك، ومنه قول ابن الزِّبعرى:

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أبي أُسيد أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾، قال: «والذي نفسي بيده إنهم ليُسْتكرَهون في النار كما يُسْتكرَه الوتد في الحائط».

(٢) الشاهد فيه هو كلمة «القَرينَين» في الشطر الأول، وهما الثوران اللذان قرنا بحبل واحد عند الحرث، أو كل اثنين قرنا بحبل لأي غرض من الأغراض. والبيت من قصيدة للمتلمس الضبعي.

إِذْ أُجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْغَـ ـيِّ، وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ[(١)]

وقوله: ﴿لَّا تَدْعُوا﴾ إلى آخر الآية معناه: يقال لهم على معنى التَّوبيخ والإعلام بأنهم مخلدون: لا تقتصروا على حُزْن واحد، بل احزنوا كثيراً؛ لأنكم أهلٌ لذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾﴾.

المعنى: قل يا محمد لهؤلاء الكفرة الذين هم بسبيل مصير هذه الأحوال من النار: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾؟ وذلك على جهة التوقيف والتوبيخ، ومن حيث كان الكلام استفهاماً جاز فيه مجيءُ لفظة التفضيل بين الجنة والنار في الخير؛ لأن المُوقِف جائز له أن يُوقِف مُحاوره على ما يشاءُ ليرى هل يجيبه بالصواب أو بالخطأ، وإنما يمنع سيبويه وغيره من التفضيل بين شيئين لا اشتراك بينهما في المعنى الذي فيه تفضيل إذا كان الكلام خبراً؛ لأن فيه مخالفة، وأما إذا كان استفهاماً فذلك سائغ[(٢)].

وقيل: الإشارة بقوله: (ذَلِكَ) إلى الجنَّات التي تجري من تحتها الأنهارُ، وإلى

---

(١) عبد الله بن الزِّبَعْرى كان شاعر قريش، وكان يهجو النبي ﷺ وأصحابه، ثم أسلم بعد فتح مكة، وحين أسلم قال أبياتاً من الشعر، روى منها ابن إسحاق أربعة أبيات في السيرة، وهذا البيت واحد منها. وأُجاري: أُباري وأُعارض، والسَّنَنُ (بفتح السين المشدَّدة والنُّون الأولى): الطريق، ومثبور: هالك. وابن عطية يستشهد بالبيت على أن معنى الثبور هو: الهلاك.

(٢) ذكر أبو حيان كلام ابن عطية هذا ثم عقَّب عليه بقوله: «وما ذكره يخالفه قوله: (فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُما الفِدَاءُ)، وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ فإن هذا خبر، وكذلك قولهم: «العَسَل أَحْلَى مِن الخَلِّ»، إلا أن تقييد الخبر بأنه إذا كان واضحاً الحُكْمُ فيه للسامع بحيث لا يختلج في ذهنه ولا يَتَرَدَّدُ أَيُّهما أفضل، فإنه يجوز».

وقال بعض المفسرين: إن (خَيْر) هنا لا تدل على الأفضلية، بل هي على ما جرت عليه عادة العرب في بيان فضل الشيء وخصوصيَّته بالفضل دون مقابلة، وحسَّان بن ثابت حين قال مخاطباً أبا سفيان: (فشَرُّكُمَا لِخَيْركما الفداءُ) كان يريد بيان فضل النبي عليه الصلاة والسلام، ولم يُرد أبداً أن ينسب شيئاً من الخير لأبي سفيان. ويوسف عليه السلام لم يكن يرى في الفاحشة ما يجعله محباً لها، وإنما أراد أن يُبَيِّن مقدار حبه للسجن في هذه الأحوال التي يرى نفسه فيها. وكلام ابن عطية على جانب كبير من الصواب، ووجهة نظره تستحق الاعتبار، والخبر واضح في ذهن السامع لا يتردد فيه، وهو الشرط الذي ذكره أبو حيان.

القصور التي في قوله تعالىٰ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ ﴾، هذا على أن يكون الجَعْلُ في الدنيا، وقيل: الإشارة بقوله: (ذَٰلِكَ) إلى الكنز والجَنَّة اللَّتين ذكر الكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأصحُّ أن الإشارة بقوله: (ذَٰلِكَ) إلى النار، كما شرحنا آنفاً.

و(ٱلْمُتَّقُونَ) في هذه الآية: مَن اتَّقى الشِّرك، فإنه داخل في الوعد، ثم تبقى المنازل في الوعد بحسب تَقوى المعاصي[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿وعداً مسؤولاً﴾ يحتمل معنيين: أحدهما ـ وهو قول ابن عباس، وابن زيد ـ أنه مسؤولٌ لأن المؤمنين سألوه أو يسألونه، ورُوي أن الملائكة سألت الله تعالىٰ تنعيم المتقين فوعدهم بذلك، قال محمد بن كعب: هو قول الملائكة، وتَلا ﴿ وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ ﴾[٢]، والمعنى الثاني ذكره الطبريُّ عن بعض أهل العربية: أن يريد وعداً واجباً قد حتمه، فهو لذلك مُعَدٌّ أن يُسأَل ويُقْتَضى[٣]، وليس يتضمن هذا التأويل أن أحداً سأل الوعد المذكور.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

المعنى: واذكر يومَ، والضمير في (يَحْشُرُهُم) للكفار، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾ يريد به كلَّ شيءٍ عُبد من دون الله، فغلَّب العبارة عما لا يعقلُ من الأوثان لأنها كانت الأغلب وقت المخاطبة.

---

(١) أي: يبقى المتقون في درجات مختلفة داخل الوعد، ودرجاتُهم تختلف بحسب درجاتهم في التقوى والبعد عن المعاصي.

(٢) من الآية (٨) من سورة (غافر). وقيل: هو وعد الله للمؤمنين بالجنة، سألوه ذلك الوعد فقالوا: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾.

(٣) لأنه كالدَّين يطلبه صاحبه، وهو واجب بدون سؤال أو طلب، فقد أصبح حقّاً لصاحبه.

وقرأ ابن كثير، وعاصم - في رواية حفص -، والأعرج، وأبو جعفر: (يَحْشُرُهُمْ)... (فَيَقُولُ) بالياءِ فيهما، وقرأ ابن عامر بالنون فيهما، وهي قراءَة الحسن، وطلحة، وعاصم أيضاً، وقرأ نافع [نَحْشُرُهُمْ] بالنون [فَيَقُولُ] بالياءِ، وفي قراءَة عبد الله: [وَمَا يَعْبُدونَ مِنْ دُونِنَا]، وقرأ الأعرج [نَحْشِرُهُم] بكسر الشِّين، وهي قليلة في الاستعمال قوية في القياس؛ لأن (يَفْعِلُ) بكسر العين في المتعدي أقيس من (يفعُل) بضم العين[1].

وهذه الآية تتضمن الخبر على أن الله تعالىٰ يوبِّخ الكفار في القيامة بأَن موقف المعبودين على هذا المعنى؛ ليقع الجواب بالتَّبَرِّي من الذنب فيقع الخزي على الكافرين.

واختلف الناس في المُوقَفِ المُجِيبِ في هذه الآية - فقال جمهور المفسِّرين: هو كل من ظُلم بأَن عُبد ممن يعقل، كالملائكة وعُزَير وعيسى وغيرهم، وقال الضحاك، وعكرمة: المُوقَفُ المجيبُ: الأصنام التي لا تعقل، يقدرها الله تعالىٰ يومئذ على هذه المقالة، ويجيءُ خزي الكفرة لذلك أبلغ.

وقرأ جمهور الناس: (نَتَّخِذَ) بفتح النون، وذهبوا بالمعنى إلى أنه من قول من يَعْقل، وأن هذه الآية بمعنى التي في سورة سبأ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾[2] وكقول عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾[3]، و﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ - على هذه القراءَة - في موضع المفعول به. وقرأ أبو جعفر، والحسن، وأبو الدرداءِ، وزيد بن ثابت، وأبو رجاءٍ، ونصر بن علقمة، ومكحول، وزيد بن علي، وحفص بن حميد[4]: [نُتَّخَذَ] بضم النون، وتذهب

---

(١) قال أبو حيان في (البحر المحيط) تعقيباً على كلام ابن عطية: «وهذا ليس كما ذكر، بل (فَعَلَ) المتعدي الصحيح جميع حروفه، إذ لم يكن للمبالغة، ولا حلْقِيَّ عين ولا لام، فإنه جاء على يفعُل ويفعِل كثيراً، فإن شهر أحد الاستعمالين اتُّبع، وإلا فالخيار، حتى أن بعض أصحابنا خيَّر فيهما، سُمِعَا للكلمة أو لم يُسْمَعا».

(٢) الآية (٤٠) ومن الآية (٤١) من سورة (سبأ).

(٣) من الآية (١١٧) من سورة (المائدة).

(٤) هو حفص بن حميد القمي (بالقاف)، أبو عبد الله، روى عن عكرمة، وروى عنه أشعث بن إسحاق وغيره، ووثّقه النسائي.

هذه مذهب من يرى أن المُوقَف المُجيبَ الأوثان، ويضعف هذه القراءَة دخول (مِنْ) في قوله: ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، اعترض بذلك سعيد بن جبير وغيره، وقال أبو الفتح: ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ في موضع الحال[1]، ودخلت (مِنْ) زيادة لمكان النفي المتقدم، كما تقول: ما اتخذت زيداً من وكيل، وقرأ علقمة: [ما ينبغي] بسقوط (كَانَ). وثبوتُها أَمكنُ في المعنى؛ لأنهم أَخبروا عن حالٍ كانت في الدنيا، ووقت الإخبار لا عمل فيه.

وفسَّر هذا المُجيبُ ـ بحسب الخلاف فيه ـ الوجهَ في ضلال الكفار، كيف وقع؟ وأنه لما متَّعهم الله تعالىٰ بالنعم الدنيوية وأَدَرَّها لهم ولأَسلافهم الأَحقاب الطويلة نسوا الذكر، أَيْ: ما ذُكِّر بِهِ النَّاسُ على أَلسنة الأَنبياءِ.

و(بُوراً) معناه: هَلْكى، والبوار: الهلاكُ، واختلف في لفظه ـ فقالت فرقة: هي مصدر يوصف به الجمع والواحد، ومنه قول ابن الزِّبعرى:

يَــا رَسُــولَ المَلِيــكِ إِنَّ لِسَــانِــي رَاتِــقٌ مــا فَتَقْــتُ إِذْ أَنَــا بُــورُ[2]

وقالت فرقة: هي جمع باير، وهو الذي قد فارقه الخير فحصل بذلك في حكم الهلاك، باشره الهلاك بعْدُ أَو لم يباشر، قال الحسن: البايرُ: الذي لا خير فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ الآية، خطاب من الله تبارك وتعالىٰ بلا خلاف، فمن قال: «إِنَّ المُجيب الأَصنامُ» كان معنى هذه إِخباره الكفار أَن أَصنامهم قد كذبوهم، وفي هذا الإِخبار خِزْيٌ وتوبيخ، والفرقة التي قالت: «إِن المُجيبَ هو الملائكة، وعُزير، وعيسى، ونحوهم» اختلفت في المخاطب بهذه الآية، فقالت طائفة: المخاطب الكفار على جهة التوبيخ والتقريع، وقالت طائفة: المخاطب هؤلاءِ

---

(١) أي: على قراءة [نُتَّخَذُ] بضم النون، أما على قراءة الجمهور [نَتَّخذ] بفتح النون فإنها عنده في موضع المفعول به أيضاً، قال: فهي كقولك: ضربت رجلاً، فإن نفيت قلت: ما ضربت من رجل (المحتسَب).

(٢) هذا البيت من الأبيات التي قالها ابن الزِّبعرى بعد إسلامه، وهو فيها يخاطب الرسول ﷺ فيقول:

يــا رَسُــولَ الْمَلِيــكِ إنَّ لِسَــانــي راتِــقٌ مــا فَتَقْــتُ إذْ أنــا بُــورُ
إذ أُجَــاري الشَّيْطَــانَ فــي سَنَــن الغــ ــيِّ، ومَــنْ مــالَ مَيْلَــهُ مَثْبُــورُ

و«راتقٌ ما فتَقْتُ»: مُصْلحٌ ما أفسَدْتُ حين كنتُ أُباري الشيطان في طريق الضلال. وأصْل الرَّتْق: سدُّ ما في الثوب الممزق من خروق وإصلاحها، والشاهد هنا أن (بور) معناها: هالك.

المعبودون، أَعلمهم الله تعالىٰ أَن الكفار بأَفعالهم القبيحة قد كذبوا بهذه المقالة، وزعموا أَن هؤلاءِ هم الأَولياءُ من دون الله تعالىٰ، وقالت فرقة: خاطب الله تعالىٰ المؤمنين من أُمة محمد ﷺ، أَي: قد كذبكم أَيها المؤمنون الكفارُ فيما تقولون من التوحيد والشرع.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو بكر عن عاصم، والناس: (تَقُولُونَ) بالتاءِ من فوق [يَسْتَطِيعُونَ] بالياءِ من تحت، ورجَّحها أَبو حاتم، وقرأَ أَبو حيوة: [يَقُولُونَ] بالياءِ من تحت، ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ بالتاءِ من فوق، وقال مجاهد: الضمير في [يَسْتَطِيعُونَ] هو للمشركين، قال الطبري: وفي مصحف ابن مسعود: [فَمَا يَسْتَطِيعُونَ لَكَ صَرْفاً]، وفي قراءَة أُبيٍّ بن كعب: [لَقَدْ كَذَّبُوكَ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَكَ]، قال أَبو حاتم: في حرف عبد الله: [لَكُمْ صَرْفاً] على جمع الضمير.

و(صَرْفاً) معناه: ردُّ التكذيب أَو العذاب أَو ما اقتضاه المعنى، بحسب الخلاف المتقدم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ قيل: هو خطاب للكفار، وقيل: هو للمؤمنين. والظُّلْم هو الشِّرك، قاله الحسن وابن جريج، وقد يحتمل أَن يعم غيره من المعاصي. وفي حرف أُبيٍّ: [وَمَنْ يَكْذِبْ منكُم نُذِقْهُ عَذَاباً أَليماً].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

هذه الآية الأُولى ردٌّ على كفار قريش في استبعادهم أَن يكون من البَشَر رسولٌ، وقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾، وأَخبر الله تعالىٰ محمداً ﷺ وأُمَّته بأَنه لم يرسل قبل في سالف الدهر نبيًّا إِلا بهذه الصفة.

والمفعول بـ (أَرْسَلْنَا) محذوف يدل عليه الكلام، تقديره: رجالاً أَو رُسُلاً، وعلى هذا المفعول المحذوف المقدَّر يعود الضمير في قوله: ﴿إِلَّآ إِنَّهُمْ﴾، وذهبت فرقة إِلى أَن قوله: ﴿يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ كناية عن الحدث.

وقرأَ جمهور الناس: [وَيُمْشُونَ] بضم الياءِ وسكون الميم وتخفيف الشين. وقرأَ علي، وعبد الرحمن، وابن مسعود رضي الله عنهم: [وَيُمَشُّونَ] بضم الياءِ وفتح الميم وشد الشِّين المفتوحة، بمعنى: يُدْعون إِلى المشي ويُحملون عليه. وقرأَ أَبو عبد الرحمن(١) بضم الياءِ وفتح الميم وضم الشِّين المشددة، وهي بمعنى يَمْشُون، ومنه قول الشاعر:

أُمَشِّي بِأَعْطَانِ المياهِ وأَبْتَغي ... قَلائِصَ مِنْهَا صَعْبَةٌ وَرَكُوبُ(٢)

ثم أَخبر تبارك وتعالىٰ أَن السبب في ذلك أَنه سبحانه أَراد أَن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس، مؤمنٍ وكافر، فالصحيحُ فتنةٌ للمريض، والغنيُّ فتنة للفقير، والفقير الشاكر فتنة للغنيِّ، والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأَشراف الناس الكفار في عصره، وكذلك العلماءُ وحكام العدل، وقد تلا ابن القاسم هذه الآية حين رأَى أَشهب(٣). والتوقيف بـ ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ خاص للمؤمنين الْمُحِقِّين، فهو لأُمة محمد ﷺ، كأَنه جعل إِمهال الكفار فتنة للمؤمنين، أَي اختباراً لهم، ثم وَقَفَهم: هل تصبرون أَم لا(٤)؟ ثم أَعرب قوله ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ عن الوعد للصابرين والوعيد للعاصين.

ثم أَخبر عن مقالة الكفار: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿يَرْجُونَ﴾، قال أَبو عبيدة وقوم: معناه: يخافون، والشاهد لذلك قول الهذلي:

---

(١) هو أبو عبد الرحمن السُّلَمي، قاله في القرطبي.

(٢) يروى البيت: «ومَشَّى بأعطان المياهِ وابْتَغَى» بضمير الغائب، وفي روح المعاني: (ذلولٌ) بدلاً من (ركوب). والعَطَن للإبل كالوطن للإنسان، وقد غلب على مبركها حول الحوض، والجمع أعطان. والقلائص جمع قلوص، وهي من الإبل: الفَتِيَّةُ المُجْتمعة الخَلْقِ، وذلك من حين تُركب إلى التاسعة من عمرها، ثم هي الناقة. والرَّكوب: يريد بها التي ذُلِّلَتْ واعتادت الركوب عليها، وهي ضد الصَّعبة التي لم تُسْتَأنس، أو التي تنفر من الراكب ولا تقبل الجلوس فوقها. والشاهد في البيت أن مَشَّى بالتشديد تكون بمعنى مَشَى بالتخفيف.

(٣) ابن القاسم: صاحبُ مالك رحمه الله، وقد رأى أشهب بن عبد العزيز في مملكته عابراً عليه، فتلا الآية، ثم أجاب نفسه بقوله: سنصْبر.

(٤) الفتنةُ: أن يحسُد المُبتَلى المُعافى، ويحقِر المُعَافى المُبْتلى، والصبرُ أن يحبس كل منهما نفسه، المُعافى عن البَطر، والمُبتَلَى عن الضجر. وقوله سبحانه: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾؟ محذوف الجواب، يعني: أم لا؟ ومن أجل هذا أجاب ابن القاسم نفسه حين رأى أشهب في مُلكه فقال: سنصبر.

إِذَا لَسَعَتْـهُ النَّحْـلُ لَـمْ يَـرْجُ لَسْعَهَـا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَامِلِ[1]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي يظهر لي أن الرجاءَ في الآية والبيت على بابه؛ لأن خوف لقاءِ الله تعالىٰ مقترن أبداً برجائه، فإذا نَفَى الرجاءَ عن أحد فإنما أخبر عنه أنه مُكَذِّب بالبعث لنفي الخوف والرجاءِ، وفي ذكر الكفار بنفي الرجاءِ تنبيه على غبطة ما فاتهم من رجاءِ الله تعالىٰ. وأما بيت الشعر المذكور فمعناه عندي: لم يرج دفعها ولا الانفكاك عنها، فهو لذلك يوفي على الصبر ويجِدُّ في شغله.

ولما تمنت كفار قريش رؤْية ربِّهم أَخبر تعالىٰ عنهم أَنهم عظموا أَنفسهم، وسأَلوا ما ليسوا له بأَهل. و﴿عَتَوْ﴾ معناه: صعبوا على الحق واشتدوا، ويقال: عِتِيٌّ وعُتُوٌّ، عُتُوٌّ على الأَصل، وعِتِيٌّ لاستثقال الضم على الواو فقُلبت ياءً ثم كُسِر ما قبلها طلباً للتناسب[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

المعنى في هذه الآية أَن الكفار لما قالوا: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ إنما هو يوم

(١) لم يَرْجُ: لم يخف ولم يُبَالِ، وخالَفَها (بالخاء): جاء إلى عسلها وهي غائبة ترعى وقد سرحت، خَالَفَها إلى العسل، ويروى: حالَفَهَا (بالحاء المهملة)، والمعنى: لازمها، ونوب: تنتاب المرعى فتأكل ثم ترجع فتُعَسِّل، وقال أبو عبيدة: إنما سُمِّيت نوباً لسوادٍ فيها، ونوب: لا واحد له من لفظه، وقيل: بل هو نائب ونوب، مثل: عائذ وعوذ، والبيت من قصيدة له مطلعها:

أَسَـاءَلْـتَ رسْـمَ الـدَّارِ أَمْ لَـمْ تُسَـائِـلِ عَنِ السَّكْنِ أَوْ عَنْ عَهْدِهِ بـالأَوائِلِ ؟

(٢) جاءت الآية هنا عُتُوّاً: ﴿وعتو عتواً كبيراً﴾ بالواو، وهذا على الأصل، وفي سورة مريم بالياء في قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ على استثقال اجتماع الواوين والقلب لمناسبة الفواصل. هذا ما ذكره أبو حيان وابن عطية، وقال الفراءُ: وجاز أن يكون المصدر بالياء أيضاً لأن المصدر والأسماء تتفق في هذا المعنى، ألا ترى أنهم يقولون: قاعد وقوم قعود، وقعدت قعوداً، فلما استويا هاهنا في القعود لم يبالوا أن يستويا في العُتُوِّ والعِتِيِّ.

القيامة، وقد كان أول الآية يحتمل أن يريد يوم تُقبض أرواحهم، لكن آخرها يقتضي أن الإشارة إلى يوم القيامة، وأمر العوامل في هذه الظُّروف بيِّن إذا تُؤمل، فاختصرناه لذلك. ومعنى الآية: إن هؤلاءِ الذين تمنوا نزول الملائكة لا يعرفون ما قدَّر الله تعالىٰ في ذلك؛ فإنهم يوم يرون الملائكة هو شرٌّ لهم، ولا بُشْرى لهم، بل لهم الخسار ولُقيا المكروه، ويومئذ لا خير ولا بشرى؛ لأن الظروف تكون إخباراً عن المصادر.

والضمير في قوله: (وَيَقُولُونَ)، قال الحسن، وقتادة، والضحاك، ومجاهد: هو للملائكة، المعنى: ويقول الملائكة للمجرمين: حِجْراً مَحْجُوراً عليكم البشرى، أَي: حراماً مُحَرَّماً، ومنه قول جرير بن عبد المسيح:

حَنَّتْ إِلى النَّخْلَةِ الْقُصْوَى فَقُلْتُ لَهَا ... حِجْرٌ حَرامٌ أَلا تِلْكَ الدَّهَارِيسُ[1]

وقال مجاهد أَيضاً، وابن جريج: إن الضمير في قوله: (وَيَقُولُونَ) هو للكفار المجرمين، قال ابن جريج: كانت العرب إذا كرهوا شيئاً قالوا: حجراً، قال مجاهد: حجراً: عوذاً، يستعيذون بالملائكة[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يكون المعنى: ويقولون: حرام محرم علينا العفو، وقد ذكر أَبو عبيدة أَن هاتين اللفظتين عوذة عند العرب، يقولها من خاف آخَرَ في الحرم، أَو في شهر حرام إذا لقيه وبينهما تِرَةٌ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا المعنى هو مقصد بيت المتلمس الذي تقدم، أَي: هذا الذي حنَّت إليه ممنوع.

---

(١) جرير بن عبد المسيح عُرف باسم المتلمس، والبيت من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن، وهو في (اللسان ـ دَهْرَس)، والرواية فيه: (حَجَّتْ) بدلاً من (حَنَّتْ)، وحنَّت: اشتاقت، والنَّخْلة القُصوى: موضع على ليلة من مكة، وحِجْر (بالحاء المثَلَّثة): حرامٌ، والدَّهاريس: الدَّواهي واحدها دِهرس (بكسر الدال وضمها). والضمير في (حَنَّت) يعود على ناقته، يقول لها بعد أن حنَّت إلى تلك النخلة: ممنوع عليك تلك الأماكن. وفي معجم البكري رُوي البيت: (بَسْلٌ عَلَيْكِ) بدلاً من (حِجْرٌ حرامٌ)، والمعنى واحد.

(٢) قال الليث: «ظنُّوا أن ذلك ينفعهم كفعلهم في الدنيا».

وقرأ الحسن، وأَبو رجاءٍ: [حُجْراً] بضم الحاءِ، والناس على كسرها.

ثم أَخبر تعالىٰ عما يأْتي قضاؤُه وفعله فقال حكاية عن يوم القيامة: (وَقَدِمْنَا)، أَي: قَصَد حكمنا وإِنفاذنا، ونحو هذا من الأَلفاظ اللائقة، وقيل: هو قدوم الملائكة أَسنده إِليه لأَنه عن أَمره، وحسنت لفظة (قَدِمْنَا) لأَن القادم على شيءٍ مكروه لم يُقَرِّره ولا أَمر به مُغَيِّر له ومُذهب، وأَما قول الراجز:

وَقَــدِمَ الْخَـــوَارِجُ الضُّـــلاَّلُ ... إِلـــى عِبَـــادِ رَبِّنَـــا فَقَـــالُـــوا

إِنَّ دِمَـــاءَكُـــمْ لَنَـــا حَـــلاَلُ[1]

فالقُدوم على بابه.

ومعنى الآية: وقصدنا إِلى أَعمالهم التي هي في الحقيقة لا تزن شيئاً؛ إِذ لا نِيَّةَ مَعَهَا، فجعلناها على ما تستحق لا تعدل شيئاً، وصيَّرناها هباءً منثوراً، أَي: شيئاً لا تحصيل له، والهباءُ: هي الأَجرام المستَدَقَّة الشائعة في الهواءِ التي لا يدركها حِسٌّ إِلا حين تدخل الشمس على مكان ضيِّق يحيط به الظِّل كالكُوَّة ونحوها، فيظهر حينئذ فيما قابل الشمس أَشياء تغيب وتظهر، فذلك هو الهباءُ، ووصفه في هذه الآية بـ «منْثُور»، ووصفه في غيرها بـ «مُنْبَثٌّ»[2]، فقالت فرقة: هما سواءٌ، وقالت فرقة: المُنْبَثُّ أَرَقُّ وأَدَقُّ من المَنْثُور؛ لأَن المنثور يقتضي أَن غيره نثره، كسنابك الخيل أَو الرياح أَو هدم حائط ونحو ذلك، والمُنْبَثُّ كأَنه انْبَثَّ من رقَّته، وقال غيرهما[3]، الهباءُ المنثور هو ما تسفي به الرياح وتبثُّه، وروي عنه أَيضاً أَنه قال: الهباءُ الماءُ المهراق، والأَول أَصح، والعرب تقول: هبات الغبار ونحوه إِذا بثَّته، قال الشاعر:

فَتَـرَى خَلْفَهَـا مِـنَ الـرَّجْـعِ والْـوَقْـ ... ـــعِ مَنِينـــاً كـــأَنَّـــهُ أَهْبَـــاءُ[4]

---

(١) استشهد أبو عبيدة بهذا الرجز في (مجاز القرآن). وابن عطية يرى أن القدوم في الرجز على بابه، أما في الآية فإن القدوم يقصد معه التَّغيير لشيءٍ مكروه.

(٢) وذلك في الآية رقم (٦) من سورة (الواقعة)، حيث يقول تبارك وتعالىٰ عن الجبال: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾.

(٣) هو ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) البيت للحارث بن حِلِزَة، وهو من معلقته التي ألقاها في مجلس عمرو بن هند، وبدأها بقوله:

آذَنَتْنَـــا بِبَيْنِهَـــا أَسْمَـــاءُ ... رُبَّ ثَـــاوٍ يُمَـــلُّ مِنْـــهُ الثَّـــوَاءُ

والبيت في وصف ناقته التي آنست صوتاً وأفزعها القَنَّاص وقَد دنا الإمْساءُ كما يقول في البيت =

ومعنى هذه الآية: جعلنا أعمالهم لا حكم لها ولا منزلة.

ثم أَخبر عزَّ وجلَّ أَن مُسْتَقَرَّ أَهل الجنة خير من مُستقر أَهل النار، وجاءَت (خَيْر) ها هنا للتفضيل بين شيئين لا شركة بينهما، قال الزجاج وغيره: إنه لما اشتركا في أَن هذا مُسْتَقَر وهذا مُسْتَقَر فضَّل الاستقرار الواحد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويظهر لي أَن هذه الأَلفاظ التي فيها عموم ما، ويتوجَّه حكمها من جهات شتَّى، نحو قولك: أَحبُ، وأَحْسَنُ، وخير، وشرٌّ، يسوغ أَن يُجَاءَ بها بين شيئين لا شركة بينهما، فتقول: السَّعد في الدنيا أَحب إِلينا من الشقاءِ، أَي: قد يوجد بوجه ما من يستحب الشقاءَ كالمتَعَبِّد والمغتاظ، وكذلك في غيرها، فإِذا كانت (أَفْعل) في معنى بيِّنٌ أَن الواحد من الشيئين لا حظَّ له فيه بوجه فسد الإِخبار بوجه التفضيل به، كقولك: الماءُ أَبرد من النار، ومن هذا أَنك تقول في ياقوتة ومَدَرَة[1] ـ وتُشير إِلى المَدَرة ـ: هذه خير وأَحسن وأَحب وأَفضل من هذه، ولو قلتَ: هذه أَلمع وأَشدُّ شراقة من هذه، لكان فاسداً.

وقوله: (مَقِيلاً)، ذهب ابن عباس رضي الله عنهما، والنَّخعي، وابن جريج إِلى أَن حساب الخلق يكمل في وقت ارتفاع النهار ومَقيل أَهل الجنة في الجنة، وأَهل النار في النار، فالمقيل من القائلة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن اللفظة إِنما تضمنت تفضيل الجنة جملة وحُسْنَ هوائها، والعربُ تفضل البلاد بحُسْنِ المقيل؛ لأَن وقت القيلولة يبدو فيه فساد هواءِ البلاد، فإِذا كان بلدٌ في وقت فساد الهواءِ حَسَناً جاز الفضل، ومن ذلك قول الأَسود بن يَعْفُر الإِيادي:

= السابق. والرَّجْع: رجع قوائمها، والوَقْع: وقْع خِفافها، والمَنِينُ: الغبارُ الدقيق، والأهباءُ: الغبار المتفرق، يقول: لقد هربت، وجعلت تعدو بسرعة مثيرة خلفها الغبار الرقيق المتفرق.

هذا ـ وكلمة (هباء) ليست من ذوات الهمز، وإنما همزت لالتقاء الساكنين، ولهذا يقال في التصغير: هُبَيٌّ في موضع الرفع، والواحد هباة، والجمع أهباءٌ، ويؤيد هذا بيتُ الحارث المذكور.

(١) المَدَرَةُ: واحدة المَدَرِ، وهو قطع الطين اليابس، وقيل: الطين العلك الذي لا رمل فيه.

أَرْضٌ تَخَيَّرَهَا لِطِيبِ مَقِيلِهَا كَعْبُ بْنُ مَامَةَ وابن أُمِّ دُؤَادِ[١]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ﴾، يريد يوم القيامة عند انفطار السماءِ ونزول الملائكة ووقوع الجزاءِ بحقيقة الحساب. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: [تَشَّقَّقُ] بشد الشِّين والقاف، وقرأ الباقون بتخفيف الشِّين، وقوله: (بِالْغَمَام)، أي: تشقَّق عنه، والغمام: سحاب رقيق أَبيض جميل لم يره البشر بعد إلاَّ ما جاءَ في تظليل بني إسرائيل. وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ بضم النون وشد الزاي المكسورة ورفع (ٱلْمَلَائِكَة) على مفعول لم يُسَمَّ فاعله، وقرأَ أَبو عمرو في رواية عبد الوهاب: [وَنُزِلَ] بتخفيف الزاي المكسورة، قال أَبو الفتح: وهذا غير معروف؛ لأَن (نزَل) لا يتعدى إلى مفعول فيبنى هنا للملائكة، ووجهه أَن يكون مثل: «زُكِمَ الرجل وجُنَّ»، فإنه لا يقال إلاَّ أَزْكَمه الله وأَجَنَّه، وهذا باب سماع لا قياس[٢]. وقرأَ أَبو رجاءٍ: [وَنزَّل] بفتح النون وشدِّ الزاي، وقرأَ الأَعمش: (وأَنْزل الملائكة)، وكذلك قرأ ابن مسعود، وقرأَ أُبيٌّ بن كعب: (ونزَلت الملائكة)، وقرأَ ابن كثير وحده[٣]: (ونُنَزِّل الملائكة) بنونين، فهي

---

(١) الأسود بن يَعْفُر شاعر جاهلي فصيح، كان ينادم النعمان، ولما أسَنَّ، كُفَّ بصره. وبيتُه من المفضَّلية ٤٤، وهي من مختار الشعر، وفيه يصف بلاد إياد بأنها طيبة المقيل، ولهذا اختارها كعب بن مامة، وابن أُمِّ دُؤَاد ـ وكعب مشهور بالجود عند العرب، فقد آثر بنصيبه من الماء رفيقه النَّمَري فمات عطشاً، وضرب به المثل في الجود، (راجع الشعر والشعراء)، وابن أُمِّ دُؤَاد هو أبو دُؤَاد الإيادي جاريةُ بنُ الحجاج، وكان في عصر كعب بن مامة، ويقال: إن كعب بن مامة أجار أبا دُؤَاد حين أخافه بعض الملوك فضُرب المثل بجار أبي دُؤَاد، قال طرفة:

إنِّي كَفَانِي مِنْ هَمٍّ هَمَمْتُ بِهِ جارٌ كجارِ الحُذَاقِيِّ الذي انْتَصَفَا

والحُذَاقِيُّ هو أبو دُؤَاد، وحُذَاقُ قبيلة من إياد.

(٢) ويقول أبو الفتح أيضاً بعد ذلك: «إمَّا أن يكون ذلك لغة لم تقع إلينا، وإما أن يكون على حذف المضاف، يريد: ونُزِلَ نُزُولُ الملائكة، ثم حذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه، فأقام (الملائكة) مقام المصدر الذي كان مضافاً إليها، كما فعل الأعشى في قوله:

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا وَبِتَّ كما بَاتَ السَّلِيمُ مُسَهَّدَا ؟

فهو يريد: اغتماض ليلة أرمد، فنصب (ليلة) إذاً إنما هو على المصدر لا على الظرف؛ لأنه لم يرد: ألم تغتمض عيناك في ليلة أرمد، وإنما أراد: ألم تغتمض عيناك من الشوق والأسف اغتماضاً مثل اغتماض ليلة رمد العين».

(٣) يعني وحده من السبعة.

قراءَة أَهل مكة، ورويت عن أَبي عمرو، وقرأَ هارون عن أَبي عمرو: (وَنَزَّل الملائكةُ) بإِسناد الفعل إِليها، وقرأَت فرقة: (وينزل الملائكة)، وقرأَ أُبيُّ بن كعب أَيضاً: (وتَنَزَّلت الملائكة).

وقرَّر أَن المُلْك الحق المبين هو يومئذ للرحمن؛ إِذ قد بطل في ذلك اليوم كل ملك. وعسيرُهُ على الكافرين يُوَجَّه بدخول النار عليهم فيه، وما في خلال ذلك من المخاوف. وقوله: ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ دليل على أَن ذلك اليوم سهلٌ على المؤمنين، ورُوي عن النبي ﷺ أَنه قال: «إِن الله تعالىٰ لَيهوّنُ يومَ القيامة على المؤمن حتى يكونَ أَخفَّ من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا»(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

(يَوْمَ) ظرفٌ، العاملُ فيه مضمر، و«عضُّ اليدين» هوفعل النادم الملهوف المتفجع، وقال ابن عباس وجماعة من المفسرين: (الظَّالِمُ) في هذه الآية عُقبة بن أَبي معيط؛ وذلك أَنه أَسلم أَو جنح للإِسلام، وكان أُبي بن خلف الذي قتله رسول الله ﷺ بيده يوم أُحد خليلاً لِعقُبة، فنهاه عن الإِسلام، فقبل نهيه، فنزلت الآية فيهما، فالظالم عُقبة، وفلانٌ أُبيّ. وفي بعض الروايات عن ابن عباس أَن الظالم أُبيّ، فإِنه كان يحضر إِلى النبي ﷺ، فنهاه عُقبة، فأَطاعه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومن أَدخل في هذه الآية أُمَيَّة بن خلف فقد وهم، إِلاَّ على قول من يرى (الظَّالم) اسم جنس.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣ـ٧٥)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ولفظه: «قال: قيل لرسول الله ﷺ: يوماً كان مقداره خمسين ألف سنة، ما أطول هذا اليوم! فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده إنه لَيُخَفَّف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا».

وقال مجاهد، وأَبو رجاءٍ: الظالم: اسمُ جنس، وفلان: الشَّيطان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويظهر لي أَن (الظَّالم) عامٌّ، وأَن مقصد الآية تعظيم يوم يتبرَّأُ فيه الظالمون من خلانهم الذين أَمروهم بالظلم، فلما كان خليلُ كل ظالم غيرَ خليل الآخر، وكان كل ظالم يسمي رجلاً خاصاً به عبَّر عن ذلك بـ «فُلان» الذي فيه الشياع التَّام، ومعناه واحد عن الناس، وليس من ظالم إِلا وله في دنياه خليلٌ يعينه ويحرِّضه، هذا في الأَغلب، ويشبه أَن سبب الآية وترتُّب هذه المعاني كان عُقبة وأُبيًّا، وقوله: ﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾ يُقَوِّي ذلك بأَن نجعل تعريف (الرَّسُول) للعهد، والإِشارة إِلى محمد ﷺ، وعلى التأْويل الأَول التَّعريفُ للجنس.

وكلُّهم قرأَ (لَيْتَنِي) ساكنة الياءِ غير أَبي عمرو فإِنه حرَّكَ الياءَ[ليتنيَ اتخذت]، ورواها أَبو حامد عن نافع مثل أَبي عمرو، و(السَّبِيلُ) المتمنَّاة هي طريق الآخرة. وفي هذه الآية لكل ذي نُهْيَة[1] تنبيه على تجنُّب قرين السوءِ، والأَحاديث والحكم في هذا الباب كثيرة مشهورة[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ﴾ الياءُ فيه[3] عِوَض عن الياءِ في: يا وَيْلَتِي، والأَلف هي التي في قولهم: يا غلاما، وهي لغة، وقرأَت فرقة بإِمالة: [يا ويلتي]، قال أَبو علي:

---

(١) النُّهْيَة: العَقْلُ.

(٢) من ذلك ما روي في الصحيح من حديث أبي موسى (واللفظ لمسلم) عن النبي ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المِسْك إما أن يُحْذِيَكَ، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحاً خبيثة»، وذكر أبو بكر البزَّار عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله، أيُّ جلسائنا خير؟ قال: «من ذكَّركم بالله رؤيتهُ، وزاد في علمكم منطقهُ، وذكركم بالآخرة عملهُ». ولقد أحسن من قال:

تَجَنَّبْ قرينَ السُّوءِ واصْرِمْ حبالَهُ ... فإنْ لمْ تَجِدْ عنْهُ مَحيصاً فَدَارِهِ
وأَحْبِبْ حَبيبَ الصِّدْقِ واحْذَرْ مراءَه ... تَنَلْ منْهُ صَفْوَ الوُدِّ ما لم تُمَارِهِ

وقال آخر:

اصْحَبْ خِيَارَ النَّاسِ حيثُ لَقيتَهم ... خيرُ الصَّحَابَةِ مَن يكونُ عَفِيفَا

(٣) الصواب أن يقال: الفتحة فيه عوض عن الياء، لأن الياء ذهبت، وجاءت بدلاً منها الفتحة لتناسب الألف، ويؤيد هذا كلامُ أبي عليٍّ بعد ذلك.

وترك الإمالة أَحسن؛ لأَن أَصل هذه اللفظة الياءُ [يا وَيْلَتِي]، فبدلت الكسرة فتحة والياءُ أَلفاً فِراراً من الياءِ، فمن أَمال رجع إِلى الذي فرَّ عنه أَولاً.

و(ٱلذِّكْر) هو ما ذكر به الإِنسان أَمر آخرته من قرآن أَو موعظة ونحوه. ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ يحتمل أَن يكون من قول الظالم، ويحتمل أَن يكون ابتداءَ إِخبار من الله تعالىٰ على جهة الدلالة على وجه ضلالهم، والتحذيرِ من الشيطان الذي بلغ ثَمَّ ذلك المبلغ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ حكاية عن قول الرسول ﷺ في الدنيا، وتَشَكِّيه ما يلقاه من قومه، هذا قول الجمهور، وهو الظاهر. وقالت فرقة: هو حكاية عن قوله ذلك في الآخرة. وقرأَ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرو: [قَوْمِيَ] بتحريك الياءِ، والباقون بسكونها. و(مَهْجُوراً) يحتمل أَن يريد: مُبعداً مَقْصِيًّا، [ويحتمل أَن يكون] من الهُجْر (بضم الهاءِ)[1] إِشارة إِلى قولهم: شعر وكهانة وسِحْر، هذا قول مجاهد، والنَّخعي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويقول ابن زيد: هو تنبيه للمؤمنين على ملازمة المصحف، وأَلاَّ تكون الغَبَرة تعلوه في البيوت وتشتغل بغيره، وروى أَنس عن النبي ﷺ أَنه قال: «من علَّق مصحفاً ولم يتعاهده أَتى يوم القيامة معلقاً به، يقول: هذا اتخذني مهجوراً، اقْض يا ربّ بيني وبينه»[2].

ثمَّ آنسه عن فعل قومه بأَن أَعلمه أَن غيره من الرسل كذلك امتُحن بأَعداء في زمنه، أَي: فاصبر كما صبروا، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، و(عَدُوًّا) يريد به الجمع،

---

(١) ما بين العقفتين زيادة لا بدَّ منها لسلامة المعنى، فإن قوله: «بضم الهاءِ» لا يستقيم مع المعنى الذي ذكره سابقاً، وهو أنه يريد من [مَهْجُوراً] مُبعداً ومَقْصياً، لأن ذلك يكون مع الهَجْر بفتح الهاءِ، وهو ما ذكره أبو حيان في البحر المحيط، أما الهُجْر (بضم الهاءِ) فيترتب على معنى آخر هو ما ذكره مجاهد في تفسيره «يَهْجُرُون فيه بالقول، يقولون: سحر»، وهذا يتفق مع قول ابن عطية بعد ذلك: «إشارة إلى قولهم: شعر وكهانة وسِحْر». ويستقيم المعنى بما زدناه بين العَقَفَتين.

(٢) في «روح المعاني، والبيضاوي» جاء النَّص: «مَن تعلَّم القرآن وعلق مصحفه ولم يتعاهده، ولم ينظر فيه جاءَ يوم القيامة متعلقاً به، يقول: يا ربَّ العالمين، إن عبدك هذا اتخذني مهجوراً، فاقض بيني وبينه»، على أن العلماءَ قد تكلموا في صحة هذا الحديث؛ لأن في سنده أبو هُدْبة، وهو كذاب. فالحديث موضوع لا أصل له في كتب الحديث.

تقول: «هؤلاءِ عدوٌّ لي»، فتصف به الجمع والواحد والمؤنث، ثم وعده تعالىٰ بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾، والباءُ في (بِرَبِّكَ) للتأكيد، دالة على المعنى، إذ هو: اكتف بربك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

رُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره أن كفار قريش قالوا في بعض معارضاتهم: لو كان هذا القرآن من عند الله تعالىٰ لنزلَ جملةً واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل، وقوله: (كَذَٰلِكَ) يحتمل أَن يكون من قول الكفار، [ويحتمل أَن يكون مستأنفاً من كلام الله تبارك وتعالىٰ لا من كلامهم][1]، وهو أَوْلى، ومعناه: كما نزل أَردناه، فالإشارة إلى نزوله متفرقاً، وجعل الله تعالىٰ السبب في نزوله متفرقاً في الزمان تثبيت فؤاد محمد ﷺ، وليحفظه. وقال مكيٌّ، والرُّمَّانيّ: من حيث كان أُمِّيًا لا يكتب، وليطابق الأَسباب المؤقتة، فنزل في نيّف وعشرين سنة، وكان غيره من الرسل يكتب فنزل جملة واحدة، وقرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [لِيُثَبِّتَ] بالياءِ. و(التَّرْتيلُ): التفريق بين الشيءِ المتتابع، ومنه قولهم: بقر رَتَلٌ، ومنه ترتيل القراءَة[2]. وأَراد الله تبارك وتعالىٰ أَن يُنزل القرآن في النوازل والحوادث التي قدَّرها وقدَّر نزوله فيها.

ثم أَخبر تعالىٰ أَن هؤلاءِ الكفرة لا يجيئون بِمَثَلٍ ـ يضربونه على جهة المعارضة ـ مُبْهَمٍ ـ كتمثيلهم في هذه بالتوراة والإنجيل ـ إلاَّ جاءَ القرآن بالحق في ذلك، أَي بالذي هو حقٌّ، ثم هو أَحسن تفسيراً، أَو أَفصح بياناً وتفصيلاً. ثم أَوعد الله تعالىٰ الكفار بما ينزل بهم يوم القيامة من الحشر على وجوههم إلى النار. وذهب الجمهور إلى أَن هذا المشي على الوجوه حقيقة، ورُوي في ذلك ـ من طريق أَنس بن مالك رضي الله عنه ـ

---

(١) ما بين العقفتين زيادة لا بُدَّ منها حتَّى يستقيم المعنى.

(٢) جاءَ في (اللسان ـ رتل): «رَتَّل الكلام: أَحْسن تأليفه وأبانَه وتمَهَّل فيه، والترتيل في القراءة: التَّرسُّل فيها والتَّبْيين من غير بغي، وفي صفة قراءة النبي ﷺ: كان يُرَتِّل آيةً آيةً». والعلماءُ على أن ترتيب القرآن هو تنزيله مفرقاً بعضه إثر بعض، وأما قولهم: «بَقَر رَتَل» فهو من الرَّتَل، وهو حُسْن تناسق الشيءِ.

حديث أَن النبي ﷺ قال له رجل: يا رسول الله، كيف يقدرون على المشي على وجوههم؟ قال: «إِن الذي أَقدرهم على المشي على أَرجلهم قادر أَن يمشيهم على وجوههم»(١) وقالت فرقة: المشي على الوجوه استعارة للمذلة المفرطة والهوان والخزي، وقوله تعالىٰ: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ القول فيه كالقول في قوله تعالىٰ: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ۝٣٥ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ۝٣٦ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣٧ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝٣٨ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ۝٣٩﴾.

هذه الآيات التي ذكر فيها الأُمم هي تمثيلٌ لهم وتوعُّدٌ بأَن يحل بهم ما حلَّ بهؤلاءِ المعذَّبين، و(ٱلْكِتَاب): التوراة، و«ٱلْوَزِير»: المُعين، وهو من تحمُّل الوِزْر، أَي ثقل الحال، ومن الوَزَر الذي هو الملجأ(٢)، و﴿ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ هم فرعون ومَلؤُه من القبط، ثم حذف من الكلام كثيراً دلَّ عليه ما بقي، وتقدير المحذوف: فَذهبا فَأَدَّيا الرسالة فكذبوهما فدمَّرْناهم. وقرأَ عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، ومسلمة بن محارب: [فَدَمِّرَانِّهِمْ]، أَي: كونا سبب ذلك، قال أَبو الفتح: أَلْحَقَ نون التوكيد أَلف التَّثنية، كما تقول لرجل: اضربانٍّ زيداً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ورُوي عن عليٍّ بن أَبي طالب رضي الله عنه: [فَدَمَّراهم]، وحكى عنه أَبو عمرو الدَّاني: [فَدَمِرْناهُمْ] بكسر الميم خفيفة، قال: وروي عنهم: [فَدَمِّروا بِهِمِ] على الأَمر لجماعة وبزيادة باءٍ، والذي فسَّر أَبو الفتح وهم، وإِنما القراءَة: [فَدَمِّروا بِهِمِ] بالباءِ، وكذا ذكرها المهدوي.

---

(١) الحديث متفق عليه: البخاري (٤٧٦٠) ومسلم (٢٨٠٦).

(٢) قال في (اللسان ـ وزر): «الوَزَرُ: الملجأُ، وأَصل الوزر الجبل المنيع، وكلُّ معقل وَزَر، وفي التنزيل العزيز: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾».

ونُصِب قوله: (قَوْمَ) بفعل مضمر يدلُّ عليه [أَغْرَقْنَاهُمْ][(١)]، وقوله تعالىٰ: (ٱلرُّسُلَ) وهم إنما كذبوا نوحاً فقط، معناه أن الأُمة التي تكذب نبيّاً واحداً ففي ضمن ذلك تكذيب جميع الأنبياءِ، فجاءَت العبارة بما تضمنه فعلهم تعبيراً في القول عليهم، وقوله تعالىٰ: (آيَةً) أي علامةً على سطوة الله تبارك وتعالىٰ بكل كافر بأنبيائه.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ يُصرف ولا يصرف، وجاءَ ها هنا مصروفاً، وقرأَ ابن مسعود، وعمرو بن ميمون، والحسن، وعيسى: (وَعَاداً) مصروفاً. (وَثَمُودَ) غير مصروف.

واختلف الناس في ﴿أصحاب الرس﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم قوم من ثمود، وقال قتادة: أَهل قرية من اليمامة يقال لها: الرَّسُّ، وقال كعب، ومقاتل، والسُّدي: الرَّس: بئر بأَنطاكية الشام، قُتل بها صاحب ياسين[(٢)]، وقال الكلبي: أَصحاب الرَّسِّ قوم بُعث إِليهم نبيٌّ فقتلوه، وقال قتادة: أَصحاب الرَّسِّ وأَصحاب الأيْكة قومان أُرسل إِليهم شعيب عليه السلام، وقاله وهب بن مُنَبِّه، وقال عليٌّ ـ في كتاب الثعلبي ـ: أَصحاب الرَّسِّ قوم عبدوا شجرة صنوبر يقال لها: «شاه درخت» رسُّوا نبيهم في بئر أَو قبر أَو معدن، ومنه قول الشاعر:

سبقْــتَ إِلَــى فَــرَطٍ بَــاهِــلٍ ... تَنَــابِلَــةٍ يَحْفُــرُونَ الــرِّسَــاسَــا[(٣)]

---

(١) في نصب (قَوْمَ) أربعة أقوال: العطف على الهاءِ والميم من (فَدَمَّرْنَاهُمْ)، أو بإضمار: اذْكُر، أو بإضمار فعل يفسِّرُه ما بَعْدَه، والتقدير: وأَغْرَقْنَا قوم نوح أغرقناهم، والرابع أنه منصوب بـ (أَغْرَقْنَاهُمْ)، قاله الفراءُ، وردَّه النحاس؛ لأن «أَغْرَقْنا» ليس مما يتعدى إلى مفعولين فيعمل في المضمر، وفي قوم نوح، واعترض أبو حيان على الإعراب الثالث هنا، وقال: الظَّاهر أنَّ (أَغْرَقْنَاهُمْ) جواب (لمَّا) فلا يُفَسِّر ناصباً لِقَوْم. أما إن كانت (لمَّا) ظرفاً فإنه يجوز.

(٢) قال في البحر المحيط: وهو حبيب النجار.

(٣) استشهد بالبيت صاحب (اللسان ـ رسس) مرتين: الأولى على أن الرَّسَّ: البئر القديمة، وأن جمعها: رساسٌ، وسُمِّيت بذلك لأن أهلها رسُّوا صاحبهم فيها، أي دسُّوه، والثانية على أن كل بئر تُسمَّى عند العرب رَسًّا. والفَرَط بالتحريك: المتقدم إلى الماء، يتقدم الواردة فَيُهَيِىءُ لهم الأرسان والدلاء، ويملأ الحياض ويستسقي لهم. والباهل: (بالباء): المتردِّد بلا عمل، ويروى بالنون بدلاً من الباء، والناهل ـ على هذا ـ هو العطشان، أو هو الذي شرب حتى ارتوى، فهو من الأضداد، والتَّنابلة: ـ جمع تِنْبَالٍ وتِنْبَل بكسر التاء، وقيل: على وزن جعفر ـ والتِّنبل: الرجل القصير، وهو رباعي على مذهب سيبويه. والمذكور في اللسان هو الشطر الثاني فقط، والبيت من قصيدة مشهورة للنابغة الجعدي يقول فيها:

لبِسْــتُ أُنَــاســاً فَــأَفْنَيْتُهُــمْ ... وَأَفْنَيْــتُ بَعْــدَ أُنَــاسٍ أُنَــاسَــا

وروى عكرمة، ومحمد بن كعب القرظي عن النبي ﷺ أن أَهل الرَّسِّ المشار إليهم في هذه الآية: قومٌ أَخذوا نَبِيَّهم فرموه في بئر وأَطبقوا عليه صخرة، فكان عبْدٌ أَسود قد آمن به، يجيءُ بطعام إلى ذلك البئر فيعينه الله على تلك الصخرة فيقلعها، وهو مؤمن بذلك النبي، فيعطيه ما يغذيه، ثم يردّ تلك الصخرة، إلى أَن ضرب الله على أُذن ذلك الأَسود نوماً أَربع عشرة سنة، وأَخرج أَهل القرية نبيهم فآمنوا به... في حديث طويل[1]. قال الطبري: فيمكن أَنهم كفروا به بعد ذلك فذكرهم الله تعالىٰ في هذه الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ إيهامٌ لا يعلم حقيقته إلا الله تعالىٰ، وقد تقدم شرح «القرن»، وكم هو، ومن هذا اللفظ قال رسول الله ﷺ فيما يروى - ويروى أَن ابن عباس رضي الله عنهما قاله -: «كذب النَّسَّابون من فوق عدنان»[2]، لأَن الله تبارك وتعالىٰ أَخبر عن كثير من الأُمم والخلق ولم يخبر عن غيرهم.

ثم قال الله تعالىٰ: إن كلَّ هؤلاءِ ضُرب له الأَمثال ليهتدي فلم يهتد، فَتَبَّرَهُ اللهُ، أَي أَهلكه، والتَّبارُ: الهلاكُ، والتِّبْرُ: الذَّهب، أَي: المُكسَّر المُفتَّت، ولذلك يقال لِفُتات الرُّخام والزُّجاج: تِبْر، وقال ابن جرير: إن أَصل الكلمة نبطي، ولكن العرب قد استعملته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

قال ابن عباس، وابن جريج، والجماعة: الإشارة إلى مدينة قوم لوط، وهي

---

(١) أخرجه ابن إسحاق، وابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي، وفي ابن جرير زيادات عما ذكره ابن عطية هنا.

(٢) أخرج الحاكم في الكُنَى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ إذا انتهى إلى معدِّ بن عدنان أَمسَك، ثم يقول: كذب النسابون»، قال الله تعالىٰ: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾. (الدر المنثور).

(سَدُوم) بالشام. و﴿مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ حجارة السِّجِّيل، وقرأ أبو السّمال: [ٱلسُّوءِ] بضم السِّين المشددة. ثم وقفهم على إعراضهم وتعرضهم لسخط الله تبارك وتعالىٰ بعد رؤيتهم العبرة من تلك القرية، ثم حكم عليهم بأن كفرهم إنما أوجبه فساد معتقدهم في أمر الآخرة، وأنهم لا يرجون البعث، وكذلك لا يخافونه.

ثم حكى الله تعالىٰ عنهم أنهم إذا رأوا محمداً ﷺ استهزؤوا به واحتقروه، واستبعدوا أن يبعثه الله تعالىٰ رسولاً، فقالوا ـ على جهة الاستهزاءِ ـ: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾، وفي (بَعَثَ) ضمير يعود على (الَّذِي) حذفت اختصاراً، وحسن ذلك في الصفة.

ثم آيَسَ(١) النبيَّ ﷺ عن كفرهم بقوله تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ الآية، والمعنى: لا تتأسف عليهم ودَعهم لرأيهم، ولا تحسب أنهم على ما تحب من التحصيل، بل هم كالأنعام في الجهل بالمنافع، وقلَّة التَّحَسُّس للعواقب، ثم حكم بأنهم أضلُّ سبيلاً من حيث لهم الفَهْم وتركوه، والأنعام لا سبيل لها إلى فهم المصالح، ومن حيث جهالة هؤلاءِ وضلالتهم، وهي في أمر أخطر من الأمر الذي فيه جهالة الأنعام.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: جعل هواهُ مطاعاً فصار كالإلـٰه، والهوى قائد إلى كل فساد، والنفس أمارة بالسوءِ، وإنما الصلاح إذا ائتمرت العقل. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الهوى إلـٰه يُعبد من دون الله عزَّ وجلَّ، وذكره الثعلبي، وقيل: الإشارة بقوله: ﴿إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ إلى ما كانوا عليه من أنهم كانوا يعبدون حجراً، فإذا وجدوا أحسن منه طرحوا الأول وعبدوا الثاني الذي وقع هواهم عليه. قال أبو حاتم: وروي عن رجل من أهل المدينة ـ قال ابن جني: هو الأعرج ـ [إِلاهَةً هواهُ]، والمعنى: اتخذ شمساً يستضيءُ بها، إذ الشمس يقال لها: أُلاهة، ويصرف ولا يصرف(٢)، و«الوكيل»: القائم على الأمر الناهض به.

---

(١) قال في (اللسان ـ أيس): «أَيِسْتُ منه آيَسُ يأساً: لغة في يَئِسْتُ منه أيْأَسُ يَأساً، وآيَسَني منه فلان مثل: أيْأَسَني».

(٢) قال صاحب البحر المحيط نقلاً عن أبي الفتح: الإلاهةُ: الشمس، ويقال أُلاهة بالضَّمِّ، وهي غير مصروفة، للعلمية والتأنيث، لكنها لما كانت مما يدخلها لام المعرفة في بعض اللغات صارت بمنزلة=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ معناه: انتبه، والرؤية هنا رؤية القلب، وأدغم عيسى بن عمر: [رَبَك كَّيفَ]، قال أبو حاتم: والبيان أحسن، و(مَدُّ الظِّلِّ) بإطلاق، هو ما بين أول الإسفار إلى بزوغ الشمس، ومن بعد مغيبها مدة يسيرة، فإن في هذين الوقتين ظلٌّ ممدود على الأرض مع أنه نهار، وفي سائر أوقات النهار ظلال متقطعة، و«المَدُّ» و«القَبْضُ» مطرد فيها، وهو عندي المراد في الآية، والله أعلم.

ومن الظل الممدود ما ذكر الله تبارك وتعالىٰ في هواءِ الجنة؛ لأنها لما كانت لا شمس فيها كان ظلها ممدوداً أبداً.

وتظاهرت أقوال المفسرين على أن هذا الظل هو من الفجر إلى طلوع الشمس، وذلك معترض بأن ذلك في غير نهار، بل في بقايا الليل، فلا يقال له ظل.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي ثابتاً غير متحرك ولا منسوخ، ولكنه جعل الشمس ونسخها إياه وطردها له من موضع إلى موضع دليلاً عليه مبيناً لوجوده ولوجه العبرة فيه، وحكى الطبري أنه لولا الشمس لم يعلم أن الظل شيءٌ؛ إذ الأشياءُ إنما تعرف بأضدادها.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ يحتمل أن يريد: لطيفاً، أي: شيئاً بعد شيءٍ في مرة واحدة لا بعنف، قال مجاهد: ويحتمل أن يريد: معجلاً، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أن يريد: سهلاً قريب التناول.

= ما كان فيه اللام ثم نزعت، فلذلك صرفت وصارت بمنزلة النعوت فتنكرت، وروى أبو الفتح شاهداً على صرفها عن أبي عليٍّ: قول مَيَّةَ بنت عُتْبَةَ ترثي أخاها:

تَــرَوَّحْنَــا مِــن اللَّعْبَــاءِ عَصْــراً ... فَــأَعْجَلْنَــا الإلاهَــةَ أن تَئُــوبَــا

وقال: «فتكون [إلاهَةَ] هذه المقروءة منزوعاً منها حرف التعريف الذي في الإلاهة، فتنكرت فصرفت». واللَّعباءُ: سبخة معروفة بناحية البحرين بحذاء القطيف وسيف البحر، ويروى (قصراً) بدلاً من (عصراً)، ومعناها الدخول في العشي، وهو اختلاط الظلام أيضاً.

قال الطبري: ووصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث تستر الأَشياءَ وتغشاها. و«السُّبات» ضرب من الإغماءِ يعتري اليقظان مرض فيشبه النائم به، والسبت: الإقامة بالمكان، فكأَن السبات سكونٌ مَّا وثبوت عليه. و«النُّشورُ» في هذا الموضع الإحياءُ، شبَّه اليقظة به ليتطابق الإحياءُ مع الإماتة والتوفي اللذين يتضمنهما النوم والسبات، ويحتمل أَن يريد بالنشور وقت انتشارٍ وتفرقٍ لطلب المعاش وابتغاءَ فضل الله، و﴿ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ وَمَا قبله من باب: ليلٌ نائم ونهار صائم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴿٥٢﴾﴾.

قرأَت فرقة: (ٱلرِّيَاح)، وقرأَت فرقة: [ٱلرِّيحَ] على الجنس، فهي بمعنى الرياح، وقد نسبنا القراءَة في سورة الأَعراف، وقراءَة الجمع أَوجه[1]؛ لأَن عرف «الريح» متى وردت في القرآن مفردة فإنما هي للعذاب، ومتى كانت للمطر والرحمة فإنما هي رياح؛ لأَن ريح المطر تتشعب (وتتداءَب)[2] وتتفرق وتأْتي ليِّنة من ها هنا وها هنا، وشيئاً إِثْر شيءٍ، وريح العذاب حرجف[3] لا تتداءَب، وإِنما تأْتي جسداً واحداً، أَلا ترى أَنها تُحَطِّم ما تجد وتهدمه؟ قال الرُّماني: جُمعت رياح الرحمة لأَنها ثلاثة لواقح: الجنوب والصَّبا والشمال، وأُفردت ريح العذاب لأَنها واحدة، ولا تلقح، وهي الدَّبور.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

[وَيَرُدُّ][4] على هذا قولُ النبي ﷺ إِذا هبَّت الريح: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها

---

(١) قال أبو حيان في البحر: «ولا يسوغ أن يقال: هذه القراءة أوجه؛ لأن كُلاً من القراءتَيْن متواتر».

(٢) هكذا في الأصول، ونقلها أبو حيان في البحر أيضاً بهذا اللفظ، ولا نجد لها هنا معنى، فلعلها تحريف عن كلمة أُخرى، أو لعل معناها: تَستمر وتدوم وتُلازم.

(٣) الحَرْجَفُ من الرياح: الباردة الشديدة الهبوب مع جفاف، ولَيْلَةٌ حرجف: باردةُ الريح. (المعجم الوسيط).

(٤) غير موجودة في الأصول، ولكنها في البحر نقلاً عن ابن عطية، والمعنى هنا يقتضيها. وقد قال في البحر=

ريحاً»[١]. واختلف القراءُ في (بُشْراً) في النون والباءِ[٢] وغير ذلك اختلافاً قد ذكرناه في سورة الأعراف[٣]، و[نَشْراً] معناه: منتشرة متفرقة.

و«الطَّهُور» بناءُ مبالغة في (طاهر)، وهذه المبالغة اقتضت في ماءِ السماءِ وفي كل ما هو منه وبسبيله أَن يكون طاهراً ومُطَهِّراً. فإِذا أَفرط التغيير بخلطه بالخبث لم يكن الماءُ طاهراً ولا مطهراً، ووصف البلدة بالميت لأَنه جعله كالمصدر الذي يوصف به المذكَّر والمؤنث، وجاز ذلك من حيث «الْبَلْدَة» بمعنى «الْبَلَد»، وقرأَ طلحة بن مصرف: [لننشيء[٤] به بلْدةً ميتاً ونُسْقِيَهُ] بضم النون، وهي قراءَة الجمهور، ومعناه: نجعله لهم سقياً، هذا قول بعض اللغويِّين في (أَسْقَى)، قالوا: و(سَقَى) معناه للشَّفَةِ[٥]، وقال الجمهور: سَقَى وأَسْقَى بمعنى واحد، وينشد على ذلك بيت لبيد:

سَقَى قَومِي بَنِي مَجْدٍ وَأَسْقَى ... نُمَيْراً والْقَبَائِلَ مِنْ هِلالِ[٦]

وقرأَ أَبو عمرو: [نَسْقِيَهُ] بفتح النون، وهي قراءَة ابن مسعود، وابن أَبي عبلة، وأَبي حيوة، ورويت عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه. و(أَنَاسِيَّ) قيل: هو جمع إِنسان، والياءُ المشددة بدل من النون في الواحد، قاله سيبويه، وقال المبرد: هو جمع إِنْسيٍّ، فكان القياس أَن يكون (أَنَاسِيَة)[٧]، كما قالوا في مهلبي: مهالبة[٨]، وحكى

= بعد أن نقل كلام ابن عطية عن التعارض بين الحديث وكلام الرماني: «لا يظهر؛ لأنه يجوز أن يريد بقوله عليه الصلاة والسلام: (رياحاً) الثلاثةَ اللواقح، وبقوله: (ريحاً) الدَّبورَ، فيكون ما قاله الرُّماني مطابقاً للحديث على هذا المفهوم».

(١) راجع المجلد الثالث، صفحة ٥٨٥ وما بعدها.

(٢) لأن بعض القراء قرأها بالنون، وبعضهم قرأها بالباء، فمن قال بالنون مع ضم الشين جعله جمعاً لريح نَشُور كصبور، ومن قرأ بالنون مع سكون الشين جعله من النَّشْر، كقوله تعالىٰ: ﴿وَالنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ③﴾، ومن قرأ بالباء مع ضم الشين جعله جمع ريح بشورٍ، أي تبشِّر بالمطر والخير، ومن سكَّن الشين مع الباء فقد خفَّف كراهةً لتوالي ضمتين.

(٣) راجع المجلد الثالث، صفحة ٥٨٤ وما بعدها.

(٤) هكذا في جميع الأصول.

(٥) في (اللسان ـ سَقَى): «يقال: سقيته لشَفَتِهِ، وأسْقيته لماشيته وأرضه».

(٦) سَقَى وأسْقَى هنا بمعنى واحد، وقد استشهد اللسان بهذا البيت على ذلك، ومَجْد: ابنة تيم بن غالب، وهي أُمُّ كلاب وكليب ابني ربيعة بن عامر، وبسببها عُدَّ بنو عامر من الحُمْس؛ لأنها قرشية.

(٧) في الأصول: «إنسانية».

(٨) المثال الذي ذكر في كتب اللغة، وعنها أخذ المفسرون، وقاله الفراءُ في أحد قولين له هو: «جَمْع =

الطبريُّ عن بعض اللغويين في جمع إنسان: (أَنَاسِينَ) بالنون، كسرحان وبستان، وقرأ يحيى بن الحارث [أَنَاسِي] بتخفيف الياءِ.

والضمير في ﴿صَرَّفْنَاهُ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: هو عائد على الماءِ المنزل من السماءِ، والمعنى أَن الله تبارك وتعالىٰ جعل لهم إنزال الماءِ تذكرة بأَن يصرفه عن بعض المواضع إلى بعض، وهو كله في كل عام بمقدار واحد، وقاله ابن مسعود، وقوله ـ عَلَى هذا التأويل ـ: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أَيْ في قولهم: بالأَنواءِ والكواكب، قاله عكرمة، وقيل: ﴿كُفُوراً﴾ على الإطلاق لما تركوا التذكر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الضمير في ﴿صَرَّفْنَاهُ﴾ للقرآن، وإن لم يتقدم له ذكر لوضوح الأَمر، ويعضد ذلك قوله بعد ذلك: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾، وعلى التأويل الأَول الضمير في (بِهِ) يُراد به القرآن على نحو ما ذكرناه. وقال ابن زيد: يرادُ به الإسلام. وقرأ عكرمة: [صَرَفْنَاهُ] بتخفيف الراءِ، وقرأ حمزة، والكسائي، والكوفيُّون: [لِيَذْكُرُوا] بسكون الذَّال، وقرأ الباقون: ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ بشد الذَّال والكاف.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ الآية اقتضاب يدل عليه ما ذكرناه، تقديره: ولكنا أَفردناك واصطفيناك فلا تطع الكافرين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

اضطرب الناس في تفسير هذه الآية ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَراد: بحر السماءِ والبحر الذي في الأَرض، ورُتِّبت أَلفاظ الآية على ذلك، وقال مجاهد: البحر العذب هو مياه الأَنهار الواقعة في البحر الأُجاج، ووقوعها فيه هو مَرْجُهَا، قال: والبرزخ والحجر هما[1] حاجز في علم الله تعالىٰ لا يراه البشر، وقاله الزَّجاج، وقالت

= القُرْقُور على قَرَاقِرَ وقَرَاقِير»، والقُرْقُور: ضرب من السفن، وقيل: هو السفينة الكبيرة الطويلة.

(١) في الأصل (هو).

فرقة: معنى [مَرَج]: أَدام أَحدهما في الآخر، وقال ابن عباس: عَلَّى أَحدهما على الآخر، ونحو هذا من الأَقاويل التي تتداعى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي أَقول في الآية: إن القصد بها التنبيه على قدرة الله تعالىٰ، وإِتقان خلقه للأَشياءِ، في أَن بث في الأَرض مياهاً عذبة كثيرة من أَنهار وعيون وآبار، وجعلها خلال الأُجاج، وجعل الأُجاج خلالها، فترى البحر قد اكتنفته المياه العذبة في ضفتيه، وتَلْقى الماءَ في البحر ـ في الجزائر ونحوها ـ قد اكتنفه الماءُ الأُجاج، فَبَثَّها هكذا في الأَرض، وهو خلطها، ومنه قوله: (مَرَجَ)، ومنه ﴿فِىٓ أَمۡرٍ مَّرِيجٍ﴾[1].

و«الْبَحْرَان» يراد بهما جميع الماءِ العذب وجميع الماءِ الأُجاج، كأَنه قال: مَرَجَ نَوْعَي الماءِ، فالبَرْزخ والحِجْر هما[2] ما بين البحرين من الأَرض واليبس، قاله الحسن، ومنه القدرة التي تمسكهما مع قُرب ما بينهما في بعض المواضع. وبكسر الحاءِ قرأَ الناسُ كلهم هنا، والحسن بضم الحاءِ في سائر القرآن. و«البرزخ»: الحاجز بين الشيئين.

وقرأَ الجمهور: ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ﴾، وقرأَ طلحة بن مصرّف: [وهذاَ مَلِحٌ] بفتح الميم وكسر اللام، قال أَبو حاتم: هذا منكر[3] في القراءَة، وقال ابن جني: أَراد: مالحاً، وحذف الأَلف، كعَرِدٍ وبَرِدٍ[4]. و«الأُجاجُ»: أَبلغ ما يكون من الملوحة.

---

(١) من الآية (٥) من سورة (قٓ). ومن هذا المعنى ـ وهو الاختلاط والاضطراب ـ قوله عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو بن العاص: «إذا رأيت الناس مَرِجَتْ عهودهم، وخَفَّت أماناتهم، وكانوا هكذا وهكذا» ـ وشبَّك بين أصابعه ـ فقلت له: كيف أصنع عند ذلك؟ جعلني الله فداك، قال: «الزم بيتك، وامْلِكْ عليك لسانك، وخُذ بما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بخاصَّة أمر نفسك، ودع عنك أمر العامة». خرَّجه النسائي، وأبو داود، وغيرهما.

(٢) في الأصل (هو).

(٣) في الأصل: «وهذا المنكر في القراءَة»، والتصويب عن المحتَسَب لابن جني، فقد نقل كلام أبي حاتم.

(٤) يريد: كَعَرِدٍ وبَرِدٍ في قول الراجز:

أَصْبَـــحَ قَلْبِـــي صَـــرِدَا ... لا يَشْتَهِـــي أَنْ يَـــرِدَا
إلا عَـــراداً عَـــرِدَا ... وَصِلِّيَـــانـــاً بَـــرِدَا
وَعَنْكَثـــاً مُلْتَبِـــدَا

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ الآية. هو تعديد النعمة على الناس في إيجادهم بعد العدم، والتنبيه على العبرة في ذلك، وتعديد النعمة في التواشج الذي بينهم من النسب والصهر، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ إما أن يريد أصل الخلقة في أن كل حيٍّ مخلوق من الماءِ، وإما أن يريد نُطَف الرجال، وكلٌّ من ذلك قالته فرقة، والأول أفصح وأبين. و«النَّسَب والصِّهر» معنيان يعمان كل قربى تكون بين آدميَّيْن، فالنَّسب هو أَنْ يجتمع إنسانٌ مع آخر في أَب أَو في أُمٍّ، قَرُبَ ذلك أَو بعد ذلك، والصِّهر هو تواشج المناكحة، فقرابة الزوجة هم الأَخْتان[1]، وقرابة الزوج هم الأَحْماءُ[2]، والأَصهار يقع عامًّا لذلك كله، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: النَّسب ما لا يحل نكاحه، والصِّهر ما يحل نكاحه، وقال الضَّحاك: الصِّهر قرابة الرضاع.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك عندي وَهْم أَوجبه أَن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حُرِّم من النَّسب سبع، ومن الصِّهر خمس»، وفي رواية أُخرى: «ومن الصِّهر سبع»، يريد قوله عزَّ وجلَّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ فهذا هو النَّسَب، ثم يريد بالصِّهر قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[3]، ثم ذكر المحصنات، ويحتمل هذا أَنَّ ابن عباس رضي الله عنهما أَراد:

= فإنه يريد: عارداً وبارداً، فحذف الألف تخفيفاً، وكذلك هنا حذف الألف من (مَالِحاً) تخفيفاً فصارت (مَلِحاً)، قال: على أن (مالِحاً) ليست فصيحة صريحة؛ لأن الأقوى في ذلك: ماءٌ مِلْحٌ، ومثله من الأوصاف على فِعْل: نِضْوٌ، وهِرْط ـ وهو اللحم المهزول ـ.

(١) قال ابن الأعرابي: الأَخْتَانُ: أبو المرأة وأخوها وعَمُّها، كما قال الأصمعي، والصِّهر: زوج ابنة الرجل وأخوه وأبوه وعمُّه، وقال محمد بن الحسن: أَخْتَانُ الرَّجُلِ: أزواج بناته وأخواته وعماته وخالاته وكل ذات محرم منه، وأصهارُهُ: كلُّ ذي رحم محرم من زوجته.

(٢) في المعجم الوسيط: حما المرأة: أبو زوجها ومن كان من قِبَلِهِ من الرجال، وحما الرجل: أبو امرأته ومن كان مِن قِبَلِهِ من الرجال، والجمع: أحماء.

(٣) الآية (٢٣) من سورة (النساء).

حرم من الصهر ما ذُكر معه، فقصد بـ (ما ذُكِرَ) إلى عُظْمه وهو الصِّهر[١]؛ لا أن الرضاع صِهْرٌ، وإنما الرضاع عديل النَّسب يحرم منه ما يحرم من النسب بحكم الحديث المأثور فيه، ومن روى: «وحُرِّم من الصِّهر خمس» أَسقط من الآيتين الجمع بين الأُختين، والمحصنات، وهن ذوات الأَزواج[٢].

وحكى الزهراوي قولاً: أَن النَّسب من جهة البنين، والصِّهر من جهة البنات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا حسن وفي دَرْجِ ما قَدَّمته، وقال ابن سيرين: نزلت هذه الآية في النبي ﷺ، وعلي بن أَبي طالب رضي الله عنه؛ لأنه جمعه به نسب وصهر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فاجتماعهما وِكادُ حرمة إِلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ هي [كان] التي للدوام قبل وبعد، لا أنَّها تعطي مضيًّا فقط.

ثم ذكر تعالىٰ خطأَهم في عبادتهم أَصناماً لا تملك لهم ضرًّا ولا نفعاً. وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ فيه تأْويلان: أَحدهما أَن «الظهير» المعينُ، فتكون الآية بمعنى توبيخهم على ذلك، من أَن الكفار يعينون على ربِّهم غيرَهم من الكفرة، ويعينون الشيطان بأَن يطيعوه ويظاهروه، وهذا هو تأْويل مجاهد، والحسن، وابن زيد. والثاني ذكره الطبري في أَن يكون «الظهير» فعيلاً من قولك: «ظهرتُ الشيءَ» إذا طرحته وراءَ ظهرك واتخذته ظهريًا، فيكون معنى الآية على هذا التأْويل احتقار الكفرة[٣]، و«الكافر» في هذه الآية اسم جنس، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بل هو مُعيَّن أَراد به أَبا جهل ابن هشام.

---

(١) في الأصل: «وهو القصد»، والتصويب عن القرطبي، فقد نقل العبارة كلها عن ابن عطية.

(٢) قال القرطبي بعد أن نقل كلام ابن عطية: «فابن عطية جعل الرضاع مع ما تقدم نسباً، وهو قول الزجاج».

(٣) ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾، أي: هيِّناً لا قيمة له، وعليه جاء قول الفرزدق:

تَمِيمَ بنَ قَيْسٍ لا تَكُونَنَّ حَاجَتي ... بِظَهْرٍ فلا يَعْيَا عَلَيَّ جَوابُهَا

وقيل في معنى «ظهير»: وكان الكافر على ربِّه الذي يعبده ـ وهو الصنم ـ قويّاً غالباً يعمل به ما يشاءُ، لأن الجماد لا قدرة له على دفع ضر أو جلب نفع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويُشبه أن أبا جهل سبب الآية، ولكن اللفظ عام للجنس كله.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ الآية، تسلية لمحمد ﷺ، أي: لا تَهْتَم بهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حرصاً عليهم، فإنما أنت رسول تُبشر المؤمنين بالجنة، وتنذر الكافرين بالنار، ولست بمطلوب بإيمانهم جميعاً.

ثم أَمره تعالىٰ بأَن يحتجَّ عليهم مُزيلاً لوجوه التُّهم بقوله: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، أي: لا أَطلب مالاً ولا نفعاً يختص بي. وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ﴾، الظاهر فيه أَنه استثناءٌ منقطع، والمعنى: لكن مسؤولي ومطلوبي من شاءَ أَن يهتدي ويؤمن ويتخذ إلى رحمة ربه طريق نجاة فليفعل. وقال الطبري: المعنى: لا أَسأَلكم أَجراً إلا إنفاق المال في سبيل الله، فهذا هو المسؤول، وهو السبيل إلى الربِّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالاستثناءُ ـ على هذا ـ كالمتَّصل، وكأَنه قال: إلاَّ أَجر من شاءَ[1]، والتأْويل الأَول أَظهر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾.

المعنى: قل لهم يا محمد هذه المقالة التي لا ظَنَّ ينصرف إليك معها، ولا تُتَّهم معها، وبشِّر وأَنذر وتوكَّل على الحيِّ الذي لا يموت، فهو المتكفِّل بنصرك في كل أَمرك.

ثم وصف تعالىٰ نفسه بالصفة التي تقتضي التوكل في قوله: ﴿ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾؛

---

(١) أي: الأجر الحاصل لي من الله على دعوته إلى الإيمان وقبوله هذه الدعوة؛ لأن الله يأجرني على ذلك، وقيل: التقدير: إلا أجر من شاءَ أن يتخذ إلى ربه سبيلاً باتباع ديني حتى ينال كرامة الدنيا والآخرة. وقيل: المعنى: إلا أجر مَنْ آمَن، ويريد بالأجر الإنفاق في سبيل الله، أي: لا أسألكم أجراً إلا الإنفاق في سبيل الله، فجعل الإنفاق أجراً. قاله في البحر والقرطبي.

إذ هذا المعنى يختص بالله تبارك وتعالىٰ دون كل ما في الدنيا مما يقع عليه اسمُ حيّ. وقوله تعالىٰ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: قل سبحان الله وبحمده، أي: تنزيهُه واجب، وبحمده أقول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقال رسول الله ﷺ: «من قال في كل يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة غُفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر»[١]، فهذا معنى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾، وهي إحدى الكلمتين الخفيفتين على اللسان، الثقيلتين في الميزان. وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَفَىٰ﴾ توعُّد، وإزالةٌ عن كاهل محمد ﷺ في همِّه بهم[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مع جمعه ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، فقيل: سائغ من حيث عادل لفظ ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ومنه قول عُمَيْر بن شُيَيْم:

أَلَـمْ يَحْـزُنْـكَ أَنَّ حِبَـالَ قَيْـسٍ ... وَتَغْلِبَ قَـدْ تَبَـايَنَتَـا انْقِطَـاعَـا[٣]

من حيث عادَلَ حبل حبالا، ومنه قول الآخر:

إِنَّ المَنِيَّـةَ والْحُتُـوفَ كِـلاَهُمَـا ... يُـوفِـي الْمَخَـارِمَ يَـرْقُبَـانِ سَـوَادِي[٤]

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد.

(٢) (كَفَى) في كلام العرب يراد بها المبالغة، تقول: كفى بالعلم جمالاً، وكفى بالأدب مالاً، وفي بعض الأخبار: كفى بك ظفراً أن يكون عدوك عاصياً.

(٣) الشاعر هو القطامي، عُمَيْر بن شُيَيْم التغلبي، وبيته هذا من قصيدته التي مدح بها زُفَر بن الحارث الكلابي، الذي أسره ثم حماه من القتل، ومَنَّ عليه، ووهب له مائة ناقة، وردَّه إلى قومه، فقال فيه:

أَكُفْـــراً بَعْـــدَ رَدِّ الْمَـــوْتِ عَنِّـــي ... وَبَعْـدَ عَطَـائِـكَ الْمِـائَـةَ الـرِّتَـاعَـا ؟

والشاهد في البيت هنا أن الشاعر قال (تَبَايَنَتَا) بالتثنية مع أن كلمة (حبال) جمع، وذلك لأنه جعل حبال قيس جماعة، وحبال تغلب جماعة أُخرى فأعاد الضمير باعتبارهما صنفين أو مجموعتين، وهذا هو مراد المؤلف بقوله: «حيث عادل حبل حبالاً»، فقد قدَّر لتغلب حبلاً، وقدَّر الكلامَ: «أن حبال قيس وحبل تغلب»، ثم جاءت المعادلة بين النوعين والشيئين.

(٤) البيت للأسود بن يَعْفُر، وهو من المفضلية (٤٤)، والشاهد موجود في الشطر الأول، وهو أن الشاعر عادل لفظ الموت بلفظ الحتوف، فأعاد الضمير عليهما باعتبارهما صنفين أو شيئين فقال: كلاهما، مع أن الأول مفرد والثاني جمع، كما جاء التعادل في الآية الكريمة بين لفظ (الأرض) وهو مفرد، ولفظ (السّموات) وهو جمع. وسوادي: شخصي.

وقوله تعالىٰ: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، اختلفت الرواية في اليوم الذي ابتدأ الله تعالىٰ فيه الخلق ـ فأكثر الروايات على يوم الأحد، وفي مسلم وكتاب الدلائل: يوم السبت. ويتبين من كون ذلك في ستة أيام وضع الأناة والتمهل في الأمور؛ لأن قدرته تقتضي أنه يخلقها في طرفة عين لو شاءَ، لا إلـٰه إلا هو، وقد تقدم القول في الاستواءِ.

وقوله: (ٱلرَّحْمَـٰنُ) يحتمل أن يكون رفعه بإضمار مبتدأ، أي: هو الرحمـٰن، ويحتمل أن يكون بدلاً من الضمير في قوله: (ٱسْتَوَىٰ)، وقرأ زيد بن علي بن الحسين: [ٱلرَّحْمَـٰنِ] بالخفض(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: فاسأل عنه، و(خَبِيراً) ـ على هذا ـ منصوب بوقوع السؤال عليه، والمعنى: اسأل جبريل والعلماءَ وأهل الكتب المنزلة. والثاني أن يكون المعنى كما تقول: لو لقيتَ فلاناً لَلَقيتَ به البحر كرماً، أي: لقيتَ منه، والمعنى: فاسأل الله عن كل أمر، و(خَبِيراً) ـ على هذا ـ منصوب إمَّا بوقوع السؤال، وإمَّا على الحال المؤكدة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾(٢)، وليست هذه بحال مُتَنَقِّلة؛ إذ الصِّفة العَلِيَّة لا تتغير(٣).

ولما ذكر (ٱلرَّحْمَـٰن) في هذه الآية كانت قريش لا تعرف هذا في أسماءِ الله تبارك وتعالىٰ، وكان مسيلمةُ كذَّابُ اليمامةِ تَسمَّى بالرحمن، فتغالطت قريش بذلك، وقالت: إن محمداً يأمر بعبادة رحمنِ اليمامة، فنزل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ﴾ الآية. وقوله: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾؟ استفهامٌ عن مجهول عندهم، فـ [مَا] على بابها المشهور. وقرأ جمهور القراءِ: (تَأْمُرُنا) بالتاءِ، أي أنت يا محمد. وقرأ حمزة، والكسائي، والأسود بن يزيد، وابن مسعود: [يَأْمُرُنَا] بالياءِ من تحت، إمَّا على إرادة

---

(١) في قراءَة الرفع يجوز على مذهب الأخفش أن يكون (الرَّحْمنُ) مبتدأ و(فاسْأَلْ) خبره، على حدِّ قول الشاعر: «وقائلة خَوْلان فانكح فتاتهم».

(٢) قال في البحر: «كونه منصوباً على الحال المؤكدة على هذا التقدير لا يصح، إنما يصح أن يكون مفعولاً به». وهو من الآية رقم (٩١) من سورة (البقرة).

(٣) هذا رأي المهدوي، قال: لا يصح أن تكون حالاً، لا من الفاعل ولا من المفعول، والحال في أغلب أمرها تتغير وتنتقل، لكن إذا حملناها على أنها حال مؤكدة جاز، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾.

محمد ﷺ، والكناية عنه بالغيبة، وإمَّا على إرادة رحمان اليمامة، وقوله تعالىٰ: (وَزَادَهُمْ) أي: أَضَلَّهُمْ هذا اللفظ ضلالاً يختص به، حاشى ما تقدم منهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

لما جعلت قريش سؤالها عن الله تعالىٰ وعن اسمه الذي هو الرحمٰن سؤالاً عن مجهول نزلت هذه الآية مصرحةً بصفاته التي تُعرَّف به، وتُوجب الإقرار بأُلوهيته. و«البروج» هي التي علمتها العرب بالتجربة وكلُّ أُمة مُصْحرة[1]، وهي الشهور عند اللغويِّين وأَهل تعديل الأَوقات، وكل برج منها على منزلتين وثلث من منازل القمر التي ذكرها الله تبارك وتعالىٰ في قوله: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾[2]، والعرب تُسمي البناءَ المرتفع المستغني بنفسه برجاً تشبيهاً ببرج السماءِ، ومنه قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[3]، وقال الأخطل:

كَـأَنَّهَـا بُـرْجُ رُومِـيٍّ يُشَيِّـدُهُ ... بـانٍ بِجِـصٍّ وآجُـرٍّ وأَحْجَـارِ[4]

وقال بعض الناس في هذه الآية التي نحن فيها: البروج: القصور في الجنة، وقال الأعمش: كان أَصحاب عبد الله يقرؤونها: «في السماءِ قصوراً»، وقيل: البروج: الكواكب العظام، حكاه الثعلبي عن أَبي صالح، وهذا غير ما بيَّنَّاه إلاَّ أَنه غير مخلَّص، والقول بأَنها قصور في الجنة يحط من غرض الآية في التنبيه على أَشياءَ مدركات تقوم بها الحجة على كل منكِرٍ للهِ أَو جاهل به.

---

(١) البروج المعروفة هي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت.

(٢) من الآية (٣٩) من سورة (يسٓ).

(٣) من الآية (٧٨) من سورة (النساء).

(٤) البيت في وصف الناقة، يُشَبِّهها في ضخامتها بالقصر الكبير المرتفع، وهذا كثير في كلام العرب. وشيَّد البناء: رفعه وعلاه، أو طَلاهُ بالشِّيد، وهو كل ما طُلِيَ به البناءُ. والشاهد في البيت أن البرج هو البناءُ المرتفع المستغني بنفسه.

وقرأ الجمهور: (سِرَاجاً)، وهي الشمس، وقرأ حمزة، والكسائي، وعبد الله بن مسعود، وعلقمة، والأعمش: [سُرُجاً]، وهو اسم جميع الأنوار، وقد خصَّ القمر بالذكر تشريفاً، وقرأ النَّخَعي، وابن وثاب، والأعمش أيضاً: [سُرْجاً] بسكون الراءِ، قال أَبو حاتم، وروى عصمة عن الحسن: [وَقُمْراً] بضم القاف ساكنة الميم، ولا أَدري ما أَراد إلا أَن يكون جمعاً كثَمَر وثُمُر، قال أَبو عمرو: وهي قراءَة الأعمش، والنَّخَعي[1].

وقوله: [خِلْفَةً] أَي: هذا يخلف هذا، ومن المعنى قول زهير:

بِهَا الْعِينُ والآرامُ يمْشِينَ خِلْفَةً ... وَأَطلاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَم[2]

ومنه قول الآخر يصف امرأَة تنتقل من منزل في الشتاءِ لمنزل في الصيف دأْباً:

ولها بالْمَاطِرُونِ إذَا ... أَكَلَ النَّمْلُ الذي جَمَعَا
خِلْفَةً حتَّى إذا ارتَبَعَتْ ... سَكَنَتْ من جِلَّقٍ بِيَعَا
في بُيُوتٍ وَسْطَ دَسْكَرَةٍ ... حَوْلَهَا الزَّيْتُونُ قَدْ يَنَعَا[3]

---

(١) في البحر أن عِصْمة قرأها عن عاصم لا عن الحسن، وفي القرطبي ـ عصمة عن الأعمش، وقال في البحر: «والظاهر أنه لغة في القمر كالرَّشَد والرُّشْد والعَرَب والعُرْب»، وقيل: جمع قمراء، أي ليلة قمراء، كأنه قال: «وذا قمر منير»؛ لأن الليلة تكون قمراء بالقمر، فأضافه إليها، ونظيره في بقاء حكم المضاف بعد سقوطه، وقيام المضاف إليه مقامه قول حسَّان: (بَرَدَى يُصَفق بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ)، يريد: ماء بَرَدَى، لأنه لو لم يراع المضاف لقال: تُصَفِّق (بالتاءِ).

(٢) العِينُ: البقر، واحدها أعْين وعيناء، سُمِّيت عيناء لِسَعَة عينها. والآرام: الظباءُ البيض الخوالص البياض، والواحد ريم. وخِلْفَةً معناه: إذا مَضى فوج جاء فوج آخر خَلَفه في مكانه، وحَكَى يعقوب عن بعض اللغويين أن المعنى: مُخْتَلِفَة، يريد أنها تَتَرَدَّد في كل وجْهٍ، وهذا علامة الأمن والخصب. والطِّلا: ولد البقرة والظبي والشاة. والمَجْثَم: الموضع الذي يجثم فيه الحيوان، ويروى المجْثَم بفتح الثاء على أنه اسم من جَثَم يَجْثُم، ويروى بكسر الثاء فهو الاسم من جَثَمَ يَجْثِم.

(٣) الأبيات ليزيد بن معاوية، وهي من مقطوعة قالها يتغزل في امرأة نصرانية، كانت قد ترهبت في دير عند بستان بظاهر دمشق يسمَّى الماطرون. وخِلْفة باللام: ما يطلع من الثمر بعد الثمر، وهي رواية البغدادي في الخزانة، والعيني عن ابن القوطية، والطبري والقرطبي في تفسيريهما، ورواها المبرد في الكامل: (خُرْفة) بالخاء المضمومة والراء، وهو ما يُخترف ويُجْتنى. وارتبعت: دخلت في الربيع، ويروى ذكرت بدلاً من سكنت، وجلَّق: مدينة بالشام، يقال إنها دمشق، والبِيَع: جمع بِيعَة بكسر الباء، وهي مكان التعبد عند اليهود، ولكن هذا لا يتفق مع ما قاله البغدادي من أن المرأة كانت نصرانية، والدَّسْكرة: القرية العظيمة، وجمعها دساكر، ويَنَعَ الثَّمر: أدْرَك وطاب وحان قطافه. يقول الشاعر: إن=

وقال مجاهد: (خِلْفَةً) من الخلاف، هذا أبيض وهذا أسود، نحو ما قدمناه، وقال مجاهد وغيره: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أي: يعتبر بالمصنوعات ويشكر الله تبارك وتعالىٰ على نعمه عليه في العقل والفكر والفهم، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والحسن، وابن عباس: معناه: لمن أراد أن يذكر ما فاته من الخير والصلاة ونحوه في أحدهما فيستدركه في الذي يليه، وقرأ حمزة وحده[1]: [يَذْكُرَ] بسكون الذال وضم الكاف، وهي قراءة ابن وثاب، وطلحة، والنَّخَعي، وقرأ الباقون: (يَذَّكَّرَ) بشد الذال، وفي مصحف أُبي بن كعب: [يَتَذَكَّر] بزيادة تاءٍ.

ثم لمَّا قال تعالىٰ: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ جاءَ بصفة عباده الذين هم أَهْلُ التذكُّر والشكور، و«العباد» و«العبيد» بمعنى، إلا أَن العبادَ تستعمل في مواضع التنويه، وسُمي قومٌ من عبد القيس العبادَ لأَن كسرى ملكهم دون العرب، وقيل: لأَنهم تألَّهوا مع نصارى الحيرة وصاروا عباداً للهِ، وإليهم ينسب عديُّ بن زيد العِبَادي، وقرأَ الحسن: [وعُبُد الرحمـٰن]، ذكره الثعلبي.

وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ﴾ خبر ابتداءٍ، والمعنى: وعباده حق عباده هم الذين يمشون، وقوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ عبارة عن عيشهم ومدة حياتهم وتصرفاتهم، فذكر من ذلك المعظم، لا سيما وفي ذلك الانتقال في الأَرض معاشرةُ الناس وخلطتهم. ثم قال: (هَوْناً) بمعنى أَمْرُه كله هون، أَي ليِّنٌ حسن، قال مجاهد: بالحلم والوقار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بالطاعة والعفاف والتواضع، وقال الحسن: حلماً، إن جُهل عليهم لم يجهلوا، وذهبت فرقة إلى أنَّ (هَوْناً) مرتبط بقوله تعالىٰ: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أَن المشي هو الهون، ويشبه أن يُتأَول هذا على أَن تكون أَخلاق ذلك الماشي هوناً مناسبة لمشيه، فيرجع القول إلى نحو ما بيَّنَّاه، وأَما أَن يكون المراد صفة المشي وحده فباطل؛ لأنه رُبَّ ماشٍ هوناً رُوَيْداً وهو ذئب أَطلس، وقد كان رسول الله ﷺ يتكفَّأُ في مشيه كأَنما يمشي في صبب، وهو عليه الصلاة والسلام الصدر

= هذه المرأة تتردَّد بين الماطرون حيث تفد إليه في الشتاء حين يأكل النمل ما جمعه في الصيف، وبين بيع العبادة في دمشق إذ جاءَ الربيع حيث تقيم في بيوت تقع وسط قرية كبيرة قد أينعت حولها ثمار أشجار الزيتون وحان قطافها.

(١) يعني من السبعة المعروفين في القراءات.

في هذه الآية، وقوله عليه الصلاة والسلام: «مَن مشى منكم في طمع فليمش رويداً» إنما أَراد في عقد نفسه، ولم يرد المشي وحده، أَلا ترى أَن المبطلين المتَحَلِّين بالدين تمسكوا بصورة المشي فقط حتى قال فيهم الشاعر ذمًّا لهم:

كُلُّهُـــــمْ يَمْشـــــي رُوَيْـــــد كُلُّهُـــــمْ يَطْلُـــــبُ صَيْـــــد[١]

وقال الزهري: سرعة المشي تذهب بهاءَ الوجه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يريد الإِسراع الحثيث؛ لأَنه يخل بالوقار، والخير في التوسط، وقال زيد بن أَسلم: كنت أَسأَل عن تفسير قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ فما وجدت في ذلك شفاءً، فرأَيت في النوم من جاءَني فقال لي: هم الذين لا يريدون أَن يفسدوا في الأَرض.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا للتفسير في الخلق. و(هَوْناً) معناه: رفقاً وقصداً، ومنه قول النبي ﷺ: «أَحبِبْ حبيبك هوناً ما» الحديث[٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾، اختلفوا في تأْويل ذلك، فقالت فرقة: ينبغي للمخاطب أَن يقول للجاهل: «سلاماً» بهذا اللفظ، أَي: سلمنا سلاماً أَو تسليماً أَو نحو هذا، فيكون العامل فيه فعلاً من لفظه على طريقة النحويين. والذي أَقول: إِن قوله: (قَالُوا) هو العامل في (سَلاَماً)؛ لأَن المعنى: قالوا هذا اللفظ، وقال مجاهد: معنى (سَلاَماً): قولاً سداداً، أَي: يقول للجاهل كلاماً يدفعه به برفق ولين، فقالوا في هذا التأْويل: العامل في قوله [سَلاَماً] على طريقة النحويين، وذلك أَنه بمعنى: قولاً، وهذه الآية كانت قبل آية السيف، فنسخ منها ما يخُصُّ الكفرة، وبقي أَدبها في المسلمين إِلى يوم القيامة، وذكر سيبويه النسخ في

---

(١) قال ذلك أبو جعفر المنصور (الخليفة) في مدح عمرو بن عبيد الزاهد المشهور، وتمامه:
غَيْرَ عَمْرِو بنِ عُبَيْد

(٢) أخرجه الترمذي في البر، وفيه: «أحْبب حبيبك هوناً مَّا عسى أن يكون بغيضك يوماً مَّا». وفي «الأدب المفرد» للبخاري: هو من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ونصّه: (أحبب حبيبك هوناً مَّا عسى أن يكون بغيضك يوماً مَّا، وأبغض بغيضك هوناً مَّا عسى أن يكون حبيبك يوماً مَّا)، ولم يثبت في المرفوع.

هذه الآية في كتابه، وما تكلم على نَسْخ سواه، رجَّح به أَن المراد السلامة لا التسليم؛ لأَن المؤمنين لم يؤمروا قط بالسلام على غير المسلمين، والآية مكِّيَّة نسختها آية السيف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ورأَيت في بعض [مصاحف][1] التواريخ أَن إِبراهيم بن المهدي ـ وكان من المائلين على عليٍّ بن أَبي طالب رضي الله عنه ـ قال يوماً بمحضر المأْمون ـ وعنده جماعة ـ: كنت أَرى عليَّ بن أَبي طالب في النوم، فكنت أَقول له: من أَنت؟ فيقول: أَنا علي بن أَبي طالب، فكنت أَجيءُ معه إِلى قنطرة، فيذهب يتقدمني في عبورها، فكنت أَقول له: إِنما تدَّعي هذا الأمر بامرأَةٍ، ونحن أَحق به منك، فما رأَيت له في الجواب بلاغة كما يُذكر عنه، قال المأْمون: وبماذا جاوبك؟ قال: كان يقول لي: سلاماً سلاماً، قال الراوي: فكأَن إِبراهيم بن المهدي لا يحفظ الآية، أَو ذهبت عنه في ذلك الوقت، فنبهه المأْمون على الآية أَمام من حضره، وقال: هو والله يا عم عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، وقد جاوبك أَبلغ جواب، فخزي إِبراهيم واستحيا، وكانت رؤْياه لا محالة صحيحة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾.

هذه آية فيها تحريض على قيام الليل بالصلاة، قال الحسن: لما فرغ من وصف نهارهم وَصفَ في هذه ليلهم، وقال بعض الناس: من صلى العشاءَ الآخرة، وشفع وأَوتر، فهو داخل في هذه الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

إِلاَّ أَنه دخول غير مستوفى، وقرأَ أَبو البرهسم: [سجوداً].

ومدحهم تبارك وتعالىٰ بدعائهم في صرف عذاب جهنم من حيث ذلك دليل على صحة عقيدتهم وإِيمانهم، ومن حيث أَعمالهم بحسبه، و(غَرَاماً) معناه: ملازماً ثقيلاً

---

(١) هكذا في الأَصل، ولم يذكرها أَحد من المفسرين الذين ذكروا القصة، وأَظنها من زيادات النساخ.

مجحفاً، ومنه غرام الحب، ومنه قول الأعشى:

إنْ يُعَاقِبْ يَكُنْ غَرَاماً وإنْ يُعْـ ـطِ جَزِيلاً فإنَّهُ لا يُبَالي(١)

وقول بشر بن أبي خازم:

ويَوْمَ النِّسَارِ ويَوْمَ الْجِفَا رِ كانَ عقاباً وكانَ غَراماً(٢)

وقرأ جمهور الناس: (مُقَاماً) بضم الميم، من الإقامة، ومنه قول الشاعر:

حَيُّوا المُقامَ وحَيُّوا ساكِنَ الدَّارِ(٣)

وقرأت فرقة: [مَقَاماً] بفتح الميم، وأنه من قام يقوم، فجهنم موضع قيام لهم، والأول أفصح وأشهر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

اختلف المفسرون في هذه الآية التي في الإنفاق، فعبارة أكثرهم أن الذي لا يسرف هو المنفق في الطاعة وإن أفرط، والمسرف هو المنفق في المعصية وإن قَلَّ إنفاقه، وأن المقتر هو الذي يمنع حقاً عليه، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد. وقال عون بن عبد الله ابن عتبة: الإسرافُ: أن تنفق مال غيرك. وغير هذا من الأقوال التي

---

(١) البيت من قصيدته التي مدح بها الأسود بن المنذر اللخمي، والتي يقول في مطلعها:

مَا بُكَاءُ الكَبِيرِ بالأطْلالِ وَسُؤالي فَهَلْ تَرُدُّ سُؤالي؟

والشاهد في البيت أن (غراماً) بمعنى: شديداً ثقيلاً دائماً.

(٢) قال بِشْر هذا البيت في قصيدة يفخر فيها بقومه، وبما سجلوه من أيام، ويومُ النّسار ويومُ الجفار من أيام العرب، الأول نسبة إلى جبل، والثاني نسبة إلى ماءٍ لبني تميم، ويوم النِّسار كان لبني أسد وأحلافها على بني عامر، ويوم الجفار كان لهم على بني تميم حين أرادت أن تثأر لبني عامر بعد هزيمتها يوم النِّسار، ولكن دارت الدائرة على بني تميم وانتصر بنو أسد في المعركتين، ولهذا قال: إنه كان عقاباً وكان عذاباً شديداً دائماً، وقد نسبه في اللسان للطِّرِمَّاح.

(٣) المُقام: مكان الإقامة، فالتحية لكل من الدار وساكنها.

هي غير مرتبطة بلفظ الآية. وخلْط الطاعة والمعصية بالإسراف والتقتير فيه نظر، والوَجْه أَن يُقال: إن النفقة في معصية أَمر قد حظرت الشريعة قليله وكثيره، وكذلك التعدي على مال الغير، وهؤلاءِ الموصوفون منزهون عن ذلك، وإنما التأْديب في هذه الآية هو في نفقة الطاعات في المباحات، فأَدب الشرع فيها أَلاَّ يفرط الإنسان حتى يضيع حقاً آخر أَو عيالاً ونحو هذا، وأَلاَّ يضيق أَيضاً ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط في الشُّح، والحسن في ذلك هو القَوَام، أَي: العدل، والقَوام في كل واحد بحسب عياله وحاله، وخفَّة ظهره وصبره وجلده على الكسب، أَو ضد هذه من الخصال، وخير الأُمور أَوساطُها، ولهذا ترك رسول الله ﷺ أَبا بكر الصديق رضي الله تبارك وتعالىٰ عنه يتصدق بجميع ماله؛ لأَن ذلك وسط بنسبة جَلَدِه وصبره في الدين، ومنع غيره من ذلك، ونِعْمَ ما قال إبراهيم النَّخَعي: هو الذي لا يجيع ولا يعري، ولا ينفق نفقة يقول الناس: قد أَسرف. وقال يزيد بن أَبي حبيب: هم الذين لا يلبسون الثياب للجمال، ولا يأْكلون الطعام للَّذة. وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه حين زوّجه ابنته فاطمة: ما نَفَقَتُك؟ فقال له عمر: الحسنة بين سيئتين، ثم تلا هذه الآية. وقال يزيد بن حبيب أَيضاً في هذه الآية: أُولئك أَصحاب محمد ﷺ، كانوا لا يأْكلون طعاماً للتَّنَعُّم واللَّذة، ولا يلبسون ثياباً للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدُّ عنهم الجوع، ويقوِّيهم على عبادة ربِّهم، ومن اللباس ما يستر عوراتهم، ويكنُّهم من الحرِّ والبرد. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كفى بالمرءِ سرفاً أَلاَّ يشتهي شيئاً إلا اشتراه وأَكله. وفي سنن ابن ماجه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من السَّرف أَن تأْكل ما اشتهيتَه»، وقال الشاعر:

وَلاَ تَغْلُ في شَيْءٍ من الأَمْرِ واقْتَصِدْ ... كِلاَ طَرَفَيْ قَصْدِ الأُمورِ ذَميمُ[1]

وقرأَ نافع، وابن عامر، وأَبو بكر، ومجاهد، وحفص عن عاصم[2]: [يَقْتِرُوا] بفتح

---

(١) الغُلُوُّ: الإفراط في الشيءِ ومجاوزة الحدِّ فيه. قال في اللسان: «وخير الأمور أوساطها، و... كلا طَرَفَيْ قَصْدِ الأمور ذميمُ» فاستشهد بالنصف الثاني، على أن المراد الاعتدال في الأمور، وعدم مجاوزة الحدِّ في الطرفين بالإفراط أو التفريط، وعلى هذا فالاقتصاد هو الاعتدال، أو هو ما بين الإسراف والتقتير. قال تعالى: ﴿ومنهم مقتصد﴾ أي بين الظالم والسابق، وقال: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾، وفي الحديث الشريف: «ما عال مقتصد ولا يَعيل»، أي: ما افتقر من لا يسرف في الإنفاق ولا يُقتِّر.

(٢) الثابت في المصحف أن قراءة حفص عن عاصم (يَقْتُرُوا) بفتح الياءِ وضم التاءِ، لا بكسرها، ونظن أن الخطأ من الناسخ.

الياءِ وكسر التاءِ. وقرأَ حمزة، والكسائي بفتح الياءِ وضم التاءِ، وهي قراءَة الحسن، وطلحة، والأعمش، وعاصمٌ ـ بخلاف ـ. وقرأَ أَبو عبد الرحمن بضم الياءِ وفتح التاءِ(١).

وقرأَ أَبو عمرو والناس: (قَوَاماً) بفتح القاف، أَي: معتدلاً(٢)، وقرأَ حسَّان بن عبد الرحمن بكسر القاف، أَي: مبلغاً وسداداً وملاك حال. و(قَوَاماً) خبر [كَانَ]، واسمُها مُقَدَّرٌ، أَي: الإِنفاق، وجوَّز الفراءُ أَن يكون اسمها قوله: ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ الآية، إِخراج لعباده المؤمنين من صفات الكفرة في: عبادتهم الأَوثان، وقتلهم النفس بوأْد البنات، وغير ذلك من الظلم والاغتيال والغارات، وبالزنى الذي كان عندهم مباحاً، وفي نحو هذه الآية قال عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: قلت يوماً لرسول الله ﷺ: أَيُّ الذنب أَعظم ؟ قال: أَن تجعل لله ندًّا وهو خلقك، قلت: ثم أَي ؟ قال: أَن تقتل ولدك خشية أَن يطعم معك، قلت: ثم أَي ؟ قال: أَن تُزاني حليلة جارك، ثم قرأَ رسول الله ﷺ هذه الآية(٣).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبالقتل والزنى يدخل في هذه الآية العصاة من المؤمنين، ولهم من الوعيد بقدر ذلك، والحق الذي تُقتل به النفس هو قَتْلُ النفس، والكفرُ بعد الإِيمان، والزنى بعد الإِحصان، والكفر الذي لم يتقدمه إِيمان في الحربيِّين.

و«الأَثَامُ» في كلام العرب: العقاب، وبه فسَّر ابن زيد هذه الآية، ومنه قول الشاعر:

---

(١) إذا راجعنا ذلك على ما في كتب القراءات نجد اختلافات متعددة، وحتى نأمن العثار والخطأ ننقل لك هنا ما أثبته الحافظ ابن الجزري في كتابه (النَّشر في القراءات العشر)، قال: «قرأ المدنيان وابن عامر بضم الياء وكسر التاء، وقرأ ابن كثير والبصريان بفتح الياء وكسر التاء، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم التاء». هذا والحجة لمن فتح الياءَ وكسر التاءَ أنه أخذه من قَتَرَ يَقْتِرُ، مثل: ضَرَبَ يَضْرِبُ، ومن ضمَّ التاءَ أخذه من قَتَرَ يَقْتُرُ، مثل: خَرَجَ يَخْرُجُ، والحجة لمن ضمَّ الياءَ وكسر التاءَ أنه أخذه من أَقْتَرَ يُقْتِرُ، وهما لغتان معناهما: قِلَّة الإنفاق، قاله ابن خالويه في كتاب: «الحجة».

(٢) في بعض النسخ: اعتدالاً.

(٣) أخرجه الفريابي، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه. (الدر المنثور).

جَزَى اللهُ ابْنَ عُرْوَةَ حَيْثُ أَمْسَى عُقُوقاً والْعُقُوقُ لَهُ أَثَامُ(١)

أَي: جزاءً وعقوبة. وقال عكرمة، وعبد الله بن عمرو، ومجاهد: إن «أَثاما» واد في جهنم، هذا اسمه، وقد جعله الله تعالىٰ عقاباً للكفرة.

وقرأَ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: (يُضَاعَفْ)، (وَيَخْلُدْ) جزماً. وقرأَ ابن كثير، وأَبو جعفر، والحسن، وابن عامر: [يُضَعَّفْ] بشد العين وطرح الأَلف، وبالجزم في [يُضَعَّفْ]، (وَيَخْلُدْ). وقرأَ طلحة بن سليمان: [نُضَعِّفْ] بضم النون وكسر العين المشددة [الْعَذَابَ] بالنصب، و(يَخْلُدْ) بالجزم، وهي قراءَة أَبي جعفر. وقرأَ طلحة بن سليمان: [وَتَخْلُدْ] بالتاءِ، على معنى مخاطبة الكافر بذلك، ورُوي عن أَبي عمرو: [وَيُخْلَد] بضم الياءِ من تحت، وفتح اللام، قال أَبو عليٍّ: «وهي غلط من جهة الرواية»، و(يُضَاعَفْ) بالجزم بدلٌ من (يَلْقَ)، قال سيبويه: مضاعفة العذاب لُقِيُّ الأَثام، قال الشاعر:

مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمْ بِنَا فِي دِيارِنَا تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً وَنَاراً تَأَجَّجَا(٢)

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ الآية، لا خلاف بين العلماءِ أَن الاستثناءَ عامل في الكافر والزاني، واختلفوا في القاتل من المسلمين، فقال جمهور العلماءِ: «لَهُ التوبة»،

(١) البيت لِبَلْعَاءَ بن قَيْس بن ربيعة بن عبد الله بن يعمر، اسمه حميضة، وهو من كنانة بن خزيمة، ،كان بلعاء رأس بني كنانة وقائدهم في الحروب والغزوات، وله أخبار كثيرة بسبب إكثاره من الغارات على العرب، وقد أكثر من القول في فنون الشعر المختلفة، وشعره حسن، وقد استشهد صاحب اللسان بالبيت، ونسبه إلى شافع الليثي، قال: «قال أبو إسحاق: تأويل الأثام: المجازاة، وقال أبو عمرو الشيباني: لقي فلانٌ أثام ذلك، أي جزاء ذلك، فإن الخليل وسيبويه يذهبان إلى أن معناه: يَلْقى جزاء الأثام، وقول شافع الليثي في ذلك: جزى الله... البيت، أي: عقوبة مجازاة العقوق، وهي قطيعة الرحم». أما أبو عبيدة فقد نسبه إلى بلعاء في مجاز القرآن.

(٢) البيت لعُبَيْد الله بن الحُرّ الجُعْفِيّ، كان مع معاوية عَلى علي، ثم حدثت بينهما مناقشة خرج بعدها وانضم إلى عليٍّ رضي الله عنه. اقرأ خبر ذلك في (خزانة الأدب) للبغدادي. والجزْل: الغليظ، وهذا يجعل النار قوية فينظر إليها الضيوف عن بُعد، وتأَجَّجا بضمير الاثنين، للحطب والنار، أو أن الألف في (تأجَّجا) للإطلاق مع تذكير النار، أو عاد الضمير على النار مذكراً لأن النار مؤنث مجازي. والشاهد في البيت جزم (تُلْمِمْ) لأنه بدلٌ من قوله: (تَأْتِنَا)، ولو أمكن رفعه على تقدير الحال لجاز، قال سيبويه: سألت الخليل عن البيت فقال: (تُلْمِمْ) بدل من الفعل الأول، أراد أن يفسر الإتيان بالإلمام، كما تقول: مررت برجلٍ عبدِ الله، فتفسّر الأول وهو رجل بالثاني وهو عبد الله.

وجعلت هذه الفرقة قاعدتها قوله تعالىٰ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[١]، فحصل القاتل في المشيئة كسائر التّائبين من ذنوب، ويتأولون الخلود الذي في آية القتل في سورة النساء[٢] بمعنى الدوام إلى مدة كخلود الدول ونحوه، وروى أبو هريرة لمن قَتَل: حديثاً عن النبي ﷺ[٣]. وقيل: إن هذه الآية نزلت في وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه، وقاله سعيد بن جبير. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره: لا توبة للقاتل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهذه الآية إنما أُريد بالتوبة فيها المشركون، وذلك أَنها لما نزلت قالت طوائف من المشركين: كيف لنا بالدخول في الإسلام ونحن قد فعلنا جميع هذا؟ فنزلت ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ الآية، ونزلت ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ الآية[٤]، فما رأيت رسول الله ﷺ فرح بشيءٍ فرحه بها وبسورة الفتح[٥]. وقال غير ابن عباس رضي الله عنهما ممن قال بأَنْ لا توبةَ للقاتل: إن هذه الآية منسوخة بآية سورة النساءِ، قاله زيد بن ثابت، ورواه أَيضاً سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال أَبو الجوزاءِ: صحبت ابن عباس رضي الله عنهما ثلاث عشرة سنة فما رأَيت شيئاً من القرآن إلاَّ سأَلتُه عنه، فما سمعته يقول: إن الله تبارك وتعالىٰ يقول لذنب: لا أَغفره.

---

(١) من الآية (٤٨) من سورة (النساء)، وتكررت في الآية (١١٦) من السورة نفسها.

(٢) وهي قوله تعالىٰ في الآية (٩٣): ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

(٣) الحديث الذي يشير إليه أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: صلَّيت مع رسول الله ﷺ العتمة ثم انصرفت، فإذا امرأةٌ عند بابي، فقالت: جئتك أسألك عن عمل عملتُه هل ترى لي منه توبة؟ قلت: وما هو؟ قالت: زنَيْتُ وَوُلد لي وقتلتُه. قلت: لا ولا كرامة، فقامت وهي تقول: واحسرتاه، أيخلق هذا الجسد للنار؟ فلما صلَّيت مع النبي ﷺ الصبح من تلك الليلة قصصْتُ عليه أمر المرأة، قال: وما قلت لها؟ قلت: لا ولا كرامة، قال: بئس ما قلت، أما كنت تقرأُ هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾... إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ الآية، قال أبو هريرة: فخرجت فما بقيت دار بالمدينة ولا خطة إلا وقفتُ عليها فقلتُ: إن كانت فيكم المرأة التي جاءت أبا هريرة فلتَأتِ ولْتُبْشر، فلما انصرفتُ من العشيِّ إذا هي عند بابي، فقلت: أبشري، إني ذكرت للنبي ﷺ ما قُلتِ وما قلتُ لك فقال: بئس ما قلت، أما كنت تقرأُ هذه الآية؟ وقرأتها عليها، فخرت ساجدة وقالت: أحمد الله الذي جعل لي توبة ومخرجاً، أشهد أن هذه الجارية (لجارية معها وابنٍ لها) حُرَّان لوجه الله، وإني تبت مما عملت.

(٤) من الآية (٥٣) من سورة (الزُّمَر).

(٥) أخرجه بلفظ آخر في أوله ابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالىٰ: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍۗ﴾ معناه: يجعل أَعمالهم بدل معاصيهم الأُولى طاعة، فيكون ذلك سبباً لرحمة الله عزَّ وجلَّ إِياهم، قاله ابن عباس، وابن جبير، وابن زيد، والحسن، ورَدُّوا على من قال: «هو في يوم القيامة لمن يريد المغفرة له من الموحدين، يبدل السيئات حسنات»، وهذا تأْويل ابن المسيب في هذه الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهو معنى كرم العفو.

وقرأَ ابن أَبي عبلة: [يُبْدِل] بسكون الباءِ وتخفيف الدال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾.

أَكَّد هذا اللفظ أَمر التوبة، والمعنى: ومن تاب فإِنه قد تمسَّك بأَمر وثيق، وهذا كما تقول لمن يُسْتَحْسن قوله في أَمْر: لقد قلتَ يا فلان قولاً. وكذلك الآية معناها مدح المتاب، كأَنه قال: فإِنه يجد باباً للفرج والمغفرة عظيماً. ثم استمرت الآية في صفة عباد الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ المؤمنين بأَن نفى عنهم شهادة الزُّور.

و(يَشْهَدُونَ) في هذه الآية ظاهرُ معناها: يشاهِدونَ ويحضُرون. و(الزُّورُ): كل باطلٍ زُوِّرَ وزُخرِفَ، فَأَعْظَمُه الشِّركُ، وبه فسَّر الضحاك، وابن زيد، ومنه الغناءُ، وبه فسَّر مجاهد، ومنه الكذب، وبه فَسَّر ابن جريج، وقال عليُّ بن أَبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه، ومحمد بن علي: المعنى: لا يشهدون الزُّور، فهي من الشهادة لاَ من المشاهدة، و«الزُّور»: الكذب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والشاهد بالزُّور ـ حاضره ومُؤَدِّيه ـ فجرةٌ، فالمعنى الأَول أَعَمُّ، لكن المعنى الثاني أَغرق في المعاصي وأَنكى.

و«اللَّغْوُ»: كل سقط من فعل أَو قول، ويدخل فيه الغناءُ واللهو وغير ذلك مما قاربه، ويدخل في ذلك سَفَهُ المشركين وأَذاهم للمؤمنين، وذكر النساءِ وغير ذلك من

المنكر، و(كِرَاماً) معناه: معرضين مُسْتَخِفِّينَ يتجافَوْن عن ذلك، ويصبرون على الإِيذاءِ منه، وروي أَن عبد الله بن مسعود سمع غناءً فأَسرع في مشيه وذهب، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «لقد أَصبح ابن أُم عبد كريماً»، وقرأَ الآية[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَما إذا مرَّ المسلم بمنكر فكَرَمُه أَنْ يُغيِّره، وحدود التغيير معروفة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، يريد: ذكروا بالقرآن آخرتهم ومعادهم، وقوله: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ يحتمل تأْويلين: أَحدهما أَن المعنى: لم يكن خروجهم بهذه الصفة بل يكون خروجهم سجداً وبُكيًّا، وهذا كما تقول: لم يخرج زيد إِلى الحرب جزعاً، أَي: إِنما خرج جريئاً مقدماً، أَو كأَن الذي يَخِرُّ أَصمَّ أَعمى هو المنافق أَو الشاك، وهو التأْويل الثاني، وإِليه ذهب الطبري، وهو أَنَّ ﴿يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ هي صفة الكفار، وهي عبارة عن إِعراضهم وجهدهم في ذلك، وقرن ذلك بقولك: «قعد فلان يشتمني، وقام فلان يبكي»، وأَنت لم تقصد الإِخبار بقعود ولا قيام، وإِنما هي توطئات في الكلام والعبارة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكأَن المستمع للذكر قائم القناة قويم الأَمر، فإِذا أَعرض وضلَّ كان ذلك خروراً، وهو السقوط على غير نظام وترتيب، وإِن كان قد شبه به الذي يخر ساجداً، لكن أَصله أَن يكون على غير ترتيب.

ثم مدح المؤمنين حال الدعاءِ إِليه بأَن يُقِرَّ العيون بالأَهل والذرية. و«قُرَّة العين» يحتمل أَن تكون من القرار، ويحتمل أَن تكون من القَرِّ، وهو الأَشهر؛ لأَن دمع السرور باردٌ ودمع الحزن سخن، فمن هذا يقال: أَقَرَّ الله عينك وأَسْخَن الله عين العدو[٢]، وقُرّة العين في الأَزواج والذرية أَن يراهم الإِنسان مطيعين لله تبارك وتعالىٰ، قاله ابن عباس،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وابن عساكر، عن إبراهيم بن ميسرة رضي الله عنه، وفيه أن الذي قرأ الآية هو إبراهيم بن ميسرة، وجاء بلفظ: «ثم تلا إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴿٧٢﴾﴾». (الدر المنثور).

(٢) أخذه الشاعر فقال:

فَكَمْ سَخِنَتْ بالأَمْسِ عَيْنٌ قَرِيرةٌ ... وقَرَّتْ عُيونٌ دَمْعُهَا الْيَوْمَ سَاكِبُ

والحسن، وحضرمي، وبيَّن المقداد بن الأَسود الوجه في ذلك بأَنهم كانوا في أَول الإِسلام يهتدي الابن، والأَب كافر، والزَّوجُ، والزوجة كافرة، فكانت قرة عيونهم في إِيمان أَحبابهم. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والحسن: (وَذُرِّيَّاتِنَا)، وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وطلحة، وعيسى: [وَذُرِّيَّتِنَا] بالإِفراد.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قيل: هو جمع (آمٍّ)، مثل قائم وقيام، وقيل: هو مفرد اسم جنس، أَي: اجعلنا يأْتم بنا المتقون، وهذا لا يكون إِلاَّ أَن يكون الداعي مُتَّقياً قدوة، وهذا هو قصد الداعي، وقال إِبراهيم النَّخَعي: لم يطلبوا الرياسة، بل أَن يكونوا قدوة في الدين، وهذا حسن أَن يُطلب ويُسعى إِليه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾.

قرأَ أُبيُّ بن كعب: [يُجَازَوْنَ] بأَلف، و(الْغُرْفَة) من منازل الجنة، وهي الغُرف فوق الغُرف، وهي اسم جنس، كما قال:

وَلَوْلاَ الْحَبَّةُ السَّمْرَاءُ لَمْ أَحْلُلْ بِوَادِيكُمْ[1]

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو: (وَيُلَقَّوْنَ) بضم الياءِ وفتح اللام وشدّ القاف، وهي قراءَة أَبي جعفر، وشيبة، والحسن، وقرأَ حمزة، والكسائي، وابن عامر، وعاصم، وطلحة، ومحمد اليماني، ورُويت عن النبي ﷺ: [وَيَلْقَوْنَ] بفتح الياءِ وسكون اللام وتخفيف القاف، واختلف عن عاصم[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾ الآية. أَمرٌ لمحمد ﷺ أَن يخاطب بذلك، و[ما] تحتمل النفي، وتحتمل التقرير، والكلام في نفسه يحتمل تأْويلات: أَحدها أَن تكون الآية إِلى قوله: ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ خطاباً لجميع الناس، فكأَنه قال لقريش منهم:

---

(١) الحَبَّة: واحدة الحَبِّ، وهو ما يكون في السنبل والأَكمام كالقمح والشعير، وجمع الحَبِّ: حبوب، والحُلُول: النزول، والشاهد أَن الحَبَّة: اسم جنس كالغرفة.

(٢) لأَن القراءة الثابتة في المصحف عن عاصم من طريق حفص جاءت بضم الياءِ وتشديد القاف.

ما يبالي الله بكم، ولا ينظر إليكم لولا عبادتكم إياه أن لو كانت، وذلك الذي يُعبأُ بالبَشَر من أجْله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[١]، وقال النقاش: المعنى: لولا استغاثتكم إليه في الشدائد، ونحو ذلك، فهو عرف الناس المرعي[٢] فيهم. وقرأ ابن الزُّبير وغيره: «فقد كذَّب الكافِرونَ»، وهذا يؤيد أن الخطاب بـ ﴿مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ﴾ هو لجميع الناس، ثم يقول لقريش: فأنتم قد كذبتم ولم تعبدوه، فسوف يكون العذاب ـ أو يكون التكذيب الذي هو سبب العذاب ـ لزاماً.

الثاني أن يكون الخطاب بالآيتين لقريش خاصة، أي: ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم الأصنام دونه، فإن ذلك يوجب تعذيبكم.

الثالث وهو قول مجاهد: ما يعبأُ بكم ربِّي لولا دعاؤُكم إلى شرعه، فوقع منكم الكفر والإعراض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمصدر في هذا التأويل مضاف إلى المفعول، وفي الأولين مضاف إلى الفاعل، و[يَعْبَأُ] مشتق من العبءِ وهو من الثقل الذي يعبأ ويرتَّب كما يُعَبَّأُ الجيش[٣]. قال ابن جني: قرأ ابن الزبير وابن عباس رضي الله عنهما: «فقد كذب الكافرون»، قال الزهراوي: وهي قراءَة ابن مسعود، قال: وهي على التفسير.

وأكثر الناس على أن اللِّزام المشار إليه في هذا الموضع هو يوم بدر، وهو قول أُبيّ بن كعب، وابن مسعود، والمعنى: فسوف يكون جزاءُ التكذيب. وقالت فرقة: هو توعُّد بعذاب الآخرة. وقال ابن مسعود: اللِّزام هو التكذيب نفسه، أي: لا يُعْطَوْن توبة، ذكره الزهراوي، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً: اللِّزام الموتُ، وهذا نحو القول ببدر، وإن أراد به متأول الموت المعتاد في الناس عرفاً فهو ضعيف، وقرأ جمهور الناس: (لِزَاماً) بكسر اللام، من لوزم، وأنشد أبو عبيدة لِصَخْرِ الغَيِّ[٤]:

---

(١) الآية (٥٦) من سورة (الذاريات).

(٢) في بعض النسخ: المدَّعى فيهم.

(٣) في (اللسان ـ عبأ): «عبأ الأمر عَبْئاً وعَبَّأهُ يُعَبِّئُهُ: هَيَّأه، وعبَّأتُ المتاع: جعلت بعضه على بعض، وقيل: عَبَأَ المتاعَ وعَبَّأَه: كلاهما هيَّأه، وكذلك الخيل والجيش، وكان يونس لا يهمز تعبية الجيش».

(٤) هو صخر بن عبد الله الخيثمي الهذلي، وفي الأغاني أنه لُقِّب بصخر الغَيِّ لخلاعته وشدة بأسه وكثرة=

فَـإِمَّـا يَنْجُـوَا مِـنْ حَتْـفِ أَرْضٍ   فَقَـدْ لَقِيَـا حُتُـوفَهُمَـا لِـزَامـاً

وقرأ أبو السمال: [لَزَاماً] بفتح اللام، من لَزِم[1]، والله أعلم.

كمل تفسير سورة الفرقان والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

* * *

= شرُّه، وله ترجمة في الإصابة، وفي الأغاني. والبيت في (اللسان ـ لزم) وفيه «قال أبو عبيدة: وجاء في التفسير عن الجماعة أنه يوم بدر، وما نزل بهم فيه، فإنه لوزم بين القتلى لزاماً، أي: فُصِل. وأنشد أبو عبيدة لصخْر الغيّ: فإمَّا ينجُوَا... البيت، وتأويل هذا أن الحتف إذا كان مقدراً فهو لازم، إن نجا من حتف مكانٍ، لَقِيَهُ الحتف في مكان آخر لِزاماً».

(١) قال أبو جعفر: يكون مصدر لَزِم، والكسر أولى، وقال غيره: اللِّزام بالكسر مصدر لازَم لِزاماً، مثل خاصم خِصاماً، واللَّزام بالفتح مصدر لَزِم، مثل سَلِم سلاماً، أي سلامة، فاللَّزام بالفتح اللُّزوم، واللِّزام: الملازمة، والمصدر في القراءَتين وقع موقع اسم الفاعل، فاللِّزام في موقع: مُلازِم، واللَّزام في موقع: لازَم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الشُّعَراءِ

هذه السورة مكية كلُّها، قاله جمهور الناس، وقال مقاتل: منها مدني الآية التي يذكر فيها الشعراءَ، وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

تقدم القول في الحروف في أَوائل السُّوَر مستوعَباً.

و(تِلْكَ) مرتفع بالابتداءِ، وهو وخبره سادٌّ مَسدَّ الخبر عن (طسٓمٓ) في بعض التأويلات. والإشارة بـ (تِلْكَ) هي بحسب الخلاف في (طسٓمٓ)، وفي بعض الأَقوال أَن تكون (تِلْكَ) إشارة إلى حاضر، و«ذلك» إلى موجود، كما أَن «هذه» قد تكون الإشارة بها إلى غائب معهود كأَنه حاضر.

و﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ القرآن.

وقرأَ حمزة، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم: [طِسٓمٓ] بكسر الطاءِ. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر بفتحها وبإدغام النون من (سِين) في الميم. وقرأَ حمزة

---

(١) وقال ابن عباس، وقتادة: مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة: من قوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ إلى آخرها.

وعدد آيات السورة مائتان وسبع وعشرون آية، وفي رواية: ست وعشرون، وعن البراءِ بن عازب أن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني المئين مكان الإنجيل، وأعطاني الطواسين مكان الزَّبور، وفضلني بالحواميم والمُفَصَّل، ما قراهن نبيٌّ قبلي».

وحده بإظهارها، وهي قراءَة أَبي جعفر، ورويت عن نافع، وروى يعقوب عن أَبي جعفر ونافع قَطْع كل حرف منها على حِدَة، قال أَبو حاتم: الاختيار فتح الطاءِ وإدغام آخر (سين) في أَول (ميم) فتصير الميم متصلة(١).

وقوله تعالىٰ: (لَعَلَّكَ) الآية، تسلية لمحمد ﷺ عما كان فيه من القلق والحرص على إيمانهم، فكان في شغل البال في حيِّز الخوف من نفسه. و«الْبَاخِعُ» القاتل نفسه والمهلك لها بالهم، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والناسُ، ومن ذلك قول ذي الرمة:

أَلاَ أَيُّهَـذَا البَـاخِـعُ الْـوَجْـدُ نَفْسَـهُ ... لِشَـيْءٍ نَحَتْـهُ عَـنْ يَـدَيْـهِ المقَـادِرُ(٢)

وخوطب بـ «لَعَلَّ» على ما في نفس البشر من توقع الهلاك في مثل تلك الحال. ومعنى الآية: أَلاَّ تَهْتَم يا محمد بهم، وبلِّغ رسالتك، وما عليك من إيمانهم، فإن ذلك بيد الله تعالىٰ لو شاءَ لآمنوا. وقوله: (أَلاَّ) مفعول من أَجله.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن نَّشَأْ﴾ شرطٌ، وما في الشرط من الإيهام هو ـ في هذه الآية ـ في حيِّزنا، وأَما الله تعالىٰ فقد علم أَنه لا ينزل عليهم آية اضطرار، وإنما جعل الله تعالىٰ آيات الأَنبياء والآيات الدالة عليه معرضة للنظر والفكر ليهتدي من سبق في علمه هداه، ويضل من سبق ضلالُه، وليكون للنظرة تكسب به يتعلَّق الثواب والعقاب، وآية الاضطرار تدفع جميع هذا إن لو كانت.

وقرأَ: (نُنَزِّل) بفتح النون وشدِّ الزاي أَبو جعفر، وشيبة، ونافع، والأَعرج، وعاصم، والحسن. وقرَأَ أَبو عمرو وأَهل البصرة بسكون النون وتخفيف الزاي. وروى هارون عن أَبي عمرو [يشأ يُنزِّل] بالياءِ فيهما. والخضوع للدلالة في الآية المَنزَّلة كان يترتب بأَحد وجهين: إما بخوف هلاك في مخالفة الأَمر المقترن بها كنَتْق الجبل على بني إسرائيل، وإمَّا أَن تكون من الوضوح بحيث يقع الإذعان لها وانقياد النفوس، وكلٌّ

(١) قال النحاس: للنون الساكنة والتنوين أربعة أقسام عند سيبويه: يُبَيَّنان عند حروف الحلق، ويدغمان عند الراءِ واللام والميم والواو والياءِ، ويقلبان ميماً عند الباءِ، ويكونان من الخياشيم، أي لا يُبَيَّنان فيما عدا ذلك، وعلى ذلك لا تجوز قراءة إظهار النُّون من (سين)؛ لأنه ليس ها هنا حرف من حروف الحلق.

(٢) البيت في الديوان، واستشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن، وذكره في (اللسان ـ بَخَع)، قال: بَخَع نفسه يَبْخعها بَخْعاً وبُخُوعاً: قَتَلَهَا غيظاً أو غمّاً. ونَحَتْه: عَدلَته وصرفته وأَبعدته عن يديه، يريد: نَحَّته فخفف.

هذين لم يأت به نبيٌّ، ووجه ذلك ما ذكرناه، وهو توجيهٌ منصوص للعلماءِ. وقرأ طلحة: [فَتَظَل أَعْنَاقُهُم]، وهو المراد في قراءَة الجمهور، وجعل الماضي موضع المستقبل إشارة إلى تقوية وقوع الفعل(١). وقوله تعالىٰ: (أَعْنَاقُهُم) يحتمل تأويلين: أَحدهما ـ وهو قول مجاهد، وابن زيد، والأَخفش ـ أَن يريد: جماعاتهم، يقال: «جاءَ في عُنُق من الناس» أَي جماعة، ومنه قول الشاعر:

أَنَّ الْعِــــرَاقَ وَأَهْلَـــــهُ ... عُنُـــقٌ إِلَيْــكَ فَهَيْــتَ هَيْتَــا(٢)

وعليه حُمل قول أَبي مِحْجن:

. . . . وأَكْتُـمُ السِّـرَّ فيـهِ ضَـرْبَـةُ الْعُنُـقِ(٣)

ولهذا قيل: «عُنُق رقبة»، ولم يُقَل: «عُنُق عُنُق» فراراً من الاشتراك، قاله الزهراوي.

والتأْويل الآخر أَن يريد بـ «الأَعْنَاقِ» الجارحة المعلومة، وذلك أَن خضوع العُنُق

---

(١) قال الفراءُ في (معاني القرآن): «صواب أن تعطف على مجزوم الجزاءِ بـ (فَعَل)؛ لأن الجزاءَ يصلح في موضع فَعَل يَفْعَل، وفي موضع يَفْعَل فَعَل، ألا ترى أنك تقول: إن زُرْتَني زُرْتك وإن تزرني أَزرك، والمعنى واحد؟ قال تبارك وتعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ﴾ ثم قال: ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾، فرَدَّ يَفْعَل عَلَى فعَلَ، وقال الشاعر ـ وهو قعنب بن أُم صاحب:

إِنْ يَسْمَعُــوا سُبَّـةَ طَـارُوا بِهَــا فَـرَحـاً ... مِنِّي ومَـا يَسْمَعُـوا مِـنْ صَـالِـحٍ دَفَنُـوا

فرَدَّ الجواب بفعَل وقبله يَفْعَل».

(٢) جاء في (اللسان ـ عنق): «جاء القوم عُنُقا عُنُقا، أي طوائف، وقال الأزهري: إذا جاءوا فرقاً كل جماعة منهم عُنُق، قال الشاعر يخاطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

أَبْلِـــغْ أميـــرَ الْمُـــؤْمِنِيـ ... ـــنَ أخَـــا الْعِـــراقِ إذَا أَتَيْتَـــا
أَنَّ العِـــــرَاقَ وأهْلَـــــه ... عُنُـــقٌ إِلَيْـــكَ فَهَيْـــتَ هَيْتَـــا

أراد أنهم أقبلوا إليك بجماعتهم، وقيل: هم مائلون إليك ومنتظروك».

(٣) هذا عجز بيت، وهو واحد من أبيات افتخر بها عبيد بن أبي محجن عند معاوية، وهي:

لا تَسْـأَلِ النَّـاسَ مـا مَـالـي وكَثْـرَتُـهُ ... وسائِلِ القَوْمَ: ما حَزْمي وما خُلُقي
القَـوْمُ أَعْلَـمُ أنِّـي مِـنْ سَـرَاتِهِـمُ ... إذا تَطِيشُ يَـدُ الـرِّعْـدِيـدَةِ الفَـرِق
قَـدْ أرْكَـبُ الهـوْلَ مَسْـدولاً عَسَـاكِـرُهُ ... وأكْتُـمُ السِّـرَّ فيـهِ ضَـرْبَـةُ العُنُـقِ

وابن عطية يستشهد بالبيت على أن العُنُق هنا من نفس المعنى الموجود في الشاهد السابق، والذي يبدو لي أن العُنُق هنا بمعنى الجارحة المعروفة.

والرقبة هو علامة الذِّلة والانقياد، ومنه قول الشاعر:

وَإِذَا الـرِّجَـالُ رَأَوْا يَـزِيـدَ رَأَيْتَهُـمْ   خُضُعَ الرِّقَابِ نَوَاكِسَ الأَبْصَارِ[١]

فمعنى هذا التأويل أَنْ نتكلم على قوله: (خَاضِعِينَ)، كيف جُمع جَمْع من يعقل؟ وذلك متخرج على نحويْن من كلام العرب: أَحدهما أَن الإِضافة إِلى من يعقل أَفادت حُكْمَه لمن لا يعقل، كما تفيد الإِضافة إِلى المؤنث تأْنيث علامة المذكر، ومنه قول الأَعشى:

. . . .   كما شَرَقَتْ صدْرُ الْقَنَاةِ منَ الدَّمِ[٢]

وهذا كثير.

والنحو الآخر أَن تكون «الأَعناقُ» لمَّا وُصفت بفعل لا يكون إِلاَّ مقصود البَشَر ـ وهو

---

(١) البيت للفرزدق، وهو من قصيدة له يمدح فيها آل المهلب، واستشهد به في (اللسان ـ خَضَع) قال: «وقوم خُضُع الرِّقَاب: جمع خَضُوع بمعنى خاضع، قال الفرزدق: وإذا الرجال. . . البيت». ومعنى «خُضُع الرقاب»: مطأطئوا الرؤوس ذلاً. و«نواكس الأبصار» كناية عن الإجلال والتَّهيُّب، وهو مخالف للفصاحة عند البيانيين لأنه جمع ناكسة لا ناكس. قال في (اللسان ـ نَكَس): «نكَس رأسه إذا طأطأه من ذُلٍّ، وجُمع في الشِّعر على نواكس وهو شاذ، وأنشد الفرزدق: وإذا الرجال. . . البيت. قال سيبويه: إذا كان الفعل لغير الآدميين جُمع على فواعل؛ لأنه لا يجوز فيه ما يجوز في الآدميين من الواو والنون في الاسم والفعل فضارع المؤنث». وقد ذكر ابن عطية تخريجين لهذا.

(٢) هذا عجز البيت، وهو بتمامه:

وَتَشْـرَقُ بِـالقَـوْلِ الَّـذي قَـدْ أَذَعْتَـهُ   كَمَا شَرِقَتْ صدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الـدَّمِ

وقد استشهد به صاحب (اللسان ـ شرق)، وهو في الديوان من قصيدة يهجو بها عمير بن عبد الله بن المنذر بن عَبدان حين جمع بينه وبين جهنام الشاعر ليهاجيه، يقول: وحتَّى تشرق بما أذعت من القول، كما يشرق مقدم القناة بالدم، وصدر القناة هو أعلاها، والشاهد فيه أنه أنث الفعل (شرق) بالتاءِ مع أن الفاعل وهو (صدْر) مذكَّر، ولكنه لما أُضيف إلى القناة وهي مؤنثة لحقته تاءُ التأنيث بالفعل، فكأنه جعل الفعل للقناة لا لصدرها، وابن عطية يقيس على ذلك أنه يجوز أن تخلع على غير العاقل صفة العاقل وحكمه فتقول: «أعناقهم خاضعين» بدلاً من «خاضعة» وذلك لأن الأعناق أُضيفت إلى ضمير العاقل. ومثل البيت قول الراجز:

لمَّا رأَى مَتْنَ السَّمَاءِ ابْعَدَتْ

فقد أنَّث الفعل (أبعدت) بالتاءِ مع أن الضمير يعود على مذكر وهو (مَتْن)، ولكن لما أُضيف المَتْن إلى مؤنث وهو السماءُ جاز أن ينظر الشاعر إلى المضاف إليه وأن يتناسى المضاف، وكأنه قال: لما رأى السماءَ أبعدت.

الخضوع ـ؛ إذ هو فعل يتبع أمْراً في النفس جمعت فيه جمع من يعقل، وهذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾(١)، وقوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾(٢)، وقرأ ابن أبي عبلة: [لَهَا خَاضِعَةً].

ثم عنَّف الكفار، ونبَّه على سوءِ فعلهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ الآية. وقوله تعالىٰ: (مُحْدَثٍ) يريد: مُحْدَث الإتيان، أي: مجيءُ القرآن للبشر كان مجيءَ شيءٍ بعد شيءٍ، وقالت فرقة: يحتمل أن يريد بـ «الذِّكْر» محمداً ﷺ، كما قال في آية أخرى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا﴾(٣)، فيكون الوصف بالمُحْدَثِ متمكناً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقول الأول أفصح.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ الآية وعيد بعذاب الدنيا، والآخرة، ويُقَوِّي أنه وعيد بعذاب الدنيا؛ أن ذلك قد نزل بهم، كبدر وغيرها.

ولما كان إعراضهم عن النظر في الصانع والإلـٰه أعظم كفرهم، وكانوا يجعلون الأصنام آلهة، ويعرضون عن الذكر في ذلك؛ نبَّه على قدرة الله تعالىٰ، وأنه الخالق المنشىءُ الذي يستحق العبادة بقوله: ﴿أو لم يروا إلى الأرض﴾ الآية. و«الزَّوْجُ»: النوع والصنف، و«الكريم»: الحسن المُتْقن، قاله مجاهد وقتادة، ويراد الأشياءُ التي بها قوام الأُمور والأَغذيةُ والنباتاتُ، ويدخل في ذلك الحيوان لأنه عن إنبات، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾(٤). قال الشعبي: الناس من نبات الأرض، فمن صار إلى الجنة فهو كريم، ومن صار بضد ذلك فهو لئيم. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حتم على أكثرهم بالكفر. ثم توعَّد بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، يريد: عزَّ في نقمته من الكفار وَرَحِمَ مُؤمني كل أُمَّة، وقال نحو هذا ابن جريج، وفي لفظة (ٱلرَّحِيم) وعْدٌ.

(١) من الآية (١١) من سورة (فُصِّلت).
(٢) من الآية (٤) من سورة (يوسف).
(٣) من الآيتين (١٠، ١١) من سورة (الطَّلاق).
(٤) الآية (١٧) من سورة (نوح).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

التقدير: واذكر إذ نادى ربك موسى. وسوقُ هذه القصة تمثيلٌ لكفار قريش لتكذيبهم محمداً ﷺ، و(أَنْ) في قوله تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱئْتِ﴾ يجوز أن تكون مفسِّرة لا موضع لها من الإعراب، بمنزلة (أي)، ويجوز أن تكون غيرها، وهي في موضع نصب[١]، وقوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾، أي: قل لهم، فجمع في هذه العبارة من المعاني نَفْيَ التقوى عنهم وأَمْرَهُم بالتقوى، وقرأَ الجمهور: (يَتَّقُونَ) بالياءِ من تحت، وقرأَ عبد الله بن مسلم، وحماد بن سلمة، وأَبو قُلابة: (تَتَّقُونَ) بالتاءِ من فوق، وعلى معنى: فقل لهم.

ولِعِظَم قُوَّة فرعون وتأَلُّهه وطول مُدَّته وما أُشربت القلوب من مهابته، قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، وقرأَ جمهور الناس: (وَيَضِيقُ) بالرفع، و(يَنْطَلِقُ) كذلك. وقرأَ الأَعرج، وطلحة، وعيسى ذلك بالنصب فيهما، فقراءَة الرفع هي إِخبارٌ من موسى عليه السلام بوقوع ضيق صدره، وعدم انطلاق لسانه، ولهذا رجَّح أَبو حاتم هذه القراءَة، وقراءَة النصب تقتضي أَن ذلك داخل تحت خوفه، وهو عطف على (يُكَذِّبُونِ). وكان في خلق موسى عليه السلام حِدَّة، وكانت في لسانه حبْسة بسبب الجمرة في طفولته، وحكى أَبو عمرو عن الأَعرج أنه قرأَ بنصب [وَيَضِيقَ] وبرفع [يَنطَلِقُ]، وقد يكون عدم انطلاق اللسان بالقول لغموض المعاني التي تطلب أَلفاظاً محررة، فإذا كان هذا في وقت ضيق صدره لم ينطلق اللسان، وقد قال عليه السلام: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾[٢]، فالراجح قراءَة الرفع. وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾

---

(١) على أنها مصدرية، كما قال أبو حيان في البحر.

(٢) الآية (٢٧) من سورة (طه).

معناه: يُعينني ويُؤازرني، وكان هارون عليه السلام وزيراً فصيحاً واسع الصدر، فحذف بعض المراد من القول، إذ باقيه دالٌّ عليه.

ثم ذكر موسى عليه السلام خوفَ القبط من أَجل ذَنْبِهِ، وهو قتله الرجل الذي وكزه، قال قتادة ومجاهد والناس: فخشي أَن يستقاد منه، فقال الله عزَّ وجلَّ له: (كَلاَّ) ردًّا لقوله: (إِنِّي أَخَافُ)، أَي: لا تخف ردًّا لذلك فإِني لم أُحَمِّلك ما حُمِّلت إِلا وقد قضيتُ بظهورك ونصرك. وأَمر موسى وهارون بخطاب موسى فقط، لأَن هارون ليس بمكلَّم بإِجماع، ولكن قال لموسى: (اذْهَبَا) أَي أَنت وأَخوك، و«الآيات» تعم جميع ما بعثهما الله تعالىٰ به، وأَعظم ذلك العصا، وبها وقع العجز، [وَٱلْيَد ٱلْبَيْضَاءُ][(١)]، وبالآيتين تحدَّى موسى عليه السلام فرعون، ولا خلاف في أَن موسى عليه السلام هو الذي حمله الله تبارك وتعالىٰ أَمر النبوة كلها، وأَن هارون عليه السلام كان نبيًّا رسولاً معيناً وزيراً. وقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ إما أَن يجعل الاثنين جمعاً، وإِما أَن يريدهما والمبعوث إِليهم وبني إِسرائيل، وقوله: (مُسْتَمِعُونَ) على نحو التعظيم والجبروت الذي لله تبارك وتعالىٰ، وصيغة (مُسْتَمِعُونَ) تُعْطي أهتبالاً بالأَمر ليس في صيغة «سامعون»، وإِلاَّ فليس يوصف الله تبارك وتعالىٰ بطلب الاستماع، وإِنما المقصد إِظهار التَّهَمُّم ليعظم أُنس موسى عليه السلام، أَو تكون الملائكة ـ بأَمر الله إِيَّاها ـ تستمع.

وقوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هو أَن العرب أَجرت «الرسول» مجرى المصدر في أَن وصفت به الجمع والواحد والمؤنث، ومن ذلك قول الهذلي:

أَلِكْنـي إِلَيْهَـا وَخَيْـرُ ٱلـرَّسُـو ... لِ أَعْلَمَهُـمْ بِنَـوَاحِـي الْخَبَـرْ[(٢)]

(١) زيادة يقتضيها المقام وسلامة العبارة حيث قال ابن عطية بعدها: «وبالآيتين تحدى. .» والآيات التي بعث الله بها موسى هي: (العصا، واليد والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والسنين، والنقص من الثمرات) مع وجود اختلاف بين العلماء في بعضها.

(٢) قال أبو ذؤيب هذا البيت من قصيدة قالها حين بيَّت ناسٌ من بني سُلَيْم ناساً من هذيل فقتلوهم، قال شارح أشعار الهُذَلِيِّين: «أَلِكْني: أبلغ عنِّي ٱلْوكي، و«الألوك» الرسالة، كما تقول: أعْكِمْني، أي أعني على عِكْمي واعكُم معي، وخير الرسول: يريد الرُّسل، والرسول في موضع جمع، كقولك: «كثير الدينار والدرهم»، وقوله: بنواحي الخبر، أي: حروف الكلام وجوانبه وما أشكل منه». وقال القرطبي: أَلِكْني إليها: أرسلني إليها.

وقول الشاعر وإن كان مُوَلَّدا:

إنَّ الَّتـــي أَبْصَـــرْتُهَـــا سَحَـــراً تُكَلِّمنـــي رسُـــولُ[1]

وقوله: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ معناه: سرِّح، فهو بمعنى الإرسال الذي هو بمعنى الإِطلاق، كما تقول: أرسلت الحجر من يدي.

وكان موسى عليه السلام مبعوثاً إلى فرعون في أمرين: أحدهما أن يرسل بني إسرائيل ويزيل عنهم ذُلَّ العبودية والغلبة. والثاني أن يؤمن ويهتدي. وأُمر بمكافحته ومقاومته في الأول، ولم يؤمر بذلك في الثاني على ما بلغ من أمره، وبُعث بالعبادات والشرع إلى بني إسرائيل فقط، هذا قول بعض العلماءِ.

وقول فرعون لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾ هذا على جهة المنِّ عليه والاحتقار، أي: ربَّيْنَاكَ صغيراً، أوْ لم نقتلك في جملة من قتلنا فلبثت فينا سنين، فمتى كان هذا الذي تدَّعيه؟ وقرأ جمهور القراءِ: ﴿مِنْ عُمُرِكَ﴾ بضم الميم، وقرأ أبو عمرو: [عُمْرِكَ] بسكونها.

ثم قرَّره على قتل القبطي بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ والفَعلة ـ بفتح الفاءِ ـ المرَّة من الفعل، وقرأ الشَّعبي: [فِعْلَتَكَ] بكسر الفاءِ، وهي هيئة الفعل، وقوله: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: أحدهما أن يريد: وقتلتَ القبطي وأنت في قتلك إياه من الكافرين؛ إذْ هو نفس ولا يحل قتله، قاله الضحاك. أو يريد: وأنت من الكافرين بنعمتي في قتلك إياه، قال ابن زيد: وهذان بمعنى واحد في حق اللفظ، وإنما اختلفا باشتراك لفظ الكفر. والثاني أن يكون بمعنى الهزؤ، أي: وأنت على هذا الدين وأنتَ من الكافرين بزعمك. قاله السدي. والثالث ـ وهو قول الحسن ـ أن يريد: وأنتَ

(١) الشاهد أن (رسول) هنا جاء في صفة المؤنث ولم تلحقه علامات التأنيث. ومثل هذين الشاهدين قول كُثَيِّر عزَّة:

لقد كَذَبَ الْوَاشُونَ، ما بُحْتُ عِنْدَهُمْ بِسِـــرٍّ وَلا أرْسَلْتُهُـــمْ بِـــرَسُـــول

لأن الرسول هنا بمعنى الرسالة يؤنث ويذكر كما قال في اللسان، ومن الشواهد أيضاً في هذا المقام قول العباس بن مرداس:

ألا مَـــنْ مُبْلِـــغٌ عَنِّـــي خُفَـــافـــاً رَسُـــولاً، بَيْتُ أهْلِـكَ مُنْتَهَـاهَـا؟

فإنه يعني بقوله: «رسولاً»: رسالةً، ولذلك أنَّث الهاء في قوله: منتهاها.

من الكافرين الآن، يعني فرعون: بالعقيدة التي يكون بيَّنها، فيكون الكلام مقطوعاً من قوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾، وإنما هو إخبارٌ مبتدأٌ أنه كان من الكافرين، وهذا التأويل أيضاً يحتمل أن يريد به كُفْرَ النعمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطي وبين رجوعه إلى فرعون نبيًّا، أحد عشر عاماً غير أشهر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

القائل هو موسى عليه السلام، والضمير في قوله: (فَعَلْتُهَا) لقتله القبطي، وقوله: (إذاً) صلة في الكلام، وكأنها بمعنى: حينئذ[1]، وقوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال ابن زيد: معناه: من الجاهلين بأنَّ وَكْزتي إيَّاه تأتي على نفسه، وقال أبو عبيدة: معناه: من النَّاسين لذلك، ونزع لقوله تعالىٰ: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾[2]، وفي قراءة ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم: [وأنا من الجاهلين]، ويشبه أن تكون هذه القراءة على جهة التفسير[3].

وقوله: [حُكْماً] يريد النبوة وحكمتها، وقرأ عيسى: [حُكُماً] بضم الحاءِ والكاف، وقوله: ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ درجة ثانية للنبوة، فرُبَّ نَبيٍّ ليس برسول.

---

(١) قال أبو حيان في (البحر) تعقيباً على كلام ابن عطية: «وليس بصلة، بل هي حرف معنى، وقوله: «وكأنها بمعنى حينئذ» ينبغي أن يجعل قوله تفسير معنى، إذ لا يذهب أحدٌ إلى أنَّ (إذاً) ترادف من حيث الإعراب (حينئذ)».

(٢) من الآية (٢٨٢) من سورة (البقرة)، وذلك أن المتأولين قالوا: إنَّ [تَضِلَّ] بمعنى «تَنْسَى» بدليل قوله تعالىٰ بعد ذلك: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾، والتَّذكير يكون للناسي.

(٣) وقال الزمخشري: «من الفاعلين فعل أولي الجهل، كما قال يوسف لإخوته: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾».

ثم حاجَّه عليه السلام في منِّه عليه بالتربية وترْك القتل بقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، واختلف الناس في تأْويل الكلام، فقال قتادة: هذا منه على جهة الإِنكار أَن تكون نعمة، كأَنه قال: أَو يَصحُّ لك أَن تعد علي نعمة ترك قتلي من أَجل أَنك ظلمتَ بني إِسرائيل وقتلتهم؟ أَي: ليست بنعمة؛ لأَن الواجب كان أَلاَّ تقتلني وأَلاَّ تقْتلهم، وأَلاَّ تستعبدني ولا تستعبدهم بالقتل ولا بالخدمة وغير ذلك. وقرأَ الضحاك: [وتلك نعمة مالَك أَن تَمُنَّها]، وهذه قراءَة تؤيد هذا التأْويل، وقال الأَخفش: قيل: الواو، أَلف الاستفهام محذوفة، والمعنى: أَوَ تلك؟ وهذا لا يجوز إِلا إِذا عادَلَتْها «أَمْ» كما قال:

تَـرُوحُ مِـنَ الْحَـيِّ أَمْ تَبْتَكِـرْ؟ .... [1]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا القول تكلُّف[2]، وقولُ موسى عليه السلام تقريرٌ بغير أَلف، وهو صحيح كما قال قتادة، والله المعين.

---

(١) القائل هو امرؤ القيس، وهذا صدر بيت من قصيدة قالها يصف فرسه وخروجه إلى الصيد، والبيت بتمامه:

تَـرُوحُ مِـنَ الْحَـيِّ أَمْ تَبْتَكِـرْ ... ومـاذَا عَلَيْـكَ بِـأَنْ تَنْتَظِـرْ؟

والرواح: السَّير في العشي، والابتكار: الخروج مبكِّراً، يقول: أتروح في آخر النهار أم تخرج مبكراً؟ ولماذا تتعجل الذهاب؟ وماذا عليك لو انتظرت، فالانتظار خير لك؟ والشاهد حذف ألف الاستفهام في (تروح)، إذ أصْلها: أَتَرُوحُ؟ والدليل هو وجود (أم) في الكلام.

(٢) قال النحاس: وهذا لا يجوز لأن ألف الاستفهام تحدث معنى، وحذفها محال إلا أن يكون في الكلام (أمْ)، ولكن الفراءَ قال: يجوز حذف ألف الاستفهام في أفعال الشك، وحكى: تُرى زيد منطلقاً؟ بمعنى: أَتُرَى، وعلَّق عليُّ بن سليمان على كلام الفراءِ بقوله: إنما أخذه من ألفاظ العامة، وقال الثعلبي حكاية عن الفراءِ: إن الآية إنكار من موسى عليه السلام على طريق الاستفهام الذي حذفت ألفه، كقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ وقوله: ﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾، وكقول الشاعر:

رفَـوْنِـي وقـالـوا يـا خُـوَيْلِـدُ لا تُـرَعْ ... فقُلْتُ وأَنْكَرْتُ الـوجـوهَ: هُـمُ هُـمُ؟

وأنشد الغزنوي شاهداً على ترك الألف قولهم:

لَـمْ أَنْـسَ يَـوْمَ الـرَّحِيـلِ وَقْفَتَهَـا ... وَجَفْنَهَـا مـن دُمُـوعهـا شَـرِقُ
وقَـوْلَهَـا والـرِّكَـابُ وَاقِفَـةٌ ... تَـرَكْتَنـي هكـذا وَتَنْطَلِـقُ؟

قال القرطبي: ففي هذا حذف ألف الاستفهام مع عدم (أمْ)، خلاف قول النحاس.

وقال السدي، والطبري: هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة، كأَنه يقول: «نعم، وتربيتك نعمةٌ عليَّ من حيث عبَّدت غيري وتركتني، ولكن ذلك لا يدفع رسالتي»[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولكلٍّ وَجْه ناحيةٌ من الاحتجاج، فالأَول ماض في طريق المخالفة لفرعون ونقْض كلامه، والثاني مُبْد مِنْ موسى عليه السلام أَنه منتصف من نفسه معترف بالحق، ومتى حصل أَحد المتجادليْن في هذه الرتبة، وكان حجيجه في ضدها غلب المنتصف بذلك، وكان قوله أَوقع في النفوس.

ولمَّا لم يُجْدِ فرعون ـ لعنه الله ـ هذا الطريق من تقريره على التربية وغير ذلك، رجع إِلى معارضة موسى عليه السلام في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فاستفهمه استفهاماً عن مجهول من الأَشياءِ، قال مكي: كما يستفهم عن الأَجناس، فلذلك استفهم بـ «ما»، وقد ورد له استفهام بـ «من» في موضع آخر[٢]، ويشبه أَنها مواطن، فأَجابه موسى عليه السلام بالصفات التي يتبيَّن السامع منها أَنه لا مشاركة لفرعون فيها، وأَنها ربوبية السمٰوات والأَرض، وهذه المجادلة من فرعون تدل على أَن موسى عليه السلام دعاه إِلى التوحيد، فقال فرعون عند ذلك: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ على معنى الإِغراءِ أَو التعجب من شنعة المقالة؛ إِذ كانت عقيدة القوم أَن فرعونَ ربُّهم ومعبودهم، والفراعنة قبله كذلك، وهذه ضلالة منها في مصر وديارنا إِلى اليوم بقية، فزاده موسى عليه السلام في البيان بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فقال فرعون حينئذ ـ على جهة الاستخفاف ـ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾. وقرأَ جمهور الناس: [أَرْسَل] على بناءِ الفعل للفاعل، فزاد موسى عليه السلام في بيان الصفات التي تُظهر نقص فرعون، وتُبيِّن أَنه في غاية البعد عن القدرة عليها، وهي ربوبية المشرق والمغرب، ولم يكن لفرعون إِلاَّ

(١) وهناك رأي ثالث قاله الضحاك، وهو أن الكلام خرج مخرج التبكيت، والتبكيت يكون باستفهام وبغير استفهام، والمعنى: لو لم تقتل بني إسرائيل لرباني أبواي، فأيُّ نعمة لك عليَّ؟ فأنت تَمُنُّ علي بما لا يجب أن تَمُنَّ به؟

(٢) هو قوله تعالىٰ: ﴿فمن ربكما يا موسى﴾؟

مُلْك مصر من البحر إلى أَسوان وأَرض الإسكندرية، وفي قراءَة ابن مسعود وأَصحابه: [رَبُّ المَشارِقِ والمَغارِبِ وما بَيْنَهُمَا].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

لما انقطع فرعون ـ لعنه الله ـ في باب الحجة رجع إلى الاستعلاءِ والتَغلب، وهذا أَبين علامات الانقطاع، فتوعَّد موسى عليه السلام حين أَعياه خطابه، وفي توعُّده بالسجن ضعف؛ لأَنه حارب طباعه مَعَه[١]، وكان ـ فيما روي ـ يفزع منه فزعاً شديداً حتى كان لا يُمسك بوله. ورُوي أَن سجنه كان أَشد من القتل، إذ كان في مطبق من الأَرض لا ينطلق منه أَبداً، وكان مخوفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه نزعة دار [. . .] إلى اليوم[٢].

وكان عند موسى عليه السلام من أَمر الله تبارك وتعالىٰ ما لا يروعه معه توعُّد فرعون، فقال موسى له على جهة التَلطُّف والطمع في إيمانه: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ يتَّضح لك معه صدقي؟ أَفكنتَ تسجنني؟[٣] فلما سمع فرعون ذلك طمع في أَن يجد أَثناءَه موضع معارضة، فقال له: ﴿فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ مِنْ يده، وكانت من عصي الجنة، وكانت عصا آدم عليه السلام، وروي أَنها كانت من ورق الريحان، وكانت عند شعيب عليه السلام في جملة عصي الأَنبياءِ عليهم السلام فأَعطاها لموسى عليه السلام عند رعايته له الغنم على صورة قد تقدم ذكرها دلَّت

---

(١) يريد أن فرعون خالف طبيعته في العنف والقتل مع موسى، ولهذا توعده بالسجن ولم يأمر بقتله مباشرة.

(٢) بين العلامتين [. . . .] كلمة غير واضحة.

(٣) قال الزمخشري: ﴿أو لو جئتك﴾ واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام، ومعناه: أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيءٍ مبين؟ وقال الحوفي: هي واو العطف دخلت عليها همزة الاستفهام للتقرير، والمعنى: أتسجنني حتى في هذه الحالة التي لا تناسب أن أُسْجَن وأنا متلبِّس بها؟

على نُبوَّة موسى، وكان لها في رأسها شعبتان، فثمَّ كان فمُ الحيَّة.

والثعبانُ أَعظم ما يكون من الحيَّات، وقد ذكرنا فيما تقدم ما روي في عظم الحيَّات وغير ذلك من قصص هذه الآية.

ونزع موسى عليه السلام يده من جيبه فإذا هي تتلألأُ كأَنها قطعة من الشمس، فلما رأَى فرعون ذلك هالَه، ولم يكن له فيه مدفع، غير أَنه فزع إِلى رميه بالسِّحر، وطمِع ـ لِعُلُوِّ علم السِّحر في ذلك الوقت وكثرته ـ أَن يكون فيه سبب لمقاومة موسى عليه السلام، فأَوهم قومه وأَتباعه أَن موسى عليه السلام ساحر، وانتصب (حَوْلَه) على الظرف وهو في موضع الحال، أَي: كائنين حوله، فالعامل فيه محذوف، والعامل فيه هو الحال حقيقة، والناصب له (قَالَ) لأَنه هو العامل في ذي الحال بواسطة لام الجرِّ، نحو مررت بهند ضاحكة.

ثم استشارهم في أَمره وأَغراهم به في قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾[(١)]، فأَشاروا عليه بتأْخير أَمره وأَمر أَخيه وجمْع السحرة لمقاومته، ورُوي أَنهم أَشاروا بسجنه، وهو كان الإِرجاءَ عندهم، «والإِرجاءُ»: التَّأْخير، ولم يشيروا بقتله لأَن حجَّته نيِّرة وضلالتهم في ربوبية فرعون مبينة، فخشوا الفتنة، وطمعوا أَن يُغلب بحجَّة تقنع العوام. و«الحاشر»: الجامع. وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وعاصم: ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾، وهو بناءٌ للمبالغة، وقرأَ عاصم أَيضاً والأَعمش: [بكل ساحر].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

اليوم هو يوم الزينة، ويقال: يوم كسر خليج النيل، فهو يوم الزينة على وجه الدهر

---

(١) قال المفسرون: أوهم قومه أنه يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره ليقوِّي تنفيرهم عنه؛ إذ من أصعب الأشياء على النفوس مفارقة الوطن الذي نبتوا فيه. وقد استأمرهم فرعون واستشارهم فيما يفعل مع موسى وذلك لما حلَّ به من الحيرة والدهشة، وانحط عن مرتبة أُلوهيته إلى مرتبة أصبح فيها يستشيرهم في أمره فيأمرونه، فصار مأموراً بعد أن كان آمراً.

بمصر، وقال ابن زيد: إن هذا الجمع كان بالإسكندرية.

وقوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ ليس معناه نتبعهم في السِّحْرِ، إنما أراد ما معناه: نتَّبعهم في نصرة ديننا وملَّتنا، والإبطال على معارضها.

وقرأ الأعرج، وأبو عمرو: ﴿أَئِنَّ لَنَا﴾ بألف الاستفهام، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وشيبة: [إن لنا] على الإيجاب، وقرأ عيسى: [نَعِم] بكسر العين.

والتقريب الذي وعدهم به فرعون هو الجاه الزائد على العطاءِ الذي طلبوه، والقرب من الملك الذي كان عندهم إلـٰهَهُم. واختلف الناس في عدد السحرة، وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم، وكانوا مجموعين من مدائن مصر وريف النيل، وهي كانت بلاد السِّحر كالفرما وغير ذلك، ومعظمهم كان من الفرما والجبال، والعصي كانت أوقار الإبل(١).

وقوله: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما القسم، فكأنهم أقسموا بعزة فرعون، كما تقول: بالله لا أفعل كذا وكذا، فكان قسمهم بعزة فرعون غير مبرور، والآخر أن يكون على جهة التعظيم لفرعون ـ إذ كانوا يعبدونه ـ والتبرُّك باسمه، كما تقول ـ إذا ابتدأت بعمل شغل ـ: باسم الله، وعلى بركة الله، ونحو هذا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

تقدم في غير هذه السورة ما ذكر الناس في عظم الحيَّة حين ألقى موسى عليه السلام عصاه، وفي هذه الآية متروك كثير يدل عليه الظاهر، وقد ذُكر في مواضع أُخر، وهو خوف موسى عليه السلام من ظهور سحرهم واسترهابهم للناس وتخييلهم في حبالهم وعصيهم أنها تسعى بقصد. ثم إن الحيَّة التي خلق الله من العصا التقمت تلك الحبال والعصي عن آخرها، وأعدمها الله تعالىٰ في جوفها، وعادت العصا إلى حالها حين أخذ

---

(١) الأوقار: جمع وِقْر وهو الحمل الثقيل ـ يقول: إن العصيَّ كانت من الكثرة بحيث لا تحملها إلا الإبل الكثيرة.

موسى عليه السلام بالفرجة التي كانت في رأسها فأدخل يده في فمها فعادت عصا بإذن الله تبارك وتعالىٰ.

وقرأ جمهور القراءِ: [تَلَقَّف] بفتح التاءِ خفيفة واللام وشد القاف، وقرأ حفص عن عاصم: (تَلْقَف) بسكون اللام وتخفيف القاف، وروى البزِّي وابن فليح(١) عن ابن كثير بشد التّاءِ وفتح اللاَّم وشدِّ القاف، ويلزم على هذه القراءَة إذا ابتدأ أَن يجلبَ همزة الوصل، وهمزةُ الوصل لا تدخل على الأفعال المضارعة، كما لا تدخل على أَسماء الفاعلين(٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: ما يكذبون معه وبسببه في قولهم: إنها معارضة موسى عليه السلام ونوع من فعله، والإفك: الكذب.

ثم إن السحرة لما رأَوا العصا خالية من صنعة السِّحر، ورأَوا فيها بَعْدُ من أَمر الله تعالىٰ ما أَيقنوا أَنه ليس في قوة البشر أَذعنوا، ورأَوا أَن الغنيمة هي الإيمان والتمسك بأَمر الله عزَّ وجلَّ، فسجدوا كلهم لله تعالىٰ مُقِرِّين بوحدانيته وقدرته، ووصلوا إلى إيمانهم بسبب موسى وهارون عليهما السلام، وصرحوا بأَن ذلك على أَيديهما؛ لأن قولهم: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني ذلك، فلم يكرروا البيان في قولهم: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ إلاَّ لما ذكرناه.

فلما رأَى فرعون والملأُ إيمان السحرة، وقامت الحجَّة بإيمان أَهل علمهم ومظنَّة نصرتهم، وقع فرعون ـ لعنه الله ـ في الورطة العظمى، فرجع إلى السحرة بهذه الحجة الأُخرى، فوقفهم مُوَبِّخاً لهم على إيمانهم بموسى قبل إذنه، وفي هذه اللفظة مفارقة عظيمة؛ لأَن أَحد احتمالاتها أَنهم لو طلبوا إذنه في ذلك أَذِنَ. ثم توعدهم بقطع الأَيدي والأَرجل من خلاف، وبالصلب في جذوع النخل، فقالوا له: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أَي: لا يضيرنا ذلك مع انقلابنا إلى مغفرة الله تعالىٰ ورضوانه(٣)، ورُوي أَنه أَنفذ فيهم ذلك

---

(١) في الأصول: «البرِّي وفليح»، والتصويب عن كتب القراءات وتفسير البحر المحيط الذي نقل عبارة ابن عطية بنصها ليعقب عليها بالتعقيب التالي.

(٢) قال في البحر المحيط تعقيباً على ذلك: «كأنه تخيل أنه لا يمكن الابتداءُ بالكلمة إلا باجتلاب همزة الوصل، وليس ذلك بلازم، وكثيراً ما يكون الوصل مخالفاً للوقف والوقف مخالفاً للوصل، ومن له تمرُّن في القراءات عرف ذلك».

(٣) يقال: لا ضَيْرَ ولا ضَوْرَ ولا ضَرَّ ولا ضَرَرَ ولا ضارورة، بمعنى واحد، وأنشد أبو عبيدة لخداش بن زهير: =

الوعيد وصلبهم على النيل، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «أَصبحوا سحرة وأَمسوا شهداءَ»، وقولهم: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد: من القبط وصنيعتهم، وإِلاَّ فقد كانت بنو إِسرائيل آمنت. وقرأَ الناس: [أَنَّا] بفتح الأَلف، وقرأَ أَبان بن تغلب: [إِنَّا] بكسر الأَلف بمعنى أَن طمعهم إِنما هو بهذا الشرط.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾.

ثم إِن الله عزَّ وجلَّ لما أَراد إِظهار أَمره في نجاة بني إِسرائيل وغرق فرعون وقومه، أَمر موسى عليه السلام أَن يخرج ببني إِسرائيل ليلاً من مصر، وأَخبره أَنهم سيُتَّبعون، وأَمره بالسير تجاه البحر، وأَمره بأَن يستعير بنو إِسرائيل حلي القبط وأَموالهم، وأَن يكثروا من أَخذ أَموالهم كيفما استطاعوا، هذا ما رواه بعض المفسرين، وأَمره باتخاذ جراءِ الزاد، فأَمره أَن اتخِذْه فطيراً لأَنه أَبقى وأَثبت، وروي أَن الحركة أَعجلتهم عن اتخاذ جراءِ الزاد، وخرج موسى عليه السلام ببني إِسرائيل سَحَراً، فترك الطريق إِلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر، فكان الرجل من بني إِسرائيل يقول له في ترك الطريق فيقول موسى عليه السلام: كذا أُمرت، فلما أَصبح فرعون وعلم بسرى موسى ببني إِسرائيل خرج في أَثرهم، وبعث إِلى مدائن مصر لتلحقه العساكر، فروي أَنه لحقه ومعه ستمائة أَلف أَدهم من الخيل حاشى سائر الأَلوان، وروي أَن بني إِسرائيل كانوا ستمائة أَلف وسبعين أَلفاً، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، والله أَعلم بصحته، وإِنما اللازم من الآية الذي يُقطع به أَن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم في بني إِسرائيل، وأَن فرعون تبعه بأَضعاف ذلك العدد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان مع فرعون أَلف جبَّار، كلهم عليه تاج، وكلهم أَمير خيل.

= فَـــإِنَّــكَ لا يَضُـــورُكَ بعْـــدَ حَـــوْلٍ أَظَبْـــيٌ كـــانَ أُمُّـــكَ أمْ حمَـــارُ
=

و«الشِّرذمة»: الجمع القليل المحتقر، وشرذمة كل شيءٍ بقيته الخسيسة، وأنشد أبو عبيدة:

* مجدِّين في شراذِمِ النِّعَالِ *

وقال الآخر:

جَـاءَ الشِّتَـاءُ وقَمِيصِـي أَخْـلاقْ ... شَـرَاذِمٌ يَضْحَـكُ مِنْهَـا التَّـوَّاقْ[(١)]

وقوله: (لَغَائِظُونَ) يريد: بخلافهم الأمر وبأخذهم المال عارية وهروبهم منهم تلك الليلة على ما روي، وقال أبو حاتم: وقرأ من لا يؤخذ عنه: [لَشِرْذَمَةٌ قَلِيلُونَ]، وليست هذه موقوفة[(٢)].

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [حَذِرُونَ]، وهو جمع (حَذِر)، وهو المطبوع على الْحَذَرِ وهو هنا غير عامل، وكذلك هو في قول ابن أحمر:

هَـلْ أُنْسَـأَنْ يَـوْمـاً إِلـى غَيْـرِهِ ... إِنِّـي حَـوَالِـيٌّ وإِنِّـي حَـذِرْ[(٣)]

واختُلف في عمل (فَعِل)؛ فقال سيبويه: إنه عامل، وأنشد:

---

(١) البيت في (اللسان ـ خَلَق وشَرْذَم) ـ عن ابن بري، وفي (تَوَقَ) عن الأصمعي، والثوب الأخلاق يصفون به الواحد إذا صار خَلَقاً كلُّه، كأن كل قطعة فيه خَلَقٌ، فجمعه باعتبار أجزائه، ومثل ذلك قولهم: «أرضٌ سَبَاسِب، وبُرْمَة أعشار، وحَبْلٌ أرمام»، والشراذم جمع شرذمة، وهي الجماعة القليلة من الناس، وثياب شراذم: أخلاق متقطعة، وثوب شراذم: قطع. ويقال: نَفْسٌ تواقة: مشتاقة، وقيل: التَّوَّاق اسم ابن الشاعر، ويروى البيت بالنون، ويكون المعنى حينئذ: الرجل الذي يروض الأمور ويصلحها، قاله في الصحاح، هذا وقد سبق الاستشهاد به.

وقال تعالىٰ: (قَلِيلُونَ) لأن كل جماعة منهم كان يلزمها معنى القلة، فلما جمع قيل: (قَلِيلُونَ)، ومثل ذلك: حيٌّ واحدٌ، وحيٌّ واحدون، قال الكميت:

فَـرَدَّ قَـوَاصِـيَ الأَحْيَـاءِ مِنْهُـمْ ... فَقَـدْ صَـارُوا كَحَـيٍّ وَاحِـدِينَـا

(٢) يعني أن هذه القراءة ليست موقوفة على أحد رواها عن رسول الله ﷺ، قال ذلك أبو حيان الأندلسي، وفي بعض الأصول: «وليست هذه موثوقة».

(٣) البيت في (اللسان ـ حَوَل)، استشهد به على أن الحواليَّ هو الجَيِّد الرأي ذو الحيلة، ونسبه لابن أحمر أيضاً، لكنه قال: (ويقال إنه للمَرَّار بن مُنْقذ العدوي)، والرواية فيه «أَوْ تَنْسَأَنْ يَوْمِي»، وابن أحمر هو عمرو بن أحمر بن الغمرَّد بن فَرَّاص، كان أعور، وعُمِّر تسعين سنة ثم سقي بطنه فمات. وابن عطية يستشهد بالبيت على أن (حَذِر) غير عامل على خلاف ما يراه سيبويه، والحَذِرُ ـ كما في اللسان ـ هو المتيقظ المتحرر الشديد الحذر والفزع.

حَـــذِرٌ أُمُـــوراً لا تَضِيــرُ وآمِـــنٌ ... مـــا لَيْسَ مُنْجِيَــهُ مِــنَ الأَقْــدَارِ[١]

وادَّعى اللاحقيُّ تدليس هذا البيت على سيبويه. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: (حَاذِرُونَ) وهو الذي أخذ يحذر[٢]، وقال عباس بن مرداس:

وإِنِّــي حَــاذِرٌ أَنْمــي سِــلاحِــي ... إِلَــى أَوْصَــالِ ذَيَّــالٍ صنيــع[٣]

وقرأ ابن أَبي عمَّار[٤]، وسُمَيْط بن عجلان: [حَادِرُونَ] بالدال غير منقوطة، من قولهم: «عيْن حَدِرة» أَي: ممتلئة، فالمعنى: ممتلئون غيظاً وأَنفة[٥].

والضمير في قوله تعالىٰ: (فَأَخْرَجْنَاهُمْ) عائد على القبط. و«الجنَّات والعيون» بحافتي النيل من أَسوان إِلى رشيد، قاله ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وغيره. و«الكُنُوز»

---

(١) استشهد سيبويه بهذا البيت على أن (حَذِر) تعمل مثل (حاذر)، وقد ذكر ذلك في اللسان، والبيت في خزانة الأدب، وفي العَيْني حيث قال: «قائله أبو يحيى اللاحقي»، وساق خبر أنه مصنوع، وأنشده ابن الشجري دون أن ينسبه، وروايته هو والعيني كما هنا: «لا تَضير»، أي: لا تَضُرُّ، ورواية الكتاب لسيبويه، واللسان: «لا تُخَافُ»، وقد رُوي عن اللاحقي أنه قال: سألني سيبويه عن شاهد في تعدِّي (فَعَل) فعملت له هذا البيتَ. وإعمالُ فَعِل وفعيل مذهب لسيبويه؛ لأنهما عنده محولان من (فاعل) المتعدي لإرادة المبالغة، فيعملان عمله قياساً على (فَعُول وفَعَّال)، وعورض سيبويه في هذا لأنهما بناءان لما لا يتعدى مثل كريم ولئيم وبَطِرٍ وأَشِرٍ. ومعنى البيت أن هذا الإنسان جاهل قليل المعرفة وأنه يحذر ما لا ينبغي أن يُحذر أو يُخاف منه، ويأمن ما لا يصح أن تُؤمن.

(٢) يريد أن يقول: إن معنى (حَذِر) متيقظ، وفي خِلْقته وطبيعته الحذر. ومعنى (حاذر) مُسْتَعِدٌّ أخذ يحذر، أي: بدأ يتعلم الحذر في المستقبل لا في قصته، وحكى النحاس عن أبي عبيدة أنهما بمعنى واحد، وهو قول سيبويه الذي استشهد عليه ببيت ابن أحمر.

(٣) العباس بن مرداس شاعر وفارس، أسلم قبل فتح مكة، وحضر مع النبي ﷺ يوم الفتح في تسعمائة ونيِّف من قومه بني سُلَيْم، وكان يرجع إلى بلاده ولا يقيم في مكة ولا المدينة. والبيت في (اللسان ـ ذَيَل)، ذكره شاهداً على أن (ذَيَّال) معناها: طويل الذَّيْل، ومعنى «أنمي سلاحي»: أزيده وأمُده، يقال: أنْميت الشيءَ ونَمَّيْته: جعلته نامياً. والأوصال: المفاصل. والذَّيَّال قد يقال للمختال المتبختر في مشيه من الخيل، وقد يقال للرجل إذا تبختر فَجَرَّ ذيله وراءه. والشاهد أن (حاذر) هنا هو الذي يأخذ في الحذر.

(٤) في الأصول: «ابن أبي عمارة»، والتصويب عن «البحر المحيط» و«القرطبي»، قال القرطبي: «حكاها المهدوي عن ابن أبي عمَّار، والماوردي والثعلبي عن سُمَيْط بن عجلان».

(٥) وقال ابن خالويه: الحادر: السمين القويُّ الشديد، يقال: غُلامٌ حدِرٌ بدِرٌ، وقال صاحب اللوامح: حَدِر الرَّجل: قوي بأسه، يقال: رجل حَدِرٌ بَدِرٌ إذا كان شديد البأس في الحرب، وقال الشاعر:

أُحِــبُّ الصَّبِــيَّ السُّــوءَ مِــنْ أجْــلِ أُمِّــهِ ... وأبغضُــهُ مِــنْ بُغْضِهَــا وهــو حَــادِرُ

قيل: هو إشارة إلى الأموال التي خربوها، قال مجاهد: لأنهم لم ينفقوها قط في طاعة، وقيل: هي إشارة إلى كنوز المقطَّم ومطالبه، وهي باقية إلى اليوم. و«المقام الكريم» قال ابن لَهيعَة: هو الفيُّوم، وقيل: يعني به المنابر، وقيل: مجالس الأُمراءِ والحكام، وقال الحسن: المجالس الحسان، وقرأ الأعرج وقتادة بضم الميم، من: أَقام[(١)].

وتوريث بني إسرائيل يحتمل مقصدين: أحدهما أَن الله قد ورَّثهم هذه الضفة من أَرض الشام، والآخر أَنه ورَّثهم مصر ولكن بعد مدة طويلة من الدهر، قاله الحسن، على أَن التواريخ لم تتضمن ملك بني إسرائيل في مصر، و[مُشْرِقين] معناه: عند شروق الشمس، أَي: حين دخلوا فيه، وقيل: معناه: نحو الشرق، وقرأ الحسن: [فاتَّبَعُوهُم] بصلة الأَلف وشدِّ التاءِ[(٢)].

فلما لحق فرعونُ بِجَمْعه جمْعَ موسى عليه السلام وقُرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدوَّ القويَّ وراءَهم والبحر أَمامهم ـ ساءَت ظنونهم، وقالوا لموسى عليه السلام ـ على جهة التَّوبيخ والجفاءِ ـ: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، أَي: هذا دأْبك، فردَّ عليهم قولهم وزَجرهم، وذَكر وعْد الله تبارك وتعالىٰ له بالهداية والظَّفر. وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، وقرأ الأَعرج وعبيد بن عمير: [إناَ لمُدَّرَكُون] بتشديد الدال وفتح الرَّاءِ[(٣)]، ومعناه: يُتَتَابع علينا حتى نفنى. وقرأ حمزة والكسائي: [ترىء الجمعان] بكسر الراءِ وبمدٍّ ثُمَّ بِهَمْزٍ، ورُوي مثله عن عاصم، ورُوي أَيضاً عنه مفتوحاً ممدوداً. والجمهور يقرؤُونه مثل

---

(١) المَقام ـ بالفتح ـ يكون الموضع، ويكون مصدراً وهو من: قام يقوم. والمُقام ـ بالضم ـ يكون أيضاً الموضع والمصدر، وهو من: أقام يُقيم.

(٢) في الأصول: «بصلة الألف وسكون التاء»، والتصويب عن البحر المحيط، وهي أيضاً قراءَة الذماري.

(٣) الذي في الأصول أن هذه القراءة بفتح الدال وشد الراء، أي: [لَمُدَرَّكُون]، والتصويب عن القرطبي، والبحر المحيط، والمحتسَب، وكتب القراءات، وهي أيضاً قراءة الزهري، وهي من ادَّركَ، ووزنها (مُفْتَعلون)، وقال الفراءُ في معاني القرآن: «كما تقول: حَفَرت واحْتفرت بمعنى واحد، فكذلك [لَمُدَّركون] و[لَمُدركون] معناهما واحد، والله أعلم». وعلّق النحاس على كلامه فقال: وليس كذلك يقول النحويون الحذَّاق، إنما يقولون: مُدْركون: مُلْحقون، ومُدَّركون: مجتهد في لحاقهم. والذي يعيننا هو الضبط الصحيح للقراءة، ونعتقد أن النساخ قد كثر منهم الخطأ في ضبط القراءات وفي كثير من الكلمات في هذا الجزء بالذات، ونحن نحاول التصويب عن كتب القراءات وكتب التفسير ودواوين الشعر، والله الموفق والمعين.

(تَراعَى)، وهذا هو الصواب؛ لأنه تفاعل، قال أَبو حاتم: «وقراءَة حمزة في هذا الحرف محال»، وحَمَل عليه وقال: «وما رُوي عن ابن وثاب والأَعمش خطأٌ»[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾.

لما عظم البلاءُ على بني إِسرائيل، أَمر الله تبارك وتعالىٰ موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر؛ وذلك أنه عزَّ وجلَّ أَراد أَن تكون الآية متَّصلة بموسى عليه السلام، ومتعلقة بفعلٍ فَعَله، وإِلاَّ فَضَرْبُ العصا ليس بفالق البحر ولا مُعين على ذلك بذاته، إِلاَّ بما اقترن به من قدرة الله تعالىٰ واختراعه، ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقاً على عدد أَسباط بني إِسرائيل، ووقف الماءُ بينها كالجبل العظيم. و«الطَّوْدُ»: الجبل[٢]، ورُوي عن ابن جريج والسّدي وغيرهما أَن بني إِسرائيل ظن كل فريق منهم

---

(١) قال ابن خالويه في كتابه (الحجة في القراءات السبع): «الخُلف في الوقف عليه، فوقف حمزة [تَرِي] بكسر الراءِ ومدٌّ قليل؛ لأن من شرطه حذف الهمزة في الوقف، فكان المد إشارة إليها ودلالة عليها، ووقف الكسائي بالإمالة والتمام، ووقف الباقون بالتفخيم والتمام على الأصل، فإن كانت الهمزة للتأنيث أُشير إليها في موضع الرفع وحذفت في موضع النصب». وقال الدانيُّ: «حمزة قرأ بإمالة فتحة الراءِ في الوصل، وإذا وقف أتبعها الهمزة فأمالها مع جعلها بَيْن بَيْن على أصله، فتصير بين أَلِفَيْن مُمَالَتَين: الأولى أُميلت لإمالة فتحة الراء، والثانية أُميلت لإمالة فتحة الهمزة». وقال الأستاذ أبو جعفر أحمد بن الأستاذ أبي الحسن بن الباذش في كتابه (الإقناع): «إذا وقف عليها حمزة والكسائي أمالا الألف المنقلبة عن لام الفعل، وحمزة يُميل ألف تفاعل وصلاً ووقفاً لإمالة الألف المنقلبة، ففي قراءته إمالة الإمالة، وفي هذا الفعل، وفي (رَاءَى) إذا استقبله ألف وَصْل لمن أمال للإمالة حَذْف السبب وإبقاءُ المسبب».

وبهذا يتضح لنا حقيقة قراءة حمزة التي حمل عليها أبو حاتم، وأفاد كلام ابن عطية أنها خطأ.

(٢) ومنه قول امرىء القيس:

فَبَيْنَـا المَـرْءُ فـي الأَحْيَـاءِ طَـوْدٌ ... رَمـاه النَّـاسُ عَـنْ كَثَـبٍ فَمَـالا

وقول الأسود بن يعفُر:

حَلُّـوا بـأَنْقِـرَةٍ يَسِيـلُ عَلَيْهِـمُ ... مَـاءُ الفُـراتِ يَجِـيءُ مِـن أَطْـوَادِ

أَن الثاني قد غرق، فأَمر الله تعالىٰ الماءَ فصار كالطِّيقان، فرأَى بعضهم بعضاً فتأَسوا[١].

(وَأَزْلَفْنَا) معناه: قربنا، وقرىء بالقاف، ونسبها أَبو الفتح إِلى عبد الله بن الحارث[٢]، وقرأَ الحسن وأَبو حيوة: [وَزَلَفْنَا] بغير أَلف، وذلك أَن فرعون ـ لعنه الله تعالىٰ ـ لما وصل إِلى البحر وقد دخله بنو إِسرائيل، قيل: صمَّم وقال لقومه: إِنما انفلق بأَمري، فدخل على ذلك. وقيل: بل كعَّ[٣] وهمَّ بالانصراف، فعرض جبريل عليه السلام على فرسٍ وَدِيقٍ[٤]، فمضى وراءَهَا حصان فرعون، فدخل على نحو هذا واتَّبعه الناسُ، ورُوي أَن الله تعالىٰ جعل ملائكة تسوق قومه حتى حصلوهم في البحر. ثم إِن موسى عليه السلام وقومه خرجوا إِلى البر من تلك الطرق، ولما أَحَسُّوا باتباع فرعون وقومه فزعوا من أَن يخرج وراءَهم، فهَمَّ موسى عليه السلام بخلط البحر، فحينئذ قيل له: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾[٥]، ولما تكامل جند فرعون، وهَمَّ مقدمتهم بالخروج انطبق البحر عليهم وغرقوا. ودخل موسى عليه السلام البحر بالعرض وخرج في الضفة التي دخل منها بعد مسافة، وكان ذلك في يوم عاشوراءِ. وقال النقاش: البحر الذي انفلق لموسى عليه السلام نهر النيل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا مردود إِن شاءَ الله تعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ تنبيه على موضع العبرة. وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أَي: عزَّ في نقمته من الكفار، ورحم المؤمنين من الأُمة، وقد مضى كثير مما يلزم ذكره من قصة موسى عليه السلام.

---

(١) يريد: تأَسَّى كل فريق منهم بالآخر، أي: اتَّخذه أُسوة واقتدى به في عبور البحر.

(٢) قال أبو الفتح في كتابه «المحتسب» بعد أن نسب القراءة إلى عبد الله: «مَنْ قرأ: (وَأَزْلَفْنَا) بالفاءِ، فالآخرون موسى عليه السلام وأصحابه، ومن قرأها بالقاف فالآخرون فرعون وأصحابه، أي: أهلكنا ثمَّ الآخرين، أي: فرعون وأصحابه».

(٣) كعَّ: جَبُنَ وضعف، يقال: كعَّ كعّاً وكُعُوعاً فهو كعٌّ وكاعٌّ. (المعجم الوسيط).

(٤) يعني أنها فرسٌ استسلمت لحصان فرعون، بأن قربت منه، وأمكنته منها، واستأنست. له، وفي المَثَل: «وَدَقَ العَيْر إلى الماءِ» أي: دنا منه، يضرب لمن خضع للشيءِ. (راجع الصحاح والمعجم الوسيط).

(٥) من الآية (٢٤) من سورة (الدخان).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾.

هذه القصة تضمنت الإعلام بغيب، والإتيان بما يقطع أن محمداً ﷺ لم يكن يعرفه، ثم ظهر على لسانه في ذلك ما في الكتب المتقدمة. وليست هذه الآية مثالاً لقريش في أمر الأصنام فقط، لأنه ليس فيها تكذيب وعذاب. وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ استفهامٌ بمعنى التقرير، والصَّنم ما كان من الأوثان على صورة بني آدم، كان من حجر أو عود أو غير ذلك. و«ظَلَّ» عرفها في فعل الشيء نهاراً، و«بات» عرفها في فعله ليلاً، و«طفق» عامة للوجهين، ولكن قد يجيءُ «ظَلَّ» بمعنى العموم، وهذا الموضع من ذلك. و«العُكوفُ»: اللُّزوم، ومنه المعتكف، ومنه قول الراجز:

. . . . عَكْفَ النَّبِيطِ يَلْعَبُونَ الْفَنْزَجَا[1]

ثم أخذ إبراهيم عليه السلام يوقفهم على أشياءَ يشهد العقل أنها بعيدة عن صفة الإلـه. وقرأ الجمهور بفتح الياءِ من ﴿يَسْمَعُونَكُمْ﴾، وقرأ قتادة بِضَمِّها وكسر الميم، من أَسمع، والمفعول ـ على هذه القراءَة ـ محذوف[2]. وقرأ جمهور القراءِ: ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ بإدغام الدال في التاءِ بعد القلب، ويجوز فيه قياس (مُذَّكر)، ولم يقرأ به أحد، والقياس أن يكون اللفظ به «إِذْ دَّعون»، والذي منع من هذا اللفظ اتصال الدال

(١) هذا شطر بيت قاله العجاج الراجز، وهو في (اللسان ـ عَكَفَ)، قال: «عَكَفَ على الشيء يعكُف ويعكِف عكْفاً وعُكُوفاً: أقبل عليه مواظباً لا يصرف عنه وجهه، وقيل: أقام، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: مُقيماً، يقال: فلانٌ عاكف على فرْج حرام. قال العَجَّاج يصف ثوراً:

فَهُــنَّ يَعْكُفْــنَ بِــهِ إذَا حَجَــا عَكْـفَ النَّبِيـطِ يَلْعَبُـونَ الْفَنْـزَجَـا

أي: يقبلن عليه». وحَجَا: وَقَفَ. والنَّبِيط: جيلٌ ينزلون السَّواد من العراق، وهم الأنباط. والفَنْزَجَةُ والفَنْزَج: النَّزَوان، وقيل: هو اللعب الذي يقال له: الدَّسْتَبَنْد، وهو رقص المجوس إذا أخذ بعضهم يد بعض وهم يرقصون.

(٢) تقديره: هل يُسمِعونكم الجوابَ أو الكلامَ؟

الأَصلية في الفعل فكثرت التماثلات[١].

وقولهم: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أَقبح وجوه التقليد؛ لأَنه على ضلالة، وفي أَمْر بيِّنٍ خلافُه، وعظيمٍ قدرُه، فلما صرحوا لإبراهيم عليه السلام عن عظم ذلك وعدم نظرهم، وأَنه لا حجة لهم، خاطبهم ببراءَته من جميع ما عُبد من دون الله عزَّ وجلَّ وعداوته له، وعبَّر عن بغضته واطِّراحه لكل معبود سوى الله تعالىٰ بالعداوة؛ إِذ هي تقتضي التفسير، وقيل: في الكلام قلْبٌ؛ لأَن الأَصنام لا تُعادِي وإِنما هو عاداها[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قالت فرقة: هو استثناءٌ متصل؛ لأَن في الآباءِ الأَقدمين مَنْ قَدْ عبد من دون الله تبارك وتعالىٰ، وقالت فرقة: هو استثناءٌ منقطع؛ لأَنه إِنما أَراد عبادة الأَوثان من كل قرن منهم، ولفظة (عَدُوّ) تقتضي الجمع والمفرد والمؤنث.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾
وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا
وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾
وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

أَثنى إِبراهيم عليه السلام على الله تعالىٰ بهذه الأَوصاف التي وصف اللهَ تعالىٰ بها، والمتصف بها يستحق الأَوصاف الفعلية التي تخصّ البشر. و﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ بقدرته

---

(١) علّق أبو حيان على ذلك بقوله: «وهذا الذي ذكرَ أنه يجوز فيه قياس (مذّكر) لا يجوز؛ لأن ذلك الإبدال ـ وهو إبدال التاء دالاً ـ لا يكون إلا في (افْتَعل) مما فاؤه ذالٌ أو زايٌ أو دالٌ، نحو: إذْ دكر، وازْدَجر، وادَّهن، أصله: اذْتَكَر، وازْتَجر، وادْتَهن، أو جيم شذوذاً، قالوا: إجْدَمَع في اجتمع. ومن تاء الضمير بعد الزاي والدال، ومثلوا بتاءِ الضمير للمتكلم، فقالوا في فُزْت: فُزْدُ، وفي جَلَدْتُ: جَلَدُّ. ومن تاء تُولج شذوذاً، قالوا: دولج. وتاءُ المضارعة ليست شيئاً مما ذكرناه فلا تبدل تاؤه. وقول ابن عطية: (والذي منع من هذا اللفظ... إلخ) يدل على أنه لولا ذلك لجاز إبدال تاء المضارعة دالاً وإدغام الذال فيها، فكنت تقول في اذتخرج: ادَّخرج، وذلك لا يقوله أحد، بل إذا أُدغم مثلُ هذا أُبدل من الذال تاءً وأُدغم في التاء فتقول: اتّخرج». (البحر المحيط ٧ـ٢٣).

(٢) قال بعض العلماء: «لا ضرورة تدعو إلى ذلك، ألا ترى إلى قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ فهذا معنى العداوة، ولأن المغري على عداوتها عدوُّ الإنسان وهو الشيطان».

﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي: يرشدني إلى طاعته، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ تجديد للنعمة في الرزق، وقال أبو بكر الورّاق في كتاب الثعلبي: «المعنى: يطعمني بلا طعام، ويسقيني بلا شراب، كما قال النبي ﷺ: «إنِّي أَبِيت عند ربِّي يطعمني ويسقيني»[١]. وأَسند إبراهيم عليه السلام المرض إلى نفسه، والشفاءَ إلى الله عزَّ وجلَّ، وهذا من حسن الأدب في العبارة، والكل من عند الله، وهذا كقول الخضر عليه السلام: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾[٢]. وقال جعفر الصادق: إذا مرضتُ بالذنوب، شفاني بالتوبة. وقرأ الجمهور هذه الأفعال: [يَهْدِينِ ـ يَسْقِينِ ـ يَشْفِينِ ـ يُحْيِينِ] بغير ياءٍ، وقرأ نافع وابن إسحاق: [يَهْدِينِي] بالياءِ، وكذلك ما بعده.

وأَوقف إبراهيم عليه السلام نفسه على الطمع في المغفرة، وهذا دليل على شدة خوفه مع منزلته وخلّته. وقوله: (خَطِيئَتِي) ذهب فيه أكثر المفسرين إلى أنه أراد كذباته الثلاث: قوله: «هي أُخْتي» في شأْن سارة، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[٣] وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾[٤]، وقالت فرقة: أراد بالخطيئة اسم الجنس، قدرها في كل أمره من غير تعْيين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا أَظهر عندي؛ لأن تلك الثلاث قد خرَّجها كثير من العلماءِ على المعاريض، وهي ـ وإن كانت كذبات بحكم قول النبي ﷺ: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلاَّ ثلاث كذبات»[٥]، وبحكم ما في حديث الشفاعة من قوله في شأْن إبراهيم عليه

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، والدارمي، والإمام أحمد، ولفظه كما في سنن الدارمي عن أبي هريرة: «قال: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال، فقال له رجل من المسلمين: فإنك تُواصل، قال رسول الله ﷺ: إنِّي لستُ مثلكم، إنِّي أبيت يطعمني ربِّي ويسقيني، فلما أَبَوْا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يوماً ثم يوماً ثم رأوا الهلال، فقال: لو تأخَّر لزدتكم، كالمنكِّل لهم حين أبَوْا أن ينتهوا».

(٢) نسب العيبَ إلى نفسه في هذه الآية، ونسب الخير إلى الله في قوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾، الآيتان (٧٩)، (٨٢) من سورة (الكهف).

(٣) من الآية (٨٩) من سورة (الصافَّات).

(٤) من الآية (٦٣) من سورة (الأنبياء).

(٥) أخرجه البخاري في الأنبياء والنكاح، ومسلم في الفضائل، وأبو داود في الطلاق، والترمذي في تفسير سورة الأنبياء، وأحمد ٢ـ٤٠٣، ولفظه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: قوله حين دعي إلى آلهتهم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله=

السلام: نفسي نفسي، وذَكر كذباته[١] ـ فهي في مصالح وعون شرع وحق. وقرأَ الجمهور: (خَطِيئَتِي) بالإِفراد، وقرأَ الحسن: [خَطَايَايَ] بالجمع.

و«الحُكْمُ» الذي دَعَا به إِبراهيم عليه السلام هو الحكمة والنبوة، ودعاءُ إِبراهيم عليه السلام في مثل هذا هو في معنى التثبيت والدوام. و«إِلحاقه بالصالحين»: توفيقه لعمل ينتظمه في جملتهم أَو يجمع بينه وبينهم في الجنة، وقد أَجابه تبارك وتعالىٰ حيث قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[٢]. و«لِسَانُ الصِّدْق» هو الثناءُ وتخليد المكانة بإِجماع من المفسرين، وكذلك أَجاب الله دعوته، فكلُّ ملَّة تتمسَّك به وتُعظِّمه، وهو على الحنيفية التي جاءَ بها محمد ﷺ. قال مكِّيٌّ: وقيل: معنى سؤاله أَن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق فأُجيبت الدعوة في محمد ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا معنى حسن، إِلاَّ أَن لفظ الآية لا يعطيه إِلاَّ بتحكُّم في اللفظ.

= لسارة: إنها أُختي، قال: ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة، فقيل: دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس، قال: فأرسل إليه المِلك أو الجبار: من هذه معك؟ قال: أُختي، قال أَرسل بها، فأرسل بها إليه وقال لها: لا تكذِّبي قولي، فإني قد أخبرته أنك أُختي، إنْ على الأرض مؤمن غيري وغيرك، قال: فلما دخلت إليه قام إليها، قال: فأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط عليَّ الكافر، قال: فغطَّ حتى ركض برجله...» إلخ الحديث.

(١) أخرجه البخاري، والترمذي، وأحمد، وهو حديث طويل رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن الشفاعة، وفيه: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيِّد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مِمَّ ذلك؟ يُجْمع الله عز وجل الناس الأوَّلين والآخرين في صعيد واحد، يُسْمِعهم الداعي وَيَنْفُذُهم البصر وتدنو الشمس، فيبلغ الناسَ من الغمِّ والكرْب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناسُ: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربِّكم؟»... فيذهبون إلى آدم، ثم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم... «فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات ـ فذكرهن أبو حيان في الحديث ـ نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى»... وهكذا حتى ينتهي بهم الموقف إلى رسول الله ﷺ، قال: «فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي عزَّ وجلَّ... إلخ الحديث»... فَيَشْفَع وَيُشَفَّع، ﷺ.

(٢) من الآية (١٣٠) من سورة (البقرة)، وتكررت في الآية (١٢٢) من سورة (النحل)، وفي الآية (٢٧) من سورة (العنكبوت).

ولما فرغ من مطالب الدنيا طلب سعادة الآخرة وهي جنَّة النَّعيم، وشبهها بما يورث، قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾[(١)]، واستغفاره لأبيه في هذه الآية هو قبل أَن يتبيَّن له بموته على الكفر أَنَّه عدوٌّ له، أَي محتوم عليه، وهو عن الموعدة المذكورة[(٢)]. وقرأَ أُبيُّ بن كعب: [واغفِرْ لأَبويَّ إنهما كانا من الضالِّين].

﴿وَلَا تُخْزِنِى﴾ إما من الخِزْي وهو الهوان، وإما من الخزاية وهي الحياءُ، والضمير في (يُبْعَثُونَ) ضمير العباد لأَنه معلوم، أَو ضمير الضَّالين، ويكون من جملة الاستغفار.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

(يَوْمَ) بدل من الأَول في قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، والمعنى: يوم لا تنفع أَعلاق الدنيا ومحاسنها[(٣)]، فقصد من ذلك الذكرِ العظيمَ والأَكْثَرَ؛ لأَن المال والبنين هما زينة الحياة الدنيا، والظاهر أَن الاستثناءَ منقطع، أَي: لكن من أَتى الله بقلب سليم ينفعه سلامة قلبه، وقوله: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ معناه: خالص من الشِّرك والمعاصي وعلق الدنيا المتروكة وإِن كانت مباحة كالمال والبنين، قال سفيان: هو الذي يلقى ربَّه وليس في قلبه شيءٌ غيره.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا يقتضي عموم اللفظة، ولكن السليم من الشِّرك هو الأَهم، وقال جنيد: بقلب لديغ من خشية الله، و«السليم»: اللديغ.

(وَأُزْلِفَتْ) معناه: قربت، و«الغاوون الذين بُرِّزت لهم الجحيم» هم المشركون، بدلالة أَنهم خوطبوا في أَمر الأَصنام، والقول لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾

---

(١) الآية (٦٣) من سورة (مريم).

(٢) في قوله تعالىٰ في الآية (١١٤) من سورة (التوبة): ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

(٣) العِلْق: النَّفيس من كل شيءٍ يتعلق به القلب، والجمع: أعلاق.

هو على وجه التقريع والتوبيخ والتوقيف على عدم نظرتهم نحوه. وقرأ الأعمش: [فَبُرِّزَت] بالفاءِ، والجمهور بالواو[1]. وقرأ مالك بن دينار: [وَبَرَزَت] بفتح الباءِ والتخفيف ورفع (ٱلْجَحِيم).

ثم أخبر عن حال يوم القيامة من أن الأصنام تُكَبْكَب في النَّار، أَي تُلْقَى كَبَّةً واحدة، ووصل بها ضمير من يعقل من حيث ذكرت بالعبادة، وكادت تسند إليها أفعال من يعقل. والضمير في قوله: (هُمْ) يعود على الكفار، و(ٱلْغَاوُونَ): الشياطين. و«كُبْكِبَ» مضاعف من «كَبَّ»، هذا قول الجمهور، وهو الصحيح؛ لأَن معناهما واحد، والتضعيف بيِّن، مثل: صرَّ وصرصر، وغير ذلك. و(ٱلْغَاوُونَ): الكفرة الذين شملتهم الغواية. و﴿جنود إبليس﴾: نَسْلُه وكلُّ من تبعه لأنهم جنْدٌ له وأَعوان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

ثم وصف تعالىٰ أَن أَهل النار يختصمون فيها ويتلاومون، ويأْخذون في شأْنهم بجدال. ومن جهلهم قولهم لأَصنامهم ـ على جهة الإِقرار وقول الحقِّ ـ: قسماً بالله إِن كنَّا لفي ضلال مبين في أَن نعبدكم ونجعلكم سواءً مع الله تعالىٰ الذي هو ربُّ العالمين وخالقهم ومالكهم، ثم عطفوا يردُّون الملامة على غيرهم، أَي: ما أَضلَّنا إِلا كبراؤُنا وأَهل الحزم والجرأَة والمكانة، ثم قالوا ـ على جهة التلهف والتأَسف ـ حين رأَوا شفاعة الملائكة والعلماءِ والأَنبياءِ نافعة في أَهل الإِيمان عموماً، وشفاعة الصديق في صديقه خاصة: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾، وفي هذه اللفظة تنبيه على محلِّ الصديق من المرءِ. قال ابن جريج: (شَافِعِينَ) من الملائكة، و(صَدِيقٍ) من الناس.

(١) قراءة الأعمش بالفاء تجعل تبريز الجحيم بعد تقريب الجنة مباشرة، وذلك لأن الفاءَ للترتيب والتعقيب، أما الواو فلمطلق الجمع فيمكن أن يكون كل واحد منهما قد ظهر قبل الآخر، وقراءة الفاء تدل على تقديم الرحمة على العذاب، وهو حسن لولا أن جمهور القراء قرأ بالواو، وهو رسم المصحف. (قاله في البحر المحيط).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولفظة «الشفيع» تقتضي رِفعة مكانة عند المشفوع عنده، ولفظة «الصديق» تقتضي شدة مساهمة ونصرة، وهو (فعيل) من صدق الودِّ من أبنية المبالغة(١).

و«الحميم»: الوَلِيُّ والقريب الذي يخصك أمره ويخصه أمرك، وجامعة الرجل خاصته، وباقي الآية بيِّن قد مضى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الآياتُ من قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ هي عندي منقطعة من كلام إبراهيم عليه السلام، وهي إخبارٌ من الله عزَّ وجلَّ تعلق من صفة اليوم الذي وقف إبراهيم عليه السلام عنده في دعائه ألاّ يخزى(٢).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

---

(١) نقل ابن عطية هذا الكلام عن ابن جريج، وللكلام بقية منها: «ونفي الشفعاء والصديق يحتمل أن يكون نفياً لوجودهم إذ ذاك، وهم موجودون للمؤمنين، إذ تشفع الملائكة، ويتصادق المؤمنون، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾، أو ذلك على حسب اعتقادهم في معبوداتهم أنهم شفعاؤهم عند الله، وأن لهم أصْدِقَاء من الإنس والشياطين، فقصدوا بنفيهم نفي ما يتعلق بهم من النفع؛ لأن ما لا ينفع، حكمه حكم المعدوم، فصار المعنى: فما لنا مِنْ نفع من كنا نعتقد أنهم شفعاء وأصدقاء».

(٢) ناقض أبو حيان، ابن عطية، في كلامه هذا فقال: «كان ابن عطية قد أعرب ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ﴾ بدلاً من ﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وعلى هذا لا يتأتى هذا الذي ذكره؛ لأنه يفكك الكلام ويجعل بعضه من كلام إبراهيم وبعضه من كلام الله تعالىٰ. لأن العامل في البدل ـ على مذهب الجمهور ـ فعل آخر من لفظ الأول، أو الأول، وعلى كلا التقديرين لا يصح أن يكون من كلام الله تعالىٰ؛ إذ يصير التقدير: «ولا تخزني يوم لا ينفع مال ولا بنون»».

فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

أَسند (كَذَّبَتْ) إلى «القوم» وفيه عدم التأنيث، من حيث «القوم» في معنى الأُمة والجماعة[١]. وقوله: (ٱلْمُرْسَلِينَ) من حيث إنَّ من كذَّب نبيًّا واحداً فقد كذَّب جميع الأَنبياءِ؛ إِذ قولهم واحد، ودعوتهم سواءٌ، وقوله تعالىٰ: (أَخُوهُمْ) يريد: في النسب والمنشأ، لا في الدين، و(أَمينٌ) معناه: على وحي الله تعالىٰ ورسالته، يريد: في المنشأ.

وقرأَ ابن كثير، وعاصم[٢]: [أَجْرِي] ساكنة الياءِ، وقرأَ نافع، وأَبو جعفر، وشيبة بفتح الياءِ في كل القرآن، ثم ردَّد عليهم الأَمرَ بالتقوى والدعاءِ إِلى الطاعة تحذيراً ونذارة وحرصاً عليهم، فذهب أَشرافهم إِلى استنقاص أَتباعه بسبب صغر الناس الذين اتبعوه وضعفائهم، وهذا كقول قريش في عمَّار بن ياسر، وصهيب، وغيرهما. وقال بعض الناس: (ٱلْأَرْذَلُونَ): الحاكة والحجّامون والأَساكفة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي على جهة المثال، أَي: أَهل الصنائع الخسيسة، لا أَن هذه الصنائع المذكورة خصت بهذا. و(ٱلْأَرْذَلُونَ): جمع الأَرذل، ولا يستعمل إِلاَّ مُعرفاً أَو مضافاً، أَو بمن، ويظهر من الآية أَن مراد قوم نوح بنسبة الرذيلة إِلى المؤمنين تهجين أَفعالهم، لا النظر في صنائعهم، ويدل على ذلك قول نوح: ﴿وَمَا عِلْمِى﴾ الآية؛ لأَن معنى كلامه: ليس في نظري وعلمي بأَعمالهم ومعتقداتهم فائدة، فإِنما أَقنع بظاهرهم واجتزىء به، ثم حسابهم على الله تبارك وتعالىٰ، وهذا نحو ما قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أَن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إِلـٰه إِلا الله... الحديث بجملته»[٣].

---

(١) وقيل: (قوم) مؤنث مجازي، ويصغر قُوَيمة، فلذلك جاء ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾، ولما كان مدلوله أفراداً ذكوراً عقلاءَ عاد الضمير عليه كما يعود على الجمع المذكَّر العاقل.

(٢) لعلَّ هذه القراءة عن عاصم برواية أبي بكر، وإلا فإن قراءة عاصم برواية حفص هي (أَجْرِيَ) بفتح الياء، كما هي ثابتة في المصحف.

(٣) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، وأحمد في مسنده، ولفظه كما في البخاري في كتاب الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أُمرت أن أُقاتل النَّاس حتى يشهدوا أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءَهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله».

وقرأ جمهور الناس: (وَٱتَّبَعَكَ) على الفعل الماضي، وقرأ ابن السميفع اليماني، وسعيد بن أبي سعيد الأنصاري: [وَأَتْبَاعُكَ] على الجمع، ونسبها أبو الفتح إلى ابن مسعود، والضحاك، وطلحة، قال أبو عمرو: وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنهما، والأعمش، وأبي حيوة[١]. وقرأ عيسى بن عمر الهمذاني: [لو يَشْعُرون] بالياءِ من تحت، وقرأ الجمهور: (تَشْعُرُونَ) بتاءِ الخطاب. وإعراب قوله: [وَأَتْبَاعُكَ] إما جعله في موضع الحال، وإما عطف على الضمير في قوله: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾، وحسَّن ذلك الفصلُ بقوله: (لَكَ)[٢].

وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ يحتمل أن يريد: بالحجارة، ويحتمل أن يريد: بالقرآن والشتم ونحوه وهو شبيه برجم الحجارة، وهو من الرجم بالغيب والظن ونحو ذلك. وقوله: [ٱفْتَحْ] معناه: احكم، والفتَّاح: القاضي بلغة يمنية، و(ٱلْفُلْكُ): السفينة، وجمعها فُلْكٌ أيضاً، وقد تقدم بسط القول في هذا الجمع في سورة الأعراف. و(ٱلْمَشْحُون) معناه: المملوءُ بما ينبغي له من قدر ما يحمل، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً
تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

(عَادٌ): قبيلة، وانصرف للخفة، وقيل: هو اسم أبيهم. وخاطبهم هود عليه السلام

---

(١) قال أبو الفتح في المحتسَب: «تحتمل هذه القراءة ضربين من القول مختلفي الطريق إلا أنهما متفقا المعنى: أحدهما أن يكون أراد: أنؤمن لك وإنما أَتْبَاعُك الأرذلون؟ فـ[أَتْبَاعُك] مرفوع بالابتداءِ، و[الأَرْذَلُونَ] خبر، والآخر أن يكون [أَتْبَاعُكَ] معطوفاً على الضمير في [أَنُؤْمِنُ]، أي: أنؤمن لك نحن و[أَتْبَاعُكَ] الأرذلون، فـ[الأرذَلُون] وصفٌ للأتباع». وقد نقل ابن عطية خلاصة لهذا.

(٢) فصار طول الكلام به كالعوض من توكيد الضمير بقوله: نحن، وذلك أن العِوَض ينبغي أن يكون في شِقِّ المعوَّض منه، وأن يكون قبل حرف العطف، وهذه هي صورة قوله: [لَكَ].

بمثل مخاطبة سائر الرُّسل، ثم كلمهم فيما انفردوا به من الأفعال التي اقتضتها أعمالهم، فقال: (أَتَبْنُونَ) على جهة التوبيخ، و«الرِّيعُ»: المرتفع من الأَرض، ومنه قول المسيَّب ابن علس يصف طريقاً:

فــي الآلِ يخْفِضُهَــا ويَــرْفَعُهَــا ... رِيــعٌ يَلُــوحُ كــأَنَّــهُ سَحْــلُ(١)

والسَّحْل: الثوب الأَبيض،

ومنه قول ذي الرُّمَّة:

طِرَاقُ الْخَـوَافِـي مُشْـرِقٌ فـوْقَ رِيعَـةٍ ... نـدَى لَيْلِـهِ فـي رِيشِـهِ يَتَـرَقْـرَقُ(٢)

ومنه قول الأعشى:

ويَهْمَــاءُ قَفْــرٍ تَجَــاوَزْتُهَــا ... إِذَا خَــبَّ فــي رِيعِهَــا آلُهَــا(٣)

ويقال: (رِيعٌ) بكسر الراءِ، ويقال: [رَيْعٌ] بفتحها، وبها قرأَ ابن أَبي عبلة، وعبَّر بعض المفسرين عن «الرِّيع» بالطريق، وبعضهم بالفَجِّ، وبعضهم بالثَّنِيَّة الصغيرة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وجملة ذلك أَنَّه المكان المشرق، وهو الذي يتنافس الناس في هيآته. و«الآية»:

---

(١) المسيَّب (بفتح الياءِ المشدَّدة)، و(عَلَس) بفتحتين، اسمه: زهير بن عَلَس بن مالك، والمسيَّب لَقَب لُقِّب به ببيت قاله. وهو من شعراء بكر بن وائل المعدودين، وخال الأعشى، والبيت في (اللسان رَيَع)، قال: الرِّيع والرِّيْعُ: الطريق المنفرج عن الجبل (عن الزجاج)، وفي الصحاح: الطريق، ولم يقيد، ومنه قول المسيَّب، شبَّه الطريق بالسَّحْل، وهو الثوب الأبيض.

(٢) البيت في (اللسان ـ رَيَع) وفي (طَرَقَ) أيضاً، واستشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن. وطائر طِراقُ الريش: إذا ركب بعضُه بعضاً، والخوافي: ما تحت القوادم في الطائر من الريش. والقوادم: جمع قادمة وهي أربع ريشات طويلة في أول جناح الطائر، قال: (فَإِنَّ الخَوافي قُوَّةٌ لِلْقَوَادِمِ). والرِّيع: المرتفع من الأرض، وقيل: الجبل، واختلفوا في الجمع والمفرد. ويترقرق: يلمع. يصف الطائر بأن ريش الخوافي فيه كثيف يركب بعضه على بعضه، وندى الليل يلمع في ريشه حين وقف فوق المكان المرتفع.

(٣) البيت منسوب للأعشى هنا، وفي الطبري، ولم نجده في الديوان على الرغم من وجود قصيدة على نفس الوزن والقافية. واليهماءُ: الفَلاةُ لا يُهْتَدى فيها، وليس فيها ماءٌ ولا أنيس. وتجاوزتها: قطعتها، وخَبَّ: تحرك واضطَرب في سرعة. والآل: السراب، نسب سرعة الحركة والاضطراب إلى السراب في هذه الصحراء. والبيت شاهد على أن الريعَ هو المكان المرتفع.

البنيان، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه عَلَم، وقال مجاهد: أَبراج الحمام، وقال النقاش وغيره: القُصور الطوال، و«المصانع»: جمع مصنع، وهو ما أُصنع وأُتقن في بنائه من قصر مشيد ونحوه، وقال قتادة: هي مآخذ للماءِ، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾، إما أَن يريد: على أَملِكم ورجائكم، وإما أَن يريد الاستفهام على معنى التوبيخ والهزءِ بهم، وقرأَ الجمهور: (تَخْلُدُونَ) بفتح التاءِ وضم اللام، وقرأَ قتادة: [تُخْلَدُونَ] بضم التاءِ وفتح اللام، يقال: خَلَد الشيءُ، وأَخْلَدَهُ غيره، وقرأَ أُبيٌّ وعلقمة: [لعلكم تُخَلَّدون] بضم التاءِ وفتح الخاءِ وفتح اللام وشدها، وروي عن أُبي: [كأَنكم تخلدون]، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: [كأَنكم خالدون].

و«البَطْشُ»: الأَخذ بقوة وسرعة، و«الجَبَّارُ»: المتكبر، ومنه قولهم: «نخلة جبارة» إذا كانت لا تُدرَك علوًّا، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في المرأَة التي أَبت أَن تنحى عن طريقه: «إنها جبارة»[1]، ومنه الجبروت، فالمعنى: إنكم كفار الغضب، لكم السطوات المفرطة، والبوادر من غير تثبت.

ثم ذكَّرهم عليه السلام بأَيادي الله تعالىٰ قِبَلهم فيما منحهم من الأَنعام والذرية والجنات والمياه المطردة فيها، ثم خوفهم عذاب الله تعالىٰ في الدنيا، وكانت مراجعتهم أَن سوَّوا بين وعظه وتركه الوعظ. وقرأَ ابن محيصن: [وَعَظتَّ] بإدغام الظَّاءِ في التَّاءِ. ثم قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، واختلف القراءُ في ذلك ـ فقرأَ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وابن عامر: (خُلُق) بضم اللام، فالإشارة بـ (هَذَا) إلى دينهم وعبادتهم وتصرفهم في المصانع، أَي: هذا الذي نحن عليه خُلُق الناس وعادتهم، وما بعد ذلك بعث ولا تعذيب كما تزعم أَنت. وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأَبو قلابة (خُلْق) بضم الخاءِ وسكون اللام، ورواه الأَصمعي عن نافع، وقرأَ أَبو جعفر، وأَبو عمرو: [خَلْقُ الأولين] بفتح الخاءِ وسكون اللام، وهي

---

(١) رواه النسائي في الكبرى عن أبي موسى، ورواه أبو يعلى والطبراني عن أنس، وكلاهما ضعيف، ويقوي كل منهما الآخر، وأشار ابن الأثير في كتابه (النهاية) لهذا الحديث عند شرحه لكلمة جَبَّارة. وذكر صاحب اللسان الحديث في جَبَر، ولفظه فيه أن النبي ﷺ حَضَرَتْهُ امرأة، فأمرها بأمر فتأبت، فقال النبي ﷺ: «دعوها فإنها جَبَّارة»، أي: عاتية متكبرة، وقيل: الجبَّار: المتسلِّط، قال الشاعر:

سَلَبْنَا مِنَ الجبَّارِ بِالسَّيْفِ مُلْكَهُ ... عشِيّاً وأطْرافُ الرِّماحِ شَوارِعُ

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾.

قراءَة ابن مسعود، وعلقمة، والحسن، وهذا يحتمل وجهين: أَحدهما: وما هذا الذي تزعمه إلاَّ اختلاق الأَولين من الكَذَبَة قبلك، فأَنت على منهاجهم. والثاني أَن يريدوا: ما هذه البنية التي نحن عليها إلا البنية التي عليها الأَولون، حياة وموت، وما ثَمَّ بعثٌ ولا تعذيب، وكل معنى مِمَّا ذكرته تحتمله قراءَة [خُلُق]. وروى علقمة عن ابن مسعود: [إلاَّ اخْتِلاَقُ الأَوَّلين]، وباقي الآية قد مضى تفسيره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

[ثَمُود]: قبيلة عربية. وتصرف ولا تصرف، على مقصد الحيِّ أَو القبيلة، وقرىء بالوجهين: الجمهور بغير صرف، وابن وثاب وغيره بالصرف. و(صَالح) أَخوهم في النَّسب، والأَنبياءُ من العرب أَربعة: هود وصالح وشعيب ومحمد صلى الله وسلم عليه وعليهم أَجمعين، وإِسماعيل عليه السلام عربيُّ اللسان سرياني النَّسب، وهو أَب العرب الموجودين اليوم.

وقوله: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ﴾ تخويف لهم، بمعنى: أَتطمعون أَن تقروا في النعم على معاصيكم؟ و«الْهَضِيم» معناه: اللَّيِّن الرَّطْب. و«الطَّلْع»: الكفري، وهو عنقود النخل قبل أَن يخرج من الكم في أَول نباته، فكأَن الإِشارة إِلى أَن طلعها يثمر ويرطب، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أَيْنَع وبلغ وهو يُهضم، وقال الزهري: الهضيم: الرَّخْصُ اللطيف أَول ما يخرج، وقال الزجاج: هو ـ فيما قيل ـ الذي رطبه بغير نوى، وقال الضحاك: الهضيم: المنضَّد بعضه على بعض.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وقرأَ الجمهور: (تَنْحِتُونَ) بكسر الحاءِ، وقرأَ الكسائي بفتحها، وذكر أَنها لغة، قال أَبو عمرو: وهي قراءَة الحسن، وأَبو حيوة. وقرأَ حمزة، والكسائي، وعاصم، وابن عامر: (فَارِهِينَ)، وهي قراءَة ابن مسعود، وابن عباس، وقرأَ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرو: [فَرِهين]، وقرأَ مجاهد: [مُتَفَرِّهين] بميم، على وزن: مُتَفَعِّلين، واللفظة مأْخوذة من الفراهة، وهي جودة منظر الشيءِ وقوة كماله في نوعه، فمعنى الآية: كَيِّسين مُهْتَمِّينَ، قاله ابن عباس، وقال مجاهد: شرهين، وقال ابن زيد: أَقوياءَ، وقال أَبو عمرو بن العلاءِ: أَشِرين بَطِرين، وذهب عبد الله بن شداد إِلى أَنه بمعنى: مستفرهين، أَي: مبالغين في استحازة[1] الفاره من كل شيءٍ مما يصنعونه ويشتهونه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ خاطب به جمهور قومه، وعنى بالمسرفين كبراءَهم وأَعلام الكفر والإِضلال فيهم. وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ فيه تأْويلان: أَحدهما مأْخوذ من السِّحر (بكسر السِّين)، أَي: قد سُحِرْتَ فأَنت لذلك مخبولٌ لا تنطق بقويم، والثاني أَنه مأْخوذ من السَّحر (بفتح السِّين) وهي الرئة، وقيل: السَّحر: قصبة الرئة وما يتعلق بها من كبد وغيره، أَي: أَنت ابن آدم مثلنا لا يصح أَن تكون رسولاً عن الله تعالىٰ، وما بعده في الآية يُقَوِّي هذا التأْويل[2]، ومن اللفظة قول لبيد:

فَـإِنْ تَسْـأَلِينـا فيمَ نَحْـن فَـإِنَّنَـا ... عَصافيرُ مِن هَذا الأَنام المُسَحَّر[3]

ويقال للاغتداءِ: التَّسْحير، ومنه قول امرىء القيس:

---

(١) استَحَازَ الشيءَ واحْتَازَه بمعنى: ضمه وامتلكه. (المعجم الوسيط).

(٢) وهو قوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، ومن الغريب أن أبا حيَّان قال بعد ذكره هذا التأويل: «ويُضْعِفُ هذا القوْلَ قولُهم بعدُ: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾؛ إذ تكون هذه الجملة توكيداً لما قبلها، والأصل التأسيس».

(٣) البيت من قصيدة له يذكر فيها من مات من قومه، ويتأمل سطوة الموت وضعف الإنسان أمامه، ومطلعها:

أعَـاذلُ قُـومِـي فـاعْـذُلـي الآنَ أوْ ذَري ... فَلَسْـت وإنْ أَقْصَـرْتِ عَنِّـي بمُقْصِـرِ

وهو من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن، قال: وكلُّ من أكل من إنس أو دابة فهو مُسَحَّر، وذلك أن له سحراً يقري فيه ما أكل. وعصافير معناها: ضعاف.

. . . . ونُسْحَـر بـالطَّعَـام وبـالشَّـرابِ(١)

ثم اقترحوا عليه آية، ورُوي أَنهم اقترحوا خروج ناقة من جبل من جبالهم. وقصتها في هذه الآية وجيزة وقد مضت مستوعَبة، فلما خرجت الناقة قال لهم: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾، أَي: حظٌّ من الماءِ، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [لها شُرب ولكم شُرب] بضم الشين فيهما، وقد تقدم قصص ورود الناقة. و«السُّوءُ»: عَقْرها، وتوعدهم عليه بعذاب، وظاهر أَمره أنه أَراد: في الدنيا، ونسب عقرها إِلى جميعهم مع اختصاص قدار الأَحمر بعقرها من حيث اتفقوا على ذلك رأياً وتدبيراً. وقوله: ﴿فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ۝١٥٧﴾، لما ظهر لهم تغير أَلوانهم حسبما كان صالح عليه السلام أَخبرهم ندموا، ورأَوا أَن الأَمر على ما أَخبر به حتى نزل بهم العذاب، وكانت صيحة جمدت لها أَبدانهم، وانشقت قلوبهم، وماتوا عن آخرهم، وصبت عليهم حجارة خلال ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٦٠ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٦١ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝١٦٢ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ۝١٦٣ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٤ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ۝١٦٦ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ۝١٦٧ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ۝١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ۝١٦٩ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ
أَجۡمَعِينَ ۝١٧٠ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝١٧١ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ۝١٧٢ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ۝١٧٣ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٧٥﴾.

قال النقاش: إِن في مصحف ابن مسعود، وأُبي، وحفصة رضي الله تعالىٰ عنهم:

---

(١) هذا عجز بيت، وهو مطلع قصيدة له، البيت بتمامه:

أرانـا مُـوضِعيـنَ لأمـر غَيْـبٍ ونُسْحَرُ بالطَّعام وبالشَّرابِ

وقد ذكره صاحب اللسان في مادة (سَحَر) شاهداً على أن السَّحَر هو الغذاء. وموضعين: مُسْرعين. ولأمْر غيب: لِلْمَوْت، ونُسْحر: نُغَذَّى، أو نُلْهَى عن الموت بالطعام وبالشراب، ومن اللطيف أنه في البيت التالي يصف الناس بأنهم عصافير فيلتقي في ذلك بلبيد، قال:

عَصَـافِيـرٌ وذِبَّـانٌ وَدُودٌ وَأجْـرأُ مِـنْ مُجَلِّحَـةِ الـذِّئـاب

والمجَلِّحة: هي المقدمة على الأمر إقداماً شديداً، والهاجمة على الناس، فهم مع ضعفهم كأنهم العصافير أو الديدان يفعلون فعل الذئاب المجَلِّحَة.

[إذْ قَالَ لهم لُوط] وسقط «أخوهم». واختُصرت الياءُ في الخط واللفظ من قوله: (وأَطِيعونِ) مراعاةً لرؤُوس الآي أن تتناسب.

ثم وقفهم على معصيتهم البشعة في «إتيان الذكران» وترك فروج الأزواج، والمعنى: ويذر ذلك العاصي في حال المعصية، لا أَنَّ معناه: تركوا النساءَ جملة، وفي قراءَة ابن مسعود: [ما أَصْلح لكُمْ ربُّكم]، و(عَادُونَ) معناه: ظالمون مرتكبون للحظر، فتوعَّدوه بالإخراج من أَرضه فلا يُتَّهم عند ذلك، واقتصر على الإخبار بأَنه قال: (لِعَمَلِهِمْ). و«ٱلْقِلَى»: بُغْض الشيءِ وتركه، ثم دعا بالنجاة فنجاه الله تعالىٰ بأَن أَمره بالرحلة ليلاً، وكانت امرأَته تعين عليه قومَه فأَصابها حجر فهلكت فيمن هلك.

وقوله: ﴿فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ معناه: في الباقين، فإما أَن يريد: في الباقين من لِدَاتها وأَهل سُنِّها، وهو تأْويل أَبي عبيدة، وإما أَن يريد: في الباقين في العذاب النازل بهم، وهو تأْويل قتادة، والمشهور أَنها بمعنى: بَقِي. وغابر الزمان: مستقبله، ولكن الأَعشى قد استعمل «غابر الزمان» بمعنى ماضيه في شعر المنافرة المشهور[1]، وقال الزهراوي: يقال للذاهب غابر، وللباقي غابر. و«التدمير»: الإِهلاك بإِمطار الحجارة، وبذلك جرت السِّير في رجم اللوطي، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟
مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ
مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ
أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

---

(١) جاء ذلك في قصيدة قالها الأعشى يهجو علقمة بن علاثة، ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما، والبيت الذي استعمل فيه (غابر) بمعنى الماضي هو:

عَضَّ بِمَا أبقَى المَوَاسِي لَهُ ... مِنْ أُمِّهِ في الزَّمَنِ الغَابِرِ

يريد: ما تركه الموسى بعد إجراء عملية الختان لأمه وهي صغيرة.

قال النقاش: في مصحف ابن مسعود، وأُبيٍّ، وحفصة: [إذ قال لهم أخوهم شعيب]، وقالوا: لا وجه لمراعاة النسب، وإنما هو أخوهم من حيث هو رسولهم وآدميٌّ مثلهم.

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر: [لَيْكَة] على وزن فَعْلَة هنا وفي (صٓ)[1]، وقرأ الباقون: (الأَيْكَةَ) وهي الدوحة الملتفة من الشجر على الإطلاق، وقيل: من شجر معروف له غضارة يألفه الحمام والقماري ونحوه، وقال قتادة: كان شجرهم هذا دوْماً. و«لَيْكَة» اسم البلد في قراءَة من قرأ ذلك، قاله بعض المفسرين، وذكره أَبو عبيد القاسم بن سلام، وذهب قوم إِلى أَنها مُسَهَّلةٌ من الأَيكة، وأَنها وقعت في المصحف هنا وفي سورة (صٓ) بغير أَلف، وقال أَبو علي: سقوط ذلك في المصحف لا يرجح النطق بها هكذا؛ لأَن خط المصحف اتُّبع فيه تسهيل اللفظ، كلَّما سقطت الأَلف من اللفظ سقطت من الخط، نحو سقوط الواو من قوله: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾[2] لمَّا سقط من اللفظ، وأَما ترجيح القراءَة في [لَيْكَة] بفتح الياءِ في موضع الجرِّ فلا يقتضيه ما في المصحف، وهي قراءَة ضعيفة، ويدل على ضعفها أَن سائر ما في القرآن غير هذين الموضعين مُجمع فيه على [الأَيْكَة] بالهمز والأَلف والخفض.

وكانت مدن القوم سبعة فيما روي، فلم يكن شعيب منهم، فلذلك لم يذكر هنا بأَنه أَخٌ لهم، وإِنما كان من بني مدين، ولذلك ذُكِر بِأَخُوهم، وجاءَت الأَلفاظ في دعاءِ كل واحد من هؤلاءِ الأَنبياءِ واحدة بعينها إِذْ كان الإِيمانُ المدعُوُّ إِليه معنىً واحداً بعينه، وفي قولهم عليهم السلام: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عرض رقيق وتلطف، كما قال تبارك وتعالىٰ: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾[3]،

وكانت معصيتهم المضافة إِلى كفرهم؛ بخس الموازين وتنقص أَموال الناس بذلك. و«الْقِسْطَاسُ»: المعتدل من الموازين، وهو بناءُ مبالغة من القسط، وذهب ابن عباس ومجاهد إِلى أَن قوله: [وزنوا بالقسطاس] بضم القاف [من القسطاس][4]، وقرأَ

---

(١) في قوله تعالىٰ في الآية (١٣): ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾.

(٢) الآية (١٨) من سورة (العَلَق).

(٣) الآية (١٨) من سورة (النازعات).

(٤) هكذا في نسخ الأصول، ونعتقد أن ما بين العقفتين. من زيادة النساخ.

عيسى وأَهل الكوفة بكسرها، و[تَعْثَوْا] معناه: تفسدون، يقال: «عَثَا» إِذا أَفسد.

(وَٱلْجِبِلَّة): القرون والخليقة الماضية، قال الشاعر:

والْمَـــوْتُ أَعْظَـــمُ حَـــادِثٍ   فيمـــا يَمُـــرُّ عَلَـــى الجِبِلَّـــة[1]

وقرأَ جمهور الناس: (وَٱلْجِبِلَّة) بكسر الجيم والباءِ، وقرأَ أَبو حصين والحسن: [وَٱلْجُبلَّة] بضمها، و«الكِسَفُ»: القطع، واحدها: كِسْفَة، كتَمْرَة وتَمْر[2]. و﴿يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ يوم عذابهم، وصورته ـ فيما رُوي ـ أَن الله تعالىٰ امتحنهم بِحَرٍّ شديد، فلما كان ذلك اليوم غشى بعض قطرهم سحابة، فاجتمعوا تحتها، فاضطرمت عليهم تلك السحابة ناراً فأَحرقتهم عن آخرهم. وللناس في حديث يوم الظلة تطويلات لا تثبت، والحق أَنه عذاب جعله الله تبارك وتعالىٰ ظُلَّة، وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: من حدثك ما عذاب يوم الظُّلَّة فقد كذب، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

الضمير في (إِنَّهُ) للقرآن، أَي: إِنه ليس بكهانة ولا سحر، إِنما هو من عند الله تبارك وتعالىٰ، و﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾: جبريل عليه السلام بإِجماع، ونزل باللفظ العربي والمعاني الثابتة في الصدر والمصاحف، والضمير على ذلك كله عائد في (بِهِ). و«اللسان» عبارة عن اللغة، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وعاصم ـ في رواية حفص ـ: (نَزَلَ) خفيفة الزاي (ٱلرُّوحُ) بالرفع. وقرأَ ابن عامر، وأَبو بكر عن عاصم ـ وحمزة، والكسائي بشدّ الزاي [الروحَ] نصْباً، ورجحها أَبو حاتم بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[3]،

---

(١) هو شاهد على أن الجبِلَّة هي: الخليقة، قال في (اللسان ـ جَبَلَ): «الجِبلَّة: الخِلْقَة، وفي التنزيل العزيز ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وقَرأها الحسن بالضَّمِّ، قال الكسائي: الجِبِلَّة والجُبُلَّة تكسر وترفع مشدَّدة كُسِرت أو رفعت».

(٢) ورد هذا التنظير في الطبري، وعنه أخذ ابن عطية، قال محقق الطبري: «وقياس الجمع غير واضح».

(٣) من قوله تعالىٰ في الآية (٩٧) من سورة (البقرة): ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

وبقوله: ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وقوله: (بِهِ) في موضع الحال، كقوله تعالىٰ: ﴿وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ﴾(١). وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ إشارة إلى حفظه إياه، وعلَّل النزول على قلبه بكونه من المنذرين؛ لأنه لا يمكن أن يُنذر به إلا بعد حفظه. وقوله: (بِلِسَانٍ) يمكن أَن يتعلق بلفظ الباءِ بـ ﴿نَزَلَ بِهِ﴾، وهذا على أَن النبي ﷺ إنما كان يسمع من جبريل عليه السلام حروفاً عربية، وهو القول الصحيح، وتكون صلصلة الجرس صفة لشدة الصوت وتداخل حروفه وعجلة مورده وإغلاظه، ويمكن أَن يتعلق بقوله: (لِتَكُونَ)، وتمَسَّك بهذا من رأَى أَن النبي ﷺ كان يسمع أَحياناً مثل صلصلة الجرس يتفهم له منه القرآن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف يقتضي أَن بعض أَلفاظ القرآن هي من لدن النبي ﷺ، وهو مردود.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَي في كتبهم، يريد أَنَّ القُرآن مذكور في الكتب المنزلة القديمة مُنَبَّه عليه مشارٌ إليه(٢)، وقرأَ الجمهور: (زُبُر) بضم الباءِ، وقرأَ الأَعمش بسكونها(٣).

ثم احتج عليهم بأَنهم كان ينبغي أَن يُصَحِّح عندهم أَمره، كان علماءُ بني إسرائيل يعلمونه، كعبد الله بن سلام ونحوه، قاله ابن عباس ومجاهد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً ـ فيما حكى عنه الثعلبي ـ: إن أَهل مكة بعثوا إلى أَحبار يثرب يسأَلونهم عن النبي ﷺ، فقالوا: هذا زمانه، ووصفوا بعثه، ثم خلطوا في أَمر محمد ﷺ، فنزلت الآية في ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويؤيد هذا كون الآية مكية، وقال مقاتل: هذه الآية مدنية، فمن قال: إنها مكية، ذهب إلى أَن علماءَ بني إسرائيل ذكروا أَن في التوراة صفة النبي ﷺ، وهذه الإشارة إلى

---

(١) من الآية (٦١) من سورة (المائدة).

(٢) وقيل: إن معانيه فيها، وبهذا يُحْتَج لأبي حنيفة في جواز القراءَةِ بالفارسية في الصلاة، على أن القرآن قرآن إذا تُرجم لِغير العربية حيث قيل: ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ لكون معانيه فيها.

(٣) السكون للتخفيف، والأصل الضم.

ذلك. وكلهم قرأَ: (يَكُنْ) بالياءِ (آيَةً) نصباً، غير ابن عامر فإنه قرأَ: [تَكُن] بالتاءِ من فوق: [آيَةٌ] رفعاً، وهي قراءَة عاصم والجحدري[(١)]، وقرأَ جمهور الناس: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ بالياءِ من تحت، وقرأَ الجحدري: [أن تعلمه] بالتاءِ من فوق.

ثم سلَّى محمداً ﷺ عن صدود قومه عن الشرع بأَن أَخبر أَن هذا القرآن العربي لو سمعوه مِن أَعْجَم، أَي: من حيوان غير ناطق، أَو جماد، ـ والأَعجم: كل ما لا يُفصح ـ ما كانوا يؤمنون، أَي: قد حتم الكفر عليهم فلا سبيل إِلى إِيمانهم، و«الأَعْجَمون» جمع أَعجم، وهو الذي لا يفصح، وإِن كان عربيَّ اللسان[(٢)] يقال له: أَعجم، وكذلك يقال للحيوانات والجمادات، ومنه قول النبي ﷺ: «جُرْحُ العَجْماءِ جُبَارٌ»[(٣)]، وأَسند الطبري عن عبد الله بن مطيع أَنه قال حين قرأَ هذه الآية وهو واقف بعرفة: «جملي هذا أَعجم، فلو أُنزل عليه، ما كانوا يؤمنون»، والعجمي هو الذي نسبه في العجم وإِن كان فصيح اللسان. وقرأَ الحسن: [الأَعْجَمِيِّينَ]، قال أَبو حاتم: أَراد جمع «الأَعْجَمِيِّ» المنسوب، وقال بعض النحويين: الأَعجمون جمع أَعْجَم، وهو أَعجم، أُضيف فقويت بالإِضافة رتبته في الأَسماءِ فجمع، وليس بأَعجمي النسبة إِلى العجم[(٤)]. وقرأَ جمهور

---

(١) الصحيح أن الواو في قوله (والجحدري) زائدة من النساخ، وأن الذي قرأ هو عاصم الجحدري، والتصحيح عن كتب التفسير والقراءة.

(٢) في بعض النسخ: «عربيَّ النسب»، وهو الأشبه، ويوافق ما في «البحر المحيط» حين نقل كلام ابن عطية.

(٣) أخرجه البخاري في الديات والزكاة والمساقاة، ومسلم في الحدود، وأبو داود في الديات، والترمذي في الزكاة والأحكام، والنسائي في الزكاة، وابن ماجه في الديات، والدارمي في الزكاة والديات، والموطأ في العقول، وأحمد في أماكن كثيرة من مسنده، ولفظه كما في الدارمي عن أبي هريرة رضي الله عنه: «جرح العجماءِ جُبار، والبير جُبار، والمعدن جُبار، وفي الرِّكاز الخمس». قال ابن الأثير في كتابه «النهاية في غريب الحديث والأثر»: «العجماءُ: الدَّابَّة، والجُبارُ: الهَدَرُ».

(٤) قال الطبري: «وإنما قيل: ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾، ولم يقُل: «على بعض الأعجميِّين» لأن العرب تقول إذا نَعَتَت الرجل بالعجمة وأنه لا يُفصح بالعربية: هذا رجل أعجم، وللمرأة: هذه امرأةٌ عجماء، وللجماعة: هؤلاء قومٌ عُجْمٌ وأعْجَمون، وإذا أُريد هذا المعنى وصف به العربي والأعجمي؛ لأنه إنما يعني أنه غير فصيح اللسان، وقد يكون كذلك وهو من العرب». وقال أبو الفتح بن جني في المحتسَب تعليقاً على قراءة الحسن: [الأَعْجَميِّين]: «هذه القراءة عُذْر في القراءة المجتمع عليها، وتفسير للغرض منها، وهي قوله: ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾، وذلك أن ما كان من الصفات على أفْعَل، وأُنثاهُ فعلاء ـ لا يجمع بالواو والنون، ولا مؤنثه بالألف والتاءِ، ألا تراك لا تقول في أحمر: أحمرون، ولا في حمراءَ: حمراوات، فكأن قياسه ألا يجوز فيه «الأعجمون»، لأن مؤنثه عجماء، ولكن سببه أنه يريد: =

الناس: ﴿أَوَلَمْ يَكُن﴾ بالياءِ ﴿لَّهُمْ ءَايَةً﴾ بالنصب، وقرأ: [أَوَ لَيْس لكم آيَة] ابن مسعود والأَعمش، وفي مصحف أُبيٍّ [أَلَيْسَ] بغير واوٍ أَو فاءٍ، وقرأَت فرقة: [تَكُنْ] بالتاءِ من فوق (آيَةٌ) رفعاً، وقرأَ بعض من قرأَ بالتاءِ [آيَةً] بالنصب، وسائرهم بالرفع، وقد مضى ذكر ما في السبع، وذكر الطبريُّ أَن الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عائد على «الذِّكرِ» في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾.

الإِشارة بـ «ذَٰلِكَ» إِلى ما يتحصل لسامع الآيات المتقدمة من الحتم عليهم بأَنهم لا يؤمنون، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ الآية. و(سَلَكْنَاهُ) معناه: أَدخلناه، والضمير فيه للكفر الذي يتضمنه قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾، قاله الحسن. قال الرُّمَّاني: لا وجه لهذا إِلاَّ أَنه لم يجر ذكره، وإِنما الضمير للقرآن وإِخطاره بالبال، وحكى الزهراوي أَن الضمير للتكذيب المفهوم، وحكاه الثعلبي، وقرأَ ابن مسعود: [كذلك جعلناه في قلوب]، ورُوي عنه: [نَجْعَلُه]. و«المجرمون» أَراد به مجرمي كل أُمة، أَي أَن هذه عادة الله تبارك وتعالىٰ فيهم أَنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب، ولا ينفعهم الإِيمان بعد تلبس العذاب بهم، وهذا على جهة المثال لقريش، أَي: هؤلاءِ كذلك. وكشف الغيب ما تضمنته هذه الآية يوم بدر.

وقرأَ الجمهور: (فَيَأْتِيَهُمْ) بالياءِ، أَي العذاب، وقرأَ الحسن: [فَتَأْتِيَهُمْ] بالتاءِ من فوق، يعني الساعة، وفي قراءَة ابن كعب: [فَيَرَوْهُ بَغْتَةً]، ومن قول كل أُمَّة مُعَذَّبة: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ أَي مُؤَخَّرون، وهذا على جهة التمني منهم والرغبة حيث لا تنفع الرغبة.

= «الأَعْجَمِيُّون» ثم حذفت ياءُ النسب، وجُعل جمعه بالواو والنون دليلاً عليها وأَمارة لإِرادتها». وأَجاز الفراءُ أَن يقال: رجلٌ عَجَمي، بمعنى: أَعجميّ، ومذهب سيبويه هو ما ذكره ابن جني.

(١) من الآية (٥) من هذه السورة (الشعراء).

ثم رجع لفظ الآية إلى توبيخ قريش على استعجالهم عذاب الله تعالىٰ في طلبهم سقوط السماءِ كسفاً وغير ذلك، وقولهم لمحمد ﷺ: أين ما تَعِدُنا؟ أي أنه لا ينبغي لهم ذلك لأن عذابنا بالمرصاد إذا حان حينه. ثم خاطب محمداً ﷺ بإقامة الحجة عليهم في أن مُدَّةَ الإرجاءِ والإمهال والإملاءِ لا يعني منع نزول العذاب بعدها، ووقوع النقمة، وذلك في قوله: (أَفَرَأَيْتَ) الآية، قال عكرمة: (سِنِينَ) يريد: عُمْر الدنيا، ولأبي جعفر المنصور قصة في هذه الآية.

ثم أخبر تبارك وتعالىٰ أنه لم يُهلك قرية من القرى إلا بعد إرسال من ينذرهم عذاب الله تعالىٰ ذِكْرى لهم وتبصرةً وإقامة حجة؛ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[1] و(ذِكْرى) عند الكسائي نصب على الحال، ويصح أن يكون نصب على المصدر، وهو قول الزجاج، ويصح أن يكون في موضع رفع على خبر ابتداءٍ، تقديره: «ذلك ذكرى»[2]، ثم نفى عن جهته عزَّ وجلَّ الظلم؛ إذ هو مما لا يليق به.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

لما كان في هذا الموضع ما قال الكفار ـ لأنهم قالوا: إن هذا القرآن كهانة ـ نزلت هذه الآية مكذبة لذلك، أي: ما تنزلت به الشياطين؛ لأنها عُزلت عن السمع الذي كانت تأخذ له مقاعدها، وقوله: ﴿وماينبغي لهم﴾ أي: ما يمكنهم، وقد تجيءُ هذه اللفظة عبارة عمَّا لا يكون، وعبارة عمَّا لا يليق وإن كان ممكناً، ولما جاءَ الله تعالىٰ بالإسلام

---

(١) من الآية (١٦٥) من سورة (النساء).

(٢) وأجاز الزمخشري في (ذِكْرَى) أن تكون مفعولاً له، على معنى أنهم ينذرون لأجل الموعظة والتذكرة، وأن تكون مرفوعة صفةً بمعنى: «مُنْذِرُونَ ذَوُو ذِكْرى»، أو «جعلوا ذكرى لإمعانهم في التذكرة وإطنابهم فيها»، وأجاز أيضاً أن تكون متعلقة بـ (أَهْلَكْنَا) مفعولاً له، والمعنى: وما أهلكنا من قرية ظالمين إلا بعد ما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم لتكون تذكرةً وعبْرةً لغيرهم، فلا يعصوا مثل عصيانهم، وما كنا ظالمين فنهلك قوماً غير ظالمين، وهذا الوجه عليه المعول». ا. هـ. ـ ومع ذلك ناقشه فيه أبو حيان ليثبت أنه لا معول عليه.

حرسَ السماءَ بالشهب الجارية إِثر الشياطين، فلم يخْلص شيطان بشيءٍ يُلَقّنه كما كان يتفق لهم في الجاهلية.

وقرأَ الجمهور: (ٱلشَّيَاطِين)، وروي عن الحسن أَنه قرأَ: [الشياطون]، وهي قراءَة مردودة، قال أَبو حاتم: هي غلط منه أَو عليه، وحكاه الثعلبي أَيضاً عن ابن السميفع، وذكر عن يونس بن حبيب أَنه قال: سمعت أَعرابيًّا يقول: دخلت بساتين من ورائها بساتون، قال يونس: ما أَشبه هذا بقراءَة الحسن.

ثم وصَّى عزَّ وجلَّ نبيَّه ﷺ بالثبوت على أَمر الله تبارك وتعالىٰ، وأَمَرَ بنذارة عشيرته تخصيصاً لهم، إِذ العشيرة مظنة المقاربة والطواعية، وإِذ يمكنه معهم من الإِغلاظ عليهم ما لا يحتمله غيرهم، فإِن البِرَّ بهم في مثل هذا الحمل عليهم، والإِنسان غير متَّهم على عشيرته، وكان هذا التخصيص مع الأَمر العام بنذارة العالم. وروي عن ابن جريج أَن المؤمنين من غير عشيرته في ذلك الوقت نالهم همٌّ من هذا التخصيص وخروجهم منه، فنزلت: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. ولما أُمر رسول الله ﷺ بهذه النذارة عظم موضع الأَمر عليه وصعُب، لكنه تلقَّاه بالجَلَد، وصنع أَشياءَ مختلفة كلها بحسب الأَمر، من ذلك «أَنه أَمر عليًّا رضي الله عنه بأَن يصنع طعاماً، وجمع عليه بني جَدِّه عبد المطلب، وأَراد نذارتهم ودعوتهم في ذلك الجمع، فظهر منه عليه الصلاة والسلام بركة في الطعام، قال علي: وهم يومئذ أَربعون رجلاً، ينقصون رجلاً أَو يزيدونه، فرماه أَبو لهب بالسحر، فوجم رسول الله ﷺ، وافترق جمعهم من غير شيءٍ، ثم جمعهم مرة ثانية كذلك وأَنذرهم ووعظهم فتضاحكوا ولم يجيبوا»(١)، ومن ذلك أَنه نادى عمَّه العباس، وصفيَّة عمته، وفاطمة ابنته رضي الله عنهم، وقال: «لا أُغْني عنكم من الله شيئاً، إِني لكم نذير بين يدي عذاب شديد» في حديث مشهور(٢)، ومن ذلك أَنه صعد على الصَّفا، أَو أَبي قُبَيْس، ونادى: يا بني عبد مناف،

(١) أخرجه ابن مردويه عن البراء بن عازب، وأخرج مثله ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي في الدلائل ـ من طرق ـ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وهو حديث طويل تجده في سيرة ابن هشام، وفي الدر المنثور.

(٢) أخرجه أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن مردويه عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها، ـ وليس فيه عمُّه العباس ـ إذ قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قام رسول الله ﷺ فقال: «يا فاطمة بنة محمد، يا صفية بنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني=

واصباحاه، فاجتمع إليه الناس من أَهل مكة، فقال: يا بني فلان، يا بني فلان، حتى أَتى على بطون قريش جميعاً، فلما تكامل خلق كثير من كل بَطْن قال لهم: «أَرَأَيتم لو أَخبرتكم أَن خيلاً بسفح الجبل تريد الغارة عليكم، أَكنتم مُصَدِّقي»؟ قالوا: نعم، فإِنا لم نجرب عليك كذباً، فقال لهم: «فإِنِّي نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد»، فقال له أَبو لهب لعنه الله: أَلهذا جمعتنا؟ تبًّا لك سائر اليوم، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ السورة[1].

و«الْعَشِيرَة»: قرابة الرجل، وهي في الرتبة تحت الفخذ وفوق العصبة. و«خفض الجناح» استعارة، ومعناه: لِينُ الكلمة وبَسْط الوجه والبرُّ، والضمير في (عَصَوْكَ) عائد على عشيرته من حيث جمعت رجالاً، فأَمره الله تعالىٰ بالتَّبَرِّي منهم[2]، وفي هذه الآية موادعةٌ نسختها آية السيف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٢٠ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ۝٢٢٣ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝٢٢٦﴾.

قرأَ نافع، وابن عامر، وأَبو جعفر، وشيبة: [فَتَوَكَّلْ] بالفاءِ، وكذلك في مصاحف

= من مالي ما شئتم»، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه عن عروة مرسلاً مثْلَه. (الدر المنثور). وفي البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة، قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ فقال: «يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم من الله، لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أُغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أُغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت، ما أُغني عنك من الله شيئاً».

(١) أخرجه سعيد بن منصور، والبخاري، وابن مردويه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرج مثله عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٢) من النظرات العميقة ما رواه في البحر عن بعض العلماءِ، قال: «قيل: الضمير يعود على من اتَّبعه من المؤمنين، والمعنى: فإن عصوك يا محمد في الأحكام وفروع الإيمان بعد التصديق والإيمان فقل: إني بريءٌ مما تعملون لا منكم، أي: أظهر عدم رضاك بأعمالهم، وإنكارك عليهم، ولو أمره بالبراءة منهم ما بقي بعد هذا شفيعاً للعصاة».

أَهل المدينة والشام، والجمهور بالواو، وكذلك في سائر المصاحف، وأَمره تعالىٰ بالتوكل عليه في كل أَمره، ثم جاءَ بالصفات التي تؤنس المتوكِّل، وهي العزَّة والرحمة المذكورتان في آخر قصص الأُمم المذكورة في هذه السورة وضمنها نصر كل نبي على الكفرة، والتَّهمُّم بأَمره والنظر إِليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ عبارة عن إِدراك، وظاهر الآية أَنه أَراد قيام الصلاة، ويحتمل أَنه يريد سائر التصرفات، وهو تأْويل مجاهد وقتادة، وقوله: ﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أَي: في أَهل الصلاة، أَي صلاتك مع المصلين، قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما، وقال أَيضاً مجاهد: تقليب أَعينك وأَبصارك في الساجدين حين تراهم من وراءِ ظهرك[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا معنى أَجنبي هنا.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أَيضاً وقتادة: أَراد: تقلُّبك في المؤمنين، فعبَّر عنهم بالساجدين. وقال ابن جبير: أَراد الأَنبياءَ، أَي: تقلبك كما تقلب غيرك من الأَنبياءِ[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، هنا استفهام وتوقيف تقرير، و«الأَفَّاكُ»: الكذاب، و«الأَثيم»: الآثم، ويريد الكهنة لأَنهم كانوا يتلقون من الشيطان الكلمة الواحدة التي سمعت من السماءِ فيخلطون معها مئة كذبة، فإِذا صدقت تلك الكلمة كانت سبب ضلالةٍ لمن سمعها. وقوله: (يُلْقُونَ) يعني الشياطين، ومُقْتَضى ذلك أَن الشيطان المسترق أَيضاً كان يكذب إِلى ما سمع، هذا في الأَكثر، ويحتمل الضمير في (يُلْقُونَ) ـ أَي يكذبون ـ الكهنة.

ولما ذكر الكهنة بإِفكهم وكذبهم الذي يقتضي نفي كلامهم عن كلام الله تعالىٰ عقَّب

---

(١) يؤيد ذلك قوله ﷺ: «أتموا الركوع والسجود، فوالله إني لأراكم من خلفي».

(٢) وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً: «تقلبك في أصلاب آدم ونوح وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء حتى خرجت إلى الوجود»، وقال الزمخشري: «ذكر ما كان يفعله ﷺ في جوف الليل من قيامه للتهجد، وتقلبه في تصفح أحوال المتهجدين من أصحابه ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون، ويستبطن سرائرهم وكيف يعملون لآخرتهم».

ذلك بذكر الشعراءِ وحالهم لينبِّه على بُعْد كلامهم من كلام الله تعالىٰ في القرآن، إِذ قال في القرآن بعض الكفرة: إِنَّه شعر، وهذه الكناية عن شعر الجاهلية، حكى النقاش عن السدِّي أنها في ابن الزِّبعرى، وأَبي سفيان بن الحرث، وهبيرة بن أَبي وهب، ومسافع الجمحي، وأَبي عزة(١)، وأُميَّة بن أَبي الصلت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

الأَولان ممن تاب وآمن رضي الله عنهما، ويدخل في الآية كل شاعر مخلط يهجو أَو يمدح شهوة، ويقذف المحصنات، ويقول الزُّور.

وقرأ نافع: [يَتْبَعُهُمُ] بسكون التاءِ وفتح الباءِ، وهي قراءَة أَبي عبد الله، والحسن ـ بخلاف عنه ـ، وقرأ الباقون بشدِّ التاءِ وكسر الباءِ.

واختلف الناس في قوله: (ٱلْغَاوُونَ) ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الرُّواة، وقال أَيضاً: هم المستحسنون لأَشعارهم، المصاحبون لهم، وقال عكرمة: هم الرعاع الذين يتبعون الشاعر، وهذا أَرجح الأَقوال. وقال مجاهد وقتادة: (ٱلْغَاوُونَ): الشياطين. وقوله تعالىٰ: ﴿فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ عبارة عن تخليطهم وخوضهم في كل فن من غثِّ الكلام وباطله، وتحسينهم القبيح وتقبيحهم الحسن، قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ ذكر لتعاطيهم وتعمُّقهم في مجاز الكلام حتى يؤول إِلى الكذب، ولكن في هذا اللفظ عذرٌ لبعضهم أَحياناً، فإِنه يُرْوى أَن النعمان بن عدي لما ولاَّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ميسان، وقال لزوجته الشعر المشهور عَزَلَهُ عمر رضي الله عنه، فاحْتَجَّ عليه بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فدرأ عنه عمر رضي الله عنه الحدَّ في الخمر(٢). وروى جابر بن عبد الله عن

(١) هو أبو عزَّة الجمحيُّ.

(٢) النعمان بن عديّ بن نضلة، ولاَّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولاية ميسان، فقال شعراً جاء فيه:

مَــن مُبْلِــغ الحسنــاءَ أنَّ حَليلَهَــا ... بمَيْسَــانَ يُسْقَــى فــي زُجــاجٍ وَحَنْتَــمِ

إذا شِئْــتُ غَنَّتْنــي دَهَــاقِيــنُ قَــرْيَــةٍ ... وَرَقَّــاصَــةٌ تَجْــذُو عَلَــى كُــلِّ مَنْسَــمِ

فَــإنْ كُنْــتَ نَــدْمَــانِي فبــالأَكْبَــرِ اسْقِنــي ... ولا تَسْقِنــي بــالأَصْغَــرِ المُتَثَلِّــمِ

لعَــلَّ أميــرَ المــؤمنيــن يَسُــوؤهُ ... تَنَــادُمُنَــا بــالجَــوْسَــقِ المُتَهَــدِّمِ =

النبي ﷺ أنه قال: «مَن مشى سبع خطوات في شعر كُتب من الغاوين»، ذكره أسد بن موسى، وذكره النقاش.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾.

هذا الاستثناءُ هو في شعراءِ الإسلام، كحسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وكل من اتصف بهذه الصفة، وروي عن عطاءِ بن يسار أَن هؤلاءِ شقَّ عليهم ما ذكر قَبْلُ في الشعر، وذكروا ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية للاستثناءِ في الشعر(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ يحتمل أَن يريد: في أَشعارهم، وهو تأْويل ابن زيد، ويحتمل أَن يريد: ذلك خُلُق لهم وعادة وعبادة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا كما قال لبيد حين طلب منه شعر: «إِن الله أَبدلني بالشعر القرآنَ خيراً منه»، وكلُّ شاعر في الإِسلام يهجو أَو يمدح عن غير حقٍّ، ويقذف ولا يرتدع عن قول دنيءٍ، فهو داخل في هذه الآية، وكل تقيٍّ منهم يكثر من الذكر، ويُمسك عن كل ما يعاب فهو

= فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل إليه بالقدوم عليه، فلما قدم قال له: أي والله إنه ليسوؤني ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين، ما فعلت شيئاً ممَّا قلتُ، وإنما كان من فضلة القول، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾، فقال له عمر رضي الله عنه: أما عذرك فقد درأ عنك الحدَّ، ولكن لا تعمل لي أبداً وقد قلتَ ما قلتَ.

وقد رُوي أن سليمان بن عبد الملك سمع قول الفرزدق:

فَبِتْنَ بِجَانِبَيَّ مُصَرَّعَاتٍ ... وبِتُّ أُفُضُّ أغْلاقَ الْخِتَامِ

فقال له: قد وجب عليك الحدُّ، قال الفرزدق: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحدَّ بقوله: ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾.

(١) أخرج مثله عن أبي هريرة ابنُ مردويه، قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشِّعر حكمة»، قال: «وأتاه قرظة بن كعب، وعبد الله بن رواحة، وحسَّان بن ثابت، فقالوا: إنا نقول الشعر، وقد نزلت هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: اقرؤوا، فقرؤوا: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، قال: أنتم هم، ﴿ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾، قال: أنتم هم، ﴿ وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾، قال: أنتم هم».

داخل في الاستثناءِ. وقولُه: (وَٱنتَصَرُوا) إشارة إلى ما قالوه من الشعر وغيره في قريش، قال قتادة: وانتصروا بمثل ما ظلموا.

وباقي الآية وعيدٌ للظَّلَمة كفارِ مكة، وتهديدٌ لهم. وعَمِل (يَنْقَلِبُونَ) في (أَيَّ) لتأَخره[1]، والحول والقوة لله عزَّ وجلَّ، والله تبارك وتعالىٰ أعلم.

تمَّ بحمد الله وتوفيقه تفسير سورة الشُّعراءِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* * *

(١) ومعنى ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾: أيَّ مصير يصيرون، وأيَّ مرجع يرجعون؛ لأن مصيرهم إلى النار وهو أقبح مصير، ومرجعهم إلى العذاب وهو شرُّ مرجع.

وقال الماوردي: الفرق بين المُنْقَلب والمرجع أن المُنْقَلب هو الانتقال إلى ضدٍّ ما هو فيه، والمرجع هو العودُ إلى حالٍ كان عليها من حالٍ هو فيها، فصار كل مرجع مُنْقلباً، وليس كل منقلب مرجعاً.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كتب أبي في وصيته سطرين: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا، حين يؤمن الكافر، ويتقي الفاجر، ويصدق الكاذب: إني استخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذلك ظني به ورجائي فيه، وإن يَجُرْ وَيُبَدِّلْ فلا أعلم الغيب، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة النمل[(١)]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾.

تقدم القول في الحروف المقطعة في كل السُّور، وكل ما قيل مترتب هنا، وعلى القول بأَنها حروف من أَسماءِ الله تبارك وتعالىٰ فالأَسماءُ هنا: لطيف وسميع، وكونها إشارة إلى نوع حروف المعجم أَبين الأَقوال. وعطف (كِتَاب) على (الْقُرْآن) وهما لِمُسَمًّى واحد من حيث هما صفتان لمعنيين، فالقرآن لأَنه اجتمع، والكتاب لأَنه كُتب، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [وكتابٌ مبينٌ] بالرفع[(٢)]. وقوله: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ يحتمل أَن يكون في موضع نصب على المصدر، ويحتمل أَن يكون في موضع رفع على خبر ابتداءٍ مضمر، تقديره: ذلك هدى وبشرى.

ثم وصف تعالىٰ المؤمنين بالأَوصاف الخليقة بهم. وإِقامة الصلاة: إِدامتها على وجهها. و(ٱلزَّكَاة) هنا يحتمل أَن تكون غير المفروضة لأَن السورة مكية قديمة، ويحتمل أَن تكون المفروضة من غير تفسير، وقيل: (ٱلزَّكَاةُ) هنا بمعنى الطهارة من النقائص وملازمة مكارم الأَخلاق. وتكرار الضمير في قوله: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ للتأْكيد.

ثم ذكر تعالىٰ الكفرة الذين لا يؤمنون بالبعث، والإِشارة إِلى قريش. وقوله تعالىٰ: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يحتمل أَنه تعالىٰ حتم عليهم الكفر، وحبَّب إِليهم الشِّرك، وزيَّنه بأَن

---

(١) هذه السورة مكية في قول الجميع، وآياتها ثلاث وتسعون آية، وقيل: أربع وتسعون آية.

(٢) والتقدير: «وآياتُ كتابٍ»، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه فأُعرب بإعرابه. قاله في البحر.

خلقه واخترعه في نفوسهم، ومع ذلك اكتسابهم وحرصهم على كفرهم، وهذا على أَن تكون الأَعمال المُزَيَّنة كفرهم وطغيانهم، ويحتمل أَن الأَعمال المُزيَّنة هي الشريعة التي كان الواجب أَن تكون أَعمالهم، فأَخبر الله تبارك وتعالىٰ على جهة الذكر أَنه بفضله ورحمته زيَّن الدِّين وبيَّنه، ورسم الأَعمال والتوحيد، لكن هؤلاءِ (يَعْمَهُونَ)، أَي: يُعرضون، و«العَمَه»: الحيرة والتردُّد في الضلالة. ثم توعدهم تعالىٰ بسوءِ العذاب، فمن ناله شيءٌ منه في الدنيا بقي عليه عذاب الآخرة، ومن لم ينله عذاب في الدنيا كان سوءُ عذابه في موته وفيما بعده، و(ٱلْأَخْسَرُون): جمع أَخْسَر؛ لأَن (أَفعل) صفة، لا يجمع إِلا أَن يضاف فتقوى رتبته في الأَسماءِ، وفي هذا نظر(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ ﴾.

«تُلَقَّى» تُفَعَّل، مضاعف، ومعناه: تعطى، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾(٢)، قال الحسن: المعنى: إِنك لتقبل القرآن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا شك أَنه يفيض عليه فضل الله تعالىٰ فيقبله ﷺ، وهذه الآية ردٌّ على كفار قريش في قولهم: إِن القرآن من تلقاءِ محمد بن عبد الله. و﴿ مِن لَّدُنْ ﴾ معناه: من عنده ومن جهته. و«ٱلْحَكِيمُ»: ذو الحكمة في معرفته حيث يجعل رسالاته، وفي غير ذلك، لا إِلـٰه إِلاَّ هو.

ثم قصَّ تعالىٰ خبر موسى، والتقدير: اذكر إِذ قال موسى، وكان من أَمر موسى عليه

---

(١) علَّق أبو حيان على ذلك بقوله: «ولا نظر في كونه يجمع جمع سلامة وجمع تكسير إذا كان بألْ، ولا يجوز فيه إلا ذلك إذا كان قبله ما يطابقه في الجمعية، فيقال: الزيدون هم الأفضلون والأفاضل، والهندات هن الفُضليات والفُضَل، وأما قوله: (لا يجمع إلا أَنْ يضاف) فلا يتعين إذْ ذاك جمعه، بل إذا أُضيف إلى نكرة فلا يجوز جمعه، وإن أُضيف إلى معرفة جاز فيه الجمع والإفراد على ما تقرر في كتب النحو».

(٢) من الآية (٣٥) من سورة (فُصِّلَت).

السلام أَنه حين خرج بزوجته بنت شعيب عليهما السلام يريد مصر ـ وقد قرب وقت نبوته ـ مشوا[١] في ليلة ظلماءَ ذات برد ومطر، ففقدوا النار ومسَّهم البرد واشتدت عليهم الظلمة وضلوا الطريق، وأَصْلَدَ[٢] زناد موسى عليه السلام، فبينا هو في هذه الحال إِذْ رأَى ناراً على بُعد. و(آنَسْتُ) معناه: رأَيتُ، ومنه قول حسَّان بن ثابت:

انْظُرْ خَليلي بِبَابِ جِلَّقَ هَلْ ... تُؤْنِسُ دونَ الْبَلْقاءِ مِنْ أَحَدِ ؟[٣]

فلما رأَى موسى ذلك قال لأَهله ما في الآية، ومشى نحوها، فلما دنا منها بعدت هي منه، وكان ذلك نوراً من نور الله عزَّ وجلَّ، ولم يكن ناراً في نفسه، لكن ظنه موسى ناراً، فناداه الله تبارك وتعالىٰ عند ذلك، وسمع موسى عليه السلام النداءَ من جهة الشجرة، وأَسمعه الله تعالىٰ كلامه. و«الْخَبَر» الذي رجاه موسى عليه السلام هو الإِعلام بالطريق. وقوله: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾، شبه النار التي توجد في طرف عود أَو غيره بالشهاب، ثم خصَّصه بأَنه مما اقتبس؛ إِذ الشهب قد تكون من غير اقتباس، والقبس اسم لقطعة النار تُقْتبس في عود أَو غيره، كما أَن القبض اسم ما يُقْبض، ومنه قول أَبي زيد:

في كَفِّهِ صَعْدَةٌ مُثَقَّفَةٌ ... فيها سِنَانٌ كَشُعْلَةِ الْقَبَسِ[٤]

---

(١) جاءَ الضمير في كلام ابن عطية للجمع؛ لأَن الظاهر أَن قول الله تعالىٰ: (لِأَهْلِهِ) يدل على الجمع، لقوله سبحانه بعد ذلك: (سَآتِيكُمْ)، و(تَصْطَلُونَ)، هذا وقد قيل: لم يكن معه غير زوجته، وهذا واضح من كلام ابن عطية حين بدأ يقص قصة موسى عليه السلام، وقيل: كانت امرأته قد ولدت له ولداً وهو عند شعيب عليه السلام فكان هذا الولد مع أُمه، ويمكن أَن يكون الكلام من باب التعظيم والإِكرام باستعمال ضمير الجمع.

(٢) يقال: أَصْلَدَ الزَّنْد: صوَّتَ ولَمْ يُور.

(٣) البيت في الديوان، وفي اللسان، وقد وردت الرواية: (ببطن جِلَّق)، ويُروى: (انظر نهاراً)، ويروى: (انْظُر حبيبي)، وهي رواية ابن دريد، وجاءت في تاريخ ابن عساكر: (٤ـ١٣٣). وجلَّق بفتح اللام المشددة وبكسرها: دمشق، والبلقاءُ: من أَعمال دمشق، والشاهد فيه هنا أَن (تؤنس) بمعنى: تَرَى.

(٤) البيت من شواهد أَبي عبيدة في مجاز القرآن، قال: «﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾، أَي: بشعلة نار». والصَّعْدَةُ: القناةُ، وقيل: القناة المستوية تنبت كذلك لا تحتاج إِلى التثقيف، والمثقَّفة: التي أُقيم وأُصلح ما فيها من اعوجاج. والشاهد في البيت إِضافة (الشعلة) إِلى (القبس)، أَي: شعلة مقتبسة من نار، فهي كقوله تعالىٰ: [بشهابِ قبس] في قراءة من قرأ بالإِضافة.

وقول الآخر:

مَنْ شَاءَ مِنْ نارِ الْجَحِيمِ اسْتَقْبَسَا(١)

وأَصل الشهاب الكوكب المنقض في أَثَر مُسْتَرِق السمع، وكل ما يقال له شهاب من النيران فعلى التشبيه، وقال الزجاج: كل أَبيض ذي نور فهو شهاب، وكلامه مُعترَض، والقبس يحتمل أَن يكون اسماً غير صفة أَضاف إِليه، بمعنى: بشهاب أَقتبسه أَو اقتبسته، وعلى كونه صفة يكون ذلك كإِضافة الدار إِلى الآخرة(٢)، والصلاة إِلى الأُولى، وغير ذلك. وقرأَ الجمهور بإِضافة [شِهَابِ] إِلى [قَبَسٍ]، وهي قراءَة الحسن وأَهل المدينة ومكة والشام. وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ بتنوين [شِهَابٍ]، وهذا على الصفة، ويجوز أَن تكون الصفة مصدر: قَبَسَ يَقْبِسُ، كما أَن الحَلْب مصدر: حَلَب يَحْلب، وقال أَبو الحسن: الإِضافة أَجود وأَكثر في القراءَة، كما تقول: دارُ آجُرٍّ وسوارُ ذهبٍ، حكاه أَبو علي. و(تَصْطَلُونَ) معناه: تستدفئون من البرد.

والضمير في (جَاءَهَا) للنار التي رآها موسى عليه السلام، وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ يحتمل أَن تكون (أَنْ) مُفسِّرة، ويحتمل أَن تكون في موضع نصب على تقدير: بأَن بُورك، ويحتمل أَن تكون في موضع رفع على تقدير: «نُودِيَ أَنَّهُ»، قاله الزَّجاج. وقوله: (بُورِكَ) معناه: قُدِّس وضوعف خيره ونُمِّي، والبركة مختصة بالخير، ومن هذا قول أَبي طالب بن عبد المطلب:

بُـورِكَ الميِّـتُ الْغَـريـبُ كمـا بُـو ... رِكَ نَبْـعُ الـرُّمَّـانِ والـزَّيْتُـونِ(٣)

و«بَارَكَ» مُتعد بغير حرف، تقول العرب: بَارَكَكَ اللهُ(٤).

---

(١) الجحيم: النَّار الشديدة التَّأَجُّج، وكلُّ نار تُوقد على نار فهي جحيم، والاقْتِباسُ: الأَخذ من النار، واسْتَقْبَسَا: طلب الاقتباس من النار، والقَابِسُ: طالب النَّار، ويقال: قَبَسْتُ منه ناراً أَقْبِسُ قَبَساً فَأَقْبَسَني، وكذلك اقْتَبَسْتُ منه.

(٢) في قوله تعالىٰ في الآية (١٠٩) من سورة (يوسف): ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾.

(٣) البيت في (اللسان ـ بَرَك) ـ والرواية فيه: «نَضْحُ الرُّمَّان» بدلاً من «نَبْعِ الرُّمَّانِ»، قال: «قال الأزهري: معنى بركةِ الله عُلُوُّه على كل شيءٍ، قال أبو طالب: بورك. . . البيت».

(٤) قال في (اللسان ـ برك): «بارك الله الشيءَ وبارك فيه وعليه». وقال الفراءُ: «والعرب تقول: «باركَكَ الله وبارك فيك»، وقال الثعلبي: «العرب تقول: باركك الله، وبارك فيك، وبارك عليك، وبارك لك، أربع لغات»، ثم أنشد قول الشاعر: =

وقوله تعالىٰ: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ اضطرب المتأولون فيه ـ فقال ابن عباس، وابن جبير، والحسن، وغيرهم، أَراد عزَّ وجلَّ نفسه، وعبَّر بعضهم في هذا القول عبارات مردودة شنيعة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَراد النورَ. وقال الحسن، وابن عباس: أَراد بـ ﴿من حولها﴾ الملائكة وموسى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فأَما قول الحسن وغيره فإنما يتخرج على حذف مضاف، بمعنى: بُورِكَ مَنْ قدرتُه وسلطانه في النار، والمعنى: في النَّار على ظنِّك وما حسبتَ، وأَما القول بأَن ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ النورُ، فهذا على أَن يُعبَّر عن النور من حيث كان أَنه من نور الله تعالىٰ، ويحتمل أَن يكون من الملائكة؛ لأَن ذلك النور الذي حسبه موسى ناراً لم يخْل من ملائكة. و﴿من حولها﴾ يكون موسى والملائكة المطيفين به. وقرأَ أُبيُّ بن كعب [بُورِكَت النَّارُ]. و﴿من حولها﴾ يكون موسى والملائكة، كذا حكى أَبو حاتم، وحكى ابن مكي أَنه قرأَ: [تباركت النَّارُ ومَنْ حولها]، وحكى الداني أَبو عمرو أَنه قرأَ: [ومَنْ حَوْلَهَا مِنَ الملائكة]، قال: وكذلك قرأَ ابن عباس وعكرمة ومجاهد(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يحتمل أَن يكون مما قيل في النداءِ لموسى

= فبُورِكْتَ مَوْلُوداً وبُورِكْتَ نَاشِئاً ... وبُورِكْتَ عِنْدَ الشَّيْبِ إِذْ أَنْتَ أَشْيَبُ

وقال عبد الله بن الزبير:

فبُورِكَ في بَنِيكَ وفي بَنِيهِمْ ... إِذَا ذُكِرُوا ونَحْنُ لَكَ الْفِدَاءُ

ومعنى هذا أَن (بَارَكَ) تتعدَّى بالحرف وبغير الحرف.

(١) قال النحاس عمَّا رواه الداني ومكي من قراءة أُبي وابن عباس ومجاهد وعكرمة: «ومثل هذا لا يوجد بإسناد صحيح، ولو صحَّ لكان على التفسير، فتكون البركة راجعة إلى النَّار ومن حولها الملائكة وموسى».

وقال أبو الفتح في قراءة أُبي: [تباركت] ـ ورواها: [تباركت الأرضُ] ـ: «هو تفاعل من البركة، وهو تأكيد لمعنى البركة، كقولك: (تعالىٰ الله)، فهو أبلغ من (علا)، وأصل هذا من فَعَّل في الفعل، فَقَطَّعْتُ وكَسَّرْتُ أقوى معنى مِنْ قَطَعْتُ وكَسَرْتُ، وعليه جاء قوله تعالىٰ: ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ فهو أبلغ من قادر، ولهذا أيضاً جاءَ قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾، فقد عَبَّر عن لفظ الحسنة بـ (كَسَبَ) وذلك لافتقار الحسنة إلى ثوابها، لقوله تعالىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، وجاء (اكْتَسَبَ) في السيئة تنفيراً منها، وتهويلاً وتشنيعاً بارتكابها».

عليه السلام، ويحتمل أن يكون خطاباً لمحمد ﷺ اعتراضاً بين الكلامين، والمقصد به ـ على كلا الوجهين ـ تنزيه الله عزَّ وجلَّ ممَّا عسى أن يخطر ببال في معنى النداءِ في الشجرة، وكون قدرته وسلطانه في النَّار. وعَوْد (مَنْ) عليه، أي: هو مُنَزَّه ـ في جميع هذه الحالات ـ عن التشبيه والتَّكْييف، قال الثعلبي: وإنما الأمر ـ كما رُوي في التوراة ـ: «جاءَ الله من سيناءَ، وأشرق من ساعير، واستَعلن من فاران»، المعنى: ظهرت أوامره بأنبيائه في هذه الحالات[1]. والضمير في (إِنَّهُ) للأمر والشأنِ، قال الطبري: ويُسميها أهل الكوفة المجهولة، آنَسَه الله تعالىٰ بصفاته من العزَّة التي لا خوف معها، والحكمة، أي: لا نقْص في أفعاله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾.

أَمره الله تعالىٰ بهذين الأمرين تدريباً له في استعمالهما، وفي الكلام حذف تقديره: «فألقى مُوسى العصا»، ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾. وأَمال (رآها) بعض القراءِ، و«الجانُّ»: الحيَّات؛ لأَنها تخفي أَنفسها، أَي تسترها، وقالت فرقة: «الجان»: صغار الحيَّات، وعصا موسى عليه السلام صارت حيَّة ثعباناً وهو العظيم، وإِنما شبهت بالجانِّ في سرعة الاضطراب؛ لأَن الصغار أَكثر حركة من الكبار، وعلى كل قول فإِن الله تبارك وتعالىٰ خلق في العصا وغيَّر أَوصافها وأَعراضها فصارت حيَّة. وقرأَ الزهري، وعمرو بن عُبَيْد: [جَأَن] بالهمز.

فلما أَبصر موسى عليه السلام هول ذلك المنظر ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، قال مجاهد: لم يرجع، وقال قتادة: ولم يلتفت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعقَّب الرجل: إِذا ولَّى عن أَمر ثم صرف بدنه أَو وجهه إِليه كأَنه انصرف على

---

(١) قال القرطبي: «فمجيئه من سيناءَ بعثُه موسى عليه السلام منها، وإشراقه من ساعير بعثه المسيح عليه السلام منها، واستعلاؤه من فاران بعثه محمداً ﷺ منها، وفاران: مكة».

عقبيه، وناداه الله مؤنساً ومُقَوِّياً على الأمر: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ فإن رسلي الذين اصطفيتهم للنبوة لا يخافون عندي ومعي، فأخذ موسى عليه السلام الحيَّة فرجعت عصاه، ثم صارت له عادة.

واختلف الناس في الاستثناءِ في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ ـ فقال مقاتل وغيره: الاستثناءُ متَّصل(١)، وهو من الأنبياءِ، وروى الحسن أن الله تعالىٰ قال لموسى: أَخفتك لِقَتْلك النفس، وقال الحسن أيضاً: «كانت الأنبياءُ تذنب فتُعاقَب، ثم تذنب ـ والله ـ فتعاقب، فكيف بنا؟»، وقال ابن جريج: لا يخيف الله تعالىٰ الأنبياءَ إلا بذنب يصيبه أحدهم، فإن أصابه أخافه حتى يأخذه منه، قال كثير من العلماءِ: لم يعرف أحد من البشر لهم من ذنب إلا ما رُوي عن يحيى بن زكريا عليهما السلام(٢).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأجمع العلماءُ أن الأنبياءَ عليهم السلام معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي هي رذائل، واختلف فيما عدا هذا، فعسى أن يشير الحسن وابن جريج إلى ما عدا ذلك.

وفي الآية ـ على هذا التأويل ـ حذف اقتضى الإيجاز والفصاحة ترك نَصِّه، تقديره: «فمن ظلم ثم بدَّل حسناً بعد سوءٍ». وقال الفراءُ وجماعة: الاستثناءُ منقطع، وهو إخبارٌ عن غير الأنبياءِ، كأنه قال: من ظلم من الناس ثم تاب فإني غفور رحيم، وقالت فرقة: (إلاَّ) بمعنى الواو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول لا وجه له(٣). وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وزيد بن أسلم: [أَلاَ مَنْ

(١) قال أبو حيان: «الأظهر أن قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ استثناءٌ منقطع، والمعنى: لكن مَن ظلم من غيرهم، قاله الفراءُ وجماعة؛ إذ الأنبياءُ معصومون من وقوع الظلم الواقع من غيرهم».

(٢) وأشار الزمخشري إلى أن الصغائر التي فرطت منهم قد تسمى ظلماً، كالذي فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف، ومن موسى بوكزه القبطي، وسمَّاه الله ظُلْماً كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾، لكن بعض العلماء قالوا: إن ذلك يكون قبل النبوَّة، فالأنبياءُ معصومون من الكبائر والصغائر.

(٣) لأن التقدير يكون: «وَلا مَنْ ظَلَمَ»، وهذا ليس بشيءٍ؛ لأن معنى (إلا) مُباين لمعنى الواو مباينة كبيرة؛ إذْ الواو للإدخال وإلا للإخراج، فلا يمكن وقوع أحدهما موقع الآخر.

ظَلَمَ] على الاستفتاح. وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾ معناه: عملاً صالحاً مقترناً بتوبة، وهذه الآية تقتضي حتم المغفرة للتائب، وأجمع الناس على ذلك في التوبة من الشرك، وأهل السُّنة في التائب من المعاصي، على أنه في المشيئة كالمصرّ، لكن يغلب الرجاءُ على التائب والخوف على المُصِرّ، وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(١) عمَّت الجميع من التائب والمُصِرّ، ولا فرق بين المشرك وغيره؛ لأنه يذهب فائدته، إذْ الشِّرك يُغفر للتائب، وما دونه كذلك على تأويلهم، فما فائدة التفصيل في الآية، وهذا الاحتجاج لازم فتأمله. ورُوي عن أبي عمرو أنه قرأ: [حسناً بعد سوء] بفتح الحاءِ والسين، وهي قراءة مجاهد، وابن أبي ليلى، وقرأ محمد بن علي الأصبهاني(٢): [حُسْنَى] مثل فُعْلَى.

ثم أمر الله تعالىٰ موسى عليه السلام بأن يدخل يده في جيب جبته لأنها لم يكن لها كُمٌّ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، وقال مجاهد: مِدْرَعة صوف إلى بعض يده، و«الجيب»: الفتح في الثوب لرأس الإنسان، ورُوي أن يد موسى عليه السلام كانت تخرج كأنها قطعة نور يتلألأُ، ومعنى إدخال اليد في الجيب ضم الآية إلى موسى، وإظهار تلبسها به؛ لأن المعجزات من شروطها أن يكون لها اتصال بالرائي. وقوله تعالىٰ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: من غير برص ولا علَّة، وإنما هي آية تجيءُ وتذهب، وقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي﴾ متصل بقوله: (أَلْقِ) و(أَدْخِلْ)، وفيه اقتضاب وحذف، تقديره: تمهد وتيسر لك ذلك في جملة تسع آياتٍ، وهي: العصا، واليد البيضاءُ، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمس، والحجر، وفي هذين الأخيرين اختلاف، والمعنى: يجيءُ بهن إلى فرعون وقومه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

الضمير في قوله تعالىٰ: (جَاءَتْهُمْ) لفرعون وقومه، و(مُبْصِرَةً) معناه: معها الإبصار

(١) تكررت في الآيتين (٤٨) و(١١٦) من سورة (النساء).

(٢) في البحر المحيط: «محمد بن عيسى الأصبهاني».

والوضوح، وعلى هذا نحو قولهم: نهارٌ صائم، وليل قائمٌ ونائمٌ. وقرأ قتادة والحسن: [مَبْصَرَة] بفتح الميم والصاد[1].

وظاهر قوله تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ حصول الكفر عناداً، وهي مسألة فيها قولان: هل يجوز أن يقع أَمْ لا ؟ فجوَّزت ذلك فرقة وقالت: يجوز أن يكون الرجل عارفاً إلاَّ أنَّه يجحد عناداً ويموت على معرفته وجحوده، فهو بذلك في حكم الكافر المخلد، قالوا: وهذا حكم إبليس، وحكم حيي بن أَخطب وأَخيه حسب ما رُوي عنهما.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإن عورض هذا المثال فُرض إنسان يجوز ذلك فيه. وقالت فرقة: لا يصح لوجهين: أَحدهما أَن هذا لا يجوز وقوعه من عاقل، والوجه الآخر أَن المعرفة تقتضي أَن يحل في القلب، وذلك إيمانٌ، وحكم الكافر لا يلحقه إلاَّ بأَن يحلَّ في القلب كفر، ولا يصح اجتماع الضدين في محل، قالوا: ويشبه في هذا العارف الجاحد أَن يسلب عند الموافاة تلك المعرفة ويحل بدلها الكفر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي يظهر عندي في هذه الآية وما جرى مجراها أَن هؤلاءِ الكفرة إذا نظروا في آيات موسى أَعطتهم قولهم: «إن هذا ليس تحت قدرة بشر»، وحصل لهم اليقين أَنها من عند الله تعالىٰ، فيغلبهم أَثناءَ ذلك الحسدُ، ويتمسكون بالظنون في أَنها سحر وغير ذلك حتى يُسلب ذلك اليقين أَو يدفع، وحكمه حكم المستلب في وجوب عذابهم.

و[ظُلْماً] معناه: على غير استحقاق للجحد، و«العُلُوُّ» في الأَرض أَعظم آفة على طالبه، قال الله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[2].

---

(١) في البحر المحيط: «وقرأ قتادة وعلي بن الحسين»، وعلى هذه القراءة تكون الكلمة مصدراً، كما تقول: الولد مَجْبَنَةٌ، وأُقيم المصدر مكان الاسم، وانتصب أيضاً على الحال، وهذا الوزن كثير في صفات الأماكن، قيل: أرض مَسْبَعة، ومكان مَضَبَّة، ومَثْعَلَة، بمعنى: كثيرة السباع، أو الضباب، أو الثعالي، وهذا في الجواهر أو الأعيان، وأما في الأحداث فمنه: الحقُّ مَجْدَرَةٌ بك ومخلقة ومَعْسَاةٌ ومَقْمَنَةٌ.

(٢) من الآية (٨٣) من سورة (القصص).

ثم عجَّبه تعالىٰ من عاقبة المفسدين قوم فرعون، وسوءِ مُنقلبهم حين كذَّبوا موسى، وفي هذا تمثيل لكفار قريش إذْ كانوا مفسدين مستعْلِينَ. وقرأ ابن وثاب، وطلحة، والأعمش: [وَعُلِيًّا]، وحكى أَبو عمرو الداني عنهم وعن أَبان بن ثعلب أَنهم كسروا العين من [عِلِيًّا].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

هذا ابتداءُ قصص فيه غيوب وعبر، وليس بمثال لقريش، وداود عليه السلام من بني إِسرائيل وكان ملكاً، وورث سليمانُ عليه السلام مُلْكه ومنزلته من النبوة، بمعنى: صار ذلك إِليه بعد موت أَبيه، ويُسمى ميراثاً تجوزاً، وهذا نحو قولهم: «العلماءُ ورثة الأَنبياءِ»، وحقيقة الميراث في المال، والأَنبياءُ لا تورث أَموالهم؛ لأَن النبي ﷺ قال: «إِنَّا معشر الأَنبياءِ لا نورث»[1]، يريد به أَن ذلك من فعل الأَنبياءِ عليهم السلام وسيرتهم، وإِن كان فيهم من ورث ماله كزكريا عليه السلام على أَشهر الأَقوال فيه، وهذا كما تقول: «إِنَّا معشر المسلمين إِنما شغلنا العبادة»، فالمراد أَن ذلك فعل الأَكثر، ومنه ما حكى سيبويه: «إِنَّا معشر العرب أَقرى الناس للضيف».

وقوله تعالىٰ: ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾ إِخبارٌ بنعمة الله تبارك وتعالىٰ عندهما في أَن فهمهما من أَصوات الطير المعاني التي في نفوسها، فهذا نحو ما كان نبينا محمد ﷺ يسمع أَصوات الحجارة بالسلام، وسليمان عليه السلام حكى عن البلبل أَنه قال: «أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاءُ»، إِلى كثير من هذا النوع، وقال قتادة والشعبي وغيرهما: إِنما كان هذا الأَمر في الطير خاصة، والنملة طائر إِذ قد يوجد لها الأَجنحة، قال الشعبي: وكذلك كانت هذه القائلة ذات جناحين، وقالت فرقة: بل كان في جميع الحيوان، وإِنما ذكر الطير لأَنه كان جنداً من جنود سليمان عليه السلام يحجب عنه الشمس، ويحتاجه في البعث في الأُمور، فخُصَّ لكثرة مداخلته، ولأَن أَمر سائر

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢ـ٤٦٣) ـ عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «إنَّا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركتُ بعد مؤنة عاملي ونفقة نسائي صدقة».

الحيوان نادر وغير متردد ترداد أَمر الطير. والنمل حيوان فطن قوي شمام جدًّا، يدَّخر ويتَّخذ القِرى، ويشق الحب بقطعتين لئلا ينبت، ويشق الكزبرة بأَربع قطع لأَنها تنبت إِذا قسمت نصفين، ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقي سائره مدة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ معناه: يصلح لنا ونتمنَّاه، وليست على العموم. ثم رَدَّد شُكْر الله تبارك وتعالىٰ.

ثم قصَّ تعالىٰ حال سليمان فقال: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ﴾ أَي: جُمِع، واختلف الناس في مقدار جند سليمان عليه السلام اختلافاً شديداً لم أُرِدْ ذكره لعدم صحته، غير أَن الصحيح أَن مُلْكه كان عظيماً، ملأ الأَرض، وانقادت له المعمورة كلها، وكان كرسيه يحمله أَجناده من الجن والإِنس، وكانت الطير تظلله من الشمس، ويبعثها في الأُمور، فكان له في الكرسي الأَعظم موضع يخصه. و(يُوزَعُونَ) معناه: يُرَدُّ أَوَّلهم على آخِرهم ويُكَفُّون، قال قتادة: فكان لكل صنف وزعة في رتبتهم ومواضعهم من الكرسي ومن الأَرض إِذا مشوا فيها، ـ فرُبَّ وقت كان يسير فيه في الأَرض ـ، ومنه قول الحسن البصري حين وَلي قضاءَ البصرة: «لا بُدَّ للحاكم من وَزَعة»، ومنه قول أَبي قحافة حين وصفت له الجارية في يوم الفتح أَنها ترى سواداً أَمامه فارس قد تقدم من الصَّف، فقال لها: ذاكَ الوازع[1]، ومنه قول الشاعر:

عَلَى حينَ عاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّبَا ... وَقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وَازِعُ ؟[2]

أَي: كافٌّ.

---

(١) روى محمد بن إسحاق عن أَسماءَ بنت أَبي بكر رضي الله عنهم قالت: لما وقف رسول الله ﷺ بذي طُوَى ـ تعني يوم الفتح ـ قال أبو قحافة ـ وقد كُفَّ بصره يومئذ ـ لابنته: اظهري بي على أبي قُبَيْس، قالت: فأشرفت به عليه فقال: ما تَرَيْن ؟ قالت: أرى سواداً مُجْتَمِعاً، قال: تلك الخيل، قالت: وأرى رجلاً من السَّواد مُقبلاً ومُدبراً، قال: ذلك الوازع يمنعها أن تنتشر... إلخ الخبر.

(٢) البيت للنابغة الذبياني، وهو من قصيدة له يمدح النعمان ويعتذر إليه مما وشت به بنو قُرَيع بن عوف من تميم. و(عَلَى) في البيت بمعنى (في)، كقوله تعالىٰ: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾. وأَصحُ: أُفِيق، والوازع: الزَّاجر الكافُّ، والصِّبا: الصَّبوة وما فيها من أَعمال الشباب ولهوهم، والبيت مرتبط بما قبله وهو قوله:

فَكَفْكَفْتُ مِنِّي عَبْرَةً فَرَدَدْتُهَا ... عَلَى النَّحْرِ مِنْهَا مُسْتَهِلٌّ وَدَامِعُ

يقول: كَفْكَفْتُ دَمْعِي في الوقت الذي عاتبت فيه نفسي في حال مَشِيبها على أفعال التَّصَابي، وقلت=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾.

ظاهر هذه الآية أن سليمان عليه السلام وجنوده كانوا مشاةً في الأرض، ولذلك يتفق حطم النمل [بنزولهم في وادي النمل][1]، ويحتمل أنهم كانوا في الكرسي المحمول بالريح، وأَحَسَّت النمل بنزولهم في وادي النمل [ووادي النمل قيل: بالشام، وقيل بأقصى اليمن، وهو معروف عند العرب مذكور في أشعارها][2].

وأَمال أبو عمرو الواو من [وَادي]، والجميع فخَّم، والإمالة قراءَة ابن أَبي إسحاق. وقرأ المعتمر بن سليمان عن أبيه: [ٱلنَّمُلِ] بضم الميم كالشَّمُس، و[قالتْ نَمُلة] أيضاً بالضَّم كسَمُرة، ورُوي عنه أيضاً ضم النون والميم من [النُّمُل]. قال نَوْف البِكَالي[3]: كان ذلك النمل على قدر الذباب، وقالت فرقة: بل كانت صغاراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي يقال في هذا أن النمل كانت نسبتها من هذا الخلق نسبة هذا النمل منَّا، فيحتمل أن كان الخلق كله أكمل. وهذه النملة قالت هذا المعنى ـ الذي لا يصلح له إلاَّ هذه العبارة ـ قولاً فهمه عنها النمل، فسمعه سليمان عليه السلام على بُعْده، وجاءَت المخاطبة كمن يعقل، لأنها أمرتهم بما يؤمر به من يعقل، وروي أنه كان على ثلاثة

= لنفسي: أَلَم أُفق بعدُ من طيشي وجهالتي، والشيب وازع يزجرني ويكُفّني؟ والشاهد في البيت أن (وازع) بمعنى كافّ، ومثله في ذلك قول الآخر:

ولمَّا تَلاقَيْنَا جَرَتْ مِنْ جُفُونِنَا ... دُمُوعٌ وَزَعْنَا غَرْبَهَا بالأصَابِعِ

وقول الآخر:

وَلاَ يَزَعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ عَنِ الْهَوَى ... مِنَ النَّاسِ إلا وَافِرُ العَقْلِ كَامِلُهْ

(١) ما بين العلامتين [.....] غير موجود في الأصول، ولكنا نقلناه عن البحر المحيط حيث نقل نصَّ كلام ابن عطية.

(٢) ما بين العلامتين [.....] غير موجود في الأصول، ولكنا نقلناه عن البحر المحيط حيث نقل نصَّ كلام ابن عطية.

(٣) هو نوْفُ بن فَضَالة البِكاليّ، شامي مستور، من الثانية، مات بعد التسعين. (تقريب التهذيب).

أَميال فَتَبَسَّم من قولها. والتَّبَسم ضحك الأَنبياءِ في غالب أَمرهم، لا يليق بهم سواه[١].

وكان ضحكه سروراً، واخْتُلِفَ بِمَ؟ فقالت فرقة: بنعمة الله تبارك وتعالىٰ في إِسماعه وتَفْهيمه ونحو ذلك، وقالت فرقة: بنَبَإِ النملة عليه وعلى جنوده في أَن نَفت عنهم تعمُّد القبيح من الفعل، فجعلت الحطم وهم لا يشعرون.

وقرأَ شهر بن حوشب: [مَسْكَنَكُمْ] بسكون السِّين على الإِفراد، وفي مصحف أُبيٍّ رضي الله عنه [مَسَاكِنَكُنَّ]. وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ بشد النون وسكون الحاءِ، وقرأَ أَبو عمرو في رواية عبيدة: [لا يَحْطِمَنْكُمْ] بسكون النون، وهي قراءَة ابن أَبي إِسحاق، وقرأَ الحسن، وأَبو رجاءٍ: [لا يُحَطِّمَنَّكُمْ] بضم الياءِ وفتح الحاءِ وكسر الطاءِ وشدِّها وشدِّ النون، وعنه أَيضاً [لا يَحِطِّمَنَّكُمْ] بفتح الياءِ وكسر الحاءِ والطَّاءِ وشدِّها[٢]، وقرأَ الأَعمش وطلحة: [لا يَحْطِمَكُمْ] مخففة بغير نون، وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب [لا يَحْطِمَنْكُمْ] مخففة النون التي قبل الكاف.

و(ضَاحِكاً) نصب على الحال، وقرأَ محمد بن السمَيْفَع: [ضَحِكاً]، وهو نصب على المصدر [بفعل محذوف يدلُّ عليه [تَبَسَّم]، كأَنه قال: «ضَحِكَ ضَحِكاً»، وهذا مذهب صاحب الكتاب، أَو يكون منصوباً بنفس [تَبَسَّمَ] لأَنه في معنى (ضَحِك)][٣]

ثم دعا سليمان ـ عليه السلام ـ ربَّه في أَن يُعينه الله تعالىٰ ويفرغه لشكر نعمته، وهذا هو معنى إِيزاع الشكر. وباقي الآية بيِّن.

---

(١) في الصحيح عن جابر بن سمُرة وقيل له: أكنت تجالس النبيَّ ﷺ؟ قال: نعم، كثيراً، كان لا يقوم من مُصَلاه الذي يصلي فيه الصبح ـ أو الغداة ـ حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدثون ويأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسَّم. وفيه أيضاً عن سعد قال: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين ـ أي أثخن فيهم، وعمل فيهم نحو عمل النار ـ فقال له النبي ﷺ: ـ أي قال لسعد ـ ارْم فداكَ أَبي وأُمِّي، قال: فنزعت له بِسَهْم ليس فيه نصل فأَصبتُ جنبه فسقط فانكشفت عورته، فضحكَ رسول الله ﷺ حتى نظرتُ إلى نواجذه. ومن هذا نعرف أن الرسول ﷺ كان في أكثر أحواله يتبسَّم، ولكنه كان يضحك في بعض الأحيان ضحكاً أَعلى من التَّبسُّم.

(٢) في المحتسب لابن جني أن القراءة بفتح الياء والحاء وتشديد الطاء والنون، وأَنه روي عن الحسن أيضاً بفتح الياء وكسر الحاء وتشديد الطاء والنون، أما ضمُّ الياء مع فتح الحاء وتشديد الطاء والنون فقد ذكرها القرطبي عن الحسن.

(٣) اضطربت الأصول في الجزء الذي أثبتناه هنا بين العلامتين [....]. حتى صار الكلام تخليطاً، ولما كان ابن عطية قد أخذ هذا الكلام عن ابن جني فقد آثرنا أن ننقل نفس العبارة التي أثبتها ابن جني في المحتسب حتى نضمن صحة التعبير وسلامته من التحريف والتصحيف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

اختلف الناس في معنى «تفقُّده الطيرَ» ـ فقالت فرقة: ذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأُمور المُلْك والتَّهمُّم بكل جزءٍ منه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وظاهر الآية أَنه تفقَّد جميع الطير، وقالت فرقة: بل تفقَّد الطير لأَن الشمس دخلت على المَلِك من موضع الهدهد حين غاب، فكان ذلك سبب تفقد الطير ليتبيَّن من أَين دخلت الشمس، وقال عبد الله بن سلام: إنما طلب الهدهد لأنه احتاج إِلى معرفة الماءِ على كم هو من وجه الأرض؛ لأَنه كان نزل في مفازة حُرم فيها الماءَ، ولأَن الهدهد كان يرى بطن الأَرض وظاهرها، كانت تشف له، فكان يخبر سليمان عليه السلام بموضع الماءِ، ثم كانت الجن تخرجه في ساعة يسيرة، تسلخ عنه وجه الأَرض كما تسلخ الشاة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما فيما روى عنه ابن سلام وغيره، وقال في كتاب النقاش: كان الهدهد مهندساً، ورُوي أَن نافع بن الأَزرق سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول هذا، فقال له: قف يا وقاف، كيف يرى الهدهدُ بطن الأَرض وهو لا يرى الفخَّ حين يقع فيه؟ فقال له ابن عباس رضي الله عنهما: إِذا جاءَ القضاءُ عمي البصر، وقال وهب بن منبه: كانت الطير تنتاب[1] سليمان عليه السلام كل يوم، من كل نوع واحد نوبة معهودة، فتفقد الهدهد.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى﴾ إنما المقصد أَن الهدهد غاب، لكنه أَخذ اللازم عن غيابه وهو أَلاَّ يراه، فاستفهم ـ على جهة التوقيف ـ عن اللازم، وهذا ضرب من الإِيجاز والاستفهامُ الذي في قوله ﴿مَالِىَ﴾ ناب مناب الألف التي تحتاجها (أَمْ)[2]. ثم توعَّده

(١) أي: تقصده مره بعد أُخرى، يقال: انتاب صديقَه: قصده مرة بعد أُخرى، وفلان يَنْتَابُنَا، والسباعُ تنتاب المنهل، (المعجم الوسيط).

(٢) معنى هذا أنَّ (أَمْ) متصلة، وأَن الاستفهام الذي في (مَالِيَ) ناب مناب أَلف الاستفهام، ويكون المعنى =

عليه السلام بالعذاب، وروي عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج أن تعذيبه للطير كان بأن ينتف ريشه أجمع، وقال يزيد بن رومان[١]: جناحه، ورُوي عن وهب أنه بأن ينتف بعضه ويبقي بعضه. و«السُّلْطَانُ»: الحُجَّة حيث وقع في القرآن، قاله عكرمة عن ابن عباس، وقرأ عكرمة وحده: [ليأتينني] بنونين، وفعل سليمان عليه السلام هذا بالهدهد وحده غلاظاً على العاصين، وعلى إخلاله بِنَوْبه ورتبته.

وقرأ جمهور القراءِ: [فَمَكُثَ] بضم الكاف، وقرأ عاصم وحده: (فَمَكَثَ) بفتحها، ومعناه ـ في القراءَتين ـ: أَقامَ، والفتح في الكاف أَحسن؛ لأَنها لغة القرآن في قوله: (مَاكِثِينَ)[٢]؛ إذ هو من (مَكَثَ) بفتح الكاف، ولو كان من (مَكُثَ) بضم الكاف لكان جُمع (مَكِيثٌ)[٣]، والضمير في (مكث) يحتمل أن يكون لسليمان عليه السلام أو الهدهد، وفي قراءَة ابن مسعود: [فتَمَكَّثَ ثم جاءَ فقال]، وفي قراءَة أُبي: [فتَمَكَّثَ ثم قال أَحطتُ]. وقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ كما في مصاحف الجمهور يريد به الزمن والمدة، وقوله: (أَحَطْتُ) أي: علمتُ علماً تامًّا ليس في علمك.

واختلف القراءُ في (سَبَإٍ) ـ فقرأ الجمهور: ﴿سَبَإٍ﴾ بالصرف، وقرأ ابن كثير، وأَبو عمرو: [سَبَأَ] بفتح الهمزة وترك الصرف، وقرأ الأعمش: [من سبأ] بالكسر وترك الصرف، وروى ابن حبيب عن اليزيدي [سَبَا] بالأَلف ساكنة، وقرأ قنبل ـ عن النبال ـ بسكون الهمزة، فالأُولى على أنه اسم رجل، وعليه قول الشاعر:

الْـــوَارِدُونَ وتَيْــمٌ فـــي ذُرَى سَبَـــإٍ قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ[٤]

= عند ابن عطية: «أغابَ عنِّي الآن فلم أَره حالة التفقد أَم كان مِمَّن غاب من قَبْلُ ولم أَشعر بغيبته ؟».

(١) هو يزيد بن رومان المدني، مولى آل الزبير، ثقة، من الخامسة، مات سنة ثلاثين، وروايته عن أبي هريرة مرسلة. (تقريب التهذيب). ومعنى كلام ابن رومان أنه ينتف ريش جناحه.

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٣) من سورة (الكهف): ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾.

(٣) يقال: مَكَثَ يَمْكُث فهو ماكِثٌ مثل قَعَد يَقْعُد فهو قَاعِدٌ، ومَكُث يَمْكُث مثل عظُم يَعْظُم فهو مَكيثٌ مثل عظيم. هذا مذهب سيبويه، وقال غيره: بل يجوز في مكُث بالضم أن يقال: مكُث يَمْكُث فهو ماكِثٌ، مثل حمُض يَحْمُضُ فهو حامضٌ. (راجع كتب اللغة).

(٤) هذا البيت من شواهد الفراء في معاني القرآن، ويُرْوى: ذُرَى، وذَرَا، ومعنى (عَضَّ أَعناقَهُم جلْدُ الجواميسِ) أن القيود المصنوعة من جلد الجواميس قد أثرت في أعناقهم. والشاهد هنا أن (سَبَأ) اسم رجل هو أبو القبيلة، ولهذا صرف، والبيت لجرير قاله في هجاء عمرو بن لجأ التيمي، وقد سبق الاستشهاد به في المجلد الخامس صفحة ٣٦٣.

وقال آخر:

مِنْ سَبَأَ الْحَاضِرِينَ مَأْرِبَ. . . . . (١)

وهذا على أنها قبيلة، والثانية(٢) على أنها اسم بلدة، قاله الحسن وقتادة، وكلا القولين قد قيل، ولكن رُوي عن رسول الله ﷺ من حديث فروة بن مُسَيْك وغيره أنَّهُ وُلد له عشرة من الولد، تيامن منهم ستة وتشامَّ أربعة(٣)، وحُكي(٤) هذا الحديث على الزجاج فخبط عشواءَ. والثالثة على البناءِ. والرابعة والخامسة لتوالي الحركات السبع فسكن تخفيفاً للتثقيل في توالي الحركات، وهذه القراءَة لا تبنى على الأُولى، بل هي إما على الثانية أو الثالثة. وقرأت فرقة دون تنوين على الإضافة، وقرأت فرقة [بِنَبَى] بالألف مقصورة(٥).

---

(١) هذا جزء من بيت للنابغة الجعدي، والبيت بتمامه:

مِنْ سَبَأَ الْحَاضِرِينَ مَأْرِبَ إِذْ ... يَبْنُونَ مِنْ دونِ سَيْلِهِ الْعَرِمَا

والشاهد فيه أن (سَبَأَ) اسم قبيلة. ولهذا منع من الصرف.

(٢) يريد القراءة الثانية في القراءات التي ذكرها في كلمة (سَبَأ)، وكذلك يقصد القراءات في قوله بعد ذلك، والثالثة، والرابعة، والخامسة.

(٣) الحديث رواه الترمذي في سُنَنه (٢ـ١٥٤) عن فروة بن مُسَيْك المرادي، قال: «قال رجل: يا رسول الله، وما سبأ؟ أرض أو امرأة؟ قال: ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب. . . إلخ الحديث»، قال الترمذي: هذا حديث غريب حسن، ورواه الطبري، وقال الحافظ ابن حجر في (الإصابة) عن هذا الحديث ـ عند ترجمة فروة بن مُسَيْك ـ: أخرجه ابن سعد، وأبو داود، والترمذي، وابن السكن مطوَّلاً ومختصراً.

(٤) في بعض النسخ: (وخَفِي) وهي أشبه وأقرب.

(٥) هذا الأسلوب في قوله تعالىٰ: ﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ يُسمى في علم البديع تجنيس التصريف، قيل: وهو أن تنفرد كل كلمة من الكلمتين عن الأخرى بحرف، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾، وما ورد في قوله ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير»، وقول الشاعر:

للهِ مَا صَنَعَتْ بِنَا ... تِلْكَ الْمَعَاجِرُ والْمَحَاجِر

وقيل: إن هذا النوع من الأسلوب يسمى التَّرْديد، وقال الزمخشري: «إنه من جنس الكلام الذي سمَّاه المحدثون البديع، ولقد جاء هنا زائداً على الصحة فحسن وبدع لفظاً ومعنىً، ألا ترى لو وضع (بِخَبَرٍ) مكان [بِنَبَإٍ] لكان المعنى صحيحاً؟ وهو كما جاءَ أَصحُّ لما في (النَّبَأ) من الزيادة التي يطابقها وصف الحال»، والزيادة التي يقصدها الزمخشري هنا أن (النبأ) لا يكون إلا الخبر الذي له شأنٌ، أما لفظ (الخبر) فمطلق، يطلق على ما له شأنٌ وما ليس له شأن.

وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مبالغة، أَي: مما تحتاجه المملكة، قال الحسن: من كل أمر الدنيا، ووصف عرشها بالعظم في الهيئة ورتبة السلطان، وروي عن نافع الوقف على [عَرْشٍ]، فـ (عَظِيم) ـ على هذا ـ متعلق بما بعده، وهذه المرأَة هي بلقيس بنت شراحيل فيما قال بعضهم، وقيل: بنت القَشْرح، وقيل: كانت أُمُّها جنِّيَّة، وأَكثر بعض الناس في قصصها بما رأَيتُ اختصاره لعدم صحته، وإِنما اللازم من الآية أَنها مختصة بامرأَة ملكت على مدائن اليمن، وكانت ذات مُلْك عظيم، وكانت كافرة من قوم كفار.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

كانت هذه الأُمة أُمة تعبد الشمس؛ لأَنهم كانوا زنادقة فيما روي، وقيل: كانوا مجوساً يعبدون الأَنوار. وقوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ إِلى قوله: ﴿ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ظاهر أَنه من قول الهدهد، وهو قول ابن زيد وابن إِسحاق، ويعترض بأَنه غير مخاطب فكيف يتكلم في شرع؟! [ويحتمل أَن يكون من قول سليمان لما أَخبره الهدهد عن القوم][1]، ويحتمل أَن يكون من قول الله تعالىٰ، فهو اعتراض بين الكلامين، وهو الثابت مع التأَمل، وقراءَة التشديد في (أَلَّا) تعطي أَن الكلام للهدهد، وقراءَة التخفيف تمنعه وتقوي الآخر حسب ما سمع، ويتأَمل إِن شاءَ الله تعالىٰ.

وقرأَ جمهور القراءِ (أَلَّا)، أَي: «لاَ يَسْجدوا»، فـ [أَنْ] في موضع نصب على البدل من (أَعْمَالَهُم)، أَو في موضع خفض على البدل من (ٱلسَّبِيلِ)، أَو يكون الكلام بتقدير: «لِئَلاَّ يَسْجُدوا»، فـ [أَنْ] متعلقة إِمَّا بـ (زَيَّنَ)، وإِمَّا بـ (فَصَدَّهُمْ)، واللام الداخلة على [أَنْ] داخلة على مفعول له[2].

---

(١) ما بين العلامتين [....] زيادة نقلناها عن القرطبي، لأنه نقل كلام ابن عطية وفيه هذه العبارة، أما الأصول التي بين أيدينا فقد خلت منها. وإن كان قول ابن عطية بعد ذلك: «وتُقَوِّي الآخر» يدل على أنه ذكر احتمالين فقط.

(٢) وقيل: العامل فيها ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾، أي: لا يهتدون أنْ يسجدوا، وعلى هذا القول تكون (لا) زائدة، =

وقرأ ابن عباس، وأَبو جعفر، والزهري، وأَبو عبد الرحمن، والحسن، والكسائي، والحسين: [أَلاَ يسجدوا] بتخفيف اللام، فعلى هذا له أَن يقف عَلَى [فهم لا يهتدون] ويبتدىءُ بـ [أَلاَ يسجدوا]، وإِن شاءَ وقف عَلَى [أَلاَ يَا] ثم يبتدىء: [اسْجُدُوا][1]، واحتج الكسائي لقراءَته هذه بأَنه روي عن النبي ﷺ أَنه موضع سجدة وإِن جعلناه من كلام الهدهد، بمعنى: أَلا يا قوم ونحو هذا، ومنه قول الشاعر:

أَلاَ يا اسْلَمِي يا دارَ مَيَّ عَلَى البِلَى ... وَلا زالَ مُنْهَلاً بِجَرْعَائِكِ القَطْرُ[2]

ونحو قول الأَخطل:

أَلاَ يا اسْلَمِي يا هِنْدُ هِنْدَ بَنِي بَدْرِ ... وَإِنْ كانَ حَيَّانَا عِداً آخِرَ الدَّهْرِ[3]

ومنه قول الآخر:

أَلاَ يَــا اسْمَــعْ أَعِظْــكَ بِخِطْبَــةٍ ... فَقُلْـتُ سَمِعْنَـا فـانْطِقي وَأَصِيبِي[4]

= كقوله تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ أي: ما مَنَعَك أن تَسْجُد، وعلى هذه القراءة فليست هذه الآية بموضع سجدة؛ لأنها خبر عنهم بترك السجود، إمَّا بالتزيين أوْ بالصدِّ أو بمنع الاهتداء.

(١) وتكون [ألا] للاستفتاح، و[يا] حرف نداءٍ، والمنادى محذوف، والتقدير: أَلا يا قوم: اسجدوا، أوْ: أَلا يا هؤلاءِ اسجدوا، و[اسْجُدُوا] فعل أَمْر وسقطت أَلف الوصل في [اسْجُدوا]، وكتبت الياءُ من [يا] متصلة بالسين بعد أن سقطت الألف منها، والسبب في سقوط الألفين ـ ألف الوصل وألف النداء ـ في الخطِّ هو سقوطهما لفظاً، (راجع الألوسي والبحر).

(٢) البيت لذي الرُّمَّة، والجرعاءُ: الأرض الرملة السهلة المستوية الطيِّبة المنبت التي لا وُعُوثَةَ فيها، يدعو لها بالري والسقيا الدائمة بعد السلامة من الفناءِ، والشاهد هنا أن حرف النداء دخل على منادى محذوف، والتقدير: ألا يا هذه اسلمي، و(اسلمي) فعل أمْر، تماماً كما حذف المنادى في الآية الكريمة في قراءة [أَلاَ] بالتخفيف، وجيءَ بفعل الأمر: [اسْجُدُوا].

(٣) البيت في (اللسان ـ عدا) منسوباً أيضاً إلى الأخطل التغلبي الشاعر الأموي، واللسان يستشهد به على أن العِدَى بمعنى الأعداءِ، ونقل عن ابن الأعرابي قوله: العِدَى: التباعد، وقومٌ عِدَى: إذا كانوا متباعدين لا أرحام بينهم ولا حلف، وقومٌ عِدًى: إذا كانوا في حرب وأكثر من الكلام في ضبط العين من عِدَى. والشاعر يدعو لهند بالسلامة على الرغم مما بين الحيَّيْن من عداوة دائمة إلى آخر الزمن. والشاهد الذي قصده ابن عطية هنا هو حذف المنادى تماماً كما في بيت ذي الرُّمَّة.

(٤) الوَعْظ: النُّصح والتذكير بالعواقب، وفي الحديث: «لأجعلنَّك عظة» أي موعظة وعبرة لغيرك، والشاهد فيه هنا هو حذف المنادى، كما حذف في البيتين السابقين وفي الآية الكريمة، والتقدير: يا هذا، ثم يجيء بعده بفعل الأمر (اسْمَعْ). وهذا التركيب كثير في كلام العرب، ومنه قول الشاعر:

ألا يا اسْلَمِي ذات الدَّمالِجِ والعقد =

وتحتمل قراءَة من شَدَّد [أَلاَّ] أَن نجعلها بمعنى التَّحْضيض، ويقدر هذا النداءُ بعدها، ويجيءُ في الكلام إِضمار كبير ولكنه متوجه، وسقطت الأَلف كما كتبت في: يا عيسى، ويا قوم. وقرأَ الأَعمش: [هَلاَّ يَسْجُدونَ]، وفي حرف عبد الله: «أَلاَ هَلْ تَسْجُدُونَ» بالتَّاءِ، وفي قراءَة أُبيٍّ: [أَلاَّ تَسْجُدُوا] بالتاءِ أَيضاً.

و(ٱلْخَبْءُ): الخفيُّ من الأُمور، وهو من: «خبأْتُ الشيءَ»، وخبْءُ السماءِ: مطرها، وخبْءُ الأَرض: كنوزُها ونباتُها، واللفظة ـ بعد هذا ـ تعُمُّ كل خفي من الأُمور، وبه فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما، وقرأَ جمهور الناس: (ٱلْخَبْءَ) بسكون الباءِ، وبالهمز[١]، وقرأَ أُبيُّ بن كعب: [ٱلْخَبَ] بفتح الباءِ وترك الهمز، وقرأَ عكرمة: [ٱلْخَبَا] بالأَلف مقصورة، وحكى سيبويه أَن بعض العرب [يقلب الهمزة أَلفاً إِذا كانت مفتوحة وقبلها ساكن] ويقلبها واواً إِذا كانت مضمومة وقبلها ساكن، ويقلبها ياءً إِذا كانت مكسورة وقبلها ساكن، ومثَّل سيبويه في ذلك بالوَثْي، تقول: رأَيتُ الْوَثا، وهذا الوَثْوُ، وعجبت من الوَثْيِ[٢]، وكذلك يجيءُ (الْخَبا) في حال النَّصب، وتقول: اطلعت

= وقول الآخر:

ألا يا اسْقِيانِي قَبْلَ غارَةِ سَنْجَالِ

قال الفراءُ: وسمعت بعض العرب يقول: «أَلا يا ارْحَمَانا، ألا يا تَصَدَّقا»، وفي كل هذه الأمثلة يكون المنادى محذوفاً وما بعده فعل أمر، وأنشد سيبويه:

يـــا لَعْنَــةُ اللهِ والأَقـــوَامِ كُلِّهِـــم   والصَّــالِحِيــنَ عَلَــى سَمْعَــانَ مِــنْ جــارِ

والشاهد فيه حذف المنادى لدلالة حرف النداءِ عليه، والمعنى: يا قوم أو يا هؤلاءِ، لعنةُ اللهِ على سمعان، ولهذا رفع «لعنة» بالابتداءِ، ولو أوقع الشاعر النداءَ عليها لنصبها.

ونقل الكسائي عن عيسى الهمذاني قال: ما كنت أسمع المشيخة يقرؤونها ـ يريد الآية الكريمة ـ إلا بالتخفيف على نيَّة الأمر، وقراءَة عبد الله [هلا تسجدون] بالتاء حُجَّة لمن خفف.

ومع ذلك فإن أبا حيان الأندلسي ينفي أن تكون الياءُ في كل هذه الأمثلة للنداء مع حذف المنادى، إذ لا يجوز حذف المنادى هنا بعد أن حذف الفعل العامل في النداءِ وانحذف فاعله لحذفه، ولو حذفنا بعد ذلك المنادى لكان في ذلك حذف جملة النداء ومتعلقه، وفي هذا إخلال كبير، ولهذا كله فإنه يرى أن (يا) في هذه الأمثلة حرف تنبيه أُكِّد به (ألا) التي للتنبيه أيضاً، وجاز ذلك لاختلاف الحرفين.

(١) العبارة في الأصول: «بسكون الباء والهمز»، ولما كان من الممكن أن يفهم منها أن الكلمة بسكون الباء وسكون الهمز آثرنا زيادة الباء على كلمة (الهمز) حتى يتضح المعنى المقصود مباشرة، وهو أن الكلمة بالهمز لا بغير همز.

(٢) في (اللسان): الوَثْي: الضرب حتى يرهص اللحم ويصل الضرب إلى العظم من غير كسر. وما بين=

على الخَبِي، وراقني الخَبُو. وقرأ جمهور القراءِ: (ويعلم ما يخفون وما يعلنون) بياءِ الغائب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه القراءَة تعطي أَن الآية من كلام الهدهد. وقرأَ الكسائي، وعاصم ـ في رواية حفص ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بتاءِ المخاطبة، وهذه القراءَة تعطي أَن الآية من خطاب الله عزَّ وجلَّ لأمة محمد ﷺ، وفي مصحف ابن كعب: (أَلاَّ تَسْجُدوا للهِ الذي يخرج الخَبَا من السموات والأَرض ويعلم سِرَّكم وما تُعلنون). وخصَّ العرش بالذكر في قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ لأَنه أَعظم المخلوقات، وما عداه في ضمنه وفي قبضته.

ثم إِن سليمان عليه السلام أَخَّر أَمر الهدهد إِلى أَن يتبيَّن له حقه من باطله، فسوَّفه بالنظر في ذلك[١]، وأَمر بكتاب فكُتب، وحمَّله إِياه، وأَمره بإِلقائه إِلى القوم والتَّوَلِّي بعد ذلك، وقال وهب بن منبه: أَمره بالتَّولِّي حُسْن أَدب ليَتَنَحَّى حسب ما يتأَدب به مع الملوك، بمعنى: وكن قريباً حتَّى ترى مراجعاتهم، قال: وقوله: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ في معنى التقديم على قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واتِّساق رتبة الكلام أَظهر، أَي: أَلْقه ثمَّ تَوَلَّ، وفي خلال ذلك فانظر، وإِنما أَراد أَن يكل الأَمر إِلى حكم ما في الكتاب دون أَن يكون الرسول ملازمه وبلا إِلحاح. وقرأَ نافع: [فَأَلْقِهِ] بكسر الهاءِ، وفرقة: [فَأَلْقِهُ] بضمها، وقرأَ ابن كثير، وابن عامر، والكسائي بإِشباع بعد الكسرة في الهاءِ، وروى عنه ورش بعد الهاءِ في الوصل بياءٍ، وقرأَ قوم بإِشباع واوٍ بعد الضمة، وقرأَ اليزيدي عن أَبي عمرو، وعاصم، وحمزة: (فَأَلْقِهْ) بسكون الهاءِ[٢]. وروي عن وهب بن منبه في قصص هذه الآية أَن الهدهد وصل

= العلامتين [.....] زدناه ليستقيم كلام سيبويه؛ حيث إن الأمثلة التي أوردها تقتضي وجود هذه الزيادة، ولأن القاعدة تطرد مع الحروف الثلاثة: الألف والواو والياء.

(١) المراد بالنظر التَّأمل والتفكر في الموضوع.

(٢) في قوله تعالىٰ: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ دليل على إرسال الكتب إلى المشركين من الإمام يبلغهم الدعوة ويدعوهم إلى الإسلام، وقد كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر وغيرهما من الملوك يدعوهم إلى الإسلام.

فألقى دون هذه الملكة حجب جدران، فعمد إلى كُوَّة كانت بلقيس صنعتها لتدخل منها الشمس عند طلوعها لمعنى عبادتها إيَّاها، فدخل منها ورمى الكتاب على بلقيس وهي ـ فيما يُروى ـ نائمة، فلما انتبهت وجدته، فراعها وظنت أنه قد دخل عليها أحد، ثم قامت فوجدت حالها كما عهدته، فنظرت إلى الكُوَّة تَهَمُّماً بأَمر الشمس فرأَت الهدهد فعلمت أَمره، ثم جمعت أَهل مملكتها وعِلْيتهم فخاطبتهم بما يأتي بعد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

في هذه المواضع اختصار يدل ظاهر القول عليه، تقديره: «فأَلْقى الكتاب وقرأَته وجمعت له أَهل ملكها»، و(الْمَلأ): أَشراف الناس الذين ينوبون مناب الجميع، ووصفت الكتاب بالكرم، إمَّا لأَنه من عند عظيم في نفسها ونفوسهم، فعظَّمته إجلالاً لسليمان، وهذا قول ابن زيد، وإِمَّا أَنها إشاراتٌ إلى أَنه مطبوع عليه بالخاتم، ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كرم الكتاب ختمه»(١)، وإِمَّا أَنها أَرادت أَنه بدأَ ببسم الله تعالىٰ، وقد قال ﷺ: «كل كلام لم يبدأ باسم الله تعالىٰ فهو أَجذم»(٢). ثم أَخذت تصف لهم ما في الكتاب، فيحتمل اللفظ أَنه نصُّ الكتاب موجزاً بليغاً، وكذلك كتب الأنبياءِ عليهم السلام، قدم فيه العنوان ـ وهي عادة الناس على وجه الدهر ـ ثم سمَّى الله تعالىٰ، ثم أَمرهم أَلاَّ يعلوا عليه طغياناً وكفراً، وأَن يأتوه مسلمين، ويحتمل أَنها قصدت إلى اقتضاب معانيه دون ترتيبه، فأَعلمتهم أَنه من سليمان، وأَن معناه كذا وكذا. وقرأَ أُبيٌّ: [وأن باسم الله] بفتح الهمزة وتخفيف النون وحذف الهاءِ، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [أنه من]

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس، ولفظه فيه: «كرامة الكتاب ختمه»، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه ضعيف.

(٢) أخرج أبو داود عن أبي هريرة حديثين، الأول بلفظ: «كلُّ خطبة ليس فيها تَشَهُّد فهي كاليد الجذماءِ»، والثاني بلفظ: «كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم»، ذكرهما الإمام السيوطي في الجامع الصغير ورمز لهما بالصحة.

[وأنه بسم الله] بفتح الهمزة فيهما، وفي قراءَة عبد الله: [وإنه من سليمان] بزيادة واو، و﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ استفتاح شريف بارع المعنى مُعبَّر عنه بكل لغة، وفي كل شرع.

و[أَنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ يحتمل أَن تكون رفعاً على البدل من (كِتاب)، أَو نصباً على معنى: بأَنْ لا تعلوا، أَو مفسِّرة بمنزلة أَيْ، قال سيبويه: وقرأَ وهب بن منبه: [ألاَّ تَغْلوا][1] بالغين منقوطة، قال أَبو الفتح: رواها وهب عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهي قراءَة أَشهب العقيلي، ذكرها الثعلبي.

ثم أَخذت في حُسْن الأَدب مع رجالها، ومشاورتهم في أَمرها، وأَعلمتهم أَن ذلك مطرد عندها في كل أَمْر، فكيف في هذه النازلة الكبرى؟ فراجعها الملأُ بما يقرُّ عينها من إعلامهم إِياها بالقوة والبأْس، أَي: وذلك مبذول لك، فقاتلي إِن شئت، ثم سلَّموا الأَمر إِلى نظرها، وهذه محاورة حسنة من الجميع. وفي قراءَة عبد الله: [مَا كُنْتُ قَاضِيَةً أَمْراً] بالضاد من القضاءِ.

وذكر مجاهد في عدد أَحشادها أَنها كان لها اثنا عشر أَلف قَيْل، تحت يد كل واحد مائة أَلف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد، وذكر غيرهُ نحوه فاختصرته لعدم صحته.

ثم أَخبرت بلقيس عند ذلك بفعل الملوك بالقرى التي يتغلبون عليها، وفي الكلام خوف على قومها، وحيطة لهم، واستعظام لأَمر سليمان عليه السلام، وقالت فرقة: إِن ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ هو من قول بلقيس تأْكيداً منها للمعنى الذي أَرادته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو من قول الله تبارك وتعالىٰ معرفاً لمحمد ﷺ وأُمَّته، ومخبراً به.

---

(١) قال أبو الفتح بن جني في المحتسب: «غَلا في قوله غُلُوّاً، وغَلا السعر يغلو غلاءً، فصلوا بينهما في المصدر وإن اتفقا في الماضي» وقال: إن الماضي والمضارع واسم الفاعل والمصدر تجري مجرى المثل الواحد، فإذا خولف فيها بين المصادر قام ذلك الخلاف مقام ما كان يجب من اختلاف الأمثلة لاختلاف ما تحتها من المعاني المقصودة، ومن ذلك قولهم: وجَدْتُ الشيءَ وجوداً، ووَجَدْتُ في الحزن وَجْداً، ووجدت في الغنى وُجْداً وَوِجْداً وجِدَة».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۝٣٦ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝٣٧﴾.

رُوي أن بلقيس قالت لقومها: إني أجرب هذا الرجل بهدية أُعطيه فيها نفائس الأموال، وأُغرب عليه بأمور المملكة، فإن كان مَلِكاً دنياويًّا أرضاه المال فعملنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبيًّا لم يرضه المال، ولازَمَنَا في أمر الدين، فينبغي أن نؤمن به ونتبعه على دينه، فبعثت إليه بهدية عظيمة أكثرَ بعضُ الناس في تفصيلها، فرأيت اختصار ذلك لعدم صحته. واختَبَرَتْ علمه ـ فيما رُوي ـ بأن بعثت إليه قدحاً فقالت له: املأه لي مِمَّا ليس من الأرض ولا من السماء، وبعثت إليه دُرَّة فيها ثقب مخلوق وقالت: تدخل سلكها دون أن يقربها إنسٌ ولا جان، وبعثت إليه أُخرى غير مثقوبة وقالت: يثقب هذه غير الإنس والجن، فملأ سليمان عليه السلام القدح من عرق الجبل، وأدخلت السلك دودةٌ وثقبت الدرَّة أَرَضةٌ، وراجع سليمان عليه السلام في رَدِّ الهدية بما في الآية، وعبَّر عن «المرسلين» بـ (جَاءَ) وبقوله: (ارْجِعْ) لَمَّا أراد به «الرَّسولَ» الذي يقع على الجمع والإفراد والتأنيث والتذكير. وقرأ ابن مسعود: [فَلَمَّا جاؤُوا سُلَيْمَانَ]، وقرأَ: [ٱرْجِعُوا]، ووعيد سليمان لهم مقترن بدوامهم على الكفر، وذكر مجاهد أيضاً أنها بعثت في هديتها بعدد كثير من العبيد بين غلمان وجواري، وجعلت زِيَّهم واحداً، وجربته في التفريق بينهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ليس بتجربة في مثل هذا الأمر الخطر.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [أَتُمِدُّونَنِي] بنونين وياءٍ في الوصل، وقرأ ابن عامر، وعاصم، والكسائي: (أَتُمِدُّونَنِ) بغير ياءٍ في وقف ووصل، وقرأ حمزة: [أَتُمِدُّونِّي] بشد النون وإثبات الياءِ، وقرأ عاصم[1]: [فما آتان الله] بكسر النون دون ياءٍ، وقرأت

---

(١) في رواية أبي بكر عنه.

فرقة: [آتَانِيْ] بياءٍ ساكنة، وقرأ أبو عمرو، ونافع: (آتَانِيَ) بياءٍ مفتوحة[١].

ثم توعدهم بالجنود والغلبة والإخراج، والمعنى: إذا لم يُسْلموا. وقرأ عبد الله: [لاَ قِبَلَ لهم بهم] على جمع ضمير الجنود، و﴿لَّا قِبَلَ﴾ معناه: لا طاقة ولا مقاومة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

القائل سليمان عليه السلام، والمَلأُ المنادى جمعه من الجن والإنس، واختلف المتأولون في غرضه في استدعاءِ عرشها: فقال قتادة: ذُكر له بِعِظَمٍ وجَوْدة، فأراد أَخذه قبل أَن يعصمها وقومَها الإسلامُ ويحمي أَموالهم، والإسلام ـ على هذا ـ الدِّينُ، وهو قول ابن جريج. وقال ابن زيد: استدعاه لِيُرِيَها القدرة التي هي من عند الله عزَّ وجلَّ، وليُغْرب عليها، و(مُسْلِمِينَ) ـ في هذا التأويل ـ هو بمعنى: مُسْتسلمين، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما[٢]، وذُكر صلةً في العبارة، ولا تأْثير لاستسلامهم في عرض سليمان عليه السلام، ويحتمل أَن يكون بمعنى: الإِسلام، وأَما في التأْويل الأَول فيلزم أَن يكون بمعنى الإِسلام.

وظاهر الآيات أَن هذه المقالة من سليمان عليه السلام بعد مجيءِ هديتها وردِّه إِياها، وبعثه الهدهد بالكتاب، وعلى هذا جمهور المفسرين، وحكى الطبري أَنه قال ذلك في اختباره صدق الهدهد من كذبه لمَّا قال له: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، فقال سليمان: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾؟ ثم وقع في ترتيب القصص تقديم وتأْخير.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والقول الأَول أَصح[٣].

---

(١) وكذلك هي قراءة عاصم في رواية حفص عنه.

(٢) في الأصول: «وهو قول ابن عبد الله»، والتصويب عن القرطبي والبحر.

(٣) استدل الطبري على رأيه بأدلة، قال: «قالوا: إنما كتب سليمان الكتاب مع الهدهد إلى المرأة بعد=

ورُوي أَن عرشها كان من ذهب وفضة مرصعاً بالجوهر والياقوت، وأَنه كان في جوف سبعة أَبيات عليه سبعة أَغلاق.

وقرأَ الجمهور: ﴿قَالَ عِفۡرِيتٌ﴾، وقرأَ أَبو رجاءٍ، وعيسى الثقفي: [قال عِفْرِيَةٌ][(١)]، ورُويت عن أَبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقرأَت فرقة: [قال عِفرة] بكسر العين[(٢)]، وكل ذلك لغات فيه، وهو من الشياطين: الماردُ القويُّ، والتاءُ في (عفريت) زائدة، وقد قالوا: «تَعَفْرَتَ الرجل» إذا تخلق بخلق الإذاية، قال وهب بن منبه: اسم هذا العفريت (كوري)، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه صخر الجني، ومن هذا الاسم؛ قول ذي الرُّمَّة:

كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ فِي إِثْرِ عِفْرِيَةٍ ... مُصَوَّبٌ في سوادِ اللَّيْلِ مُنْقَضِبُ[(٣)]

وقوله: ﴿قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾، قال مجاهد، وقتادة، وابن منبه: معناه: قبل أَن تستوي من جلوسك قائماً، و﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾، قال ابن جبير، وقتادة: معناه: قبل أَن يصل إِليك من يقع طرفك عليه من أَبعد ما ترى، وقال مجاهد: معناه: قبل أَن تحتاج إِلى التَّغْمِيضِ، أَي: مُدَّة ما يمكنك أَن تَمُدَّ بصرك دون تغميض، وذلك ارتدادُه.

= ما صحَّ عنده صدق الهدهد بمجيءِ العالِم بعرشها إليه على ما وصفه به الهدهد، قالوا: ولولا ذلك كان محالاً أن يكتب معه كتاباً إلى من لا يدري، هل هو في الدنيا أم لا، وقالوا: وأُخرى أنه لو كان كتب مع الهدهد كتاباً إلى المرأة قبل مجيء عرشها إليه، وقبل علمه صِدْقَ الهدهد بذلك، لم يكن لقوله: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ معنى؛ لأنه لا يُلِمُّ بخبره الثاني من إبلاغه إياها الكتاب، أو ترك إبلاغه إياها ذلك، إلا نحو الذي علم بخبره الأول حين قال له: ﴿جئتك من سبأ بنبأ يقين﴾، وإن لم يكن في الكتاب امتحان صدقة من كذبه، وكان محالاً أن يقول نبي الله قولاً لا معنى له، وقد قال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ وعلم أن الذي امتحن به صدق الهدهد من كذبه هو مصير عرش المرأة إليه، على ما أخبر به الهدهد الشاهد على صدقه، ثم كان الكتاب معه بعد ذلك إليها». وابن عطية يردُّ هذا الكلام دون أن يذكر دليلاً، أو يفند أدلة الطبري.

(١) بكسر العين وسكون الفاء وكسر الراء بعدها ياءٌ مفتوحة بعدها تاءُ التأنيث.

(٢) بكسر العين وبدون ياءٍ ولا تاءٍ.

(٣) البيت في وصف ثور وحشي، ورواية الديوان: (مُسَوَّمٌ) بدلاً من (مُصَوَّب)، ومُنْقَضب: مُنقطع، يقال: انقضب الكوكب من مكانه انقطع وانقض فهو مُنْقَضِبٌ، يقول: كأن الثور كوكب مُصَوَّب مُنْقَضٌ في إثر عفريَةٍ في سواد الليل. والبيت في اللسان بلفظ (مُسَوَّم) أيضاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان يقابلان قول من قال: إن القيام هو من مجلس الحكم، ومن قال: إن القيام هو من الجلوس، فيقول في ارتداد الطَّرْف: هو أَن يطرف، أَي: قبل أَن تُغْمِضَ عينيك وتفتحهما[١]، وذلك أَن الثاني[٢] يعاطي الأَقصر في المدة ولا بُدَّ. وقوله: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ معناه: لَقَوِيٌّ على حملِه، أَمينٌ على ما فيه.

ويُروى أَن بلقيس لما فصلت من بلدها متوجهة إِلى سليمان عليه السلام، تركت العرش تحت سقف حصين، فلما علم سليمان بانفصالها أَراد أَن يُغْرب عليها بأَن تجد عرشها عنده لتعلم أَن مُلْكه لا يُضَاهى، فاستدعى سَوْقَه، فدعا الذي عَلِمَ من التوراة ـ وهو الكتاب المشار إِليه ـ باسم الله الأَعظم الذي كانت العادة في كل الزمان أَلاَّ يدعو به أَحد إِلاَّ أُجيب، فشُقت الأَرض بذلك العرش حتى نبع بين يديْ سليمان عليه السلام، وقيل: بل جيءَ به في الهواءِ، قال مجاهد: وكان بين سليمان وبين العرش كما بين الكوفة والحيرة، وحكى الرماني أَن العرش حُمل من مأْرب إِلى الشام في قدر رجع البصر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه مسيرة شهرين للمُجِدِّ، وقول مجاهد أَشهر.

ورُوي أَن الجن كانت تخبر سليمان عليه السلام بمناقل سريرها، فلما قربت قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾؟ واختلف المفسرون في الذي عنده عِلْمٌ من الكتاب، من هو؟ فجمهور الناس على أَنه رجل صالح من بني إِسرائيل اسمه آصِف بن برخيا، رُوي أَنه صلى ركعتين ثم قال لسليمان عليه السلام: يا نبي الله امدُد بصرك، فمَدَّ بصره فإِذا بالعرش نحو اليمن، فما ردَّ سليمان بصره إِلاَّ والعرش عنده، وقال قتادة: اسمه مليخا، وقال إِبراهيم النَّخَعي: هو جبريل عليه السلام، وقال ابن لهيعة: هو الخضر، وحكى النقاش عن جماعة أَنهم سمعوا أَنه ضبَّة بن أُدٍّ جَدُّ بني ضبة من العرب، قالوا: وكان رجلاً فاضلاً يخدم سليمان على قطعة من خيله.

---

(١) في الأصول: قبل أن (تُصْلح) عينيك وتفتحهما، والمعنى يستقيم بالفعل تُغْمِض، وهو ما نقله البحر عن ابن عطية.

(٢) يريد به الثاني في اللَّذين تقدما للإتيان بالعرش.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ ضعيف.

وقالت فرقة: بل هو سليمان عليه السلام، والمخاطبة ـ في هذا التأويل ـ للعفريت، لما قال هو: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قيل: كأن سليمان عليه السلام استبطأ ذلك فقال له على جهة تحقيره: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، واستدل قائل هذا القول بقول سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾، واستدلَّ أيضاً بهذا اللَّفظ مناقضه؛ إذْ في كلا الأمرين علم سليمان فضل الله تعالىٰ، وعلى الأقوال الأُوَل المخاطبةُ لسليمان عليه السلام[1]، ولفظ (آتِيكَ) يحتمل أن يكون فعلاً مستقبلاً، ويحتمل أن يكون اسم فاعل، وفي الكلام حذف تقديره: فدعا باسم الله تعالىٰ فجاءَ العرش بقدرة الله تعالىٰ، فلما رآه سليمان مستقراً عنده جعل يشكر نعمة ربِّه بعبارة فيها تعليم للناس، وهي عرضة للاقتداءِ بها والاقتباس منها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَأَشْكر على السرير وسوقه أَمْ أكفر إذ رأيت من هو دوني في الدنيا أعلم منِّي؟[2] وظهر العامل في الظرف من قوله: (مُسْتَقِرًّا)، وهذا هو المقدَّر أبداً في كل ظرف جاءَ هنا مُظْهَراً، وليس في كتاب الله تعالىٰ مثله. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

أَراد سليمان في هذا «التَّنْكير» تجربة ميزها ونظرها، وليزيد في الإغراب عليها، وروت فرقة: أن الجن أَحسَّت من سليمان أَو ظنَّت به أنه ربما تزوج بلقيس، فكرهوا ذلك، ورَمَوْها عنده بأَنها غير عاقلة ولا مميزة، وبأَن رجلها كحافر دابَّة، فجرَّب عقلها

(١) الرأي الذي ذكره ابن عطية من أن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان عليه السلام عارضه أبو حيان في البحر قائلاً: «إنه من أغرب الأقوال»، وقال القرطبي: «ما ذكره ابن عطية قاله النحاس في معاني القرآن له، وهو قول حسن إن شاء الله تعالىٰ».

(٢) وقيل: المعنى: أَأَشكر ذلك من فضل الله عليَّ أم أكفر نعمته بترك الشكر له؟ قاله ابن جرير.

وميزها بتنكير عرشها، وجرَّب أَمر رجلها بأَمر الصرح لتكشف عن ساقها عنده. وقرأَ أَبو حيوة: [نَنْظُرُ] بضم الراءِ.

وتنكير العرش تغيير وصفه وستر بعضه ونحو هذا، وقال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: تنكيره بأَن زيد فيه ونقص منه، وهذا يعترض بأَن من حقِّها ـ على هذا ـ أَن تقول: ليس به وتكون صادقة. وقولها: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ تحرُّز فصيح، ونحوه قوله تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(١)، وقال الحسن بن الفضل: شبَّهوا عليها فشبهت عليهم، ولو قالوا: هذا عرشك؟ لقالت: نعم، وفي الكلام حذف تقديره: فنكَّروا عرشها، ونظروا ما جوابها إِذا سُئِلت عنه، فلما جاءَت قيل: أَهكذا عرشك؟ وقال سليمان عليه السلام عند ذلك: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ الآية، وهذا منه على جهة تعديد نعمة الله تعالىٰ عليه وعلى آبائه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ﴾ الآية، يحتمل أَن يكون من قول نبي الله سليمان عليه السلام، ويحتمل أَن يكون من قول الله تبارك وتعالىٰ إِخباراً لمحمد ﷺ، و«الصَّادُّ»: ما كانت تعبد، أَي عن الإِيمان ونحوه، قال الرماني: عن التَّفَطُّن للعرش؛ لأَن المؤمن فطن يقظ والكافر خبيث، أَو يكون الصادُّ سليمان عليه السلام، قاله الطبري، أَو يكون الصَّادُّ الله عزَّ وجلَّ. ولما كان (صَدَّهَا) بمعنى (مَنَعَهَا) تجاوز ـ على هذا التأْويل ـ بغير حرف جرٍّ، وإِلاَّ فإِنه لا يتعدى إِلاَّ بـ (عَنْ). وقرأَ جمهور الناس: (إِنَّهَا) بكسر الهمزة، وقرأَ سعيد بن جُبير، وابن أَبي عبلة: [أَنَّهَا] بفتح الهمزة، وهو على تقدير: ذلك أَنَّهَا، أَو على البدل من (مَا)، قاله محمد ابن كعب القرظي.

ولما وصلت بلقيس: أَمَرَ سليمان عليه السلام الجِنَّ فصنعت له صرحاً، وهو السطح في الصحن من غير سقف، وجعلته متيناً كالصهريج، ومُلِىءَ ماءً، وبث فيه السمك والضفادع، وطُبِّق بالزجاج الشَّفَّاف، وبهذا جاءَ صرحاً، والصَّرْح أَيضاً كل بناءٍ عالٍ، وكل هذا من التصريح، وهو الإِعلان البالغ، وجُعل لسليمان في وسطه كرسيٌّ، فلما وصلته بلقيس قيل لها: ادخلي إِلى النبي ﷺ، فرأَت اللجة وفزعت وظنت أَنه قصد بها الغرق، وعجبت من كون كرسيه على الماءِ، ورأَت ما هالَهَا، ولم يكن لها بُدٌّ من امتثال الأَمر فكشفت عن ساقيها، فرأَى سليمان ساقيها سليمتين غير أَنَّها كثيرة الشَّعر،

---

(١) من الآية (٣٤) من سورة (فُصِّلَت).

فلمَّا بلغت هذا الحدّ قال لها سليمان عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾، والمُمَرَّد: المكحول الأملس، ومنه: الأَمْرَدُ، والشجرةُ المَرْدَاءُ: التي لا ورق عليها، والمُمَرَّدُ أَيضاً: المُطَوَّل ومنه قيل للحصن: ماردٌ(١)، وعند ذلك استسلمت بلقيس وأَذعنت وأَسلمت، وأَقرت على نفسها بالظلم، فيروى أَن سليمان عليه السلام تزوجها عند ذلك وأَسكنها الشام، قاله الضحاك، وقال سعيد بن عبد العزيز في كتاب النقَّاش: تزوجها وردَّها إِلى مُلْكها باليمن، وكان يأْتيها على الريح كل شهر مرة، فولدت له ولداً أَسماه داود، مات في حياته، و(مَعَ) ظرف، وقيل: حرف بُني على الفتح، وأَمَّا إِذا سُكِّنت العَيْن فلا خلاف أَنه حرفٌ جاءَ لمعنى(٢).

وقرأَ ابن كثير وحده ـ في رواية الإخريط ـ: [عن سأْقيها] بالهمز، قال أَبو عليٍّ: وهي ضعيفة، وكذلك يضعف الهمز في قراءَة قنبل: [يكشف عن سأْق](٣)، وأَما همز [بِالسُّؤْقِ](٤)، و[على سؤْقه](٥) فلغة مشهورة في همز الواو التي قبلها ضمة، حكى أَبو عليٍّ أَن أَبا حيَّةَ النُّمَيْرِيَّ كان يهمز كلَّ واو قبلها ضمَّة، وأَنشد:

أَحَبُّ المؤْقدان إِلَيْكَ مُؤْسَى . . . .(٦)

---

(١) وقال أَبو صالح: هو الطويل على هيئة النخلة، وقال ابن شجرة: مُمَرَّدٌ: واسعٌ في طوله وعرضه، قال الشاعر:

غَدَوْتُ صباحاً باكراً فَوَجَدْتُهُم قُبَيْلَ الضُّحَى في السَّابِرِيِّ المُمَرَّدِ

أي: الدروع الواسعة.

(٢) قال أبو حيان في البحر: «والصحيح أنها ظرف فُتحت العين أو سُكِّنَت، وليس التسكين مخصوصاً بالشعر كما زعم بعضهم، بل ذلك لغة لبعض العرب، والظرفية فيها مجاز، وإنما هو اسمٌ يدل على معنى الصحبة».

(٣) في الآية (٤٢) من سورة (القلم)، وهي قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

(٤) من قوله تعالىٰ في الآية (٣٣) من سورة ﷺ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾.

(٥) من قوله تعالىٰ في الآية (٢٩) من سورة (الفتح): ﴿فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾.

(٦) هذا صدر بيت نسبه في اللسان لجرير، والبيت بتمامه:

أَحَبُّ الْمُؤْقِدَانِ إِلَيْكَ مُؤْسَى وَجعْدَةَ إِذْ أَضَاءَهُمَا الْوَقُودُ

ولم يذكر اللسان إلا الشطر الأول، قال: «وساقُ الشجرة: جذعُهَا، وجمع ذلك أَسْوُقٌ وأَسْؤُقٌ. . . توهموا ضمة السِّين على الواو، وقد غلب ذلك على لغة أَبي حيَّةَ النُّمَيْرِيِّ، وهمزها جريرٌ في قوله: أَحَبُّ المؤقِدَان إليك مُؤْسَى. ورُوي: أحبُّ المؤْقدين، وعليه وجَّه أبو علي قراءَة من قرأَ: [عاداً الأؤلى]. اهـ.

وَوَجْهُهَا أَن الضمة تقدر على الواو إذ لا حائل بينهما. وقرأ ابن مسعود: [عَنْ رِجْلِهَا]. ورُوِي أَن سليمان عليه السلام لما أَراد زوال شَعْر ساقيها أَشفق من حمل الموسى عليها، وقيل: إنها قالت: ما مَسَّنِي حديد قط، فأَمر الجن بالتَّلَطُّف في زواله فصنعوا النُّورَةَ[١] ولم تكن قبل في الأُمم.

وهذه الأُمور التي فعلها سليمان عليه السلام: من سَوْق العرش، وعمل الصَّرْح، وغير ذلك، قصد بها الإِغرابَ عليها، كما سلكتْ هي قبْلُ سبيل ملوك الدنيا في ذلك بأَن أَرسلت الجواري والغلمان، واقترحت في أَمر القَدَح والدُّرَّتَيْن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

هذه الآية على جهة التمثيل لقريش، و(أَنْ) في قوله سبحانه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يحتمل أَن تكون مُفَسِّرَة، وأَن تكون في موضع نصب، والتقدير: بأَن اعبدوا الله. و(فَرِيقَانِ) يريد به: من آمن بصالح ومن كفر به. و«اخْتِصَامُهُم» تنازُعهم وحدهم، فذكر اللهُ تبارك وتعالىٰ ذلك في سورة الأَعراف.

ثم إن صالحاً عليه السلام تلطَّف بقومه، وترفَّق بهم في الخطاب، فوقفهم على خطئهم في استعجالهم العذاب مما يقتضي هلاكهم، ثم حضهم على ما هو أَسرُّ من ذلك وأَعْود بالخير، وهو الإِيمان وطلب المغفرة ورجاءُ الرحمة، فأَجابوا ـ عند ذلك ـ بقول سَفْسَاف[٢]، معناه: تَشَاءَمْنا بك، قال المفسرون: وكانوا في قحط فجعلوه لذات

= واستشهد أبو عثمان بن جني بهذا الشطر أيضاً، والرواية فيه: لحَبَّ المؤقدانِ إليَّ مُؤْسَى. وقال محقق الكتاب في الهامش: وعجزه: وجعدة... إلخ. ويُعَلِّل ابن جني الهمز في (مؤسى) تعليلاً طويلاً خلاصته أن العرب تقدِّر أن حركة المتحرك إذا جاور الساكن كأنها في الساكن، فكأن ضمة (مُوسَى) في الواو، والواوُ إذا انضمت ضمّاً لازماً فهمْزُهَا جائز، تقول في (وُجُوه): أُجُوه، وعلى هذا جاءَ همزُ (مُؤْسَى)، ثم ذكر الشاهدَ عن شيخه أَبي عليّ.

(١) النُّورة: أَخلاط من أملاح الكلسيوم والباريون تستعمل لإزالة الشعر (المعجم الوسيط ـ عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة).

(٢) السَّفْساف: الرديءُ من كلِّ شيءٍ، والأمر الحقير، وكل عمل دون الإحكام.

صالح عليه السلام. وأَصل الطِّيَرَةَ ما تعارفه أَهل الجهل من زَجْرِ الطَّيْر، وشبَّهت العرب ما عنَّ بما طار حتى حصل، سُمي ما حصل للإِنسان في فزعه ونحوه طائراً، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾(١)، وخاطبهم صالح ببيان الحق، أَي: طائركم على زعمكم وتسميتكم ـ وهو حَظُّكم في الحقيقة ـ من تعذيب أَو إِعفاءٍ هو عند الله تعالىٰ، وبقضائه وقدره، وإِنما هُو أَنهم قوم يختبرون، وهذا أَحد وجوه الفتنة، وقد يمكن أَن يريد: بل أَنتم قوم تولعون بشهواتكم، وهذا معنى قد تعارف الناسُ استعمال لفظ الفتنة منه، ومنه قولك: «فُتِن فلانٌ بفلان»، وشاهد ذلك كثير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾.

ذكر الله تعالىٰ في هذه الآية تسعة رجال كانوا من أَوجه القوم وأَفناهم وأَغناهم، وكانوا أَهل كفر ومعاص جَمَّة، جملة أَمرهم أَنهم يفسدون في الأَرض ولا يُصلحون، قال عطاءُ بن أَبي رباح: بلغني أَنهم كانوا يقرضون الدنانير والدراهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا نحو الأَثر المروي: (قطع الدنانير والدراهم من الفساد في الأَرض)، و(الْمَدِينَة): مجتمع ثمود وقريتهم، و«الرَّهْطُ»: من أَسماءِ الجمع القليل، العشرة فما دونها، و(تِسْعَةُ رَهْطٍ) كما تقول: تسعة رجال، وهؤلاءِ المذكورون كانوا أَصحاب قدار بن سالف: عاقر الناقة، وقد تقدم في غير هذا الموضع ما ذُكر في أَسمائهم.

وقوله تعالىٰ: (تَقَاسَمُوا)، حكى الطبري أَنه يجوز أَن يكون فعلاً ماضياً في موضع الحال، كأَنه قال: متقاسمين، أَو متحالفين بالله، وكأَن قولهم: (لَنُبَيِّتَنَّهُ) حَلِفٌ، ويؤيد هذا التأْويل أَن في قراءَة عبد الله: [وَلاَ يُصْلِحُونَ، تَقَاسَمُوا] بسقوط [قَالُوا]، ويحتمل ـ وهو تأْويل الجمهور ـ أَن يكون (تَقَاسَمُوا) فعل أَمر، أَشار بعضهم على بعض بأَن

---

(١) من الآية (١٣) من سورة (الإسراء).

يتحالفوا على هذا الفعل بصالح، فـ(تَقَاسَمُوا) هو قولهم على هذا التأويل. وهذه الألفاظ الدالة على قسم أو جواب تجاب باللام وإن لم يتقدم قَسَم ظاهر، فاللاَّم في (لَنُبَيِّتَنَّهُ) جوابُ ذلك. وقرأ جمهور القراءِ: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ بالنون فيهما، وقرأ الحسن، وحمزة، والكسائي بالتاءِ فيهما، وبِضَمِّ التَّاءِ واللام على الخطاب، أي: تخاطبوا بذلك، وقرأ مجاهد، وحميد بن قيس بالياءِ فيهما على الخبر، فهذا ذَكَرَ اللهُ فيه المعنى الذي أرادوه لا بحسب لفظهم.

وروي في هذه الآية أن هؤلاءِ التسعة لما كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة وقد أخبرهم صالح عليه السلام بمجيءِ العذاب، اتفق هؤلاءِ التسعة فتحالفوا على أن يأتوا دار صالح ليلاً فيقتلوه وأهله المختصين به، قالوا: فإن كان كاذباً في وعيده أوقعنا به ما يستحق، وإن كان صادقاً كنا قد أعجلناه قبلنا وشفينا نفوسنا. قال الراوي: فجاؤوا واختفوا لذلك في غار قريب من داره، فروي أنه انحدرت عليهم صخرة سدحتهم(١) جميعاً، ورُوي أنها طبقت عليهم الغار فهلكوا فيه حين هلك قومهم، وكل فريق لا يعلم بما جرى على الآخر، وكانوا قد بنوا على جحود الأمر من قرابة صالح الذين يمكن أن يغضبوا له، فهذا مكرهم. والمكر نحو الخديعة، وسمَّى الله تبارك وتعالىٰ عقوبتهم باسم ذنبهم، وهذا مهيع، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾(٢)، وغير ذلك.

وقرأ الجمهور: [مُهْلَكَ] بضم الميم وفتح اللام، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بفتحهما، ورُوي عنه بفتح الميم وكسر اللام(٣).

و«العَاقِبَةُ» حالٌ تقتضيها البدأة وتؤدي إليها، ويعني بالأهل كل من آمن معه، قاله الحسن. وقرأ جمهور القراءِ [إنا دمرناهم] بكسر الألف، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾، وهي قراءَة الحسن وابن أبي إسحاق، فـ[كَانَ] ـ على قراءَة الكسر في الألف ـ تامَّة، وإن قُدِّرت ناقصة فخبرها محذوف، أو يكون الخبر [كَيْفَ] مقدماً؛ لأن صدر الكلام لها، ولا يعمل ـ على هذا ـ (ٱنْظُرْ) في (كَيْفَ)، لكن

---

(١) أي صرعتهم وبطحتهم على وجوههم.

(٢) من الآية (١٥) من سورة (البقرة).

(٣) وهي رواية حفص عن عاصم، أما قراءة الجمهور فتحتمل المصدر والزمان والمكان، وأما الثانية وهي رواية أبي بكر عن عاصم فالقياس يقتضي الزمان والمكان، أي: ما شهدنا زمان هلاكه ولا مَكانه، وأما قراءة حفص عن عاصم فإن القياس يقتضي أن تكون مصدراً، أي: ما شهدنا هلاكه.

يعمل في موضع الجملة كلها، وهي على قراءة فتح الألف ناقصة، وخبرها [أَنَّا]، ويجوز أن يكون الخبر (كَيْفَ)، ويكون (أَنَّا) بدلاً من «العاقبة»، ويجوز أن تكون (كَانَ) تامة و[أنا] بدلاً من «العاقبة»، ووقع تقدير السؤال بـ(كَيْفَ) عن جملة قوله: ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾، وقرأ أبي بن كعب: [أَنْ دَمَّرْنَاهُمْ]، وهذه تؤيد قراءة الفتح في [أَنَّا].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

أمر البيوت وخرابها مما أخبر الله تعالىٰ، ففي كل الشرائع أنه إنما يعاقب به الظلمة، وفي التوراة: «ابن آدم، لا تظلم، يخرب بيتك»، و(خَاوِيَةً) نصب على الحال التي فيها الفائدة، ومعناها: الخالية قفراً[1]، قال الزَّجاج: وقرئت [خَاوِيَةٌ] بالرفع، وذلك على الابتداءِ المضمر، والتقدير: هي خاوية، أو عن الخبر عن (تِلْكَ) و(بُيُوتُهُمْ) بدلٌ، أو على خبر ثان، وهذه البيوت المشار إليها هي التي قال فيها النبي ﷺ عام تبوك: «لا تدخلوا على هؤلاءِ المعذبين إلاَّ أن تكونوا باكين. . . الحديث»[2].

ثم قال تبارك وتعالىٰ: (وَلُوطاً)، تقديره: واذكر لوطاً. و(ٱلْفَاحِشَةَ): إتيان الرجال في الأدبار (تُبْصِرُونَ) معناه: بقلوبكم أنها خطيئة وفاحشة. وقالت فرقة: تبصرون بأبصاركم؛ لأنكم تتكشفون بفعل ذلك ولا يستتر بعضكم من بعض.

---

(١) هذا رأي الفراء والنحاس، والمعنى أنها صارت خراباً ليس بها ساكن، وقال الكسائي وأبو عبيدة: نصبت (خَاوِيَةً) على القطع، مجازُهُ: فتلك بيوتُهم الخاوية، فلما قطع منها الألف واللام نصبت على الحال.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة والمغازي، ومسلم في الزهد، وأحمد (٢ـ٥٨، ٧٢، ٧٤، ٩١، ١١٣، ١٣٧)، ولفظه كما في المسند عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين أصحاب الحِجر إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم ما أصابهم».

واختلف القراءُ في قوله: (أَئِنَّكُمْ)، وقد تقدم. وقرأَ جمهور القراءِ: (جَوَابَ) نصباً، وقرأَ الحسن، وابن أَبي إِسحاق: [جَوَابُ] بالرفع، ونسب ابن جني قراءَة الرَّفع إلى الحسن، وفسَّرها في الشَّاذِّ[١].

وأَخبر الله تعالىٰ عن قوم لوط أَنهم كانوا تركوا في جوابهم طريق الحجة، وأَخذوا بالمغالبة، فتآمروا بإِخراجه وإِخراج من آمن معه، ثم ذمُّوهم بمدحة وهي التَّطهُّر من هذه الدناءَة التي هم أَصفقوا عليها. قال قتادة: عابوهم واللهِ بغير عيب. وقرأَ عاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ: [قَدَرْنَاهَا] بتخفيف الدال، وقرأَ جمهور القراءِ بشد الدَّال، والأُولى بمعنى: جعلناها وحصلناها، والثانية بمعنى: قدَّرنا عليها، من القدر والقضاءِ.

و«الغابرون»: الباقون في العذاب، وغَبَرَ بمعنى بَقِيَ، وقد يجيءُ أَحياناً في بعض كلام العرب ما يوهم أَنه بمعنى مَضَى، وإِذا تُؤمل توجه حمله على معنى البقاءِ، والمطر الذي أُمطر عليهم هو حجارة السِّجِّين أَهلكت جميعهم، وهذه الآية أَصل لمن جعل من الفقهاءِ الرَّجم في اللوطية، وبها تأَنَّس لأَن الله تعالىٰ عذَّبهم على كفرهم به، وأَرسل عليهم الحجارة لمعصيتهم، ولم يقس هذا القول على الزِّنى فيعتبر الإِحصان، بل قال مالك وغيره: يرجمان في اللُّوطية أُحصنا أَو لم يُحْصنا، وإِنما وَرَدَ عن النبي ﷺ: «اقتلوا الفاعل والمفعول به»[٢]، فذهب من ذهب إِلى رجمهما بهذه الآية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

قرأَ أَبو السمال: [قل الحمد لله] بفتح اللام، وكذلك في آخر السورة[٣]، وهذه

---

(١) قال ابن جني في المحتسب: «أقوى من هذا (جوابَ) بالنصب، ويجعل اسم (كان) قوله: ﴿أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾ لِشبَه (أَنْ) بالمضمر من حيث كانت لا توصف كما لا يوصف» (٢ـ١٤١).

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود، وكذلك الترمذي وابن ماجه، والإمام أحمد (١ـ٢٦٩)، واللفظ عند الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «من وقع على بهيمة فاقتلوه واقتلوا البهيمة».

(٣) في قوله سبحانه في الآية (٩٣): ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾.

ابتداءُ تقرير وتثبيت لقريش، وهو أَيضاً يعم كلَّ مكلف من الناس جميعاً، وافتتح ذلك بالقول بحمده وتمجيده والسلام على عباده الذين اصطفاهم للنبوة والإِيمان، وهذا اللفظ عام لجميعهم من ولد آدم، وكأَن هذا صدر خطبة للتقرير المذكور، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: العبادُ المُسَلَّم عليهم هم أَصحاب النبي ﷺ، واصطفاهم لنبيِّه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا الاختصاص توبيخ للمعاصرين من الكفار.

وقال الفراءُ: الأَمر بالقول في هذه الآية هو لِلُوطٍ عليه السلام. قال المفسرون: وهذه عجمة من الفَرَّاءِ.

ثم وقف قريشاً والعربَ ـ على جهة التوبيخ ـ على موضع التَّبايُن بين الله عزَّ وجلَّ وبين الأَوثان والأَنصاب. وقرأَ جمهور الناس: (تُشرِكُونَ) بالتاءِ من فوق، وحكى المهدوي عن أَبي عمرو، وعاصم: [يُشْرِكُونَ] بالياءِ من تحت.

وفي هذا التفضيل بلفظة (خَيْر) أَقوال: أَحدها أَن التفضيل وقع بحسب معتقد المشركين؛ إِذْ كانوا يعتقدون أَن في آلهتهم خيراً بوجه مَّا، وقالت فرقة: في الكلام حذف مضاف في الموضعين، التقدير: أَتوحيد الله خير أَم عبادة ما تشركون؟ فـ (ما) في هذا التأْويل بمعنى الذي، وقالت فرقة: (مَا) مصدرية، وحذف المضاف إِنما هو أَولاً، وتقديره: أَتوحيد الله خير أَمْ شِرْكِكُم؟ وقيل: (خَيْرٌ) هنا ليست بأَفعل، وإِنما هي بفعل، كما تقول: «الصلاة خيْرٌ» دون تفضيل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد تقدم أَن هذه الأَلفاظ التي تعم معاني كثيرة كخَيْر وشَرّ وأَحب ونحو ذلك قد يقع التفضيل بها بيْن أَشياءَ متباينة؛ لأَن المتباينات رُبَّما اشتركت فيها ولو بوجه ضعيف بعيد، وأَيضاً فهذا تقرير، والمجادل يقرر خصمه لتنبيهه على خطئه وإِلزامه بحصر التفضيل في جانب واحد وانتفائه عن الآخر، وقد استوعبنا هذا فيما مضى. وقالت فرقة: تقدير هذه الآية: آللهُ ذو خير أَمَّا تُشركون؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا النوع من الحذف بعيد.

وقرأ الحسن، وقتادة، وعاصم: (يُشْرِكُونَ) بالياءِ من تحت، وقرأ أهل المدينة ومكة والكوفة بالتّاءِ من فوق.

وقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ وما بعدها من التوقيفات توبيخٌ لهم، وتقرير على ما لا مندوحة لهم عن الإقرار به، وقرأ الجمهور: (أَمَّنْ) بشدِّ الميم، وهي (أَمْ) دخلت على (مَنْ)، وقرأ الأعمش: [أَمَنْ] بفتح الميم مسهَّلة، ويحتمل ـ على هذه القراءَة ـ أَن تكون الأَلف للاستفهام و(مَنْ) ابتداءً، وتقدير الخبر: يُكْفَر بنعمته ويُشْرَك به؟ ونحو هذا من المعنى[1]. و«الحدائق» مُجْتَمع الأَشجار من العنب والنخيل وغير ذلك، وقال قوم: لا يقال: «حديقة» إلاَّ لما عليه جدار قد أَحدق به، وقال قوم: تقول ذلك إذا كان جدار أَوْ لم يكن لأَن البياض محدق بالأشجار. و«الْبَهْجَة»: الجمال والنُّضرة، وقرأ ابن أَبي عبلة: [ذَوَاتِ بَهْجَةٍ]. ثم أَخبر سبحانه ـ على جهة التوقيف ـ أَنه ما كان للبشر، أَي: ما يتهيَّأُ لهم، ولا يقع تحت قدرتهم أَنْ ينْبتوا شجرها؛ لأَن ذلك يكون بإِخراج شيءٍ من العدم إلى الوجود. وقد تقدم ترتيب القراءَة في الهمزتين من قوله: [أَئِنَّ][2] و﴿أئنك لأنت يوسف﴾[3]. وقوله: (أَإِلـٰهٌ)[4]، قال أَبو حاتم: القراءَة باجتماع الهمزتين محدثة لا توجد في كلام العرب ولا قرأ بها قارىء عتيق. و(يَعْدِلُونَ) يجوز أَن يراد به: يعدلون عن طريق الحق، أَي: يجورون في فعلهم، ويجوز أَن يراد به: يعدلون بالله غَيْرَه، أَي: يجعلون له عديلاً ومثيلاً.

و(خِلاَلَهَا) معناه: بَيْنَها وأَثْنَاءَها، و«الرَّوَاسي»: الجبال، رَسَا الشيءُ يرسو إذا ثبت وتأَصَّل، و«الْبَحْرَانِ»: الماءُ العذب بجملته، والماءُ الأُجاج بجملته، و«الحاجِزُ»:

---

(١) وقدر الزمخشري الخبر: (خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكون)؟ قال أبو حيان تعليقاً على رأي الزمخشري: «قدَّر ما أثبت في الاستفهام الأول، بدأ أَوَّلاً في الاستفهام باسم الذات، ثم انتقل فيه إلى الصفات».

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (١١٣) من سورة (الأعراف): ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ فقد قرىء بتحقيق الهمزتين، وبتحقيق الأولى وتَلْيين الثانية، وبطرح الأولى وتحقيق الثانية.

(٣) من الآية (٩٠) من سورة (يوسف) فإنه يقرأُ بهمزتين محقَّقتَيْن، وبهمزة ومدَّة وياءٍ بعدها، وبالإخبار من غير استفهام، وسيأتي مثل ذلك في قوله تعالىٰ في الآية (٦٧) من هذه السورة: ﴿أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون﴾. كما أنه مضى أيضاً في قوله تعالىٰ في الآية (٥٥) من هذه السورة: ﴿أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾.

(٤) في هذه الآية، وفيها من القراءات ما في مثيلاتها.

ما جعل الله بينهما من حواجز الأَرْض وموانعها على رِقَّتها في بعض المواضع ولطافتها التي لولا قدرة الله تبارك وتعالىٰ لغلب المِلْحُ العذبَ، وكلُّ ما مضى من القول في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ الآية(١) فهو مترتب هنا فتأمله. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

وقفهم في هذه الآيات على المعاني التي يتبيَّن لكل عاقل أنه لا مدخل لِصَنم ولا لِوَثن فيها، فهي عِبَرٌ ونِعَمٌ، فالحجة قائمة بها من الوجهين.

وقوله تعالىٰ: ﴿يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ معناه: بشرط أَنْ يشاءَ على المعتقد في الإِجابة، لكن المضطر لا يُجيبه متى أُجيب إِلاَّ الله عزَّ وجلَّ، و(ٱلسُّوءَ) عامٌّ في كل ضر يكشفه الله تعالىٰ عن عباده. وقرأَ الحسن: [وَيَجْعَلَكُمْ] بياءٍ على صيغة المستقبل، ورويت عنه بنون. وكل قرْنٍ خلف لِلّذي قبله(٢)، وقرأَ الجمهور: (تَذَكَّرُونَ) بالتاءِ على المخاطبة، وقرأَ أَبو عمرو وحده(٣)، والحسن، والأَعمش بالياءِ على الغيبة. و«الظُّلُمَات» عام لظُلْمة الليل التي هي الحقيقة في اللغة، ولِظُلَم الجهل والضَّلال والخوف التي هي مجازات وتشبيهات، وهذا كقول الشاعر:

* تَجَلَّتْ عَمَايَاتُ الرِّجالِ عَنِ الصِّبَا *(٤)

---

(١) من الآية (٥٣) من سورة (الفرقان).

(٢) أَي: يُهْلِكُ قوماً ويُنْشِيء آخرين يخلفونهم، وفي كتاب النقاش: أَي ويجعل أَولادكم خَلَفاً منكم، وقال الكلبي: خَلَفاً من الكفار ينزلون أرضهم، وقيل: خلفاءُ النبي ﷺ بعد موته، وقيل: الخلافة في الأرض هي المُلْك والتسلط.

(٣) أي: من السبعة، وإلا فقد قرأ بها الحسن والأعمش على ما ذكره المؤلف.

(٤) الموجود في الأصول: (تَجلَّت عماياتُ الرِّجال) فقط، وأكملنا عن (اللسان ـ عمي)، قال: «والعَمَاية: الجهالة بالشيء، ومنه قوله: * تَجَلَّتْ عَمَايَاتُ الرِّجالِ عَنِ الصِّبَا *، وعَمَايَةُ الجاهلية: جهالَتُها»، =

وكما تقول: أَظْلَم الأَمر وأَنار، وقد تقدم اختلاف القراءِ في قوله: (بُشْراً)، وقرأَ الحسن وغيره: (يُشْرِكُونَ) بالياءِ على الغيبة، وقرأَ الجمهور: [تُشْرِكُونَ] على المخاطب.

و«بَدْءُ الْخَلْق» اختراعُه وإِيجادُه، و(الخلْق): هنا المخلوق من جميع الأَشياءِ، لكن المقصود بنو آدم من حيث ذكر الإِعادة والبعث من القبور، ويحتمل أَن يريد بـ (ٱلْخَلْق) مصدر: خَلَق يخلُق، ويكون (يَبْدَأُ) و(يُعيدُ) استعارة للإِتقان والإِحسان، كما تقول: فلان يبدىء ويعيد في أَمر كذا وكذا، أَي يُتقنه. و«الرِّزْق» من السماءِ بالمطر، ومن الأَرض بالنبات، هذا مشهور ما يحسُّه البشر، وكم لله تبارك وتعالىٰ من لطف خفي.

ثم أَمر عزَّ وجلَّ نبيَّه أَن يوقفهم على أَن الغيب ممَّا انفرد به الله عزَّ وجلَّ، ولذلك سُمِّي غيباً لغيبته عن المخلوقين، ورُوي أَن هذه الآية من قوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ﴾ إِنما أُنزلت لأَن الكفار سأَلوا وأَلَحُّوا عن وقت القيامة التي يعدهم، فنزلت هذه الآية بالتسليم لأَمر الله تعالىٰ وترك التحديد، وأَعلم عزَّ وجلَّ أَنه لا يعلم وقت الساعة سواه، فجاءَ بلفظ يعُمُّ السامع وغيره، وأَخبر عن البشر أَنهم لا يشعرون أَيَّان يُبعثون، وبهذه الآية احتجت عائشة رضي الله تعالىٰ عنها على قولها: «ومَنْ زَعم أَن محمداً يعلم الغيب فقد أَعظم على الله الفرية»[1]. والمكتوبة في قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بدل مِنْ (مَنْ)[2]. وقرأَ

= والمعنى: ذهَبت جهالات الصِّبا وزالت. والشاهد أن الظلمات تطلق مجازاً على جهالات الصِّبا.

(١) أخرج الطيالسي، وسعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات ـ عن مسروق قال: كنت مُتَّكِئاً عند عائشة، فقالت عائشة: ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: وما هُنَّ؟ قالت: من زعم أن محمداً رأى ربَّه فقد أعظم على الله الفرية، قال: وكنت مُتَّكِئاً فجلست، فقلت: يا أُم المؤمنين أَنْظِريني ولا تعجلي عليَّ، أَلم يقل الله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾؟ فقالت: أنا أول هذه الأُمة سأل عن هذا رسولَ الله ﷺ، فقال: جبريل، لم أَره على صورته التي خُلق عليها غير هاتين المرَّتَيْن، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عُظْمَ خلقه ما بين السماءِ إلى الأرض، قالت: أَو لم تسمع الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، أَو لم تسمع الله يقول: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ إلى قوله: ﴿عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾؟ ومن زعم أنَّ محمداً كتَم شيئاً من كتاب اللهِ فقد أَعظم على الله الفرية، واللهُ جلَّ ذكره يقول: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، قالت: ومن زعم أنه يخبر الناس بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالىٰ يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، (الدر المنثور، وفتح القدير).

(٢) المكتوبةُ هي لفظ الجلالة في قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، يقول ابن عطية إنَّها بدلٌ من (مَنْ) في قوله تعالىٰ: ﴿

جمهور الناس: [أَيَّانَ] بفتح الهمزة، وقرأَ أَبو عبد الرحمن السُّلَمي: [إِيَّانَ] بكسرها، وهما لغتان[١].

وقرأَ جمهور الناس: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ ﴾، أَصله: تَدَارك، أُدغمت التاءُ في الدال بعد أَن أُبدلت، ثم احتيج إِلى أَلف الوصل، وقرأَ أُبيٌّ بن كعب: [تَدَارَكَ] فيما رُوي عنه[٢]، وقرأَ عاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ: [بل ادرك] على وزن افتَعَل[٣]، وهي بمعنى تفاعل، وقرأَ سليمان بن يسار[٤]، وعطاءُ بن يسار[٥]: [بل ادرك] بفتح اللامَ ولا همزٍ، وبتشديد الدال دون أَلف[٦]، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وجعفر، وأَهل مكة: [بَلْ

= ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ﴾، ومعنى هذا أنه يرى أن الاستثناءَ مُتَّصل، والرفع على البدل أَفصح من النصب على الاستثناءِ؛ لأَنه استثناءٌ من نفي متقدم، ويصح أن يكون الرفع على الصفة. لكن أبا حيَّان الأندلسي يرى أنه لايصح أن يكون ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مندرجاً في مدلول (مَنْ) فيكون قوله: ﴿في السموات والأرض﴾ ظرفاً حقيقيّاً للمخلوقين فيهما، وظرفاً مجازيّاً بالنسبة إليه تعالىٰ، بمعنى أنه فيهما بِعِلْمِه؛ لأن في ذلك جمعاً بين الحقيقة والمجاز، ثم قال أبو حيّان: «وأكثر العلماءِ ينكر ذلك، وإنكاره هو الصحيح».

(١) يقول العلماءُ: إن الله تعالىٰ لما نفى عنهم علم الغيب على العموم عاد ونفى عنهم هذا الغيب المخصوص وهو وقت الساعة والبعث، فصار منتفياً مرَّتين؛ إذ هو مندرج في عموم الغيب ومنصوص عليه بخصوصه.

(٢) وهي قراءَة على الأصل؛ لأن (ادَّارك) أصلها (تَدارَك) ثم حصل الإبدال والإدغام والاحتياج إلى ألف الوصل.

(٣) قال أبو الفتح عنها: لا سؤال فيها، مع كسر اللام لسكون اللام وسكون الدال بعدها.

(٤) هو سليمان بن يسار الهلالي، المدني، مولى ميمونة، وقيل: أُم سَلَمَة، ثقة فاضل، أَحد الفقهاء السبعة: من كبار الثالثة، مات بعد المئة، وقيل قبلها. (تقريب التهذيب).

(٥) هو عطاءُ بن يسار الهلالي، شقيق سليمان بن يسار، وهو أيضاً مولى ميمونة، ثقة فاضل، صاحب مواعظ وعبادة، من الثالثة، مات سنة أَربع وتسعين، وقيل: بعد ذلك. (تقريب التهذيب)، وقد أجمعت كل كتب التفسير على نِسْبة هذه القراءَة إلى سليمان وأخيه، إلا أن كتاب المحتسب لابن جني قال في الجزء الثاني صفحة ١٤٢: (ومن ذلك قراءة سليمان بن يسار وعطاءِ بن السائب)، وأعتقد أن الصواب: «عطاءِ بن يسار»، والله أعلم.

(٦) أكثر كتب التفسير والقراءات على هذا الضبط، وفيه تشديد الدال، إلا في المحتسب لابن جني، فقد ضبطها المحققون بسكون الدال مع فتح اللام في (بَل)، قال أبو حيان الأندلسي: «وذلك بناءً على أن وزنه افْتَعَل، فأدغم الدال ـ وهي فاءُ الكلمة ـ في التاءِ بعد قلبها دالاً، فصار قَلْبُ الثاني للأول؛ لقولهم: اثَّرَدَ، وأَصله: اثْتَرَدَ من الثَّرْد، والهمزة المحذوفة المنقول حركتها إلى اللام هي همزة الاستفهام أُدخلت على أَلف الوصل فانحذفت أَلف الوصل، ثم انحذفت هي وأُلقيت حركتها على لام (بَلْ). وهذا يؤكد أن=

أَدْرَكَ][١] وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب: [أم تَدَارَكَ عِلْمُهُم][٢]، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: [بَلَى أَدْرَكَ][٣]، وقرأ ابن عباس أيضاً: [بَلْ آدَّارَكَ] بهمزة ومدَّة على جهة الاستفهام[٤]، وقرأ ابن محيصن: [بل آدرك] على الاستفهام، ونسبها أَبو عمرو الداني إلى ابن عباس والحسن[٥].

فأمَّا قراءَة الاستفهام فهي على معنى الهُزْءِ بالكفرة، والتقرير لهم على ما هو في غاية البعد عنهم، أَيْ: أَعَلِمُوا أَمْر الآخرة وأَدركها علمهم؟ وأَما القراءَة الأُولى[٦] فتحتمل معنيَيْن: أَحدهما: بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهم، أَيْ: تناهَى، كما تقول: أَدْرك النباتُ وغيره، وكما تقول: هذا ما أَدرك علمي من كذا وكذا، فهذا قد تتابع وتناهَى علمُهم بالآخرة إلى أَن يعرفوا لها مقداراً فيؤمنوا، وإنما لهم ظنون كاذبةٌ، أَو أَلاَّ يعرفوا لها وقتاً، وكذلك ادَّارَكَ وتَدَارَكَ وسواها، وإن حملت هذه القراءَة معنى التوقيف والاستفهامِ ساغَ، وجاءَ

= الدال مشددة لا ساكنة.

(١) وهي من الإِدْراك، قاله القرطبي، وقال في البحر المحيط: ورويَتْ عن أَبي بكر عن عاصم.

(٢) قال الثعلبي: «إن العرب تضع (بَلْ) موضع (أَمْ) و(أَمْ) موضع (بَلْ) إذا كان في أول الكلام استفهامٌ، ومن ذلك قول الشاعر:

فَــوَالله لا أَدْري أَسَلْمَــى تَقَــوَّلَــتْ ... أَم القَــوْلُ أَمْ كُــلٌّ إلــيَّ حَبيــبُ؟

أي: بَلْ كُلٌّ إليَّ حبيب. ويروى: (تَلَوَّنَت) بدلاً من (تَقَوَّلَتْ)، ويروى: (أَمِ النَّوْمُ) بدلاً من (أَمِ القَوْلُ).

(٣) قال ذلك في المحتسب؛ لكنه جعل (بَلَى) بالياءِ مع الفعل (آدْرَكَ) ممدوداً، ووضحها بقوله: «أَمَّا (بَلَى) فكأَنَّهُ جوابٌ، وذلك أنه لما قال: ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ فكأَنَّ قائلاً قال: ما الأمر كذلك، فقيل له: (بَلَى)، ثم استؤنف الكلام».

(٤) قال أبو حيان: «أَيْ بهمزة داخلة على (ادَّارَكَ)، فيسقط همزة الوصل المجتلبة لأجل الإدغام والنطق بالسكن».

(٥) أَصله: (أَأَدْرَكَ) فقلبت الثانية أَلفاً تخفيفاً كراهة الجمع بين همزتين، وأنكر أَبو عمرو بن العلاءِ هذه الرواية وَوَجَّهَهَا. قال ذلك في البحر المحيط، والقراءات المروية في هذه الجملة اثنتا عشرة قراءة، منها اثنتان فقط للقراءِ السبعة.

هذا وقد أحسن الإمام ابن خالويه حين قال ملخصاً هذه القراءات: «يُقْرَأُ بفتح الألف وسكون الدال ـ وبوصل الألف وتشديد الدال وزيادة ألف بين الدال والراءِ، فالحجة لمن قرأ بقطع الألف أنه جعله ماضياً من الأفعال الرباعية، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، والحجة لمن وصلَ وشدَّد وزاد ألفاً أن الأصل عنده (تدارك) فحصل الإبدال والإدغام والإتيان بألف الوصل».

(٦) هي قراءة الخبر لا الاستفهام، وهي قراءة ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾، وقد عمَّم الكلام على ادَّارَكَ وتَدَارَكَ بعد ذلك.

إنكاراً لأَنْ أدركوا شيئاً نافعاً، والمعنى الثاني: بَلْ أَدْرَكَ بمعنى يُدْرِكُ، أَيْ أَنهم في الآخرة يدرك علمهم وقت القيامة، ويرَوْا العذاب والحقائق التي كذبوا بها، وأما في الدنيا فلا، وهذا تأويل ابن عباس رضي الله عنهما، ونَحَا إليه الزَّجاج، فقوله: ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ ـ على هذا التأويل ـ ظرف، وعلى التأويل الأول في معنى الباءِ، والعِلْم قد يتعدى بحرف الجرِّ، تقول: علمي بزيد كذا، ومنه قول الشاعر:

وَعِلْمِي بأَسوامِ المياه. . . . . البيت(١)

ثم وصفهم عزَّ وجلَّ بأنهم في شكٍّ منها، ثم أَردفهم بصفة أَبلغ من الشك وهي العمى بالجملة عن أمر الآخرة، و(عَمُونَ) أَصله (عَمِيُون) فَعِلون كحَذِرون وغيره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

استبعد الكفار أَن تُبعث الأَجساد والرِّمَمُ من القبور، فذكر ذلك عنهم على جهة الردِّ عليهم. وقرأَ أبو عمرو، وابن كثير: [أَيِذَا] و[أَيِنَّا] غير أَن أَبا عمرو يمُدُّ وابن كثير لاَ يَمُدُّ(٢)، وقرأَ عاصم وحمزة: (أَئِذَا) و(أَئِنَّا) بهمزة فيهما، وقرأَ نافع: [إِذَا] مكسورة الأَلف [آيِنَّا] ممدودة الأَلف، وقرأَ الباقون: [آئِذَا] ممدودة [إِنَّا] بنونين وكسر الأَلف.

ثم ذكر الكفارُ أَن هذه المقالة ممَّا وعدوا بها قبْلُ، وقد ورد ذلك على لسان جميع الأَنبياءِ، وجزموا أَن ذلك من أَساطير الأَولين، ثم وعظهم تبارك وتعالىٰ بحال من عُذِّب وبالحذَر أَن يُصيبهم ما أَصاب أُولئك، وهذا التحذير يقتضيه المعنى. ثم سلَّى الله تعالىٰ نبيَّه عليه الصلاة والسلام عنهم، وهذا بحسب ما كان عنده من الحرص عليهم والاهتمام بأَمرهم. وقرأَ ابن كثير: [في ضِيق] بكسر الضاد، ورويت عن نافع، وقرأَ الباقون

---

(١) الشاهد فيه أن (عِلْم) تعدت بحرف الجرِّ وهو الباءُ، كما تعدت في قولنا: علمي بزيد كذا.

(٢) جَمَعَا بَيْنَ الاستفهامين وقَلَبَا الثانية ياءً، لكن أَبا عمرو يفصل بينهما بألف.

بفتحها، والضِّيقُ والضَّيْق مصدران بمعنى واحد، وكره أبو عليٍّ أَن يكون (ضَيْق) كهَيْن ولَيْن مسهلة من ضَيِّق[١]، قال: لأَن ذلك يقتضي أَن تقام الصفة مقام الموصوف[٢]. ثم ذكر استعجال قريش لأَمر الساعة والعذاب.

و (رَدِفَ) معناه: قَرُب وأَزِفَ، قاله ابن عباس وغيره، ولكنها عبارة عما يجيءُ بعد الشيءِ قريباً منه، ولكونه بمعنى هذه الأَفعال تعدَّى بحرف وإِلاَّ فبابه أَن يتجاوز بنفسه[٣]. وقرأَ الجمهور بكسر الدال، وقرأَ الأَعرج: [رَدَفَ] بفتح الدال. وقرأَ الجمهور من الناس: [يُكِنُّ] من أَكَنَّ، وقرأَ ابن محيصن وابن السميفع من كَنَّ: [تَكُنُّ]، وهما بمعنى واحد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

الهاءُ في (غَائِبَةٍ) للمبالغة، أَي: ما من شيء في غاية الغيب والخفاءِ إِلاَّ في كتاب

---

(١) لأن (هَيْن) مسهَّلة من (هَيِّن)، و(لَيْن) مُسَهَّلة من (لَيِّنْ).

(٢) أي بعْد حذفه، وهي ليست من الصفات التي تقوم مقام الموصوف باطراد، ولكن الزمخشري أجاز ذلك، قال: «ويجوز أن يُراد في أَمْر ضيِّق».

(٣) الأصل كما جاء في كتب اللغة أن يقال: رَدِفه إذا تَبعه أو اقترب منه وجاءَ في أَثره، ولكن لما ضُمِّن معنى أَزِفَ أو اقترب عدِّي بالحرف فجاءت الآية: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾، وقيل: إن اللام متعلقة بالمصدر، والمعنى: الرادفة لكم، وقد عُدِّي بـ (من) على سبيل التضمين أيضاً، ذكر ذلك الزمخشري، وعليه قول الشاعر:

فلمَّا رَدِفْنَا مِن عُمَيْرٍ وصَحْبِهِ ... تَولَّوْا سِراعاً والمَنِيَّةُ تَعْنَقُ

وقال الجوهري: وأرْدفه أَمْرٌ؛ لغةٌ في رَدِف، قال خُزيمةُ بنُ مالك بن نَهْد:

إِذَا الْجَوْزَاءُ أَرْدَفَتِ الثُّرَيَّا ... ظَنَنْتُ بِآلِ فَاطِمَةَ الظُّنُونَا

يعني: فاطمةَ بنت يَذْكُر بن عنزة أَحَدِ الْقَارِظِين.

عند الله في مكنون علمه، ثم نبَّه تعالىٰ على أن هذا القرآن أخبر بني إسرائيل بأكثر الأشياءِ التي كان بينهم اختلاف في صفتها، فجاءَت في القرآن على وَجْهها، ثم وصفه تعالىٰ بأنه هدىً ورحمةٌ للمؤمنين، كما أنه عمًّي على الكافرين المحتوم عليهم، ومعنى ذلك أن كفرهم اسَتَتبَّ مع قيام الحجة ووضوح الطريق، فكثر عماهم بهذه الحجة، ثم أخبر أن ذلك كله بقضاءٍ من الله تعالىٰ وحكم قضاه فيهم وبينهم، ثم أمرهم بالتوكل عليه، وبالثقة بالله، وبأنه على الحق، أي: إنك الجدير بالنُّصرة والظهور، ثم سَلَّاه عنهم، وشبههم بالموتى من حيث الفائدة بالقول لهؤلاءِ وهؤلاءِ معدومة، فشبههم مرَّة بالموتى ومرَّة بالصُّمِّ، قال العلماءُ: الميت من الأحياءِ هو الذي يلقى الله تعالىٰ بكفره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واحتجت عائشة رضي الله عنها في إنكارها أن النبي ﷺ أسمع موتى بدر بهذه الآية، ونظرت هي في الأمر بقياس عقلي، ووقفت مع هذه الآية، وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أنتم بأسمع منهم»[1]، فيشبه أن قصة بدر هي خرق عادة للنبي ﷺ في أن ردَّ الله تعالىٰ إليهم إدراكاً سمعوا به مقاله، ولولا إخبار رسول الله ﷺ بسماعهم لحملنا نداءَه إياهم على معنى التوبيخ على مَنْ بقي من الكفرة، وعلى معنى شفاءِ صدور المسلمين منهم، وقد عورضت هذه الآية بالسلام على القبور، وبما روي في ذلك أن الأرواح تكون في شفير القبور في أوقات، قالوا: فلو لم يَسْمع الميتُ لم يُسَلَّم عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله غير معارض للآية؛ لأن السلام على القبور إنما هو عبادة، وعند الله

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، والنسائي، وأحمد، ولفظه كما في البخاري عن قتادة قال: ذكر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فَقُذِفُوا في طَوِيٍّ من أطواءِ بدر خبيثٍ مُخْبث، وكان إذا ظَهَر على قوم أقام بالعَرصة ثلاث ليالٍ، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشُدَّ عليها رحلُها، ثم مشى وتبعه أصحابه، قالوا: ما نُرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفير الرَّكِّي، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماءِ آبائهم: يا فُلان بن فُلان، ويا فُلان بن فُلان، أيسرُّكم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قال: فقال عمر: يا رسول الله! ما تُكَلِّم من أجساد لا أرواح لها ؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نَفْسُ محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»، قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقمةً وحَسْرةً وندماً.

الثواب عليها، وهو تذكير للنفس بحالة الموت وبحالة الموتى في حياتهم، وإن جوَّزنا مع هذا أَن الأَرواح في وقت على القبور، فإن سَمِع فليس الروح بميت، وإنما المراد بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الأَشخاص الموجودة مفارقة لأَرواحها، وفيها نقول: خرقت العادة لمحمد ﷺ في أَهل القليب، وذلك كنحو قوله عليه الصلاة والسلام في الموتى إذا دخل عليهم المكان: «إنهم يسمعون خفق النِّعال»[١].

وقرأَ ابن كثير: [ولا يُسْمِعُ] بالياءِ من تحت [ٱلصُّمُّ] رفعاً، ومثله في الرُّوم[٢]، وقرأَ الباقون: (تُسْمِعُ) بالتَّاءِ (ٱلصُّمَّ) نصباً. وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾ بالإضافة، وقرأَ يحيى بن الحارث، وأَبو حيوة: ﴿بهادٍ العمىَ﴾ بتنوين الدال ونصب [ٱلْعُمْيَ]، وقرأَ حمزة وحده: ﴿وما أنتَ تَهْدِي العمْيَ﴾ بفعل مستقبل، وهي قراءَة طلحة بن وثَّاب، وابن يَعْمر، وفي مصحف عبد الله: ﴿وما أن تهدي العمي﴾[٣].

ومعنى قوله: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ إذا انْتُجِزَ وعْدُ عذابهم الذي تضمنه القولُ الآن من الله تعالىٰ في ذلك ـ أَي حتمه الله عليهم ـ وقَضاؤُه[٤]، وهذا بمنزلة قوله تعالىٰ: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾[٥]، فمعنى الآية: وإذا أَراد الله تعالىٰ أَن ينفذ في الكافرين سابق علمه لهم من العذاب أَخرج لهم دابة من الأَرض، ورُوي أَن ذلك حين ينقطع الخير، ولا يُؤمر بمعروف، ولا يُنهى عن منكر، ولا يبقى مُنيب ولا تائب، كما أَوحى الله تعالىٰ إلى نوح: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[٦]، و(وَقَعَ) عبارة عن الثُّبوت واللزوم[٧]، وفي الحديث: «إن الدابة وطلوع الشمس من المغرب من أَول

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، ومسلم في الجنة، وأبو داود في الجنائز، والنسائي في الجنائز كذلك، وأحمد (٢ـ٣٤٧ـ٤٤٥)، ولفظه كما في المسند عن أبي هريرة ـ قال سفيان: يرفعه ـ قال: «إنَّ الميِّت ليسمع خَفْق نعالهم إذا ولَّوْا مدبرين».

(٢) في قوله تعالىٰ في الآية (٥٢): ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾.

(٣) بزيادة (أن) بعد (مَا).

(٤) (قضاؤُه) معطوفة على (وَعْدُ).

(٥) من الآية (٧١) من سورة (الزُّمَر).

(٦) من الآية (٣٦) من سورة (هود).

(٧) وقال قتادة: معناه: وجب الغضب عليهم، وقال مجاهد: حقَّ القولُ عليهم بأنهم لا يؤمنون، وقال ابن عمر، وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهما: إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم. وكل هذا فيه معنى الثبوت واللزوم كما قال ابن عطية رحمه الله.

الأَشراط ـ ولم يُعيِّن الأُولى ـ وكذلك الدَّجَّال»[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وظاهر الأَحاديث والروايات أَن الشمس آخرها؛ لأَن التوبة تنقطع معها، ويُعطي الحال أَن الإِيمان لا يبقى إِلاَّ في أَفرادٍ، وعليهم تهب الريح التي لا تُبقي إِيماناً، وحينئذ يَنْفَد ويُنفخ في الصُّور، ونحن نروي أَن الدابة تَسِمُ قوماً بالإِيمان[٢]، ونجد أَن عيسى بن مريم عليه السلام يعدل بعد الدَّجَّال، ويؤمنُ الناسُ به، وهذه الدابة رُوي أَنها تخرج من جبل الصفا بمكة، قاله عبد الله بن عمر، وقال عبد الله بن عمرٍو ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ نحوه، وقال: لو شئت أَن أَضع قدمي على موضع خروجها لفعلت، ورُوي عن قتادة أَنها تخرج من تِهامة، ورُوي أَنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فار تنُّور نوح عليه السلام، ورَوى بعضهم عن حذيفة بن اليمان أَنها تخرج ثلاث خرجات[٣]، ورُوي أَنها دابّة مزغبة شعراءُ، ورُوي عن ابن عمر رضي الله عنهما أَنها

(١) في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفعُ نفْساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض».

(٢) يريد أنها تضع علامة على الناس، فهذا تُسِمُه بِسِمَة الإيمان، وهذا تَسِمه بِسِمَة الكفر كما وضح ابن عطية بعد ذلك، وهو مذكور في بعض الآثار، ومنها الحديث الذي نرويه في الهامش التالي.

(٣) أخرجه الطيالسي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن حذيفة بن أُسيد الغفاري قال: ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال: «لها ثلاث خرجات من الدهر: فتخرج خَرْجة بأقصى اليمن، فينشر ذكرها بالبادية في أقصى البادية، ولا يدخل ذكرها القرية ـ يعني مكة ـ ثم تكمن زماناً طويلاً، ثم تخرج خرجة أُخرى دون تلك، فيعلو ذكرها في أهل البادية، ويدخل ذكرها القرية» ـ يعني مكة ـ قال رسول الله ﷺ: «ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حُرْمة وأكرمها المسجد الحرام لم يَرُعْهُم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام، تنفض عن رأسها التراب، فارْفَضَّ الناسُ عنها شتَّى، وبقيت عصابة من المؤمنين، ثم عرفوا أنهم لن يعجزوا الله، فبدأت بهم فَجَلَت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدُّرِّي، وولَّت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب، حتى إن الرجل ليتعوَّذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول: الآن تصلي؟ فيقبل عليها فتَسِمه في وجهه ثم تَنْطلق، ويشترك الناس في الأموال، ويصطلحون في الأمصار، يعرف المؤمن من الكافر، حتى إن المؤمن يقول: يا كافر اقضِني حقِّي، وحتى إن الكافر ليقول: يا مؤمن اقضني حقي، (الدر المنثور)، ولنا على هذا الحديث تعليقان:

(أ) ـ أن رواية الدر المنثور (عن حذيفة بن أُسيد الغفاري)، أَما ابن عطية فذكر حذيفة بن اليمان، ونقله القرطبي عن حذيفة فقط دون تعيين لاسم أبيه، والثابت في تفسير ابن كثير وغيره أنه حذيفة بن=

على خِلْقة الآدميين، وهي في السحاب، وقوائمها في الأرض، ورُوي أنها جمعت من خَلْق كل حيوان، ورَوى الثعلبي عن ابن الزبير نحوه، ورُوي أنها دابة مبثوث نوعها في الأَرض، فهي تخرج في كل بلد وفي كل قوم، فقوله ـ على هذا التأويل ـ: ﴿دَابَّة﴾ إنما هو اسم جنس، وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعتها العقاب حين أَرادت قريش بناءَ الكعبة.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ من الكلام، وفي مصحف أُبَيٍّ: [تُنَبِّيهم]، وفسَّرها عكرمة بـ ﴿تَسِمُهُم﴾، قال قتادة: وفي بعض القراءَة: [تُحَدِّثُهم]، وقرأَ أَبو زُرْعة بن عمرو بن جرير[1]: [تَكْلِمُهُم][2] بكسر اللام من الكَلْمِ وهو الجرح، قال أَبو الفتح: هي قراءَة ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، والجحدري، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كل ذلك والله تفعل تُكَلِّمُهُمْ وَتَكْلِمُهُمْ»[3].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

رُوِي في هذا أَنها تمر على الناس فَتَسِم الكافر في جبهته وتُرمِّده وتشتمه وربما خَطَمَته[4]، وربما تمسح على وجه المؤمن فتبيضه، ويُعرف ـ بعد ذلك ـ الإِيمان والكفر من قِبَلِهَا.

وقرأَ الجمهور من القراءِ: [إن الناس] بكسر [إنَّ]، وقرأَ حمزة، والكسائي،

= أُسيد الغفاري، ولعلَّ الخطأ هنا في ابن عطية من النساخ، وهو ما نُرجِّحه؛ لأن الذي رُوي عن حذيفة بن اليمان هو ما رواه ابن جرير عنه أنه قال: (بينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون تضطرب الأرض من تحته، وتخرج الدابة من الصفا... إلخ) وقال عنه ابن كثير «وإسناده لا يصح»، والله أعلم.
(ب) ـ أن الشواهد في الحديث أُمور كثيرة، منها خروج الدابة، والسِّمة التي تَسِم الناس بها، وأنها الفصيل الذي تركته ناقة صالح، حيث جاء فيه النصُّ بقوله: «وهي ترْغُو بين الركن والمقام»، والرُّغاءُ هو للإبل، وفي ذلك تحديد لنوع الدابة.

(١) أبو زُرْعة بن عمرو بن جرير بن عبد الله البَجَلَي الكوفي ـ بضم الزَّاي وسكون الراءِ من زُرْعة ـ قيل: اسمه هرم، وقيل: عمرو، وقيل: عبد الله، وقيل: عبد الرحمن، وقيل جرير ـ وهو ثقة، من الثالثة ـ تقريب التهذيب (٢ـ٤٢٤).
(٢) قال ابن جِنِّي في المحتسَب: وهذا شاهد لمن ذهب في قوله: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ إلى أنه بمعنى تجرحهم بأكلها إياهم، ومعنى هذا أن ﴿تُكَلِّمُهُم﴾ من التَّكليم الذي هو تكثير في الكَلْم بمعنى الجرح.
(٣) قال ذلك حين سُئِل عن القراءتين: ﴿تُكَلِّمُهُم﴾ من الكلام، و[تَكْلِمُهُمْ] من الكَلْم وهو الجرح.
(٤) يُرَمِّدُ الشيءَ: يجعله في الرَّماد، أو يُهْلِكه، وخَطَمَه يَخْطِمه: جعل على أنفه خطاماً.

وعاصم بفتح الألف، وفي قراءة عبد الله: [تُكَلِّمُهُمْ بِأَنَّ]، وهذا تصديق بالفتح، وعلى هذه القراءة يكون قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ إلى آخر الآية من كلام الدابة، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أن يكون ذلك من كلام الله عزَّ وجلَّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

المعنى: واذكُر يومَ، وهذا تذكير بيوم القيامة، و﴿نَحْشُرُ﴾: نَجْمع، و﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ يريد: من كل قَرْن من الناس متقدم؛ لأن كل عصر لم يَخل من كَفَرَة بالله من لدُن تَفرُّق بني آدم، و«الفَوْجُ»: الجماعة الكبيرة من الناس، والمعنى: مِمَّن حاله أنه مكذب بآياتنا، و﴿يُوزَعُونَ﴾ معناه: يُكَفُّونَ في السَّوْق، أي: يُحْبس أَوَّلهم على آخرهم، قاله قتادة وغيره، ومنه وازع الحبْس، ومنه يقول عبد الشارف بن عبد العزَّى:

فَجـاؤوا عـارضـاً بَـرِداً وجِينـاً ... كمِثْـلِ السَّيْـلِ تـركـب وَازِعينَـا[1]

ثم أَخبر تعالىٰ عن توقيفه الكفرة يوم القيامة وسؤالهم على جهة التوبيخ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ الآية، ثم قال: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على معنى استيفاءِ الْحُجَج، أَي: إِن كان لكم عمل أَو حُجَّة فهاتوها. وقرأ أَبو حيوة: [أَمَاذا كُنْتُمْ تعملون] بتخفيف الميم[2].

ثم أَخبر عن وقوع القول عليهم، أَي نفوذ العذاب وحتم القضاءِ، وأَنهم لا ينطقون بحُجَّة، لأَنها ليست لهم، وهذا في موطن من مواطن القيامة، وفي فريق من الناس؛ لأَن القرآن يقتضي أَنهم يتكلَّمون بِحُجَجَ في غير هذا الموطن.

ثم ذكر تعالىٰ الآية في اللَّيل وكونه وقت سكون ووداعة لجميع الحيوان، والمهم في

---

(١) العارضُ البَرِدُ: السحاب الذي تصحبه نسمات باردة خفيفة، والبَرِدُ هو ذو البرودة، كما قال: «وَصِلِّيَاناً بَرِداً»، قال في اللسان: أي: ذو بُرُودة. والشاهد هنا في قوله: وازِعينَا، ومعناها: يُكَفُّون، على معنى يُحْبَس أولهم على آخرهم تخفيفاً من حدة اندفاعهم التي شبهها بالسَّيْل الجارف.

(٢) أدخل أداة الاستفهام على أداة الاستفهام توكيداً، قاله صاحب البحر المحيط.

ذلك بنو آدم، وكون النهار مبصراً، أي: ذا إبصار، وهذا كما تقول: ليلٌ نائمٌ ونهارٌ صائمٌ، ومعنى ذلك: يُنام فيه، فكذلك هذا معناه: يُبصر فيه، فهو لذلك: ذا إبصار، ثم تجوز بأَن قيل: (مُبْصِراً)، فهو على النسب كعيشة راضية(١)، والآيات في ذلك هي للمؤمنين والكافرين، هي آية لجميعهم في نفسها، لكن من حيث الانتفاع بها والنظر النافع إنما هو للمؤمنين فلذلك خُصُّوا بالذكر.

ثم ذكر تبارك وتعالىٰ يوم النَّفخ في الصُّور، وهو القَرْنُ في قول جمهور الأُمة، وهو مقتضى الأَحاديث، وقال مجاهد: هو كهيئة البوق، وقالت فرقة: الصُّور جمع صورة، كتَمْرَةٍ وتَمْر وجَمْرَةٍ وجَمْر، والأَول أَشهر، وفي الأَحاديث المتداولة أَن إِسرافيل عليه السلام هو صاحب الصُّور، وأَنه قد جثا على ركبته الواحدة وأَقام الأُخرى وأَمال خده والْتَقم القرن ينتظر متى يُؤمر ويُؤذن له بالنَّفخ، وهذه النَّفخة المذكورة في هذه الآية هي نفخة الفزع، وروى أَبو هريرة رضي الله عنه أَن المَلَك له ثلاث نفخات: نفخة الفزع، وهو فزع حياة الدُّنيا وليس بالفزع الأكبر، ونفخة الصَّعق، ونفخة القيام من القبور(٢). وقالت فرقة: إنما هما نفختان، كأَنهم جعلوا الفزع والصعق في نفخة واحدة، واستدلوا على ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾(٣)، وقالوا: أُخْرى لاتقال إِلاَّ في الثانية.

---

(١) قال بعض العلماءِ: «الظاهر أن هذا من باب ما حُذف من أوَّله ما أُثْبت في مُقَابِله، وحُذِف من آخره ما أُثْبت في أوله، فالتقدير: جعلنا الليل مظلماً لتسكنوا فيه، والنهار مبصراً لتتصرفوا فيه، فالإظلام ينشأ عن السكون، والإبصار ينشأ عن التصرف في المصالح، ويدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِن رَبِّكُمْ﴾، فالسكون عِلَّة لجعل الليل مظلماً، والتَّصرف عِلَّة لجعل النهار مبصراً»، وقد ذكروا هذا إجابة عن سؤال يرد هنا وهو: لماذا لم يقع التَّقابل في جعل النهار بالنَّص على علَّته فيكون التركيب: «والنَّهار لِتُبْصِروا فيه» بل جاء بقوله تعالىٰ: (مُبْصِراً) قيداً في جعل النهار لا علَّة للجعل؟

(٢) رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصُّور فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر بالنفخ»، قلت: يا رسول الله ما الصُّور؟ «قال: قَرْنٌ والله عظيم، والذي بعثني بالحق إن عظم دارةٍ فيه كعرض السماء والأرض، فينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة البعث والقيام لِرَبِّ العالمين». ذكره عليُّ بن معبد، والطبري، والثعلبي وغيرهم، وصححه ابن العربي.

(٣) من الآية (٦٨) من سورة (الزُّمَر).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقول الأول أصح، وأُخرى تقال في الثالثة، ومنه قول ربيعة بن مقروم:

* ولَقَدْ شَفَعْتُهُمَا بآخَرَ ثَالِثِ *[1]

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾[2]، وأَما قول الشاعر:

جَعَلْتُ لَهَا عُودَيْنِ مِنْ نَشَمٍ وآخَرَ مِنْ ثُمَامَهْ[3]

فهو يحتمل أَن يريد ثانياً أَو ثالثاً فلاَ حُجَّة فيه.

وقوله تعالىٰ: (فَفَزِعَ) ـ وهو أَمْرٌ لم يقع ـ يُعَدُّ إِشعاراً بصحة وقوعه، وهذا معنى وضع الماضي موضع المستقبل، وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناءٌ فيمن قضى الله تعالىٰ من ملائكته وأَنبيائه وشهداءِ عبيده أَلاَّ ينالهم فزع النَّفخ في الصُّور، وقال أَبو هريرة: هي في الشهداءِ، وذكر الرُّمَّاني أَنه النبي ﷺ، وقال مقاتل: هي في جبريل وميكائيل وإِسرافيل وملَك الموت، وإِذا كان الأَكبر لا ينالهم فهم حَرِيُّون أَلاَّ ينالهم هذا[4].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

على أَن هذا في وقت ترقُّب وذلك في وقت أَمْن؛ إِذ هو إِطباق جهنم على أَهلها.

وقرأَ جمهور القُرَّاءِ: [وكلٌ آتُوْهُ داخرين] على وزن فاعلوه، وقرأَ حمزة، وحفص

(١) ربيعة بن مقروم أحد شعراء مُضر المعدودين في الجاهلية والإسلام، أسلم فحسن إسلامه وشهد القادسية وغيرها من الفتوح، وله ترجمة في الإصابة وفي الخزانة. وشفعَ الشيءَ شَفْعاً: ضمَّ مثْله إليه ويقال: كان وتراً فَشَفَعْتُه بآخر، والشاهد هنا أن أُخرى تقال في المرة الثالثة ولايلزم أن تكون هي الثانية كما يقول بعض اللغويِّين.

(٢) الآية (٢٠) من سورة (النجم).

(٣) النَّشَمُ (بالتحريك): شجر جبليٌّ تُتَّخذ منه القِسِيُّ، وهو من عُتُق العيدان، واحدته نَشَمَة، وهو مثل النَّبع في الصلابة. والثُّمَامُ: شجر، واحدتُه ثمامة، وبها سُمِّي الرجل ثُمامة، وهو نبت ضعيف له خوصٌ أو شبيه بالخوص، وربما حشي به وسُدَّ به خصاص البيوت، وهو قصير لا يطول. والشاهد وضحه المؤلف.

(٤) وقيل: هم المؤمنون؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾، وقال بعض العلماء: لم يرد في تعيينهم خبر صحيح، والكل محتمل، وقال القرطبي تعليقاً على ذلك: «وخفي عليه حديث أبي هريرة وقد صححه القاضي أبو بكر بن العربي فليعول عليه لأنه نصٌّ في التعيين وغيره اجتهاد، والله أعلم».

عن عاصم: (أَتَوْهُ) على صيغة الفعل الماضي، وهي قراءَة ابن مسعود وأَهل الكوفة، وقرأَ قتادة: [أَتَاهُ] على الإِفراد إِتباعاً للفظ [كُل]، وإِلى هذه القراءَة أَشار الزَّجَّاج ولم يذكرها.

و«الدَّاخِرُ»: المتذلِّل الخاضع، قال ابن عباس، وابن زيد: الدَّاخر: الصاغر، وقرأَ الحسن: [دَخِرِينَ] بغير أَلف، وتظاهرت الروايات بأَن الاستثناءَ في هذه الآية إِنما أُريد به الشهداءُ؛ لأَنهم أَحياءٌ عند ربهم يرزقون، وهم أَهل للفزع لأَنهم بشر لكنهم فُضِّلوا بالأَمن في ذلك اليوم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

هذا وصف حال الأَشياءِ يوم القيامة عقب النَّفخ في الصُّور، والرؤْية هي بالعين[(١)]، وهذه الحال للجبال في أَول الأَمر تسير وتموج، وأَمر الله تبارك وتعالى بنسفها ونفشها خلال ذلك فتصير كالعهن، ثم تصير في آخر الأَمر هباءً منثوراً. و«الجمود»: التَّصامُّ في الجوهر، قال ابن عباس: (جَامِدَةً): قائمة، ونظيره قول الشاعر:

بِـأَرْعَـنَ مِـثْـلَ الطَّـوْدِ تَحْسَـبُ أَنَّهُـمْ ... وُقُـوفٌ لِحَـاجٍ والـرِّكَـابُ تُهَمْلِـجُ[(٢)]

---

(١) ولو كانت من رؤية القلب لتعدت إلى مفعولين.

(٢) البيت للنابغة الجعدي، وهو في وصف جيش، والأرعن: المضطرب لكثرته مع حركته، وقيل: شبهه بالجبل الضخم ذي الرِّعان، وهي الفضول والنتوءات البارزة بعنف من الجبل، والأنف العظيم المتقدم من الجبل يُسَمَّى رعن. والطَّوْدُ: الجبل العظيم، وتَحْسَب: من القياس، والحاجُ: جمع حاجةٍ، وتُهَمْلجُ: تمشي الهَمْلَجَةَ، وهي سيرٌ سريع حسن، والشاهد أنَّكَ ترى الشيءَ الضخم العظيم ساكناً وهو يتحرك، يخيل إليك أن السفينة الكبيرة في البحر واقفة مع أنها تتحرك، وكذلك الجيش الضخم بعدَدِه وسلاحه. والضمير في «أنَّهم» للجنود في الجيش.

و﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مصدر معرف، والعامل فيه فعلٌ مضمر من لفظه، وقيل: هو نصبٌ على الإغراءِ، بمعنى: انظروا صُنْعَ اللهِ[1]، و«الإتْقَانُ»: الإحسان في المعمولات، وأَن تكون حساناً وثيقة القوة. وقرأَ أَبو جعفر، وأَبو عمرو، وابن عامر: [يَفْعَلُونَ] بالياءِ، وقرأَ الباقون: (تَفْعَلُونَ) بالتاءِ على الخطاب.

و(ٱلْحَسَنَةَ): الإيمان، وقال الحسن، وابن عباس، والنَّخعي، وقتادة: هي لاَ إِلـٰهَ إلاَّ الله، ورُوي عن علي بن الحسين أَنه قال: كنت في بعض خلواتي، فرفعت صوتي بـ(لاَ إِلـٰهَ إلاَّ ٱلله)، فسمعت قائلاً يقول: إِنها الكلمة التي قال الله فيها: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾، وقوله: ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ يحتمل أَن يكون للتفضيل، ويكون في قوله: (مِنْهَا) حذف مضاف تقديره: خيرٌ من قدْرها أَو استحقاقها، بمعنى أَن الله تعالىٰ تفضَّل عليه بفوق ما تَسْتَحق حسنتُه، وقال ابن زيد: يعطى بالواحدة عشرة، والداعيةُ إِلى هذا التقدير أَن الحسنة لا يُتصور بينها وبين الثواب تفضيل، ويحتمل أَن يكون (خَيْرٌ) ليس للتفضيل، بل اسمٌ للثواب والنعمة، ويكون قوله: (مِنْهَا) لابتداءِ الغاية، أَي: هذا الجزاءُ الذي يكون له هو من حَسَنَته وبِسَبَبِهَا، هذا قول الحسن، وابن جريج، وقال عكرمة: ليس شيءٌ خيراً من لاَ إِلـٰهَ إلاَّ ٱلله، وإنما له الخير منها.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: [من فَزَعِ يَوْمِئِذٍ] بالإضافة، ثم اختلفوا في فتح الميم وكسرها من (يَوْمَئِذٍ)، فقرأَ أَكثرهم بفتح الميم على بناءِ الظرف لما أُضيف إِلى غير ممكن، وقرأَ إِسماعيل بن جعفر عن نافع بكسر الميم على إِعمال الإِضافة؛ وذلك أَن الظروف إِذا أُضيفت إِلى غير ممكن جاز بناؤُها وإِعمال الإِضافة فيها، ومن ذلك قول الشاعر:

عَلَى حينَ عاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّبَا ... وقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وَازِعُ[2]

---

(١) القول الأول هو قول الخليل وسيبويه، وذلك لأن الله تعالىٰ لما قال: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ دلَّ على أنه سبحانه قد صنع ذلك صنعاً، وعلى هذا الرأي لا يوقف على (السَّحَابِ)، وعلى الرأي الثاني وهو النصب على الإغراء يجوز أن تقف على [السَّحَابِ]. ويجوز الرفع على تقدير: ذلك صُنْعُ الله، ذكر ذلك القرطبي، وأكد الزمخشري رأي سيبويه فقال: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ من المصادر المؤكدة، كقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ و﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ إلا أنَّ المؤكَّد محذوف.

(٢) الشاعر هو النابغة الذبياني، والبيت من قصيدة له قالها يمدح النعمان ويعتذر إليه مما وشَتْ به بنو قُرَيْع بن عوف من تميم، وهو في الديوان، وابن الشجري، وابن يعيش، والمنصف، وشرح شواهد=

فإنه يُروى: «على حينَ» بفتح النون، و«عَلَى حِينِ» بكسرها، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿مِّن فَزَعٍ﴾ بالتنوين وترك الإضافة، ولا يجوز ـ مع هذه القراءَة ـ إلاَّ فتح الميم من (يَوْمَئِذٍ).

و(ٱلسَّيِّئَةُ) التي في هذه الآية هي الكفر والمعاصي مِمَّن حتم الله تبارك وتعالىٰ عليه من أَهل المشيئة بدخول النَّار، و(كُبَّتْ) معناه: تُلَّتْ في النَّار، وجاءَ هذا كبًّا من حيث خَلقُها في الدنيا يعطي ارتفاعها، وإِذا كُبَّت الوجوه فسائر البدن أُدخل النار؛ إِذ الوجه موضع الشرف والحواسّ. وقوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ بمعنى: فقال لهم ذلك، وهذا على جهة التوبيخ.

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ بمعنى: قل يا محمد لقومك: إِنَّمَا أُمِرْتُ، و«الْبَلْدَةُ» المشار إِليها مكَّةُ. وقرأَ جمهور الناس: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾، وقرأَ ابن عباس، وابن مسعود: [التي حَرَّمَها]، وأَضافَ ـ في هذه الآية ـ التحريم إِلى الله تعالىٰ من حيث ذلك بقضائه وسابق علمه، وأَضاف النبي ﷺ ذلك إِلى إِبراهيم في قوله: «إِن إِبراهيم حَرَّم مكَّة وإِنِّي حرَّمت المدينة»[1] من حيث كان ظاهر ذلك بدعائه ورغبته وتبليغه لأُمته، فليس بين الآية والحديث تعارض. وفي قوله: (حَرَّمَهَا) تعديد للنعمة على قريش في رفع الله تعالىٰ عن

= المغني، والهمع، والعيني. و(عَلَى) في البيت بمعنى (في)، والمعنى: كفكفت دمعي في وقت عتابي لنفسي في حالة مشيبها، وكان عتابه لنفسه على ما فعلت في صباه من طرب، والوازع: الناهي الزاجر، وإسناد الوزع إلى الشيب مجاز، أما الشاهد هنا فقد وضحه ابن عطية.

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والمدينة والبيوع والأنبياء والمغازي والأطعمة والدعوات والاعتصام، ومسلم في الحج، وأبو داود في المناسك، والترمذي في المناقب، والنسائي في الحج، وابن ماجه في المناسك، والموطأ في المدينة، وأحمد في المسند في مواطن كثيرة، ولفظه كما في المسند (١ـ١١٩) عن أبي حسان أن علياً رضي الله عنه كان يأمر بالأمر فيؤتى فيقال: قد فعلنا كذا وكذا، فيقول: صدق الله ورسوله، قال: فقال له الأشتر: إن هذا الذي تقوله قد تَفَشَّغ في الناس (انتشر)، أَفَشيءٌ عهده إليك رسول الله ﷺ ؟ قال علي رضي الله عنه: ما عهد إلي رسول الله ﷺ شيئاً خاصة دون الناس، إلا شيئاً سمعته منه فهو في صحيفة في قراب سيفي، قال: فلم يزالوا به حتى أخرج الصحيفة، قال: فإذا فيها: «من أحدث حدثاً أو آوى مُحدثاً فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه صرف ولا عدل»، قال: وإذا فيها: «إن إبراهيم حرَّم مكَّةَ، وإني أُحرِّم المدينة، حرام ما بين حَرَّتَيْها وحماها كله، لا يختلى خَلاها، ولا ينفر صيدها، ولا تلتقط لقطتها إلا لِمَنْ أَشار بها. ولا تُقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره، ولا يُحمل فيها السلاح لقتال»، قال: وإذا فيها: «المؤمنون تتكافأُ دماؤهم، ويسعى بِذِمَّتهم أَدناهم، وهم يدٌ على مَنْ سواهم، أَلا لا يُقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهْدٍ في عهده».

بلدهم الغارات والفتن الشائعة في جميع بلاد العرب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ معناه: بالملك والعبودية. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا﴾ عطفاً على قوله: ﴿أَنْ أَكُونَ﴾، وقرأ ابن مسعود: [وأَنِ اتلُ القرآنَ][1] بمعنى: وأن قيل لي: اتلُ القرآن، و«اتْلُ» معناه: تابع بقراءَتك بين آياته واسْرُدْ. وتلاوة القرآن سبب الاهتداءِ إلى كل خير.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ معناه: من تكسَّب الهُدى والإيمان ونظر نظراً ينجيه فلنفسه سعيُه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فنِسْبَة الهدى والضلال إلى البشر من هذه الأُمة إنما هي بالتَّكَسُّب والحرص والحال التي عليها يقع الثواب والعقاب، والكلُّ أيضاً من الله تعالىٰ بالاختراع.

وقوله تعالىٰ: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ توعُّد بعذاب الدنيا كبدر والفتح ونحوه، وبعذاب الآخرة. وقرأَ جمهور القراءِ: [عما يَعمَلُون] بالياءِ، وقرأَ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالتَّاءِ من فوق على مخاطبتهم.

كَمُلَ تفسير سورة النَّمل والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

---

(١) قال في البحر توضيحاً لها: وهي أمرٌ من (تَلا)، وجاز أَن تكون (أَن) مصدرية وُصِلَتْ بالأمر، وجاز أن تكون مفسَّرَة على إضمار: وأُمرت أَنِ اُتلُ. وقال الفراءُ في معاني القرآن: «وفي إحدى القراءَتين [وأَنِ اتلُ] بغير واو مجزومةً على جهة الأمر، وقد أُسقطت منها الواو للجزْم على جهة الأمر»، ونقل القرطبي عن النحاس قوله: «ولا نعرف أَحداً قرأَ هذه القراءَة، وهي مخالفةٌ لجميع المصاحف».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة القصص

هذه السُّورة مكِّيَّة إلاَّ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[(١)]، نزلت هذه بالجحفة في وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، قاله ابن سلام وغيره، وقال مقاتل: فيها من المدنيِّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾[(٢)] إلى قوله تعالىٰ: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[(٣)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾.

تقدم القول في الحروف التي في أَوائل السُّور بما أَغنى عن الإِعادة، فمن قال: «إن هذه الحروف من أَسماءِ الله تبارك وتعالىٰ» قال: إِن الطَّاءَ من الطَّوْل الذي لله سبحانه، والسِّين من السلام، والميم من المنعم، أَو من الرحيم، ونحو هذا. وقوله: (تِلْكَ) يتقدر موضعها بحسب كل قول من الأَقوال في الحروف، فمن جعل (طسٓمٓ) مثالاً لحروف المعجم جاءَت الإِشارة بـ (تِلْكَ) إلى حروف المعجم، ومن قطعها قال: (تِلْكَ) في مواضع هذه، وساغ هذا من حيث لم تكن حاضرة عتيدة[(٤)]، بل هي أَقوال تقتضي بعضها شيئاً فشيئاً، فسائغٌ أَن يقال في الإِشارة إِليها: (تِلْكَ).

---

(١) الآية (٨٥) من السورة.

(٢) الآية (٥٢) من السورة.

(٣) الآية (٥٥) من السورة. وقد قال الحسن، وعطاء، وعكرمة: السورة مكِّيَّة كلُّها.

(٤) العتيد: المُهَيَّأُ والحاضر، وفي التنزيل الكريم: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي حاضر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأصل أن (تلك) إشارة إلى ما غاب، و(هذه) إشارة إلى ما حضر، وقد تتداخل متى كان في الغيبة حصولٌ وثقةٌ به يقوم مقام الحضور، ومتى كان في الحضور بُعْدٌ مَا يقوم مقام الغيبة، فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[(١)] لما كان موسى لا يرى ربَّه تعالىٰ، فهو وعصاه في منزل غيب، فساغ ذلك. ومن النقيض قول المؤلف لكتاب: «هذا كتاب»، وما جرى هذا المجرى فنتبعه، ويشبه في آيتنا هذه أن تكون ﴿تِلْكَ﴾ بمنزلة: هذه آيات الكتاب المبين، ويشبه أن تكون متمكنة من حيث الآيات كلها وقت هذه المخاطبة لم تكن عتيدة. و﴿نَتْلُو﴾ معناه: نَقُصُّ ونتابع القصص[(٢)]، وخصّ المؤمنين في قوله تعالىٰ: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ من حيث إنهم هم المنتفعون بذلك دون غيرهم[(٣)].

و﴿عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مِن عُلُوِّ الطُّغْيان والتغلب. وقوله تعالىٰ: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يريد أَرضَ مصر وموضع مُلْكه، ومتى جاءَت الأَرْض هكذا عامةً فإنَّما يُراد بها الأَرض التي تشبه قصة المسوق؛ لأَن الأَنباءَ التي تعم الأَرض كلَّها قليلة، والأَكثر ما ذكرناه، و«الشِّيَعُ»: الفِرَقُ، وكان هذا القول من فرعون بأَن جعل القبط ملوكاً، وبني إسرائيل مستخدمين، وهم كانوا الطائفة المُسْتَضعَفَة. و﴿يُذَبِّحُ﴾ مضعف للمبالغة والعبارةِ عن تكرار الفعل، قال قتادة: كان هذا الفعل من فرعون لأَنه قال له كهنته وعلماؤُه: إن غلاماً لبني إسرائيل يفسد مُلْكك، وقال السدي: رأَى في ذلك رؤْيا فأَخذ بني إسرائيل بِذَبْح الأَطفال سنين، فرأَى أَنه يقطع نسلهم، فعاد يذبح عاماً ويستحيي عاماً، فوُلد هارون عليه السلام في عام الاستحياءِ، وولد موسى عليه السلام في عام الذَّبح، وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿يُذَبِّحُ﴾ بضم الياءِ وكسر الباءِ على التكثير، وقرأَ أَبو حيوة، وابن محيصين بفتح الياءِ والباءِ وسكون الذال. قال وهب بن منبه: بلغني أَن فرعون ذبح في هذه المحاولة سبعين أَلفاً من الأَطفال، وقال النقاش: جميع ما قتل ستة عشر طفلاً.

---

(١) الآية (١٧) من سورة (طه).

(٢) ومفعول (نَتْلُو) هو ﴿مِن نَّبَإِ﴾، أي: بعض نَبَأ، فـ (مِنْ) للتّبعيض، و(بِالْحَقِّ) متعلق بـ (نَتْلُو)، أي: نَتْلُو مُحِقِّين، أو في موضع الحال من (نبَأ)، أي: مُتَلَبِّساً بالحق.

(٣) ذلك لأنهم يصدقون بالقرآن، ويعلمون أنه من عند الله تعالىٰ فينتفعون بذلك، أَما من لم يؤمن فلا يصدق أَنه حق، وبالتَّالي لا ينتفع به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

طمع بجهله أن يردَّ القدر[١]، وأين هذا المنزع من قول النبي ﷺ لعمر: «إن يَكُنْه فلن تقدر عليه» يعني ابن صياد. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾.

المعنى: يستضعف فرعونُ، ونحن نريد أن نُنعم ونُعظم المنَّة على المستضعفين. و«الأئمة»: ولاة الأُمور. قال قتادة: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ يريد: أرض مصر والشام، وقرأ الأعمش: [وَلِنُمَكِّنَ] بلام، وقرأ الجمهور: ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ﴾ بضم النون وكسر الراءِ وفتح الياءِ ونصب (فِرْعَوْنَ)، وقرأ حمزة، والكسائي، وابن مسعود: [وَيَرَي] بالياءِ وفتح الرَّاءِ وسكون الياءِ على الفعل الماضي وإسناد الفعل إلى فرعون ومَنْ بعده، والمعنى: ويقع فرعون وقومه وجنده فيما خافوه وحَذِروه من جهة بني إسرائيل وظهورهم. وهامانُ هو وزير فرعون وأكبر رجاله، وذُكر لِمَحَلِّه من الكفر ولنباهته في قومه، فله في هذا الموضع صغار ولعنة لا شرف.

وهذا الوحيُ إلى أُمِّ موسى، قالت فرقة: كان قولاً في منامها، وقال قتادة: كان إلهاماً، وقالت فرقة: كان بِمَلَك تَمَثل لها، وأجمع الكل على أنها لم تكن نبيَّة، وإنما إرسال المَلَك لها على نحو تكليم المَلَك للأبرص والأقرع في الحديث المشهور[٢]

---

(١) قال الزَّجاج: العجب أنه من حمقه لم يدر أن الكاهن إنْ صَدَقَ فالقتلُ لا ينفع، وإن كذب فلا معنى للقتل.

(٢) الحديث في البخاري ومسلم، وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه أن أبا هريرة سمع النبي ﷺ يقول: «إن ثلاثة في بني إسرائيل، أبرص وأقرع وأعمى، فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرص فقال: أي شيءٍ أحَبُّ إليك؟ فقال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قذرني الناس...» إلى آخر الحديث حيث حقق الله لكل واحد ما يريد امتحاناً وابتلاءً، ولم يوفق إلى فعل الخير منهم إلا الأعمى فحفظ الله عليه نعمته، وردَّ كلاً من الأبرص والأقرع إلى ما كان عليه.

وغير ذلك مما رُوي من تكليم الملائكة للناس من غير نُبُوَّة.

وجملة أَمْر أُمِّ موسى أنها علمت أَن الذي وقع في نفسها هو من عند الله ووعْد منه؛ يقتضي ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[1]، وهذا معنى قوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالوعْد. وقال السدي وغيره: أُمرت أَن ترضعه عقب الولادة، وأَن تصنع به ما في الآية؛ لأَن الخوف كان عقب الولادة، وقال ابن جريج؛ أُمِرَت برضاعه أَربعة أَشهر في بستان، فإِذا خافت أَن يصيح لأَن لبنها لا يكفيه صنعت به هذا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَول أَظهر، إِلاَّ أَنَّ الآخر يعضده أَمران: أَحدهما قوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ و(إِذَا) ظرف لما يُستقبل من الزمان، والآخر لأَنه لم يقبل المراضع، والطفلُ إِثر ولادته لا يفعل ذلك، اللهم إِلاَّ أَن يكون هذا منه بأَن الله تبارك وتعالىٰ حرَّمَها عليه وجعله يأباها بخلاف سائر الأَطفال، وقرأَ عمرو بن عبد الواحد[2]: [أَنِ ارْضِعِيه] بكسر النون اعتباطاً لا تخفيفاً، والتخفيف الفاشي فتح النون، قاله ابن جِنِّي[3]، ونسب المهدوي هذه القراءَة إِلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، و(ٱلْيَمّ): جمهور الماءِ ومعظمه، والمراد نِيل مصر.

ورُوي في قصص هذه الآية أَن أُمَّ موسى عليه السلام ـ واسمها يوحانة[4] ـ أَخذته ولفَّته في ثيابه، وجعلت له تابوتاً صغيراً، وشدته عليه بقفل وعلَّقت عليه مفتاحه وأَسلمته ثقة بالله وانتظاراً لوعده، فلما غاب عنها عاودها خوفها، وانشغلت عليه، وأَقنطها الشيطان، فاهتمت به وكادت تفتضح، وجعلت الأُخت تقُصُّه، أَي: تطلب أَثره.

---

(١) الآية (١٣) من هذه السورة.

(٢) نَسَبَهَا في القرطبي إِلى عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ فقط، وذكر صاحب البحر أنها للاثنين: عمرو بن عبد الواحد، وعمر بن عبد العزيز.

(٣) قال ابن جني: كما قرأَ ابن محيصن: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾، وكما قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾، ولو كان على التخفيف القياسي لقال: ﴿أَنَ أَرْضِعِيهِ﴾، بفتح النون بحركة الهمزة من (أَرْضِعِيهِ).

(٤) وقيل: اسمُها «لُوحا بنْت هاند بن لاوي بن يعقوب»، وقيل: يوخاند، وقيل: يوخابيل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

الالْتِقَاطُ: اللقاءُ عن غير قصد، ومنه قول الشاعر:

وَمَنْهَـــلٍ وَرَدْتُـــهُ الْتِقَــاطـــا

لَـمْ أَلْـقَ إِذْ وَرَدْتُـهُ فُـرَّاطـا[1]

و﴿ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾: أَهْلُه، ويروى أَن آسية امرأَة فرعون رأَت التَّابوت يعوم في اليَمِّ فأَمرت بِسَوقه وفَتْحِهِ، فرأَت فيه صبيًّا صغيراً فرحمته وأَحبته، وقال السدي: إِن جواريها كان لهن فُرْضة[2] في القصر على النيل، يدخل الماءُ فيها إِلى القصر حتى يَنَلْنَه في المرافق والمنافع، فبينا هُنَّ يغسلن في تلك الفُرْضة إِذ جاءَ التابوت فحملنه إِلى مولاتهن، وقال ابن إِسحاق: رآه فرعون يعوم فأَمر بسوقه، وآسيةُ جالسةٌ معه، فكان ما تقدم.

وقوله: ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ﴾ هي لام العاقبة، لا أَن القصد بالالتقاط كان لأَن يكون عدوًّا، وقرأَ الجمهور: (وَحَزَناً) بفتح الحاءِ، وقرأَ حمزة، والكسائي، وابن وثاب، وطلحة، والأَعمش: [وَحُزْناً] بضم الحاءِ وسكون الزَّاي، و«الخَاطِىءُ»: مُتَعَمِّدُ الخطأِ، والمُخْطِىءُ: الذي لا يَتَعَمَّدَهُ.

---

(١) البيتان من مشطور الرجز، وقد ذكرهما في (اللسان ـ لقط)، ونسبهما لِنِقادة الأَسَدِيِّ، قال: «لقيتُه التقاطاً: إِذا لقيتَه من غير أَن ترجوه أَو تحتسبه، قال نقادة الأَسديُّ: وذكر البيتين وبعدهما الثالث وهو:
إِلا الْحَمَامَ الْوُرْقَ والغطاطَا
وقال سيبويه: التقاطاً: أَي فجأَةً وهو من المصادر التي وقعت أَحوالاً، نحو جاءَ رَكْضاً. . . وحكى ابن الأَعرابي: لقيتُه لقاطاً: مُوَاجَهَةً»، والبيت الأول مذكور في الصحاح، والمقاييس، والكتاب لسيبويه بدون نسبة. والمَنْهَلُ: الموردُ: وفُرَّاط القطا: متقدماتها إِلى الوادي والماءِ، والغَطاط (بفتح الغين): القَطَا، وقيل: ضربٌ منه، والواحدة غَطَاطَة، والشاعر يتحدث عن مورد ماءٍ وَرَدَهُ فجأَة دون أَن يحتسب ذلك، ولم يجد عنده فُرَّاط الْقَطَا اللهم إِلا الحمام الوُرْق وبعض الغَطاط.

(٢) الفُرْضة من النهر: مشرب الماءِ منه، ومن البحر: محط السفن.

واختلف المتأولون في الوقت الذي قالت فيه امرأةُ فرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾، فقالت فرقة: كان ذلك عند التقاط التابوت لمَّا أشعرت فرعون به؛ إذ سبق إلى وَهْمه أنه من بني إسرائيل، وأَن ذلك قُصِدَ بِهِ التَّخلُّص من الذَّبح، فقال: عليَّ بالذَّبَّاحين، فقالت امرأته ما ذُكر، فقال فرعون: أَمَّا لي فَلاَ، قال النبي ﷺ: «لو قال: نعم لآمن بموسَى ولكان قُرَّة عين له»[1]، وقال السدي: بل رَبَّتْهُ حتى درج، فرأى فرعون فيه شهامة، وظنَّه من بني إسرائيل، وأخذه في يده، فمدَّ موسى عليه الصلاة والسلام يده ونتف لحية فرعون، فهَمَّ حينئذ بذبحه، وحينئذ خاطبته بهذا، واختبرته له في الجمرة والياقوتة فاحترق لسانه. وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي بأنه الذي يَفْسُد المُلْكُ على يديه، قاله قتادة وغيره. وقرأ ابن مسعود: [لا تقتلوه قُرَّة عَيْن لي وَلَكَ]، قدَّم وأَخَّر.

وقوله: (وَأَصْبَحَ) عبارة عن دوام الحال واستقرارها، وهي كظَلَّ، ومنه قول أَبي سفيان للعباس يوم الفتح: «لقد أَصبح مُلْكُ ابن أَخيك عظيماً»، يريد: اسْتَقرَّ به حاله عظيماً، وقرأ جمهور الناس: (فَارِغاً) من الفراغ، واختُلف في معنى ذلك ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: فارغاً من كل شيءٍ إلاَّ من ذِكر موسى عليه السلام، وقال مالك: هو ذهاب العقل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾[2]. وقالت فرقة: فارغاً من الصبر، وقال ابن زيد: فارغاً من وعْد الله تبارك وتعالىٰ ووحْيه إليها، أَي: تناسَتْه بالهَمِّ، وفَتَر أَثَرُه في نفسها، وقال لها إبليس: فررت به من قتْلٍ لك فيه أَجْر، وقَتَلْته بيدك، وقال أَبو عُبَيْدَة: فارغاً من الحزن؛ إذْ لم يغرق، وقرأ فَضَالة بن عُبَيْد ـ ويقال: ابن عُبَيْدَة[3] ـ، والحسن:

---

(١) في خبر طويل أخرجه ابن جرير، وابن أَبي حاتم عن السدي، وذَكَرَهُ في الدُّرِّ المنثور أَن الذي قال ذلك هو ابن عباس رضي الله عنهما. (راجع تفسير الطبري ٢١ـ٣٤ـ والدرّ المنثور ٥ـ١١٨)، ولم يشر أحدهما إلى أنه رفعه للنبي ﷺ.

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٤٣) من سورة (إبراهيم): ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾.

(٣) هو في المحتسَب ٢ـ١٤٧: فَضَالة بن عبد الله، وقال محقق المحتسَب: «هو فضالة الليثي، وقيل: هو ابن عبد الله، وقيل: ابن وهب. . . ويعرف بالزهراني»، وقد اعتمد في ذلك على الإصابة ٣ـ٢٠٢. وفي تقريب التهذيب ذكر ابن حَجَر العسقلاني فَضَالة الليثي الزهراني هذا، وذَكَر قبله فَضَالةَ بنُ عُبَيْد ـ هكذا بدون التَّاء ـ قال: «هو فَضَالة بن عُبَيْد بن نافذ بن قيس الأنصاري، أَول ما شهد أُحُد، ثم نزل=

[فَزِعاً] من الفزع ـ بالفاءِ والزاي ـ، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما: [قَرِعاً] بالقاف والرَّاءِ، من القارعة، وهي الهَمُّ العظيم[١]، وقرأَ بعض الصحابة رضي الله عنهم: [فِرْغاً] بالفاءِ المكسورة والراءِ الساكنة والغين المنقوطة، ومعناها: ذاهباً هدراً تالفاً من الهمِّ والحزن، ومنه قول طلحة الأَسديِّ:

فَإِنْ يَكُ قَتْلَى قَدْ أُصِيبَتْ نُفُوسُهُمْ فَلَـنْ يَـذْهَبُـوا فِـرْغـاً بِقَتْـلِ حِبَـالِ[٢]

أَي: هدراً تالفاً لا ينفع. وقرأَ الخليل بن أَحمد: [فُرُغاً] بضم الفاءِ والرَّاءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أَي أَمْر ابنها، ورُوِي أَن رسول الله ﷺ قال: «كادت أُمُّ موسى أَن تقول: وا ابناه، وتخرج صائحة على وجهها»[٣]. «والرَّبْط على القلب» تأْنيسُه وتقويته، ومنه قولهم للشجاع والصابر في المضائق: رابط الجْأش، قال قتادة: ربط على قلبها بالإِيمان. وقوله تعالىٰ: و﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي المصدقين بوعد الله تبارك وتعالىٰ، وبما أُوحي إِلَيْها بِهِ.

ثم قالت لأُخت موسى طمعاً منها وطَلَباً له: [قُصِّيهِ]، والقَصُّ: طلب الأَثر، فيُروى أَن أُخته خَرجت في سِكَك المدينة تبحث متخفية، فرأَته عند قوم من حاشية آل فرعون

= دمشق وولي قضاءها، ومات سنة ثمان وخمسين، وقيل قبلها. (تقريب التهذيب ٢ـ١٠٩).
هذا وقراءة فَضَالة هذه هي أيضاً قراءة أَبي هذَيْل، ويزيد بن قُطَيْب السَّكُوني الشامي. ذكر ذلك ابن جني.

(١) قيل: إنها ترجع إلى نفس معنى قراءة الجماعة (فارغاً): لأن الرأس الخالي من الشَّعر يقال له: أَقرع لفراغه من الشَّعر.

(٢) هو طلحة بن خويلد الأسدي، وقد كثر الاختلاف في رواية البيت، فرواية ابن عطية تتفق مع رواية أَبي حيان في البحر إلا في كلمة (فِرْغاً) ـ وهي موضع الشاهد، فقد رواها أبو حيان (فِزْغاً) بالفاء المكسورة والزاي المنقوطة، والمعنى واحد، ورواية اللسان (فَرَغَ) تتفق مع ما في المحتسَب، وهي:

فَـــإِنْ تَـــكُ أَذْوادٌ أُصِبْـــنَ ونِسْـــوَةٌ فَلَـنْ تَـذْهَبُـوا فِـرْغـاً بِقَتْـلِ حِبَـالِ

إلا أن اللسان قال: (أُخِذْنَ) بدلاً من (أُصِبْنَ). والأذْواد: جمع ذَوْد، وهي من الإبل من الثلاثة إلى العشرة، مؤنثة، ولا واحد لها من لفظها، وحِبَالُ بكسر الحاء هو أخوه، وقيل ابنه. والمعنى على جميع الروايات أن الشاعر يتوعَّد الأعداء، ويقول: إنهم لن يفلتوا من العقاب لقتلهم حبال.

(٣) أخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه من طرق، أخرجوا جميعاً هذا الخبر عن ابن عباس رضي الله عنهما غير مرفوع. (راجع الدر المنثور)، وليس في هذا الخبر قوله: (وتخرج صائحة على وجهها).

يطلبون له امرأة تُرضعه حين لم يقبل المراضع، و﴿عَن جُنُبٍ﴾ أي: ناحية من غير قصْد ولا قُرْب يشعرها به، ويقال: «عن جنابة» و«عن جَنَاب»، ومنها قول الشاعر:

لَقَدْ ذَكَّرَتْني عَنْ جَنَابٍ حمَامَةٌ ... بِعُسْفَانَ أَهْلِي والفُؤَادُ حَزِينُ[1]

ومن الجنابة قول الأعشى:

أَتَيْتُ حُرَيْثاً زائِراً عَنْ جَنَابَةٍ ... وكان حُرَيْثٌ عَنْ عَطَائِي جَامِدَا[2]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومعنى هذه الألفاظ: عن مكان جُنُب، أَو عن بُعْد، ومعنى الآية: عن بُعْد، لم تَدْنُ منه فيشعر بها، وأَنشد أبو عبيدة لعلقمة:

فَلاَ تَحْرِمَنِّي نائِلاً عَنْ جَنَابَةٍ ... فَإِنِّي امرؤٌ وسْطَ الْقِبَابِ غَرِيبُ[3]

وقرأ قتادة: [عن جَنْب] بفتح الجيم وسكون النون، وهي قراءَة الحسن، والأَعرج، وقرأ [عن جانِب] النعمانُ بن سالم، وقرأ الجمهور: ﴿عَن جُنُبٍ﴾ بضم الجيم والنون.

---

(١) البيت لأعرابي لم يُذكر اسمُه، وهو واحد من ثلاثة أبيات ذكرها شهاب الدين الحموي في «معجم البلدان»، وعُسْفان بضم العين منهلة من مناهل الطريق بين مكة والجحفة، وقيل: هي على مرحلتين من مكة، وسُمِّيت عُسْفان من: عسفت المفازة وهو يعسفها، وهو قطعها بلا هداية أو قصد، وكذلك كل أمر يُركب بغير روية، وقد غزا النبي ﷺ بني لحيان بعُسفان، والأَبيات الثلاثة هي:

لَقَدْ ذكَّرتني عَنْ حُبَابٍ حَمَامَةٌ ... بِعُسْفَانَ أَهْلي فالفُؤَادُ حَزِينُ
فَوَيْحَكِ كَمْ ذَكَّرتِني اليَوْمَ أَرْضَنَا ... لَعلَّ حِمَامِي بالحِجَازِ يَكُونُ
فَوَاللهِ لا أَنْسَاكِ مَا هَبَّتِ الصَّبَا ... ومَا اخْضَرَّ مِن عُودِ الأَرَاكِ فُنُونُ

هكذا رُويت (حُبَاب) بدلاً من (جَنَاب)، وعلى هذا فلا شاهد فيه.

(٢) البيت من قصيدة له يمدح هوذة بن علي الحنفي، ويذم الحارث بن وعلة الرقاشي، وحُرَيْث تصغير الحارث، صغَّره تحقيراً له، وجَنَابة: بُعْد ومن غير قصد، وهو الشاهد، وجامِد: لا يلين ولا يعطي، وتروى: جاحداً، والشاهد قوله: عَنْ جَنَابةٍ.

(٣) البيت من قصيدة علقمة الفحْل التي قالها في مدح الحارث مِلك الغساسنة في الشام بعد الواقعة المعروفة باسم «يوم حليمة»، وقد أُسر فيها عدد من بني تميم، وفيهم شاس أخو الشاعر، فذهب علقمة إلى الحارث مادحاً طالباً إطلاق سراح أخيه، وفعلاً نجح في مسعاه، وأَطلق الملك سراح أخيه ومن معه من الأسرى.

والنَّائل: العطاءُ، ويريد به هنا إطلاق سراح أَخيه، والجنابة: البُعْد والغُربة، يقول: لا تحرمني وتمنع عني العفو عن الذنب الذي جئتك راجياً مستشفعاً فيه، فإنني امرؤٌ غريب في هذه الديار.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ معناه: لا يشعرون أنها أُخته، وهذا من جملة لطائف الله تبارك وتعالىٰ له ولأُمِّه حسب الوعد الذي أُوحي إليها. ويقال: بصرتُ بالشيءِ وأَبْصرتُ بمعنى واحد متقارب، قال المهدوي: وقيل: ﴿عَن جُنُبٍ﴾ معناه: عن شوق، وهي لغة لِجذام، يقولون: جنبت إِلى لقائك، أَي اشتقت إِليه، وقال قتادة: معنى ﴿عَن جُنُبٍ﴾ أَنها تنظر إِليه كأَنها تريده.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ يقتضي أَن الله تعالىٰ خَصَّه من الامتناع من ثدي النساءِ بما يشذُّ به عن عرف الأَطفال، وهو تحريم تبغيض، و﴿المراضع﴾ جمع مُرْضِع، واستعمل دون هاءِ التأْنيث لأَنه لا يلتبس بالرجال. وقوله تعالىٰ: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أَي من أَول أَمره، و﴿قَبْلُ﴾ مبني، والضمير في ﴿فَقَالَتْ﴾ لأُخت موسى، قال النقاش: اسمها مريم، و(يَكْفُلُونَهُ) معناه: يُحسنون تربيته وإِرضاعه. وعلم القوم أَن مُكَلِّمتهم من بني إِسرائيل، وكان ذلك عرف بني إِسرائيل، أَن يكونوا مراضع وخدمة. وقوله: ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ يحتمل أَن الضمير يعود على الطفل، فقالوا لها: إِنك قد عرفتِهِ فأَخبرينا من هو؟ فقالت: ما أَردت إِلاَّ أَنهم ناصحون للملِك، فتخلصت منهم بهذا التأْويل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يعود الضمير على الطفل ولكن يكون النصح له بسبب الملك وحرصاً على التَزلُّف إِليه والقُرب منه، وفي الكلام هنا حذف يقتضيه الظاهر، وهو أَنها حملتهم إِلى أُمِّ موسى وكلموها في ذلك، فَدَرَّت عليه وَقَبلَها، وحظيت بذلك، وأُحسن إِليها وإِلى أَهل بيتها، وقرَّت عينها، أَي سُرَّت بذلك، وروي أَن فرعون لعنه الله تعالىٰ قال

لها: ما سبب قبول هذا الطفل؟ قالت له: «إنِّي طيبة الرائحة طيبة اللبن، ودمع الفرح بارد، وعين المهموم حرى سخنة»، فمن هذا المعنى قيل: قَرَّت العين وسخنت[1]، وقرأ يعقوب: [نُقِرَّ] بنون مضمومة وكسر القاف. و«وَعْدُ اللهِ» تعالىٰ المشار إليه هو الذي أَوحاه إليها أَوَّلاً، إمَّا بِمَلَك أَو تمثُّله، وإمَّا بإلهام حسب اختلاف المفسرين في ذلك، والقول بالإلهام يضعف أَن يقال فيه: «وعْد». وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ يريد القبط. و«الأَشُدّ» جمع شدة، من السِّنين، فقالت فرقة: بلوغ الحُلُم، وهي مدة خمسة عشر عاماً، وقالت فرقة: ثمانية عشر عاماً، وقال السدي: عشرون، وقالت فرقة: خمسة وعشرون، وقالت فرقة: ثلاثون، وقال مجاهد وابن عباس: ثلاثة وثلاثون، وقالت فرقة عظيمة: ستة وثلاثون، وقال مجاهد وقتادة: الاستواءُ: أَربعون سنة، وقال مكي: وقيل هو ستون سنة، وهذا ضعيف. والأَشُدّ: شِدَّة الْبَدَن واستحكام أَسْره وقوته (وَٱسْتَوَىٰ) معناه: تكامل عقله وحزمه، وذلك ـ عند الجمهور ـ مع الأَربعين. و«الحُكْمُ»: الحِكْمَة، و«العِلْمُ»: المعرفةُ بشرع إبراهيم عليه السلام، وهي مقدمات لنبوته عليه السلام.

واختلف المتأَولون في قوله تعالىٰ: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ ـ فقال السدي: كان موسى في وقت هذه القصة على رسم التعلُّق بفرعون، وكان يركب مواكبه حتى أَنه كان يدعى موسى بن فرعون، قالوا: فركب فرعون يوماً وسار إلى مدينة من مدائن مصر يقال لها منف، ثم علم موسى عليه السلام بركوب فرعون فركب بعده ولحق بتلك المدينة في وقت القائلة، وهو حين الغفلة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقال أَيضاً: هو بين العشاءِ والعَتَمة، وقال ابن إسحاق: بل المدينةُ مصرُ نفسها، وكان موسى في هذا الوقت قد بَدَت منه مجاهدة لفرعون وقومه بما يكرهون، فكان مختفياً بنفسه مخوفاً منهم، فدخل متنكراً مغتفلاً للناس، وقال ابن زيد: بل كان فرعون قد نابذه وأَخرجه من المدينة وغاب عنها سنين ففشا أَمره، وجاءَ والناس على غفلة بنسيانهم لأَمره وبُعْد عَهْدهم به، وقيل: كان يوم عيد. وقوله تعالىٰ: (يَقْتَتِلَانِ) في موضع الحال، أَي: مُقْتَتَلين. و«شِيعَتُه»: بنو إسرائيل، و«عَدُوّه»: القبط. وذكر

---

(١) ومن ذلك قول أَبي تمام:

فَأَمَّا عُيُونُ الْعَاشِقِينَ فَأُسْخِنَتْ ... وَأَمَّا عُيُونُ الشَّامِتِينَ فَقَرَّت

الأَخفش سعيد بن مسعدة(١) أنها [فاسْتَعَانَه] بالعين غير معجمة(٢)، وهي تصحيف لا قراءَة(٣). وذكر الثعلبي أَن «الذي من شيعته» هو السَّامِرِي، وأَن الآخر طباخ فرعون.

وقوله تعالىٰ: (هَذَا)، (وهذا) حكاية حال قد كانت حاضرة، ولذلك عبَّر بـ (هَذَا) عن غائب ماض. و«الوَكْزُ»: الضرب باليد مجموعاً كعقد ثلاث وسبعين. وقرأَ ابن مسعود: [فلَكَزَه]، والمعنى واحد إِلاَّ أَن «اللَّكز» في اللَّحى، و«الوَكْز» على القلب، وحكى الثعلبي أَن في مصحف ابن مسعود: [فَنَكَزَه]، والمعنى واحد. و﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾ معناه: قَتَلَه، وكان موسى عليه الصلاة والسلام لم يُرد قتل القبطي لكن وافقت وكزتُه الأَجل وكان عنها موته، فندم موسى عليه السلام، ورأَى أَن ذلك من نزغ الشيطان في يده، وأَن الغضب الذي اقترنت به تلك الوكزة كان من الشيطان ومن هَمْزه، وهو نصَّ على ذلك، وبهذا الوجه جعله من عمله(٤)، وكان فضل قوته عليه السلام بما أَفرط في وقت غضبه بأَكثر مما يقصد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾﴾.

ثم إِن ندامة موسى عليه السلام حملته على الخضوع لربه تعالىٰ، والاستغفار عن

---

(١) هو المعروف بالأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، أبو الحسن، نحويٌّ، عالم باللغة والأدب، من أهل بلخ، وسكن البصرة، وأخذ العربية عن سيبويه، وصنَّف كُتباً منها: «تفسير معاني القرآن»، و«شرح أبيات المعاني»، وهما مخطوطان، وزاد في العروض بحر الخَبَب، وكان الخليل قد جعل البحور خمسة عشر بحراً فأصبحت بذلك ستة عشر بحراً. (وفيات الأعيان ـ الفهرست لابن النديم ـ معجم الأدباء).

(٢) هي قراءة سيبويه، وابن مقسم، والزعفراني، وهي بالعين المهملة بدلاً من الغين، وبالنون بدلاً من الثاءِ، ومعناها: طلب منه أن يُعينه على خصمه، قال أبو القاسم يوسف بن جبارة: الاختيار قراءة ابن مقسم؛ لأن الإعانة أولى في هذا الباب. (راجع البحر المحيط).

(٣) قال أبو حيان الأندلسي: «وليست تَصْحيفاً؛ فقد نقلها ابن خالويه عن سيبويه، وابن جبارة عن ابن مقسم والزَّعفراني».

(٤) كأن ابن عطية يرُدُّ بهذا التحليل على قول من قال: إن الضمير في قوله تبارك وتعالىٰ: (فَقَضَى) يرجع إلى الله، والمعنى: فقضى اللهُ عليه، وعلى قول من قال: إنه يعود على المصدر المفهوم من الكلام، والمعنى: فقضى الوكزُ عليه.

ذنبه، فغفر له خطأه ذلك، قال قتادة: عرف ـ والله ـ المخرج فاستغفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولم يزل عليه السلام يُعيد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غُفِر له، حتى أنه في القيامة يقول: «وقتلتُ نفساً ولم أُؤمر بقتله» حسب ما صحَّ في حديث الشفاعة.

ثم قال عليه السلام معاهداً لربه عزَّ وجلَّ: «رَبِّ بنعمتك عليَّ وبسبب إحسانك وغفرانك فأنا ملتزم ألاَّ أكون مُعيناً للمجرمين»، هذا أحسن ما تُؤُوِّل، وقال الطبري: «إنه قَسَم، أقْسَم بنعمة الله تبارك وتعالىٰ»، ويضعفه صورة جواب القسم؛ فإنه غير متمكن في قوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾؛ لأن القسم لا يتلقى بـ(لَنْ)، والفاء تمنع أن تُنَزَّل (لَنْ) منزلة (لا) أو (ما) فتأمَّله، واحتج الطبري بأن في قراءة عبد الله: «فَلا تَجْعَلني ظَهِيراً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واحتجَّ أهل الفضل والعلم بهذه الآية في [مَنْع][1] خدمة أهل الجوْر ومعونتهم في شيءٍ من أمرهم، ورأَوا أنها تتناول ذلك، نصَّ عليه عطاءُ بن أبي رباح.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾ عبارة عن كونه دائم الخوف في كل أوقاته، كما تقول: أصبح زيد عالماً. و(يَتَرَقَّبُ) معناه: عليه رقيب من فعله في القتل فهو يتحسَّس، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فَمَرَّ وهو بحالة الترقُّب وإذا ذلك الإسرائيلي الذي قاتل القبطي بالأمس يقاتل آخر من القبط، وكان قتلُ القبطي قد خفي عن الناس واكتُتم، فلما رأى موسى الإسرائيليَّ استصرخه الإسرائيليُّ، بمعنى صاح به مستغيثاً، ومنه قول الشاعر:

كُنَّا إذا مَا أَتَانَا صارِخٌ فَزِعٌ ... كان الصّراخُ لَهُ قَرْعَ الظَّنَابيبِ[2]

---

(١) هذه الكلمة سقطت من الأصل، والمعنى بدونها قد يفهم بما يمكن أن يكون ضِدّاً للمقصود، والتصويب عن القرطبي والبحر المحيط، فقد نقل القرطبي نصَّ كلام عطاء بن أبي رباح وهو: «لا يَحِلُّ لأحد أن يعين ظالماً، ولا يكتب له، ولا يصحبه، وأنه إن فعل شيئاً من ذلك فقد صار معيناً للظالمين»، وفي الحديث: «ينادي منادٍ يوم القيامة: أين الظَّلمة وأشباه الظَّلَمة وأعْوَان الظَّلَمة، حتى من لاق لهم دواة، أو بَرَى لهم قلماً، فيجمعون في تابوت من حديد فيرمى به في جهنم». ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «من مَشَى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ثبَّت الله قدميه على الصراط يوم القيامة، يوم تزل فيه الأقدام، ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظُلْمِه أَزَلَّ الله قدميه على الصراط يوم تَدْحَضُ فيه الأقدام»، وفي الحديث: «من مَشى مع ظالم فقد أجرم».

(٢) البيت لسَلامة بن جَنْدل، والصَّارخ: المستغيث، وفي المَثَل: «عَبْدٌ صريخُه أَمَةٌ»، أي: ناصره أذلُّ منه، =

فلما رأى موسى عليه السلام قتاله لذلك الآخر؛ أعظم ذلك، وقال له معاتباً ومؤنباً: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾، وكانت إرادة موسى ـ مع ذلك ـ أن ينصر الإسرائيلي، فلما دنا منهما وجس الإسرائيلي وفزع منه، وظنَّ أنه ربما ضربه، وفزع من قوته التي رأى بالأمس، وشهد أمر القتيل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

قرأ جمهور الناس: (يَبْطِشَ) بكسر الطاءِ، وقرأ الحسن، وأبو جعفر: [يَبْطُشَ] بضم التاءِ، وهما لغتان. فقال الإسرائيلي لموسى معنى الآية بلسانه وفر منه فشهر أمر القتيل. والجبابرة شأنهم قتل الناس بغير حق؛ فلذلك جعله الإسرائيلي كذلك ونفى عنه الإصلاح. قال الشعبي: من قتل رجلين فهو جبار، قال الشعبي: ولما اشتهر أنَّ موسى قتل القتيل، وكان قول الإسرائيلي يغلب على النفوس تصديقه على موسى مع ما كان لموسى عليه السلام من المقدمات أنه المشار إليه بفساد المملكة، فأنفذ فرعون إليه من يطلبه من جنده ويأتي به للقتل، فخرج على الطريق الأعظم، وأخذ رجل ـ يقال: إنه مؤمن آل فرعون، ويقال: إنه غيره ـ في بُنَيَّات الطريق[1] قصداً إلى موضع موسى فبلغه وقال له: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ الآية.

= والصُّراخ: الإغاثة والنجدة، وفي التنزيل العزيز: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾، والظَّنابيب جمع ظنبوب، وهو حرف العظم اليابس من السَّاق، والبيت في (اللسان ـ ظَنَبَ)، قال بعد أن ذكر البيت: «عَنَى بذلك سُرْعَةَ الإجابة، وجعل قَرْعَ السَّوْط على ساق الخُفِّ في زجر الفرس قرعاً للظنبوب»، ثم قال: «قَرْع الظُّنْبوب أن يقرع الرجل ظنبوب راحلته بعصاه إذا أناخها ليركبها ركوب المُسارع إلى الشيء». هذا وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت المجلد الخامس، ص ٢٤٠ هامش ٢.

(١) بُنَيَّات الطريق: تصغير بنات، والمراد بها السكك أو الطرق الصغيرة تتشعب من الطرق الكبيرة، وقد سلكها هذا الرجل ليصل بسرعة إلى موسى عليه السلام، وليخفي أمره حتى لا يعرف أحد أنه يريد إبلاغ موسى بالخبر.

و(يَسْعَى) معناه: يُسرع في مشيه، قاله الزجاج وغيره، وهو دون الجري، وقال الزجاج: معناه: يعجل وليس بالشَّدِّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه نزعة مالك رحمه الله في سَعي الجمعة، والأول عندي أظهر في هذه الآية.

و(يَأْتَمِرُونَ) وزنه يفتَعِلُونَ، ويَفْتَعِلُونَ يأتي كثيراً بمعنى يَتَفَاعَلُون، ومنه ازْدَوج بمعنى تَزَاوج، وذهب ابن قتيبة إلى أنه بمعنى: يأمر بعضُهم بعضاً، قال: لو كان ذلك لكان «يتآمرون».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذهب عنه أنَّ يَفْتَعل بمعنى يَتفاعَل، وفي القرآن: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾[1]، وقد قال النَّمِر بن تَوْلَب:

أَرَى النَّاسَ قَدْ أَحْدَثُوا شِيمَةً ... وفي كُلِّ حادِثَةٍ يُؤْتَمَرْ[2]

وأنشد الطبري:

ما تَأْتَمِرْ فِينَا فَأَمْـ ... ـرُكَ في يَمِينِكَ أَوْ شَمالِكْ[3]

ومنه قول ربيعة بن جشم:

أَحَارِ بْنَ كَعْبٍ كَأَنِّي خَمِرْ ... ويَعْدُو على الْمَرْءِ ما يَأْتَمِرْ[4]

---

(١) من الآية (٦) من سورة (الطلاق).

(٢) استشهد أبو عبيدة بهذا البيت في «مجاز القرآن»، والنَّمر بن تولب شاعر مخضرم، شاهد تغيُّراً في القيم الاجتماعية، ورأى أن الناس قد أحدثوا أُموراً جديدة لم يرها من قبل، فقد نزعوا إلى الجدل في أُمور العقائد كالقضاء والقدر، وشؤون السياسة والحكم كالخلافة، وإلى ذلك كله يشير بقوله: (أَحْدثوا شِيمَةً)، وهي الأخلاق التي لم تعرف من قبل في حياة الرسول ﷺ وفي حياة الخلفاء الراشدين، والائتمار هو التشاور والجدل وعرض الآراء المختلفة، وكل هذه كانت شواهد على الفرقة والتشيع.

(٣) البيت في الطبريِّ غير منسوب، يقول: «يا موسى إن أشراف قوم فرعون ورؤساءَهم يتآمرون بقتلك، ويتشاورون ويرتؤون فيك، ومنه قول الشاعر: (ما تأتمر فينا... البيت)»، فهو يراه من التآمر وهو التشاور وتبادل الرأي، والمعنى على ما رآه وسار عليه ابن عطية: إن ما يتشاور فيه أهل الرأي فهو أمر نافذ لا يعترض عليه. وإن كان الطبريُّ قد قال بعد أن ذكر البيت: «يعني: ما ترتئي وتهُمُّ به»، وعلى هذا فهو من الرأي القائم على الاستبداد، ولا تشاور فيه، ويمكن أن يفهم المعنى على أن ما تتشاور معنا فيه نحترمه، وأنت إنسان لك قدرك ووزنك، ورأيك ينبع من نفسك فلا يفرضه عليك أحد.

(٤) البيت في (اللسان ـ أَمَرَ)، وقد نقل عن أبي عبيدة أنه من قول النَّمر بن تولب ـ وأن لفظه: (أَحَارِ بن=

فخرج موسى عليه السلام وأَفلت من القوم فلم يجدوه، وخرج بحكم فزعه إِلى الطريق إِلى مدين، وهي مدينة قوم شعيب عليه السلام، وكان موسى عليه السلام لا يعرف ذلك الطريق، ولم يصحب أَحداً، فركب مجهلتها واثقاً بالله تعالىٰ ومتوكلاً عليه. قال السدي ومقاتل: فَرُوي أَن الله تعالىٰ بعث إِليه جبريل عليه السلام ـ وقيل: مَلَكاً غيره ـ فسَدَّده إِلى الطريق وأَعطاه عصاً يقال هي كانت عصاه، ورُوي أَن عصاه إِنما أَخذها لرعية الغنم في مدين، وهو أَصحُّ وأَكثر. وبين مدين ومصر ثمانية أَيام، قاله ابن جُبَيْر والناس، وكان مُلْك مدين لغير فرعون، وحكى الطبري عن ابن جُرَيْج، أَو ابن أَبي نُجَيْح ـ شَكَّ الطبريُّ[1] ـ أَنه قال: إِن الذي أَراد أَن يبطش هو الإِسرائيليُّ، فَنَهَاهُ موسى عن ذلك بعد أَن قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، ففزع الإِسرائيليُّ عند ذلك من موسى عليه السلام وخاطبه بالفصيح، وكان موسى من الندامة والتَّوبة في حين لا يُتَصور معه أَن يريد البطش بهذا الفرعوني الآخر. وروى ابن جريج أَن اسم الرجل الساعي من أَقصى المدينة شمعون، وقال ابن إِسحاق: سمعان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والتَّثَبُّت في هذا ونحوه بعيد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى

= عَمْرو فُؤَادي خَمِرْ) ـ ثم ذكر أن غير أبي عبيدة ينْسبه لامرىءِ القيس، وأن روايته: (أَحار بن عَمْرو كأَنِّي خَمِرْ)، والبيت في ديوان امرىء القيس، وهو مطلع قصيدة له يصف فرسه وخروجه للصيد، ومنها بيته المشهور:

وأَرْكَبُ في الرَّوْعِ خَيْفَانَةً ... كَسَا وجْهَهَا سَعَفٌ مُنْتَشِرْ

والخَمِرُ: الذي خالطه الداءُ أو السُّكر أو الحُبُّ، ويَعْدو: يَعُود ويرجع متعدياً، وما يَأْتَمِرْ: ما يُدَبِّر من سوءٍ ويتآمر به على غيره ليوقعه فيه، قال أبو عبيدة: معناه: الرجل يعمل الشَّرَّ بغير رويَّةٍ ولا تثبُّت ولا نظر في العاقبة فيندم عليه، وقال الجوهري: ما تأمره به نفسُهُ فيرى أنه رَشَدٌ وربما كان هلاكه في ذلك، والشاهد أن الائتمار بمعنى التآمر.

(١) قال الطبريُّ بعد ذلك: «وهو في الكتاب ابن أبي نُجَيْح».

حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

ولمَّا خرج عليه السلام فارًّا بنفسه منفرداً حافياً لا شيءَ معه؛ رأى حاله وعدم معرفته بالطريق، وخُلُوَّه من زادٍ وغيره فاستند إلى الله تبارك وتعالىٰ وقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وهذه الأقوال منه تقتضي أنه كان عارفاً بالله تعالىٰ، عالماً بالحكمة والعلم الذي آتاه الله تعالىٰ. و(تَوَجَّهَ): ردَّ وجهه إليها، و(تِلْقَاءَ) معناه: إلى ناحية، أَي إلى الجهة التي يلقى فيها الشيءَ المذكور، و﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ معناه: وسطه، وفي هذا الوقت بعث الله الملَك المُسَدِّد حسب ما ذكرناه قَبْلُ، وقال مجاهد: أراد بـ ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ طريقَ مدين، وقال الحسن: أراد سبيل الهدى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا أَبرع، ونظيره قول الصِّديق رضي الله تعالىٰ عنه عن النبي ﷺ: «هذا الذي يهدي السبيل» الحديث[1]. فمشى عليه السلام حتى ورد مدين، أَيْ: بَلَغَهَا، وَوُرُودُه الماءَ معناه: بلوغه؛ لأَنه دخل فيه، ولفظة الوُرود قد تكون بمعنى الدخول في الشيءِ، وقد تكون بمعنى الإِطلال عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل فيه، فوُرود موسى هذا الماءَ كان بالوصول إليه، وهذه الوجوه في اللفظة تتناول قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[2]. و(مَدْيَن) لا تُصْرف؛ إذ هي بلدة معروفة. و«الأُمَّةُ»: الجمع الكثير، و(يَسْقُونَ) معناه: ماشِيَتَهُمْ، و﴿مِن دُونِهِمُ﴾ معناه: من ناحية إلى الجهة التي جاءَ منها، فوصل إلى الامْرأَتين قبل وصوله إلى الأُمة، وهكذا هما من دونهم بالإِضافة إليه، و(تَذُودَانِ) معناه: تَمْنَعان وتَحْبِسان، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام:

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، وأحمد في مسنده (٣ـ١٢٢، ٢١١، ٢٨٧)، ولفظه كما في المسند عن أنس قال: لما هاجر رسول الله ﷺ كان رسول الله ﷺ يركب وأبو بكر رديفه، وكان أبو بكر يعرف الطريق لاختلافه إلى الشام، وكان يمرُّ بالقوم فيقولون: من هذا بين يديك يا أبا بكر؟ فيقول: هادٍ يهديني، فلما دنَوا من المدينة بعث إلى القوم الذين أسلموا من الأنصار، إلى أبي أُمامة وأصحابه، فخرجوا إليهما فقالوا: ادْخُلا آمنَيْن مُطاعَيْن، فدخلا، قال أنس: فما رأيت يوماً قَطُّ أنور ولا أحسن من يوم دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر المدينة، وشهدتُ وفاته فما رأيت يوماً قطُّ أظلم ولا أقبح من اليوم الذي توفي رسول الله ﷺ فيه.

(٢) من الآية (٧١) من سورة (مريم).

«ألاَ لَيُذَادَنَّ رجالٌ عن حوضي» الحديث[1]، وشاهد الشعر في ذلك كثير، وفي بعض المصاحف [امْرَأَتَيْنِ حابِسَتَيْنِ تَذُودان]، واختُلف في الذَّوْد ـ فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره: تذودان غنمهما عن الماءِ خوفاً من السُّقَاةِ الأقوياءِ، وقال قتادة: تذودان الناس عن غنمهما، فلما رأى موسى عليه السلام المرأتين قال: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾؟ أي: ما أمركما وشأنكما؟ وكأن استعمال السؤال بالخطب إنما هو في مصاب أو مضطهد أو من يشفق عليه أو يأتي بمنكر من الأمر، فكأنه بالجملة في شرٍّ، فأخبرتاه بخبرهما، وأن أباهما شيخ كبير، فالمعنى أنه لا يستطيع لضعفه أن يباشر أَمْر غنمهما، وأنهما لضعفهما وقلَّة طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأقوياءِ، وأن عادتهما التأَنِّي حتى يُصدر الرعاءُ ـ أي الناسُ ـ عن الماءِ ويخلو، وحينئذ تَرِدان. وقالت فرقة: كانت الآبار مكشوفة، وكان زَحْمُ[2] الناس يمنعهما، فلما أن أراد موسى أن يسقي لهما؛ زَحَمَ الناسَ وغلبهم على الماءِ حتى سقى، فعن هذا الغلب الذي كان منه، وصَفَتْهُ إحداهما بالقوة. وقالت فرقة: بل كانت آبارهم على أفواهها حجارة كبار، وكان ورد المرأتين يتبع ما في صهاريج الشرب من الفضلات التي تبقى للسقاة، وأن موسى عليه السلام عمد إلى بئر كانت مُغطَّاة والناس يسقون من غيرها، وكان حَجَرُها لا يرفعه إلا سبعة، قاله ابن زيد. وقال ابن جريج: عشرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاثون، وقال الزَّجَّاج: أربعون، فرفعه موسى عليه السلام وسقى للمرأتين، فعن رفع الصخرة، وصَفَته بالقوة. وقيل: إن بئرهم كانت واحدة، وأنه رفع عنها الحجر بعد انفصال السقاة؛ إذ كانت عادة المرأتين شرب الفضلات.

وقرأ الجمهور: (نَسْقِي) بفتح النون، وقرأ طلحة: [نُسقي] بضمها، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر: [حتى يَصْدُر] بفتح الياء وضم الدال، وهي قراءَة الحسن، وأبي

---

(١) أخرجه مسلم ومالك في الطهارة، وابن ماجه في الزهد، ولفظه كما في مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة، فقال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاءَ الله بكم لاحقون، ودِدْتُ أنا قد رأينا إخواننا، قالوا: أَوَ لسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: أنتم أصحابي، وإخوانُنا الذين لم يأتوا بعد، فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعْدُ من أُمتك يا رسول الله؟ فقال: أَرَأَيْتَ لو أن رجلاً له خيل غُرٌّ مُحَجَّلَة بين ظهري خيل دُهْم بُهْم ألا يعرف خيله؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فإنهم يأتون غُرّاً مُحَجَّلين من الوضوء، وأنا فَرَطُهُم على الحوض، ألا لَيُذَادَنَّ رجالٌ عن حوضي كما يذادُ البعير الضال، أُناديهم ألا هلمَّ، فيقال: إنهم قد بدَّلوا بعدك، فأقول: سُحْقاً سُحْقاً.

(٢) زَحْمُ الناسِ: دَفْعُهُم، يقال: زَحَمَه زحْماً وزحمة: دفعه في مضيق.

جعفر، وقتادة، وقرأ الباقون: (يُصْدِرَ) بضم الياءِ وكسر الدال على حذف المفعول، تقديره: مواشيهم، وحذف المفعول كثير في القرآن والكلام، وهي قراءَة الأَعرج، وطلحة، والأَعمش، وابن أَبي إسحاق، وعيسى. و(ٱلرِّعَاءُ) جمع راعٍ.

وتولَّى موسى عليه السلام إلى ظِلِّ سَمُرة، قاله ابن مسعود، وتعرض لسؤال ما يَطْعَمُه بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، ولم يصرح بسؤال، هكذا رَوَى سائر المفسرين أَنه طلب في هذا الكلام ما يأْكله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكان قد بلغ به الجوع، واخْضَرَّ لونه من أَكل البقل، وضعف حتى لصق بطنه بظهره ورؤيت خضرة البقل في بطنه، وإنه لأَكرم الخلق يومئذ على الله عزَّ وجلَّ، ويُروى أَنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطن قدمه، وفي هذا معتبر وحاكم بِهَوَان الدُّنيا على الله تبارك وتعالىٰ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

في هذا الموضع اختصارٌ يدل عليه الظاهر، قدَّره ابن إسحاق: فذهبَتَا إلى أَبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإِبطاءَ في السقي، فحدثتاه بما كان من الرجل الذي سقى لهما، فأَمر الكبرى من بنتيه ـ وقيل الصغرى ـ أَن تدعوه له، فجاءَت على ما في هذه الآية، وروي أَن اسم إِحداهما (ليا) والأُخرى (شرفا)، وروي أَن اسم زوجة نبي الله موسى عليه السلام (صفورة)، وقيل: اسمها (صوريا)، وقال وهب بن منبه: زوَّجه الكبرى، ورُوي عن النبي ﷺ أَنه زوَّجه الصغرى، ذكره الثعلبي ومكي من طريق أَبي ذر رضي الله عنه[1]، وقال النقاش: كانتا توأمين وَوُلدت الأُولى قبل الأُخرى بنصف نهار.

---

(١) روى الطبراني في الأوسط (٥٤٣٠): عن أبي ذرٍّ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إن سُئِلت أي الأجلين قضى موسى فقل: خيرهما وأوفاهما، وإن سُئِلت أي المرأتين تزوج فقل: الصغرى، وهي التي جاءت خلفه، وهي التي قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾. وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد: ٧/ ٨٨.

وقوله: (تَمْشِي) حال من (إحداهُمَا)، وقوله: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أيْ خَفِرة قد سترت وجهها بكم درعها، قاله عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه، وقال عمرو بن ميمون: لم تكن سَلْفَعاً[1] من النساءِ خرَّاجَةً ولاَّجَةً.

واختلف الناسُ في الرجل الداعي لموسى، من هو؟ ـ فقال الجمهور: هو شعيب عليهما السلام، وهما ابنتاه، وقال الحسن: هو ابن أَخي شعيب واسمه ثروان، وقال ابن أَبي عبيدة: يثرون، وقيل: هو رجل صالح ليس من شعيب بنسب، وقيل: إن المرأتين إنما كان مرسلهما عمهما، وهو كان صاحب الغنم، وهو المزوِّج، لكن عبّر عن العم بالأَب في جميع الأَمر إذ هو بمثابته. وروي أَن موسى عليه السلام لمَّا جاءَته بالرسالة أَجاب، فقام يتبعها إلى أَبيها، فهبت ريح ضمَّت قميصها إلى بدنها فوصفت عجيزتها، فتحرَّج موسى عليه السلام من النظر إليها، فقال لها: ارجعي خلفي وأَرشديني الطريق، ففهمت عنه ذلك فوصفته بالأَمانة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

فوصل موسى عليه السلام إلى داعيه، فقصَّ عليه أَمْره من أَوله إلى آخره، فآنسه بقوله: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وكانت مَدْيَن خارجة عن مملكة فرعون، فلما فرغ كلامهما قالت الابنة التي ذهبت عنه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ الآية، فلما وصفته بالقوة والأَمانة قال لها أَبوها: ومن أَين عرفت هذا منه؟ فقالت: أَما قُوَّته ففي رفع الصخرة، وأَما أَمانته ففي تحرُّجه عَنِ النَّظر إلَيَّ وقت هبوب الرياح، قاله ابن عباس، وقاله ابن زيد وغيرهم.

قال له الأَب عند ذلك: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ الآية، قال ابن عباس: فزوَّجه التي دعته. و«تَأْجُر» معناه: تثيب، وقال مكي: في هذه الآية خصائص في النكاح، منها أَنه لم يُعَيِّن الزوجة، ولا حدَّ أَول الأَمد، وجعل المهر إجارة، ودخل ولم يَنْقُدْ شَيئاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

أَمَّا التعيين فيشبه أَنه كان في ثاني حال المراوضة، وإنما عرض الأَمر مجملاً، وعيَّن بعد ذلك، وأَمَّا ذِكْرُ أَول المدة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطه، بل هو مسكوت عنه؛ فإما رسماه وإلاَّ فهو من وقت العقد، وأَما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية، وهو أَمر قد

(١) أي: لم تكن جريئة على الرجال.

قرَّره شرعنا، وجرى به في حديث الذي لم يكن عنده إلاَّ شيءٌ من القرآن[١]، وذهب بعض العلماءِ إلى أن ذلك خاصٌّ، وبعضهم إلى أنه منسوخ، ولم يجوِّز مالك رحمه الله النكاح بالإجارة، وجوَّزها ابن حبيب وغيره، إذا كانت الأُجرة تصل إلى الزوجة[٢].

قيل: ومن لفظ شعيب عليه السلام حَسُن في لفظ العقود في النكاح: «أَنْكَحَه إيَّاها» أَكثر من «أَنْكَحَهَا إيَّاهُ»، وهذا مُعْترض. وجعل شعيب عليه السلام الثمانية الأعوام شرطاً ووكل العامين إلى المروءَة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

لمَّا فرغ كلام شعيب كرَّره موسى عليهما السلام، وكرَّره على جهة التوثق في أن الشرط إنما وقع في ثماني حجج. و(أَيَّمَا) استفهامُ نصب بـ (قَضَيْتُ)، و[مَا] صلة للتأكيد. وقرأَ الجمهور: [فلا عِدوان] بضم العين، وقرأَ أبو حيوة: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ﴾ بكسر العين، والمعنى: لا تَبِعة عليَّ من قولٍ ولا فعلٍ. و«الوَكيلُ»: الشاهد القائم بالأُمور.

---

(١) في هذا الحديث قال رسول الله ﷺ للرجل الذي رغب في تزوج هذه المرأة: «ما تحفظ من القرآن» ؟ فقال: سورة البقرة والتي تليها، قال: «فَعَلِّمْها عشرين آية وهي امرأتك»، والعلماءُ في هذه المسألة على ثلاثة أقوال: المنع، وهو قول ابن القاسم، والكراهة، وهو قول مالك، والجواز، وهو قول ابن حبيب والشافعي وأَصحابه، وأما أبو حنيفة فقال: لا يصح، ولكنه جوَّز أن يتزوجها بأن يُخدمَها عَبْدَه سنة، أو يُسْكنها داره سنة؛ لأن العبد والدار مالٌ، أما خدمتها بنفسه فليست مالاً، والله أعلم بالصواب.

(٢) نقل القرطبي كلام ابن عطية هنا في الردِّ الذي أجاب به عن تساؤلات مكي دون أن ينسبه إليه، واكتفى بأن قال: قال علماؤنا ـ ولكن ابن عطية لم يوضح الحديث عن النقطة الرابعة، وهي أن موسى دخل ولم يَنْقُد شيئاً من المهر، وخلاصة ما ذكره القرطبي أن بعض العلماء يقولون: إنه دخل بزوجته حين سافر، ولم يدخل بها حين عَقَد العَقْد، وعلى القول بأنه دخل بها حين تم العقد فقد نقد الشروع في الخدمة وهي رعي الغنم.

قال ابن زيد: ولمَّا كمل هذا النكاح بينهما أمر شعيب موسى عليهما السلام أَن يسير إِلى بيت له فيه عِصِيٌّ، وفيه هذه العَصَا، فرُوي أَن العَصَا وثبت إِلى موسى فأَخذها، وكانت عَصَا آدم عليه السلام، وكانت من غير ورقة الريحان، فروي أَن شعيباً أَمره بردِّها ففعل وذهب يأْخذ غيرها فوثبت إِليه، وفعل ذلك ثالثة، فلما رأَى شعيب ذلك علم أَنه مرشح للنبوة فتركها له، وقيل: إِنما تركها لأَنه أَمر موسى بتركها فأَبَى موسى عليه السلام ذلك، فقال له شعيب: نمدُّ إِليها جميعاً فمن طاوعت له فهي له، فمدَّ إِليها شعيب فثقلت، ومدَّ موسى فخفَّت ووثبت إِليه، فعلما أَن هذا من الترشيح، وقال عكرمة: إِن عصا موسى إِنما رفعها إِليه جبريل عليه السلام ليلاً عند توجُّهه إِلى مدين.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾، قال سعيد بن جبير: سأَلني رجل من النصارى: أَي الأَجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أَدري حتى أَقدم على خير العرب، أَعني ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، فقدمتُ عليه فسأَلته، فقال: قضى أَكملهما وأَوفاهما، إِن رسول الله ﷺ إِذا قال وفَّى، فعدت فأَعلمتُ النصراني، فقال: صدق والله هذا العالِمُ، وروي عن ابن عباس أَن النبي ﷺ سأَل في ذلك جبريل عليه السلام، فأَخبره أَنه قضى عشر سنين، وحكى الطبري عن مجاهد أَنه قضى عشراً وعشراً بعدها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وفي قصص هذه الآية أَن موسى عليه السلام لما قضى الأَجل أَراد أَن يسير بأَهله إِلى مصر وقومه، وقد كان لا محالة أَحَسَّ بالترشيح للنبوة، وكان رجلاً غيوراً لا يصحب الرِّفاق، فكان في بعض طريقه ليلة مظلمة، قال النقاش: كانت ليلة جمعة، ففقدوا النار، وأَصْلَدَ الزِّناد[1]، وضلُّوا الطريق، واشتد عليهم الخَصَر[2]، فبينا هو كذلك إِذ رأَى ناراً، وكان ذلك نوراً من نور الله تعالىٰ قد التبس بشجرة، قال وهب: كانت علّيقاً، وقال قتادة: كانت عَوْسَجاً، وقيل: زعروراً، وقيل: سمُرة، قاله ابن مسعود. و(آنَسَ) معناه: أَحسَّ، والإِحساس ها هنا بالبصر، ومن هذه اللفظة قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم

(١) أَصْلد الزِّنادُ: صوَّتَ ولَمْ يُور.

(٢) الخَصَر: شدة البَرْد، أو ألم البَرْد في الأطراف.

﴿مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ (١)، ومنها قول حسَّان:

انظُرْ خَلِيلي بباب جِلَّق هَلْ ... تُؤنِسُ دونَ البَلْقَاءِ مِنْ أَحَدِ (٢)

وكان هذا الأَمر كله في جانب الطور، وهو جبل معروف بالشام، والطُّور: كلُّ جبل، وخصَّصه قوم بأَنه الذي لا ينبت، فلما رأَى موسى النار سُرَّ، فقال لأَهله: أَقيموا فقد رأَيت ناراً ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ عن الطريق، أَين هو، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ أَيْ: قطعة من النار في قطعة عُودٍ كبيرة لا لهب لَهَا، إنما هي جمرة، ومن ذلك قول الشاعر:

باتَتْ حواطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا ... جَزْلَ الجِذَا غَيْرَ خَوَّارٍ وَلاَ دَعِرِ (٣)

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَحسب أَن أصل الجذوة أُصول الشجر، وأَهل البوادي يوقدونها أَبداً، فهي الجذوة في الحقيقة، ومنه قول السُّلَمي يصف الصَّلَى (٤):

حما حُبُّ هذا النَّار حُب خَليلي ... وحُبّ الْغَوَاني فَهو دُونَ الحَبائِبِ
وبُدِّلْتُ بعد المِسْكِ والْبَان شِقْوَةً ... دُخانَ الْجِذَا في رأْسِ أَشْمَطَ شاحِبِ (٥)

---

(١) من الآية (٦) من سورة (النساء).

(٢) جلَّق: دمشق، وهي بفتح اللام المشددة أو بكسرها، والبلقاءُ: من أعمال دمشق، والبيت في اللسان، وفي الديوان، وفي تاريخ ابن عساكر، ويروى: ببَطْن جِلَّق، ويروى: انظُر نهاراً، وهي رواية ابن عساكر، وفي تاريخ ابن عساكر من رواية ابن دريد: انظر حبيبي، والشاهد فيه أن (تؤنس) بمعنى: ترَى، وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت في تفسير سورة النمل عند قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ (ص٥١٧ هامش ٣).

(٣) البيت لتميم بن مقبل، وهو في «اللسان ـ جذا»، وفي «مجاز القرآن» لأبي عبيدة، وفي «الطبري» و«التاج»، و«مجمع البيان»، و«القرطبي». والحواطب: جمع حاطبة، وهي الأمَة تجمع الحطب، والجَزْلُ: ما عَظُم من الحطب ويبس، وفي الحديث: «اجمعوا له حطباً جزلاً»، والجذَا: أُصول الشجرة، قال الأصمعي: جِذْمُ كلِّ شيءٍ وجِذْيُه: أَصلُه، والجذاءُ: أُصول الشجرة العظام التي بلي أعلاها وبقي أسفلها، والخَوَّارُ: الضعيف الذي يسهل كسره، والدَّعِرُ: العود الذي يكثر دخانُه ولا تتَّقد ناره، وقيل: الدَّعِرُ من الحطب: البالي.

(٤) الصَّلَى: النَّار، والوقود.

(٥) السُّلَمِي هو أَشجع بن عمرٍو السُّلَمي، أبو الوليد، له ترجمة في الأغاني، والشعر والشعراءِ، والخزانة، والتبريزي على الحماسة، وتهذيب ابن عساكر، والشاهد في البيت الثاني حيث استعمل الجذا في الجمرة التي تكون في طرف أُصول الشجرة، والمِسْكُ: ضربٌ من الطيب يتخذ من دم الغزلان، والبَانُ: شجر يسمو ويطول في استواءٍ مثل نبات الأَثْل، وله ثمرة تشبه قرون اللُّوبياء إلا أن خضرتها شديدة، =

وقرأ الجمهور: [جِذْوَةٍ] بكسر الجيم، وقرأ حمزة، والأعمش: [جُذْوَةٍ] بضمها، وقرأ عاصم: ﴿جَذْوَةٍ﴾ بفتحها، وهي لغات، والصَّلَى: حرُّ النار، و﴿تَصْطَلُونَ﴾ تَفْتَعِلُونَ، أُبدلت التَّاءُ طاءً.

فلما أَتى موسى ذلك الضوءَ الذي رآه وهو في تلك الليلة ابن أَربعين سنة؛ نُبِّيءَ ﷺ، فرُوي أَنه كان يمشي إِلى ذلك النور فكان يبعد منه، تمشي به الشجرة وهي غَضَّةٌ خضراءُ حتَّى نودي. والشَّاطِئُ والشَّطُّ: ضفة الوادي، وقوله: ﴿الأَيْمَنِ﴾ يحتمل أَن يكون من اليُمْن صفةً للوادي أَو الشاطئ، ويحتمل أَن يكون معادلاً[1] لليسار، فذلك لا يوصف به الشاطئ إِلاَّ بالإِضافة إِلى موسى في استقباله مهبط الوادي، أَو بعكس ذلك، وكل ذلك قد قيل. وبَرَكَةُ البُقْعة هي ما خُصَّتْ به من آيات الله تعالىٰ وأَنواره وتكليمه لموسى عليه السلام، والناسُ على ضمِّ الباءِ من «بُقْعَة»، وقرأَ بفتحها الأَشهب العقيلي[2]، قال أَبو زيد: سمعت من العرب: «هذه بَقعة طيبة» بفتح الباءِ. وقوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ يقتضي أَن موسى عليه السلام سمع ما سمع من جهة الشجرة، وسمع وأَدرك غير مكيف ولا محدود[3]. وقوله تعالىٰ: ﴿أَن يا موسى﴾ يحتمل أَن تكون (أَنْ) مفسِّرة، ويحتمل أَن تكون في موضع نصب بإِسقاط حرف الجرِّ. وقرأَت فرقة: [أَني أنا الله] بفتح الهمزة من [إِنِّي].

ثم أَمره تعالىٰ بإِلقاء العصا فأَلقاها فانقلبت حيَّةً عظيمة، ولها اضطراب الجانِّ، وهي صغير الحيَّات، فجمعت هول الثعبان ونشاط الجانِّ. وقالت فرقة: بل الجانُّ يعُمُّ الصغير والكبير، وإِنما شبه بالجان جملة العصا لاضطرابها فقط، وولَّى موسى عليه السلام مدبراً فزِعاً منها. ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ معناه: لم يرجع على عقبه من تولِّيه، فقال الله تبارك وتعالىٰ له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾، وهذا من تأْمين الله تعالىٰ

= ولها حَبٌّ يُسْتَخْرج منه دهن البان، والأَشْمَط: الذي اختلط فيه البياض بالسواد، ولعله يريد الجبل الذي اختلط فيه لون االصخور البيضاء بالصخور السوداء، والشاعر يندب سوءَ حظه، فقد أَصبح يستخدم جذوة النار التي ينبعث دخانها في هذا المكان القفر بعد أَن كان يمزج خشب البان بأَنواع الطيب.

(١) في الأَصول: «ويحتمل أن يكون معادلٌ لليسار».

(٢) في الأَصول: «أَبو الأَشهب»، والتصويب عن القرطبي والبحر المحيط وكتب القراءات.

(٣) قال الأَستاذ أَبو إِسحاق: «اتفق أَهلُ الحق على أَن الله تعالىٰ خلق في موسى عليه السلام معنى من المعاني أَدرك به كلامه كان اختصاصُه في سماعه، وأَنه قادر على مثله في جميع خلقه».

إِيَّاه، ثمَّ أَمره بأَن يدخل يده في جيبه، وهو فتح الجبَّة من حيث يخرج رأْس الإِنسان، ورُوي أَن كمَّ الجبَّة كان في غاية الضِّيق فلم يكن له جيب يدخل يده فيه إِلاَّ في جيبه. و(ٱسْلُكْ) معناه: أَدْخِل، ومنه قول الشاعر:

حَتَّى سَلَكْنَ الشَّوى منْهُنَّ في مَسَك ... مِـنْ نَسْلِ جَـوَّابَـةِ الآفـاقِ مِهْـدَاج(١)

وقوله تعالىٰ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أَيْ: مِن غير مرض ولا مثله، ورُوي أَن يده كانت تُضِيءُ كأَنها قطعة شمس.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾، ذهب مجاهد، وابن زيد إِلى أَن ذلك على المجاز والاستعارة، وأَنه أَمره بالعزم على ما أُمِرَ به، وأَنه كما تقول العرب: «اشدد حيازيمك، واربط جأْشك»، أَي: شمِّر في أَمرك، ودع الرهب، وذلك لمَّا كثُر تخوفه وفزعه في غير ما موطن، قاله أَبو علي. وقوله تعالىٰ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ﴾ قال مجاهد، والسدي: هي إِشارة إِلى العصا واليد.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، والناس: [ٱلرَّهَب] بفتح الراءِ والهاءِ، وقرأَ عاصم، وقتادة: ﴿ٱلرَّهْبِ﴾ بسكون الهاءِ، وقرأَ حمزة، والكسائي، وابن عامر، وعاصم أَيضاً: [ٱلرُّهُب] بضم الراءِ والهاءِ. وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [فَذَانِّكَ] بشد النون،

---

(١) البيت لأبي وجْزَةَ السَّعْدِيِّ، وهو في (اللسان ـ مَسَك، وهَدَج)، مع بيت قبله، قالهما أبو وجزة في وصف حُمُر الوحش:

مَـا زِلْـنَ يَنْسُبْـنَ وهْنـاً كُـلَّ صَـادِقَـةٍ ... بَـاتَـتْ تُبَـاشِـرُ عُـرْمـاً غَيْـرَ أَزْواج
حَتَـى سَلَكْـنَ الشَّـوى منْهُـنَّ فـي مَسَـك ... مِـن نَسْـل جَـوَّابَـةِ الآفَـاقِ مِهْـدَاجِ

يصف الحُمُر حين أَتت الماءَ لَيْلاً فأَثَارتْ القطَا، فصاحت: قَطَا قَطَا، جعلها صادقةً لأنها خبرت باسمها، كما يقال: أَصدق من القَطَا، وقوله: تباشِرُ عُرْماً، عَنَى بِهِ بَيْضَهَا، والأَعْرَم: الذي فيه نُقَط بياض ونُقَط سواد، وكذلك بيض القَطا، وقوله: غير أَزواج: يريد أَنَّ بيض القَطا يكون أفراداً ولا يكون أَزواجاً، والشَّوَى: قوائم الحُمُر الوحشية، والمَسَك هنا: الماءُ الذي سارت فيه الأُتُنُ ووضعت قوائمها فيه فصار حولها كالمَسَك وهو السِّوار، قال صاحب اللسان: استعاره أبو وجزة فجعل ما تُدخل فيه الأُتُنُ قوائمها من الماء مَسَكاً، وقوله: جوابة الآفاق: يريد الرِّيح، ويقول: إن الماء من نَسْلها؛ لأن الرِّيح تستدرُّ السحابَ وتُلْقِحه فيمطر، فالماء من نَسْلها، والمهداج: التي لها صوت وحنين، فهي ريح سريعة الحركة في الآفاق، وهي ريح لها صوت وحنين، والشاهد هنا أن (سَلَكْنَ) في البيت بمعنى: أَدْخَلْنَ، يعني أن الأُتُن أَدْخَلْن قوائمهن في الماء الذي صار حولها كالسِّوار.

وقرأ الباقون: [فَذَانِكَ] بالتخفيف بالنون، وقرأ شبل عن ابن كثير: [فَذَانِيكَ] بياءٍ بعد النون المخففة، أَبدل إِحدى النونين ياءً كراهة التضعيف، وقرأ ابن مسعود: [فَذَانِّيكَ] بالياءِ أَيضاً مع شد النون، وهي لغة هذيل، وحكى المهدوي أَن لغتهم تخفي النون، و(بُرْهَانَانِ): حُجَّتان ومُعْجِزتَانِ. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

كان موسى عليه السلام قد امتُحن بمخاوف فطلب شدَّ العضد بأَخيه هارون؛ لأَنه كان فصيح اللسان سمح الخُلُق. وقرأَ الجمهور: (رِدْءًا) بالهمز، وقرأَ نافع وحده: [رِدًا] بتنوين النون دون همز، وهي قراءَة أَبي جعفر، وذلك على التخفيف من «رِدْءٍ»، والرِّدْءُ: الوزير المعين والذي يستند إِليه في الأَمر، وذهبت فرقة إِلى أَنها من معنى الزِّيادة، كما قال الشاعر:

وأَسْمَــرَ خَطِّيًّــا كــأَنَّ كُعُــوبَــهُ نَوَى القَسْبِ قَدْ أَرْدَى ذِرَاعاً عَلَى العَشْرِ[1]

---

(١) البيت في اللسان (قَسَب)، وفي القرطبي، وذكر صاحب اللسان أَنَّ ابن برِّي قال: هذا البيت يذكر أنه لحاتم الطائي، ثم قال تعقيباً على ذلك: ولم أجده في شعره. ورواية اللسان: «أَرْمَى» بدلاً من «أَرْدى»، وعلى هذا فلا شاهد فيه، وفي القرطبي: «ويجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم: أَرْدَى على المائة، أي: زاد عليها، وكأن المعنى: أَرْسِلْهُ معي زيادةً في تصديقي، قاله مسلم بن جندب، وأنشد قول الشاعر: وأَسْمَر خطِّياً... البيت، كذا أنشده الماوردي، وأنشده الغزنوي والجوهري في الصحاح: أَرمى». والبيت في وصف الرمح، والخَطِّيُّ: الرُّمح المنسوب إلى الخَطِّ، وهو موضع باليمامة، وهو خَطُّ هجر تُنْسَب إليه الرِّماح الخطية؛ لأنها تُحمل من بلاد الهند فتُقَوَّمُ به. ونَوَى القَسْب: أَصْلب النَّوى، والقسب: الصُّلْب الشديد، والقَسْب: تمر يابسٌ يتَفَتَّتُ في الفم صلب النواة، وعلى=

وهذا على ترك الهمز، وأن يكون وزنه فِعْلاً.

وقرأ جمهور القراءِ: [يُصَدِّقْني] بالجزم، وذلك على جواب [أَرْسِلْهُ]، وقرأ عاصمٌ وحده: ﴿يُصَدِّقُني﴾، أي: مصدقاً، فهو صفة للرِّدْءِ، أو حالٌ.

و«شَدُّ العَضُد» استعارةٌ في المعونة والإنهاض، وقرأ الحسن بضم العين من ﴿عَضُدَكَ﴾، وقرأ عيسى بن عمر بفتح العين والضاد. و«السُّلْطَانُ»: الحُجَّةُ. وقوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ يحتمل أن تتعلق الباءُ بقوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا﴾، أو بـ ﴿يَصِلُونَ﴾ وتكون باءَ السَّبَب، ويحتمل أن تتعلَّق بقوله: ﴿ٱلْغَالِبُونَ﴾، أي: تَغْلبون بآياتنا[1]، و«الآياتُ» ها هنا معجزاته عليه السلام.

ولمَّا كذبوه ورموه بالسِّحر قارب موسى عليه السلام في احتجاجه، وراعه تكذيبهم، فردَّ الأمر إلى الله، وعوَّل على ما يظهره الله تعالىٰ في شأنهم، وتوعدهم بنقمة من الله تعالىٰ منهم. وقرأ ابن كثير: [قال موسى] بغير واو، وقرأ غيرُه وجميع السبعة: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ بواو، وقرأ الجمهور: ﴿تَكُونُ لَهُۥ﴾ بالتَّاءِ، وقرأ حمزة والكسائي: [يَكُونُ] بالياءِ على التذكير؛ إذ هي بمنزلة العاقب.

واستمر فرعون على طريق مَخْرَقَته على قومه، وأمر هامان أن يطبخ له الآجُرَّ، وأن يبني له صرحاً، أي سَطْحاً في أعلى الهواءِ، وليس الصَّرْح إلاَّ ما له سطْحٌ، ويحتمل أن يكون الإيقاد على الطِّين كَالْبَراني[2]، وتَرَجِّي بزعمه أنه يطلع في السماءِ، فروي عن السدي أنه بناه أعلى ما يمكن، ثم صعد فيه، ورمى بالنبل فردَّها الله تعالىٰ إليه مخضوبة بالدَّم ليزيدهم عمًى وفتنة، فقال فرعون حنيئذ: إنِّي قتلت إلـٰه موسى. ثم قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يريد في أن موسى راسله، فالظن على بابه، وهو في معنى إيجاب الكفر له بمنزلة المصمم على التكذيب.

وقرأ حمزة، والكسائي، ونافع: [لا يَرْجِعون]، وقرأ الباقون والحسن: ﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾ بضم الياءِ وفتح الجيم.

= رواية «أرمى» فإنها لغة في «أربَى» أي: زاد أيضاً.

(١) قال ذلك الأخفش والطبري، وقال المهدوي: «وفي هذا تقديم الصلة على الموصول» إلا أن يقدر: أنتما غالبان بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون.

(٢) البَرَانِيُّ: جمع بَرْنِيَة، وهي إناءٌ واسع الفم من خزف أو زجاج ثخين. (المعجم الوسيط).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

[نَبَذْنَاهُم] معناه: طرحناهم، ومنه نبذ النواة، ومنه قول الشاعر:

نَظَـرْتُ إِلَـى عُنْـوانِـهِ فَنَبَـذْتُـهُ   كَنَبْـذِكَ نَعْـلاً مِـنْ نِعَـالِـكَ بَـالِيـا[1]

وقوم فرعون وإن كانوا ساروا إلى البحر ودخلوه باختيارهم فإنَّ ما ضمَّهم من القدر السابق [وإغراقهم في البحر][2] هو نبذ الله تعالىٰ إيَّاهم فيه. و«اليَمّ» هو بحر القُلْزم في قول أكثر الناس، وقالت فرقة: كان غرقهم في نيل مصر. والأول أشهر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وهم أئمة من حيث اشتهروا وبقوا قدوة لكل كافر وعاتٍ إلى يوم القيامة. و﴿ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾: الذين يَقْبُح كلُّ أمرهم، قولاً لهم وفِعْلاً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الذين قبحوا بسواد الوجوه وزرقة العيون. و[يَوْمَ] ظرفٌ مقدم. وقوله تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ إخبارٌ عن أنه أَنزل التوراة على موسى بعد إهلاك فرعون وقومه، وبعد هذه الأُمم التي تقدم ذكرها من عاد وثمود وقرية قوم لوط وغيرها، والقصد بهذا الإخبار التمثيل لقريش بما تقدم في غيرها من الأُمم، وقالت فرقة: الآية متضمنة أَن إنزال التوراة على موسى هو بعد أَن رفع الله تعالىٰ عذاب الأُمم؛ فلم يعذب أُمة بعد نزول التوراة، إلاّ القرية التي مسخت قردة فيما رُوي. وقوله: (بَصَائِرَ) نصب على الحال، أَي: طرائق هادية وقوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أَي: على ترج، وما تعطيه من تأْميل، ورُوي عن أَبي

---

(١) هذا البيت لأبي الأسود الدؤلي، وهو في الطبري، والبحر المحيط، ومجاز القرآن لأبي عبيدة. والنَّبْذُ: طرحك الشيءَ من يدك أمامك أو خلفك، ويقال: نبذتُ الشيءَ إذا رميتَه وأبعدته، والنَّعل: الحذاءُ، والبالي: القديم المتقطع الذي فقد صلاحيته للاستعمال. ومن الواضح أن النَّبْذ تعبير يدل على الاستهانة بالشيء المنبوذ، أو احتقاره، ويؤيد هذا في الآية قوله تعالىٰ بعد ذلك: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وفي البيت التشبيه بنبذ النعل البالي.

(٢) ما بين العلامتين [. . . .] زيادة عن البحر الذي نقل عبارة ابن عطية كاملة دون أن يشير إليه.

سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «ما أهلك الله تعالىٰ أُمة بعذاب بعد أَن أَنزل التوراة إِلى الأَرض غير القرية التي مُسخت قردة»[1] أَي: الذين تعدوا في السبت، وهذا التعذيب من سبب شرع موسى؛ فكأَنه لا يُنقص فضيلة التوراة برفع العذاب عن الأَرض.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

المعنى: لم تحضر يا محمد هذه الغيوب التي نخبر بها، ولكنها صارت إِليك بوحينا، أَي: فكان الواجب أَنْ يُسارع إِلى الإِيمان بك، ولكن تطاول الأَمر على القرون التي أَنشأْناها زمناً زمناً، فعزبت حلومهم، واستحكمت جهالتهم وضلالتهم.

و(قَضَيْنَا) معناه: أَنفذنا وصرفنا، و(ٱلْأَمْرَ) يعني التوراة. وقالت فرقة: يعني به ما أَعلمه الله تبارك وتعالىٰ من أَمر محمد ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تأْويل حسن يلْتئم معه ما بعده من قوله: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾.

و«الثَّاوِي»: المقيم. وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ يريد: وقْتَ إِنزال التوراة إِلى موسى، وقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾، رُوي عن أَبي هريرة رضي الله عنه أَنه نودي يومئذ من السماءِ: «يا أُمَّة محمد، استجبت لكم قبل أَن تدعوني، وغفرت لكم قبل أن تسأَلوني»[2]، فحينئذ يسأَل موسى عليه السلام أَن يكون من أُمة محمد ﷺ، فالمعنى:

---

(١) أخرجه البزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي سعيد موقوفاً، وأخرج البزار، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ـ من وجه آخر ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أُمَّةً ولا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مُسخت قردة، أَلم تر إلى قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾». (الدر المنثور).

(٢) أخرجه الفريابي، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم=

إِذْ نادينا بأَمرك، وأَخبرناك بنبوتك. وقوله: (رَحْمَةً) نصب على المصدر، أَو على المفعول من أَجله، وقوله: (وَلَكِنْ) جعلناك وأَنفذنا أَمرك قديماً رحمةً من ربك، أَي: ويكون المعنى: ولكن أَعلمناك رحمةً منّا لك وإِفضالاً، وقرأَ الناس: (رَحْمَةً) بالنصب، وقرأَ عيسى: [رَحْمَةٌ] بالرفع. ويريد بالقوم «الذين لم يأْتهم نذيرٌ» معاصريه من العرب، وباقي الآية بيِّن، وقال الطبريُّ: «معنى قوله: ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ بأَنْ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا﴾[1] الآية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

«المُصِيبَةُ»: عذاب في الدنيا على كفرهم. وجواب (لَوْلاَ) محذوف، تقديره: لما أَرْسلنا الرسل. وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ يريد: القرآن ومحمداً ﷺ. والمقالة التي قالتها قريش: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ كانت من تعليم اليهود لهم، قالوا لهم: لِمَ لا يأْتي بآية باهرة كالعصا واليد ونتق الجبل وغير ذلك، فعكس قولُ الله تعالىٰ عليهم قولهم، ووقفهم على أَنهم قد وقع منهم في تلك الآيات ما وقع من هؤلاءِ في هذه، فالضمير في قوله: (يَكْفُرُوا) لليهود.

= والبيهقي معاً في الدلائل ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾، وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً. (الدر المنثور).

وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل، وأبو نصر السجزي في الإبانة، والديلمي ـ عن عمرو بن عبسة ـ قال: سألتُ النبي ﷺ عن قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ما كان النداءُ؟ وما كانت الرحلة؟ قال: «كتاب كتبه الله قبل أن يخلق خلقه بألفي عام، ثم وضعه على عرشه، ثم نادى: يا أُمَّة محمد، سبقت رحمتي غضبي، أعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني، فمن لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدي ورسولي صادقاً أدخلته الجنة»، (الدر المنثور).

(١) من الآيتين (١٥٦، ١٥٧) من سورة الأعراف.

وقرأ الجمهور: [سَاحِرَانِ]، والمراد بهما موسى وهارون، قاله مجاهد، وقال الحسن: موسى وعيسى، وقال ابن عباس: موسى ومحمد ﷺ، وقال الحسن أيضاً: عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، والأول أظهر. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿سِحْرَانِ﴾، والمراد بهما التوراة والإنجيل، قاله عكرمة، وقال ابن عباس: التوراة والفرقان، وقرأ ابن مسعود: [سحران اظاهرا][1]، وهي قراءة طلحة والضحاك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن يريد بـ ﴿مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ أمْرَ محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ الذي هو في التوراة، كأنه يقول: وما يطلبون من أن يأتي بمثل ما أُوتي موسى وهم قد كفروا ـ في التكذيب بك ـ بما أُوتيه موسى عليه السلام من الإخبار بك، وقالوا: إنَّا بكلٍّ كافرون. وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ يؤيد هذا التأويل. و(تَظَاهَرَا) معناه: تعاونا.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ﴾ الآية، هذه حجةٌ أَمَرَه الله تعالىٰ أن يصدع بها، أَي: أَنتم أَيها المكذبون بهذه الكتب التي قد تضمنت الأمر بالعبادات ومكارم الأخلاق، ونهت عن الكفر والنقائص، ووعد الله تعالىٰ عليها الثواب الجزيل، إن كان تكذيبكم لمعنى فأْتوا بكتابٍ من عند الله عزَّ وجلَّ يهدي أكثر من هدى هذه أَتَّبعه معكم. ثم قال تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾ ـ وقد علم أنهم لا يستجيبون ـ على معنى الإيضاح لفساد حالهم، وسياق القياس: «لأنهم متبعون لأهوائهم». ثم عجب تعالىٰ من اتِّباع الْهَوَى بغير هداية ولغير مقصد بيِّن، وقرر ذلك على جهة البيان، أَي: لا أَحد أَضل منه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

الذين وصّل إليهم القول قريشٌ، قاله مجاهد وغيره، وقال أبو رفاعة القرظي:

---

(١) أي: بهمزة الوصل وشدِّ الظاءِ، وأَصلها: (تَظَاهرا) فأدغم التاءَ في الظاءِ فاجْتُلبت همزة الوصل لأجل سكون التاء المدغمة. وقد قرأ الأعمش أيضاً بهذه القراءة، قاله في «البحر» ولم ينسبها للضحاك.

«نزلت في اليهود في عشرة أنا أحدهم»، ذكره الطبري.

وقال الجمهور: معناه واصلنا لهم في القرآن وتابعناه موصولاً بعضه ببعض في المواعظ والزجر والدعاءِ إلى الإسلام، قال الحسن: وفي ذكر الأمم المُهلَكة، وصلت لهم قصة بقصة، حسب مرور الأيام. وذهب مجاهد إلى أن معنى (وَصَّلْنَا): فَصَّلْنا، أي: جعلناه أوصالاً من حيث كان أنواعاً من القول في معانٍ مختلفة، ومعنى اتصال بعضه ببعض حاصل من جهة أُخرى، لكن إنما عدد عليهم ها هنا تقسيمه في أنواع من القول. وذهب الجمهور إلى أن هذا التوصل الذي وصّل لهم القول معناه: وصل المعاني من الوعظ والزجر، وفي الأجر وغير ذلك، وذهبت فرقة إلى أن الإشارة بتوصيل القول إنما هي إلى الألفاظ، أي الإعجاز، فالمعنى: ولقد وصَّلنا لهم قولاً معجزاً دالاً على نُبُوَّتك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمعنى الأول تقديره: ولقد وصَّلنا لهم قولاً تضمن معاني من اهتدى. وقرأ الحسن: [ولقد وَصَلنا] بتخفيف الصاد. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتعظون بالقرآن عن عبادة الأصنام، أو يتذكرون محمداً فيؤمنوا به.

ثم ذكر تعالىٰ القوم الذين آمنوا من أهل الكتاب مباهياً بهم قريشاً، واخْتُلف، إلى من الإشارة؟ فقيل: إلى جماعة من اليهود أسلمت وكانت تَلْقى من الكفار أذى، وقيل: إلى بحيرى الرَّاهب، وقال الزهري: إلى النجاشي، وقيل: إلى سلمان، وابن سلام وأسند الطبري عن علي بن أبي رفاعة قال: خرج عشرة رهط من أهل الكتاب، فيهم أبو رفاعة ـ يعني أباه ـ فأسلموا، فأُوذوا، فنزلت فيهم هذه الآية. والضمير في (قَبْلِهِ) يحتمل أن يعود على النبي ﷺ، ويحتمل أن يعود على القرآن، وما بعْدُ يؤيد هذا، وهو قوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾. وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ يريدون الإسلام المتحصل لهم من شريعة موسى وعيسى عليهما السلام[1]. وإيتاءُ أجرهم مرتين معناه: على ملَّتين، ولإيمانهم بشريعتين، وهذا المعنى هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتيهم الله أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيِّه وآمن بي، والعبد الناصح في

---

(١) قيل في ذلك: إن الإسلام صفة كل موحِّد مصدِّق بالوحي.

عبادة ربِّه وخدمة سيِّده، ورجل كانت له أَمَةٌ فأَدبها وعلمها ثم أَعتقها وتزَوَّجها»(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ عام في صبرهم على ملَّتهم ثم على هذه وعلى الأَذى الذي يلقونه من الكفار في ذلك. وقوله تعالىٰ: ﴿ويدرؤون﴾ معناه: يدفعون، وهذا وصف لمكارم الأَخلاق، أَي: يتعاونون، ومن قال لهم سوءًا؛ لاَيَنُوهُ وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه، وهذه آية مهادنة، وهي في صدر الإِسلام، وهي مما نسخته آية السيف، وبقي حُكْمها فيما دون الكفر تتعاطاه أُمَّة محمد ﷺ إلى يوم القيامة، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ مدحٌ لهم بالنفقة في الطاعات، وعلى رسم الشرع، وفي ذلك حضٌّ على الصدقات ونحوها.

و«اللَّغْو» لَغْوُ القول، واليمين لَغْوٌ، حسب الخلاف فيهما، وكلام مستمع الخطبة لَغْوٌ، والمراد من هذا ـ في هذه الآية ـ ما كان سَبًّا وأَذًى ونحوه، فأَدب أَهل الإِسلام الإِعراض عنه، والقول ـ على جهة التَّبرِّي ـ ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾. وقال ابن زيد: اللَّغو ها هنا ما كان بنو إِسرائيل كتبوه في التوراة مما ليس من عند الله تبارك وتعالىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه المهادنة هي لبني إِسرائيل، الكفار منهم، و﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ في هذا الموضع ليس المقصود بها التحية، لكنه لفظ التحية قُصد به المُتَارَكَة، وهو لفظ مؤنس مستنزل لسامعه؛ إِذْ هو في عرف استعماله تحية، قال الزجاج: وهذا قبل الأَمر بالقتال، و﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ معناه: لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمسابَّة.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي، وذكره السيوطي في الدر المنثور، وقال الشعبي للخراساني: خذ هذا الحديث بغير شيء، فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة.

قال العلماءُ: لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطباً بأمرين من جهتين استحق كل واحد منهم أجرين، فالكتابي كان مخاطباً من جهة نبيِّه، ثم إنه خوطب من جهة نبيِّنا فأجابه واتبعه فله أجر المِلَّتين، والعبد مأمور من جهة الله تعالىٰ ومن جهة سيِّده، وربُّ الأمَة لما قام بما خوطب به من تربية أَمَتِه وأَدَّبها فقد أحياها إحياء التربية، ثم إنه لما أعتقها وتزوجها أَحياها إحياء الحرية التي ألحقها فيه بمنصبه، فقد قام بما أُمر فيها، فأُجر كلٌّ واحد منهما أجرين، ولذلك قيل: إن العبد الذي يؤدي حق ربِّه وحق سيِّده أفضل من الحُرِّ، وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «للعبد المملوك المصلح أَجران».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

أَجمع جُلُّ المفسرين على أن قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ إنما نزلت في شأن أَبي طالب عمِّ رسول الله ﷺ، قال أَبو هريرة، وابن المسيّب، وغيرهم: إن رسول الله ﷺ دخل عليه وهو يجود بنفسه، فقال له: أَيْ عَمِّ، قل: لاَ إِلـٰهَ إلاَّ الله كلمةً أَشهد لك بها عند الله، وكان بحضرته عبد الله بن أُمية، وأَبو جهل لعنهما الله تعالىٰ، فقالا له: أَترغب عن ملَّة عبد المطلب يا أَبا طالب؟ فقال له: يا محمد، لولا أَني أَخاف أَنْ يُعَيَّر بها ولدي من بعدي لأَقررتُ بها عينك، ثم قال أَبو طالب: أَنا على مِلَّةِ عبد المطلب والأَشياخ، فتفجع رسول الله ﷺ وخرج عنه، فمات أَبو طالب على كفره، فنزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ إشارة إلى أَبي طالب[(١)].

والضمير في قوله: (وَقَالُوا) لقريش، قال ابن مسعود: والمتكلم بذلك منهم الحرث بن نوفل، وقصد الإخبار بأَن العرب تنكر عليهم رفض الأَوثان وفراق حكم الجاهلية بتخطفهم من أَرضهم. وقوله: (ٱلْهُدَىٰ) معناه: على زعمك، وحكى الثعلبي عنه أَنه قال: إِنا لنعلم أَن الذي تقول حق، ولكن إِن اتبعناك يتخطفنا العرب، فقطعهم الله تعالىٰ بالحجة، أَي: أَليس كون الحرم لكم مما يَسَّرناه وكففنا عنكم الأَيدي فيه؟ فكيف بكم لو أَسلمتم واتبعتم شرعي وديني؟ وروي عن أَبي عمرو: [نُتَخَطَّفُ] بضم الفاءِ، وأَمْن الحرم هو أَلاَّ يُغْزى ولا يودى فيه أَحد. وقوله تعالىٰ: ﴿ يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ

(١) هذا الحديث مروي عن أَبي هريرة، وعن ابن المسيب كما قال ابن عطية، أما عن أبي هريرة فقد أخرجه عبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل. وأما عن ابن المسيب فقد أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي. وقد تقدم ذلك في تفسير سورة براءة عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ ﴾ وهي من الآية رقم (١١٣).

ﵟثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖﵞ أَي: يُجمع ويُجْلَب. وقرأَ نافع وحده: [تُجْبَى] بالتاءِ من فوق، وقرأَ الباقون: (يُجْبَى) أَي: يجمع، بالياءِ من تحت، ورويت التاءُ عن أَبي عمرو، وأَبي جعفر، وشيبة بن نصاح. وقوله تعالىٰ: ﴿ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يريد مما به صلاح حالهم وقوام أَمرهم، وليس العموم فيه على الإِطلاق. وقرأَ أَبان بن تغلب: [ثُمُرَاتِ] بضم الثاءِ والميم.

ثم توعَّد تعالىٰ قريشاً بضرب المثل بالقُرى المُهْلَكة، أَي: فلا تغتروا بالحرم الآمن والثمرات التي تُجبى؛ فإِن الله تعالىٰ مهلك الكفرة على ما سلف في الأُمم. و(بَطِرَتْ) معناه: سفهت وأَشرت وطغت، قاله ابن زيد وغيره، و(مَعِيشَتَهَا) نصبت على التفسير[(١)]، مثل قوله: ﴿ سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾[(٢)]، وقال الأَخفش: هو على إِسقاط حرف الجر، أَي: بَطِرت في معيشتها، ثم أَحالهم على الاعتبار في خراب ديار الأُمم المُهْلَكة كحجر ثمود وغيره. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٦١﴾.

إِن كانت الإِبادة للقرى بالإِطلاق في كل زمن فأُمُّهَا في هذا الموضع عظيمها وأَفضلها التي هي بمثابة مكة في عصر محمد ﷺ، وإِن كانت مكَّة أُم القرى كلها أَيضاً من حيث هي أَول ما خلق الله من الأَرض، ومن حيث فيها البيت، ومعنى الآية أَن الله تبارك وتعالىٰ يقيم الحجة على عباده بالرسل، فلا يعذب إِلاَّ بعد إِنذاره، وبعد أَن يتمادى أَهل القُرى في ظلم وطغيان. والظُّلْم ـ هنا ـ يجمع الكفر والمعاصي والتَّقصير في الجهاد، وبالجملة وضع الباطل موضع الحق.

---

(١) وقيل: هي مفعول به على تضمين (بَطِرَتْ) معنى فعل متعد، أي: خسرت معيشتها، وهذا على مذهب أكثر البصريين، وقيل: هي مشبه بالمفعول على مذهب بعض الكوفيين، ويجوز أن تكون منصوبة على الظرفية، على تقدير: أيّام معيشتها، كقولك: جئت خُفُوقَ النجم، وهذا على مذهب الزجاج.

(٢) من الآية (١٣٠) من سورة (البقرة).

ثم خاطب تعالىٰ قريشاً محقِّراً لما كانوا يفخرون به من مال وبنين وغير ذلك من قوة لم تكن عند محمد ﷺ ولا عند من آمن به، فأَخبر الله تعالىٰ قريشاً أَن ذلك متاع الدنيا الفاني، وأَن الآخرة وما فيها من النعيم الذي أعد الله لهؤلاءِ المؤمنين خيرٌ وأَبقى. ثمَّ وبَّخهم بقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، وقرأَ الجمهور: (يَعْقِلُونَ) بالياءِ، وقرأَ أَبو عمرو وحده: ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ بالتاءِ من فوق، وهي قراءَة الأَعرج، والحسن، وعيسى[(١)].

ثم زادهم توبيخاً بقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ﴾ الآية. وقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ﴾ آية يعم معناها جميع العالم، لكن اختلف الناسُ فيمن نزلت ـ فقال مجاهد: الذي وُعد الوعد الحسن هو محمد ﷺ، وضده أَبو جهل لعنه الله، وقال مجاهد: نزلت في حمزة رضي الله تعالىٰ عنه وأَبي جهل، وقال قتادة: نزلت في المؤمن والكافر، كما أَنَّ معناها عام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ونزولها عامٌّ بيِّن الاتساق بما قبله من توبيخ قريش.

و﴿مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ معناه: في عذاب الله تعالىٰ، قاله مجاهد وقتادة، ولفظة (مُحْضَرِينَ) مشيرةٌ إِلى سَوْق وجَرٍّ. وقرأَ طلحة: [أَمَنْ وَعَدْنَاهُ] بغير فاءٍ، وقرأَ مسروق: [أَفمن وعدناه نعمة منا فهو لاقيه].

---

(١) أجمعت كتب القراءات، وكتب التفسير على أن قراءة الجمهور: ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ بالتاءِ على خلاف ما ذكر ابن عطية هنا، ولعلَّ الخطأ من النساخ، أما القراءة بالياء فهي قراءة أبي عمرو، ذكر ذلك القرطبي صراحة، أما البحر المحيط فقد ذكر أن قراءة الجمهور بالتاء من فوق، ثم قال: «ونسب هذه القراءة أبو علي في الحجة إلى أبي عمرو وحده»، وبهذا نعرف المصدر الذي أخذ عنه ابن عطية نسبة القراءة بالتاء إلى أبي عمرو وحده، ثم رأيت في كتاب (النشر في القراءات العشر) لابن الجزري ما يوضح الحقيقة، قال: «روى الدوري عن أبي عمرو بالغيب ـ أي بالياء ـ واختلف عن السوسي عنه، فالذي قطع له به كثير من الأئمة أصحاب الكتب الغيبُ كذلك، وهو اختيار الداني وشيخه أبي الحسن بن غلبون، وابن شريح، ومكي، وغيرهم. وقطع له آخرون بالخطاب، كالأستاذ أبي طاهر بن سوار، والحافظ أبي العلاء، وقطع جماعة له وللدوري وغيرهما عن أبي عمرو بالتخيير بين الغيب والخطاب على السواء، كأبي العباس المهدوي، وأبي القاسم الهزلي ـ قلت: والوجهان صحيحان عن أبي عمرو من هذه الطرق ومن غيرها، إلا أن الأشهر عنه بالغيب، وبهما آخُذُ في رواية السوسي لثبوت ذلك عندي عنه نصاً وأداءً، وبالخطاب قرأ الباقون». ويتضح من هذا كله أمران: الأول: أن قراءة الجمهور بالتاء من فوق، والثاني أن المنقول عن أبي عمرو موضع خلاف، فمن القراء من نقل القراءة بالتاء كابن عطية، ومنهم من نقل القراءة بالياء، ومنهم من نقل التخيير بين التاء والياء. والله أعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

التقدير: واذكر يومَ، وهذا النداءُ يحتمل أَن يكون بواسطة، ويحتمل أَن يكون بغير ذلك، والضمير بِـ [يُنَادِي] لِعُبَّاد الأَصنام، والإِشارة إِلى قريش، وقوله: (أَيْنَ) على جهة التوبيخ والتقريع، وقوله: (شُرَكَائِي) أَي: عَلَى قولكم وزعمكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولما كان هذا السؤال مُسْكِتاً لهم مهيناً فكأَنه لا يتعلق بجمهور الكفرة، بل بالمُغْوين لهم، وبالأَعيان والرؤوس منهم، وبالشياطين المُغْوين، فكأَن هذه الفئة المُغْوية إِنما أَتت الكفرة على علم بأَن القول عليها متحقق، وبأَن كلمة العذاب ماضية، لكنهم طمعوا في التبرِّي من أُولئك الكفرة الأَتباع فقالوا: ربنا هؤلاءِ أَضللناهم كما ضللنا نحن باجتهاد لنا ولهم، وأَرادوا هم اتباعنا، وأَحبُّوا الكفر كما أَحببناه، فنحن نتبرَّأُ إِليك منهم، وهم لم يعبدونا إِنما عبدوا غيرنا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا التوقيف يعم جميع الكفرة، والمجيبون هم جميع المُغْوِين، كل داع إِلى كفر، من الشياطين الجن، ومن الإِنس العرفاءُ والرُّؤساءُ والسادة.

وقرأَ الجمهور: [غَوَيْنَا] بفتح الواو، ويقال: غَوَى الرجل يَغْوِي بكسر الواو، وروي عن ابن عامر، وعاصم [غَوِينَا] بكسر الواو.

ثم أَخبر تبارك وتعالىٰ أَنه يقال للكفرة العابدين للأَصنام الذين اعتقدوهم آلهةً: ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أَي الأَصنام التي كنتم تزعمون أَنهم شركاءُ لله، وأَضاف الشركاءَ إِليهم لمَّا كان ذلك الاسم بزعمهم ودعواهم، فهذا القول أَصل من الاختصاص، أَضاف الشركاءَ إِليهم ثم أَخبر أَنهم دعَوْهم، فلم يكن في الجمادات ما يجيب، ورأَى الكفار العذاب. وقوله تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾، ذهب الزجاج وغيره من المفسرين إِلى أَن جواب (لَوْ) محذوف تقديره: لما نالهم العذاب، أَو: لما كانوا في الدنيا عابدين

للأَصنام، ففي الكلام ـ على هذا التأْويل ـ تأَسُّف عليهم، وذلك محتمل مع تقديرنا الجواب: «لما كانوا عابدين للأَصنام»، وفي تقديرنا الجواب: «لما نالهم العذاب» نعمة منا. وقالت فرقة: (لَوْ) متعلقة بما قبلها، تقديره: فودُّوا لو أَنهم كانوا يهتدون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

وهذا النداءُ أَيضاً كالأَول في احتماله الواسطة من الملائكة، وهذا النداءُ أَيضاً للكفار يوقفهم على ما أَجابوا به المرسلين الذين دعوهم إِلى الله تعالىٰ. ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ ﴾ أَي: أَظلمت الأُمور، فلم يجدوا خبراً يخبرون به مما لهم فيه نجاة، وساق الفعل في صيغة الماضي لِتَحُقق وقوعه وأَنه تعيَّن، والماضي من الأَفعال مُتيَقَّن؛ فلذلك توضع صيغته بدل المستقبل المُتيَقَّن فيقوى وقوعه وصحته، ومعناه: أَظلمت جهاتُها، وقرأَ الأَعمش: [فعُمِّيَت] بضم العين وشدِّ الميم، وروي في بعض الحديث: «كان الله في عماءٍ»[1] وذلك قبل أَن يخلق الأَنوار وسائر المخلوقات. و(ٱلْأَنۢبَاءُ) جمع نَبَأٍ. وقوله تعالىٰ: ﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ معناه فيما قال مجاهد وغيره: بالأَرحام والأَنساب الذي عُرْفه في الدنيا أَن يُتَساءَل به؛ لأَنهم قد أَيقنوا أَنهم كلُّهم لا حيلة لهم ولا مكانة، ويحتمل أَن يريد أَنهم لا يتساءَلون عن الأَنباءِ لتيقُّن جميعهم أَنه لا حُجة لهم.

ثم انتزع تعالىٰ من الكفرة من تاب من كفره، وآمن بالله ورسله، وعمل بالتقوى، ورَجَّى عزَّ وجلَّ أَنهم يفوزون ببغيتهم ويبقون في النعيم الدائم، وقال كثير من العلماءِ: «عَسَى» من الله واجبة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ظن حسن بالله تعالىٰ يشبه فضله وكرمه، واللازم من «عَسَى» أَنها ترجية

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة هود، وابن ماجه في المقدمة، وأحمد في المسند (٤ـ١١، ١٢)، ولفظه كما في المسند: عن أبي رُزَيْن قال: قلتُ: يا رسول الله، أين كان رَبُّنَا عزَّ وجلَّ قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عماءٍ، ما تحته هواءٌ، وما فوقه هواءٌ، ثم خلق عرشه على الماء».

لا واجبة، وفي كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ الآية، قيل: سببها ما تكلمت به قريش من استغراب أمر النبي ﷺ، وقول بعضهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٢] فنزلت هذه الآية بسبب تلك المنازع، ورد الله تعالىٰ عليهم، وأخبر أنه يخلق من عباده وسائر مخلوقاته ما يشاءُ، وأنه يختار لرسالته من يريد ويجعل فيه المصلحة، ثم نفى أن يكون الاختيار للناس في هذا ونحوه، هذا قول جماعة من المفسرين[٣]، قالوا: والظاهر أن (مَا) نافية، أي: ليس لهم الخيرة عن الله تبارك وتعالىٰ، فتجيءُ الآية كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾[٤].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن يريد: ويختار الله تعالىٰ الأديَانَ والشرائع، وليس لهم الخِيَرَةُ في أن يميلوا إلى الأصنام ونحوها في العبادة، ويؤيد هذا التأويل قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وذهب الطبريُّ إلى أن (مَا) في قوله: ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ﴾ مفعولة، قال: والمعنى أن الكفار كانوا يختارون من أموالهم لأصنامهم خيارها، فأخبر الله تعالىٰ أن الاختيار إنما هو له وحده، يخلق ويختار من الرُّسل والشرائع ما كان خيراً للناس، لا كما يختارون هم ما ليس لهم، ويفعلون ما لم يُؤْمروا به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واعتذر الطبريُّ عن الرفع الذي أَجمع عليه القراءُ في قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ بأقوالٍ لا تتحصل[٥]، وقد ردَّ الناسُ عليه في ذلك، وذكَر عن الفراءِ أن

---

(١) من الآية (٥) من سورة (التحريم).

(٢) من الآية (٣١) من سورة (الزُّخرف)، رُوي أن الذي قال ذلك هو الوليد بن المغيرة، وكان يعني نفسه، أو عُروة بن مسعود الثقفي من الطائف، فآيتنا هنا ردٌّ عليه، أو جواب لقوله.

(٣) منهم الزجاج، وعلي بن سليمان، والنحاس، وهم يرون أن الوقف على قوله: (وَيَخْتَارُ).

(٤) من الآية (٣٦) من سورة (الأحزاب).

(٥) قال الطبريُّ: «فإن قال قائل: فإن كان الأمرُ كما وصفْتَ من أن [ما] اسم منصوب بوقوع قوله: [يَخْتَارُ] عليها، فأين خبر (كَانَ)؟ فقد علمتَ أن ذلك إذا كان كما قلت إن في (كان) ذكراً من (ما)، ولا بدَّ لـ (كان) إذا كان كذلك من تمام، وأين التمام؟ قيل: إن العرب تجعل لحروف الصفات إذا جاءت الأخبارُ=

القاسم بن معن أَنشده بيت عنترة:

أَمِـنْ سُمَيَّـةَ دَمْـعُ الْعَيْـنِ تَـذْرِيـفُ لَوْ كَانَ ذَا مِنْكِ قَبْلَ الْيَوْم مَعْرُوفُ(١)

وقرن الآية بهذا البيت، والرواية في البيت: (لَوْ أَنَّ ذَا)، ولكن على ما رواه القاسم يَتَّجه في بيت عنترة أَن يكون في كان ضمير الأَمر والشأن، فأَما في الآية فلا يكون بجملة فيها محذوف، وفي هذا كله نظر.

والوقف على ما ذهب إِليه جمهور الناس في قوله تعالىٰ: [وَيَخْتَارُ]، وعلى ما ذهب إِليه الطبريُّ لا يوقف على ذلك.

ويتَّجه عندي أَن تكون (مَا) مفعولة إِذا قدرنا (كَانَ) تامة، أَي أَن الله تعالىٰ يختار كل كائن، ولا يكون شيءٌ إِلاَّ بإِذنه، وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ جملة مستأْنفة معناها تعديد النِّعمة عليهم في اختيار الله تعالىٰ لهم لو قبلوا وفهموا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ

= بعدها أحياناً أخباراً كفعلها بالأسماء إذا جاءت بعدها أخبارها، وذلك كما في بيت عنترة حيث رفع (معروفاً) بحرف الصفة، وهو لا شك خبرٌ لـ (ذا)». وبيت عنترة هو الذي ذكره ابن عطية هنا بعد قليل.

(١) البيت في الديوان مطلع قصيدة قالها لحادثة وقعت له مع امرأة أبيه، وكان اسمها سُهَيَّة، وقيل: سُمَيَّة، إذ كانت قد حرشت عليه أباه قبل أن ينسبه إلى نفسه، وقالت لأبيه: إنه يراودني عن نفسي، فغضب أبوه من ذلك غضباً شديداً، وضربه ضرباً عنيفاً، ثم ضربه بالسيف، فلما رأت امرأة أبيه ذلك وقعت عليه وكفت أباه عنه، ولما رأت جراحه بكت، فقال عنترة هذه الأبيات، والقصة في الأغاني عن الأخفش الصغير. وتذريف: من ذرفت عليه عينه تذرف ذريفاً، وهو الدمع الذي يكاد يتصل في نزوله. وقوله: (لو كان ذا منك قبل اليوم معروف) يريد أنه ينكره منها اليوم، ولو كان معروفاً منها قبل ذلك لما أنكره. والشاهد أنه جعل قوله (معروفٌ) خبراً بعد الصفة التي في الجار والمجرور (مِنْكِ)، وهي خبر عن (ذا). كأنه يقول: إن حرف الصفة موضوع موضع ضمير مبتدإٍ، و(معروف) خبره، وفي هذا كثير من التعسف والتكلف، على أن رواية البيت في الديوان هي: (لوْ أَن ذَا مِنْكِ قبل اليوم معروف)، وعلى هذا فلا شاهد فيه كما قال ابن عطية، والشاهد يأتي على رواية القاسم بن معن القاضي التي ذكرها الفراءُ، والبيت غير مذكور في (معاني القرآن) للفراء، ولعله ذكره في كتاب آخر له.

سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

ذكر تعالىٰ في هذه الآيات أُموراً يشهد عقل كل مفطور بأَن الأَصنام لا شركة لها فيها، فمنها علم ما في النفس وما يهجس بالخواطر. و(تُكِنُّ) معناه: تستر، وقرأَ ابن محيصن: [تَكُنُّ] بفتح التاءِ وضم الكاف، وعبَّر عن القلب بالصدر حيث كان محتوياً عليه، ومعنى الآية أَن الله تعالىٰ يعلم السِّرَّ والإِعلان.

ثم أَفرد نفسه بالأُلوهية ونفاها عمَّا سواه، وأَخبر أَن الحمد له في الدُّنيا والآخرة؛ إِذ له الصِّفات التي تقتضي ذلك، والحُكْم له. وهو ـ في هذا الموضع ـ الفصل والقضاءُ في الأَمر، ثم أَخبر تعالىٰ بالرَّجعة إِليه والحشر.

ثم أَخبر تعالىٰ نبيَّه أَن يوقفهم على أَمر الليل والنهار، وما منح الله تعالىٰ فيهما من المصالح والمرافق، وأَن يوقفهم على إِنعامه تعالىٰ بتوفيق الليل والنهار، وأَنه لو مدَّ أَحدهما سرمداً لما وجد من يأْتي بالآخر. و«السَّرْمَد» من الأَشياءِ: الدائم الذي لا ينقطع. وقرأَت فرقة هي الجمهور: (بِضِياءِ) بالياءِ، وقرأَ ابن كثير في رواية قنبل: [بِضِئَاءِ] بهمزتين، وضعَّفه أَبو عليٍّ. ثم ذكر عزَّ وجلَّ انقسام الليل والنهار على السكون وابتغاءِ الفضل بالمشي والتصرف، وهذا هو الغالب في أَمر الليل والنهار، فعدَّد النعمة بالأَغلب، وإِن وُجد من يسكن بالنهار ويبتغي فضل الله بالليل فشاذٌّ نادرٌ لا يُعْتَدُّ به. وقال بعض الناس: قوله تعالىٰ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ إِنما عبَّر به عن الزمان، فكأَنه لم يقصد لتقسيم، أَي: في هذا الوقت الذي هو ليلٌ ونهارٌ يقع السكون وابتغاءُ الفضل.

وقوله: (وَلَعَلَّكُمْ) أَي على نظر البشر، من يرى هذا التلطُّف والرفق يرى أَن ذلك يستدعي الشكر ولا بُدَّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

التقدير: واذكر يوم يناديهم، وكرر هذا المعنى إِبلاغاً وتحذيراً، وهذا النداءُ عند ظهور كل ما وعد الرحمنُ على أَلْسنة المرسلين من وجوب الرحمة لقوم والعذاب

لآخرين، ومن خضوع كل جبار وذُلِّه لعزَّة ربِّ العالمين، فيتوجه حينئذ توبيخ الكفار، فيقول الله تعالىٰ لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ على معنى التقريع.

ثم أَخبر تبارك وتعالىٰ أنه يُخرج في ذلك اليوم من كل أُمَّة شهيداً يُمَيِّز بينه وبين الناس، وهذا هو النَّزْعُ، أَي: يُمَيِّز بين شيئين فينزع أَحدهما من الآخر، وقال مجاهد: أَراد بـ «الشَّهيد» الذي يشهد على أُمَّته، وقال الرماني: وقيل: أَراد عُدولاً من الأُمم وأَخياراً[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهم حملة الحجة الذين لا يخلو منهم زمن، و«الشَّهِيدُ» ـ على هذا التأْويل ـ اسم الجنس، وفي هذا الموضع حذف يدل عليه الظاهر، تقديره: يشهد الشهيد على الأُمة بخيرها وشرها، فيحق العذاب على من كفر، ويقال لهم ـ عَلَى جهة استبراءِ الحُجَّة والإِعذار في المحاولة ـ: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾، أَي حجتكم على ما كنتم عليه في الدنيا إِن كان لكم، فيسقط حينئذ في أَيديهم، ويعلمون أَن الحق متوجه له سبحانه عليهم في تعذيبهم، وينكشف لهم ما كانوا بسبيله في الدنيا من كذب مختلق وزور في قولهم للأَصنام: هذه آلهة، وفي تكذيبهم الرُّسل، وغير ذلك. ومن هذه الآية انتزع قول القاضي عند إِرادة الحكم: أَبقيت لك حجة؟

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

قارون: اسم أَعْجَمي، فلذلك لم ينصرف. واختلف الناس في قرابة قارون لموسى عليه السلام ـ فقال ابن إِسحاق: هو عمُّه، وقال ابن جريج، وإِبراهيم النَّخَعي: هو ابن عمِّه، وهذا أَشهر، وقيل: ابن خالته، فهو بإِجماع رجلٌ من بني إِسرائيل، كان ممن آمن

---

(١) أظهر الأقوال في المراد بالشهيد أنه نبيُّ كل أُمَّة، لأنه هو الذي يشهد على قومه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾، قال العلماءُ: والشهيد: الحاضر، فيكون المعنى: أَحضرنا رسولهم المبعوث إِليهم.

بموسى، وحفظ التوراة، وكان من أَقْرأ الناس لها، وكان عند موسى عليه السلام من عُبَّاد المؤمنين، ثم لحقه الزهو والإعجاب، فبغى على قومه بأَنواع من البغي، فمن ذلك كُفْره بموسى واستخفافه به، ومطالبته له بأَن يجعل له شيئاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه عمد إلى إمرأة مُومِسَة[١] ذات جمال، وقال لها: أَنا أُحْسِنُ إليك، وأحفظك في أَهلي على أَن تجيئي في مَلأٍ من بني إسرائيل عندي فتقولي: يا قارون اكفني أَمر موسى فإنه يتعرض لي في نفسي، فجاءَت المرأَة، فلما وقفت على المَلأِ أَحدث الله تعالىٰ لها توبة، فقالت: يا بني إسرائيل، إن قارون قال لي كذا وكذا، ففضحته في جميع القصة، وبرَّأ الله بقدرته نبيَّه موسى عليه السلام من مطالبته، وقيل: بل قالت المرأَة ذلك عن موسى، فلما بلغه الخبر وقف بالمرأَة بمحضر من بني إسرائيل، فقالت: يا نبي الله، كذبتُ أَنا عليك، وإنما دفعني قارون إلى هذه المقالة. وكان من بغيه أَنه زاد في ثيابه شبراً على ثياب الناس، قاله شهر بن حوشب، إلى غير ذلك مما يصدر عمن فسد اعتقاده. وكان من أَعظم الناس مالاً، وسميت أَمواله كنوزاً إذ كان ممتنعاً من أَداءِ الزكاة، وبسبب ذلك عادى موسى عليه السلام أَول عداوته.

والمفاتيح: ظاهرها أَنها التي يفتح بها، ويحتمل أَن يريد بها الخزائن والأَوعية الكبار، قاله الضحاك: لأَن المفتاح في كلام العرب الخزانة[٢].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَكثَرَ المفسرون في شأْن قارون، فروي عن خيثمة أَنه قال: نجد في الإنجيل مكتوباً: «إن مفاتيح قارون كانت من جلود الإبل، وكان المفتاح نصف شبر، وكانت وِقْر ستِّين بغلاً أَو بعيراً، لكل مفتاح كنز».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وروي غير هذا مما يقرب منه، وذلك كله ضعيف، والنظر يشهد بفساد هذا، ومن الذي كان يميز بعضها من بعض؟ وما الداعي لهذا؛ وفي الممكن أَن ترجع كلها إلى

---

(١) يقال: امرأة مُومِسٌ ومُومِسَة: فاجرة جهاراً، (عن اللسان).

(٢) المفاتح: جمع مِفْتَح بالكسر، وهو ما يُفْتح به، وأما من قال: إن المفاتح هي الخزائن، فواحدها مَفْتح بالفتح، (راجع اللسان) قال: «المِفتَح والمِفتَاحُ: مفتاح الباب، وكل ما فتح به ـ والمَفتَح: الخِزانة، وعن الجوهري: المَفتح: الكنز».

ما يحصى ويقدر على حمله بسهولة؟ وكان يلزم ـ على هذا ـ أن تكون «مفاتيح» بياءٍ، وهي قراءَة الأعمش، والذي يشبه هو: إما أن تكون المفاتيح من الحديد ونحوه، وعلى هذا تنوءُ بالعصبة؛ إذ كانت كثيرة لكثرة مخازنه، أو تكون «المفاتحُ» الخزائن، قال أبو صالح: كانت خزائنه تحمل على أربعين بغلاً.

وأما قوله: [تَنُوءُ] فمعناه: تنهض بتحامل، ومن ذلك قول الشاعر يصف رامياً:

حَتَّى إذَا مَا الْتَأَمَتْ مَفَاصِلُهْ ... وَنَاءَ فِي شِقِّ الشِّمَالِ كَاهِلُهْ(١)

والوجه أن يقال: إن العُصْبَة تنوءُ بالمفاتيح المثقِلة لها، وكذلك قال كثير من المتأوِّلين: إن المراد هذا، لكنه قَلَب كما تفعل العرب كثيراً، فمن ذلك قول الشاعر:

فَدَيْتُ بِنَفْسِهِ نَفْسِي وَمَالِي ... وَمَا آلُوكَ إلاَّ مَا أُطِيقُ(٢)

---

(١) استشهد الفراءُ بهذين البيتين على رأيه في معنى قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ﴾، قال: نوؤُها بالعصبة أن تُثْقلهم، أي: تُميلهم من ثِقلها، فإذا أدخلت الباء قلت: تنُوءُ بهم وتُنيءُ بهم، كما قال: ﴿ءَاتُونِىٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾، والمعنى: ائتُوني بقِطْرٍ أُفرِغ عليه، فإذا حذفتَ الباءَ زدتَ في الفعل ألفاً في أوله، ومثله: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ﴾، معناه: فجاءَ بها المخاضُ، وقد قال رجلٌ من أهل العربية: إن المعنى: ما إنَّ العصبة لتَنُوءُ بمفاتحه، فحول الفعل إلى المفاتح، كما قال الشاعر:

إنَّ سِراجاً لَكَرِيمٌ مَفْخَرُهْ ... تَحْلَى بِهِ العَيْنُ إذا ما تَجْهَرُهْ

وهو الذي يَحْلَى بالعين، فإن كان الرجل قد سمع أثراً بهذا فهو الوجه، وإلا فإن الرجل جهل المعنى، وأنشدني بعض العرب:

حَتَّى إذَا مَا الْتَأَمَتْ مَوَاصِلُهْ ... ونَاءَ فِي شِقِّ الشِّمَالِ كَاهِلُهْ

يعني الرامي لمَّا أخذ القوسَ ونزع مالَ على شِقِّهِ، فذلك نَوْؤُه عليها، ونرى أن قول العرب: «ما ساءَكَ وناءَكَ» من ذلك، ومعناه: ما ساءَك وأناءَكَ، إلا أنه ألقى الألف؛ لأنه مُتْبَع لـ «سَاءَكَ»، كما قالت العرب: أكَلْتُ طعاماً فَهَنَأَنِي وَمَرَأَنِي، ومعناه ـ إذا أُفردت ـ: وأَمْرَأَنِي، فحذفت منه الألف لمَّا أن أُتْبع ما لا ألف فيه. وقد استشهد بهما أيضاً الطبريُّ، ونقل كلام الفراء بنصه، وكذلك نقل صاحب اللسان كلام الفراء كاملاً مع ما استشهد به، هذا والرواية كما في أُصول ابن عطية: «التأمتْ مَفاصله»، وفي بعض النسخ: «اعتدلت مفاصله»، وفي معاني القرآن واللسان: «التأَمَتْ مَوَاصِلُهْ».

(٢) هذا البيت من شواهد أَبي عُبَيْدَة في «مجاز القرآن»، قال: «﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ﴾، أي: مفاتح خزائنه، ومجازه: ما إن العُصْبَة ذوي القوة لتنوءُ بمفاتح نعمه، يقال في الكلام: (إنها لتنوءُ بها عَجِيزَتُهَا)، وإنما هي تنوءُ بعجيزتها، كما ينوءُ البعير بحمله، والعرب قد تفعل هذا، قال: فَدَيْتُ بنفسه... البيت»، ومعنى البيت: فديت نَفْسَه بنفسي ومالي، لكن الشاعر قَلَب، أما قوله: (ما آلُوكَ) فمعناه: ما أَستطيع، يقال: جاءَني فلانٌ في حاجةٍ فما استطعتُ ردَّه، وأتاني في حاجة فألَوْتُ فيها، أي: اجتهدت. وفي=

وقول الآخر:

وَتَـرْكَـبُ خَيْـلاً لاَ هَـوَادَةَ بَيْنَهَـا ... وتَشْقَى الرِّمَاحُ بِالضَّيَاطِرَةِ الْحُمْرِ(١)

وهذا البيت لا حُجَّة فيه؛ إذْ يتَّجه على وجهه فتأمله، ومن ذلك قول الآخر:

ما كُنْتَ في الْحَرْبِ الْعَوَانِ مُغَمَّراً ... إِذْ شَبَّ حَرُّ وَقُـودِهَـا أَجْـذَالَهَـا(٢)

وقال سيبويه والخليل: التقدير: لَتُنِيءُ العُصْبَةَ، فجعل بدل ذلك تعدية الفعل بحرف الجرِّ، كما تقول: ناءَ الحِمْلُ وأَنأْتُه ونؤْتُ به بمعنى: جعلته يَنُوءُ، والعرب تقول: ناءَ الحِمْلُ بالبعير إذا أثْقَلَه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يُسنَد [تَنُوءُ] إلى المفاتيح مجازاً، لأَنها تنهض بتحامل إذا فعل ذلك الذي ينهض بها، وهذا مطَّرد في قولهم: ناءَ الحملُ بالبعير، ونحوه، فتأَمله.

= الشطر الثاني التفاتٌ من الغيبة إلى التكلم، فقد تحدث أولاً عن حبيبه بضمير الغيبة، ثم التفت فتحدث بضمير الخطاب في قوله: آلُوكَ.

(١) قال هذا البيت خِدَاشُ بنُ زهير بن صعصعة، من شعراء قيس المجيدين في الجاهلية، أدرك الرسول ﷺ ولم يره، والبيت في (اللسان ـ ضَطَر)، والضياطرة: جمع ضَيْطر، وهم العظماءُ من الرجال، ومن كلام الإمام علي رضي الله عنه: «من يَعْذرني مع هؤلاء الضياطرة»، والمعنى في البيت أنَّ الضياطرة الحُمْر يشقون بالرماح، يعني: يُقْتَلون بها، لكن الشاعر قلب وجعل الرِّماح هي التي تشقى بالضياطرة، وهذا هو الشاهد، على أن ابن عطية يقول: «هذا البيت لا حُجَّة فيه؛ إذ يتَّجه على وجهه»، يعني يصح أن يقال: إن الرماح تشقى بهم فعلاً؛ لأنهم لا يحسنون حملها ولا القتال بها، وعلى هذا المعنى لا حُجَّة في البيت ولا شاهد، وقول الشاعر: لا هوادة بينها، يعني لا موادعة ولا مصالحة. وقد وضَّح ابن سيدة الاحتمالين في البيت، ونقل ذلك صاحب اللسان.

(٢) البيت للأعشى، ميمون بن قيس بن ثعلبة، قاله من قصيدة يمدح بها قيس بن معديكرب، وقبله يقول:

فَلَعَمْـرُ مَـنْ جَعَـلَ الشُّهـورَ عَـلامَـةً ... قَـدَراً، فَبَيَّـنَ نِصْفَهَـا وَهِـلالَهَـا

والحربُ العوان: التي قوتل فيها مرة بعد مرة، كأنهم جعلوا المرة الأولى بكراً، والمُغَمَّر: الجاهل الذي لم يُجَرِّب الأمور، وشَبَّ النار: أَوْقَدَهَا، والأَجْذَال: جمع جِذْلٍ، وهو ما عظم من أُصول الشجر المقطوع يُجْعل حطباً ووقوداً للنار، يقول الشاعر: أُقسم بمن جعل الشهور علامةً للناس أَنك ما كنت في الحرب الشديدة التي تتكرر مرة بعد مرة جاهلاً بأُمورها وإدارتها حتى تنتصر على الأعداءِ حين أَوقد حرُّها الأجذالَ، وهنا يكون الشاهد، إذْ أن الحطب الجذل، أو أجذال الشجر هي التي تشب حرَّ النَّار، ولكن الشاعر قلب المعنى، وجعل حرَّ النار هو الذي يوقد الأجذال والحطب.

واختلف الناسُ في «العُصْبَة»، كم هي؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاثة، وقال قتادة: العُصْبة: من العشرة إلى الأربعين، وقال مجاهد: خمسة عشر، وقيل: أحد عشر حَمْلاً على إخوة يوسف، وقيل: أربعون.

وقرأ بُدَيْلُ بنُ مَيْسَرة: [لَيَنُوءُ] بالياءِ، ووجَّهها أبو الفتح على أنه يقرأ: (مَفَاتِحَهُ) جمعاً[١]، وذكر أبو عمرو الداني أن بُدَيْلَ بنَ مَيْسَرَة قرأ: [ما إنَّ مِفْتاحه] على الإفراد، فيستغنى على هذا عن توجيه أبي الفتح.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ متعلق بقوله: (فَبَغَى)[٢]، ونَهَوْهُ عن الفرح المطغي الذي هو انْهماكٌ وانحلالُ نفسٍ وأَشَرٌ وإعجابٌ، و(لاَ يُحِبُّ) ـ في هذا الموضع ـ صفة فعل[٣]؛ لأنه أَمْرٌ قد وقع فمحالٌ أَنْ يرجع إلى الإرادة، وإنما هو لا يُظهر عليهم بركته، ولا يهبهم رحمته. ثم وصّوه بأن يطلب بماله رضى الله وآخرته. وقولهم: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ اختلف المتأولون فيه ـ فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والجمهور: معناه: لا تضيع عمرك في أَلاَّ تعمل عملاً صالحاً في دنياكَ؛ إذ الآخرة إنما يَعْمَل لها في الدنيا، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فينبغي أَلاَّ تهمله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالكلام كله ـ على هذا التأويل ـ شدة في الموعظة. وقال الحسن وقتادة: معناه:

---

(١) قال أبو الفتح: كأنه ذهب إلى «ذلك القَدْر والمَبْلغ»، فلاحظ معنى الواحد فحمل عليه، ومثله قول الراجز:

* مِثْلُ الفِرَاخِ نُتِفَتْ حَوَاصِلُهْ *

أي حواصلُ ذلك، أو حواصل ما ذكرنا، وأخبرنا شيخنا أبو علي قال: قال أبو عبيدة لرؤبة في قوله:

فيهـــا خُطُـــوطٌ مِـــنْ سَـــوَادٍ وبَلَـــقْ ... كَـأَنَّـهُ فـي الجِلْـدِ تَـوْلِيـعُ الْبَهَـقْ

إن كنت أردت الخطوط فقل: كأنها، وإن كنت أردت السواد والبَلَق فقل: كأنهما، فقال رؤبه: أردت: كأن ذاك، ويلَك، هذا مجموع الحكاية.

(٢) قال أبو حيَّان في البحر: «وهذا ضعيف لأن بغيه لم يكن مُقَيَّداً بذلك الوقت»، وقال الزمخشري: «ومَحَل (إذْ) منصوب بـ [تَنُوءُ]». وعلَّق عليه أبو حيَّان أيضاً فقال: «وهذا ضعيف جداً لأن إثقال المفاتح العصبة ليس مُقَيَّداً بوقت قوْل قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾، وفي رأي الحوفي أن [إذْ] منصوب بمحذوف تقديره: اذكر».

(٣) أي: ليست صفة ذات بمعنى الإرادة؛ لأن الفرح أمر قد وقع.

ولا تُضيع حظَّك أيضاً من دنياك في تمتعك بالحلال بطلبك إياه، ونظرك إلى عاقبة دنياك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالكلام ـ على هذا التأويل ـ هو في الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه، وهذا مما يجب استعماله مع الموعظة خشية النُّبوة من الشدة. وقال الحسن: معناه: قدم الفضل وأمسك ما تبلغ به، وقال مالك: هو الأكل والشرب بلا سرف، وحكى الثعلبي أنه قيل: أرادوا بنصيبه الكفن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا وعظ متصل كأنهم قالوا: لا تَنْس أنك تترك جميع مَالِكَ إلاَّ نصيبك الذي هو الكفن، ونحو هذا قول الشاعر:

نَصيبُكَ مِمَّا تَجْمَعُ الدَّهْرَ كُلَّهُ   رِداءَانِ تُلْوَى فيهما وَحَنُوط(١)

وقوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أمْر بصلة المساكين وذوي الحاجة. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾.

القائل قارون. لمَّا وعظه قومه وندبوه إلى اتقاءِ الله تعالىٰ في المال الذي أَعطاه تفضُّلاً منه عليه، أَخذته العزة بالإِثم فأُعجب بنفسه، وقال لهم على جهة الرَّدِّ عليهم والروغان مما أَلزموه فيه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾، ولكلامه هذا وجهان يحملهما، وبكل واحد منهما قالت فرقة من المفسرين:

---

(١) تُلْوَى: تُلَفُّ، وقد يكون في اللَّيِّ معنى السَّتْر. والْحَنُوط والحِناطُ: كلُّ ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة من مسك وصندل وكافور وعنبر، ومثل هذا البيت قول الشاعر:

وهِيَ الْقَنَاعَةُ لا تَبْغِي بِهَا بَدَلا   فيهَا النَّعِيمُ وَفيهَا رَاحَةُ الْبَدَنِ
انظُرْ لِمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا   هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ الْقُطْنِ وَالْكَفَنِ؟

فقال الجمهور منهم: إنه ادعى أَن عنده علماً استوجب به أَن يكون ذلك النعيم له وكذلك المال، ثم اختلفوا في العلم الذي أَشار إليه، ما هو ؟ فقال بعضهم: علم التوراة وحفظها، قالوا: وكانت هذه مغالطة منه ورياءً، وقال أَبو سليمان الداراني[(١)]: أَراد العلم بالتجارات ووجوه تمييز المال، فكأَنه قال: أُوتيته بإِدراكي وبِسَعْيي، وقال ابن المسيّب: أَراد علم الكيمياءِ.

وقال ابن زيد[(٢)] وغيره: إنما أَراد: أُوتيته على علم من الله تعالىٰ وتخصيص من لدنه قصدني به، فلا يلزمني فيه شيءٌ مما قلتم، ثم جعل قوله: (عِنْدِي) كما تقول: «في معتقدي وعَلَى ما أَراه».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى كلا الاحتمالين معاً فقد نبَّه القرآن على خطئه في اغتراره، وعارض منزعه بأَن من معلومات الناس المتحققة عندهم أَن الله تعالىٰ قد أَهلك من الأُمم والقرون والملوك مَنْ هو أَشد من قارون قوة وأَكثر جمعاً، إِمَّا للمال أَو للحاشية. وقوله تعالىٰ: ﴿أَو لم يعلم﴾ يرجِّح أَن قارون تشبَّع بعلم نفسه على زعمه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾. قال محمد بن كعب: هو كلام متَّصل بمعنى ما قبله، والضمير في (ذُنُوبِهِمُ) عائدٌ عَلَى مَنْ أَهلك من القرون، أَي: أُهلكوا ولم يُسأَل غيرُهُم بعدهم عن ذنوبهم، أَي: كلُّ أَحد إِنما يُسأَل ويعاقب بحسب ما يخصه. وقالت فرقة: هو إِخبارٌ مستأْنف عن حالهم يوم القيامة، معناه أَن المجرمين لا يُسْأَلون عن ذنوبهم، أَي أَن الملائكة لا تَسْأَل عن ذنوبهم؛ لأَنهم يعرفونهم بسيماهم من السَّواد والتشويه ونحو ذلك، كقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ﴾[(٣)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي آيات الله ما يقتضي أَن الناسَ يوم القيامة يُسْأَلون، كقوله تبارك وتعالىٰ:

---

(١) في البحر المحيط: أبو سليمان الداني.

(٢) هذا هو الاحتمال الثاني، والاحتمال الأول هو الذي قال به الجمهور.

(٣) من الآية (٤١) من سورة (الرحمن).

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾[(١)]، وغير ذلك، وفيه آيات تقتضي أنه لا يُسْأَلُ أحدٌ، كقوله تعالىٰ: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾[(٢)]، وغير ذلك، ويمكن أن تكون الآيات التي توجب السؤال إنما يريد بها أَسئلة التوبيخ والتقرير، والذي ينفيه يراد به أَسئلة الاستفهام على جهة الحاجة إلى علم ذلك من المسؤولين، أَي أَن ذلك لا يقع؛ لأَن العلم بهم محيط، وسؤال التوبيخ غير مُعْتَدٍّ به.

ثم أَخبر تعالىٰ أَن قارون خرج على قومه وقد أَظهر قدرته من الملابس والمراكب وزينة الدنيا، قال جابر ومجاهد: خرج في ثياب حمر، وقال ابن زيد: خرج هو وحَشَمه في ثياب مُعَصْفرة[(٣)]، وقيل: في ثياب الأُرجُوان[(٤)]، وقيل غير هذا، وأَكْثَر المفسرون في تحديد زينة قارون وتعيينها ـ مما لا صحة له ـ فاختصرته. وباقي الآية في اغترار الجهلة والأَغْمارِ[(٥)] من الناس بيِّنٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

أَخبر تعالىٰ عن الذين أُوتوا العلم والمعرفة بالله تعالىٰ وبحق طاعته والإيمان به أَنَّهم زجروا الأَغمار الذين تَمَنَّوْا حالَ قارون، وحملوهم على الطريقة المُثْلَى من أَن النظر والتَّمَنِّي إِنما يكون في أُمور الآخرة، وأَن حالة المؤمن العامل الذي ينتظر ثواب الله خيرٌ من حال كلِّ ذي دنيا.

---

(١) الآية (٢٤) من سورة (الصَّافَّات).

(٢) الآية (٣٩) من سورة (الرَّحمن).

(٣) الثيابُ المعصفرة هي التي صُبغت بالعُصْفُر، وهو نباتٌ صيفي من الفصيلة المركبة أُنبوبية الزهر، ويستعمل زهره تابلا، ومنه يستخرج صبغ أحمر يُصبغ به الحرير ونحوه، (المجمع الوسيط عن المجمع اللغوي).

(٤) الأُرْجُوَان: الصبغ الأحمر، أو الثوب المصبوغ به، يقال: أحمر أُرْجواني: قانٍ (مع).

(٥) الأغمار: جمع غمْر، والرجل الغَمْر هو الذي لم يجرب الأمور، أو الذي أصابته الغَمْرةُ، وهي الضلالة التي تغمر صاحبها.

ثم أَخبر تعالىٰ عن هذه النزعة وهذه القوة في الخير في الدِّين أَنَّه لاَ يُلَقَّاهَا، أَي: لا يُمَكَّن منها ويُخَوَّلُها إِلاَّ الصَّابر على طاعة الله عزَّ وجلَّ، وعن شهوات نفسه، وهذا هو جماعُ الخير كله. والضمير في (يُلَقَّاهَا) عائد على ما لم يتقدم له ذكر من حيْثُ الكلامُ دالٌّ عليه، فلذلك يجري مجرى: ﴿تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾[1]، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[2]. وقال الطبري: الضمير عائد على الكلمة، وهي قوله: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، أَيْ: لا يُلَقَّى هذه الكلمة إِلاَّ الصابرون، وعنهم تصدر.

ورُوي في الخسف بقارون وداره أَن موسى عليه السلام لمَّا أَمَضَّه فعلُ قارون به، وتعدِّيه عليه، ورميه بأَمر المرأَة، وغير ذلك من فعله، استجار بالله تعالىٰ وبكى وطلب النُّصرة، فأَوحى الله تعالىٰ إِليه: لا تهتم فإِنِّي أَمرتُ الأَرض أَن تطيعك في قارون وأَهله وخاصته وأَتباعه، فقال موسى عليه السلام للأَرض: خُذيهم، فأَخذت منهم إِلى الرُّكب، فاستغاثوا بموسى، يا موسى، فقال: خُذيهم، فأَخذتهم شيئاً فشيئاً، وهم يستغيثونَ به كلَّ مرَّة، وهو يُلجُّ إِلى أَن تَمَّ الخسف بهم، فأَوحى الله تعالىٰ إِليه: يا موسى، استغاثوا بك فلم ترحمهم، لَوْ بِيَ استغاثوا وإِلَيَّ تابوا لرحمتهم وكشفت ما بهم. وقال قتادة، ومالك بن دينار: رُوي لنا أَنه يخسف به كل يوم قامة فهو يتجلجل إِلى يوم القيامة.

و﴿الْفِئَةُ﴾: الجماعة الناصرة التي يفيءُ إِليها الإِنسان الطالب للنُّصْرة.

وقصة قارون هي بَعْدَ جوازهم الْيَمَّ؛ لأَن الرُّواة ذكروا أَنه كان ممن حفظ التوراة، وكان يقرؤُها.

ثم أَخبر تعالىٰ عن حال الذين تمنَّوْا مكانه بالأَمس، وندمهم واستشعارهم أَن الحول والقوة لله تعالىٰ. وقوله: (ويْكَأَنَّ) مذهب سيبويه والخليل أَن (وَيْ) حرف تنبيه، وهي منفصلة عن (كَأَنَّ)، لكن أُضيفت في الكتابة لكثرة الاستعمال، [والمعنى أَن القوم انتبهوا فتكلموا على قدر علمهم، أَو نُبِّهُوا فقيل لهم: أَما يُشبه أَن يكون هذا عندكم هكذا][3]،

---

(١) من الآية (٣٢) من سورة ﷺ، فمن الواضح المعروف أن الضمير يعود على الشمس.

(٢) الآية (٢٦) من سورة (الرَّحمن)، ومن المعروف أن الضمير يعود على الأرض.

(٣) الكلام ما بين العلامتين [.....] غير واضح في الأصل، وفيه تخليط، وقد نقلناه مصوباً عن الكتاب لسيبويه (٢ـ١٥٥).

فقالوا على جهة التَّعَجُّب والتَّندم: فإِنَّ الله يبسط الرزق.

وقال أَبو حاتم وجماعة من النحويين: (وَيْكَ) هي وَيْلَك، حذفت لامه[1] وجرت في الكلام كذلك، ومنه قول عنترة:

وَلَقَـدْ شَفَـى نَفْسِـي وَأَبْـرَأَ سُقْمَهَـا ... قِيلُ الْفَوَارِسِ: وَيْكَ عَنْتَرُ أَقْدِمِ[2]

فكأن المعنى: ويْلَكَ، اعلم أنَّ الله، ونحو هذا من الإِضمار للفعل[3].

وقالت فرقة من النحويِّين: (وَيْكَأَنَّ)بِجُملتها دون تقدير انفصالٍ ـ كلمةٌ بمنزلة قولك: أَلم تَرَ أَنَّ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويَقْوَى الانفصالُ فيها على ما قاله سيبويه؛ لأَنها تجيءُ مع (أَنَّ) ومع (أَنْ)، وأَنشد سيبويه:

وَيْ كَـأَنْ مـنْ يكُـنْ لَـهُ نَشَـبٌ يُحْـ ... ـبَبْ ومَنْ يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرِّ[4]

---

(١) سقطت كلمة (لامُه) من الأصل، والمعنى يقتضيها.

(٢) البيت من معلقته المعروفة، وشَفَى نفسِي: اشْتفيت حيث قالوا لي أَقْدم فأَقدمْتُ، ويقال: سُقْم وسَقَم، مثل: عُدْمٌ وعَدَم، ونُجْل ونَجَل، و(وَيْكَ) معناه: ويْلَك، فأسقط اللام، وهو الشاهد هنا. و(قِيلُ) فاعل بالفعل شَفَى، و(عَنْتَرُ) فيه فتحُ الراءِ على الترخيم، وضمُّها على أنه منادى مفرد، وموضع (أَقْدِمِ) مجزوم على الأمر، والياءُ فيه عند من أثبتها صلةٌ لكسر الميم، كقول امرىء القيس: (أَلا أَيُّها الليلُ الطويل أَلا انْجَلِي)، قاله الأنباري في شرح القصائد السبع. والذي قال له أَقْدِم أَبوه، قال له: ويْكَ عنتر أَقدم، فقال: العَبْد لا يُحسن الكرّ، إلا الحَلَبَ والصَّرّ»، فلما اشتدت المعركة وخاف أن يضيع كل شيء قال له: أيْ بُنَيَّ: أما تَرَى ؟ قال عنترة: الآنَ نَعَم، وعندها قال: وأَبْرَأَ سُقْمَهَا.

(٣) أنكر النحاسُ وجماعة ذلك، وقالوا: إن المعنى لا يصح عليه؛ لأن القوم لم يخاطبوا أحداً فيقولوا له: ويلك، ولو كان كذلك لكان: إنَّه بكسر الهمزة، وأيضاً فإن حذف اللام من (وَيْلَكَ) لا يجوز. وقد نقل القرطبي ذلك.

(٤) البيت في اللسان، والكتاب، وابن يعيش، والهَمْع، والأشْموني، والخزانة، والخصائص، وشرح شواهد الشافية، وعيون الأخبار، والبُخَلاءِ، وشرح القصائد السبع الطوال للأنباري، وفيها أن الشاعر هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل، وقيل: إنه لنبيه بن الحجاج، وقبل البيت يقول الشاعر:

تِلْـكَ عِـرْسَـايَ تَنْطِقَـانِ عَلَـى العَهْـ ... ـدِ إلـى الْيَـوم قَـوْلَ زُورٍ وَهِتْـرِ
سَـالَتَـانـي الطَّـلاقَ أنْ رَأَتَـانِـي ... قَـلَّ مـالـي، قَـدْ جِئْتُمَـانـي بِنُكْـرِ

الهِتْرُ: الباطل، والسقط من الكلام، والكذب، والأمر العجب. وكل هذا واردٌ هنا. وعلى هذا فالضمير في (سَالَتَاني) يعود على زوجتيه في البيت الأول، وسالَ مخفف من سأل بإبدال الهمزة ألفاً، =

وهذا البيت لزيد بن عمرو بن نُفَيْل.

وقرأ الأعمش: [لولا مَنَّ الله] بحذف (أَنْ)، ورُوي عنه: [لولا مَنُّ] برفع النون، وبالإضافة إلى [ٱللهِ]. وقرأ الجمهور: [لَخُسِفَ] بضم الخاءِ وكسر السين، وقرأ عاصم بفتح الخاءِ والسين، وقرأ الأعمش، وطلحة بن مصرف: [لانْخُسِفَ] كأنه فعل مطاوع أَراد به أن الأَرض كانت منفعلة، ورُوي عن الكسائي أنه كان يقف على [وَيْ]، ويبتدىء [كَأَنَّ]، وروي عنه الوصل كالجماعة، وروي عن أَبي عمرو أنه كان يقف على [وَيْكَ]، ويبتدىء [إن الله]، وعلى هذا المعنى قال الحسن: إن شئت: [وَيْكَ أَنَّ] أَوْ [وَيْكَ إِنَّ] بفتح الهمزة وبكسرها، فكذلك في [وَيْكَأَنَّهُ].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

هذا إخبارٌ مستأنف من الله تعالىٰ لنبيِّهِ محمد ﷺ، يُراد به إخبار جميع العالم وحَضِّهم على السَّيْر بحسب ما تضمَّنته الآية، وهذا الحضُّ يتضمَّن الإنحاءَ على قارون ونظرائه، والمعنى أَن الآخرة ليست في شيءٍ من أمر قارون، إنما هي لمن صفتُه كذا وكذا. و«العُلُوُّ» مذموم، وهو الظُّلْم والتَّجبُّر، قال النبي ﷺ: «وذلك أَن تُريد أَن يكون

= والنُّكْرُ بضم النون هو المنكر. والنَّشَب: المالُ، والشاهد فيه أن [وَيْكَأَنَّ] عند الخليل وسيبويه مركبة من (وَيْ) للتنبيه، و(كأَنْ) للتشبيه، وابن عطية يختار هذا الرأي لأن (كَأَنْ) هنا جاءت بالنون الساكنة الخفيفة، وقد استشهد بالبيت كل من الطبري والقرطبي والبحر، وهو في معاني القرآن للفراء، لكنه يرى أن قوله تعالىٰ: (وَيْكَأَنَّ) هو كقول الرجل: أما ترى إلى صنع الله؟ ـ قال: وأخبرني شيخ من أَهل البصرة، قال سمعتُ أَعرابية تقول لزوجها: أين ابنُك ويْلَك؟ فقال: ويْكَأَنَّه وراءَ البيت، معناه: أما تَرَيْنَه وراءَ البيت؟ وقد يذهبُ بعض النحويِّين إلى أنهما كلمتان، يريد: وَيْكَ أنه، أَراد: وَيْلَك، فحذف اللام وجعل (أَنَّ) مفتوحةً بفعل مضمر، كأنه قال: ويلك، اعْلَم أنَّه وراء البيت، فأضمر (اعْلَم)، ولم نجد العرب تُعمل الظنَّ والعلم بإضمار مضمر في أَنَّ.

شراك نعلك أَفضل من شراك نعل أَخيك»(١)، و«الفَسَادُ» يعم جميع الوجوه من الشَّرِّ، ومما قال العلماءُ: هو أَخْذ المال بغير حق. وقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ خبر منفصل.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ معناه: إِمَّا في الدُّنيا وإِمَّا في الآخرة ولا بُدَّ، ففي وصف أَمر جزاءِ الآخرة أَنَّه من عمِلَ صالحاً فَلَهُ خَيْرٌ من القَدْر الذي يقتضي النظرُ أَنه مُوَازٍ لذلك الفعل، هذا على أن تُجعل الحسنة في التَّفضيل، وفي القول حذفُ مضافٍ، أَي: مِن ثوابها الموازي لها، ويحتمل أَن تكون [مِنْ] لابتداءِ الغاية؛ أَي: له خير بحسب حسنته ومِن أَجلها، وأَخبر تبارك وتعالىٰ أَن السيئة لا يضاعف جزاؤُها فَضْلاً منه ورحمة.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ﴾ معناه: أَنْزَلَهُ عليك وأَثبته، والفَرْضُ أَصله عَمَلٌ فَرَضَه في عَوْدٍ أَو نحوه، فكأَن الأَشياءَ التي تثبت وتمكن وتبقى تشبه ذلك الفرض. وقال مجاهد: معناه: أَعطاك القرآن، وقالت فرقة: في هذا القول حذف مضاف، والمعنى: فَرَضَ عليك أَحكام القرآن.

واختلف المتأَولون في معنى قوله تعالىٰ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ ـ فقال جمهور المتأَوِّلين: أَراد: إِلى الآخرة، أَي: باعثُك بعد الموت، فالآية ـ على هذا ـ مقصدها إِثباتُ الحشر، والإِعلامُ بوقوعه. وقال ابن عباس، وأَبو سعيد الخدري رضي الله عنهم: وغيرهما: الْمَعَاد: الجنة، وقال ابن عباس أَيضاً وجماعة: المعادُ: الموتُ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فكأَن الآية ـ على هذا ـ واعظةٌ ومذكرة.

---

(١) أثبت الإمام السيوطي في الدر المنثور هذا القول للإمام عليٍّ رضي الله عنه، قال: أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «إن الرجل ليحبُّ أن يكون شِسْعُ نعله أفضل من شِسْع نعل صاحبه فيدخل في هذه الآية: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.»، ولم نجده بهذا اللفظ مرفوعاً. أما الثابت عن النبي ﷺ فهو ما رواه الإمام أحمد في مسنده (١ـ٣٩٩) عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار من كان في قلبه مثقالُ حبَّة من إيمان، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبَّة من كبر»، فقال رجل: يا رسول الله، إنِّي لَيُعجبني أن يكون ثوبي غسيلاً، ورأسي دهيناً، وشراك نعلي جديداً، وذكر أشياء حتى ذكر علاقة سوطه ـ أَفَمِنَ الكبر ذاك يا رسول الله ؟ قال: «لا، ذاك الْجَمَال، إن الله يحب الْجَمَال. ولكن الكِبْر من سفه الحق وازْدَرى الناس».

وقال ابن عباس أَيضاً ومجاهد: المعادُ مكة، وهذه الآية نزلت بالجحفة، فتقدم رسول الله ﷺ في هجرته إلى المدينة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالآية ـ على هذا ـ مُعْلِمة بغيب قد ظهر للأُمَّة، ومؤنسة بفتح، و«المعاد»: الموضع الذي يعاد إِليه، وقد اشتهر به يوم القيامة لأَنه مَعادٌ للكل.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾ الآية، آية متاركة للكفار وتوبيخ. وأَسند الطبريُّ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾ قال: الجنة، وسمَّاها معاداً إِمَّا من حيث قد دخلها النبي ﷺ في الإِسراءِ والمعراج وغيره، وإِمَّا من حيث قد كان فيها آدم عليه السلام؛ فهي معادٌ لذريته.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإِنما قال هذا من حيث تعطي لفظة «المعاد» أَن المخاطب قد كان في حال يعود إِليها، وهذا وإِن كان مما يظهر في اللفظة فيتوجه أَن يُسمى معاداً ما لم يكن المرءُ فيه مجوزاً؛ ولأَنها أَحوالٌ تابعة للمعاد الذي هو النشور من القبر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ﴾ الآية. قال بعض المفسرين: هذا ابتداءُ كلام مضمنه تقدير النعمة على محمد ﷺ، وأَن الله تبارك وتعالىٰ رحِمَهُ رحْمَةً لم يحتسبها ولا بلغها أَمَلُه، وقال بعضهم: بل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ﴾ الآية كلام معلق بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أَي: وأَنت بحال من لا يرجو ذلك. وقوله تعالىٰ: ﴿يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ عبارة عن إِعلان النُّبُوَّة وتبليغ القرآن، كما تقول: أَلْقَى فُلانٌ إِلى فلانٍ بالرياسة، ونحو هذا، وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ نصب على استثناءٍ منقطع، و«الظَّهيرُ»: المُعين، أَي: اشتد يا محمد في تبليغك، ولا تَلِنْ، وَلاَ تفشل، فتكون معونتُه للكافرين بهذا الوجه، أَي: بالفتور عنهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٨٧ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٨﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ أَي: بأَقوالهم وكذبهم وأَذاهم، فلا تلتفت نحوه

وامْضِ لشأنك. وقرأ يعقوب: [ولاَ يَصُدُنْكَ] بجزم النون[١]. وقوله: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وجميع الآية ـ يتضمن المهادنة والموادعة، وهذا كله منسوخ بآية السيف.

وسبب هذه الآية ما كانت قريش تدعو رسول الله ﷺ إليه من تعظيم أوثانهم، وعند ذلك ألقى الشيطانُ في أُمنيته أمْر الغرانيق.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ نَهْي عما هم بسبيله، فهم المراد وإن عري اللفظ من ذكرهم، وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ قالت فرقة: هي عبارة عن الذات، والمعنى: هالك إلاَّ هُو، قاله الطبري وجماعة منهم أَبو المعالي رحمه الله، وقال الزَّجَّاج: إلاَّ إيَّاه، وقال سفيان الثوري: المراد: إلاَّ ما أُدِّي لوجهه، أَي: ما عُمل لذاته من طاعة، وتُوُجِّه به نحوه، ومن هذا قول الشاعر:

. . . . رَبَّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ[٢]

ومنه قول القائل: «أَردتُ بفعلي وجْهَ اللهِ تعالىٰ». ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أَي فصْل القضاءِ وإنفاذه في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إخبارٌ بالحَشْرِ والعودة من القبور. وقرأَ الجمهور: (تُرْجَعُونَ) بالتاءِ وفتح الجيم، وقرأ عيسى: [يَرْجِعُونَ] بفتح الياءِ وكسر الجيم، وقرأَ أَبو عمرو بالوجهين.

كمل تفسير سورة القصص والحمد لله ربِّ العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أَجمعين

---

(١) قراءة الجمهور بشدِّ النون، وقراءة يعقوب بتسكين النون، والقراءتان على أن الفعل مضارع (صَدَّ)، وقرىء [يُصِدُّنَّكَ] من (أَصَدَّ) بمعنى (صَدَّ)، وهي لغة في كلب، قال ذو الرمة:

أُنَاسٌ أَصَدُّوا النَّاسَ بِالسَّيْفِ عَنْهُمُ صُدودَ السَّوَاقِي عَنْ أُنُوفِ الْحَوَامِ

(٢) هذا عجز بيت، وهو من الأبيات الخمسين التي استشهد بها سيبويه ولم يُعرف قائلها، وهو شاهد عند النحويين على أن أصله: (أستغفر الله مِنْ ذنب)، ثم أسقط الجار، فاتصل المجرور بالفعل، فنصب مفعولاً به، ولكن الشاهد هنا أن الوجه بمعنى: ما عُمِل لذات الله، والبيت بتمامه:

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ رَبَّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

(٣) من الآية (٥٢) من سورة (الأنعام)، ومثلها قوله تعالىٰ في الآية (٢٨) من سورة (الكهف): ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة العنكبوت

هذه السُّورة مكيَّة إلاَّ الصدر منها، العشر آيات، فإنها مدنية، نزلت في شأن من كان من المسلمين بمكة، وفي هذا اختلاف[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾.

تقدم القول في الحروف المقطَّعة في أوائل السُّور، وقرأ ورش: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ بفتح الميم من غير همز بعدها، وذلك على تخفيف الهمزة وإلْقاءِ حركتها على الميم[٢].

وهذه الآية نزلت في قوم من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يُؤذونهم ويُعذبونهم على الإسلام، فكانت صدورهم تضيق لذلك[٣]، وربما اسْتُنْكِر أن يُمكِّن الله الكفرة من المؤمنين، قال مجاهد وغيره: نزلت هذه الآية مُسَلِّية ومعلِّمة أن هذه السيرة

---

(١) خلاصة هذا الاختلاف أن الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد يقولون: كلُّها مكية. وابن عباس في واحد من قولين له ومعه قتادة يقولان: كلها مدنية، وفي قول آخر لابن عباس أنها مكية إلا عشر آيات في أولها؛ فإنها نزلت بالمدينة في شأن من كان بمكة من المسلمين، وهو قول يحيى بن سلاّم. وقال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: نزلت بين مكة والمدينة، وآياتها تسع وستون آية.

(٢) الأوضح في رسم الكلمات على قراءة ورش هذه أن تكتب هكذا: (ألفْ لامْ مِيمَ حَسِبَ)، وقد ضعَّف ابن جني هذه القراءة؛ لأن حروف التَّهَجِّي مبنية على الوقف في حال الوصل؛ فإذا كانت في الإدراج ساكنة لم يَلِقْ بها إلقاءُ الحركة عليها؛ لأن إلقاءَ الحركة إنما يكون لما من عادته أن يُحَرَّك في الوصل لالتقاء الساكنين، وأنت تقول [مِيمْ أَحَسِبَ] فتجمع بين الساكنين، الياء والميم، فإذا كان الساكنان يجتمعان في الوصل ضعف إلقاءُ حركة الهمزة عليها (راجع المحتسب ٢ ـ١٥٨).

(٣) قال العلماءُ: من هؤلاءِ المؤمنين الذين كانوا بمكة سَلَمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، وعمار بن ياسر، وأبوه ياسر، وأُمه سُمَيَّة، وغيرهم.

هي سيرة الله تبارك وتعالىٰ في عباده اختباراً للمؤمنين وقتئذ؛ ليعلم الصادق ويرى ثواب الله تعالىٰ له، ويعلم الكاذب ويرى عقابه إياه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية ـ وإن كانت نزلت بهذا السبب، وفي هذه الجماعة ـ فهي بمعناها باقية في أُمَّة محمد ﷺ، موجودٌ حُكْمها بقية الدهر، وذلك أَن الفتنة من الله تعالىٰ باقية في ثغور المسلمين بالأَسر ونكاية العدوِّ وغير ذلك، وإِذا اعتبر أَيضاً كلُّ موضع ففيه ذلك بالأَمراض وأَنواع المحن، ولكن التي تُشبه نازلة المؤمنين مع قريش هي ما ذكرناه مع أَمر العدوِّ في كل ثغر(١).

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في عمَّار بن ياسر ـ؛ إذ كان يُعذب في الله ـ ونُظَرائه. وقال الشعبي: سبب الآية ما كُلِّفه المؤمنون، أَمَّا الفتنة فهي الهجرة التي لم يتركوا دونها؛ لا سيَّما وقد لحقهم بسببها أَن اتبعهم الكفَّار وردُّوهم وقاتلوهم، فقُتل من قُتل ونجا من نجا. وقال السدي: نزلت في مسلمين كانوا بمكة وكرهوا الجهاد والقتال حين فرض على النبي ﷺ.

و[حَسِبَ] معناه: ظَنَّ، و[أَنْ] نصب بـ [حَسِبَ]، وهي والجملة التي بعدها تَسُدُّ مسدَّ مفعولَيْ [حَسِبَ]، و[أَنْ] الثانية في موضع نصب على تقدير إِسقاط حرف الخفض، وتقديره: «بأَنْ يقولوا»، ويحتمل أَن يقدر: «لأَنْ يقولوا»، والمعنى في الباءِ واللام مختلف، وذلك أَنه في الباءِ كما تقول: «تركت زيداً بحاله»، وهو في اللام بمعنى: «مِنْ أَجْل»، أَي: حسبوا أَن إِيمانهم علَّةٌ للترك.

و﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يريد بهم المؤمنين مع الأَنبياءِ في سالف الدهر.

وقرأَ الجمهور: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ﴾ بفتح الياءِ واللام الثانية، ومعنى ذلك: ليُظْهرنَّ علمه ويُوجد ما علمه أَزلاً، وذلك أَن علمه بهذا أَزلاً قديم، وإِنما هو عبارة عن الإِيجاد بالحالة التي تضمنها العلم القديم، والصدق والكذب على بابهما، أَي: مَنْ صَدَق فعلُه

(١) نقل القرطبي كلام ابن عطية هذا، وعلَّق عليه بقوله: «ما أحسن ما قاله، ولقد صدق فيما قال رضي الله عنه».

وقولُه ومَن كذَب. وقالت فرقة: إنما هي استعارة، وإنما أَراد بهما الصَّلابة في الدِّين، أو الاضطراب فيه وفي جهاد العدوِّ، ونحو هذا، ونظير هذا قول زهير:

لَيْـثٌ بِعَثَّـرَ يَصْطَـادُ الـرِّجَـالَ إذا ... ما كَذَّبَ اللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا[١]

قال النقاش: وقيل: إن الإشارة بـ [صَدَقُوا] إلى مِهْجع مولى عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه؛ لأنه أَوَّل قتيل قُتل من المؤمنين يوم بدر[٢].

وقرأ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه[٣]: [فَلَيُعْلِمَنَّ] بضم الياءِ وكسر اللام الثانية، وهذه القراءَة تحتمل ثلاثة معانٍ: أَحدها أَن يُعْلِم في الآخرة هؤلاءِ الصَّادقين والكاذبين بمنازلهم من ثوابه وعقابه، وبأَعمالهم في الدنيا، بمعنى يوقفهم على ما كان منهم[٤]. والثاني أَن يُعْلِمَ الناسَ والعالم هؤلاءِ الصادقين والكاذبين، أَي: يفضحهم وَيُشَهِّرهم، هؤلاءِ في الخير، وهؤلاءِ في الشَّر، وذلك في الدنيا والآخرة[٥]، والثالث أَن يكون ذلك من العلامة، أَيْ: يضع لكل طائفة عَلَماً تُشهر به[٦]، فالآية ـ على هذا ينظر إليها قول النبي ﷺ: «من أَسرَّ سريرة أَلْبسه الله رداءَها». وعلى كلِّ معنىً مِنْها ففيها وعْدٌ للمؤمنين الصادقين، ووعيدٌ للكافرين.

وقرأ الزهري الأُولى كقراءَة الجماعة، والثانية كقراءَة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه.

---

(١) البيت من قصيدة لزهير يمدح بها هَرِم بن سنان. والليث هو الأسد، وأراد بكلمة (ليث) الأولى هرماً، وعَثَّر: موضع، والأقران: جمع قِرْن وهو الصاحب، أو المِثْل في الشجاعة والقتال. يقول: إن هرماً في الشجاعة والقتال مثل الأسد الذي يصطاد الرجال في عثَّر، ولكن إذا حمي القتال، وكذب الأسد وخانته شجاعته فإن هرماً يبقى على شجاعته لا يَجْبُن ولا يفر من المعركة.

(٢) رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله، فقال النبي ﷺ: «سيِّد الشهداء مِهْجع، وهو أول من يُدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة».

(٣) وقرأ بها أيضاً جعفر بن محمد.

(٤) فالفِعْل (يُعْلم) مضارع (عَلِمَ) المتعدية إلى مفعول واحد، والثاني محذوف، وتقديره كما قال ابن عطية: يعلمهم منازِلهم وأَعمالهم.

(٥) المحذوف هنا هو المفعول الأول، ويظهر في تقدير ابن عطية: يُعْلِمُ الناسَ والعالَم.

(٦) الفعل هنا متَعَدٍّ إلى مفعول واحد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾.

[أَمْ] معادلة للألف في قوله: [أَحَسِب]، وكأنه عزَّ وجلَّ قرَّر الفريقين، قرَّر المؤمنين على ظنهم أنهم لا يفتنون، وقرر الكافرين الذين يعملون السيئات بتعذيب المؤمنين وغير ذلك على ظنهم أنهم يسبقون عقاب الله تعالىٰ ويُعجزونه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ ـ وإن كان الكفَّارُ المرادَ الأول بحسب النازلة التي الكلام فيها ـ فإن لفظ الآية يعم كل عاصٍ وعامِلِ سيئةٍ من المسلمين وغيرهم. وقوله: ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ يجوز أن تكون [مَا] بمعنى الذي، فهي في موضع رفع، ويجوز أن تكون في موضع نصب على تقدير: ساءَ حُكْماً يحكمونه[1]. وفي هذه الآية وعيدٌ للكفرة، وتأنيس للمؤمنين يظهر في وعده بالنصر في القيامة، وبأنه آتٍ؛ إذ قد أَجَّله الله تعالىٰ وأخبر به.

وفي قوله: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ ﴾ تثبيتٌ، أَي: من كان على هذا الحق فليوقن بأنه آتٍ وليزدد بصيرة، وقال أَبو عبيدة: [يَرْجُو] هنا بمعنى: يخاف[2]، والصحيح أن الرجاءَ هنا على بابه، وقال الزَّجّاج: المعنى: يرجو لقاءَ ثواب الله، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ معناه: السميع لأقوال كلِّ فِرْقَة، العليم بالمعتقدات التي لهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ﴾ إعلامٌ بأَن كل أَحد مجازى بفعله الحسن، فهو حظُّه الذي ينبغي أَلاَّ يفرط فيه، فإن الله غني عن جهاده وعن العالمين بأسرهم.

وهاتان الآيتان كأَنهما [. . . . .][3] على سواءٍ إلى الطائفة المرتابة المترددة في فتنة

---

(١) إذا كانت [ما] موصولة في موضع رفع فإن صلتها هو قوله: [يَحْكُمُونَ]، وإذا كانت في موضع فهي تمييز، و[يَحْكُمُونَ] صفة، والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: حُكْمُهُم. وقال ابن كيسان: [مَا] مصدرية، والتقدير: بئس حكمهم، وعلى هذا يكون التمييز محذوفاً، أي: ساءَ حُكْماً حُكْمُهُم.

(٢) ورد ذلك في كلام العرب، وقد استشهد العلماء لهذا من كلام الشعراء بقول الهذلي في وصف عسَّال:

إذَا لَسَعَتْـهُ النَّحْـلُ لَـمْ يَـرْجُ لَسْعَهَـا ... وَخَـالَفَهَـا فـي بَيْـتِ نُـوبٍ عَـوَامِـلِ

(٣) بين العلامتين [. . . . .] كلمة لم نستطع قراءتها.

الكفار، التي كانت تنكر أَن ينال الكفارُ المؤمنين بمكروه، وترتاب من أَجل ذلك، فكأَنهم قيل لهم: من كان يؤمن بالبعث فإِن الأَمر حق في نفسه، والله تعالىٰ بالمرصاد، أَي: هذه بصيرة لا ينبغي أَن يعتقدها لوجه أَحد. وكذلك من جاهد فثمرة جهاده له، فلا يَمُنُّ ذلك على أَحد، وهذا كما يقول المناظر عند سوق حجته: من أَراد أَن ينظر إِلى الحق فإِن الأَمر كذا وكذا، ونحو هذا فتأَمله.

وقيل: معنى الآية: ومن جاهد عدوَّه لنفسه لا يريد وجه الله، فإِنما جهاده لنفسه لا للهِ تعالىٰ، وليس لله حاجة بجهاده.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ذكره المفسرون، وهو قول ضعيف.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية، إِخبارٌ عن المؤمنين المجاهدين الذين هم في أَعلى رتبة من البدار إِلى الله تبارك وتعالىٰ، أَشاد بهم عزَّ وجلَّ وبحالهم ليُقيم بهم نفوس المتخلفين عن الهجرة، وهم الذين فتنتهم الكفار ـ إِلى الحصول في هذه المرتبة، و«السَّيِّئَةُ»: الكفر وما اشتمل عليه، ويدخل في ذلك المعاصي من المؤمنين مع الأَعمال الصالحة واجتناب الكبائر، وفي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ﴾ حذف مضاف تقديره: ثوابَ أَحْسن الذي كانوا يعملون[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ الآية. رُوي عن قتادة أَنها نزلت في سعد بن أَبي وقاص،

(١) قال أبو حيان تعقيباً على ذلك: «وهذا التقدير لا يسوغ؛ لأنه يقتضي أن أُولئك يجزون ثواب أحسن أعمالهم، وأما ثواب حَسَنها فمسكوت عنه، وهم يجزون ثواب الأحسن والحَسَن؛ إلا إذا أُخرجت [أحْسَن] عن بابها من التفضيل فإنه يسوغ ذلك».

وذلك أنَّه هاجر، فحلفت أُمُّه أَلاَّ تَسْتظِل بِظِلٍّ حتى يرجع إليها ويكفر بمحمد ﷺ، فَلَجَّ(١) هو في هجرته، ونزلت الآية(٢). وقيل: بل نزلت في عياش بن أبي ربيعة، وذلك أنه اعتراه في دينه نحو من هذا؛ إذ خدعه أبو جهل لعنة الله عليه وردَّه إلى أُمِّه... الحديث في كتاب السيرة(٣). ولا مرية أَنها نزلت فيمن كان من المؤمنين بمكة يشقى بجهاد أَبويه في شأن الإسلام والهجرة، فكأَن القصد بهذه الآية النهي عن طاعة الأَبوين في مثل هذا الأَمر العظيم، ولما كان برُّ الوالدين وطاعتهما من الأُمور التي قررتها الشريعة وأَكَّدتها، وكان من الأَمر القوي الملزم عندهم، قدم تعالىٰ على النهي عن طاعتهما في الشِّرك بالله قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾، على معنى: إنا لا نحل عقوق الوالدين، لكنا لا نسلط ذلك على طاعة الله تعالىٰ، لا سيما في معنى الإيمان والكفر.

وقوله: ﴿حُسْناً﴾ يحتمل أَن ينتصب على المفعول، وفي ذلك تجوُّز، ويسهله كونه عامًّا لمعان، كما تقول: وصيتك خيراً، وأَوصيتك شرًّا، عبَّرتَ بذلك عن جملة ما قلتَ له، وَيُحَصِّن ذلك دون حرف الجرِّ كونُ حرف الجرِّ في قوله: ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾؛ لأَن المعنى: ووصينا الإنسان بالحسن في فعله مع والديه، ونظير هذا قول الشاعر:

عَجِبْتُ مِن دَهْمَاءَ إِذْ تَشْكُونَا ... وَمِنْ أَبِي دَهْمَاءَ إِذْ يُوصِينَا

خَيْراً بِهَا كَأَنَّنَا جَافُونَا(٤)

---

(١) لَجَّ في الأمر لجاجَةً: لازمه وأَبَى أن ينصرف عنه.

(٢) رُوي عن سعد رضي الله عنه أنه قال: «كُنتُ باراً بأُمِّي، فأَسْلمْتُ، فقالت: لتدعنَّ دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى تموت فَتُعَيَّر بي، ويقال: يا قاتل أُمِّه، وبقيَتْ يوماً ويوماً، فقلْتُ: يا أُمَّاه، لو كانت لك مائةُ نفس، فخرجت نفساً نَفساً ما تركت ديني هذا، فإن شِئْتِ فَكُلي، وإن شئْت فلا تأكُلي، فلمَّا رأت ذلك أَكَلَتْ، ونزلت: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾ الآية. (أسباب النزول) للواحدي.

(٣) عيَّاش بن أَبي ربيعة هو أخو أَبي جهل لأمِّه، وقد أَسلم وهاجر مع عمر رضي الله عنه، وكانت أُمُّه شديدة الحُبِّ له، وحلفت على مثل ما حلفت عليه أُم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فتحيَّل عليه أبو جهل وأخوه الحارث، فشدَّا وثاقه حين خرج معهما من المدينة إلى أُمِّه قاصداً أن يراها، وجلده كل منهما مائة جلدة وردَّاه إلى أُمِّه... وذلك في خبر طويل في السيرة، ذكره الطبري، والواحدي.

(٤) استشهد الفراءُ بهذه الأبيات الثلاثة في معاني القرآن، قال: «والعرب تقول: أُوصيك به خيراً، وآمرك به خيراً، وكأن معناه: آمرك أن تفعل به... ثم تحذف (أَنْ) فتوصل الخير بالوصية وبالأمر، ثم ذكر الأبيات». ومثله قولُ الحطيئة يُوَصِّي ابنته بَرَّة:
=

ويحتمل أَن يكون المفعول الثاني في قوله: [بِوَالِدَيْهِ]، وينتصب [حُسْناً] بفعل مضمر تقديره: يحسن حسناً، وينتصب انتصاب المصدر، وقرأَ عيسى والجحدري: [حَسَناً] بفتحتين، وقال الجحدري: في الإِمام مكتوب: «بِوَالِدَيْهِ إِحْساناً»، قال أَبو حاتم: يعني كالأَحقاف، وقال التغلبي: في مصحف أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه: [إِحْسَاناً] وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ وعيد في طاعة الوالدين في معنى الكفر.

ثم كرَّر تعالىٰ التمثيل بحالة المؤمنين ليحرِّكَ النفوسَ إِلى نيل مراتبهم، وقوله تعالىٰ: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مبالغة، على معنى: الذين هم في نهاية الصلاح وأَبْعَدِ غاياتِه، وإِذا تحصَّل للمؤمنين هذا الحكم تحصل ثَمَرُه، وجزاؤُه هو الجنة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية إِلى قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، نزلت في قوم من المسلمين كانوا بمكة مختفين بإِسلامهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلما خرج كفار قريش إِلى بدر أَخرجوا مع أَنفسهم طائفة من هؤلاءِ، فأُصيب بعضهم، فقال المسلمون: كانوا أَصحابنا وأُكرهوا فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[1] الآية، قال: فكتب المسلمون لمن بقي بمكة هذه الآية، وأَلاَّ عُذْر لهم، فخرجوا فلحقهم المشركون فأَعطوهم الفتنة وردُّوهم إِلى مكة، فنزلت فيهم الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية[2]، فكتب المسلمون إِليهم بذلك فحزنوا ويئسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾[3]، فكتب المسلمون إِليهم بذلك، وأَن الله تعالىٰ قد جعل لكم مخرجاً فخرجوا، فلحقهم المشركون

= وصَّيْـتُ مِـنْ بَـرَّةَ قَلْبـاً حُـرّاً ... بـالْكَلْـبِ خَيْـراً وَبـالْحَمَـاةِ شَـرّاً

وعلى هذا تكون الباءُ في قوله تبارك وتعالىٰ: [بِوَالِدَيْهِ]، وفي قول الشاعر الذي يعجب من دهماءَ ومن والدها: (بها)، وفي قول الحطيئة: (بالحماة وبالكلب) ظرفية بمعنى (في)، والتقدير في الآية الكريمة: «ووصينا الإنسان في أمر والديه بخير»، وقد وضح ابن عطية ذلك. وتأمل المفارقة في بيت الحطيئة حين يفضل الكلب على الحماة.

(١) من الآية(٩٧) من سورة (النساء).

(٢) هي آيتنا التي نحن بصدد تفسيرها.

(٣) الآية (١١٠) من سورة (النَّحل).

فقاتلوهم، فنجا من نجا، وقُتل من قُتل[١].

وقال ابن زيد: نزل قوله تعالىٰ: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ في منافقين كفروا لمَّا أُوذوا.

وقوله تعالىٰ: ﴿فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: صعب عليه أذى الناس حين صدُّوه، وكان حقُّه ألاَّ يلتفت إليه، وأن يصبر عليه في جنب نجاته من عذاب الله تعالىٰ. ثم أزال تعالىٰ موضع تعلُّقهم ومغالطتهم إنْ جاءَ نَصر، ثم قرَّرهم على علم الله تعالىٰ بما في صدورهم، أيْ: لو كان يقيناً تامًّا وإسلاماً خالصاً لما توقفوا ساعة، ولركبوا كل هول إلى هجرتهم وراءَ نبيِّهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ تفسيره على حدِّ ما تَقَدَّم في نظيره.

وهنا انتهى المدني من هذه السورة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

رُوي أن قائل هذه المقالة الوليدُ بن المغيرة، وقيل: بل كانت شائعة من كفار قريش، قالوا لأتباع النبي ﷺ: ادخلوا في أمرنا، وأقروا بآلهتنا واعبدوها، ونحن ليقيننا أنه لا بعث بعد الموت ولا رجوع نضمن لكم خطاياكم، ونحملها عنكم فيما دعوناكم إليه إن كان في ذلك درك كما تزعمون أنتم، وقولهم: [وَلْنَحْمِلْ] إخبارٌ أنهم يحملون خطاياهم على جهة التشبيه بالنقل، ولكنهم أخرجوه في صيغة الأمر لأنها أوجب وأشدُّ تأكداً في نفس السامع من المجازات، وهذا نحو قول الشاعر:

فقُلْتُ ادْعِي وأَدْعُ فَإِنَّ أَنْدَى ... لِصَوْتٍ أَنْ يُنَادِيَ دَاعِيَانِ[٢]

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في سُننِه عن ابن عباس رضي الله عنهما، (الدر المنثور). هذا وقد سبق الاستشهاد به في سورة (النساء) عند تفسير الآية (٩٧).

(٢) البيت في (اللسان ـ ندى) ـ وهو لِدِثار بن شَيْبان النَّمَري، قال صاحب اللسان: «النَّدَى: بُعْد الصوت، =

ولكونه خبراً حسُن تكذيبهم فيه، فأخبر الله عزَّ وجلَّ أن جميع ذلك باطلٌ، وأنهم لو فعلوه لم يُتَحَمَّل عن أحد من هؤلاءِ المغترِّين بهم شيءٌ من خطاياه التي تختص به.

وقرأ الجمهور: (وَلْنَحْمِلْ) بجزم اللام، وقرأ عيسى ونوح القارىء: [وَلِنَحْمِلْ] بكسر اللام. وقرأ داود بن أبي هند: [مِنْ خَطَيِهِمْ] بكسر الياءِ وفتح الطّاءِ[١]، وحكى عنه أبو عمرو أنه قرأ: [مِنْ خَطِيئَاتِهِمْ] بكسر الطّاءِ وهمزة وتاءٍ بعد الألف. وقال مجاهد: الحملُ هنا من الْحَمَالة لا من الْحَمْل على الظهر[٢].

ثم أخبر تعالىٰ عن أُولئك الكفرة أنهم يحملون أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم، أي: أثقالاً من كفرهم الذي يخترعونه ويتلبّسون به، ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ يريد: ما يلحقهم من أعوانهم وأتباعهم؛ فإنه يَلحق بكلِّ داعٍ إلى ضلالة كِفْلٌ منها حسب الحديث المشهور، «أيما داعٍ دعا إلى هُدًى فاتُّبع عليه فله مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجرهم شيئاً، وأيما داعٍ دعا إلى ضلالة. . . » الحديث[٣].

= وندَى الصوت: بُعْد مذهبه، وفُلانٌ أندى صوتاً من فُلان، أي: أبْعَدَ مذهباً وأرفع صوتاً، وأنشد الأصمعي لِدِثار بن شَيْبَان النَّمَرِيّ:

تَقُــولُ خَلِيلَتــي لَمَّــا اشْتَكَيْنَــا ... سَيُــدْرِكُنَــا بَنــي القَــوْمِ الْهِجــانِ
فَقُلْــتُ ادْعِــي وأَدْعُ فــإنَّ أَنْــدَى ... لِصَــوْتٍ أَنْ يُنَــادِيَ دَاعِيَــانِ»

وفي شرح الشواهد للعيني قال: تعليقاً على البيت: «قاله الأعشى أو الحطيئة فيما زَعَمَ ابن يعيش، أو ربيعة بن جُشَم فيما زعم الزمخشري، أو دِثار بن شيبان النَّمَرِيّ فيما زعم ابن برِّي، وهو من الوافر، والشاهد في (وَأَدْعُوَ) حيث نصب الواوَ فيه بتقدير: وأَنْ أدْعُوَ، ويروى: (وادْعُ) على الأمر بحذف اللام، إذ أصله: ولأدْعُ». اهـ.

وفي (معاني القرآن) للفراء: «[وَلْنَحْمِلْ] هو أَمْرٌ فيه تأويل جزاءٍ، وهو كثير في كلام العرب، قال الشاعر. . . فقلت ادْعِي وأَدْعُ. . . البيت ـ أراد: ولأدْعُ، كأنه قال: إنْ دعَوْتِ دعَوْتُ» اهـ.

(١) معنى كسر الياءِ في هذه القراءة هو تسهيل الهمزة، أي أن الأصل همزة سهلت فصارت شبيهة بالياءِ، وروي عن داود بن هند هذا فيما ذكر أبو الفضل الرازي أنه قرأ: ﴿من خطيئتهم﴾ بالإفراد.

(٢) يريد بالحَمَالة: تحمل المسؤولية والاضطلاع بها خيراً كانت أو شرّاً.

(٣) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، عن الحسن رضي الله عنه، ولفظه: أن النبي ﷺ قال: «أيُّما داعٍ دعا إلى هُدىً، فاتّبع عليه وعمل به، فله مثل أُجور الذين اتبعوه، ولا ينقص ذلك من أُجورهم شيئاً، وأيُّمَا داعٍ دعا إلى ضلالة فاتّبع عليها وعمل بها، فعليه مثل أوزاره الذين اتبعوه، ولا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً»، قال عون: وكان الحسن رضي الله عنه مما يقرأُ عليها: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ إلى آخر الآية، (الدر المنثور).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنّما كانت مع أَثقالهم لكونها بسبب غيرهم وعن غير كفر تلبسوه، فرّق بينها وبين أَثقالهم، ولم ينسبها إلى غيرهم، بل جعلها في رُتْبة أُخرى فقط، فهم فيها إنما يَزِرُون وِزر أنفسهم، وقد يترتب حمل أثقال الغير بما ورد عن النبي ﷺ: «فإن لم يبق للظالم أُخذ من سيئات المظلوم فاطرح فطُرح عليه»[١]. وقوله تعالىٰ: [وَلَيُسْأَلُنَّ] على جهة التوبيخ والتَّقريع، لا على جهة الاستفهام والاستعلام، و[يَفْتَرُونَ] معناه: يختلقون من الكفر ودعْوى الصاحبة والولد وغير ذلك للهِ عزَّ وجلَّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ الآية. قصة فيها تسلية لمحمد ﷺ عمَّا تضمنته الآيات فيها من تعنُّت قومه، وفتنتهم للمؤمنين وغير ذلك، وفيها وعيدٌ لهم بتمثيل أَمرهم بأَمر قوم نوح، والواو في قوله: [وَلَقَدْ] عاطفةٌ جملةَ كلام على جملة كلام، والقَسَم فيها بعيد[٢]. وقوله تعالىٰ: [أَرْسَلْنَا]، [فَلَبِثَ]، هذا العطف بالفاءِ يقتضي ظاهِرُه أنه لبث هذه المدة رسولاً يدعو، وقد يحتمل أَن تكون المدة المذكورة مدة إقامته، من لدن مولده إلى غرق قومه[٣]، وأَما على التأويل الأَول فاختُلف في سنِّه التي بُعث عندها ـ فقيل: أَربعون، وقيل: ثمانون، وقال عون ابن أَبي شدَّاد[٤]: ثلاثمائة وخمسون، ولذلك يحتمل أَن تكون وفاته عليه السلام عند غرق قومه بعد ذلك بِيَسير،

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن أبي أُمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إيَّاكم والظلم فإن الله يقول يوم القيامة: وعزَّتي لا يجيزني اليوم ظلم، ثم ينادي مناد فيقول: أين فلان بن فلان؟ فيؤتى، فيتبعه من الحسنات مثل الجبال، فيشخص الناس إليها أبصارهم، ثم يقوم بين يدي الرحمن، ثم يأمر المنادي ينادي: من كانت له تباعة أو ظُلامة عند فلان ابن فلان فهلم، فيقومون حتى يجتمعوا قياماً بين يدي الرحمن، فيقول الرحمن: اقضوا عن عبدي، فيقولون: كيف نقضي عنه؟ فيقول: خذوا لهم من حسناته، فلا يزالون يأخذون منها حتى لا تبقى منها حسنة، وقد بقي من أصحاب الظلامات، فيقول: اقضوا عن عبدي، فيقولون: لم يبق له حسنة، فيقول: خذوا من سيِّئاتهم فاحملوها عليه»، ثم نزع النبي ﷺ بهذه الآية: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾.

(٢) يعني أن يكون المُقْسم به قد حذف، وبقي حرف القسم والجواب، وسبب البعد أن في ذلك حذفاً للمجرور وإبقاءً للجارِّ، وحرف الجرِّ لا يُعَلَّق عن عمله، بل لا بد من ذكره.

(٣) قال أبو حيان: «ليس عندي محتملاً؛ لأن اللُّبْث متعقب بالفاءِ الدالة على التعقيب».

(٤) هو عون بن أبي شداد العَقِيلي ـ بفتح أوله ـ وقيل: العبدي: أبو مَعْمَر البصري، قال عنه في (تقريب التهذيب): «مقبول، من الخامسة».

وقد رُوي أنه عمّر بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين عاماً، وأنه عاش ألف سنة وستمائة سنة وخمسين سنة[(١)]. وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ يقتضي أنه أخذ قومه فقط، وقد اختُلف في ذلك ـ فقالت فرقة: إنما غرق في الطوفان طائفة من الأرض وهي المختصة بقوم نوح، وقالت طائفة ـ هي الجمهور ـ: إنما غرقت المعمورة كلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو ظاهر الأمر؛ لاتخاذه السفينة، ولبعثه الطير ترتاد زوال الماءِ، ولغير ذلك من الدلائل، وبقي أن يعترض هذا بأن يقال: كيف غرق الجميع والرسالة إلى البعض؟ فالوجه في ذلك أن يقال: إن اختصاص نَبيٍّ بأُمَّة ليس هو بألاَّ يهدي غيرها، ولا يدعوها إلى توحيد الله تعالىٰ، وإنما هو بألاَّ يأخذ بقتل غيرها، ولا يبث العبادة فيهم، ولم يكن الناس يومئذ كثيرين بحكم القرب من آدم عليه السلام، فلا محالة أنَّ دعاءَه إلى توحيد الله تعالىٰ قد كان بلغ الكل، فنالهم الغرق لإعراضهم وتماديهم.

و[ٱلطُّوفَانُ]: العظيم الطَّامي، ويقال ذلك لكل طامٍ خرج عن العادة من ماءٍ أو نارٍ أو موت، ومنه قول الشاعر:

* أَفْنَاهُمُ طُوفَانُ مَوْت جارف *[(٢)]

وطوفان وزنه فُعلان بناءُ مبالغة من: طاف يطوف إذا عمَّ من كل جهة، ولكنه كثر استعماله في الماءِ خاصة، وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ يريد: بالشِّرك.

---

(١) تساءَل بعض العلماء: ما فائدة الاستثناءِ في قوله: ﴿إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾، ولماذا لم يقل: «تسعمائة وخمسين»؟ وأجابوا عن ذلك بأمرين: الأول أن المراد تكثير العدد، وذكر الألف أفخم في اللفظ؛ لأنه رأس الأعداد. والثاني ـ وهو عن الزجاج ـ أن الاستثناءَ في كلام العرب يفيد التأكيد، فلو قلت: «جاء إخوتك إلا زيداً» فقد أكدت مجيءَ الجميع باستثنائك زيداً، ولم يأت الاستثناءُ في كلام العرب إلا قليل من كثير، ومن القبيح استثناءُ نصف الشيء، لا يجوز أن تقول: عندي دينارٌ إلا نصفه، ولكن تقول: عندي دينارٌ إلا دراهم.

(٢) هذا البيت من مشطور الرجز استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن)؛ ويتفق مع هذا ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾، قال: (الموت)، وفي اللسان «الطوفان: مصدر مثل الرُّجْحان والنُّقْصان، ولا حاجة به إلى أن يطلب له واحداً»، ونقل ابن سيدة عن الأخفش أن الطوفان جمع طوفانة، قال ابن سيدة: «والأخفش ثقة، وإذا حكى الثقة شيئاً لزم قبوله». و(جارف) من قولهم: جرف السيلُ الشيءَ: ذهب به كلِّه أو جُلِّه.

و﴿أصحاب السفينة﴾ تقدم في غير هذه السورة الخلاف في عددهم، وهم بَنُوه وقوم آمنوا، والضمير في قوله: [وَجَعَلْنَاهَا] يحتمل أن يعود على السفينة، و«الآيةُ» هنا العِبْرَةُ والعلامة على قدرة الله تبارك وتعالىٰ في شدَّة بطشه، قال قتادة: أَبقاها آيةً على الجودي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

يجوز أَن يكون [إِبْرَاهِيمَ] معطوفاً على [نُوحٍ]، ويجوز أَن يكون معطوفاً على الضمير في [أَنْجَيْنَاهُ]، ويجوز أَن ينصبه فعل تقديره: واذكر إِبراهيم. وهذه القصة أَيضاً تمثيل لقريش، وكان نمروذ وأَهل مدينته عَبَدَة أَصنام، فدعاهم إِبراهيم عليه السلام إِلى توحيد الله تعالىٰ وعبادته، ثم قرر لهم ما هم عليه من الضلال.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿تخلقون إفكاً﴾، وقرأَ ابن الزُّبَيْر، وفُضَيْل[١]: [أَفِكاً] على وزن (فَعِل)، وهو مصدر كالكَذِب والضَّحِك ونحوه[٢]، واختلف في معنى [تَخْلُقُونَ] ـ فقيل: هو نحت الأَصنام وخلقها، سمَّاها إِفْكاً توسُّعاً من حيث يُفترى بها الإِفك في أَنها آلهة، وقال مجاهد: هو اختلاق الكذب في أَمر الأَوثان، وغير ذلك. وقرأَ أَبو عبد الرحمن السُّلَمي، وعَوْن الْعَقِيلي، وقتادة[٣]، وابن أَبي ليلى: [وتخلقون إفكاً] بفتح الخاءِ وشدِّ اللام وفتحها، و«الإِفْكُ» ـ على هذه القراءَة ـ الكذبُ.

ثم وقفهم على جهة الاحتجاج عليهم بأَمر يفهمه عامَّتهم وخاصَّتهم، وهو أَمر الرِّزق، فقرَّر أَن الأَصنام لا ترزق، وأَمْر الخير عند الله تبارك وتعالىٰ، وخصَّص الرزق لمكانته من الخلق، فهو خير يدل على جنسه كلِّه. ويقال: شكَرْتُ لك، وشكرتُك، بمعنى واحد. ثم أَخبرهم بالمعاد والحشْر إِليه.

---

(١) هو فُضيل بن زرقان.

(٢) قال الزمخشري: «ويحتمل أن يكون صفة على فَعِل، أي: خَلْقاً أَفِكاً، أي: ذا إفك وباطل».

(٣) في البحر المحيط: (عُبادة) بدلاً من قتادة، وهو أقرب إلى الصواب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ الآية... وعيدٌ، أَي: قد كذب غيركم وعُذِّب، وإنما على الرسول البلاغ، وكلُّ أَحد ـ مع ذلك ـ مأخوذ بعمله.

وقرأَ حمزة، والكسائي، وعاصم ـ بخلاف عنه ـ: [أو لم تروا] بالتاءِ، وقرأَ الباقون: ﴿أو لم يروا﴾ بالياءِ، الأُولى على المخاطبة، والثانية على الحكاية عن الغائب، وقرأَ الجمهور: (يُبْدِىءُ)، وقرأَ الزُّبَير، وعيسى، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ: [يَبْدَأُ][1].

وهذه الإِحالات على ما يظهر على الإِخبار من إِحياء الأَرض والنبات وإِعادته ونحو ذلك مما هو دليل على البعث من القبور والحشر، ويحتمل أَن يريد: أَو لم يروا بالدلائل والنظر كيف يجوز أَن يعيد الله تبارك وتعالىٰ الأَجسام بعد الموت، وهذا تأْويل قتادة. وقال الربيع ابن أَنس: المعنى: كيف يبدأُ خلقَ الإِنسان ثم يعيده إِلى أَحوالٍ أُخر حتَّى إِلى التراب. وقال مقاتل: الخلق في هذه الآية الليلُ والنَّهار.

ثم أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ـ ويحتمل أَن يكون محمداً إِن كان في قصة إِبراهيم عليهما الصلاة والسلام اعتراض بين كلامين ـ بأَن يأْمرهم ـ على جهة الاحتجاج ـ بالسير في الأَرض، والنظر في كل قطر، وفي كل أُمَّة قديماً وحديثاً، فإِن ذلك يُوجد أَلاَّ خالق إِلاَّ الله تبارك وتعالىٰ، ولا مبتدئاً بالخلق سواه، ثم ساق ـ على جهة الخبر ـ أَن الله تعالىٰ هو المبتدىءُ لنشأَة القيام من القبور[2].

---

(١) قراءة الجمهور [يُبْدِىء] من (أَبْدَأَ)، والقراءة الثانية مضارع (بَدَأَ). وقرأَ الزُّهري: (يَبْدَا) بغير همزة مُحَقَّقة، بل هي مُخَفَّفَةٌ كما قال ابن جني.

(٢) في قوله تعالىٰ: ﴿أو لم يروا...﴾ الآية صرَّح الله تعالىٰ باسمه في قوله ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾، ثم أَضمر في قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾، وفي الآية التي بعدها عكس، فأَضمر في قوله: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾، ثم أَبرزه في قوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ﴾ حتى لا تخلو الجملتان من صريح اسمه تبارك وتعالىٰ، ودلَّ إِبرازه في الآية الثانية على تفخيم النشأَة الآخرة، وتعظيم أَمرها، وتقرير وجودها؛ إِذ كان نزاع =

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [ٱلنَّشَاءَةَ] على وزن (ٱلْفَعَالَة)، وهي قراءة الأعرج، وهذا كما تقول: رأفةٌ ورَآفَةٌ، وقرأ الباقون: (ٱلنَّشْأَة) على وزن (الفَعْلَة)، وقرأ الزهري: [النَّشَّة] بشين مشددة في جميع القرآن. والبعث من القبور يقوم دليل العقل على جوازه، وأخبرت الشرائع بوقوعه ووجوده.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

المعنى: يُيَسِّر من يشاءُ لأعمالِ مَنْ حقَّ عليه العذابُ، ويُيَسِّر من يشاءُ لأعمالِ مَنْ سبقت له السعادة، فيتعلق الثوابُ والعقاب بالاكتساب المقترن بالاختراع الذي لله تبارك وتعالىٰ في أعمال العبيد. ثم أخبر تعالىٰ بأنه إليه المنقلب، وأن البَشَر ليس بمعجز ولا مُفْلت في الأرض ولا في السماءِ. ويحتمل أن يريد بالسماءِ الهواءَ عُلُوًّا، أي: ليس للإنسان حيلة صَعَدَ أَوْ نَزَلَ، حكى نحوه الزهراوي. ويحتمل أن يريد السماءَ المعروفة، أي: لستم بمعجزين في الأرض ولو كنتم في السماءِ، وقال ابن زيد: معناه: ولا مَنْ في السماءِ مُعْجِزٌ إن عَصَى، ونظَّروه ـ على هذا ـ بقول حسَّان بن ثابت:

فَمَـــنْ يَهجُـــو رَسُـــولَ اللهِ مِنكُـــمْ ... وَيَمْـــدَحُـــهُ وَيَنْصُـــرُهُ سَـــوَاءُ ؟(١)

والتأويل الأوسط أحسنها، ونحوه قول الأعشى:

= الكفار فيها، فكأنه قيل: ثُمَّ ذلك الذي بَدَأَ الخَلْق هو الذي يُنْشِيءُ النشأة الآخرة: فكأن التصريح باسمه أفخم في إسناد النشأة إليه. ذكر ذلك أبو حيان في البحر.

(١) البيت من قصيدته التي قالها يهجو بها أبا سفيان قبل فتح مكة، وقد رُوي: (فَمَنْ يَهْجُو) في الديوان، ورُوي في ابن هشام، وأمالي المرتضى كما هنا: (أَمَنْ يَهْجُو). والبيت من شواهد الفراءِ في معاني القرآن، قال: «وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يقول القائل: وكيف وصفهم أنهم لا يعجزون في الأرض ولا في السماء وليسوا من أهل السماء ؟ فالمعنى والله أعلم: ما أنتم بمعجزين في الأرض، ولا من في السماء بمعجز، وهو من غامض العربية، للضمير الذي لم يظهر في الثاني، ومثله قول حسَّان: فمن يهجو... البيت، أراد: ومن ينصره ويمدحه، فأضمر (مَنْ)، وقد يقع في وهم السَّامع أن المدح والنصر لـ (مَنْ) هذه الظَّاهرة، ومثله في الكلام: أكرم من أتاك وأتى أباك»، و«أكرم من أتاك ولم يأت زيداً»، تريد: «ومن لم يأت زيداً» اهـ.

وَلَوْ كُنْتَ في جُبٍّ ثمانِينَ قَامَةً وَرُقِّيتَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ
لَيَسْتَدْرِجَنْكَ الْقَوْلُ حَتَّى تَهِرَّهُ وَتَعْلَمَ أَنِّي عَنْكَ لَسْتُ بِمُلْجَمِ[1]

والوَلِيُّ أَخَصُّ من النصير. وقرأ يحيى بن القعقاع، وابن الحرث[2]: [يَيِسُوا] بغير همز.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ذمَّ الله تعالىٰ قوماً هانوا عليه فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وما تقدم من قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ إلى هذه الآية يحتمل أن يكون خطاباً لمحمد ﷺ، ويكون اعتراضاً في قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ويحتمل أن يكون خطاباً لإبراهيم ومحاورة لقومه، وعند آخر ذلك ذكر جواب قومه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

قرأ الجمهور: [جَوَابَ] بالنصب، وقرأ الحسن: [جَوَابُ] بالرفع، وكذلك سالم

---

(١) البيتان من قصيدة له قالها يهجو عُمَيْر بن عبد الله بن المنذر بن عبدان حين جمع بينه وبين جهنام ليهاجيه، والرواية في الديوان: (لئِن كنتَ في جُبٍّ)، وهو جواب قسم في أبيات سابقة يحلف فيه بالراقصات من النِّياق في الطريق إلى منى، بأنه لو نزل في باطن الأرض إلى أشد الأعماق، ولو صعد في الفضاء، إلى أقصى ما يمكن فلن يفلت من هجائه. (واستدرجه القول) معناه: صيَّره إلى أن يدرج، يقال: استدْرَجَه بمعنى: أدناه منه على التدريج فتدرَّج هو، ومنه قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، والشاعر يريد هنا أنه سيأخذه قليلاً قليلاً من حيث لا يحتسب. وفي رواية: (لَيَعْتَورَنْكَ القول) بمعنى: ليأخذنك من كل جانب ويتداولك، و(حَتَّى تَهِرَّه) أي: حتَّى تَكرَهَه، ويمكن أن يكون (تَهُرَّه) بالضم من الهُرَارِ، يقال: هَرَّ يَهُرُّ هُرَاراً: أطلقه من بطنه حتَّى مات. و(لَسْتُ بِمُلْجَم) أي: ليس في فَمِي لِجَامٌ يمنعني من هجائك، بل أنا قادر على ذلك متمكن منه، والشاهد أن الشاعر استعمل السماءَ هنا بمعنى الهواءِ أو الفضاء العالي حين قال له: لئن اختفيت في الأرض أو صعدت في السماء فلن تفلت من هجائي.

(٢) في «البحر المحيط» أنها قراءة الذماري وأبي جعفر.

الأَفطس[1]. وأَخبر الله تعالىٰ عنهم أَنهم لمَّا بيَّن إِبراهيم عليه السلام الحُجَجَ، وأَوضح أَمر الدين، رجعوا إِلى الغلبة، وعدلوا عن طريق الاحتجاج حين لم يكن لهم به قِبَل، فتآمروا على قتله وتحريقه بالنَّار، وأَنفذوا أَمر تحريقه حسبما قد أُفيض في غير هذا الموضع، وأَنجاه الله تعالىٰ من نارهم، وجعلها عليه برداً وسلاماً، قال كعب الأَحبار: لم يحرق بالنار إِلاَّ الحَبْل الذي أَوثقوه به، وجعل ذلك آية وعِبْرة، ودليلاً على وحدانيته لمن شرح صدره ويَسَّره للإِيمان، أَي: هذا الصنف ينتفع بالآية، والكفار هي عليهم عمًى وإِن كانت في نفسها آيةً للكل.

ثم ذكر تعالىٰ أَن إِبراهيم قَرَّرهم على أَن اتخاذهم الأَوثان والأَنصاب إِنما كان اتِّباعاً من بعضهم لبعض، وحِفْظاً لموداتهم ومحباتهم الدنياوية، وأَنهم يوم القيامة يجحد بعضهم بعضاً ويتلاعنون؛ لأَن توادّهم كان على غير تقوى، و﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

وقرأَ عاصم ـ في رواية الأَعمش عن أَبي بكر عنه ـ: [مَوَدَّةُ] بالرفع [بَيْنِكُمْ] بالخفض، وقرأَ نافع، وابن عامر، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ وأَبو عمرو ـ في رواية أَبي زيد ـ: [مودةً بينكم] بالتنوين والنَّصْبِ، ونصب (بَيْنَ)[3]، أَما قراءَة رفع [مَوَدّة] فوجهُهَا أَن تكون [مَا] بمعنى (الذي)، وفي قوله: [ٱتَّخَذْتُمْ] ضمير عائد على (الَّذي)، وهذا الضمير هو مفعول أَول لِـ [ٱتَّخَذْتُمْ]، و[أَوْثَاناً] مفعولٌ ثانٍ، و[مَوَدَّةُ] خبر [إِنَّ] في قراءَة من نوَّنَهَا، وفي قراءَة من لم ينونها. ويجوز أَن تكون [مَا] كافَّة، ولا يكون في قوله: [ٱتَّخَذْتُمْ] ضمير، ويكون قوله: [أَوْثَاناً] مفعولاً بقوله: [ٱتَّخَذْتُمْ]، ثُمَّ يقْتصر عليه، ويُقَدَّر الثاني: «آلِهَةً» أَو نحوه، كما يقدر في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ ﴾ أَي: «إِلـٰهاً» ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾[4]، ويكون قوله: [مَوَدَّةٌ] خبر ابتداءٍ

(١) هو سالم بن عجلان الأفطس، الأموي، مولاهم، أبو محمد الحرَّاني، ثقة، رمي بالإرجاء، من السادسة، قتل صبراً سنة اثنتين وثلاثين للهجرة. (تقريب التهذيب).

(٢) الآية (٦٧) من سورة (الزُّخرف).

(٣) هناك قراءات أُخرى كثيرة لا تخرج عن رفع (مَوَدَّة) أو نصبها منونة وغير منونة، مع النصب في (بَيْنَ) أو الخفض.

(٤) من الآية (١٥٢) من سورة (الأعراف).

تقديره: «هِيَ مَوَدَّةٌ»، وفي هذه التأويلات مجازٌ واتساعٌ في تسمية الأَوثان مودة، أَو يكون ذلك على حذف مضاف.

وأَمَّا من نصب [مَوَدَّةَ] فعلى أَن [مَا] كافة، وعلى خُلُوِّ [ٱتَّخَذْتُمْ] من الضمير، والاقتصار على المفعول الواحد كما تقدم، ويكون نصب «المودَّة» على المفعول من أَجله.

ومن أَضاف «المودَّة» إلى «الْبَيْنِ» في القراءَتيْن بالنصب والرفع فقد تجوَّز في ذلك وأَجرى الظرف مجرى الأَسماءِ، ومن نصب [بَيْنَكُمْ] في القراءَتَيْن ـ النصب والرَّفع ـ في [مَوَدَّة] فكذلك يحتمل أَن ينتصب انتصاب الظروف، ويكون معلقاً بـ[مَوَدَّة]، وكذلك ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم﴾ ظرفٌ أَيضاً متعلق بـ[مَوَدَّة]، وهو مصدرٌ عمل في ظرفين من حيث افترق الزمان والمكان، ولو كان لواحد منهما لم يجز ذلك، تقول: «رأَيت زيداً أَمس في السوق»، ولا تقول: «رأَيت زيداً أَمس البارحة»؛ إلاَّ أَن يكون أَحد الظرفين جزءًا للآخر، تقول: «رأَيت زيداً أَمْس عشية». ويجوز أَن ينتصب [بَيْنَكُمْ] على أَنه صفة «المودَّة»[1]، وهنا محذوف مقدَّر، تقديره: «مودَّة ثابتة بينكم»، وفي الظرف ضمير عائد على [مَوَدَّة]، لما حذفت «ثابتة» استقر الضمير في الظرف نفسه. وقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم﴾ ظرف في موضع الحال من الضمير الكائن في [بَيْنِكُمْ] بعد حذف «ثابتة»، وهذه الحال متعلقة بـ[مَوَدَّة]، وجاز تعلقها بها وهي قد وصفت لأَن معنى الفعل فيها، وإِن وصفت فلا يمتنع أَن يعمل معنى الفعل إلاَّ في المفعول، فأَمَّا في الظرف وفي الحال فيعمل، قال مكيٌّ: ويجوز أَن يكون ﴿في الحياة﴾ صفة ثانية لـ[مَوَدَّة]، ويكون فيها مقدر «مستقرة»، وفيها ضمير ثانٍ عائد إِلى [مَوَدَّة]، فالتقدير ـ على هذا ـ مودة بينكم مستقرة في الحياة الدنيا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويصح أَن يكون قوله: [مَوَدَّةَ] في قراءَة من نصب مفعولاً ثانياً بقوله: [ٱتَّخَذْتُمْ]، ويكون في ذلك اتساعٌ، فتأَمله. وفي مصحف أُبيٍّ: [مَوَدَّة بَيْنَهُمْ] بالهاءِ، وفي مصحف ابن مسعود: [إِنَّما مَوَدَّة بَيْنِكُمْ].

---

(١) قال أبو حيان في البحر: «وهو لا يجوز؛ لأن المصدر إذا وُصف قبل أخذ متعلقاته لا يعمل»، وحجة ابن عطية ومن وافقه أنه يتوسع في الظرف ما لا يتوسع في غيره كالمفعول مثلاً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

[آمَنَ] معناه: صدَّق، وهو فعل يتعدى بالباءِ وباللام، والقائل ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ هو إبراهيم عليه السلام، قاله قتادة، والنَّخَعي. وقالت فرقة: هو لوط عليه السلام.

ومما صحَّ من القصص أَن إبراهيم ولوطاً هاجرا من قريتهما «كوثى» وهي في سواد الكوفة من أَرض بابل إلى بلاد الشام، وفلسطين وغيرها، قال ابن جريج: هاجرا إلى حرَّان، ثم أُمرا بعْدُ إلى الشام، وفي هذه الهجرة كانت سارة في صحبة إبراهيم، واعتراها أَمر الملِك. و«المُهَاجر»: النازع عن الأَمر، وهي في عرف الشرع من ترك وطنه رغبة في رضى الله تعالىٰ، وقد ذهب بهذا الاسم أَصحاب محمد ﷺ قبل الفتح. وقوله: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ مع الهجرة إليه صفتان بليغتان تقتضي[1] استحقاق التوكُّل عليه. وفي قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ حذف مضاف، تقديره: إلى رضى رَبِّي، أَو نحو هذا.

وإسحاق بن إبراهيم هو الذي بُشِّر به، وبُشِّر بيعقوب من ورائه، وهو ولد إسحاق، و[ٱلْكِتَاب] هو اسم جنس، أَي: جعل الله تعالىٰ في ذرية إبراهيم عليه السلام جميع الكتب المنزَّلة: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وعيسى عليه السلام من ذريَّته، وقوله: ﴿أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ يريد: في حياته بحيث أَدرك ذلك وسُرَّ به، والأَجر الذي آتاه الله تعالىٰ العافية من النار، ومن الملِك الجائر، والعمل الصالح، والثناءُ الحسن. قاله مجاهد. وأَنَّ كل أُمَّة تتولاَّه، قاله ابن جريج. والولد الذي قرَّت به العين بحسب طاعة الله تعالىٰ، قاله الحسن. ثمَّ أَخبر عنه أَنه في الآخرة في عداد الصالحين الذين نالوا رضى الله تبارك وتعالىٰ، وفازوا برحمته وكرامته العليا.

وقوله تعالىٰ: [وَلُوطاً] نصب بفعل مضمر، تقديره: واذكر لوطاً[2]، و[ٱلْفَاحِشَةَ]:

---

(١) لعله أراد: تقتضي كل منهما...

(٢) قال الكسائي: «ومعنى قوله تعالىٰ: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾: أَنجينا لوطاً، أو أرسلنا لوطاً». قال=

إتيان الرجال في الأدبار، وهي معصية ابتدعها قوم لوط.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

تقدم ذكر القراءات في [أَئِنَّكُمْ]، واختلف الناسُ في «قَطْع السبيل» المشار إليه هنا ـ فقالت فرقة: كان قطْع الطريق بالسلب فاشياً فيهم، وقال ابن زيد: كانوا يقطعون الطرق على الناس لطلب الفاحشة، فكانوا يحيفون. وقالت فرقة: بل أَرَادَ قَطْعَ سبيل النسل في ترك النساءِ وإتيان الرجال. وقالت فرقة: أَراد أَنهم بفَتْح الأُحدوثة عنهم يقطعون سبيل الناس عن قصدهم في التجارات وغيرها. و«النَّادي»: المجلس الذي يجتمع الناسُ فيه، وهو اسم جنس؛ لأَن الأندية في المدن كثيرة، كأَنه قال: وتأتون في اجتماعكم حيث اجتمعتم، واختلف الناسُ في [الْمُنْكَرَ] ـ فقالت فرقة: كانوا يخذفون[1] الناس بالحصى، ويستخفُّون بالغريب والخاطر عليهم، وروته أُم هانىء عن النبي ﷺ[2]، وكانوا لا يربطهم دين ولا مروءَة، وقال مجاهد، ومنصور: كانوا يأْتون الرجال في مجالسهم وبعضهم يرى بعضاً، وقال القاسم بن محمد: منكرهم أَنهم كانوا يتفاعلون في مجالسهم، ذكره الزهراوي، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان يتضارطون في مجالسهم، وقال مجاهد أَيضاً: كان من أَمرهم لعب الحمام، وتطريف الأَصابع

= القرطبي: وهذا الوجه أَحبُّ إليَّ.

(١) (خَذَف): بالخاء والذال المعجمتين ـ هو الرَّمْيُ بالحصى أو النواة تأخذها بين إصبعيك وتَرْمي بها، أو تَتَّخذ مِخْذَفَةً من خشب ثم ترمي بها الحصاة بين إبهامك والسبابة. وأما (حَذَف) بالحاء المهملة فهو يستعمل في الرمي والضرب بالعصا.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، والطبريُّ وحسَّنه، والسيوطي في الدّر المنثور، وقال: أَخرجه ـ غير السابقين ـ الفريابي، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن أبي الدنيا في كتاب الصمت، وابن المنذر، والشاشي، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي وغيرهم، ولفظه كما أثبته القرطبي: قالت أُم هانىء: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾، قال: «كانوا يخذفون من يمُرُّ بهم ويسخرون منه، فذلك المنكر الذي كانوا يأتونه». وقد زاد من رواته: النحاس، والثعلبي، والمهدوي، والماوردي، والطيالسي.

بالحناءِ، والصفير، والحذف، ونبذ الحياءِ في جميع أُمورهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد توجد هذه الأَشياءُ في بعض عُصاة أُمة محمد ﷺ، فالتناهي واجب.

فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إِلى التكذيب واللَّجاج، أَي: ائتنا بالعذاب، فإِن ذلك لا يكون، ولا تقدر عليه، وهم لم يقولوا هذا إِلاَّ وهم مصممون على اعتقاد كذبه[١]، وليس يصح في الفطرة أَن يكون معاند يقول هذا، [ثم استنصر لوط عليه السلام ربَّه، فبعث عليهم ملائكة لعذابهم][٢]، فجاءُوا إِبراهيم عليه السلام أَولاً مبشرين بإِسحاق، ومبشرين بنصرة لوط على قومه، وكان لقاؤُهم لإِبراهيم على الصورة التي بينت في غير هذا الموضع، فلفظة «الْبُشْرَى» ـ في هذا الموضع ـ تتضمن أَمر إِسحاق ونصرة لوط عليهما السلام، فلما أخبروه بإِهلاك القرية على ظلمهم أَشفق إِبراهيم عليه السلام على لوط عليه السلام، فعارضهم بحسب ما يأْتي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

روى ابن عباس رضي الله عنهما أَن إِبراهيم عليه السلام لمَّا علِم مِنْ قِبَل الملائكة أَن قوم لوط يُعذَّبون أَشفق على المؤمنين فجادل الملائكة، وقال: أَرأَيتم إِن كان فيهم مائة بيت من المؤمنين أَتتركونهم؟ قالوا: ليس فيهم ذلك، فجعل ينحدر حتى انتهى إِلى عشرة أَبيات، فقالت له الملائكة: ليس فيها عشرة، ولا خمسة، ولا ثلاثة، ولا اثنان، فحينئذ قال إِبراهيم عليه السلام: إِن فيها لوطاً، فراجعوه حينئذ بأَنا نحن أَعلم بمن

(١) في الأصل «اعتقاد كذبهم»، والمعنى لا يستقيم إلا بما أثبتناه.

(٢) ما بين العلامتين زيادة غير موجودة بالأصل ويقتضيها التعبير، وقد نقلناها عن القرطبي الذي نقل بدوره عن ابن عطية كل كلامه في هذا المقام.

فيها، أي: لا تخف أن يقع حيف على مؤمن.

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: (لَنُنَجِّيَنَّه) بفتح النون الوسطى وشد الجيم، و(مُنَجُّوكَ) بفتح النون وشدِّ الجيم(١)، وقرأ حمزة، والكسائي: [لَنُنْجِيَنَّه] بسكون النون وتخفيف الجيم، وقرأ ابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر: [لَنُنَجِّيَنَّهُ] بالتشديد، و[مُنْجُوكَ] بالتخفيف، وقرأت فرقة: [لَنُنَجِّيَنْهُ] بسكون النون الأخيرة من الكلمة، وهذا إنما يجيءُ على أنه خفف النون المشددة وهو يريدها.

وامرأة لوط هذه كانت كافرة، تنبه على أضيافه، و«الْغَابر»: الباقي، ومعناه: من الغابرين في العذاب، وقالت فرقة: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: ممَّن غَبَر وبَقِيَ من الناس وعَسَى في كفره(٢)، والضمير في [بِهِمْ] في الموضعين عائد على الأضياف الرُّسل، وذلك بخوفه من قومه عليهم، فلما أخبروه بما هم فيه فُرِّج عنه. وقرأ عامة القراءِ: (سِيءَ) بكسر السين، وقرأ عيسى وطلحة بضمها، و«الرِّجْزُ»: العذاب، وقوله تعالىٰ: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي: عذابهم بسبب فسقهم، وكذلك كل أُمَّةٍ عذَّبها الله فإنما عذَّبها على الفسق والمعصية، ولكن بأن يقترن ذلك بالكفر الذي يوجب عذاب الآخرة. وقرأ أبو حيوة، والأعمش: [يَفْسِقُونَ] بكسر السِّين.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ﴾، أي: من خبرها وما بقي من آثارها، فـ[مِنْ] لابتداءِ الغاية، ويصح أن تكون للتبعيض، على أن تريد ما ترك من بقايا تلك القرية ومنظرها، والآية موقع العبرة، وعلامة القدرة، ومزدجر النفوس عن الوقوع في سخط الله تعالىٰ.

وقرأ جمهور القراءِ: (مُنْزِلُونَ) بتخفيف الزاي، وقرأ ابن عامر: [مُنَزِّلُونَ] بشد الزَّاي، وهي قراءَة الحسن وعاصم ـ بخلاف عنهما ـ، وقرأ الأعمش: الحسن وعاصم ـ بخلاف عنهما ـ، وقرأ الأعمش: [إِنَّا مُرْسِلُونَ] بدل [مُنْزِلُونَ]، وقرأ ابن محيصن: [رُجْزاً] بضم الراءِ.

---

(١) وهي قراءة عاصم في رواية حفص عنه.
(٢) يقال: عَسَى في كفره: كبر فيه وأَسَنَّ. والمصدر: عَسْواً وعُسُوّاً وعَسَاءً وعُسِيّاً، (المعجم الوسيط).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

نصب [شُعَيْباً] بفعل مضمر يحسن مع التقدير: وبعثنا أو أرسلنا، فأمرَ شُعيبٌ عليه السلام بعبادة الله تعالىٰ، والإيمان بالبعث واليوم الآخر، ومع الإيمان به يصح رجاؤه، وذهب أبو عبيدة إلى أن المعنى: وخافوا. و[تَعْثَوا] معناه: تفسدون، يقال: عَثَا يَعْثُو، وعاثَ يَعيثُ، وعَثِيَ يَعْثَى إذا أفسد. وأَهْلُ مَدْيَن: قومُ شعيب، وهذا على أنها اسم البلدة، وقيل: مَدْيَنُ: اسم القبيلة. و«أصحاب الأيْكةِ» غيرُهم، وقيل: هم بعضهم ومنهم، وذلك لأن معصيتهم في أمر الموازين والمكاييل كانت واحدة. و[ٱلرَّجْفَةُ]: ميد الأرض بهم، وزلزلتها عليهم، وتداعيها بهم، وهذا نحو من الخسف، ومنه الإرجاف بالأخبار، و«الجُثُومُ» ـ في هذا الموضع ـ تشبيه، أي: كان همودُهُم على الأرض كالجثوم الذي هو للطائر والحيوان، ومنه قول لبيد:

فَغَدَوْتُ في غَلَسِ الظَّلَامِ وطَيْرُهُ عُصَبٌ على خَضِلِ الْعِضَاهِ جُثُومُ[1]

وقوله: [وَعَاداً] منصوب بفعل مضمر، تقديره: واذكر عاداً، وقيل: هو معطوف على قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[2].

وقرأ: [وَثَمُوداً] عاصم[3]، وأبو عمرو، وابن وثاب. وقرأ: (وَثَمُودَ) بغير تنوين

---

(١) البيت من قصيدة قالها لبيد بن ربيعة في أوائل حياته الشعرية، ولما سمعها النابغة قال له: أنت أشعر قيس، أو قال: هوازن كلها، وهي من الكامل، والرواية في الديوان:

قَدْ قُدْتُ في غَلَسِ الظَّلام وَطَيْرُهُ عُصَبٌ على فَنَنِ العِضَاهِ جُثُومُ

ويروى: على خُصَل، وغَلَسُ الظَّلام: أوّلُ الصبح، والفَنَنُ: الغُصْنُ، والخَضِلُ: المُبْتَلُّ بالنَّدى، والعِضاهُ: كلُّ شجر له شوك صَغُر أو كَبُر، والواحدة: عِضَاهَةٌ، وجُثُومٌ: واقعةٌ على الشجر في سُكون، وهو موضع الشاهد هنا.

(٢) من الآية رقم (٣) من هذه السورة.

(٣) الذي في البحر أن قراءة عاصم [ثَمُودَ] بغير تنوين، ولعل سبب الاختلاف أن قراءة عاصم رويت من طريقين: طريق حفص، وطريق أبي بكر.

أَبو جعفر، وشيبة، والحسن، وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿ وَعَادٍ وَثَمُودٍ ﴾ بالخفض فيهما والتنوين[(١)].

ثم دلَّ عزَّ وجلَّ على ما تعطيه العبرة من بقايا مساكنهم ورسوم منازلهم ودُنُوِّ آثارهم. وقرأ الأعمش: [وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مَسَاكِنُهُمْ] دون [مِنْ]. وقوله تعالىٰ: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ﴾ عطف جملة من الكلام على جملة، و[ٱلسَّبِيل] هي طريق الإيمان بالله تعالىٰ ورسله، ومنهج النجاة من النَّار، وقوله: [مُسْتَبْصِرِينَ]، قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: معناه: لهم بصيرة في كفرهم، وإِعجابٌ به، وإِصرارٌ عليه، فذمَّهُم بذلك. وقيل: لهم بصيرة في أَن الرسالة والآيات حق، ولكن كانوا ـ مع ذلك ـ يكفرون عناداً، ويردُّهم الضلال إِلى مجاهله ومتالفه، فيجري هذا مجرى قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ ﴾[(٢)]. وتزيينُ الشيطان هو بالوسواس ومناجاة ضمائر الناس، وتَزْيينُ الله تعالىٰ الشيءَ هو بالاختراع، وخَلْقِ محبته والتَّلَبُّس به في نفس العبد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

نصب [قَارُونَ] إِمَّا بفعل مضمر تقديره: اذكر، وإِمَّا بالعطف على ما تقدم، وقارون من بني إِسرائيل، وهو الذي تقدمت قصته في الكنوز وفي البغي على موسى بن عمران عليه السلام، وفرعون مشهور، وهامان وزيره، وهو من القبط. و«البيِّنَات»: المعجزات والآيات الواضحة، و[سَابِقِينَ] معناه: مفلتين من أَخْذنا وعقابنا، وقيل: معناه: سابقين من أَوليائنا، وقيل: معناه: سابقين الأُمم إِلى الكفر، أَي: قد كانت تلك عادة الأُمم مع الرُّسل.

---

(١) هذه القراءة تراعي العطف على (مَدْينَ) في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ ﴾، والتقدير: وأرسلنا إِلى عادٍ وثمودٍ.

(٢) من الآية (١٤) من سورة (النَّمل).

و«الَّذين أُرْسل عليهم الحاصِبُ» ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم قوم لوط.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويشبه أَن يدخل قوم عادٍ في الحاصب؛ لأَن تلك الريح لا بد أَنَّها كانت تحصبهم بأُمور مؤذية. و«الْحَاصِبُ»: هو العارض من ريح أَو سحاب أَو رمي بشيءٍ، ومنه قول الفرزدق:

مُسْتَقْبِلِينَ شمالَ الشَّام تَضْرِبُنَا ... بِحَاصِبٍ كنديف القُطْنِ مَنْثُورِ[1]

ومنه قول الأَخطل:

تزمِي الْعِضَاهَ بِحَاصِبٍ مِنْ ثَلْجِهَا ... حَتَّى يَبِيتَ عَلَى العِضَاهِ جُفَالاَ[2]

و«الَّذين أَخذتهم الصَّيْحة» قومُ ثمود، قاله ابن عباس، وقال قتادة: هم قوم شعيب، و«الْخَسْفُ» كان بقارون، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويشبه أَن يكون أَصحاب الرجفة في هذا النوع من العذاب، و«الْغَرَقُ» كان في قوم نوح، وبه فسَّر ابن عباس، وفي فرعون وحزبه، وبه فسَّر قتادة.

وظُلْمهم أَنفُسَهم كان بالكفر ووضع العبادة في غير موضعها، وقدم المفعول على

---

(١) البيت من قصيدة له يمدح فيها يزيد بن عبد الملك، ويهجو يزيد بن المهلَّب، وقبله يقول:

إلَيْكَ مِنْ نَفَقِ الدَّهْنا ومَعْقُلَةٍ ... خاضَتْ بِنَا اللَّيْلَ أَمْثَالُ الْقَرَاقِيرِ

والقراقير: جمع قرقور وهي السفينة الطويلة، يشبه بها النياق التي خاضت بهم الليل مستقبلين شمال الشام إلى الممدوح، والحاصب: الريح الشديدة تحمل الحصباءَ، ونديف القطن هو القطن المندوف أي الذي ضرب بالمندف وهو خشبة معينة بخيط متين يستعملها النداف في ضرب القطن لِيَرِقَّ. والبيت من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن على أن الحاصب هو العارض من ريح.

(٢) قال الأخطل هذا البيت من قصيدة يهجو بها جريراً، ويفتخر على قيس، وقبله يقول:

ولَقَدْ عَلِمْتُ إذا العِشَارُ تَرَوَّحَتْ ... هَدَجَ الرِّئَالِ تَكُبُّهُنَّ شَمَالا

والعِشار: جمع عشراءَ من الإبل، وهي التي أتى عليها عشرة أشهر وهي حامل، وتروَّحت: عادت إلى حظائرها في الرواح وهو العودة من المرعى، والهَوْدَج: مَشْيٌ في ارتعاش، أو عَدْو متقارب، والرِّئال: جمع رأل وهو ولد النعامة، وتكبُّهن: تدفَعُهُنَّ، والعضاه: كل شجر له شوك صغيراً كان أو كبيراً، أو الشجرة واسعة الظلِّ، والمفرد: عضاهة. والجُفَالُ: ما تراكم من الثلج وتراكب، والشاهد في البيت مثله في البيت الذي قبله.

[يَظْلِمُونَ] للاهتمام، وهذا نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾(١) وغيره، وحكى الطبري أن رجفة قوم شعيب كانت صيحة أرجفتهم في هذا مع ثمود.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

شبه تبارك وتعالىٰ الكفار في عبادتهم الأصنام وبنائهم جميع أُمورهم على ذلك بالعنكبوت التي تبني وتجتهد، وأَمرها كله ضعيف متى مسَّته أَدنى هامة أَو دهمته، وكذلك أَمر أُولئك وسعيهم مضمحلٌ لا قوة له ولا معتمد، ومن حديث ذكره النقاش: «العنكبوت شيطان مسخه الله تعالىٰ فاقتلوه»(٢)، ورُوي عن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال: «طهِّروا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن تركه يورث الفقر»، وقوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أَي: يعلمون أَن هذا مثلهم، وأَن حالهم ونسبتهم من الحقِّ هذه الحالة(٣).

---

(١) من الآية (٥) من سورة (الفاتحة). والواضح أن التقديم في آية الفاتحة للتخصيص، فيكون المعنى: نخصك وحدك بالعبادة.

(٢) أخرجه أبو داود في مراسليه عن يزيد بن مرثد بلفظ «العنكبوت شيطان مسخها الله فمن وجدها فليقتلها»، (فتح القدير، والدرّ المنثور).

(٣) يرى الزمخشري أن الغرض من التشبيه هو تشبيه المتَّخَذ بالبيت، لا تشبيه المتَّخِذ بالعنكبوت، وعلَّق عليه أبو حيان بقوله: والذي يظهر هو تشبيه المتَّخِذ من دون اللهِ وَلِيّاً بالعنكبوت المُتَّخِذَة بيتاً، أي: فلا اعتماد للمتَّخِذ على وليِّه من دون الله، كما أن العنكبوت لا اعتماد لها على بيتها في استظلال وسُكنى، بل لو دخلت فيه خرقته، وقال الفراءُ: هو مثل ضربه الله لمن اتَّخَذَ من دونه آلهةً لا تنفعه ولا تضره، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرّاً ولا برداً، وقال: ولا يحسن الوقف على [العنكبوت]؛ لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيءٍ شُبِّهَت الآلهة التي لا تنفع ولا تضر به، وجوَّز الأخفش الوقوف على [العنكبوت]، وغلّطه ابن الأنباري، قال: «لأن [اتَّخَذَتْ] صلة لـ [العَنْكَبُوتِ]، كأنه قال: كمثل العنكبوت التي اتخذت بيتاً، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول». والعنكبوت تقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، وتُجمع على عناكب وعنكبوتات، وهي الدويبة الصغيرة التي تنسج نسيجاً رقيقاً، وقد يقال لها عَنْكَبَات، ومنه قول الشاعر:

كَأَنَّمَا يَسْقُطُ مِنْ لُغَامِهَا ... بَيْتُ عَنْكَبَاتٍ عَلَى زِمَامِهَا

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾. قرأ أَبو عمرو، وسلام: [يعلم ما] بالإدغام، وقرأ عامة القراءِ بالفكِّ، وقرأ الجمهور: [تَدْعُونَ] بالتاءِ من فوق، وقرأ أبو عمرو، وعاصم ـ بخلاف ـ [يَدْعُونَ] بالياءِ من تحت على الغيبة. فأَمَّا موضع [ما] من الإعراب، فقيل: معناه أَن الله يعلم الذين يدعون من دونه من جميع الأَشياءِ أَن حالهم هذه، وأَنَّهم أَمْرٌ لا قَدْر له، وقيل: قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ إخبارٌ تامٌّ، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ متصل به، واعترض بين الكلامين ﴿مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾، وذلك على هذا النحو من النظر، ويحتمل معنيين: أَحدهما أَن تكون [ما] نافية، أَي: لستم تدعون شيئاً له بال ولا قَدْر، فيصلح أَن يُسَمَّى شيئاً، وفي هذا تعليق [يَعْلَمُ]، وفيه نظر، والثاني أَن تكون [ما] استفهاماً، كأَنه قرَّر ـ على جهة التوبيخ ـ على هذا المعبود من جميع الأَشياءِ ما هو إِذْ لم يكن الله تعالىٰ، أَي: ليس لهم ـ على هذا التقدير ـ مقنع إليه، فـ [مِنْ] على القول الأَول والثالث للتبعيض المجرد، وعلى القول الوسط هي زائدة في الجحد، ومعناها التأْكيد، وقال أبو علي: [ما] استفهام نصب بـ [يَدْعُونَ]، ولا يجوز نصبها بـ [يَعْلَمُ]، والجملة التي هي منها في موضع نصب بـ [يَعْلَمُ]، والتقدير: إِن الله تعالىٰ يعلم أَوثاناً تدعون من دونه أَو غيرها لا يخفى ذلك عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾ إشارة إلى هذا المثل ونحوه، و[نَضْرِبُهَا] مأْخوذ من الضَّرْب، أَي النوع، كما تقول: «هذان من ضَرْب واحد»، «وهذا ضَرْبُ هذا» أَي قرينه وشبيهه، فكأَن «ضَرْب الْمَثَل» هو أَن تجعل الأَمر المُمَثَّل ضريب. وباقي الآية بيِّن.

وقال جابر: قال النبي ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾: «العاقِلُ من عَقل عن الله تعالىٰ، وعمل بطاعته، وانتهى عن معصيته».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

نَبَّه في ذِكْر خلْق السموات والأَرض على أَمر يُوقع الذِّهن على صِغَر قدر الأَوثانِ

وكُلِّ معبود من دون الله تعالىٰ، وقوله سبحانه: [بِالْحَقِّ] أي: بالواجب النَّيِّر، لا للعبث واللعب، بل ليدلَّ على سلطانه، ويثبت شرائعه، ويضع الدلائل لأَهلها، ويعم المنافع، إلى غير ذلك مما لا يُحصى عدًّا.

ثم أَمر الله تبارك وتعالىٰ نبيَّه ﷺ بالخضوع لأَمره، وتلاوة القرآن الذي أُوحي إِليه، وإِقامة الصلاة، أَيْ إِدامتها والقيام بحدودها. ثم أَخبر ـ حُكْماً مِنه ـ أَن الصلاة تنهى عن الفحشاءِ والمنكر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك عندي بأَن المصلِّي إِذا كان على الواجب من الخشوع والإِخبات وذِكْر الله تعالىٰ وتوهُّم الوقوف بين يديه، وأَن قلبه وإِخلاصه مطَّلَع عليه مرقوب، صلحت لذلك نفسه وتذلَّلت، وخامرها ارتقاب الله تبارك وتعالىٰ، فاطَّردت لذلك في أَقواله وأَفعاله وانتهى عن الفحشاءِ والمنكر، ولا يكادُ يَفْتُر من ذلك حتى تُظَلِّلَهُ صلاة أُخرى يَرْجِع بها إِلى أَفضل حالة، وهذا معنى هذا الإِخبار؛ لأَن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أَن تكون. ورُوي عن بعض السَّلف أَنه كان إِذا قام إِلى الصلاة ارْتَعد واصْفَرَّ لونه، فكُلِّم في ذلك فقال: إِنِّي واقف بين يدي الله تبارك وتعالىٰ، وحق لي هذا مع ملوك الدُّنيا، فكيف مع مِلك الملوك؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذه صلاةٌ تَنْهى ـ ولا بُدَّ ـ عن الفحشاءِ والمنكر، ومن كانت صلاته دائرة حول الإِجْزاءِ، لا خشوع فيها ولا تذكُّر ولا فضائل، فذلك يتركُ صاحبَها من منزلته حيث كان، فإِن كان على طريقةِ معاصٍ تبعده عن الله تعالىٰ تمادى على بُعده، وعلى هذا يُخَرَّج الحديث عن ابن عباس، وابن مسعود، والحسن، والأَعمش، وهو قولهم: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاءِ والمنكر لم يزْدَدْ من الله إِلاَّ بُعْداً»[1]، وقد روي أَن الحسن

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ من طريق ليث بن أبي سُلَيْم ـ وقد أخرجه الطبري من رواية ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ موقوفاً عليه، ومن رواية ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ موقوفاً عليه، قال ابن كثير، «والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود، وابن عباس، والحسن وقتادة، والأعمش، وغيرهم»، ولكن الحديث ضعيف السند في المرفوع من أجل ليث بن أبي سُلَيْم، وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى تضعيف متن الحديث في فتاويه، وهو ما ذكره=

أَرسله عن النبي ﷺ، وذلك غير صحيح السَّند، سمعتُ أَبي رضي الله عنه يقول: فإِذا قدرناه، ونظرنا معناه فغير جائز أَن يقول: إِن نفس صلاة العاصي تبعده من الله تعالىٰ حتَّى كأَنها معصية، وإِنما يتخرج ذلك على أَنها لا تؤثر في تقريبه من الله تعالىٰ، بل تتركه في حاله ومعاصيه من الفحشاءِ والمنكرِ والبُعْدِ، فلم تزدهُ الصلاةُ إِلاَّ تقرير ذلك البُعْد الذي كان سبيله، فكأَنها بَعَّدَتْهُ حين لم تَكُفَّ بُعْدَهُ عن الله تعالىٰ. وقيل لابن مسعود رضي الله عنه: إن فلاناً كثير الصلاة، فقال: إِنها لا تنفع إِلاَّ من أَطاعها. وقرأَ الربيع بن أَنس: [إِن الصلاة تأْمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاءِ والمنكر]. وقال ابن عُمر رضي الله عنهما: الصلاة ـ هنا ـ القرآن، وقال حمَّاد ابن أَبي سليمان، وابن جريج، والكلبي: إِن الصلاة تنهى ما دمتَ فيها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه عجمة، وأَين هذا مما رواه أَنس بن مالك؟ قال: كان فتًى من الأَنصار يصلي مع النبي ﷺ، ولا يدع شيئاً من الفواحش والسرقة إِلاَّ ركبه، فقيل ذلك للنبي ﷺ، فقال: «إِنَّ صلاته ستنهاهُ»، فلم يلبث أَن تاب وصلحت حاله، فقال رسول الله ﷺ: «أَلم أَقُلْ لَكُمْ»؟

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، قال ابن عباس، وأَبو الدرداءِ، وسلمان، وابن مسعود، وأَبو قرة رضي الله عن الصحابة أَجمعين: معناه: ولذِكْرُ الله إِياكم أَكبر من ذكركم إِيَّاه[1]، وقيل: معناه: ولذكْرُ الله أَكبر مع المداومة على الصلاة في النهي عن الفحشاءِ والمنكر، وقال ابن زيد، وقتادة: لذِكْرُ الله أَكبر من كل شيءٍ، وقيل لسلمان: أَيُّ الأَعمال أَفضل؟ فقال: أَما تقرأُ القرآن: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، كأَنه يحضُّ عليه في هذين التأْويلين الأَخيرين.

= ابن عطية هنا عن والده، وهو تحليل دقيق فاهم، وقد نقله عنه القرطبي. وانتهى العلماءُ إلى أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتزيد الإنسان قرباً من الله إذا كانت على وجهها، والدليل على ذلك الحديث الذي رواه أنس بن مالك وذكره ابن عطية بعد ذلك.

(١) اختار الطبري هذا القول، وروى مرفوعاً من حديث موسى بن عُقبة عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾: «ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه»، وبهذا القول قال سعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد. وذكر السيوطي الحديث في الدر المنثور من رواية ابن السُّنِّي، وابن مردويه، والديلمي، وقال ابن كثير: «رُوي هذا من غير وجه عن ابن عباس، وروي أيضاً عن ابن مسعود، وأبي الدرداء، وسلمان الفارسي، وغيرهم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعندي أن المعنى: ولذِكْرُ الله أكبر على الإطلاق، أي: هو الذي ينهى عن الفحشاءِ والمنكر، فالجزءُ الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل في غير الصلاة؛ لأن الانتهاءَ لا يكون إلا من ذاكرِ اللهَ مراقبٍ له، وثواب ذلك الذِّكر أن يذكره الله تعالىٰ، كما في الحديث: «مَنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، ومن ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خير منهم»[1]. والحركات التي في الصلاة لا تأثير لها في نَهْي، والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرغه إلاَّ من الله تعالىٰ، وأمَّا ما لا يتجاوز اللِّسان ففي رتبة أُخرى، وذكْرُ الله تعالىٰ للعبد هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه، وذلك ثمرة لذكر العبد ربَّه. قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[2]، وباقي الآية ضربٌ من التَّوعُّد والحث على المراقبة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

قرأ الجمهور: (إلاَّ) على الاستثناءِ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: [أَلَا] بفتح الهمزة وتخفيف اللام، واختلف المفسرون في المراد بهذه الآية.

فقال ابن زيد: معناها: لا تجادلوا من آمن بمحمد ﷺ من أَهل الكتاب[3]، فكأَنه قال: «أهلَ الكتاب المؤمنين»، ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي بالموافقة فيما حدَّثوكم به من أَخبار أَوائلكم، وغير ذلك، وقوله تعالىٰ ـ على هذا التأْويل ـ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يريد به من بقي على كفره منهم، كمن كفر وغدر من بني قريظة والنضير وغيرهم، فالآية ـ على هذا ـ مُحكمة غير منسوخة.

---

(١) أخرجه مسلم في الذكْر، والبخاري في التوحيد، والترمذي في الدعوات، وابن ماجه في الأدب، وأحمد في مسنده في أماكن كثيرة، ولفظه كما في مسلم: «عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله عزَّ وجلَّ: أنا عِند ظَنِّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم، وإن تقرَّب منِّي شبراً تقرَّبتُ إليه ذراعاً، وإن تقرَّب إليَّ ذراعاً تقرَّبت منه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيتهُ هرولة».

(٢) من الآية (١٥٢) من سورة (البقرة).

(٣) كعبد الله بن سلام ومن آمن معه.

وقال مجاهد: المراد بأَهل الكتاب اليهود والنصارى والباقون على دينهم. أَمر الله تعالىٰ المؤمنين أَلاَّ يجادلوهم إِلاَّ بالأَحسن: من الدعاءِ إِلى الله تعالىٰ، والتنبيه على آياته؛ رجاءَ إِجابتهم إِلى الإِيمان، لا على طريق الإِغلاظ والمخاشنة، وقوله ـ على هذا التأْويل ـ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ معناه: ظَلَموكم، وإِلاَّ فكُلُّهم ظَلَمة على الإِطلاق، فيُرَادُ به مَنْ لم يُؤَدِّ جزْية، ونَصَب الحرب، ومَن قال وصرَّح بأَنَّ للهِ ولداً، أَو لَهُ شريك، أَوْ يَدُهُ مغلولة، فالآية ـ على هذا ـ منسوخة في مهادنة من لم يحارب، قال قتادة: هي منسوخة بقول الله تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[١] الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي يتوجَّه في معنى الآية إِنما يتَّضح في معرفة الحال في وقت نزول الآية، وذلك أَن السُّورة مكِّيَّة من بعد الآيات العشر الأُول، ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض، ولا طلب جزْية ولا غير ذلك، وكانت اليهود بمكَّة وفيما جاورها، فربما وقع بينهم وبين المؤمنين جدالٌ واحتجاجٌ في أَمر الدين وتكذيب، فأَمر الله تعالىٰ المؤمنين أَلاَّ يجادلوهم بالمحاجَّة إِلاَّ بالحسنى دعاءً إِلى الله تعالىٰ ومُلاينة، ثم استثنى مَن ظلم منهم المؤمنين، إِمَّا بفعل وإِمَّا بقول، وإِمَّا بإِذاية محمد ﷺ، وإِمَّا بإِعلان كفر فاحش، كقول بعضهم: عُزَيْر ابن الله، ونحو هذا، فإِن هذه الصِّفة اسْتُثْنِيَ لأَهل الإِسلام معارضتها بالخروج معها عن التي هي أَحسن، ثم نُسخ هذا بعْدُ بآية القتال والجزية. وهذا قول قتادة.

قوله تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ الآية. قال أَبو هريرة: كان أَهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، فيفسرونها بالعربية للمسلمين، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُصدِّقوا أَهل الكتاب ولا تكذِّبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[٢]. وروى عبد الله بن مسعود أَن النبي ﷺ قال: «لاَ تَسأَلوا أَهل

---

(١) من الآية (٢٩) من سورة (التوبة).

(٢) أخرجه البخاري، ، النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، (الدر المنثور)، ، في تفسير ابن كثير بعد أن نقل رواية البخاري للحديث: «وهذا الحديث تفرد به البخاري».

الكتاب عن شيءٍ فإنهم لن يهدوكم وقد ضَلُّوا، إمَّا أن تُكَذِّبوا بحق وإمَّا أن تُصَدِّقوا بباطل»(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

تقدم القول في الآية التي قبل هذه ما يتضمَّن نزول شرع وكتاب من الله تعالىٰ على أَنبيائه قبل محمد ﷺ، فحسُن لذلك عطف ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ على ما في الضمن، أَي: وكإنزالنا على من تقدَّمك كذلك أنزلنا إليك الكتاب، و[ٱلْكِتَاب]: القرآن.

وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد التوراة والإنجيل، أَيْ: فالذين كانوا في عصر نزول الكتاب وأُوتوه حينئذ يؤمنون به، أَي: كانوا مصدقين بهذا الْكتاب الذي أنزلناه إليك، فالضمير في [بِهِ] عائد على القرآن. ثمَّ أَخبر عن معاصري محمد ﷺ أن منهم من يؤمن به. ولم يكونوا آمنوا بعد، ففي هذا الإخبارُ بِغَيْب بيَّنه الوجود بعد ذلك، ثمَّ أَنْحَى على الجاحدين مِن أُمَّة قد آمن سلفُها في القديم وبعضها في الحديث، وحصل الجاحدون منهم في أَحسن رُتبة من الضلال، ويُشبه أَن يُراد أَيضاً في هذا الإنحاءِ كفَّار قريش مع كفَّار بني إسرائيل.

ثمَّ بيَّن تعالىٰ الحُجَّة على المُبْطلين المرتابين، وأَوضح أَنَّ مِمَّا يُقوِّي نزول هذا القرآن من عند الله تبارك وتعالىٰ أَنَّ محمداً ﷺ جاءَ به في غاية الإِعْجازِ والطول

---

(١) أخرجه ابن جرير عن عبد الله، قال ابن كثير: «وهو ابن مسعود» ـ وفي آخره زيادة على ما هنا: «فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال». وفي الدر المنثور: أخرجه عبد الرزاق وابن جرير عن ابن مسعود موقوفاً، وزاد في آخره على ما هنا: «فإن كنتم سائليهم لا محالة فانظروا ما واطأ كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه». وأخرج البيهقي في سننه وفي الشعب، والديلمي، وأبو نصر السجزي في الإبانة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه حديثاً بنفس اللفظ الذي ذكره ابن عطية هنا، ،زاد في آخره: «والله لو كان موسى حيّاً بين أَظْهُرِكُم ما حَلَّ له إلا أن يتبعني»، قال ذلك الإمام السيوطي في الدُّرّ المنثور.

والتضمُّن للغيوب وغير ذلك، وهو أُمِّيٌّ لا يقرأُ ولا يكتب، ولا يتلو كتاباً، ولا يخُط حرفاً، ولا سبيل له إلى التَّعلُّم، فإنه لو كان ممَّن يقرأُ لارتاب المُبطلون، ولكان لهم في ارتيابهم تعلُّق، وأَما ارتيابهم مع وضوح هذه الحُجَّة فظاهرٌ فساده. قال مجاهد: كان أَهل الكتاب يجدون في كتبهم أَنَّ محمداً ﷺ لا يخط ولا يقرأُ كتاباً فنزلت هذه الآية، وذكر النقاش في تفسير هذه الآية عن الشعبي أنه قال: «ما مات النبيُّ ﷺ حتَّى كتَب»، وأَسند أَيضاً حديثاً لأَبي كَبْشَة السَّلُولي، مُضمَّنه أنه عليه الصلاة والسلام قرأَ صحيفة لِعُيَيْنَة بن حصن، وأَخبر بمعناها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله ضعيف. وقول الباجِيِّ رحمه الله منه[(١)].

وقوله تعالىٰ: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾ إِضرابٌ عن مُقَدَّر من الكلام يقتضي ما تقدَّم، كأَنه قال: «ليس الأَمر كما حسبوا، بل هو...»، وهذا الضمير يحتمل أَن يعود على القرآن، ويؤيده أَن في قراءَة ابن مسعود: [بَلْ هِيَ آيَاتٌ]، ويحتمل أَن يعود على محمد ﷺ، ويؤيده قراءَة من قرأَ: «بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ» على الإِفراد[(٢)]، وقال: المراد النبي ﷺ، ويحتمل أَن يعود على أَمر محمد ﷺ أَنه لم يَتْلُ ولا خَطَّ، وبكلٍّ احتمال قالت فرقة، وكون هذا كله آيات ـ أَي علامات في صدور العلماءِ من المؤمنين في أَمر محمد ﷺ ـ يراد به مع النظر والاعتبار.

و[ٱلظَّالِمُونَ] و[ٱلْمُبْطِلُونَ] قيل: يعم لفظهما كلَّ مكذِّب بمحمد ﷺ، ولكن معظم

---

(١) قال القاضي أبو الوليد الباجي ما خلاصته أن النبيَّ ﷺ كتب يوم الحديبية، واستند في ذلك إلى ما وقع في صحيح مسلم من حديث البراءِ في صلح الحديبية أن النبي ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: «اكتب الشرط بيننا، بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فقال له المشركون: لو نعلم أَنَّك رسولُ الله بايعناك ـ وفي رواية تابعناك ـ ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فأمر علياً أن يمحوها، فقال عليٌّ: والله لا أَمْحَاهُ، فقال رسول الله ﷺ: «أَرني مكانها»، فأراه فمحاها وكتب: ابن عبد الله. وقد رواه البخاري بأظهر من هذا، فقال: «فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب». فقال جماعة منهم الباجي، وأبو ذرٍّ (عبد الله بن أحمد الهروي)، والسمناني (أبو عمرو الفلسطيني)، قالوا بجواز هذا الظاهر، وأنه ﷺ كتب بيده، واشتد نكير الفقهاء في المشرق والمغرب على قول الباجي هذا، وإليه يشير ابن عطية.

(٢) قال العلماءُ: ويؤيده أيضاً قراءة ابن مسعود وابن السميفع: «بَلْ هَذا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ»، وكان ﷺ آيات لا آية واحدة.

الإشارة بهما إلى قريش لأنهم الأهم، قاله مجاهد. وقال قتادة: [ٱلْمُبْطِلُونَ]: اليهود.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

الضمير في [قَالُوا] لقريش ولبعض اليهود؛ لأَنهم كانوا يُعَلِّمون قريشاً هذه الحُجَّة: لم يَأْتِكُم بمثل ما جاءَ به موسى من العصا وغيرها. وقرأَ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم، وعلي بن نصر عن أَبي عمرو: [آية من ربه]، وقرأَ نافع، وابن عامر، وأَبو عمرو، وحفص عن عاصم: (آيَاتٌ)، فأَمر الله تعالىٰ نبيَّه عليه الصلاة والسلام أَن يعلِّمهم أَن هذا الأَمر بيد الله تبارك وتعالىٰ لا يستنزله الاقتراح والتمنِّي، وأَنه بُعث نذيراً، ولم يؤمر بغير ذلك. وفي مصحف أُبَي: [لو ما يأْتينا بآيات من ربه قل إِنما الآيات].

ثم احتج عليهم في طلبهم آية بأَمر القرآن الذي هو أَعظم الآيات، ومعجزٌ للجن والإِنس، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾، ثم قرَّر ما فيه من الرحمة والذكرى للمؤمنين، فقوله: ﴿أو لم يكفهم﴾ جواب لمن قال: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ ﴾.

وحكى الطبري أَن هذه الآية نزلت بسبب قوم من المؤمنين أَتَوْا النبي ﷺ بكُتُب قد كتبوا فيها بعض ما يقول اليهود الذين أَخبروهم بشيءٍ من التوراة، فأَنكر رسول الله ﷺ ذلك، قال: «كفى بهذا ضلالة، قوم رغبوا عمَّا أَتاهم به نبيُّهم إلى ما أَتى به غيره»، ونزلت الآية بسببه[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والتأْويل الأَول أَجرى مع نسق الآيات.

---

(١) رواه الطبري، من طريق يحيى بن جعدة، قال الحافظ ابن حجر في التقريب عن جَعْدة: «ثقة»، وزاد الإمام السيوطي في «الدر المنثور» من رواية الإسماعيلي في معجمه، وابن مردويه من طريق يحيى بن جعدة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ثمَّ أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالاستناد إلى أَمر الله تبارك وتعالىٰ، وأَن يجعله حسبه شهيداً وحاكماً بينه وبينهم بعلمه وتحصيله جميع أُمورهم، وقوله: [بِالْبَاطِلِ] يريد: بالأَصنام والأَوثان وما يتبع أَمرها من المعتقدات[١]، والباطل هو أَن يُفعل فعل يُراد به أَمر مَّا، وذلك الأَمر لا يكون عن ذلك الفعل، والأَصنام أُريد بأَمرها الأَكملُ والأَنجحُ في زعم عُبَّادها، وليس الأَكمل والأَرجح إِلاَّ رفضُهَا، فهي إِذاً باطلٌ، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ يريد كُفَّار قريش في قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾[٢] وغير ذلك من استعجالهم ـ على جهة التعجيز والتكذيب ـ بعذاب الله تعالىٰ الذي توعدهم محمد ﷺ. ثمَّ أَخبر تعالىٰ أَنه يأْتيهم بغتة، أَي: فجأَة، وهذا هو عذاب الدنيا، وهو الذي ظهر يوم بدر، وفي السنين السبع. ثمَّ ذكر تعالىٰ أَن تأَخُّره إِنما هو بحسب الأَجل المقدور السابق. وذكر المفسرون عن الضحاك أَن الأَجل المسمَّى بهذه الآيات الآجالُ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف يردُّه النظر، والآجال لا محالة أَجلٌ مُسَمًّى، ولكن ليس هذا موضعها.

ثمَّ توعدهم تبارك وتعالىٰ بَعْدُ بعذاب الآخرة في قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾، كرَّر فِعْلَهم وقَبَّحه، وأَخبر أَن وراءَهم إِحاطة جهنم بهم. وقال عكرمة ـ فيما حكى الطبري ـ أَن جهنم ها هنا أَراد بها الْبَحْر.

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: الباطل: غيْرُ الله، وقال مقاتل: ﴿بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا﴾ أي: بعبادة الشيطان، وقال يحيى بن سلام: بإبليس. والمعروف في اللغة أن الباطل هو نقيض الحق، وأنه يجمع ـ على غير قياس ـ على أباطيل، وقال أبو حاتم: يُجْمع بَوَاطل.

(٢) تكررت في الآيات: (٧٠، ٧٧) من سورة (الأعراف)، (٣٢) من سورة (هود)، (٢٢) من سورة (الأحقاف)، ولكنها كانت من أقوام عاد وثمود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ﴾ ظرفٌ يعمل فيه قوله: [مُحِيطٌ]. و[يَغْشَاهُمُ] معناه: يغطِّيهم من كل جهة من جهاتهم. وقرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي: (وَيَقُولُ)، أي: ويقول الله. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: [وَنَقُولُ] بالنون، فإمَّا أن تكون نون العظمة، أو نون الجماعة، جماعة الملائكة. وقرأ ابن مسعود: [وَيُقَالُ] بياءٍ وألِف، وهي قراءَةُ ابن أبي عبلة.

وقوله تعالىٰ: [ذُوقُوا] توبيخٌ، ويُشَبَّه مسُّ العذاب بالذَّوق ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[1]، ومنه قول أبي سفيان: «ذُقْ عَقَق»، ونحو هذا كثير، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: بما في أعمالكم من اكتسابكم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ۝٥٦ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾.

هذه الآياتُ نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة، فأخبرهم تعالىٰ بِسَعَةِ أَرضه، وأن البقاءَ في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب، بل الصواب أن تُلْتمس عبادة الله تعالىٰ في أَرضه. وقال ابن جبير، وعطاء، ومجاهد: إن الأَرض التي فيها الظلم والمنكر تترتب فيها هذه الآية، وتلزم الهجرة عنها إلى بلدٍ حقٍّ، وقاله مالك، وقال مُطَرِّف بن الشِّخِّير[2]: قوله: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ﴾ عدةٌ بِسَعة الرزق في جميع الأَرض.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر: [يَا عِبَادِيَ] بفتح الياءِ، وقرأ أَبو

---

(١) من الآية (٤٩) من سورة (الدخان).

(٢) مُطَرِّفُ بن عبد الله بن الشِّخِّير، العامري، الحَرَشِيُّ، أبو عبد الله البصري، قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: ثقةٌ عَابدٌ فاضلٌ من الثانية، مات سنة خمس وسبعين.

عمرو، وحمزة، والكسائي بسكونها، وكذلك قرأ نافع وعاصم: (أَرْضِي) ساكنةً.
وقوله تعالىٰ: [فَإِيَّايَ] منصوب بفعل مقدَّر يدلُّ عليه الظاهر، تقديره: «فَإِيَّايَ اعبدوا فاعبدون»[1]، على الاهتمام أيضاً في التقدير.

وقوله تعالىٰ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ الآية، تحقير لأَمر الدنيا ومخاوفها، كأَن بعض المؤمنين نظر في عاقبة ما يلحقه في خروجه من وطنه أنه يموت أَو يجوع ونحو هذا، فحقَّر الله تعالىٰ شأن الدنيا، أَي: أَنتم لا محالة ميتون ومحشورون إِلى الله تبارك وتعالىٰ، فالبدار إِلى طاعة الله تعالىٰ والهجرة إِليه أَوْلى ما يمتثل.

وقرأَ الجمهور: [تُرْجَعُونَ] بالتاءِ من فوق، ورويت عن عاصم بالياءِ من تحت، وذكرها أَبو حاتم عن أَبي عمرو، وقرأَ أَبو حيوة: [كل نفس ذائقةٌ] بالتنوين [ٱلْمَوْتَ] بالنصب.

ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنَّة تحريضاً منه تعالىٰ، وذكر الجزاءَ الذي ينالونه، وقرأَ جمهور القراءِ: (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ) بالباءِ، أَي: لَنُنْزِلَنَّهُم ولَنُمَكِّنَنَّهُم ليدوموا فيها، و[غُرَفاً] مفعول ثان؛ لأَنه فعل يتعدى إِلى مفعولين. وقرأَ حمزة: [لَنُثْوِيَنَّهُمْ]، من أَثْوى يُثْوي، وهو مُعَدَّى ثَوَى بمعنى أَقام، وهي قراءَة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وابن مسعود، والربيع بن خُثَيْم[2]، وابن وثاب، وطلحة، وقرأَها بعضهم بفتح الثاءِ وتشديد الواو مُعَدّى بالتضعيف لا بالهمزة. وقوله: [غُرَفاً] نصب بإِسقاط حرف الجرِّ، والتقدير: في غُرف. وقرأَ يعقوب: [لَنُبَوِّيَنَّهُم] بالياءِ من تحت، وروي عن ابن عامر: [غُرُفاً] بضم الغين والراءِ.

ثم وصفهم تعالىٰ بالصبر والتوكُّل، وهاتان جماعُ الخير كلِّه، أَي: الصبر على الطاعات، وعن الشهوات.

---

(١) هو من باب الاشتغال، وعلى ذلك فالتقدير: فاعبدوا إِيَّايَ فاعبدون.

(٢) الرَّبيع بن خُثَيْم، قال في التقريب: «بضم المعجمة وفتح المثلثة، ابن عائذ بن عبد الله الثوري، أبو يزيد الكوفي، ثقة عابد مخضرم، من الثانية، قال له ابن مسعود: لو رآك رسول الله ﷺ لأحبّك، مات سنة إحدى وستين، وقيل: ثلاث وستين»، وفي الخلاصة ضبطه (خَيْثَم) بفتح الخاءِ والثاءِ، وسكون الياءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

[كَأَيِّنْ] بمعنى (كَمْ)، وهذه الآية تحريض على الهجرة؛ لأَن بعض المؤمنين فكَّر في الفقر والجوع الذي يلحقه في الهجرة، وقالوا: غربة في بلد لا دار لنا فيه ولا عقار ولا من يطعم، فمثَّل لهم بأَكثر الدواب التي تتقوت ولا تدَّخر ولا تَرَوَّى في رزقها، والمعنى: فهو يرزقكم أَنتم، ففضِّلوا طاعة الله تعالىٰ على كل شيءٍ. وقوله تعالىٰ: [لاَ تَحْمِلُ] يجوز أَن يريد: من الحَمْل، أَي: لا تنقل ولا تنظر في ادخاره، قاله أَبو مجلز، ومجاهد، وعلي بن الأَقمر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والادخار ليس من خلق الموقنين، وقد قال رسول الله ﷺ لابن عمر رضي الله عنهما: «كيف بك إِذا بقيتَ في حُثالة من الناس يخبئون رزق سنة بضعف اليقين»[(١)]، ويجوز أَن يريد من الحمالة، أَي: لا تتكفَّل برزقها ولا تَرَوَّى فيه[(٢)].

ثمَّ خاطب تعالىٰ نبيَّه ﷺ في أَمر الكفَّار وإِقامة الحُجَّة عليهم بأَنهم إِن سأَلوا عن الأُمور العظام التي هي دلائل القدرة لم يكن لهم إِلاَّ التسليم بأَنها لله تعالىٰ، و[يُؤْفَكُونَ] معناه: يصرفون، ونبَّه تبارك وتعالىٰ على خلْق السموات والأَرض وتسخير الكواكب،

---

(١) أسند الواحدي عن عطاءٍ، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار، فجعل يلتقط من الثمار ويأكل، فقال: «يابن عمر، مالك لا تأكل»؟ فقلت: لا أشتهيه يا رسول الله، فقال: «لكني أشتهيه، وهذه صبيحة رابعة لم أذق طعاماً، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر، فكيف بك يابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم بضعف اليقين»؟ قال: والله ما برحنا حتَّى نزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وقد علَّق عليه الشوكاني بقوله: وهذا الحديث فيه نكارة شديدة لمخالفته لما كان عليه النبي ﷺ، فقد كان يعطي نساءَه قوت العام كما ثبت في كتب الحديث المعتبرة وفي إسناده أبو العطوف الجوزي، وهو ضعيف».

(٢) لا تفكر في الأمر ولا تنظر فيه.

وذكر عظمها، ونبَّه تعالىٰ على بسط الرِّزق وقَدْره لقوم، وإنزال المطر من السماءِ، وهذه عِبَرٌ كثيرة لمن تأمَّل بالنجاة والمعتقد الأقوم، ثمَّ أمر تعالىٰ نبيَّه محمداً ﷺ بحمده على جهة التوبيخ لعقولهم، وحَكَم عليهم بأَن أكثرهم لا يعقلون ولا يبدو منهم نظر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

وصف الله تعالىٰ الدُّنيا في هذه الآية بأَنها لهوٌ ولعب، أَي: ما كان منها لغير وجه الله تعالىٰ؛ فإِن ما كان لله تعالىٰ فهو من الآخرة، وأَمَّا أُمور الدُّنيا التي هي زائدة على الضروري الذي به قوام العيش والقوة على الطاعات فإِنما هو لهوٌ ولعب، وتأَمل ذلك في الملابس والمطاعم والمشارب والأَقوال وغير ذلك.

وانظر إِلى حاجة الغني والفقير في الأُمور الضرورية فإِنها واحدة، كالتَّنَفُّس في الهواءِ، وسدِّ الجوع، وستر العورة، وتوقِّي الحر والبرد، وهذه كلها عظم أَمر العيش.

و[ٱلْحَيَوَان] والحياةُ بمعنى، وهو عند سيبويه والخليل مصدر كالهيمان ونحوه(١)، والمعنى: لا موت فيها، قاله مجاهد، وهو حسن. وأَصله: حَيَيان، فأُبدلت إِحداهما واواً لاجتماع المثلين.

ثم وقفهم تعالىٰ على حالهم في البحر عند الخوف العظيم، فإِن كل بشرٍ يَنْسَى كل صنم وغيره، ويتمسَّك بالدعاءِ والرغبة إِلى الله تبارك وتعالىٰ، وقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أَي: يرجعون إِلى ذكر أَصنامهم وتعظيمها، وقوله: [لِيَكْفُرُوا] نصب بلام كيْ. وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: (وَلِيَتَمَتَّعُوا) بكسر اللام، وقرأَ ابن كثير، وحمزة، والكسائي: [وَلْتَتَمَتَّعُوا] بسكون اللام على صيغة الأَمر التي هي للوعيد والتهديد، والواو ـ على هذا ـ عاطفةٌ جملةَ كلام لا عاطفةٌ فعلاً على فعل، وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب: [فتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ]، وفي قراءَة ابن مسعود: «فَلَسَوْفَ» باللاَّم.

---

(١) هو مصدر يدل على الحركة والاضطراب كالغليان والنزوان والجولان، وكل حَيٍّ كثير الحركة.

ثمَّ عدَّد تعالىٰ على كفرة قريش نعمته عليهم في الحرم في أنه جعله لهم آمناً لا خوف فيه من أَحوال العرب وعاداتهم وسوءِ أَفعالهم، من القتل وأَخذ الأَموال ونحوه، وذلك هو «التَّخَطُّف» الذي كان الناس بسبيله، ثم قررهم ـ على جهة التوبيخ ـ على إِيمانهم بالباطل وكفرهم بالله ونعمته. وقرأَ جمهور القراءِ: [يُؤْمِنُونَ] بالياءِ من تحت، وكذلك [يَكْفُرُونَ]، وقرأَهما بالتاءِ من فوق الحسنُ، وأَبو عبد الرحمن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

قررهم عزَّ وجلَّ على حال من افترى على الله كذباً أَو كذَّب بآياته، وهذه كانت حالهم، وأَعلمهم أَنه لا أَحد أَظلم منه، وهذا في ضمنه وعيدٌ شديد، ثم بيَّن الوعيد أَيضاً بالتقرير على أَمر جهنم، والمَثْوَى: موضع الإِقامة. وأَلفاظ هذه الآيات في غاية الاقتضاب والإِيجاز وجَمْع المعاني.

ثم ذكر تعالىٰ حال أَوليائه والمجاهدين فيه، وقرن ذلك بذكر الكفرة الظلمة لِيُبَيِّن تباين الحالين، وقوله تعالىٰ: [فِينَا] معناه: في مرضاتنا وبغية ثوابنا. قال السدي وغيره: نزلت هذه الآية قبل فرض القتال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهي قبل الجهاد العُرفي، وإِنما هو جهاد عام في دين الله تعالىٰ وطلبِ رضائه. وقال الحسن: الآية في العُبَّاد، وقال ابن عباس والحسن وإِبراهيم بن أَدهم: هي في الذين يعملون بما يعلمون، وقد قال النبي ﷺ: «من عَمِلَ بما عَلمَ عَلَّمه الله ما لم يَعْلَم»، ونزع بعض العلماءِ إِلى قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾(1)، وقال بعض العلماءِ لِعُمَرَ بن عبد العزيز رضي الله عنه: «إِنما قصَّر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرُنا في العمل بما علمنا»، وقال أَبو سليمان الداراني: «ليس الجهاد في هذه الآية قتالَ العدو فقط، بل هو نصرُ الدين، والرَّدُّ على المبطلين، وقَمْع الظالمين، وعُظْمُه الأَمْر بالمعروف والنَّهْي عن المنكر»، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله تعالىٰ، وهو

(1) من الآية (٢٨٢) من سورة (البقرة).

الجهاد الأكبر، قاله الحسن وغيره، وفيه حديث عن النبي ﷺ: «رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، وقال سفيان بن عُيَيْنَة لابن المبارك: «إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. وقال الضحاك: معنى الآية: والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينَّهم سبيل الثبوت على الإيمان»[١] و«السَّبيلُ» هنا يحتمل أن يكون طرق الجنَّة ومسالكها، ويحتمل أن يكون سبيل الأعمال المؤدية إلى الجنة والعقائد النَّيِّرة. وقال يوسف بن أسباط: «هي إصلاح النيَّة في الأعمال، وحبُّ التزيُّد والتَّفهم، وهذا هو أن يُجازى العبد على حُسْنه بازدياد حُسنه، ويُعَلَّم بجديد من عِلْم مقدم، وهي حالُ من رضي الله عنه». وباقي الآية وعْدٌ.

و[مَعَ] يحتمل أن تكون هنا اسماً؛ ولذلك دخلت عليها اللام للتأكيد، ويحتمل أن تكون حرفاً، ودخلت اللام لما فيها من معنى الاستقرار، كما دخلت في: إنَّ زيداً لفي الدار[٢].

كمل تفسير سورة العنكبوت والحمد لله ربِّ العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

* * *

---

(١) ولكلامه بقية أوردها القرطبي، وهي: «مثَلُ السُّنَّة في الدنيا كمثل الجنة في العُقْبى، من دخل الجنة في العقبى سلم، ومن لزم السُّنَّة في الدنيا سلم».

(٢) (مَعْ) إذا سكنت فهي حرف لا غير، وإذا فتحت جاز أن تكون اسماً وأن تكون حرفاً، والأكثر أن تكون حرفاً جاءَ لمعنى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة الرّوم

هذه السُورة مَكِّيَّة، لا خلاف أَحفظه في ذلك[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ
سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن
يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

تقدم القول في الحروف التي في أَوائل السُور بما فيه كفاية. وقرأَ الجمهور: [غُلِبَت] بضم الغين. وقالوا: معنى الآية أَنه طرأَ بمكة أَن الملك كسرى هزم جيش ملك الرُّوم، قال مجاهد: في الجزيرة، وهو موضع بين العراق والشَّام، وقال عكرمة: بأذرعات، وهي بين بلاد العرب والشام، وقال مقاتل: بفلسطين والأُردن، فلما طرأَ ذلك سُرَّ الكفَّار، فبشَّر الله تبارك وتعالىٰ عباده بأَن الرُّوم سيغلِبون في بضع سنين، وتكون الدولة لهم في الحرب.

وقرأَ أَبو سعيد الخدري، وعلي بن أَبي طالب رضي الله عنه، ومعاوية بن قرة، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: [غَلَبَت] بفتح الغين واللام، وتأْويل ذلك أَن الذي طرأَ يوم بدر إِنما كان أَن الرُّوم غَلَبَت، فعزَّ ذلك على الكفَّار من قريش، وسُرَّ المسلمون، فبشَّر الله تبارك وتعالىٰ عباده بأَنهم سيغلِبون أَيضاً في بضع سنين، ذَكَر هذا

---

(١) أخرج عبد الرزاق وأحمد ـ قال السيوطي: «بِسَنَدٍ حسن» ـ عن رجل من الصحابة أن رسول الله ﷺ صلَّى بهم الصُّبح، فقرأ فيها سورة الروم. وأخرج البزَّار عن الأَغَرّ المُزَنِيِّ مثله، وأخرج عبد الرزاق عن معمر عن عبد الملك بن عمير أن النبي ﷺ قرأ في الفجر يوم الجمعة بسورة الروم، وأخرج ابن الضرير، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، مِنْ طُرُقٍ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نزلت سورة الروم بمكة». (فتح القدير، والدر المنثور).

التأويل أَبو حاتم. والروايةُ الأُولى، والقراءَةُ بضم الغين أَصحُّ.

وأَجمع الناسُ على [سَيَغْلِبُونَ] أَنه بفتح الياءِ[١]، يراد به الروم، ورُوي عن ابن عمر رضي الله عنهما أَنه قرأَ أَيضاً: [سَيُغْلَبُونَ] بضم الياءِ، وفي هذه القراءَة قلب المعنى الذي تظاهرت به الروايات.

و﴿أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: أَقرب الأَرض، فإِن كانت الوقعة في أَذْرعات فهي من أَدنى الأَرض بالقياس إِلى مكة، وهي التي ذكرها امرؤُ القيس في قوله:

تَنَــوَّرْتُهَــا مِــنْ أَذْرِعَــاتٍ وأَهْلُهَــا ... بِيَثْرِبَ أَدْنَــى دارِهــا نَظَــرٌ عَــالِــيْ[٢]

وإِن كانت الوقعة بالجزيرة فهي أَدنى بالقياس إِلى أَرض كسرى، وإِن كانت بالأُردن فهي أَدنى إِلى أَرض الروم، قال أَبو حاتم، وقُرِىء ﴿أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾[٣]، وقرأَ جمهور الناس: ﴿غَلَبِهِمْ﴾ بفتح اللام، كما يقال: «احْلُبْ حَلَباً لَكَ شَطْرُه»[٤]، وقرأَ ابن عُمر رضي الله عنهما بسكونها، وهو مصدر أُضيف إِلى المفعول[٥].

ورُوي في قصص هذه الآية عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره أَن الكفار لما

---

(١) عقَّب أبو حيان على هذا بعد أن نَقَله بقوله: «وقوله: (أَجمعوا) ليس كذلك، ألا ترى أن الذين قرؤوا: [غَلَبَت] بفتح الغين هم الذين قرؤوا: [سَيُغْلَبُونَ] بضم الياءِ وفتح اللام ؟ وليست هذه مخصوصة بابن عمر رضي الله عنهما».

(٢) هو من قصيدته المشهورة التي قالها يتغزل ويصف مغامراته وصيده وسعيه إلى المجد، والتي قال في مطلعها:

أَلا عِـمْ صبـاحـاً أَيُّهَـا الطَّلَـلُ البَـالـي ... وهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كانَ في العُصُرِ الْخَالي ؟

(٣) هكذا في الأصول بدون ضبط، ولم نجد ضبطاً لها في كتب القراءات والتفسير، وإن كان أبو حيان قد ذكر في البحر أنها قراءة الكلبي.

(٤) هذا مثلٌ يضرب في الحثِّ على الطلب، والمساواة في المطلوب، قال ذلك ابن الأثير في «مجمع الأمثال»، وقال الزمخشري في «المستقصى في أمثال العرب»: معناه: اعمل عملاً لك بعضه. والشاهد فيه هنا هو فتح اللام في «حَلَباً».

(٥) قراءَة السكون هي أيضاً قراءة ابن السَّمَيفع وأبو حيوة، والفتح والسكون لغتان في المصدر، مثل: الظَّعْن والظَّعَن، وقد حكى الأصمعي: طرَدَ طرَداً، وجَلَبَ جَلَباً، وحَلَبَ حلَباً، وغَلَبَ غَلَباً، وفي ذلك ردٌّ على ما قاله الفرَّاءُ؛ إذ زعم أن الأصل: [مِنْ بَعْدِ غَلَبَتِهم]، فحذفت التاءُ كما حذفت في قوله تعالىٰ: ﴿وإقام الصلاة﴾، لأن أصله: إقامَةِ الصلاة. قال النحاس: وهذا غَلَط لا يَخِيلُ على أحد من النَّحويِّين؛ لأن ﴿إقام الصلاة﴾ مصدر قد حذف منه لاعتلال فعله، وجعلت التاءُ عِوضاً من المحذوف، أما (غَلَب ومثيلاتُها فليس بمعتل، ولم يحذف منه شيءٌ.

فرحوا بمكَّة بِغَلَب الروم، بشَّر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ والمؤمنين بأَن الرُّوم سيَغْلِبون في بضع سنين، أَي: من الثلاثة إلى التسعة، على مشهور قول اللغويين، كأَنه تبضيع العشرة، أَي: تقطيعها. وقال أَبو عبيدة: من الثلاث إلى الخَمْس، وقوله مردود، فلما بشَّرهم بذلك خرج أَبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المسجد، فقال لهم: «أَسَرَّكُم أَن غُلِبت الرُّوم؟ فإن نبينا أَخبرنا عن الله تعالىٰ أَنهم سَيَغْلِبون في بضع سنين»، فقال له أُبَيُّ بن خلف وأُمَيَّةُ أَخوه ـ وقيل: أَبو سفيان بن حرب ـ: تعالَ يا أَبا فَصِيلٍ ـ يعرِّضون بكنيته بالبكر[1] ـ فَلْنتناحَبْ ـ أَي نتراهن ـ في ذلك، فراهنهم أَبو بكر، ـ قال قتادة: وذلك قبل أَن يحرَّم القمار ـ وجعل الرهان خمس قلائص، والأَجل ثلاث سنين، فأَخبر النبيَّ ﷺ بذلك، فقال له: إن البِضْع إلى التِّسع، ولكن ارجع فزدهم في الرهان واستزدهم في الأَجل، ففعل أَبو بكر رضي الله عنه، فجعلوا القلائص مائة والأَجل تسعة أَعوام، فَغَلَبَت الروم في أَثناءِ الأَجل، فروي عن أَبي سعيد الخدري أَن إيقاع الروم بالفرس كان يوم بدر، وروي أَن ذلك كان يوم الحُدَيْبِيَة، وأَن الخبر بذلك وصل يومَ بيعة الرضوان، رُوي نحوه عن قتادة، وفي كلا اليومين كان نصر من الله تعالىٰ للمؤمنين.

وذكر الناسُ أَن سبب سرور المسلمين بغَلَبَة الروم وهمِّهم أَن تَغْلِب، وكون المشركين من قريش على ضدِّ ذلك، إنما هو أَن الروم أَهل كتاب كالمسلمين، والفرس أَهل الأَوثان ونحوه من عبادة النار ككفار قريش والعرب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويُشبه أَن يقال ذلك بما يقتضيه النظر من محبة أن يغلب العدوُّ الأَصغر: لأَنه أَيْسر مؤونة، ومتى غَلَبَ الأَكبر كثر الخوف منه، فتأَمل هذا مع ما كان رسول الله ﷺ ترجَّاه من ظهور دينه وشرْع الله تعالىٰ عزَّ وجلَّ الذي بعثه به، وغلبته على الأُمم، وإرادة كفار مكة أَن يرميه الله تعالَىٰ بمَلِك يستأْصله ويُريحهم منه[2].

و«سنين» يجمع كجمع من يعقل عوضاً عن النقص الذي في واحده؛ لأَن أَصل

---

(١) الفَصِيلُ: ولد الناقة إذا فُصِل عن أُمِّه، والبَكْرُ: الفَتِيُّ القويُّ من الإبل، فهم بهذا يسخرون من أبي بكر رضي الله عنه.

(٢) قال النحاس: وقول آخر في سبب سرور المؤمنين ـ وهو أولى ـ كان فرحهم لإنجاز وعد الله تعالىٰ؛ إذ كان فيه دليل على النُّبوَّة؛ لأنه تبارك وتعالىٰ أخبر بما يكون في بضع سنين فكان فيه.

سنة: سنهة، أو سنوة، وكُسرت السِّين منه دلالة على أن جمعه خارج عن قياسه ونمطه.

قوله تعالىٰ: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾، أخبر تبارك وتعالىٰ بانفراده بالقدرة، وأن ما في العالم من غَلَبة وغيرها إنما هو منه وبإرادته وقدرته، فقال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: إنفاذ الأحكام، ﴿مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من قبل هذه الغلبة ومن بعدها، و«قَبْلُ» و«بَعْدُ» ظرفان بُنِيا على الضَّمِّ؛ لأنهما تعرَّفا بحذف ما أُضيف إليهما وصارا مُتَضَمِّنَيْن ما حُذف، فخالفا تعريف الأسماءِ وأشبها الحروف في التضمين فبُنِيا، وخُصَّا بالضَّم لشبههما بالمنادى المفرد، وأنه إذا نُكِّر أو أُضيف زال بناؤه، فكذلك هما، فضُمَّا كما أنَّ المنادى مبني على الضم، وكذلك قيل في ذلك أيضاً: إن الفتح تعذَّر فيهما لأنه حالهما في إظهار ما أضيفا إليه، وتعذر الكسر لأنه حالهما عند إضافتهما إلى المتكلم، وتعذَّر السكون لأن ما قبل آخرهما ساكن، فلم يبق إلاَّ الضم فَبُنيا عليه. ومن العرب من يقول: مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ بَعْدٍ بالخفض والتنوين، قال الفراءُ: «ويجوز تركُ التنوين فيبقى كما هو في الإضافة وإن حُذِف المضافُ»[(١)].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على «القَبْل والبَعْد»، كأنه حصر الأزمنة الثلاثة: الماضي والمستقبل والحال، ثم ابتدأ الإخبار بفرح المؤمنين بالنصر[(٢)]، ويحتمل أن يكون الكلام قد تمَّ في قوله: ﴿بَعْدُ﴾ ثم استأنف عطف جملة أخبر فيها أنَّ يومَ غَلَبَة الرُّوم للفرس يُفْرِح المؤمنين بنصر الله، وعلى هذا الاحتمال مشى المفسرون. والنصر الذي يفرح به المؤمنون يحتمل أن يُشار فيه إلى نصر الرُّوم على

---

(١) أطال الفراءُ القول عن «قبل وبعد» في كتابه (معاني القرآن)، وهو من أول الأمر يرى أنَّهما في هذه الآية مرفوعان بغير تنوين؛ لأنهما في المعنى يراد بهما الإضافة إلى شيءٍ لا محالة، فلما أدَّتا معنى ما أُضيفتا إليه وَسَمُوهُمَا بالرفع وهما مخفوضتان؛ ليكون الرفع دليلاً على ما سقط مما أضفتهما إليه، واستشهد على ذلك بأبيات من الشِّعر، وقال: فإن نويت أن تُظْهِر المضاف إليه أوْ أظهرته قلت: لله الأمر من قبلِ ومن بعْدِ، ولو أطلقتهما بالعربية فنونت وفيهما معنى الإضافة فخفضتَ في الخفض ونَوَّنْت في النصب والرفع لكان صواباً، وقد سُمع ذلك من العرب، وجاءَ في أشعارها، فقال بعضُهم:

وساغَ لِيَ الشَّرابُ وكُنْتُ قَبْلاً ... أكادُ أغصُّ بالماءِ الحَميمِ

فنَوَّنَ، وكذلك تقول: جئتُك من قَبْلٍ فرأيْتُكَ، وكذلك قوله:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً ... كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

فهذا مخفوض، وإن شئت نوَّنْت، وإن شئت لم تنوِّن على نيَّتك.

(٢) يعني يتم الكلام بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، ويبدأُ الإخبار بقوله: ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

فارس، وهي نُصرة للإسلام بحكم السنين التي قد ذكرناها، ويُحتمل أَن يُشار فيه إِلى نصر يخصُّ المسلمين على عدوهم، وهذا أَيضاً غيبٌ أَخبر به وأَخرجه إِمَّا بيوم بدر، وإِمَّا ببيعة الرضوان، ويحتمل أَن يُشار فيه إِلى فرح المسلمين بنصر الله تعالىٰ إِيَّاهم في أَن صدق ما قال نَبِيُّهم عليه الصلاة والسلام في أَن الروم ستغلب فارس، فإِن هذا ضربٌ من النصر عظيم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر المؤكد، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يريد الكفار من قريش والعرب، أَي: لا يعلمون أَن الأُمور من عِند الله تبارك وتعالىٰ، وأَن وعده لا يَتخلَّف، وأَن ما يورده نبيُّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حقٌّ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا الذي ذكرناه هو عُمْدة ما قيل. وقد حكى الطبري وغيره روايات يردُّها النظر أَوَّل قول، من ذلك أَنَّ بعضهم قال: إِنما نزلت ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ بعد غلبة الروم لفارس ووصول الخبر بذلك، فهذا يقتضي أَنَّ الآية مدنية، والسورةُ كلُّها مكيَّة بإِجماع، ونحو هذا من الأَقوال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾.

وصف تبارك وتعالىٰ الكفرة الذين لا يعلمون أَمر الله تعالىٰ وصِدْقَ وعده بأَنهم إِنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، واختلف الناس في معنى [ظاهراً] ـ فقالت فرقة: معناه: بيِّناً، أَي ما أَدَّته إِليهم حواسهم، فكأَن علومهم إِنما هي علوم البهائم[1]. وقال ابن عباس، والحسن، والجمهور: معناه: ما فيه العُلُوُّ أَو الظهور في الدُّنيا، من إِتقان الصناعات والمباني ومظانِّ كسْب المال والفلاحات ونحوها، وقالت فرقة: معناه: ذاهباً زائلاً، أَي: يعلمون من أُمور الدنيا التي لا بقاءَ لها ولا عاقبة، ومثل هذه اللفظة قول الهُذَلِّي:

---

(١) يعني أنها العلوم التي لا تهتم إلا بما تهتم به البهائم من الأكل والشرب والتناسل.

وَعَيَّرَهَا الْوَاشُونَ أَنِّي أُحِبُّهَا ... وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عارُهَا(١)

وقال سعيد بن جبير: إن قوله تعالىٰ: ﴿ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ إنما هو إشارة إلى ما يُعلم مِنْ قِبَل الكهنة مما تسترقه الشياطين، وقال الرماني: كل ما يُعلم بأوائل الرُّؤْية فهو الظاهر، وما يعلم بدليل العقل فهو الباطن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفيه تقع الغفلة وتقصير الجهال.

ثم وصفهم تبارك وتعالىٰ بالغفلة والإعراض عن أمر الآخرة، وكرَّر الضمير تأكيداً، وغفلة الكافر هي على الكمالِ، والمؤمنُ المنهمك في أُمور الدُّنيا التي هي أَكبر همِّه يأخذُ من هذه الآية بحظٍّ. نوَّر الله قلوبنا وهَدى.

ثمَّ وقفهم ـ على جهة التوبيخ ـ على أَنهم قد فكروا فلم ينفعهم الفِكْر والنَّظر؛ إذ لم يكن على سداد. وقوله تعالىٰ: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ يحتمل معنيَيْن: أَحدهما أَن تكون الفكرة في ذواتهم وحواسهم وخلقهم ليستدلُّوا بذلك على الخالق المخترع، والثاني أَن يكون قوله: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ ظرفاً للفكرة في خلق السموات والأَرض، ثم أَخبر عقب هذا المعنى بأَن الحق هو السبب في خلق السموات والأَرض، فيكون قوله: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ تأكيداً لقوله: [يَتَفَكَّرُوا]، كما تقول: أَبْصِر بعينك واسْمَع بأُذنك، فقولك: «بعينك» و«بأُذنك» تأكيد. وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أَي بسبب المنافع التي هي حقٌّ وواجبٌ، يريد: من الدلالةِ عليه، والعبادة له دون فتور، والانتصار للعبرة ومنافع الأَرزاق وغير ذلك(٢). [وَأَجَلٍ] عطف على [ٱلۡحَقِّ]، أَي: وبأَجل مُسَمًّى وهو يوم القيامة، ففي الآية

---

(١) قال أبو ذُؤَيب الهُذَليُّ هذا البيت من قصيدة رثى بها نُشَيْبَةَ بن مُحَرِّث أحد بني حُطَيْط، ومَطْلَعُها:

هَلِ الدَّهْرُ إلا لَيْلَةٌ أَوْ نَهَارُهَا ... وإلا طُلُوعُ الشَّمْسِ ثُمَّ غِيارُهَا؟

والواشون: جمع واشٍ، وهو الذي يَنِمُّ بالإنسان ويسعى، وأصله من الوشْي وهو التنميق والتحسين والكذب في الكلام ونشره بين الناس. وقوله: «وتلك وشاة» أي: ذلك التَّعْيير، «ظاهر عنك عارها»: أي: زائل عنك وذاهب لا يَعْلَق بك، وهو الشاهد هنا، أي: أن تعييرهم لك لا يَلْزَق بك، بل يَبْتعد عنك ويَنْبُو.

(٢) قال الإمام أبو عبد الله الرازي: «قدَّم هنا دلائل الأنفُس على دلائل الآفاق، وفي قوله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ قدَّم دلائل الآفاق على دلائل الأنفُس. وحكمة ذلك أن المُفيد بذكر الفائدة على وجه يختارها، فإن فُهِمَتْ وإلا انتقل إلى الأبيَن، والمُسْتَفيد يفهم أوَّلاً الأبيَن ثم يرتقي إلى =

إشارة إلى البعث والنُّشور وفساد بِنْيَة من في هذا العالم، ثم أَخبر عن كثير من الناس أَنهم كفرة بهذا المعنى، فعبَّر عنه بلقاءِ الله تبارك وتعالىٰ؛ لأَن لقاءَ الله تعالىٰ هو أَعظم الأُمور، وفيه النَّجَاةُ أَو الْهَلَكَةُ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

هذا أَيضاً توقيف وتوبيخ على أَنهم ساروا ونظروا، أَي أَن ذلك لم ينفعهم حتى لم يعملوا بحسب العبرة وخوف العاقبة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا يتوجَّه للكفرة أَن يُعارض منهم من لم يَسِر فيقول: لم أَسِرْ؛ لأَنَّ كافَّة من سار من الناس قد نقلت معارفهم إِلى من لم يَسِرْ، فاستوت المعرفة وحصل اليقين للكُلِّ وقامت الحُجَّة، وهذا بيِّن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ يريد: بالمباني والحرث والحروب، وسائر المباني التي أَحدثوها هي كلها إِثارة، بعضها حقيقة وبعضها بتجوُّز؛ لأَن إِثارة أَهل الأَرض والحيوان والمتاع إِثارةٌ للأَرض. وقرأَ أَبو جعفر: [وَآثَارُوا] بمدِّ الهمزة، قال ابن مجاهد: ليس هذا بشيءٍ، وقال أَبو الفتح: وجْهُهَا أَنه أَشْبع فتحة الهمزة فنشأَت أَلف، ونحوه قول ابن هَرْمَة:

فَأَنْتَ مِنَ الْغَوَائِلِ حِينَ تُرْمَى ... ومِنْ ذَمِّ الرِّجَالِ بِمُنْتَزَاحِ(١)

= الأخفَى، وفي قوله: ﴿أو لم يتفكروا﴾ الفعل مسند إلى السامع أي المستفيد، فبدأ تعالىٰ بما يُفْهم أولاً، ثم ارتقى إلى الأخفى الذي يُفهِم ثانياً، وفي قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا﴾ الفعل مُسند إلى المُفيد، فذكر أولاً الآفاق، فإن لم يفهموا فالأَنْفُس؛ إِذ لا ذهول للإنسان عن دلائلها لأنها في ذاته، بخلاف دلائل الآفاق لأنه قد يذهل عنها، وهذا مراعى في الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً، إذ بدأ تعالىٰ بأحوال الأَنْفُس ثم بدلائل الآفاق». اهـ بتصرف.

(١) البيت في (اللسان ـ نزَحَ)، وقد قاله ابن هَرْمَة في رثاءِ ابنه، والغَوَائِل: جمع غائلَة، وهي الفَسَادُ والشَّرُّ والداهية، يُعَزِّي نفسه فيقول مخاطباً ابنه: إنَّك أصبحت بعيداً عن المصائب والشَّر الذي يغتال الناس، =

وقال: وهذا من ضرورة الشِّعر لا يجيءُ في القرآن. وقرأ أبو حيْوة: [وَآثَرُوا] بالمدِّ بغير ألف بعد الثَّاءِ، من الأَثَرة. والضمير في [عَمَرُوهَا] الأول للماضين، وفي الثاني للحاضرين المعاصرين، وباقي الآية بيِّن يتضمَّن الوعظ والتخويف من الله تعالىٰ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: [عَاقِبَةُ] بالرفع على أنها اسم [كَانَ]، والخبر يجوز أن يكون [ٱلسُّوٓأَىٰ]، ويجوز أن يكون: ﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾، وتكون [ٱلسُّوٓأَىٰ] ـ على هذا ـ مفعولاً بـ [أَسَاءُوا]، وإذا كان [ٱلسُّوٓأَىٰ] خبراً فإنَّ ﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾ مفعولٌ من أجْله، ولا يصح تعلُّقه بـ [أَسَاءُوا]؛ لأن في ذلك فصلاً بين الصلة وموصولها بخبر [كَانَ]. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [عَاقِبَةَ] بالنصب على أنها خبرٌ مقدم، واسم كان أَحَدُ ما تقدم، و[ٱلسُّوٓأَىٰ] مصدرٌ كالرُّجْعَى والفُتْيَا والشُّورَى، ويجوز أن تكون صفة لمحذوف تقديره: «الخلَّة السُّوءَى». قال أبو حاتم: هذه قراءَة العامة بالمدِّ على الواو وفتح الهمزة وياءِ التأنيث، فبعض القراءِ فخَّم، وبعضهم أَمال. وقرأ الحسن: [السُّوءَ] بالتذكير، وروي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: السُّوءَ والسُّوءَى، اقرأ بما شئت، قال ابن عباس رضي الله عنهما: [أَسَاءُوا] هنا بمعنى: كفروا، و[ٱلسُّوٓأَىٰ] هي النار، والتكذيب بآيات الله تبارك وتعالىٰ غير الاستهزاءِ بها، فلذلك عدَّد عليهم الفعلين.

= كذلك أصبحت بعيداً عن ذمِّ الناس لك، لقد نجوت من مصائب الدنيا وما فيها من شرور. والشاهد أنه مدَّ الفتحة في الزاي من كلمة (مُنْتَزَح) فصارت ألفاً، فقد تولدت الألف عن إشباع الفتحة، ومثل هذا ما حدث في [آثاروا] من إشباع للفتحة نتجت عنها الألف في قراءة أبي جعفر. وهذه القراءَة رواها الواقديُّ، محمد بن عمر بن واقد، عن سليمان، عن أبي جعفر، ومن كلام أبي الفتح عليها قوله: «ظاهره لعمري منكر، إلا أن له وجْهاً مَّا، ولَيْسَ لحْناً مقطوعاً به، وذلك أنه أراد: وأثاروا الأرْضَ، اي: شَقَّقُوها للغَرْس والزراعة، وهو أفْعَلوا، من قوله سبحانه: ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ إلا أنه أشبع فتحة الهمزة فأنشأ عنها ألفاً». (راجع المحتسب، ٢ـ١٦٣).

ثم أَخبر تعالىٰ إِخباراً مطلقاً لجميع العالم بالحشر والبعث من القبور. وقرأَ طلحة، وابن مسعود: [يُبْدِيءُ] بضم الياءِ وكسر الدال، وقرأَ جمهور القراءِ: (تُرْجَعُونَ) بالتاءِ من فوق. وقرأَ أَبو عمرو، وأَبو بكر عن عاصم بالياءِ.

وقوله: [يَوْمَ] منصوب بـ[يُبْلِسُ]، و«الإِبْلاسُ»: الكونُ في شرٍّ مع اليأس من الخير في ذلك الشيءِ بِعَيْنه، فإِبلاسُهم هو في عذاب الله تعالىٰ. وقرأَ عامة القراءِ بكسر اللام، وقرأَ أَبو عبد الرحمن(١)، وأَمير المؤمنين علي ابن أَبي طالب رضي الله عنه بفتحها، وأَبْلس الرَّبْع إِذا بلي، وكأَنه يئس من العمارة، ومنه قول العجاج:

يا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَبْعاً مُكْرَسَا ؟ قَــالَ نَعَــمْ أَعْــرِفُــهُ وَأَبْلَسَــا(٢)

وقرأَ عامة القراءِ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم﴾ بالياءِ من تحت، ورُوي عن نافع [تَكُنْ] بالتاءِ من فوق، و«الشركاءُ»: المشار إِليهم هُم الأَصنام، أَي الذين كانوا يجعلونهم شركاءَ الله بزعمهم. وقوله: [وَكَانُوا] معناه أَيُكَذِّبون عند معاينتهم أَمر الله تعالىٰ وفساد حال الأَصنام، فعبَّر عنه بالماضي لتَيَقُّن الأَمْر وصحة وقوعه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

[يَتفَرَّقُونَ] معناه: في المنازل والأَحكام والجزاءِ، قال قتادة: فُرْقةٌ والله لا اجتماع بعدها. و[يُحْبَرُونَ] معناه: يُنَعَّمون، قاله مجاهد، والحَبْرةُ والحبور: السُّرور والنعيم،

---

(١) هو أبو عبد الرحمن السُّلَمي.

(٢) البيتان من مشطور الرجز للعجاج، وهما في الديوان، ولسان العرب، و(معاني القرآن) للفراء، و(مجاز القرآن) لأبي عبيدة، والقرطبي، والطبري، قال في (اللسان ـ بَلَس): «المُبْلِس: اليائس، ولذلك قيل للذي يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون عنده جواب: قد أبلس، ثم ذكر البيت الثاني». وقال الفراءُ: «﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ييأسون من كلِّ خير، وينقطع كلامهم وحُجَجُهم. قال الشاعر..». ومُكْرَس: اسم مفعول، وهو الذي قد بعرت فيه الإبل وبولت، فركب بعضه بعضاً، ويكون اسم فاعل أيضاً (كما قال أبو عبيدة) بنفس المعنى.

وقال يحيى بن أَبي كثير[١]: [يُحْبَرُونَ] معناه: يسمعون الأغاني[٢]، وهذا نوعٌ من الحَبْرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: [يُحْبَرُونَ]: يكرمون، وفي المثل: «امتلأَت بيوتهم حَبْرة فهم ينتظرون العِبْرة»، ومنه بيت أَبي ذُؤَيب:

فِـرَاقٌ كَقَيْـصِ السِّنِّ فَـالصَّبْـرَ إِنَّـهُ ... لِكُـلِّ أُنَـاسٍ عِـزَّةٌ وحُبُـورُ[٣]

هذا على هذه الرواية، ويُرْوى: «عَثْرَةٌ وجُبُورُ»، وهي أَكثر.

وذكر تعالىٰ الروضة لأَنها أَحسن ما يعلم من بقاع الأَرض، وهي حيث يكثر النبت الأَخضر، وما كان منها في المرتفع من الأَرض كان أَحسن، ومنه قول الأَعشى:

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحَزْنِ مُعْشِبَةٌ ... خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطِلُ[٤]

---

(١) هو يحيى بن أبي كثير الطائي، مولاهم، أبو نصر اليمامي، ثقة ثبت، لكنه يدلِّس ويرسل، من الخامسة، مات سنة اثنتين وثلاثين، وقيل قبل ذلك. (تقريب التهذيب).

(٢) قال الأوزاعي: «إذا أخذ أهل الجنة في السَّماع (يعني الغناءَ) لم تبق شجرة في الجنة إلا ردَّدت الغناءَ بالتسبيح والتقديس»، وقال: «ليس أحد من خلق الله أحسن صوتاً من إسرافيل، فإذا أُخذ في السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم».

(٣) البيت من قصيدة لأبي ذؤيب مطلعها:

أَمِـنْ آلِ لَيْلَـى بـالضَّجـوعِ وأَهْلُنَـا ... بنَعْـفِ اللِّـوَى أَوْ بـالصُّفَيَّـةِ عيـرُ

و«قَيْصُ السِّنّ»: انشقاقُها بالطُّول، ويقال: «انْقَاصَتِ البئرُ» إذا تَشَقَّق طَيُّهَا وتَهَدَّم، وقوله: «فالصَّبْرَ» بالنصب، أي: اصْبِر صبراً، وعن الأصمعي: «فالصَّبْرُ» بالرفع، والمعنى: هذا فراق أبَديٌّ كانشقاق السِّن فاصبر عليه، وقال الأخفش: إذا انشقت السِّن عَرْضاً قيل: انقصمت، ورواها أبو عمرو: «كَنَغْض السِّنّ» وهو تحرُّكُها، وقال: «قَاصَتِ السِّنُّ تَقيصُ» إذا تحركت، وأما قوله: «عِزَّةٌ وحُبُور» فرواية نادرة، والرواية المشهورة وبها الديوان: «عَثْرَةٌ وجُبُورُ»، أي: يَعْثُرُون ثم يجبرون، وعلى هذه الرواية المشهورة لا شاهد في البيت، ولهذا لم يذكره الطبري ولا القرطبي ولا البحر المحيط.

(٤) هذا البيت من قصيدته المشهورة التي بدأها بقوله:

وَدِّعْ هُـرَيْـرَةَ إنَّ الـرَّكْـبَ مُـرْتَحِـلُ ... وَهَـلْ تُطِيقُ وَدَاعـاً أَيُّهَـا الـرَّجُـلُ ؟

وهو واحد من ثلاثة أبيات استشهد بها المفسرون كالقرطبي والطبري وغيرهما، وهي قوله:

مـا رَوْضَـةٌ مِـنْ ريـاضِ الحَـزْنِ مُعْشِبَـةٌ ... خَضْـرَاءُ جـادَ عَلَيْهَـا مُسْبِـلٌ هَطِـلُ
يُضَـاحِـكُ الشَّمْـسَ مِنْهَـا كَـوْكَـبٌ شَـرِقٌ ... مُـؤَزَّرٌ بعَمِيـمِ النَّبْـتِ مُكْتَهِـلُ
يَـوْمـاً بـأَطْيَـبَ مِنْهَـا نَشْـرَ رَائِحَـةٍ ... وَلا بـأَحْسَـنَ مِنْهَـا إذْ دَنَـا الأُصُـلُ

وقد أورد أبو عبيدة في مجاز القرآن البيتين الأول والثالث، ورواية الطبري: «من رياض الحُسْن»، ورياض الحَزْنِ أَطيب من رياض الأرض المنخفضة، لأن رياض الحَزْن أكثر تعرضاً للرياح التي تنشر =

ومنه قول كُثَيِّر:

فَمَا رَوْضَةٌ بالحَزْنِ طَيِّبَةُ الثَّرَى ... يَمُجُّ النَّدَى جَثْجَاثُهَا وَعَرَارُهَا[(١)]

قال الأَصمعي: ولا يُقَال روضة حتَّى يكون فيها ما يشرب فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ﴾ خطابٌ للمؤمنين بالأمر بالعبادة والحضّ على الصلاة في هذه الأَوقات، كأَنه يقول: أَدَّى هذا التفرق إِلى أَنواع من النِّعَمِ والعذاب فجرى بها المؤمن في طريق الفوز برحمة الله. وقال ابن عباس، وقتادة، وبعض الفقهاءِ: في هذه الآية تنبيه على أَربع صلوات: المغرب والصبح والعصر والظهر، قالوا: والعشاءُ الآخرة في آية أُخرى، في ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾[(٢)]، وفي ذكر أَوقات العورة[(٣)]. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أَيضاً وفرقة من الفقهاءِ: في هذه الآية تنبيه على الصلوات الخمس؛ لأَن قوله تعالىٰ: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ يتضمن الصلاتين. وقوله تعالىٰ: ﴿وله الحمد في السموات والأرض﴾ اعتراض من الكلام بين وقوع تعظيم الله تعالىٰ والحضّ على

= منها الرائحة، وأبعد من أن تطأها الأقدام، والمُسْبِل: المَطَر، الهَطِلُ: الغزير، والكوكب: قيل هو النور، وقيل: النبات المستطيل. ومعنى الشَّرِق ـ على هذا ـ: الرَّيان. والمُؤَزَّر: الذي حوله نبات آخر صار له كالإزار، والمُكْتَهل: الذي قد بَلَغَ وتَمَّ، والنَّشْر: تضَوُّع الرائحة، والأُصُل: جمع أصيل، وهو قبيل الغروب حين تصفر الشمس ويطيب الهواءُ، يقول: إن رائحة حبيبته أطيب من رائحة الأزهار في هذه الروضة التي بلغت حدَّ الكمال في الحسن والإزهار.

(١) هذا واحد من بيتين قالهما كُثَيِّر في محبوبته عزَّة، وقد ذكرهما في اللسان، (جَثَث)، وهو يتحدث عن رائحة فمها التي تفوق رائحة الأزهار في أحسن الرياض، والبيتان هما:

فَمَا رَوْضَةٌ بالحَزْنِ طَيِّبَةُ الثَّرَى ... يَمُجُّ النَّدَى جَثْجَاثُهَا وَعَرَارُهَا

بِأَطْيَبَ مِنْ فِيهَا إذا جِئْتَ طَارِقاً ... وَقَدْ أَوْقَدَتْ بالمِجْمَرِ اللَّدْنِ نَارُهَا

والثَّرَى: الترابُ النَّدِيُّ، والجثجاثُ: نباتٌ سَهْلِيٌّ ربيعيٌّ يجف في الصيف، وهو أخضر، له زهرة صفراءُ كأنها زهرة عرفجة طيِّبةُ الريح تأكله الإبل إذا لم تجد غيره، واحدته جَثْجاثَة. والعَرَارُ: بهارُ البَرِّ، واحدته عَرَارَة، وهو نبت طيب الريح، قيل: هو النرجس البَرِّي، وفيه قال الصِّمَّةُ بن عبد الله القُشَيْرِيُّ بيته المشهور:

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ ... فَمَا بَعْدَ العَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ

(٢) من الآية (١١٤) من سورة (هود).

(٣) وهي التي ذكرها الله تعالىٰ في قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ الآية، وهي رقم (٥٨) من سورة (النور).

عبادته، وقرأ عكرمة: [حيناً تمسون وحيناً تصبحون]، والمعنى: حيناً تمسون فيه [وحيناً تصبحون فيه](١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

«الحَيُّ والميِّتُ» في هذه الآية يستعمل حقيقة ويستعمل مجازاً، فالحقيقة: المنيُّ يخرج منه الإنسان، والبيضة يخرج منها الطائر، وهذه بعينها ميتة تخرج من حي، وما جرى هذا المجرى، وبهذا المعنى فسَّر ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم. وقال الحسن: المعنى: المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وروي هذا المعنى عن النبي ﷺ، أنه قرأ هذه الآية عندما كلَّمته بالإسلام أُم كلثوم بنت عقبة ابن أَبي معيط. والمجاز(٢) إخراج النبات الأَخضر من الأَرض، وإخراج الطعم من النبات، وما جرى هذا المجرى. ومثَّل بَعْدُ بإِحياءِ الأَرض بعد موتها بالمطر.

ثم بعد هذه الأَمثلة القاضية بتجويز بعث الأَجساد عقلاً ساق الخبر بأَن كذلك خروجنا من القبور، وقرأَت فرقة: [يُخْرَجُونَ] بالياءِ من تحت، وقرأَ عامة القراءِ: (تُخْرَجُونَ) بالتاءِ المضمومة، وقرأَ الحسن، وابن وثاب، والأَعمش، وطلحة بفتح التاءِ وضم الراءِ.

و[مِنْ] في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم ﴾ للتبعيض، وقال: [خَلَقَكُمْ] من حيث خلق أَباهم آدم، قاله قتادة. و[تَنْتَشِرُونَ] معناه: تتصرفون وتتفرقون في الأَعراض والأَسفار.

---

(١) ما بين العلامتين [. . .] زيادة يقتضيها المقام، وقد سقطت من الأصل، قال العلماءُ: وقد حذفت (فِيهِ) تخفيفاً، والقول في ذلك كالقول في ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾.

(٢) هذا هو المقابل لقول ابن عطية: «فالحقيقة: المنيُّ يخرج من الإنسان».

وقوله تعالىٰ: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يحتمل أَن يريد خلْقَه حواءَ من ضلع آدم، فحمل ذلك على جميع الناس من حيث أُمُّهم مخلوقة من نفس آدم، أَي: من ذاتِ شخصه، ويحتمل أَن يُريد: من نوعكم وجنسكم. و«المودة والرَّحمة» على بابهما المشهور من التودد والتراحم، هذا هو البليغ، وقال مجاهد والحسن وعكرمة: عنى بالمودة الجماع وبالرحمة الولد.

ثم نبَّه تعالىٰ على خلق السموات والأَرض، واختلاف اللغات والأَلوان، وهذه: البياض والسواد وغيرهما، ويحتمل أَن يريد ضروب بني آدم وأَنواعهم، فتَعُم شخوص البشر الذين يختلفون بالأَلوان، وتعم الأَلسنة. وقرأَ جمهور القراءِ: [لِلْعَالَمِينَ] بفتح اللام، وقرأَ حفص عن عاصم: (لِلْعالِمينَ) بكسر اللام[١]، فالأُولى على أَن هذه الآية هي في نفسها منصوبة لجميع العالم، والثانية على معنى أَن أَهل الانتفاع بالنظر فيها إِنما هم أَهل العلم[٢].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ذكر تعالىٰ النوم بالليل والنَّهار وعُرْف النوم إنما هو بالليل وحده، ثم ذكر الابتغاءَ من فضله كأَنه فيهما، وإِنما معنى ذلك أَنه عمَّ الليل والنهار فسمَّى الزمان، وقصد من ذلك تعديد آية النوم وتعديد آية ابتغاءِ الفضل، فإِنَّهما آيتان ونعمتان يكونان في ليل ونهار، والفرق (تحيُّز)[٣] كل واحدة من النعمتين إِلى محلها في الأَغلب، وقال بعض المفسرين: في الكلام تقديم وتأْخير[٤].

---

(١) وهي أيضاً قراءَة حماد بن شعيب عن أبي بكر، وعلقمة عن عاصم، ويونس عن أبي عمرو.

(٢) فهي في هذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

(٣) هكذا بالأصل، والمعنى قد يقبلها على قلق في التعبير.

(٤) ويكون التقدير: ومن آياته منامكم باللَّيل وابتغاؤكم من فضله بالنهار، فحذف حرف الجر في (بالنَّهار) لاتصاله باللَّيل وعطفه عليه، والواو تقوم مقام حرف الجر إذا اتصلت بالمعطوف عليه في الاسم الظاهر=

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وإنما أَراد أَن يُرتِّب النوم للَّيل، والابتغاءَ للنهار، ولفظ الآية لا يُعطي ما أَراد.

وقوله تعالىٰ: [يُرِيكُمُ] فعلٌ مرتفع لما حذفت (أَنْ) التي لو كانت لنصبته، فلمَّا حلَّ الفعل محلَّ الاسم أُعرب بالرَّفع، ومثله قول طرفة:

أَلاَ أَيُّهَـذَا الـزَّاجِـرِي أَحْضُـرَ الْـوَغـى   وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي ؟(١)

قال الرماني: وتحتمل الآية أَن يكون التقدير: «ومنْ آياته آيَةٌ يريكم البرق»، وحذفت (آيَةٌ) لدلالة [مِنْ] عليها، ومنه قول الشاعر:

ومـا الـدَّهْـرُ إِلاَّ تـارتـانِ فمِنْهُمـا   أَموتُ وَأُخْرى أَبْتَغِي الْعَيْشَ أَكْدَحُ(٢)

والتقدير: فمنهما تارة أَموت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا على أَن [مِنْ] للتبعيض كسائر هذه الآيات، ويحتمل في هذه وحدها أَن تكون [مِنْ] لابتداءِ الغاية فلا يحتاج إِلى تقدير (آية)، وإِنما يكون الفعل مخلصاً للاستقبال.

= خاصة. هكذا قدره القرطبي. وقال في البحر المحيط: «وهذا ضعيف، ولفظ الآية لا يعطي ذلك» فاتفق مع ابن عطية في الرأي.

(١) البيت من معلقة طرفة، والبيت موضع خلاف بين البصريين والكوفيين في ضبط كلمة (أَحْضُر)، فالبصريون يرفعونها، ويرون أن (أَنْ) أضمرت قبل الفعل فذهب عملها؛ لأنها لا تعمل مضمرة إلا في عشرة مواضع نصُّوا عليها، أما الكوفيون فيرون أن (أَنْ) تعمل وهي مضمرة كأنها موجودة لقوة الدلالة عليها، ولهذا فالرواية عندهم (أَحْضُرَ) بالنصب، كأنه قال: أنْ أَحْضُرَ. والوَغَى: أصوات المحاربين في المعركة، ثم توسع فيه فأُطلق على الحرب نفسها، يقول طرفة: أيها الذي تلومني على شجاعتي وعلى تمنعي باللذات هل تستطيع أن تخلدني في الدنيا إذا امتنعت عن اللذات وتخلفت عن الحروب ؟ والاستفهام يحمل معنى النفي وما يترتب على ذلك من إصرار على مبادئه.

(٢) البيت لتميم بن مُقبل، وهو في الديوان، والكتاب، ومعاني القرآن، والحيوان، والكامل، وحماسة البحتري، وخزانة الأدب، والهمع، والطبري، والقرطبي. والتَّارَةُ: المَرَّة، يقول: لا راحةَ في الدنيا، فَوَقْتُها قسمان: موتٌ مكروه عند الناس، وحياةٌ كلها مشقَّة ومعاناة، والشاهد فيه أن جملة (أموت) صفة لموصوف محذوف، والتقدير: «تارة أموت فيها، وتارة أُخرى أبتغي العيش فيها»، وهذا تقدير سيبويه، وقدره الفراءُ في المعاني فقال: «كأنه أراد: فمنها ساعةٌ أَموتها، وساعةٌ أَعيشُها»، وقد أورد الزجاج البيت عن تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ قال: «أي قومٌ يُحرِّفون، كهذا البيت، والمعنى: (تارةً أَموتُ فيها) فحذف (تارة)، وأقام الجملة التي هي صفة نائبة عنها».

وقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، قال قتادة: خوفاً للمسافر وطمَعاً للمقيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا وجه لهذا التخصيص ونحوه، بل الخوف والطمع لكل بشر، وقال الضحاك: الخوف من صواعقه، والطمع في مطره. وقوله: ﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ معناه: تَثْبُت، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾[1]، وهذا كثير، وقيل: هو فعل مُسْتَقْبل، أَحَلَّه محلَّ الماضي ليعطي فيه معنى الدوام الذي هو في المستقبل، و«الدَّعْوَةُ من الأَرْضِ» هي البعث يوم القيامة، و﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ حالٌ من المخاطبين، كأَنه قال: خارجين من الأَرض، ويجوز أَن يكون ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ صفة الدعوة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

و[مِنْ] عندي ها هنا هي لانتهاءِ الغاية، كما تقول: «دعوتُك من الجبل»، إذا كان المدعُوُّ في الجبل[2]، والوقف في هذه الآية عند نافع ويعقوب الحضرمي على [دَعْوَة]، والمعنى: إذا أَنتم تخرجون من الأَرض[3]، وهذا على أَن [مِنْ] لابتداءِ الغاية، قال مكي: والأَحسن عند أَهل النظر أَن الوقف في آخر الآية؛ لأَن مذهب سيبويه والخليل في [إذَا] الثانية أَنها جواب الأُولى، كأَنه قال: إذا دعاكم خرجتم، وهذا أَسدُّ الأَقوال، وقرأَ حمزة، والكسائي: [تَخْرُجُونَ] بفتح التاءِ، وقرأَ الباقون: [تُخْرَجُونَ] بضم التاءِ[4].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

اللام في الأُولى لام الملك، وفي الثانية لام تعدية لـ (قَنَتَ)، وقَنَتَ بمعنى خضع

---

(١) من الآية (٢٠) من سورة (البقرة).

(٢) اعترض أبو حيان في البحر على ذلك وقال: «وكَوْن (مِنْ) لانتهاء الغاية قولٌ مردود عند أَصحابنا».

(٣) أيضاً قال أبو حيان تعليقاً على ذلك: «وهذا لا يجوز لأن فيه الفصل بين الشرط وجوابه، والوقف على [دَعْوة] فيه إعمالُ ما بعد (إذا) الفجائية فيما قبلها، وهذا لا يجوز».

(٤) من الثابت في المصحف أن قراءة حفص عن عاصم جاءت بفتح التاء وضم الراء، وكذلك قراءة نافع بروايتيه ورش وقالون مثل حمزة والكسائي.

في طاعته وانقياده. وهذه الآية ظاهرُ أَمْرِها العمومُ في القُنَّت، والعموم في كلٍّ من يعقل، وتعميم ذلك في المعنى لا يصح؛ لأنه خبر ونحن نجد كثيراً من الجن والإنس لا يَقْنُت في كثير من المعْتَقَد والأعمال، فلا بُدَّ أَنَّ عموم ظاهر هذه الآية يراد به الخصوص، واختلف المتأولون في الخصوص أين هو ؟

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو في القنوت والطاعة، وذلك أن جميع من يعقل هو قانت لله في معظم الأُمور من الحياة والموت والرزق والقدرة ونحو ذلك، وبعضهم يخل بالعبادة والمعتقدات فلا يقنت فيها، فكأنه قال: كلٌّ له قانتون في معظم الأُمور وفي غالب الشأن.

وقال ابن زيد ما معناه: إن الخصوص هو في الأعيان المذكورين، كأنه قال: وله من في السموات والأرض من ملَك ومؤمن(١).

وقوله: ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ معناه: يُنْشئهُ ويخرجه من العدم، وجاءَ الفعل بصيغة الحال لمَّا كان في هذا ما قد مضى كآدم وسائر القرون، وفيه ما يأتي في المستقبل، فكأَن صيغة الحال تعطي هذا كله. و[يُعِيدُه] يبعثه من القبور ويُنشئُهُ تارةً أُخرى.

واختلف المتأولون في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ـ فقال ابن عباس، والربيع بن خُثَيْم: المعنى: وهو هَيِّنٌ، ونظيره قول الشاعر:

لَعَمْــرُكَ مــا أَدْرِي وَإِنِّــي لأَوْجَــلُ . . . .(٢)

---

(١) أوضح الآراءِ وأقربها إلى الصحة هنا أنَّ من في السموات والأرض مخلوقون بإرادة الله تعالىٰ، لا يقدر أحد على تغيير الخلقة، فآثار الصنعة والخلقة تدل على الطاعة، فهي طاعة إرادة ومشيئة، وليست طاعة عبادة، لأن في طاعة العبادة مطيعاً وغير مطيع.

(٢) البيت لِمَعْنِ بن أوس الْمُزَنِيّ، وهو في خزانة الأدب، والمقتضب، والكامل، والمنْصف، والأشموني، وابن يعيش، والعيني، وشذور الذهب، وشرح الحماسة للمرزوقي، والتبريزي، فضلاً عن الديوان، وهو بتمامه:

لَعَمْــرُكَ مــا أَدْرِي وَإِنِّــي لأَوْجَــلُ عَلَــى أَيِّنَــا تَعْــدُو الْمَنِيَّــةُ أَوّلُ

وهو من قصيدة قالها مَعْن يستعطف بها صديقاً له هو شقيق زوجة معن، وكان معن قد طلّق أُخت صديقه وتزوج غيرها، فحلف صديقه ألا يكلمه أبداً، فقال معن قصيدته لاسترضاء صديقه، والشاهد هنا أنَّ (أَوْجَل) بمعنى (وَجِل)، والنحويون يستشهدون بهذا البيت على أن (أَوَّلُ) بُني على الضم لحذف المضاف إليه ونيَّةِ معناه، والأصل: أوَّل أوقات عَدْوِها.

بمعنى: لَوَجِلٌ. وقول الآخر:

. . . . بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ(١)

وقولهم في الأذان: «الله أكبر»(٢)، وقول الشافعي رحمة الله عليه:

. . . . فَتِلْكَ سَبِيلي لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ(٣)

---

(١) هذا عجز بيت قاله الفرزدق من قصيدة يفتخر بها بقومه على جرير فيما كان بينهما من نقائض، وهو بتمامه:

إنَّ الَّذي سَمَكَ السماءَ بَنَى لَنَا ... بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وأَطْوَلُ

وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن)، وكذلك الطبري، والقرطبي. وسَمَكَ السماءَ: رفعها عالية، والشاهد هنا أن (أعزّ وأطْوَل) جاءَا بمعنى: عزيزة طويلة، فليس هنا تفضيل، وإنما هو مجرد وصف. والبيت في خزانة الأدب، وابن يعيش، والأشموني، والعيني، وهو أيضاً في الديوان. وقد عارضه جرير بقصيدة مثلها عدَّتها اثنان وستون بيتاً منها:

أَخْزَى الذي سَمَكَ السَّماءَ مُجَاشِعاً ... وَبَنَى بناءَك في الْحَضِيضِ الأسْفَلِ

(٢) لأن معناها: اللهُ كبير. قال المبرِّد في الكامل: «لأنَّه إنما يُفاضل بين شيئين إذا كانا من جنس واحد»، وليس هناك من يشارك الله تعالىٰ في هذه الصفة حتى يكون هناك تفضيل.

(٣) هذا عجز بيت، وهو واحد من ثلاثة أبيات في أمالي القالي (الذَّيْل)، وفي شرح المرزوقي للحماسة، وهي منسوبة في كتاب الاختيارين للأخفش، إلى مالك بن القَيْن الخزرجي، وقال ذلك الأستاذ عبد العزيز المَيْمَني في شرح ذيل الأمالي، وقال محقق خزانة الأدب: وهي في النسخة المطبوعة من كتاب الاختيارين بتحقيق فخر الدين قباوة، وقد كتب بها يزيد بن عبد الملك إلى أخيه هشام حين بلغه أنه يتمنى موته، كما كتب بها الوليد إلى أخيه سليمان كما جاء في مروج الذهب، والأبيات الثلاثة هي:

تَمَنَّى رجالٌ أنْ أَمُوتَ وإنْ أَمُتْ ... فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ
فَمَا عَيْشُ مَنْ يَرْجُو رَدَايَ بِضَائِري ... وَمَا عَيْشُ مَن يَرْجُو رَدَايَ بمُخْلَدِ
فَقُلْ لِلَّذِي يَبْغي خِلافَ الَّذِي مَضَى ... تَجَهَّزْ لأخرَى مِثْلِهَا فَكَأَنْ قَدِ

ومعنى (خلاف الَّذي قد مَضَى): أن يخلفه عَلَى ميراثه أو ملكه، قال القالي في ذيل الأمالي: فَرَدَّ هشام على يزيد ببيتين هما:

ومَنْ لا يُغَمِّضْ عَيْنَهُ عَنْ صَدِيقِهِ ... وعَنْ بَعْضِ ما فِيهِ يَمُتْ وَهُوَ عَاتِبُ
ومَنْ يَتَتَبَّعْ جَاهِداً كُلَّ عَثْرَةٍ ... يَجِدْهَا وَلَا يَسْلَمْ لَهُ الدَّهْرَ صَاحِبُ

وردَّ يزيد بقصيدة مَعْن بن أوْس التي يقول فيها:

لَعَمْرُكَ مَا أدْرِي وَإِنِّي لأوْجَلُ ... عَلَى أَيِّنَا تَغْدُو الْمَنِيَّةُ أَوَّلُ

والشاهد هنا أن قوله: بأوْحد معناه: بواحد، لكن البغدادي قال في خزانة الأدب نقلاً عن أبي حيان: لا يخلو أفْعَل من التفضيل.

يريد: بواحد، واستشهد بهذا البيت أَبو عبيدة، وهذا شاهد كَثير، وفي بعض المصاحف [وكُلٌّ هَيِّنٌ عَلَيْهِ].

وقال ابن عباس أَيضاً، ومجاهد، وعكرمة: المعنى: وهو أَيسر عليه، وإِن كان الكلُّ من اليُسْر عليه في حيِّز واحد وحالٍ متماثلة، قال: ولكن هذا التفضيل بحسب معتقدات البشر، وما يعطيهم النظر في المُشاهَد من أَن الإِعادة في كثير من الأَشياءِ أَهون علينا من البداءَة؛ للتَّمَرُّن والاستغناءِ عن الرَّوِيَّة التي كانت في البداءَة. وهذان القولان الضميران فيهما عائدان على الله تبارك وتعالىٰ.

وقالت فرقة أُخرى: الضمير في [عَلَيْهِ] عائد على [ٱلْخَلْقِ].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهو بمعنى «المخلوق» فقط، وعلى التأْويلين الأَوَّلين يصح أَن يكون «المخلوق»، أَو يكون مصدراً من «خَلَقَ». فقال الحسن: إِن الإِعادة أَهون على المخلوق من إِنشائه؛ لأَنه في إِنشائه يصير من حالة إِلى حالة، من نطفة إِلى عَلَقة إِلى مضغة ونحو هذا، وفي الإِعادة إِنما يقوم في مرة واحدة، فكأَنه قال: وهو أَيْسَر عليه، أَي: أَقصر مدة وأَقَلُّ انتقالاً.

وقال بعضهم: وهو أَهون على المخلوق أَن يعيد شيئاً بعد إِنشائه، فهذا عُرْف المخلوقين، فكيف تنكرون أَنتم الإِعادة في جانب الخالق.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَظهر عندي عود الضمير على الله تعالىٰ، ويؤيده قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، لما جاءَ بلفظ فيه استعارة واستشهادٌ بالمخلوق على الخالق، وتشبيهٌ بما يعهده الناس من أَنفسهم، خلص جانب العظمة بأَن جَعَلَ له المثل الأَعلى الذي لا يصل إِليه تَكْييفٌ ولا تَمَاثُلٌ مع شيءٍ. والعزَّةُ والحكمةُ صفتان موافقتان لمعنى الآية، فبهما يُعيد ويُنَفِّذ أَمره في عباده كيف شاءَ.

ثم بيَّن تعالىٰ أَمْر الأَصنام وفسادَ مُعْتَقَد من يشركها بالله تعالىٰ بضرب هذا المثل، ومعناه: إِنكم أَيُّهَا الناس إِذا كان لكم عبيدٌ تملكونها فإِنكم لا تشركونهم في أَموالكم ولا في أُموركم ولا في شيءٍ على جهة استواءِ المنزلة، وليس من شأْنكم أَن تخافوهم

في أن يرثوا أموالكم أو يقاسموكم إياها في حياتكم، كما يفعل بعضكم ببعض، فإذا كان هذا فيكم فكيف تقولون: إن من عبيده ومُلكه شركاءَ في سلطانه وأُلوهيته، وتثبتون في جانبه ما لا يليق عندكم بجوانبكم؟ هذا تفسير ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة، وجاءَ هذا المعنى في معرض السؤال والتقرير.

وقرأ الناس: ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بنصب السِّين، وقرأ ابن أبي عبلة بضمها. وقرأ الجمهور: (نُفَصِّلُ) بالنون حملاً على [رزَقْناكُمْ]، وقرأ عباسٌ عن أَبي عَمْرٍو: [يُفصِّلُ] بالياءِ حمْلاً على ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

الإضراب بـ [بَلْ] هو عمَّا يتضمَّنه معنى الآية الأُولى، كأَنه يقول: ليس لهم حجة ولا معذرة فيما فعلوا من تَشْريكهم مع الله تعالىٰ، بل اتبعوا أَهواءَهم جهالةً وشهوةً وقصداً لأُمور دنياهم. ثم قرَّر ـ على جهة التوبيخ لهم ـ على من يهدي إذا أَضل الله؟ أَيْ: لا هادي لأَهل هذه الحال، ثم أَخبر أنه لا ناصر لهم.

ثم أَمر تعالىٰ نبيَّه ﷺ بإقامة وجهه للدين المستقيم، وهو دين الإِسلام، وإقامةُ الوجه هو تقويم المعْتَقَد والقوَّةُ على الجدِّ في أَعمال الدين، وذِكْر الوجه لأنه جامعٌ حواسَّ الإنسان وأَشْرَفُه[1]، و[حَنِيفاً] معناه: معتدلاً مقوماً مائلاً عن جميع الأَديان المحرَّفة المنسوخة، وقوله: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ نصب على المصدر، كقوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾[2]، وقيل: هو نصب بفعل مضمر تقديره: اتَّبع والْزَم فطرةَ الله تعالىٰ، واختلف الناس في الفطرة ها هنا ـ فذكر مكي وغيره في ذلك جميع ما يمكن أن تصرف هذه اللَّفظة عليه، وفي بعض ذلك قلق، والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللَّفظة

(١) بالرفع عطفاً على (جامعٌ)، والمعنى: ذُكر الوجه لأنه جامعٌ، ولأنه أشْرَفُ الإنسان.
(٢) من الآية (١٣٨) من سورة (البقرة).

أنها الخِلْقة والهيئة التي في نفس الطفل التي هي مُعدَّة مُهيَّأةٌ لأن يُمَيِّزَ بها مصنوعات الله تعالىٰ، ويَسْتَدلَّ بها على ربِّه جلَّ وعَلاَ، ويعرفَ شرائعه، ويُؤْمنَ به، فكأَنه تعالىٰ قال: أَقم وجهك للدين الذي هو الحنيف وهو فطرة الله الذي على الإعداد له فَطَر البشر، لكن تَعرِضُهم العوارض، ومنه قول النبي ﷺ: «كُلُّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه أَو يُنَصِّرانه. . . » الحديث(١)، وَذِكْرُ الأَبَوَيْن إنما هو مثال للعوارض التي هي كثيرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل تأْويلين: أَحدهما أَن يريد بها مدة الفطرة المذكورة، أَي: اعْلَم أَن هذه الفطرة لا تبديل لها من جهة الخالق، ولا يجيءُ الأَمر على خلافها بوجه، والآخر أَن يكون قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ إنحاءً على الكفرة، واعترض به أَثناءَ الكلام، كأَنه يقول: أَقِمْ وجهك للدين الذي من صفته كذا وكذا، فإِنَّ هؤلاءِ الكفار الذين خلق الله لهم الكفر، ولا تبديل لخلق الله، أَي أَنهم لا يفلحون. وقال مجاهد: المعنى: لا تبديل لدين الله، وهو قول ابن جُبَيْر، والضحاك، وابن زيد، والنَّخَعي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا معناه: لا تبديل للمعتقدات التي هي في الدين الحنيف، فإِن كل شريعة فهي عقائدها.

وذهب بعض المفسرين في هذه الآية إلى تأْويلات: منها قول عِكْرمة ـ وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ معناه: النهي عن خصاءِ الفحول من الحيوان. ومنها قول بعضهم في الفطرة: إِنها المِلَّة. على أَنه قد قيل في الفطرة:

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، وأبو داود في السُّنَّة، والترمذي في القدر، والموطأ في الجنائز، وأحمد في ٢ـ٢٣٣، ٢٧٥، ٣٩٣، وروي بلفظ: «مَا مِنْ مولود يولد إلا يولد على هذه الفطرة»، رواه البخاري في تفسير سورة (الروم)، ورواه هو ومسلم في القدر، ورواه أحمد في المسند ٢ـ٣١٥، ٣٤٦، ولفظه بتمامه في الرواية الأولى «كلُّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يُمَجِّسانه، كَمَثَلِ البهيمة، تُنْتَجُ البهيمة هل تَرَى فيها جدعاءَ» ؟، وذكره السيوطي في الجامع الصغير، وعزاه لأبي يَعْلَى في مسنده، وأورده أيضاً في الدر المنثور بالرواية الثانية، وزاد نسبته لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه ـ عن أبي هريرة، وفي هذه الرواية: «ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾».

الدين. وتُؤُوِّل قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ﴾ على الخصوص، أَي: المؤمنين. وقيل: الفطرة هي العهد الذي أَخذه الله تعالىٰ على ذُرِّيَّة آدم حين أَخرجهم نَسَماً من ظهره، ونحوه حديث معاذ رضي الله عنه حين مرَّ به عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا مُعاذ، ما قوام هذه الأُمَّة؟ قال: الإِخلاص، وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والصلاة وهي الدين، والطاعة وهي العصمة، فقال عمر رضي الله عنه: صدقت[١].

و[ٱلْقَيِّم] بناءُ مبالغة من القيام الذي هو بمعنى الاستقامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿مُنِيبِينَ﴾ يحتمل أَن يكون حالاً من قوله: ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ﴾، لا سيَّما على رأي من رأى أَن ذلك خصوص في المؤمنين، ويحتمل أَن يكون ذلك من قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾، وجَمَعَه لأَن الخطاب بإِقامة الوجه هي للنبي ﷺ ولأُمَّته، ونظيرها قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[٢] و«ٱلْمُنِيبُ»: الراجع المخلص المائل إِلى جهة ما تودُّه نفسه، و«ٱلْمُشْرِكُونَ» المشار إِليهم في هذه الآية هم اليهود والنصارى، قاله قتادة، وقال ابن زيد: هم اليهود، وقالت عائشة وأَبو هريرة رضي الله عنهما: هي في أَهل القبلة[٣].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولفظة الإِشراك ـ على هذا ـ فيها تجوُّز، فإِنهم صاروا في دينهم فِرَقاً، و«ٱلشِّيَع»: الفِرَق، واحدها: شِيعَة، وقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ معناه أَنهم مفتونون بآرائهم، مُعجبون بضلالهم، وذلك أَصيل فيهم. وقرأَت فرقة: [فَارَقُوا دِينَهُمْ] بالألف[٤].

---

(١) أخرج ابن جرير عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له: ما قوام هذه الأمَّة؟ قال: ثلاثٌ، وهُنَّ المُنْجيات: الإخلاصُ، وهو الفطرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، والصلاة، وهي المِلَّة. والطَّاعةُ، وهي العصمة، فقال عمر: صدقت. (تفسير الطبري، والدر المنثور).

(٢) من الآية (١) من سورة (الطلاق).

(٣) فيكون معنى قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ «مِنْ أهْل الأهواءِ والبِدَع»، كذا وضَّحه القرطبي، ولَعَلَّ هذه الجملة قد سقطت من النساخ، وهو تأويل أبي أمامة أيضاً.

(٤) هي قراءَة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبها قرأ حمزة والكسائي، والمعنى: فارقوا دينهم الذي يجب اتباعه، وهو التوحيد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

هذا ابتداءُ إنحاءٍ على عَبَدَة الأَصنام المشركين بالله تعالىٰ غَيْرَه، بيَّن تعالىٰ أَنهم كسائر البشر في أَنَّهم مَتى مسَّهم ضرٌّ دعوا الله سبحانه، وتركوا الأَصنام مطروحة، ولهم في ذلك الوقت إنابةٌ وخضوع، فإِذا أَذاقهم رحمته، أَي: باشَرَهُم أَمْرُهُ بها، والذوق مستعار، إِذا طائفة تشرك به أَصناماً ونحو هذا، و[إِذَا] للمفاجأَة، فلذلك صلحت في جواب [إِذَا] الأُولى، فهي بمنزلة الفاءِ، وهذه الطائفة هي عَبَدَة الأَصنام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويلحق من هذه الأَلفاظ شيءٌ للمؤمنين إِذا جاءَهم فرحٌ بعد شِدَّة، فعلَّقوا ذلك بمخلوق، أَو بحذق آرائهم، أَو بغير ذلك؛ لأَن فيه قِلَّة شكر الله تبارك وتعالىٰ، ويسمى شركاً مجازاً.

وقوله تعالىٰ: [لِيَكْفُرُوا] اللام لام كَيْ، وقالت فرقة: هي لام الأَمر على جهة الوعيد والتهديد. وأَمَّا قوله تعالىٰ: [فَتَمَتَّعُوا] فأَمر على جهة الوعيد والتقرير، أَي: قل لهم يا محمد: فتَمَتَّعُوا.

وقرأَ أَبو العالية: [فَيَتَمَتَّعوا] بياءٍ قبل التاءِ، وذلك عطف على [لِيَكْفُرُوا]، أَي: لتطول أَعمارهم على الكفر، وفي حرف ابن مسعود: «فَلْيَتَمَتَّعُوا»، ورُوي عن أَبي العالية: «فَيُمَتَّعُوا» بضم الياءِ دون تاءٍ أُولى، وفي مصحف ابن مسعود: [تَمَتَّعُوا]، كذا قال هارون. وقرأَ عامة الناس: [تَعْلَمُونَ] بالتَّاءِ على المخاطبة، وقرأَ أَبو العالية: [يَعْلَمُونَ] بالياءِ على ذكر الغائب.

وقوله تعالىٰ: [أَمْ] هي بمعنى (بَلْ) وأَلِف الاستفهام، كأَنه أَضرب عن صدر الكلام ورجع عن هذه الحُجَّة. و«السُّلْطَانُ» ها هنا: البُرهان، من رسول أَو كتاب ونحوه، والسُّلْطان في كلام العرب جمع سَلِيطٍ، كرغيف ورُغفان، وغَدير وغُدْران، فهو مأْخوذٌ من التَّسَلُّط والتَّغلُّب، ولَزِمَ هذا الاسمُ في العرف الرئيسَ؛ لأَنه تَسَلَّطُ بوجه الحق، وهو

اسم جمع من حيث هي أَنواعُ الغَلَبَة والملك عنده، وقال قوم: هو اسم مفرد وزنه فُعْلان.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ معناه أَنَّه يُظهر حجتهم، ويُغَلب مذهبهم، وينطق بشركهم، قاله قتادة، فيقوم بذلك مقام الكلام، كما قال تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ ﴾[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

لما ذكر تعالىٰ حال الناس متى تأتيهم شدة وضرٌ وَلَجُوا منه إِلى سَعَةٍ، ذَكَرَ في هذه الآية الأمر أَيضاً من الطرف الآخر بأَن ذكر الرحمة تعقبها الشِّدَّة، فلهم في الأُولى تضرُّعٌ ثم إِشراكٌ، ولهم في الثانية فرحٌ وبطر ثم قنوط ويأس، وكلُّ أَحدٍ يأخذ من هذا الخُلُق بقسط، فمنهم المُقِلُّ ومنهم المُكْثر، إِلاَّ من ربطت الشريعة على قلبه، وتأَدَّب بأدب الله تعالىٰ، فصبر عند الضَّرَّاءِ، وسكن عند السَّرَّاءِ، ولم يبطر عند النعمة، ولم يقنط عند الابتلاءِ. وقوله تعالىٰ: ﴿ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾، أَي أَن الله تعالىٰ يمتحن الأُمم، ويصيب منهم عند فشو المعاصي وظهور المناكر، ولذلك فقد يصاب شخص لِسُوءِ أَعماله بشيءٍ وَحْدَه، ويعفو الله تعالىٰ عن كثير. والقُنُوط: اليأسُ، وقرأَ أَبو عمرو، وجماعة: [يَقْنِطُونَ] بكسر النون، وقرأَ نافع، والحسن، وجماعة بفتحها.

وجواب الشرط في قوله: ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ ﴾ قوله: ﴿ إِذَا هُمۡ ﴾، وذلك أَنها للمفاجأَة لا يُبْتَدَأُ بها؛ لأَنها بمنزلة الفاءِ، ويجاب بها الشرط، وأَما التي للشرط أَو التي فيها معنى الشرط فيُبْتَدَأُ بهما.

ثم ذكر تعالىٰ الأَمر الذي من اعتبره لم ييأَس من روح الله تعالىٰ على حال، وهو أَن الله تبارك وتعالىٰ يخص من شاءَ من عباده ببسط الرزق، فينبغي لكل عبد أَن يكون راجياً ما عند ربِّه، ثم أَمر تعالىٰ نبيَّه ﷺ أَمراً تدخل الأُمة فيه، وهذا على جهة النَّدْب

---

(١) من الآية (٢٩) من سورة (الجاثية).

إلى إيتاءِ ذي القُرْبَى حقَّه من صلة المال وحُسْن المعاشرة ولين القول.

قال الحسن: حقُّه المواساة في اليُسْر، قال: ومعظم ما قصد أَمر المعونة بالمال، ومنه قول النبي ﷺ: «في المال حق سوى الزكاة»(١)، وكذلك للمسكين وابن السبيل حق، وبيَّن أَن حقَّ هؤلاءِ إنما هو في المال وغير ذلك، وكذلك يلتزم القريب المعدم الذي يُقْضَى حقُّه أَن يَقْضِي هو أَيضاً حقَّ قريبه في جودة العشرة، و«وَجْهُ اللهِ» هنا جِهَةُ عبادته ورضاه، و[ٱلْمُفْلِحُونَ]: الفائزون بِبُغْيَتِهِم، البالغون لآمالهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

قرأَ الجمهور: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم ﴾ بمعنى: أَعطيتم، وقرأَ ابن كثير: ﴿وما أَتيتم﴾ بغير مدٍّ، بمعنى: ما فعلتم، كما تقول: أَتَيْتُ صواباً وأَتَيْتُ خطأً، وأَجمعوا على المدِّ في قوله: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾. والرِّبَا: الزيادة.

واختلف المتأَولون في معنى هذه الآية ـ فقال ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، وطاووس: هذه آية نزلت في هِبات الثواب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وما جرى مجراها مما يصنعه الإِنسان ليجازى عليه؛ كالسَّلام وغيره، فهو وإِن كان لا إِثم فيه، فلا أَجر فيه ولا زيادة عند الله تبارك وتعالى(٢).

وقال ابن عباس أَيضاً، وإِبراهيم النَّخَعي: نزلت في قوم يعطون قراباتهم وإِخوانهم على معنى تمويلهم ونَفْعهم والتَّفَضُّل عليهم، وليزيدوا في أَموالهم على جهة النفع لهم، وقال الشعبي: معنى الآية أَن ما خدم الإِنسانُ به أَحداً، وخفَّ له لينتفع به في دنياه، فإِن

---

(١) أخرجه الترمذي والدارمي في الزكاة، قال الدارمي في سُنَنه: (أخبرنا محمد بن الطفيل، ثنا شُرَيك، عن أبي حمزة، عن عامر، عن فاطمة بنت قيس، قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ في أَموالكم حقاً سوى الزكاة»).

(٢) هكذا في جميع الأصول.

ذلك النفع الذي يجزي به الخدمة لا يربو عند الله تعالىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كلُّه قريب وجزءٌ من التأْويل. ويحتمل أَن يكون معنى هذه الآية النهي عن الرِّبا في التجارات. لمَّا حَضَّ عزَّ وجلَّ على نفع ذوي القُرْبَى والمساكين وابن السبيل أَعْلَمَ أَن ما فعل المرءُ من ربا ليزداد به مالاً ـ وفِعْله ذلك إنما هو في أَموال الناس ـ فإن ذلك لا يربو عند الله تعالىٰ ولا يزكو، بل يتعلق فيه الإثم ومَحْق البركة، وما أَعطى الإنسان من زكاة تنميةً لماله وتطهيراً، يريد بذلك وجه الله تعالىٰ، فذلك هو الذي يُجَازي به أَضعافاً مضاعفة على ما شاءَ الله تعالىٰ له.

وقال السُّدي: نزلت هذه الآية في رِبَا ثقيف؛ لأَنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش.

وقرأَ جمهور القراءِ السبعة: (لِيَرْبُو) بالياءِ وإِسناد الفعل إلى الرِّبَا، وقرأَ نافع وحده: [لِتُرْبُوا] بضم التاء والواو ساكنة، بمعنى: يكونوا ذوي زياداتٍ، وهذه قراءَة ابن عباس رضي الله عنهما وأَهل المدينة، والحسن، وقتادة، وأَبو رجاءٍ، والشعبي. قال أَبو حاتم: هي قِراءَتُنا، وقرأَ أَبو مالك: [لِتُرْبُوهَا] بضمير مؤنث، و«المُضْعِف» الذي هو ذو أَضعاف من التراث، كما أَن المؤلف الذي له الأَلْف، وكما تقول: أَخصب إِذا كان ذا خصب، وهذا كثير، ومنه أَرْبَى المتقدم في قراءَةِ من قرأَ: [لِتُرْبُوا] بضم التاءِ.

ثم كرَّر مخاطبة الكفرة في أَمر أَوثانهم، فذكر أَفعال الله تعالىٰ التي لا شريك له فيها، وهي الخَلْق والرزق والإِماتة والإِحياءُ، ولا يمكن أَن ينكر ذلك عاقل، ثم وقف الكفار ـ على جهة التقرير والتوبيخ ـ ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أَي: الذين جعلتموهم شركاءَ، مَن يفعل مِنْ شيءٍ من ذلك؟ وهذا الترتيب بـ[ثُمَّ] هو في الإِيجاد شيئاً بعد شيءٍ، ومن هنا أَدخل الفقهاءُ الولد مع أَبيه في تعقيب الأَجناس إِذا كان اللفظ: «ثُمَّ على أَعقابهم، ثم على أَعقاب أَعقابهم». ثم نزَّه تبارك وتعالىٰ نفسه عن مقالتهم في الإِشراك. وقرأَ الجمهور: (يُشْرِكُونَ) بالياءِ من تحت، وقرأَ الأَعمش، وابن وثاب بالتاءِ من فوق.

ثم ذكر تعالىٰ ـ على جهة العبرة ـ ما ظهر من الفساد بسبب المعاصي في قوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، واختلف الناس في معنى «البَرِّ والبَحْرِ» في هذه الآية ـ فقال مجاهد: البَرُّ: البلادُ البعيدة من البحر، والبَحْرُ: السَّواحلُ والمدن التي على ضفة

البحر والأنهار الكبار. وقال قتادة: البَرُّ: الفيافي ومواضع القبائل والصحارى، والبحرُ: المدن، جمع بَحْرَة(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومنه قول سعد بن عبادة رضي الله عنه للنبي ﷺ في شأن عبد الله بن أَبي سلول: «ولَقَدْ أَجمع أَهل هذه البُحَيْرَة على أَن يُتَوِّجُوهُ» الحديث(٢). ومما يؤيد هذا أن عكرمة قرأ: [في البَرِّ والبُحُور](٣)، ورويت عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال مجاهد أَيضاً: ظهورُ الفساد في البر قتال بني آدم لأخيهم(٤)، وفي البحر أَخذ السفن غصْباً، وقال بعض العُبَّاد: البحرُ: القَلْبُ، والبَرُّ: اللِّسان، وقال الحسن: البَرُّ والبَحْرُ هما المعروفان المشهوران في اللغة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا القول صحيح.

---

(١) في (اللسان ـ بَحَر): «العرب تقول لكل قرية: هذه بَحْرَتُنا، والبحْرَةُ: الأرْضُ والبَلْدَة، وفي حديث القسامة: قَتَلَ رجُلاً بِبَحْرَةِ الرَّاءِ، والبَحْرَةُ: البَلْدَةُ، وفي حديث عبد الله بن أُبَيٍّ: اصطلح أَهْلُ هذه البُحَيْرَة أنْ يَعْصِبُوه بالعصابة». ويتضح من هذا أن البَحْرَة هي البلدة، وأنها تُصَغَّر عَلَى بُحَيْرَة، ولكن لم نجد أن البُحر جمع لها.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، والأدب، والاستئذان، ومسلم في الجهاد، وأحمد في المسند ٥ـ٢٠٣، ولفظه كما في المسند عن عروة بن الزبير أن أُسامة بن زيد أخبره أن النبي ﷺ ركب حماراً عليه إكاف تحته قطيفة فدكية، وأردف وراءَه أُسامة بن زيد وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحرث بن الخزرج، وذلك قبل وقعة بدر، حتى مرَّ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، فيهم عبد الله بن أُبَيّ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أُبَيّ أنفه بردائه ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم عليهم النبي ﷺ، ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، فقال له عبد الله بن أُبَيّ: أيها المرء لا أَحْسَنُ من هذا، إن كان ما تقول حقاً فلا تؤذينا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك منا فاقصص عليه، قال عبد الله بن رواحة: اغشنا في مجالسنا فإنا نحب ذلك، قال: فاستَبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى همُّوا أن يتواثبوا، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال: أيْ سعد، أَلم تسمع ما قال أبو حباب؟ يريد عبد الله بن أُبَيّ، قال كذا وكذا، قال: اعف عنه يا رسول الله واصفح، فوالله لقد أَعطاك اللهُ الذي أَعطاكَ، ولقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرة أن يُتَوِّجُوه فيعصبونه بالعصابة، فلما ردَّ الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق بذلك، فذاك فعل به ما رأيت، فعفا عنه النبي ﷺ.

(٣) أي بالجمع كما نصَّ على ذلك في البحر المحيط.

(٤) وردت هذه العبارة في نسخة أخرى: (قتال أحد ابني آدم لأخيه) وهي أنسب من العبارة الأولى الواردة في الأصل.

وظهور الفساد فيهما هو ارتفاع البركات، ونزول رزايا وحدوث فتن، وتغلُّب عدوٍّ كافر، وهذه الثلاثة توجد في البر والبحر.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الفساد في البحر: انقطاع صيده بذنوب بني آدم، وقلَّما توجد أُمَّة فاضلة مطيعة مستقيمة الأعمال لا يدفع الله عنها هذه، والأمر بالعكس في أَمر المعاصي وبطر النعمة، وكذلك كان أَمر البلاد في وقت بعث النبي ﷺ، قد كان الظلم عمَّ الأَرْض برًّا وبحراً، وقد جعل الله تعالىٰ هذه الأَشياءَ ليجازي بها على المعاصي، فيُذيق الناس عاقبة ذنوبهم لعلهم يتوبون ويراجعون بصائرهم في طاعة الله تعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ تقديره: جزاءَ ما كسبت، ويجوز أَن تتعلق الباءُ بـ [ظَهَرَ]، أي: بِكَسْبهم المعاصي في البر والبحر، وهو نفس الفساد الظاهر، والتَّرَجِّي في «لَعَلَّ» هو على معتقدنا، وبِحَسَب نظرنا في الأُمور.

وقرأَت عامة القراءِ والناس: (لِيُذِيقَهُمْ) بالياءِ، وقرأَ قنبل عن ابن كثير، والأَعرج، وأَبو عبد الرحمن السُّلَمي بالنون[١]، ومعناهما بيِّن، وقرأَ أَيضاً أَبو عبد الرحمن: [لِتُذِيقَهُم] بالتاءِ من فوق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

هذا تنبيهٌ لقريش وأَمْرٌ لهم بالاعتبار بمن سلف من الأُمم وبِسُوءِ عواقبهم بكفرهم وإِشراكهم، ثم أَمَر تعالىٰ نَبيَّه عليه الصلاة والسلام بإِقامة وجهه، والمعنى: اجعل قصدكَ ومسعاك للدِّين، أَي لطريقه ولأَعماله واعتقاداته. و[القَيِّم] أَصله: قَيْوِم، اجتمعت الياءُ والواوُ وسبقت الياءُ وهي ساكنة وأُبْدِلت الواو ياءً وأُدغمت الأُولى في الثانية. ثم حذَّره تبارك وتعالىٰ من يوم القيامة تحذيراً يعُمُّ العالم، وإِياهم القصد،

---

(١) وهي أيضاً قراءة أبي حيوة، وسلام، وسهل، وروح، وابن حسَّان. وهي قراءَة قنبل من طريق ابن مجاهد، وابن الصباح، وأبو الفضل الواسطي عنه، ومحبوب عن أبي عمرو.

و﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ معناه: ليس فيه رجوع لعمل ولا رغبة، ولا عنه مرتحل، ويحتمل أن يريد: لا يَرُدُّهُ رادٌّ حتى لا يقع، وهذا ظاهر بحسب اللفظ، و﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ معناه: يتفرقون بعد جمعهم، وهذا هو التصدع، ومعنى «يتفرَّقون»: إلى الجنة وإلى النار.

ثم قسَّم الفريقين بأَحكام تلحقهم من أَعمالهم في الدنيا، ثم عبَّر عن الكفر بـ «عَلَيْهِ»، وهي تعطي الثِّقَل والمشقَّة، وعن العمل الصالح باللام التي هي لام الملك[1]، و﴿يَمْهَدُونَ﴾ يُوطئون ويُهيئون، وهي استعارة منقولة من الفُرُش ونحوها إلى الأَحوال والمراتب. وقال مجاهد: هذا التَّمهيد هو للقبر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

اللام في ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلقة بـ ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾، ويجوز أَن تكون متعلقة بمحذوف تقديره: ذلك، أَو: فَعَلَ ذلك ليجزي، وتكون الإشارة إلى ما تقرر من قوله: ﴿مَن كَفَرَ﴾، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا﴾. وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ليس الحب بمعنى الإرادة، ولكنه بمعنى: لا يُظْهر عليهم أَماراتِ رحمته، ولا يرضاه لهم ديناً، ونحو هذا.

ثم ذكر تعالىٰ من آياته أَشياءَ تقتضي كل عقل بأَنه لا مشاركة للأَوثان فيها، وهي ما في الريح من المنافع، وذلك أَنها بُشرى بالمطر، ويذيق الله بها الرحمة، يعني الغيث والخصب، ويلقح بها الشجر وغير ذلك، وتجري السفن بها في البحر، ويبتغي الناسُ بها من فضل الله تعالىٰ في التجارات في البحر، وفي ذَرْو الأَطعمة وغير ذلك.

ثم آنَسَ محمداً ﷺ بأَن ضرب له مثل من أَرسل من الأَنبياءِ، ثم وعد تعالىٰ محمداً ﷺ وأُمَّته النصر؛ إِذْ أَخبر أَنه جعله حقًّا عليه تبارك وتعالىٰ، و﴿حَقًّا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ قدَّمه اهتماماً، لأَنه موضع فائدة الجملة[2]، وبعض القراءِ في هذه الآية وقف على

---

(١) في بعض النسخ: كَلام المِلْكِ. أي: مِثل لام الملك.
(٢) واسم ﴿كَانَ﴾ على هذا هو ﴿نَصْرُ﴾، وترتيب الكلام: وكان نصر المؤمنين حقاً علينا.

قوله: [حَقًّا]، وجعله من الكلام المتقدم، ثم استأنف جملة مكونة من قوله: ﴿عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذا قول ضعيف؛ لأنه لم يدر قدر ما عرضه في نظم الآية(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

إثارة السُّحب: تحريكها من سكون وتَسْيِيرُها، وبَسْطُها في السماءِ هو نشرها في الآفاق، و«الْكِسَفُ»: القِطَعُ. وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿كِسَفًا﴾ بفتح السِّين، وقرأَ ابن عامر: [كِسْفاً] بسكون السِّين، وهي قراءَة الحسن، وأَبي جعفر، والأَعرج، وهما بناءَان للجمع، كما يقال: «سِدْرَةٌ وسِدْر» بسكون الدال، و«سِدَر» بفتح الدال، وقال مكي: من أَسكن السِّين فمعناه: يجعل السحاب قطعة واحدة، و﴿الْوَدْق﴾: الماءُ يمطر، ومنه قول الشاعر:

فَـلاَ مُـزْنَـةٌ وَدَقَـتْ وَدْقَهَـا ... وَلاَ أَرْضٌ أَبْقَـلَ إِبْقَـالَهَـا(٢)

و﴿خِلاله﴾: الفطور الذي بين بعضه وبعض؛ لأَنهُ مُتَحلل الأَجزاءِ. وقرأَ الجمهور: ﴿مِنْ خِلَـٰلِهِۦ﴾ بكسر الخاءِ وأَلف بعد اللام، جَمْعُ خَلَل كجَبَل وجِبَال، وقرأَ عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، وابن عباس، والضحاك، والحسن ـ بخلاف عنه ـ: [مِنْ خِلَلِهِ]، وهو اسم جنس. والضمير في ﴿خِلاَلِهِ﴾ يحتمل أَن يعود على «السحاب»، ويحتمل أَن يعود على «الكسف» في قراءَة من قرأَ بسكون السِّين، وذكَّر الضمير مراعاةً

---

(١) الذي قرأَ بالوقف على [حَقّاً] هو أبو بكر، وتقدير الكلام، وكان عقابُنا حقاً، وهذا تقدير القرطبي، وقدره الزمخشري: وكان الانتقام منهم حقاً.

(٢) البيت لعامر بن جُوَيْنٍ الطَّائي، وهو في كتاب سيبويه، والعيني، وابن يعيش، وشواهد المغني، وابن الشجري، وهمع الهوامع، وخزانة الأدب، والشاعر يصف أرضاً أَخصبت لكثرة الغيث، والمُزْنَة: واحدة المُزْنِ، وهو السحاب يحمل الماءَ، والوَدْق: المطر، وأَبْقلت: أخرجت البَقْل، وهو من النبات: ما ليس بشجر، ويستشهد النحويون بالبيت على حذف التاءِ من الفعل (أَبْقلت) لضرورة الشعر، ويُسوِّغُ ذلك أن الأرض بمعنى المكان، أما ابن عطية فقد استشهد بالبيت هنا على أن (ودقت ودقها) بمعنى: أمطرت مَطَرها، فالوَدْق هو ماءُ المطر.

لِلَّفظ لا لمعنى الجمع، كما تقول: «هذا تَمْرٌ جَيِّدٌ»(١)، و﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾(٢)، ومن قرأ: ﴿كِسَفاً﴾ بفتح السِّين فلا يعيد الضمير إلاَّ على السحاب فقط(٣).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ تأكيد أَفاد الإِعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الإِبلاس إِلى الاستبشار، وذلك أَن قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ يحتمل الفسحة في الزمان، أَي: من قبل ذلك، أَي: من قبل أَن ينزل بكثير من الأَيام ونحوه، فجاءَ قوله: ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ بمعنى أَنَّ ذلك متصل بالمطر، فهو تأْكيدٌ مُفَيِّد(٤). وقرأَ يعقوب، وعيسى، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ: [يُنْزَلَ] مخففة، وقرأَت عامة القراءِ بالتثقيل في الزَّاي، وقرأَ ابن مسعود: [عَلَيْهِمْ لَمُبْلِسِينَ] بسقوط ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾. و«الإِبْلاَسُ»: الكَوْنُ في حال سوءٍ مع اليأْسِ مِنْ زوالها.

ثم عجَّبَه بمخاطبة يُرادُ بها جميع الناس من أَثر رحمة الله وهي المطر، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، [أَثَرِ] بالإِفراد، وقرأَ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: (آثَار) بالجمع، واختلف عن عاصم.

وقوله: ﴿كَيْفَ يُحْيِ﴾ يحتمل أَن يكون الضمير الذي في الفعل للأَثر، ويحتمل أَن يكون للهِ تعالىٰ، وهذا أَظهر. وقرأَت فرقة: [كيف تحيا] بالتَّاءِ المفتوحة [ٱلأَرْضُ] بالرفع. وقرأَ الجحدريُّ، وابن السَّمَيْفَع، وأَبو حيوة: [تُحْيِي] بتاءٍ مضمومة على أَن إِسناد الفعل إِلى ضمير الرحمة نصباً. قال أَبو الفتح: «قوله: ﴿كَيْفَ تُحْيِ﴾ جملة منصوبة الموضع على الحال حملاً على المعنى، كأَنه قال: «مخْيِيَةً»(٥)، وهذه الحياة

---

(١) لأن علماءَ اللغة يقولون: كلُّ جمع بينه وبين واحده الهاءُ لا غير فالتذكير فيه حَسَن، وهذا ينطبق على «تَمْرٍ وتَمْرَة وشَجَرٍ وشَجَرة».

(٢) يظهر أن في الكلام نقصاً سقط من النساخ، وأن أصل التعبير: «هذا تمر جَيِّدٌ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ فقد عاد الضمير عليه مذكَّراً في قوله: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾». فالضمير في (مِنْهُ) يعود على [الشَّجَر].

(٣) لأن السحاب اسم جنس يجوز تذكيره وتأنيثُه.

(٤) وقال قطرب: إن [قَبْل] الأولى للإنزال والثانية للمطر، أي: وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر، وقيل: المعنى: من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزَّرع، ودَلَّ على الزَّرع المَطرُ إذْ بسببه يكون، ودلَّ عليه أيضاً: ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾، وقيل: المعنى: من قبل السحاب من قبل رؤيته. ولكن أكثر النحويين يرون الرأي الذي ذكره المؤلف.

(٥) قال أبو الفتح بن جنِّي: «ذهب بالتأنيث في قوله: ﴿كَيْفَ تُحْيِ﴾ إلى لفظ الرحمة، وذلك لأن الرحمة=

والموت استعارة في القحط والإغضاب. ثم أخبر تبارك وتعالىٰ ـ على جهة القياس والتَّنبيه عليه ـ بالبعث والنُّشور، وقوله سبحانه: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ عمومٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

ثم أخبر تعالىٰ عن حال تقلُّب ابن آدم في أنه بعد الاستبشار بالمطر إذا بعث الله ريحاً فاصْفَرَّ بها النباتُ ظلَّ يكفر قَلَقاً منه وَقِلَّةَ توكُّلٍ وتسليم لله عزَّ وجلَّ. والضمير في ﴿فَرَأَوْهُ﴾ للنبات كما قُلْنَا، أَو للأَثر وهو حُوَّة النبات الذي أُحييت به الأَرض، وقال قومٌ: هو للسحاب، وقال قوم: هو للرِّيح، وهذا كله ضعيف. واللام في ﴿لَئِنْ﴾ مؤذنة بِمَجِيءِ القَسَم، وهو في ﴿لَظَلُّوا﴾، فاللام لام القَسَم. وقوله تعالىٰ: ﴿ظَلُّوا﴾ فعل ماض أَنزله منزلة المستقبل واستنابه منابه؛ لأَن الجزاءَ هنا لا يكون إلاَّ بفعل مستقبل، لكن استُعْمل الماضي موضع المستقبل في بعض المواضع توثيقاً لوقوعه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ الآية... استعارة للكفار، وقد تقدم القول على مثل هذه الآية في سورة النمل[1]. وكلُّهم قرأَ: ﴿وَلَا تُسْمِعُ﴾ بتاءٍ مضمومة ونصب ﴿الصُّمَّ﴾، وقرأَ ابن كثير، وعباسٌ عن أَبي عمرو: [تَسْمَعُ] بتاءٍ مفتوحة [الصُّمُّ] رفعاً. وقرأَ الجمهور: ﴿بِهَادِ الْعُمْيِ﴾ بالإضافة، وقرأ يحيى بن الحرث، وأَبو حيوة: [بِهَادٍ] بالتنوين [الْعُمْيَ] نصباً. وقوله: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ﴾ معناه: إنْ تُسمع إسماعاً ينفع ويُجدي، وأَما سماع الكفرة فغير مُجْدٍ فاستويا. وقوله تعالىٰ: ﴿عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾، لما كان الهدى يتضمن الصرف عديت بـ (عَنْ) كما تتعدى (صرف)، ومعنى الآية: ليس في قدرتك يا محمد ولا عليك أَن تهدي. وقرأَ ابن أَبي عبلة: [من ضلالتهم][2].

= قد يقوم مقامها أثرُها، كما تقول: رأيتُ عليك النعمةَ، ورأيتُ عليك أثرَ النعمة». ثم قال: «وجملة ﴿كَيْفَ يُحْيِي﴾ في موضع نصب على الحال، حملاً على المعنى لا على اللفظ، لأن اللفظ استفهام، والحال ضرب من الخبر، والاستفهام والخبر معنيان متدافعان، وتلخيص كونها حالاً أنه كأنه قال: «فانظر إلى أثر رحمة الله مُحْيِيَةً الأرضَ بعد موتها».

(١) عند تفسير قوله تعالىٰ في الآية (٨٠): ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾.

(٢) قال الفراءُ: «كلٌّ صوابٌ، من قال: ﴿عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ كأنه قال: ما أنتَ بصارفِ العُمْيَ عن الضلالة، ومن=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

هذه أيضاً آية بيِّنٌ فيها أن الأوثان لا مدخل لَها في هذا الأمر. وقرأ جمهور القراءِ والناس بضم الضاد في [ضُعْف]، وقرأ عاصم، وحمزة بفتحها، وهي قراءَة ابن مسعود وأبي رجاءٍ، والضَّمُّ أصوب، وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قرأها على رسول الله ﷺ بالفتح فردَّها عليه بالضم[1]، وقال كثير من اللغويين: ضمُّ الضاد في البدن وفَتْحها في العقل، وروي عن عبد الرحمن، والجحدري، والضحاك أنهم ضموا الضاد في الأول والثاني، وفتحوا [ضَعْفاً][2]، وقرأ عيسى بن عمر: [من ضُعُف] بضمتين، وهذه الآية إنما يراد بها حال الجسم، والضعف الأول هو كون الإنسان من ماءٍ مهين، والقوة بعد ذلك الشبيبة وشدة الأمر، والضعف الثاني الهرم والشُّح، هذا قول قتادة وغيره.

= قال: [مِنْ] قال: مَا أَنْتَ بمانعهم من الضلالة». (معاني القرآن ٢ـ٣٢٦).

(١) أخرجه سعيد بن منصور، وأحمد، وأبو داود، والترمذي وحسَّنه، وابن المنذر، والطبراني، والشيرازي في الألقاب، والدارقطني في الأفراد، وابن عدي، والحاكم، وأبو نعيم في الحلية، وابن مردويه، والخطيب في تالي التلخيص ـ عن ابن عمر رضي الله تعالىٰ عنهما قال: قرأتُ على النبي ﷺ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾، فقال: [ضُعف] يا بُنَيَّ. (الدر المنثور).

(٢) قال القرطبي: «وقرأ الجحدري: ﴿مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ بالفتح فيهما، [ضُعْفاً] بالضم خاصة» اهـ. فقارن هذا بما ذكره ابن عطية. وما في البحر المحيط يوافق ما قاله ابن عطية. وقد حدث خلاف في الرواية عن عاصم، وذكر الإمام الحافظ ابن الجزري ذلك في كتابه: «النشر في القراءات العشر» فقال: «وروينا عن حَفْص من طرق أنه قال: ما خالفت عاصماً في شيءٍ من القرآن إلا في هذا الحرف، وقد صحَّ عنه الفتح والضم جميعاً، فروى عنه عبيد، وأبو الربيع الزهراني، والفيل عن عمرو عنه الفتح روايةً، وروى عنه أبو هُبَيْرة، والقواس، وزرعان عن عمرو عنه الضم اختياراً»، وقال الحافظ أبو عمرٍو: «والاختياري في رواية حفص من طرق عمرٍو وعبيد الأخذ بالوجهين: بالفتح والضم، فأُتابع بذلك عاصماً على قراءَته، وأُوافق به حفصاً على اختياره». ثم علَّق الحافظ ابن الجزري على ذلك فقال: «وبالوجهين قرأْت له، وبهما آخذ».

ثم أَخبر تعالىٰ عن يوم القيامة أَن المجرمين يُقْسِمون لجاجاً منهم ونشوزاً على ما لا علم لهم به؛ أَنهم ما لبثوا تحت التراب غير ساعة، وهذا اتباع لتخيلهم الفاسد، ونظرهم في ذلك الوقت على ما كانوا في الدنيا يبتغون، فيؤفكون عن الحق، أَي: يُصرفون.

وقيل: المعنى: ما لبثوا في الدنيا، كأَنهم استقلُّوها لمَّا عاينوا أَمر الآخرة[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا يضعفه قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾؛ إِذ لو أَرادوا تقليل الدنيا بالإِضافة إِلى الآخرة لكان منزعاً شديداً، وكان قولهم: ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ تجوُّزاً، أَي: في القدر والموازنة.

ثم أَخبر تعالىٰ عن الذين أُوتُوا العلم والإِيمان أَنهم يقفون في تلك الحال على الحق، ويعرفون أَنه الوعد المتقرر في الدنيا. وقال بعض المفسرين: إِنما أَراد: «أُوتُوا الإِيمانَ والعِلْمَ»، ففي الكلام تقديم وتأْخير.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا يحتاج إِلى هذا، بل ذكر العلم يتضمن الإِيمان، ولا يصف الله تعالىٰ بِعِلْم مَنْ لم يعلم كلَّ ما يوجب الإِيمان، ثم ذكر الإِيمان بعد ذلك تنبيهاً عليه وتشريفاً لأَمره، كما قال: ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[٢]، فنبَّه تبارك وتعالىٰ على مكان الإِيمان وخصه تشريفاً[٣].

---

(١) وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾.

(٢) من الآية (٦٨) من سورة (الرحمن)، وهي قوله تعالىٰ: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾.

(٣) الذي قال بالتقديم والتأْخير هو قتادة، وحقيقة القول عنده يتضح من التقدير الذي قدره، فقد قال: «تقديره: (أُوتوا العلم في كتاب الله والإيمان لقد لبثتم)، وعلى هذا تكون [في] بمعنى الباءِ، أي: أُوتوا العلم بكتاب الله»، ونقل ذلك عنه الطبري، ثم ابن عطية، ولكنهما قدَّرا تقديراً آخر غير الذي ذكرناه هنا، وقد نقل الشوكاني في فتح القدير عن الواحدي قوله: «والمفسرون حملوا هذا على التقديم والتأْخير، على تقدير: (وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله)»، وهذا غير ما قدَّره قتادة في حديثه الذي رواه الطبري، ونقله ابن عطية هنا. وقد قال أبو حيان في «البحر المحيط» أيضاً: «ولعلَّ هذا القول لا يصح عن قتادة؛ فإِنَّ فيه تفكيكاً للنظم لا يسوغ في كلام غير فصيح، فكيف يسوغ في كلام الله، وكان قتادة موصوفاً بعلم العربية فلا يصدر عنه مثل هذا القول».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

هذا إِخبارٌ عن هول يوم القيامة وشدة أَحواله على الكفرة؛ في أَنهم لا ينفعهم الاعتذار، ولا يُعطون عُتْبى، وهي الرِّضى، و[يُسْتَعْتَبُونَ] بمعنى: يعتبون، كما تقول: يملك ويستملك، والباب في (اسْتفْعَل) أنه طلب الشيءِ، وليس هذا منه؛ لأَن المعنى لا يفسد إِذا كان المفهوم منه: ولا يطلب منهم عُتْبى[1].

وقرأَ عاصم، والأَعمش: [يَنْفَعُ] بالياءِ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ﴾[2]، وحَسُن هذا أَيضاً بالتفرقة التي بين الفعل وما استند إِليه، كما قال الشاعر:

وهلْ يرجع التَّسْليمَ أَو يَكْشِفُ الْعَمَى ... ثَـلاثُ الأَثَـافي والـدِّيَـارُ الْبَـلاَقِـعُ ؟[3]

ثم أَخبر تعالىٰ عن قسوة قلوبهم، وعجرفة طباعهم، في أَنه ضرب لهم كلَّ مثل، وبيَّن عليهم بيان الحق، ثمَّ هُمْ مع ذلك عند الآية والمعجزة يكفرون ويُلحفون ويعمهون في كفرهم، ويصفون أَهل الحق بالأَباطيل. ثم أَخبر تعالىٰ أَن هذا إِنما هو من طَبْعِه وخَتْمِه على قلوب الجهلة الذين قد ختم عليهم الكفر في الأَزل، وذهب أَبو عبيدة إِلى

---

(١) معنى هذا أن اسْتَفْعَل بمعنى الفعل المجرد وهو (عتب)، أي: هم من الإهمال وعدم الالتفات إليهم بمنزلة من لا يؤهل للعتب، قال ذلك أبو حيان في البحر، وقد قيل: المعنى لا يعاتبون على سيئآتهم بل يعاقبون، وقيل: لا تطلب لهم العُتْبى.

(٢) من الآية (٢٧٥) من سورة (البقرة).

(٣) الأثافي: جمع الأُثْفِيَّة والإِثْفِيَّة، وهي الحجر الذي توضع عليه القِدْر، والعادة أن توضع القِدْر على ثلاثة أحجار ويترك موضع الحجر الرابع خالياً ليدفع منه الحطب تحت القِدْر، وثالثة الأثافي: الجبل؛ لأن العرب كانت إذا لم تجد حجراً ثالثاً أسندوا القدور إلى الجبل. والديار البَلاقع: التي لا شيء فيها، وقد جمعوا فقالوا: «أرضٌ بلاقع» لأنهم جعلوا كل جزء منها بلقعاً، والمكان البلقع هو الخالي، وقد يوصف به الأنثى والجمع، فيقال: أرْض بَلْقع وديارٌ بلْقع، والشاهد أن الفعل (يرجع) جاء بالياء للفرق بينه وبين ما استند إليه وهو (ثلاث. . .) بفاصل من الكلام.

أنه من قولهم: «طَبَعَ السَّيفُ»، أي: صَدِئ أَشَدَّ صدأ[١].

ثم أَمر تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالصبر، وقوَّى نفسه بتحقيق الوعد، ونهاه عن الاهتزاز لكلامهم، أَو التحرك واضطراب النفس لأَقوالهم؛ إِذْ هم لا يقين لهم ولا بصيرة.

وقرأَ ابن أَبي إِسحاق، ويعقوب: [يَسْتَحِقَّنَّكَ] بحاءٍ غير معجمة وقاف، من الاستحقاق[٢]، والجمهور على الخاءِ المعجمة والفاءِ، من الاستخفاف، إِلاَّ أَن أَبا إِسحاق ويعقوب[٣] سكَّنا النون من [يَسْتَخِفَنْكَ]. وروي أَن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه كان في صلاة الفجر، فناداه رجل من الخوارج بأَعلى صوته يقرأُ هذه الآية ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[٤]، فعَلِمَ عَلِيٌّ رضي الله عنه مقصده في هذا، وتعريضه به، فأَجابه وهو في الصلاة بهذه الآية: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[٥].

كمل تفسير سورة الرُّوم والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

* * *

---

(١) جاء في (اللسان ـ طَبَع): «وأَصْلُ الطَّبْع الصَّدَأُ يكثر على السيف... ثم استعير فيما يشبه ذلك من الأوزار والآثام وغيرها من المقابح التي تأتي على القلب».

(٢) قال أبو الفتح ابن جني في المحتسب: «أيْ: لا يَغْلِبُنَّك، فيصيروا أَحقَّ منك بنفسك، هذا محصول هذه القراءة».

(٣) الذي في البحر المحيط أن الذي سكَّن النون هو ابن أبي عبلة ويعقوب.

(٤) الآية (٦٥) من سورة (الزُّمَر).

(٥) أخرجه ابن أبي شيْبَة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم والبيهقي في سننه. (الدر المنثور).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سُورَة لقمَان

هذه السورة مكِّيَّة غير آيتين، قال قتادة: «أَوَّلُهما ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾»(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾.

تقدمَ القول في الحروف التي في أَوائل السُّور، وفي ترتيب [تِلْكَ] مع كل قول منها. و[ٱلْحَكِيم] يصحُّ أَن يكون من الحكمة، ويصحُّ أَن يكون من الحُكْم. وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحال من المبهم، ولا يصح أَن يكون من [ٱلْكِتَاب]؛ لأنه مضافٌ إِليه، وقرأَ حمزة، والكسائي بالرفع على تقدير: هو هدى، وخصَّصه للمحسنين من حيث لهم نفعه، وهم نظروه بعين الحقيقة، وإِلاَّ فهو هدى في نفسه، وفي قراءَة ابن مسعود: [هُدًى وَبُشْرى للمؤمنينَ].

ثم وصف تعالىٰ المحسنين بأَنهم الذين عندهم اليقين بالبعث وبما جاءَ به الرسول ﷺ، وعندهم إِقامة الصلاة وإِيتاءُ الزَّكاة، ومِنْ صِفَتهم ما قال رسول الله ﷺ حين سأَله جبريل عليه السلام عن الإِحسان، فقال: «أَن تعبد الله كأَنك تَراه، فإِنْ لم تكن تراه فإِنَّهُ يراك» الحديث(٢).

---

(١) وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ثلاث آيات، أَوَّلُهن ﴿ولو أن ما في الأرض﴾»، وآياتها أربع وثلاثون آية.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان والتفسير، ومسلم في الإيمان، وأبو داود في السُّنَّة، والترمذي في الإيمان،=

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾، رُوي أنَّها نزلت في قُرَشي اشترى جارية مُغَنِّية لتُغنِّي بهجاءِ رسول الله ﷺ وسَبِّه، فنزلت الآية في ذلك، ورُوي عن أَبي أُمامة الباهلي أَن النبي ﷺ قال: «شراءُ المُغَنِّيَات وبيعهن حرام»، وقرأ هذه الآية، وقال: «في هذا المعنى نزلت عليَّ هذه الآية»[١]، وبهذا فسَّر ابن مسعود، وابن عباس، وجابر بن عبد الله، ومجاهد، وقال الحسن: لَهْوُ الحديث: المعازفُ والغناءُ.

وقال بعض الناس: نزلت في النضر بن الحارث لأَنه اشترى كتب رستم واسفنديار، وكان يخلف رسول الله ﷺ فيحدثهم بتلك الأَباطيل، ويقول: أَنا أَحْسَنُ حديثاً من محمد[٢]، وقال قتادة: الشراءُ في هذه الآية مُستعارٌ، وإنما نزلت في أَحاديث قريش، وتَلَهِّيهم بأَمر الإِسلام، وخوضهم في الأَباطيل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فكأَن تَرْكَ ما يجب فعله، وامتثال هذه المنكرات شراءٌ لها، على حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾[٣]. وقد قال مُطَرِّف: شراءُ لَهْو الحديث

= وابن ماجه في المقدمة، وأحمد في أماكن كثيرة، ولفظه كما جاءَ في البخاري في تفسير سورة لقمان: عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ كان يوماً بارزاً للناس إذ أتاه رجل يمشي، فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخِر، قال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تُشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال: يا رسول الله، ما الإحسان؟ قال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. . .» ثم سأله عن الساعة، فأجابه مُبيِّناً أشراطها، فلما انصرف قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل جاءَ ليُعلِّم النَّاس دينهم».

(١) أخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي أُمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال: «لا تبيعوا القينات، ولا تشتروهن، ولا تعلموهن، ولا خير في تجارة فيهن، وثمنهن حرام، في مثل هذا أُنزلت الآية ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ إلى آخر الآية. (الدر المنثور). وفي ابن كثير: ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب، وضَعَّف من رواته عليَّ بن زيد».

(٢) قال القرطبي: «حكاه الفراءُ والكلبي وغيرهما»، وجاء ذلك في أسباب النُّزول للواحدي عن الكلبي ومقاتل بدون سند، وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ يعني باطل الحديث، وهو النضر بن الحارث بن علقمة، اشترى أحاديث العجم وصنيعهم في دهرهم، وكان يكتب الكتب من الحيرة والشام ويكذب القرآن، فأعرض عنه فلم يؤمن.

(٣) من الآية (١٦) من سورة (البقرة).

استحبابُه، قال قتادة: ولعلَّه لا يُنفق فيه مالاً، ولكن سماعه هو شراؤه، وقال الضحاك: لهْوُ الحديث الشِّرْكُ، وقال مجاهد أيضاً: لهْوُ الْحديث الطبْلُ، وهذا ضربٌ من الغِنَاءِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي يترجَّح أَن الآية نزلت في لهْو حديث مضاف إِلى كُفْر، فلذلك اشتدت أَلفاظ الآية بقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ وبالتوعد بالعذاب المهين. وأَما لفظة الشراءِ فتحتمل الحقيقة والمجاز على ما بيَّنَّا، و﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ كلُّ ما يُلْهي من غِنَاءٍ وخَنا ونحوه، والآية باقية المعنى في أُمَّة محمد ﷺ، ولكن ليس ليُضِلُّوا عن سبيل الله بكفر، ولا لِيتَّخذوا الآياتِ هُزواً، ولا عليهم هذا الوعيد، بل لِتَعَطُّلِ عبادة، وبِقَطْعهم زمناً بمكروه، ولكونهم من جملة العصاة، والنفوس الناقصة تروم تتْميمَ ذلك النقص بالأَحاديث، وقد جعلوا الحديث من القِرَى، وقيل لبعضهم: أَتَملُّ الحديث ؟ فقال: إِنما يُمَلُّ العتيق القديم المعاد؛ لأَن الجديد من الأَحاديث فيه الطرافة التي تَمْنَع من الملل.

وقرأَ نافع، وعاصم، والحسن: ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضم الياءِ، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرٍو بفتحها، وفي حرف أُبَيٍّ: [لِيُضِلَّ الناس عَنْ سبيلِ اللهِ]. وقرأَ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ بالنصب عطفاً على ﴿لِيُضِلَّ﴾، وقرأَ الباقون: [ويتَّخِذُهَا] بالرفع عطفاً على [يَشْتَرِي][1].

والضمير في ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ يحتمل أَن يعود على ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ المذكور أَولاً، ويحتمل أَن يعود على «السَّبيل»، ويحتمل أَن يعود على «الأَحاديث»؛ لأَن «الحديث» اسم جِنْسٍ بمعنى الأَحاديث، وكذلك ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اسم جِنْسٍ، ولكُلِّ وجهٍ من الحديث وجْهٌ يليق به من السبيل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ

(١) ويجوز أن يكون مستأنفاً.

دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾.

هذه دليلُ كفرِ هذا الذي نزلت فيه الآية التي قبلها. و«الْوَقْر» في الأُذن: الثقل الذي يُغَيِّرُ إدراك المسموعات، وجاءت البشارة بالعذاب من حيث قُيِّدت ونُصَّ عليها.

ولما ذكر عزَّ وجلَّ حال هؤلاءِ الكفرة وتوعدهم بالنار على أفعالهم عقَّب بذكر المؤمنين وما وعدهم به من جنَّات النَّعيم؛ لِيَتَبَيَّن الفرقُ. و﴿وَعْدَ اللهِ﴾ منصوبٌ على المصدر، و[حَقًّا] مصدرٌ مؤكد.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ يحتمل أَن يعود الضمير على «السماءِ» فيكون المعنى: إن السماءَ بغير عمَدٍ، وأَنها تُرَى كذلك، وهذا قول الحسن والناس، و[تَرَوْنَها] ـ على هذا القول ـ في موضع نصب على الحال، ويحتمل أن يعود الضمير على «العَمَد»، فيكون [تَرَوْنَهَا] صفةً لِلْعَمَد في موضع خفض، ويكون المعنى: إن السماءَ لها عَمَدٌ لكن غير مرئية، قاله مجاهد، ونَحَا إليه ابن عباس رضي الله عنهما، والمعنى الأَول أَصح، والجمهور عليه، ويجوز أَن تكون [تَرَوْنَهَا] في موضع رفع على القطع، ولاَ عَمَدَ ثَمَّ.

و«الرَّوَاسي» هي الجبال التي ثبتت في الأَرض، وقوله: ﴿أَن تَمِيدَ﴾ بمعنى: أَلاَّ تميد[1]، والمَيَدُ: التَّحرُّك يَمْنةً ويَسْرةً وما قرب من ذلك. وقوله تعالىٰ: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أَي: من كل نوع. والزَّوْجُ في اللغة: النَّوْعُ والصنف، وليس بالذي هو ضد الفرد، وقوله تعالىٰ: [كَرِيم] يحتمل أَن يريد مَدْحه من جهة إِتقان صنعته وظهور حسن الرُّتبة والتَّحكم للصنع فيها، فيعُمُّ حينئذ جميع الأَنواع؛ لأَن هذا المعنى في كلها، ويحتمل أَن يريد مدحه بكرم جوهره، وحسن منظره، وما تقتضي له النفوس بأَنه أَفضل من سواهُ حتى يستحق الكرم، فتكون الأَزواج ـ على هذا ـ مخصوصة في نفائس الأَشياءِ ومُستحسَناتها، ولما كان عُظْمُ الموجودات كذلك خصص الحجة بها. وقوله: [أَنْبَتْنَا]

---

(١) هذا رأي الفراءِ، ذكره في (معاني القرآن) ونقله عنه الطبري، ثم ابن عطية وبعض المفسرين، قال: «[وَأَنْ] في هذا الموضع تكفي من (لا)، كما قال الشاعر:

والمُهْــرُ يَــأبَــى أَنْ يــزال مُلْهِبَــا

معناه: يأبى أَن لا يزال» اهـ. والمُلْهِبَ: الشديد الجري، وقد أَلهَب الفرسُ: اضطرم جريُه.

يعم أَنواع الحيوان وأَنواع النبات والمعادن(١).

ثم وقف تعالىٰ الكفار ـ على جهة التوبيخ وإِظهار الحُجَّة ـ على أَن هذه الأَشياءَ هي مخلوقات(٢) الله تبارك وتعالىٰ، ثم سأَلهم أَن يوجدوا ما خلق الأَصنامُ والأَوثان وغيرُهم مِمَّن عُبِد، أَي: أَنهم لم يخلقوا شيئاً، بل هذا الذي قريشٌ فيه ضلالٌ مبينٌ، ثم ذكَّرهم بالصفة التي تعُمُّ معهم سواهم مِمَّن فعل فعلهم من الأُمم، وقوله: [ماذَا] يجوز أَن تكون [ما] استفهاماً في موضع رفع بالابتداءِ، و[ذَا] خبرها بمعنى (الذي)، والعائد محذوف، ويجوز أَن تكون [مَا] مفعولةً بـ [أَرُوني]، و[ذَا] صلة، و[مَا] بمعنى (الذي)، والعائد محذوف، تقديره في الوجْهيْن: خَلَقَه(٣).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

لُقْمان رجلٌ حكيمٌ بحكمة الله تعالىٰ، وهي الصواب في المعتقدات، والفقه في الدين والعمل(٤)، واخْتُلف ـ هل هو نبي مع ذلك أَو رجلٌ صالح فقط؟

فقال بِنُبوَّته عكرمة والشعبي، وقال بصلاحه فقط مجاهد وغيره، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: سمعت النبي ﷺ يقول: «لم يكن لقمان نبيًّا، ولكن كان عبداً كثير التفكير، حسَنَ اليقين، أَحبَّ الله فأَحبَّه، فمنَّ عليه بالحكمة، وخيَّره في أَن يجعله خليفة يحكم بالحق، فقال: ربِّ إِن خيَّرتني قبلتُ العافية وتركت البلاءَ، وإِن عزَمْتَ عليَّ فسمعاً وطاعةً فإِنك ستعصمني»(٥)، وكان قاضياً في بني إِسرائيل، نوبيًّا أَسود

---

(١) في بعض النسخ: «يعم أنواع المعادن والنبات».

(٢) لأن كلمة [خَلق] في الآية الكريمة بمعنى: مَخْلُوق، كقولهم: دِرْهَمٌ ضَرْب الأمير، أي: مَضْروبه.

(٣) قال أبو حيان: «ويجوز في [مَاذَا] أن تكون كلها موصولة بمعنى (الذي)، وتكون مفعولاً ثانياً لـ [أَرُوني]، وهذا قليل، ذكره سيبويه».

(٤) في بعض النسخ: «والفقه في الدين والعقل»، وهو ما جاءَ في القرطبي نقلاً عن ابن عطية.

(٥) أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لقمان كان عبداً كثير التفكُّر، حسن الظن، كثير الصمت، أحبَّ الله فأحبَّه الله تعالىٰ، فمَنَّ عليه بالحكمة، نودي بالخلافة قبل داود عليه السلام، فقيل له: يا لقمان، هل لك أن يجعلك الله خليفة تحكم بين الناس بالحق؟ قال لقمان: إن أجبرني ربي عزَّ وجلَّ قَبِلْتُ، فإني أعلم أنه=

مُشَقَّق الرجلين ذا مشافر، قاله سعيد ابن المسيب، ومجاهد، وابن عباس. وقال له رجلٌ كان قد رعى معه الغنم: ما بلغ بك يا لقمان ما أَرى ؟ قال: صدق الحديث والصَّمْتُ عما لا يعنيني، وقال ابن المسيب: كان من سودان مصر، من النُّوبة، وقال خالد بن الربيع[1]: كان نجاراً، وقيل: كان خيَّاطاً، وقيل: كان راعياً. وحِكَمُ لقمان كثيرة مأْثورة، قيل له: أَيُّ الناس شرٌّ ؟ قال: الذي لا يبالي إِذا رآه الناس مُسِيئاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ يجوز أَن تكون [أَنْ] في موضع نصب على إِسقاط حرف الجرِّ، أَي: بأَن اشكر لله، ويجوز أَن تكون مُفَسِّرَة، أَي: كانت حكمته دائرة على الشُّكر لله تعالىٰ ومعانيه. وجميعُ العبادات والمعتقدات داخلة في شكر الله تبارك وتعالىٰ. ثم أَخبر تعالىٰ أَن الشاكر حظه عائد عليه، وهو المنتفع بذلك، والله تعالىٰ غني عن الشكر، فلا ينفعه شكر العباد، وحميدٌ في نفسه، فلا يضره كفْرُ الكافرين. و[حَمِيدٌ] بمعنى: محمود، أَي: هو مستحق الحمد بصفاته وذاته.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ يحتمل أَن يكون التقدير: واذكر إِذ قال، واختصر ذلك لدلالة المتقدم عليه، واسم ابنه تاران[2]. وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم: [يَا بُنَيِّ] بالشَّدِّ والكسر في الياءِ، في الثلاثة، على إِدغام إِحدى الياءَيْن في الأُخرى، وقرأَ حفْص، والمفضل عن عاصم: (يَا بُنَيَّ) بالشَّدِّ

= إن فعل ذلك أعانني وعلَّمني وعصمني، وإن خيَّرني ربي قبلتُ العافية ولم أسأل البلاء، فقالت الملائكة: يا لقمانُ لِمَ ؟ قال: لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها، يغشاه الظلم من كل مكان، فيُخْذل أو يُعان، فإن أصاب فبالْحَرَى أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنَّة، ومن يكون في الدنيا ذليلاً خير من أن يكون شريفاً ضائعاً، ومن يختار الدنيا على الآخرة فاتته الدنيا ولا يصير إلى ملك الآخرة. فعجبت الملائكة من حُسن منطقه، فنام نومة فغطَّ بالحكمة غَطّاً، فانتبه فتكلم بها، ثم نودي داود عليه السلام بعده بالخلافة، فقبلها ولم يشترط شرط لقمان، فأهوى في الخطيئة، فصفح الله عنه وتجاوز، وكان لقمان يوازره بعلمه وحكمته، فقال داود عليه السلام: طوبى لك يا لقمان، أُوتيت الحكمة فصرفت عنك البليَّة، وأُوتي داود الخلافة فابتُلي بالذنب والفتنة». ذكره الإمام السيوطي في الدرّ، أما حديث ابن عمر رضي الله عنهما فقد ذكره القرطبي بالنَّص الذي ذكره ابن عطية هنا، ثم قال: وزاد الثعلبي: فقالت الملائكة. . . إلى آخر ما في (الدرِّ المنثور) من رواية أبي مسلم الخولاني.

(١) قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: «هو خالد بن الربيع العبسي الكوفي، مقبول، من الثانية». (تقريب التهذيب).

(٢) في القرطبي: (ثاران) بالثاء، وفي بعض الأصول (تابان) بالتاء.

والفتح في الثلاثة، على قولك: يا بُنَيًا، ويا غلاماً. وقرأ ابن أبي برة عن ابن كثير: [يا بُنَيْ] بسكون الياءِ، و[يا بنيِّ إنها] بكسر الياءِ، و﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ بفتح الياءِ، وروى عنه قنبل بالسكون في الأُولى والثَّالِثة، وبكسر الوُسْطى. وظاهر قوله: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ أنه من كلام لقمان، ويحتمل أن يكون خبراً من الله تعالىٰ منقطعاً من كلام لقمان، مُتَّصلاً به في تأكيد المعنى، ويؤيد هذا الحديث المأثور: «إنه لمَّا نزلت: ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ أشفق أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أيُّنا لَمْ يظلم؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾، فسكن إشفاقهم»(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما يسكن إشفاقهم بأَن يكون ذلك خبراً من الله تعالىٰ، وقد يسكن الإشفاق بأَن يذكر الله عزَّ وجلَّ ذلك عن عبد قد وصفه بالحكمة والسَّداد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

هاتان الآيتان اعتراض أثناءَ وصيَّة لقمان، ووجَّه الطبري ذلك بأَنها من معنى كلام لقمان، ومِمَّا قصده، وذلك غير متوجِّه؛ لأَن كون الآيتين في شأْن سعد بن أَبي وقاص ـ حسب ما ذكره بعد ـ يضعف أَن يكون مما قاله لقمان، وإِنما الذي يشبه أَنه اعتراض أَثناءَ الموعظة، وليس ذلك بمُفْسِدٍ الأَول منها ولا الآخر، ولما فرغ من هاتين الآيتين

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ من الآية (٨٢) من سورة (الأنعام)، والحديث ذكره القرطبي، وقال عنه: «وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه»، وذكر الإمام السيوطي في (الدر المنثور ٣ـ٢٦، ٢٧) أنه أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني في الإفراد، وأبو الشيخ، وابن مردويه ـ عن عبد الله بن مسعود، ولفظه كما في الدُّرِّ: «قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله، وأيُّنا لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون، ألَمْ تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ من كلام لقمان، وهو ما رجَّحه ابن عطية والمفسرون. (وقد سبق الكلام على ذلك في تفسير الآية (٨٢) من سورة الأنعام.

عاد إِلى الموعظة على تقدير إِضمار: «وقال أَيضاً لقمان»، ثم اختصر ذلك لدلالة المتقدم عليه.

وهذه الآية شَرِكَ[1] الله تعالىٰ الأُمَّ والوالد منها في رتبة الوصية بهما، ثم خصَّص الأُمَّ بدرجة ذِكْر الحمل، وبدرجة ذِكْر الرضاع[2]، فتحصَّل للأُم ثلاث مراتب، وللأَب واحدة، وأَشبه ذلك قول الرسول ﷺ ـ حين قال له رجلٌ ـ: من أَبرُّ؟ قال: «أُمُّك، قال: ثُمَّ منْ؟ قال: أُمُّك، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: أُمُّك، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: ثُمَّ أَبوكَ»[3]، فجعل له الربع من المبرَّة كالآية.

و﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ معناه: ضعفاً على ضعف، وقيل: أَشار إِلى مشقَّة الحمل ومشقة الولادة بعده، وقيل: أَشار إِلى ضعف الولد وضعف الأُم معه، ويحتمل أَنه أَشار إِلى تدرُّج حالها في زيادة الضَّعف، كأَنه لم يعيِّن ضعْفين، بل كأَنه قال: حملته أُمه والضعف يتزيَّد بعد الضعف إِلى أَن ينقضي أَمدُه. وقرأَ عيسى الثقفي: [وَهَناً عَلَىٰ وَهَنٍ] بفتح الهاءِ، ورويت عن أَبي عمرو. وهما بمعنى واحد.

وقرأَ جمهور الناس: (وَفِصالُهُ)، وقرأَ الحسن، وأَبو رجاءٍ، والجحدري، ويعقوب: [وَفَصْلُهُ]، وأَشار بالفصال إِلى تحديد مُدَّة الرضاع، فَعبَّر عنه بغايته ونهايته، والناس مجمعون [على العامَيْن][4] في مدة الرضاع في باب الأَحكام والنفقات، وأَما في تحريم اللبن فحددت فرقة بالعامَيْن[5] لا زيادة ولا نقص، وقالت فرقة: العامان وما اتصل بهما من الشهر ونحوه إِذا كان متَّصل الرضاع في حكم واحد يحرم، وقالت فرقة: إِن فُطم الصبي قبل العامين ونزل اللبن فإِن ما شرب بعد ذلك في الحولين لا يحرم.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ يحتمل أَن يكون التقدير: بأَن اشكر، ويحتمل أَن تكون

---

(١) تأتي (شَرِكَ) بمعنى (شَارَكَ)، يقال: شَرِكْتُه البيعَ والميراثَ أَشْرَكُه شَرِكَةً، فهو يريد أن الله تعالىٰ جعل لكل من الأم والأب نصيباً في الوصيَّة بهما.

(٢) في بعض النسخ: «ثم خصص الأم بذكر درجة الحمل، وبذكر الرضاع».

(٣) أخرجه البخاري، وأبو داود، وابن ماجه في الأدب، وأخرجه مسلم في البر، والإمام أحمد في مسنده (٥ـ٣، ٥). (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي).

(٤) زيادة من القرطبي الذي نقل هذه الفقرة من كلام ابن عطية كاملةً.

(٥) في القرطبي: بالْعَام لا زيادة ولا نَقْص.

مفسرة، وقال سفيان بن عُيَيْنة: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالىٰ، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما. وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ توعُّد أثناءَ الوصيَّة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ الآية. رُوي أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أَبي وقَّاص، وذلك أن أُمه ـ وهي حَمْنَةُ بنتُ أَبي سفيان بن أُميَّة ـ حلفت أَلاَّ تأْكل ولا تشرب حتَّى يفارق دينه ويرجع إلى دين آبائه وقومه، فلجَّ سعد في الإسلام، ويروى أَنها كانت إذا أَجهدها العطش شَجُّوا فاها، ويروى: شَجَرُوا، أَي: فتحوه بعود ونحوه وصبوا ما يرمقها، فلما طال ذلك ورأَت أَن سعداً لا يرجع أَكلت، ففي هذه القصة نزلت الآياتُ، قاله سعد بن أَبي وقَّاص والجماعة من المفسرين[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وواطأَت الآية الأُولى الأَمر بِبِرِّ الوالدين وحكمه، ثم حَكَمَ بأَنَّ ذلك لا يكون في الكفر والمعاصي، وجُمْلة هذا الباب أَن طاعة الأَبوين لا تُراعى في ركوب كبيرة، ولا في ترك فريضة على الأَعيان، وتلزم طاعتهما في المباحات، ويُستحسن في ترك الطاعات الندب، ومنه أَمر الجهاد الكفاية، والإجابة للأُم في الصلاة مع إمكان الإعادة، مع أَن هذا أَقوى من الندب، لكن يُعَلَّل بخوف هلكة عليها ونحوه مما يبيح قطع الصلاة فلا يكون أَقوى من الندب، وخالف الحسن في هذا التفصيل، فقال: إنْ منعته أُمه من شهود العشاءِ الآخرة شفقة فلا يطعها.

وقوله: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ يعني: الأَبَوَيْن الكافرين، أَي: صلهما بالمال، وادْعهما برفق، ومنه قول أَسماءَ بنت أَبي بكر رضي الله عنه للنبي ﷺ ـ وقد قدمت عليها خالتُها، وقيل: أُمها من الرضاعة ـ فقالت: يا رسول الله، إن أُمِّي قد قدمت عليَّ وهي راغبة، أَفأَصِلُها؟ قال: نعم، وراغبة، قيل: معناه: عن الإِسلام.

---

(١) أخرج أبو يعلى، والطبراني، وابن مردويه، وابن عساكر، عن أبي عثمان الهندي أن سعد ابن أبي وقاص قال: أُنزلت فيَّ هذه الآية ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾. وقد تقدم هذا في تفسير سورة (العنكبوت) الآية رقم (٨)، وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال: نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأظهر عندي أنها راغبة في الصلة، وما كانت لِتَقْدَمَ على أسماءَ لولا حاجتها، ووالدة أسماءَ هي قُتَيْلة بنت عبد العُزَّى بن عبد أَسعد[١]، وأُم عائشة وعبد الرحمن هي أُم رومان قديمة الإِسلام.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وصيَّةٌ لجميع العالم، كأَنَّ المأمور الإِنسان، و[أَنَابَ] معناه: رجع إِلى الشيءِ، وهذه سبيل الأَنبياءِ والصالحين، وحكى النَّقَّاش أَن المأمور سعد، والذي أَناب أَبو بكر رضي الله عنهما، وقال: إِن أَبا بكر لما أَسلم أَتاه سعد، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان، وطلحة، وسعيد، والزُّبير، فقالوا: آمنت ؟ قال: نعم، فنزلت فيه ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾[٢]، فلما سمعها السِّتَّة آمنوا، فأَنزل الله تعالىٰ فيهم ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ إِلى قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾[٣]. ثم توعَّد تعالىٰ بالبعث من القبور، والرجوع للجزاءِ، والوقوف على صغير الأَعمال وكبيرها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

المعنى: وقال لقمان: يا بُنَيَّ، وهذا القول من لقمان إِنما قصد به إِعلام ابنه بقدر قُدرة الله تعالىٰ، وهذه الغاية التي أَمكنه أَن يفهِّمه؛ لأَن الخَرْدَلَة يقال: إِنَّ الْحِسَّ لا يُدْرِك لها ثقلاً؛ إِذ لا ترجح ميزاناً. وقد نطقت هذه الآية بأَن الله تعالىٰ قد أَحاط بها علماً. وقوله تعالىٰ: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ عبارة تصلح للجواهر، أَيْ: قدْر حبة، وتصلح للأَعمال، أَي: ما زِنَتُه على جهة المماثلة قدر حبَّة، فظاهر الآية أَنه أَراد شيئاً من الأَشياءِ خفيًّا قدر حبة، ويؤيد ذلك ما روي من أَن ابن لقمان سأَل أَباه عن الحبة تقع في

---

(١) الذي في القرطبي: «عبد العُزَّى بن عبد أسد».

(٢) من الآية (٩) من سورة (الزُّمَر).

(٣) من الآيتين (١٧)، (١٨) من سورة (الزُّمَر).

مثل البحر، أَيعلمها الله؟ فراجعه لقمان بهذه الآية. وذكر كثير من المفسرين أنه أَراد الأَعمال والمعاصي والطَّاعات، ويؤيد ذلك قوله: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾، أَي: لا يفوت. وبهذا المعنى يتحصل في الموعظة ترجية وتخويف. فيضاف ذلك إِلى تَبْيين قدرة الله تعالىٰ، وفي القول الآخر ليس ترجية ولا تخويف. ومما يؤيد قول من قال: «هي من الجواهر» قراءَة عبد الكريم الجزري: [فَتكِنّ] بكسر الكاف وشد النون، من الكِنِّ الذي هو الشيءُ المغطَّى.

وقرأَ جمهور النَّاس: ﴿إِن تَكُ﴾ بالتَّاءِ من فوق [مِثْقَالَ] بالنصب على خبر «كان»، واسمُها مضمر تقديره: مسأَلتُك ـ على ما رُوي ـ أَو: المعصية أَو الطاعة على القول الثاني، والضمير في [إِنَّها] ضمير القصة، وقرأَ نافع وحده بالتاءِ [مِثْقَالُ] بالرفع على اسم «كان»، وهي التَّامَّة، وأَسند إِلى المثقال فعلاً فيه علامة التأْنيث من حيث انضاف إِلى مؤنث هو منه، وهذا كقول الشاعر:

مَشيْـنَ كَمَـا اهْتَـزَّتْ رِمَـاحٌ تَسَفَّهَـتْ أَعَـالِيهَـا مَـرُّ ٱلـرِّيَـاحِ النَّـوَاسِـمِ(١)

وهي قراءَة الأَعرج وأَبي جعفر.

وقوله: ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾، قيل: أَراد الصخرة التي عليها الأَرض والحوت والماءُ، وهي على ظهر مَلك، وقيل: هي صخرة في الريح.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله ضعيف، لا يُثْبته سند، وإِنما معنى الكلام المبالغة والانتهاءُ في التفهيم، أَي: إِنَّ قدرته مثال ما يكون في تضاعيف صخرة، وما يكون في السماءِ وفي الأَرض. وقرأَ قتادة: [فَتكِنْ] بكسر الكاف والتخفيف: من: وَكَن يَكِنُ، وتقدمت قراءَة عبد الكريم [فَتكِنّ].

---

(١) البيت لذي الرُّمَّة، وقد سبق الاستشهاد به في أكثر من موضع، وتسفهت: استخفت واهتزت، من السَّفه وهو خفة العقل وضعفه، والنَّواسم: الخفيفة الهبوب. يصف الشاعر نساءً في أثناء مشيهن فيقول: إذا مشَيْن اهتَزَزْن في مَشْيِهِنَّ وتَثَنَّيْن كأنهن رماح منصوبة مرت عليها الرياح فاهتزت وتَثَنَّت. وهو في الديوان، وفي كتاب سيبويه. ومثله في التأنيث بسبب الإضافة إلى مؤنث قول الشاعر:

وتَشْـرقُ بـالقَـوْلِ الَّـذي قَـدْ أَذَعْتَـهُ كَمـا شَـرِقَـتْ صَـدْرُ الْقَنَـاةِ مِـنَ الـدَّمِ

وقوله: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ إن أراد بها الجوهر فالمعنى: يأتِ بها إن احتيج إلى ذلك، إن كانت رزقاً ونحو هذا، وإن أراد الأعمال فمعناه: يأت بذكرها وحفظها ليجازي عليها بثواب أو بعقاب. و﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ صفتان لائقتان بإظهار غرائب القدرة.

ثم وصَّى ابنه بِعُظْم الطَّاعات، وهي الصلاة والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا إنما يريد به بعد أن يَمْتَثِل هو في يقينه، ويَزْدَجِرَ عن المنكر، وهنا هي الطَّاعات والفضائل أجمع.

وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يقتضي حضًّا على تغيير المنكر وإن نالك ضرر، فهو إشعارٌ بأنَّ المغيِّر يؤذَى أحياناً، وهذا القدر هو على جهة الندب والقوة في ذات الله عزَّ وجلَّ، وأمَّا على اللزوم فَلاَ.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ معناه: مما عزمه اللهُ وأمر به، ويحتمل أن ذلك من مكارم الأخلاق وعزائِم أهل الحَزْم السالكين طريقَ النجاة، والأول أصوب، وبكليهما قالت طائفة(١).

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وابن محيصن: [ولا تصَاعِرْ]. وقرأ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر، والحسن، ومجاهد، وأبو جعفر: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾. وقرأ الجحدري: [ولا تُصْعِرْ] بسكون الصاد، والمعنى متقارب. والصَّعَر: المَيْل، ومنه قول الأعرابي: «وقد أقام الدهرُ صعري بعد أن أقمتُ صعره»، ومنه قول عمرو بن حُنَيّ التَّغْلبي:

وكُنَّا إِذَا الجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ ... أَقَمْنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوَّمِ(٢)

---

(١) قال أبو حيَّان: «والظاهر أنه يريد لازمات الأمور الواجبة؛ لأن الإشارة بـ[ذَلِكَ] إلى جميع ما أمر به ونهى عنه». هذا والعَزْم مصدر، فيحتمل أن يراد به المفعول، أي: من معزوم الأمور، ويحتمل أن يراد به الفاعل، أي: عازم الأمور، كقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾.

(٢) هذا البيت مختلف في نسبته، وفي قافيته، ففي معجم الشعراء للمرزباني أنه لعمرو بن حُنَيّ التغلبي، وعمرو هذا فارس جاهلي، قال هذا البيت من أبيات رواها محمد بن داود في قتل التغلبيين عَمْرَو بن هند، وهي:

نُعَاطِي الْمُلُوكَ الْحَقَّ مَا قَصَدُوا بِنَا ... وَلَيْسَ عَلَيْنَا قَتْلُهُمْ بِمُحَرَّمِ
أَنِفْتُ لَهُمْ مِنْ عَقْلِ عَمْرِو بنِ مَرْثَدٍ ... إِذَا وَرَدُوا مَاءً وَرُمْحِ بنِ هَرْثَمِ
وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ ... أَقَمْنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوَّمِ

والمعنى: تقَوَّمْ أنتَ، أي: قَوِّمْ نَفْسَكَ. وكذلك نسبه الطبري والقرطبي وابن عطية لعمرو بن حُنَيّ=

أي: فتَقَوَّمْ أَنْتَ، قاله أَبو عبيدة، وأَنشده أَبو عبيدة: (فتَقَوَّمَا) وهو خطأٌ؛ لأَن قافية الشعر مخفوضة، وفي بيت آخر:

. . . . أَقَمْنَا لَهُ مِنْ خَدِّهِ المُتَصَعِّرِ(١)

فالمعنى: ولا تمل خدَّك للناس كبراً عليهم، وإِعجاباً، واحتقاراً لهم، وهذا هو تأْويل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وجماعة، ويحتمل أَن يريد أَيضاً الضد، أَي: ولاَ سؤالاً ولا ضراعة بالفقر، والأَول أَظهر بدلالة ذكر الاختيال والفخر بعده، وقال مجاهد: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ أَراد به الإِعراض وهجره بسبب أَخيه.

و«المَرَحُ»: النَّشاط، و«المَشْيُ مَرَحاً» هو في غير شغل ولغير حاجة، وأَهل هذا الخُلق ملازمون للفخر والخُيَلاَءِ، فالمَرِح مُخْتال في مشيته، وقد قال ﷺ: «مَنْ جرَّ ثوبه خُيَلاء لم ينظر الله إِليه يوم القيامة»(٢)، وقال: «بينما رجل من بني إِسرائيل يجُرُّ ثوبه

= هذا، لكنهم اختلفوا في القافية، فهي في القرطبي كما رواها ابن عطية هنا، وهي في الطبري (فتقوما) كما ذُكرت في مصادر متعددة، إِذْ أن المرزباني نفسه يقول: ويروى هذا البيت من قصيدة المتلمس التي أولها:

يُعَيِّرُنِي أُمِّي رِجَالٌ ولَنْ تَرَى ... أَخَا كَرَمٍ إلا بِأَنْ يَتَكَرَّمَا

وفي (مجاز القرآن) نسبه أبو عبيدة للمتلمس، وكذلك في (اللسان ـ صَعَرَ)، وفي (موسوعة الشعر العربي بيروت) ورد البيت ضمن القصيدة المذكورة للمتلمس، وهو البيت السابع فيها، والرواية في هذا كله: (فتَقَوَّمَا) بالألف. وصَعَّر معناه: أمال خَدَّه من الكِبْر، والجبَّار: العاتي من الملوك، والمعنى: إذا ما تكبَّر هذا الطاغية وتجبَّر قَوَّمْنَا اعوجاجه فَتَقَوَّم. والشاهد أن (صَعَّرَ) بمعنى أمال وجهه من الكِبْر. والصَّعَر في الأصل داءٌ يصيب الإبل في رؤوسها حتى يلف أعناقها ويلوي رؤوسها، وفي الحديث: «يأتي على الناس زمان ليس فيهم إلا أصْعَر أو أبْتَر» يعني رُذالة الناس الذين لا دين لهم، على أن في البيت رواية أخرى ذكرها الشوكاني ولم ينسبها، وهي:

وكُنَّا إِذَا الجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ ... مَشَيْنَا إِلَيْهِ بِالسُّيُوفِ نُعَاتِبُهْ

(١) هذا عجز البيت، وأَقَمْنَا: أَصْلحنَا وقَوَّمْنَا، والمتصعِّر: المائل كبراً، ومعنى هذا الشطر يوحي بأن الصدر مثل البيت السابق.

(٢) في ابن كثير: «عن ابن أبي ليلى، عن ابن بريدة، عن أبيه مرفوعاً «مَن جَرَّ ثوبه خُيَلاء لم ينظر الله إليه»، ورواه عن إسحاق بن إسماعيل، عن سفيان، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر مرفوعاً مثله». وفي رياض الصالحين للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي قال: «وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جَرَّ إزاره بطراً»، مُتَّفَق عليه» اهـ.

خُيَلاء خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»[١]، وقال مجاهد: الفَخور هو الذي يعدد ما أُعطي ولا يشكر الله تبارك وتعالىٰ، قال: وفي اللفظ الفخر بالنسب وغير ذلك.

ولما نهاهُ عن الخُلُق الذميم رسم له الخُلُق الكريم الذي ينبغي أَن يستعمله، من القَصْدِ في المَشْي، وهو أَلاَّ يتخرق في إسراع، ولا يُرائي في إبطاءٍ وتضاؤُل، وعلى نحو ما قال القائل:

كُلُّنَـــا يَمْشِـــي رُوَيْـــدْ   كُلُّنَـــا يَطْلُـــبُ صَيْـــدْ
غَيْـــرَ عَمْـــرِو بـــن عُبَيْـــدْ[٢]

وأَلاَّ يمشي مختالاً متبختراً، ونحو هذا مما ليس بقصد. وغَضُّ الصوتُ أَوْفر للمتكلم وأَبسط لنفس السامع وفهمه. ثم عارض متمثِّلاً بصوت الحمير على جهة التشبيه، أَي: تلك هي التي بعُدت عن الغضِّ فهي أَنكر الأَصوات، فكذلك كل ما بعُد عن الغَضِّ من أَصوات البشر فهو في طريق تلك، وفي الحديث: «إِذا سمعتم نهيق الحمير فتعوَّذوا بالله من الشيطان، فإِنها رأَت شيطاناً»[٣]، وقال سفيان الثوري: صياح كل شيءٍ تسبيح إِلاَّ صياح الحمير. وقال عطاءٌ: نهيق الحمير دعاءٌ على الظَّلَمة.

و[أَنْكَرُ] معناه: أَقبح وأَوحش، و[أَنْكَرُ] عبارة تجمع المذامَّ اللاحقة للصوت الجهير، وكانت العرب تفخر بجهارة الصوت الجهير، على خُلُق الجاهلية، ومنه قول الشاعر:

---

(١) ذكره الإمام أبو زكريا النووي في رياض الصالحين، وقال عنه: مُتَّفَق عليه، وقال ابن كثير في تفسيره: «وحدثنا محمد بن بكار، حدثنا عبد الرحمن ابن أبي الزناد، عن أبيه، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جَرَّ إزاره، وبينما رجل يتبختر في برديه أعجبته نفسه، خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»، وروى الزهري عن سالم عن أبيه: بينما رجل... إلخ». اهـ.

(٢) سبق الاستشهاد بهذه الأبيات في هذا الجزء عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ من سورة الفرقان.

(٣) أخرجه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي عن أبي هريرة، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة في (الجامع الصغير)، ولفظه كما ذكره السيوطي: «إذا سمعتم أصوات الديكة فسلوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً».

جَهِيرُ الْكَلَامِ جَهِيرُ الْعُطَاسِ ... جَهِيرُ الرُّوَاءِ جَهِيرُ النَّعَمْ
وَيَعْلُو الرِّجَالَ بِخَلْقٍ عَمَمْ ... وَيَغْدُو عَلَى الأَيْنِ عَدْوَ الظَّلِيمِ[(١)]

فنهى الله تعالىٰ عن هذه الخلق الجاهلية. وقوله: ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أراد بالصوت اسم الجنس، ولذلك جاءَ مفرداً. وقرأ ابن أَبي عبلة: [إن أنكر الأصوات أصوات الحمير] بالجمع في الثاني دون لام. والغَضُّ ردُّ طَفَحان الشيءِ، كالنَّظر، وزمام الناقة، والصوت، وغير ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾.

هذه آية تنبيه على الصنعة الدالة على الصانع، وذلك أَن تسخير هذه الأُمور العظام كالشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح والحيوان والنبات إِنما هو لمسخِّرٍ ومالك. وقرأ يحيى بن عمارة، وابن عباس: [وَأَصْبَغَ] بالصاد على بدلها من السين؛ لأَن حروف الاستعلاءِ تجتذب السين من سفلها إِلى علوها فتردُّها صاداً، والجمهور قراءَتهم بالسين. وقرأ نافع، وأَبو عمرو، وحفص عن عاصم، والحسن، والأَعرج، وابن جعفر، وابن نصاح، وغيرهم: ﴿نِعَمَهُۥ﴾ جمع (نِعْمَةٍ)، كسِدْرَةٍ وسِدَر بفتح الدال، و«الظاهرة» هي الصحة وحُسْن الخِلْقَة والمال وغير ذلك، و«الباطنة» المعتقداتُ من الإِيمان ونحوه، والعقلُ. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الظَّاهرة: الإِسلام وحُسْن الخِلْقَة، والباطنةُ: ما ستر من سيىءِ العمل، وفي الحديث: «قيل لرسول الله ﷺ: قد عرفنا الظَّاهرة، فما الباطنة؟ قال: ستْر ما لو رآك الناس عليه لَمَقَتُوكَ»[(٢)].

---

(١) الرُّواءُ: المنظر الحسن والبَهَاءُ. والنَّعَمُ: المال السائم، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل، وجمعه: أنعام وأناعيم، والأَيْنُ: التَّعب والإعياءُ، والظَّليمُ: ذكرُ النَّعام، وجمعه ظُلْمان، والخَلْقُ العَمَمُ: التَّام الكامل، يمدحه بهذه الصفات التي ذكرها على عادة العرب في الجاهلية.

(٢) أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عطاءٍ رضي الله عنه قال: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ قال: هذه من كنوز عليٍّ؛ قال: سألتُ رسول الله ﷺ، قال: أما الظاهرة فما سوَّى من خلقك، وأما الباطنة فما ستر من عورتك، ولو أبداها لقلاك أهلك فمن سواهم. =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن الباطنة التنفس والهضم والتغذي وما لا يحصى كثرة، ومن الظاهرة عمل الجوارح بالطاعة، قال المحاسبي: الظاهرة: نِعَم الدنيا، والباطنة: نِعم العقبى. وقرأ جمهور من الناس: [نِعْمَةً] على الإفراد، فقال مجاهد: المراد «لا إلـه إلاَّ الله»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أراد الإسلام، والظاهر عندي أنه اسم جنس، كقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾(١).

ثم عارض بالكفرة مُنَبِّهاً على فساد حالهم، وهم المشار إليهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وقال النقاش: الإشارة إلى النضر بن الحارث ونظرائه؛ لأنهم كانوا ينكرون الله تعالىٰ ويشركون الأصنام في الألوهية، وذلك جدالهم، و﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: لم يُعْلمْهم من يُقبَل قوله، ولا عندهم هُدَى قلبٍ ولا نُورُ بصيرة يُقيمون بها حُجَّة، ولا يبتغون بذلك كتاباً من الله يبشر بأنه وحي، بل ذلك دعوى منهم وتخرُّص، وإذا دُعوا إلى اتباع وحي الله رجعوا إلى التقليد المحض بغير حجة، فسلكوا طريق الآباءِ. ثم وقف الله تعالىٰ ـ وهم المراد بالتوقيف ـ على اتباعهم دين آبائهم، أيكون وهم بحال من يصير إلى عذاب السعير؟ فكأن القائل منهم يقول: هم يتبعون دين آبائهم ولو كان مصيرهم إلى السعير، فدخلت ألف التوقيف على حرف العطف كما كان اتساق الكلام، فتأمله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

= وأخرج ابن مردويه، والبيهقي، وابن النجار مثله عن ابن عباس رضي الله عنهما، وزادوا في آخره: «يا ابن عباس، إن الله تعالىٰ يقول: ثلاث جعلتهن للمؤمن: صلاة المؤمنين عليه من بعده، وجعلت له ثلث ماله أُكَفِّر عنه من خطاياه، وسترت عليه من مساوىء عمله فلم أفضحه بشيءٍ منها، ولو أبديْتُها لنبذه أهله فمن سواهم». وأخرجه الطبري في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) من الآية (١٨) من سورة (النحل).

وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾.

لما ذكر الله تعالىٰ حال الكفرة أَعقب ذلك بذكر حال المؤمنين لِيَتَبَيَّنَ الفرقُ وتتحرَّكَ النُّفوس إِلى طلب الأَفضل. وقرأَت عامة القراءِ: ﴿يُسْلِمْ﴾ بسكون السين وتخفيف اللام، وقرأَ عبد الله بن مسلم، وأَبو عبد الرحمن: [يُسَلِّمْ] بفتح السِّين وشد اللام، ومعناه: يخلص وجهه ويستسلم به[1]، و«الوَجْهُ» هنا الجارحة، استُعير للقصد؛ لأَن القاصد للشيءِ فهو مستقبله بوجهه، فاستُعير ذلك للمعاني، و«المُحْسِن» هو الذي جمع القول والعمل، وهو الذي شرح رسول الله ﷺ حين سأَله جبريل عليه السلام عن الإِسلام[2].

و«ٱلْعُرْوَةُ ٱلْوُثْقَىٰ» هي استعارةٌ للأَمر المنجي الذي لا يخاف عليه استحالة ولا إِخلال، والعُرى موضع التعلُّق، فكأَن المؤمن متعلق بأَمر الله تبارك وتعالىٰ، فشبَّه ذلك بالعروة، و﴿الأُمُور﴾ جمع أَمْر، وليس بالمضاد للنهي. ثم سلَّى عزَّ وجلَّ نبيَّه عليه الصلاة والسلام عن مَوْجِدَته لكفر قومه وإِعراضهم، فأَمره أَلاَّ يحزن لذلك، بل يعمد إِلى ما كُلِّفَ من التبليغ ويُرجع الكل إِلى الله تعالىٰ. وقرأَت فرقة: [يُحْزِنْكَ] من الرباعي، وقرأَت فرقة: ﴿يَحْزُنْكَ﴾ من الثلاثي، و«ذات الصُّدور» ما فيها، والقصد من ذلك: إِلى المعتقدات والآراءِ، ومن ذلك قولهم: «الذئب مغبوط بذي بطنه»[3]، ومنه

---

(١) عُدِّي الفعل [يُسْلِمْ] هنا بـ (إلى) فقيل: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لأَنَّ المعنى أنه سلَّم نفسه إلى الله تعالىٰ، كما يُسَلَّم المتاع إلى الرَّجُل إذا دُفع إليه، والمراد: التوكل عليه والتفويض إليه. وعدِّي باللام في قوله تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ لأن المعنى أنه جعل وجهه وهو ذاته سالماً لله، أيْ: خالصاً له.

(٢) وذلك في الحديث المشهور الذي أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم، وفيه أن جبريل عليه السلام سأل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، وأجابه صلوات الله وسلامه عليه، ثم سأله عن الساعة، فأجابه عن علاماتها، وكان فيما قال له عن الإسلام: «الإسلام أن تَعْبُد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان». وقد سبق ذكر هذا الحديث عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ من هذه السورة.

(٣) هذا مثل يقال عن الذئب، وذلك أنه ليس يُظن به الجوع أبداً، إنما يظن به البطنة لأنه يعدو على الناس والماشية، قال الشاعر:

وَمَـنْ يَسْكُـنِ البَحْـرَيْـنِ يعْظُـم طحَـالُـهُ ... وَيُغْبَـطُ مـا فـي بَطْنِـهِ وهـوَ جـائِـعُ =

قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «ذو بطن بنت خارجة». و«ٱلْمَتَاعُ ٱلْقَلِيلُ» هو العُمْر في الدنيا، و«ٱلْعَذَابُ ٱلْغَلِيظُ» معناه: المغلَّظ المؤلم.

ثم أقام عليهم الحُجَّة في أمر الأصنام بأنهم يُقِرُّون بأن الله تعالىٰ هو خالق المخلوقات، ويدعو مع ذلك إلـٰهاً غيره، والمعنى: قل الحمد لله على ظهور الحُجَّة عليكم. وقوله تعالىٰ: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ إضراب عن مقدر، تقديره: ليست دعواهم بحق، ونحو هذا، وقوله: [أَكْثَرُهُمْ] على أصله؛ لأن منهم من شذَّ فعَلِم كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل. ويحتمل أن تكون الإشارة أيضاً إلى من هو مُعَدٌّ أن يسلم. ثم أخبر على جهة الحكم وفصل القضية بأن الله عزَّ وجلَّ له ملك السمـٰوات والأرض وما فيهما، أي: وأقوال هؤلاءِ لا معنى لها ولا حقيقة، والمعنى: الذي لا حاجة به في وجوده وكماله إلى شيءٍ، ولا نقص بجهة من الجهات، و[ٱلْحَمِيد]: المحمود، أي: كذلك هو بذاته وصفاته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سبب هذه الآية أن اليهود قالت: يا محمد، كيف عُنينا بهذا القول ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] ونحن قد أُوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه، وعندك أنها تِبْيَانُ كل شيءٍ؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «التوراة قليل من كثير»، ونزلت هذه الآية[2]، وهذا هو القول الصحيح، والآية مدنية. وقال قوم: إن

= وقيل: بل قيل في الذئب ذلك لأنه عظيم الجفرة أبداً لا يبين عليه الضمور وإن جهده الجوع، قال الشاعر:

* لَكَالذِّئْبِ مغْبُوطُ الحشا وَهْوَ جَائعُ *

(١) من الآية (٣٥) من سورة (الإسراء).

(٢) قال السيوطي في (الدر المنثور): «أخرجه ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما»، وفيه اختلاف في بعض الألفاظ عما هنا، وفي الدر أيضاً أن ابن مردويه أخرج مثله عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً في عبارة طويلة، وذكره ابن كثير من رواية ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، ومحمد بن أبي محمد قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: «شيخ لعبد الرزاق مجهول»، وابن عطية هنا يؤكد أن الآية مدنية على خلاف ما ذكره=

سبب الآية أن قريشاً قالت: سيتم الكلام لمحمد وينحسر، فنزلت. وقال السُّدي: قالت قريش: ما أكثر كلام محمد، فنزلت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والغرض منها الإِعلام بكثرة كلمات الله تعالىٰ، وهي في نفسها غير متناهية، وإِنما قرب الأَمر على أَفهام البشر بما يتناهى؛ لأَنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة، وأَيضاً فإِن الآية إِنما تضمنت أَن كلمات الله تعالىٰ لم تكن لتنفذ، وليس تقتضي الآية أَنها تنفد بأَكثر من هذه الأقلام والبحور.

وقال أبو عليٍّ: المراد بالكلمات ـ والله أعلم ـ ما في المقدور دون ما خرج منه إِلى الوجود. وذهبت فرقة إِلى أَن الكلمات هنا إِشارة إِلى المعلومات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ينحو إِلى الاعتزال من حيث يرون أَنه مخلوق، نوَّر الله تعالىٰ قلوبنا بهداه.

وقرأَ أَبو عمرو وحده من السبعة، وابن أَبي إِسحاق، وعيسى: [وَٱلْبَحْرَ] بالنصب عطفاً على [مَا] التي هي اسم [أَنَّ]، وقرأَ جمهور الناس: (وَٱلْبَحْرُ) بالرفع على أنه ابتداءٌ، وخبره في الجملة التي بعده؛ لأَن تقديره: «هذه حالُه»، كذا قدره سيبويه، وقال بعض النحويين: هو عطف على [أَنَّ]؛ لأَنها في موضع رفع بالابتداءِ[1]. وقرأَ جمهور

= ابن كثير من أن المشهور أنها مكيّة، ولا يكون سبب النزول هو ما في هذا الحديث إلا إذا كانت الآية مدنية، والله أعلم.

(١) استدل بعض النحويين بهذه الآية على بطلان ما ادعاه الزمخشري وغيره من أن خبر (إنَّ) التي تأتي بعد (لَوْ) لا يكون اسماً جامداً ولا اسماً مشتقاً، بل يجب أن يكون فعلاً، قالوا: هذا قول باطل؛ لأن [أَقْلامٌ] هنا خبر [أنَّ] وهي واقعة بعد (لَوْ)، وهذا كثير في كلام العرب، ومنه قول الشاعر:

وَلَــوْ أَنَّهَــا عُصْفُــورَةٌ لَحَسِبْتَهَــا ... مُسَــوَّمَــةً تَــدْعُــو عَبِيــداً وَأَيَّمَــا

وقال آخر:

مَــا أَطْيَــبَ العَيْــشَ لَــوْ أَنَّ الْفَتَــى حَجَــرٌ ... تَنْبُــو الْحَــوَادِثُ عَنْــهُ وَهُــوَ مَلْمُــومُ

وأما ما ذكره ابن عطية من قول بعض النحويين: إن [البَحْرُ] بالرفع معطوف على [أَنَّ]؛ لأنها في موضع رفع بالابتداءِ ـ فيحتاج إلى نظر، وذلك لأنه لا يجوز ذلك إلا إذا كانت (أَنَّ) بعد [لَوْ] في موضع=

الناس: [يَمُدُّهُ]، من (مَدَّ)، وقرأ الحسن ابن أبي الحسن: [يُمِدُّه] من (أَمَدَّ)، وقالت فرقة: هما بمعنى واحد، وقالت فرقة: مدَّ الشيءُ بعضه بعضاً، وأَمَدَّ الشيءُ ما ليس منه(١)، فكأن الأبْحُر السبعة المتوهمة ليست من البحر الموجود. وقرأ جعفر بن محمد: [والبحر مِدَادُهُ]، وهو مصدر، وقرأ ابن مسعود: [وَبَحْرٌ يَمُدُّهُ]، وقرأ الحسن: [مَا نفِد كلامُ اللهِ تَعَالىٰ].

ثم ذكر تعالىٰ أَمر الخلْق والبعث أَنه في الجميع وفي شخص واحد بالسواءِ؛ لأَنه كله «بكن فيكون»، قاله مجاهد، وحكى النَّقَّاش أَن هذه الآية في أُبيٍّ بن خلف، وأَبي الأَسود وبنيه، ومنبه بن الحجاج، وذلك أَنَّهم قالوا: يا محمد، إِنَّا نرى الطفل يُخلق بتدريج وأَنت تقول: الله يعيدنا دفعة واحدة، فنزلت الآية بسببهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾.

هذا تنبيه خُوطب به النبي ﷺ والمراد به جميع العالم، وهذه عبرة تدل على أَن الخالق المخترع أَن يكون(٢) الليل بتدرج، والنهار كذلك، فما قَصُرَ من أَحدهما زاد في الآخر، ثم بالعكس ينقسم الزمان بحكمة بارىء العالم، لا ربَّ غيره.

و[يُولِجُ] معناه: يُدخل، و«الأَجَلُ الْمُسَمَّى»: القيامة التي تنتقض فيها هذه البنية وتُكوَّر الشمس. وقرأ جمهور القراءِ: (بما تعملون) بالتاءِ من فوق، وقرأ عباس عن أَبي عمرو [يَعْمَلُونَ] بالياءِ.

= رفع على الابتداءِ، مع أن المشهور أن (لَوْ) لا يليها المبتدأُ اسماً صريحاً إلا في ضرورة شعر، نحو قول الشاعر:

لَــوْ بِغَيْــرِ المَــاءِ حَلْقِــي شَــرِق   كُنْـتُ كـالغَصَّـانِ بـالمـاءِ اعْتِصـارِي

وعلى هذا لا يجوز ذلك في الآية الكريمة، وإن كان بعض النحويين يجيزه.

(١) يقول الفراءُ: «والشيءُ إذا مدَّ الشيءَ فزاد فكان زيادة فيه فهو يَمُدُّه، تقول: دِجلة تَمُدُّ بثارنا وأنهارنا، والله يُمِدُّنا بها، وتقول: قد أَمْدَدْتُك بألفٍ فمدُّوكَ».

(٢) يريد: أن الخالق المخترع كوْنَ الليل بتَدَرُّج.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾، الإشارة بـ [ذَٰلِكَ] إلى هذه العبرة وما جرى مجراها، ومعنى ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: صفة الألوهية له حق، فيحسن في القول تقدير (ذو)، وكذلك البابُ متى أُخبر بمصدر عن عيْن، فالتقدير: ذو كذا، و(حَقٌّ) مصدر، ومنه قول الشاعر:

. . . . فَـإِنَّمَـا هِـيَ إِقْبَـالٌ وَإِدْبَـارُ[1]

وهذا كثير. ومتى قلت: كذا وكذا حقٌّ، فإنما معناه: اتِّصافُ كذا بكذا حقٌّ.

وقوله: ﴿وأن ما تدعون﴾ يصحُّ أَنْ يريد الأَصنام، وتكون [مَا] بمعنى (الذي)، ويكون الإِخبارُ عنها بالباطل على نحو ما قدَّمناه في [ٱلْحَقُّ]، ويصحُّ أَن تكون [مَا] مصدرية، كأَنه قال: وأَنَّ دعاءكم آلِهَة من دونه الباطل، أَي الفعل الذي لا يُؤَدِّي إلى الغاية المطلوبة به. وقرأَ الجمهور: [تَدْعُونَ] بالتاءِ من فوق، وقرأَ: [يَدْعُونَ] بالياءِ ابنُ وثَّاب، والأَعمش، وأَهل مكة، ورويت عن أَبي عمرو. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

الرُّؤْية في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ رؤْية العين يترتب عليها النظر والاعتبار، والمخاطَب محمد ﷺ والمراد النَّاسُ أَجمع. و[ٱلْفُلْك] جمعٌ وواحدٌ بلفظ واحد. وقرأَ موسى بن

---

(١) هذا عجز بيت للخنساءِ، وهو من قصيدة مشهورة ترثي فيها أخاها صخراً، وتتحدث عن صفاته، والضمير (هي) يعود على الناقة التي فقدت ولدها فظلت حزينة قلقة تقبل وتدبر من شدة ما بها إذا ذكرت وليدها، وقد ذكرتها الخنساءُ في أبيات، قالت:

فَمَـا عَجُـولٌ عَلَـى بَـوٍّ تُحِيـطُ بِـهِ ... قَـدْ سَـاعَـدَتْهَـا علـى التَّحْنَـانِ أَظْـآرُ
أَوْدَى بِـهِ الـدَّهْـرُ عَنْهَـا فَهْـيَ مُـرْزِمَـةٌ ... لَهَـا حَنِينَـانِ إِصْغَـارٌ وَإِكْبَـارُ
تَـرْتَـعُ مَـا غَفَلَـتْ حَتَّـى إِذَا ذَكَـرَتْ ... فَـإِنَّمَـا هِـيَ إِقْبَـالٌ وَإِدْبَـارُ

والعجول: هي الواله من النِّساءِ أو الإبل التي فقدت وليدها، لعجلتها في الذهاب والمجيءِ، والمُرْزِمَة: من الإرزام، وهو ضربٌ من حنين الناقة عَلَى وليدها حين ترأمُه بصوت تخرجه من حلقها لا تفتح به فاها، والشاهد هنا أنها أخبرت بمصدر عن عين، فقالت: (هي) أي الناقة، (إقبالٌ وإدبارٌ)، فوجب تقدير (ذات) للمؤنث كما تقدر (ذو) للمذكر، أي: ذاتُ إقبال وإدبار.

الزُّبير: [ٱلْفُلُك] بضم اللام. وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يحتمل أَن يريد ما تحمله السفن من الطعام والتجارات والأَرزاق، فالباءُ للإِلْصَاقِ، ويحتمل أَن يريد: بالريح وتسخير الله تعالىٰ البحر ونحو هذا، فالباءُ باءُ السبب. وقرأَ الجمهور: (بِنِعْمَةِ)، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [بِنَعِماتِ] بفتح النون وكسر العيْن.

وذكر تعالىٰ من صفات المؤمن الصَّبَّار والشَّكور على الضَّرَّاءِ والسَّرَّاءِ، وقال الشعبي: «الصَّبْر نِصف الإِيمان، والشُّكر نصفه الآخر، واليقين الإِيمان كلُّه».

وغَشِي: غَطَّى أَو قَارَب، و«الظُّلَلُ»: السحابُ، وقرأَ محمد ابن الحنفية: «كالظِّلال»، ومنه قول النابغة يصف البحر:

يُمَاشِيهِنَّ أَخْضَرُ ذُو ظِلاَلٍ عَلَى حَافَاتِهِ فِلَقُ ٱلدِّنَانِ(١)

ووصف تعالىٰ في هذه الآية حالة البشر الذين لا يعتبرون حق العبرة، والمقصد بالآية تَبْيين آية تشهد العقولُ بأَن الأَصنام والأَوثان لا شركة لها فيها ولا مدخل.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾، قال الحسن: منهم مؤمن يعرف حق الله تعالىٰ في هذه النعم، وقال مجاهد: يريد: منهم مقتصد على كفره، أَي: منهم من يسَلِّم لله تعالىٰ ويفهم نحو هذا من القدرة، وإِن ضلَّ في الأَصنام من جهة أَنه يُعَظِّمها بسيرته ولسانه.

و«ٱلْخَتَّارُ»: القبيح الغدْر، وذلك أَن نِعَم الله تعالىٰ على العباد كأَنها عهودٌ ومِنَنٌ يلزم عنها أَداءُ شكرها والعبادة لمُسْدِيها، فمن كفر بذلك وجحد به فكأَنه خَتَرَ وخَانَ، ومن الخَتْر قول عمرو بن معديكرب الزبيدي:

فَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ أَبَا عُمَيْرٍ مَلأْتَ يَدَيْكَ مِنْ غَدْرٍ وخَتْرِ(٢)

وقال الحسن: الخَتَّارُ هو الغَدَّارُ. و[كَفُور] بناءُ مبالغة.

---

(١) البيت للنابغة الجعدي، وهو في وصف البحر كما قال المؤلف، وقد ذكره أبو عبيدة في (مجاز القرآن)، ومعنى يماشيهنَّ: يَمْتَدُّ معهن في سَيْرهن، وظلال البحر: أمواجه؛ لأنها حين ترتفع تغطي السفينة ومن فيها فكأنها تُظَلِّل الجميع، والدِّنان: جمع دَنٍّ بالفتح، وهو راقود الخمر الكبير.

(٢) استشهد أبو عبيدة أيضاً بهذا البيت عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾. والخَتْرُ: الغَدْرُ، أو هو أقبح أنواع الغدر والخيانة كما أشار ابن عطية، يقول: إن أبا عمرو هذا غدرٌ وختر مُجَسَّمان، فإذا رأيته رأيت الغدر والختر وأمسكتهما بيديك مُجَسَّمين في شخصه. و[خَتَّار] في الآية للمبالغة، والفعل من باب ضَرَبَ ونَصَرَ، تقول: خَتَرَ يَخْتِر بكسر التاءِ، وخَتَر يَخْتُر بضم التاءِ. ويروى البيت: (وإنَّك) بالواو.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾.

[يَجْزِي] معناه: يقضي، والمعنى: لا ينفعه بشيءٍ، ولا يدفع عنه شيئاً، و﴿ هُوَ جَازٍ ﴾ جملة في موضع الصفة، أَي: ولا يجزي مولودٌ قد كان في الدنيا يجزي[(١)]. و[ٱلْغرورُ]: التَّطميع بما لا يتحصل، و[ٱلْغَرُورُ]: الشيطان، بذلك فسَّر مجاهد والضَّحَّاك، وقال: هو الأَمل والتسويف. وقرأَ سِمَاكُ بْنُ حَرْب[(٢)]، وأَبو حيوة: [ٱلْغُرُور] بضم الغين، وقال سعيد بن جُبَيْر: معنى الآية أن تَعْمل المعصية وتَتَمنى المغفرة.

وقرأَ الجمهور: (يَجْزِي) بفتح الياءِ، من (جَزَى)، وقرأَ عكرمة: [يُجْزِي] بضم الياءِ على ما لم يُسَمَّ فاعله، وحكى ابن مجاهد قراءَة: [لاَ يُجْزِىءُ] بضم الياءِ وبالهمز. وفي رفع [مَوْلُودٌ] اضطرابٌ من النحاة، قال المهدوي: «ولا يكون مبتدأً لأَنه نكرة وما بعده صفة له فيبقى بغير خبر»[(٣)]. وقرأَ ابن أَبي عبلة، وابن أَبي إِسحاق، ويعقوب: [ولا تغرْنكم] خفيفة النون.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ ﴾ الآية. ذكر النقاش أَن رجلاً سأَل رسول الله ﷺ عن

---

(١) قال بعض المفسرين: «لما كان الوالد أكثر شفقة على الولد من الولد على أبيه بدأ به أَوَّلاً، وأَتى في الإسناد إلى الوالد بالفعل المضارع المقتضي للتجدد؛ لأن شفقته على الولد متجددة في كل حال، وأتي في الإسناد إلى الولد باسم الفاعل لأنه يدلُّ على الثُّبوت، والثُّبوتُ يصدق بالمرة الواحدة».

(٢) هو سِمَاك ـ بكسر السين وتخفيف الميم ـ بن حرب بن أوس بن خالد الذّهليّ البكري الكوفي، أبو المغيرة، صدوقٌ، وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة، وقد تغير بأَخِرَة، فكان بما يُلَقَّن، من الرابعة، مات سنة ثلاث وعشرين. (تقريب التهذيب).

(٣) أما عن اضطراب النحاة في إعراب [مَوْلُودٌ] فقد نصَّ أبو حيان في البحر على جواز وجهين في إعرابه: أحدهما أن يكون معطوفاً على [وَالِدٌ]، والجملة في قوله: ﴿ هُوَ جَازٍ ﴾ صفةٌ لـ [مَوْلُود]. والثاني أن يكون مبتدأ ثانياً، و﴿ هُوَ جَازٍ ﴾ خبره، والجملة خبر الأول، وأما ما ذكره المهدوي من أنه لا يكون مبتدأً لأنه نكرة وما بعده صفةٌ له فيبقى بغير خبر ـ فقد أجاب عنه أيضاً أبو حيان بقوله: «وجاز الابتداءُ به وهو نكرة لوجود مُسَوِّغ ذلك وهو النفي، وذهل المهدوي فقال. . . إلخ».

هذه الخمس، ورُوي أنه سأَل عن بعضها فنزلت الآية حاصرةً لمفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلاّ الله عزَّ وجلَّ، ذكر ذلك مجاهد(١)، ولن تجد من المغيبات شيئاً إلاَّ هذه أَو ما يفيده النظر والتأويل.

و﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ مصدرٌ مضاف إلى مفعول، أَي: كلُّ ما شأْنه أَنْ يُعْلَم من أَمر الساعة، ولكن الذي استأْثر الله به هو علم الوقت، وغير ذلك فذا علم ببعض منه. وكذلك نزول الغيث أَمر قد استأْثر الله عزَّ وجلَّ بتفصيله وعَلِمَ وقته الخاصَّ به. وأَمْرُ الأَجِنَّة كذلك، وأَفعالُ البشر وجميعُ كسْبهم كذلك، وموضعُ موت كل بشر كذلك الأَصقاع والموضع الخاص بالجسد(٢).

وقرأَ ابن أَبي عبلة: [بأَيَّةِ أرض] بفتح الياءِ وزيادة تاءِ تأْنيث(٣). و﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ صفتان مشابهتان لمعنى الآية.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كلُّ شيءٍ أُوتي نَبِيُّكُم إلاَّ مفاتيح الخمس، ثم تلا الآية(٤).

---

(١) الحديث الذي رواه مجاهد أخرجه الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، ولفظه كما ذكره السيوطي في الدر المنثور: «جاءَ رجلٌ من أهل البادية فقال: إن امرأتي حُبْلى فأخبرني ما تلد؟ وبلادنا مجدبة فأخبرني متى ينزل الغيث؟ وقد علمتُ متى وُلدتُ فأخبرني متى أموتُ؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية». كما ذكر السيوطي أن ابن المنذر قد أخرج مثله عن عكرمة، وفي (أسباب النزول) ذكر الواحدي حديث مجاهد بدون سند، وكذلك ذكره البغوي في تفسيره، وذكره القرطبي في تفسيره عن مقاتل، قال: إن هذه الآية نزلت في رجل من أهل البادية اسمه الوارث بن عمرو بن حارثة، أتى النبي ﷺ. . . الحديث. وذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآية أن السُّنّة قد وردت بتسمية هذه الخمس: مفاتيح الغيب، قال: فروى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ قال: ورواه البخاري.

(٢) أسند الله تعالىٰ العلم إلى نفسه، وأسند الدراية للنفس لما في الدراية من معنى الحيلة، ولذلك يُوصف اللهُ سبحانه بالعلم فيقال: عالم، ولا يوصف بالدراية، فلا يقال: دار.

(٣) جاز ذلك لأن الأرض أُضيفت إلى الموت ورُبطت به، وهي لغة قليلة. وقال الأخفش: يجوز مرَرْتُ بجارية أيِّ جارية، وشبَّه سيبويه تأنيث «أيّ» بتأنيث «كُلّ» في قولهم: «كُلَّتُهن».

(٤) أخرجه أحمد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن مسعود، ذكر ذلك السيوطي في (الدر المنثور)، وفي الدرّ أيضاً أن أحمد والطبراني أخرجا عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أُوتيتُ مفاتيح كلِّ شيءٍ إلا الخمْس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية».

وقرأَ: [ويُنْزِلُ الغيث] خفيفةً أَهلُ الكوفة، وأَبو عمرٍو، وعيسى، وقرأَ: (يُنَزِّلُ) بالتثقيل نافع، وأَبو جعفر، وعاصم، وشيبة. وذكر أَبو حاتم في ترجيح التثقيل رأْياً.

كمل تفسير سورة لقمان والحمد لله ربِّ العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة السَّجدة

هذه السُّورة مكيَّة غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة، وهي قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ إلى تمام ثلاث آيات، ويأتي تفسيرها[1]. وقال جابر بن عبد الله: «ما كان رسول الله ﷺ ينام حتى يقرأ: ﴿ألم تنزيل﴾ السجدة، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾.

﴿تَنزِيلُ﴾ يصح أَن يرتفع بالابتداءِ، والخبر ﴿لَا رَيْبَ﴾، ويصح أَن يرتفع على أَنه خبر ابتداءِ، وهو: إِمَّا الحروف المشار إِليها على بعض الأَقوال في أَوائل السُّور، وإِمَّا: «ذلك تنزيل»، أَو نحو هذا من التقدير بحسب القول في الحروف.

---

(١) هذا ما قاله الكلبي ومقاتل وابن عباس. وقال غيرهم: إلا خمس آيات، من قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، وآيات هذه السورة ثلاثون آية، وقيل: تسع وعشرون.

(٢) قال القرطبي: «وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقرأُ في صلاة الفجر يوم الجمعة ﴿ألم تنزيل﴾ السجدة، و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾». وقد روى البخاري ذلك في صحيحه في كتاب الجمعة عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه مسلم أيضاً.

أما حديث جابر رضي الله عنه فقد أخرجه أبو عبيد في فضائله، وأحمد، وعبد بن حميد، والدارمي، والترمذي، والنسائي، والحاكم وصححه، وابن مردويه. ذكر ذلك الشوكاني في (فتح القدير)، وذكره السيوطي في (الدر المنثور).

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أَي: هو هكذا في نفسه، ولا يراعى ارتياب الكفرة، وقوله تعالىٰ: ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ متعلق بـ [تَنْزِيل]، ففي الكلام تقديم وتأْخير. ويجوز أَن يتعلق بقوله: [لاَ رَيْبَ]، أَي: لا شكَّ فيه من جهة الله تعالىٰ، وإِن وقع شكٌّ للكفرة فذلك لا يُرَاعى[١]. والرَّيْبُ: الشَّكُّ، وكذلك هو في كل القرآن إِلاَّ قوله: ﴿رَيْبَ الْمَنُونِ﴾[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ إِضرابٌ، وتقديره أَنه قال: بَل أَيقولون، و[افْتَرَاهُ]: اختلقه، ثم ردَّ تعالىٰ على مقالتهم هذه، وأَخبر أَنه الحق من عند الله تعالىٰ، واللام في قوله: [لِتُنْذِرَ] يجوز أَن تتعلق بفعل مضمر تقديره: أَنزله لِتُنْذر، فيوقف حينئذ على قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ أَي: لم يباشرهم ولا رأَوْه هم ولا آباؤُهم العرب، أَمَّا قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٣] فَيَعُمُّ من بوشر من النُّذر ومن يُسمع به، فإِن العرب من الأُمم التي خلَت فيها النُّذُر على هذا الوجه، لأَنها علمت بإِبراهيم وبَنِيه عليهم السلام ودعوتِهم، وهم ممن لم يأْتهم نذيرٌ مباشر لهم سوى محمد ﷺ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، ومقاتل: المعنى: لم يأْتهم نذيرٌ في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام[٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يقضي بأَن يوماً من أَيام الجمعة بقي لم يُخلق فيه شيءٌ، وتظاهرت الأَحاديث الصحاح أَن الخلق ابتدأَ يوم الأَحد، وخلق آدم يوم الجمعة

---

(١) قال مكي: أحسن الوجوه في الإعراب أن تكون ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في موضع الحال، و﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الخبر.

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٣٠) من سورة (الطور): ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾.

(٣) من الآية (٢٤) من سورة (فاطر).

(٤) يقول أبو حيان في معرض الردِّ على رأي للزمخشري حاول فيه التوفيق بين آية فاطر وآية السجدة هذه: «لقد فهم المفسرون أن (مَا) في قوله تعالىٰ: ﴿مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ نافية، وعندي أنها موصولة، والمعنى: لِتُنْذِر قوماً العقاب الذي أتاهم، و﴿مِن نَّذِيرٍ﴾ متعلق بـ (أَتَاهُمْ)، أي أتاهم على لسان نذير من قبلك، وكذلك المعنى في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾. إذ تقديره: لِتُنْذِرهم العقاب الذي أُنْذِره آباؤُهم، فـ [مَا] مفعولة في الموضعين، و(أَنذر) تتعدى إلى اثنين، قال تعالىٰ: ﴿فإن أعرضوا فقد أنذرتكم صاعقة﴾، وهذا القول جارٍ على ظواهر القرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾.

آخر الأشياءِ، فهذا مستقيم مع هذه الآية، ووقع في كتاب مسلم أن الخلق ابتدأ يوم السبت، فهذا يخالف الآية، اللَّهُمَّ إلاَّ أن يكون أراد في الآية جميع الأشياءِ غير آدم عليه السلام، ثم يكون يوم الجمعة هو الذي لم يُخلق فيه شيءٌ مما بين السماءِ والأرض؛ لأن آدم لم يكن حينئذ مما بينهما. وقد تقدم القول في قوله تعالىٰ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بما فيه كفاية، و[ثُمَّ] في هذا الموضع لترتيب الجمل، لا لأن الاستواءَ كان بعد أن لم يكن، وهذا على المعنى المختار في معنى [ٱسْتَوَىٰ].

ونفيُ الشفاعة محمولٌ على أحد وجهين: إمَّا نفيٌ عن الكفَرَة، وإمَّا نَفْي الشفعاءِ من ذاتهم على حدّ شفاعة الدنيا؛ لأن شفاعة الآخرة إنما هي بعد إذن الله تعالىٰ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾.

[ٱلْأَمْرَ] اسم جنس لجميع الأمور، والمعنى: ينفذ الله تعالىٰ قضاءَه لجميع ما يشاؤه، ثم يرجع إليه خبر ذلك في يوم من أيام الدنيا مقداره ـ إن لو يسير فيه السير المعروف من البشر ـ ألف سنة؛ لأن ما بين السماءِ والأرض خمسمائة سنة، هذا أحد الأقوال، وهو قول مجاهد، وابن عباس، وقتادة، وعكرمة، والضحاك. وقال مجاهد أيضاً: إن المعنى أن الضمير في [مِقْدَارُهُۥٓ] عائد على التدبير، أي: كأن التدبير المنقضي في يوم القيامة ألفُ سنة لو دبَّرهُ البشر. وقال مجاهد أيضاً: المعنى أن الله تعالىٰ يُدبِّر ويُلقي إلى الملائكة أُمور ألف سنة من عَدِّنا، وهو اليوم عنده، فإذا فرغت ألقى إليهم مثلها، فالمعنى أن الأُمور تُنَفَّذ عنده لهذه المدة، ثم تصير إليه آخراً؛ لأن عاقبة الأُمور إليه. وقيل: المعنى: يُدبِّر الأمر من السماءِ إلى الأرض في مدَّة الدنيا، ثم يرجع إليه في يوم القيامة، ويوم القيامة مقداره ألف سنة من عدِّنا، وهو على الكفار قدر خمسين ألف سنة لِهَوْلِهِ وشُنعته حسب ما في سورة «سَأَلَ سَائِلٌ»[1]. وسنذكر هناك ما فيه من التأويل والأقوال إن شاءَ الله تعالىٰ.

وحكى الطبري في هذه الآية عن بعضهم أنه قال: «قوله: ﴿فِى يَوْمٍ﴾ إلى آخر الآية

(١) أي سورة المعارج، وقد ورد ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، الآية رقم (٤).

متعلق بقوله قبل هذا: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ومُتَّصل به، أي أن تلك السِّتَّة كل واحد منها من أَلف سنة»[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ ضعيف مُكرِهةٌ أَلفاظ هذه الآية عليه، رادَّةٌ له الأَحاديثُ التي تُثْبِت أَيام خلق الله تعالىٰ المخلوقات، وحَكَى[٢] أيضاً عن ابن زيد، عن بعض أَهل العلم أن الضمير في [مِقْدَارُهُ] عائد على «العروج»، والعروج: الصعود، والمعارج: الأَدراج التي يصعد عليها.

وقالت فرقة: معنى الآية: يُدبِّر أَمر الشمس في أَنها تصعد وتنزل في يوم، وذلك قدر أَلف سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا أَيضاً ضعيف، وظاهرٌ عودُ الضمير في [إِلَيْهِ] على اسم الله تعالىٰ، كما قال: ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾[٣]، وكما قال: ﴿مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾[٤]، وهذا كله بريءٌ من التَّحيُّز. وقيل: إن الضمير يعود على [ٱلسَّمَآءِ] لأنها قد تُذَكَّر.

وقرأَ جمهور الناس: (تَعُدُّونَ) بالتاءِ، وقرأَ الأَعمش، والحسن ـ بخلاف عنه ـ: [يَعُدُّونَ] بالياءِ من تحت.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾.

---

(١) أي: مُكوَّن من أَلف سنة.

(٢) أي: الطبريُّ.

(٣) من الآية (٩٩) من سورة (الصافات)، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾.

(٤) من الآية (٢٦) من سورة (العنكبوت)، وهي قوله تعالىٰ: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قالت فرقة: أراد بالغيب الآخرة وبالشهادة الدنيا، وقيل: أراد بالْغيب ما غاب عن المخلوقين، وبالشهادة ما شوهد من الأشياءِ، فكأنه حصر بهذه الألفاظ جميع الأشياءِ.

وقرأ جمهور الناس: (خَلَقَهُ) بفتح اللام على أنه فعل ماضٍ، ومعنى ﴿أَحْسَنَ﴾: أتْقَنَ وأحكم، فهو حسنٌ من جهة ما هو لِمَقَاصِدِهِ التي أُريد لها، ومن هذا المعنى قال ابن عباس، وعكرمة: ليست اسْتُ القرد بحسنة ولكنها متقنة محكمة. والجملة في ﴿خلَقَهُ﴾ يحتمل أن تكون في موضع نصب صفة لـ ﴿كُلّ﴾، أو في موضع خفض صفة لـ ﴿شَيْءٍ﴾. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: [خَلْقَهُ] بسكون اللام، وذلك منصوب على المصدر، والضمير فيه إمّا عائد على الله تعالىٰ، وإمّا على المفعول، ويصح أن يكون بدلاً من [كُلَّ]، وذهب بعض الناس ـ على هذه القراءَة ـ إلى أن [أَحْسَنَ] معناها: أَلْهَمَ، وأن هذه الآية بمعنى قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1]، أي ألهم الرجل إلى المرأة، والجَمَل إلى النَّاقة، وهذا قولٌ فيه بُعْد، ورجَّحه الطبري.

وقرأ جمهور الناس: (وَبَدَأَ)، وقرأ الزهري: [وبدا خلق الإنسان] بألف دون همز، وبنصب القاف، قال أبو الفتح: ذلك على البدل لا على التخفيف[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كأنه أبدل الألف من الهمزة، وبَدِي[3] لغة الأنصار، قال ابن رواحة:

بِاسْمِ الإلٰهِ وبِهِ بَدِينَا ... وَلَوْ عَبَدْنَا غَيْرَهُ شَقِينَا[4]

و[الإنْسَان]: آدم، عدَّد أمره على بنيه؛ إذْ خَلْقُه خلْق لهم؛ من حيث هو مُنْسِل لهم. و«النَّسْل»: ما يكون عن الحيوان من الولد، كأنه مأخوذٌ من: «نَسَلَ الشيءُ» إذا

(١) من الآية (٥٠) من سورة (طه)، وهي قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

(٢) قال أبو الفتح ابن جني: «ومثله بيت الكتاب:

رَاحَتْ بِمَسْلَمَةَ الْبِغَالُ عَشِيَّةً ... فَارْعَيْ فَزَارَةُ لا هَنَاكِ الْمَرْتَعُ

ولو كان تخفيفاً قياسياً لجعل الهمزة بيْن بيْن، ولو أسندتَ الفعل إلى نَفْسك على التخفيف القياسي قلت: بَدَاتُ بألف لا همز في لفظها، وعلى البدل قلتَ: بديْتُ، كما حُكي عنهم: قَرَيْتُ وأَخْطَيْتُ».

(٣) بِكَسْر عين الكلمة وياءٍ بعدها، وهي لغة طيءٍ، قال ذلك أبو حيان في البحر.

(٤) الشاهد فيه قوله: (بَدِينا) بكسر الدال وبعدها ياءٌ، وهي لغة الأنصار في (بَدَأَ).

خرج من موضعه، ومنه قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾[١]، ومنه: «نَسَلَ ريشُ الطائر» إذا تساقط. و«السُّلاَلَةُ» من: سُلَّ يُسلُّ؛ فكأن الماءَ يُسَلُّ من الإنسان، ومن ذلك قول الشاعر:

فَجَاءتْ بِهِ عَضْبَ الأَدِيمِ غَضَنْفَرا   سُلاَلَةَ فَرْجٍ كَانَ غَيْرَ حَصِينِ[٢]

و«الْمَهِينُ»: الضعيف، يقال: «مَهُنَ الإنْسَانُ» إذا ضعف وذلّ[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿نَفَخَ﴾ عبارة عن إفَاضة الروح في جسد ابن آدم، والضمير في ﴿رُوحِهِ﴾ لله تعالىٰ، وهي إضافة مِلْكٍ إلى مَالِكٍ، وخَلْقٍ إلى خَالق. ثم أَظهر تعديد النعم عليهم في أَن خصَّهم في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ [بضمير][٤] السمع والأَبصار والأَفئدة، وهي لمن تقدم ذكره أَيضاً[٥]. كما خصَّ آدم بالتَّسوية ونفخ الروح، وهو لجميع ذرِّيته، وهذا كله تجاوز واقتضاب وترْكٌ لما يدل عليه المنطوق به. ويحتمل أَن يكون ﴿ٱلإِنسَانِ﴾ في هذه الآية اسم جنس. وقوله تعالىٰ: ﴿قَلِيلاً﴾ صفة لمصدر محذوف، وهو في موضع الحال حين يحذف الموصوف به.

والضمير في ﴿قَالُوا﴾ للكفار الجاحدين البعثَ من القبور، المستبعدين لذلك دون

---

(١) من الآية (٩٦) من سورة (الأنبياء).

(٢) البيت لحسَّان بن ثابت، وهو في ديوانه ـ تحقيق: د. سيِّد حنفي حسنين ـ أثبته تحت رقم (٦٨) في صفحة ٣٩٦ ضمن (إضافات لأبيات ومقطعات لم ترد في النسخة الأم)، وهو أيضاً في (اللسان ـ سَلَلَ)، قال: «وسُلالَة الشَّيْءِ: ما اسْتُلَّ منه، والنُّطفة سلالة الإنسان، قال حسَّان: البيت». ويروى البيت: (حَمَلَتْ به) بدلاً من (فَجَاءَتْ)، (وقال محقق اللسان ـ طبعة دار المعارف ـ القاهرة) في الهامش: عَضْب بالضاد المعجمة، هكذا في الأصل، ولعله بالصاد المهملة، ولعلَّ الذي دفعه إلى ذلك أن المعاني اللغوية المعروفة لكلمة (عَضْب) لا تناسب المعنى هنا اللهم إلا أن يراد به غِلَظُ الجلْد ومتانته. والغَضَنْفَر: هو الرجل الغليظ الجثة مِثْل الغُضَافِر، يقال: غَضْفَر الشَّيْءُ إذا ثَقُل. والسُّلالَة: الولد يخرج من بطن أُمِّه، فهو سَلِيلٌ وسُلالَة، وفي اللسان: «قال أبو الهيثم: السُّلالَةُ: مَا سُلَّ مِنْ صُلْب الرجل وتَرَائب المرأة، والمؤلف يستشهد بالبيت على أن السُّلالَة هو الوَلَد حين يُسَلُّ من أبيه وأُمه، ومثل هذا البيت قول هند بنت النعمان التي كانت تعتز بنفسها، وتزوجت رجلاً لا تطيقه فقالت:

وَهَلْ كُنْتُ إلا مُهْرَةً عَرَبِيَّةً   سُلالَةَ أَفْرَاسٍ تَحَلَّلَهَا بَغْلُ؟

(٣) يُقال: مَهُن الرجل بضم الهاءِ بمعنى: ضعف وَذَلَّ، أما مَهَن بفتح الهاءِ فمعناها: صارت له مهنة، ومصدر الأولى: مَهَانَةٌ، ومصدر الثانية: مَهْناً ومَهْنَةً ومِهْنَةً.

(٤) هكذا في الأصول، ولو حذفت لاستقام المعنى.

(٥) يريد بمن تقدم آدم عليه السلام حيث تقدم في قوله: ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله﴾.

حجة ولا دليل، وموضع ﴿أَئِذَا﴾ نصب بما في قوله: ﴿أئنا لفي خلق جديد﴾؛ لأن معناه: لنعاد. واختلف القراءُ في [أَئِذَا]، وقد تقدم استيعاب ذكره في غير هذا الموضع.

وقرأ جمهور القُرَّاءِ: ﴿ضَلَلْنَا﴾ بفتح اللام، وقرأ ابن عامر، وأبو رجاءٍ، وطلحة، وابن وثاب: [ضَلِلْنَا] بكسر اللام، والمعنى: تَلِفْنَا وتقطَّعت أَوْصالُنَا فذهبنا حيث لم نوجد، ومنه قول الأخطل:

كُنْتَ القَذى في مَوْجٍ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ ... قَذَفَ الأَتِيُّ بِهِ فَضَلَّ ضَلاَلاَ(١)

ومنه قول النابغة:

فَآبَ مُضِلُّوهُ بِعَيْنٍ جَلِيَّةٍ ... وغُودِرَ بالْجَولاَنِ حَزْمٌ وَنَائِلُ(٢)

أي: مُتْلفوه دفناً، ومنه قول امرىء القيس:

---

(١) قال الأخطل هذا البيت مخاطباً جرير فيما كان بينهما من هجاءٍ، وقبل هذا البيت يقول:

وَإِذَا سَمَا لِلْمَجْدِ فَرْعَا وَائِلٍ ... وَاسْتَجْمَعَ الوَادي عَلَيْكَ فَسَالا

وَفَرْعا وائل هما بكر وتغلب. والقَذَى: ما يصيب العين بالأذى حين يقع فيها ما يحمله الهواء من التراب، والأكدر: غير الصافي، والمُزْبد: الذي علاه الزَّبد، والزَّبَد هو ما يعلو الماءَ من رغوة فيها ما يحمله الماءُ من أعشاب أو عيدان. والأَتِيُّ: الذي يأتي من مكان بعيد مندفعاً في قوة. يقول الأخطل لجرير: إذا اجتمع فَرْعا وائل في يوم من أيام الفخار مع القبائل، وكانوا كالسيل القوي المندفع من مكان بعيد كنت أنت يا جرير كالقَذَى الذي يتوه وسط هذا السيل القوي فلا يبقى منه أثر، وهو بهذا يُعَرِّض بجرير وأبيه، فهو الحقير الضئيل بين عِلْية القوم من بكر وتغلب. والشاهد في البيت أن الضلال هنا بمعنى الفناءِ والضياع وسط الأشياءِ.

(٢) البيت من قصيدة قالها النابغة يرثي النعمان بن الحارث الغساني. ومُضِلُّوه: الذين دفنوه وأخفوه في التراب، وهذا هو الشاهد هنا، ويُروى: مُصَلُّوه بالصاد المهملة، وهي الرواية المشهورة، والمعنى: الذين صلُّوا عليه من الرهبان الذين تجمعوا حوله يدعون له؛ لأن النعمان بن الحارث كان من الذين تنصروا في الجاهلية، ورواها أيضاً أبو عبيدة: مُطِلُّوهُم بالطاءِ المُهملة وبضمير الجمع، يريد المُطِلِّين عليهم في دينهم، يقال: أَطَلَّ على فلان في دينه إذا كان له عليه فضل، هكذا قال أبو عبيدة مع أن معاجم اللغة لم تورد هذا المعنى، ومعنى قوله: (بِعَيْن جَلِيَّة) أنهم رجعوا بعد أن شاهدوا بأعينهم موته ودفنه، وفي هذا إشارة إلى أن من لم يروا ذلك يكادون لا يصدقون خبر موته لجلالة قدره وعظم منزلته بين الناس، والجولان: اسم المكان الذي دفن فيه، وهو بالشام جنوبي دمشق، وعلى الحدود الفاصلة بين سوريا وفلسطين.

. . . . تَضِلُّ الْمَدَارِي في مُثَنًّى وَمُرْسَلِ(١)

وقرأ الحسن البصري: [صَلَلْنَا] بالصاد غير منقوطة وفتح اللام، قال الفراءُ: ويروى عن علي ابن أَبي طالب رضي الله عنه، ومعناه: صِرْنَا من الصَّلَّة، وهي الأَرْض اليابسة الصلبة، ويجوز أَن يراد به: من التَّغيّر، كما يقال: «صَلَّ اللَّحْم»(٢)، ورويت هذه القراءَة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأَبان بن سعيد بن العاص، وقرأَ الحسن أَيضاً: [صَلِلْنَا] بالصاد غير منقوطة وكسر اللام، وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وأَبو حيوة: [صَلَّلْنَا]. بالصاد غير منقوطة وكسر اللام وشدِّها.

وقولهم: ﴿أئنا لفي خلق جديد﴾، أَي: أَئِنَّا لفي هذه الحالة نُعاد ويجدد خلقنا. وقوله تعالىٰ: [بَلْ] إضرَابٌ عن معنى استفهامهم، كأَنه قال: ليسوا مستفهمين، بل هم كافرون جاحدون بلقاءِ الله تعالىٰ.

---

(١) هذا عجز بيت من معلقته المشهورة، والبيت بتمامه:

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إلى العُلا تَضِلُّ المَدَاري في مُثَنًّى وَمُرْسَلِ

والغدائر: جمع الغديرة وهي الخُصلة من الشَّعر، ومُسْتَشْزِرَاتٌ ـ من الاسْتِشْزَار وهو الارتفاعُ والرَّفْعُ جميعاً، وبهذا يكون الفعل منه لازماً أو متعدياً، فمن رواه مُسْتَشْزِرَاتٌ ـ بكسر الزاي ـ جعله من الفعل اللازم، ومن رواه بفتح الزاي جعله من المتعدي، والمَدَاري: جمع مدراة وهي الآلة التي يُسَوَّى بها الشَّعْر ويُرَجل، أي المشط، ويُروى بدلاً من المداري: العِقَاص: وهو خَيْطٌ يُشَدُّ به الشَّعْر مما يُسَمَّى بالعقص، يقال: عقصت المرأة شعرها عقْصاً إذا أخذت كل خُصلة منه فلَوَتْها ثم عقدتها حتى يبقى فيها التواءٌ ثم أرسلتها. والمثنى: الذي ثُني بعضه على بعض، والمرسل: الذي ترك دون عقصٍ أو ثني، والشاهد فيه أن يَضِلُّ بمعنى يغيب ويختفي بين الشعر ما ثُني منه وما أُرسل. يقول: ذوائب شعرها مرتفعة أم مرفوعة إلى فوق، وشعرها لكثرته وطوله منه المثنى ومنه المرسل، وفيه تغيب المدارى.

(٢) في (اللسان ـ صَلَّ): «الصَّلَّة: الأرض اليابسة، وقيل: هي الأرض التي لم تُمْطَر بين أرضين مَمْطورتَين، والجمع: صِلال، وقال أبو عبيدة: قَبَرَه في الصَّلَّة وهي الأرض»، وعلى هذا يمكن تخريج المعنى في الآية على هذه القراءَة، كذلك يمكن فهم الآية على المعنى المشهور الذي ذكره أبو الفتح ابن جني، وذكره أيضاً ابن عطية، وهو من: صلَّ اللَّحم يَصِلُّ صلولا وأَصَلَّ: أَنْتَن مطبوخاً كان أو نيِّئاً، قال الحطيئة:

ذاك فتىً يَبْذُلُ ذا قِدْرِهِ لا يُفْسِدُ اللَّحم لَدَيْهِ الصُّلولُ

وقال زهير:

تُلَجْلِجُ مُضْغَةً فيها أَنِيضٌ أَصَلَّتْ فَهِيَ تَحْتَ الكَشْحِ داءُ

ثم أَمر تعالىٰ نبيَّه ﷺ أَن يخبرهم بجملة الحال غير مفصلة، فبدأَ بالإِخبار من وقت تفقد روح الإِنسان إِلى الوقت الذي يعود فيه إِلى ربِّه، فجمع الغائبين الأُولى والآخرة، و[يَتَوَفَّاكُمْ] معناه: يستوفيكم، ومنه قول الشاعر:

إِنَّ بَنِي الأَدْرَمِ لَيْسُوا مِنْ أَحَدْ ... وَلاَ تَوَفَّاهُمْ قُرَيْشٌ فِي الْعَدَدْ[١]

و﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ اسمه عزرائيل، وتصرفه كله بأَمر الله تعالىٰ وخَلْقِه واختراعِه، ورُوي في الحديث أَن البهائم كلها يَتَوفَّى الله أَرْواحها دون مَلَك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَنه يعدم حياتها[٢]، وكذلك الأَمر في بني آدم؛ إِلاَّ أَنه نوع شُرِّف بتصرف مَلَك وملائكة معه في قبض أَرواحهم، وكذلك أَيضاً غلظ العذاب على الكافرين في ذلك. ورُوي عن مجاهد أَن الدنيا بين يَدَيْ ملَك الموت كالطست بين يدي الإِنسان يأْخذ من حيث أُمر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟

---

(١) البيتان في (اللسان ـ وفى)، ونسبهما لمنظور الوَبْري، والرواية فيه (الأَدْرد) بدلاً من (الأدرم) وفي (التاج) أن الشاعر هو منظور العنبري. ومعنى (لَيْسوا من أحد): لا تجعلهم قريش منها، ومعنى (ولا تَوَفَّاهم في العدد) أنها لا تستوفي بهم عددها، فهم غير معدودين ولا محسوبين بيْن الناس. وقد استشهد أبو عبيدة بالبيتين في مجاز القرآن، وعنه أخذ صاحب اللسان.

(٢) نقل القرطبي عن ابن عطية هذا الحديث وتعليقه عليه بقوله: «كأنه يعدم حياتها»، ثم قال: «وقد رُوي خلافه، وأن ملَك الموت يتوفى أرواح جميع الخلائق حتى البرغوث والبعوضة»، ثم ذكر الحديث الذي أخرجه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن جعفر بن محمد، ولفظه: سمعت أبي يقول: (نظر رسول الله ﷺ إلى ملَك الموت عند رأس رجل من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: يا ملَك الموت ارفُق بصاحبي فإنه مؤمن، فقال ملَك الموت: يا محمد، طِبْ نَفْساً وقرَّ عيناً، فإني بكل مؤمن رفيق، واعلم أن ما في الأرض بيت مَدَر ولا شَعْر في برٍّ ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات، حتى إنِّي أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم، والله يا محمد لو أني أردت أن أقبض رُوح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها). وقد ذكر ابن كثير الحديث بنفس السند، وعقَّب عليه بكلام لجعفر بن محمد راوي الحديث.

عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ تعجيب لمحمد ﷺ وأُمَّته من حال الكفرة ومما حلَّ بهم. وجواب [لَوْ] محذوف؛ لأن حذفه أهول؛ إذْ يُتْرك الإنسان فيه مع أقصى تخيُّله. و[ٱلْمُجْرِمُونَ] هم الكافرون؛ بدليل قولهم: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾، أي أنهم كانوا في الدنيا غير موقنين. و«تَنْكِيسُ الرُّؤُوسِ» هو من الهول والذل والهمِّ بحلول العذاب وتعلُّق نفوسهم بالرجعة إلى الدنيا، وفي القول محذوف تقديره: يقولون ربَّنا، وقولهم: ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أَي: ما كنا نُخْبَر به في الدنيا فكنا مكذبين به، ثم طلبوا الرجعة حين لا ينفع ذلك.

ثم أَخبر تبارك وتعالىٰ عن نفسه أنه لو شاءَ لهدى الناسَ أَجميعن، أَي: يلطف بهم لطفاً يؤمنون به ويخترع الإِيمان في قلوبهم. هذا مذهب أَهل السُّنَّة. وقال بعض المفسِّرين: لَعَرَض عليهم آية يضطرهم بها إِلى الإِيمان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول بعض المعتزلة، إلاَّ أَن من أَشرنا إِليه من المفسِّرين لم يَدْرِ قَدْر القول ولا مغزاه ولذلك حكاه، والذي يقود المعتزلة إِلى هذه المقالة أَنهم يَرَوْن أَن من يقدر على اللطف بإنسان حتى يؤمن ولا يفعل فإِن ذلك ليس من الحكمة ولا من الأَمر المستقيم، والكلام على هذه المسأَلة يطول وله تواليفه. و[ٱلْجِنَّة]: الشياطين.

وقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ بمعنى: يقال لهم: ذُوقُوا، و﴿نَسِيتُمْ﴾ معناه: تركتم، قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره، وفي الكلام حذف مضاف تقديره: عمل، أَو عدة ونحوه. وقوله: ﴿إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ﴾ سَمَّى العقوبة باسم الذنب، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَي: بتكَسُّبِكُم الآثام.

ثم أَثنى عزَّ وجلَّ على القوم الذين يؤمنون بآياته، ووصفهم بالصفة الحسنة، من سجودهم عند التذكير وتسبيحِهم وعدم استكبارهم، بخلاف ما يصنع الكفرة من الإِعراض عند التذكير، وقول الهُجْر، وإظهار التكبُّر، وهذه السجدة من عزائم السجدة في القرآن، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: السجود هنا بمعنى الركوع، وقد رُوي عن ابن جريج، ومجاهد أَن هذه الآية نزلت بسبب قوم من المنافقين كانوا إِذا أُقيمت الصَّلاة

خرجوا من المسجد، فكأن الركوع يقصد من هذا، ويلزم على هذا أن تكون الآية مدنية، وأيضاً فمن مذهب ابن عباس رضي الله عنهما أن القارئ للسجدة يركع، واستدل بقوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[١].

قوله عزّ وجلّ:

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

جَفَا الرَّجلُ الموضع: إذا تركه، وتجافى الجنْبُ عن مضجعه: إذا تركه، وجافى الرجل جنبه عن مضجعه، وفي الحديث: «يجافي بعضديه عن جَنْبَيْه»[٢] أي يبعدهما عن بدنه، فقوله تعالىٰ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ ﴾ أي تبتعد وتزول، ومنه قول عبد الله بن رواحة:

نَبِيٌّ تَجَافَى جَنْبُهُ عَنْ فِرَاشِهِ إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ[٣]

ويروى: «يَبِيتُ يُجَافي»، قال الزَّجَّاج، والرُّمَّاني: التَّجافي: التَّنَحِّي إِلى جهة فوق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول حسن، وكذلك هو في الصفح عن المخطئ في سبٍّ ونحوه.

---

(١) من الآية (٢٤) من سورة (ص).

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، وأحمد، ولفظه كما أخرجه البخاري في الصلاة عن عبد الله بن مالك بن بُحَيْنَة أن النبي ﷺ كان إذا صلَّى فرَّج بين يديه حتى يبدو بياض إبطيه.

(٣) هذا بيت من الشعر ضمن ثلاث أبيات رواها الإمام أحمد عن أبي هريرة ٣ـ٤٥١، قال أبو هريرة: إن أخاً لكم كان لا يقول الرفث ـ يعني ابن رواحة، قال:

وَفِينَا رسُولُ اللهِ يَتْلُو كتَابَهُ إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ اللَّيْلِ سَاطِعُ
يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بالكَافِرِينَ المَضَاجِعُ
أَرَانَا الهُدَى بَعْدَ العَمَى فَقُلُوبُنَا بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعُ

و«الْجُنُوبُ»: جمع جَنْب، و«الْمَضَاجِع»: موضع الاضطجاع للنوم. وقال أَنس بن مالك: أَراد بهذه الآية الصلاة بين المغرب والعشاءِ، وقال عطاءٌ، وأَبو سلمة: أَراد صلاة العشاءِ الآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكانت الجاهلية ينامون في أَول الغروب، ومن أَيِّ وقت شاءَ الإِنسان، فجاءَ انتظار وقت العشاءِ الآخرة غريباً شاقًّا، وقال أنس بن مالك أَيضاً: أَراد انتظار صلاة العشاءِ الآخرة؛ لأَن رسول الله ﷺ كان يؤخرها إِلى نحو ثلث الليل، وفي ذلك أَحاديث كثيرة[١]. قال الضحاك: «تجافي الجَنْبِ هو أَن يصلي الرجلُ العشاءَ والصبح في جماعة». وهذا قولٌ حسن، يبعده لفظ الآية[٢]، وقال الجمهور من المفسرين: أَراد بهذا التجافي صلاة النوافل بالليل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا التأْويل أَكثر الناس، وهو الذي فيه المدح، وفيه حديثٌ عن النبي ﷺ يذكر قيام الليل ثم يستشهد بالآية. ذكره الطبري عن معاذ بن جبل رضي الله عنه[٣].

---

(١) من ذلك ما رواه الترمذي وصححه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن هذه الآية نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة، وكذلك ما أخرجه البخاري في تاريخه، وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه، قال: نزلت ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ في صلاة العشاء. وكذلك ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾، قال: هم الذين لا ينامون قبل العشاء، فأثنى عليهم، فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه، فوقتها قبل أن ينام الصغار ويكسل الكبير.

(٢) هكذا في جميع الأصول.

(٣) حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أخرجه أيضاً أبو داود الطيالسي في مسنده، والقاضي إسماعيل بن إسحاق، وأبو عيسى الترمذي، وقال فيه: حديث حسن صحيح، ولفظه أن النبي ﷺ قال له: «ألا أَدُلُّكَ على أبواب الخير: الصوم جُنَّة، والصدقة تُطْفِىءُ الخطيئة كما يطفىءُ الماءُ النار، وصلاة الرجل في جوف الليل»، قال: ثم تلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتَّى بلغ: [يَعْمَلُونَ]، وفي (الدر المنثور) قال السيوطي: «أخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن نصر في كتاب الصلاة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان ـ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسَّره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتُقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم=

ورجح الزجاج هذا القول بأنهم جوزوا بإجفاءٍ، فدل ذلك على أن العمل إجفاءٌ أيضاً هو قيام الليل.

وقوله: ﴿يَدْعُونَ﴾ يحتمل أن يكون في موضع الحال من الموصوفين، أي وقت التجافي، ويحتمل أن يكون صفة مستأنفة، أي: تتجافى جنوبهم وهم أيضاً في كل أحوالهم يدعون في ليلهم ونهارهم، و«ٱلْخَوْفُ» من عذاب الله، و«ٱلطَّمَعُ» في ثواب الله. و﴿يُنفِقُونَ﴾ قيل: معناه: الزكاة المفروضة، وقيل: النوافل والصدقات غير المفروضة، وهذا القول أمدح.

ثم ذكر تعالىٰ ما وعدهم من النَّعيم مِمَّا لم تعلمه نفْس ولا بَشر ولا مَلَك.

وقرأ حمزة وحده: [أُخْفِي] بسكون الياءِ، كأنه قال: «أُخفِي أَنَا»، وهي قراءَة الأعمش، ورُوي عنه: [ما أَخفيتُ لهم من قُرَّات أَعين]، وقرأ عبد الله: [مَا نُخْفِي لهم] بالنون المضمومة، ورَوى المفضل عن الأعمش: [مَا يُخْفَى لهم] بالياءِ المضمومة وفتح الفاءِ، وقرأ محمد بن كعب: [ما أَخْفَى] بفتح الهمزة، أَي: ما أَخفى الله لهم، وقرأ جمهور الناس بفتح الياءِ على بناءِ الفعل للمفعول. و﴿مَا﴾ يحتمل أَن تكون بمعنى الذي، فعلى القراءَة الأُولى فَثَمَّ ضمير محذوف تقديره: أُخفيه، وعلى قراءَة الجمهور فالضمير الذي لم يُسَمَّ فاعله يجري في العودة على (الذي)، ويحتمل أَن تكون استفهاماً، فعلى القراءَة الأُولى فهي في موضع نصبٍ بـ ﴿أُخْفِي﴾، وعلى القراءَة الثانية هي في موضع رفع بالابتداءِ.

= رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أَدُلُّكَ على أبواب الخير؟: الصوم جُنَّةٌ، والصدقة تطفىء الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ [يَعْمَلُونَ]، ثم قال: ألا أُخبرك برأسِ الأمر وعموده وذِرْوَة سنامه؟ فقلتُ: بلى يا رسول الله، قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أُخبرك بملاك ذلك كله؟ فقلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه فقال: كُفَّ عنك هذا، قلت: يا رسول الله، وإنَّا لَمُؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثَكِلَتْكَ أُمك يا معاذ، وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟».

وهذا الحديث هو الحديث التاسع والعشرون من الأربعين النَّوَوِيَّة، وقد علَّق الحافظ ابن رجب الحنبلي على تصحيح الترمذي لهذا الحديث في أثناء شرحه لهذا الحديث في كتابه: (جامع العلوم والحكم) بما يفيد أنه لا يوافق على ما قاله الترمذي من أنه حديث صحيح لاعتبارات ذكرها هناك. والله أعلم.

و«قُرَّة الْعَيْن»: ما تلذُّه وتشتهيه، وهي مأخوذة من القُرِّ[١]، كما أن «سخنة العين» مأخوذة من السَّخَانة، وأصل هذا ـ فيما يزعمون ـ أن دمع الفرح بارد، ودمع الحزن سخن.

وفي معنى هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: أَعددتُ لعباديَ الصالحين مَا لاَ عينٌ رأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سمعتْ، ولاَ خَطر على قلب بشر، واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٢]. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «في التوراة مكتوبٌ: على الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لا عينٌ رأَت، ولا أُذن سمعَتْ، ولا خطر على قلب بشر». وقرأ ابن مسعود، وأَبو هريرة، وأَبو الدرداءِ رضي الله عنهما: [قُرَّاتِ] على الجمع. وقوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، أَي: بتكسُّبِهِمْ.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ الآية. روى عطاءُ بن يسارٍ أَنها نزلت في علي ابن أَبي طالب رضي الله عنه، والوليد ابن عقبة ابن أَبي مُعيط، وذلك أَنهما تلاحنا، فقال له عليٌّ ابن أَبي طالب رضي الله عنه: اسكت فإنك فاسق، فنزلت الآية[٣]. وذكر الزجاج، والنحاس، وغيرهما أَنها نزلت في عليٍّ وعقبة ابن أَبي مُعيط، وعلى هذا يلزم أَن تكون الآية مكِّيَّة، لأَن عقبة لم يكن بالمدينة، وإنما قُتل في طريق مكة منصرف رسول الله ﷺ من بدر، ويعترض القول الآخر بإِطلاق اسم الفِسْق على الوليد، وذلك يحتمل أَن يكون في صدر إِسلام الوليد لشيءٍ كان في نفسه، أَو لما رُوي من نقله عن بني المصطلق ما لم يكن حتى نزلت فيه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾[٤]، ويحتمل أَيضاً أَن تطلق الشريعة ذلك عليه لأَنه كان على طرف مما ينبغي، وهو الذي شرب الخمر في

---

(١) القَرُّ: البرْد، أوجبوا الفتح مع الحرِّ للمشاكلة، والقُرُّ: البَرْدُ، (عن اللسان).

(٢) رواه الشيخان: البخاري، ومسلم، ورواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه ابن جرير الطبري في التفسير، وذكره الإمام السيوطي في (الدر المنثور)، وزاد نسبته لابن أبي شيبة، وأحمد، وهناد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ذكره الشوكاني في فتح القدير، ونسب إخراجه إلى أبي الفرج الأصبهاني في الأغاني، والواحدي، وابن عدي، وابن مردويه، والخطيب، وابن عساكر، من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: قال الوليد بن عقبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنا أَحَدُّ منك سناناً، وأنشط منك لساناً، وأملأ للكتيبة منك، فقال له علي رضي الله عنه: اسكت فإنما أنت فاسق، فنزلت الآية.

(٤) من الآية (٦) من سورة (الحجرات).

خلافة عثمان رضي الله عنه، وصلى الصُّبْحَ بالناس أَربعاً، ثم التفت وقال: أَتريدون أَن أَزيدكم؟ ونحوه مما يطول ذكره.

ثم قسَّم الله تعالىٰ المؤمنين والفاسقين الذين فسقهم بالكفر؛ لأَن التكذيب الذي في آخر الآية يقتضي ذلك، وقرأَ طلحة: [جَنَّةُ] بالإفراد، وقرأَ أَبو حيوة: [نُزْلاً] بإسكان الزاي، والجمهور على ضمها، وسائر ما في الآية بيِّنٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿لَنُذِيقَنَّهُمْ﴾ بكفار قريش، أَعلم الله تعالىٰ أَنه يصبهم بعذاب دون عذاب الآخرة لعلهم يتوبون ويتعظون، ولا خلاف أَن العذاب الأَكبر هو عذاب الآخرة، واختلف المتأَولون في تعْيين العذاب الأَدنى ـ فقال إبراهيم النَّخَعي، ومقاتل: هو السنون التي أَجاعهم الله فيها، وقال ابن عباس، وأُبيٌّ بن كعب: هي مصائب الدنيا من الأَمراض ونحوها، وقاله ابن زيد، وقال ابن مسعود، والحسن بن عليٍّ: هو القتل بالسيف كبدر وغيرها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فيكون ـ على هذا التأْويل ـ «الرَّاجعُ» غير «الذي يَذُوقُ»، بل الذي يبقى بعده[1]، وتختلف رتبتا ضمير الذوق مع ضمير لعلَّ. وقال أُبيٌّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ أَيضاً: هي البطشة واللزام والدخان، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أَيضاً: عنى بذلك الحدود.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويتَّجه ـ على هذا التأْويل ـ أَن يكون في فسقة المؤمنين. وقال مجاهد: عنى بذلك عذاب القبر.

---

(١) وقد قيل: إن معنى قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: لَعَلَّهم يريدون الرجوع ويطلبونه، كقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾، وسُمِّيت إرادة الرجوع رجوعاً كما سمِّيت إرادة القيام قياماً في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا﴾، ويدلُّ على ذلك قراءة من قرأ: [يُرْجَعُون] على البناء للمفعول.

ثم قال تعالىٰ ـ على جهة التعجب والتقرير ـ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، أي: لا أحد أظلم ممن هذه صفته، وهي بخلاف ما تقدَّم في صفة المؤمنين من أنهم إذا ذُكِّروا بآيات ربهم خرُّوا سُجَّداً، ثم توعَّد تبارك وتعالىٰ المجرمين، وهم الذين يتجاسرون على ركوب الكفر والمعاصي بالقوة، وظاهر الإجرام هنا أنه الكفر.

وحكى الطبري عن يزيد بن رفيع أنه قال: إن قول الله في القرآن: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ إنما هو في أهل القَدَر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يريد القائلين بأن أفعال العبد من قبله، قال: ثم قرأ يزيد بن رفيع: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا المنزع من البعد ما لا خفاءَ به. وروى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من فعلهن فقد أجرم: من عَقَد لواءً في غير حقٍّ، أو عَقَّ والدَيْه، أو مشى مع ظالم ينصره»[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قرأ الناسُ: ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ بكسر الميم، وقرأ الحسن بضمها. واختلف المتأولون في الضمير الذي في [لِقَائِهِ] على من يعود؟ فقال أبو العالية الرياحي، وقتادة: يعود على [مُوسَى]، والمعنى: لا تَكُ في شك من أنك تَلْقى موسى، أي: في ليلة الإسراءِ، وهذا

---

(١) الآيات (٤٧، ٤٨، ٤٩) من سورة (القمر).

(٢) قال الإمام السيوطي في (الدر المنثور): «أخرجه ابن منيع، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه بسند ضعيف عن معاذ بن جبل رضي الله عنه»، وقال ابن كثير بعد إخراجه: «هذا حديث غريب».

قول جماعة من السلف، وقاله المُبَرِّد حين امتحن أَبا إِسحاق الزجاج بهذه المسأَلة. وقالت فرقة: الضمير عائد على [ٱلْكِتَاب]، أَي أَنه لقي موسى حين لقيه موسى عليه السلام، والمصدر في هذا التأْويل يصح أَن يكون مضافاً إِلى الفاعل، بمعنى: لقي الكتاب موسى، ويصح أَن يكون مضافاً إِلى المفعول، بمعنى: لقي الكتاب ـ بالنصب ـ موسى عليه السلام. وقال الحسن: الضمير عائد على ما يتضمنه القول من المِحْنَة والشدة التي في إِخباره بأَنه آتى موسى الكتاب، كأَنه قال: ولقد آتينا موسى هذا العبْءَ الذي أَنت بسبيله، فلا تَمْتَر أَنك تلْقى ما لَقي هو من المِحْنَة بالناس، وكأَن الآية تَسْلِيَةٌ لمحمد ﷺ. وقالت فرقة: معناه: فلا تك في شكٍّ من لقائه في الآخرة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ ضعيف.

وقالت فرقة: الضمير عائد على مَلَك الموت الذي تقدم ذكره، وقوله: ﴿فلا تك في مرية من لقائه﴾ اعتراضٌ بين الكلامين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا أَيضاً ضعيف.

والمِرْيَةُ: الشَّكُّ. والضمير في ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ عائد على ﴿مُوسَى﴾، وهو قول قتادة، ويحتمل أَن يعود على ﴿ٱلْكِتَاب﴾.

و﴿أَئِمَّة﴾: جمع إِمام، وهو الذي يُقتدى به، وأَصْلُه خَيْطُ الْبَنَّاءِ، وجمهور النحويين على [أَيِمَّة] بياءٍ وتخفيف الهمزة، إِلاَّ ابن أَبي إِسحاق، فإِنه جوَّز اجتماع الهمزتين وقرأَ: [أَئِمَّة]. وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿لَمَّا صَبَرُواْ﴾ بفتح اللام وشدّ الميم، وقرأَ حمزة والكسائي: [لِمَا صبروا] بكسر اللام وتخفيف الميم، وهي قراءَة ابن مسعود، وطلحة، والأَعمش، والأُولى في معنى الظرف، والثانية كأَنه قال: لأَجل صبرهم، فـ[مَا] مصدرية، وفي القراءَتين معنى المجازاة، أَي: جعلهم أَئِمَّةً جزاءً على صبرهم على الدنيا، وكونهم موقنين بآيات الله تبارك وتعالىٰ وأَوامره وجميع ما تُورده الشريعة. وقرأَ ابن مسعود: [بِمَا صَبَرُوا].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الآية حُكم يعم جميع الخَلْق، وذهب بعض المتأَولين إِلى تخصيص الضمير، وذلك ضعيف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

[يَهْدِ] معناه: يُبيِّن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقرأ جمهور الناس: (يَهْدِي) بالياءِ، فالفاعِلُ اللهُ في قول فرقة، والرسولُ في قول فرقة، والمصدرُ في قول فرقة، كأنه قال: أَو لم يُبيِّن لهم الهُدى. وجوّز الكوفيون أَن يكون الفاعل [كَمْ]، ولا يجوز ذلك عند البصريِّين؛ لأنها في الخبر على حكمها في الاستفهام في أَنها لا يعمل فيها ما قبلها. وقرأ أَبو عبد الرحمن: [نهد لهم] بالنون، وهي قراءَة الحسن وقتادة. فالفاعلُ اللهُ تعالىٰ، و[كَمْ] في موضع نصب: فعند الكوفيين بـ[نَهْدِ]، وعند البصريين بـ[أَهْلَكْنَا] على القراءَتين جميعاً. وقرأَ جمهور الناس: (يَمْشُونَ) بفتح الياءِ وتخفيف الشِّين، وقرأَ ابن السميفع اليماني: [يُمَشُّونَ] بضم الياءِ وفتح الميم وشد الشِّين، وقرأَ عيسى بن عمر: [يُمْشُونَ] بضم الياءِ وسكون الميم وشين مضمومة مُخَفَّفَة، والضمير في [يَمْشُونَ] يحتمل أَن يكون للمُخاطَبين بالبيِّنة المُحْتَجِّ عليهم، ويحتمل أَن يكون للمُهْلَكِين، فـ[يَمْشُونَ] في موضع الحال، أَيْ: أُهلكوا وهم ماشون في مساكنهم. والضمير في [يَسْمَعُونَ] لِلْمَنْهِيِّينَ. ومعنى الآية إقامة الحجة على الكفرة بالأُمم السالفة الذين كفروا فأُهلكوا.

ثم أَقام عزَّ وجلَّ الحُجَّة عليهم في معنى الإيمان بالقدرة وبالبعث بأَنْ نبَّههم على إِحْياءِ الأَرض الموات بالماءِ، و«السَّوْقُ» هو بالسحاب، و«الجُرُز»: الأَرْضُ العاطِشَةُ التي قد أَكلت نباتها من العطش والقيظ، ومنه قيل للأَكول: جُروزٌ، قال الشاعر:

* خِبٌّ جَرُوزٌ وَإِذَا جَاعَ بَكَى *(١)

---

(١) هذا بيت من مشطور الرجز، أورده القرطبي، والشوكاني في (فتح القدير)، وذكر الطبري جزءاً منه، وبعده يقول الراجز:

* ويَأكُلُ التَّمر وَلاَ يُلْقِي النَّوَى *

ويقال: رجلٌ خَبٌّ وخِبٌّ بالفتح والكسر، أي: خدَّاعٌ خبيث مُنكر، والجَرُوز: الذي يأكل ما أمامه=

ومَنْ عَبَّر عنها بأَنها الأَرض التي لا تُنْبت فإنها عبارة غير مخلصة. وعمَّ تعالىٰ كلَّ أَرض هي بهذه الصفة؛ لأَن الآيَةَ فيها والعبرةَ بيِّنةٌ. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره أَيضاً: الأَرض الجُرُزُ هي أَرْضُ (أَبْيَن)[١] من اليمن، وهي أَرض تشرب بسيول لا بمطر. وجمهور الناس على ضم الراءِ، قال الزَّجَّاج: وتُقرأُ: [الجُرْز] بسكون الراءِ[٢].

ثم خصَّ الله تعالىٰ الزرع بالذكر تشريفاً له؛ ولأَنه عُظْم ما يقصد بالنبات، وإلاَّ فعرف أَكل الأَنعام إنما هو من غير الزرع، لكنه أَوقع الزرع موقع النبات، ثم فصل ذلك بأَكل الأَنعام وبني آدم. وقرأَ أَبو بكر بن عياش، وأَبو حيوة: [يأْكُلُ] بالياءِ من تحت، وقرأَ ابن مسعود: [تُبْصِرُونَ] بالتاءِ من فوق، وقرأَ جمهور الناس: (يُبْصِرُونَ) بالياءِ.

ثم حكى عن الكفرة أَنهم يستفتحون ويستعجلون فصل القضاءِ بينهم وبين الرسول ﷺ، على معنى الهُزْءِ والتكذيب. وَ[ٱلْفَتْح]: الحُكم، هذا قول جماعة المفسرين، وهو أَقوى الأَقوال، وقالت فرقة: الإشارة إلى فتح مكة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، يردُّه الإخبارُ بأَن الكفرة لا ينفعهم الإيمان، فلم يبْق أَن يكون الفتح إمَّا حُكم الآخرة، وهو قول مجاهد، وإمَّا [فَصْل][٣] الدنيا كبدر ونحوه. وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ إشارة إلى الفتح الأَول حسب محتملاته. فالأَلف واللام في [ٱلْفَتْح] الثاني للعهد، و[يَوْمَ] ظرف، والعامل فيه [يَنْفَعُ]، و[يُنْظَرُونَ] معناه: يُؤَخَّرُونَ.

ثم أَمره تبارك وتعالىٰ بالإعراض عن الكفار دون انتظار الفرج، وهذا مما نسخته آية

= ولا يبقي على شيءٍ منه، يصفه بالخبث والشراهة. وهو الشاهد هنا.

(١) أَبْيَن يُفتَح أوله ويكسر، وهو بوزن أحمر، ويقال (يَبْيَن)، وهي مِخْلافٌ باليمن، منه عدن، يقال: إنه سُمِّي بأَبْيَن بن زهير بن أيمن، من سبأ، وقال الطبري: عَدَن وأَبْيَن ابْنَا عدنان بن أُدد، وأنشد الفراءُ:

مَـا مِـنْ أُنَـاسٍ بيـن مِصْـرَ وعَـالِـجٍ ... وَأَبْيَـنَ إلا قَـدْ تَـرَكْنَـا لَهُـم وِتْـرَا
وَنَحْـنُ قَتَلْنَـا الأَزْدَ أَزْدَ شَنُـوءَةٍ ... فَمَـا شَرِبُـوا بَعْـداً عَلَى لَـذَّةٍ خَمْـرَا

(٢) في الجُرُز أربع لغات: جُرْزٌ وجُرُزٌ، مثلُ عُسْرٍ وعُسُرٍ، وجَرْزٌ وجَرَزٌ، مثل نَهْرٍ ونَهَرٍ، وجمع الجُرْزِ جِرَزَةٌ، مثل جُحْرٍ وجِحَرَةٍ، وجمع الجَرَزِ أَجْرَازٌ، مثل سَبَبٍ وأَسْبَابٍ. (عن اللسان ـ جرز).

(٣) أي الفَصْل الذي يستعجلونه بينهم وبين الرسول ﷺ.

السيف[١]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أي العذابَ، بمعنى أَن هذا حكمهم وإن كانوا لا يشعرون. وقرأ محمد بن السميفع: [مُنتَظَرُونَ] أَي: لِلْعذاب النازل بهم[٢]، والله أَعلم.

كمل تفسير سورة السجدة والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أَجمعين

* * *

(١) في قوله تعالىٰ في الآية (٥) من سورة (براءَة): ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾. قال القرطبي: «وقيل: الآية غير منسوخة؛ إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال كالهُدْنة وغيرها».

(٢) ورويت هذه القراءة عن مجاهد، وابن مُحَيْصِن، قال الفراءُ: «ولا يصح هذا إلا بإضمار، مجازُه: إنهم مُنتَظَرُون بهم»، وقال أبو حاتم: «الصحيح الكسر، أي: انتظر عذابهم إنهم مُنتَظِرُونَ هلاكك». وقد وضح بعضهم المعنى على قراءة الفتح فقال: «معناها: وانتظر هلاكهم فإنهم أَحِقَّاءُ بأن يُنتَظَر هلاكُهم، يعني أنهم هالكون لا محالة، وانتظر ذلك فإن الملائكة في السماء ينتظرونه»، ذكر ذلك الزمخشري، وهو معنى قول ابن عطية، وقد أخذه عن الفراءِ، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الأحزاب

هذه السورة مدنية بإجماع فيما علمت، وكذلك قال المهدوي وغيره(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾(٢).

قوله تعالى: [اتَّقِ] معناه: دُمْ على التقوى، ومتى أُمر أَحد بشيءٍ هو به متلبس فإنما معناه الدَّوام في المستقبل على مثل الحالة الماضية، وحذَّره تعالى من طاعة الكافرين، وهم المُجَلِّحون بالكفر(٣)، والمنافقون وهم المُظهرون للإيمان وهم لا يبطنونه.

---

(١) أخرج عبد الرزاق في المصنف، والطيالسي، وسعيد بن منصور، والنسائي، وابن المنذر، وغيرهم عن زرٍّ قال: قال لي أُبَيُّ بن كعب: كأين تقرأ سورة الأحزاب؟ أو كأين تعدها؟ قلت: ثلاثاً وسبعين آية، فقال: أَقط، لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة، أو أكثر من سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتَّة نكالاً من الله والله عزيز حكيم»، فرفع فيما رفع، قال ابن كثير: وإسناده حسن. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد أيها الناس، إن الله بعث محمداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها ووعيناها «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتَّة»، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله.

(٢) نداءُ النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ و﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ تشريف له، وتنبيه على فضله، وتنويه بمكانته ومحلِّه، أما غيره فنودي باسمه: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى، يا عيسى. وحينما يذكر الله تعالى نبيه على سبيل الإخبار عنه فإنه يُصرح باسمه فيقول: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾، فقد أعلم أنه رسوله، ولقَّن الناس أن يسموه بذلك، أما إذا لم يقصد الإعلام بذلك فإن ذكره يأتي كما جاء في النداء، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ﴾، ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وغير ذلك من الآيات.

(٣) جَلَّحَ في الأمر: ركب رأسه فيه وأقدم ومَضَى.

وسبب الآية أَنهم كانوا يُلِحُّون على رسول الله ﷺ بالطلبات والإرادات، وربما كان في إرادتهم سعي على الشرع، وهم يدخلونها مدخل المصالح، فكان رسول الله ﷺ: بخلقه العظيم وحرصه على استئلافهم ربما لا يَنَهُم[1] في بعض الأمور، فنزلت الآية بسبب ذلك، تحذيراً له منهم، وتنبيهاً على عداوتهم، والنوازل في طلباتهم كثيرة محفوظة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ تسليةٌ لمحمد ﷺ، أي: لا عليك منهم ولا من إيمانهم، فالله عليمٌ بما ينبغي لك، حكيم في هدى من شاءَ وإضلال من شاءَ.

ثم أَمره تعالى باتباع ما يوحى إليه ـ وهو القرآن الحكيم ـ والاقتصار على ذلك، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ تَوَعُّدٌ مَّا. وقرأَ أَبو عمروٍ وحده: [يَعْمَلُونَ] بالياءِ، والتوعُّد على هذه القراءَة للكافرين والمنافقين أَبْيَنُ. وقوله [كَانَ] في هاتين الآيتين يقتضي الدوام، أَي: كان ويكون، وليست الدالةَ على زمان مخصوص للمضي.

ثم أَمره تعالى بالتوكل على الله في جميع أمره، وأَعلمه أَن ذلك كافٍ مُقْنع، والباءُ في قوله: [بِاللهِ] زائدة على مذهب سيبويه، وكأَنه قال: وكَفَى اللهُ، وهي عنده كقولهم: بحسبك أَن تفعل، وغَيْرُه يراها غيرَ زائدة متعلِّقة بـ[كَفَى]، على معنى: أَكْفِ بالله، و«الْوَكِيلُ» القائم بالأَمر المغني فيه عن كل شيءٍ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾.

اختلف الناس في السبب في قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: سببها أَن بعض المنافقين قال: إنَّ محمداً له قلبان؛ لأَنه ربما كان في شيءٍ فنزع في غيره نزعة ثم عاد إلى شأْنه الأَول، فقالوا ذلك عنه، فنفاه الله تعالى. وقال ابن عباس أَيضاً: بل السبب أَنه كان في قريش في بني فِهْر رجلٌ منهم يدَّعي أَن له قلبين؛ ويقال له: ذو القلبين، قال الثعلبي: هو أَبو مَعْمَر[2]، وكان

(١) في بعض النسخ: ربما لا يَتَّهِمُهُم.
(٢) قيل: اسمه جميل بن معمَر الجُمَحي، وقال السُّهَيْلي هو ابن مَعْمَر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن=

يقول: أَنا أَذكى من محمد وأَفهم، فلما وقعت هزيمة بدر طاش لُبُّه، وحدَّث أبا سفيان بن حرب كالمختلِّ فنزلت الآية بسببه ونفياً لدعواه. وقيل: إنه كان ابن خَطَل[1].

وقال الزهراوي: جاءَ هذا اللَّفظ على جهة المثل في زيد بن حارثة والتوطئة لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾، أَي: كما أنه ليس لأَحد قلبان، كذلك ليس دعِيُّه ابنَه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويظهر من الآية أنها بجملتها نفي لأَشياءَ كانت العرب تعتقدها في ذلك الوقت، وإِعلامٌ بحقيقة الأَمر، فمنها أَن بعض العرب كانت تقول: إن الإِنسان له قلب يأْمره وقلب ينهاه، وكان تضادُّ الخواطر بجملتها على ذلك، ومن هذا قول الكميت:

فتَـذَكَّـر مِـنْ أَنَّـى ومِـنْ أَيْـنَ شُـرْبُـهُ ... يُؤامِرُ نَفْسَيْهِ كَذِي الْهَجْمَةِ الأَبِلُ[2]

والناس حتى الآن يقولون إذا وصفوا أَفكارهم في شيءٍ ما: يقول لي أحدُ قلْبَيَّ كذا، ويقول الآخر كذا، وكذلك كانت العرب تعتقد الزوجة إذا ظوهر منها بمنزلة الأُم وتراه طلاقاً، وكانت تعتقد الدَّعيَّ المُتَبَنَّى ابناً، فأَعلم الله تبارك وتعالى أَنه لا أَحد بقلبين، ويكون في هذا طعن على المنافقين الذين تقدم ذكرهم، أَي: إنما هو قلبٌ واحد، فإِمَّا حَلَّه إيمانٌ وإمَّا كفر؛ لأَن درجة الكفار كأَنها متوسطة يؤمن قلبٌ ويكفر الآخر، فنفاها الله تعالى، وبيَّن أَنه قلب واحد، وعلى هذا النحو يستشهد الإنسان بهذه الآية متى نسي شيئاً أو وَهِمَ، يقول على جهة الاعتذار: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾،

= جُمح، واسم جمح: تَيْمْ، وفيه يقول الشاعر:

وكيـف ثـوائِـي بـالـمـدينـةِ بَعْـدَ مَـا ... قَضـى وطَـراً مِنْـهـا جَميـلُ بـنُ مَعْمَر؟

وقال الزمخشري: هو جميل بن أسد الفهري.

(١) قيل: اسْمُه عبد الله بن خَطَل.

(٢) البيت في اللسان والتاج، وقد استشهدا به في (أَبَلَ) ـ قال في اللسان: «ورجُلٌ آبِلٌ وأَبِلٌ وإبَلِيٌّ وإبِلِيٌّ: ذو إبِلٍ، ومن قال: أَبَلَ ـ بفتح الباءِ ـ فاسم الفاعل منه (آبِلٌ) بالمد، ومن قال: أَبِل ـ بكسر الباءِ ـ قال في الفاعل: (أَبِلٌ) بالقصر»، وذكر شاهداً للمدِّ، وشاهدين للقصر، الثاني منهما هو بيت الكميت هذا، ثم حكي عن سيبويه أن بيت الكميت من قولهم: آبَلُ الناس (بالمدِّ)، ومعناها: أَشدهم تأَنُّقاً في رعْية الإبل وأَعلمهم بها، وأَنه لا فعل له. والشاهد في البيت أَنه جعل له نفسين في قوله: (يؤامر نَفْسيْه)، وأَن هذا من تضاد الخواطر بجملتها كما كانت عادة العرب.

أَيْ: إذا نسي قلبُه الواحد يُذكِّره الآخر، وكذلك أَعلم أَن الزوجة لا تكون أُمًّا، وأَن الدعيَّ لا يجعله ابناً.

وقرأَ نافع، وابن كثير: [الَّلاءِ] دون ياءٍ، ورُوي عن أَبي عمرٍو، وابن جُبَيْر: [اللاَّيْ] بياءٍ ساكنة من غير هَمْز، وقرأَ ورشٌ بياءٍ مكسورة من غير هَمْز، وقرأَ عاصمٌ، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، وطلحة، والأَعمش بِهَمْزةٍ مكسورة بعدها ياءٌ.

وقرأَ ابن عامر: [تَظَّاهَرُونَ] بشدِّ الظاءِ والأَلف، وقرأَ عاصم، والحسن، وأَبو جعفر، وقتادة: [تُظَاهِرُونَ] بضم التَّاءِ وتخفيف الظاءِ، وأَنكرها أَبو عمرٍو، وقال: إنما هذا في المُعَاونَة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس بمنكر، ولفظة ظهار تقتضيه. وقرأَ عاصم، وحمزة، وأَبو بكر عن عاصم: [تَظَاهَرُونَ بفتح التاءِ والظاءِ المخففة. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو: [تَظَّهَّرُونَ] بشد الظاءِ والهاءِ دون أَلف، وقرأَ يحيى بن وثاب: [تُظْهِرُونَ] بضم التَّاء وسكون الظاءِ وكسر الهاءِ، وفي مصحف أُبي بن كعب [تَتَظَهَّرُونَ] بتاءَين، وكانت العرب تُطَلِّق وتقول: «أَنْتِ مني كظهر أُمّي» فنزلت الآية، وأَنزل الله تبارك وتعالى كفَّارة الظهار، وتفْسيرُ الظِّهار وبيانه أَثبتناه في سورة المجادلة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ الآية، سببُها أن زيد بن حارثة كانوا يدعونه زيْدَ بنَ محمد، وذلك أنه كان عبداً لخديجة فوهبته لرسول الله ﷺ، فأَقام عنده مُدَّة، ثم جاءَ عمُّه وأَبوه يرغبان في فدائه، فقال لهما النبي ﷺ ـ وذلك قبل البعث ـ: خيِّراهُ، فإن اختاركما فهو لكما دون فداءٍ، فخيَّراه فاختار الرِّقَّ مع محمد ﷺ على حُرِّيته وقومِه، فقال محمد ﷺ: «يا معشر قريش، اشهدوا أنه ابني، يرثني وأَرِثُه»، فرضي بذلك أَبوه وعمُّه وانصرفا[1].

---

(١) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان من أمْر زيد بن حارثة رضي الله عنه أنه كان في أخواله بني مَعْن من بني ثُعَل من طيىء، فأُصيب في غِلْمة من طيىء، فقُدِم به سوق عكاظ، وانطلق حكيم بن حزام بن خويلد إلى عكاظ يتسوق بها، فأَوصته عمته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أن يبتاع لها غُلاماً ظريفاً عربياً إن قدر عليه، فلما جاءَ وجد زيداً يُباع فيها، فأعجبه ظرفه فابتاعه فقدم به عليها، وقال لها: إني قد ابتعت لك غلاماً ظريفاً عربياً، فإنْ أعجبك فخذيه، وإلا فدعيه فإنه قد=

وقوله: ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ تأكيد لبطلان القول، أي أنه لا حقيقة له في الوجود، إنما هو قول فقط، وهذا كما تقول: «أَنَا أَمْشي إليك على قدم»، فإنما تؤكد بذلك المسيرة، وهذا كثير. و﴿يَهْدِي﴾ معناه: يُبَيِّن، وهو يتعدى بغير حرف جرٍّ، وقرأ قتادة: [يُهَدِّي] بضم الياء وفتح الهاء وشد الدَّال، و﴿السَّبِيل﴾ هي سبيل الشرع والإيمان. وابن كثير، وابن عامر، وعاصم ـ في رواية جعفر ـ يقفون [السَّبيلا]، ويطرحونها في الوصل، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم بالألف وصْلاً ووقْفاً، وقرأ أبو عمرو، وحمزة بغير ألِفٍ وصْلاً ووقْفاً، وهذا كله في غير هذا الموضع[1]، واتفقوا هنا خاصَّةً على طرح الألف وصْلاً ووقْفاً لمكان ألف الوصل التي تلقى اللام.

= أعجبني، فلما رأته خديجة أعجبها فأخذته، فتزوجها رسول الله ﷺ وهو عندها، فأعجب النبي ﷺ ظرفه فاستوهبه منها، فقالت: هو لك، فإن أردت عتقه فالولاء لي، فأبى عليها، فوهبته له إن شاءَ أعتق وإن شاءَ أمسك، قال: فشَبَّ عند النبي ﷺ، ثم إنه خرج في إبل لأبي طالب إلى الشام، فمَرَّ بأرض قومه فعرفه عمُّه، فقام إليه فقال: من أنت يا غلام؟ قال: غلام من أهل مكة، قال: من أنفسهم؟ قال: لا، قال: فحرٌّ أنت أم مملوك؟ قال: بل مملوك، قال: لِمَن؟ قال: لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فقال له: أعربيٌّ أنت أم أعجمي؟ قال: بل عربي، قال: ممن أهلك؟ قال: من كلب، قال: من أيِّ كلب؟ قال: من بني عبد وُدّ، قال: ويحك، ابن من أنت؟ قال: ابن حارثة بن شراحيل، قال: وأين أُصِبْتَ؟ قال: في أخوالي، قال: ومن أخوالك؟ قال: طيءٌ، قال: ما اسم أُمِّك؟ قال: سُعدى، فالْتَزَمه وقال: ابن حارثة، ودعا أباه وقال: يا حارثة هذا ابنك، فأتاه حارثة، فلما نظر إليه عرفه، قال: كيف صنع مولاك إليك؟ قال: يؤثرني على أهله وولده، ورُزقت منه حباً فلا أصنع إلا ما شئتُ، فركب معه أبوه وعمُّه وأخوه حتى قدموا مكة، فلقوا رسول الله ﷺ، فقال له حارثة: يا محمد، أنتم أهل حَرَم الله وجيرانه وعند بيته، تفكُّون العاني، وتطعمون الأسير، ابني عبدك فامْنُن علينا وأحسِن إلينا في فدائه، فإنك ابن سيدٍ قومه، فإنا سنرفع لك في الفداءِ ما أحببت، فقال له رسول الله ﷺ: أُعطيكم خيراً من ذلك، قالوا: وما هو؟ قال: أُخَيِّرُه، فإن اختاركم فخذوه بغير فداءٍ، وإن اختارني فكُفُّوا عنه، قالوا: جزاك الله خيراً، لقد أحسنتَ، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: يا زيد، أتعرف هؤلاء؟ قال: نعم، هذا أبي وعمِّي وأخي، فقال له رسول الله ﷺ: فأنا من قد عرفته، فإن اخترتهم فاذهب معهم، وإن اخترتني فأنا من تعلم، فقال زيد: ما أنا بمختار عليك أحداً أبداً، أنت مني بمكان الوالد والعمِّ، قال له أبوه وعمُّه: يا زيد، تختار العبودية على الربوبية؟ قال: ما أنا بمفارق هذا الرجل، فلما رأى رسول الله ﷺ حرصه عليه قال: اشهدوا أنه حُرٌّ، وأنه ابني يرثني وأرثه، فطابت نفس أبيه وعمه لمَا رأوا من كرامته عليه، فلم يزل زيد في الجاهلية يدعى: زيد بن محمد، حتى نزل القرآن ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ فدُعي: زيد بن حارثة. (الدر المنثور).

(١) يعني في آيات أخرى، منها قوله تعالى في الآية (١٠) من هذه السورة: ﴿وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾.

أَمر الله تعالى بدعاءِ الأَدعياءِ إلى آبائهم للصُّلْب، فمن جُهل ذلك منه كان مولًى وأخاً في الدين، فقال الناس: زيد بن حارثة، وسالم مولى أَبي حذيفة، إلى غير ذلك، وذكر الطبريُّ أَن أَبا بَكْرَةَ قرأَ هذه الآية ثم قال: أَنا ممَّن لا يُعرف أَبوه، وأَنا أَخوكم في الدين ومولاكم، قال الرَّاوي عنه: ولو علم والله أَن أَباه حَمَّارٌ لانتمى إليه[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ورجال الحديث يقولون في أبي بَكْرَة: نُفَيْع بن الحارث.

و(أَقْسَطُ) معناه: أَعْدَل، وقال قتادة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «من ادَّعى إلى غير أبيه متعمداً حرَّم الله عليه الجنَّة»[2].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ الآية رفعٌ للحرج عمَّن وَهِمَ ونَسِيَ وأَخطأَ فجرى لسانه على العادة من نِسْبة زيْد إلى محمد ﷺ، وغير ذلك مما يُشبهه، وأَبقى الجُناح في المتعمد مع الشرط أو الجزاءِ المنصوص.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يريد: لما مَضَى من فِعْلهم في ذلك، ثم هما صِفَتان للهِ عزَّ وجلَّ تطَّردان في كل شيءٍ، وقالت فرقة: خطؤُهم فيما كان سلف من قولهم ذلك.

(١) الخبر في تفسير الطبري، وفي تقريب التهذيب: «أبو بكرة، بزيادة هاءٍ، الثقفي، الصحابي، نُفَيع بن الحارث».

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، والدارمي، وأحمد، ولفظه كما في مسند أحمد (٥ ـ ٣٨) ـ عن أبي عثمان النهدي، قال: سمعت سعداً يقول: سَمِعَتْ أُذناي وَوَعَى قلبي أن من ادَّعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه ـ فالجنة عليه حرام، قال: فلقيتُ أبا بَكْرَة فحدَّثته فقال: وأنا سَمِعَتْ أُذناي وَوَعَى قلبي من محمد ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، ولا يوصف ذلك بالخطإِ إلاَّ بعد النهي، وإنما الخطأُ هنا بمعنى النسيان، وما يكون مُقابل العمد. وحكى الطبري عن قتادة أنه قال: الخطأُ الذي رفع الله فيه الجناح أن يعتقد في أحد أَنه ابن فلان فينسبه إليه، وهو في الحقيقة ليس بابنه، والعمد هو أن تنسبه إلى فلان وأنت تدري أَنه ابن غيره، والخطأُ مرفوع عن هذه الأُمة عقابه، قال النبي ﷺ: «وُضِع عن أُمَّتي الخطأُ والنسيان وما أُكْرهوا عليه»(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: «ما أَخشى عليكم الخطأَ، وإنما أَخشى عليكم العمد»(٢).

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. أَزال الله تعالى بها أَحكاماً كانت في صدر الإِسلام، منها أَن النبي ﷺ كان لا يُصلي على ميِّت عليه دَيْن، فذكر الله تعالى أَنه أولى بالمؤمنين من أَنفسهم، فجمع هذا أَن المؤمن يلزم أن يحب النبيَّ ﷺ أَكثر من نفسه، حسب حديث عمر رضي الله عنه(٣)، ويلزم أن يمتثل أَوامره، أَحبَّت نفسه ذلك أَم كرهته، قال رسول الله ﷺ حين نزلت هذه الآية: «أَنا أولى بالمؤمنين من أَنفسهم، من ترك مالاً فلورثته، ومن ترك ديْناً أو ضياعاً فعليَّ، أَنا وليُّه، اقرءُوا إن شئتم»: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾(٤). وقال بعض العلماءِ العارفين: هو أَوْلى بهم من أَنفسهم؛ لأَن أَنفسهم تدعوهم إلى الهلاك، وهو يدعوهم إلى النجاة.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنهما، واللفظ فيه: ﴿وما استكرهوا عليه﴾ كما رواه السيوطي في الجامع الصغير، وقد رمز له السيوطي بالصحة.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣ ـ ٣٠٨)، وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها، واللفظ كما ذكره السيوطي في الدر المنثور: (أخاف) بدلاً من (أَخشى). قال السيوطي: «وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، يرفعه إلى النبي ﷺ، قال: «والله ما أخشى عليك الخطأ، ولكن أخشى عليك العمد».

(٣) روي في الصحيح أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، والله أَنت أَحب إليَّ من كل شيءٍ إلا من نفسي، فقال ﷺ: «لا يا عمر، حتَّى أكون أَحبَّ إليك من نفسك»، فقال: يا رسول الله، والله لأنت أَحبُّ إليَّ من كل شيءٍ حتى من نفسي، فقال ﷺ: «الآن يا عمر».

(٤) أخرج البخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أَولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرءُوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فأَيُّما مُؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا، فإن ترك ديْناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «أَنا آخِذٌ بحجزكم عن النار وأَنتم تَقَحَّمون فيها تقحُّم الفَراش»(١).

وشرَّف تعالى أزواج النبي ﷺ بأَن جعلهن أُمَّهات للمؤمنين: في حرمة النكاح والمبرَّة، وحَجَبَهن رضي الله عنهن بخلاف الأُمَّهات، قال مسروق: قالت امرأة لعائشة رضي الله تعالى عنها: يا أُمَّه، فقالت: لستُ لك بأُمٍّ، إنما أَنا أُمُّ رجالكم، وفي مصحف أُبي بن كعب: [وأَزواجه أُمهاتُهم وهو أَبٌ لهم»]، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما: [مِنْ أَنفُسهم وهو أَب لهم وأزواجه أُمهاتهم]، وسمع عمر رضي الله عنه هذه القراءة فأَنكرها، فقيل له: إِنها في مصحف أُبَيٍّ، فسأَله فقرَّرها أُبَيٌّ وأَغلظ لعمر، وقد قيل في قول لوط عليه السلام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾:(٢) إنما أَراد المؤمنات، أَي: تزوجوهن.

ثم حكم تعالى بأَن أُولي الأَرحام أَحق مما كانت الشريعة قررته من التوارث بأُخوَّة الإِسلام وبالهجرة، فإِنه كان بالمدينة توارثٌ في صدر الإِسلام بهذين الوجهين(٣)، اختلف الرواة في صفته، وليس لمعرفته الآن حكم فاختصرته، وردَّ الله المواريث على الأَنساب الصحيحة.

وقوله: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن يريد القرآن، ويحتمل أن يريد اللَّوح المحفوظ، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلِّق بـ[أَوْلَى] الثانية(٤)، وهذه الأُخوَّة والهجرة التي ذكرنا.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، ومسلم في الفضائل، والترمذي في الأدب، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، ولفظه كما في صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما مثلي ومثل أُمتي كمثل رجل استوقد ناراً، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه ـ أي في المستوقد المفهوم من الكلام ـ وأنا آخِذٌ بحُجزكم وأنتم تَقَحَّمون فيه»، وفي رواية: «وأنتم تفلَّتون من يدي».

(٢) من الآية (٧٨) من سورة (هود).

(٣) من ذلك ما رواه هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير، قال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، وذلك أنا معشر قريش لمَّا قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان فآخيناهم فأورثونا وأورثناهم، فآخى أبو بكر خارجة بن زيد، وآخيت أنا كعب بن مالك، فجئت فوجدت السلاح قد أثقله، فوالله لقد مات عن الدنيا ما ورثه غيري، حتى أنزل الله هذه الآية فرجعنا إلى موارثنا.

(٤) ولا يصحُّ أن يتعلق بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾، قال القرطبي: «بالإجماع: لأن ذلك كان يوجب=

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ يريد الإحسان في الحياة، والصِّلة والوصية عند الموت، قاله قتادة، والحسن، وعطاءٌ، وابن الحنفية، وهذا كله جائز أن يُفعل مع الوَلّي على أَقسامه، والقريب الكافر يوصى له توصية(١). واختلف العلماءُ، هل يجعل وصيًّا؟ فجوَّز بعض، ومنع بعض، ورد النظر إلى السلطان بعضٌ، منهم مالك بن أنس رضي الله عنه. وذهب مجاهد، وابن زيد، والرمانيُّ، وغيرهم إلى أن المعنى: «إلى أوليائكم من المؤمنين»، ولفظ الآية يعضد هذا المذهب، وتعميم لفظ (الوَليِّ) أَيضا حسنٌ كما قدَّمنا؛ إذ ولاية النسب لا تدفع الكافر

وإنما تدفع أَن يلقى إليه بالمودة كوَليّ الإسلام، والكتابي الذي ينتظر ذلك فيه يحتمل الوجهين اللذين ذكرنا.

و(مَسْطُوراً) من قولك: «سَطَرْتُ الْكِتَابَ» إذا أَثْبته أَسْطَاراً، ومنه قول العجاج:

فــي الصُّحُــف الأُولــى الَّتــي كــانَ سَطَــرْ(٢)

قال قتادة: وفي بعض القراءَة: [كان ذلك عند الله مكتوباً].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ۝٧ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾.

(إِذْ) يحتمل أن يكون ظرفاً لسطر الأَحكام المتقدمة في الكتاب، كأَنه قال: كانت الأَحكام مسطرةً مُلقاةً إلى الأنبياء إذْ أَخذنا عليهم الميثاق في التبليغ والشرائع، فيكون [إذْ] متعلقاً بقوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾. ويحتمل أن يكون في موضع نصب

= تخصيصاً ببعض المؤمنين، ولا خلاف في عمومها، وهذا حل إشكالها.

(١) في أكثر النسخ: «والقريب والكافر»، وآثرنا حذفها لأن ذلك يوافق عبارة القرطبي التي نقلها عن ابن عطية، ويوافق عود الضمير على مفرد في قول المؤلف بعده: «هل يُجْعَلُ وصياً».

(٢) البيت من مشطور الرجز، قاله العجاج من أرجوزته الطويلة التي مدح بها عمر بن عبد الله بن معمر، وكان عبد الملك بن مروان قد وجهه لحرب أبي فديك الخارجي فحاربه وانتصر عليه، والشاهد في البيت أن (سطَرَ) بمعنى: كتب، وأن السَّطر هو الخط والكتابة.

بإضمار فعل تقديره: واذكر إذْ، وهذا التَأويل أَبين من الأَول:

وهذا الميثاق المشار إليه قال الزجاج وغيره: إنه الذي أُخذ عليهم وقت استخراج البشر من صُلب آدم كالذَّرِّ، قالوا: وأَخذ الله تبارك وتعالى حينئذ ميثاق النَّبيِّين بالتبليغ وتصديق بعضهم بعضاً، وبجميع ما تتضمَّنه النبوة، ورُوي نحوه عن أُبَيِّ بن كعب. وقالت فرقة: بل أشار إلى أَخذ الميثاق على كل واحد منهم عند بعثه، وعند إِلقاءِ الرسالة إليه وأَوامرها ومعتقداتها.

وذكر الله تعالى النبيِّين جملةً، ثم خصص بالذكر أَفراداً منهم تشريفاً وتعظيماً، إذ هؤلاءِ الخمسة صلى الله عليهم وسلم هم أصحاب الكتب والشرائع والحروب الفاصلة على التوحيد وأُلو العزم، ذكره الثعلبي، وقدَّم ذكر محمد ﷺ على مزيته في الزمن تشريفاً خاصاً له أَيضاً، ورُوي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «كنت أَوَّل الأَنبياءِ في الخَلْق وآخرهم في البعث»[١].

وكرَّر أخذ الميثاق لمكان الصفة التي وُصف بها، و(غَلِيظاً) إشعارٌ بحرمة هذا الميثاق وقوتها، واللام في قوله تعالى: (لِيَسْأَلَ) متعلقه بـ(أَخَذْنا)، ويحتمل أَن تكون لام كيْ، أَي: بعثت الرسل وأَخذت عليهم الميثاق في التبليغ لكي يجعل الله خلقه فرقتين، فرقة يسأَلها عن صدقها، على معنى إقامة الحجة والتقرير، كما قال لعيسى عليه السلام: ﴿ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي ﴾[٢]؟ فتجيب كأَنها قد صدقت الله في إيمانها في جميع أَفعالها، فَيُثِيبُها على ذلك، وفرقة كفرت فينالها ما أَعدَّ لها من العذاب الأَليم، ويحتمل أَن تكون اللام في قوله: (لِيَسْأَلَ) لامَ الصَّيرورة، أَيْ: أَخذ الميثاق على الأَنبياء ليصير الأَمر إلى كذا، والأَول أَصوب.

والصدق في هذه الآية يحتمل أَن يكون المضاد للكذب في القول، ويحتمل أَن

---

(١) أخرجه ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه، قال: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾، قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول: «كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث»، وأخرج ابن أبي شيبة عن قتادة رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ إذا قرأ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ قال: «بُدِىء بي في الخير وكنت آخرهم في البعث»، (الدر المنثور)، ولاشك أن بعث الرسل هو الخير للبشر جميعاً.

(٢) من الآية (١١٦) من سورة (المائدة).

يكون من صدق الأفعال واستقامتها، ومنه: عود صدق، وصدقني السيف والمال، وقال مجاهد: (الصَّادِقِينَ) في هذه الآية أراد بها الرُّسل، أي: يسأَل عن تبليغهم، وقال أَيضاً: أراد المؤَدِّين المبلغين من الرسل. وهذا كله محتمل.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾، إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ نزلت في شأن غزوة الخندق وما اتصل بها من أَمر بني قريظة، وذلك أَن رسول الله ﷺ أَجلى بني النضير من موضعهم عن المدينة إلى خيبر، واجتمعت جماعة منهم ومن غيرهم من اليهود وخرجوا إلى مكة مستنهضين قريشاً إلى حرب رسول الله ﷺ، وجَسَّرُوهم[١] على ذلك، وأَزمعت قريش السير إلى المدينة، ونهض اليهود إلى غطفان وبني أَسد ومَنْ أَمَّلهم من أَهل نجد وتهامة، واستنفروهم إلى ذلك، فتحزب الناس وساروا إلى المدينة، واتصل الخبر برسول الله ﷺ فحفر الخندق حول ديار المدينة وحصَّنه، وكان أَمراً لم يعهده العرب، وإنما كان من أَعمال فارس والروم، وأَشار به سلمان الفارسي رضي الله عنه، فورد الأَحزاب، قريش وكنانة والأحابيشُ في نحو عشرة آلاف عليهم أَبو سفيان بن حرب، ووردت غطفان وأَهل نجد عليهم عُيَيْنَة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري، ووردت بنو عامر وغيرهم عليهم عامر بن الطفيل إلى غير هؤلاء، فحصروا المدينة، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة، على ما قال ابن إسحق، وقال مالك: كانت سنة أَربع[٢]، وكانت بنو قريظة قد عاهدوا رسول الله ﷺ على الهدنة، وعاقدوه على أَلاَّ يلحقه منهم ضرر، فلما تمكن هذا الحصار واثقهم بنو النَّضير، فغدروا رسول الله ﷺ، ونقضوا العهد، وصاروا حزباً من الأَحزاب، فضاقت الحال على رسول الله ﷺ والمؤمنين، وكثرت الظنون، ورسول الله ﷺ يبشِّر ويعد بالنصر.

ثم أَلقى الله الرعب في قلوب المشركين، ويئسوا من الظفر بِمَنَعَة الخندق، وبما رأَوا من جَلَد المؤمنين، وجاء رجل من قريش اسمه نوفل بن الحرث ـ وقيل غير هذا ـ فاقتحم الخندق بفرسه فقُتل فيه، فكان ذلك حاجزاً بينهم، ثم إن الله تعالى بعث

---

(١) أي: شَجَّعوهم، يقال: جَسَرَ جُسوراً وجَسَارة: شجع شجاعة. وجَسَّرَه: شَجَّعَه.

(٢) قال الزرقاني: «واختلف في تاريخها، فقال موسى بن عقبة في مغازيه التي شهد مالك والشافعي بأنها أصح المغازي: كانت سنة أربع، قال الحافظ: وتابعه على ذلك الإمام مالك».

الصَّبا[1] لنصرة نبيِّه ﷺ على الكفار، فطردتهم، وهدَّدت بيوتهم، وأطفأت نيرانهم، وقطعت حبالهم، وأكفأت قدورهم، ولم يمكنهم معها قرار، وبعث الله مع الصَّبا ملائكة تُشدِّد الريح، وتفعل نحو فعلها، وتلقي الرعب في قلوب الكفرة حتى أزمعوا الرحلة بعد بضع وعشرين ليلة للحصر، فانصرفوا خائبين، فهُما الجنود التي لم تُر.
وقرأ الحسن: [وَجَنُوداً] بفتح الجيم، وقرأ الجمهور: تَعْمَلُونَ بالتاءِ، فكأن في الآية مُقابلة لهم، أي: أنتم لم تروا جنوده وهو بصير بأعمالكم، فيتبين في هذا القدرة والسلطان، وقرأ أبو عمرو وحده: [يَعْمَلُونَ] بالياءِ على معنى الوعيد للكفرة، وقرأ أبو عمرو أيضاً بالتاءِ، وهما حسنتان، ورُوي عن أبي عمرة: [لم يروها] من تحت، قال أبو حاتم: قراءَة العامة: ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾ بالتاء من فوق، ورُوي عن الحسن، ونافع، والأعرج: [يَعْمَلُون] بالتاء.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾.

(إِذْ) هذه بدلٌ من الأُولى في قوله سبحانه: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ﴾، وقوله: ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ يريد أَهل نَجْد مع عُيَيْنَة بن حصن، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يريد مكة وسائر تهامة، قاله مجاهد، وقيل: ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي: من أعلى الوادي من قِبَل مشرف غطفان، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ من أَسفل الوادي منه قِبَلَ المغرب، وقيل: إِنما أَراد ما يختص ببقعة المدينة، أَي: نزلت طائفة في أَعلى المدينة، وطائفة من أَسفلها، وهذه عبارة عن الحصر.

و﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ معناه: مالت عن مواضعها، وذلك فِعل الواله الفَزِع، وأَدغم الأعمش ﴿إذ زاغت﴾، وبيَّن الذال الجمهورُ، وكُلٌّ حسن.

﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ عبارة عما يجده الهَلِعُ من ثوران نفسه وتفرقها شَعاعاً، ويجد كأن قلبه يصْعَد علوًّا لينفصل، فليس بُلُوغ القلوب الحناجر حقيقة بالنقلة، بل

(١) الصَّبا: ريح مهبُّها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار (مؤنث).

يشير إلى ذلك، فيستعار لها بلوغ الحناجر، ورَوى أبو سعيد أَن المؤمنين قالوا يوم الخندق: يا رسول الله، بلغت القلوب الحناجر، فهل من شيءٍ نقوله؟ قال نعم، قولوا: «اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا»، فقالوها فضرب اللهُ وجوه الكفار بالريح فهزمهم[١].

وقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾، أَي: تكادون تضطربون وتقولون: ما هذا الخُلْفُ للوعد؟ وهذه عبارة عن خواطر للمؤمنين لا يمكن للْبَشَر دفعها، وأما المنافقون فجَلَّحُوا[٢] ونطقوا. وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، وشيبة، والأَعمش، وطلحة: (الظُّنُونَا) بأَلف في الوصل والوقف، وذلك اتباع لخط المصحف، وعلته تعديل رؤوس الآي، وطَرْد هذه العلَّة أن تلازم الوقف. وقد روي عن أبي عمرو أَنه لا يصل، وكان يوافق خط المصحف وقياس الفواصل، وقرأَ أبو عمرو أَيضاً، وحمزة في الوصل والوقف: [الظُّنُونَ] بغير أَلف، وهذا هو الأَصل، وقرأَ ابن كثير، والكسائي، وعاصم، وأَبو عمرو بالأَلف في الوقف، وبحذفها في الوصل، وعلَّلوا الوقف بتساوي رؤُوس الآي، وبما يفعل العرب في القوافي من الزيادة والنقص.

وقوله تعالى: (هُنَالِكَ) ظرف زمان، والعامل فيه (ابْتُلِيَ)، ومن قال: إن العامل فيه (وَتَظُنُّونَ) فليس قوله بالقوي؛ لأَن البداءَة ليست بمتمكنة. و(ابْتُلِيَ) معناه: اخْتُبِرَ وامتحن الصابر منهم من الجازع، (وَزُلْزِلُوا) معناه: حركوا بعنف، وقرأَ الجمهور: (زِلْزَالاً) بكسر الزاي، وقرأَها [زَلْزَالاً] بالفتح: الجحدريُّ، وكذلك [زَلْزَالَهَا] في ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾[٣].

ثم ذكر تعالى قول المنافقين والمرضى القلوب، على جهة الذَّم لهم، ورُوي عن

---

(١) أخرجه أحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، هل من شيءٍ نقول، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، قال: فضرب الله وجوه أعدائه بالريح، فهزمهم الله بالريح. الدر المنثور.

(٢) جَلَّح في الأمر: ركب رأسه فيه وأَقدم ومضى، وفي بعض النسخ: «فجعلوا ونطقوا»، وهي متفقة مع ما في (البحر المحيط).

(٣) وهذا الفعل هو مضاعف (زَلَّ).

يزيد بن رومان أن معتّب بن قشير قال: يعدنا محمد أن نفتح كنوز كسرى وقيصر ومكة ونحن الآن لا يقدر أحدنا أن يذهب إلى الغائط، ما يعدنا إلاَّ غروراً، أي أمراً يغرنا ويوقعنا فيما لا طاقة لنا به، وقال غيره من المنافقين نحو هذا فنزلت الآية فيهم، وقولهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ إنما هو على جهة الهزء، كأنهم يقولون: على زعم هذا الذي يدعي أنه رسول، ويدل على هذا أن من المحال أن يكون اعتقادهم أن ذلك الوعد هو من الله ومن رسوله ثم يصفونه بالغرور، بل معناه: على زعم هذا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾.

هذه المقالة رُوي أن بني حارثة قالوها، وبيوتهم بحدود المدينة، وقال مقاتل: بنو سَلِمة[1]، وقيل: القائل لذلك عبد الله بن أُبَيّ بن سلول وأَصحابه. وقرأ السُلمي، وحفص، واليماني، والأعرج: (لا مُقام) بضم الميم، بمعنى: لا موضع قيام، وهي قراءَة أَبي جعفر، وشيبة، وأَبي رجاءٍ، والحسن، وقتادة، والنَّخعي، وعبد الله ابن مسلم، وطلحة، والمعنى: في موضع القتال وموضع الممانعة. (فَارْجِعَوا) معناه: إلى منازلكم وبيوتكم، وكان ذلك على جهة التخذيل عن رسول الله ﷺ.

والفريق المستأْذن، رُوي أَن أوس بن قَيْظِي، استأْذن في ذلك عن اتفاق من عشيرته، فقال: إنَّ بيوتنا عورة، أَي منكشفة للعدو، وقيل: أَراد: خالية للسراق، يقال: اعوَرَّ المنزل إذا انكشف، ومنه قول الشاعر:

لَنَا الشَّدَّةُ الأُولى إذا القِرْنُ أَعْوَرَا[2]

---

(١) ذكر في بعض النسخ، وفي تفسير البحر المحيط أنهم بنو (مسلمة)، والثابت في سيرة ابن هشام أنهم بنو سَلِمَة.

(٢) ذُكر في اللسان والتاج (عَوِرَ)، قالا: وهو في وصف الأسد، واللفظ فيهما: (لَهُ الشَّدَّة الأولى)، وقال في اللسان: «والعرب تقول: أعْوَر منزِلُك إذا بدت منه عورة، وأعور الفارسُ إذا كان فيه موضع خلَلَ للضرب». والشَّدَة: الحملة القوية في الحرب، والقِرْنُ: المثيل في الشجاعة كما هو المراد هنا، وقد=

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الفريق بنو حارثة، وهم كانوا عاهدوا الله إثر أُحُد لا يُوَلُّون الأَدبار، وقرأَ ابن عباس، وابن يعمر، وقتادة، وأبو رجاءٍ: [عَوِرَةٌ] بكسر الواو فيهما، وهو اسم فاعل، قال أَبو الفتح: «صحة الواو في هذه شاذة، لأَنها متحركة قبلها فتحة»، وقرأَ الجمهور: ﴿عَوْرَةٌ﴾ ساكنة الواو على أنه مصدر وُصف به، والبيت المُعْوِرُ هو المنفرد المعرَّض لمن شاءَه بسوءٍ، فأَخبر الله تعالى عن بيوتهم أنها ليست كما ذكروه، وأَن قصدهم الفِرار، وأَن ما أَظهروه من أنهم يريدون حماية بيوتهم وخاصة نفوسهم ليس كذلك، وأَنهم إنما يكرهون نصر رسول الله ﷺ، ويريدون خِزْيه وأَن يُغلب.

ولو دُخلت المدينة من أقطارها، واشتد الخوف الحقيقي، ثم سُئلوا الفتنة والحرب لمحمد ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم لطاروا إليها وأتوها مجيبين[(١)] فيها، ولم يتلبثوا في بيوتهم لحفظها إلاَّ يسيراً، قيل: قَدْر ما يأْخذون سلاحهم. وقرأَ الحسن البصري: [ثم سُوُلو الفتنة] بغير همز، وهي من سَالَ يَسَالُ كخاف يخاف، لغة في (سأَل) العين فيها واو، وحكى أَبو زيد: هما يتساولان، ورُوي عن الحسن: [سُلُوا الْفِتْنَةَ]، وقرأَ مجاهد: [سُوئِلُوا] بالمدِّ[(٢)]. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: [لأَتَوْهَا] بمعنى لجاؤُوها، وقرأَ عاصم، وأَبو عمرو: [لآتَوْهَا] بمعنى: لأَعْطَوْهَا من أَنفسهم، وهي قراءَة حمزة، والكسائي، فكأَنها ردٌّ على السؤال ومشبهة له، قال الشعبي: وقرأَها النبي عليه الصلاة والسلام بالمدِّ[(٣)].

ثم أَخبر عنهم تبارك وتعالى أَنهم قد كانوا عاهدوا على أَلاَّ يفرُّوا، ورُوي عن

= يكون في العِلْم، والجمع أقران.

(١) في إحدى النسخ: (مُجِيِّين).

(٢) علَّل أبو الفتح بن جني قراءَة الحسن البصري [سُولُو] بتعليلات أكثرها فيه الصنعة. راجع المحتسب (٢ ـ ١٧٧) وما بعدها.

(٣) اختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة المدّ، قالا: وفي الحديث أن أصحاب النبي ﷺ كانوا يُعذَّبون في الله ويُسألون الشرك، فكلٌّ أَعطى ما سألوه إلا بلالاً، ففيه دليل على قراءة المدِّ، من الإعطاءِ ويدلُّ على قراءَة القصر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ فهنا يدل على [لأَتَوْهَا] مقصوراً. وقد أشار ابن عطية إلى أن قراءَة المدِّ فيها معنى الإعطاء. ونِسْبَةُ قراءَة المدّ لعاصم في رواية أبي بكر عنه، أما رواية حفص فهي بالقصر كما هو ثابت في المصحف.

يزيد بن رومان أن هذه إشارة إلى بني حارثة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهم مع بني سَلَمة كانتا الطائفتين اللتين همَّتا بالفشل في يوم احد، ثم تابوا وعاهدوا على ألاّ يقع فرار، فوقع يوم الخندق من بني حارثة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ تَوَعُّدٌ. و«الأَقْطَار»: النواحي، واحدها قُطْرٌ وقُتْرٌ[1]، والضمير فيها يحتمل المدينة ويحتمل البيوت.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

أَمر الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام في هذه الآية أَن يخَاطبهم بتوبيخ، فأَعلمهم بأَن الفرار لا ينجي من القدر، وبأَنهم لا يُمتَّعُون في تلك الأَوطان، بل تنقطع أَعمارهم في يسير من المدة، والقليل الذي استثناه هي مدة الآجال، قاله الربيع بن خُثَيْم[2]، ثم وقفهم على عاصمٍ من الله يستندون إليه، ثم حكم بأَنهم لا يجدون ذلك، ولا وليَّ ولا نصير من الله عزَّ وجلَّ. وقرأَت فرقة: [يُمَتَّعُونَ] بالياء، وقرأَت فرقة: [تُمَتَّعُونَ] بالتاء على المخاطبة.

ثم وبَّخهم بإخباره أَن الله تعالى يعلم المعوقين، وهم الذين يعوقون الناس عن نُصْرَة الرسول ﷺ، ويمنعونهم بالأَقوال والأَفعال من ذلك، ويسعون على الذين ينصرونه،

---

(١) الأقْطار: الجوانب، وواحدها: قُطْر، وهي الأقْتار، وواحدها: قُتْر، قال الفرزدق:

كَـمْ مِـنْ غِنـىً فَتَـحَ الإلَـهُ لهُـمْ بِـهِ ... وَالْخَيْـلُ مُقْعِيَـةٌ عَلَـى الأقْطَـارِ

ويروى البيت: على الأقتار. ومعنى (مقعية على الأقطار): ساقطة على أجنَابها تروم القيام كما تقعي الكلاب على أجنابها وأفخَاذها.

(٢) في تقريب التهذيب: هو الربيع بن خُثَيْم (بضم المعجمة وفتح المُثَلَّثة)، وفي الخلاصة: ابن خَيْثَم (بفتح الخاء وسكون الياء، وفتح الثاءِ)، وهو ابن عائذ بن عبد الله الثوري، أبو يزيد الكوفي. قال عنه في التقريب: «ثقة عابد مخضرم، من الثانية، قال له ابن مسعود: لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك، مات سنة إحدى وستين، وقيل: سنة ثلاث وستين».

تقول: عاقني أَمر كذا، وعوَّقني إذا بالغت وضعفت الفعل.

وأما القائلون فاختلف الناسُ في حالهم ـ فقال ابن زيد وغيره: أَراد المنافقين، يقول المنافق لإخوانه في النسب وقرابته: «هَلُمَّ إِلَيْنَا»، أَي: إلى المنازل والأَكل والشرب وترك القتال، ورُوي أَن جماعةً منهم فعلت ذلك. ورُوي أَن رجلاً من المؤمنين رجع إلى داره فوجد أَخاً له منافقاً، بين يديه رغيف وشواءٌ ونبيذ، فقال له: أَتجلس يا فلان هكذا ورسول الله ﷺ في القتال؟ فقال له أَخوه: هلُمَّ إلى ما أَنا فيه يا فلانُ، ودعني من محمد فقد والله هَلَكَ، وماله قِبَلٌ بأَعدائه. فشتمه أَخوه وقال: والله لأُعرِّفن رسول الله ﷺ، فذهب إلى النبي ﷺ فوجد الآية نزلت[1].

وقالت فرقة: بل أَراد من كان من المنافقين يداخل كفار قريش والعرب، فإنه كان منهم من يداخلهم، وقال لهم: «هَلُمَّ إِلَيْنا»، أَي إلى المدينة فإنكم تغلبون محمداً، والإِخوان ـ على هذا ـ هم في الكفر والمذهب السُّوءِ.

و«هَلُمَّ» بمعنى: أَقبِل، ومن العرب من يستعملها على حدٍّ واحد في المذكَّر والمؤنث والمفرد والجمع، وهذا على أَنها اسم فعل، وهذه لغة أَهل الحجاز، ومنهم من يُجريها مجرى الأفعال فيُلحقها الضمائر المختلفة، فيقول: هَلُمَّ، وَهَلُمُّوا. وأَصل (هَلُمَّ): (هَالْمُمْ)، نقلت حركة الميم إلى اللام فاستُغْني عن الألف، وأُدغمت الميم في الميم لسكونها فجاءَ (هَلُمَّ)، وهذا مثلُ تعليل: (رُدَّ) من ارْدُدْ[2].

والبَأْسُ: القتال، و﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ معناه: إلاَّ إتياناً قليلاً، وقِلَّته يحتمل أَن تكون لِقِصَر مُدَّته وقِلَّة أزمنته، ويحتمل أَن تكون لقلَّة عقابه، وأَنه رياءٌ وتلميع لا تحقيق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه، (الدر المنثور)، وفي روايته أن الرجل كان أخاه من أبيه وأمه. وذكر هذا الحديث ابنُ جرير الطبري عن ابن زيد أيضاً.

(٢) قال الأزهري: «فُتحت هَلُمَّ لأنها مدغمة، كما فُتحت رُدَّ في الأمر، فلا يجوز فيها هَلُمُّ بالضم، كما لا يجوز رُدُّ لأنها لا تتصرف». وقال ابن سيدة: «زعم الخليل أن هَلُمَّ هي لُمَّ لحقتها هاءُ التنبيه».

(أَشِحَّةً) جمع شحيح[١]، ونصبه على الحال من (القَائِلِينَ): أو من فعل مضمر دلَّ عليه قوله: (المُعَوِّقِينَ)[٢]، أَوْ من الضمير في (يَأْتُونَ)، أو على الذم، وقد منع بعض النحاة أَن يعمَل في هذه الحال [المَعوِّقينَ] أو (القَائِلِينَ) لمكان التفريق بين الصلة والموصول بقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ وهو غير داخلٍ في الصلة. وهذا الشُّحُّ قيل: هو بأَنفسهم على المؤمنين، وقيل: بإخوانهم، وقيل: بأَموالهم في النفقات في سبيل الله، وقيل: بالغنيمة عند القَسْم، والصواب تعميم الشُّح، وأَن يكون بكل ما فيه للمؤمنين منفعة.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾، قيل: معناه: فإذا قوي الخوف من العدوِّ، وتُوُقِّع أَن يستأصل جميع أَهل المدينة، لاذ هؤلاءِ المنافقون بك، ينظرون نظر الهَلِع المختلط، كنظر الذي يغشى عليه من الموت، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ﴾ ذلك الخوف العظيم (سَلَقُوكُمْ) أَي: خاطبوكم مخاطبة بليغة، يقال: خطيب سَلاَّقٌ ومِسْلَقٌ، ولسانٌ أَيضاً كذلك إذا كان فصيحاً مقتدراً، وقرأ ابن أَبي عبلة: [صَلَقُوكُمْ] بالصَّاد. ووصف الأَلسنة بالحِدَّة لِقَطْعها المعاني، ونفوذها في الأَقوال.

وقالت فرقة: معنى قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ أَي: إذا كان المؤمنون في قوة وظهور، وخشي هؤلاءِ المنافقون سطوتك يا محمد رأَيتهم يصانعون وينظرون إِليك نظر فازع منك خائف هلع، فإِذا ذهب خوفك عنهم باشتغالك بعدوٍّ ونحوه ـ كما كان مع الأَحزاب ـ سلقوكم حينئذ. واختلف الناس في المعنى الذي فيه يسلقون ـ فقال يزيد بن رومان وغيره: ذلك في أذى المؤمنين وسبِّهم وتنقيص الشرع ونحو هذا، وقال قتادة: ذلك في طلب العطاء من الغنيمة والإِلحاف في المسأَلة، وهذان القولان يترتَّبان مع كل واحد من التأويلين المتقدمين في الخوف، وقالت فرقة: السَّلْقُ هو في مخادعة المؤمنين بما يُرضيهم من القول على جهة المصانعة والمخاتلة.

وقوله: [أَشِحَّةً] حال من الضمير في [سَلَقُوكُمْ]، وقوله: ﴿عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ يَدُلُّ على

---

(١) والشحيح: البَخيل، وجمع شَحِيح على أشِحَّةٍ لا ينقاس، وقياسُه في الصفة المضعفة للعين واللام: أفعلاء، نحو خليل وأخلاَّءُ، ورقيق وأَرقاءُ، وعلى هذا فالقياس أن يجمع شحيح على أَشحاءٍ، وقد سمع ذلك.

(٢) وتقديره: يعوِّقون أَشِحَّةً.

عموم الشُّحِّ في قوله أَولاً ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾، وقيل في هذا: معناه: أَشحة على مال الغنائم، وهذا على مذهب من قال: إِن (الخير) في كتاب الله حيث وقع فهو بمعنى المال. وقرأ ابن أَبي عبلة: [أَشِحَّةٌ] بالرفع، أَخبر تبارك وتعالى عنهم أنهم لم يؤمنوا، ولا كمل تصديقهم، وجمهور المفسرين على أن هذه الإِشارة إِلى منافقين لم يكن لهم قط إيمان، ويكون قوله: ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أنها لم تكمل قط، أَيْ أَنها كالْمُحْبَطَة، وحكى الطبري عن ابن زيد عن أَبيه أَنه قال: نزلت في رجل بدريٍّ نافق بعد ذلك ووقع في هذه المعاني فأَحبط الله عمله في بدر وغيرها، وهذا فيه ضعف.

والإِشارة بـ(ذَلِكَ) في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ يحتمل أَن تكون إِلى إِحباط عمل هؤلاءِ المنافقين، ويحتمل أَن تكون إِلى جملة حالهم وما وصف من شحهم ونظرهم وغير ذلك من أَعمالهم، أَي أَن أَمرهم يسير لا يبالى به، ولاَ له أَثر في دفع خير ولا جلب شر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

الضمير في (يَحْسَبُونَ) للمنافقين، والمعنى أنهم من الفزع والجزع بحيث رحل الأَحزاب وهزمهم الله تعالى وهؤلاءِ يظنون أنهم لم يذهبوا، بل يريدون الكَرَّة إِلى المدينة، ثم أَخبر تعالى عن معتقد هؤلاءِ المنافقين أَن ودَّهم إِذا أَتى الأَحزاب وحاصروا المدينة أَن يكونوا هم قد خرجوا إِلى البادية ومع الأعراب وهم أَهل العمود والرحيل من قُطر إِلى قُطر، ومن كان منهم مقيماً بأَرض مستوطناً فلا يُسمُّونَ أَعراباً، وغرضهم من البداوة أَن يكونوا سالمين من القتال. وقرأ ابن عباس، وطلحة بن مصرِّف: [لو أنهم بُدًّى في الأعراب] بشدِّ الدال منونة، وهو جمع بادٍ كغازٍ وغُزًّى. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «بدا» فعلاً ماضياً[1].

وقرأَ أَهل مكة، ونافع، وابن كثير، والحسن: [يَسْأَلُونَ]، أَي عن أَنبائكم، وقرأَ أَبو

---

(١) هكذا في الأصول، وهي أيضاً عبارة البحر المحيط.

عمرو، وعاصم[(١)]، والأعمش، والحسن: [يَسَالُونَ] بغير همز، نحو قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[(٢)]، وقرأ الجحدري، وقتادة، والحسن ـ بخلاف عنه ـ: [يَسَّاءَلُونَ]، أي: يسأل بعضهم بعضاً، قال[(٣)] الجحدري في الإمام: [يَتَسَاءَلُونَ].

ثم سَلَّى الله تعالى نبيَّه عنهم، وحقَّر شأنهم بأَن أخبر أنهم لو حضروا لما أغنوا ولما قاتلوا إلاَّ قتالاً قليلاً لا نفع له، قال الثعلبي: هو قليل من حيث هو رياءٌ من غير حسبة ولو كان كثيراً.

ثم أخبر تبارك وتعالى على جهة الموعظة بأَن كل مسلم ومدع في الإسلام يجب أن يقتدي بمحمد عليه الصلاة والسلام حين قاتل وصبر وجاد بنفسه[(٤)]. وقرأ جمهور الناس: [إِسْوَةٌ] بكسر الهمزة، وقرأ عاصم وحده: (أُسْوَةٌ) بضم الهمزة، وهما لغتان، ومعناها: قدوة، وتأَسَّى الرَّجلُ إذا اقتدى، و«رجاءُ الله» تابع للمعرفة به، و«رجاءُ اليوم الآخر» ثمرةُ العمل الصالح، و«ذِكْرُ الله كثيراً» من خير الأعمال، فنبَّه عليه.

وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [يحسبون الأَحزاب قد ذهبوا، فإِذا وجدوهم لم يذهبوا ودُّوا أَنهم بادون في الأعراب].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

وصف تعالى فِعْلَ المؤمنين حين رأَوا تجمع الأحزاب لحربهم، وصبرَهم على البلاءِ، وتصديقَهم وعد الله تعالى على لسان نبيِّه ﷺ، واختلف المتأَولون مَاذا أَرادوا

---

(١) في رواية أبي بكر عنه.

(٢) من قوله تعالى في الآية (٢١١) من سورة (البقرة): ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾.

(٣) هكذا في الأصل. ولعلها: وَقَرَأَ.

(٤) ومن مظاهر ذلك أنه ﷺ قد شُجَّ وجهُه، وكُسرت رباعيته، وأن عمه حمزة رضي الله عنه قد قُتل، وأنه جاع وربط على بطنه من شدة الجوع، ولم يُرَ إلا صابراً محتسباً، وشاكراً راضياً، والأسوة بالرسول يجب أن تمتد إلى حياته كلها.

بوعد الله ورسوله؟ ـ فقالت فرقة: أَرادوا ما أَعلمهم به رسول الله ﷺ حين أَمرهم بحفر الخندق، فإنه أَعلمهم بأَنهم سَيُحْصَرون، وأَمرهم بالاستعداد لذلك، وبأَنهم سينتصرون بعد ذلك، فلما رأَوا الأَحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، فسَلَّموا الأَمر وانتظروا أجره(١).

وقالت فرقة: أَرادوا بوعد الله ما نزل في سورة البقرة، من قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾(٢).

ويحتمل أن يكون المؤمنون نظروا في هذه الآية، وفي قول رسول الله ﷺ عند أَمرهم بحفر الخندق، وأَشاروا بالوعد إلى جميع ذلك، وهما مقالتان، إحداهما من الله تعالى، والأُخرى من رسوله ﷺ.

وزيادة الإيمان هنا هي في أَوصافه لا في ذاته؛ لأَن ثُبوته وإبعاد الشُّكوك والشُّبَه عنه زيادة في أَوصافه، ويحتمل أَن يزيد إيمانُهم بما وقع، وبما أخبر به رسول الله ﷺ مما لم يقع، فتكون الزيادة ـ بهذا الوجه ـ فيما يُؤْمَن به لا في نفس الإيمان. وقرأَ ابن أَبي عبلة: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ بواو جمع.

و«التَّسْلِيمُ»: الانقياد لأَمر الله تعالى كيف جاءَ، ومن ذلك ما ذكرناه من أَن المؤمنين قالوا لرسول الله ﷺ عند اشتداد ذلك الخوف: «إن هذا أَمر عظيم، فهل من شيءٍ نقوله؟ فقال: «قولوا: اللهم آمن روعاتنا، واستُر عيوبنا»، فقالها المسلمون في تلك الضِّيقات.

---

(١) روى كُثير بن عمرو المزني عن أبيه عن جدِّه قال: خطب رسول الله ﷺ عام ذكرت الأحزاب فقال: «أخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها ـ يعني على قصور الحيرة ومدائن كسرى ـ فأبشروا بالنصر»، فاستبشر المسلمون، وقالوا: الحمد لله، موعد صادق، إذ وُعدنا بالنصر بعد الحَصْر، فطلعت الأحزاب فقال المؤمنون: هذا ما وعدنا الله ورسوله، ذَكر ذلك الماوردي، ونقله القرطبي.

(٢) الآية (٢١٤) من سورة (البقرة)، وقد أخرج ابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ إلى آخر الآية، قال: إن الله تعالى قال لهم في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ فلما مسَّهم البلاءُ حيث رابطوا الأحزاب في الخندق قالوا: هَذَا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُه، فتأول المؤمنون ذلك، فلم يزدهم إلا إيماناً وتسليماً، وأخرج مثله الطيالسي، وعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل عن قتادة رضي الله عنه.

ثم أثنى الله عزَّ وجلَّ على رجال من المؤمنين عاهدوا الله تعالى على الاستقامة التامة فوفوا وقضَوْا نَحْبهم، أَي نَذْرَهُم وعهدهم، والنَّحْبُ ـ في كلام العرب ـ: النَّذْرُ والشيءُ الذي يلتزمه الإنسان ويعتقد الوفاءَ به، ومنه قول الشاعر:

. . . . قَضَى نَحْبَهُ في مُلْتَقَى الْقَوْم هَوْبَرُ[1].

المعنى أنه التزم الصبر إلى فتح أو موت فمات، ومن ذلك قول جرير:

بِطَخْفَةَ جالَدْنا الْمُلُوكَ وَخَيْلُنا عَشِيَّةَ بِسْطَامٍ جَرَيْنَ عَلَى نَحْبِ[2]

أي: على أمر عظيم التزم القيام به، كأنه خطر عظيم.

وقد يُسمَّى الموتُ نحباً، وبه فسَّر ابن عباسٍ رضي الله عنهما هذه الآية، وقال الحسن: ﴿قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾: مات على ما عهد، ويقال للّذي جاهد في أمر حتى مات: قَضى نَحْبه، ويقال لمن مات: قضى فلانٌ نحبه، وهذا تجوُّز، كأن الموتَ أمرٌ لابد

---

(١) هذا عجز بيت قاله ذو الرمة، والبيت بتمامه:

عَشِيَّةَ فَرَّ الْحَارِثِيُّونَ بَعْدَمَا قَضَى نَحْبَهُ في مُلْتَقَى القَوْم هَوْبَرُ

وهَوْبَر: اسم رجل هو يزيد بن هَوْبر، وهو من بني الحارث بن كعب، والبيت في (اللسان ـ هَبَر)، قال: «الهَوْبَر: الفهد ـ عن كُرَاع ـ، وهَوْبَر: اسم رجل، قال ذو الرمة: عَشِيَّةَ فرَّ. . . البيت»، وذكره أبو عبيدة في (مجاز القرآن) عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي: نذره الذي كان، كما قال، والشاهد في البيت هنا أن النَّحْب هو الشيءُ الذي يلتزم به الإنسان حتَّى لو دفع حياته ثمناً له.

(٢) البيت في (اللسان ـ نَحَبَ)، وفي (مجاز القرآن) لأبي عبيدة. وفي (التَّاج ـ نَحَب)، وطَخْفَة: جبل أحمر طويل في ديار بني تميم، كانت به وقعة بين بني يربوع وقابوس بن النعمان، وكان ذلك حيث بعث النعمان جيشاً بقيادة ابنه قابوس وأخيه حسان، فهزمت بنو يربوع الجيش بطَخْفَة، وأسروا ابن الملك وأخاهُ، ثم مَنُّوا عليهما بعد ذلك، وهذا ما أراده جَرير، وتضبط الطاءُ في (طَخفَة) بالفتح وبالكسر كما جاء في معجم البكري.

وهناك كثير من الشواهد على أن النَّحْب هو النَّذْر أو الشيء الذي يلتزمه الإنسان، (والموت نحبٌ لأنه شيءٌ مفروض على الإنسان ولابدَّ من الوفاء به)، ومنها قول الشاعر:

يَا عَمْرُو ابنَ الأكْرَمِينَ نَسَبَا قَدْ نَحَبَ المَجْدُ عَلَيْنَا نَحْباً

وقول لبيد في بيته المشهور:

ألا تَسْألانِ المَرْءَ مَاذَا يُحَاوِلُ أَنَحْبٌ فَيُقْضَى أم ضَلالٌ وَبَاطِلُ؟

وقول حسَّان بن ثابت:

مَسَاميحُ أبطالٌ يُرَجُّونَ لِلنَّدَى يَرَوْنَ عَلَيْهِمْ فِعْلَ آبَائِهِمْ نَحْبَا

للإنسان أَن يقع به فسُمِّي نَحْباً لذلك.

فمِمَّن سمَّى المفسرون أنه أُشير إليه بهذه الآية أَنَسُ بن النضر، عَمُّ أَنس بن مالك، وذلك أَنه غاب عن بدر، فساءَه ذلك وقال: لَئِن شهدتُ مع رسول الله ﷺ مشهداً لَيَرَيَنَّ الله ما أَصنع فلما كانت أُحد أَبْلى بلاءً حسناً حتَّى قُتل، ووجد فيه نيِّف على ثمانين جرحاً[١]، فقالت فرقة: إن هذه الإشارة هي إلى أَنس بن النَّضْر ونظرائه ممن استشهد في ذات الله تعالى. وقال مقاتل والكلبي: الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه هم أَهلُ العقبة السبعون أَهل البيعة. وقالت فرقة: الموصوفون بقضاءِ النَّحْب هم جماعة من أَصحاب رسول الله ﷺ، وفُّوا بعهود الإسلام على التمام، فالشُّهداءُ منهم، والعشَرَةُ الذين شهد لهم الرسول ﷺ بالجنة منهم، إلى من حصل في هذه المرتبة مِمَّن لم يُنَصَّ عليه، ويُصحح هذه المقالة أن رسول الله ﷺ كان على المنبر، فقال له أَعرابي: يا رسول الله، من الذي قضى نحبه؟ فسكت عنه النبي ﷺ ساعة، ثم دخل طلحة بن عبيد الله على باب المسجد، وعليه ثوبان أَخضران، فقال رسول الله ﷺ: أَين السائل؟ فقال: هأَنذا يا رسول الله، قال: هذا ممن قضى نَحْبه[٢]. فهذا دليل على أَن النَّحْب ليس من شروطه الموت. وقال معاوية بن أَبي سفيان: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «طلحة ممن قضى نَحْبه»[٣]، وروت هذا المعنى عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ[٤].

---

(١) أخرجه ابن سعد، وأحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، والبغوي في معجمه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحِلْية، والبيهقي في الدلائل، عن أنس رضي الله عنه. (الدرُّ المنثور)، وروى الحديث أيضاً البخاري في المغازي ولم يذكر سبب النزول، ورواه في التفسير مقتصراً على سبب النزول. وقال الحافظ ابن حجر: «في رواية ثابت، فقالت عمتي الربيع بنت النضر أُخته: فما عرفتُ أخي إلا ببنانه، قال: وزاد النسائي من هذا الوجه: وكان حسن البنان».

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم، والترمذي وحسَّنه، وأبو يَعْلى، وابن جرير، والطبراني، وابن مردويه، عن طلحة رضي الله عنه، وفيه أن أصحاب النبي ﷺ قالوا لأعرابي جاهل: سَلْه عمَّن قضى نَحْبه من هو؟ وكانوا لا يجترئون على سؤاله يوقِّرونه ويهابونه، وفيه أيضاً: «ثم انطلقت من باب المسجد». (الدر المنثور).

(٣) أخرجه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن معاوية رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٤) أخرجه الحاكم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: دخل طلحة على النبي ﷺ فقال: «يا طلحة أنت مِمَّن قضى نَحْبه». (الدر المنثور).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾، يقول: ومنهم من ينتظر الحصول على أعلى مراتب الإيمان والصلاح، وهو بسبيل ذلك، وما بدَّلوا ولا غيَّروا، ثم أَكَّد بالمصدر. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما على منبر البصرة: «ومنهم مَنْ بَدَّلَ تَبديلاً»، رواه عنه أَبو نصرة.

وروى عنه عمرو بن دينار: «ومِنْهُم من يَنْتَظِر وآخرون بَدَّلوا تبديلاً»(١).

واللام في قوله سبحانه: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ﴾ لام الصيرورة والعاقبة، ويحتمل أَن تكون لام كي، وتعذيب المنافقين ثمرة إدامتهم الإقامة على النفاق إلى موتهم، والتوبة موازية لتلك الإدامة، وثمرة التوبة تركهم دون عذاب، فهما درجتان: إدامة على نفاق، أَو توبة منه، وعنهما ثمرتان: تعذيب أَو رحمة، فَذَكَر الله تعالى ـ على جهة الإيجاز ـ واحدةً من هذين، وواحدة من هذين، ودلَّ ما ذكر على ما ترك ذكره. ويَدُلُّك على أَن معنى قوله: (لِيُعَذِّبَ): ليديم على النفاق قولُه: ﴿إِن شَآءَ﴾ ومعادلته بالتوبة وبحرف [أو]، ولا يُجَوِّز أَحدٌ أَنَّ ﴿إِن شَآءَ﴾ يصحُّ في تعذيب منافق على نفاقه، بل حتم الله على نفسه بتعذيبه(٢).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

---

(١) قال أبو بكر الأنباري: «وهذا الحديث عند أهل العلم مردود؛ لخلافه الإجماع، ولأن فيه طعناً على المؤمنين والرجال الذين مدحهم الله تعالى وشرفهم بالصدق والوفاءِ، فما يُعرف فيهم مُغيِّر، وما وُجد من جماعتهم مُبَدِّل رضي الله عنهم».

(٢) هذا جواب عن سؤال تقديره: إن عذاب المنافقين متحتم ولابُدَّ منه، فكيف يصحُّ تعليقه على المشيئة وهو قد شاء فعلاً تعذيبهم إذا أداموا الإقامة على النفاق؟

وقد وضح أبو حيان إجابة ابن عطية عن هذا السؤال بما يأتي:

«كأن ما ذكر يؤول إلى أن التقدير: ليقيموا على النفاق فيموتوا عليه إن شاء فيعذبهم، أو يتوب عليهم فيرحمهم، فحذف سبب التعذيب وأثبت المُسَبَّب وهو التعذيب، وأثبت سبب الرحمة والغفران وحذف المُسَبَّب وهو الرحمةُ والغفران، وهذا من الإيجاز الحسن».

عدَّدَ الله تعالى في هذه الآيات نعمه على المؤمنين في هزم الأحزاب، وأن الله ردَّهم بغيظهم لَمْ يَشْفوا منه شيئاً، ولا نالوا مُراداً، وكفى الله كلَّ مؤمن كان مع رسول الله ﷺ أَن يُقاتل الأَحزاب. ورُوي أَن المراد بالمؤمنين هنا عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه وقوم معه عبئوا للقتال وبرزوا ودعوا إليه. وقيل: عنى رجلا من المشركين اسمه عمرو بن عَبْد وُدٍّ، فكفاهم الله مداومة ذلك ودعوتَه بأَنْ هزم الأَحزاب بالريح والملائكة، وصنع ذلك بقوته وعزته. قال أَبو سعيد الخُدْري: حُبسنا يوم الخندق فلم نُصَلِّ الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاءَ، حتى كان بعد هوي من اللَّيل كفينا، وأَنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾، وأَمر رسول الله ﷺ بلالاً فأَقام، وصلى الظهر فأَحسنها، ثم كذلك كل صلاة بإقامة إقامة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ يريد بني قريظة بإجماعٍ من المفسرين، قال الرماني: وقال الحسن: الذين أُنزلوا من صياصيهم بنو النضير، وقال الناس: هم بنو قريظة، وذلك أَنهم لما غدروا برسول الله ﷺ وظاهروا الأحزاب عليه أَراد الله النقمة منهم، فلما ذهب الأَحزاب جاءَ جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وقت الظهر، فقال: يا محمد، إن الله يأْمرك بالخروج إلى بني قريظة، فنادى رسول الله ﷺ في الناس، وقال لهم: «لا يُصَلِّيَنَّ أَحدٌ العصر إلاَّ في بني قريظة»، فخرج الناس إليها، ووصلها قوم من الصحابة بعد العشاءِ وهم لم يُصلوا العصر وقوفاً مع لفظ النبي ﷺ، فلم يخطِّئهم رسول الله ﷺ في ذلك، وصلى قومٌ في الطريق، ورأَوا أن قول النبي ﷺ إنما خرج مخرج التأْكيد، فلم يخطئهم أَيضاً، وحصر رسول الله ﷺ بني قُرَيْظَةَ خمساً وعشرين ليلة، ثم نزلوا على حكم سعد بن معاذ الأَوْسي رضي الله عنه، وكان بينهم وبين الأوس حِلْف، فَرَجَوْا حُنوَّه عليهم، فحكم فيهم سعْدٌ بأَن تقتل المقاتلة، وتُسبى الذرية والعيال والأَموال، وأَن تكون الأَرض والثمار للمهاجرين دون الأَنصار، فقالت له الأَنصار في ذلك، فقال: أَردتُ أَن تكون لهم أَموال كما لكم أَموالٌ، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم المليك من فوق سبعة أَرقعة»(١)، فأَمر رسول الله ﷺ برجالهم فأُخرجوا أَرسالاً(٢)، وضرب أَعناقهم، وهم من الثمانمئة إلى

---

(١) أي: من فوق سبع سموات، الأرْقعة: جمع رقيع، والرَّقيع: السماءُ، سمِّيت بذلك لأنها رقعت بالنجوم.

(٢) أي: جماعات.

التسعمئة، وسيق فيهم حُيَيُّ بن أَخطب النضري، وهو الذي كان أَدخلهم في الغدر برسول الله ﷺ، فلما ذهب الأَحزاب دخل عندهم، فأَخذه الحَصْر حتى نزل فيمن نزل على حُكْم سعدٍ، فلما قُرِّب وعليه حُلَّتان فُقَّاحِيَّتَانِ[١] ويداه مجموعتان إلى عنقه وأَبصر رسول الله ﷺ قال له: يا محمد، والله ما لُمْتُ نفسي في عداوتك، ؛ ولقد اجتهدت ولكن من يَخْذل الله يُخذل، ثم قال: أَيُّها الناس، لا بأْس، إِنه أمر الله وقَدَرُه ومَلْحَمَةٌ كُتبت على بني إِسرائيل[٢]، ثم تقدم فضربت عنقه، وفيه يقول جَبَل بن جَوَّال التَّغْلبيُّ:

لَعَمْـرك مـا لاَمَ ابْـنُ أَخْطَـبَ نَفْسَـهُ ... ولكِنَّـهُ مَـنْ يَخْـذُلِ اللهَ يُخْـذَلِ
لَجَاهَـدَ حَتَّـى أَبْلَـغَ النَّفْـسَ عُـذْرَهَـا ... وقَلْقَـلَ يَبْغِـي الْعِـزَّ كُـلَّ مُقَلْقِـلِ[٣]

وقوله: (ظَاهَرُوهُمْ) معناه: عاونوهم، وقرأَ عبد الله بن مسعود: «الَّذِينَ آزَرُوهُمْ»، وهي بمعنى: ظاهروهم. والصَّياصِي: الحصون، وإحداها: صِيصَة، وهي كل ما يُتَمَنع به، ومنه يقال لقرون البقر: الصَّيَاصِي، و«الصَّيَاصِي أَيضاً شوكُ الحاكة[٤]، وتُتَّخَذ من حديد، ومنه قول دُرَيْد بن الصِّمَّة:

. . . . كَوَقْع الصَّيَاصي في النَّسيج الْمُمَدَّدِ[٥]

والفريقُ المقتول: الرِّجال المقاتلة، والفريقُ المأْسورُ: العيالُ والذرية.

وقرأَ الجمهور: (وَتَأْسِرُونَ) بكسر السين، وقرأَها أَبو حيوة: [وَتَأْسُرُونَ] بضم السِّين.

---

(١) الحُلَّة الفُقَّاحِيَّةُ هي التي لونها بلون الورد حين يبدأ في التَّفَتُّح.

(٢) المَلْحَمَة: الحرب الشديدة.

(٣) كان جبل بن جَوَّال هذا من بني ثعلبة بن سعد، وكان يهوديًا، ثم أنعم الله عليه بنعمة الإسلام، وكانت له صحبة، ومعنى قَلْقَلَ: تحرَّك. (راجع سيرة ابن هشام، والاستيعاب).

(٤) يريد شوكة يستخدمها النَّسَّاجون.

(٥) هذا عجز بيت من قصيدة طويلة قالها دُرَيْد يرثي أخاه عبد الله، وفي مطلعها يقول:

أَرَثَّ جَـديـدُ الحبْـلِ مِـنْ أَمِّ مَعْبَـدِ ... بِعَـاقِبَـةٍ وَأَخْلَفَـتْ كُـلَّ مَـوْعِـدِ

والبيت بتمامه:

نَظَـرْتُ إِلَيْـهِ والـرِّمَـاحُ تَنُـوشُـهُ ... كَوَقْعِ الصَّيَاصي في النَّسِيج المُمَدَّدِ

وتنوشه: تتناوله، والصَّياصي جمع صِيصِيَة أو صِيصَة: شوكة الحائك التي يسوِّي بها السَّداة واللُّحمة، والبيت في الأغاني، وفي اللسان، والرواية فيه: (فجئتُ إليه).

وقوله تعالى: (وَأَوْرَثَكُمْ) استعارة، من حيث حصل ذلك لهم بعد موت الآخرين وقتلهم، وقوله: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ يريد بها البلاد التي فتحت بعْدُ كالعراق والشام واليمن ومكة، فوعَدَ الله بها عند فتح حصون بني قُرَيْظَة، وأخبر أنه قد قضى بذلك، قاله عكرمة. وذكر الطبري عن فِرَقٍ أنهم خصصوا ذلك، فقال الحسن: أراد الروم وفارس، وقال قتادة: كنا نتحدث أنها مكة، وقال يزيد بن رومان، ومقاتل، وابن زيد: هي خَيْبر، وقالت فرقة: اليمن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا وجه لتخصيص شيءٍ من ذلك دون شيءٍ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

اختلف الناسُ في سببها ـ فقال قتادة: سببها غَيْرة غارتها عائشة رضي الله تعالى عنها، وقال ابن زيد: وقع بين أزواجه تغاير ونحوه ومما شقي هو به ـ ﷺ ـ فنزلت الآية بسبب ذلك، وبشره الله أن يصرف إرادته في أن يؤوي إليه من يشاءُ، وقال أبو الزُّبَيْر: نزل ذلك بسبب أن رسول الله ﷺ سأله أزواجه النفقة، وتَشَطَّطن في تكليفه منها فوق وُسْعه، وقالت فرقة: بل السبب أنهن طلبن منه ملابس وثياباً، وقالت واحدة: لو كُنَّا عند غير رسول الله لكنا لنا الحلي والمتاع. وقال بعض الناس: أُمر رسول الله ﷺ بتلاوة هذه الآية عليهن، وتَخييرهن بين الدنيا والآخرة وأَمر الطلاق مُرْجأٌ، فلو اخترن أنفسهن نظر كيف يسرحهن هو، وليس فيها تَخْييرهن في الطلاق؛ لأن التخيير يتضمن ثلاث تطليقات وهو قد قال: ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، وليس مع بَتِّ الطلاق سراحٌ جميلٌ. وقالت فرقة: بل هي آية تَخْيير، واخْتَرْنه عليه الصلاة والسلام، ولم يعد ذلك طلاقاً، وهو قول عائشة أيضاً.

واختلف الناس في التَّخْيير إذا اختارت المرأة نفسها ـ فقال مالك: هي طالقٌ ثلاثاً، ولا مناكرة للزوج، بخلاف التمليك. وقال غيره: هي طلقة بائنة. وقال بعض الصحابة

رضوان الله عليهم: إذا خيَّر الرجل امرأته فاختارت فهي طلقة، وهذا مخالف جداً.

قوله: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: إنْ كانت عظيم همتكن ومطلبكن، أي التَّعَمُّق فيها والنَّيْل من نعمتها. و«زينةُ الدنيا»: المالُ والبنون، و«تَعَالَيْنَ» دعاءٌ، و(أُمَتِّعْكُنَّ) معناه أُعطيكن المتاع الذي ندب الله إليه في قوله: (وَمَتِّعُوهُنَّ)[١]، وأكثر الناس على أنها من المندوبات، وقالت فرقة: هي واجبةٌ، و«السَّرَاحُ الجَمِيلُ» يحتمل أن يكون ما دون بَتِّ الطلاق، ويحتمل أن يكون في بقاءِ جميل المعتقد وحُسْن العشرة وجميل الثناءِ وإن كان الطلاق باتًّا. و(أَعَدَّ) معناه: يَسَّر وسَنَّى، و«المُحْسِنَاتُ»: الطائعات لله والرسول.

وأزواج الرسول ﷺ اللواتي نزلت الآية فيهن تِسْعٌ، خمسٌ قُرشيَّات: عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنه، وحفصة بنت عمر رضي الله عنه، وأُمُّ حبيبة بنت أَبي سفيان[٢]، وسودةُ بنت زمعةَ، وأُمُّ سَلَمَة بنت أَبي أميَّة[٣]. وأَربعٌ غير قرشيَّات: ميمونةُ بنت الحارث الهلالية، وصفيةُ بنت حُيَيٍّ بن أخطب الخَيْبَرِيَّة، وزينب بنت جحش الأَسدية[٤]، وجُوَيْرِيةُ بنت الحارث المصطلقيَّة[٥] رضي الله عن أَزواج رسول الله أجمعين.

وفي الحديث أَن النبي ﷺ لما خرج من إيلائه الشهر، ونزلت هذه الآية، بدأ بعائشة فقال: «إنِّي ذاكرٌ لكِ أمراً، ولا عليك أَلاَّ تعجلي حتى تستَأْمري أبويك»، ثم تلا الآية، فقالت له: وفي هذا أَستأْمر أَبَوَيَّ؟ فإني أُريد الله ورسوله والدار الآخرة، قالت: «وقد علم أَن أبويَّ لا يأْمراني بفراقه»، ثم تتابع أَزواج النبي ﷺ على مثل قول عائشة رضي الله عنها، فاخترن الله ورسوله[٦].

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٢٣٦) من سورة (البقرة): ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

(٢) اسمها رَمْلَة بنت أبي سفيان.

(٣) اسمها هِنْد بنتُ سُهَيل، لأن اسم أَبي أُمَيَّةَ هو: سُهَيل.

(٤) كان اسمها بَرَّة فسماها رسول الله ﷺ زينب، وكان اسم أبيها بُرَّة، فقالت: يا رسول الله، بدِّل اسم أبي فإن البُرَّة حقيرة، فقال لها النبي ﷺ: «لو كان أبوك مؤمناً سميناه باسم رجل منا أهل البيت، ولكنِّي قد سميته جَحْشاً، والجحش من البُرَّة»، ذكر هذا الحديث الدَّارَقُطْنِيُّ.

(٥) كان اسمها بَرَّة، فسماها رسول الله ﷺ جُوَيرِيَة.

(٦) أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، =

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ۝٣٠ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ۝٣١ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٣٢﴾.

قال أَبو رافع: كان عمر رضي الله عنه كثيراً ما يقرأُ سورة يوسف وسورة الأَحزاب في الصبح، وكان إذا بلغ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ رفع بها صوتَه، فقيل له، فقال: أُذكرهن العهد.

وقرأَ الجمهور: ﴿مَن يَأْتِ﴾ بياءٍ وتاءٍ، ﴿۞ وَمَن يَقۡنُتۡ﴾ بياءٍ حملاً على اللفظ، وقرأَ عمرو بن فايد، والجحدري، ويعقوب: [تَأْتِ] بتاءَين و[تَقْنُتْ] بتاءٍ من فوق حملاً على المعنى. وقال قوم: الفاحشةُ إِذا وردت معرفةً فهي الزنى واللواط، وإِذا وردت منكرة فهي سائر المعاصي وكل مستفحش، وإِذا ردت منعوتة بالبيان فهي عقوق الزوج وفساد عشرته، ولذلك نصفها بالبيان إِذ لا يمكن سترها، والزنى وغيره يُتَستَّر به فلا يكون مبيناً، ولا محالة أَن الوعيد واقع على ما خفي منه وما ظهر. وقالت فرقة: بل قوله ﴿بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ يعم جميع المعاصي، وكذلك الفاحشة حيث وردت. ولما كان أَزواج النبي ﷺ في مهبط الوحي وفي منزل أَوامر الله ونواهيه قوي الأَمر عليهن ولَزِمَهُنَّ بسبب مكانتهن أَكثر مما يلزم غيرهن، فضوعف لهن الأَجر والعذاب، والإِشارة بالفاحشة إِلى الزنى وغيره.

وقرأ ابن كثير، وشبل، وعاصم[1]: [مُبَيَّنَة] بفتح الياءِ، وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وقتادة بكسرها، وقرأَت فرقة: [يُضَاعِفْ] بكسر العين على إِسناد الفعل إِلى الله تعالى،

= والبيهقي في سُنَنه عن عائشة رضي الله عنها، والرواية على لسانها كما ذكر السيوطي في الدر المنثور، قالت: (فبدأ بي، فقال: إني ذاكرٌ لك أمراً) إلى آخر الحديث حيث تقول: (وفَعَلَ أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلتُ). (الدر المنثور، وفتح القدير).

(١) قراءة عاصم بكسر الياءِ كما هو ثابت في المصحف. والقرطبي لم ينسب قراءَة فتح الياءِ إلا إلى ابن كثير. والذي أثبته الإمام الحافظ ابن الجزري أنها قراءَة ابن كثير وأبي بكر، ومن هنا نفهم أنَّ رواية أبي بكر عن عاصم هي الفتح، أما رواية حفص عنه فبكسر الياء.

وقرأ أَبو عمرو فيما روي عنه: [نضَاعِفْ] بنون مضمومة [العَذَابَ] نصباً، وهي قراءَة ابن محيصن، وهذه مُفاعلة من واحد كطارقتُ النعل وعاقبتُ اللِّص. وقرأَ نافع، وحمزة، والكسائي: (يُضَاعَفْ) بياءٍ مضمومة وعين مفتوحة (العَذَابُ) رفعاً، وقرأَ أَبو عمرو: [يُضَعَّفْ] بتشديد العين على بناءِ المبالغة (العَذَابُ) رفعاً، وهي قراءَة الحسن، وابن كثير، وعيسى. وقرأَ ابن كثير، وابن عامر: [نُضَعِّفْ] بالنون وكسر العين المشددة [الْعَذَابَ] نصباً، وهي قراءَة الجحدري.

وقوله: (ضِعْفَيْنِ) معناه: يكون العذاب عذابين، أَي: يضاف إلى عذاب سائر الناس عذاب آخر مثله. وقال أَبو عبيدة، وأَبو عمرو ـ فيما حكى الطبري عنهما ـ: بل يضاف إِليه عذابان مثله فيكون ثلاثة أَعذبة، وضَعَّفه الطبري، وكذلك هو غير صحيح وإِن كان له باللفظ تعلُّق احتمال، وكون الأَجر مرتين مما يفسد هذا القول؛ لأَن العذاب في الفاحشة بإِزاءِ الأَجْرِ في الطاعة، والإِشارة بذلك إِلى تضعيف العذاب.

و(يَقْنُتْ) معناه: يطيع ويخضع بالعبودية، قاله الشعبي وقتادة. وقرأَ نافع، وابن كثير، وعاصم، وأَبو عمرو، وابن عامر: (يَقْنُتْ) بالياءِ، و(تَعْمَلْ) بالتاءِ، (نُؤْتِهَا) بالنون، وهي قراءَة الجمهور. قال أَبو علي: أُسند (يَقْنُتْ) إِلى ضمير، فلما تبيَّن أَنَّه لمؤنث حمل في (تَعْمَلْ) على المعنى، وقرأَ حمزة، والكسائي كل الثلاثة بالياءِ حملاً في الأَولَيْن على لفظ (مَنْ)، وبها قرأَ الأَعمش، وأَبو عبد الرحمن، وابن وثاب، وقرأَ الأَعمش أَيضاً: [«فَسَوْفَ يُؤْتِهَا الله أَجْرَهَا»].

و«الإِعْتَادُ»: التَّيسير والإِعْدادُ، و«الرِّزْقُ الكريمُ»: الجنة، ويجوز أَن يكون في ذلك وعْدٌ دنياوي، أَي أَن أَرزاقها في الدنيا على الله، وهو كريمٌ من حيث هو حلالٌ وقصد وبرضى من الله في نيله، وقال بعض المفسرين: العذاب الذي تُوُعِّدْن به ضعفين هو عذاب الدنيا ثم عذاب الآخرة، وكذلك الأَجر، وهذا ضعيف اللهم إِلاَّ أَن يكون أَزواج النبي ﷺ لا تدفع عنهن حدودُ الدنيا عذاب الآخرة، على ما هي حالُ الناس عليه، بحكم حديث عُبادة بن الصامت[1]، وهذا أَمرٌ لم يُروَ في أَزواج النبي ﷺ ولا حُفِظَ تقرُّرُهُ.

---

(١) رواه البخاري في تفسير سورة الممتحنة، ولفظه: (قال: كنا عند النبي ﷺ، فقال: أتبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا ـ وقرأ آية النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ ـ فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب منها شيئاً من=

ثم خاطبهن الله تعالى بأنهن لَسْنَ كأَحد من نساءِ عصرهن فما بَعْدُ، بل هُنَّ أَفضل بشرط التقوى؛ لما منحهن الله من صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام وعِظَم المحلِّ منه ونزول القرآن في حقِّهن، وإِنما خصص النساءَ لأَن فيمن تقدم آسيةُ ومريم، فتأَمَّله، وقد أَشار إِلى هذا قتادة.

ثم نهاهُنَّ الله عمَّا كانت الحال عليه في نساءِ العرب من مكالمة الرجال برخيم الصوت. ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ﴾ أَي: لا تَلِنَّ، وقد يكون الخضوع بالقول في نفس الأَلفاظ ورخامتها وهيئتها، وإِن لم يكن المعنى مُريباً، والعرب تستعمل لفظة الخضوع بمعنى الميل والغزل، ومنه قول ليلى الأَخيلية حين قال لها الحجاج: هل رأَيت قط من تَوْبَةَ شيئاً تنكرينه؟ فقالت: لا والله أَيُّها الأَمير؛ إِلاَّ أَنه أَنشدني يوماً شعراً ظننت منه أَنه خضع لبعض الأَمر، فأَنشدته أَنا:

وَذِي حـاجَـةٍ قُلْنـا لَـهُ لاَ تَبُـحْ بِهَـا ... فَلَيْـسَ إِلَيْهَـا مـا حَيِيـتَ سَبِيـلُ[1]

الحكاية.

وقال ابن زيد: الخضوعُ بالقول ما يدخلُ في القلوب الغزل.

وقرأَ الجمهور: ﴿فَيَطْمَعَ﴾ بالنصب على أَنه نصب بالفاءِ في جواب التمني. وقرأَ الأَعرج، وأَبان بن عثمان: [فَيَطْمَعِ] بالجزم وكُسِر للالتقاءِ[2]، وهذه فاءُ عطف

= ذلك فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذَّبه وإن شاءَ غفر له).

(١) ذكر الأصبهاني الحكاية في الأغاني عن رجل يقال له: ورقاء، قال: سمعت الحجاج يقول لليلى الأخيلية: إن شبابك قد ذهب، واضمحلَّ أمرك وأمر توبة، فأقسم عليك إلا صَدَقْتِنِي، هل كانت بينكم ريبةٌ قط أو خاطبك في ذلك قط؟ فقالت: لا والله أيها الأمير، إلا أنه قال لي ليلة ـ وقد خلونا ـ كلمة ظننت أنه قد خضع فيها لبعض الأمر، فقلت له:

وَذي حـاجَـةٍ قُلْنَـا لَـهُ لا تَبُـحْ بهـا ... فَلَيْـسَ إِلَيْهَـا مَـا حَيِيـتَ سَبِيـلُ
لَنَـا صـاحِـبٌ لا يَنْبَغِـي أنْ نَخُـونَـهُ ... وَأَنْـتَ لأخْـرَى فَـارِغٌ وحَلِيـلُ

فلا والله ما سمعتُ منه ريبةً بعدها حتَّى فرق بيننا الموت.

(٢) قال أبو الفتح: «هو معطوف على قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾، أي: فلا يطمع الذي في قلبه مرض، فكلاهما منهي عنه، إلا أن النصب أقوى معنى، وأشد إصابة للغدر، وذلك أنه إذا نصب كان معناه أن طمعه إنما هو مسبب عن خضوعهن بالقول، فالأصل في ذلك منهي عنه، والمنهي سبب عن فعلهن، وإذا عطفه كان نهياً لهن وله، وليس فيه دليل على أن الطمع راجع الأصل إليهن، وواقع من أجلهن».

محضة، وكان النهي دون جواب ظاهر، وقراءَة الجمهور أَبلغ؛ لأَنها تُعطي أن الخضوع بسبب الطمع، قال أَبو عمرو الداني: قرأَ الأَعرج، وعيسى بن عمر: [فَيَطْمِعَ] بفتح الياءِ وكسر الميم.

و«الْمَرَضُ» في هذه الآية، قال قتادة: هو النفاق، وقال عكرمة: الفِسْق والغزل، وهذا أَصوبُ، وليس للنفاق مدخلٌ في هذه الآية، والقول المعروف هو الصوابُ الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

قرأَ الجمهور بكسر القاف. وفتَحها نافع وعاصم، فأَما الأُولى فيصح أَن تكون من الوقار، تقول: وَقَر يَقِرُ وقاراً، وقِرْنَ مثل عِدْن، ويصح أن تكون من القَرَار، تقول: «قَرَرْت بالمكان» ـ بفتح الراءِ ـ أَقِرُّ، والأَصل: أَقْرِرْنَ، حذفت الراءُ الواحدة[1] تخفيفاً، ـ كما قالوا في ظَلَلْتُ: ظَلْتُ ـ، ونقلوا حركتها إِلى القاف، واستغني عن الأَلف[2]، وقال أَبو عليّ: بل عُلَّ بأَن أُبدلت الراءُ ياءً فنُقلت حركتُها إِلى القاف ثم حذفت الياءُ لسكونها وسكون الراءِ بعدها.

وأَمَّا الثانية فعلى لغة العرب: «قَرِرْتُ ـ بكسر الراءِ ـ أَقَرُّ ـ بفتح القاف ـ في المكان»، وهي لغة ذكرها أَبو عبيد في «الغريب المُصَنَّف»، وذكرها الزَّجَّاج وغيره، وأَنكرها قوم منهم المازني وغيره، قالوا: وإِنما يقال قَرِرْتُ ـ بكسر الراءِ ـ من قُرَّة العين، وأَمَّا من القَرَار فإِنما هو قَرَرْتُ ـ بفتح الراءِ ـ.

وقرأَ عاصم: [في بِيُوتِكُنَّ] ـ بكسر الباء ـ، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [وَاقْرِرْنَ] بأَلف وصل وراءَيْن الأُولى مكسورة. فأَمر الله تعالى نساءَ النبي ﷺ في هذه الآية بملازمة

---

(١) الأنسب أن يقول الراء الأولى بدل الراء الواحدة (والله أعلم).

(٢) نسب القرطبي هذا القول للمبرد، والذي يظهر أنه رأي الفراء: إذ قال في (معاني القرآن): «أرادوا: واقْرَرْن في بيوتكن، فحذفوا الراءَ الأولى، فحوّلت فتحتها في القاف، كما قالوا: هَلْ أَحَسْت صاحبك؟ وكما قال: [فَظَلْتُمْ] يريد: فَظَلَلْتُمْ»، يقصد قوله تعالى في الآية (٦٥) من سورة (الواقعة): ﴿لو نشاء جعلناه حطاما فظلتم تفكهون﴾.

بيوتهن، ونهاهُنَّ عن التَّبَرُّج، وأَعْلَم أنه فِعْل الجاهلية الأُولى.

وذكر الثعلبي وغيره أَن عائشة رضي الله عنها كانت إِذا قرأَت هذه الآية تبكي حتى تَبُلَّ خمارها، وذكر أَنَّ سَوْدَةَ قيل لها: لم لا تَحُجِّين وتعتمرين كما تفعل أَخواتك؟ فقالت: قد حَجَجْتُ واعتمرتُ وأَمرني الله أَن أَقَرَّ في بيتي، قال الراوي: فوالله ما خرجت من باب حُجرتها حتَّى أُخرجت جنازتُهَا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبكاءُ عائشة رضي الله عنها إنما كان بسبب سفرها أَيام الجمل، وحينئذ قال لها عمَّار رضي الله عنه: إِن الله قد أَمرك أَن تقَرِّي في بيتك.

و«التَّبَرُّج»: إِظهار الزينة والتصنع بها، ومنه البُرُوج؛ لظهورها وانكشافها للعيون.

واختلف الناسُ في «الجاهلية الأُولى» ـ فقال الحكم بن عُيَيْنَة: ما بين آدم ونوح عليهما السلام، وهي ثمانمئة سنة، وحكيت لهم سير ذميمة، وقال ابن الكلبي وغيره: ما بين نوح وإِبراهيم عليهما السلام، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بين نوح وإِدريس عليهما السلام، وذكَر قصصاً، وقالت فرقة: ما بين موسى وعيسى عليهما السلام، وقال عامر الشعبي: ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وقال أَبو العالية: هي زمن داود وسليمان عليهما السلام، كان فيه للمرأَة قميص من الدُّرِّ غير مخيط الجانبين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي يظهر عندي أَنه أَشار إِلى الجاهلية التي لَحِقْنها، فأُمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة، لأَنهم كانوا لا غيرة عندهم، وكلُّ أَمر النساءِ دون حجبة، وجعلها أُولى بالإِضافة إِلى حالة الإِسلام، وليس المعنى أَن ثَمَّ جاهلية أُخرى، وقد مرَّ اسم الجاهلية على تلك المدة التي قبل الإِسلام فقالوا: جاهلي في الشعراءِ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في البخاري: «سمعت أَبي في الجاهلية يقول»، إِلى غير هذا.

و(الرِّجْس) اسم يقع على الإِثم وعلى العذاب وعلى النجاسات والنقائص، فأَذهب الله جميع ذلك عن أَهل البيت، ونصب ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ على المدح، أَو على النداءِ المضاف، أَو بإِضمار: أَعْني.

واختلف الناسُ في أَهل البيت ـ من هم؟ فقال عِكْرِمَة، ومقاتل، وابن عباس رضي الله عنهما: هم زوجاته خاصة، لا يدخل معهن رجل، وذهبوا إلى أن (الْبَيْت) أُريد به مساكن النبي ﷺ، وقالت فرقة ـ هي الجمهور ـ: أَهْلُ البيت: عليٌّ وفاطمة والحسن والحسين رضوان الله عليهم، وفي هذا أَحاديث نبوية، قال أَبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «نزلت هذه الآية في خمسة: فيَّ، وفي عليٍّ وفاطمة والحسن والحسين»(١)، ومن حُجة الجمهور قوله تعالى: (عَنكُمْ) (وَيُطَهِّرَكُمْ) بالميم، ولو كان للنساءِ خاصة لكان: «عَنكُنَّ» و«يُطَهِّرَكُنَّ»، والذي يظهر لي أَن زوجاته لا يخرجن عن ذلك البتَّة، فأَهل البيت زوجاته وبنتُه وبنوها وزوجُها، وهذه الآية تقتضي أن الزوجات من أَهل البيت: لأَن الآية فيهن، والمخاطَبَة لهن، أَما إِن أُمَّ سلَمة قالت: نزلت هذه الآية في بيتي، فدعا رسول الله ﷺ عليًّا وفاطمة وحسَناً وحُسَيْناً، فدخل معهم تحت كساءٍ خَيْبَرِيٍّ، وقال: «هؤلاءِ أَهل بيتي»، ـ وقرأَ الآية ـ وقال: «اللهم أَذهب عنهم الرِّجس وطهرهم تطهيراً»، قالت أُمُّ سَلَمة: فقلت: وأَنا يا رسول الله؟ فقال: «أَنْتِ من أزواج النبي، وأَنت إلى خير»(٢). وقال الثعلبي: هم بنو هاشم، فهذا على أَن [الْبَيْتَ] يراد به النسب، فيكون العباسُ وأَعمامُه وبنو أَعمامه منهم، ورُوي نحوه عن زيد بن أَرقم رضي الله عنه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٢) أخرجه ابن مردويه عن أم سلمة، وأخرج مثله الطبراني عنها أيضاً، وأخرج مثلهما ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن أم سلمة أيضاً. وأخرج مثل هذه الأحاديث ابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. (الدر المنثور) ـ وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة، منها ما رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة رضي الله تعالى عنها ستة أشهر إذا خرج لصلاة الفجر، يقول: «الصلاة ياأهل البيت، إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البيتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً»، قاله ابن كثير، ورواه الترمذي، وقال: حديث حَسَنٌ غريب.

وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

اتصال هذه الألفاظ يعطي أن ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ نساؤه، وعلى قول الجمهور هي ابتداءُ مخاطبة، أَمر الله تعالى أزواج النبي ﷺ ـ على جهة الموعظة وتعديد النعمة ـ بذكر ما يُتلى في بيوتهن، ولفظ «الذكر» هنا يحتمل مقصدين كلاهما موعظة وتقدير نعمة: أَحدهما أَن يريد: (اذكُرْنَ)، أَي: تذكَّرْنه واقْدُرنه قدره، وفكِّرْن في أَنَّ من هذه حاله ينبغي أَن يحسِّن أَفعاله، والآخر أَن يريد: (اذْكُرْنَ) بمعنى: احفَظْن واقرأْن وأَلزمنه الأَلسنة، وكأَنه يقول: واحفظن أوامر الله ونواهيه، وذلك الذي يُتلى في بيوتكن من آيات الله، وذلك مُؤَدّيكُنَّ إلى الاستقامة. و(الْحِكْمَة) هي سُنَّة الله تبارك وتعالى على لسان نبيّه عليه الصلاة والسلام دون أَن تكون في قرآن مَتْلُوٍّ، ويحتمل أن تكون وصفاً للآيات، وفي قوله: (لَطِيفاً) تأْنيسٌ وتعديد نعمة: أي: لطيف بِكُنَّ في هذه النعمة، وفي قوله: [خبيراً] تحذيرٌ مَّا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية. رُوي عن أُمِّ سلَمة أَن سببها أَنها قالت للنبي ﷺ: «يا رسول الله، يذكر الله تعالى الرجال في كتابه في كل شيءٍ، ولا يذكرنا»، فنزلت الآية في ذلك[(١)].

وروى قتادة أَن نساءً من الأَنصار دخلن على أَزواج النبي عليه الصلاة والسلام، فقُلْن لهُنَّ: «ذَكَرَكُنَّ الله تعالى في القرآن ولم يذكر سائر النساءِ بشيءٍ»، فنزلت الآية في ذلك[(٢)]. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن نساءَ النبي قلن له: «ما له تعالى يذكر المؤمنين ولم يذكر المؤمنات»، فنزلت الآية في ذلك[(٣)].

وبدأَ تعالى بذكر «الإِسلام» الذي يعُمُّ الإِيمان وعمل الجوارح، ثم ذكر «الإِيمان» تخصيصاً له وتنبيهاً على أَنه عُظْم الإِسلام ودعامته، و«الْقَانِتُ»: العابد المطيع،

(١) أخرجه أحمد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والطبراني، عن أُم سلمة رضي الله عنها. (الدر المنثور).

(٢) أخرجه ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه، وأخرج مثله ابن سعد عن عكرمة عن قتادة من وجه آخر. (الدر المنثور).

(٣) أخرجه ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما. (الدر المنثور).

و«الصَّادقُ» معناه: فيما عوهد عليه أن يفي به ويكلمه، و«الصابر»: عن الشهوات وعلى الطاعات في المَكْرَه والمَنْشَط، و«الخاشعُ»: الخائفُ لله المستكينُ لربوبيته الوقورُ، و«الْمُتَصدِّق» بالفرْض والنَّفْل، وقيل: بل هي في الفرض خاصةً، والأول أمدح، و«الصائم» كذلك في الفَرْض والنَّفْل، و«حِفْظ الفَرْج» هو من الزنى وشبهه، ويدخل مع ذلك كل ما يؤدي إلى الزنى أو هو في طريقه. وفي قوله: (والْحَافِظَاتِ) حذف ضمير يدل عليه المتقدم، تقديره: والحافظاتها، وفي (الذَّاكِرَاتِ) أيضاً مِثْلُه، و«المغفرةُ» هي سترُ ذنوبهم والصَّفحُ عنها، و«الأَجْرُ الْعَظِيمُ»: الجَنَّةُ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ۝٣٦ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ۝٣٧﴾.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ لفظُه النفي ومعناه الحظر والمنع من فعل هذا، وهذه العبارة: (ما كان) و(ما ينبغي) ونحوها تجيءُ لحظر الشيءِ والحكم بأنه لا يكون، وربما كان امتناع ذلك الشيءِ عقلاً، كقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾[1]، وربما كان العِلْم بامتناعه شرعاً، كقوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾[2]، وربما كان حظْرُه بحكم شرعي لهذه الآية، وربما كان في المندوبات، كما تقول: «ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل» ونحو هذا.

وسبب هذه الآية فيما قال قتادة، وابن عباس، ومجاهد أَن رسول الله ﷺ خَطَب زينب بنت جحش، فظنَّت أَن الخطبة لنفسه، فلمَّا بيَّن أنه إنما يريدها لزيد بن حارثة كرهت وأَبت، فنزلت الآية، فأذعنت زينب حينئذ وتزوَّجته[3]، وقال ابن زيد: إنما

---

(١) من الآية (٦٠) من سورة (النمل).

(٢) من الآية (٥١) من سورة (الشورى).

(٣) أخرج الخبر عن ابن عباس رضي الله عنهما ابن جرير، وابن مردويه، وأخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني عن قتادة رضي الله عنه، وأخرجه عبد بن حميد، وابن=

أُنزلت بسبب أَن أُم كلثوم بنت عقبة بن أَبي مُعَيْط وهبت نفسها للنبي ﷺ فزوَّجها من زيد بن حارثة، فكرهت ذلك هي وأَخوها، وقالا: إنما أَردنا رسول الله ﷺ فزوَّجها غيْرَه. فنزلت الآية بسبب ذلك، فأَجابا إلى تزويج زيد[١].

و(الْخِيَرَةُ): مصدر بمعنى التَّخَيُّر، وهذه الآية في ضمن قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾. وهذه الآية تُقَوِّي في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾[٢] أَنَّ [مَا] نافيه لا مفعولة.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وأَبو جعفر، وشَيْبَة، والأَعرج، وعيسى: [أن تكون] بالتَّاءِ على لفظ [الْخِيَرَة]. وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي، والحسن، والأعمش، وأَبو عبد الرحمن: ﴿أَن يَكُونَ﴾ على معنى [الْخِيَرَة]، وأَن تأْنيثها غير حقيقي. وقوله تعالى في الآية الأُخرى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ دون علامة تأْنيث يُقَوِّي هذه القراءَة التي بالياء.

ثم توعَّد تعالى وأَخبَرَ أَن من يَعْص الله ورسوله فقد ضلَّ، وهذا العصيانُ يعُمُّ الكفر فما دونه، وكُلُّ عاص آخِذٌ من الضلال بقدر معصيته.

ثم عاتب تعالى نَبِيَّه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ الآية. واختلف الناس في تأْويلها ـ فذهب قتادة، وابن زيد، وجماعةٌ من المفسرين ـ منهم الطبريُّ وغيره ـ إِلى أَن النبي ﷺ وقع منه اسْتِحْسَانٌ لزينب وهي في عصمة زيد، وكان حريصاً على أن يطلقها زيدٌ فيتزوَّجها هو، ثم إِنَّ زيداً لما أَخبره بأَنه يريد فراقها، ويشكو منها غِلْظَةَ قولٍ وعِصْيَانَ أَمْر وأَذى باللِّسان وتَعظُّماً بالشرف قال له: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، أَي فيما تقول عنها، و﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، وهو يخفي الحرصَ على طلاق زيد إِيَّاها، وهذا هو الذي كان يخفي في نفسه، ولكنه لزم ما يجب من الأَمر بالمعروف. وقالوا: خَشِيَ رسول الله ﷺ قَالَةَ الناس في ذلك، فعاتبه الله على هذا[٣].

= جرير عن مجاهد رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه. (الدر المنثور). ورواه الطبريُّ عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال الحافظ بن حجر في «تخريج الكشاف»: «رواه الثعلبي بغير سند».

(٢) من الآية (٦٨) من سورة (القصص).

(٣) ذكر السيوطي في الدر المنثور أن أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والترمذي، وابن المنذر، =

وقرأ ابن أَبي عبلة: [مَا اللهُ مُظْهِرُهُ]، وقال الحسن: ما نزل على رسول الله ﷺ أَشَدَّ عليه من هذه الآية، وقال هو وعائشة رضي الله عنهما: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية لِشِدَّتها عليه، وروى ابن زيد في نحو هذا القول أن النبي ﷺ طلب زيداً في داره فلم يجده، ورأى زينب حاسرةً فأَعجبته فقال: «سبحان الله مُقَلِّب القُلُوب»[١] ورُوي في هذه القصة أَشياء يطول ذكرها، وهذا الذي ذكرنا مُسْتَوْف لمعانيها.

وذهب قوم من المتأَوِّلين إلى أَن الآية لا كبير عتب فيها، ورَوَوْا عن علي بن الحسين أَنه قد كان أُوحي إلى النبي ﷺ أَن زيداً يطلق زينب، وأَنه يتزوجها بتزويج الله إِياها، فلما تشكَّى زيد للنبي ﷺ خُلُقَ زينب وأَنها لا تطيعه، وأَعلمه بأَنه يريد طلاقها، قال له رسول الله ﷺ على جهة الأَدب والوصية: «اتَّقِ الله» ـ أَي في أَقوالك ـ «وأَمسك عليك زوجك»، وهو يعلم أَنه سيفارقها. وهذا هو الذي أَخفى في نفسه، ولم يُرد أَن يأمره بالطلاق لما علم أَنه سيتزوجها، وخشي رسول الله ﷺ أَن يلحقه قول من الناس في أَن يتزوج زينب بعد زيد وهو مولاه وقد أَمره بطلاقها، فعاتبه الله تبارك وتعالى على هذا القدر من أَن خَشِي الناس في شيءٍ قد أَباحه الله له بأَن قال: «أَمْسِكْ» مع علمه بأَنه يطلق، وأَعلمه أَن الله أَحق بالخشية، أَي في كل حال[٢].

= والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في السُّنن قد أخرجوا عن أنس رضي الله عنه أنه قال: جاء زيد بن حارثة رضي الله عنه يشكو زينب رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول: ﴿اتَّق الله وأَمسك عليك زوجك﴾، فنزلت: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، قال أنس: فلو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه الآية، فتزوجها رسول الله ﷺ، فما أَوْلَم على امرأة من نسائه ما أَوْلَم عليها، ذبح شاةً... الخ ما ذكره السيوطي، والصواب في معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ هو ما ذكره ابن عطية من أنه خشي قالة الناس، وأخفى علمه بأن زيداً سيطلق زينب وأن الله سيزوجها له، بدليل أن الذي أبداه الله تعالى هو زواجه إيَّاها في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قضى زيد منها وطرا زوجناكها﴾، ولم يُبْد الله تعالى شيئاً مما زعموه من حبه ﷺ لها، ثم إن الله تعالى صرَّح بأنه هو الذي زوَّجه إيَّاها لحكمة ذكرت صريحة في الآية في قوله تعالى: ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم﴾.

(١) قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: «ذكره الثعلبي بدون سند»، وكذلك ذكر مثل هذا المعنى الخازن البغوي بدون سند، وما رواه الطبري في هذا كان عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وعبد الرحمن بن زيد هذا ضعيف.

(٢) قال القرطبي في تفسيره، ونقله عنه أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط: «قال علماؤنا رحمة الله =

قوله تعالى: ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي بالإسلام وغيره، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي بالعتق، وهو زيد بن حارثة، وزينب بنت جحش هي بنت أُميمة بنت عبد المطلب عمة النبي عليه الصلاة والسلام.

ثم أَعلم تعالى أَنه زوَّجها منه لما قضى زيدٌ وطره منها ليكون سُنَّة للمسلمين في أَزواج أَدعيائهم، ولِيُبيِّن أَنها ليست كحرمة البنوة، ورُوي أَن النبي ﷺ قال لزيد: «ما أَجد في نفسي أوثق منك، فاخطب زينب عَلَيَّ»، قال: فذهبت ووليتها ظهري توقيراً للنبي عليه الصلاة والسلام، وخطبتها ففرحت وقالت: ما أَنا بصانعة شيئاً حتَّى أُؤَامر ربِّي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن فتزوَّجها النبي ﷺ ودخل بها[١].

و«الْوَطَرُ»: الحاجة والبُغْية، والإشارة إلى الجماع، وروى جعفر بن محمد عن آبائه عن النبي ﷺ: «وَطَراً زَوَّجْنَكَهَا». وذهب بعض الناس من هذه الآية ومن قول شعيب: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾[٢] إلى أَن ترتيب هذا المعنى في المهور ينبغي أَن يكون: «أَنْكَحَهُ إِيَّاهَا»، فَتُقَدِّم ضمير الزوج كما في الآيتين، وهذا عندي غير لازم، لأَن الزوج في الآية مُخَاطَب فَحَسُن تقديمه، وفي المهور الزوجان غائبان[٣] فقدِّم من شئت، ولم يبق ترجيح إلاَّ بدرجة الرجال وأَنهم القائمون.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ فيه حذفُ مضاف تقديره: «وكان حكم أَمر الله»، أَو «مُضَمَّن أَمر الله»، وإلاَّ فالأَمر قديمٌ لا يوصف بأَنه مفعول، ويحتمل ـ على بُعْد ـ أَن يكون «الأَمْرُ» واحد الأُمور التي شأْنها أَن تُفْعل. ورُوي أَن عائشة وزينب تفاخرتا، فقالت عائشة رضي الله عنها: أَنا التي سِيقَتْ صفتي لرسول الله ﷺ من الجنة

= عليهم: وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية، وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين، كالزهري، والقاضي بكر بن العلاءِ القشيري، والقاضي أبي بكر بن العربي، وغيرهم.

(١) رواه أحمد في المسند، ومُسْلم في صحيحه، والنسائي في سُنَنه، وذكر السيوطي في الدر المنثور أنَّ ابن سعد، وأبا يَعْلَى، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، كلهم قد أخرجوه عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) من الآية (٢٧) من سورة (القصص).

(٣) معنى ذلك أنهما في الرتبة سواء، ولا ترجيح لأحد الضميرين على الآخر، اللهم إلا إذا رؤي ترجيح ضمير الرجال.

في سَرَقَة حرير[١]، وقالت زينب رضي الله عنها: أنا التي زَوَّجني الله من فوق سبع سموات[٢]، وقال الشعبي: كانت زينب تقول لرسول الله ﷺ: إني لأَدِلُّ عليك بثلاثٍ مَا مِنْ نسائك امرأةٌ تَدِلُّ بهن، إنَّ جدِّي وجدَّك واحد، وإنَّ الله أنكحك إياي من السماءِ، وإن السفير في ذلك. جبريل[٣].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأُمَّة، أَعلمهم أَنه لا حرج على رسول الله ﷺ في نيل ما فرض الله له وأَباحه، من تزوُّجه لزينب بعد زيد، ثم أَعلم أَن هذا ونحوه هو السَّنَن الأَقدم في الأَنبياءِ، من أَن ينالوا ما أَحلَّه الله لهم، وحكى الثعلبي عن مقاتل وابن الكلبي أَن الإِشارة إِلى داود عليه السلام، حيث جمع الله بينه وبين من فُتن بها، و[سُنَّة] نصب على المصدر، أَو على إِضمار فعل تقديره: الزم أَو نحوه، أَو على الإِغراءِ، كأَنه قال: فَعَلَيْهِ سُنَّة الله. و﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ هم الأَنبياءُ، بدليل وصفهم بعْدُ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾. و﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ في هذه الآية، أَي: مأمورات الله والكائنات عن

---

(١) السَّرَقُ: شقق الحرير، أو أجوده، والواحدة سَرَقَة. (مع) ـ عن المعجم الوسيط.

(٢) لفظه في القرطبي: (أنا التي جاء بي الملَك إلى النبي ﷺ في سَرَقَة من حرير، فيقول: «هذه امرأتك»)، ثم قال: «خَرَّجه الصحيح». وقال السيوطي في «الدر المنثور»: «أخرج الحكيم الترمذي، وابن جرير عن محمد بن عبد الله بن جحش، قال: تفاخرت زينب وعائشة رضي الله عنهما، فقالت زينب رضي الله عنها: : أنا التي نزل تزويجي من السماء، وقالت عائشة رضي الله عنها: أنا الذي نزل عذري من السماء في كتابه حين حملني ابن المعطل على الراحلة، فقالت لها زينب رضي الله عنها: ما قلت حين ركبتها. قالت: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل، قالت: قلتِ كلمة المؤمنين.

(٣) أخرجه ابن جرير عن الشعبي. (الدر المنثور).

أَمره، فهي مقدورة، وقوله: [قَدَراً] فيه حذف مضاف، أَي: ذا قَدَر وعَنْ قَدَر، وقرأَ ابن مسعود: «الَّذين بلَّغوا رِسَالاَتِ اللهِ».

وقوله: ﴿ولا يخشون أحداً إلا الله﴾ تعريض بالعتاب الأَول في خشية النبي ﷺ النَّاسَ، ثم ردَّ الأَمر كله إِلى الله، وأَنَّه المحاسب على جميع الأعمال والمعتقدات، وكفى به لاَ إِله إِلاَّ هو، ويحتمل أَن يكون [حَسِيباً] بمعنى «مُحْسِب»، أَي كافياً.

قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾. أَذْهب الله بهذه الآية ما وقع في نفوس منافقين وغيرهم من بعد تزوج رسول الله ﷺ زينبَ زوجة دَعِيِّه زيد؛ لأَنهم كانوا استعظموا أن يتزوج زوجة ابنه، فنفى القرآن تلك الصورة في البنُوَّة، وأَعلم أن محمداً لم يكن في حقيقة أَمره أَبا أَحد من رجال المعاصرين له، ولم يُقْصد بهذه الآية أن النبي ﷺ لم يكن له ولد فيحتاج إلى الاحتجاج في أَمر بنيه بأَنهم كانوا ماتوا، ولا في أَمر الحسن والحسين بأَنهما كانا طفلين، ومن احتج بذلك فإِنَّه تأَوَّل نَفْيَ البُنُوَّة عنه بهذه الآية على غير ما قُصد بها.

وقرأَ ابن أَبي عبلة وبعض الناس: [ولكن رسولُ الله] بالرفع على معنى: هو رسولُ الله، وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وعاصم، والأَعرج، وعيسى: ﴿رَسُولَ﴾ بالنصب على العطف على [أَبَا]، وهؤلاءِ قرؤُوا (وَلَكِنْ) بالتخفيف، وقرأَت فرقة: [وَلَكِنَّ] بشد النون، فينتصب [رَسُول] على أَنه اسم [لَكِنَّ] والخبر محذوف.

وقرأَ عاصم وحده(١)، والْحَسَن، والشعبي، والأَعرج بخلاف: ﴿ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ بفتح التاءِ على معنى أنهم به خُتِمُوا، فهو كالخَاتَم والطَّابع لهم، وقرأَ الباقون والجمهور بكسر التاء بمعنى أَنه خَتَمَهم، أَي جاءَ آخرهم، وروت عائشة رضي الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام قال: «أَنا خاتم أَلْف نبي»(٢)، وهذه الأَلفاظ عند جماعة علماءِ

---

(١) يعني: من السبعة، وإلا فقد قرأ بها غيره كما ذكر المؤلف.

(٢) الأحاديث في ذلك كثيرة، وهي مروية في صحيح السُّنَّة، ومنها ما أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياءِ كمثل رجلٍ ابتنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لَبِنَة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع اللَّبنة، فأنا موضع اللَّبنة، فخُتم بي الأنبياءُ». ومنها ما رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلْتُ على الأنبياءِ بِستٍّ: أُعطيتُ جوامع الكلم، ونُصرتُ بالرعب، وأُحِلَّت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأُرسلتُ إلى الخلقِ =

الأُمة خَلَفاً وسَلَفاً مُتَلَقَّاةٌ على العموم التام، مُقْتَضية نصًّا أَنه لا نَبيَّ بعده، وما ذكره القاضي ابن الطَّيِّب في كتابه المسمَّى بالهداية من تجويز الاحتمال في أَلفاظ هذه الآية ضعيف، وما ذكره الغزالي في هذه الآية وهذا المعنى في كتابه الذي سمَّاه بالاقتصاد إِلْحادٌ عندي، وتَطرُّقٌ خبيث إلى تشويش عقيدة المسلمين في ختم محمد عليه الصلاة والسلام النُّبُوَّة، فالحذَر الحذَر منه، والله الهادي برحمته[١]. وقرأَ ابن مسعود: مِنْ رِجَالِكُمْ ولَكِنْ نَبِيًّا ختم النَّبِيِّين، قال الرُّمَّاني: خُتم به عليه الصلاةُ والسلام الاستصلاح، فمن لم يصلح به فميئوسٌ من صلاحه.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ عمومٌ، والمقصود به هنا علمه تبارك وتعالى بما رآه الأصح لمحمد ﷺ، وما قدَّره في الأَمر كله.

ثم أَمر تعالى عباده بأَن يذكروه ذكراً كثيراً، وجعل ذلك دون حدٍّ ولا تقدير لسهولته على العبيد، ولِعِظَم الأَجر فيه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يعذر أَحدٌ في ترك ذكر الله إِلاَّ من غلب على عقله، وقال: الكثيرُ: أَلاَّ ينساهُ أَبداً، وروى أَبو سعيد عن النبي ﷺ، «أَكثروا ذكر الله حتى يقولوا: مجنون»[٢].

وقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أَراد: في كل الأوقات، فحدَّدَ الزمن بطرفي نهاره وليله، وقال قتادة، والطبري وغيرهما: الإِشارة إلى صلاتي الغَدَاة والعصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية مدنية فلا يتعلق بها من زعم أن الصلاة إِنما فُرضت أَوَّلاً صلاتين في طَرَفي النهار، والرواية بذلك ضعيفة، و«الأَصيلُ» من العصر إلى الليل.

ثم عدَّد تعالى على عباده نعمته في الصلاة عليهم، وصلاةُ الله تبارك وتعالى على العبيد هي رحمته لهم، وبركته لديهم، ونشره إلينا الجميل، وصلاةُ الملائكة الدعاءُ للمؤمنين، وروت فرقة أَن النبي ﷺ قيل له: يا رسول الله، كيف صلاة الله على عباده؟

= كافة، وخُتم بي النَّبِيُّون». ومنها ما أخرجه البخاري، ومسلم، عن جبير بن مطعم رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لي أسماءَ: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو اللهُ بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشرُ الناسُ على قدميَّ، وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد».

(١) نقل هذا الكلام عن ابن عطية كلٌّ من القرطبي في تفسيره، وأبو حيان في البحر المحيط.

(٢) أخرجه أحمد، وأبو يعلى، وابن حبان، والحاكم وصححه. (الدر المنثور).

قال: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رحمتي سبقت غضبي»[1]، واختُلف في تأويل هذا القول ـ فقيل: إنه كله من كلام الله، وهي صلاتُه على عباده، وقيل: «سُبُّوحٌ قُدُّوس» من كلام محمد ﷺ، يُقدمه بين يَدَي نُطقه باللفظ الذي هو صلاة الله، وهو: «رحمتي سبقت غضبي»، وقدم عليه الصلاة والسلام هذا من حيثُ فهم من السائل أَن تَوَهَّم في صلاة الله على عباده وجْهاً لا يليق بالله تعالى فقدَّم التنزيه لله والتعظيم بين يدَيْ إِخباره.

وقوله تعالى: [لِيُخْرِجَكُمْ] أَي: صَلاَتُه وصلاة ملائكته لكي يهديكم وينقذكم من الكفر إلى الإِيمان، ثم أَخبر تبارك وتعالى برحمته بالمؤمنين تأْنيساً لهم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾، قيل: يوم القيامة المؤمن تحييه الملائكة بالسلام، ومعناه: السلامة من كل مكروه. وقال قتادة رضي الله عنه: يوم دخولهم الجنة يُحَيِّي بعضهم بعضاً بالسلام، أَي: سلمنا وسلمتَ من كل همٍّ وتخوف. وقيل: تحييهم الملائكة يومئذ، وأَمَّا «الأَجر الكريم» فإنه جنة الخلد في جوار الله تبارك وتعالى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

هذه الآيات فيها تأْنيس للنبي ﷺ وللمؤمنين، وتكريم لجميعهم، وقوله: (شَاهِداً) معناه: على أُمتك بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأُمم في تبليغ أَنبيائهم، ونحو ذلك. وقوله: (وَمُبَشِّراً) معناه: مُبَشِّراً للمؤمنين برحمة الله وبالجنة. و(نَذِيراً) معناه: للعصاة والمكذبين من النار وعذاب الخلد. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ عَلِيًّا ومُعَاذاً رضي الله عنهما، فبعثهما إلى اليمن، وقال: «اذهبا

---

(١) أخرج ابن مردويه عن عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ قال: «صلاته على عباده سُبُّوح قُدُّوس، تغلب رحمتي غضبي»، وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق عطاءِ بن رباح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قلت لجبريل عليه السلام: هل يصلي ربك؟ قال: نعم، قلت: وما صلاته؟ قال: سُبُّوح قُدُّوس، سبقت رحمتي غضبي».

فَبَشِّرا ولا تُنَفِّرا، ويَسِّرا ولا تُعَسِّرا، فإني قد أُنزل عَلَّي: وقرأ الآية»[١]، و«الدُّعاءُ إلى الله» هو تبليغ التوحيد والأخذ به، ومكافحة الكفرة. (وبِإِذْنِهِ) معناه هنا: بأمره إيَّاكَ وتقديره ذلك في وقته وأوانه. و﴿سراجا منيرا﴾ استعارة للنور الذي يتضمنه شرعه، فكأَن المهتدين به والمؤمنين يخرجون بنوره من ظُلْمة الكفر.

وقوله تعالى: (وَبَشِّر)، الواو عاطفة جملة على جملة، والمعنى منقطع من الذي قبله، أَمره تعالى بأَن يبشِّر المؤمنين بالفضل الكبير من الله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

قال لنا أَبي رضي الله عنه: هذه من أَرجى آية عندي في كتاب الله تعالى: لأَن الله سبحانه قد أَمر نبيَّه أَن يبشر المؤمنين بأَن لهم عنده فضلاً كبيراً، وقد بيَّن الله تعالى الفضل الكبير ما هو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[٢]، فالآية التي في هذه السورة خبر، والتي في ﴿حم، عسق﴾ تفسير لها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ نهيٌ له عن السماع منهم في أَشياءَ كانوا يطلبونها مما لا يجب، وفي أَشياءَ كانوا يدخلونها مدخل النصائح وهي غشٌّ، إلى نحو هذا المعنى. وقوله: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ يحتمل معنيَيْن: أَحدهما أَن يأْمره بترك أَن يؤذيهم هو ويعاقبهم، فكأَن المعنى: فاصفح عن زلَلهم ولا تؤذهم، فالمصدر ـ على هذا ـ مضاف إلى المفعول، ونُسخ من الآية ـ على هذا التأويل ـ ما يخص الكافرين، وناسخه آية السيف، والمعنى الثاني أن يكون قوله: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ بمعنى: أعرض عن أَقوالهم وما يؤذونك، فالمصدر ـ على هذا التأويل ـ مضاف إلى الفاعل، وهذا تأْويل مجاهد، ثم أَمره تعالى بالتوكل عليه، وآنسه بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، ففي قوة الكلام وعْدٌ بنصر. وتقدم القول في «كفى بالله». و«الوكيل»: الحافظ القائم على الأَمر.

ثم خاطب تعالى المؤمنين بحكم الزوجة تطلق قبل البناءِ[٣]، واستدل بعض الناس

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والخطيب، وابن عساكر، عن ابن عباس رضي الله عنهما. (الدر المنثور).

(٢) من الآية (٢٢) من سورة (الشورى).

(٣) يقال: بَنَى بزوجته وعليها: دَخَل بها. (المعجم الوسيط).

بقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ وبمهلة [ثُمَّ] على أَن الطلاق لا يكون إلاَّ بعد نكاح، وأَن من طلَّق المرأَة قبل نكاحها ـ وإن عيَّنَهَا ـ فإن ذلك لا يلزمه، وقال هذا نيّف على ثلاثين من صاحب وتابع وإمام، سمَّى البخاري منهم اثنين وعشرين[١]. وقالت طائفة من أَهل العلم: إن طلاق المعيَّنة الشخص أَو القبيل أَو البلد لازم قبل النكاح، منهم مالك وجميع أَصحابه وجمع عظيم من علماءِ الأُمة.

وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾، وقرأَ حمزة، والكسائي، وطلحة، وابن وثاب: [تَماسُّوهُنَّ]، والمعنى فيهما الجماعُ، وهذه العِدَّة إنما هي لاسْتِبراء الرحم وحِفْظ النسب في الحمل، فمن لم تمسّ فلا يلزم ذلك فيها.

وقرأَ جمهور الناس بتشديد الدال من ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ على وزن تفتعلونها، من العَدِّ[٢]، وروى ابن أَبي برزة عن ابن كثير [تَعْتَدُونَهَا] بالتخفيف، من العدوان، كأَنه قال: فما لكم من عدة تعتدونها عدواناً وظلماً لهن[٣]. والقراءَة الأُولى أَشهر عن ابن كثير، وتخفيف الدال وَهْمٌ من ابن أَبي برزة[٤].

ثم أَمر تعالى بتمتيع المطلقة قبل البناءِ، واختلف الناسُ في المُتْعة ـ فقالت فرقة:

---

(١) سَمَّاهم البخاري في باب (لا طلاق قبل النكاح)، لكنه ذكر أربعة وعشرين اسماً.

(٢) في بعض النسخ: «من العدد»، وعلى كل فالمعنى: تستوفون عددها، من قولك: عدَّ الدراهم فاعْتَدَّهَا، أي: استوفى عددها، وهذا نحو قولك: كِلْتُه واكْتَالَه.

(٣) في بعض النسخ: «فما لكم من عدة تلزمونها عدواناً وظُلْماً لهن».

(٤) قال أبو حيان تعقيباً على كلام ابن عطية بعد أن ذكره: «وليس بوهم؛ إذ قد نقلها عن ابن كثير ابن خالويه، وأبو فضل الرازي في كتاب «اللوامح» في شواذ القراءات، ونقلها الرازي المذكور عن أهل مكة، وقال: هو من الاعتداد لا محالة، لكنهم كرهوا التضعيف فخففوه، فإن جعلت من الاعتداء الذي هو الظلم ضعف؛ لأن الاعتداءَ يتعدى بعَلَى»، ثم أكمل أبو حيان كلامه فقال: «وإن كان يتعدى بعَلَى فيجوز أن يحذف (على) ويصل الفعل إلى الضمير، نحو قوله:

تَحِنُّ فَتُبْدِي مَا بِهَا مِنْ صَبَابَةٍ ... وأُخْفِي الَّذي لَوْلا الأَسَى لَقَضَانِي

أي: لقضى عَلَيَّ». وقال الزمخشري: «وقُرِىء تَعْتَدُونَها مخففاً، أي: تعتدون فيها، كقوله: ويوماً شهدناه، والمراد بالاعتداءِ ما في قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾، ومعنى كلامه أنه لمَّا حذف حرف الجر وصل الفعل إلى ضمير العدة، وذلك كقول الشاعر:

وَيَوْماً شَهِدْنَاهُ ... سُلَيْماً وَعَامِراً

أي: شهدنا فيه سُلَيْماً وعامراً، أما على تقدير (عَلَى) فيكون المعنى: تعتدون عليهن فيها.

هي واجبة، وقالت فرقة: هي مندوب إليها، منهم مالك وأصحابه، وقال قوم: المتعة لِلَّتي لم يُفرض لها، ونصف المهر لِلَّتي فُرض لها، وقال سعيد بن المسيب: بل المتعة كانت لجميعهن بهذه الآية، ثم نسخت آيةُ البقرة بالنصف لمن فُرض لها ما تضمَّنته هذه الآية من المتعة.

وهذه الآية خصصت آيتين: إحداهما ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[1]، فخصَّصَتْ هذه الآية من لم يُدْخل بها، وكذلك خصصت من ذوات الثلاثة الأَشْهُر، وهُنَّ من قَعَدْنَ عن المحيض[2]، ومن لم يحضن من صغير المطلقات قبل البناءِ. و«السَّرَاحُ الجميلُ» هو الطلاق يتبعه عِشْرَةٌ حسنة وكلمةٌ طيِّبة دون أذى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾.

قرأ الجمهور: ﴿اللاتي﴾ بتاءٍ من فوق، وقرأ الأعمش: [اللأيي] بياءٍ من تحت[3]. وذهب ابن زيد، والضحاك في تفسير قوله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ إلى أن المعنى أَن الله تعالى أَحلَّ له أن يتزوَّج كل امرأَة يُؤتيها مهرها، وأَباح له كلَّ النساءِ بهذا الوجه، وأَباح له ملك اليمين، وأَباح له بنات العم والعمة والخال والخالة ممن هاجر معه، وخصص هؤلاءِ بالذكر تشريفاً وتنبيهاً؛ إذْ قد تناولَهُنَّ ـ على تأْويل ابن زيد ـ قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا﴾، وأَباحَ له الوَاهبات خاصَّةً له، فهذه ـ على تأْويل ابن زيد ـ إِباحةٌ مُطلقة في جميع النساءِ حاشَى ذوات المحارم، لا سيَّما ـ على ما ذكره الضَّحَّاك ـ

(١) من الآية (٢٢٨) من سورة (البقرة).

(٢) وهن اللائي ذكرهن الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ ـ من الآية (٤) من سورة (الطلاق).

(٣) في بعض النسخ: بياءَيْن من تحت.

أن في مصحف ابن مسعود «وَبَنَاتِ خالاتِكَ واللاَّتي هاجَرْنَ مَعَكَ». ثم قال ـ بعد هذا ـ ﴿ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ أي: من هذه الأصناف كلها، ثم تجري الضمائر بعد ذلك على العموم إلى قوله: ﴿ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ ﴾ فيجيءُ هذا الضمير مقطوعاً من الأول عائداً على أزواجه التسع فقط، على الخلاف في ذلك.

وتأول غير ابن زيد في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ﴾ أن الإشارة إلى حفصة وعائشة رضي الله عنهما ومَنْ في عصمته مِمَّن تزوَّجن بمهر، وأن مِلْك اليمين بَعْدُ حلالٌ له، وأن الله تعالى أَباح له ﷺ مع المذكورات بناتِ عمه وعماته وخاله وخالاته ممَّن هاجرن معه، والواهباتِ خاصة له ﷺ، فيجيءُ الأمر ـ على هذا التأويل ـ أَضيق على النبي ﷺ، ويؤيد هذا التأويل ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسول الله ﷺ يتزوَّج في أَي الناس شاءَ، وكان ذلك يشق على نسائه، فلما نزلت هذه الآية وحرّم عليه الناس[١] إلاَّ من سُمِّي سُرَّ نساؤُه بذلك».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لأَن ملك اليمين إنما تعلقه في النادر من الأَمر، وبنات العم والعمات والخال والخالات يسير[٢]، ومن يمكن أَن يتزوج منهن محصور عند نسائه، لا سيَّما وقد قيِّد ذلك بشرط الهجرة، وكذا الواهبة من النساءِ قليل، فلذلك سُرَّ أَزواجه بانحصار الأَمر، ثم يجيءُ قوله: ﴿ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ إشارة إلى من تقدم ذكره، ثم يجيءُ قوله: ﴿ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ ﴾ إشارة إلى أَزواجه اللواتي تقدم النَّص عليهن بالتحليل، فيأْتي الكلام منسَّقاً مطَّرداً أَكثر من اطِّراده على التأْويل الأَول[٣]. والأُجور: المهور.

وقوله: ﴿ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ أي ردَّه عليك في الغنائم، يُريد: أو على أُمَّتك لأَنه فيءٌ عليه. ومِلْك اليمين أَصله الفيءُ من الغنائم، أَو ما تناسل ممن سُبي، والشراءُ من

---

(١) هكذا في جميع الأصول، واللفظ في القرطبي: «حُرِّمَ عليه النساءُ» وهو أيضاً اللفظ في (الدر المنثور)، وقد ذكر الخبر، وقال: «أخرجه ابن جرير، وابن مردويه».

(٢) سقطت كلمة (يسير) من جميع الأصول، والتصويب عن (البحر المحيط) الذي نقل الكلام كاملاً، فيكون المعنى: بنات العم والعمات والخال والخالات أَمرهن يسير. على أَنه يمكن أن نجعل «محصور عند نسائه» خبراً عن المبتدإ «بنات» مع ما في ذلك من قلق.

(٣) ولأن قوله تعالى: ﴿ أُجُورَهُنَّ وَمَا ﴾ ماضٍ، ولا يكون الفعل الماضي بمعنى الاستقبال إلا بشروط.

الحربيين كالسباءِ، ويباح السباءُ من الحربيِّين، ولا يجوز سبيُ من له عهدٌ ولا تَمَلُّكه، ويُسَمَّى سبي الخِبْثَة[1].

وقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ يريد قرابته[2]، رُوي عن أُم هَانِيءِ بنت أَبي طالب أنها قالت: «خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إِليه فعذرني، ثم نزلت هذه الآية فحرَّمني عليه لأَني لم أُهاجر معه، وإِنما كنتُ من الطُّلَقاءِ»[3].

وقرأَ جمهور الناس: ﴿إِن وَهَبَتْ﴾ بكسر الأَلف، وهذا يقتضي استئناف الأَمر، أَي: إِنْ وقع فهو حلال له، على أنه قد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: «لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأَة إِلاَّ بعقد نكاح أَو مِلْك يمين. وأَمَّا بالْهِبَة فلم يكن عنده منهن أَحد». وقرأَ الحسن البصري، وأُبيُّ بن كعب، والثَّقفي، والشَّعبي: [أَنْ وَهَبَتْ] بفتح الأَلف، فهي إِشارةٌ إِلى ما وقع من الواهبات قبل نزول الآية، وكسر الأَلف يجري مع تأْويل ابن زيد الذي قدَّمناه، وفتحها يجري مع التأْويل الآخر، ومن قرأَ بالفتح قال: الإِشارة إِلى من وهب نفسه للنبي ﷺ من النساءِ على الجملة، قال ابن عباس رضي الله عنهما ـ فيما حكى الطبري ـ: هي ميمونة بنت الحارث، وقال علي بن الحسين: هي أُمُّ شُريك.

وقال الشَّعبيُّ وعُروة: هي زينب بنت خزيمة أُمُّ المساكين، وقال أَيضاً عُروة بن الزبير: هي خولة بنت حكيم بن الأَوقص السلمي، وفي مصحف ابن مسعود: [وامرأَةً مُؤْمِنَةً وَهَبَت]، دون «إِنْ».

---

(١) الخِبْثَةُ: الحرام، ويقال: سَبْيٌ لا خِبْثَةَ فيه، أي: سبيٌ من قوم يحلُّ استرقاقهم، وسَبْيُ خِبْثَة، أي: سبيٌ من قوم لا يحلُّ استرقاقهم لعَهْدٍ تقدم لهم، أو حرية في الأصل ثبتت لهم. (راجع كتب اللغة والمعاجم).

(٢) قال ابن كثير: «هذا عدلٌ وسط بين الإفراط والتفريط؛ فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أُخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى، فأباحت بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وبتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت، وهذا شنيع فظيع».

(٣) أخرجه ابن سعد، وابن راهويه، وعبد بن حميد، والترمذي وحسَّنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي. (الدر المنثور)، وقال القرطبي: «خرجه أبو عيسى وقال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه». قال ابن العربي: «وهو ضعيف جداً، ولم يأت هذا الحديث من طريق صحيح يحتج بها».

وقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ أي: هِبَةُ النِّساءِ أَنفسهن خاصَّةٌ ومزيَّة [لا تجوز][1]، فلا يجوز أَن تهب المرأَة نفسها لرجل، وأَجمع الناس على أَن ذلك غير جائز؛ إلاَّ ما رُوي عن أَبي حنيفة، ومحمد بن الحسن، وأَبي يوسف أنهم قالوا: إذا وَهَبَتْ وأَشهدَ هو على نفسه بِمَهْرٍ فذلك جائز.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فليس في قولهم إلاَّ تجويز العبارة بلفظة الْهِبَة، وإِلاَّ فالأَفعال التي اشترطوها هي أَفعال النكاح بعينه، ويظهر من لفظ أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه أَن معنى قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ يراد به جميع الإِباحة، لأَن المؤمنين قُصِروا على مَثْنى وثُلاث ورُباع.

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ الآية، يريد: فَرَضْنا الوليَّ والشاهدَ والمهرَ والاقتصار على أَربع، قاله قتادة ومجاهد، وقال أُبيُّ بن كعب: هو مثنى وثُلاث ورُباع. وقوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ﴾ أَي: بيّنا هذا البيان، وشرحنا هذا الشرح لئلا يكون عليك حرج ويُظن بك أَنَّك أَثِمت عند ربِّك في شيءٍ، ثم آنس الجميع من المؤمنين بغفرانه ورحمته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾.

(تُرْجِي) معناه: تؤخر، وقرأَ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم[2]: [تُرْجِىءُ] بالهمز، وقرأَ عاصم ـ في رواية حفص ـ وحمزة، والكسائي: [تُرْجِي] بغير همز، وهما لغتان بمعنى. (وَتُؤْوِي) معناه: تَضُم وتُقرِّب، وقال المبرد: هو مُعَدَّى (رَجَا يَرْجُو)، تقول: «رَجَا الرجل وأَرْجَيْتُه» جعلته ذا رجاءٍ.

ومعنى هذه الآية أَن الله تعالى فسح لنبيِّه فيما يفعله في جهة النساءِ، والضمير في (مِنْهُنَّ) عائد على من تقدم ذكره من الأَصناف حيث الخلاف المذكور في ذلك.

---

(١) ما بين العلامتين زيادة عن القرطبي الذي نقل كلام ابن عطية، وقد سقطت هذه الزيادة من الأصول.

(٢) في رواية أبي بكر عنه.

وهذا الإرجاءُ والإيواءُ يحتمل معاني: منها في القَسْم، أي: تُقَرب من شِئْت في القِسْمة لها من نفسك، وتُؤَخر من شئت، وتُكثر لمن شئت، لا حرج عليك في ذلك، فإذا علمن هن أن هذا هو حُكم الله وقضاؤُه زالت الأَنفة والتغاير عنهن، وقرَّت أَعينهن. هذا تأْويل مجاهد، وقتادة، والضحاك؛ لأَن سبب الآية إنما كان تغايُراً ـ وقع بين زوجات النبي عليه الصلاة والسلام ـ عليه، فشقي بذلك، ففسح الله تبارك وتعالى له، وأَنَّبهن بهذه الآيات.

وقال ابن زيد[1]، وابن عباس: في طلاق من شاءَ مِمَّن حصل في عصمته، وإِمساك من شاءَ، قال ابن زيد: وكان عليه الصلاة والسلام قد همَّ بطلاق بعض نسائه، فقلن له: اقسم لنا ما شئت، فكان ممن أَرْجأَ سودةُ وجويرةُ وصفية وأُم حبيبة وميمونة، وآوى إليه عائشة وأُمَّ سَلَمة وحفصة وزينب رضي الله عنهن أَجمعين.

وقال الحسن بن أَبي الحسن: المعنى: في تزوج من شاءَ من النساءِ وترك من شاءَ، وقالت فرقة: المعنى: في ضمٍّ من شاءَ من الواهبات وتأْخير من شاءَ.

وعلى كلٍّ معنى فالآية معناها التوسعة عليه ـ ﷺ ـ والإباحة؛ قالت عائشة رضي الله عنها: لما قرأَ عليَّ رسول الله ﷺ هذه الآية قلت: ما أَرى ربك إلا يسارع في هواك[2].

وذهب هِبَةُ الله في «الناسخ والمنسوخ» له إلى أَن قوله: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ﴾ الآية ناسخٌ قوله ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ الآية، وقال: ليس في كتاب الله ناسخ تقدم المنسوخ سوى هذا. وكلامه يضعف من جهات[3].

---

(١) في إحدى النسخ: (أبو رزين) بدلا من (ابن زيد)، ولعله أقرب إلى الصواب، إذ هو موافق لما في القرطبي وغيره.

(٢) الحديث أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، وابن جرير عن الحسن، وابن أبي حاتم، وابن مردويه ـ عن عائشة رضي الله عنها، ونصه: (قالت: كنت أغار من اللائي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: كيف تهب نفسها؟ فلما أنزل الله ﴿ترجى من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك). وقال ابن العربي: هذا الذي ثبت في الصحيح.

(٣) منها أن أكثر العلماءِ قالوا: إن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ ناسخ لقوله تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾ مع أن آية الأشهر الأربعة متقدمة على آية الحول. (راجع كل كتب التفسير، وبخاصة القرطبي ج٤ صفحة ١٧٤). وجاز أن ينسخ المتقدم المتأخر لأن القرآن كله بمنزلة سورة واحدة، قال=

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ يحتمل معاني: أَحدهما أن تكون [منْ] للتبعيض، أَي: مَنْ أَردتَه وطلبته نفسك مِمَّن كنت عَزَلْتَه وأَخَّرته فلا جُناح في ردِّه إِلى نفسك وإِيوائِه إِليك بعد عزلته. ووجه ثان وهو أَن يكون مُقَوِّياً ومُؤَكِّداً لقوله: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾، فيقول بعْدُ: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ فذلك سواءٌ لا جناح عليك في جميعه، وذلك كما تقول: «مَنْ لقيك ممن لم يلقك جميعهم لك شاكرين»، وأنت تريد: «من لقيك ومن لم يلقك»، وهذا المعنى يصحُّ أَن يكون في القَسْم، ويصح أَن يكون في الطلاق والإِمساك، وفي الواهبات، وبكل واحدٍ قالت فرقة.

وقرأ الجمهور: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ برفع الأَعيُن، وقرأَ ابن محيصن: [أَن تُقِرَّ] بضم التاءِ من [تُقِرَّ] وكسر القاف [أَعْيُنَهُنَّ] نصباً. وقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ﴾ أَي: من نفسك ومالك. وقرأَ جمهور الناس: (كُلُّهُنَّ) رفعاً على التأكيد للضمير في (يَرْضَيْنَ)، ولم يُجوِّز الطبري غيرها، وقرأَ جويرية بن عابد[1]: [كُلَّهُنَّ] بالنصب على تأكيد ضمير (آتيْتهُنَّ)، والمعنى أَنَّهُنَّ يُسلِّمن لله ولحكمه، وكنّ قبل لا يتسامحن بينهن للغيرة، ولا يسلِّمن للنبي ﷺ أَنفةً، نحا إِلى هذا المعنى ابن زيد، وقتادة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ خبرٌ عام، والإِشارة إِلى ما في قلب

= ذلك النحاس، وصحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في شهر رمضان. وقد عارض بعض فقهاء الكوفيين فقال: محال أن ينسخ قولُه تعالى: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ قوله سبحانه: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ وهي قبلها في المصحف الذي أجمع عليه المسلمون، وقد عارض النحاس هذا الرأي كما قدمنا، وممَّا يؤيد قوله هذا ما رواه الطحاوي عن أم سلمة، قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتَّى أحلَّ الله له أن يتزوج من النساءِ من شاءَ، إلا ذات محرم، وذلك قوله تعالى: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ﴾ الآية. قال القرطبي: وهذا هو قول علي بن أبي طالب، وابن عباس، وعلي بن الحسين، والضحاك.

(١) هكذا في الأصول، لكن الذي أثبته ابن جني في (المحتسب) أنها قراءة أبي إِيَاس جُوَيَّة بن عائذ، ويتفق مع هذا كلام أبي حيان في (البحر المحيط)، قال ابن جني: نصبه على أنه توكيد لـ[هُنَّ] من قوله [آتَيْتَهُنَّ]، وهو راجع إلى معنى قراءة العامة [كُلُّهُنَّ] بضم اللام: وذلك أن رضاهن كلُّهن بما أُوتين كُلُّهن على انفرادهن واجتماعهن، فالمعنيان إذاً واحد، إلا أن الرفع أقوى معنى، وذلك أن فيه إصراحاً من اللفظ بأن يرضيهن كلهن، والإصراح في القراءة الشاذة ـ أعني النصب على قراءة جُوَيَّة بن عائذ إنما هو بإيتائهن كلهن، وإن كان محصول الحال فيهما مع التأويل واحداً.

رسول الله ﷺ من محبة شخص دون شخص، وكذلك يدخل في المعنى أيضاً المؤمنون. وقوله: [حَلِيماً] صفة تقتضي منه تبارك وتعالى صفحاً وتأنيساً في هذا المعنى؛ إذ هي خواطر وفِكَرٌ لا يملكها الإنسان في الأغلب.

واتفقت الروايات على أنه عليه الصلاة والسلام عدل بينهن في القسمة حتى مات، ولم يمتثل ما أُبيح له معهن ضبطاً لنفسه، وأخذاً بالفضل، غير أن سوْدة وهبت يومها لعائشة توصلاً لمسرة رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾، قيل كما قدَّمنا: إنما حظرت عليه النساءُ إلاَّ التسع اللَّواتي كن عنده، فكأَنَّ الآية ليست متصلة بما قبلها. قال ابن عباس، وقتادة رضي الله عنهم، لما هجرهن رسول الله ﷺ شهراً وآلى منهن، ثم خرج وخيَّرهن فاخترن الله ورسوله، جازاهن الله بأَن حظر عليه النساءَ غيرهن، وقنَّعه بهن، وحظر عليه تبديلهن، ونسخ بذلك ما أَباحه له من قبل من التوسعة في جميع النساءِ. وقال أُبيُّ بن كعب، وعكرمة: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من بعد الأَصناف المسمَّاة. ومن قال بأَن الإِباحة كانت له مطلقة قال هنا: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ معناه: لا يحل لك اليهوديات ولا النَّصرانيات، وهذا تأْويلٌ فيه بُعْدٌ وإِن كان رُوي عن مجاهد، وكذلك قَدَّر: «ولا أَن تُبَدِّل اليهوديات والنصرانيات بالمسلمات، وهو قول أَبي رَزين، وسعيد بن جبير. وقال أُبي بنُ كعب: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ يعني: لا يحلُّ لك العماتُ ولا الخالاتُ ونحوهن، وأُمر مع ذلك أَلاَّ يَتَبَدَّل بأَزواجه التِّسع، ومنع أَن يُطلِّق منهن ويتزوَّج غيرهن، قاله الضَّحَّاك. وقيل: ممَّن تَزَوَّج وحصل في عصمته، أَي: لا يُبَدِّلها بأن يأخذ زوجة إِنسان ويعطيه هو زوجته، وقال ابن زيد: وهذا شيءٌ كانت العرب تفعله. وهذا قولٌ ضعيف أَنكره الطبري وغيره في معنى الآية، وما فعلت العرب هذا قط، وما رُوي من حديث عُيَيْنَة بن حصن أَنه دخل على النبي ﷺ وعنده عائشة رضي الله عنها فقال: «من هذه الحميراءُ؟ فقال له النبي ﷺ: هذه عائشة، فقال عُيَيْنَة: يا رسول الله، إِنْ شِئْتَ نزلْتُ لك عن سيدة نساءِ العرب جمالاً ونسباً» فليس بتبديل، ولا أراد ذلك، وإِنما احتقر عائشة لأَنها كانت صبيَّة فقال هذا القول[1]. وقرأَ أبو عمرو ـ بخلاف ـ: [تَحِلُّ]

---

(١) اختصر ابن عطية رواية خبر عُيَيْنَة بن حصن، وحتى لا يكون هنا تساؤلات ترد على الذهن عند قراءَة الخبر بهذه الصورة أُورده هنا كاملاً كما رواه القرطبي في تفسيره وكذلك الإمام السيوطي في الدر =

بالتاءِ على معنى: جماعة النساءِ، وقرأ الباقون بالياءِ من تحت، على معنى: جميع النساءِ، وهما حسنان؛ لأن تأْنيث لفظ النساءِ ليس بحقيقي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل ذلك بسبب أَسماءَ بنت عُميس، أَعجب رسول الله ﷺ حُسنُها حين مات عنها جعفر بن أَبي طالب، [فأَراد أَن يتزوجها][(١)]، وفي هذه اللَّفظة: ﴿أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ دليل على جواز أَن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها، وقد أَراد المغيرة ابن شعبة زواج امرأَةٍ فقال له النبي ﷺ: «انظر إِليها فإِنه أَجدر أَن يُؤْدِم بينكما»[(٢)]، وقال ﷺ لآخر: «انظر إِليها فإِن في أَعين الأَنصار شيئاً»[(٣)]، قال الحميدي: يعني: صفراءَ، وقال سهل بن أَبي حثمة:

= المنثور. (أخرج البزار، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل: تنزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي، وأزيدك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، قال: فدخل عُيَيْنَة بن حصن الفزاريُّ على رسول الله ﷺ وعنده عائشة رضي الله عنها، فدخل بغير إذن، فقال له رسول الله ﷺ: يا عُيَيْنَة فأين الاستئذان؟ فقال: يا رسول الله، ما استأذنت على رجل من مُضَر منذ أدركت، قال: من هذه الحميراءُ إلى جنبك؟ قال رسول الله ﷺ: هذه عائشة أُم المؤمنين، قال: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق؟ قال: يا عُيَيْنَة، إن الله قد حرَّم ذلك، قال: فلما خرج قالت عائشة: يا رسول الله، من هذا؟ قال: أحمق مُطاع، وإنه ـ على ما تَرَيْن ـ لَسَيِّد قومه). ا.هـ. فعيينة دخل بدون استئذان، وقد نبهه النبي ﷺ، وعيينة لم يعرض بدلاً، وإنما عرض على الرسول الله ﷺ ما يناسب مقامه في نظره بعد أن استصغر عائشة رضي الله عنها، والنبي صلوات الله وسلامه عليه نبهه إلى أن ذلك حرام، ثم وصفه ﷺ بأنه أحمق، ومن سماحة النبي ﷺ أن يتعامل مع الأحمق بما يناسبه.

(١) ما بين العلامتين [...] زيادة وردت في كتب التفسير، وأثبتناها لأنها تفصح عن الغرض الذي حمل الرسول ﷺ على النظر إليها، فهو نظر مشروع، والغرض منه الخطبة والزواج.

(٢) أخرجه الترمذي في النكاح، وكذلك النسائي، وابن ماجه، والدارمي، وأخرجه أحمد في مسنده ٤ ـ ٢٤٥، ٢٤٦، ولفظه كما في المسند، عن المغيرة بن شعبة، قال: «أتيت النبي ﷺ، فذكرتُ له امرأة أخطبها، فقال: اذهب فانظر إليها فإنه أجدر أن يُؤْدِم بينكما، قال: فأتيت امرأة من الأنصار فخطبتها إلى أبويها، وأخبرتهما بقول رسول الله ﷺ، فكأنهما كرها ذلك، قال: فسمعت ذلك المرأة وهي في خدرها، فقالت: إن كان رسول الله ﷺ أمرك أن تنظر فانظر، وإلا فإني أَنشدك كأنها عظمت ذلك عليه، قال: فنظرت إليها فتزوجتها، فذكر عن موافقتها».

(٣) قال عنه القرطبي: «أخرجه الصحيح»، ثم نقل أيضاً عن الحميدي قوله بلفظ: يعني صفراءَ أو زرقاءَ، وقيل: رمصاءَ، والرَّمَص: وسخٌ يتجمع في موق العين، ويسمى الغَمَص إن كان سائلاً، والرَّمَص إن جامداً.

رأَيت محمد بن مَسْلَمة يطارد بُبَيْتَة بنت الضحاك على إِجَّار من أَجاجير[(١)] المدينة، فقلت له: أَتفعل هذا؟ فقال: نعم: قال النبي ﷺ: «إذا أَلقى الله في قلب أحدكم خِطبة امرأَة فلا بأْس أَن ينظر إليها»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾. (مَا) في موضع رفع بدل من (النِّسَاءُ)، ويجوز أَن تكون في موضع نصب على الاستثناءِ، وفي النصب ضعف، ويجوز أَن تكون (مَا) مصدرية، والتقدير: إِلاَّ ملك يمينك، وبمعنى (مملوك)، وهو في موضع نصب لأَنه استثناءٌ من غير الجنس الأَول[(٣)]. و«الرَّقيبُ» فعيل بمعنى فاعل، أَي: راقب[(٤)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣﴾.

هذه الآية تتضمن قصتين: إِحداهما الأَدب في أَمر الطعام والجلوس، والثانية أَمر الحجاب.

فأَمَّا الأُولى فالجمهور من المفسرين على أَن رسول الله ﷺ لمَّا تزوج زينب بنت

---

(١) الإجَّار: السَّطح بلغة الشام والحجاز، والجمع: أجاجير وأجاجرة، قال ابن سيده: الإِجَّار والإِجَّارة: سطح ليس عليه سُترة، وفي الحديث «من بات على إجَّار ليس حوله ما يَرُدُّ قدميه برئت منه الذمة»، قال ذلك في اللسان، ثم استشهد بحديث محمد بن مسلمة هذا.

(٢) أخرجه ابن ماجه في النكاح.

(٣) عقَّب أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط) على كلام ابن عطية في إعراب [ما] بعد أن نقله فقال: «وليس بجيد؛ لأنه قال: «والتقدير: إلا مِلْك اليمين، ومِلْك بمعنى مملوك»، فإذا كان بمعنى مملوك صار من جملة النساءِ؛ لأنه لم يُرد حقيقة المصدر، فيكون الرفع أرجح، ولأنه قال: «وهو في موضع نصب»، ولا يتحتم أن يكون في موضع نصب ولو فرضنا أنه من غير الجنس حقيقة، بل المجاز ينصب، وتميم تُبدل؛ لأنه مستثنى توجُّه العامل عليه، وإنما يكون النصب متحتماً حيث كان المستثنى لا يمكن توجه العامل عليه، نحو ما زاد المال إلا النقص، فلا يمكن توجه الزيادة على النقص. ولأنه قال: «استثناءٌ من غير الجنس»، وقال: مِلْك بمعنى مملوك» فناقَضَ. اهـ.

(٤) وفي ذلك تحذير من تجاوز حدوده وتخطي حلاله وحرامه.

جحش أَولَم عليها، فدعا الناس، فلما طعموا قعد نفر في طائفة من البيت، فثقل على رسول الله ﷺ مكانهم، فخرج ليخرجوا بخروجه، ومرَّ على حجر نسائه، ثم عاد فوجدهم في مكانهم وزينب في البيت معهم، فلما دخل ورآهم انصرف، فخرجوا عند ذلك، قال أنس: فأُعلم أَو أَعْلَمْتُه بانصرافهم فجاءَ، فلمَّا وصل الحجرة أَرخى الستر بيني وبينه ودخل، ونزلت الآية بسبب ذلك(١). وقال قتادة، ومقاتل ـ في كتاب الثعلبي ـ: إن هذا جرى في بيت أُمِّ سَلمة(٢)، والأَول أَشهر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبي عليه الصلاة والسلام، فيدخلون عليه قبل الطعام إلى أَن يدرك، ثم يأكلون ولا يخرجون(٣)، وقال اسماعيل بن أَبي حكيم: هذا أَدب أَدَّب الله به الثقلاءَ، وقال ابن أَبي عائشة في كتاب الثعلبي: بحسبك من الثقلاءِ أَن الشرع لم يحتملهم.

وأَما آية الحجاب فقال أَنس بن مالك وجماعة: سببها أَمْر القعود في بيت زينب، القصة المذكورة آنفاً، وقالت فرقة: بل في بيت أُمِّ سَلَمَة، وقال مجاهد: نزلت آية الحجاب بسبب ذلك، وقالت عائشة رضي الله عنها وجماعة: سبب الحجاب كلام عمر رضي الله عنه، وأَنه كلَّم رسول الله ﷺ مراراً في أَن يحجب نساءَه، فكان رسول الله ﷺ لا يفعل، وكان عمر يتابع، فخرجت سودةُ ليلاً لحاجتها ـ وكانت امرأَة تفرع النِّساءَ طولاً ـ فناداها عمر رضي الله عنه: قد عرفناك يا سودة ـ حرصاً على الحجاب(٤) ـ وقالت له زينب بنت جحش: عجباً لك يا بن الخطاب، تغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا؟ فما زال عمر رضي الله عنه يتابع حتى نزلت آية الحجاب(٥).

---

(١) أخرجه أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في سُنَنه ـ من طرق ـ عن أنس رضي الله عنه. (الدر المنثور)، وفي (فتح القدير): أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما بدون سند.

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري عن عائشة رضي الله عنها ـ (فتح القدير، والدر المنثور)، قال ابن كثير: هكذا وقع في هذه الرواية، والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب، كما رواه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها.

(٥) أخرجه ابن جرير، عن ابن مسعود من طريق عطاء بن السائب، وذكره السيوطي في الدر المنثور، من رواية ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج (الكشاف): «رواه=

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وافقت ربِّي في ثلاث: منها الحجاب، ومقام إبراهيم، و﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾[١]. الحديث[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكانت سيرةُ القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يُبَكِّر من شاءَ إلى دار الدعوة، ينتظرون طبخ الطعام ونضجه في حديث وأُنس، وكذلك إذا انتهوا منه جلسوا كذلك، فنهى الله تعالى المؤمنين عن أمثال ذلك في بيت النبي ﷺ، ودخل في النهي سائر المؤمنين، والْتزم الناس أدب الله لهم في ذلك، فمنعهم من الدخول إلاَّ بإذن عند الأكل، لا قَبْلَهُ لانتظار نضج الطعام.

و(نَاظِرِينَ) معناه: منتظرين، و(إِنَاهُ) مصدرُ أَنَى الشيءُ يأْنِي إذا فرغ وحانَ إِنًى، ومنه قول الشاعر:

تَمَخَّضَتِ الْمَنُونُ لَهُ بِيَوْمٍ ... أَنَى ولِكُلِّ حامِلَةٍ تَمَامُ[٣]

وقرأ الجمهور بفتح النون من (إِنَاهُ)، وأَمالها حمزة والكسائي.

= الثعلبي من رواية مجاهد عن الشعبي».

(١) من الآية (٥) من سورة (التحريم).

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة، وفي تفسير آل عمران، ومسلم في فضائل الصحابة، والدارمي في المناسك، والإمام أحمد في مسنده (١ ـ ٢٣، ٢٤، ٣٦)، ولفظه: (وافقت ربِّي عزَّ وجلَّ في ثلاث: قلتُ: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلًّى، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البرُّ والفاجر، فلو حَجَبْتَهُنَّ، فأنزل الله آية الحجاب، وقلت لأزواج النبي ﷺ لمَّا تمالأن عليه في الغيرة: «عسى ربه إنْ طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن» فنزلت كذلك. هذا وقد ذكر ـ في رواية لمسلم ـ قصة أسارى بدر، وهي نقطة رابعة حصلت فيها المُوَافَقة.

(٣) نسبه في التاج إلى عمرو بن حسَّان، ونسبه في القرطبي إلى الشيباني، وذكره مع بيت قبله وهو:

وكِسْرَى إذ تَقَسَّمَهُ بَنُوهُ ... بِأَسْيَافٍ كَمَا اقْتُسِمَ اللِّحَامُ

واستشهد به في اللسان غير منسوب، قال: «ابن الأنباري: الأَنَى من بلوغ الشيءِ منتهاهُ، مقصور يكتب بالياءِ، وقد أَنَى يأْنِي، وقال: تمخضت المنون... البيت»، أي: أدرك وَبَلَغَ، وهكذا قال صاحب التاج، وعلى هذا فإنَّ (أَنَى) في البيت فعل ماض بمعنى أدرك وبلغ. ومعنى البيت أن كل شيءٍ له أوان ينتهي عنده، كما أن كل من تحمل من النساء لابدَّ أن تلد عندما تُتِمُّ حملها.

ثم أَكَّدَ المنع وحصر وقت الدخول بأَن يكون عند الإِذن، ثم أَمر بعد الطعام بأَن يفترق جمعهم وينتشر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ﴾ عطف على قوله: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ﴾، و(غَيْرَ) منصوبة على الحال من الكاف والميم في (لَكُمْ)، أَيْ: غَيْرَ ناظرين ومستأْنسين. وقرأَ ابن أَبي عبلة: [غَيْرِ] بكسر الراءِ، وجوازه على تقدير: غير ناظرين إِناهُ أَنتم[١]. وقرأَ الأَعمش: [إِنَاهُ] على جمع (إِنَى) بمدَّةٍ بعد النون[٢]. وقرأَت فرقة: [فَيَسْتَحْيِي] بإِظهار الياءِ المكسورة قبل الساكنة، وقرأَت فرقة: [فَيَسْتَحِي] بسكون الياءِ دون ياءٍ مكسورة قبلها. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ﴾ معناه: لا يقع منه تَرْكُ قول الحق، ولما كان ذلك يقع من البَشَر لِعِلَّةِ الاستحياءِ نفى عن الله تعالى العلة الموجبة لذلك في البشر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾ الآية هي آية الحجاب، و«المتاع» عامٌّ في جميع ما يمكن أَن يطلب على عُرْف السكنى والمجاورة من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا. ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾ يريد الخواطر التي تعرض للنساءِ في أَمر الرجال.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ الآية، رُوي أَنها نزلت بسبب أَن بعض الصحابة قال: «لو مات رسول الله ـ ﷺ ـ لتزوجت عائشة»، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فتأَذَّى به، هكذا كَنَّى عنه ابن عباس بـ«بعض الصحابة»، وحكى مكي عن مَعْمر أنه قال: «هو طلحة بن عبيد الله»[٣].

---

(١) يرى الفراءُ أن [غَيْرَ] بالنصب نعتٌ للقوم، وهم معرفة، و[غَيْرَ] نكرة، فنصبت على الفعل، كقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾، ثم قال: «ولو خفضت ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ﴾ كان صواباً، لأن قبلها [طَعَامٍ] وهو نكرة، فتجعل فعلهم تابعاً للطعام، كما تقول العرب: رأيت زيداً مع امرأة مُحسناً إليها».

(٢) في (أَنَى) لغاتٌ، تكون بكسر الهمزة، و(أَنَى) بفتحها، و(أَناء) بفتح الهمزة والمدِّ، وعلى هذه جاءَ قول الحطيئة:

وَأَخَّـــرْتِ الْعَشَـــاءَ إِلَـــى سُهَيْـــلٍ … أَوِ الشِّعْـــرَى فَطَـــالَ بِـــيَ الأَنَـــاءُ

(٣) هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة التيمي، أبو محمد المدني، أحد العشرة المبشرين بالجنة، مشهور، استشهد يوم الجمل سنة ستٍّ وثلاثين، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة. (تقريب التهذيب). هذا وقد ذكر السيوطي الحديث في (الدر المنثور) من طريق ابن مردويه عن ابن عباس، وقال الحافظ بن حجر في (تخريج الكشاف): «ورَوى ابن أبي حاتم، وابن مردويه من=

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لله درُّ ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا عندي لا يصحُّ على طلحة، الله عاصمه منه، ورُوي أَن رجلاً من المنافقين قال حين تزوج رسول الله ﷺ أُمَّ سَلَمَة بعد أَبي سَلَمَة، وحفصة بعد خُنَيْس بن حُذَافة. «ما بال محمد يتزوج نساءَنا، والله لو قد مات لأَجلنا السهام على نسائه»، فنزلت الآية في هذا، حرَّم الله نكاح أَزواجه بعده، وجعل لهن حكم الأُمهات، ولما توفي رسول الله ﷺ وارتدت العرب ثم رجعت تزوج عكرمة بن أَبي جهل قيلة بنت الأَشعث ابن قيس، وكان رسول الله ﷺ قد تزوجها ولم يَبْن بها(١)، فصعب ذلك على أَبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقَلِقَ له، فقال له عمر رضي الله عنه: مهلاً، إِنها ليست من نسائه، إِنه لم يخيرها ولا أَرخى عليها حجاباً، وقد أَبانتها منه ردَّتُها مع قومها، فسكن أَبو بكر رضي الله عنه(٢)، وذهب عمر إِلى أَلاَّ يشهد جنازة زينب بنت جحش إِلاَّ ذو محرم منها مراعاة للحجاب فدلَّته أَسماءُ بنت عميس على سترها في النعش بالقبة، وأَعلمته أَنها رأَت ذلك في بلاد الحبشة فصَنَعه، ورُوي أَن ذلك صُنع في جنازة فاطمة بنت النبي ﷺ.

= طريق داود عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية، قال: نزلت في رجل همَّ أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ. . . الحديث، قال السيوطي في (الدر): قال: سفيان: ذكروا أنها عائشة رضي الله عنها» اهـ. كلام الحافظ. وقال القشيري أبو نصر عبد الرحمن: «قال ابن عباس: قال رجلٌ من سادات قريش من العشرة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ على حراءَ ـ في نفسه ـ: لو توفي رسول الله ﷺ لتزوجت عائشة، وهي بنت عمي، قال مقاتل: هو طلحة بن عبيد الله، قال ابن عباس: وندم هذا الرجل على ما حدَّث به في نفسه، فمشى إلى مكة على رجليه، وحمل على عشرة أفراس في سبيل الله، وأَعتق رقيقاً، فكفَّر الله عنه».

هذا مجمل ما روي عن طلحة في هذه القصة، ولكن ابن عطية رحمه الله ينفيها عنه كما رأينا، والقرطبي أيضاً يقول بعد أن حكى الخبر عن النحاس: «ولا يصح»، وقال الإمام أبو العباس: «وقد حُكي هذا القول عن بعض فضلاءِ الصحابة، وحاشاهم عن مثله، وإنماالكَذِبُ في نقله»، والآية صريحة في تحريم أزواج النبي ﷺ على الناس بعد وفاته، قال الشافعي: «ومن استحل ذلك كان كافراً».

(١) أي: لم يدخل بها، يقال: بنى الرجل بامرأته وعليها بمعنى: دخل بها.

(٢) قال القرطبي: «أما زوجاته ﷺ اللاتي فارقهن في حياته مثل الكلبية، فهل كان يحل لغيره نكاحهن؟ فيه خلاف، والصحيح جواز ذلك، لما رُوي أن الكلبية تزوجها عكرمة بن أبي جهل»، وقيل: إن الذي تزوجها هو الأشعث بن قيس الكندي ـ لاحظ اسمها كما نقله ابن عطية ـ، وقيل: بل إن الذي تزوجها هو مهاجر بن أبي أُمية. قال القاضي أبو الطيب: «ولم ينكر ذلك أحد، فدلَّ على أنه إجماع».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ الآية... وعيدٌ وتوبيخ لمن تقدم التعريض به في الآية قبلها، ممن أُشير إليه بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، ومن أُشير إليه في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾، فقيل لهم في هذه الآية: إن الله يعلم ما تخفونه من هذه المعتقدات والخواطر المكروهة، ويُجازيكم عليها، ثم ذكر تبارك وتعالى الإباحة فيمن سمَّى من القرابة؛ إذ لا تقتضي أحوال البشر إلاَّ مداخلة من ذَكَر، وكثرة تَرْداده، وسلامة نفسه من أَمر الغزل؛ لما تتحاشاه النفوس من ذوات المحارم، فمن ذلك الآباءُ والأَولاد والإخوة وأَبناؤُهم وأَبناءُ الأَخوات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ دخل فيه الأَخوات والأُمهات وسائر القرابات ومن يتصل من المنصرفات لهن، هذا قول جماعة من أَهل العلم، ويؤيد قولَهم هذه الإضافة المخَصَّصة في قول: [نِسَائِهِنَّ]، فقال ابن زيد وغيره: إنما أَراد جميع النساءِ المؤمنات، وتخصيص الإضافة إنما هي في الإيمان.

قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾، قالت طائفة: من الإماءِ دون العبيد، وقالت طائفة: من العبيد والإماءِ، ثم اختلفت هذه الطائفة ـ فقالت فرقة: ما مَلَكَتْه من العبيد دون من ملك سواهن، وقالت فرقة: بل من جميع العبيد، كان في مِلكهن أَو مِلك غيرهن، والمُكَاتَب إذا كان عنده ما يؤدي فقد أَمر رسول الله ﷺ بضرب الحجاب دونه، وفعلت ذلك أُمُّ سَلَمَة مع مُكَاتَبِها نبهان، ذكره الزهراوي.

وقالت فرقة: دخل الأعمامُ في الآباءِ، وقال الشعبي، وعكرمة: لم يذكرهم لإمكان أَن يصفوا لأَبنائهم، وكذلك الأَخوال، وكرهوا أَن تضع المرأَة خمارها عند عمها أَو خالها.

واختلف المتأَولون في المعنى الذي رفع فيه الجُنَاح بهذه الآية ـ فقال قتادة: هو الحجاب، أَيْ: أُتيح لهذه الأَصناف الدخول على النساءِ دون الحجاب ورؤيتهن، وقال مجاهد: ذلك في وضع الجلباب وإبداءِ الزينة.

ولما ذكر الله تعالى الرخصة في هذه الأصناف، وانجزمت الإباحة، عَطَف فأمرهن بالتقوى عطف جملة، وهذا في غاية البلاغة والإيجاز، كأنه قال: اقْتَصِرْن على هذا واتَّقِين الله فيه أن تتعدَّينه إلى غيره، ثم توعَّد تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

هذه الآية شرَّف الله بها رسوله ﷺ، وذكر منزلته منه، وظهر بها سوءُ فعل من استصحب في جهته فكرة سُوءٍ في أمر زوجاته، ونحو ذلك.

وقوله: ﴿يُصَلُّونَ﴾، قالت فرقة: الضمير فيه للهِ وللملائكة، وهذا قول من الله تعالى شرَّف به ملائكته، فلا يصحبه الاعتراض الذي جاءَ في قول الخطيب عند النبي ﷺ: «من أَطاع الله ورسوله رَشَد، ومن يعصهما فقد ضل»، فقال له رسول الله ﷺ: «بئس الخطيب أَنت»[(١)]، قالوا: لأنه ليس لأَحد من البشر أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره في ضمير واحد، وللهِ أَن يفعل من ذلك ما يشاءُ. وقالت فرقة: في الكلام حذف تقديره: إن الله يصلي على النبي وملائكته يصلُّون، ودلَّ الظاهر من القول على ما تُرِكَ، وليس في الآية اجتماع في ضمير، وذلك جائز للبشر فعلُه، ولم يقل رسول الله ﷺ: «بئس الخطيب أَنت» لهذا المعنى، وإنما قاله لأَن الخطيب وقف على «من يعصهما» وسكت سكتة، ومما يؤيد هذا أَن في كلام النبي ﷺ في مصنَّف أَبي داود: «فجمع ذكر الله وذكر رسوله في ضمير»، ومما يؤيد القول الأَول أَن في كتاب مسلم: «بئس الخطيب أَنتَ، قل: ومن يعص الله ورسوله»، وهذا يحتمل أَن يكون لمَّا خطَّأَه في وقفه وقال له: «بئس الخطيب أَنت» أَصْلَح له بعد ذلك جميع كلامه؛ لأَن فصل ضمير اسم الله تعالى من

(١) رواه مسلم في كتاب الجمعة، والإمام أحمد في مسنده (٤ ـ ٢٥٦، ٣٧٩). ولفظه كما في صحيح مسلم، عن عدي بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوَى، فقال رسول الله ﷺ: «بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله»، قال ابن نمير: فقد غوِيَ.

ضمير غيره أَولى لا محالة، فقال له: «بئس الخطيب أَنت» لموضع خطئه في الوقف، وحمله على الأَولى في فصل الضميرين وإن كان جمعهما جائزاً.

وقراءَة الجمهور: (وَمَلائِكَتَهُ) نصباً عطفاً على المكنون، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما بالرفع عطفاً على الموضع قبل دخول (إِنَّ)، وفي هذا نظر[1].

وصلاة الله تعالى رحمةٌ منه وبركة، وصلاة الملائكة دعاءٌ وتعظيم، والصلاة على رسول الله ﷺ في كل حين من الواجبات وجوب السُّنَن المؤَكَّدة التي لا يصح تركها، ولا يغفلها إلاَّ من لا خير فيه، وقال عليه الصلاة والسلام: «أَكثروا من الصلاة عليَّ يوم الجمعة فإنه يوم مشهود»[2].

وصِفتُها على ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام في كتاب الطبري، ومن طريق ابن عباس رضي الله عنهما، أنه لما نزلت هذه الآية قال له قوم من الصحابة؛ هذا السلام عليك يا رسول الله عرفناه، فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صلَّيت على إبراهيم وآل إِبراهيم، وارحم محمداً وآل محمد كما رحمت إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد»، وفي بعض الروايات زيادة ونقص، وهذا معناه[3].

وقرأَ الحسن: [يا أيها الذين آمنوا فصلوا عليه]، وهذه الفاءُ تُقَوِّي معنى الشرط، أَي: صلَّى اللهُ فصلُّوا أَنتم، كما تقول: أَعطيتُك فَخُذ، وفي حرف عبد الله: «صلُّوا عليه كما صلَّى الله عليه وسلِّموا تسليماً».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية، قال الجمهور معناهُ: بالكفر ونِسْبة

---

(١) ذلك لأن الكوفيين ـ فيما عدا الفراءَ ـ هم الذين يجيزون ذلك، أما الفراءُ فيشترط خفاء إعراب اسم (إنَّ)، وأما البصريون فيقولون: هو على حذف الخبر، والتقدير هنا: «إن الله يصلي على النبي وملائكتُه يصلون»، فالنَّظَرُ الذي يشير إليه ابن عطية هو عدم جواز ذلك عند البصريين.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الجنائز.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن كعب بن عجرة رضي الله عنه، وأخرج مثله ابن جرير عن يونس بن خباب، وأخرج أيضاً مثله عن إبراهيم، ومثله عن عبد الرحمن بن أبي كثير بن أبي مسعود الأنصاري، وأخرج الحديث أيضاً عبد الرزاق، وابن أبي شيبة والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وغيرهم عن كعب بن عجرة رضي الله عنه، والحديث له صِيغ مختلفة باختلاف الروايات. (راجع الدر المنثور، وفتح القدير)، ومن هذا نعرف معنى قول المؤلف: «وفي بعض الروايات زيادة ونقص».

الصاحب والولد والشريك إليه، ووصفه بما لا يليق به، وفي الحديث (قال الله: شتمني عبدي فقال: إن لي ولداً، وكذَّبني فقال: إنه لن يبعث)(١)، وقال عكرمة: معناه بالتصوير والتعرُّض لفعل ما لا يفعله إلاَّ بنحت الصُّور وخلقها، وقد قال رسول الله ﷺ: «لعن الله المصورين»(٢)، وقالت فرقة: ذلك على حذف مضاف، تقديره: يؤذون أولياءَ الله.

وإذاية الرسول ﷺ هي بما يؤذيه به من الأَقوال في غير معنى واحد، ومن الأَفعال أَيضاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في الذين طعنوا عليه حين اتَّخَذ صفيَّة بنت حُيَي(٣).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والطَّعنُ في تأْمير أُسامة إِذايةٌ له أَيضاً(٤).

وقوله: [لُعِنُوا] معناه: أُبعدوا من كل خير.

---

(١) أخرج مثله ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في الآية، قال: ذُكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول فيما يروي عن ربِّه عزَّ وجلَّ: «شتمني ابن آدم ولم ينبغ له أن يشتمني، وكذبني ولم ينبغ له أن يكذبني، فأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، وأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني). (الدر المنثور).

(٢) رُوي لَعْنُ (المصوِّر) بالإفراد في حديث أخرجه البخاري في اللباس، والبيوع، والطلاق، وأخرجه أحمد (٤ ـ ٣٠٨)، ولفظه كما في مسنده: (عن عون بن أبي جحيفة قال: رأيت أبي اشترى حجاماً، فأمر بالمحاجم فكسرت، قال: فسألته عن ذلك فقال: إن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الدم وثمن الكلب وكسب البغي، ولعن الواشمة والمستوشمة وآكل الربا وموكله، ولعن المصور)، وأخرج البخاري في اللباس عن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون».

(٣) رواه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما، من طريق عطية العوفي، وزاد السيوطي في الدر المنثور نسبته لابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما. ومعنى (اتَّخذ صفية): اتخذها زوجة له.

(٤) روي في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بعث رسول الله ﷺ بعثاً وأمَّر عليه أُسامة بن زيد، فطعن الناسُ في إمرته، فقام رسول الله ﷺ فقال: «إن تطعنوا في إمرته فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل، وايْم الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لَمِن أحب الناس إليَّ، وإن هذا لَمِن أحب الناس إليَّ بعده».).

وبعث أُسامة هذا كان لغزو قرية اسمُها (ابْنى) قرب مُؤتة، وهي المكان الذي قتل فيه أبوه زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، فأمره النبي ﷺ أن يأخذ بثأر أبيه، وقال الذين طعنوا في إمرته: إنه صغير السنِّ (إذ كان في الثامنة عشرة من عمره)، وإنه من الموالي، ومات النبي عليه الصلاة والسلام قبل أن يخرج أُسامة بالجيش، فلما تولى أبو بكر رضي الله عنه أنفذ هذا البعث.

وإذاية المؤمنين والمؤمنات هي أيضاً بالأفعال والأقوال القبيحة والبُهتان والكذب الفاحش المختلق، ورُوي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال يوماً لأُبيٍّ بن كعب: إنِّي قرأتُ البارحة هذه الآية ففزعت منها ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، والله إنِّي لأضربهم وأنهرهم، فقال له أُبيٌّ: لست منهم يا أمير المؤمنين، إنما أنت مُعَلِّم ومُقَوِّم، وذكر أبو حاتم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ: «إنَّ الذينَ يُؤذونَ الْمؤمنين والْمُؤمنات»، ثم قال لأبيّ رضي الله عنه: كيف تقرأُ هذه الآية؟ فقرأها كما قرأها عمر رضي الله تعالى عنه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩)﴾.

لما كانت عادة العربيات التبذل في معنى الحجبة، وكنَّ يكشفن وجوههن كما تفعل الإماءُ، وكان ذلك داعياً إلى نظر الرجال إليهن وتشعب الفكرة فيهن ـ أمر الله رسوله ﷺ بأمرهن بإدناءِ الجلابيب ليقع تسترهن، فيكف عن معارضتهن من كان غَزِلاً أو شابًّا.

ورُوي أنه كان في المدينة قوم يجلسون على الصعدات لرؤية النساءِ ومعارضتهن ومراودتهن، ونزلت الآية بسبب ذلك.

و«الْجِلْباب»: ثوب أكبر من الخمار، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن مسعود رضي الله عنه أنه الرداءُ. واختلف الناس في صورة إدنائه ـ فقال ابن عباس، وعُبيدة السلْماني[1]: ذلك أن تلويه المرأة حتى لا يظهر منها إلاَّ عين واحدة تبصر بها، وقال ابن عباس أيضاً، وقتادة: ذلك أن تلويه فوق الجبين وتشده ثم تعطفه على الأنف وإن ظهرت عيناها، لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ﴾، أي: على الجملة بالفرق حتَّى لا يختلطن بالإماءِ، فإذا عُرِفْن لم يقابلن بأدنى من المعارضة مراقبةً لرتبة الحرية، وليس المعنى أن

---

(١) هو عَبيدة بن عمرو السَّلْماني ـ بفتح العين من عَبيدة، وبسكون اللام من السلْماني ـ ويقال: بفتح اللام من (السَّلَماني)، أبو عمرو الكوفي، تابعي كبير، مخضرم، ثقة ثَبْت، كان شريح إذا أشكل عليه شيءٌ سأله، مات سنة اثنتين وسبعين للهجرة، أو بعدها، وقيل: الصحيح أنه مات قبل السبعين (تقريب التهذيب).

تُعرف المرأَة حتَّى تُعلم من هي، وكان عمر رضي الله عنه إِذا رأَى أَمَةً تقنَّعت قنعها الدِّرَّة محافظة على زيِّ الحرائر.

وباقي الآية تزجية ولُطْف وحضٌّ على التوبة وتطميع في رحمة الله، وفيها تأْنيس للنساءِ في ترك الجلابيب قَبْل هذا الأَمر المشروع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

الَّلام في (لَئِنْ) هي المؤذنة بمجيءِ الْقَسَم، والَّلام في (لَنُغْرِيَنَّك) هي لام القَسَم، وتوعَّد الله تبارك وتعالى هذه الأَصناف في هذه الآية، وقَرَن توعُّده بقرينة متابعتهم في تركهم الانتهاءَ، فقالت فرقة: إن هذه الأَصناف لم تنته، ولم ينفذ الله عليهم هذا الوعيد، فهذه الآية دليل على بُطلان القول بإِنفاذ الوعيد في الآخرة. وقالت فرقة: إن هذه الأَصناف انتهت، وتستَّر جميعُهم بأَمرهم وكفوا، وما بقي من أَمرهم أَنفذ الله وعيداً بإِزائه، وهو مثل نهي النبي ﷺ عن الصَّلاة عليهم، إِلى غير ذلك مما أَحلَّه رسول الله ﷺ بالمنافقين: من الإِذلال في إِخراجهم من المسجد، وبما نزل فيهم من سورة براءَة، وغير ذلك، فهم لم يمتثلوا الانتهاءَ جملة، ولا نفذ عليهم الوعيد كاملاً.

و(الْمُنَافِقُون) صنف يظهر الإِيمان ولا يبطنه، ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هو الغزل وحب الزِّنى، قاله عكرمة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[1]، ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ هم قومٌ من المنافقين كانوا يتحدثون بغزو العرب المدينة، وبأَن رسول الله ﷺ سيُغلَب، إِلى نحو هذا مما يرجفون به نفوسَ المؤمنين، فيحتمل أن تكون هذه الأَصناف متفرقة بعضها من بعض، ويحتمل أَن تكون داخلة: في جملة المنافقين لكنه نص على هاتين الطائفتين ـ وقد ضمَّهم عموم لفظة النفاق ـ تنبيهاً عليهم، وتشريداً بهم، وغضًّا منهم.

و﴿نُغْرِيَنَّكَ﴾ معناه: نحضك عليهم بعد تعيينهم لك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لنُسَلِّطَنَّك عليهم، وقال قتادة: لنحرسنَّك بهم. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾

---

(١) من الآية (٣٢) من هذه السورة (الأحزاب).

أي بعد الإغراءِ؛ لأنك تنفيهم بالإخافة والقتل، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يحتمل أن يريد: إلاَّ جِوَاراً قليلا ووقتاً قليلاً، ويحتمل أن يريد: إلاَّ عدداً قليلاً كأنه قال: إلاَّ أَقِلاَّءَ. وقوله: ﴿مَلْعُونِينَ﴾ يجوز أن ينتصب على الذَّم، قاله الطبري، ويجوز أن يكون بدلاً من «أَقِلاَّءَ» الذي قدرناه قبل في أحد التأويلات[1]، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿يُجَاوِرُونَكَ﴾، كأنه قال: ينتفون من المدينة ملعونين، [فلما تقرر ﴿لا يُجاورنَك﴾ تقدير «يَنتَفُونَ» حَسُن هذا][2]، واللَّعنة: الإبعاد، و﴿ثُقِفُوا﴾ معناه: حُصِرُوا وقُدر عليهم، و﴿أُخِذُوا﴾ معناه: أُسِرُوا، والأَخِيذُ: الأَسير، ومنه قول العرب: «أَكْذَبُ من الأَخيذِ الصبْحانِ»[3]، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَقُتِّلُوا﴾ بشد التاءِ، ويؤَيِّدها المصدر بعدها، وقرأَت فرقة بتخفيف التاءِ، والمصدر ـ على هذه القراءَة ـ على غير القياس، قال الأَعمش: كلُّ ما في القُرآن غير هذا الموضع فهو «قُتِلُوا» بالتخفيف[4].

وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ نصب على المصدر، ويجوز فيه الإغراءُ على بعد، و﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾ هم منافقو الأُمم، وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، أَي: من غالبٍ يستقر تبديله، فيخرج عن هذا تبديل العُصاة والكفرة، ويخرج عنه ما يبدله الله من سُنَّة بِسُنَّة في النسخ.

---

(١) قال أبو حيان في البحر: «وتجويز ابن عطية أن يكون بدلاً، فالبدل بالمشتق قليل».

(٢) العبارة بين العلامتين وردت هكذا في الأصول، وأُثبتت في البحر محرَّفة، والظاهر أن الصواب فيها أن يقال: (فلما تقرر في ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ تقدير «ينتفون» ـ حسُن هذا)، أي كون (مَلْعُونِينَ) حالاً من الضمير في [يُجَاوِرُونَكَ].

(٣) الأخيذ: المأخوذ، أي: الأسير. والصَّبْحان: المُصْطبح، وهو الذي شرب الصَّبُوح، والمرأة: صَبْحَى، والمراد الأسير الذي أُسر بعد أن شرب لبن الصباح، وأصل المثل أن رجلاً خرج من حيِّه وقد اصطبح، فلقيه جيش يريدون قومه، فأخذوه وسألوه عن الحيِّ، فقال: إنما بتُّ في القفر ولا عهد لي بقومي، فبينما هم يتنازعون إذ غَلَبه البولُ فبالَ، فعلموا أنه قد اصطبح ولولا ذلك لم يَبُل، فطعنه واحد منهم في بطنه فبدره اللبن، فمضوا غير بعيد فعثروا على الحيِّ، وقال الفراءُ في مصادره: «أكذب من الأخيذ الصَّبْحان» يعني الفصيل، يقال: أخذ يأخذ أخذاً، إذا أكثر شُرْب اللبن، بأن يتفلَّت على أُمِّه فيمتك لبنها فيأخذه، أي: يُتْخَم منه، وكذِبُه أن التُّخمة تكسبه جوعاً كاذباً، فهو لذلك يحرص على اللبن ثانياً.

(٤) من ذلك قوله تعالى في الآية (١٦٩) من سورة (الأعراف): ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾، وقوله في الآية (١٩٥ من نفس السورة: ﴿وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم﴾، وقوله في الآية (٥٨) من سورة الحج: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ﴾، وقوله في الآية (٤) من سورة (محمد): ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾.

سُئل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة متى هو؟ فلم يُجب في ذلك بشيءٍ، ونزلت الآية آمرةً أن يَرُدَّ العلم فيها إلى الله؛ إذ هي من مفاتيح الغيب التي استأثر الله بعلمها، ثم توعَّد العالم بِقُربها في قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ الآية.. أي: ينبغي أن تحذر، و﴿قَرِيباً﴾ لفظة واحدٍ جمعاً وإفراداً ومذكراً ومؤنثاً، ولو كان صفة لـ﴿السَّاعَةَ﴾ لكان «قريبة». ثم توعَّد الكافرين بعذاب لا وليَّ لهم فيه ولا ناصر.

وقوله: ﴿يَوْمَ﴾ يجوز أن يكون متعلقاً بما قبله، والعامل فيه ﴿يَجِدُونَ﴾، وهذا تقدير الطبري، ويجوز أن يكون العامل فيه (يَقُولُونَ) ويكون ظرفاً للقول.

وقرأ الجمهور: ﴿تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ﴾ على المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله، بضم التاءِ وشد اللَّام المفتوحة، وقرأ أبو حيوة [تَقلَّبُ وجُوهُهُم] بفتح التَّاءِ، بمعنى تَتَقلَّب، وقرأ ابن أَبي عبلة: [تَتَقلَّبُ] بتاءَين، وقرأ خارجة، وأَبو حيوة: [نُقَلِّبُ] بالنون، وقرأ عيسى ابن عمر الكوفي [تُقَلِّبُ] بالتاءِ المضمومة وكسر اللَّام ونصب الوجوه، أَيْ تُقَلِّب السعيرُ وجُوهَهُم، فيومئذ يتمنون الإيمان وطاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم التمنِّي.

ثم لاذوا بالتَّشكِّي من كبرائهم في أَنهم أَضلُّوهم، وقرأ جمهور الناس: ﴿سَادَتَنَا﴾، وهو جمع سيِّد، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن، وابن عامر وحده ـ من السبعة ـ، وأبو عبد الرحمن، وأَبو رجاءٍ، وقتادة، والعامة في المسجد الجامع بالبصرة: [سَادَاتِنَا]، على جمع الجمع، و﴿السَّبِيلاَ﴾ مفعول ثان؛ لأَنَّ «أَضلَّ» مُعَدًّى بالهمزة، و«ضَلَّ» يتعدَّى إلى مفعول واحد، وهي سبيل الإيمان والهُدى، ثم دعَوْا بأَن يضاعف الله للكُبَراءِ المُضِلِّين العذاب، أَي: عن أَنفُسِهِم وعمَّن أَضلُّوا. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحُذَيْفة بن اليمان، والأعرج ـ بخلاف عنه ـ: ﴿لعناً كبيرا﴾ بالباءِ، من الكِبَر، وقرأ الباقون والجمهور: [لعناً كثيرا] بالثاءِ ذات الثلاث، والكَثْرة أَشبه بمعنى اللَّعنة من الكِبَر، أَي: الْعَنْهم مرات كثيرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾.

الذين آذَوْا موسى هم قوم من بني إسرائيل، واختلف الناس في الإذاية التي كانت وبرَّأه الله منها ـ فقالت فرقة: هي قصة قارون وإدخاله المرأة البغي في أن تدَّعي على موسى، ثم تبرئتها موسى وإشهارها لمداخلة قارون، وقد تقدمت القصة في ذكر قارون. وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: هي أَن موسى وهارون عليهما السلام خرجا من فحص التِّيهِ[1] إلى جبل، فمات هارون فيه، فجاءَ موسى وحده، فقال قوم: هو قتله، فبعث الله ملائكته حملوا هارون عليه السلام حتى طافوا به في أَسباط بني إسرائيل، ورأَوا آية عظيمة دلَّتهم على صدق موسى عليه السلام، ولم يكن فيه أَثر [القتل][2]، وروي أَنه حيِيَ فأَخبرهم بأَمره وببراءَة موسى، وقال ابن عباس، وأَبو هريرة، وجماعة: هي ما تضمنه حديث النبي عليه الصلاة والسلام، قال: «كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة، وكان موسى عليه السلام يتستَّر كثيراً ويُخفي بدنه، فقال قوم: هو آدر أَوْ أَبرص أَو به آفة[3] فاغتسل موسى يوماً وحده وجعل ثيابه على حجر، ففَرَّ الحجر بثيابه واتَّبعه موسى يقول: ثوبي حَجَرُ، ثوبي حَجَرُ[4]، فمرَّ في اتِّباعه في ملإٍ من بني إسرائيل فرأَوه سليماً مما ظُنَّ به..». الحديث بطوله خرَّجه البخاري[5]، فبرَّأه الله مما قالوا.

---

(١) التِّيه هو المكان الذي ضلَّ فيه موسى عليه السلام وقومه، وهو أرض بين أَيْلَة (العقبة) ومصر وبحر القلزم (البحر الأحمر)، وهو الآن وسط شبه جزيرة سيناء. وفَحْص التِّيه هو المكان الذي يُسكن منه، والفَحْص كلُّ موضع يُسكن، سهلاً كان أو جبلاً.

(٢) كلمة (القتل) زيادة عن كتب التفسير يقتضيها المعنى.

(٣) الأُدْرة (على وزن غُرْفة): انتفاخ الخصية. والبَرَص: بياض يظهر في الجسد لعلَّة، وهو مرض معروف، والآفة: كلُّ ما يُصيب شيئاً فيفسده، من عاهة أو مرض أو قحط، يقال: آفة العلم النسيان.

(٤) أي: اترك ثوبي يا حجر، اترك ثوبي يا حجر.

(٥) هذا الحديث مشهور في كتابَيْه: «المغنى» و«الحدائق». وأورده السيوطي في «الدر المنثور»، وقال: أخرجه عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، من طرق عن أبي هريرة، وقال ابن كثير في تفسيره بعد أن أورد الحديث: «وهذا سياق حسن مطول»، وقال: «وهذا الحديث من إفراد البخاري دون مسلم»، على أن القرطبي قال=

و«الْوَجِيهُ»: المكرم الوجه، وقرأ الجمهور: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وقرأ عبد الله بن مسعود: «وكان عبداً للهِ». ثم وصَّى الله المؤمنين بالقول السداد، وذلك يعُمُّ جميع الخيرات، وقال عكرمة: أراد: «لاَ إِلٰه إلاَّ الله»، والسَّداد يعُمُّ جميع هذا[(١)]، وإن كان ظاهر الآية يُعطي أنه إنما أشار إلى ما يكون خلافاً للأذى الذي قيل في جهة الرسول ﷺ وجهة المؤمنين، ثم وعد تعالى بأنه يجازي على القول السَّداد بإصلاح الأعمال وغفران الذنوب. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

اختلف الناسُ في الأَمانة ـ فقال ابن مسعود رضي الله عنه: هي في أَمانات المال كالودائع ونحوها، ورُوي عنه أنه في كل الفرائض، وأَشدُّها أمانةُ المال.

وذهبت فرقة هي الجمهور إلى أنها كل شيءٍ يؤتمن الإنسان عليه، من أَمر ونهي وشأن دِينٍ وَدُنيا، فالشرع كله أمانة، قال أُبي بن كعب رضي الله عنه: من الأَمانة أن تؤتمن المرأة على فرجها، وقال أَبو الدرداءِ رضي الله عنه: غسل الجنابة أَمانة، ومعنى الآية: إنَّا عرضنا على هذه المخلوقات العظام أن تحمل الأَوامر والنواهي، وتقتضي الثواب إن أَحسنت والعقاب إن أَساءَتَ، فأَبت هذه المخلوقات وأَشفقت.

= في تفسيره: «أخرجه البخاري ومسلم بمعناه، ولفظ مسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت بنو إسرائيل يغتسلون. . .» الحديث.

وفي الدر المنثور قال السيوطي: «وأخرج البزّار، وابن الأنباري في المصاحف، وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كان موسى رجلاً حيياً، وإنه أتَى الماء ليغتسل. . .»، وساق مثل الحديث السابق.

(١) يظهر أن في الكلام نقصاً، وأنه قد سقط من النساخ بعض الجمل، فقد أورد القرطبي العبارة بمثل ما ذكرها هنا ابن عطية وفيها بعد قوله: وقال عكرمة: أراد: «لا إله إلا الله» ما يأتي: (وقيل: هو الذي يوافق ظاهره باطِنَه، وقيل: هو ما أُريد به وجه الله دون غيره، وقيل: هو الإصلاح بين المتشاجرين، وهو مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض، والقول السداد يعُمُّ الخيرات، فهو عام في جميع ما ذكر)، وإن كان ظاهر الآية. . . إلخ.

ويحتمل أَن يكون هذا العَرْض بإدراك يخلقه الله لها، ويحتمل أَن يكون هذا العرض على من فيها من الملائكة، ورُوي أَنها قالت: ربِّ ذَرْني مسخَّرة لما شئت أَنت، طائعة فيه، ولا تَكِلْني إلى نظري وعملي، ولا أُريد ثواباً، وحَمَلَ الإنسان الأمانة: أَي: الْتزم القيام بحقِّها، وهو في ذلك ظلوم لنفسه، جهول بقدر ما دخل فيه، وهذا تأْويل ابن عباس، وابن جُبير. وقال الحسن: [وَحَمَلَهَا] معناه خان فيها، والآية في الكافر والمنافق.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والعصاة على قدرهم.

وقال ابن عباس وأَصحابه، والضحاك، وغيره: الإنسان: آدم، تحمَّل الأَمانة، فما تمَّ له يوم حتى عصى المعصية التي أَخرجته من الجنة، ورُوي أَن الله تبارك وتعالى قال له: يا آدم، إنِّي عرضت الأَمانة على السموات والأَرض والجبال فأَبَيْنَ أَن يحملنها، وأَشْفَقْن منها، أَفتحملها أَنت بما فيها؟ قال: وما فيها؟ قال: إن أَحسَنْتَ أُجِرْتَ، وإن أَسأْتَ عوقبت، قال: نعم قد حملتها، قال ابن عباس رضي الله عنهما، فما مرَّ له ما بين الأُولى والعصر حتى عصى ربَّه.

وقال ابن مسعود، وابن عباس: الإنسان ابن آدم، قابيل الذي قتل أَخاه، وكان قد تحمَّل لأَبيه أَمانة أَن يحفظ الأَهل بعده، وكان آدم عليه السلام سافر عنهم إلى مكة في حديث طويل ذكره الطبري وغيره.

وقال بعضهم: الإنسان: النوعُ كلُّه، وهذا حسن مع عموم الأَمانة.

وقال الزَّجاج: معنى الآية: إنا عرضنا الأَمانة في نواهينا وأَوامرنا على هذه المخلوقات، فقمن بأَمرها، وأَطعن فيما كلفناها، وتأَبَّيْنَ من حمل المذمة في معصيتنا، وحَمَل الإنسان المذمة فيما كلفناه من أَوامرنا وشرعنا، والإنسان ـ على تأْويله ـ الكافر والعاصي.

وتستقيم هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[1]، فعلى التأْويل الأَول الذي حكيناه يكون قوله: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ إجابةً لأَمر أُمرت به، وتكون هذه الآية إبايةً وإشفاقاً

(١) من الآية (١١) من سورة (فُصِّلت).

من أَمر عُرض عليها وخُيِّرت فيه، رُوي أَن الله عرض الأَمانة على هذه المخلوقات فأَبت. فلما عرضها الله تبارك وتعالى على آدم عليه السلام قال: أنا أَحملها بين أُذني وعاتقي، فقال الله: إِنِّي سأُعينك، وقد جعلت لبصرك حجاباً فأَغلقه عما لا يحلُّ لك، ولِفَرْجك لباساً فلا تكشفه إِلاَّ على ما أَحْلَلْتُ لك. ورُوي في هذا المعنى أَشياءُ تركتها اختصاراً لعدم صحتها.

وقال قوم: إِن الآية من المجاز، أَيْ: إِنا إِذا قايَسْنَا ثِقَل الأَمانة بقوة السموات والأَرض والجبال رأَينا أَنها لا تُطيقها، وأَنها لو تكلمت لأَبَتْها وأَشفقت، فعُبِّر عن هذا المعنى بالآية، وهكذا كما تقول: عرضتُ الحِمْل على البعير فأَباه، وأَنت تريد بذلك: قايَسْتُ قوَّته بثِقَل الحِمْل فرأَيتُ أَنها تقصر عنه.

قوله تعالى: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ﴾ هي لام العاقبة؛ لأَن الإِنسان لم يحمل ليقع العذاب، لكن حمل فصار الأَمر وآلَ إِلى أَن يُعَذِّب من نافق أَو أَشرك، وأَن يتوب على من آمن[1]. وقرأَ الجمهور: ﴿يَتُوبَ﴾ نصباً، عطفاً على قوله: ﴿لِيُعَذِّبَ﴾، ورفعها الحسنُ على القطع والاستئناف[2]. وباقي الآية بيِّن.

كمل بعون الله وتوفيقه تفسير سورة الأَحزاب

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) وقال الزمخشري: هي لام التعليل، على طريق المجاز؛ لأن نتيجة حمل الأمانة العذاب، كما أن (التأديب) في قولك: (ضربتُه للتأديب) نتيجة الضرب.

(٢) وهي أيضاً قراءَة الأعمش، والمعنى فيها جعلُ العلة قاصرة على فعل من حملِ الأمانة، ثم يبتدىء كلامٌ جديد بقوله: [وَيَتُوبُ]، أما المعنى على قراءَة الجمهور بالنصب فهو: لِيُعَذِّب اللهُ من حمل الأمانة، ويتوبَ على غيره ممن لم يحملها، وهذا المعنى يتفق مع الآراءِ التي تجعل المراد بالإنسان الكافر أو العاصي، لكنه لا يتفق مع قول من يرى أن المراد بالإنسان النوع كله.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة سبأ

هي مكِّيَّة، واختُلف في قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ الآية[١] فقالت فرقة: هي مكِّيَّة، والمراد المؤمنون بالنبي عليه الصلاة والسلام، وقالت فرقة: هي مدنية، والمراد من أَسلم بالمدينة من أَهل الكتاب كابن سلام وأَشباهه[٢].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾.

الأَلف واللَّام في (الْحَمْد) لاستغراق الجنس، أَي: الحمد على تنوُّعه هو لله تعالى من جميع جهات الفكرة، ثم جاءَ بالصفات التي تسوجب المحامد، وهي: مُلْكُه جميع ما في السموات وما في الأَرض، وعِلْمُه المحيط بكل شيءٍ، وحكمتُه وخبرته بالأَشياءِ، إِذْ وجودها إِنما هو به جلَّت قدرته، ورحمتُه بأَنواع خلقه، وغفرانُه لمن سبق في علمه أن يغفر له من مؤمن[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يحتمل أن تكون الأَلف واللَّام للجنس أَيضاً، وتكون الآية خبراً أن الحمد في الآخرة هو له وحده لإِنعامه وأَفضاله وتغمُّده وظهور قدرته وغير ذلك من صفاته، ويحتمل أَن تكون الأَلف واللَّام فيه للعهد والإِشارة إِلى قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٤]، أَو إِلى قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾[٥].

---

(١) هي الآية رقم (٦) من السورة.

(٢) وقال قتادة: هم أُمة محمد ﷺ المؤمنون به كائناً من كان، وعدد آيات السورة (٥٤) آية، وقد نزلت بعد سورة (لقمان).

(٣) في بعض النسخ: «لمن سبق في علمه أن يغفر له في الآخرة».

(٤) من الآية (١٠) من سورة (يونس).

(٥) من الآية (٧٤) من سورة (الزُّمَر).

و(يَلِجُ) معناه: يدخل، ومنه قول الشاعر:

رَأَيْتُ الْقَوَافِي يَتَّلِجْنَ مَوَالِجاً   تَضايَقُ عَنْهَا أَن تَوَلَّجَهَا الإِبَرْ[1]

و(يَعْرُجُ) معناه: يصعد. وهذه الرُّتب حصرت كلَّ ما يصح عمله من شخص أَو قول أَو معنى، وقرأَ أَبو عبد الرحمن: ﴿وَمَايُنَزَّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بضم الياءِ وفتح النُّون وشدِّ الزاي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

رُوي أن قائل هذه المقالة هو أَبو سفيان بن حرب، قال: «واللّات والعزّى ما ثَمَّ ساعة تأْتي، ولا قيامة ولا حشر». فأَمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يُقْسم بربِّه مقابلة لِقَسَم أَبي سفيان، قيل: ردًّا وتكذيباً وإِيجاباً لما نفاه، وأَجاز نافع الوقف على (بَلَى)، وقرأَ

---

(١) البيت لطرفة بن العبد، وهو آخر ثلاثة أبيات قالها في حادثة رواها ابن الأعرابي، قال: كان لطرفة أخ اسمه معبد، وكان لهما إبل يرعيانها يوماً ويوماً، فلما أغبَّها طرفة ـ أي ترك سقيها ـ قال له أخوه: لم لا تستريح في إبلك؟ ترى أنها لو أُخذت تردُّها بشعرك هذا؟ قال: فإني لا أخرج فيها أبداً حتى تعلم أن شعري سيردّها إن أُخذت فتركها وأخذها أُناس في مضر، فادَّعى جوار عمرو، وقابوس، ورجل من اليمن يقال له: بشر بن قيس، فأنشد في ذلك:

أَعَمْرَو بنَ هندٍ ما تَرَى رأيَ صِرْمَةٍ   لهَا سَبَبٌ تَرْعَى بهِ الماءَ والشَّجَرْ؟
وكانَ لها جاران، قابوس منهما   وعمرٌو ولمْ أَسْتَرْعِهَا الشمسَ والقَمرْ
رأيْتُ القَوافي يتَّلِجْنَ مَوالجاً   تَضَايَقُ عنها أنْ تَوَلَّجَهَا الإِبَرْ

والبيت في (اللسان ـ وَلَجَ) غير منسوب، وفي (فرائد القلائد في شرح مختصر الشواهد) للعيني. والقوافي: جمع قافية، وأراد بها هنا القصائد؛ لأن القصيدة تشتمل على القافية، أو لأن القافية من أبرز خصائص القصيدة. و(يَتَّلِجْن): يدخلن، وأصلها: (يَوْتَلِجن)؛ لأنها من (وَلَجَ)، والموالج: جمع مولج، وهو موضع الولوج، والإِبَر: جمع إِبْرَة، وهي آلة الخياطة، يقول طرفة: إن قصائد الشعر تبلغ من التأثير في النفوس مواضع بعيدة عميقة، لا تصل إليها أسنة الإبر إذا طعن بها المهجوّ، وكأنه يعني أن الإبر تصيب الأبدان، وأن القصائد تؤثر في النفوس، وجراحات النفوس أعمق وأبقى أثراً من جراحات الأبدان، «والقول ينفذ مالا تنفذ الإبرُ».

الجمهور: (لَتَأْتِيَنَّكُمْ) بالتَّاءِ من فوق، وحكى أَبو حاتم قراءَة: [لَيَأْتِيَنَّكُمْ] بالياءِ على المعنى في البعث.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، والكسائي ـ بخلاف عنه ـ: (عَالِمِ) بالخفض على البدل من [رَبِّي]، وقرأَ نافع، وابن عامر: [عَالِمُ] بالرفع على القطع، أَي: هو عالمُ، ويصح أَن يكون [عَالِمُ] رفع بالابتداءِ، وخبره ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ وما بعده، ويكون الإِخبارُ بأَن «الْعَالِمَ» لا يعزب عنه شيءٌ إِشارةً إِلى أَنه قدَّر وقتها وعَلِمَهُ، والوجه الأَول أَقرب. وقرأَ حمزة، والكسائي: [عَلَّامِ] على المبالغة مخفوضاً على البدل[١]. و(يَعْزُبُ) معناه: يغيب ويبعد، وبه فسَّر مجاهد وقتادة. وقرأَ جمهور القراء بضمِّ الزّاي، وخفضها الكسائي، وابن وثاب، وهما لغتان. و(مِثْقَالُ ذَرَّةٍ) معناه: مقدار تثاقلها، وهذا في الأجرام بيِّن، وفي المعاني بالمقايسة. وقرأَ الجمهور: ﴿وَلَاأَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ﴾ بالرفع عطفاً على قوله: [مِثْقَالُ]، وقرأَ نافع[٢]، والأَعمش، وقتادة: [أَصْغَرَ]، وَ[أَكْبَرَ] بالنصب[٣] عطفاً على [ذَرَّة]، ورُويت عن أَبي عمرو[٤]، وفي قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ ضمير تقديره: إِلاَّ هو في كتاب مبين، و«الكِتاب الْمُبِينُ» هو اللوح المحفوظ.

واللَّام في قوله: (لِيَجْزِيَ) يصح أَن تكون متعلِّقة بقوله: (لَتَأْتِيَنَّكُمْ)، ويصح أَن تكون متعلِّقة بقوله: (لاَ يَعْزُبُ)، ويصحُّ أَن تكون متعلِّقة بما في قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ من معنى الفعل؛ لأَن المعنى: إِلاَّ أَثْبَتُّه في كتاب مبين. و«الْمَغْفِرَة» تغمُّد الذنوب، و«الرِّزْقُ الكريم» الجنَّة.

قوله: (والَّذِينَ) معطوف على (الَّذِين) الأُولى، أَي: وليجزي الذين سَعَوْا، و(مُعَاجِزِينَ) معناه: محاولين تعجيز قدرة الله فيهم. وقرأَ الجحدري، وابن كثير،

---

(١) وأجاز أبو البقاءِ أن تكون [عَالِم] صفة، قال أبو حيان: «ويعني أن ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ يجوز أن يتعرف، وكذا كلُّ ما أُضيف إلى معرفة مما كان لا يتعرف بذلك، يجوز أن يتعرف بالإضافة إلا الصفة المشبهة فلا تتعرف بإضافة، ذكر ذلك سيبويه في كتابه، وقلَّ من يعرفه».

(٢) قوله: إن نافعا قرأ (أصغر أو أكبر) بالنصب تخالف المتواتر عنه.

(٣) بالنصب نيابة عن الجر لأن (أصغر أو أكبر) ممنوعتان من الصرف.

(٤) علَّق أبو حيان على ذلك بقوله: «ولا يتعيَّن ما قال، بل تكون (لا) لنفي الجنس، وهو مبتدأً، أعني مجموع (لا) وما بني معها على مذهب سيبويه، والخبر ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، وهو من عطف الجُمل لا من عطف المفردات كما قال ابن عطية.

وأَبو عمرو: [مُعَجِّزِينَ] دون ألف[1]، أَي: معجزين قدرة الله تبارك وتعالى بزعمهم. وقال ابن الزُّبير: معناه: مُثَبِّطين عن الإيمان من أَراده، مدخلين عليه العجز في نشاطه، وهذا هو سعيهم في الآيات، أَي: في شأن الآيات. ثم بيَّن تعالى جزاءَ هؤلاءِ الساعين، كما بيَّن قبل جزاءَ المؤمنين.

وقرأ عاصم ـ في رواية حفص ـ: (أَلِيمٌ) بالرفع على النَّعت، والباقون بالكسر على نعت «الرِّجْزِ»، و«الرِّجْزُ» هو العذاب السَّيِّءُ جداً، وقرأ ابن محيصن: [رُجْزٍ] بضم الرَّاءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨﴾.

قال الطبريُّ والثعلبي وغيرهما: (يَرَى) معطوف على ما قبله من الأفعال، والظاهر أَنه مُسْتأْنف، وأَن الواو إِنما عطفت جملة على جملة، وكأَن المعنى الإِخبارُ بأَن أَهل العلم يروْن الوحي المنزل على محمد ﷺ حقًّا وأَنه يهدي إِلى صراطٍ مستقيم.

وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ مفعول بـ(يَرَى)، و(الْحَقَّ) مفعول ثانٍ، و(هُوَ) عماد. و﴿الذين أوتوا العلم﴾ قيل: هم مَن أَسلم من أَهل الكتاب، وقال قتادة: هم أُمة محمد عليه الصلاة والسلام المؤمنون به كائناً من كان، و(يَهْدِي) معناه: يُرْشد، و«الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ» الطريق المعتدل، وأَراد طريق الشَّرع والدين.

ثم حكى عن الكفَّار مقالتهم التي قالوها على جهة التَّعجُّب والهُزْءِ، أَي: قالها بعضهم لبعض، كما يقول الرجل لمن يريد أَن يُعجِّبه: هل أَدُلك على أُضحوكة نادرة؟ فلما كان البعث عندهم من البعيد المحال جعلوا من يُخبر بوقوعه في حيِّز من يُتعجَّب منه، والعامل في (إِذَا) فعل مضمر قبلها فيما قال بعض النَّاس، تقديره: يُنَبِّئُكم بأَنكم تُبعثون إِذا مُزِّقتم، ويصح أَن يكون العامل ما في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ من

(١) لم يضبط المؤلف قراءة الجحدري وابن كثير وأبي عمرة، وقد ضبطناه بالتشديد اعتماداً على قول صاحب «البحر المحيط»: «وقرأ الجمهور: [مُعْجِزِينَ] مخففاً، وابن كثير، وأبو عمرو، والجحدري، وأبو السماك مثقلاً».

معنى الفعل؛ لأن تقدير الكلام: يُنبِّئُكم إنكم لفي خلقٍ جديد إذا مُزِّقتم. وقال الزَّجَّاج: العامل في (إِذَا) هو (مُزِّقْتُمْ) وهو خطأٌ وإفساد للمعنى المقصود[1]، ولا يجوز أن يكون العامل (يُنَبِّئُكُمْ) بوجه، و(مُزِّقْتُمْ) معناه: بِالْبِلَى وتَقَطُّع الأَوصال في القبور وغيرها. وكُسر الأَلف من (إِنَّكُمْ) لأَن (يُنَبِّئُكُمْ) في معنى: يقول لكم، ولمكان اللاَّم التي في الخبر. و(جَدِيد) بمعنى: مُجَدَّد.

وقولهم: «أَفْتَرَى» هو من قول بعضهم لبعض، وهي أَلف الاستفهام دخلت على أَلف الوصل، فحذف أَلف الوصل، وبقيت مفتوحة غير ممدودة، فكأَن بعضهم استفهم بعضاً عن محمد ـ ﷺ ـ: أَحالُ الفِرْيَة على الله هي حالُه أَمْ حالُ الجنون؟ لأَن هذا القول إِنما يصدر عن أَحد هذين. فأَضرب القرآن عن قولهم وكذَّبه، فكأَنه قال: ليس الأَمر كما قالوا، ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾، والإِشارة بذلك إِليهم، ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾، يريد: عذاب الآخرة؛ لأَنهم يصيرون إِليه، ويحتمل أَن يريد: في العذاب في الدنيا بمكابدة الشَّرع ومكايدته، ومحاولة إِطفاءِ نور الله وهو يتِمُّ، وهذا كله عذاب، وفي الضلال البعيد، أَي: قَوِيت الحَيْرةُ وتمكَّنَ التَّلَفُ لأَنه قد أَبعد صاحبه عن الطريق الذي ضلَّ منه[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

---

(١) عقَّب أبو حيان الأندلسي على ذلك بقوله في «البحر المحيط»: «وليس بخطإٍ ولا إفساد للمعنى، وإذا الشرطية مختلف في العامل فيها، وقد بيَّنا ما كتبناه في شرح التسهيل أن الصحيح أن يعمل فيهافعلُ الشرط كسائر أدوات الشرط، والجملة الشرطية يحتمل أن تكون معمولة لـ(يُنَبِّئُكُمْ) لأنه في معنى: يقول لكم إذا مُزِّقتم كل مُمَزَّق: تبعثون، ثم أكَّد ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، ويحتمل أن يكون: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ معمولاً لـ(يُنَبِّئُكُمْ)، ولولا اللام في خبر (إن) لكانت مفتوحة؛ فالجملة سدَّت مسَدَّ المفعولين، والجملة الشرطية ـ على هذا التقدير ـ اعتراض» ا. هـ. وفي هذا الكلام نقضٌ لقول ابن عطية بعد ذلك: «ولا يجوز أن يكون العامل (يُنَبِّئُكُمْ) بوجه».

(٢) يريد أن يقول: إن الضلال يُقوِّي حيرة صاحبه ويُمَكِّن التلف منه لأنه أبعده عن طريق الصواب، ولهذا سمي بعيداً، والعبارة قلقة.

الضمير في (يَرَوْا) لهؤلاءِ الذين لا يؤمنون بالآخرة، وقفهم الله على قدرته، وخوَّفهم من إِحاطتها بهم، المعنى: أَليس يرون أمامهم ووراءَهم سمائي وأَرضي، لا سبيل لهم عن فقد ذلك عن أَبصارهم، ولا عدم إِحاطته بهم.

وقرأَ الجمهور: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ﴾، ﴿أَوْ نُسْقِطْ﴾ بالنون في الثلاثة، وقرأَ حمزة، والكسائي بالياءِ فيهن، وهي قراءَة ابن وثّاب، وابن مصرِّف، والأَعمش، وعيسى، واختارها أَبو عبيد. و«خَسْفُ الأَرض» هو إِهْوَاؤُها بهم وتهوُّرها وغرقهم فيها، و«الكِسَفُ» قيل: هو مفردٌ اسم القطعة، وقيل: هو جمع كَسْفَة، على مثال تَمْرَةٍ وتَمْرٍ، ومشهور جمعها كِسَفٌ كسِدْرَة وسِدَر[1].

وأَدغم الكسائي الفاءَ في الباءِ في قوله تعالى: ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ﴾، قال أَبو علي: وذلك لا يجوز؛ لأَن الباءَ أَضعف في الصوت من الفاءِ فلا تدغم فيها، وإِن كانت الباء تدغم في الفاءِ في قولك: «اضرب فلاناً»، وهذا كما تدغم الباءَ في الميم في قولك: «اضرب مُّحمداً»، ولا تدغم الميم في الباءِ في قولك: «أَصمم بك»؛ لأَن الباءَ انْحطت عن الميم بفعل الغُنَّة التي في الميم[2].

والإِشارة بقوله: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ إِلى إِحاطة السماءِ بالمرءِ، ومماسَّة الأَرض له على كل حال. و«الْمُنِيب»: الرَّاجع.

ثم ذكر تعالى نعمته على داود وسليمان عليهما السلام احتجاجاً على ما منح محمداً ﷺ، أَي: لا تستبعدوا هذا فقد تفضَّلنا على عبيدنا قديماً بكذا، فلما فرغ التمثيل بمحمد[3] عليه الصلاة والسلام رجع التمثيل لهم بسَبَإٍ وما كان من هلاكهم بالكفر والعُتُوِّ، والمعنى: قلنا: يا جبال، و(أَوِّبي) معناه: رجِّعي معه؛ لأَنه مضاعف آب

(١) في (اللسان ـ كَسَف): «كِسْفُ السَّحاب وكِسَفُه: قِطَعُه»، وفيه: «وقال الزجاج: قُرِىء: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ و[كِسْفاً]، فمن قرأ: [كِسَفاً] جعلها جمع كِسْفَة، وهي القطعة، ومن قرأ: [كِسْفاً] جعله واحداً».

(٢) وقال الزمخشري: «وقرأ الكسائي: ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ﴾ بالإدغام، وليست بقوية» ا.هـ. وعلَّق أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط على كلام أبي علي المذكور هنا، وعلى كلام الزمخشري فقال: «والقراءَة سُنَّة مُتَّبعة، ويوجد فيها الفصيح والأفصح، وكل ذلك من تيسيره تعالى القرآن للذكر، فلا التفات لقول أبي عليٍّ ولا الزمخشري».

(٣) في بعض النسخ: «فلما فرغ التمثيل لمحمد...».

يؤوب، فقال ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم: معناه: سبِّحي معه، أَي: يُسبِّح هو وترجِّع هي معه التَّسبيح، أَي: تردُّ بالذكر، ثم ضوعف الفعل للمبالغة، وقيل: معناه: سيري معه؛ لأَن التأويب سيْر النهار، كأَن الإِنسان يسير باللَّيل ثم يرجِّع السير بالنهار، أَي يُردِّده، فكأَنه يُؤَوِّبه، فقيل له: التأويب، ومنه قول الشاعر:

يَـوْمَـانِ يَـوْمُ مُقَـامَـاتٍ وأَنْـدِيَـةٍ ... ويَـوْمُ سيْـرٍ إِلـى الأَعـداءِ تـأْويـبُ[1]

ومنه قول ابن مقبل:

لَحِقْنَـا بِحَـيٍّ أَوَّبـوا السَّيْـرَ بَعْـدَمَـا ... دَفَعْنَا شُعَاعَ الشَّمْسِ والطَّرْفُ يَجْنحُ[2]

وقال مؤرج: [أَوِّبي]: سبِّحي بلغة الحبشة، وهذا ضعيف غير معروف، وقال وهب بن مُنَبِّه: المعنى: نوحي معه والطير تساعدك على ذلك، قال: فكان داود عليه السلام إِذا نادى بالنِّياحة والحنين أَجابته الجبال وعكفت الطير عليه من فوقه، قال: فمن حينئذ سُمع صدى الجبال، وقرأَ الحسن، وقتادة، وابن أَبي إِسحق: [أُوبِي] بضم الهمزة وسكون الواو، أَي: ارجعي معه، أَي في السير أَو في التسبيح، وأَمر الجبال كما تؤمر الواحدة المؤنثة لأَن جميع مالا يعقل كذلك يُؤمر، وكذلك يكنى عنه ويوصف، ومنه المثل «يا خيل الله اركبي»[3]، ومنه ﴿ مَئَارِبُ أُخْرَىٰ﴾[4]، وهذا كثير.

---

(١) هذا البيت لسلامة بن جندل السَّعدْي، وهو من فرسان العرب المعدودين، وكان من أحسن من وصف الخيل، والبيت من قصيدة له يأسف فيها على شبابه، ثم يفخر بجوده وبجود قبيلته، وبما أظهره من الشجاعة في الحرب، وقوله: يومان، أي: لِبَني سعد، ومُقامات: جمع مُقامة ـ بالضم ـ وهي الإقامة، أو ـ بالفتح ـ وهي المجلس، والأندية: الأفنية، والنَّدِيُّ والنادي سواءٌ، وهو ما حول الدار وإن لم يكن مجلساً، يريد بالمقامات والأندية مواقف الخطابة ونحوها، والتأويب: سير اليوم كله إلى الليل، يقال: أوَّب القوم تأويباً، أي: ساروا النهار كله إلى الليل، والقصيدة التي منها هذا البيت رقمها (٢٢) في المفضليات، ومطلعها:

أَوْدَى الشَّبَـابُ حَميـداً ذُو التَّعَـاجيـبِ ... أَوْدَى وذلِـك شـأْوٌ غَيْـرُ مَطْلُـوبِ

(٢) ابن مُقبل اسمُه: تميم، وهو من بني العجلان، شاعر جاهلي إسلامي، بلغ مائةً وعشرين سنة، ويُروى: (رَفَعْنا) بدلاً من (دفعنا)، وفي بعض النسخ (مُجْنَح) بدلاً من (يَجْنَح)، والجنوح هو الميل، يقال: جنحت الشمس للغروب، أي: مالت وجَنَح الليلُ، أي: للذهاب أو المجيءِ، والشاهد أن (أوَّب) بمعنى سار النهار كله إلى الليل كالبيت الذي قبله.

(٣) قال ابن الأثير في كتابه (النِّهاية في غريب الحديث والأثر ـ خَيَل): «وفي الحديث (يا خيل الله اركبي)، وهذا على حذف مضاف، وأراد: يا فُرسان خيل الله اركبي، وهذا من أحسن المجازات وألطفها».

(٤) من الآية (١٨) من سورة (طه)، وهي قوله تعالى: ﴿قال هي عصاي أتوكأ عليه وأهش بها على غنمي=

وقرأ الأَعرج، وعاصم ـ بخلاف ـ وجماعةٌ من أَهل المدينة: [والطَّيْرُ] بالرفع عطفاً على لفظ قوله: ﴿يَٰجِبَالُ﴾، وقرأ نافع، وابن كثير، والحسن، وابن أَبي إسحق، وأَبو جعفر: [والطَّيْرَ] بالنصب ـ فقيل: ذلك عطف على [فَضْلاً]، وهو مذهب الكسائي، وقال سيبويه: هو على موضع قوله: ﴿يَٰجِبَالُ﴾؛ لأَن موضع المنادى المفرد نصب، وقال أَبو عمرو: نَصْبُهَا بإضمار فعل تقديره: وسخَّرنا الطيرَ. وقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ معناه: جعلناه لَيِّناً، وروى قتادة أَن الحديد كان له كالشمع لا يحتاج في عمله إلى نار، وقيل: أَعطاهُ قُوَّةً يَثْني بها الحديد، ورُوي أَنه لقي مَلَكاً ـ وداود عليه السلام يظنه إنساناً ـ وداودُ متنكِّر خرج ليسأَل الناسَ عن نفسه في خفاءٍ، فقال داود لذلك الشخص الذي تمثَّل فيه الملَك: ما قولك في هذا الملِك داود؟ فقال له الملَك: نِعْمَ العبد لولا خلَّة فيه، فقال داود: وما هي؟ قال: يرتزق من بيت المال، ولو أَكل من عمل يده لَتَمَّت فضائله، فرجع فدعا الله في أَن يعلِّمه صنعة ويُسَهِّلها عليه، فعلَّمه صنعة اللبوس، وأَلان له الحديد، فكان ـ فيما رُوي ـ يصنع فيما بين يومه وليلته دِرْعاً تُساوي أَلف درهم، حتى ادَّخر منها كثيراً وتوسَّعت معيشته، وكان ينفق بيت المال في مصالح المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾، قيل: إنَّ (أَنْ) مفسِّرةٌ لا موضع لها من الإعراب[١]، وقيل: هي في موضع نصب بإسقاط حرف الجرِّ، و«السَّابغات»: الدروع الكاسيات ذوات القفول، قال قتادة: داود عليه السلام أَول من صنعها، ودرع الحديد مؤنثة، ودرع المرأَة مذكَّر.

قوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾، اختلف المتأَولون، في أَيِّ شيءٍ هو التقدير من أَشياءِ السَّرْد؟ إذ السَّرْد هو إتْباع الشيءِ بالشيءِ من جنسه، قال الشماخ:

. . . . كَمَا تَابَعَتْ سَرْدَ الْعِنَانِ الْخَوَارِزُ[٢]

= ولي فيها مآرب أخرى﴾.

(١) هذا قول الحوفي، ذكر ذلك أبو حيان في البحر المحيط، ثم عقَّب عليه بقوله: «ولا يصحُّ؛ لأن من شرطها أن يتقدمها معنى القول، وليس في الكلام هذا، وقدر بعضهم قبلها فعلاً محذوفاً يحمل معنى القول حتى يصح أن تكون مفسِّرة، وتقديره: وأَمَرْناه أن اعْمل، ولا ضرورة تدعو إلى هذا المحذوف» ا.هـ. بتصرف.

(٢) هذا عجز بيت، وهو بتمامه كما في (جمهرة أشعار العرب): =

ومنه: سَرَدَ الحديثَ[1]، وقيل للدرع: مسرودة لأنها تُوبعت فيها الحلق بالحلق، ومنه قول الشاعر:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرودَتَانِ قَضَاهُمَا ... داوُدُ أَوْ صَنعُ السَّوَابِغ تُبَّعُ[2]

وقول دُرَيْد:

. . . . فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ[3]

= رَكِبْنَ الذُّنَابَى فاتَّبَعْنَ بِهِ الْهَوَى ... كما تَابَعَتْ سَرْدَ العِنَانِ الْخَوَارِزُ

وقيل: بل الشطر الأول هو: (فَظَلَّتْ تِبَاعاً خَيْلُنَا فِي بُيُوتِكُمْ)، وهذه رواية القرطبي في تفسيره، وفي الديوان روي الشطر الأول هكذا: (شَكَكْنَ بأحْشَاءِ الذُّنَابَى عَلَى هُدىً).

هذا والشَّماخ لقب للشاعر، واسمُه معقل بن ضرار، وهو أرجز الناس على بديهة، والبيت من قصيدة له قال عنها الأصمعي: «ما قيلت قصيدة على الزاي أجود من قصيدة الشماخ في وصف القوس، ولو طالت قصيدة المتنخِّل كانت أجود». وهو يقصد أبياتاً قالها المتنخل أيضاً على الزاي، ومعنى (رَكِبْنَ الذُّنَابَى): فررن، واتَّبَعْنَ به الهوى: أيْ هوى الحمار الوحشي، والخوارز: جمع خارز، من قولهم: خَرَزَ الجِلْدَ، أي ثَقَبه بالمخرز وخاطه، والشاهد أن السَّرْد هو: إتْباع الشيءِ بالشيءِ من جنسه كما قال المؤلف، وقد رُوي البيت في الجمهرة: (كما تَابَعَتْ شَدَّ العِنَانِ)، وعلى هذا فلا شاهد فيه.

(١) في (اللسان ـ سَرَدَ): «سَرَدَ الحديث ونحوه سرداً: إذا تابعه، وفي صفة كلامه ﷺ: «لم يكن يسرد الحديث سرْداً» أي: يُتَابعه ويستعجل فيه.

(٢) البيت لأبي ذُؤَيْب الهُذَلِيّ، وهو من قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها:

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ ... والدَّهْرُ لَيْسَ بمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

ورواية الديوان في (أشعار الهذليين): (وَعَلَيْهِمَا ماذِيَّتَانِ)، وفي رواية الأصمعي (وَتَعَاوَرَا مسْرُودَتَيْنِ)، والسَّرْدُ: الخَرْزُ في الأديم، والمِسْرَدُ: ما يُخْرَزُ به، ويقال للدرع: مسرودة لأنها مخروزة ومنظومة. وقضاهما: فرغ من عملهما، والصَّنع: الحاذق بالعمل، والمراد به هنا تُبَّع، يقال: رجلٌ صَنَعٌ وامرأةٌ صَنَاعٌ، قال الأصمعي: سمع الشاعر بأن داود عليه السلام كان سُخِّر له الحديد فكان يصنع منه ما أراد، وسمع بأن تُبَّعاً عَمِلَهما فقال: عَمِلهما، والحقيقة أنه أمر بالسوابغ أن تعمل، وتُبَّع أعظم من أن يصنع بيده.

(٣) هذا جزء من بيت قاله دُرَيْد بن الصِّمة من قصيدة طويلة يرثي بها أخاه رثاءً إنسانياً عميقاً، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

وقلتُ لعَرَّاضٍ وأَصْحَابِ عَارِضٍ ... ورَهْطِ بَنِي السَّوْداءِ والقَوْمُ شُهَّدِي

عَلانِيَةً: ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ ... سَرَاتُهُم فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ

وعارضٌ هو أخو دريد، والقوم شُهَّدي: شهودي على ما قلته، وعلانيةً: جهراً أمام الجميع، وظُنُّوا: أيْقنُوا، والمُدَجَّج: التَّام السلاح، وسَرَاتُهُم: أشرَافُهم ورؤساؤهم، والفارسيُّ: دِرْعٌ من بلاد=

قال ابن زيد: التقدير الذي أُمِر به هو في قدْر الحلقة، أَي: لا تعملها صغيرة فتضعف حتى لا تقوى الدرع على الدفاع، ولا كبيرة فَيُنَالُ لابسها من خلالها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: التقدير الذي أُمر به هو في المسمار، يريد: قدِّر المسامير والحلق، حتى لا تدق[1] المسامير فتسلس، ويروى: فَيُسَلْسِل، ولا تغلظه فينقصم، بالقاف ـ وبالفاءِ أَيضاً رواية ـ، وروى قتادة أَن الدروع كانت قبله صفائح فكانت ثقالاً، فلذلك أُمر هو بالتقدير فيما يجمع بين الخفَّة والحصانة، أَي: قدِّر ما يأخذ من هذين المعينين بقسطه، أَي: لا يقصد الحصانة فيثقل، ولا الخفة وحدها فيزيل المنعة.

قوله: ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾، لمَّا كان الأمر لداود وآله حُكِي وإِن كان لم يَجْرِ لهم ذكر لدلالة المعنى عليهم، ثم توعَّدهم بقوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، أَي: لا يخفى عليَّ حَسَنُه من قبيحه، وبحسب ذلك يكون جزائي لكم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

قال الحسن: عقر سليمان عليه السلام الخيلَ أَسفاً على ما فوَّتته من وقت صلاة العصر، فأَبدله الله خيراً منها وأَسرع، الريح بأَمره[2]، وقرأَ الجمهور: (الرِّيحَ) بالنصب على معنى: ولسليمان سخَّرنا الريح، وقرأَ عاصمٌ ـ في رواية أَبي بكر ـ والأَعرجُ: [الرِّيحُ] بالرفع على تقدير: تسخَّرت الريحُ، أَو على الابتداءِ، والخبر في المجرور، وذلك على حذف مضاف تقديره: ولسليمان تسخير الريح. وقرأَ الحسن: ﴿ولسليمان الرياح﴾، وكذلك جَمَع في كل القرآن.

= فارس، والمُسَرَّد: المحكم النسج أو الدقيق الصنع المتابع الحلقات. والمعنى: لقد نصحت عارضاً وأصحابه وجماعةً من بني السوداءِ، ونهيتهم في مشهد من القوم، وكان حديثي لهم علانية وجهراً، وقلت لهم: إن ألفَيْ مقاتل يتربصون بكم، وأشرافهم مُدجَّجون ومُحَصَّنون بالدروع الفارسية المحكمة الصنع. ثم يصرخ بعد هذين البيتين ببيته الرائع الذي جرى بعد ذلك مجرى الأمثال:

أَمَــرْتُهُــمُ أَمْــرِي بِمُنْعَــرَجِ اللِّــوَى ... فَلَـمْ يَسْتَبِينُوا الرُّشْـدَ إلا ضُحَى الغَـدِ

(١) في بعض النسخ: (ترِقّ) بالراءِ.

(٢) في بعض النسخ: «الريح يأمره».

قوله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، قال قتادة: إنها كانت تقطع به في الغُدُوِّ إلى قرب الزَّوال مسيرة شهر، ورُوي عن الحسن البصري أنه قال: كان يخرج من الشام من مُسْتَقَرِّه بتدمر التي بنتها له الجن بالصفاح والعمد فيقيل في اصطخر، ويروح منها فَيبيت في كابل من أَرض خراسان، ونحو هذا، وكانت الأَعاصير تُقِل بساطه وتحمله بعد ذلك الرُّخاءُ، وكان هذا البساط يحمل ـ فيما رُوي ـ أَربعة آلاَف فارس وما يشبهها من الرجال والعُدد ويتسع لهم، ورُوي أَكثر من هذا بكثير، ولكن عدم صحته مع بُعْد شبهه أَوجب اختصاره، وقد قال عليه الصلاة والسلام: [«خير الجيوش أَربعة آلآف»][(١)]، وما كان سليمان ليعدو الخير.

وقرأَ ابن أَبي عبلة: [«غَدْوَتُهَا شَهْرٌ وَرَوْحَتُهَا شَهْرٌ»][(٢)]، وكان سليمان عليه السلام إذا أَراد قوماً لم يُشْعَر به حتى يُظلَّهم في جوِّ السماءِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾، رُوي عن ابن عباس، وقتادة أَنه كان يسيل له باليمن عين جارية من نحاس يُصنع له منها جميع ما أَحب، والقِطْر: النُّحاس، وقالت فرقة: القِطْر: الفِلِزُّ كله، النحاس والحديد وما جرى مجراه، كانت تسيل منه عيون، وقالت فرقة: بل معنى (وأسلنا له عين القطر): أَذَبْنا له النحاس، على نحو ما كان الحديد يلين لداود، قالوا: وكانت الأَعمال تتأَتَّى منه لسليمان وهو بارد دون نار، و(عَيْن) ـ على هذا التأْويل ـ بمعنى المذاب، وقالوا: لم يَلِن النحاس ولا ذاب لأَحد قبله.

وقوله: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ﴾ يحتمل أَن تكون (مَنْ) في موضع نصب على الإتباع لما تقدم بإضمار فعل تقديره: وسخَّرنا مِن الجن مَنْ يعمل، ويحتمل أَن تكون في موضع رفع على الابتداءِ، والخبر في المجرور، و(يَزِغْ) معناه: يَمِل، أَي ينحرف عاصياً، وقال: ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ ولم يقل: «عن إرادتنا» لأَنه لا يقع في العالم شيءٌ يخالف الإرادة، وقد يقع ما يخالف الأَمر. قال الضحاك: وفي مصحف عبد الله: «وَمَنْ يَزِغْ

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، وكذلك ابن ماجه، وأخرجه الدارمي في السِّيَر، ولفظه كما في سُنَن الدارمي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الأصحاب أربعة، وخير الجيوش أربعة آلآف، وخير السرايا أربعمائة، وما بلغ اثنا عشر ألفاً فصبَرُوا وصدقوا فَغُلِبوا من قِلَّة».

(٢) على وزن (فَعْلَة)، وهي المرة الواحدة من: (غدا) و(راح).

عَنْ أَمْرِنَا» بغير «مِنهُمْ». وقوله: ﴿مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾، قيل: عذاب الآخرة، وقيل: بل كان قد وكل بهم مَلَك بيده سوط من نار السَّعير، فمن عصى ضربه فأحرقه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

المحاريب: الأبنية العالية الشريفة، قال قتادة: القصور والمساجد، وقال ابن زيد: المساكن، والمحراب أشرف موضع في البيت، والمحراب موضع العبادة أشرف ما يكون منه، وغلب عُرف الاستعمال في موضع وقوف الإمام لشرفه، ومن هذه اللَّفظة قول عديٍّ بن زيد:

كَدُمَى الْعَاجِ في المَحَارِيبِ أَو كالْـ ـبَيْضِ في الرَّوْضِ زَهْرُهُ مُسْتَنِيرُ[(١)]

والتماثيل، قيل: كانت من زجاج ونحاس، تماثيل أَشياءَ ليست بحيوان، وقال الضحاك: كانت تماثيل حيوان، وكان هذا من الجائز في ذلك الشَّرع.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ونُسخ بشرع محمد ﷺ.

وقال قوم: حرم التصوير لأَن الصُّور كانت تُعبد، وحكى في الهداية أَن فرقة تجوِّز التصوير وتحتج بهذه الآية، وذلك خطأٌ، وما أَحفظ من أَئِمَّة العلم من يجوِّزه.

والْجَوَابي جمع جابية، وهي البِرْكة التي يجيءُ إليها الماءُ الذي يجتمع، قال الراجز:

فَصَبَّحَتْ جَابِيَةً صُهَارِجَا كَأَنَّهُ جِلْدُ السَّمَاءِ خَارِجَا[(٢)]

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها عدي وهو في السجن، وتحدث فيها عن صروف الدهر، لكنه استهلها بوصف السحاب وما فيه من رعد وبرق ومطر، وشبَّه الغيوم البيض بالدُّمَى العاجية، أو بالحسان اللواتي يرتدين الشفوف والحرير، ويتضمخن بطيب الحياة الناعمة. وإذا كان وصف المطر والغيوم من الصور التقليدية في الشعر العربي إلا أن الشاعر قد غيَّر في بيئة التشبيه، وظهرت عنده معالم جديدة للحضارة، وكثرت فيها الحليُّ والأصباغ، وهذا يكشف عن رؤية جديدة للشاعر تتمثل فيها الأشياء، والشاهد هنا أن المحاريب استعملت بمعنى المعابد.

(٢) البيتان من مشطور الرجز، وهما غير منسوبان، والبيت الأول في (اللسان ـ صَهْرَجَ)، استشهد به على أنَّ=

وقال مجاهد: هي جمع جَوْبَة(١)، وهي الحفرة العظيمة في الأَرض، وفي هذا نظر، ومنه قول الأَعشى:

نَفَى الذَّمَّ عَنْ آلِ الْمُحَلَّقِ جَفْنَةٌ ... كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَفْهَقُ(٢)

وأَنشده الطبريُّ: «تَروحُ عَلَى آلِ الْمُحَلَّقِ»، ويروى: «السَّيْح» بالسِّين المهملة والحاءِ المهملة، وهو الماءُ الجاري على وجه الأَرض، ويروى بالشين والخاءِ منقوطتين، فيقال: أَراد كسرى، ويقال: أَراد شيخاً من فلاحي سواد العراق غيْرَ مُعيَّن، وذلك أَنه لضعفه يدَّخر الماءَ في جابية فهي تَفْهق أَبداً، فشبهت الجفنة بها لعظمها، وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد: «الجوابي: الحياض»، وقرأَ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: [كَالْجَوَابِ] بغير ياءٍ في الوصل والوقف، وقرأَ أَبو عمرو، وعيسى بغير ياءٍ في الوقف وبياءٍ في الوصل، وقرأَ ابن كثير بياءٍ فيهما. وَوَجه حذف الياءِ والتخفيف والإِجاز، وهذا كحذفهم الياءَ في «القاضِ، والغَازِ، والهادِ»، وأَيضاً فلمَّا كانت الأَلف واللاَّم تعاقب التنوين وكانت الياءُ تحذف مع التنوين وجب أَن تحذف مع ما عاقبته، كما يُعْمِلون الشيءَ أَبداً عمل نقيضه.

و(رَاسِيَاتٍ) معناه: ثابتات لكبرها، ليست مما يُنقل ولا يُحمل، ولا يستطيع عمله

= (صَهْرَجَ) بمعنى (طَلا)، قال: «وَصَهْرَجَ الحوضَ: طلاه، وحوض صُهَارِج: مطليٌّ بالصَّاروج، والصُّهَارج ـ بالضمِّ ـ مثل الصِّهْريج، وأنشد الأزهري: «فصَبَّحَتْ جابِيَةً صُهَارِجاً»، يقول: إن الجابية مطليةٌ بالصاروج، أو تشبه المطلية به، وفي البيت الثاني يشبه لونها بلونِ السماءِ في الزرقة. والشاهد هنا أن الجابية هي الحوض الكبير الذي يُجمع فيه الماءُ.

(١) في اللسان: (قال ابن الأنباري: «هو جمع جِبْيَة»، وقال: والجِبْوَةُ والجُبْوَةُ والجِبَى والجَبَا والجَبَاوة: ما جمعتَ من الماءِ في الحوض).

(٢) رواية الديوان كرواية ابن عطية هنا، ورواية اللسان مثل رواية الطبري التي أشار إليها ابن عطية، والبيت من قصيدة للأعشى يمدح فيها المحلَّق بن حنتم بن شداد بن ربيعة، والجَفْنَة: القَصْعَة الكبيرة، والجابية: الحوض الضخم أو الحفرة العظيمة التي جمع فيها الماءُ، وتَفْهَق: تفيض، وقد خصَّ الشيخ العراقيَّ لجهله بالمياه لأنه حضريٌّ، فإذا وجدها ملأ جابيته وأَعَدَّها، ولم يدر متى يجد المياه، وأما البدوي فهو عالم بالمياه فهو لا يبالي ألا يُعِدَّها. قال ذلك صاحب اللسان، وذكره أيضاً المبرد في كتابه (الكامل)، وعلَّل الرواية الثانية أيضاً وهي بالسِّين والحاءِ المهملتين، قال أبو العباس: وسمعت أعرابية تُنشد (وهي رواية أهل الكوفة، والأعرابية هي أُم الهيثم الكلابية من ولد المحلَّق): «كَجَابِيَةِ السَّيْح» تريد النَّهْرَ الذي يجري على جابيته، فماؤها لا ينقطع، لأن النهر يمده.

إلاَّ الجن، وبالثبوت فسَّرها الناس. ثم أُمروا مع هذه النِّعم بأَن يعملوا بالطَّاعات.

وقوله: (شُكْراً) يحتمل أَن يكون نصبه على الحال، أَي: اعملوا بالطَّاعة في حال شكر منكم لله على هذه النِّعم، ويحتمل أَن يكون نصبه على جهة المفعول، أَي: اعملوا عملاً هو الشُّكر، كأَن الصلاة والصيام والعبادات كلها هي نفسها الشكر إِذْ سدَّت مسدَّه، وفي الحديث أن النبي ﷺ صعد المنبر فتلا هذه الآية، ثم قال: «ثلاثٌ من أُوتيهنَّ فقد أُوتي في العمل شكراً: العدلُ في الغضب والرِّضى، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله في السِّرِّ والعلانية»[١]، وروي أَن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أُطيق شكرك على نِعَمِكَ وإِلْهَامي وقُدرتي على شكركَ نِعمةٌ لك؟ فقال: الآن يا داود عرفتني حق معرفتي، وقال ثابت[٢]: روي أَنَّ مُصَلَّى آل داود لم يَخْل قَط من قائم يصلي ليلاً ونهاراً، كانوا يتناوبونه دائماً، وكان سليمان عليه السلام ـ فيما رُوي ـ يأكل الشعير، ويطعم أَهله الخُشْكار[٣]، ويطعم المساكين الدَّرْمك[٤]. ورُوي أنه ما شبع قط، فقيل له في ذلك فقال: أَخاف إِن شبعت أَن أَنسى الجياع.

وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ يحتمل أَن تكون مخاطبة لآل داود، ويحتمل أَن تكون مخاطبة لمحمد ﷺ، وعلى كل حال ففيها تنبيه وتحريض، وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقول: اللهم اجعلني من القليل، فقال له: ما هذا الدُّعاءُ؟ فقال: أَردت قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾، فقال عمر: كل الناس أَعلم من عمر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[٥]، والقِلَّة أَيضاً بمعنى الخمول منحة من الله تبارك وتعالى[٦]، فلهذا الدعاءِ محاسن.

---

(١) أخرجه الحاكم عن أبي هريرة (الجامع الصغير).

(٢) هو ثابت بن أسلم البُناني ـ بضم الباءُ وتخفيف النونين ـ أبو محمد البصري، ثقة، عابد، من الرابعة، مات سنة بضع وعشرين وله ستٌّ وثمانون. (تقريب التهذيب).

(٣) الخُشْكَارُ: الخبز الأسمر غير النقي، (فارسي). عن المعجم الوسيط.

(٤) الدَّرْمَك: دقيق الحُوَّارى، وهو الدقيق الأبيض.

(٥) من الآية (٢٤) من سورة ﷺ.

(٦) لعله يريد البُعْد عن الكبرياءِ والاغترار بالمظاهر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

الضمير عائد على سليمان عليه السلام، و(قَضَيْنَا) بمعنى: أنفذنا وأخرجناه إلى حيِّز الوجود، وإلاَّ فالقضاءُ الأخير به متقدم في الأزل، وروي عن ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهما في قَصَصها أن سليمان عليه السلام كان يتعبَّد في بيت المقدس، وكان ينبت في محرابه كل سنة شجرة، فكان يسألها عن منافعها ومضارها وسائر شأنها فتخبره، ويأمر بها فتقلع وتصرف في منافعها، أو تُغرس لتتناسل، فلما كان عند موته خرجت شجرة فقال لها: ما أنت؟ قالت: أنا الخروب، خرجت لخراب مُلْكك هذا، فقال: ما كان الله ليخربه وأنا حيٌّ، ولكنه لا شكَّ حضور أجلي، فاستعد عليه السلام وغرسها، وصنع منها عصاً لنفسه، وجدَّ في عبادته، وجاءَه بعد ذلك مَلَك الموت، فأخبره أنه قد أُمر بقبض روحه، وأنه لم يبق له إلاَّ مدة يسيرة، فروي أنه أمر الجن حينئذ فصنعت له قُبَّة من زجاج تشفُّ، وحصل فيها يتعبد، ولم يجعل لها باباً، وتوكأ على عصاه على وضع يتماسك معه وإن مات، ثم توفي ﷺ على تلك الحالة، ورُوي أنه استعد في تلك القبة بزاد سَنَة، وكان الجن يتوهمون أنه يتغذى باللَّيل، وكانوا لا يقربون من القُبَّة، ولا يدخلون من كُوًى كانت في أعاليها، ومن رام ذلك منهم احترق قبل الوصول إليها، هذا في مدة حياة سليمان عليه السلام في القُبَّة، فبقيت تلك الهيبة على الجن، وروي أن القبة كان لها باب، وأن سليمان أمر بعض أهله بكتمان موته عن الجن والإنس، وأن يترك على حاله تلك سنةً، وكان غرضه في هذه السنة أن يعمل الجن عملاً كان قد بُدِىءَ في زمن داود عليه السلام وقدَّر أنه بقي منه عمل سنة، فأحب الفراغ منه، فلما مضى لموته سنة خرَّ عن عصاه، وقد أكلتها الأرضة، وهي الدودة التي تأكل العود، فرأت الجن انخراره فتوهمت موته، فجاءَ جسور منهم فاقترب فلم يحترق، ثم عاد فقرب أكثر، ثم قرب حتى دخل من بعض الكُوى فوجد سليمان عليه السلام ميتاً فأخبر بموته، فنظر ذلك الأجل فقدر أنه سنة، قال بعض الناس: جُعلت الأرضة فأكلت يوماً وليلة، ثم قيس ذلك بأكلها في العَصَا فعُلم أنها أكلت منذ سنة، فهكذا كانت دلالة دابة الأرض على موته. وللمفسرين: في هذا القصص إكثارٌ عُمْدَتُهُ

ما ذكرناه. وقال كثير من المفسرين ﴿دَابَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾: سوسة العود، وهي الأَرضة. وقرأ ابن عباس، والعباس بن الفضل: [الأَرَضِ] بفتح الرَّاءِ، جمع أَرضة، فهذا يقوي ذلك التأويل. وقالت فرقة: ﴿دَابَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾: حيوان من الأَرض، شأنه أن يأكل العود، وذلك موجود، وليست السُّوسة من دوابِّ الأَرض. وقالت فرقة منها أَبو حاتم اللغوي: [الأَرْضُ] هنا مصدر «أَرِضَت الأَثوابُ والخشبُ» إذا أَكلتها الأَرَضة، كأَنه قال: دابة الأَكل الذي هو بتلك الصورة، على جهة التَّسَوُّس.

وفي مصحف عبد الله: [أَكَلَتْ مِنسَأَتَهُ]، والمِنْسأَة هي العصا، ومنه قول الشاعر:

إِذَا دَبَبْـتَ عَلَـى المِنْسَـاةِ مِـنْ كِبَـرٍ ... فَقَـدْ تَبَاعَـدَ مِنْـكَ اللَّهْـوُ والْغَـزَلُ(١)

وكذا قرأَت جماعة من القُرَّاءِ بغير همز، منها أَبو عمرو، ونافع، قال أَبو عمرو: ولا أَعرف له اشتقاقاً، فأَنا لا أَهمزها؛ لأَنها إِن كانت مما لا يُهمز فقد احتطْتُ؛ لأَنه لا يجوز لي همز ما لا يهمز، وقال غيره: أَصلها الهمز، وهي من المنسأَة بهمزة مفتوحة، من: «نَسأْتُ الإِبلَ والغنمَ والنَّاقَةَ» إذا سُقْتَهَا، ومنه قول طرفة:

أَمُـونٌ كعيـدانِ الأَرانِ نَسَـأْتُهَـا ... عَلَـى لاحِـبٍ كـأَنَّـهُ ظَهْـرُ بُـرْجُـد(٢)

---

(١) البيت في (اللسان ـ نسأ) وفي (التاج ـ نسأ)، أما صاحب اللسان فقد استشهد به ـ نقلاً عن الجوهري ـ على أن المِنْسأَة هي العَصَا، قال: «وأصله الهمز، وقد ذكره»، وأما صاحب التاج فقد استشهد به على أن يكون بغير همز، والرواية فيهما «دَبَبْتُ»، والبيت من شواهد أبي عبيدة في (مجاز القرآن)، والرواية فيه «حَبَيْتُ»، قال: ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ وهي العصا، وأصلها من: نَسَأْتُ بها الغنم، وهو من المهموز الذي تركت العرب الهمزة من أسمائها، ويهمزون الفعل منها، كما تركوا همزة النبيِّ، والبريَّة، والخابية، وهو من: أنبأْتُ، ومن: برأْتُ، ومن: خبأْتُ.

(٢) البيت من معلقة طرفة، ذكره في وصفه للناقة، ورواية الديوان: «أمون كألواح الأران»، والأمون: التي يُؤمن عثارها، والأران: التابوت العظيم، ونسَأْتها: سُقْتها ورواية الديوان (نَصَأْتها) بالصاد بمعنى: زجرتُها ـ وعلى هذا فلا شاهد في البيت ـ، واللأحب: الطريق الواضح، والبُرْجدُ: الكساءُ المخطط. يقول: هذه الناقة الموثَّقة الخلق يؤمن عثارها في أثناءِ العدو، وعظامها ضخمة قوية كأنها ألواح التابوت العظيم، وقد سقتها على طريق واضح كأنه كساءٌ مخطط في عرضه، والبيت يقدم كثيراً من الوصف والحديث عن الناقة، فهي ناقة قوية، مأمونة في سيرها من العثار، وهذا هو السبب فيما سبق أن ذكره من أنه يُمْضي هَمَّه بها، وعظامها كبيرة متينة تشبه ألواح التوابيت الضخمة التي يوضع فيها الموتى، ثم إنه يسوقها أو يزجرها بعصاه، والطريق الذي تسير فيه واضح مخطط، ومع هذا الحشد الكثير من الأوصاف والمعلومات فإن التراكيب اللغوية دقيقة سهلة ليس فيها تكلف ولا تقديم أو تأخير.

ويُروى: «وعَنْسٍ كألْواحِ»، وخففت همزتها جملة، وكان القياسُ أَن تخفف بيْنَ بيْنَ. وقرأ باقي السبعة على الأَصل بالهمز. وقرأ حمزة: [مَنْسَاتَهُ] بفتح الميم وبغير همز، وقرأت فرقة: [مِنْسأْتهُ] وهذا لا وجه له إِلاَّ التخفيف في تسكين المتحرك لغير علة، كما قال امرؤُ القيس:

فـالْيَـوْمَ أَشْـرَبْ غَيْـرَ مُسْتَحْقِـبٍ   إِثْمـاً مِـنَ اللهِ وَلاَ وَاغِـلِ(١)

وقرأت فرقة: [مِنْ سَأتِهِ] بفصل [مِنْ] وكسر التَّاءِ في [سَأَتِهِ]، وهذه تنحو إِلى: سِيَةَ القوس؛ لأَنه يقال: سِيَة وسأَة، فكأَنه قال: «من سأَتِه» ثم سكن الهمزة، ومعناه: من طرف عصاه، أنزل العصا منزلة القوس.

وقال بعض الناس: إِن سليمان عليه السلام لم يمت إِلاَّ في سفر مضطجعاً، ولكنه كان في بيت مبني عليه، وأَكلت الأَرَضَة عتبة الباب حتَّى خَرَّ البيت فعلم موتُه، وهذا ضعيف(٢).

وقرأَ الجمهور: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ بإِسناد الفعل إِليها، أَي: بانَ أَمْرُهَا، كَأَنه قال: افتضحت الجنُّ، أَي للإِنس، هذا تأْويل ويحتمل أَن يكون قوله: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ بمعنى: علمت الجنُّ وتحقَّقت، ويريد بالجن: جمهورهم والفَعَلَة منهم والخدَمة، ويريد بالضمير في (كَانُوا) رؤَساءَهم وكبارهم؛ لأَنهم هم الذين يدَّعون علم الغيب لأَتباعهم من الجنِّ والإِنس ويُوهمونهم ذلك، قاله قتادة، فَتَبَيَّن الأَتباعُ أَن الرؤوس لو

---

(١) البيت من قصيدة قالها امرؤ القيس بعد ظفره ببني أسد، وقبله يقول:

حلَّـتْ لِـيَ الخَمْـرُ وكُنْـتُ امْـرَءًا   عنْـدَ شُـرْبِهَـا فـي شُغُـلٍ شـاغِـلِ

والمُسْتَحْقِبُ: المكتَسب للإثم الحاملُ له، والواغلُ: الذي يدخل على القوم وهم يشربون من غير أن يُدْعَى، ورواية الديوان: «فاليوم أُسْقَى» بدلا من «أشرب»، يقول: إنه بعد انتصاره على أعدائه بني أسد حلَّت له الخمر التي كان مشغولاً عنها بطلب الثأر لأبيه، فهو اليوم يشرب ما يريد. والشاهد أنه سكن المتحرك لغير علَّة عندما سكَّن الباءَ من (أشْرَبْ) دون سبب إلا مجرد التخفيف وضرورة الشعر، قال الأعلم: وذلك في حال الرفع والوصل. وقد اعترض المبرد على سيبويه وقال: إنما الرواية: فاليومَ فاشربْ، وعلى هذا فلا شاهد فيه.

(٢) لأن معنى ذلك أن المِنْسَأة هي عتبة البيت، ولو كان كذلك وعاد الضمير عليها لكان التركيب: «فلما خرَّتْ» بتاءِ التأنيث، ولا يجوز حذف هذه التاءِ إلا في ضرورة الشعر ولا يكون ذلك على معنى العود لأنه قليل، قال ذلك أبو حيان في البحر المحيط لبيان سبب الضعف.

كانوا عالمين ما لبثوا. و(أَنْ) ـ على التأويل الأول ـ بدل من (الْجِن)، وعلى التأويل الثاني مفعولة محضة، وقرأ يعقوب: ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ على الفعل المجهول، أي: تبيَّنَها النَّاسُ، و(أنْ) ـ على هذه القراءَة ـ بدلٌ، ويجوز أن تكون في موضع نصب بإسقاط حرف الجرِّ، أَي: بأَنْ، على هذه القراءَة، وعلى التأويل الأول من القراءَة الأُولى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

مذهب سيبويه أن (أَنْ) في هذه الآية لا موضع لها من الإعراب، وإنما هي مُؤذنة بجواب ما تنَزَّلَ منزلة القَسَم من الفعل الذي معناه التَّحقُّق واليقين؛ لأَن هذه الأفعال التي هي: تبيَّنت وتحقَّقت وعَلمت وتيقَّنت ونحوها تحلُّ محلَّ القَسَم في قولك: علمتُ أَن لو قام زيد ما قام عمرٌو، وكأَنَّك قُلْتَ: والله لو قام زيد ما قام عمرٌو، فقوله: ﴿مَا لَبِثُوا﴾ ـ على هذا القول ـ جواب ما تنزَّل منزلة القَسَم لا جواب (لَوْ)، وعلى الأَقوال الأُول جواب (لَوْ)، وفي كتاب النحاس إشارةٌ إلى أنه يقرأُ بنصب [الْجِنَّ]، أَي: تَبَيَّنَت الإِنْسُ الْجِنَّ، و﴿الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ هو العمل في تلك السُّخرة، والمعنى أَن الجن لو كانت تعلم الغيب لما خفي عليها أَمر سليمان عليه السلام، وقد ظهر أَنه خفي عليها بدوامها في الخدمة الصعبة وهو ميت، فالمُهينُ: المُذِلُّ، من الهوان. قال الطبريُّ: وفي بعض القراءَات [«فَلَمَّا خرَّ تبَيَّنَتِ الإِنْسُ أَنَّ الْجِنَّ لَوْ كَانُوا»]، وحكاها أَبو الفتح عن ابن عباس، والضحاك، وعلي بن الحسين، وذكر أَبو حاتم أَنها كذلك في مصحف ابن مسعود، وأَكثَر المفسرون في قصص هذه الآية بما لا صحة له، ولا تقتضيه أَلفاظ القرآن، وفي معانيه بُعْد، فاختصرته لذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾.

هذا مثل لقريش بقوم أنعم الله عليهم وأَرسل إليهم الرُّسل فكفروا وأَعرضوا فانتقم منهم، أَي: فأَنتم أَيها القوم مثلهم. وسبأٌ: أَراد به القبيل، واختلف، لِمَ سُمِّي القبيل بذلك؟ فقالت فرقة: هو اسم امرأَة كانت أُمَّ القبيل، وقال الحسن بن أَبي الحسن في كتاب الرُّمَّاني: هو اسم موضع، فَسُمِّي القبيل به، وقال الجمهور: هو اسم رجل كان

أَباً للقبيل كلهم، قيل: هو ابن يشجب بن يعرب، ورُوي في هذا القول حديث أَن النبي ﷺ سأَله فَرْوة بن مُسَيْك[١] عن سبإٍ، ما هو؟ فقال: «هو اسم رجل مِنْهُ تناسلت قبائل اليمن»[٢].

وقرأَ نافع، وعاصم، وأَبو جعفرو وشيبة، والأَعرج: (لِسَبَإٍ) بهمزة منونة مكسورة، على معنى الحَيِّ، وقرأَ أَبو عمرو، والحسن: [لِسَبَأَ] بهمزة مفتوحة غير مصروف، على معنى القبيلة.

وقرأَ جمهور القراءِ: (مَسَاكِنِهِم)؛ لأَن كلَّ أَحد له مسكن، وقرأَ الكسائي وحده: [فِي مَسْكِنِهِم] بكسر الكاف، أَي: في موضع سكناهم، وهي قراءَة الأَعمش، وعلقمة، قال أَبو علي: والفتح حَسَنٌ أَيضاً، لكن هذا كما قالوا: «مَسْجِد»، وإِن كان سيبويه يرى هذا اسم البيت، وليس موضع السجود، قال: هي لغة الناس اليوم، والفتح هي لغة الحجاز، وهي اليوم قليلة، وقرأَ حمزة، وحفص: [مَسْكَنِهم] بفتح الكاف، على المصدر، وهو اسم جنس يراد به الجمع، وهي قراءَة إِبراهيم النخَعي، وهذا الإِفراد هو كما قال الشاعر:

كُلُوا في بَعْض بَطْنِكُمُ تَخِفُّوا[٣]

---

(١) هو فروة بن مُسَيْك ـ بالسِّين مصغراً ـ الْمُرادي، ثم الغُطيفي ـ بمعجمة مصغَّراً ـ، صحابي سكن الكوفة، يكنى أبا عمير، واستعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه. (تقريب التهذيب).

(٢) أخرجه أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، والترمذي وحسَّنه، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن فَرْوة بن مُسَيْك المرادي رضي الله عنه، قال: أتيتُ النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ألا أُقاتل من أدبر من قومي بمن أقبل منهم؟ فأذن لي في قتالهم وأمَّرني، فلما خرجتُ من عنده سأل عنِّي: «ما فعَل الغُطَيْفي؟ فأُخبر أني قد سرتُ، قال: فأرسل في أثري فردَّني، فأتيته وهو في نفر من أصحابه، فقال: «ادع القوم، فمن أسلم منهم فاقبل منه، ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك»، قال: وأُنزل في سبإٍ ما أُنزل؛ فقال رجل: يا رسول الله: وما سبأٌ؟ أرض أو امرأةٌ؟ قال: «ليس بأرض ولا بامرأة، ولكنه رجل وَلَد عشرة من العرب، فتَيَامَن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة، فأما الذين تشاءَموا فلَخْم وجُذام وغَسّان وعاملة، وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشْعَرِيُّون وحِمْير وكِنْدة ومَذْحج وأنْمَارٌ»، فقال رجل: يا رسول الله، وما أنمار؟ قال: «الذين منهم خَثْعم وبجيلة». (فتح القدير، والدر المنثور).

(٣) يريد الشاعر: «في بطونكم» فاستعمل المفرد وأراد الجمع، وسيبويه يرى ذلك ضرورة، قال أبو حيان الأندلسي: «ومن أفرد ينبغي أن يُحمل على المصدر، أي: في سكناكم حتى لا يكون مفرداً يراد به الجمع».

وكما قال الآخر:

. . . .   قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ(١)

و[آيَةٌ] معناه: عبرة وعلامة على فضل الله وقدرته، و(جَنَّتَان) ابتداءٌ، وخَبَرُه في قوله سبحانه؛ ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾(٢)، أو خبر ابتداءٍ تقديره: هي جنَّتان، وهي جملةٌ بمعنى: هذه حالهم، والبدل من (آيَة) ضعيف، وقد قاله مكيٌّ وغيره، وقرأ ابن أَبي عبلة: [﴿آية جنتين﴾] بالنصب، وروي أَنه كان في ناحية اليمن وادٍ عظيم بين جبلين، وكانت حُقَّتا(٣) الوادي عند أَول الجبلين جسر عظيم من حجارة من الجبل فارتدع الماءُ فيه وصار بحيرة عظيمة، وأُخذ الماءُ من جَنْبَتَيْها فمشى مرتفعاً يسقي جنات جنبتي الوادي، قيل: بَنَتْه بلقيس، وقيل: بناه حِمْير أَبو القبائل اليمنية كلها، كانوا بهذا الحال في أَرغد نِعم، وكانت لهم بعد ذلك قُرًى ظاهرة مُتَّصلة من اليمن إِلى الشَّام، وكانوا أَرباب تلك البلاد في ذلك الزمان.

وقوله تعالى: ([كُلُوا]): فيه حذف، كأَنه قال: قيل لهم: كُلُوا، و([طَيِّبَةٌ]) معناه: كريمة التربة، حَسَنَة الهواءِ، رغدة من النَّعيم، سليمة من الهوامِّ والمضار، هذه عبارات المفسرين، وكان ذلك الوادي ـ فيما رُوي عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ـ لا يدخله برغوث ولا قملة ولا بعوضة ولا عقرب ولا شيءٌ من الحيوان الضَّار، وإِذا جاءَ به أَحد من سفر سقط عند أَول الوادي، ورُوي أَن الماشي كان إِذا مَشَى بمكْتَل(٤)

---

(١) هذا عجز بيت سبق الاستشهاد به على أن (سبأ) تكون ممنوعة من الصرف على أنها اسم قبيلة من اليمن، وسبب المنع من الصرف هو العلمية والتأنيث، ويمكن ملاحظة الأصل، وهو أنها اسم أبي القبيلة، فهو مذكر، ولهذا يجوز صرفه، والبيت بتمامه:

الـــواردُونَ وتَيْـــمٌ فـــي ذرى سَبَـــإٍ   قَـدْ عَـضَّ أعْنَـاقَهُـمْ جِلْـدُ الْجَـوَامِيـسِ

أما الشاهد هنا فهو استعمال المفرد والمراد به الجمع، فقد قال: «جلد الجواميس»، والمراد: جلود الجواميس»، وهي التي تؤخذ منها القيود التي يربطون بها عند الأسر. (راجع المجلد السادس ص٥٢٩، هامش ٤).

(٢) قال أبو حيان: «ولا يظهر: لأنه نكرة لا مُسَوِّغ للابتداءِ بها، إلا إن اعتقد أن ثمة صفة محذوفة، أي: جنَّتان لهم، أو: جنَّتان عظيمتان، وعلى تقدير ذلك يبقى الكلام مفلتاً مما قبله».

(٣) الحُقَّة والحُقُّ: الأرض المطمئنة.

(٤) المِكْتَلُ والمِكْتَلَةُ: الزَّبيل الذي يحمل فيه التمر والعنب إلى الجرين، وفي حديث الظِّهار أنه أُتِيَ بِمِكتل=

فوق رأسه بين أشجاره كان يمتلىءُ مِكْتَله دون أن يمدَّ يداً، ورُوي أن هذه المقالة من الأمر بالأكل والشرب والتوقيف على طيب البلد والغفران من الرَّبِّ مع الإيمان هي من قول الأنبياءِ لهم. وقرأ رُوَيْسٌ عن يعقوب: [«بلْدَةً طَيِّبَةً وَرَبًّا غَفُوراً»] بالنصب في الكلِّ، وبعث إليهم ـ فيما رُوي ـ ثلاثة عشر نبيًّا فكفروا بهم وأعرضوا، فبعث الله على ذلك السَّدِّ جراداً أعمى توالد فيه وخرَّقَه شيئاً بعد شيءٍ، وأرسل سيلاً في ذلك الوادي فحمل ذلك السَّدَّ، فيُروى أنه كان من العِظَم وكثرة الماءِ بحيث ملأ ما بين الجبلين وحمل الجنَّات وكثيراً من الناس ممن لم يمكنه الفِرار، ورُوي أنه لما خرق السَّد كان ذلك سبب يُبْس الجنَّات فهلكت بهذا الوجه، ورُوي أنه صرف الماءَ من موضعه الذي كان فيه أولاً فتعطَّل سقْيُ الجنَّات.

واختلف الناس في لفظة ([الْعَرِم]) ـ فقال المغيرة بن حكيم، وأبو ميسرة: العَرِمُ في لغة اليمن جمع عِرْمَة وهو كل ما بُني أو سُنِم[١] ليُمْسك الماءَ، ويقال لذلك بلغة الحجاز: المُسَنَّاة، كأنها الجسور[٢] والسِّداد[٣] ونحوها، ومن هذا المعنى قول الأعشى:

وفِـي ذَاكَ لِلْمُـؤْتَسِـي أُسْـوَةٌ ... ومَـأْرَبُ عـضَّ عَلَيْهَـا الْعَـرِمْ

رِخَـامٌ بَنَـاهُ لَهُـمْ حِمْيَـرٌ ... إذا جَـاءَ مَـوَّارُهُ لَـمْ يَـرِمْ[٤]

= من تمر، وهو بكسر الميم، كأن فيه كُتَلاً من التمر، أي قِطعاً مجتمعة.

(١) سَنِمَ الشَّيْءُ: ارتفع على وجه الأرض، فهو سَنِمٌ، وهي سَنِمَة، ومنه: سَنِمَ البعير بمعنى: عظُم سَنَامه.

(٢) قال النحاس: المُسَنَّاةُ: هي التي يُسميها أهل مضرَ الجِسْرَ.

(٣) السِّدادُ: ما سدَدْتَ به خَللاً، ويقال: سِدادُ القارورة: لما يسُدُّ فمها.

(٤) هما من قصيدة قالها الأعشى يمدح قيس بن معديكرب، والإشارة بقوله: (ففي ذلك) إلى الموت في البيت قبلهما:

ولَلْمَـوْتُ خَيْـرٌ لِمَـنْ نـالَـهُ ... إذا المَـرْءُ أُمَّتُـهُ لَـمْ تَـدُمْ

والرواية في الديوان: (ومأربُ قَفَّى) بدلا من (عفّى)، والموَّارُ: المضطرب المتحرك، وفي الديوان: (إذا جاءَ ماؤُهُم)، وفسَّر أبو عبيدة قوله: (لَمْ يَرِمْ) فقال: أيْ حَبَسَه. وبعد البيتين يقول:

فَـأَرْوَى الـزُّرُوعَ وأَعْنَـابَهَـا ... عَلَـى سَعَـةٍ مَـاؤُهُـمْ إذْ قُسِـمْ

فَعَـاشُـوا بـذلِـكَ فـي غِبْطَـةٍ ... فجـارَ بِهِـمْ جـارِفٌ مُنْهَـزِمْ

ومنه قول الآخر:

مِـنْ سَبَـأَ الْحَـاضِـرِيـنَ مَـأْرِبَ إِذْ يَبْنُـونَ مِـنْ دُونِ سَيْلِهَـا الْعَـرِمَـا(١)

وقال ابن عباس، وقتادة، والضَّحاك: اسم وادي ذلك الماءُ بعينه الذي كان السَّدُّ يُبنى له، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما أيضاً: إن سيل ذلك الوادي كان يصل إلى مكة ويُنتفع به، وقال ابن عباس: العَرِم: الشديد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكأنه صفة لِلسَّيْل، من العَرَامة، والإضافة إلى الصفة مبالغة، وهي كثير في كلام العرب.

وقالت فرقة: العَرِم: اسم الجُرُذِ، وهذا ضعيف. وقيل: العَرِم: صفةٌ للمطر الشديد الذي كان عند ذلك السَّيْل.

وقوله تعالى: ﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين﴾ قولٌ فيه تجوُّزٌ واستعارة؛ وذلك أن البدل من الخَمْطِ والأَثْل لم يكن جَنَّات، لكن هذا كما تقول لمن جُرِّد ثوباً جيداً وضُرب ظهره: «هذا الضَّرْبُ ثوبٌ صالحٌ لك»، ونحو هذا. وقوله: (ذَوَاتَيْ) تثنية «ذات». و«الْخَمْطُ»: شجر الأَرَاكِ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وقيل: «الْخَمْطُ»: كل شجر له شوك وثمرته كريهة الطعم بمرارة، أَو حمصه، أو نحوه، ومنه: تَخَمَّط اللَّبنُ: إذا تغيَّر طعمه. و«الأَثْلُ»: ضربٌ من الطرفاءِ، هذا هو الصحيح، وكذا قال أبو حنيفة في كتاب النبات، قال الطبري: وقيل: هو شجر شبيه بالطرفاءِ، وقيل: إِنَّه السَّمُر. و«السِّدْرُ» معروف، وله نبق شبيه العنَّاب، لكنه دونه في الطعم بكثير. و«لِلْخَمْطِ» ثمرٌ غثٌّ هو البَرِيرُ، و«لِلأَثْلِ» ثمر قليل الغَنَاءِ غير حسن الطعم.

وقرأَ ابن كثير، ونافع: [أُكْلِ] بضم الهمزة وسكون الكاف. وقرأَ الباقون بضم الهمزة وضم الكاف، ورُوي أَيضاً عن أَبي عمرو السكون في الكاف، وهما بمعنى

---

(١) البيت في (اللسان ـ سَبَأَ) غير منسوب، قال: «وكان أبو عمْرو يقرأُ: (لِسَبَأَ)، قال: من سبأَ. . . البيت»، فهو شاهد على أن (سَبَأَ) يترك صرفه على إرادة القبيلة، كما أنه يصرف على إرادة الحيِّ كما قال ابن عطية، وشاهده:

أَضْحَـتْ يُنَفِّـرُهَـا الْـوِلْـدَانُ مِـنْ سَبَـإٍ كَـأَنَّهُـمْ تَحْـتَ دَفَّيْهَـا دَحَـارِيـجُ

الْجَني والثَّمرة، ومنه قوله تعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا﴾[١] أي جَناهَا. وقرأ الجمهور بتنوين (أُكُلٍ)، وصِفَتُه (خَمْطٍ) وما بعده، قال أَبو علي: البدل في هذا لا يحسن؛ لأَن «الْخَمْط» ليس بالأُكل، و«الأُكُل» ليس بالخمط نفسه، والصفة أَيضاً كذلك؛ لأَن الخَمْط اسمٌ لا صفة، وأَحسن مافيه عطف البيان، كأَنه بيَّن أن «الأُكُل» هذه الشجرة ومنها، ويُحَسِّن قراءَة الجمهور أَن هذا الاسم قد جاءَ مجيءَ الصفة في قول الهُذَليِّ:

عُقَـارٌ كَمَـاءِ النِّـيءِ ليْسَـتْ بِخَمْطَـةٍ وَلاَ خلَّةٍ يَكْوِي الشُّرَوب شِهَابُهَا[٢]

وقرأَ أَبو عمرو بإِضافة [أُكُلِ] إِلى [خَمْطٍ] وبضم الكاف، أَي: ﴿أُكُلِ خَمْطٍ﴾، ورجَّح هذه القراءَة أَبو علي.

وقوله تعالى: (ذَٰلِكَ) إِشارة إِلى ما أَجراه عليهم، وقوله: ﴿وهل نجازي﴾، أَي: يُنَاقش ويُعارض[٣] بمثل فعله، قدراً بقدر؛ لأَن جزاءَ المؤمن إِنما هو بتفضُّلٍ وتضعيف، وأَمَّا الذي لا يُزادُ ولا ينقص فهو الكفور، قاله الحسن بن أَبي الحسن، وقال طاوس: هي المناقشة، وكذلك إِن كان المؤمن ذا ذُنوب فقد يُغفر له ولا يجازى، والكافر يُجازى ولا بُدّ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «من نُوقِش الحساب عُذِّب»[٤]، وقرأَ جمهور القراءِ: [يُجازَى] بالياءِ وفتح الزَّاي، وقرأَ حمزة، والكسائي: [نُجَازِي] بالنون وكسر الزَّاي [الْكَفُورَ] بالنصب، وقرأَ مسلم بن جُنْدب[٥]: [وهل يجزى]، وحكى عنه أَبو عمرو الدَّاني أَنه قرأَ [يُجْزِي] بضم الياءِ كسر الزَّاي. قال

---

(١) من الآية (٢٥) من سورة (إبراهيم).

(٢) البيت في (اللسان ـ خلَلَ)، والعُقَارُ: التي تعاقر العقلَ أو الدَّنَّ، أي: بقي منها بقية في أسفل الدَّنِّ لطولِ مرِّ السِّنين عليها، وماءُ النِّيءِ: ما قَطَر من اللحم، يريد: هي في لونه وصفائه، والخَمْطة: التي أَخذت طعم الإدراك ولم تُدرك، والخَلَّةُ: الحامضة، ولا خَلَّة: أي: في مجاوزة القَدْرِ، يعني لم تخرج من حال الخمر إلى حال الحموضة والخَل، يقول: هي في لون ماء اللحم الذي لم ينضج بعد، وليست كالخَمْطَة التي لم تدرك بعد، ولا كالخَلَّة التي جاوزت القدر فصارت خلاً، فليس يكوى الشُّروبَ شهابُها، أي: لا يؤذيهم ما فيها من حدَّة ونار، والشُّروب: جمع شَرْب وهم الندامى.

(٣) استعمل هذه الصيغة لأن قراءة العامة هي: «وهل يجازى»، والمعنى: يُنَاقَش ويُعَارَضُ.

(٤) رواه البخاري ومسلم، عن عائشة رضي الله عنها، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث حسن، وروى الطبراني في الكبير (من نوقش المحاسبة هلك).

(٥) هو مسلم بن جُندب الهُذَلي، المدني، القاص، ثقة فصيح قارىء، من الثالثة، مات سنة ست ومئة. (تقريب التهذيب).

الزجاج: يقال: جَزَيْتُ في الخير، وجازيت في الشَّر. فتَتَرَجَّح قراءَة الجمهور.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾.

هذه الآية وما بعدها وصف لحالهم قبل مجيءِ السَّيل، وهي أَن الله تبارك وتعالى ـ مع ما كان منهم ـ منحهم من الجَنَّتَيْن والنِّعمة الخاصة بهم، كان قد أَصلح لهم البلاد المتَّصلة بهم وعمَّرها، وجعلهم أَربابها، وقدَّر السَّير فيها بأَن قرَّب القُرَى بعضها من بعض، حتى كان المسافر من مأْرب إِلى الشام لَيَبيتُ في قرية ويَقِيلُ[1] في قرية، فلا يحتاج إِلى حَمْل زاد، و«القُرَى»: المدن، ويقال للجمع الصغير قرية أَيضاً، وكلها من: قَرَيْتُ، أَي جَمعْتُ، والقُرى التي بورك فيها هي قرى الشام بإِجماع من المفسرين، والقرى الظَّاهرة هي التي بين الشَّام ومأْرب، وهي الصغار التي هي البوادي. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي قرى عربية بين المدينة والشَّام، وقاله الضحاك، واختلف في معنى (ظَاهِرة) ـ فقالت فرقة: معناه: مُستعلية مرتفعة في الإِكام والظِّراب[2]، وهي أَشرف القرى، وقالت فرقة: يظهر بعضها من بعض، فهي أَبداً في قبضة عين المسافر، ولا يخلو من رؤْية شيءٍ منها بهذا الوجه. والذي يظهر لي أَن معني (ظاهِرَة): خارجة عن المدن، فهي عبارة عن القرى الصغار التي في ظواهر المدن، وإِنما فصل بهذه الصِّفة بين القرى الصغار وبين القرى المطلقة التي هي المُدن؛ لأَن ظواهر المدن ما خرج عنها في الفيافي والفحوص[3]، ومنه قولهم: نزلنا بظاهر فلانة، أَي: خارجاً عنها. وقوله: (ظَاهِرَةً) نظير تسمية النَّاس إِيَّاها البادية والضاحية، ومن هذا قول الشاعر:

فَلَوْ شَهِدَتْني مِنْ قُرَيْشٍ عِصَابَةٌ ... قُرَيْشُ الْبِطَاحِ لاَ قُرَيْشُ الظَّواهِرِ[4]

---

(١) يقال: قالَ يَقيل قَيْلاً: نام وسط النهار، فهو قائل.

(٢) الإِكام: جمع أَكَمَةٍ، وهي التَّلُّ، ويقال في جمع أَكَمَةٍ أَيضاً: آكامٌ وأُكَمٌ. والظِّراب: جمع ظَرِبٍ، وهو الجبل المنبسط، وفي حديث الاستسقاءِ: «اللهم على الآكام والظِّراب وبطون الأَودية».

(٣) الفيافي: جمع فيفاءَ، وهي الصحراءُ الواسعة المستوية. والفُحوص كالأَفاحيص: جمع أُفْحوصٍ، وهي حفرة تحفرها القطاة أو الدجاجة في الأرض لتبيض وترقد فيها.

(٤) البيت في (التاج، واللسان ـ بَطَحَ)، وهو غير منسوب، وكذلك ذكر شطره الثاني صاحب (أساس =

يعني الخارجين عن بطحاء مكة، وفي حديث الاستسقاءِ: «وجاءَ أَهل الضواحي يشتكون: الغرق الغرق»[١].

قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾، هو ما ذكرناه من أن المسافر فيها كان يَقيل في قرية ويبيت في أُخرى على أَيِّ طريقٍ سَلك، لا يعوزه ذلك. وقوله تعالى: ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا﴾ معناه: قلنا لهم. و[آمِنِينَ] معناه: من الخوف من الناس المفسدين، وآمنين من الجوع والعطش وآفات المسافر.

ثم حكى عنهم مقالة قالوها على جهة البَطَر والأَشَر، وهي طلب البُعْد بين الأَسفار، أو الإِخبار بأَنها بعيدة على القراءَات الأُخرى، وذلك أَن نافعاً، وعاصماً، وحمزةَ، والكسَّائيَّ قرأوا: ﴿بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ بكسر العين على معنى الطلب أَيضاً، فهاتان معناهما الأَشر بأَنهم ملُّوا النِّعمة في القُرب، وطلبوا استبدال الذي هو أَدنى بالذي هو خير[٢]. وفي كتاب الرُّماني أنهم قالوا: لو كان جنى ثمارنا أَبعد لكان أَشهر وأَكثر قيمة، وقرأَ ابن السميفع، وسفيان بن حسين، وسعيد بن أَبي الحسن ـ أَخو الحسن ـ[٣] وابن الحنفية: (رَبَّنَا) بالنصب [بَعُدَ بين أسفارنا] بفتح الباءِ وضم العين، وبنصب (بَيْنَ)

= البلاغة)، قال في التاج: «وبطحاءُ مكة وأَبطَحُها معروفة لانبطاحها، وقريش البطاحِ، الذين ينزلون أَباطح مكة وبطحاءَها، وقريش الظواهر: الذين ينزلون ما حول مكة، قال: فلو شَهِدَتني... البيت». وفي التهذيب عن ابن الأعرابي: «قريش البطاح هم الذين ينزلون الشِّعْب بين أَخْشَبي مكة، وقريش الظواهر الذين ينزلون خارج مكة، وأكرمهما قريش البطاح، وأَخشَبا مكة جَبَلاها: أبو قُبَيْس والذي يقابله». وعبارة أرباب الأنساب: «قريش الأباطح، ويقال: قريش البطاح؛ لأنهم صبابة قريش وصميمها الذين اختطوا بطحاءَ مكة ونزلوها، ويقابلهم قريش الظواهر الذين لم تسعهم الأباطح، والكلُّ قبائل»، قالوا: وفي قريش من ليس بأَبطحية ولا ظاهرية».

(١) الثابت في الصحيحين في حديث الاستسقاءِ الذي رواه أنس أن الذي اشتكى للنبي ﷺ من القحط هو رجل واحد، ثم اشتكى في الجمعة التالية من كثرة المطر، ولعلَّ هذه الجملة عن أهل الضواحي جاءَت في واحد من كتب الحديث الأخرى.

(٢) هم في هذا كبني إسرائيل حين قالوا: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ بعد أن كانوا في رغد من العيش، ويأكلون المنَّ والسَّلْوَى، وهم أيضاً كالنضر بن الحارث حين قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، فقتل يوم بدر بالسيف صبراً.

(٣) يعني الحسن البصري، فهو سعيد بن أبي الحسن البصري، قال عنه أحمد بن علي بن حجر العسقلاني في كتابه (تقريب التهذيب): «أخو الحسن، ثقة، من الثالثة، مات سنة مئة».

أَيضاً. وقرأَ سعيد بن أَبي الحسن ـ من هذه الفرقة ـ: [بَيْنُ] بالرفع وإِضافته إِلى الأَسفار[1]، وقرأَ ابن عباس، وأَبو رجاءٍ، والحسن البصري، وابن الحنفية: [رَبُّنَا] بالرفع [بَاعَدَ] بفتح العين والدال، وقرأَ ابن عباس، وابن الحنفية أَيضاً، وعمرو بن فايد، ويحيى بن يَعْمَر: [رَبُّنَا] بالرفع [بَعَّدَ] بفتح العين وشدها وفتح الدال. فهذه القراءَة معناها الإِخبار بأَنهم استبعدوا القريب، ورأَوْا أَن ذلك غير مقنع لهم، حتى كأَنهم أَرادوها متَّصلة الدور، وفي هذا تعسُّف وتسخط على أَقدار الله تعالى وإِرادته، وقلَّة شكر على نعمته، بل هي مقابلة النعمة بالتَّشكِّي. وفي هذا المعنى ونحوه مما اقترن بكفرهم ظلموا أَنفسهم ففرَّقهم الله تعالى، وخرَّب بلادهم، وجعلهم أَحاديث، ومنه المثل السائر: «تفرَّقوا أَيادي سبأَ»، و«أَيدي سبأَ»، يقال المثل بالوجهين، وهذا هو تمزُّقهم كل مُمَزَّق. وروي أَن رسول الله ﷺ قال: «إِن سبأَ أَبو عشر قبائل»[2]، فلما جاءَ السَّيْلُ على مأرب وهو اسم بلدهم تيامَن منهم ستة قبائل، أَي: تبددت في بلاد اليمن، وتشاءَمَتْ منها أَربعة، فالمُتَيَامِنة كِنْدة والأَزْد وأَشْعَر ومَذْحِج وأَنمار التي منها بَجِيلَة وخَثْعَم، وطائفة قيل لها: حِمْيَر، بقي عليها اسم الأَب الأَول، والتي تشاءَمت لَخْم وجُذَام وغَسَّان وخُزَاعة، نزلت تهامة، ومن هذه المتشائمة أَولاد قَيْلة، وهم الأَوس والخزرج، ومنها عاملة وغير ذلك.

ثم أَخبر تعالى محمداً عليه الصلاة والسلام وأُمَّته ـ على جهة التنبيه ـ أَن هذه القصص فيها آياتٌ وعِبَرٌ لكل مؤمن على الكمال، ومن اتصف بالصبر والشُّكر فهو المؤمن الذي لا تنقصه خلَّة جميلة بوجه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

---

(١) قال أَبو الفتح بن جني في المحتَسَبِ: «وتدلُّ هذه القراءَة على أن (بَيْنَ) ليس ظرفاً في قراءَة النصب، بل منصوب على المفعول به».

(٢) سبق تخريج هذا الحديث وذكر نصه كاملاً في الهامش (٢) من صفحة (١٧٣) من هذا المجلد.

قرأ نافع، وأبو عمرة، وابن عامر: [ولقد صدق] بتخفيف الدال (إبليسُ) رفعاً (ظَنَّهُ) نصباً على المصدر، وقيل: على الظرفية، أي: في ظَنِّه، وقيل: على المفعول، على معنى أنه لما ظن عمل عملاً يصدق به ذلك الظن، فكأنه إنما أراد أن يصدق ظنه، وهذا نحو من قولك: «أخطأتُ ظَنِّي وأصبتُ ظَنِّي». وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿صَدَّقَ﴾ بتشديد الدَّال، و«الظَّنُّ» ـ على هذا مفعول بـ(صَدَّقَ)، وهي قراءة ابن عباس، وقتادة، وطلحة، [وعاصم][1]، والأعمش. وقرأ الزُّهري، وأبو الهجهاج[2]، وبلال بن أبي بُرْدَة: [صَدَقَ] بتخفيف الدال [إبْلِيسَ] نصباً [ظَنُّهُ] رفعاً. وقرأت فرقة: [صَدَقَ] بتخفيف الدال [إبْلِيسُ] بالرفع [ظَنُّهُ] بالرفع على البدل، وهو بدل الاشتمال.

ومعنى الآية أن ما قال إبليس من أنه سيفتن بني آدم ويُغويهم، وما قال من أن الله لا يجد أكثرهم شاكرين، وغير ذلك كان ظنًّا منه وصدق فيهم، وأخبر الله تعالى عنهم أنهم اتَّبعوه، وهو اتِّباعٌ في كُفْر؛ لأنه في قصة قوم كفَّار، وقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ يدل على ذلك، [ومِن] في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لبيان الجنس لا للتبعيض؛ لأن التبعيض يقتضي أن فريقاً من المؤمنين اتبع إبليس.

و«السُّلْطَانُ»: الحُجَّة، وقد يكون الاستعلاءَ والاستقدار؛ إذ اللَّفظ من التَّسَلُّط، وقال الحسن بن أبي الحسن: والله ما كان له سوطٌ ولا سيف ولكنه استمالهم فمالوا بتزيينه. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي: لنعلم موجوداً؛ لأن العلم به متقدم أَوَّلاً. وقرأت فرقة: [إلا ليعلم] بالياءِ مضمومة على المجهول.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ آية تعجيز وإقامةُ حجَّة، ويُروى أن ذلك نزل عندالجوع الذي أصاب قريشاً. والجمهور على ﴿قُلُ ادعوا﴾ بضم اللاَّم، وروى عباسٌ عن أبي عمرو: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ﴾ بكسر اللام ﴿الَّذين﴾ يريد الملائكة والأصنام؛ وذلك أن قريشاً والعرب كان منهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يقول: نعبدها لتشفع لنا، ونحو

---

(١) هكذا بالتكرار في جميع النسخ الأصلية.

(٢) هكذا في النسخ الأصلية، وفي القرطبي، وفي كتاب إعجاز القرآن للنحاس. وهو في البحر المحيط: (أبو الجهجاه). وفي المحتسب روى أبو الفتح عن أبي حاتم قوله: «روى عُبَيْد بن عُقَيْل عن أبي الورقاءِ قال: سمعتُ أبا الهَجْهَاج ـ وكان فصيحاً ـ يقرأُ [إبْلِيسَ] بالنصب [ظَنُّه]، رفع». قال أبو الفتح: «معنى هذه القراءة أن إبليس كان سَوَّلَ له ظنُّه شيئاً فيهم، فصَدَقه ظنُّه فيما كان عقد عليه معهم من ذلك الشيء».

هذا، فنزلت هذه الآية معجزة للكلِّ منهم. ثم جاءَ بصفة هؤلاءِ الذين يدعونهم آلهةً، من أَنهم لا يملكون مِلْك الاختراع مثقال ذَرَّة في السماءِ ولا في الأَرض، وأَنهم لا شِرْكَ لهم فيها، وهذان نوعا المِلْك: إِمَّا استبدادٌ وإِمَّا مُشاركة، فنفى عنهم جميع ذلك، ونفى أَن يكون لله معينٌ في شيءٍ من قدرته، و«الظَّهيرُ»: المُعين. ثم تقرَّر في الآية بَعْدُ أَن الذين يظنون أنهم يشفعون لهم لا تصح منهم شفاعة لهم؛ إِذ هؤلاءِ كفرة، ولا يأْذن الله في الشفاعة في كافر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

المعنى: إن كلَّ من دعوتهم إِلٰهاً من دون الله لا يملكون مثقال ذرَة، ولا تنفع شفاعتهم إلاَّ بإِذن الله فيمن آمن، فكأَنه قال: ولا هم شفعاءَ على الحدِّ الذي ظننتم أَنتم.

واختلف المتأَولون في قوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ ـ فقالت فرقة: معناه: لمن أَراد له، وقالت فرقة: معناه: لمن أَذن له أن يشفع هو.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واللَّفظ يعمهما: لأَنه إِذا انفرد للشافع فلا شك أن المشفوع فيه مُعَيَّن له، وإِذا انفرد للمشفوع فيه فالشافع لا محالة عالمٌ مُعين لذلك. وانظر أن اللام الأُولى تشير إلى المشفوع فيه من قوله: (لِمَنْ)، تقول: شفعتُ لفلان.

وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي بضم الأَلف ـ من ﴿أُذِنَ﴾[1] ـ، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: ﴿أَذِنَ﴾ بفتحها والضمير في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ عائد على الملائكة الذين دعوهم آلهة، ففي الكلام حذف يدل عليه الظاهر، كأَنه قال: ولا هم شفعاءَ كما تحسبون أَنتم، بل هم عَبَدَة ومُستسلمون أَبداً حتى إِذا فُزِّع عن قلوبهم.

وتظاهرت الأَحاديث[2] عن رسول الله ﷺ أَن هذه الآية، أَعني قوله تعالى: ﴿حتى

(١) ما بين العلامتين ـ. . . ـ زيادة للتوضيح والبيان.
(٢) من هذه الأحاديث ما أخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والبخاري، وأبو داود، والترمذي، =

إذا فزّع عن قلوبهم﴾ إنما هي في الملائكة إذا سمعت الوحيَ إلى جبريل بالأمر يأمُر الله به سمعت كجَرِّ سلسلة الحديد على الصفوان، فتفزع عند ذلك تعظيماً وهيبة، وقيل: خوف أن تقوم الساعة، فإذا فرَغ ذلك فُزِّع عن قلوبهم، أي: أُطير الفزع عنها وكُشف، فيقول بعضهم لبعض ولجبريل: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟ فيقول المسؤولون: قال الحقَّ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، وبهذا المعنى من ذكر الملائكة في صدر الآيات تـتّسق هذه الآية على الأُولى[(١)]، ومن لم يشعر أن الملائكة مُشَارٌ إليهم من أوّل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ لم تّتصل له هذه الآية بما قبلها، فلذلك اضطرب المفسرون في تفسيرها، حتى قال بعضهم في الكفار ـ بعد حلول الموت ـ فُزِّع عن قلوبهم بفقد الحياة فرأَوْا الحقيقة، وزال فزعهم من شُبه ما يقال لهم في حياتهم، فيقال لهم حينئذ: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟ فيقولون: قال الحق، يُقِرُّون حين لا ينفعهم الإقرار. وقالت فرقة: الآية في جميع العالم، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ يريد: في القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والتأويل الأول في الملائكة هو الصحيح، وهو الذي تظاهرت به الأَحاديث. وهذان بعيدان.

وقرأ الجمهور: ﴿فُزِّعَ﴾ بضم الفاءِ وكسر الزَّاي[(٢)]، ومعناه: أُطير الفزع عنهم، وهذه الأَفعال جاءَت مخالفة لسائر الأفعال، لأن «فَعَّل» أصلها الإدخال في الشيءِ[(٣)]،

= وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماءِ والصفات، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماءِ ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، يفزعهم ذلك، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي قال الحقُّ، وهو العليُّ الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا، واحد فوق آخر ـ وصَفَّ سفيان بيده وفرّج بين أَصابعه، نصبها بعضها فوق بعض ـ فيسمع الكلمة فيلقيها إلى مَنْ تحته، ثم يُلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يُلقيها، وربما ألقاها قبل أن يُدركه، فيكذب معها مئة كذبة، فيقال: أَليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماءِ».

(١) ناقش أبو حيّان الأندلسي في «البحر المحيط» كلام ابن عطية هذا محاولاً إظهار بعض الخطأ فيه، فارجع إليه هناك، (٧ ـ ٢٧٨).

(٢) أي: مع تشديدها.

(٣) (فَعَّل) تأتي لمعان كثيرة، أوّلها وأصلها الإدخال في الشيءِ، يقال: فزعه بمعنى أَخافه وروَّعه، أي =

وقولك: فزَّعتُ زيداً معناه: أَزلتُ الفَزَعَ عنه. وكذلك: جزَّعته: أَزلت الجزعَ عنه، ومنه في الحديث: (فدخل ابن عباس على عمر فجزَّعَهُ)(١)، ومنه مَرَّضتُ فلاناً: أَزلتُ المرض عنه. وانظر أن مضارع هذه الأَفعال يلحق بـ(تَحَنَّث وتحرَّج وتَفكَّه وتأَثَّم وتَخوَّتَ)(٢). وقرأَ ابن عامر: [فَزَّعَ] بفتح الفاءِ والزَّاي وشد الزاي، وهي قراءَة ابن مسعود، وابن عباس، وطلحة، وأَبي المتوكل الناجي، واليماني. وقرأَ الحسن البصري ـ بخلاف ـ: [فُزِعَ] بضم الفاءِ وكسر الزاي وتخفيفها، كأنه بمعنى: أَقلع، ومَن قال إنها في العالم أجمعه قال: معنى هذه القراءَة: فُزِع الشيطان عن قلوبهم، أَي بادر. وقرأَ أَيوب عن الحسن أَيضاً: [فُرِّغَ] بضم الفاءِ وبراءٍ مهملة مشدَّدة وبغين منقوطة، من التفريغ، قال أَبو حاتم: ورواها عن الحسن نحو من عشرة أَنفس، وهي قراءَة أَبي مجلز. وقرأَ مطر الورَّاق، عن الحسن: [فَزِعَ] على بناءِ الفعل للفاعل، وهي قراءَة مجاهد، وقرأَ الحسن أَيضاً: [فَرَغَ] بالراءِ المهملة مخففة، من الفراغ. قال أَبو حاتم: ما أَظن الثِّقات رَوَوْها عن الحسن على وجوه إلاَّ لصعوبة المعنى عليه فاختلفت أَلفاظه فيها(٣). وقرأَ عيسى بن عمر: [حتى إذا افْرُنْقعَ]، وهي قراءَة ابن مسعود. ومعنى هذا كله: وقع فراغُها من الفزع والخوف، ومن قرأَ شيئاً من هذا على بناءِ الفعل للمفعول فقولُه تعالى: ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾ في موضع رفع، و«افرَنْقع» معناه: تفرَّق.

وقوله تعالى: (مَاذا) يجوز أن تكون (ما) في موضع نصب بـ(قَالَ)، ويصح أَن

= أدخله في الخوف والرَّوع، ومنها الإزالة نحو قرَّدت البعير، بمعنى: أزلتُ عنه القراد، ونحو ما ذكره ابن عطية من أفعال.

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه في باب «مناقب عمر»، عن المِسْوَر بن مَخْرمة، قال: لما طُعِن عمر ـ رضي الله عنه ـ جعل يألم، فقال له ابن عباس رضي الله عنهما ـ وكأنه يُجَزِّعُه ـ: يا أمير المؤمنين، ولئن كان ذلك لقد صحبت رسول الله ﷺ فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راضٍ، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راض... إلخ وهو حديث طويل.

(٢) تَخوَّت الشيء: اختطفه.

(٣) قال أبو الفتح عثمان بن جني في «المحتسب»: «يعني أبو حاتم اجتماع معنى (ف ز ع) مع معنى (ف ر غ) في أن الفزع: قَلَق ومُفارقة للموضوع المقلوق عليه، والفراغ: إخلاءُ الموضع، فهما من حيث المعنى ملتقيان، وكذلك معنى (افرُنْقعَ)، يقال: افرَنْقَع القومُ عن الشيءِ، أي: تفرقوا عنه.

ومما يحكى في ذلك أن أبا علقمة النحوي ثار به المُرَارُ (وهو مِزَاجٌ مِنْ أمزِجة البدن)، فاجتمع الناسُ عليه، فلما أفاق قال: مالكم قد تكأكأتم عليّ كتكأكئكم على ذي جِنَّةٍ، افرنقعوا عنِّي. قال: فقال بعض الحاضرين: إن شيطانه يتكلم بالهندية». اهـ. المحتسب (٢ ـ ١٩٣).

تكون في موضع رفع بمعنى: أَيُّ شيءٍ قال؟ والنصب في قولهم: (الْحَقَّ) على نحوه في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا﴾[(١)]؛ لأنهم حققوا أن ثمَّ ما أُنْزِلَ، وحَقَّقُوا هنا أَنَّ ثَمَّ ما قِيلَ، وباقي الآية تحميدٌ وتمجيد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

أَمر الله تبارك وتعالى نبيَّه ﷺ ـ على جهة الاحتجاج، وإقامة الدليل على الرازق لهم من السموات والأرض ـ [أن يَسألهم][(٢)]: من هو. ثم أمره أن يقتضب الاحتجاج بأن يأتي بجواب السؤال؛ إذْ هم في بَهْتَة ووجْمَة من السؤال، وإذ لا جواب لهم ولا لمفطُورٍ إلاَّ بأن يقول: هو الله. وهذه السبيل في كل سؤال جوابه في غاية الوضوح؛ لأن المحتجَّ يريد أن يقتضب ويتجاوز إلى حجة أُخرى يوردها. ونظائر هذا في القرآن كثير.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ تلطُّف في الدعوى والمحاورة والمعنى، كما تقول لمن خالفك في مسألَة: أحدنا مُخطِئٌ، أَي: تَثَبَّتْ وتَنَبَّه، والمفهوم من كلامك أَن مخالفك هو المخطئُ، فكذلك هذا معناه: وإِنَّا لَعَلَى هُدًى أَو في ضلالٍ مبين، وإِنَّكم لعلى هُدًى أَو في ضلال مبين، فلْتتبيَّنْهُ، والمقصد أن الضلال في حيِّز المخاطبين، وحذف أحد الخبرين لدلالة الباقي عليه[(٣)]. وقال أَبو عبيدة: [أَوْ] في الآية

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٣٠) من سورة (النحل): ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾، وفي الأصول خطأ في الآية حيث وردت بحيث تجمع بين هذه الآية، وبين الآية (٢٤) من نفس السورة وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

(٢) ما بين العلامتين زيادة يحتاج إليها المعنى.

(٣) هذا الأسلوب يسمى في علم البيان: استدراج المخاطب، يذكُر المتكلم له أمراً يسلِّمه وإن كان هو على خلاف ما ذُكر حتى يصغي إليه، ولا يزال ينقله من حال إلى حال حتى يتبيَّن له الحق ويقبله، ومثاله من الشعر العربي قول حسَّان:

أَتَهْجُوهُ ولَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِداءُ =

بمعنى واو النَّسق، والتقدير: وإنا وإيَّاكم لعلى هدًى أو في ضلال مبين، وهما خبران غير مبتدأين، وهذا القول غير متَّجه واللَّفظ لا يساعده، وإن كان المعنى ـ على كل قول ـ يقتضي أن الهدي في حيِّز المؤمنين والضلال في حيِّز الكفرة.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ الآية ـ مهادنة ومتاركة، وهي منسوخة بآية السيف.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ الآية... إخبارٌ بالبعث من القبور، وقوله: ﴿يَفْتَحُ﴾ معناه: يحكم، والفتَّاح: القاضي، وهي مشهورة في لغة اليمن، وهذا كله منسوخ بالسيف.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ﴾ يحتمل أن تكون رؤية قلب، فيكون قوله: ﴿شُرَكَآءَ﴾ مفعولاً ثالثاً، وهذا هو الصحيح، أي: أَرُوني بالحُجَّة والدليل كيف وجه الشركة، وقالت فرقة: هي رؤية بصر، و(شُرَكَآءَ) حال من الضمير المفعول بـ﴿أَلْحَقْتُم﴾ والعائد على ﴿الَّذِينَ﴾، وهذا ضعيف، لأن استدعاءَ رؤية العين في هذا لا غناء له. وقوله: (كَلَّاً) ردٌّ لما تقرَّر من مذهبهم في الإشراك بالله تعالى، وَوَصَفَ سبحانه وتعالى نفسه باللائق من العزَّة والحكمة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

هذا إعلامٌ من الله تبارك وتعالى بأنه بعث محمداً ﷺ إلى جميع العالم، و«الكَافَّةُ»: الجمع الأكمل من الناس، وهي نصب على الحال، وقدَّمها للاهتمام، وهذه إحدى

= والآية الكريمة فوق ما فيها من التَّلَطُّف في الدعوة والمحاورة فإنها تتضمّن الإنصاف، وتحمل معنى التورية والتعريض، والرَّدُّ بهما أبلغ من الرَّدِّ بالتصريح، ومن ذلك قول العرب: أخزى الله الكاذب منِّي ومنك، يقول ذلك من يتيقَّن أن صاحبه هو الكاذب، ولكنه يُوبِّخه بلفظ غير مكشوف.

و(أَوْ) هنا على موضوعها لكونها لأحد الشيئَين أو الأشياء، وخَبَرُ ﴿إنا أو إياكم﴾ هو قوله تعالى: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾، ولا يَحتاج إلى تقدير حذف؛ إذ المعنى: إنَّ أحدنا لفي أحد هذين، كقولك: زيدٌ أو عمرو في المسجد أو في البيت، والمعنى: أحد هذَين في أحد هذَين.

الخصال التي خُصَّ بها محمد ﷺ من بين الأنبياءِ، والتي حصرها في قوله عليه الصلاة والسلام: «أُعطيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أَحدٌ قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وأُحِّلت لي الغنائم ولم تحلّ لأَحد قبلي، وأُوتيت جوامع الكلم، وجُعلت لي الأَرض مسجداً وطهوراً، وبُعث كلُّ نبيٍّ إلى خاص من الناس وبُعِثْت إلى الأحمر والأَسود»، وفي هذه الخصال زيادة في كتاب مسلم[1].

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يريد به العموم في الكفرة، والمؤمنون هم الأَقل.

ثم حكى عنهم مقالتهم في الهُزْءِ بأَمر البعث، واستعجالهم ـ على معنى التكذيب ـ بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؟ فأَمر الله تعالى نبيَّه بأَن يخبرهم عن ميعاد يوم هو يوم القيامة، لا يتأَخر عنه أحد ولا يتقدمه. قال أَبو عبيدة: الوعْد والوعيد والميعاد بمعنى، وخولف في هذا، والذي عليه الناس أَن الوعد في الخير، والوعيد في المكروه، والميعاد يقع لهذا ولهذا، وأَضاف الميعاد إلى اليوم تَجَوُّزاً من حيث كان فيه، وتحتمل الآية أَن يكون استعجال الكفرة لعذاب الدنيا، ويكون الجواب عن ذلك أَيضاً، ولم يجر للقيامة ذكر على هذا التأْويل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

حُكيت في هذه الآية مقالة قالها بعض قريش، وهي أَنهم لا يؤمنون بالقرآن ولا بما بين يديه من التوراة والإِنجيل والزَّبور، وكأَنهم كذَّبوا بجميع كتب الله، وإِنما فعلوا هذا

(١) أخرجه أبو داود في السِّير والصلاة، والبخاري في التيمم والجهاد والصلاة والاعتصام، ومسلم في المساجد، والترمذي في السِّير، والنسائي في الغسل والجهاد، وأحمد في مواضع كثيرة في مسنده، ومن الزيادات التي في صحيح مسلم وأشار إليها ابن عطية قوله ﷺ في بعض الروايات: «وأعطيت الشفاعة»، وقوله في رواية أخرى: «وخُتم بي النبيُّون»، وقوله في غيرهما: «وبينا أنا نائم أُوتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي».

لما وقع الاحتجاج عليهم بما في التوراة من أمر محمد عليه الصلاة والسلام. وقالت فرقة: «والَّذي بَيْنَ يَدَيْهِ» هي الساعة والقيامة، وهذا خطأٌ لم يفهم قائله أمر «بَيْنَ اليَد» في اللغة وأنه المتقدم في الزمن، وقد بيَّنا معناه فيما تقدم.

ثم أَخبر الله تبارك وتعالى نبيَّه عن حالة الظالمين في صيغة التَّعجب من حالهم، وجواب [لَوْ] محذوف، و﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يريد: يتحاورون ويتجادلون، ثم فسَّر ذلك الجدل بأَن الأَتباع والضعفاءَ من الكفرة يقولون للكبار والرؤوس ـ على جهة التَّذنيب والتوبيخ وردِّ اللائمة عليهم ـ: لولا أَنتم لآمَنَّا نحن واهتدينا، أَي: أَنتم أَغويتمونا وأَمرتمونا بالكفر، فقال لهم الرُّؤَساءُ ـ على جهة التقرير والتكذيب ـ: أنحن صددناكم عن الهدى؟ بل كنتم مجرمين، أَي: دخلتم في الكفر ببصائركم، وأَجرمتم بنظر منكم، ودعوتنا لم تكن ضربة لازم عليكم؛ لأَنا دعوناكم بغير حجة ولا برهان، هذا كله يتضمن اللفظ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

هذه مراجعة من الأَتباع للرؤَساءِ حين قالوا لهم: إِنما كفرتم ببصائركم ومن أَنفسكم، فقال المستضعفون: بل كفرنا بمَكْرِكم بنا في اللَّيل والنهار، وأَضاف المكر إِلى اللَّيل والنهار من حيث هو فيهما، ولتدلَّ هذه الإِضافة على الدُّؤوب والزمان، كما قالوا: ليلٌ نائم ونهار صائم، وأَنشد سيبويه:

فَنَـــامَ لَيلـــي   وتَجَلَّـــى هَمِّـــي[1]

---

(١) أي: نمتُ فيه: وهذا مثل قول جرير:

لَقَـدْ لُمْتِنَـا يـا أُمَّ غَيْـلانَ فـي السُّـرَى   ونِمْـتِ ومـا لَيْـلُ الْمَطِـيِّ بِنَـائِـمِ

إذ أسند النوم إلى الليل إسناداً مجازياً عقلياً، والأصل أن يسند النوم إلى الناس، وهذا من باب التوسع المجازي، والعلاقة هنا الزمانية. قال الفراءُ في (معاني القرآن): «المكر ليس لِلَّيل ولا للنهار، وإنما المعنى: بل مكركم باللَّيل والنهار، وقد يجوز أن تُضيف الفعل إلى الليل والنهار، ويكونا =

وهذه قراءَة الجمهور، وقرأ قتادة بن دعامة: [بَلْ مكرٌ] مُنَوَّناً [اللَّيلَ والنَّهارَ] نصباً، وذُكرت عن يحيى بن يَعْمَر، وكأَن معناها الإِحالةُ على طول الأَمل والاغترار بالأَيام، مع أَمْر هؤلاءِ الرُّؤساءِ بالكفر. و«النِّدُّ» المثيل والشَّبيه، والضمير في قوله: (وَأَسَرُّوا) عام في جميع من تقدم من المستضعفين والمستكبرين، و(أَسَرُّوا) معناه: اعتقدوها في نفوسهم، ومعتقدات النفس كلها سِرٌّ، لا يعقل غير ذلك، وإِنما يظهر ما يصدر عنها من كلام أَو قرينة. وقال بعض الناس: [أَسَرُّوا]: أَظهروا، وهي من الأَضداد، وهذا كلام من لم يعتبر المعنى، أَما نفس الندامة فلا تكون إِلاَّ مُسْتَسَرَّة ضرورة، وأَما الظاهر عنها فغيرها، ولم يثبت قطُّ في لغة أن (أَسَرَّ) من الأَضداد.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: وافوه وتيقَّنوا حصولهم فيه. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

هذه تسلية للنبي ﷺ عن فعل قريش وقولها، أَي: هذه يا محمد سيرة الأُمم، فلا يهمنك أَمر قومك، و«القرية»: المدينة، و«المُتْرَف»: المنعم البطال الغنيُّ القليلُ تعب النفس والجسم، فعادتهم المبادرة بالتكذيب.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ يحتمل أَن يعود الضمير على «المُتْرَفين»، ويكون ذلك من قولهم مع تكذيبهم، ولمَّا كانت قريش مثلهم أَمره الله تعالى أَن يقول: ﴿إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ﴾ الآية، يحتمل أَن يكون الضمير في (قالوا) لقريش، ويكون كلامُ «المُترفين» قد تقدم، ثم تطَّرد الآية بعد. ومعنى قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ الاحتجاج بأَن الله لم يعطنا هذا وقدَّره لنا إِلاَّ لرضاه عنَّا وعن طريقتنا، ونحن ممن لا يُعَذَّب البتَّة؛ إِذ الله الذي تزعُم أَنت عِلْمَه بجميع الأَشياءِ وإِحاطته قد قدَّر

= كالفاعلين؛ لأن العرب تقول: نهارُك صائم، وليلُك قائم، ثم تضيف الفعل إلى الليل والنهار وهو في المعنى للآدميين، كما تقول: نام ليلُك» اهـ. (معاني القرآن ٢ ـ ٣٦٣).

علينا النِّعم، فهو إذاً راضٍ عنَّا. وقال بعض المفسرين: معنى قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أَي: بالفقر، وهذا ليس كالأَول في القوة، فأَمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أَن يقول: إن الأَمر ليس كما ظنُّوا، بل بَسْط الرزق وقدره مُعَلَّق بالمشيئة في كافر ومؤمن، وليس شيءٌ من ذلك دليلاً على رضى الله والقرب منه؛ لأَنه قد يُعطي ذلك أَملاً واستدراجاً، ولكن كثيراً من الناس لا يعلم ذلك كأَنتم أَيُّها الكفرة. وقرأَت فرقة: ﴿وَيَقْدِرُ﴾، وفرقة بالتشديد، وهي راجعة إِلى معنى التَّضْييق الذي هو ضد البَسْط.

ثم أَخبرهم أَن أَموالهم وأَولادهم ليست بمقَرِّبة من الله ﴿زُلْفَىٰ﴾، وهي مصدر بمعنى القُرب، وكأَنه قال: تقربكم عندنا تقريباً، وقرأَ الضحاك: [زُلَفاً] بفتح اللَّام والتنوين. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ استثناءٌ، و(مَنْ) في موضع نصب بالاستثناءِ. وقال الزجاج: هي بدل من الضمير في ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾، وقال الفراءُ: هي في موضع رفع، وتقدير الكلام: ما هو مقرِّب إِلاَّ من آمن. وقرأَ الجمهور: ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ بالإِضافة، وقرأَ قتادة: [جَزَاءً] منوناً [الضِّعْفُ] رفعاً، وحكى عنه الدَّاني [جَزَاءً] نصباً منوناً [الضِّعْفَ] نصباً. و«الضِّعْفُ» هنا اسم جنس، أَي التَّضعيف؛ إِذ بعضهم يجازى إِلى عشرة، وبعضهم أَكثر صاعداً إِلى سبعمائة بحسب الأَعمال ومشيئة الله فيها.

وقرأَ الجمهور: ﴿فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ بالجمع، وقرأَ حمزة وحده: [في الغرفة] على اسم الجنس يراد به الجمع، ورويت عن الأَعمش، وهما في القراءَة حسنتان. قال أَبو علي: وقد يجيءُ هذا الجمع بالأَلف والتاءِ «الغُرُفاتِ» ونحوه للتكثير، ومنه قول حسَّان:

لنَا الْجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى ... وأَسْيافُنَا يَقْطُرْنَ مِن نَجْدةٍ دَما[1]

فلم يُرد إِلا كثرة جفان، وتأَمَّل نقد الأَعشى في هذا البيت.

وقرأَ الأَعشى، والحسن، وعاصم ـ بخلاف ـ: [في الغُرْفاتِ] بسكون الراءِ.

---

(١) البيت من قصيدة في الفخر، بدأها حسَّان بقوله: «أَلَمْ تسْأَلِ الرَّبْعَ الجديدَ التَّكَلُّمَا»، والجفنة: القصعة، وجمعها: جفانٌ وجفَن، وفي التنزيل العزيز: (وجفان كالجواب﴾، وفي أمثال العرب: «اذْع إلى طِعانك من تدعو إلَى جفَانك». ويقْطُرْن: ينزل منها الدَّمُ قطْرةً قطْرة، والنجدة: الشجاعة في القتال وسرعة الإغاثة. ونقد الأَعشى للبيت مشهور وموجود في كتب الأدب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى المؤمنين العاملين للصالحات وثوابهم عقَّب بذكر ضدهم وذكر جزائهم ليظهر تَبَايُن المنازل، وقرأت فرقة: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾، وفرقة [مُعْجِزِينَ]، وقد تقدم تفسيرها.

و﴿مُحْضَرُونَ﴾ من الإحضار والإعداد.

ثم كرَّر بسط الرِّزق وقَدْرَهُ تأكيداً وتَبْييناً، وقصد به هنا رزق المؤمنين، وليس سوقُه على المعنى الأَول الذي جُلب للكافرين، بل هذا هنا على جهة الوعظ والتَّزهيد في الدنيا، والحض على النفقة في الطَّاعات، ثم وعد بالخُلْف في ذلك وهو بشرط الاقتصاد والنِّيَّة في الطَّاعة ودفع المضرَّات وعدٌ منجز، إما في الدنيا، وإما في الآخرة. وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن الله قال لي: أَنْفِق أُنفِق عليك)[1]، وفي البخاري: «إنَّ المَلك يُنَادي كل يوم، اللهم أَعط مُنفقاً خَلَفاً، ويقول مَلك آخر: اللهم أَعْط مُمْسِكاً تَلَفاً»[2].

وأَما قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فمن حيث يقال في الإِنسان: إنه يرزق عياله، والأَمير جُنده، لكن ذلك من مالٍ يملك عليهم، والله تعالى من خزائن لا تفنى[3]، ومن إخراج من عدم إِلى وجود. وقرأ الأَعمش: [وَيُقَدِّر] بضم الياءِ وشدِّ الدال.

---

(١) أخرج البخاري، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عزَّ وجلَّ: أَنفِق يا ابن آدم أُنفق عليك». (الدر المنثور).

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم في الزكاة، وأخرجه أحمد من مسنده (٥ـ ١٩٧)، ولفظه كما في مسند الإمام أحمد، عن أبي الدرداء، قال: قال ﷺ: (ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنْبتيها ملكان يناديان، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس، هلموا إلى ربكم، فإن ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى، ولا آبت شمس قط إلا بعث بجَنْبَتيها ملكان يناديان، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: اللهم أَعْط منفقاً خَلَفاً، وأعْط مُمْسكاً مالاً تلفاً) وقال مجاهد: المعنى: إن كان خلف فهو موليه ومُيَسِّره، وقد لايكون الخلف.

(٣) يعني: يرزق من خزائن لا تفنى. . . الخ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾.

هذه آية وعيد للكفار، والمعنى: واذكر يومَ. وقرأ الجمهور: [نَحْشُرُهُمْ]، [ثم نقول] بالنون فيهما، ورواها أبو بكر عن عاصم، وقرأ حفص عن عاصم بالياءِ فيهما، وذكرها أبو حاتم عن أبي عمرو.

والقول للملائكة هو توقيف تقوم منه الحجة على الكفار عَبَدَتِهم، نحو قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى﴾[1]، وإِذْ قال الله تعالى للملائكة هذه المقالة قالت الملائكة: (سُبْحَانَكَ)، أَي: تنزيهاً لك عما فعل هؤلاءِ الكفرة، ثم بَرَّأوا أَنفسهم بقولهم: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ يريدون البراءَة من أَن يكون لهم عِلْم أَو رضًى أَو مشاركة في أَن يعبدهم البشر، ثم قرروا أَن البشر إِنما عبدوا الجنَّ برضى الجنِّ وبإِغوائها للبشر، فلم تنفِ الملائكة عبادة البشر إِيَّاها، وإِنما قررت أَنها لم تكن لها في ذلك مشاركة، ثم ذنَّبت الجن. وعبادة البشر للجن هي فيما نعرفه نحن: طاعتهم إِياهم، وسماعهم من وسوستهم وإِغوائهم، فهذا نوع من العبادة، وقد يجوز أَن كان في الأُمم الكافرة من عبد الجنَّ، وفي القرآن آياتٌ يظهر منها ذلك في الأَنعام وغيرها.

ثم قال سبحانه: (فَالْيَوْمَ)، وفي الكلام حذف، تقديره: «فيقال لهم»، أَي: لمن عَبَدَ ولِمنْ عُبِدَ: ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾. ذكر في هذه الآية أَقوالهم وأَنواع كلامهم عندما يُقرأُ عليهم القرآن، ويسمعون حِكَمه وبراهينه البيِّنَة، فقائلٌ طعن على النبي ﷺ بأَنه يقدح في الأَوثان ودين الآباءِ، وقائلٌ طعن عليه بأَن هذا القرآن مفترى، أَي: مصنوع من قِبَلِ محمد ويدَّعي أنه من عند الله، وقائل طعن عليه بأَن ما عنده من الرقة

---

(١) من الآية (١١٦) من سورة (المائدة).

واستجلاب النفوس واستمالة الأسماع إنما هو سحرٌ يجلب به ويستدعي، تعالى الله عن أقوالهم، وتقدَّست الشريعة عن طعنهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾.

معنى هذه الآية أنهم يقولون بآرائهم في كتاب الله تبارك وتعالى، فيقول بعضهم: سحرٌ، وبعضهم: افتراءٌ، وهو منهم تجرُّؤٌ لا يستندون فيه إلى أَثارة علم[1]، ولا إلى خبر من يُقبل خبره، فإنا ما آتيناهم كتباً يدرسونها، ولا أرسلنا إليهم نذيراً فيمكنهم أن يدَّعوا أن أقوالهم تستند إلى أمره.

وقرأ جمهور الناس: (يَدْرُسُونَهَا) بسكون الدال، وقرأ أبو حيوة: [يَدَّرِسُونَهَا] بفتح الدال وشدها وكسر الراءِ، والمعنى: ما أرسلنا من نذير يشافِهُهُم بشيءٍ، ولا يباشر أهل عصرهم ولا من قَرُب من آبائهم، وإلاَّ فقد كانت النِّذارة في العالم وفي العرب مع شعيب وصالح وهود، ودعوة الله وتوحيده أمر قديم، ولم تخلُ الأرض من داعٍ إليه، فإنما المعنى: مِنْ نَذِيرٍ يختص بهؤلاءِ الذين بعثناك إليهم، وقد كان عند العرب كثير من نذارة إسماعيل عليه السلام، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[2]، ولكن لم يتجرَّد للنذارة ولا قاتل عليها إلاَّ محمد صلوات الله وسلامه عليه.

ثم مثَّل لهم بالأُمم المكذبة قبلهم، وقوله: ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ يحتمل ثلاثة معان: أحدها أن يعود الضمير في (بَلَغُوا) على قريش، وفي (آتَيْنَاهُمْ) على الأمم الذين من قبلهم، والمعنى: من القوة والنعم والظهور في الدنيا، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن زيد رضي الله عنهم. والثاني بالعكس، والمعنى: من الآيات والبيان والنور الذي جئتهم به، والثالث أن يعود الضمير على الأُمم المتقدمة، والمعنى: من

---

(١) الأثارة: العلامة، وبقية الشيءِ، وفي الكتاب العزيز: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، (٤ الأحقاف).

(٢) من الآية (٥٤) من سورة (مريم).

شكر النعمة وجزاءِ المِنَّة. و«المِعْشَارُ»: العُشْر، ولم يأت هذا البناءُ إلاَّ في العشرة والأربعة، فقالوا: مِرْبَاع ومِعْشار، وقال قوم: المِعْشَارُ: عُشْرُ العُشْر، وهذا ليس بشيءٍ.

و«النَّكِيرُ» مصدر كالإنكار في المعنى، وكالعرين في الوزن، وسقطت الياءُ منه تخفيفاً لأنها آخر آية، و«كَيْفَ» تعظيم للأمر، وليست استفهاماً مجرداً، وفي هذا تهديد لقريش، أي: إنهم مُعَرَّضون لنكير مثله.

ثم أَمر نبيه ﷺ أَن يدعوهم لعبادة الله، والنظر في حقيقة نُبُوَّته هو، ويعظهم بأَمر يقرب للأَفهام، فقوله: (بِوَاحِدَةٍ) معناه: بقضية واحدة إيجازاً لكم وتقريباً عليكم، وقوله: (أَنْ) مفسرة، ويجوز أن تكون بدلاً من (وَاحِدَةٍ). وقوله: ﴿تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ يحتمل أَن يريد بالطاعة والإخلاص والعبادة، فتكون الواحدة التي وعظ بها هذه، ثم عطف عليها أن تَتَفَكَّرُوا في أَمره هو، هل به جِنَّة أَو هو بريءٌ من ذلك؟ والوقف عند أَبي حاتم (تَتَفَكَّرُوا)، فيجيءُ ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ نفياً مُستأنفاً، وهو عند سيبويه جواب ما تنزل منزلة القَسَم؛ لأَن (تَفَكَّرَ) من الأَفعال التي تعطي التحقيق كتَبَيَّن، وتكون الفكرة ـ على هذا ـ في آيات الله والإيمان به، ويحتمل أَن يريد بقيامهم أَن يكون لوجه الله في معنى التفكير في محمد عليه الصلاة والسلام، فتكون الواحدة التي وعظ بها ﴿أَن تَقُومُواْ﴾، والمعنى: أن تقوموا للفكرة في أَمر حاجتهم، وكأَن المعنى أَن يفكر الواحد بينه وبين نفسه، وتتناظم الآيتان على جهة طلب التحقيق، هل بمحمد ـ ﷺ ـ جِنَّة أم لا؟ وعلى هذا لا يوقف على الفكرة. وقدم المثنى لأَن طلب الحقائق من متعاضدين في النظر أَجدى من فكرة واحدٍ، فإذا انقدح الحقُّ بين الاثنين فكَّر كل واحد منهما بعد ذلك فيزيد بصيرة، وقد قال الشاعر:

إِذَا اجْتَمَعُوا جَاءُوا بِكُلِّ غَرِيبَةٍ ... فَيَزْدَادُ بعضُ الْقَوْمِ من بَعْضِهِمْ عِلْماً[1]

وقرأ يعقوب: [ثم تفكروا] بتاءٍ واحدة، وقال مجاهد: (بِوَاحِدَةٍ) معناه: لا إِلٰه إِلاَّ الله، وقيل غير هذا مما لا تعطيه الآية.

وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ﴾ يترتب على أن محمداً ﷺ جاءَ في الزمان من قبل العذاب الشديد الذي تُوُعِّدُوا به.

---

(١) يريد أن لقاءَ الأفكار، وتجمع الآراء نتيجة للحوار والمناقشة يأتي بكل نادر وغريب، والإنسان يتعلم من غيره إذا التقى معه في نقاش موضوعي هادىء.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾.

أمر الله تعالى في هذه الآية بالتَّبرِّي من طلب الدنيا وطلب الأجر على الرسالة، وتسليم كل دنيا إلى أربابها، والتوكل على الله في الأجر وجزاءِ الحدِّ، والإقرار بأنه شهيد على كل شيءٍ من أفعال البشر وأقوالهم وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾، يريد: بالوحي وآيات القرآن، واستعار له القذف من حيث كان الكفار يرمون بآياته وحكمه، وقرأ الجمهور: (عَلَّامُ) بالرفع، أي: هو علَّام، ونصبها عيسى بن عمر، وابن أَبي إسحق، إما على البدل من اسم (إِنَّ)، أو على المدح، وقرأ الأعمش: [وهو عَلَّام الغُيوب]، وقرأ عاصم: [الغِيُوب] بكسر الغين.

قوله: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ يريد الشرعَ وأَمْرَ الله ونهيه، وقال قوم: يعني السيف. وقوله: ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾، قالت فرقة: الباطلُ غيرُ الحق، من الكذب والكفر ونحوه، استعار له الإبداءَ والإعادة ونفاهما عنه، كأنه قال: وما يصنع الباطل شيئاً. وقالت فرقة: الباطلُ: الشيطان، والمعنى: وما يفعل الباطل شيئاً مفيداً، أي: ليس يخلق ولا يرزق. وقالت فرقة: (ما) استفهام، كأنه قال: وأَيُّ شيءٍ يصنع الباطل؟

وقرأ الجمهور: (ضَلَلْتُ) بفتح اللام، ﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ﴾ بكسر الضاد، وقرأ الحسن، وابن وثاب: [ضَلِلْتُ] بكسر اللام [أَضَلُّ] بفتح اللام، وهي لغة تميم.

وقوله: (فَبِمَا) يحتمل أن يكون بمعنى الذي، ويحتمل أَن تكون «ما» مصدرية، و(قَرِيبٌ) معناه: بإحاطته وإجابته وقدرته.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ الآية ـ فقال ابن عباس، والضحاك: هذا في عذاب الدنيا، ورُوي أن ابن أَبزى[1] قال: ذلك في جيش يغزو الكعبة فيخسف بهم في بيداءَ من الأَرض، ولا ينجو إلاَّ رجلٌ من جهينة، فيخبر الناس

---

(١) في الأصل: «وروي أن أبزى» والصواب ما ذكرناه.

بما نال الجيش، وقالوا: وبسببه قيل:

. . . . وعِنْـدَ جُهَيْنَـةَ الْخَبـرُ الْيَقِيـنُ[١]

وهذا قول بعيد، وروي في هذا المعنى حديث مطوَّل عن حذيفة، وروى الطبريُّ أنه ضعيف السَّنَد مكذوب فيه على ابن روَّاد بن الجَرَّاح[٢] وقال قتادة: ذلك في الكفار في بدر ونحوها. وقال الحسن بن أبي الحسن: ذلك في الكفار عند خروجهم من القبور للقيامة. وهذا أَرجح الأَقوال عندي.

وأَما معنى الآية فهو التعجب من حالهم إِذا فزعوا من أَخذ الله إِياهم، ولم يتمكن لهم أَن يفوت منهم أَحد، وقوله: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ معناه: أنهم للقدرة قريبٌ حيث كانوا، قيل: من تحت الأَقدام، وهذا يتوجه على بعض الأَقوال، والذي يعُمُّ جميعها أَن يقال: إِنَّ الأَخذ يجيئُهم من قرب في طمأْنينتهم، بينا الكافر يُؤَمِّل ويظُنُّ ويترجَّى إِذ غشيه الأَخذ، ومن غشيه أُخذ من قريب فلا حيلة له ولا رويَّة، وقرأَ الجمهور: (أُخِذُوا)، وقرأَ طلحة بن مصرِّف: [فلا فَوْتَ وَأَخْذٌ]، كأَنه قال: وحالهم أَخْذٌ[٣].

(١) هذا عجز بيت من الوافر، وقد صار مثلاً يضرب في معرفة حقيقة الشيء، وقد ذكر الميداني قصة المثل في «مجمع الأمثال» في خبر طويل خلاصته أن رجلاً من جهينة اسمه الأخنس بن كعب أحدث في قومه أمْراً ثم فرَّ هارباً، فلقي حصين بن عمرو الكلابي، وكان قد خرج من قومه أيضاً لأمر قد أحدثه، وتعارفا، ثم صحب كل منهما صاحبه على حذر، ومضيا يقطعان الطريق على الناس، حتى التقيا برجل من لَخْم يتناول الطعام ومعه أموال كثيرة، فدعاهما لطعامه فأكلا وشربا وتحدثا، ثم ابتعد حصين لبعض أمره، فقتل الجهيني اللخمي، فلما عاد حصين فوجيء بذلك، فلام صاحبه على فعلته، وقال: ويحك، فتكت برجل قد تحرمنا بطعامه وشرابه، ثم غافل الجهيني حصيناً وقتله، وأخذ متاعه ومتاع اللخمي وعاد إلى قومه، وفي الطريق التقى بامرأة حصين تسأل عنه فأخبرها أنه قتل زوجها، ثم وقف في القوم يقول أبياتاً منها:

تُسَـائِـلُ عَـنْ حُصَيْـنٍ كُـلَّ رَكْـبٍ ... وَعِنْـدَ جُهَيْنَـةَ الْخَبَـرُ الْيَقِيـنُ
جُهَيْنَـةُ مَعْشَـرِي وهُـمُ مُلـوكٌ ... إِذَا طَلَبُـوا الْمَعَـالِـي لَـمْ يَهُـونُـوا

وقال الأصمعي، وابن الأعرابي: اسمه جُفَيْنَة بالفاءِ، وكان عنده خبر رجل مقتول، وفيه يقول الشاعر:

تُسَـائِـلُ عَـنْ أَبِيهَـا كُـلَّ رَكْـبٍ ... وعِنْـدَ جُفَيْنَـةَ الْخَبَـرُ الْيَقِيـنُ

(٢) في الأصل: «عَلَى روَّاد بن الجَرَّاح»، والتصويب عن الطبريّ وفيه، حدّثنا عصام بن روَّاد بن الجراح . . . الخ»، والخبر بطوله هناك.

(٣) قال ابن جني: يجوز أن يكون فاعلاً لفعل محذوف، والتقدير: وأحاط بهم أَخْذٌ، ويجوز أن يكون مبتدأ=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ۝٥٢ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ۝٥٤﴾.

الضمير عائد على الله تعالى في قوله: (بِهِ)، وقيل: على محمد ﷺ وشرعه والقرآن. وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وعامة القراءِ: (التَّنَاوُش) بضم الواو دون همز، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم أيضاً بالهمز، والأُولى معناها: التَّناول، من قولهم: ناشَ ينوشُ إذا تنازل، وتناوَشَ القومُ في الحرب إذا تناول بعضهم بعضاً بالسلاح، ومنه قول الشاعر:

فَهْيَ تَنُوشُ الْحَوْضَ نَوْشاً مِن عَلاَ ... نَـوْشـاً بِـهِ تَقْطَـعُ أَجْـوَازَ الْفَـلاَ[1]

فكأنه قال: وأَنَّى لهم تناولُ مرادهم وقد بُعدوا عن مكان إمكان ذلك. وأما الهمز فيحتمل أن يكون مما تقدم وهُمزت الواو لمَّا كانت مضمومة بضمة لازمة، كما قالوا: أُقِّتَتْ وغير ذلك[2]، ويحتمل أن يكون من الطلب، تقول: «تَنَاءَشْتُ الشيءَ»[3] إذا

= والخبر محذوف، والتقدير: وهناك أخذٌ لهم.

(١) هذان البيتان من الرَّجز المشطور، ذكرهما صاحب التاج، وصاحب اللسان مرتين، مرة في (عَلا) شاهداً على أن قوله: (مِنْ عَلا) معناه: من أعلى، ومرة في (نَوَشَ) شاهداً على أن التَّناوُشُ معناه: التَّناول، وقال في التاج، هو لأبي النَّجم الراجز، أو لِغَيْلان بن حريث، أما في اللسان فقد نسبه إلى أبي النجم في (علا)، وإلى غَيْلان في (نوشَ). وذكرهما الجوهري في الصحاح ولكنه لم ينسبهما، وقال: المعنى أنها تتناول ماءَ الحوض من فوق وتشرب شرباً كثيراً، وتقطع بذلك الشُّرب فلوات فلا تحتاج إلى ماءٍ آخر. وذكرهما كذلك الفراءُ في (معاني القرآن)، وأبو عبيدة في (مجاز القرآن).

هذا والضمير في (فَهْيَ) يعود إلى الإبل، وتنوش الحوضَ: تتناول منه الماءَ، مِنْ عَلا: من فوق، وأجواز: جمع جَوْزٍ وهو الوسط، أي: وسط الصحراء الواسعة، يصف الإبل بأنها عالية الأجسام طويلة الأعناق، ولذلك فهي تتناول الماءَ من الحوض من فوق وتشرب كثيراً، فيساعدها ذلك على قطع الفلاة بدون أن تحتاج إلى ماءٍ آخر.

(٢) قال أبو حيَّان الأندلسي تعقيباً على ذلك: «ليس على إطلاقه، بل لا يجوز ذلك في المتوسطة إذا كانت مدغمة فيها».

(٣) في الأصل: «اتناءشت الشرَّ»، وهو خطأ، والصواب ما ذكرناه، ونعتقد أن هذا الخطأ نشأ عن تحريف من النساخ.

طلبته من بعيد. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تَنَاوُش الشيءِ: رُجوعُه، حكاه عنه ابن الأَنباري، وأَنشد:

تَمَنَّى أَنْ تَؤُوبَ إِلَيْكَ مَيٌّ ... ولَيْسَ إِلى تَنَاوُشِهَا سَبِيلُ[1]

وكأنه قال في الآية: وأَنَّى لهم طلب مرادهم وقد بَعُد؟ وقال مجاهد: المعنى: من الآخرة إلى الدنيا.

وقرأ الجمهور: (وَيَقْذِفُونَ) بفتح الياءِ وكسر الذَّال، على إِسناد الفعل إِليهم، أَي: يرجمون بظنونهم، ويرمون بها الرسول وكتابَ الله، وذلك غَيْبٌ عنهم، في قولهم: سحْرٌ وافتراءٌ وغير ذلك، قاله مجاهد، وقال قتادة: قذفهم بالغيب هو قولهم: لا بعث ولا جنة ولا نار. وقرأ مجاهد بضم الياءِ وفتح الذَّال، على معنى: ويَرْجُمهم الوحي بما يكرهون من السماءِ.

قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية. قال الحسن: معناه: من الإِيمان والتوبة والرجوع إِلى الأمانة والعمل الصالح، وذلك أَنهم اشتهوه في وقت لا تنفع فيه التوبة، وقاله أَيضاً قتادة، وقال مجاهد: معناه: حِيلَ بينهم وبين نعيم الدنيا ولذّاتها، وقيل: معناه: حِيلَ بينهم وبين الجنة ونعيمها، وهذا يتمكن جداً على القول بأَن الأَخْذَ والفزع المذكور هو يوم القيامة[2].

قوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ أَي الفِرَق المشابهة لهم من كل أُمَّة، وهو جمع

---

(١) هذا شاهد على أن التناوش يكون بمعنى الرجوع، ويروى البيت: «تَمَنَّى أن تؤُوَب إِلَيَّ»، وآب معناها: رجع، وفي الكتاب العزيز: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾، وفي الحديث الشريف أنه ﷺ كان إذا أقبل من سفر قال: (آيبونَ تائبون، لربِّنا حامدون)، وعلى هذا يكون معنى البيت: يتمنى رجوع مَيّ ولكن ليس إلى رجوعها من سبيل، ويكون المعنى في الآية: يطلبون الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا، وهيهات لهم ذلك.

(٢) قال الحوفي: الظرف قائم مقام اسم ما لم يُسَمَّ فاعله في قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ﴾، وقد عارضه أبو حيَّان، وبيانُ بطلان ذلك في البحر المحيط «٧ ـ ٢٩٤». ثم قال: «وإنما يُخَرَّج ما ورد من مثل هذا على أن القائم مقام الفاعل هو ضمير المصدر الدال عليه (وحِيلَ)، أي: هُوَ: وهو الحَوْل، ولكونه أُضمر لم يكن مصدراً مؤكداً فجاز أن يُقام مقام الفاعل، وعليه يُخَرَّج قول الشاعر:

وقــالَــتْ: مَتَــى يُبْخَــلْ عَلَيْــكَ ويُعْتَلَــلْ ... بِسُـوءٍ وإنْ يُكْشَـفْ غـرامُـكَ تـدرب

أي: ويُعْتَلَل هو، أي الاعتلال».

شِيعَة[١]، وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ يصلح في بعض الأقوال المتقدمة تعلُّقة بـ[فُعِلَ]، ويصلح ـ على قول من قال: إن الفزع يوم القيامة ـ تعلقه بـ(أَشْيَاعِهِمْ)، أَي: بمن اتصف بصفتهم من قبل في الزمان الأَول، لأَن ما يُفعل بجميعهم إنما هو في وقت واحد، لا يقال فيه: من قبل.

و«الشَّكُّ المُرِيبُ»: أَقوى ما يكون من الشَّكِّ وأَشَدُّه إظلاماً[٢]، والله أعلم.

كمل بعون الله وتوفيقه تفسير سورة سبأ

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) في رأي أكثر اللغويين أن (أشياع) جمع (شِيَع)، و(شِيَع): جمع (شِيعَة).

(٢) نسبة الإرابة إلى الشَّكِّ مجاز؛ قال الزمخشري: إلا أن بينهما فَرْقاً، وهو أن (المُريب) من الْمُتَعَدِّي منقولٌ ممن يصح أن يكون مُرِيباً من الأعيان إلى المعنى، ومن اللازم منقول من صاحب الشَّكِّ إلى الشَّكِّ، كما تقول: شعْرٌ شَاعِرٌ.

قيل: ويجوز أن يكون قد أَرْدَفَ (المُريب) على (الشَّكِ) وهما بمعنى واحد لتناسق آخر الآية بالتي قبلها من مكان قريب، كما تقول: عجب عجيب، وشِتاً شاتٍ، وليلةٌ لَيْلاءَ، أي: هو نوع من التأكيد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة فاطر

هذه السورة مكّيَّة(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، الألف واللام في (الْحَمْد) لاستغراق الجنس على أتَمِّ عموم؛ لأن الحمد بالإطلاق على الأفعال الشريفة بالكمال هو لله، والشكر مستغرق فيه؛ لأنه فضل من فضوله. و(فاطِر) معناه: خالق، لكن يزيد في المعنى الانفراد بالابتداءِ لخلقتها، ومنه قول الأعرابي: «أنا فطرْتُهَا»، أراد: ابتدأت حفرها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنت أفهم معنى (فَاطِر) حتى سمعت قول الأعرابي(٢). وقرأ الزهري؛ (الحمد لله فطر)، وقرأ جمهور الناس: (جَاعِلِ) بالخفض، وقرأت فرقة: [جَاعِلُ] بالرفع، على قطع الصفة، وقرأ خالد بن نشيط: [جَعَلَ] على صيغة الماضي

---

(١) أخرج البخاري، وابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: أُنزلت سورة فاطر بمكة، قال القرطبي: في قول الجميع، وهي خمس وأربعون آية.

(٢) جاءَ أعرابيان إلى ابن عباس رضي الله عنهما يختصمان في بئر، فقال أحدهما: «أنا فطرتُهَا» أي: أنا ابتدأتُ حفرها، والفَطْر في اللغة: الشَّقُّ عن الشيءِ، يقال: فطرتُه فانفطر، ومنه: فَطَر نابُ البعير، أي طلع، وسَيْفٌ فُطار، أي: فيه تشقُّق، قال عنترة:

وسَيْفِي كالعَقِيقَةِ فَهْوَ كِمعْي ... سِلاحِي لا أَفَلَّ ولا فُطَارا

أي: هو كشعاع الشمس، وهو ضجيعي، ليس فيه شقوق ولا ثلوم.

[الْمَلَائِكَةَ] نصباً، فأما على هذه القراءة الأخيرة فنصب قوله: (رُسُلاً) على المفعول الثاني، وأما على القراءتين المتقدمتين فقيل: أراد بـ(جَاعِلِ) الاستقبالَ؛ لأن القضاءَ في الأزل، وحذف التنوين منه تخفيفاً، وعمِل عَمل المستقبل في (رُسُلاً). وقالت فرقة: (جاعِل) بمعنى المضيِّ، و(رُسُلاً) نصب بإضمار فعل، و(رُسُلاً) معناه: بالوحي وغير ذلك من أوامر، فجبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل رُسُلٌ، والملائكة المتعاقبون رُسُل، والمُسدِّدون لحكام العدل رُسُل، وغير ذلك. وقرأ الحسن: [رُسْلاً] بسكون السِّين.

و(أُولِي) جمعٌ واحِدُه (ذو)، ومنه: التَّقِيُّ ذو نُهية، والقوم أُولوا نُهىً، وحُكي عن الحسن أنه قال في تفسير قول مريم عليها السلام: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾(١): علمتُ أن التَّقيَّ ذو نُهية.

وقوله تعالى: ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ ألفاظ معدولة من اثنين وثلاثة وأربعة، فعُدلت في حالة التنكير فتعرفت بالعدْل، فهي لا تنصرف للعدْل والتعريف، وقيل: للعَدْل والصفة، وفائدة العدل الدلالة على التكرار: لأن «مَثْنَى» بمنزلة قولك: اثنين اثنين. وقال قتادة: إن أنواع الملائكة هي هكذا، منها ما له جناحان، ومنها ما له ثلاثة، ومنها ما له أربعة، وشذَّ منها ما له أكثر من ذلك، ورُوي أن لجبريل عليه السلام ستمائة جناح فيها اثنان يبلغان من المشرق إلى المغرب. وقالت فرقة: المعنى: إن في كل جانب من المَلك جناحين، ولبعضهم أربعة، وإلاَّ فلو كانت ثلاثة لواحد لما اعتدلت في معتاد ما رأينا نحن من الأجنحة، وقيل: بل هي ثلاثة لواحد كالحوت، والله أعلم بذلك.

وقوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ تقرير لما يقع في النفوس من التعجب والاستغراب عند الخبر بالملائكة أولي الأجنحة، أي: ليس هذا ببدع في قدرة الله تبارك وتعالى؛ فإنه يزيد في خلقه ما يشاءُ، ورُوي عن الحسن، وابن شهاب أنهما قالا: المزيد هو حسن الصوت، قال الهيثم الفارسي: رأيت النبي ﷺ في النوم، فقال لي: «أنت الهيثم الذي تزيِّن القرآن بصوتك، جزاك الله خيراً»، وقيل: الزيادة: الخطُّ الحسن، وقال عليه الصلاة والسلام: «الخط الحسن يزيد الحَقَّ وضوحاً»(٢)، وقال

---

(١) من قوله تعالى في الآية (١٨) من سورة (مريم): ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾.

(٢) أخرجه الدَّيْلَمي في مسند الفردوس، عن أم سلمة رضي الله عنها، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع=

قتادة: الزيادة: ملاحة العينين، وقيل غير هذا، وإنما ذكَر هذه الأشياءَ مَنْ ذكرها على جهة المثال، لا أَن المقصود هي فقط، وإنما مثلوا بأَشياءَ هي زيادات خارجة عن الغالب المعتاد الموجود كثيراً، وباقي الآية بيِّن.

قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ﴾، (مَا) شرطٌ، و(يَفْتَح) جزم بالشرط، و﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ عام في كل خير يعطيه الله لعباده جماعتهم وأَفرادهم، وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ فيه حذف مضاف، أَي: من بعد إِمساكه، ومن هذه الآية سَمَّتِ الصوفيةُ ما يُعطاه (الصُّوفيُّ) من الأَموال والمطاعم وغير ذلك: الفتوحات، ومنها كان أَبو هريرة رضي الله عنه يقول: «مُطرنا بنوءِ الفتح»، ويقرأُ الآية(١).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ﴾ الآية... خطابٌ لقريش، وهو متَّجه لكل كافر، لا سيَّما لعُبَّادِ غير الله، وذكَّرهم تعالى بنعمته عليهم في خلقتهم وإيجادهم، ثم استفهمهم على جهة التقرير والتوقيف بقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾؟ أَي: فليس الإِله إِلاَّ الخالق، لا ما تعبدون أَنتم من الأَصنام، وقرأَ حمزة: [غَيْرِ] بالخفض نعت على اللفظ، وخبر الابتداءِ (يَرْزُقُكُمْ)، وبها قرأَ أَبو جعفر، وشقيق، وابن وثاب، وقرأَ الباقون بالرفع، وهي قراءَة شيبة ابن نصاح، وعيسى، والحسن بن أَبي الحسن، وذلك يحتمل ثلاثة أَوجه: النعتُ على الموضع والخبر مضمر، تقديره: في الوجود، أو في العالم. وأَن يكون (غَيْرُ) خبر الابتداءِ الذي هو في المجرور، والرفع على الاستثناءِ، كأَنه قال: هل خالقٌ إِلاَّ اللهُ؟ فجرت (غَيْرُ) مجرى الفاعل الذي بعد إِلاَّ(٢). وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يريد: بالمطر، ومن (الأَرْضِ) يريد: بالنبات، وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أَي: فلا وجه تصرفون (فيه) عن الحق.

= الصغير بأنه ضعيف. وفي القرطبي: «وقال مهاجر الكلاعِي: قال النبي ﷺ: «الخط الحسن... الحديث».

(١) الخبر في موطإ الإمام مالك رحمه الله.

(٢) قال أبو حيان في (البحر المحيط): «وفي هذا نظر، وهو أن اسم الفاعل أو ماجرى مجراه إذا اعتمد على أداة الاستفهام وأجري مجرى الفعل فرفع ما بعده، هل يجوز أن تدخل عليه (من) التي للاستغراق، فتقول: هل من قائم الزيدون؟ كما تقول: هل قائم الزيدون؟ والظاهر أنه لا يجوز، ألا ترى أنه إذا أُجري مجرى الفعل لا يكون فيه عموم خلافه إذا أُدخلت عليه (من)، ولا أحفظ مثله في لسان العرب، وينبغي ألا يقدم على إجازة مثل هذا إلا بسماع من كلام العرب».

ثم سلَّى نبيَّه ﷺ بما سلف من حال الرُّسل مع الأمم، و[الأُمُور] تعم جميع الموجودات المخلوقات، إلى الله مصير جميع ذلك على اختلاف أَحوالها، وفي هذا وعيد للكفار وَوَعد للنبي ﷺ.

ثم وعظَ جميع العالَم وحذَّرهم غرور الدنيا بنعيمها وزُخرُفِها، الشاغلة عن المعاد الذي له يقول الإنسان: يا ليتني قدمتُ لحياتي، ولا ينفعه «لَيْت» يومئذ، وحذَّر غرور الشيطان. وقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ عبارة عن جميع خبره عزَّ وجلَّ في خيْر وتنعيم أَو عذاب وعقاب. وقرأ الجمهور: (الْغَرُور) بفتح الغين، وهو الشيطان، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقرأ سماك العبدي، وأَبو حيوة: [الْغُرُورُ] بضم الغين، وذلك يحتمل أَن يكون جمع غارٍّ كجالِسٍ وجُلُوس، ويحتمل أَن يكون جمع غرٍّ، وهو مصدر غَرَّه يغُرُّه غرًّا، ويحتمل أَن يكون مصدراً وإِن كان شاذًّا في الأَفعال المتعدية أَن يجيءَ مصدرها على «فُعُول» لكنه قد جاءَ: «لَزِمَه لُزُوماً»، و«نَهَكَهُ المرضُ نُهُوكاً»، فهذا مثله، وكذلك هو مصدر في قوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ الآية... يُقَوِّي قراءَة من قرأَ: (الْغَرُورَ) بفتح الغين، وقوله: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أَي: بِالمُبَايَنَةِ والمقاطعة والمخالفة له باتِّباع الشَّرع. و«الحزْبُ»: الحاشية والصاغية[(٢)]، واللام في (لِيكونوا) لام الصيرورة: لأَنه لم يدعهم إِلى السعير، وإِنما اتَّفق أَن صار أَمرهم عن دعائه إِلى ذلك، و(السَّعِيرُ) طبقة من طبقات جهنم، وهي سبع طبقات.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في موضع رفع بالابتداءِ، وهذا هو الحسن لعطف ﴿ٱلَّذِينَ

---

(١) من الآية (٢٢) من سورة (الأعراف).
(٢) صاغية الرجل: خاصته الميَّالون لاتِّباعه.

ءَامَنُوا﴾ عليه بعد ذلك، فهما جملتان تعادلتا، وجوَّز بعض الناس أن يكون (الَّذِينَ) بدلاً من الضمير في (يَكُونُوا)، وجوَّز غيره أن يكون في موضع خفض بدلاً من (أَصْحَابِ)، وهذا محتمل، غير أن الابتداءَ أرجح.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ﴾ الآية... توقيف، وجوابه محذوف، تقديره عند الكسائي: تذهب نفسك حسرات عليه، ويمكن أن يتقدر: كمن اهتدى، ونحو هذا من التقدير، وأحسنُها ما دلَّ اللفظ بعْدُ عليه، وقرأ طلحة: [أَمَّنْ] بغير فاءٍ، وهذه الآية تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام عن كفر قومه، ووجب التسليم لله تعالى في إضلال من شاءَ وهداية من شاءَ، وأمر نبيَّه ﷺ بالإعراض عن أمرهم، وألَّا يبخع نفسه أسفاً عليهم. وقرأ الحسن: [تَذْهَبَ] بفتح التاءِ والهاءِ (نَفْسُكَ) بالرفع، وقرأ أبو جعفر، وقتادة، وعيسى، والأشهب: [تُذْهِبْ] بضم التاءِ وكسر الهاءِ [نَفْسَكَ] نصباً، ورويت عن نافع. و«الحسرة»: همُّ النفس على فوات أمر، واستشهد ابن زيد لذلك بقوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾[1]، ثم توعَّد الكفرة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

هذه آية احتجاج على الكفرة في إنكارهم البعث من القبور، فدلَّهم على المثال الذي يعاينونه وهو سواءٌ مع إحياءِ الموتَى. و«البَلدُ المَيِّتُ» هو الذي لا نبت فيه، قد اغبرَّ من القحط، فإذا أصابه الماءُ من السحاب اخضَرَّ وأنبت، فتلك حياته، و[النُّشُور] مصدر: نشر الميت إذا حيِيَ، ومنه قول الأعشى:

. . . . يَــا عَجَبَــا لِلْمَيِّــت النَّــاشِــرِ[2]

(١) من الآية (٥٦) من سورة (الزُّمَر).

(٢) هذا عجز بيت قاله الأعشى من قصيدة له يهجو بها عَلْقمة بن عُلاثة ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما، وهو بتمامه مع بيت قبله:

لَــوْ أَسْنَــدَتْ مَيْتــاً إلــى نَحْـرِهَــا   عَــاشَ ولَــمْ يُنْقَــل إلــى قَــابِــرِ
حَتَّــى يَقُــولَ النَّــاسُ مِمَّــا رَأَوْا   يَــا عَجَبَــا لِلْمَيِّــتِ النَّــاشِــرِ =

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ يحتمل ثلاثة معانٍ: أحدها أن يريد: من كان يريد العزَّة بمغالبةٍ فَلِلّهِ العزَّة، أَي: ليست لغيره، ولا تَتِمُّ إِلاَّ لَهُ، وهذا المُغالب مغلوب، ونحا إِليه مجاهد، وقال: من كان يريد العزَّة بعبادة الأوثان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تمسُّك بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾[١].

والمعنى الثاني: من كان يريد العزة وطريقها القويم، ويُحب نَيْلها على وجهها، فَـللهِ العزَّة، أَي: بِهِ وعن أَمره، لا تُنال عزَّته إِلاَّ بطاعته[٢]، ونحا إِليه قتادة.

والمعنى الثالث ـ وقاله الفراءُ ـ: من كان يريد علم العزَّة فَلِلَّه العزَّة، أَي: هو المتصف بها. و(جَمِيعاً) حال.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أَي التوحيد والتمجيد وذكر الله ونحوه. وقرأ الضحاك: [يُصْعَدُ] بضم الياءِ، وقرأ الجمهور: (الْكَلِمُ) وهو جمع كَلِمَة، وقرأ أَبو عبد الرحمن: [الْكَلاَمُ]. و(الْطَّيِّبُ): الذي يُسْتحسن سماعه الاستحسان الشرعي. وقال كعب الأَحبار: إن لِـ«سبحان الله، والحمد لله، ولا إِله إِلاَّ الله، والله أَكبر» لدويًّا حول العرش كدويِّ النحل، تذكِّر بصاحبها.

= واستعمال (مَيْت ومَيِّت) يدلُّ على أنهما بمعنى واحد، وقد جمع بينهما عديُّ بن الرعلاءِ حين قال:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ ... إِنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ
إِنَّمَا المَيْتُ مَنْ يَعِيشُ كَئِيباً ... كَاسِفاً بَالُهُ قَلِيلَ الرَّجَاء

وإلى هذا يميل أكثر اللغويين، وإن كان الجوهري قد حكى عن الفراءِ قوله: «يقال لمن لم يمت: إنه مائتٌ عن قليل، ومَيِّتٌ، ولا يقولون لمن مات: هذا مائتٌ». قال صاحب اللسان: وهذا خطأٌ، وإنما (مَيِّت) يصلح لما قد مات ولما سيموت، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، والآية هنا أكبر دليل على أن (الميِّتُ) بالتشديد تكون للميت بالفعل، وغيرها يدل على أن الميْت بالتخفيف هو الميِّتُ أيضاً بالفعل، وأن كلا من المخففة والمثقلة بمعنى واحد.

(١) من الآية (٨١) من سورة (مريم).

(٢) قال ﷺ مُفَسِّراً لقوله تعالى: ﴿من كان يريد العز فلله العزة جميعا﴾: (مَنْ أراد عزَّ الدارين فليطع العزيز)، ولقد أحسن من قال:

وإذَا تَذَلَّلَتِ الرِّقَابُ تَوَاضُعاً ... مِنَّا إِلَيْكَ فعِزُّهَا فِي ذُلِّهَا

ومن اعتزَّ بالله أعزَّه الله، ومن اعتزَّ بالعبد أذلَّه الله.

قوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، إختلف الناس في الضمير، على من يعود؟ فقالت فرقة: يعود على (العَمَل)، ثم اختلفت هذه الفرقة ـ فقال قوم: الفاعل بـ(يَرْفَعُ) هو (الْكَلِمُ)، أَي: والعمل يرفعه الكَلِمُ، وهو قول: «لا إِلَه إِلاَّ الله»؛ لأنه لا يُرفع عملٌ إِلاَّ بتوحيد. وقال بعضهم: الفعل مسند إِلى الله تعالى، أَي: والعمل الصالح يرفعه هو، وهذا أَرجح الأَقوال.

وقال ابن عباس، وشهر بن حوشب، ومجاهد، وقتادة: الضمير في (يَرْفَعُهُ) عائد على (الْكَلِم)، أَي: إِنَّ العملَ الصالح هو يرفع الكَلِمَ، واختلفت عبارات أَهل هذه المقالة ـ فقال بعضها: رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن العبد إِذا ذكر الله تعالى، وقال كلاماً طيباً، وأَدَّى فرائضه، ارتفع قولُه مع عمله، وإِذا قال ـ ولم يُؤَدِّ فرائضه ـ رُدَّ قولُه على عمله وقيل: عملُه أَوْلى به. وهذا قولٌ يردُّه معتقد أَهل الحق والسُّنَّة، ولا يصحُّ[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما، والحقُّ أَن العاصي التَّارك للفرائض إِذا ذكر الله تعالى، وقال كلاماً طيِّباً فإِنه مكتوبٌ له، مُتَقَبَّلٌ منه، وله حسناته، وعليه سيئاته، والله يتقبل من كل من اتَّقى الشِّرك، وأَيضاً فإِن الكَلِم الطيِّب عملٌ صالح، وإِنما يستقيم قول من يقول: «إِن العمل هو الرَّافعُ للكَلِم» بأَن يُتَأَوَّل أَنَّه يزيد في رفعه وحُسْن موقعه إِذا تعاضد معه؛ كما أَن صاحب الأَعمال من صلاة وصيام وغير ذلك ـ إِذا تخلَّل أَعماله كَلِمٌ طيِّبٌ، وذكر الله ـ كانت الأَعمال أَشرف، فيكون قوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ موعظةً وتذكرةً وحضًا على الأَعمال[2]. وذكر الثعلبي أَن النبي ﷺ قال: «لا يقبل الله قولاً إِلاَّ بعمل، ولا عملاً إِلاَّ بِنِيَّةٍ»[3]، ومعناه: قولاً يتضمن أن قائله عمِل

---

(١) الذي في الأصول: «والأَصَحُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما» والصواب ما ذكرناه، وقد نقله القرطبي في تفسيره هكذا.

(٢) نقل القرطبي كلام ابن عطية هذا، وفيما نقله زيادة على ما هنا، وهي: «وأما الأقوال التي هي أعمالٌ في نفوسها، كالتوحيد والتسبيح فمقبولة». (القرطبي ١٤ ـ ٣٣٠).

(٣) ذكر القرطبي الحديث كاملاً، ونصه: «لا يقبل الله قولاً إلا بعمل، ولا يقبل قولاً وعملاً إِلاَّ بنيَّة، ولا يقبل قولاً وعملاً ونيَّة إلا بإصابة السُّنَّة»، ووَجَدْتُ في الجامع الصغير حديثاً أخرجه الطبراني في الكبير، ورمز له الإمام السيوطي بأنه حديث حسن، ولفظه: «لا يقبل إيمانٌ بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان»، وليس فيه ذكر للأقوال، وإنما هو بيان لقيمة العمل في الإسلام إلى جانب العقيدة.

عملاً، أو يعمل في الآنف، وأما الأقوال التي هي أعمالٌ في نفوسها ـ كالتوحيد والتسبيح ـ فمقبولةٌ على ما قدمناه.

وقرأت فرقة: [والعَمَلَ الصالِحَ] بالنصب فيهما، وعلى هذه القراءة فـ(يَرْفعُهُ) مُسْنَدٌ إمَّا إلى الله تعالى، وإمَّا إلى (الْكَلِم)، والضمير في (يَرفعُهُ) عائد على العمل لا غير.

وقوله تعالى: ﴿يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إمَّا أنه عدَّى ﴿يَمْكُرُونَ﴾ لمَّا أحلَّه محل «يكسبون»، وإمَّا أنه حذف المفعول وأقام صفته مقامه، وتقديره: يمكرون المكرات السيئات، و(يَمْكُرُونَ) معناه: يتخابثون ويخدعون وهم يُظهرون أنهم لا يفعلون.

و(يَبُورُ) معناه: يفسد ويبقى لا نفع فيه، وقال بعض المفسرين: يدخل في الآية أهلُ الرِّياء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ونزول الآية أولاً في المشركين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

هذه الآية آية تذكير بصفات الله تعالى على نحو ما تقدم، وهذه المحاورة إنما هي في أمر الأصنام وفي بعض الأجساد من القبور، والله تعالى خلقكم من تراب من حيث خلق آدم أبانا منه عليه السلام. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي بالتناسل من مني الرجال، وأَزْوَاجاً قيل: معناه: أنواعاً، وقيل: أراد تزوج الرجال النساءَ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ الآية... اختلف الناس في عود الضمير في قوله: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره ما مقتضاه أنه عائد على (مُعَمَّرٍ) الذي هو اسم جنس، والمراد غيرُ الذي يُعَمَّر، أي أن القول تضمن شخصين، يُعمَّر أحدهما مئة سنة أو نحوها، ويُنْقَص من الآخر بأن يكون عاماً واحداً أو نحوه، وهذا قول الضحاك، وابن زيد، لكنه أعاد الضمير إيجازاً واختصاراً، والبيان التام أن يقول: ولا يُنْقَصُ من عمر مُعَمَّر؛ لأن لفظ «مُعَمَّر» هي بمنزلة: ذي عُمر، كأنه

قال: ولا يُعَمَّر من ذي عُمْر ولاَ يُنقص من عُمْر ذي عُمْر.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً، وأَبو مالك، وابن جبير: المراد شخص واحد، وعليه يعود الضمير، أَي: ما يُعَمَّر إِنسانٌ ولا يُنْقص من عُمره، بأَن يُحصى ما مضى منه، إِذا مرَّ حولٌ كتب ذلك، ثم حولٌ، فهذا هو النقص، قال ابن جبير: ما مضى من عمره فهو النقص، وما يُسْتَقْبَل فهو الذي يُعَمَّره، ورُوي عن كعب الأَحبار أَنه قال: المعنى: ولا يُنْقَص من عمره، أَي: لا يخترم بسبب قدرة الله تعالى، ولو شاءَ لأَخر ذلك السبب، ورُوي أَنه قال حين طُعِن عُمَرُ رضي الله تعالى عنه: «لو دعا الله لزاد في أَجله»، فأَنكر عليه المسلمون ذلك، وقالوا: إِنَّ الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾[1]، فاحتجَّ بهذه الآية. وهو قولٌ ضعيف مردودٌ، يقتضي القول بالأَجَلَيْن، وبنحوه تمسَّكت المعتزلة.

وقرأَ الحسن، والأَعرج، وابن سيرين: [يَنْقُصُ] على بناء الفعل للفاعل، أَي: يَنْقُصُ اللهُ، وقرأَ: [منْ عُمْرِهِ] بسكون الميم الحسنُ، وداودُ. والكتاب المذكور في الآية: اللَّوحُ المحفوظ. وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إِشارة إِلى تحصيل هذه الأَعمار واختصار دقائقها وساعاتها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

هذه آية أُخرى يستدل بها كل عاقل، ويقطع أَنها مما لا مدخل لصنم فيه، و(الْبَحْرَانِ) يريد بهما جميع الماءِ الملح وجميع الماءِ العذب حيث كان، فهو يعني به جملة هذا وجلمة هذا، و«الْفُراتُ»: الشديد العذوبة، و«الأُجاج»: الشديد الملوحة التي تميل إِلى المرارة من ملوحته. قال الرماني: هو من: أَجَّجْتُ النَّار، كأَنه يحرق من حرارته. وقرأَ عيسى الثقفي: [سَيِّغٌ شَرابُهُ] بغير أَلف وبشدِّ الياءِ، وقرأَ طلحة: [مَلِحٌ] بفتح الميم وكسر اللام.

---

(١) من الآية (٣٤) من سورة (الأعراف)، وتكرر في الآية (٦١) من سورة (النحل).

و«اللَّحم الطري»: الحوت، وهو موجود في البحرين، وكذلك الفُلْك تجري في البحرين، وبقيت الحِلْيَةُ وهي اللُّؤلؤ والمرجان، فقال الزَّجاج وغيره: هذه عبارة تقتضي أَن الحِلْية تخرج منهما وهي إنما تخرج من الملح، وذلك يجوز، كما قال في آية أخرى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[1]، وكما قال: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[2]، والرسل إنما هي من الإنس.

وقال بعض الناس: بل الحِلْية تخرج من البحرين؛: وذلك أَن صَدف اللؤلؤ إنما يلقحه ـ فيما يزعمون ـ ماءُ السماءِ، فمنه ما يخرج ويوجد الجوهر فيه، ومنه ما ينشق في البحر عند موته ويقطعه فيخرج جوهره بالعطش وغير ذلك من الحيل، فهذا هو من الماءِ الفُرات، فنُسب إليه الإخراج لما كان من الحلية بسبب، وأَيضاً فإن البحر الفرات كله ينصب في البحر فيجيءُ الإخراج منهما جميعاً، وقد خُطِّىءَ أَبو ذُؤَيب في قوله في صفة الجوهر:

فَجَـاءَ بهـا مـا شِئْـتَ مِـنْ لَطَمِيَّـةٍ ... عَلَـى وَجْهِهَـا مـاءُ الْفُـرَاتِ يَمُـوجُ[3]

وليس ذلك بخطإٍ على ما ذكرنا من تأْويل هذه الفرقة.

و(الْفُلْك) في هذا الموضع جمع بدليل صفته بجمع.

و(مَوَاخِرَ) جمع ماخِرَةٍ، وهي التي تمخر الماءَ، أي تشُقُّه، وقيل: الماخرة: التي تشق الريح، وحينئذ يحدث الصوتُ، والمَخْر: الصوت الذي يحدث من جري السفينة بالريح، وعبَّر المفسرون عن هذه بعبارات لا تختص باللفظة، فقال بعضهم: المواخر

---

(١) الآية (٢٢) من سورة (الرحمن).

(٢) من الآية (١٣٠) من سورة (الأنعام).

(٣) البيت من قصيدة تطرق فيها أبو ذؤيب الهذلي إلى وصف ابنة السهمي، وشبهها بأنها دُرَّة عثر عليها غواصٌ بعد أن اجتاز إليها لُجَّة بعد لُجَّة، وبعد أن أصابه التعب والإعياء. ، والضمير في (بها) يعود على الدُرَّة، ورواية البيت في الديوان: (تدوم البحارُ فوقها وتموج)، وقال شارحه: ويروى: (يدوم الفراتُ)، يقول: إن هذه الدُرَّة قد جاءَ بها التاجر في اللَّطائم، واللَّطيمة: عير تحمل التجارة والعطر، فإن لم يكن فيها عطر فليست بلطيمة، ومعنى (تدوم البحار): تَسْكن فوقها، وتموج: تتحرك، أي: تذهب وتجيءُ، قال الأَصمعي: «الفراتُ: العذب، ولا يجيءُ منه الدُّرُّ؛ إلا أنه غلط، وظن أن الدُّرَّة إذا كانت في الماءِ العذب فليس لها شِبْهٌ، ولم يعلم أنها لا تكون في العذب»، وابن عطية هنا يدفع ما قيل من خطئه على التأويل الذي ذكره.

هي التي تجيءُ وتذهب بريح واحدة، وقال مجاهد: الريح تمخر السفن، ولا تمخر الريح من السفن إلاَّ الفلك العظام، هكذا وقع لفظه في البخاري، والصواب أن تكون الفُلْك هي الماخرة لا الممخورة.

وقوله تعالى: [لِتَبْتَغُوا] يريد بالتجارة والحج والغزو وكل سفر له وجه شرعي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾.

(يُولِجُ) معناه: يُدْخِلُ، وهذه عبارة عن أَن ما نقص من الليل زاد في النهار، فكأَنه دخل فيه، وكذلك ما نقص من النهار يدخل في الليل. والألف واللام في ﴿ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ هي للعهد، وقيل: هي زائدة لا معنى لها ولا تعريف[1]. وهذا هو الصواب. و«الأجل المُسَمَّى» هو قيام الساعة، وقيل: آماد الليل وآماد النهار، فـ«أَجَلٌ» ـ على هذا ـ اسم جنس. وقرأ جمهور القراءِ: (تَدْعُونَ) بالتاءِ، وقرأ يعقوب والحسن بالياءِ. و«الْقِطْمِيرُ»: القشرة الرقيعة التي على نوى التمرة، هذا قول الناس الحُجَّة، وقال جُوَيْبِر[2] عن رجاله: القِطْمِير: القمع الذي في رأْس التمرة، وقال الضحاك: والأَول أَشهر وأَصوب.

ثم بيَّن تعالى أَمر الأَصنام بثلاثة أَشياءَ، كلُّها تعطي بطلانها: أَوَّلها أَنها لا تسمع إِن دُعيَت، والثاني أَنها لا تُجيب إِنْ لو سمعتْ، وإِنما جاءَ بهذا لأَن لقائل متعسف أَن يقول: عساها تسمع، والثالث أَنها تتبرَّأُ يوم القيامة من الكفار.

و﴿ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أَي: بأَن جعلوهم شركاءَ لله، فأَضاف الشِّرْك إِليهم من حيث هم قرَّروه، فهو مصدر مضاف إِلى الفاعل، وقوله: (يَكْفُرُونَ) يحتمل أَن يكون

(١) أعاد الضمير على «الألف واللام» مفرداً باعتبارهما بعد التركيب حرفاً واحداً هو «أل».

(٢) تصغير جابر، يقال: اسمه جابر، وجُوَيْبِر لقبه، ابن سعيد الأزدي، أبو القاسم البلخي، نزيل الكوفة، راوي التفسير، قال عنه في «تقريب التهذيب»: ضعيف جداً، من الخامسة، مات سنة الأربعين. وهناك جابر أوْ جُوَيْبِر العبدي، قال عنه في «التقريب». مقبول من الثالثة، ولا نعرف من المقصود منهما هنا.

بكلام وعبارة يقدر الله الأَصنام عليها، ويخلق لها إِدراكاً يقتضيها، ويحتمل أَن يكون بما يظهر هنالك من جمودها وبطولها عند حركة كل ناطق، ومدافعة كل محتج، فيجيءُ هذا على طريق التجوز، كقول ذي الرمة:

وَقَفْتُ عَلَى رَبْعٍ لِمَيَّةَ نَاطِقٍ ... تُخَاطِبُنِي آثَارُهُ وَأُخَاطِبُهْ

وأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبُثُّهُ ... تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلاَعِبُهْ(١)

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، قال المفسرون ـ قتادة وغيره ـ: الْخَبِيرُ: أَراد به تعالى نفسه، فهو الخبير الصادق الخبر، نبَّأَ بهذا فلا شكَّ في وقوعه. ويحتمل أَن يكون قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ من تمام ذكر الأَصنام، كأنه قال: ولا يُخْبرك مثلُ من يُخْبِر عن نفسه، وهي قد أَخبرت عن أَنفسها بالكفر بهؤلاءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

هذه آية موعظة وتذكير، والإِنسان فقير إِلى الله تعالى في دقائق الأُمور وجلائلها، لا يستغني عنه طرفة عين، وهو مُسْتغن عن كل أَحد، والله تعالى غني عن الناس، وعن كل شيءٍ من مخلوقاته، غني على الإِطلاق، و(الْحَمِيدُ): المحمود بالإِطلاق. وقوله: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ أَي: بممتنع.

و﴿تَزِرُ﴾ معناه: تحمل الوِزْر الثقيل، وهذه الآية في الذنوب والآثام والجرائم، قاله قتادة، وابن عباس، ومجاهد، وسببها أَن الوليد بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين: اكفروا بمحمد وعَلَيَّ وِزْرُكم، فحكم الله بأَنها لا يحملها أَحد عن أَحد، ومن تطرَّق من

(١) الرَّبْع: الموضع يُنْزل فيه زمن الربيع، أو الدارُ وما حولها، أو الحيُّ: وآثارُه: بقاياه وما ترك فيه السكان بعد الرحيل، أَبُثُّ فلاناً: أُطْلِعه على سِرِّي وأشْجاني. يقول: أوقفت ناقتي على منزل ميَّة، وإنه لمنزل ناطق، حادثتُه وشكوت إليه أخباري وأسراري، وكادت أحجاره وآثاره تجاوبني وتناجيني، فقد أنطق ذو الرمة آثار الديار، وجعلها تتكلم، على طريق التجوز، وهذا هو الشاهد هنا.

الحكام إلى أخذ قريب بقريب في جريمة ـ كفعل زياد ونحوه ـ فإن ذلك لأن المأخوذ ربّما أعان المجرم بمؤازرة ومواصلة، أو اطلاع على حالةٍ وتقرير لها، فهو قد أخذ من الجُرم بنصيب[١]، وهذا هو المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[٢]، لأنهم أغْوَوْهم، وهو معنى قوله ﷺ: «مَن سنَّ سُنَّة سيِّئة فعليه وزرها وَوِزْر مَن عَمِلَ بها بعده، ومن سنَّ سُنَّة حسنة فله أَجرها وأَجر مَن عَمِل بها بعده»[٣]، وأُنثت (وَازِرَة) لأنه ذهب بها مذهب النفس، وعلى ذلك أجريت (مُثْقَلَةٌ). والحِمْلُ: ما كان على الظهر في الأَجرام، ويُستعار للمعاني كالذنوب ونحوها، فيجعل كل محمول متصلاً بالظهر، كما يجعل كل اكتساب منسوباً إلى اليد[٤]. واسم (كَانَ) مضمر، تقديره: ولو كان الداعي.

ثم أخبر تعالى نبيَّه ﷺ أنه إنما ينذر أَهل الخشية، وهم الذين يُمنحون العلم، أي: إنما ينتفع بالإنذار هم، وإلاَّ فَلِنِذارة جميع العالم بَعَثَهُ.

وقوله: (بِالْغَيْبِ) أي: وهو بحال غيبة عنه، إنما هي رسالة، ثم خصَّص من الأَعمال إقامة الصلاة تنبيهاً عليها وتشريفاً لها.

ثم حضَّ سبحانه وتعالى عَلَى التَّزَكِّي؛ بأَنْ رجَّى عليه غاية الترجية، وقرأَ طلحة: [وَمَنِ ازَّكَّى فَإِنَّمَا يَزَّكَّى لِنَفْسِهِ]. ثم توعَّد تعالى بعد ذلك بقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

---

(١) قال أَبو حيَّان تعقيباً على كلام ابن عطية هذا: «وكأن ابن عطية تأوَّل أفعال زياد وما فعل في الإسلام، وكانت سيرتُه قريبة من سيرة الحجَّاج».

(٢) من الآية (١٣) من سورة (العنكبوت).

(٣) أخرجه مسلم في العِلْم، وفي الزكاة، والنسائي في الزكاة، وأحمد في مسنده (٤ ـ ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١)، ولفظه كما في صحيح مسلم في كتاب العِلْم، عن جرير بن عبد الله، قال: جاءَ ناس من الأعراب إلى رسول الله ﷺ، عليهم الصوف، فرأى سوءَ حالهم، قد أصابتهم حاجة، فحثَّ الناس على الصدقة، فأبطئوا عنه حتَّى رُؤي ذلك في وجهه، قال: ثم إن رجلاً من الأنصار جاءَ بصُرَّةٍ من ورق، ثم جاءَ آخر، ثم تتابعوا حتى عُرف السرور في وجهه، فقال رسول الله ﷺ مَن سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة فعُمل بها بعده كُتب له مثلُ أجرْ من عمل بها، ولا ينقص من أُجورهم شيءٌ، ومن سَنَّ في الإسلام سُنَّة سيئة فعُمل بها بعده كُتب عليه مثل وِزْر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم من شيء).

(٤) فيقال عن كل عمل يعمله الإنسان ولو بغير يده: «كسبت يداه كذا وكذا»، أو يُلام على ما فعل إن كان سيئاً فيقال له: هذا نتيجة ما كسبت يداك».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكل عبارة مُقصِّرَةٌ عن تَبْيينِ فصاحة هذه الآية، وكذلك كتابُ الله كلُّه، ولكن يظهر الأمر لنا نحن في مواضع أكثر منه في مواضع بحسب تقصيرنا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

مضمون هذه الآية طعن على الكفرة، وتمثيل لهم بالعُمْي والظلمات، وتمثيل المؤمنين ـ بإزائهم ـ بالبصراءِ والأنوار، وقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾ ودخول (لاَ) فيها وفيما بعدها إنما هو على نيَّة التكرار، كأنه قال: «ولا الظلمات والنور، ولا النور والظلمات»، فاستغنى بذكر الأوائل عن الثواني، ودلَّ مذكور الكلام على متروكه[1].

و(الْحَرُورُ) شدة حرِّ الشمس، قال رؤْبة بن العَجّاج: الْحَرور بالليل والسَّموم بالنهار، وليس كما قال، وإنما الأمر كما حكى الفراءُ وغيره: إن السموم تختص بالنهار، والحرور يقال في حرِّ الليل وفي حرّ النهار[2]، وتأَول قوم الظِّلَّ في هذه الآية: الجنة، والحرور: جهنم.

---

(١) عقَّب أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط» على كلام ابن عطية هذا بعد أن نقله بقوله: «وما ذكر غير محتاج إلى تقديره؛ لأنه إذا نفى استواءَ الظلمات والنور فأيُّ فائدة في تقدير نفي استوائهما ثانياً وادعاءُ محذوفين؟ وأنت تقول: ما قام زيد ولا عمرو، فتؤكد بـ(لا) معنى النفي فكذلك هنا»، وكأن هذا الاعتراض منصب على التقدير، لأن أبا حيان عاد بعد قليل فقال: «وكرر (لا) لتأكيد المنافاة، فالظلمات تنافي النور وتضاده، والظل والحرور كذلك، والأعمى والبصير ليسا كذلك، لأن الشخص الواحد قد يكون بصيراً ثم يعرض له العمى، فلا منافاة إلا من حيث الوصف، والمنافاة بين الظل والحرور دائمة، ولهذا أكدها بالتكرار. وكذلك المنافاة بين الأحياء والأموات أتَمُّ، من حيث أن الجسم الواحد يكون محلاً للحياة ثم يصير محلاً للموت، أما الأعمى والبصير فقد يشتركان في إدراك شيءٍ ما»، ومعنى هذا أن أبا حيّان يعلل تكرار (لا) بتأكيد المنافاة.

(٢) يرى أبو حيان أن هذا الاعتراض على كلام رؤبة مرفوض، قال: «لأنه تؤخذ منه اللغة، فأخبر عن لغة قومه».

وشبه المؤمنين بالأحياء، والكفرة بالأموات، من حيث لا يفهمون الذكر ولا يُقبلون عليه، ثم ردَّ الأمر إلى مشيئة الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾. وهذا تمثيل بما يحسُّه البشر ويشاهدونه، فهم يرون أن الميت الذي في القبر لا يسمع، وأمَّا الأرواح فلا تَرِدُ؛ إذ تتضمن الأحاديث أن أرواح المؤمنين في شجر عند العرش في قناديل وغير ذلك[1]، وأن أرواح الكفرة في سجِّين ونحوه، وفي بعض الأخبار أن الأرواح عند القبور، فربما سمعت، وكذلك أهل قليب بدر إنما سمعت أرواحهم، وكذلك سماع الميِّت خفق النِّعال، إنما هو بردِّ روحه عليه عند لقاءِ الْمَلَكَيْن[2]، فهذه الآية لا تعارض حديث القليب؛ لأن الله تبارك وتعالى ردَّ على أُولئك أرواحهم في القليب ليُوَبِّخهم، وهذا على قول عُمَر وابنه عبد الله رضي الله تعالى عنهما ـ وهو الصحيح ـ: إن رسول الله ﷺ قال: «ما أنتم بأسمع منهم»، وأما عائشة رضي الله عنها فمذهبها أن رسول الله ﷺ لم يُسْمعهم، وإنما قصد توبيخ الأحياءِ من الكفرة، وجَعَلتْ هذه الآية أصلاً، واحتجت بها، فمثَّل الله تعالى في هذه الآية الكفرة بالأشخاص التي في القبور[3] ـ وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [بِمُسْمِعِ مَنْ] على الإضافة.

---

(١) من هذه الأحاديث ما رواه الدارمي في سُنَنه، عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن أرواح الشهداء ـ ولولا عبد الله لم يحدثنا أحد ـ قال: أرواح الشهداءِ عند الله يوم القيامة في حواصل طير خُضْر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح في أيِّ الجنة حيث شاءَت، ثم ترجع إلى قناديلها، فيشرف عليهم ربهم فيقول: أَلَكُمْ حاجة؟ تريدون شيئاً؟ فيقولون: لا، إلا أن نرجع إلى الدنيا فنقتل مرة أُخرى.

(٢) حديث أن الميت يسمع خفق النعال أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، عن أنس رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ، قال: «العبد إذا وضع في قبره، وتولَّى وذهب أصحابه، حتَّى لَيَسْمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فأقعداه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ؟ فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدك من النار، أبدلك الله به مقعداً من الجنَّة، قال النبي ﷺ: فيراهما جميعاً، وأما الكافر والمنافق فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربةً بين أُذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه ـ إلا الثَّقلين).

(٣) أخرج الإمام أحمد في مسنده (٦ ـ ٢٧٦)، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: أمر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يطرحوا في القَليب، فطرحوا فيه، إلا ما كان من أُمية بن خلف فإنه انتفخ في درعه فملأها، فذهبوا يحركونه فيتزايل فأقرُّوه، وألْقَوْا عليه ما غيَّبه من التراب والحجارة، فلما ألقاهم في القليب وقف عليهم رسول الله ﷺ فقال: «يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعد ربكم حقّاً؟ فإنِّي قد وجدت ما وعدني ربِّي حقّاً»، قال: فقال له أصحابُه: يا رسول الله، أتكلم قوماً موتى؟ قال: فقال لهم: «لقد علموا أن ما وعدتهم حق»، قالت عائشة: والناس يقولون: لقد سمعوا ما قلتُ لهم، وإنما قال رسول الله ﷺ «لقد علموا». وهذه الرواية عن عائشة تلتقي مع هذه الآية كما ذكر ابن عطية.

ثم سلّى نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾، أَي: ليس عليك غير ذلك، والهداية والإِضلال إِلى الله تعالى.

و(بشِيراً) معناه: بالنعيم الدَّائم لمن آمن، (ونذيراً) معناه: من العذاب الأَليم لمن كفر. وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ معناه: إِن دعوة الله قد عمَّت جميع الخَلق، وإِن كان فيهم من لم تباشره النِّذارة فهو ممَّن بَلَغته؛ لأن آدم عليه السلام بُعث إلى بنيه، ثم لم تنقطع إِلى وقت محمد ﷺ، والآيات التي تتضمن أَن قريشاً لم يأْتهم نذيرٌ معناه[1]: نذيرٌ مباشر، وما ذكره المتكلمون من فرض أَصحاب الفترات ونحوهم فإِنما ذلك بالفرض لا أَنه يوجد أُمَّة لم تعلم أَن في الأَرض دعوة إِلى عبادة الله تعالى.

ثم سلَّى نبيَّه ﷺ بما سلف من الأُمم لأَنبيائهم، و«الْبيِّنَات» و«الزُّبُر» و«الْكِتَاب الْمُنِير» شيءٌ واحد، لكنه أَكَّدَ أَضوصافه بعضهابيعض، وذكره بجهاته[2]. و«الزُّبُر» من: زبرْتُ الْكِتَابَ إِذا كتبته. ثم توعَّد قريشاً بذكره أَخْذ الأُمم الكافرة.

وقوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

الرُّؤْية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ رُؤْية القلب، وكل توقيف في القرآن على رُؤْية فهي رؤية القلب؛ لأَن الحُجَّة بها تقوم، ولكن رُؤْية القلب لا تتركَّب البتَّة إِلاَّ على حاسَّة، فأَحياناً تكون بحاسة البصر، وقد تكون عبْرة، وهذا يُعرف بحسب الشيءِ المُتكَلَّم فيه، و(أَنَّ) سادَّة مسدَّ المفعولين اللَّذيْن للرُّؤْية، وهذا مذهب سيبويه، لأَن (أَنَّ) مع ما دخلت عليه جملة، ولايلزم ذلك في قولك: رأَيت أَو ظننت ذلك؛ لأَن قولك ذلك ليس بجملة كما هي [أَنَّ]، ومذهب الزجَّاج أَن المفعول الثاني محذوف، تقديره: أَلم تَرَ أَن اللهَ أَنزلَ منَ الماءِ ماءً حقًّا؟ ورجع من خطاب يذكر الغائب إِلى المتكلم بنون العظمة لأَنه أَهْيَب في العبارة.

---

(١) يريد: معنى ما ورد من الآيات، أو معنى ما تضمنته الآيات.

(٢) وقيل: (البيِّنَات): الآيات والعلامات. وأما (الزُّبُر) و(الْكِتَاب الْمُنِير) فهما بمعنى واحد.

قوله تعالى: (أَلْوَانُهَا) يحتمل أَن يريد الصُّفْرة والحُمْرة والبياض والسواد وغير ذلك، ويؤيد هذا اطِّراد ذكر هذه الأَلوان فيما بعد، ويحتمل أَن يريد الأَنواع، والمعتبر فيه ـ على هذا التأويل ـ أَكثر عدداً.

و(جُدَدٌ) جمع جُدَّة، وهي الطريقة تكون من الأرض والجبل كالقطعة العظيمة المتصلة طولاً، ومنه قول امرىء القيس:

كَـأَن سَـرَاتَـهُ وَجُـدَّةَ ظَهْـرِهِ كَنَـائِـنُ يَجْـرِي بَيْنَهُـنَّ دَليـصُ[1]

وحكى أَبو عبيدة في بعض كتبه أنه يقال: «جُدَدٌ» في معنى جديد»، ولا مدخل لمعنى الجديد في هذه الآية، وقرأ الزهري: [جَدَدٌ] بفتح الجيم.

وقوله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ لَفظَان لمعنى واحد، قال النبي ﷺ: «إنَّ الله يُبْغض الشيخ الغِرْبيب»[2]، أَي الذي يخضب بالسواد، وقدم الوصف الأَبلغ وكان حقه أن يتأَخر، وكذلك هو في المعنى، لكن كلام العرب الفصيح يأْتي كثيراً على هذا النحو.

وقوله تعالى: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ قَبْلَهُ محذوف إليه يعود الضمير، تقديره: «والأَنعام خَلْق مختلف أَلوانه»، والدوابُّ نَعَم الناس، ولكن ذُكِرَا تَنْبيهاً منهما. وقوله: (كَذَٰلِكَ) يحتمل أضن يكون من الكلام الأَول فيجيءُ الوقف عليه حسناً، وإلى هذا ذهب كثير من المفسرين، ويحتمل أن يكون من الكلام الثاني، يخرج مخرج السبب، كأَنه قال: كما جاءَت القدرة في هذا كله إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ، أي المحصلون لهذه العِبَر، الناظرون فيها. وقال بعض المفسرين: الْخَشْيَة رأس العلم، وهذه عبارة وعظية لا تثبت

---

(١) هذا البيت من قصيدة رواها أبو عُمر الشيباني، وفيها أبيات يصف فيها جَمَلَه، ويشبهه بحمار الوحش الذي يطارد أُتُناً ـ جمع أَتان وهي الحمارة ـ حَمَلْن فَرَبَتْ من حملهن البطون، وهذا الحمار ضامر البطن، كأن سَرَاتَهُ... الخ البيت، وسَراتُه: ظَهْرُه، وجُدَّة ظَهْرِه هي الخطة في ظهر الحمار تخالف لونه، والكنائن: جمع كنانة، وهي جعبة السهام تصنع من الجلد أو الخشب، والدَّليص: ماءُ الذهب، يشبه ظهر الحمار وما فيه من خُطَّة تختلف في اللون عن بقية لونه كله بجعاب السهام التي وشيت بالذهب. والشاهد هنا هوكلمة جُدَّة وما تحمل من المعنى. وقد ورد أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس رضي الله عنهما: أخبرني عن قوله تعالى: (جُدَدٌ)، فقال: طرائق، طريقة بيضاءُ وطريقة خضراءُ، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعَم، أما سمعت الشاعر وهو يقول:

قـد غَـادَرَ السَّبـعُ فـي صَفَحَـاتِهَـا جُـدَداً كـأنهـا طُـرقٌ لاحَـتْ عَلَـى أُكُـمِ

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورمز له الإمام السيوطي في (الجامع الصغير) بأنه ضعيف.

عند النقد، بل الصحيح المطرد أن يقال: العِلْمُ رأس الخشية وسببُها، والذي ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «خشية الله رأسُ كلِّ حكمة»[١]، وقال: «رأسُ الحكمة مخافة الله»[٢]، فهذا هو الكلام المنير، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كفى بالزهد علماً»، وقال مسروق: «كفى بالمرءِ علماً أن يخشى الله»، وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾[٣]، وقال عليه الصلاة والسلام: «أَعْلَمكُمْ بالله أَشدكم له خشية»[٤]، وقال الربيع بن أَنس: «من لم يخش الله فليس بعالم»، ويقال: إن فاتحة الزَّبور: رأس الحكمة خشية الله» وقال ابن مسعود: «كفى بخشية الله علماً، وبالاغترار به جهلاً»، وقال مجاهد والشعبي: «إنما العالم من يخشى الله»، و[إنّما] في هذه الاية لتخصيص العلماءِ لا للحصر، وهي لفظة تصلح للحصر، وتأْتي أَيضاً دونه، وإنما يُعلم ذلك بحسب المعنى الذي جاءَت فيه، فإِذا قلتَ: إنَّما الشُّجاعُ عنترة، وقلت: إنما الله إِلهٌ واحدٌ، بان لك الفرقُ بينهما فتأَمله.

وهذه الآية بجملتها دليل على الوحدانية والقدرة، والقصد بها إقامة الحجة على كفار قريش.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾.

قال مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير: «هذه آية القُرَّاءِ»، وهذا على أن (يَتْلُونَ)

---

(١) أخرجه القضاعي عن أنس رضي الله عنه، ولفظه كما جاء في (الجامع الصغير): «خشية الله رأس كل حكمة، والورع سيِّد العمل».

(٢) أخرجه الحكيم، وابن لال، عن ابن مسعود رضي الله عنه، ورمز له الإمام السيوطي في (الجامع الصغير) بأنه صحيح.

(٣) الآية (١٠) من سورة (الأعلى). وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، وقال عزَّ من قائل: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾.

(٤) أخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن صالح أبي الخليل رضي الله عنه في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ قال: «أعلمهم بالله أشدهم له خشية»، هكذا ذكره في (الدر المنثور).

بمعنى: يقرأون، وإن جعلناها بمعنى: يتَّبعون، صحَّ معنى الآية[1]، وكانت في القُرَّاءِ وغيرهم ممن اتصف بأوصاف الآية، و«كِتَابُ اللهِ» هو القرآن، و«إقامة الصَّلاةِ» إقامتها بجميع شروطها، و«النَّفَقَة» هي الصدقات ووجوه البرِّ، فالسِّرُّ من ذلك هو التطوع، والعلانية هو المفروض، و(يَرْجُونَ) جملة في موضع رفع خبر (إنَّ)، و(تَبُور) معناها: تكسد ويتعذَّر رِبْحها، ويقال: «نعوذ بالله من بوار الأَيِّم»[2].

واللام في (لِيُوَفِّيَهُمْ) متعلِّقة بفعل مضمر يقتضيه لفظ الآية، تقديره: وعدهم بألاَّ تبور إن فعلوا ذلك كلَّه وأَطاعوه، ونحو هذا من التقدير. وقوله: (وَيَزِيدَهُمْ) قالت فرقة: هو تضعيف الحسنات من العشر إلى السبعمائة، وتوفية الأُجور ـ على هذا ـ هي المجازاة مقابلة. وقالت فرقة: إن التضعيف داخل في توفية الأُجور، وأَما الزيادة من فضله فهي؛ إما النَّظرُ إلى وجهه الكريم وإمَّا الشفاعة في غيرهم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[3]، و(غَفُورٌ) معناه: متجاوز عن الذنوب ساتر لها، و(شَكُورٌ) معناه: مُجَازٍ على اليسير من الطاعة، مُقَرِّب لعبده به.

ثم ثبَّت تعالى أَمر نبيِّه بقوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية، و(مُصَدِّقاً) حال مؤكِّدة، والذي بين يدي القرآن هو التوراة والإنجيل، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ وعيد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾.

---

(١) في بعض النسخ: «صحَّ معنى القراءة».

(٢) الأيِّم: المرأة التي لا زوج لها وهي مع ذلك لا يرغب فيها أحد، وبَوَارُها: كسدُها، بمعنى أن تبقى في بيتها لا يخطبها خاطب، من قولهم: بارت السُّوق إذا كسدت. والبُور: الأَرض التي لم تزرع والمعامي المجهولة والأغفال ونحوها، وفي كتاب النبي ﷺ لأُكَيْدِرِ دومَةَ: (ولكُم البَوْرُ والمعامي وأغفال الأرض)، وهو بالفتح مصدر وُصف به، ويروى بالضم وهو البوار، أي الأرض الخراب.

(٣) من الآية (٢٦) من سورة (يونس).

(أَوْرَثْنَا) معناه: أَعطيناه فرقة بعد موت فرقة، والميراث ـ حقيقةً ومجازاً ـ إنما يقال فيما صار لإِنْسانٍ بعد موت آخر، والمراد بالكتاب هنا معاني الكتاب وعلمه وأَحكامه وعقائده، فكأَن الله تعالى لما أَعطى أُمَّة محمد ﷺ القرآن ـ وهو قد تضمَّن معاني الكتب المُنَزَّلة قبله ـ فكأَنه ورَّث أُمة محمد ﷺ الكتاب الذي كان في الأُمم قبلهم.

و﴿الذين اصطفينا﴾ يريد بهم أُمة محمد عليه الصلاة والسلام، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وكأَن اللفظ يحتمل أَن يريد جميع المؤمنين من كل أُمة إلاَّ أن عبارة توريث الكتاب لم تكن إلاَّ لأُمة محمد ﷺ، والأَوَل لم يُوَرَّثوه. و﴿اصْطَفَيْنَا﴾: اخترنا وفضلنا، و«العِبادُ» عامٌّ في جميع العالم مُؤمنهم وكافرهم.

واختلف الناسُ في عود الضمير من قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ ـ فقال ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهم ما مُقتضاه أَن الضمير عائد على (الَّذِينَ)، والأَصنافُ الثلاثة هي كلها في أُمة محمد صلوات الله وسلامه عليه، «فالظَّالم لنفسه»: العاصي المُسْرِف. و«المقتصد»: مُتَّقي الكبائر، وهو الجمهور من الأُمَّة، و«السَّابِقُ»: المُتَّقي على الإطلاق، وقالت هذه الفرقة: الأَصناف الثلاثة في الجنة، وقاله أَبو سعيد الخدري رضي الله عنه، والضمير في ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ عائد على الأَصناف الثلاثة، قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: دخلوا الجنة كلهم، وقال كعب الأَحبار: استوت مساكنهم وربِّ الكعبة وتفاضلوا بأَعمالهم، وفي رواية: تحاكَّت مناكبهم، وقال أَبو إِسحق السبيعي[1]: أَما الذي سمعت منذ ستِّين سنة، فكلُّهم ناج، وقال ابن مسعود: هذه الأُمة يوم القيامة أَثلاث: ثُلُث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة، وثلث يجيئون بذنوب عظام، فيقول الله: من هؤلاءِ؟ ـ وهو أَعلم بهم ـ فتقول الملائكة: هم مذنبون إلاَّ أَنهم لم يشركوا، فيقول عزَّ وجلَّ: أَدخلوهم في سعة رحمتي، وقالت عائشة رضي الله عنها في كتاب الثعلبي: السَّابق من أَسلم قبل الهجرة، والمقتصد من أَسلم بعدها، والظالم نحن، وقال الحسن: السَّابق من رجحت حسناته،

(١) هو عمرو بن عبد الله، من بني ذي يحمد بن السَّبيع الهمذاني الكوفي، أبو إسحق، من أعلام التابعين، كان شيخ الكوفة في عصره، أدرك الإمام علياً رضي الله عنه، ورآه يخطب، قال: رأيته أَبيض الرأس واللحية، قيل: سمع من ثمانية وثلاثين صحابياً، وكان من الغزاة المشاركين في الفتوح، وغزا الروم في زمن زياد ست غزوات، وعمي في كبره. (تاريخ التهذيب، تاريخ الإسلام الذهبي، الأعلام).

والمقتصد من استوت بسيئاته، والظالم من خفَّت موازينه، وقال سهل بن عبد الله[١]: السابق العالِمُ، والمقتصد المتعلِّم، والظالم الجاهل. وقال ذو النُّون[٢]: الظَّالم الذَّاكرُ الله بلسانه فقط، والمقتصد الذَّاكرُ بقلبه، والسابق الذي لا ينساه. وقال الأنطاكي: الظالم صاحبُ الأَقوال، والمقتصد صاحب الأَفعال، والسابق صاحب الأَحوال، وروى أُسامة بن زيد رضي الله عنه أَن النبي ﷺ قرأَ هذه الآية وقال: «كلُّهم في الجنة»[٣]، وقرأَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفورٌ له»[٤]، وقال عليه الصلاة والسلام: «أَنا سابق العرب، وسلمان سابق الفرس، وصُهيب سابق الروم، وبلال سابق الحبشة»[٥]، أَراد عليه الصلاة والسلام أَن هؤلاءِ رؤُوس السابقين، وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «سابقنا أَهل جهاد، ومقتصدنا أَهل حضرنا، وظالمنا أَهل بدونا، لا يشهدون جماعة ولا جمعة»[٦].

وقال عكرمة، وقتادة، والحسن ما مقتضاه أَن الضمير في (مِنهُمْ) عائد على

---

(١) هو سهل بن عبد الله بن يونس التَّسْتَرِي، أبو محمد، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم، له كتاب مختصر في تفسير القرآن (طبقات الصوفية).

(٢) هو ذو النون المصري، ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري، أبو الفياض، أحد الزُّهاد العُبَّاد المشهورين، من أهل مصر، نوبيُّ الأصل، كانت له فصاحة وحكمة، وهو أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية، توفي بالجيزة. (الأعلام)، وقد حدَّد القرطبي أنه ذو النون المصري هذا، وإلا فهناك آخرون يحملون نفس اللقب ولكنهم غير مقصودين.

(٣) أخرجه الطبراني، والبيهقي في البعث، عن أُسامة بن زيد رضي الله عنه، وأخرج مثلَه الطيالسي، وأحمد، وعبْد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفي لفظه زيادة، حيث قال: «كلُّهم بمنزلة واحدة، وكلُّهم في الجنة». (الدر المنثور). وقال ابن كثير عن حديث أبي سعيد الخدري: «هذا حديث غريب، وفي إسناده من لم يُسَمَّ»، ثم قال: «ومعنى قوله: (بمنزلة واحدة) أي: في أنهم من هذه الأمة، وأنهم من أهل الجنة وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة».

(٤) أخرجه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، والبيهقي في البعث، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٥) أخرجه الحاكم في مستدركه، عن أنس رضي الله عنه، قال ذلك الإمام السيوطي في «الجامع الصغير»، ورمز بأنه حديث حسن.

(٦) أخرجه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه. ذكر ذلك في (الدر المنثور) الإمامُ السيوطي.

«العباد»، والظَّالم لنفسه: الكافر والمنافق، والمقتصد: المؤمن العاصي، والسابق: التَّقي على الإطلاق، قالوا: وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾(١)، والضمير في قوله تعالى: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ ـ على هذا القول ـ خاص على الفرقتين: المقتصد والسابق، والفرقة الظالمة في النار، قالوا: وبعيد أن يكون ممن اصْطُفي ظالمٌ كما يقتضي التأويل الأول، ورُوي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال بعض العلماءِ: قُدِّم الظَّالم لأنه لا يتكل إلاَّ على رحمة الله، والمقتصد هو المعتدل في أُموره، لا يُسرف في جهة من الجهات، بل يلزم الوسط. وقال عليه الصلاة والسلام: «خير الأمور أوساطها»(٢).

وقالت فرقة ـ لا معنى لقولها ـ: إن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ هم الأَنبياءُ، والظالم لنفسه منهم من وقع في صغيرة، وهذا قول مردود من غير ما وجه.

وقرأَ الجمهور: ﴿سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾، وقرأَ أَبو عمران الجوني: [سبَّاقٌ].

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ معناه: بأَمره ومشيئته فيمن أَحبَّ من عباده، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ إشارة إلى الاصطفاءِ وما يكون من الرحمة.

وقال الطبري: السُّبوق بالخيرات هو الفضل الكبير، قال في كتاب الثعلبي: جمعهم في دخول الجنة لأَنه ميراثٌ، وَالْبَارُّ والعاقُّ سواءٌ في الميراث مع صحة النسب، فكذلك هؤلاءِ مع صحة الإيمان.

وقرأَ الجمهور: ﴿جَنَّاتُ﴾ بالرفع على البدل من (الْفَضْل)، وقرأَ الجحدري: [جَنَّاتِ] بالنصب بفعل مضمر يُفسِّرهُ ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾، وقرأَ زِرُّ بن حُبَيْش: [جنة عدن] على

---

(١) الآية (٧) من سورة (الواقعة)، قال مجاهد موضحاً أن آية فاطر نظير آية الواقعة: «﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أَصحاب المشأمة، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أصحاب الميمنة، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ السابقون من الناس كلِّهم».

(٢) وقيل: إن التقديم في الذكر لا يقتضي تشريفاً، وهو كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، وقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾، وقيل: قدَّم الظلم لتأكيد الرجاءِ في حقِّه؛ إذ ليس له شيءٌ يتكل عليه إلا رحمة ربه، واتكل المقتصد على حسن ظنه، والسابق على طاعته، وقيل: قدم الظالم ليخبر أنه لا يَتَقَرَّب إليه إلا بصرف رحمته وكرمه، وأن الظالم لا يؤثر في الاصطفائية إذا كانت ثَمَّ عناية، ثم ثنَّى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاءِ، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكر الله، وكلهم في الجنة بحرمة كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

الإفراد، وقرأ أبو عمرو: [يُدْخَلُونها] على بناءِ الفعل للمجهول، ورويت عن ابن كثير، وقرأ الباقون بفتح الياءِ وضم الخاءِ.

و«الأَساوِرُ» جمع أَسْوِرة، وأَسْوِرة جمع سُوار، بضم السين وكسرها، وفي حرف أُبَيٍّ [أَسَاوِير]، وهو جمع أَسْوار، وقد يقال ذلك في الحليِّ، ومشهور أَسْوار أنه الجيِّد الرَّمْي من جند الفرس، و(يُحلَّوْن) معناه: نساءً ورجالاً. وقرأ عاصم ـ في رواية أبي بكر[1] ـ: [ولُؤْلُؤاً] بالنصب عطفاً على موضع [أَساوِر]، وكان عاصم ـ في رواية أبي بكر ـ يقرأ: [ولُوْلُؤاً] بسكون الواو الأُولى دون همزٍ ويهمز الثانية، ورُوي عنه ضد هذا، وقرأ الباقون: [وَلُؤْلُؤٍ] بالهمز والخفض عطفاً على [أَساوِرَ].

و(الْحَزن) في هذه الآية عام في جميع الأَحزان، وخصَّص المفسرون ها هنا، فقال أَبو الدرداءِ رضي الله عنه: حزن أَهوال يوم القيامة وما يُصيب هنالك من ظلم نفسه من الغم والحزن، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: حزن جهنم، وقال عطية: حزن الموت، وقال قتادة: حزن الدنيا في الخوف أَلاَّ تُتقبَّل أَعمالهم، وقيل غير هذا ممَّا هو جزءٌ من الحزن، ولا معنى لتخصيص شيءٍ من هذه الأَحزان؛ لأَن الحزن أَجمع قد ذهب عنهم. وقولهم: ﴿لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ وصفوه بأَنه تبارك وتعالى يغفر الذنوب، ويجازي على القليل من الأَعمال الصالحة بالكثير من الثواب، وهذا هو شكره لا ربَّ سواه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

(الْمُقَامَة): الإِقامة، من: أَقام، والمَقَامة ـ بفتح الميم ـ: القيام، وهي من: قام، و«دَارُ الْمُقَامَة»: الجَنَّة. و«النَّصَبُ» تعب البدن، و«اللُّغُوب» تعب النفس اللازم من تعب البدن، وقال قتادة: اللُّغوب: الوجع، وقراءَة الجمهور (لُغُوبٌ) بضم اللاَّم، وقرأَ

---

(١) وكذلك في قراءة حفص.

علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، والسُّلَمي: [لَغُوبٌ] بفتح اللام، أَي: شيءٌ يُعْيِينا، ويحتمل أَن تكون مصدراً كالوَلُوغ والوَضوءِ[١].

ثم أَخبر تعالى عن حال الذين كفروا معادلاً بذلك الإِخبار قبلُ عن الذين اصطفى، وهو يؤيد تأْويل من قال: إِن الثلاثة الأَصناف هي كلُّها في الجنة؛ لأَن ذكر الكافرين إِنما جاءَ ها هنا. وقوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ معناه: لا يُجهَزُ؛ لأَنهم لو ماتوا لبطلت حواسهم فاستراحوا. وقرأَ الحسن البصريُّ، والثقفيُّ: [فَيَمُوتُونَ]، ووجْهُها العطف على [يُقْضَى]، وهي قراءَةٌ ضعيفة[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ لا يعارضه قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾[٣]؛ لأَن المعنى: لا يُخَفَّف عنهم نوعُ عذابهم، والنوع في نفسه يدخله أَن تخبو وأن تسعر، ونحو ذلك. وقرأَ الجمهور: (نَجْزِي) بنون، (كُلَّ) بالنصب، وقرأَ أَبو عمرٍو ـ بخلاف ـ: [يُجْزَى] بياءٍ مضمومة على الفعل المجهول [كُلُّ] رفعاً.

و(يَصْطَرِخُونَ) يفتعلون، من الصُّراخ، أَصله «يَصْتَرِخُونَ» فأُبدلت التاءُ طاءً لقرب مخرج الطاءِ من الصاد، وفي الكلام محذوف تقديره: فيقال لهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾؟ على جهة التوقيف والتوبيخ. و(ما) في قوله سبحانه: ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ﴾ ظرفية، واختلف الناس في المدة التي هي للتذكير[٤] ـ فقال الحسن بن أَبي الحسن: «البلوغ»، يريد أَنه

---

(١) الوَضوءُ ـ بالفتح ـ الماءُ الذي يُتوضأُ به ـ كالفَطور والسَّحور لما يُفْطر عليه ويُتَسَحَّر به، والوَضوء ـ بالفتح أيضاً، المصدر من توضأت للصلاة، والوُضوءُ ـ بالضم ـ المصدر. (جاء ذلك في اللسان ـ وَضأ)، واللغويون مختلفون، ولكن أكثرهم يرون أن صيغة الفتح تدل على الشيءِ الذي يتم به الفعل، وصيغة الضم تدل على نفس الفعل. (راجع اللسان والتاج).

(٢) أما قراءة الجمهور (فَيَمُوتوا) فهي بحذف النون نصباً في جواب النفي في قوله سبحانه: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، وهو على أحد مَعْنَيَي النصب، فالمعنى: انتفى القضاءُ عليهم فانتفى المُسَبَّب عنه، أي: لا يُقضى عليهم ولا يموتون، كقولك: ما تأتينا فَتحَدِّثنا، أي: ما يكون حديث، انتفى الإتيان فانتفى الحديث، ولا يصح أن يكون النصب على المعنى الثاني للنصب، أي: ما تأتينا مُحَدِّثاً، إنما تأتي ولا تحَدِّث، وكذلك في الآية ليس المعنى: لا يُقضى عليهم مَيِّتين، إنما يقضى عليهم ولا يموتون. (راجع البحر المحيط).

(٣) من الآية (٩٧) من سورة (الإسراء).

(٤) في بعض النسخ: التي هي حدٌّ للتذكير، وهذا يتفق مع تعبير ابن عطية بعد ذلك في نقله عن العلماء: «الحدُّ هو كذا».

أَول حالِ التذكير، وقال قتادة: ثمانِ عشرة سنة، وقالت فرقة: عشرون سنة، وحكى الزجاج سبع عشرة سنة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَربعون سنة، وهذا قول حسن ورويت فيه آثارٌ، ورُوي أَن العبد إِذا بلغ أَربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان على وجهه، وقال: وجه لا يُفلح، وقال مسروق بن الأَجدع: من بلغ أَربعين سنة فليأْخذ حذره من الله، ومنه قول القائل:

إِذَا الْمَرْءُ وَفَّى الأَرْبَعِينَ وَلم يَكُن ... لَـهُ دُونَ مَـا يَـأْتـي حَيَـاءٌ وَلاَ سِتْـرُ

فَدَعْهُ وَلاَ تَنْفِسْ عَلَيْهِ الَّذي ارْتَأَى ... وَإِن جَرَّ أَسْبَابَ الحيَاةِ لهُ الدَّهْرُ(١)

وقال قومٌ: الحدُّ خمسون، ومنه قول القائل:

أَخُـو الْخَمْسِيـنَ مُجْتَمِـعٌ أَشُـدِّي ... ونَجْـدٌ فـي مُـدَاوَرَةِ الشُّـؤونِ(٢)

وقال آخر:

وإِنَّ امْـرَأً قـد عـاش خَمْسِيـنَ حِجَّـةً ... إِلَـى مَنْهَـلٍ مِـنْ وِرْدِهِ لَقَـرِيـبُ(٣)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: الحدُّ في ذلك ستُّون، وهي سنُّ الإِعذار، وهذا أَيضاً قولٌ حسنٌ مُتَّجه، وروي أَن رسول الله ﷺ قال: «إِذا كان يوم القيامة نودي: أَين ابن السِّتِّين؟ وهو العمر الذي قال الله فيه: ﴿أَو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾(٤)، وقال عليه الصلاة والسلام: «من عمَّره الله ستين سنة فقد أَعذر إِليه في

---

(١) وفَّى الأربعين: أكملها وأتَمَّهَا. لا تَنْفِس عليه: لا تَحْسُدْهُ عليه، وارْتَأَى: اعتقد في الأمر رأياً، يقول: إذا بلغ الإنسان الأربعين ولم يخجل من الأعمال القبيحة التي يرتكبها فاتركه وشأنه، ولا تحسده على ما يراه ويعتقده، وإن مدَّ له الدهر في أسباب الغنى والجاه.

(٢) الأَشُدُّ: مبلغ الرجل الحُنْكَة والمعرفة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾، قال أبو عبيدة: واحدها شَدُّ في القياس، وقال سيبويه: واحدتها شِدَّةٌ كنِعْمَةٍ وأَنْعُمٍ، وقيل: هو جمع لا واحد له. والنَّجْدُ: الشجاع يعين المحتاج ويساعده، المراد هنا أنه إذا بلغ الخمسين فقد بلغ مبلغ المعرفة والحنكة، ووصل إلى الخبرة التي تساعده على حسن التصرف في مواجهة المشكلات.

(٣) الحِجَّةُ: السَّنَةُ، والمنهل في الأصل: المَوْرِد، أي: الموضع الذي فيه المشرب، والمراد بالوِرْدِ هنا نهاية الأجل، يقول: إذا عاش المرءُ خمسين سنة فقد صار قريباً من النهاية، وسيشرب من كأسها سريعاً.

(٤) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، والبيهقي في سننه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في (الدر المنثور): (قيل: أين أبناءُ السِّتِّين؟) بدلا من: (نودي: أين ابن الستين). =

العمر»[(١)]. وقرأ الجمهور: ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ﴾، وقرأ الأعمش: [ما يذَّكر]، [من اذَّكَرَ][(٢)].

و[النَّذيرُ] في قول الجمهور: الأنبياء، كل نبيٍّ نذير أُمته ومعاصريه، ومحمد ﷺ نذير العالَم في غابر الزمن، قال الطبريُّ: «وقيل: النذيرُ الشَّيْبُ»، وهو قول حسن إِلاَّ أَن الحُجَّة إِنما تقوم بالنِّذراة الشرعية. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

هذا ابتداءُ تذكير بالله تعالى، ودلائل على وحدانيته وصفاته التي لا تُبْتَغى الأُلوهية إِلاَّ معها. و«الغَيْبُ» ما غاب عن البشر. و«ذاتُ الصُّدورِ» ما فيها من المعتقدات والمعاني، ومثله قول أَبي بكر رضي الله عنه: «ذو بطن بنت خارجة»، ومنه قول

= هذا وقد اختار القرطبي القول الذي يجعل الأربعين حدّ التذكير، قال: «لأن في الأربعين يتناهي عقل الإنسان وفهمه، وما قبل ذلك وما بعده منتقص عن كماله في حال الأربعين». وقال القرطبي: «ولهذا القول وجهٌ، وهو صحيح؛ والحُجَّة له قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾»، وقال مالك: «أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يلبون الدنيا والعلم ويخالطون الناس، حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس واشتغلوا بالقيامة حتى يأتيهم الموت».

(١) أخرجه الرَّامَهُرْمزي في الأمثال، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقد ذكر السيوطي في آخره في الدرِّ المنثور تكملةً تقول: يريد ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾، وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والنسائي، والبزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْذَرَ الله إلى امرىءٍ أَخَّر عمره حتى بلغ الستين). ذكر ذلك في الدرِّ المنثور. قال الخطَّابيُّ: «أعذر إليه» أي بلغ به أقصى العذر، والمعنى أن من عمَّره الله ستين سنة لم يبق له عذر، لأن الستين سنُّ الإِنابة والخشوع.

(٢) أي: بالإِدغام واجتلاب همزة الوصل ملفوظاً بها في الدَّرْج. قاله في البحر المحيط.

العرب: «الذئب مغبوط بذي بطنه»[١]، أي بالنفخ الذي فيه، فمن رآه ظنَّه سابغاً[٢] قريب عهد بأكل.

و(خَلَائِفَ) جمع خليفة، كسفينة وسفائن ومدينة ومدائن. وقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ فيه حذف مضاف، تقديره: فعليه وبال كفره وضرره، و«الْمَقْتُ» احتقارك الإنسان من أجل معصية، أو بغضه لدينه الذي يأتيه، فإن كان الاحتقار تعسُّفاً منك فلا يُسمى مقتاً، و«الْخَسَار» مصدر: خسِر الرجل يخسر، أي: خسروا آخرتهم ومعادهم بأن صاروا إلى النار والعذاب.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ الآية، احتجاج على الكفار في بطلان أمر أصنامهم، وقفَهم النبي ﷺ ـ بأمر ربهم ـ على حجتهم التي يزعمون أنها حقٌّ، ثم وَقَفَهم ـ مع اتضاح عجزهم عن خلق شيءٍ ـ على السموات، هل لهم فيها شِرْك؟ وظاهرٌ بُعْدُ هذا أيضاً، ثم وَقَفَهم هلْ عندهم كتاب من الله تعالى يُبيِّن لهم فيه ما قالوه؟ أي: ليس ذلك كله عندهم، ثم أَضرب بعد هذا الجحد المقدَّر فقال: إنما يَعِدون أَنفسهم غروراً.

و(أَرَأَيْتُمْ) تتنزَّل عند سيبويه منزلة «أَخبروني»، ولذلك لا تحتاج إلى مفعولين، وأَضاف الشركاءَ إليهم من حيث هم جعلوهم شركاءَ لله، أي: ليس للأَصنام شركة بوجه إلاَّ بقولكم، فالواجب إضافتها إليكم، و(تدْعونَ) معناه: تعبدون. و«الرُّؤْية» في قوله تعالى: (أَرُونِي) رؤْية بصر، و«الشِّرْكُ»: الشَّركة، مصدر أيضاً، وقرأَ نافع، وابن عامر، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم: [بيِّنَاتٍ] بالجمع، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وحمزة، والأَعمش، وابن وثاب، ونافع ـ بخلاف عنه ـ: (بيِّنَةٍ) بالإِفراد، والمراد به الجمع[٣]، ويحتمل أن يراد به الإِفراد. كما تقول: أنا من هذا الأَمر على واضحة، أَو

---

(١) هذا مَثَل عن العرب، ويروى: «الذئب يُغبط بغير بِطنة» قال أبو عبيدة: وذلك أنه ليس يُظن به أبداً الجوع، إنما يُظَنُّ به البطنة؛ لأنه يعدو على الناس والماشية، قال الشاعر:

ومَـنْ يسكُـن الْبَحْـرَيْـن يَعْظُـمْ طِحَـالُـه ... ويُغبَـط مـا فـي بَطْنِـهِ وهُـوَ جَـائِـعُ

وقال غيره: إنما قيل في الذئب ذلك لأنه عظيم الجفرة أبداً، لا يَبِينُ عليه الضمور وإن جَهَدَهُ الجوع، قال الشاعر:

لكـالـذِّئْـبِ مَغْبُـوطُ الْحَشَـا وَهُـوَ جَـائِـعُ.

(٢) يقال: سبغ بمعنى تَمَّ واتَّسَع وطال.

(٣) وهي أيضاً قراءة عاصم في رواية حفص عنه.

على جلِيَّة. و«الغُرُورُ» الذي كانوا يتعاطونه قولهم: الأَصنام تُقَرِّب من الله زُلفيٰ، ونحوه ممَّا يغيظهم.

ولمَّا ذكر الله تعالى ما يُبَيِّن فساد أَمر الأَصنام، ووقف على الحُجَّة على بُطلانها، عقَّب ذلك بذكر عظمته وقدرته، ليتبيَّن الشيءُ بضده، وتتأكد حقارة الأَصنام بذكر الله تعالى، فأَخبر عن إِمساكه السموات والأَرض بالقدرة، وقوله: ﴿أَن تَزُولَاۚ﴾ معناه: كراهةَ أن تزولا، ولئلا تزولا، ومعنى الزوال هنا التنَقُّلُ من مكانها، والسقوط من عُلُوِّهَا، وقال بعض المفسرين: معناه: أن تزولا عن الدوران، ويظهر من قول ابن مسعود أَن السماءَ لا تدور وإِنما تجري فيها الكواكب، وذلك أَن الطبري أَسند أَن جُندباً البَجَليَّ رحل إِلى كعب الأَحبار ثم رجع، فقال له ابن مسعود: حدِّثنا ما حدَّثك، فقال: حدثني أن السماءَ في قطب كقطب الرَّحى، وهو عمود على منكب ملَك، فقال ابن مسعود: لوددت أنك افتديت رحلتك بمثل راحلتك ورَحْلك، ما تَنْتَكِتُ اليهودية في قلب عبد فكادت أن تفارقه، ثم قال: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾، وكفى بها زوالاً أن تدور، ولو دارت لكانت قد زالت. وقوله: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ قيل: يوم القيامة عند طيِّ السموات ونسف الجبال، فكأَنه قال: ولئن جاءَ وقت زوالهما، وقيل: بل ذلك على جهة التوهُّم والفرض، ولئن فرضنا زوالهما، وكأَنه قال: ولو زالتا، وقال بعضهم: (لَئِنْ) في هذا الموضع بمعنى (لو)، وهذا قريب من الذي قبله، وكذا قرأَ ابن أَبي عبلة: [وَلَوْ زَالَتَا]. وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: من بعد تركه الإِمساكَ. وقالت فرقة: اتِّصافه تعالى بالحلم والغفران في هذه الآية إِنما هو إِشارة إِلى أَن السماءَ كادت تزول والأَرض كذلك لإِشراك الكفرة، فيمسكها الله تعالى حِلْماً منه عن المشركين، وتربُّصاً ليغفر لمن آمن منهم، كما قال: ﴿تكاد السموات يتفطرن﴾ الآية[1].

---

(١) من الآية (٩٠) من سورة (مريم)، وقد حكى القرطبي عن الكلبي قال: لما قالت اليهود: عُزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، كادت السموات والأرض أن تزولا عن أمكنتهما، فمنعهما الله، وأنزل هذه الآية: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

الضمير في قوله تعالى: (وَأَقْسَمُوا) لكفار قريش، كانت قبل الإسلام تأخذ على اليهود والنصارى في تكذيب بعضهم بعضاً، وتقول لو جاءَنا نحن رسول لكنا أهدى من هؤلاءِ وهؤلاءِ. و﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ منصوب على المصدر، أَي: بغاية اجتهادهم، و﴿ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ يريدون اليهود والنصارى، و«النُّفُور»: البُعْد عن الشيءِ والفزع منه والاستبشاع له.

و(اسْتِكْبَاراً) قيل فيه: بدل من النُّفُور، وقيل: مفعول من أَجله، أَي: نَفَروا من أَجل الاستكبار، وأَضاف (المكْر) إلى (السَّيِّىء) وهو صفة، كما قيل: «دار الآخرة، ومسجد الجامع، وجانب الغربي»، وقرأ الجمهور بكسر الهمزة من (السَّيِّءِ)، وأَسكنها حمزة وحده[1]، وهو في الثانية يرفع الهمزة كالجماعة، ولحّنَ هذه القراءَة الزَّجاجُ، وَوَجَّهَها أَبو عليٍّ الفارسي بوجوه، منها أَن يكون قد أَسكن لتوالي الحركات[2]، كما قال:

. . . . قُلْـتُ صـاحِـبْ قَـوِّمِ . . . . [3]

(١) وقرأ بها الأعمش أيضاً كما قال أبو حيان في البحر المحيط، أما قول ابن عطية: «وأسكنها حمزة وحده» فإن مقصده: وحده من السبعة.

(٢) ومنها أنه أجرى الوصل مجرى الوقف، ومنها أنه أجرى المنفصل مجرى المتصل.

(٣) هذا جزءٌ من بيت قاله أبو نُخَيْلة الراجز، والبيت بتمامه:

إذا اعْـوَجَجْـنَ قلـتُ صـاحِـبْ قَـوِّمِ   بـالـدَّوِّ أمثـالَ السَّفِيـنِ العُـوَّمِ

وأبو نُخَيْلة اسمه يَعْمَر، وكُني «أبا نخيلة» لأن أُمَّه ولدته إلى جانب نخلة، وهو من بني كعب بن سعد، والبيت في اللسان (عوَم)، وفي شرح السيرافي (باب ما يحتمل الشعر)، وانظر الخصائص لابن جني. وقد استشهد به سيبويه في الكتاب، (باب الإشباع في الجرِّ إلا أنَّ من قال (فخذْ) لم يسكِّن ذلك، قال الراجز: إذا اعوججْن قلْتُ البيت، فسألتُ من ينشد هذا البيت من العرب فزعم أنه يريد: صاحبي». والدَّوُّ: الصحراءُ، وأمثال السَّفين: الرواحل المحملة التي تقطع الصحراء كما تقطع السفينُ البحر، والعُوَّم: العائمة. وقد قيل ردّاً على أبي عليٍّ في استشهاده بهذا البيت بأن سيبويه لم يُجزْه وإنما حكاه، والمبرِّد رواه بحذف الباء فلا شاهد فيه.

على أن المُبَرِّد روى هذا: «قلتُ صاحِ قَوِّمِ». وكما قال امرؤُ القيس:

فـالْيَـوْمَ أَشْـرَبْ غَيْـرَ مُسْتَحْقِـبٍ إثْمـاً مِـنَ اللهِ وَلاَ واغِـلِ[١]

على أن المَبرِّد قد رواه: «فاليوم فاشْرَبْ»، وكما قال جرير:

سِيرُوا بَني الْعَمِّ فالأَهْوَازُ مَنْزِلُكُمْ ونَهْرُ تِيرَى فَلَنْ تَعْرِفْكُمُ الْعَرَبُ[٢]

وقرأ ابن مسعود: [وَمَكْراً سَيِّئاً]، قال أبو الفتح: يعضده تنكير ما قبله من قوله: (اسْتِكْبَاراً)[٣]. و(يَحِيقُ) معناه: يُحيط ويَحِلُّ وينزل، ولا يُستعمل إلا في المكروه، وقوله: ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ معناه أنه لا بُدَّ أن يحيق بهم إما في الدنيا وإلاَّ ففي الآخرة، فعاقبته الفاسدة لهم، وإن حاق في الدنيا بغيرهم أحياناً فعاقبة ذلك على أهله، وقال كعب الأحبار لابن عباس رضي الله عنهما: إن في التوراة: «من حفر حفرة لأخيه وقع فيها»،

---

(١) قال امرؤ القيس هذا البيت حينما أدرك ثأر أبيه فتحلَّل من نذره ألا يشرب الخمر حتى يثأر له. واستحقب: اكتسب، وأصل الاستحقاب حملُ الشيءِ على الحقيبة، والواغل: الداخل على القوم في شرابهم ولم يُدْعَ إليه، والشاهد تسكين الباءِ من (أشْرَبْ) في حال الرفع والوصل، وقد رُوي البيت: «فاليوم أُسْقَى»، و«فاليَوْم فاشْرَبْ»، وعلى هاتين الروايتين لا شاهد فيه، وقد ذكر ابن عطية الرواية الثانية وهي رواية أبي العباس المُبَرِّد.

(٢) قال جرير هذا البيت من ثلاثة أبيات قالها يهجو بني العمِّ وأعانوا عليه الفرزدق، وقبله يقول:

مـا لِلْفَـرَزْدَقِ مِـنْ عِـزٍّ يَلُـوذُ بِـهِ إلا بَنُـو العَـمِّ فـي أَيْـديهُـمُ الخُشُـبُ

ونهر تيرى: بلد من نواحي الأهواز، والشاهد فيه تسكين الفاءِ من (تَعْرِفْ) بعد (لن)، على أن البيت قد رُوي بالميم، أيْ: (فَلَمْ تَعْرِفْكُم العَرَبُ)، وعلى هذا فلا شاهد فيه.

هذا والزجاج يقول: إن هذه القراءة نوع من اللحن؛ لأن القارىء بها قد حذف الإعراب، وقال المبرِّد: إن هذا لا يجوز في كلام ولا في شعر؛ لأن حركات الإعراب لا يجوز حذفُها؛ لأنها دخلت للفرق بين المعنى. وقد أعظم بعض النحويين (وهو أبو جعفر النحاس) أن يكون الأعمش على جلالته ومحله يقرأ بهذا، قال: إنما كان يقف عليه، فغلط من سمع منه، والدليل على هذا أنه تمام الكلام، وأن الثاني لما لم يكن من تمام الكلام أُعرب باتفاق، والحركة في الثاني أثقل منها في الأول لأنها ضمة بين كسرتين.

(٣) قال أبو الفتح في المحتَسَب: «يشهد لتنكيره تنكير ما قبله من قول الله سبحانه: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقراءة العامة أقوى معنى؛ وذلك أن (المَكر) فيها معرفة لإضافته إلى المعرفة، وحَسُن تنكير الاستكبار لأنه أدنى إلى «نفور» مما بعده، وقد يحسن مع القرب فيه ما لا يحسن مع البعد، واعتُمد ذلك لقوة معناه بتعريفه، والإخبار عنه بأن مثله لا يخفى لعظمه وشناعته».

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «أنا أُوجدك هذا في كتاب الله، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.»(١).

و﴿يَنظُرُونَ﴾ معناه: ينتظرون. و«السُّنَّةُ»: الطريقة والعادة. وقوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي: لتعذيبه الكفرة المكذبين، وفي هذا وعيدٌ بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

لمَّا توعدهم تعالى في الآية قبلها بسُنَّة الأوَّلين، وأنه لا يُبَدِّلها ولا يُحَوِّلها في الكفرة، وقفهم في هذه الآية على رؤيتهم لِمَا رَأَوْا من ذلك في طريق الشام وغيره، كديار ثمود ونحوها، و«يُعْجزه» معناه يفوته ويُفْلِته، و(مِنْ) في قوله: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ زائدة مؤكدة، و﴿عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ صفتان لائقتان بهذا الوضع؛ لأنه معهما لا يتعذر شيءٌ.

ثم بيَّن الوجه في إمهاله من أَمهل من عباده، إن ذلك إنما هو لأن الآخرة من وراءِ الجميع، وفيها يُسْتوفى جزاءُ كلِّ أَحد، ولو كان عزَّ وجلَّ يجازي على الذنوب في الدنيا لأَهلك الجميع. وقوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ مبالغة، والمراد بنو آدم لأَنهم المجَازَوْن، وقيل: المراد معهم الجن، وقيل: كل ما دبَّ من الحيوان إذْ أكثره إنما هو لمنفعة بني آدم وبسببهم. والضمير في (ظَهْرِها) عائدٌ على الأَرض المتقدم ذكرها، ولو لم يتقدم لها ذكر لأمكن في هذا الموضع لبيان الأَمر، ولكانت كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾(٢) ونحوه، و«الأَجَلُ المُسَمَّى» يوم القيامة. وباقي الآية توعُّدٌ، وفيه وعدٌ للمؤمنين.

كمل تفسير سورة فاطر والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

---

(١) روى الزهريُّ أن النبي ﷺ قال: «لا تمكر، ولا تُعِن ماكراً، فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ولا تَبْغِ، ولا تُعِنْ بَاغياً، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

(٢) من الآية (٣٢) من سورة (ص).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة يٓس

هذه السُّورة مكّيَّةٌ بإجماع، إلاَّ أَنَّ فرقة قالت: إن قوله تعالى ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾ نزلت في بني سَلِمَة من الأَنصار حين أَرادوا أَن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد رسول الله ﷺ، فقال لهم: «ديَارَكُم تُكتَب آثَارُكم»، وكره عليه الصلاة والسلام أَن يُعْرُوا المدينة(١)، فعلى هذا فهي مدنية، وليس الأَمر كذلك، وإنما نزلت الآية بمكة، ولكنه احتج عليهم في المدينة، ووافقها قول رسول الله ﷺ في المعنى، فمِنْ هنا قيل ذلك(٢)، وروى أَنس بن مالك رضي الله عنه أَن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل شيءٍ قلباً، وإن قلب القرآن يٓس»(٣)، وروت عائشة رضي الله عنها أَنه عليه الصلاة والسلام قال: «إنَّ في القرآن لَسُورة تَشفع لِقَارئها، ويُغْفر لمستمعها، وهي يٓس»(٤)،

---

(١) أَي أن يتركوها خالية عارية.

(٢) في الترمذي عن أَبي سعيد الخدري، قال: كانت بنو سَلِمة في ناحية المدينة فأرادوا النُّقْلَة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «إن آثاركم تُكْتَب» فلم ينتقلوا، وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال: أراد بنو سَلِمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد، قال: والبقاع خالية، قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «يا بني سَلِمة، ديارَكُم تُكْتَب آثارُكم، ديارَكُمْ تُكْتَب آثَارُكم»، وابن عطية يرى أن الآية مكيَّة، ولكن النبي ﷺ احتج عليهم في المدينة، واتفق قوله ﷺ مع الآية في المعنى، وهذا هو السبب في أن بعض الناس قالوا: الآية مدنية. والمراد بالآثار الخُطَى إلى المساجد.

(٣) أخرجه الدارمي، والترمذي، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أنس، وفي آخره (ومن قرأ يٓس كتب الله له بقراءَتها قراءَة القرآن عشر مرات)، وأخرج مثله البزّار عن أبي هريرة، (الدرُّ المنثور). وأَخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لكل شيءٍ قلْب، وقلْب القرآن يٓس، ومن قرأ يٓس فكأنما قرأ القرآن عشر مرات».

(٤) أخرجه أبو نصر السجزي في الإبانة وحسَّنه، عن عائشة رضي الله عنها، ولفظه كما جاءَ في الدرِّ المنثور: قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن في القرآن لسورة تُدْعى العظيمة عند الله، يُدْعى صاحبها الشريف عند الله، يشفع صاحبها يوم القيامة في أكثر من ربيعة ومضر، وهي سورة يٓس». (الدرُّ المنثور).

وقال يحيى بن أَبي كثير: «بلغني أَنَّ من قرأَ سورة يٓس ليلاً لم يزل في فرح حتَّى يصبح، وكذا في النهار»(١)، ويُصَدِّق ذلك التجربة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾.

أَمالَ حمزة والكسائي الياء في [يٓس] غير مفرطين، والجمهور يفتحونها، ونافع يتوسط في ذلك، وقوله تعالى (يٓسِ) يدخله من الأَقوال ما تقدم في الحروف المقطَّعة في أَوائل السُّور، ويختصُّ هذا بأَقوال: منها أَن سعيد بن جبير قال: إِنه اسم من أَسماءِ محمد ﷺ، ودليله ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وقال السيد الحميري(٢):

يا نَفْسُ لا تَمْحَضي بالنُّصح مُجْتَهِداً ... عَلَـى المَـوَدَّةِ إِلاَّ آلَ يَـاسِينَـا(٣)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: «يا إِنسانُ» بالحبشية، وقال أَيضاً في الثعلبي: هو بِلُغَة طَيِّىء، يقولون: «إِيسان» بمعنى إِنسان، ويجمعونه على «أَياسين»، فهذا منه. وقالت فرقة: الياءُ حرف نداءٍ، والسِّين أُقيمت مقام «إِنسان» انتزع منه حرف فأُقيم مقامه. ومن قال «هو اسم من أَسماءِ السورة أَو القرآن» فذلك مُشترك في جميع السُّوَر.

---

(١) هو يحيى بن أبي كثير الطائي، مولاهم، أبو نصر اليماني، ثقة، ثبت، قال عنه خاتمة الحفَّاظ أحمد بن حجر العسقلاني: «لكنَّه يُدلِّس ويرسل»، من الخامسة، مات سنة اثنتين وثلاثين، وقيل قبل ذلك. وزاد القرطبي في آخر العبارة التي نقلها عن يحيى بن أبي كثير قوله: «وقد حدَّثني من جرَّبها»، وابن عطية يزيد ذلك ويقول: «ويُصَدِّقُ ذلك التجربة».

(٢) هو إسماعيل بن محمد بن يزيد بن مفرغ الحميري، شاعر إمامي متقدم. قال أبو عبيدة: أَشعر المُحْدَثين السَّيد الحميري وبشَّار، ولكن أَخمل ذكر الحميري وصَرَف الناس عن رواية شعره إفراطُه في النَّيْل من بعض الصحابة وأَزواج النبي ﷺ، ولد في (نعمان) وهو وادٍ قريب من الفرات على أرض الشام، ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد، وكان يُشار إليه في التَّصوف والورع، وقد جمع الكثير من أخباره المستشرق الفرنسي (باربيي دي مينار)، ولأبي بكر الصولي كتاب (أَخبار السَّيد الحميري)، وكتب عنه كثيرون غيرهما كابن الحاشر، وابن أبان والجلودي. (الأغاني، وضوءُ، وضوءُ المشكاة، والأعلام).

(٣) ويروى: «لا تمحضي بالنصح جاهدة»، ومَحَض فلاناً النُّصحَ أو الودَّ: أخلصه إياه، وأَمحضه النُّصْحَ أيضاً مثل مَحَضَه، والمَحْض من كلِّ شيءٍ: الخالص، وفي حديث الوسوسة: (ذلك محض الإيمان). وآل ياسين هم آل محمد ﷺ، وهذا هو الشاهد في البيت.

وقرأَ الجمهور: (يَس) بسكون النون وإِظهارها، وإِن كانت النون الساكنة تخفى مع حروف الفم فإِنَّما هذا على الانفصال وأَن حقَّ هذه الحروف المقطعة في الأَوائل أن تظهر. وقرأَ عاصم، وابن عامر ـ بخلاف عنهما ـ بإِدغام النُّون في الواو على عُرف الاتصال، وقرأَ ابن أَبي إِسحق ـ بخلاف ـ بنصب النون، وهي قراءَة عيسى بن عمر، ورواها عن الغنوي. وقال قتادة: (يَسِ) قَسَمٌ، وقال أَبو حاتم: قياسُ هذا القول نصب النون، كما تقول: الله لأَفعلن كذا، وقرأَ الكلبي بضمها وقال: هي بلغة طيِّىءٍ: يا إِنسان، وقرأَ أَبو السّماك، عن ابن أَبي إِسحق[١] ـ بخلاف ـ بكسرها، وهذه الوجوه الثلاثة هي للالتقاءِ، قال أَبو الفتح: ويحتمل الرفعُ أَن يكون اجتزاءً بالسين من يا إِنسان[٢]، وقال الزجاج: النصب كأَنه قال: اتْلُ يَس، وهذا مذهب سيبويه على أَنه اسمٌ للسُّورة. و(يَس) تُشبه الجملة من الكلام فلذلك عُدَّت آيةً، بخلاف [يَس][٣]، فلم تنصرف [يَس] للعجمة والتعريف.

و(الْحَكِيم): المُحْكَمْ، فيكون بمعنى: مفعول، أَي أُحْكِمَ في مواعظه وأَوامره ونواهيه، ويحتمل أَن يكون بناءَ فاعِلٍ، أَي ذو الحكمة.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ يجوز أَن يكون جملة في موضع رفع على أَنها

---

(١) في بعض النسخ: «وقرأَ أَبو السّماك، وابن أبي إِسحق».

(٢) معنى أن الوجوه الثلاثة للالتقاء، أنها حُرِّكت لالتقاء الساكنين، وذلك أن الكلام مبني على الإدراج، لا عَلَى وقف حروف المعجم، فحرِّك لذلك، فمن فَتَح هربَ إلى خِفَّة الفتحة، ومن كسر جاء على الأصل في الحركة عند التقاء الساكنين، ومن ضمَّ احتمل أن يكون لالتقاء الساكنين أيضاً، واحتمل أن يكون اجتزاءً بالسين، قال أبو الفتح: «أراد ياإنسان. إلا أنه اكْتفىٰ من جميع الاسم بالسين، فقال: ياسين. ف(يا) فيه ـ على هذا ـ حرف نداءٍ، كقولك: يا رجُلُ، ونظير حذف بعض الاسم قول النبي ﷺ: «كفى بالسيف شا»، أي: شاهداً، فحذف العين واللام، وكذلك حُذف من «إنسان» الفاءُ والعين»، وهناك احتمال ثالث في حالة الرفع، قال عنه أبو الفتح: «أن يكون على ما ذهب إليه الكلبي، وروينا فيه عن قطرب:

فَيَـا لَيْتَنـي مِـنْ بَعْـدِ مَـا طَـافَ أَهْلُهَـا ... هَلَكْتُ ولَـمْ أَسْمَعْ بِهَـا صَـوْتَ إِيسَانِ

ومعناه: صوت إنسان». وكذلك أن (الإيسَان) لغة في الإنسان، وهي لغة طائية، هذا والبيت لعامر بن جرير، وهو في اللسان (أنس).

(٣) من الآية (١) من سورة (النمل).

خبر بعد خبر، ويجوز أَن يكون في موضع نصب على أنها في موضع الحال من [الْمُرْسَلِينَ]، و«الصِّرَاطُ»: الطريق، والمعنى: على طريق هدًى ومهْيَع(١) رشاد.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو: [تَنْزِيلُ] بالرفع على خبر الابتداءِ، وهي قراءَة أَبي جعفر، وشيبة، والحسن، والأَعرج، والأَعمش. وقرأَ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: (تَنْزِيلَ) بالنصب على المصدر، واختلف عن عاصم، وهي قراءَة طلحة، والأَشهب، وعيسى بن عمر، والأَعمش، بخلاف عنهما.

قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾، اختلف المفسرون في (مَا) ـ فقال عكرمة: (مَا) بمعنى الذي، والتقدير: الشيءَ الذي أُنْذِرَه الآباءُ من النار والعذاب، ويحتمل أَن تكون (مَا) مصدرية، أَي: ما أُنْذِرَ آباؤُهم(٢)، والآباءُ ـ على هذا ـ هم الأَقدمون على مرِّ الدهر(٣)، وقوله: (فَهُمْ) ـ مع هذا التأْويل ـ بمعنى: فإِنَّهُمْ، دخلت الفاءُ لقطع الجملة من الجملة. وقال قتادة: (مَا) نافية، أَي إِن آباءَهم لم يُنْذروا، فالآباءُ ـ على هذا ـ هم القريبون منهم، وهذه الآية كقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾(٤)، وهذه النِّذارة المنفيَّة هي نذارة المباشرة والأَمر والنهي، وإِلاَّ فدعوة الله تعالى لم تنقطع من الأَرض قط، وقوله: [فَهُمْ] ـ على هذا ـ الفاءُ واصلة بين الجملتين ورابطةٌ الثانية بالأُولى(٥).

و﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ معناه: وجب العذابُ وسبق القضاءُ به، وهذا فيمن لم يؤمن مِنْ قريش، كمن قُتل ببدرٍ وغيرهم.

---

(١) المَهْيَع من الطرق: البيِّن، والجمع: مهايع، والمعنى: طريق واضح للرشاد.

(٢) المراد أن (ما) مع الفعل مصدر، والمعنى: لِتُنْذر قوماً إنْذار آبائهم.

(٣) نقل صاحب (البحر المحيط) كلام ابن عطية هنا، وفيه زيادة عن الأصول التي معنا حيث قال: «هم الأقدمون من ولد إسماعيل عليه السلام، وكانت النِّذارة فيهم، و(فَهُمْ) ـ على هذا التأويل ـ بمعنى: فإنَّهم، دخلت الفاءُ لقطع الجملة من الجملة الواقعة صلة، فتتعلق بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، كما تقول: أرسلتك إلى فلان لِتُنْذر فإنه غافل، أو فهو غافل».

(٤) من الآية (٤٤) من سورة (سبأ).

(٥) قال أبو حيان في (البحر المحيط): «وقوله تعالى: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ في موضع الصفة، وقوله: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ متعلق بالنفي، أي: لم يُنْذروا فهم غافلون، على أن عدم إنذارهم هو سبب غفلتهم، وباعتبار الآباءِ في القِدَم والقُرْب يزول التعارض بين الإنذار ونفيه».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

قال مكِّيّ: هي حقيقية في أَحوال الآخرة إذا دخلوا النار، وقوله تعالى: (فَأَغْشَيْنَاهُمْ) الآية ـ يُضْعف هذا القول: لأن بصر الكافر بعد القيامة إنما هو حديد، يرى قُبح حاله[١]. وقال الضحاك: معناه: منعناهم من النفقة في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾[٢]. وقال ابن عباس، وابن إِسحق: هي استعارة لحال الكفرة الذين أَرادوا محمداً ﷺ بسُوءٍ، فجعل الله تعالى هذه مثلاً لهم في كفِّ أَذاهم عنه حين بيَّتوهُ. وقال عكرمة: نزلت حين أَراد أَبو جهل ضربه بالحجر العظيم فمنعه الله منه، وفي غير ذلك من المواطن. وقالت فرقة: الآية مستعارة المعنى من مَنْع الله إِياهم وحَوْلِهِ بينه وبينهم. وهذا أَرجح الأَقوال؛ لأَنه لمَّا ذكر أَنهم لا يُؤمنون لِمَا سبق لهم في الأَزل. عقَّب ذلك بأن جعل لهم من المنع وإِحاطة الشقاوة ما حالُهم معه حال المغلوبين.

و«الغُلُّ» ما أَحاط بالعُنُق على معنى التَّضْييق والتثبيت والتعذيب والأَسْر، ومع العُنق اليدان أَو اليد الواحدة، هذا معنى التَّغليل، وقوله: (فَهِيَ) يحتمل أَن يعود على الأَغلال، أَي: هي عريضة تبلغ بحرفها الأذقان، والذَّقْن مجتمع اللَّحْيَيْن[٣]، فيضطر المغلول إِلى رفع وجهه نحو السماءِ، وذلك هو الإِقْمَاحُ، وهو نحو الإِقناع في الهيئة، ونحوُه ما يفعله الإِنسان والحيوان عند شرب الماءِ البارد وعند الملوحات والحموضة القوية ونحوه. ويحتمل ـ وهو قول الطبري ـ أَن تعود [هِيَ] على الأَيدي ـ ولم يتقدم لها ذكر ـ لوضوح مكانها في المعنى، وذلك أَن الغُلَّ يكون في العُنق مع اليدين. ورُوي في

---

(١) علَّق أبو حيان على رأي ابن عطية في ضعف هذا القول بما يأتي: «ولا يضعف هذا، ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا ﴾، وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ ﴾، وأما قوله: ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ فكناية عن إدراكه ما يؤول إليه حتَّى كأنه يبصره».

(٢) من الآية (٢٩) من سورة (الإسراءِ).

(٣) اللَّحْيُ: منبت اللِّحْية من الإنسان وغيره، وهما لَحْيان، وهما أيضاً العظمان اللذان فيهما الأسنان من كل ذي لَحْي.

مصحف ابن مسعود وأُبيٍّ: [إِنا جعلنا في أَيمانِهِمْ]، وفي بعضها [في أَيديهم]، وقد ذكرنا معنى الإِقماح.

وقال قتادة: المُقْمَح الرافعُ رأسه، وقال أيضاً: (مُقْمَحُونَ): مُغَلَّلُون عن كلِّ خير، وأَرَى عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه الناسَ الإِقماح، فجعل يديه تحت لَحْيَيْه وأَلصقهما ورفع رأسه[١].

وقرأَ الجمهور: [سُدًّا] برفع السين فيهما. وقرأَ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وابن مسعود، وطلحة، وابن وثَّاب، وعكرمة، والنَّخعي، وابن كثير بفتحها فيهما. قال أَبو عليٍّ: قال قوم: هما بمعنى واحد، أَي: حائِلاً يسُدُّ طريقهم، وقال عكرمة: ما كان مما يفعله البشر فهو بالضم، وما كان خِلْقة فهو بالفتح، و«السَّدُّ» ما سَدَّ وحالَ، ومنه قول الأَعرابي في صفة سحاب: «طَلَع سُدٌّ مع انتشار الطفل»[٢]، أَي: سحابٌ سدَّ الأُفق، ومنه قولهم: «جرادٌ سُدٌّ»[٣]، ومعنى الآية أَن طريق الهُدى سُدَّ دونهم.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ منقوطة، أَي: جعلنا على أَعينهم غشاوة. وقرأَ ابن عباس، وعكرمة، وابن يَعْمر، وعمر بن عبد العزيز، والنَّخَعي، وابن سيرين بالعَيْن مهملة، ورويت عن النبي ﷺ، وهي من العَشَاءِ أَي: أَضعفنا أَبصارهم[٤]

---

(١) قال الأصمعي: يقال: أَقْمَحتُ الدابَّةَ إذا جذبتَ لجامها لترفع رأسها، قال النحاس: والقاف مبدلة من الكاف لقربها منها، كما يقال: قَهَرْتُه وَكَهَرْتُه، وعلى هذا جاءَ قول ذي الرُّمَّة:

تَمُوجُ ذِراعَاهَا وَتَرْمِي بِجَوْزِهَا ... حِذاراً مِنَ الإِبعَادِ وَالرَّأْسُ مُكْمَحُ

(٢) جاءَ في اللسان (سَدَدَ): «أبو زيد: السُّدُّ من السحاب: النَّشْءُ الأسود، من أَيِّ أَقطار السماءِ نشأ، والسُّدُّ واحد السُّدود، وهي السحائب السُّود. ابن سِيدَهْ: والسُّدُّ: السحابُ المرتفع السَّادُّ الأفق، والجمع سُدُود، قال:

قَعَدْتُ لَهُ وَشَيَّعَنِي رِجَالٌ ... وَقَدْ كَثُرَ الْمَخَايِلُ والسُّدُودُ

وفيه أيضاً (طفل): «طَفَلُ العَشيِّ: آخره عند غروب الشمس واصفرارها، يقال: أَتيتُه طَفَلا، وطَفَلت الشمسُ: دنت للغروب».

(٣) قال في اللسان (سَدَدَ): «السُّدُّ: القطعة من الجراد تَسُدُّ الأفق، قال الراجز:

سَيْلُ الْجَرَادِ السُّدِّ يَرتادُ الْخُضَرْ

ويقال: جاءَنا سُدٌّ من جراد، وجاءَنا جرادٌ سُدٌّ إذا سَدَّ الأُفق من كثرته».

(٤) ومن هذا المعنى قال الحطيئة: =

والمعنى: فهم لا يُبْصرون رشداً ولا هدًى. وقرأ يزيد اليزيدي: [فِأَغْشَيْتُهم] بياءٍ دون ألف وبالغين منقوطة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿١٢﴾﴾.

هذه مخاطبة لمحمد عليه الصلاة والسلام، مُضَمَّنها تسليته عنهم، أي: إنهم قد حتم عليهم بالكفر، فسواءٌ إنذارك وتركه، والألف في قوله تعالى ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ أَلِف التسوية؛ لأنها ليست باستفهامٍ، بل المتَفْهِم والمستَفهَم مستويان في عِلْم ذلك.

وقراءَة الجمهور: [آنْذَرْتَهُمْ] بالمدِّ، وقرأ ابن محيصن، والزهري: [أَنْذَرْتَهُمْ] بهمزة واحدة على الخبر[(١)]، و﴿سَوَآءٌ﴾ رفع بالابتداءِ، وقوله: ﴿أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا﴾ جملة من فعلين متعادلين يُقَدَّرَان تقدير فعل واحد هو خبر الابتداءِ، كأنه قال: وسواءٌ عليهم جميعُ فِعْلكَ، ففسّر هذا الجميع بـ«أَنْذرت أَمْ لم تُنْذر»، ومثله قولك: سواءٌ عندي قمتَ أَم قعدتَ، هكذا ذكر أبو علي في تحقيق الخبر، والخبر هو الابتداءُ. وقوله ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ ليس على جهة الحصر بإِنَّمَا، بل على جهة تخصيص من ينفعه الإِنذار. و«اتِّباعُ الذِّكْر» هو العملُ بما في كتاب الله تبارك وتعالى والاقتداءُ به، قال قتادة: الذكرُ القرآن. وقوله ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أَي: بالخلوات عند مغيب الإِنسان عن عيون البشر، ثم قال: (فَبَشِّرْهُ) فوحَّد الضمير مراعاة لِلَفْظ (مَنْ). و«الأَجر الكريم» كل ما يأخذه الأَجير مقترناً بحمدٍ

= مَتَـى تـأْتِـهِ تَعْشُـو إلـى ضَـوْءِ نَـارِهِ   تَجِـدْ خَيْـرَ نَـارٍ عِنْـدَهَـا خَيْـرُ مُـوقِـدِ

(١) قال أبو الفتح عثمان بن جني في (المحتسَب): «الذي ينبغي أن يعتقد في ذلك أن يكون أراد الاستفهام كقراءَة العامة (أَأَنْذَرْتَهُمْ) إلا أنه حذف الهمزة تخفيفاً وهو يريدها، كما قال الكميتُ:

طَـرِبْـتُ وَمَـا شَـوقـاً إلـى البِيـضِ أَطْـرَبُ   وَلا لعِبـاً مِنِّـي، وَذُو الشَّيْـبِ يَلْعَـبُ؟

قالوا: معناه: أو ذو الشيب يلعبُ؟ تناكُراً لذلك وتَعَجُّباً، وكبيت الكتاب:

لَعَمْــرُكَ مَــا أَدري وَإن كُنْــتُ دَارِيَــا   شُعَيْثُ ابْنُ سَهْم أَم شُعَيْثُ ابن مُنْقَرِ؟

يريد: أَشُعيث ابنُ سَهْم أَم شُعَيْثُ ابنُ مِنقَرٍ؟. ويدل على إرادة الهمزة بقاءُ (أَم) بعدها، ولو أراد الخبر لقال: «أو لَمْ تُنْذِرهم»، (راجع المحتسب ٢ ـ ٢٠٥).

على الإحسان وتكرمة، وكذلك هي الجنة للمؤمنين.

ثم أَخبر تعالى بإِحيائه الموتى ردًّا على الكفرة، ثمَّ توعَّدهم بذكره كتب الآثار وإِحصاءَ كلِّ شيءٍ. وكلُّ ما يصنعه الإِنسان فداخل فيما قدم ويدخل في آثاره، ولكنه تبارك وتعالى ذكر الأمر من الجهتين، وليُنَبِّه على الآثار التي تبقى وتُذكر بعد الإِنسان من خيرٍ أَو شرٍّ، وإِلاَّ فذلك كله داخل فيما يقدِّم ابن آدم. وقال قتادة: ﴿مَا قَدَّمُواْ﴾ معناه: من عمل، وقاله ابن زيد، ومجاهد. وقد يبقى للمرءِ أَن يُسْتَنَّ به بعد موته فيؤجر أَو يأْثم، ونظير هذه الآية: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[1]. وقرأَت فرقة: (وَآثَارَهُمْ) بالنصب، وقرأ مسروق بالرفع.

وقال ابن عباس، وجابر بن عبد الله، وأَبو سعيد الخدري: إِن هذه الآية نزلت في بني سَلَمة حين أَرادوا النُّقلة إِلى جانب المسجد، وقد بيَّنا ذلك في أَول السُّورة. وقال ثابت البُنَاني[2]: مشيتُ مع أَنس بن ملك إِلى الصلاة فأَسرعتُ فحبسني، فلما انقضت الصلاة قال لي: مشيت مع النبي ﷺ إِلى الصلاة فأَسرعت فحبسني، فلما انقضت الصلاة قال: «أَما علمتَ أن الآثار تُكْتب»؟ فهذا احتجاج بالآية، وقال مجاهد، وقتادة، والحسن: الآثار في هذه الآية الخُطَا، وحكى الثعلبي عن أَنس أنه قال: الخُطَا إِلى الجمعة[3].

وقوله (وَكُلَّ) نصب بفعل مضمر يدل عليه (أَحْصَيْنَاهُ)، كأَنه قال: أحصينا كل شيءٍ أَحصيناه، و«الإِمامُ»: الكتاب المقتدى به الذي هو حجَّة، وقال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: أَراد اللَّوح المحفوظ، وقالت فرقة: أَراد صحف الأَعمال.

---

(١) الآية (٥) من سورة (الانفطار).

(٢) هو ثابت بن أسلم البُنَاني ـ بضم الموحَّدة وبنونين مُخَفَّفتين، أبو محمد البصري، ثقة، عابد، من الرابعة، مات سنة بضع وعشرين، وله ستٌّ وثمانون. (تقريب التهذيب).

(٣) روى الترمذي في (جامعه) عن أوس بن أَوس الثقفي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من غسَّل يوم الجمعة واغتسل، وبكَّر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام واستمع ولم يلغُ، كان له بكل خطوة يخطوها عمل سنة، أجر صيامها وقيامها»، وقال: حديث حسن، ورواه النسائي، وابن ماجه، وأبو داود، والحاكم وصحَّحه، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، وهو حديث صحيح، وقال الإمام السيوطي في (الدر المنثور): «أخرج ابن أبي حاتم عن أنس رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ قال: هذا في الخطو يوم الجمعة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

ضرب المثل مأخوذ من الضرب أي المُشْبِه في النوع، كما تقول: هذا ضرب هذا، واختُلف، هل يتعدي فعل ضرب المثل إلى مفعولين أو إلى واحد؟ فمن قال إنه يتعدى إلى مفعولَيْن جعل في هذه الاية (مَثَلاً) و(أَصْحَابَ) مفعولَيْن لقوله: (اضْرِبْ)، ومن قال إنه يتعدى إلى مفعول واحد جعله (مَثَلاً)، وجعل (أَصْحَابَ) بدلاً منه. ويجوز أن يكون المفعولُ (أَصْحَابَ)، ويكون قوله (مَثَلاً) نصباً على الحال، أَي: في حال تمثيل منك.

و(الْقَرْيَة) ـ على ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، والزهري ـ أَنطاكية. واختُلف في المرسلين ـ فقال قتادة وغيره: كانوا من الحواريين الذين بعثهم عيسى عليه السلام حين رُفع وصُلب الذي أُلقي عليه شبهه، فافترق الحواريُّون في الآفاق، فقصَّ الله هنا قصة الذين نهضوا إلى أنطاكية. وقالت فرقة: بل هؤُلاءِ أَنبياءٌ مِنْ قِبَل الله تبارك وتعالى، وهذا يرجِّحه قول الكفرة: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، فإِنها محاورة إِنما تقال لمن أَدّى الرسالة من الله، والآخر محتمل. وذكر النقاش في قصص هذه الآية شيئاً يطول، وصحَّته غير مُتيَقَّنة فاختصرته.

واللازم من الاية أن الله بعث إِليه رسولين فَدَعَوَا أَهل القرية إِلى عبادة الله وحده وإِلى الهدى والإِيمان فكذبوهما، فشدَّد الله أمرهما بثالث، وقامت الحجة على أهل القرية، وآمن منهم الرجل الذي جاءَ يسعى، وقتلوه في آخر أَمره وكفروا، فأَصابتهم صيحة من السماءِ فخمدوا. وقرأَ جميع القراءِ: (فَعَزَّزْنَا) بتشديد الزاي الأُولى، على معنى: قوَّينا وشدَّدنا، وبهذا فسَّر مجاهد وغيره، وقرأَ عاصم ـ في رواية المفضل عن أَبي بكر ـ بالتَّخفيف للزَّاي، على معنى: غلبناهم أمرهم[1] وفي حرف ابن مسعود: «بالثالث» بأَلف ولام.

---

(١) قيل: القراءَتان بمعنى واحد، وقد جاء في اللسان (عزز): «وعَزَزْتُ القومَ وأَعْزَزْتُهم وعَزَّزْتُهم: قَوَّيتهم وشدَّدتهم، وفي التنزيل العزيز ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أَي: قوَّينا وشدَّدنا، وقد قُرئت [فَعَزَزْنَا] بالتخفيف، =

وهذه الأمَّة أنكرت النُّبوَّات بقولها: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾، وراجعتهم الرُّسل بأَن رَدُّوا العلم إِلى الله، وقنعوا بعلمه، وأَعلموهم أنهم إِنما عليهم البلاغ فقط، وما عليهم من هُداهم وضلالهم، وفي هذا وعيدٌ لهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قال بعض المتأَوِّلين: إِن أَهل القرية أَسرعَ فيهم الجذام عند تكذيبهم المرسلين، فلذلك قالوا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾، وقال مقاتل: احتبس عنهم المطر فلذلك قالوه، ومعناه: تشاءَمنا بكم، مأْخوذ من الحكم بالطَّيْر، وهو معنى متداولٌ في الأُمم، وقلَّما يستعمل «تطَيَّرْتُ» إلاَّ في الشُّؤم، وأَما حكم الطير عند مستعمليه ففي التَّيمُّن والشُّؤْم، والأظهر أن تطيُّرَ هؤلاءِ إِنما كان بسبب ما دخل قريتهم من اختلاف الكلمة وافتتان الناس، وهذا على نحو تطيُّر قريش بمحمد ﷺ، وعلى نحو ما خوطب به موسى عليه السلام. وقال قتادة: قالوا: إِن أَصابنا شرٌّ فإِنما هو من أَجلكم. و﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ معناه: بالحجارة. قاله قتادة رضي الله عنه. وقولهم عليهم السلام: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ معناه: حظكم وما صار لكم من شرٍّ أَو خيرٍ معكم، أَي: من أَفعالكم ويكسباتكم، ليس هو من أَجْلنا ولا بِسَبَبِنَا، بل ببغيكم وكفركم، وبهذا فسَّر النَّاسُ. وسُمِّي الحظ والنصيب طائراً استعارة، أَي هو مما يحصل عن النظر في الطائر، وكَثُرَ استعمال هذا المعنى حتى قالت المرأَة الأَنصارية: «طار لنا حين اقتُسِم المهاجرون عثمانُ بن مظعون»[1]، ويقول الفقهاءُ: طار لفلان في المحاصَّة كذا.

= كقولك: شَدَدنَا». وقال الأَصمعي: «أنشدني أبو عمرو بن العلاءِ للمتلمِّس:

أُجُــدٌ إذا ضَمَــرَت تَعَــزَّزَ لَحْمُهَــا وإذا تُشَــدُّ بِنِسْعِهَــا لا تَنْبِــسُ

أي: لا ترغو». وقيل: التخفيف بمعنى: غَلَبْنا وقهرنا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾.

(١) حديث المرأة الأنصارية أخرجه البخاري في الجنائز والتعبير، وأحمد في مسنده (٦ ـ ٤٣٦)، ولفظه كما في البخاري، عن خارجة بن زيد بن ثابت أن أُم العلاءِ امرأة من الأنصار بايعت النبي ﷺ، أخبرته أنه اقتُسِم المهاجرون قرعة، فطار لنا عثمان بن مظعون، فأنزلناه في أبياتنا، فَوَجِع وَجَعَه الذي توفي=

وقرأ ابن هُرمز، والحسن، وعمرو بن عبيد: [طَيْرُكُمْ]، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم، وابن عامر: (أَئِنْ) بهمزتين الثانية مكسورة، على معنى: أَئِن ذُكِّرتم تتطيَّرون؟ وقرأ نافع وأَبو عمرو، وابن كثير بتسهيل هذه الهمزة الثانية وردِّها ياءً [أَيِنْ ذُكِّرْتُمْ]، وقرأ الماجشون[1]: [أَنْ] بفتح الألف[2]، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن: [إِنَ ذُكِّرْتُمْ] بكسر الأَلف، وقرأ أَبو عمرو ـ في بعض ما رُوي عنه ـ وزِرُّ بن حبيش أَيْضاً: [أَأَنْ] بهمزتين مفتوحتين، وشاهده قول الشاعر:

أَأَنْ كنتَ ذَا بُرْدَيْـن أَحْـوَى مُـرَجَّـلاً فَلَسْتَ بِرَاعٍ لابنِ عَمِّكَ مَحْرَمَا[3]

وقرأ أَبو جعفر بن القعقاع، والأَعمش: [أَيْنَ] بسكون الياءِ [ذُكِرْتُمْ] بتخفيف الكاف، فهي (أَيْنَ) المنقولة في الظرف، وهذه قراءَة خالد، وطلحة، وقتادة، والحسن في تخفيف الكاف فقط[4]. ثمَّ وصفهم تعالى بالإِسراف والتَّعدِّي.

وأَخبر تبارك وتعالى ذكره عن حال رجل جاءَ من أَقصى المدينة، سمع المرسلين وفهم عن الله فجاءَ يسعى على قدميه وسمع قولهم، فلما فهمه رُوي أَنه تعقَّب أَمرهم

= فيه، فلمَّا توفي وغُسِّل وكُفِّن في أثوابه دخل رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال النبي ﷺ: وما يُدريك أن الله أكرمه؟ فقلت: بأبي أَنت يا رسول الله، فمن يُكْرِمُه الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أَما هو فقد جاءَه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، والله ما أدري ـ وأنا رسول الله ـ ما يُفعل بي، قالت: فو الله لا أُزكِّي أحدا بعده أبداً.

(١) هو أبو سلمة يوسف بن يعقوب بن عبد الله بن أبي سَلمة المدني، قال عنه في (تقريب التهذيب): ثقة، من الثامنة، مات سنة خمس وثمانين، وقيل قَبْل ذلك.

(٢) وعلى هذا تكون [أَنْ ذُكِّرْتُم] منصوبة الموضع بقوله تعالى: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾، وذلك أنهم لما قالوا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: تشاءمنا، قالوا لهم جواباً عن ذلك: بل ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾، أي: بل شُؤمكم معكم ﴿أن ذكرتم﴾، أي: هو معكم لأنْ ذكِّرْتم فلم تذكروا ولم تنتهوا، فاكتُفي بالسبب وهو التذكير عن المسبب الذي هو الانتهاءُ.

(٣) البُرْد: كساءٌ مُخطَّط يلتحف به، وجمعه أبرادٌ وأَبْرُدٌ وبُرُودٌ، والأَحْوَى: ما خالط حمرتَه سوادٌ أو خُضرَتَه سوادٌ، وفي التنزيل العزيز: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾، ورجَّل الشعْرَ: سوَّاه وزيَّنه وسرَّحه، والشاهد أن الهمزتين مفتوحتان في قوله: (أَأَنْ كُنْتَ).

(٤) ومعنى [أين ذكرتم]: أَيْنَ حَلَلْتم وكُنتم وَوجدْتم فذُكِرْتُم، فاكتُفي بالمسَبَّب الذي هو الذكر من السبب الذي هو الوجود، و[أَيْنَ] هنا شرطٌ، وجوابها محذوف لدلالة قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ عليه، فكأنه قال: أَيْنَ ذُكِرتم أو أين وُجدتم وُجد شُؤمكم معكم، وهذا كقولك: سيفُكَ معكَ أين حَلَلْتَ.

وسَبَرَه[١] بأن قال لهم: أَتطلبون أَجراً على دعوتكم هذه؟ قالوا: لا، فدعا عند ذلك قومه إِلى اتباعهم والإِيمان بهم إِذ هو الحق، ثم احتجَّ عليهم بقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، أَي: وهم على هدًى من الله. وهذه الآية حاكمة بنقص من يأخذ أُجرة على شيءٍ من أَفعال الشرع التي هي لازمة له كالصلاة ونحوها، فإِنها كالتبليغ لمن بعث، بخلاف ما لا يلزمه كالإِمارة والقضاءِ، وقد ارتزق أَبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه.

ورُوِي عن أَبي مجلز، وكعب الأَحبار، وابن عباس أَن اسم هذا الرجل حبيب، وكان نجاراً، وكان ـ فيما قال وهب بن مُنَبِّه ـ قد تجذَّم، وقيل: كان في غار يعبد ربَّه، وقال ابن أَبي ليلى: «سُبَّاق الأُمم ثلاثة لم يكفروا قطُّ طرفة عين: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وصاحب يٰس، ومؤمن آل فرعون»، وذكر الناسُ في أَسماءِ الرسل: صادق ومصدوق وشلوم، وغير هذا، والصِّحَّة معدومة فاختصرتُ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

قرأَ الجمهور: ﴿وَمَا لِىَ﴾ بفتح الياءِ، وقرأَ الأَعمش، وحمزة بسكون الياءِ، وقد تقدم مثل هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِىَ﴾ تقرير لهم ـ على جهة التوبيخ ـ في هذا الأَمر الذي يشهد العقل بصحته، إِنَّ من فَطَر واخترع وأَخرج من العدم إِلى الوجود فهو الذي يستحق أَن يُعبد، ثم أَخبرهم بأَنهم محشورون إِليه يوم القيامة. ثم وقفهم أَيضاً ـ على جهة التوبيخ ـ على اتخاذ الآلهة من دون الله، وهي لا تَرُدُّ عنهم المقادير التي يريدها الله بهم، لا بقوَّة منها ولا بشفاعة. وقرأَ طلحة السَّمان، وعيسى الهَمْداني[٢]: [يُرِدْنيَ] بياءِ

(١) أي: اختَبَرَهُ، يقال: سَبَرْتُ فلاناً بمعنى: اختبرتُه لأعرف ما عنده.

(٢) هو عيسى بن عمر الأسدي، الهَمْداني ـ بسكون الميم ـ أبو عمرو، الكوفي، القارىء، ثقة، من =

مفتوحة، ورُويت عن عاصم، ونافع، وأبي عمرو.

ثم صَدَع بإيمانه وأعلن فقال: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾، واختلف المفسرون ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما، وكعب، وَوَهْب: خاطب بها قومه على جهة المبالغة والتَّنْبيه، وقيل: خاطب بها الرُّسل على جهة الإشهاد بهم[١]، والاستحفاظ للأمر عندهم. وقرأ الجمهور بكسر النون على نيَّة الياءِ بعدها، وروى أبو بكر عن عاصم فَتْحها، قال أبو حاتم: هذا خطأٌ لا يجوز؛ لأنه أَمْرٌ، فإما حذف النون أو كسرها على نيَّة الياءِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهنا محذوف تواترت به الأَحاديث والروايات، وهو أَنهم قتلوه، واخْتُلف، كيف؟ قال قتادة وغيره: رجموه بالحجارة، وقال ابن مسعود: مَشْوا عليه بأَقدامهم حتى خرج قُصْبُه[٢] من دُبُره، فقيل له عند موته: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾، وذلك ـ والله أعلم ـ بأَن عُرض عليه مقعده منها، وتحقَّق أَنه من سكانها برؤْيته ما أَقَرَّ عينه، فلما تحصَّل له ذلك تمنَّى أَن يعلم قومه بذلك، فقيل: أَراد بذلك الإِشفاق والنُّصح لهم، أَي: لو علموا ذلك لآمنوا بالله، وقيل: أَراد أَن يندموا على فعلهم به ويحزنهم ذلك، وهذا موجود في جِبِلَّة البشر، إِذا نال خيراً في أَرض غربة ودَّ أَن يعلم ذلك جيرانه وأَترابه الذين نشأَ فيهم؛ ولا سيَّما في الكرامات، ونحو من ذلك قول الشاعر:

والعِـــزُّ مَطْلُـــوبٌ ومُلْتَمَـــسٌ ... وأَحَبُّـهُ مـا كَـانَ فـي الـوَطَـنِ

والتأويل الأَول أَشبه بهذا العبد الصالح، وفي ذلك قال النبي ﷺ: «نصح قومه حيًّا وميتاً»[٣]، وقال قتادة بن دعامة: نصحهم على حالة الغضب والرضى، وكذلك المؤمن لا تجده إِلاَّ ناصحاً للناس.

و(ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا غَفَرَ﴾ يجوز أَن تكون مصدرية، أَي: بغفران ربِّي لي،

= السابعة، مات سنة ستٍّ وخمسين، (تقريب التهذيب).

(١) يقول لهم: اشهدوا لي، أو كونوا شهودي بالإيمان.

(٢) القُصْب ـ بضم القاف وسكون الصاد ـ المِعَى، والجمع: أقصاب.

(٣) الذي رفعه إلى النبي ﷺ هو القشيري، قال ذلك القرطبي.

ويجوز أن تكون بمعنى الذي، وفي (غَفَرَ) ضمير عائد، قال الزهري: ويجوز أن تكون استفهاماً، ثم ضعَّفه(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

هذه مخاطبة لمحمد ﷺ، فيها توعُّد لقريش، إذ هو المروِّع لهم من المثال أَنْ ينزل بهم من عذاب الله ما نزل بقوم حبيب النجار، فنفى عزَّ وجلَّ أنه أنزل على قوم هذا الرجل جنداً من السماءِ، قال مجاهد: أَراد أَنه لم يرسل رسولاً ولا استَعْتَبَهُم، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أَراد أنه لم يحتج في تعذيبهم إِلى جُند من جُنْد الله كالحجارة والغرق والريح وغير ذلك، بل كانت صيحة واحدة؛ لأَنهم كانوا أَيسر وأَهون من ذلك، قال قتادة: والله ما عاتب اللهُ قومه بعد قتله حتى أَهلكهم.

واختلف المتأَولون في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ ـ فقالت فرقة: (مَا) نافية، وهذا يجري مع التأْويل الثاني في قوله سبحانه: ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ﴾. وقالت فرقة: (مَا) عطفٌ على (جُنْدٍ)، أَيْ: «مِن جُنْد ومِنَ الذي كنَّا منزلين على الأُمم مثلهم قبل ذلك»(٢).

---

(١) لعلَّ هذا التضعيف كان بما قاله الكسائي: «لو صحَّ هذا لكان (بِمَ) من غير ألف». وقال الفراء: ولو جعلت (ما) في معنى (أَيّ) كان صواباً، ويكون المعنى: ليتهم يعلمون بأيِّ شيءٍ غفر لي ربِّي، ولو كان كذلك لجاز له فيه، [بِمَ غفر لي ربي] بنقصان الألف، كما تقول: سلْ عمَّ شئتَ، وكما قال: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وقد أتمَّها الشاعر وهي استفهام فقال:

إنَّـــا قَتَلْنَـــا بِقَتْـــلانَـــا سَـــرَاتَكُـــمْ   أَهْـــلَ اللِّـــوَاءِ فَفِيمَـــا يُكْثَـــرُ الْقِيـــلُ

راجع (معاني القرآن) للفراء.

(٢) نقل أبو حيَّان هذا التقدير في (البحر المحيط)، ثم علَّق عليه بقوله: «وهو تقدير لا يصحُّ؛ لأن (مِنْ) في ﴿مِن جُندٍ﴾ زائدة، ومذهب البصريين ـ غير الأخفش ـ أن لزيادتها شرطيْن: أحدهما أن يكون قبلها نفي أو نهي أو استفهام، والثاني أن يكون بعدها نكرة، وإن كان كذلك فلا يجوز أن يعطف معرفةٌ على النكرة، لا يجوز مثلاً: ما ضربتُ من رجل ولا زيد، ولا يجوز: ولا من زيد، وهو ـ يعني ابن عطية ـ قدَّر المعطوف بـ(الذي)، وهو معرفة، فلا يصح أن يعطف على النكرة المجرورة بمن الزائدة».

وقرأ الجمهور: ﴿إِلَّا صَيْحَةً﴾ بالنصب على خبر (كان)، أي: ما كان عذابهم إلاَّ صيحةً واحدةً، وقرأ أبو جعفر، ومعاذ بن الحارث(١): [إلا صَيْحَةٌ واحِدَةٌ] بالرفع، وضعفها أبو حاتم(٢)، والوجه فيها أنها ليست (كان) التي تطلب الاسم والخبر، وإنما التقدير: ما وقعت أو حدثت إلاَّ صيحةٌ واحدةٌ. وقرأ ابن مسعود، وعبد الرحمن بن الأسود(٣): [إلاَّ زَقْيَةً وَاحِدَةً]، وهي الصيحة من الديك ونحوه من الطير(٤).

---

(١) هو معاذ بن الحارث الأنصاري، النجاري، القارىء، قيل: هو أبو حليمة أحد من أقامه عُمَر رضي الله عنه بمصلى التراويح، ويقال: هو آخر يكنى أبا الحارث، صحابي صغير، استشهد بالحرة سنة ثلاثين وستين. (تقريب التهذيب).

(٢) ضعَّفها أبو حاتم لوجود التاءِ في [كَانَتْ]؛ إذ الأصل ألا تلحق التاءُ الفعل في مثل هذا التركيب، فلا تقول مثلا: ما قامَتْ إلا هند، وإنما المختار في اللغة أن تقول: ما قام إلا هند، وذلك أن الكلام محمول على معناه، والمعنى: ما قام أحدٌ إلا هند، وقد جوَّز بعضهم مجيءَ التاءِ هنا، وقال: هي جائزة في الشعر، وفي الكلام أيضاً، أما في الشعر فقد جاءَت في قول ذي الرُّمَّة:

بَرَى النَّحْزُ والأَجْرَالُ مَا فِي غُرُوضِهَا ... ومَا بَقِيَتْ إلا الضُّلُوعُ الجَرَاشِعُ

وقال غيره:

مَا بَرِئَتْ مِن رِيبَةٍ وذَمِّ ... في حَرْبِنَا إلا بَنَاتُ العَمِّ

وقد قرأ الحسن، والجحدري، ومالك بن دينار، وقتادة، وأبو حيوة، وأبو رجاءٍ، وابن أبي عبلة قوله تعالى: [لا ترى إلا مساكنهم] بالتاءِ، والقراءة المشهورة بالياءِ، وقراءة التاءِ تؤيد جواز التأنيث. وقد أجاز أبو الفتح قراءة التاءِ، وقال: «ولكن لما كان محصول الكلام ـ في آيتنا هذه ـ «قد كانت صيحةٌ واحدةٌ» جيء بالتأنيث إخلاداً إليه، وحملا لظاهر اللفظ عليه»، وابن عطية يوافق أبا عثمان بن جني في اتجاهه حين يقول: إنَّ (كان) هنا ليست هي الناقصة التي تحتاج إلى اسم وخبر، بل هي التامة، والمعنى: «ما وقعت إلا صيحةٌ واحدةٌ».

(٣) عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة الزهريُّ، ولد على عهد الرسول ﷺ، ومات أبوه في ذلك الزمان، ولذلك عُدَّ في الصحابة، وقال العجلي: «هو من كبار التابعين». (تقريب التهذيب).

(٤) ضعف العلماءُ هذه القراءة لسببين: أولهما أنها مخالفة للمصحف، وثانيهما أن الفعل (زَقَا) واوي، يقال: زقا يزقو، ومنه المثل «أَثْقَلُ من الزواقي»، فكان يجب أن تكون هذه القراءة: (زقْوة) لا (زَقْيَة) بالياءِ صحيحة، واستشهد على ذلك بقول الشاعر:

تَلِدُ غُلاماً عارِماً يُودِيكِ ... ولَوْ زَقَيْتِ كَزُقَاءِ الدِّيكِ

وقال: يقال: زَقَوْتُ وزَقَيْتُ.

و(خَامِدُونَ): ساكتون موتى لاطون بالأَرض[١]، شُبِّهوا بالرماد الذي خمدت ناره وطُفئت.

وقوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً﴾ نداءٌ لَها على معنى: هذا وقتُ حضوركِ وظُهوركِ، هذا تقدير نداءِ مثلِ هذا عند سيبويه، وهو معنى قويم في نفسه، وهو منادى منكور على هذه القراءَة[٢]. وقال الطبريُّ: المعنى: يا حسْرَةَ العبادِ على أَنفسهم، وذكر أَنها في بعض القراءَات كذلك، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: يا ويلاً للعباد. وقرأَ ابن عباس، والضحاك، وعلي بن الحسين، ومجاهد، وأُبيٌّ بن كعب: [يا حسرة العباد] بالإِضافة[٣]. وقولُ ابن عباس حَسَنٌ مع قراءَته، وتأْويل الطبري ذلك في القراءَة الأُولى ليس بالبيِّن، وإِنما يتجه أَن يكون المعنى تلهُّفاً على العباد كان الحالُ يقتضيه، وطباعُ كل بشر تُوجب عند سماعه حالهم وعذابهم على الكفر وتَضْييعَهم أَمر الله تعالى أَن يُشفق ويتحسر على العباد. وقال أَبو العالية: المراد بالعباد الرسل الثلاثة، فكأَن هذا التحسُّر من الكفار، حين رأَوْا عذاب الله تلَهَّفُوا على ما فاتهم، وقوله تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ الآية، يدافع هذا التأْويل.

والحسرة: التَّلَهُّفَات التي تترك صاحبها حسيراً، وقرأَ الأَعرج، ومسلم بن جندب[٤]، وأَبو الزناد[٥]: [يَا حَسْرَهْ] بالوقف على الهاءِ، وذلك على الحرص على بيان معنى الحسرة وتقريره للنفس، والنطقُ بالهاءِ في مثل هذا أَبلغ في التشفيق وهزِّ النفس، كقولهم: أَوَّهْ ونحوه[٦]. وقوله: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ الآية، تمثيل لفعل قريش.

---

(١) لاط بالأرض: لصق بها، يقال: لاط الشيءُ بقلبي، أي: لصق به وأَحببته، فالمعنى هنا أنهم ساكتون موتى لاصقون بالأرض.

(٢) يريد أنه منادى نكرة.

(٣) وعلى هذه القراءَة يجوز أن تكون الحسرة منهم على ما فاتهم، وتكون كلمة (الْعِبَادِ) فاعلاً في المعنى، ويجوز أن تكون الحسرة من غيرهم عليهم لِمَا فاتهم من اتباع الرُّسل، وتكون كلمة (الْعِبَادِ) مفعولاً في المعنى.

(٤) مسلم بن جُندب الهُذَلي، المدني، القاصّ، ثقة فصيح قارىء، من الثالثة، مات سنة ستٍّ ومائة. (التقريب).

(٥) عبد الله بن ذكوان القرشي، أبو عبد الرحمن، المدني، المعروف بأبي الزِّناد، ثقة فقيه، من الخامسة، مات سنة ثلاثين، وقيل: بعدها، (التقريب).

(٦) قال أبو الفتح: في هذه القراءة نظر، وذلك أن قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ متعلق بالحسرة، أو صفة لها، =

ثم عَنَاهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، و(كَمْ) هنا خبرية، و(أَنَّهُمْ) بدلٌ منها، و«الرُّؤْيَة» رُؤْيَة البصر، وفي قراءَة ابن مسعود: [أولم يَرَوْا مَن أَهلَكنا]، وقرأَ الجمهور (أَنَّهُمْ) بفتح الألف، وكَسَرَها الحسن البصريُّ. وقرأَ الجمهور: [لَمَا] بتخفيف الميم، وذلك على زيادة (ما) للتأكيد، والمعنى: «لَجَميعٌ»، وشدَّدها الحسن، وابن جُبَيْر، وعاصم، وقالوا: هي بمنزلة (إلاَّ)[1]، وقيل: المراد: (لَمِمَّا) حذفت إحداهما، وفيه ضعف، وفي حرف أُبَيٍّ: [وَإِنَّ منهم إلاَّ جميعٌ لدينا محضرون]، قال قتادة: محشورون يوم القيامة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝٣٣ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝٣٤ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٣٥ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾.

(آيَةٌ) معناه: علامة على الحشر وبعث الأَجساد، والضمير في (لَهُمْ) يراد به كفار قريش، وقرأَ نافع، وشيبة، وأَبو جعفر: [الْمَيِّتَةُ] بكسر الياءِ وشدها، وقرأَ أَبو عمرو، وعاصم بسكون الياءِ خفيفة، وإحياؤُها بالمطر.

وقرأَ الجمهور: (ثَمَرِهِ) بفتح الثاءِ والميم، وقرأَ طلحة، وابن وثاب، وحمزة، والكسائي بضمهما، وقرأَ الأَعمس بضم الثاءِ وسكون الميم، والضمير فيه قالت فرقة: هو عائد على الماءِ الذي يتضمنه قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾؛ لأَن التقدير: (ما)، وقالت فرقة: هو عائد على جميع ما تقدم مُجْمَلاً، كأَنه قال: «من ثَمَر ما ذكرنا»، وقال أَبو عبيدة: هو من باب أَن يذكر الإِنسان شيئَيْن أَو ثلاثة ثم يعيد الضمير على واحد ويكني عنه، كما قال الأَزرق ابن طرفة بن العمرّد الفراصيُّ الباهليُّ:

= وعلى كلا الأمرين لا يحسن الوقوف عليه دونه. ثم وجَّه الوقوف في كلام طويل يمكن الرجوع إليه في المحتسب ٢ ـ ٢٠٨ وما بعدها.

(١) ذكر أبو عبد الله الرازي تعليلاً مناسباً في كون (لَمَّا) بمعنى (إلا)، قال: «إنَّ (لَمَّا) كأَنها حرفا نفي جميعاً، وهما (لَمْ) و(مَا)، فتأكَّد النفي، وكذلك (إلا) كأنها حرفا نفي، وهما (إنْ) و(لا)، فاستعمل أحدهما مكان الآخر»، وقد أخذ هذا من قول الفراءِ في (إلا) في الاستثناءِ، وأَنها مركَّبةٌ من (إنْ) و(لا).

رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيئاً، ومِنْ أَجْلِ الطَّوِيِّ رَمَانِي[(١)]

وهذا الوجه في الآية ضعيف.

و(مَا) في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾، قال الطبريُّ: هي اسم معطوف على «الثمر»، أَي: ويقع الأَكلُ من الثَّمر وممَّا عملته الأَيدي بالغرس والزراعة ونحوه. وقالت فرقة: هي مصدرية، وقيل: هي نافية، والتقدير: إِنهم يأْكلون من ثمره وهو شيءٌ لم تعمله أيديهم، بل هي نعمة من الله تبارك وتعالى عليهم. وقرأ جمهور القراءِ: ﴿عَمِلَتْهُ﴾ بالهاءِ الضمير، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم - في رواية أَبي بكر -، وطلحة، وعيسى: [عَمِلَتْ] بغير ضمير.

ثم نزَّه تبارك وتعالى نفسه تنزيهاً مطلقاً عن كل ما يُلحد به ملحد، أَو يشرك به مشرك. و«الأَزْوَاج»: الأنواع من كل شيءٍ، وقوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ نظيره قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[(٢)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

هذه الآيات جعلها الله تعالى أَدلة على القدرة ووجوب الأُلوهية له، و(نَسْلَخُ)

---

(١) البيت في (الكتاب) لسيبويه، وفي اللسان (جَوَل)، وقد نُسب فيهما إلى ابن أحمر، وقد ذكر في اللسان نسبته للأزرق، وقد كان بين الشاعر وبين خصم له حكومة في بئر، فقال خصمه: إنه لِصٌّ ابن لص، فقال الشاعر قصيدته، وبعد البيت يقول:

دَعَانِيَ لِصّاً في لُصُوصٍ وَمَا دَعَا بِهَا وَالِدِي فيما مَضَى رَجُلَانِ

ورماني معناها: قذفني بأمر كريه، والطَّوِيُّ: البئر التي طُوِيَت بالحجارة، قال في اللسان: «وهي مُذَكَّر، فإن أُنِّث فعلى المعنى»، وفي حديث قتلى بدر: «فقُذفوا في طويٍّ من أَطواءِ بدر»، وعلى هذا فجمع طويٍّ: أَطواءٌ. ويروى البيت كما في اللسان (جول): «ومِنْ جُولِ الطويِّ رماني»، والجولُ: جدارُ البئر أَو كلُّ ناحية من نواحي البئر. والشاهد أنه ذكر نفسه ووالده ثم أَعاد الضمير مفرداً في قوله: (بريئاً)، قال سيبويه في الكتاب: «فوضع في موضع الخبر لفظ الواحد؛ لأنه قد علم أن المخاطب سيستدلُّ به على أن الآخر في هذه الصفة». وانظر شرح المرزوقي للحماسة.

(٢) من الآية (٨) من سورة (النحل).

معناه: نكشِطُ ونَقْشر، فهي استعارة، و(مُظْلِمونَ): داخلون في الظلام، واستدل قوم من هذه الآية على أن اللَّيل أصل والنهار فرع طارىءٌ عليه، وفي ذلك نظر.

و«مُسْتَقَرُّ الشَّمْسِ» ـ على ما روي في الحديث عن النبي عليه الصلاةُ والسلام من طريق أَبي ذرٍّ رضي الله تعالى عنه ـ بيْن يدي العرش، تسجد فيه كل ليلة بعد غروبها(١)، وفي حديث آخر أَنها تسجد في عين حمئة ولها وجبة عظيمة. وقالت فرقة: مُسْتَقَرُّهَا هو في يوم القيامة حين تُكوَّر، فهي تجري لذلك المستَقَرِّ. وقالت فرقة: مُسْتَقَرُّهَا كناية عن غيوبها؛ لأَنها تجري كل وقت إِلى حدٍّ محدود تَغْرُب فيه. وقيل: مُسْتَقَرُّهَا آخر مطالعها في المنقلبَيْن لأنهما نهايتا مطالعها، فإذا استقر وصولها كرَّت راجعة، وإلاَّ فهي لا تستقر عن حركتها طرفة عين، ونحا إِلى هذا ابن قُتَيْبَة. وقالت فرقة: مُستقرها وقوفها عند الزوال في كل يوم، ودليل استقرارها وقوف ظلال الأَشياءِ حينئذ.

وقرأَ ابن عباس، وابن مسعود، وعكرمة، وعطاءُ بن أَبي رباح، وأَبو جعفر محمد بن علي، وجعفر بن محمد عليهم السلام: [لا مستقر لها].

وقرأَ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرٍو، والحسن، والأَعرج: [والْقَمَرُ] بالرفع عطفاً على [اللَّيْلُ]، عطف جملة على جملة، ويصح وجه آخر، وهو أَن يكون ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ ابتداءٌ وخبره محذوف، كأنه قال: في الوجود والمشاهدة، ثم فسَّر ذلك بجملتين من ابتداءٍ وخبر وابتداءٍ وخبر، الليلُ واحدة، والقمر ثانية. وقرأَ الباقون بنصب «القمر» على إِضمار فعل يُفَسِّره [قَدَّرْنَاهُ]، وهي قراءَة أَبي جعفر، وابن محيصن، والحسن ـ بخلاف عنه ـ. و(مَنَازِلَ) نصب على الظرف، وهذه المنازل هي المعروفة عند العرب، وهي ثمانية وعشرون منزلة، يقطع القمر منها كل ليلة أَقلَّ من واحدة فيما يزعمون، وعودُته

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، والبخاري، والترمذي، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في (العظمة)، وابن مردويه، والبيهقي في (الأسماء والصفات)، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: يا أبا ذرٍّ، أَتدري أَين تغرب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾، قال: مُسْتَقَرُّها تحت العرش، والحديث أيضاً في مسلم، وقد قال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وقال الإمام النووي في شرح مسلم: «اختلف المفسرون في سجودها، فقال جماعةٌ بظاهر الحديث»، وقال ابن العربي: «أَنكر قوم سجودها، وهو صحيح ممكن، وتأَوَّله قوم على ما هي عليه من التسخير الدائم».

هي استهلاله رقيقًا، وحينئذ يُشبه العرجون، وهو الغُصن من النخلة الذي فيه شماريخ الثَّمر، فإنه ينحني ويصفَرُّ إذا قدم، ويجيءُ أَشبه شيءٍ بالهلال، قاله الحسن بن أَبي الحسن، والوجود يشهد به، وقرأ سليمان التيميُّ: [كَالْعِرْجَوْنِ] بكسر العيْن. و(الْقَدِيم) معناه: العتيق الذي قد مرَّ عليه زمن طويل.

و(يَنْبَغِي) هنا مستعملة فيما لا يمكن خلافه؛ لأَنها لا قدرة لها على غير ذلك. وقرأَ الجمهور: ﴿سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ بالإضافة، وقرأ عبادة: [سابقُ النهارَ] بدون تنوين في القاف وبنصب [النَّهَارَ]، ذكره الزهراوي وقال: حذف التنوين تخفيفاً. و«الْفَلَكُ» ـ فيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ متحرك مستدير كفلكة المغزل، فيه جميع الكواكب. و(يَسْبَحُونَ) معناه: يجرون ويعومون، قال مكيٌّ: لما أُسند إليها فعلُ من يعقل جُمعت بالواو والنون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

(وَآيَةٌ) معناه: وعلامةٌ ودليلٌ، ورفعها بالابتداءِ، وخبرها في قوله: (لَهُمْ)، و(أَنَّا) بدلٌ من (آيَةٌ)، وفيه نظر، ويجوز أن تكون (أَنْ) مفسِّرة لا موضع لها من الإعراب. و«الحَمْلُ»: منعُ الشيءِ أن يذهب سفلاً، وذكر الذريَّة لضعفهم عن السفر فالنعمة فيهم أَمكن.

وقرأَ نافع، وابن عامر، والأَعمش: [ذُرِّيَّاتِهِمْ] بالجمع، وقرأَ الباقون بالإفراد، وهي قراءَة طلحة، وعيسى، والضمير المتصل بالذرِّيَّات هو ضمير الجنس، كأَنه قال: ذريات جنسهم أو نوعهم، هذا أَصحُ ما يتَّجه في هذا، وخلط بعض الناس في هذا حتى قالوا: الذُّرِّيَّة تقع على الآباءِ، وهذا لا يُعرف لغةً.

وأَما معنى الآية؛ فيحتمل تأويلين: أَحدهما قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وجماعة، وهو أَن يريد بالذرِّيَّات المحمولين أَصحابَ نوح عليه السلام في السفينة، ويريد بقوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ السُّفُنَ الموجودة في جنس بني آدم إلى يوم القيامة، وإيَّاها

أَراد بقوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾، والتأْويل الثاني قاله مجاهد، والسدي، وروي عن ابن عباس أَيضاً، هو أَن يريد بقوله: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية، السُّفُنَ الموجودة في بني آدم إلى يوم القيامة، ويريد بقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾ الآية، الإِبلَ وسائر ما يُركب، فتكون المماثلة في أَنه مركوب مُبلِّغ إلى الأَقطار فقط، ويعود قوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ على السُّفن الموجودة في الناس، وأَما من خلط القولين فجعل الذرِّيَّة في الفلك قومَ نوح عليه السلام في سفينته، وجعل ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ في الإِبل، فإِن هذا نظر فاسد يقطع به قوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾، فتأَمله.

و«الفُلْكُ» جمعٌ، والإِفرادُ على وزنه، ولكن ليست حركاتُ الجمع حركات الإِفراد. و(الْمَشْحُون): المُوقَر، و(مِنْ) في قوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ يتجه على أَحد التأْويلين أَن تكون للتبعيض، وعلى التأْويل الآخر أَن تكون لبيان الجنس، فانظره، ويقال: الإِبل مراكب البر.

و«الصَّرِيخُ» هنا بناءُ الفاعل، بمعنى: المُصْرِخ، وذلك أَنك تقول: صارخ بمعنى مستغيث، ومُصْرخ بمعنى مُغيث، ويَجيءُ صريخ مرةً بمعنى هذا ومرة بمعنى هذا؛ لأَن فعيلاً من أَبنية اسم الفاعل، فمرة: يجيءُ من صَرَخَ إذا استغاث، ومرة: يجيءُ من أَصْرَخَ إذا أَغاث.

وقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾، قال الكسائي: نصب على الاستثناءِ، كأَنه قال: إلا أن نرحمهم، وقال الزجاج: نصب على المفعول من أَجله، كأَنه قال: إلاَّ لأَجل رحمتنا إِيَّاهم. وقوله: [مَتَاعاً] عطف على قوله (رَحْمَةً)، و﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ يريد آجالهم المضروبة لهم.

والكلام تامٌّ في قوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾، وقوله: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ استئناف إِخبار عن السائرين في البحر، ناجين كانوا أَم مغرقين، فهم بهذه الحال لا نجاة لهم إِلاَّ برحمة الله. وليس قوله: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ مربوطاً بالمُغرقين، وقد يصح ربطه به، والأَول أَحسن فتأَمل.

ثم ابتدأَ الإِخبار عن عُتوِّ قريش بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ الآية. و«مَا بَيْنَ أَيْديهم» قال مقاتل، وقتادة: هو عذاب الأُمم التي سبقتهم في الزمن، و«ما خلفهم» هو عذاب الآخرة التي تأْتي بعدهم في الزمن، وهذا هو النظر، وقال الحسن: خُوِّفوا بما مضى من

ذنوبهم وبما يأتي منها، وهذا نحو الأول في المعنى؛ لأن التخويف بالذنب إنما هو من عقابه والمجازاة عليه. وقال مجاهد: «ما بين أيديهم» هو الآخرة، و«ما خلفهم» عذاب الأمم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فجعل التَّرتيب كأنهم يسيرون من شيءٍ إلى شيءٍ، ولم يعتبر وجود الأشياءِ في الزمن، وهذا النظر يكره عليه قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾(1)، وإنما المُطَّرد أن يقاس ما بين اليد والخلف بما يسوقه الزمن، فتأمله. وجواب (إذَا) في هذه الآية محذوف، تقديره: أَعرضوا، ويفسره قوله سبحانه: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، و«الآيات»: العلاماتُ والدلائل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

الضمير في قوله تعالى: (لَهُمْ) لِقُرَيش. وسبب هذه الآية أن الكفار لما أَسلم حواشيهم من الموالي وغيرهم من المستضعفين، قطعوا عنهم نفقاتهم وجميع صِلاَتهم، وكان الأمر بمكة أَولاً فيه بعض الاتصال في وقت نزول آيات المُوَادعة، فندب أُولئك المؤمنون قرابتهم من الكفار أن يصلوهم، وأَن ينفقوا عليهم مما رزقهم الله، فقالوا عند ذلك: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾. قال الرماني: ونسوا ما يجب من التعاطف وتألف الجنس.

وقالت فرقة: سببها أَن قريشاً شحَّت ـ بسبب أَزمة ـ على المساكين جميعاً من مؤمن وغيره، فندبهم النبي ﷺ إلى النفقة على المساكين، فقالوا هذا القول.

وقولهم يحتمل معنيين من التأويل: أَحدهما يخرج على اختبارات لجهال العرب، فقد رُوي أَن أَعرابياً كان يرعى إبله، فيجعل السمان في الخصب، والمهازيل في المكان الجدب، فقيل له في ذلك فقال: أُكرم ما أَكرم الله وأُهين ما أَهان الله، فيخرج قول قريش على هذا المعنى، كأَنهم رأَوا الإمساك عمَّن أَمسك الله عنه رزقه؛ ومن أَمثالهم:

---

(1) من الآية (٤٦) م سورة (المائدة).

«كن مع الله على المدْبِر». والتأويل الثاني أن يكون كلامهم بمعنى الاستهزاءِ بقول محمد ﷺ: إن ثمَّ إلٰهاً هو الرَّزَّاق، فكأنهم قالوا: لم لا يرزقهم إلٰهُكَ الذي تزعم؟ أَي: نحن لا نطعم من لو يشاءُ هذا الإلٰه الذي زعمت لأَطعمه، وهذا كما يدَّعي الإِنسان أنه غنيٌّ ثم يحتاج إِلى معونتك في مال فتقول له ـ على جهة الاحتجاج والهُزْء به ـ: أَتطلب معونتي وأَنت غنيٌّ؟ أَي: على قولك.

وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يحتمل أَن يكون من قول الكفرة للمؤمنين، أَي: في أَمركم لنا بنفقة أَموالنا، وفي غير ذلك من دينكم، ويحتمل أَن يكون من قول الله تعالى للكفرة، استأْنف زجرهم بهذا.

ثم حكى عنهم ـ على جهة التقرير عليهم ـ قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي يوم القيامة الذي تزعم، وقيل: أَرادوا: متى هذا العذاب الذي تتهدَّدُنا به؟ وسمُّوا ذلك وعداً من حيث تفيد قرائن الكلام أنه في شرٍّ، والوعد متى وَرَدَ مطلقاً فهو في خير، وإِذا قُيِّد بقرينة الشَّرِّ استعمل فيه، والوعيد دائماً هو في الشَّرِّ.

و(يَنْظُرُونَ) معناه: ينتظرون، و(مَا) نافية، وهذه الصيحة هي صيحة القيامة والنفخة الأُولى في الصُّور، رُوي ذلك عن عبد الله بن عمر، وأَبي هريرة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ[(١)]، وفي حديثه أن بعدها نفخة الصَّعق، ثم نفخة الحشر، وهي التي تدوم فما لها من فواق.

---

(١) حديث ابن عُمر رضي الله عنهما أَخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، قال: «لَيُنْفَخَنَّ في الصُّور والناس في طرقهم وأسواقهم ومجالسهم، حتَّى أن الثوب ليكون بين الرجلين يتساومان فما يرسله أَحدهما من يده حتى يُنفخ في الصُّور فيصعق به، وهي التي قال الله ﴿ماينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون﴾». وحديث أَبي هريرة أخرجه سعيد بن منصور، والبخاري، ومسلم، وابن المنذر، وأبو الشيخ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَتَقُومَنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لَقْحَته فلا يَطْعَمه ـ واللَّقْحَةُ: الناقةُ الحلوب الغزيرة اللبن ـ ولتقومن الساعة وقد رفع أَكْلته إلى فمه فلا يطعمها»، هكذا ذكرهما السيوطي في (الدر المنثور)، الأول غير مرفوع إلى النبي ﷺ، والثاني مرفوع، وذكر السيوطي أيضاً أن عبد الرَّزَّاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه أخرجوا عن أبي هريرة رضي الله عنه في هذه الآية قال: «تقوم الساعة والناس في أسواقهم يتبايعون يذرعون الثياب ويحلبون اللقاح، وفي حوائجهم، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون». دون أن يرفعه إلى النبي ﷺ.

وقرأ ابن كثير، وأَبو عمرو، والأَعرج، وشبل، وابن قسطنطين المكي: [يَخَصِّمُونَ] بفتح الياءِ والخاءِ وتشديد الصاد المكسورة، وأَصلها يَخْتَصِمُونَ، نقلت حركة التاءِ إِلى الخاءِ وأُدغمت التاءُ الساكنة في الصَّاد. وقرأ نافع، وأَبو عمرو أَيضاً بفتح الياءِ وسكون الخاءِ وشدِّ الصَّاد المكسورة، وفي هذه القراءَة جمع بين ساكنين ولكنه ليس بجمع مخض، ووجَّهها أَبو علي، وأَصلها: يَخْتَصِمُونَ، حذفت حركة التاءِ دون نقل وأُدغمت في الصاد. وقرأ عاصم، والكسائي، وابن عامر، ونافع أَيضاً، والحسن، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ بفتح الياءِ وكسر الخاءِ وشدِّ الصاد المكسورة، أَصلها: يَخْتَصِمُونَ، أُعِلَّت كالتي قبلها ثم كسرت للالتقاءِ. وقرأَت فرقة بكسر الياءِ والخاءِ وشدِّ الصاد المكسورة كالتي قبلها ثم أُتبعت كسرة الخاءِ بكسرة الياءِ، وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب [يَخْتَصِمُونَ]. ومعنى هذه القراءَات كلها أنهم يتحاورون ويتراجعون الأَقوال بينهم ويتدافعون في شؤونهم. وقرأ حمزة: [يَخْصِمُونَ]، وهي تحمل معنيين: أَحدهما ما في القراءَات قبلها، أَي: يخصم بعضهم بعضاً، والثاني أنهم يخصمون أَهل الحق في زعمهم، كأنه قال: تأْخذهم الصيحة وهم يظنون بأَنفسهم أنهم خَصَموا أَو غَلَبوا؛ لأَنك تقول: خاصمت فلاناً فخَصَمْتُهُ، إِذا غلبته.

وقوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ عبارة عن إِعجال الحال، و«التَّوْصِيَةُ» مصدر من: وصَّى، وقوله: ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ يحتمل تأويلات: أَحدها: ولا يرجع أَحدٌ إِلى منزله وأَهله لإِعجال الأَمر، بل تقبض نفسه حيثما أَخذته الصيحة، والثاني معناه: ولا إِلى أَهلهم يرجعون قولاً، وهذا أَبلغ من الاستعجال، وخصَّ بالذكر الأَهل لأَن القول معهم في ذلك الوقت أَهم على الإِنسان من الأَجْنَبِيِّين وأَوْكد في نفوس البشر، والثالث تقديره: ولا إِلى أَهلهم يرجعون أَبداً، فخرج هذا عن معنى وصف الاستعجال إِلى معنى ذكر انقطاعهم وانبتارهم من دنياهم.

وقرأ الجمهور: (يَرْجِعُونَ) بفتح الياءِ وكسر الجيم، وقرأ ابن محيصن بضم الياءِ وفتح الجيم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤﴾.

هذه نفخة البعث. و«الصُّور»: القَرْنُ في قول جماعة المفسرين، وبذلك تواردت الأَحاديث(١)، وذهب أَبو عبيدة إِلى أنه جمع صُورة، خرج مخرج بُسْر وبُسْرَة، وكذلك سُوَرة البناءِ جَمْعُها سُورٌ(٢)، والمعنى عنده وعند من قال بقوله: نُفِخ في صور بني آدم فعادوا أَحياءً. و«الأَجْدَاثُ» القبورُ(٣)، وقرأَ الأعرج: [في الصُّوَرِ] بفتح الواو، جمع صُورَةٍ. و﴿يَنسِلُونَ﴾: يمشون مشية الذئب بسرعة، ومنه قول الشاعر:

عَسَلاَنَ الذِّئْبِ أمْسَى قَارِباً ... بَرَدَ اللَّيْلُ عَلَيْهِ فَنَسَلْ(٤)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَنسِلُونَ﴾: يخرجون، وقرأَ الجمهور بكسر السين، وضمَّها ابنُ أَبي إسحق، وأَبو عمرو.

---

(١) من ذلك ما رواه المبارك بن فضالة عن الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «بين النفختين أَربعون سنة: الأولى يُميت الله بها كل حي، والأخرى يحيي الله بها كل ميت». ومنها حديث متفق عليه، رواه أبو هريرة رضي الله عنه، ولفظه كما في مسلم، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أَربعون»، قالوا: يا أَبا هريرة، أَربعون يوماً؟ قال: أَبَيْتُ، قالوا: أَربعون شهراً؟ قال: أَبَيْتُ، قالوا: أربعون سنة قال: أبيت، «ثم يُنزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل» قال: «وليس من الإنسان شيءٌ لا يبلى، إلا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذَّنَب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة»، ومعنى قول أبي هريرة: «أَبَيْتُ»: امتنعت عن الكلام لأني لا أدري ما هو الصواب.

(٢) وفي ذلك استشهدوا بقول العجَّاج:

ورُبَّ ذي سُرَادِقٍ مَحْجُورِ ... سِرْتُ إِلَيْهِ فِي أَعَالِي السُّورِ

(٣) الجدَثُ ـ بالثاءِ ـ: القبر، والجمع أجداث، وقد وردت بالفاءِ، يقال: جدفٌ وأجدافٌ، وقد ذكر الزمخشري أنه قُرِىء بها، قال المتَنَخِّل الهذليُّ:

عَرَفْتُ بِأجْدُثٍ فنِعافِ عِرْقٍ ... عَلامَاتٍ كَتَحْبِيرِ النِّمَاطِ

(٤) قيل: هذا البيت للبيد، وقيل: للنابغة الجعدي، وهو في اللسان (نَسَل) غير منسوب، وفيه أيضاً (عَسَلَ) منسوب إلى لبيد، وعَسَل الذئبُ والثعلبُ يعْسِل عَسَلا وعَسَلاناً: مضى مسرعاً واضطرب في عَدْوه وهزَّ رأسه. والقاربُ: هو الذي يطلب الماءَ، وقد حدده الخليل بمن يطلب الماء لَيْلاً فقط، ونَسَلَ: أَسْرَعَ، وهي موضع الشاهد هنا.

ونداؤُهم بالوَيْل هو بمعنى: هذا وقْتُكَ وأَوَان حضورِكَ، وهو منادى مضاف، ويحتمل أَن يكون نصبه على المصدر والمنادى محذوف، كأَنهم قالوا: «يا قومنا وَيْلَنا»، وقرأَ ابن أَبي ليلى: [يا ويلتنا] بتاءِ التأْنيث[1]. وقرأَ الجمهور: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا﴾؟ على معنى الاستفهام، وروي عن عليٍّ وابن عباس رضي الله عنهما أَنهما قرآ: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا﴾ بكسر الميم مِنْ [مِنْ] وبسكون العين وكسر الثاءِ في [بَعْثِنَا] نصباً على المصدر، وفي قراءَة ابن مسعود: [مَنْ أَهَبَّنَا مِنْ مَرْقَدِنَا]، وفي قراءَة أُبَيٍّ: [مَنْ هَبَّنَا]. قال أَبو الفتح: لم أَر لها في اللغة أَصلاً، ولا مرَّ بنا «مَهْبُوب»[2]، ونسبها أَبو حاتم إِلى ابن مسعود، وقولهم: ﴿مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ يحتمل أَنهم يريدون موضع الرقاد حقيقة، ويُروى عن أُبَيِّ بن كعب، وقتادة، ومجاهد أَن جميع البشر ينامون نومةً قبل الحشر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا غير صحيح الإِسناد، وإِنما الوجه في قولهم ﴿مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ أَنها استعارة وتشبيه، كما تقول في قتيل: هذا مرقده إِلى يوم القيامة، وفي الثعلبي أَنهم قالوا: ﴿مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ لأَن عذاب القبر كان كالرقاد في جنب ما صاروا إِليه من عذاب جهنم. وقال الزجاج: يجوز أَن يكون (هَذَا) إِشارة إِلى المرقد، ثم استأْنف بقوله: ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، يُضمر الخبر: «حَقٌّ» أو نحوه، وقال الجمهور: ابتداءُ الكلام: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ﴾.

واختُلف في هذه المقالة، من قالها؟ فقال ابن زيد: هي من قول الكفار لمَّا رأَوْا البعث والنشور الذي كانوا يُكذِّبون به في الدنيا، وقالت فرقة: ذلك من قول الله تبارك وتعالى لهم على جهة التوبيخ والتوقيف، وقال الفراءُ: هو من قول الملائكة، وقال قتادة ومجاهد: هو من قول المؤمنين للكفار على جهة التقريع.

---

(١) ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾؟ أصله: يا ويلتي، أُبدلت الياءُ أَلفاً لأنه نداءٌ، فهو في موضع تخفيف.

(٢) ومن تتمة كلامه: ما مرَّ بنا مَهْبُوب بمعنى مُوقَظ، وهي ـ مع حسن الظن بأُبَيٍّ ـ مقبولة. أمَّا [أَهَبَّنَا] بالهمزة فهي أَقْيَس القراءَتَين، يقال: هبَّ من نومه، أي: انتبَهَ، وَأَهْبَبْتُهُ أَنا، أي: أَنْبَهْتُه، قال الشاعر:

أَلا أَيُّهَا النُّوَّامُ وَيْحَكُمُ هُبُّوا ... أُسَائِلُكُمْ: هَلْ يَقْتُلُ الرَّجُلَ الحُبُّ؟

وهذا البيت الذي استشهد به أبو الفتح في المحتَسَب هو واحد من سبعة أبيات قالها جميل، وتجدها في (سمط اللآلىء)، وانظر أيضاً الأمالي لأبي عليٍّ القالي.

ثم أخبر تعالى أن أمر القيامة والبعث من القبور ما هو إلاَّ صيحة واحدة فإذا الجميع حاضر محشور، وقرأت فرقة: ﴿إِلَّا صَيْحَةً﴾ بالنصب، وفرقة بالرفع، وقد تقدم إعراب نظيرها.

وقوله: (فَالْيَوْمَ) نصب على الظرف، يريد يوم الحشر المذكور، وهذه مخاطبة يحتمل أن تكون لجميع العالم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

هذا إخبارٌ من الله عزَّ وجلَّ عن حال أَهل الجنة بعد ذكره أَهوال القيامة وحالة الكفار. وقرأ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرو، وابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وطلحة، وخالد بن إِلياس: [في شُغْل] بضم الشِّين وسكون الغين، وقرأ الباقون: ﴿فِى شُغُلٍ﴾ بالضم فيهما، وهي قراءَة أَهل المدينة والكوفة، وقرأ مجاهد، وأَبو عمرٍو أَيضاً بالفتح فيهما، وقرأ ابن هُبَيْرَة على المنبر بفتح الشِّين وسكون الغَيْن، وهي كلها بمعنى واحد.

واختلف الناسُ في تعْيين هذا الشغل، فقال ابن مسعود، وابن عباس، وابن المسيب: افتضاضُ الأَبكار، وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما: سماع الأَوتار، وقال مجاهد: معناه نعيم قد شغلهم، وهذا هو القول الصحيح، وتعيين شيءٍ دون شيءٍ لا قياس له، ولمَّا كان النعيم كلُّه نوعاً واحداً من حيث هو نعيم وَحَّدَهُ فقال: ﴿فِى شُغُلٍ﴾، ولو اختلف لقال: في أَشغال، وحكى الثعلبي عن طاوس أَنه قال: لو علم أَهل الجنة عمَّن شغلوا ما هنأَهم ما شُغلوا به، قال الثعلبي: وسُئل بعض العلماءِ عن قوله عليه الصلاة والسلام: «أَكثر أَهل الجنة البُلْهُ»[1]، فقال: لأَنهم شغلوا بالنعيم عن المُنْعم.

---

(١) أَخرجه البَزَّارُ عن أَنَس، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بالضَّعف.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَاكِهُونَ﴾، ومعناه: أَصحابُ فاكهة، . كما يقال: تامِرٌ ولابِنٌ وشاحِمٌ ولاحِمٌ، وقرأَ أَبو رجاءٍ، ومجاهد، ونافع أَيضاً، وأَبو جعفر: [فَكِهُونَ]، ومعناه: فرحون طرِبون، مأْخوذ من: الفكاهة، أَي: لاهمَّ لهم، وقرأَ طلحة، والأعمش، وفرقة: [فَاكِهِينَ]، جَعَلَت الخبر في الظروف الذي هو قوله: ﴿فِى شُغُلٍ﴾، ونصبت [فَاكِهِينَ] على الحال.

قوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ﴾، ﴿هُمْ﴾ ابتداءٌ، ﴿وَأَزْواجُهُمْ﴾ معطوف عليه، ﴿فِى ظِلَـٰلٍ﴾ خبره، ويحتمل أن يكون (هُمْ) بدلاً من قوله: ﴿فَاكِهُونَ﴾، ويكون قوله: ﴿فِى ظِلَـٰلٍ﴾ في موضع الحال، كأَنه قال: مُسْتَظِلِّينَ. وقرأَ الجمهور: ﴿ظِلاَلٍ﴾، وهو جمع (ظِلٍّ)؛ إذ الجنة لا شمس فيها، وإنما هواؤُها سَجْسَجٌ[١] كوقت الإسفار قبل طلوع الشمس، ويحتمل أن يكون جمع (ظُلَّة)، قال أَبو عليٍّ: كَبُرْمة وبِرَام، وغير ذلك، وقال منذر بن سعيد: ظِلاَلٌ: جمع ظِلَّة بكسر الظَّاءِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهي لغة في ظُلَّة. وقرأَ حمزة، والكسائي: [في ظلل]، وهي جمع ظُلَّة، وهي قراءَة عبد الله، وطلحة، وأَبي عبد الرحمن، وهذه عبارة عن الملابس والمراتب من الحجال والستور ونحوها من الأَشياءِ التي تُظِلُّ وهي زينة.

و﴿الأَرَائِكُ﴾: السُّرُرُ المفروشة، قال بعض الناس: من شروطها أن تكون عليها حَجَلَةٌ[٢] وإلاَّ فليست بأَريكة، وبذلك قيَّدها ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وعكرمة، وقال بعضهم: الأَريكة: السَّريرُ كان عليه حَجَلَة أَو لم تكن.

وقوله: ﴿مَّا يَدَّعُونَ﴾ بمنزلة: ما يتمنَّون، قال أَبو عبيدة: العرب تقول: «ادَّعِ عليَّ ما شئت»، بمعنى: تمنَّ عليَّ، وتقول: «فلانٌ فيما ادَّعى»، أَي: فيما دعا به؛ لأَنه افْتَعَل، من دعا يدعو، وأَصل هذا الفعل: يَدْتَعِيُون، نُقلت حركة الياءِ إِلى العيْن قبلها، وحذفت الياءُ لاجتماعها مع الواو الساكنة، فبقي يَدْتَعُون، قلبت التاءُ دالاً وأُدغمت في الأُخرى، وخُصَّت الدالُ بالبقاءِ دون التاءِ لأَنها حرف جلد والتاءُ حرف همس، قال

---

(١) يقال: يومٌ سَجْسَجٌ، أي: لا حرَّ فيه ولا برد، وهواءٌ سَجْسَجٌ: معتدلٌ طيب، وكلام ابن عطية بعد الكلمة يفسِّر معناها.

(٢) الحَجَلَةُ: ساتر كالقبة يزيَّن بالثياب والستور للعروس.

الرماني: المعنى: إن من ادَّعى شيئاً فهو له: لأَنه قد هذَّبت طباعهم فهم لا يدعون إلاَّ ما يحسنُ منهم.

قوله: (سَلاَمٌ)، قيل: هي صفة لـ(مَا)، أَي: مُسَلَّم لهم وخالصٌ[(١)]، وقيل: هو ابتداءٌ[(٢)]، وقيل: خبر ابتداءٍ[(٣)]، وقرأَ ابن مسعود، وعيسى الثقفيُّ، وأُبيُّ بن كعب، والغنوي: [سَلاَماً] بالنصب على المصدر، وقرأَ محمد بن كعب القرظي: [سِلْمٌ] وهو بمعنى (سلام). و(قَوْلاً) نصب على المصدر.

وقوله تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ الآية، فيه حذف تقديره: ويقول للكفرة، وهذه معادلة لقوله تعالى لأَصحاب الجنة: ﴿سَلَامٌ﴾. و﴿امْتَازُوا﴾ معناها: انفصلوا وانحجزوا؛ لأَن العالم في الموقف إنما هم مختلطون. ثم خاطبهم بما يميزون به توبيخاً لهم وتوقيفاً على عهده إليهم ومخالفتهم عهده. وقرأَ الجمهور: ﴿أَعْهَدْ﴾ بفتح الهاءِ، وقرأَ الهُذَلِيُّ، وابن وثَّاب: [أَلم اعهد] بكسر الميم والهمزة وفتح الهاءِ، وهي على لغة من يكسر أَول المضارع سوى الياءِ، وروي عن ابن وثَّاب [اعْهِدْ] بكسر الهاءِ، ويقال: عَهِد وعَهَد. و«عبادة الشيطان»: طاعتُه والانقياد لأَعوانه. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والكسائي: [وأَنُ اعْبُدُونِي] بضم النون من [أن]، وأَتْبَعُوا بِهَا ضمة الباءِ والدال وواو الجماعة أَيضاً[(٤)]. وقرأَ عاصم، وأَبو عمرٍو، وحمزة: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِي﴾ بكسر النون على أَصل الكسر للالتقاءِ. وقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ إشارةٌ إلى الشرائع، فمعنى

---

(١) قال أبو حيان في البحر: «ولا يصحُّ إن كانت (ما) بمعنى الذي: لأنها تكون إذْ ذاك معرفة، و(سَلامٌ) نكرة، ولا تنعت المعرفة بالنكرة، فإن كانت (ما) نكرة موصوفة جاز، إلا أنه لا يكون فيه عموم كحالها بمعنى الذي».

(٢) والخبر فعل مُقدَّر ناصبٌ لقوله: (قَوْلا)، والتقدير: سلامٌ يقالُ قولا من ربٍّ رحيم، أو يكون: عَلَيْكم محذوفاً، والتقدير: سلامٌ عليكم قولا من ربٍّ رحيم.

(٣) يرى الزمخشري أن: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا﴾ بدلٌ من ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾، كأنه قال لهم: سلامٌ يقال لهم قولا من جهة ربٍّ رحيم، والمعنى أن الله تعالى يسلم عليهم بوساطة، الملائكة أو بغير وساطة مبالغة في تعظيمهم، وذلك متمناهم، ولهم ذلك لا يُمنعونه.

قال أبو حيان: «وإذا كان (سَلامٌ) بدلاً من ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ كان ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ خصوصاً، والظاهر أنه عموم في كل ما يدَّعون، وإذا كان عموماً لم يكن (سَلامٌ) بدلا منه»، وقيل: (سَلامٌ) خبرٌ لـ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾، و﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ مبتدأً، والمعنى: ولهم ما يدَّعون سلامٌ خالص».

(٤) في بعض الأصول: اتباعاً بضمة الباءِ والدال، وهي أقرب، والأصح أن يقال: لأن الانتقال من الكسرة إلى الضم ثقيل، فضمت النون ليكون الانتقال منها إلى الضمِّ فيما بعدها سهلاً.

هذا أَن الله عهد إِلى بني آدم وقت إِخراج نسمهم من ظهره: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ وأَن تعبدوا الله، وقيل لهم: هذه الشرائع موجودة، وبعث آدم عليه السلام إِلى ذرِّيَّته، ولم تخل الأَرض من شريعة إِلى ختم الرسالة بمحمد ﷺ. و«الصِّراطُ»: الطريق، ويقال: إِنها دخيلة في كلام العرب وعرَّبَتْها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

هذه أَيضاً من المخاطبة للكفار على جهة التقريع.

و«الجِبِلُّ»: الأُمة العظيمة، قال النقاش عن الضحاك: أَقلُّها عشرة آلاف، ولا حدَّ لأَكثرها. وقرأَ نافع، وعاصم بكسر الجيم والباءِ وشدِّ اللام، وهي قراءَة أَبي جعفر، وشيبة، وأَهل المدينة، وأَبي رجاءٍ، والحسن ـ بخلاف عنه ـ، وقرأَ الأَشهب العقيلي بكسر الجيم وسكون الباءِ والتخفيف. وقرأَ الحسن، والزهري، والأَعرج بضم الجيم والباءِ والتَّشديد، وهي قراءَة ابن أَبي إِسحق، وعيسى، وابن وثَّاب، وقرأَ أَبو عمرٍو، وابن عامر، والهذيل بن شرحبيل بضم الجيم وسكون الباءِ[1] والتخفيف، «قرأَ ابن كثير، وحمزة، والكسائي: [جُبُلاً] بضم الجيم والباءِ والتخفيف»[2]، وذكر أَبو حاتم عن بعض الخراسانيِّين بكسر الجيم وبياءٍ بنقطتين ساكنة. وقرأَ الجمهور: ﴿تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ بالتَّاءِ، وقرأَ طلحة بالياءِ.

ثم وقفهم على جهنم التي كانوا يُوعدون فَيُكَذِّبُونَ، و(جَهَنَّم) أَوَّل طبقة من النار، و(اصْلَوْهَا) معناه: باشروها.

ثم أَخبر الله تبارك وتعالى محمداً ﷺ أَخباراً تشاركه فيها أُمَّتُه بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، أَي: في ذلك اليوم يكون ذلك. وروي في هذا المعنى أَن الله يجعل الكفرة يتخاصمون، فإِذا لم يأْتوا بشيءٍ تقوم لهم به حجة رجعوا إِلى الإِنكار فناكروا

---

(١) في الأصول: «بضم الجيم والباء والتخفيف»، والتصويب عن القرطبي والبحر المحيط، وعن كتب القراءات.

(٢) ما بين العلامتين «. . . . . .» سقط في أكثر النسخ.

الملائكة في الأَعمال، فعند ذلك يختم الله على أفواههم فلا ينطقون بحرف، ويأمر الله جوارحهم بالشهادة فتشهد(١)، وروى عقبة بن عامر أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن أَول ما يتكلم من الكافر فخذه اليسرى»(٢)، وقال أَبو سعيد الخدري: «اليمنى ثم سائر جوارحه»، ورُوِي أَن بعض الكفرة يقول يومئذ لجوارحه: «تبًّا لكِ وسُحْقاً، فعنك كنت أُماحك» ونحو هذا من المعنى، وقد اختلفت فيه أَلفاظ الرُّواة، وروى عبد الرحمن بن محمد بن طلحة عن أَبيه عن جده أَنه قرأَ: [وَلِتُكَلِّمَنا أَيْديهم ولِتَشْهَدَ أَرْجلهم] بزيادة لاَمِ (كي) النصب، وهي مخالفة لخط المصحف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

الضمير في (أَعْيُنِهِمْ) مُرادٌ به كفار قريش، ومعنى الآية يُبيِّن أَنهم في قبضة القدرة وبروج العذاب إِن شاءَهُ الله لهم، وقال الحسن وقتادة: أَراد الأَعين حقيقة، والمعنى:

---

(١) أخرج أحمد، ومسلم، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في (الأسماء والصفات)، وابن أبي الدنيا في التوبة، ـ واللفظ له ـ عن أنس رضي الله عنه في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، قال: كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، قال: أَتدرون ممَّ ضحكت؟ قلنا: لا يا رسول الله، قال: من مخاطبة العبد ربَّه، فيقول: يا ربِّ، أَلم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: إني لا أُجيز عليَّ إلا شاهداً مني، فيقول: كفى بنفسك عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيُختم على فيه ويقال لأركانه: انطقي فتنطق بأعماله، ثم يخلَّى بينه وبين الكلام فيقول: بُعْداً لكُنَّ وسُحْقاً، فعنكن كنتُ أناضل. وأخرج مسلم، والترمذي، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي سعيد، وأبي هريرة: قالا: قال رسول الله ﷺ: «يلقى العبد ربَّه فيقول: أَيْ ربِّ، فيقول: أَفظننتَ أَنَّك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أَنساك كما نسيتني، ثم يلقي الثاني فيقول مثل ذلك، ثم يلقي الثالث فيقول له مثل ذلك، فيقول: آمنتُ بك وبكتابك وبرسولك، وصلَّيت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ألا نبعث شاهدنا عليك؟ فيفكر في نفسه: من الذي يشهد عليَّ؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، ما كان ذلك يعذر من نفسه، وذلك بسخط الله عليه»، (الدر المنثور).

(٢) أخرجه أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، ولفظه كما في الدرِّ المنثور، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه، فخذه من الرِّجْل الشمال».

لأعميناهم فلا يَرَوْن كيف يمشون، ويؤيد هذا محاسبة المسخ الحقيقي، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَراد أَعين البصائر، والمعنى: ولو شئنا لختمنا عليهم بالكفر فلم يهتد منهم أَحد. و«الطَّمْسُ» إذْهَابُ الآثار من المشي والهيئات حتى كأَنه لم يكن، أَي: جعلنا جلود وجوههم متصلة حتى كأَن لم يكن فيها أَعين قط.

قوله: ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ معناه: على الفرض، والتقدير: فإنَّا لو شئنا لأعميناهم فاحسبْ أَو قدِّرْ أَنهم يستبقون الصِّراط، أَي: الطريق، فأَنَّى لهم بالإبصار وقد أَعميناهم؟ و(أَنَّى) لفظة استفهام فيه مبالغة، قدَّره سيبويه: كيف؟ ومن أَين؟

و[مَسَخْنَاهُمْ] تقديره: تبديل خِلْقَتِهم لتصير كالقردة والخنازير ونحو مما تقدم في بني إسرائيل وغيرهم، وقال الحسن، وقتادة، وجماعة من المفسرين: معناه: لجعلناهم مقعدين مبطولين لا يستطيعون تصرفاً، وقال ابن سلام: هذا التوعُّد كلُّه يوم القيامة. وقرأَض الجمهور: (مَكَانَتِهِمْ) بالإفراد، بمعنى المكان، كما يقال: دارٌ ودارةٌ، وقرأَ عاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ [مَكَانَاتِهِمْ] جمعاً، وهي قراءَة الحسن، وابن أَبي إسحق. وقرأَ الجمهور: (مُضِيًّا) بضم الميم، وفتَحَهَا أَبو حيْوَة.

ثم بيَّن تعالى دليلاً في تنكيسه المعمَّرين، وأَن ذلك ما يفعله إلاَّ الله، وقرأَ الجمهور: [نَنْكُسُهُ] بفتح النون الأُولى وسكون الثانية وضم الكاف خفيفة، وقرأَ عاصم ـ بخلاف عنه ـ وحمزة بضم الأُولى وفتح الثانية وكسر الكاف مُشَدَّدَة على المبالغة، وأَنكرها أَبو عمرٍو على الأَعمش. ومعنى الآية: نُحَوِّل خَلْقه من القوة إلى الضعف، ومن الفهم إلى البَلَه، ونحو ذلك. وقرأَ نافع، وأَبو عمرٍو ـ وفي روايةٍ: عباسٌ ـ: [تَعْقِلُونَ] بالتاءِ، على معنى: قل لهم، وقرأَ الباقون بالياءِ على ذكر الغائب.

ثم أَخبر تعالى عن حال نَبيِّه ﷺ، وردَّ قول من قال من الكفرة: إنه شاعر، وإن القرآن شعر بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾، ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يقول الشِّعر ولا يرويه ولا يَزِنُه، وكان إذا حاول إنشاء بيت قديم متمثِّلاً كسر وزنه، وإنما كان يُحرزُ المعاني فقط، من ذلك أَنه أَنشد يوماً بيت طرفة:

سَتُبْدي لكَ الأَيَّامُ ما كُنتَ جاهِلاً ... ويَأْتيكَ مَنْ لم تُزَوِّدْ بالأَخْبارِ[1]

---

(١) والبيت في وزنه الصحيح:

سَتُبْـدي لـكَ الأيَّـامُ مـا كُنْـتَ جَـاهِـلا ... ويَـأتِيـكَ بـالأخبَـارِ مَـنْ لَـمْ تُـزَوِّدِ

وأَنْشَدَ يوماً ـ وقد قيل له: من أَشعر الناس؟ ـ فقال: الذي يقول:

أَلَـمْ تَـرَيَـانِـي كُلَّمَـا جِئْـتُ طَـارِقـاً وَجَدْتُ بها وإِنْ لَمْ تَطَيَّبْ طِيباً؟[١]

وأَنشد يوماً:

أَتَجْعَــلُ نَهْبِــي ونَهْــبَ الْعَبِيــــدِ بَيْــنَ الأَقْــرَعِ وعُيَيْنَــةَ؟[٢]

وقد كان عليه الصلاة والسلام ربما أَنشد البيت المستقيم في النادر، رُوي أَنه أَنشد بيت ابن رواحة:

يَبِيــتُ يُجَـافـي جَنْبَـهُ عَـنْ فِـرَاشِـهِ إِذا اسْتَثْقَلَت بالمشْرِكين المضَاجِعُ[٣]

وقال الحسن بن أَبي الحسن: أَنشد النبي عليه الصلاة والسلام:

. . . . كَفَى بالإِسْلام والشَّيْبِ للمرءِ نَاهِياً

فقال أَبو بكر وعمر رضي الله عنهما: نشهد أَنك رسول الله، إنما قال الشاعر:

. . . . كَفَى الشَّيْبُ والإِسْلاَمُ للمَرْءِ ناهِيَا[٤]

رواه الثعلبي: وإِصابته الوزن أَحيانا لا توجب أَنه تعلم الشعر، ورُوي أَنه عليه الصلاة والسلام أَتى في نثر كلامه أَحياناً ما يدخل في وزن، كقوله يوم حُنين:

«أَنَــا النَّبِــيُّ لا كَــذِبْ أَنَــا ابْــنُ عَبْــدِ الْمُطَّلِــبْ»[٥]

---

(١) والبيت في وزنه:

أَلَـمْ تَـرَيَـانِـي كُلَّمَـا جِئْـتُ طَـارِقـاً وَجَـدْتُ بهـا طِيبـاً وإن لَـمْ تَطَيَّـبِ

(٢) وصحة البيت:

أَتجعَــلُ نَهْبِــي ونَهْــبَ الْعَبِيــد بَيْــنَ عُيَيْنَــةَ والأقــرَعِ؟

(٣) جَفَا الجَنْبُ عن الفراش: نَبَا وبَعُد ولم يطمئن عليه، وجافَيْتُه فتجافَى. والمعنى أنه يترك فراشه وينهض للعبادة إذا أحب المشركون دفْءَ الفراش ولزموا مضاجعهم، والبيت لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه.

(٤) البيت لسحيم عبد بني الحَسْحَاس، وهو بتمامه:

عُمَيْــرَةَ وَدِّعْ إنْ تَجَهَّــزْتَ غَــادِيَــا كَفَـى الشَّيْـبُ والإسْلامُ لِلْمَـرْءِ نَـاهِيـاً

(٥) قال أبو الحسن الأخفش: «هذا ليس بشعر»، وقال الخليل في كتاب العين: «إن ما جاءَ من السجع على جزأين لا يكون شعرا»، ورُوي عنه أن هذا من مَنْهوك الرَّجز، وقد قيل: إنه لايكون من منهوك الرَّجز إلا بالوقوف على الباءِ في (كَذِبْ)، و(عبد المطلبْ). ولا يعرف أحد كيف نَطَقَه النبيُّ ﷺ، ومن رأي ابن العربي أنه نطقه بالباءِ المرفوعة، وقال النحاس: قال بعضهم: إنما الرواية بالإعراب. ومثل هذا =

وكذلك يأتي في آيات القرآن الكريم[١] وفي كل كلام، وليس ذلك بشعر ولا في معناه.

وهذه الآية تقتضي ـ عندي ـ غضاضة على الشِّعر ولا بدّ، ويؤيد هذا قولُ عائشة رضي الله عنها: كان الشعر أَبغض الحديث إِلى رسول الله ﷺ، وكان يتمثل بشعر أَخي قيس طرفة فيعكسه، فقال له أَبو بكر رضي الله عنه: ليس هكذا، فقال: «ما أَنا بشاعر ولا ينبغي لي»[٢]، وقد ذهب قوم إِلى أَن الشعر لا غضَّ عليه، وإِنما منعه من التَّحَلِّي بهذه الحلية الرفيعة ليجيءَ القرآن من قِبَلِهِ أَغرب، فإِنه لو كان له إِدراك الشِّعر لقيل في القرآن: هذا من تلك القوة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس الأمر عندي كذلك، وقد كان عليه الصلاة والسلام من الفصاحة والبيان في النثر في الرُّتبة العليا، ولكن كلام الله تبارك وتعالى يبين بإِعجازه، ويبْرُز برصْفه، ويُخرجه إِحاطة علم الله عن كل كلام، وإِنما منع الله نبيَّه ﷺ من الشِّعر ترفيعاً له عمَّا في قول الشعراءِ من التَّخيل وتزويق الكلام، وأَما القرآن فهو ذكر الحقائق والبراهين، فما هو بقول شاعر، وهكذا كان أُسلوب كلامه عليه الصلاة والسلام؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، والشِّعر نازل الرتبة عن هذا كله.

والضمير في (عَلَّمْنَاهُ) عائد على محمد ﷺ قولاً واحداً، والضمير في (لَهُ) يحتمل أَن يعود على محمد ﷺ، أو يعود على القرآن الكريم، وإِن كان لم يذكر لدلالة المجاورة عليه، ويُبَيِّن ذلك قولُه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.

= قوله ﷺ أيضاً:

هَـلْ أَنْـتِ إلا إصْبَـعٌ دَمِيـتِ ... وفـي سَبِيـلِ الله مَـا لَقِيـتِ»

ولا يكون شعراً إلا بكسر التاء من (دَمِيتِ) ومن (لَقِيتِ)، فإن سكنت لا يكون شعراً

(١) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وقوله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وعَبْد بن حَميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة رضي الله عنه، قال: بلغني أنه قيل لعائشة رضي الله عنها: هل كان رسول الله ﷺ يتمثّل بشيءٍ من الشعر. قالت: كان أبغض الحديث إليه، غير أنه كان يتمثّل ببيت أَخي بني قيس، يجعل آخره أَوّله وأَوّله آخره، ويقول: «ويأتيك من لم تُزَوِّد بالأخبار»، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: ليس هكذا، فقال رسول الله ﷺ: «إنِّي والله ما أنا بشاعرٍ ولا يَنْبَغِي لي».

وقرأ نافع، وابن عامر: [لِتُنْذِرَ] بالتَّاءِ على مخاطبة محمد ﷺ، وقرأ الباقون بالياءِ، أَي: لِيُنْذِرَ القرآن، أو لِيُنْذِرَ محمدٌ ﷺ، واللام متعلقة بـ(مُبِينٌ)، وقرأ محمد اليماني: [لِيُنْذَرَ] على الفعلِ المجهول، قال أَبو حاتم: ولو قرئ بفتح الياءِ والذَّال ـ أي: ليتحفظ ويأخذ بحظِّه ـ لكان جائزاً، وحكاها أَبو عمرٍو الدَّانيُّ عن محمد اليماني[1].

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ أَي: حيَّ القلب والبصيرة، ولم يكن ميتاً لكفره، وهذه استعارة، قال الضحاك: ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ معناه: عاقلاً، ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ معناه: يتحتَّم العذاب ويجب الخلود، وهذا كقوله تعالى: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

هذه مخاطبة في أَمر قريش وإِعراضها عن الشَّرع وعبادتها الأَصنام، فَنَبَّهَهُم الله تعالى في هذه الآية على إِنعامه عليهم بِبَهيمة الأَنعام. وقوله: (أَيْدِينَا) عبارة عن القدرة، عبَّر عنها بـ(يَد) وبـ(يَدَيْن) وبـ(أَيْد)[3]، وذلك من حيث كان البشر إِنما يفهمون[4] القدرة والبطش باليد، فعبَّر لهم بالجهة التي اقتربت من أَفهامهم، واللهُ تبارك وتعالى مُنَزَّهٌ عن الجارحة والتَّشبيه كُلِّه. وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ تنبيه على النِّعمة في أَن هذه الأَنعام ليست بعاتية ولا مُبْتَزَّة[5]، بل تُقتنى وتقرب منافعها.

وقوله: (ذَلَّلْنَاهَا) معناه: سخَّرناها ذليلةً، و«الرَّكُوبُ» المركوب، وهو فَعُولٌ

---

(١) قراءة: (لِيَنْذَرَ) بفتح الياءِ والذَّال هي قراءَة أَبي السمال وابن السَّمَيْقَع أيضاً. وهي مضارع (نَذِرَ) بكسر الذال إذا علم بالشيءِ فاستعدَّ له.

(٢) من الآية (٧١) من سورة (الزُّمَر).

(٣) أما التعبير باليد ففي قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، وأما التعبير باليَدَيْن ففي قوله سبحانه: ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾، وأما التعبير بالأيدي ففي آيتنا التي هي موضع التفسير.

(٤) في بعض النسخ: (يقيمون) بدلا من (يفهمون).

(٥) يريد أنها ليست مأخوذة بالقهر والجفاءِ، من قولهم: بَزَّ الشَّيْءَ: نزعه وأَخذه بجفاءٍ وقَهْر.

بمعنى: مَفْعُول، وليس إلاَّ في أَلفاظ محصورة، كالرَّكُوب، والحَلُوب، والقَدُوع[١].
وقرأ الجمهور: (رَكُوبُهُمْ) بفتح الراءِ، وقرأ بضمها الحسن، والأَعمش، وقرأ أُبَيُّ بن كعب، وعائشة رضي الله عنها: [رَكُوبَتُهُمْ][٢]. و«الْمَنَافِعُ» إشارة إِلى الأَصواف والأَوبار وغيرها، و«الْمَشَارِبُ»: الأَلبانُ.

ثم عنَّفهم في اتخاذ الآلهة طَلَباً للاستنصار بها والتعاضد، ثم أَخبر أَنهم لا يستطيعون، ويحتمل أَن يكون الضمير فيه للكفار[٣]، وفي (نَصْرَهُمْ) للأَصنام، ويحتمل عكس ذلك لأَنهما صحيحان في المعنى.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ﴾ يحتمل أَن يكون الضمير الأَول للكفار والثاني للأَصنام، على معنى: وهؤلاءِ الكفار مُجَنَّدون مُتَحَزِّبون لهذه الأَصنام في الدنيا، لكنهم لا يَسْتطيعون التناصر مع ذلك، ويحتمل العكس، أَي: يحضرون لهم في الآخرة عند الحساب، على معنى التوبيخ والنقمة[٤]، وسمَّاهم جُنْداً في هذا التأويل إِذ هم عُدَّة للنقمة منهم وتوبيخهم، وجرت ضمائر الأَصنام في هذه مجرى من يعقل إِذْ أُنزلتْ في عبادتها منزلة عقل، فعوملت في العبارة بذلك.

ثم آنس نَبيَّه ﷺ بقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾، وتوعَّد الكفار بقوله: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

---

(١) الرَّكُوب: المركوب، والحَلُوب: المحلوب، والقَدُوع ـ من النساء ـ التي تأنف كل شيءٍ، ومن الخيل: المحتاج إِلى القَدْع ليكف عن بعض جريه، والقَدْعُ: الكَفُّ بالقوة عن الشيءِ، يقال: قَدَع الفَحْلَ: ضربه على أنفه بشيءٍ ليرتد.

(٢) قراءة (رُكُوبُهُم) بضم الراءِ فيها حذف مضاف، تقديره: «فيها ذُو رُكُوبهم»، وذو الرُّكُوب هنا هو المركوب، فتصبح في المعنى مثل قراءَة الفتح في الراءِ. وأما قراءَة: (ركُوبَتُهُم) فمعناها: مركوبتهم، مثل: القَتُوبة، والجَزُوزَة، والحَلُوبة، أي: ما يُقتَب، ويُجَزُّ، ويُحْلَب، قال ذلك أبو الفتح بن جني في كتاب المحتَسَب.

(٣) أي: في قوله تعالى: (يَسْتَطِيعُونَ)، ويكون المعنى: لا يستطيع الكفارُ نصر الأصنام. والمعنى في العكس: لا تستطيع الأصنام نصر الكفار. والحقيقة أن كلا منهما عاجز عن نصر الثاني.

(٤) ثبت في صحيح مسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي الترمذي عنه أن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد، ثم يطلع عليهم ربُّ العالمين، فيقول: ألا لِيَتَّبع كل إنسان ما كان يعبد، فيُمَثَّل لصاحب الصليب صليبه، ولصاحب التصاوير تصاويره، ولصاحب النار ناره، فيتَّبعون ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون. . . » والحديث طويل. راجعه في صحيح مسلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

قال ابن جُبَيْر: هذه الآيات نزلت بسبب أن العاص بن وائل السهمي جاءَ إلى النبي ﷺ بِعَظْم رميم، فَفَتَّه وقال: يا محمد، من يُحْيي هذا؟ وقال مجاهد وقتادة: إن الذي جاءَ بالعظم النَّخر أُمَيَّة بن خلف، وقاله الحسن، وذكره الرماني، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهو وَهْم مِمَّن نسبه إلى ابن عباس رضي الله عنهما؛ لأن السُّورة مكيَّة، والآية مكيَّة بإجماع، ولأن عبد الله بن أُبَيٍّ لم يجاهر قطُّ هذه المجاهرة، واسم (أُبَيٍّ) هو الذي خلط على الرواة؛ لأن الصحيح هو ما رواه ابن وهب عن مالك، وقاله ابن إسحق وغيره: إنَّ أُبيَّ بن خلف أخا أُميَّة بن خلف هو الذي جاءَ بالعظم الرميم بمكَّة ففتَّه في وجه النبي ﷺ، وقال: من يُحيي هذا يا محمد؟ ولأُبيٍّ هذا مَعَ النبي ﷺ مقامات ومقالات إلى أن قتله بيده يوم أُحد بالحربة بجرح في عنقه، ورُوي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال له حين فتَّ العظم: «الله يُحْييك ويُحييه ويُدخلك جهنم»[1]. ثم نزلت الآيات مُبيِّنَة الحجة في أن الإنسان نطفة ثم يكون بعد ذلك خصيماً مبيناً، فهل هذا إلاَّ إحياءٌ بعد موت وعدم حياة؟

وقوله: (وَنَسِيَ) يحتمل أن يكون نسيان الذهول، ويحتمل أن يكون نسيان الترك، و«الرَّميمُ»: البالي المُفتَّت، وهو الرفات.

---

(١) أخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والبيهقي في البعث، عن أبي مالك، قال: جاءَ أُبَيُّ بن خلف بعظم نخرة فجعل يَفُتُّه بين يدي النبي ﷺ، قال: من يُحْيي العظام وهي رميم؟ فأنزل الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. وأخرج مِثْله عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة رضي الله عنه، وأخرج ابن أبي حاتم مثْله عن السدي رضي الله عنه، وكذلك أخرج عن عكرمة مثْله، وأخرج أيضاً ابن مردويه مثله عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه أَنَّ النبي ﷺ قال: «يبعث الله هذا ويُميتك ثم يدخلك جهنم». (الدر المنثور).

ثم دَلَّهم تبارك وتعالى على الاعتبار بالنشأة الأولى، ثم عقَّب ذلك بدليل ثالث في إيجاد النار في العود الأخضر المرتوي ماءً، وهذا هو زناد العرب، والنار موجودة في كل عود غير أنها في المتخلخل المفتوح المسامِّ أَوْجد، وذلك هو المرْخُ والعَفَار(١)، وأَعاد الضمير على الشجر مُذَكَّراً من حيث راعى اللفظ فجاءَ كالتَّمر والحصى غيره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

هذا تقرير وتوقيف على أَمرٍ تدل صحتُه على جواز بعث الأَجساد من القبور وإِعادة الموتى.

وجَمَعَ الضمير جَمْع من يعقل في قوله سبحانه: (مِثْلَهُمْ) من حيث كانتا متضمنتين مَنْ يعقل من الملائكة والثقلين. هذا تأْويل جماعة من المفسرين، وقال الرماني وغيره: الضمير عائد على الناس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهم مثال للبعث، وتكون الآية نظير قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾(٢)، وقرأَ سَلاَّم أَبُو الْمُنْذِرِ، وابن أَبي إِسحق، ويعقوب، والأَعرج: [يَقْدِرُ] على الاستقبال، وقرأَ الجمهور: (بِقَادِرٍ) على اسم الفاعل، وقرأَ الجمهور: (الْخَلاَّقُ)، وقرأَ الحسن: [الْخَالِقُ].

ورفع (فَيَكُونُ) على معنى: فهو يكون، وهي قراءَة الجمهور، وقرأَ ابن عباس، والكسائي: [فَيَكُونَ] بالنصب، قال أَبو عليٍّ: لا ينصب الكسائي إِذا لم يتقدم (أَن)، ونصب ابن عامر وإِن لم تتقدم (أَن)، والنصب هنا قراءَة ابن محيصن. وقوله تعالى:

---

(١) المَرْخُ: شجر من العضاه من الفصيلة العشارية ينفرش ويطول في السماء، ليس له ورق ولا شوك، سريع الوَرْي يُقْتدح به. والعَفَار: شجرة من الفصيلة الأريكية لها ثمر لُبِّيٌّ أحمر ويتخذ منها الزناد فيسرع الوَرْيَ وفي أمثالهم: «في كل شجر نار، واستمجد المرْخ والعَفَار».

(٢) من الآية (٥٧) من سورة (غافر).

(كُنْ) أَمْرٌ للشيءِ الْمُخْتَرَع عند تعلُّق القدرة به لا قبل ذلك ولا بعده، وإنما يؤمر تأكيداً للقدرة وإِشارة بها(١)، وهي أَوامر دون حروف وأَصوات، بل من الكلام القائم بالذات.

ثمَّ نزَّه الله تبارك وتعالى نفسه تنزيهاً عامًّا مطلقاً، وقرأَ الجمهور: (مَلَكُوتُ)(٢)، وقرأَ الأَعمش، والتَّيمي: [مَلَكَةُ](٣) ومعناه: ضبْطُ كلِّ شيءٍ والقدرة عليه.

كمل تفسير سورة يٓس والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) هكذا في الأصول، ولعل الصواب: «وإشادة بها».

(٢) المَلَكُوت فَعَلُوت من المُلْك، زادوا الواو والتاءَ للمبالغة بزيادة اللفظ، ولا يُطلق المكلوت إلا على الأمر العظيم، ونظيره: الجَبَرُوت، والرَّغَبُوت، والرَّهَبُوت.

(٣) وقرىء أيضاً: «مَمْلَكَة» على وزن مفعلة، وقرىء: «مُلْك».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الصافات

هي مكِّيَّة، وعددها في المدني والشامي والكوفي مائة آية وآيتان وثمانون آية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾.

أَقسم الله تعالى في هذه الآيات بأَشياءَ من مخلوقاته، واختلف الناس في معناها ـ فقال ابن مسعود، ومسروق، وقتادة: هي الملائكة التي تصفّ في السماءِ في عبادة الله تعالى وذِكْره صفوفاً، وقالت فرقة: أَراد كل من يصف من بني آدم في قتال في سبيل الله، أَو في صلاة وطاعة، والتقدير: والجماعات الصَّافات، واللفظ يحتمل أَن يعم جميع هذه المذكورات.

و«الزَّاجِرات زجْراً»، قال مجاهد، والسدي: الملائكة التي تزجر السحاب وغيره من مخلوقات الله، وقال قتادة: هي آيات القرآن المتضمنة النواهي الشرعية.

وقوله: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ معناه: القارئات، وقال مجاهد، والسدي: أَراد الملائكة التي تتلو ذكره، وقال قتادة: أَراد بني آدم الذين يتلون كُتبه المنزَّلة، وتسبيحه وتكبيره، ونحو ذلك.

وقرأَ أَبو عمرٍو، وحمزة: [والصَّافَّات صَّفًّا] بالإِدغام[1]، وهي قراءَة ابن مسعود،

(١) أي: بإدغام التاء في الصاد من (صَفّاً)، وكذلك في الزَّاي من (زَجْراً)، والذَّال من (ذِكْراً)، وقد نفر الإمام أحمد بن حنبل من هذه القراءة حين سمعها، وقال النحاس: «هي بعيدة عن العربية من ثلاث جهات: أُولاها أن التَّاءَ ليست من مخرج الصاد، ولا من مخرج الزاي، ولا من مخرج الذال، ولا من أخواتهن، والثانية أن التاء في كلمة وما بعدها في كلمة أخرى، والثالثة أنك عند الإدغام تجمع بين ساكنين من كلمتين، وإنما يجوز الجمع بين ساكنين إذا كانا في كلمة واحدة نحو دابّة وشابّة».

ومسروق، والأعمش. وقرأ الباقون وجمهور الناس بالإظهار، وكذلك في كُلِّها، قال أَبو حاتم: «والإظهار اختيارنا»، وأَمَّا «الْحَامِلاتِ وِقْراً» و«الجاريات يُسْراً»[١] فلا يجوز فيهما الإدغام لِبُعْد التاءِ من الحرفين[٢].

ثم بيَّن تعالى المَقْسَمَ عليه أنه توحيده، وأَنَّه واحد، أَي: مُتَّحد من جميع الجهات التي ينظر فيها المفكر. ثم وصف تعالى نفسه بِرُبُوبيَّته جميع المخلوقات، وذكر «المَشَارِقَ» لأَنها مطالع الأَنوار، والعيون بها أَكلف، وفي ذِكْرها غُنْية عن ذِكر المغَارب؛ إذ مُعَادَلتُهَا لها مفهومة عند كل ذي لُبٍّ، وأَراد تبارك وتعالى مشارق الشمس وهي مائة وثمانون في السَّنة فيما يزعمون، من أَطول أَيام السَّنة إِلى أَقصرها، ثم أَخبر عن قدرته بتَزيين السماءِ بالكواكب، وانتظم في ذلك التَّزيين أَن جعلها حفظاً وحِرْزاً من الشياطين المردة، وهم مسترقو السمع.

وقرأَ الجمهور بإِضافة «الزِّينَةِ» إِلى «الكواكب»، وقرأَ حمزة، وحفصٌ عن عاصم بتنوين (زِينَةٍ) وخَفض (الْكَوَاكِبِ) على البدل منها، وهي قراءَة ابن مسعود، ومسروق ـ بخلاف عنه ـ وأَبي زُرْعَة بن عمرو بن جرير[٣]، وابن وثاب، وطلحة. وقرأَ أَبو بكر عن عاصم: (بِزِينَةٍ) بالتنوين [الْكَوَاكِبَ] بالنصب، وهي قراءَة ابن وثاب، وأَبي عمرٍو، والأَعمش، ومسروق، وهذا في الإِعراب نحو قوله تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا﴾[٤]، وحكى الزهراوي قراءَةً بتنوين: (زِينَةٍ) ورفع [الْكَوَاكِب][٥].

و«الْمَارِدُ»: المتجرِّد للشرّ، ومنه: شجرة مرداءُ، أَي: لا ورق عليها، ومنه: الأَمْرَدُ. وخصَّ تعالى السماءَ الدنيا بالذكر لأَنها التي تُباشرها أَبصارنا، وأَيضاً فالحفظ

---

(١) من قوله تعالى في أول سورة الذاريات: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾.

(٢) أي بُعْد التَّاء من الواو في (وِقْراً)، ومن الياءِ في (يُسْراً).

(٣) هو أبو زُرْعة ـ بضم الزَّاي وسكون الرَّاء ـ بن عمرو بن جبير بن عبد الله البجلي الكوفي، قيل: اسمه حرم، وقيل: عمرو، وقيل: عبد الله، وقيل: عبد الرحمن، وقيل: جرير، ثقة، من الثالثة. (تقريب التهذيب).

(٤) الآية (١٤)، وجزءٌ من الآية (١٥) من سورة (البلد).

(٥) هي قراءة زيد بن عليٍّ، وتخرج على أن [الكواكب] خبر مبتدأ، والتقدير: هي الكواكب، أو على أن [الكواكب] فاعل بالمصدر الذي هو [زِينَة]، وإن كان هناك خلاف بين علماء النحو في جواز رفع الفاعل بالمصدر المنون.

من الشياطين إنما هو فيها وحدها. و(حِفْظاً) نصب على المصدر، وقيلَ: مفعول من أَجله، والواو زائدة(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾.

«الْمَلأُ الأَعْلَى»: أَهل السماءِ الدنيا فما فوقها، وسمِّيَ الكلَّ منهم «أَعْلَى» بالإِضافة إِلى مَلإِ الأَرض الذي هو أَسفل، والضمير في (يَسَّمَّعُونَ) للشياطين. وقرأَ جمهور القراءِ والناس: [يَسْمَعُونَ] بسكون السِّين وتخفيف الميم، وقرأَ حمزة، وعاصم ـ في رواية حفص ـ وابن عباس ـ بخلاف عنه ـ وابن وثاب، وعبد الله بن مسلم، وطلحة، والأَعمش: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾ بشدِّ السِّين والميم، بمعنى: لا يتسمعون، فينتَفي على القراءَة الأُولى سماعُهم وإِن كانوا يَتَسَمَّعون، وهو المعنى الصحيح، ويعضده قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾(٢)، ويَنْتَفي على القراءَة الأَخيرة أَن يقع منهم استماعٌ أَو سماعٌ، وظاهر الأَحاديث أَنهم يستمعون حتى الآن لكن لا يسمعون، وإِنْ سمع أَحدٌ منهم شيئاً لم يفلت(٣) قبل أَن يلقي ذلك السمع إِلى الذي يجيؤه؛ لأَن من وقت محمد عليه الصلاة والسلام مُلِئَت السماءُ حرساً شديداً وشُهُباً، وكان الرجم في الجاهلية أخف، ورُوي في هذا المعنى أَحاديث صحاحٌ مُضَمَّنُهَا أَن الشياطين كانت تصعد إِلى السماءِ فتقعد للسمع واحداً فوق آخر، يتقدم الأَجْسَرُ نحو السماءِ، ثم الذي يَلِيه، ثم الذي يَلِيه، فيقضي الله تعالى الأَمر من الأمور في الأَرض فيتحدث به أَهل السماءِ، فيسمعه منهم ذلك الشيطان الأَدْنى، فيلقيه إِلى الذي تحته، فربما أَحرقه شهاب وقد أَلْقى الكلام، وربما لم تحرقه جملة، فتنزل تلك الكلمة إِلى الكُهَّان فيكذبون معها مائة كذبة، فتصدق تلك الكلمة، فيصدق الجاهلون الجميع، فلما جاءَ الله بالإِسلام حُرِسَت السماءُ بشدة فلا يُفْلت شيطان سمع بَتَّةً(٤)، ويروى أَنها لا تسمع الآن شيئاً.

---

(١) إذا نصبت [حِفْظاً] على المصدر كان التقدير: وحفظناها حِفْظاً، وإذا نصبت على المفعول من أجله كانت الواو زائدة كما قال ابن عطية، أو كان ذلك على تأخير العامل والتقدير: ولِحِفْظِهَا زَيَّنَّاهَا بالكواكب.

(٢) من الآية (٢١٢) من سورة (الشعراء).

(٣) في بعض النسخ: «لم يُفلت الشهاب».

(٤) أخرج البخاري في تفسير سورة (الحِجْر)، عن أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ، قال: «إذا=

والكواكب الراجمةُ هي التي يراها الناس تَنْقَضُّ، قال النقاش، ومكي: وليست بالكواكب الجارية في السماءِ، لأَن تلك لا تُرى حركتها، وهذه الراجمة تُرى حركتها لأَنها قريبة منَّا، وفي هذا نظر. و﴿يُقْذَفونَ﴾ معناه: يُرْجمون.

و«الدُّحُورُ»: الإصغار والإهانة؛ لأن الزَّجْرَ الدفعُ بعنف، قال مجاهد: مَطْرُودين. وقرأَ الجمهور بضم الدال، وقرأَ أَبو عبد الرحمن السُّلَمي: [دَحُوراً] بفتح الدال[1]، و«الْوَاصِبُ»: الدائم، قاله مجاهد، وقتادة، وعكرمة. وقال السدي، وأَبو صالح: الواصِبُ: الْمُوجع، ومنه: الوصب، والمعنى: هذه الحال الغالبة على جميع الشياطين، إلاَّ من شذَّ فخطف خبراً أَونباً فأَتْبعه شهابٌ فأَحرقه.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿خَطِفَ﴾ بفتح الخاءِ وكسر الطاءِ خفيفة، وقرأَ الحسن، وقتادة: [خِطِّفَ] بكسر الخاءِ والطَّاءِ وتشديد الطاءِ، قال أَبو حاتم: يقال: هي لغة بكر بن وائل، وتميم بن مرة، ورُوِي عن ابن عباس رضي الله عنهما بكسر الخاءِ والطَّاءِ مخففة. و«الثَّاقِبُ»: النافذ بضوئه وشعاعه المنير، قاله قتادة، والسدي، وابن زيد، و«حَسَبٌ ثاقب» إذا كان سنيًّا منيراً.

= قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان، قال عليٌّ وقال غيره: صفوانٍ يَنفُذُهم ذلك، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال رَبُّكم؟ قالوا للذي قال: الحقَّ وهو العليُّ الكبير، فيسمعها مُسْترقو السمع، ومُسْترقو السمع هكذا، واحد فوق آخر ـ وَوَصَفَ سفيان بيده، وفرَّج بين أصابع يده اليمنى، صبها بعضها فوق بعض ـ فربما أدرك الشهابُ المستمعَ قبل أن يَرْمِي بها إلى صاحبه فيُحْرِقَهُ، وربما لم يدركه حتى يرمِيَ بها إلى الذي يليه،إلى الذي هو أسفل منه، حتى يُلقوها إلى الأرض، وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض، فتلقى على فم الساحر، فيكذب معها مائة كذبة فيصدق، فيقولون: ألَم يُخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقّاً للكلمة التي سمعت من السماء».

(١) قال أبو الفتح بن جنِّي: «في فتح الدال وجهان: إن شئت كان على ما جاء من المصادر على فَعُول. وإن شئت أراد: ويُقذفون من كلِّ جانب بِداحِرٍ، أو بما يَدْحَرُ، وهذا كأنه الثاني من الوجهين؛ لما فيه من حذف حرف الجر وإرادته، كما قال الشاعر:

نُغَالِي اللَّحْمَ لِلأضْيَافِ نِيئاً ... وَنُرْخِصُهُ إذا نَضِجَ الْقَدِيرُ

أي: باللحم، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، أَيْ: أَعْلَمُ بمنْ يَضِلُّ عن سبيله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

الاستفتاءُ نوعٌ من أَنواع السؤال، وكأَنه سؤال من يُهْتبَل بقوله ويجعل حُجَّة، وكذلك هي أَقوالهم في هذا الفاصل، لا يمكنهم أَن يقولوا إِلا أَن خَلْق مَنْ سواهم مِنَ الأُمم والملائكة والإِنس والجن والسموات والأَرض والمشارق وغير ذلك، هو أَشدُّ من هؤلاءِ المخاطَبين، وبأَنَّ الضمير في [خَلَقْنَا] يُراد به ما تقدم ذكره، وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: وفي مصحف عبد الله بن مسعود: [أَمْ مَنْ عَدَدْنَا] يريد الصَّافَّات وغيرها، والسموات والأَرض وما بينهما، وكذلك قرأَ الأَعمش، وقرأَ أَيضاً: [أَمَنْ] مُخَفَّفة الميم دون (أَم)[1].

ثم أَخبر تعالى إِخباراً جزماً عن خلْقه لآدم الذي هو أَبو البشر، وأَضاف الخلق من الطين إِلى جميع الناس حيث الأَب مخلوق منه، وقال الطبري: خُلق ابن آدم من تراب وماء ونارٍ وهواءٍ، هذا كله إِذا اختلط صار طيناً لازباً، وهو اللأَزم، أَي: يلازم ما جاوره ويلصق به، وهو الصَّلصال كالفخار، وعبَّر ابن عباس، وعكرمة عن اللازب بالحُرِّ، أَي الكريم الجيِّد، وحقيقة المعنى ما ذكرناه، يقال: ضربَة لازِبٍ ولازمٍ» بمعنى واحد.

وقرأَ الجمهور: (عَجِبْتَ) بفتح التاءِ، أَي يا محمدُ من إِعراضهم عن الحقِّ وعَماهُم عن الهدى، وأَن يكونوا كافرين مع ما جئتهم به من عند الله. وقرأَ حمزة والكسائي بضمِّ التاءِ، ورُويت عن علي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن وثاب، والنَّخعي، وطلحة، وسفيان، والأَعمش، وذلك على أَن يكون تعالى هو المتعجِّب، ومعنى ذلك من الله سبحانه أَنه صفة فعل، كقوله عليه الصلاة والسلام: «تعجب الله إِلى قوم يساقون إِلى الجنة في السلاسل»[2]،

---

(١) وتكون (أَمَنْ) هذه استفهاماً ثانياً للتقرير أيضاً، فهما جملتان مستقلتان في التقرير.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢ ـ ٣٠٢، ٤٠٦، ٤٤٧، ٤٥٧، ٥ ـ ٢٤٩)، وأخرجه البخاري في الجهاد، وكذلك أبو داود، واللفظ في المسند، عن أبي هريرة رضي الله عنه: «عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل»، قال البيهقي: قد يكون هذا الحديث وما ورد من أمثاله أنه يعجِّب ملائكته من كرمه=

وقوله: «تعجب الله من الشابِّ ليست له صبوة»[١]، فإنما هي عبارة عما يظهره في جانب منه، فمعنى هذه الآية: بل عجبتُ من ضلالهم وسُوءِ تخيُّلهم، وجعلتها للناظرين فيها وفيما اقترن معها من شرعي وهداي متعجباً، ورُوي عن شُريح إنكار هذه القراءَة، وقال: إن الله لا يعجب، قال الأعمش: فذكرتُ ذلك لإبراهيم فقال: إن شُرَيْحاً كان مُعْجَباً بعلمه، وإنَّ عبد الله أَعلمُ منه[٢]. وقال مكيٌّ، وعليٌّ بن سليمان في كتاب الزهراوي: هو إخبار من النبي ﷺ عن نفسه، كأنه قال: «قل لهم: عجبتُ»، وقوله: (وَيَسْخَرونَ) أي: وهم يسخرون من نُبُوَّتك والحقِّ الذي عندك.

وقوله تعالى: (يَسْتَسْخِرُونَ) يريد: بالآية، وهي العلامة والدلالة، ورُوي أنها نزلت في رُكانة، وهو رجلٌ مكيٌّ مشرك، لقي النبي ﷺ في جبل خال وهو يرعى غنماً له، وكان أَقوى أَهل زمانه، فقال له: يا ركانة، إنْ أَنا صرعتك أَتُؤْمن بي؟ قال: نعم، فصرعه ثلاثاً، ثم عرض عليه آياتٍ من دعاءِ شجرة وإِقبالها، ونحو ذلك مما اختلفت فيه أَلفاظ الحديث، فلما فرغ من ذلك كلِّه لم يُؤْمن، وجاءَ إلى مكة فقال: يا بني هاشم، ساحِروا بصاحبكم هذا أَهْل الأَرض[٣]، فنزلت الآية فيه وفي نظرائه. و[يَسْتَسخِرُونَ] معناه: يطلبون أَن يكونوا ممن يسخر، ويجوز أَن تكون بمعنى: يَسْخَر، كقوله: «واستغنى الله»، فيكون فَعِل واسْتَفْعَل بمعنى، بهذا فسَّره مجاهد وقتادة، وفي بعض

= ورأفته بعباده، حين حملهم على الإيمان به بالقتال والأسر في السلاسل، حتى إذا آمنوا أدخلهم الجنة.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤ ـ ١٥١)، عن عقبة بن عامر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزَّ وجلَّ ليعجب من الشاب ليست له صبوة». والصَّبوة: الميْلُ إلى اللهو، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾.

(٢) عبد الله المقصود هنا هو ابن مسعود رضي الله عنه، قال أبو زكريا الفراءُ في كتابه (معاني القرآن): «والرفع أحبُّ إلي: لأنها قراءة عليٍّ، وابن مسعود، وعبد الله بن عباس، قال شقيق: قرأتُ عند شُرَيْح: [بل عجبتُ ويسخرون]، فقال: إنَّ الله لا يَعْجَب من شيءٍ، إنما يَعْجَب من لا يعلم، قال: فذكرتُ ذلك لإبراهيم النَّخَعي فقال: إن شُرَيْحاً شاعر يعجبه علمُه، وعبد الله أَعلمُ بذلك». ثم قال الفراءُ: «والعجب وإن أُسند إلى الله فليس معناه من الله كمعناه من العباد، ألا ترى أنه قال: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ وليس السُّخْرِيُّ من الله كمعناه من العباد، وكذلك قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ليس ذلك من الله كمعناه من العباد، ففي ذا بيانٌ لِكَسر قول شريح وإن كان جائزاً؛ لأن المفسِّرين قالوا: بل عجبتَ يا محمدٌ ويسخرون هم، فهذا وجه النصب».

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي في اللباس.

القراءات القديمة: «يَسْتَسْحِرونَ» بالحاءِ غير منقوطة، وهذه عبارة عمَّا قال رُكانة؛ لأَنه اسْتَسْحر النبي عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿أئذا متنا﴾. قرأ بضم الميم أَبو جعفر، وابن أَبي إسحق، وعاصم[1]، وأَبو عمرٍو، والعامَّة، وكسرها الحسن، والأعرج، وشيبة، ونافع. وقرأ أَبو جعفر، وشيبة، ونافع: [أَوْ آبَاؤُنَا] بسكون الواو، وهي التي للقسمة أَو التخيير، وقرأ الجمهور بفتحها، وهي واو العطف دخلت عليها أَلف الاستفهام.

ثم أَمره الله تعالى أَن يجيب تقريرهم بـِ(نَعَمْ) ويزيدهم في الجواب أَنهم ـ في البعث ـ في صَغار وذلَّة، و«الدَّاخِرُ»: الصغير الذليل، وقد تقدم غير مرة ذكر القراءَات في الاستفهامين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

هذا استئناف إِخبار جرَّه ما قبله، فأَخبر تعالى أَن بعثهم من قبورهم إِنما هي زجرةٌ واحدة، هي نفخة البعث في الصُّور، وقوله: ﴿يَنظُرونَ﴾ يحتمل أَن يريد: بالأَبصار، أَي: ينظرون ما هُمْ فيه، وصدق ما كانوا يُكذِّبون به، ويحتمل أَن يكون بمعنى: ينتظرون ما يُفعَل بهم ويُؤمرون به.

ثم أَخبر عنهم أَنهم في تلك الحال يقولون: ﴿يَاوَيْلَنَا﴾، يُنادون الويل، بمعنى: هذا وقتُ حضورك وأَوانُ حُلُولك. ورأَى أَبو حاتم الوقف ها هنا، وجعل قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ من قول الله أَو الملائكة لهم، ورأَى غيره أَن باقي الآية من قول الكفرة. و(الدِّينُ): الجزاءُ والمقارضة، كقولهم: «كما تَدين تُدان»، وأَجمعوا أَن قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ ليس من قول الكفرة، وإِنما المعنى: يُقَال لهم: هذا يوم الفصل.

وقوله تعالى: (وَأَزْوَاجَهُمْ) يعني: أَنواعهم وضرباءَهم، قاله عمر بن الخطاب

(١) يعني في رواية أبي بكر عنه، أما رواية حفص عنه فهي بكسر الميم كما هو ثابت في المصحف.

رضي الله عنه، وابن عباس، وقتادة، ومنه قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾(١)، وقوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾(٢) أَي: نُوِّعت، رُوي أَنه يضم عند الأَمر كلُّ شكل إِلى شكله، وكل صاحب من الكفرة إِلى صاحبه، ومعهم ما كانوا يعبدون من دون الله، من آدميٍّ رضي بذلك أو صنم أَوْ وثن توبيخاً لهم وإِظهاراً لسوءِ حالهم. قال الحسن: المعنى: وأَزواجهم المشركات من النساءِ، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورجَّحه الرماني.

وقوله تعالى: (فَاهْدُوهُمْ) معناه: قوموهم واحملوهم على طريق الجحيم، و(الْجَحيم) طبقة من طبقات جهنم يقال إِنها الرابعة، ثم يأْمر الله تعالى بوقفهم، ووَقَفَ يتعدى بنفسه، تقول: «وقفْتُ زيداً»، وأَمْرُه بذلك على جهة التوبيخ لهم والسؤال، واختلف الناس في الشيءِ الذي يُسأَلون عنه ـ فرُوي عن ابن مسعود أَنه قال: يُسْأَلون: هل يحبون شرب الماءِ البارد؟ وهذا على طريق الهزءِ بهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يسأَلون عن لا إِله إِلاَّ الله، وقال الجمهور من المفسرين: عن أَعمالهم، ويوقفون على قُبْحها، وهذا قول مُتَّجه عام في الكفر وغيره، ورُوي عن أَنس عن النبي ﷺ أَنه قال: «أَيما رجل دعا رجلاً إِلى شيءٍ كان لازماً له، وقرأَ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾(٣)، ورَوى ابن مسعود عن النبي ﷺ أَنه قال: «لاتزول قدما عَبْد من بين يدي الله حتى يسأَله عن خمس: عن شبابه فِيمَ أَبلاه، وعن عمره فيم أَفناه، وعن ماله كيف اكتسبه وفيم أَنفقه، وعمَّا عمل فيما علم»(٤)، ويحتمل عندي أَن يكون المعنى على ما فسَّره بقوله: ﴿ما لكن لا تناصرون﴾، أَي: تُسْأَلون عن امتناع التَّناصر. وقرأَ بتاءٍ واحدة شيبة، ونافع، وقرأَ خالدٌ بتاءَين، وكذلك في حرف عبد الله، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع بإِدغام التَّاءِ في التاءِ من قراءَة ابن مسعود، وقال الثعلبي: هذا جواب

---

(١) الآية (٧) من سورة (الواقعة).

(٢) الآية (٧) من سورة (التكوير).

(٣) أخرجه البخاري في تاريخه، والترمذي، والدارمي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، عن أنس رضي الله عنه، ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في (الدرِّ المنثور)، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ داع دعا إلى شيء إلا كان موقوفاً يوم القيامة، لازماً به لا يُفَارقه، وإن دعا رجل رجلا، ثم قرأ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾.

(٤) أخرجه الترمذي في القيامة.

أبي جهل حين قال في بدر: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾[(١)].

ثم أخبر تعالى بجوابهم في ذلك اليوم في حالة الاستسلام والالقاءِ باليد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

هذه الجماعة التي يقبل بعضها على بعض هي جنٌّ وإِنْس، قال قتادة: وتَساؤُلُهم هو على معنى التقريع واللوم والسخط، والقائلون: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ إما أَن يكون الإِنْسُ للشياطين، وهو قول مجاهد، وابن زيد، أَو ضَعَفَةُ الإِنْس للكبراءِ والقادة. واضطرب المتأَولون في معنى قولهم: ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾، وعبَّر ابن زيد عنه بطريق الجنة والخير، ونحو هذا من العبارات التي تُفَسِّر بالمعنى ولا تختص بنفس اللفظة، وبعضهم نحا في تفسير اللفظة إلى ما يختصُّها، والذي يتحصل من ذلك معان: منها أَن يريد باليمين: القُوَّةَ والشِّدَّةَ، فكأَنهم قالوا: إنكم كنتم تُغْوُونَنَا بقوة منكم، وتحملوننا على طريق الضلالة بمتابعة منكم في شدَّة، فعبَّر عن هذه المعاني باليمين، كقول العرب: «بِيَدَيْنِ مَا أَوْرَدَ»[(٢)]، وكما قالوا: «اليد» ـ في غير موضع ـ عن القوَّة، وقد ذهب بعض الناس ببيت الشَّماخ هذا المذهب، وهو قوله:

إِذَا مَـا رَايَـةٌ رُفِعَـتْ لِمَجْـدِ ... تَلَقَّـاهَـا عـرابَـةُ بـالْيَمِيـنِ[(٣)]

---

(١) من الآية (٤٤) من سورة (القمر).

(٢) المَثَل كما ذكره الميداني في (مجمع الأمثال): «بِيَدَيْنِ ما أَوْردها زائدة»، والمراد باليد هنا: القوَّة والجلادة، يقال: «ما لي به يدان» أي: قوَّة. و(ما) صلة، و(زائدة) اسم رجل، والمعنى: بالقوَّة والجلادة أَوْرَدَ زائدةُ إبلَه لا بالعجز، قال الميداني: «ويجوز أن يريد بقوله: (بِيَدَيْن) أنه أضبط يعمل بكلتا يديه، يضرب في الحث على استعمال الجِدِّ». وقال الزمخشري في (المستقصى في أمثال العرب): «(ما) زائدة، و(زائدة) اسم رجل، والضمير للإبل، يضرب لمن يباشر الأمر بقوة».

(٣) استشهد الفراءُ بهذا البيت في (معاني القرآن)، قال: ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾، يقول: كنتم تأتوننا من قِبَل الدِّين، أي تخدعوننا بأقوى الوجوه، و(اليَمِين): القدرة والقوة، كقوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أي: بالقوة والقدرة، وقال الشاعر: إذا ما غاية... البيت». والبيت للشماخ يمدح به عَرابة الأوسي، وقبله يقول: =

فقالوا: معناه: بقُوَّة وعزيمة، وإلاَّ فكلُّ أحد يتلقَّاها بيمينه لو كانت الجارحة، وأيضاً فلما استعار الراية للمجد فكذا لم يرد باليمين الجارحة.

ومن المعاني التي تحتملها الآية أن يريدوا: إنكم كنتم تأتوننا من الجهة التي يُحَسِّنُهَا تمويهكم وإغواؤُكم، ويظهر فيها أنَّها جهة الرشد والصواب، فتصير عندنا كاليمين الذي نتيمَّن بالسَّانح الذي يجيؤنا من قِبَلِهَا، فكأنهم شبَّهوا أقوال هؤلاءِ المُغْوِين بالسوانح التي هي عندهم محمودة، كأن التمويه في هذه الغوايات قد أظهر فيها ما يوشك أن يُحمد به.

ومن المعاني التي تحتملها الآية أن يريدوا: إنكم كنتم تأْتوننا، أي: تقطعون بنا عن أخبار الخير واليمين، فعبَّر عنها باليمين؛ إذ اليمين هي الجهة التي يُتَيَمَّن بها وبكل ما فيها ومنها[1].

ومن المعاني التي تحتملها الآية أن يريدوا: إنكم كنتم تجيؤوننا من جهة الشهوات وعدم النظر؛ والجهة الثقيلة من الإنسان هي اليُمْنى لأن كبده فيها، وجهة شماله فيها قلبه، وهي أخف، وهذا معنى قول الشاعر:

تَـرَكْنَـا لَهُـمْ شـقَّ الشِّمَـالِ . . . .[2]

أَيْ: نزلنا لهم عن موضع الهروب؛ لأن المنهزم إنما يرجع على شقِّه الأيسر، إذْ هو أَخَفُّ شِقَّيْه، وإِذْ قلب الإنسان في شماله وثَمَّ نظره، فكأن هؤلاءِ كانوا يأْتون من جهة الشهوات والثِّقل، وأكثر ما يتمكن هذا التأويل مع إغواءِ الشياطين، وهو قَلِقٌ مع إغواءِ بني آدم.

= رأَيْـتُ عَـرَابَـةَ الأوْسِـيَّ يَسْمُـو إلـى الخَيْـرَاتِ مُنْقَطِـعَ القَـرِيـنِ

وعَرَابة هو ابن أوس بن قيظى، وقيل: إنه هو الذي قال لرسول الله ﷺ في غزوة الخندق: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، وقد قيل: إن عرابة الأوْسي من الصحابة، وقيل: بل كان سيِّداً ولكن ليس له صحبة، وقد كان أحد الذين عُدُّوا من الصغار يوم أُحد ولم يُسْمَح لهم بالاشتراك في الحرب. هذا والبيت في اللسان أيضاً (يَمَن).

(١) استعيرت اليمين لجهة الخير لأن اليد اليمنى أشرف العضوين، وكانوا يباشرون بها أفضل الأشياء كالمصافحة، ولهذا جعلت لكاتب الحسنات، ويأخذ المؤمن بها كتابه.

(٢) يقول: تركنا لأعدائنا جانب الشمال، لأنه جانب الضعفاء الذين يهربون ويتركون المعركة. ولم نقف على بقية البيت ولا على نسبته.

وقيل: المعنى: يحلفون لنا ويأتوننا إتيان من إذا حَلَف لنا صدَّقناه، فاليمين ـ على هذا ـ: القَسَمُ.

وقد ذهب بعض الناس في ذكر إبليس جهات بني آدم في قوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾(١) إلى ما ذكرناه من جهة الشهوات، فقال: ما بين يديه هي مغالطته فيما يراه، وما خلفه هي مسارقته في الخفاءِ، وعن يمينه هو جانب شهواته، وعن شماله هو نظره بقلبه وتحذيره فقد يغلبه الشيطان فيه، وهذا فيمن جعله في جهات ابن آدم الحاضرة لديه، ومنهم من جعلها في جهات أُموره وشؤونه فيتَّسع التأويل على هذا.

ثم أَخبر تعالى عن قول الجِنِّ المجيبين لهؤلاءِ: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ كما ذكرتم، بل كان لكم اكتسابُ الكفر والبصيرة فيه، وإنما حملناكم على ما حملنا عليه أَنفسنا، وما كان لنا عليكم حجَّة ولا قوة إلاَّ طغيانُكم وإرادتكم الكفر، فقد حقَّ القولُ على جميعنا، وتعيَّن العذابُ لنا، وإنَّا جميعاً لذائقون. والذَّوْق هنا مستعار، وبنحو هذا فسَّر قتادة وغيره أنه قول الجنِّ إلى (غَاوِينَ).

ثم أَخبر الله تعالى أَنهم اشتركوا جميعاً في العذاب وحصلوا فيه، وأَن هذا فعله بأَهل الجُرْمِ واحْتِقَاب(٢) الإثم والكفر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ۝٣٦ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣٧ إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ۝٣٨ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠﴾.

هؤلاءِ أَهل الجُرْم الذين جهلوا الله سبحانه، وعظَّموا أَصناماً وأَوثاناً، فإذا قيل: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ـ وهي كلمة الحق والعروة الوثقى ـ أَصابهم كِبْرٌ، وعَظُم عليهم أَن يتركوا أَصنامهم وأَصنام آبائهم، كما قيل عن أَبي طالب إِذْ قال له رسول الله ﷺ: «أَيْ

---

(١) من الآية (١٧) من سورة الأعراف.

(٢) الجُرْم: الذنب، واحْتَقَب الإثم: ارْتَكَبَه.

عمٍّ، قل لا إله إلاَّ الله أُحاجُّ لك بها عند الله»، فقال أَبو جهل: أَيرغب عن مِلَّة عبد المطلب؟ فقال آخر ما قال: أَنا على ملَّة عبد المطلب[1]. وبعرضه عليه الصلاة والسلام قول لا إله إلاَّ الله جرت السُّنة في تلقين الموتى المحتضرين ليخالفوا الكفرة ويخضعوا لها.

وأَما الطائفة التي قالت: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ فهي من قريش، وإِشارتهم بالشاعر المجنون هي لمحمد ﷺ، فردَّ الله تعالى عليهم، أَي: ليس الأَمر كما قالوا من أَنه شاعر، بل جاءَ بالحق من عند الله، وصدَّق الرسلَ المتقدمين له كموسى وعيسى وإبراهيم عليهم السلام.

ثم أَخبر تعالى مخاطباً لهم ـ ويجوز أَن يكون التأْويل: قل لهم يا محمد ـ: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾، قرأَ قوم بنصب [الْعَذَابَ]، وَوَجْهُها أَنه أَراد: (لذائقون)، فحذفت النون تخفيفاً، وهي قراءَة قد لحنت[2]، وقرأَ أَبو السمال: [لَذَائِقٌ] بالتنوين، [الْعَذَابَ] بالنصب[3]. و(الأَلِيم): الْمُؤلم.

ثم أَعلمهم أَن ذلك جزاءٌ لهم بأَعمالهم واكتسابهم، ثم استثنى عبادَ الله استثناءً منقطعاً، وهم المؤمنون الذين أَخلصهم الله تعالى لنفسه. وقرأَ الجمهور بفتح اللام من (الْمُخْلَصِينَ)، وقرأَ الحسن، وقتادة، وأَبو رجاءٍ، وأَبو عمرٍو بكسر اللام، ورُويت هذه التي في الصافَّات عن الحسن بفتح اللام.

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، وفي تفسير سورة التوبة، وفي الإيمان، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥ ـ ٤٣٣)، ولفظه كما في البخاري عن سعيد بن المسيَّب عن أبيه، قال: لما حضرتْ أبا طالب الوفاةُ دخل النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال النبيُّ ﷺ: أي عَمِّ، قل لا إله إلا الله أُحاجُّ لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أُميَّة: يا أبا طالب، أترغب عن ملَّة عبد المطلب؟ فقال النبي ﷺ: لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

(٢) يقول النحويون: إن سيبويه أجاز النصب في مثل هذا، وأنشد دليلا على جوازه:

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتِبٍ ... ولا ذاكِرِ اللهَ إلا قَلِيلا

(٣) قال أبو حيان في (البحر المحيط): «ويخرج على أن التقدير جمع؛ وإلا لم يتطابق المفرد وضمير الجمع في (إِنَّكُمْ)».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

(أُولَئِكَ) إشارةٌ إلى العباد المخلصين، وقوله: (مَعْلُومٌ) معناه: عندهم، فقد قرَّت عيونهم بعلم ما يستدرُّ عليهم من الرزق، وبأَن شهواتهم تأْتيهم لحينها، وإلاَّ فلو كان ذلك معلوماً عند الله فقط لما تخصَّص أَهلُ الجنَّة بشيءٍ، وقوله: ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ تتْميمٌ بليغٌ للنِّعم؛ لأَنه رُبَّ مرزوق غير مُكْرَم، وذلك أَعظم التنكيل.

و«السُّرُرُ»: جمع سرير، وقرأَ أَبو السَّمال بفتح الراءِ الأُولى، وفي هذا التأْويل حديث مروي عن النبي ﷺ أَنهم في الجنان ترفع عنهم ستور فينظر بعضهم إلى بعض، ولا محالة أَن أَعظم أَحيانهم هم فيها متحيزون في قصورهم.

و(يُطَافُ) معناه: يطوف الوِلْدان، حسب ما فسَّرته آية أُخرى، وَ«الْكَأْسُ» قال الزجاج، والطبري، وغيرهما: هو الإِناءُ الذي فيه خمر وما يجري مجراه من الأَنبذة ونحوها، ولا يُسَمَّى كأساً حتى يكون فيه هذا المشروب المذكور، وقال الضحاك: كلُّ كأْس في القرآن هو خمر، وذهب بعض الناس إِلى أَن الكأْس بِنْيَة مخصوصةٌ في الأَواني، وهو كلُّ ما اتَّسع فمه ولم يكن له مقبض، ولا يُراعى في ذلك كونه بخمر أَم لا. وقوله: ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ يريد: من جارٍ مطَّرد، فالميم فيه أَصلية؛ لأَنه من الماءِ المعين، ويحتمل أَن يكون من العين فتكون الميم زائدة، أَي: ممَّا يُعيَّن بالعين غير مستور ولا في حرز، وخمر الدنيا إِنما هي معصورة مختزنة، وخمر الآخرة جارية أَنهاراً.

وقوله سبحانه: ﴿لَا فِيهَا﴾ يحتمل أَن يعود على الكأْس أَو على الخمر، وهو الأَظهر، قال الحسن بن أَبي الحسن: خمر الجنة أَشد بياضاً من اللَّبن، وفي قراءَة ابن مسعود: [صَفْرَاءَ]، فهذا موصوف به الخمر وحدها، و﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أَي: ذات لذَّة، فوصفها بالمصدر اتساعاً، وقد استعمل هذا حتى قيل: لذَّة بمعنى: لذيذة، ومنه قول الشاعر:

بِحَدِيثِكِ اللَّذِّ الذِي لَوْ كُلِّمَتْ ... أُسْدُ الْفَلاَةِ بِهِ أَتَيْنَ سِرَاعَا[١]

وقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ لم تعمل (لاَ)؛ لأن الظرف حال بينها وبين ما شأنها أن تعمل فيه. و«الْغَوْلُ»: اسم عامٌّ في الأذى، تقول: غاله كذا وكذا إذا ضرَّه في خفاءٍ، ومنه الغِيلة في القتل، وقال عليه الصلاة والسلام في الرضاع: «لقد هممْتُ أن أنهى عن الغِيلَةِ»[٢]، ومن اللفظة قول الشاعر:

مَضَى أَوَّلُونا نَاعِمِينَ بِعَيْشِهِمْ ... جميعاً وَغَالَتْنِي بِمَكَّةَ غُولُ[٣]

أَي: عاقتني عوائق، فهذا معنى من معاني «الغَوْل»، ومنه قول العرب في مثل من الأَمثال: «ما له عَمل ما غاله»، يضرب للرجل الحديد الذي لا يقوم لأَمر إِلاَّ أَغنى فيه، أَو للرَّجل يدعى له بأَن يؤدي ما أَدَّاهُ، وقال ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد: الغَوْلُ وجع في البطن، وقال ابن عباس أَيضاً، وقتادة: هو صداع في الرَّأْسِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والاسم أَعم من هذا كله، فنفى عن خمر الجنة جميعَ أَنواع الأَذى، إِذ هي موجودة في خمر الدنيا، وقد نحا إِلى هذا العموم سعيد بن جبير، ومنه قول الشاعر:

وَمَا زَالَتِ الْخَمْرُ تَغْتَالُنَا ... وتَذْهَبُ بِالأَوَّلِ الأَوَّلِ[٤]

---

(١) اللَّذُّ هو اللَّذيذ، قال في اللسان (لَذَذَ): «واللَّذُّ واللَّذيذُ يجريان مجرى واحداً في النعت، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أَيْ: لذيذة، وشرابٌ لَذٌّ ولذيذٌ، وكأسٌ لذَّةٌ، وفي التنزيل: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾. ولذَّ الشيُّء صار لذيذاً». وهذا هو الشاهد في البيت؛ لأن الشاعر استعمل اللَّذَّ بمعنى اللَّذيذ، فهو يصف حديثها بأنه لذيذ بحيث يؤثر في أسْد الفلاة.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن جُدامَة بنت وهب، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بأنه صحيح، ولفظه كما ذكره السيوطي: «لقد هممت أن أنهى عن الغِيلَة حتى ذكرتُ أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضرُّ أولادهم». وقد فسَّر ابن الأثير معنى الغِيلَة في كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر) فقال: «الغِيلَة بالكسر: الاسم من الغَيْل بالفتح، وهو أن يجامع الرجل زوجته وهي مرضع، وكذلك إذا حملت وهي مرضع، واللَّبن الذي يشربه الولد يقال له الغَيْل».

(٣) يتألم من حياته، ويقارن ما يلاقيه من العوائق بما كان ينعم به آباؤه فيقول: مضوا جميعاً بحياتهم الناعمة وعيشتهم الهادئة، وبقيت أنا مع العوائق والمصاعب التي أعاني منها.

(٤) البيت في اللسان (غَوَلَ) غير منسوب، وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن)، والرواية فيه وفي الطبري: (الكأس) بدلا من (الخمر)، قال أبو عبيدة: «﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾، مجازُه: ليس فيها غولٌ، والغول=

أي: تؤذينا بذهاب العقل.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: (يُنْزَفُونَ) بفتح الزاي، وكذلك في الواقعة[1]، من قولك: نُزِفَ الرجلُ إذا سَكِرَ، ونَزَفَتْهُ الخمرُ، والنَّزِيفُ: السكرانُ، ومنه قول الشاعر:

فَلَثَمْتُ فَاهَا آخِذاً بِقُرونِهَا ... شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ ماءِ الْحَشْرَجِ[2]

وبإذهاب العقل فسَّر ابن عباس، ومجاهد، وقتادة [يُنْزِفُونَ]. وقرأ حمزة، والكسائي بكسر الزاي، وكذا في الواقعة، من: أنْزَف بمعنيين: أَحُدهما سَكِرَ، ومنه قول الأُبَيْرِد الرِّياحيِّ:

لَعَمْرِي لَئِنْ أَنْزَفْتُمُ أَوْ صَحَوْتُمُ ... لَبِئْسَ النَّدَامَى كُنْتُمُ آلَ أَبْجَرَا[3]

= أن تغتال عقولهم»، وقال الطبري: «وهو أن تغتال عقولهم، يقول: هذه الخمرة لا تذهب بعقول شاربيها، كما تذهب بها خمور أهل الدنيا، ثم ذكر البيت». وشرح البيت في اللسان فقال: «أيْ: تُوَصِّل إلينا شراً وتُعدمنا عقولنا». فكلهم أجمعوا على أن المعنى هو اغتيال العقل.

(١) في قوله تعالى في الآية (١٩): ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾.

(٢) البيت مختلف في نسبته، قيل: هو لعمر بن أبي ربيعة، وهو من أبيات يقول فيها:

قالتْ: وعَيْشُ أَبِي وحُرْمَةُ إخْوَتِي ... لأنَبِّهَنَّ الحَيَّ إنْ لَمْ تَخْرُجِ
فَخَرَجْتُ خِيفَةَ قَوْلِهَا فتَبَسَّمَتْ ... فَعَلِمْتُ أنَّ يَمِينَهَا لَمْ تُحْرَجِ
فَلَثَمْتُ فَاهَا آخِذاً بِقُرُونِهَا ... شُرْبَ النَّزيف بِبَرْدِ ماءِ الحَشْرَجِ

وقال ابن بري: البيت لجميل بن معمر، وليس لعمر بن أبي ربيعة، والقَرْنُ: الذُّؤابةُ، وخصَّ بعضهم به ذُؤابة المرأة وضفيرتها، والجمع: قُرون، والنَّزيف: السَّكران، وقيل: هو المحموم الذي منع من الماءِ، والحشرج: الكُوز الرقيق النقي، وقيل: هو الماءُ العذب من ماءِ الحِسْي. ولثَمْتُ فَاهَا: قَبَّلْتُه، ونصَبَ الشاعرُ (شُرْبَ) على المصدر المشبَّه به، فكأنه قال: شربتُ ريقَهَا كشُرْب النَّزيف للماءِ العذب البارد.

(٣) البيت في اللسان (نزَفَ)، وفي (مجاز القرآن) لأبي عبيدة، وقد نسبه الجوهري للأبيرد، وبعده يقول مخاطباً آل أبجر:

شَرِبْتُمْ ومَدَّرْتُمْ وكانَ أَبُوكُمُ ... كَذَاكُمْ إذا ما يَشْرَبُ الكَأْسَ مَدَّرَا

وهو أَبْجَر بن جابر العجليّ، وكان نصرانياً، وأنزَفَ: سَكِرَ وذَهَبَ عَقْلُه، ومَدَّرَ: سَلَح عن نفسه، يقول: إنكم يا آل أبجر بئس الندامى سواءٌ شربتم حتى ذهب عقلكم أو كنتم في حال الإفاقة والصحوة، وشأنكم كأبيكم إذا ما شربتم سلحتم على أنفسكم. وقد استشهد القرطبي في تفسيره بالبيت ونسبه للحطيئة.

والثاني بَعْدَ شَرَابُهُ[١]، يقال: أَنْزَفَ الرجل إذا تمَّ شرابُه، فهذا كله منفيٌّ عن أهل الجنة، وقرأ عاصم هنا بفتح الزاي، وفي الواقعة بكسر الزاي، وقرأ ابن أبي إِسحق بفتح الياءِ وكسر الزاي.

قوله تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد، وقتادة: معناه: على أَزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم، ولا يمتد طرف إحداهنَّ إلى أَجنبي، فهذا هو قَصر الطَّرْف. و(عِينٌ): جمعُ عيناءَ، وهي الكبيرة العين في جَمَال.

وأَما قوله تعالى: ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ فقد اختلف الناس ـ ما هو؟ فقال السدي، وابن جُبَير: شبَّه أَلوانهن بلون قشر البيضة الداخلي، وهو الغِرْقِىءُ[٢]، وهو المكنونُ، أَي: المصون في كِنٍّ، ورجَّحه الطبري، قال: وأَما خارجُ قِشْر البيضة فليس بمكنون، وقال الجمهور: شبَّه أَلوانهن بلون قشر بيض النعام، وهو بياض قد خالط صفرةً حسنةً، قالوا: والبيْضُ نفسه في الأَغلب هو المكنون بالريش، ومتى شذَّت به حالٌ فلم يكن مكنوناً خرج عن أَن يُشَبَّه به، وهذا قول الحسن، وابن زيد، ومنه قول امرىء القيس:

كَبِكْـرِ المُقَـانَـاةِ الْبَيَـاضِ بِصُفْـرَةٍ   غَذَاهَـا نَمِيرُ الماءِ غَيْرُ الْمُحَلَّلِ[٣]

---

(١) لعله يريد: فني شرابه ولم يجد غيره قريباً منه، وقد قال الفراءُ: «وأصحاب عبد الله يقرؤن: [يُنْزِفُونَ]، وله معنيان: يقال: قد أنزف الرجل إذا فنيت خمرُه، وأَنزف: إذا ذهب عقله، فهذان وجهان».

(٢) الغِرْقِىءُ: القشرة الرقيقة الملتزقة ببياض البيض.

(٣) البيت من مُعَلَّقة امرىء القيس، وفيه يواصل الحديث عن محبوبته التي وصفها بأنها بيضة خِدْر، وبأنها مُهَفْهَفَةٌ بيضاءُ غيرِ مُفَاضَة، وهنا يقول: إنها بكرُ مُقَانَاةٍ، والبكرُ من كل صنف: ما لم يسبقه مثلهُ، والمُقاناة: الخَلْطُ، يقال: قانَيْتُ بين الشيئين إذا خلطتَ أحدهما بالآخر، والمقاناة في البيت مصوغة للمفعول دون المصدر، والنَّمير: الماءُ النَّامي في الجسد، والمُحَلَّل: ذُكِر أنه من الحلول وذُكِر أنه من الحلّ، وللعلماءِ في توضيح معنى البيت ثلاثة آراء: الأول أن المعنى: مثلُ بِكْر البَيْضِ التي قُوني بياضُها بصُفْرة، أي: خلط بصُفرة يسيرة، شبه لون الحبيبة بلون بيض النعام في أن في كلٍّ منهما بياضاً خالطته صفرة خفيفة، يقول: إنها بيضاءُ تُلَوَّن بياضها صفرةٌ خفيفة، وقد غذَّاها ماءٌ صاف عذب. والمعنى الثاني أنها مثل بِكْر الصدفة، أيْ دُرَّتها التي ليس لها مثيل، وقد غَذَّى هذه الدُّرَّة ماءٌ نمير، وهي غير محلَّلة لمن أرادها؛ لأنها في قاع البحر لا تصل إليها الأيدي. والمعنى الثالث أنها مثل بِكْر البردي التي شابَ بياضَها صفرةٌ، وقد تغذَّى هذا البرديُّ بماءٍ نمير لم يكثر حلُولُ الناس عليه، ولهذا فهو صاف خال من الكدر، وإذا كان كذلك لم يتغير لون البرديّ. وكل معنى من المعاني الثلاثة قائم على تشبيه الحبيبة في لونها بشيءٍ أبيض اختلطت به صفرةٌ يسيرة، وهذا اللون هو أحسن ألوان النساءِ عند العرب. وعلى المعنى الأول يكون البيت شاهداً هنا. =

وهذا المعنى كثير في أَشعار العرب. وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ فيما حكى الطبري ـ: البيضُ المكنون أراد به الجوهر المصون.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول لا يصح عندي عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ لأَنه تردُّه اللفظة من الآية.

وقالت فرقة: إِنما شبَّهَهُنَّ بالبيض المكنون تشبيهاً عامًّا، جملة المرأَة بجملة البيضة، وأَراد بذلك: تناسبت أَجزاءُ المرأَة، وكل جزءٍ منها نِسْبته في الجودة إِلى نوعه نِسْبة الآخر من أَجزائها إِلى نوعه، فنسبة شعرها إِلى عينها مستويةٌ إِذ هما غايةٌ في نوعيهما، والبيضة أَشدُّ الأَشياءِ تناسب أَجزاءٍ؛ لأَنك من حيث جئتها فالنظر واحد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

هذا التساؤُل الذي بين أَهل الجنة هو تساؤُل راحةٍ وتنعُّم، يتذكرون أُمورهم في الجنة وأمر الدنيا وحال الطاعة والإِيمان فيها، فأَخبر تعالى عن قول قائل منهم في قصته، فهو مثال لكل من له قرين سوءٍ، ويعطي هذا المثال التَّحفظ من قرناءِ السوءِ، واستشعار معصيتهم، وعبَّر عن قول هذا الرجل بالمضي من حيث كان أَمراً متيقَّناً حاصلاً لا محالة. فقال ابن عباس وغيره: كان هذا من البشر مؤمن وكافر، وقالت فرقة: هما اللذان ذكر اللهُ في قوله: ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾[1]، وقال مجاهد: كان إِنسيًّا وجنيًّا من الشياطين الكفرة، والأَول أَصوب. وقرأ الجمهور: ﴿من المُصَدِّقين﴾ بتخفيف الصاد، من التصديق، وقرأَت فرقة بالتشديد للصاد، من التَّصَدُّق.

وقال فُراتُ بن ثعلبة البهراني في قصص هذين: إِنهما كانا شريكين بثمانية آلاف

= ويروى البيت بنصب كلمة (البياض) وخفضها، وهما واردان، والخفض على الإِضافة، والنصب على التشبيه، ومن دلائل الدقة في التعبير أن الشاعر جعل الماءَ الذي يغذيها ـ على أي فهم فهمنا ـ ماءً غير محلَّل لغيرها، فهو ماءٌ خاصٌّ، ولهذا فهو ماءٌ صافٍ لم يتغير ولم يتأثر بالناس الآخرين.

(١) من الآية (٢٨) من سورة (الفرقان).

دينار، فكان أحدهما يعبد الله ويقصِّر من التجارة والنظر، وكان الآخر كافراً مُقْبلاً على مالِه، فحلَّ الشركة مع المؤمن وبقي وحده لتقصير المؤمن، ثم إنه جعل كلما اشترى شيئاً ـ من دارٍ وجاريةٍ وبستان ونحوه ـ عَرَضَه على المؤمن وفَخَر عليه، فيمضي المؤمن عند ذلك ويتصدق بنحو ذلك الثمن ليشترى به من الله في الجنة، فكان من أَمرهما في الآخرة ما تضمنته هذه الآية. قال الطبريُّ: وهذا الحديث يؤيد قراءَة التشديد. و[مَدِينُونَ] معناه: مجازَوْن محاسبون، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي. والدِّين: الجزاءُ، وقد تقدم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ۝٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾.

في الكلام حذف تقديره: فقال لهذا الرجل حاضروه من الملائكة: قرينك هذا في جهنم يُعَذَّب، فقال عند ذلك: ﴿هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾. ويحتمل أَن يخاطب بـ(أَنتُمْ) الملائكة، ويحتمل أَن يخاطب رفقاءَه في الجنة، ويحتمل أَن يخاطب خَدَمَتَه، وكل هذا حكى المهدوي، وقرأَ الجمهور: (مطَّلِعَونَ) بفتح الطاءِ مشددةً، وقرأَ أَبو عمرٍو ـ في رواية حسين ـ بسكونها مع فتح النون، وقرأَ أَبو البرهسم بكسونها وكسر النون على أنها ضمير المتكلم، وردَّ هذه القراءَة أَبو حاتم وغيره ولَحَّنُوها؛ وذلك أَنها جمعت بين نون الإِضافة ونون المتكلم، والوجه أَن تقول: «مُطْلِعِيَّ»، ووجَّه القراءَة أَبو الفتح بن جنِّي وقال: أَنزل الفاعل منزلة الفعل المضارع، وأَنشد الطبريُّ على هذا:

وَمَـــا أَدْرِي وَظَنِّـــي كُـــلُّ ظَـــنٍّ ... أَمُسْلِمُنِي إِلَى قَـوْمِي شَـراحِـي؟[1]

---

(١) استشهد الفراءُ بهذا البيت وبغيره في (معاني القرآن) على وُرُود الجمع بين النون والضمير، قال: «وقرأَ بعض القُرَّاءِ: [هل أنتم مُطْلعونِ] فكسر النون، وهو شاذٌ؛ لأن العرب لا تختار على الإضافة إذا أسندوا فاعلاً مجموعاً أو موحَّداً إلى اسم مكنيٍّ عنه، فمن ذلك أن يقولوا: أنت ضاربي، وأنتما ضارباي، وأنتم ضاربيَّ، ولا يقولون: أنتما ضاربانني، ولا أنتم ضاربونني، وإنما تكون هذه النون في فَعَل ويَفْعَل، مثل ضربوني ويضربني وضربني، وربما غلط الشاعر فيذهبُ إلى المعنى، فيقول: أنت ضاربني، يتوهم أنه أراد: هل تضربني، فيكون ذلك على غير صحة، قال الشاعر: «وما أدري... البيت». وذكر أبياتاً أخرى ثم قال: وإنما هما اختاروا الإضافة في الاسم المكنيِّ لأنه يختلط بما قبله=

قال الفراءُ: يريد: شراحيل.

وقرأَ الجمهور: (فَاطَّلَعَ) موصولة الألف مشدَّدة الطاءِ المفتوحة، وقرأَ أبو عمرو في رواية الحسين: بضم الألف وسكون الطاءِ خفيفة وكسر اللام، وهي قراءَة أبي البرهسم. قال الزجاج: هي قراءَة من قرأَ: [مُطْلِعُونِ] بكسر النون، ورُوي أَن لأَهل الجنة كوى وطاقات يشرفون منها على أَهل النار إِذا شاءُوا على جهة النعمة والعبرة؛ لأَن لهم في عذاب أَهل النار وتوبيخهم سروراً وراحةً، حكاه الرماني عن أبي عليٍّ.

و«سَواءُ الْجَحِيم» وسَطُه، قاله ابن عباس، والحسن، والناس، وسُمِّي بسواءِ الجحيم لاستواءِ المسافة منه إِلى الجوانب، والجحيمُ متراكمُ جمْر النار، ورُوي عن مطرف بن عبد الله، وخُلَيْد العَصَري[(1)] أنه رآه قد تغيَّر حِبَرَهُ وسِبْرَه[(2)]، أَي: تبدَّلت

= فيصير الحرفان كالحرف الواحد، فلذلك استحبوا الإضافة في المكنيِّ فقالوا: ها ضاربان زيداً، وضاربا زيداً».

وقال سيبويه في الكتاب: «واعلم أن حذف النون والتنوين لازمٌ مع علامة المضمر غير المنفصل؛ لأنه لا يتكلم به مفرداً حتى يكون متَّصلا بفعل قبله أو باسم فيه ضمير، فصار كأنه النون والتنوين في الاسم؛ لأنهما لا يكونان إلا زوائد، ولا يكونان إلا في أواخر الحروف». وبعد أن ذكر الفرق بين المضمر والاسم الظاهر قال عن المضمر: «وقد جاء في الشِّعر، وزعموا أنه مصنوع، ومنه:

هُــمُ القــائلُــونَ الخَيْــرَ والآمِــرُونَــهُ ... إذا ما خَشَوْا مِن مُحْدَثِ الأمْرِ مُعْظَمَا

وقال:

وَلَــمْ يَــرْتَفِــقْ والنَّــاسُ مُحْتَضِــرُونَــهُ ... جميعــاً وأَيْــدِي المعْتَفِيــنَ رَوَاهِقُــهْ

وقد أنكر أبو حاتم هذه القراءة، وقال النحاس: هو لحن لا يجوز» لأنه جمع بين النون والإضافة، وقال غيرهما: هذا شاذٌّ خارج عن كلام العرب، وما كان مثل هذا لم يحتَجَّ به في كتاب الله عزَّ وجلَّ، والذي دافع عن هذه القراءة هو أبو الفتح عثمان بن جني في كتاب المحتسب، وهو ما ذكره ابن عطية هنا، ومعنى تنزيل الفاعل منزلة الفعل المضارع أن يجري [مُطْلِعُونِ] مجرى (يُطْلِعُونِ)، كما قال بعضهم:

أَرَيْــتَ إنْ جِئْــتُ بِــهِ أمْلُــودَا ... مُــرَجَّــلا ويَلْبَــسُ الْبُــرُودَا
أَقَــائِلُــنَّ أحْضِرِ الشُّهُـودَا

فقد أكَّد اسم الفاعل بالنون، وإنما يأتي ذلك في الفعل.

(1) خُلَيْد بن عبد الله العصري، بفتح العين والصاد، أبو سليمان البصري، يقال: إنه مولى لأبي الدرداء، صدوق، يرسل، من الرابعة. (تقريب التهذيب).

(2) سِبْرَه: أصله وهيئته ولونه، وأمَّا حِبَرَه فلعله أراد بها هيئته وزينته وما هو فيه من نِعْمه.

حالَه، ولولا ما عرَّفه الله إِيَّاهُ لم يميِّزه، فقال له المؤمن عند ذلك: ﴿ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾، أَي: تهلكني بإغوائك، والرَّدى: الهلاكُ، ومنه قول الأعشى:

أَفِـي الطَّـوْفِ خِفْـتِ عَلَـيَّ الـرَّدَى ... وَكَـمْ مِـنْ رَدٍ أَهْلَـهُ لَـمْ يَـرِمْ(١)

وفي مصحف ابن مسعود: [إِن كدتَّ لَتُغْوِينِ] بالواو، من الغَيِّ، وذكرها أَبو عمرو الداني بالراءِ، من الإِغراءِ، والتَّاءُ في هذا كله مضمومة.

ورفع ﴿ نِعْمَةُ رَبِّى ﴾ بالابتداءِ، وهو إِعراب ما كان بعد (لولا) عند سيبويه، والخبر محذوف تقديره: تداركته ونحوه، و﴿ الْمُحْضَرِينَ ﴾ معناه: في العذاب(٢).

وقولُ المؤمن: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ إِلى قوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ يحتمل أَن يكون مخاطبة لرفقائه، لَمَّا رأَى ما نزل بقرينه ونظر حاله في الجنة وحال رفقائه قدَّر النعمة قدرها، فقال لهم ـ على جهة التوقيف ـ ما قال، ويجيءُ ـ على هذا التأويل ـ قوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ وما بعده متَّصلاً بكلامه، خطاباً لرفقائه. ويحتمل أَن تكون ﴿ أَفَمَا نَحْنُ ﴾ إِلى قوله [بِمُعَذَّبينَ] مخاطبة لقرينه على جهة التوبيخ، كأَنه يقول: أَين الذي كنت تقول من أَنَّا نموت وليس بعد الموت عقاب ولا عذاب؟ ويكون قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ إِلى قوله: ﴿ فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ يحتمل أَن يكون من خطاب المؤمن لقرينه، وإِليه ذهب قتادة، ويحتمل أَن يكون من خطاب الله تعالى لمحمد ﷺ وأُمَّته، ويَقْوى هذا لأَن قول المؤمن ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ والآخرة ليست بدار عمل ـ يقْلَقُ إِلاَّ على تجوُّز، كأَنه يقول: لمثل هذا كان ينبغي أَن يعمل العاملون.

---

(١) البيت من قصيدة قالها الأعشى يمدح قيس بن معديكرب، والشاعر يخاطب ابنته في البيت، وقد كانت تخشى عليه الهلاك لطول تطوافه وكثرة أسفاره، فيقول لها: أتخافين عليَّ الموت لذلك؟ فانظري كم إنسان يناله الردى فيموت وهو مقيم لا يبرح ديار أهله، إنهم كثيرون. والطَّوْفُ: التطوافُ والسفر الكثير، والرَّدى: الهلاك، وهو موضع الشاهد. قال أبو عبيدة: «يقال: أرديْتُه: أهلكته، ورَدِيَ هو: هَلَك».

(٢) قال الفراءُ: معناه: لكنتُ معك في النار مُحْضَراً، وقال الماوردي: «أُحْضر لا تستعمل مطلقاً إلا في الشرِّ»، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾، وقال: ﴿ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾، وقال: ﴿ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ وهذا يؤيد كلام الماوردي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

الأَلف من قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ للتقرير، والمراد تقرير قريش والكفار، وجاءَ ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ بلفظ التخيير بين شيئين لا اشتراك بينهما من حيث كان الكلام تقريراً، والاحتجاج يقتضي أَن يوقف المتكلم خصمه على قسمين أَحدهما فاسد، ويحمله بالتقرير على اختيار أَحدهما، ولو كان الكلام خبراً لم يَجُزْ ولا أَفاد أَن يقول: الجنَّةُ خير من شجر الزقوم. وأَمَّا قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾[1] فهذا على اعتقادهم في أَن لهم مُسْتَقَرًّا خيراً، وقد تقدم إِيعابُ[2] هذا المعنى. وفي بعض البلاد الجدبة المجاورة للصحاري شجرةٌ مُرَّة مسمومة لها لبنٌ إِن مسَّ جسم أَحد تورَّم ومات منه في أَغلب الأَمر، تُسَمَّى شجرة الزَّقُّوم، والتَّزَقُّم في كلام العرب: البَلْع على شدَّة وجهد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾، قال قتادة، ومجاهد، والسدي: يريد أَبا جهل ونُظراءَه، وذلك أَنه لما نزلت الآية قال الكفار: وكيف يخبر محمد عن النار أَنها تُنبت الأَشجار وهي تأكلها وتُذهبها؟ ففتنوا بذلك أَنفسهم وجهلةَ أَتباعهم، وقال أَبو جهل: إِنما الزَّقُّوم التَّمر بالزبد، ونحن نتزقمه. وقوله: ﴿فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ يعني ملاصق أَساسها الذي لها كالجدران، وفي قراءَة ابن مسعود: [إِنها شجرة نابتة في أَصل الجحيم].

قوله: ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ اختلف الناسُ في معناه ـ فقالت فرقة: شُبِّه بثمر شجرة معروفة يقال لها: رُءوس الشياطين، وهي بناحية اليمن، يقال لها: أَسْتَن، وهي التي ذكر النابغة في قوله:

---

(١) من الآية (٢٤) من سورة (الفرقان).

(٢) وَعَبَ وأَوْعَب واسْتَوْعَبَ الشيءَ: أخذه أجمع ولم يدع منه شيئاً، والمراد هنا: تَقَدَّم استيفاءُ كلِّ جوانب المعنى.

. . . . من أَسْتَنٍ سُودٍ أَسافِلُهُ (١)

ويقال: إنه الشجر الذي يقال له: الصَّوْم، وهو الذي يعني ساعدة ابن جُؤَيَّة في قوله:

مُـوَكَّـلٌ بِشُـدُوفِ الصَّـوْمِ يَـرْقُبُهَـا ... مِنَ المَعَازِبِ مَخْطوف الْحَشَا زَرِمُ (٢)

وقالت فرقة: شبه برءُوس صنف من الحيَّات يقال له: الشياطين، وهي ذات أعراف، ومنه قول الشاعر:

عَنْجَـرِدٌ تَحْلِـفُ حِيـنَ أَحْلِـفُ ... كَمِثْلِ شَيْطَـانِ الْحَمَـاطِ أَعْـرَفُ (٣)

وقالت فرقة: شبَّه بما استقر في النفوس من كراهة رءُوس الشياطين وقُبحها وإن

---

(١) هذا جزء من بيت قاله النابغة في مِيميَّة مطلعها:

بـانَـتْ سعـادُ وأَمْسَـى حَبْلُهَـا انْجَـذَمَـا ... واحْتَلَّت الشَّـرْعَ فـالأَجْـزَاعَ مِـنْ إِضمَـا

والبيت بتمامه:

تَحِيـدُ مِـنْ أَسْتَـنٍ سُـودٍ أَسَـافِلُـهُ ... مَشْيَ الإِماءِ الْغَـوَادِي تَحْمِـلُ الحُـزُمَـا

وهو في وصف أتانٍ. و(تَحِيدُ) معناه: تَتَجَنَّب، وأَسْتَنٍ: شجر يسمَّى كذلك، واحدها: أَسْتَنة بفتح التاءِ، وهو شجر قبيح الشكل، وقبيح منظر الثمرة، ويقال لثمره: رءُوس الشياطين، وقد شبَّه هذا الشجر الذي تَتَجنَّبه الأتان بالإِماءِ السود يمشين وهن يحملن أحزمة الحطب الذي جمعنه من الصحراء، وجملة (مَشْيَ الإِماءِ. . .) حالٌ من (أَسْتَنٍ) وقد رُوي البيت: (أسافِلُهَا مِثْلَ الإماءِ)، وقد وقع هذا البيت في هذا الموضع من القصيدة في ديوان النابغة من رواية الأصمعي، وفي شرح البطليوسي، فيكون (تحيد) بالتَّاءِ راجعاً لكلمة (الخرقاء) في قوله قبل هذا البيت: (وأَقْطَعُ الخَرْقَ بالخرقاءِ)، ولكنه في رواية أُخرى جاءَ بعد موضعه هذا بثلاثة أبيات، وعلى ذلك يكون (يحيد) بالياءِ لأن الكلام يعود على مذكَّر.

(٢) البيت في اللسان (صَوَم)، قال: «والصَّوْم: شَجَرٌ على شكل شخص الإنسان، كريُه المنظر جداً، يقال لثمره: رءُوس الشياطين، ويعني بالشياطين الحيَّات، وليس له ورق، وقال أبو حنيفة: للصوم هدَبٌ، ولا تَنْتَشر أفنانه، ينبت نبات الأثل ولا يطول طوله، وأكثر منابته بلاد بني شبانة، قال ساعدة بن جُؤَيَّة: مُوَكَّلٌ. . . البيت». والشُّدوف: الشخوص، فهو مَوَكَّلٌ بها، يرقبها من الرعب يحسبها ناساً. ومِنَ الْمَعَازِب: من حيث يعزُب عنه الشيءُ، أي: يتباعد. ومخْطوف الْحَشَا: ضامره، وزَرِمٌ: لا يثبُتُ في مكان.

(٣) هذان البيتان من مشطور الرَّجز، وهما في اللسان (عَنْجرد)، واستشهد بهما الفراءُ في (معاني القرآن)، والعَنْجَرد: المرأة الخبيثة سيِّئة الخُلُق، وقيل: السليطة، والحَمَاطُ: جنسٌ من الحيَّات تسمِّيه العربُ: شيطان الحَمَاطِ، يقال: شيطان حماطٌ، كما يقال: ذئب غضبى، وتَيْسٌ حلب، وأَعْرَف: له عُرْفٌ. والشاعر يشبِّه هذه المرأة الخبيثة بحَيَّة لها عرفٌ.

كانت لم تُرَ، وهذا كما تقول للأشعث المتنفش الشعر الكريه المنظر: هذا وجه شيطان، ونحو هذا قول امرىء القيس الكندي:

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ؟[١]

فإنما شبّه بما استقر في النفوس من هيئتها.

و«الشَّوْبُ»: المزج والخلْط، قاله ابن عباس، وقتادة. وقرأ شيبان النحوي[٢] بضم الشين، قال الزجّاج: فَتْحُها المصْدَرُ وضمُّها الاسمُ. و«الحميم»: السخن جدًّا من الماءِ ونحوه، وقد يريد به ها هنا شرابهم الذي هو طينة الخبال وما ينماع منهم، هذا قول جماعة من المفسرين.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ يحتمل أَن يكون لهم انتقال أَجسادٍ في وقت الأَكل والشرب ويرجعون إِلى معظم الجحيم، ذكره الرمانيُّ، وشبَّهه بقوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾[٣]، ويحتمل أَن يكون الرجوع إِنما هو من حال ذلك الأَكل المعذب إِلى حال الاحتراق دون أَكْل، وبكلٍّ احتمالٍ قيل. وفي مصحف ابن مسعود: [وأَنَّ مُنْقَلَبَهم لإِلَى الْجَحِيم]، وفي كتاب أَبي حاتم عنه: [مَقِيلَهُمْ]، من القائلة.

---

(١) البيتُ من لاميَّته التي يتغزل فيها ويصف مغامراته وصيدَه وسَعْيه إلى المجد، والحديث في البيت عن بَعْل المعشوقة التي أحبته وهجرت زوجها، فقال عنها وعنه: «فأصبحتُ معشوقاً وأصبح بَعْلها عليه القتام...»، وهو في البيت يستنكر أن يستطيع هذا الزوج قتله؛ لأنه يجيد استعمال السيف والنبال، أما هذا الزوج فكما قال امرؤ القيس بعد ذلك: «ولَيْسَ بِذِي رُمْح، وليس بذي سيف، وليس بنبَّال». والمشرفي هو السيف، والمسنونة الزرق: النِّبال، وقد شبهها بأنياب الأغوال، والغول غير معروفة، وهذا النوع من التشبيه يسمَّى التشبيه الوهمي؛ لأن الشاعر يتوهَّم شيئاً في نفسه، أو يتصور له صورة وإن كان غير مرئي، وتصبح هذه الصورة المتوَهَّمة مرسومة في النفوس، ومن ذلك أن العرب يتصورون كل قبيح في صورة الشيطان، ويتصورون كل حَسَن في صورة المَلَك، وقد أخبر سبحانه وتعالى عن صواحب يوسف بقوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وقد يسمَّى هذا التشبيه التشبيه التَّخييلي؛ لأن صورة المشبَّه به متخيلة. والبيت في اللسان (غول)، و(مجمع البيان)، و(مختار الشعر الجاهلي)، و(روح المعاني)، والديوان.

(٢) هو شيبان بن عبد الرحمن التميمي، مولاهم، النحوي، أبو معاوية، البصري، نزيل الكوفة، وقد نُسب إلى نحو بن شمس الأزدي، ثقة، صاحب كتاب، ويقال إنه منسوب إلى «نحوة» بطن من الأزْد، وليس إلى علم النحو، من السابعة، مات سنة ١٦٤هـ. (تقريب التهذيب، واللباب، والاشتقاق).

(٣) الآية (٤٤) من سورة (الرحمن).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ إلى آخر الآية تمثيل لقريش، و(يُهْرَعُونَ)، قال قتادة، والسدي، وابن زيد: معناه: يسرعون كأنهم يساقون بِعَجَلةٍ، وهذا تكسُّبهم للكفر وحرصهم عليه، والإهْراعُ: سيْرٌ شديد، قال مجاهد، كهيئة الهرولة وفيه شبه رعدة، وكأنه أيضاً سير الفارغ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

مثَّل تعالى لقريش في هذه الآية بالأمم التي ضلَّت قديماً، وجاءَها الإنذارُ، وأهلكها الله تعالى بعدله، وقوله: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ يقتضي الإخبارُ بأنه عذَّبهم، ولذلك حسُن الاستثناءُ في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ﴾.

ونداءُ نوح عليه السلام قد تضمن أشياءَ: منها الدعاءُ على قومه، وسؤال النجاة، وطلب النُّصرة، وفي جميعها وقعت الإجابة. وقوله تعالى: ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ يقتضي الخبر بأَن الإجابة كانت على أكمل ما أَراد نوح عليه السلام. وَ«الكَرْبُ الْعَظِيمُ»، قال السُّدي: هو الغرق، ومن الكرب تكذيب الكفرة، وركوب الماءِ وهَوْله، قال الرُّماني: الكربُ: الخبر الثقيل على القلب.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة: أَهل الأَرض كلهم من ذرية نوح، وقال الطبري: العربُ من أَولاد سام، والسودانُ من أَولاد حام، والتُّرك والصَّقْلب وغيرهم من آل يافث. ورُوي عن سَمُرة بن جندب أن النبي ﷺ قرأَ هذه الآية وقال: «سام وحام ويافث»[1]، وقالت فرقة: إن الله أَبقى من ذرية نوح، ومَدَّ نسْله، وبارك في ضِئْضِئه[2]، وليس الأمر أَن أَهل الدنيا انحصروا إِلى

---

(١) أخرجه الترمذي وحَسَّنه، وابنُ جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن سَمُرة بن جندب رضي الله عنه. وأخرج ابن سعد، وأحمد، والترمذي وحسَّنه، وأبو يَعْلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصحَّحه، عن سَمُرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم». (الدر المنثور).

(٢) الضِّئْضِيءُ: الأصل والمعدن، وفي الحديث الشريف أن رجلا أتى النبي ﷺ وهو يُقَسم الغنائم، فقال=

نسله، بل في الأُمم من لا يرجع إِليه، والأَول أَشهر عن علماءِ الأمة، وقالوا: نوح هو آدم الأَصغر.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ معناه: ثناءً حسناً جميلاً باقياً آخر الدهر، قاله ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والسدي، وقوله: (سَلَامٌ) ـ على هذا التأويل ـ رفع بالابتداءِ مستأْنف، سلَّم الله به عليه ليقتدي بذلك البشر، قاله الطبريُّ: هذه أَمَنَةٌ لنوح في العالمين أَن يذكره أَحد بسوءٍ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا جزاءُ ما صبر طويلاً على أَقوال الكفرة الفجرة.

وقال الفراءُ وغيره من الكوفيِّين: قوله: (سَلَامٌ) الآية، جملةٌ في موضع نصب بـ(تَرَكْنَا)، وهذا هو المتروك عليه، فكأَنه قال: وتركنا على نوح تسليماً، يُسلِّم عليه إِلى يوم القيامة، وفي قراءَة عبد الله[1]: [سَلَاماً] نصباً بـ[تَرَكْنَا]. صلَّى الله على نوح وعلى آله وسلَّم تسليماً، وشرَّف وكرَّم، وعلى جميع أَنبيائه.

و﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ معناه: في الباقين غابر الدهر، والقراءَة بكسر الخاءِ، وما كان من إِهلاكٍ فهو بفتحها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢) ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠)﴾.

قوله تعالى: (كَذَلِكَ) إِشارة إِلى إنعامه على نوح بالإِجابة كما اقترح، وأَثنى تعالى

= له: اعْدِلْ فإنَّكَ لم تعدل، فقال: «يخرج من ضِئْضِئي هذا قومٌ يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة»، أي: من أصله ونَسْله. وقال الكميت:

وَجَدْتُكَ في الضِّنْءِ مِنْ ضِئْضِئي   أَحَلَّ الأكابِرُ مِنْهُ الصِّغَارَا

وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال: أَعطيتُ ناقة في سبيل الله، فأردتُ أن أشتري من نَسْلها ـ أو قال: مِنْ ضِئْضِئِهَا ـ فسألتُ النبيَّ ﷺ فقال: «دَعْها حتى تجيءَ يوم القيامة هي وأولادها في ميزانك».

(١) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

على نوح بالإحسان لصبره على أذى قومه ومطاولته لهم، وغير ذلك من عبادته وأفعاله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ يقتضي أنه أغرق قوم نوح وأُمَّته ومكذِّبيه، وليس في ذلك نصٌّ على أن الغرق عمَّ جميع أهل الأرض، لكن قد قال به جماعة من العلماءِ، وأُسندت به أحاديث أنه لم يبق إلاَّ من كان معه في السفينة، وعلى هذا يترتب القول بأن الناس اليوم من ذريته، وقالوا: لم يكن الناس يومئذ بهذه الكثرة؛ لأن عهد آدم عليه السلام كان قريباً، وكانت دعوة نوح عليه السلام ونبوته قد بلغت جميعهم لطول المدة واللُّبث فيهم، وكان الجميع كفرة عَبَدَةَ أوثان لَمْ يَنْسُبهم الحقُّ إلى نفسه، فلذلك أغرق جميعهم.

قوله تعالى: ﴿مِن شِيعَتِهِ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي: الضمير عائد على نوح عليه السلام، والمعنى: في الدِّين والتوحيد، وقال الطبري وغيره عن الفراءِ: الضمير عائد على محمد ﷺ، والإشارة إليه. وذلك كلُّه محتمل؛ لأن «الشِّيعة» معناها: الصنف الشائع الذي يُشبه بعضه بعضاً، والشِّيَعُ: الفِرَق، وإن كان الأعرف أن المتأخر في الزّمن هو شيعة للمتقدم، ولكن قد يجيءُ في الكلام عكس ذلك، قال الشاعر:

وَمَـــالِـــيَ إلاَّ آلُ أَحْمَـــدَ شِيعَـــةً   وَمَالِيَ إِلاَّ مَشْعَبُ الْحَقِّ مَشْعَبُ[1]

فجعلهم شِيعَةً لنفسه. وقوله: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، قال المفسرون: يريد: من الشَّكِّ والشرك وجميع النقائص التي تلحق قلوب بني آدم كالغِلِّ والحسد والكِبْر ونحوه، قال عروة بن الزبير: لم يلعن شيئاً قطُّ.

قوله تعالى: ﴿أئفكاً آلهة دون الله تريدون﴾، (أَئِفْكاً) استفهامٌ بمعنى التقرير، أَي: أَكَذِباً ومُحالاً آلهةً دون الله تريدون؟ ونصب (آلِهَةً) على البدل من إِفْكاً، وسهلت الهمزة

---

(١) البيت للكُمَيْت، وهو من قصيدته المشهورة: «طربتُ وما شَوْقاً إلى البيضِ أَطْرَبُ»، وأحمد هو الرسول ﷺ، والشيعة: جماعة الرجل وأهله وأنصاره وأتباعه، والكميت جعلَ آل أحمد شيعة له وهم متقدمون عليه، فعكس المعنى المتعارف عليه من أن يكون المتأخر شيعة للمتقدم، والمتأخر هنا هو الشاعر، والمَشْعَب: الطريق، ومشْعَب: الطريق، ومشْعب الحق: طريقه المفرِّق بينه وبين الباطل، وقد استشهد صاحب اللسان بهذا البيت على معنى المَشْعَب في (شَعَبَ).

الأَصلية من الإِفك. ﴿ فَمَا ظَنُّكُم ﴾ توبيخٌ وتحذيرٌ وتوعُّدٌ.

ثم أَخبر تعالى عن نظرة إِبراهيم عليه السلام في النجوم، رُوي أَن قومه كان لهم عيد يخرجون إليه، فدعوا إِبراهيم عليه السلام للخروج معهم، فنظر حينئذ واعتذر بالسقم، وأَراد البقاءَ خلافهم إلى الأَصنام، وقال ابن زيد، عن أَبيه: أَرسل إِليه ملكُهم أَن غداً عيدٌ فاحضر معنا، فنظر إِلى نجم طالع فقال: إِن هذا يطلع مع سقمي، فقالت فرقة: معنى ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴾ أَي: فيما نَجَم إِليه من أَمر قومه وحاله معهم، وقال الجمهور: نظر في نجوم السماءِ، ورُوي أَن علم النجوم كان عندهم منظوراً فيه مُسْتَعملاً، فأَوهمهم هو من تلك الجهة، وذلك أَنهم كانوا أَهل رعاية وفلاحة، وهاتان المعيشتان يُحتاج فيهما إِلى نظر في النجوم.

واختلف في قوله: ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ ـ فقالت فرقة: هي كذبة في ذات الله، أَخبرهم عن نفسه أنه مريض، وأَن الكوكب أَعطاه ذلك، قال ابن عباس وغيره: أَشار لهم إِلى مرض وسقم يُعدي كالطاعون، ولذلك تَوَلَّوْا مُدْبرين، أَي: فارِّين منه. وقال بعضهم: بل تَوَلَّوْا مُدْبرين لكفرهم به واحتقارهم لأَمره، وعلى هذا التأْويل ـ في أنها كذبة ـ يجيءُ الحديث: «لم يكذب إِبراهيم إِلا ثلاث كذبات: قوله: ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾، وقوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾[1]، وقوله في سارَةَ: هي أُختي»[2].

---

(١) من الآية (٦٣) من سورة (الأنبياء).

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياءِ والنكاح، ومسلم في الفضائل، وأبو داود في الطلاق، والترمذي في تفسير سورة الأنبياء، وأحمد ٢ ـ ٤٠٣، ولفظه كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قطُّ إلا ثلاث كذباتٍ، ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾، وقوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾، وواحدة في شأن سارَة، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الأسلام، فإني لا أعلم أحداً في الأرض مسلماً غيري وغيرك، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار، أتاه فقال له: لقد قدم أرضك امرأةٌ لا ينبغي لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها، فأُتي بها، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقُبضت يده قبضة شديدة، فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك، ففعلت، فعاد فقبضت أشدَّ من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك ففعلت، فعاد فقُبضت أشدَّ من القبضتين الأولَيَيْن، فقال: ادعي الله أن يطلق يدي، فَلَكِ الله ألاَّ أضرَّك، ففعلت وأُطلقت يده، ودعا الذي جاء بها فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان، فأخرجها من أرضي وأعطها هاجَرَ، قال: فأقبلت تمشي، فلما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف فقال لها: مَهْيَمْ؟ قالت: خيراً، كفَّ الله يد=

وقالت فرقة: ليست بكذبة، ولا يجوز الكذب عليه، ولكنها من المعاريض، أَخبرهم بأَنه سقيم المال، أَو على عرف ابن آدم؛ لأَن ابن آدم لا بُدَّ أن يسقم ضرورة. وقيل ـ على هذا ـ: أَراد: إِني سقيم النفس من أُموركم وكفركم، فظهر لهم من كلامه أنه أَراد سقماً بالجسم حاضراً، وهكذا هي المعاريض. وهذا التأْويل لا يردُّه الحديث وذكر الكذبات؛ لأَنه قد يقال لهذا كذِبٌ على الاتساع بحسب اعتقاد المخبر، والكذبُ الذي هو قصد قول الباطل والإِخبارُ بِضِدٍّ ما في النَّفْس بغير منفعة شرعية هو الذي لا يجوز على الأَنبياءِ عليهم الصلاة والسلام.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

«رَاغَ» معناه: مالَ، ومنه قول عدِيِّ بن زيد:

حَيْـثُ لا يَنْفَـعُ الـرِّيَـاغُ وَلاَ يَنْـ ـفَـعُ إِلاَّ الْمُصَـادِقُ النِّحْـرِيـرُ[1]

وقول: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ هو على جهة الاستهزاءِ بِعَبَدَة تلك الأصنام، ورُوي أَن عبادتهم كانت ترك الطعام في بيوت الأَصنام، ويعتقدون أنها تصيب منه شميماً، ونحو هذا من المعتقدات الباطلة، ثم كان خدمة البيت يأْكلونه. فلما دخل إِبراهيم عليه

= الفاجر، وأَخْدم خادماً. قال أبو هريرة: فتلك أُمُّكم يا بني ماءِ السماءِ»اهـ. وقوله: (مَهْيَم) معناه: ما شأنك وما خبرك؟ وقولها: (وأَخْدَمَ خادماً) معناه: وهبني خادماً، وهي هاجر. و(بني ماءِ السماءِ) هم العرب، قيل لهم ذلك لخلوص نسبهم وصفائه.

(١) البيت من قصيدته المعروفة باسم «عبرة الدهر»، والتي قالها وهو في السجن، وتحدث فيها عن صروف الدهر والموت الذي لا تؤجِّله قوة، والتي بدأها بقوله: «أَرَوَاحٌ مُودِّعٌ أَمْ بُكُورُ لَكَ...»، ويروى البيت: «يوم لا ينفع الرَّوَاغُ» بالواو، وهي الأَصْلُ، وفي اللسان (رَوَغ) أنه يقال: رَوَاغَة، ورِيَاغَة، وأَصْلها رِوَاغة صارت الواو ياءً للكسرة قبلها، ومعنى الرِّياغ: المَيْلُ، وهي موضع الشاهد. والنِّحْرير: الحاذق الماهر العاقل المجرَّب، وقيل: هو الرجل الفَطِن المُتْقِن البصير في كل شيءٍ. ويروى البيت: «وَلا يُقْدِمُ إلا المُشَيَّعُ النِّحْرير» بدلا من «ولا ينفع إلا المصادقُ النِّحرير». ومعنى البيت: في ذلك اليوم العصيب، يوم يأْتيني الموت والهلاك لا تنجعُ الحيلة والمراوغة، ولا يصمد إلا الشجاع الفطن الصادق، في حين يتخاذل الجبان الفاقد للعزم.

السلام وقف على الأكل والنطق والمخاطبة للأصنام بقصد الاستهزاءِ بعابديها، ثم مال عند ذلك إلى ضرب تلك الأصنام بفأسٍ حتى جعلها جُذَاذاً.

واختلف في قوله: (بِالْيَمِينِ) ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: يُمنى يديه، وقيل: أراد: بقُوَّته؛ لأنه يجمع يديه بالفأس، وقيل: أراد بيمين القسم في قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾[1]، و(ضَرْباً) نصب على المصدر بفعل مضمر من لفظه، وفي مصحف عبد الله: [صَفقاً بِالْيَمِينِ].

والضمير في قوله: (فَأَقْبَلُوا) لكفار قومه، وقرأ الجمهور: (يَزِفُّونَ) بفتح الياءِ، من: زَفَّ إذا أَسرَع، وزفَّت الإبل إذا أسرعت، ومنه قول الفرزدق:

فَجَـاءَ قَـرِيـعُ الشَّـوْلِ قَبْـلَ إِفَـالِهَـا ... يَزِفُّ وجاءَتْ خَلْفَهُ وَهِيَ زُفَّفُ[2]

ومنه قول الهذليِّ:

وزَفَّتِ الشَّولُ مِنْ بَرْدِ الْعَشِيِّ كَمَا ... زَفَّ النَّعـامُ إِلـى حَفْـانِـهِ الـرُّوحُ[3]

---

(١) من الآية (٥٧) من سورة (الأنبياء).

(٢) هذا البيت من قصيدة الفرزدق التي مطلعها: «عَزَفَت بأعْشاش وما كدتَ تعزف»، وهو في الديوان، وفي اللسان (قَرَعَ)، والقَرِيعُ من الإبل: الفَحْلُ الذي تصوَّى للضراب، وقيل: الذي يأخذ بذراع الناقة فيُنيخها، وسُمِّي قريعاً لأنه يقرع الناقة، والشَّوْل: الناقة التي قَلَّ لبنها وخفت بطنها من الأولاد، والإفالُ: جمع أفِيلٍ وأَفِيلَةٍ، وهو الفَصيلُ، وقال أبو عبيدة: الإفالُ: نبات المخاض، والزفيف: سرعة المشي مع تقارب وسكون، وقيل: هو أول عدو النعام، والبيتُ يصف قطيعاً من الإبل، في أوله الفحل الذي أقبل مُسْرعاً قبل الإفال، وجاءَت هي بعده تُسرع في المشي مثل سرعته.

(٣) البيت من قصيدة له يقول في مطلها مصَوِّراً الهموم التي جاءَته بالليل، وجعلت أشجار الصَّاب كأنها مشقوقةٌ في عينه:

نَـامَ الخَلِـيُّ وبِـتُّ اللَّيْـلَ مُشْتَجِـراً ... كـأنَّ عَيْنـي فيهـا الصَّـاب مَـذْبـوحُ

والزفيف: مشيٌ سريع في تقارب خطوٍ، والشَّوْل: الإبل التي شالَ لبنها، أي: خَفَّ أو قَلَّ، وخفَّت بطونها من الأولاد، وحفَّانُ النَّعام: فراخُه، وكلمة (الرَّوحُ) صفة للنَّعام، وتقدير الكلام: كما زفَّ النَّعامُ الرُّوحُ إلى فراخه، يقال: في النَّعامة رَوَحٌ، وهو سَعَةٌ بين الرجلين ومَيْل إلى الخارج، وكل نعامة رَوْحاءُ. يقول: إن الناقة الشَّوْلَ أسرعت من برد العَشيِّ إلى مكان تستدفىء فيه، وإنها في سرعتها كالنَّعام الرُّوح الذي يُسرع إلى فراخه، وخصَّ الشَّوْلَ بقلَّة الصبر على البرد لخفَّة بطونها من أولادها، ولو كانت بطونها ممتلئة بالحمل لكانت أصبر، وقال الأخفس: «الرَّوَحُ: ميْلٌ إلى الجانب الوحشيِّ، حُكي عن عمر رضي الله عنه أنه كان أرْوَحَ، يُحسب راكباً والرجال يمشون، كأنه من رجال بن سَدُوسٍ». والشاهد في البيت أن (زَفَّ) بمعنى: أسْرَع.

وقرأ حمزة وحده: [يُزِفُّونَ] بضم الياءِ، من: أَزَفَّ إِذا دخل في الزَّفيف، وليست بهمزة تعدية، هذا قول، وقال أبو عليٍّ: معناها: يحملون غيرهم على الزَّفيف، وحكاه عن الأَصمعي، وهي قراءَة مجاهد، وابن وثَّاب، والأَعمش. وقرأ مجاهد، وعبد الله بن زيد: [يَزِفُونَ] بفتح الياءِ وتخفيف الفاءِ من: وَزَفَ يَزِفُ، وهي لغة منكرةٌ، قال الكسائي: والفراءُ لا يعرفها بمعنى: زَفَّ. وقال مجاهد: الوَزِيفُ: السيلانُ.

وذهبت فرقة إِلى أَن [يَزِفُّونَ] معناه: يَتَمَهَّلُونَ في مشيهم كزفاف العروس، والمعنى أَنهم كانوا على طمأنينةٍ من أَن ينالَ أَحدٌ آلهتهم بسوءٍ لِعِزَّتهم، فكانوا لذلك مُتَمَهِّلين. وزَفَّ بمعنى أَسْرَعَ هو المعروف.

ثم إِنَّ إِبراهيم عليه السلام قال لهم في محاورة طويلة قد تضمنتها الآية: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾، أَي: أَتجعلون إِلٰهاً مُعَظَّماً شيئاً صنعتموه من عود وحجر، وعملتموه بأَيديكم؟ وأَخبرهم بخبر لا يمكنهم إِنكاره وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾، واختلف المتأَولون في قوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ـ فذهب جماعة من المفسرين إِلى أَن (ما) مصدرية، والمعنى: وأَعمالكُم، وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق أَفعال العباد، وذلك موافق لمذهب أَهل السُّنَّة في ذلك[1]. وقالت فرقة: هي بمعنى الذي، وقالت فرقة: (ما) استفهام، وقالت فرقة: هي نفيٌ، بمعنى: وأَنتم لا تعملون شيئاً في وقت خلقكم ولا قبله، ولا تقدرون على شيءٍ، والمعتزلة مضطرة إِلى الزوال عن أَن تجعل (ما) مصدرية.

و«البُنْيَانُ» قيل: كان في موضع إِيقاد النار، وقيل: بل كان للمنجنيق الذي رمي عنه، وقدم تقدم قصص نار إِبراهيم عليه السلام، وجعلهم الله الأَسْفِلِين بأَن غُلِبوا وذلُّوا ونالتهم العقوبات.

---

(١) ومذهبُهُم أن الأفعال خَلْقٌ للهِ عزَّ وجلَّ واكتسابٌ للعباد، وفي هذا إبطال مذاهب الجَبْرِية والقَدَرية، وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله خالق كل صانع وصنعته»، ذكر ذلك الثعلبي، وخرَّجه البيهقي من حديث حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزَّ وجلَّ صنع كلَّ صانع وصنعته، فهو الخالق، وهو الصانع سبحانه».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قالت فرقة: إنَّ قول إبراهيم ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ كان بعد خروجه من النار، وأنه أَشار بذهابه إلى هجرته من أَرض بابل حيث كانت مملكة نمروذ، فخرج إلى الشام، ويُرْوى: إلى بلاد مصر. وقالت فرقة: إن قوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ﴾ ليس مرادُه به الهجرة كما في آية أُخرى، وإنما مراده لقاءُ الله بعد الاحتراق؛ لكنَّه ظن أَن النار سيموت فيها، فقال هذه المقالة قبل أَن يُطرح في النار، فكأَنه قال: إني سائر بهذا العمل إلى ربِّي، وهو سيهديني إلى الجنة، نحا إلى هذا المعنى قتادة، وللعارفين بهذا الذهاب تمثيل واحتجاج في الصفاءِ، وهو مَحْمَلٌ حسن في ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ﴾ وحده، والأَول أَظهر في نمط الآية عمَّا بعده؛ لأَن الهداية معه تَتَرَتَّب، والدعاءُ في الولد كذلك، ولا يصح مع ذهاب الفناءِ.

قوله تعالى: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، (مِنْ) للتَّبعيض، أَي: ولداً يكون في عداد الصالحين، وقوله: (فَبَشَّرْنَاهُ)، قال كثير من العلماءِ، منهم العباس بن عبد المطلب ـ وقد رفعه ـ وعليٌّ، وابن عباس، وابن مسعود، وكعب، وعبيد بن عميرة: هي البشارة المعروفة بإسحق، وهو الذبيح، وكان أَضمر ذبحه بالشام، وقال عطاءٌ، ومقاتل: كان ببيت المقدس، وقال بعضهم: بل بالحجاز، جاءَ مع ابنه على البراق، وقال ابن عباس رضي الله عنهما والبشارة التي بعد هذه في هذه الآية هي بشارة نُبُوَّته، كما قال في موسى عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾(١)، وهو كان قد وهبه له قبل ذلك، وإنما أَراد النُبُوَّة، فكذلك هذه. وقالت هذه الفرقة في قول الأعرابي: «يابْنَ الذَّبِيحَيْنِ»: أَراد إِسْحَقَ، والعمُّ أَبٌ، وقيل: إنه أُمر بذبحه بعد ما وُلد له يعقوب، فلم يتعارض الأمر بالذبح مع البشارة بولده وَوَلَدِ وَلَدِه.

وقالت فرقة: هذه البشارة هي بإسماعيل عليه السلام، وهو الذبيح، وأَمْرُ ذبحه كان

---

(١) الآية (٣) من سورة (مريم).

بالحجاز وبمنى، وثَمَّ رمى إبراهيم عليه السلام الشيطانَ بالجمرات، وقَبل الكبش وسنَّ السُّنَن، وهذا قول ابن عباس أيضاً، وابن عمر رضي الله عنهما، وروي عن الشَّعبي، والحسن، ومجاهد، ومعاوية بن أَبي سفيان ـ ورفعه معاوية إلى النبي ﷺ ـ ومحمد بن كعب، وبه كان أَبي رضي الله عنه يقول، ويستدل بقول الأَعرابي للنبي ﷺ: «يابن الذبيحَيْن» وبقوله عليه الصلاة والسلام: «أَنا ابن الذبيحين»، يعني إسماعيل وعبد الله أَباه، ويَسْتَدِلُّ بأَن البشارة اقترنت من ورائه بيعقوب، فلو قال له في صباه: اذبحه، لَنَاقَضَ ذلك البشارةَ بيعقوب عليهم السلام، ويَسْتَدِل بظاهر هذه الآية أَنه بُشِّر بإسماعيل وانقضى أَمْرُ ذبحه، ثم بُشِّر بإسحق بعد ذلك، وسمعتُه يقول: كان إبراهيم يجيءُ من الشام إلى مكَّة على البراق زائراً ويعود من يومه. وقد ذكر ذلك الثعلبي عن سعيد بن جبير، ولم يذكر أَن ذلك على البراق، وذكر القصة عن ابن إسحق وفيها ذكر البراق كما سمعت أَبي يحكي.

وذكر الطبري أَن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الذبيح إسماعيل، وتزعم اليهود أَنه إسحق، وكذبت اليهود، وذكر أَيضاً أَن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه سأَل عن ذلك رجلاً يهوديًا كان أَسلم وحسُن إسلامه فقال: الذبيح إسماعيل عليه السلام، وإن اليهود تعلم ذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب أَن تكون هذه الآيات والفضل والله في أَبيكم.

و«السَّعْي» في هذه الآية العمل والعبادة والمعونة، هذا قول ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد. وقال قتادة: السَّعْيُ على القدم، يريد سعياً متمكناً، وهذا في المعنى نحو الأول. وقرأ الضحاك: [معه السَّعي وأَسر في نفسه حزناً]، قال: وهكذا في حرف ابن مسعود، وهي قراءَة الأَعمش، وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ يحتمل أَن يكون رأَى ذلك بعينيه، ورؤْيا الأَنبياءِ وحيٌ، وعيَّن له وقت الامتثال، ويحتمل أَنْ أُمر في نومه بذبحه فعبَّر هو عن ذلك، أَي: إني رأَيت في النوم ما يوجب أَن أَذبحك.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿مَاذَا تَرَىٰ﴾ بفتح التَّاءِ والرَّاءِ، وقرأَ حمزة والكسائي: [ماذا تُرِي] بضم التاءِ وكسر الرَّاءِ، على معنى: ما يظهر منك من جَلَد أَو جزع، وهي قراءَة ابن مسعود، والأَسود بن يزيد، وابن وثاب، وطلحة، والأَعمش، ومجاهد. وقرأَ الأَعمش، والضحاك بضم الياءِ وفتح الراءِ، على الفعل المجهول. فأَما الأُولى فهي من

رؤية الرأي، وهي رؤية تتعدى إلى مفعول واحدٍ، وهو ـ في هذه الآية ـ إما (ماذا) تحملهما على أن تجعلهما بمنزلة اسم واحد، وإمَّا [ذا] على أن تجعلها بمعنى الذي، وتكون [مَا] استفهاماً، وتكون الهاءُ محذوفة من الصلة[1]. وأما القراءَة الثانية فيكون تقدير مفعولها كما مرَّ في هذه، غير أن الفعل فيها منقول من: رأى زيد الشيءَ، وأَرَيْتُهُ إيَّاه، إلاَّ أنه من باب أعطيت، فيجوز أن يقتصر على أحد المفعولين. وأما القراءَة الثالثة فقد ضعفها أبو علي، وتتَّجه على تحامل، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [افعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾.

قرأَ جمهور الناس: (أَسْلَمَا) أَي: أَنفسهما، واستسلما لله. وقرأَ علي، وعبد الله، وابن عباس، ومجاهد، والثوري: [سَلَّمَا]، والمعنى: فوَّضا إليه في قضائه وقَدَره، وانحملا على أَمره، فأَسلم إبراهيم ابنه، وأَسلم الابن نفسه.

واختلف النحاة في جواب (لَمَّا) ـ فقال الكوفيون: الجواب (نَادَيْنَاهُ) والواو زائدة. وقالت فرقة: الجواب: (تَلَّهُ) والواو زائدة. كزيادتها في ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾[2]، وقال البصريون: الجواب محذوف، تقديره: فَلَمَّا أَسْلَمَا سَلَّمَا وتَلَّهُ، هذا قول سيبويه والخليل، وهو عندهم كقول امرىء القيس:

فَلَمَّـا أَجَـزْنَـا سَـاحَـةَ الْحَيِّ وانتَحَى بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذِي حِقَافٍ عَقَنْقَلِ[3]

---

(١) ويكون التقدير: ما الذي تراه؟.

(٢) من الآية (١٩) من سورة (النبأ). والآية أُثبتت هكذا في الأصول، والصواب أن يكون الاستشهاد بقوله تعالى في الآية (٧٣) من سورة الزُّمَر: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ﴾ فإنها هي التي قيل فيها: إن الجواب هو ﴿قَالَ لَهُمْ﴾ والواو زائدة، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ﴾، أي: أَوْحَيْنَا، وقوله تعالى: ﴿وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد﴾، أي: اقترب، ونعتقد أن الخطأ من النساخ.

(٣) البيت من المعلَّقة، وفيه مع ما قبله وبعده من أبيات يصور امرؤ القيس كيف خرج مع محبوبته من الحيِّ إلى حيث رتب أن يكونا وحدهما. وأَجزتُ المكان وجُزْتُه إذا قطعتَه، والسَّاحة: المكان الواسع، أو=

والتقدير: فلمَّا أَجزنا ساحة الحيِّ أَجَزْنا وانْتَحَى. وقال بعض البصريِّين الجواب محذوف، وتقديره: فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِين أَجْزَلَ أَجْرهما، أَو نحو هذا مما يقتضيه المعنى.

وقوله تعالى: (وَتَلَّهُ) معناه: وضعه بقوة، ومنه الحديث (فَتَلَّهُ رسول الله ﷺ في يده)(١)، أَي: وضعه بقوَّة، والتَّلُّ من الأَرض مأْخوذ من هذا، كأَنه تُلَّ في ذلك الموضع، و(لِلْجَبِينِ) معناه: لتلك الجهة وعليها، كما يقولون في المثل: لليديْن وللفم، وكما تقول: سقط لِشِقِّه الأَيسر، وقال ساعدة بن جُؤَيَّة:

فَظَــلَّ تَلِيـــلاً لِلْجَبِينَيْـــنِ(٢)

وهما ما اكتنف الجبهة من هُنا وهنا.

ورُوي في قصص هذه الآية أَن الذبيح قال لأبيه: اشدُدْ رباطي بالحبل لئلاَّ أَضطرب، واصرف بصرك عني لئلا ترحمني، ورُدَّ وجهي نحو الأَرض، قال قتادة: كبَّه لِفِيه وأَخذ الشفرة، والتَّلُّ للجبين ليس يقتضي أَن الوجه نحو الأَرض، بل هي هيئة من ذُبح للقبلة على جنبه. وقوله: ﴿أن يا إبراهيم﴾ مفسِّرة ولا موضع لها من الإِعراب.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَآ﴾ يحتمل أَن يريد: بقلبك، على معنى: كانت

= الذي يقع بين الدُّور. والحيُّ: القبيلة، ولكن المراد هنا الحِلَّة، والانتحاءُ: الاعتماد على شيءٍ، والبطن: مكان منخفض حوله أماكن مرتفعة، والخبت: أرض مطمئنة، والحِقْف: رملٌ مشرف معوج، وجمعه أحقاف، والعَقَنْقَل: الرمل المنعقد المتلبد. وقد أسند فعل الانتحاءِ إلى بطن خَبْت، وهو في الحقيقة له ولمحبوبته، وهذا ضرب من الاتساع في الكلام، ومعنى البيت: فلمَّا خرجنا من بين بيوت القبيلة وصرنا إلى هذه الأرض طاب حالُنا وراق مجلسنا. وهذا على أن جواب (لَمَّا) محذوف مقدر، وهو مذهب البصريين، ولكن الكوفيين يرون أن الواو في (وَانْتَحَى) زائدة، وكلمة (انْتَحى) هي جواب (لَمَّا). ولهذا استشهد المؤلف بالبيت.

(١) الحديث في صحيح مسلم، عن سهل بن سعد الساعدي، وقد ذكره ابن الأثير في (النهاية)، واستشهد به صاحب اللسان (تَلَلَ)، ولفظه كما في مسلم أن رسول الله ﷺ أُتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلامٌ وعن يساره أشياخ، فقال لِلْغلام: أتأذن لي أن أُعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: لا والله، لا أُوثر بنصيبي منك أحداً، قال: فتلَّه رسول الله ﷺ في يده، يريد: جعله في يده.

(٢) التَّلِيلُ كالمَتْلُول: الصريع، يقال: تَلَّهُ يَتُلُّه تَلاً فهو متْلُولٌ وتَلِيلٌ: صَرَعَه، والجبين: فوق الصُّدغ، وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها، وقال ابن سيدة: الجبينان حرفان مُكْتَنِفا الجبهة من جانبها فيما بين الحاجبين مُصْعِداً إلى قصاص الشعر. والجَبِين مذكر لا غير.

عندك رُؤْيا صادقة حقًّا من الله، فعملت بحسبها حين آمنت بها واعتقدتَ صدقها، ويحتمل أَن يريد: صدَّقت بعملك ما حصل عن الرؤيا في نفسك، كأَنه قال: قد وفَّيتها حقها من العمل. والرُّؤْيا اسم لما يُرى من قِبَل الله في المنام، والحُلْم اسم لما يُرى مِن قِبَل الشيطان، ومنه الحديث الصحيح «الرُّؤْيا من الله والحُلْم من الشيطان»(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إِلى ما عمل إبراهيم، كأَنه يقول: إنا بهذا النوع من الإِخلاص والطاعة نجزي المحسنين، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَآ﴾ يحتمل أَن يشير إِلى ما في القصة من امتحان واختبارُ بالشِّدَّة، ويحتمل أَن يشير إِلى ما في القصة من سرور بالفدية وإِنقاذ من تلك الشدة في إِنقاذ الذبح، فيكون البلاءُ بمعنى النعمة، وإِلى كل احتمال قد أَشارت فرقة من المفسرين، ورُوي في الحديث أَن الله تعالى أَوحى إِلى إِسحق أَني قد أَعطيتك بصبرك لأَمري دعوةً أُعطيك فيها ما سأَلت، فَسَلْني، فقال: يا ربِّ أَيُّمَا عبد لقيك من الأَولين والآخرين لا يشرك بك شيئاً فأَدْخله الجنة(٢).

والضمير في (فَدَيْنَاهُ) عائد على الذبيح، و«الذِّبْحُ» اسمٌ لما يذبح، ووصفه بالعظم لأَنه مُتَقَبَّل يقيناً، قاله مجاهد، وقال عمرو بن عبيد: الذِّبْحُ الكبْشُ، والعظيمُ لِجَرْيِ السُّنَّة به وكونه ديناً باقياً آخر الدهر، وقال الحسن بن الفضل: عظيم لأَنه من عند الله كان، وقال أَبو بكر الورَّاق: لأنه لم يكن عن نَسْل بل عن التكوين، وروي عن ابن عباس، وابن جُبَيْر أن كونه عظيماً هو أَنه من كباش الجنة رَعَى فيها أَربعين خريفاً، وقال ابن عباس: هو الكبش الذي قَرَّب ولد آدم(٣)، وقال ابن عباس، والحسن: كان وعْلاً أُهبط عليه من ثَبير(٤)، وقول الجمهور إِنه كبش أَبيض أَقرن أَعين، وجده ورآه مربوطاً

---

(١) أخرجه البخاري في التعبير وبدءِ الخلق والطب، ومسلم في الرؤيا، وأبو داود في الأدب، والترمذي في الرؤيا، وابن ماجه، والدارمي، ومالك في الموطأ، كلُّهم في الرؤيا، والإمام أحمد في المسند (٥ ـ ٢٩٦، ٣٠٠، ٣٠٥، ٣١٠). عن أبي قتادة.

(٢) أخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن عطاءِ بن يسار رضي الله عنه حديثاً طويلاً ـ لم يرفعه عطاءٌ ـ وفي آخره أن إبراهيم عليه السلام قال: يا بني، إن الله قد أعطاك بصبرك اليوم، فَسَلْ ما شئت تُعطى، قال: فإني أسأل الله ألا يلقاه له عبد مؤمن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلا غفر له وأدخله الجنة. (الدر المنثور). وأخرج ابن جرير مثله، ولكن اللفظ في آخره يقول: وأوحى الله إلى إسحق: إني قد أعطيتك. . . الخ ما ذكره المؤلف هنا.

(٣) يعني الكبش الذي قرَّبه هابيل لله وتقبَّله الله منه.

(٤) الوَعْل: التَّيْس البَرِّي أو تَيْس الجَبَل، أي: ذَكر الأَرْوَى، وهو جنب من المَعِز الجبلية، له قرنان قويانِ=

بِسَمُرة، وروي أنه انفلت فاتَّبعه ورماه بحصيات في مواضع الجمرات، فبذلك مضت السُّنَّة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: رجم الشيطان عند جمرة العقبة وغيرها، وقد تقدم هذا، وأهل السُّنَّة على أن هذه القصة نُسخ فيها العزم على الفعل، والمعتزلة تقول: إنه لا يصح نسخٌ إلا بعد وقوع الفعل، وافترقت في هذه الآية على فرقتين: فقالت فرقة: وقع الذَّبح والتَّأم بعد ذلك، وهذا كذبٌ صراحٌ، وقالت فرقة منهم: بل كان إبراهيم لم ير في منامه إلاَّ إمْرار الشَّفْرة فقط فظن أنه ذبح مجهز، فنفَّذ لذلك، فلما وقع الذي رآه وقع النسخ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإذاً لا اختلاف أن إبراهيم أَمَرَّ الشَّفرة على حلق ابنه فلم تقطع.

ورُوي أن صفحة نحاس اعترضته بحرفها، والله أعلم كيف كان، فقد كثَّر الناس في القصص بما صحته معدومة فاختصرته. وقد تقدم تفسير مثل قوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ معناه: بمثل هذا الفعل، وباقي الآية بيِّن.

ومِمَّا يستغرب في هذه الآية أن عُبَيْد بن عُمَيْر[1] قال: ذُبح في المقام، وذكر الطبري عن جماعة لم يُسَمِّها أنها قالت: كان الأمر وإراءة الذبح والقصة كلها بالشام، وقال الجمهور: ذُبح بمنى، وقال الشعبي: رأيت قَرْنَيْ كبش إبراهيم معلَّقين في الكعبة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

من قال إن الذبيح هو إسماعيل جعل هذه البشارة بولادة إسحق، وهي البشارة المترددة في غير ما سورة، ومن جعل الذبيح إسحق جعل هذه البشارة لنفس النبوة فقط.

= منحنيان كَسَيْفَيْن أحدَبين، وجمعه: أوعال ووعول، وثبيرٌ: جبلٌ بمكة، يقال: أشرِقْ ثَبيرُ كيما نُغير.

(١) هو عُبَيْد بن عُمَيْر بن قتادة الليثي، أبو عاصم المكي، وُلد على عهد النبي ﷺ، قاله مسلم، وعدَّه غيره في كبار التابعين، وكان قاصَّ أهل مكة، مُجْمَع على ثقته، مات قبل ابن عمر. (تقريب التهذيب).

والمِنَّة على موسى وهارون هي في النبوة وسائر ما جرى معها من مكانتهما عند الله، و«الكَرْبُ العظيم» هو تعبُّد القبط لهم، ثم جيش فرعون حين قالت بنو إسرائيل: (إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)، ثم البحر بعد ذلك، والضمير في (وَنَصَرْنَاهُمْ) عائد على الجماعة المتقدم ذكرها، وهم موسى وهارون وقومهما. وقال قوم: أَراد موسى وهارون عليهما السلام ولكن أَخرج ضميرهما مخرج الجمع تفخيماً، وهذا ما تفعله العرب، تكني عمن تُعَظِّم بكناية الجماعة. و(الكتاب المستبين): التوراة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

(الصراط المستقيم) يريد به في هذه الآية طريقَ الشرع والنبوّة المؤدِّي إلى الله تعالى، وقد تقدم القول في مثل قوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾.

وإِلْيَاس نبيٌّ من أَنبياءِ الله تعالى، قال قتادة، وابن مسعود: هو إِدريس عليه السلام، وقال الطبري: هو إِلياسُ بن ياسين، بن فنحاص، بن العيزار، بن هارون، بن عمران. وقالت فرقة: هو من ولد هارون عليه السلام. وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾ بهمزة مكسورة، وهو اسم، وقرأَ ابن عامر، وابن محيصن. وعكرمة، والحسن، والأَعرج: [وإنَّ الْيَاسَ] بغير همزٍ وَبِصِلَة الأَلف، وهذا يتجه على أَحد وجهين: إِما أَن يكون حذف الهمزة، كما حذفها ابن كثير في قوله: [إنها لَحْدَى الكُبَرْ][1]، أَراد: لإِحْدَى، فنَزَّل المنفصل منزلة المتصل، كما قد ينزل في كثير من الأُمور، وإِما أَن يجعلها الأَلف التي تصحب اللام للتعريف، كالْيَسَعْ، وفي مصحف أُبيِّ بن كعب: [وَإِنَّ إِيلِيسَ] بأَلف مكسورة وياءٍ ساكنة بعدها وسين مفتوحة، وكذلك فيه: [سَلَامٌ عَلَى إِيلِيسَ]، وقرأَ نافع، وابن عامر، [سلامٌ على آل ياسين]، وقرأَ الباقون: ﴿على إِلياسين﴾ بأَلف مكسورة ولام ساكنة، وجعلها الحسن، وأَبو رجاءٍ موصولة، فوجه الأُولى أَنها ـ فيما

---

(١) الآية (٣٥) من سورة (المدثر).

يزعمون ـ مفصولة في المصحف، فدلَّ ذلك على أنها بمعنى (أَهْل)، و(ياسين) اسم أَيضاً لإِلْيَاسَ، وقيل: هو اسم لمحمد ﷺ، وَوَجْه الثانية أنه جمع إِلْيَاسِيّ، كما قالوا: أَعْجَمِيٌّ وأَعْجَمِيُّون، قال أَبو علي: والتقدير: إِلْيَاسِيِّينَ، فحذف كما حذف من أَعجميِّينَ، ومن الأَشعريِّين والنُّمَيْرِيِّين والمُهَلَّبِيِّين[1]، ونحوه. وحكى أَبو عمرو أَن منادياً نادى يوم الكلاب: هلك اليزيدون[2] ويُرْوَى قول الشاعر:

قَــدْنِــيَ مِــنْ نَصْــرِ الْخُبَيْبِيــنَ قَــدِي . . . .[3]

بكسر الباءِ الثانية، نسبة إِلى أَبي خُبَيْب. ويقال: سمَّى كل واحد من آلِ إِلياسِينَ إِلْياسَ، كما قالوا: شابت مفارقُه، فسُمِّي كل جزءٍ من المَفرِق مَفْرقاً، ومنه قولهم: «جَمَلٌ ذو عَثَانينَ»[4]، وعلى هذا أَنشد ابن جِنِّي:

مَـــرَّتْ بِنَـــا أَوَّلَ مِـــنْ أُمُـــوس تَمِيــسُ فِينَــا مِشْيَــةَ الْعَــرُوسِ[5]

---

(١) فقيل فيه: الأَعْجَمون والأشعَرون والنُّمَيْرون والمُهَلَّبُون.

(٢) يعني يزيد بن عبد المدان، ويزيد بن هوبر، ويزيد بن مَخْرمة الحارثيون. حكى ذلك أبو عمرو بن العلاءِ.

(٣) هذا صدر بيت من أُرجوزة لحميد الأرقط يمدح عبد الملك بن مروان، ويُعَرِّض بعبد الله بن الزبير، إذ يرميه بالبخل والإلحاد في الْحَرَم، وقيل: إن البيت لأبي بحدلة، والبيت بتمامه:

قَــدْنِــيَ مِــنْ نَصْــرِ الْخُبَيْبِيــنَ قَــدِي لَيْــسَ الإِمَــامُ بــالشَّحِيــحِ الْمُلْحِــدِ

وقَدْني وقَدِي بمعنى: حَسْبي، وأراد بالخُبَيْبِينَ عبد الله بن الزبير فجمعه على أن من كان على مذهبه داخلٌ معه، وهذا هو الشاهد هنا، قال الفراءُ في (معاني القرآن): «وإن شئت ذهبت بالياسين إلى أن تجعله جمعاً، فتجعل أصحابه داخلين في اسمه، كما تقول للقوم رئيسهم المهلَّب: قد جاءتكم المهالبة والمهلَّبون، فيكون بمنزلة قولك: الأَشْعَرِينَ والسَّعْدينَ»، ويروى البيت (الخُبَيْبَيْن) بالتثنية، والمراد بهما عبد الله بن الزبير وابنه خُبَيْبا، وقيل: أراد عبد الله وأخاه مُصْعَباً، والمراد بالإمام في البيت عبد الملك بن مروان، نفى عنه الشحَّ والإلحاد تعريضاً بابن الزبير.

(٤) العَثَانين: جمع عُثْنُون، وهو شعيرات طوالٌ عند مَذْبح البعير. وتوجد كذلك في التَّيْس وتحت منقار الديك، ومثل هذا قولهم: «امرأةٌ واضحةُ اللَّبَّات»، جَعَلوا كل جزءٍ يجاور اللَّبَّة لَبَّة، واللَّبَّة موضع القلادة من الصدر.

(٥) البيت في اللسان (أَمَسَ) غير منسوب. و(أُمُوس): جمع أَمْسِ، ومن المعروف أَنَّ (أَمْسِ) مبني على الكسر إذا كان معرفة أو بغير الألف واللام أو غير مضاف ـ على خلاف في ذلك ـ فإذا كان نكرة أو عرِّف بالألف واللام. . . أو أُضيف أُعرب، وكذلك إذا جُمِعَ، وقد ذكر صاحب اللسان هذا البيت شاهداً على إعراب (أَمْس) لأنها مجموعة على (أُمُوس)، وتميس: تتبختر وتختال، ومشية العروس فيها تهادٍ وتَبَختر.

فسمَّى كلَّ جزءٍ من أَمْسِ أَمْساً، ثم جَمَع. وقال أَبو عُبَيْد: لم يُسَلِّم على آلِ أَحد من الأنبياءِ المذكورين قَبْلُ، فلذلك تُرَجَّح قراءَةُ من قرأ: [إِلْيَاسِينَ] إِذْ هو اسمٌ واحدٌ له. وقرأ ابن مسعود، والأعمش: [وإِنَّ إِدْرِيسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِين] و[سَلَامٌ عَلَى إِدْرَاسِينَ]، وهي لغة في (إِدْريس) كإِبراهيم وإِبراهام.

وقوله: (أَتَدْعُونَ) معناه: أَتعبدون؟ و«الْبَعْلُ»: الرَّبُّ بلغة اليمن، قاله عكرمة، وقتادة. وسمع ابن عباس رضي الله عنهما رجلاً يَنْشُد ضالة، فقال له آخر: أَنا بَعْلُها، فقال ابن عباس: الله أكبر ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾. وقال الضحاك، وابن زيد، والحسن: البَعْلُ اسم صنم كان لهم، ويقال له: بَعْلُ بَكْ، وإِليه نَسَب الناسُ، وذكر ابن إِسحق عن فرقة أَن (بَعْلاً) اسم امرأَة كانت أَتَتْهُمْ بضلالة. وقوله: ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ من حيث قيل للإِنسان على التَّجوز: إِنه يخلق، وجب أَن يكون تعالى أَحسَن الخالقين؛ إِذْ خلقُه اختراع وإِيجاد من عدم، وخَلْق الإِنسان مجاز، كما قال الشاعر:

وَلأَنْــتَ تَفْــرِي مَــا خَلَقْــتَ وَبَعْـ ... ـضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لاَ يَفْرِي[1]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾.

---

(١) قال زهير بن أبي سُلْمى هذا البيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان، ومطلعها:

لِمَــنِ الــدِّيَــارُ بِقُنَّــةِ الحِجْــرِ ... أَقْــوَيْــنَ مِــنْ حِجَــجٍ ومِــنْ شَهْــرِ

وتفري معناها: تقطع، قال في اللسان بعد أن ذكر البيت في (فَرَى): «معناه: تُنَفِّذ ما تعزمُ عليه وتقدره، وهو مثل»، وقد قال النبي ﷺ في عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ورآه في منامه ينزع عن قليب بغَرْب: (فلم أَرَ عبقرياً يفري فريَّه)، ويقال: فلانٌ يفري الفريَّ إذا كان يأتي بالعجب في عمله. وخَلَقْتَ: قَدَّرْتَ وهيَّأت للقطع، وفي اللسان (خَلَق) أن الخَلْق على ضربين في كلام العرب: أحدهما الإنشاءُ على مثال أَبدعه، والآخر التقدير. وفي حديث أُخت أُمَيَّة بن أبي الصلت قالت: فدخل عليَّ وأنا أخْلُق أديماً، أي: أُقَدِّرُه لأقطعه، وعلى هذا فالثاني هو المراد هنا، وفيه الشاهد، حيث أن الخلق الذي ينسب للناس مجاز، ومعناه أنهم يقدرون الأديم قبل قطعه، أما خلق الله تبارك وتعالى فاختراعٌ وإيجاد من عدم، وحقيقة كبرى، وتبارك الله أحسن الخالقين.

قرأ حمزة، والكسائي، وعاصم بنصب الجميع على البدل من قوله: (أَحْسَنَ)، وقرأ الباقون وعاصم أيضاً برفعهم على القطع والاستئناف. والضمير في (فَكَذَّبُوهُ) عائد على قوم إِلْيَاس. و«مُحْضَرُون» معناه: مجموعون لعذاب الله، وقد تقدم تفسيرُ مثل ما بقي من الآية، وتقدم أيضاً القول في قوله تعالى: ﴿سلام على إلياسين﴾.

ولوطٌ، قيل: هو ابن أُخته، وقد تقدمت قصته بكمالها، وامرأَته هي العجوزُ المهْلَكَةُ، وكانت كافرة، فإِما كانت مستترةً منه وإِمَّا كانت مُعْلنةً، وكان نكاح الوثنيات والإِقامة عليهن جائزاً. و«الْغَابِرُونَ»: الباقون، وغَبَرَ بمعنى: بَقِيَ، ومعناه ها هنا: بقيت في الهلاك.

ثم خاطب الله تعالى قريشاً، أَو هو على معنى: قُل لهم يا محمد: وإِنكم لتمرُّون عليهم في الصباح وبالليل، فواجب أَن يقع اعتباركم ونظركم، ثم وبَّخهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾.

هو يونس بن متَّى عليه السلام، وهو من بني إسرائيل، رُوي أَنه تنبَّأَ ابن ثمانٍ وعشرين سنة فتفسَّخ تحت أَعباءِ النبوَّة كما يتفسخ الربع تحت الحمل، وقد تقدم شرح قصته، ولكن نذكر منها ما يُتَفَهَّم به هذه الأَلفاظ.

فرُوي أَن الله تعالى بعثه إلى قومه، فدعاهم مرَّة فخالفوه فوعدهم بالعذاب، وأَعلمه الله تعالى بيوم العذاب فحدَّده لهم يونس، ثم إِن قومه لما رأَوا مخايل العذاب قبل أن يباشرهم تابوا وآمنوا فتاب الله عليهم وصرف العذاب عنهم، وكان في هذا تجربة ليونس عليه السلام، فلحقت بيونس غضبة، ويُروى أَنه كان في سيرتهم أَن يقتلوا الكذاب إِذا لم تقم له بيِّنة، فخافهم يونس وغضب مع ذلك، فأَبَقَ إِلى الفُلْك، أَي أَراد الهروب ودخل في البحر، وعَبَّر عن هروبه بالإِباق من حيث هو عبد الله فرَّ عن غير إِذن مولاه، فهذه حقيقة الإِباق، و«الفُلْكُ» في هذا الموضع واحد، و«المشْحُون»: المُوقَر،

وهنا قصص محذوف إيجازاً واختصاراً. ورُوي عن ابن مسعود أنه لما حصل في السفينة وأَبْعَدَت وَكَدَت[1] ولم تجر والسُّفن تجري يميناً وشمالاً، فقال أَهل السفينة: إِن فينا لصاحب ذنب وبه يحبسنا الله، فقالوا: لنقترع، فأَخذوا لكل واحد سهماً، ثم قالوا: اللهم ليَطْفُ سهم المذنب وليغْرق سهم الغير، فطفا سهم يونس، ففعلوا نحو هذا ثلاثاً، وفي كل مرة تقع القرعة عليه، فأَزمعوا معه أَن يطرحوه، فَجاءَ إِلى ركن من أَركان السفينة ليقع منه فإِذا بدابّة من دوابِّ البحر ترقبه وترصده، فدفع إِلى الركن الآخر فوجدها كذلك، حتى استدار بالمركب وهي لا تفارقه، فعلم أَن ذلك من عند الله، فترامى إِليها فالتقمته، ويُروى أَنها إِنما التقمته بعد أن وقع في الماءِ، ورُوى أَن الله تعالى أَوحى إِلى الحوت أَني لم أَجعل لك يونس رزقاً، وإِنما جعلت بطنك له حِرْزاً وسجناً، فهذا معنى (فَسَاهَمَ)، أَي: قارَعَ، وكذلك فسَّر ابن عباس، والسُّدي. و«المُدْحَض»: الزَّاهق المغلوب في مُحاجَّة أَو مُساهمة أَو مُسابقة. ومنه: الحُجَّة الداحضة، و«المُلِيمُ»: الذي أَتَى ما يُلام عليه، يقال: أَلام الرجلُ إِذا دخل في اللوم، وبذلك فسَّر مجاهد، وابن زيد، ومنه قول الشاعر:

سَفَهاً عَذَلْتِ ولُمْتِ غَيْرَ مُلِيم ... وهَذاكِ قَبْلَ اليَوْم غَيْرُ حَكِيم[2]

ثم استنقذه الله تبارك وتعالى من بطن الحوت بعد مدة اختلف الناس فيها ـ فقالت فرقة: بعد سبع ساعات، وقال مقاتل بن حيَّان: بعد ثلاثة أَيام، وقال عطاءُ بن أَبي رباح: بعد سبعة أَيام، وقالت فرقة: بعد أَربعة عشر يوماً، وقال أَبو مالك، والسدي: بعد أَربعين يوماً، وهو قول ابن جريج أنه بلغه. وجعل تعالى علَّة استنقاذه مع القدرة

---

(١) وَكَدَ في المكان: أقام فيه ولم يبرحه.

(٢) هذا البيت للبيد، وهو مطلع قصيدة من الكامل، والرواية في الديوان:

سَفَهاً عَذَلْتِ وقُلْتِ غَيْرَ مُلِيمِ ... وَبُكَاكِ قِدْماً غَيْرُ جِدُّ حَكِيمِ

وقال شارح الديوان: ويروى: وهداك قدْماً، ويُرْوى: وهداك بعد النوم. ورواية اللسان (لَوَمَ) مثل رواية ابن عطية هنا، وقد ضبط المحققون البيت في اللسان بفتح التاء في (عذلتَ، وقلتَ) والكاف في (هداكَ)، وضبطت هذه كلها بالكسر في الديوان وهو أصحُّ؛ لأنه يخاطب من أسماها بعد ذلك: «أمّ الوليد»، والبيت في تفسير الطبري مضبوطاً كما في اللسان.

والمُليمُ: الذي جاءَ بما يُلام عليه، وقوله: «وهداك بعد اليوم غيرُ حكيم» دعاءٌ عليها، يقول: فيه: لا زلت يهديك ويرشدك امرؤٌ غير حكيم. وهذا على رواية (بعد اليوم)، أما على رواية (قبل اليوم) فالكلام خبر، يقول لها: لقد أرشدك في هذا اللوم إنسانٌ غير حكيم.

السابقة تسبيحه، واختلف الناس في ذلك ـ فقال ابن جبير: هو قوله في بطن الحوت: سبحان الله، وقالت فرقة: بل التسبيح هو الصَّلاةُ التطوع، واختلفت هذه الفرقة ـ فقال قتادة، وابن عباس، وأَبو العالية: صلاته في وقت الرخاءِ نفعته في وقت الشدَّة، وقال هذا جماعة من العلماءِ، وقال الضحاك بن قيس[1] على منبره: اذكروا الله في الرَّخاءِ يذكركم في الشِّدَّة إن يونس كان عبداً لله ذاكراً فلما أصابته الشدة نفعه ذلك، ثم تلا هذه الآية، وإِن فرعون كان طاغياً باغياً، فلمَّا أَدركه الغرق قال: آمَنْتُ فلم ينفعه ذلك، فاذكروا الله في الرخاءِ يذكركم في الشِّدَّة. وقال قتادة في الحكمة: إِن العمل يرفع صاحبه إذا عثر، فإذا صُرع وجد مُتَّكأً، وقال الحسن بن أَبي الحسن: كان تسبيحه صلاةً في بطن الحوت، ورُوي أنه كان يرفع لحم الحوت بيديه ويقول: يا ربِّ لأَبْنِيَنَّ لك مسجداً حيث لمْ يَبْنِهِ أَحد قَبْلي، ويُصَلِّي، وروى أَنسٌ عن النبي ﷺ أَنه قال: «إِن يونس حين نادى في الظلمات ارتفع نداؤه إِلى العرش، فقالت الملائكة: هذا صوت ضعيف من موضع غربة، فقال: هذا عبدي يونس، فأَجاب الله دعوته. . .». وذكر الحديث[2]. وقال ابن جُبير: الإشارة بقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]. وكتب الناس في القصص بما اختصرناه لعدم الصحة، ورُوي أَن الحوت مشى به البحار كلها حتَّى قذفه في نصيبين من ناحية الموصل، فنبذه الله في عراءٍ من الأَرض، وهو الأَرض الفيحاءُ التي لا شجر فيها ولا مَعْلَم، ومنه قول الشاعر:

---

(١) هو الضحاك بن قيس بن خالد بن وهب الفهري، أبو أنيس، الأمير المشهور، صحابي صغير، قُتل في وقعة مرج راهط سنة أربع وستين. ومرج راهط هذه بنواحي دمشق. (تقريب التهذيب).

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أنس رضي الله عنه، ولفظه كما في ابن جرير: «عن يزيد الرَّقاشي قال: سمعتُ أنس بن مالك قال ـ ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى النبي ﷺ ـ إن يونس النبيَّ حين بَدَا له أن يدعُوَ الله بالكلمات حين ناداه وهو في بطن الحوت، فقال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنِّي كنتُ من الظَّالمين، فأقبلت الدعوة تحت العرش، فقالت الملائكة: يا ربِّ هذا صوتٌ ضعيفٌ معروفٌ في بلاد غريبة، قال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا ربِّ ومن هو؟ قال: ذلك عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي لم يَزَل يُرفع له عملٌ مُتَقَبَّلٌ ودعوةٌ مُسْتَجَابَةٌ، قالوا: يا ربِّ أولا يُرْحَمُ بما كان يصنع في الرخاءِ فَتُنَجِّيه من البلاءِ؟ قل: بَلَى، فأمر الحوت فطرحَه بالعراءِ».

(٣) من الآية (٨٧) من سورة (الأنبياء).

وَرَفَعْتُ رِجْلاً لا أَخافُ عِثارَها ... وَنَبذْتُ بالْبَلَدِ الْعَراءِ ثِيابي[(١)]

وقال السدي، وابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾: إنه كان كالطفل المنفوس، بَضْعَةُ لَحْم[(٢)]، وقال بعضهم: كاللحم النِّيءِ[(٣)]، إلا أنه لم ينقص من خلقته شيءٌ، فأنعشه الله تعالى في ظلِّ اليقطينة بِلَبَن أُرْوِيَة كانت تغاديه وتُراوحه[(٤)]، وقيل: بل كان يتغذى من اليقطينة، ويجد منها ألوان الطعام وأنواع شهواته.

واختلف الناسُ في اليقطين ـ فقالت فرقة: هي شجرة لا نعرفها، سمَّاها الله باليقطين، وهي لفظة مأخوذة من: قَطَنَ إذا أقام بالمكان. وقال سعيد بن جُبَيْر، وابن عباس، والحسن، ومقاتل: اليقطين: كلُّ ما لا يقوم على ساق من عودٍ كالبقول والقرع والحنظل والبطيخ ونحوه مما يموت من عامه، ورُوي نحوه عن مجاهد، وقال ابن عباس، وأبو هريرة، وعمرو بن ميمون: اليقطين: القرع خاصة، وعلى هذين القولين فإما أن يكون قوله تعالى: (شَجَرَةً) تجوُّزاً، وإما أن يكون أنبتها عليه ذات ساقٍ خرْقاً للعادة؛ لأن الشجر في كلام العرب إنما يقال لما كان على ساق من عود، وحكى بعض الناس أنها كانت قرعة وهي تجمع خصالاً: بَرْدَ الظلِّ والملمس وعِظَم الورق وأن الذباب لا يقربها، حكى النقاش أن ماءَ ورق القرع إذا رُشَّ به مكان لم يَقْرَبْه ذبابٌ، ومشهور اللغة أن اليقطينَ: القرعُ، وقد قال أُمية بن أبي الصلت في قصة يونس عليه السلام:

فَأَنْبَتَ يَقْطِيناً عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ ... مِنَ اللهِ، لَوْلا اللهُ أُلْفِيَ ضاحِيا[(٥)]

---

(١) البيت في اللسان (عَرَا) غير منسوب، وفي (مجاز القرآن) لأبي عُبَيْدة، وقد نسبه إلى رجل من خُزَاعة، وهو أيضاً في تفسير الطبري، وتفسير القرطبي، والعَرَاءُ: الذي لا يُواريه شيءٌ من شجر أو غيره، وقيل: العراءُ: وجه الأرض الخالي، ونَبَذَ ثيابه: طرحها وألقاها عنه. ومن المألوف في كلام العرب أن يقال: (نبذته بالعراءِ)، بمعنى: ألقيتُه في الأرض الفضاء.

(٢) البَضْعة ـ بفتح الباء وكسرها ـ: القطعة، ويقال: هو بَضْعةٌ مِنّي، أيْ: هو في قرابته كأنه جزءٌ مِنِّي.

(٣) النِّيءُ: كلُّ شيءٍ شأنه أن يعالج بطبخ أو شيءٍ فلم ينضج، يقال: لحْمٌ نِيءٌ، ويقال: لَبَن نِيءٌ بمعنى: مَخِضٌ.

(٤) الأرْوِيَةُ: أُنثى الوعول، والجمع أراويُّ. ومعنى تغاديه وتراوحه أنها كانت تأتي له في الصباح وفي المساءِ ليطعم من لبنها.

(٥) البيت كما قال ابن عطية لأمَيَّة بن أبي الصلت، وهو في الطبري منسوب لأمَيَّة أيضاً، واليقطين ـ كما قال في اللسان (قَطَنَ): كل شجر لا يقوم على ساق، نحو الدُّبَّاءِ والقرع والبِطِّيخ والحنظل. وفي التهذيب: =

فنبت يونس عليه السلام وصحَّ وحسُن جسمه؛ لأن ورق القرع أنفع شيءٍ لمن تَسَلَّخَ جسده كيونس. ورُوي أنه كان يوماً نائماً فأَيبَس الله تلك اليقطينة، وقيل: بعث عليها الأَرضة فقطعت عروقها، فانتبه يونس لِحَرِّ الشمس، فعزَّ عليه شأنها وجزع له، فأوحى الله تعالى إليه: يا يونس، جزعت ليُبْس اليقطينة ولم تجزع لإهلاك مائة أَلف أَو يزيدون تابوا فتبت عليهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

قال الجمهور: هذه الرسالة إلى مائة أَلف هي الرسالة الأولى التي أَبَقَ بعدها، ذكرها الله تعالى في آخر القصص تنبيهاً على رسالته، ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ فَـَٔامَنُوا فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾، وتمتيع هذه الأمة هو الذي أَغضب يونس عليه السلام حتى أَبَقَ، وقال قتادة، وابن عباس أَيضاً: هذه الرسالة أُخرى بعد أَن نُبِذَ بالعراءِ، وهي إلى أَهل نِينَوَي من ناحية الموصل.

وقرأَ جعفر بن محمد رضي الله عنه: [ويزيدون] بالواو، وقرأَ الجمهور: ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: [أَوْ] بمعنى (بَلْ)، وكانوا مائة أَلف وثلاثين أَلفاً، وقال أُبي بن كعب، عن النبي ﷺ: «كانوا مائة وعشرين أَلفاً»[1]، وقال ابن جبَيْر: كانوا مائة وسبعين أَلفاً، ورُوي عن ابن عباس أَنه قرأَ: [بَلْ يَزِيدُونَ]، وقالت فرقة: [أَوْ] هنا بمعنى الواو، وقالت فرقة: هي للإبهام على المخاطب، كما تقول: «ما عليك أَنتَ، أَنا أُعطي فلاناً ديناراً أَو أَلف دينارٍ»، ونحو هذا قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ

= اليقطين شجر القرع. وأُلْفِيَ: وُجِدَ، وضَحِيَ فلانٌ ضَحْواً: أَصابه حرُّ الشمس، وفي الكتاب الكريم: ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾، وقيل: إن ضاحِياً تعني: ظاهراً، والمعنى واحد أو قريب.

(١) الحديث أخرجه الترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه، ولفظه كما في (الدر المنثور): «قال: سأَلتُ رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾، قال: يزيدون عشرين أَلفاً».

ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾(١)، وهذا المعنى قليل التمكُّن في قوله سبحانه: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾. وقال المُبَرِّد وكثير من البصريين: المعنى على نَظَر البشر وحذرهم، أَي: من رآهم قال: هم مائة أَلف أَو يزيدون.

ورُوي في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أَنهم خرجوا بالأَطفال وأَولاد البهائم، وفرَّقوا بينها وبين الأُمَّهات، وناحوا وضجُّوا وأَخلصوا، فرفع الله عنهم(٢)، والتَّمتيع هنا هو بالحياة، والحينُ: آجالُهُم السابقة في الأَزل، قال قتادة، والسدي، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [حَتَّى حِينٍ]، وفي قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ مثالٌ لقريش: أَي: إِن آمنوا أَمِنُوا كما جرى لهؤلاءِ، ومن هنا حَسُن انتقال القول والمحاورة إِليهم بقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾، فإِنَّما يعود على ضميرهم على ما في المعنى من ذكرهم(٣).

و«الاسْتِفْتَاءُ»: السؤال، وهو هنا بمعنى التوبيخ والتقريع على قولهم البهتان على الله، وجعلهم البنات لله تعالى عن ذلك. وأَمره بتوقيفهم على جهة التوبيخ أَيضاً ـ هل شاهدوا أَن الملائكة إِناثٌ فيصح لهم القولُ به.

ثم أَخبر تعالى عن فرقة منهم بلغ بها الإِفك والكذب إِلى أن قالت: ولَد اللهُ الملائكة لأَنه نكح في سروات الجن، وهذه فرقة من بني مدلج فيما روي.

وقرأَ الجمهور: ﴿أَصْطَفَى﴾ بأَلف قطع هي للاستفهام، وهذا على جهة التقرير والتوبيخ على نسبتهم إِليه تعالى اختيار الآدمي عندهم، وقرأَ نافع في رواية إِسماعيل: [اصْطَفَى] بأَلف وصل على الخبر، كأَنه سبحانه يحكي شنيع قولهم، ورواها إِسماعيل عن أَبي جعفر، وشيبة.

ثم قَرَّرَ ووبَّخ وعرَّض للتذكير والنظر، واستفهم عن البُرهان والحُجَّة على جهة التقرير وضمَّهم إِلى الاستظهار بكتاب أَو أَمْر يُظهر صدقهم. وقرأَ الجمهور: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ مشددة الذال والكاف، وقرأَ طلحة بن مصرف بسكون الذال وضم الكاف خفيفة.

---

(١) من الآية (١٢٨) من سورة (آل عمران).

(٢) في بعض النسخ: «فدفع الله عنهم» بالدال بدلا من الرَّاءِ.

(٣) يريد: فإنما يعود الضمير في (اسْتَفْتِهِمْ) عليهم لأنهم مذكورون في المعنى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ ﴾.

الضمير في قوله تعالى: (وَجَعَلُوا) لفرقة من كفار قريش والعرب، قال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الطبري: إن بعضهم قال: إن الله وإبليس أَخوان، وقال مجاهد: قال قوم لأَبي بكر الصِّدِّيق: إنَّ الله نكح سروات الجن[1]، وقال بعضهم: إن الملائكة بناته، فـ(الجِنَّة) ـ على هذا القول الأَخير تقع على الملائكة، سميت بذلك لأنها مستجنَّة، أَي: مُستترة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾. من جعل «الجِنَّة» الشياطين جعل العلامة في (عَلِمَتِ)، والضمير في (إِنَّهُمْ) عائد عليهم. أَي: جعلوا الشياطين ليست من الله، والشياطين تعلم ضدّ ذلك من أَنها ستَحْضُر أَمْرَ الله وثوابه وعقابه. ومن جعل [الْجِنَّةَ] الملائكة جعل الضمير في [إِنَّهُمْ] للقائلين هذه المقالة، أَي: علمت الملائكة أن هؤلاءِ الكفرة سيحضرون عذاب الله وعقابه، وقد يتداخل هذا القولان.

ثم نزَّه تبارك وتعالى نفسه عمَّا يصفه الناسُ ولا يليق به، ومن هذا استثنى العبادَ المخلصين؛ لأنهم يصفونه بصافته العُلَى، وقالت فرقة: استثناهم من قوله: (لَمُحْضَرُونَ)، وهذا يصح على قول من رأَى (الْجِنَّةَ) الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ بمعنى: قل لهم يا محمد: إنكم وأَصنامكم ما أنتم بمضلين أَحداً عليها وبسببها، إلا من سبق عليه القضاءُ وضمَّه القدر بأَن يصْلى الجحيم في الآخرة، وليس إليكم إضْلاَل من هدى الله. وقالت فرقة: (عَلَيْهِ) بمعنى «فيه»، و«الْفَاتِنُ»: المضلُّ في هذا الموضع، وكذلك فسَّر ابن عباس، والحسن بن أَبي الحسن، وقال ابن الزبير على المنبر: «إن الله هو الهادي والفاتن»، و(مَنْ) في موضع

(١) يريد أشراف الجنّ، وسَرَوات: جمع سَرِيّ، وهو الشريف، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾.

نصب بـ(فَاتِنِينَ). وقرأ الجمهور: ﴿صَالِ الْجَحِيمِ﴾ بكسر اللام من (صالِ)، وحذفت الياءُ للإضافة. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [صَالُ الجَحيم] بضم اللام، وللنحاة في معناه اضطراب أقوال، وأقواها أنه «صَالُونَ» حذفت النون للإضافة، ثم حذفت الواو للالتقاءِ، وخرج لفظ الجمع بعد لفظ الإفراد، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾[1]، إذْ لَمَّا كانت (مَنْ) وهي من الأسماءِ التي فيها إبهامٌ ويكنى بها عن أفرادٍ وعن جمع[2].

ثم حكى تعالى قول الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾، وهذا يؤيد أن (الْجِنَّةَ) أراد بها الملائكة، كأنه قال ولقد علمَتْ كذا، وإنَّ قولنا لكذا، وتقدير الكلام: وما منَّا مَلَك، وروت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ السماءَ ما فيها موضع قدم إلاَّ وعليه جبهة مَلَك أو قدماه»[3]، وقرأ ابن مسعود: [وَإِنْ كُلُّنَا إلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ].

و(الصَّافُّونَ) معناه: الواقفون صفوفاً، و(الْمُسَبِّحُون) يحتمل أن يريد به الصلاة، ويحتمل أن يريد قولَ: «سبحان الله»، ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان إذا أُقيمت الصلاة صرف وجهه إلى الناس فقال لهم: عدِّلوا صفوفكم وأقيموها، فإن الله إنما يريد بكم هدى الملائكة، فإنها تقول: ﴿وإنا لنحن الصافون، وإنا لنحن المسبحون﴾، ثم يرى تقويم الصفوف، وعند ذلك ينصرف ويكبِّر، قال الزهراوي: قيل: إن المسلمين إنما اصطفوا في الصلاة مذ نزلت هذه الآية، ولا يصطف أحد من أهل المِلَل غير المسلمين.

ثم ذكر عزَّ وجلَّ: مقالة بعض الكفار، قال قتادة، والسدي، والضحاك: فإنهم قبل نُبُوَّة محمد ﷺ قالوا: لو كان لنا كتاب أو جاءَنا رسول لكنَّا من أتقى عباد الله وأشدهم إخلاصاً، فلما جاءَهم محمد صلوات الله وسلامه عليه كفروا فاستوجبوا أليم العقاب.

---

(١) من الآية (٤٢) من سورة (يونس).

(٢) في توجيه قراءَة الضم اللام في: ﴿صَالِ الْجَحِيمِ﴾ نقل أبو الفتح رأياً عن شيخه أبي علي، خلاصته أنه يحملها على حذف لام (صالِ) تخفيفاً، ثم تعرب اللام بالضم، وذلك كما حذفت لام (البَالَةِ) من قولهم: «ما باليْتُ بالةً»، وهي البالِيَة، كالعافية والعاقبة، ولكن التوجيه الذي ذكره ابن عطية أقوى وأسلم، وهو توجيه قطرب. وقد نقله أبو الفتح أيضاً واعترف بحسنه.

(٣) أخرجه الترمذي، وابن ماجه في الزهد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَكَفَرُوا بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝١٧٠ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ۝١٧٣ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٤ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٥ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝١٧٧ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٨ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٩ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٨٢ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وعيدٌ محضٌ؛ لأنهم تمنَّوْا أمراً فلما جاءَهم الله به كفروا واستهواهم الحسد، ثم آنس نبيَّه ﷺ وأولياءَه بأن القضاءَ قد سبق، والكلمة حقت في الأزل، بأنَّ رُسُل الله إلى أرضه هم المنصورون على من ناوأهم، المُظَفَّرُون بإرادتهم، المستوجبون الفلاح في الدارين. وقرأ الضحاك: [كَلِمَاتُنَا] بألف على الجمع. و«جُنْدُ الله» هم الغزاة لتكون كلمة الله هي العليا. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: جُنْدُ الله في السماءِ الملائكة، وفي الأرض الغُزَاةُ.

وقوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ وعْدٌ للنبي ﷺ، وأمرٌ بالموادعة، وهذا ممَّا نسخته آية السيف. واختلف الناس بالمراد بالحين هنا ـ فقال السديُّ: الحينُ مَوْتُهم، وقال ابن زيد: الحينُ المقصودُ يومُ القيامة. وقوله تعالى: ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ وعْدٌ للنبي ﷺ ووعيدٌ لهم، أي: سوف يَرَوْنَ عُقْبى طريقتهم.

ثم قرَّرَ الله تعالى نَبيَّه ﷺ ـ على جهة التوبيخ لهم ـ على استعجالهم عذابَ الله. وقرأ الجمهور: ﴿ نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ أي العذاب. وقرأ ابن مسعود: [نُزِلَ] على الفعل المجهول، و«السَّاحَةُ»: الفِنَاءُ، والعربُ تستعمل هذه اللفظة فيما يرد على الإنسان من خير أو شر. و«سُوءُ الصباح» أيضاً يستعمل في ورود الغارات والرزايا ونحو ذلك، ومنه قول الصارخ: «يا صَبَاحَاهُ»، كأنه يقول: قد سألني الصباحُ فأعينوني، وقرأ ابن مسعود: [فبئس صباح].

ثم أعادَ الله تعالى أَمْر نبيِّه ﷺ بالتَّوَلِّي تحقيقاً لتأنيسه والتَّهَمُّم به، وأعاد سبحانه توعُّدهم أيضاً لذلك، ثم نزَّه نفسه تنزيهاً مطلقاً عن جميع ما يمكن أن يصف به أهل الضلالات.

و«العِزَّة» في قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ هي العزَّة المخلوقة الكائنة للأنبياءِ

والمؤمنين، ولذلك قال الفقهاءُ: مِنْ أَجل أنها مربوبة، وقال محمد بن سُحْنُون: «من حلف بعزَّة الله فإن كان أَراد صفته الذاتية فهي يمين، وإن كان أَراد عزَّته التي خلق بين عباده، وهي التي في قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ فليست بيمين»(١).

وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سلَّمتم عليَّ سلِّموا على المرسلين فإنما أَنا أَحدهم»(٢). وباقي السورة بيِّن.

وذكر أَبو حاتم عن صالح بن مينا قال: قرأتُ على عاصم بن أَبي النجود، فلما ختمتُ هذه السورة سكَتُّ، فقال: إيهٍ، اقرأْ، فقلت: قد ختمتُ، فقال: كذلك فعلتُ على أَبي عبد الرحمن فقال لي كما قلتُ لك، وقال لي كذلك قال لي عليٌّ بن أَبي طالب، وقال «وقُلْ آذنتكم بإذانة المرسلين، لتُسْأَلُنَّ عن النَّبإِ العظيم»، وفي مصحف عبد الله: »عن هذا النَّبإِ العظيم»(٣).

كَمُلَ تفسير سورة (الصافَّات) والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) ولكلام ابن سحنون بقية ذكرها القرطبي، وفيها يقول: «العزَّةُ تكون صفة ذات، وصفة فِعْل، فصفة الذات نحو قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، وصفة الفعل نحو قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾، والمعنى: ربّ العزَّة التي يتعازُّ بها الخلق فيما بينهم، فهي من خلق الله عزَّ وجلَّ.

(٢) أخرجه ابن مردويه من طريق أبي العوَّام، عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه، وذكر في الدرِّ المنثور أن أبا العوَّام رضي الله عنه قال: كان قتادة يذكر هذا الحديث إذا تلا هذه الآية: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وأخرج ابن سعد، وابن مردويه من طريق سعيد، عن قتادة، عن أنس، عن أبي طلحة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلَّمتم على المرسلين فسلِّموا عليَّ فإنما أنا بشرٌ من المرسلين».

(٣) أخرج الطبراني، عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قال دُبُر كلِّ صلاة: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثلاث مرات فقد اكتال بالمكيال الأوفى من الأجر».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة ص

هذه السورة كلُّها مكِّيَّة بإجماع من المفسرين(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

قرأ الحَسَنُ، وأُبَيُّ بن كعب، وابن أَبي إِسحق: «صَادِ» بكسر الدال، على أنه أَمْرٌ مِنْ: صادَى يُصادِي إذا ضَاهَى ومَاثَلَ، أَي صار كالصَّدَى الذي يحكي الصياح، والمعنى: ماثِل القرآنَ بعملك، وقارِنه بطاعتك، وهكذا فسَّره الحسن، أَي: انظر أين عملُك منه؟(٢)؟.

وقال الجمهور: إِنه الحرف المعجم المعروف، ويدخله ما يدخل سائر أَوائل السُّور من الأَقوال، ويختص هذا الموضع بأَن قال بعض الناس: معناه: صدق محمد ﷺ، وقال الضحاك: معناه: صدق الله، وقال مجاهد بن كعب القرظي: هو مفتاح أَسماءِ الله (صَمَد، صَادِق الوعد، صانع المصنوعات).

وقرأَها الجمهور بسكون الدال، وقرأ ابن أَبي إِسحق ـ بخلاف عنه ـ بكسر الدال وتنوينها [صَادٍ]، على القسم، كما تقول: اللهِ لأَفْعَلَنَّ، وحكى الطبريُّ وغيره عن ابن

---

(١) ويقال لهذه السورة: سورة داود، وعدد آياتها ٨٨ آية، وقيل: ٨٦ آية.

(٢) المماثلة والمضاهاة فيهما معنى المعَارَضَة، والمصاداةُ: المعارضة والمقابلة، فالمعنى: عارِضِ القرآن بعملك وقابِلْه بمثله، فاعمل بأوامره، وانْتَهِ عن نواهيه.

وهناك مذهب آخر في توجيه هذه القراءة بكسر الدال بدون تنوين، وهو أن الدال مكسورة لالتقاءِ الساكنَين، قال الفراءُ في (معاني القرآن): «جَزَمَهَا القراءُ إلا الحسن فإنه خَفَضَها بلا نون لاجتماع الساكنين».

أَبي إِسحق دون تنوين، وأَلحقه بقول العرب: حاثِ باثِ، وخازِ بازِ[١]، وقرأَت فرقة منها عيسى بن عمر: [صادَ] بفتح الدال، وكذلك يفعل في نطقه بكل الحروف، يقول: قافَ، ونونَ، ويجعلها كأَيْنَ وليْتَ[٢]، قال الثعلبيُّ: «وقيل معناه: صادَ محمدٌ القلوبَ بأَن استمالها للإيمان».

وقوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ قسَمٌ، وقال السدي، وابن عباس، وسعيد بن جُبَيْر: معناه: ذي الشرف الباقي المخلَّد، وقال قتادة، والضحاك: ذي التذكرة للناس والهداية لهم، وقالت فرقة: معناه: ذي الذكر للأُمم والقَصَص والغُيُوب. وأَما جواب القسم فاختلف فيه ـ فقالت فرقة: الجواب في قوله: [صَ]؛ إِذ هو بمعنى: صدق محمد، أو صدق الله، وقال الكوفيون والزَّجَّاج: الجوابُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾[٣]، وقال بعض البصريين ـ ومنهم الأَخفش ـ: الجواب في قوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾[٤].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان بعيدان.

وقال قتادة، والطبري: الجواب مُقَدَّر قبل [بَلْ]، وهذا هو الصحيح، تقديره: «والقرآن ما الأَمْرُ كما تزعمون»، ونحو هذا من التقدير، فتأَمله. وحكى الزَّجاج عن

---

(١) من كلام العرب: «تركته حاثِ باثِ، وخَازِ بازِ»، أما معنى «حاثِ باثِ» فهو: تركتهُ مختلط الأمر، قال ذلك في التَّاج، ومن معاني «خازِ بازِ» أنه ذبابٌ يكون في الروض. والتعليل الذي ذكره الطبري لهذا الذي حكاه الطبري هو أن الكسر هُنَا من أجل أن الذي يلي آخر الحروف (ألفٌ) فيخفضون مع الألف، وينصبون مع غيرها، فيقولون: حيْثَ بيْثَ، ولأجعلنَّك في حيْصَ بيْصَ، إذا ضيِّق عليه.

(٢) قال الطبريُّ: «إن عيسى بن عمر كان يوفِّق بين جمع ما كان قبل آخر الحروف منه ألفٌ، وما كان قبل آخره واوٌ أو ياءٌ فيفتح جميع ذلك وينصبه، فيقول: صادَ، وقافَ، ونونَ، ويّسنَ، ويجعل ذلك مثل الأداة، كقولهم: ليتَ وأينَ، وما أشبه ذلك».

ونقل القرطبي في توجيه قراءة عيسى بن عمر ثلاثة مذاهب: الأول أن يكون فَتَح لالتقاءِ الساكنيْن، واختار الفتح للإتْباع، ولأنه أخفُّ الحركات، والثاني أن يكون بمعنى: اتلُ، والثالث أن يكون منصوباً على القَسَم بغير حرف قَسَم، لَقولك: اللهَ لأَفْعَلَنَّ، وعلَّل بعضهم هذه القراءَة بأن النصب فيها على الإغراءِ.

(٣) وهي الآية (٦٤) من السُّورة.

(٤) وهي من الآية (١٤) من السُّورة.

قوم أَن الجواب قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ وهذا متكلَّف جداً.

و«العِزَّةُ» هنا: المُعَازَّةُ والمغالبة. و«الشِّقَاقُ» نحوه، أَي: هُمْ في شِقٍّ والحقُّ في شِقٍّ.

و(كَمْ) للتكثير، وهي خبرٌ فيه مثالٌ ووعيد، وهي في موضع نصب بـ(أَهْلَكْنَا)، و«القَرْنُ»: الأُمَّةَ من الناس يجمعها زمن واحد، وقد تقدم تحديده مراراً، وقوله تعالى: (فَنَادَوْا) معناه: مستغيثين، والمعنى أَنهم فعلوا ذلك بعد المعاينة فلم ينفع ذلك، ولم يكن في وقت نَفْع، و(لاَتَ) بمعنى: لَيْس، واسمُها مقدر عند سيبويه، وتقديره: ولاتَ الحينُ حين مناصٍ، وهي (لاَ) لحقتها تاءٌ، كما لحقت «رُبَّتَ وثُمَّتَ»، وقال الزَّجاج: وهي كتاءِ جلَسَتْ وقامَتْ، تاءُ الحروف كتاءِ الأَفعال دخلت على ما لا يُعرب في الوجهين، ولا تستعمل (لاَ) مع التَّاءِ إِلاَّ في الحِينِ والزَّمانِ والوقت ونحوه، ومن ذلك قول الشَّاعر:

. . . . وَلاتَ ساعَةَ مَنْدَمِ[1]

وقال الآخر:

تَـذَكَّـرَ حُـبَّ لَيْلَـى لاتَ حينَـا ... وَأَضْحَى الشَّيْبُ قَدْ قَطَعَ الْقَرِينَا[2]

---

(١) هذا جزءٌ من بيت استشهد به النحويون على أن عَمَل (لاتَ) لا يختص بلفظ الحين، بل تكون مع الأوقات كلها، وقد استشهد الفراءُ بهذا الجزءِ أيضاً على أن من العرب من يضيف (لات) فيخفض، ثم قال: ولا أحفظ صدر البيت على أنه لم يرض عن الجرِّ بها، وإنما قرَّر أن الوجه هو النصب بها لأنها في معنى (ليس)، وذكر على ذلك الشاهد الذي ذكره ابن عطية بعد ذلك، وقال البغدادي في خزانة الأدب: «والبيت الذي قال الفراءُ: لا أحفظ صدره، رواه مع صدره ابن السِّكِّيت في كتاب (الأضداد)، وهو:

وَلَتَعْـرِفَـنَّ خَـلائِقـاً مَشْمُـولَـةً ... وَلَتَنْـدَمَـنَّ وَلاتَ سَـاعَـةَ مَنْـدَمِ

والخلائق المشمولة هي: المشؤومة، وأخلاق السوءِ، وقد يقال أيضاً: رجل مشمولُ الخلائق، أي: كريم الأخلاق، قال ذلك ابن الأعرابي في تفسير «مشمولة». وقد روى هذا الشاهد في الأشموني:

نَـدِمَ الْبُغَـاةُ وَلاتَ سـاعَـةَ مَنْـدَمِ

وفي كتاب «فرائد القلائد في مختصر الشواهد للعيني» أن هذا جزءٌ من بيت هو بتمامه:

نَـدِمَ الْبُغَـاةُ وَلاتَ سـاعَـةَ مَنْـدَمِ ... وَالْبَغْـيُ مَـرْتَـعُ مُبْتَغِيـهِ وَخِيـمُ

وقال في شرحه: «وقائِلهُ محمد بن عيسى بن طلحة بن عُبَيْد الله التَّيْمي، وقيل: بل مهلهل بن مالك الكناني»، وابن عطية يستشهد بالبيت هنا على أن (لات) تستعمل مع الحين والزمان والوقت ونحو ذلك، لا مع الحين فقط كما يدعي بعض النحويين.

(٢) هذا الشاهد هو الذي ذكره الفراءُ دليلا على أن (لاتَ) تعمل النصب فيما بعدها، قال في كتابه (معاني=

وأَنشد بعضهم:

طَلَبُـــوا صُلْحَنَـــا ولاتَ أَوانٍ   فَـأَجَبْنَـا أَنْ لَيْـسَ حِيـنَ بَقَـاءِ(١)

وأَنْشدَه الزَّجاج بكسر التاءِ، وهذا كثير، وقراءة الجمهور فتح التاءِ من (لاتَ) والنون من (حِينَ)، ورُوي عن عيسى كسر التاءِ من [لاتِ] ونصب النون من [حِين]، ورُوي عنه أَيضاً كسر النون منها.

واختلفوا في الوقف على [لاَتَ] ـ فذكر الزَّجَّاج أن الوقف بالتاءِ، ووقف الكسائي بالهاءِ، ووقف قوم ـ واختاره أَبو عُبَيْد ـ على لا وجعلوا التاءَ موصولة بحين، فقالوا: [لاَ تَحِينَ]، وذكر أَبو عبيد أَنها كذلك في مصحف عثمان، ويحتج لهذا بقول أَبي وجزة:

العـاطِفُـونَ تَحيـنَ مـا مِـنْ عَـاطِـفٍ   والمُطْعِمُونَ زمانَ ما منْ مُطْعِمِ(٢)

= القرآن): «الكلامُ أن يُنصب بها؛ لأنها في معنى (لَيْسَ)، أنشدني المفضَّل: تَذَكَّرَ حُبَّ ليلى. . . البيت، ثم قال: فهذا نصب». وابن عطية يستشهد بالبيت هنا على أن (لاتَ) تعمل النصب في الحين، كما تعمله في كل ما يدل على الزمن. والقرين هو الصاحب أو الزوج، والمراد به هنا لَيْلَى، يقول: إنه تذكَّر حبها في وقت لا ينفع فيه ذلك؛ إذ علاه الشيب وأبعد عنه الأحبَّة.

(١) هذا البيت لأبي زُبَيْد المنذر بن حرملة الطائي (وقيل: بل هو حرملة بن المنذر الطائي)، مات على النصرانية وقد أدرك الإسلام، وكان عثمان بن عفَّان رضي الله عنه يقرِّبُه ويدني مجلسه، وهو من قصيدة طويلة من الخفيف، قال في شرح الشواهد للعيني: «والشاهد في قوله: (ولات أوانٍ) حيث وقع خبره لفظة أوانٍ كالحين، وهي جملة حالية، أي: ليس الأوان أوان صلح، فحذف المضاف إليه، ثم بُني (أَوَانِ) كما بُني (قبلُ وبعدُ) عند حذف المضاف إليه، ولكنه بُني على الكسر لشبهه بـ(نزَالِ) في الوزن)، ثم نُوِّن للضرورة، و(أنْ) تفسيرية، وليس للنفي، واسمها محذوف، وقوله: (حين بقاءِ) هو الخبر، أي: ليس الحين حين بقاءِ الصلح». وفي (معاني القرآن) قال الفراءُ بعد أن استشهد بقول الشاعر: (تذكَّر حُبَّ ليلى. . .): «وأنشدني بعضهم: طلبوا صلحنا. البيت، فخفض (أوان)». ولا حِظ أنه لم يقل: بُني على الكسر كما قال صاحب شرح الشواهد.

(٢) البيت من قصيدة لأبي وجزة السعدي يمدح بها آل الزبير بن العوام، وأبو وجزة اسمه: يزيد بن عبيد، شاعر، محدث، مقرىء، ولكن البيت مركَّبٌ من مصراعيْ بيتيْن، وهكذا وقع في صحاح الجوهري فتبعه الشُّرَّاح والمحققون، والذي في الديوان هو:

وإِلَـــى ذَرَا آلِ الـــزُّبَيْـــرِ بِفَضْلِهِـــمْ   نِعْـمَ الـذَّرَا فـي النَّـائِبَـاتِ لَنَـا هُـمُ
العَـاطِفُـونَ تَحِيـنَ مَـا مِـنْ عَـاطِـفٍ   والمُسْبِغُـونَ يَـداً إذَا مَـا أنْعَمُـوا
والـلاحِقُـونَ جِفَـانَهُـمْ قَمَـعَ الـذُّرَى   والمُطْعِمُـونَ زمـانَ أَيْـنَ المُطْعِـمِ =

يمدح آل الزُّبَيْر. وقرأ بعض الناس: ﴿وَلَاتَ حِينَ﴾ برفع النون على إضمار الخبر.

و«الْمَنَاصُ»: الْمَفَرُّ، ناصَ ينوصُ إذا فاتَ وفرَّ[(١)]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: ليس بِحِينِ نَزْوٍ ولا فِرَارٍ، ضبط القوم.

والضمير في (وَعَجِبُوا) لكفَّار قريش، واستغربوا أَن نُبِّيء بشرٌ منهم فأَنذرهم وحذَّرهم، وأَن وحّد الإِلٰه، وقالوا: كيف يكون إِلٰهٌ واحدٌ يرزق الجميع وينظر في كلِّ أَمرهم؟

= والذَّرَا ـ بالفتح ـ: كلُّ ما استَتَرْتَ به، والنائبات: شدائد الدهر وحوادثه، والعَطْف: الشَّفقة والتَّحَنُّن، وتَحِينَ: ظرف للعطف والتَّاءُ فيها زائدة، أو أنها متصلة بما قبلها على أنها هاءُ السكت وجملة (ما من عاطف) منفية، و(مِنْ) فيها زائدة، والمعنى: ما مِنْ عاطفٍ موجود. والمُسْبِغُون: من قولهم: أَسْبَغَ الله النِّعْمَةَ: أفاضها وأَتَمَّهَا، والْيَدُ: النعمة. واللاحقون معناها: المُتبعُونَ، والجِفَان بالكسر: جمع جَفْنة بالفتح، وهي القصعة الكبيرة للطعام، والقَمَع بفتح القاف والمِيم: جمع قَمَعَة بالتحريك بالفتح، وهي رأس السنام من الجَمَل، والذُّرَى: جمع ذِرْوة، وهي أعلى السنام، وفيها أطْيب لحمه. يمدحهم بأنَّهم ملجأٌ أمين يلجأُ إليه الناسُ ـ ومنه الشاعر وقومه ـ عند الحوادث والمصائب، وأنهم يعطفون على الناس إذا اشتدت الأحوال وأجدب الزمان، وإذا أنعموا وسَّعُوا على الناس إفضالا ونائلا، وأنهم يطعمون الناسَ في أيام القحط والجدب أفضل اللحم، يطعمونهم في الزمان الذي يبحث الناس فيه عن المطعمين الطعام، ورواية المؤلف للبيت فيها إقواءٌ، والقصيدة كلها بالضم كما رأينا، والرواية الصحيحة هي التي أثبتناها، أما رواية ابن عطية فقد نقلها عن أبي عُبَيْد في الغريب المصنف.

وتركيب بيت من بيتين ونحوه في الاستشهاد شائع وكثير عند المصنِّفين، يفعلونه قصداً لا خطأً؛ إما لأن المعنى يكون متفرقاً في أبيات، وإما لأن في أحد المصراعيْن قَلقاً في اللغة أو في المعنى، فيختصرون بأخذ مصراعين.

هذا والبيتُ في (مجالس ثعلب) و(الإنصاف) و(الأشموني)، واللسان (ليت ـ حين)، وفي (خزانة الأدب)، وقد نقل كثيراً من أقوال النحويين في تخريجه، وأحسن التخريجات ما قاله ابن السيرافي في (شرح شواهد الغريب المصنف)، وأبو علي الفارسي في (المسائل المنثورة)، ونقله ابن جني عنهما في كتابه (سرّ صناعة الإعراب)، ويتلخص هذا التخريج في أن التاءَ في الأصل هاءُ السكت، وأنها في (العاطفون)، وهي ـ على هذا ـ (العاطفونَهْ)، وقد اضطر الشاعر إلى تحريكها فأبدلها تاءً وفتَحها، أراد أنْ يجريها في الوصل على ما تكون عليه في الوقف، وذلك أنه يقال في الوقف: هؤلاء مسلمونَهْ، وضاربونَهْ، فتلحق الهاءُ لبيان حركة النون، وشبَّه هاءَ الوقف بهاءِ التأنيث، فلما احتاج لإقامة الوَزْن حرَّكَ الهاءَ بقَلْبها تاءً، كما تقول في الوقف: هذا طَلْحَهْ، فإذا وصلْت صارت الهاءُ تاءً، فقلت: هذا طلْحَتُنا، وعلى هذا قال: العاطفونَةَ، وقال ابن مالك؛ إن التاءَ بقية (لات)، حذفت (لا) وبقيت التاءُ، وابن عطية يستشهد بالبيت على هذا الأساس، (راجع خزانة الأدب للبغدادي ـ التسهيل لابن مالك).

(١) قال الفراءُ: النَّوْصُ في كلام العرب: التَّأَخُّر، والبَوْصُ: التقدم، قال امرؤ القيس:

أَمِـنْ ذِكْـرِ سَلْمَـى إذ نَـأتْـكَ تَنُـوصُ ... فَتَقْصُـرُ عَنْهَـا خطْـوَةَ وَتَبُـوصُ

و(عُجَابٌ) بناءُ مبالغة، كما قالوا: سريع وَسُرَاع، وهذا كثير، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وعيسى بن عمر: [عُجَّابٌ] بشدِّ الجيم، ونحوه قال الراجز:

جـاؤوا بِصَيْـدٍ عَجَـبٍ مِـنَ الْعَجَـبْ ... أُزَيْـرِقِ الْعَيْنَيْـن طُـوَّالِ الـذَّنَـبْ[1]

وقد قالوا: رجلٌ كُرَّامٌ، أي كريم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝٧ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۝٩﴾.

رُوي في قَصص هذه الآية أَن أَشراف قريش وجماعتهم اجتمعوا عند مرض أَبي طالب عمِّ النبي ﷺ، فقالوا: إن من القبيح علينا أَن يموت أَبو طالب ونؤذي محمداً بعده فيقول العرب: تركوه مدة عمِّه فلما مات آذوه، ولكن لنذهب إلى أَبي طالب فلينصفنا منه، وليربط بيننا وبينه ربطاً، فنهضوا إليه فقالوا: يا أَبا طالب، إن محمداً يسبُّ آلهتنا ويُسفِّه آراءَنا وآراءَ آبائنا، ونحن لا نُقارُّه على ذلك، ولكن افصل بيننا وبينه في حياتك، بأَن يقيم في منزله يعبد ربَّه الذي يزعم، ويدع آلهتنا وسبَّها، ولا يعرض لأَحد منَّا بشيءٍ من هذا، فبعث أَبو طالب في محمد عليه الصلاة والسلام، فقال: يا محمد، إن قومك قد دعوْكَ إلى النَّصفة، وهي أَن تدعهم وتعبد ربَّك وحدك، فقال: أَوَ غير ذلك يا عم؟ قال: وما هو؟ قال: يُعطونني كلمة تدين لهم بها العربُ، وتؤدي

---

(١) العَجَب: إنكارُ ما يرد عليك لقلَّة اعتياده، وجمعه: أَعْجابٌ، ويقال: أَمْرٌ عُجابٌ وعُجَّابٌ، نقل صاحب اللسان (عَجَبَ) عن الفراءِ قوله: «هو مثل قولهم: رجُلٌ كريمٌ وكُرَامٌ وكُرَّامٌ، وكبيرٌ وكُبَارٌ وكُبَّارٌ، وعُجَّاب بالتشديد أكثر من عُجَاب»، وقال صاحب العَيْن: «بين العَجيب والعُجَاب فرْقٌ، أما العَجيبُ فالعَجَبُ يكون مثلَه، وأما العُجَابُ فالذي تجاوز حدَّ العَجَب». وقال ابن جني في (المحتسب): «قد كثر عنهم مجيءُ الصفة على فَعِيل وفُعَال ـ بالتخفيف ـ وفُعَّال ـ بالتشديد ـ، قالوا: رجلٌ وَضيءٌ وَوُضَّاءٌ، وأنشدوا:

والمَـــرْءُ يُلْحِقُـــهُ بِفِتْيَـــانِ النَّـــدَى ... خُلُـقُ الكَـريـمِ ولَيْـسَ بِـالـوُضَّـاءِ

أي: ليس بالوضيءِ». وهذا البيت لصدقة الدُّبَيْري. وقد استشهد ابن جني أيضاً بالبيت الذي ذكره ابن عطية هنا، والرواية هناك: (أُزَيْرِقِ العَيْنِ وَطُوَّالِ الذَّنَبْ).

إليهم الجزية به العجم، قالوا: وما هي فإنا نبادر إليها؟ قال: لا إله إلاَّ الله، فنفروا عند ذلك وقالوا: ما يرضيك منا غير هذا؟ قال: والله لو أعطيتموني الأرض ذهباً ومالاً، وفي رواية: لو جعلتم الشمس في يميني، والقمر في شمالي ما أرضاني منكم غيرها، فقاموا عند ذلك وبعضهم يقول: «أجعل الآلهة إلٰهاً واحداً إن هذا لشيءٌ عجاب»؟ ويرددون هذا المعنى، وعقبة بن أبي مُعيط يقول: ﴿ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ الآية[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وجلبت هذا الخبر تامَّ المعنى، وفي بعض رواياته زيادة ونقصان، والمعنى متقارب.

ولما ذهبوا قال رسول الله ﷺ: يا عم، قل: لا إله إلاَّ الله، كلمة أشهد لك بها عند الله، قال: والله لولا أن تكون سُبَّة في بنيَّ بعدي لأقْرَرْتُ بها عينك، ومات وهو يقول: على مِلَّة عبد المطلب، فنزلت في ذلك: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[2].

فقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ عبارةٌ عن خروجهم عن أبي طالب، وانطلاقهم من ذلك الجمع، هذا قول جماعة من المفسرين. وقالت فرقة: هي عبارة عن إذاعتهم لهذه الأقاويل، فكأنه كما يقول الناس: انطلق الناس بالدعاءِ للأمير، ونحوه، أي: استفاضَ كلامهم بذلك، و(الْمَلأُ): الأشرافُ والرُّؤوس يسدُّون مسدَّ الجميع في الآراءِ، ونحوه.

وقوله: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟﴾، (أَن) مفسِّرة لا موضع لها، ويجوز أن تكون في موضع نصب بإسقاط حرف الجر، أي: بأَن، فهي بتقدير المصدر، كأنه قال: وانطلق الملأُ منهم بقولهم: امشوا، ومعنى الآية أنه قال بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على كل أمر آلهتكم. وذهب بعض الناس إلى أن قولهم: (امْشُوا) هو دعاءٌ لكسب الماشية، وفي

(١) أخرجه الإمام أحمد، والترمذي ـ وقال: هذا حديث حسن صحيح ـ، وأخرجه الحاكم في (مستدركه) وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وكذلك أخرجه الطبري، والواحدي، وذكره السيوطي في (الدر المنثور) وزاد نسبته لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكما قال ابن عطية في بعض رواياته زيادةٌ ونقصان.

(٢) من الآية (٥٦) من سورة (القَصَص).

هذا ضعف؛ لأنه كان يلزم أن تكون الألف مقطوعة؛ لأنه يقال: «أَمْشَى الرجُلُ» إذا صار صاحب ماشية، فهذا المعنى غير متمكن في الآية، وإنما المعنى: سيروا على طريقتكم ودوموا على سيرتكم، أو يكون المعنى أمْراً من نقل الأقدام قالوه عند انطلاقهم، وهي في مصحف ابن مسعود: [وانْطَلَق الملأُ منهم يمشون أن اصبروا]. وقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ يريدون ظهور محمد ﷺ وعُلُوَّه بالنبوّة، أي: يراد منا الانقياد له.

وقولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ يريدون بمثل هذه المقالة من أن الإلٰه واحد. واختلف المتأولون في قولهم: ﴿في الملة الآخرة﴾ ـ فقال مجاهد: أرادوا ملَّتهم ونِحْلتهم التي العرب عليها، ويقال لكلِّ ما تتَّبِعه أُمَّةٌ: مِلَّة. وقال ابنِ عباس، والسدي: أرادوا ملَّة النصارى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذلك مُتَّجه لأنها ملَّة شهر فيها التثليث وأَنَّ الإلٰه ليس بواحد. وقالت فرقة: معنى قولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا﴾ أي: ما سمعنا أنه يكون مثل هذا، ولا أنه يقال في المَّلة الآخرة التي كنا نسمع أنها تكون في آخر الزمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذلك أنه قبل مبعث النبي عليه الصلاة والسلام كان الناس يستشعرون خروج نبيٍّ وحدوث ملَّة ودين، ويدل على صحة هذا ما رُوي من أقوال الأحبار أُولي الصوامع، وما رُوي عن شقٍّ وسطيح، وما كانت بنو إسرائيل تعتقد من أنه يكون منهم. وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ إشارة إلى جميع ما يُخبر به محمد ﷺ عن الله تعالى.

ثم قالوا: على جهة التقرير من بعضهم لبعض، ومُضَمَّن ذلك الإنكار ـ ﴿عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ﴾. بمعنى: نحن الأشراف الأعلام، فَلِمَ خُصَّ هو؟ وكيف يصحُّ هذا؟ فردَّ الله قولهم بما يقتضيه (بَلْ)؛ لأن المعنى لَيْسَ تخصيص الله وإنعامه جارياً على شهواتهم، ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾، أي في ريب أن هذا التذكير حق. ثم توعدهم بقوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾، أي: لو ذاقوه لتحققوا أن هذه الرسالة حق، أي هم لجهالتهم لا يُبيِّنُ لهم النظرُ، وإنما يُبيِّن لهم مباشرةُ العذاب. وقرأ ابن مسعود: «أَمْ أُنْزِل» بميم بين الهمزتين.

ثم وَقَفهم احتجاجاً عليهم، أعندهم خزائن رحمة الله التي فيها الهدى والنُّبوَّة وكل

فضل، فيكون لهم تحكُّم في الرسالة وغيرها من نِعَم الله؟ و(أمْ) هنا لم تُعادلها أَلف، فهي المقطوعة التي معناها الإضراب عن الكلام الأَول واستفهام، وقدَّرها سيبويه بـ«بَلْ والألف»، كقول العرب: «إنها لإبلٌ أَمْ شاءٌ». والخزائن للرحمة مستعارة، كأَن المعنى: موضع جمعها وحفظها، ومن حيث كانت ذخائر البشر تحتاج إلى ذلك خوطب في الرحمة بما ينحو إلى ذلك، قال الطبري: يعني بالخزائن المفاتيح. والله تعالى أَعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾.

(أَمْ) في هذه الآية معادلة للألف المقدرة في (أَم) الأُولى، وكأَنه تعالى يقول في هذه الآية: أَمْ لهم هذا المُلْك فتكون الرسالة والنبوة على اختيارهم ونظرهم، ﴿فليرتقوا في الأسباب﴾ إن كان الأمر كذلك، أَي: إلى السماءِ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. و(الأَسباب) كل ما يُتَوَصَّل به إلى الأَشياءِ، وهي هنا بمعنى الحبال والسلالم. وقال قتادة: أَراد أَبوابَ السماءِ.

قوله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ﴾، اختلف المتأَولون في الإشارة بـ[هُنَالِكَ] إلى ما هي ـ فقالت فرقة: أَشار إلى الارتقاءِ في الأَسباب، أَي: هؤلاءِ القوم إن راموا ذلك جُنْدٌ مهزوم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قويٌّ.

وقالت فرقة: الإشارة بـ(هُنَالِكَ) إلى حماية الأَصنام وعضدها، أَي: هؤلاءِ القوم جند مهزوم في هذه السبيل، وقال مجاهد: الإشارة بـ(هَنَالِكَ) إلى يوم بدر، وكان غيْباً أَعلم الله به على لسان رسول ﷺ أَنَّ جنداً مشركين يُهْزَمون، فخرج في بدر، وقالت فرقة: الإشارة إلى من حضر عام الخندق بالمدينة. وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾، أَي: من جملة الأَحزاب والأُمم الذين تعصبوا في الباطل وكذَّبوا الرُّسل فأَخذهم الله تعالى.

و(مَا) في قوله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ زائدة مؤكدة، وفيها تخصيص.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ ـ فقال ابن عباس، وقتادة: سُمِّي بذلك لأنه كانت له أوتاد وخشب يُلعب له بها وعليها، وقال السدي: كان يقتل الناس بالأوتاد ويشدُّهم في الأرض بها، وقال الضحاك: أراد المباني العظام الثابتة. وهذا أظهر الأقوال، كما يقال للجبال أوتاد لثبوتها. ويحتمل أن يقال له: (ذو الأوتاد) عبارة عن كثرة أخبيته وعِظَم عساكره، ونحوٌ من هذا قولهم: «أهل العمود». وقرأت فرقة: [لَيْكَةِ]، وقرأت فرقة: (الأَيْكَةِ)، وقد تقدم.

ثم أخبر تعالى أن هؤلاءِ المذكورين هم الأحزاب، وضرب بهم المثل لقريش في أنهم كذَّبوا، ثم أخبر أن عقابه حقٌّ على جميعهم، فكذلك يحق عليكم أيها المكذبون بمحمد عليه الصلاة والسلام، وفي قراءَة ابن مسعود: [إن كلٌّ لما]، وحكى أبو عمرو الداني أن فيها: «إِنْ كُلُّهُمْ إِلاَّ كذَّبَ».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

(يَنْظُرُ) بمعنى: ينتظر، وهذا إخبار من الله تعالى لرسول ﷺ، صدَّقه الوجود، فالصيحة ـ على هذا التأويل ـ عبارة عن جميع ما نابهم من قتل أو أسر وغلبة، وهذا كما تقول: صاح فيهم الدَّهر، وقال قتادة: توعدهم الله بصيحة القيام والنفخ في الصُّور، قال الثعلبي: رُوي هذا التفسير مرفوعاً إلى النبي ﷺ[1]. وقالت طائفة: توعدهم تعالى

(١) الذي ذكره الإمام السيوطي في الدر المنثور أن عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم أخرجوا عن قتادة رضي الله عنه تفسير هذه الآيات، ولم يشر إلى أنَّ قتادة قد رفع ذلك إلى النبي ﷺ، وفي الحديث: ﴿ما ينظر هؤلاء﴾ يعني أُمة محمد ﷺ ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ يعني الساعة، ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ يعني: ما لها من رجوع ولا مثوبة ولا ارتداد. وفي تفسير ابن جرير الطبري، أخرج عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لما فرغ من خلْق السموات والأرض خَلَق الصُّور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه شاخصٌ ببصره إلى العرش ينتظر متى =

بصيحة يهلكون بها في الدنيا، وعلى هذين التأويلين فمعنى الكلام أنهم بمدرج عقوبة، وقت أَمر خطير ما ينتظرون فيه إلا الهلكة، وليس معناه التوعُّد بشيءٍ معين ينتظره محمد ﷺ فيهم كالتأويل الأول. وقرأ الجمهور: (فَوَاقٍ) بفتح الفاءِ، وقرأ حمزة، والكسائي، وابن وثاب، والأعمش، وأَبو عبد الرحمن: [فُوَاقٍ] بضم الفاءِ. قال ابن عباس، وغيره: هما بمعنى واحد، أي: ما لها من انقطاع وعودة، بل هي متصلة حتى مهلكهم، ومنه: «فُوَاقُ الحَلْبة»، المهلة التي بين الشَّخْبَتَيْن[1]، وجعلوه مثل قَصاص الشعر وقُصَاصه، وغير ذلك، ومنه الحديث عن النبي ﷺ: «من رابط فُوَاق ناقة حرَّم الله جسده على النار»[2]. وقال ابن زيد، وأَبو عبيدة، ومؤرج، والفراءُ: المعنى مختلف، الضَّمُّ كما تقدم من معنى فواق. والفتح بمعنى الإِفاقة، أَي: ما يكون لهم بعد هذه الصيحة من إفاقة ولا استراحة، ففَواق مثل جواب من أَجاب.

ثم ذكر عزَّ وجلَّ عنهم أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾، والقِطُّ: الحَظُّ والنصيب، والقِطُّ أَيضاً: الصَّكُّ والكتاب من السلطان بِصِلةٍ ونحوه، ومنه قول الأَعشى:

وَلاَ الْمَلِـكُ النُّعْمَـانُ يَـوْمَ لَقِيتَـهُ ... بِغِبْطَتِـهِ يُعْطِـي الْقُطُـوطَ ويَـأْفِـقُ[3]

= يؤمر)، قال أبو هريرة: يا رسول الله وما الصور. قال: «قَرْنٌ»، قال: كيف هو؟ قال: «قرْنٌ عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات: نفخة الفزع الأولى، والثانية: نفخة الصَّعْق، والثالثة: نفخة القيام لرب العالمين، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى، فيقول: انفُخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، ويأمره الله فيديمها ويطوِّله، فلا يفتر، وهي التي يقول الله: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾. فلعلَّ هذا هو ما أشار إليه الثعلبي بقوله: «رُوي هذا التفسير مرفوعاً إلى النبي ﷺ».

(١) في اللسان (فَوَقَ): «فُوَاق النَّاقَة وفَوَاقها: رجوع اللبن في ضرعها بعد حلبها، يقال: لا تنتظره فواق ناقة، وفُوَاق الناقة وفَوَاقُها: ما بين الحلبتين إذا فتحت يدكَ». والشَّخْب والشُّخب: ما خرج من الضرع من اللبن إذا احتُلب، وفي المثل: «شُخْبٌ في الإناءِ وشُخْبٌ في الأرض»، والشَّخْبَةُ: الدُّفعة منه.

(٢) أخرجه العقيلي في الضعفاءِ، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث ضعيف.

(٣) البيت من قصيدة له يمدح المحلق بن خنثم بن شداد بن ربيعة، يقول في مطلعها:

أَرِقْـتُ ومـا هَـذَا السُّهَـادُ المُـؤَرِّقُ ... وَمَـا بِـيَ مِـنْ سُقْـمٍ وَمَـا بِـيَ مَعْشَـقُ؟

وقد أراد بالنعمان: النُّعمان الثالث أبا قابوس، ويروى البيت (كما في الديوان) ـ بإمَّتِه ـ بدلا من (بغبطته)، والإِمَّةُ: النعمة، أو الدين، أو غضارة العيش، والقُطُوط: جمْع قطٍّ، وهو الحظ والنصيب والصك بالجائزة، ويأفِقُ، يُعطي بعضاً أكثر من بعض، والشاهد أن كلمة القطوط يراد بها الكتاب من السلطان بالجائزة أو الصِّلَة.

وهو من: قَطَطْتُ، أَي: قطعتُ. واختلف الناس في «القطِّ» هنا، ما أَرادوا به؟ فقال سعيد بن جبير: أَرادوا به: عجِّل لنا نصيبنا من الخير والنعيم في دنيانا، وقال أَبو العالية، والكلبي: أَرادوا: عجِّل لنا صحفنا بأَيْمَاننا، وذلك لمَّا سمعوا في القرآن أَن الصحف تُعْطَى يوم القيامة بالأَيمان والشمائل قالوا ذلك، وقال ابن عباس، وغيره: أَرادوا ضِدَّ هذا من العذاب ونحوه، فهذا نظير قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[١]. وقال السدي: المعنى: أَرنا منازلنا في الجنة حتَّى نبايعك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى كل تأْويل فكلامهم خرج على جهة الاستخفاف والهزءِ، ويدل على ذلك ما عُلم من كفرهم واستمر، ولفظ الآية يعطي إِقراراً بيوم الحساب.

قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، أَي: من هذه الأَقاويل التي يريدون بها الاستخفاف، ولا تلتفت إِليها، ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد﴾ في الدين والصَّدْع به، فَتَأَسَّ به وتأَيد كما تأَيد، و(الأيْدِ): القوة، وهي في داود متضمنة قوة البدن وقوته على الطاعة. و«الأَوَّابُ»: الرَّجَّاع إِلى طاعة الله تعالى، قاله مجاهد وابن زيد، وفسَّره السدي بالمُسَبِّح، وذكر الثعلبي أَن أَبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الزُّرْقة يُمْنٌ»[٢]، وكان داود أزرق، وأَخبر تبارك وتعالى عمَّا وهب لداود من الكرامة في أَن سخَّر الجبال معه تسبِّح، وظاهر الآية عموم الجبال، وقالت فرقة: بل هي الجبال التي كان فيها وعندها، وتسبيح الجبال هنا حقيقة. و«الإِشْرَاقُ»: وقت ضياءِ الشمس وارتفاعها، ومنه قولهم: «أَشْرِقْ ثبيرُ كيْما نُغِير»[٣]، أَي: ادخل في الشروق. وفي

(١) من الآية (٣٢) من سورة (الأنفال).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه في الضعفاءِ، عن عائشة رضي الله عنها، والحاكم في تاريخه، والديلمي في مسند «الفردوس» عن أبي هريرة رضي الله عنه. (الجامع الصغير).

(٣) ذكر هذا المثل الميدانيّ في كتابه «مَجْمَع الأمثال»، وقال في شرحه: «أَشْرِق، أي: ادخُلْ يا ثبير في الشروق كي نسرع للنحر، يقال: أغار الثعلبُ، أي أسرع، قال عمر رضي الله عنه: «إن المشركين كانوا يقولون: أشرق ثبير كيْما نُغير، وكانوا لا يُفيضون حتى تطلع الشمس، يُضرب في الإسراع والعَجَلَة». وثبير: جبل بمكة، قال الحموي في (معجم البلدان): «كان المشركون إذا أرادوا الإفاضة يقولون: أشرق ثبير كيْما نُغير، وذلك أنهم في الجاهلية كانوا إذا قضوْا نُسُكهم لا يجيزهم إلا قومٌ مخصوصون، وكان منهم رجل يقال له: أبو سَيَّارة، كان يتقدم الحاجَّ على حمار له، ثم يخطب الناس فيقول: «اللهم=

هذين الوقتين كانت صلاة بني إسرائيل، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: صلاة الضحى عندنا هي صَلاة الإشراق، وهي في هذه الآية(١).

وقوله: ﴿وَالطَّيْرَ﴾ بالنصب عطف على ﴿الْجِبَالَ﴾، أَي: وسَخَّرْنَا الطَّيْرَ، و﴿مَحْشُورَةً﴾ نصب على الحال، ومعناه: مجموعة، وقرأَ ابن أَبي عَبْلَة: [والطَّيرُ مَحْشُورةٌ] بالرفع فيهما، والضمير في (لَهُ) قالت فرقة: هو عائد على الله تعالى، فـ(كُلٌّ) ـ على هذا ـ يراد به: داودُ، والجبالُ، والطيرُ. وقالت فرقة: هو عائد على داود عليه السلام، و(كُلٌّ): الجبالُ والطيرُ.

وقوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ عبارة عامة لجميع ما وهبه الله تعالى من قوة وجُنْد ونعمة، وقد خصص بعض المفسرين في ذلك أَشياءَ دون أَشياءِ، فقال السدي؛: بالجنود، وقال آخرون: بِهَيْبَةٍ جعلها الله له، وقرأَ الجمهور: ﴿وَشَدَدْنَا﴾ بتخفيف الدال الأُولى، ورُوي عن الحسن شَدَّها على المبالغة. و﴿الْحِكْمَةَ﴾: الفهم في الدين وجودة النظر، هذا قول فرقة، وقالت فرقة: أَراد بالحكمة النُّبُوَّةَ، وقال أَبو العالية: الحكمة؛ العلمُ الذي لا تردُّه العقول.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هي عقائد البرهان.

واختلف الناس في «فَصْلِ الْخِطَابِ» ـ فقال ابن عباس، ومجاهد، والسدي: هو فصل القضاءِ بين الناس بالحق وإِصابتُه وفَهْمُه. وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه،

= أَصلح بين نسائنا، وعاد بين رعائنا، واجعل المال بي سُمَحائنا، أوفوا بعهدكم، وأكرموا جاركم، واقْرُواضيفكم»، ثم يقول: «أشرق ثبير كيْما نغير»، أي نسرع إلى النحر».

(١) أخرج ابن جرير، والحاكم، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس رضي الله عنهما، كان لا يصلي الضحى حتى أدخلناه على أمّ هانيءٍ، فقلنا لها: أخبري ابن عباس رضي الله عنهما بما أخبرتنا به، فقالت: دخل رسول الله ﷺ بيتي فصلّى صلاة الضحى ثمان ركعات، فخرج ابن عباس رضي الله عنهما وهو يقول: لقد قرأتُ ما بين اللوحين فما عرفتُ صلاة الإشراق إلا الساعة: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾. وأخرج مثله ابن مردويه عن عبد الله بن الحارث، وأخرج البخاري في تاريخه، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والطبرانيُّ في الأوسط، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحافظ على صلاة الضحى إلا أوّاب، هي صلاة الأوّابين». ورَوى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنهما، قال: «أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهنَّ حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، ونوم على وتر»، واللفظ للبخاري.

وشُرَيْح، والشعبي: هو إيجابُ اليمين على المدَّعَى عليه، والبيِّنَة على المدَّعِي، وقال زياد، والشعبي أيضاً: هو قول: «أمّا بعد»، فإنه أول من قالها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي يعطيه لفظ الآية أن الله تعالى آتاه أنه كان إذا خاطب في نازلةٍ فصَّل المعنى وأَوْضحه، لا يأخذه في ذلك حَصَرٌ[1] ولا ضعف، وهذه صفةٌ قليلٌ من يدركها، فكان كلامه عليه السلام فَصْلاً، وقد قال الله تبارك وتعالى في صفة القرآن: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾[2]، ويزيد محمد ﷺ على هذه الدرجة بالإيجاز في العبارة، وجمْع المعاني الكثيرة في اللفظ اليسير، وهذا هو الذي تَخَصَّص هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ به في قوله: «وأُعْطِيتُ جوامع الكَلِم»[3]، فإنها في الخِلالِ التي لم يُؤْتها أَحدٌ قبله، وذكْر «جوامع الكلم» معدودٌ ومُسَلَّم له ﷺ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ٢٤﴾.

هذه مخاطبة للنبي ﷺ، واستُفْتِحَت بالاستفهام تعجباً من القصة وتفخيماً لها؛ لأَن المعنى: هل أَتاك هذا الأمر العجيب الذي هو عبرة؟ فكأن هذا الاستفهام إنما هو تهْيِئَةٌ لنفس المخاطب وإعدادٌ لها للتَّلَقِّي. و«الخَصْمُ» ـ جارٍ مجرى «عَدْل وَزَوْر» ـ يوصفُ به الواحد والاثنان والجمع، ومنه قول لبيد:

---

(١) الحَصَر في الكلام: عدمُ القدرة عليه والعجزُ عن الإبانة.

(٢) الآية (١٣) من سورة (الطارق).

(٣) أخرجه البخاري في التعبير، ومسلم في الأشربة، والترمذي في السير، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، ولفظه كما في صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلتُ على الأنبياءِ بستٍّ: أُعطيت جوامع الكَلِم، ونُصرتُ بالرعب، وأُحِلَّت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأُرسلت إلى الخلق كافة، وخُتم بي النبيُّون».

وخَصْمٍ يَعُدُّونَ الذُّحُولَ كأَنَّهُمْ قُرُومٌ غَيَارَى كلَّ أَزْهَرَ مُصْعَبِ[١]

وتحتمل هذه الآية أن يكون التَّسَوُّر للمحراب من اثنين فقط؛ لأَن نفس الخصومة إنما كانت بين الاثنين، فتجيءُ الضمائر في (تَسَوَّرُوا) و(دَخَلُوا) و(قَالُوا) على جهة التَّجَوُّز في العبارة عن الاثنين بلفظ الجمع، وتحتمل أَنه جاءَ مع كل واحد فرقة كالعاضدة أَو المُؤنسة، فيقع على جميعهم «خَصْمٌ»، وتجيءُ الضمائر حقيقية.

و(تَسَوَّرُوا)[٢] معناه: عَلَوْا سُورَهُ، وهو جمع «سُورَةٍ»، وهي القطعة من البناءِ، وهذا كما تقول: تَسَنَّمْتُ الحائط أو البعيرَ إِذا علوتَ سنامه. و«المِحْرَابُ: الموضع الأَرفع من القصر أَو المسجد، وهو موضع التَّعبُّد، والعامل في (إِذْ) الأُولى (نَبَأُ)، وقيل: (أَتَاكَ)، والعامل في الثانية (تَسَوَّرُوا)، وقيل: هي بدلٌ من الأُولى[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ يحتمل أَن يكون فزعه من الداخلين أَنفسهم لئلا يؤذوه، وإِنما فزع من حيث دخلوا من غير الباب ودون استئذان، وقيل: إِن ذلك كان ليلاً، ذكره الثعلبي. ويحتمل أَن يكون فزعُه من أَن يكون أهل مُلْكه قد استهانوه حتَّى ترك

---

(١) البيت من قصيدة له يذكر أيامه ومفاخره ومقاماته بين أيدي الملوك، والرواية في الديوان:

وخَصْمٍ قِيامٍ بالعَرَاءِ كأَنَّهُمْ قُرومٌ غَيَارَى كلَّ أزْهَرَ مُصْعَبِ

والخَصْم: الخصوم والأعداءُ، وهو يقع على الواحد والجمع، وقال ذلك أبو عبيدة في (مجاز القرآن) واستشهد بهذا البيت، والذُّحول: جمع ذَحْلٍ، وهو الثأرُ، أما على رواية الديوان فالأرض العَرَاءُ هي الأرض الفضاءُ. والقُروم: جمع قرم، وهو الفحل العظيم من الإبل، وغَيَارَى: جمعِ غيران، والأزْهَرُ: الأبيض، والمُصْعَب: الشديد القويُّ من الإبل الذي يمتنع من الركوب، ولهذا فلم يُذَلَّل، وقد نصب (كلَّ) على تقدير: أخصُّ. يُشَبِّه الخصومَ الأقوياءِ بالفحول من الإبل. ثم يقول بعد ذلك: إنه ردَّهم كقطيع من البقر الضعيف المتهالك من الإعياءِ وقِسِيُّهم مائلة تضطرب مما لقوا من الهزيمة.

(٢) جاءَ في اللسان: «والسُّورُ جمع سُورَة مثل بُسْرَة وبُسْرٍ.

(٣) القول بأن العامل في (إِذْ) هو (نَبَأُ) هو قول أبي البقاءِ، قال أبو حيان الأندلسي: وهو مردود بأن النبأ الواقع في عهد داود عليه السلام لا يصح أن يأتي رسول الله ﷺ، وإذا أردنا بالنبأ القصة في نفسها لم يكن قوله: (نَبَأُ) ناصباً للظرف، والقول بأن العاملَ في الظرف هو (أَتَاكَ) هو قول الحوفي، وهو أيضاً مردود، لأن إتيان النبأ رسول الله ﷺ لا يقع إلا في عهده، لا في عهد داود عليه السلام. وقد قال الزمخشري: إن العامل في الظرف محذوف، تقديره: وهل أتاك تخاصم الخصم، وقيل: إنه يجوز أن ينتصب الظرف بالخَصْم لما فيه من معنى الفعل. أما (إذ) الثانية فهي بدل من (إِذْ) الأولى، كما قال ابن عطية، وقيل: هي منصوبة بقوله: (تَسَوَّرُوا).

بعضهم الاستئذان، فيكون فزعه من فساد السيرة لا من الداخلين، ويظهر من قولهم: (لاَ تَخَفْ) أَنهم فهموا فزعه.

وهنا قَصَصٌ طوَّل الناس فيه، واختلفت الروايات فيه، ولا بد أَن نذكر منه ما لا يقوم تفسير الآية إِلاَّ به، ولا خلاف بين أَهل التأْويل أَن هؤلاءِ الخصم إِنما كانوا ملائكة بعثهم الله تعالى ضرب مثل لداود عليه السلام، فاختصموا إِليه في نازلة قد وقع هو في نحوها، فأَفتى بِفُتْيا هي واقعة عليه في نازلته، ولما شعر وفهم المراد خرَّ وأَناب واستغفر، أَما نازلته التي وقع فيها فروي أنه عليه السلام جلس في ملإٍ من بني إِسرائيل فأُعجب بعمله، وظهر منه ما يقتضي أَنه لا يخاف على نفسه الفتنة، ويقال: بل وقعت له في نحو هذا محاورة مع الملكين الحافظيْن عليه، فقال: جَرِّباني يوماً، وإِن غبتما عني فإِني لا أُواقع مكروهاً، وقال السدي: كان قد قسَّم دهره: يوماً يقضي فيه بين الناس، ويوماً للعبادة، ويوماً لشأْن نفسه، فعُيِّن يومُ خُلُوِّه للعبادة لمَّا تمنى أن يُعطى مثل فضل إِبراهيم وإِسحق ويعقوب عليهم السلام، والتزم أَن يُمتحن كما امْتُحنوا، وقيل: السبب غير هذا مما هو تطويل لا يصح.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إِن داود أَخذ يوماً في عبادته، وانفرد في محرابه يصلي ويسبِّح، إِذ دخل عليه طائر من كُوَّة فوقع بين يديه، فروي أنه كان طائراً حسن الهيئة، حمامة، فمدَّ داود يده إِليها ليأْخذها، فما زالت تُطْمعه ويتبعها حتى صعدت الكُوَّة التي دخلت منها، فصعد ليأخذها فتنحَّى الطائر له، فتطلَّع داود فإِذا هو بامرأَة تغتسل عريانة، فرأَى منظراً جميلاً فَتَنَه، ثم إِنها شعرت به فأَسبَلَتْ شعرها على بدنها فتجلَّلَتْ به فزاده ذلك ولوعاً بها، ثم إِنه انصرف وسأَل عنها فأُخبر أَنها امرأَة رجل من جنده يقال له: «أُورِيَا»، وأَنه في بعث كذا وكذا، فيروى أنه كتب إِلى أَمير تلك الحرب أَن قدِّم فلاناً يقاتل عند التابوت، وهو موضع قلَّما يخلص منه أَحد، فقدمه فاستشهد هنالك، ويروى أَن داود كتب أَن يُؤَمَّر ذلك الرجل على جملة من الرجال، وترمى به الغارات والوجوه الصعبة من الحرب حتى قُتل في الثالثة من نهضاته، وكان لداود عليه السلام ـ فيما روي ـ تسع وتسعون امرأَة، فلما جاءَه الكتاب بقتل من قُتل في حربه، جعل كلما سُمِّي رجل يسترجع ويتفجع، فلما جاءَ اسم الرجل قال: كتب الموت على كل نفس، ثم إِنه خطب المرأَة وتزوجها فكانت أُم سليمان عليه السلام فيما روي عن

قتادة، فبعث الله تعالى إليه الخصم ليُفتي أَن هذا ظلم، وقالت فرقة: إن هذا كله همٌّ به داود عليه السلام ولم يفعله، والمعاتبة على الهَمِّ، وقال آخرون: إنما الخطأُ في أنه لم يجزع عليه كما جزع على غيره من الجند، إذ كان عنده أَمر المرأة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والرُّواةُ على الأَول أَكثر، وفي كتب بني إسرائيل في هذه القصة صور لا تليق، وقد حدَّث بها قُصَّاص في صدر هذه الآية، فقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: من حدَّث بما قال هؤلاءِ القُصَّاص جلدتُه حدّين لما ارتكب في حُرمة من رفع الله محلَّه.

وقوله تعالى: (خَصْمَانِ) تقديره: نحن خصمان، وهذا كقول الشاعر:

وَقُـولاَ إِذَا جَـاوَزْتُمَـا أَرْضَ عَـامِـرٍ ... وَجَـاوَزْتُمَـا الْحَيَّيْـنِ نَهْـداً وَخَثْعَمَـا
نَـزِيعـانِ مِـنْ جَـرْمِ بْـنِ زَبَّـانَ إِنَّهُـمْ ... أَبَوْا أَنْ يُميرُوا في الهَزَاهِزِ محْجَمَا(١)

ومثله قول العرب في المثل: «مُحْسِنَةٌ فَهِيلي»(٢)، والتقدير: أَنت محسنةٌ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «آيِبُونَ تائبون»(٣).

(١) استشهد الفراءُ بهذين البيتين في كتابه (معان القرآن) على أن (خَصْمَانِ) في الآية الكريمة خبر لمبتدأ محذوف، وأن التقدير: نحن خصمان، قال: «والعرب تضمر للمتكلِّم والمكلَّم المخاطب ما يرفع فعله، ولا يكادون يفعلون بغير المخاطب أو المتكلِّم، من ذلك أن تقول للرجل: أذاهب؟ أو أن يقول المتكلِّم: واصلكم إن شاءَ الله ومُحْسِنٌ إليكم، وذلك أن المتكلِّم والمكلَّم حاضران، فتعرف معنى أسمائهما إذا تُركت، وأكثره في الاستفهام، يقولون: أجادٌّ؟ أمُنْطلقٌ؟ وقد يكون في غير الاستفهام، فقوله: (خَصْمانِ) من ذلك، وقال الشاعر: وقولا... الخ البيتين، ومثله قول الآخر:

تَقُـولُ ابْنَـةُ الْكَعْبِـيِّ يَـوْمَ لَقِيتُهَـا ... أَمُنْطَلِـقٌ فـي الجيـش أم متثـاقـل؟

والشاهد في البيتين قوله: «نَزِيعانِ»، أي: نحن نزيعان، فهو مرفوع على تقدير مضمر قبله وإن لم يكن معه استفهام، وكذلك الشاهد في بيت ابنة الكعبي قوله: أمنطلقٌ، أي: أأَنْتَ منطلق؟ وهذا أكثر لأن في الكلام استفهاماً.

(٢) أصل هذا المثل أن ضيفاً جاء إلى امرأة ومعه جراب دقيق، فأقبلت المرأة تأخذ من جرابه لنفسها، فدخل عليها فجأة، فدهشت وأخذت تفرغ من وعائها في جرابه، فقال: ما تصنعين؟ قالت: أزيدك من دقيقي، قال: مُحْسِنَةٌ فَهيلي، أي: أنت مُحْسِنَةٌ فَهيلي. ويروى: مُحْسِنَةً، بالنصب على الحال، أي: هيلي محسنةً، ويجوز أن ينصب بفعل محذوف تقديره: أراك محسنةً يضرب للرجل يعمل العمل يكون فيه مصيباً (راجع الأمثال للميداني، معاني القرآن للفراء).

(٣) هذا جزءٌ من حديث أخرجه البخاري في العمرة والجهاد والمغازي والدعوات، ومسلم في الحج، وأبو داود في الجهاد، والترمذي في الحج والدعوات، والدارمي في الاستئذان، ومالك في الموطإِ في=

و[بَغَى]: اعتدى واستطال، ومنه قول الشاعر:

وَلَكِــنَّ الْفَتَــى حَمَــلَ بــنَ بَــدْرٍ   بَغَــى والْبَغْــيُ مَــرْتَعُــهُ وَخِيــمُ[١]

وقوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ إغلاظ على الحاكم، واستدعاءٌ لعدله، وليس هذا بارتياب منه، ومنه قول الرجل للنبي ﷺ: «فاحكم بيننا بكتاب الله»، وقرأ الجمهور: (تُشْطِطْ) بضم التاءِ وكسر الطاءِ الأُولى، ومعناه: ولا تبعد في حكمك، وقرأ أَبو رجاءٍ، وقتادة بفتح التاءِ وضمِّ الطاءِ الأُولى، وهي قراءَة الحسن، والجحدري، والمعنى: ولا تَبْعُدْ، يقال: شَطَّ إِذا بَعُدَ، وأَشَطَّ إِذا أَبعد غيره، وقرأَ زِرُّ بن حُبيش: [تُشَاطِطْ] بضم التاءِ وبأَلفٍ بعد الشين. و«سَوَاءُ الصراط» معناه: وسط الطريق ولا حِبُه[٢].

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾، إعرابُ (أَخِي) عطف بيان، وذلك أن ما جرى من هذه الأَشياءِ صفة كالخَلْق والخُلُق وسائر الأوصاف فإنه نعتٌ محضٌ، والعامل فيه هو العامل في الموصوف، وما كان منها مما ليس لِيوصَفَ بِهِ البَتَّةَ فهو بدلٌ، والعامل فيه مُكَرَّر، تقول: «جاءَنِي أَخوك زيد»، فالتقدير: جاءَني أَخوك، جاءَني زيد، فاقتصر على حذف العامل في البدل والمبدل منه، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[٣]، وما كان منها مِمَّا لا يوصف به واحتيج إلى أَن يُبَيَّن به ويجري مجرى الصفة فهو عطف بيانٍ، وهو بيِّن في قول الشاعر:

= الحج، وأحمد في مسنده في مواضع كثيرة، ولفظه كما في مسند أحمد ٢ ـ ٥: (عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا قفل من حجٍّ أو غزو فَعَلا فَدْفَداً من الأرض أو شرفاً قال: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير، آيبون تائبون ساجدون عابدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده).

(١) البَغْي: الظلم والاستطالة على الناس، والمرتع: الموضع ترعى فيه الماشية، والمراد هنا: مَجَال الباغي والدائرة التي يبغي فيها، والوَخيم: الثقيل والوبيءُ الرديءُ غير الصالح، يقال: أرض وخيمة، أي: لا ينجع كَلَؤها، ويقال: طعام وخيم، أي: ثقيل غير موافق، والمعنى في البيت أن العدوان على الناس له نتيجته السيئة الفاسدة التي تضر المعتدي. كالماشية ترعى في أرض غير صالحة فتصاب بالضرر والمرض.

(٢) الطريق اللاحب: الواضح.

(٣) الآية (٣١) من سورة (يس).

. . . . يـا نَصْـرُ نَصْـرٌ نَصْـرَا(١)

فإن الرواية في الثاني بالتنوين تدل على أن النداءَ ليس بمكرر عليه، فليس ببدل، ووضح فيه عطف البيان.

وهذه الأُخوة مستعارة؛ إذْ هما مَلَكان، ولكن من حيث تصوَّرَا آدميَّيْن تكلَّما بالأُخوة التي بينهما في الدين والإيمان، والله أَعلم.

و«النَّعْجَةُ» في هذه الآية عبر بها عن المرأَة، والنعجة في كلام العرب تقع على أُنثى بقر الوحش، وعلى أُنثى الضأن، وتُعبِّر العربُ بها عن المرأَة، وكذلك بالشَّاة، قال الأَعشى:

فَـرَمَيْـتُ غَفْلَـةَ عَينِـهِ عَـنْ شَـاتِـهِ ... فَـأَصَبْـتُ حَبَّـةَ قَلْبِهَـا وَطِحَـالِهَـا(٢)

---

(١) هذا جزءٌ من بيت، وفيه خلاف كبير بين النحويين، فبعضهم يقول: إنه من التوكيد اللفظي، وهذا التوكيد حُكْمُه في الأغلب حكم الأول، لكن يجوز إعرابُه رفعاً ونصباً، وفي هذا البيت شاهد ذلك، لأن (نَصْرٌ) الثانية رفعت إتباعاً للفظ الأول، و(نَصْراً) الثالثة نصبت إتباعاً لمحل الأول، ولا يجوز فيه البدل ولا عطف البيان، لأنهما يفيدان ما لا يفيد الأول من غير معنى التأكيد، وهذه الألفاظ لا تفيد إلا التأكيد.

وابن عطية يرى أنه من عطف البيان، ويوافقه أبو حيان وغيره، وحجتهم في ذلك أن الثاني من الألفاظ مُنَوَّن والأول ليس مُنَوَّناً، ولاختلاف اللفظين في التعريف، فالأول مُعَرَّف بالإقبال عليه، والثاني معرف بالعلمية، وهناك جدل كبير بين النحويين تجده موضحاً في كتب النحو.

هذا والبيت لرؤبة، وهو بتمامه:

إِنِّـــي وأَسْطَـــارٍ سُطِـــرْنَ سَطْـــرَا ... لَقَـــائِـــلٌ: يـــا نَصْـــرُ نَصْـــرٌ نَصْـــرَا

وهو من شواهد سيبويه في الكتاب، وفي العيني، وابن يعيش، والخصائص، وشرح شواهد المغني للسيوطي، وهمع الهوامع، وملحقات ديوان رؤبة، وخزانة الأدب. ومغني اللبيب لابن هشام، ونَصْرٌ المراد في البيت هو نصر بن سيَّار أمير خراسان في الدولة الأموية، وحتى هذا الاسم فيه خلاف، فبعضهم رواه (نضر) بالضَّاد المعجمة.

(٢) البيت من قصيدة له يمدح قيس بن معديكرب، وقد بدأها بالحديث عن سُمَيَّة التي رحلت غَضبى. وقبل هذا البيت يقول:

قَـدْ بِـتُّ رائِـدَهَـا، وشـاةِ مُحَـاذِرٍ ... حَـذَراً يُقِـلُّ بعَيْنِـه إغْفَـالَهَـا
فَظَلِلْـتُ أَرْعَـاهَـا وظَـلَّ يَحُـوطُهَـا ... حَتَّـى دَنَـوْتُ إذا الظَّلامُ دَنَـا لَهَـا
فَـرَمَيْـتُ غَفْلَـةَ عَيْنِـهِ عَـنْ شَـاتِـهِ ... فـأَصَبْـتُ حَبَّـةَ قَلْبِهَـا وطِحَـالَهَـا

فقد كنى في البيت الأول عن المرأة بالشاة، وكذلك في البيت الثالث هنا، ورائدها: طالبها والضمير=

أَراد: عن امرأَته. وفي قراءَة ابن مسعود: [وتِسْعُونَ نَعجة أُنثى]، وقرأَ حفص عن عاصم: (وَلِيَ) بفتح الياءِ، وقرأَ الباقون بسكونها، وهما حسنتان، وقرأَ الحسن والأَعرج: [نِعْجَةً] بكسر النون، والجمهور على فتحها، وقرأَ الحسن: [تَسْعٌ وتَسْعُون] بفتح التاءِ فيهما، وهي لغة(١). وقوله تعالى: (أَكْفِلنِيهَا)، أَي: رُدَّها في كفالتي، وقال ابن كيسان: المعنى: اجعلها كفلي، أَي: نصيبي.

قوله تعالى: (وَعَزَّنِي)، أَي: غَلَبَني، ومنه قول العرب: «مَنْ عَزَّ بَزَّ»(٢)، أَي: من

= يعود على الأرض المزهرة التي سبق الحديث عنها في البيت السابق، والمُحاذِر هو زوج المرأة الذي لا يغفل عنها، بل يراقبها، يقول: بت أسعى وراءَها وزوجها يحاذر ولا يغفل عنها أبداً، وظلَّ حالنا كذلك، هو يحرسُها وأنا أطلبها حتّى غفل عنها غفلة رميتها فيها فأصبتها في الصميم، والتكنية عن المرأة بالشاة كثيرة في الشعر العربي، قال عنترة:

يـا شـاةَ مـا قَنَـصٍ لِمَـنْ حَلَّـتْ لَـهُ ... حَـرُمَـتْ عَلَـيَّ وَلَيْتَهـا لَـمْ تَحْـرُمِ
فَبَعَثْـتُ جَـارِيَتـي فَقُلْـتُ لَهَـا اذْهَبـي ... فَتَجَسَّسـي أَخْبَـارَهَـا لِـيَ واعْلَمِـي
قَـالَـتْ رأَيْـتُ مِـنَ الأعَـادِي غِـرَّةً ... والشَّـاةُ مُمْكِنَـةٌ لِمَـنْ هُـوَ مُـرْتَـمِ

وقال ابن عونٍ:

أَنَــا أَبُــوهُــنَّ، ثَــلاثٌ هُنَّــهْ ... رَابِعَــةٌ فــي البَيْــتِ صُغْــرَاهُنَّــهْ
وَنَعْجَتِــي خَمْســاً تُــوَفِّيهِنَّــهْ ... ألا فَتــىً سَمْــحٌ يُغَــذِّيهِنَّــهْ
طَــيُّ النَّقَــا فــي الْجُــوعِ يَطْــوِيهِنَّــهْ ... وَيْــلُ الــرُّغَيْــفِ وَيْلَــهُ مِنْهُنَّــهْ

ويرى أبو حيان في (البحر المحيط) إبقاء لفظ النعجة على حقيقتها، من كونها أنثى الضأن، ولا يكنى بها عن المرأة، قال: «ولا ضرورة تدعو إلى ذلك لأن ذلك الإخبار كان صادراً من الملائكة على سبيل التصوير للمسألة والفرض لها مرة غير تلبّسٌ بشيءٍ منها؛ فمثلوا بالقصة، وهذا التصوير والتمثيل أبلغ في المقصود وأدَلُّ على المراد». (راجع البحر المحيط ٧ ـ ٣٩٢).

(١) قال أبو الفتح ابن جنّي: «قد كثر عنهم مجيءُ الفَعْل والفِعْل على المعنى الواحد، نحو: البَزْر والبِزْر، والنَّفْط والنِّفط، والسَّكْر والسِّكْر، والحَبْر والحِبْر، والسَّبْر السِّبْر». هذا والسَّكْر هو سدّ النهر، أما السَّبْر فمن معانيه: الهيئة الحسنة.

(٢) معناه كما قال ابن عطية: من غَلَب سَلَب، قالت الخنساءُ:

كـأنْ لَـمْ يَكُـونُـوا حِمـىً يُتَّقَـى ... إذ النَّـاسُ إذْ ذاكَ مَـنْ عَـزَّ بَـزَّا

قال المُفَضَّل: أول من قال هذا المثل رجل من طيءٍ اسمه جابر بن رألان، خرج مع صاحبين له، حتى كانوا بظهر الحيرَة، وكان للمنذر بن ماءِ السماءِ يوم يركب فيه فلا يلقى أحداً إلا قتله، فلقي في هذا اليوم جابراً وصاحبيه، فلما أخذتهم الخيل ووقفوا بين يديه قال المنذر: اقترعوا، فأيُّكمُ قَرَع خَلَّيْتُ سبيله، فاقترعوا فَقَرعهم جابر، فخلّى المنذرُ سبيلَه وقتل صاحبيه، فلما رآهما يقادان للقتل قال: «من عزَّ بزَّ»، فأرسلها مثلا.

غَلَب سَلَب. وقرأ أَبو حيوة بتخفيف الزاي، قال أَبو الفتح: أَراد: عَزَّني، فحذف إِحداهما تخفيفاً، كقول أَبي زُبَيْدٍ:

. . . . أَحَسْـنَ بِـهِ فَهُـنَّ إِلَيْـهِ شُـوسُ(١)

قال أَبو حاتم: ورويت بتخفيف الزاي عن عاصم، وقرأ ابن مسعود، وأَبو الضحي، وعبيد بن عمير: [وَعَازَّني]، أَي: غَالَبَني. ومعنى قوله: ﴿فِي ٱلْخِطَابِ﴾، أَي: كان أَوجه منِّي وأَقوى، فإِذا خاطبته كان كلامه أَقوى من كلامي، وقوته أَعظم من قوتي، فيروى أَن داود عليه السلام لمَّا سمع هذه الحُجَّة قال للآخر: ما تقول؟ فأَقرَّ وأَلَدَّ(٢)، فقال له داود: لئن لم ترجع إِلى الحق لأَكسرن الذي فيه عيناك، وقال للثاني: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾، فتبسَّما عند ذلك، وذهبا ولم يرهما لحينه، فشعر حينئذ للأَمر، ورُوي أَنهما ذهبا نحو السماءِ بِمَرْأَى منه، وقيل: بل بيَّنا عليه فعله في تلك المرأَة وزوجها، وقالا له: إِنما نحن مثال لك. وقال بعض الناس: إِن داود قال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ قبل أَن يسمع حجة الآخر، وهذه كانت خطيئته، ولم تنزل به هذه النازلة المروية قط.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف من جهات؛ لأَنه خالف متظاهر الروايات، وأَيضاً فقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ معناه أَن ظهر صدقك ببيِّنَة أَو باعتراف، وهذا من بلاغة الحاكم التي ترُدُّ المعوج إِلى الحق، وتفهمه ما عند القاضي من الفطنة. وقال الثعلبي: كان في النازلة اعتراف من المُدَّعى عليه حذف اختصاراً، ومن أَجله قال داود عليه السلام: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾.

---

(١) أبو زبيد هو حرملة بن المنذر الطائي الذي سبق الكلام عنه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ في هذه السورة، وهذا عجز بيت، وهو بتمامه:

خَـلا أَنَّ العِتَـاقَ مِـنَ المَطَـايَـا أَحَسْـنَ بِـهِ فَهُـنَّ إِلَيْـهِ شُـوسُ

والعتاق من المطايا: الكريمات السريعات من الإبل أو الخيل، يقال: عتقت الفرس تُعتق: سبقت الخيل فنجت، وفرس عاتق: سابق، والشَّوَسُ: النظر بمؤخر العين كبراً أو تغيُّظاً، والشُّوسُ: جمع الأَشْوَس، وفلان يتشاوسُ في نظره: إذا نظر نظرة ذي نَخوة وكبر.

والشاهد في البيت أنه قال: أَحَسْنَ، والأصل أَحْسَسْنَ، قال أبو الفتح بن جني: «يقال في حَسِسْت: حَسْتُ، وفي ظَلِلْتُ: ظَلْتُ، وذلك كله على تشبيه المضاعف بالمعتل العين».

(٢) أي: اشْتَدَّ في خصومته

وقوله عليه السلام: ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾، أَضاف المصدر إِلى المفعول. و«الْخُلَطَاءُ»: الأَشراك والمتعاقبون في الأملاك والأُمور، وهذا القول من داود وعْظٌ وبَسْط لقاعدة حق؛ ليحذر من الوقوع في خلاف الحق، و(مَا) في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ زائدة مؤكدة.

وقوله: ﴿وظن داود﴾ معناه: شعر وعَلِم، وقالت فرقة: (ظَنَّ) هنا بمعنى: أَيْقَنَ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والظن أَبداً في كلام العرب إِنما حقيقته توقف بين معتقدين يغلب أَحدهما الآخر، وتُوقِعُه العربُ على العلم الذي ليس على الحواس، ولا له اليقين التام البَتَّة، ولكن يخلط الناس في هذا ويقولون: «ظَنَّ» بمعنى: أَيقن، ولسنا نجد في كلام العرب شاهداً يتضمن أَن يقال: رأَى زيدٌ كذا وكذا فظنَّه، وانظر إِلى قوله تعالى: ﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾(١)، وإِلى قول دريد بن الصِّمَّة:

فَقُلْتُ لَهُمْ ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ ... سَرَاتُهُمُ في الفَارِسِيِّ المُسَرَّدِ(٢)

وإِلى هذه الآية: ﴿وظن داود﴾، فإِنَّكَ تجد بينها وبين اليقين درجة، ولو فرضنا أَهل النار قد دخلوها وباشروها لم يقل: (فَظَنُّوا)، ولا استقام ذلك، ولو أَخبر جبريل داود بهذه الفتنة لم يعبر عنها بـ(ظَنَّ)، فإِنما تُعَبِّر العربُ بها عن العلم الذي يقارب اليقين وليس به، ولم يخرج بعد إِلى الإحساس.؟

وقرأَ جمهور الناس: (فَتَنَّاهُ) بفتح التاءِ وشدِّ النون، أي: ابتليناهُ وامْتَحَنَّاهُ، وقرأَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأَبو رجاءٍ، والحسن ـ بخلاف عنه ـ: [فَتَّنَّاهُ] بشدِّ

---

(١) من الآية (٥٣) من سورة (الكهف).

(٢) البيت من قصيدة قالها دُرَيْد يرثي أخاه عبد الله، ومطلعها:

أَرَثَّ جَدِيدُ الحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ ... بِعَاقِبَةٍ وَأَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

والقصيدة مذكورة في الأصمعيات، والجمهرة، والحماسة، والخزانة، وكثير من أمهات كتب التراث، مع زيادات أو نقص في كل كتاب. والرواية في الأصمعيات: (علانيةً: ظُنُّوا...)، أي: قلت لهم علانية، (وهم قوم من بني عارض)، وظُنُّوا: أيقنوا، أَوْ كونوا على ثقة، أو معناه: ما ظنكم بألفي مُدَجَّجٍ؟ والمدَجَّجُ: التامُّ السلاح، وسَرَاتُهم: أشرافهم ورؤساؤُهم، وهي جمع سَرِيٍّ، والفارسيُّ: الدرع الذي يصنع بفارس، والمُسَرَّد: المحكم النسج، وقيل: هو الدقيق الثقب. هذا وكثير من أبيات القصيدة (ومنها بيتنا هنا) في اللسان (ظَنَنَ)، قال بعد أن ذكر البيت: «استيقنوا، وإنما يُخَوِّفُ عدوَّه باليقين لا بالشك».

التاءِ والنون، على معنى المبالغة، وقرأ أبو عمرٍو ـ في رواية علي بن نصر ـ: [فَتَنَاهُ] بتخفيف التاءِ والنون، على أن الفعل لِلْخَصْمين، أي: امْتَحَنَاهُ عن أمرنا، وهي قراءَة قتادة، وقرأ الضحاك: [افتتناه].

قوله تعالى: ﴿خر راكعاً وأناب﴾، أي: أَلْقى بنفسه نحو الأرض متطامناً متواضعاً، والركوعُ والسجود: الانخفاض والتَّرَامِي نحو الأرض، وخصَّصَتْهُما الشرائع على هيئات معلومة، وقال قوم: يقال: «خَرَّ ثم ركع» وإن كان لم ينته إلى الأرض، وقال الحسين بن الفضل: المعنى: خرَّ من ركوعه، أي: سَجَدَ بعد أن كان راكعاً، وقال أبو سعيد الخدري «رأيتني أكتب سورة صَّ، فلما بلغت هذه الآية سجد القلم، ورأيتني في منام آخر وشجرة تقرأُ سورة صَّ، فلما بلغت هنا سجدت، وقالت: اللَّهُم اكتب لي بها أجراً، واحطط عني بها وِزْراً، وارزقني بها شكراً، وتقبلها مني كما تقبلت من عبدك داود، قال النبي ﷺ: «وَسَجَدْتَ أنت أنت يا أبا سعيد»؟ فقلت: لا، فقال: أنت كنت أحق بالسجدة من الشجرة، ثم تلا رسول الله ﷺ الآيات حتى بلغ (وأَنَابَ) فسجد، وقال كما قالت الشجرة»[1]. و(أَنَابَ) معناه: رجع وتاب.

ويُروى عن مجاهد أن داود عليه السلام بقي في ركعته تلك لاصقاً بالأرض يبكي ويدعو أربعين صباحاً حتى نبت العشب من دمعه، ويروى غير هذا مما لاتثبت صحته، ويُروى أنه لما غفر الله له أَمْر المرأَة قال: يا رب، كيف لي بدم زوجها إذا جاءَ يطلبني يوم القيامة؟ فأَوحى الله إليه: إني سأَستوهبه لك يا داود، وأَجعله أن يَهَبَه راضياً بذلك، فحينئذ سُرَّ داود عليه السلام واستقرت نفسه، وروي عن عطاءٍ الخرساني، ومجاهد أن داود عليه السلام نقش خطيئته في كفه، فكان يراها دائماً ويعرضها على الناس في كل حين من خُطبه وكلامه وإشارته وتصرفه تواضعاً لله وإقراراً، وكان يسيح في الأرض ويصيح: «إِلٰهي، إذا ذكرتُ خطيئتي ضاقت علي الأرض برحبها، وإذا ذكرت رحمتك ارتدَّ إلى روحي، سبحانك إِلٰهي، أتيت أَطباءَ الدين لِيُدَاووا علَّتي فكلُّهم عليك دلَّني»،

---

(١) أخرجه أبو يعلى، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وأخرج مثله الترمذي، وابن ماجه، والطبراني، والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: جاءَ رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيت في هذه الليلة فيما يرى النائم كأنِّي أُصلِّي عند شجرة، وكأني قرأت سورة السجدة فسجدت فرأيت الشجرة سجدت بسجودي.... إلخ الحديث»، هذا ولم يُسَمِّ الرجل (الدر المنثور).

وكان يُدخل في صدر خطيئته الاستغفار للخطَّائين، وما رفع رأسه إلى السماءِ بعد خطيئته حياءً حتَّى قُبض، صلَّى الله تعالى على نبيِّنا وعليه وعلى جميع النبيِّين وسلَّم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ﴾ معناه: سترنا، و(ذَلِك) إشارة إلى الذنب المتقدم، و«الزُّلْفَى»: القُربى والمكانة الرفيعة. و«المَآبُ»: المرجع في الآخرة، من: آب يؤوب إذا رجع. وبعد ذلك حذفٌ يدلُّ عليه ظاهر الكلام، تقديره: وقلنا له: ﴿ياداود إنا جعلناك خليفة﴾، واستدل بعض أَهل الظاهر من هذه الآية على احتياج الأَرض إلى خليفة من الله تعالى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس هذا بلازم من الآية، بل لزومه من الشرع والإجماع، ولا يقال: «خليفة الله» إلاَّ لرسوله، وأَما الخلفاءُ فكل واحد منهم خليفة الذي قبله، وما يجيءُ في الشِّعر من تسمية أَحدهم خليفة الله فذلك تجوُّز وغلُوٌّ، كقول ابن قيس الرقيات:

خَلِيفَةُ اللهِ فِي بَرِيَّتِهِ ... جَفَّتْ بِذَاكَ الأَقْلَامُ وَالْكُتُبُ[1]

أَلا ترى أَن الصحابة رضي الله عنهم حرَّروا هذا المعنى، فقالوا لأَبي بكر الصديق:

---

(١) البيت في مدح عبد الملك بن مروان، وقبله يقول:

إنَّ الْفَنِيقَ الَّذي أَبُوهُ أَبُو الْـ ... ـعاصي، عَلَيْهِ الْوَقَارُ والحُجُبُ

والرواية في الديوان: (خليفة الله فَوْقَ مِنْبَرِهِ). والفَنِيقُ: الفحل المكرَّم من الإبل، الذي لا يركب ولا يُهان، وأبو العاصي هو جدُّ عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي، والبَرِيَّةُ: الخلق، أَصلها البريئة بالهمزة، وترك الهمزة أولى، والجمع: برايَا، ومعنى «جفت بذاك الأقلام والكتب»: قَضَى اللهُ بذلك وكتبه في اللوح والمحفوظ ولا مَرَدَّ له.

خليفة رسول الله، فبهذا كان يدعى مدته، فلما ولي عمر بن الخطاب قالوا: يا خليفة خليفة رسول الله، فطال الأمر، ورأَوْا أنه في المستقبل سيطول أكثر فدعوه: أمير المؤمنين، وقصر هذا الاسم على الخلفاءِ.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وليتذكر أولوا الألباب﴾ اعتراضٌ بين الكلامين من أمر داود وسليمان، وهو خطابٌ لمحمد ﷺ، وعِظَةٌ لأُمَّته، ووعيدٌ للكفرة به. وقرأَ أبو حيوة: [يُضِلُّونَ] بضم الياءِ. و(نَسُوا) معناه ـ في هذه الآية ـ: تركوا.

وأَخبر تبارك وتعالى أن الذين كفروا يظنون أن خلق السموات والأرض وما بينهما إنما هو باطلٌ لا معنى له، وأن الأمر ليس يؤول إلى ثواب وعقاب، وأخبر تعالى عن كذب ظنِّهم، وتوعَّدهم بالنار. ثم وَقَفَ على الفرق ـ عِنْده ـ بين المؤمنين العاملين بالصالحات، وبين المفسدين الكفرة، وبين المتَّقين والفُجَّار. وفي هذا التوقيف حضٌّ على الإيمان وترغيب فيه، ووعيد للكفرة.

ثم أَحال في طلب الإيمان والتقوى على كتابه العزيز بقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾، والمعنى: هذا كتاب لمن أَراد التمسُّك بالإيمان والقُربة إلينا، وفي هذه الآية اقتضابٌ وإيجازٌ بديع، كإِعجاز كل القرآن العزيز. ووصفه بالبركة لأن أَجمعها فيه؛ لأنه يُورث الجنة، ويُنقذ من النار، ويحفظ المرءَ في حال الحياة الدُّنيا، ويكون سبب رفعة شأْنه في الحياة الآخرة. وقرأَ الجمهور: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا﴾ بالياءِ وشدِّ الدال والباءِ، والضمير للعالَم، وقرأَ حفصٌ عن عاصم: [لِتَدَّبَّرُوا] بالتاءِ على المخاطبة[1]، وقرأَ أبو بكر عنه بتخفيف الدال، أَصله: تتدبروا، وظاهر هذه الآية يقتضي أَنَّ التَّدَبُّر من أَسباب إنزال القرآن، فالتَّرتيل إذاً أَفضل لهذا؛ إذ التَّدَبُّر لا يكون إلاَّ مع الترتيل. وباقي الآية بيِّنٌ.

---

(١) الثابت في المصحف المطبوع والمتداول أن قراءَة حفص عن عاصم هي قراءة الجمهور: (لِيَدَّبَّرُوا) بالياءِ وشدِّ الدالِ والباءِ، وفي القرطبي أن قراءة: [لِتَدَبَّرُوا] بالتاءِ والدال الخفيفة مع الباء المشددة هي قراءة أبي جعفر وشيبة، وفي (البحر المحيط) أنها قراءَة أبي جعفر، ثم قال: «وجاء كذلك عن عاصم والكسائي بخلاف عنهما»، ولم ينصَّ أحد على أن قراءة التاءِ مع تشديد الدال والباءِ هي لحفص عن عاصم، غير ما ذكر هنا وفي الطبريِّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

الهِبَةُ والعَطِيّة بمعنى واحد، فوهب الله تعالى سليمان لداود عليهما السلام ولداً، وأثنى عليه بأَوصاف من المدح تضمَّنها قوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ و(أَوَّابٌ) معناه: رجَّاع، ولفظة (أَوَّاب) هي العامل في (إِذْ)؛ لأَن أَمر الخيل مُقْتضٍ أَوبةً عظيمةً.

واختلف المتأَوِّلون في قصص هذه الخيل المعروضة ـ فقال الجمهور: إِن سليمان عليه السلام عرضت عليه آلاف من الخيل تركها أَبوه له ـ وقيل: أَلف واحد ـ فأُجريت بين يديه عشاءً، فتشاغل بحسنها وجريها ومحبتها حتى فاته وقت صلاة العشاء، ـ قال قتادة: صلاة العصر، ورُوي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ـ فأَسف لذلك، وقال: رُدُّوا عليَّ الخيلَ، قال الحسن: فطفق يضرب أَعناقها وعراقيبها بالسيف عقراً لها لمَّا كانت سبب فوت الصلاة، فأَبدله الله تعالى أَسْرعَ منها الريحَ، وقال قوم ـ منهم الثعلبي ـ: كانت بالناس مجاعة، ولحوم الخيل لهم حلال، فإِنما عقرها لتؤكل على وجه القربة بها، كالهدْي عندنا، ونظير هذا ما فعله أَبو طلحة الأَنصاري بحائطه[1]؛ إِذ تَصدق به لمَّا دخل عليه الدُّبْسي[2] وهو في الصلاة فشغله.

و«الصَّافِنُ»: الفرس الذي يرفع إِحدى يديه ويقف على طرف سُنْبُكِهِ[3]، وقد يفعل ذلك برجله، وهي علامة الفَرَاهَة[4]، وأَنشد الزَّجَّاج:

أَلِـفَ الصُّفُـونَ فَـلاَ يَـزَالُ كَـأَنَّـهُ ... مِمَّـا يَقُـومُ عَلَـى الثَّـلاَثِ كَسِيـراَ[5]

---

(١) الحائط: البستان، وجمعه حوائط وحيطان.

(٢) الدُّبْسِيُّ: نوع من الحمام، والجمع دَبَاسِيٌّ.

(٣) السُّنْبُك: طرف الحافر.

(٤) الفَرَاهَةُ والفَرَاهِيَةُ في الدابة: النشاط والحيوية مع الجمال والحسن في المنظر.

(٥) البيت في اللسان (صَفَنَ)، قال: «صَفَنَت الدابَّةُ تَصْفِن صُفوناً: قامت على ثلاث وثَنَت سُنْبكَ يدها الرابع، وفي التنزيل العزيز ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾... وأنشد ابن الأعرابي في صفة =

وقال أَبو عبيدة: الصَّافِن: الذي يجمع يديه ويُسوِّيهما، وأَما الذي يقوم على طرف السُّنْبك فهو المخيم، وفي مصحف ابن مسعود: [الصَّوافن الجياد]، والجِيادُ: جمع جَوْدٍ، كثَوْبٍ وثياب، وسُمِّي به لأَنه يجود بجريه.

وقال بعض الناس: «الْخَيْرُ» هنا أَراد به: الخيلَ، والعرب تسمِّي الخيلَ الخيرَ، وكذلك قال عليه الصلاة والسلام لزَيْد الخيل: «أَنتَ زيدُ الخير»[١]، و(حُبَّ) مفعول به نصب لذلك عند فرقة، كأَن (أَحْبَبْتُ) بمعنى: آثرتُ. وقالت فرقة: المفعول بـ(أَحْبَبْتُ) محذوف، و(حُبَّ) نصب على المصدر، أَي: أَحببتُ هذه الخيل حُبَّ الخير، ويكون (الْخَيْر) ـ على هذا التأْويل ـ غير الخيل، وفي مصحف ابن مسعود: [حُبَّ الخَيْلِ] باللام. قالت فرقة: (أَحْبَبْتُ) معناه: سقطتُ إِلى الأَرض لذنبي، مأْخوذٌ من: أَحبَّ البعيرُ إِذا أَعيَا وسَقَطَ هُزالاً[٢]، و[حُبَّ] ـ على هذا ـ مفعول من أَجله.

والضمير في (تَوَارَتْ) للشمس وإِن كان لم يجر لها ذكرٌ صريح، إِلاَّ أَن المعنى يقتضيها مذكورة ويتضمنها؛ ولأَن العشيَّ يقتضي لها ذِكراً إِذْ هو مُقَدَّر متوهم بها. وقال بعض المفسرين في هذه الآية: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ يريد به الخيل، أَي: دخلت اصطبلاتها.

= الفرس: أَلِفَ الصُّفُون... البيت، وقوله: مِمَّا يقوم، لم يُرِدْ من قيامه، وإنما أراد: من الجنس الذي يقوم على الثلاث، وجَعَلَ (كسيراً) حالا من ذلك النوع الزَّمِن، لا مِنَ الفرس المذكور في أول البيت».

(١) هو زيد بن مُهَلْهِل بن زيد بن مُنْهِب الطائي، وفد على النبي ﷺ في سنة تِسْع، وسمَّاه النبي ﷺ زيدَ الخير، روى ابن شاهين من طريق بشير مولى بني هاشم، عن عبد الله، قال: كنَّا عند النبي ﷺ، فأقبل راكب حتى أناخ، فقال: يا رسول الله، إنِّي أَتيتُك من مسيرة تِسْع، أسألك عن خَصْلتين، فقال: ما اسمك؟ فا!: أنا زيد الخيل، قال: بل أنت زيد الخير، سَلْ، قال: أسألك عن علامة الله فيمن يريد، وعلامته فيمن لا يريد... الحديث، وأخرجه ابن عديٍّ في ترجمة بشير، وضعَّفه، قال أبو عمر: مات زيد الخيل مُنْصَرَفَه من عند رسول الله ﷺ، وقال ابن إسحق: قال رسول الله ﷺ لزيد الخيل: ما وُصف لي أحد في الجاهلية فرأيته في الإسلام إلا رأيته دون الصفة، غيرك، وسمَّاه زيد الخير.

(٢) قال في اللسان (حَبَبَ): «أحبَّ البعيرُ بَرَك، وقيل: الإحبابُ في الإبل كالحِرَان في الخيل، وهو أن يَبْرُك فلا يثور، قال أبو محمد الفَقْعَسِيُّ:

حُلْتَ عَلَيْهِ بِالْقَفِيلِ ضَرْبَا ... ضَرْبَ بَعِيرِ السَّوْءِ إذْ أَحَبَّا

والقَفِيلُ: السَّوْط. وقال أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: لَصِقتُ بالأرض لِحُبِّ الخيل حتى فاتتني الصلاة، وهذا غير معروف في الإنسان بل معروف في الإبل» اهـ.

وقال ابن عباس، والزهراوي: إن مَسْحه بالسُّوق والأَعناق لم يكن بالسيف، بل بيده تكريماً لها ومحبَّة، ورجحه الطبريُّ، وقال بعضهم: بل غسلاً بالماءِ، وقد يقال للغسل مسحٌ لأَن المسح بالأَيدي يقترن به. وهذه الأَقوال عندي إنما تترتب على نحو من التفسير في هذه الآية، ورُوي عن بعض الناس. وذلك أنه رأَى أَن هذه القصة لم يكن فيها فوت صلاة، ولا تَضمَّن أَمر الخيل أَوْبةً ولا رجوعاً. فالعامل في [إِذْ] فعلٌ مضمر تقديره: اذكر إِذْ عُرض، وقالوا: عُرض على سليمان الخيل وهو في الصلاة، فأَشار إِليهم، أي: إني في الصلاة، فأَزالوها عنه حتى أَدخلوها الاصطبلات، فقال هو لمَّا فرغ من صلاته: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾، أَي الذي عند الله في الآخرة، بسبب ذكر رَبِّي، فكأَنه يقول: فشغلني ذلك عن رؤية الخيل، حتى أُدخلت اصطبلاتها، ردُّوها عليَّ، فطفق يمسح أَعناقها وسُوقها محبَّةً لها. وذكر الثعلبي أن هذا المسح إنما كان وسْماً في السُّوق والأَعناق بِوَسْم حَبْس في سبيل الله تعالى. وجمهور الناس على أَنها كانت خيلاً موروثة. قال بعضهم: قتلها حتى لم يبق منها أكثر من مئة فرس، فمن نسل تلك المئة كل ما يوجد اليوم من الخيل. وهذا بعيد. وقال بعضهم: كانت خيلاً أَخرجها الشيطان له من البحر، وكانت ذوات أَجنحة، ورُوي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَنها كانت عشرين فرساً، و(طَفِقَ) معناه: دام يفعل، كما تقول: جعل يفعل.

وقرأَ الجمهور: (بِالسُّوقِ) بواو ساكنة، وهو جمع ساقٍ، وقرأَ ابن كثير وحده بالهمز، قال أَبو علي: وهي ضعيفة، ولكن وجهها في القياس أَن الضمة لمَّا كانت تلي الواو[1]، قُدِّر أَنها عليها فهمزت كما يفعلون بالواو المضمومة، وهذا نظير إِمالتهم أَلف «مقلات»[2] من حيث وَلِيَت القاف الكسرة قدَّروا أن القاف هي المكسورة.

---

(١) هكذا في الأصول، ويظهر أن النساخ أخطؤوا، لأن الواو هي التي تلي الضمة هنا، ويؤكد هذا قوله بعد ذلك: «إنَّ أَبَاحَيَّةَ النُّمَيري كان يهمز كل واوا ساكنة قبلها ضمة».

(٢) المِقْلات: التي لا يعيش لها ولد، وقيل: هي التي تلد واحداً ثم لا تَلِدُ، وقد رَوَوْا في ذلك قول كُثَيِّر أو غيره، (كما قال في اللسان):

بُغَاثُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فِرَاخاً ... وأُمُّ الصَّقْرِ مِقْلاتٌ نَزُورُ

وأنشد الليث في هذا المعنى:

لَنَا أُمٌّ بِهَا قَلَتٌ وَنَزْرٌ ... كَأُمِّ الأَسْدِ كَاتِمَةُ الشَّكَاة

=

ووَجْهُ همز (السُّوق) هي أن أبا حيَّةَ النُّمَيْري كان يهمز كل واو ساكنة قبلها ضمة، وكان يُنْشِد:

أَحَـبَّ الْمُـؤْقِـدَانِ إِلَيْـكَ مُـؤْسَـى . . . .(١)

وقرأ ابن محيصن: [بالسُّؤُوق] بهمزة بعدها واو. وقوله: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ على كل تأويل فإن (عَنْ) هنا للمجاوزة من شيءٍ إلى شيءٍ، فتدبَّرْهُ فإنه مطرَّد.

ثم أخبر تعالى عن فِتْنَته لسليمان، وامتحانه إياه بزوال مُلْكه، وروي في ذلك أن سليمان عليه السلام قالت له حَظِيَّةٌ من حظاياه(٢): إن أخي له خصومة، فأرغبُ أن تقضي له بكذا وكذا، لشيءٍ غير الحق، فقال سليمان عليه السلام: أفعل، فعاقبه الله

= وأنشد كذلك:

وَجْـدي بهـا وَجْـدُ مِقْـلاتٍ بِـوَاحِـدَهَـا ... وَلَيْـس يَقْـوى مُحبٌّ فـوْقَ مـا أجِـدُ

(١) هذا صدر بيت قاله جرير، وهو يمدح ولديه (موسى وجعدة)، وهو في الديوان: (لَحَبَّ الواقدان)، وفي مخطوطة أنساب الأشراف: (أحبَّ الموقدين)، وذكره ابن جني في كتابيه: (الحصائص وسر الصناعة)، وقال الشيخ الشنقيطي في تعليق بخط يده على مخطوط للديوان: «وأنشده الزمخشري في كشافه»، وأنشده أبو علي الفارسي في كتابه (الحجة) شاهداً على همز الواو في موسى، وقال: «قال الأخفش: كان أبو حية النميري يهمز كل واو ساكنة قبلها ضمة، وينشد:

لحـب المـؤقـدان إلـي مـؤسـى

وفي تصريف ذلك قالوا: «إن الساكن إذا جاور المتحرك فكثيراً ما أما تقدر العرب أن تلك الحركة كأنها في الساكن، فكأن ضمة (موسى) مثلاً في الواو، وهي إذا ضمت ضماً لازماً فهمزها جائز. والبيت بتمامه كما هو في الديوان:

لَحَـبَّ الْـوَاقِـدَانِ إلَـيَّ مُـوسَـى ... وَجَعْـدَةُ لَـوْ أَضَـاءَهُمَـا الـوُقُـود

و(حَبَّ) فعل ماض، أصله: حَبُبَ ـ على وزن كرُمَ ـ ومعناه: صار محبوباً، فأُدغمت الباءُ الأولى في الثانية، إما للقلب، وإما بنقل الحركة إلى الحاءِ قبلها، فلهذا روي بفتح الحاءِ وبضمِّهَا. واللام في (لَحَبَّ) جواب قسم محذوف، وأراد بالموقدان مُوقِدَيْ نار القِرَى، على عادة العرب، وبخاصة لأنه في مقام المدح بالكرم وبالوضاءة، فكنى عن الكرم بإيقاد النار وعن الوضاءة بإضاءة الوقود لهما. والوقود: مصدر بمعنى الإيقاد ـ إذا كان بضم الواو ـ وإذا كانت مفتوحة فهو ما يوقد به من الحطب ونحوه، وقد صحَّ عن الزمخشري أن الوُقود هنا بالضم على أنه مصدر، والمعنى: لما أضاءَ إيقاد النار موسى وجعدة ورأيتهما من ذوي الوضاءة والنور والبهجة صارا محبوبين. هذا وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ من سورة القصص.

(٢) الحَظِيَّةُ والمَحْظِيَّةُ: الأثيرة من النساء عند الرجل، يُفَضلها على غيرها في المحبة.

تعالى بأَن سلَّط على خاتمة جنيًّا، وذلك أن سليمان عليه السلام كان لا يدخل الخلاءَ بخاتم ملكه توقيراً لاسم الله تعالى، فكان يضعه عند امرأة من نسائه، ففعل ذلك يوماً، فألقى الله تعالى شَبَهَهُ على جني اسمه صخر ـ فيما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ وقيل غير هذا مما اختصرناه لعدم الصحة، فجاءَ إلى المرأة فدفَعَتْ إليه الخاتم، فاستولى على ملك سليمان وبقي فيه أَربعين يوماً، وطرح خاتم سليمان في البحر، وجعل يعبث في بني إسرائيل وشَبَهُ سليمان عليه السلام عليه، حتَّى أَنكروا أَفعاله، ومكَّنه الله تعالى من جميع الملك، قال مجاهد: إلاَّ من نساءِ سليمان فإنه لم يكشفهن، وكان سليمان عليه السلام خلال ذلك قد خرج فارًّا على وجهه مُنْكَراً، لا ينتسب لقوم إلاَّ ضربوه، وأدركه جوعٌ وفاقة، فمرَّ يوماً بامرأَةٍ تغسل حوتاً ميتاً، فسأَلها منه لجوعه، وقيل: بل اشتراه فأَعطته حوتين، وجعل يفتح أَجوافهما، وإذا خاتمه في جوف أَحدهما، فعاد إليه ملكه، وسُخِّرت له الجنُّ والريح من ذلك اليوم، وفرَّ صخر الجنيُّ، فأَمَرَ به سليمان فسِيقَ إليه، فأَطبق عليه في حجارة، وسجنه في البحر إلى يوم القيامة، فهذه هي الفتنة التي فتن سليمان عليه السلام وامْتُحِن بها.

واختلف الناس في الجسد الذي أُلقي على كرسيه ـ فقال الجمهور: هو الجني المذكور، سمَّاه «جَسَداً» لأنه كان قد تمثَّل في جسد سليمان عليه السلام ولُبِّس به[١]، وهذا أَصحُّ الأَقوال وأَبْيَنُها معنىً. وقالت فرقة. بل أُلقي على كرسيه جسد ابن له ميِّت، وقالت فرقة: بل شِقُّ الولد الذي وُلد له حين أَقسم ليطوفَنَّ على نسائه ولم يستثن في قَسَمه، وقال قوم: مرض سليمان عليه السلام مرضاً كالإغماء حتَّى صار على كرسيِّه جسداً كان بلا روح.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كلُّه غير متصل بمعنى هذه الآية.

وقوله تعالى: (أَنَابَ) معناه: ارعوى وانثنى وأَجاب إلى طاعة ربه، ومعنى هذا: من تلك الحَوْبة[٢] التي وقعت الفتنة بسببها.

ثم إن سليمان عليه السلام استغفر ربَّه، واستوهبه مُلْكاً، واختلف المتأَولون في

---

(١) المراد أن شكله اختلط بشكل سليمان وأشكل على الناس.
(٢) من معاني الحوْبَة: الحالة.

معنى قوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِىٓ﴾ ـ فقال الجمهور: أراد أن يفرده به بين البشر لتكون خاصة له وكرامة، وهذا هو الظاهر من قوله عليه الصلاة والسلام في خبر العفريت الذي ظهر له في صلاته، فأخذه وأراد أن يُوثقه بساريةٍ من سواري المسجد، قال: «ثم ذكرت قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِى وَهَبۡ لِى مُلۡكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِىٓ﴾ فأرسلتُه»[1]، وقال قتادة، وعطاءُ بن أبي رباح: إنما أراد سليمان عليه السلام: لا ينبغي لأحد من بعدي مدة حياتي، أي: لا أُسلَبه ويصير إلى أحدٍ كما صار الآن إلى الجني.

ورُوي في مثالب الحَجَّاج بن يوسف أنه لما قرأ هذه الآية قال: «لقد كان حسوداً»، وهذا من فسق الحَجَّاج، وسليمان عليه السلام مقطوع أنه إنما قصد بذلك قصداً برًّا جائزاً؛ لأن للإنسان أن يرغب من فضل الله فيما لا يناله أحد، لا سيَّما بحسب المكانة والنبوَّة، وانظر أيضاً إلى قوله عليه السلام: (لَا يَنبَغِي)، فإنما هي لفظة محتملة وليست بقطع في أنه لا يعطي الله تعالى نحو ذلك الملك لأحد، ومحمد ﷺ لو ربط الجني لم يكن ذلك نقصاً لما أُوتيه سليمان عليه السلام، لكن لما كان فيه بعض الشبه تركه جزْياً منه عليه الصلاة والسلام على اختياره أبداً أيسر الأمرين وأقربهما إلى التواضع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِى بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠﴾.

قرأ الحسن، وأبو رجاءٍ: [الرِّيَاحَ]، والجمهور على الإفراد، وسخَّر الله تعالى الريح لسليمان عليه السلام، وكان له كرسيٌّ عظيم، يقال: إنه يحمل أربعة آلاف فارس، ويقال: أكثر، وفيه الشياطين، وتُظِلُّه الطير، وتأتي عليه الريح الإعصار فتُقِلُّه من الأرض حتى يحصل في الهواءِ، ثم تتولاَّه الرخاءُ ـ وهي اللَّيِّنَة القوية[2] المتشابهة

(١) أخرجه مسلم في المساجد، والبخاري في العمل والأنبياءِ وتفسير سورة ﷺ، وأحمد في مسنده (٢ـ ٢٩٨ ـ ٥ ـ ١٠٤، ١٠٥)، ولفظه كما في البخاري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «إن عفريتاً من الجن تَفَلَّت عليَّ البارحة ـ أو كلمة نحوها ـ ليقطع عليَّ الصلاة، فأمكنني الله منه، وأردتُ أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِى وَهَبۡ لِى مُلۡكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِىٓ﴾، قال روح: فردَّه خاسئاً. (ورَوْحٌ هذا واحدٌ في سلسلة رواة الحديث).

(٢) في بعض النسخ: القريبة.

لا تأتي فيها دُفَعٌ مفرطة ـ فتحمله، غُدُوُّهَا شهر، ورَواحُها شهر ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: أَراد، قاله وهبٌ وغيره، وأنشد الثعلبي:

أَصَـابَ الْكَـلاَمَ فَلَـمْ يَسْتَطِـعْ ... فَـأَخْطَـا الْجَـوَابَ لَـدَى الْمفْصَـلِ[1]

ويُشبه أَنَّ (أَصابَ) مُعَدًّى: صابَ يَصوبُ، أَي: حيث وجَّه جنوده وجعلهم يصوبونَ صوبَ السحاب والمطر. وقال الزَّجاج: معناه: قَصَد، كذلك قولك للمتكلم: «أَصَبْتَ» معناه: قصدتَ الحقَّ.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ بدلٌ من (الشَّيَاطِينِ)، والمعنى: كلَّ من بنى مصانعه للحروب. و(مُقَرَّنِينَ) معناه: مُوثَقين، قد قُرِن بعضهم ببعض، و(الأَصْفَادِ): القيودُ والأَغلالُ.

واختلف الناس في المشار إِليه بقوله: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ ـ فقال قتادة: إشارةٌ إلى ما فعله بالجن، فامْنُنْ عَلَى مَن شِئْتَ منهم، وأَطْلقه من وثاقه وسرِّحه من خدمته، أَوْ أَمْسِكْ أَمْرَهُ كما تريد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَشار إِلى ما وهبه من النساءِ وأَقدره عليهن من جماعهن، وقال الحسن: أشار إِلى ما أعطاه من المُلْك، وأَمره بأَن يَمُنَّ على من يشاءُ ويُمْسك عمَّن يشاءُ، فكأَنه وقَفَه على قدر النعمة ثم أَباح له التصرف فيه بمشيئته، وهو تعالى قد علم بأَن مشيئته إِنما تتصرف بحكم طاعة الله. وهذا أَصحُّ الأَقوال وأَجمعها لتفسير الآية. وباقي الآية بيِّنٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

أَيوب هو نبي من بني إِسرائيل، من ذرية يعقوب عليهما السلام، وهو المُبْتَلَى في

(١) يستشهدون بهذا البيت على أن (أَصَابَ) بمعنى: أَرَادَ، والعرب تقول: «أصابَ الصوابَ وأَخطأَ الجوابَ»، أي: أراد الصواب وأخطأ الجواب. ورُوي عن رؤبة أن رجلَيْن من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة، فخرج إليهما، فسألهما: أين تُصيبان فقالا: هذه طِلْبَتُنا. والمفصل ـ بفتح الميم أو بكسرها ـ من معانيه: اللسان. قال الزمخشري في أساس البلاغة: «وتقول: رُبَّ كلام بالمِفصَلِ أشدُّ من كلام بالمِفْصل».

جسده وماله وأَهله، وسَلِمَ معتقده ودينه.

ورُوي في ذلك أَن الله تعالى سلَّط الشيطان عليه ليفتنه عن دينه، فأَصابه في ماله، وقال له: إِن أَطعتني رجع مالك، فلم يطعه، فأَصابه في أَهله وولده فهلكوا عن آخرهم، وقال له: إِن أَطعتني رجعوا، فلم يطعه، فأَصابه في جسده، فثبت أَيوب على أَمر الله تعالى سبع سنين وسبعة أَشهر. قاله قتادة، وروى أَنسٌ عن النبي ﷺ أَن أَيوب عليه السلام بقي في محنته ثماني عشرة سنة يتساقط لحمه حتَّى ملَّه العالم، ولم يصبر عليه إِلاَّ امرأَته[1]. ورُوي أَن السبب الذي امتحنه الله تعالى من أَجله أَنه دخل على بعض الملوك فرأَى منكراً فلم يغَيِّره، ورُوي أَن السبب أَنه ذبح شاةً وطبخها وأُكلت عنده وجاره جائع لم يعطه منها شيئاً، ورُوي أَن أَيوب لمَّا تناهي بلاؤُه وصبره مَرَّ به رجلان مِمَّن كان بينه وبينهما معرفة فقرَّعَاهُ وقالا لَه: لقد أَذنبت ذنباً ما أَذنب أَحد مثله، وفهم منهما شَمَاتاً به[2]، فعند ذلك دَعَا ونادى ربَّه.

وقوله عليه السلام: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ يحتمل أَن يشير إِلى مسِّه حين سلَّطه الله عليه حسبما ذكرنا، ويحتمل أَن يريد مَسَّه إِياه حين حمله أَول الأَمر على أَن يواقع الأَمر الذي من أَجله كانت المحنة: إِما ترْك التغيير عند الملك، وإِما ترك مواساة الجار، وقيل: أَشار إِلى مَسِّه إِياه في تعرضه لأَهله، وطلبه منه أَن يشرك بالله، وكان أَيوب قد تشكى هذا الفعل، وكان أَشدَّ عليه من مرضه.

وقرأَ الجمهور: (أَنِّي) بفتح الهمزة، وكسرها عيسى بن عمر، وهي في موضع نصب بإِسقاط حرف الجرِّ، وقرأَ جمهور الناس: (بِنُصْبٍ) بضم النون وسكون الصاد، وقرأَ هبيرة[3] عن حفص عن عاصم بفتحهما، وهي قراءَة الجحدري، ويعقوب،

---

(١) الحديث طويل، وقد أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وفي أَوَّله أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبيَّ الله أيوب لبث به بلاؤُه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه، كانا من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعْلَمُ والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالَمين، قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: من ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقول...» إلخ الحديث.

(٢) يقال: شَمِت به شَماتاً وشَماتَةً: فرح بما أصابه.

(٣) هُبَيْرَة بن يَريم ـ على وزن عظيم ـ الشيباني، الخارفيّ، أبو الحارث الكوفي، لا بأس به، وقد عيب=

ورويت عن الحسن، وأَبي جعفر، وقرأ أَبو عمارة عن حفص عن عاصم [بنُصُب] بضم النون والصاد وهي قراءة أبي جعفر بن القعقاع والحسن ـ بخلاف عنه ـ وروى أيضاً هبيرة عن حفص عن عاصم بفتح النون وسكون الصاد. وذلك كله بمعنى واحد، معناه: المشقَّة، وكثيراً ما يستعمل «النَّصَبُ» في مشقة الإعياءِ. وفَرَّق بعضُ الناس بين هذه الأَلفاظ، والصواب أنها لغاتٌ من قولهم: «أَنْصَبَني الأَمْرُ ونَصَبَني» إِذا شَقَّ علي، فمن ذلك قول الشاعر:

تَعَنَّـاكَ نَصْـبٌ مِـنْ أُمَيْمَـةَ مُنْصِـبُ . . . .(١)

ومنه قول النابغة:

كِلِينِـي لِهَـمٍّ يَـا أُمَيْمَـةَ نَـاصِـبِ . . . .(٢)

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد قيل في هذا البيت: إن «ناصبا» بمعنى «مُنْصب»، وإنه على النَّسب، أَي ذا نصب.

وهنا في الآية محذوف كثير، تقديره: فاستجاب له وقال له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾،

= بالتشيع. (تقريب التهذيب). وفي طبقات ابن سعد أنه من أصحاب المختار، وأنه في الطبقة الأولى من التابعين، وقيل: إن الشيباني تحريف (الشبامي)، توفي سنة ست وستين. (الأعلام).

(١) هذا صدر بيت قاله بشر بن أبي خازم، وهو من شواهد أبي عُبَيدة في (مجاز القرآن)، والبيت بتمامه:

تَعَنَّـاكَ نَصْـبٌ مِـنْ أُمَيْمَـةَ مُنْصِـبُ كَـذِي الشَّجْـوِ لَمَّـا يَسْلُـهُ وسَيَـذْهَـبُ

وقال في اللسان (نَصَبَ): «وهَمٌّ ناصِبٌ مُنْصِبٌ: ذو نَصَبٍ، مثل تامِرٍ ولابن». وقد علَّق أَبو عبيدة على هذا البيت الذي بعده بقوله: «تقول العرب: أَنْصَبَني، أي عذَّبني وبرح في، وبعضهم يقول: نصبني». وتَعَنَّاه: كلَّفه ما يُشقُّ عليه، والشَّجْو: الهَمُّ والحُزن والحاجة، لَمَّا يَسْلُه: لم يَبْرأ منه.

(٢) هذا صدره، وهو بتمامه مطلع قصيدة قالها النابغة يمدح عمرو بن الحارث، وفيه يقول:

كِلِينِـي لِهَـمٍّ يَـا أُمَيْمَـةَ نَـاصِـبِ وَلَيْـلٍ أُقَـاسِيـهِ بَطِـيءِ الكَـوَاكِـبِ

وكِلِيني: اتركيني أو دعيني، واللام في (لِهَمٍّ) بمعنى: إلى، واتفق الرواة على أنَّ أُمَيْمَةَ روي مفتوحاً، واعتذر أبو عبيدة والأصمعي بأن عادة العرب أن ينادوا اسم المرأة بالترخيم، وإذا كان الحرف الذي قبل هاءِ التأنيث مفتوحاً أبداً واحتاج الشاعر إلى إبقاء هاءِ التأنيث لأجل صحة الوزن تكلم بها على عادة الترخيم ففتحها كما يفتح آخر المنادى المؤنث المرخم، وناصب: ذي نَصَب، أي: تعب. وبطيءِ الكواكب: كناية عن الطول، وذلك لأن الشاعر كان قَلِقاً مهموماً. وموضع الشاهد في البيت أن (ناصب) تفيد معنى التعذيب، وهي مثل (مُنْصب) أي: ذا نَصب.

والرَّكْضُ: الضرب بالرجل، والمعنى: اركض الأرض، ورُوي عن قتادة أن هذا الأَمر كان في الجابية من أَرض الشام، ورُوي أَن أَيوب عليه السلام أُمر بركض الأَرض فركض فيها فنبعت له عينُ ماءٍ صافية باردةٍ، فشرب منها فذهب كل مرض في داخل جسده، ثم اغتسل فذهب ما كان في ظاهر بدنه، ورُوي أَنه ركض مرَّتين، ونبع له عينان: شرب من إِحداهما واغتسل في الأُخرى. وقرأَ نافع، وشيبة، وعاصم، والأَعمش: [وعذاب اركض] بضم نون التنوين، وقرأَ عامَّة قراءِ البصرة بكسرها. و(مُغْتَسَلٌ) معناه: موضع غسل، وماءٌ غُسْلٌ، كما تقول: هذا الأَمر مُعْتَبر، وهذا الماءُ مُغْتَسل مثله.

ورُوي أَن الله تعالى وهب له أَهله وماله في الدنيا، ورَدَّ من مات منهم وما هلك من ماشيته، ثم بارك في جميع ذلك، وَوُلِدَ له الأولاد حتى تضاعفت الحال، وروي أن هذا كله وعد في الآخرة، أَي: يفعل الله له ذلك في الآخرة. والأَول أَكثر في قول المفسرين. و﴿رَحْمَةً﴾ نصب على المصدر، وقوله تعالى: ﴿وَذِكْرَى﴾ معناه: موعظة وتذكرة يعتبر بها أُولو العقول، ويتأَسَّوْنَ بصبره في الشدائد، ولا ييأَسُون من رحمة الله تعالى على كل حال. ورُوي أَن أَيوب كانت زوجته مُدَّة مرضه تختلف إِليه فيلقاها الشيطان في صورة طبيب، ومرَّة في هيئة ناصح، وعلى غير ذلك، فيقول لها: لو سجد هذا المريض للصنم الفلاني لبرىءَ، ولو ذبح عناقاً[1] للصنم الفلاني لبرىءَ، ويعرض عليها وجوهاً من الكفر، فكانت ربما عرضت ذلك على أَيوب، فيقول لها: أَلقيتِ عدوَّ الله في طريقك؟ فلما أَغضبته بهذا ونحوه حلف لئن برىء من مرضه ليضربَنَّها مئة سوط، فلما برىءَ أَمره الله تعالى أَن يأْخذ ضغثاً فيه مئة قضيب. و«الضِّغْثُ»: القبضة الكبيرة من القضبان ونحوها من الشجر الرطب، قاله الضحاك وأَهل اللغة، فيضرب به ضربة واحدة فتبرّ يمينه، ومنه قولهم: «ضِغْثٌ عَلَى إِبَّالَة»[2]، والإِبَّالة: الحُزْمة من الحطب، قال الشاعر:

---

(١) العَنَاقُ: الأنثى من أولاد المعيز والغنم من حين الولادة إلى تمام حول.

(٢) معنى المثل: بلِيَّةٌ على أخرى، والضغث: الحزمة من الحشيش، أو القبضة منه مختلطة الرطب واليابس، والإباله: الحُزمة من الحطب، ويروى: إيبالة، وبعضهم يقول: إِبَالة مخففاً، قال ذلك كله الميداني في كتابه (مجمع الأمثال)، وزاد في اللسان (أَبَلَ) أنه يُنْشد لأسماءَ بن خارجة:

لـــي كُـــلَّ يَـــوْمٍ مِـــنْ ذُؤَالَـــهْ ضِغْـــثٌ يـــزيـــد عَلَـــى إِبَـــالَـــهْ

وقال الزمخشري في (المستقصى في أمثال العرب): «يُضرب لِمَنْ حَمَّلَكَ مكروهاً ثم زادك عليه».

وَأَسْفَلَ مِنِّي نَهْدَةٌ قَدْ رَبَطْتُهَا وَأَلْقَيْتُ ضِغْثاً مِنْ خَلاً مُتَطَيِّبِ[1]

وهذا حكم قد ورد في شرعنا عن النبي مثله في حدِّ رجل زَمِنٍ بالزِّنى، فأمر رسول الله ﷺ بعذق فيه مئة شمراخ أَو نحوها، فضُرب به ضربة، ذكر الحديث أَبو داود[2]، وقال به بعض فقهاءِ الأمة، وليس يرى ذلك مالك وأَصحابه، وكذا جمهور العلماءِ على ترك القول به، وأَن الحدود والبرَّ في الأَيمان لا يقع إِلا بتمام عدد الضربات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

قرأَ ابن كثير: [واذكر عبدنا] على الإِفراد، وهي قراءَة ابن عباس رضي الله عنهما

---

(١) البيت في التاج، وفي معجم الشعراء، وهو للشاعر الجاهلي عَوْف بن عطية بن الخَرِع، وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن)، قال: «الضِّغث»: ملءُ الكف من الشجر أو الحشيش والشماريخ وما أشبه ذلك. قال عوف بن الخَرِع: وأسفل مني» البيت. وفي اللسان (ضَغث) أن الضعث قبضةٌ من قضبان مختلفة يجمعها أصل واحد، مثل الأسل، والكرات، والثُّمام». والنَّهْدة: الفرس، قال في اللسان (نَهَدَ): «وفرسٌ نَهْدٌ: جسيم مشرف، نقول منه: نَهُدَ الفرس ـ بالضَّمِّ ـ نُهودةً... والأنثى: نهدة». والخَلا: الرَّطب من الحشيش، أو من البرسيم.

(٢) احتج الشافعي بهذا الحديث، وقال: إذا حلف ليضربن فلاناً مئة جلدة، ولم يقل: ضرباً شديداً، ولم ينو ذلك في قلبه، يكفيه مثل هذا الضرب المذكور في الآية، والحديث أخرجه أبو داود في سُنَنه، عن أبي أُمامة بن سهل بن حُنَيْف أنه أخبره بعض أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، أنه اشتكى رجلٌ منهم حتى أضْنَى، فعاد جلدةً على عظم، فدخلت عليه جارية لبعضهم فهشَّ لها فوقع عليها، فلما دخل عليه رجال قومه يعودونه أخبرهم بذلك وقال: استفتوا لي رسول الله ﷺ؛ فإنِّي قد وقعتُ على جارية دخلت علي، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ وقالوا: ما رأينا بأحد من الناس من الضر مثل الذي هو به، لو حملناه إليك لتفسخت عظامه، ما هو إلا جلد على عظم، فأمر رسول الله ﷺ أن يأخذوا له مئة شمراخ فيضربوه بها ضربة واحدة، اهـ. ولكن الإمام مالك لم يأخذ بهذا الحديث حيث تُكُلِّم في إسناده، ورأى التمسك بالآية الكريمة: ﴿فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾. وهذا مذهب أصحاب الرأي. ونلحظ أن الإمام الشافعي لم ينقل عنه أنه أخذ به في حدِّ الزنى.

وأَهل مكة، وقرأَ الباقون: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ﴾ على الجمع، فأَما على هذه القراءَة فدخل الثلاثة في الذكر وفي العبودية، وأَما على قراءَة من قرأَ: [عَبْدَنَا] فقال مكيٌّ وغيره: دخلوا في الذكر، ولم يدخلوا في العبودية إلاَّ من غير هذه الآية، وفي هذا نظر، وتأَول قوم من المتأَولين من هذه الآية أَن الذبيح إسحق، من حيث ذكر الله تعالى بعقب ذكر أَيوب أَنبياءَ امتحنهم بمحن كما امتحن أَيوب، ولم يذكر إسماعيل لأَنه مِمَّن لم يُمْتَحن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف كُله.

وقرأَ الجمهور: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي﴾، وقرأَ الحسن، والثقفي، والأَعمش، وابن مسعود: [أولي الأيد] بحذف الياءِ، وأَمَّا أُولُو فهو جمع (ذُو)، وأَما القراءَة الأُولى فـ(الأَيْدِي) فيها عبارة عن القوة في طاعة الله، قاله ابن عباس، ومجاهد. وقالت فرقة: بل معناه: أُولي الأَيدي والنِّعَم التي أَسداها الله تعالى إِليهم: من النبوة والمكانة. وقال قوم: المعنى: أَيدي الجوارح، والمراد الأَيدي المتصرفة في الخير، والأَبصار الثاقبة فيه، لا كالتي هي مهملة في جلِّ الناس. وأَما من قرأَ: [الأَيْدِ] بغير ياءٍ فيحتمل أَن تكون كالتي بالياءِ وحذفت تخفيفاً، ومن حيث كانت الأَلف واللام تعاقب التنوين وجب أَن تحذف معها كما تخذف مع التنوين. وقالت فرقة: [الأَيْد] معناها: القوة، والمراد: في طاعة الله تعالى. وقوله تعالى: (والأَبصَارِ) عبارة عن البصائر، أَي: يُبْصِرُونَ الحقائق، وينظرون بنور الله تعالى، وبنحو هذا فسَّر الجميع.

وقرأَ نافع وحده[1]: [بِخَالصةِ ذكرى] على الإِضافة، وهي قراءَة أَبي حعفر، والأَعرج، وشيبة. وقرأَ الباقون: ﴿بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى﴾ منوناً، وقرأَ الأَعمش: [بخالصتهم ذكرى]، وهي قراءَة طلحة. ويحتمل أَن تكون [خَالِصَة] اسم فاعل، كأَنه عبَّر بها عن مَزِيَّة أَو رُتْبة، فأَما من أَضافها؛ فـ[ذِكْرَى] مخفوض بالإِضافة، وأَما من نَوَّنَ؛ فـ(ذِكْرَى) بدلٌ من [خَالِصَةٍ]، ويحتمل أَن تكون [خَالِصَة] مصدراً كالعافية، وكخَائِنَة الأَعْين، وغيرها، فـ(ذِكْرَى) ـ على هذا ـ إِما أَن يكون في موضع نصب بالمصدر على تقدير: إِنَّا أَخلصناهم بأَن أَخْلَصْنَا لهم ذِكْرَى الدار، وتكون [خَالِصَةٍ] مصدراً، من: أَخْلَصَ، على حذف الزوائد، وإِما أَن يكون (ذِكْرَى) في موضع رفع بالمصدر، على

(١) يريد وحده من السبعة، وإلا فقد قرأ بها أيضاً أبو جعفر، والأعرج، وشيبة، كما ذكر.

تقدير: إِنَّا أَخلصناهم بأَن خَلَصَتْ لهم ذكرى الدار، وتكون «خَالِصَة» من: خَلص. و(الدَّار) في كل وجه في موضع نصب بـ(ذِكْرَى)، و(ذِكْرَى) مصدر. وتحتمل الآية أَن يريد بالدارِ الدَّارَ الآخرة، على معنى: أَخلصناهم بأَن خَلَص لهم التذكير بالدار الآخرة، ودعَا الناسَ إِليها وحضَّهم عليها، وهذا قول قتادة، أَو على معنى: خَلَص لهم ذكْرُهم للدار الآخرة، وخوفُهم لها، والعملُ بحسب ذلك، وهذا قول مجاهد، وقال ابن زيد: المعنى: إِنَّا وهبناهم أَفضل ما في الدار الآخرة، وأَخلصناهم به، وأَعطيناهم إِيَّاه. ويحتمل أَن يريد بالدار دار الدنيا، على معنى ذكر الثناءِ والتعظيم من الناس، والحمد الباقي الذي هو الخُلد المجازى به، فتجيءُ الآية في معنى قوله تعالى: ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾[١]، وفي معنى قوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾[٢].

و(المُصْطَفَيْنَ) أَصله: المصطفَيِيْن، تحركت الياءُ، وما قبلها مفتوح فانقلبت أَلفاً، ثم اجتمع سكون الأَلف وسكون الياءِ التي هي علامة الجمع فحذفت الأَلف. و(الأَخيارِ) جمع خيْرٍ، وخيْرٌ مخفف من خيِّر، كَمَيْتٍ ومَيِّت.

وقرأَ حمزة والكسائي [وَاللَّيْسَعَ]، كأَنه[٣] أَدخل لام التعريف على (لَيْسَع) فأَجراه مجرى ضيْغَم ونحوه، وهي قراءَة علي بن أَبي طالب ـ رضي الله عنه ـ والكوفيين. وقرأَ الباقون: (وَالْيسَعَ)، قال أَبو علي: الأَلف واللام فيه زائدتان غير معرفتين، كما هي في قول الشاعر:

ولَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُؤاً وَعَسَاقِلاً ... ولقَدْ نَهَيْتُك عَنْ بَنَاتِ الأَوْبَرِ[٤]

و«بناتُ أَوْبَرَ»: ضربٌ من الكمأَة. واختلف في نبوة (ذِي الكِفْلِ)، وقد تقدم تفسير أَمره.

---

(١) من الآية (٥٠) من سورة (مريم).

(٢) تكررت في الآيات: (٧٨، ١٠٨، ١٢٩) من سورة (الصَّافات).

(٣) هكذا في جميع الأصول، ولعله يريد: كأن القارىء.

(٤) البيت من الكامل، وهو مجهول القائل، واستشهد به ابن عقيل، والأشموني، والواو في أوّله للقسم، واللام للتأكيد، وقد للتحقيق، وجَنَيْتُك: جَنَيْتُ لك، من قولهم: جَنَيْتُ الثمرة، فحذف الجار توسُّعاً، وأَكْمُؤاً ـ بفتح الهمزة وسكون الكاف وضم الميم: جمع كَمْءٍ على وزن فَلْس، والعساقل: جمع عُسْقول، وأصله: عساقيل فحذفت الياءُ للضرورة، وهو نوعٌ من الكمأة، وبَنَات الأوبر: كمأة صغيرة مزغبة على لون التراب، وهي أردأُ أنواع الكمآت، والشاهد فيها حيث زاد الشاعر الألف واللام للضرورة.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ يحتمل معنيَيْن: أَحدهما أَن يُشير إِلى مدح من ذكر وإِبقاءِ الشرف له ميتاً فيتأكد بهذا التأويل قولُ من قال آنفاً: إن (الدَّار) يرادُ بها الدار الدنيا، والثاني أَن يشير بـ(هَذَا) إلى القرآن، أَيْ: هو ذكر للعالم. و«المآب»: المرجع حيث يؤوبون، و﴿جَنَّاتِ﴾ بدل من [حُسْنَ]، و﴿مُفَتَّحَةً﴾ نعت للجنَّات، و﴿الأَبْوابُ﴾ مفعول لم يُسمَّ فاعلُه، والتقدير عند الكوفيين: مُفتَّحة لهم أَبوابُها، ولا يجوز ذلك عند أَهل البصرة، والتقدير عندهم: الأَبواب منها، وإِنما دعا إِلى هذا الضمير أَن الصفة لابد أَن يكون فيها عائد على الموصوف.

و﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، قال قتادة: معناه: على أَزواجهن، و﴿أَتْرَابٌ﴾ معناه: أَمثالٌ، وأَصله في بني آدم أَن تكون الأَسنان واحدة، أَي: مَسَّت أَجسداهم التراب في وقت واحد. وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [يُوعَدُونَ] بالياءِ من تحت، واختلفا في سورة «قّ»، فقرأَ أَبو عمرو بالتاءِ من فوق[1]، وقرأَ الباقون في السورتين بالتاءِ. و«النَّفَادُ»: الفناءُ والانقضاءُ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾.

التقدير: الأَمر هذا، ويحتمل أَن يكون التقدير: هذا واقع، أَو نحوه، و«الطَّاغي»: المُفْرِط في الشَّرِّ، مأْخوذ من: طغى يطغى، والطغيان هنا في الكفر، و«المآبُ»: المرجع، و(جَهَنَّمَ) بدل من قوله: ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾، و﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ معناه: يباشرون حرَّها وحرقها، و﴿الْمِهَادُ﴾: ما يفرشه الإِنسان ويتصرف به.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾ يحتمل أَن يكون ﴿هَذَا﴾ ابتداءً، والخبر ﴿حَمِيمٌ﴾، ويحتمل أَن يكون التقدير: الأَمر هذا فليذوقوه، ويحتمل أَن يكون (هَذَا) في موضع نصب بفعل يدلُّ عليه ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾، و﴿حَمِيمٌ﴾ ـ على هذا خبر ابتداءٍ مضمر. قال ابن

(١) في قوله تعالى في الآية (٣٢) من سورة (قٓ): ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾.

زيد: الحميم: دموعهم تجتمع في حياض فيسقونها. وقرأ الجمهور: [وَغَسَاقٌ] بتخفيف السين، وهو اسم بمعنى السائل، وروي عن قتادة أنه ما يسيل من صديد أهل النار، ويُروى عن السدي أنه ما يسيل من عيونهم، ويُروى عن كعب الأحبار أنه ما يسيل من حمة عقارب النار، وهي ـ يُقَالُ ـ مجتمعة في عين هنالك، وقال الضحاك: هو أشدُّ الأشياءِ برداً، وقال عبد الله بن بُريدة: هو أنتن الأشياءِ، وروى ذلك أبو سعيد عن النبي ﷺ. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: (وَغَسَّاقٌ) بتشديد السين، بمعنى: سيَّال، وهي قراءَة قتادة، وابن أبي إسحق، وابن وثاب، وطلحة. والمعنى فيه على نحو ما قدمناه من الاختلاف، غير أنها قراءة ضعف: لأن «غسَّاقاً» إمَّا أن يكون صفة فيجيءُ في الآية حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، وذلك غير مستحسن هنا، وإما أن يكون اسماً فالأسماءُ على هذا الوزن قليلة في كلام العرب كالقيَّاد ونحوه.

وقرأ جمهور الناس: (وآخَرُ) بالإفراد، وهو رفع بالابتداءِ، واختلف في تقدير خبره ـ فقالت طائفة: تقديره: ولهم عذاب آخر، وقالت طائفة: خبره (أَزْوَاجٌ)، و﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ في موضع الصفة، ومعنى ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾: من مثله وضَرْبه، وجاز ـ على هذا القول ـ أن يُخبر بالجميع الذي هو (أَزْوَاجٌ) عن الواحد من حيث ذلك الواحد درجاتٌ ورُتبٌ من العذاب، وقويٌّ وأقل منه، وأيضاً فمن جهة أُخرى على أن يُسَمَّى كل جزءٍ من ذلك باسم الكلِّ، كما قالوا: «شابت مفارقُه»، فجعلوا كل جزءٍ من المَفْرِق مَفْرِقاً، وكما قالوا: «جمل ذو عَثَانين»(١)، ونحو هذا، ألا ترى أن جماعةً من المفسرين قالوا: إن هذا الآخَر هو الزمهرير، فكأنهم جعلوا كل جزءٍ منه زمهريراً. وقرأ أبو عمرٍو وحده: [وَأُخَرُ] على الجمع، وهي قراءَة الحسن، ومجاهد، والجحدري، وابن جبير، وعيسى، وهو رفع على الابتداءِ، وخبره (أَزَواجٌ)، و(مِنْ شَكْلِهِ) في موضع الصفة. ورجح أبو عبيد هذه القراءَة، وكذلك أبو حاتم لكون الصفة جمعاً، ولم ينصرف (أُخَرُ) لأنه معدول عن الألف واللام صفة، وذلك أن حق (أفعل) وجمعه ألا يستعمل إلاَّ بالألف واللام، فلما استعملت (أُخَر) دون الألف واللام كان ذلك عدْلاً لها، وجاز في (أُخَر) أن يوصف بها النكرة كقوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾(٢)، بخلاف جميع

(١) العُثْنُون: شعيرات طوالٌ عند مذبح البعير والتَّيس، فكأنهم جعلوا كل جزءٍ من العُثْنُونِ عُثْنُوناً فجمعوا فقالوا: عَثَانين.
(٢) من الآية (١٨٤) من سورة (البقرة).

ما عدل عن الألف واللام كَسَحَرَ ونحوه في أنه لا يجوز أن توصف به النكرة لأن هذا العدل في (أُخَر) اعتُدَّ به في منع الصرف، ولم يعتد به في الامتناع من صفة النكرة، كما يعتدون بالشيءِ في حُكْم دون حُكْم، نحو اللام في قولهم: «لا أبا لَكَ»، واللام المتصلة بالكاف اعتُدَّ بها فاصلة للإضافة، ولذلك جاز دخول (لا)، ولم يُعْتَدَّ بها في أن أُعرب (أَبا) بالحرف، وشأنه ـ إذا انفصل ولم يكن مضافاً ـ أَن يعرب بالحركات، فجاءَت (اللام) ملغاة الحكم من حيث أُعرب بالحركات كأنه مضاف، وهي مُتَعَدٌّ بها فاصلة في أن جوَّزت دخول (لا). وقرأ مجاهد: [مِن شِكْلِهِ] بكسر الشين. و(أَزْوَاجٌ) معناه: أنواع، والمعنى: لهم حميمٌ وغَسَّاقٌ وأغذية أُخرى من ضَرْب ما ذُكر ونحوه وأَنواعٌ كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾ هو مما يقال لأَهل النار إذا سيق عامَّة الكفار وأَتباعهم؛ لأَن رؤساءَهُم يدخلون النار أَوَّلاً، والأَظهر أن قائل ذلك لهم: ملائكةُ العذاب، وهو الذي حكاه الثعلبي وغيره، ويحتمل أَن يكون ذلك من قول بعضهم لبعض، فيقول البعض الآخر: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾، أَي: لا سَعَة مكان ولا خير يلقونه. و«الفَوْجُ»: الفريق من الناس، وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ حكاية لقول الأَتباع حين سمعوا قول الرؤساءِ. و﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ معناه: بإغوائكم أَسلفتم لنا ما أَوجب هذا، فكأَنكم فعلتم بنا هذا.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا﴾ حكاية لقول الأَتباع أَيضاً، دعوا على رؤسائهم بأَن يكون عذابهم مضاعفاً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾﴾.

الضمير في (قَالُوا) لأشراف الكفار ورُؤَسائِهِم، أَخبر الله تعالى عنهم أَنهم يتذكرون ـ إذا دخلوا النار ـ لقوم من مستضعفي المؤمنين، فيقولون هذه المقالة، وهذا مطَّردٌ في كل أُمة جاءَها رسول، ورُوي أَن القائلين من كفار عصر النبي ﷺ هم: أَبو جهل بن هشام، وأُميَّة بن خلف، وأهل القليب، ومن جرى مجراهم، وأَن الرجال الذين

يُشيرون إِلى ذكرِهِم هُمْ عمار بن ياسر، وسَلْمان، وصُهيْب ومثْلُهم، قاله مجاهد وغيره. والمعنى: كنا في الدنيا نعُدُّهم أَشراراً لا خَلاَقَ لهم. وأَمال الرَّاءَ من [الأَشْرَار] أَبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وفتحها ابن كثير، وعاصم، وأَشَمَّ نافعٌ، وحمزة. وقرأَ أَبو عمرٍو، وحمزة، والكسائي: [اتَّخَذْنَاهُمْ] بأَلف وصل، على أَن يكون ذلك في موضع الصفة لـ(رِجَالٍ)، وقرأَ الباقون بأَلف قَطْع للاستفهام، ومعناها تقريرُ أَنفسهم على هذا، على جهة التوبيخ لها والأَسف، أَي: اتَّخذناهم ولم يكونوا كذلك، واستبعد معنى هذه القراءَة أَبو علي.

وقرأَ نافع، وحمزة، والكسائي: [سُخْرِيًّا] بضم السين، وهي قراءَة الأَعرج، وشيبة، وابن مسعود وأَصحابه، وأَبي جعفر، ومجاهد، والضحاك، ومعناها من السُّخْرةِ والاستخدام، وقرأَ الباقون بكسر السِّين، وهي قراءَة الحسن، وأَبي رجاءٍ، وعيسى، وابن محيصن، ومعناها المشهور من السُّخر الذي هو بمعنى الهُزْءِ، ومنه قول الشاعر:

إِنِّـــي أَتَتْنِـــي لِسَـــانٌ لاَ أُسَـــرُّ بِهَـــا ... مِنْ عَلْوَ لاَ كَذِبٌ فيها وَلاَ سَخَرُ[1]

وقالت فرقة: يكون بكسر السِّين من التَّسْخير. و(أَمْ) في قولهم: ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ معادلةٌ لـ(مَا) في قولهم: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ﴾، وذلك أَنها قد تعادل ما يعادل (من)، وأَنكر بعض النحويين هذا وقال: إِنها لا تعادل إِلا الأَلف فقط، والتقدير في هذه الآية: أَمَفْقودون

---

(١) هذا البيت لأعْشَى باهلة، عامر بن الحرث بن رباح، أحد بني وائل، الشاعر الجاهلي المجيد، وهو من قصيدة قالها يرثي بها أخاه لأمّه المُنْتَشر بن وهب، وهي من المراثي المعدودات، وهي في الأصمعيات تحت رقم ٢٤، وفي جمهرة أشعار العرب، وفي الخزانة، والبيت في اللسان (لَسَنَ)، وهو مطلع القصيدة، وقد اختلفت هذه المصادر في روايته، ففي الأصمعيات:

قَــد جَــاءَ مِــنْ عَــلُ أَنْبَــاءٌ أَنْبَــؤُهَــا ... إِلَــيَّ لا عَجَــبٌ مِنْهَــا وَلا سَخَــرُ

وفي الجمهرة، واللسان:

إِنِّـــي أَتَتْنِـــي لِســـانٌ مَـــا أُسَـــرُّ بِهَـــا ... مِـنْ عَلْـوَ لاَ عجـبٌ فيهـا وَلاَ سَخَـرُ

قال في اللسان: «اللِّسَان: جارحة الكلام، وقد يُكْنَى بها عن الكلمة فيؤَنَّث حينئذ، قال أعشى باهلة: إِنِّي أَتَتْني لسان. . . . البيت، وقال ابن بري: اللسان هنا: الرسالة، و(من عَلْوَ)، أو (مِنْ عَلُ) بالحركات الثلاث على اللام: أيْ: جاءتني من أعلى، يريد أعلى نجد، والسَّخَرُ: السخرية، ـ وقد تفتح السين والخاء، وقد تضم كل منهما ـ، والسَّخَر بمعنى السُّخْرية والهزؤ هو موضع الاستشهاد هنا.

هم أَم زاغت؟ ومعنى هذا الكلام: أَلَيْسُوا معنا أَم هُمْ معنا ولكن أَبصارنا تميل عنهم فلا نراهم؟ و«الزَّيْغُ»: المَيْل.

ثم أَخبر الله تعالى نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾، و(تَخاصُمُ) بدلٌ من قوله: (لَحَق). وقرأَ ابن أَبي عبلة: [تَخَاصُمَ] بفتح الميم، وقرأَ ابن محيصن: [تَخَاصُمٌ] بالتنوين ﴿أَهْلُ ٱلنَّارِ﴾ برفع اللام.

ثم أَمَرَ تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام بأَن يتجرَّد للكفار من جميع الأَغراض إِلاَّ أَنه منذرٌ لهم، وهذا توعُّدٌ بليغ محرِّك للنفوس. وباقي الآية بيِّنٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٧٠ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤﴾.

الإِشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ إِلى التوحيد والمعاد، فهي إِلى القرآن وجميع ما تَضَمَّنه وعْدُهُ أن التصديق به نجاةٌ والتكذيب به هلكة. وحكى الطبري أَن شُرَيْحاً اختصم إِليه أَعرابي، فشهد عليه، فأَراد شُرَيح أَن ينفذ الحكم، فقال الأَعرابي: أَتحكم عليَّ بالنَّبأ؟ فقال شريح: نعم، إِن الله تعالى يقول: في القرآن: ﴿هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾، وقرأَ الآية، وحكم عليه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الجواب من شريح إِنما هو بحسب لفظ الأَعرابي، ولم يُحَرِّرْ معه الكلام، وإِنما قصد إِلى ما يقطعه به؛ لأَن الأَعرابي لم يُفَرِّق بين الشهادة والنَّبإ، و«النَّبأُ» في كلام العرب بمعنى الخبر. ووبَّخهم تبارك وتعالى بقوله: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

ثم قال: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، وهذا احتجاجٌ لصحة أَمر محمد ﷺ، كأَنه يقول: هذا أمر خطير، وأَنتم عنه معرضون مع صحته، ودليل صحته أَنِّي أُخبركم فيه بغيوب لم تأْت إلا من عند الله، فإِنِّي لم يكن لي عِلم بالملأ الأَعلى وقت خصومتهم لولا أَن الله تعالى أَخبرني بذلك. وأَراد بهم الملائكة، والضمير في (يَخْتَصِمُونَ) عند جمهور المفسرين هو للملائكة.

واختلف الناسُ في الشيءِ الذي هو اختصامهم فيه ـ فقالت فرقة: اختصامهم في أَمر آدم عليه السلام وذريته في جعلهم في الأرض، ويدلُّ على ذلك ما يلي من الآيات، فقول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[1] هو الاختصام، وقالت فرقة: بل اختصامهم في الكفارات وغفر الذنوب ونحوه؛ فإِن العبد إِذا فعل حسنةً اختلفت الملائكة في قدر ثوابه في ذلك حتى يقضي الله بما شاءَ، وورد في هذا حديث فسَّره ابن فُورك؛ لأَنه يتضمن أَن النبي عليه الصلاة والسلام قال له ربُّه عزَّ وجلَّ في نومه: فيم يختصمون؟ فقلت: لا أَدري، فقال: في الكفَّارات، وهي: إِسْبَاغُ الوضوءِ في السَّبرات[2]، ونقل الخُطَى إِلى الجماعات، الحديث بطوله، قال: «فوضع الله سبحانه وتعالى يده بين كتفيَّ حتَّى وجدتُ بردَها فيما بين ثديي»[3].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فتفسير هذا الحديث أَن اليَدَ هي نعمة العِلْم، وقوله ﷺ: بَرْدَهَا، أَي: السُّرور بها والثَّلج، كما تقول العرب في الأمر السَّارِّ: يا بَرْدَه على الكبد، ونحو هذا، ومنه قول

---

(١) من الآية (٣٠) من سورة (البقرة).

(٢) السَّبرات: جمع سَبْرَة، وهي الغداةُ الباردة.

(٣) لهذا الحديث طرق متعددة، وقد ذكرها كلَّها الإمام السيوطي في (الدر المنثور)، وقد أخرجه أحمد في مسنده، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح حتى كدنا نتراءَى قرْن الشمس، فخرج رسول الله ﷺ سريعاً، فثوِّب بالصلاة وصلى وتجوَّز في صلاته، فلما سلَّم قال: كما أنتم على مَصَافِّكُم، ثم أقبل إلينا فقال: إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة، إِني قمتُ من الليل فصلَّيت ما قدِّر لي، فنعست في صلاتي حتى استيقظت، فإذا أنا بربِّي عزَّ وجلَّ في أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري يا رب. قال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى، قلت: لا أدري رب، فرأيته وضع كفَّه بين كتفيَّ، حتى وجدت برد أنامله بين صدري، فتجلَّى لي كل شيءٍ، وعرفت، فقال: يا محمد، فيم يختلف الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفَّارات، فقال: وما الكفَّارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى الجماعات، وجلوسٌ في المساجد بعد الصلاة، وإسباغ الوضوءِ عند الكريهات، قال: وما الدَّرَجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام، قال: سَلْ، قلت: اللهم أَسألك فعلَ الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفَّني غير مفتون، وأسألك حبك وحُبَّ من يُحِبُّك وحُبَّ عمل يُقَرِّبني إلى حبك، وقال رسول الله ﷺ: «إنها حقٌّ فادرسوها وتعلَّموها».

وابن كثير يؤكد أن هذا حديث المنام المشهور، قال: ومن جعله يقظة فقد غلط، وهو في السُّنَنِ من طرق. وهذا الحديث رواه الترمذي من حديث جَهْم بن عبد الله اليمامي، وقال: حسنٌ صحيح. وقال الترمذي: سألت محمد بن إسماعيل البخاري عن هذا فقال: هذا حديث حسن صحيح.

النبي ﷺ: «الصلاة بالليل هي الغنيمة الباردة»[(١)]، أي: السهلة التي يُسَرُّ بها الإنسانُ.

وقالت فرقة: المراد بـ﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ الملائكة، وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ مقطوعٌ منه، ومعناه: إذ يختصم العرب الكافرة في الملإِ الأعلى، فيقول بعضها: هي بناتُ الله، ويقول بعضها: هي آلهة تُعْبَد، وغير ذلك من أقوالهم.

وقالت فرقة: أراد بـ﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ قريشاً، وهذا ضعيف لا يَتَقوَّى مِنْ جهة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿إِلَّآ أَنَّمَآ﴾ بفتح الألف كأنه يقول إلاَّ الإنذار، وقرأ أبو جعفر: [إلا إنَّما] على الحكاية، كأنه قيل له: «أَنْتَ نذيرٌ مُبينٌ»، فحكى هو المعنى، وهذا كما يقول الإنسان أنا عالِمٌ؟ فيقال له: أَنْت عالم، فيحكي المعنى.

و(إِذْ) في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ بدلٌ من (إِذْ) الأولى، على تأويل من رأى الخصومة في شأن من سيخلف في الأرض، وعلى الأقوال الأخرى يكون العامل في (إِذْ) الثانية فعل مضمر تقديره: اذْكُرْ إِذْ قال، و«الْبَشرُ الْمَخْلُوقُ» هو آدم عليه السلام.. و(سَوَّيْتُهُ) يريد به شخصه. و﴿نفخت فيه﴾ عبارة عن إجراءِ الروح فيه، وهي عبارة على نحو ما يفهم البشر من إجراءِ الأشياءِ بالنفخ، وقوله تعالى: ﴿مِن رُّوحِي﴾ هي إضافة مِلْكٍ إلى مالك؛ لأن الأرواح كلها هي مِلك لله تبارك وتعالى، وأضاف إلى نفسه تشريفاً. وقوله تعالى: (سَاجِدِينَ) اختلف الناس فيه ـ فقالت فرقة: هو السجود المتعارف، وقالت فرقة: معناه: خاضعين، على أصل السجود في اللغة. ثم أخبر تعالى أن الملائكة بأجمعهم سجدوا إلاَّ إبليس فإنه استكبر عن السجود.

وقوله: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يحتمل أن يريد به: وكان من أول أمره من الكافرين في علم الله تعالى، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أن يريد: ووُجِد عند هذه

---

(١) لم أجد الحديث بلفظ الصلاة، والذي رأيته في (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) أن الحديث عن الصيام في الشتاء، وقال: أخرجه الترمذي في الصوم، والإمام أحمد في مسنده (٥ ـ ٣٣٥)، وكذلك ذكره ابن الأثير في كتاب (النهاية في غريب الحديث والأثر)، وشرح معنى باردة. ونص ما ذكره أحمد في مسنده هو: (عن عامر بن مسعود الجُمَحي، قال: قال رسول الله ﷺ: الصوم في الشتاءِ الغنيمةُ الباردةُ)، قال ابن الأثير: «أي: لا تَعَبَ فيه ولا مشقَّة، وكل محبوب عندهم بارد، وقيل: معناه الغنيمة الثابتة المستقرة، من قولهم: بَرَدَ لي على فلان حقٌّ، أي: ثبت. وسواءٌ أكان الحديث عن الصيام أو عن الصلاة فالشاهد فيه أن كلمة (باردة) تؤدي معنى السهولة التي تريح الإنسان وتسُرُّه.

الغفلة من الكافرين، وعلى القولين فقد حكم الله تعالى على إبليس بالكفر، وأخبر أنه كان قد عقد قلبه في وقت الامتناع.

قوله عزَّ وجل:

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾﴾.

القائل لإبليس هو الله عزَّ وجلَّ، وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ تقريرٌ وتوبيخٌ، وقرأ عاصم الجحدري: [لَمَّا خلقت] بفتح للام من [لَمَّا] وشد الميم، وقرأ جمهور الناس: ﴿بِيَدَيَّ﴾ بالتثنية، وقرأت فرقة: [بِيَدِي] بتخفيف الياءِ[(١)]، وقد جاءَ في كتاب الله تعالى ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾[(٢)] بالجمع، وهذه كلها عبارة عن القدرة والقوة، وعبَّر عن هذا المعنى بذكر الْيَد تقريباً على السَّامعين؛ إذ المعتاد عن البشر أن القوَّة والبطش والاقتدار إنما هو باليد، وقد كانت جهالة العرب بالله تعالى تقتضي أن تنكر نفوسها أن يكون خلقٌ بغير مماسَّة ونحو هذا من المعاني المعقولة. وذهب القاضي ابن الطِّيب إلى أن الْيَد والوجه والعين صفاتُ ذاتٍ زائدةٌ على القدرة والعلم وغير ذلك من متقرر صفاته تعالى، وذلك قولٌ مرغوب عنه، ويُسَمِّيها الصفات الخبرية. ورُوي في بعض الآثار أن الله تعالى خلق أَربعة أَشياءٍ بيده، وهي: العرش، والقلم، وجنة عدن، وآدم، وسائرَ[(٣)] المخلوقات بقوله: كُنْ، وهذا ـ إنْ صحَّ ـ فإنما ذكر على جهة التشريف للأربعة والتنبيه منها، وإلا فإذا حقَّقنا النظر فكل مخلوق هو بالقدرة التي بها يقع الإيجادُ بعد العدم.

وقرأت فرقة: [اسْتَكْبَرْتَ] بصِلة الألف، على الخبر عن إبليس[(٤)]، وتكون (أَمْ) بنيَّة

---

(١) في بعض النسخ: «بفتح الياءِ».

(٢) من قوله تعالى في الآية (٧١) من سورة (يس): ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾.

(٣) أي: وخَلَق سائرَ المخلوقات، فهي معطوفة على (أربعةَ) من قول المؤلف: «خَلَقَ أَرْبَعَةَ أَشْياءٍ».

(٤) هي قراءة ابن كثير، وأهل مكة، ويحتمل أن تكون إخباراً كما ذكر ابن عطية، والغرض منه التقريع، و(أَمْ) منقطعة، والمعنى: بل أنت من العالين عند نفسكَ. ويحتمل أن تكون همزة الاستفهام وحذفت لأن (أَمْ) دلَّت عليها، كقول عمر بن أبي ربيعة:

لَعَمْـرُكَ مـا أدْري وإنْ كُنْـتُ دارِيـاً ... بِسَبْـعٍ رَمَيْـنَ الْجَمْـرَ أمْ بِثَمَـانِ =

الانقطاع لا مُعَادِلَةً لها، وقرأت فرقة: (أَسْتَكْبَرْتَ) بقطع الألف، على الاستفهام، فـ(أَمْ) ـ على هذا ـ مُعَادِلَةٌ للألف، وذهب كثير من النحويين إلى أن (أَمْ) لا تكون مُعَادِلَةً للألف مع اختلاف الفعلين، وإنما تكون مُعَادِلَةً إذا دخلتا على فعل واحد، كقولك؛ أزيدٌ قام أَمْ عمرو؟ وقالوا: وإذا اختلف الفعلان كهذه الآية فليست معادلة[١]. ومعنى الآية: أَحَدثَ لك الاستكبارُ الآن أم كنت قديماً مِمَّن لا يليق أن يكلَّف مثل هذا لِعُلُوِّ مكانك؟ وهذا على جهة التوبيخ.

وقول إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ قياسٌ أخطأ فيه، وذلك أنه لما توهَّم أن النار أفضل من الطين قاسَ أن ما خُلق من الأفضل فهو أفضل من الذي خُلق من المفضول، ولم يدر أن الفضائل تخصيصاتٌ من الله تعالى يَسِمُ بها من يشاءُ، وفي قوله ردٌّ على حكمة الله تعالى وتجويز، وذلك بيِّنٌ في قوله: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ﴾[٢]، ثم قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، وعند هذه المقالة اقترن كُفْر إبليس به، إمَّا عناداً ـ عَلَى قول من يجيزه ـ، وإمَّا بأن سُلب المعرفة، وظاهر أَمْره أنه كُفْرُ عناد؛ لأن الله تعالى قد حكم عليه بأنه كافر، ونحن نجده خلال القصة يقول: (يا رَبِّ، وبعِزَّتِكَ، وإلى يوم يبعثون)، فهذا كلُّه يقتضي المعرفة، وإن كان للتأويل فيه مزاحم، فتأمَّله.

ثم أَمر الله تعالى إبليس بالخروج على جهة الدُّخور له[٣]، وقالت فرقة: أَمره بالخروج من الجنة، وقالت فرقة: من السماءِ. وحكى الثعلبي عن أَبي الحسن، وأَبي العالية أن قوله تعالى: (مِنْهَا) يريد تعالى: من الخلقة التي أَنت فيها، ومن صفات الكرامة التي كانت له، قال الحسن بن الفضل: ورجعت له أَضدادها، وعلى القول الأَول فإنما أُمر أَمراً يقتضي بُعده عن السماءِ، ولا خلاف أنه أُهبط إلى الأَرض.

= وهو شاهد على أن ألف الاستفهام تحذف لضرورة الشعر وذلك لدلالة (أم) عليها.

(١) نقل أبو حيان في (البحر المحيط) هذا الكلام عن ابن عطية، ثم قال تعقيباً عليه: «وهذا الذي ذكره عن كثير من النحويِّين مذهبٌ غير صحيح، قال سيبويه: وتقول: أضربتَ زيداً أم قتلْتَه، فالبَدْءُ هنا بالفعل أحسن؛ لأنك إنما تسأل عن أحدهما، لا تدري أيهما كان، ولا تسأل عن موضع أحدهما، كأنك قلت: أيُّ ذلك كان. اهـ فعادَلَ بـ(أَمْ) الألف مع اختلاف الفعلين».

(٢) من الآية (٦٢) من سورة (الإسراء).

(٣) الدخُور: الذِّلَّةُ والصَّغارُ والهوانُ، وفي التنزيل العزيز: ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾.

و«الرَّجِيمُ»: المرجوم بالقول السَّيِئِ، و«اللَّعْنَةُ»: الإبعاد، و«يومُ الدِّين»: يومُ القيامة. و«الدِّينُ»: الجزاءُ.

وإنما حدَّ الله تعالى له اللعنة بيوم الدين، ولعنتُه إيَّاه إنما هي مُخَلَّدة، ليحصر له أمر التوبة؛ لأَن امتناع توبته بعد يوم القيامة بيِّنٌ؛ إذْ ليست الآخرة دار عمل.

ثم إن إبليس طلب النَّظِرَة وتأْخير الأَجل إلى يوم بعث الأَجساد من القبور، فأَعطاه الله تعالى الإبقاءَ إلى يوم الوقت المعلوم، واختلف الناسُ في تأويل ذلك ـ فقال الجمهور: أَسعفه الله تعالى في طِلْبته وأَخَّره إلى يوم القيامة، وهو الآن حيٌّ مُغْوٍ مُضِلٌّ ـ وهذا هو الأَصح من القولين ـ، وقالت فرقة: لم يُسْعَف بطِلْبته، وإنما أُسعف إلى الوقت الذي سبق من الله تبارك وتعالى أَن يموت إبليس فيه. وقال بعض هذه الفرقة: ماتَ إبليس يوم بدرٍ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٨٣ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٥ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ۝٨٨﴾.

القائل هو إبليس، أَقسم بِعِزَّة الله تعالى، قال قتادة: علم عدوُّ الله أَنه ليست له عزَّة فأَقسم بِعِزَّة الله سبحانه أَنه يُغوي ذريَّة آدم أَجمع، إلاَّ من أَخْلَصَه اللهُ للإيمان به.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا استثناءُ الأَقل عن الأَكثر، على باب الاستثناءِ؛ لأَن المؤمنين أَقلُّ من الكفرة بكثير، بدليل بعث النار[1] وغيره، وجوَّز قومٌ أَن يُستثنى الكثيرُ من الجملة ويترك الأَقلُّ

(١) حديث بعث النار أخرجه البخاري في الأنبياءِ، وتفسير سورة الحج، والرقاق، والتوحيد، ومسلم في الإيمان والفتن، والترمذي في تفسير سورة الحج، وأحمد في مُسْنده (١ ـ ٣٨٨، ٢ ـ ١٦٦، ٣ ـ ٣٣، ٤ ـ ٤٣٢، ٤٣٥). ولفظه كما رواه البخاري في تفسير سورة الحج، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبَّيْك ربنا وسعديك، فينادَى بصوت: إن الله يأمرك أن تُخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، قال: يا رب وما بعثُ النار؟ قال: من كل أَلْف أُراهُ قال: تسعمائة وتِسْعَةً وتِسْعين، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الولد، وترى الناس سُكارى وما هم بسُكارى ولكن عذاب الله شديد، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم فقال النبي ﷺ: من =

على الحكم الأَول، واحتَجُوا بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾(١) وقال من ناقضهم: العبادُ هنا يعُمُّ البشرَ والملائكة، فبقي الاستثناءُ على بابه في أَن الأَقلَّ هو المستثنى. وفتح اللاَّم وكسرها في (المُخْلَصِينَ) تقدم.

والقائل: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ هو الله تعالى، قال مجاهد: المعنى: فالْحَقُّ أَنا. وقرأَ الجمهور بالنصب في الاثنين، فأَما الثاني فمنْصوب بـ(أَقُولُ)، وأَما الأَول فيحتمل الإِغراءَ، أَو القسَم على إِسقاط حرف القَسَم، فكَأنه قال: «فَو الْحقِّ»، ثم حذف الحرف، كما تقول: «الله لأَفعلن»، تريد: واللهِ، ويُقَوِّي ذلك قوله: (لأَمْلأَنَّ)، قال سيبويه: قلتُ للخليل: ما معنى «لأَفعلن» إِذا جاءَت مبتدأً؟ فقال: هو بتقدير قَسَم مَنْوي. وقالت فرقة: الأَول منصوب بفعل مضمر.

وقرأَ ابن عباس، ومجاهد برفع الاثنين، فأَما الأَول فبالابتداءِ، وخبرُه في قوله: ﴿لأَمْلأَن﴾؛ لأَن المعنى: أَنْ أَمْلأَ(٢)، وأَمَّا الثاني فعَلَى الابتداءِ أَيضاً. وقرأَ عاصم، وحمزة بالرفع في الأَول، وهي قراءَة مجاهد، والأَعمش، وأَبان بن تغلب، وإِعرابُ هذه بيِّنٌ. وقرأَ الحسنُ: [فالحقِّ والحقِّ] بخفض القاف على القسم، ذكرها أَبو عمرو الداني(٣).

ثم أَمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يخبرهم بأَنه ليس بسائل أَجرٍ ولا مال، وأنه ليس ممَّن

= يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداءِ في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربُع أهل الجنة، فكبَّرنا، ثم قال: ثُلُث أهل الجنة، فكبَّرنا، ثم قال: شَطْر أهل الجنة، فكبَّرنا).

(١) الآية (٤٢) من سورة (الحِجر).

(٢) قال أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط) تعقيباً على هذا الإعراب بعد أن نقله عن ابن عطية: «وهذا ليس بشيءٍ؛ لأن (لأَمْلأَنَّ) جواب قسم ويجب أن يكون جملة، فلا يتقدر بمفرد، وأيضاً ليس مصدراً مُقَدَّراً بحرف مصدريٍّ والفعل حتَّى ينْحَلَّ إليهما، ولكنه لما صحَّ لَهُ إسناد ما قدر إلى المبتدأ حكم أنه خبرٌ عنه»، وقدَّر أبو حيان الخبر محذوفاً، فقيل: تقديره: فالحقُّ أنا، وقيل: فالحقُّ مني، وقيل: تقديره: فالحقُّ قسمي. وحُذف الخبر كما حُذف في قول امرىء القيس:

فَقُلْــتُ يَميــنُ اللهِ أَبْــرَحُ قــاعِــداً ... وَلَـوْ قَطَّعُـوا رَاسِـي لَـدَيْـكِ وأَوْصَـالـي

إذ التقدير: يمين الله قَسَمي.

(٣) وهي أيضاً قراءة عيسى، وعبد الرحمن بن أبي حماد، عن أبي بكر، وتُخَرَّج على أن الأول مجرور بواو القسم محذوفة، والتقدير. فَوَ الْحَقِّ، والثاني معطوف عليه، كما تقول: واللهِ واللهِ لأَفْعَلَنَّ كذا.

يتكلَّف ما لم يُجعل إليه، ولا يتحلَّى بغير ما هو فيه. قال الحسين بن الفضل: هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾(١)، وقال الزبير بن العوام رضي الله عنه: نادى منادي النبي ﷺ: «اللهم اغفر للذين لا يدَّعون ولا يتكلَّفون، ألاَ إنِّي بريءٌ من التكلُّف، وصالحو أُمَّتي»(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يريد: القرآن، و﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي: تَذْكِرَةٌ. ثم توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾، وهذا على حذف تقديره: وَلَتَعْلَمُنَّ صدْقَ نَبَئِهِ بعد حين من توعدكم.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿بَعْدَ حِينٍۭ﴾ إلى أَي وقت أَشارَ؟ لأَن (الحينَ) في اللغة يقع على القليل والكثير من الوقت، فقال ابن زيد: أَشار إلى يوم القيامة، وقال قتادةُ والحسن: أَشار إلى الآجال التي لهم؛ لأَن كل واحد منهم يعرف الحقائق بعد موته، وقال السدي: أَشار إلى يوم بدر؛ لأَنه يوم عرف الكفار فيه صدق وعيد القرآن لهم.

كمل تفسير سورة (صٓ) والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

---

(١) من الآية (٢٣) من سورة (الشورى).

(٢) أخرج الديلمي، وابن عساكر، عن الزبير رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إنِّي لا ألي من التكلف وصالحو أُمتي». (الدر المنثور).

هذا وفي التكلُّف آثار كثيرة، منها ما أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، وابن مردويه، عن مسروق رضي الله عنه، قال: بينما رجلٌ يُحدِّث في المسجد فقال فيما يقول: يوم تأتي السماءُ بدخانٍ يكون يوم القيامة، يأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام، قال: فقمنا حتى دخلنا على عبد الله رضي الله عنه وهو في بيته، فأخبرناه، وكان متكئاً فاستوى قاعداً فقال: أيُّها الناس، من علم منكم عِلماً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، قال الله لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾. وقال ﷺ: «للمتكلِّف ثلاث علامات: ينازع مَنْ فوقه، ويتعاطى مالا ينال، ويقول ما لا يعلم».

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الزُّمَر(١)

هذه السورة مكيَّة بإجماع، غير ثلاث آياتٍ نزلت في شأن وحشيٍّ قاتِل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وهي: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ الآيات، وقالت فرقة: بل إلى آخر السورة هو مدنيٌّ، وقيل: فيها مدنيٌّ سبع آياتٍ(٢).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ﴾.

﴿تَنزِيلُ﴾ رفع بالابتداءِ، والخبر قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، وقالت فرقة: ﴿تَنزِيلُ﴾ خبر ابتداءٍ تقديره: هذا تنزيل، والإشارة إلى القرآن الكريم، وقرأ ابن أبي عبلة: [تَنزِيلَ] بنصب اللام. و(الكِتَابِ) في قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هو القرآن الكريم، ويظهر لي أنه اسمٌ عامٌّ لجميع ما ينزلُ من عند الله من الكتب، وكأنه تعالى أخبر إخباراً مجرداً أن الكتب الهادية الشارعة إنما تنزيلها من الله عزَّ وجلَّ، وجعل هذا الإخبار تقدمةً وتوطئة لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، و﴿العزيز﴾ في قدرته، و﴿الحكيمُ﴾ في إبداعه. و﴿الْكِتَابَ﴾ الثاني هو القرآن لا يحتمل غير ذلك. وقوله سبحانه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما

---

(١) وتُسمَّى سورة الغرف، قال وهب بن منبِّه: من أراد أن يعرف قضاءَ الله عزَّ وجلَّ في خلقه فليقرأ سورة الغرف.

(٢) تبدأ بقوله تعالى في الآية (٥٣): ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا...﴾ إلى آخر السبع. وأخرج النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يُفطِرَ، ويُفطِرُ حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأُ في كل ليلة بني إسرائيل والزُّمَر» وأخرجه الترمذي عنها بلفظ: «كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزُّمر وبني إسرائيل».

أَن يكون معناه: متضمناً الحقَّ، أَي: الحقُّ فيه وفي أَحكامه وفي أَخباره، والثاني أَن يعني الاستحقاق والوجوب وشمول المنفعة للعالم في هدايتهم ودعوتهم إِلى الله.

وقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ﴾ يحتمل أَن تكون الفاءُ عاطفةً جُملةً من القول على جُملة وواصلة، ويحتمل أَن تكون كالجواب؛ لأَن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ جملة، كأَنه ابتداءٌ وخبره، كما لو قال: الكتاب منزل، وفي الجمل التي هي ابتداءٌ وخبرٌ إِبهامٌ مَّا يُشبه الجزاءَ، فجاءَت الفاءُ كالجواب، كما تقول: زيدٌ قائمٌ فأَكرمه، ونحو هذا قول الشاعر:

وَقَـائِلَـةٍ خَـوْلاَنُ فَـانْكِـحْ فَتَـاتَهُـم . . . .(١)

التقدير: هذه خولان. و(مُخْلِصاً) حالٌ، و(الدِّينَ) نصب به، ومعنى الآية الأَمر بتحقيق النيَّة لله في كلِّ عمل، و(الدِّين) هنا يعم المعتقدات وأَعمال الجوارح. وقوله سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ بمعنى: من حقه ومن واجباته، لا يقبل غيره، وهذا كقولك: «للهِ الْحمدُ»، أَي: واجباً ومستحقًّا. قال قتادة: ﴿الدِّينُ الْخَالِصُ﴾: لاَ إِلَه إِلاَّ الله.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ رفع بالابتداءِ، وخبره في المحذوف المقدر، وتقديره: «يقولون: ما نعبدهم»، وفي مصحف ابن مسعود: [قالوا: ما نعبدهم]، وهي قراءَة ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير. و(أَوْلِيَاءَ) يريد: معبودين، وهذه مقالة شائعة في العرب، يقول كثير منهم في الجاهلية: «الملائكة بنات الله، ونحن نعبدهم لِيُقَرِّبونا»، وطائفة منهم قالت ذلك في أَصنامهم وأَوثانهم. وقال مجاهد: قد قال ذلك

---

(١) هذا البيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف لها ناظم، وهو في الكتاب، والخزانة، وابن يعيش، والهمع، وشرح شواهد المغني، وهو شاهد عند سيبويه على أن (خولان) خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هذه خولان، وعند الفراء: خولان مبتدأ، وخبره: انْكِحْ، والفاءُ زائدة، والمذكور هنا هو صدر البيت، وهو بتمامه:

وَقَـائِلَـةٍ خَـوْلانُ فـانكِـحْ فَتَـاتَهُـم ... وَأُكْـرُومَـةُ الحَيَّيْـنِ خِلْـوٌ كَمَـا هِيَـا

والأكْرُومَةُ: فعل الكرم، مصدر بمعنى اسم المفعول، أي: ومُكْرَمَةُ الحَيَّيْن، والمراد بالحَيَّيْن حيُّ أبيها وحيُّ أُمها. وخِلْوٌ: خالية لا زَوجَ لَهَا، والجملة في محل نصب على الحال، والمعنى: ربَّ قائلة لي: هذه خولان فانكح فتاتُهم، فقلت: كيف أَنكحها وأُكرومة الحيَّيْن خالية عن الزوج، وقوله: كما هي، معناه: كما كانت خِلْواً فيما مضى.

قوم من اليهود في عُزَيْر، وقوم من النصارى في عيسى، وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب: [نَعْبُدُكُم] بالكاف، [لِتُقَرِّبونا] بالتاءِ. و(زُلْفَى) بمعنى: قُرْبَى وتَوْصلة، كأنه قال: لِتُقَرِّبونا إلى الله تقريباً، وكأَن هذه الطوائف كلها كانت ترى نفوسها أَقل من أَن تتصل هي بالله، فكانت ترى أَن تتصل بمخلوقاته، و(زُلْفَى) ـ عند سيبويه ـ مصدرٌ في موضع الحال، كأَنه ينزل منزلة: مُتَزَلِّفِين، والعامل فيه (تُقَرِّبُونَا)، هذا مذهبه وفيه خلاف. وباقي الآية وعيدٌ في الدنيا والآخرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٥﴾﴾.

هذه الآية إما أن يكون معناها: إن الله لا يهدي الكاذب الكفار في حالة كذبه وكفره، وإما أن يكون لفظها العموم ومعناها الخصوص فيمن حتم الله عليه بالكفر، وقضى في الأزل أنه لا يؤمن أبداً، وإلا فقد وجد الكاذب الكفار وقد هدي كثيراً. وقرأ أنس بن مالك، والجحدري: [كَذَّابٌ كَفَّارٌ] بالمبالغة فيهما، ورُويت عن الحسن، والأعرج، ويحيى بن يَعْمَر، وهذه المبالغة إشارة إلى التوغُّل في الكُفْر، القاسي فيه، الذي يُظَنُّ بأَنه محتوم عليه.

وقوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ معناه: اتخاذَ التشريف والتَّبَنِّي، وعلى هذا يستقيم قوله سبحانه: ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ﴾، وأَمَّا الاتخاذ المعهود بالتَّوالد فمُستحيل أَن يُتَوَهَّم في جهة الله سبحانه وتعالى، ولا يستقيم عليه معنى قوله: (لاصْطَفَى). وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾(١) لفظ يعُمُّ اتخاذ النسل واتخاذ الاصطفاءِ، فأَمَّا الأَول فمعقول، وأَما الثاني فمعروف بخبر الشَّرع، ومما يدل على أَن المعنى هنا الاصطفاءُ والتَّبَنِّي قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾، أَي: من موجوداته ومُحْدَثاته. ثم نزَّه تعالى نَفْسه تنزيهاً مطلقاً عن جميع ما لا يكون مِدْحَةً. واتِّصافه تعالى

---

(١) الآية (٩٢) من سورة (مريم).

بالقَهَّار على الإِطلاق؛ لأَن أَحداً من البشر إِنِ اتَّصف بالقَهْر فمقيَّدٌ في أَشياءَ قليلة، وهو في حيِّز قهره لغيره مقهور لله تعالى على أَشياءَ كثيرة.

وقوله تعالى: (بِالْحَقِّ) معناه: بالواجب الواقع موقعه الجامع للمصالح. وقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ﴾ معناه: يُعيد من هذا على هذا، ومنه: كَوَّر العمامة التي يلتوي بعضها على بعض، فكأن الذي يطولُ من النهار أَو من الليل يصير منه على الآخر جزءٌ فيستره، وكأَن الآخر الذي يقصر يَلِجُ في الذي يطول فَيُسْتَر فيه، فيجيءُ (يُكَوِّرُ) ـ على هذا ـ معادلاً لقوله تعالى: (يُولِجُ)[1]، ضِدًّا له. قال أَبو عبيدة: هما بمعنى واحد، وهذا من قوله تقريب لا تحرير.

وتسْخيرُ الشمس دَوَامُها على الجري واتِّساقُ أَمرها على ما شاءَ الله تبارك وتعالى، و«الأَجَلُ المُسَمَّى» يحتمل أَن يكون يوم القيامة حين تنفسد البِنْيَة ويزول جَرْيُ هذه الكواكب، ويحتمل أَن يريد أَوقاتَ مغيبها كل يوم وليلة، ويحتمل أَن يريد أَوقاتَ رجوعها إِلى قوانينها كُلَّ شهر في القمر، و(كُلَّ)[2] سنة في الشمس.

قوله عزَّ وجل:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ۝٦﴾.

النفس الواحدة المرادة في هذه الآية هي نفس آدم عليه السلام، قاله قتادة، وغيره، ويحتمل أَن يكون اسم الجنس. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ ظاهر اللفظ يقتضي أَن جعل الزوجة من النفس هو بعد أَن خلَق الخَلْق منها، وليس الأَمر كذلك، واختلف الناسُ في تأْويل هذا الظاهر ـ فقالت فرقة: قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ هو أَخْذ الذرِّيَّة من ظهر آدم، وذلك شيءٌ كان قبل خلْق حوَّاءَ منه، وقالت فرقة: (ثُمَّ) إِنَّما هي لترتيب الإِخبار لا لترتيب المعاني، فكأَنه تعالى قال: «ثم كان من أَمره قبل ذلك أَن جعل منها زوجها»، وفي نحو هذا يُنْشَد هذا البيت:

---

(١) تكررت هذه الكلمة في آيات كثيرة، هي الآية (٦١) من سورة (الحج)، والآية (٢٩) من سورة (لقمان)، والآية (١٣) من سورة (فاطر)، والآية (٦) من سورة (الحديد).

(٢) زيادة لتوضيح المعنى.

قُـلْ لِمـنْ سـاد ثُـمَّ سـاد أَبُـوهُ ... ثُـمَّ قـدْ سَـادَ قَبْـلَ ذَلِـك جَـدُّهْ[١]

وقالت فرقة: قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ عبارة عن سبْق ذلك في علم الله تعالى، فلما كان ذلك أمراً حتماً واقعاً ولابُدَّ، حَسُنَ أن يُخْبر عن تلك الحال التي كانت وثيقة، ثم عطف عليها حالة جعل الزوجة منها، فجاءَت معانٍ مترتبةً وإن كان خروج خلْق العالَم من آدم إلى الوجود إنما يجيءُ بعد ذلك. و«زَوْجُ آدَمَ» هي حوَّاءُ عليهما السلام، وخُلِقت من ضِلَعِهِ القصير فيما رُوي، ويؤيد هذا الحديثُ الذي فيه: «إنَّ المرأة خلقت من ضِلَع أعوج، فإن ذهبت تقيمه كسرته»[٢]، وقالت فرقة: خُلقت حواءُ من نفس طين آدم عليه السلام. والأول أصح، وقد تقدم شرح ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾، قيل: معناه: إن المخلوق الأول من هذه الأنعام خُلق في السماءِ وأُهبط إلى الأرض، وقالت فرقة: بل لما نزل الأمر بخلْقه وإيجاده من عند الله ـ وكانت العادة في نِعَم الله تعالى ورحمته وأمطاره وغير ذلك أن يُقال: إنها من السماءِ ـ عبَّر عن هذه بـ(أَنْزَلَ)، وقالت فرقة: لما كانت الأمطارُ تنزل، وكانت الأعشاب والنبات عنها كانت هذه الأنعام عن النبات في سمتها ومعانيها قال فيها: (أَنْزَلَ)، فهو على التدريج، كما قال الراجز:

أَسْنِمَـةُ الآبـالِ فـي رَبَـابِـهْ[٣]

---

(١) يمدحه بالسيادة أباً عن جدٍّ، والسَّيِّدُ: الرئيس الذي فاق غيره بالعقل والمال والدَّفع والنَّفْع، والشاهد في البيت هنا أن (ثُمَّ) لا تفيد ترتيب المعاني، وإنما تفيد ترتيب الخبر بعد الخبر.

(٢) أخرجه البخاري والدارميُّ في النكاح، ومسلم في الرضاعة، وأحمد في مسنده (٢/٤٢٨، ٤٤٩، ٤٩٧)، ولفظه كما في البخاري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، واستوصوا بالنساءِ خيراً فإنهن خُلقْن من ضِلَع، وإن أعوج شيءٍ في الضِّلَع أعلاه، فإن ذهبتَ تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساءِ خيراً».

(٣) أَسْنِمَة: جمع سنام، وهو أعلى ظهر البعير والناقة، والآبالُ: جمع الإبل، قال الجوهري: والأبل معروفة وهي مؤنثة لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين فالتأنيث لها لازم. والرَّباب بالفتح: سحابٌ أبيض، واحدتُه ربابة، وقيل: هو السحاب المتعلق الذي تراه كأنه دون السحاب، وبهذا سميت المرأة الرباب، لما كانت الأمطار تنزيل، والأعشاب تنبت عنها، والإبل تأكل الأعشاب فتسمن وتكبر أَسْنمتها، كانت الأسنمة كأنها نشأت من الرباب، أو بدأ تكوين الأسنمة في الرباب على التدريج كما قال المؤلف.

وكما قال الشاعر:

تَعَالَى النَّدَى في مَتْنِهِ وَتَحَدَّرَا[١]

وجعلها ثمانية أزواج لأن كل واحدفيه زوجٌ للذكر من نوعه، وهي: الضأن والمعز والبقر والإبل.

قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾، قال ابن زيد: معناه: يخلقكم في البطون خلقاً من بعد خلق آخر في ظهر آدم وظهور الآباء، وقال مجاهد، وعكرمة، والسدي: يخلقكم في البطون رُتباً خلقا بعد خلق على المضغة والعلقة وغير ذلك.

وقرأ عيسى بن عمر، وطلحة بن مصرف: [يَخْلُقكُّم] بإدغام القاف في الكاف في جميع القرآن. وقرأ الجمهور: ﴿أمهاتكم﴾ بضم الهمزة، وكسرها يحيى بن وثاب، وهما لغتان. وقوله: ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ قالت فرقة: الأولى: ظهر الأب، ثم رحم الأم، ثم المشيمة في البطن. وقال مجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد: هي المشيمة والرحم، والبطن[٢]، وهذه الآية كلها معتبر وتنبيه لهم على الخالق الصانع الذي لا يستحق العبادة غيره، وهذا كله في رد أمر الأصنام والإفساد لها. ثم قال تعالى لهم: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، وقد قامت على ذلك البراهين واتسقت الأدلة. ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾، أي: من أي جهة تضلون؟ وبأي سبب؟

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآية مخاطبة للكفار الذين لم يرد الله أن يطهر

---

(١) المتن من كل شيء: ما صلب ظهره، والجمع متون ومتان، وتحدُّر الشيء: إقباله، وتحدَّر تحدراً: نزل في تدفق من علو إلى سُفْل، وفي حديث الاستسقاء: رأيت المطر يتحادر عل لحيته، أي ينزل ويقطر.

(٢) في مؤتمر «الإعجاز الطبي في القرآن الكريم» الذي عقد بالقاهرة ـ أغسطس ١٩٨٥ ـ أعلن بعض الأطباء من غير المسلمين إسلامهم لأنهم اكتشفوا أن الغشاء الذي يحمي الطفل في بطن أمه مكون من ثلاث طبقات رقيقة، وأنهم لم يكشفوا هذه الحقيقة إلا أخيراً، ثم علموا أن القرآن الكريم قد تحدث عنها منذ ألف وأربعمائة عام في هذه الآية الكريمة، فكان إسلامهم عن قناعة علمية كاملة.

قلوبهم، و«عباده» هم المؤمنون، ويحتمل أن تكون مخاطبة لجميع الناس، لأن الله غنيٌّ عن جميع الناس وهم فقراءٌ إليه، وبَيَّن بُعْد البشر عن رضى الله إن كفروا، بقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟﴾.

واختلف المتأولون من أهل السنة في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ - فقالت فرقة: الرِّضى بمعنى الإرادة، والكلام ظاهره العموم ومعناه الخصوص فيمن قضى الله له بالإيمان وَحَتَمه له، فعباده - على هذا - ملائكته ومؤمنو البشر والجن، وهذا يتركب على قول ابن عباس رضي الله عنهما. وقالت فرقة: الكلام عموم صحيح، والكفر يقع ممن يقع بإرادة الله تعالى؛ إلاَّ أنه بعد وقوعه لا يرضاه ديناً لهم، وهذا يتركَّب على الاحتمال الذي تقدم آنفاً، ومعنى ﴿لَا يَرْضَىٰ﴾: لا يشكره لهم ولا يثيبهم به خيراً، فالرضى - على هذا - هو صفة فعل بمعنى القبول ونحوه، وتأَمل الإرادة فإِنَّ حقيقتها إنما هي فيما لم يقع بعد، والرضى فإنما حقيقته فيما قد وقع، واعتبر هذا في آيات القرآن تجده، وإِن كانت العرب قد تستعمل في أَشعارها على جهة التجوز هذا بَدَلَ هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ عمومٌ، والشكر الحقيقي في ضمنه الإيمانُ. وقرأ ابن كثير، وأَبو عمرو، والكسائي: [يَرْضَهُ] بضمة مُشْبَعَة على الهاءِ، وقرأ ابن عامر، وعاصم بضمة مُخْتَلَسَة[1]، واختلف عن نافع وأَبي عمرو[2]، وقرأ عاصم - في رواية أَبي بكر -: [يَرْضَهْ] بسكون الهاءِ. قال أَبو حاتم: وهو غلطٌ لا يجوز[3].

ثم قال تعالى: ﴿ولا تزر وازرة أخرى﴾، أَي: لا يحمل أَحدٌ ذنب أَحد، وأَنَّث «الوَازِرَةَ» و«الأُخرَى» لأَنه أَراد الأَنفس، و«الوِزْرُ»: الثقل، وهذا خبر مُضَمَّنه الحضُّ على أَن ينظر كلُّ أَحَدٍ في خاصة أَمره، وما ينوبه في ذاته، ثم أَخبرهم بأَن مرجعهم في الآخرة إِلى ربِّهم، أَيْ: إِلى ثوابه أَو عقابه، فيوقف كل أَحد على أَعماله؛ لأَنه المطلع على نِيَّات الصدور وسرائر الأَفئدة، و«ذَاتُ الصَّدْرِ»: ما فيه من خبيئة، ومنه قولهم: «الذئب مغبوط بذي بطنه»[4].

---

(١) في بعض النسخ: بضمة غير مُشْبَعَة.

(٢) نلاحظ أنه ذكر أبا عمرو ضمن من يضمون الهاءَ بضمة مُشْبَعَة، في حين ذكر القرطبي أن أبا عمرو ممن قرأ بإسكان الهاء. ولعلَّه قد قرأ بالقراءتين.

(٣) قال أبو حيان في (البحر المحيط): «ليس بغلط، بل ذلك لغة لِبني كلاب وبني عقيل».

(٤) هذا مثل يضرب لمن يُظن به الشِّبع وهو جائع، أو لمن يُظَن به الخير وهو على غيره، ويُروى: الذئب=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾.

«الإِنْسَانُ» في هذه الآية يرادُ به الكافر بدلالة ما وصفه به آخراً من اتخاذ الأَنداد لله تبارك وتعالى، ولقوله تعالى ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾.

وهذه آيةٌ بيَّن اللهُ تعالى بها على الكفار أنهم على كل حال يَلْجَؤون في حال الضرورات إِليه، وإِن كان ذلك عن غير يقين منهم ولا إِيمان، فلذلك ليس بِمُعْتَدٍّ به، و(مُنيباً) معناه: مقارباً مراجعاً بصيرته.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً﴾ يحتمل أَن يريد: في كشف الضُّر المذكور، أَو يريد أَيَّ نعمة كانت، واللفظ يعمهما، و(خَوَّلَهُ) معناه: مَلَّكَهُ وحكَّمه فيها ابتداءً منه لا مجازاةً، ولا يقال في الجزاءِ: خَوَّلَ، ومنه الْخَوَل(١)، ومنه قول زُهَير:

هُنَالِكَ إِنْ يُسْتَخْوَلُوا المالَ يُخوِلُوا . . . . (٢)

= يُغبط بغير بِطْنَة، قال أبو عبيد: وذلك أنه ليس يُظن به الجوع أبداً، إنما يُظَنُّ به البِطْنة لأنه يعدو على الناس والماشية، قال الشاعر:

وَمَـنْ يَسْكُـنِ البَحْـرَيْـنِ يَعْظُـمْ طِحـالُـهُ ... ويُغْبَـط مـا فـي بَطْنِـهِ وَهُـوَ جـائِـعُ

وقال غيره: إنما قيل له ذلك لأنه عظيم الجفرة أبداً، لا يبين عليه الضمور وإن جهده الجوع، قال الشاعر:

. . . . لَكَـالـذِّئْـبِ مَغْبُـوطُ الْحشـا وَهُـوَ جَـائِـعُ

(١) خَوَلُ الرجل: حَشَمُه، والواحد: خائل، قال أبو النجم:

أَعْطَـى فَلَـمْ يَبْخَـلْ وَلَـمْ يُبَخَّـلِ ... كُـومَ الـذُّرَى مِـنْ خَـوَلِ الْمُخَـوَّلِ

(٢) هذا صدر بيت من قصيدة قالها زهير يمدح سِنانَ بْنَ أَبي حارثة المُرِّي، ومطلعها:

صَحَا القَلْبُ عَنْ سَلْمَة وَقَدْ كَادَ لا يَسْلُو ... وَأَقْفَـرَ مِـنْ سَلْمَـى التَّعـانيـقُ فَـالثِّقْـلُ

والبيت بتمامه ـ على الرواية التي اختارها ابن عطية وفيها الشاهد ـ هو:

هُنـالِـكَ إنْ يُسْتَخْـوَلُـوا الْمـالَ يُخْـوِلُـوا ... وَإنْ يُسْـأَلُـوا يُعْطُـوا وَإنْ يَيْسِـرُوا يُغْلُـوا

أما رواية الديوان فهي: (يُسْتَخْبَلُوا المال يُخْبِلُوا)، والإخْبال: الإعارة، يقال: أَخْبَلْتُه المالَ إذا أَعَرْتَه ناقةً لينتفع بألبانها وأوبارها، أو فرساً ليغزوَ عليه. قال في اللسان (خَوَلَ): «والاسْتِخْوَال مثلُ=

وهذه رواية، ويُرْوَى: يُسْتَخْبلُوا.

قوله تعالى: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ﴾. قالت فرقة: (مَا) مصدرية، والمعنى: نسِيَ دعاءَه إليه في حال الضرر ورجع إلى كفره، وقالت فرقة: (مَا) بمعنى الذي، والمراد بها اللهُ سبحانه وتعالى، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾[1]، وقد تقع (ما) مكان (مَن) فيما لا يُحصى كثرةً من كلامهم. ويحتمل أَن تكون (مَا) نافية، ويكون قوله: (نَسِيَ) كلاماً تامًّا، ثم نفى أَن يكون دعاءُ هذا الكافر خالصاً ومقصوداً به من قَبْل النعمة، أَي في حال الضُّر. ويحتمل أَن تكون (مَا) نافية، ويكون قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ يريد: من قَبْل الضَّرر، فكأَنه يقول: ولم يكن هذا الكافر يدعو في سائر زمنه قبل الضرر، بل أَلجأَه ضرره إلى الدعاءِ.

و«الأَنْدَادُ» الأَمثال التي تضادُّ وتزاحم ويعارض بعضها بعضاً، قال قتادة: المُرادُ: من الرجَال يطيعونهم في معصية الله تعالى، وقال غيره: المرادُ: الأَوثانُ. وقرأَ الجمهور: (لِيُضِلَّ) بضمِّ الياءِ، وقرأَها بفتح الياءِ أَبو عمرو، وعيسى، وابن كثير، وشبل.

ثم أَمر الله تعالى نَبيَّه أَن يقول لهم ـ على جهة التهديد ـ قولاً يخاطب به واحداً واحداً منهم: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾، أَي: تَلَذَّذ به، واصنع ما شئت «قليلاً»، وهو عُمْرُ ذلك المخاطب. ثم أَخبره أَنه من أَصحاب النار، أَي: من سكانها والمخلَّدِين فيها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

قرأَ ابن كثير، ونافع، وحمزة: [أَمَنْ] بتخفيف الميم، وهي قراءَة أَهل مكَّة، والأَعمش، وعيسى، وشيبة بن نصاح، ورُويت عن الحسن، وضعَّفها الأَخفش وأَبو

= الاسْتِخْبالِ، ومنه قول زهير: هنالك... البيت»، والمرادُ هُنا أنهم قومٌ كرماءٌ، إن طُلب منهم إعارة إبِلِهم أعاروها وتكرَّموا على الناس بها، ومعنى يُيْسِرُوا: يُقامِرُوا بالمَيْسِر، ويُغْلوا: يأخذوا أغلى ما عندهم من الإبل والنَّعم فيقامروا عليها. فهم عند الميسر لا يقامرون إلا بالغالي.

(١) تكررت في الآيتين (٣، ٥) من سورة (الكافرون).

حاتم. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، والحسن، والأعرج، وقتادة، وأبو جعفر: [أَمَّنْ] بتشديد الميم.

فأمّا الأُولى فلها وجهان: أحدهما ـ وهو الأظهر ـ أنَّ الألِفَ أَلِفُ تقرير واستفهام، كأنه يقول: أهذا القانت خيرٌ أم هذا المذكور الذي يتمتَّع بكفره قليلاً وهو من أصحاب النَّار؟ وفي الكلام حذف يدل عليه سياق الآيات مع قوله آخراً: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ونظيره قول الشاعر:

فَـأُقْسِـمُ لـوْ شَـيْءٌ أَتَـانَـا رَسُـولُـهُ ... سواكَ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعَا(١)

ويوقف ـ على هذا التأويل ـ على قوله سبحانه: ﴿ويرجو رحمة ربه﴾.

والوجه الثاني أن تكون الألف نداءً(٢)، والخطاب لأهل هذه الصفات، كأنه يقول

---

(١) البيت لامرىء القيس، وهو من قصيدة مطلعها: «جَزِعْتُ وَلَم أَجْزَعْ من البَيْنِ مَجْزَعَا»، وهو في الديوان: «وَجَدِّكِ لَوْ شَيْءٌ أَتَانَا»، وهو من شواهد النحويين على أن الجواب فيه محذوف، أي جواب القسم لا جواب (لوْ)، عملا بمقتضى الضابط في اجتماع قَسَم وشرط، وتقدير الجواب كما قال الفراءُ وغيره: لو أتانا رسولُ سواكِ لدفعناه، بدليل قوله مدفعاً» وتبع الطبري وابن عطية وغيرهما من المفسرين القراء في قوله هذا.

ومن كلام الفراء قوله: «فإن قال قائل فأين جواب ﴿أَمَّنْ هُوَ﴾؟ فقد تبين في الكلام أنه مضمر، قد جرى معناه في أول الكلمة، إذ ذكر الضال ثم ذكر المهتدي بالاستفهام، فهو دليل على أنه يريد: أهذا مثل هذا؟ ومن لم يعرف مذاهب العرب ويتبين له المعنى في هذا وشبهه لم يكتف ولم يشتف. ألا ترى إلى قول الشاعر: فأقسم لو شيء أتانا... البيت، وجرى قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ على مثل هذا». هذا ما ذكره الفراء والمفسرون، ولكن الصواب أن الجواب مذكور في البيت الذي بعده، وهو قول امرىء القيس:

إذَنْ لَـــرَدَدْنَـــاهُ وَلَـــوْ طَـــالَ مُكْثُـــهُ ... لَـــدَيْنَـــا وَلَكِنَّـــا بِحُبِّـــكِ وُلَّعَـــا

قال البغدادي في الخزانة: «وعلى هذا يكون قوله: «ولكن لم نجد لك مدفعاً» جملة اعتراضية، وعذرهم في تقدير الجواب أن البيت الثاني ساقط في كثير من الروايات، وقد ذكره الزجاج في أماليه الصغرى والكبرى».

(٢) قال الفراء في معاني: «والعرب تدعو بألف كما يدعون بيا، فيقولون: يا زيد أقبل، وأزيد أقبل، قال الشاعر:

أَبَنِـــي لُبَيْنَـــى لَسْتُـــمُ بِيَـــدٍ ... إلا يَـــدٌ لَيْسَـــتْ لَهَـــا عَضُـــدُ

فيكون المعنى مردوداً بالدعاء كالمنسوق». ومراده بالدعاء: النداء، والبيت في الكتاب لسيبويه، والرواية فيه: «إلا يداً» بالنصب، وبعضهم جرَّها على البدلية من (يدٍ) الأولى، أو على الصفة لها. وموضوع استشهادنا هنا هو الهمزة التي جاءت للنداءِ.

لصاحب هذه الصفات: قل هل يستوي؟ فهذا السؤال بـ(هل) هو للقانت، ولا يوقف ـ على هذا التأويل ـ على قوله سبحانه: ﴿ويرجو رحمة ربه﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا المعنى صحيح إلاَّ أَنه أَجنبي من معنى الآية قبله وبعده. وضعَّفه أَبو علي الفارسي، وقال مكيٌّ: إنه لا يجوز عند سيبويه» لأَن حرف النداءِ لا يسقط مع المُبْهَم، وليس كما قال مكي، أما مذهب سيبويه في أَن حرف النداءِ لا يسقط مع المُبْهم فنَعَمْ؛ لأَنه يقع الإِلباسُ الكثير بذلك، وأَما أَن هذا الموضع سقط فيه حرف النداءِ فَلاَ وأَلف ثابتةٌ فيه ظاهرة.

وأَمَّا القراءَة الثانية فإِنها (أَمْ) دخلت على (مَنْ)، والكلام ـ على هذه القراءَة ـ لا يحتمل إِلاَّ المعادلة بين صنفين، فيحتمل أَن يكون ما يُعادل (أَمْ) متقدماً في التقدير، كأَنه يقول: «أَهذا الكافر خيرٌ أَمْ مَنْ»، ويحتمل أَن تكون (أَمْ) قد ابتدأَ بها بعد إِضراب مقدر، ويَكُون المعادلُ في آخر الكلام. والأَوَّلُ أَبْيَن.

و«الْقَانِتُ»: المطيع، كذا فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما، والقُنوت في الكلام يقع على القراءَة، وعلى طول الكلام في الصلاة، وبهذا فسَّرها ابن عمر رضي الله عنهما، ورُوي عن ابن عباس أَنه قال: «من أَحبَّ أَن يهوِّن الله عليه الوقوف يوم القيامة فلْيُنَرِّه الله في سواد الليل ساجداً وقائماً»، ويقع القنوت على الدعاءِ وعلى الصمت عبادة، ورَوَى أَبو سعيد عن النبي ﷺ أَن القنوت الطاعة[١]، وقال جابر بن عبد الله: سُئل رسول الله ﷺ: أَيُّ الصلاة أَفضل؟ قال: «طول القنوت»[٢].

و«الآناءُ»: السَّاعاتُ، واحدها إِنًى كمِعًى، ومنه قولهم: «لن يعدو شيءٌ إِناهُ»، ومنه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣ ـ ٧٥)، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كلُّ حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة».

(٢) أخرجه مسلم في المسافرين، والترمذي في الصلاة، والنَّسائي في الزكاة، وابن ماجه في الإقامة، وأحمد في مسنده (٣ ـ ٣٠٢، ٣٩١، ٤١٢)، ولفظه كما في مسند أحمد، عن جابر رضي الله عنه، قال: سئل النبي ﷺ: أيُّ الجهاد أفضل؟ قال: من عُقِر جواده، وأُهريق دمه، قال: وسُئل: أيُّ الصلاة أفضل؟ قال: طول القنوت.

قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾[١]. على بعض التأويلات في ذلك، ويُقال في واحدها أيضاً: «أَنًا» على وزن «قَفًا»، ويقال فيه: «إِنْيٌ» بكسر الهمزة وسكون النون، قال الهُذَلِيّ:

حُلْـوٌ وَمُـرٌّ كَعِطْـفِ القِـدْحِ مِـرَّتُـهُ ... فـي كُـلِّ إِنْـيٍ قَضَـاهُ اللَّيْـلُ يَنْتَعِـلُ[٢]

وقرأ الضحاك: «سَاجِدٌ وقَائِمٌ» بالرفع فيهما.

وقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾ معناه: يحذر حالها وهولها. وقرأ سعيد بن جُبَيْر: «يَحْذَرُ عَذَابَ الآخِرَةِ». و(أُولُو) معناه: أصحاب، واحدهم: ذُو.

وقرأ الجمهور: [قل يا عبادي] بفتح الياءِ، وأسكنها أبو عمرو، وعاصم، والأعمش، وقرأ أبو عمرو، وعاصم أيضاً، والأعمش، وابن كثير: ﴿يَا عبَادِ﴾ بغير ياءٍ في الوصل. ويُروى أن هذه الآية نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة. وَوَعَدَ تعالى بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلقاً بـ(أَحْسَنُوا)، وكأنه يريد: إِنَّ الذين يحسنون في الدنيا لهم حسنة في الآخرة، وهي الجنة والنعيم، قاله مقاتل،

---

(١) من الآية (٥٣) من سورة (الأحزاب).

(٢) البيت للمُتَنَخِّل الهذلي، والمُتَنَخِّل ـ بكسر الخاء ـ لقب له، واسمه مالك بن عويمر، شاعر جاهلي محسن، من شعراء هذيل، والبيت من قصيدة له يرثي بها ابنه أُثَيْلَة الذي مات في شبابه، وفيه يقول: «لكِنْ أُثَيْلَةُ صافي الوجهِ مُقْتَبِلُ»، أي في بداية حياته، والبيت في اللسان (أنى)، وفي (الشعر والشعراء)، قال في اللسان: «قال أهل اللغة ومنهم الزجاج: آناءُ الليل ساعاتُه، واحدها إِنْيٌ وإِنىً، فمن قال إِنْيٌ فهو مثل نِحْيٌ وأنحاءٍ، ومن قال إِنىً فهو مثلُ مِعىً وأمعاءٍ، قال المتنخِّل الهذلي:

السَّـالِـكُ الثَّغْـرَ مَخْشِيّـاً مَـوَارِدُهُ ... بِكُـلِّ إِنْـيٍ قَضَـاهُ اللَّيْـلُ يَنْتَعِـلُ

قال الأزهري: كذا رواه ابن الأنباري، وأنشده الجوهريُّ:

حُلْـوٌ ومُـرٌّ كِعِطْـفِ القِـدْحِ مِـرَّتُـهُ ... فـي كُـلِّ إِنْـيٍ قَضَـاهُ اللَّيْـلُ يَنْتَعِـلُ

ونسبه أيضاً للمُتَنَخِّل، فإمَّا أن يكون هو البيت بعينه أو آخر من قصيدة أُخرى». اهـ. ونقول: الرواية الصحيحة هي رواية الجوهري، أما رواية ابن الأنباري فقد جمعت بين بيتين جاءت بالصدر من بيت والعجز من بيت، والصدر الذي جاءت به موجودة في القصيدة كما رواها في (الشعر والشعراء) مع شيء من التحريف، والرواية في (الشعر والشعراءِ): «حَذَّاهُ الليل» بدلا من «قَضَاه اللَّيْلُ»، قال الزهري: «حَذَّاهُ نَعْلا» إذا حمله على نعل، ويَنْتَعِلُ: يركب الأرض الصلبة بما فيها من حَرَّات. وهو في البيت يذكر بعض صفات ابنه.

ويحتمل أَن يريد: إِنَّ الذين يحسنون لهم حَسَنَةٌ في الدنيا، وهي العافية والطهور وولاية الله تعالى، قاله السدي، وكان قياس قوله أَن يكون ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متأخراً، ويجوز تقديمه. والقول الأَول أَرجح، وهو أَن الحسنة في الآخرة. و﴿أَرْضُ ٱللَّهِ﴾ يريد بها البلاد المجاورة التي تقتضيها القصة التي الكلام فيها، وهذا حضٌّ على الهجرة، ولذلك وصف الله الأَرض بالسَّعَة. وقال قوم: أَراد بالأَرض هنا الجنة، وفي هذا القول تحكم لا دليل عليه.

ثم وَعَدَ تبارك وتعالى على الصبر على المكاره، والخروج عن الوطن، ونُصرة الدين، وجميع الطَّاعات، بأَن الأَجر يُوَفَّى بغير حساب، وهذا يحتمل معنيَيْن: أَحدهما أَن الصَّابر يُوَفَّى أَجره ثم لا يُحاسب عن النعيم ولا يُتَابع بذنوب، فيقع (الصَّابِرُونَ) في هذه الآية على الجماعة التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام أَنها تدخل الجنة بغير حساب، وفي قوله ﷺ: «يدخل الجنَّة من أُمَّتي سبعون أَلْفاً بغير حساب، الذين لا يتطيَّرون ولا يَكْتَوُونَ ولا يَسْتَرْقون، وعلى ربِّهم يتوكَّلون، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر...» الحديث على اختلاف ترتيباته[1]. والمعنى الثاني أَن أُجور الصابرين تُوَفَّى بغير حصْر ولا عَدٍّ بلْ جزافاً، وهذه استعارة للكثرة التي لا تُحصى، ومنه قول الشاعر:

مــا تَمْنِعــي يَقْظَــى فَقَــدْ تُعْطِينَــهُ ... فــي النَّــوم غيرَ مُصَرَّدٍ محْسُوبِ[2]

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق والطب، ومسلم في الإيمان، وابن ماجه في الزهد، والدارمي في الرقاق، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، وهناك اختلاف في ترتيب الصفات تبعاً لاختلاف الرواة. ولفظه كما في البخاري أن سعيد بن جبير قال، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أُمتي سبعون ألفاً بغير حساب، هم الذين لا يسْتَرْقون ولا يتطَيَّرُون وعلى ربهم يتوكلون»، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أكثرنا الحديث عند رسول الله ﷺ ذات ليلة، ثم غدونا إليه، فقال: عُرضت عليَّ الأنبياءُ الليلة بأُممها، فجعل النبي يمر ومعه الثلاثة، والنبي ومعه العصابة، والنبي ومعه النفر، والنبي ليس معه أحد، حتى مرَّ عليَّ موسى معه كبكبة من بني إسرائيل، فأعجبوني، فقلت: من هؤلاءِ؟ فقيل لي: هذا أخوك موسى معه بنو إسرائيل، قال: قلت: فأين أُمتي؟ فقيل لي: أُنظر عن يمينك فنظرت فإذا الظراب قد سُدَّ بوجوه الرجال ثم قيل لي انظر عن يسارك فنظرت فإذا الأفق قد سد بوجوه الرجال فقيل لي: أرضيت؟ فقلت: رضيت يا ربّ، رضيت يا ربّ، قال: فقيل لي: إن مع هؤلاءِ سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب... وفي آخر الحديث يقول ابن مسعود: ثم تحدثنا فقلنا: من ترون هؤلاءِ السبعون الألف قوم ولدوا في الإسلام لم يشركوا بالله شيئاً حتى ماتوا، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «هم الذين لا يكتَوُون ولا يسترقون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون». رواه أحمد في مسنده (١/ ٤٠١).

(٢) التَّصْريد في العطاءِ: تقليله، وفي الحديث: «لن يدخل الجنة إلا تصريداً» أي قليلا، وصرَّد العطاءَ قَلَّله،=

وإلى هذا التأويل ذهب جمهور المفسِّرين، حتى قال قتادة: ما ثَمَّ والله مكيال ولا ميزان، وفي بعض الحديث أنه لما نزلت ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾[(١)]، قال عليه الصلاة والسلام: «اللهم زِدْ أُمَّتي»، فنزلت: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ﴾[(٢)]، فقال: «اللهم زِدْ أُمَّتي» فنزلت هذه الآية، فقال: «رَضِيتُ يا رَب»[(٣)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾.

أَمر الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام في هذه الآية بأَن يصدع للكفار فيما أُمر به من عبادة ربِّه تعالى. وقوله: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ﴾، أَي: وأُمرت بهذا الذي ذكرتُ لأَن أَكون أَول من أَسلم من أَهل عصري وزمني، فهذه نعمة من الله تعالى عليه، وتنبيهٌ منه له. وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ﴾ فعل معلَّق بشرط وهو العصيان، وقد عُلم أنه عليه الصلاة والسلام معصوم منه، ولكنه خطابٌ لأُمَّته، يَعُمُّهم حكمه ويخيفهم وعيده.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ﴾ تأكيد للمعنى الأَول، وإِعلامٌ بامتثاله للأَمر، وهذا كلُّه نزل قبل القتال؛ لأَنها موادعات، وقوله: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ صيغة أَمر على جهة التهديد، كقوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾[(٤)]، وقوله تعالى: ﴿تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ﴾[(٥)]، وهذا كثير. و(ٱلَّذِينَ) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ في موضع رفع خبرٌ لـ(إِنَّ)، وقوله (وَأَهۡلِيهِمۡ) قيل: معناهُ أَنهم خسروا الأَهل الذي كان يكون لهم لو كانوا من أَهل الجنة، فهذا كما لو قال: خَسِرُوا أَنفسهم ونعيمهم، أَي الذي كان يكون لهم. وقيل: أَراد الأَنفس والأَهلين الذين كانوا في الدنيا؛ لأَنهم صاروا في عذاب النار، ليس

= والشاهد في البيت أن العطاءَ فيه كثير غير محسوب ولا معدود.

(١) من الآية (٢٦١) من سورة (البقرة).

(٢) من الآية (٢٤٥) من سورة (البقرة).

(٣) رواه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن حبان في صحيحه، وهو عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) من الآية (٤٠) من سورة (فُصِّلَت).

(٥) من الآية (٨) من هذه السورة (الزُّمَر).

لهم نفوسٌ مستقرة، ولا بدل من أهل الدنيا، ومَنْ في الجنة قد صار له إما أهله في الدنيا وإما غيرهم، على اختلاف فيما يُؤثر في ذلك، فهو على كل حالٍ لا خُسران معه البَتَّةَ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾.

هذه صفة حال أَهل جهنم، و«الظُّلَّةُ»: ماغَشِيَ وعمَّ كالسحابة وسقف البيت ونحوه، فأَمَّا ما فوقهم فكونهُ ظُلَّة بيِّنٌ، وأَمَّا ما تحتهم، فقالت فرقة: سُمِّي ظُلَّة لأنه يتلهب، ويصعد ممَّا تحتهم شيءٌ كثير ولهب حتى يكون ظُلَّة، فلَوْ لم يكن فوقهم شيءٌ لكفى فرع الذي تحتهم أَن يكون ظُلَّة، وقالت فرقة: جعل ما تحتهم ظُلَّة لأَنهم فوق آخرين، وهكذا هي حالهم إِلى الطبقة الأَخيرة التي في القعر.

وقوله: (عِبَادَهُ) يريد جميع العالم، خوَّفهم الله تعالى النَّار وحذَّرهم منها، فمن هدي وآمن نجا، ومن كفر حصل فيما خوَّف منه. واختلفت القراءَة في قوله: ﴿يَٰعِبَادِ﴾، وقد تقدم نظيره.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الآية. قال ابن زيد: إِن سبب نزولها زيد بن عمرو بن نفيل، وسلمان الفارسي، وأَبو ذرٍ الغِفَارِي، والإِشارةُ إِليهم. وقال ابن إِسحق: الإِشارة بها إِلى عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أَبي وقاص، وسعيد بن زيد، والزُّبَيْر رضي الله تعالى عنهم، وذلك أَنه لما أَسلم أَبو بكر رضي الله عنه سمعوا ذلك فجاؤوه فقالوا: أَسلمت؟ قال: نعم، وذكَّرهم بالله تعالى فآمنوا بأَجمعهم، فنزلت فيهم هذه الآية، وهي على كل حالٍ عامة في الناس إِلى يوم القيامة، يتناولهم حكمها. و«الطَّاغُوتُ» كلُّ ما يُعبد من دون الله تعالى، و«الطَّاغُوتُ» أَيضاً الشيطان، وبه فسَّرها مجاهد، والسدي، وابن زيد. وأَوْقَعه هنا على جماعة الشياطين، ولذلك أَنَّثَ الضمير في (يَعْبُدُوهَا).

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ كلام عام في جميع الأَقوال، وإِنما القصد الثناءُ على هؤلاءِ ببصائر هي لهم وقوام في نظرهم، حتَّى أَنهم إِذا سمعوا

قولاً مَيَّزوه واتبعوا أَحسنه، واختلف المفسرون في العبارة عن هذا ـ فقالت فرقة: أَحسن القول كتاب الله تعالى، أَيْ إذا سمعوا الأَقاويل وسمعوا القرآن اتَّبعوا القرآن، وقالت فرقة: «الْقول» هو القرآن، وأَحْسَنَهُ ما فيه من عفو وصفح واحتمال على صبر ونحو ذلك، وقال قتادة: أحسن القول طاعة الله تعالى، وهذه أَمثلة وما قلناه أَوَّلاً يعمها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾.

أَسقط العلامة التي في الفعل المسند إلى الكلمة لوجهين: أَحدهما الحائل الذي بين الفعل والفاعل، ولو كان متَّصلاً به لم يحسن ذلك، والثاني أَن «الكلمة» غير مؤنث حقيقي، وهذا أَخف وأَجود من قولهم: «حضر القاضي اليوم امرأَةٌ»؛ لأَن التأنيث هنا حقيقي، وقالت فرقة: في هذا الكلام محذوف اختصره لدلالة الظاهر عليه، تقديره: أَفمن حقَّ عليه كلمة العذاب تتأَسَّف أنت عليه؟ أَو نحو هذا من التقدير[1]، ثم استأْنف قوله للنبي ﷺ على أنه يريد أَن ينقذ من في النار، أَي: ليس هذا إِليك. وقالت فرقة: الأَلف في قوله: (أَفَأَنْتَ) إِنما هي مؤكدة زادها لطول الكلام، وإِنما معنى الآية: أَفمن حقَّ عليه كلمة العذاب فأَنت تنقذه؟ ولكنه زاد الأَلف الثانية توكيداً للأَمر[2]، وأَظهر

---

(١) والمحذوف المُقَدَّر هو خبر (من). والفاءُ في (أَفَمَنْ) للعطف، وموضعها التقديم على الهمزة، لكن الهمزة قدمت عليها لأن لها الصدارة، فالأصل عندهم: (فأَمَنْ).

(٢) هذا رأي آخر يرى أن جواب (من) في (أَفَمَنْ) هو قوله تعالى: (أَفَأَنْتَ)، وهو رأي الحوفي والزمخشري، قال الحوفي: «ولولا طول الكلام لم يجز الإتيان بالألف؛ لأنه لا يصلح في العربية أن يُؤْتَى بألف الاستفهام في الاسم وبألف أُخرى في الجزاءِ». وعلى هذا الرأي يكون قد اجتمع في الكلام استفهام وشرط.

وقال الفراءُ: كيف اجتمع استفهامان في معنى واحد؟ فيقال: هذا مما يراد به استفهامٌ واحد، وإنما المعنى: أَفَأَنت تنقذ من حق عليه كلمة العذاب؟ فيسبق الاستفهام إلى غير موضعه يُرَدُّ الاستفهام إلى موضعه الذي هو له، ومِثْله من غير الاستفهام قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُمْ=

الضمير العائد تشهيراً لهؤلاءِ القوم، وإظهاراً لِخِسَّة منازلهم كقول الشاعر:

لاَ أَرى الْمَـوْتَ يَسْبِقُ الْمَـوْتَ شَـيْءٌ[١]

وإنما أَظهر الضمير تنبيهاً على عِظَم قدر الموت، وهذا كثير.

ثم استفتح تعالى إِخْبَاراً آخر بـ(لَكِنِ)، وهذه مُعادلَةٌ وتحضيض على التقوى لمن فكَّر وازدجر. وقوله تعالى: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أَي: من تحت الغُرف، وعادلت: ﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ ما تقدم من قوله سبحانه: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، و«الغُرَفُ»: ما كان من المساكن مرتفعاً عن الأَرض، وفي الحديث: «إِن أَهل الجنة ليَتَرَاءَوْنَ الغُرف من فوقهم كما تراءَوْن الكوكب الدُّرِّيَّ في الأُفق»[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر، ونصبه إِمَّا بفعل مضمر من لفظه، وإِمَّا بما تضمَّن الكلام قبْلُ من معنى الوعد على الاختلاف الذي للنحاة في ذلك.

ثم وقف تعالى نبيَّه ﷺ على معتبر من مخلوقاته، والخطاب للنبي ﷺ وكلُّ بشر داخلٌ معه في معناه، وقال الطبريُّ وغيره: أَشار إِلى ماءِ المطر، وقالوا: العيونُ منه، وذلك أنها تنماع عند وجوده وتيْبَس[٣] عند فقده، وقال الحسنُ بن مُسْلم بنُ يَنَّاقٍ[٤]: الإِشارة إِلى العيون، وليست العيون من المطر، ولكنْ ماؤُها نازل من السماءِ، وقال الشعبي: كل ماءٍ عذب في الأَرض فمن السماءِ نزل، والقولان متقاربان، و«سَلَكَهُ» معناه: أَجراهُ، ومنه قول الشاعر:

حتَّى سَلَكْنَ الشَّوى مِنْهُنَّ في مسكٍ ... مِـنْ نَسْـلِ جَـوَّابَـةِ الآفَـاقِ مِهْـداجُ[٥]

= ﴿مُّخْرَجُونَ﴾ فرَدَّ [أَنَّكُمْ] مرتين، وإنما المعنى والله أعلم: أيعدكم أنكم مخرجون إذا مِتُّم وكنتم تراباً؟ (معاني القرآن).

(١) والأصل أن يُقال: لا أرى الموتَ يسبقه شيءٌ، ولكنه أظهر في مقام الإضمار إظهاراً لفظاعة الموت ورهبته.

(٢) أخرجه الترمذي في الجنة.

(٣) يَنْماع: يَسيل، وَيَيْبَس: يَجفُّ بعد رطوبة.

(٤) الحسن بن مسلم بن يَنَّاق ـ بالياءِ المفتوحة ثم النون المشددة، المكيُّ، ثقة، من الخامسة، ومات بعد المائة بقليل. (تقريب التهذيب).

(٥) البيت لأبي وَجْزَة السَّعْدي، واسمُه يزيد بن عُبَيْد، وهو أصلاً من بني سُلَيْم، لكنه نشأ في بني سعد آظَار النبي ﷺ فغلب عليه نسبهم. والبيت في اللسان (مَسَكَ)، قال: «والمَسَكُ: الأَسْوِرَةُ والخلاخيل من=

ومنه قول امرىء القيس:

نَطْعُنُهُمْ سُلْكَى ومَخْلُوجَةً ... كَرَّكَ لأَمَيْنِ عَلَى نَابِلِ[(١)]

وواحد الينابيع: ينبوع، وهو العيْن يُبْنِي لها بناءٌ، مبالغة من النبع. و«الزَّرْعُ» هنا واقع على كل ما يُزرع، وقالت فرقة: (أَلْوَانُهُ): أَعراضه من الحمرة والصُّفرة وغير ذلك، و(يهِيجُ): يَيْبس، وهاج الزرع والنبات إِذا يبس، ومنه قول عليٍّ رضي الله عنه في الحديث الذي في غريب ابن قتيبة: «ذِمَّتي رهينة، وأَنا به زعيم أَلاَّ يَهِيج على التَّقْوَى زرعُ قوم ولا يَيْبَس على التَّقوى. . . .[(٢)] أَصل الحديث»[(٣)]. و«الحُطَامُ»: اليابس المتفتت، ومعنى قوله تعالى: [لَذِكْرَى] أَي: للبعث من القبور وإِحياءِ الموتى على ما يوحيه هذا المثال المذكور.

= الذَّبْل والقُرُون والعاج، واحدته مَسَكَةٌ، واستعاره أبو وجزة فَجعل ما تُدْخِل فيه الأُتُن أرجلها من الماءِ مَسَكاً، فقال: حَتَّى سَلَكْنَ الشَّوَى. . . البيت». وأبو وجزة يصف الأُتُنَ في البيت، وسَلَكْنَ: أَدْخَلْن، والشَّوى: قوائم الأتن وأطراف أرجلها. وجَوَّابَةُ الآفاق هي السحابة التي تتنقل في آفاق السماءِ من مكان إلى مكان، أو الريح التي تدور في الآفاق، والمهداج: الريح الشديدة الصوت، يقول: إن حمر الوحش هذه أدخلن قوائمهن في ماءٍ كأنه الأسْوِرَة حولها، وهذا الماءُ من نسل رياح شديدة الصوت تجوب الآفاق، والشاهدأن سَلَك بمعنى: أدخل أو أجرى، وفي التنزيل العزيز: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

(١) البيت من قصيدة لامرىء القيس، قالها بعد ظفره ببني أسد، وهو في الديوان، في اللسان: (سَلَكَ)، والضمير في نطعنهم يعود على أعدائه الذين ذكرهم في الأبيات السابقة، وهم بنو غُنْم، وبنو عمرو، وكاهل، ومالك، و(سُلْكَى) معناه: طعْناً مستوياً أَو أمام الوجه، و(مَخْلُوجَةً) معناه: طعناً معوَجّاً عن يمين وشمال. فهم يطعنون أعداءَهم طعناً يأتي أمام الوجه، ويأتي من يمين ومن شمال، والكَرُّ: الرَّدُ، وكَرَّكَ: أي مِثلُ رَدِّكَ، واللأَمُ: السهم، والنَّابِلُ: مَنْ يَرْمِي النَّبْل، يقول: نطعنهم هذا الطعن المتنوع، ونَرُدُّهُ ونُعيدُه كما تُرُدُّ سهمين على صاحب نَبْل يرمي بها فتعيدهما إليه. قال في اللسان: «وصفه بسرعة الطعن، وشبَّهه بمن يدفع الريشة إلى النَّبَّال في السرعة، وإنَّما يُحتاجُ إليه في السرعة والخفة لأن الغِرَاءَ إذا بَرَدَ لم يلزق، فيستعمل حاراً»اهـ.

(٢) مكان النقط كلمة غير واضحة في الأصول.

(٣) معنى الحديث كما قال في اللسان: «مَنْ عمِل للهِ عملاً لم يفسد عملُه ولا يَبْطُل، كما يهيج الزرع فيهلك»، والعبارة نفسها ذكرها ابن الأثير في كتاب (النهاية في غريب الحديث)، وفي اللسان والنهاية أيضاً حديث آخر جاء فيه: (كنا مع النبي ﷺ فأمر بغُصن فقطع، أو كان مقطوعاً قد هاج ورقه)، والمعنى أيبسَ وسَقَط.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

رُوي أَن هذه الآية: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ الآية، نزلت في عليٍّ وحمزة رضي الله عنهما وأَبي لهب وابنه، وهما اللَّذان كانا من القاسية قلوبهم[1]. وفي الكلام محذوف يدلُّ عليه الظاهر، تقديره: كالقاسي القلب والمُعْرِض عن أَمر الله، و(شرح الله صَدْرَهُ) استعارة لتحصيله للنظر الجيد والإِيمان بالله، و«النُّور» هداية الله، وهي أَشبه شيءٍ بالضوءِ، قال ابن مسعود رضي الله عنه: قُلْنا: يا رسول الله، كيف انشراح الصدر؟ قال: «إِذا دخل النور القلب انشرح وانفسح»، قلنا: وما علامة ذلك؟ قال: «الإِنابة إِلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأَهب للموت»[2]، و«القَسْوَة»: شدة القلب، وهي مأْخوذة من قسوة الحجر، شبَّه قلب الكافر به في صلابته، وقلة انفعاله للوعظ. وقال مالك بن دينار: «ما ضُرب عبْدٌ بعقوبةٍ أَعظم من قسوة القلب»، ويدلُّ قوله تبارك وتعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾[3] على المحذوف المُقدَّر.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ يريد به القرآن، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ سبب هذه الآية أَن قوماً من الصحابة قالوا: يا رسول الله،

---

(١) ذكر ذلك أبو الحسن الواحدي في (أسباب النزول) بدون سند.

(٢) أخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه، وأخرج مثله عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة رضي الله عنه، وأخرج الحكيم الترمذي في (نوادر الأصول) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلا قال: «يا نبيَّ الله، أيُّ المؤمنين أكْيَسْ؟ فقال: أكثرهم ذكراً للموت، وأحسنهم له استعداداً، وإذا دخل النور القلب انفسح واستوسع، فقالوا: ما آية ذلك يا نبيَّ الله؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»، ثم أخرج عن أبي جعفر عبد الله بن المسوَّر، عن رسول الله ﷺ نحوه، وزاد فيه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾. (الدر المنثور).

(٣) أخرج الترمذي، وابن مردويه، وابن شاهين في (الترغيب في الذكر)، والبيهقي في (شعب الإيمان)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي).

حدَّثْنَا بأَحاديث حسانٍ، وأَخبرنا بأَخبار الدهر، فنزلت الآية في ذلك[١]، وقوله: (مُتَشَابِهاً) معناه: مستوياً لا تناقض فيه ولا تدافع، بل يشبه بعضه بعضاً في رصانة اللفظ، ووثاقة البراهين، وشرف المعاني؛ إذ هي اليقين في العقائد في الله تعالى وصفاته وأَفعاله وشرعه. وقوله: (مَثَانِيَ) معناه: موضع تثْنِيَةٍ للقصص والأَقضية والمواعظ، تُثَنَّى فيه ولا يُمَلُّ مع ذلك، ولا يعرض لها ما يعرض للحديث المعاد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يُثَنَّى فيه الأَمر مراراً. ولا ينصرف (مَثَانِيَ) لأَنه جمع ولا نظير له في الواحد.

وقوله تعالى: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ عبارة عن وقف شَعْر الإِنسان عندما يداخله خوف، ولِينُ قلب عند سماع موعظة أَو زجر قرآن ونحوه، وهذه علامة وقوع المعنى المتخشع في قلب السامع، وفي الحديث أَن أُبَيَّ بن كعب قرأ عند النبي ﷺ فرَقَّت القلوب، فقال النبي ﷺ: «اغتنموا الدعاءَ عند الرقَّة فإِنها رحمة»[٢]، وقال العباس: قال عليه الصلاة والسلام: «من اقشعر جلده من خشية الله تحاتَّت عنه ذنوبه كما يتحاتُّ عن اليابسة ورقها»، وقالت أَسماءُ بنت أَبي بكر رضي الله عنهما: كان الصحابة تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم عند سماع القرآن، قيل لها: إن أَقواماً اليوم إذا سمع أَحدهم القرآن خرَّ مغشيًا عليه، فقالت: أَعوذ بالله من الشيطان[٣]، وقال ابن عمر رضي الله عنهما وقد رأَى ساقطاً عند سماع القرآن: إنَّا لنخشى الله وما نَسْقُط، هؤلاء يدخل الشيطان في جوف أحدهم، وقال ابن سيرين بيننا وبين هؤلاءِ القوم الذين يصرعون عند قراءَة القرآن أَن يُجعل أَحدهم على حائط باسطاً رجليه، ثم يُقرأُ عليه القرآن كلُّه، فإن رمى بنفسه فهو صادق.

---

(١) قال الواحدي في (أسباب النزول): «أخبرنا عبد القاهر بن طاهر البغدادي، قال: أخبرنا أبو عمرو بن مطر، قال: أخبرنا جعفر بن محمد الفريابي، قال: أخبرنا إسحق بن راهويه، قال: أخبرنا عمرو بن محمد القرشي، قال: أخبرنا خلاد الصفار، عن عمرو بن قيس الملائي، عن عمرو بن مُرَّة، عن مصعب بن سعد، عن سعد، قالوا: يا رسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾.

(٢) في القرطبي: أخرجه زيد بن أسلم، قال: قرأ أُبي بن كعب... الحديث.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن أبي حاتم، وابن عساكر، عن عبد الله أبي عروة بن الزبير، قال: قلتُ لجدَّتي أَسماءَ رضي الله عنها: كيف كان يصنع أصحاب رسول الله ﷺ إذا قرؤوا القرآن؟ قالت: كانوا كما نعَتَهم اللهُ تعالى، تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم، قلت: فإن ناساً ها هنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. (الدر المنثور).

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن يشير إلى القرآن، أي: ذلك الذي هذه صفته هُدَى الله، ويحتمل أن يشير إلى الخشية واقشعرار الجلد، أي: ذلك أمارة هُدَى الله، ومن جعل: [تَقْشَعِرُّ] في موضع الصفة لم يقف على (مَثَانِيَ)، ومن جعله مُسْتَأْنَفاً وإخباراً منقطعاً وقف على (مَثَانِيَ). وباقي الآية بيِّنٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

هذا تقرير بمعنى التعجُّب، والمعنى: أَفمن يَتَّقي بوجهه سوءَ العذاب يوم القيامة كالمنعمين في الجنة؟ واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ﴾ ـ فقال مجاهد: يجثو على وجهه في النار، وقالت فرقة: لِمَا رُوي أن الكافر يُلقى في النَّار مكتوفاً مربوطة يداه إلى رجليه مع عنقه، ويُكَبُّ على وجهه، فليس له شيءٌ يتَّقي به إلاَّ وجهه، وقالت فرقة: المعنى صفة ما ينالهم من كثرة العذاب، وذلك أَن يتَّقيه بجميع جوارحه وفيه حواسُّه، فإذا بلغ به العذابُ إلى هذه الغاية ظهر أنه لا متجاوز بعدها. وهذا المعنى عندي أَقْيَس بلاغة، وفي هذا المضمار يجري قول الشاعر:

يَلْقَى السُّيُوفَ بِوَجْهِهِ وبِنَحْرِهِ ... وَيُقِيمُ هَامَتَهُ مَقَامَ الْمِغْفَرِ[(١)]

لأَنه إنما أَراد عظيم جرأَته عليها، فهو يلقاها بكُلِّ مِجَنٍّ، وبكُلِّ شيءٍ منه حتَّى بوجهه وبنحره[(٢)]. وقوله تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ معناه: باشروا، وهنا محذوف تقديره: جَزَاءَ ما كنتم تكسبون.

---

(١) الهامة: الرأسُ، والمِغْفَر: زَرَدٌ يُنسج من الدروع على قدر الرأس، ويلبس تحت القلنسوة في الحرب، والجمع: مغافر. يصفه بالشجاعة الزائدة والجرأة الفائقة، فهو لا يخشى السيوف بل يلقاها بوجهه وبنحره، وهو أيضاً لا يحمي رأسه بالمِغْفَر، بل يقدم نفس الرأس ليتلقى بها الضربات.

(٢) وقيل: إن معنى ﴿يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ﴾: يستقبل، كما قال الشاعر:

سَقَطَ النَّصِيفُ ولَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ ... فَتَنَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَدِ

أي: استقبلتنا بيدها لِتَقِي بها وجهها حتى لا نراه.

ثم مثَّل لقريش بالأُمم السالفة، ثم أَخبر تعالى بما نال تلك الأُمم من كونها في الدنيا أَحاديث مُلَعَّنة، وأُخرى أَعظم من هذا، مع ما نال نفوسهم من الأَلم والذُّلِّ والكرب، ثم أَخبر أَن ما أُعِدَّ لهم من عذاب الآخرة أَكبر من هذا كله الذي كان في الدنيا.

قوله: (قُرْآناً)، قالت فرقة: نصب على المصدر، وقالت فرقة: نصب على الحال و(عَرَبِيًّا) حالٌ، وقالت فرقة: نصب على التوطئة للحال، والحال قوله: (عَرَبِيًّا)، ونفى عنه العوج لأَنه لا اختلاف فيه ولا تناقض ولا مغمز بوجه. واختلفت عبارة المفسرين ـ فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: المعنى: غير متضاد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: غير مختلف، وقال مجاهد: غير ذي لَبْس، وقال السدي: غير مخلوق، وقال بكر بن عبد الله المزني[1]: غير ذي لحن. و«الْعِوَج» بكسر العين في الأَمر، وبفتحها في الأَشخاص.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

لما ذكر الله تعالى أَنه ضرب للناس في هذا القرآن من كلِّ مثل مُجْمَلاً، جاءَ بعد ذلك بِمَثَل في أَهم الأُمور وأَعظمها خطراً وهو التوحيد، فمثَّل تعالى الكافر العابد للأَوثان والشياطين بِعَبْدٍ لرجالٍ عدَّة، في أَخلاقهم شَكَاسَةٌ ونقْصٌ وعَدَم مسامحة، فهم لذلك يُعَذِّبون هذا العبد بأَنهم يتضايقون في أَوقاتهم، ويُضايقون هذا العبد في كثرة العمل، فهو أَبداً دائب ناصب، فكذلك عابد الأَوثان، والذي يعتقد أَن ضرَّه ونفعه عندها هو معذب الفكر بها، وبحراسة حاله منها، ومتى أَرضى صنماً منها بالذبح له في زعمه تفكَّر فيما يصنع مع الآخر، فهو أَبداً في نَصَب وضلال، وكذلك هو المُصانع للناس، المُمْتَحن بخدمة الملوك.

---

(١) بكر بن عبد الله المُزَني، أبو عبد الله، البصري، ثقة جليل، من الثالثة، مات سنة ست ومائة. (التقريب التهذيب).

ومثَّل تعالى المؤمنَ بالله تبارك وتعالى وحده بعَبْد لرجلٍ واحدٍ يكلفه شغله، فهو يعمله على تؤدة، وقد ساسَ مولاه، فالمولى يغفر زلَّته، ويشكره على إجادة عمله.

وقوله تعالى: (ضَرَبَ) مأخوذٌ من الضريب الذي هو الشَّبيه، ومنه قولهم: «هذا ضَرْب هذا»، أَي: شبهه، و(مَثَلاً) مفعول بـ(ضَرَبَ)، و(رَجُلاً) بدلٌ، قال الكسائي: وإن شئتَ على إسقاط الخافض، أَي: «مثلاً لرجل»، أَو «في رجل»، وفي هذا نظر.

و(مَتَشَاكِسُونَ) معناه: لا سَمْحَ[1] في أَخلاقهم، بل فيها لجاجٌ ومتابعةٌ ومحادقة[2]، ومنه قول الشاعر:

خُلِقْتُ شَكْساً لِلأَعَادِي مِشْكَساً[3]

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرٍو: [سَالِماً] على معنى اسم الفاعل، بمعنى: سلم من الشركة فيه، قال أَبو عمرٍو: معناه: خالصاً، وهذه بالأَلف قراءَة ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والجحدري، والزهري، والحسن ـ بخلاف عنه ـ. وقرأ الباقون: (سَلَمًا) بفتح السين واللام[4]، وهي قراءَة الأَعرج، وأَبي جعفر، وشيبة، وأَبي رجاءٍ، وطلحة، والحسن ـ بخلاف ـ. وقرأَ سعيد بن جُبَيْر: [سِلْماً] بكسر السِّين وسكون اللام، وهما مصدران وصف بهما الرجل، بمعنى: خالصاً وأَمْراً قد سَلِمَ له.

---

(١) سَمْح: مصدر سَمَحَ، يقال: سَمَحَ سَمْحاً وسَمَاحاً وسَمَاحَةً.

(٢) هكذا في جميع الأصول، ومادة (حَدَقَ) تعطي معنى الإحاطة والاستدارة، فلعلَّه يريد أنهم يحيطون به من كل جانب ويضيقون عليه الخناق.

(٣) هذا الشاهد في اللسان: (شَكَسَ)، قال: الشَّكْسُ والشَّكِيس والشَّرِسُ جميعاً: السَّيِّء الخلق، والمِشْكَسُ كالشَّكْسِ، عن ابن الأعرابي، وأنشد:

خُلِقْتُ شَكْساً لِلأَعَادِي مِشْكَساً

وتشاكس الرجلان: تضادًّا، وفي التنزيل العزيز: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾. وقال الفراءُ: رجل شَكِسٌ عَكِصٌ، قال الراجز:

شَكْسٌ عَبُوسٌ عَنْبَسٌ عَذَوَّرُ.

(٤) قال الفراءُ في «معاني القرآن»: «وسَلَم وسَالِمٌ متقاربان في المعنى، وكأن سَلَماً مصدر، لقولك: سَلِمَ له سَلَماً، والعَرَبُ تقول: رَبِحَ رِبْحاً وَرَبَحاً، وسَلِمَ سِلْماً وسَلَماً وسَلامَةً، فَسَالِمٌ من صفة الرجل، وسَلَمٌ مصدر لذلك والله أعلم».

ثمَّ وقف الكفار بقوله: ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾، ونصب (مَثَلاً) على التمييز[١]، وهذا توقيف لا يُجيب عنه أَحدٌ إلاَّ بأنهما لا يستويان، فلذلك عاملتهم العبارة الوجيزة على أنهم قد جاوبوا، فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على ظهور الحُجَّة عليكم من أقوالكم، ثمَّ قال: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فأَضرب عن مُقَدَّرٍ محذوف يقتضيه المعنى، تقديره: الحمد لله على ظهور الحُجَّة، وأَن الأَمر ليس كما يقولون، بل أكثرهم لا يعلمون. و(أَكْثَرُ) في هذه الآية على بابها، لأَنا وجدنا الأَقل منهم عَلِم أَمر التوحيد وتكلَّم به، ورفض أَمر الأَصنام، كَوَرَقَة وزَيْد، وقُس[٢].

ثم ابتدأَ تعالى القول معهم في غرض آخر من الوعيد بيوم القيامة والخصومة فيه، ومن التحذير من حال الكَذَبَة على الله، المكَذِّبينَ بالصدق، فقدم تعالى لذلك توطئة مُضَمَّنُهَا وعْظُ النفوس وتَهْيِئَتُهَا لقبول الكلام وخوف الوعيد، وهذا كما تريد أَن تنهى إِنساناً عن معاصيه، أو تأْمره بخير، فتفتتح كلامك بأَن تقول: كلُّنا يفنى، أَو: لا بُدَّ للجميع من الموت، أَو: كلُّ من عليها فانٍ، ونحو هذا مِمَّا تُرَقِّق به نفس الذي تحادثه، ثم بعد ذلك تورد قولك. فأَخبر تعالى أَن الجميع مَيِّتٌ، وهذه قراءَة الجمهور، وقرأَها [مَائِتٌ] و[مَائِتُونَ] (بأَلفٍ) ابنُ الزبير، وابن محيصن، وابن أَبي إِسحق، واليماني، وعيسى بن عمر، وابن أَبي عقرب، وابن أَبي عبلة، والضمير في (إِنَّهُمْ) لجميع العالم. ودخل رجل على صِلَة بن أَشْيَم فَنَعَى إِلَيْهِ أخاه، وبين يَدَيْ صِلَةَ طعام، فقال صِلَةُ للرجل: ادْنُ فكُلْ، فَإِنَّ أخي قد نُعي إِليَّ منذ زمان، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾.

والضمير في ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ قيل: هو عامٌّ أَيضاً، فيختصم يوم القيامة المؤمنون والكافرون فيما كان من ظلم الكافرين لهم في كل موطن ظلموهم فيه، ومن هذا قول عليٍّ رضي الله عنه: أَنا أَول من يجثو يوم القيامة للخصومة بين يدي الرحمن عزَّ وجلَّ، فيختصم عليٌّ، وحمزة، وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم مع عُتْبَة، وشَيْبَة،

---

(١) وهو تمييز منقول عن الفاعل؛ إذ التقدير: هل يستوي مثلهما، واقتصر في التمييز على الواحد لأنه المُقْتَصَر عليه أولا في قوله سبحانه: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾، ولبيان الجنس، وقرىء: «مَثَلَيْن» فطابق حال الرجلين».

(٢) هم وَرَقَة بنُ نَوْفَل بن أَسَد، وزيدُ بن عَمْرو بن نُفَيْل، وقُسُّ بن سَاعِدَةَ الإيادِيُّ. وكانوا في الجاهلية ممن أنكر أمر الأصنام وعَرَفَ الله تعالى، وتكلم بالتوحيد.

والوليد(١)، ويختصم أيضاً المؤمنون بعضهم مع بعض في ظُلاَمَاتِهِم، قاله أَبو العالية وغيره، وقال الزبير بن العوام للنبي ﷺ: أَيُكْتَب علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نعم، حتى يُؤَدَّى إِلى كل ذي حقٍّ حقَّه»(٢)، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لما نزلت هذه الآية قلنا: كيف نختصم ونحن إِخوان؟ فلما قُتِلَ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وضرب بعضنا وجه بعض بالسيوف قلنا: هذا الخصام الذي وعدنا ربنا تعالى(٣)، ويختصم أَيضاً ـ على ما رُوي ـ الروح أيضاً مع الجسد في أَن يُذَنِّب كل واحد منهما صاحبه، ويجعل المعصية في حيِّزه، فيحكم الله تعالى بشركتهما في ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومعنى الآية عندي أَن الله تعالى توعدهم بأَنهم سيتخاصمون يوم القيامة في معنى ردِّهم في وجه الشريعة، وتكذيبهم لرسول الله ﷺ.

---

(١) في أول المعركة في غزوة بدر الكبرى خرج عُتْبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عُتبة وأخوه شَيبة بن ربيعة، ودعوا للمبارزة، فبرز إليهم ثلاثة من الأنصار وهم عَوْفٌ ومُعَوِّذ ابنا الحارث، ورجل آخر يقال إنه عبد الله بن رواحة، فقال عتبة: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار، قال: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادى: يا محمد أَخرِج إلينا أكفاءَنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي، فلما عرفوا أسماءَهم قالوا: نعم أَكْفَاءٌ كرامٌ، فبارز عبيدة ـ وكان أسنَّ القوم ـ عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز علي الوليد، أما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما جرح صاحبه جرحاً لم يستطع القيام بعده، وكرَّ حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فقتلاه واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وأحمد، وابن منيع، وعبد بن حميد، والترمذي وصحَّحه، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم (في الحلية)، والبيهقي (في البعث والنشور)، عن الزبير بن العوام رضي الله عنه، واللفظ في سؤال الزبير: (أَيُنكر) بدلا من (أيكتب)، وفي إجابة النبي ﷺ قال: «نعم لينكرن ذلك عليكم»، وفي نهاية الحديث قال الزبير رضي الله عنه: فوالله إنَّ الأمر لشديد. (عن الدُّرِّ المنثور).

(٣) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عمر رضي الله عنهما، ولفظه كما في الدُّرِّ المنثور، قال: نزل عليه الآية: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، وما ندري ما تفسيرها، ولفظ عَبْد بن حميد: وما ندري فيم نزلت، قلنا: ليس بيننا خُصومة، فما التَّخاصم؟ حتى وقعت الفتنة فقلنا: هذا الذي وعدنا ربُّنا أن نختصم فيه. وأخرج مثله نعيم بن حماد في الفتن، والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

ثم وقفهم الله تعالى توقيفاً معناه نَفْي المُوقَف عليه بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾، أَي: لا أَحد أَظلم ممن كَذَب على الله، والإشارة بهذا الكذب إلى قولهم: إنَّ لله صاحبة وولدا، وقولهم: هذا حلالٌ وهذا حرامٌ افتراءً على الله تعالى، وكذَّبوا أيضاً بالصِدْق، وهو تكذيبهم أقوال محمد ﷺ عن الله تعالى، ما كان من ذلك معجزاً أو غير معجز، ثم توعَّدهم تبارك وتعالى توعُّداً فيه احتقارهم بقوله تعالى على وجه التوقيف: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾، والمَثْوى: موضع الإقامة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ معادلٌ لقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾، فـ(مَنْ) هناك للجميع والعموم، و[الَّذِي] هنا للجنس أيضاً، كأنه قال: والفريق الذي جاءَ بعضه بالصدق، وصدَّق به بَعْضُهُ، ويستقيم اللفظ والمعنى على هذا الترتيب. وفي قراءَة ابن مسعود: [والَّذين جاءُوا بالصِّدقِ وصَدَّقوا به]، وهو هنا القرآنُ وأنباؤه، والشَّرع بجملته.

وقالت فرقة: (الَّذي) يراد به: الَّذينَ، وحذفت النون لطول الكلام، وهذا غير جيِّد، وتركيب (جَاءَ) عليه يردُّ ذلك، وليس كقَوْل الفرزدق:

. . . . إنَّ عَمَّيَّ اللَّذا قَتَلا المُلُوكَ. . . . . . .[1]

---

(١) هذا البيت من شواهد النحويين على حذف النون من (اللذان) تخفيفاً، والمشهور بين كثيرين أنه للفرزدق، قال ذلك في شرح الشواهد للعيني، ونقل عن التوضيح وشرحه أن بني الحارث وبعض ربيعة يحذفون نون (اللذان واللتان) في حالة الرفع تقصيراً للموصول لطوله بالصلة، لكونهما كالشيء الواحد، والبيت في الحقيقة للأخطل، وهو في الديوان، وفي الخزانة، وفي ابن الشجري، وفي الكتاب لسيبويه، وهو بتمامه:

أبَنِي كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّيَّ اللَّذَا قَتَلا المُلُوكَ وفَكَّكَا الأغلالا

وقد قاله يهجو جريراً، وهو من كليب بن يربوع. والهمزة في (أبني) للنداءِ، وعَمَّاهُ هما: عمرٌو=

ونظير الآية قول الشاعر:

وإنَّ الَّـذي حـانَـتْ بِفَلْـجٍ دِمَـاؤُهُـمْ   هُمُ القومُ كُلُّ القَوم يا أُمَّ خَالِدِ[١]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الذي جاءَ بالصدق هو محمد ﷺ، وهو الذي صدَّق به، وقالت فرقة من المفسرين: الذي جاءَ بالصدق هو جبريل، والَّذي صدَّق به هو محمد ﷺ، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وأَبو العالية، والكلبي، وجماعة: الذي جاءَ بالصِّدق هو محمد ﷺ، والذي صدَّق به هو أَبو بكر رضي الله عنه، وقال قتادة، وابن زيد: الذي جاءَ بالصدق هو محمد ﷺ، والذي صدَّق به هم المؤمنون، وقال مجاهد: هم أَهل القرآن، وقال أَبو الأَسود ومجاهد وجماعة: الَّذي صدَّق هو عليٌّ رضي الله عنه، وقالت فرقة بالعموم الذي ذكرناه أَولا، وهو أَصوب الأَقوال.

وقرأَ أَبو صالح[٢]، ومحمد بن جُحادَة[٣]، وعكرمة بن سليمان: [وَصَدَق به] بالتخفيف في الدال، بممعنى: استحق به اسم الصدق، فَعَلَى هذه القراءَة يكون إِسناد الأَفعال كلها إِلى محمد ﷺ، وكأَن أُمَّته في ضمن القول، وهو الذي يُحَسِّن: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ

= ومُرَّةُ ابنا كُلْثُوم، والراوية في الأصل (سَلَبَا المُلُوك)، وفي بقية المراجع (قتلا الملوك)، أما عمرو بن كلثوم فقد قتل عمرو بن هند، وأما مُرَّة أخوه فقد قتل المنذر بن النعمان بن المنذر، ويروى (وَحَطَّمَا) بدلا من (وفَكَّكَا)، والأغلال: جمع غُلٍّ، وهو طوقٌ من حديد يجعل في عنق الأسير، مدحهم بفك الأسرى.

(١) هذا بيت قاله أشهَبُ بنُ رُمَيْلَة، ـ وقيل: هو لِحُرَيْث بن مخعض ـ وهو في مجاز القرآن، واللسان، والتاج، والصحاح، وسيبويه، والخزانة، وشواهد المغني، وابن الشجري، ومغني اللبيب. وفلج: واد بين البصرة وحمى ضربة، وحانت دماؤهم: لم يؤخذ لهم بدِيَة ولا قصاص، وهم القوم كلُّ القوم: هم القوم الكاملون في قوميتهم، وهو شاهد على حذف النون من (الَّذين) تخفيفاً بسبب طول الصلة، وقيل: إن (الذي) هنا مفرد عبر به عن الجمع، وعاد الضمير إليه محمولاً على المعنى، وهذا هو ما قصده ابن عطية حين قال: ونظير الآية قول الشاعر: وإنَّ الذي... البيت، وقد روي البيت: (وإن الألى)، وعلى هذا فلا شاهد فيه لا لمن يقول بأن أصله (الذين) والنون محذوفة، ولا لمن يقول: إنه مفرد عبر به عن الجمع.

(٢) المراد: أبو صالح الكندي الكوفي، واسمه ميسرة، حدَّدَه القرطبي في تفسيره، وقال عنه العسقلاني في تقريب التهذيب: ثقة من الثالثة.

(٣) هو محمد بن جحادة، بضم الجيم وتخفيف الدال المهملة، قال عنه العسقلاني في التقريب: ثقة، من الخامسة، مات سنة إحدى وثلاثين.

﴿هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنهما: اتَّقَوْا الشِّركَ.

واللام في قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ يحتمل أن تتعلق بقوله تعالى: (الْمُحْسِنِينَ)، أي: الذين أَحْسَنُوا لكي يكفِّر، قاله ابن زيد، ويحتمل أن تتعلق بفعل مضمر مقطوع مما قبله، كأنك قلت: «بشَّرهم الله تعالى بذلك ليكفِّر» لأن التكفير لا يكون إلاَّ بعد التَّيسير للخير، و﴿أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ هو كُفْر أَهل الجاهلية ومعاصي أَهل الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ تقوية لنفس النبي عليه الصلاة والسلام، لأن كفار قريش كانوا خوَّفوه من الأَصنام، وقالوا: أَنت تَسُبُّها ونخاف أَن تُصيبك بجنون أَو عِلَّة، فنزلت الآية في ذلك. وقرأ حمزة، والكسائي: [عِبَادَهُ] يريد الأَنبياءَ المختصين به وأَنت أَحدهم، فيدخل في ذلك المطيعون من المؤمنين والمتوكلون على الله تعالى، وهذه قراءَة أَبي جعفر، ومجاهد، وابن وثاب، وطلحة، والأَعمش. وقرأ الباقون: (عَبْدَهُ)، وهو اسم جنس، وهي قراءَة الحسن، وشيبة، وأَهل المدينة، ويُقوِّي أَن الإشارة إِلى محمد ﷺ قوله تعالى: (وَيُخَوِّفُونَكَ)؛ وقوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ يريد: بالذين يعبدون من دونه، وروي أَن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إِلى كسر العُزَّى، فقال سادِنُها[1]: يا خالد، إِني أَخاف عليك منها، فلها قوة لا يقوم لها شيءٌ، فأَخذ خالد الفأْس فهشم به وجهها وانصرف[2].

ثم قرَّر تعالى أن الهداية والإِضلال من عنده بالخَلْق والاختراع، وأَن ما أَراد من ذلك لا رادَّ له، ثم توعدهم بعزَّته وانتقامه، فكان ذلك وانتقم منهم يوم بدر وما بعده.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِۦ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

هذا ابتداءُ احتجاج عليهم بحُجَّة أُخرى، وجملتها أَن وُقِفوا على الخالق المخترع،

---

(١) السَّادِنُ: هو الخادم والقائم على حمايتها.

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن جرير، عن قتادة. (الدر المنثور).

فإن قالوا إنه الله؛ لم يبق لهم في الأصنام غرض إلا أن يقولوا: إنها تضر وتنفع، فلما تقعد[١] من قولهم إن الله هو الخالق قيل لهم: أفرأيتم هؤلاءِ إذا أراد الله أمراً، أبهمْ قدرة على نقضه؟ وحذف الجواب عن هذا لأنه من البيِّن أنه لا يجيب أحد؛ إلاَّ أنه لا قدرة للأصنام على شيءٍ من ذلك. وقرأ: ﴿إن أرادنيَ﴾ بياءٍ مفتوحة جمهور القراءِ والناس، وقرأ الأعمش: [إن أرادن الله] بحذف الياءِ في الوصل، وروى خارجة بغير ياءٍ أصلاً. وقرأ جمهور القراءِ، والأعرج، وأبو جعفر، والأعمش، وعيسى، وابن وثاب: ﴿كاشفاتُ ضُرِّه﴾ بالإضافة، وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: [كاشفاتٌ ضُرَّهُ] بالتنوين ونصب [ضُرَّهُ]، وهي قراءَة شيبة، والحسن، وعيسى ـ بخلاف عنه ـ وعمرو بن عُبَيْد، وهذا هو الوجه فيما لم يقع بعد، وكذلك الخلاف في ﴿مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾[٢].

ثم أمره تعالى أن يصدع بالاتكال على الله تعالى، وأنه حسْبُه من كل شيءٍ ومن كل ناصر. ثم أمره بتوعُّدهم في قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، أي: على ما رأيتموه متمكناً لكم، وعلى حالاتكم التي استقر رأيكم عليها. وقرأ الجمهور: ﴿مكَانَتِكُمْ﴾ بالإفراد، وقرأها بالجمع الحسنُ وعاصم[٣]. وقوله: (اعْمَلُوا) لفظ أمر بمعنى الوعيد، و(العذابُ المُخْزِي) هو عذاب الدنيا يوم بدر وغيره، «والعذاب المقيم» هو عذاب الآخرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ

---

(١) لعله يريد: تمكن من أن يجبرهم على ذلك، وأقرب معاني (تقعَّدتُه) في اللسان إلى هذا أنها تأتي بمعنى: رَبَّثْتُه عن حاجته وعُقْته، أو حبسته عنها.

(٢) التنوين هو الأصل، وهو اختيار أبي عبيد، وأبي حاتم، قالوا لأنه اسم فاعل في معنى الاستقبال، وإذا كان كذلك كان التنوين أجود، قال الشاعر:

الضَّارِبُونَ عُمَيْراً عن بُيُوتِهِمُ ... بالليْلِ يَوْمَ عُمَيْرٍ ظالِمٌ عادي

ولو كان ماضياً لم يجز فيه التنوين، على أن حذف التنوين كثير في كلام العرب، قال تعالى: ﴿ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾، وقال: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾.

(٣) أي في رواية أبي بكر، أما قراءته في رواية حفص فهي بالإفراد.

فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾.

هذا إعلامٌ بعُلُوِّ مكانة محمد ﷺ واصطفاءِ ربِّه عزَّ وجلَّ له. و(الْكِتَابَ): القرآن. وقوله تعالى: (بِالْحَقِّ) يحتمل معنيين: أَحدهما أَن يريد: متضمناً الحق في أَخباره وأَحكامه، والآخَر أَن يُريد أَنه أَنزله بالواجب من إنزاله، وبالاستحقاق لذلك، لما فيه من مصلحة العالم وهداية الناس، وكأَن هذا الذي فعل الله تعالى من إنزال كتاب إلى عبده هو إقامة حُجَّة عليهم، وبقي تكسُّبُهم بعدُ إِليهم، فمن اهتدى فلنفسه عمِل وسَعَى، ومن ضَلَّ فعليها جَنَى. والهُدى والضلال إنما لله تعالى فيهما خلْقٌ واختراعٌ، وللعبد تكسُّبٌ عليه يقع الثواب أَو العقاب. وأَخبر تعالى نبيَّه أَنه ليس عليهم بوكيل ولا مسيطر، و«الوكيل»: القائم على الأَمر حتى يكمله.

ثم نبَّه تعالى عن آية من آياته الكبرى تدلُّ الناظر على الوحدانية، وأَن ذلك لا شِرْكَ[1] فيه لصنم، وهي حالة التوفِّي، وذلك أَن الله تعالى ما توفَّاه على الكمال فهو الذي يموت، وما توفاه توفِّياً غير مكمل فهو الذي يكون في النوم، قال ابن زيد: النوم وفاةٌ، والموت وفاةٌ، وكثَّرت فرقة في هذه الآية وهذا المعنى، ففرَّقت بين النَّفس والروح، وفرَّق قوم أَيضاً بين نفس التميز ونفس التَّخيُّل، إلى غير ذلك من الأقوال التي هي غلبة ظن، وحقيقة الأَمر في هذا هي مِمَّا استأْثر الله تبارك وتعالى به وغَيَّبَه عن عباده في قوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[2]، ويكفيك أن في هذه الآية (يتوفى الأنفس)، وفي الحديث الصحيح أَن الله قَبَضَ أَرواحنا حين شاءَ، وردَّها علينا حين شاءَ، في حديث بلال في الوادي[3]، فقد نطقت الشريعة بقبض الرُّوح والنفس في النوم، وقد قال الله

(١) شِرْكُ هنا مصدر: شَرِكَ، يقال: شَرِكَ زيدٌ فلاناً في الأمر شِرْكاً، وشَرِكَةً، وشِرْكَةً: كان لكل منهما نصيب منه، فهو شريك.

(٢) من الآية (٨٥) من سورة (الإسراء).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري، وأبو داود، والنسائي، عن أبي قتادة رضي الله عنه، ولفظه كما في (الدر المنثور): (إن النبي ﷺ قال لهم ليلة الوادي: إن الله قبض أرواحكم حين شاء، وردَّها عليكم حين شاء)، ويفسر السبب في ذلك ما أخرجه ابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كنتُ مع النبي ﷺ في سفر، فقال: من يكلؤنا الليلة؟ فقلت: أنا، فنام ونام الناس ونمتُ، فلم نستيقظ إلا بحرِّ الشمس، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، إن هذه الأرواح عارية في أجساد العباد، فيقبضها إذا شاء ويُرسلها إذا شاء».

تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾[1]، فظاهر أَن التفصيل والخوض في هذا كله عناءٌ، وإن كان قد تعرَّض للقول في هذا ونحوه الأئِمَّة، ذكر الثعلبي وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: في ابن آدم نفسٌ بها العقل والتمييز، وفيه روح بها التَّنفُّس والتَّحرُّك، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه. و«الأَجل المُسَمَّى» في هذه الآية هو عُمْر كل إنسان.

وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿قَضَىٰ عَلَيۡهَا﴾ بفتح القاف والضاد، وقرأَ حمزة، والكسائي: [قُضيَ عليها] بضم القاف وكسر الضاد، وهي قراءَة ابن وثاب، وطلحة، والأَعمش، وعيسى.

ثم أَحال تعالى أَهل الفكرة على النظر في هذا ونحوه، فإنه من البيِّن أَن هذه القدرة لا يملكها إلاَّ الواحد الصمد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

[أَمْ] هنا مقطوعة مما قبلها، وهي مقدرة بالأَلف وبَلْ، وهذا تقرير وتوبيخ، فأَمر الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام أَن يوقفهم على الأمر، وعلى أَنهم يرضون بهذا مع كون الأَصنام بصورة كذا وكذا من عدم المِلْك والعقل.

والواو في قوله تعالى: (أَوَلَو) واو عطف دخلت عليها أَلف الاستفهام، وَمَتَى دخلت أَلف الاستفهام على واو العطف أَو فائه أَحدثت معنى التقرير.

ثم أَمره بأَن يخبر بأَن جميع الشفاعة إنما هي لله تعالى، و(جَمِيعاً) نصب على الحال، والمعنى أَن الله تعالى يشفع ثم لا يشفع أَحد قبل شفاعته هو إلاَّ بإذنه، فمن حيثُ شفاعةُ غيره موقوفةٌ على إذنه فالشفاعة كلُّها له ومِنْ عنده.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ﴾ الآية، قال مجاهد وغيره: نزلت في قراءَة النبي ﷺ سورة النجم عند الكعبة بمحضر من الكفار، وعند ذلك أَلقى الشيطان في

(١) من الآية (٨٥) من سورة (الإسراء).

أُمنِيَّتِهِ، فقال: «إِنَّهنَّ الغرانِيقُ العُلَى، وإن شفاعتهن لتُرْتَجَى»، فاستبشر الكفار بذلك وسُرُّوا، فلما أَذهب الله ما أَلقى الشيطان أَنِفوا واستكبروا واشمأَزَّت نفوسهم[١]، ومعناه: تقبَّضت كِبْراً وأَنفةً وكراهية ونفوراً، ومنه قول عمرو بن كلثوم:

إِذَا عَـضَّ الثِّقَـافُ بِهَـا اشْمَـأَزَّتْ ... وَوَلَّتْهُـمْ عَشَـوْزَنَـةً زَبُـونَـا[٢]

و﴿ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ يريد تعالى الذين يُعْبَدُون من دونه، وجاءَت العبارة في هذه الآيات عن الأَصنام كما تأْتي عَمَّن يفعل، من حيث صارت في حيِّز من يعقل، ونُسب إِليها الضُّرُّ والنفع والأُلوهية، ونفي ذلك عنها، فعوملت معاملة من يعقل. و(وَحْدَهُ) منصوب عند سيبويه على المصدر، وعند الفراءِ على الحال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

أَمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بالدعاءِ إِليه، وردِّ الحكم إِلى عدله، ومعنى هذا الأَمر تضمن إِجابة، و(اللَّهُمَّ) عند سيبويه منادى، وكذلك عند الكوفيين، إِلاَّ أنه خالفهم في هذه الميم المشدَّدة، فقال سيبويه: هي عِوَضٌ من حرف النداءِ المحذوف إِيجازاً، وهي

---

(١) حديث الغرانيق هذا فيه كلام كثير يؤكِّد أنه غير صحيح، قال عنه ابن عطية في سورة الحج: «لم يُدْخله البخاري ولا مسلم، ولا ذكره في علمي مصنَّف مشهور»، وقال فيه القاضي عياض: «لم يخرِّجه أحدٌ من أهل الصِّحَّة، ولا رواه بسند صحيح سليم متصلٍ ثقةٌ»، وقال أبو بكر البزَّار: «وهذا الحديث لا نعلمه يُروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره». ونكتفي بهذا، ويمكنك الرجوع إِلى تفسير الآية (٥٢) من سورة (الحج).

(٢) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم، وقبله يقول مخاطباً الملك عمرو بن هند:

فَـإِنَّ قَنَـاتَنَـا يَـا عَمْـرُو أَعْيَـتْ ... عَلَـى الأَعْـدَاءِ قَبْلَـكَ أَنْ تَلِينَـا

وفيه استعار لِعزَّتِهم اسم القناة، فقال: إِن عِزَّنا يا عمرو منيع لا يُرامُ، وقد عجز أَعداؤنا قبلك عن خفض شوكتنا، والضمير في (بها) في البيت يعود على (القناة) في البيت السابق، والثقافُ: الحديدة التي يُقَوَّم بها الرُّمح، والعَشَوْزَنَةُ: الصُّلْبَةُ القويَّة، والزَّبون: الدفوع. جعل القناة التي لا يمكن تقويمها ولا إِصلاح ما فيها مثلاً لِعِزَّتهم التي لا تَتَضعْضَع، فإِذا حاول أحد إِصلاحها أو تقويمها نفرت، وظلَّت كما هي شديدة صلبة دفوعاً. والشاهد أن الاشمئزاز معناه: النفور والإِباءُ والكبر.

دلالة على أَن ثَمَّ ما حذف، وقال الكوفيون: بل هو فعل اتصل بالمكتوبة، وهو (أَمَّ) ثم حذفت الهمزة تخفيفاً، فكأَن معنى اللَّهُم: يا اللهُ أُمَّ برحمتك وفضلك. و(فَاطِرَ) منادى مضاف، أَي: يا فاطر السموات، و(الْغَيْب): ما غاب عن البشر، (وَالشَّهَادَة)؛ ما شاهدوه.

ثم أَخبر تعالى عن سوءِ حال الكفرة يوم القيامة، وأَن ما ينزل بهم لو قدروا على الافتداءِ منه بِضِعْفِ الدنيا بأَسرها لفعلوا، قوله تبارك وتعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الآية. أَي: كانت ظنونهم في الدنيا متفرقة متنوعة حسب ضلالهم وتخيلاتهم فيما يعتقدونه، فإِذا عاينوا العذاب يوم القيامة وقصرت بهم حالاتهم ظهر لكل واحد خلاف ما كان يظن. وقال سفيان الثوري؛ ويلٌ لأَهل الرِّيَا من هذه الآية، وقال عكرمة بن عمَّار: فزع محمد بن المنكدر عند الموت، فقيل له: ما هذا؟ فقال: أَخاف هذه الآية. وقوله: (وَحَاقَ) معناه: نزل وثبت ولزم، وقوله: ﴿مَا كَانُوا۟﴾ هو على حذف مضاف، تقديره: وحاق بهم جزاءُ ما كانوا به يَستهزئون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

هذه حُجَّة تلزم عُبَّاد الأَوثان للتناقض في أَعمالهم، وذلك أَنهم يعبدون الأَوثان ويعتقدون تعظيمها، فإِذا أَزفت آزفة أو نالت شِدَّةٌ نبذوها ونسوها ودَعَوا الخالق المخترع ربَّ السموات والأَرض، و(الإِنسَانُ) في الآية للجنس، و(خَوَّلْنَاهُ) معناه: ملَّكْناه، قال الزجاج وغيره: التَّخويل: العطاءُ عن غير مجازاة، و«النِّعْمَةُ» هنا عامٌّ في جميع ما يسديه الله إِلى العبد، فمن ذلك إِزالة الضُّرِّ المذكور، ومنه الصِّحَّةُ والأَمْن والمالُ، وتقوى الإِشارة إِليه في الآية بقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾، وبقوله تعالى أَخيراً: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ وبِذِكْر الكسب.

وذَكَّرَ تعالى الضمير في قوله: (أُوتِيتُهُ)، وذلك يحتمل وجوهاً: منها أَن يريد بالنعمة المال كما قدمنا، ومنها أَن يُعيد الضمير على المذكور، إِذ اسم النِّعْمَة يعُمُّ ما هو مُذَكَّر ويعُمُّ ما هو مُؤَنَّث، ومنها أَن تكون [مَا] في قوله: (إِنَّمَا) بمعنى (الذي)، وعلى

الوجهين الأولين [مَا] كافَّةٌ، وقوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍۚ﴾ في موضع نصب على الحال، مع أن تكون [مَا] كافَّة، وأما إذا كانت بمعنى (الذي) فإن ﴿عَلَىٰ عِلْمٍۚ﴾ في موضع خبر [إنَّ]، ودالٌّ على الخبر المحذوف، كأنه قال: «هو على عِلْم»، وقوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍۚ﴾ يحتمل أن يريد: على علم مِنِّي بوَجه المكاسب والتجارات وغير ذلك، قاله قتادة، ففي هذا التأويل إعجاب بالنفس وتَعَاطٍ[1] مُفرط، ونحو هذا، ويحتمل أن يريد عَلَى عِلْم من الله تعالى فيَّ، وشيءٌ سبق لي، واستحقاق حُزْتُه عند الله تعالى، لا يَضُرُّني معه شيءٌ، وفي هذا التأويل اغتِرارٌ بالله تبارك وتعالى وعَجْزٌ وتَمَنٍّ على الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌۚ﴾، أي: ليس الأمر كما قال، بل هذه الغفلة به فتنةٌ له وابتلاءٌ.

ثم أَخبر تعالى عمَّن سلَف من الكفرة أَنهم قد قالوا نحو هذه المقالة، كقارون وغيره، وأَنهم ما أَغنى عنهم كسبهم واحتجابهم للأَموال، وكذلك لا يُغني هؤلاءِ.

ثم ذكر تعالى ـ على جهة التوعُّد لهؤلاءِ في نفس المثال ـ أَن أُولئك أَصابهم جزاءُ سيئات ما كسبوا، وأَن الذين ظلموا بالكفر من هؤلاءِ المعاصرين لك سيصيبهم ما أَصاب المتقدمين، وهذا خبر من الله تعالى أَبْرَزَهُ الوجود يوم بدرٍ وغيره، و«مُعْجِزِينَ» معناه: مُفلِتِين وناجين بأَنفسهم.

ثم قرَّر تعالى عَلَى الحقيقة في أَمر الكسْب وسَعَة النعم فقال: أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَن الله هو الذي يبسط الرزق لقوم ويُضَيِّقه على قوم بمشيئته وسابق علمه، وليس ذلك لِكَيْس أَحد ولا لعجزه، وقوله: (وَيَقْدِرُ) معناه: يُضَيِّق، كما قال تعالى: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

---

(١) من معاني التعاطي: تَناول ما لا يحقُّ ولا يجوز تناوله، يقال: فلانٌ تعاطى ظُلْمَكَ، وتعاطى أمراً قبيحاً، أي: رَكِبَهُ.

(٢) من قوله تعالى في الآية (١٦) من سورة (الفجر): ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ﴾.

هذه الآيات عامة في جميع الناس إلى يوم القيامة، في كل كافر ومؤمن، أي أن توبة الكافر تمحو كفره، وتوبة العاصي تمحو ذنبه، واختُلِف ـ هل يكون في المشيئة أو هو مغفور له ولا بُدَّ؟ ـ فقالت فرقة من أهل السُّنَّة: هو مغفور له ولا بُدَّ، وهذا مقتضى ظواهر القرآن، وقالت فرقة: التائب في المشيئة، لكن يَغلب الرجاءُ في ناحيته، والعاصي في المشيئة، لكن يغلب الخوف في ناحيته.

واختلف المفسرون في سبب نزول الآيات ـ فقال عطاءُ بن يسار: نزلن في وحشي قاتِل حمزة، وقال السُّدي، وقتادة، وابن أَبي إِسحق: نزلن في قوم بمكة آمنوا ولم يهاجروا، وفتنتهم قريش فافتتنوا، ثم ندموا وظنُّوا أَنهم لا توبة لهم، فنزلت، منهم الوليد[(١)]، وهشام بن العاصي، وهذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأَنه كتبها بيده إِلى هشام بن العاصي ـ الحديث[(٢)]. وقالت فرقة: نزلن في قوم كفار من أَهل الجاهلية، قالوا: وما ينفعنا الإِسلام ونحن قد زنينا وقتلنا النفس وأَتينا كل كبيرة، فنزلت، وقال عليٌّ، وابن مسعود، وابن عمر رضي الله عنهم: هذه أَرجى آية في القرآن، ورَوَى ثوبان أن النبي ﷺ قال: «ما أُحِبُّ أَن لي الدنيا بما فيها بهذه الآية: يا عبادِي»[(٣)].

و(أَسْرَفُوا) معناه: أَفرطوا وتعدُّوا الطور، و«القنوط»: أعظم اليأْس. وقرأ نافع

---

(١) اسمه الوليد بن الوليد وقدأخرج ابن جرير،عن ابن عمر، قال: نزلت هذه الآيات في عيَّاش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فُتِنُوا وعُذِّبُوا فافتتنوا. . . الحديث.

(٢) روى محمد بن إسحق، عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر رضي الله عنه، قال: لما اجتمعنا على الهجرة، واتَّعَدْتُ أنا وهشام بن العاصي بن وائل السهمي، وعياش بن أبي ربيعة بن عُتبة، فقلنا: الموعد أضاةُ بني غفار ـ غدير بني غفار ـ وقلنا: من تأخَّر منَّا فقد حُبس فَلْيَمْض صاحبه، فأصبحت أنا وعياش بن عتبة، وحُبس عنَّا هشام، وإذا به قد فُتن فافتُتِن، فكنا نقول بالمدينة: هؤلاءِ قد عرفوا الله عزَّ وجلَّ، وآمنوا برسول ﷺ، ثم افتتنوا لبلاءٍ لَحِقَهُم، لا نرى لهم توبة، وكانوا هم أيضاً يقولون هذا في أنفسهم، فأنزل الله عزَّ وجلَّ في كتابه: ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، قال عمر رضي الله عنه: فكتبتها بيدي ثم بعثتها إلى هشام، قال هشام: فلما قدمت عليَّ خرجتُ بهاإلى ذي طُوًى فقلت: اللهم فَهِّمْنيها، فعرفتُ أنها نزلت فينا، فرجعتُ فجلست على بعيري فلحقت برسول الله ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في (شعب الإيمان)، عن ثوبان رضي الله عنه، وفي آخره: فقال رجل: يا رسول الله، فمن أشرك؟ فسكت النبي ﷺ، ثم قال: «إلا من أشرك» ثلاث مرات. (الدر المنثور).

وجمهور الناس: (تَقْنَطُوا) بفتح النون، قال أَبو حاتم: «يلزمهم أَن يقرؤوا: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنِطُوا﴾[1] بالكسر، ولم يقرأ به أَحد»، وقرأَ الأشهب العقيلي بضم النون، وقرأَ أَبو عمرو، وابن وثاب، والأعمش بكسرها، وهي لغات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ عموم بمعنى الخصوص؛ لأَن الشِّرك ليس بداخل في الآية إجماعاً، وهي أَيضاً في المعاصي مقيدة بالمشيئة، و(جَمِيعاً) نصب على الحال. ورُوي أَن رسول الله ﷺ قرأَ: [إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي][2] وقرأ ابن مسعود «إِنَّ الله يَغْفر الذُّنوب جميعا لِمَنْ يَشَاءُ».

قوله تعالى: (وَأَنِيبُوا) معناه: ارجعوا وميلوا بنفوسكم، و«الإِنابةُ»: الرجوعُ بالنفس إِلى الشيءِ، وقوله سبحانه: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ توعُّدٌ بعذاب الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ معناه أَن القرآن العزيز تضمَّن عقائد نيِّرة، وأَوامر ونواهي مُنْجية، وعِدَات على الطَّاعات والبرِّ، وحدوداً على المعاصي ووعيداً على بعضها، فالأَحسن أَن يسلك المرءُ طريق التَّفهُّم والتحصيل والطاعة والانتهاءِ والعفو في الأُمور ونحو ذلك، فهو أَحسن من أَن يسلك طريق الغفلة والمعصية فيجزى أَو يقع تحت الوعيد، فهذا هو المعنى المقصود بـ[أَحْسَنَ]، وليس أَن بعض القرآن أَحسن من بعض من حيث هو قرآن، وإِنما هو أَحْسَن كله بالإِضافة إِلى أَفعال الإنسان وما يلقى من عواقبها، قال السدي: الأَحْسَنُ هو ما أَمر الله تبارك وتعالى به في كتابه. و[بَغْتَةً] معناه: فجأَة وعلى غير موعد، و(تَشْعُرُونَ) مشتق من الشعار.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ

(١) من الآية (٢٨) من سورة (الشورى).

(٢) أخرجه أحمد وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسَّنه، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف، والحاكم، وابن مردويه، عن سماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: [ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولايبالي إنه هو الغفور الرحيم].

فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

(أَنْ) في هذه الآية مفعولٌ من أَجله، أَي: أَنيبُوا وأَسْلِمُوا من أَجْل أَن تقول نفس، وقرأَ الجمهور: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾، والأصل: يا حَسْرَتِي، ومن العرب من يَرُدُّ ياءَ الإِضافة أَلفاً، فيقول: يا غلاما، ويا جارا[1]، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [يا حَسْرَتَايَ] بفتح الياءِ، ورُوي عنه بسكونها، قال أَبو الفتح؛ جمع بين العوض والمُعَوَّض منه[2]، وروى ابن جمَّازٍ عن أَبي جعفر: [ياحسرتي] بكسر التاءِ وبعدها ياءٌ ساكنة، قال سيبويه: «ومعنى نداءُ الحسرة والويل: أَي: هذا وقْتُك وزمانُك فاحضري». و﴿فَرَّطْتُ﴾ معناه: قصَّرتُ في اللازم، وقوله: ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ معناه: في مقاصدي إِلى الله، وفي جهة طاعته، أَي: في تَضْييع شريعته والإِيمان به، و«الجَنْبُ» يُعَبَّر به عن هذا ونحوه، ومنه قول الشاعر:

أَفِي جَنْبِ بَكْرٍ قطَّعَتْني مَلاَمَةً لَعَمْرِي لَقَدْ طَالَتْ مَلاَمَتُها بِيَا[3]

(١) قالوا: لأن الألف أخفُّ من الياء، ولأنها تمكِّن من مدِّ الصوت المناسب للاستغاثة.

(٢) واستشهد أبو الفتح لذلك بكثير من الشواهد: منها قوله: «وهذا كمذهب أبي إسحق، وأبي بكر في قول الفرزدق:

هُمَا نَفَثَا فِي فِيَّ مِنْ فَمَوَيْهِمَا عَلَى النَّابِحِ الْعَاوِي أَشَدَّ رِجَامِ

وذلك أنه جمع بين الميم والواو، وإنما بدل من الواو»، قلت: والفرزدق يصف شاعرين من قومه، ويريد بالنابح العاوي من يهجوه الفرزدق في البيت، والرِّجام: الرجم بالحجارة، وهي بمعنى: المراجمة بها.

وأما قراءة إسكان الياء بعد الألف فقد قال عنها أبو الفتح أيضاً: «هو على ما مضى من قراءَة نافع ـ في الآية (١٦٢) في سورة (الأنعام): ﴿محياي ومماتي﴾، على أن الياءَ هنا ضعيفة حيث عوض عنها بالألف، والسكون أنسب لها من الفتحة».

لكن أبا الفضل الرازي يرى رأياً آخر، ذكره في (اللوامح)، يقول: «ولو ذهبْتَ إلى أنه أراد تثنية الحسرة، مثل لبيك وسعديك، فكأنه يقول: يا حسْرَةً بعد حسْرَة، لكثرة حسراتهم يومئذ ـ لكان مذهباً».

(٣) يستشهد ابن عطية بالبيت على أن (الجَنْب) يُعَبَّر به عن: الجانب والقُرْب والطريق والجوار، تقول: في جَنْب بكر، أي في جانبها وقُرْبها وجوارها وطريق حياتها والولاءِ لها. واللَّوْم: العَذْلُ، والملامَةُ: مصدر (لامَ)، والقطيعة: الهجْرَانُ، ضدُّ الوصْل، يقال: قَطَعَ رَحِمَه قطيعةً وقَطَّعَها: عقَّها ولَمْ يَصِلْها. ويروى البيت: «سُلَيْمَى» بدلا من «لَعَمْري»، وفي البحر: (سُلَيْمَى، لقد كانت ملامَتُها ثناء).

ومنه قول الآخر:

. . . .   النَّـاسُ جَنْـبٌ والأَمِيـرُ جَنْـبُ(١)

وقال مجاهد: ﴿فِي جَنبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في أمر الله. وقول الكافر: «وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ» ندامة على استهزائه بأمر الله، والسُّخْرُ: الاستهزاءُ.

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ تَقُولَ﴾ في الموضعين عطف على قوله: ﴿أَن تَقُولَ﴾ الأول، و(كَرَّةً) مصدر، من: كَرَّ يكُرُّ، وقوله: (فَأَكُون) نصب بـ(أَنْ) مُضمرة مقدَّرة، وهو عطفٌ على قوله: (كَرَّةً)، والمرادُ: لَوْ أَنَّ لي كَرَّةً فكَوْناً، فلذلك احتيج إلى (أَنْ) لتكون هي مع الفعل بتأويل المصدر ونحوه قول الشاعر ـ أَنشده الفراءُ ـ:

فَمَـا لَـكَ مِنْهَـا غَيْـر ذِكْـرَى وَخَشْيَـةٍ   وَتَسْأَلَ عَنْ رُكْبَانِهَا أَيْنَ يَمَّمُوا؟(٢)

---

(١) هذا بيت من مشطور الرَّجز، وهو في اللسان (جَنب)، قال: «والجَنْبُ: الناحية، وأنشد الأخفش: (النَّاسُ جَنْبٌ والأميرُ جَنْبُ)، كأنه عدلَه بجميع الناس»، وكذلك ذكره في البحر، وفي القرطبي ذكر بيتاً قبله، قال:

قُسِـمَ مَجْهُـودا لِـذَاكَ القَلْـبُ   النَّـاسُ جَنْـبٌ والأميـرُ جَنْـبُ

ولم ينسبه أحدٌ ممن استشهد به، والمعنى الذي يستشهدون عليه معروف ومتكرر في اللغة، قالوا: وهو من باب الكناية، تقول: فعلتُ كذا لمكانكَ، أي: لأجلك، ومثله: فعلت كذا مِن جهتك؛ لأنك إذا أثبتَّ الأمر في مكان الإنسان وحيِّزه فقد أصبته فيه، وقال كُثيِّر:

أمـا تَتَّقِيـنَ الله فـي جَنْـبِ عـاشِـقٍ   لَـهُ كَبِـدٌ حَـرَّى عَلَيْـكِ تَقَطَّـعُ؟

ومن بابه البيت المشهور:

إنَّ السَّمَـاحَـةَ والْمُـرُوءَةَ والنَّـدَى   في قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرَجِ

(٢) هذا البيت من شواهد الفراءِ في (معاني القرآن)، قال: إن النصب في قوله تعالى: [فَأَكُونَ] جواب لِلَوْ، وإنْ شِئْتَ جعلته مردوداً على تأويل (أَنْ) تضمرها في «الكَرَّة»، كما تقول: لو أَنَّ لي أن أكُرَّ فأكونَ، . . . ثم قال: وأنشدني: فما لَكَ. . . . البيت». والشاهد فيه قوله: و(تَسْأَلَ)؛ إذ يجوز فيه النصب بتقدير (أَنْ)، ليعطف عَلَى (ذِكْرَى) لأنها اسمٌ، و(تَسْأَلَ) فعل، فإذا ما قدَّرنا (أَنْ) صارت هي والفعل بعدها اسماً فجاز عطفه على الاسم قبله، فيصبح تقدير الكلام: فما لك منها غير الذكرى والسؤال، وهو في هذا كالبيت المشهور الذي قالته مَيْسون ببنت بَحْدل زوج معاوية بن أبي سفيان:

لَلُبْـسُ عَبَـاءَةٍ وتَقَـرَّ عَيْنِـي   أَحَـبُّ إِلَـيَّ مِـنْ لُبْـسِ الشُّفُـوفِ

هذا، وقد روي بيتنا هنا: و(حِسْبَةً) بدلاً من (خَشْيَة)، وروي أيضاً: (وحَسْرَة)، على أنه يجوز هنا في البيت و(تَسْأَلُ) بالرفع ـ لأنه لم تسبقه (أَنْ) الناصبة.

وقد قدَّر بعض الناس الكلام بأنه: «لو أَنَّ لي أَنْ أكرَّ»، ذكره الطبريُّ، وهذا «الكوْنُ» في الآية داخلٌ في التمني[١].

وقوله: (بَلَى) جوابٌ لِنَفْيٍ مقدَّر في قول هذه النفس، كأَنها قالت: «فعُمْري في الدنيا لم يتسع للنظر»، أَوْ قالت: «فإنِّي لم يَتَبَيَّن لي الأمر في الدنيا»، ونحو هذا، وحقُّ (بَلَى) أَنْ يجيءَ بعد نَفْي عَلَيْه تقريرٌ[٢].

وقرأ الجمهور: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ﴾ بفَتْح الكاف وبفتْح التاءِ من قوله: ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ﴾، على مخاطبة الكافر ذي النفس، وقرأ ابن يَعْمَر، والجحدريُّ بكسر الكاف والتاءِ في الثلاثة[٣] على خطاب النفس المذكورة، قال أَبو حاتم: روتها أُمُّ سلمة عن النبي ﷺ، وقرأ الأَعمش: [بلى قدجاَءَتْهُ] بالهاء.

ثم خاطب تعالى نبيَّه ﷺ بخبرٍ يراه يوم القيامة من حالة الكفار، وفي ضمن هذا الخبر وعيدٌ لمعاصري محمد صلوات الله وسلامه عليه، وقوله: [تَرَى] هو من رؤْية العين، وكَذِبُهم على الله تعالى هو في أَن جعلوا له البنات والصاحب، وشرعوا ما لم يأْذن به الله، إِلى غير ذلك. وقوله: ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ جملة في موضع الحال[٤]،

---

(١) ما ذكره الطبري هنا هو نفس كلام الفراءِ في (معاني القرآن)، قال: «وفي نصب قوله: [فَأَكُونَ] وجهان: أحدهما أن يكون نصبه على أنه جواب (لو)؟، والثاني على الرَّدِّ على موضع الكرَّة، وتوجيه الكرَّة في المعنى إلى: لو أنَّ لي أن أكُرَّ». هذا وفي الأصول سقط من النساخ بعض الكلام الذي نقله عن الطبري، وقد صححناه عن الطبري والفراءِ.

وقد قال في البحر تعقيباً على الرأيين في نصب (فأَكُونَ): «والفرق بينهما أن الفاءَ إذا كانت في جواب التمني كانت (أنْ) واجبة الإضمار، وكان الكون مترتباً على حصول المُتَمَنَّى لا مُتَمَنًّى، وإذا كانت للعطف على [كَرَّةً] جاز إظهارُ (أنْ) وإضمارها، وكان متمنى». تأمل هذا وتأمل كلام ابن عطية تعقيباً على رأي الطبري، فإنه جعل (الكوْنَ) في الآية داخلا في التمني.

(٢) عقَّب أبو حيان في البحر على كلام ابن عطية هذا بقوله: «وليس حق (بَلَى) ما ذَكَرَ ابن عطية، بل حقُّهَا أن تكون جواب نفي ثُمَّ حُمِلَ التقريرُ على النفي، ولذلك لم يحمله عليه بعض العرب وأجاب النفي بـ(نعَم)، ووقع ذلكَ أيضاً في كلام سيبويه نفسه، إذْ أجاب التقرير بـ(نعَم) اتِّباعاً لبعض العرب»، وفي هذا نقضٌ للفكرة السائدة بأن جواب النفي الذي حُمل عليه التقرير لا يكون في صحيح اللغة إلا بقولنا: (بَلَى).

(٣) أي: الأفعال الثلاثة في قوله: ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ﴾.

(٤) هذا على أن(تَرَى) من رؤية البصر كما قال ابن عطية، أما لو قلنا إنها رؤية القلب كما قدرها بعضهم فالجملة مفعول ثان.

وظاهر الآية أَن لون وجوههم يتغير، وتَسْوَدُّ حقيقة، ويحتمل أَن يكون في العبارة تجوُّز، وعبَّر بالسَّواد عن اربداد وجوههم وغالب همهم وظاهر كآبتهم، و«مَثْوَى»: موضع الثواءِ والإِقامة، و«المتكبِّر»: رافعُ نفسه إِلى فوق حقه، قال ﷺ: «الكبر سفه الحق وغمط الناس» أَي احتقارهم(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

ذكر الله تعالى حالة المتقين ونجاتهم ليعادل بذلك ما تقدم من ذكر الكفرة، وفي ذلك ترغيب في حالة المتقين؛ لأَن الأَشياءَ تبين بأَضدادها. وقرأَ الجمهور: [بِمَفَازَتِهِمْ] على اسم الجنس، وهو مصدرٌ من الفوز، وقرأَ حمزة، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم: [بِمَفَازَاتِهِمْ] على الجمع، من حيث النجاةُ لأَنواع ولأَسباب مختلفة، وهي قراءَة الحسن، والأَعرج، وأَبي عبد الرحمن، والأَعمش. وفي الكلام حذف مضاف تقديره: ويُنَجِّي الله الذين اتقوا بأَسباب أَو بدواعي مفازتهم. وقال السُّدي: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾: بفضائلهم، وقال ابن زيد: بأَعمالهم.

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ كلام مستأْنفٌ دالٌّ على الوحدانية، وهو عمومٌ معناه الخصوص، و«الوكيل»: القائم على الأَمر الزعيم بإِكماله وتتميمه.

و«الْمَقَالِيدُ»: المفاتيح، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما، واحدها: مِقْلاد، مثل مِفْتاح، وفي كتب الزهراوي: واحد المقاليد: إِقليد، وهذه استعارة، كما تقول: بيدك يا فُلان مفتاح هذا الأَمر؛ إِذا كان قادراً على السعي فيه، وقال السدي: المقاليدُ: الخزائن.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١ ـ ٣٩٩)، ولفظه كاملا، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبَّة من إيمان، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبَّة من كِبر»، فقال رجل: يا رسول الله، إني ليعجبني أن يكون ثوبي غسيلاً، ورأسي دهيناً، وشراك نعلي جديداً، وذكر أشياءَ حتى ذكرَ علاقة سوطه، أفَمِن الكِبْر ذاك يا رسول الله؟ قال: «لا، ذاك الجمال، إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال، ولكن الكِبْر من سَفِه الحقَّ وازدَرَى الناسَ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه عبارة غير جيدة، ويُشبه أَن يقول قائل: المقاليدُ إِشارةٌ للخزائن أَو دالَّة عليها فيسوغ هذا القول، كما أن الخزائن أَيضاً في جهة الله تعالى إنما تجيءُ استعارة، بمعنى: اتساع قدرته، وأَنه يبتدع ويخترع، ويُشبه أَن يقال فيما أَوجد من المخلوقات كالماءِ والنار وغير ذلك: إنها في خزائنه سبحانه، وهذا كله تجوُّز على جهة التقريب والتفهيم للسَّامعين، وقد ورد القرآن بذكر الخزائن[١]، ووقعت في الحديث الصحيح في قوله ﷺ: «ما فتح الليلة من الخزائن»[٢]، والحقيقة في هذا غير بعيدة، لكنه ليس اختزان حاجة ولا قِلَّة قدرة كما هو اختزان البشر. وقال عثمان رضي الله عنه: سأَلت رسول الله ﷺ عن مقاليد السموات والأَرض فقال: «لا إِله إِلاَّ الله، والله أَكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إِلاَّ بالله، هو الأَول والآخر، والظاهر والباطن، يُحيي ويميت وهو على كل شيءٍ قدير»[٣].

---

(١) جاء ذلك في آيات كثيرة: منها قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾.

(٢) هذا الحديث أخرجه البخاري في أبواب العِلْم، والتهجد، والمناقب، واللباس، والأدب، والفتن، وأخرجه الترمذي، وأحمد في مسنده (٦ ـ ٢٩٧)، ولفظه كما جاء في مسنده، عن أُمِّ سلمة رضي الله عنها، قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ذات ليلة وهو يقول: «لا إله إلا الله، ما فتح الليلة من الخزائن، لا إله إلا الله ما أنزل الليلة من الفتنة، من يوقظ صواحب الحجر، يا رُبَّ كاسيات في الدنيا عاريات في الآخرة».

(٣) أخرجه أبو يعلى، ويوسف القاضي في سننه، وأبو الحسن القطَّان في المطولات، وابن السني في عمل يوم وليلة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾، قال: لا إله إلا الله والله أكبر، سبحان الله والحمد لله، أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، يحيي ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير، يا عثمان، من قالها كل يوم مئة مرة أُعطي بها عشر خصال، أما أولها فيغفر له ما تقدم من ذنبه، وأما الثانية فيكتب له براءة من النار، وأما الثالثة فيوكل به مَلَكان يحفظانه في ليله ونهاره من الآفات والعاهات، وأما الرابعة فيعطى قنطاراً من الأجر، وأما الخامسة فيكون له أجر من أعتق مئة رقبة محررة من ولد إسماعيل، وأما السادسة فيزوَّج من الحور العين، وأما السابعة فيحرس من إبليس وجنوده، وأما الثامنة فيعقد على رأسه تاج الوقار، وأما التاسعة فيكون مع إبراهيم، وأما العاشرة فيشفع في سبعين رجلا من أهل بيته، يا عثمان إن استطعت فلا تفوتك يوماً من الدهر، فَفُز بها مع الفائزين، وتسبق بها الأولين والآخرين. (الدر المنثور).

وقوله: (أَفَغَيْرَ) منصوب بـ(أَعْبُدُ)، كأنه قال: أَفَغَيْرَ اللهِ أَعْبُدُ فيما تأمروني؟، ويجوز أن يكون نصبه بـ(تَأْمُرُونِّي) على إسقاط (أَنْ)، تقديره: أفغير الله تأمروني أن أَعْبُدَ. وقرأت فرقة [تَأْمُرُونَنِي] بنونين، وهذا هو الأصل، وقرأ ابن كثير بنون مشددة مكسورة بعدها ياءٌ مفتوحة. وقرأ ابن عامر بنون خفيفة مكسورة وياءٍ ساكنة، وهذا على حذف النون الواحدة، وهي الموطئة لياءِ المتكلم، ولا يجوز حذف النون الأُولى، وهو لحن لأنها علامة رفع الفعل، وفتح نافع الياءَ على هذا الحذف فقرأ: (تَأْمُرُونِيَ]، وقرأ الباقون بشدِّ النون وسكون الياءِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ الآية، قالت فرقة: في الآية تقديم وتأخير، كأنه قال: «ولقد أُوحِيَ إِلَيْكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عملُك وإلى الَّذينَ مِنْ قَبْلِكَ»، وقالت فرقة: الآية على وجهها، والمعنى: ولقد أُوحي إلى كل نبيٍّ لئن أشركت ليحبطن عملك، و«حبط» معناه: بَطَل وسقط. وبهذه الآية بطلت أعمال المُرْتَدِّ مِنْ صلاته وحجِّه وغير ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

المكتوبة[1] منصوبة بقوله تعالى: (فَاعْبُدْ)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ معناه: وما عظَّموا الله حق عظمته، ولا وصفوه بصفاته، ولا نفوا عنه ما لا يليق به.

واختلف الناس في المعنيِّ بالضمير في قوله سبحانه: (قَدَرُوا) ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل ذلك في كفار قريش الذين كانت هذه الآيات كلها محاورة لهم وردًّا عليهم. وقالت فرقة: الآية نزلت في قوم من اليهود، تكلموا في صفات الله تعالى

= هذا والحديث مروي من طرق كثيرة، فقد أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس، وأخرجه الحارث بن أبي أُسامة، وابن مردويه عن أبي هريرة، وأخرجه العقيلي، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عمر، مع اختلاف في بعض الألفاظ، وفي زيادة بعض الجمل أو نقصها، وكل هذه الروايات ذكرها السيوطي في الدر المنثور.

(١) المكتوبة هي لفظ الجلالة (الله).

وجلاله فألْحدوا وجَسَّموا وأتَوْا بكل تخليط، فنزلت الآية فيهم. وفي الحديث أنه جاءَ حَبْر بالمدينة إلى رسول الله ﷺ، فجلس إليه، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: حدِّثنا، قال: إن الله عزَّ وجلَّ إذا كان يوم القيامة جعل السموات على إِصْبَع، والأَرض على إصبع، والجبال على إصبع، والماءَ والشجر على إصبع، وجميع الخلائق على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بَدَت نواجذه تصديقاً له، ثم قرأ هذه الآية[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فرسول الله ﷺ تمثل بالآية وقد كانت نزلت، وقوله في الحديث: «تصديقاً له»، أَي في أنه لم يَقُل إلاَّ ما رأَى في كتب اليهود، ولكن النبي ﷺ أنكر المعنى لأَن التجسيم فيه ظاهر، [واليهود معروفون باعتقاده، لا يُحسنون حَمْله على تأويله من أَن الإِصبع عبارة عن القدرة، أَو أَنها إِصبع خَلْق يَخْلُقه لذلك، ويعضد هذا تنكير الإِصبع][٢].

وَرَوى سعيد بن المسيب أَن سبب نزول الآية أَن طائفة من اليهود جاءَت إِلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، هذا اللهُ خلق الأشياءَ، فمن خَلَق الله؟ فغضب رسول الله ﷺ وساورهم[٣] فنزلت الآية[٤]، وقرأَ جمهور الناس: ﴿قَدْرِهِ﴾ بسكون

---

(١) ذكره الواحدي بسنده، عن عبد الله بن مسعود في (أسباب النزول)، وهو في الصحيحين دون سبب النزول، وذكره السيوطي في (الدُّرِّ المنثور)، وزاد في رواته: سعيد بن منصور، والإمام أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والدراقطني في (الأسماء والصفات). وأخرج نحوه أحمد، والترمذي وصحَّحه، وابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ما بين العلامتين [.......] لا يوجد إلا في النسخة التونسية المكتوبة بالخط المغربي، وهي زيادة توضح رأي ابن عطية وفهمه للحديث الشريف.

(٣) قال ابن الأثير في (النهاية): «أُسَاوِرُه: أُواثبه وأُقاتله»، وفي المعجم الوسيط: سَاوَرَهُ: وَاثَبَهُ.

(٤) الحديث في تفسير الطبري، ولفظه: قال: أتى رهط من اليهود نبيَّ الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، هذا الله خَلَقَ الخَلْق، فمن خَلَقه؟ فغضب النبي ﷺ حتى انْتُقعَ لونه، ثم ساورهم غضباً لربه، فجاءه جبريل فسكَّنه، وقال: اخفض عليك جناحك يا محمد، وجاءَه من الله جواب ما سألوه عنه، قال: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، فلما تلاها عليهم النبي ﷺ قالوا: صف لنا ربك، كيف خلْقه؟ وكيف عضده؟ وكيف ذراعُه؟ فغضب النبي ﷺ أشد من غضبه الأول، ثم ساورهم، فأتاه جبريل فقال مثل مقالته، وأتاه بجواب ما سألوه عنه ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾.

الدال، وقرأ الأعمش بفتحها، وقرأ أبو حيوة، وعيسى بن عمر، والحسن، وأبو نوفل: [ومَا قَدَّروا] بتشديد الدال ﴿حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ بفتحها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ﴾ معناه: في قبضته، وقال ابن عمر ما معناه: إن الأرض في قبضة اليد الواحدة، والسموات مطويات باليمين الأُخرى؛ لأَن كلتا يديه يمين، ورواه عن النبي ﷺ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الأَرض جميعاً قبضته والسموات وكل ذلك بيمينه. وقرأ عيسى بن عمر: [مَطْوِيَّاتٍ] بكسر التاءِ المنونة، والناسُ على رفعها.

وعلى كل وجه فاليمينُ هنا والقبضةُ وكل ما وردَ. عبارة عن القدرة والقوة، وما اختلج في الصدور من غير ذلك باطل، وما ذهب إِليه القاضي من أَنها صفات زائدة على صفات الذات قول ضعيف. وبحسب ما يختلج في النفوس التي لم يصنها العلم قال سبحانه وتعالى: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، أَي: هو مُنَزَّه عن جميع الشُّبه التي لا تليق به.

ثم ذكر سبحانه وتعالى النَّفخ في الصُّور ليُصعق الأَحياءُ من أَهل الدنيا والسماءِ، وفي بعض الأَحاديث من طريق أَبي هريرة عن النبي ﷺ أَنَّ قَبْل هذه الصعقة صعقةُ الْفَزَعِ، ولم تَتَضَمَّنْهَا هذه الآية. و[صَعِقَ] في هذه الآية معناه: خَرَّ ميتاً، و«الصُّورُ»: القَرْنَ، ولا يتصور هنا غير هذا، ومن يقول: الصُّور جمع صورة فَإِنما يتوجه قوله في نفخة البعث. وقرأ قتادة: [ونُفِخَ في الصُّوَرِ] بفتح الواو، وهي جمع صورة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾، قال السدي؛ استثنى جبريل وميكائيل وإِسرافيل ومَلَك الموت، ثم أَماتهم بعد هذه الحال، وروي ذلك عن أَنس، عن النبي ﷺ[1]، وقيل: استثنى الأَنبياءَ، وقال ابن جبير: استثنى الله الشهداءَ. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ﴾ هي نفخة البعث، ورُوي أَن بين النفختين أَربعين، لا يدري أَبو هريرة: سنةً أَو يوماً أَو شهراً أَو ساعة[2]. وباقي الآية بيِّنٌ.

---

(١) حديث أنس هذا أخرجه الفريابي، وعبد بن حميد، وأبو نصر السجزي في الإبانة، وابن مردويه، وهو حديث طويل تجده في الدر المنثور.

(٢) قال البخاري: حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا الأعمش، قال: سمعتُ أبا صالح، قال: سمعتُ أبا هريرة رضي الله عنه يحدث عن النبي ﷺ، قال: «ما بين النفختين أربعون»، قالوا: ياأبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال رضي الله عنه: أَبَيْتُ، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أَبَيْتُ، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: =

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

(أَشْرَقَتْ) معناه: أَضاءَتْ وعظُم نورُها، يقال: شرقت الشمس إذا طلعت، وأَشرقت إذا أَضاءَت. وقرأ ابن عباس، وعبيد بن عمير: [وَأُشْرِقَت] بضم الألف وكسر الراءِ، وهذا إنما يترتب من فعل يتعدى، فهذا على أن يقال: أَشرقَ البيتُ وأَشرقَهُ السِّراجُ، فيكون الفعل متجاوزاً وغير متجاوز بلفظ واحد، كَرَجَعَ وَرَجَعْتُه، وَوَقَف وَوَقَفْتُه، ومن المتعدي من ذلك يقال: أُشْرِقَت الأَرْضُ، «والأَرْضُ» في هذه الآية الأَرْضُ المُبْدلة من الأَرض المعروفة.

وقوله تعالى: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ إضافةُ خَلْق إلى خالقٍ، أَي: بنور الله تبارك وتعالى. و(الْكِتَابُ): كتابُ حساب الخلائق، ووحَّده على اسم الجنس؛ لأَن كل واحد له كتابٌ على حِدَة. وقالت فرقة: وُضع اللَّوحُ المحفوظ. وهذا شاذٌّ، وليس فيه معنى التوعُّد وهو مقصد الآية.

وقوله تعالى: ﴿وجيء بالنبيين﴾ أَي: استُشهدوا على أُممهم، وقوله تعالى: (وَالشُّهَدَاءِ)، قيل: هو جمع شاهد، والمرادُ أُمَّة محمد ﷺ الذين جعلهم الله تعالى شهداءَ على الناس، وقال السُّدي: الشهداءُ: جمع شهيد في سبيل الله، وهذا أَيضاً يزول عنه معنى التوعُّد، ويحتمل أَن يريد بالشهداءِ الأَنبياءَ أَنفسهم، فيكون من عطف الصفة على الصفة بالواو، كما تقول: جاءَني زيد الكريمُ والعاقل. وقال زيد بن أَسلم: الشهداءُ: الحَفَظَةُ.

والضمير في قوله تعالى: (بَيْنَهُمْ) عائد على العالم بأَجمعه إذ الآية تدلُّ عليهم. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ معناه: لا يوضع شيءٌ من أُمورهم غير موضعه.

= أَبَيْتُ، ويَبْلَى كلُّ شيءٍ من الإنسان إلا عجب ذنبه فيه يركب الخلق.

وقوله: ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ معناه: جوزيته مُكَمَّلاً، وفي هذا وعيدٌ صرَّح عنه قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾.

وقرأ الجمهور: (وَسِيقَ)، (وَجِيءَ) بكسر أَوَّله، وقرأَها ونظائرها بإشمام الضَّمِّ الحسنُ، وابن وثاب، وعاصم، والأعمش. و(زمراً) معناه: جماعات متفرقة، واحدتها زمرة. وقوله تعالى: (فتحت) جواب (إذا)، والكلام هنا يقتضي أن فتحها إنما يكون بعد مجيئهم، وفي وقوفهم قبل فتحها مذَلَّة لهم، وهكذا هي حالة السجون ومواضع الثقاف[1].

والعذاب، بخلاف قوله تعالى في أهل الجنة: (وفتحت)، فالواو مؤذنةٌ بأنهم يجدونها مفتوحة كمنازل الأفراح[2].

وقرأ الجمهور: [فُتِّحتْ] بشد التاء في الموضعين، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي بتخفيفها، وهي قراءة طلحة، والأعمش. ثم ذكر سبحانه وتعالى توقيف الخزنة لهم على مجيء الرُّسل. وقرأ الجمهور: [يأتكم] بالياء من تحت، وقرأ الأعرج: [تَأْتِكُم] بالتاء من فوق، وقوله تعالى: (منكم) أعظم في الحُجَّة، أي: رسلٌ من جنسكم لا يصعب عليكم مرامهم ولا فهم أقوالهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ جوابٌ على التقرير على نفي الأمر، ولا يجوز هنا الجواب بـ (نعم) لأنهم كانوا يقولون: نعم لم يأتنا، وهكذا كان يترتب المعنى: ثم لم يجدوا حُجَّة، إلا أنَّ كلمة العذاب حقت عليهم، أي الكلمة المقتضية من الله تعالى تخليدهم في النار، وهي عبارة عن قضائه السابق لهم بذلك، وهي التي في قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[3].

و«المثوى»: موضع الإقامة.

---

(١) الثِّقافُ: الأخذ والظفَر، يقال: ثقفته إذا ظفرت به، قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ﴾، اللسان.

(٢) قال الثعلبي وبعض اللغويين: إن الواو في قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ هي واو الثمانية، لأن العرب تعطف على العدد بالواو على ما فوق السبعة، وسموُّها واو الثمانية، وأبواب الجنة ثمانية فجاءت الواو لذلك، وأبواب النار سبعة فلم تذكر الواو لذلك، وهذا القول تنقضه الآيات القرآنية التي لم تذكر فيها الواو مع العدد الثامن، وقد قيل أيضاً: إن الواو زائدة، وقيل وهو الرأي السائد واختاره ابن عطية: إن الواو هنا واو الحال، وذكرت للدلالة على أن الأبواب كانت مفتحة لهم قبل مجيئهم، وفي هذا دلالة على الترحيب بهم، وليستعجلوا السرور قبل الدخول إذا رأوها مفتوحة، وهو أيضا صيانة لهم عن الذلة التي يلقاها من يجد الباب مغلقاً في وجهه. (راجع تفسير الآية ١١٢ من سورة التوبة).

(٣) الآية (٨٥) من سورة (ص).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ لفظ يعم كل من يدخل الجنة من المؤمنين الذين اتقوا الشِّرك، لأن الذين لم يتقوا المعاصي قد يُساق منهم، وهم الذين سبق لهم أن يغفر الله تعالى لهم من أهل المشيئة، وأيضاً فالذين يدخلون النار ثم يخرجون منها قد يساقون زمراً إلى الجنة بعد ذلك فيصيرون من أهل هذه الآية، والواو في قوله تعالى: (وفتحت) مؤذنة بأنها قد فتحت قبل وصولهم إليها، وقالت فرقة: هي زائدة، وجواب (إذا) هو (فتحت)، وقال الزَّجَّاج عن المبرد: جواب (إذا) محذوف، تقديره بعد قوله تعالى: (خالدين)... سعدوا[1].

وقال الخليل: الجواب محذوف تقديره: حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها، وهذا كما قدَّر الخليل قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾[2].

وكما قدَّر أيضاً قول امرىء القيس:

فلمَّا أجزنا ساحة الحيِّ وانتحى ....[3]

---

(١) في الأصول: «بعد قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾... سعدوا»، والآية الكريمة خالية من كلمة (فيها)، ولعله خطأ من النساخ.

(٢) الآية (١٠٣) من سورة (الصافات).

(٣) هذا صدر بيت قاله امرؤ القيس في معلقته، والبيت بتمامه:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى بِنا بَطْنُ خَبْتٍ ذي قِفَافٍ عَقَنْقَلِ

ويروى: بطن حِقف، وأجزنا: قطعنا، والساحة: فناء الدار، وانتحى: اعترض، والخبت: بطن من الأرض غامض. والقِفاف: جمع قُف، وهو ما غلظ من الأرض وارتفع، والعقنقل: المنعقد الداخل بعضه فوق بعض. وهذا البيت موضع خلاف بين النحويين في بيان جواب (لمَّا)، وذلك أن بعضهم يقول: الجواب هو قوله في بيت بعده: (هصرتُ بفَوْدَيْ رأسِها فتَمَايَلت)، وقال بعضهم: الجواب هو (انتحى)، والواو زائدة لمعنى التعجب، وقال أبو عبيدة: الواو في هذا البيت واو نسق، والجواب محذوف لعلم المخاطبين به، وكل هذه الأقوال قيلت في جواب (لمَّا) في الآية الكريمة: =

أي: أجزنا وانتحى. وقد قال قوم ـ أشار إليهم ابن الأنباري وضعَّف قولهم ـ: هذه واو الثمانية، وسقطت هذه الواو في مصحف ابن مسعود، فهي كالأولى.

وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ تحيَّة، ويحتمل أن يريد أنهم قالوا لهم: سلامٌ عليكم وأمنة لكم، و(طبتم) معناه: أعمالاً ومعتقداً ومستقراً وجزاءً.

وقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ يريد أرض الجنة قاله قتادة، وابن زيد، والسُّدِّيُّ، والوراثة هنا مستعارة، لأن حقيقة الميراث أن يصير شيء إلى إنسان بعد موت إنسان، وهؤلاء إنما ورثوا مواضع أهل النار لو كانوا مؤمنين، و(نتبوَّأ) معناه: نتَّخذ أمكنة ومساكن.

ثم وصف تعالى حالة الملائكة من العرش وحفوفهم به. وقال قوم: واحد (حافين): حافٌّ، وقالت فرقة: لا واحد لحافين لأن الواحد لا يكون حافًّا، إذ الحفوف الإحداق بالشيء، وهذه اللفظة مأخوذة من الحفاف الذي هو الجانب، ومنه قول الشاعر:

لَـهُ لَحَظَـاتٌ عَـنْ حِفَـافَـيْ سَـرِيـرِهِ ... إذا كَـرَّهَـا فِيهـا عِقَـابٌ وَنَـائِـلُ(١).

أي: عن جانبيه. وقالت فرقة: [من] في قوله تعالى: ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ زائدة

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصواب أنها لابتداء الغاية.

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾(٢)، قالت فرقة: معناه أن تسبيحهم يتأتى بحمد الله تعالى وفضله، وقالت فرقة: تسبيحهم هو ترديد حمد الله تبارك وتعالى وتكراره. وقال الثعلبي: متلذذين لا متعبِّدين ولا مُكلَّفين.

= ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾، وفي الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾، وزيادة على هذه الآراء قيل: إن الواو في هذه الآية هي واو الثمانية، وقد تحدثنا عن ذلك من قبل.

(١) اللحظات: جمع لحظة، واللحظة هي النظرة من جانب الأذن، وفي اللسان عن الأزهري: اللِّحَاظ هو أن ينظر الرجل بلحاظ عينه إلى الشيء شزراً، واللحاظ هو شق العين الذي يلي الصدغ، وعن حفافي السرير: عن جانبيه، وكَرَّها: ردها وأعادها. والنائل: العطاء والجود. يقول: إن له نظرات شديدة الوقع إذا ردها في الناس وهو على جانبي سريره كان فيها الخير والشر، أو كان فيها الثواب والعقاب، والشاهد أن الحِفَافَ هو الجانب.

(٢) قال الثعلبي: العرب تدخل الباء في التسبيح أحياناً وتحذفها أحياناً، فيقولون: سَبِّح بحمد ربك، وسبِّح حمداً لله. قال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ختم للأمر، وقولٌ جزمٌ عند فصل القضاءِ، أَي أن هذا الحاكم العدل ينبغي أَن يحمد عند نفوذه حكمه وإكمال قضائه، ومن هذه الآية جعلت(الحمد لله رب العالمين) خاتمة المجالس والمجتمعات في العلم، وقال قتادة: فتح الله أول الخلق بالحمد فقال: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾[١]، وختم القيامة بالحمد في هذه الآية[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجعل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فاتحة كتابه، فيه يبدأ كلُّ أمر، وبه يختم، وبحمد الله تبارك وتعالى وتقديسه ينبغي أن يكون من المؤمن، كما قال الشاعر:

وَآخِرُ شَيءٍ أَنْتَ في كُلِّ ضِجعَةٍ ... وَأَوَّلُ شَيْءٍ أَنْتَ عِنْدَ هُبُوبِي[٣]

هذا وقد أخرج عبد بن حميد عن وهب رضي الله عنه أنه قال: «من أراد أن يعرف قضاء الله في خلقه فليقرأ آخر سورة الزمر».

كمل تفسير سورة الزمر والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) من الآية (١) من سورة (الأنعام).

(٢) أضاف بعض المفسرين زيادة في كلام قتادة هي قوله: «فلزم الاقتداء به».

(٣) الضِّجْعَة: هيئة الاضطجاع، وفي اللسان: «الضِّجعة بالكسر: من الاضطجاع، وهو النوم، كالجِلْسة من الجلوس، والضَّجعة بفتح الضاد: المرة: الواحدة، وهبَّ النائم إذا استيقظ، وهبَّ فلانٌ يفعل كذا، والشاعر يخاطب الله عزَّ وجلَّ مقدساً ذاته، فهو آخر شيء يذكره عند كل ضجعة نوم، وهو أول شيء يسبحه عند قيامه من النوم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة غافر(١)

هذه السُّورة مكِّيَّةٌ بإجماع، وقد رُوي في بعض آياتها أَنَّها مدنيَّة(٢)، وذلك ضعيف، والأَوَّل أَصحّ، وهذه الحواميم الَّتي روى أَنس رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّها ديباج القرآن(٣)، ووقفه الزَّجّاج على ابن مسعود رضي الله عنه، ومعنى هذه العبارة أَنَّها خلت من الأَحكام، وقُصرت على المواعظ والزّجر وطرق الآخرة محضاً(٤)، وأَيضاً فهي قصارٌ لا يلحق لقارىءٍ فيها سآمة. ورُوي أَن ابن مسعود رَوى أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «من أَراد أَن يرتع في رياض مونقة من الجنَّة فليقرأ الحواميم»(٥)، وهذا نحو الكلام الأَول في

---

(١) وتُسَمَّى سورة (المؤمن)، وأيضاً تُسَمَّى سورة (الطَّوْل). وعدد آياتها خمس وثمانون آية، وقيل: ثنتان وثمانون آية.

(٢) حُكي عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ، وعن قتادة أنَّ فيها آيتين نزلتا بالمدينة، قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ والتي بعدها، وهما الآيتان (٥٦، ٥٧)، وقال الحسن: هي مكِّيَّة إلاَّ قوله تعالىٰ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾؛ لأنَّ الصَّلوات نزلت بالمدينة.
وابن عطيَّة يرى أنَّ ذلك ضعيف، ويؤيِّد هذا ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّه قال: «أُنزلت سورة حٰمٓ المؤمن بمكَّة»، وأيضاً ما أخرجه ابن مردويه عن ابن الزبير رضي الله عنهما أنه قال: «نزلت سورة المؤمن بمكة» وما أخرجه ابن الضريس، والنَّحّاس، والبيهقي في الدَّلائل عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، من أنَّه قال: «أُنزلت الحواميم السَّبع بمكَّة»، وما أخرجه ابن مردويه، والدَّيلميُّ، عن سَمُرَة بن جندب رضي الله عنه، قال: «نزلت الحواميم جميعاً بمكَّة».

(٣) أخرجه أبو الشَّيخ، وأبو نعيم، والدَّيْلميُّ، عن أنس رضي الله عنه. (الدُّرُّ المنثور)، أمَّا وقف الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه فقد أخرجه أبو عُبَيْد، وابن الضريس، وابن المنذر والحاكم، والبيهقي في شعب الإيمان.

(٤) يريد أنها قصرت على المواعظ والزَّجر قصراً خالصاً، والمحض: الخالص، وفي اللسان عن الأزهري: كل شيءٍ خلص حتى لا يشوبه شيءٌ يخالطه فهو محض، وفي حديث الوسوسة: (ذلك محض الإيمان)، أي: خالصُه وصريحه.

(٥) أخرجه ابن الضريس، عن إسحاق بن عبد الله رضي الله عنه، قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لكلِّ شجرة ثمراً، وإن ثمرات القرآن ذوات حٰمٓ، هنَّ روضات مخصبات معشبات متجاورات، فمن أحب أن=

المعنى. وقال عليه الصلاة والسلام: «مثل الحواميم في القرآن مثل الحِبَرَات في الثياب»[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾.

قد تقدم القول في الحروف المقطعة في أَوائل السُّور، وتلك الأَقوال كلها تترتب في [حٰمٓ]، ويختص هذا الموضع بقول آخر قاله الضحاك، والكسائي: إِن [حٰمٓ] هجاءُ (حُمَّ) بضم الحاءِ وشدِّ الميم المفتوحة، كأَنه يقول: «حُمَّ الأَمْرُ وَوَقع تنزيل الكتاب من الله»[(٢)]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «الٓرٰ، وحٰمٓ، ونٓ هي حروف (الرحمن) مُقَطَّعة في سُوَر»، وقال القرظي: أَقسم الله تعالىٰ بحلْمه ومُلْكِه[(٣)]، وسأَل أَعرابيٌّ النبي ﷺ عن [حٰمٓ] ما هو؟ فقال: «بدءُ أَسماءٍ وفواتح سَوَر».

وقرأَ ابن كثير بفتح الحاءِ، ورُوي عن أَبي عمرو[(٤)] كسرها على الإِمالة، ورُوي عن نافع الفتح، ورُوي عنه الوسط بينهما، وكذلك اختُلف عن عاصم، ورُوي عن عيسى

= يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم».. الحديث، وله بقية ذكرها الإمام السيوطي في الدر المنثور، وأخرج الديلمي، وابن مردويه، عن سَمُرة بن جندب رضي الله عنه مرفوعاً: «الحواميم روضة من رياض الجنة».

(١) الحِبَرَات جمع حِبَرَة وحَبَرَة، وهي نوع من البرود اليمنية المخططة، وتمتاز بأنها ناعمة، وقد أُخذ ذلك من قولهم: «ثوبٌ حَبِيرٌ، بمعنى ناعم جديد». راجع اللسان والتاج. والحديث ذكره الثعلبي، ونقله عنه في القرطبي.

(٢) وعلى هذا المعنى جاء قول كعب بن مالك:

فَلَمَّا تلاقَيْنَا وَدارَتْ بِنَا الرَّحَى ... وَلَيْسَ لأمْرٍ حَمَّهُ اللهُ مَدْفَعُ

أي: ليس لأمر قضاه الله وأراده.

(٣) ذكر الشوكاني هذه الأقوال وغيرها، ثم عقَّب عليها بقوله: «والحق أن هذه الفاتحة لهذه السُّوَر وأمثالها من المتشابه الذي استأثر الله تعالىٰ بعلم معناه». والقُرَظِيُّ هو محمد بن عبد الله القُرَظِيُّ، وفي النسخة التونسية: «وقال القرطبي»، وهو خطأٌ من الناسخ.

(٤) في النسخة التونسية: «عن ابن عُمَر»، وهو خطأٌ من الناسخ.

كسر الحاءِ على الإمالة، وقرأ جمهور الناس بفتح الحاءِ وسكون الميم، وقرأ عيسى بن عُمَر أَيضاً بفتح الحاءِ وفتح الميم الأخيرة في النطق، ولذلك وجهان: أَحدهما التحريك للالتقاءِ مع الياءِ الساكنة، والآخر أَن تكون حركة إِعراب، وذلك نصب بفعل مضمر تقديره: اقرأْ حمَ، وهذا على أَن يجري مجرى الأَسماءِ، والحُجَّة فيه قولُ شُرَيْح بن أَوْفى العَبْسِيِّ:

يُذَكِّرني حامِيمَ والرُّمْحُ شاجِرٌ ... فَهَلاَّ تَلاَ حاميمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ؟[1]

وقال الكميت:

وَجَدْنَا لكُمْ في آلِ حامِيمَ آيَةً ... تَأَوَّلَها مِنَّا تَقِيٌّ وَمُعْزِبُ[2]

وقرأَ أَبو السمال بكسر الميم الأَخيرة، وذلك لالتقاءِ الساكنين، و[حمٓ] آية.

و[تَنْزِيلُ] رفع بالابتداءِ، والخبر قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، وعلى القول بأَن [حمٓ] إِشارة إلى حروف المعجم يكون قوله: [تَنْزِيلُ] خبر ابتداءٍ، و[ٱلْكِتَاب]: القرآن، وقوله

---

(١) البيت في اللسان (حَمَمَ)، وقد نقل عن أبي عبيدة نسبته لشُرَيْح بن أَوْفَى، وقال: «وأنشده غيره للأشتر النَّخَعي»، والضمير في (يُذَكِّرني) هو لمحمد بن طلحة، وقد قتله الأشتر أو شُرَيْح في موقعة الجمل، ومعنى قول الشاعر: «والرمح شاجر» أنه ناشب فيه، يقال: شجره بالرمح: طعنه، وفي حديث الشُّرَاة: «فشجرناهم بالرماح» أي: طعنَّاهم بها حتى اشتبكت فيهم. والبيت شاهد على أنَّ (حَاميمَ) تكون اسماً معرباً، وعلى هذا جاءت قراءَة عيسى بن عُمر بفتح الميم الأخيرة، وهذا قول الجرمي، (صالح بن إسحاق) وقد أنكر بعض العلماءِ ذلك، ومنهم يونس الذي قال: من قال هذا القول فهو منكر عليه؛ لأن السورة [حمٓ] ساكنة الحروف، فخرجت مخرج التَّهَجِّي، وهذه أسماءُ سور خرجن متحركات.

(٢) البيت للكميت بن زيد الأسدي، وهو في الديوان، واللسان، ومجاز القرآن، و(آل حاميم) هي السُّور التي أوَّلها [حمٓ]، وقد نصَّ الحريري في (دُرَّة الغواص) على أنه يقال: آل حاميم، وذوات حاميم، وآل طسٓمٓ، ولا يقال: حواميم ولا طواسيم. والآية التي يشير إليها الكميت هي قوله تبارك وتعالىٰ في سورة الشورى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ـ ٢٣ الشورى ـ والتَّقِيُّ: الساكت عن التفضيل والتَّشَيُّع لآل النبي ﷺ، والمُعْزِبُ: الذي أبان وأعْرَبَ عمَّا في نفسه من تَشَيُّع وتفضيل لآل البيت، وهذه هي رواية أبي عمرو للبيت، (مُعْرِب) بالراءِ، ولكن الأموي رواها بالزاي كما قال أبو عبيدة، ورواية البيت كما في مجاز القرآن هي:

وجدنَا لكُمْ في آلِ حاميمَ آيةً ... وفي غيْرِها آيٌ وأَيٌّ يُعَرِّبُ

وقوله: «وفي غيرها» يشير به إلى قوله تعالىٰ في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ـ (٣٣) الأحزاب ـ.

تعالىٰ: ﴿غَافِرِ﴾ بدلٌ من المكتوبة[(١)]، وإن أردت بـ ﴿غَافِرِ﴾ المُضِيَّ ـ أَي غُفْرانه في الدنيا وقضاءَه بالغُفْران والسَّتْر على المذنبين ـ فيجوز أَن تكون ﴿غَافِرِ﴾ صفةً؛ لأَن إضافته إلى المعرفة تكون محضة، وهذا يترجَّح جدًّا، وإذا أَردت بـ ﴿غَافِرِ﴾ الاستقبال ـ أَي غُفْرَانَهُ يوم القيامة ـ فالإضافة غير محضة، و﴿غَافِرِ﴾ نكرة، فلا يجوز أَن تكون نعتاً؛ لأَن المعرفة لا تُنْعت بالنكرة، وفي هذا نظر. وقال الزَّجَّاج: ﴿غَافِرِ﴾ و﴿قَابِلِ﴾ صفتان، و﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ بَدَلٌ[(٢)]، و﴿ٱلذَّنْبِ﴾ اسم الجنس، وأَما ﴿ٱلتَّوْبِ﴾ فيحتمل أَن يكون مصدراً كالعوم والنوم فيكون اسم جنس، ويحتمل أَن يكون جمع تَوْبة، كتَمْرةٍ وتَمْر، وساعة وساع. وقبول التوبة من الكافر مقطوعٌ به؛ لإخبار الله تعالىٰ، وقبولها من العاصي في وجوبها قولان لأَهل السُّنَّة، وحكى الطبري عن أَبي بكر بن عياشٍ أَن رجلاً جاءَ إلى عُمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: إني قتلت، فهل لي من توبة؟ فقال: نعم، اعمل ولا تيأَس، ثم تَلاَ هذه الآية إلى قوله تعالىٰ: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾. [و﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ صفةٌ، وقيل: بَدَلٌ][(٣)].

ثم عقَّب تعالىٰ هذا الوعيد بوعد ثان في قوله سبحانه: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾، أَي: ذي التَّطَوُّل والمَنِّ بكلِّ نعمة، فلا خير إلا منه، فترتَّب في الآية وعيدٌ بين وعْدَيْن، وهكذا رحمة الله تعالىٰ تغلب غضبه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

سمعت هذه النزعة من أَبي رضي الله عنه، وهي نحو من قول عمر رضي الله عنه: «لن يغلب عسْرٌ يُسْرَيْن»، يريد قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[(٤)].

---

(١) أي: لفظ الجلالة (الله) في قوله تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

(٢) قال أبو حيان الأندلسي: «إنما جعَل «غافر وقابِل» صفتين وإن كانا اسمَيْ فاعل لأنه فهم من ذلك أنه لا يرادُ بهما التَّجدد ولا التقييد بزمان، بل أُريد بهما الاستمرار والثبوت، وإضافتهما محضة فتعرَّف، وصح أن يوصف بهما المعرفة، وإنما أعرب ﴿شديد العقاب﴾ بدلاً لأنه من باب الصفة المشبهة، ولا يتعرف بالإضافة إلى المعرفة، وقد نصَّ سيبويه على أن كل ما إضافته غير محضة إذا أُضيف إلى معرفة جاز أن ينوي بإضافته التَّمَحُّض فيتعرف وينعت به المعرفة، إلاَّ ما كان من باب الصفة المشبهة فإنه لا يتعرف». (البحر المحيط ٧ـ٤٤٧).

(٣) هكذا في جميع الأصول، وأعتقد أن ما بين العلامتين [.....] مكرر، أو أنه في غير موضعه، فقد سبق الحديث عن إعراب كل من (غافر، وقابل، وشديد العقاب).

(٤) الآيتان (٥، ٦) من سورة (الشَّرْح).

و«الطَّوْلُ»: الإنعام، ومنه «ما حَليتُ بطائل»(١)، وحكى الثعلبي عن أهل الإشارة أنه تعالىٰ غافر الذنب فضلاً، وقابل التَّوْب وعداً، وشديد العقاب عدلاً. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الطَّوْلُ: السَّعَة والغِنَى. ثم صدع تعالىٰ بالتوحيد في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وبالبعث والحشر في قوله: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يريد: جدالاً باطلاً، لأن الجدال فيها يقع من المؤمنين لكن في إثباتها وشرحها، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾ أنزله منزلة: «فلاَ يَحْزُنْكَ وَلاَ يَهُمَّنَّك» لتدل الآية على أنهم ينبغي ألاَّ يَغْتَرُّوا بإملاءِ الله تعالىٰ لهم، فالخطاب له والإشارة إلى من يقع منه اغترارٌ، ويحتمل أن يكون [يَغْرُرْكَ] بمعنى: تظُن أَن وراءَ تقلُّبهم وإمهالهم خيراً لهم، فتقول: عَسَى ألا يُعَذَّبوا. وحل الفعل من الإدغام لسكون الحرف الثاني، وحيث هما متحركان لا يجوز الحلُّ، لا تقول: زيد يَغْرُرُكَ(٢). وتقلُّبهم في البلاد عبارة عن تمتعهم بالمساكن والمزارع والأسفار وغير ذلك.

ثم مثَّل لهم بمن تقدمهم من الأُمم، أَي: كما حَلَّ بأُولئك كذلك ينزل بهؤلاءِ. و[ٱلْأَحْزَابُ] يريد بهم عاداً وثموداً وأَهل مَدْيَن وغيرهم، وفي مصحف ابن مسعود: «بِرَسُولِهَا» ردًّا على «الأُمَّة»، وضمير الجماعة هو على معنى الآية لا على لفظها. وقوله تعالىٰ: ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ معناه: ليهلكوه، كقوله سبحانه: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾(٣)، والعرب تقول للقتيل: أَخيذٌ، وللأَسير: أَخيذٌ، ومنه قولهم: «أَكذبُ من الأَخيذِ الصَّبْحَان»(٤)، وقال

---

(١) أي: لم أَظفر ولم أستفد بفائدة، ولا يستعمل إلاَّ في النفي، (راجع اللسان).

(٢) فَكُّ الإدغام لُغَةُ أهل الحجاز، والإدغام لغة تميم، وقد قرأ بها زيد بن علي، وعبيد بن عمير.

(٣) من الآية (٣٢) من سورة (الرعد)، وتكررت في الآية (٢٤) من سورة (الحج)، والأَخْذُ بمعنى القتل والإهلاك كثير متكرر في القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾، وقال: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾، وقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، وقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾.

(٤) الأخيذ: الأسير المأخوذ، والصَّبْحان: الذي شرب الصَّبُوح، وهو اللبن الذي يشربُ في الصباح، وأصل هذا المثل أن رجلاً خرج من حيِّه وقد اصطبح، فلقيه جيش من الأعداء يقصدون قومه، فأخذوه وسألوه عن الحَيِّ، فقال: إنما بتُّ في القَفْر ولا عهد لي بقومي، وبينما هم يتنازعون غلبه البول فبال، فعلموا أنه قد اصطبح وشرب اللبن ولولا ذلك لم يَبُل، فطعنه واحد منهم في بطنه فبدره اللبن، فمضوا غير بعيد فعثروا على الحيِّ. وفسَّر الفراءُ المثل تفسيراً آخر، قال: الأخيذ الصَّبْحان هو الفصيل يقال: =

قتادة: (لِيَأْخُذُوهُ) معناه: ليقتلوه. و[لِيُدْحِضُوا] معناه: لِيُزْلِقُوا وليُذهبوا، والمدْحَضَةُ: المزلَّة والمَزْلَقَة(١). وقوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ تعجيب وتعظيم، وليس باستفهام عن كيفية وقوع الأمر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾.

في مصحف عبد الله بن مسعود: [وكذلك سبقت كلمةُ ربِّك]، والمعنى: وكما أَخذتُ أُولئك المذكورين وأَهلكتهم فكذلك حقت كلماتي على جميع الكفار، من تقدم منهم ومن تأَخر، أَنهم أَهل النار وسكانها. وقرأَ نافع، وابن عامر: [كَلِمَاتُ] على الجمع، وهي قراءَة الأَعرج، وأَبي جعفر، وابن نصاح. وقرأَ الباقون على الإفراد، وهي للجنس، وهي قراءَة أَبي رجاءٍ، وقتادة، وهذه كلها عبارة عن حتم القضاءِ عليهم. وقوله: [أَنَّهُمْ] بدلٌ من [كَلِمَةُ].

ثم أَخبر تعالىٰ بخبر يتضمن تشريف المؤمنين وتعظيم الرجاءِ لهم، وهو أَن الملائكة الحاملين للعرش والذين حول العرش ـ وهم أَفضل الملائكة ـ يستغفرون للمؤمنين، ويسأَلون الله تبارك وتعالىٰ لهم الجنة والرحمة، وهذا معنى قوله تعالىٰ في غير هذه الآية: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾(٢)، أَي: سأَلته الملائكة، وفسَّر تعالىٰ في هذه الآية

= أخذ يأخذ أخذاً إذا أكثر من شرب اللبن، بأن يتفلَّت على أُمِّه فيمتك لبنها فيأخذه، أي: يُتْخَم منه، وكذبه أن التُّخَمَة تُكسبه جوعاً كاذباً، فهو لذلك يحرص على اللبن ثانياً.

(١) في اللسان (دَحَضَ): «الدَّحْضُ: الزَّلَق، والإدحاض: الإزلاق، وفي حديث الجُمُعة: كرهتُ أن أُخرجكم فتمشون في الطين والدَّحض، أي: الزَّلَق».

(٢) من الآية (١٦) من سورة (الفرقان).

المُجْمَلَ الذي في قوله تعالىٰ في غير هذه الآية: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[١]، لأنه معلوم أَن الملائكة لا يستغفرون لكافر، وقد يجوز أَن يقال: معنى ذلك أَنهم يستغفرون للكفار بمعنى طلب هدايتهم والمغفرة لهم بعد ذلك، وعلى هذا النحو هو استغفار إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأَبيه، واستغفار رسول الله ﷺ للمنافقين، وبلغني أَن رجلاً قال لبعض الصالحين: ادْعُ لي واستغفر لي، فقال له: تُبْ واتَّبع سبيلي يستغفر لك من هو خير منِّي، وتَلاَ هذه الآية. وقال مطرف بن الشِّخير: وجدنا أَنصح العباد للعباد الملائكة، وأَغش العباد للعباد الشياطين، وتلا هذه الآية، وروى جابر بن عبد الله أَن النبي ﷺ قال: «أُذِنَ لي ربِّي أَن أُحدِّث عن مَلَك من حَمَلة العرش بين شحمة أُذنه وعاتقه مسيرة خمسمائة سنة»[٢]. وقرأَت فرقة: [العُرْشَ] بضم العين، والجمهور على فتحها.

قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾. نصب [رَحْمَةً] على التمييز، وفيه حذف تقديره: يقولون، ومعناه: وَسِعَتْ رَحمَتُكَ وعِلْمُكَ كلَّ شيءٍ، وهذا نحو قولهم: «تفقَّأَت شحماً[٣]، وتصبَّبت عرقاً، وطبت نفساً». و«سبيلُ اللهِ المُتَّبَعة» هي الشرائع.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ على جمع الجنَّات، وقرأَ الأَعمش ـ في رواية المفضل ـ: [جنَّةَ عَدْنٍ] على الإِفراد، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه، و«العَدْنُ»: الإِقامة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾. رُوي عن سعيد بن جبير رضي الله تعالىٰ عنه في تفسير ذلك أَن الرجل يدخل الجنة قبل قرابته، فيقول: أَين أَبي؟ أَين أُمي؟ أَين زوجتي؟ فيلحقون به لصلاحهم، ولتنبيهه عليهم وطلبه إِياهم، وهذه دعوة الملائكة، وقرأَ عيسى بن عمر: [وَذُرِّيَّتَهِمْ] بالإِفراد.

---

(١) من الآية (٥) من سورة (الشُّورى).

(٢) أخرجه أبو داود، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في (العظمة)، وابن مردويه، والبيهقي في (الأسماء والصفات)، بسند صحيح، عن جابر رضي الله عنه، (ذكره في الدر المنثور، وفيه: مسيرة سبعمائة سنة).

(٣) تَفَقَّأَ: مطاوع فَقَأَ، وهي مبالغةٌ في فَقَأَ، والمعنى أن الجسم تشقق فخرج منه الشحم.

وقوله تعالىٰ: [وَقِهِمْ] أَصله: اوْقِهِم، حذفت الواو إِتباعاً لحذفها في المستقبل، واستغني عن أَلف الوصل لتحرُّك القاف، ومعناه: اجعل لهم وقاية تقيهم السيئات، واللفظ يحتمل أَن يكون الدعاءُ في أَن يدفع الله عنهم نفس السيئات حتى لا ينالهم عذابٌ من أَجلها، ويحتمل أَن يكون الدعاءُ في رفع العذاب اللاحق من السيئات، فيكون في اللفظ ـ على هذا ـ حذف مضاف، كأَنه قال: وَقِهِمْ جزاءَ السيئات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾.

أَخبر الله تعالىٰ بحال الكفرة، وجعل ذلك عقب حال المؤمنين ليتبيَّن الفرق، وروي أَن هذه الحال تكون للكفار عند دخولهم النار؛ فإِنهم إِذا أُدخلوا فيها مقتوا أَنفسهم، أَي: مَقَتَ بعضهم بعضاً، ويحتمل أَن يمقت كل واحد نفسه، فإِن العبارة تحتمل المعنَيَيْن، و«المَقْتُ» هو احتقارٌ وبُغْض عن ذنب وريبة، هذا حدُّه، وإِذا مقت الكفار أَنفسهم نادتهم ملائكة العذاب ـ على جهة التوبيخ ـ فيقولون لهم: مَقْتُ الله إِيَّاكم في الدنيا ـ إِذ كنتم تُدعَوْن إِلى الإِيمان فتكفرون ـ أَكثر من مقْتكم أَنفسكم اليوم، هذا هو معنى الآية، وبه فسَّر مجاهد، وقتادة، وابن زيد. وأَضاف تعالىٰ المصدر إِلى الفاعل في قوله سبحانه: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ والمفعول محذوف لأَن القول يقتضيه. واللام في قوله تعالىٰ: [لَمَقْتُ] يحتمل أَن تكون لام الابتداءِ أَو لام القسم، وهو أَصوب. و[أَكْبَرُ] خبر الابتداءِ. والعامل في [إِذْ] فعل مضمر تقديره: «مَقَتَكُمْ إِذْ»، وقدَّره قوم: «اذكروا إِذْ»، وذلك ضعيف يحلُّ ربط الكلام، اللهم إِلا أَن يُقَدَّر أَن مَقْتَ الله لهم هو في الآخرة، وأَنه أَكبر من مقتهم أَنفسهم، فيصح أَن يُقَدَّر المضمر: «اذكروا»، ولا يجوز أَن يعمل فيه قوله تعالىٰ: [لَمَقْتُ] لأَن خبر الابتداءِ قد حال بين «المَقْتِ» وبين [إِذْ]، إِذ هي في صِلَتِهِ، ولا يجوز ذلك.

واختلف المفسرون في معنى قولهم: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة، والضحاك، وابن مالك: أَرادوا بموتهم كونهم ماءً في

الأَصلاب، ثم إِحياءَهم في الدنيا، ثم إِماتتهم الموت المعروف، ثم إِحياءَهم يوم القيامة، قالوا وهي كالتي في سورة البقرة ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[1]، وقال ابن زيد: أَرادوا أنه أَحياهم نسماً عند أَخذ العهد عليهم وقت أَخذهم من صلب آدم عليه السلام، ثم أَماتهم بعد ذلك، ثم أَحياهم في الدنيا، ثم أَماتهم ثم أَحياهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف لأَن الإِحياءَ فيه ثلاث مرات.

وقال السُّدي: أَرادوا أَنه أَحياهم في الدنيا ثم أَماتهم، ثم أَحياهم في القبور وقت سؤال منكر ونكير ثم أَماتهم فيه، ثم أَحياهم في الحشر. وهذا أَيضاً يدخله الاعتراض الذي في القول قبله، والأَول أَثبت الأَقوال.

وقال محمد بن كعب القرظيُّ: أَرادوا أَن الكافر في الدنيا هو حيُّ الجسد ميِّتُ القلب، فكأَن حالهم في الدنيا جمعت إِحْياءً وإِماتةً، ثم أَماتهم حقيقة، ثم أَحياهم في البعث.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والخلاف في هذه الآية مقول كلُّه في آية سورة البقرة، وهذه الآية يظهر منها أَن معناها منقطع من معنى قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾، وليس الأَمر كذلك، بل الآيتان مُتَّصلتا المعنى، وذلك أَن كفرهم في الدنيا كان أَيضاً بإِنكارهم البعث، واعتقادهم أَنه لا حشر ولا عذاب، ومقتهم لأَنفسهم إِنما عظَّمه لأَن هذا المعتقد كذَّبهم، فلما تقرر مقتهم لأَنفسهم ورأَوْا خزياً طويلاً عريضاً، رجعوا إِلى المعنى الذي كان كفرهم به وهو البعث، وخرج إِلى الوجود مقترناً بعذابهم، فأَقَرُّوا به على أَتَمِّ وجوهه، أَي: كنا قد كفرنا بإِنكارنا البعث، ونحن اليوم نُقر أَنَّك أَحييتنا اثنتين وأَمَتَّنا اثنتين، كأَنهم قصدوا تعظيم قدرته سبحانه وتعالىٰ، واسترضاءَه بذلك، ثم قالوا عقِب ذلك الإِقرار طمعاً منهم، فها نحن معترفون بذنوبنا، فهل إِلى خروج من سبيل؟ وهذا كما تكلِّف إِنساناً أَن يُقِرَّ لك بحق وهو ينكر، فإِذا رأَى الغلبة وصُرِع، أَقرَّ بذلك

---

(١) من الآية (٢٨) من سورة (البقرة).

الأمر مُتَمَّماً أوفى مما كنت تطلبه به أَوَّلاً، وفيما بعد قولهم: «فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ» محذوف من الكلام يدل عليه الظاهر، تقديره: لا إسعاف لطلبتكم، أو نحو هذا من الرَّدِّ والزجر.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ﴾ يحتمل أن يكون إشارةً إلى مقتهم أنفسهم، ويحتمل أن يكون إشارة إلى العذاب الذي هم فيه، أو إلى المنع والزجر والإهانة التي قلت إنها مقدرة محذوفة الذكر لدلالة ظاهر القول عليها، ويحتمل أن تكون إشارة إلى مقت الله تعالىٰ إياهم، ويحتمل أن تكون المخاطبة بـ [ذَٰلِكُمْ] لمعاصري محمد ﷺ في الدنيا، ويحتمل أن تكون للكفار عامة. وقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ﴾ معناه: بحالة توحيد ونفي لما سواه من الآلهة والأنداد. وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ أي: إذا ذكرت اللات والعُزَّى وغيرهما صدقتم واستقرت نفوسكم، والحُكْم اليوم بعذابكم وتخليدكم في النار لله لا لتلك التي كنتم تشركونها معه في الألُوهية، و«ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ» صفتا مدح لا في المكان ومضادة السفل والصغر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

هذا ابتداءُ مخاطبة في معنى توحيد الله تعالىٰ وتبيين علامات ذلك. وآياتُ الله تَعُمُّ آياتِ قدرته وآياتِ قرآنِهِ والمعجزاتِ الظاهرة على أيدي رسله، وتنزيلُ الرزق هو في تنزيل المطر وفي تنزيل القضاءِ والحكم بنَيْل ما يناله المرءُ في تجارة وغير ذلك. وقرأ جمهور الناس: [وَيُنْزِلُ] بالتخفيف، وقرأ الحسن، والأعرج، وعيسى وجماعة بالتشديد. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ معناه: وما يتذكَّر تذكُّراً يُعتد به وينفع صاحبه؛ لأنَّا نجد من لا يُنيب يتذكر لكن لما كان ذلك غير نافع عُدَّ كأنه لم يكن.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ مخاطبة للمؤمنين أصحاب محمد ﷺ، و﴿ٱدْعُوا۟﴾ معناه: اعبدوا.

وقوله تعالىٰ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ يحتمل أَن يريد بالدرجات صفاته العُلَى، وعبَّر تعالىٰ بما يقرب لأَفهام السامعين، ويحتمل أَن يريد: رفيع الدرجات الّتي يعطيها للمؤمنين، ويتفضل بها على عباده المخلصين في جنته. و«العَرْشُ» هو الجسم المخلوق الأَعظم، الذي السموات السبع والأَرضون فيه كالدنانير في الفَلاَة من الأَرض.

قوله تعالىٰ: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾. قال الضحاك: الرُّوحُ هنا هو الوحي والقرآن وغيره مما لم يُتْلَ، وقال قتادة والسدي: الرُّوح النُّبُوَّة ومكانتها، كما قال: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾(١)، وسمى هذا روحاً لأَنه يُحيي به الأُمم والأَزمان كما يُحيي الجسد بروحه، ويحتمل أَن يكون إِلقاءُ الروح عامًّا لكل ما ينعم الله تعالىٰ به على عباده المهتدين في تفهيمه الإِيمان والمعقولات الشرعية. والمقدر ـ على هذا التأويل ـ هو الله تعالىٰ. وقال الزجاج: الرُّوحُ كلُّ ما به حياة الناس، وكلُّ مهتد حيٌّ، وكلُّ ضالٌّ كالميت. وقوله تعالىٰ: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ إِن جعلته جنْساً للأُمور فـ [منْ] للتَّبعيض، أَو لابتداءِ الغاية، وإِن جعلنا الأَمر من معنى الكلام فـ [مِنْ] إِمَّا لابتداءِ الغاية، وإِمَّا بمعنى الباءِ، ولا تكون للتَّبعيض بتَّة.

وقرأَ أُبَيٌّ بن كعب وجماعة: [لِيُنْذِرَ] بالياءِ وكسر الذال، وفي الفعل ضمير يحتمل أَن يعود على الله تعالىٰ، أَو على الرُّوح، أَو على [مَنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، وقرأَ محمد بن السميفع اليماني: [لِيُنْذَرَ] بالياءِ وفتح الذال وضم الميم من [يَوْمُ]، وجعل اليوم منذراً على الاتساع، وقرأَ جمهور الناس: [لِتُنْذِرَ] بالتاءِ على المخاطبة لمحمد ﷺ، و[يَوْمَ] بالنصب، وقرأَ أَبو عمرو، ونافع، وجماعة: [ٱلتَّلَاقِ] بدون ياءِ، وقرأَ أَبو عمرو أَيضاً، وعيسى، ويعقوب: [ٱلتَّلَاقي] بالياءِ، والخلاف فيها كالخلاف الذي مَرَّ في ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾(٢)، ومعناه: تلاقي جميع العالم بعضهم ببعض، وذلك أَمْرٌ لم يتفق قطُّ قبل ذلك اليوم. وقال السدي: معناه: تلاقي أَهل السماءِ والأَرض، وقيل: معناه: تلاقي الناس مع بارئهم، وهذا المعنى الأَخير هو أَشدها تخويفاً، وقيل: يلتقي المرءُ وعمله.

---

(١) من الآية (٥٢) من سورة (الشورى).
(٢) من الآية (٣٢) من هذه السورة. ونلحظ أنه لم يمر، بل سيأتي.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ معناه: في براز من الأرض يَنْفُذُهُم البصر(١) ويُسمعهم الداعي، ونُصب [يَوْمَ] على البدل من الأول، فهو نصب المفعول، ويحتمل أَن ينصب على الظرف ويكون العامل فيه قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَخْفَىٰ﴾، وهي حركة إعراب لا حركة بناءٍ؛ لأَن الظرف لا يُبْنى إلاَّ إذا أُضيف إلى غير متمكن كيومئذ، وكقول الشَّاعر:

عَلَى حينَ عَاتَبْتُ المشِيبَ عَلَى الصِّبَا   وقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وَازِعُ؟(٢)

وكقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾(٣)، وأَمَّا في هذه الآية فالجملة اسْمٌ متمكن، كما تقول: «جئتُ يَوْمَ زَيْدٌ أَميرٌ» فلا يجوز البناءُ، فتأَمَّل(٤).

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أَي: من بواطنهم وسرائرهم وذوات صدورهم، وفي مصحف أُبَيّ بن كعب: [لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ] بضمير بدل المكتوبة(٥).

قوله تعالىٰ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾. رُوي أَن الله تعالىٰ يُقَرِّر هذا التقرير ويسكت

(١) يعني: يشملهم ويتجاوزهم كلهم، يقال: نَفَذَ القَوْمَ نَفْذاً: جازهم وخَلَّفهم، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «إنَّكُمْ مجموعون في صعيد واحد يَنفُذُكم البصر».

(٢) البيت للنابغة الذبياني، وهو من قصيدة له يمدح النعمان، ويعتذر إليه مما وشت به بنو قُرَيْع بن عوف، ويهجو مُرَّة بن ربيعة لما قذف في حقه عند النعمان، و(علَى) بمعنى (في)، كقوله تعالىٰ: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، والجار والمجرور متعلقان بقوله في البيت السابق: (فكفكفت مِنِّي عَبْرَةً)، و(عَلَى الصِّبَا) متعلق بـ (عَاتَبْتُ)، والمعنى: كَفْكَفْتُ الدمع في وقت عتابي نفسي لنفسي على فعل التَّصَابي في حالة مشيبها، والعتاب للمشيب مجازٌ. والشاهد هو بناءُ (حينَ) على الفتح لأنها مضافة إلى مبني غير متمكن، والبيت في الديوان، وابن الشجري، وابن يعيش، والإنصاف، وشرح شواهد المغني، وخزانة الأدب، والعيني، والهمع. وقد سبق الاستشهاد به في غير هذا الموضع من هذا التفسير.

(٣) من الآية (١١٩) من سورة (المائدة).

(٤) ذكر أبو حيان كلام ابن عطية هذا في البحر المحيط، ثم عقَّب عليه بقوله: «أما قوله: (لا يبنى إلا إذا أُضيف إلى غير متمكن) فالبناءُ ليس متحتماً، بل يجوز فيه البناءُ والإعرابُ، وأما تمثيله بقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ فمذهب البصريين أنه لا يجوز فيه إلا الإعراب، ومذهب الكوفيين جواز الإعراب والبناء فيه، وأما إذا أُضيف إلى جملة اسمية كما مثَّل من قوله: (جئت يومَ زيدٌ أميرٌ) فالنقل عن البصريين تَحَتُّم الإعراب كما ذكر ابن عطية، والنقل عن الكوفيين جواز الإعراب والبناءِ».

(٥) أي: بدلاً من لفظ الجلالة (الله).

العالم هيبةً وجزعاً، فيجيب هو نفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، قال الحسن: هو تعالىٰ السائل وهو المجيب، وقال ابن مسعود: إنه تعالىٰ يقرر فيجيب العالم بذلك، وقيل: يُنادي بالتقرير مَلَك فيجيب الناسُ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإذا تأَمل المؤمن أَنه لا حول لمخلوق ولا قوة إلاَّ بالله، فالزمان كلُّه وأَيام الدَّهر أَجمع إنما الملك فيها للواحد القهار، لكن ظهور ذلك للكفرة والجهلة يتَّضح يوم القيامة. وإذا تُؤُمِّل تسخير أَهل السموات وعبادتهم ونفوذ القضاءِ في الأَرض فأَيُّ مُلْك لغير الله؟

ثم يُعلم الله تبارك وتعالىٰ أَهل الموقف بأَنه يوم المجازاة بالأَعمال صالحها وسيِّئها، وهذه الآية نصٌّ في أَن الثواب والعقاب على اكتساب العبد، وأَنه يومٌ لا يوضع فيه أَمرٌ في غير موضعه، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾. ثم أَخبرهم عن نفسه بسرعة الحساب، وتلك عبارة عن إحاطته بالأَشياءِ علماً، فهو يحاسب الخلائق في ساعة واحدة كما يرزقهم؛ لأَنه لا يحتاج إلى عدٍّ وفكر، ورُوي أَن يوم القيامة لا ينتصف حتى يقبل المؤمنون في الجنة والكافرون في النار.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾.

أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالإنذار للعالم والتحذير من يوم القيامة وأَهواله، وهو الذي أَراد بـ [يوم الآزفة]، قاله مجاهد، وابن زيد، وقتادة، ومعنى [ٱلْءَازِفَة]: القريبة، من أَزِفَ الشيءُ إذا قَرُب، والآزفة في الآية صفة لمحذوف قد عُلم واستقر في النفوس هوله، فعبَّر عنه بالقرب تخويفاً، والتقدير: يوم الساعة الآزفة، أَو الطامة الآزفة، ونحو هذا، فكما لو قال: «وأَنذرهم الساعة» لَعُلِم هولها بما استقر في النفوس من أَمرها،

فكذلك عُلم هنا إذا جاءَ بصفتها التي تقتضي حُلُولَها واقترابها.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ معناه: عند الحناجر، قد صعدت من شدة الهول والجزع، وهذا أَمر يحتمل أَن يكون حقيقة يوم القيامة من انتقال قلوب البشر إلى حناجرهم وتبقى حياتهم، بخلاف الدنيا التي لا تبقى لأَحد فيها حياة مع تنقل قلبه، ويحتمل أَن يكون تجوُّزاً عبَّر به عمَّا يجده الإنسان من الجزع وصعود نفسه وتضايق حنجرته بصعود القلب، وهذا كما تقول العرب: كادت نفسي أَن تخرج، وهذا المعنى يجده المفرِّط الجزِع كالذي يساق إلى القتل ونحوه.

وقوله تعالىٰ: [كَاظِمِينَ] حالٌ مما أُبدل منه قوله تعالىٰ: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾، أَو مما ينضاف إليه [ٱلْقُلُوبُ]؛ إذ المراد: إذ قلوب الناس لدى حناجرهم، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢ مُهْطِعِينَ﴾[1]، أَراد تعالىٰ: تشخص فيه أَبصارهم. و﴿ٱلْكَٰظِمُ﴾: الذي يردُّ غيظه وجزعه في صدره.

فمعنى الآية أَنهم يطمعون بردِّ ما يجدونه في الحناجر والحال تغالبهم، ثم أَخبر تعالىٰ أَن الظَّالمين ظلم الكفر هم في تلك الحال ليس لهم حميم، أَي قريب يهتم لهم ويتعصب، ولا لهم شفيع يُطاع فيهم، وإن همَّ بعضهم بالشفاعة لبعض فهي شفاعة لا تُقبل، ويروى أَن بعض الكفرة يقولون لإبليس يوم القيامة: اشفع لنا، فيقوم ليشفع فتبدو منه أَنتَن ريح يؤذي بها أَهل المحشر، ثم ينحصر ويكِعُّ ويخزى. و[يُطَاع] في موضع الصفة لـ [شَفِيع]؛ لأَن التقدير: ولا شفيع مطاع، وموضع [يُطَاعُ] يحتمل أَن يكون خفضاً حملاً على اللفظ، ويحتمل أَن يكون رفعاً عطفاً على الموضع قبل دخول [مِنْ].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه كلها عندي اعتراضٌ في الكلام بليغ.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ متصل بقوله: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ لأَن سرعة حسابه تعالىٰ للخلق إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى رؤية وفكرة، ولا لشيءٍ مما يحتاجه الحاسبون، وقالت فرقة: [يَعْلَمُ] متصلة بقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ

---

(١) من الآية (٤٢، ٤٣) من سورة (إبراهيم).

شَيْءٍ﴾، وهذا قول حسَنٌ، يُقَوِّيه تناسب المعنيين، ويُضَعِّفه بُعْد الآية من الآية وكثرة الحائل. والخائنة مصدر كالخيانة، ويحتمل في الآية أن تكون [خَائِنَة] اسم فاعل، كما تقول: ناظرة الأعين، أي: يعلم الأعين إذا خانت في نظرها، وهذه الآية عبارة عن علم الله تعالىٰ بجميع الخفيات، فمن ذلك كسْر الجفون، والغمز بالعين، والنظرة التي تُفهم معنى، أَوْ يريد بها صاحبها معنى، ومن هذا قول النبي ﷺ حين جاءَه عبد الله بن أَبي سرح لِيُسْلم بعد رِدَّته بشفاعة عثمان رضي الله عنه، فتلكَّأَ عليه رسول الله ﷺ ثم بايعه، ثم قال رسول الله ﷺ لأَصحابه: هلاَّ قام إِليه رجل حين تلكَّأْت فضرب عنقه؟ فقالوا: يا رسول الله، أَلا أَوْمأْت إِلينا، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما ينبغي لنبي أَن تكون له خائنة أَعين»[1]، وفي بعض الكتب المنزَّلة من قول الله عزَّ وجلَّ: «أَنا مرصاد الهمم، أَنا العالم بمجال الفِكر وكسر الجفون»، وقال مجاهد: خائنة الأَعين: مسارقة النظر إِلى ما لا يجوز.

ثم قَوَّى الله تعالىٰ هذا الإِخبار بأَنه يعلم ما تخفي الصدور، مما لم يظهر على عين ولا غيرها، ومثَّل المفسرون في هذه الآية بنظر الرجل إِلى امرأَة هي حرمة لغيره فقالوا: خائنة الأَعين هي النظرة الثانية، وما تخفي الصدور، أَي عند النظرة الأُولى التي لا يمكن المرءُ دفعها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا المثال جزءٌ من خائنة الأَعين.

ثم قدح تعالىٰ في جهة الأَصنام، فأَعْلَم أَنه لا ربَّ غيره، يقضي بالحق، أَي يُجازي الحسنة بعشر والسيئة بمثلها، وينصف المظلوم من الظالم، إِلى غير ذلك من أَقضية الحق والعدل، والأَصنام لا تقضي شيئاً ولا تنفذ أَمراً. و﴿يَدْعُونَ﴾ معناه: يعبدون، وقرأَ

(١) أخرج أبو داود، والنسائي، وابن مردويه، عن سعد رضي الله تعالىٰ عنه، قال: «لما كان يوم فتح مكَّة أمَّن رسول الله ﷺ الناس إلاَّ أربعة نفر وامرأتين، وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فاختبأ عند عثمان بن عفان رضي الله عنه، فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة جاءَ به، فقال: يا رسول الله، بايَعْ عبد الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً، كل ذلك يأبى أن يبايعه، ثم بايعه، ثم أقبل على أصحابه فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففتُ يدي عن بيعته فيقتله؟ فقالوا: ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك؟ هلاَّ أومأت إلينا بعينك، قال: إنه لاينبغي لنبيٍّ أن تكون له خائنة الأعين».

جمهور القراءِ: [يَدْعُونَ] بالياءِ على ذكر الغائب، وقرأَ نافع ـ بخلاف عنه ـ وأَبو جعفر، وشيبة: [تَدْعُونَ] بالتاءِ، على معنى: قل لهم يا محمد: والذين تدعون أَنتم. ثم ذكر تعالىٰ لنفسه صفتين بيّنٌ عُرُوُّ الأَصنام عنهما، وهي[1] في جهة الله تعالىٰ عبارة عن الإِدراك على إِطلاقه.

ثم أَحال كفار قريش ـ وهم أَصحاب الضمير في ﴿يَسِيرُوا﴾ ـ على الاعتبار بالأُمم القديمة التي كذّبت أَنبياءَها فأَهلكها الله تعالىٰ، وقوله تعالىٰ: ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ يحتمل أَن يجعل في موضع نصب جواب الاستفهام، ويحتمل أَن يكون مجزوماً عطفاً على ﴿يَسِيرُوا﴾، و﴿كَيْفَ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم، وفي ﴿كَيْفَ﴾ ضمير، وهذا على أَن تكون [كَانَ] الناقصة، وأَمّا إِن جعلناها تامة بمعنى حَدَثَ وَوَقع فـ[كَيْفَ] ظرف ملغى لا ضمير فيه.

وقرأَ ابن عامر وحده: [أَشدَّ مِنكُم] بالكاف، وكذلك هي في مصاحف أَهل الشام، وذلك على الخروج من غيبة إِلى الخطاب، وقرأَ الباقون: ﴿أَشدَّ مِنهُمْ﴾، وكذلك هي في سائر المصاحف، وذلك أَوفق لتناسب ذكر الغائب، و«الآثار في الأَرض» هي المباني والمآثر والصِّيت الدنيوي. و«ذنوبهم» كانت تكذيب الأَنبياء عليهم الصلاة والسلام، و«الواقي»: الساتر المانع، مأْخوذ من الوقاية[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ﴾ إِشارةٌ إِلى أَخذه إِيَّاهم بذنوبهم وإِن لم يكن لهم منه واقٍ، ثم ذكر تعالىٰ أَن السبب في إِهلاكهم هو ما قريشٌ عليه من أَن جاءَهم رسول من الله تعالىٰ ببيِّناتٍ من المعجزات والبراهين فكفروا به، وذكر أَن الله تعالىٰ أَخذهم، ووصف نفسه

(١) هكذا في الأصول، وقد وَافَقَ بها قوله جواباً عنها: «عبارة عن الإدراك».

(٢) و﴿وَاقٍ﴾ في موضع خفض معطوف على اللفظ، ويجوز أن يكون في موضع رفع عطفاً على الموضع، والرفع والخفض واحد؛ لأن الياءَ تحذف وتبقى الكسرة دالَّة عليها.

بالقوة وشدة العقاب، وهذا كله بيان في وعيد قريش.

ثم ابتدأ تبارك وتعالىٰ قصة موسى عليه السلام مع فرعون ومَلَئِهِ، وهي قصة فيها للنبي ﷺ تسلية وأُسوة، وفيها لقريش والكفار به وعيدٌ ومثال يخافون منه أَن يحلَّ بهم ما حلَّ بأُولئك من النقمة، وفيها للمؤمنين وعدٌ ورجاءٌ بالنَّصْر والظَّفر وحمد عاقبة الصبر. وآيات موسى كثيرة، وعُظْمها[1] والذي عرضه على جهة التحدي: العصا واليد، فوقعت المعارضة في العصا وحدها، ثم انفصلت القضية عن إِيمان السَّحرة وغلبة الكافرين. و«السُّلطانُ»: البُرْهانُ، وقرأ عيسى بن عمر: [سُلُطَانٍ] بضم اللام، والناسُ على سكونها. وخصَّ تعالىٰ هامان وقارون بالذكر تنبيهاً على مكانهما من الكفر، ولكونهما أَشهر رجال فرعون، وقيل: إِن قارون هذا ليس بقارون بني إِسرائيل، وقيل: هو ذلك ولكنه كان منقطعاً إِلى فرعون خادماً له مستعيناً معه. وقوله: ﴿سَٰحِرٌ﴾ أَي في أَمر العصا، ﴿كَذَّابٌ﴾ في قوله: إِني رسول من الله.

ثم أَخبر عنهم أَنهم لما جاءَهم موسى عليه السلام بالنُّبوَّة والحق من عند الله قال هؤلاءِ الثلاثة وأَجْمع رأيهُم على أَن يُقتل أَبناءُ بني إِسرائيل أَتباع موسى عليه السلام وشُبَّانُهم وأَهْلُ القوة منهم، وأَن تُسْتَحيى النساءُ للخدمة والاسترقاق، وهذا رجوع منهم إِلى نحو القتل الأَول الذي كان قبل ميلاد موسى عليه السلام، ولكن هذا الأَخير لم يتمَّ لهم عزمهم فيه، ولا أَعانهم الله تعالىٰ على شيءٍ منه، وقال قتادة: هذا قتل غير الأَول الذي كان حذر المولود، وسموا من ذكرنا من بني إِسرائيل أَبناءَ كما تقول لأَفخاذ القبيلة أَو المدينة وأَهل الظهور فيها: هؤلاءِ أَبناءُ فلانة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ عبارةٌ وجيزة تعطي قوتها أَن هؤلاءِ الثلاثة لم يقدرهم الله تعالىٰ على قتل أَحد من بني إِسرائيل، ولا نجحت لهم سعاية فيهم، بل أَضلَّ الله سعيهم وكيدهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ

---

(١) أي: وأعظمها وأهمها، وهو الذي عرضه على فرعون وقومه متحدِّياً لهم.

ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾.

الظاهر من أمر فرعون أنه لما بهرت آياتُ موسى عليه السلام انهدَّ ركنه، واضطربت معتقدات أصحابه، ولم يفقد منهم من يجاذبه الخلاف في أمره، وذلك بيِّنٌ من غير ما موضع من قصتهما، وفي هذه الآية على ذلك دليلان: أحدهما قوله: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾، فليست هذه من ألفاظ الجبابرة المتمكنين من إنفاذ أوامرهم، والدليل الثاني مقالة المؤمن وما صدع به، وأن مكاشفته لفرعون أكبر من مساترته، وحكمه بنبوة موسى عليه السلام أظهر من توريته في أمره، وأما فرعون فإنما لجأ إلى المخرقة والاضطراب والتعاطي، ومن ذلك قوله: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾، أي: إني لا أبالي عن ربِّ موسى، ثم رجع إلى قومه يريهم النصيحة والحماية لهم فقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾، والدينُ: السلطان، ومنه قول زهير:

لَئِنْ حَلَلْتَ بِجَوٍّ فـي بَنـي أَسَـدٍ ... في دينِ عَمْرو وحَالَت بَيْنَنا فَدَكُ[1]

وقرأ ابن عامر، وابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: [وَأَنْ]، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: [أَوْ أَنْ]، ورجَّحها أبو عبيدة بزيادة الحرف، فعلى الأُولى خاف أمرين، وعلى الثانية خاف أحد أمرين، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم، والحسن، وقتادة، والجحدري، وأبو رجاءٍ، ومجاهد، وسعيد بن المسيب، ومالك بن أنس: ﴿يُظْهِرَ﴾ بضم الياءِ وكسر الهاءِ ﴿ٱلْفَسَادَ﴾ نصْباً، وقرأ ابن كثير، وابن عامر:

---

(١) البيت من قصيدة قالها زهير حين أغار الحارث بن ورقاء الصداوي الأسدي عَلَى بني عبد الله بن غطفان واستاق إبلَ زهير وراعيَ هذه الإبل واسمه يسار، وبعد هذا البيت يقول مخاطباً الحارث: وهو جواب قوله هنا: لئن حَلَلْت:

لَيَـأتِيَنَّـك مِنّـي مَنْطِـقٌ قَـذِعٌ ... بـاقٍ كمـا دَنَّـس القُبْطِيَّـةَ الـوَدَكُ

والمراد بقوله: دين عمرو: سُلطان عمرو وطاعته، وأراد عمرو بن هند ملك العراق، وفَدَك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، أفاءَها الله على رسول الله ﷺ في سنة سبع للهجرة صلحاً، والقَذِع: الشاتم أقبح شتم، والقُبطية ثياب بيضاء كانت معروفة عندهم، والوَدَك: الدَّسَم يسيل من اللحم والشحم، يقول له: لئن نزلت في حماية عمرو بن هند، ونزلت بعيداً عنِّي وحالت بيننا البلاد، فلن تسلم من لساني وهجائي لك؛ لأنه سيتبعك إلى أبعد مكان، وسيبقى على الدهر تردده أفواه الرواة.

(يَظْهَرَ) بفتح الياءِ والهاءِ [ٱلْفَسَادُ] بالرفع على إسناد الفعل إليه، وهي قراءَة حمزة، والكسائي، وأَبي بكر عن عاصم، والأَعرج، وعيسى، والأَعمش، وابن وثاب، وروي عن الأَعمش أَنه قرأَ: [وَيَظْهَرُ] برفع الراءِ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [وَيَظْهَرَ] بفتح الياءِ.

ولمَّا سمع موسى عليه السلام مقالة فرعون ـ لأَنه كان معه في مجلس واحد ـ دعا ربَّه تعالىٰ وقال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ الآية، وقرأَ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر: ﴿عُذْتُ﴾ ببيان الذَّال، وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [عُذتُّ] بالإِدغام، واختلف عن نافع، وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب: [عُتُّ] على الإِدغام في الخط.

ثم حكى الله تعالىٰ مقالة رجل مؤمن مِن آل فرعون، وشرَّفه بالذكر، وخلَّد ثناءَه في الأُمم، سمعت أَبي رحمه الله تعالىٰ يقول: سمعتُ أَبا الفضل الجوهري على المنبر يقول ـ وقد سئل أَن يتكلم في شيءٍ من فضائل الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم ـ فأَطرق قليلاً ثم رفع رأْسه وقال:

عَنِ المرْءِ لا تَسْأَلْ وسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُـلُّ قَـرِيـنٍ بـالمقَـارنِ يَقْتَـدِي[1]

ماذا تريدون من قومٍ قرنهم الله تعالىٰ بنبيِّه ﷺ، وخصَّهم بمشاهدته وتلقي الوحي منه؟ وقد أَثنى الله عزَّ وجلَّ على رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إِيمانه، فجعله الله تعالىٰ في كتابه وأَثبته في المصاحف لكلام قاله في مجلس من مجالس الكفر، وأَين هو من عمر بن الخطاب رضي الله عنه إِذ جرَّد سيفه بمكة وقال: والله لا أَعبد الله سرًّا بعد اليوم؟

وقرأَت فرقة: [رَجْلٌ] بسكون الجيم كعَضُد وعَضْد، وسَبُع وسَبْع، وقرأَ الجمهور: ﴿رَجُلٌ﴾ بضم الجيم.

واختلف الناس في هذا الرجل ـ فقال السدي وغيره: كان من آل فرعون، وكان يكتم إِيمانه، فـ [يَكْتُمُ] ـ على هذا ـ في موضع الصفة دون تقديم ولا تأْخير، وقال

---

(١) يستشهد ابن عطية بهذا البيت على أن الصحابة كان لهم من الفضل أنهم عاشوا مع النبي ﷺ، وتعلموا منه، وكانوا قرناء له، والمرء يعرف بقرينه. والقرين في اللغة هو صاحبك الذي يقارنك، والجمع قرناءٌ.

مقاتل: كان ابن عمِّ فرعون، وقالت فرقة: لم يكن من أَهل فرعون بل من بني إِسرائيل، وإِنما المعنى: وقال رجل مؤمن يكتم إِيمانه من آل فرعون، ففي الكلام تقديم وتأْخير. والأَول أَصح، ولم يكن لأَحد من بني إِسرائيل أَن يتكلم بمثل هذا عند فرعون، ويحتمل أَن يكون من غير القبط ويقال فيه: من آل فرعون إِذْ كان في الظاهر على دين فرعون ومن أَتباعه، وهذا كما قال أَراكةُ الثقفيُّ يرثي أَخاه ويتعزَّى برسول الله ﷺ:

فَـلاَ تَبْـكِ مَيْتـاً بَعْـدَ مَيْـتٍ أَجَنَّـه ... عَلِـيٌّ وَعَبَّـاسٌ وَآلُ أَبِـي بَكْـر[١]

يعني المسلمين إِذ كانوا في طاعة أَبي بكر رضي الله عنه. وقوله تعالىٰ: ﴿أَن يَقُولَ﴾ مفعول من أَجله، أَي لأَجل أَن يقول، وجلَّح[٢] معهم هذا المؤمن في هذه المقالات، ثم غالطهم بعْدُ في أَن جعله في احتمال الصدق والكذب، وأَراهم أَنها نصيحة. وحذفت النون من [يَكُ] تخفيفاً على ما قال سيبويه، وتشبيهاً بالنون في «يفعلون ويفعلان» على مذهب المبرد، وتشبيهاً بحرفي العلَّة ـ الياءِ والواو ـ على مذهب أَبي علي الفارسي، وقال: كأَن الجازم دخل على «يكن» وهي مجزومة بعد فأَشبهت النون الياءَ من «يقضي» والواو من «يدعو» لأَن حقها على اللسان سواءٌ.

واختلف المتأَولون في قوله: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ فقال أَبو عبيدة وغيره: [بَعْضُ] بمعنى «كُلّ»، وأَنشدوا قول القطامي عُمَيْر بنُ شُيَيْم:

قَـدْ يُـدْرِكُ الْمُتَـأَنِّي بَعْـضَ حَـاجَتِـهِ ... وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِل الزَّلَلُ[٣]

---

(١) وهذا شاهد على أنه يقال للمرءِ: «إنه من آل فلان» إذا كان على دينه ومن أتباعه؛ لأن الشاعر يقول: وَآلُ أبي بكر ويعني بذلك كل من كان على دين أبي بكر رضي الله عنه، وهو في البيت يتعزى عن فقد أخيه بأن هناك من هو أفضل منه وأعظم، وقد مات، فلا يحق لنا أن نبكي عليه بعد أن مات هذا الإنسان العظيم الذي تولى دفنه علي بن أبي طالب والعباس وجميع المؤمنين الذين كانوا في طاعة الصديق رضي الله عنه.

(٢) جلَّحَ في الأمر: أقدم ومضى.

(٣) القطامي اسمه عُمير بن شُيَيْم، وهو من بني تغلب، والبيت مما يُتَمَثَّل به من شعره، وهو في البحر المحيط، وفي القرطبي وفي اللسان، وقبله:

والنَّـاسُ مَـنْ يَلْـقَ خَيْـراً قَـائِلُـونَ لَـهُ ... مَـا يَشْتَهِـي، ولأُمِّ الْمُخْطِـىء الْهَبَـل

والمتأني في الأمر: المُتَرَفِّق فيه المُتَمَهِّل، والزَّلَلُ: الخطأُ والسقوط. وقد نقل في اللسان عن أبي إسحاق قوله: «مِن لطيف المسائل أن النبي ﷺ إذا وعد وعداً وقع الوعد بأسره ولم يقع بعضه، فمن أين جاز أن يقول: ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾؟ وهذا باب من النظر يذهب فيه المُناظر إلى إلزام حجته بأيسر=

وقال الزجاج: هو إِلزامُ الحُجَّة بأَيسر ما في الأمر، وليس فيه نفي إصابة الكلِّ، وقالت فرقة: أَراد: يصبكم بعض العذاب الذي يَذْكُر، وذلك كاف في هلاككم، ويظهر لي أَن المعنى: يصبكم القسم الواحد مما يَعِد به، وذلك هو بعض ما يَعِد؛ لأَنه عليه السلام كان وعدهم إِن آمنوا بالنعيم، وإِن كفروا بالعذاب، فإِن كان صادقاً فالعذابُ بعض ما وعد به، وقالت فرقة: أَراد ببعض ما يعدكم: عذاب الدنيا لأَنه بعض عذاب الآخرة، أَي: وتصيرون بعد ذلك إِلى الباقي، وفي البعض كفاية في الإِهلاك.

ثم وعظهم هذا المؤمن بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾، قال السدي: مُسْرِفٌ بالقتل، وقال قتادة: بالكفر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

قول هذا المؤمن: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استنزالٌ لهم ووعظ من جهة شهواتهم، وتحذير من زوال ترفهم، ونصيحة لهم في أَمر دنياهم، وقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يريد أَرض مصر وما والاها من مملكتهم. ثم قررهم على من هو الناصر لهم من بأس الله تعالىٰ، وهذه الأَقوال تقتضي زوال هيبة فرعون، ولذلك استكان هو ورجع يقول: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ كما يقول من لا تحكُّم له. وقوله: ﴿أُرِيكُمْ﴾ من رأَى، وقد عُدِّي بالهمزة، فللفِعْلِ مفعولان: أَحدهما الضمير في ﴿أُرِيكُمْ﴾، والآخر ما في قوله: ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، وكان الكلام: «أُريكم ما أَرَى»، ثم أَدخل في صدر الكلام

= ما في الأمر، وليس في هذا معنى الكُلِّ، وإنما ذكر البعض ليُوجب له الكلَّ؛ لأن البعض هو الكلُّ، ومثل هذا قول الشاعر: (قد يدرك المتأني... البيت)؛ لأن القائل إذا قال: أَقَلُّ ما يكون للمتأني إدراك بعض الحاجة، وأقل ما يكون للمستعجل الزَّلَلُ، فقد أبان فضل المتأني على المستعجل بما لا يقدر الخصم أن يدفعه. فكأن مؤمن آل فرعون قال لهم: أقل ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعضُ الذي يعدكم، وفي بعض ذلك هلاكُكم».

(ما) النافية وقَلَب معناها بـ (إِلاَّ) الموجبة تخصيصاً وتأْكيداً للأَمر، كما تقول: «قام زيد»، فإِذا قلت: «ما قام إِلاَّ زيد» فقد أَفَدْتَ تخصيصه وتأْكيد أَمره، و(أَرى) متعدية إِلى مفعول واحد، وهو الضمير الذي فيه، العائدُ على (ما)، تقديره: إِلاَّ ما أَراه، وحَذْفُ هذا المفعول من الصلة حسَنٌ لطول الصلة.

وقرأَ الجمهور: ﴿ٱلرَّشَادِ﴾ مصدر (رشد)، وفي قراءَة معاذ بن جبل رضي الله عنه: [سبيل الرَّشَّادِ] بشد الشين، قال أَبو الفتح: وهو اسم فاعل في بِنْيَته مبالغة، وهو من الفعل الثلاثي (رَشَدَ)، فهو كَعَبَّاد من عَبَدَ[1]، وقال النحاس: هو وهم، وتوهمه من الفعل الرباعيِّ. وقوله رحمه الله مردود، قال أَبو حاتم: كان معاذ بن جبل يفسرها: سبيل الله، ويبعدُ عندي هذا على معاذٍ رضي الله عنه، وهل كان فرعون يدَّعي إِلاَّ أَنه إِلـٰه؟ ويقلق بناءُ اللفظة على هذا التأْويل.

واختلف الناس في المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ ـ فقال الجمهور: هو المؤمن المذكور أَوَّلاً، قصَّ الله تبارك وتعالىٰ أَقاويله إِلى آخر الآيات، وقالت فرقة: بل كلام ذلك المؤمن قديم، وإِنما أَراد الله تعالىٰ بالذي آمن موسى عليه السلام، واحتجت هذه الفرقة بقوَّة كلامه، وأَنه جَلَّح معهم بالإِيمان، وذكر عذاب الآخرة، وغير ذلك، ولم يكن كلام الأَول إِلاَّ بملاينة لهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أَي: مثل يوم من أَيامهم؛ لأَن عذابهم لم يكن في يوم واحد ولا عصر واحد، و«الأَحزاب»: المتحزِّبون على أَنبياءِ الله تعالىٰ عليهم الصلاة والسلام، و[مِثْلَ] الثاني بدل من الأَول، و«الدَّأْبُ»: العادة، وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أَي: من نفسه، أَي: يظلمهم هو، فالإِرادة هنا على بابها لأَن الظلم منه لهم لا يقع البَتَّةَ، وليس معنى الآية أَن الله لا يريد ظُلْمَ بَعضهم لبعض، والبرهان وقوعه، ومحال أَن يقع إِلاَّ ما يريد الله تعالىٰ، وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ معناه: ينادي قوم قوماً ويناديهم الآخرون.

---

(١) الذي قاله أبو الفتح بشيءٍ من التفصيل هو: «ينبغي أن يكون هذا من قولهم: رشِدَ يَرْشَدُ، كعَلاَّم من عَلِم يَعْلَم، أو من رَشَدَ يَرْشُدُ، كعَبَّادٍ من عَبَدَ يَعْبُدُ، ولا ينبغي أن يحمل على أنه من أَرْشَد يُرْشِدُ؛ لأن فعَّالاً لم يأت إلا في أحرف محفوظة، وهي أَجْبَر فهو جَبَّار، وأقصر فهو قصَّار، وأدرك فهو درَّاك»، وحديثه في ذلك طويل، راجع المُحْتَسب.

واختلف المتأولون في التَّنادي المشار إليه ـ فقال قتادة: هو نداءُ أَهل الجنة أَهلَ النار: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾(١) الآية. ونداءُ أَهل النَّار لهم: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾(٢) الآية، وقالت فرقة: بل هو النداءُ الذي يتضمنه قوله تعالىٰ: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾(٣)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: هو التنادي الذي يكون بالناس عند النفخ في الصُّور نفخة الفزع في الدنيا، وأَنهم يفرون على وجوههم للفزع الذي ينالهم، وينادي بعضهم بعضاً، وروي هذا التأويل عن أَبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ(٤)، ويحتمل أَن يكون المراد التذكير بكل نداءٍ في القيامة فيه مشقة على الكفار والعصاة ولها أَجوبة بنداءٍ، وهي كثيرة، منها ما ذكرناه، ومنها: يا أَهل النار خلودٌ لا موت، يا أَهل الجنة خلودٌ لا موت، ومنها نداءُ أَهل الغدرات، والنداءُ ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾(٥)، والنداءُ ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾(٦)، إلى غير ذلك.

وقرأَت فرقة: [التَّنَادْ] بسكون الدال في الوصل، وهذا على إجرائهم الوصل مجرى الوقف في غير ما موضع، وقرأَ نافع، وابن كثير: [التَّنَادِي] بالياءِ في الوصل والوقف، وهذا على الأَصل، وقرأَ الباقون: [التَّنَادِ] بغير ياءٍ فيهما، وروي ذلك عن نافع، وابن كثير، وحذفت الياءُ مع الألف واللام حملاً على حذفها مع معاقبها وهو التنوين، وقال سيبويه: حذفت الياءُ تخفيفاً، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما، والضحاك، وأَبو صالح، والكلبي: [التَّنَادِّ] بشدِّ الدَّال، وهذا معنى آخر ليس من النداءِ، بل هو من البعير إذا هرب(٧)، وبهذا المعنى فسَّر ابن عباس والسُّدي هذه الآية، وروت هذه الفرقة في

---

(١) من الآية (٤٤) من سورة (الأعراف).

(٢) من الآية (٥٠) من سورة (الأعراف).

(٣) من الآية (٧١) من سورة (الإسراء).

(٤) ذكر هذا الحديث عليُّ بن معبد، والطبري، وغيرهما، وهو عن أَبي هريرة، وفيه: «فتكون الأرض كالسفينة في البحر تضربها الأمواج فيميد الناس على ظهرها، وتذهل المراضع، وتضع الحوامل ما في بطونها، وتشيب الولدان، وتتطاير الشياطين هاربة فتتلقاها الملائكة تضرب وجوهها، ويولِّي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً، وهي التي يقول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، الحديث بكماله».

(٥) من قوله تعالىٰ في الآية (١٠) من هذه السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية.

(٦) من الآية (١٦) من هذه السورة (غافر).

(٧) قال أبو الفتح بن جني: «والتَّنادُّ تَفَاعُل، مصدر تَنَادَّ القومُ، أي تفرقوا، من قولهم: نَدَّ البعير يَنِدُّ، كَنَفَرَ=

هذا المعنى حديثاً أَن الله تعالىٰ إِذا طوى السموات نزلت ملائكة كل سماءٍ فكانت صفًّا بعد صف مستديرة بالأَرض التي عليها الناس للحساب، فإِذا رأَى العالم هول القيامة وأَخرجت جهنم عنقاً إِلى أَهلها، فرَّ الكفار وندُّوا مدبرين إِلى كل وجهة، فتردهم الملائكة إِلى المحشر خائبين لا عاصم لهم(١)، قالت هذه الفرقة: ومصداق هذا الحديث في كتاب الله تعالىٰ قوله سبحانه: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾(٢)، وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾(٣)، وقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾(٤).

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ معناه على بعض الأَقاويل في التَّنادي: تفرون هروباً من الفزع، وعلى بعضها: تفرُّون مُدْبرين إِلى النَّار. والعَاصِمُ: المنجي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾.

= ينْفِر، والتَّنَادُّ كالتنافُر، وأصله التَّنَادُدُ، فأُسكنت الدال الأولى وأُدغمت في الثانية استثقالاً لاجتماع مِثلين متحركين».

(١) أخرج هذا الحديث ابن المبارك، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن الضحاك رضي الله عنه، قال: «إذا كان يوم القيامة أمر الله السماءَ الدنيا فتشققت بأهلها، فتكون الملائكة على حافتها حتى يأمرهم الرب، فينزلون فيحيطون بالأرض ومن بها، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، ثم الخامسة، ثم السادسة، ثم السابعة، فصفوا صفاً دون صف، ثم ينزل الملك الأعلى من مجنبته اليسرى جهنم، فإذا رآها أهل الأرض ندُّوا فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قول الله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾، وذلك قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾، وقوله: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾، وذلك قوله: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾، يعني ما تشقق فيها، فبينما هم كذلك إذْ سمعوا الصوت فأقبلوا إلى الحساب».

(٢) من الآية (١٧) من سورة (الحاقة).

(٣) من الآية (٢٢) من سورة (الفجر).

(٤) من الآية (٣٣) من سورة (الرحمن).

قدمنا الخلاف في هذه الأقوال كلها، هل هي من قول مؤمن آل فرعون أو من قول موسى عليه السلام؟ وقالت فرقة من المتأولين منهم الطبري: يوسف المذكور هو يوسف بن يعقوب عليه الصلاة والسلام، وقالت فرقة: بل هو حفيده يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام. و«البيِّنَات» التي جاءَ بها يوسف عليه السلام لم تُعَيَّن لنا حتى نقف على معجزاته، وروي عن وهب بن مُنَبِّه أن فرعون موسى لحق يوسف، وأن هذا التقريع كان له. وروى أشهب عن مالك أنه بَلَغَه أن فرعون عمّر أربعمائة وأربعين سنة، وقالت فرقة: بل هو فرعون آخر.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ حكاية حال لريبة قولهم لأنهم إنما أرادوا: لن يجيءَ بعد هذا من يدَّعي مثل ما ادَّعى، ولم يُقِرَّ أُولئك قطُّ برسالة الأول ولا الآخر ولا بأن الله تعالىٰ يبعث الرُّسل، فحكى ريبة قولهم، وجاءَت عبارتهم مشنعة عليهم، ولذلك قال لهم بأثر هذا: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾، أي: كما صيَّركم من الكفر والضلالة بهذا الحدِّ فنحو ذلك هو إضلاله لصنفكم أهل السرف في الأمور وتعدي الطور والارتياب بالحقائق، وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب، وابن مسعود: [قُلْتُمْ أَلَنْ يبعث اللهُ].

ثم أنحى لهم على قوم صفتُهم موجودة في قوم فرعون، فكأنه أرادهم فزال عن مخاطبتهم حُسْنَ أدب واستخلاباً، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي بالإبطال لها والردِّ بغير برهان ولا حجَّة أتتهم من عند الله. ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ جدالُهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، فاختصر ذكر الجدال لتقدم الدلالة فيما ذكر عليه، وردَّ الفاعل بـ ﴿كَبُرَ﴾ نصباً على التمييز، كقولك: تَفَقَّأْتُ شَحماً[1] وتَصَبَّبْتُ عَرَقاً، و﴿يَطْبَعُ﴾ معناه: يختم بالضلال ويحجب عن الهدى.

وقرأ أبو عمرو، والأعرج ـ بخلاف عنه ـ: [عَلَى كُلِّ قَلْبٍ] بالتنوين [مُتَكبِّرٍ] على الصفة، وقرأ الباقون بالإضافة إلى [مُتَكبِّرٍ]، قال أبو علي: المعنى: يطبع الله على القلوب إذا كانت قلباً قلباً من كل متكبر، ويؤيد ذلك أن في مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [عَلَى قَلْبِ كُلِّ مُتَكبِّرٍ][2].

(١) معناها أن الجسم تشقق فخرج منه الشَّحم، (وتَفَقَّأ) مطاوع (فَقَأ).
(٢) وكأن تقدير الكلام: يطبع الله على كلِّ قلب كلِّ متكبر جبار، فحذفت (كلّ) الثانية لتقدم ما يدل عليها، =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويتجه أن يكون المراد عموم قلب المتكبر الجبار بالطبع، أي لا ذرَّة فيه من الإيمان ولا مقاربة، فهي عبارة عن شدَّة إطلاقة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

ذكر الله عزَّ وجلَّ مقالة فرعون حين أعيته الحيل في مقاومة موسى عليه السلام بحجة، وظهر لجميع المشاهدين أن ما يدعو إليه موسى عليه السلام هو عبادة إلٰه السماءِ، فنادى فرعون هامان ـ وهو وزيره والناظر في أُموره ـ فأمره أن يبني له بناءً عالياً نحو السماءِ، و«الصَّرْحُ» كل بناءٍ عظيم شنيع القدر، مأخوذ من الظهور والصراحة، ومنه قولهم: «صريح النَّسب، وصرَّح بقوله»، فيروى أن هامان طبخ الآجُرَّ ـ ولم يُطبخ قبله ـ وبناه ارتفاع أربعمائة ذراع، فبعث الله تبارك وتعالىٰ جبريل عليه السلام فمسحه بجناحه فكسره ثلاث كسر، تفرقت اثنتان ووقعت ثالثة في البحر، وروي أن هامان لم يكن من القبط، وقيل: كان منهم، و«الأَسْبَابُ»: الطُّرق، قاله السدي، وقال قتادة: الأَبواب، وقيل: عنى: لعله يجد مع قربه من السماءِ سبباً يتعلق به، وقرأ الجمهور: [فَأَطَّلِعُ] رفعاً عطفاً على [أَبْلُغُ]، وقرأ حفص عن عاصم، والأعرج: [فَأَطَّلِعَ] نصباً بالفاءِ في جواب التمني. ولما قال فرعون بمحضر من مَلَئِهِ: ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ اقتضى كلامه الإقرار بإلٰه موسى، فاستدرك ذلك استدراكاً قلقاً بقوله: ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾.

= ولو لم نقدرها لصار المعنى إلى ما ذكره ابن عطية بعد ذلك من أنه يتجه أن يُراد عموم القلب المتكبر بالطبع، بمعنى أن الله يطبع على كل قلب فلا يبقى فيه جزءٌ بدون طبع.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ﴾ أي أنه كما تَخَرَّق[١] فرعون في بناءِ الصَّرح والأخذ في هذه الفنون المقصرة، كذلك جرى جميع أَمره، وزُيِّن له، أي زيَّن الشيطان سوءَ عمله في كل أَفعاله، وقرأَ الجمهور: ﴿وَصَدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ بفتح الصاد، بإسناد الفعل إلى فرعون، وقرأَ حمزة، والكسائي، وعاصم، وجماعة بضم الصاد وفتح الدَّال المشدَّدة: [وَصُدَّ] عطفاً على [زُيِّنَ] وحملاً عليه، وقرأَ يحيى بن وثاب: [وَصِدَّ] بكسر الصَّاد على معنى صُدَّ أَصله صُدِدَ، فنقلت الحركة ثم أُدغمت الدال في الدال، وقرأَ ابن أَبي إِسحاق، وعبد الرحمن بن أَبي بكرة: [وَصَدٌّ] بفتح الصاد ودال مهملة مُشَدَّدة مرفوعة منونة عطفاً على قوله: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾. و«ٱلسَّبِيلُ»: سبيل الشرع والإيمان، و«التَّبَابُ»: الخُسْران، ومنه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[٢]، وبه فسَّر مجاهد وقتادة، وتَبُّ فرعون ظاهرٌ لأَنه خسر ماله في الصَّرح وغيره، وخسر مُلْكه، وخسر نفسه، وخُلِّد في جهنم.

ثم وعظ الذي آمن فدعا إلى اتِّباع أَمر الله تعالىٰ، وقوله: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ﴾ يقوِّي أَن المتكلِّم موسى عليه السلام، وإِن كان الآخر يحتمل أَن يقول ذلك، أَي: اتبعوني في اتباع موسى عليه السلام.

ثم زهَّد في الدنيا وأَخبر أَنها شيءٌ يُتَمَتَّع به قليلاً، ورغَّب في الآخرة، إِذ هي دار الاستقرار. وقرأَ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وأَبو رجاءٍ، وشيبة، والأَعمش: [يَدْخُلُونَ] بفتح الياءِ وضم الخاءِ، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وأَبو بكر عن عاصم، والأَعرج، والحسن، وأَبو جعفر، وعيسى: [يُدْخَلُونَ] بضم الياءِ وفتح الخاءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾

---

(١) تَخَرَّق: اختلق الكذب وبالغ فيه.

(٢) الآية (١) من سورة (المَسَد).

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ (٤٥)﴾.

قد تقدم ذكر الخلاف، هل هذه المقالة لموسى عليه السلام أو لمؤمن آل فرعون. والدعاءُ إلى طاعة الله تعالىٰ وعبادته وتوحيده هو الدعاءُ إلى سبب النجاة، فجعله دعاءً إلى النجاة اختصاراً واقتضاباً، وكذلك دعاؤهم إياه إلى الكفر واتِّباع دينهم هو دعاءٌ إلى سبب دخول النار، فجعله دعاءً إلى النار اختصاراً، ثم بيَّن عليهم ما بين الدعوتين من البَوْن في أَن الواحدة كُفْر وشِرْك، والأُخرى دعوة إلى الإِسناد إلى عزَّة الله تعالىٰ وغفرانه.

وقوله: ﴿مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ليس معناه أَني جاهل به، بل معناه أَن العلم بأَن الأَوثان وفرعون وغيره ليس لهم مدخل في الأُلوهية، وليس لأَحد من البشر علمٌ بوجه من وجوه النظر بأَن لهم في الأُلوهية مدخلاً، بل العلم اليقين بغير ذلك من حدوثهم متحصل.

و﴿لَا جَرَمَ﴾ مذهب سيبويه والخليل أَنها (لا) النافية دخلت على (جَرَمَ)، ومعناها: ثَبَتَ وَوَجَبَ، ومن ذلك جَرَمَ بمعنى كَسَبَ، كقول الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتَ أَبَا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً … جَرَمَتْ فَزَارَةُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا[1]

أَي أَوجبت لهم ذلك وثَبَّتته لهم، فكأَن الكلام نفي للكلام المردود عليه بـ (لا)، وإِثبات لمستأنف بـ (جَرَمَ)، و[أَنَّ] ـ على هذا النظر ـ في موضع رفع بـ [جَرَمَ]،

(١) البيت للفزاريِّ، أبي أسماءَ بن الضَّريبة، وقيل هو لعطية بن عُفَيْف. وهو في الكتاب لسيبويه، وفي الخزانة، واللسان (جرم)، والاشتقاق، والمقتضب. والبيت يقرأ بضم التاءُ في (طَعَنْت) وهو غلط والصواب فتحها؛ لأن الشاعر خاطب بها كُرْزاً العقيلي ورثاه، وكان كُرْزٌ قد طعن أبا عُيَيْنَة وهو حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري في يوم الحاجر، ويدل على ذلك قوله قبله: (يا كُرْزُ إنَّكَ قد فَتَكْتَ بفارسٍ)، وفي الخزانة قال سيبويه: «إن جرم في البيت فعل ماض بمعنى حَقَّ، وفزارة فاعل، وأن يغضبوا بدل اشتمال، أي حق غَضَبُ فزارة بعده»، وقال الفراءُ: «إن الرواية هي بنصب فزارة، أي كسبت الطعنة فزارةَ الغَضَبَ، أي جرمت لهم الغَضَبَ»، وليس في كلام سيبويه ما يؤدي هذا المعنى، بل إن كلامه يقتضي أن (جرم) فعل يرفع الفاعل، والفاعل في البيت ضمير الطعنة. والكلام في البيت طويل كثير، والخلاف بين النحويين فيه متعدد، والمهم أن (جَرَمَ) عند سيبويه فعل، وعند الفراء اسم. وسيبويه يرى أن (لا) زائدة قبل (جرم) إلا أنها لزمتها لأنها كالمثل، ويرى الخليل أن ﴿لَا جَرَمَ﴾ إنما تكون جواباً لما قبلها من الكلام، تقول: الرجل كان كذا وكذا، فتقول: لا جرم أنهم سيندمون، أو أنه سيكون كذا وكذا.

وكذلك [أَنَّ] الثانية والثالثة، ومذهب جماعة من أَهل اللسان أَن ﴿لَاجَرَمَ﴾ هي بمعنى (لاَ بُدَّ) و(لاَ مَحَالَة) فـ [أَنَّ] ـ على هذا النظر ـ في موضع نصب بإِسقاط حرف الجرِّ، أَي: لا محالة بأَنَّ ما، و[مَا] بمعنى (الذي) واقعة على الأَصنام وما عبدوه من دون الله تبارك وتعالىٰ.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أَي ليس له قَدْر وحقٌّ يجب أَن يُدعى أَحدٌ إِليه، فكأَنه قال: تدعونني إِلى ما لا غناءَ له وبَيْن أَيدينا خطب جليل من الرَّدِّ إِلى الله تعالىٰ. وأَهلُ الإِسراف والشِّرك هم أَصحاب النار بالخلود والملازمة، أَي: وكيف أَطيعكم مع هذه الأُمور الحقائق وفي طاعتكم رفض العمل بحسبها والخوف منها؟ قال ابن مسعود ومجاهد: المسرفون سَفَّاكُوا الدماءِ بغير حِلِّها[1]، وقال قتادة: هم المشركون.

ثم توعَّدهم بأَنهم سيذكرون قوله هذا عند حلول العذاب بهم، وسوَّف بالسين[2] إِذ الأَمر يحتمل أَن يخرج الوعيد في الدنيا أَو في الآخرة، وهو تأْويل ابن زيد، وروى اليزيديُّ وغيره عن أَبي عمرو فتح الياءِ من [أَمْرِيَ]، والضمير في [فَوَقَاهُ] يحتمل أَن يعود على موسى عليه السلام أَو على مؤمن آل فرعون، وقال قائلوا ذلك: إِن ذلك المؤمن نجا مع موسى عليه السلام وفرَّ في جملة من فرَّ معه، وكان من المتَّبعين. وقرأَ عاصم: [فَوَقَاهُ] بالإِمالة. و[حَاقَ] معناه: نزل، وهي مستعملة في المكروه، وسوءُ العذاب: الغَرَقُ وما بعده من النار وعذابها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾، [ٱلنَّارُ] رفع على البدل من [سُوءُ]، وقالت

---

(١) في القرطبي: «بغير حقِّها».

(٢) أي قال: فَسَتَذْكُرونَ بالسِّين، وهي سين التسويف، أي التأخير والتَّطويل.

فرقة: [ٱلنَّارُ] رفع بالابتداءِ، وخبره [يُعۡرَضُونَ].

وقالت فرقة: هذا الغُدُوُّ والْعَشِيُّ هو في الدنيا، أَي: في كلِّ غُدُوٍّ وَعَشِيٍّ من أَيام الدنيا يعرض آلُ فرعون على النار[١]، وروي في ذلك عن الهُذَيل بن شرحبيل، والسُّدي أَن أَرواحهم في أَجواف طير سود تروح بهم وتغدو إِلى النار، وقاله الأَوزاعي حين قال له رجل: إِني رأَيت طيوراً بيضاً تغدو من البحر ثم ترجع بالعشي سوداً مثلها، قال الأَوزاعي: تلك هي التي في حواصلها أَرواح آل فرعون، يحترق ريشها ويسودُّ بالعرض على النار، وقال كعب بن محمد القرظي وغيره: أَراد تعالىٰ أَنهم يُعرضون في الآخرة على النار على تقدير ما بين الغُدُوِّ والعَشيِّ؛ إِذْ لا غُدُوَّ ولا عَشيَّ في الآخرة، وإِنما ذلك على التقدير بأَيام الدنيا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يحتمل أَن يكون [يَوۡمَ] عطفاً على [عَشِيًّا] والعامل فيه [يُعۡرَضُونَ]، ويحتمل أَن يكون كلاماً مقطوعاً والعامل في [يَوۡمَ] [أَدۡخِلُوا]، والتقدير على كل قول: «يقال أَدْخلوا». وقرأَ نافع، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، والأَعرج، وأَبو جعفر، وشيبة، والأَعمش، وابن وثاب، وطلحة: [أَدۡخِلُوا] بقطع الأَلف، وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وابن كثير، وأَبو عمرو، وابن عامر، وأَبو بكر عن عاصم، والحسن، وقتادة: [ٱدۡخُلُوا] بصلة الأَلف على الأَمر لآل فرعون، و[آلَ] ـ على هذه القراءَة ـ منادى مضاف، و[أَشَدَّ] نصب على الظرفية.

والضمير في قوله: [يَتَحَاجُّونَ] لجميع كفار الأُمم، وهذا ابتداءُ قصص لا يختص بآل فرعون، والعامل في [إِذۡ] فعل مضمر تقديره: واذكر، وقال الطبريُّ: و[إِذۡ] هذه عطف على قوله تعالىٰ: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ﴾[٢].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد، و«المُحَاجَّةُ»: التَّحَاوُرُ بالحجة والخصومة. و«الضُّعَفَاءُ» يريد: في القَدْر والمنزلة في الدنيا، و«ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوا» هم أَشراف الكفار وكبراؤُهم، ولم

---

(١) خرَّج البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعَشِيِّ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة».

(٢) من الآية (١٨) من هذه السورة.

يصفهم بالكِبْر إلاَّ من حيث استكبروا، لا أنهم في أنفسهم كبراءُ، ولو كانوا كذلك في أنفسهم لكانت صفتهم الكبراءَ أو نحوه مما يوجب الصفة لهم، و«التَّبَعُ» قيل: هو جمعٌ واحده تابعٌ كغائب وغَيَب[1]، وقيل: هو مفرد يوصف به الجمع كعَدْل وزَوْر وغيره. وقولهم: ﴿مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ أي تحملون عنا كَلَّه[2] ومَشَقَّته، فأخبرهم المستكبرون بأن الأمر قد انجزم بحصول الكُلِّ منهم فيها، وأن حكم الله تعالىٰ قد استمرَّ بذلك.

وقولهم: ﴿كُلٌّ فِيهَآ﴾ ابتداءٌ وخبر، والجملة خبر [إنَّ]، وقرأ ابن السميفع: [إنا كلاً فيها] بالنصب على التأكيد، ثم قال جميع من في النَّار لخزنتها وزبانيتها: ادعوا ربكم عسَى أن يخفف عنَّا مقدار يوم من أيام الدنيا من العذاب، فراجعتهم الخزنة ـ على معنى التوبيخ والتقرير ـ ﴿أو لم تك تأتيكم رسلكم﴾ الآية، فأقرَّ الكفار عند ذلك وقالوا: [بَلَى]، أي قد كان ذلك، فقال لهم الخزنة عند ذلك: فادعوا أنتم إذاً، وهذا على معنى الهُزْءِ بهم، أي: فادعوا أيُّها الكافرون الذين لا معنى لدعائكم، وقالت فرقة: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ هو من قول الخزنة، وقالت فرقة: هو من قول الله تعالىٰ إخباراً منه لمحمد ﷺ، وجاءَت هذه الأَفعال على صيغة المضي ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ ـ لأَنها وصف حال مُتيقنة الوقوع فَحَسُنَ ذلك فيها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾.

أَخبر الله تعالىٰ أَنه ينصر رسله عليهم السلام والمؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة، قال بعض المفسرين: وهو خاصٌّ فيمن أَظهره الله تعالىٰ على أُمته كنوح

(١) أوضح منها أنه مثل خادم وخَدَم، وعاسٌّ وعَسَس، ورَاصِدٌ ورَصَد، وهَامِلٌ وهَمَل، وهذه الأخيرة تقال للبعير إذا ضلَّ وأُهمل.

(٢) من معاني الكَلِّ: المصيبة تحدث، فالمعنى: تحملون عنا مصيبتنا التي حدثت لنا.

وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وليس بعام لأَنا نجد من الأَنبياءِ عليهم السلام من قتله قومه كيحيى عليه السلام ولم ينصر عليهم. وقال السدي: الخبر عام على وجهه، وذلك أَن نُصرة الرسل والأَنبياءِ عليهم الصلاة والسلام واقعة ولا بُدَّ، إِمَّا في حياة الرُّسل المنصورين كنوح وموسى عليهما السلام، وإِمَّا فيما يأْتي به الزمان بعد موتهم، أَلا ترى ما صنع الله تبارك وتعالىٰ ببني إِسرائيل بعد قتلهم يحيى عليه السلام بتسليط بختنصر عليهم حتى انتصر ليحيى عليه السلام؟ ونصر المؤمنين داخل في نصر الرُّسل عليهم السلام، وأَيضاً فقد جعل الله تعالىٰ للمؤمنين الفضلاءِ ودًّا، ووهبهم نصراً إِذا ظُلِموا، وحضت الشريعة على نُصرتهم، ومنه قول النبي ﷺ: «من ردَّ عن أَخيه المسلم في عرضه كان حقًّا على الله أَن يردَّ عنه نار جهنم»[1]، وقوله ﷺ: «من حمى مؤمناً من منافق يغتابه بعث الله مَلَكاً يحميه يوم القيامة»[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾، يريد يومَ القيامة، وقرأَ الأَعرج، وأَبو عمرو ـ بخلاف ـ: [تَقُومُ] بالتاءِ، وقرأَ نافع، وأَبو جعفر، وشيبة: [يَقُومُ] بالياءِ، و[ٱلأَشْهَادُ] يحتمل أَن يكون من الشهادة، ويحتمل أَن يكون من المشاهدة بمعنى المصدر، وقال الزجاج: أَشْهَادٌ جمع شاهد كصاحب وأَصحاب، وقالت فرقة: أَشْهَادٌ جمع شَهْد، وشَهْد جمع شاهد كصاحب وصَحْب وتاجر وتَجْر، وقال الطبري: أَشهاد جمع شهيد كشريف وأَشراف.

و﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ﴾ بدل من الأَول، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وقتادة، وعيسى، وأَهل مكة: [لا تَنْفَعُ] بالتاءِ من فوق، وقرأَ الباقون: [لا يَنْفَعُ] بالياءِ، وهي قراءَة أَبي جعفر، وطلحة، وعاصم، وأَبي رجاءٍ، وهذا لأَن تأْنيث المعذرة غير حقيقي، ولأَن

---

(١) أخرجه أحمد، والترمذي وحسَّنه، وابن أبي الدنيا في ذمِّ الغيبة، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي الدرداءِ رضي الله عنه، وفي آخره كما ذكره الإمام السيوطي في الدر المنثور: (ثم تلا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ الآية)، وفي القرطبي أن هذا الخبر عن أبي الدرداء، وأن بعض المحدِّثين يقول إنه عن النبي ﷺ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣ـ٤٤١)، وأبو داود في الأدب، ولفظه كما في مسند أحمد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن النبي ﷺ قال: «من حمى مؤمناً من منافق يعيبه بعث الله تبارك وتعالىٰ مَلَكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن بغى مؤمناً بشيء يريد شينه حبسه الله تعالىٰ على جسر جهنم حتى يخرج مما قال».

الحائل قد وقع، و«المَعْذِرَةُ» مصدر كالعُذر. و[ٱللَّعْنَةُ]: الإبعاد، و﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: سوءُ عاقبة الدار.

ثم أَخبر الله تعالىٰ بقصة موسى عليه السلام وما آتاه الله تعالىٰ من النُّبُوَّة تأنيساً لمحمد ﷺ، وضَرْبَ أُسْوة، وتَذْكيراً بما كانت العرب تعرفه من أَمر موسى عليه السلام، فيُبيِّن ذلك أَن محمداً ﷺ ليس ببدع من الرُّسل. و«الهُدَى»: النُّبُوَّة والحكمة، والتوراة تعُمُّ ذلك جميعه. وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ عبارة عن أَن طوائف بني إسرائيل قرناً بعد قَرْن تصير فيهم التوراة إماماً، فكان بعضهم يرثها عن بعض، وتجيءُ الوراثة في حق الصدر الأَول منهم على تجوُّز. و«ٱلْكِتَابُ»: التوراة.

ثم أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالصبر وانتظار إنجاز الوعد، أَي: فستكون عاقبة أَمرك كعاقبة أَمره، وقال الكلبي: نسخت آيةُ القتال الصبرَ حيث وقع، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ يحتمل أَن يكون ذلك قبل إعلام الله إيَّاه أَنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأَخر؛ لأَن آية هذه السورة مكية وآية سورة الفتح مدنية متأَخرة، ويحتمل أَن يكون الخطاب في هذه الآية له والمراد أُمَّته، أَي أَنه إذا أُمر هو بهذا فغيره أَحرى بامتثاله. و«الإِبْكَارُ» والبكور بمعنى واحد، وقال الطبري: الإبكار من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس، وحكى عن قوم أَنه من طلوع الشمس إلى ارتفاع لضحى، وقال الحسن: [بِالْعَشِيِّ] يريد صلاة العصر، [وَٱلإِبْكَارِ] يريد به صلاة الصبح.

ثم أَخبر تعالىٰ عن أُولئك الكفار الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة ولا برهان، وهم يريدون بذلك طمسها والرَّد في وجهها، أَنهم ليسوا على شيءٍ بل في صدورهم وضمائرهم كِبْر وأَنَفَة عليك حسداً منهم على الفضل الذي آتاك الله تعالىٰ، ثم نفى أَن يكونوا يبلغون آمالهم بحسب ذلك الكِبْر فقال: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾، وهنا حذف مضاف تقديره: ببالغي إرادتهم فيه، وهذا النفي الذي يتضمن أَنهم لا يبلغون أَملاً تأْنيسٌ لمحمد ﷺ. ثم أَمره بالاستعاذة بالله في كل أَمره من كُلِّ مُسْتعاذٍ منه لأَن الله يسمع أَقواله وأَقوال مخالفيه، وهو بصير بمقاصدهم ونيَّاتهم ومُجَازٍ كلاً بما استوجبه، والمقصد بأَن يُستعاذ منه عند قوم الكِبْر المذكور، كأَنه قال: هؤلاءِ لهم كِبْر لا يبلغون منه أَملاً، فاستعذ بالله من حالهم في ذلك. وذكر الثعلبي أَن هذه الاستعاذة من الدَّجال وفتنته، والأَظهر ما قدَّمناه من العموم في كل مُسْتَعاذٍ منه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾
وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ
رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ
دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآيةَ توبيخٌ لهؤلاءِ الكفار المتكبرين، كأَنه تعالىٰ قال: مخلوقات الله تعالىٰ أكبر وأَجل قدراً من خلق البشر، فما لأَحد منهم أَن يتكبر على خالقه، ويحتمل أَن يكون الكلام في معنى البعث والإِعادة، فَأَعْلم تعالىٰ أَن الذي خلق السموات والأَرض قويٌّ قادر على خلق الناس تارةً أُخرى، و«الْخَلْق» ـ على هذا التأْويل ـ مصدرٌ مضاف إِلى المفعول. وقال النقاش: المعنى: مما يخلق الناس؛ إِذ هم في الحقيقة لا يخلقون شيئاً، فالخلق في قوله تعالىٰ: ﴿ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ مضاف إِلى الفاعل على هذا التأْويل.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ ﴾ يقتضي أَن الأَقل منهم يعلم ذلك، ولذلك مَثَّل الأَكثرَ الجاهلَ بالأَعمى، والأَقلَّ العالمَ بالبصير، وجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات يعادلهم قوله: ﴿ ٱلْمُسِىٓءُ ﴾، وهو اسم جنس يعُمُّ المسيئين. وأَخبر تعالىٰ أَن هؤلاءِ لا يستوون، فكذلك الأَكثر الجهلاءُ من الناس لا يستوون مع الأَقل الذين يعلمون.

وقرأَ أَكثر القراءِ، والأَعرج، وأَبو جعفر، وشيبة، والحسن: [يَتَذَكَّرُونَ] بالياءِ على الكناية عن الغائب، وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي، وقتادة، وطلحة، وعيسى، وأَبو عبد الرحمن: ﴿ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ بالتاءِ من فوق على المخاطبة، والمعنى: قل لهم يا محمد.

ثم جزم تعالىٰ الإِخبار بأَن السَّاعة آتية، وهي القيامة المتضمنة للبعث من القبور، والحساب بين يدي الله تعالىٰ، وافتراق الجمع إِلى الجنة وإِلى النار. وقوله تعالىٰ: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ أَي في ذاتها ونفسها، وإِن وُجد من العالم من يرتاب فيها فليست فيها في نفسها ريبة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ آية تفضل ونعمة ووعد لأُمَّة محمد ﷺ بالإجابة عند الدُّعاءِ، وهذا وعد مقيَّد بشرط المشيئة وهي موافقة المقدور لمن شاءَ الله تعالىٰ، لا أَن الاستجابة عليه حتم لكل داعٍ لا سيما من تعدى في دعائه، فقد عاب رسول الله ﷺ دعاءَ الذي قال: اللهم أَعطني القصر الأَبيض الذي عن يمين الجنة(١). وقالت فرقة: معنى [ٱدْعُوني]: اعبدوني، و[أَسْتَجِبْ] معناه: بالثواب والنصر، ويدل على هذا التأويل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، ويُحتج له بحديث النعمان بن بشير أَن النبي ﷺ قال: «الدعاءُ هو العبادة»، وقرأَ هذه الآية(٢). وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: وحِّدوني أَغفر لكم، وقيل للثوري: ادع الله تعالىٰ فقال: إِن ترك الذنوب هو الدعاءُ.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو جعفر، [سَيُدْخَلُونَ] بضم الياءِ وفتح الخاءِ، وقرأَ نافع، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، والحسن، وشيبة: [سَيَدْخُلُونَ] بفتح الياءِ وضم الخاءِ، واختلف عن أَبي عمرو، وعن عاصم، و«الدَّاخر»: الصاغر الذليل.

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة، وابن ماجه في الدعاء، وأحمد في مسنده (٤ـ٨٧)، عن أبي نعامة أن عبد الله بن مغفل سمع ابناً له يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض من الجنة إذا دخلتها عن يميني، قال: فقال له: يا بني سل الله الجنة وتعوَّذ من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون بعدي قوم من هذه الأمة يعتدون في الدعاء والطهور».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في الأدب المفرد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ ـ قال: عن دعائي ـ ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، هل تدرون ما عبادة الله؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: هو إخلاص لله مما سواه. (الدر المنثور).

هذا وقد رُوي عن عُبادة بن الصامت أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أُعطِيَتْ أُمَّتي ثلاثاً لم تُعط إلا للأنبياء، كان الله تعالىٰ إذا بعث النبي قال: ادْعني أستجب لك، وقال لهذه الأمة: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾، وكان الله إذا بعث النبي قال: ما جعل عليك في الدين من حرج، وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾، وكان الله إذا بعث النبي جعله شهيداً على قومه، وجعل هذه الأمة شهداء على الناس». ذكره الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ
لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

هذا تنبيه على آيات الله تعالىٰ، وعِبرٌ متى تأملها العاقل أدَّته إلى توحيد الله تبارك وتعالىٰ والإقرار بربوبيَّته، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مجازه: يُبصر فيه، كما تقول: نهارٌ صائم وليل قائم. وقوله تعالىٰ: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ معناه: خالق كلِّ شيءٍ مخلوق، وما يستحيل أن يكون مخلوقاً كالقرآن والصفات فليس يدخل في هذا العموم، وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ﴾[1] معناه: كل شيءٍ بعثت لتدميره. وقرأت فرقة: ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ بالتاءِ، وفرقة: [يُؤْفَكُونَ] بالياءِ، والمعنى في القراءَة الأُولى: قُلْ لهم، و﴿تُؤْفَكُونَ﴾ معناه: تُصرفون عن طريق النظر والهُدى، وهذا تقرير بمعنى التوبيخ والتقريع.

ثم قال لنبيِّه ﷺ: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ﴾ أَي: على هذه الهيئة وبهذه الصفة صرف الله الكفار الجاحدين بآياته سبحانه وتعالىٰ من الأُمم المتقدمة عن طريق الهُدى، ثم بيَّن نعمته سبحانه وتعالىٰ في أَن جعل الأَرض قراراً ومهاداً للعباد، والسماءَ بناءً وسقفاً. وقرأَ الناس: [صُوَرَكُمْ] بضم الصاد، وقرأَ أَبو رزين بكسرها[2]، وقرأَت فرقة: [صُوْرَكُمْ] بسكون الواو على نحو بُسْرَةٍ وبُسْر.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يريد: من المسْتَلَذَّات طعماً ولبساً ومكاسب وغير

---

(١) من الآية (٢٥) من سورة (الأحقاف).

(٢) وهذا فِرارٌ من الضمة قبل الواو، لأنها ثقيلة، قال بعض اللغويِّين: إن جمع (فُعْلة) على فِعَل شاذٌّ، وهذا كما قالوا شاذاً (قِوَى) بكسر القاف في جمع (قوة) بضم القاف ـ لكن الجوهري قال: والصِّورُ ـ بكسر الصاد ـ لغة في الصُّور جمع صورة، وأنشد على هذه اللغة هذا البيت الذي يصف الجواري:

أَشْبَهْـنَ مِـنْ بَقَـرِ الْخَلْصَـاءِ أَعْيُنَهَـا وهُـنَّ أَحْسَـنُ مِـن صِيـرَانِهَـا صِـوَرَا

والصِّيران: القطيع من البقر. (راجع الصحاح للجوهري) وغيره.

ذلك، ومتى جاءَ ذكر الطَّيِّبات بقرينة «رزَقَكُمْ» ونحوه فهذا هو المُسْتَلَذُّ، ومتى جاءَ بقرينة تحليل أَو تحريم ـ كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[1]، وكما قال: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾[2] ـ فالطَّيِّبَاتُ في مثل هذا: الحلالُ، وعلى هذا النظر تخرج مذهب مالك رحمه الله تعالىٰ في الطَّيِّبَات والخَبائث، وقولُ الشَّافعي رحمه الله تعالىٰ: إن الطَّيِّبات هي المُسْتَلَذَّات والخبائث هي المُسْتَقْذَرات ضعيفٌ ينكسر بِمُسْتَلَذَّات مُحَرَّمة ومُسْتَقْذَرَات مُحَلَّلة لا ردَّ له في صدرها، وأَما حيث وقعت الطَّيِّبات مع الرِّزق فإِنما هي تعديد نعمة فيما يستحسنه البشر ولا سيما هذه الآية التي هي مخاطبة للكفار، فإِنما عُدِّدت عليهم النعمة التي يعتقدونها نعمة. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

لما سردت الآيات صفات الله التي تُبيِّن فساد حال الأَصنام كان من أَبْيَنِهَا أَن الأَصنام مواتٌ جمادٌ، وأَنه عزَّ وجلَّ الحيُّ القيُّوم، وصُدور الأَمر من لدنه وإِيجادُ الأَشياءِ وتدبيرُ الأَمر كلِّه وعلمُه بالكلِّ، دليلٌ قاطع على أَنه حيٌّ لا إِلـٰه إِلاَّ هو.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كلامٌ متصل مقتضاه: ادعوه مخلصين بالحمد، وبهذه الأَلفاظ قال ابن عباس رضي الله عنهما: من قال: «لاَ إِلـٰه إِلاَّ الله» فليقل أَثرها: «الحمد لله ربِّ العالمين»، وقال نحو هذا سعيد بن جبير ثم قرأَ هذه الآية.

ثم أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ أَن يصدع بأَنه نُهي عن عبادة الأَصنام التي عبدها الكفار من

---

(١) من الآية (٣٢) من سورة (الأعراف).

(٢) من الآية (١٥٧) من سورة (الأعراف).

دون الله سبحانه وتعالىٰ، ووقع النهي لما جاءَه الوحي والهدى من ربِّه، وأُمر بالإسلام الذي هو الإيمان والأعمال، وقوله تعالىٰ: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أن أَستسلم لربِّ العالمين وأَخضع له بالطاعة[1].

ثم بيَّن تعالىٰ أَمر الوحدانية والأُلوهية بالعبرة في ابن آدم وتدرُّج خلقه، فأَوله خلق آدم من تراب من طين لازب[2]، فجعل البشر من تراب لما كان منسلاً من المخلوق من التراب، وقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ إشارة إلى التناسل من آدم فمن بعده و«النُّطْفَة» [هي][3] الماءُ الذي خلق المرءُ منه، و«العَلَقَةُ»: الدم الذي يصير من النطفة، و«الطِّفْل» هنا اسم جنس، و«بُلُوغُ الأَشُدِّ» اختُلف فيه ـ فقيل: ثلاثون، وقيل: ستة وثلاثون، وقيل: أَربعون، وقيل: ستة وأَربعون، وقيل: عشرون، وقيل: ثمانية عشر، وقيل: خمسة عشر، وهذه الأَقوال الأَخيرة ضعيفة في الأَشُدِّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ عبارة تتردَّد في الأَدراج المذكورة كلها، فمن الناس من يموت قبل أَن يخرج طفلاً، وآخرون قبل الأَشُدِّ، وآخرون بعد الشيخوخة، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ أَي: هذه الأَصناف كلها مخلوقة مُيَسَّرة ليبلغ كل واحد منها أَجلاً مُسمًّى لا يتعداه ولا يتخطَّاه، وليكون معتبراً، ولعلكم أَيُّها البشر تعقلون الحقائق إذا نظرتم في هذا وتدبرتم حكمة الله فيه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

(١) أخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة قالا: يا محمد ارجع عما تقول، وعليك بدين آبائك وأجدادك، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(٢) في بعض النسخ: «من تراب ثم من طين لازب».

(٣) ما بين العلامتين [....] زيادة لتوضيح المعنى واستقامة العبارة.

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ عبارة عن إنفاذ الإيجاد وإخراج المخلوق من العدم، وإيجادُ الموجودات هو بالقدرة، واقترانُ الأمر بذلك هو عظمة في المُلْك وتخضيعٌ للمخلوقات وإظهارٌ للقدرة، والأمر للمُوجَد إنما يكون في حين تلبُّس القدرة بإيجاده، لا قبل ذلك لأنه حينئذ لا يخاطب في معنى الوجود والكَوْن، ولا بعد ذلك لأَنَّ ما هو كائن لا يقال له: كُنْ.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ الآية. ظاهرها أنها في الكفار المجادلين في رسالة محمد ﷺ والكتاب الذي جاءَ به، بدليل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ الآية، وهذا قول ابن زيد وجمهور المفسرين، وقال محمد بن سيرين وغيره: قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ الآيَةَ إشارةٌ إلى أَهل الأَهواءِ من هذه الأُمة، وروت هذه الفرقة في نحو هذا حديثاً[(١)]، وقالوا: هي في أَهل القَدَر ومن جرى مجراهم، ويلزم قائلي هذه المقالة أَن يجعلوا قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ الآية. . . كلاماً مقطوعاً مستأْنفاً في الكفار، [ٱلَّذينَ] ابتداءٌ، وخبره ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، ويحتمل أَن يكون خبر الابتداءِ محذوفاً، والفاءُ متعلقة به. وقوله تعالىٰ: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾ يعني يوم القيامة، والعامل في الظرف [يَعْلَمُونَ]، وعبَّر عن ظرف الاستقبال بظرف لا يقال إلاَّ في الماضي، لأنه لما تيقن وقوع الأَمر حسُنَ تأكيده بالإخراج في صيغة الماضي، وهذا كثير في القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى﴾[(٢)]، قال الحسن ابن أَبي الحسن: لم تُجعل السلاسل في أَعناق الكفار لأَنهم أَعجزوا الربَّ تعالىٰ ولكن لترسُّبهم إذا أَطفاهم اللهب[(٣)]. وقرأَ الجمهور: [وَٱلسَّلَٰسِلُ] رفعاً عطفاً على [ٱلأَغْلَٰلُ]، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما، وابن مسعود رضي الله عنه [وٱلسَّلَٰسِلَ] بالنصب [يَسْحَبُونَ] بفتح الياءِ وإسناد الفعل إليهم وإيقاع الفعل على السلاسل، وقرأَت فرقة: [وَٱلسَّلاسِلِ] بالخفض على تقدير: إِذْ أَعناقهم في الأَغلالِ والسَّلَٰسِلِ، فعطف على المراد من الكلام لا على ترتيب اللفظ؛ إِذْ ترتيبه فيه قلب، وهو على حدِّ قول العرب: «أَدْخلْتَ القَلَنْسُوةَ في رأْسي»، وفي

---

(١) ذكره المهدويُّ، عن عقبة بن عامر أنّه قال: قال النبي ﷺ: «نزلت هذه الآية في القَدَرية».

(٢) من الآية (١١٦) من سورة (المائدة).

(٣) في اللسان (رسب): «رَسَبَ الشيءُ في الماءِ يَرْسُب رسوباً: ذهب سُفْلاً، وفي حديث الحسن يصف أهل النار: إذا طفت بهم النار أَرْسَبَتْهُمُ الأغلال، أي إذا رفعتهم وأَظهرتهم حطَّتهم الأغلال بثقلها إلى أسفلها».

مصحف أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه: [وفي السلاسل يسحبون]، و[يُسْحَبُونَ] معناه: يُجَرُّونَ، والسَّحْب: الجَرُّ. و«الحميم»: الذائب الشديد الحرِّ من النار، ومنه يقال للماءِ السخن: حميم. و[يُسْجَرُونَ] قال مجاهد: معناه: توقد النار بهم، والعرب تقول: «سَجَرْتُ التَّنُّورَ» إذا مَلأْتها ناراً، وقال السدّي: [يُسْجَرُونَ]: يُحرقون.

ثم أَخبر تعالىٰ أَنهم يوقفون يوم القيامة على جهة التوبيخ والتقريع، فيقال لهم: أَين الأَصنام التي كنتم تعبدون في الدنيا؟ فيقولون: ضلُّوا عنا، أَي تلقوا النّار وغابوا واضمحلوا، ثمّ تضطرب أَقوالهم ويفزعون إِلى الكذب، فيقولون: بل لم نكن نعبد شيئاً، وهذا من أَشد الاختلاط وأَبْيَن الفساد في الذهن والنظر، فقال الله تعالىٰ لنبيِّه ﷺ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أَي بهذه الصفة المذكورة وبهذا الترتيب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

المعنى: يقال للكفار المعذَّبين: ذلكم العذابُ، الذي أَنتم فيه بما كنتم تكفرون وتفرحون في الدنيا بالمعاصي والكفر وتمرحون، قال مجاهد: معناه: الأَشَرُ والبَطَرُ، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: الفخر والخيلاءُ. وقوله تعالىٰ: [ٱدْخُلُوا]، يقال لهم قبل هذه المحاورة في أَوّل الأَمر: ادخلوا، لأَن هذه المخاطبة إِنّما هي بعد دخولهم وفي الوقت الذي فيه الأَغلال في أَعناقهم، وأَبواب جهنّم هي السبعة المؤدية إِلى طبقاتها وأَدراكها السبعة. و«المثْوى»: موضع الإِقامة.

ثمّ آنس الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ ووعده بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ في نصرك وإِظهار أَمرك، فإِنَّ ذلك إِمَّا أَن ترى بعضه في حياتك فتقرّ به عينك، وإِمَّا أَن تموت قبل ذلك، فإِلى أَمرنا وتعذيبنا يصيرون ويرجعون، وقراءَة الجمهور: [يُرْجَعُونَ] بضم الياءِ، وقرأَ أَبو عبد الرحمن، ويعقوب: [يَرْجِعُونَ] بفتح الياءِ، وقرأَ طلحة بن مصرف، ويعقوب ـ في رواية الوليد بن حسان ـ: [تَرْجِعُونَ] بفتح التاءِ منقوطة من فوق.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ الآية ردٌّ على العرب، الذين قالوا: إنّ الله تعالىٰ لا يبعث بشراً رسولاً، واستبعدوا ذلك، وقوله تعالىٰ: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾، قال النقّاش: هم أربعة وعشرون، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ رُوي من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إنّ الله عزّ وجلّ بعث ثمانية آلاف رسول»[١]، وروي عن سلمان، عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «بعث الله أَربعة آلاف نبيّ»[٢]، وروي عن عليّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، وابن عبّاس رضي الله عنهما أَنّه قال: «بعث الله تعالىٰ رسولاً من الحبشة أَسود»[٣] وهو الذي لم يُقَصّ على محمد ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ساقه على أَنّ هذا الحبشي مثال لما لم يقصّ، لا أَنّه هو المقصود وحده، فإنّ هذا بعيد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ ردٌّ على قريش في إنكارهم أَمر محمد ﷺ، وقولهم: إنّه كاذب على الله تعالىٰ، والإِذنُ يتضمن علماً وتمكيناً، فإذا اقترن به أَمر، قَوِيَ كما هو في إرسال النبيّ، ثمّ قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أَي إذا أَراد إرسال رسول وبعثة نبيّ، قضى ذلك وأَنفذه بالحقّ، وخسر كلُّ مبطل، وحصل على فساد آخرته، وتحتمل الآية معنى آخر وهو أَن يريد بـ «أَمْرِ اللهِ» القيامة، فتكون الآية توعُّداً لهم.

قوله عزّ وجلّ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن أنس بن مالك، ولفظه كما جاء فيه: «بُعث النبيّ ﷺ بعد ثمانية آلاف من الأنبياء، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل»، فلم يرفعه أنس إلى النبيّ ﷺ.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري.

(٣) أخرجه ابن جرير، وزاد السيوطي في (الدرّ المنثور) نسبته إلى الطبرانيّ في الأوسط، وابن مردويه.

هذه آياتُ عِبَر وتعديد نِعَم، و«الأَنعام»: الأَزواج الثمانية، و[مِنْهَا] الأُولى للتبعيض؛ لأَنّ المذكور ليس كلّ الأَنعام، بل الإِبل خاصة، و[مِنْهَا] الثانية لبيان الجنس؛ لأَنّ الجميع منها يؤكل، وقال الطبريّ في هذه الآية: إِنّ الأَنعام تعمُّ الإِبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير وغير ذلك مما يُنتفع به من البهائم، فـ[مِنْهَا] في الموضعين للتبعيض ـ على هذا ـ لكنّه قول ضعيف، وإِنّما الأَنعام: الأَزواج الثمانية الّتي ذكر الله تعالىٰ فقط، ثمّ ذكر الله تعالىٰ المنافع ذكراً مُجْمَلاً لأَنّها أَكثر من أَن تحصى.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ يريد قطع المَهَامِهِ[1] الطويلة والمشاق البعيدة، و«الفُلْك»: السفن، وهو هنا جمع، و[تُحْمَلُونَ] يريد: برًّا وبحراً، وذكر تعالىٰ الحَمْل عليها وقد تقدم ذكر ركوبها لأَنّ المعنى مختلف في الأَمرين وبينهما تغاير؛ لأَنّ الركوب هو المتعارف فيما قَرُب، ويستعمل دأباً في القرى والمواطن، فهو نظير الأَكل منها وسائر المنافع، ثمّ خصص بعد ذلك السفر الأَطول وحوائج الصدور مع البُعد، وهذا هو الحمل الذي قرنه بشبيهه من أَمر السفن.

ثمّ ذكر الله تعالىٰ آياته عامة جامعةً لكلّ عِبْرَة وموضِع نظر، وهذا غير منحصر لاتِّساعه، ولأَنّ في كلِّ شيءٍ له آيَةً تدلُّ على وحدانيته، ثمّ قرّرهم ـ على جهة التوبيخ ـ بقوله: ﴿فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾؟

ثمّ احتجَّ تعالىٰ على قريش بما يظهر في الأُمم السالفة من نقمات الله في الكفرة، الذين كانوا أَكثر عَدَداً، وأَشَدَّ قُوَّةَ أَبدانٍ وممالك، وأَعظم آثاراً في المباني والأَفعال من قريش والعرب، فلم يُغْن عنهم كَسْبهم ولا حالهم شيئاً، حين جاءَهم عذاب الله وأَخْذُه. و[مَا] في قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾ نافية، قال الطبريّ: وقيل: هي توقيف وتقرير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

الضمير في [جَاءَتْهُمْ] عائد على الأُمم المذكورين، الذين جُعلوا مَثَلاً وعِبرة،

(١) جمع مهمه وهو المفازة البعيدة والبلد المقفر.

واختلف المفسرون في الضمير في [فَرِحُوا]، على من يعود؟ فقال مجاهد وغيره: هو عائد على الأُمم المذكورين، أَي: بما عندهم من العلم في ظنّهم ومُعْتقدهم من أَنّهم لا يُبعثون، ولا يُحاسبون، وقال ابن زيد: اغترّوا بعلمهم بالدنيا والمعايش، وظنُّوا أنّه لا آخرة ففرحوا، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾[1]، وقالت فرقة: الضمير عائد على الرُّسل، وفي هذا التأْويل حذف تقديره: كذَّبوهم، ففرحوا ـ أَي الرُّسل ـ بما عندهم من العلم بالله تعالىٰ والثقة به وبأَنّه سينصرهم.

و[حَاقَ] معناه: نزل وثبت، وهي مستعملة في الشَّر، و[مَا] في قوله تعالىٰ: ﴿مَّا كَانُوا بِهِۦ﴾ هو العذاب، الذي كانوا يُكَذِّبون به ويستهزئون بأَمره، والضمير في [بِهِمْ] عائد على الكفار بلا خلاف.

ثمّ حكى تعالىٰ حالة بعضهم مِمَّن آمن بعد تلبُّس العذاب بهم، فلم ينفعهم ذلك، وفي ذكر هذا حضٌّ للعرب على المبادرة، وتخويف من التأَنّي، لئلا يدركهم عذاب لا تنفعهم توبة بعد تَلَبُّسه بهم، وأَمَّا قصة قوم يونس عليه السلام، فقد رأَوْا العذاب ولم يكن تلبَّس بهم، وقد مرَّ تفسيرها مُسْتقصى في سورة يونس عليه السلام. و[سُنَّةَ] نصب على المصدر، و[خَلَتْ] معناه: مضت واستمرت وصارت عادة. وقوله تعالىٰ: [هُنَالِكَ] إِشارةٌ إِلى أَوقات العذاب، أَي ظهر خُسْرَانُهُم وحضر جزاءُ كفرهم.

كمل تفسير سورة (غافر) والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) من الآية (٧) من سورة (الروم).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة فصّلت

هذه السُّورة مكيّة بإجماع المفسِّرين(١)، ويُروى أَن عتبة بن ربيعة ذهب إلى رسول الله ﷺ ليُبيِّن عليه أَمر مخالفته لقومه، وليحتجَّ عليه فيما بينه وبينه، وليُبْعِد ما جاءَ به، فلمَّا تكلَّم عتبةُ قرأَ رسول الله ﷺ: [حٰمٓ]، ومرَّ في صدر هذه السُّورة، حتّى انتهى إلى قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾(٢)، فأُرْعِدَ الشَّيْخُ وقفَّ شعره(٣)، وأَمسك على فم رسول الله ﷺ بيده وناشده بالرَّحم أَن يُمسك، وقال حين فارَقَهُ: «والله لقد سمعتُ شيئاً ما هو بالشِّعر ولا بالسِّحر ولا بالكهانة، ولقد ظننت أَن صاعقة العذاب على رأسي»(٤).

---

(١) وتسمى هذه السورة (فُصِّلت) ويقال لها سجدة المؤمن، ويقال لها أيضاً: المصابيح، وآياتها ٥٤ آية، وقيل: ٥٣ آية.

(٢) وهي الآية رقم (١٣) من السورة.

(٣) أُرعِد فلان: أَخذته الرعدةُ. وقَفَّ شعره: قام من الفزع.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو يَعْلى، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي، كلاهما في الدلائل، وابن عساكر، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وفيه كما ذكره في الدُّرّ المنثور: «اجتمعت قريش يوماً فقالوا: انظروا أَعلمكم بالسحر والكهانة والشِّعر، فليأت هذا الرجلَ الذي قد فرّق جماعتنا، وشتَّت أمرنا، وعاب ديننا، فَلْيُكَلِّمه ولْيَنْظُر ماذا يرُدُّ عليه، فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، قالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عِبْتَ، وإن كنت تزعم أنّك خير منهم فتكلم حتّى نسمع لك... إلخ» ـ وفي آخره أيضاً ـ كما رواه أبو بكر بن الأنباريّ ـ: «فانصرف عتبة إلى قريش في ناديها، فقالوا: والله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي مضى به من عندكم، ثمّ قالوا: ما وراءك أبا الوليد؟ قال: والله لقد سمعت كلاماً من محمد ما سمعتُ مثله قط، والله ما هو بالشِّعر ولا بالكهانة، فأطيعوني في هذه وأنزلوها بي، خلُّوا محمداً وشأنه واعتزلوه، فوالله ليكونَنَّ لما سمعتُ من كلامه نبأٌ، فإن أصابته العربُ كُفيتموه بأيدي غيركم، وإن كان ملكاً أو نبيّاً، كنتم أسعد الناس به؛ لأنّ مُلكه مُلككم وشرفه شرفكم، فقالوا: هيهات، سحرك محمد يا أبا الوليد، وقال: هذا رأيي لكم، فاصنعوا ما شئتم».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾﴾.

تقدم القول في أَوائل السُّور وفيما تختص به الحواميم، وأَمال الأَعمش [حٰمٓ] في كلِّها، و[تَنْزِيلٌ] خبر الابتداءِ، إِمَّا على أَن يقدر الابتداءُ في [حٰمٓ] على ما تقتضيه بعض الأَقاويل فيها، إِذا جعلت اسماً للسورة أَو للقرآن أَو إِشارة إِلى حروف المعجم، وإِمَّا على أَن يكون التقدير: هذا تنزيلٌ، ويجوز أَن يكون [تَنْزِيلٌ] ابتداءً وخبره في قوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ﴾، على معنى: ذُو تنزيل. و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صفتا رجاءٍ ورحمة لله تعالىٰ، و[فُصِّلَتْ] قال السديّ: معناه: بُيِّنَت آياته، أَي فُسِّرَت معانيه، ففصل بين حلاله وحرامه، وزجره وأَمره ونهيه، ووعده ووعيده، وقيل: فُصِّلَت في التنزيل، أَي نزل نجوماً ولم ينزل مرةً واحدة، وقيل: فصلت المواقفُ وأَنواعُ أَواخر الآي، ولم يكن يرجع إِلى قافية واحدة ونحوها كالشِّعر والسجع، و[قُرْآناً] نصب على الحال عند قوم، وهي مؤكِّدة لأَنَّ هذه الحال ليست مما تنتقل، وقالت فرقة: هو نصب على المصدر، وقالت فرقة: [قُرْآناً] توطئة للحال و[عَرَبِيًّا] حال، وقالت فرقة: [قُرْآناً] نصب على المدح، وهذا قول ضعيف.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قالت فرقة: معناه: يعلمون الأَشياءَ ويعقلون الدلائل وينظرون على طريق النظر، فكأَنَّ القرآن فصِّلت آياته لهؤلاءِ إِذ هم أَهل الانتفاع بها، فَخُصُّوا بالذكر تشريفاً، ومن لم ينتفع بالتفصيل، فكأَنَّه لم يُفَصَّل له، وقالت فرقة: [يَعْلَمُونَ] متعلق في المعنى بقوله تعالىٰ: [عَرَبِيًّا]، أَي: جعلناه بكلام العرب لقوم يعلمون أَلفاظه، ويحقِّقون أَنَّها لم يخرج شيءٌ منها عن كلام العرب، وكأَنَّ الآية رادَّة على من زعم أَن في كتاب الله تعالىٰ ما ليس في كلام العرب، فالعلم ـ على هذا التأْويل ـ أَخصُّ من العلم على التأْويل الأَوّل، والأَول أَشرف معنىً، وبَيِّنٌ أَنه ليس في

القرآن إلاَّ ما هو من كلام العرب، إمَّا على أصل لغتها، وإمَّا ما عرَّبته من لغة غيرها، ثمّ ذُكر في القرآن وهو معرَّب مستعمل.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ نعتٌ للقرآن، أَي يبشِّر من آمن بالجنّة ويُنذر من كفر بالنَّار، والضمير في [أَكْثَرُهُمْ] عائد على القوم المذكورين. وقوله تعالىٰ: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ نفيٌ لسمعهم النافع، الذي يعتد به سمعاً. ثمّ حكى تعالىٰ عنهم مقالتهم الّتي باعدوا فيها كلّ المباعدة، وأَرادوا بها أَن يُؤيِسُوهُ من قبولهم دينه، وهي: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾، و[أَكِنَّةٍ]: جمع كنان، وهو بابُ فِعَالٍ وأَفْعِلَة، والكِنَانُ: ما يجمع الشيءَ ويضمّه ويحول بينه وبين غيره، ومنه الكِنُّ، ومنه كنانة النبْل، وبها فسَّر مجاهد هذه الآية، و[منْ] في قولهم: ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ لابتداء الغاية، وكذلك هي في قولهم: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ مؤكدة ولابتداءِ الغاية[1]، و«الوَقْر» الثِّقَل في الأُذن الّذي يمنع السَّمع، وقرأَ ابن مصرف: [وِقْرٌ] بكسر الواو، و«الْحِجَابُ» الذي أَشاروا إليه هو مخالفته إيَّاهم، ودعوته إلى الله تبارك وتعالىٰ دون أَصنامهم، أَي: هذا أَمر يحجبنا عنك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه مقالة يحتمل أَن تكون معها قرينة الجِدّ في المحاورة وتتضمن المباعدة، ويحتمل أَن تكون معها قرينة الهَزْل والاستخفاف، وكذلك قولهم: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ يحتمل أَن يكون القول تهديداً، ويحتمل أَن يكون متاركة محضة. وقرأَ الجمهور: ﴿قُلْ إِنَّمَآ﴾ على معنى الأمر لمحمد ﷺ، وقرأَ يحيى بن وثاب، والأَعمش: [قَالَ إنَّمَا] على معنى المُضيِّ والخبر عنه، وهذا هو الصدع بالتوحيد والرسالة.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، قال الحسن: علَّمه الله تعالىٰ التواضع، و[أَنَّ] في قوله تعالىٰ: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ﴾ رفع على المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله، وقوله: [فَاسْتَقِيمُوا] أَي على محجَّة الهدى وطريق الشرع والتوحيد، وهذا المعنى مُضَمَّن في قوله: [إِلَيْهِ]، و«الوَيْلُ»: الحزن والثبور، وفسَّره الطبريّ وغيره في هذه الآية بقيح أَهل النّار وما يسيل منهم. وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قال الحسن، وقتادة، وغيرهما[2]: هي

---

(١) في بعض النسخ: «مؤكدة لابتداء الغاية».

(٢) في الأصول: «وغيره».

زكاة المال، وروي أنّ الزكاة قنطرة الإسلام، من قطعها نجا ومن جانبها هلك[١]، واحتُجَّ لهذا التأويل بقول أبي بكر رضي الله عنه في الزكاة وقت الرِّدَّة[٢]، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما، والجمهور: الزكاة في هذه الآية: «لاَ إلـه إلاَّ الله» التوحيد، كما قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾[٣]، ويُرَجِّح هذا التأويل أنَّ الآية من أوَّل المكِّيِّ وزكاة المال نزلت بالمدينة، وإنّما هذه زكاة القلب والبدن، أي تطهيرهما[٤] من الشِّرك والمعاصي، وقاله مجاهد والرَّبيع، وقال الضحّاك ومقاتل: معنى الزكاة هنا النفقة في الطاعات، وأعاد الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ توكيداً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾.

ذكر عزَّ وجلَّ حالة الّذين آمنوا معادلاً بذلك حالة الكفار المذكورين ليتبيَّن الفرق، وقوله تعالىٰ: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: معناه: غير منقوص، وقالت فرقة: معناه: غير مقطوع، يقال: مَنَنْتُ الحبلَ، إذا قطعْتُه[٥]، وقال مجاهد: معناه: غير محسوب؛ محصور، فهو مُعَدٌ لأن يُمَنَّ به، ويظهر في الآية أنّه وصفه بعدم المن والأذى، ومن حيث هو من جهة الله تعالىٰ فهو تشريف لا مَنَّ فيه، وأُعطيات البشر هي الّتي يدخلها المنُّ، وقال السديّ: نزلت هذه الآية في المرضى

---

(١) أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة، أنّه قال: «كان يقال: الزكاة قنطرة الإسلام... إلخ»، وهكذا أيضاً أخرجه ابن جرير الطبريّ في تفسيره.

(٢) كان أهل الرِّدَّة بعد وفاة النبيّ ﷺ يقولون: «أمّا الصلاة فنصلي، وأما الزكاة فوالله لا تغصب أموالنا»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: «والله لا أفرِّق بين شيءٍ جمع الله بينه، والله لو منعوني عِقالاً مما فرض الله ورسوله لقاتلتهم عليه».

(٣) من الآية (١٨) من سورة (النازعات).

(٤) في الأصول: «أي تطهيره».

(٥) قال ذو الإصبع العدواني:

إنِّـي لَعَمْـرُكَ مـا بَـابـي بِـذِي غَلَـقٍ   عَلَـى الصَّـدِيـقِ وَلا خَيْـرِي بِمَمْنُـونِ

والزَّمْنى[١] إذا عجزوا عن إكمال الطاعات كُتب لهم من الأَجر، كأَصح ما كانوا يعملون.

ثمّ أَمر الله تعالىٰ نبيّه ﷺ بأَن يوقفهم مُوَبِّخاً على كفرهم بخالق الأَرض والسماءِ ومخترعهما، ووصف صورة الخلق ومدَّه، والحكمةُ في خلق هذه المخلوقات في مدّة مُمْتَدَّة مع قدرته على إِيجادها في حين واحد، هي إِظهارُ القدرة في ترتيب ذلك حسب شرف الإِيجاد أَوَّلاً أَوّلاً، قال قوم: لِيُعَلِّم عباده التأَنِّي في الأُمور والمَهَل. وقد تقدم القول غير مرّة في نظير قوله: [أَئِنَّكُمْ]، واختلف رواة الحديث في اليوم الّذي ابتدأَ الله تعالىٰ فيه خلق الأَرض، فروي عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره أَنّ أَوّل يوم هو الأَحد، وأَن الله تبارك وتعالىٰ خلق فيه وفي الإثنين الأَرض، ثمّ خلق الجبال ونحوها يوم الثلاثاءِ، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: فَمِنْ هنا قيل: هو يوم ثقيل، ثمّ خلق الثمار والشجر والأَنهار يوم الأَربعاءِ، ومن هنا قيل: هو يوم راحة وتفكُّر في هذه التي خلقت فيه، ثمّ خلق السموات وما فيها يوم الخميس ويوم الجمعة، وفي آخر ساعة منه، خلق آدم عليه السلام، قال السديّ: وسُمِّي يوم الجمعة لاجتماع المخلوقات فيه وتكاملها. فهذه رواية فيها أَحاديث مشهورة، ولمَّا لم يخلق الله تعالىٰ يوم السبت شيئاً امتنع بنو إسرائيل من الشغل فيه، ووقع في كتاب مسلم أَن أَوّل يوم خلق الله فيه البريَّةَ يوم السبت، ثمّ رتَّب المخلوقات على ستّة أَيّام، وجعل يوم الجمعة عارياً من المخلوقات، إلاّ من آدم وحده. والظاهر من القصص في طينة آدم عليه السلام أَن الجمعة الّتي خُلق فيها آدم قد تقدمتها أَيّام وجُمع كثيرة، وأَن هذه الأَيّام الّتي خلق فيها المخلوقات هي أَوّل الأَيّام، لأَنّ بإِيجاد الأَرض والسماءِ والشمس وُجد اليوم، وقد يحتمل أَن يجعل قوله تعالىٰ [يَوْمَيْنِ] على التقدير، وإِن لم تكن الشمس خلقت بعد وكان تفصيل الوقت يعطى أَنّها الأَحد ويوم الإثنين كما ذُكر.

و«الأَنْدَاد»: الأَشباه والأَمثال، وهذه إِشارة إِلى كلِّ ما عُبد من الملائكة والأَصنام وغير ذلك، قال السديّ: أَكفاءٌ من الرجال يطيعونهم. و«الرَّوَاسيّ» هي الجبال الثوابت، رَسَا الجبلُ إِذا ثبت، وقوله تعالىٰ: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أَي جعلها مُنْبَتَةً للطيبات والأَطعمة، وجعلها طهوراً، إِلى غير ذلك من أَنواع البركة، وفي قراءَة ابن مسعود

(١) الزَّمنى: المرضى مرضاً يدوم طويلاً، أو الضعاف بكبر السِّن.

رضي الله عنه: [وقَسَّم فيها أَقواتها]، وفي مصحف عثمان رضي الله تعالىٰ عنه: [وقدَّر].

واختلف النّاس في معنى قوله تعالىٰ: [أَقْوَاتَهَا] ـ فقال السديّ: هي أَقوات البشر وأَرزاقهم، وأَضافها إِلى الأَرض من حيث هي فيها وعنها، وقال قتادة: هي أَقوات الأَرض من الجبال والأَنهار والأَشجار والصخور والمعادن والأَشياءِ، الّتي بها قوام الأَرض ومصالحها، وروى ابن عبّاس رضي الله عنهما في هذا حديثاً مرفوعاً، فشبّهها بالقوت الّذي به قوام الحيوان، وقال مجاهد: أَراد أَقواتها من المطر والمياه، وقال عكرمة، والضحّاك، ومجاهد أَيضاً: أَراد تبارك وتعالىٰ بقوله: [أَقْوَاتَهَا]: خصائصَها الّتي قسمها في البلاد، فجعل في اليَمَن أَشياءَ ليست في غيره، وكذلك في العراق والشام والأَندلس وغيرها من الأَقطار، ليحتاج بعضها إِلى بعض، ويتقوّت من هذه في هذه من الملابس والمطعوم، وهذا نحو القول الأَوّل، إِلاَّ أَنّه بوجه أَعمَّ منه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ يريد تعالىٰ: باليومين الأَولين[1]، وهذا كما تقول: بنيتُ جدار داري في يوم، وأَكملتُ جميعها في يومين، أَي بالأَول.

وقرأَ الحسن البصريّ، وأَبو جعفر، وجمهور النّاس: [سوَاءً] بالنصب على الحال، أَي: سواءً هي وما انقضى فيها، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [سَوَاءٌ] بالرفع، أَي هي سواءٌ، وقرأَ الحسن، وابن أَبي إِسحاق، وعيسى، وعمرو بن عبيد: [سَوَاءٍ] بالخفض على نعت «الأَيّام». واختلف المتأَوّلون في معنى [لِلسَّائِلِينَ] ـ فقال قتادة، والسُّديُّ: معناه: سواءً لمن سأَل عن الأَمر واستفهم عن حقيقة وقوعه وأَراد العبرة فيه، فإِنّه يجده كما قال عزَّ وجلَّ. وقال ابن زيد وجماعة: معناه: مُسْتَوٍ مُهَيَّأٌ أَمر هذه المخلوقات ونفعها للمحتاجين إِليها من البشر، فعبَّر عنهم بالسَّائلين، بمعنى الطَّالبين؛ لأَنّهم من شأْنهم ولا بُدَّ طَلَبُ ما ينتفعون به، فهم في حكم من سأَل هذه الأَشياءَ؛ إِذ هم بحال حاجة إِليها. ولفظة «سواءٍ» تجري مجرى «عَدْل» و«زَوْرِ» في أَن ترد على المفرد والجمع والمذكر والمؤنث.

---

(١) يعني: في تَتِمَّة أربعة أيّامٍ.

قوله عزّ وجلّ:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ معناه: بقدرته واختراعه، أي: إلى خلق السموات وإيجادها، وقوله تعالىٰ: ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ روي أنّها كانت جسماً رخواً كالدخان أو البخار، وروي أنّه ممّا أمره الله أن يصعد من الماءِ، وهنا لفظ متروك يدلّ عليه الظاهر، وتقديره: فأوجدها وأتقنها وأكمل أمرها، وحينئذ قال لها وللأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾. وقرأ الجمهور: [ٱئْتِيَا]، من أتى يأتي، ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ على وزن فَعَلْنا، وذلك على معنى: ائْتِيَا أوامري وإرادتي فيكما، وقرأ ابن عبّاس، وابن جبير، ومجاهد: [آتِيَا][1]، من آتى يُؤْتي، ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ على وزن أَفْعَلنا[2]، وذلك بمعنى أَعْطِيَا من أنفسكما من الطاعة ما أَردتُه منكما، والإشارة بهذا كلهِّ إلى تسخيرهما وما قدَّره الله تعالىٰ من أعمالهما. وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ فيه محذوف ومقتضب، والتقدير: ٱئْتِيَا طوعاً وإلاّ أَتَيْتُما كَرْهاً، وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَتَآ﴾ أراد الفرقتين المذكورتين، جعل تعالىٰ السموات سماءً والأرضين أرضاً، ونحو هذا قول الشاعر:

أَلَـمْ يَحْـزُنْـكِ أَنَّ حبـال قَـوْمـي ... وَقَـوْمـكِ قَـدْ تَبـايَـنَتَـا انقِطَـاعَـا؟[3]

---

(١) ضبطه القرطبيّ بقوله: «بالمدّ والفتح»، وقال أيضاً إنّها قراءَة عكرمة، ويفهم من الهامش التالي أنّهما من: (آتَى يُؤَاتِي)، لا من (آتَى يُؤْتِي).

(٢) قال أبو الفتح بن جني في المحتسب: «ينبغي أن يكون [آتَيْنَا] هنا: فَاعَلْنَا، كقولك: سارعنا وسابقنا، ولا يكون: أَفْعَلْنَا؛ لأنّ ذلك متعدٍّ إلى مفعولين، وفاعَلْنَا متعدٍّ إلى مفعول واحد، وحذف الواحد أسهل من حذف الاثنين؛ لأنّه كلّما قلَّ الحذف، كان أمثل من كثرته، ومِثْل [آتَيْنَا] في أنّه فاعَلْنا لا أَفْعَلْنا القراءة الأخرى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾، أي: سارعنا بها». والزمخشري من هذا الرأي أيضاً، فقد قال: إنّها من المُواتاة وهي الموافقة، فيكون وزن [آتَيْنَا]: فاعَلْنا، وتقدمه إلى ذلك أبو الفضل الرازيّ، قال: «[آتَيْنَا] بالمدّ على فَاعَلْنا، من المواتاة، ومعناه: سارعنا، على حذف المفعول منه، ولا يجوز أن يكون من الإيتاء الذي هو الإعطاءُ لبُعْد حذف مفعوله».

(٣) البيت للقطاميّ الشاعر النصرانيّ الّذي عاش في العصر الإسلامي، وهو من قصيدة له يمدح زفَر بن الحارث الكلابيّ الّذي أطلق سبيله من الأسر، وفي مطلعها يقول: (قِفِي قَبْلَ التَّفَرّقِ يا ضُبَاعَا)، وضُباعَة هذه هي بنت زفر، والبيت في الطبريّ، والبحر المحيط، وفي الديوان، وفي (شعراءُ النصرانيّة=

جعلها فرقتين وعبَّر عنهما بِتَبَايَنَتَا. وقوله: [طَائِعينَ]، لما كان ممن يقول ـ وهي حال من يعقل ـ جرى الضمير في [طَائِعينَ] ذلك المجرى، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾(١).

واختلف النّاس في هذه المقالة من السماءِ والأَرض ـ فقالت فرقة: نطقتا حقيقة، وجعل الله تعالىٰ لهما حياة وإدراكاً يقتضي نطقهما، وقالت فرقة: هذا مجاز، وإنّما المعنى أَنَّهما ظهر فيهما من اختيار الطاعة والخضوع والتذلّل ما هو بمنزلة قول: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. والقول الأوّل أَحسن؛ لأَنّه لا شيءَ يدفعه، ولأَنَّ العبرة فيه أَتم، والقدرة فيه أَظهر.

وقوله تعالىٰ: [فَقَضَاهُنَّ] معناه: فأَوجدهن، ومنه قول أَبي ذؤيب:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا ... دَاودُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ(٢)

= في الإسلام)، والرواية في أكثرها: (أَلَم يَحْزُنْك أنّ حِبَالَ قَيْسٍ وتَغْلب...) ـ والحبال: الصِّلاتُ والعهود، والشاهد أن الشاعر قال: (تباينتا) بالتثنية مع أن حبال قيس وحبال تغلب جمع، وكان الظاهر يقتضي أن يقول: (تباينت) مراعاة لمعنى الجمعية في الحبال. هذا هو كلام ابن عطية هنا، ولكن أبا حيان يخالفه في البحر المحيط ويقول: «وليس كما ذكر ابن عطية لأنّه إنّما تقدم ذكر الأرض مفردة والسماء مفردة، فَحَسُن التعبير عنهما بالتثنية، والبيت هو من وضع الجمع موضع التثنية، كأنّه قال: ألم يحزنك أنّ حبال قومي وقومك، ولذلك تثنَّى في قوله: (تباينتا)، وأنّث على معنى الحبل؛ لأنّه لا يريد به الحبل حقيقة، وإنّما عنى به الذمة والمودّة الّتي كانت بين قوميهما».

(١) من الآية (٤) من سورة (يوسف).

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهُذليّ، وهو من قصيدته المشهورة الّتي بدأها بقوله:

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ ... والدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مِنْ يَجْزَعُ

وبيت الشاعر يتحدّث مع أبيات قبله عن معركة جرت بين فارسين كلاهما بطل، وكلاهما في كفّه سنان، وعليهما مسرودتان، فالضمير في (عليهما) يعود على البطلين، والمسرودتان: دِرْعَانِ سردت كلّ واحدة منهما، والسَّرْدُ: الخَرْزُ في الأديم، وقد أراد في الدرع مثل هذا الّذي يحدث في الأديم، وقضاهُمَا: فَرَغَ من عملهما، وهو موضع الشاهد هنا، والصَّنَعُ: الحاذقُ بالعمل، وهو هنا تُبَّع وهو واحد من أشهر ملوك اليمن قديماً، قال الأصمعيّ: «سمع الشاعر أنّ داود عليه السلام كان قد سُخِّر له الحديد، فهو يصنع منه ما أراد، وسمع بأنّ تُبَّعاً عملهما، فقال: عملهما تُبَّع، والحقيقة أنَّه أمر بعملهما»، والسوابغ: الطويلة الّتي تكسو الجسم من أعلاه إلى أسفله، والمعنى: إنّ على كلٍّ من البطلين درع سابغة مسرودة فرغ من عملها داود عليه السلام، أو صنعها تُبَّع اليمانيّ المشهور بهذه الصناعة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ قال مجاهد، وقتادة: أَوحى إِلى سكّانها وعَمَرتها من الملائكة، وإِليها هي في نفسها ما شاءَ الله تعالىٰ من الأُمور الّتي بها قوامها وصلاحها، قال السديّ، وقتادة: من الأمور الّتي هي لغيرها مثل ما فيها من جبال البَرَد ونحوها، وأَضاف الله تعالىٰ الأَمر إِليها من حيث هو فيها.

ثمّ أَخبر الله تعالىٰ أَن الكواكب زيَّن بها السماءَ الدنيا، وذلك ظاهر اللّفظ بحسب ما يقتضيه حسُّ البصر، وقوله تعالىٰ: [وَحِفْظاً] منصوب بإِضمار فعل، أَي: وحفظناها حفظاً. وقوله تعالىٰ: [ذَٰلِكَ] إِشارة إِلى جميع ما ذكر، أَي: أَوجده بقدرته وعزَّته وأَحكمه بعلمه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

المعنى: فإِن أَعرضت قريش والعرب الّذين دعوتهم إِلى الله تعالىٰ عن هذه الآيات البيّنات، فأَعلمهم أَنّك تحذرهم أَن يصيبهم مثلُ العذاب الّذي أَصاب الأُمم الّتي كذّبت كما تكذّب هي الآن، وقرأَ جمهور النّاس: ﴿صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ﴾، وقرأَ النّخعي، وأَبو عبد الرحمن، وابن محيصن: [صَعْقَةً مِثْلَ صَعْقَةِ]، فأَمّا هذه القراءَة الأَخيرة، ففيها المعنى بيِّنٌ؛ لأَنّ الصعقة: الهلاك للإِنسان، وأَمّا الأُولى، فالمعروف في الصاعقة أَنها الوقعة الشديدة من صوت الرعد، وهي تكون معها في الأَحيان قطعة نار، فشُبِّهَت هنا وقْعة العذاب بها؛ لأَنّ عاداً لم تُعذَّب إِلاّ بريح، وإِنّما هذا تشبيه واستعارة، وبالوقعة فسَّر هنا الصاعقة قتادةُ وغيره. وخصَّ تعالىٰ عاداً وثموداً بالذكر لوقوف قريش على بلادها في اليمن والحجر بطريق الشّام.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، أَي: قد تقدموا في الزمن واتصلت نذارتهم إِلى أَعمار عادٍ وثمود، وبهذا الاتصال قامت الحجّة، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، أَي: جاءَهم رسولٌ بعد اكتمال أَعمارهم وبعد تقدّم وجودهم في الزمن، فلذلك قال تعالىٰ:

﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، وجاءَ من مجموع العبارة إقامة الحجّة عليهم في أَنّ الرسالة والنِّذارة عمّتهم خبراً ومباشرةً، ولا يتوجه أَن يُجعل ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ عبارة عمَّا أَتى بعدهم في الزمان؛ لأَنّ ذلك لا يلحقهم منه تقصير، وأَمَّا الطَّبريُّ رحمه الله تعالىٰ، فقال: إِنَّ الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ عائد على الرُّسل، والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ على الأمم، وتابَعه الثعلبيّ، وهذا غير قويّ؛ لأَنَّه يُفرِّق الضمائر ويشعِّب المعنى.

و[أَنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ نصب على إسقاط الخافض، التقدير: «بأَن»، و[تَعْبُدُوا] مجزوم على النهي، ويتوجه أَن يكون منصوباً على أَن تكون [لا] نافية، وفيه بُعد، وكان من مقالات تلك الأُمم إنكار بعثة البشر واستدعاءُ الملائكة، وهذه أَيضاً كانت من مقالات قريش، وقولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ليس على جهة الإقرار بأَنَّهم أُرسلوا بشيءٍ، وإِنَّما معناه: على زعمكم ودعواكم.

ثمَّ وصف تعالىٰ حالة القوم، وأَن عاداً طلبوا التكبُّر ووضعوا أَنفسهم فيه بغير حقٍّ، بل بالكفر والمعاصي، وغرَّتهم قوَّتهم وعظم أَبدانهم والنعم عليهم، فقالوا ـ على جهة التقرير ـ: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ أَي: لا أَحد أَشدَّ منَّا قوَّة، فعرض الله تعالىٰ بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، وهذا بيِّنٌ في العقل، فإِنَّ الموجدَ للشيءِ المخترعَ له المُذْهِبَ متى شاءَ أَقوى منه، وأَخبر تبارك وتعالىٰ عنهم بجحودهم لآياته المنصوبة للنظر والمنزلة من عنده؛ إِذْ لفظ الآية يعم ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

رُوي في الحديث أَنّ الله تعالىٰ أَمر خزنة الريح، ففتحوا على عادٍ منها قدر حلقة الخاتم، ولو فتحوا قدر منخر الثور، لهلكت الدنيا، ورُوي أَنَّ الريح كانت ترفع العِيرَ بأَوقارها[1]

(١) العِيرُ: ما جُلب عليه الطعام من قوافل الإبل والبغال والحمير، والأوقار: الأحمال الثقيلة، جمع وِقْر وهو الحمل الثقيل.

فتطيرها، حتّى تطرحها بالبحر، وقال جابر بن عبد الله، والتيميّ(١): حبس عنهم المطر ثلاثة أعوام، وإذا أراد الله بقوم شرّاً، حبس عنهم المطر، وأرسل عليهم الريح. واختلف النّاس في الصَّرصَر ـ فقال قتادة، والسديّ، والضحّاك: هو مأخوذ من الصِّرّ وهو البَرْد، والمعنى: ريحاً باردة لها صوت، وقال مجاهد: صَرْصَر: شديدة السّموم عليهم، وقال الطبريُّ وجماعة من المفسّرين: هو من صَرْصَرَ(٢) إذا صوَّت صوتاً يشبه الصاد والراءَ، وكذلك يجيءُ صوت الريح في كثير من الأوقات بحسب ما تلقى.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والأعرج، والحسن، والنَّخَعي، وعيسى: [نَحْسَاتٍ] بسكون الحاءِ، وهي جمع نحْسٍ، يقال: يومٌ نَحْس وقوم نحْس، فهو مصدر يوصف به أحياناً ويضاف إليه «اليوم» أحياناً، وعلى الصفة به جمع في هذه الآية، واحتجّ أبو عمرو لهذه القراءَة بقوله تعالىٰ: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾(٣)، وقال النَّخعيُّ: نَحَسات وليست بِنَحِسَات بكسر الحاءِ، وقرأ الباقون، وأبو جعفر، وشيبة، وأبو رجاءٍ، وقتادة، والجحدريُّ، والأعمش: [نَحِسَاتٍ] بكسر الحاءِ، وهي جمع نَحِس على وزن حَذِر، فهو صفة اليوم مأخوذ من النَّحْس، وقال الطبريُّ: نَحِسٌ ونَحْسٌ لغتان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس كذلك، بل اللُّغة الواحدة تجمعهما، أحدهما مصدرٌ والآخر من أمثلة اسم الفاعل، وأنشد الفراءُ:

أَبْلِغْ جُذَاماً وَلَخْماً أَنَّ إِخْوَتَهُمْ ... طيًّا وبَهْرَاءَ قومٌ نَصْرُهُمْ نَحِسُ(٤)

---

(١) في الأصول: «جابر بن عبد الله التيميّ»، وهو خطأ، والصواب أنّهما شخصان، أمّا الأوّل، فهو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حَرَام الأنصاريّ السَّلَميّ، صحابيّ ابن صحابيّ، غزا تسع عشرة غزوة، ومات بالمدينة بعد السبعين، وكانت سنه عند وفاته أربعاً وتسعين سنة، وأمّا الثاني فهو عثمان بن عمر بن موسى التيميّ، قاض من أهل المدينة، ولي قضاءَها زمن مروان بن محمد، ثمّ ولي القضاءَ للمنصور العبّاسي. (راجع تهذيب التهذيب، وتقريب التهذيب).

(٢) في الأصول: «من صَرَّ يصرُّ»، والتصويب عن الطبريِّ والبحر المحيط.

(٣) من الآية (١٩) من سورة (القمر).

(٤) استشهد الفراءُ بهذا البيت في (معاني القرآن) على كسر الحاء في (نحِس)، قال: العوامُّ على تثقيلها بكسر الحاء، وقد خفّف بعض أهل المدينة (نَحْساتٍ)، وقد سمعتُ بعض العرب يُنشد: (أبلغ جذاماً... البيت)، وهذا لمن ثقّل، ومن خفّف بناه على قوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾، والبيت في البحر والطبريِّ واللسان، وجذامٌ ولخمٌ وطيٌ وبهراءُ قبائل معروفة.

وقالت فرقة: إن «نَحْسَاتٍ» بالسكون مخفَّفة من «نَحِسَات» بالكسر، والمعنى في هذه اللَّفظة: مشائيم، من النَّحْس المعروف، قاله مجاهد، وقتادة، والسدي. وقال الضحاك: معناه: شديدة، أَي شديدة البرد حتى كان البرد عذاباً لهم، قال أَبو علي: وأَنشد الأَصمعي في النَّحْس بمعنى البرد:

كَـأَنَّ سُـلاَفَـةَ عُـرِضَـتْ لِنَحْـسٍ يُحِيـلُ شَفيفُهـا المـاءَ الـزُّلاَلاَ[1]

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: [نَحِسَاتٍ] معناه: متتابعات، وكانت آخر شوال من الأَربعاءِ إِلى الأَربعاءِ.

و«عَذَابُ الخِزْيِ في الدُّنْيا»: الهلاك بسبب الكفر ومخالفة أَمر الله تعالىٰ، ولا خِزْي أَعظم من هذا، إِلاَّ ما في الآخرة من الخلود في النَّار.

وقرأَ جمهور النَّاس: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ ﴾ بغير صرف، وهذا على إِرادة القبيلة، وقرأَ يحيى بن وثاب، والأَعمش، وبكر بن حبيب: [وأَمّا ثمودٌ] بالتنوين والإِجراءِ، وهذا على إِرادة الحيِّ، وبالصرف كان الأَعمش، ويحيى بن وثاب يقرأان في جميع القرآن، إِلاَّ في قوله تعالىٰ: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ ﴾[2] لأَنّه في المصحف بغير أَلف. وقرأَ ابن أَبي إِسحاق، والأَعرج ـ بخلاف ـ والأَعمش، وعاصم: [ثمُودَ] بالنصب، وهذا على إِضمار فعل يدل عليه قوله تعالىٰ: [فَهَدَيْنَاهُمْ]، وتقديره عند سيبويه: مهما يكن من شيءٍ فهدينا ثمود هديناهم، والرفع عنده أَوجه[3]، ورُوي عن ابن أَبي إِسحاق،

---

(١) البيت لابن أحمر، وهو: عمرو بن أحمر بن فَرَّاص، وقيل: ابن العَمَرَّد بن فَرَّاص، وهو في اللّسان (نحس)، قال: «النَّحْس: شدّة البرد، حكاه الفارسيُّ وأنشد لابن أحمر: (كأنَّ مدامةً عُرضت... البيت)». والسُّلافةُ: أفضل الخمر وأخلصها، والنَّحْس: الريح الباردة، وهو موضع الشاهد هنا، وعُرضت: وضعت في مَهب هذه الريح، والشَّفيف: البَرْدُ، ومعنى يُحيل: يصبُّ، هكذا فسَّر الأصمعي كما حكاه صاحب اللسان، والمعنى عند الأصمعيّ: بَرْدُها يصبُّ الماءَ في الحلق، ولولا بردُها لم يُشرب الماءُ. هذا وقد استشهدوا على أن الشَّفيف هو شدّة البرد بقول الشاعر:

وَنَقْـرِي الضَّيْـفَ مِـنْ لَحْـم غَـرِيـضٍ إذا مـا الكَلْـبُ أَلْجَـأَهُ الشَّفِيـفُ

وبما جاء في حديث الطُّفيل: (في ليلة ذات ظلمة وشِفَافٍ)، قالوا: الشِّفَافُ: جمع شَفِيفٌ، وهو لذع البرد.

(٢) من الآية (٥٩) من سورة (الإسراء).

(٣) في بعض النسخ: «والرفع عنده أوجب».

والأعمش: [ثَمُوداً] منونةً منصوبةً، وروى المفضل عن عاصم الوجهيْن.

وقوله تعالىٰ: [فَهَدَيْنَاهُمْ] معناه: بَيَّنَّا لهم، قاله ابن عبّاس، وقتادة، والسديّ، وابن زيد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ليس الهُدى هنا بمعنى الإرشاد، وهذا كما هي الآن شريعة الإِسلام مبينة لليهود والنصارى المختلطين بنا، ولكن يعرضون ويشتغلون بالضدّ، فذلك استحباب العمى على الهدى[1]. وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ عبارة عن تكسبهم في العمى، وإِلاَّ فهو بالاختراع لله تعالىٰ، ويدلُّك على أَنَّها إِشارة إِلى تكسُّبهم قوله تعالىٰ: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾. وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ وصف بالمصدر، والمعنى: الذي معه هوان وإِذلال، ثمّ قرن تعالىٰ بذكرهم ذكر من آمن واتقى ونَجا به ليُبيِّنَ الفرق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

[يَوْمَ] نصب بإِضمار فعل تقديره: واذكر يومَ. وقرأَ نافع وحده، والأعرج، وأَهل المدينة: (نَحْشُرُ) بالنون [أَعْداءَ] بالنصب، إِلاَّ أَن الأَعرج كسر الشين. وقرأَ الباقون: (يُحْشَرُ) بالياءِ المرفوعة (أَعْداءُ) رفعاً، وهي قراءَة الأَعمش، والحسن، وأَبي رجاءٍ، وأَبي جعفر، وقتادة، وعيسى، وطلحة، ونافع ـ فيما روي عنه ـ، وحجَّتهم [يُوزَعُونَ]. و﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ هم الكفار المخالفون لأَمره، و[يُوزَعُونَ] قال قتادة وأَهل اللُّغة: يُكَفُّ أَوَّلُهُم حبساً على آخرهم[2]، وفي حديث أَبي قحافة يَوْمَ الفتح: «ذلك الوازع»[3]، وقال الحسن البصريُّ: لا بُدَّ للقاضي من وَزَعة، وقال أَبو بكر الصدِّيق

---

(١) في بعض النسخ: «فلذلك يقال: استحبوا العمى على الهدى».

(٢) يعني: يُحجز أَوَّلُهم، حتّى يجتمع عليهم آخرهم، ثمّ يوزَّعون بعد ذلك على أنواع النّار.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: لما وقف رسول الله ﷺ بذي طُوى، قال أبو قحافة لابنة له من أصغر ولده: أيْ بُنَيَّة، اظهري بي على أبي قبيس، قالت: وقد كفَّ=

رضي الله تعالىٰ عنه: إنّي لا أُقيد من وَزَعه اللهُ تعالىٰ.

و[حَتَّى] غاية لهذا الحشر المذكور، وهذا وصف حال من أحوالهم في بعض أوقات القيامة، وذلك عند وصولهم إلى جهنَّم، فإنَّ الله تعالىٰ سيقررهم عند ذلك على أنفسهم، ويُسألون سؤال توبيخ عن كفرهم، فينكرون ذلك ويحسبون أنَّ لا شاهد، ويظنّون السؤال سؤال استفهام واستخبار، فينطق الله تعالىٰ جوارحهم بالشهادة عليهم، فروي عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ أوّل ما ينطق من الإنسان فخذه اليسرى، ثمَّ تنطق الجوارح، فيقول الكافر: تباً لك أيتها الأعضاءُ فعنك كنت أُدافع»[1]، وفي حديث آخر «يجيئون يوم القيامة وعلى أفواههم الفدام فيتكلم الفخذ والكفُّ»[2].

ثمَّ ذكر تعالىٰ محاورتهم لجلودهم في قولهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾، أَي: وعذابُنا

= بصره، قالت: فأشرفتُ به عليه، فقال: يا بُنَيَّة ماذا تَرَين؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً، قال: تلك الخيل، قالت: وأرى رجلاً يسعى بين ذلك السواد مقبلاً ومدبراً، قال: يا بُنَيَّة ذلك الوازع، يعني الّذي يأمر الخيل ويتقدم إليها... إلى آخر الحديث، وهو حديث طويل. وفيه: فلمّا دخل رسول الله ﷺ مكّة ودخل المسجد، أتاه أبو بكر بأبيه يعوده، فلمّا رآه رسول الله ﷺ قال: «هلا تركت الشيخ في بيته، حتّى أكون أنا آتيه فيه»؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله هو أحقّ أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه، قال: فأجلسه بين يديه، ثمَّ مسح صدره، ثمَّ قال له: أسْلم، فأسلم.

(١) أخرج ابن جرير عن عقبة أنَّه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ أوّل عظم يتكلم من الإنسان يوم يختم على الأفواه، فَخِذُه من الرِّجل الشمال». وأخرج أيضاً عن أنس قال: «ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم، حتّى بدت نواجذه، ثمَّ قال: ألا تسألوني مِمَّ ضحكتُ؟ قالوا: مِمَّ ضحكتَ يا رسول الله؟ قال: عجبت من مجادلة العبد ربَّه يوم القيامة، قال: يقول: يا ربِّ أليس وعدّتني ألاّ تظلمني؟ قال: فإنَّ لك ذلك، قال: فإنّي لا أقبل عليَّ شاهداً إلاّ من نفسي، قال: أو ليس كَفَى بي شهيداً وبالملائكة الكرام الكاتبين؟ قال: فيُختم على فيه، وتتكلّم أركانه بما كان يعمل، قال: فيقول لهنَّ: بُعْداً لَكُنَّ وسُحْقاً، عَنْكُنَّ كنتُ أُجادل»، وفي ابن كثير أنَّ الحافظ أبا بكر البزّار أخرجه عن أنس أيضاً، وأنَّ مسلم والنسائيَّ أخرجاه عن الثوريِّ، وزاد السيوطيُّ نسبته إلى ابن أبي الدنيا في التوبة، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقيّ في الأسماء والصفات، وأخرج مثله مسلم، والترمذيُّ، وابن مردويه، والبيهقيُّ، عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وأحمد، والنسائيُّ، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وصححه، والبيهقيُّ في البعث عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه، ولفظه كما في الدر المنثور: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون ها هنا ـ وأومأ بيده إلى الشام ـ مُشاةً ورُكباناً على وجوهكم، وتعرضون على الله وعلى أفواهكم الفِدَام، وإنَّ أوّل ما يُعربُ عن أحدكم فَخِذُه وكفُّه، وتلا رسول الله ﷺ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾. هذا والفِدامُ: ما يُشَدُّ على فم الإبريق والكوز من خِرقة لتصفية الشراب الذي فيه، أي أنَّهم يمنعون الكلام، حتّى تتكلم جوارحهم، فشبَّه ذلك بالفِدَام».

عذابٌ لكم، واختلف النّاس، ما المرادُ بالجلود؟ فقال جمهور النّاس: هي الجلود المعروفة، وقال عبيد الله بن أَبي جعفر: كنَّى بالجلود عن الفروج وإِيَّاها أَراد، وأَخبر الله تعالىٰ أَنَّ الجلود تردُّ جوابهم بأَنَّ الله تعالىٰ الخالق المبدىءَ المعيدَ هو الّذي أَنطقهم، وقوله تعالىٰ: ﴿أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يريد: كلَّ شيءٍ ناطقٍ، مما هي فيه عادة أَو خرق عادة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ يحتمل أَن يكون من كلام الجلود ومحاورتها، ويحتمل أَن يكون من كلام الله عزَّ وجلَّ لهم، أَو من كلام مَلَك بأَمره، وأَمَّا المعنى فيحتمل وجهين: أَحدهما أَن يريد: وما كنتم تتصاوَنُونَ وتحجزون أَنفسكم عن المعاصي والكفر، خوف أَن يُشْهد، أَو لأَجل أَن يُشهد، ولكنَّكم ظننتم أَن الله سبحانه لا يعلم، فانهمكتم وجاهرتم، وهذا هو مَنْحى مجاهد، والسَّتْر يَنْصرف على هذا المعنى ونحوه، ومنه قول الشاعر:

والسَّتْـرُ دونَ الفـاحِشـاتِ ومَـا يَلْقَـاكَ دونَ الخَيْـرِ مِـنْ سِتْـرِ[1]

والمعنى الثاني أَن يريد: وما كنتم تمتنعون وما يُمكنكم ولا يسعكم الاختفاءُ عن أَعضائكم والاستتارُ عنها بكفركم ومعاصيكم، ولا تظنّون أَنّها تصل بكم إِلى هذا الحدّ، وهذا هو منحى السديّ، كأَنَّ المعنى: وما كنتم تدفعون بالاختفاءِ والسَّتر أَن تشهد؛ لأَنَّ الجوارح لزيمة لكم، وفي إِلزامه إِيّاهم الظنَّ بأَنَّ الله لا يعلم إِلزامهم الكفر والجهل بالله تعالىٰ، وهذا المعتقد يؤدي بصاحبه إِلى تكذيب أَمر الرسل، واحتقار قدرة الله تعالىٰ لا ربَّ غيره، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [ولكن زعمتم أَن الله]، وحكى الطبريُّ عن قتادة أَنَّه عبَّر بـ [تَسْتَتِرُونَ] عن «تَظُنُّونَ»، وذلك تفسير لم ينظر فيه إِلى اللَّفظ ولا ارتبط فيه معه، وذكر الطبريُّ وغيره حديثاً عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إِنّي لَمُسْتَتِرٌ بأَستار الكعبة، إِذ دخل ثلاثة نفر، قرشيان وثقفيٌّ، أَو ثقفيان وقرشيٌّ، قليلٌ فقْهُ قلوبهم، كثيرٌ شحمُ بطونهم، فتحدثوا بحديث، فقال

---

(١) يستشهد ابن عطية بهذا البيت على أَنَّ معنى التَّسَتُّر هو عدم التَّصَوُّن والتحرُّز من المعاصي، خيفة أن يُشهد أو لأجل أن يُشهد عليهم، وفي اللِّسان أَنَّ السَّتْر: الإخفاءُ، والسَّتر بالفتح مصدر سترتُ الشيءَ أَسْتُرُهُ، إذا غطَّيته، فاستتر هو، وتَسَتَّرَ هو: تَغَطَّى، والسِّتْر بالكسر: ما سُتِر به. والفحشاءُ والفاحشة: القبيح من القول والفعل، أو كلّ ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي.

أَحدهم: أترى الله يسمع ما قلنا؟ قال الآخر: إنَّه يسمع إذا رفعنا ولا يسمع إذا أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع شيئاً منه، فإنَّه يسمعه كلَّه، فجئت رسول الله ﷺ وأخبرته بذلك، فنزلت: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ الآية، فقرأ حتّى بلغ ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾، وذكر النقَّاش أَنَّ الثلاثة: صفوان بن أُميّة، وفرقد بن ثُمامة، وأبو فاطمة، وذكر الثعلبيُّ أَنَّ الثقفيَّ عَبْدُ ياليل، والقُرَشييْن خَتَناه: ربيعة وصفوان ابنا أُميّة بن خلف[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويشبه أَن يكون هذا بعد فتح مكَّة، فالآية مدنية[2]، ويشبه أَن رسول الله ﷺ قرأ الآية متمثلاً بها عند إخبار عبد الله إيّاه، والله تعالىٰ أَعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

[ذَٰلِكُمْ] رفع بالابتداء، والإشارة به إلى قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ﴾، قال قتادة: الظَّنُّ ظنَّان، ظنٌّ مُنْجٍ وظنٌّ مُهلك[3].

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن مسعود رضي الله عنه. وذكره الواحدي في أسباب النزول، وقال: إن البخاري رواه عن طريق الحميدي، وإن مسلم رواه عن أبي عمر، وكلاهما عن سفيان، عن منصور.

(٢) سبق أن ذكر هو وكلّ المفسرين أنَّ هذه السورة مكّيّة بإجماع، ولم يستثن أحد منها آية آية، فتأمل، ولعل ما ذكره بعد من تمثل الرسول ﷺ بالآية هو الأشبه.

(٣) قال قتادة: الظنُّ هنا بمعنى العلم، وقد روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لا يموتن أحدكم، إلاَّ وهو يحسن الظنَّ بالله، فإنَّ أقواماً أساءوا الظنَّ بربِّهم، فأهلكهم، فذلك قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾، أخرجه أحمد، والطبرانيُّ، وعبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، وابن حبّان، وابن مردويه، عن جابر رضي الله عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالمُنْجي هو أن يظنَّ الموحِّد العارف بربِّه تعالىٰ أَنَّ الله تعالىٰ يرحمه، والمُهلك ظنون الكفرة الجاهلين على اختلافها، وفي هذا المعنى ليحيى بن أَكثم رؤْيا حسنة مؤنسة، و[ظَنُّكُم] خبر ابتداءٍ[1].

وقوله تعالىٰ: [أَرْدَاكُمْ] يصحُّ أَن يكون خبراً بعد خبر، وجوَّزَ الكوفيون أَن يكون في موضع الحال، والبصريون لا يُجيزون وقوع الماضي حالاً إِذا اقترن بِقَدْ، تقول: رأَيت زيداً قد قامَ، وقد يجوز تقديرها عندهم وإِن لم تظهر[2]، ومعنى [أَرْدَاكُمْ]: أَهلككم، والرَّدى: الهلاكُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ﴾ مخاطبة لمحمد ﷺ، والمعنى: فإِن يصبروا أَو لا يصبروا، واقتصر لدلالة الظاهر على ما ترك، و«المَثْوَى»: موضع الإِقامة. وقرأَ جمهور الناس: [يَسْتَعْتِبُوا] بفتح الياءِ وكسر التاءِ الثانية على إِسناد الفعل إِليهم، ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ بفتح التاءِ، على: وإِن يطلبوا العُتْبَى ـ وهي الرِّضى ـ فما هم ممن يعطاها ويستوجبها، وقرأَ الحسن، وعمرو بن عبيد، وموسى الأَسواريُّ: [يُسْتَعْتَبُوا] بضم الياءِ وفتح التاءِ الثانية، [فما هم من المعتِبين] بكسر التاءِ، على معنى: وإِن طُلب عندهم خير أَو صلاح، فما هم ممن يوجد عندهم؛ لأَنَّهم فارقوا الدنيا دار الأَعمال، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ليس بعد الموت مُسْتَعْتَب»[3]، ويحتمل أَن تكون هذه القراءَة بمعنى: ولو رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ.

ثمَّ وصف عزَّ وجلَّ حالهم في الدنيا وما أَصابهم حين أَعرضوا، فحتم عليهم.

---

(١) قال أبو حيّان في البحر المحيط تعقيباً على هذا: «ولا يصحُّ أن يكون ﴿ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ﴾ خبراً، لأنَّ قوله تعالىٰ: [وَذَٰلِكُمْ] إشارة إلى ظنِّهم السابق، فيصير التقدير: «وظَنُّكُم بأنَّ ربّكم لا يعلم ظَنُّكُمْ بربكم» فاستفيد من الخبر ما استفيد من المبتدأ، وهو لا يجوز، وصار نظير ما منعه النحاة من قولك: «سيِّد الجارية مالكها».

(٢) عقَّب أبو حيّان في البحر المحيط على هذا أيضاً بقوله: «وقد أجاز الأخفش من البصريِّين وقوع الماضي حالاً بغير تقدير «قد»، وهو الصحيح؛ إذ كثر ذلك في لسان العرب، كثرة توجب القياسَ ويَبْعُد فيها التأويل».

(٣) قال ابن الأثير في كتاب (النهاية في غريب الحديث والأثر): «معناه: ليس بعد الموت من استرضاءٍ؛ لأنَّ الأعمال بطلت، وانقضى زمانها، وما بعد الموت دار جزاءٍ لا دار عمل». ثمَّ وجدْتُ العبارة بنصها في لسان العرب بعد أن استشهد بالحديث.

و[قَيَّضْنَا] أَي يسَّرنا لهم قُرناءَ سوءٍ من الشياطين وغُواة الإِنس، وقوله سبحانه: ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، أَي: علَّموهم وقرَّروا في نفوسهم معتقدات سوءٍ في الأُمور الّتي تقدمتهم: من أَمر الرُّسل عليهم السلام، والنُّبُوَّاتِ، ومدحِ عبادة الأَصنام، واتِّباع فعل الآباءِ إِلى غير ذلك مما يقال فيه: «إِنَّه بين أَيديهم»، وذلك كل ما تقدمهم في الزَّمن واتَّصل إِليهم أَثره أَو خبره، وكذلك أَعطوهم معتقدات سوءٍ فيما خلفهم، وهو كلُّ ما يأتي بعدهم من أَمر القيامة والبعث ونحو ذلك مما يقال فيه: «إِنه خلف الإِنسان»، فزينوا لهم في هذين كلَّ ما يُرديهم ويفضي بهم إِلى عذاب جهنَّم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أَي: سبق القضاءُ الحتم وأَمر الله بتعذيبهم في جملة أُممٍ كفَّار مُعَذَّبين من الجنِّ والإِنسِّ، وقالت فرقة: [في] بمعنى «مَعْ».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمعنى يتأَدَّى بالحرفين، ولا نحتاج إِلى أَن نجعل حرفاً بمعنى حرفٍ، إِذ قد أَبى ذلك رؤساءُ البصريين.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ حكايةٌ لما فعله بعض قريش؛ كأَبي جهل وغيره، وذلك أَنَّ رسول الله ﷺ كان يقرأُ القرآن في المسجد الحرام، ويُصغي إِليه النّاس من مؤمن وكافر، فخشي الكفار استمالة القلوب بذلك، فقالوا: متى قرأَ محمد فَلْنَلْغَطْ نحن بالمُكاءِ والصفير والصياح وإِنشاد الشِّعر والأَرجاز، حتّى يخفى صوته ولا يقع الاستماع منه[1]، وهذا الفعل منهم هو اللَّغْوُ، وقال أَبو العالية: أَرادوا: قعوا فيه وعيبوه، و«اللَّغْوُ» في اللُّغة: سقط القول الّذي لا معنى له، أَو هو من الحاسة والتَّطوُّل في حكم ما لا معنى له، وقرأَ جمهور الناس: [وَٱلْغَوْا] بفتح الغين وجَزْم الواو، وقرأَ بكر بن حبيب السَّهْمي: [وَٱلْغُوا] بضم الغيْن وسكون الواو، ورويت عن عيسى، وابن أَبي إِسحاق ـ بخلاف عنهما ـ، وهما لغتان، يقال: لَغَا يَلْغُو، ويقال: لَغِيَ يَلْغَى، ويقال أَيضاً: لَغَا يَلْغَى، أَصله يَفْعِل ـ بكسر العين ـ فردَّه حرف الحلْق إِلى الفتح، فالقراءَة الأُولى من يَلْغَى، والقراءَة الثانية من يَلْغُو، قاله الأَخفش. وقوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أَي تطمسون أَمر محمد ﷺ وتُميتون ذكره وتصرفون القلوب عنه، فهذه الغَلَبة الّتي تمنَّوْها.

---

(١) المُكاءُ: الصفير، يقال: مَكا مكاءً: صَفَر بفيه، أو شبَّك بأصابع يديه، ثمَّ أدخلهما في فيه ونفخ فيها. وهذا الخبر أخرجه ابن جرير عن مجاهد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، الفاءُ دخلت على لام القَسَم، وهي آية وعيد لقريش، و«العذاب الشديد» هو عذاب الدنيا في بذرٍ وغيرها، و«الجزاءُ بأسوأِ أعمالهم» هو عذاب الآخرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الجزاءِ المتقدم، و﴿جَزَآءُ﴾ خبر الابتداءِ، و﴿ٱلنَّارُ﴾ بدل من قوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءُ﴾، ويجوز أَن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر ابتداءٍ تقديره: الأَمر ذلك، ويكون قوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءُ﴾ ابتداءٌ، و﴿ٱلنَّارُ﴾ خبره. وقوله تعالىٰ: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أَي موضع البقاءِ وسكن العذاب الدائم، فالظرفية فيه متمكنة على هذا التأْويل، ويحتمل أَن يكون المعنى: هي لهم دار الخلد، ففي قوله: ﴿فِيهَا﴾ معنى التحديد، كما قال الشاعر:

. . . . وفي اللهِ إِنْ لَمْ تُنْصِفُوا حَكَمٌ عَدْلُ[1]

---

(١) يستشهد ابن عطية بهذا الشطر على أن «في» تعطي معنى التحديد، وهذا للإجابة عن سؤال مقدر خلاصته في الآية: كيف قيل: [فيها] مع أنّها هي نفسها دار الخُلْد؟ والجواب أنَّ الشيءَ قد يجعل ظرفاً لنفسه باعتبار مُتَعلَّقه على سبيل المبالغة، كأنَّ ذلك المتعلق صار الشيءُ مُستَقراً له، وهذا أبلغ من نسبة ذلك المتعلق إليه على سبيل الإخبار عنه، فالنّار نفسها قد صارت دار الخلد لهم، والله سبحانه وتعالىٰ هو الحَكَمُ العدل وتحدّد ذلك فيه، إذا فُقد الإنصاف عند الّذين يخاطبهم الشاعر، ومثل هذا أيضاً قول الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، إذ قد يقال: كيف يكون فيه أُسوةٌ حسنة مع أنَّه هو الأسوة الحسنة نفسها، والجواب هو ما ذكرناه من أنَّه قد جُعل هو نفسه ﷺ الأسوة الحسنة وتحدّدت الأسوة الحسنةُ فيه. هذا والبيت بتمامه في اللّسان، أنشده ابن بَرِّي، وهو:

أَقَــادَتْ بَنُــو مَــرْوانَ قَيْســاً دِمَــاءَنَــا وَفــي اللهِ إِنْ لَـمْ يحْكُمُـوا حكمٌ عَـدْلُ

بلفظ (إن لم يَحكمُوا)، والحَكَمُ: الحاكم، وفي المثل «في بيته يُؤْتَى الحَكَمُ». والقَوَدُ: قتل النفس بالنفس، يريد أنَّ بني مروان أباحوا دماءَهم والعدل عند الله وحده.

وفي قراءة عبد الله بن مسعود: [ذلك جَزاءُ أَعداءِ اللهِ النارُ دارُ الخُلْد]، وسقط: ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾، وجحودهم بآيات الله تعالىٰ مطردٌ في علاماته المنصوبة لخلْقه، وفي آيات كتابه المنزَّلة على نبيِّه ﷺ.

ثمَّ ذكر الله عزَّ وجلَّ مقالة كفارِ يوم القيامة، إذْ دخلوا النّار، فإنَّهم يرون عظيم ما حلَّ بهم وسُوءَ منقلبهم، فتجول أفكارهم فيمن كان سبب غوايتهم وبادىء ضلالتهم، فيعظم غيظهم وحنقهم عليه، ويودون أن يحصل في أَشدِّ العذاب، فحينئذ يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾، وظاهر اللّفظ يقتضي أَن «الّذي» في قولهم: [ٱللَّذَيْن] إنَّما هو للجنس، أَي: أرنا كلَّ مُغْو من الجنِّ والإنس، وهذا قول جماعة من المفسرين، وقال عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، وقتادة: طلبوا ولد آدم الّذي سنَّ القتل والمعصية من البشر، وإبليس الأبالسة من الجنِّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتأَمل هذا، هل يصحُّ عن عليٍّ بن أَبي طالب رضي الله عنه؟ لأَنَّ ولد آدم مؤمن عاصٍ، وهؤلاءِ إنَّما طلبوا المُضلِّين بالكفر المؤدي إلى الخلود، وإنَّما القويُّ أَنَّهم طلبوا النوعين، وقد أَصلح بعضهم هذا القول بأَن قال: يطلب ولَدَ آدم كلَّ عاصٍ دخل النّار من أَهل الكبائر، ويطلب إبليسَ كلَّ كافر، ولفظ الآية يزحم هذا التأْويل؛ لأَنَّه يقتضي أَنَّ الكفار إنَّما طلبوا اللَّذَيْن أَضلاَّ.

وقرأَ نافع، وحمزة، والكسائي: (أَرِنَا) بكسر الراءِ، وهي رؤْية عين، ولذلك هو فعل متعدٍّ إلى مفعولين، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وأَبو بكر عن عاصم: [أَرْنَا] بسكون الراءِ، فقال هشام بن عمَّار عن عامر: هي خطأٌ، وقال أَبو عليٍّ: هي مخفَّفة من [أَرِنَا] كما قالوا: ضحْك وفخْذ، وقرأَ أَبو عمرو بإشمام الرّاءِ الكسر، ورويت عن أَهل مكَّةَ. وقولهم: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ يريدون: في أَسفل طبقة في النار، وهي أَشدُّ عذاباً، وهي دَرْك المنافقين(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ الآيةُ... آيةُ وَعْدٍ للمؤمنين،

---

(١) الدَّرْك ـ بسكون الراءِ وبفتحها ـ: أسفل كلِّ شيءٍ ذي عُمْق؛ كالبئر ونحوها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، والجمع: أدراك.

قال سفيان بن عبد الله الثقفيُّ: «قلتُ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام: أَخبرني بأَمر أعتصم به، فقال: قل ربِّيَ الله ثمَّ استقم، قلت: ما أَخوف ما تخاف عليَّ؟ فأَخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه وقال: هذا»(١).

واختلف النّاس في مقتضى قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ ـ فذهب الحسن، وقتادة، وجماعة إِلى أَنَّ معناه: استقاموا بالطاعات واجتناب المعاصي. وتلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية وهو على المنبر، ثمَّ قال: استقاموا ـ والله ـ لله تعالىٰ بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ذهب رضي الله عنه إِلى حمل النّاس على الأَتمِّ الأَفضل، وإِلاَّ فَيَلْزَم ـ على هذا التأْويل ـ من دليل خطابه، أَلاَّ تتنزّل الملائكة عند الموت على غير مستقيم على الطاعة، وذهب أَبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه وجماعة معه إِلى أَن المعنى: ثمّ استقاموا على قولهم: «ربُّنا الله»، فلم يَخْتَلَّ توحيدهم ولا اضطرب إِيمانهم، وروى أَنس بن مالك أَنَّ رسول الله ﷺ قرأَ هذه الآية وقال: «قد قالها النّاس، ثمَّ كفر أَكثرهم، فمن مات عليها، فهو ممن استقام»(٢).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

المعنى: هو في أَوَّل درجات الاستقامة، أَمن الخلود، فهذا كقوله عليه الصلاة والسلام: «من كان آخر كلامه لا إِلـٰه، إِلاَّ الله دخل الجنَّة»(٣)، وهذا هو المعتقد إِن شاءَ الله تعالىٰ، وذلك أَن العصاة من أُمَّة محمد ﷺ وغيرها فرقتان: فأَمَّا من قضى الله تعالىٰ بالمغفرة له وترك تعذيبه، فلا محالة أَنَّه ممن تتنزَّل عليه الملائكة بالبشارة، وهو إِنَّما استقام على توحيده فقط، وأَما من قضى الله تعالىٰ بتعذيبه مدَّةً، ثمَّ بإِدخاله الجنّة،

---

(١) أخرجه أحمد، وعبد بن حميد، والدارميُّ، والبخاريُّ في تاريخه، ومسلم، والترمذيُّ، والنسائيُّ، وابن ماجه، وابن حبّان، عن سفيان الثوريِّ، ولفظه كما ذكره في الدّرّ المنثور، أنّ رجلاً قال: يا رسول الله، مرني بأمر في الإسلام، لا أسأل عنه أحداً بعدك. . . الحديث.

(٢) أخرجه الترمذيُّ، والنسائيُّ، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن عديٍّ، وابن مردويه، ذكر ذلك الإمام السيوطيُّ في الدّرّ المنثور.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود، والحاكم في مستدركه، عن معاذ رضي الله تعالىٰ عنه، ورمز له بالصحّة الإمام السيوطيُّ في الجامع الصغير.

فلا محالة أَنَّه يلقى جميع ذلك عند موته ويعلمه، وليس يصحُّ أَن تكون حاله كحالة الكافر اليائس من رحمة الله تعالىٰ، وإذا كان هذا، فقد حصلت له البشارة بأَلاَّ يخاف الخلود ولا يحزن منه، وبأَنَّه يصير آخراً إلى الخلود في الجنَّة، وهل العصاة المؤمنون، إلاَّ تحت الوعد بالجنَّة؟ فهم داخلون فيمن يقال لهم: ﴿أبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾، ومع هذا كلّه، فلا يُختلف في أَنَّ الموحِّد المستقيم على الطاعة، أَتَمُّ حالاً وأَكمل بشارة، وهو مقصد أَمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، وعلى نحو ذلك قال سفيان الثوريُّ: [ٱسْتَقَٰمُوا]: عملوا بنحو ما قالوا، وقال الربيع: أَعرضوا عما سوى الله تعالىٰ، وقال الفضل: زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية، وبالجملة فكلَّما كان المرءُ أَشدَّ استعداداً، كان أَسرع فوزاً بفضل الله تعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ أَمنة عامَّة في كلّ همٍّ مستأْنف، وتسلية تامَّة عن كلِّ فائت ماض، وقد قال مجاهد: المعنى: لا تخافوا ما تُقدمون عليه، ولا تحزنوا على ما خلفتم من دنياكم، وفي قراءَة ابن مسعود رضي الله عنه: [تتنزلُ عليهم الملائكة لا تخافوا] بإسقاط الألف[1]، بمعنى: يقولون لا تخافوا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾.

المتكلم بـ ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ هم الملائكة القائلون: «لا تخافوا ولا تحزنوا»، أَي: يقولون للمؤمنين عند الموت وعند مشاهدة الحقِّ: نحن كنَّا أَولياءكم في الدنيا ونحن هم في الآخرة، قال السديُّ: المعنى: نحن حفظتكم في الدنيا وأَولياؤُكم في الآخرة. والضمير في قولهم: [فِيهَا] عائد على الآخرة، و[تَدَّعُونَ] معناه: تطلبون. و[نُزُلًا] نصب على المصدر[2]، وقراءَة

---

(١) في بعض النسخ: «بإسقاط أن».

(٢) فالتقدير: أنزلناه نُزُلاً، وقيل: هو منصوب على الحال؛ لأنَّ «النُّزُل» هو الرزق المقدم للنَّزيل وهو الضيف، فيكون المعنى: تعطون ذلك في حال كونه نُزولاً، وقيل: هو جمع نازِل، فهو كشارف وشُرُف، فينتصب أيضاً على الحال، أي: نازلين، ويكون صاحب الحال هو الضمير المرفوع في [تَدَّعُونَ].

الجمهور بضمِّ الزّاي، وقرأ أبو حيوة(١) بإسكانها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ الآية.... ابتداءُ توصية لمحمد ﷺ، وهو لفظ يعمُّ كلَّ من دعا قديماً وحديثاً إلى الله تبارك وتعالىٰ وإلى طاعته من الأنبياءِ عليهم السلام ومن المؤمنين، والمعنى: لا أحد أحسن ممّن هذه حاله، وإلى العموم ذهب الحسن، ومقاتل، وجماعة، وبيّنٌ أنَّ حالة محمد ﷺ كانت كذلك مبرزة، وإلى تخصيصه في الآية ذهب السديُّ، وابن زيد، وابن سيرين، وقال قيس ابن أبي حازم، وعائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها، وعكرمة: نزلت هذه الآية في المؤذّنين، قال قيس: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ هو الصلاة بين الأذان والإقامة، وذكر النقّاش ذلك عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومعنى القول بأنّها في المؤذّنين أنّهم داخلون فيها، وأما نزولها فمكّيّة بلا خلاف، ولم يكن بمكّة أذان، وإنّما ترتّب بالمدينة، وإنَّ الأذان لَمِن الدعاءِ إلى الله تعالىٰ، ولكنّه جزءٌ منه، والدعاءُ إلى الله تعالىٰ بقوّة، كجهاد الكفار وردع الطغاة وكفّ الظَّلَمة وغيره أعظم عناءً من تولّي الأذان؛ إذ لا مشقّة فيه، والأصوب أن يعتقد أنَّ الآية نزلت عامّة، قال زيد بن عليٍّ: المعنى: مِمَّن دعا إلى الله تعالىٰ بالسيف. وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ بنونين، وقرأ ابن أبي عبلة: [إنّي من المسلِمِينَ] بنون واحدة، وقال الفضيل بن رُفَيْدَة(٢): كنت مؤذناً في أصحاب ابن مسعود، فقال لي عاصم بن هُبيرة: إذا أكملت الأذان فقل: إنّني من المسلمين، ثمَّ تلا هذه الآية.

ثمَّ وعظ الله تعالىٰ نبيَّه عليه الصلاة والسلام، ونبهه على أحسن مخاطبة، فقرّر أنَّ الحسنة والسيئة لا تستوي، أي: فالحسنة أفضل، وكرّر [لاَ] في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ تأكيداً ليدلَّ على أن المراد: «ولا تستوي الحسنة والسيّئة ولا السيّئة والحسنة»، فحذف اختصاراً ودلت [لاَ] على هذا الحذف. وقوله تعالىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ آيةٌ جمعت مكارم الأخلاق وأنواع الحلم، والمعنى: ادفع أمورك وما يعرض لك مع النّاس ومخالطتك لهم بالفعلة أو بالسّيرة الّتي هي أحسن الفعلات والسِّير، فمن

---

(١) في بعض النسخ: «أبو جعفر» واخترنا ما يتفق مع ما في البحر المحيط.
(٢) في القرطبي: «فُضَيل بن رفيدة».

ذلك بذلُ السّلام، وحُسْن الأدب، وكَظْم الغيظ، والسَّماحة في القضاءِ والاقتضاءِ، وغير ذلك. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: إذا فعل المؤمن هذه الفضائل، عصمه الله تعالىٰ من الشّيطان، وخضع له عدوُّه، وفسَّر مجاهد وعطاءٌ هذه الآية بالسَّلام عند اللّقاءِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا شك أَنَّ السَّلام هو مبدأُ الدفع بالّتي هي أَحسن، وهو جزءٌ منه.

ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، فدخل كاف التشبيه؛ لأَنَّ الّذي عنده عداوة لا يعود وليّاً حميماً، وإنَّما يَحْسُن ظاهره، فيشبه بذلك الوليَّ الحميم، و«الحَمِيمُ» هو القريب الّذي يَحْتَمُّ للإنسان(١)، والضمير في قوله تعالىٰ: [يُلَقَّاها] عائد على هذه الخُلُق، الّتي يتضمَّنها قوله تعالىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، وقالت فرقة: المراد: وما يُلَقَّى لا إلـٰهَ إلاَّ الله، وهذا تفسير لا يقتضيه اللَّفظ. وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ مدح بليغ للصبر، وذلك بيِّنٌ للمتأمِّل؛ لأَنَّ الصبر على الطاعات وعن الشهوات، جامعٌ لخصال الخير كِلها. و«الحَظُّ العظيمُ» يحتمل أَن يريد: من العقل والفضل، فتكون الآية مدحاً، وروي أَنَّ رجلاً شتم أَبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه بحضرة النبيِّ ﷺ، فسكت أَبو بكر ساعة، ثمَّ جاش به الغضب، فردَّ على الرجل، فقام النبيُّ ﷺ، فاتَّبعه أَبو بكر وقال: يا رسول الله، قمتَ حين انتصرتُ؟ فقال: إنَّه كان يردُّ عنك مَلَك، فلمَّا قَرُبْتَ تنتصر ذهب المَلَك وجاءَ الشيطان، فما كنتُ لأُجالسه(٢)، ويحتمل أَن يريد: ذو حظ من الجنَّة وثواب الآخرة، فتكون الآية وعداً، وبالجنَّة فسَّر قتادة «الحَظَّ» هنا.

---

(١) يَحْتَمُّ للإنسان: يَهْتَمُّ له، جاء في اللِّسان: واحْتَمَّ له: اهْتَمَّ، الأزهريُّ: أَحَمَّني هذا الأمر واحْتَمَمْتُ له؛ كأنَّه اهْتِمامٌ بحميم قريب، وأنشد:

تَعَـزَّ عَلَـى الصَّبَـابَـةِ لا تُـلامُ ... كـأنَّـكَ لا يُلِـمُّ بِـكَ احْتِمَـامُ

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢ـ٤٣٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي آخره زيادة على ما هنا «ثمّ قال: يا أبا بكر ثلاثٌ كلّهن حقٌّ: ما من عبد ظُلم بمظلمة، فيغضي عنها لله عزَّ وجلَّ، إلاَّ أعزَّ الله بها نصره، وما فتح رجل باب عطيّة يريد بها صلة، إلاَّ زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة، إلاَّ زاده الله عزَّ وجلَّ بها قلّة».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

[إِمَّا] شرطٌ، وجواب الشّرط قوله تعالىٰ: [فَاسْتَعِذْ]، و«النَّزْغُ»: فعل الشّيطان في قلب أو يد، من إلقاءِ غضب أو حِقْد أو بطش في اليد، فمن الغضب هذه الآية، ومن الحقد قوله تعالىٰ: ﴿ نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾[1]، ومن البطش قول النبيِّ ﷺ: «لا يُشر أحدكم على أخيه بالسّلاح لا ينزغ الشّيطان في يده، فيلقيه في حفرة من حُفر النّار»[2]، وندب الله تعالىٰ في هذه الآية المتقدمة إلى مكارم الأخلاق بالدفع بالّتي هي أحسن، ثمَّ أثنى تعالىٰ على من لُقِّيها[3] وَوَعَدَهُ، وعَلمَ أَنَّ خِلْقَة البشر تغلب أحياناً وتثور بهم ثورةُ الغضب ونزغ الشيطان، فدلَّهم على مُذْهِب ذلك وهي الاستعاذة به عزَّ وجلَّ.

ثمَّ عدد الله تعالىٰ آياته ليعتبر فيها من صدف عن التّوحيد، فذكر اللّيل والنّهار، وذِكرهما يتضمّن ما فيهما من الطول والقِصر والتّداخل والاستواءِ في مواضع وسائر عبرهما، وكذلك ذكْر الشمس والقمر مُتَضَمِّن عجائبهما وحكمة الله تعالىٰ فيهما ونَفْعه عباده بهما، ثمَّ قال تعالىٰ: لا تسجدوا لهذه المخلوقات وإن كانت تنفعكم؛ لأنَّ النفع بها إنّما هو بتسخير الله تعالىٰ إيّاها، فهو الّذي ينبغي أن يُسجد له، والضمير في [خَلقَهُنَّ] قالت فرقة: هو عائد على الآيات المتقدم ذكرها، وقالت فرقة: الضمير عائد على الشّمس والقمر، والاثنان جمع، وجمع ما لا يعقل يؤنث، فلذلك قال: [خَلقَهُنَّ].

---

(١) من الآية (١٠٠) من سورة (يوسف).

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب الفتن، ومسلم في البرّ، وأحمد في مسنده(٢-٣١٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه كما في البخاريِّ، عن النبيّ ﷺ قال: «لا يشر أحدكم على أخيه بالسّلاح، فإنّه لا يدري لعلَّ الشّيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من النّار»، فالفعل فيه «ينزع» بالعين المهملة، وكذلك هو في مسند أحمد، وفي صحيح مسلم، وعلى هذا فلا شاهد فيه.

(٣) لُقِّيَ الشيءَ: عُلِّمَهُ ونبِّه عليه، وتَلَقَّاهُ: تعلمه وفهمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن حيث يقال: شموسٌ وأقمارٌ لاختلافهما بالأيام ساغ أن يعود الضمير مجموعاً، وقالت فرقة: هو عائد على الأربعة المذكورة، وشأن ضمير ما لا يعقل، إذا كان العدد أقل من العشرة أن يجيءَ هكذا، فإذا زاد أُفرد مؤنثاً، فتقول: الأجذاع انكسرْنَ والجذوع انكسرت، ومنه ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾(1) الآية، ومنه قول حسَّان بن ثابت:

. . . . وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نجْدَةٍ دَمَا(2)

وقال السموأل:

ولاَ عَيْبَ فينَا غيْرَ أَنَّ سُيُوفَنَا بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ(3)

---

(١) من الآية (٣٦) من سورة (التوبة).

(٢) البيت من قصيدته الّتي يفتخر فيها، والتي بدأها بقوله: (ألم تسْأَلِ الرَّبْعَ الجديدَ التَّكَلُّمَا)؟ والمذكور هنا شطره الثّاني، والبيت بتمامه:

لَنَا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

وهو بيت مشهور تكلم عنه كثير من النّقّاد قديماً وحديثاً، وأخذوا عليه الكثير، والجفنات: جمع جفنة وهي القصعة الّتي يوضع فيها الطعام، ويقطرن: يسيل منهن الدّم، والشاهد أنَّ (أسياف) جمع قلَّة، ولهذا أعاد الضمير عليها جمعاً مؤنثاً فقال: «يقطرن»، والنّجدة: سرعة الإغاثة والشجاعة في القتال. يفخر بأنَّهم أهل كرم وشجاعة على عادة العرب في ذلك.

(٣) اضطرب النساخ في كتابة هذا البيت في الأصول، ولعلَّ السّبب هو وجود تشابه كبير بينه وبين بيت آخر مشهور للنابغة الذبيانيّ، أما بيت السموأل فهو:

وأَسْيَافُنَا فِي كُلِّ يَوْمِ كَرِيهَةٍ بها مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ

ويوم الكريهة هو يوم القتال، والقِراع: المضاربة بالسّيوف، والدّارعون: لابسو الدروع في الحرب، والفُلول: جمع فَلٍّ، والفَلُّ: الثّلم في السيف. وهو من قصيدة مشهورة قال عنها النقاد: إنّها من أجمع قصائد الفخر الّتي جمعت ضروب الممادح، ولهذا فهي من أجود ما قيل في الفخر، وقد بدأها السموأل بن عادياءَ بقوله:

إذا المرءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُه فكُلُّ رِداءٍ يَرْتَدِيه جَمِيلُ

والشاهد في البيت أن (سُيوف) جمع كثرة ولهذا عاد الضمير عليها مفرداً مؤنثاً ـ وهذا على الرّواية الّتي ذكرها ابن عطية والّتي أثبتناها في موضعها من تفسيره مع أنّها رواية غير صحيحة، والرّواية الصّحيحة الّتي ذكرناها في هذا الهامش ليس فيها شاهد، بل هي على عكس ما ذكر ابن عطية حيث عاد الضمير مفرداً مؤنثاً على جمع القِلّة وهو (أسياف) ـ فتأمل الفرق بين الروايتين. =

وهذا مَهْيَع كثير وإن كان قد يوجد الأَمر متداخلاً بعضه على بعض.

ثمّ خاطب الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بما يتضمَّن وعيدهم وحقارة أَمرهم، وأَن الله تعالىٰ غير محتاج إِلى عبادتهم بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ الآية، وقولُه تعالىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني بهم الملائكة وهم صافُّون يسبِّحون، و[عِنْدَ] في هذه الآية ليست بظرف مكان، وإِنَّما هي بمعنى المنزلة والقُرْبة، كما تقول: زيد عند الملك جليل، وفي نفسه رفيع، ويُروى أَن تسبيح الملائكة قد صار لهم كالنَّفَس لابن آدم، و[يَسْأَمُونَ] معناه: يملُّون.

ثمَّ ذكر تعالىٰ آية منصوبة لِيُعْتَبر بها في أَمر البعث من القبور، ويستدلّ بما شوهد من هذه الآية على ما لم يشاهد بعد من تلك، وهي آية يراها عياناً كلُّ مَفْطُور على عقل. و«خشوع الأَرض» هو ما يظهر عليها من استكانة وشعث بالجدب وصَيْلَم السَّموم[1]، فهي عابسة كما الخاشع عابس يكاد يبكي، و«الماءُ المُنْزل» هو المطر، و«اهتزاز الأَرض» هو تخلخل أَجزائها بالماءِ وتشقّقها للنبات، و«رُبُوُّهَا» هو انتفاخها بالماءِ وعلوُّ سطحها به. وقرأَ الجمهور: [رَبَتْ]، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [وَرَبَأَت] بأَلف مهموزة، ورواها الرواسيُّ عن أَبي عمرو، وهو أَيضاً بمعنى: عَلَتْ وارتفعت، ومنه الربيئة وهو الّذي يرتفع حين يرصد للقوم، ثمّ ذكَّر تعالىٰ بالأَمر الّذي ينبغي أن يقاس

= وأما بيت النابغة الذبيانيّ فهو:

ولا عَيْـبَ فيهـمْ غَيْـرَ أنَّ سُيُـوفَهُـمْ ... بهـنَّ فلـولٌ مِـنْ قِـرَاعِ الكتَـائِـبِ

وهو من قصيدته المعروفة التي مدح بها عمرو بن الحارث الأصغر، والّتي قال في مطلعها:

كِلِينِـي لِهَـمٍّ يـا أُمَيْمَـةَ نـاصِـبِ ... ولَيْـلٍ أُقـاسيـهِ بطـيءِ الكَـوَاكِـبِ

وهو متداول في كتب النحو وكتب البلاغة، أمّا علماءُ النحو، فأوّلهم سيبويه الّذي جعل الاستثناء فيه منقطعاً، ولهذا نصبت (غير) لكنَّه جُعل كالمتصل، وذلك لصحة دخول البدل في المبدل منه، وأمّا كتب البلاغة فقد أورده العلماءُ شاهداً في البديع على تأكيد المدح بما يشبه الذَّمَّ، فإنَّ الشاعر نفى العيب عن الممدوحين على جهة الاستغراق، ثمَّ أثبت لهم عيباً هو تثلّم سيوفهم من كثرة المضاربة بها في الحروب، وهذا في الحقيقة ليس بعيب، بل هو غاية المدح، وعلى هذا فالشاعر أكَّد المدح بما يشبه الذَّمَّ، وهذا البيت في الديوان، والكتاب، والهمع، والكامل، وشرح شواهد المغني، ومعاهد التنصيص.

(١) الصَّيْلَم: الأمر المستأصِل، والسَّمومُ: الريح الحارَّة والحَرُّ الشديد الّذي ينفذ في المسامِّ، يريد أنَّ ريح السَّموم تستأصل كلّ ما على وجه الأرض من زرع وخضرة.

على هذه الآية والعبرة، وذلك إحياءُ الموتى، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم، و«الشيءُ» في اللُّغة: الموجود.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

هذه آية وعيد، و«الإلحادُ»: الميل، وهو ها هنا عن الحقِّ، ومن «الإلحاد» لحد الميت؛ لأنَّه في جانب، يقال: لَحَد الرجلُ وأَلْحَدَ بمعنى، وقرأَ الجمهور: [يُلْحِدُونَ] بضمّ الياءِ من أَلْحَدَ، وقرأ ابن وثاب، وطلحة، والأَعمش: [يَلْحَدُونَ] بفتح الياءِ والحاءِ من لَحَدَ.

واختلف المفسرون في الإِلحاد الّذي أُشير إليه، ما هو؟ فقال قتادة وغيره: الإِلحادُ بالتكذيب، وقال مجاهد وغيره: الإِلْحاد بالمُكَاءِ والصّفير واللّغو الّذي ذهبوا إليه، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: إلحادهم هو أَن يوضع الكلام غير موضعه، ولفظة الإِلحاد تعمُّ هذا كلَّه.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ أَي: فنحن بالمرصاد لهم وسنعذِّبهم، ثمَّ قرَّرهم تعالىٰ على هذين القسمين أَيّهما خير؟ وهذا التقرير هم المراد به، أَي: فقل لهم يا محمد: [أَفَمَنْ]، قال مقاتل: نزلت هذه الآية في أَبي جهل، وفي عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقيل: في عمار بن ياسر رضي الله عنه، وحَسُن التفضيلُ هنا بين الإِلقاءِ في النّار والأَمن يوم القيامة ـ وإِنْ كانا لا يشتركان في صفة الخير ـ من حيث كان الكلام تقريراً لا مجرد خبر؛ لأنّ المُقرِّر قد يُقرِّرُ خصمه على قسمين أَحدهما بيِّن الفساد، حتّى يرى جوابه، فعساه يقع في الفاسد المعنى، فَيَبِينُ جهله، وقد تقدم نظيرُ هذه الآية واستيعابُ القول في هذا المعنى، ولا يتَّجه هنا أَن يقال: خاطبَ على معتقدهم كما يتَّجه ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ فتأَمله[1]. وقوله تعالىٰ: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ وعيد في صيغة الأَمر بإِجماع من أَهل العلم، ودليل الوعيد ومُبيِّنُه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

---

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (٢٤) من سورة (الفرقان): ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾، يريد تعالىٰ قريشاً، و«الذِّكْرُ»: القرآن بإجماع، واختلف النّاس في الخبر عنهم، أين هو؟ فقالت فرقة: هو في قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾[1]، ذكر النّقاش أنَّ بلال ابن أبي بُردة[2] سأل عن هذا في مجلسه وقال: لم أجد لها نفاذاً، فقال أبو عمرو بن العلاءِ[3]: إنَّه منك لقريب، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويَرُدُّ هذا النظر كثرةُ الحائل، وأنَّ هناك قوماً قد ذكروا يَحْسُنُ ردُّ قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ﴾ عليهم. وقالت فرقة: الخبر مضمر تقديره: إنَّ الذين كفروا بالذِّكر لمّا جاءَهم هلكوا أو ضلُّوا، وقال بعض نحاة الكوفة: الجواب في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾، حكى ذلك الطبريُّ، وهو ضعيف لا يتَّجه، وسأل عيسى بن عمر عمرو بن عبيد عن هذا، فقال عمرو: معناه في التّفسير: إنَّ الّذين كفروا بالذِّكر لمَّا جاءَهم، كفروا به وإنَّه لكتابٌ عزيزٌ، فقال عيسى بن عمر: أَجَدْتَ يا أَبا عثمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والّذي يَحْسُن في هذا هو إضمار الخبر، ولكنَّه عند قوم في غير هذا الموضع الّذي قدَّره هؤلاءِ فيه، وإنَّما هو بعد ﴿حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾، وهو أَشدُّ إظهاراً لِمَذمَّة الكفار به؛ وذلك لأنَّ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾ داخلٌ في صفة الذِّكر المكذَّب به، فلم يتم ذِكر المخبر عنه، إلاَّ بعد استيفاءِ وصفه، وهذا كما تقول: أَتخالف زيداً وهو العالم الودود، الّذي من شأنه ومن أَمره، فهذه كلّها أَوصاف. ووصف تعالىٰ الكتاب بالعزَّة، لأنّه بِصِحَّة معانيه ممتنعٌ الطعنُ فيه والإزراءُ عليه، وهو محفوظ من الله تعالىٰ، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: معناه: كريم على الله تعالىٰ، وقال مقاتل: منيع من الشّيطان، وقال السُّديُّ: غير مخلوق.

---

(١) ستأتي في الآية (٤٤).

(٢) هو بلال بن أبي بُردة بن أبي موسى الأشعريّ، قاضي البصرة، مقل، قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلانيّ في تقريب التهذيب: «من الخامسة، مات سنة نيف وعشرين».

(٣) أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العُريان المازنيّ النحويّ، اسمه زبّان، أو يحيى، أو العريان، أو جَزْء، قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلانيّ في تقريب التهذيب: «ثقة، من علماء العربية، من الخامسة، مات سنة أربع وخمسين وهو ابن ست وثمانين سنة».

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾، قال قتادة، والسّديّ: يريد الشّيطان، وظاهر اللّفظ يعمُّ الشّيطانَ وأَن يجيءَ أَمْرٌ يُبطل منه شيئاً، وقوله تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ معناه: ليس فيما تقدّمه من الكتب ما يُبطل شيئاً منه، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أَي: ليس يأْتي بعده من نظر ناظرٍ وفكرة عاقل ما يُبطل شيئاً منه، والمراد باللَّفظة على الجملة: لا يأْتيه الباطل من جهة من الجهات. وقوله تعالىٰ: [تَنْزِيلٌ] خبر ابتداءٍ، أَي: هو تنزيل.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ يحتمل معنيين: أَحدهما أَن يكون تسلية للنبيِّ ﷺ عن مقالات قومه، أَي: ما تلقى يا محمد من المكروه منهم ولا يقولون لك من الأَقوال المؤلمة، إلاَّ ما قد قيل ولقي به من تقدّمك من الرسل، فَلْتَتأَسَّ بهم، وَلْتَمْضِ لأَمر الله تعالىٰ ولا يهمُّك شأْنهم، والمعنى الثّاني أَن تكون الآية تلخيصاً لمعاني الشَّرع، أَي: ما يقال لك من الوحي وتُخاطب به من جهة الله تعالىٰ، إلاَّ ما قد قيل للرُّسل من قبلك، ثمَّ فسَّر الله تعالىٰ ذلك الّذي قيل لجميعهم وهو: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ للطّائعين، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ للكافرين، وفي هذه الكلمات جماع الزَّجر والنَّهي والموعظة، وإِليها يرجع كلُّ نظر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾.

الأَعجميُّ هو الّذي لا يُفصح عربيًّا كان أَو غير عربيٍّ، والعجميُّ: الّذي ليس من العرب فصيحاً كان أَو غير فصيح، وهذه الآية نزلت بسبب تخليط كان من قريش في أَقوالهم، من أَجل الحروف الّتي وقعت في القرآن وهي ممَّا عُرِّب من كلام العجم كالسِّجِّين والإِستبرق ونحوه، فقال عزَّ وجلَّ: ولو جعلنا هذا القرآن أَعجميًّا لا يبيّن لقالوا واعترضوا: لولا بُيِّنَت آياته، واختلف القراءُ في قوله: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾، فقراءَة الجمهور على الاستفهام وهمزة ممدودة قبل الأَلف، وقرأَ حمزة، والكسائي،

وحفص عن عاصم، والأعمش: [أَأَعْجَمِيٌّ] بهمزتين، وكأنَّهم كانوا ينكرون ذلك فيقولون: لولا بُيِّن، أَأَعجميٌّ وعربيٌّ مختلط؟ هذا لا يَحْسُن، وتأوَّل ابن جبير أَنَّ معنى قولهم: أَتَجِيئُنا عُجْمَةٌ ونحن ومحمد عرب؟ ما لنا وللعُجْمَة، وقرأَ الحسن البصريُّ، وأَبو الأَسود، والجحدريُّ، وسلام، والضحّاك، وابن عبّاس، وابن عامر ـ بخلاف عنهما ـ: [أَعْجَمِيٌّ] دون استفهام وبسكون العين، كأَنَّهم قالوا: أَعُجْمَةٌ وإِعرابٌ. ؟ إِنَّ هذا لشاذٌّ، أَو كأَنَّهم قالوا: لولا فُصل فصلين، فكان بعضه أَعجميًّا يفهمه العجم وبعضه عربيًّا يفهمه العرب؟ وهذا تأْويل لابن جبير أَيضاً، وقرأَ عمرو بن ميمون: [أَعَجَميٌّ] بهمزة واحدة مقصورة وبفتح العين، فأَخبر الله تبارك وتعالىٰ عنهم أَنَّه لو كان على أَيِّ وجه تُخُيِّل، لكان لهم قولٌ واعتراضٌ فاسد، هذا مقصد الكلام.

وأَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ أَن يقول لهم: إِن القرآن هُدًى وشفاءٌ للمؤمنين المبصرين للحقائق، وإِنَّه على الّذين لا يؤمنون ولا يُصرِّفون نظرهم في المصنوعات عَمًى؛ لأَنَّهم في آذانهم وقر، وعلى قلوبهم أَقفال، وعلى أَعينهم غشاوة. واختلف النّاس في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ﴾ ـ فقالت فرقة: يريد بـ [هُوَ] القرآن، وقالت فرقة: [هُوَ] يريد به الوَقْر، والوَقْر: الثِّقل في الأُذن المانعُ من السَّمع، وهذه كلُّها استعارات، أَي: هم لمَّا لم يفهموا ولا حصَّلوا؛ كالأَعمى وصاحب الوَقر. وقرأَ ابن عبّاس، ومعاوية، وعمرو بن العاص: [وهو عليهم عمٍ] بكسر الميم مُنوَّنة، وقال يعقوب: لا أَدري أَنوَّنُوا أَم فتحوا الياءَ على الفعل الماضي، وبغير ياءٍ رواها عمرو بن دينار، وسليمان بن قَتَّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، وهذه القراءَة أَيضاً فيها استعارة(١)، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ﴾ يحتمل معنيين، وكلاهما مقول للمفسرين: أَحدهما أَنَّها استعارة لقلة فهمهم، شبَّههم بالرجل يُنَادَى على بُعْد يُسمع منه الصوت ولا تفهم تفاصيله ولا معانيه، هذا تأْويل مجاهد، والآخر أَنَّ الكلام على الحقيقة، وأَن المعنى: إِنَّهم يوم القيامة يُنادون بكفرهم وقبيح أَفعالهم من بُعْد، حتّى يسمع ذلك أَهل الموقف، فتعظم السُّمعة عليهم ويجل المصاب، وهذا تأْويل الضحّاك بن مزاحم.

ثمّ ضرب الله تعالىٰ أَمر موسى للنبيِّ عليهما الصلاة والسلام ولقريش، أَي: فِعْلُ

---

(١) اختار أبو عبيدة القراءة الأولى؛ لأنَّ النّاس أجمعوا عليها كما قال القرطبيُّ، ولأنَّها تناسب قوله تعالىٰ: ﴿هُدًى وَشِفَآءٌۚ﴾، ولو كان «هادٍ وشافٍ» لكان الكسر في «عَمٍ» أجود ليكون نعتاً مثلهما.

أُولئك كأَفعال هؤلاءِ، حين جاءَهم مثل ما جاءَ هؤلاءِ، و«الكلمة السابقة» هي حتم الله تأخير عذابهم إلى يوم القيامة، والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ يحتمل أَن يعود على موسى عليه السلام أَو على كتابه.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ الآيَةَ.... نصيحةٌ بيِّنَةٌ للعالم وتحذير وترجية وصدْعٌ بأَنَّ الله تعالىٰ لا يَضَعُ شيئاً من عقوبات عباده في غير موضعها، بل هو العادلُ المتفضّل الّذي يجازي كلَّ عَبْد بتكسُّبه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾.

المعنى أَنَّ علم وقت السّاعة ومجيئها يردُّه كلُّ مؤمن متكلِّم فيه إِلى الله عزَّ وجلَّ، وذكر تعالىٰ الثِّمار وخروجها من الأَكمام وحَمْل الإِناث مثالاً لجميع الأَشياءِ؛ إِذ كُلُّ شيءٍ خفيٍّ، فهو في حكم هذين، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي، والحسن، وطلحة، والأَعمش: [مِن ثَمَرَةٍ] بالإِفراد على أَنّه اسم جنس، وقرأَ نافع، وابن عامر: [من ثَمَرَات] بالجمع، واختلف عن عاصم، وهي قراءَة أَبي جعفر، وشيبة، والأَعرج، والحسن ـ بخلاف ـ وفي مصحف عبد الله: [في ثَمرة]. و«الأَكمام» جمع كُمٍّ[1]، وهو غلاف الثمر قبل ظهوره.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ تقديره: واذكر يوم يناديهم، والضّمير في [يُنَادِيهِمْ]

---

(١) جاء في اللّسان: «والكُمُّ للطَّلع، وقد كُمَّت النّخلة.. وكُمُّ كُلِّ نَوْر: وعاؤه، والجمع أَكْمامٌ وأكاميم»، وبالضَّمِّ ثمّ ضَبطُه أيضاً في المحكم والتهذيب، ولكن قال في المصباح والقاموس والنّهاية: «كِمُّ الطَّلع وكُلِّ نَوْر بالكسر»، وفي القرطبيِّ: «فالأكمامُ أوعية الثمرة، واحدها كُمَّة، وهي كلّ ظرف لمالٍ أو غيره، ولذلك سُمِّي قشر الطَّلع أعني كُفُرَّاهُ الذي ينشق عن الثمرة كُمَّة، وقال ابن عبّاس: الكُمَّةُ: الكُفُرَّى قبل أن تنشق، فإذا انشقت، فليست بكُمَّة».

ظاهره والأَسبق فيه أَنّه يريد به الكفّار عَبَدَة الأَوثان، ويحتمل أَن يريد به كلَّ من عبد من دون الله تبارك وتعالىٰ من إنسان وغيره، وفي هذا ضعف. وأَمَّا الضّمير في قوله تعالىٰ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ فلا احتمال لعودته، إلاَّ على الكفار. و[آذَنَّاكَ] قال ابن عبّاس رضي الله عنهما وغيره: معناه: أَعْلَمْناكَ ما مِنَّا مَنْ يشهد ولا شهد بأَنَّ لك شريكاً. و﴿ضل عنهم﴾ أَي نَسُوا ما كانوا يقولون في الدنيا ويدعون من الآلهة والأَصنام، ويحتمل أَن يريد: وضلَّ عنهم الأَصنام، أَي تَلِفَت عنهم، فَلَم يجدوا منها نصراً وتَلاَشى لهم أَمرها. وقوله تعالىٰ: [وَظَنُّوا] يحتمل أَن يكون متصلاً بما قبله ويكون الوقف عليه، ويكون قوله سبحانه: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ استئناف، نَفَى أَن يكون لهم منجى وموضع روغان، تقول: حاصَ الرّجل، إذا راغ يطلب النّجاة من شيءٍ، ومنه في الحديث: «فحاصُوا حَيْصَةَ حُمُر الوحش إلى الأَبواب»[1]، ويكون الظَّنّ ـ على هذا التأْويل ـ على بابه، أَي: ظنُّوا أَن هذه المقالة ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ منجاةٌ لهم أَو أَمرٌ يُمَوِّهُون به. ويحتمل أَنَّ يكون الوقف في قوله تعالىٰ: ﴿مِن قَبْلُ﴾، ويكون [وَظَنُّوا] متّصلاً بقوله تعالىٰ: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾، أَي: ظنُّوا ذلك، ويكون الظَّنّ ـ على هذا التأْويل ـ بمعنى اليقين، وبه فسَّر السّديُّ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه عبارة يطلقها أَهل اللِّسان على الظَّنِّ، ولست تجد ذلك، إلاَّ فيما علم علماً قويًّا وتقرَّر في النَّفس ولم يَتَلَبَّس به بُعْد، وإلاَّ فمتى تَلَبَّس بالشيءِ وحصَل تحت إدراك الحواسِّ، فلستَ تجدهم يوقعون عليه لفظة الظَّنّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ آياتٌ نزلت في كفارٍ، قيل: في الوليد بن المغيرة،

---

(١) جاء هذا في حديث طويل رواه الإمام البخاريُّ في بدء الوحي، وفي تفسير سورة النساء، ورواه أبو داود في الجهاد، وكذلك التّرمذيّ رواه في الجهاد، ورواه أحمد في مسنده (٣ـ٧٠، ١٠٠)، وهو عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: إنَّ عبد الله بن عبّاس أخبره أنَّ أبا سفيان بن حرب أخبره أنَّ هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجّاراً بالشام، وأن هرقل سألهم عن نسب الرسول ﷺ، وعن أتباعه، وعن صفاته... وفي آخر الحديث أنّ هرقل اجتمع بعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثمَّ أمر بأبوابها فغُلِّقت، ثمّ اطلع، فقال: «يا معشر الرّوم هل لكم في الفلاح والرُّشد وأن يَثْبُت مُلْكُكُم، فتبايعوا هذا النبيَّ، فحاصوا حيصَة حُمُر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غُلِّقت، فلمَّا رأى هرقل نَفْرَتَهُمْ وأَيِسَ من الإيمان قال: رُدُّوهم عليَّ، وقال: إنِّي قلتُ مقالتي آنفاً أختبر بها شدّتكم على دينكم، فقد رأيتُ، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل».

وقيل: في عُتبة بن ربيعة، وجُلُّ الآية يعطي أَنَّها نزلت في كفار وإن كان أَوّلها يتضمّن خُلُقاً ربما شارك فيها[١] بعض المؤمنين، و«دُعَاءُ الْخَيْر» إضافته إضافة المصدر إلى المفعول، والفاعل محذوف تقديره: من دعاءِ الخير هو، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [من دعاءٍ بالخير][٢] والخير في هذه الآية: المالُ والصحة، وبذلك تليق الآية بالكافرين، وإن قدّرناه خير الآخرة فهو للمؤمنين، وأمّا اليأس والقَنَط[٣] على الإطلاق، فمن صفة الكافر وحده.

وقوله: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ أي بفعلي وبما سعيتُ، ولا يرى أَنَّ النّعم إنَّما هي بتفضُّل من الله تعالىٰ، ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ قولٌ بيِّنٌ فيه الجحد والكفر، ثمَّ يقول هذا الكافر: ولئن كان ثَمَّ رجوع كما يقولون ليكونَنَّ لي حالٌ تُرضيني من غنًى ومال وبنين، فتوعّدهم الله تعالىٰ بأَنَّه سَيُعَرِّفهم بأَعمالهم الخبيثة مع إذاقتهم العذاب عليها، فهو عذابٌ وخِزي، وغلْظَة العذاب: شدَّتُه وصعوبتُه، وقال الحسن بن محمد بن أَبي طالب رضي الله عنهم: للكافر أُمنيتان: أَمّا في الدنيا فهذه: ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾، وأَمّا في الآخرة فـ ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾[٤]..

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَماني على الله تعالىٰ وتركُ الجدِّ في الطاعة مذموم لكُلِّ أَحد، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «الكَيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أَتْبع نفسه هواها، وتَمَنَّى على الله الأَماني»[٥].

---

(١) الخُلُق مؤنثة؛ لأنّها حال للنّفس راسخة تصدر عنها الأفعال من خَيْر أو شرٍّ من غير حاجة إلى فكر وروية. (مجمع اللغة العربية).

(٢) هكذا أيضاً في البحر المحيط، وقد أكده حين قال: بإدخال الباء على الخير، أمّا القرطبيُّ، فقد قال: وفي قراءة عبد الله: «لا يسأمُ الإنسانُ مِنْ دُعاء المال».

(٣) في اللِّسان: «قَنَطَ يَقْنِطُ ويَقْنُط قُنُوطاً، مثل جَلس يَجْلِس جلوساً، وقَنِطَ قَنَطاً... وفيه لغة ثالثة قَنِطَ يَقْنَطُ قَنَطاً، مثل تَعِبَ يَتْعَبُ تَعَباً»، فالقَنَطُ ـ على هذا ـ مصدر مثل القنوط.

(٤) من الآية (٤٠) من سورة (النّبأ).

(٥) أخرجه الترمذيّ في القيامة، وابن ماجه في الزّهد، وأحمد في مسنده (٤ـ١٣٤)، عن شدّاد بن أوس رضي الله عنه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾.

ذكر الله تعالىٰ الخُلُق الذّميمة من الإنسان جملة، وهي في الكفّار بيّنَةٌ متمكّنة، وأمّا المؤمن في الأغلب، فيشكر عند النعمة، وكثيراً ما يصبر عند الشّدّة. وقرأ جمهور القراءِ والنّاس: (وَنَأَى)، الهمزة عين الفعل، وقرأ ابن عامر: [وَنَاءَ]، الهمزة لام الفعل، وهي قراءَة أَبي جعفر، والمعنى فيهما واحد، قال أَبو عليٍّ: ناءَ قلْب نأَى، (رَجَع فَعَلَ فَلَعَ)، ومنه قول الشاعر:

وكُـلُّ خليـلٍ رَاءَنـي فَهْـوَ قَـائـلٌ ... من اَجْلِكِ هذا هامَةُ الْيَوْمِ أَوْ غَدِ[1]

ومنه قول الآخر:

وَقَـدْ شَـاءَنـي أَهْـلُ السِّبـاقِ وأَمْعَنُـوا ... . [2]

(١) البيت لكثيِّر عزَّة، وهو كُثَيِّر بن عبد الرحمن بن أبي جمعة، وعزَّة صاحبته، وقد نُسب إليها، وهي من ضَمْرَة، وبشعره فيها أصبح من عشّاق العرب المشهورين، والبيت في الدّيوان، وفي اللّسان (هوم)، والخليل: الصديق الخالص (فعيل بمعنى مفاعل) وراءني: مقلوب رآني، وهو موضع الشاهد هنا، والعرب تقول: رَآني فلان بوزن رَعَاني، وتقول: رَاءَني بوزن راعَني، كما تقول: نأى فلانٌ عنّي يَنْأَى إذا بَعُد، وناءَ عنّي بوزن باعَ عَلَى القَلْب. (راجع اللّسان في المادتين)، والهامةُ: الرأسُ، والجمع: هَامٌ، وكانت العرب تزعم أنّ روح القتيل الّذي لم يُدْرَكْ بثأره تصير هامة، فتزْقو عند قبره وتقول: اسقوني، اسقوني، فإذا أُدرك بثأره طارت؛ وكانوا يقولون: إنَّ القتيل تخرج هامةٌ من هامته، فلا تزال تقول: اسقوني، اسقوني حتّى يقتل قاتله، ومنه قول ذي الإصبع العدوانيُّ:

يـا عَمْـرُو إلاَّ تَـدَعْ شَتْمِـي ومَنْقَصَتـي ... أَضْرِبْكَ حَتَّى تقولَ الهَامَةُ اسْقُونـي

ويقال: هذا هامةُ اليومِ أو غدٍ، أي يموت اليوم أو غَداً، وهذا معنى قول كثير في البيت: (هذا هامةُ اليوم أو غد)، والمعنى: إنّ كلَّ صديق مخلص رآني يقول: إنّي لا محالة سأموت اليوم أو غداً.

(٢) يستشهد ابن عطية بهذا الشطر من الشعر على أن (شاءني) مقلوب (شآني). وهذا موجود في القاموس المحيط. قال «شَاءني: سَبَقَني. . . يَشُوءُ ويَشِيءُ، قَلْبُ شآني»، ونفهم من هذا أنَّ معنى (شاءَني) هو سبقني، وأنَّه مقلوب (شآني) على وزن رَعَاني، وأنكر صاحب التّاج عليه حكاية القلب هذه، فقال: «وزَعَم أنّه مقلوب لـ شأَى يَشْئى ـ على وزن رَمَى يَرْمي ـ وهذا غلط لأن مادة (شأى) مهموز العين». هذا=

و«ناءَ» معناه: بَعُد ولم يَمِلْ إلى شكر ولا طاعة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾، أي طويل أيضاً، فاستغنى بالصِّفة الواحدة عن لزيمتها، إذ العَرْض يقتضي الطول ويتضمّنه، ولم يقل: «طويل» لأنَّ الطويل قد لا يكون عريضاً، فعريضٌ أدلُّ على الكثرة.

ثمَّ أمر الله تعالىٰ نبيَّه عليه الصلاة والسلام أن يقف قريشاً على هذا الاحتجاج وموضع تقريرهم بأنفسهم، فقال تعالىٰ: قُلْ أرَأيتم إن كان هذا الشّرع من عند الله وبأمره وخالفتموه أنتم، ألَسْتُم على هَلَكَة من الله تعالىٰ؟ فمن أضلّ ممن يبقى على مثل هذا الغرر مع الله تعالىٰ؟ وهذا هو الشّقاق.

ثمَّ وعد الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بأنَّه سَيُري الكفّار آياته، واختلف المتأوِّلون في معنى قوله تعالىٰ: ﴿فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ـ فقال أبو المنهال[1]، والسّديُّ، وجماعة: هو وعد بما يفتحه الله تعالىٰ على رسوله ﷺ من الأقطار حول مكَّة وفي غير ذلك من الأرض كخيبر ونحوها، و﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أراد به فتح مكَّة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تأويل حسن ينتظم الإعلام بغيب ظهر وجوده كذلك بعد، ويجري مع لفظ الاستئناف الّذي في الفعل[2]، وقال الضّحّاك، وقتادة: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ﴾ هو ما أصاب الأمم المكذِّبة في أقطار الأرض قديماً، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يوم بدر، وقال ابن زيد، وعطاءٌ: «الآفاق» هي آفاق السّماءِ، وأراد به الآيات في الشّمس والقمر والرّياح وغير ذلك، و«في أنفسهم» عبرة الإنسان بجسمه وحواسّه وغريب خلقته وتدريجه في البطن ونحو ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه آياتٌ قد كانت مرتّبة، فليس المعنى يجري مع قوله تعالىٰ: [سَنُرِيهِمْ]، والتأويل الأوّل أرجحها، والله أعلم.

= ولم نجد هذا الشطر في كتب المفسرين ولا في كتب اللّغة التي بين أيدينا ـ ولم نقف على قائله.

(١) الّذي في القرطبيِّ أنَّه «المنهال بن عمرو»، فإن كان هو الصحيح فاسمه المنهال بن عمرو الأسديُّ الكوفيُّ، قال عنه في تقريب التهذيب: «صدوقٌ، من الخامسة».

(٢) الفِعْلُ هو «سَنُري»، ودلَّ على الاستئناف فيه السِّينُ.

والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ عائد على الشَّرع والقرآن، فبإظهار الله تعالىٰ إيَّاه وفتح البلاد عليه يَتَبَيَّن لهم أَنَّه الحقُّ، ثمَّ قال تعالىٰ وعْداً لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: ﴿أو لم يكف بربك﴾، التّقدير: أَو لم يكف ربّك؟ والباءُ زائدة للتّأْكيد، و[أَنَّ] يحتمل أَنَّه في موضع رفع على البدل من الموضع؛ إذ التقدير: أَو لم يكف ربّك؟ ويحتمل أَن يكون في موضع خفض على البدل من اللَّفظ، وهذا كلُّه بدل الاشتمال، ويصحّ أَن تكون في موضع نصب على إسقاط حرف الجرِّ، أَي: لأَنَّه. وقرأَ الجمهور: [أَنَّهُ] بفتح الأَلف، وقرأَ بعض النّاس: [إِنَّهُ] بكسرها على الاعتراض أَثناءَ القول.

وقوله تعالىٰ: [أَلاَ] استفتاحٌ يقتضي إقبال السّامع على ما يقال له، فاستفتح الإخبار عن أَنَّهم في شكٍّ وريب وضلال أَدَّاهم إلى الشّكِّ في البعث. وقرأَ جمهور النّاس: ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ بكسر الميم، وقرأَ أَبو عبد الرحمن، والحسن: [في مُرْيَةٍ] بضم الميم، والمعنى واحد، ثمَّ استفتح تعالىٰ الإخبار بإحاطته لكلِّ شيءٍ على معنى الوعيد لهم، وإحاطتُه هي بالقدرة والسُّلطان، لا إلٰه إلاَّ هو العزيز الحكيم.

كمل تفسير سورة (حم السّجدة) والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الشورى

هذه السُّورة مكِّيَّة بإجماع من أكثر المفسرين[1]، وقال مقاتل: فيها مدنيّ [قوله تعالىٰ:][2] ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[3]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾[4]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الثعلبي: إنَّ ﴿حم ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ هذه الحروف بأعيانها نزلت في كلِّ كتب الله تعالىٰ المُنْزَلة على كلِّ نبيٍّ أُنزِلَ عليه كتاب، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿حم ۝١ عسق ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾.

فُصِلَت [حمٓ] من [عٓسٓقٓ] ولم يفعل ذلك بـ [كٓهيعٓصٓ] لتجري هذه مجرى الحواميم أَخواتها، وقرأ الجمهور: ﴿حم عسق﴾، وقرأ ابن مسعود، وابن عبّاس رضي الله عنهما [حمٓ سٓق] بسقوط (عيَن)، والأقوال في هذا كالأقوال في أوائل السُّور، وروى حذيفة حديثاً في هذا مُضَمَّنه أنَّه ستكون في هذه الأُمَّة مدينتان يشقّهما نهر بالمشرق، تَهْلِك إِحداهما ليلاً ثمَّ تصبح الأُخرى سالمة، فيجتمع فيها جبابرة المدينتين مُتعجِّبين من سلامتها، فتَهْلِك في اللَّيلة القابلة، وأَنَّ [حمٓ] معناه: حُمَّ هذا الأَمر، و(عيَن) معناه:

---

(١) هذا قول الحسن، وعكرمة، وعطاءٌ، وجابر، وروي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّها مكيَّة، إلاّ أربع آيات منها أُنزلت بالمدينة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ إلى آخرها، قاله القرطبيُّ.

(٢) ما بين العلامتين [. . . .] زيادة لتوضيح المعنى.

(٣) وهما الآيتان (٢٣، ٢٤) من السورة.

(٤) وهي الآيات (٣٩، ٤٠، ٤١) من السورة.

عدلاً من الله، و(سين) سيكون ذلك، و(قاف) معناه: يقع ذلك بهم(١). ورُوي أَنَّ عليَّ بن أَبي طالب رضي الله عنه كان يستفيد علم الفتن والحروب من هذه الحروف الّتي في أَوائل السُّور.

والكاف من قوله تعالىٰ: [كَذَٰلِكَ] نعتٌ لمصدر محذوف، والإِشارة بـ [ذَٰلِكَ] تختلف بحسب الأَقوال في الحروف، وقرأَ جمهور القراءِ: [يُوحِي] بالياءِ على إِسناد الفعل إِلى الله تعالىٰ، وهي قراءَة الحسن، والأَعرج، وأَبي جعفر، والجحدريِّ، وعيسى، وطلحة، والأَعمش، وقرأَ أَبو حيوة، والأَعشى عن أَبي بكر عن عاصم: [نُوحِي] بنون العظمة، ويكون قوله تعالىٰ: [ٱللَّهُ] ابتداءً وخبره [ٱلْعَزِيزُ]، ويحتمل أَن يكون خبره: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وقرأَ ابن كثير وحده: [يُوحَى] بالياءِ وفتح الحاءِ على بناءِ الفعل للمفعول، وهي قراءَة مجاهد، والتقدير: يُوحَى إِليك القرآن، يوحيه اللهُ تعالىٰ، وهذا كما قال الشاعر:

لِيُبْـكَ يَـزِيـدُ ضَـارِعٌ لِخُصُـومَـةٍ . . . . (٢)

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ﴾(٣)، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَى

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، ونعيم بن حمّاد، والخطيب. ذكر ذلك السّيوطيُّ في (الدُّرّ المنثور)، وفي تفسير الطّبريِّ أنَّ هذا الخبر عن أرطاة بن المنذر، وفي أوّله أنَّ رجلاً جاءَ إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما، فقال له ـ وعنده حذيفة بن اليمان ـ: أخبرني عن تفسير قول الله: ﴿حم عسق﴾ فأطرق، ثمَّ أعرض عنه ـ ثلاث مرات ـ فقال حذيفة للرَّجل: أنا أنبئك بها. . . إلخ، قال القرطبيُّ: «ونظير هذا التفسير ما روى جرير بن عبد الله البجلي، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تُبنى مدينة بين دِجْلَة ودُجَيل وقُطْرَبُّلَ والصَّراة، يجتمع فيها جبابرة الأرض، تجبى إليها الخزائن يُخسف بها ـ وفي رواية بأهلها ـ فَلَهِيَ أسرع ذهاباً في الأرض من الوَتد الجيِّد في الأرض الرخوة»، ولكن ابن كثير قال عن خبر حذيفة: «وقد رَوى ابن جرير هنا أثراً غريباً مُنكراً».

(٢) هذا هو الشطر الأوّل من بيت نسبه سيبويه للحارث بن نُهَيْك، ونسبه صاحب خزانة الأدب لِنَهْشَل بن حريٍّ، والبيت بتمامه:

لِيُبْـكَ يَـزِيـدُ ضَـارِعٌ لِخُصُـومَـةٍ وَمُخْتَبِـطٌ مِمَّـا تُطِيـحُ الطَّـوائِـحُ

وقد سبق الاستشهاد به عن تفسير قوله تعالىٰ في سورة النور: ﴿يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال﴾ راجع المجلد السادس صفحة (٣٩١ هامش ٢) من هذا التفسير. والشاهد في البيت أن (ضارعٌ) فاعل لفعل مقدر يفهم من قوله: (لِيُبْكَ)، كما أنَّ قوله تعالىٰ [رِجَالٌ] في آية النور فاعل لِفعل مضمر دلَّ عليه الظاهر، تقديره: يُسَبِّحه رجالٌ.

(٣) من الآيتين (٣٦، ٣٧) من سورة (النور).

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ يريد: من الأنبياءِ الّذين نزلت عليهم الكتب.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي المُلْك والخلق والاختراع، و﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ من عُلُوِّ القدر والسّلطان، و﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ كذلك، وليس بِعُلُوِّ مسافة ولا عِظَم جِرْم، تعالىٰ الله عن ذلك. وقرأ نافع، والكسائي: [يَكَادُ] بالياءِ، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿تَكَادُ﴾ بالتاءِ، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، ونافع، وابن عبّاس، وأبو جعفر، وشيبة، وقتادة: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ من «التَّفَطُّر»، وهو مطاوع «فَطَّر»، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، والحسن، والأعرج، وأبو رجاءٍ، والجحدريُّ: [يَنْفَطِرْنَ] من «الانفطار»، وهو مطاوع «فَطَرَ»، والمعنى فيهما: يتصدَّعْنَ ويتشقَّقن من سرعة جريهن خضوعاً وخشية من سلطان الله تعالىٰ، وتعظيماً له وطاعة، وما وقع للمفسرين هنا من ذكر الثّقل ونحوه مردود، وذلك لأَنَّ الله تعالىٰ لا يوصف به، وقوله تعالىٰ: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أَي: من أَعلاهن، وقال الأَخفش عليُّ بن سليمان: الضمير للكفّار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمعنى: من فوق الفِرَق والجماعات الملحدة الّتي من أَجل أَقوالها تكاد السّموات يتفطّرن[١]، فهذه الآية ـ على هذا ـ كالآية الّتي في ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[٢]، وقالت فرقة: معناه: من فوق الأَرضين إِذْ قد جرى ذكر الأَرض، وذكر الزّجّاج أَنّه قرىء: «يَتَفَطَّرْنَ بِمَنْ فَوْقَهِنَّ».

وقوله تعالىٰ: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قيل: معناه: يقولون سبحان الله، وقيل: معناه: يُصَلُّونَ لربِّهم، وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، قالت فرقة: هذا منسوخ بقوله تعالىٰ في آية أُخرى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[٣].

---

(١) إنَّما قدَّر ابن عطية هذا التقدير؛ لأنَّ الضمير مُؤنث في ﴿فَوْقِهِنَّ﴾، وهو عائد على مذكر في هذا القول ـ وهم الكفّار ـ وقد استبعد مكّيٌّ هذا القول لهذا السّبب، ومال أبو حيّان إلى كلامه هذا، راجع البحر المحيط (٧ـ٥٠٨).

(٢) وهي قوله تعالىٰ في الآية (٩٠) من سورة (مريم): ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾.

(٣) من الآية (٧) من سورة (غافر).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف؛ لأَنَّ النَّسْخَ لا يتصور في الأَخبار.

وقال السّديُّ ما معناه: إنَّ ظاهر هذه الآية العموم، ومعناها الخصوص في المؤمنين، فكأَنَّه تعالىٰ قال: ويستغفرون لمن في الأَرض من المؤمنين، إذ الكفّار عليهم لعنة الله تعالىٰ والملائكة والنّاس أَجمعين، وقالت فرقة: بل هي على عمومها، لكنَّ استغفار الملائكة ليس بطلب غفران الله تعالىٰ للكفرة على أَن يبقوا كفرة، وإنَّما استغفارهم لهم بمعنى طلب الهداية الّتي تؤدي إلى الغفران لهم، وكأَنَّ الملائكة تقول: اللهمَّ، اهد أَهل الأرض واغفر لهم، ويؤيد هذا التّأويل تأْكيده صفة الغفران والرحمة لنفسه بالاستفتاح، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أَي: لمَّا كان الاستغفار لجميع من في الأَرض يبعد[1] أَن يجابَ رَجّى عزَّ وجلَّ بأَن استفتح الكلام تهيئةً لنفس السّامع، فقال تعالىٰ: أَلاَ إنَّ الله تعالىٰ يُطلب هذا منه إذْ هذه أَوصافه، وهو سبحانه أَهل المغفرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾.

هذه آية تسلية للنبيِّ ﷺ، ووعيد للكفّار، وإزالةِ عن النبيِّ عليه الصلاة والسلام جميع الكُلَف[2] سوى التّبليغ فقط، لِئَلاً يهتمّ بعدم إيمان قريش وغيرهم، فقال تعالىٰ لنبيه عليه الصلاة والسلام: إنَّ الّذين اتخذوا الأَصنام والأَوثان أَولياءَ من دون الله هو الحفيظ عليهم كفرهم، المُحْصي لأَعمالهم، المُجازي لهم عليها بعذاب الآخرة، وأَنت فلَسْتَ عليهم بوكيل ولا ملازم لأَمرهم حتّى يؤمنوا، و«الوكيل»: القيم على الأَمر، وما في هذا اللّفظ من موادعة فهو منسوخ بآية السيف.

---

(١) في بعض النسخ: «مُعَدٌّ أن يُجاب».

(٢) الكُلَف: التكاليف. (اللّسان ـ كلف).

ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، أَي: وكما قضينا أَمرك هذا وأَمضيناه في هذه الصورة، كذلك أَوحينا إِليك قرآناً عربياً مبيِّناً لهم، لا يحتاجون معه إِلى آخر سواه؛ إِذْ فهمه مُتَأَتٍّ لهم، ولم نُكلِّفك إِلاَّ إِنذار من ذُكر، و«أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ» هي مكَّة، والمراد أَهل مكَّة، ولذلك عطف [مَنْ] عليها، وهي في الأَغلب لمن يعقل، و«يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ» هو يوم القيامة، واقتصر في [تُنْذِرَ] على المفعول الأَوَّل لأَنَّ المعنى: وتُنذر أُمَّ القرى العذابَ وتُنذر النَّاسَ يومَ الجمع، لاجتماع أَهل الأَرض بأَهل السَّماءِ، أو لاجتماع بني آدم للعرض، وقوله تعالىٰ: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ أَي في نفسه وذاته، وارتياب الكفَّار به لا يُقيِّد.

وقوله تعالىٰ: [فَرِيقٌ] مرتفع على خبر الابتداءِ المضمر، كأَنَّه تعالىٰ قال: هم فريق في الجنَّة وفريق في السَّعير.

ثمَّ قوَّى تبارك وتعالىٰ تسلية نبيِّه ﷺ بأَن عرَّفه بأَنَّ الأَمر موقوف على مشيئة الله تعالىٰ من إِيمانهم أَو كفرهم، وأَنَّه تعالىٰ لو أَراد كونهم أُمَّةً واحدة على دين واحد لجمعهم عليه، ولكن يُدخل من سبقت له السعادة عنده في رحمته، ويُيَسِّره في الدنيا لعمل أَهل السَّعادة، وإِنَّ الظالمين بالكفر المُيَسَّرينَ لعمل أَهل الشِّقوة ما لهم من وليٍّ ولا نصير.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ كلام منقطع مما قبله، وليست بمعادلة، ولكنَّ الكلام كأَنَّه أَضرب عن حُجَّة لهم أَو مقالة مقرَّرة، فقال: بل اتخذوا، هذا مشهور قول النحويِّين في مثل هذا، وذهب بعضهم إِلى أَن «أَم» هذه بمنزلة أَلف الاستفهام دون تقدير إِضراب، ثمَّ أَثبت تعالىٰ الحكم بأَنَّه عزَّ وجلَّ هو الوليُّ الَّذي تنفع ولايته، وأَنَّه هو الَّذي يحيي الموتى ويحشرهم إِلى الآخرة ويبعثهم من قبورهم، وأَنَّ قدرته على كلِّ شيءٍ تعطي هذا وتقتضيه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾﴾.

المعنى: قل يا محمد: وما اختلفتم فيه أَيُّها النَّاس من تكذيب وتصديق وإِيمان

وكفر وغير ذلك، فالحكم فيه والمجازاة عليه ليست إِليَّ ولا بيدي، وإِنَّما ذلك إِلى الله تعالىٰ الّذي صفاته ما ذكر من إِحياءِ الموتى والقدرة على كلِّ شيءٍ، ثمَّ قال: ذلكم الله ربِّي، عليه توكلي، وإِليه إِنابتي ورجوعي، وهو فاطر السّموات والأَرض، أَي مخترعهما وخالقهما، شقَّ بعضهما من بعض.

وقوله تعالىٰ: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ يريد تعالىٰ زوج الإِنسان الأُنثى، وبهذه النّعمة اتفق الذَّرْءُ، وليست الأَزواج ها هنا الأَنواع، وأَمّا الأَزواج المذكورة مع الأَنعام فالظاهر أَيضاً والمُتَّسق أَنَّه يريد إِناث الذكران، ويحتمل أَن يريد الأَنواع، والأَوَّل أَظهر. وقوله تعالىٰ: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أَي يخلقكم نسلاً بعد نسل، وقرناً بعد قرن، قاله مجاهد والنّاس، فلفظة «ذَرَأَ» تزيد على لفظة «خَلَقَ» معنى آخر ليس في «خَلَقَ»، وهو توالي الطَّبقات على مرِّ الزَّمان، وقوله: [فِيهِ] الضمير على «الْجَعْلِ» الّذي تضمَّنه قوله تعالىٰ: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾، وهذا كما تقول: كلَّمتُ زيداً كلاماً أَكرمته فيه، وقال العتبيُّ: الضَّمير للتَّزويج، ولفظة «في» مشتركة على معان وإِن كان أَصلها الوعاءُ، وإِليه يردُّها النظر في كلِّ وجه.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، الكاف مؤكدة للتَّشبيه، فَنَفْيُ التَّشبيه أَوْكد ما يكون، وذلك أَنَّك تقول: زيدٌ كعمرو، وزيد مثل عمرو، فإِذا أَردت المبالغة التامَّة قلت: زيدٌ كَمِثْل عمرو، ومن هذا قول أَوس بن حجر:

وقَتْلَـى كَمِثْـلِ جُـذوعِ النَّخيـلِ تَغَشَّـاهُـمُ مُسْبِـلٌ مُنْهَمِـرْ(١)

ومنه قول الآخر:

سَعْدُ بـنُ زَيْـد إِذا أَبْصَـرْتَ فَضْلَهُـمُ ما إِنْ كَمِثْلِهِمُ في النَّاسِ مِنْ أَحَد(٢)

---

(١) البيت من قصيدة قالها أَوْس بن حجر في حرب كانت بين قومه من بني تميم وبين أَسَدٍ وغِنَى، وفيه يصف نتيجة المعركة التي تركت القتلى من بني أَسَد كجذوع النَّخل الّتي غطّاها السّيل المنهمر من المطر، والجذوع جمع جذع وهو ساق النخلة، ومعنى تَغَشَّاهُم: غطَّاهم وغمرهم، والمُسْبِل: المطر، وفي الحديث: «فجاد بالماءِ جَوْنِيٌّ له سَبَل» أَي مَطَرٌ جوْدٌ هاطل، وابن عطية يستشهد بالبيت على أَنَّ التَّشبيه يكون بالكاف وبكلمة مِثْل معاً عند إِرادة المبالغة التَّامة، وذلك أَنَّه يجوز أَن تُشَبِّه فتقول: قَتْلى كجذوع النخيل، ويجوز أَن تقول: قتلى مثل جذوع النخيل، فإِذا أَردت المبالغة التّامةَ قلت: قَتْلى كَمِثْل جذوع النَّخيل. وهذا هو ما جاء في الآية الكريمة، إِذ اجتمع في التَّشبيه الكاف ومِثْل زيادة في المبالغة مع نفي ذلك، فالنَّفْيُ هنا أَوكد ما يكون.

(٢) وهذا أَيضاً شاهد على أَنَّه يُجْمَع في الكلام بين لفظين يؤدِّيان معنىً واحداً للتَّأكيد، وفي هذا البيت أَدخل=

فجرت الآية في هذا الموضع على عُرْف كلام العرب، وتفترق الآية مع هذه الشَّواهد في أَنَّ الشواهد متى أَردت أَن تتبع بذهنك اللَّفظ فتقدِّر للجذوع مِثْلاً موجوداً وتشبِّه القتلى بذلك المِثْل أَمكنك، ولا يمكنك هذا في جهة الله تعالىٰ إِلاَّ أَن تجعل له ما يتحصل في الذِّهن من العلم بالله تعالىٰ، إِذ المثْل والمثال واحد.

وذهب الطبريُّ وغيره إِلى أَنَّ المعنى: «ليس كهو شيءٌ»، وقالوا: لفظة «مِثْل» في الآية توكيدٌ وواقعةٌ موقع هو[(١)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وممَّا يؤيد دخول الكاف توكيداً أَنها قد تدخل على الكاف نفسها، وأَنشد سيبويه:

* وصالِيَاتِ كَكَمَا يُؤَثْفَيْنْ *[(٢)]

= الشاعر على «ما» وهي حرف جَحْدٍ «إنْ» وهي حرف جَحْدٍ أيضاً، وساغ ذلك لاختلاف لفظ كلٍّ منهما عن الآخر، وإن اتفق المعنى. والشاعر في البيت يمدح «سعد بن زيد»، وينفي أن يكون في النّاس أحد مثلهم.

(١) الفرق بين القولين أنَّ كلمة «مِثْل» فيما ذكر الطبريُّ هي الّتي دخلت للتّوكيد، وأداة التّشبيه الأصليّة هي الكاف، أمّا القول الأوّل ففيه أنَّ «الكاف» هي الّتي دخلت للتّوكيد، وأداة التّشبيه الأصليّة هي «مثل»، على أنَّ الطبريَّ قد ذكر القولين، واستشهد لكلٍّ منهما، وقد اختلفت الرُّؤية بالنِّسبة للشّواهد، فما اعتبره بعضهم شاهداً للقول الأوّل اعتبره غيره شاهداً للقول الثّاني، والشواهد تصلح لذلك.

هذا وقد ذكر صاحب البحر المحيط أنَّ العرب تقول: «مثلك لا يفعل كذا»، يريدون به المخاطب، كأنّهم إذا نَفَوْا الوصف عن مثل المخاطب كان نَفْياً عن المخاطب نفسه، وهو من باب المبالغة، فجرت الآية في ذلك على نهج العرب من إطلاق المِثل على الشيء نفسه، ثمَّ علّق على كلام الطبريِّ الّذي جعل كلمة «مِثْل» زائدة للتّوكيد، وجعلها كالكاف في قول الشاعر: (وَصَالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤَثْفَيْنْ) ـ علّق على هذا بقوله: «ليس بجيد، لأنَّ «مِثْلاً» اسمٌ والأسماءُ لا تُزاد، بخلاف الكاف فإنَّها حرف فتصلح للزِّيادة».

(٢) هذا بيت من أبيات من بحر السَّريع، نسبها في خزانة الأدب إلى خِطام المُجَاشعي، ونسبها الصقليُّ ـ في شرحه أبيات الإيضاح للفارسيّ ـ وكذلك الجوهريّ في الصحاح، نسبها إلى هِمْيَان بن قُحافة، والأبيات في خزانة الأدب، وفي هوامش الجزء الأوّل من (سِرّ صناعة الإعراب) لابن جنّي. وقد قال محقق تفسير الطبريّ: إنّها من مشطور الرَّجز، وقال في خزانة الأدب: «ربما حسب من لا يحسن العروض أنّها من الرَّجز؛ لأنَّ الرَّجز لا يكون فيه مَعُولات فيُرَدُّ إلى فَعُولات». والصَّاليات: أراد بها الأثافيَّ، لأنّها صليت بالنّار، أي أُحرقت حتّى اسودَّتْ، ،قد رُوي البيت «ومائلات» بدلاً من «وصاليات»، ومعنى مائلات: منتصبات. و«يُؤَثْفَيْنْ» وزنه «يُؤَفْعَلَنْ» والهمزة زائدة، وقيل: وزنه «يُفَعْلَيْنْ» فالهمزة أصلٌ، ومعنى الكلمة: يُجْعَلْن أثَافيَّ للقدر، وهي جمع أُثْفِيَة. وموضع الشّاهد في البيت قوله: «كَكَمَا»؛ والكاف الأولى جارَّةٌ والثانية مؤكِّدةٌ لها، وقال الزمخشريُّ: «وعلى هذا يجوز أن يكون الكافان اسمَيْن=

و«المَقَالِيدُ»: المفاتيح، قاله ابن عبّاس، والحسن. وقال مجاهد: أَصلها بالفارسيّة، وهي هنا استعارة لوقوع كلِّ أَمر تحت قدرته، وقال السّديُّ: المقاليد: الخزائن، وفي العبارة ـ على هذا ـ حذف مضاف، قال قتادة: من ملك مقاليد خزائن فالخزائن في ملكه، وبَسْط الرزق وقدره بَيِّنٌ، وقد مضى تفسيره غير مرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾.

المعنى: شرع الله تعالىٰ لكم وبيّن من المعتقدات والتّوحيد ما وصَّى به نوحاً من قبل، وقوله تعالىٰ: [وَٱلَّذِي] عطف على [مَا]، وكذلك ما ذكر بعد من إقامة الدّين مشروع اتّفقت النبوّات فيه، وذلك في المعتقدات أو في جملة أمرها من أَن كلَّ نُبُوَّة فإنَّما مُضمَّنُها معتقدات وأَحكام، فيجيءُ المعنى على هذا: شرع لكم شِرْعَة هي كشِرْعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السّلام في أَنَّها ذات المعتقدات المشهورة الّتي هي في كلِّ نبوَّة، وذات أَحكام كما كانت تلك كلّها، وعلى هذا يتخرج ما حكاه الطبريُّ عن قتادة، فقال: ﴿ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾ يريد به الحلالَ والحرامَ، وعليه رُوي أَنَّ نوحاً عليه السّلام أَوّل من أَتى بتحريم البنات والأُمهات، وأَمّا الأَحكام بانفرادها فهي في الشَّرائع مختلفة، وهي المراد في قوله تعالىٰ: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[1]. و[أَنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ ﴾ يجوز أَن تكون في موضع نصب بدلاً من [مَا]، أَو في موضع خفض بدلاً من الضمير في [بِهِ]، أَو في موضع رفع على خبر ابتداءٍ تقديره: ذلك

= أو حرفين»، وقال ابن السِّيد في شرح أدب الكاتب، «أجرى الكاف الجارَّة ـ وهي الثانية ـ مُجْرَى «مثل» فأدخل عليها كافاً ثانية، فكأنَّه قال: «كَمِثْلِ ما يُؤَثْفَيْنَ» و«ما» مع الفعل بتقدير المصدر، كأنَّه قال: كمثل إثفائِهَا، أي: إنَّها على حالها حين أُثفِيَتْ، ويرى الفارسيُّ أنَّها يجوز أن تكون موصولة، وخلاصة القول أنَّ الكاف دخلت على الكاف للتَّوكيد، والّذي أنشد البيت شاهداً على ذلك هو سيبويه في الكتاب.

(١) من الآية (٤٨) من سورة (المائدة).

أَنْ، و[يجوز][1] أَن تكون مفسِّرة بمعنى «أَي» لا موضع لها من الإعراب، و«إقامة الدِّين» هو[2] توحيد الله تعالىٰ ورفض ما سواه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟﴾ نهي عن المُهْلك من تفرُّق الأَنحاءِ والمذاهب، والخيْرُ كلُّه في الأُلفة واجتماع الكلمة، ثمَّ أَخبر الله تعالىٰ نبيَّه عليه الصلاة والسَّلام بصعوبة موقع هذه الدعوة إلى إقامة الدِّين على المشركين بالله تعالىٰ، العابدين للأَصنام، قال قتادة: كبُر عليهم «لا إلـٰه إلاَّ الله»، وأَبى الله تعالىٰ إلاَّ نصرها وإظهارها. ثمَّ سلاَّه تعالىٰ عنهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ﴾ أَي يختارُ ويصطفي، قاله مجاهد وغيره، و[يُنِيبُ] معناه: يرجع عن الكفر، ويُحَرِّض على الخير ويطلبه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟﴾ عبارة يجمع خِطابُها كفَّارَ العرب واليهودَ والنَّصارى وكلَّ مدعوٍّ إلى الإسلام، فلذلك حسُن أَن يقال: «مَا تَفَرَّقُوا»، يعني بذلك أَوائل اليهود والنَّصارى، و«العِلْمُ» الَّذي جاءَهم هو ما كان حصل في نفوسهم من علم كُتُب الله تعالىٰ، فبغى بعضهم على بعض، وأَدَّاهم[3] ذلك إلى الاختلاف في الرَّأْي، و«الكلمة السَّابقة» قال المفسرون: هي حتمه تعالىٰ القضاءَ بأَن مجازاتهم إنَّما تقع في الآخرة، فلولا ذلك لفَصَلَ بينهم في الدنيا وغلب المحقُّ على المبطل.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ إشارة إلى معاصري محمد ﷺ من اليهود والنَّصارى، وقيل: هي إشارة إلى العرب، و«الكِتَابُ» هو القرآن، والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ يحتمل أَن يعود على [الكِتاب]، أَو على محمد ﷺ، أَو على «الأَجل المُسَمَّى»، أَي في شكٍّ من البعث على قول من رأَى أَنَّ الإشارة إلى العرب، وَوَصفُ الشَّكِّ بـ[مُرِيب] مبالغة فيه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا

(١) ما بين العلامتين [...] زيادة لتوضيح المعنى، وكذلك زدنا ألفاً على الواو في قوله: «وفي موضع خفض، وفي موضع رفع» حتَّى يصحّ التَّعبير.

(٢) جعل الضّمير للمذكر مراعاة لما بعده وهو التّوحيد.

(٣) أدَّاهم: أوصلهم إلى الاختلاف.

وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾.

اللاّم في قوله تعالىٰ: ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ قالت فرقة: هي بمنزلة «إلى» كما قال تعالىٰ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[1]، أي إليها، كأنَّه قال: فإلى ما وصَّى به الأنبياءُ من التَّوحيد فادْعُ، وقالت فرقة: بل هي بمعنى: «من أجل»، كأنَّه قال: فمن أجل أنَّ الأمر كذا ولكونه كذا، فادْعُ أنت إلى ربِّك وبَلِّغ ما أُرْسِلْتَ به.

وخوطب ﷺ بأمر الاستقامة وهو عليه الصَّلاة والسَّلام قد كان مستقيماً بمعنى: دُمْ على استقامتك، وهكذا الشَّأن في كلِّ مأمور بشيءٍ هو متلبس به إنَّما معناه الدَّوام، وهذه الآية ونحوها كانت نصب عيْن النبيِّ ﷺ، وكانت شديدة الموقع من نفسه، أعني قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ لأنَّها جملة تحتها جميع الطَّاعات وتكاليف النبوَّة، وفي هذا المعنى قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «شَيَّبَتْني هودٌ وأخواتها»، فقيل له: لم ذلك؟ فقال: لأنَّ فيها ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[2]، وهذا الخطاب له ﷺ بحسب قوَّته في أمر الله تعالىٰ، وقال هو عليه الصَّلاة والسَّلام لأُمته بحسب ضعفهم: «اسْتَقِيمُوا ولن تُحْصُوا»[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ يعني قريشاً فيما كانوا يَهْوَوْنَهُ من أن يعظِّم محمد ﷺ آلهتهم وغير ذلك، ثمَّ أمره الله تبارك وتعالىٰ أن يؤمن بالكتب المنزلة قبله من عند الله تعالىٰ، وهو أمر يعمُّ سائر أُمتَّه. وقوله تعالىٰ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ قالت فرقة: اللاّم في [لأَعْدِلَ] بمعنى «أَنْ»، لأَنَّ التقدير: أُمرتُ بأن أعدل بينكم، وقالت فرقة: المعنى: وأُمرتُ بما أُمرتُ من التَّبليغ والشَّرع لكي أعدلَ، فحذف من الكلام ما يدلّ الظاهر عليه. وقوله تعالىٰ: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ إلى آخر الآية منسوخ

---

(١) الآية (٥) من سورة (الزلزلة).

(٢) أخرجه الترمذيُّ في سورة (الواقعة).

(٣) أخرجه في الطهارة ابن ماجه ومالك في موطئه، وأخرجه الدارميُّ في الوضوء، وأحمد في مسنده (٥ـ٢٧٧، ٢٨٢)، وهو عن ثوبان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تُحْصُوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصَّلاة، ولن يحافظ على الوضوء إلاّ مؤمن». قال ابن الأثير في النهاية: «أي: استقيموا في كلِّ شيء حتّى لا تميلُوا، ولن تطيقوا الاستقامة» من قوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ﴾، أي لن تُطيقوا عدَّه وضبطه».

ما فيه من موادعة بآية السَّيف، وقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا جدال ولا مناظرة، وقد وضح الحقُّ وأنتم تعاندون، وفي قوله: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ وعيدٌ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما، ومجاهد: إنَّها نزلت في طائفة من بني إسرائيل همَّت بردِّ النّاس عن الإسلام وإضلالهم ومجادلتهم بأن قالوا: كتابنا قبل كتابكم، ونبيُّنا قبل نبيِّكم، وديننا أفضل، فنزلت الآية في ذلك، وقيل: بل نزلت في قريش، لأنَّها كانت أبداً تجادل هذا المعنى، وتطمع في ردِّ الجاهلية، و﴿يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ معناه: في توحيده، أي بالإبطال والإلحاد وما أشبهه، والضمير في ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ يحتمل أن يعود على الله تعالىٰ، أي: بعد ما دخل النّاسُ في دينه، ويحتمل أن يعود على الشَّرع والدِّين، ويحتمل أن يعود على محمد ﷺ، و[دَاحِضَةٌ] معناه: زاهقة، والدَّحْضُ: الزَّلق[1]، وباقي الآية وعيدٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

لمَّا أنهى الله تعالىٰ القول على الّذين يحاجُّون في توحيد الله تعالىٰ ويرومون إخفاءَ نوره، صدع في هذه الآية بصفته تعالىٰ من إنزال الكتاب الهادي للنّاس، والكتابُ هنا اسم جنس يعمّ جميع الكتب المنزلة، وقوله تعالىٰ: [بِالْحَقِّ] يحتمل أن يكون المعنى: بأن كان ذلك حقًّا واجباً للمصلحة والهدى، ويحتمل أن يكون المعنى: مُضَمَّناً الحقّ، أي: بالحقِّ في أحكامه وأوامره ونواهيه. و[الْمِيزَانَ] هنا: العدل، قاله ابن عبّاس، ومجاهد، وقتادة، والنّاس، وحكى الثّعلبيُّ عن مجاهد أنَّه قال: هو هنا الميزان الّذي بأيدي النّاس.

---

(١) ويقال: دحضت رجله: زلقت، ودحضت حُجَّته: بطلت. ودحضت الشّمس: زالت عن كبد السّماء كأنّها زلقت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا شكَّ أَنَّه داخل في القول وجزءٌ منه، وكلُّ شيءٍ من الأُمور فالعدل فيه إِنَّما هو بتقدير ووزن مستقيم، فيحتاج في الأَجرام إِلى آلة وهي العمود والكفتان الّتي بأَيدي البشر، ويحتاج في المعاني إِلى هيئات في النّفوس وفهوم توازن بين الأَشياءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ وعيد للمشركين، أَي: فانظر في أَيِّ غَرَرٍ هُمْ، وجاءَ لفظ [قَرِيبٌ] مذكَّراً من حيث تأْنيث الساعة غير حقيقي؛ وإِذ هي بمعنى الوقت. ثم وصف تعالىٰ حالة الجهلة المكذبين بها، فهم لذلك يستعجلون بها، أَي يطلبون تعجيلها لِيَبِينَ العجزُ ممن تحقَّقَها، فالمصدِّق بها مشفقٌ خائف، والمكذِّب مستعجل مقيم لِحُجَّته على تكذيبه بذلك المستعجل به. ثمَّ استفتح تعالىٰ الإِخبار عن المُمَارين في السّاعة في أَنَّهم في ضلال قد بعُدَ بهمْ، فرجوعهم عنه صعب متعذِّر، وفي هذا الاستفتاح مبالغة وتأْكيد وتهيئة لنفس السّامع.

ثمَّ رجَّى تبارك وتعالىٰ عباده بقوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾، و[لَطِيفٌ] هنا بمعنى رفيقٌ مُتحَفٌ[1]، والعباد هنا: المؤمنون ومن سَبَق له الخلود في الجنَّة، وذلك أَنَّ الأَعمال بخواتمها، ولا لُطف إِلاَّ ما آل إِلى الرحمة، وأَما الإِنعام على الكافر في الدنيا فليس بلُطْف بل هو إِملاءٌ واستدراج، قال الجنيد: لطف بأَوليائه حتى عرفوه، ولو لطف بالكفار لما جحدوه، وقيل: لطيفٌ بأَن نشر عنهم المناقب وستر عنهم المثالب[2]، وقيل: هو الذي لا يخاف إِلاَّ عدله، ولا يُرجى إِلاَّ فضله.

وقوله تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ﴾ معناه: إِرادةَ عاملٍ مستعدٌ عارفٍ لا إِرادة مُتَمَنٍّ لم يُدِن نفسه، و«الحَرْثُ» هنا عبارة عن السَّعي والتَّكَسُّب والإِعداد، ولمَّا كان حرث الأَرضِ أَصلاً من أُصول المكاسب استُعير لكلِّ تكَسُّب، ومنه قول ابن عمر رضي الله عنهما: «احرث لدنياك كأَنَّك تعيش أَبداً، واعمل لآخرتك كأَنَّك تموت غداً»، وقوله تعالىٰ: ﴿ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ وعْدٌ منتجز، وقوله تعالىٰ في حرث الدُّنيا: ﴿ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ معناه: ما شئنا ولمن شئنا، فرُبَّ مُمْتَحَنٍ مُضَيَّق عليه حريص على حرث الدُّنيا مريد له

(١) من التَّحَفِّي وهو الاهتمام والإِكرام، وفي اللِّسان: اللُّطف: البرُّ والتَّكْرِمَةُ والتَّحَفِّي.

(٢) المناقب: الأَفعال الكريمة والصفات الحميدة التي يَفْتَخر بها الإِنسان، والمثالب: العيوب والصفات القبيحة التي يُذم بها.

لا يُحِسُّ بغيره، نعوذ بالله من ذلك، وهذا الذي لا يعقل غير الدُّنيا هو الّذي نُفي أَن يكون له نصيب في الآخرة. وقرأَ سلام: (نُؤْتِهُ) برفع الهاءِ، وهي لغة أَهل الحجاز، ومثله قراءَة أَهل الحجاز: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهُ ٱلْأَرْضَ﴾[1]، برفع الهاءِ فيها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾.

[أَمْ] هذه منقطعة لا معادلة، وهي بتقدير «بل وألف الاستفهام»، و«الشُّركاءُ» في هذه الآية يحتمل أَن يكون المراد بهم الشّياطين والمُغوِينَ من أَسلافهم، ويكون الضمير في [لَهُمْ] للكفّار المعاصرين لمحمد ﷺ، أَي: شرع الشُّركاءُ لهم ما لم يأْذن به الله، فالاشتراك هنا هو في الكفر والغواية، وليس بشركة الإِشراك بالله تعالىٰ، ويحتمل أَن يكون المراد بالشُّركاءِ الأَصنام والأَوثان على معنى: أَم لهم أَصنام جعلوها شركاءَ لله في أُلوهيته؟ ويكون الضمير في [شَرَعُوا] لهؤلاءِ المعاصرين من الكفّار ولآبائهم، والضمير في [لَهُمْ] للأَصنام الشُّركاءِ، أَي: شرع هؤلاءِ الكفّار لأَصنامهم وأَوثانهم ما لم يأْذن به الله تعالىٰ، و[شَرَعُوا] معناه: أَثبتوا ونهجوا ورسموا. و«الدّين» هنا: العوائد[2] والأَحكام والسِّيرة، ويدخل في ذلك أَيضاً المعتقدات؛ لأَنَّهم في جميع ذلك وضعوا أَوضاعاً، فأَمّا في المعتقدات فقولهم: إِنَّ الأَصنام آلهة، وقولهم: إِنَّهم يعبدون الأَصنام زُلْفَى، وغير ذلك، وأَمّا في الأَحكام فكالْبَحِيرَةِ والْوَصِيلَة والْحَامِي، وغير ذلك من السَّوائب ونحوها، و«الإِذْنُ» في هذه الآية: الأَمر.

و«كلمة الفصل» هي ما سبق من قضاءِ الله تعالىٰ بأَن يؤخر عذابهم إِلى الآخرة، و«القضاءُ بينهم» هو عذابهم في الدُّنيا ومجازاتهم. وقرأَ جمهور النّاس: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بكسر الهمزة على القطع والاستئناف، وقرأَ مسلم بن جندب بفتح الهمزة، وهي في

---

(١) من الآية (٨١) من سورة (القصص).

(٢) العوائد: جمع عادة، وهي كلُّ ما اعتاد النّاس وأَلفوه فأَصبحوا يفعلونه بغير جهد.

موضع رفع عطف على [كَلِمَةُ]، المعنى: وأَنَّ الظّالمين لهم في الآخرة عذاب.

وقوله تعالىٰ: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ ﴾ هي رؤْية بصر، و[ٱلظَّٰلِمِينَ] مفعول، و[مُشْفِقِينَ] حال، وليس لهم في هذا الإِشفاق مدح؛ لأَنّهم إِنَّما أَشفقوا حين نزل بهم ووقع، وليسوا كالمؤمنين الّذين هم في الدّنيا مشفقون من السّاعة كما تقدَّم، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ ﴾ في موضع الحال، و«الرَّوْضَاتُ»: المواضع الْمُونقة النَّضرة، وهي مرتفعة في الأَغلب من الاستعمال، وهي الممدوحة عند العرب وغيرهم، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ ﴾[١]، ومن ذلك تفضيلهم روضات الحَزْن[٢] لجودة هوائها، قال الطبريُّ: ولا تقول العرب لموضع الأشجار: رياض.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ﴾ إشارة إِلى قوله تعالىٰ في آية أُخرى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾[٣]. وقرأَ جمهور النّاس: [يُبَشِّرُ] بضم الياءِ وفتح الباءِ وشدِّ الشّين مكسورة، وذلك على التَّعديَة والتضعيف، وقرأَ مجاهد، وحُمَيْد: [يُبْشِرُ] بضمِّ الياءِ وسكون الباءِ وكسر الشِّين، على التَّعديَة بالهمزة، وقرأَ ابن مسعود، وابن يَعْمَر، وابن أَبي إِسحاق، والجحدريُّ، والأَعمش، وطلحة: [يَبْشُرُ] بفتح الياءِ وضمِّ الشّين، ورويت عن ابن كثير، وقال الجحدريُّ في تفسيرها: ترى النَّضرة في الوجوه.

قوله تعالىٰ: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾، اختلف النّاسُ في معناه ـ فقال ابن عبّاس رضي الله عنهما وغيره: هي آية مكِّيَّة نزلت في صدر الإِسلام، ومعناها استِكْفاف شرِّ الكفّار، ودفع أَذاهم، أَي: ما أَسأَلكم على القرآن والدّعاءِ إِلى الله تعالىٰ إِلاَّ أَن تَوَدُّوني لقرابةٍ بيني وبينكم، فتكفّوا عنِّي أَذاكم، قال ابن عبّاس، وابن إِسحاق، وقتادة: ولم يَكُن في قريش بطن إِلاَّ ولرسول الله ﷺ فيه نسبٌ أَو صهْر[٤] فالآية ـ على

---

(١) من الآية (٢٦٥) من سورة (البقرة).

(٢) الحَزْنُ: ما غَلُظ من الأرض، وقال الأصمعيُّ: الحُزْن: الجبال الغليظة، والمراد بالغلظة الخشونة.

(٣) من الآية (٤٧) من سورة (الأحزاب).

(٤) أخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاريُّ، ومسلم، والتّرمذيُّ، وابن جرير، وابن مردويه، من طريق طاوس، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه سُئل عن قوله: ﴿ إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾، فقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: قُربى آل محمد، فقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: عَجِلْتَ، إنَّ النبي ﷺ لم يكن بطن=

هذا ـ هي استعطافٌ مّا، ودَفْع أذى، وطلبُ سلامة منهم، وذلك كلُّه منسوخ بآية السَّيف. ويحتمل هذا التَّأويل أن يكون معنى الكلام استدعاءَ نصرهم، أي: لا أسألكم غرامةً ولا شيئاً إلاَّ أن تَوَدُّوني لقرابتي منكم، وأن تكونوا أولى من غيركم، وقال مجاهد: إلاَّ أن تَصلوا رحمي باتِّباعي، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما أيضاً ما يقتضي أنَّها مدنيَّة، وسببها أنَّ قوماً من شباب الأنصار فاخروا المهاجرين، ومالوا بالقول على قريش، فنزلت الآية بذلك على معنى: إلاَّ أن تودُّوني فتراعوني في قرابتي وتحفظوني فيهم، وقال بهذا المعنى في الآية عليُّ بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، واستشهد بالآية حين سيق إلى الشّام أسيراً، وهو تأويل ابن جبير، وعمرو بن شعيب، وعلى هذا التَّأويل قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: قيل: يا رسول الله، مَنْ قرابتك الّذين أُمرنا بمودَّتهم؟ فقال: «عليٌّ وفاطمة وابناهما»[1]، وقيل: هم ولد عبد المطَّلب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقريش كلُّها عندي قُرْبى وإن كانت تتفاضل، وقد روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «من مات على حبِّ آل محمد مات شهيداً، ومن مات على بُغضهم لم يشم رائحة الجنَّة»[2]،

= من قريش إلاّ كان له فيهم قرابة، فقال: إلاَّ أن تَصلوا ما بيني وبينكم من القرابة.

(١) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبرانيُّ، وابن مردويه بسند ضعيف، من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما. (الدُّرّ المنثور)، وذكر ابن كثير في تفسيره أيضاً أنَّ إسناده ضعيف، فيه مُبهم لا يُعرف عن شيخ شيعيّ مخترق وهو حُسَين الأشقر، ولا يُقبل خبره في هذا المحل، وذكْر نزول الآية في المدينة بعيد، فإنَّها مكِّيَّة، ولم يكن إذ ذاك لفاطمة رضي الله تعالىٰ عنها أولاد بالكلِّية، فإنَّها لم تتزوج بعلي رضي الله عنهما إلاّ بعد بدر من السّنة الثانية من الهجرة.

(٢) هذا الحديث ذكره الثّعلبيّ، ونقله عنه القرطبيُّ بأطول من هذا، ففيه «من مات على حُبِّ آل محمد مات شهيداً، ومن مات على حُبِّ آل محمد جعل الله زُوَّار قبره الملائكة والرّحمة، ومن مات على بُغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه: أيِس اليوم من رحمة الله، ومن مات على بُغض آل محمد لم يَرَحْ رائحة الجنَّة، ومن مات على بُغض آل محمد، فلا نصيب له في شفاعتي»، وذكر هذا الخبر بأطول من هذا الزّمخشريُّ في تفسيره، والأحاديث الكثيرة مذكورة في حُبِّ آل البيت، وأشهرها ما قاله ﷺ في إحدى خطبه: «إنّي تاركٌ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السَّماء إلى الأرض، والآخر عِترة أهل بيتي، ولن يفترقا حتّى يَردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»، أخرجه التِّرمذيُّ عن زيد بن أرقم، وكذلك أخرجه عنه الإمام أحمد في مسنده، وفيه زيادة.

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما أيضاً في كتاب الثّعلبيِّ: سبب هذه الآية أنَّ الأنصار جمعت لرسول الله ﷺ مالاً وساقته إليه، فردَّه عليهم ونزلت الآية في ذلك، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما أيضاً: معنى الآية مِنْ قُرْبَى الطّاعة والتَّزَلُّف إلى الله تعالىٰ، كأنَّه قال: إلاَّ أَن تَوَدُّوني لأنّي أقربكم من الله تعالىٰ، وأُريد هدايتكم وأدعوكم إليها، وقال الحسن بن أبي الحسن: معناه: إلاَّ أن تتودَّدوا إلى الله تعالىٰ بالتقرُّب إليه، وقال عبد الله بن القاسم في كتاب الطبريِّ: معنى الآية: إلاَّ أن تَتَوَدَّدُوا بعضكم إلى بعض وتصلوا قرابتكم، فالآية ـ على هذا ـ أمر بصلة الرَّحم.

وذكر النَّقّاش عن ابن عبّاس، ومقاتل، والسّديِّ، والكلبيّ أنَّ الآية منسوخة بقوله تعالىٰ في سورة سبأ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾[1]، والصَّواب أنَّها مُحْكَمة، وعلى كلِّ قول فالاستثناءُ منقطع، و[إلاَّ] بمعنى «لكن»[2].

و[يَقْتَرِفْ] معناه: يكتسب، ورجلٌ قرفة، إذا كان محتالاً كسوباً، وقرأت فرقة: [يَزِدْ] على إسناد الفعل لله تعالىٰ، وقرأ جمهور النّاس: [نَزِدْ] على نون العظمة، وزيادة الحُسْنِ هو التَّضعيف الّذي وعد الله تعالىٰ به مؤمني عباده، قاله الحسن بن أبي الحسن، و[غَفُورٌ] معناه: ساترٌ عيوب عبيده، و[شَكُورٌ] معناه: مجاز على الدَّقيقة من الخير، لا يضيع عنده عمل العامل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾.

[أَمْ] هذه أيضاً مقطوعة مُضَمَّنة إضراباً عن كلام متقدِّم، وتقريراً على هذه المقالة

---

(١) من الآية (٤٧) من سورة (سبأ).

(٢) قال الطبريُّ: «فالمعنى: قل لا أسألكم عليه أجراً، لكنّي أسألكم المودَّة في القربى»، وقال: «وأولى الأقوال بالصَّواب قول من قال: معناه: قل لا أسألكم عليه أجراً يا معشر قريش، إلاّ أن تَوَدُّوني في قرابتي منكم، وتصلوا الرَّحم الّتي بيني وبينكم... وفي دخول [في] في الكلام أوضح الدّليل على أنّ معناه: إلاّ مَوَدَّتي في قرابتي منكم».

منهم. وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ﴾ معناه في قول قتادة وفرقة من المفسِّرين: يُنسيكَ القرآن، والمرادُ الرَّدُّ على مقالة الكفّار وبيان إبطالها، وذلك كأنَّه يقول: وكيف يصحُّ أَن تكون مفترياً وأَنت بمرأى من الله تعالىٰ ومسمع، وهو قادر لو شاءَ أَن يختم على قلبك، فلا تعقل ولا تنطق ولا يستمرُّ افتراؤُك، فمقصد اللَّفظ هذا المعنى، وحذف ما يدلُّ عليه الظاهر اختصاراً واقتصاراً، وقال مجاهد في كتاب الثعلبيُّ وغيره: المعنى: فإِن يشأِ الله يختم على قلبك بالصَّبر لأَذى الكفّار، ويربط عليه بالجَلَد، فهذا تأْويلٌ لا يتضمَّن الرَّدَّ على مقالتهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ فعل مستقبل[1]، خبر من الله تعالىٰ أَنَّه يمحو الباطل ولا بد، إِمّا في الدُّنيا وإِمّا في الآخرة، وهذا بحسب نازلة نازلة، وكتبت [يَمْحُ] في المصحف بحاءٍ مرسلة كما كتبوا ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾[2] إِلى غير ذلك مما ذهبوا فيه إِلى الحذف والاختصار[3]. وقوله تعالىٰ: [بِكَلِمَاتِهِ] معناه: بما سبق في قديم علمه وإِرادته من كون الأَشياءِ، فالكلماتُ: المعاني القائمة القديمة. وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ خبرٌ مُضَمَّنه وعيد.

ثمَّ ذكر تعالىٰ النِّعمة في تفضله بقبول التَّوبة عن عباده، وقبولُ التَّوبة فيما يستأْنف العبد من زمنه وأَعماله مقطوع به بهذه الآية، وأَمّا ما سلف من أَعماله فينقسم: فأَمّا التوبة من الكفر فماحيةٌ كلَّ ما تقدمها من مظالم العباد الفانية، وغير ذلك، وأَمّا التَّوبة من المعاصي فلأَهل السُّنَّة فيها قولان: هلْ تذهب المعاصي السّابقة للعبد بينه وبين خالقه سبحانه؟ فقالت فرقة: هي مُذْهبة لها، وقالت فرقة: هو في مشيئة الله تعالىٰ، وأَجمعوا على أَنَّها لا تُذْهِب مظالم العباد، وحقيقة التَّوبة: الإِقلاعُ عن المعاصي والإِقبالُ والرُّجوع إِلى الطّاعات، ويلزمها النَّدم على ما فات والعزم على ملازمة الخيرات، وقال سريُّ السَّقطيُّ: التَّوبةُ: العزمُ على ترك الذنوب والإِقبالُ بالقلب إِلى علاَّم الغيوب سبحانه وتعالىٰ، وقال يحيى بن معاذ: التّائب من كسر شبابه على رأْسه، وكسر الدُّنيا على رأْس الشَّيطان، ولزم الفطام حتّى أَتاه الحِمام. وقوله تعالىٰ: ﴿عَنِ

---

(١) في بعض النسخ: «فعل مستأنف».

(٢) من الآية (١١) من سورة (الإسراء).

(٣) ومنه قوله تعالىٰ في الآية (١٨) من سورة (العلق): ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾.

عِبَادِهِۦ﴾ بمعنى: من عباده، وكأنَّه تعالىٰ قال: التَّوبة الصادرة عن عباده، وقرأ جمهور القراءِ، والأعرج، وأبو جعفر، والجحدريُّ، وقتادة: [يَفْعَلُونَ] بالياءِ على الكناية عن غائب، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وابن مسعود، وعلقمة: [تَفْعَلُونَ] بالتّاءِ على المخاطبة، وفي الآية توعُّد.

وقوله تعالىٰ: [وَيَسْتَجِيبُ]، قال الزَّجّاج، وغيره: معناه: يُجيب، والعربُ تقول: أَجابَ واستجابَ بمعنى، ومنه قول الشاعر:

وداعٍ دَعَا يَا مَن يُجيبُ إِلَى النَّدَى ... فَلَـمْ يَسْتَجِبْـهُ عِنْـدَ ذاكَ مُجيـبُ[1]

و[ٱلَّذِينَ] ـ على هذا القول ـ مفعولٌ بـ [يَسْتَجِيبُ]، وروي هذا المعنى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه[2]، ونحوه عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، وقالت فرقة: المعنى: ويستدعي الّذين آمنوا الإِجابة من ربِّهم بالأعمال الصّالحة، ـ ودلَّ قوله تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ على أن المعنى: «فيُجيبهم» ـ، وحملت هذه الفرقة «استجاب» على المعهود من باب «استفعل»، أي طَلَبَ الشَّيءَ، و[ٱلَّذِينَ] ـ على هذا القول ـ فاعل بـ [يَسْتَجِيبُ]. وقالت فرقة: المعنى: ويُجيب المؤمنون ربَّهم، فـ

---

(١) هذا البيت لكَعب بن سعد الغَنَوي، وهو من قصيدة طويلة ذكرها الأصمعيُّ في الأصمعيّات مُقَسَّمة إلى قصيدتين، وفي جمهرة أشعار العرب منسوبة إلى «محمد بن سعد الغَنَوِيّ»، وهو خطأ واضح، وقد قالها كعب في رثاء أخيه أبي المغوار الذي قتل في وقعة ذي قار، وفيها كلام كثير، قال عنها الأصمعيُّ: «ليس في الدُّنيا مثلها»، وقال أبو هلال العسكريُّ: «ليس للعرب مرثية أجود منها»، ـ راجع الموشّح ـ وديوان المعاني، والأصمعيّات، والجمهرة، ومنتهى الطَّلب، والسِّمْط، وغيرها ـ والبيت في لسان العرب، وبعده يقول:

فَقُلْتُ ادْعُ أُخْرَى وارْفَـعِ الصَّوْتَ دَعْـوةً ... لَعَـلَّ أَبَـا المِغْـوَارِ مِنْـكَ قَـرِيـبُ

قال في اللّسان: «والإجابة: رجع الكلام، تقول: أَجَابَهُ إِجَابَةً واسْتَجَابَهُ واسْتَجَابَ له، قال كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبا المغوار... ثمّ ذكر البيت».

(٢) روى ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث الأعمش، عن سلمة بن سبرة، قال: خطبنا معاذٌ رضي الله تعالىٰ عنه بالشّام فقال: «أنتم المؤمنون، وأنتم أهل الجنّة، والله إنّي لأرجو أن يدخل الله تعالىٰ مَنْ تَسْبون من فارس والروم الجنّة، وذلك بأنَّ أحدكم إذا عمل له ـ يعني أحدهم ـ عملاً قال: أَحْسَنت رحمك الله، أَحْسَنت بارك الله فيك، ثمَّ قرأ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره، وزاد السيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور نسبة الحديث إلى ابن المنذر، والحاكم، وقال: إنّه صحيح الحديث».

[ٱلَّذِينَ] فاعل بمعنى: يجيبون دعوة شرعه ورسالته، والزِّيادة من فضله هي تضعيف الحسنات، وروي عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «هي قبولُ الشَّفاعات في المؤمنين والرِّضوانُ»[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، قال عمرو بن حُرَيْثٍ[٢] وغيره: إنَّها نزلت لأنَّ قوماً من أهل الصُّفة طلبوا من رسول الله ﷺ أن يُغنيهم الله تعالىٰ، ويبسط لهم الأرزاق والأموال، فأعلمهم تعالىٰ أنَّه لو جاءَ الرِّزق على اختيار البشر واقتراحهم لكان سبب بغيهم وإفسادهم، ولكنَّه عزَّ وجلَّ أعلم بالمصلحة في كلِّ أحد، وله بعبيده خبرةٌ وبَصَرٌ بأخلاقهم ومصالحهم، فهو ينزل لهم من الرِّزق القدر الَّذي به صلاحهم، فرُبَّ إنسان لا يصلح ولا تكتف عاديته إلاَّ بالفقر، وآخر بالغنى، وروى أنس بن مالك في هذا المعنى والتَّقسيم حديثاً عن النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ قال أنس رضي الله عنه: اللهمَّ، إنِّي من عبادك الَّذين لا يصلحهم إلاَّ الغنى فلا تفقرني[٣]. وقال خبَّاب بن الأرتِّ: فينا نزلت لأنَّا نظرنا إلى أحوال بني قُريظة وبني النَّضير وبني قَيْنُقَاع فتمنَّيناها[٤].

---

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره أنَّ ابن أبي حاتم أخرجه من طريق الأعمش عن شقيق، عن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ قال: «الشّفاعة لمن وجبت له النّار ممن صنع إليهم معروفاً في الدُّنيا».

(٢) هو عمرو بن حُرَيْث بن عمرو بن عثمان بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، القرشيُّ، المخزوميُّ، صحابيٌّ صغير، قال عنه الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني: «مات سنة خمس وثمانين». (تقريب التهذيب).

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره دون ذكر الرَّاوي، وذكَرَهُ القرطبيُّ بأطول من هذا، عن أنس رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ فيما يرويه عن ربِّه تبارك وتعالىٰ، قال: «من أهان لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة، وإنِّي لأسرع شيءٍ إلى نُصرة أوليائي، وإنِّي لأغضب لهم كما يغضب اللَّيث الحَرِد، وما تَرَدَّدْتُ في شيءٍ أنا فاعله تردُّدي في قبض روح عبدي المؤمن، يكره الموت وأنا أكره إساءته، ولا بُدَّ له منه، وما تقرَّب إليَّ عبدي المؤمن بمثل أداءِ ما افترضت عليه، وما يزال عبدي المؤمن يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتّى أُحبَّه، فإذا أحببتهُ كُنتُ له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً ومؤيداً، فإن سألني أعطيته، وإن دعاني أجبته، وإنَّ من عبادي المؤمنين من يسألني الباب من العبادة وإنِّي عليم أن لو أعطيته إيَّاه لدخله العُجْب فأفسده، وإنَّ من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلاَّ الغنى ولو أفقرته لأفسده الفقر، وإن من عبادي المؤمنين من لا يُصلحه إلاَّ الفقر ولو أغنيته لأفسده الغنى، وإنِّي لأدبِّر عبادي بقلوبهم، فإنّي عليم خبير».

وقد روى الجزءَ الأوَّل من هذا الحديث البخاريّ عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الرِّقاق، وأحمد في مسنده (٦ـ٢٥٦) عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها، وتنتهي روايتهما عند قوله: «وأنا أكره إساءته»، وإن كان اللَّفظ فيهما: «أكره مساءته».

(٤) ذكر الواحديُّ في «أسباب النُّزول» هذا السبب عن خبّاب بن الأرت بدون سند، وذكره أيضاً كلٌّ من=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

هذا تعديد نعم الله تعالىٰ الدَّالَّة على وحدانيته، وأنَّه الإلـٰه الَّذي يستحق أن يعبد دون ما سواه من الأنداد، وقرأ: [يُنَزِّلُ] بالتَّثقيل جمهور القراءِ، وقرأ (يُنْزِلُ) مخفَّفة ابنُ وثّاب، والأَعمش، ورويت عن أَبي عمرو، ورجَّحها أَبو حاتم، وقرأَ جمهور النّاس: [قَنَطُوا] بفتح النّون، وقرأ يحيى بن وثّاب عن الأَعمش بكسر النّون، وقد تقدَّم ذكرها، وهما لغتان، يقال: قنَط وقنِط، وروي أَنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قيل له: أَجدبت الأَرض وقنط النّاس، فقال: مُطِرُوا إِذاً، بمعنى: إِنَّ الفرج عند الشِّدَّة.

واختلف المتأَوِّلون في قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ﴾ ـ فقالت فرقة: أَراد بالرَّحمة المطر، وعدَّد النِّعمة بعينها بلفظين الثّاني منهما يؤكِّد الأَوَّل، وقالت فرقة: الرَّحمة في هذا الموضع: الشَّمس، فذلك تعديد نعمة غير الأُولى، وذلك أَنَّ المطر إِذا أَلَمَّ بعد القنط حسُن موقعه، فإِذا دام سُئِم، فتجيءُ الشَّمس بعده عظيمة الموقع. وقوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ أَي: مَن هذه أَفعاله، فهو الَّذي ينفع إِذا والى، وتُحمد أَفعاله ونعمه، لا كالَّذي لا يضُرُّ ولا ينفع من أَوثانكم.

ثمَّ ذكر تعالىٰ الآية الكبرى، والصّنعة الدَّالَّة على الصَّانع، وذلك خلقه السَّموات والأَرض، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ يتخرج على وجوه: منها أَن يريد أَحدهما فيذكر الاثنين، كما قال تبارك وتعالىٰ: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾[1]، وذلك

= الخازن والبغويّ في تفسيرهما عن خبَّاب بدون سند أيضاً، وروى ابن جرير عن عمرو بن حُرَيْث أنّه قال: «يقولون: إنّما نزلت في أهل الصُّفَّة». وخبَّابٌ رضي الله عنه صحابيٌّ جليل، من السابقين إلى الإسلام، عُذِّب في الله فكان من الصابرين، ومات بالكوفة سنة سبع وثلاثين.

(١) الآية (٢٢) من سورة (الرَّحمن).

إنَّما يخرج من الملح وحده، ومنها أَن يكون تعالىٰ قد خلق السَّموات وبثَّ دوابَّ لا نعلمها نحن، ومنها أَن يريد الحيوانات الَّتي توجد في السَّحاب وقد تقع أَحياناً كالضَّفادع ونحوها، فإِنَّ السَّحاب داخل في اسم السَّماءِ، وحكى الطبريُّ عن مجاهد أَنَّه قال في تفسير ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ هم النّاسُ والملائكة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبعيد غير جارٍ على عُرف اللُّغة أَن تقع الدَّابَّة على الملائكة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ يريد: يوم القيامة عند الحشر من القبور.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾، قرأَ جمهور القراءِ: [فَبِمَا] بفاءٍ، وكذلك هي في جُلِّ المصاحف، وقرأَ نافع، وابن عامر، وأَبو جعفر، وشيبة: [بِمَا] دون فاءٍ، وحكى الزَّجّاج أَنَّ أَبا جعفر وغيره[1] من المدنيّين أَثبت الفاءَ، قال أَبو عليٍّ الفارسيُّ: [أَصَابَ] من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ﴾ يحتمل أَن تكون في موضع جزم وتكون [ما] شرطية، وعلى هذا لا يجوز حذف الفاءِ عند سيبويه، وجوَّز حذفها أَبو الحسن الأَخفش وبعض البغداديين على أَنَّها مُرادة في المعنى[2]، ويحتمل أَن يكون قوله: [أَصابَ] صِلَةً لـ [مَا]، وتكون [مَا] بمعنى «الَّذي»، وعلى هذا يجوز حذف الفاءِ وثبوتها، لكن معنى الكلام مع ثبوتها بالتَّلازم، أَي: لولا كَسْبُكُم لما أَصابتكم مصيبة، والمصيبة إِنَّما هي بسبب كسْب الأَيدي، ومعنى الكلام مع حذفها يجوز أَن يكون التَّلازم، ، يجوز أَن يُعَرَّى منه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَمّا في هذه الآية فالتَّلازم مطَّرد مع الثُّبوت والحذف، وأَمّا معنى الآية فاختلف النّاس فيه ـ فقالت فرقة: هي إِخبارٌ من الله تعالىٰ، فإِنَّ الرَّزايا والمصائب في الدُّنيا إِنَّما هي مجازاة من الله تعالىٰ على ذنوب المرءِ، وتمحيص لخطاياه، وإِنَّ الله تعالىٰ يعفو عن كثير فلا يعاقب عليه بمصيبة، قال النَّبيُّ ﷺ: «لا يصيب ابن آدم خدش عود أَو عثرة قدم ولا اختلاج عرق، إِلاّ بذنب، وما يعفو عنه أَكثر»[3]، وقال عمران بن حصين وقد سئل

---

(١) في بعض النُّسخ: «أَنَّ أَبا جعفر وحده».

(٢) ودليلهم على ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ بدون فاءٍ في [إِنَّكُمْ].

(٣) أخرجه سعيد بن منصور، وهناد، وعَبْد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن البصريّ=

عن مرضه: «إِنَّ أَحبَّه إِليَّ أَحبَّه إِلى الله تعالىٰ، وهذا مما كسبت يداي، وعفو ربِّي سبحانه كثير»، وقال مُرَّة الهمذانيُّ: رأَيت على ظهر كفِّ شريح قُرْحة، فقلت ما هذا؟ فقال: «هذا بما كسبت يدي، ويعفو عن كثير»، وقيل لأَبي سليمان الدارانيِّ: ما بالُ الفضلاءِ لا يلومون من أَساءَ إِليهم؟ فقال: لأَنَّهم يعلمون أَنَّ الله تعالىٰ هو الّذي ابتلاهم بذنوبهم، وروي عن عليٍّ بن أَبي طالب رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قال: «إِنَّ الله أَكرم من أَن يُثنِّي على عبده العقوبة، إِذا أَصابته في الدُّنيا مصيبة بما اكتسبت يداه»[1]، وقال الحسن بن أَبي الحسن: معنى الآية في الحدود، أَي: ما أَصابكم من حدٍّ من حدود الله تبارك وتعالىٰ ـ وتلك مصيبة تنزل بشخص الإِنسان ونفسه ـ فإِنَّما هي بكسب أَيديكم، ويعفو الله سبحانه عن كثير، فيستره على العبد حتّى لا يُحَدَّ عليه. ثمَّ أَخبر تعالىٰ عن قُصور ابن آدم وضعفه، وأَنَّه في قبضة القدرة، ولا يعجز طلب ربِّه عزَّ وجلَّ، ولا يمكنه الفرار منه.

و«الْجَوَاري»: جمع جارية، وهي السَّفينة، وقرأَ: [ٱلْجَوَارِي] بالياءِ نافعٌ، وعاصمٌ، وأَبو جعفر، وشيبة، ومنهم من أَثبتها في الوصل ووقف على الرّاءِ، وقرأَ أَيضاً عاصم بحذف الياءِ في وصل ووقف، وقال أَبو حاتم: نحن نُثْبتها في كلِّ حالٍ، و«الأَعلامُ»: الجبالُ، ومنه قول الخنساءِ:

وإِنَّ صَخْـراً لَتَـأْتَـمُّ الْهُـدَاةُ بِـهِ ... كَـأَنَّـهُ عَلَـمٌ فـي رَأْسِـهِ نَـارُ[2]

= رضي الله عنه، ولفظه كما في الدُّرِّ المنثور: قال: لمَّا نزلت هذه الآية: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «والّذي نفسي بيده ما مِنْ خدش عود، ولا اختلاج عرق، ولا نكبة حجر، ولا عثرة قدم إلاَّ بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر».

(١) أخرج أحمد، وابن راهويه، وابن منيع، وعبد بن حميد، والحكيم التِّرمذيُّ، وأبو يَعْلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم، عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: الا أُخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدَّثنا بها رسول الله ﷺ؟ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، وسأُفسِّرها لك يا عليُّ، ما أصابك من مرض أو عقوبة أو بلاءٍ في الدُّنيا فبما كسبت أيديكم، والله أكرم من أن يُثنِّي عليكم العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدُّنيا فالله أكرم من أن يعود بعد عفوه. (الدُّرّ المنثور).

(٢) هذا البيت مَثَل في الشُّهرة، وهو من قصيدة مشهورة قالتها الخنساءُ، وهي أُمُّ عمرو، تُماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، ويروى الشَّطر الأوَّل: (أَغَرُّ أَبْلَجُ تَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ)، والعَلَم: الجَبَل، وجمعه أعلام، وهو موضع الاستشهاد هنا.

ومنه المثل: «إذا قطعن عَلَماً بدا عَلَم»(١)، فَجَرْيُ السُّفن في الماءِ آيةٌ عظيمة، وتسخير الرِّيح لذلك نعمة منه تعالىٰ، وهو لو شاءَ أن يُسْكن الرِّياح عنها لركدت، أَي أَقامت وقرَّت ولم يتمَّ منها غرض. وقرأَ أبو عمرو، وعاصم: [الرِّيحَ] واحدة، وقرأَ: [ٱلرِّياحَ] نافع، وابن كثير، والحسن. وقرأَ الجمهور: [فَيَظْلَلْنَ] بفتح اللام، وقرأَ قتادة: [فَيَظْلِلْنَ] بكسر اللام. وباقي الآية بيِّنٌ، فيه الموعظة، وتشريف الصَّبَّار الشَّكور بالتَّخصيص، والصَّبر والشكر فيهما الخير كلُّه، ولا يكونان إلاَّ في عالِمٍ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

أَوْبقتُ الرجل: إذا أَنشبته في أَمر يهلك فيه، فالإيباق في السُّفن هو تغريقها، والضمير في [كَسَبُوا] هو لركَّابها من البَشَر، أَي: بذنوب البشر، ثم ذكر تعالىٰ ثانية ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ مبالغةً وإيضاحاً، وقرأَ نافع، وابن عامر، والأَعرج، وأَبو جعفر، وشيبة: [وَيَعْلَمُ] بالرَّفع على القطع والاستئناف، وحسن ذلك إذا جاءَ بعد الجزاءِ، وقرأَ الباقون والجمهور: [وَيَعْلَمَ] بالنَّصب على تقدير (أَن)، وهذه الواو ونحوها هي الَّتي يسميها الكوفيون «وَاوَ الصَّرْفِ»(٢)؛ لأَنَّ حقيقة واو الصَّرف هي الَّتي تريد بها عطف

---

(١) جاء في (مجمع الأمثال) للميدانيِّ: «إذا قَطَعْنَا عَلَماً بدا عَلَمٌ»، الجَبَل يقال له: عَلَم، «أي: إذا فرغنا من أمر حدث أمر آخر»، هكذا بألف بعد النّون في (قطَعْنَ). (وفي المستقصى في أمثال العرب) للزّمخشريِّ: «إذا قَطَعْنَ عَلَماً بَدَا عَلَمٌ» هو من قول جرير:

أقْبَلْــنَ مــن ثَهْــلانَ أو وَادي خِيَــمْ ... عَلـى قــلاصٍ مِثْـل خيطـان السَّلَـم
إذا قَطَعْــنَ عَلَمــاً بَــدَا عَلَــمْ ... حَتَّـى أنَخْنَـاهَـا علـى بـاب الحَكَـمْ
خليفَــة الحَجَّــاج غَيْــرِ المُتَّهَــمْ ... فـي ضِئْضِئِـي المَجْـدِ وبُحْبُـوح الكَـرَم

والضمير للأبل، وكلام الزَّمخشريِّ أدق وأضبط من كلام الميدانيِّ، وثَهْلان: جبل، والقلاصُ: جمع قلوص وهي النّاقة الّتي سمنت في سنامها، وكذلك الجمل، أو هي الفتيّة من الإبل، والضِّئْضِيءُ: الأصل، يقال: هو من ضِئْضِيءٍ كريم.

(٢) معنى الصَّرف أنّه كان على جهة فصُرف إلى غيرها فتَغَيَّر الإعرابُ لأجل الصَّرف، قال ذلك أبو عبيد، ومثّل له بقوله تعالىٰ في سورة آل عمران: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾، وقال: =

فعل على اسمٍ فتقدَّر (أَنْ) لتكون مع الفعل بتأويل المصدر فيجيءُ عطفه على الاسم[١]، ونحو ذلك قول الشاعر:

. . . . تَقَضِّي لُبَانَاتٍ وَيَسْأَمَ سَائِمُ[٢]

فكأنَّه أراد: وسَآمَةُ سائِم، فتقدَّر «وأن يسأم» ليكون ذلك بتأويل المصدر الَّذي هو «سآمة»، قال أبو عليٍّ: حسن النَّصب إذا كان قبله شرط وجزاءٌ وكلٌّ واحد منهما غير واجب.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ هو معلومهم الَّذي أراد أن يعلمه المجادلون في آياته عزَّ وجلَّ، و«المحيص»: المنْجى وموضع الروغان، يقال: حاصَ إذا راغ، وفي حديث هرقل: «فَحاصوا حَيْصَةَ حُمُر الوحش إلى الأبواب»[٣]. ثمَّ وعظ تعالىٰ

= إنَّ العطف لا يعيِّن الاقتران في الوجود كالعطف في الاسم نحو (جاء زيد وعمرو)، ولو نصب فقيل: (وَعَمْراً) اقتضى الاقتران، وكذلك «واو الصَّرف» تفيد معنى الاقتران، ولذلك أُجمع على النَّصب في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَعْلَمَ الصَّٰبِرِينَ﴾، أي: ويعلم المجاهدين والصَّابرين معاً.

(١) نقل أبو حيَّان الأندلسيُّ هذا الكلام ثمَّ علَّق عليه بقوله: «وليس قوله تعليلاً لقولهم: «واو الصَّرف» إنَّما هو تقدير لمذهب البصريِّين، وأمَّا عند الكوفيين فإنَّ «واو الصَّرف» ناصبة بنفسها لا بإضمار (أن) بعدها».

(٢) هذا عجز بيت قاله الأعشى من قصيدة له يهجو يزيد بن مسهر الشَّيبانيّ، والبيت بتمامه:

لَقَدْ كَانَ فِي حَوْلٍ ثَوَاءٍ ثَوَيْتُهُ ... تَقَضِّي لُبَانَاتٍ وَيَسْأَمَ سَائِمُ

وهو في الدّيوان، وابن الشّجريّ، وابن يعيش، وشرح شواهد المغْني، وكتاب سيبويه، والثَّواءُ: طول الإقامة، ثَوَى يَثْوي، ولُبانات: جمع لُبانة وهي الحاجة، وقضاءُ اللُّبانة هو تحقيق الغرض والغاية الّتي يسعى إليها الإنسان، وقيل: اللُّبانة: الحاجة من غير فاقة ولكن من هِمَّة، والسأَمُ: المَلَلُ، والشّاهد فيه أن (تقَضّي) اسم بمعنى قضاء، ولهذا نصبوا الفعل (يَسْأَمَ) ليمكن العطف على الاسم، ويكون تقدير الكلام: لقد كان في هذا الحول الّذي ثويته قضاءُ لُبانات وسآمةُ سائم، قال هذا في شرح الأخفش، وقد روي البيت في كتاب سيبويه: (تُقَضَّى لباناتٌ ويَسْأَمُ سائمٌ) على أن (تُقَضَّى) فعل مبني للمجهول و(لباناتٌ) نائب فاعل بها، و(يسأمُ) فعل مرفوع وهو معطوف على (تُقَضَّى)، ويكون الشّاهد هو رفع (يَسْأَمُ) لأنَّه خبر واجب معطوف على (تُقَضَّى)، واسم (كان) مضمر فيها، والتَّقدير: لقد كان الأمر تقضي لبانات في الحول الّذي ثويت فيه ويسأم من أقام فيه لطوله، وعلى هذا فلا شاهد فيه في بحثنا هنا.

(٣) هذا جزءٌ من حديث طويل رواه البخاريُّ في كتاب بدء الوحي، وفي تفسير سورة النِّساء، وأبو داود، والتّرمذيُّ في الجهاد، وأحمد في مسنده (٢ـ٧٠، ١٠٠)، عن أبي سفيان بن حرب، وقد كان في تجارة مع بعض العرب في الشام، وعلم هرقل بأمره وأمر أصحابه فجمعهم وسألهم عن النبي ﷺ، عن أصله=

عباده وحقَّر عندهم أَمر الدُّنيا وشأْنها، ورغَّبهم فيما عنده من نعيمهم والمنزلة الرَّفيعة لديه، وعظَّم قدر ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ عطف على قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[1]، وقرأَ جمهور القراءِ: [كَبَائِرَ] على الجمع، قال الحسن: هي كلُّ ما تُوُعِّدَ فيه بالنّار، وقال الضّحاك: أَو كان فيه حدٌّ من الحدود، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الكبائر من أَوَّل سورة النّساءِ إِلى رأْس ثلاثين آية، وقال عليُّ بن أَبي طالب، وابن عبّاس رضي الله عنهم: هي كلُّ ما ختمه الله تعالىٰ بنارٍ أَو غضب أَو لعنة أَو عذاب، وقرأَ حمزة، والكسائي، وعاصم[2]: [كَبِيرَ] على الإِفراد الّذي هو اسم الجنس، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: كبير الإِثم هو الشِّرك والفواحش، وقال السّديُّ: الزِّنى، وقال مقاتل: موجبات الحدود، ويحتمل أَن يكون [كَبِيرَ] اسم جنس بمعنى «كبائر» فتدخل فيه الموبقات السَّبع على ما قد تفسَّر من أَمرها في غير هذه الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ حضٌّ على كسر الغضب والتَّدرب في إِطفائه؛ إِذ هو جمرة من جهنَّم، وباب من أَبوابها، وقال رجل للنَّبيِّ ﷺ: أَوصني، قال: «لا تغضب»، قال: زدني، قال: «لا تغضب»[3]، ومن جاهد هذا العارض من نفسه حتّى غلبه فقد كُفي همًّا عظيماً في دنياه وآخرته.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ مدحٌ لكلِّ من آمن بالله تعالىٰ وقبل شرعه، ومدح تعالىٰ القوم الّذين أَمرهم شورى بينهم لأَنَّ في ذلك اجتماع الكلمة، والتَّحابُّ واتصال الأَيدي، والتَّعاضد على الخير، وفي الحديث «ما تشاور قوم قطُّ، إِلاَّ هدوا لأَحسن ما بحضرتهم»[4]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ معناه: في

= ونسبه ودعوته ومبادئه، واقتنع بها فجمع أهل حمص، وجمع عظماء الرّوم، ثمَّ أمر بدسكرة له فغُلِّقت أبوابها عليهم، ودعاهم إلى متابعة الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، كما جاء في الحديث «فحاصوا حيصة حُمر الوحش، فلمّا رأى هرقل هذا منهم أخبرهم أنَّه كان يختبرهم». راجع صفحة٤٩٣ من هذا المجلد.

(١) فهو في موضع جرٍّ.

(٢) أي في رواية أبي بكر عنه؛ لأنَّ رواية حفص عنه بالجمع [كَبَائِرَ] كما هي ثابتة في المصحف الشَّريف.

(٣) أخرجه البخاريُّ في الأدب، والتّرمذيُّ في البرّ، ومالك في حسن الخلق، وأحمد في مسنده (٥ـ٣٤، ٢ـ١٧٥، ٣٦٢، ٣ـ٤٨٤)، وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي البخاريّ أنَّه كرَّر ذلك مراراً.

(٤) قال في الدُّرِّ المنثور: «أخرج عبد بن حميد، والبخاريُّ في الأدب، وابن المنذر، عن الحسن رضي الله=

سبيل الله وبرسم الشرع وعلى حدوده في القوام الّذي مدحه الله تعالىٰ في غير هذه الآية.

وقال ابن زيد: قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ الآية نزلت في الأنصار، والظّاهر أَنَّ الله تعالىٰ مدح كلَّ من اتَّصف بهذه الصِّفة كائناً من كان، وهل حصل الأنصار في هذه الصفة إلاَّ بعد سبق المهاجرين إليها؟ رضي الله تعالىٰ عن جميعهم بِمَنِّه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

مدح الله تعالىٰ في هذه الآية قوماً بالانتصار من البغي، ورجَّح ذلك قومٌ من العلماءِ، وقالوا: الانتصار بالواجب تَغْيِيرُ منكر، ومن لم ينتصر مع إمكان الانتصار فقد ترك تغيير المنكر.

واختلف النّاس في المراد بالآية بعد اتِّفاقهم على أَن من بُغي عليه وظُلم، فجائز له أَن ينتصر بيد الحقِّ وحاكم المسلمين ـ فقال مقاتل: الآية في المجروح ينتصف من الجارح بالقصاص.

وقالت فرقة: إنَّها نزلت في بغي المشرك على المؤمن، فأَباح الله تعالىٰ له الانتصار منه دون تَعَدٍّ، وجعل العفو والإِصلاح مقروناً بأَجْر، ثمَّ نسخ جميع ذلك بآية السَّيف، وقالت هذه الفرقة ـ وهي الجمهور ـ: إنَّ المؤمن إذا بغى على مؤمن وظلمه فلا يجوز للآخر أَن ينتصف منه بنفسه ويُجَازيه على ظُلْمه، مثال ذلك أَن يخون إنسان آخر، ثمَّ يتمكن الآخر من خيانة الأَوَّل، فمذهب مالك رحمه الله تعالىٰ أَلاَّ يفعل، وهو مذهب جماعة عظيمة معه، ولم يروا هذه الآية من هذا المعنى، واحتجّوا بقول النَّبيِّ ﷺ: «أَدِّ الأَمانة إلى من ائتمنك، ولا تخُن من خانك»[1]، وهذا القول أَنْزَهُ وأَقرب إلى الله تبارك وتعالىٰ.

= عنه، قال: ما تشاور قوم قطُّ إلاَّ هدوا وأرشد أمرهم، ثمَّ تلا ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، ومعنى هذا أنَّه غير مرفوع إلى النَّبيِّ ﷺ.

(١) أخرجه أبو داود، والتِّرمذيُّ، والدارميُّ في البيوع، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي مسند أحمد عن رجل من أهل مكَّة يقال له: يوسف، قال: كنت أنا ورجل من قريش نلي مال أيتام، قال: وكان رجل قد ذهب منِّي بألف درهم، قال: فوقعت له في يدي ألفُ درهم، قال: فقلتُ للقرشيِّ: إنَّه قد ذهب لي =

وقالت طائفة من أَهل العلم: هذه الآية عامَّة في المشركين والمؤمنين، ومن بُغي عليه وظُلم، فجائز له أَن ينتصف لنفسه، ويخون من خانه في المال حتّى ينتصر منه، وقالوا: إِنَّ الحديث «ولا تَخُن من خانك» إِنَّما هو في رجل سأَل رسول الله ﷺ: هل يزني بِحُرْمَةِ من زنى بِحُرْمَتِه؟ فقال له النَّبيُّ ﷺ ذلك يريد به الزنى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكذلك ورد الحديث في معنى الزِّنى، ذكر ذلك الرواة، أَمَّا إِنَّ عمومه ينسحب في كلِّ شيء.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، قال الزَّجَّاج: سمَّى العقوبة باسم الذَّنب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا إِذا أَخذنا السَّيِّئة في حقِّ الله تعالىٰ بمعنى المعصية، وذلك أَن المجازاة من الله تعالىٰ ليست سيِّئة إِلاَّ إِن سُمِّيت باسم موجبتها، وأَمَّا إِن أَخذنا السَّيِّئة بمعنى المصيبة[1] في حقِّ البشر، أَي: يسوءُ هذا هذا ويسوؤُه الآخر، فلسنا نحتاج إِلى أَن نقول: «سَمَّى العقوبة باسم الذَّنب»، بل الفعل الأَوَّل والفعل الآخر سيِّئة، وقال ابن أَبي نجيح، والسُّديُّ: معنى هذه الآية أَنَّ الرَّجل إِذا شُتم بشتمة، فله أَن يردها بعينها دون أَن يتعدى، وقال الحسن بن أَبي الحسن: ما لم تكن حدًّا أَو عوراءَ جدًّا، واللاَّم في قوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ﴾ لام التقاءِ القَسَم[2]. وقوله تعالىٰ: ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ يريد: من سبيل حَرَج ولا سبيل حُكْم، وهذا بلاغ في إِباحة الانتصار والخلاف فيه، هل هو بين المؤمن والمشرك أَو بين المؤمنين على ما تقدَّم؟

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا

= بألف درهم، وقد أصبت له ألف درهم، قال: فقال القرشيُّ: حدَّثني أبي أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخُن من خانك».

(١) في بعض النسخ: «بمعنى المعصية»، ولا معنى لها هنا.

(٢) أي اللاَّم التي يُتلَقَّى بها القَسَم، والقَسَم قبلها محذوف.

رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾.

المعنى: إنَّما سبيل الحكم والإثم على الَّذين يظلمون النّاس، أي الَّذين يضعون الأشياءَ غير مواضعها، من القتل وأخذ المال والأذى باليد وباللِّسان، و«البَغْيُ بغير الحقِّ» هو نوع من أنواع الظلم خصَّه بالذِّكر تنبيهاً على شدَّته وسوءِ حال صاحبه، ثمَّ توعدهم تعالىٰ بالعذاب الأليم في الآخرة. وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ اعتراض بين الكلامين، ثمَّ عاد في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ إلى الكلام الأوَّل، كأنَّه تعالىٰ قال: «وَلَمَن انتصر بعد ظُلْمه فأُولئك ما عليهم من سبيل، ولمن صَبرَ وَغفَر»، واللاَّم في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ يصحُّ أَن تكون لام القَسَم، ويصح أَن تكون لام الابتداءِ، و[مَنْ] ابتداءٌ، وخبره في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾[1]. و«عَزْمُ ٱلْأُمُورِ»: مُحْكمها ومُتْقنها والحميد العاقبة منها.

ومن رأى أَنَّ هذه الآية هي فيما بين المؤمنين والمشركين وأَنَّ الصَّبر للمشركين كان أَفضل قال: إِنَّ الآية نُسخت بآية السَّيف، ومن رأى أَنَّ الآية إِنَّما هي بين المؤمنين قال: هي محكمة، والصَّبرُ والغفران أَفضل إجماعاً، وقال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: من كان له على الله أجر فليقم، فيقوم عُنُق[2] من النّاس كثير، فيقول: ما أَجركم؟ فيقولون: نحن الَّذين عفونا عمَّن ظلمنا في الدُّنيا»[3].

---

(١) وَضَّحَ أبو حيَّان في البحر المحيط الإعراب عن ابن عطية، فقال: «واللاَّم في [وَلَمَنْ] يجوز أن تكون اللاَّم الموطئة للقَسَم المحذوف، و[مَنْ] شرطية، وجواب القَسَم قوله: [إنَّ ذَلِكَ]، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القَسَم عليه، ويجوز أن تكون اللاَّم لامَ الابتداءِ، و[مَنْ] موصولة مبتدأ، والجملة المؤكدة بـ [إنَّ] في موضع الخبر».

(٢) جماعةٌ من الناس.

(٣) أخرجه ابن مردويه عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، وفيه زيادة على ما هنا «وذلك قول الله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، فيقال لهم: ادخلوا الجنَّة بإذن الله». وأخرج مثله ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقيُّ في شعب الإيمان، عن أنس رضي الله عنه، وأخرج مثله ابن مردويه عن الحسن رضي الله عنه. والأحاديث في حسن الجزاء للعافين عن النّاس كثيرة، وقد سبق الكلام عنها في سورة آل عمران عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾، (الآية ١٣٤). راجع المجلد الثاني صفحة ٣٥٨.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ تحقير لأمر الكفرة، فلا يبالي بهم أحد من المؤمنين، فقد أصارهم كفرهم وإضلال الله تعالىٰ إيَّاهم إلى ما لا فلاح لهم معه، ثمَّ وصف تعالىٰ لنبيِّه محمد ﷺ حالهم في القيامة عند رؤْيتهم العذاب، فاجتزأ من صفتهم وصفة حالهم بأنَّهم يقولون: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾، وهذه المقالة تدلُّ على سوءِ ما اطَّلعوا عليه، و«الْمَرَدُّ»: موضع الرَّدِّ إلى الدُّنيا، والمعنى الَّذي قصدوه أن يكون ردٌّ فيكون منهم استدراكٌ للعمل والإيمان، والرُّؤْية في هذا رؤْية عين.

والضَّمير في قوله تعالىٰ: [عَلَيْهَا] عائد إلى النّار، وعاد الضَّمير مع أنَّها لم يتقدم لها ذكر من حيث دلَّ عليها قوله تعالىٰ: ﴿رَأَوُا ٱلْعَذَابَ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ يحتمل أن يتعلَّق بـ [خَاشِعِينَ]، ويحتمل أن يتعلَّق بما بعده من قوله تعالىٰ: [يَنْظُرُونَ]، وقرأ طلحة بن مصرف: [من الذِّلّ] بكسر الذّال، و«ٱلْخُشُوعُ»: الاستكانة، وقد يكون محموداً، وإنَّما يخرجه إلى حالة الذَّمِّ قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾، فيقوى ـ على هذا ـ تعلق [مِنْ] بـ [خَاشِعِينَ].

وقوله تعالىٰ: ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ يحتمل ثلاثة معان، قال ابن عبّاس ومجاهد: [خَفِيٍّ]: ذليل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لمَّا كان نظرهم ضعيفاً ولَحْظُهم بمهانة وُصف بالخفاءِ، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

فَغُضَّ الطَّـرْفَ إِنَّـكَ مِـنْ نُمَيْـرٍ . . . . (١)

(١) هذا صدر بيت قاله جرير من قصيدة يهجو بها الرّاعي النّميريّ، وقال النُّقّاد القدامى: إنَّه أهجى بيت قاله شاعر، والبيت بتمامه:

فَغُـضَّ الطَّـرْفَ إِنَّـكَ مِـنْ نُمَيْـرٍ ... فَـلا كَعْبـاً بَلَغْـتَ ولا كِـلابـا

وغَضَّ طرفه: خفضه استحياءً وخزياً، والطَّرفُ: البصر، وفي الكامل للمبرّد: فَغُضٍّ بكسر الضّاد، وفي خزانة الأدب: بالكسر والفتح والضّم، ونُمَير وكَعْب وكلاب: قبائل عربية، وهو يحقِّر الأولى ويذمها ويمدح الأخيرتين، قال بعد ذلك البيت:

أتَعْـدِلُ دِمْنَـةٌ خَبُثَـتْ وقَلَّـتْ ... إلـى فَـرْعَيْـن قَـدْ كَثُـرَا وطَـابـا؟

يريد بالدِّمنة الخبيثة نميْراً، وبالفرعين الطيِّبين كعباً وكلاباً، ويستنكر أن تكون هناك مساواة بينها في المكانة والعدد.

وقال قوم ـ فيما حكى الطَّبريُّ ـ: لمَّا كانوا يُحشرون عُمْياً وكان نظرهم بعيون قلوبهم جعله طرْفاً خفيًّا، أي لا يبدو نظرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا التأويل تكلُّف.

وقال قتادة والسُّديُّ: المعنى: يسارقون النَّظر، لمَّا كانوا من الهمِّ وسوءِ الحال لا يستطيعون النَّظر بجميع العين، وإنَّما ينظرون من بعضها قال: ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي قليل، فالطَّرف هنا ـ على هذا التأويل ـ يحتمل أن يكون مصدراً، أي: يطرف طرفاً خفيًّا.

و«قول الّذين آمنوا» هو في يوم القيامة عندما عاينوا حال الكّفار وسوءَ منقلبهم، و«خُسران الأهلين» يحتمل أن يراد به أهلوهم الّذين كانوا في الدُّنيا، ويحتمل أن يراد به أهلوهم الّذين يكونون لهم في الجنَّة إن دخلوها، وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ يحتمل أن يكون من قول المؤمنين يومئذ، حكاه الله تعالىٰ، ويحتمل أن يكون استئنافاً من قول الله تعالىٰ وإخباره لمحمد ﷺ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ إنحاءٌ على الأصنام والأوثان الّتي أظهر الكفّار ولايتها، واعتقدوا ذلك ديناً، المعنى: فما بالهم يُوالون هذه الّتي لا تضُرُّ ولا تنفع، ولكن من يُضْلِل الله فما له من سبيل هدى ونجاة.

ثمَّ أمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ أن يأمرهم بالاستجابة لدعوة الله تعالىٰ وشريعته، وحذرهم إتيان يوم القيامة الّذي لا يُرَدُّ أحدٌ بعده إلى عمل، والّذي لا ملجأ ولا منجى لأحد فيه، إلاَّ إلَى العِلْم بالله تعالىٰ والعمل الصالح في الدُّنيا، فأخبرهم أنَّه لا ملجأ لهم ولا نكير،

و«النَّكيرُ» مصدر بمعنى الإنكار، وهو بمنزلة «عذير الحيِّ»[(١)] ونحوه من المصادر، ويحتمل أَن يكون من أَبنية اسم الفاعل من «نكِرَ»، وإِن كان المعنى يبعد به؛ لأَنَّ «نكِرَ» إِنَّما معناه: لم يُمَيِّز وظنَّ الأَمر غير ما عَهِدَ.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تأنيس لمحمد ﷺ، وإِزالة لهمِّه بهم، وأَعلمه أَنَّه ليس عليه إِلاَّ البلاغ إِليهم وتوصيل الحجَّة، ثمَّ جاءَت عبارة في باقي الآية هي بمنزلة ما تقول: والقومُ قوم عُتُوٍّ وتناقض أَخلاق واضطرابٍ، إِذا أُذيقوا رحمةً فرحوا بها وبطروا، وإِن تُصِبْهم سيِّئة ـ أَي مصيبة ـ تَسُوؤُهم في أَجسادهم أَو في نفوسهم ـ وذلك بذنوبهم وقبيح فعلهم ـ فإِنَّهم كُفُرٌ عند ذلك غير صُبُر، وعبَّر بالإِنسان الَّذي هو اسم عامٌّ ليدخل في الآية المتقدمة جميعُ الكفرة من المجاورين يومئذ ومن غيرهم، وجمع الضَّمير في قوله تعالىٰ: [تُصِبْهُمْ] وهو عائد على لفظ «الإِنسان» من حيث هو اسم جنس يعمُّ كثيراً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

الآيةُ الأُولى آيةُ اعتبارٍ دالةٌ على القدرة والملك المحيط بالخلق، وأَن مشيئَتَهُ تعالىٰ وجلَّ نافذة في جميع خلقه، وفي كلِّ أَمرهم، وهذا لا مدخل لصنم فيه، فإِنَّ الَّذي

---

(١) قيل: هو بمعنى: هاتِ عُذْراً فيما فَعَلَ، قال ذو الإصبع العدوانيُّ:

عَذِيرَ الحَيِّ مِنْ عَدْوا … نَ كانُوا حَيَّةَ الأَرْضِ
بَغَى بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ … فَلَمْ يَرْعَوْا عَلَى بَعْضِ
فَقَدْ أَضْحَوْا أَحادِيثَ … بِرَفْعِ القَوْلِ والخَفْضِ

أي: هات عُذراً فيما فعل بعضهم ببعض من التَّباعد والتَّباغض حتَّى صاروا أحاديث للنَّاس بعد أن كانوا حيَّة الأرض الَّتي يخشاها كلُّ النَّاس، وقد ذكر ابن عطية أنَّ «النَّكير» مصدر مثل «عذير» ونحوه من المصادر.

يخلق ما يشاءُ ويخترع إنَّما هو الله سبحانه، وهو الَّذي يُقَسِّم الخلق، فيهب الإناث لمن شاءَ أَن يجعل نَسْلَهُ[١] نساءً، ويهب الذُّكور لمن شاءَ على هذا الحدِّ، أَو ينِّوعهم: مرَّةً يهب ذكراً، ومرَّة أُخرى أُنثى، وذلك معنى قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾، وقال محمد بن الحنفية: يريد بقوله: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ التَّوْأَم، أَي يجعل في بطن زوجاً من الذرية ذكراً وأُنثى. و«العقيم»: الَّذي لا يُولد له، وهذا كلُّه مُدَبَّر[٢] بالعلم والقدرة، وهذه الآية تقضي بفساد وجود الخنثى المشكل.

وبدأَ تعالىٰ في هذه الآية بذكْر الإناث تأْنيساً بهن وتشريفاً لهن، لِيُتَهَمَّم بصونهنَّ والإحسان إِليهن، قال النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام: «من ابتلي من هذه البنات بشيءٍ فأَحسن إِليهن كنَّ له حجاباً من النَّار»[٣]، وقال وائل[٤] بن الأَسقع: «من يُمْن المرأَة تبكيرها بالأُنثى قبل الذَّكر؛ لأَنَّ الله تعالىٰ بدأَ بالإناث»، حكاه عنه الثعلبيُّ، وقال إِسحاق بن بشر: نزلت هذه الآية في الأَنبياءِ عليهم السَّلام ثمَّ عُمِّمت، فلوطٌ عليه السَّلام أَبو بنات لم يولد له ذكر، وإِبراهيم عليه السلام ضدَّه، ومحمد عليه الصَّلاة والسَّلام وُلد له الصنفان، ويحيى بن زكريا عليهما السَّلام عقيم.

وقوله تعالىٰ: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ الآيَةَ... نزلت بسبب خَوْضٍ كان للكفَّار في معنى تكليم الله تعالىٰ موسى عليه السَّلام ونحو ذلك، ذهبت قريش واليهود في ذلك إِلى تجسيم ونحوه، فنزلت الآية مُبَيِّنَةً صورة تكليم الله تبارك وتعالىٰ عباده كيف هو، فبيَّن تعالىٰ أَنَّه لا يكون لأَحد من الأَنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام ولا ينبغي له ولا يمكن فيه أَن يكلِّمه الله تبارك وتعالىٰ عباده كيف هو، فبيَّن تعالىٰ أَنَّه لا يكون لأَحد من الأَنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام ولا ينبغي له ولا يمكن فيه أَن يكلِّمه الله تبارك وتعالىٰ إِلاَّ بأَن

---

(١) في بعض النسخ: «أن يجعل بنيه نساءً».

(٢) في بعض النسخ: «وهذا كلّه مؤيد بالعلم والقدرة».

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، ومسلم والترمذي في كتاب البر، وأحمد في مسنده (٦ـ٨٨، ١٦٦)، ولفظه كما في مسند أحمد عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: جاءت امرأة ومعها ابنتان لها تسألني، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة واحدة فأعطيتها إيّاها، فأخذتها فشقّتها اثنتين بين ابنتيها، ولم تأكل منها شيئاً، ثمّ قامت فخرجت هي وابنتاها، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فحدَّثته حديثها، فقال رسول الله ﷺ: «من ابتلي من البنات بشيءٍ فأحسن إليهنّ كُنَّ له سِتْراً من النّار».

(٤) هكذا ورد في الأصل. والصحيح أنه (واثلة بن الأسقع) ـ الصحابي ـ.

يوحي إليه أحد وجوه الوحي من الإلهام، قال مجاهد: والنَّفْثُ في القلب[١]، وقال النَّقّاش: أَو وحْي في منام، وقال إبراهيم النَّخَعيُّ: كان من الأنبياءِ عليهم السَّلام من يُخَطُّ له في الأَرض ونحو هذا، أَو بأَن يُسْمعه كلامه دون أن يعرف هو للمتكلم جهة ولا خبراً كموسى عليه السَّلام، وهذا معنى ﴿مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾، أَي: من خفاءٍ عن المكلَّم لا يحدُّه ولا يتصوَّر بذهنه عليه، وليس كالحجاب في الشّاهد، أَو بأَن يرسل إليه مَلَكاً يشافهه بوحي الله تبارك وتعالىٰ.

وقرأ جمهور القراءِ والنّاسُ: ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ بالنصب ﴿فَيُوحِيَ﴾ بالنصب أَيضاً، وقرأ نافع، وابن عامر، وأَهل المدينة: [أو يُرْسلُ] بالرّفع [فَيُوحِي] بسكون الياءِ ورفع الفعل، فأَمَّا القراءَة الأُولى فقال سيبويه: سأَلت الخليل، عنها فقال: هي محمولة على «أَنْ» غير الّتي في قوله تعالىٰ: ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾؛ لأَنَّ المعنى كان يفسد لو عطف على هذه، وإِنَّما التَّقدير في قوله تعالىٰ: [وَحْياً]: «إلاَّ أَن يُوحي وحياً»، وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [مِنْ] متعلقة بفعل يدلُّ عليه ظاهر الكلام، تقديره: أَوْ يُكَلِّمه من وراءِ حجاب، ثمَّ عطف تعالىٰ ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ على هذا الفعل المقدر. وأَمَّا القراءَة الثَّانية فعلى أَنَّ [يُرْسِلُ] في موضع الحال أَو على القطع، كأَنَّه تعالىٰ قال: «أَو هو يرسلُ»، وكذلك يكون قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ مصدراً في موضع الحال، كما تقول: أَتيتُك ركْضاً وعَدْواً، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ في موضع الحال أَيضاً، كما هو قوله تعالىٰ: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٢] في موضع الحال، وكذلك [مِنْ] وما عملت فيه في هذه الآية أَيضاً، ثمَّ عطف تعالىٰ قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ على هذه الحال المتقدِّمة، وفي هذه الآية دليلٌ على أَنَّ الرسالة من أَنواع التَّكليم، وأَنَّ الحالفَ المُرْسِلَ حانثٌ إِذا حلف أَلاَّ يكلِّم إِنساناً فأَرسل وهو لا ينوي المشافهة وقت يمينه[٣].

قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، المعنى: وبهذه الطُّرق ومن هذا الجنس أَوحينا

---

(١) كقوله ﷺ: «إنَّ روح القدس نَفَثَ في روعي أنَّ نفساً لن تموت حتّى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطَّلب»، رواه ابن حبَّان.

(٢) الآية (٤٦) من سورة (آل عمران).

(٣) إنَّما كان حانثاً، لأنَّ الله تعالىٰ سمَّى المُرْسِل في الآية: مُكَلِّماً للمُرْسَل إليه، أمّا إذا نوى عند الحلف المشافهة فإنّه لا يحنث.

إِليك، أي كالرُّسُل، و«الرُّوحُ» في هذه الآية: القرآن وهدى الشّريعة، سمَّاه روحاً من حيث يُحيي به البشر والعالم، كما يحيي الجسد بالروح، فهذا على جهة التَّشبيه. وقوله تعالىٰ: ﴿مِنۡ أَمۡرِنَا﴾ أي واحد من أُمورنا، ويحتمل أن يكون «الأمر» بمعنى الكلام، و[مِنْ] لابتداءِ الغاية. وقوله تعالىٰ: و﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ توقيف على مقدار النِّعمة، والضَّمير في [جَعَلْنَاهُ] عائد على [ٱلْكتَابُ]، و«نَهْدِي» معناه: نُرْشد، وقرأ جمهور النّاس: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ﴾ بفتح التاءِ وكسر الدّال، وقرأ حوشب[1]: [وإِنَّك لتُهدَى] بضمِّ التاءِ وفتح الدَّال على بناءِ الفعل للمفعول، وفي حرف أُبَيٍّ: «وَإِنَّك لَتَدْعُو»[2]، وهي تعضد قراءَة الجمهور، وقرأ ابن السُّميفع، وعاصم الجحدريُّ: [وإِنَّك لتُهدِي] بضم التاءِ وكسر الدال.

وقوله تعالىٰ: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ يعني صراط شرع الله تعالىٰ ورحمته، فبهذا الوجه ونحوه من التَّقدير أُضيف الصِّراطُ إِلى الله تعالىٰ، واستفتح تعالىٰ القول في الإِخبار بصيرورة الأُمور إِلى الله تعالىٰ مبالغةً وتخفيفاً وتثبيتاً، والأُمور صائرة على الدَّوام إِلى الله تعالىٰ، ولكن جاءَت هذه العبارة مستقلَّة تقريعاً لمن في ذهنه أَنَّ شيئاً من الأُمور إِلى البشر، وقال سهل ابن أَبي الجعد: احترق مصحف، فلم يبق منه إِلاَّ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

كمل تفسير سورة الشّورى والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

---

(١) وهي أيضاً قراءة عاصم الجحدريُّ، قال ذلك القرطبيُّ.

(٢) قال النَّحاس: «وهذا لا يقرأ به؛ لأنَّه مخالف للسَّواد، وإنَّما يحمل ما كان مثله على أنَّه من قائله على جهة التَّفسير».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سُورة الزُّخرُف

هذه السورة مكِّيَّة بإجماع من أهل العلم[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾.

تقدَّم القول في الحروف الَّتي في أَوائل السُّور، وقوله تعالىٰ: [وَٱلْكِتَابِ] خفض بواو القَسَم، و[ٱلْمُبِينِ] يحتمل أَن يكون من «أَبانَ» الَّذي هو بمعنى «بان» أَي ظهر، فلا يحتاج إِلى مفعول، ويحتمل أَن يكون مُعَدّى من «بانَ»، فهذا لا بُدَّ من مفعول تقديره: المُبين الهدى والشَّرع ونحوه.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ معناه: سمَّيناه وصيَّرناه، وهو إِخبارٌ عليه وقع القَسَم، والضَّمير في [جَعَلْنَاه] عائد على [ٱلْكِتَاب]، و[عَرَبِيًّا] معناه: بلسانكم لئلاَّ يبقى لكم عذر، وقوله تعالىٰ: [لَعَلَّكُمْ] ترجٍّ بحسب معتقد البشر، أَي: إِذا أَبصر المُبْصر من البشر هذا الفعل منَّا يُرجى منه أَن يعقل ويفهم الكلام.

وقوله تعالىٰ: [وَإِنَّهُ] عطف على قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾، وهذا الإِخبار الثَّاني واقع أَيضاً تحت القَسَم، و«أُمّ الكِتاب»: اللَّوح المحفوظ، وهذا فيه تشريف للقرآن

(١) وقال مقاتل: «إلاَّ قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ وهي الآية ٤٥ من السورة (الزخرف).

وترفيع، واختلف المتأوِّلون، كيف هو في «أُمِّ الكتاب»؟ ـ فقال قتادة، وعكرمة، والسُّديُّ، وعطيَّة بن سعيد: القرآن بأجمعه فيه منسوخٌ، وكان جبريل ﷺ ينزل، وهنالك هو عليٌّ حكيم، وقال جمهور النّاس: إنّما في اللّوح المحفوظ ذِكْرُهُ ودرجتهُ ومكانتهُ من العُلُوِّ والحكمة، وقرأ جمهور النّاس: ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بضمِّ الهمزة، وقرأها بكسر الهمزة يوسف بن عُمَر والي العراق، وعيسى بن عُمَر[١].

وقوله تعالىٰ: [أَفَنَضْرِبُ] بمعنى: أَفَنَترك، تقول العرب: أَضربتُ عن كذا وضربتُ إذا أَعرضتَ عنه وتركته، و«الذِّكْرُ» هو الدُّعاءُ إلى الله تعالىٰ والتَّذكيرُ بعذابه والتَّخويفُ من عقابه، قال أَبو صالح: «الذِّكر» هنا أَراد به العذابَ نفسه، وقال مجاهد، والضَّحّاك: «الذكرُ»: القرآن، وقوله تعالىٰ: [صَفْحاً] انتصابه كانتصاب ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ﴾[٢]، فيحتمل أَن يكون بمعنى العفو والغَفْر للذنب، فكأَنَّه تعالىٰ يقول: أَفنترُكُ تذكيركم وتخويفكم عفواً عنكم وغفراً لإِجرامكم أَنْ كُنتُمْ، أَو من أَجْل أَن كنتم قوماً مسرفين؟ هذا لا يصلح، وهذا هو قول ابن عبّاس، ومجاهد. ويحتمل قوله تعالىٰ: [صَفْحاً] أَن يكون بمعنى: مَغْفُولاً عنه، أَي نتركه يَمُرُّ[٣] لا تؤخذون بقوله ولا بِتَدَبُّره، ولا تُنَبَّهون عليه، وهذا المعنى نظير قول الشاعر:

تَمُرُّ الصَّبَا صفحاً بِساكِنِ ذي الْغَضَى ... ويَصْدَعُ قَلْبي أَن يَهُبَّ هُبُوبُها[٤]

أَي: تَمُرُّ مغفولاً عنها، فكأَنَّ هذا المعنى: أَفَنَتْرُكُكُم سُدًى؟ وهذا هو مَنْحى قتادة وغيره، ومن اللَّفظة قول كُثَيِّر:

---

(١) هو عيسى بن عُمر الأسديُّ الهَمْدانيُّ، أبو عمرو، الكوفيُّ القارىء، مات سنة ست وخمسين، وليس المراد عيسى بن عمر النّحويُّ، أو عيسى بن عمر التَّيميُّ.

(٢) من الآية (٨٨) من سورة (النمل).

(٣) في بعض النسخ: «نتركه مهمولاً»، والمُهْمَلُ من الكلام: المتروك الَّذي لا يستعمل.

(٤) هذا البيت شاهد هنا على أنَّ معنى [صَفْحاً]: مغفولٌ عنه متروكٌ، والصَّبَا: ريح مَهَبُّهَا من مشرق الشَّمس إذا استوى الليل والنهار، وهي مؤنث، والغَضَى: شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب، وجَمْره يبقى زمناً طويلاً لا ينطفىءُ، واحدته: غضاة، والمراد هنا مكان معيَّن، سمِّي بذلك لكثرة ما فيه من أشجار الغضى، والأرض الكثيرة أشجار الغضى يقال لها: غضياءُ، ويصدع معناه: يشُقُّ، والصَّدْع هو الشَّقُّ في الشَّيءِ الصَّلب كالزُّجاجة والحائط ونحوها، ومعنى البيت أنَّ ريح الصَّبا تمرُّ على الحبيب في ذي الغضى فلا تؤثر فيه، أمَّا أنا فإنَّ مجرد هبوبها يحطِّم قلبي ويشقُّه، يقارن بين حاله وحال المحبوب، ويذكر إهماله في حبِّه وإعراضه عنه.

صَفُــوحـــاً فَمَــا تَلْقَــاكَ إلاَّ بَخيلَــةً   فَمَنْ مَلَّ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَصلَ مَلَّتِ[(١)]

وقرأ السَّميط بن عمرو، والسّدوسيُّ: [صُفْحاً] بضمِّ الصّاد.

وقرأ نافع، وحمزة، والكسائيُّ: [إِنْ كُنْتُمْ] بكسر الألف، وهو جزاءٌ دلَّ ما تقدم على جوابه، وقرأ الباقون، والأعرج، وقتادة: ﴿أَن كُنتُمْ﴾ بفتح الألف، بمعنى: من أَجل أن كنتم[(٢)]، وفي قراءَة ابن مسعود: [إِذْ كُنْتُمْ]، و«الإِسْرَافُ» في الآية هو الكفر والضَّلال البعيد في عبادة غير الله تعالىٰ والتشريك به.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الآيات تسليةٌ لمحمد ﷺ، وذِكْرُهُ أُسْوَةٌ له ووعيدٌ لهم وتهديدٌ بأَن يصيبهم ما أَصاب من هو أَشدّ بطشاً منهم، و«الأَوَّلُونَ» هم الأُمم الماضية، كقوم نوح وعادٍ وثمود وغيرهم، والضَّمير في قوله تعالىٰ: ﴿كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ظاهره العموم، والمراد به الخصوص فيمن استهزءُوا، وإِلاَّ فقد كان في الأَوَّلين من لم يستهزىء، والضَّمير في [مِنْهُمْ] عائد على قريش، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ: سَلَفَ أَمرهم وسُنَّتُهُمْ وصاروا عبرةً غابر الدَّهر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ الآيةَ.... ابتداءُ احتجاج على قريش يوجب عليهم التَّناقض في أَمرهم، وذلك أَنَّهم يُقِرُّونَ أَنَّ الخالق الموجد لهم وللسَّموات والأَرض هو الله تعالىٰ، وهم مع ذلك يعبدون أَصناماً ويدعونها آلهتهم، ومُقتضى جواب قريش أَن يقولوا: خلقهنَّ الله، فلمَّا ذكر تعالىٰ المعنى، جاءَت العبارة عن الله تعالىٰ بـ «العزيز العليم» ليكون ذلك توطئة لما عدّد بعد ذلك من أَوصافه الَّتي ابتدأَ الإِخبار بها وقطعها من الكلام الَّذي حكى معناه عن قريش.

---

(١) البيت لكُثَيِّر عزَّة، وهو في الدّيوان، وفي اللِّسان (صفح)، قاله يصف امرأةً أعرضت عنه، قال صاحب اللِّسان نقلاً عن الأزهريّ: «يقال: صَفَحَ عنّي فلان، أي أعرض عنّي مُولّياً، ومنه قول كثيّر»، فمعنى (صَفُوحاً) في البيت: كثيرة الإعراض أو دائمة الإعراض، وهي لا تَلْقى أحداً من الرِّجال إلاّ بالبخل في المودَّة وأُنس اللقّاءِ. وهذه طبيعتها، فمن ملَّ منها هذه الصِّفة ملَّته.

(٢) قال الفراءُ في (معاني القرآن): «وقرأ عاصم والحسن: ﴿إِن كُنتُمْ﴾ بالفتح كأنّهم أرادوا شيئاً ماضياً، ومثله ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ﴾، وأنشدوني:

أَتَجْـزَعُ أَنْ بــانَ الْخَليــطُ الْمُــودِّعُ   وحبـلُ الصّفـا مِـن عَـزَّةَ الْمُتَقَطِّـعُ؟

ففي كلِّ ذلك الكسر والفتح» اهـ بتصرف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

هذه أَوصاف فعل، وهي نِعَم من الله تعالىٰ على البشر تقوم بها الحجَّة على كلِّ كافر مشرك بالله تعالىٰ، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ ليس من قول المسؤولين، بل هو ابتداءُ إِخبار من الله تعالىٰ، وقرأَ جمهور النّاس: [مِهَاداً]، وقرأَ ابن مسعود، وطلحة، والأَعمش: [مَهْداً]، والمعنى واحد، أَي يُتَمَهَّد ويُتَصَرَّف فيها، و«السُّبُل»: الطُّرُق، و[تَهْتَدُونَ] معناه: في المقاصد من بلد إِلى بلد ومِن قُطْر إِلى قُطْر، ويحتمل أَن يريد: تهتدون بالنَّظر والاعتبار.

وقوله تعالىٰ: ﴿نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ﴾ هو المطر بإِجماع، واختلف المتأَوِّلون في معنى قوله تعالىٰ: [بِقَدَرٍ] ـ فقالت فرقة: معناه: بقضاءٍ وحتْم في الأَزل، وقال آخرون: المعنى: بقدر في الكفاية للصَّلاح، لا إِكثار فيُفْسد، ولا قِلَّة فيقصر، بل غيثاً مُغيثاً سيلاً نافعاً، وقالت فرقة: معناه: بتقدير وتحديد، أَي: قدراً مَّا معلوماً، ثمَّ اختلف قائلو هذه المقالة، فقال بعضهم: يُنْزل كلَّ عام ماءً قدراً واحداً، لا يَفْضُل عامٌ عاماً، لكن يكثر مرَّة هنا ومرَّة هنا، وقالت فرقة: بل يُنزل الله تعالىٰ تقديراً ما في عام، ويُنزل في آخر تقديراً بحسب ما سبق به قضاؤُه لا إِلـٰه غيره. و«أَنشَرْنَا» معناه: أَحْيَيْنَا، يقال: نَشَرَ الميتُ وأَنشره غيره، و[بَلْدَةً] اسم جنس، ووصفها بـ [مَيْتاً] دون ضمير من حيث هي واقعة موقع «قُطْر» ونحوه؛ إِذ التأْنيث فيها غير حقيقي، وقرأَ الجمهور: [مَيْتاً] بسكون الياءِ، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [مَيِّتاً] بياءٍ مكسورة مشدَّدة، وهي قراءَة عيسى بن عمر، والأُولى أَرجح لِشَبَه لفظها بـ «زوْر وعَدْل»، فَحَسُن وصف المؤنث بها، وقرأَ أَكثر السَّبعة، والأَعرج، وأَبو جعفر: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ بضمِّ التّاءِ وفتح الرّاءِ، وقرأَ حمزة، والكسائيُّ، وابن عامر، وابن وثاب، وعبد الله بن جُبَيْر، وعيسى: [كذلك تَخرُجون] بفتح التّاءِ وضمِّ الرّاءِ[1].

---

(١) هذا يوافق ما في كتب القراءَات، وما في البحر المحيط، ولكن في القرطبيِّ: ﴿كذلك يخرجون﴾ بفتح=

و«الأزواج»: الأنواع من كلِّ شيءٍ، و[مِن] في قوله تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ للتَّبعيض، وذلك أنَّه لا يُركب من الأنعام غير الإبل، وتدخل البغال والخيل والحمير فيما يُركب بالمعنى، واللاَّم في قوله تعالىٰ: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ لام الأمر، ويحتمل أن تكون لام «كي»، و[مَا] في قوله تعالىٰ: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ واقعة على النوع المركوب، والضَّمير في [ظُهُورِهِ] عائد على النَّوع الَّذي وقعت عليه [مَا]، وقد بيَّنَت آيةٌ أُخرى ما يقال عند ركوب الفُلك وهو ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، وإنَّما هذه خاصة فيما يركب من الحيوان، ويقال عند النُّزول منها: اللهمَّ، أَنزلنا منزلاً مباركاً وأَنت خير المنزلين.

والسُّنَّة للراكب إذا ركب أَن يقول: الحمد لله على نعمة الإسلام، أَو على النِّعمة بمحمد عليه الصَّلاة والسَّلام، أَو على النِّعمة في كلِّ حال، وقد روى هذا اللَّفظ عليٌّ بن أَبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه عن النَّبيِّ ﷺ[2]، ثمَّ يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ الآية، وركب أبو مِجْلز لاحق بن حميد وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى﴾ الآية، ولم يذكر نعمة، وسمعه الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما، فقال: ما هكذا أُمرتم، فقال أَبو مجلز: فقلت له: فكيف أَقول؟ قال: قل: الحمد لله الَّذي هدانا للإسلام، أَو نحو ذلك، ثمَّ تقول بعد ذلك: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى﴾ الآية، وكان طاوس إذا ركب قال: اللهمَّ، هذا من منِّك وفضلك، ثمَّ يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى﴾ الآية.

= الياءِ، ولعله خطأ مطبعيٌّ.

(١) من الآية (٤١) من سورة (هود).

(٢) حديث عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه رواه الإمام أحمد عن عليٍّ بن ربيعة، ورواه أبو داود، والتِّرمذيُّ، والنَّسائيُّ من حديث أبي الأحوص، وقال التِّرمذيُّ: حَسَنٌ صحيح، وزاد النَّسائيُّ ومنصور عن عليٍّ بن ربيعة الوالبي به، وزاد الإمام السُّيوطيُّ نسبته إلى الطَّيالسيِّ، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقيُّ في الأسماء والصفات، والحديث كما ذكره السُّيوطيُّ: عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنَّه أُتيَ بدابَّة، فلمَّا وضع رجله في الرِّكاب قال: بسم الله، فلمَّا استوى على ظهرها قال: الحمد لله، ثلاثاً، والله أكبر، ثلاثاً، سبحان الَّذي سخَّر لنا هذا وما كنَّا له مُقرنين، وإنَّا إلى ربِّنا لمنقلبون، سبحانك لا إلَهَ إلاَّ أنت، قد ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي إنَّه لا يغفر الذُّنوب إلاَّ أنت، ثمَّ ضحك، فقلت: مِمَّ ضحكت يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل كما فعلت، ثمَّ ضحك، فقلت: يا رسول الله مِمَّ ضحكت؟ فقال: يعجب الرَّبُّ من عبده إذا قال ربِّ اغفر لي، ويقول: عَلِم عبدي أنَّه لا يغفر الذُّنوب غيري.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإن قدَّرنا أنَّ ذكر النِّعمة بالقلب والتَّذكُّر بدأ الراكب بـ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى﴾، وهو يرى نعمة الله تعالىٰ في ذلك وفي سواه، و«المُقْرِنُ»: الغالبُ الضّابطُ المستولي على الأمر المُطيق له، وقد روي أن بعض الأعراب ركب جملاً، فقيل له قل: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾، فقال: أما والله إنِّي لَمُقْرِنٌ تيّاهٌ، فضرب به الجمل، فوقصه فقتله.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أمْرٌ بالإقرار بالبعث وترداد القول به، وذلك داعية إلى استشعار النَّظر فيه، ورُوي عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّ الإنسان إذا ركب ولم يقل ما في هذه الآية جاءَ الشَّيطانُ، فقال له: تغنَّه، فإن كان يحسن تَغَنَّى، وإلاَّ قال له: تَمَنَّه، فيتمنى الأباطيل ويقطع زمنه بذلك[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

الضَّمير في [جَعَلُوا] لكفَّار قريش والعرب، والضَّمير في [لَهُ] لله تعالىٰ، و«الجُزْءُ»: القطع من الشَّيءِ، وهو بعض الكلِّ، فكأنَّهم جعلوا جزءًا من عباده نصيباً له وحظًّا، وذلك في قول مجاهد وكثير من المتأوِّلين قولُ العرب: الملائكة بناتُ الله، وقال بعض أهل اللُّغة: الجزءُ: الإناثُ، يقال: أَجزأَتِ المرأَةُ إذا ولدت أُنثى، ومنه قول الشاعر:

إِنْ أَجزَأَتْ حُرَّةٌ يَوْماً فَلاَ عَجَبٌ ... قَدْ تُجْزِىءُ الحُرَّةُ المِذْكَارُ أَحْيَانا[2]

---

(١) ذكر القرطبيُّ هذا الحديث مختصراً عمَّا هنا، وقال: «رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد»، ثمَّ قال: «ذكره النّحاس».

(٢) هذا بيت من الشِّعر يسوقه ابن عطيّة للاستشهاد به على أن الجُزْءَ يكون بمعنى: الإناث، والبيت في اللِّسان، جاء فيه: «قال أبو إسحاق: وقد أُنشدتُ بيتاً يدلُّ على أنَّ معنى «جُزْءًا» معنى الإناث، ولا أدري البيت هو قديم أمْ مصنوع»، وكان الزَّمخشريُّ صريحاً قاطعاً في نفي البيت، قال: «ومن بِدَع التَّفاسير تفسير الجُزْءِ بالإناث، وادعاءُ أن الجُزْءَ في لغة العرب اسم للإناث، وما هو إلاَّ كذبٌ على=

وقد قيل: إنَّ هذا البيت موضوع، وقال قتادة: المراد بالجزءِ الأَصنامُ وفرعون وغيره ممَّن عُبد من دون الله، أَي جُزْءًا نِدًّا، فَعَلَى هذا فتعنيف الكفرة في فصلين: في أَمر الأَصنام، وفي أَمر الملائكة. وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ﴾ أَتى بلفظ الجنس العامِّ والمراد بعض الإِنسان، وهو هؤلاءِ الجاعلون ومن أَشبههم، و[مُبينٌ] في هذه الآية غير مُتَعَدٍّ(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾ إضرابٌ وتقرير، وهذه حجَّة بالغة عليهم؛ إِذ المحمود من الأَولاد والمحبوب قد خوَّله الله تعالىٰ بني آدم، فكيف يتَّخذ هو لنفسه النصيب الأَدنى؟ و﴿أَصْفَاكُمْ﴾ معناه: خصَّكم وجعل ذلك لكم صفوة.

ثمَّ قامت الحجَّة عليهم في هذا المعنى وكانت بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾ الآية، و﴿مُسْوَدًّ﴾ خبر ﴿ظَلَّ﴾، و﴿ٱلْكَظِيمُ﴾: الممتلىءُ غيظاً قد ردَّ غيظه إِلى جوفه، فهو يتجرَّعه ويروم ردَّه، وهذا محسوسٌ عند الغيظ، ثمَّ زاد توبيخهم وإِفساد رأْيهم بقوله تعالىٰ: ﴿أو من ينشأ﴾، و[مَنْ] في موضع نصب بفعل يدلُّ عليه [جَعَلُوا]، كأَنَّه تعالىٰ قال: أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ في الحلية جعلتم أَو اتخذتم؟ ويجوز أَن يكون في موضع رفع كأَنه تعالىٰ قال: أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ في الحلية هو الَّذي خصصتم به الله تعالىٰ؟ ونحو هذا، والمراد بـ [مَنْ] النِّساءُ، قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة، والسُّديُّ، و﴿يُنَشَّأُ﴾ معناه: ينبت ويكبر، وقرأَ جمهور القراءِ: [يَنْشأ] بفتح الياءِ وسكون النّون، وقرأَ ابن عبّاس رضي الله عنهما: [يُنْشأُ] بضمِّ الياءِ وسكون النون على تعدية الفعل بالهمزة، وقرأَ حمزة، والكسائيُّ، وعاصم ـ في رواية حفص ـ: ﴿يُنَشَّأُ﴾ بضمِّ الياءِ وفتح النّون وشدِّ الشّين على التَّعدية بالتَّضعيف، وهي قراءَة ابن عبّاس أَيضاً، والحسن، ومجاهد، وفي مصحف ابن

= العرب، ووضع مستحدث متحوِّل، ولم يقنعهم ذلك حتّى اشتقّوا منه: أجزأت المرأة، ثمَّ صنعوا بيتاً وبيتاً:

إنْ أجـزَأتْ حُـرَّةٌ يَـومـاً فـلا عَجَـبٌ ... قَـدْ تُجْزِىءِ الحُرَّةُ المِذْكـارُ أحْيـانـاً

زُوِّجْتُهَــا مِــن بَنَــاتِ الأَوْسِ مُجْــزِئَــةً ... للعَـوْسَـجِ اللَّـدْنِ فـي أَبْيَـاتِهَـا زَجَـلُ

وابن عطيّة يذكر أيضاً أنّه قد قيل إنَّ البيت مصنوع. ومعنى البيت أن الحُرَّة قد تلد البنات ولا عجب في ذلك، ومعنى البيت الثّاني أنّه تزوج امرأة من بنات الأوس تلد البنات، وتغزل بمغازل سوِّيت من شجر العوسج.

(١) قال أبو حيّان: «وليس يتعين ما ذكره، بل يجوز أن يكون معناه ظاهراً لكفران النِّعم ومظهراً لجحوده».

مسعود: [أَوَ مَنْ لاَ ينشأُ إلاَّ في الحِلْيَة]، و[الحِلْيَةُ]: الحليُّ من الذَّهب والفضة والأَحجار، و«الخِصامُ»: المحاجَّة ومجاذبة المحاورة، وقلَّما تجد امرأة إلاَّ تفسد الكلام وتخلط المعاني، وفي مصحف ابن مسعود: [وهو في الكلام غيرُ مبين]، و[مُبِينٌ] في هذه الآية مُتَعَدٍّ، والتَّقدير: غير مُبين غَرَضاً أَو مَنْزَعاً أَو نحو هذا، وقال ابن زيد: المراد بـ ﴿من يُنَشأ في الحلية﴾ الآية: الأَصنامُ والأَوثان؛ لأَنَّهم كانوا يتَّخذون كثيراً من الذَّهب والفضة، وكانوا يجعلون الحليَّ على كثير منها.

ولما فرغ تَعْنِيفُهم على ما أَتَوْه في جهة الله تعالىٰ بقولهم: «الملائكة بنات الله سبحانه» بيَّن الله تعالىٰ فساد مقالتهم، فعينها بجهة أُخرى من الفساد، وذلك شنيع قولهم في عبادِ لله تعالىٰ مختصِّين مُقَرَّبين: «إنَّهم إناث»، وقرأَ أَكثر السَّبعة، وابن عبّاس، وابن مسعود، وابن جبير، وعلقمة: ﴿عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والحسن، وأَبو رجاءٍ، وأَبو جعفر، والأَعرج، وشيبة، وقتادة، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه: [عِنْدَ الرَّحْمَنِ إناثاً]، وهذه القراءَة أَدلُّ على رفعة المنزلة وقُرْبها في التَّكرمة، كما قيل: «مَلَك مُقرَّب»، وقد تصرَّف المعنيان في كتاب الله تعالىٰ في الملائكة في غير هذه الآية، فقال تعالىٰ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[1]، وقال سبحانه في أُخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾[2]، وفي مصحف ابن مسعود: [وَجَعَلُوا الملائكةَ عِبَادَ ٱلرَّحْمَنِ إِناثاً].

وقرأَ نافع وحده: [أَأُشْهِدُوا] بهمزتين وبلا مدٍّ بينهما وبفتح الأُولى وضمِّ الثّانية وتسهيلها بين الهمزة والواو، ورواها المفضَّل عن عاصم بتخفيف الهمزتين، وقرأَ المسيَّبيُّ عن نافع بمدَّة بين الهمزتين، وقرأَ أَبو عمرو، ونافع أَيضاً، وعليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، وابن عبَّاس رضي الله عنهما، ومجاهد: [أَوُشْهِدُوا] بتسهيل الثّانية بلا مَدٍّ، وقرأَ جماعة من القراءِ بتسهيل الثّانية ومدَّة بينهما، وقرأَ آخرون: [أُشْهِدُوا] بهمزة واحدة بغير استفهام، وهي قراءَة الزُّهريِّ، وهي في صفة الإِناث، أَي: أَشهدوا خلقهم؟ ومعنى الآية التَّوبيخ وإِظهار فساد دعواهم وأَنَّها مجردة من الحجَّة، وهذا نظير الآية

---

(١) من الآية (٢٦) من سورة (الأنبياء).

(٢) من الآية (٢٠٦) من سورة (الأعراف).

الرَّادة على المُنَجِّمين وأهل الطَّبائع في قوله تعالىٰ: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(1).

وقرأ جمهور النّاس: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ برفع (شهادة) وبناءِ الفعل للمفعول، وقرأ الأعرج، وابن عبّاس، وأبو جعفر، وأبو حيوة: [سَنَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ] بنون الجمع، و[شَهَادَتَهُمْ] بالنَّصب، وقرأت فرقة: [سَيَكْتُبُ] على معنى: سيكتب اللهُ شهادتَهم بالنصب، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [ستُكتَبُ شَهَاداتُهم] على بناءِ الفعل للمفعول وجمع الشَّهادات، وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ وعيد مفصح، و﴿أَشَهِدُوا﴾ في هذه معناه: أَحَضَرُوا؟ وليس ذلك من شهادة تحمل المعاني الَّتي يطلب أن تُؤَدَّى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٢٠ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ۝٢١ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٢٤ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٥﴾.

ذكر الله تعالىٰ احتجاج الكفّار بمذاهبهم ليبيِّن فساد منزعهم، وذلك أنَّهم جعلوا إمهال الله تعالىٰ لهم وإنعامه عليهم ـ وهم يعبدون الأصنام ـ دليلاً على أنَّه يرضى عبادة الأصنام ديناً، وذلك كالأمر به، فنفى الله تعالىٰ عن الكفَرة أن يكون لهم علمٌ بهذا، وليس عندهم كتاب منزل يقتضي ذلك، وإنَّما هم يظنّون ويحدسون ويُخَمِّنون، وهذا هو الخَرْصُ والتَّخرُّص.

وقرأ الجمهور: ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ بضمِّ الهمزة، وهي المِلَّة والدِّيانة، والآية ـ على هذا ـ تعيب عليهم التقليد، وقرأ مجاهد، والجحدريُّ، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: (على إِمَّة) بكسر الهمزة، وهي بمعنى النعمة، ومنه قول الأعشى:

وَلاَ الْمَلِـكُ النُّعْمَـانُ يَـوْمَ لَقِيتُـهُ ... بِـإِمَّتِـهِ يُعطي القُطُـوطَ ويَـأفِـقُ(2)

---

(1) من الآية (٥١) من سورة (الكهف).

(2) البيت من قصيدته المعروفة الَّتي يمدح بها المحلّق بن حنتم، والَّتي يقول في مطلعها: (أَرِقْتُ وما هَذَا السُّهَادُ=

ومنه قول عديٍّ بن زيد:

ثُـمَّ بَعْـدَ ٱلْفَـلَاحِ والْمُلْـكِ وَالإِ ... مَّـةِ وَارَتْهُـمُ الْقُبُـورُ[1]

فالآية ـ على هذا المعنى ـ استمرارٌ في احتجاجهم؛ لأنَّهم يقولون: وجدنا آباءَنا في نعمة من الله تعالىٰ وهم يعبدون الأصنام، فذلك دليل رضاه عنهم، وكذلك اهتدينا نحن بذلك على آثارهم، وذكر الطَّبريُّ عن قوم أَنَّ «الإِمَّة»: الطَّريقة، من قولك: أَمَمْتُ كذا إِمَّةً.

ثمَّ ضرب الله تعالىٰ المثل لنبيِّه ﷺ، وجعل له الأُسوة فيمن مضى من النُّذُر والرُّسل عليهم السَّلام، وذلك أَنَّ المُتْرفين من قومهم ـ وهم أَهل النِّعَم والمال ـ قد قابلوهم بمثل هذه المقابلة.

وقرأَ جمهور القراءِ: [قل أو لو]، والمعنى: قُلْنَا للنّذير: «قُلْ أَوَ لَوْ»، وقرأَ ابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿قال أَوَلَو﴾، ففي [قَالَ] ضمير يعود على النَّذير، وباقي الآية يدلُّ على أَن [قُلْ] في قراءَة من قرأَها ليست بأَمرٍ لمحمد ﷺ، وإِنَّما هي حكاية لما قيل للنَّذير[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَوْ﴾ هي أَلف الاستفهام دخلت على واو عطفت جملة كلام على جملة متقدِّمة، و[لَوْ] في هذا الموضع، كأَنَّها شرطية بمعنى «إِن»، كأَنَّ معنى الآية: أَوَ إِنْ جِئْتُكُمْ بِأَبْيَن وأَوضح مما كان عليه آباؤُكم يصحبكم لجاجُكم

= المُؤَزَّقُ)، والملك النُّعمان هو النُّعمان الثّالث أبو قابوسَ، والإِمَّةُ: النِّعمة، وهي موضع الاستشهاد هنا، والقُطُوط: الحظوظ والأنصبة، واحدها قط بمعنى نصيب، ويأْفِقُ: يُعطي بعضاً أكثر من بعض.

(١) هو عديُّ بن زيد العبّاديُّ، والبيت من قصيدة له تُعدُّ من روائع الشعر العربيِّ، وقد بدأها بقوله:

أَرَوَاحٌ مُـوَدِّعٌ أَمْ بُكُـورُ ... لـك؟ فـاغمِـدْ لأيِّ حـالٍ تصيـرُ

وفيها يصور الحياة وكيف انتهت بالملوك إلى الفناء بعد النِّعمة والعِزَّةً، يقول: أين كسرى وبنو الأصفر وصاحب الحصن العظيم المسمَّى بالحَضْر؟ ثمَّ يصل إلى بيت الشّاهد، فيقول: إنَّهم بعد الفلاح والمُلْك والعَيْش في غضارة ونعمة قد ذهبوا ووارتهم القبور، والشّاهد أنَّ الإمَّة بكسر الهمزة هي: النِّعمة وغضارة العيش. هذا والبيت في اللِّسان.

(٢) ذكر أبو حيّان الأندلسيُّ كلام ابن عطيَّة هذا في البحر المحيط، ثمَّ علَّق عليه بقوله: «ولا يتعيَّن ما قاله، بل الظّاهر أنَّ الضَّمير في [قال] أو [قُلْ] للرَّسول ﷺ، أي: قل يا محمد لقومك: أَتتَّبعون آباءكم ولو جئتكم بدين هو أهدى من الدِّين الذي وجدتُّم عليه آباءكم؟ وهذا تجهيل لهم، حيث يقلِّدون ولا ينظرون في الدَّلائل».

وتقليدكم؟ فأجاب الكفّار حينئذ لنُذُرهم: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ الآيَةَ.... وعيدٌ لقريش، وضربُ مَثَل بمن سلف من الأُمم المعذَّبة المكذِّبة بأنبيائها، كما كذَّبت هي بمحمد ﷺ، وقرأ جمهور النّاس: ﴿أو لو جئتكم﴾، وقرأ أبو جعفر، وأبو شيخ [الهَنائِي][1]، وخالد: [أَوَ لَوْ جِئْنَاكُمْ]، وقرأ الأعمش: [قُلْ أَوَ لَوْ أوتيتم].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

المعنى: واذكر إِذْ قال إبراهيم، ولمَّا ضرب تعالىٰ المثل لمحمد ﷺ بالنُّذُر وجَعَلهم أُسوةً له، خصَّ إبراهيم عليه السَّلام بالذِّكر لِعِظَم منزلته، وذكَّر محمداً عليه الصَّلاة والسَّلام بمنابذة إبراهيم عليه السَّلام لقومه، أَي: فافعل أنت فعله، وتجلَّد تجلُّده، و﴿بَرَآءٌ﴾ صفةٌ تجري على الواحد والاثنين والجمع، كعَدْل وزَوْرٍ، وقرأ جمهور النّاس: ﴿بَرَآءٌ﴾ بفتح الباءِ، وقرأت فرقة: [بُرَاءٌ] بضمِّ الباءِ، وفي مصحف عبد الله وقراءَة الأعمش: [إِنِّي] بنون واحدة [بَرِيءٌ]، قال الفراءُ: «ومن النّاس من يكتب شكل الهمزة المخَّففة أَلِفاً في كلِّ موضع ولا يراعي حركة ما قبلها»، قال: «فربما كان خطُّ مصحف عبد الله بأَلف كما في مصحف الجماعة لكن كان يلفظ بها بكسر الرَّاءِ».

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ قالت فرقة: الاستثناءُ متَّصل، وكانوا يعرفون الله تعالىٰ ويعظِّمونه، إِلاَّ أَنَّهم كانوا يشركون معه أَصنامهم، فكأَن إِبراهيم عليه السَّلام قال لهم: أَنا لا أُوافقكم إِلاَّ على عبادة الله الفاطر، وقالت فرقة: الاستثناءُ منقطع، والمعنى: لكنَّ الذَّي فطرني معبودي، وعلى هذا فلم يكونوا يعبدون الله تعالىٰ لا قليلاً ولا كثيراً، وعلَّل إبراهيم عليه السَّلام لقومه عبادته لله تعالىٰ، بأَنَّه الهادي المنجي من العذاب، وفي هذا استدعاءٌ لهم وترغيب لهم في الله تعالىٰ وتطميع في رحمته.

والضَّمير في قوله تعالىٰ: [وَجَعَلَهَا] قالت فرقة: ذلك عائد على كلمته بالتَّوحيد في

(١) ما بين العلامتين [......] زيادة للتَّوضيح وتحديد المراد.

قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ﴾، وقال مجاهد، وقتادة، والسُّديُّ: ذلك مراد به «لاَ إلـه إلاَّ الله»، وعاد الضَّمير عليها وإن كانت لم يجر لها ذِكر لأَنَّ اللَّفظ يتضمَّنها، وقال ابن زيد: المراد بذلك الإسلام ولفظته، وذلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾(١)، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٢)، وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾(٣). و«الْعَقِبُ»: الذُّرِّيَّة وولد الولد ما امتدَّ فرعهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ الآيَةَ.... كلامٌ متَّصل بما قبله لأَنَّه لمَّا قال تعالىٰ: ﴿فِى عَقِبِهِۦ﴾ وكانت قريش من عَقِبه اقتضى الكلام أَن يقدر فيه: لكنَّ هؤلاءِ ليسوا ممَّن بقيت الكلمة فيهم بل متَّعتهم، والمعنى في الآية: بل أَمهلتُ هؤلاءِ ومتَّعتهم بالنِّعمة مع كفرهم، حتّى جاءَهم الحقُّ ورسول مبين، وذلك هو شرع الإسلام والرَّسول محمد ﷺ، و﴿مَتَّعْتُ﴾ بضمِّ التّاءِ هي قراءَة الجمهور، وقرأ قتادة: [مَتَّعْتَ] بفتح التّاءِ الأَخيرة على معنى: قل يا ربِّ بل متَّعتَ، ورواها يعقوب عن نافع، وقرأَ الأَعمش: [بل مَتَّعْنا] وهي تعضد قراءَة الجمهور، و﴿مُبِينٌ﴾ في هذه الآية يحتمل التّعدي وترك التّعدي.

ثمَّ أَخبر تعالىٰ عنهم على جهة التَّقريع بأَنَّهم قالوا للقرآن: هذا سحر، وأَنَّهم كفروا به، وإِنَّما جعلوه بزعمهم سحراً من حيث كان عندهم يفرق بين المرءِ وولده وزوجه، فجعلوه لذلك كالسِّحر، ولم ينظروا إِلى الفرق في أَنَّ المفارق بالقرآن يفارق عن بصيرة في الدِّين، والمفارق بالسِّحر يفارق عن خلل في دينه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

---

(١) من الآية (١٢٨) من سورة (البقرة).
(٢) الآية (١٣١) من سورة (البقرة).
(٣) من الآية (٧٨) من سورة (الحج).

الضَّمير في [قَالُوا] لقريش، وذلك أَنَّهم استبعدوا أَوَّلاً أَن يرسل الله تعالىٰ بَشَراً، فلمَّا تقرَّر أَمْر موسى، وعيسى، وإبراهيم عليهم السَّلام، ولم يكن لهم في ذلك مدفع رجعوا[١] يناقضون فيما يخص محمداً ﷺ بعينه، فقالوا: لم كان محمداً ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ولم يكن نزول الشَّرع على رجل من إحدى القريتين عظيم؟ وقدَّر المبَرِّد قولهم: على رجل من رجلين من القريتين، والقريتان: مكَّة والطائف، ورجل مكَّة الَّذي أشاروا إِليه، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: هو الوليد بن المغيرة المخزوميُّ، وقال مجاهد: هو عتبة بن ربيعة، وقال قتادة: بلغنا أَنَّه لم يبق فخذ من قريش إلاّ ادعاه، ورجل الطّائف، قال قتادة: هو عُروة بن مسعود، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: حبيب بن عبد بن عمير[٢]، وقال مجاهد: كنانة بن عبد ياليل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنَّما قصدوا إِلى من عَظُم ذكره بالسِّن والقِدَم؛ وإلاَّ فرسول الله ﷺ كان حينئذ أَعظم من هؤلاءِ لكن لمَّا عظُم أُولئك قبل مُدَّة النَّبيِّ ﷺ وفي صباه استمرَّ ذلك لهم.

ثمَّ وقف تعالىٰ ـ على جهة التَّوبيخ لهم ـ بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، المعنى: أَعلى اختيارهم وإرادتهم تنقسم الفضائل والمكانة عند الله تعالىٰ؟ و«الرَّحمةُ» اسم يعُمُّ جميع هذا، ثمَّ أَخبر تعالىٰ خبراً جازماً بأَنَّه تعالىٰ قاسم المعايش والدَّرجات في الدُّنيا ليسخِّر بعض النّاس بعضاً، المعنى: فإذا كان اهتمامنا بهم أَن نقسم هذا الحقير الفاني، فالأحرى أَن نقسم الأهمَّ الخطير، وفي قوله تعالىٰ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ تزهيد في السعايات، وعون على التَّوكُّل على الله تعالىٰ، ولله درُّ القائل:

لمَّا أَتَى «نحن قسمنا بينهم» زال المِرا[٣]

وقرأ الجمهور: ﴿مَّعِيشَتَهُمْ﴾، وقرأ ابن مسعود، والأَعمش: [مَعَايِشَهُمْ]. وقرأ جمهور النّاس: ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضمِّ السّين، وقرأ أَبو رجاءٍ، وابن محيصن: [سِخْرِيًّا] بكسر السِّين، وهما لغتان في معنى التّسخير، ولا مدخل لمعنى الهُزْءِ في هذه الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، قال قتادة، والسَّديُّ يعني الجنَّة.

---

(١) في بعض النسخ: «جعلوا يناقضون».

(٢) الصَّواب: حبيب بن عمرو بن عمير الثَّقفيّ، كما جاء في كلِّ التَّفاسير.

(٣) المِراءُ: الشَّكُّ والرِّيبِ، ويترتب عليهما الجدال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لا شكَّ أَنَّ الجنَّة هي الغاية، ورحمة الله تبارك وتعالىٰ في الدُّنيا بالهداية والإِيمان خير من كلِّ مال، وهذا اللَّفظ تحقير للدُّنيا، ثمَّ استمرَّ القول في تحقيرها بقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ الآية، وذلك أَن معنى الآية أَنَّ الله تعالىٰ أَبقى على عباده وأَنعم بمراعاة بقاءِ الخير والإِيمان وشاءَ حِفْظَهُ على طائفة منهم بقية الدَّهر، ولولا كراهيَّة أَن يكون النَّاس كفَّاراً كلَّهم وأَهل حبٍّ في الدُّنيا وتجرُّد لها لوسَّع الله تعالىٰ على الكفَّار غاية التَّوسعة ومكَّنهم من الدُّنيا؛ إِذ حقارتها عنده تقتضي ذلك؛ لأَنَّها لا قدر لها ولا وزن لفنائها وذهاب رسومها، فقوله تعالىٰ: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ معناه: في الكفر، قاله ابن عبّاس، وقتادة، والحسن، والسّديُّ، ومن هذا المعنى قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «لو كانت الدُّنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماءٍ»[1]، ثمَّ يتركَّب معنى الآية على معنى هذا الحديث، واللاّم في قوله تعالىٰ: ﴿لِمَن يَكْفُرُ﴾ لام المِلْك، واللاّم في قوله تعالىٰ: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ لام تخصيص، كما تقول: هذا الكِساءُ لزيد لدابَّته، أَي: هو لدابَّته حِلْسٌ[2] ولزيد مِلْك، قال المهدويُّ: ودلَّت هذه الآية على أَن السَّقف لربِّ البيت الأَسفل؛ إِذ هو منسوب إِلى البيوت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تفقُّه واهن.

وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿سُقُفًا﴾ بضمِّ السّين والقاف، وقرأَ مجاهد: [سُقْفاً] بضمِّ السّين وسكون القاف، وهذان جمعان، وقرأَ ابن كثير، وأَبو جعفر: [سَقْفاً] بفتح السّين وسكون القاف على الإِفراد، و«المعارجُ»: الأَدراج الَّتي يطلع عليها، قاله ابن عبّاس، وقتادة، والنّاس، وقرأَ طلحة: [وَمَعَارِيجَ] بزيادة ياءٍ، و﴿يَظْهَرُونَ﴾ معناه: يَعْلون، ومنه حديث عائشة رضي الله تعالىٰ عنها: «والشَّمسُ في حجرتها قبل أَن تظهر»[3]،

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ وصحَّحه، وابن ماجه، عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) الحِلْس: كلُّ ما وليَ ظهرَ الدَّابَّة تحت الرَّحل والقتَب والسَّرج.

(٣) أخرجه البخاريُّ في المواقيت، ومسلم في المساجد، وأبو داود، والدّارميُّ، ومالك ـ في الموطأ ـ في الصَّلاة، والحديث طويل كما جاء في البخاريِّ، وفيه أنَّ عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالىٰ عنه أخَّر الصَّلاة يوماً، فدخل عليه عروة بن الزّبير، فأخبره أنَّ المغيرة بن شعبة أخَّر الصَّلاة يوماً وهو بالعراق، =

و«السُّرُرُ» جمع سرير، واختلف النّاس في «الزُّخْرُف» ـ فقال ابن عبّاس، والحسن، وقتادة، والسّديُّ: الزُّخْرف: الذَّهبُ نفسه، وروي عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إيَّاكم والحمرة فإنَّها من أحبِّ الزّينة إلى الشَّيطان»[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

الحُسْن أحمر والشَّهواتُ تتبعه. وقال ابن زيد: الزُّخرفُ: أثاثُ البيت وما يتخذ له من السُّتور والنمارق[٢] ونحوه، وقالت فرقة: الزُّخرفُ: التَّزاويق والنَّقش ونحوه من التَّزيين، وشاهد هذا القول ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾[٣]. وقرأ جمهور القراءِ: [وإن كل ذلك لما] بتخفيف الميم من [لَمَّا]، فتكون [إنْ] مخففة من الثَّقيلة، واللأم في [لَمَّا] داخلة لِتَفصلَ بين النفي والإيجاب، وقرأ عاصم، وحمزة، وهشام ـ بخلاف عنه ـ والحسن، وطلحة، والأعمش، وعيسى: [لَمَّا] بتشديد الميم من [لَمَّا]، فـ [إنْ] نافية بمعنى (ما)، و[لَمَّا] بمعنى (إلاَّ)، وقد حكى سيبويه: «نشدّتك إنْ لمَّا فعلت»، وحمله على (إلاَّ)، وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب: [وما ذلك إلاَّ متاع الحياة الدنيا]، وقرأ أبو رجاءٍ: [لِمَا] بكسر اللأم وتخفيف الميم، فـ [مَا] بمعنى (الَّذي) والعائد عليها محذوف، والتَّقدير: وإنْ كلُّ ذلك للَّذي هو متاع الحياة الدُّنيا، وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ وعدٌ كريم وتحريضٌ على التَّقوى إذ في الآخرة هو التَّبائن في المنازل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

[مَنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعۡشُ﴾ شرطيَّة، و(عَشَا يَعْشُو) معناه: قلَّ الإبصار،

= فدخل عليه أبو مسعود الأنصاريُّ يلومه، وفي آخر الحديث يقول عروة لعمر بن عبد العزيز: ولقد حدَّثتني عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ كان يصلي العصر والشَّمس في حُجرتها قبل أن تظهر.

(١) أخرجه ابن جرير الطبريُّ في تفسيره بقوله: وذُكر لنا أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقول: . . . الحديث.

(٢) النَّمارق: جمع نُمرق، وهي الوسادة الصغيرة يتكأ عليها، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ﴾.

(٣) من الآية (٢٤) من سورة (يونس).

كالَّذي يعتري في اللَّيل وكالَّذي هو الأَعْشَى من الرِّجال، يقال: عَشَا الرَّجلُ يعشو عَشْواً، إذا فسد بصره فلم يَرَ، أَو لم يَرَ إلاَّ قليلاً، وقرأ قتادة، ويحيى بن سلام البصريُّ: ﴿وَمَن يَعْشَ﴾ بفتح الشّين، وهي من قولهم: عَشِيَ يَعْشَى، والأَكثر عَشَا يَعْشُو، ومنه قول الشاعر:

مَتَـى تَـأْتِـهِ تَعْشُـو إِلَـى ضَـوْءِ نَـارِهِ ... تَجِدْ خَيرَ نار عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ(١)

وفي شعر آخر:

. . . . تَجِـدْ حَطَبـاً جَـزْلاً ونَـاراً تَـأَجَّجَـا(٢)

وقرأ الأَعمش: [وَمَنْ يَعْشُ عنِ الرَّحْمَنِ]، وسقط «ذِكْر»، فالمعنى في الآية: ومن يقل نظره في شرع الله تعالىٰ ويغمض جفونه عن النَّظر في ذكر الرَّحمن، أَي فيما ذكَّر به عباده، فالمصدر مضاف إلى الفاعل، ﴿نُقَيِّضْ لَهُمْ شَيْطَانًا﴾، أَي نُيَسِّر له، وهذا هو العقاب على الكفر بالخَتْم والطَّبع وعدم الفلاح، وهذا كما يقال: إنَّ الله تعالىٰ يعاقب على المعصية بالتَّزيُّد في المعاصي، ويُجازي على الحسنات بالتَّزيُّد في الحسنات، وقد

---

(١) هذا البيت للحطيئة، أبو مليكة جرول بن أوس ـ، وهو من قصيدة له يمدح بها قيس بن شماس، والبيت في ديوانه، وفي الكتاب، ومجالس ثعلب، وأماليُّ ابن الشَّجريِّ، وابن يعيش، والعينيّ، واللِّسان، والصِّحاح، والتّاج، ومجاز القرآن، وغريب القرآن، وهو هنا شاهد على أن (تعشو) بمعنى: تضعف عينك، فلا ترى إلاَّ قليلاً، وقد نقل صاحب اللِّسان خلافاً بين الفراء والقتيبيُّ والأزهريُّ في تحديد معنى (يعشو)، كما نقل رأي أبي عبيدة، وليس مجاله هنا، والنّحويّون يستشهدون بالبيت على أن (تعشو) جاء مرفوعاً لاعتراضه حالاً بين الشَّرط والجزاء، وقد وقع كذلك بين مجزومين هما (تأتِ وتَجِدْ).

(٢) هذا عجز بيت لعُبَيْد الله بن الحُرِّ، والبيت بتمامه:

مَتَـى تَـأْتِنَـا تُلْمِـمْ بِنَـا فـي دِيَـارِنَـا ... تَجِـدْ حَطَبـاً جَـزْلاً ونـاراً تَـأَجَّجَـا

وهو في كتاب سيبويه، وخزانة البغداديّ، وفي الهمع، والأشمونيّ، وابن يعيش، والإنصاف، وقول ابن عطية: «وفي شعر آخر» إشارة مهذبة إلى ما وقع من خطأ في رواية البيت في الطَّبريِّ، حيث جاء ببيت مركب من شطرين من بيتين مختلفين، الصدر فيه من بيت الحطيئة السابق ذكره هنا، والعجز فيه هو العجز المذكور هنا من شعر ابن الحرِّ، والصواب ما ذكرناه هنا، والشّاهد في هذا البيت كالشّاهد في البيت السّابق، كما ذكر النَّحويّون، حيث جزم الفعل (تُلْمِمْ) لأنَّه بدلٌ من قوله: (تَأْتِ)، ولو أمكن رفعه على تقدير الحال لجاز، كما رفع الفعل (تَعْشُو) في بيت الحطيئة على حال من وقوعه بين فعلين مجزومين، بهذا يستشهد النَّحويّون بهذا البيت، أمّا هنا فلا شاهد فيه، وقد ذكره ابن عطيّة فقط ليبيِّن أنَّه بيت آخر غير بيت الحطيئة.

رُوي هذا المعنى مرفوعاً. وقرأ الجمهور: [نُقَيِّضْ] بالنون، وقرأ عاصم[١]، والأعمش، وأبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ: [يُقَيِّضْ] بالياءِ [شَيْطَاناً]، أي: يُقيِّض اللهُ، وقرأ ابن عبّاس رضي الله عنهما: [يُقيَّض لَهُ شَيْطَانٌ] بفتح الياءِ الثّانية وشدِّها ورفع النّون من [شَيْطَانٌ].

والضمير في [وَإِنَّهُمْ] عائد على الشَّياطين، وفي [لَيَصُدُّونَهُمْ] عائد على الكفّار، و«السَّبيلُ» هي سبيل الهدى والفوز، والضَّمير في [يَحْسَبُونَ] للكفّار، وقرأ نافع، وابن كثير، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ وابن عامر، وأَبو جعفر، وشيبة، وقتادة، والزُّهريُّ، والجحدريُّ: [حَتَّى إِذَا جَاءَانَا] على التثنية، يريد العاشي والقرين، قاله سعيد الحريري، وقتادة، وقرأ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي، والحسن، وابن محيصن، والأَعرج، وعيسى، والأعمش، وعاصم[٢]: [جَاءَنَا]، يريد العاشي وحده، وفاعل [قَالَ] هو العاشي.

وقوله تعالىٰ: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ يحتمل ثلاثة معان: أَحدها أَن يريد: بُعْد المشرق من المغرب، فسماهما مشرقين، كما يقال: القمران، والعُمَران، قال الفرزدق:

. . . . لَنَـا قَمـرَاهَـا والنُّجُـومُ الطَّـوَالِـعُ[٣]

والثّاني أَن يريد مشرق الشّمس في أَطول يوم ومشرقها في أَقصر يوم، فكأَنَّه أَخذ نهايتي المشارق، والثالث أَن يريد: بُعْد المشرقين من المغربين فاكتفى بذكر المشرقين.

---

(١) أي: في رواية أبي بكر عنه.

(٢) أي: في رواية حفص عنه.

(٣) هذا عجز بيت قاله الفرزدق من قصيدة له في الفخر بآبائه، والبيت بتمامه:

أَخَـذْنَـا بِـآفَـاقِ السمـاءِ عَلَيْكُـمُ لَنَـا قَمَـرَاهَـا والنُّجُـومُ الطَّـوَالِـعُ

ويريد بالقمرين الشّمسَ والقمرَ، ثنّاهما تغليباً، وهذا هو موضع الشّاهد هنا، والآفاق: جمع أُفق وهو الناحية، وقد استشهد الفراءُ بهذا البيت في (معاني القرآن)، والتّغليب أن يُجمع بين الاسمين على تسمية أشهرهما، وقد كثُر ذلك في العربية، فمنه ما ذكر هنا وهو القَمَران للشّمس والقمر، ومنه العُمَرَان لأبي بكر وعُمر، والبَصْرتان للبصرة والكوفة، والعَصْران للغَدَاة والعصر، قال الفراءُ: وأنشدني رجلٌ من طَيِّءٍ:

فَبَصْـرَةُ الأزدِ مِنَّـا والعِـرَاقُ لَنَـا والمَـوْصِـلانِ، ومِنَّـا مِصْـرُ فـالحَـرَمُ

يريد: الجزيرة والموصل.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ الآيَةَ.... حكايةٌ عن مقالة تقال لهم يوم القيامة، وهي مقالةٌ موحشة حَرَمَتْهُم روح التَّأَسِّي؛ لأَنَّه يوقفهم بها على أَنَّه لا ينفعهم التَّأَسِّي، وذلك لِعِظَم المصيبة وطول العذاب واستمرار مدَّته؛ إِذ التَّأَسِّي راحةٌ لكلِّ مصاب في الدُّنيا في الأَغلب، أَلا ترى إِلى قول الخنساءِ:

وَلَـوْلاَ كَثْـرَةُ الْبَـاكِيـنَ حَـوْلِـي ... عَلَـى إِخْـوَانِهِـمْ لَقَتَلْـتُ نَفْسِـي
وَمَـا يَبْكُـونَ مِثْـلَ أَخِـي وَلَكِـنْ ... أُعَـزِّي النَّفْـسَ عَنْـهُ بـالتَّـأَسِّـي(١)

فهذا التَّأَسِّي قد كفاها مئونة قتل النَّفس، فنفى الله تعالىٰ عنهم الانتفاع بالتَّأَسِّي، وفي ذلك تعذيب لهم ويأْسٌ من كلِّ خير، وفاعل [يَنْفَعَكُمْ] الاشتراك.

وقرأَ جمهور القراءِ: [أَنَّكُمْ] بفتح الأَلف، وقرأَ ابن عامر وحده: [إِنَّكُمْ] بكسر الأَلف، وقد يجوز أَن يكون فاعل [يَنْفَعَكُمْ] التَّبَرُّؤُ الذي يدل عليه قوله: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾، وعلى هذا يكون [أَنَّكُمْ] في موضع نصب على المفعول من أَجله، وتخرج الآية عن معنى نفي الأُسوة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

لمّا ذِكر الله تعالىٰ حالة الكفّار في الآخرة وما يقال لهم وهم في العذاب اقتضى ذلك أَن تُشفق النَّفوس، وأَن ينظر كلُّ سامع لنفسه ويسعى في خلاصها، فلمّا كانت قريش مع هذا الَّذي سمعت لم تزل عن عُتُوِّها وإِعراضها عن أَمر الله تعالىٰ رجعت المخاطبة إِلى

(١) هذان البيتان من قصيدة تُعَدُّ من محاسن شعر الخنساء، وقد قالتها ترثي أخاها صخراً، ومطلعها:

يُـؤَرِّقُنِـي التَّـذَكُّـرُ حيـنَ أُمسـي ... فَـأُصْبِـحُ قَـدْ بُليـتُ بِفَـرْطِ نُكْـسِ

والبيتان غير متَوَالِيين، بل بينهما بيتان آخران حذفهما ابن عطيَّة ليصل إلى موضع الاستشهاد، ومعنى أُعزِّي: أُصَبِّر وأُسَلِّي، والتَّأسِّي: التَّصَبُّر، قال المبرد: التَّأسِّي أن يرى ذو البلاء من به مثل بلائه فيكون قد ساواه فيه فيُسَكِّن ذلك من وَجْده.

محمد ﷺ على جهة التَّسلية له عنهم، وشَبَّهَهُم بالصَّمِّ والعمي إِذ كانت حواسهم لا تفيد شيئاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يريد بذلك قريشاً بأنفسهم، ولذلك لم يقل: «أَو من كان»، بل جاءَ بالواو العاطفة كأَنَّه تعالىٰ يقول: «وهؤلاءِ»، ويؤيد ذلك أَيضاً عود الضمير عليهم في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّا مِنْهُم﴾، ولم يَجْرِ لهم ذكرٌ إِلاَّ في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن كَانَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ﴾ الآيةَ. . . . آيةٌ تتضمّن وعيداً واقعاً، وذهب جمهور العلماءِ إِلى أَن المُتَوَعَّدين هم الكفّار، وأَنَّ الله تعالىٰ أَرى نبيَّه ﷺ وعدهم في بدر والفتح وغير ذلك، وذهب الحسن، وقتادة إِلى أَن المُتَوَعَّدين هم في هذه الأُمَّة، وأَنَّ الله تعالىٰ أَكْرم نبيَّه ﷺ عن أَن ينتقم منهم بحضرته وفي حياته فوقعت النّقمة منهم بعد أَن ذهب به، وذلك في الفتن الحادثة في صدر الإِسلام مع الخوارج وغيرهم، وقال الحسن وقتادة: أَكْرَمَ الله تبارك وتعالىٰ نبيَّه ﷺ عن أَن يرى في أُمَّته ما يكره كما رأَى الأَنبياءُ صلوات الله تعالىٰ وسلامه عليه وعليهم، فكانت النّقمة بعد ذهابه ﷺ، وقد رُوي حديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أَنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأَ: ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ فقال: «بعلي بن أَبي طالب»(1)، والقول الأَوّل في توعُّد الكفّار أَكثر.

ثمَّ أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالتَّمسُّك بما جاءَه من عند الله تعالىٰ من الوحي المَتْلُوِّ وغيره، و«الصِّراط»: الطَّريق. وقرأَ الجمهور: ﴿أُوحِيَ﴾ على بناءِ الفعل للمفعول، وقرأَ الضَّحّاك: [أَوْحَى] على بناءِ الفعل للفاعل، أَي: أَوْحَى اللهُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ يحتمل أَن يريد تبارك وتعالىٰ: وإِنَّه لشَرَف وحَمْد في الدُّنيا ـ والقوم على هذا ـ قريش ثُمَّ العرب، وهذا قول ابن عبّاس، وقتادة، ومجاهد، والسّديُّ، وابن زيد، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل، فإِذا قالوا له: لِمَن يكون الأَمر بعدك؟ سكت، حتّى إِذا نزلت هذه الآية، فكان إِذا سُئل عن ذلك قال: لقريش، فكانت العرب لا تقبل ذلك حتّى قبلته

---

(1) قال السّيوطيُّ في (الدُّرِّ المنثور): «أخرج ابن مردويه من طريق محمد بن مروان، عن الكلبّي، عن أبي صالح، عن جابر بن عبد الله، عن النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾: «نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه أنَّه ينتقم من الناكثين والقاسطين بعدي».

الأَنصار رضي الله عنهم[(١)]، وروى ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا يزال هذا الأَمر في قريش ما بقي منهم اثنان»[(٢)]، وروى أَبو موسى الأَشعريُّ عنه عليه الصَّلاة والسَّلام أَنَّه قال: «لا يزال هذا الأَمر في قريش ما داموا إِذا حكموا عدلوا، وإِذا استُرحموا رحموا، وإِذا عاهدوا وفوا، فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أَجمعين»[(٣)]، وروى معاوية أَنَّه ﷺ قال: «لا يزال هذا الأَمر في قريش ما أَقاموا الدّين»[(٤)]، ويحتمل أَن يريد تعالىٰ: وإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ وموعظة، و«القوم» ـ على هذا ـ أُمَّته بأَجمعها، وهذا قول الحسن بن أَبي الحسن، وقوله تعالىٰ: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما وغيره: معناه: عن أَوامر القرآن ونواهيه، وقال الحسن بن أَبي الحسن: معناه: عن شكر النِّعمة فيه: واللَّفظ يحتمل هذا كلَّه ويعمه.

واختلف المفسِّرون في المراد بالسُّؤال في قوله تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ ـ فقالت فرقة: أَراد تعالىٰ أَن اسأَل جبريل عليه السَّلام، ذكر ذلك النَّقّاش.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفيه بُعْد، وقال ابن زيد، وابن جبير، والزُّهريُّ: أَراد تعالىٰ: واسأَل الرُّسلَ إِذا

---

(١) أخرجه ابن عديٍّ، وابن مردويه، عن علي بن أبي طالب، وابن عبّاس رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه البخاريُّ في الأحكام والمناقب، ومسلم في الإمارة، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في أكثر من موضع من مسنده، عن بكير بن وهب الجزريّ قال: قال لي أنس بن مالك: أُحدثك حديثاً ما أُحدِّثه كلَّ أحد، إنَّ رسول الله ﷺ قام على باب البيت ونحن فيه فقال: «الأئمة من قريش، إنَّ لهم عليكم حقّاً ولكم عليهم حقّاً مثل ذلك ما إن استرحموا رحموا، وإن عاهدوا وفوا، وإن حكموا عدلوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين»، وفي رواية أُخرى أنَّ أنساً قال: «كنّا في بيت رجل من الأنصار، فجاء رسول الله ﷺ حتّى وقف فأخذ بعضادة الباب»، فليس المقصود إذاً بالبيت ما يتبادر إلى الذهن من أنَّه الكعبة، وبدليل قوله في الحديث: «ونحن فيه».

(٤) قال ابن كثير في تفسيره: «أورد التّرمذيُّ هنا حديث الزُّهريِّ، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن معاوية رضي الله عنه»، وبعد أن ذكر الحديث قال: «رواه البخاريُّ». ونصُّ الحديث كما رواه البخاريُّ في كتاب الأحكام عن الزُّهريِّ، قال: كان محمد بن جبير بن مطعم يُحدِّث أنَّه بلغ معاوية ـ وهو عنده في وفد من قريش ـ أنَّ عبد الله بن عمرو يُحَدِّث أنَّه سيكون ملك من قحطان، فغضب فقام فأثنى على الله بما هو أهله، ثمَّ قال: أمّا بعد فإنَّه بلغني أنَّ رجالاً منكم يُحَدِّثون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله ﷺ، وأُولئك جهالكم، فإيَّاكم والأماني الّتي تضلُّ أهلها، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلاَّ كبَّه الله على وجهه ما أقاموا الدّين».

لقيتهم ليلة الإسراءِ، أما إن النبي ﷺ لم يسأَل الرُّسل عليهم السلام ليلة الإسراءِ عن هذا لأنه ﷺ كان أثبت يقيناً من ذلك ولم يكن في شك، وقالت فرقة: أَراد تعالىٰ: واسأَلني أَو اسْأَلنا عمن أَرسلنا، والأَوْلى ـ على هذا التأْويل ـ أن يكون ﴿ مَنْ أَرْسَلْنَا ﴾ استفهاماً أَمره أَن يسأَل به، كأَنَّ سؤاله: يا ربِّ، من أَرسلتَ قَبْلي من رُسُلك؟ أَجعلت في رسالته الأَمر بآلهة يُعبدون؟ ثمَّ ساق السُّؤال محكيَّ المعنى فردَّ المخاطبة إلى محمد ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿ مِن قَبْلِكَ ﴾، وقال ابن عبّاس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والسُّديُّ، وعطاءٌ: أَراد تعالىٰ: واسْأَل تُبَّاع من أَرسلنا وحَمَلَة شرائعهم؛ لأَنَّ المفهوم أَنَّه لا سبيل له إلى سؤاله الرُّسل إلاَّ بالنَّظر في آثارهم وكتبهم وسؤال من حفظها، وفي قراءَة ابن مسعود، وأُبيِّ بن كعب: [واسْأَل الّذين أَرْسَلْنا إليهم قبلك رسلنا]، فهذه القراءَة تؤيِّد هذا المعنى، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾[1] مفهومٌ أَنَّه لا يسأَل إلاَّ أَهلها، ومما ينظر إلى هذا المعنى قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾[2]، فمفهومٌ أَنَّ الرَّدَّ إنَّما هو إلى كتاب الله تعالىٰ وسُنَّة رسوله ﷺ، وأَنَّ المحاورة في ذلك إنما هي لِتُبّاعِهم وحفظة الشَّرع. وقوله تعالىٰ: [يُعْبَدُونَ] أَخرج الضَّمير على حدِّ من يعقل مراعاةً للَفْظ الآلهة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

هذه آية ضرب مَثَل وأُسوة لمحمد بموسى صلى الله وسلم عليهما، ولكفّار قريش بقوم فرعون ومَلَئِه، والآياتُ الَّتي أُرسل بها موسى عليه السَّلام هي التِّسع وغير ذلك مما جاءَت به الرِّوايات، وخصَّ الله تعالىٰ الملأَ بالذِّكر لأَنَّهم يَسُدُّون مسدَّ جميع النَّاس، ثمَّ وصفهم تعالىٰ بالضَّحك من آيات موسى عليه السلام كما كانت قريش تضحك وتسخر من أَخبار محمد ﷺ.

(١) من الآية (٨٢) من سورة (يوسف).
(٢) من الآية (٥٩) من سورة (النساء).

ثمَّ وصف تعالىٰ صورة عرض الآيات عليهم وأنَّها كانت شيئاً بعد شيء، وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ عبارة عن شِدَّة موقعها في نفوسهم بِجِدَّة أَمرها وحدوثه، وذلك أَنَّ أَوَّل آية عرضها موسى عليه السَّلام هي العصا واليد، وكانت أَكبر آية، ثمَّ كلَّ آية بعد ذلك تقع فتعظم عندهم لحينها وتكبر لأَنَّهم قد كانوا أُنْسُوا الّتي قبلها بها، كما قال الشاعر:

عَلَى أَنَّهَا تَعْفُو الْكُلُومَ وَإِنَّمَا ... تُوَكَّلُ بالأَدْنَى وإِنْ جَلَّ مَا يمضِي(١)

وذهب الطَّبريُّ إِلى أَن الآيات هنا هي الحُجَجُ والبيِّنات. ثمَّ ذكر تعالىٰ أَخذهم بالعذاب في القُمَّل والضفادع والدَّم وغير ذلك، وهذا كما أَخذ قريشاً بالسِّنين والدُّخان. وقوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ تَرَجٍّ بحسب معتقد البشر وظنِّهم، و﴿يَرْجِعُونَ﴾ معناه: يتوبون ويُقلعون.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾، جائز أَن يكون قائل ذلك من أَعلمهم بكفر السَّحرة فيكون قوله استهزاءً وهو يعلم قدر السِّحر وانحطاط منزلته، ويكون قوله: ﴿عِندَكَ﴾ بمعنى في زعمك وعلى قولك، ويحتمل أَن يكون القائل ليس من المتمرِّدين الحُذَّاق منهم، ويطلق لفظ السّاحر لأَحد وجهين: إِمَّا لأَن السِّحر كان عند عامَّتهم علم الوقت، فكأَنَّه قال: يا أَيُّها العالم، وإِمَّا لأَنَّ هذه الاسْمية قد كانت انطلقت عندهم على موسى عليه السَّلام لأَوَّل ظهوره فاستصحبها هذا القائل في مخاطبته قِلَّة تحرير وغباوة، ويكون القول ـ على هذا التَّأويل ـ جدًّا من القائل، ويكون قوله: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ بمعنى: إِن نفعتنا دعوتك، وهذا التَّأْويل أَرجح، أَعني أَنَّ كلام هذا القائل مقترنٌ بالجدِّ. وقرأَ ابن عامر وحده: [يَأَيُّهُ] بهاءٍ مضمومة فقط(٢).

---

(١) يستشهد المؤلف بهذا البيت على أنَّ الإنسان قد يُشغل بالأمر الجديد ولو كان هَيِّناً وينسى الأمر القديم ولو كان عظيماً؛ لأنَّ الجديد له وَقْعُه وحدوثه ولم تعتد عليه النَّفس بعد، والكلوم: الجراح ولعلَّه يريد بها هنا كلَّ ما يؤلم الإنسان حِسِّيّاً كان أو معنويّاً، وتَعْفُو: تذهب بها وتزيل آثارها، يقال: عفت الدِّيار إذا درست، والأدنى: القريب أو الأقل قيمةً أو أثراً، وجَلَّ: عَظُم، والتَّوكُّلُ بالأمر: الالتزام به والقيام عليه.

(٢) عِلَّتها أنَّ الهاءَ خُلطت بما قبلها وأُلزمت ضمَّ الياءِ، والياءُ مضمومة وجوباً لأنَّها منادى مفرد، وأنشد الفراءُ على ذلك:

يَـا أَيُّـهُ القَلْـبُ اللَّجُـوج النَّفْـس ... أَفِـقْ عَـن الْبِيـض الحِسَـانِ اللُّعْـسِ =

ثمَّ أَخبر تعالىٰ عنهم أَنَّه سبحانه لمّا كشف عنهم العذاب نكثوا، ولو كان الكلام هزلاً من أَوَّله لما وقع نكث.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

نداءُ فرعون يحتمل أَن يكون بلسانه في ناديه، ويحتمل أَن يكون بأَنَّ أَمر من ينادي في النّاس، ومعنى هذه الحجّة الّتي نادى بها أَنَّه أَراد أَن يُبيِّن فضله على موسى عليه السَّلام؛ إِذْ هو ملك مصر وصاحب الأَنهار والنِّعم، وموسى ـ عليه السَّلام ـ خاملٌ متعلِّل لا دُنيا له، قال: فلو أَنَّ إِلٰه موسى يكون حقًّا كما يزعم لما ترك الأَمر هكذا، ومِصْر من بحر الإِسكندرَّية إِلى أَسوان بطول النيل، والأَنهار الّتي أَشار إِليها هي الخلجان الكبار الخارجة من النيل، وعُظمها نهر الإِسكندرّية وتنِّيس ودمياط ونهر طولون[١].

وقوله: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ ﴾، قال سيبويه: [أَمْ] هذه المعادلة، والمعنى: «أَفأَنتم لا تبصرون أَم تبصرون»؟ فوضع موضع قوله: «أَمْ تبصرون» الأَمر الّذي هو حقيق أَن يُبصر عنده وهو أَنَّه خير من موسى عليه السَّلام، و[لاَ] ـ على هذا النَّظر ـ نافية، وقالت فرقة: المعنى: أَفلا تبصرون أَم لا تبصرون؟ ثمَّ اقتصر على [أَمْ] لِدَلاَلَةِ ظاهر الكلام على المحذوف منه، وابتدأ قوله: «أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ» إِخباراً منه، فقوله: ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ـ على هذا النّظر ـ بمنزلة «هَلاَّ» و«لولا» على معنى التّحضيض، وقالت فرقة: [أَمْ] بمعنى «بلْ»[٢].

= فقد ضمَّ الشّاعر الهاءَ حملاً على ضمِّ الياءِ، واللُّعْس: جمع لَعْساء، واللَّعَسُ: سوادٌ مُسْتَحسن في باطن الشَّفة.

(١) في بعض النُّسخ: «ونهر ميزلون».

(٢) هذا رأي السُّديّ وأبي عبيدة، فيكون المعنى أَنَّه انتقل من هذا الكلام إِلى إِخباره بأَنَّه خير ممن ذكر، وهذا كقول الشاعر:

بَدَت مِثل قَرْن الشَّمس في رَوْنَقِ الضُّحَى ... وصـورَتِهـا، أم أنْـتِ فـي العَيْـن أَمْلَحُ

وقرأ بعض النّاس: [أَما أنا خَيرٌ]، حكاه الفراءُ(١)، وكان مجاهد يقف على [أَمْ]، ثمَّ يبتدىء «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ»، قال قتادة: وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب رضي الله تعالىٰ عنه «أَمْ أَنَا خَيْرٌ أَم هذا».

و[مَهِينٌ] معناه: ضعيف، وقوله، وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ إشارة إلى ما بقي في لسان موسى عليه السَّلام من أثر الجمرة، وذلك أَنَّها كانت أحدثت في لسانه عقدة، فلمَّا دعا في أن تُحَلَّ لِيُفْقَه قولُه أُجيبت دعوته، لكن بقي أثر كان البيان يقع معه، لكن فرعون عيَّر به، وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ﴾ يقتضي أنَّه كان يُبين، وقرأ أبو جعفر محمد بن عليٍّ [يَبِينُ] بفتح الياءِ الأُولى.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ﴾ يريد: من السَّماءِ تكرمةً له، وقرأ الجمهور ﴿أُلْقِيَ﴾ على بناءِ الفعل للمفعول، وقرأ الضَّحّاك: [أَلْقَى] بفتح الهمزة والقاف على بناءِ الفعل للفاعل [أَسَاوِرَةً] نصباً، وقرأ جمهور القراءِ: [أَسَاوِرَةٌ]، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿[أَسْوِرَةٌ]﴾ وهي قراءَة الأعرج، والحسن، وقتادة، وأَبي رجاءٍ، ومجاهد، وقرأ أُبيُّ بن كعب: [أَسَاوِرُ]، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [أَسَاوِيرُ]، ويقال: سِوَارٌ وإِسْوَارٌ لما يجعل في الذِّراع من الحليِّ، حكى أَبو زيد اللُّغتين، وأَبو عمرو بن العلاءِ، وهو كالْقُلْبِ(٢)، قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما والنّاس، وكانت عادة الرِّجال يومئذ حَبْس ذلك والتَّزَيُّن(٣) به، و«أَسَاوِرُ» جمع «إِسْوَارٍ»، ويجوز أن يكون جمع «أَسْوِرَة» كَأَسْقِيَة وَأَسَاقِي، وكذلك «أَسَاوِرَة» جمع «إِسْوَارٍ» والهاءُ في «أَسَاوِرة» عِوَض عن الياءِ المحذوفة؛ لأَنَّ الجمع إنَّما هو «أَساوير» كما في مصحف ابن مسعود، فحذفوا الياءَ وجعلوا الهاءَ عِوَضاً منها، كما قالوا ذلك في زنادقة وبطارقة(٤) وغير ذلك، و«أَسْوِرَةٌ»

---

(١) قال الفراء في (معاني القرآن): «وقد أخبرني بعض المشيخة ـ أظنُّه الكسائيُّ ـ أنَّه بلغه أنَّ بعض القراء قرأ: «أمَا أنا خيرٌ»، وقال لي هذا الشيخ: لو حفظت الأثر فيه لقرأتُ به، وهو جيد في المعنى»، وقد علّق الطَّبريُّ على هذه القراءة فقال: «ولو كانت هذه القراءة قراءة مستفيضة في قراءة الأمصار لكانت صحيحة، وكان معناها حسناً، غير أنَّها خلاف ما عليه قُرَّاءُ الأمصار فلا أَسْتَجيز القراءة بها».

(٢) القُلْبُ: السِّوارُ يكون نظماً واحداً. «المعجم الوسيط».

(٣) يقال في اللُّغة: «حَبَس الشَّيءَ بالشَّيءِ: سَتَره وأحاطه به، فهو محبوسٌ وحبيسٌ»، وجاء في بعض نسخ الأصول: «والتَّزَيِّي به» بدلاً من «والتَّزَيُّن به».

(٤) حيث يقال فيهما: «زناديق وزنادقة وبطاريق وبطارقة».

جمع «سِوَارٍ». وقوله: [مُقْتَرِنِينَ] أي: يحمونه ويشهدون له ويقيمون حجَّته.

ثمَّ أخبر تعالىٰ عن فرعون أنَّه استخفَّ قومه بهذه المقالة، أيْ طلب خِفَّتهم وإجابتهم إلى غرضه، وأجابوه إلى ذلك وأطاعوه في الكفر لفسقهم ولِمَا كانوا بسبيله من الفساد.

و﴿ءَاسَفُونَا﴾ معناه: أغضبونا، بلا خلاف، وإغضاب الله تعالىٰ هو أن تعمل الأعمال الخبيثة الَّتي تظهر من أجلها أفعاله الدَّالَّة على إرادة السُّوءِ بمن شاءَ، والغضب ـ على هذا ـ صفة فعل، وهو مما يتردَّد، فإذا كان مما يظهر من الأفعال فهو صفة فعل، وإذا رُدَّ إلى الإرادة فهو صفة ذات، وفي هذا نظر.

وقرأ جمهور القراءِ: ﴿سَلَفاً﴾ بفتح السّين واللام، جمع سالف كحارسٍ وَحَرَسٍ، والسَّلَف هو الفارطُ من الأمم المتقدِّمُ، أي جعلناهم متقدمين للأُمم الكافرة عظةً ومثلاً لهم يعتبرون بهم أو يقعون فيما وقعوا فيه، ومن هذه اللفظة قول النَّبيِّ ﷺ: «يذهبُ الصالحون أسلافاً»[(١)]، وقوله في ولده إبراهيم عليهما السَّلام: «ندفنه عند سلفنا الصالح عثمان بن مظعون»، وقرأ حُميد الأعرج، وحمزة، والكسائيُّ: [سُلُفاً] بضمِّ السّين واللاّم، وهي قراءَة عبد الله وأصحابه، وسعيد بن عيّاض، وابن كثير، وهو جمع سَلِيف، وذكر الطَّبريُّ عن القاسم بن معن أنَّه سمع العرب تقول: مضى سليفٌ من النّاس، بمعنى السَّلَف[(٢)]، وقرأ عليُّ بن أبِي طالب رضي الله عنه، وحُميد الأعرج أيضاً: [سُلَفاً] بضمِّ السّين وفتح اللاّم، كأنَّه جمع سُلْفَةٍ بمعنى الأُمَّة والقطَّة[(٣)]، و«الآخِرُونَ» هم من يأتي مِنَ البشر إلى يوم القيامة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ

---

(١) أخرجه الدارميُّ في كتاب الرّقاق، عن الأسلميِّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يذهب الصالحون أسلافاً ويبقى حثالة كحثالة الشَّعير».

(٢) قال الفراء: «سُلُف جمع سليف نحو سرُرُ وسرير»، وقال أبو حاتم: «سُلُف جمع سَلَف نحو خُشُب وخَشَب، وثُمُر وثَمَر».

(٣) نحو غُرْفة وغُرَف، وطُرْفة وطُرَف، وظُلْمة وظُلَم. وفي اللّسان: جاء القوم سُلْفةً سُلْفة، إذا جاء بعضهم في أثر بعض.

إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾ .

رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، وغيره في تفسير هذه الآية أنّه لمّا نزلت ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ الآية(١) ونزل مع ذلك ذكر عيسى عليه السّلام وحاله وكيف خُلق من غير فحل، قالت فرقة: ما يريد محمد ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ من ذكر عيسى إلاّ أن نعبده كما عبدت النّصارى عيسى ـ عليه السّلام ـ، فهذا كان صدودهم من ضربه مثلاً. وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائيُّ، وأبو جعفر، والأعرج، والنّخعيُّ، وأبو رجاءٍ، وابن وثّاب: [يَصُدُّونَ] بضمِّ الصّاد بمعنى يُعرضون، وقرأ الباقون، وابن عبّاس، وابن جبير، والحسن، وعكرمة: ﴿يَصِدُّونَ﴾ بكسر الصّاد بمعنى يضجُّون، قاله ابن عبّاس وغيره، وأنكر ابن عباس رضي الله عنهما ضمَّ الصّاد، ورويت عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال الكسائيُّ: هما لغتان بمعنى واحد مثل يعرِشون ويعرُشون.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ ابتداءُ معنى ثان، وذلك أنّه لمّا نزلت: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾(٢) جاءَ عبد الله بن الزِّبعْريّ ونُظراؤه، فقالوا: نحن نخصم محمداً، أآلهتنا خير أم عيسى؟ وعلموا أنّ الجواب أن يقال لهم: عيسى قالوا: وهذه آية الحصب لنا أوْ لِكُلِّ الأُمم من الكفّار؟ فقال النّبيُّ ﷺ: «بل لكلِّ من تقدَّم وتأخّر من الكفّار»، قالوا: نحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى إذ هو خير منها، وإذْ قد عُبد فهو من الحَصَب إذن، فقال الله تعالىٰ: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ﴾(٣)، أي: ما مثّلوا لك هذا التّمثيل إلاّ جَدلاً منهم ومغالطة، ونَسوا أنّ عيسى ﷺ لم يُعبد برضى منه ولا عن إرادة، ولا له في ذلك ذنب.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [ءَآلِهَتُنَا] بهمزة استفهام وهمزة بعدها بيْن بيْن وألف

---

(١) من الآية (٥٩) من سورة (آل عمران).

(٢) من الآية (٩٨) من سورة (الأنبياء).

(٣) أخرج حديث ابن الزِّبعرى هذا أبو داود في ناسخه، وابن المنذر، وابن مردويه، والطّبرانيّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، وأخرجه من وجه آخر ابن مردويه، والضياء في المختارة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أيضاً، وذكره الواحدّي في أسباب النزول، وكذلك ذكره البغويُّ بدون سند، وذكره الخازن أيضاً بدون سند، وعبارات المفسّرين تجمع على ذلك.

بعدها، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بهمزتين مُحَقَّقتين بعد الثانية أَلف، وقرأ ورشٌ عن نافع بغير استفهام: [آلهَتُنَا] على مثال الخبر، وقرأ قالون عن نافع: [آلِهَتُنَا] بهمزة واحدة بعدها مدَّة، وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب: [خَيْرٌ أَمْ هَذَا]، فالإشارة إلى محمد ﷺ، وخُرِّجت هذه القراءَة على التَّأويل الأَوَّل الَّذي فسَّرناه، وكذلك قالت فرقة ممن قرأَ: ﴿ءَآلهتنا خيرٌ أمْ هُوَ﴾: إنَّ الإرادة محمد ﷺ، وهو قول قتادة، وقال ابن زيد، والسّديُّ: المراد بـ﴿هُوَ﴾ عيسى عليه السَّلام. وهذا هو المترجّح.

و«الجدَالُ» عند العرب: المحاورة بمغالطة أَو تحقيق أَو ما اتفق من القول، إِنَّما القصد به أَن يَغْلِب صاحبُه في الظّاهر لا أَن يتطلَّب الحقَّ في نفسه، وروى أَبو أُمامة عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قال: «ما ضلَّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلاَّ أُوتوا الجدل»، ثمَّ قرأَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ﴾[(١)]، قال أَبو أُمامة: ورأَى النَّبيُّ ﷺ قوماً يتنازعون في القرآن فغضب حتّى كأَنَّما صُبَّ على وجهه الخَلُّ، وقال: «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فما ضلَّ قوم إلاَّ أُوتوا الجدل»[(٢)]. ثمَّ أَخبر الله تعالىٰ عنهم أَنَّهم أَهل خصام ولَدَد.

وأَخبر تعالىٰ عن عيسى عليه السَّلام أَنَّه عبد أَنعم الله عليه بالنُّبوَّة والمنزلة العالية، وجعله مثلاً لبني إسرائيل، [وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ الآية][(٣)]، أَي: لا تستغربوا أَن يُخلق عيسى من غير فحل فإِنَّ القدرة تقتضي ذلك وأَكثر منه.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ معناه: لجعلنا بدلاً منكم، أَي: لو شاءَ الله تعالىٰ لجعل بدلاً من بني آدم ملائكة يسكنون الأَرض ويخلفون بني آدم فيها، وقال ابن

---

(١) رواه الإمام أحمد، والتِّرمذيُّ، وابن ماجه، وابن جرير الطَّبريُّ، وزاد الإمام السُّيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور نسبته إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والطَّبرانيُّ، والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه، والبيهقيُّ، في شعب الإيمان، عن أبي أُمامة رضي الله عنه. وقال ابن كثير في تفسيره: «وقد رُوي من وجه آخر عن أبي أُمامة رضي الله عنه بزيادة»، ثمَّ ذكر أنَّ هذه الرِّواية هي «ما ضلَّت أُمَّة بعد نبيِّها إلاَّ كان أوَّل ضلالها التَّكذيب بالقدر، وما ضلَّت أُمَّة بعد نبيِّها إلاّ أُعطوا الجدل، ثمَّ قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

(٢) نقله ابن كثير في تفسيره عن ابن جرير الطَّبريِّ، عن جعفر، عن القاسم، عن أبي أُمامة رضي الله عنه.

(٣) هكذا وردت الفِقْرَةُ كلّها في الأصول، ونعتقد أن ما وضعناه بين العلامتين [. . . .] زيادة من النّساخ لأنَّ النَّهي عن الاستغراب في خلق عيسى عليه السَّلام من غير أب مرتبط بقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا﴾، ولا علاقة لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ به، فهو حديث عن بني آدم، وأنَّ الله تعالىٰ لو شاء لجعل في الأرض ملائكة بدلاً من بني آدم.

عبّاس، ومجاهد: يخلف بعضهم بعضاً.

والضَّمير في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال ابن عبّاس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والسّديُّ، والضَّحاك، وابن زيد: الإشارة به إلى عيسى عليه السَّلام، وقالت فرقة: إلى محمد ﷺ، وقال أيضاً الحسن، وقتادة: إلى القرآن، وقرأ جمهور النّاس: [لَعِلْمٌ] بكسر العين وسكون اللاّم، وقرأ ابن عبّاس، وأبو هريرة، وقتادة، وأبو مالك الغفاريّ، ومجاهد، وأبو نضرة المنذر بن كعب، ومالك بن دينار: [وإنَّه العَلَمُ] بفتح العين واللاَّم، وقرأ عكرمة مولى ابن عبّاس رضي الله عنهما: [وإنَّه لَلعِلمُ] بلامين، وقرأ أُبيُّ بن كعب: [وَإِنَّهُ لَذِكرٌ للسَّاعَة]، فمن قال إنّ الإشارة لعيسى عليه السَّلام حَسُن مع تأويله «علْمٌ» و«عَلَم»، أي هو إشعار بالسَّاعة وشَرْط من أَشراطها، يعني خروجه في آخر الزّمان، وكذلك من قال الإشارة إلى محمد ﷺ إذ هو آخر الأنبياءِ عليهم السّلام، فقد تميزت السّاعةُ به نوعاً وقدراً من التّمييز وبقي التّحديد التّام الّذي انفرد الله تعالىٰ بعلمه، ومن قال الإشارة إلى القرآن حَسُن قوله في قراءَة من قرأَ: [لَعِلْمٌ] بكسر العين وسكون اللاَّم، أَي: يُعلمكم بها وبأَهوالها وصفاتها، وفي قراءَة من قرأَ: [لَذكْرٌ].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ﴾، أَي: قل لهم يا محمد: لا تَشُكُّنَّ فيها، وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى الشَّرع، ثمَّ أَمره بتحذير العباد من الشّيطان وإغوائه، ونبَّههم على عداوته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

«البيِّناتُ» الَّتي جاءَ بها عيسى عليه السَّلام هي إحياءُ الموتى وإبْراءُ الأكمه والأَبرص إلى غير ذلك، وقال قتادة: الإنجيل[1]، و«الحِكْمَةُ»: النُّبُوَّة، قاله السُّديُّ وغيره.

(١) إلى هنا ينتهي قول قتادة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال أبو عبيدة: [بَعْضَ] بمعنى «كلّ»، وهذا ضعيف تردُّه اللُّغة، ولا وجه له ولا حجَّة من قول لبيد:

. . . . أَو يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفوسِ حِمَامُهَا[1]

لأنَّه أَراد نفسه ونفس من معه، وتلك بعض النُّفوس، وإنَّما المعنى الَّذي ذهب إليه الجمهور أَنَّ الاختلاف بين النّاس هو في أُمور كثيرة لا تُحصى عدداً، منها أُمور أُخروية ودينيَّة، ومنها ما لا مدخل له في الدّين، فكلُّ نبيٍّ إنَّما يبعث ليبيِّن أَمر الأَديان والآخرة، فذلك بعض ما يختلف فيه، وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ حكاية عن عيسى عليه السَّلام إذ أَشار إلى شرعه.

و«الأَحزابُ» المذكورون، قال جمهور المفسرين: أَراد تعالىٰ: اختلفت بنو إسرائيل وتحزَّبوا، فمنهم من آمن به وهو قليل، وكفر الغير، وهذا إذا كان معهم حاضراً، وقال قتادة: الأَحزاب هم الأربعة الَّذين كان لهم الرَّأي، والمناظرة صرفت إليهم في أَمر عيسى عليه السَّلام، وقال ابن حبيب وغيره: الأَحزاب: النَّصارى، افترقت مذاهبهم فيه بعد رفعه عليه السَّلام، فقالت فرقة: هو الله، وهم اليعقوبيَّة، قال الله عزَّ وجلَّ عنهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[2]، وقالت

(١) هذا عجز بيت قاله لبيد بن ربيعة العامريُّ، وهو من معلقته الَّتي أنشدها أمام النّابغة فقال له: اذهب فأنت أشعر العرب، والبيت بتمامه:

تَرَّاكُ أمكِنَةٍ إذا لَمْ أرْضَهَا أَوْ يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا

ويروى (أو يرتبط) بدلاً من (أو يعتلق)، ويروى أيضاً: (أو يعتقي)، ويعتقي: يحبس، وهذا المعنى يفهم أيضاً من (يرتبط)، والحِمامُ: قضاء الموت وقدره، وقوله: (بعض النُّفوس) أراد نفسه لأنَّها بعض أنفس الناس، وقال أبو عبيدة: معناه: كلُّ النّفوس؛ لأنَّ الموت لا ينزل ببعض النفوس ولكنَّه ينزل بالنّفوس كلِّها. وفي شرح الزوزني للمعلقات السَّبع يقول: «إنّي تراك أماكن إذا لم أرضها إلاّ أن يرتبط نفسي حمامُها، فلا يمكنها البراح، وأراد ببعض النُّفوس هنا: نفسه، هذا أوجه الأقوال وأحسنها، ومَن جعل بعض النُّفوس بمعنى كلِّ النُّفوس فقد أخطأ؛ لأنَّ (بعضاً) لا يفيد العموم والاستيعاب، وتحرير المعنى: إنّي لا أترك الأماكن أجتويها وأقليها إلاَّ أن أموت»، وبهذا يتَّضح ما قصده ابن عطيَّة بقوله ردّاً على أبي عبيدة: «ولا وجه له ولا حجّة من قول لبيد». والفعل (يعتلق) في محلِّ رفع، وفي جزمه تأويلات.

(٢) من الآية (٧٢) من سورة (المائدة).

فرقة: هو ابن الله، وهم النسّطوريّة، فقال الله تعالىٰ فيهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[1]، وقالت فرقة: هو ثالث ثلاثة، وهم الملكانيّة، قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ بمعنى: من تلقائهم ومن أنفسهم ثار شرُّهم ولم يدخل عليهم الاختلاف من غيرهم.

والضَّمير في ﴿يَنظُرُونَ﴾ لقريش، والمعنى: ينتظرون، و﴿بَغْتَةً﴾ معناه: فجأة دون مقدمة ولا إنذار بها، ثمَّ وصف تعالىٰ بعض حال القيامة وأنَّها ـ لهول مطلعها والخوف المطيف بالنّاس فيها ـ يتعادى ويتباغض كلّ خليل كان في الدُّنيا على غير تقى؛ لأنَّه يرى أنَّ الضّرر دخل عليه مِن قِبَل خليله، وأمّا المتّقون فيرون أنَّ النَّفع دخل من بعضهم على بعض، هذا معنى كلام عليٍّ بن أَبي طالب وابن عبّاس رضي الله عنهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰعِبَادِ﴾، المعنى: يقال لهم، أي للمتَّقين، وقرأ عاصم في رواية أَبي بكر: [يا عباديَ] بفتح الياءِ، وهذا هو الأَصل، وقرأ نافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: [يا عباديْ] بسكون الياءِ، وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿يَـٰعِبَادِ﴾ بحذف الياءِ، قال أَبو عليٍّ: وحذفها أَحسن لأَنَّها في موضع تنوين وهي قد عاقبته، فكما يحذف التَّنوين في الاسم المفرد المنادى كذلك تحذف الياءُ هنا لسكونها على حرف كما أَنَّ التَّنوين كذلك، ولأَنَّها لا تنفصل عن المضاف كما لا ينفصل التَّنوين من المُنوَّن، وذكر الطَّبريُّ عن المعتمر[3]، عن أَبيه أَنَّه قال: سمعتُ أَنَّ النّاس حين يُبعثون ليس منهم أَحدٌ إلاَّ فزع، فينادي منادٍ: ﴿يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، فيرجوها النّاس كلُّهم، قال: ويتبعها ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾، قال: فَييْأَس منها جميع الكفّار.

وقرأَ الحسن، والزهري، وابن أَبي إِسحق، وعيسى بن عمر، ويعقوب: [لا خوفَ] بنصب الفاءِ من غير تنوين، وقرأَ ابن محيصن: [لا خوفُ] برفع الفاءِ من غير تنوين.

---

(١) من الآية (٣٠) من سورة (التوبة).

(٢) من الآية (٧٣) من سورة (المائدة).

(٣) هو المعتمر بن سليمان التيمي، أبو محمد، البصري، يُلَقَّب بالطفيل، ثقة، من كبار التاسعة، مات سنة سبع وثمانين، وقد تجاوز الثمانين، (تقريب التهذيب).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

[ٱلَّذِينَ] نعتٌ للعباد في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰعِبَادِ﴾، ثمَّ ذكر تعالىٰ أمره إيّاهم بدخول الجنَّة هم وأزواجهم، و[تُحْبَرُونَ] معناه: تُنعَّمون وتُسَرُّون، والحَبرة والحبور: السُّرور، و«الأكوابُ»: ضرب من الأواني كالأباريق إلاَّ أنها لا آذان لها ولا مقابض.

وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ﴾ بإثبات الهاءِ الأخيرة، وكذلك في مصحف المدينة ومصاحف الشّام، وقرأ الباقون، وأبو بكر عن عاصم، والجمهور: [ما تشتهي] بحذف الهاءِ، وكذلك وقع في أكثر المصاحف، وحذفها من الصِّلة لطول القول حسنٌ، وذلك كثير في التَّنزيل، كقوله تعالىٰ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾(١)، وقوله تعالىٰ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾(٢)، وغير ذلك، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّهُ الأَعْيُن] بالهاءِ فيهما.

وقوله تعالىٰ: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ليس المعنى أنَّ الأعمال أوجبت على الله إدخالهم الجنَّة، وإنَّما المعنى أنَّ حظوظهم منها على قدر أعمالهم، وأمّا نفس دخول الجنَّة وأن يكون المرءُ من أهلها فبفضل الله تعالىٰ وهداه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

لمّا ذكر الله تعالىٰ حال أهل الجنّة وما يقال لهم عقَّب ذلك بذكر حال الكفرة من

---

(١) من الآية (٤١) من سورة (الفرقان).

(٢) من الآية (٥٩) من سورة (النّمل)، إذ الأصل فيهما: «بَعَثَه الله» و«الَّذين اصطفاهم».

الخلود في النّار والإبلاس؛ ليُبَيَّن الفرق ولتَّتضح الأُمور التي منها النِّذارة. و«المجرمون» في هذه الآية: الكفّار؛ بدليل الخلود وما تضمّنته ألفاظ الآية من مخاطبة مالك وغير ذلك، و«المُبْلِسُ»: المُبْعَد اليائس من الخير، قاله قتادة وغيره، وقرأ ابن مسعود: [وهم فيها مُبْلِسُونَ]، أي في جهنَّم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾، أي: ما وضعنا العذاب فيمن لا يستحقّه، ولكن هم ظلموا في أن وضعوا العبادة فيمن لا يستوجبها، ووضعوا الكفر والتَّفريط في جنب الله تعالىٰ. وقرأ الجمهور: ﴿كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على الفصل[1]، وقرأ ابن مسعود [كانوا هم الظالمون] على الابتداء والخبر، وأن تكون الجملة خبر كان. ثم ذكر تعالى عن أهل النار أنهم ينادون مالك خازن النار فيقولون ـ على معنى الرغبة التي هي صيغة الأمر ـ: ﴿ليقض علينا ربك﴾ أي ليمتنا مدة حتى لا يتكرر عذابنا. وقرأ النبي ﷺ على المنبر: ﴿يا مالِكُ﴾[2] بالكاف، وهي قراءَة الجمهور، وقرأ ابن مسعود، ويحيى، والأعمش: [يا مَالِ] بالتَّرخيم، ورويت عن عليٍّ رضي الله عنه، ورواها أبو الدرداءِ رضي الله عنه عن النّبيِّ ﷺ. و«القَضَاءُ» ـ في هذه الآية ـ بمعنى الموت، كقوله تعالىٰ: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾[3]، وروي في تفسيرها عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّ مالكاً يقيم بعد سؤالهم ألف سنة ـ وقيل: ثمانين سنة، وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أربعين سنة ـ ثمَّ يقول لهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم﴾ الآية، يحتمل أن يكون من قول مالك لأهل النّار، ويكون قوله: ﴿جِئْنَاكُمْ﴾ على حدِّ ما يُدْخل أَحَدٌ ـ حمَّله الرئيس كتابه ـ نَفْسَه في فعل الرئيس، فيقول: غلبناكم وفعلنا بكم ونحو هذا، ثمَّ ينقطع كلام مالك في قوله: ﴿كَارِهُونَ﴾، ويحتمل أن يكون قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم﴾ من قول الله تعالىٰ لقريش بعقب حكاية أَمر الكفّار مع مالك، وفي هذا توعُّدٌ وتخويف فصيح، بمعنى: انظروا كيف يكون حالكم، ثمَّ تتَّصل الآية ـ على هذا ـ بما بعدها من أمر قريش.

---

(١) أخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والبخاريُّ، وابن الأنباريِّ في المصاحف، وابن مردويه، والبيهقيُّ في سننه، عن يَعْلى بن أُميَّة، قال: سمعت النَّبيَّ ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿ونادوا يا مالك﴾، وأخرج ابن مردويه عن عليٍّ رضي الله عنه أنَّه سمع النَّبيَّ ﷺ يقرأُ على المنبر: ﴿ونادوا يا مالك﴾.

(٢) أي على أنه [هم] ضمير الفصل، وعلى قراءة ابن مسعود فإن [هم] مبتدأ.

(٣) من الآية (١٥) من سورة (القصص).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا﴾ يريد: هل أَحكموا أَمْراً من أُمور مكرهم وتدبيرهم على محمد ﷺ كما فعلوا في اجتماعهم على مثله في دار النَّدوة إِلى غير ذلك، و[أَمْ] ـ في هذه الآية ـ المنقطعة، وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾، أَي: فإِنَّا مُحْكِمُو نصره وحمايته، و«الإِبْرَامُ» أَن تجمع خيطَيْن ثمَّ تفتلهما فَتْلاً متقناً، و«البريم» خيط فيه لونان.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ الآية، قال محمد بن كعب القرظيُّ: نزلت لأَنَّ كثيراً من العرب كانوا يعتقدون أَنَّ الله تعالىٰ لا يسمع السرار، ومنه حديث الثَّقفيِّ والقرشيَّيْن الَّذين سمعهم ابن مسعود رضي الله عنه يقولون عند الكعبة: أَترى الله يسمعنا؟ فقال أَحدهم: يسمع إِذا جهرنا ولا يسمع إِذا أَخفينا. . . الحديث(١)، فأَخبر الله تعالىٰ في هذه الآية أَنَّه يسمع ـ أَي يدرك ـ السِّرَّ والنَّجوى، وأَنَّ رسله الحفظة من الملائكة يكتبون أَعمال البشر مع ذلك، وتُعَدُّ للجزاءِ يوم القيامة.

واختلف المفسرون في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ ـ فقالت فرقة: «العابدون» هو من العبادة، ثمَّ اختلفوا في معنى الآية بعد ذلك ـ فقال قتادة، والسّديُّ، والطَّبريُّ: المعنى: قل لهم يا محمد: إِن كان للرَّحمن ولد ـ كما تقولون ـ فأَنا أَوَّل من يعبد على ذلك، ولكن ليس له شيءٌ من ذلك تعالىٰ وجلَّ، قال الطَّبريُّ: هذا إِلطاف في الخطاب، ونحوه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقوله تعالىٰ في مخاطبة الكفّار: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾(٣).

وقال مجاهد: المعنى: إِن كان لله تعالىٰ ولد في قولكم فأَنا أَوَّل من عبد الله وحده وكذَّبكم، وقال قتادة أَيضاً، وزهير بن محمد، وابن زيد: [إِنْ] نافية بمعنى «ما»، فكأَنَّه

---

(١) أخرجه ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظيُّ، قال: بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها، قرشيَّان وثقفيٌّ، أو ثقفيَّان وقرشي، فقال واحد منهم: ترون الله يسمع كلامنا؟ فقال واحد: إذا جهرتم سمع وإذا أسررتم لم يسمع، فنزلت: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾، وقد ذكره النَّيسابوريُّ في (أسباب النُّزول) عن أبي منصور البغداديُّ بسنده عن ابن مسعود في قوله تعالىٰ في سورة (فصلت): ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ الآية، وكذلك رواه عن محمد بن عبد الرّحمن الفقيه عن ابن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه.

(٢) من الآية (٢٤) من سورة (سبأ).

(٣) تكرر ذلك في الآيات (٢٧) من سورة (النحل)، و(٦٢)، (٧٤) من سورة (القصص)، و(٤٧) من سورة (فصلت).

تعالىٰ قال: «قُلْ ما كان للرّحمن ولدٌ»، وهنا هو الوقف على هذا التّأويل، ثمَّ يبتدىء: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾، قاله أبو حاتم، وقالت فرقة: العابدون: من عَبِد الرجلُ إذا أنف وأنكر الشّيءَ، قال الشاعر:

مَتَى ما يَشَأْ ذو الوُدِّ يصْرِمْ خَلِيلَهُ ۝ وَيَعْبَدْ عَلَيْهِ لا مَحَالَةَ ظَالِماً[1]

ومنه حديث عثمان وعليٍّ رضي الله عنهما في المرجومة حين قال عليّ: وحمله وفصاله ثلاثون شهراً، قال: فما عَبِد عثمان أن بعث إليها لتُرَدّ[2]، والمعنى: إن جعلتم للرّحمن ولداً وكان ذلك في قولكم فأَنا أَوّل الآنفين المنكرين لذلك.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَدٌ﴾ بفتح الواو واللاّم، وقرأ ابن مسعود، وابن وثّاب، وطلحة، والأعمش: [وُلْدٌ] بضمّ الواو وسكون اللام، وقرأ أبو عبد الرّحمن: [أول العَبِدين]، وهي على هذا المعنى، قال أبو حاتم: العَبِد ـ بكسر الباءِ ـ الشّديد الغضب، وقال أبو عبيدة: معناه: أَوّل الجاحدين، والعرب تقول: «عَبَدَني حَقِّي» أي جحدني[3].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

لمّا قال: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ نزّه الرّبَّ تعالىٰ عن هذه المقالة الّتي قالوها،

---

(١) هذا البيت شاهد على أنَّ (عَبِد) تكون بمعنى أنِف وكَرِه، فكلمة (يَعْبَد) فيه بمعنى: يأنف ويكره، ولم أقف على قائل هذا البيت فيما بين يدي من المراجع، ومعنى (يَصْرِمْ خليله): يقطع الوُدَّ بينه وبين صديقه. وفي اللّسان (عَبَدَ) عن الكسائيّ في قول الله تعالىٰ: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾: أي الآنِفين، رجلٌ عابدٌ وعَبِدٌ، وآنِفٌ وأَنِفٌ، أي الغضاب الآنفين من هذا القول.

(٢) أخرج هذا الخبر ابن جرير الطّبريُّ في تفسيره، عن بعجة بن زيد الجهنيّ، وفيه أن امرأة منهم دخلت على زوجها، وهو رجل منهم أيضاً: فولدت له في ستة أشهر، فذكر لعثمان بن عفان رضي الله عنه، فأمر بها أن ترجم، فدخل عليه عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: إنَّ الله تبارك وتعالىٰ يقول في كتابه: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا﴾، وقال: ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، قال: فوالله ما عَبِد عثمان أن بعث إليها تُرَدُّ، قال يونس: قال ابن وهب: ما عَبِد: ما استنكف.

(٣) روي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّ أعرابيين اختصما إليه، فقال أحدهما: إنَّ هذا كانت لي في يده أرض، فعبدنيها، فقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: الله أكبر، فأنا أوّل العابدين الجاحدين أن لله ولداً.

و[سُبْحَانَ] تنزيه، وخصَّ السموات والأَرض والعرش لأنَّها أَعظم المخلوقات، وقوله تعالىٰ: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾ مهادنةٌ مَّا وتركٌ وهي منسوخة بآية السَّيف، وقرأَ الجمهور: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا﴾، وقرأَ أَبو جعفر، وابن محيصن: [حَتَّى يَلْقَوْا]، وقال الجمهور: اليوم الذي توعدهم به هو يوم القيامة، وقال عكرمة وغيره: هو يوم بدر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ آية حكم بعظمته وإِخبارٌ بأُلوهيته، أَي: هو النَّافذ أَمره في كلِّ شيءٍ. وقرأَ عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وأُبيُّ بن كعب، والحكم بن أَبي العاص، وجابر بن زيد، وأَبو شيخ، وبلال بن أَبي بردة، ويحيى بن يَعْمَر، وابن السَّميفع: [وهو الَّذي في السَّماء الله وفي الأرض الله]، و«الحكيم»: المحكم.

و﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل، من البركة، أَي تزيَّدت بركاته، و﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ حصر لجميع الموجودات المحسوسة، و﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ معناه: علم تحديد قيامها والوقوف على تعيينه وحصره، وهذا هو الَّذي استأْثر بعلمه، وإِلاَّ فنحن عندنا علم السّاعة أَنَّها واقعة ذات أَهوال وصفات مَّا، والمصدر في قوله تعالىٰ: ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ مضاف إِلى المفعول، وقرأَ أَكثر القراءِ: [وإِليه يُرْجَعُونَ] بالياءِ من تحت، وقرأَ نافع، وعاصم، وأَبو عمرو: ﴿وإِليه تُرْجَعُونَ﴾ بالتاءِ من فوق مضمومة، وقرأَ الأَسود، والأَعمش: [يُحْشَرُونَ] بالياءِ من تحت.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ﴾ الآية مخاطبةٌ لمحمد ﷺ، و﴿الَّذِينَ﴾ هم المعبودون، والضَّمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ هو للكفَّار الَّذين عبدوا غير الله تعالىٰ، فأَعلم تعالىٰ أَنَّ كلَّ من عُبد من دون الله فإِنَّه لا يملك شفاعة عند الله يوم القيامة، وقرأَ الجمهور: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياءِ من تحت، وقرأَ ابن وثّاب: [تَدْعُونَ] بالتاءِ من فوق. ثمَّ استثنى تعالىٰ من هذا الإِخبار، واختلف النَّاسُ في المستثنى ـ فقال قتادة: استثنى ممن عُبد من

دون الله عيسى وعُزَيراً والملائكة عليهم السَّلام، والمعنى: فإنَّهم يملكون شفاعةً بأَن يُمَكِّنَهُم الله تعالىٰ إيَّاها؛ إذ هم ممن شهد بالحقِّ وهم يعلمون في كلِّ أَحوالهم، فالاستثناءُ ـ على هذا التَّأويل ـ متَّصل، وقال مجاهد وغيره: استثنى في المشفوع فيهم، كأَنَّه قال: لا يشفع هؤلاءِ الملائكة وعُزَير وعيسى إلاَّ فيمن شهد بالحقِّ وهم يعلمون بالتَّوحيد، فالاستثناءُ ـ على هذا التَّأويل ـ منفصل، كأَنَّه تعالىٰ قال: لكن من شهد بالحقِّ يشفع فيهم هؤلاءِ، والتَّأويل الأَوَّل أَصوب، والله تعالىٰ أعلم.

ثمَّ أَظهر تعالىٰ الحجَّة عليهم من أَقوالهم وإِقرارهم بأَنَّ الله تعالىٰ هو خالقهم وموجدهم بعد العدم، ثمَّ وقفهم ـ على جهة التَّقرير والتَّوبيخ ـ بقوله: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، أَي: فلأَيِّ جهة يصرفون؟ وقرأَ جمهور القراءِ: [وَقِيلَه يا رَبِّ] بالنَّصب، وهو مصدرٌ كالقول، والضَّمير فيه لمحمد ﷺ، وحكى مكِّيٌّ قولاً أَنَّه لعيسى عليه السَّلام، وهو ضعيف، واختلف النَّاسُ في النَّاصب له ـ فقالت فرقة: هو معطوف على قوله تعالىٰ: ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾، وقالت فرقة: العامل فيه [يَكْتُبُونَ]، أَي: أَقْوَالَهُمْ وَأَفْعَالَهُمْ وَقِيلَهُ[1]، وقالت فرقة: الناصب له ما في قوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ من قوَّة الفعل، أَي: ويعلم قِيلَهُ، ونزل قوله تعالىٰ: ﴿وقيلهِ يا ربِّ﴾ بمنزلة: وشكوى محمد ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ واستغاثته من كفرهم وعُتُوِّهم، وقرأَ عاصم، وحمزة، وابن وثّاب، والأَعمش: ﴿وقيله يا ربِّ﴾ بالخفض عطفاً على ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾[2]، وقرأَ الأَعرجُ، وأَبو قلابة، ومجاهد: [وقيلهُ يا ربِّ] بالرَّفع على الابتداءِ، والخبر في قوله: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، أَي: قِيلُه هذا القول، أَو يكون التَّقدير: وقيلُهُ يا ربِّ مسموعٌ ومُتَقَبَّل، فـ ﴿يَٰرَبِّ﴾ ـ على هذا ـ منصوب الموضع بـ[قِيلُهُ]. وقرأَ أَبو قُلابة: [يارَبَّ] بفتح الباءِ المشدَّدة، وأَراد: يا رَبَّا، على لغة من يقول: يا غُلاَما، ثمَّ حذف الأَلف تخفيفاً واتباعاً لِخَطِّ المصحف.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ موادَعَةٌ منسوخة بآية السَّيف، وقوله تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ﴾

---

(١) فهو معطوف على مفعول [يَكْتُبُونَ].

(٢) قال الزَّمخشريُّ: «والَّذي قالوه من العطف ليس بقوي في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه، وأقوى من ذلك والوَجْهُ أن يكون النَّصب والجرُّ على إضمار حرف القَسَم وحذفه».

تقديره: قُلْ أَمري سلامٌ، أَي مُسَالَمَةٌ، وقالت فرقة: المعنى: وقل سلامٌ عليكم، على جهة الموادعة والمُلاينة، والنَّسخ قد أَتى على هذا السَّلام، سواءٌ كان تحية أَو عبارة عن الموادعة. وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿يَعْلَمُون﴾ بالياءِ، وقرأَ نافع، وابن عامر ـ في رواية هشام عنه ـ والحسن، والأَعرج، وأَبو جعفر: [تَعْلَمُونَ] بالتاءِ من فوق.

كمل تفسير سورة الزُّخرف والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة الدّخان

هذه السورة مكِّيَّة، لا أَحفظ خلافاً في شيءٍ منها[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ حمٓ ① وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ② إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ③ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ④ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ⑤ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ⑥ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ⑦ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ⑧ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ⑨ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ⑩ ﴾.

تقدَّم القول في [حمٓ]، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ قَسَم أَقسم الله تبارك وتعالىٰ به، و[ٱلْمُبِينِ] يحتمل أَن يكون من الفعل المتعدّي، أَي يبيِّن الهدى والشَّرع ونحوه، ويحتمل أَن يكون من غير المتعدّي، أَي هو مبين في نفسه، وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ يحتمل أَن يقع القَسَم عليه، ويحتمل أَن يكون ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ في وصف الكتاب فلا يحسن وقوع القَسَم عليه، وهو اعتراضٌ يتضمَّن تفخيم الكتاب ويُحَسِّن القَسَم به، ويكون الَّذي وقع القَسَم عليه ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾.

واختلف النّاسُ في تعيين اللَّيلة المباركة. فقال قتادة، وابن زيد، والحسن: هي ليلة القدر، وقالوا: إنَّ كُتب الله تعالىٰ كلَّها إِنَّما نزلت في رمضان، التَّوراة في أَوَّله، والإِنجيل في وسطه، والزَّبور في نحو ذلك، ونزل القرآن في آخره في ليلة القدر، ومعنى هذا النُّزول أَنَّ ابتداءَ نزوله كان في ليلة القدر، وهذا قول الجمهور، وقالت فرقة: بل أَنزله الله تعالىٰ جملة ليلة القدر إِلى البيت المعمور، ومن هنا كان جبريل عليه السَّلام يتلقاه، وقال عكرمة وغيره: اللَّيلة المباركة هي ليلة النِّصف من شعبان[2].

---

(١) قال بعض العلماءِ: إلاَّ قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ ﴾ وهي الآية رقم (١٥) من السُّورة.

(٢) قال القاضي أبو بكر بن العربيّ: «وجمهور العلماءِ على أَنَّها ليلة القدر، ومنهم من قال: إنَّها ليلة =

وقوله تعالىٰ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ معناه: يفصل من غيره ويتخلص، وروي عن عكرمة في تفسير هذه الآية أَنَّ الله تعالىٰ يفصل للملائكة في ليلة النِّصف من شعبان، وقال الحسن، وعمر مَوْلى غفرة، ومجاهد، وقتادة: في ليلة القدر يفصل كلَّ ما في العام المقبل من الأَقدار والآجال والأَرزاق وغير ذلك، ويكتب ذلك لهم إِلى مثلها من العام المقبل، قال هلال بن يساف: كان يقال: انتظروا القضاءَ في شهر رمضان. وروي في بعض الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّ الرَّجل يتزوج ويُعَرِّس وقد خرج اسمه في الموتى لأَنَّ الآجال تقطع في شعبان[1]، وقرأَ الحسن، والأَعرج، والأَعمش: [يَفْرُقُ] بفتح الياءِ وضمِّ الرَّاءِ، و[حَكِيم] بمعنى: محكم.

وقوله تعالىٰ ﴿أَمْرًا﴾ نصب على المصدر، و﴿مِّنْ عِندِنَآ﴾ صفة لقوله تعالىٰ: ﴿أَمْرًا﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ يحتمل أَن يريد الرُّسل والأَنبياءَ عليهم الصَّلاة والسَّلام، ويحتمل أَن يريد الرَّحمة الَّتي ذَكَرَ بَعْدُ، وعلى التَّأْويل الأَوَّل نصب قوله تعالىٰ: ﴿رَحْمَةً﴾ على المصدر، ويحتمل أَن يكون نصبها على الحال.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ تقرير وتثبيت، أَي: إِن كنت موقناً فهذا يكون يقينك، كما تقول لإِنسان يقيم نفسه: العلم غرضك إِن كنت رجلاً. وقوله تعالىٰ: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَي: مالككم ومالك آبائكم.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: [رَبُّ السموات] بالرَّفع على القطع والاستئناف، وهي قراءَة الأَعرج، وابن أَبي إِسحق، وأَبي جعفر، وشيبة. وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائيُّ بالكسر على البدل من ﴿رَبِّ﴾ المتقدِّم، وهي قراءَة ابن محيصن، والأَعمش، وأَمَّا قوله تعالىٰ: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ﴾ فالجمهور على رفع الباءِ، وقرأَ الحسن بالكسر، ورواها أَبو موسى عن الكسائيِّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ إِضرابٌ قبله نفيٌ مقدر، كأَنَّه يقول: ليس هؤلاءِ ممَّن

= النِّصف من شعبان، وهو باطلٌ لأَنَّ الله تعالىٰ قال في كتابه الصَّادق القاطع: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، فَنَصَّ على أَنَّ ميقات نزوله رمضان، ثمَّ عيَّن من زمانه اللَّيل ها هنا بقوله: ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، فمن زعم أَنَّه في غيره فقد أعظم الفرية على الله، وليس في ليلة النِّصف من شعبان حديث يُعوَّل عليه لا في فضلها ولا في نسخ الآجال فيها، فلا تلتفوا إِليها».

(١) أخرجه ابن زنجويه، والدَّيلميُّ، عن أَبي هريرة رضي الله عنه، وأخرج مثله ابن جرير، والبيهقيُّ في شعب الإِيمان، عن الزُّهريِّ، عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس. (الدُّرُّ المنثور).

يؤمن ولا ممَّن تنفعه وصاة، بل هم في شكٍّ يلعبون في أَقوالهم وأَعمالهم.

واختلف النّاس في الدّخان الّذي أَمر الله تعالىٰ بارتقابه ـ فقالت فرقة منها عليُّ بن أَبي طالب، وزيد بن عليٍّ، وابن عمر، وابن عبّاس، وأَبو سعيد الخدريُّ، والحسن بن أَبي الحسن رضي الله تعالىٰ عنهم: هو دخان يجيءُ مقبل يوم القيامة، يصيب المؤمن منه مثل الزُّكام، وينضج رُؤوس المنافقين والكافرين حتّى تكون كأَنّها مصليّة حنيذة[1]، وقالت فرقة منها عبد الله بن مسعود، وأَبو العالية، وإِبراهيم النَّخَعيُّ: هو الدُّخان الّذي رأَته قريش حين دعا رسول الله ﷺ عليهم بسبع كسبع يوسف عليه السّلام، فكان الرَّجل يرى من الجدب والجوع دخاناً بينه وبين النّاس، وما يأْتي من الآيات يقوّي هذا التَّأْويل، وقال ابن مسعود: خمسٌ قد مضين: الدُّخان واللِّزام والبَطشة والقمر والرُّوم، وذكر الطَّبريُّ حديثاً عن حذيفة أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّل آيات السّاعة الدُّخان، ونزول عيسى بن مريم، ونارٌ تخرج من قعر عدن»[2]، وضعَّف الطَّبريُّ سند هذا

(١) المصليّة: المشويّة في النّار، والحنيذ: المشويّ الّذي يسيل منه الدّهن، وفي التّنزيل العزيز: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾.

(٢) الحديث في تفسير الطَّبريّ، وقد رواه عصام بن روّادٍ، عن أبيه، عن سفيان الثّوريّ، ولفظه أطول مما ذكر ابن عطية هنا، وقد ذكر الطَّبريُّ أنّه لم يشهد للحديث بالصِّحّة لأنَّ روّاداً قال: إنّه لم يسمعه من سفيان، ولم يقرأه عليه، ولم يقرأه أحد من النّاس على سفيان بمسمع من روّاد، وإنّما حدَّثه به قوم وعرضوه عليه، ثمَّ ذهبوا فحدثوا به عنه، ولهذا اختار الطَّبريُّ قول ابن مسعود في الدُّخان، لكنَّ القُرطبيَّ ذكر أنَّ في صحيح مسلم عن أبي الطفيل عن حُذَيفة بن أسيد الغفاريّ، قال: اطَّلع النَّبيُّ ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: «ما تذكرون»؟ قالوا: نذكر السّاعة، قال: «إنّها لن تقوم حتّى تروا قبلها عشر آيات ـ فذكر ـ الدُّخان والدَّجّال والدّابّة وطلوع الشّمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف، خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد النّاس إلى محشرهم»، ونلحظ أنَّ حذيفة الّذي ذكر الطَّبريُّ هو حذيفة بن اليمان، وهو غير حذيفة بن أسيد المذكور هنا، وكذلك ذكر القرطبيّ رواية عن حذيفة ـ ولم يحدد من هو ـ وقال: إنَّ الثَّعلبيَّ خرَّج هذا الحديث أيضاً عن حذيفة، ثمَّ ذكر نصَّ الحديث الّذي ذكره ابن جرير الطَّبريُّ وضَعَّفَه، ومن هذا نفهم أنَّه حذيفة بن اليمان. ومع ذلك فإنَّ القُرطبيَّ يقوّي رأي ابن مسعود لأنَّه قال: إنَّ الله تعالىٰ قد كشف الدُّخان عنهم، ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم، وحديث ابن مسعود رضي الله عنه في صحيح البخاريّ، ومسلم، والتّرمذيّ، وهو عن مسروق، قال: قال عبد الله: إنّما كان هذا لأنَّ قريشاً لما استعصت على النَّبيِّ ﷺ دعا عليهم بسنين كسِني يوسف، فأصابهم قحطٌ وجَهْد حتّى أكلوا العظام، فجعل الرَّجل ينظر إلى السَّماءِ، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدُّخان من الجهد، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قال: فأُتِيَ =

الحديث، واختار قول ابن مسعود في الدُّخان، ويحتمل ـ إن صحَّ حديث حذيفة ـ أن يكون قد مرَّ دخان، ويأتي دخان آخر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

[يَغْشَى] معناه: يغطِّي، وقوله تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يحتمل أن يكون إخباراً من الله تعالىٰ كأنَّه يعجب منه، على نحو من قوله تعالىٰ لمَّا وصف قصة الذَّبح: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا ٱلْمُبِينُ ﴾(١)، ويحتمل أن يكون ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ من قول النَّاس، كأنَّ تقدير الكلام: يقولون هذا عذاب أليم، ويؤيِّد هذا التَّأويل سياقه تعالىٰ حكاية عنهم أنَّهم يقولون: ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾، وَعَلِمَ الله تبارك وتعالىٰ أنَّ قولهم في حال الشِّدَّة ﴿ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ إنَّما هو عن غير(٢) حقيقة منهم فدلَّ على ذلك بقوله: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ أي: من أين لهم أن يتذكَّروا وهم قد تركوا الذِّكرى وراءَ ظهورهم بأن جاءَهم رسولٌ مبين وهو محمد ﷺ فكفروا به؟ و﴿ تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ أي أعرضوا وقالوا: إنَّه يُعَلَّم هذا الكلام الَّذي يتلو، وإنَّه مجنون. وإخباره تعالىٰ بأنَّه يكشف العذاب عنهم قليلاً إخبارٌ عن إقامة الحجَّة عليهم ومبالغة في الإملاءِ لهم. ثمَّ أخبر تعالىٰ بأنَّهم عائدون إلى الكفر، وقال قتادة: هو توعُّدٌ بمعاد الآخرة، ثمَّ أخبر تعالىٰ بأنَّه ينتقم منهم بسبب هذا

= رسولُ الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، اسْتَسْق لمضر، فإنَّها قد هلكت، قال: «لِمُضَر! إنَّكَ لجريءٌ»، فاستَسْقَى فسُقُوا، فنزلت ﴿ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾، فلمَّا أصابتهم الرَّفاهيَّة عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرَّفاهية، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾، قال: يعني يوم بدر، وقد قال الشَّوكانيُّ في «فتح القدير»: ولا منافاة بين كون الآية نازلة في الدُّخان الَّذي كان يتراءى لقريش من الجوع، وبين كون الدُّخان من آيات السَّاعة وعلاماتها، فقد وردت أحاديث صحاح وحسان وضعاف في ذلك، وليس فيها أنَّه سبب نزول الآية.

(راجع القرطبيّ، والطَّبريّ، والبخاريّ، ومسلم، وفتح القدير).

(١) الآية (١٠٦) من سورة (الصَّافات).

(٢) في بعض النُّسخ: «إنَّما هو عن «خَبَر» حقيقة منهم».

كلُّه في يوم البطشة، وقدم اليوم وذِكْرَه على الذي عَمل فيه تهمُّماً به وتخويفاً منه، والعامل فيه ﴿مُنتَقِمُونَ﴾، وقد ضعف البصريون هذا من حيث هو خبر ﴿إِنَّ﴾، وأَبعدوا أَن يعمل خبرها فيما قبلها، وقالوا: العاملُ فعل مضمرٌ يدل عليه ﴿مُنتَقِمُونَ﴾.

واختلف النّاس في يوم البطشة الكبرى ـ فقال ابن عبّاس، والحسن، وعكرمة، وقتادة: هو يوم القيامة، وقال عبد الله بن مسعود، وابن عبّاس أَيضاً، وأُبيُّ بن كعب، ومجاهد: هو يوم بدر. وقرأَ جمهور النّاس: ﴿نَبْطِشُ﴾ بفتح النّون وكسر الطّاءِ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن بضمِّ الطّاءِ، وقرأَ الحسن أَيضاً، وأَبو رجاءٍ، وطلحة بن مصرف بضمِّ النّون وكسر الطاءِ، ومعناها: نُسَلِّط عليهم من يبطش بهم.

ثمَّ ذكر تعالىٰ قوم فرعون على جهة المثال لقريش، و﴿فَتَنَّا﴾ معناه: امتحنّا واختبرنا، و«الرَّسول الكريم» قال قتادة: هو موسى عليه السَّلام، ومعنى الآية يعطي ذلك بِلاَ خلاف، وهنا متروك يدلُّ عليه الظّاهر: تقديره: قل لهم أَدُّوا، وهذا مأْخوذٌ من الأَداءِ، كأَنَّه يقول: أَن ادفعوا إِليَّ وأَعطوني ومكِّنوني، واختلف المتأَوِّلون في الشَّيءِ المؤدَّى في هذه الآية، ما هو؟ فقال مجاهد، وابن زيد، وقتادة: طلب منهم أَن يؤدوا إِليه بني إِسرائيل، وإِيَّاهم أَراد بقوله: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: المعنى: اتبعوني إِلى ما أَدعوكم إِليه من الحقِّ، فقوله: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ منادى مضاف، والمؤدَّى هو الطّاعة والإِيمان والأَعمال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والظّاهر من شرع موسى عليه السَّلام أَنَّه بُعث إِلى دعاءِ فرعون إِلى الإِيمان، وأَن يُرسل بني إِسرائيل، فلمّا أَبَى أَن يؤمن بقيت المكافحة في أَن يرسل بني إِسرائيل، وفي إِرسالهم قوله: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾، أَي بني إِسرائيل، ويقوّي ذلك قوله بَعْدُ: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾، وهذا قريب نَصٌّ في أَنَّه إِنَّما يطلب بني إِسرائيل فقط، ويؤيد ذلك أَيضاً قوله تعالىٰ: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾، فكنَّى عنهم بـ[عِبَادِي]، فيظهر أَنَّه إِيّاهم أَراد موسى عليه السَّلام بقوله: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ معناه: على وحي الله تعالىٰ أُؤَدِّيه إِلى عباده.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟
لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ
رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا
فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

المعنى: كانت رسالتُهُ وقولُه: أَنْ أَدُّوا وأَلاَّ تَعْلُوا، وعبَّر بالعُلُوِّ عن الطُّغيان والعُتُوِّ على الله تعالىٰ وعلى شرعه ورسوله. وقرأ الجمهور: ﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم﴾ بكسر الألف من ﴿إنِّي﴾ على الإخبار المؤكد، و«السُّلطان»: الحُجَّة، فكأنَّه قال: لا تكفروا فإنّ الدّليل المؤدي إلى الإيمان بيِّن، وقرأت فرقة: [أنِّي آتيكم] بفتح الألف. و[أَنَّ] في موضع نصب، بمعنى: لا تكفروا من أجل أَنِّي آتيكم بسلطان مبين، فكأَنَّ مقصد الكلام التَّوبيخ، كما تقول لإنسان: لا تغضب أَنَّ الحقَّ قيل لك.

وقوله: ﴿وَإِنِّى عُذْتُ﴾ الآية كلامٌ قاله موسى عليه السَّلام لخوف لحقه من فرعون وملائه، و﴿عُذْتُ﴾ معناه: استجَرْتُ وتحرَّمت، وأَدغم الذّال في التّاءِ الأَعرج، وأَبو عمرو، واختلف النّاس في قوله: ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ ـ فقال قتادة وغيره: أَراد الرَّجم بالحجارة المؤدي إلى القتل، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما، وأبو صالح: أَراد الرّجم بالقول من السِّباب والمخالفة ونحوه، والأَوَّل أَظهر؛ لأَنَّه أُعيذ منه ولم يُعَذ من الآخر، بل قيل فيه عليه السَّلام وله، وقوله: ﴿تُؤْمِنُوا۟ لِى﴾ معناه: تؤمنوا بي، والمعنى: تصدقوا، وقوله: ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾ مُتاركة صريحة، قال قتادة: أَراد: خَلُّوا سبيلي.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ قبله محذوف من الكلام تقديره: فما كفُّوا عنه، بل تطرَّقوا إليه، وعتَوْا عليه وعلى دعوته فدعا ربَّه، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن، وعيسى: [إنَّ هؤلاء] بكسر الأَلف من [إنَّ]، على معنى: قال إِنَّ، وقرأ جمهور الناس، والحسن أَيضاً: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بفتح الأَلف، والقراءَتان حسنتان، وحكم عليهم بالإجرام المُضمَّن للكفر حين يئس منهم، وهنا أَيضاً محذوف من الكلام تقديره: فقال الله تعالىٰ له: فَأَسْرِ بعبادي، وهذا هو الأَمر الَّذي أَنفذه الله تعالىٰ إِلى موسى عليه السَّلام بالخروج من ديار مصر ببني إِسرائيل، وقد تقدَّم شرحه وقَصَصُه في سورة الأَنبياءِ عليهم السَّلام وغيرها، وقرأَ جمهور النّاس: [فَاسْر] موصولة الأَلف، وقرأَ: ﴿فَأَسْرِ﴾ بقطع الأَلف الحسنُ،

وعيسى، ورُويت عن أَبي عمرو[١]، وأَعلمه تعالىٰ بأَنَّهم مُتَّبَعُونَ، أَي: يتبعهم فرعون وجنوده.

واختلف المفسِّرون في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾، متى قالها سبحانه وتعالىٰ لموسى عليه السَّلام؟ فقالت فرقة: هذا كلام متَّصل، إِنَّكم مُتَّبَعون واترك البحر إِذا انفرق لك رهْواً، وقال قتادة وغيره: خوطب عليه السَّلام به بعد أَن جاز البحر وخشي أَن يدخل فرعون وقومه وراءَه، وأَن يخرجوا من المسالك الَّتي خرج منها بنو إِسرائيل، فَهَمَّ موسى عليه السَّلام بأَن يضرب البحر عسى أَن يلتئم ويرجع إِلى حاله فقيل له عند ذلك: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾.

واختلفت عبارة المفسرين في تفسير الرَّهْوِ ـ فقال مجاهد وعكرمة: معناه: يَبَساً، من قوله تعالىٰ: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾[٢]، وقال الضّحّاك بن مزاحم: معناه: دَمِثاً لَيِّناً، وقال عكرمة أَيضاً: جُدَداً[٣]، وقال ابن زيد: سهلاً، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: معناه: ساكناً، أَي كما جُزْتَه، وهذا القول الأَخير هو الّذي تؤيده اللُّغة؛ فإِنَّ العيش الرَّاهي هو الَّذي في خَفْضٍ ودَعَة وسكون، حكاه المبرِّد وغيره، والرَّهْوُ في اللُّغة هو هذا المعنى، ومنه قول عُمَيْر بن شُيَيْم القُطامي:

يَمْشِيـنَ رَهْـواً فَـلاَ الأَعْجَـازُ خَـاذِلَـةٌ ... وَلاَ الصُّدُورُ عَلَى الأَعْجَازِ تَتَّكِلُ[٤]

فإِنَّما معناه: يمشين اتئاداً وسكوناً وتماهُلاً، ومنه قول الآخر:

---

(١) وهي قراءة عاصم برواية حفص عنه كما هو ثابت في المصحف الشَّريف.

(٢) من الآية (٧٧) من سورة (طه).

(٣) الجُدَدُ: جمع جُدَّة، وهي جزءُ الشيءِ يخالفُ لونه لونَ سائره، وهذا ينطبق على كلِّ فِرْق انفلق عنه البحر بعد أن ضربه موسى بعصاه.

(٤) هذا بيت من قصيدة لِلْقُطامي اختارها صاحب الجمهرة، ومطلعها يقول:

إِنَّـا مُحَيُّـوكَ فَـاسْلَـمْ أَيُّهَـا الطَّلَـلُ ... وإِنْ بَلِيـتَ وَإِنْ طَـالَـتْ بِـكَ الطِّـوَلُ

والبيت المختار هنا في وصف الإبل الّتي أضناها السَّفر الطَّويل، والرَّهْوُ: السَّير السَّهل المُتَأَنِّي، والأَعجَازُ: جمع عَجُز، وهو مؤخر النَّاقة، والصُّدور: جمع صدر، وهو مُقَدَّم الشَّيء، والمراد هنا صدر الناقة، وخاذلةٌ: غير مساعدة، والبيت في اللِّسان (رَهَا)، وقد نقل عن أبي عبيد أَنَّ الرَّهْو هو السَّير الخفيف، وعن الجوهريِّ أَنَّه السَّير السَّهل، وقال أيضاً: هو مشيٌ في سكون.

. . . . أَوْ أُمَّةٌ خَرَجَتْ رَهْواً إِلى عِيدِ(١)

أي: خرجوا في سكون وتماهل، فقال لموسى عليه السَّلام: اترك البحر ساكناً على حاله من الافتراق ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، والرَّهْوُ من أَسماءِ الكُرْكيِّ الطّائر(٢)، ولا مدخل له في تفسير الآية، ويشبه عندي أَنَّه سُمِّي رهْواً لسكونه وأَنَّه أَبداً على تماهل.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟﴾ الآيةَ... قَبْلَهُ محذوف تقديره: فغرقوا وقطع الله دابرهم، ثمَّ أَخذ الله تعالىٰ يعجب من كثرة ما تركوا من الأُمور الرَّفيعة العظيمة في الدُّنيا، و[كَمْ] خبر للتَّكثير، والجنَّاتُ والعيونُ رُوي أَنَّها كانت متَّصلة على ضفَّتيِّ النيل جميعاً من رشيد إِلى أَسوان، وأَمَّا العيون فيحتمل أَنَّه أَراد الخلجان الخارجة من النيل فشبَّهها بالعيون، ويحتمل أَنه كانت ثَمَّ عيونٌ ونضبت، كما يعتري في كثير من بقاع الأَرض، وقرأَ قتادة، ومحمد بن السُّميفع اليمانيُّ، ونافع ـ في رواية خارجة عنه ـ: [وَمُقَام] بضمِّ الميم، أَيْ مَوضع إِقامة، وكذلك قرأَ اليمانيُّ في كلِّ القرآن إِلاَّ في مريم

---

(١) هذا عجز بيت لم يعرف قائله، وقد استشهد به وببيْتٍ قبله الفراءُ في (معاني القرآن)، قال: وأنشدني أبو ثروان:

كَأَنَّمَا أَهْلُ حُجْرٍ يَنْظُرُونَ مَتَى ... يَرَوْنَنِي خَارِجاً طَيْرٌ يَنَادِيدُ
طَيْرٌ رَأَتْ بَازِياً نَضْحُ الدِّمَاءِ بِهِ ... أَو أُمَّةٌ خَرَجَتْ رَهْواً إِلى عِيدِ

واستشهد بهما الطَّبريُّ أيضاً في تفسير هذه الآية، لكن الرِّواية فيه: (وأُمَّةُ خرجت)، وهو تحريف، ولعلَّ بعضهم ظنَّ أنَّ اللَّفظ يراد به أُمُّ البازي، ولكنَّ الشَّاعر هنا يشبه أهل حُجْر حين وقفوا ينتظرون خروجه بالطَّير المتفرقة الَّتي رأت صقراً قدْ تناثرت الدِّماءُ عليه من كثرة ضحاياه، ويشبههم أيضاً بالجماعة من النَّاس الَّتي خرجت في سهولة ورفق إلى عادتها، والبيت الأوَّل في اللِّسان، ذكره شاهداً على معنى «يناديد»، قال: «وطيْرٌ يناديد وأَناديد: متفرقة، قال: كأنَّما أهل حُجْر... البيت»، وقد ضبط حُجْراً بضمِّ الحاء، قال الحمويُّ في (معجم البلدان): «وحُجْر بالضَّمِّ قرية باليمن من مخاليف بدر...» والطَّير اليناديد: المتفرقة، والبازي: نوع من الصُّقور، ونضح الدِّماء به: آثار الدِّماء تناثرت عليه، ويروى بالخاء المعجمة، والنَّضخ: الأثر، ومن معاني العِيدِ أنَّه عادة الإنسان، أو ما يعتاده من همٍّ وحُزن، فهو يقول: إنَّها خرجت إلى عادتها أو إلى أمر يهمُّها ويحزنها، هذا وفي البيتين إقواءٌ كما ترى.

(٢) الرَّهْوُ: طائر معروف يقال له الكُرْكيُّ، وقيل: هو من طير الماءِ يُشبهه وليس به، وقال ابن بَرِّي: هو طائر غير الكُرْكيِّ. (راجع لسان العرب).

﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾[١]، فكأنَّ المعنى: كم تركوا من موضع حسن كريم في قدره ونفعه، وقرأ جمهور النّاس، ونافع: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ بفتح الميم، أي موضع قيام، فعلى هذه القراءَة قال ابن عبّاس، ومجاهد، وابن جبير: أراد المنابر، وعلى ضمِّ الميم في [مُقَامٍ] قال قتادة: أراد المواضع الحسان من المساكن وغيرها، والقول بالمنابر يَهي جدًّا[٢].

و«النَّعْمَةُ» ـ بفتح النّون ـ: غضارة العيش ولذاذة الحياة، و«النِّعمة» ـ بكسر النون ـ: أَعَمُّ من هذا؛ لأَنَّ النَّعمة بالفتح هي من جملة النِّعم بالكسر، وقد تكون الأَمراضُ والآلام والمصائب نِعَماً، ولا يقال فيها نَعْمة بالفتح، وقرأَ أَبو رجاءٍ: [وَنَعْمَةً] بالنَّصب، وقرأَ جمهور النّاس: ﴿فاكهينَ﴾ بمعنى: ناعمين، والفَاكهُ: الطَّيِّب النّفس، أَو يكون بمعنى: أَصحاب فاكهة كلابنٍ وتامرٍ، وقرأَ أَبو رجاءٍ، والحسن ـ بخلاف عنه ـ وابن القعقاع: [فَكِهِينَ]، ومعناه قريب من الأَوّل، لكنَّ الفَكه يُستعمل كثيراً في المستخفِّ المستهزىء، فكأَنّه ها هنا يقول: كانوا في هذه النَّعمة مُسْتَخفِّين بشكرها والمعرفة بحقِّها.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ معناه: الأَمر كذلك، وسَمَّاهُ وراثة من حيث كانت أَشياءَ أَناس وصلت إِلى آخرين بعد موت الأَوّلين، وهذه حقيقة الميراث في اللُّغة، وربطها الشَّرع بالنَّسب وغيره من أَسباب الميراث، و«الآخرون»: من مَلَك مصر بعد القبط، وقال قتادة: القوم الآخرون هم بنو إِسرائيل، وهذا ضعيف لأَنّه لم يُرْوَ في التّواريخ أَنَّ بني إِسرائيل رجعوا إِلى مصر في شيءٍ من ذلك الزّمان ولا ملكوها قطُّ، إلاَّ أَن يريد قتادة أَنَّهم ورثوا نوعها في بلاد الشّام. وذكر الثّعلبيُّ عن الحسن أَنَّ بني إِسرائيل رجعوا إِلى مصر بعد هلاك فرعون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

---

(١) من الآية (٧٣) من سورة (مريم).
(٢) من قولهم: «وَهَى الشيءُ يهي» بمعنى: ضعف.

نفت هذه الآية أن تكون السَّماءُ والأَرض بكت على قوم فرعون، فاقتضى اللَّفظ أَنَّ للسَّماءِ والأَرض بكاءً، واختلف المتأَوِّلون في معنى ذلك ـ فقال عليٌّ بن أَبي طالب، وابن عبّاس، ومجاهد، وابن جبير رضي الله عنهم: إِنَّ الرَّجل المؤمن، إذا مات بكى عليه من الأَرض موضع عباداته أَربعين صباحاً، وبكى عليه من السَّماءِ موضع صعود عمله، قالوا: فلم يكن في قوم فرعون مَنْ هذه حاله، فهذا معنى الآية. وقال السُّديُّ، وعطاءٌ: بكاءُ السَّماءِ حُمْرَةُ أَطرافها، وقالوا: إِنَّ السماءَ احمرَّت يوم قتل الحسين بن علي بن أَبي طالب رضي الله عنهما، وكان ذلك بكاءً عليه، وهذا هو معنى الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمعنى الجيِّد في الآية أَنَّها استعارة بارعة فصيحة تتضمَّن تحقير أَمرهم، وأَنَّهم لم يتغيَّر عن هلاكهم شيءٌ، وهذا نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾[١] على قراءَة من قرأَ: [لِتَزُولَ] بكسر اللاَّم ونصب الفعل وجَعْل [إِنْ] نافيةً، ومثل هذا المعنى قول النَّبيِّ ﷺ: «لا يَنْتَطِحُ فيها عنزان»[٢] فإِنَّه يتضمَّن التَّحقير، لكنَّ هذه الأَلفاظ هي بحسب ما قيلت فيه وهو قتل المرأَة الكافرة الَّتي كانت تؤذي النَّبيَّ ﷺ، وعُظْم قصة فرعون وقومه يجيءُ بحسبها جمال الوصف وبهاءُ العبارة في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾، ومن نحو هذا أَن نعكس قول جرير:

لَمَّا أَتَى خَبَرُ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ ... سُورُ الْمَدِينَةِ والجِبَالُ الْخُشَّعُ[٣]

---

(١) من الآية (٤٦) من سورة (إبراهيم).

(٢) هذا الحديث جرى مجرى المثل، وقد ذكره الميدانيُّ في (مجمع الأمثال)، وقال: معناه: لا يكون له تغيير ولا له نكير، وذكره الزَّمخشريُّ في (المستقصى في أمثال العرب)، وقال يضرب للأمر الَّذي لا غير له ولا يدرك به ثأر. وذكره الميدانيُّ في كتابه (النِّهاية في غريب الحديث والأثر)، وقال: أي لا يلتقي فيه اثنان ضعيفان؛ لأنَّ النِّطاح من شأن التُّيوس والكباش لا العنوز، وهو إشارة إلى قضية مخصوصة لا يجري فيها خلف ونزاع.

(٣) هذا البيت من قصيدة لجرير يهجو الفرزدق وجميع الشُّعراءِ، ويقول في مطلعها:

بَانَ الخَلِيطُ بِرَامَتَيْنِ فَوَدَّعُوا ... أَو كُلَّمَا رَفَعُوا لِبَيْنٍ تَجْزَعُ؟

وهي في النَّقائض، وهو يذمُّ الفرزدق لأنَّ قومه لم يدافعوا عن الزُّبير وتركوه للقتل، بل إنَّه بعد ذلك يصمُّهم بالغَدْر والخيانة ويسجِّل عليهم أنَّهم تركوا جارهم، وأنَّه لو حلَّ جارهم هذا إليه لَمَنَعَه بالخيل، وقوله: «والجبال الخُشَّعُ» معناه: والجبال خُشَّع لهذا الحدث، فجعل الخُشَّع خبراً.

فيقال في التَّحقير: «مات فلانٌ فما خشعت الجبال» ونحو هذا، وفي الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «ما ماتَ مؤمن في غربة غابت عنه فيها بَوَاكيه إلاَّ بَكَت عليه السَّماءُ والأرض، ثمَّ قرأَ هذه الآية وقال: إنَّهما لا يبكيان على كافر»(١)، ومن التَّفخيم ببكاءِ المخلوقات العظام قول يزيد بن مُفَرِّغ:

فَـالـرِّيـحُ تَبْكِـي شَجْـوَهَـا ... والبَـرْقُ يَلْمَـعُ فـي الْغَمَـامَـهْ(٢)

وقول الفرزدق:

فـالشَّمسُ طَـالِعَـةٌ لَيْسَـتْ بِكَـاسِفَـةٍ ... تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومَ اللَّيْلِ والْقَمَرَا(٣)

---

(١) أخرجه ابن أبي الدُّنيا، وابن جرير، عن شريح بن عبيد الحضرميِّ مرسلاً، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً، ألا لا غُربة على مؤمن، ما مات مؤمن في غُربة غابت عنه فيها بَوَاكيه إلاَّ بكت عليه السَّماءُ والأرض، ثمَّ قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾، ثمَّ قال: إنَّهما لا يبكيان على كافر».

(٢) هذا البيت لابن مفرِّغ واحد من أبيات قالها في بيعه جارية له تُسمَّى الأراكة وغلاماً يُسمَّى بُرْداً، وكانا أعز عليه من نفسه، وقد أرغمه عبَّاد بن زياد على بيعهما، والقصة في الأغاني، وخزانة الأدب، وأمالي الزَّجاجي، والوفيات، والبيت في (مشكل القرآن)، و(الأضداد) للأنباريِّ. وقد ورد البيت في الأصول محرفاً، والتصويب عن الخزانة، والوفيات، ومن أبيات ابن مُفَرِّغ هذه:

وَشَـرَيْـتُ بُـرْداً لَيْتَنِـي ... مِـنْ بَعْـدِ بُـرْدٍ كُنْـتُ هَـامَـهْ
أوْ بـومَـةً تَـدْعـو صَـدىً ... بيْـنَ المُشَقَّـرِ والْيَمَـامَـهْ
فـالـرِّيـحُ تَبْكِـي شَجْـوَهَـا ... والبَـرْقُ يَلْمَـعُ فـي الْغَمَـامَـهْ
والعَبْـدُ يُقْـرَعُ بِـالْعَصَـا ... والحُـرُّ تكفيـه المَـلامَـهْ

والشَّاهد هنا التَّفخيم ببكاء الرِّيح ولمعان البرق في الغمام؛ لأنَّه باع غلامه بُرْداً، و(شَرَى) هنا بمعنى (باعَ).

(٣) هكذا في الأصول: «وقول الفرزدق»، والصَّحيح أنَّ البيت لجرير، قاله يرثي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وهو في الديوان، والصِّحاح، واللِّسان، والتَّاج، ومشكل القرآن، وهو ثالث أبيات ثلاثة، هي:

تَنْعـي النُّعَـاةُ أميـرَ المُـؤمنيـنَ لَنَـا ... يـا خَيْـرَ مَـنْ حَـجَّ بيـتَ الله واعتَمَـرَا
حُمِّلـتَ أمـراً عظيمـاً فـاصْطَبَـرْتَ لَـهُ ... وقُمْـتَ فيـهِ بـأمْـرِ اللهِ يـا عُمَـرَا
فـالشَّمـسُ كـاسفـةٌ لَيْسَـتْ بطـالِعَـةٍ ... تبكـي علَيْـكَ نجـومَ اللَّيـلِ والقَمَـرَا

وقوله: يا عُمَرَا، أراد: يا عُمراه على النُّدبة، ورواية البيت موضع الشَّاهد: (فَالشَّمس كاسفَةٌ) على عكس ما في ابن عطيَّة، أراد أنَّ الشَّمس كاسفةٌ تبكي عليك الشَّهر والدهرَ، وهذا قول الكسائيِّ، وقيل: إنَّ المعنى أنَّ الشَّمس كسفت نجوم اللَّيل والقمرَا وهي تبكي عليك، وفيه بُعْد؛ لأنَّ النُّجوم والقمر=

و[مُنْظَرِينَ] معناه: مُؤَخَّرين ومهملين.

ثمَّ ذكر تعالىٰ نعمته على بني إسرائيل في إنجائهم من فرعون وقومه، و«ٱلْعَذَابُ ٱلْمُهِينُ» هو ذبح الأبناءِ والتَّسخير في المِهَنِ كالبنيان والحفر ونحوه، وفي قراءَة ابن مسعود رضي الله عنه: [مِن عَذَاب ٱلْمُهين] بسقوط التَّعريف بالألف واللاّم من ﴿ٱلْعَذَابِ﴾. وقوله تعالىٰ: ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدل من قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾، و[مِنْ] بكسر الميم هي قراءَة الجمهور، وروى قتادة أَنَّ ابن عبّاس رضي الله عنهما كان يقرؤُها: [مَنْ] بفتح الميم [فِرْعَوْنُ] برفع النون.

وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أَي على شيءٍ قد سبق عندنا فيهم وثبت في علمنا أَنَّه سينفذ، وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يريد: على جميع النّاس، هذا على التأويل المتقدِّم في العلم، والمعنى: لقد اخترناهم لهذا الإنجاءِ وهذه النِّعم على سابق علم لنا فيهم، وخصصناهم بذلك دون العالم، ويحتمل قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أَن يكون: على علم لهم وفضائل فيهم، والمعنى: اخترناهم للنُّبوات والرِّسالات، فيكون قوله تعالىٰ: ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ـ في هذا التَّأويل ـ معناه: على عالَم زمانهم، وذلك بدليل فضل أُمَّة محمد ﷺ لهم وعليهم، وأَنَّ أُمَّة محمد ﷺ هي خير أُمَّة أُخرجت للنَّاس، وقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ لفظ جامع لمعجزات موسى عليه السَّلام، والعِبَر الَّتي ظهرت في قوم فرعون من الجراد والقُمَّل والضَّفادع وغير ذلك، ولِمَا أَنعم به على بني إسرائيل من تظليل الغمام والمَنِّ والسَّلوى وغير ذلك، فإِنَّ لفظ الآيات يعُمُّ جميع هذا. و«ٱلْبَلَٰٓؤُا» ـ في هذا الموضع ـ: الاختبار والامتحان، وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[(١)]، و[مُبِينٌ] هنا بمعنى بيِّن.

ثمَّ ذكر تعالىٰ قريشاً وحكى عنهم ـ على جهة الإنكار لقولهم حين أَنكروا فيه ما هو جائز في العقل ـ فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾، أَي: ما آخر أَمرنا ومُنتَهى وجودنا إلاَّ عند موتنا، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أَي بمبعوثين، يقال: أَنْشَرَ الله الميت فنَشَر هُوَ. وقول قريش: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ مخاطبة للنَّبيِّ ﷺ، إلاَّ أَنَّه من

= لا ينكسفان طول الدَّهر، والشَّاهد هنا تفخيم الأمر وتهويله بكسوف الشَّمس وبكائها على الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

(١) من الآية (٣٥) من سورة (الأنبياء).

حيث كان النَّبيُّ ﷺ مسنداً في أقواله وأَفعاله إِلى الله تعالىٰ وبواسطة ملك خاطبوه كما تخاطب الجماعة وهم يريدونه وربَّه تعالىٰ وملائكته، واستدعى الكفّار في هذه الآية أَن يحيي لهم بعض آبائهم ـ وسَمُّوا قُصَيًّا ـ لكي يسأَلوهم عمَّا رأَوْا في آخرتهم، ولم يستقص في هذه الآية الرَّدَّ عليهم لبيانه وإِثباته في غير ما آية من كتاب الله تعالىٰ، فإِنَّ الله تعالىٰ قد جزم البعث من القبور في أَجل مسمًّى لا يتعدَّاه أَحد، وقد بيَّنت الأَمثلةُ من الأَرض الميتة وحال النَّبات أَمْرَ البعث من القبور.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تقرير فيه وعيدٌ، وتُبَّعٌ مِلك حِمْيري، وكان يقال لكلِّ مِلك فيهم: تُبَّع، إِلاَّ أَنَّ المشار إِليه في هذه الآية رجل صالح من التَّبابعة، قال كعب الأَحبار: ذمَّ الله تعالىٰ قومه ولم يَذُمَّه، ونهى العلماءُ عن سبِّه، وروي عن النَّبيِّ ﷺ من طريق سهل بن سعد أَنَّ تُبَّعاً هذا أَسلم وآمن بالله تعالىٰ، ورُوي أَنَّ ذلك كان على يد أَهل كتاب كانوا بحضرته[(١)]، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: كان تُبَّع نبيًّا، وروى أَبو هريرة رضي الله تعالىٰ عنه عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قال: «ما أَدري أَكان تُبَّع نبيًّا أَو غير نبيٍّ»[(٢)]، وقال ابن جبير رضي الله عنه: هو الّذي كسا الكعبة، وقد ذكره ابن إِسحق في السِّيرة، والله أَعلم. وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ يريد: بالكفر،

---

(١) أخرجه أحمد، والطَّبرانيُّ، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن سهل بن سعد السَّاعديِّ رضي الله عنه، وذكره الإمام السُّيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور، ولفظه أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبُّوا تبَّعاً، فإنَّه كان قد أسلم».

(٢) ترجم الحافظ ابن عساكر في تاريخه ترجمة حافلة لتُبَّع، وذكر أنه ملك دمشق، ثم ساق عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «ما أدري، الحدود طهارة لأهلها أم لا؟ ولا أدري تُبَّعٌ لعيناً كان أم لا؟ ولا أدري ذو القرنين نبياً كان أم ملكاً»، وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن محمد بن حمّاد الظهرانيِّ، عن عبد الرَّزاق، وقال عبد الرَّزاق أيضاً: أخبرنا معمر عن ابن أبي ذؤيب عن المقبريِّ، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «ما أدري تُبَّع نبياً كان أم غير نبيٍّ».

وقرأت فرقة: [أَنَّهُمْ] بفتح الألف، وقرأ الجمهور بكسرها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ الآيةَ... إخبارٌ فيه تنبيه وتحذير، وقوله: ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ يريد: بالواجب المفضي إلى الخيرات وفيض الهبات. و«يَوْمُ الْفَصْلِ» هو يوم القيامة، وهذا هو الإخبار بالبعث، وهو أمر جوَّزه العقل وأثبته الشَّرع بهذه الآية وغيرها، و«المولى» في هذه الآية يعُمُّ جميع الموالي من القرابات وموالي العتق وموالي الصَّداقة، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ إن كان الضَّمير يراد به العالم، فيصحُّ أن تكون [مَنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ﴾ في موضع نصب على الاستثناءِ المتَّصل، وإن كان الضَّمير يراد به الكفَّار، فالاستثناءُ منقطع، ويصحُّ أن يكون في موضع رفع على الابتداءِ والخبر مقدَّر، تقديره: فإنَّه يغني بعضهم عن بعض بالشَّفاعة ونحوها، أو يكون تقديره: فإنَّ الله ينصره[1].

قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾، رُوي عن ابن زيد أن [ٱلْأَثِيمِ] المشار إليه هو أبو جهل، ثُمَّ هي ـ بالمعنى ـ تتناول كلَّ أثيم وكلَّ تاجر يكتسب الإثم، ورُوي عن همَّام أنَّ أبا الدَّرداءِ أقرأ أعرابيًّا، فكان يقول: «طعام اليتيم»، فردَّ عليه أبو الدَّرداءِ مراراً فلم يُلقَّن، فقال له: قل: طعام الفاجر، فقرئت كذلك، وإنَّما هي على التَّفسير، وهي الشَّجرة الملعونة في القرآن، وهي تنبت في أصل الجحيم، وروي أنَّ أبا جهل لمَّا نزلت هذه الآية وأشار النَّاس بها إليه، صنع عجوة بزُبْد، ثمَّ دعا إليها ناساً، فقال لهم: تزقَّموا فإنَّ الزقوم هو عجوة يُثْرَدُ بالزبد وهو طعامي الذي حدَّث به محمد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنَّما قصد بذلك ضرباً من المغالطة والتَّلبيس على الجهلة.

---

(١) وقيل: إنَّ [مَنْ] رفع على البدل من المضمر في [يُنْصَرُونَ]، أو على البدل من [مَوْلىً] الأوَّل، كأنَّه قال: لا يغني إلاَّ من رحم الله، والقول بأنَّ [مَنْ] في موضع نصب على الاستثناءِ المنقطع هو قول الكسائيِّ والفراءِ، ولكن نقل الطَّبريُّ عن بعضهم أنَّه لا يجوز أن يكون بدلاً مما في [يُنْصَرُونَ] لأنَّ [إلاَّ] مُحقَّق، والأوَّل منفي، والبدل لا يكون إلاَّ بمعنى الأوَّل، وأنَّه لا يجوز أن يكون مُسْتأنفاً؛ لأنَّه لا يُسْتأنف بالاستثناءِ، واختار الطَّبريُّ ـ بعد هذا كلِّه ـ أن يكون [مَنْ] في موضع رفع بمعنى: يوم لا يغني مولىً عن مَوْلىً شيئاً؛ إلاَّ من رحم الله منهم، فإنَّه يُغني عنه بأن يشفع له عند ربِّه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قال ابن عبّاس، وابن عمر رضي الله عنهم: «المُهْل»؛ درديُّ الزيت وعكره، وقال ابن مسعود، وابن عبّاس أيضاً رضي الله عنهم: المُهْلُ: ما ذاب من ذهب أو فضة أو حديد أو رصاص ونحوه، قال الحسن: كان ابن مسعود على بيت المال لعمر رضي الله عنه بالكوفة، فأذاب يوماً فضّةً مكسّرة، فلمّا انماعت قال: يدخل من بالباب، فدخلوا، فقال لهم: هذا أشبه ما رأينا في الدُّنيا بالمُهْل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمعنى أنَّ هذه الشَّجرة إذا طَعِمَها الكافر في جهنَّم صارت في جوفه تفعل كما يفعل المُهْل السّخن من الإحراق والفساد، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم في رواية أبي بكر: [تَغْلِي] بالتَّاءِ، أي الشَّجرة، وهي قراءَة عمرو بن ميمون، وأبي رزين، والحسن، والأعرج، وأبي جعفر، وشيبة، وابن محيصن، وطلحة، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وعاصم في رواية حفص: [يَغْلِي] باليَّاءِ على معنى الطَّعام، وهي قراءَة مجاهد، والحسن ـ بخلاف عنه ـ و[ٱلْحَمِيمِ]: الماءُ السُّخن الَّذي يتطاير من غليانه.

وقوله تعالىٰ: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾ الآيةَ ـ معناه: يقال يومئذ للملائكة عن هذا الأثيم: خذوه فاعتلوه، و«الْعَتْلُ»: السَّوْق بعنف وإهانة ودفْع قويٍّ متَّصل، كما يُساق أبداً مرتكب الجرائم، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: [فَاعْتُلُوهُ] بضمِّ التَّاءِ، والباقون بكسرها، وقد رُوي الضمُّ عن أبي عمرو، وكذلك روي الوجهان عن الحسن، وقتادة، والأعرج، و«السَّوَاءُ»: الوسط، وقيل: المُعْظَم، وذلك متلازم، المُعْظَم أبداً من مثل

هذا إنَّما هو في الوسط، وفي الآية ما يقتضي أَنَّ الكافر يُصَبُّ على رأسه من حميم جهنَّم، وهو ما يغلي فيها من ذَوْب، وهذا كما في قوله تعالىٰ: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾[1]، وإِلى هذا نظر بعض ولاة المدينة، فإنَّه كان يصبّ الخمر على رأس الَّذي شربها أَو توجد عنده عقوبةً له وأَدباً، ذكر ذلك ابن حبيب في الواضحة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ مخاطبة على معنى التَّقريع، ويروى عن قتادة أَنَّ أَبا جهل قال لمَّا نزلت ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾: أَيَتَهَدَّدُني محمد ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وأَنا ما بين جَبَلَيْهَا أَعزُّ منِّي ولا أَكرم؟ فنزلت هذه الآيات وفي آخرها ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾، أَي: على قولك، وهذا كما قال جرير:

أَلَمْ يَكُنْ ـ في وُسُومٍ قَدْ وَسَمْتُ بهَا ... مَنْ حَانَ ـ موعظة يا زَهْرَةَ اليَمَنِ؟

يقولها للشاعر الذي سمَّى نفسه به، وذلك في قوله:

أَبْلِغْ كُلَيْباً وَأَبْلِغْ عَنْكَ شَاعِرَهَا ... أَنِّي الأَعَزُّ وَأَنِّي زَهْرَةُ الْيَمَنِ[2]

فجاءَ بيت جرير على جهة الهُزْءِ. وقرأَ الجمهور: [إِنَّكَ] بكسر الأَلف، وقرأَ الكسائيُّ وحده: [أَنَّكَ] بفتح الأَلف، والمعنى واحد في المقصد وإِن اختلف المأْخذ إِليه، وبفتح الأَلف قرأَها على المنبر الحسين بن علي بن أَبي طالب رضي الله عنهما، أَسندها إِليه الكسائيُّ واتَّبعه فيها.

---

(١) من الآية (١٩) من سورة (الحجّ).

(٢) كان جرير قاسياً في هجائه، وقد تجمع عليه عدد كبير من الشُّعراء يهجونه ويُعيِّرونه بفقره، لكنَّه غلبهم وأخزاهم، وهذا شاعر من بني الحارث بن كعب قال شعراً يذمُّ فيه كليباً قبيلة جرير، ويقول له: إنِّي أنا الأعزُّ وإنِّي زهرة اليمن، وردَّ عليه جرير بسبعة أبيات أوَّلها هذا البيت الذي استشهد به ابن عطيَّة، والأبيات في الدّيوان، والرِّواية فيه: (يا حارث اليمن) بدلاً من (يا زهرة اليمن)، والوَسْمُ: أثر الكيِّ بالنَّار، وحان الرَّجلُ: هلك، والمقصود به هنا الشَّاعر الَّذي يهجوه جرير، يقول له: ألم تكن لك موعظة في الشّعر الَّذي هجوتك به من قبل، فكان كالنَّار الَّتي أكويك بها وأقضي عليك يا من تسمِّي نفسك زهرة اليمن؟ ثمَّ يقول له فيما بعد ذلك من أبيات: إن قصائدي قد ملأت الدُّنيا وامتدت فيما بين مصر وعدن، إلى أن يقول:

أَمسى سَرَاةُ بني الدَّيَّانِ ناصِيَةً ... واللُّؤْمُ يَأْوِي إِلَيْكُمْ يا بَنِي قَطَنِ

وبنو قطن: قوم من بني الحارث بن كعب. والشَّاهد في البيت المذكور ها هنا هو المخاطبة على معنى التَّقريع والسُّخرية.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ عبارةٌ عن قول يقال للكفرة عند عذابهم، أَي: هذه الآخرة وجهنَّم الَّتي كنتم تشكُّون فيها.

ثمَّ ذكر تعالىٰ حالة المتَّقين بعقب ذكر حالة الكفار ليبين الفرق، وقرأَ نافع، وابن عامر: [في مُقامٍ أمين] بضمِّ الميم، وهي قراءَة أَبي جعفر، وشيبة، وقتادة، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، والحسن، والأَعرج، وقرأَ الباقون: ﴿ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ بفتح الميم، وهي قراءَة أَبي رجاءٍ، وعيسى، ويحيى، والأَعمش، و[أَمين] معناه: تؤمن فيه الغِيَر، فكأَنَّه فعيل بمعنى مفعول، أَي: مأْمون فيه، وكسر عاصم العين من [عِيُونٍ][1]، قال أَبو حاتم: وذلك مردود عند العلماءِ، ومثله: شِيُوخٌ وبِيُوتٌ بكسر الشِّين والباءِ. و«السُّنْدُسُ»: رقيق الحرير، و«الإِسْتَبْرَقُ»: خَشِنُه، وقرأَ ابن محيصن: [وَٱسْتَبْرَقَ] بالوصل وفتح القاف، وقوله: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ وصف لمجالس أَهل الجنَّة؛ لأَنَّ بعضهم لا يستدبر بعضاً في المجالس.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾ تقديره: الأَمر كذلك، وقرأَ الجمهور: ﴿عِينٍ﴾، وهو جمع عَيْنَاءَ[2]، وقرأَ ابن مسعود: «بِعِيسٍ عِينٍ»، وهو جمع عَيْسَاءَ، أَي بيضاءَ[3]، وكذلك هي من النوق، وقرأَ عكرمة: [بحور عين] بغير تنوين في [حُور]، وأَضافها إِلى [عِينٍ]، قال أَبو الفتح: الإِضافة هنا تفيد ما تفيد الصِّفة، وروى أَبو قِرْصَافَةَ[4] عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قال: «إِخراج القمامة من المسجد من مهور الحور العين».
وقوله تعالىٰ: ﴿ يَدۡعُونَ فِيهَا﴾ معناه: يدعون الخدمة والمتصرِّفين.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾، قدَّر قوم [إِلاَّ] بـ «سِوَى»، وضعَّف ذلك الطَّبريُّ وقدَّرها بـ «بَعْد»، وليس تضعيفه بصحيح، بل يصحُّ المعنى بِسِوَى ويتَّسق[5]،

(١) أي في رواية أبي بكر عنه، أمَّا رواية حفص فهي: [عُيُون] بضمِّ العين كما هو ثابت في المصحف.
(٢) العَيَنُ: عِظَم سواد العين وسَعَتُها، يقال: هو أَعْيَن، والأنثى: عيناء.
(٣) العِيسُ: بياضٌ يخالطه شيءٌ من شُقرة، ورَجُلٌ: أَعْيَسُ، والأنثى: عيساءُ.
(٤) أبو قِرْصافة ـ بكسر القاف ـ هو جَنْدرة ـ بفتح الجيم وسكون النون، ثمَّ دال مهملة مفتوحة ـ ابن خَيْشَنَة، صحابيٌّ جليل، نزل الشَّام، مشهور بكنيته. (تقريب التهذيب). والحديث ذكره القرطبيُّ في تفسيره ولم يخرجه.
(٥) حُجَّة الطَّبريِّ في ذلك أنَّك إذا قلت: «لا أذوق اليوم طعاماً، إلاَّ الطَّعام الَّذي ذقته قبل اليوم» فإنَّك تريد الخبر أنَّ عندك طعاماً أنت اليوم ذائقه وطاعمه دون غيره من الأطعمة، وإذا كان هذا هو الأغلب في =

وأَمَّا معنى الآية فبيِّنٌ أَنَّه تعالىٰ نفى عنهم ذوق الموت، وأَنَّه لا ينالهم من ذلك غير ما تقدَّم في الدُّنيا.

والضَّمير في قوله تعالىٰ: [يَسَّرْنَاهُ] عائد على القرآن، وقوله: [بِلِسَانِكَ] معناه: بلغة العرب، ولم يُرد الجارحة[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ معناه: فارتقب نصرنا لك إِنَّهم مرتقبون ـ فيما يظنُّون ـ الدَّوائر عليك، وفي هذه الآية وعْدٌ له ﷺ ووعيدٌ لهم، وفيها مُتاركة، وهذا وما جرى مجراه منسوخ بآية السَّيف.

كمل تفسير سورة الدخان والحمد لله رب العالمين

* * *

= المعنى، فإنَّ قوله تعالىٰ في الآية الكريمة: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قد أثبت مَوْتَةَ أُخرى من نوع الموتة الأولى الَّتي هم ذائقوها، ومعلوم أنَّ ذلك لن يكون؛ لأنَّ الله تعالىٰ قد آمن أهل الجنَّة من الموت بعد دخولها. وإنَّما جاز أن توضع «إلاَّ» موضع «بعد» لتقارب معنى كلّ منهما من معنى الأخرى، ثمَّ مضى في كلام طويل يثبت فيه أنَّ العرب قد اعتادت أن تضع الكلمة موضع أخرى إذا تقارب المعنيان، فيضعون الرَّجاءَ موضع الخوف لما في معنى الرَّجاءِ من الخوف، ويضعون الظَّنَّ موضع العلم الَّذي أُدرك استدلالاً ولم يدرك من قِبَل العيان، قال: وهذه الآية مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، فإنَّ المعنى: بعد الَّذي سَلَف، ولا يصحُّ أن تضع هنا «سِوَى» في موضع «إلاَّ»؛ لأنَّ ذلك يكون ترجمة عن المكان وبياناً عنها بما هو أشدُّ التباساً على من أراد علم معناها منها. والزَّمخشريُّ يرى أنَّ معنى الآية: «لا يذوقون فيها الموت البَتَّةَ»، أي لا يذوقون الموت أبداً إلاَّ الموتة الأولى الَّتي كانت قبل دخول الجنَّة، وهذا هو المعنى الَّذي ذكره ابن عطيَّة، وهو الواضح المفهوم من الآية.

(١) فالمراد باللِّسان هنا اللُّغة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾، أي بِلُغَةِ قومه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سُورة الجاثية

هذه السُّورة مكِّيَّة بلا خلاف في ذلك[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾.

تقدَّم القول في الحروف المقطَّعة في أَوائل السُّور، و[تَنْزِيلُ] رفع بالابتداءِ أَو على خبر ابتداءٍ مضمر، و[ٱلْعَزِيز] معناه عامٌّ في شدَّة أَخْذه إذا انتقم، ودفاعه إذا حَمَى ونصر، وغير ذلك، و[ٱلْحَكِيم]: المُحْكِمُ للأشياءِ، وذكر تعالىٰ الآيات الَّتي في السَّموات والأرض مُجْمَلَةً غير مفصَّلة، فكأَنَّها إحالة على غوامض تثيرها الفكر، ويخبر بكثير منها الشَّرْعُ، فلذلك جعلها للمؤمنين؛ إذ في ضمن الإيمان العقلُ والتَّصديق. ثمَّ ذكر تعالىٰ خلق البشر والحيوان وكأَنَّه أَغمض ممَّا أَحال عليه أَوَّلاً وأَكثر تلخيصاً، فجعله للموقنين الَّذين لهم نظر يؤديهم إلى اليقين في معتقداتهم، ثمَّ ذكر اختلاف اللَّيل والنَّهار والعبرة بالمطر والرِّياح، فجعل ذلك لقوم يعقلون؛ إذْ كلُّ عاقل يحصِّل هذه ويفهم قدرها.

---

(١) جاءَ في (القرطبيِّ) وفي (فتح القدير) أنَّ السُّورة مكيَّة في قول الحسن، وجابر، وعكرمة، وروي عن ابن عبَّاس وقتادة أنَّهما قالا: إلاَّ آية واحدة هي قوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ ـ الآية ١٤ ـ، فقد نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ذكر ذلك الماورديُّ، وقال المهدويُّ والنَّحاس: إنَّ رجلاً شتم عمر رضي الله عنه بمكَّة، فأراد عمر أن يبطش به، فنزلت الآية، ثمَّ نسخت بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، فالسُّورة ـ على هذا ـ كلُّها مكيَّة من غير خلاف كما ذكر ابن عطيَّة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإن كان هذا النَّظر ليس بلازم ولا بد، فإنَّ اللَّفظ يعطيه.

و[يَبُثُّ] معناه: ينشر في الأرض، و«الدَّابة»: كلُّ حيوان يدبُّ أو يمكن فيه أن يدبَّ، يدخل في ذلك الطَّير والحوت، شاهد الطَّير في قول الشاعر:

. . . . صَــوَاعِقُهَــا لِطَيْــرِهِــنَّ دَبِيــبُ[1]

وقول الآخر:

. . . . دَبِيبَ قَطَا الْبَطْحَاءِ في كلِّ مَنْهَلِ[2]

وشاهد الحوت قول أبي موسى: «وقد ألقى البحرُ دابَّةً مثل الظَّرِب»[3]، ودوابُّ البحر لفظ مشترك في اللُّغة.

---

(١) هذا عجز بيت قاله علقمة بن عبدة من قصيدته المعروفة الَّتي بدأها بقوله:
(طَحَا بكَ قَلْبٌ في الْحِسَانِ طَرُوبُ)، والبيت بتمامه:

كَــأَنَّهُــمُ صَــابَــتْ عَلَيْهِــمْ سَحَــابَــةٌ ... صَــوَاعِقُهَــا لِطَيْــرِهِــنَّ دَبِيــبُ

وصابت: أمطرت، والدَّبيب: المشيُ الضَّعيف الخفيف، والمعنى أنَّ الممدوح إذا هجم على الأعداءِ كان كالسَّحابة الَّتي تتفجَّر بالصَّواعق وتنزل كالطَّير عجزت عن التَّحليق، فدبَّت على الأرض تطلب النَّجاة، وقد سبق الاستشهاد بالبيت في المجلد الرابع صفحة (٥٤٣).

(٢) وهذا أيضاً عجز بيت قاله الأعشى من قصيدة له يقول في مطلعها:

صَحَـا الْقَلْـبُ مِـنْ ذِكْـرَى قُتَيْلَـةَ بَعْـدَمَـا ... يَكُـونُ لَهَـا مِثْـلَ الأسِيـرِ الْمُكَبَّـلِ

والبيت بتمامه:

نِيَـافٌ كَغُصْـنِ الْبَـانِ تَـرْتَـجُ إنْ مَشَـتْ ... دَبِيـبَ قَطَـا الْبَطْحَـاءِ فـي كُـلِّ مَنْهَـلِ

وقد ورد الشَّاهد في الأصل هنا محرَّفاً، والنِّياف: الطَّويلة التَّامة الحسن، والقَطَا: جمع قطاة، وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصَّحراء، ويتَّخذ أفحوصه في الأرض، ويطير في جماعات، ويقطع مسافات شاسعة، وبيضه مرقَّط، ومشيته فيها بطءٌ مع رشاقة، والمنهل: المورد، أي الموضع الَّذي فيه الشَّرب، وقد سبق الاستشهاد أيضاً بهذا البيت في سورة هود، راجع المجلد الرابع، صفحة (٥٤٣).

(٣) هذا جزءٌ من حديث شريف أخرجه البخاريُّ في الشَّركة والمغازي، والإمام أحمد في مسنده (٣ـ٣٠٦)، وأخرجه مالك في الموطأ في «صفة النَّبيِّ»، ولفظه كما جاء في مسند أحمد عن جابر رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ بعث سريَّةً ثلاثمائة، وأمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، فنفذ زادنا، فجمع أبو عبيدة زادهم، فجعله في مزود، فكان يُقيتنا حتى كان يصيبنا كلَّ يوم تمرة، فقال له رجل: يا أبا عبد الله، وما كانت تغني عنكم تمرة؟ قال: قد وجدنا فقدها حين ذهبت، حتى انتهينا إلى الساحل فإذا حوتٌ مثل=

وقرأ حمزة، والكسائيُّ: [آيَاتٍ] بالنصب في الموضعين الأخيرين، وهي قراءة الجحدريِّ، والأعمش، وقرأ الباقون والجمهور: ﴿آيَاتٌ﴾ بالرَّفع فيهما، فأَمَّا من قرأ: [آيَاتٍ] بالنَّصب، فحمل [آيَاتٍ] في الموضعين على نصب [إنَّ] في قوله تعالىٰ: ﴿إن في السموات والأرض لآيات﴾، ولا يعرض في ذلك العطف على عاملين الَّذي لا يُجيزه سيبويه وكثير من النَّحويِّين لأنَّا نقدر (في) معادَةً في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، وكذلك هي في مصحف ابن مسعود [وفي ٱخۡتِلَٰفِ]، فكأنَّه تعالىٰ قال ـ على قراءَة الجمهور ـ: وفي اختلاف الليل، وذلك أَنَّ ذِكْرَها قد تقدَّم في قوله تعالىٰ: ﴿ وَفِي خَلۡقِكُمۡ﴾، فلما تقدم ذكر الجار، جاز حذفه من الثَّاني ويُقَدَّر مثبتاً، كما قَدَّر سيبويه في قول الشاعر:

أَكُــلَّ ٱمْــرِىءٍ تَحْسبيــنَ ٱمْــرَءًا ... وَنَــارٍ تَــوَقَّــدُ بِــاللَّيْـل نَــارًا؟[١]

أَي: وكُلَّ نارٍ، وكما قال الآخر:

أَوْصَيْــتُ مِــنْ بَــرَّةَ قَلْبــاً حُــرًّا ... بــالكَلْـبِ خَيْـراً وَٱلْحَمَـاةِ شَـرًّا[٢]

= الظَّرب العظيم، قال: فأكل منه ذلك الجيش ثماني عشرة ليلة، ثمَّ أخذ أبو عبيدة ضلعين من أضلاعه فنَصَبهما ثمَّ أمر براحلته، فمرت تحتهما فلم يصبها شيءٌ». والظَرِبُ: الجبل المنبسط، أو الجبيل (بالتصّغير) كما قال في أساس البلاغة واللِّسان.

(١) هذا البيت من شواهد سيبويه، وقد نسب لجارية بن الحجَّاج، وحارثة بن حمران، وعديّ بن زيد العباديّ، والصَّحيح أنَّه لأبي دُوَاد الإياديِّ، وهو في أمالي ابن الشّجريِّ، وفي الكامل للمبرِّد، وفي مغني اللَّبيب لابن هشام، والشَّاهد في البيت أنَّ «نار» مجرورة بكُلِّ أُخرى مقدَّرة، كأنَّه قال: «وكُلَّ نار تَوَقَّدُ باللَّيل تحسبينها ناراً»، وقال بعض النَّحويّين: إنّ هذا البيت كقولهم: «ما كلُّ سوداءَ تَمْرَةً ولا بيضاءَ شحمةً»، وهو عطفٌ على عاملَيْن، وذلك أن «بيضاءَ» جُرَّ عطفاً على «سوداءَ»، والعامل فيها «كلّ»، و«شحمةً» نُصب عطفاً على «تمرةً» خبر «ما»، وسيبويه لا يجيز ذلك، وتأوّل المثال، فقال: إنَّ «بيضاءَ» مجرورة بـ «كلّ» أُخرى مقدرة بعد «لا» وليست بمعطوفة على «سوداء». وقد ساعد على تقدير «كلّ» في البيت ذكرها في أوَّله، وقِلَّةُ التباس الأمر على المخاطب.

والزَّمخشريُّ يرى أنَّ الآية الكريمة من العطف على عاملين سواءٌ نَصَبْتَ أو رَفَعْتَ، فالعاملان ـ إذا نَصَبْتَ ـ هما [إنَّ] و[في] أُقيمت الواو مقامهما، فعملت الجرَّ في ﴿ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، والنَّصب في [آيَاتٍ]، وبالتَّالي فإنَّه يرى البيت كذلك، والَّذين يرفضون العطف على عاملَيْن يقولون: إنَّ حروف العطف تنوب مناب العامل، ولا يقوى أن تنوب مناب عاملَيْن مختلفين؛ إذْ لو ناب الحرف مناب عامل رافع وعامل ناصب، لكان رافعاً ناصباً في وقت واحد، وهذا قبيح مردود.

(٢) هذا البيت أيضاً شاهد على تقدير جارٍّ آخر هو الباءُ، أي: أوصيتُها بالكلب خيراً وبالحماةِ شرّاً، ومعنى=

أي: وبالحماة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الاعتراض كلُّه إنَّما هو في [آياتٍ][١] الثاني؛ لأَنَّ الأَوَّل قبله حرف الجرِّ ظاهر، وفي قراءَة أُبيٍّ بن كعب، وابن مسعود رضي الله عنهما في الثَّلاثة المواضع: «لآيَاتٍ»، قال أبو عليٍّ: وهذا يُدلُّ على أَنَّ الكلام محمول على [إنَّ] في قراءَة من أَسقط اللأَمات في الآيتين الأَخيرتين.

وأَمَّا من رفع ﴿آيَاتٌ﴾ في الموضعين، فوجهه العطف على موضع [إنَّ] وما عملت فيه، لأَنَّ موضعها رفع بالابتداءِ، ووجه آخر وهو أَن يكون قوله تعالىٰ: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ﴾ مُسْتَأْنفاً، ويكون الكلام جملة معطوفة على جملة، وقال بعض النّاس: يجوز أَن يكون جملة في موضع الحال، فلا تكون غريبة على هذا.

و«اختلاف اللَّيل والنهار» إمَّا بالنُّور والظَّلام وإمَّا بكونهما خلفة، و«الرِّزق المُنزَّل من السماءِ» هو المطر، سمَّاه رزقاً بمآله؛ لأَنَّ جميع ما يُرتزق فعَن المطر هو، و«تصريف الرِّياح» هو بكونها صَباً ودبوراً وجنوباً وشمالاً، وأَيضاً بكونها مرَّة رحمةً ومرَّة عذاباً، قاله قتادة، وأَيضاً بلينها وشدَّتها وحرِّها وبردها. وقرأَ طلحة وعيسى: [وتصريف الريح] بالإفراد، وكذلك في جميع القرآن إلاَّ ما كان فيه مبشِّرات، وخالف عيسى في الحِجْر فقرأَ: ﴿ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى ما ذكر، وقوله: ﴿نَتْلُوهَا﴾ فيه حذف مضاف، أَي: نتلوا شأْنها وتفسيرها وشرح العبرة بها، ويحتمل أَن يريد بـ «آيات الله» القرآنَ المنزَّل في هذه المعاني، فلا يكون في ﴿نَتْلُوهَا﴾ حذف مضاف. وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ معناه: بالصدق والإعلام بحقائق الأُمور في أَنفسها. وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ الآيَةَ... توبيخٌ وتقريع، وفيه قوَّة التَّهديد.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأَبو عمرو، وأَبو جعفر، والأَعرج، وشيبة،

= هذا أنَّه يرى أنَّ الكلب خير من الحماة، ولم أقف على قائل هذا البيت فيما بين يديَّ من المراجع.

(١) هذا كلُّه في قراءة النَّصب الَّتي قرأ بها حمزة والكسائي، أمَّا قراءة الرفع، فستأتي بعد ذلك.

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٢٢) من سورة (الحِجْر): ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾.

وقتادة: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالياءِ من تحت، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائيُّ، وعاصم أيضاً، والأعمش: [تؤْمنونَ] بالتَّاءِ على مخاطبة الكفَّار، وقرأ طلحة بن مصرف: [تُوقِنُونَ] بالتَّاءِ من فوق، من اليقين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

«الْوَيْلُ» في كلام العرب: المصائب والحزن والهمُّ والشِّدَّة من هذه المعاني، وهي لفظة تستعمل في الدُّعاءِ على الإنسان، ورُوي في بعض الآثار أَنَّ في جهنَّم وادياً اسمه ويْلٌ[1]، وذهب الطَّبريُّ إلى أَنَّ المراد بالآية ومقتضى اللُّغة أَنَّه الدُّعاءُ على أَهل الإفك والإثم بالمعاني المتقدمة. و«الأَفَّاكُ»: الكذَّاب الَّذي يقع منه الإفك مراراً. و«الأَثيمُ» بناءُ مبالغة، اسم فاعل من: أَثِمَ يَأْثَمُ.

وروي أَنَّ سبب هذه الآية أَبو جهل، وقيل: النَّضر بن الحارث، والصَّواب أَنَّ سببها ما كان المذكوران ـ وغيرهما ـ يفعلان، وأَنَّها تعُمُّ كلَّ من دخل تحت الأَوصاف المذكورة إلى يوم القيامة.

و[يُصِرُّ] معناه: يثبتُ على عقيدته من الكفر، وقوله تعالىٰ: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، حَسُنَ ذلك لَمَّا أَفصح عن العذاب، ولو كانت البشارة غير مُقَيَّدَة بشيءٍ لما حملت إلاَّ على المحابِّ.

وقرأ جمهور النَّاس: ﴿وَإِذَا عَلِمَ﴾ بفتح العين وتخفيف اللاَّم، والمعنى: وإذا أُخبر بشيءٍ من آياتنا، فعلم نفس الخبر لا المعنى الَّذي تضمَّنه الخبر، ولو علم المعاني الَّتي تتضمَّنها أَخبار الشَّرع وعرف حقائقها، لكان مؤمناً، وقرأ قتادة، ومَطَرٌ الوَرَّاق[2]:

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ في تفسير سورة الأنبياء، وأحمد في مسنده (٣ـ٧٥)، ولفظه كما في المسند: عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «وَيْلٌ وادٍ في جهنَّم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره، والصَّعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً يهوي به كذلك فيه أبداً».

(٢) مَطَر ـ بفتحتين ـ ابن طهمان الورَّاق، أبو رجاءِ السلميُّ ـ مولاهم ـ الخراسانيُّ، سكن البصرة، صدوق، =

﴿وإذا عُلِّمَ﴾ بضم العين وتشديد اللام، وقوله تعالىٰ: [أُولَئِكَ] على لفظ ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ لأَنَّه اسم جنس له الصفات المذكورة بَعْدُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ قال فيه بعض المفسِّرين: معناه: من أَمامهم، وهذا كالخلاف الَّذي في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾[1]، ولحظ قائل هذه المقالة الأَمر من حيث تأَوَّل أَنَّ الإنسان كأَنَّه من عمره يسير إِلى جنَّة أَو نارٍ، فهما أَمامه، وليس لفظ «الوراءِ» في اللُّغة كذلك، وإِنَّما هو ما يأْتي خلف الإنسان، وإذا اعتبر الأَمرُ بالتَّقدُّم والتَّأَخُّر في الوجود على أَنَّ الزَّمان كالطَّريق للأَشياءِ استقام الأَمر، فما يأْتي بعد الشَّيءِ في الزَّمان فهو وراءَه، فكان الملك وأَخذه السَّفينة وراءَ ركوب أُولئك إِيَّاها، وجهنَّم وإِحراقها للكفَّار يأْتي بعد كفرهم وأَفعالهم، وهذا كما تقول: افعل كذا وأَنا من ورائك عضداً، أَو كما تقول ذلك على التَّهديد: أَنا من وراءِ التَّقصِّي عليك، ونحو هذا. وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ﴾ يعني بذلك الأَوثان.

وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ إِشارة إِلى القرآن، وقرأَ ابن كثير، وعاصم ـ في رواية حفص ـ: [أَلِيمٌ] على النعت لـ [عَذَابٌ]، وهي قراءَة ابن محيصن، وابن مُطَرِّف وأَهل مكَّة، وقرأَ الباقون: [أَلِيمٍ] على النعت لـ [رِجْزٍ]، وهي قراءَة الحسن، وأَبي جعفر، وشيبة، وعيسى، والأَعمش. و«الرِّجْزُ»: أَشدُّ العذاب، وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ بمنزلة قولك: لهم حظٌّ، فمن هذه الجهة ومِنْ جهة تغاير اللَّفظتين حسُنَ قوله تعالىٰ: ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ إذ الرِّجْزُ هو العذاب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

هذه آية عبرة في جريان السُّفن في البحر، وذلك أَنَّ الله تعالىٰ سخَّر هذا المخلوق

= كثير الخطأ، وحديثه عن عطاءٍ ضعيف، من الطَّبقة السَّادسة، مات سنة خمس وعشرين، ويقال: سنة تسع. (تقريب التهذيب).

(١) من الآية (٧٩) من سورة (الكهف).

العظيم لهذا المخلوق الحقير الضَّعيف. وقوله تعالىٰ: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾، أَناب القدرةَ والإِذن مناب أَن يأمر البحر والنَّاس بذلك، و«الابتغاءُ من فضل الله تعالىٰ» هو بالتِّجارة في الأغلب، وكذلك مقاصد البرِّ من حجٍّ وجهادٍ هي أَيضاً ابتغاءُ فضل، والتَّصيُّد[1] فيه أَيضاً هو ابتغاءُ فضل.

و«تَسْخير ما في السَّموات» هو تسخير الشَّمس والقمر والنُّجوم والسَّحاب والرِّياح والهواءِ والملائكة الموكَّلة بهذه كلِّها، ويروى أَنَّ بعض الأَخيار نزل به ضيف، فقدم إِليه رغيفاً، فكأَنَّ الضَّيف احتقره، فقال له المضيف: لا تحتقره فإِنَّه لم يستدر حتّى سُخِّر فيه من المخلوقات والملائكة ثلاثمائة وستون بَيْن من ذكرنا من مخلوقات السَّماءِ وبيْن الملائكة وبيْن صناع بني آدم الموصِّلين إِلى استدارة الرَّغيف. و«تسْخير ما في الأَرض» هو تسخير البهائم والمياه والأَودية والجبال وغير ذلك.

ومعنى قوله تعالىٰ: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: كلُّ إِنعام فهو من الله تعالىٰ. وقرأَ جمهور النّاس: ﴿مِنْهُ﴾ وهو وقف جيِّد، وقرأَ مَسْلَمة بن مُحارب: [مَنُّهُ] بفتح الميم وشدِّ النون المضمومة، بتقدير: هو مَنُّه[2]، وقرأَ ابن عبّاس رضي الله عنهما: [مِنَّةً] بكسر الميم وفتح النّون المشدَّدَة ونصب التَّاءِ على المصدر[3]، وقال أَبو حاتم: سَنَدُ هذه القراءَة إِلى ابن عبّاس رضي الله عنهما مُظْلم، وحكاها أَبو الفتح عن ابن عبّاس، وعبد الله بن عمر، والجحدريُّ، وعبد الله بن عُبَيْد بن عُمَيْر، وقرأَ مَسْلَمة بن مُحارب أَيضاً: [مِنَّةٌ] بكسر الميم وبالرَّفع في التَّاءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآيةَ نزلت في صدر الإِسلام، أَمر الله تعالىٰ المؤمنين فيها أَن يتجاوزوا عن الكفّار، وأَلاَّ يعاقبوهم بذنب، بل يأْخذون أَنفسهم

---

(١) التَّصيُّد: طلب الصَّيد، وهو أيضاً: الاحتيال للصَّيد.

(٢) هذا قول أبي حاتم، قال أبو الفتح ابن جنيّ: «ويجوز عندي أن يكون مرفوعاً بفعله هذا الظّاهر، أي: سَخَّرَ لكم ذلك مَنُّهُ. كقولك: أحياني إقبالك عليَّ، وسدَّد أمري حُسْنُ رأيك فيَّ، فَتَعْمِلُ فيه هذا اللَّفظ الظّاهر، ولا تحتاج إلى إبعاد التّناول واعتقاد ما ليس بظاهر».

(٣) هذا هو رأي ابن جنيّ، يقول: «هو منصوب على المصدر بما دلَّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً﴾، لأنَّ ذلك مِنه ـ عزَّ اسْمُه ـ مِنَّةً مَنَّهَا عليهم، فكأنَّه قال: مَنَّ عَلَيْهِ مِنَّةً، ومن نصب «وميضَ البرق» من قولهم: «تَبَسَّمَت وميضَ البرق» بنفس «تَبَسَّم» لكونه بمعنى «أَوْمَضتْ»، نصب أيضاً [مِنَّةً] بنفس ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾، على ما مضى».

بالصَّبر لهم، قاله محمد بن كعب القرظيُّ، والسُّديُّ. قال أَكثر النّاس: هذه آية منسوخة بآية القتال، وقالت فرقة: الآية مُحكمة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والآية تتضمَّن الغفران عموماً، فينبغي أَن يقال: إِنَّ الأُمور العظام كالقتل والكُفْر مجاهرةً ونحو ذلك قد نسخ غُفْرانُه بآية السَّيف والجزية وما أَحكمه الشَّرع لا محالة، وإِنَّ الأُمور المحقَّرة كالجفاءِ في القول ونحو ذلك يحتمل أَن تبقى محكمة وأَن يكون العفو عنها أَقرب إِلى التَّقوى.

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: لمَّا أُنزلت ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[1] قال فنحاص اليهوديُّ: احتاج ربّ محمد، تعالىٰ الله عزَّ وجلَّ عن قوله، فأَخذ عمر رضي الله عنه سيفه ومرَّ ليقتله، فردَّه رسول الله ﷺ وقال له: إِنّ ربَّك يقول: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟﴾ الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا احتجاجٌ بها مع قدم نزولها، وقد ذكر مكِّيٌّ وغيره أَنَّها نزلت بمكَّة في عمر رضي الله عنه لمَّا أَراد أَن يبطش بمشرك شتمه، وأَمَّا الجزم في قوله تعالىٰ: [يَغْفِرُوا] فهو جواب شرط مقدر، وتقديره: قُل اغفروا، فإِن يجيبوا يغفروا، وأَخصر من هذا عندي أَنَّ [قُلْ] هي بمثابة: اندب المؤمنين إِلى الغَفْر[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ قالت فرقة: معناه: أَيّام إِنعامه ونصره وتنعيمه في الجنَّة وغير ذلك، فـ [يَرْجُونَ] ـ على هذا ـ هو على بابه، وقال مجاهد: أَيّامُ الله تعالىٰ هي أَيّام نِعَمه وعذابه، فـ [يَرْجُونَ] ـ على هذا ـ هي التي تتنزَّل منزلة «يخافون»، وإِنَّما تنزَّلت منزلتها من حيث الرَّجاءُ والخوف متلازمان، لا نجد أَحدهما إِلاَّ والآخر معه مقترن، وقد تقدَّم شرح هذا غير مَّرة.

وقرأَ جمهور القراءِ: [لِيَجْزِيَ] بالياءِ على معنى: ليجزيَ اللهُ، وقرأَ ابن عامر،

---

(١) من الآية (٢٤٥) من سورة (البقرة)، وتكرَّرت في الآية (١١) من سورة (الحديد).

(٢) ومثل هذه الآية قوله تعالىٰ في الآية(٥٣) من سورة (الإسراء) ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟﴾ وقوله تعالى في الآية (٣١) من سورة (إبراهيم): ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، والفراءُ يرى أَنَّه مجزوم بالتَّشبيه بالجزاء والشَّرط.

وحمزة، والكسائيُّ، والأعمش، وأبو عبد الرَّحمن، وابن وثّاب: [لِنَجْزِيَ] بالنُّون، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ـ بخلاف عنه ـ: [لِيُجْزَى] على بناءِ الفعل للمجهول [قَوْماً]، وهذا على أن يكون التَّقدير: لِيُجْزَى الجزاءُ قوماً[١]، وباقي الآية وعيدٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾.

لمَّا تقرَّر في الآية الَّتي قبل هذه أَنَّ الله تعالىٰ يجزي قوماً بكسبهم ويعاقبهم على ذنوبهم واجترامهم أكَّد ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾، وقوله تعالىٰ: [فَلِنَفْسِهِ] هي لام الحظِّ؛ لأَنَّ الحظوظ والمحابَّ إنَّما تستعمل فيها اللَّام الَّتي هي كَلَام المِلْك، تقول: «الأُمور لي ولزيد مُتَأَتِّيَة»، ويستعمل في ضدِّ ذلك «عَلَى»، فتقول: «الأُمور على فلان مُسْتَعْصية»، وتقول: «لزَيْد مالٌ وعليه دَيْن»، وكذلك جاءَ العمل الصَّالح في هذه باللاَّم والإساءَة بِعَلَى. وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ معناه: إلى قضائه وحُكْمه.

والكتابُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو التَّوارةُ، و«الحكمُ» هو السُّنَّة والفِقْه، فيقال: إنَّه لم يتَّسع فِقْه الأَحكام على لسان نبيٍّ ما اتَّسع على لسان موسى عليه السَّلام، و«النُّبُوَّة» هي ما تكرَّر فيهم من الأَنبياءِ عليهم السَّلام. وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعني من المسْتَلَذَّات الحلال، وبهذا تتِّم النِّعمة ويحسن تعديدها، وهذه إشارة إلى المنِّ والسَّلوى وطيِّبات الشَّام بَعْدُ؛ إذ هي الأَرض المباركة، وقد تقدَّم القول في معنى الطَّيِّبات وتلخيص قول مالك والشَّافعيِّ في ذلك. وقوله

(١) هذا تقدير الكسائيِّ، ونظيره في ذلك قوله تعالىٰ في سورة الأنبياء: [وكذلك نُجِّيَ المؤمنين] على قراءة ابن عامر، وأبي بكر، ومثل هذا جاء في قول جرير يهجو الفرزدق ويُعيِّره بأُمِّه قُفَيْرَة:

وَلَــوْ وَلَــدَتْ قُفَيْــرَةُ جَــرْوَ كَلْــبٍ ... لَسُــبَّ بِــذَلِــكَ الْجَرْوِ الكِــلابَــا

إذ التَّقدير: لَسُبَّ السَّبُّ. ولكنَّ الجمهور لا يجيز ذلك، ولهذا قال أبو عمرو عن هذه القراءة: «هذا لَحْنٌ ظاهر»، وهناك تأويلات أُخرى نجدها في كتب التَّفسير لتخريج هذه القراءة.

تعالىٰ: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يريد: على عالَم زمانهم.

و«البيِّنات من الأمر» هي الوحي الَّذي فُصِّلت لهم به الأُمور، ثمَّ بيَّن تعالىٰ خطأَهم وعَظَّمَهُ بقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، وذلك أَنَّهم لو اختلفوا اجتهاداً في طلب الصَّواب، لكان لهم عذر في الاختلاف، وإنَّما اختلفوا بغياً بينهم وهم قد تَبيَّنُوا الحقائق، ثمَّ توعَّدهم تعالىٰ بوقف أَمرهم على قضائه بينهم يوم القيامة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

المعنى: ثمَّ جعلناك على شريعة فلا محالة أَنَّه سَيُخْتَلَف عليك كما تقدَّم لبني إسرائيل، فاتَّبع شريعتك، والشَّريعة في كلام العرب الموضعُ الَّذي يَرِدُ فيه النَّاسُ في الأَنهار والمياه، ومنه قول الشاعر:

وفي الشَّرائعِ مِنْ جَيْلاَنَ مُقْتَنِصٌ   رَثُّ الثِّيابِ خفيُّ الشَّخْصِ مُنْسَرِبُ(١)

---

(١) هذا البيت شاهد على أنَّ الشَّريعة هي الموضع الَّذي يرد فيه النَّاس إلى الأنهار والمياه، فيشربون ويستقون، وهو في اللسان (زرب)، وقد نسبه إلى ذي الرُّمَّة، والرِّواية فيه:

وَبِالشَّمَائِلِ مِنْ جَلَّانَ مُقْتَنِصٌ   رَذْلُ الثِّيَابِ خَفِيُّ الشَّخْصِ مُنْزَرِبُ

قال: «والزَّرْبُ والزَّرِيبَةُ»: بئر يحتفرها الصَّائد، يكمن فيها للصَّيد، وفي الصِّحاح: انزَرَبَ الصَّائِد في قُتْرَتِهِ: دَخَلَ: قال ذو الرُّمَّة: «وبالشَّمائل من جَلَّان...» البيت، وَجَلَّان: قبيلة» اهـ. وعلى هذا فلا شاهد فيه هنا، أمَّا على رواية «وفي الشَّرائع» فإنَّ الشَّريعة هي الموضع الَّذي يُنْحَدَرُ منه إلى الماء، جاء في اللِّسان (شرع): «شَرَعَ الوارد يَشْرَعُ شَرْعاً وشُرُوعاً: تناول الماء بفيه، وشرعت الدَّواب في الماء: دخلت، والشَّريعة والشِّراع والمَشْرعة: المواضع الَّتي يُنْحَدَرُ إلى الماء منها، قال اللَّيث: وبها سُمِّي ما شرع الله للعباد شريعة» اهـ. وجَيْلان ـ بفتح الجيم وياءٍ ساكنة كما ضبطه الحمويُّ في معجم البلدان ـ هم قوم من أبناء فارس انتقلوا إلى نواحي اصطخر فنزلوا بطرف من البحرين فغرسوا وزرعوا وحفروا وأقاموا هناك، فنزل عليهم قوم من بني عِجْل، فدخلوا فيهم، وهذا يَتّفق مع قول اللِّسان: جَلَّان: قبيلة. والمقتنص: الصَّائد، والشَّخص: كلُّ جسم له ارتفاعٌ وظهور، وغلب في الإنسان، وانسرب: اختفى في شيءٍ، يقول: إنَّ في موارد المياه صائد من قبيلة جلان يخفي شخصه، ويدخل في قُتْرته ويبقى في=

فشريعة الدِّين من ذلك، كأَنَّها من حيث يرد النَّاس أَمر الله ورحمته والقرب منه، وقال قتادة: الشَّرائع: الفرائض والحدود والأمر والنَّهي. وقوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ يحتمل أَن يكون واحد الأُمور، أَي: من دين الله تعالىٰ ونُبُوَّاتِهِ الَّتي بثَّها في سالف الزَّمان، ويحتمل أَن يكون مصدراً من أَمر يأمر، أَي: على شريعة من الأَوامر والنَّواهي، فسمَّى الله تعالىٰ جميع ذلك أَمراً، و«ٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ» هم الكفَّار الَّذين كانوا يريدون صرف محمد ﷺ إلى إِرادتهم. و[يُغْنُوا] من الغَنَاءِ، أَي لن يكون لهم عنك دفاع، ثمَّ حقَّر تعالىٰ شأن الظَّالمين مشيراً بذلك إِلى كفَّار قريش، ووجْه التَّحقير أَنَّه تبارك وتعالىٰ قال: وهؤلاءِ يتولى بعضهم بعضاً، والمتَّقون يتولاهم الله تعالىٰ، فخرجوا عن ولاية الله تعالىٰ وتبرَّأت منهم، ووكَّل الله تعالىٰ بعضهم إِلى بعض.

وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ يريد القرآن، و«البَصائِرُ» جمع بصيرة، وهي المعتقد الوثيق في الشَّيءِ، كأَنَّه مصدر من إِبصار القلب، فالقرآن فيه بيِّنات ينبغي أَن تكون بصائر، و«البصيرة» في كلام العرب: الطَّريقة من الدَّم، ومنه قول الشَّاعر:

رَاحُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَكْتَافِهِمْ وَبَصِيرَتِي يَعْدُو بِهَا عَتَدٌ وَأَي(١)

= انتظار فرائسه. هذا وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت في تفسير قوله تعالىٰ في الآية (٤٨) من سورة (المائدة): ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ راجع المجلد الثالث صفحة (١٨٥).

(١) البيت للأَسْعَر الجُعْفيِّ، وهو في اللِّسان (بصر)، والرِّواية في القرطبيِّ: «جاؤوا بصائرهم»، والبصيرة: الثَّأرُ، وقيل: البصيرة من الدَّم ما لم يَسِلْ، وقيل: البصيرة: دم البكْرِ، ذكر ذلك كلَّه صاحب اللِّسان، وروى البيت ثمَّ قال: «يعني بالبصائر دم أبيهم، يقول: تركوا دم أبيهم خلفهم ولم يثأروا به وطلبته أنا، وفي الصِّحاح: وأنا طلبتُ ثأري، وكان أبو عبيدة يقول: البصيرة في هذا البيت: التُّرس أو الدِّرع، وكان يرويه: حملوا بصائرهم، وقال ابن الأعرابيِّ: راحوا بصائرهم يعني ثِقْل دمائهم على أكتافهم لم يثأروا بها، والبصيرة: الدِّيَة، والبصائر: الدِّيَات في أوَّل البيت، قال: أخذوا الدِّيَات فصارت عاراً، وبصيرتي أي ثأري قد حملتُه على فرسي لأطالب به، فبَيْني وبينهم فرق»، والعَتَدِ ـ بفتح التاء وكسرها ـ: الفَرَسُ التَّام الخَلْق السَّريع الوثبة المُعَدُّ للجري، ليس فيه اضطرابٌ ولا رخاوة، وقوله: «وَأي» بواو مفتوحة بعدها همزة يريد به الفرس السَّريع المقتدر، وهكذا ضبطه في اللِّسان وفي الأصمعيّات بهمزة مفتوحة دون مَدٍّ، يقول الشاعر: إنَّهم تركوا دم أبيهم وجعلوه خلفهم، أي لم يثأروا له، وأنا طلبتُ ثأري، وقد سبق الاستشهاد بالبيت في سورة الأنعام، وهذا وقد ورد اسم الشاعرفي اللِّسان محرفاً الأشْعر ـ بالشِّين المعجمة ـ والصّواب ما ذكرناه هنا، وهو شاعر جامليٌّ اسمُه مِرْثد ابن حِمْران والأسْعر ـ بالسِّين ـ لقبٌ لقِّب به لقوله،

فلا يدعني قومي لسَعْد بن مالك إذا أنا لُمْ أسعر عليهم وأثقب

راجع المجلد الثالث صفحة (٤٣٥).

وفسَّر النَّاس هذا البيت بطريقة الدَّم؛ إذا كانت عادة طالب الدَّم عندهم أَن يجعل طريقة من دم خلف ظهره ليُعْلَم بذلك أَنَّه لم يُدرك ثأْره وأَن يطلبه، [ويظهر فيه أَنَّه يريد بصيرة القلب، أَي: قد اطَّرح هؤلاءِ بصائرهم وراءَ ظهورهم][(١)].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ الآيةَ قولٌ يقتضي أَنَّه نزل بسبب افتخارٍ كان للكفَّار على المؤمنين، قالوا: «لئن كانت آخرةٌ كما تزعمون لَنُفَضَّلَن فيها عليكم كما فُضِّلْنا في الدُّنيا». و[أَمْ] هذه ليست بمعادلة، وهي بمعنى «بَلْ» مع أَلف الاستفهام، و[اَجْتَرَحُوا] معناه: اكتسبوا، ومنه جوارحُ الإِنسان وجوارحُ الصَّيد، وتقول العرب: «فلان جارحة أَهله» أَي كاسبهم. وقرأَ أَكثر القرَّاءِ: [سَوَاءٌ] بالرَّفع ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بالرَّفع، وهذا على أَن [سَوَاءٌ] رفع بالابتداءِ[(٢)]، و﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ خبره، و[كَالَّذِينَ] في موضع المفعول الثاني لـ «نَجْعَلَ»، وهذا على أَحد معنيَيْن، إِمَّا أَن يكون الضَّمير في [مَحْيَاهُمْ] يختصُّ بالكفّار المجترحين، فتكون الجملة خبراً عن أَنَّ حالهم في الزمنيْن حال سوءٍ، والمعنى الثّاني أَن يكون الضَّمير في [مَحْيَاهُمْ] يعُمُّ الفريقين، والمعنى أَنَّ مَحْيَا هؤلاءِ ومماتهم سواءٌ، وهو كريم، ومَحْيَا هؤلاءِ ومماتهم سواءٌ، وهو غير كريم، ويكون اللَّفظ قد لَفَّ هذا المعنى وذِهْنُ السَّامع يُفَرِّقه؛ إِذ قد تقدَّم إِبعاد أَن يجعل الله تعالىٰ هؤلاءِ كهؤلاءِ، قال مجاهد: والمؤمن يموت مؤمناً ويُبعث مؤمناً، والكافر يموت كافراً ويُبعث كافراً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

مقتضى هذا الكلام أَنَّ لفظ الآية خبر، ويظهر لي أَنَّ قوله تعالىٰ: ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ داخل في المحسبة المُنْكرة السَّيِّئة، وهذا احتمال حسن[(٣)]، والأَوَّل أَيضاً جيِّد. وقرأَ طلحة، وعيسى ـ بخلاف عنه ـ [سَوَاءً] بالنَّصب ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بالرَّفع، وهذا يحتمل وجهين: أَحدهما أَن يكون قوله تعالىٰ: [كَالَّذِينَ] في موضع المفعول

(١) ما بين العلامتين [. . . .] سقط من كثير من النّسخ، وهو مثبت في النُّسخة التّونسية.
(٢) قال أبو حيّان الأندلسيُّ: «ولا مسوِّغ لجواز الابتداء به، بل هو خبر مقدم وما بعده المبتدأُ، والجملة خبر مستأنف».
(٣) عقَّب أبو حيَّان الأندلسيُّ على هذا بعد أن نقله بقوله: «ولم يُبيِّن كيفية تشبُّث الجملة بما قبلها حتّى يدخل في المحسبة».

الثّاني لـ «نَجْعَلَ» كما هو في قراءَة الرَّفع، وينصب قوله تعالىٰ: ﴿سَوَاءً﴾ على الحال من الضمير في ﴿نَجْعَلَهُمْ﴾، والوجه الثّاني أَن يكون قوله تعالىٰ: ﴿كَالَّذِينَ﴾ في نيّة التّأْخير، ويكون قوله تعالىٰ: ﴿سَوَاءً﴾ مفعولاً ثانياً لـ «نَجْعَلَ»، وعلى كلا الوجهين ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ مرتفع بـ﴿سَوَاءً﴾ على أَنَّه فاعل. وقرأَ حمزة، والكسائيُّ، وحفص عن عاصم[1]، والأَعمش: ﴿سَوَاءً﴾ بالنَّصب [محياهم ومماتَهم] بالنَّصب، وذلك على الظَّرف، أَو على أَن يكون [مَحْيَاهُمْ] بدلاً من الضَّمير في [نَجْعَلَهُمْ]، أَي: نجعل محياهم ومماتهم سواءً، وهذه الآية متناولةٌ بلفظها حال العصاة من حال أَهل التَّقوى، وهي موقف للعارفين يبكون عنده، وروي عن الرَّبيع بن خيثم أَنَّه كان يردِّدها ليلة جمعاءَ، وكذلك عن الفضيل بن عياض، وكان يقول لنفسه: ليت شعري من أَي الفريقين أَنت؟ وقال الثَّعلبيُّ: كانت هذه الآية تسمَّى مبكى العابدين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَمَّا لفظها فيعطي أَنَّه اجتراح الكفر بدليل معادلته بالإيمان، ويحتمل أَن تكون المعادلة بين الاجتراح وعمل الصّالحات ويكون الإيمان في الفريقين، ولهذا بكى الخائفون رضي الله عنهم. وأَمَّا مفعولا [حَسِبَ] فقوله تعالىٰ: ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ يسدُّ مسدَّ المفعولين. وقوله تعالىٰ: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [مَا] مصدريَّة، والتَّقدير: ساءَ الحُكْمُ حُكْمُهُم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾.

المعنى: وخلق الله السَّموات والأَرض، فإِنَّ خلقها حقٌّ واجب متأَكد في نفسه لما فيه من فيض الخيرات، ولتدلّ عليه تعالىٰ، ولتكون صنعة حاكمة بصانع، وقيل لبعض

---

(١) قراءة حفص عن عاصم كما هي في المصحف الشَّريف: ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بالنَّصب في [سَوَاءً] والرَّفع في ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾.

الحكماءِ: لم خلق الله السَّموات والأَرض؟ فقال: ليظهر جودة صنعه، واللاَّم في قوله سبحانه: ﴿وَلِتُجْزَى﴾ يظهر أَن تكون لام كَيْ، فكأَنَّ الجزاءَ من أَسباب خلق السَّموات والأَرض، ويحتمل أَن تكون لام الصيَّرورة، أَي: وصار الأَمر فيها من حيث اهتدى بها قوم وضلَّ عنها آخرون لأَن يجازى كلُّ أَحد بعمله وبما اكتسب من خير أَو شرٍّ.

قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾، سهَّل بعض القرَّاءِ الهمزة وحقَّقها قوم، وكذلك هي في مصحف ابن مسعود مخفَّفة، وفي مصحف أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه «أَفَرَيْتَ» دون همز، وهذه الآية تسلية لمحمد ﷺ عن الكفَّار المعرضين عن الإيمان، أَي: لا تحفِل بهم ولا تهتمَّ بأَمرهم، فليس فيهم حيلة لبشر لأَنَّ الله أَضلَّهم، قال ابن جبير: ﴿إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ إشارة إلى الأَصنام؛ إذ كانوا يعبدون ما يَهْوَوْن من الحجارة، وقال قتادة: المعنى: لا يهوى شيئاً إلاَّ ركبه لا يخاف الله تعالىٰ، فهذا كما يقال: الْهَوَى إلـٰه معبود، وقرأَ الأَعرج، وابن جبير: [إلهةً هواه] على التَّأْنيث في «إِلـٰهَهُ»، وهذه الآية وإن كانت نزلت في هوى الكفر فهي متناولة جميع هوى النَّفس الأَمَّارة، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: ما ذكر الله تعالىٰ هوىً إلاَّ ذمَّه، وقال الشَّعبيُّ: سُمِّي هوًى لِهُوِيِّه بصاحبه، وقال النَّبيُّ ﷺ: «والعاجزُ من أَتبع نفسه هواها وتمنى على الله»(١)، وقال سهل التَّسْتُرِيُّ: «هواك داؤُك، فإن خالفته فدواؤُك»، وقال وهب: «إذا شككتَ في خَيْر أَمرَيْن، فانظر أَبعدهما من هواكَ فأْته»، ومن حكمة الشِّعر في هذا قول القائل:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ الْهَوَى قَادَكَ الْهَوَى ... إِلَـى كُـلِّ مَـا فِيـهِ عَلَيْـكَ مَقَـالُ(٢)

وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: المعنى: على عِلْم من الله سابق، وقالت فرقة: أَي: عَلَى عِلْم من هذا الضَّلال فإنَّ الحقَّ هو الَّذي يترك ويعرض عنه، فتكون الآية ـ على هذا التَّأْويل ـ من آيات العناد، نحو قوله تعالىٰ:

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ في القيامة، وابن ماجه في الزُّهد، وأحمد في مسنده (٤ـ١٢٤)، عن شدّاد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتْبع نفسه هواها وتمنَّى على الله».

(٢) هذا البيت قاله هشام بن عبد الملك، ولم يقل غيره، قال ذلك صاحب كتاب «عيون الأخبار».
والْهَوَى: ما تريده النَّفس وتحبُّه، وإذا أُطلق كان مذموماً حتّى يوصف بما يجعله حسناً، والمقال: قالَة السّوءِ عليه، يقول الشّاعر: إذا لم تخالف رغبات نفسك وشهواتها، قادك هواك إلى الخطأ فَيَتَقَوَّلُ النّاس عليك وينسبون لك كلَّ قبيح مرذول.

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾(١)، على كلا التَّأويلين، فقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ استعارات كلُّها؛ إذ هذا الضَّالُّ لا ينفعه ما يسمع ولا ما يفهم ولا ما يرى، فكأَنَّه بهذه الأَوصاف المذكورة، وهذه الآية لا حُجَّة للجبريَّة فيها لأَنَّ التَّكسُّب فيها منصوص عليه في قوله تعالىٰ: [اتَّخَذَ]، وفي قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ على التَّأويل الأخير فيه، ولو لم ينص على الاكتساب لكان مراداً في المعنى، وقرأَ أكثر القراءِ: ﴿غِشَاوَةً﴾ بكسر الغين، وقرأَ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [غَشَاوَةً] بفتح الغين، وهي لغة ربيعة، وحكي عن الحسن وعكرمة [غُشَاوَةً] بضمِّ الغين، وهي لغة عُكل، وقرأَ حمزة، والكسائيُّ: [غَشْوَةً] بفتح الغين وإسكان الشِّين، وقرأَ الأَعمش، وابن مصرف: [غِشْوَةً] بكسر الغين دون أَلف. وقوله تعالىٰ: ﴿مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: من بعد إِضلال الله تعالىٰ إِيَّاه، وقرأَ عاصم ـ وَأُرَاهُ الجحدريُّ ـ: [تَذَكَّرُونَ] بتخفيف الذّال، وقرأَ جمهور النَّاس: ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾ على الخطاب أَيضاً بتشديد الذال، وقرأَ الأَعمش: [تَتَذَكَّرُونَ] بتاءَيْن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ الآية... حكايةُ مقالة بعض قريش، وهذه صيغة دهرية من كفَّار العرب، ومعنى قولهم: ما في الوجود إِلاَّ هذه الحياة الَّتي نحن فيها وليست ثَمَّ آخِرَةٌ ولا بَعْثٌ.

واختلف المفسِّرون في معنى قولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ ـ فقالت فرقة: المعنى: نحن موتى قبل أَن نوجد ثمَّ نحيا في وقت وجودنا. وقالت فرقة: المعنى: نموت حين نحن نطفٌ ودَمٌ ثمَّ نحيا بالأَرواح فينا، وهذا قول قريب من الأَوَّل، ويسقط على القولَيْن ذكر الموت المعروف الَّذي هو خروج الرُّوح من الجسد، وهو الأَهم في الذِّكر، وقالت فرقة: المعنى: نحيا ونموت، فوقع في اللَّفظ تقديم وتأْخير، وقالت فرقة: الغرض من اللَّفظ العبارة عن حال النَّوع، فكأَنَّ النوع بجملته يقول: إِنَّما نحن تموت طائفة وتحيا طائفة دأباً. وقولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أَي طول الزَّمان، وهو المهلك لأَنَّ الأَوقات تستوي فيه كمالاتها، فنفى الله تعالىٰ عنهم علمهم بهذا، وأَعلم أَنَّها ظنون منهم وتخرُّص يفضي بهم إِلى الإِشراك بالله تعالىٰ، والدَّهر والزَّمان تستعملهما العرب بمعنى

(١) من الآية (١٤) من سورة (النَّمل).

واحد، وفي قراءَة ابن مسعود: [وما يُهلكنا إلاَّ دهر يمرُّ]، وقال مجاهد: الدَّهر هنا الزَّمانُ، وروى أَبو هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أَنه قال: «كان أَهل الجاهلية يقولون: إِنَّما يُهلكنا اللَّيل والنَّهار»[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويفارق هذا الاستعمالَ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «لا تَسُبُّوا الدَّهر فإِنَّ الله تعالىٰ هو الدَّهر»[2]، وفي حديث آخر قال الله تعالىٰ: «يسبُّ ابن آدم الدَّهر وأَنا الدَّهر بيدي اللَّيل والنَّهار»[3]، ومعنى هذا الحديث: فإِنَّ الله تعالىٰ هو الَّذي يفعل ما تنسبونه إِلى الدَّهر وتسبُّونه بسببه، وإِذا تؤملت أَمثلة هذا الكلام، ظهرت إِن شاءَ الله تعالىٰ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه كما في (الدُّرّ المنثور): قال: كان أهل الجاهلية يقولون: إنَّما يُهلكنا اللَّيل والنَّهار، فقال الله في كتابه: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾، وقال الله: يؤذيني ابن آدم يسُبُّ الدَّهر، وأنا الدَّهر، بيدي الأمر، أُقَلِّب اللَّيل والنَّهار).

(٢) أخرجه البخاريُّ في الأدب، ومسلم في الألفاظ، ومالك في الموطأ، وأحمد في مسنده (٢ـ٢٥٩، ٢٧٢، ٢٧٥)، ولفظه كما في البخاريُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا تُسمُّوا العنب الكرم، ولا تقولوا: خيبة الدَّهر، فإنَّ الله هو الدَّهر». قال القرطبيُّ: «وقد استدلَّ بهذا الحديث من قال: إنَّ الدَّهر من أسماءِ الله، وقال من لم يجعله من العلماءِ اسماً: إنَّما خرج ردّاً على العرب في جاهليتها، فإنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ الدَّهر هو الفاعل... فقيل لهم ذلك، أي أنَّ الله هو الفاعل لهذه الأمور الَّتي يُضيفونها إلى الدَّهر» اهـ بتصرف، وقد ذكر ابن عطيَّة هذا موجزاً ودقيقاً في كلامه، واللَّفظ الَّذي اختاره ابن عطيَّة للحديث هنا هو لفظ مسلم في صحيحه.

(٣) أخرجه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، وأبو داود، والنَّسائيُّ، وابن جرير، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه كما في الدُّرِّ المنثور: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عزَّ وجلَّ: يؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدَّهر وأنا الدَّهر، بيدي الأمر، أُقَلِّب اللَّيل والنَّهار». ونلاحظ أنَّه جزء من الحديث الأوَّل الَّذي خرَّجناه في الهامش رقم (١) من الصَّفحة السَّابقة، ونلاحظ كذلك أنَّ ابن عطيَّة قال في تقديم هذا الحديث: «وفي حديث آخر».

الضَّمير في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ عائد على كفَّار قريش، و«الآيات» هي آيات القرآن وحروفه بقرينة قوله تعالىٰ: ﴿تُتۡلَىٰ﴾، وعابَتْ هذه الآية سوءَ مقاولتهم، وأَنَّهم جعلوا بدل الحجَّة التَّمنِّي المتشطِّط والطَّلب لما قد حتم الله تعالىٰ أَلاَّ يكون إلاَّ إلى أَجل مُسمّى.

وقرأَ الحسن، وعمرو بن عُبَيْد، وابن عامر ـ فيما روي عنه عبد الحميد ـ، وعاصم ـ فيما روى هارون وحُسَيْن عن أَبي بكر عنه ـ: ﴿حُجَّتُهُمۡ﴾ بالرَّفع على اسم [كَانَ] والخبر في [أَنْ]، وقرأَ جمهور النَّاس: ﴿حُجَّتَهُمۡ﴾ بالنَّصب على خبر مُقَدَّم واسم كان في [أَنْ].

وكان بعض قريش قد قال: احْيِ لنا قُصَيًّا ـ فإِنَّه كان شيخ صِدْق ـ حتَّى نسأَله، إلى غير ذلك من هذا النحو، فنزلت الآية في ذلك، وقيل لمحمد ﷺ: ﴿ٱئۡتُوا۟﴾ من حيث المخاطبة له والمراد هو وإِلـٰهُه والْمَلَك الوسيط الَّذي ذكر هو لهم، فجاءَ من ذلك جملة قيل لها: ﴿ٱئۡتُوا۟﴾ و﴿إِن كُنتُمۡ﴾.

ثمَّ أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ أَن يخبرهم بالحال السَّابقة في علم الله تعالىٰ الَّتي لا تُبَدَّل، وهي أَنَّه يحيي الخلق ويميتهم بعد ذلك ويحشرهم بعد إِماتتهم إِلى يوم القيامة، وقوله سبحانه: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أَي في نفسه وذاته، و«الأَكثر» الَّذي لا يعلم هم الكفَّار، و«الأَكثر» هنا على بابه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، قالت فرقة: العامل في [يَوْمَ] قوله تعالىٰ: ﴿يَخۡسَرُ﴾، وجاءَ قوله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ بدلاً مؤكِّداً، وقالت فرقة: العامل في ﴿يَوۡمَ﴾ فعل يدلُّ عليه المُلْك، وذلك أَنَّ يوم القيامة حال ثالثة ليست بالسَّماءِ ولا بالأَرض لأَنَّ ذلك يتبدَّل، فكأَنَّه تعالىٰ قال: ولله مُلْك السَّموات والأَرض والملك يوم القيامة، وينفرد [يَخۡسَرُ] بالعمل في قوله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾، و﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾: الدَّاخلون في الباطل.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ وصف حال القيامة وهولها، و«الأُمَّة»: الجماعة العظيمة من النَّاس الَّتي قد جمعها معنى أَو وصف شامل لها، وقال مجاهد: الأُمَّةُ: الواحد من النَّاس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قلِقٌ في اللُّغة، وإِن قيل في إِبراهيم ﷺ: أُمَّة[1]، وقالها النَّبيُّ ﷺ في قُسّ بن

---

(١) جاء ذلك في قوله تعالىٰ في الآية (١٢٠) من سورة النَّحل: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

ساعدة[١]، فذلك تجوُّز على جهة التَّشريف والتَّشبيه.

و[جَاثِيَةً] معناه: على الرَّكب، قاله مجاهد والضَّحَّاك، وهي هيئة المذنب الخائف المعظِّم، وفي حديث «فجثا عمر رضي الله عنه على ركبتيه»[٢]، وقال سلمان الفارسيُّ رضي الله عنه: في القيامة ساعة قدر عشر سنين، يخرُّ الجميع فيها جُثَاة على الرُّكب.

وقرأ جمهور النَّاس: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ بالرَّفع على الابتداءِ، وقرأ يعقوب: [كلَّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ] بالنصب على البدل من [كُلَّ] الأولى، إذْ في [كُلَّ] الثَّانية إيضاحُ موجب الجُثُوِّ، وقرأ الأعمش: [وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً تُدْعَى] بإسقاط ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ الثانية.

واختلف المتأوِّلون في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ ـ فقالت فرقة: أَراد: إلى كتابها المُنَزَّل عليها فتحاكم إليه، هَلْ وافقته أَو خالفته؟ وقالت فرقة: أَراد: إلى كتابها الَّذي كتبته الحفظة على كلٍّ واحد من الأُمَّة، فباجتماع ذلك قيل له: كتابها، وهنا محذوف

---

(١) قُسُّ بن ساعدة الإيَادِيُّ، عدَّه ابن شاهين وعبدان في الصَّحابة، وقال ابن حجر في الإصابة: «ذكره أبو عليِّ بن السّكن، وابن شاهين، وعبدان المروزي، وأبو موسى في الصَّحابة، وصرَّح ابن السّكن بأنَّه مات قبل البعثة»، وفي سيرة ابن سيِّد النّاس أنَّ الجارود بن عبد الله وفد في قومه على النَّبيِّ ﷺ، وسأله النَّبيُّ صلوات الله وسلامه عليه: هل في جماعة وفد عبد القيس من يعرف قُسّاً؟ قال الجارود: كلُّنا نعرفه يا رسول الله، ثمَّ أخذ يحكي خبره، فقال النَّبيُّ ﷺ: «على رسلك يا جارود، فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل أوْرق، وهو يتكلم بكلام ما أظنُّ أنِّي أحفظه»، فقال أبو بكر رضي الله تعالىٰ عنه: يا رسول الله فإنّي أحفظه، وهو: يا أيُّها النّاس، اسمعوا وعُوا، فإذا وعيتم فانتفعوا، إنّه من عاش مات، ومن مات فات، وكلُّ ما هو آت آت... إلخ، وورد ذكره في كتاب المعمَّرين للسَّجستانيِّ، وفي الأغاني للأصفهانيِّ، وفي البيان والتَّبيين للجاحظ، وفيه قال ﷺ: «يُحْشَر أُمَّةً وحده».

(٢) جاءَ ذلك في حديث أخرجه ابن أبي الدُّنيا والبَزَّار عن عليٍّ رضي الله عنه، قال: قيل لرسول الله ﷺ: متى السّاعة؟ فزبره رسول الله ﷺ، حتّى إذا صلّى الفجر رفع رأسه إلى السّماءِ، فقال: تبارك خالقها ورافعها ومبدِّلها وطاويها كطيِّ السِّجل للكتاب، ثمَّ قال: أين السّائل عن السّاعة؟ فجثا رجل من آخر القوم على ركبتيه، فإذا هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال رسول الله ﷺ: عند حيف الأئمة، وتكذيب بالقدر، وإيمان بالنّجوم، وقوم يتَّخذون الأمانة مغنماً، والزَّكاة مغرماً، والفاحشة زيارة، فسألته عن الفاحشة زيارة، فقال: الرَّجلان من أهل الفسق يصنع أحدهما طعاماً وشراباً، ويأتيه بالمرأة فيقول: اصنعي لي كما صنعت، فيتزاوران على ذلك، قال: فعند ذلك هلكت أُمَّتي يابن الخطاب. (الدُّرُّ المنثور)، ومعنى زبره: زجره ونهاه.

وقد ورد في حديث آخر أخرجه البخاريُّ عن أبي الدَّرداء أنَّ شيئاً كان بين أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ قد غضب وتغيَّر وجهه على عمر، فجثا أبو بكر على ركبتيه شفقة على عمر من غضب النَّبيِّ ﷺ.

يدلُّ عليه الظَّاهر، تقديره: فيقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ يحتمل أَن تكون الإشارة إِلى الكتب المنزَّلة، أَو اللَّوح المحفوظ، قال مجاهد، ومقاتل: يشهد بما سبق فيه من سعادة أَو شقاءٍ، ويحتمل أَن تكون إِلى كُتب الحفظة، وقال ابن قتيبة: هي إِلى القرآن.

واختلف النّاس في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ ـ فقالت فرقة: معناه: نكتب، وحقيقة النَّسخ وإِن كانت أَن يُنقل خطٌّ من أَصل يُنْظر فيه فإِنَّ أَعمال العباد هي في هذا التَّأْويل كالأَصل، فالمعنى: إِنَّا كُنَّا نقيِّد كلَّ ما عملتم، وقال الحسن: هو كتب الحفظة على بني آدم، وروى ابن عبّاس رضي الله عنهما وغيره أَنَّ الله يأْمر بعرض أَعمال العباد كلَّ يوم خميس، فيُنقل من الصُّحف الَّتي ترفع الحفظة كلُّ ما هو مُعَدٌّ أَن يكون عليه ثواب أَو عقاب، ويُلْغى الباقي، قالت فرقة: فهذا هو النَّسخ من أَصل، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما أَيضاً: معنى هذه الآية أَنَّ الله تعالىٰ يجعل الحفظة تنسخ من اللَّوح المحفوظ كلَّ ما يفعله العباد ثمَّ يُمسكونه عندهم، فتأْتي أَفعال العباد على نحو ذلك فيُقيَّد أَيضاً، فذلك هو الاستنساخ، وكان ابن عبّاس رضي الله عنهما يقول: أَلستم عرباً؟ وهل يكون الاستنساخ إِلاَّ من أَصل؟

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

ذكر الله تبارك وتعالىٰ حال الطّائفتين من المؤمنين والكافرين، وفرق بينهم في الذّكر ليبيِّن الأمر في نفس السّامع، فإِنَّ الأَشياءَ تتبيَّن بذكر أَضدادها معها، و«الفوز» هو نيل البُغية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ﴾ [فيه محذوف][1] فإِنَّ التَّقدير فيه: وأَمَّا الَّذين كفروا فيقال لهم: أَلم تكن...، فحذف «يُقال لهم» اختصاراً وبقيت الفاءُ دالَّة

---

(١) ما بين العلامتين [....] زيادة لتوضيح الكلام.

على الجواب الَّذي تطلبه «أَمَّا»، ثمَّ قدم عليها أَلف الاستفهام من حيث له صدر القول على كلِّ حالة، ووقف الله تعالىٰ الكفَّار على الاستكبار؛ لأَنَّه من شرِّ الخلال.

وقرأَ حمزة وحده: [وَٱلسَّاعَةَ] بالنَّصب عطفاً على قوله تعالىٰ: [وَعْدَ اللهِ]، ورويت عن أَبي عمرو، وعيسى، والأَعمش. وقرأَ ابن مسعود: [حَقٌّ وإن السَّاعَةَ لاَ رَيْب فيها]، وكذلك قرأَ أَيضاً الأَعمش. وقرأَ الباقون: [وَٱلسَّاعَةُ] رفعاً، ولذلك وجهان: أَحدهما الابتداءُ والاستئناف، والثَّاني العطف على موضع [إِنَّ] وما عملت فيه؛ لأَنَّ التقدير: «وَعْدُ الله حَقٌّ»، قاله أَبو عليٍّ في الحُجَّة، وقال بعض النّحاة: لا يعطف على موضع «إِنَّ» إلاَّ إِذا كان العامل الَّذي عطفته «إِنَّ» نافياً، وكذلك هو على موضع الباءِ في قوله:

. . . . فَلَسْنَـا بِـالْجِبَـالِ وَلاَ الحَـدِيـدَا[١]

فلمَّا كانت «ليْس» نافيةً جاز العطف على الموضع قبل دخول الباءِ، ويظهر نحو هذا النَّظر من كتاب سيبويه، ولكن قد ذكرنا ما حكى أَبو عليٍّ وهو القدوة. وقولهم: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ معناه: إِنْ نَظُنُّ بعد قبول خبركم إِلاَّ ظَنًّا، وليس يعطينا يقيناً[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿۞وَبَدَا لَهُمْ﴾ الآية... حكايةُ حال يوم القيامة، و﴿حَاقَ﴾ معناه: نزل

---

(١) هذا عجز بيت قاله عُقَيْبَة الأسديُّ من أبيات يشكو بها إلى معاويَة بن أبي سفيان جور عماله، والبيت بتمامه:

مُعَـاوِيَ إِنَّنَـا بَشَـرٌ فَـاسْجِـحْ فَلَسْنَـا بِـالْجِبَـالِ وَلاَ الحَـدِيـدَا

ومعنى أَسْجِحْ: ارفُق بنا وسَهِّل لنا الأمور، والشَّاهد فيه عند سيبويه هو عطف «الحَديدا» على «الجِبَالَ» قبل أن تدخل الباء عليها لجرِّها، قال سيبويه: «لأنَّ الباء دخلت على شيءٍ لو لم تدخل عليه لم يُخَلَّ بالمعنى ولم يُحْتَج إليها وكان نصباً، ألا ترى أنَّهم يقولون: حسبُك هذا وبحسبك هذا، فلم تغير الباءُ معنى؟»، وقد ردَّ بعض النُّحاة على سيبويه رواية البيت بالنَّصب هذه؛ لأنَّ البيت من قصيدة مجرورة معروفة، وبعده ما يدلُّ على ذلك وهو قوله:

أَكَلْتُـمْ أَرْضَنَـا فَجَـرَزْتُمُـوهَـا فَهَـلْ مِـنْ قَـائِـمٍ أَوْ مِـنْ حَصِيـدِ؟

ودافع الشَّنْتَمريُّ عن سيبويه وقال: إنَّه غير متَّهم فيما نقله روايةً عن العرب، ويجوز أن يكون البيت من قصيدة منصوبة غير هذه المعروفة، أو يكون العربيُّ الَّذي أنشده لسيبويه قد ردَّه إلى لغته، فقبله منه سيبويه بالنصب، فيكون الاحتجاج بلغة المُنْشِد من العرب لا بلغة الشَّاعر.

(٢) في هذه الآية كلام كثير للنَّحويِّين تجده في تفسير الزَّمخشريِّ، وفي البحر المحيط لأبي حيَّان الأندلسيِّ، ويدور حول إثبات الظَّنِّ ونفيه والتَّأويل الصَّحيح في ذلك.

وأَحاط، وهي مستعملة في المكروه، وفي قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانُوا۟﴾ حذف مضاف تقديره: جزاءَ ما كانوا، أَي عقاب كونهم يستهزئون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

[نَنْسَاكُمْ] معناه: نتْرُكُكُمْ كما تركتم لقاءَ يومكم هذا، فلم يقع منكم استعدادٌ له ولا تأَهبتم، فسمِّيت العقوبة في هذه الآية باسم الذَّنب، و«المأْوى»: الموضع الَّذي يسكنه الإِنسان ويكون فيه عامَّة أَوقاته أَو كلِّها أَجمع، و«آياتُ اللهِ» لفظ جامع لآيات القرآن وللأَدلَّة الَّتي نصبها الله تعالىٰ لينظر فيها العباد.

وقرأَ أَكثر القراءِ: ﴿لَا يُخْرَجُونَ﴾ بضمِّ الياءِ المنقوطة من تحت وفتح الرَّاءِ، وقرأَ حمزة، والكسائيُّ، وابن وثَّاب، والأَعمش، والحسن: [لا يَخْرُجُونَ] بإِسناد الفعل إِليهم بفتح الياءِ وضمِّ الرَّاءِ. و﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾: تُطلب منهم مراجعة إِلى عمل صالح.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ إِلى آخر السُّورة تحميدٌ له تعالىٰ وتحقيق لأُلوهيَّته، وفي ذلك كسرٌ لأَمر الأَصنام والأَنصاب. وقراءَة النَّاس: ﴿رَبِّ﴾ بالخفض في الثَّلاثة على الصِّفة، وقرأَ ابن محيصن بالرَّفع فيها، على معنى: هُوَ رَبُّ، و«الْكِبْرِياءُ» بناءُ مبالغة، وفي الحديث: «يقول الله تعالىٰ: الكبرياءُ ردائي، والعظمة إِزاري، فمن نازعني شيئاً منهما قصمته»[(١)].

كمل تفسير سورة الجاثية والحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقيُّ في الأسماء والصِّفات، عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه.

وأخرج ابن عساكر، عن عمر بن ذرٍّ، عن أبيه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما قعد قوم يذكرون الله إلاَّ قعد معهم عددهم من الملائكة، فإذا حمدوا الله حمدوه، وإن سبَّحوا الله سبَّحوه، وإن كبَّروا الله كبَّروه، وإن استغفروا الله أمَّنوا، ثمَّ عرجوا إلى ربِّهم فيسألهم، فقالوا: ربَّنا، عبيدٌ لك في الأرض ذكروك فذكرناك، قال: ماذا قالوا؟ قالوا: ربَّنا حمدوك، فقال: أوَّل من عُبد وآخر من حُمد، قالوا: وسبَّحوك، قال: مدحي لا ينبغي لأحدٍ غيري، قالوا: ربَّنا كبَّروك، قال: ليَ الكِبرياءُ في السَّموات والأرض وأنا العزيز الحكيم، قالوا: ربَّنا استغفروك، قال: أُشهدكم أنِّي قد غفرت لهم».

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة الأحقاف

هذه السُّورة مكِّيَّة، لم يُختلف فيها إلاَّ في آيتيْن: قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الآية[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الآية[2]، فقال بعض المفسِّرين: هاتان الآيتان مدنيتان وُضِعَتا في سورة مكِّيَّة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾.

تقدَّم القول في الحروف المقطعة في أوائل السُّور، و﴿تنْزيلُ﴾ رفع بالابتداءِ، أو خبر ابتداءٍ مضمر، و﴿الكتاب﴾: القرآن، و«العِزَّة» و«الإِحكام» صفتان مقتضيّتان أنَّ من هما له غالبَ كلّ من حادَّه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ما خلقنا السموات﴾ الآيَةَ... موعظةٌ وزجْرٌ، أَي: فاشهدوا أَيُّها النّاسُ وانظروا ما يراد بكم ولِمَ خُلِقتم، وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ معناه: إلاَّ بالواجب الحسن الَّذي قد حقَّ أَن يكون، و«بأَجل مُسَمًّى» وقَّتْناهُ وجعلناه موعداً لفساد هذه البنية، وذلك هو يوم القيامة، وقوله تعالىٰ: ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾، [مَا] مصدرِّيَة، والمعنى: على الإِنذار، ويحتمل أَن تكون [مَا] بمعنى الَّذي، والتَّقدير: عن ذكر الَّذي أُنذروا به والَّتحفُّظ منه، ونحو هذا.

---

(١) الآية رقم (١٠) من السّورة.

(٢) الآية رقم (٣٥) وهي آخر آية في السّورة.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ يحتمل [أَرَأَيْتُمْ] وجهين: أَحدهما أَن تكون متعدِّية و[مَا] مفعول بها، ويحتمل أَن تكون مُنَبِّهَة لا تتعدّى، وتكون [مَا] استفهاماً على معنى التَّوبيخ. و[تَدْعُونَ] معناه: تعبدون، قال الفراءُ: وفي قراءَة عبد الله بن مسعود: [مَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ»، وقوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [مِنْ] للتَّبعيض؛ لأَنَّ كلَّ ما على وجه الأَرض من حيوان ونحوه فهو من الأَرض، ثمَّ وقفهم تعالىٰ على السَّموات، هل لهم فيها شرك؟ ثمَّ استدعى تعالىٰ منهم كتاباً منزَّلاً قبل القرآن يتضمَّن عبادة صنم.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ معناه: أَو بقية قديمة من علم أَحد العلماءِ تقتضي عبادة الأَصنام، وقرأَ جمهور النّاس: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ﴾ على المصدر كالشَّجاعة والسَّماحة، وهي البقية من الشَّيءِ وكأَنَّها أَثَرُهُ، وقال الحسن بن أَبي الحسن: المعنى: من علم تستخرجونه فتثيرونه، وقال مجاهد: المعنى: هل من أَحد يأْثر علماً في ذلك، أَي ينقله، وقال القُرَظيُّ: هو الإِسناد، ومن ذلك قول الأَعشى:

إِنَّ ٱلَّـــذِي فِيـــهِ تَمَـــارَيْتُمَـــا ... بُيِّـــنَ لِلسَّـــامِـــعِ وَالآثِـــرِ[1]

أَي: ولِلمُسْنِدِ عن غيره، ومنه قول عمر رضي الله عنه: «فَمَا خَلَّفتُ بها ذاكراً ولا آثراً»، وقال أَبو سلمة بن عبد الرَّحمن، وقتادة: المعنى: أَو خاصة من علم، فاشتقاقها من الأَثرة، كأَنَّه قد آثر الله تبارك وتعالىٰ بها من هي عنده، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: المراد بالأَثارة الخَطُّ في التُّراب، وذلك شيءٌ كانت العرب تفعله وتتكهَّن به وتزجر، وهذا من البقيَّة والأَثر، وروي عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه سُئل عن ذلك، فقال: «كان نبيٌّ من الأَنبياءِ يَخُطُّ، فمن وافق خطَّه فذاك»[2]، ظاهر هذا الحديث يُقَوِّي

(١) قال الأعشى هذا البيت من قصيدة له يهجو بها علقمة بن عُلاثة ويمدح عامر بن الطّفيل في المنافرة الّتي جرت بينهما، والّتي يقول في مطلعها: (شاقَتْكَ مِنْ قَتْلَةَ أَطْلالُهَا)، وماريتُه مماراة: جادلتُه ولاجَجْتُه، وتماروا معناه المحالبة، كأنّ كلّ واحد يحلبُ ما عند صاحبه، أو يستخرجه منه كما يستخرج اللّبن من الشّاة بالحلب، والخطاب لعلقمة وعلاثة، ورواية الدّيوان: تدارَيْتُمَا، وهي من المداراة والمخاتلة، والآثر: ناقل الحديث عن غيره، وهو الشّاهد هنا، يقول لهما: إنّ الذي تجادلتما فيه وتخاصمتما أمر واضح للنّاس جميعاً، للسّامعين واللّذين يروون الخبر عن غيرهم.

(٢) أخرجه عبدُ بن حَميد، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرج سعيد بن منصور من طريق صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، قال: سُئل رسول الله ﷺ عن الخطّ فقال: «علمه نبيٌّ، ومن كان وافقه علم»، قال صفوان: فحدَّثت به أبا سلمة بن عبد الرُّحمن فقال: سألت ابن عبّاس رضي الله عنهما=

أَمر الخَطّ في التُّراب، وأَنَّه شيءٌ له وجه إِذا وُفِّق أَحدٌ إِليه، هكذا تأَوّله كثير من العلماءِ، وقالت فرقة: بل معناه الإِنكار، أَي أَنَّه كان من فعل نبيٍّ قد ذهب وذهب الوحي إِليه والإِلهام في ذلك، ثمَّ قال: «فمن وافق خطّه» على جهة الإِبعاد، أَي: إِنَّ ذلك لا يمكن مِمَّن ليس بنبيٍّ مُيَسَّر لذلك، وهذا كما يسأَلك أَحد فيقول: أَيطير الإِنسان؟ فتقول: إِنّما يطير الطّائر، فمن كان له من النّاس جناحان طار، أَي ذلك لا يكون.

والأَثارة تستعمل في بقية الشَّرف، فيقال: إِنَّ لبني فلان أَثارة من شرف؛ إِذا كانت عندهم شواهد قِدَمِهِ، وتستعمل في غير ذلك كقول الرّاعي:

وَذَاتِ أَثَــارَةٍ أَكَلَــتْ عَلَيْهَــا ... نَبَــاتــاً فــي أَكِمَّتِــهِ فَقَــارا[1]

يريد الأَثارة من الشَّحم، أَي البقيَّة.

وقرأَ أَبو عبد الرّحمن السُّلَميُّ ـ فيما حكى الطَّبريُّ ـ: [أَو أَثرة] بفتح الهمزة والثّاءِ والرّاءِ دون أَلف، وحكاها أَبو الفتح عن ابن عبّاس، وقتادة، وعكرمة، وعمرو بن ميمون، والأَعمش، وهي واحدة جمعها أَثَر كَقَتَرَةٍ وقَتَر[2]، وحكى الثَّعلبيُّ أَنَّ عكرمة قرأَ: [أَو مِيرَاثٍ مِنْ عِلْم]، وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه، والسُّلَميُّ ـ فيما حكى أَبو الفتح ـ: [أَثْرَةٍ] بسكون الثّاءِ، وهي الفَعْلَة الواحدة مما يُؤْثر، أَي: قد قنعت لكم بحجَّة واحدة وتخيُّر واحد وأَثَر واحد يشهد بصحَّة قولكم، وقرأَت فرقة بضمّ

= فقال: أو أثارة من علم، ونقل القرطبيُّ عن ابن العربيِّ أنَّه لم يَصِحَّ، ثمَّ قال تعقيباً على كلام ابن العربي: «هو ثابت من حديث معاويَة بن الحكم السُّلميِّ، خرَّجه مسلم».

(١) قال الرّاعي هذا البيت من قصيدة يمدح بها سعد بن عبد الرّحمن بن عتاب بن أسيد، والبيت في اللِّسان (أثر)، وقد نسبه للشَّمَّاخ، قال: «وسَمِنَت الإبل والنّاقة على أثارة، أي على عتيق شحم كان قبل ذلك، قال الشَّمَّاخ: «وَذَاتِ أَثَارَةٍ... البيت»، فهو في البيت يصف ناقة بالسِّمَن، واستشهد أبو عبيدة بالبيت في مجاز القرآن عند هذه الآية ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي بقية من شحم أكلت عليه، كذلك ذكره القرطبيُّ وأبو حيَّانُ في البحر، وأكِمَّةُ النَّبات: أَغْلِفَتُه، جمع كِمَام، وكِمام جمع كِمٍّ، أمَّا قوله: (فَقَارًا) فهي رواية اللِّسان والقرطبيِّ، ومعناها الزّيادة والنُّمو بسرعة، أمَّا رواية الطَّبريِّ فهي بالقاف (قَفَارًا)، وهي صفة للنَّبات، أي: رعت النّاقة هذا النَّبات خالياً لها من مزاحمة غيرها في رَعْيه، وأصله من قولهم: «طعامٌ قَفارٌ»، أي طعام بدون إدام. وابن عطيَّة يستشهد بالبيت هنا على أنَّ كلمة «أثارة» تستعمل في معاني أُخرى، وقد استعملت هنا في البقيَّة من الشَّحم».

(٢) القَتَرُ: جمع قَتَرَة، وهي الغَبَرة، قال تعالىٰ: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾.

الهمزة وسكون الثّاءِ، وهذه كلُّها بمعنى: هل عندكم شيءٌ خصَّكم الله به من علم وآثركم به[1]؟

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ الآيَةَ... توبيخٌ لِعَبَدَةِ الأصنام، أي: لا أحد أضلُّ مِمَّن هذه صفته، وجاءَت الكناياتُ في هذه الآية عن الأصنام كما تجيءُ عمّن يعقل وذلك أنَّ الكفّار قد أنزلوها منزلة الآلهة وبالمحلِّ الَّذي دونه البَشَر فخوطبوا على نحو معتقدهم فيها، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «مَا لاَ يَسْتَجِيبُ». والضَّمير في قوله سبحانه: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ﴾ هو للأصنام في قول جماعة، ووصف الأصنام بالغفلة من حيث عاملها معاملة من يعقل، ويحتمل أن يكون الضّمير في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ﴾ وفي [غَافِلُونَ] للكفار، أي: ضلالهم بأنَّهم يدعون من لا يستجيب ثم يَغْفُلون فلا يتأملون ما عليهم في دعائهم مَنْ هذه صفته.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ وصفٌ لما يكون يوم القيامة بين الكفّار وأصنامهم من التَّبري والمناكرة، وقد بيَّن ذلك في غير هذه الآية، وذلك قوله تعالىٰ حكاية عنهم: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾.

«الآياتُ» المذكورة هي آيات القرآن بدليل قوله تعالىٰ: [تُتْلَى] وقول الكفّار: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وإنَّما قالوا ذلك عن القرآن من حيث قالوا: هو يفرِّق بين المرءِ وولده، وبينه وبين زوجه، إلى نحو هذا ممّا يوجد مثله للسِّحر بالوجه الآخر.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، [أَمْ] مقطوعة مقدَّرة بـ «بل وهمزة

---

(١) ذكر البيضاويُّ في تفسيره ستَّ قراءات هي: «أثارة» بفتح الهمزة وكسرها، و«أَثَرَة» بفتح الهمزة والثّاءِ والرّاءِ، و«إثرة، أُثْرة، أَثْرة» بسكون الثّاءِ وفتح الهمزة، وبكسرها، وبضمِّها.

(٢) من الآية (٦٣) من سورة (القصص).

الاستفهام»، و[ٱفْتَرَاهُ] معناه: اشتَقَّه واختلقه، فأَمره الله تبارك وتعالىٰ أَن يقول: إِن افتريتُه فالله حسبي في ذلك، وهو كان يعاقبني ولا يهملني، ثمَّ رجع القول إِلى الاستفهام إِلى الله تعالىٰ والاستنصار به عليهم، وانتظار ما يقتضيه علمه بما يفيضون فيه من الباطل ومُرَادَّة الحقِّ، وذلك يقتضي معاقبتهم، ففي اللَّفظ تهديد، والضَّمير في قوله تعالىٰ: [فيه] يحتمل أَن يعود على القرآن، ويحتمل العودة على [مَا]، والضَّمير في [بِهِ] عائد على الله تعالىٰ، و[بِهِ] في موضع رفع، و«أَفَاضَ الرَّجلُ في الحديث ونحوه» إِذا خاضَ فيه واستمرَّ. وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ترجية واستدعاءٌ إِلى التَّوبة لأَنَّه في خلال تهديده إِيّاهم بالله جاءَت هاتان الصِّفتان.

ثمَّ أَمره الله تعالىٰ أَن يحتجَّ عليهم بأَنَّه لم يكن بِدْعاً من الرُّسل، أَي: قد جاءَ غيري قبلي، قاله ابن عبّاس، والحسن، والأَعرج، و«البِدْعُ» و«البديع» من الأَشياءِ: ما لَمْ يُرَ مثله، ومنه قول عدي بن زيد:

فَمَا أَنَا بِدْعٌ مِنْ حَوَادِثَ تَعْتَرِي ... رِجَالاً عَرَتْ مِنْ بَعْدِ بُؤْسِي وَأَسْعُدِ(١)

وقرأَ عكرمة، وابن أَبي عبلة، وأَبو حيوة: [بَدْعاً] بفتح الدّال، قال أَبو الفتح: التَّقدير: «ذَا بَدْعٍ» بحذف المضاف، كما قال:

وَكَيْفَ تُوَاصِلُ مَنْ أَصْبَحَتْ ... خُلاَلَتُهُ كَأَبِي مَرْحَبِ؟(٢)

---

(١) هذا البيت من المُجَمْهَرَة الَّتي قالها عديُّ بن زيد، ومطلعها:

أَتَعْرِفُ رَسْمَ الدَّارِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ؟ ... نَعَمْ، وَرَمَاكَ الشَّوْقُ قَبْلَ التَّجَلُّدِ

وهي في (جمهرة أشعار العرب)، وفي (موسوعة الشِّعر العربيِّ)، والرِّواية فيهما: «فَلا أَنابِدْعٌ»، والبِدْعُ هو أَوَّلُ من تصيبه الحوادث، وهذا ما أشار إليه ابن عطِيَّة بقوله: «ما لَمْ يُرَ مثله»، وهو موضع الاستشهاد هنا، وتعتري: تصيب، والبُؤْسى: نقيض النُّعمى، أي البؤسُ والشَّقاءُ، والأسْعُد: جمع سَعْد وهو اليُمْن، نقيض النَّحْس، ورواية البيت في القرطبيِّ: «رجالاً غَدَتْ من بعد بُؤسى بأَسْعُد»، ورواية البيت في (شعراء النَّصرانيَّة):

فَلَسْتُ بِمَنْ يَخْشَى حَوَادِثَ تَعْتَرِي ... رجالاً فَبَادُوا بَعْدَ بُؤْسٍ وَأَسْعُدِ

وعلى هذه الرِّواية فلا شاهد فيه.

(٢) البيت لعبد الله بن قيس المعروف بالنَّابغة الجعديِّ، وهو ممن وفد على الرَّسول ﷺ، ودَعَا لَه، وقبل هذا البيت يقول:

وَبَعْضُ الأخِلاَّءِ عِنْدَ البَلا ... ءِ وَالرُّزْءِ أَرْوَغُ مِنْ ثَعْلَبِ =

واختلف النّاسُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ فقال ابن عبّاس، وأَنس بن مالك، وعكرمة، وقتادة، والحسن: معناه: في الآخرة، وكان هذا في صدر الإسلام، ثمَّ بعد ذلك عرَّفه الله تعالىٰ بأَنَّه قد غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأَخَّر، وبأَنَّ المؤمنين لهم من الله فضل كبير وهو الجنَّة، وبأَنَّ الكافرين في نار جهنَّم، والحديث الَّذي وقع في جنازة عثمان بن مظعون يؤيد ذلك «فوالله ما أَدري وأَنا رسول الله ما يفعل بي»، وفي بعض الرِّوايات «به»[(١)]، ولا حُجَّة لنا في الحديث على رواية «به». والمعنى عندي في هذا القول أَنَّه لم تتكشَّف له الخاتمة، فقال: «لا أَدري»، وأَمَّا مَنْ وافَى على الإِيمان، فقد أُعلم بنجاته من أَوَّل الرِّسالة، وإِلاَّ فكان للكفّار أَن يقولوا: وكيف تدعونا إِلى ما لا تدري له عاقبة؟ وقال الحسن أَيضاً وجماعة: معنى الآية: ما أَدري ما يُفعل بي ولا بكم في الدُّنيا من أَن أُنصر عليكم أَو مِن أَن تُمكَّنوا منِّي، ونحو هذا من المعنى[(٢)].

= والخُلالة ـ مُثَلَّثة الخاءِ ـ: الصَّداقة، وأبو مَرْحب: كُنْية الظِّلِّ، ويقال: هو كنية «عُرْقُوب» المشهور الَّذي قيل عنه: «مواعيد عُرْقوبٍ أخاه بيَثْرِب»، ذكر ذلك في اللِّسان ـ خلل ـ، وقال ابن الأعرابيِّ: «يقال للرَّجل الحسن الوجه لا باطن له: أبو مرحب»، والشّاهد في البيت حذف المضاف؛ إذ التّقدير: «كخُلالةِ أبي مرحب»، هذا والبيت في الكتاب لسيبويه، وفي لسان العرب، وأمالي القالي، واللآلىء، والإنصاف، وشرح القصائد السّبع الطوال، والسِّمط، وهو في أكثرها غير منسوب لقائل.

(١) هذا الحديث أخرجه أحمد، والبخاريُّ، والنَّسائيُّ، وابن مردويه، عن أُمِّ العلاء رضي الله عنها، وأخرج مثله الطَّبرانيُّ، وابن مردويه، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، وأخرج مثله ابن حبّان، والطَّبرانيُّ، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، وأُمُّ العلاء امرأة من الأنصار، قالت: اقتسمنا المهاجرين فطار لنا عثمان بن مظعون بن حُذافة بن جُمَح، فأنزلناه أبياتنا فتوفِّي، فقلت: رحمة الله عليك أبا السّائب، إنَّ الله أكرمك، فقال النَّبيُّ ﷺ: «وما يُدريك أنَّ الله أكرمه»؟ فقلت: بأبي وأُميّ يا رسول الله، فمن؟ قال: «أَمَّا هو فقد جاءَه اليقين، وما رأينا إلاَّ خيراً، فوالله إنّي لأرجو له الجنة، ووالله إنّي لرسول الله وما أدري ما يُفعل بي ولا بكم»، قالت: فوالله لا أُزكِّي بعده أحداً أبداً، ورواية «به» هي رواية البخاريِّ، وليس فيه: «بي ولا بكم»، قال القرطبيُّ: «وهو الصحَّيح إن شاء الله».

(٢) أكثر المفسِّرين ـ ومنهم الطَّبريُّ والقرطبيُّ ـ على أن هذا هو أصح قول وأحسنه، قال الحسن في توضيح كلامه: «ما أدري ما يُفعل بي ولا بكم في الدُّنيا، أمّا في الآخرة فمعاذ الله! قد علم أنَّه في الجنَّة حين أخذ ميثاقه في الرُّسل، ولكن قال: ما أدري ما يُفعل بي في الدُّنيا، أأُخرج كما أُخرجت الأنبياءُ قبلي، أو أُقتل كما قُتلت الأنبياءُ قبلي؟ ولا أدري ما يُفعل بكم أأُمَّتي المُصَدِّقَة أم المُكَذِّبَة، أم أُمَّتي المرمية بالحجارة من السَّماء قذفاً، أو مخسوف بها خسفاً؟ ثمَّ نزلت ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، يقول: سيظهر دينه على الأديان، ثمَّ قال في أُمَّته: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ فأخبره تبارك وتعالىٰ بما يصنع به وبأُمَّته، ولا نَسْخَ على هذا كلِّه، والحمد لله». =

وقالت فرقة: معنى الآية: ما أدري ما يُفعل بي ولا بكم من الأوامر والنَّواهي وما تُلزمنا الشَّريعة من أغراضها. وحكى الطَّبريُّ عن بعضهم أنَّه قال: نزلت الآية في أمر كان النَّبيُّ ﷺ ينتظره من الله تعالىٰ في غير الثَّواب والعقاب، وروي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّه لمَّا تأخَّر خروج النَّبيِّ ﷺ من مكَّة حين رأى في النَّوم أنَّه مهاجر إلى أرض ذات نخل وسبخة[1] قَلِقَ المسلمون لتأخُّر ذلك فنزلت الآية.

وقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ معناه الاستسلام والتَّبرِّي من عِلْم الغَيْبيَّات والوقوف مع النِّذارة من عذاب الله تعالىٰ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

هذه آية توقيف على الخطر العظيم الَّذي هم بسبيله في أن يكذِّبوا بأمْر نافع لهم مُنْج من العذاب دون حُجَّة ولا دليل لهم على التَّكذيب، فالمعنى: كيف حالكم مع الله تعالىٰ؟ وماذا تنتظرون منه وأنتم قد كفرتم بما جاءَ من عنده؟ وجواب هذا التَّوقيف محذوف، تقديره: أليس قد ظلمتم؟ ودلَّ على هذا المقدَّر قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

و(أَرَأَيْتُمْ) في هذه الآية يحتمل أن تكون مُنَبِّهَة، فهي لفظة موضوعة للسُّؤال لا تقتضي مفعولاً، ويحتمل أن تكون جملة [كَانَ] وما عملت فيه تسُدُّ مسدَّ مفعوليها.

واختلف النَّاس في المراد بالشَّاهد ـ فقال الحسن، ومجاهد، وابن سيرين: هذه الآية مدنيَّة والشَّاهد عبد الله بن سلام، وقول الله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ الضَّمير فيه عائد على قول محمد ﷺ في القرآن: إنَّه من عند الله، وقال الشَّعبيُّ: الشَّاهد رجل من بني إسرائيل غير عبد الله بن سلام كان بمكَّة، والآية مكِّيَّة، وقال سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه، ومجاهد، وفرقة: الآية مكِّيَّة والشَّاهد عبد الله بن سلام، وهي من

= (راجع الدّرّ المنثور، والطَّبريَّ، والقرطبيَّ).

(١) الَّذي في كتب التَّفسير والسِّيرة وغيرها: «ذات نخل وشجر وماء».

الآيات الَّتي تضمَّنت غيباً أبرزه الوجود، وقد روي عن عبد الله بن سلام أنَّه قال: فيَّ نزلت، وقال مسروق بن الأجدع والجمهور: الشّاهد هو موسى بن عمران عليه السَّلام، والآية مكّيَّة، ورجَّحه الطَّبريُّ، وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ يريد بالمثل التَّوراة، والضَّمير عائد ـ على هذا التَّأويل ـ على القرآن، أي: جاءَ شاهد من بني إسرائيل بمثله وشهد أنَّه من عند الله تعالىٰ، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ ـ على هذا التَّأويل ـ يعني به تصديق موسى بأمر محمد ﷺ وتبشيره به، فذلك إيمان به، وأمَّا من قال: الشَّاهد ابن سلام فإيمانه بيِّن، وكذلك الإسرائيليُّ الَّذي كان بمكَّة في قول من قاله. وحكى بعضهم أنَّ العامل بـ[آمَنَ] هو محمد ﷺ، وهذا من القائلين بأنَّ الشَّاهد هو موسى بن عمران عليه السَّلام، ثمَّ قرن تعالىٰ استكبارهم وكفرهم بإيمان هذا المذكور فبان ذنبهم وخطؤهم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، قال قتادة: هي مقالة أشراف قريش يريدون عمَّاراً وصُهَيْباً وبِلالاً ونحوهم ممَّن أسلم وآمن بالنَّبيِّ ﷺ. وقال الزَّجّاج، والكَلبيُّ، وغيرهما: هي مقالة كنانة وعامر وسائر قبائل العرب المجاورة، وقالت ذلك حين أسلمت غِفَار ومُزَينة وجُهَيْنَة، وقال الثَّعلبيُّ: هي مقالة اليهود حين أسلم عبد الله بن سلام وغيره منهم.

و«الإفْكُ»: الكذب، ووصفوه بالقِدَم بمعنى أنَّه في أُمور متقادمة، وهذا كما تقول لرجل حدَّثك عن أخبار كسرى وقيصر: هذا حديث قديم، ويحتمل أن يريدوا أنَّه إفك قيل قديماً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

الضَّمير في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ للقرآن، و﴿كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ هو التَّوراة، وقرأ

الكلبيُّ: [كتاب موسى] بنصب الباءِ على إِضمار: أَنزل اللهُ، أَو نحو ذلك. و«الإِمامُ»: خيط البنَّاءِ، وكلُّ ما يهتدى به ويُقْتَدَى به فهو إِمامٌ، ونُصب ﴿إِمَاماً﴾ على الحال، و﴿رَحْمَةً﴾ عطفاً على ﴿إِمَاماً﴾، والإِشارة بقوله تعالىٰ: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ ﴾ إِلى القرآن، و﴿مُصَدِّقٌ﴾ معناه: للتَّوراة الَّتي تضمَّنت خبره وأَمر محمد ﷺ، فجاءَ هو مصدِّقاً لذلك الإِخبار، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: [مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ لِسَاناً].

واختلف النّاس في نصب قوله: ﴿لِسَاناً﴾ ـ فقالت فرقة من النُّحاة: هو منصوب على الحال، وقالت فرقة: ﴿لِسَاناً﴾ توطئة مؤكَّدة، و﴿عَرَبِيًّا﴾ حال، وقالت فرقة: ﴿لِسَاناً﴾ مفعول بـ ﴿مُصَدِّقٌ﴾، والمراد ـ على هذا القول ـ باللِّسان محمد ﷺ، فكأَنَّ القرآن بإِعجازه وأَحواله البارعة يصدق الَّذي جاءَ به، وهذا قول صحيح المعنى جيِّدٌ، وغيره ممّا قدَّمنا مُتَّجه.

وقرأَ نافع، وابن عامر، وابن كثير ـ فيما روي عنه ـ وأَبو جعفر، والأَعرج، وشيبة، وأَبو رجاءٍ، والنّاس: [لِتُنْذِرَ] بالتّاءِ أَنت يا محمد، ورجَّحها أَبو حاتم، وقرأَ الباقون، وابن كثير، والأعمش: ﴿لِيُنْذِرَ﴾ أَي القرآن، و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ هم الكفّار الَّذين جعلوا العبادة في غير موضعها في جهة الأَوثان والأَصنام، وقوله تعالىٰ: ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ يجوز أَن يكون في موضع رفع عطفاً على قوله تعالىٰ: ﴿مُصَدِّقٌ﴾، ويجوز أَن يكون في موضع نصب، واقعةً[1] موقع فعل عطفاً على ﴿لِيُنْذِرَ﴾، أَي: ويُبَشِّر المحسنين.

ولمَّا عبَّر تعالىٰ عن الكفّار بـ ﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ عبَّر عن المؤمنين بـ «الْمُحْسِنِينَ» ليتناسب لفظ الإِحسان في مقابلة الظُّلم، ثمَّ أَخبر تعالىٰ عن حسن حال المؤمنين المستقيمين، ورفع عنهم الخوف والحزن، وذهب كثير من النّاس إِلى أَنَّ معنى الآية: ثمَّ استقاموا بالطَّاعَات والأَعمال الصَّالحات، وقال أَبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه: بالدَّوام على الإِيمان وترك الانحراف عنه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا القول أَعمُّ رجاءً وأَوسع، وإِن كان في الجملة المؤمنة من يُعَذَّب وينفذ عليه الوعيد فهو ممن يخلد في الجنَّة وينتفي عنه الخوف والحزن الحالُّ بالكفرة.

---

(١) هكذا في الأصول.

و«الخوفُ» هو الهمُّ بما يُستقبل، و«الحُزْن» هو الهمُّ بما مضى، وقد يستعمل فيما يُستقبل استعارة لأنَّه حزنٌ لخوف أمرٍ مَّا، وقرأ ابن السُّميفع: [فَلاَ خَوْفُ] بدون تنوين، وقوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، [مَا] واقعة على الجزءِ الَّذي هو اكتساب العبد، وقد جعل الله تعالىٰ الأعمال أَمارات على جزاءِ العبد، لا أَنها توجب على الله تعالىٰ شيئاً.

قوله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، يريد النّوع، أَي: هكذا مضت شرائعي وكتبي لأنبيائي، فهي وصية من الله تعالىٰ في عباده، وقرأ جمهور القراءِ: [حُسْناً] بضمِّ الحاءِ وسكون السّين ونصبه على تقدير: وصَّيناه ليفعل أمراً ذا حُسْن، فكأَنَّ الفعل سلط عليه مفعولاً ثانياً، وقرأ عليُّ بن أَبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه، وأَبو عبد الرَّحمن، وعيسى: [حَسَناً] بفتح الحاءِ والسّين، وهذا كالأَوَّل، ويحتمل كونهما مصدرين كالبُخْل والبَخل[1]، ويحتمل أَن يكون هذا الثّاني اسماً لا مصدراً، أَي أَلزمناه بهما فعلاً حَسناً[2]، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائيُّ: ﴿إِحْسَاناً﴾، ونصب هذا على المصدر الصَّريح، والمفعول الثّاني في المجرور، والباءُ مُتَعلِّقَة بـ ﴿وَصَّيْنَا﴾، أَوْ بقوله تعالىٰ: ﴿إِحْسَاناً﴾[3].

وبرُّ الوالدين واجب بهذه الآية وغيرها، وعقوقهما كبيرة من الكبائر، وقال النَّبيُّ ﷺ: «كلُّ شيءٍ بينه وبين الله تعالىٰ حجابٌ إِلاَّ شهادة أَن لا إِلـه إِلاَّ الله ودعوة الوالدين»[4].

---

(١) مثل: الشُّغْل والشَّغَل، ذكر ذلك أبو الفتح في المحتسب.

(٢) قال ابن جنّيّ: فهو اسمٌ صفةٌ لا مصدر، ونَصَبه (وصَّيْناهُ به)؛ لأنَّه يفيد مفاد: أَلزمناه الحَسَن في أبويه، وإن شئتَ قلتَ: هو منصوب بفعل غير هذا، لا بنفس هذا، فيكون منصوباً بنفس أَلزمناه، لا بنفس وصَّيْناهُ؛ لأنَّه في معناه.

(٣) يرفض أبو حيّان في البحر ويقول: «لا يصحُّ أن يتعلق بـ[إِحْسَاناً]؛ لأنَّه مصدر بحرف مصدريّ والفعل؛ فلا يتقدّم معموله عليه، ولأنَّ «أَحْسَن» لا يتعدّى بالباءِ، إنَّما يتعدّى باللاّم؛ تقول: أَحسنتُ لزيد، ولا تقول: أحسنتُ بزيد على معنى أنَّ الإحسان يصل إليه».

(٤) وروى أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ نبيَّ الله ﷺ كان يقول: «ثلاثُ دعوات مستجابات لا شكَّ فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده»، أمّا الحديث بهذا اللَّفظ الَّذي ذكره المؤلف فقد رواه ابن النَّجار عن أنس رضي الله عنه، وقد ذكره الإمام السُّيوطيّ في الجامع الصغير، ورمز له بأنَّه ضعيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولن يَدْعُوَا إلاَّ إذا ظلمهما الولد، فهذا الحديث في عموم قوله ﷺ: «اتَّقوا دعوة المظلوم فإنَّها ليس بينها وبين الله حجاب»(١).

ثمَّ عدَّد تعالىٰ على الأبناءِ حقَّ الأمَّهات، وذكر تعالىٰ الأمَّ في هذه الآية في أربع مراتب، والأَب في مرتبة واحدة، وجمعهما الذّكر في قوله تعالىٰ: ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾، ثمَّ ذكر الحَمْل للأُمّ، ثمَّ الوضع لها ثمَّ الرَّضاع الَّذي عبَّر عنه بالفِصال، فهذا يناسب ما قال رسول الله ﷺ حين جعل للأُمِّ ثلاثة أَرباع البرِّ والرُّبع للأَب، وذلك إذْ قال له رجل: «يا رسول الله، من أَبَرُّ؟ قال: أُمَّك، قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: أُمَّك، قال: ثمَّ مَن؟ قال: أُمَّك، قال: ثمَّ مَن؟ قال: أَباك»(٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿كُرْهاً﴾ معناه: في باقي استمرار الحمل حين تُتَوَقَّع حوادثه، ويحتمل أَن يراد: في وقت الحمل؛ إذْ لا نذير لها في حمله ولا في تركه، قال مجاهد، والحسن، وقتادة: المعنى: حملته مشقَّة ووضعته مشقَّة، وقرأَ أكثر القراءِ: ﴿كُرْهاً﴾ بضمِّ الكاف، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، والأَعرج، وشيبة: [كَرْهاً] بفتح الكاف، وقرأَ بهما معاً مجاهد، وأَبو رجاءٍ، وعيسى، قال أَبو عليٍّ: هما بمعنى، الضمَّ: الاسم، والفتح: المصدر، وقالت فرقة: الكُرْهُ ـ بضمِّ الكاف ـ المشقَّة، والكَرْهُ ـ بفتح الكاف ـ هو الغلبة والقهر، وضعَّفوا ـ على هذا ـ قراءَة الفتح، قال بعضهم: لو كان كَرْهاً لرمت به عن نفسها؛ إذ الكَرْهُ القهْر والغلبة، والقول الَّذي قدَّمناه أَصوب.

وقرأَ جمهور النّاس: ﴿وَفِصَالُهُ﴾، وذلك أَنَّها مفاعلة من الاثنين كأَنَّه فاصل أُمَّهُ وفاصلته، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، وأَبو رجاءٍ، وقتادة، والجحدريُّ: [وَفَصْلُهُ]، كأَنَّ الأمَّ هي الَّتي فصلته.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ يقتضي أَنَّ مدَّة الحمل والرَّضاع هي هذه المُدَّة؛ لأَنَّ

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الجهاد والزّكاة والمظالم والمغازي، ومسلم في الإيمان، وأبو داود، والتِّرمذيُّ، والنَّسائيُّ، وابن ماجه، والدَّارمِيُّ في الزّكاة، ومالك في موطئه في دعوة المظلوم، وأحمد في مسنده (١ـ٣٢٢، ٣ـ١٥٣)، ولفظه كما جاء في البخاريُّ في كتاب المظالم، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن، فقال «اتَّقِ دعوة المظلوم فإنَّها ليس بينها وبين الله حجاب».

(٢) رواه البخاريُّ ومسلم، واللَّفظ فيهما: «من أَحقُّ النَّاس بِحُسْنِ صحابتي»؟.

في القول حذف مضاف تقديره: ومُدَّة حمله وفصاله، وهذا لا يكون إلاَّ بأَن يكون أَحد الطَّرفين ناقصاً، وذلك إمَّا أَن تلد المرأَة لستة أَشهر وتُرضع عامين، وإمَّا أَن تلد لتسعة أَشهر على العرف وترضع عامين غير ربع عام، فإن زادت مدَّة الحمل نقصت مدَّة الرَّضاع وبالعكس، فيترتب من هذا أَنَّ أَقل مدَّة الحمل ستة أَشهر، وأَقل ما ترضع الأُمُّ الطِّفل عاماً وتسعة أَشهر، وإكمال العامين هو لمن أَراد أَن يكمل الرَّضاع، وهذا في أَمر الحمل هو مذهب عليٍّ بن أَبي طالب رضي الله عنه وجماعة من الصَّحابة رضوان الله عليهم، وهو مذهب مالك رحمه الله.

واختلف النّاس في «الأَشُدِّ» ـ فقال الشَّعبيُّ، وزيد بن أَسلم: إذا كتبت عليه السَّيِّئات ولَهُ الحسنات، وقال ابن إسحق: ثمانية عشر عاماً، وقيل: عشرون عاماً، وقال ابن عبّاس، وقتادة: ثلاثة وثلاثون عاماً، وقال الجمهور من النُّظّار: ستة وثلاثون عاماً، وقال هلال بن يَساف وغيره: أَربعون عاماً. وأَقوى الأَقوال ستة وثلاثون، ومَن قال بالأَربعين قال في الآية: إنَّه تعالىٰ أَكَّد وفسَّر الأَشُدَّ بقوله سبحانه: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، وإنَّما ذكر تعالىٰ الأَربعين لأَنَّها حدٌّ للإنسان في صلاحه ونجابته، وفي الحديث: «إنَّ الشيطان يجرُّ يده على وجه من جاوز الأَربعين ولم يتُب ويقول: بأَبي وَجْهٌ لا يُفْلح»[1]، وقال أَيمن بن خُرَيْم الأَسديُّ:

إِذَا المرءُ وفَّى الأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَكُنْ ... لَهُ دُونَ مَا يأْتِي حَيَاءٌ ولا سِتْرُ
فَدَعْهُ وَلاَ تَنْفِسْ عَلَيْهِ الَّذِي ارْتَأَى ... وَإِنْ جَرَّ أَسْبَابَ الْحَيَاةِ لَهُ العُمْرُ[2]

وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [حَتَّى إِذَا اسْتَوَى أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَة][3].

وقوله: [أَوْزِعْني] معناه: ادفعني عن الموانع وازجرني عن القواطع لأَجل أَن أَشكر

(١) لم أقف على هذا الحديث، ولم يذكره من المفسِّرين في هذا الموقع غير ابن عطِّية إلاّ صاحب البحر المحيط.

(٢) أَيمن بن خُرَيْم بن فاتك الأَسديُّ، له ترجمة في الأغاني، والإصابة، وتهذيب ابن عساكر، ومعنى «وفَّى الأربعين»: أكملها، و«ما يأتي»: ما يفعل من الأشياء، يفعل ما يريد دون خَجل أو تستُّر من النّاس، ولا تَنْفِس عليه، أي لا تحسده على ما ارتضى لنفسه من الأمور مهما طال عمره.

(٣) قال الفراءُ: «والمعنى فيه كالمعنى في قراءتنا؛ لأنَّه جائز في العربية أن تقول: لمَّا وُلد لك وأدركت مدرك الرِّجال عققتَ وفعلت، والإدراك قبل الولادة».

نعمتك[١]، ويحتمل أن تكون [أَوْزِعْني] بمعنى: اجْعَلْ حظِّي ونصيبي، وهذا من التَّوزيع، والقوم الأوازع، ومن قولك: توزَّعوا المال، فـ [أَنْ] ـ على هذا ـ مفعولٌ صريحٌ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نعمتَك في التوحيد. و﴿صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾: الصلوات، و«الإصلاح في الذُّرِّيَّة» كونُهم أهل طاعة وخيريَّة، وهذه الآية معناها أن هكذا ينبغي للإنسان أن يفعل، وهذه وصيَّة الله تعالىٰ في كل الشرائع.

وقال الطَّبريُّ: وذُكر أنَّ هذه الآية من أوَّلها نزلت في شأن أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله تعالىٰ عنه، ثمَّ هي تتناول مَنْ بَعده، وكان رضي الله عنه قد أَسلم أَبوه عام الفتح، فإنَّما يتَّجه هذا التَّأْويل على أنَّ أبا بكر رضي الله عنه كان يطمع في إيمان أبويه ويرى مخايل ذلك فيهما، فكانت هذه عنده نعمة عليهما، أَي لَيْسا ممَّن عَسَى[٢] في الكفر ولجَّ وحُتم عليه ثمَّ ظهر إيمانهما بعد، والقول بأنَّها عامَّة في نوع الإنسان لم يقصد بها أبو بكر ولا غيره أَصحُّ[٣]، وباقي الآية بيِّن إلى قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا

(١) من ذلك قول النَّابغة الذُّبيانيّ:

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّبَا ... وَقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وَازِعُ؟

وقول الآخر:

وَلَمَّا تَلاقَيْنَا جَرَتْ مِنْ جُفُونِنَا ... دُمُوعٌ وَزَعْنَا غَرْبَهَا بِالأَصَابِعِ

فإنَّ المعنى فيهما الكفُّ والدَّفْعُ، ولكنَّ الطَّبريَّ يرى أنَّ المعنى: أغرني بشكر نعمتك الَّتي أنعمت عليَّ في تعريفك إيَّايَ توحيدك وهدايتك لي للإقرار بذلك، وأصله من «وزعْتُ الرَّجل على كذا، إذا دفعته عليه»، وقال القرطبيُّ: أوزعني: أَلْهِمْنِي.

(٢) عَسَى هنا بمعنى كَبِرَ، جاءَ في اللِّسان: «عَسَا الشَّيْخُ يَعْسُو.... : كَبِرَ، مثلُ عَتَا، ويقال للشَّيخ إذا وَلَّى وكَبِرَ: عَتَا يَعْتُو عُتِيّاً، وعَسَا يَعْسُو مثله».

(٣) في الآية ثلاثة أقوال: الأوَّل أنَّها نزلت في أبي بكر الصِّدِّيقِ رضي الله عنه، وقد ذكر ذلك الواحديُّ في «أسباب النّزول» من رواية عطاءٍ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما بدون سند، وقال السُّيوطيُّ في «الدُّرِّ المنثور»: «أخرج ابن عساكر من طريق الكلبيِّ، عن أبي صالح، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: نزلت في أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه...، والثّاني أنَّها نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، والثّالث أنَّها عامَّة، وهذا ما رجَّحه المؤلف رحمه الله».

يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: [أُولَئِكَ] دليل على أَنَّ الإِشارة بالإِنسان في قوله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ إلى الجنس[1]، وقرأَ جمهور القرَّاءِ: [يُتَقَبَّلُ] بالياءِ مضمومة على بناءِ الفعل للمفعول، وكذلك [يُتَجَاوَزُ]، وقرأَ حمزة، والكسائيُّ، وحفص عن عاصم فيهما بالنّون الَّتي للعظمة، [أَحْسَنَ] بالنَّصب، وهي قراءَة ابن وثّاب، وطلحة، وابن جبير، والأَعمش ـ بخلاف ـ، وقرأَ الحسن: [يَتَقَبَّلُ] بياءٍ مفتوحة [وَيَتَجَاوَزُ] كذلك، أَي اللهُ تعالىٰ. وقوله تعالىٰ: ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ يريد الَّذين سبقت لهم رحمة الله تعالىٰ، وقوله: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ نصب على المصدر المؤكّد لما قبله.

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ الآية، [ٱلَّذِي] يعني به الجنس على حدِّ العموم الَّذي في الآية الَّتي قبلها في قوله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾، هذا قول الحسن وجماعة، ويُشبه أَنَّ لها سبباً من رجل قال ذلك لأَبويه، فلمَّا فرغ مِن ذكر ذلك الموقف عقَّب بذكر هذا العاق. وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما في كتاب الطَّبريِّ: نزلت هذه الآية في ابن لأَبي بكر، ولم يُسَمِّه، وقال مروان بن الحكم: نزلت في عبد الرَّحمن بن أَبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، وقال قتادة: وذلك أَنَّه كان أَكبر أَولاد أَبي بكر وشهد بدراً وأُحداً مع الكفّار، وقال لأَبيه في الحرب:

لَـمْ يَبْـقَ إِلاَّ شِكَّـةٌ وَيَعْبُـوبْ ... وَصَـارِمٌ يَقتُـلُ ضُـلاَّلَ الشِّيـبْ[2]

ودعاه للمبارزة، فكان بمكَّة على نحو هذا الخُلُق، فقيل إِنَّها نزلت فيه، ورُوي أَنَّ مروان بن الحكم خطب وهو أَمير المدينة فدعا النّاس إِلى بيعة يزيد، فقال عبد الرحمن بن أَبي بكر: جعلتموها هِرَقْلِيَّة، كلَّما مات هِرَقْل وَلِيَ هِرَقْل، وكلما مات

---

(١) في بعض النُّسخ: «أراد به الجنس»، وفي بعضها «للجنس».

(٢) ذكر هذا البيت ابن هشام في السِّيرة، والشِّكَّةُ: السِّلاح، واليَعْبُوبُ: الفرسُ الطَّويل السَّريع الجريّ، والصَّارم: السَّيف القاطع. ولكنَّ ابن هشام لم يذكر أن عبد الرحمن دعا أباه إلى المبارزة، وإنَّما ذكر أنَّ أبا بكر رضي الله تعالىٰ عنه التقى بابنه عبد الرَّحمن فقال له: أين مالي يا خبيث؟ فأجابه عبد الرحمن بهذا البيت من الشِّعر. هذا وأخبار عبد الرحمن في الإصابة، وفي الأغاني، وقد أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه، وروى عن النَّبيِّ ﷺ أحاديث.

قيصر وَلِيَ قيصر، فقال مروان: خذوه، فدخل عبد الرحمن بيت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، فقال مروان: إنَّ هذا هو الَّذي قال الله تعالىٰ فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾، فسمعته عائشة رضي الله عنها فأنكرت ذلك عليه، وسبَّت مروان وقالت: والله ما نزل في آل أَبي بكر من القرآن غير براءَتي، وإِنِّي لأَعرف فيمن نزلت هذه الآية[1]، وذكر ابن عبد البَرّ أَنَّ الَّذي خطب هو معاوية رضي الله عنه، وذلك وَهْمٌ، والأَصوب أَن تكون عامَّة في أَهل هذه الصِّفات ولم يقصد بها عبد الرحمن ولا غيره من المؤمنين، والدَّليل القاطع على ذلك قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾، وكان عبد الرَّحمن رضي الله عنه من أَفضل الصَّحابة، ومن الأَبطال، وممَّن له في الإِسلام غناءٌ، ويكفيه مقامه مع مروان يوم اليمامة وغيره.

وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائيُّ، وأَبو بكر عن عاصم، وطلحةُ بن مصرف: [أُفِ] بكسر الفاءِ بغير تنوين، وذلك فيها علامة تعريف، وقرأَ ابن كثير، وابن عامر، وابن محيصن، وشبل، وعمرو بن عبيد: [أُفَ] بالفتح[2]، وهي لغة، الكسر والفتح، وقرأَ نافع، وحفص عن عاصم، وأَبو جعفر، وشيبة، والحسن، والأَعرج: [أُفٍّ] بالكسر والتَّنوين، وذلك علامة تنكير، وهي كصَهٍ، وكما تستعظم رجلاً حديثاً غير معيَّن فتقول: «إِيهٍ» مُنَوَّنة، فإِن كان حديثاً مُشاراً إِليه قلت: «إِيهِ» بغير تنوين، و«أُفٍّ» أَصلها في الأَقذار، وكانت العرب إِذا رأَت قذراً قالت: أُفٍّ، ثمَّ صيَّره الاستعمال يقال في كلِّ ما يكره من الأَقوال والأَفعال.

وقرأَ هشام عن ابن عامر، وعاصم[3]، وأَبو عمرو ـ فيما رُوي عنه ـ: [أَتَعِدَانِّي]، وقرأَ أَبو عمرو، ونافع، وشيبة، والأَعرج، والحسن، وأَبو جعفر، وجمهور القراءِ: [أَتَعِدَانِنِي] بنونين، والقراءَة الأُولى هي بإِدغام النّون في النّون، وقرأَ نافع أَيضاً:

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، والنَّسائيُّ، وابن المنذر، والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه، عن محمد بن زياد، وأخرجه البخاريُّ عن يوسف بن ماهك، وفيه أنَّ مروان لمَّا قال خذوه دخل عبد الرحمن بن أبي بكر بيت عائشة رضي الله عنها فلم يقدروا عليه، وأخرج هذا الخبر أيضاً ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن عبد الله. (الدُّرُّ المنثور).

(٢) أي: وبدون تنوين. ذكر ذلك القرطبيُّ.

(٣) يعني في رواية أبي بكر عنه، أمّا رواية حفص عنه فهي بنونين كجمهور القراء، وذلك ثابت في المصحف.

[أَتَعِدَانِي] بنون واحدة وإِظهار الياءِ، وقرأ نافع، وأَبو عمرو، وعاصم، وأَبو جعفر، والأَعرج، وشيبة، وقتادة، وأَبو رجاءٍ، وابن وثّاب، وجمهور النّاس: ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ بضمِّ الهمزة وفتح الرّاءِ، وقرأ الحسن، وابن يَعْمَر، والأَعمش، وابن مصرف، والضّحّاك: [أَنْ أَخْرُج] بفتح الهمزة وضمِّ الرَّاءِ، والمعنى: أَن أخرج من القبر للحشر والمعاد، وهذا القول منه استفهام بمعنى الهُزْءِ والاستبعاد، وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ معناه: هلكت ومضت ولم يخرج منهم أَحد، وقوله: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ يعني الوالدين، ويقال: استغثتُ الله واستغثت بالله بمعنى واحد. و[وَيْلَكَ] دعاءٌ لمن يُحقَّر ويُحَرَّك لأَمر يُستعجل إِليه.

وقرأ الأَعرج: [أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ] بفتح الهمزة. والنَّاس على كسرها. وقوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أَي: ما هذا القول الَّذي يتضمَّن البعث من القبور إِلاَّ من شيءٍ قد سَطَّره الأَوَّلون في كتبهم، يعني الشَّرائع، وظاهر أَلفاظ الآية أَنها نزلت في مُشَار إِليه قال وقيل له، فنعى الله تعالىٰ أَقواله تحذيراً من الوقوع في مثلها.

قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ﴾، ظاهر أَنَّها إِشارةٌ إِلى جنس يتضمَّنه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ﴾، ويحتمل ـ إِن كانت الآية في مُشار إِليه ـ أَن يكون قوله تعالىٰ: [أُولَئِكَ] بمعنى: صنف هذا المذكور وجنسُه هم الَّذين حقَّ عليهم القول، أَي قول الله تعالىٰ. وقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يقتضي أَنَّ الجنَّ يموتون كما يموت البشر قرناً بعد قرن، وقد جاءَ حديث يقتضي ذلك، وقال الحسن بن أَبي الحسن في بعض مجالسه: «الجنُّ لا تموت»، فاعترضه قتادة بهذه الآية فسكت.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ يعني المحسنين والمسيئين، وقال ابن زيد: درجاتُ المحسنين تذهب علوًّا ودرجات المسيئين تذهب سفلاً، وقرأ أَبو عبد الرَّحمن: [وَلِتُوَفِّيَهُمْ] بالتاءِ من فوق، أَي الدَّرجات، وقرأ جمهور النَّاس: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ بالياءِ، وقرأ نافع ـ بخلاف عنه ـ وأَبو جعفر، وشيبة، والأَعرج، وطلحة، والأَعمش: [وَلِنُوَفِّيَهُمْ] بالنُّون، وقرأ اللُّؤلؤيُّ في حرف أُبَيِّ بن كعب، وابن مسعود رضي الله عنهما: [وَلَنُوَفِّيَنَّهُمْ] بنون أُولى ونون ثانية مشدَّدة وبفتح اللام، وكل امرىءٍ يجني ثمرة عمله من خيرٍ أَو شرٍّ ولا يظلم في مجازاته، بل يوضع كل أَمْر في موضعه من ثواب أَو عقاب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

المعنى: واذكر يوم يُعْرَض، وهذا العرض هو بالمباشرة، كما تقول: عرضتُ العود على النَّار والجاني على السَّوط، والمعنى: يقال لهم: أَذهبتم طيِّباتكم. وقرأ الجمهور على الخَبر ولذلك حسنت الفاءُ بعد ذلك، وقرأ ابن كثير، والحسن، والأعرج، وأَبو جعفر، ومجاهد، وقتادة، وابن وثاب: [آذْهَبْتُمْ] بهمزة مطوَّلة على التَّوبيخ والتَّقرير الَّذي هو في لفظ الاستفهام، وقرأ ابن عامر: [أَأَذْهَبْتُمْ] بهمزتين تقريراً أَيضاً، والتَّوبيخ والتَّقرير إِخبارٌ بالمعنى ولذلك حَسُنَت الفاءُ، وإِلاَّ فهي لا تَحْسُن في جواب على حدِّ هذه مع الاستفهام المحض.

و«الطَّيِّباتُ»: الملاذُّ، وهذه الآية وإِن كانت في الكفَّار فهي وازعةٌ لأُولى النُّهى من المؤمنين عن الشَّهوات واستكمال الطَّيبات، ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه: «أَتظنُّون أَنَّا لا نعرف طيب الطَّعام؟ ذلك لُباب البُرِّ بصغار المعزى، ولكنَّا رأَينا الله تعالىٰ نعى على قوم أَنهم أذهبوا طيِّباتهم في حياتهم الدُّنيا»، ذكر هذا في كلامه مع الرَّبيع بن زياد، وقال أَيضاً نحو هذا لخالد بن الوليد حين دخل الشَّام، فَقُدِّم إِليه طعامٌ طيِّب، فقال عمر رضي الله عنه: هذا لنا، فما لفقراءِ المسلمين الَّذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشَّعير؟ فقال خالد: لهم الجنَّة، فبكى عمر وقال: لئن كان حظنا في الحطام وذهبوا بالجنَّة لقد باينونا بوناً بعيداً، وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: اشتريت لحماً بدرهم، فرآني عمر رضي الله عنه فقال: أَوَ كُلَّما اشتهى أَحدكم شيئاً اشتراه فأَكله؟ أَما تخشى أَن تكون من أَهل هذه الآية؟

و«عَذَابَ ٱلْهُونِ» العذابُ الَّذي اقترن به هوان، وهو عذاب العصاة المواقعين ما قد نُهوا عنه، وهذا بيِّن في الدُّنيا، فعذاب المحدود في معصية كالحرابة ونحوها مقترن بِهُونٍ، وعذاب المقتول في حرب لا هُونَ معه، والهُونُ والهوان بمعنى.

ثمَّ أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بذكر هودٍ عليه السَّلام وقومه عادٍ على جهة المثال لقريش، وهذه الأُخوَّة هي أُخوَّة القرابة؛ لأَنَّ هوداً عليه السَّلام كان من أَشراف القبيلة الَّتي هي عاد.

واختلف النَّاس في هذه الأَحقاف، أَين كانت؟ فقال ابن عبّاس، والضَّحاك: هي جبل بالشَّام، وقيل: كانت بلاد نخل، وقيل: هي رمال بين مَهْرة وعدن، وقال ابن عبّاس أَيضاً: بين عُمَان ومَهْرة، وقال قتادة: هي بلاد الشَّحر المواصلة للبحر اليمانيِّ، قال ابن إِسحق: هي بين حضرموت وعُمان، والصَّحيح من الأَقوال أَنَّ بلاد عادٍ كانت في اليمن، ولهم إِرَم ذاتُ العماد. و«الأَحْقَافُ» جمع حقف، وهو الجبل المستطيل المُعْوَج من الرَّمل، قال الخليل: هي الرِّمال العظام، وكثيراً ما تحدث هذه الأَحقاف في بلاد الرَّمل في الصَّحارى؛ لأَنَّ الرِّيح تصنع ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ اعتراضٌ مقيم للحُجَّة أَثناءَ قصة هود عليه السَّلام؛ لأَنَّ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هو من نذارة هود عليه السَّلام، و[خَلَت] معناه: مضت إِلى الأَرض الخلاءِ ومرَّت أَزمانها، وفي مصحف عبد الله رضي الله عنه: [وَقَدْ خَلَت النُّذُرُ مِنْ قَبْلِهِ وبعْدِهِ]، وروي فيه: [وَقَدْ خلَت النُّذُرُ مِنْ بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ بَعْدِهِ]. و«النُّذُر» جمع نذير، بناءُ اسم الفاعل.

وقولهم: [لِتَأْفِكَنَا] معناه: لِتَصْرِفَنَا، وقولهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ تصميم على التَّكذيب، وتعجيز منهم له في زعمهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

المعنى: قال لهم هود عليه السَّلام: إِنَّ هذا الوعيد ليس من قِبَلي، وإِنَّما الأَمر لله تعالىٰ، وعِلْم وقته عنده، وإِنَّما عليَّ أَن أُبَلِّغ فقط. وقرأَ جمهور النّاس: [وَأُبَلِّغُكُمْ]

بفتح الباءِ وشدِّ اللام، قال أَبو حاتم: وقرأَ أَبو عمرو في كلِّ القرآن بسكون الباءِ وتخفيف اللاّم. و﴿أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أَي مثلَ هذا من أَمر الله تعالىٰ، وتجهلون خلْق أَنفسكم.

والضَّمير في [رَأَوْهُ] يحتمل أَن يعود على «العذاب»، ويحتمل أَن يعود على الشَّيءِ المَرْئيِّ الطَّالع عليهم، وهو الَّذي فسَّره قوله: [عَارِضاً]، وهو ما يعرض في الجوِّ من السَّحاب الممطر، ومنه قول الأعشى:

يَا مَنْ رَأَى عَارِضاً قَدْ بِتُّ أَرْقُبُهُ كَأَنَّمَا الْبَرْقُ في حَافَاتِهِ الشُّعَلُ[1]

وقال أَبو عبيدة: العارض: الَّذي يُرى في أَقطار السَّماءِ عشيًّا ثمَّ يصبح من الغد قد استوى، ورُوي في معنى قوله تعالىٰ: ﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أَنَّ هؤلاءِ القوم كانوا قد قحطوا مدَّةً، فطلع عليهم هذا العارض على الهيئة والجهة الَّتي كانوا يمطرون بها أَبداً، جاءَهم من قِبَل واد لهم يسمّونه المغيث، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: ففرحوا به وقالوا: هذا عارض ممطرنا وقد كذب هودٌ فيما أَوعد به، فقال لهم هود عليه السَّلام: ليس الأمر كما رأَيتم، بل هو ما استعجلتم به في قولكم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، ثمّ قال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وفي قراءَة ابن مسعود: «مُمْطِرُنَا قَالَ هُودٌ بَلْ هُوَ» بإِظهار المقدَّر؛ لأَنَّ قراءَة الجمهور هي كقوله تعالىٰ: ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾[2]، أَي: يقولون: سلام عليكم.

قال الزَّجّاج: وقرأَ قوم: [بل هو ما استُعجِلتم به] بضمِّ التّاءِ الأُولى وكسر الجيم، و﴿رِيحٌ﴾ بدلٌ من المبتدأ في وقوله: ﴿هُوَ مَا﴾، و﴿مُمْطِرُنَا﴾ نعتٌ لـ ﴿عَارِضٌ﴾، وهو نكرة إِضافته غير محضة؛ لأَنَّ التَّقدير: ممطر لنا في المستقبل، فهو في حكم الانفصال. وقد مضى في غير هذه السُّورة قصص الرِّيح الَّتي هبَّت عليهم، وأَنَّها كانت تحمل الظعينة[3] كجرادة.

---

(١) البيت من قصيدته المشهورة الَّتي يبدأها بقوله: «ودِّع هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ»، وهي الَّتي قالها ليزيد بن مسهر الشَّيبانيِّ، وقرأها أبو عبيدة على أبي عمرو بن العلاء، وفي بعض الرِّوايات «أَرْمُقه» بدلاً من «أَرْقُبُه»، والشَّاهد في البيت هنا أنَّ العارض هوالسَّحاب الممطر الَّذي يعترض في السَّماء.

(٢) من الآيتين (٢٣، ٢٤) من سورة (الرَّعد).

(٣) الظَّعينة: الرّاحلة يُرْتحل عليها، ثمَّ أُطلقت على الهودج وفيه الزَّوجة.

و[تُدَمِّرُ] معناه: تُهلك، والدَّمارُ: الهلاكُ، ومنه قول جرير:

وكَـانَ لَهُـمْ كَبَكْـرِ ثَمُـودَ لَمَّـا ... رَغَـا ظُهْـراً فَـدَمَّـرَهُـمْ دَمَـارَا(١)

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ ظاهره العموم ومعناه الخصوص في كلِّ ما أُمرت بتدميره، وروي أَنَّ هذه الرِّيح رمتهم أجمعين في البحر.

وقرأَ حمزة، وعاصم: ﴿لاَ يُرَى﴾ على بناءِ الفعل للمفعول [مَسَاكِنُهُمْ] رفعاً، التَّقدير: لا يُرى شيءٌ منهم، وقرأَ جمهور القراءِ: [لاَ تَرَى إلا مَسَاكِنَهم](٢)، أَي: لا تَرَى أَيُّها المخاطب شيئاً منهم، [وهي قراءَة ابن مسعود، وعمرو بن ميمون، والحسن ـ بخلاف عنهما ـ ومجاهد، وعيسى، وطلحة](٣)، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، والجحدريُّ، وقتادة، وعمرو بن ميمون، والأَعمش، وابن أَبي إِسحق، وأَبو رجاءٍ، ومالك بن دينار ـ يعني بلا خلاف عنهما خاصة ممن ذكر(٤): [لا تُرى] بالتَّاءِ المنقوطة من فوق مضمومة ﴿إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ رفعاً، ورويت عن ابن عامر، وهذا نحو قول ذي الرُّمَّة:

كَـأَنَّهَـا جَمَـلٌ وَهْـمٌ وَمَـا بَقِيَـتْ ... إِلاَّ النَّحِيـزَةُ وَالأَلْـوَاحُ وَالْعَصَـبُ(٥)

---

(١) هذا البيت ليس لجرير، ولم أجده في ديوانه، ثمَّ وجدته في ديوان الفرزدق، وهو من قصيدة له يردُّ بها على جرير ويناقضه، يقول الفرزدق في مطلع هذه القصيدة:

جَـرَّ المُخْـزِيَـاتِ عَلَـى كُلَيْـبٍ ... جَـرِيـرٌ ثُـمَّ مَـا مَنَـعَ الـذِّمَـارَا
وَكَـانَ لَهُـمْ كَبَكْـرِ ثَمُـودَ لَمَّـا ... رَغَـا ظُهْـراً فَـدَمَّـرَهُـمْ دَمَـارَا
عَـوَى فَـأَثَـارَ أَغْلَـبَ ضَيْغَمـاً ... فَـوَيْـلَ ابْـنِ المَـرَاغَـةِ مَـا ٱسْتَثَـارَا

يصفه بأنَّه جلب الفضائح لأهله، وعجز عن حمايتهم، وكان لهم نذير سوءٍ، ويقول: إنَّ شِعر جرير يثيرني على كليب فأُدمِّرهم كما أنَّ رُغاء ابن ناقة ثمود أتاهم بالدَّمار والهلاك.

(٢) أي بالتَّاء المفتوحة في [تَرَى] وبالنَّصب في [مَسَاكِنَهُمْ].

(٣) اختلفت النُّسخ في الفقرة الَّتي وضعناها بين العلامتين [....]، فهي في بعض النُّسخ عقب قراءَة حمزة وعاصم، وهي في بعضها الآخر عقب قراءَة الجمهور، والله أعلم بالصَّواب.

(٤) الَّذي في الأصل «يعني بخلاف عنهما»، والتَّصويب عن (المُحْتَسَب) لابن جنِّيٍّ، فقد قال: «واختلف عن الكلِّ إلاَّ أبا رجاءٍ، ومالك بن دينار»، وهي جملة صريحة في المعنى الَّذي أثبتناه.

(٥) هذا البيت في وصف النَّاقة، وهو في الدِّيوان، وفي لسان العرب ـ وهم ـ، والَّذي في الأصول هنا «كأنَّهُ»، والصَّواب ما أثبتناه لأنَّ الكلام كما قلنا في وصف النَّاقة، والوَهْمُ: الجبل الضَّخم العظيم، قال ذلك في اللِّسان، وقال أيضاً: وقيل: هو من الإبل الذَّلُولُ المنقاد مع ضِخَم وقوَّة، والجمع أوهامٌ=

ونحو قوله:

. . . . فَمَا بَقِيَتْ إِلاَّ الضُّلُوعُ الْجَرَاشِعُ(١)

وفي هذه القراءَة استكراه(٢)، وقراءَة الأعمش، وعيسى: [مَسْكَنُهُمْ] على الإفراد الَّذي هو اسم الجنس، والجمهور على الجمع في اللَّفظة، ووجه الإفراد تصغير الشَّأن وتقريبه، كما قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾(٣).

ثمَّ خاطب تعالىٰ قريشاً ـ على جهة الموعظة ـ بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن﴾ [مَا] بمعنى «الَّذي»، و[إِنْ] نافية وقعت مكان «ما» ليختلف اللَّفظ ولا يتَّصل [مَا] بـ «ما»؛ لأَنَّ الكلام كأَنَّه قال: في الَّذي ما مَكَّنَّاكم، ومعنى الآية: ولقد أَعطيناهم من القوَّة والغنى والبسطة في الأَموال والأَجسام ما لم نعطكم، ونالهم بسبب كفرهم هذا

= وَوُهُوم وَوُهُم، والنَّحيزة: هَنَة من الشَّعر عرضها شِبْرٌ يعلقونها على الهودج يزينونه بها، وربَّما رقموها بالعِهْن، وقيل هي مثل الحزام بيضاءُ. أو هي النِّسْع، وهو سَيْرٌ مضفور يُجعل زماماً للبعير، وقد تنسج هذه الضفيرة عريضة وتُجعل على صدر البعير، والألواح: جمع لوْح وهو كلُّ عظم عريض. والعَصَبُ: ما يَشُدُّ المفاصل ويربط بعضها إلى بعض، يقول عن ناقته: إنَّها تبدو كالجمل الضَّخم ولكن لم يبق منها إلاَّ العظم والعصب والنِّسع، والشَّاهد في البيت هو التَّأنيث في الفعل «بقيت» مع أنَّه ضعيف في العربية، والأفصح التَّذكير، يقال: ما ضُرب إلاَّ هند، وما قام إلاَّ فاطمة، ولا يقال: «ما ضربت إلاَّ هند وما قامت إلاَّ فاطمة» إلاَّ على ضعف، وعليه جاء قول ذي الرُّمَّة.

(١) هذا عجز بيت لذي الرُّمَّة أيضاً، والبيت بتمامه:

بَـرَى النَّحْـزُ والأَجْـرَالُ مـا فـي غُـرُوضهـا فَمَـا بَقِيَـتْ إلاَّ الضلـوعُ الجَـرَاشِـعُ

ويروى «طَوَى النَّحْزُ» بدلاً من «بَرَى النَّحْزُ»، و«الأَجْرَازُ» بدلاً من «الأَجْرَالِ»، و«الصُّدورُ» بدلاً من «الضُّلُوعِ»، والنَّحْزُ: النَّخسُ بالقدم، أو الضَّرب والرَّكْلُ بها، أمَّا الأجْرَاز فَجَمْعُ جَرَز، وهي الأرض الَّتي لا تُنبت، والغُروض: جمع غَرْض ـ كَسَهْم ـ وهو للرَّحْل كالحزام للسَّرْج، والجَرَاشِعُ: جمع جرشع وهو العظيم الغليظ، وقيل: الطَّويل. والشَّاهد هو تأنيث الفعل في (بَقِيَتْ) على ضعف.

(٢) ذلك لأنَّ الفصيح من الكلام أن يُذكَّر الفعل قبل إلاّ في مثل قولنا «ما قامَ إلاَّ فاطمة»؛ لأنَّ الكلام محمول على معناه، أي ما قام أحدٌ إلاَّ فاطمة، فلمّا كان هذا هو المراد ذُكِّر الفعل لفظاً للدَّلالة على ذلك، وقد خالفت هذه القراءة بالرَّفع الفصيح فكان هذا الاستكراه الَّذي ذكره ابن عطيَّة، ومثل هذا يقال في قراءة أبي جعفر ومعاذ بن الحارث: [إن كانت إلا صيحةٌ واحدةٌ] بالرَّفع في [صَيْحَةٌ].

(٣) من الآية (٦٧) من سورة (غافر)، والمراد في هذه الآية: نخرجكم أطفالاً، ولكن حَسُن لفظ الواحد هنا؛ لأنَّه موضع لتصغير شأن الإنسان وتحقير أمره، فلاق به ذكر الواحد القليل عن الجماعة، وكذلك حَسُن في آيتنا هذه لفظ الواحد في المَسْكن لأنَّ الموضع موضع تحقير لهم وتصغير لشأنهم.

العذابُ، فأَنتم أَحرى بذلك إذا كفرتم، وقالت فرقة: ﴿إِنْ﴾ شرطية والجواب محذوف تقديره: الَّذي إِنْ مَكَّنَّاكم فيه طغيتم. وهذا تنطُّع في التَّأويل(١).

ثمَّ عدَّد تعالىٰ عليهم نِعَم الحواس والإدراك، وأَخبر أَنَّها لم تُغْن حين لم تستعمل على ما يجب، و[مَا] نافية في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾، ويُقوِّي ذلك دخول [مِنْ] في قوله سبحانه: ﴿مِن شَىْءٍ﴾، وقالت فرقة: [مَا] في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ استفهامٌ بمعنى التَّقرير، و﴿مِن شَىْءٍ﴾ ـ على هذا ـ تأكيد، وهذا على غير مذهب سيبويه في دخول «مِنْ» في الجواب.

و﴿حَاقَ﴾ معناه: نزل ولزم، وهذا مستعمل في المكاره، والمعنى: جزاءَ ما كانوا به يستهزئون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ مخاطبة لقريش على جهة التَّمثيل لهم بمأرب وسدوم وحجر ثمود، وقوله تعالىٰ: ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ يعني لهذه القرى المُهْلَكَة. وقوله سبحانه: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟﴾ الآية، يعني: هلاَّ نصرتهم أَصنامُهم الَّتي اتَّخذوها، و﴿قُرْبَانًا﴾ إمَّا أَن يكون المفعول الثَّاني بـ [ٱتَّخَذُوا]، و[ءَالِهَةً] بدلٌ منه، وإِمَّا أَن يكون حالاً و﴿ءَالِهَةً﴾ المفعول الثَّاني، والمفعول الأَوَّل هو الضَّمير العائد على ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟﴾، والتَّقدير: اتَّخذوهم. وقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾

---

(١) وقال القتبيُّ: [إِنْ] زائدة بعد «ما» الموصولة تشبيهاً بـ «ما» النَّافية، فهي في الآية الكريمة كما هي في قول الشاعر:

يُــرَجِّـي الْمَــرْءُ مــا إنْ لا يَــرَاهُ ... وَتَعْـرِضُ دونَ أَدْنَــاهُ الْخُطُــوبُ

فالمعنى: يُرَجِّي المرءُ ما لا يراهُ، وكذلك المعنى في الآية الكريمة: ولقد مكَّنَّاهُم في مثل الَّذي مكَّنَّاهم فيه، قال أبو حيَّان الأندلسيُّ: وكون [إنْ] في الآية نافيةً هو الوجه؛ لأنَّ القرآن الكريم يدلُّ عليه في مواضع، كقوله تعالىٰ: و﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا﴾، وقوله: ﴿هم أحسن أثاثاً ورئياً﴾، وهو أبلغ في التَّوبيخ وأبلغ في الحثِّ على الاعتبار.

معناه: أتلفوا لهم حتى لم يجدوهم في وقت حاجة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ تختلف الإشارة به بحسب اختلاف القراءَات في قوله سبحانه: ﴿إِفْكُهُمْ﴾، فقرأ الجمهور بكسر الهمزة وسكون الفاءِ وضمِّ الكاف، والإشارة بـ [ذَٰلِكَ] ـ على هذه القراءَة ـ إلى قولهم في الأصنام: إنَّها آلهة، وذلك هو اتِّخاذهم إيَّاهَا آلِهَةً، وكذلك هي الإشارة في قراءَة من قرأ [أَفْكُهُمْ] بفتح الهمزة، وهي لغة في الإفك، وهما بمعنى الكذب، وكذلك هي الإشارة في قراءَة من قرأ: [أَفَكَهُمْ] بفتح الهمزة والفاءِ والكاف على الفعل الماضي، بمعنى: صَرَفهم، وهي قراءَة ابن عبّاس رضي الله عنهما، وأَبي عِياض، وعِكرمة، وحنظلة بن النُّعمان، وقرأ أَبو عياض أَيضاً وعكرمة ـ فيما حكى الثَّعلبيُّ ـ: [أَفَّكَهُمْ] بشدِّ الفاءِ وفتح الهمزة والكاف، وذلك على تعدية الفعل بالتَّضعيف، وقرأ عبد الله بن الزبير: [آفَكَهُمْ] بمدِّ الهمزة وفتح الفاءِ والكاف على التَّعدية بالهمزة، قال الزَّجّاج: جعلهم يأْفكون، كما يقال: أَكْفَرَهم، وقرأ ابن عبّاس رضي الله عنهما ـ فيما روى قطرب ـ [آفِكُهُمْ] بهمزة مفتوحة ممدودة وفاءٍ مكسورة وكافٍ مضمومة على وزن فاعل بمعنى: صارِفُهم، وحكى الفراءُ أَنَّه يقرأ: [أَفَكُهُمْ] بفتح الهمزة والفاءِ وضمِّ الكاف، وهي لغة في «الإفْك»، والإشارة بـ [ذَٰلِكَ] على هذه القراءَات الَّتي ليست مصدراً يحتمل أَن تكون إِلى الأَصنام، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ يحتمل أَن تكون [مَا] مصدرية فلا تحتاج إِلى عائد، ويحتمل أن تكون بمعنى «الذي» فهناك عائد محذوف تقديره: يفترونه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ ابتداءُ وصْف قصة الجنِّ وَوِفَادتهم على النَّبيِّ ﷺ، و﴿صَرَفْنَا﴾ معناه: رددناهم عن حالٍ ما، ويحتمل أَنَّها الاستماع في السَّماءِ، ويحتمل أَن تكون بُعْدهم[1] قبل الوفادة، وذلك بحسب الخلاف هنا، هل هم الوفد أَو المُتَجَسِّسُونَ؟ وروي أَنَّ الجنَّ كانت قبل مبعث النَّبيِّ ﷺ تسترق السَّمع من السَّماءِ، فلمَّا بُعث النَّبيُّ ﷺ حُرست بالشُّهب الرَّاجمة، فضاقت الجنُّ ذرعاً بذلك، وأَتى رأْي مَلَئِهِم على الافتراق في أَقطار الأَرض وطلب السَّبب الموجب لهذا الرَّجم والمنع من استراق السَّمع، ففعلوا ذلك.

واختلف الرُّواة بعْدُ ـ فقالت فرقة: جاءَت طائفة من الجنِّ إِلى النَّبيِّ ﷺ وهو

(١) في بعض النُّسخ: «ويحتمل أن تكون كفرهم».

لا يشعر، فسمعوا القرآن، وَوَلَّوْا إلى قومهم منذرين، ولم يعرف النَّبيُّ ﷺ بشيءٍ من ذلك حتّى عرَّفه الله تعالىٰ بذلك كلِّه، وكان سماعهم لقراءته وهو بنخلة عند سوق عكاظ وهو يقرأُ في صلاة الفجر(١)، وقالت فرقة: بل أَشعره الله تعالىٰ بوفادة الجنِّ عليه واستعد لذلك، ووفد عليه أَهل نصيبين منهم(٢).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والتحرير في هذا أَن النبي ﷺ جاءَه جنٌّ دون أَن يعرف بهم، وهم المتفرقون من أَجل الرَّجم، وهذا قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾(٣) الآية، ثمَّ بعد ذلك وفد عليه وفد وهو المذكور صرفه في هذه الآية(٤)، قال قتادة: صُرفوا إِليه من نِينَوى، وأُشْعر به قبل

---

(١) روى البخاريُّ، ومسلم في الصَّحيحين من حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما، قال: «انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشّياطين وبين خبر السَّماءِ وأُرسلت عليهم الشُّهب، فرجعت الشّياطين، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السَّماءِ وأُرسلت علينا الشُّهب، قالوا: ما ذاك إلاّ من شيءٍ حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر، فمرَّ النَّفر الَّذين توجهوا نحو تهامة بالنَّبيِّ ﷺ وهو بنخلة، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلمّا سمعوا القرآن تسمَّعوا له، فقالوا: هذا الَّذي حال بينكم وبين خبر السَّماءِ، فهنالك رجعوا إلى قومهم ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾، فأنزل الله على نبيِّه ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وهذا الحديث أورده السُّيوطيُّ في (الدُّرِّ المنثور)، وزاد نسبته إلى أحمد، وعبد بن حميد، والتِّرمذيِّ، والنّسائيِّ، وابن المنذر، والحاكم، والطَّبرانيِّ، وابن مردويه، وأبي نُعَيم، والبيهقيِّ في الدَّلائل. وروى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجنِّ ولا رآهم، وإنَّما أتوه بنخلة فسمعوا القرآن. و«نخلة» موضع بين مكَّة والطائف، وإليها ينسب «بطن نخلة». فهذا الحديث دليل على أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يعرف بأنَّ الجنَّ استمعوا إليه، ولم يؤمر بالقراءة عليهم.

(٢) في مسلم من حديث علقمة، قال: قلتُ لعبد الله: من كان منكم مع النَّبيِّ ﷺ ليلة الجنِّ؟ قال: ما كان منّا معه أحد، فقدناه ذات ليلة ونحن بمكَّة، فقلنا: اغتيل رسول الله ﷺ أو استطير، فانطلقنا نطلبه في الشِّعاب، فلقيناه مقبلاً من نحو حراءَ، فقلنا: يا رسول الله، أين كنت؟ لقد أشفقنا عليك، وقلنا له: بتنا الليلة بشَرِّ ليلة بات بها قوم حين فقدناك، فقال: إنَّه أتاني داعي الجنِّ، فذهبتُ أُقرئهم القرآن، فذهب بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ـ وهذا الحديث رواه أيضاً أحمد في مسنده، وذكره السُّيوطيُّ في (الدُّرِّ المنثور)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، والتِّرمذيِّ، ـ وروى معنى هذا الحديث معمَّر عن قتادة، وفيه قال: ذُكر لنا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنِّي أُمِرْتُ أن أقرأ على الجنِّ، فأيُّكم يتبعني؟...» إلخ الحديث. وهذا يدلُّ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ أُمر أن يقرأ على الجنِّ القرآن، وكان يعرف أنَّهم سيحضرون لسماعه.

(٣) من الآية (١) من سورة (الجنِّ).

(٤) فابن عطيّة يرى أنَّ الجنَّ الَّذين استمعوا إلى النَّبيِّ ﷺ في بطن نخلة حين تفرقوا من أجل الرَّجم بالشُّهب=

وروده[1]، وقال الحسن: لم يشعر به، واختلف في عددهم اختلافاً متباعداً فاختصرته لعدم الصِّحَّة في ذلك، أَمَّا ابن عبّاس رضي الله عنهما فقال: كانوا سبعة نفر من أَهل نصيبين، وقال زِرٌّ: كانوا تسعة فيهم زَوْبعة، وروي في ذلك أَحاديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، رُوي أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنّي خارج إِلى وفد الجنِّ، فمن يتبعني؟» فسكت أَصحابه، فقالها ثانية فسكتوا، فقال عبد الله: أَنا أَتْبعك، قال: فخرجت معه حتّى جاءَ شِعْب الحَجُونِ فأَدار لي دائرة وقال: «لا تخرج منها»، ثمَّ ذهب عنِّي، فسمعت لغطاً ودويًا كدوي النُّسور الكاسرة، ثمَّ في آخر اللَّيل جاءَ رسول الله ﷺ بعد أَن قرأَ عليهم القرآن وعلَّمهم، وأَعطاهم زاداً في كلِّ عظم ورَوْثة، فقال: «يا عبد الله، ما رأَيت»؟ قال: فأَخبرته، فقال: «لقد كنت أَخشى أَن تخرج فيخطفك بعضهم»، قلت: يا رسول الله، سمعتُ لهم لغطاً، فقال: «إِنَّهم تَدَارَؤُوا في قتيل لهم فحكمتُ بالحقِّ بينهم».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واضطربت الرِّوايات عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وروي عنه ما ذكرنا، وروي عنه أَنَّه رأَى رجالاً من الجنِّ وهم شبه رجال الزُّطِّ[2] السُّود الطوال حين رآهم بالكوفة، وروي عنه أَنَّه قال: ما شاهد أَحدٌ منَّا ليلة الجنِّ مع رسول الله ﷺ، فاختصرت هذه الرِّوايات وتطويلها لعدم صحَّتها.

وقوله تعالىٰ: ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ يقتضي أَن المصروفين رجال لا أُنثى معهم، فالنَّفر والرَّهط والقوم: الَّذين لا أُنثى فيهم، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ فيه تأَدُّب مع العالِم وتعليمٌ كيف يُتَعَلَّم. وقرأَ جمهور النّاس: [قُضِيَ] على بناءِ الفعل للمفعول، وقرأَ حبيب بن عبد الله بن الزبير، وأَبو مجلز على بناءِ الفعل للفاعل، أَي قَضَى محمد ﷺ القراءَة، وقال ابن عمر، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم: قرأَ عليهم سورة الرَّحمن عزَّ وجلَّ، فكان إِذا قال: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا شيءَ من

= من السَّماءِ غير الجنِّ الَّذين أُمر بأَن يقرأَ عليهم في هذه الآية: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

(١) يعني بالوفد، فالضَّمير عائد على «وفد».

(٢) الزُّط: جيل أَسود من السِّند تُنسب إِليهم الثِّياب الزُّطِّيَّة، وقيل: الزُّط: إِعراب «جَت» بالهنديَّة، وهم جيل من أَهل الهند.

آلائك ربَّنا نكذِّب، ربنا لك الحمد، ولمَّا ولَّت هذه الجملة تفرقت على البلاد منذرة للجنِّ، قاله قتادة: ما أسرع ما عقل القوم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهنالك وقعت قصة سوادٍ وشِصَار وخُنافر وأشباهها(١)، صلى الله على محمد عبده ورسوله وسلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

المعنى: قال هؤلاءِ المنذورن لمَّا بلغوا قومهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، وهو القرآن العظيم، وخصّصوا موسى ﷺ لأحد أمرين: إمَّا لأنَّ هذه الطَّائفة من الجنِّ كانت تتديَّن بدين اليهود، وإمَّا لأنَّهم كانوا يعرفون أنَّ موسى عليه السَّلام قد ذكر محمداً ﷺ وبشَّر به، فأشاروا إلى موسى عليه السَّلام من حيث كان الأمر مذكوراً في توراته، وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما في كتاب الثَّعلبيِّ: لم يكونوا علموا أمر عيسى عليه السَّلام، فلذلك قالوا: ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، وقولهم: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يؤيد هذا، و«ما بين يديه» هو التوراة والإنجيل، و«الحقّ» و«الصِّراطُ المستقيم» هما بمعنىً متقارب، لكن من حيث اختلف اللَّفظ ـ وربَّما كان الحقُّ أعمَّ ـ وكان أحدهما قد يقع في مواضع لا يقع فيها الآخر، حَسُن التِّكرارُ.

و«داعي الله» هو محمد ﷺ، والضَّمير في [بهِ] عائد على الله تعالىٰ، وقوله تعالىٰ: ﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ معناه: يغفر الله لكم، وقوله: [وَيُجِرْكُمْ] معناه: يمنعكم ويجعل دونكم حفظة حتَّى لا ينالكم عذاب، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ الآية يحتمل أن يكون من كلام المنذرين، ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالىٰ لمحمد ﷺ، والمراد

(١) هذه أسماءُ بعض الجنِّ الَّذين سمعوا إلى النَّبيِّ ﷺ.

بها إسماع الكفّار، وتعلق اللَّفظ إلى هذا المعنى من قول الجنّ: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾، فلمَّا حكى ذلك قيل: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ فهو بحال كذا، و«المُعْجز»: الذاهبُ في الأَرض بَدًا عجز طالبه ولا يُقدر عليه، ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «وَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ» بزيادة «ميم».

وقوله تعالىٰ: ﴿أولم يروا﴾، الضَّمير لقريش، وهذه آية مثل واحتجاج؛ لأَنَّهم قالوا: إنَّ الأَجساد لا يمكن أَن تُبعث ولا تُعَاد، وهم مع ذلك معترفون بأَنَّ الله تعالىٰ خلق السَّموات والأَرض فأُقيمت عليهم الحُجَّة من أَقوالهم، و«الرُّؤْية» في قوله تعالىٰ: ﴿أو لم يروا﴾ رؤْية القلب. وقرأَ جمهور النّاس: ﴿وَلَمْ يَعْىَ﴾ بسكون العين وفتح الياءِ الأَخيرة، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [يَعِيْ] بكسر العين وسكون الياءِ، وذلك على حذف[1]. والباءُ في قوله تعالىٰ: [بِقَادِرٍ] زائدة مؤكدة، فمن حيث تقدّم نفيٌ في صدر الكلام حَسُن التَّأْكيد بالباءِ، وإِن لم يكن النَّفْيُ ما دخلت هي عليه، كما هو في قولك: «ما زيد بقائم»، كأَن بدل ﴿أولم يروا﴾ «أَوَ ليس ٱلذي خَلَقَ»، وقرأَ ابن عبّاس رضي الله عنهما، والجمهور: ﴿بِقَادِرٍ﴾، وقرأَ الجحدريُّ، والأَعرج ـ بخلاف ـ وعيسى، وعمرو بن عبيد: [يَقْدِرُ] بالياءِ، على فعل مستقبل، ورجَّحها أَبو حاتم وغلَّط قراءَة الجمهور لِقلق الباءِ عنده، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: [وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ قَادِرٌ] بغير باءٍ، و﴿بَلَى﴾ جواب بعد النَّفي المتقدِّم، فهو إِيجاب لِمَا نُفي، والمعنى: بل رأَوْا ذلك، أَيْ: لو نفعهم ووقع في قلوبهم. ثم استأْنف لفظ الإِخبار المؤكّد بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

---

(١) قال ابن جنيّ عن هذه القراءَة: «هذا مذهب ترغب العرب عنه، وهو إعلالُ عين الفعل وتصحيح لامه، وإنَّما جاءَ ذلك في شيءٍ من الأسماءِ، وهو (غايَة وآيَة)، وقياسها (غياة وأياة)، ولم يأت هذا في الفعل إلاَّ في بيت شاذ، أنشده الفراءُ، وهو:

وكَأَنَّها بَيْنَ النِّسَاءِ سَبِيكَةٌ ... تَمْشِي بِسُدَّةِ بَيْتِهَا فَتَعِيّ

فأَعَلَّ العين وصحَّح اللاَّم، ورفع ما لم ترفعه العرب وإنَّما تُعِلُّه نحو يرمي ويقضي، وعلى هذا قراءة الحسن هذه في قوله: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾، فقد أجراه مجرى (لم يَبِعْ)، فحذف العين لسكونها وسكون الياء الثانية، ووزن ﴿لم يعي﴾: لم يَفِلْ، مثل: (لم يبع)، والعين محذوفة لالتقاء السَّاكنين» انتهى كلامه بتصرُّف، ومنه نفهم معنى قول ابن عطيّة: «وذلك على حذف».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

المعنى: واذكر يوم، وهذا وعيد للكفّار من قريش وسواهم، و«العَرْضُ» ـ في هذه الآية ـ عرض مباشرة، كما تقول: عرضت الجاني على السّوط، والمعنى: يقال لهم: أليس هذا العذاب حقًّا وقد كنتم تكذبون به؟ فيجيبون: بلى وربِّنا، فذلك تصديق حيث لا ينفع، ورُوي عن الحسن أنَّه قال: إنَّهم ليعذَّبون في النَّار وهم راضون بذلك لأنفسهم، فيعترفون أنَّه العدل، فيقول لهم المحاور من الملائكة عند ذلك: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفركم.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَاصْبِرْ﴾، الفاءُ عاطفة هذه الجملة من الوصاة على هذه الجملة من الأخبار عن حال الكفرة في الآخرة، والمعنى بينهما مرتبط، أي: هذه حالهم مع الله تعالىٰ فلا تستعجل أنت فيما حُمِّلته، واصبر له، ولا تخف في الله أحداً. وقوله تعالىٰ: ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ تَبعيض، والمراد من حُفظت له مع قومه شدَّة ومجاهدة كنوح وإبراهيم وموسى وغيرهم صلى الله عليهم وسلم، هذا قول عطاءٍ الخُراسانيِّ وغيره، وقال ابن زيد ما معناه أن [مِنْ] لبيان الجنس، قال: والرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام كلُّهم أُولوا عزم، ولكن قوله تعالىٰ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ﴾ يتضمَّن رسلاً وغيرهم، فبيَّن بعد ذلك جنس الرُّسل خاصة تعظيماً لهم، ولتكون القدوة المضروبة لمحمد ﷺ أشرف، وذكر الثَّعلبيُّ هذا القول عن عليِّ بن مهديِّ الطَّبريِّ، وحكي عن أَبي القاسم الحكيم أنَّه قال: الرُّسل عليهم السَّلام كلُّهم أُولوا عزم إلاَّ يونس عليه السَّلام[1]، وقال الحسن بن الفضل: هم الثَّمانية عشر المذكورون في سورة الأنعام؛ لأنَّه تبارك وتعالىٰ قال بعقب

---

(١) وقد علَّل أبو القاسم كلامه هذا بقوله: «ألا ترى أنَّ النَّبيَّ ﷺ نُهي أن يكون مثله، لخِفَّة وعجلة ظهرت منه حين ولَّى مغاضباً لقومه، فابتلاه الله بثلاث: سلَّط عليه العمالقة حتّى أغاروا على أهله وماله، وسلَّط الذئب على ولده فأكله، وسلَّط عليه الحوت فابتلعه»، وقد نُهي النَّبيُّ ﷺ أن يكون مثله في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ ـ ٤٨ القلم ـ.

ذكرهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[(١)]، وقال مقاتل: هم ستَّة: نوح ﷺ صبر على أذى قومه طويلاً، وإبراهيم ﷺ صبر على النّار، وإسحق ﷺ صبر نفسه في الذَّبح[(٢)]، ويعقوب ﷺ صبر على الفقد لولده وعمى بصره وقال ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾[(٣)]، ويوسف ﷺ صبر على السِّجن، وأيّوب ﷺ صبر على البلاءِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وانظر أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قد قال في موسى عليه السَّلام: «يرحم الله موسى، أُوذي بأكثر من هذا فصبر»[(٤)]، ولا محالة أَنَّ لكلِّ نبيٍّ ورسول عزماً وصبراً، صلى الله عليهم وسلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ معناه: لا تستعجل لهم عذاباً فإنَّهم إليه صائرون، ولا تستطل تعميرهم في هذه النِّعمة فإنَّهم يوم يرون العذاب كأَنَّهم لم يلبثوا في الدُّنيا إلاَّ ساعةً، لاحتقارهم ذلك؛ لأَنَّ المنقضي من الزَّمان إنَّما يصير عَدَماً، فكثيره الَّذي ساءَت عاقبته كالقليل.

وقرأَ أُبَيُّ بن كعب رضي الله عنه: [إلاَّ سَاعَةً مِنَ ٱلنَّهَارِ]، وقرأَ جمهور النّاس: [بَلَٰغٌ]، وذلك يحتمل معاني: أَحدها أَن يكون خبر ابتداءٍ، المعنى: هذا بلاغ، وتكون الإِشارة بـ[هَٰذَا] إمَّا إلى القرآن والشَّرع، أَي: هذا إنذارٌ وتبليغ، وإمَّا إلى المدَّة الَّتي تكون كساعة من نهار، كأَنَّه تعالىٰ قال: لم يلبثوا إلاَّ ساعة كانت بلاغهم، وهذا كما تقول: «متاع قليل» ونحوه من المعنى، والثّاني: أَن يكون ابتداءً والخبر محذوف، والثّالث: ما قاله أَبو مجلز، فإنَّه كان يقف على قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل﴾، ويقول: [بَلَٰغٌ] ابتداءٌ وخبره مقدَّم في قوله تعالىٰ: [لَهُمۡ]، وقدح النّاس في هذا القول بكثرة الحائل[(٥)]، وقرأَ الحسن بن أَبي

---

(١) من الآية (٩٠) من سورة (الأنعام).

(٢) على قول من قال: إنّ الذبيح إسحق.

(٣) من الآية (١٨) من سورة (يوسف).

(٤) أخرجه التِّرمذيُّ في تفسير سورة (الكهف)، والبخاريُّ في الأنبياء، وأحمد في مسنده (١ـ٤١١، ٥ـ١١٨)، ولفظه كما في مسند أحمد، عن عبد الله قال: قسم رسول الله ﷺ قسمة، فقال رجل من القوم: إنَّ هذه لقسمة ما يُراد بها وجه الله عزَّ وجلَّ، قال: فأتيت النَّبيَّ ﷺ فحدَّثته، قال: فغضب حتّى ظهر الغضب في وجهه، فقال: «يرحم الله موسى، قد أُوذي بأكثر من ذلك فصبر».

(٥) وقال ابن الأنباريِّ: «وهذا خطأ؛ لأنّك قد فصلت بين البلاغ وبين اللاّم ـ وهي رافعة ـ بشيءٍ ليس منهما».

الحسن، وعيسى: [بَلاَغاً]، وهي قراءَة تحتمل المعنييْن في قراءَة الرَّفع، وليس يدخلها قول أَبي مجلز، ونصبها بفعل مضمر، وقرأَ أَبو مجلز، وأَبو سراج الهذلي: [بَلِّغْ] على الأَمر[(١)]، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [بَلاَغٍ] بالخفض نعتاً للنَّهار[(٢)].

وقرأَ جمهور النَّاس: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ على بناءِ الفعل للمجهول، وقرأَ بعضهم ـ فيما حكى هارون ـ: [فهل يَهلِكُ] على بناءِ الفعل للفاعل وكسر اللاَّم، وحكاها أَبو عمرو عن الحسن وابن محيصن، وقرأَ ابن محيصن أَيضاً بفتح الياءِ واللاَّم[(٣)]، قال أَبو الفتح: وهي مرغوب عنها، وروى زيد بن ثابت عن النَّبيِّ ﷺ: [فهل يُهْلِكُ] بضمِّ الياءِ وكسر اللاَّم [إلا القومَ الفاسقين] بالنَّصب.

وفي هذه الآية وعيد محضٌ وإِنذارٌ بيِّنٌ، وذلك أَنَّ الله تعالىٰ جعل الحسنة بعشرة أَمثالها، والسَّيئة بمثلها، وأَمر بالطَّاعة ووعد عليها بالجنَّة، ونهى عن الكفر وأَوعد عليه بالنَّار، (فَلن يَهْلِك على الله إِلاَّ هالك) كما قال ﷺ[(٤)]، قال الثَّعلبيُّ: يقال: إِن قوله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أَرجى آية في كتاب الله تعالىٰ للمؤمنين[(٥)].

كمل تفسير سورة الأَحقاف والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

---

(١) قال أبو حيَّان الأندلسيُّ: «وهذا يؤيد حَمْل [بَلاغٌ] رفعاً ونصباً على أنَّه يُعنى به تبليغ القرآن والشَّرع».

(٢) ونقل عن أبي مِجْلز أيضاً أنَّه قرأ: [بَلَغَ] على الفعل الماضي.

(٣) وماضي هذا الفعل «هَلِكَ» بكسر اللاَّم، وهي لغة ولكن مرغوب عنها كما قال أبو الفتح.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان، والدارميّ في الرِّقاق، وأحمد في مسنده (١ـ٢٧٩)، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، ولفظه كما في مسند أحمد، عن رسول الله ﷺ فيما روى عن ربِّه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ ربَّكم تبارك وتعالىٰ رحيم، من همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة، فإنْ عملها كُتبت له عشرة إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، ومن همَّ بسيِّئة فلم يعملها كُتبت له حسنة، فإنْ عملها كُتبت له واحدة أو يمحوها الله، ولا يَهْلِكُ على الله إلاَّ هالك».

(٥) أخرج الطَّبرانيُّ في الدعاء عن أنس رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إذا طلبتَ وأحببتَ أن تنجح فقل: لا إلَه إلاَّ الله وحده لا شريك له العليُّ العظيم، لا إلَه إلاَّ الله وحده لا شريك له ربّ السموات والأرض وربّ العرش العظيم، الحمد لله ربّ العالمين، كأنَّهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاَّ عشيَّةً أو ضحاها، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلاَّ ساعة من نهار، بلاغ فهل يهلك إلاَّ القوم الفاسقون، اللهمّ، إنِّي أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسَّلامة من كل إثم، والغنيمة من كلِّ برّ، والفوز بالجنَّة، والنَّجاة من النَّار، اللهمَّ، لا تَدَع لي ذنباً إلاَّ غفرته، ولا هَمّاً إلاَّ فرَّجته، ولا حاجةً هي لك رضاً إلاَّ قضيتها يا أرحم الرّاحمين، والحمد لله ربّ العالمين».

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة محمّد ﷺ

هذه السُّورة مدنيَّة بإجماع، غير أَنَّ بعض النّاس قال في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ الآية: إِنَّها نزلت بمكَّة في وقت دخول النَّبيِّ ﷺ فيها عام الفتح أَو سنة الحديبية، وما كان مثل هذا فهو معدود في المدنيِّ؛ لأَنَّ المراعَى في ذلك إِنما هو ما كان قبل الهجرة أَو بعدها(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ۝٣﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآيَةَ... إِشارةٌ إِلى أَهل مكَّة الَّذين أَخرجوا رسول الله ﷺ، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآيَةَ... إِشارةٌ إِلى الأَنصار أَهل المدينة الَّذين آووه، وفي الطّائفتين نزلت الآية(٢)، قاله ابن عبّاس، ومجاهد. ثمَّ هي بعد تعم كلّ من دخل تحت أَلفاظها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أَن يريد الفعل المجاوز فيكون المعنى: وصدُّوا غيرهم، ويحتمل أَن يكون الفعل غير متعدٍّ فيكون المعنى: وصدُّوا أَنفسهم، و«سَبِيلُ اللهِ»: شرعه وطريقه الَّذي دعا إِليه، وقوله تعالىٰ: ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أَي:

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ مدنيّ أيضاً على المعنى الّذي وضّحه المؤلف، والآية رقمها (١٣) من السُّورة، لكن الثّعلبيّ قال: إنّ السُّورة كلّها مكّيّة، وحكى ذلك ابن هبة الله عن الضّحّاك وسعيد بن جبير، ولهذا عقَّب أبو حيّان الأندلسيُّ على قول ابن عطيّة: «هذه السُّورة مدنيّة بإجماع» فقال: «وليس كما قال». وتسمّى هذه السُّورة أيضاً سورة القتال، وعدد آياتها ثمان وثلاثون آية، وقيل: تسع وثلاثون آية.

(٢) هكذا في الأصول، وهما في الحقيقة آيتان.

أَتلفها، لم يجعل لها غاية خير ولا نفعاً وروي أَنَّ هذه الآية نزلت بعد بدر، وأَنَّ الإشارة بقوله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ هي إلى الإنفاق الَّذي أنفقوه في سفرهم إلى بدر، وقيل: المراد بالأعمال أَعمالهم البَرَّة في الجاهلية، من صلة الرَّحم ونحوه، واللَّفظ يعمُّ جميع ذلك.

وقرأَ النَّاس: [نُزِّلَ] بضمِّ النّون وشدّ الزّاي، وقرأَ الأعمش: [أَنْزَلَ] معدى بالهمزة، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، قال قتادة: معناه: حالهم، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: أَمرهم، وقال مجاهد: شأنهم، وتحرير التّفسير في اللَّفظة أَنَّها بمعنى الفكر والموضع الَّذي فيه نظر الإنسان وهو القلب، فإذا صلح ذلك فقد صلحت حاله، فكأَنَّ اللَّفظة مشيرة إلى إصلاح عقيدتهم، وغيرُ ذلك من الحال تابع، فقولك: «خطر في بالي كذا» وقولك: «أَصلح الله بالك»، المراد بهما واحد، ذكره المبرِّد، و«الْبَالُ» مصدرٌ كالحال والشَّأن، ولا يستعمل منهما فعل، وكذلك عُرفه أَلاَّ يُثنَّى ولا يُجمع، وقد جاءَ مجموعاً ولكنَّه شاذٌّ؛ فإِنَّهم قالوا: بالات.

قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية، الإشارةُ إلى الأفعال الَّتي ذكر الله تعالىٰ أَنَّه فعلها بالكفَّار وبالمؤمنين، و«الباطل»: الشَّيطان وكلّ ما يأْمر به، قاله مجاهد، و«الحَقُّ» هنا هو الشَّرع ومحمد ﷺ.

وقوله تعالىٰ: [كَذَٰلِكَ] إشارة إلى الاتِّباع المذكور من الفريقين، أَي: كما اتَّبعوا على هذين السبيلَيْن كذلك يُبيِّن أَمر كلِّ فرقة، ويجعل لها ضرباً من القول وصنفاً[1]، وضربُ المَثَل مأْخوذ من الضَّريب والضَّرب الَّذي هو بمعنى النوع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾.

قال ابن عبّاس، وقتادة، وابن جريج، والسَّديُّ، والضَّحّاك: إنَّ هذه الآية منسوخة

(١) في بعض النسخ: «ويجعل لها ضربها من القول وصنفها».

بآية السيف التي في (براءة): ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾[١]، وإنَّ الأسر والمنَّ والفداءَ مرتفع، فمتى وقع أسر فإنَّما معه القتل ولا بد، وروي نحوه عن أبي بكر الصِّديق رضي الله تعالىٰ عنه[٢]، وقال ابن عمر، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم، وعطاءٌ ما معناه: إنَّ هذه الآية مُحكمة مُبيِّنة لتلك، والمنُّ والفِداءُ ثابت، وقد منَّ رسول الله ﷺ على ثمامة بن أُثال، وفادى أسرى بدر، وقاله الحسن، وقال: لا يقتل الأسير إلاَّ في الحرب، يُهَيِّب بذلك على العدوِّ، وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يفادي رجلاً برجل، ومنع الحسن أن يُفادوا بالمال، وقد أمر عمر بن عبد العزيز بقتل أسير من التُّرك ذُكر أنَّه قتل مسلمين، وقالت فرقة: هذه الآية خصّصت من الأُخرى بأهل الكتاب فقط، فيهم المنُّ والفداءُ، وعُبَّاد الأوثان ليس فيهم إلاَّ القتل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى قول أكثر العلماءِ الآيتان مُحكمتان، وقوله تعالىٰ هنا: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ بمثابة قوله تعالىٰ هنالك: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، وصرَّح هنا بذكر المنِّ والفداءِ، ولم يصرِّح به هناك وهو أمرٌ مقرَّر[٣]، وهذا هو القول القويُّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ مصدر بمعنى الفعل، أي: فاضربوا رقابهم، وعيَّن من أنواع القتل أشهره وأعرفه فذكره، والمراد: اقتلوهم بأي وجه أمكن، وقد زادت آية أُخرى: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[٤]، وهي من أنكى ضربات الحرب، لأنَّها تعطل من المضروب جميع جسده؛ إذ البنان أعظم آلة المقاتل وأصلها. و﴿أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ معناه: بالقتل. و«الإثْخانُ» في القوم أن يكثر فيهم القتلى والجرحى، والمعنى: فشدُّوا الوثاق بمن لم يقتل ولم يترتب فيه إلاَّ الأسر، و﴿مَنًّا﴾ و﴿فِدَاءً﴾ مصدران منصوبان بفعلين مضمرين. وقرأ جمهور الناس: ﴿فِدَاءً﴾، وقرأ شبل عن ابن كثير: [فِدًى]، مقصوراً.

وإمام المسلمين مخيَّرٌ في أسراه في خمسة أوجه: القتل أو الاسترقاق أو ضرب

---

(١) من الآية (٥) من سورة (التوبة)، قالوا: وهي منسوخة أيضاً بقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾، وبقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾.

(٢) قال عبد الكريم الجوزيُّ: «كُتب إلى أبي بكر في أسير أُسر، فذكروا أنَّهم التمسوه بفداء كذا وكذا، فقال: اقتلوه، لَقَتْلُ رَجل من المشركين أحبُّ إليَّ من كذا وكذا».

(٣) في بعض النسخ: «وهو مُرادٌ متقرر».

(٤) من الآية (١٢) من سورة (الأنفال).

الجزية أَو المن أَو الفداءُ، ويترجَّح النّظر في أَسير أَسير بحسب حاله من إِذاية المسلمين أَو ضدّ ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ معناه: حتّى تذهب وتزول أَثقالها، و«الأَوزار» ـ جمع وِزْر ـ الأَثقالُ فيها والآلات لها، ومنه قول عمرو بن معديكرب الزبيديِّ:

وَأَعَـــدَدْتَ لِلْحَــرْبِ أَوْزَارَهَـــا رِمَـاحـاً طِـوَالاً وَخَيْـلاً ذُكُـوراً[1]

وقال الثَّعلبيُّ: قيل: الأَوزار في هذه الآية الآثام، جمع وِزْر؛ لأَنَّ الحرب لا بد أَن يكون فيها آثام في أَحد الجانبين.

واختلف المتأَوِّلون في الغاية الَّتي عندها تضع الحرب أَوزارها ـ فقال قتادة: حتّى يسلم الجميع فتضع الحرب أَوزارها، وقال حذاق أَهل النَّظر: حتّى تغلبوهم وتقتلوهم، وقال مجاهد: حتّى ينزل عيسى ابن مريم عليهما السَّلام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وظاهر اللَّفظة أَنَّها استعارة يراد بها التزام الأَمر أَبداً، وذلك أَنَّ الحرب بين المؤمنين والكافرين لا تضع أَوزارها، فجاءَ هذا اللَّفظ كما تقول: أَنا أَفعل كذا وكذا إِلى يوم القيامة، فإِنَّما ترد أَن تفعله دائماً.

وقوله تعالىٰ: [ذَٰلِكَ] تقديره: الأَمر ذلك، ثمَّ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أَي بعذاب من عنده يهلكهم به في حين واحد، لكنَّه تعالىٰ أَراد اختبار المؤمنين، وأَن يبلو بعض النَّاس ببعض. وقرأَ جمهور القراءِ: [قَاتَلُوا]، وقرأَ عاصم، والجحدريُّ ـ بخلاف عنه ـ: [قَتَلُوا] بفتح القاف والتَّاءِ، وقرأَ أَبو عمرو، وحفص عن عاصم، والأَعرج، وقتادة، والأَعمش: [قُتِلُوا] بضمِّ القاف وكسر التَّاءِ، وقرأَ زيد بن ثابت،

---

(١) ليس هذا البيت من قول عمرو بن معديكرب، بل هو للأعشى، وهو من قصيدة طويلة له، قالها يمدح هَوْزَةَ بن عليٍّ الحنفي، ومطلعها:

غَشِيـتَ لِلَيْلَـى بِلَيْـلٍ خُـدُورَا وَطَـالَبْتَهَـا وَنَـذَرْتَ النُّـذُورَا

والخطابُ لِهَوْزَةَ هذا في القصيدة كلِّها، يقول له: إِنَّكَ أَعْددتَ للحرب عُدَّتها وآلاتها وهي الرِّماح الطويلة وذكور الخيل القويَّة، و(رماحاً) منصوبة على أَنَّها بدل من (أوزار).

والحسن، والجحدريُّ، وعيسى، وأبو رجاءٍ هكذا وشدَّدوا التَّاءَ، والقراءَة الأُولى أَعمَّها وأَوضحها معنى.

قال قتادة: نزلت هذه الآية فيمن قُتل يوم أُحد، وقوله تعالىٰ: [سَيَهْدِيهِمْ] أَي: إلى طريق الجنَّة، وقد تقدَّم القول في إصلاح البال، وقد روى عبّاس بن الفضل عن أبي عمرو: ﴿يُدْخِلْهُمْ﴾ بسكون اللاّم، وفي التَّغابن ﴿يَوْمَ يَجْمَعْكُمْ﴾[١]، وفي سورة الإِنسان ﴿إِنَّمَا نُطْعِمْكُمْ﴾[٢] بسكون الطّاءِ والميم.

قوله تعالىٰ: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾، قال أَبو سعيد الخدريُّ، وقتادة، ومجاهد: معناه: بيَّنها لهم، أَي جعلهم يعرفون منازلهم منها، وفي نحو هذا المعنى قول النَّبيِّ ﷺ: «لأَحدكم بمنزله في الجنَّة أَعرف منه بمنزله في الدُّنيا»[٣]، وقالت فرقة: معناه: سمَّاها لهم ووسمها كلّ منزل باسم صاحبه، فهذا نحو من التَّعريف، وقالت فرقة: معناه: شرَّفها لهم ورفعها وعلاَّها، وهذا من الأَعراف الَّتي هي الجبال وما أَشبهها، ومنه أَعراف الخيل، وقال مؤرج وغيره: معناه: طيَّبها، مأْخوذ من العَرْف، ومنه طعامٌ معرَّف، أَي مُطَيَّب، وعرَّفت القِدْر، أَي طيَّبْتها بالملح والتَّوابل.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ فيه حذف مضاف، أَي دينَ الله ورسوله، والمعنى: تنصروه بجدِّكم وإِيمانكم، ينصركم بخلق القدرة لكم والجرأَة وغير ذلك من المعارف. وقرأَ جمهور النّاس: [وَيُثَبِّتْ] بفتح الثّاءِ المثلَّثة وشدِّ الباءِ، وقرأَ المفضل عن عاصم: [وَيُثْبِتْ] بسكون الثّاءِ وتخفيف الباءِ، وهذا التَّثبيت هو في مواطن الحرب على الإِسلام، وقيل: على الصِّراط في القيامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ معناه: عثاراً لهم وهلاكاً، وهي لفظة تقال للكافر، ومنه قول الشاعر:

---

(١) من الآية (٩) من سورة (التَّغَابُن).

(٢) من الآية (٩) من سورة (الإنسان).

(٣) في صحيح البخاريِّ ما يدلُّ على صحَّة هذا الحديث، لكنَّ اللَّفظ فيه ليس (أَعْرَف) كما ذكر هنا، بل اللَّفظ فيه (أهدى)، وهو عن أبي سعيد الخدريِّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النّار، فيُحبسون على قنطرة بين الجنّة والنّار، فَيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدُّنيا، حتّى إذا هُذِّبوا ونقُّوا أُذن لهم في دخول الجنَّة، فوالَّذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنَّة منه بمنزله في الدُّنيا»، وقد استدلَّ كلٌّ من القرطبيِّ، وابن كثير على صحَّة هذا الرأي بهذا الحديث.

يَـا سَيِّـدِي إِنْ عَثَـرْتُ خُـذْ بِيَـدِي ... ولا تَقُـلْ لاَ ولاَ تَقُـلْ تَعْسَـا[(١)]

وقال الأعشى في هذا المعنى:

بِـذَاتِ لَـوْثٍ عَفِـرْنَـاةٍ إِذَا عَثَـرَتْ ... فَالتَّعْسُ أَدْنَى لَهَا مِنْ أَنْ أَقُولَ: لَعَا[(٢)]

ومنه قول أُمِّ مِسْطح لمَّا عَثَرت في مرطها: تَعِس مِسْطح[(٣)]، وقال ابن السِّكيت: التَّعس: أَن يُجَرَّ على وجهه، و[تَعْساً] مصدر نَصَبَهُ فعل مضمر.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يريد القرآن، وقوله سبحانه: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يقتضي أَنَّ أعمالهم في كفرهم الَّتي هي بِرٌّ مقيَّدة محفوظة، ولا خلاف أَنَّ للكفّار حفظة يكتبون سيّآتهم، واختلف النّاس في حسناتهم ـ فقالت فرقة: هي مُلغاة، يثابون عليها بنعيم الدُّنيا فقط، وقالت فرقة: هي مُحْصاة من أَجل ثواب الدُّنيا، ومن أَجل أَنَّ [الكافر][(٤)] قد يُسلم فيضاف ذلك إِلى حسناته في الإِسلام، وهذا أَحد التَّأْويلين في قول النَّبيِّ ﷺ لحكيم بن حزام: «أَسلمت على ما أَسلفت من خير»[(٥)]، فقوم قالوا:

---

(١) وفي بعض النُّسخ جاء لفظ البيت كالآتي:

يَـا سَيِّـدِي إنْ عَثَـرْتُ خُـذْ بِيَـدِي ... وَلا تَقُـلْ لـي أُفّـاً وَلا تَعْسَـا

وفي اللِّسان: «التَّعْس: العَثْر، وألاَّ ينتعش العاثر من عثرته، وأن يُنَكَّس في سفال، وقيل: التَّعس: الانحطاط والعثور»، وفيه أيضاً أنَّ التَّعْس هو الشَّرَّ، أو هو البُعْد، أو أن يخِرَّ المرءُ على وجهه، أو هو الهلاك، وكلُّ هذه المعاني واردٌ.

(٢) قال الأعشى هذا البيت من قصيدته المعروفة الَّتي قالها في مدح هوزة بن عليٍّ الحنفيِّ، والَّتي بدأها بقوله: (بانَتْ سُعَادُ وأَمْسى حَبْلُها انقطعا)، والبيت في وصف ناقة يقول إنَّه استعان بها على الوصول إلى بلدة يرهبُ الجَوَّابُ ظلامَهَا، وذات لَوْث: قويَّة، وقوله: «بذَاتِ لَوْثٍ»، متعلِّق بقوله في بيت سابق: «كَلَّفْتُ مَجْهولَهَا نَفْسي» أي مجهول هذه البلدة الرَّهيبة. وعَفَرْناة: قويَّة شديدة، من قولهم: لَبُؤَةٌ عَفَرْناةٌ، أي قويَّة، ويقال فيها: عِفِرْناة ـ بكسر العين والفاءِ ـ بمعنى الجراءة، وتقال للذَّكر والأنثى من الأسود، ولعلَّه شبَّه ناقته باللَّبؤة القوية الجريئة. و«لَعَا»: صوتٌ معناه الدُّعاءُ للعاثِر بأن يرتفع من عثرته، يقال: لَعاً لفلان، وفي الدُّعاءِ عليه يقال: لا لعاً له. ومعنى قوله: «فالتَّعْس أَدْنَى لها من أَنْ أَقُولَ: لَعَا» أَنَّها لا تعثر لقوَّتها، ولو عثرت لقلتُ لها: لَعاً، قال ذلك ابن بَرِيّ وذكره عنه صاحب اللسان (لوث).

(٣) قالت أُمُّ مِسْطح ذلك في حديث الإفك الَّذي أخرجه البخاريُّ، ومسلم، والتِّرمذيُّ، وأحمد، وهو حديث طويل مشهور ذكرناه في تفسير سورة (النّور).

(٤) ما بين العلامتين [....] زيادة يحتاج إليها التَّعبير.

(٥) أخرجه البخاريُّ في الأدب والزَّكاة والبيوع والعتق، ومسلم في الإيمان، وأحمد في المسند =

تأويله: أَسلمتَ على أَن يُعَدَّ لك ما سلف من خير، وهذا هو التَّأْويل الَّذي أَشرنا إِليه، وقالت فرقة: معناه: أَسلمتَ على إِسقاط ما أَسلفت من خير، إِذْ قد جوزيت عليه بِنِعَم دنياك، وذكر الطَّبريُّ أَنَّ أَعمالهم الَّتي أَخبر في هذه الآية أَنَّه يحبطها هي عبادتهم الأَصنام وكفرهم، ومعنى [أَحْبَطَ]: جعلها من الفعل[1] الَّذي لا يزكو ولا يُعْتَدُّ به، فهي لذلك كالَّذي أُحبط.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ توقيف لقريش وتوبيخ، و﴿ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يريد ثمود وقوم لوط وقوم شعيب وأَهل السَّدِّ وغيرهم، و«الدَّمَارُ»: الفساد وهدم البناءِ وإِذهاب العمران، وقوله تعالىٰ: ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ من ذلك، والضَّمير في قوله تعالىٰ: [أَمْثَالُهَا] يحتمل أَن يعود على العاقبة المذكورة، ويصحُّ أَن يعود على الفعلة الَّتي يتضمنها قوله تعالىٰ: ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ﴾ ابتداءٌ وخبره في [أَنَّ]، وهذه الآية نزلت يوم أُحد، ومنها انتزع رسول الله ﷺ ردَّه على أَبي سفيان بن حرب حين قال له: (اللهُ مَولانا ولا مَوْلى لكم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾، أَي أَكلاً مجرداً من فكرة ونظر، فالتشبيه بالمعنى إِنَّما وقع فيما عدا الأَكل من قلَّة الفكر وعدم النَّظر، فقوله تعالىٰ: [كَمَا] في موضع الحال، وهذا كما تقول: الجاهل يعيش عيش البهيمة، فأَمَّا مقتضى اللَّفظ فالجاهل والعالم والبهيمة من حيث لهم عيش فهم سواءٌ، ولكن معنى كلامك: يعيش

= (٣ـ٤٠٢ـ٤٣٤)، والحديث عن عروة بن الزّبير، عن حكيم بن حزام، قال: قلت: يا رسول الله، أَرأيت أُموراً كنت أتحنث بها في الجاهلية من عتاقة وصلة رحم، هل لي فيها أجر؟ فقال له النَّبيُّ ﷺ: «أسلمت على ما أسلفتَ من خير».

(١) في بعض النُّسخ «من القول» وما أثبتناه أقرب ومناسب لتعبير الآية.

عديم النَّظر والفهم كما تعيش البهيمة. و«المَثْوَى»: موضع الإقامة، وقد تقدم القول غير مرَّة في قوله تعالىٰ: [وَكَأَيِّنْ]، وضرب الله تعالىٰ مثلاً لمكَّة بالقرى المهلكة على عظمها كقرية قوم هود وغيرهم، و[أَخْرَجَتْكَ] معناه: وقت الهجرة، ونسب الإخراج إلى القرية حملاً على اللَّفظ، وقال: [أَهْلَكْنَاهُمْ] حملاً على المعنى، ويقال: إنَّ هذه الآية نزلت إثر خروج النَّبيِّ ﷺ من مكَّة في طريق المدينة، وقيل: نزلت بالمدينة، وقيل: نزلت بعد الحديبيَّة بمكَّة عام دخلها رسول الله ﷺ، وقيل: عام الفتح وهو مُقبل إليها، وهذا كله حُكْمه حُكم المدنيّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ﴾ الآية. توقيفٌ وتقرير على شيءٍ متَّفق عليه، وهي معادلة بين هذين الفريقين، وقال قتادة: الإشارة بهذه الآية إلى محمد ﷺ في أنَّه الَّذي على بيِّنة من ربِّه، وإلى كفَّار قريش في أنَّهم الَّذين زُيِّن لهم سوءُ أعمالهم، وبقي اللَّفظ عامًّا لأهل هاتين الصِّفتين غابر الدَّهر. وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ معناه: على قضيَّة واضحة وعقيدة نيِّرَة بيِّنَة، ويحتمل أن يكون المعنى: «على أمرٍ بيِّن ودين بيِّن» وألحق الهاءَ للمبالغة كعلاَّمة ونسَّابة، والَّذي يُسند إليه قوله تعالىٰ: [زُيِّنَ] هو الشَّيطان، و«إتِّباعُ الأهواءِ»: طاعتها، كأنَّه يذهب إلى ناحية والمرءُ يذهب معها.

واختلف النَّاس في معنى قوله تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الآية ـ فقال النَّضر بن شُميل وغيره: [مَثَلُ] معناه: صفة، كأنَّه قال: صفة الجنَّة ما تسمعون فيها كذا وكذا، وقال سيبويه: المعنى: فيما يُتْلَى عليكم مثل الجنَّة، ثمَّ فسَّر الَّذي يُتْلَى بقوله: فيها كذا وكذا، والَّذي ساق إلى أن تُجعل [مَثَلُ] بمثابة «صِفَة» هو أنَّ المُمَثَّل به ليس في الآية، ويظهر أنَّ القصد بالتَّمثيل هو إلى الشَّيءِ الَّذي يتخيله المرءُ عند سماعه: «فيها كذا وكذا»، فإنَّه يتصور عند ذلك بِقاعاً على هذه الصُّورة، وتلك هي مثل الجنَّة ومثالها، أو

في الكلام حذف يقتضيه الظَّاهر، كأَنَّه تعالىٰ يقول: مثل الجنَّة بَيِّنٌ ظاهر في نفس من وَعى هذه الأَوصاف. وقرأَ عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه: [مثال الجنّة]، وقرأَ عليُّ بن أَبي طالب أيضاً، وابن عبَّاس رضي الله عنهم: [أمثال الجنَّة]، وعلى هذه التَّأويلات كلِّها ففي قوله تعالىٰ: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ﴾ حذف تقديره: أَساكن هذه؟ أَو تقديره: أَهؤلاءِ؟ إِشارة إِلى المتَّقين، ويحتمل عندي أَن يكون الحذف في صدر الآية، كأَنَّه تعالىٰ قال: أَيكون مثل هذه الجنَّة كمن هو خالد في النَّار؟ ويكون قوله مستفهماً عنه بغير أَلف استفهام، فالمعنى: أَمَثَلُ أَهل الجنَّة ـ وهي بهذه الأَوصاف ـ كمن هو خالد في النَّار؟ فتكون الكاف في قوله تعالىٰ: [كَمَنْ] مؤكِّدةٌ للتَّشبيه، ويجيءُ قوله تعالىٰ: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ في موضع الحال على هذا التَّأْويل.

و﴿مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ معناه: غير متغيِّر، قاله ابن عبّاس، وقتادة، وسواءٌ أَنْتَن أَو لم ينتن، يقال: أَسَن الماءُ ـ بفتح السّين ـ وأَسِنَ ـ بكسرها ـ، وقرأَ جمهور القراءِ: [آسِنٍ] على وزن فَاعِلٍ، وقرأَ ابن كثير: [أَسِنٍ] على وزن فَعِلٍ، وهذه قراءَة أَهل مكَّة، والآسِنُ: الَّذي يُغشى عليه من ريح مُنتنة من ماءٍ، ومنه قول الشاعر:

التَّـارِكُ الْقَـرْنَ مُصْفَـرًّا أَنـامِلُـهُ يَمِيلُ في الرُّمْح مَيْلَ الْمَائِح الأَسن[1]

وقال الأَخفش: «أَسِنَ» لغة، والمعنى الإِخبار به عن الحال، ومن قال: «آسِنٌ» على وزن فاعل فهو يريد به أَن يكون كذلك في المستقبل، فنفى ذلك في الآية، وقرأَت فرقة: ﴿غير يسن﴾ بالياءِ، قال أَبو عليٍّ: وذلك على تخفيف الهمز، قال أَبو حاتم عن عوف: كذلك كانت في المصحف ﴿غير يسن﴾ فغيَّرها الحجاج.

---

(١) هذا البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو واحد من ثلاثة أبيات ذكرت في الدّيوان، واستشهد به صاحب اللِّسان في (أَسِنَ) على أنّ معناها: أصابهُ دُوار من ريح البئر المنتنة فغشي عليه فسقط. ورواية الدّيوان: «قَدْ أَتْرُكُ القِرْنَ»، ورواية اللِّسان: «يُغَادِرُ القِرْنَ»، والقِرْنُ: الّذي يماثل الإنسان في شجاعته، و«مُصْفَرّاً أنامله»: كناية عن الموت أو عن الخوف، قال في اللِّسان: «وأَورده الجوهريُّ: قد أترك القِرْنَ»، وصوابه «يُغَادِرُ القِرْنَ» وكذا في شِعْرِهَ لأنّه من صفة الممدوح، وقبله يقول: (أَلَمْ تَرَ ابْنَ سِنَانٍ كيفَ فَضَّلَهُ. . .)، وإنّما غلَّط الجوهريُّ قولَ الآخر: (قَدْ أَتْرُكُ القِرْنَ مُصْفَرّاً أَنامِلُهُ، كَأَنَّ أَثْوَابَهُ). » وهذا البيت الّذي أشار إليه في اللِّسان (أَلَمْ تَرَ ابْنَ سِنَانٍ) غير موجود في الدّيوان، وعلى هذا فالأبيات أربعة لا ثلاثة، أمّا (يَمِيلُ في الرُّمح) فقد ورد في اللِّسان (يَمِيدُ) بالدّال، والمائح: الّذي ينزح الماءَ من البئر، والأسِنُ: الّذي دخل بئراً فاشتدَّت عليه ريحها فأصابه دُوَارٌ فسقط». وفي كُتُب اللُّغة كلام في الفعل (اسِنَ).

وقوله تعالىٰ في اللَّبن: ﴿لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ نفيٌ لجميع وجوه الفساد في اللَّبن، وقوله تعالىٰ: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ جمعت طيب المطعم وزوال الآفات من الصُّداع وغيره، و[لَذَّةٍ] نعت على النّسب، أَي: ذات لذَّة، وتصفيةُ العسل مُذْهبة لُبُوسَتَه[1] وضرره، وقوله تعالىٰ: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أَي من هذه الأنواع، لكنَّها بعيدة الشَّبه إِذْ تلك لا عيب فيها ولا تَعَب بِوَجْه. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ معناه: وتنعيم أَعطته المغفرة وسبَّبَته؛ وإِلاَّ فالمغفرة إِنما هي قبل الجنة.

وقوله تعالىٰ: [وَسُقُوا] الضَّمير عائد على [مَنْ] لأَنَّ المراد به جمع.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يعني بذلك المنافقين من أَهل المدينة، وذلك أَنَّهم كانوا يحضرون عند النَّبيِّ ﷺ ويسمعون كلامه وتلاوته، فإِذا خرجوا قال بعضهم لمن شاءَ من المؤمنين الَّذين علموا وانتفعوا: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾؟ فكان منهم من يقول هذا استخفافاً، أَي: ما معنى ما قال؟ وما نفعه؟ وما قدره؟ ومنهم من يقول ذلك جهلاً ونسياناً لأَنَّه كان في وقت الكلام مقبلاً على فكرته في أَمر دنياه وفي كفره، فكان القول يَمُرُّ صفحاً، فإِذا خرج قال: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾؟ وهذا أَيضاً فيه ضرب من الاستخفاف لأَنَّه كان يصرِّح أَنَّه يقصد الإِعراض وقت الكلام، ولو لم يكن ذلك بقصد لم يبعد أَن يجري على بعض المؤمنين، وروي أَن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهما مِمَّن سُئِل هذا السُّؤال، حكاه الطَّبريُّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. و﴿ءَانِفًا﴾ معناه: مبتدئاً، كأَنَّه قال: ما القول الَّذي ائْتَنَفَه الآن قبل انفصالنا عنه؟ وقرأَ الجمهور: ﴿ءَانِفًا﴾ على وزن فاعل، وقرأَ ابن كثير وحده: [أَنِفًا] على وزن فَعِل، وهما اسما فاعل من «ائْتَنَف»، وجَرَيَا على غير فعلهما، ولم يُستعمل فعلهما، وهذا كما جرى «فقير» على «افْتَقَر» ولم يستعمل «فقر»، وهذا كثير، والمفسِّرون يقولون: ﴿ءَانِفًا﴾ معناه: السّاعة الماضية القريبة مِنَّا، وهذا تفسير بالمعنى.

ثمَّ أَخبر تبارك وتعالىٰ أَنَّه طبع على قلوب هؤلاءِ المنافقين الفاعلين لهذا، وهذا الطَّبع يحتمل أَن يكون حقيقة ويحتمل أَن يكون استعارة، وقد تقدَّم القول فيه.

---

(١) لَبُوسته ـ بفتح اللاَّم وبضمِّها ـ: ما يشوبه من أشياءَ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

لمَّا ذكر الله تعالىٰ المنافقين بما هم أهله من قوله تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ عقَّب بذكر المؤمنين، فبيَّن الفرق، وشرَّفهم بإسناد فعل الاهتداءِ إِليهم، وهي إِشارة إِلى تكسُّبهم، وقوله تعالىٰ: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ يحتمل أَن يكون الفاعل في [زَادَهُمْ] الله تعالىٰ، والزِّيادة في هذا المعنى تكون إِمَّا بزيادة التَّفهيم والأَدلَّة، وإِمَّا بورود الشَّرائع والأَوامر والنَّواهي والأَخبار، فيزيد الاهتداءُ لِتَزَيُّدِ عِلْم ذلك والإِيمان به، وذلك بفضل الله تعالىٰ، ويحتمل أَن يكون الفاعل في ﴿زَادَهُمْ﴾ قولُ المنافقين واضطرابُهم؛ لأَنَّ ذلك مما يتعجَّب المؤمن منه، ويحمد الله تعالىٰ على إِيمانه، ويتزيَّد بصيرة في دينه، فكأَنَّه تعالىٰ قال: والمهتدون المؤمنون زادهم فعل هؤلاءِ المنافقين هُدًى، أَي: كانت الزِّيادة بسببه فأَسند الفعل إِليه، وقالت فرقة: إِنَّ هذه الآية نزلت في قوم من النَّصارى آمنوا بمحمد ﷺ، فالفاعل في [زَادَهُمْ] محمد عليه الصَّلاة والسَّلام، أَي كان سبب الزِّيادة فأَسند الفعل إِليه، وقوله تعالىٰ ـ على هذا القول ـ: ﴿اهْتَدَوْا﴾ يريد تعالىٰ: في إِيمانهم بعيسى عليه السَّلام، ثمَّ زادهم محمد ﷺ هدًى حين آمنوا به، والفاعل في ﴿وَآتَاهُمْ﴾ يتصرَّف القول فيه بحسب التَّأويلات المذكورة، وأَقواها أَنَّ الفاعل اللهُ تعالىٰ، و﴿آتَاهُمْ﴾ معناه: أَعطاهم، أَي: جعلهم مُتَّقين له، والتَّقدير: تقواهم إِيَّاه، وقرأَ الأَعمش: [وَأَنْطَاهُمْ]، وهي بمعنى أَعطاهم، ورواها محمد بن طلحة عن أَبيه، وهي في مصحف عبد الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ يريد المنافقين، والمعنى: ينتظرون، أَي: هكذا هو الأَمر في نفسه وإِن كانوا هم في أَنفسهم ينتظرون غير ذلك، فإِنَّ ما في أَنفسهم غير مراعى لأَنَّه باطل. وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾، فـ ﴿أَن﴾ بدل من ﴿السَّاعَةَ﴾، وقوله تعالىٰ ـ على هذه القراءَة ـ: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ إِخبارٌ مستأْنف، والفاءُ عاطفة جملة من الكلام على جملة. وقرأَ أَهل مكَّة ـ فيما روى الرُّؤاسي ـ: [إِن تأْتهم] بكسر الأَلف

وجزم الفعل على الشَّرط، والفاءُ في ﴿فَقَدْ﴾ جواب الشَّرط[1]، وليست بعاطفة على نحو ما في القراءَة الأُولى فثَمَّ نحو من معنى الشّرط، و﴿بَغْتَةً﴾ معناه: فجأَة، وروي عن أَبي عمرو: [بَغَتَّةً] بفتح الغين وشدِّ التاءِ، وقوله تعالىٰ: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ﴾ ـ على القراءَتين ـ معناه: فينبغي أَن يقع الاستعداد والخوف منها لمن حزم ونظر لنفسه، والَّذي جاءَ من أَشراطها محمد عليه الصَّلاة والسَّلام لأَنَّه آخر الأَنبياءِ، فقد بان من أَمر السَّاعة قدرٌ ما، وفي الحديث أَنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام قال: «أَنا من أَشراط السَّاعة»[2]، وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «بعثتُ أَنا والسَّاعة كهاتين» وأَشار بإِصبعيه[3] «وكفرسَيْ رهان»، ويقال: شَرْطٌ أَو أَشراط بسكون الراءِ وتخفيفها، وأَشْرَطَ الرجلُ نَفْسَه: أَلزمها أُموراً، وقال أَوس بن حجر:

فَـأَشْـرَطَ فيهـا نَفْسَـهُ وَهُـوَ مُعْصِـمٌ ... وَأَلْقَـى بِـأَسْبَـابٍ لَـهُ وَتَـوَكَّـلاَ[4]

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ﴾ الآيَةَ يحتملُ أَن يكون المعنى: فأَنَّى لهم الخلاص أَو النَّجاة إِذا جاءَتهم الذِّكرى بما كانوا يُخْبَرون به في الدُّنيا فيكذِّبون به ويكون جاءَهم العذاب مع ذلك؟ ويحتمل أَن يكون المعنى: فأَنَّى لهم ذكراهم وعملهم بحسبها إِذا جاءَتهم السَّاعة؟ وهذا تأْويل قتادة، ونظيره ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[5].

---

(١) وعلى هذه القراءة يكون الوقف على [ٱلسَّاعَة]، ويبدأ بالشّرط كلام جديد.

(٢) في مسند الإمام أحمد، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ستٌّ من أشراط السّاعة: مَوْتي، وفتح بيت المقدس، وموت يأخذ في النّاس كقعاص الغنم، وفتنة يدخل حربها بيت كلِّ مسلم...»، أمّا الحديث باللّفظ الّذي ذكره ابن عطيّة فلم أقف عليه.

(٣) أخرجه البخاريُّ، ومسلم، والتِّرمذيُّ، وابن ماجه، والإمام أحمد في مسنده. وقد رُوي عن أنس، وعن أبي هريرة رضي الله عنهما.

(٤) قال أوس هذا البيت من قصيدته الطّويلة الّتي بدأها بقوله: (صَحَا قَلْبُه عن سُكْرِهِ فَتَأمّلا)... والشّاعر في هذا البيت يصف رجلاً تدلّى بحبل من رأس جبل إلى نَبْعَةٍ ـ شجرة من أشجار الجبال تُتَّخذ منها القسي ـ أراد أن يقطعها ليتّخذ لنفسه منها قوساً، ومعنى (أشرط نَفْسَه): جعلها عَلَماً للموت، أي علامةً على الموت وبداية له، وقد سُمّي الشُّرَط شُرَطاً لأنّهم يُقَدَّمون على غيرهم من الجند فهم أوائل الجند، ولهم علامات تدلُّ عليهم، وقال في شرح شواهد الشّافية: «ويقال: أشرط نفسه في الأمر أي خاطر بها»، والمُعْصِم والمُعْتَصم واحد، وهو المتعلّق بحبل، والأسْباب: الحبال، واحدها سَبَبٌ، وتوكّلا: اعتمد على الله. والبيت في الدّيوان، ولسان العرب، والطّبريّ، والقرطبيّ.

(٥) من الآية (٥٢) من سورة (سبأ)، ومعنى قول قتادة: أنّى لهم أن يتذكّروا ويعرفوا ويعقلوا ويتوبوا إذا جاءتهم السّاعة؟ أي: قد فات ذلك. وعلى هذا تكون [ذِكْرَاهُمْ] ابتداءً و﴿أَنَّىٰ لَهُمْ﴾ الخبر، أمّا على=

وقوله تعالىٰ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ الآيةَ إضرابٌ عن أمر هؤلاءِ المنافقين وذكر الأَهم من الأمر، والمعنى: دُمْ على ذلك، وهذا هو القانون في كلِّ مَنْ أُمِرَ بشيءٍ هو مُتَلَبِّس به، وهذا خطاب للنَّبيِّ ﷺ، وكلٌّ واحد من الأُمَّة داخل فيه، واحتجَّ بهذه الآية من قال من أَهل السُّنَّة: إنَّ العلمَ والنَّظَرَ قبل القول والإِقرار في مسأَلة أَوَّل الواجبات، وبوَّب البخاريُّ رحمه الله تعالىٰ: العلم قبل القول والعمل لقوله تعالىٰ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ الآيةَ، واجبٌ على كلِّ مؤمن أَن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وروى أَبو هريرة عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قال: «من لم يكن عنده ما يتصدَّق به فليستغفر للمؤمنين والمؤمنات فإِنَّها صدقة»[1]، وقال الطَّبريُّ وغيره: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾: تصرُّفكم في يقظتكم، ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾: في منامكم، وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾: تصرّفكم في حياتكم الدُّنيا، ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾: إِفاقتكم في قبوركم وفي آخرتكم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾.

هذا ابتداءُ وصف حال المؤمنين في جِدِّهم في دين الله تعالىٰ وحِرصهم على ظهوره، وحال المنافقين من الكسل والفشل والحرص على فساد الدِّين وأَهله، وذلك أَنَّ المؤمنين كان حرصهم يبعثهم على تمنّي الظُّهور وتمنّي قتال العدوِّ وفضيحة

= الرَّأي الأَوَّل الَّذي ذكره ابن عطيَّة فالمبتدأُ محذوف، والتَّقدير: فأَنَّى لهم الخلاص إذا جاءتهم الذِّكرى؟

(١) وقد روى مسلم وأحمد في صحيحيهما، عن عاصم الأحول، عن عبد الله بن سَرْجِس المخزوميِّ قال: أتيت النَّبيَّ ﷺ وأكلت من طعامه فقلت: يا رسول الله، غفر الله لك، فقال له صاحبيَّ: هل استغفر لك النَّبيُّ ﷺ؟ قال: نعم، ولك، ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، ثمَّ تحولتُ فنظرتُ إلى خاتم النُّبوَّة بين كتفيه جُمْعاً عليه خيلانٌ كأنَّه الثَّآليل. ومعنى «جُمْعا»: مثل جمع الأصابع وضمِّها، والخيلان: جمع خالٍ وهي الشَّامة في الجسد، والثَّآليل: جمع ثُؤلول، وهي حُبَيْبات تعلو الجسد. قال ابن كثير، وهذا الحديث رواه التِّرمذيَّ، والنَّسائيُّ، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طرق عن عاصم.

المنافقين ونحو ذلك مما هو ظهور للإسلام، فكانوا يأنسون بالوحي ويستوحشون إذا أَبطأَ، والله تعالىٰ قد جعل كل ذلك بآمادٍ مضروبةٍ وأَوقات لا تُتَعَدَّى، فمدح الله تعالىٰ المؤمنين بحرصهم. وقولُهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ معناه: تتضمَّن إظهارنا وأَمْرَنا بمجاهدة العدوِّ ونحوه.

ثمَّ أَخبر تعالىٰ عن حال المنافقين عند نزول القتال، وقولُه سبحانه: ﴿مُّحْكَمَةٌ﴾ معناه: لا يقع فيها نسخ، وبهذا خَصَّصَ «السُّورَةَ» بالإحكام، وأَمَّا الإحكام الَّذي هو بمعنى الإتقان فالقرآن كلُّه سواءٌ فيه، وقال قتادة: كلُّ سورة فيها القتال فهي مُحْكمة، وهو أَشدّ القرآن على المنافقين، وهذا أَمر استقرأَه قتادة من القرآن، وليس من تفسير هذه الآية في شيءٍ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: «سُورَةٌ مُحْدَثَة». و«المرض الَّذي في القلوب» استعارةٌ لفساد المعتقد، وحقيقة المرض والصِّحَّة في الأَجسام وتُستعار للمعاني، ونَظَرُ الخائف المُوَلَّه قريبٌ من نظر المغشيِّ عليه، وخشيتهم هذه للوصف والتَّشبيه.

قوله تعالىٰ: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ الآية، ﴿أَوْلَى﴾ وزنها أَفعل، وهو مِن وَلِيَكَ الشَّيءُ يَلِيكَ، وقالت فرقة: وزنه أَفْلَع، وفيه قلْبٌ لأَنَّه مشتقّ من الويل، والمشهور من استعمال «أَوْلَى» أنك تقول: هذا أَولى بك من هذا، أَي أَحَقُّ، وقد تستعمل العرب «أَوْلَى لَكَ» فقط، على جهة الحذف والاختصار لما معها من القول، فتقول على جهة الزَّجْر والتَّوعُّد: «أَوْلَى لك يا فلان»، وهذه الآية من هذا الباب، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾[1]، ومنه قول أَبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه للحسن رضي الله عنه: «أَوْلَى لَكَ»، وقالت فرقة من المفسرين: ﴿أَوْلَى﴾ رفع بالابتداءِ و﴿طَاعَةٌ﴾ خبره.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا هو المشهور من استعمال «أَولى»، وقالت فرقة من المفسِّرين: ﴿أولى لهم﴾ ابتداءٌ وخبر، معناه الزَّجْرُ والتَّوعُّد، ثمَّ اختلفت هذه الفرقة في معنى قوله تعالىٰ: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ ـ فقال بعضها: التَّقدير: طاعة وقول معروف أَمْثَل، وهذا تأْويل مجاهد ومذهبُ الخليل وسيبويه، وحَسُن الابتداءُ بالنَّكرة لأَنَّها مُخَصَّصَة ففيها بعض

---

(١) الآية (٣٤) من سورة (القيامة).

التَّعريف، وقال بعضها: التَّقدير: الأمر طاعة وقول معروف، أي الأمر المُرْضي لله تعالىٰ، وقال بعضها: التَّقدير: قولهم لك يا محمد ـ على جهة الهُزْءِ والخديعة ـ: طاعةٌ وقولٌ معروف، فإذا عزم الأمر كرهوه، ونحو هذا من التَّقدير، قاله قتادة، وقال أيضاً ما معناه: إنَّ تمام الكلام الَّذي معناه الزَّجر والتَّوعُّد [فَأَوْلَى]، وقولهُ تعالىٰ: [لَهُمْ] ابتداءُ كلام، و[طَاعَةٌ] ـ على هذا القول ـ ابتداءٌ، وخبره [لَهُمْ]، والمعنى: إنَّ ذلك منهم على جهة الخديعة، فإذا عزم الأمر ناقضوا وتعاصوا.

وقوله تعالىٰ: ﴿عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ استعارة، كما قال:

* قَدْ جَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجِدُّوا *[1]

ومن هذا الباب «نَامَ لَيْلُكَ» ونحوه[2]. وقوله تعالىٰ: ﴿صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ يحتمل أن يكون الصِّدق الَّذي هو ضدُّ الكذب، ويحتمل أن يكون من قولك: «عُودٌ صَدْقٌ»[3]، والمعنى متقارب.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ مخاطبة لهؤلاءِ الَّذين في قلوبهم مرض، أي: قل لهم يا محمد. وقرأ نافع وأهل المدينة: [عَسِيتُمْ] بكسر السّين، وقرأ أبو عمرو، والحَسَن، وعاصم، وأبو جعفر، وشيبة: [عَسَيْتُمْ] بفتح السّين، والفتح أفصح لأنَّها من «عَسَى» التي تصحبها «أَنْ»، والمعنى: فهل عسى أن تفعلوا إن توليتم غير أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم؟ وكأنَّ الاستفهام الدّاخل على «عَسَى» غيَّر معناها بعض

---

(١) هذا شاهد على إسناد الفعل إلى من لا يقوم به على سبيل المجاز، فقد أسند الشّاعر الجدَّ إلى الحرب، والجِدُّ ضدُّ الهزل، وقوله: «جَدَّت الحرب» معناه: اشتدّت ولم تَعُدْ هزلاً فقابلوها بالاجتهاد ولا تتهاونوا.

(٢) أسند جرير النوم إلى اللَّيل في بيته المشهور الَّذي قاله يخاطب ابنته أُمَّ غيلان:

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلانَ فِي السُّرَى ... وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِمِ

وكذلك أسند رؤيةُ النوم إلى اللَّيل في قوله:

* فَنَامَ لَيْلِي وَتَجَلَّى هَمِّي *

(٣) قال الخليل: «الصَّدْقُ الكاملُ من كلِّ شيءٍ، يقال: رجلٌ صَدْقٌ وامرأةٌ صَدْقَة»، وقال ابن دُرُسْتُوَيْه: «إنَّما هذا بمنزلة قولك: رَجُلٌ صَدْقٌ وامرأة صَدْقٌ، فالصَّدْقُ من الصِّدق بعينه، والمعنى أنَّه يَصْدُق في وصفه من صلابة وقوة وجوده». وفي اللِّسان: «والصَّدْقُ ـ بالفتح ـ: الصلب من الرِّماح وغيرها، ورُمْح صَدْقٌ: مُسْتَوٍ، وكذلك سَيْفٌ صَدْقٌ»، فقولك: «عُودٌ صَدْقٌ» معناه صلب مُسْتَوٍ جيِّدٌ، والمعنى قريب لأنَّه يَصْدُقُ في صفته من الجودة والصَّلابة.

التَّغيير كما يغيِّر الاستفهام قولك: أَوَ لَوْ كان كذا وكذا؟ وقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ معناه: إن أَعرضتم عن الحقِّ، وقال قتادة: كيف رأَيتم القوم حين تولَّوا عن كتاب الله تعالىٰ؟ أَلم يسفكوا الدَّم الحرام ويقطعوا الأَرحام ويعصوا الرَّحمن عزَّ وجلَّ؟ وقرأَ الجمهور: ﴿إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾، والمعنى: إن أَعرضتم عن الإِسلام، وقال كعب الأَحبار ومحمد بن كعب القرظيُّ: المعنى: إنْ تولَّيتم أُمور النّاس، من الولاية، وعلى هذا قيل: إنَّها نزلت في بني هاشم وبني أُميَّة، ذكره الثَّعلبيُّ، وروى عبد الله بن مُغَفَّل أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قرأَ: [إن وُلِّيتم] بواو مضمومة ولام مشدَّدة مكسورة(١)، وقرأَ عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه: [إن تُوُلِّيتم] بضم التَّاءِ والواو وكسر اللاَّم المشدَّدة، على معنى: إن وَلِّيَتْكُمْ وُلاة جَوْر فملتم إلى دنياهم دون إمام العدل، أَو على معنى: إن تُوُلِّيتُمْ بالتَّعذيب والتَّنكيل وأَفعال العرب في جاهليتها وسيرتها من الغارات والسِّباءِ، فإِنَّما كانت ثمرتها الإِفساد في الأَرض وقطيعة الرَّحم، وقيل: معناها: إنْ تَولاَّكم النّاسُ ووكَّلكم الله تعالىٰ إليهم. وقرأَ جمهور النّاس: [وَتُقَطِّعُوا] بضمِّ التَّاءِ وشدّ الطَّاءِ المكسورة، وقرأَ أَبو عمرو: [وَتَقْطَعُوا] بفتح التَّاءِ والطَّاءِ المخفَّفة، وهي قراءَة سلام ويعقوب.

وقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى مرضى القلوب المذكورين، و[لَعَنَهُمْ] معناه أَبعدهم، وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ استعارة لعدم فهمهم فكأَنهم عُمْيٌ وصُمٌّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ توقيف وتوبيخ، وتدبيرُ القرآن. زعيمٌ بالتَّبيين

(١) أخرجه الحاكم عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه.

والهدى، و[أَمْ] منقطعة وهي المُقدَّرة بِبَلْ وألف الاستفهام، وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ استعارة للرَّيْن الَّذي منعهم الإيمان، ويُروى أَنَّ وَفْد اليمن وَفَد على النَّبيِّ ﷺ وفيهم شاب، فقرأَ النَّبيُّ ﷺ هذه الآية، فقال الفتى: عليها أَقفالها حتّى يفتحها الله تعالىٰ ويفرجها، قال عمر رضي الله عنه: فعظُم في عيني، فما زالت في نفس عمر حتّى وليَ الخلافة فاستعان بذلك الفتى[١].

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ الآية، قال قتادة: إنَّها نزلت في قوم من اليهود كانوا قد عرفوا من التَّوراة أَمْر محمد ﷺ، وتبيَّن لهم الهدى بهذا الوجه، فلمَّا باشروا أَمره حسدوه فارتدُّوا عن ذلك القدر من الهدى، وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما وغيرُه: نزلت في منافقين كانوا أَسلموا ثمّ نافقت قلوبهم، والآيةُ تعمُّ كلَّ من دخل في ضمن لفظها غابر الدَّهر، و[سَوَّلَ] معناه: رجَّاهم سُؤْلَهم وأَمانيَّهُم، وقال أَبو الفتح عن أَبي عليٍّ: إنَّه بمعنى: دَلاَّهم، مأْخوذ من السَّوَلِ وهو الاسترخاءُ والتَّدَلِّي[٢]، وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾، وأَمال ابن كثير، وشبل، وابن مصرف [أَمْلَى]، وفاعل [أَمْلَى] هنا قال الحسن: هو الشَّيطان، جعل وعده الكاذب بالبقاءِ كالإبقاءِ، وذلك أَنَّ الإملاءَ هو الإبقاءُ مُلاَوَةً من الدَّهر، يقال: مُلاَوَةً ومَلاَوَةً ومِلاَوَةً بضمِّ الميم وفتحها وكسرها، وهي القطعة من الزَّمان، ومنه «المَلَوَان»، وهما اللَّيل والنَّهار، فإذا أَمْلَى الشَّيطانُ إملاءً مَّا فلا صحَّة له إلاَّ بطمعهم الكاذب، ويحتمل أَن يكون الفاعل في [أَمْلَى] الله عزَّ وجلَّ، كأَنَّه تعالىٰ قال: الشَّيطان سوَّل لهم، وأَمْلَى الله لهم، وحقيقة الإملاءِ إنَّما هو بيد الله تعالىٰ، وهذا هو الأرجح. وقرأَ الأَعرج، ومجاهد، والجحدريُّ، والأَعمش: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ بضمِّ الهمزة وكسر اللاَّم وإرسال ياءِ المتكلِّم، ورواها الخُفَافُ عن أَبي عمرو، وقرأَ أَبو عمرو: [وَأُمْلِيَ] بفتح الياءِ على بناءِ الفعل

---

(١) أخرجه إسحق بن راهويه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، عن عُرْوَة رضي الله عنه، وأخرج مثله الدَّارقطنيُّ في الأفراد، وابن مردويه، عن سهل بن سعد رضي الله عنه، لكن جاء في آخره: (فلمَّا ولي عمر سأل عن ذلك الشَّاب ليستعمله فقيل: قد مات). (الدُّرُّ المنثور).

(٢) السَّوَلُ: استرخاءُ البطن، أو استرخاءُ ما تحت السُّرَّة من البطن، قال المُتَنَخِّل الهُذَلي:

كالسُّحُلِ البِيض جَلا لَوْنَهَا ... سحُّ نِجَاءِ الحَمَلِ الأَسْوَلِ

والحَمَلُ هو السَّحابُ الأسود، يريد أنَّه سحاب أسود مُسْتَرْخٍ بيِّن الاسترخاء لأنَّه ثقيل غزير الماء، فالآية إذاً كقوله تعالىٰ: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾، قال ابن جنيّ: وهذا اشتقاق حَسَنٌ أخذناه عن أبي عليٍّ.

للمفعول، وهي قراءَة شيبة، وابن سيرين، والجحدريُّ، وعيسى البصريُّ، وعيسى الهمدانيُّ، وهذا يحتمل فاعله من الخلاف ما في القراءَة الأُولى.

قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟﴾ الآية، قيل: إِنَّها نزلت في بني إِسرائيل الَّذين تقدَّم ذكرهم في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟﴾، ورُوي أَنَّ قوماً من بني قريظة والنَّضير كانوا يَعِدُونَ المنافقين في أَمر رسول الله ﷺ والخلاف عليه بِنَصْرٍ ومُؤَازرة، فذلك قولهم: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾. وقرأَ الجمهور: [أَسْرَارَهُمْ] بفتح الهمزة وذلك على جمع «سِرٍّ» لأَنَّ أَسْرارهم كانت كثيرة، وقرأَ حمزة والكسائيّ، وحفص عن عاصم: [إِسْرَارَهُمْ] بكسر الهمزة، وهي قراءَة ابن وثّاب، وطلحة، والأَعمش، وعيسى، وهو مصدرٌ اسْمٌ للجنس.

قوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الآية، يحتمل أَن يُتَوَعَّدوا بها، وأَنَّها على معنَيَيْن: أَحدهما هذا هلعهم وجزعهم لِفَرْض القتال وقراع الأَعداءِ، فكيف فزعهم وجزعهم إِذا توفَّتهم الملائكة؟ والثَّاني أَن يريد: هذه معاصيهم وعنادهم وكفرهم، فكيف تكون حالهم مع الله تعالىٰ إِذا توفَّتهم الملائكة؟ وقال الطَّبريُّ: المعنى: والله أَعلم بأَسرارهم، فكيف علمه بها إِذا توفَّتهم الملائكة؟ وهم هنا مَلَك الموت والمتصرِّفون معه، والضَّمير في [يَضْرِبُونَ] للملائكة، وفي نحو هذا أَحاديث تقتضي صفة الحال، ومن قال إِنَّ الضَّمير في [يَضْرِبُونَ] للكفّار الَّذين يُتَوَفَّوْن فذلك ضعيف.

و﴿مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ هو الكفر، و«الرِّضوان» هنا هو الحقُّ والشَّرع المؤدي إِلى الرِّضوان، وقد تقدَّم القول في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أحبط أعمالهم﴾، وقرأَ الأَعمش: ﴿فكيف إذا توفاهم الملائكة﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

هذه آية توبيخ للمنافقين وفضح لهم، وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ توقيف، وهي «أَم» المنقطعة، وقد تقدَّم تفسير مرض القلب، وقوله تعالىٰ: ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ

﴿أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾ أي يبديها من مكانها في نفوسهم، و«الضِّغن»: الحقد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾ مقاربة في شهرتهم، ولكنَّه تعالىٰ لم يُعَيِّنهم قط بالأَسماءِ والتَّعريف التَّامِّ إِبقاءً عليهم وعلى قراباتهم وإِن كانوا قد عُرفوا بلحن القول، وكانوا في الاشتهار على مراتب كعبد الله بن أُبَي، والجَدِّ بن قيس وغيرهما ممن هو دونهما في الشُّهرة[١]، و«السِّيما»: العَلاَمة الَّتي كان الله تعالىٰ يجعل لهم لو أَراد التَّعريف التَّامَّ بهم، وقال ابن عبّاس، والضَّحّاك: إِنَّ الله تعالىٰ قد عرَّفه بهم في سورة براءَة في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا﴾[٢]، وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ﴾[٣]، وهذا في الحقيقة ليس بتعريف تامٍّ بل هو لفظ يشير إِليهم على الإِجمال لا أَنَّهُ سمَّى أَحداً، وأَعظم ما رُوي في اشتهارهم أَنَّ النَّبيَّ ﷺ أَمر يوماً فأُخرجت جماعة منهم من المسجد، كأَنَّه وسمهم بهذا، لكنَّهم أَقاموا على التَّبرِّي من ذلك وتمسَّكوا بلا إِلـه إِلاَّ الله فحقنت دماؤُهم[٤].

ورُوي عن حذيفة ما يقتضي أَنَّ النَّبيَّ ﷺ عرَّفه بهم أَو ببعضهم[٥]، وله في ذلك كلام مع عمر رضي الله عنهما.

---

(١) هكذا في الأصول، والصَّواب: «وغيرهما ممَّن هو دونهما في الشُّهرة».

(٢) من الآية (٨٤) من سورة (التَّوبة).

(٣) من الآية (٨٣) من سورة (التَّوبة).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥ـ٢٧٣)، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة، فحمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال: «إنَّ فيكم منافقين، فَمَن سَمَّيْتُ فليقم، ثمّ قال: قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان حتّى سمَّى ستة وثلاثين رجلاً، ثمّ قال: إن فيكم أو منكم منافقين فاتقوا الله»، قال: فمرَّ عمر على رجل ممَّن سَمَّى مُقَنَّع قد كان يعرفه، قال: ما لك؟ قال: فحدَّثه بما قال رسول الله ﷺ فقال: بُعْداً لك سائر اليوم.

(٥) أخرجه مسلم وأحمد، ولفظه كما في صحيح مسلم عن قيس بن عُباد قال: قلنا لِعمَّار: أرأيتَ قِتالكم أَرَأياً رأيتموه ـ فإن الرَّأي يخطىء ويصيب ـ أو عَهْداً عَهِده إليكم رسول الله ﷺ؟ فقال: ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى النّاس كافة، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في أُمَّتي ـ قال شُعبة: وأحسَبُه قال: حدَّثني حذيفة، وقال غُنْدَرٌ: أُرَاهُ قال: في أُمَّتي اثنا عشر منافقاً لا يدخلون الجنَّة ولا يجدون ريحها حتّى يلج الجَمَلُ في سَمِّ الخياط، ثمانية منهم تكفيكهم الدُّبَيْلَةُ، سراج من النَّار يظهر في أكتافهم حتّى يَنْجُمَ من صدورهم».

وقد ذكر ابن عطيَّة في سورة التَّوبة عند تفسير الآيتين المشار إليهما منها هنا أنَّه قد رُوي أنَّ النَّبيَّ ﷺ عيَّنهم لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وكانت الصَّحابة إذا رأَوْا حذيفة تأخر عن الصَّلاة على جنازة=

ثمَّ أَخبره تعالىٰ أَنَّه سيعرفهم في لَحْن القول، ومعناه: في مذهب القول ومنحاه ومقصده، وهذا كما يقول لك إِنسان قولاً معتقداً له وتفهم أَنت من مقاطع كلامه وهيئته وقرائن أَمره أَنَّه على خلاف ما يقول، وهذا هو معنى قوله تعالىٰ: ﴿فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾، ومن هذا المعنى قول النبيِّ ﷺ: «فلعلَّ بعضكم أَن يكون أَلْحَنَ بحُجَّتِه من بعض» الحديث[١]، أَي أَذْهَبَ بها في جهات الكلام، وقد يكون هذا اللَّحن مُتَّفَقاً عليه، أَن يقول الإِنسانُ قولاً يفهم السامعون منه معنى، ويفهم الَّذي اتَّفق مع المتكلِّم منه معنى آخر، ومنه الحديث الَّذي قال سعد بن معاذ وابن رواحة لرسول الله ﷺ: عضل والقارة[٢]، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

. . . . وخَيْـرُ الْحَـدِيـثِ مَـا كَـانَ لَحْنَـا[٣]

= رجل تأخروا هم عنها، وروي عن حذيفة رضي الله عنه أنَّه قال يوماً: بقي من المنافقين كذا وكذا، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنشدك الله هل أنا منهم؟ فقال: لا، ووالله لا أمَّنت منها أحداً بعدك.

(١) أخرجه البُخاريُّ في الشَّهادات والحِيل والأحكام، ومسلم وأبو داود وصاحب الموطأ في الأقضية، والتِّرمذيُّ في الأحكام، والنَّسائيُّ في القضاة، وأحمد في مسنده (٦ـ٢٠٣، ٢٩٠، ٣٠٧، ٣٠٨)، ولفظه كما جاء في كتاب الحِيل في البخاريِّ عن أُم سلمة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّما أنا بشر، وإنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألْحن بحجَّته من بعض وأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيتُ له من حق أخيه شيئاً، فلا يأخذ، فإنَّما أقطع له قطعة من نار»، والمعنى: لعلَّ بعضكم أن يكون أذهب بحُجَّته في الجواب لِقُوَّته على تصريف الكلام.

(٢) جاء في لسان العرب مادة (لحن): «ومنه قوله ﷺ وقد بعث قوماً ليخبروه خبر قريش: الحنوا لي لَحْناً، وهو ما رُوي أنَّه بعث رجلين إلى بعض الثغور عَيْناً، فقال لهما: إذا انصرفتما فالْحَنا لي لَحْناً. أي: أَشيرا إليَّ ولا تُفصحا، وعرِّضا بما رأيتما، أمرهما بذلك لأنَّهما ربما أخبرا عن العدوِّ ببأس وقوَّة، فأحبَّ ألاَّ يقف عليه المسلمون»، أما «عَضَلٌ والقارة» فقد ذكر أيضاً في اللِّسان أن عَضَل قبيلة، وكذلك قارةٌ، قال: «وقَارَةٌ: قبيلة، وهم عَضَل والدِّيشُ ابنا الهون بن خزيمة من كنانة، سُمُّوا قارَةَ لاجتماعهم والتفافهم لما أراد ابن الشَّداخ أن يفرقهم في بني كنانة، قال شاعرهم:

دَعُـونَـا قَـارَةً لا تُنْفِـرُونَـا ... فَنُجْفِـلَ مِثْـلَ إجْفَـالِ الظَّلِيـم»

(٣) هذا جزء من بيت قاله مالك بن أسماء بن خارجة الفزاريُّ، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

وَحَـدِيـثٍ أَلَـذُّه هُـوَ مِمَّـا ... يَنْعَـتُ النَّـاعِتُـونَ يُـوزَنُ وَزْنَـا
مَنْطِـقٌ صَـائِـبٌ وَتَلْحَـنُ أَحْيَـا ... نـاً وَخَيْـرُ الْحَـدِيـثِ مَـا كَـانَ لَحْنَـا

وهو في اللِّسان، والأمالي للقالي، والبيان والتَّبيين، والصِّحاح، والتَّاج، والقرطبيُّ، ويروى: «منطق رائع»، وقد اختلف النُّقاد في معنى اللَّحن في البيت، فقال بعضهم: هو التَّعريض وإزالة الكلام عن جهته، وهذا من فطنة المرأة الَّتي يصفها، ومن هذا المعنى قول القتَّال الكلابيِّ: =

أَي ما فهمه عنك صاحبك وخفي على غيرك، فأخبر الله تعالىٰ نبيّه ﷺ أن أقوالهم المُحرَّفة الَّتي هي على خلاف عقدهم سَتَتَبيَّن له فيعرفهم بها، واحتج بهذه الآية من جعل الحدَّ في التَّعريض بالقذف، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ مخاطبة للجميع من مؤمن وكافر.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالنّون، وكذلك ﴿نَعْلَمَ﴾، وكذلك ﴿نَبْلُوَ﴾، وقرأ عاصم - في رواية أَبي بكر -: [وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ] بالياءِ، على معنى: وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ اللهُ، وكذلك [يَعْلَمَ]، وكذلك [يَبْلُوَ]، وروى رويس عن يعقوب: [وَنَبْلُو] بالرَّفع على القطع والإعلام بأَنَّ ابتلاءَه دائم، وكان الفضل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهمَّ، لاَ تَبْتَلِنا فإِنَّك إِن بلوتنا فضحتنا وهتكت أَستارنا. وقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ معناه: حتّى نعلمهم مجاهدين قد خرج جهادهم إِلى الوجود، وبَانَ تَكَسُّبُهُم الَّذي به يتعلَّق ثوابهم، وعِلْمُ الله تبارك وتعالىٰ بالمجاهدين قديم أَزليّ، وإِنَّما المعنى ما ذكرناه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَصَدُّوا﴾ يحتمل أَن يكون المعنى: وصدُّوا غيرهم، ويحتمل أَن يكون غير مُتَعَدٍّ بمعنى؟ وصدُّوا هم في أَنفسهم، وقوله تعالىٰ: ﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ معناه: خالفوه فكانوا في شقٍّ وهو ﷺ في شقٍّ، وقوله تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾، قالت فرقة: نزلت في قوم من بني إِسرائيل فعلوا هذه الأَفاعيل بعد تَبَيُّنهم لأَمر

= وَلَقَدْ لَحَنْتُ لَكُمْ لِكَيْلا تَفْهَمُوا ... وَلَحَنْتُ لَحناً لَيْسَ بالمُرْتَابِ

وقيل: بل المعنى أنّها تصيب مّرة وتخطىء أُخرى في الإعراب، وذلك أنَّ اللَّحن بهذا المعنى يُسْتَملح من الجَواريّ إذا كان خفيفاً، وقيل: بل المعنى أنّها تتغنَّى أحياناً بالكلام، فمن معاني اللحن الغناءُ وترجيع الصَّوت والتَّطريب، وشاهده قول يزيد بن النعمان:

لَقَدْ تَرَكَتْ فُؤَادَكَ مُسْتَجَنّاً ... مُطَوَّقَةٌ عَلَى فَنَنٍ تَغَنَّى
يَمِيلُ بها وَتَرْكَبُهُ بلَحْنٍ ... إذا مَا عَنَّ لِلْمَحْزُونِ أَنَّا
فَلا يَحْزُنْكَ أَيَّامٌ تَوَلَّى ... تَذَكُّرُهَا وَلا طَيْرٌ أَرَنَّا

وقال آخر:

وهاتِفَيْنِ بِشَجْوٍ بعدمَا سَجَعَتْ ... وُرْقُ الْحَمَامِ بترجيعٍ وإِرْنَانِ
باتَا على غُصْنِ بانٍ في ذُرَى فَنَنٍ ... يُرَدِّدانِ لُحُوناً ذاتَ أَلْوَانِ

وقيل غير ذلك من المعاني مما لا مجال له هنا.

محمد ﷺ من التَّوراة، وقالت فرقة: نزلت في قوم من المنافقين حَدَثَ النِّفاق في نفوسهم بعد ما كان الإيمان دَاخلَهَا، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: نزلت في المطعمين في سفرة بدر، و«تَبَيَّنَ ٱلْهُدَى» هو وجودُه عند الدّاعي إليه، وقالت فرقة: بل هي عامَّة في كلِّ كافر، وألزمهم أنَّهم قد تبَيَّن لهم الهدى من حيث كان الهدى بيِّناً في نفسه، وهذا كما تقول لإنسان يخالفك في الاحتجاج على معنى التَّوبيخ له: أنت مخالف في شيءٍ واضح لا خَفَاءَ به عليك، بمعنى أنَّه هو هكذا في نفسه. وقوله تعالىٰ: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ تحقيراً لهم، وقوله سبحانه: ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أمَّا على قول من يرى أنَّ أعمالهم الصَّالحة مِن صِلة رحم ونحوه ـ تُكْتَبُ، فيجيءُ هذا الإحباط فيها متمكِّناً، وأمَّا على قول من لا يرى ذلك فمعنى ﴿سَيُحْبِطُ﴾ أنَّها عبارة عن إعدام أعمالهم وإفسادها وأنَّها لا توجد شيئاً مُنْتَفَعاً به، فذلك إحباط على تشبيه واستعارة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾.

رُوي أَنَّ هذه الآية نزلت في بني أَسد من العرب؛ وذلك أَنَّهم أَسلموا وقالوا لرسول الله ﷺ: نحن قد آثرناك على كلِّ شيءٍ وجئناك بنفوسنا وأَهلينا، كأَنَّهم منُّوا بذلك، فنزَّل فيهم ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ﴾ الآية[1]، ونزلت فيهم هذه الآية، فإن كان هذا فالإِبْطَال الَّذي نُهوا عنه ليس بمعنى الإفساد التَّام؛ لأَنَّ الإفساد التَّام لا يكون إلاَّ بالكفر، وإلاَّ فالحسناتُ لا تُبطلها المعاصي، وإن كانت الآية عامَّة عَلَى ظاهرها نَهْي النّاس عن إِبْطال أَعمالهم، فَالإبطالُ هو الإفسادُ التَّام.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، رُوي أَنها نزلت بسبب أَنَّ عَدِيَّ بن حاتم قال: يا رسول الله، إن حاتماً كانت له أَفعال برٍّ، فما حاله؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو في النَّار»، فبكى عَدِيٌّ رضي الله عنه وَوَلَّى، فدعاه رسول الله ﷺ فقال له: «أَبي وأَبوك وأَبو إبراهيم خليل الرّحمنٰ في النّار»، ونزلت هذه

(١) من الآية (١٧) من سورة (الحجرات). وقد أخرج النّسائيُّ، والبزار، وابن مردويه هذا عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.

الآية في ذلك[١]، وظاهر الآية العموم في كلٍّ ما تناولته الصِّفة. وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ معناه: فلا تضعفوا، وهو من «وَهَنَ الرَّجلُ» إذا ضعف، وقرأ جمهور النّاس: ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾، وقرأ أبو عبد الرَّحمنِ السَّلميُّ: [وتدَّعوا إلى السّلم] بالتَّشديد في الدَّال[٢]، وقرأ جمهور القراءِ: [ٱلسَّلْمِ] بفتح السّين، وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم: [ٱلسِّلْمِ] بكسر السّين، وهي قراءَة الحسن، وأبو رجاءٍ، والأعمش، وعيسى، وطلحة، وهو بمعنى المسالمة، وقال الحسن بن أَبي الحسن وفرقة ممَّن قرأ بكسر السّين: إنَّه بمعنى الإسلام، أَي: فلا تهنوا وتكونوا داعين إلى الإسلام فقط غير مقاتلين بسببه، وقال قتادة: معنى الآية: لا تكونوا أَوَّل الطائفتين ضرعت للأُخرى، وهذا حسنٌ مُلْتَئِمٌ مع قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ يحتمل معنيَيْن: أَحدهما أَن يكون في موضع الحال، والمعنى: لا تَهِنُوا وأَنتم بهذه الحال، والمعنى الثّاني أَن يكون إخباراً مقطوعاً، أَخبرهم فيه بمغيَّب أَبرزه الوجود بعد ذلك، و[ٱلْأَعْلَوْنَ] معناه: الغالبون والظّاهرون، من العُلُوِّ. وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ معناه: بنصره ومعونته. و[يَتِرَ] معناه: يُنقص ويذهب، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «من ترك صلاة العصر فكأَنَّما وُتِر أَهله وماله»[٤]، أَي ذُهب بجميع ذلك عنه على جهة التَّغلب والقهر، والمعنى: لن يَتِرَكم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، ذكر ذلك المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النَّبويِّ، وفي حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن عديِّ بن حاتم أنَّه قال: قلت: يا رسول الله، إنَّ أبي كان يصل الرَّحم ويفعل كذا وكذا، قال: إنَّ أباك أراد أمراً فأدركه، يعني الذِّكر. (المسند ٤ـ٢٥٨).

(٢) قال ابن جنِّيٍّ: معنى [تدَّعُوا] هنا بالتَّشديد: تَنْسُبُوا إلى السَّلْم، كقولك: فلانٌ يَدَّعي إلى بني فلان، أو ينتسب إليهم، ويَحْمِلُ نفسه عليهم.

(٣) ذكر الإمام الشّوكانيُّ في «فتح القدير» أنَّ أهل العلم اختلفوا في هذه الآية، هل هي محكمة أو منسوخة؟ فقيل: إنَّها محكمة، وإنَّها ناسخة لقوله تعالىٰ: ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾، وقيل: إنَّها منسوخة بهذه الآية، ولا يخفاك أنَّه لا مقتضى للنَّسخ؛ فإنَّ الله تعالىٰ نهى المسلمين في هذه الآية عن أن يدعوا إلى السَّلم ابتداءً، ولم ينه عن قبول السَّلم، إذا جنح إليه المشركون، فالآيتان محكمتان ولم يتواردا على محلٍّ واحد حتّى يحتاج إلى دعوى النَّسخ أو التخصيص ـ وهذا هو الّذي يشير إليه ابن عطيَّة بقوله: «وهذا حَسَنٌ مُلْتَئِمٌ مع قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟﴾ الآية.

هذا وآية ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ هي الآية (٦١) من سورة (الأنفال).

(٤) أخرجه البخاريُّ في المواقيت والمناقب، ومسلم في المساجد والفتن، وأبو داود في الصَّلاة، والتِّرمذيُّ في المواقيت، والنَّسائيُّ في الصَّلاة والمواقيت، وابن ماجه والدارميُّ في الصَّلاة، والموطأ في =

ثواب أَعمالكم أَو جزاءها، واللَّفظة مأْخوذة من الوِتْر الَّذي هو الذَّحْل(١)، وذهب قوم إِلى أَنَّها من الوَتر الَّذي هو الفرْدُ(٢)، والمعنى: لن يُفردكم من ثواب أَعمالكم، والأَوَّل أَصحُّ، وفسَّرها ابن عبّاس رضي الله عنهما وأَصحابه: يَظْلِمَكُمْ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ تحقير لأَمر الدُّنيا، أَي: فلا تهنوا في الجهاد بسببها، وَوَصْفُها باللَّعب واللهو هو على أَنَّها وما فيها مما يختصُّ بها لعبٌ ولهوٌ، وإِلاَّ ففي الدُّنيا ما ليس لعباً ولا لهواً وهو الطاعة وأَمر الآخرة وما جرى مجراه، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ معناه: هذا هو المطلوب منكم لا غيره، لا تُسأَلون أَموالكم أَن تنفقوها في سبيل الله، وقال سفيان بن عُيَيْنَة: المعنى: لا يسأَلكم كثيراً من أَموالكم إِحفاءَ، إِنَّما يسأَلكم غَيْضاً من فيض، ربع العشر، فطيِّبوا أَنفسكم، ثمَّ قال تعالىٰ مُنبِّهاً على خُلُق ابن آدم: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟﴾، والإِحفاءُ هو أَشدَّ السُّؤال، وهو المُخْجِل الَّذي يستخرج ما عند المسؤول كرهاً، ومنه حَفَاءُ الرِّجْل والتَّحَفِّي من البحث عن الشَّيءِ، وقوله تعالىٰ: [تَبْخَلُوا] جزم على جواب الشَّرط، وقرأَ جمهور القراءِ: [وَيُخْرِجْ] جزماً عطفاً على [تَبْخَلُوا]، وقرأَ عبد الوارث عن أَبي عمرو:

= الوقوت، وأحمد في مسنده في أكثر من موضع، ولفظه كما جاء في البخاريِّ عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الَّذي تفوته صلاةُ العصر كأنَّما وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَه»، قال أبو عبد الله: ﴿يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ وَتَرْتُ الرَّجُلَ إذا قَتَلْتَ لهُ قتيلاً أو أخذتَ له مالاً. اهـ. استشهد صاحب اللِّسان بهذا الحديث ثمَّ قال: يُرْوى بنصب الأهل ورفعه، فمن نصب جعله مفعولاً ثانياً لِـ (وُتِرَ) وأضمر فيها مفعولاً لم يُسَمَّ فاعله عائداً إلى الَّذي فاتته الصَّلاة، ومن رفع لم يضمر وأقام الأهل مقام ما لم يُسَمَّ فاعله لأنَّهم المصابون المأخوذون، فمن ردَّ النَّقص إلى الرَّجل نصبهما، ومن ردَّه إلى الأهل والمال رفعهما. اهـ. والوَتْر بفتح الواو وبكسرها وهما لغتان.

(١) الذَّحْل: الثَّأرُ.

(٢) الفرد يعني ضدَّ الشَّفع، أي الزَّوْج.

[وَيُخْرِجُ] بالرفع على القطع بمعنى: وهو يُخْرِجُ، وحكاها أَبو حاتم عن عيسى، وقرأَت فرقة: [وَيُخْرِجَ] بالنَّصب على معنى: يكن بُخْلٌ وإِخراجٌ، فلمَّا جاءَت العبارة بفعل دلَّ على أَنَّ «أَنْ» الَّتي مع الفعل بتأويل المصدر الَّذي هو الإِخراج، والفاعل في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُخْرِجْ﴾ على كلِّ الاختلافات المذكورة يحتمل أَن يكون الله تعالىٰ، ويحتمل أَن يكون البخل الذي يتضمَّنه اللَّفظ، ويحتمل أَن يكون السُّؤال الَّذي يتضمَّنه اللَّفظ أَيضاً، وقرأَ ابن عبّاس، ومجاهد، وابن سيرين، وابن محيصن، وأَيُّوب: [وَيَخْرُج] بفتح الياءِ [أَضْغَانُكُمْ] رفعاً على أَنَّها فاعلة، ورُوي عنهم [وَتُخْرَجْ] بضمِّ التَّاءِ وفتح الرّاءِ على ما لم يُسَمَّ فاعله، وقرأَ يعقوب: [وَنُخْرِج] بضمِّ النّون وكسر الرّاءِ [أَضْغَانَكُمْ] نصباً. و«الأَضغان» كما قلنا: معتقدات السّوءِ، وهذا الَّذي كان يُخاف أَن يعتري المسلمين هو الَّذي تقرب به محمد بن مَسْلمة إِلى كعب بن الأَشرف حين قال له: إِنَّ هذا الرَّجل قد أَكثر علينا وطلب منّا الأَموال.

ثمَّ وقف تعالىٰ عباده المؤمنين على جهة التَّوبيخ لبعضهم: ﴿ها أنتم هؤلاء﴾، وكرَّر هاءَ التَّنبيه تذكيراً. وقوله تعالىٰ: ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ يحتمل معنيَيْن: أَحدهما: فإِنَّما يبخل عن شُحِّ نفسه، والآخر أَن تكون بمنزلة «عَلَى» لأَنَّك تقول: بخلتُ عليك بكذا وبخلتُ عنك بمعنى أَمسَكْتُ عنك. وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ معنى مطَّردٌ في قليل الأَشياءِ وكثيرها.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ قيل: الخطاب لقريش، والقومُ الْغَيْرُ هم أَهل المدينة، وقال عبد الرحمن بن جبير وشريح بن عبيد[١]: الخِطَاب لمن حضر المدينة، والقوم الغَيْر هم أَهل اليمن، وقالت فرقة: الخطابُ لجميع المسلمين والمشركين والعرب حينئذ، والقوم الغير فارس. وروى أَبو هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبيَّ ﷺ سئل عن هذا وكان سلمان إِلى جنبه، فوضع يده على فخذه وقال: «قوم هذا، لو كان الدِّين في الثُّرَيَّا لناله رجال من أَهل فارس»[٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾

(١) أمَّا عبد الرَّحمٰن بن جُبير ـ بجيم موحدة، مصغَّراً ـ فهو ابن نفير ـ بالتَّصغير أيضاً ـ الحضرميُّ الحمصيُّ، قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلانيُّ: «ثقة، من الرَّابعة، مات سنة ثمان عشرة».
وأمَّا شريح. فهو شُرَيح بن عبيد بن شريح، الحضرميُّ الحمصيُّ، ثقة، من الثَّالثة، وكان يرسل كثيراً، مات بعد المائة. (تقريب التَّهذيب).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أبي هريرة=

معناه: في الخلاف والتَّولي والبخل بالأَموال ونحو هذا، وحكى الثَّعلبيُّ قولاً أَن القَوْم الغَيْر[1] هُمُ الملائكة عليهم السَّلام.

كمل تفسير سورة محمد والحمد لله ربّ العالمين

* * *

= رضي الله عنه، وذكره السُّيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور بلفظ: «هُمُ الفُرسُ، هذا وقومه». واللَّفظ في تفسير ابن جرير: (هَذَا وقومه).

(١) جاء في الصَّبَّان عند الكلام على ما يُسَمِّيه بعض النُّحاة: «الإضافة شبه المحضة» وما كان منها شديد الإبهام لا يقبل التَّعريف كغير ومثل وشبه ما نصُّه: «هذه الكلمات كما لا تتعرَّف بالإضافة إلاَّ فيما استُثني لا تتعرَّف بـ (ألْ) أيضاً؛ لأنَّ المانع من تعريفها بالإضافة مانع من تعريفها بـ (أل). ونقل الشّنواني عن السَّيِّد أنَّه صرَّح في حواشي الكشاف بأن (غَيْراً) لا تدخل عليها (ألْ) إلاَّ في كلام المولدين. وجاء في المصباح المنير: «يكون وصفاً للنَّكرة، تقول: جاءني رجل غيرك، وقوله تعالىٰ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ إنَّما وصف بها المعرفة لأنَّها أشبهت المعرفة بإضافتها إلى المعرفة، فعوملت معاملتها، ومن هنا اجترأ بعضهم، فأدخل عليها (أل)... ولك أن تمنع الاستدلال وتقول: إنَّ الإضافة هنا ليست للتَّعريف بل للتَّخصيص». وقال البغداديُّ: «لا تدخل الألف واللاَّم على (غير) لأنَّ المقصود من إدخال (أل) على النَّكرة تخصيصها بشيءٍ معيَّن، فإذا قيل: (الغير) اشتملت هذه اللَّفظة على ما لا يحصى ولم تتعرف بـ (أل) كما أنَّها لا تتعرَّف بالإضافة، فلم يكن لإدخال (أل) عليها فائدة».

وارتضى مؤتمر المجمع اللُّغوي المنعقد بالقاهرة في دورته الخامسة والثلاثين في فبراير ١٩٦٩ الرَّأي الَّذي يقول: «إنَّ كلمة (غير) الواقعة بين متضادين تكتسب التعريف من المضاف إليه المعرفة، ويصحُّ في هذه الصُّورة الَّتي تقع فيها بين متضادين وليست مضافة أن تقترن بـ (أل) فتستفيد التَّعريف».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سُورَة الفَتح

هذه السُّورة نزلت على رسول الله ﷺ مُنْصَرَفَه من الحديبيّة، وفي ذلك أَحاديث كثيرة عن أَنس وابن مسعود(١) وغيرهما تقتضي صحَّته، وهي بهذا في حكم المدنيِّ، وقال الزُّهريُّ عن مجاهد عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: إِنَّها نزلت بالمدينة، والأَوَّل أَصحُّ، ويشبه أَنَّ منها بعضاً نزل بالمدينة، وأَمَّا صدر السُّورة ومعظمها فكما قلنا، ويقضي بذلك قول النَّبيِّ ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهما في تلك السَّفرة: «لقد أُنزلت عليَّ سورة هي أَحبُّ إِليَّ من الدُّنيا بما فيها»(٢)، ذكر مكِّيٌّ هنا أَنَّ المعنى: بشرط أَن تبقى الدُّنيا ولا تفنى، وفي هذا نظر، وكان رسول الله ﷺ خرج في تلك الوجهة ليعتمر بمكَّة فصدَّه المشركون ـ والقصَّة مشهورة ـ سنة ستٍّ من الهجرة.

---

(١) من ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه عن قتادة أنَّ أنس بن مالك حدَّثهم قال: لمَّا نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ مَرْجِعَهُ من الحديبيَّة وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديبيَّة، فقال: «لقد أُنزلت عليَّ آيَة هي أحبُّ إليَّ من الدُّنيا جميعاً». وما أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاريُّ في تاريخه، وأبو داود، والنَّسائيُّ، وابن جرير، والطَّبرانيُّ، وابن مردويه، والبَيهقيُّ في الدَّلائل، عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: أقبلنا من الحديبيَّة مع رسول الله ﷺ، فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحي، وكان إذا أتاه اشتدَّ عليه، فسُرِّي عنه وبه من السُّرور ما شاء الله، فأخبرنا أنَّه أُنزل عليه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

(٢) حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخرجه البخاريُّ ومسلم في صحيحيهما، وأخرجه أحمد في مسنده، والتِّرمذيُّ وقال: حديث حسن غريب صحيح، والنَّسائيُّ، وابن حبان، وابن مردويه، ولفظه كما جاء في البخاريِّ: عن زيد بن أسلم عن أبيه أنَّ رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء، فلم يُجبه رسول الله ﷺ، ثمَّ سأله فلم يُجبه، ثمّ سأله فلم يُجبه، فقال عمر بن الخطاب: ثَكِلَت أُمُّ عمر، نَزَرْتَ رسول الله ﷺ ثلاث مرّات، كلُّ ذلك لا يُجيبك، قال عمر: فحركتُ بعيري ثمَّ تقدَّمت أمام النَّاس وخشيت أن يُنْزَل فيَّ القرآن، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن. فجئت رسول الله ﷺ فسلَّمت عليه، فقال: لقد أُنزلت عليَّ اللَّيلة سورة لهي أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشَّمس، ثمَّ قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾.

قال قوم ـ فيما حكى الزَّهراويُّ ـ: ﴿فَتَحْنَا لَكَ﴾ يريد به فتح مكَّة، وحكاه الثَّعلبيُّ أيضاً، ونسبه النَّقّاش إلى الكلبيِّ، وأخبره تعالىٰ به على معنى: قضينا به، و«الفتَّاحُ»: القاضي بلغة اليمن، وقيل: المراد إنَّا فتحنا لك بأن هديناك إلى الإسلام ليغفر، وقال جمهور النّاس ـ وهو الصَّحيح الَّذي تعضده قصَّة الحديبيَّة ـ: إنَّ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ إنَّما معناه: إنَّ ما يسَّر الله تعالىٰ لك في تلك الخرجة فتحٌ مبين تستقبله، ونزلت السُّورة مؤنسة للمؤمنين لأنَّهم كانوا استوحشوا من ردِّ قريش لهم، ومن تلك المهادنة الَّتي هادَنَهم النَّبيُّ ﷺ، فنزلت السُّورة مؤنسة لهم في صدِّهم عن البيت، ومُذهبةً ما كان في قلوبهم، ومنه حديث عمر رضي الله عنه الشَّهير، وما قال للنَّبيِّ ﷺ ولأبي بكر رضي الله عنه، واستقبل رسولُ الله ﷺ في تلك السَّفرة أنَّه هادن عَدُوَّه ريثما يتقوّى هو، وظهرت على يديه آية الماءِ في بئر الحديبيَّة، حيث وضع فيه سهمه وثاب الماءُ حتّى كفى الجيش، واتفقت بيعة الرِّضوان، وهي الفتح الأَعظم، قاله جابر بن عبد الله، والبراءُ بن عازب، وبلغ هديهُ محِلَّه، قاله الشَّعبيُّ، واستقبل فتح خيبر، وامتلأَت أَيدي المؤمنين خيراً، ولم يفتتحها إلاَّ أَهل الحديبيَّة، لم يشركهم فيها أَحد، وفيه نظر؛ لأَنَّ أَصحاب السَّفينة مع جعفر بن أَبي طالب رضي الله عنه شاركوهم في القسم، فينبغي أَن يقال: لم يشركهم أَحد من المتخلِّفين عن الحديبيَّة، واتفقت في ذلك الوقت ملحمة عظيمة بين الروم وفارس ظهرت فيها الرّوم فكانت من جملة الفتح على رسول الله ﷺ، وسُرَّ بها هو والمسلمون لظهور أَهل الكتاب على المجوس وانْخِضاد الشَّوكة العظمى من الكفر.

ثمَّ عظَّم الله تعالىٰ أَمرَ نبيِّه ﷺ وشرَّفه بأَن أَنبأَه بأَنَّه قد غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأَخَّر، فقوله تعالىٰ: [لِيَغْفِرَ] هي لام «كي»، لكنَّها تخالفها في المعنى، والمراد هنا أَنَّ الله تعالىٰ فتح لك لكي يجعل لك ذلك أَمارة وعلامة لغفرانه لك، فكأَنَّها لام صيرورة، ولهذا قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «لقد أُنزلت عليَّ اللَّيلة سورة هي أَحبُّ إِليَّ

من الدُّنيا»[١]، وقال الطَّبريُّ وابن كيسان: المعنى: إنَّا فتحنا لك فسبِّح بحمد ربِّك واستغفره ليغفر لك الله، وبنيا هذه الآية مع قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾[٢] السُّورة، وهذا ضعيف من وجهين: أحدهما أنَّ السُّورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ إنَّما نزلت في آخر مدَّة النَّبيِّ ﷺ ناعيةً له نفسه حسب ما قال ابن عبّاس رضي الله عنهما، عندما سأل عمر رضي الله عنه عن ذلك، والآخر أن تخصيص النَّبيِّ ﷺ بالتَّشريف كان يذهب، لأنَّ كلَّ واحد من المؤمنين مخاطب بهذا الَّذي قال الطَّبريُّ، أي سبِّح واستغفر لكي يغفر الله لك، ولا يقتضي هذا أنَّ الغفران قد وقع، وما قدَّمناه أوَّلاً يقتضي وقوع الغفران للنَّبيِّ ﷺ، ويدلُّ على ذلك قول الصَّحابة رضي الله عنهم له ﷺ حين قام حتّى تورّمت قدماه: أتفعل هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»؟[٣] فهذا نصٌّ في أنَّ الغفران حكم قد وقع، وقال مُنْذر بن سعيد: المعنى: مجاهدتك في الله تعالىٰ المقترنة بالفتح هي ليغفر، وحكى الثَّعلبيُّ عن الحسين بن الفضل أنَّ المعنى: إنَّا فتحنا لك فاستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ليغفر لك الله... الآية، وهذا نحو قول الطَّبريِّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال سفيان الثَّوريُّ: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ يريد به

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه في صفحة (٦٦٤)، وقد أخرج البخاريُّ، وابن جرير، وابن مردويه، عن البراء رضي الله عنه، قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكَّة، وقد كان فتح مكَّة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرِّضوان يوم الحديبيَة... الحديث. كذلك أخرج البخاريُّ ومسلم وغيرهما عن أنس رضي الله تعالىٰ عنه قال: أُنزلت على النَّبيِّ ﷺ ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ الآية، فقال لقد أُنزلت عليَّ آية هي أحبُّ إليَّ مما على الأرض... الحديث.

(٢) الآية (١) من سورة (النَّصر).

(٣) أخرجه ابن المنذر، وابن مردويه، وابن عساكر، عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها، قالت: لمَّا أُنزل على رسول الله ﷺ ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ الآية... اجتهد في العبادة، فقيل: يا رسول الله ما هذا الاجتهاد، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟ وأخرج مثله ابن مردويه، والبيهقيُّ في الأسماء والصِّفات، وابن عساكر، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرج مثله ابن أبي شيبة وأحمد في الزُّهد عن الحسن رضي الله عنه، وكذلك أخرج مثله أبو يَعْلَى، وابن عساكر، عن أنس رضي الله عنه، وفي البخاريِّ عن عائشة رضي الله عنها أنَّ نبيَّ الله ﷺ كان يقوم من اللَّيل حتَّى تَتَفطَّر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال: أفلا أُحبُّ أن أكون عبداً شكوراً؟ وأخرجه مسلم في الصَّحيح من رواية عبد الله بن وهب.

قبلَ النُّبوَّة و﴿مَا تَأَخَّرَ﴾ كلُّ شيءٍ لم يعمله، وهذا ضعيف، وإنَّما المعنى التَّشريف بهذا الحكم ولو لم تكن له ذنوب البتَّة، وأجمع العلماءُ على عصمة الأنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام من الكبائر ومن الصغائر الَّتي فيها رذائل، [وجوَّز بعضهم الصَّغائر الَّتي ليست برذائل](١)، واختلفوا هل وقع ذلك من محمد ﷺ أو لم يقع؟ وحكى الثَّعلبيُّ عن عطاءٍ الخراسانيِّ أنَّه قال: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ هو ذنب آدم وحوَّاءَ عليهما السَّلام، أي ببركتك، و﴿ما تأخر﴾ هي ذنوب أُمَّتك، بدعائك، قال الثَّعلبيُّ: الإماميَّة لا تجوِّز الصَّغائر على النَّبيِّ ﷺ ولا على الإمام، والآية تردُّ عليهم، وقال بعضهم: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ هو قوله عليه الصَّلاة والسَّلام يوم بدر: «اللهمَّ، إن تَهْلِكْ هذه العصابة لم تُعبد»، و﴿ما تأخر﴾ هو قوله عليه الصَّلاة والسَّلام يوم حنين: «لن نُغْلَبَ اليوم من قِلَّة». وهذا كلُّه مُعْتَرض.

و«إتمامُ النِّعمة عليه» هو إظهارُه وتغليبُه على عدوِّه والرِّضوانُ في الآخرة، وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ معناه: إلى صِراطٍ مستقيم، فحذف الْجَارُّ فتعدى الفعل، وقد يتعدى هذا بغير حرف جرٍّ. و«النَّصر العزيز» هو الَّذي معه غلبة العدوِّ والظُّهورُ عليه، والنَّصر غير العزيز هو الَّذي مُضَمَّنُه الحماية ودفع العدوِّ فقط. و«إِنْزَالُ السَّكِينَةِ في قلوب المؤمنين» ـ وهي فعيلة من السُّكون ـ هو تسكينُها لتلك الهدنة مع قريش حتَّى اطمأَنت وعلموا أَنَّ وعد الله تعالىٰ على لسان رسوله ﷺ حقٌّ، فازدادوا بذلك إِيماناً إِلى إِيمانهم الأَوَّل وكثر تصديقهم، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: لمَّا آمنوا بالتَّوحيد زادهم العبادات شيئاً شيئاً، فكانوا يزيدون إيماناً حتَّى قال تعالىٰ لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾(٢) فمنحهم أكمل إيمان لأَهل السموات والأَرض، لا إِلـٰهَ إلاَّ الله، وفسَّر ابن عباس رضي الله عنهما السَّكينة بالرَّحمة. وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى تسكين النُّفوس أيضاً، وأَن تكون مسلمة، لأَنَّه ينصر متى شاءَ وعلى أَي صورة شاءَ، مما لا يُدَبِّره البشر، ومن جنده السَّكينة التي أَنزلها في قلوب أَصحاب محمد ﷺ فثبتت بصائرهم، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ أي: ويكون: فهي دالَّة على الوجود بهذه الصِّفة لا مُعَيَّنة وقتاً ماضياً، و«العلم» و«الإحكام» صفتان مقتضيتان عزَّة النَّصر لمن أَراد الموصوف بهما نَصْرَه.

(١) سقطت هذه العبارة الَّتي بين العلامتين [. . . .] من بعض النُّسخ.
(٢) من الآية (٣) من سورة (المائدة).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ معناه: فازدادوا وتَلَقَّوْا ذلك، فتمكن ـ بعد ذلك ـ قوله تعالىٰ: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي بتكسُّبهم القبول لما أَنزل الله تعالىٰ عليهم، ويروى في معنى هذه الآية أَنَّه لمَّا أُنزلت ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾[1] تكلَّم فيها أَهل الكتاب، وقالوا: كيف نتَّبع من لا يعرف ما يُفعل به وبالنَّاس معه، فبيَّن الله تعالىٰ في هذه السُّورة ما يفعل به بقوله تعالىٰ: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾، فلمَّا سمعها المؤمنون قالوا: هنيئاً مريئاً، هذا لك يا رسول الله فما لنا؟ فنزلت هذه الآية ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ ﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[2]، فعرَّفه الله تعالىٰ ما يفعل به وبالمؤمنين والكافرين، وذكر النَّقَّاش أَنَّ رجلاً من عَكٍّ[3] قال: هذا لك يا رسول الله فما لنا؟ فقال النَّبيُّ ﷺ: هي لي ولأُمَّتي كهاتين، وجمع بين إِصبعيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ فيه ترتيب الجمل في السَّرْد لا ترتيب وقوع معانيها؛ لأَنَّ تكفير السَّيِّئات قبل إِدخالهم الجنَّة.

---

(١) من الآية (٩) من سورة (الأحقاف).

(٢) أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾، يقول: لستُ بأوَّل الرُّسل، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم، فأنزل الله بعد هذا ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾، وقوله: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ ﴾ الآية، فأعلم الله سبحانه نبيَّه ما يفعل به وبالمؤمنين جميعاً.

وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاريُّ، ومسلم، والتِّرمذيُّ، وابن جرير، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة، عن أنس رضي الله عنه، قال: أُنزلت على النَّبيِّ ﷺ: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ مَرْجِعَهُ من الحُدَيْبِيَة، فقال: لقد أُنزلت عليَّ آية هي أَحبُّ إِليَّ ممَّا على الأرض، ثمَّ قرأها عليهم، فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسول الله، قد بيَّن الله لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ حتَّى بلغ ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

(٣) اسم قبيلة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ قيل معناه: من قولهم: ﴿لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ﴾ الآية[1]، فكأَنهم ظنُّوا بالله تعالىٰ ظنَّ سَوْءٍ في جهة الرَّسول ﷺ والمؤمنين، وقيل: ظنُّوا بالله تعالىٰ ظنَّ سَوْءٍ إِذْ هُمْ يعتقدونه بغير صفاته، فهي ظنون سَوْءٍ من حيث هي كاذبة مؤدِّية إلى عذابهم في نار جهنَّم. وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ كأَنَّه يُقَوِّي التَّأويل الآخر، أَي: أَصابهم ما أَرادوا بكم. وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ كالأَوَّل، ورجَّحها الفراءُ وقال: قلَّما تضمُّ العرب السِّين، قال أَبو عليٍّ: هما متقاربان والفتح أَشدّ مطابقة في اللَّفظ، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [ظنّ السَّوء] بفتح السين، و[عليهم دائرة السّوء] بضمِّ السّين؛ وهو اسمٌ، أَي: دائرة السُّوءِ الذي أَرادوه بكم في ظنِّهم السُّوءَ، وقرأَ الحسن بضمّ السّين في الموضعين، وروي ذلك عن أَبي عمرو ومجاهد، وسمَّى تعالىٰ المصيبة الَّتي دعا بها عليهم دائرة من حيث يقال في الزَّمان: إِنَّه يستدير، أَلا ترى أَنَّ السَّنة والشَّهر كأَنَّها مستديرات تذهب على ترتيب وتجيءُ من حيث هي تقديرات للحركة العظمى، ومنه قول النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّ الزَّمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السَّموات والأرض»[2]، فيقال للأَقدار والحوادث الَّتي هي في طيِّ الزَّمان: دائرة لأَنَّها تدور بدوران الزَّمان، كأَنَّك تقول: إِنَّ أَمر كذا يكون في يوم كذا من سنة كذا، فمن حيث يدور ذلك اليوم حتَّى يبرز إِلى الوجود تدور هي أَيضاً فيه،

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (١٢) من هذه السورة: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا﴾.

(٢) أخرجه البخاريّ في تفسير سورة التَّوبة، وفي بدء الخلق والمغازي والأضاحي والتّوحيد، وأخرجه مسلم في القسامة، وأبو داود في المناسك، والإمام أحمد في مسنده (٥ـ٣٧، ٧٣)، ولفظه كما في مسند أحمد عن أبي بكرة أنَّ النَّبيَّ ﷺ خطب في حجَّته فقال: «ألا إنَّ الزَّمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السَّموات والأرض، السَّنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حُرُم، ثلاثٌ متواليات: ذو القعدة وذو الحجَّة والمحرَّم ورجب مضر الَّذي بين جمادى وشعبان، ثمَّ قال: ألا أيُّ يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتّى ظننّا أنّه سيسمّيه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى، ثمَّ قال: أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتّى ظننّا أنّه سيسمِّيه بغير اسمه، فقال: أليس ذا الحجة؟ قلنّا: بلى، ثمّ قال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتّى ظننّا أنّه سَيُسَمِّيه بغير اسمه، قال: أليست البَلْدة؟ قلنّا: بلى، قال: فإنَّ دماءكم وأموالكم ـ قال: وأحسبه قال وأعراضكم ـ عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، وستلقون ربّكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا لا ترجعوا بعدي ضُلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلَّغتُ؟ ألا لِيُبَلِّغ الشَّاهدُ منكم الغائب، فلعلَّ من يُبَلِّغه يكون أوعى له من بعض من يسمعه» قال محمد: وقد كان ذاك، قال: قد كان بعض من بُلِّغه أوعى من بعض سامعيه.

ومن هذا قول الشَّاعر:

* وَدَائِرَاتِ الدَّهْرِ أَن تَدُورَا *[(١)]

ومنه قول الآخر:

. . . . وَيَعْلَمُ أَنَّ النَّائِبَاتِ تَدُورُ[(٢)]

وهذا كثير، ويحسن أَن تسمى المصيبة دائرة من حيث كمالُها أَن تحيط بصاحبها كما يحيط شكل الدَّائرة على السَّواءِ من النقطة، وقد أَشار النَّقَّاش إِلى هذا المعنى.

و«غضب الله تعالىٰ» متى ما قصد به الإِرادة فهو صفة ذات، ومتى ما قصد به ما يظهر من الأَفعال على المغضوب عليه فهو صفة فعل. و﴿لَعَنَهُمْ﴾: أَبعدهم، وقال تعالىٰ في هذه: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فذكر صفة العزَّة من حيث تقدَّم الانتقام من الكفّار، وفي الَّتي قَبْلُ قَرَنَ بالحكمة العلمَ من حيث وعد بمغيَّبات، وقرن باللَّفظتين ذكْر جنود الله تعالىٰ الَّتي منها السَّكينة ومنها نقمته من المنافقين والمشركين، فلكلٍّ لفظ وجهه من المعنى، وقال ابن المبارك في كتاب النَّقَّاش: جنود الله في السَّماءِ الملائكة، وفي الأَرض الغُزاة في سبيل الله تعالىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا بعض من كلٍّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

---

(١) هذا البيت من الرجز، وقبله يقول الراجز:

تَـردُّ عَنْـكَ القَـدَرَ المَقْـدُورا

والدَّائرات: جمع دائرة، وهي ما أحاط بالشَّيءِ من كلِّ ناحية، ودائرات الدَّهر هي حوادثه الَّتي يخفيها الزَّمان، تدور بدوران الزَّمان، فمرَّة تصيب هذا، ومرَّة تصيب ذاك، ولم أقف على اسم القائل.

(٢) النَّائبات: جمع نائبة، وهي المصيبة الَّتي تصيب الإنسان، أو الكارثة الَّتي تنزل به، ومعنى هذا الشَّطر من الشِّعر أنَّ مصائب الدَّهر تدور على النَّاس ولا تترك أحداً، فهي مرَّة تصيب واحداً ومرة ثانية تصيب غيره، وهكذا. ولم أقف على بقية البيت ولا قائله.

من جعل الشَّاهد محصِّل الشَّهادة من يوم يحصلها، فقوله تعالىٰ: [شَاهِداً] حالٌ واقعة، ومن جعل الشّاهد مُؤدِّي الشّهادة فهي حال مستقبلة، وهي الَّتي يسميِّها النُّحاة: المُقدَّرَة، والمعنى: شاهداً على النّاس بأَعمالهم وأَقوالهم حين بلَّغْتَ إِليهم الشَّرع، ومبشِّراً أَهل الطَّاعة برحمة الله تعالىٰ، ونذيراً لأَهل الكفر ينذرهم من عذاب الله عزَّ وجلَّ.

وقرأ جمهور النّاس في كلِّ الأَمصار: ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ بالتّاءِ على مخاطبة النّاس، على معنى: قُلْ لهم، وكذلك الأَفعال الثّلاثة بعد، وقرأَ أَبو عمرو بن العلاءِ، وابن كثير، وأَبو جعفر: [لِيُؤْمِنُوا] بالياءِ على استمرار خطاب محمد ﷺ، وكذلك الأَفعال الثّلاثة بعد، وقرأَ الجحدريُّ: [وَتَعْزُرُوهُ] بفتح التّاءِ وسكون العين وضمِّ الزَّاي، وقرأَ محمد بن السُّميفع اليمانيُّ، وابن عبّاس رضي الله عنهما: [وَتُعَزِّزوهُ] بزاءَيْن، من العزَّة، وقرأَ جعفر بن محمد: [وَتَعْزِرُوهُ] بفتح التّاءِ وسكون العين وكسر الزّاي، ومعنى ﴿تُعَزِّرُوهُ﴾: تعظِّموه وتكبِّروه، قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما، وقال قتادة: معناه: تنصروه بالقتال، وقال بعض المتأَوِّلين: الضّمائر في قوله تعالىٰ: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ هي كلُّها لله تعالىٰ، وقال الجمهور: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ هما للنَّبيِّ ﷺ: و﴿تُسَبِّحُوهُ﴾ هي لله تعالىٰ، وهي صلاة البَرْدَيْن[1]، وقرأَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: [وَتُسَبِّحُوا اللهَ]، وفي بعض ما حكى أَبو حاتم: [وَتُسَبِّحُونَ ٱللهَ] بالنّون، وقرأَ ابن عبّاس رضي الله عنهما: [وَلِيُسَبِّحُوا ٱللهَ]، و«البُكْرَةُ»: الغُدُوُّ، و«الأَصيلُ»: «العَشِيُّ».

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يريد تعالىٰ: في بيعة الرِّضوان، وهي بيعة الشَّجرة حين أَخذ رسول الله ﷺ الأهبة لقتال قريش لمَّا بلغه مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه رسوله إِليهم، وذلك قبل أَن ينصرف رسول الله ﷺ من الحُدَيْبِيَّة، وكان في أَلف وأَربعمائة رجل، قال النَّقّاش: وقيل: كان في أَلف وثمانمائة، وقيل: وسبعمائة، وقيل: وستمائة، وقيل: ومائتين، وبايعهم رسول الله ﷺ على الصَّبر المتناهي في قتال العدوِّ إِلى أَقصى الجهد، حتّى قال سلمة بن الأَكوع[2] وغيره: بايعنا

(١) قال في اللِّسان: البَرْدان والأَبْرَدان: الظِّلُّ والفَيْءُ، سُمِّيا بذلك لبردهما... وقيل: هما الغداةُ والعشيُّ، وفي الحديث: «من صلَّى البَرْدَيْن دخل الجنَّة»، وفي حديث ابن الزُّبير: «كان يسير بنا الأَبْرديْن»، وفي حديثه الآخر مع فضالة بن شريك: «وسِرْ بها البَرْدَيْن».

(٢) هو سَلَمة بن عمرو بن الأكوع الأَسلميُّ، أبو مسلم أو أبو إيّاس، شهد بيعة الرِّضوان، ومات سنة أربع=

رسول الله ﷺ على الموت، وقال عبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم: بايعنا رسول الله ﷺ على ألاَّ نفِرَّ، و«المُبَايعة» في هذه الآية مفاعلة من البيع؛ لأَنَّ الله تعالىٰ اشترى منهم أَنفسهم وأَموالهم بأَنَّ لهم الجنَّة، وبقي اسم البيعة بعْدُ على مُعَاقدة الخلفاءِ والملوك، وعلى هذا سمَّت الخوارج أَنْفُسَها الشُّراة، أَي اشتروا بزعمهم الجنَّة بأَنفسهم، ومعنى ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أَنَّ صفقَتَهُم إِنَّما يُمْضيها الله تعالىٰ ويمنح الثَّمن، وقرأ تمَّام بن العبّاس بن عبد المطلب[1]: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، قال أَبو الفتح: ذلك على حذف المفعول لدلالة الأَوَّل عليه وقُرْبه منه[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾، قال جمهور المتأَوِّلين: اليَدُ بمعنى «النِّعمة»، أَي نعمة الله تعالىٰ في نفس هذه المبايعة ـ لما يُستقبل من محاسنها ـ فوق أَيديهم الَّتي يَمُدُّونها لبيعتك، وقال آخرون: يَدُ اللهِ هنا بمعنى قوَّة الله تعالىٰ فوق قواهم، أَي في نصرك ونصرهم، فالآية ـ على هذا ـ تعديد نعمة عليهم مستقبلة مُخْبَرٌ بها، وعلى التَّأْويل الأَوَّل تعديد نعمة حاصلة يشرف بها الأَمر، قال النَّقَّاش: يَدُ الله في الثَّواب فوق أَيديهم. وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ أَي نقض هذا العهد فإِنَّما يجني على نفسه، وإِيَّاها يُهْلِك، فنكثُه عليه لا له، وقرأ جمهور القراءِ: [بما عاهد عليه الله] بالنَّصب على التَّعظيم، وقرأ ابن أَبي إِسحاق: [بما عاهد عليه الله] بالرَّفع على أَن الله تعالىٰ هو المعاهد، وقرأ حفص عن عاصم: [عَلَيْهُ] مضمومة الهاءِ، وروي ذلك عن ابن إِسحاق، و«الأَجرُ العظيم»: الجنَّة، لا يفنى نعيمها ولا ينقضي أَمدها. وقرأ عاصم، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائيُّ، والعامَّة: [فَسَيُؤْتِيهِ] بالياءِ، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: [فَسَنُؤْتِيه] بالنّون، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [فَسَوْفَ يُؤْتِيهِ ٱللهُ].

= وسبعين. (تقريب التَّهذيب).

(١) هو تمَّام بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي، أُمُّه أُمُّ ولد، كان العباس يقول: تَمُّوا بتَمَّام فصاروا عشرة، قال عنه ابن السَّكَن: «كان أصغر إخوته، وكان أشد قريش بطشاً»، وقال ابن حبان: «حديثه عن النبي ﷺ مرسل، وإنَّما رواه عن أبيه»، وقد وليَ تمَّام المدينة في زمان عليٍّ كرم الله وجهه. (الإصابة).

(٢) وبقية كلام أبي الفتح كما جاء في المحتسب: «فكأنَّه قال: إنَّ الَّذين يبايعونك إنَّما يبايعونك للهِ، فحذف المفعول الثاني لقربه من الأوَّل، وأنَّه أيضاً بلفظه وعلى وضعه، وهذا المعنى هو راجع إلى معنى القراءة العامَّة ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، أي: إنَّما يفعلون ذلك لله، إلاَّ أنَّها أفخم معنى من قوله: (للهِ)، أي: إنَّما المعاملة في ذلك معه، فهو أعلى لها وأرجح بها» (المحتسب ٢ـ١٧٥).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.

«المخلَّفون من الأعراب» قال مجاهد وغيره: هم جُهَيْنَة ومُزَيْنَة ومن كان حول المدينة من القبائل، فإنَّهم في خروج رسول الله ﷺ إلى عُمْرَته عام الحديبيَّة رأَوا أَنَّه يستقبل عدوًّا عظيماً من قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورة وهم الأَحابيش، ولم يكن تمكن إيمان أُولئك المجاورين للمدينة، فقعدوا عن النَّبيِّ ﷺ وتخلَّفوا، وقالوا: لن يرجع محمد ولا أَصحابه من هذه السَّفرة، ففضحهم الله تعالىٰ في هذه الآية وأَعلم محمداً ﷺ بقولهم واعتذارهم قبل أَن يصل إليهم، فكان كذلك، قالوا: شغلتنا الأَموال والأَهلون فاستغفر لنا، وهذا منهم خُبْثٌ وإبطال، فلذلك قال الله تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾، قال الرُّمَّانيُّ: لا يُقال أَعرابيٌّ إلاَّ لأَهل البوادي خاصة(١).

ثم قال تعالىٰ لنبيِّه ﷺ: قل لهم: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، أَي: من يحمي أَموالكم وأَهليكم إن أَراد بكم فيها سوءًا؟ وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ بفتح الضاد، وقرأَ حمزة والكسائيُّ: [ضُرًّا] بالضَّمِّ، ورجَّحها أَبو عليٍّ، وهما لغتان، وفي مصحف ابن مسعود: [إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءًا]. ثمَّ ردَّ الله تعالىٰ عليهم بقوله: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾، ثمَّ فسَّر لهم العلَّة التي تخلَّفوا من أَجلها بقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ الآية، وفي قراءَة عبد الله: [إلى أهلهم] بغير ياءٍ، و[بُوراً] معناه: فاسدين هَلْكَى بسبب فسادهم، والبوار: الهلاكُ، و«بارت السلعة» مأخوذ من هذا، و«بُورٌ» يوصف به الجمع والإفرادُ، ومنه قول ابن الزِّبَعْرى:

يَـا رَسُـولَ المَلِيـكِ إنَّ لِسَـانِـي ... رَاتِـقٌ مَـا فَتَقْـتُ إذْ أَنَـا بُـورُ(٢)

---

(١) قال في اللِّسان: «رجل أعرابيٌّ بالألف إذا كان بدوياً صاحبَ نجْعة وانتواءٍ وارتيادٍ للكلأ، وتَتَبُّع لمساقط الغيث... ويُجمع الأعرابيُّ على الأعراب والأعاريب، والأعرابي إذا قيل له: يا عربيُّ فرح بذلك وهشَّ له، والعربي إذا قيل له: يا أعرابيُّ غضب له».

(٢) ابن الزِّبَعْرى هو: عبد الله بن الزِّبَعْرى السَّهْميُّ، والبيت في اللِّسان والطَّبريِّ والقرطبيِّ، والتّاج، ورواية=

والبُورُ في لغة أَزْد عمَّان: الفاسد، ومنه قول أَبي الدَّرداءِ: «فأَصبح ما جمعوا بورا» أَي فاسداً ذاهباً، ومنه قول حسّان بن ثابت:

لا يَنْفَعُ الطُّولُ مِنْ نُوك القُلُوبِ وَقَدْ ... يَهْدِي الإِلـٰهُ سَبِيلَ المعْشَرِ البُورِ[(١)]

وقال الطَّبريُّ في قوله تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾: يعني به قولهم: «فَاسْتَغْفِرْ لَنَا»؛ لأَنَّهم قالوا ذلك مصانعة من غير توبة ولا ندم، قال: وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم﴾ الآية معناه: ولا ينفعكم استغفاري، وهل أَملك لكم شيئاً والله تعالىٰ قد أَراد ضرَّكم بسبب معصيتكم؟ كما لا أَملك إِن أَراد بكم النَّفع في أَموالكم وأَهليكم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾.

لمَّا قال تعالىٰ لهم: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ توعدَّهم بعد ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية، أَي: وأَنتم هكذا فأَنتم ممن أُعدَّت لهم السَّعير وهي النَّار المؤجَّجة، والمسْعر: ما تُحرك به النَّار، ومنه قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «وَيْل أُمّه مِسْعَرُ حَرْب»[(٢)].

= اللّسان: يا رسول الإلَه، وهو يخاطب النَّبيَّ ﷺ معتذراً عن هجائه الَّذي سبق محاولاً إِصلاح ما فسد، والرَّتْق ضدَّ الفَتْق، أو هو إِصلاح الفَتْق، والبور: الهالِكُ، والشَّاهد أَنَّ الشاعر استعمل كلمة «بور» للمفرد، وهي في الآية جاءت للجمع، فهي ممّا يوصف به الجمع والمفرد.

(١) البيت لحسَّان بن ثابت قاله في هجاء قوم، يقول: إِنَّ طول أَجسامهم لا خير فيه ما داموا حمقى، والبُور في البيت بمعنى الفاسدين، وقد يكون هنا جمع بائر مثل حُولٍ وحائل، وحكى الفراء عن بعضهم أَنَّه لغة وليس بجمع بائر، والنَّوْكُ: الحُمْقُ، والأَنوَك: الأَحمق، والبيت شاهد على أن البُورَ هو الفاسد.

(٢) الحديث أخرجه البخاريُّ في الشُّروط، وأَبو داود في الجهاد، والإمام أحمد في مسنده (٤ـ٣٣١)، وهو حديث طويل، عن المِسْور بن مَخْرَمَة، ومروان، يصدِّق كلُّ واحد منهما حديث صاحبه، وهو عن غزوة الحديبيَّه، وفيه أَنَّ أَبا بصير، وهو رجلٌ من قريش جاءَ رسول الله ﷺ، فدفعه إِلى الرَّجلين تنفيذاً لمَا تمَّ=

ثمَّ رجَّى بقوله تعالىٰ: ﴿ولله ملك السَّموات والأرض﴾ الآية؛ لأنَّ القوم لم يكونوا مجاهرين بالكفر، فلذلك جاز وعيدهم وتوبيخهم ممزوجاً فيه بعض الإمهال والتَّرجية؛ لأنَّ الله تعالىٰ كان قد علم منهم أنَّهم سيؤمنون.

ثمَّ إنَّ الله تعالىٰ أمر نبيَّه ﷺ ـ على ما روي ـ بغزو خيبر ووعده بفتحها، وأعلمه أنَّ المخلَّفين إذا رأوا مسيره إلى يهود ـ وهم عدوٌّ مستضعف ـ طلبوا الكون معه رغبة في عَرَض الدُّنيا والغنيمة، وكان كذلك. وقوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ معناه: أن يُغَيِّرُوا وعده لأهل الحديبيَّة بغنيمة خيبر، وقال عبد الله بن زيد بن أسلم: كلام الله تعالىٰ هو قوله: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾[1]، وهذا قول ضعيف لأنَّ تلك نزلت في رجوع رسول الله ﷺ من تبوك، وهذا في آخر عمره ﷺ، وآية هذه السُّورة نزلت سنة الحديبيَّة، وأيضاً فقد غزت جُهَيْنَة ومُزَيْنة بعد هذه المدَّة مع رسول الله ﷺ، وقد فضَّلهم رسول الله ﷺ ـ بعد ذلك ـ على تميم وغطفان وغيرهم من العرب، الحديث المشهور، فأخبره الله تعالىٰ أن يقول لهم في هذه الغزوة إلى خيبر: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَاۚ﴾، وخصَّ الله تعالىٰ بها أهل الحديبيَّة.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ﴾ يريد تعالىٰ وعده قبل باختصاصهم بها، وقول الأعراب: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ﴾ معناه: بل يعزُّ عليكم أن نصيب مغنماً ومالاً، فردَّ الله تعالىٰ على هذه المقالة بقوله سبحانه: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: لا يفقهون من الأمور مواضع الرُّشد، وذلك هو الَّذي خلَّفهم عن رسول الله ﷺ حتّى كان ذلك سبباً لمنعهم من غزو خيبر، وقرأ أبو حيوة: [تَحْسِدُونَنَا] بكسر السِّين، وقرأ الجمهور من القراءِ: [كَلاَمَ]، قال أبو علي: هذا أخص بما كان مقيداً حديثاً، وقرأ الكسائيُّ، وحمزة، وابن مسعود وطلحة، وابن وثاب: [كَلِم]، والمعنى فيهما متقارب.

= الاتفاق عليه في عهد الحديبيَّة، ولكن أبا بصير احتال حتّى قتل أحد الرَّجلين وفرَّ الآخر منه، وعاد أبو بصير إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال: يا نبيَّ الله، قد أوفى الله ذمَّتك، قد رددّتني إليهم ثمّ أنجاني الله منهم، فقال النَّبيُّ ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعرُ حَرْبٍ لوْ كان لَهُ أحد»، فالرسول ﷺ يصفه بالمبالغة في الحرب والنَّجدة.

(١) من الآية (٨٣) من سورة (التَّوبة).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالتَّقدمة إلى هؤلاءِ المُخَلَّفين بأَنَّهم سيدعون إلى قتال عدوٍّ بئيس، وهذا يدلُّ على أَنَّهم كانوا يظهرون الإِسلام وإِلاَّ فلم يكونوا أَهلاً لذلك الآخر.

واختلف النّاس، من القوم المشار إِليهم في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾؟ فقال عكرمة، وابن جبير، وقتادة: هم هوازن ومَنْ حارب رسول الله ﷺ في حُنَيْن، ويندرج في هذا القول عندي من حُورب وغلب في فتح مكَّة، وقال كعب: هم الرّوم الَّذين خرج إليهم رسول الله ﷺ عام تبوك والَّذين بعث إِليهم في غزوة مؤتة، وقال الزُّهريُّ والكلبيُّ: هم أَهل الرِّدَّة وبنو حنيفة باليمامة، وقال منذر بن سعيد: يتركَّب على هذا القول أَنَّ الآية مؤذنة بخلافة أَبي بكر الصِّديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، يريد: لما كشف الغيبُ أَنَّهما دَعَوا إِلى قتال أَهل الرَّدَّة، وحكى الثَّعلبيُّ عن رافع بن خَديج أَنَّه قال: والله لقد كنَّا نقرأُ هذه الآية فيما مضى ولا نعلم من هم حتّى دعا أَبو بكر رضي الله عنه إِلى قتال بني حنيفة، فعلمنا أَنَّهم هم[1]، وقال ابن عبَّاس، وابن أَبي ليلى: هم الفُرس، وقال الحسن: هم فارس والرّوم، وقال أَبو هريرة: هم قوم لم يأْتوا بعد، والقولان الأَوَّلان حسنان لأَنَّهما الذي كشف الغيب، وباقيها ضعيف، وقال منذر بن سعيد: رفع الله في هذه الجزية، وليس إِلاَّ القتال أَو الإِسلام، وهذا لا يوجد إِلاَّ في أَهل الردَّة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكذا من حُورب في فتح مكَّة.

وقرأَ الجمهور: ﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ على القطع، أَي: أَو هم يُسلمون دون حرب، وقرأَ أُبيُّ بن كعب ـ فيما حكى الكسائيُّ ـ: [أَو يسلموا] بنصب الفعل على تقدير: أَو يكون أَن يُسْلموا، ومثله من الشعر قول امرىء القيس:

---

(١) في الأصول: «فعلمنا أنّهم ارتدوا، وفي بعضها: فعلمنا أنّهم أزيد»، والتَّصويب عن كتب التَّفسير الأخرى.

فَقُلْتُ لَهُ لاَ تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا   نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا[(١)]

يروى «نموتَ» بالنَّصب والرَّفع، فالنَّصب على تقدير: أَو يكون أَن نموتَ، والرَّفع على القطع، أَو نحن نموتُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾ معناه: فيما تُدعون إِليه، والعذاب الَّذي توعدهم به يحتمل أَن يريد به عذاب الدُّنيا، وأَمَّا عذاب الآخرة فبَيِّنٌ فيه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

لما بلَّغ عزَّ وجلَّ في عتب هؤلاءِ المتخلِّفين من القبائل المجاورة للمدينة «كجهينة ومزينة وغفار وأَسلم وأَشجع» عقَّب ذلك بأَنَّ عذر أَهل الأَعذار من العَمَى والعَرَج والمرض جملة، ورفع الحرج عنهم والضّيق والمأْثم، وهذا حكم هؤلاءِ المعاذير في كلِّ جهاد إِلى يوم القيامة، إِلاَّ أَن يحزب حازب في حضرة مَّا، فالغرض متوجِّه بحسب الوُسع ومع ارتفاع الحرج، فجائز لهم الغزو وأَجرهم فيه مضاعف؛ لأَنَّ الأَعرج أَحرى النّاس بالصّبر وأَلاَّ يفرَّ، وقد غزا ابن أُمِّ مكتوم وكان يمسك الرّاية في بعض حروب

---

(١) قال امرؤ القيس هذا البيت يخاطب الشّاعر عمرو بن قُمِيئَة حين صحبه في رحلته إلى بيزنطة ليستعدي قيصر على بني أسد، وهو في الدّيوان، والخصائص، وابن يعيش، والكتاب، والخزانة، والأشمونيّ، وقبله يقول:

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأى الدَّرْبَ دُونَهُ   وَأَيْقَنَ أَنَّا لاحِقَانِ بِقَيْصَرَا

يقول لصاحبه: لا تَبْكِ بسبب الغربة والبعد، فإنّنا نسعى من أجل المُلْك، فإمَّا نحقّق ما نريد وإمّا أن نموت فيكون لنا العذر، والشّاهد فيه هو نصب «نموت» بإضمار «أنْ»، لأنَّه لم يرد في البيت معنى العطف، وسيبويه يقول: «واعلم أنّ معنى ما انتصب بعد «أوْ» على «إلاّ أنْ»، فالمعنى هنا: على إلاّ أن نموت فنُعْذَرَا، والرّفع جائز، قال سيبويه: «ولو رفعتَ لكان عَرَبِيّاً جائزاً على وجهين: على أن تُشرك بين الأوّل والثّاني، وعلى أن يكون مبتدأ مقطوعاً من الأوّل، يعني: أو نحن ممن يموتُ»، وقد ذكر ابن عطيّة الوجه الثّاني للرّفع، ويُروى البيتُ: فَنُعْذِرَا ـ بكسر الذّال ـ، والمعنى على هذا: نَبْلُغَ العُذْرَ.

القادسية، وقد خرَّج النّسائيُّ هذا المعنى وذكر ابن أُمِّ مكتوم رضي الله عنه(١).

وقرأَ الجمهور من القراءِ: [يُدْخِلْهُ] بالياءِ، وقرأَ ابن عامر، ونافع، وأَبو جعفر، والأَعرج، والحسن، وشيبة، وقتادة: [نُدْخِلْهُ] بالنّون، وكذلك: [يُعَذِّبْهُ] و[نُعَذِّبْهُ].

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ تشريف وإِعلامٌ برضاه عنهم حين البيعة، وبهذا سُمِّيت بيعة الرِّضوان، والرِّضى بمعنى الإِرادة، فهو صفة ذات، ومن جعل [إِذْ] مُسَبِّبَة، بمعنى: لأَنهم بايعوا تحت الشَّجرة جاز أَن يجعل [رَضِيَ] بمعنى: أَظهر النِّعمة عليهم، بسبب بيعتهم، فالرِّضى ـ على هذا ـ صفة فعل، وقد تقدَّم القول في المبايعة ومعناها.

وكان سبب هذه المبايعة أَنَّ رسول الله ﷺ أَراد أَن يبعث لقريش رجلاً يبيِّن لقريش أَنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يريد حرباً وإِنَّما جاءَ معتمراً، فبعث إِليهم خِرَاشَ بنَ أُمَيَّة الخزاعيَّ(٢)، وحمله على جمل له يقال له: الثَّعلب، فلمَّا كلَّمهم عقروا الجمل وأَرادوا قتل خِرَاش فمنعته الأَحابيش، وبلغ ذلك النَّبيَّ ﷺ فأَراد بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال عمر: يا رسول الله، إِنَّك قد علمتَ فظاظتي على قريش، وهم يبغضونني، وليس هناك من بني عديٍّ بن كعب من يحميني، ولكن ابعث عثمان بن عفان، فبعثه رسول الله ﷺ، فذهب، فلقيه أَبان بن سعيد بن العاص، فنزل عن دابته وحمله عليها، وأَجاره حين جاءَ قريشاً فأَخبرهم، فقالوا له: إِن شئت يا عثمان أَن تطَّوف بالبيت فطُف، وأَمَّا دخولكم علينا فلا سبيل إِليه، فقال عثمان رضي الله عنه: ما كنت لأَطوف به حتّى يطوف رسول الله ﷺ، ثمَّ إِنَّ بني سعيد بن العاص حَبَسُوا عثمان على جهة المَبَرَّة، فأَبطأَ على رسول الله ﷺ، وكانت الحديبيَّة من مكَّة على نحو عشرة أَميال، فصرخ صارخ من عسكر رسول الله ﷺ: قُتل عثمان، فحمي رسول الله ﷺ والمؤمنون وقالوا: لا نبرح إِن كان

---

(١) وقد روى أبو داود عن أنس رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سِرْتُم مسيراً ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من وادٍ إلاّ وهم معكم فيه»، قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: «حبسهم العذر». والله تعالىٰ يقول: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾.

(٢) هو خراش بن أُميَّة بن ربيعة بن الفضل الخزاعيُّ، ثمُّ الكلبيُّ، شهد المُرَيْسيع والحُدَيْبِيَّة، وحلق رأس رسول الله ﷺ يومئذ. أو في العمرة الَّتي تليها، قال ابن السَّكن: روي عنه حديثاً واحداً، وقيل: إنَّه شهد خيبر وما بعدها.

هذا حتّى نلقى القوم، فدعا رسول الله ﷺ إلى البيعة، ونادى مناديه: أيُّها النّاس، البيعةَ البيعةَ. نزل روح القُدس، فما تخلَّف عن البيعة أَحد ممن شهد الحديبيَّة إلاَّ الجَدُّ بن قيس المنافق، وحينئذ جعل رسول الله ﷺ يده على يده، وقال: هذه يد عثمان، وهي خير من يد عثمان، ثمَّ جاءَ عثمان رضي الله عنه بعد ذلك سالماً، والشَّجرة سَمُرة[١] كانت هنالك ذهبت بعد سنين، فمرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالموضع في خلافته فاختلف أَصحابه في موضعها، فقال عمر رضي الله عنه: سيروا، هذا التَّكلُّف[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، قال قوم: معناه: من كراهية البيعة على الموت ونحوه، وهذا ضعيف فيه مذمَّة للصَّحابة رضي الله عنهم، وقال الطَّبريُّ، ومنذر بن سعيد: معناه: من الإيمان وصحَّته والحبِّ في الدّين والحرص عليه، وهذا قول حسن لكنَّه من كانت هذه حاله فلا يحتاج إلى نزول ما يسكنه، أَما إنه يحتمل أَن يجازى بالسَّكينة والفتح القريب والمغانم، وقال آخرون: معناه: من الهمِّ بالانصراف عن المشركين والأَنفة في ذلك على نحو ما خاطب فيه عمر رضي الله عنه وغيره[٣]، وهذا تأْويل حسن يترتب معه نزول السَّكينة والتَّعويض بالفتح القريب، والسَّكينة هنا تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول أَمر الله تعالىٰ والصَّبر له. وقرأَ النّاس: ﴿وَأَثَابَهُمْ﴾، قال هارون: وقد قرئت: «وأَتَاهُمْ» بالتّاءِ بنقطتين.

و«الْفَتْحُ الْقَرِيبُ»: خيبر، وذلك أَنَّ رسول الله ﷺ انصرف بالمؤمنين وقد وعَده الله

---

(١) السَّمُرَة: ضرب من شجر الطَّلح، جمعه: أَسْمُر، والطَّلح: شجر عظام من شجر العضاه ترعاه الإبل.

(٢) الخبر كما رواه ابن جرير كاملاً يقول: «زعموا أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرَّ بذلك المكان بعد أن ذهبت الشَّجرة، فقال: أين كانت؟ فجعل بعضهم يقول: هنا، وبعضهم يقول: ها هنا، فلمَّا كثر اختلافهم قال: سيروا هذا التَّكلُّف، فذهبت الشَّجرة وكانت سمراءُ، إمّا ذهب بها سيلٌ وإمَّا شيءٌ سوى ذلك.

(٣) وذلك أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء إلى النَّبيِّ ﷺ بعد عقد صلح الحديبيَّة، وقال: يا رسول الله، أَلَسنا على حقٍّ وهم على باطل؟ قال: بلى، قال: أَليس قتلانا في الجنّة وقتلاهم في النّار؟ قال: بلى، قال: ففيم نعطي الدنيَّة في ديننا ونَرْجع ولمّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا بن الخطاب إنّي رسول الله ولن يضيِّعني الله أبداً، فانطلق عمر فلم يصبر متغيظاً فأتى أبا بكر، فقال له مثل ما قال للنبي ﷺ، وأجابه أبو بكر رضي الله عنه بمثل ما أجاب صلوات الله وسلامه عليه، فلم يلبث أن نزل القرآن الكريم على النَّبيِّ ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إيَّاه، فقال: يا رسول الله، أَو فتحٌ هو؟ قال: نعم، فطابت نفسه.

بخيبر، وخرج إليها لم يلبث، قال أبو جعفر النّحّاس: وقد قيل: الفتح القريب: فتح مكّة و«المغانم الكثيرة»: فتح خيبر، وقرأ يعقوب في رواية رويس: [تأْخُذُونَهَا] على مخاطبتهم بالتاءِ من فوق، وقرأ الجمهور: ﴿يَأْخُذُونَهَا﴾ على الغيبة.

واختلف النّاس في عدّة المبايعين رضي الله عنهم ـ فقيل: ألف وخمسمائة، قاله قتادة، وقيل: وأربعمائة، قاله جابر بن عبد الله، وقيل: وخمسمائة وخمسة وعشرون، قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما، وقيل: وثلاثمائة، قاله ابن أبي أوفى، وقيل غير هذا مما ذكرناه من قبل، وأوّل من بايع ذلك اليوم رجل من بني أسد يقال له: أبو سنان بن وهب، قاله الشّعبيُّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ الآية ـ مخاطبةٌ للمؤمنين ووعْد بجميع المغانم الّتي أخذها المسلمون، ويأخذونها إلى يوم القيامة، قاله مجاهد وغيره، وقوله تعالىٰ: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ يريد خَيْبَر، وقال زيد بن أسلم وابنه: المغانم الكثيرة: خيبر، و﴿هَٰذِهِۦ﴾ إشارة إلى البيعة والتّخلُّص من أمر قريش، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ يريد من وَلِيَ عورة المدينة بعد خروج النّبيِّ ﷺ والمؤمنين منها، وذلك أنهُ كان من أحياءِ العرب ومن اليهود من يعادي، وكانت قد أمكنتهم فرصة، فكفّهم الله تعالىٰ عن ذراري المسلمين وأموالهم، وهذه للمؤمنين العلامة على أنّ الله تعالىٰ ينصرهم ويلطف بهم، قاله قتادة، وحكى الثّعلبيُّ عنه أنّه قال: كفّ الله تعالىٰ غطفان عن النّبيِّ ﷺ حين جاؤوا لنصر أهل خيبر، وذكره النّقّاش، وقال الثّعلبيُّ أيضاً عن بعضهم: إنّه أراد كفّ قريش.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا ﴾، قال عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما: الإشارة إلى بلاد فارس والرّوم، وقال الضّحاك وابن زيد: الإشارة إلى خيبر، وقال

قتادة والحسن: الإشارة إلى مكةً، وهذا هو القول الَّذي يتَّسق معه المعنى ويتأيَّد، وقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ معناه: بالقدرة والقهر لأهلها، أي: قد سبق ذلك في علمه وظهر فيها أنهم لم يقدروا عليها.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾، الإشارة إلى قريش ومن والاها في تلك السَّنة، قاله قتادة، وفي هذا تقوية لنفوس المؤمنين، وقال بعض المفسِّرين: أراد الرُّوم وفارس، وهذا ضعيف، وإنَّما الإشارة إلى العدوِّ الأحضر.

وقوله تعالىٰ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى وقعة بدر، وقيل: إشارة إلى عادة الله تعالىٰ من نصرة الأنبياءِ عليهم السَّلام قديماً، ونصب ﴿سُنَّةَ﴾ على المصدر، ويجوز الرَّفع، ولم يُقرأ به.

قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ الآية، رُوي في سببها أَنَّ قريشاً جمعت جماعة من فتيانها، وجعلوهم مع عكرمة ابن أبي جهل، وخرجوا يطلبون غِرَّة في عسكر رسول الله ﷺ، واختلف النّاسُ في عدد هؤلاءِ اختلافاً متفاوتاً، فلذلك اختصرته، فلمّا أَحسَّ بهم المسلمون وبعث رسول الله ﷺ في أثرهم خالد بن الوليد وسمَّاه حينئذ «سيف الله» في جملة من النّاس، ففرّوا أمامهم حتّى أدخلوهم بيوت مكَّة، وأسروا منهم جملة، فسيقوا إلى رسول الله ﷺ، فمنَّ عليهم وأطلقهم، فهذا هو كفُّ الله تعالىٰ أَيديهم عن المسلمين بالرُّعب، وكفُّ أيدي المسلمين عنهم بالنَّهي في بيوت مكَّة وغيرها، وذلك هو «بَطْن مكَّة»، وقال قتادة: أَسر النَّبيُّ ﷺ هذه الجملة بالحديبيَّة عند عسكره ومَنَّ عليهم، وذلك هو «بَطْن مكةً»، قال النَّقاش: الحرم كلُّه مكَّة، والظَّفر عليهم هو أَسْر من أُسر منهم، وما في هذه الآية تحريض على العمل الصّالح؛ لأنَّ من استشعر أَنَّ الله تعالىٰ يُبصر عمله أَصلحه.

وقرأ الجمهور من القراءِ: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالتّاءِ على الخطاب، وقرأ أبو عمرو وحده بالياءِ على ذكر الكفّار وتهديدهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ

مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

يريد الله تعالىٰ بقوله: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أهل مكَّة الَّذين تقدَّم ذكرهم، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ هو منعهم النَّبيَّ ﷺ وأصحابه من العُمْرَة عام الحُدَيْبِيَة، وذلك أَنَّ النَّبيَّ ﷺ خرج من المدينة في ذي القعدة سنة ستٍّ من الهجرة يريد العُمْرة وتعظيم البيت، وخرج معه بمائة بدنة، قاله النقاش، وقيل: بسبعين، قاله المِسْور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، فلمَّا دنا من مكة قال أَهل مكَّة: هذا محمد الَّذي قد حاربنا وقتل فينا يريد أَن يدخل مكَّة مراغمةً لنا، والله لا تركناه حتَّى نَمُوت دون ذلك، فأَجمعوا لِحَرْبه واستنجدوا بقبائل من العرب وهم الأَحابيش، وبعثوا فغوَّروا لرسول الله ﷺ المياه الَّتي تقرب من مكَّة، فجاءَ رسول الله ﷺ حتَّى نزل على بئر الحُدَيْبِيَة، وحينئذ وضع سهمه في الماءِ فجرى غمراً حتَّى كفى الجيش، ثمَّ إِنَّ رسول الله ﷺ بعث إِلى مكَّة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبعث أَهل مكَّة إِليه رجالاً منهم عُرْوة بن مسعود، وبُدَيل بن ورقاءَ، وتوقف رسول الله ﷺ هنالك أَيَّاماً حتَّى سَفَر سهيل بن عمرو، وبه انعقد الصُّلح على أَن ينصرف رسول الله ﷺ عنهم ويعتمر من العام القابل، فهذا كان صَدَّهم إِيَّاه، وهو مستوعب في كتب السِّيَر فلذلك اختصرناه.

وقرأَ الجمهور: ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ بسكون الدّال، وقرأَ الأَعرج، والحسن بن أَبي الحسن: [وَٱلْهَدِيَّ] بكسر الدّال وشدِّ الياءِ، وهما لغتان، وهو معطوف على الضَّمير في قوله تعالىٰ: [وَصَدُّوكُمْ]، أَي: وصدُّوا الهدي، و﴿مَعْكُوفًا﴾ حال، ومعناه: محبوساً، تقول: عكفتُ الرَّجل عن حاجته إِذا حبسته، وقد قال أَبو عليٍّ: إِن «عكف» لا أَعرفه متعدِّياً، وحكى ابن سيدَة وغيره تَعَدِّيه، وهذا العَكْف الَّذي وقع للهدي كان من قِبَل المشركين بصدِّهم، ومن قِبَل المسلمين لرويَّتهم وتصرفهم في أَمرهم فحبسوا هديهم، و[أَنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿ أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ يحتمل أَن يعمل فيها الصَّدُّ، كأَنَّه تعالىٰ قال: وصدُّوا الهدي كراهة أَنْ، أَو عَنْ أَنْ، ويحتمل أَن يعمل فيها العكف، فيكون [أَنْ] مفعولاً من أَجله، أَي الهَدْي المحبوس لأَجل أَن يبلغ محِلَّه، وهذا هو حبس المسلمين، وإِلاَّ فحبس المشركين ليس لأَجل أَن يبلغ الهَدْي محِلَّه. و﴿مَحِلَّه﴾: مكَّة والبيت.

وذكر الله تعالىٰ العلَّة في أَن صَرَفَ المسلمين ولم يمكِّنهم من دخول مكَّة في تلك الوجهة، وهي أَنَّه كان بمكَّة مؤمنون، رجالٌ ونساءٌ، خفيُّ إيمانهم، فلو استباح المسلمون بيضتها أَهلكوا أُولئك المؤمنين، قال قتادة: فدفع الله تعالىٰ عن المشركين ببركة أُولئك المؤمنين، وقد يدفع الله تعالىٰ بالمؤمنين عن الكفّار، وقوله تعالىٰ: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ صفة للمذكورين، وقوله تعالىٰ: ﴿أن تطؤوهم﴾ يحتمل أن تكون بدلاً من [رجالٌ]، كأَنّه تعالىٰ قال: ولولا قومٌ مؤمنون أَن تطؤوهم، أَي: لَوْلاَ وَطْؤُكُمْ قوماً مؤمنين، فهي على هذا في موضع رفع، ويحتمل أَن يكون في موضع نصب بدلاً من الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾، كأَنه تعالىٰ قال: لم تعلموا وطْأَهم أَنَّه وطْءُ مؤمنين، والوطءُ هنا: الإهلاك بالسَّيف وغيره، على وجه التّشبيه، ومنه قول الشاعر:

وَوَطِئْتَنَــا وَطْــأً علَــى حنــقٍ ... وَطْءَ الْمُقَيَّــدِ نــابِــتَ الْهَــرْمِ[1]

ومنه قول النَّبيِّ ﷺ: «اللهمَّ، اشدد وطأَتك على مُضَر»[2]، ومنه قول النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّ آخر وطأَة الرَّبِّ يوم وَجٍّ بالطَّائف»[3]؛ لأَنَّها كانت آخر وقعة للنَّبيِّ ﷺ، ذكر هذا المعنى النَّقّاش.

---

(١) البيت في اللِّسان، وقد نسبه إلى زُهَيْر، وهو في الحقيقة للحارث بن وعْلَة الشَّيبانيِّ كما جاء في شرح القصائد السّبع الطِّوال، ورواية اللِّسان ـ هرم ـ: (يابسَ الهَرْم)، والوطأة: الأَخذة الشَّديدة، وفي الحديث الشَّريف «اللهم، اشدد وطأتك على مضر»، أيْ خُذْهم أخذة شديدة، والحَنَق: شدَّة الاغتياظ، والنَّابتُ: الغَضُّ الطَّريُّ، والهَرْم (بسكون الرّاء): ضرب من الحمض فيه ملوحة، وهو أذلُّه وأشدُّه انبساطاً على الأرض، واحدته: هَرْمة، وهي الّتي يقال لها: حَيْهَلَة، وفي المثل: أذَلُّ من هَرْمة، يقول: لقد أخَذْتَنا أخذة شديدة قاسية، وكنت مغيظاً محنقاً، وكنَّا ضعافاً أذلَّة كأنّنا البقلة الحقيرة الّتي تدوسها الأقدام على الأرض.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان والاستسقاء والجهاد والأنبياء وتفسير سورة النساء وفي الأدب، وأخرجه مسلم في المساجد، وأبو داود في الصّلاة، والنّسائي في التّطبيق، وابن ماجه في الإقامة، وأحمد في مسنده (٢ـ٢٣٩، ٢٥٥، ٢٧١، ٤١٨، ٤٧٠، ٥٠٢، ٥٢١)، ولفظه في المسند، عن أبي هريرة رضي الله عنه: «لمّا رفع رسول الله ﷺ رأسه من الرَّكعة الآخرة من صلاة الصُّبح قال: اللهمَّ، أَنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعيّاش بن أبي ربيعة، والمستضعفين بمكَّة، اللهمَّ، اشدد وطأتك على مُضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف».

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤ـ١٧٢، ٦ـ٤٠٩)، عن يَعْلى العامريِّ أنَّه جاءَ حَسَنٌ وحُسَيْنٌ رضي الله عنهما يستبقان إلى رسول الله ﷺ، فضمَّهما إليه وقال: «إنَّ الولد مَبْخَلَة مجبنة، وإنَّ آخر وطأةٍ وطئها الرّحمٰن عزَّ وجلَّ بوَجٍّ»، وفي رواية عن خولة بنت حكيم أنَّه قال: «والله إنَّكم لَتُجَبِّنُون وتُبَخِّلُون، وإنَّكم=

و«المعَرَّة»: السّوءُ والمكروه اللاّصق، مأخوذ من العَرِّ والعُرَّة وهو الجرب الصَّعب اللاّزم(١). واختلف النّاس في تفسير هذه المعرَّة ـ فقال ابن زيد: هي المأْثمُ، وقال ابن إِسحق: هي الدِّيَة، وهذان ضعيفان لأَنّه لا إِثم ولا ديَة في قتل مؤمن مستور الإِيمان من أَهل الحرب، وقال الطَّبريُّ ـ وحكاه الثّعلبيُّ ـ: هي الكفّارة، وقال مُنْذر: المَعَرَّة: أَن يعيبهم الكفار ويقولوا: قتلوا أَهل دينهم، وقال بعض المفسّرين: هي الملام والقول في ذلك وتألم النّفس منه في باقي الزّمان، وهذه أَقوالٌ حِسان، وجواب [لَوْلاَ] محذوف تقديره: لمكنّاكم من دخول مكّة وأَيّدناكم عليهم، وقرأَ الأَعمش: «فَتَنَالَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ».

واللاَّم في قوله تعالىٰ: [لِيُدْخِلَ] يحتمل أَن تتعلَّق بمحذوف من القول تقديره: لولا هؤلاءِ لدخلتم مكّة لكن شرّفنا هؤلاءِ المؤمنين بأَن رحمناهم ودفعنا بسببهم عن مكّة لِيُدْخِلَ اللهُ تعالىٰ، أَي: ليبيِّن للنّاظر أَنَّ الله يُدخل في رحمته من يشاءُ، أَو أَي: لِيَقَع دخولهم في رحمة الله تعالىٰ ودفعه عنهم، ويحتمل أَن يتعلّق بالإِيمان المتقدِّم الذِّكر، فكأَنّه تعالىٰ قال: ولولا قوم مؤمنون آمنوا لِيُدْخل الله في رحمته، وهذا مذكور لكنّه ضعيف؛ لأَنَّ قوله تعالىٰ: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ يضعف هذا التّأويل.

ثمَّ قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ أَي: لو ذهبوا عن مكّة، تقول: زَيَّلْتُ زيداً عن موضعه إِزالةً، أَي أَذهبته، وليس هذا الفعل من «زال يزول»، وقد قيل: هو منه، وقرأَ أَبو حيوة وقتادة: [تزَايَلُوا] بأَلف بعد الزَّاي، أَي: ذهب هؤلاءِ عن هؤلاءِ وهؤلاءِ عن هؤلاءِ. وقوله تعالىٰ: [مِنْهُمْ] لبيان الجنس إِذا كان ضمير [تزَيَّلُوا] خاصًّا بالمؤمنين أَو بالكافرين، وهي أَيضاً لبيان الجنس إِذا كان الضَّمير في [تزَيَّلُوا] للجميع من المؤمنين والكافرين، قال النّحّاس: وقد قيل: إِنَّ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ الآية ـ يريد

= لمن ريحان الله عزَّ وجلَّ»، والمعنى: إنّكم لتحملون على الجُبْن والبُخْل، يعني الأولاد، فإنَّ الأب يَجْبُن عن القتال ليعيش لأولاده فيربِّيهم، وإنّه ليبخل بإنفاق ماله ليخلفه لهم، ورَيْحَانُ الله: رزقه وعطاؤه، ووَجٌّ: مكان من الطَّائف، يعني أنَّ آخر وطأة أو أخذة أخذ الله بها الكفّار كانت بِوَجٍّ، وكانت غزوة الطَّائف هي آخر غزوات سيِّدنا رسول الله ﷺ، إذ لم يغز بعدها إلاّ غزوة تبوك، ولم يكن فيها قتال.

(١) ومنه قول الشاعر:

قُـلْ لِلْفَـوارِسِ مِـن غُـزَيَّـةَ إِنَّهُـمْ عِنْـدَ الْقِتَـالِ مَعَـرَّةُ الأَبْطَـالِ

تعالىٰ مَنْ في أَصلاب الكافرين ممن سيؤمن في غابر الدَّهر، وحكاه الثَّعلبيُّ والنَّقَّاش عن عليٍّ بن أَبي طالب رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ مرفوعاً.

والعامل في قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ جَعَلَ﴾ قوله تعالىٰ: [لَعَذَّبْنَا]، ويحتمل أَن يكون المعنى: واذكر إِذ جعل، و«الحَمِيَّة» الَّتي جعلوها هي حميَّة أَهل مكَّة في الصَّدِّ، قال الزُّهريُّ: وحميَّة سُهَيْل[1] ومن شاهد عقد الصُّلح في أَن منعوا أَن يُكْتب «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم» ولجُّوا حتَّى كُتب «باسمك اللهمَّ»، وكذلك منعوا أَن يُكتب «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» ولجُّوا حتَّى قال ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه: «امْحُ، واكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله. . .» الحديث، وجعلها تعالىٰ حميَّة الجاهليَّة لأَنَّها كانت بغير حُجَّة وفي غير موضعها؛ لأَنَّ رسول الله ﷺ لو جاءَهم محارباً لعُذروا في حميَّتهم، وإِنما جاءَ معظِّماً للبيت لا يريد حرباً، فكانت حميَّتهم جاهلية صرفاً.

و«السَّكِينَةُ» هي الطُّمأْنينة إِلى أَمر رسول الله ﷺ، والثِّقة بوعد الله تعالىٰ، والطَّاعة وزوال الأَنفة الَّتي لحقت عمر وغيره، و«كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ» قال الجمهور: «هي لا إِلـٰهَ إِلا الله»، وروي ذلك عن النَّبيِّ ﷺ، وقال عطاءُ بن أَبي رباح: هي «لاَ إِلـٰهَ إِلاَّ الله وحده لاَ شريكَ لَهُ، لَهُ الملكُ ولَهُ الْحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قدير»، وقال أَبو هريرة وعطاءٌ الخراسانيُّ: هي «لاَ إِلـٰه إِلاَّ الله، محمد رسول الله»، وقال عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه: هي «لاَ إِلـٰه إِلاَّ الله، والله أكبر»، وحكاه الثَّعلبيُّ عن ابن عمر رضي الله عنهما، وهذه كلُّها أَقوال متقاربة حسانٌ؛ لأَنَّ هذه الكلمة تقي النَّارَ، فهي كلمة التَّقوى، وقال الزُّهريُّ عن المِسْور، ومروان: كلمة التَّقوى المشار إِليها هي: «بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ»، وهي الَّتي أَباها كفَّار قريش فأَلزمها الله تعالىٰ للمؤمنين وجعلهم أَحقَّ بها، و«لاَ إِلـٰه إِلاَّ الله» أَحقّ باسم «كلمة التَّقوى» من «بسم الله الرحمن الرحيم»، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [وكانوا أَهلها وأَحقّ بها]، والمعنى: وكانوا أَهلها على الإِطلاق في علم الله تعالىٰ وسابق قضائه سبحانه لهم، وقيل: أَحقُّ بها من اليهود والنَّصارى في الدُّنيا، وقيل: أَهلها في الآخرة بالثَّواب، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ إِشارة إِلى علمه تعالىٰ بالمؤمنين الَّذين دفع عن كفَّار قريش بسببهم،

(١) هو سُهَيْل بن عمرو الَّذي أَوْفَدَتْه قريش لعقد صلح الحديبيَّة مع النَّبيِّ ﷺ.

وإلى علمه بوجه المصلحة في صلح الحُدَيْبِيَّة، فيروى أنَّه لمَّا انعقد أَمِنَ النّاسُ في تلك المدَّة الحربَ والفتنة، وامتزجوا، وعلَت دعوة الإسلام وانْقاد إليه كل من كان لهم فهم من العرب، وزاد عدد المسلمين في تلك المدَّة أَضعاف ما كان قبل ذلك، ويقتضي ذلك أَنَّ رسول الله ﷺ كان في عام الحُدَيْبِيَّة في أَربع عشرة مائة، ثمَّ سار إِلى مكَّة بعد ذلك بعامين في عشرة آلاف فارس، ﷺ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾.

رُوي في تفسير هذه الآية أَنّ رسول الله ﷺ رأَى في منامه عند خروجه إِلى العُمْرة أَنّه يطوف بالبيت هو وأَصحابه، بعضهم محلِّقون وبعضهم مقصِّرون، وقال مجاهد: أُري ذلك بالحديبيَّة، فأَخبر النّاس بهذه الرُّؤْيا، ووثق الجميع بأَنَّ ذلك يكون في وِجْهتهم تلك، وقد كان سبق في علم الله تعالىٰ أَنَّ ذلك يكون، لكن ليس في تلك الوِجهة، وروي أَنَّ رؤْياه ﷺ إِنَّما كانت أَن مَلَكاً جاءَه فقال له: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، وأَنَّه بهذا أَعلم النّاس، فلمَّا قضى الله تعالىٰ بالصُّلح في الحديبيَّة، وأَخذ رسول الله ﷺ في الصَّدْر[1] قال المنافقون: وأَين الرُّؤْيا؟ ووقع في نفوس المسلمين شيءٌ من ذلك، فأَنزل الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾، و«صَدَقَ» هذه تتعدَّى إِلى مفعولين، تقول: صدقتُ زيداً الحديثَ، واللاَّم في [لَتَدْخُلُنَّ] لام القَسَم الَّذي تقتضيه [صَدَقَ]؛ لأَنَّها من قبيل: تبَيَّنَ وَتحقَّقَ، ونحو هذا مما يعطي القَسَم.

---

(١) في بعض النُّسخ: وأخذ النّاس في الصَّدْر، والصَّدْرُ هنا: الرّجوع والعودة، يقال: صَدَر عن المكان والورود صَدْراً وصَدَراً: رجع وانصرف.

واختلف النّاسُ في معنى الاستثناءِ في هذه الآية ـ فقال بعض المتأوِّلين: هو استثناءٌ من المَلَك المُخْبر للنَّبيِّ ﷺ في قوله، فذكر الله تعالىٰ مقالته كما وقعت، وقال آخرون: هو أَخْذٌ من الله تعالىٰ عبادَه بأَدبه في استعمال الاستثناءِ في كلِّ فعل يوجب وقوعه، كان ذلك ممَّا يكون ولا بُدَّ، أَو كان ممّا قد يكون وقد لا يكون، وقال بعض العلماءِ: إنَّما استثنى من حيث كلُّ واحد من النَّاس متى ردَّ هذا الوعد إِلى نفسه أَمكن أَن يتمَّ هذا الوعد فيه وأَلاَّ يتمَّ، إِذ قد يموت الإِنسان أَو يمرض أَو يغيب، وكل واحد في ذاته محتاج إِلى الاستثناءِ، فلذلك استثنى عزَّ وجلَّ في الجملة إِذْ فيهم ولا بُدَّ من يموت، وقال آخرون: استثنى لأَجل قوله تعالىٰ: [آمِنِينَ] لاَ لأَجل إِعلامه بالدُّخول، فكأَنَّ الاستثناءَ مُؤَخَّر عن موضعه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا فرق بين الاستثناءِ من أَجل الأَمن أَو من أَجل الدُّخول؛ لأَنَّ الله تبارك وتعالىٰ قد أَخبر بهما ووقعت الثِّقة بالأَمرين، فالاستثناءُ من أَيهما كان هو استثناءٌ من واجب.

وقال قوم: [إِنْ] بمعنى «إِذْ»، فكأَنَّه تعالىٰ قال: «إِذْ شَاءَ اللهُ»، وهذا حسنٌ في معناه لكن كون «إِنْ» بمعنى «إِذْ» غير موجود في لسان العرب، وللنّاس بعد في هذا الاستثناءِ أَقوالٌ مخلطة غير هذه لا طائل فيها اختصرتها، وقرأَ ابن مسعود: [إِنْ شَاءَ اللهُ لا تَخَافُونَ] بدل [آمِنِينَ].

ولما نزلت هذه الآية علم المسلمون أَنَّ تلك الرُّؤْيا ستخرج فيما يَسْتَأْنِفونه من الزَّمان، واطمأَنَّت قلوبهم بذلك وسكنت، فخرجت في العام المقبل، خرج رسول الله ﷺ إِلى مكَّة في ذي القعدة سنة سبع، ودخلها ثلاثة أَيَّام هو وأَصحابه، وصدقت رؤْياه. وقوله تعالىٰ: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ يريد ما قدَّره من ظهور الإِسلام في تلك المدَّة ودخول النَّاس فيه، وما كان أَيضاً بمكَّة من المؤمنين الَّذين دفع الله تعالىٰ بهم[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أَي: من قبل ذلك وفيما يدنو إِليكم.

واختلف النّاسُ في الفتح القريب ـ فقال كثير من الصَّحابة رضي الله عنهم: هو بيعة

---

(١) يريد أَنَّ الله تعالىٰ دفع بهم عن أَهل مكَّة من الكفّار، ولم يمكِّن المسلمين من دخول مكَّة رحمة بمن فيها من المؤمنين الَّذين لم يكونوا معروفين.

الرِّضوان، ورُوي عن مجاهد وابن إِسحق أَنَّه الصُّلح مع الكفّار بالحُدَيْبِيَّة، وقد رُوي أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنَّبيِّ ﷺ: أَوَ فَتْحٌ هو يا رسول الله؟ قال: نعم، وقال عبد الله بن زيد: الفتح القريب هو فتح مكَّة، وهذا ضعيف لأَنَّ فتح مكَّة لم يكن من دُون دخول النَّبيِّ ﷺ وأَصحابه مكَّة، بل كان بعد ذلك بعام، لأَنَّ الفتح كان سنة ثمان من الهجرة، ويحسن أَن يكون «الفتح» هنا اسم جنس يعُمُّ كلَّ ما وقع للنَّبيِّ ﷺ فيه ظهور وفتح عليه، وقد حكى مكِّيٌّ في ترتيب أَعوام هذه الأَخبار عن قطرب قولاً خطأً جعل فيه الفتح سنة عشر، وجعل حجَّ أَبي بكر رضي الله عنه قبل الفتح، وذلك كلُّه تخليط وخوض فيما لم يتقنه معرفة.

وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ الآيَةَ... تعظيمٌ لأَمر الرَّسول ﷺ، وإِعلامٌ بأَنَّه يظهر على جميع الأَديان، ورأَى بعض النَّاس [أَن][1] لفظة [يُظْهِرَهُۥ] تقتضي محو غيره به فلذلك قالوا: إِنَّ هذا الخبر يظهر للوجود عند نزول عيسى بن مريم عليهما السَّلام، فإِنَّه لا يبقى في وقته دين إِلاَّ الإِسلام، وهذا قول الطَّبريِّ والثَّعلبيِّ، ورأَى قوم أَنَّ الإِظهار هو الإِعلاءُ وإِن بقي من الدِّين الآخر أَجزاءٌ، وهو موجود الآن في دين الإِسلام، فإِنه قد كان عمَّ أَكثر الأَرض وظهر على كل دين، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ معناه: شاهداً، وذلك يحتمل معنيين: أَحدهما: شاهداً عندكم بهذا الخبر ومُعْلِماً به، والثاني: شاهداً على هؤلاءِ الكفار المنكرين أَمر محمد ﷺ الرَّادِّين في صدره، ومعاقباً لهم بحكم الشّهادة، فالآية ـ على هذا ـ وعيد للكفّار الَّذين شاحوا[2] في أَن يكتب «محمد رسول الله» ﷺ، فردَّ الله تبارك وتعالىٰ عليهم بهذه الآية كلِّها.

قوله تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾، قال جمهور النَّاس: هو ابتداءٌ وخبر استوفى فيه تعظيم منزلة النَّبيِّ ﷺ، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ ابتداءٌ وخَبرُهُ [أَشِدَّآءُ]، و[رُحَمَآءُ] خبر ثانٍ، وقال قوم من المتأَوِّلين: [مُحَمَّدٌ] ابتداءٌ، و﴿رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ صفةٌ له، و[ٱلَّذِينَ] عطف عليه، و[أَشِدَّآءُ] خبر عن الجميع، و[رُحَمَآءُ] خبر بعد خبر، ففي القول الأَوَّل اختصَّ النَّبيُّ ﷺ بوصفه وهؤلاءِ بوصفهم، وفي القول الثّاني اشترك الجميع في الشِّدَّة

(١) ما بين العلامتين [....] زيادة لسلامة التّعبير.

(٢) المُشَاحَّةُ هي المخاصمة والمماحكةُ، وقد ظهر ذلك منهم حين رفضوا أن يكتبوا «محمد رسول الله» في عقد صلح الحديبيّة.

والرَّحمة، والأوَّل عندي أَرجح لأَنَّه خبر مضادٌّ لقول الكفَّار: لاَ نكتب «محمد رسول الله»، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ إشارة إِلى جميع الصَّحابة رضي الله عنهم عند الجمهور، وحكى الثَّعلبيُّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أَنَّ الإِشارة إِلى من شهد الحُدَيْبِيَّة بـ ﴿الَّذين معه﴾، و[أَشِدَّاءُ] جمع شديد أَصله أَشْدِدَاءُ، أُدغم لاجتماع المِثْلَيْن، وقرأ الجمهور: [أَشِدَّاءُ] و[رُحَمَاءُ] بالرَّفع، وروى قرَّة عن الحسن [أَشِدَّاءَ] و[رُحَمَاءَ] بنصبهما، قال أَبو حاتم: ذلك على الحال، والخبر [تَرَاهُمْ]، قال أَبو الفتح: وإِن شئت نصبت [أَشِدَّاءَ] على المدح.

وقوله تعالىٰ: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، أَي ترى هاتين الحالتين كثيراً فيهم، و[يَبْتَغُونَ] معناه: يطلبون، وقرأ عمرو بن عبيد: [وَرُضْوَاناً] بضمِّ الرّاءِ، وقوله تعالىٰ: [سِيمَاهُمْ] معناه: علامتهم، واختلف الناسُ في تعيين هذه السِّيما ـ فقال مالك بن أَنس: كانت جباههم متربة من كثرة السُّجود في التُّراب، كان يبقى على المسح أَثره، وقال عكرمة، وقال أَبو العالية: يسجدون على التراب لا على الأَثواب، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما، وخالد الحنفيُّ، وعطيَّة: هو وعْدٌ بحالهم يوم القيامة من أَن الله تبارك وتعالىٰ يجعل لهم نوراً من أَثر السُّجود.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كما يجعل غُرَّةً من أَثر الوضوءِ... الحديث[١]، ويؤيِّد هذا التَّأْويل اتِّصال القول بقوله تعالىٰ: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، كأَنَّه تعالىٰ قال: علامتهم في تحصيل الرِّضوان يوم القيامة سيماهم في وجوههم من أَثر السُّجود، ويحتمل أَن تكون السِّيما بدلاً من قوله: [فَضْلاً]، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: السَّمْتُ الحسن هو السِّيما، وهو خشوع يبدو على الوجه، وهذه حالة مكثري الصَّلاة لأَنَّها تنهاهم عن الفحشاءِ والمنكر، وتُقل الضَّحك، وتردُّ النَّفس بحالة تخشع معها الأَعضاءُ، وقال الحسن بن أَبي الحسن، وشِمْرُ بن عطية[٢]: السِّيما بياض وصُفْرة وتهيُّج يعتري الوجوه من السَّهر، وقال

(١) حديث غُرَّة الوضوءِ أخرجه البخاريُّ في الوضوء، ومسلم في الطَّهارة، وأحمد في مسنده (٢ـ٣٣٤ـ٣٦٢)، ولفظه كما في البخاريِّ، عن نُعَيم المُجَمِّر قال: رقيت مع أبي هريرة على ظهر المسجد فتوضأ فقال: إنِّي سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ أُمَّتي يُدْعَوْنَ يومَ القيامة غُرّاً مُحَجَّلين من آثار الوضوءِ، فمن استطاع منكم أن يطيل غُرَّته فليفعل».

(٢) هو شِمْرُ ـ بكسر أوَّله وسكون الميم ـ ابن عطيَّة الأسديُّ، الكاهليُّ، الكوفيُّ، صدوق من السّادسة. =

منصور: سأَلت مجاهداً: هل السِّيما هي الأثر يكون بين عيني الرَّجل؟ فقال: لا، وقد تكون مثل ركبة البعير وهو أَقسى قلباً من الحجارة، وقال عطاءُ بن أَبي رباح، والرَّبيع بن أَنس[١]. السِّيما حُسْنٌ يعتري وجوه المصلِّين، وذلك أَنَّ الله تعالىٰ يجعل لها في عين الرَّائي حُسْناً تابعاً للإجلال الَّذي في نفسه، ومتى أَجلَّ الإنسان أَمْراً حَسُن عنده منظره، ومن هذا الحديث الَّذي في الشِّهاب «من كثرت صلاته باللَّيل حَسُن وجْهُه بالنَّهار»[٢]، وهو حديث غَلِط فيه ثابت بن موسى الزَّاهد، سمع شَريك بن عبد الله[٣] يقول: حدَّثنا الأَعمش، عن أَبي سفيان، عن جابر، ثمَّ نزع[٤] شَريك لمَّا رأَى ثابتاً الزَّاهد فقال يَعنيه: «من كثُرت صلاته باللَّيل حَسُن وجهه بالنَّهار»، فظنَّ ثابت أَنَّ هذا الكلام حديث متركب على السَّند المذكور فحدَّث به عن شَريك. وقرأَ الأَعرج: [من إِثْر] بسكون الثَّاءِ وكسر الهمزة، قال أَبو حاتم: هما بمعنى، وقرأَ قتادة: [من آثار] جمعاً.

قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ﴾ الآية. المَثَل هنا: الوصف أَو الصِّفة، وقال بعض المتأَوِّلين: التَّقدير: الأَمر ذلك، وتمَّ الكلام، ثم قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ﴾، وقال مجاهد: المعنى: ذلك الوصف هو مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل، وتم القول. و﴿كَزَرْعٍ﴾ ابتداءُ تمثيل يختص بالقرآن، وقال الطبري، وحكاه الضحاك: المعنى: ذلك المعنى هو وصفهم في التوراة، وتم القول، ثم ابتدأ ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ﴾ وقال آخرون: المثلان جميعاً في التوراة وفي الإنجيل.

= (تقريب التَّهذيب). وهو مضبوط في كلٍّ من الطَّبريِّ والقرطبيِّ بفتح الشّين وكسر الميم «شَمِر».

(١) هو الرَّبيع بن أنس البكريُّ أو الحنفيُّ، بصريٌّ، نزل خراسان، قال عنه في تقريب التّهذيب: «صدوق، له أوهام، رُمي بالتَّشيُّع، من الخامسة، مات سنة أربعين أو قبلها».

(٢) أخرجه ابن ماجه في الإقامة (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النَّبويِّ)، وقد ذكر المؤلف رأيه فيه.

(٣) هو شَريك ـ بفتح الشّين ـ بن عبد الله بن الحارث النَّخعيُّ الكوفيُّ، القاضي بواسط، ثمَّ الكوفة، أبو عبد الله، صدوق، عالم بالحديث، فقيه، اشتهر بقوَّة ذكائه وفطنته وسرعة بديهته، استقضاه المنصور العبَّاسيُّ على الكوفة ثمَّ عزله، وأعاده المهديُّ، وكان عادلاً في قضائه فاضلاً عابداً، شديداً على أهل البدع، مات سنة سبع أو ثمان وسبعين.

(٤) أي: كفَّ عن الكلام وسكت.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَزَرْعٍ﴾ هو على كل الأقوال وفي أي كتاب منزَّل فَرْضُ مَثَل للنبي ﷺ وأَصحابه في أَن النبي ﷺ بُعث وحده فكان كالزرع حبة واحدة، ثم كثر المسلمون فهم كالشَّطْءِ وهم فراخ السُّنبلة التي تنبت حول الأَصل، يقال: أَشطأَت الشجرة إذا أخرجت غصونها، وأَشطأَ الزَّرْع إذا أَخرج شطأَه[1]، وقرأَ ابن كثير، وابن ذكوان: [شَطَأَهُ] بفتح الطَّاءِ والهمزة دون مدٍّ، وقرأَ الباقون بسكون الطَّاءِ، وقرأَ عيسى بن عمر: [شَطَاهُ] بفتح الطَّاءِ دون همز[2]، وقرأَ أَبو جعفر: [شَطَهُ]، رَمى بالهمزة وفتح الطَّاءَ، ورُويت عن نافع، وشيبة، ورُوي عن عيسى [شَطَاءَهُ] بالمدِّ والهمزة، وقرأَ الجحدريُّ: [شَطْوَهُ] بالواو، وقال أَبو الفتح: هي لغة، أَو بدل من الهمزة، ولا يكون الشَّطْؤُ إلاَّ في البُرِّ والشَّعير، وهذه كلُّها لغات، وحكى النَّقّاش عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّه قال: «الزَّرع» النَّبيُّ ﷺ، «فآزره» عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، «فاستغلظ» بأَبي بكر رضي الله عنه، «فاسْتَوَى على سوقه» بعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَآزَرَهُ﴾ وزنه «أَفْعَلَه»، قاله الحسن، ورجَّحه أَبو عليٍّ، وقرأَ ابن ذكوان وحده: [فَأَزَرَهُ] على وزن «فَعَلَهُ» دون مَدٍّ، ولذلك كلِّه معنيان: أَحدهما ساواهُ طولاً، ومنه قول امرىء القيس:

بِمَحْنِيَّــةٍ قَــدْ آزَرَ الضَّـــالَ نَبْتُهَـــا ... مَجَـرَّ جُيـوشٍ غـانِميـنَ وخُيَّـبِ[3]

---

(١) روت كتب اللُّغة أَنَّ مُعَفَّر بن حمّاد البارقيَّ شامَت ابنَتُه بَرْقاً ـ يعني رأت برقاً ـ فقالت: يا أَبَهْ، جاءَتك السَّماءُ، فقال لها: كيف تَرَيْنَها؟ فقالت: كأَنَّها عين جمل طريف ـ يعني أصابها شيءٌ فدمعت ـ، فقال لها: ارعَي غُنَيْمَاتك، فرعتْ مَلِيّاً، ثمَّ جاءَته فقالت: يا أَبَهْ، جاءَتك السَّماءُ، فقال: كيف تَرَيْنَهَا؟ فقالت: كأَنَّها فرسٌ دهماءُ تَجُرُّ جلالَها ـ تعني أنَّها حمراءُ قد اسودَّت، والجلالُ ما تُغطَّى به الدَّابَّة لتصان، والمفرد جلٌّ ـ فقال لها: ارعَي غُنَيْمَاتِك، فرعت مَلِيّاً، ثمَّ جاءَته فقالت: يا أَبَهْ، جاءَتك السّماءُ، فقال: كيف تَرَيْنَهَا؟ فقالت: سَطَّمَتْ وابيَضَّتْ ـ تعني: امتدَّ سحابها وانتشر وأنها امتلأت بالماءِ ـ فقال: أدخلي غُنَيْماتِك، فجاءت السَّماءُ بشيءٍ شَطَأَ له الزَّرعُ، أي أخرج ورقه وسنابله.

(٢) قال في البحر: يحتمل أن يكون مقصوراً وأن يكون أصله الهمز، فنقل الحركة وأبدل الهمزة ألفاً، كما قالوا في المرأة والكَمْأَة: المَرَاةُ والكَمَاةُ، وهو تخفيف مقيس عند الكوفيين، وهو عند البصريين شاذٌّ لا يقاسُ عليه.

(٣) هذا البيت من قصيدته المعروفة (خَلِيلَيَّ مُرَّا بي عَلَى أُمِّ جُنْدَب)، المَحْنِيَّة: حَيْثُ ينحني الوادي وعادة يكون هذا المكان خصيباً. وآزَرَ: سَاوَى ـ وهو الشّاهد هنا ـ، والضَّال: نوع من الشَّجر المعروف في الصَّحراءِ، مَجَرَّ جيوش: أي أنَّ هذه المحْنِيَّة هي موضع تمرُّ فيه الجيوش وهم ما بين غانمين أو خائبين، ولذلك فإنَّ أحداً لا ينزل بها ليرعى عشبها وخضرتها خوفاً من الجيوش، ولهذا بقيت هذه البقعة خضراءَ=

أي: هو موضع لم يُرْعَ نَبْتُه فكَمُل حتّى ساوَى شجر الضَّال، فالفاعل ـ على هذا المعنى ـ الشَّطْءُ، والمعنى الثّاني أَن يكون [آزَرَهُ] أَوْ [أَزَرَهُ] بمعنى أَعانه وقوّاه، مأْخوذ من الأَزْر وشدِّه، فيحتمل أَن يكون الفاعل الشَّطْءُ، ويحتمل أَن يكون الفاعل الزَّرعُ؛ لأَنَّ كلَّ واحد منهما يُقَوِّي صاحبه، وقال مجاهد[1] وغيره: [آزَرَهُ] وزنه فاعَلَه، والأَوّل أَصوب، أَنَّ وزنه أَفْعَلَهُ، ويدلُّ على ذلك قول الشاعر:

لاَ مَـــالَ إِلاَّ العِطَـــافُ تُـــؤْزِرُهُ   أُمُّ ثَـــلاَثِيـــنَ وابْنَـــةُ الْجَبَـــلِ[2]

وقرأ ابن كثير: ﴿على سؤقه﴾ بالهمز، وهي لغة ضعيفة، يهمزون الواو قبلها ضمَّة، ومنه قول الشاعر:

لَحَـبَّ الْمُـؤْقِـدَانِ إِلَـيَّ مُـؤْسَـى   . . . .[3]

= يانعة، قد ارتفع نبتها حتّى ساوى شجر الضّال، والبيت مع أبيات قبله يصف ثوراً وحشيّاً يعيش في هذا المكان الخصيب الّذي لم يرع نباته أحد.

(١) في بعض النسخ: «وقال ابن مجاهد وغيره»: وما أثبتناه يوافق مافي البحر المحيط، قال أبو حيّان: «وقول مجاهد وغيره: (آزَرَهُ: فَاعَلَه) خطأٌ؛ لأنَّه لم يسمع في مضارعه إلا يُؤْزِرُ على وزن يُكْرِمُ».

(٢) البيت في اللّسان ـ جبل وعطف ـ وقد ذكره غير منسوب وذكر معه أبياتاً أُخرى، قال: أنشد أبو العبّاس ثعلب وغيره:

لا مَـــالَ إلاَّ العطَـــافُ تُـــؤْزِرُهُ   أُمُّ ثَـــلاثِيـــنَ وابْنَـــةُ الْجَبَـــلِ
لا يَـــرْتَقِـــي النَّـــزُّ فـــي ذَلاذِلِـــهِ   وَلا يُعَـــرِّي نَعْلَيْـــهِ مِـــنْ بَلَـــلِ
عُصْـــرَتُـــهُ نُطْفَـــةٌ تَضَمَّنَهَـــا   لِصْـــبٌ تَلَقَّـــى مَـــوَاقِـــعَ السَّبَـــلِ

والأبيات في وصف صُعْلوك، يقول عنه: إنّه لا يملك شيئاً إلاّ العطاف، وأُمّ ثلاثين، وابنة الجبل، أمّا العطاف فهو السّيف، سمّي بذلك لأنّه يُسَمّى للأنسان رداءً، والرِّداءُ هو العطاف وهو المعطف، وأُمّ الثّلاثين هي الكنانة فيها ثلاثون سهماً، وأمّا ابنة الجبل فهي قوسٌ من نبعة في جَبَل، وهو أصلبُ لعودها، وفي البيتين التّاليين يقول: إنّه لا يناله نزٌّ من الأرض، لأنه يأوي إلى الجبال، والعصرة: الملجأ، والنُّطفة: الماءُ، واللِّصْبُ: شقّ الجبل، فهو يعيش في شقٍّ من الجبل.

والشّاهد هنا أن قوله: «تُؤْزِرُهُ» في البيت دليل على أَنَّ وزن «آزَرَ» أفْعَل، إذ «تُؤْزِرُ» هي المضارع، فالماضي أفعل، فهي مثل أَكْرَمَ يُكْرِم، ومن هنا يظهر خطأُ مجاهد في قوله: إنَّ وزنها فاعَلَهُ.

(٣) هذا صدر بيت قاله جرير من قصيدة يمدح بها هشام بن عبد الملك، والبيت بتمامه:

لَحَـبَّ الْمُـؤْقِـدَانِ إِلَـيَّ مُـؤْسَـى   وجَعْـدَةُ لَـوْ أَضَـاءَهُمَـا الْـوَقُـودُ

وهو في اللّسان والتّاج والخصائص وسرّ الصّناعة والمحتَسَب والطّبريّ ومخطوطة أنساب الأشراف والكشّاف، وقد سبق الاستشهاد به أكثر من مرّة على أنَّ الواو قد تقلّب همزة إجراءً لضمّة ما قبلها =

و﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ جملة في موضع الحال، فإذا أعجب الزُّرَّاعَ فهو أحرى أَنْ يُعْجب غيرهم لأنه لا عيب فيه؛ إذْ قد أعجب العارفين بالعيوب، ولو كان معيباً لم يُعجبهم، وهنا تمَّ المثلُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ ابتداءُ كلم قبله محذوف تقديره: جعلهم الله تعالىٰ بهذه الصِّفة ليغيظ بهم الكفّار، و«الكُفَّارُ» هنا: المشركون، قال الحسن: من غيظ الكفّار قول عمر رضي الله عنه بمكَّة: «لاَ عُبِدَ اللهُ عزَّ وجلَّ سرًّا بعد اليوم»، وقوله تعالىٰ: [مِنْهُمْ] هي لبيان الجنس وليست للتبعيض[1]، لأنه وعْدٌ مُرَجٍّ للجميع.

كمل تفسير سورة الفتح والحمد لله ربّ العالمين

* * *

= مجرى ضمَّة نفسها، وقد رُوي: أحبُّ المؤقدين، ورواية الديوان: لَحَبَّ الواقدان، ولكلٍّ رواية تخريجها، وكان موسى وجعدة مشهورين بالسَّخاء وإيقاد النّار للقِرَى، وحَبَّ فعل ماضٍ أصله حَبُبَ مثل كرُمَ، ومعناه: صار محبوباً، واللاّم في «لَحَبَّ» جوابُ قسم محذوف، وكان المفروض أن يقول: لقد حَبَّ الواقدان إليَّ إلاّ أنَّ القاعدة أن يقتصر في أفعال المدح على اللاَّم بدون قد لعدم تصرُّفها، وقد أجرى لَحَبَّ مجرى أفعال المدح، فهو مثل: والله لنِعْمَ الرَّجُلُ زيد، والمُوقدان هما موسى وجعدة، والوقود ـ بفتح الواو ـ ما يوقد به من الحطب، وبضمِّ الواو مصدر بمعنى الإيقاد، ومعنى البيت: لمّا أضاءَ إيقادُ النّار موسى وجعدة ورأيتهما من ذوي الوضاءة والنّور والبهجة صارا محبوبين لي.

(١) فهو مثل [مِنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾، إذ المعنى: فاجتنبوا الرِّجس من جنس الأوثان، وكذلك المعنى هنا: من جنس الصَّحابة، وقيل: إنَّ [من] في الآية هنا للتَّوكيد، كقولك: قطعت من الثَّوب قميصاً، أي: قطعت الثَّوب كلَّه قميصاً، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ﴾، لأنَّ القرآن كلَّه شفاءٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سُورة الحُجُرات

وهي مدنيَّة بإجماع من أهل التَّأويل(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾.

كانت عادة العرب ـ وهي إلى الآن ـ الاشتراك في الآراءِ، وأن يتكلم كلٌّ بما شاءَ ويفعل ما أَحبَّ، فمشى بعض النَّاس ممن لم تتمرَّنْ نفسه مع النَّبيِّ ﷺ على بعض ذلك، قال قتادة: فربَّما قال قوم: لو نزل كذا وكذا في معنى كذا، ولو فعل الله كذا، وينبغي أن يكون كذا، وأَيضاً فإنَّ قوماً ذبحوا ضحاياهم قبل النَّبيِّ ﷺ، حكاه الحسن بن أَبي الحسن، وقوماً فعلوا في بعض حروبه وغزواته شيئاً بآرائهم، فنزلت هذه الآية ناهية عن جميع ذلك.

وحكى الثَّعلبيُّ عن مسروق أَنَّه قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها في يوم الشَّكِّ، فقالت للجارية: اسقه عسلاً، فقلت: إنِّي صائم، فقالت: نهى رسول الله ﷺ عن صيام هذا اليوم، وفيه نزلت: ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾، وقال ابن زيد: معنى ﴿ لَا تُقَدِّمُوا ﴾: لاَ تَمشوا بين يدي رسول الله ﷺ، وكذلك بين يدي العلماءِ، فإنَّهم ورثة الأنبياءِ، وتقول العرب: تَقَدَّمْتُ في كذا وكذا وقَدَّمْتُ فيه إذا قلتَ فيه.

---

(١) قال القرطبيُّ أيضاً: هي مدنية بإجماع، وأخرج ابن الضريس، والنَّحَّاس، وابن مردويه، والبيهقيُّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: نزلت سورة الحجرات بالمدينة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزُّبير رضي الله عنهما مثله. (ذكر ذلك السُّيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور، والشَّوكانيُّ في فتح القدير).

وقرأَ الجمهور من القراءِ: [تُقَدِّمُوا] بضمِّ التَّاءِ وكسر الدّال، وقرأَ ابن عبّاس، والضَّحّاك، ويعقوب، بفتح التّاءِ والدّال على معنى: لا تتقدَّموا، وعلى هذا يجيءُ تأْويل ابن زيد في المشي، والمعنى على ضمِّ التَّاءِ: بين يَدَيْ قول الله ورسوله.

ورُوي أَنَّ سبب هذه الآية هو أَنَّ وفد بني تميم لمَّا قدِم، قال أَبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، لو أَمَّرْتَ الأَقرع بن حابس، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، بل أَمِّر القعقاع بن مَعْبد، فقال أَبو بكر رضي الله عنه: ما أَردتَ إِلاَّ خلافي، ويروى: إِلى خلافي، فقال عمر رضي الله عنه: ما أَردتُ خلافك، وارتفعت أَصواتهما، فنزلت الآية في ذلك[1]، وذهب بعض قائلي هذه المقالة إِلى أَن قوله تعالىٰ: ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ ﴾ معناه: لا تُقدِّموا ولاة، فهو من تقدّم الأُمراءِ، وعموم اللَّفظ أَحسن، أَي: اجعلوه مبدأً في الأَقوال والأَفعال. و[سَميعٌ] معناه: لأَقوالكم، و[عَليمٌ] معناه: بأَفعالكم ومقتضى أَقوالكم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ الآية هي أَيضاً في ذلك الفنِّ المتقدّم، ورُوي أَنَّ سببها كلام أَبي بكر وعمر رضي الله عنهما المتقدم في أَمْر الأَقرع والقعقاع، والصَّحيح أَنَّها نزلت بسبب عادة الأَعراب في الجفاءِ وعُلُوِّ الصَّوت والعُنْجهيَّة، وكان ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه مِمَّن في صوته جهارة، فلمَّا نزلت هذه الآيةُ اهْتَمَّ وخاف على نفسه وجلس في بيته لم يخرج وهو كئيب حزين، حتّى عرف رسول الله ﷺ خبره، فبعث إِليه فآنسه وقال له: «امْش في الأَرض بَسْطاً فإِنَّك من

(١) روى ذلك البخاريُّ في صحيحه عن عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنهما، ورواه أيضاً عن ابن أبي مُلَيْكَة، قال: كاد الخَيِّران أن يَهْلِكَا، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النَّبيِّ ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، قال نافع: لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلاَّ خلافي، قال: ما أردتُ خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ ﴾ الآية، قال ابن الزُّبير: فما كان عُمر يُسْمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، وذكر الواحديُّ هذا في «أسباب النُّزول» بسنده دون الجزء الأخير وهو قول ابن الزُّبير رضي الله عنهما، وأورد السُّيوطيُّ الحديث في الدُّرِّ المنثور وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن مردويه، عن عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنهما.

وقد ذكر ابن عطيَّة هنا أنَّ أبا بكر أشار بإمارة الأقرع بن حابس، وأن عمر أشار بإمارة القعقاع بن مَعْبد، ولكن الرِّواية الثّابتة في الدُّرِّ المنثور، وفي أسباب النزول أنَّ العكس هو الصَّحيح، وأنَّ أبا بكر أشار بالقعقاع، وعمر أشار بالأقرع، وما في الطَّبريِّ يوافق ما ذكره ابن عَطِيَّة، ورواية البخاريِّ لم تحدِّد.

أَهل الجنَّة»(١)، وقال له مرَّة: «أَما ترضى أَن تعيش حميداً، وتموت شهيداً»، فعاش كذلك ثمَّ قُتل رضي الله عنه باليمامة يوم مسيلمة(٢). وفي قراءَة ابن مسعود: [لاَ تَرْفَعُوا بِأَصْوَاتِكُمْ] بزيادة باءٍ. وقوله تعالىٰ: ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أَي: كحال جهركم في جفائه وكونه مخاطبة بالأَسماءِ والأَلقاب، وكانوا يدعون النَّبيَّ ﷺ: يا محمد، قاله ابن عبّاس وغيره، فأَمرهم الله تعالىٰ بتوقيره وأَن يدعوه بالنُّبوَّة والرِّسالة والكلام اللَّيِّن، فتلك حالة الموقَّر، وكره العلماءُ رفع الصَّوت عند قبر النَّبيِّ ﷺ وبحضرة العالم وفي المساجد، وفي الجميع آثارٌ.

---

(١) رواه البخاريُّ ومسلم في صحيحيهما، رواه البخاريُّ من حديث موسى بن أنس، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك عِلْمه، فأتاه فوجده جالساً في بيته مُنكِّساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شرٌّ، كان يرفع صوته فوق صوت النَّبيِّ ﷺ، فقد حبط عملُه وهو من أهل النّار، (وهذا التفات من الحاضر إلى الغائب، والأصل: كنتُ أرفع صوتي)، فأتى الرَّجلُ النَّبيَّ ﷺ فأخبره أنَّه قال كذا وكذا، فقال موسى: فرجع إليه المرَّة الأخيرة ببشارة عظيمة، فقال: «اذهب إليه فقل له: إنَّك لست من أهل النَّار، ولكنَّك من أهل الجنَّة»، ورواه مسلم من رواية حمّاد بن سلمة، عن ثابت البنانيِّ، عن أنس بن مالك، وأورده السُّيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور، وزاد نسبته إلى الإمام أحمد، وأبو يعلى في معجم الصَّحابة، والطَّبرانيُّ، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقيُّ في الدَّلائل، عن أنس بن مالك.

(٢) هو ثابت بن قيس بن شماس الخزرجيُّ، يكنى أبا محمد، وقيل: أبا عبد الرّحمن، قُتل له ثلاثة من أولاده يوم الحرَّة، وهم: محمد، ويحيى، وعبد الله، وكان خطيباً بليغاً معروفاً بذلك، كان يقال له: خطيب رسول الله ﷺ كما يقال لحسّان بن ثابت: شاعر رسول الله ﷺ، وقد خطب يوم قدم وفْدُ بني تميم على رسول الله ﷺ خطبة بليغة جزلة، كما قال حسان بن ثابت قصيدة ردَّ بها على الأقرع بن حابس شاعر بني تميم، فقال الوفد: خطيبهم أخطب من خطيبنا، وشاعرهم أشعر من شاعرنا، وفي يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة، وفي اللِّقاء انكشف المسلمون فقال ثابت ومعه سالم مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنّا نقاتل مع رسول الله ﷺ، ثمّ حفر كلٌّ واحد منهم حفرة فثبتا وقاتلا حتّى قُتلا، وعلى ثابت يومئذ دِرْعٌ له نفيسة، فمرَّ به رجل من المسلمين فأخذها، وبينما رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت في منامه فقال له: أوصيك بوصيّة، فإيَّاك أن تقول: هذا حُلم فتضيِّعه، إني لمَّا قُتلت جاء رجل من المسلمين فأخذ درعي، ومنزله في أقصى النّاس، وعند خبائه فرس يَسْتَنُّ ـ يعدو إقبالاً وإدباراً في طِوَله ـ والطِّوَلُ: الحبل الطَّويل يُشَدُّ أحد طرفيه في وتد والطَّرف الآخر في رجل الفرس ـ وقد كفأ على الدِّرع بُرْمة، وفوق البُرْمة رحل، فأتِ خالداً فمُره أن يبعث إلى درعي فيأخذها، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله ﷺ ـ يعني أبا بكر رضي الله عنه ـ فقل له: إنَّ عليَّ من الدَّيْن كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيق وفلان، فأتى الرّجل خالداً فأخبره فبعث إلى الدِّرع فأحضرها، وحدَّث أبا بكر رضي الله عنه برؤياه فأجازها الصِّديق، قيل: ولا نعلم أحداً أُجيزت وصيَّته بعد موته غير ثابت بن قيس رضي الله عنه. (راجع الاستيعاب؛ والإصابة والدرَّ المنثور).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَن تَحۡبَطَ﴾ مفعول من أجله، أي مخافة أن تحبَط، والحبط: الفساد في العمل بعد تقرُّره، يقال: حبط بكسر الباءِ، وأحبطه الله، وهذا الحبْط إن كانت الآية مُعَرِّضة بمن يجهر استخفافاً واحتقاراً وجُرْأَةً فذلك كُفْر والحَبْطُ معه على حقيقته، وإن كان التَّعريض للمؤمن الفاضل الَّذي يفعل ذلك غفلة وجرياً على طبعه فإنَّما يحبط عمله البرَّ في توقير النَّبيِّ ﷺ وغَضِّ الصَّوت عنده إنْ لَوْ فعل ذلك، كأنَّه قال: مخافة أن تحبط الأعمال الَّتي هي مُعَدَّةٌ أن تعملوها فتؤجروا عليها، ويحتمل أن يكون المعنى: أن تأْثَمُوا ويكون ذلك سبباً إلى الوحشة في نفوسكم، فلا تزال معتقداتكم تتدرَّج القهقرى حتَّى يؤول ذلك إلى الكفر فيُحْبط الأعمال حقيقة، وظاهر الآية أنَّها مخاطبة لفُضلاءِ المؤمنين الَّذين لا يفعلون ذلك احتقاراً، وذلك أنَّه لا يقال لمنافق يعمل ذلك جرأة: «وأنت لا تشعر» لأنَّه ليس له عمل يعتقده هو عملاً، وفي قراءَة عبد الله بن مسعود: [فَتَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ].

ثمَّ مدح تعالىٰ الصِّنف المخالف لمن تقدَّم ذكره وهم الَّذين يَغُضُّون أَصواتهم عند النَّبيِّ ﷺ، وغضُّ الصَّوت: خَفْضُه وكَسْرُه، وكذلك البصر، ومنه قول جرير:

فَغُـضَّ الطَّـرْفَ إِنَّـكَ مِـنْ نُمَيْـرٍ . . . .[1]

ورُوي أَنَّ أَبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا بعد ذلك لا يكلمان رسول الله ﷺ إلاَّ كأَخي السِّرار[2]، وأَنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يحتاج مع عمر رضي الله عنه بعد ذلك إلى استعادة

---

(١) هذا صدر بيت قاله جرير يهجو الرّاعي النُّميري، والبيت بتمامه:

فَغُـضَّ الطَّـرْفَ إِنَّـكَ مِـنْ نُمَيْـرٍ ... فَـلا كَعْبـاً بَلَغْـتَ وَلاَ كِـلابـاً

وهو من قصيدته البائية الَّتي بدأها بقوله:

أَقِلِّـي اللَّـوْمَ عَـاذِلَ والعِتَـابَـا ... وَقُـولـي إنْ أَصَبْـتُ لَقَـدْ أَصَـابَـا

والبيت في الدِّيوان، والكتاب لسيبويه، والعينيّ، وابن يعيش، والهمع، والأشمونيّ، وشرح شواهد الشّافية، والتّصريح، وفي الكامل للمبرّد: (فَغُضِّ) بكسر الضّاد، وفي الخزانة: فَغُضّ بالفتح والكسر والضمّ، والنّحويون يستشهدون به على جواز الفتح في (غُضَّ) المضعّف لالتقاء السّاكنيْن، وقد قيل: هو أهجى بيت قالته العرب.

(٢) ذكره الوّاحديُّ في (أسباب النزول)، وأخرجه البزّار، وابن مردويه من طريق طارق بن شهاب عن أبي بكر رضي الله عنه، وأخرجه الحاكم، والبيهقيُّ في (المدخل) من حديث أبي هريرة وقال: «صحيح على شرط مسلم».

اللَّفظ؛ لأَنَّه كان لا يسمعه من إخفائه إيَّاه(١).

و[امْتَحَنَ] معناه: اختبر وطهَّر كما يُمتحن الذَّهب بالنَّار، فيسَّرها وهيَّأها للتَّقوى، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: امْتحن للتَّقوى: أَذهب عنها الشَّهوات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

من غَلَب شهوته وغضبه فذلك الَّذي امتحن الله تعالىٰ قلبه للتَّقوى، وبذلك تكون الاستقامة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نزل في وفد بني تميم، حيث كان الأَقرع بن حابس، والزِّبرقان بن بدر، وعمرو بن الأَهتم، وغيرهم، وذلك أَنَّهم وفدوا على رسول الله ﷺ فدخلوا المسجد ودنَوْا من حجر أَزواج النَّبيِّ ﷺ وهي تسع، فعجِلوا ونادَوْا ولم ينتظروا، ونادوا بجملتهم: يا محمد، اخرج إلينا، يا محمد، اخرج إلينا، فكان في فعلهم ذلك جفاءٌ وبداوة وقلَّة توقير، فتربَّص رسول الله ﷺ مدَّة، ثمَّ خرج إليهم، فقال له الأقرع بن حابس: يا محمد، إنَّ مدحي زين، وذَمِّي شيْن، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «ويلك ذلك الله تعالىٰ»، واجتمع النَّاس في المسجد، فقام خطيبهم فخطب وفخر، فأَمر رسولُ الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه، فخطب وذكر الله تعالىٰ والإسلام وأَربى على خطيبهم، ثمَّ قام شاعرهم فأَنشد مفتخراً، فقام حسَّان بن ثابت رضي الله عنه ففخر بالله تعالىٰ وبالرسول ﷺ وبالبسالة فكان أَشعر من شاعرهم، فقال بعضهم لبعض: والله إنَّ هذا الرَّجل لَمُؤَتًّى له،

---

(١) جاء ذلك في حديث ابن أبي مُلَيْكَة الَّذي رواه البخاريُّ وذكرناه قبل ذلك، وفيه أن ابن الزُّبير رضي الله عنهما قال: «فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتّى يستفهمه»، وفي الخبر أنَّه لم يذكر عن جدِّه أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين، راجع صفحة (٦) من هذا المجلد.

لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ثمَّ نزلت فيهم هذه الآية[١].

هذا تلخيص ما تظاهرت به الرِّوايات في هذه الآية، وقد رواه موسى بن عقبة عن أبي سلمة عن الأقرع بن حابس، وفي مصحف ابن مسعود: [أَكْثَرُهُم بَنُو تَمِيم لاَ يَعْقِلُونَ].

و«الْحُجُرَات» جمع حجرة، وقرأ الجمهور من القرَّاءِ: [ٱلْحُجُرَاتِ] بضمِّ الحاءِ والجيم، وقرأ أبو جعفر القارىء وحده: [ٱلْحُجَرَاتِ] بفتح الجيم. وقوله تعالىٰ: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ يعني في الثَّواب عند الله تعالىٰ، وفي انبساط نفس النَّبيِّ ﷺ لهم وقضائه لحوائجهم وَوُدِّه لهم، وذلك كلّه خير، ولا محالة أَنَّ بعضه انزوى بسبب جفائهم. وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ترجيةٌ لهم وإعلامٌ بقبوله توبة التّائب، وغفرانه ورحمته لمن أناب ورجع.

قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ الآية. سببها أَنَّ النَّبيَّ ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أَبي مُعَيْط إِلى بني المصطلق مُصَدِّقاً[٢]، فرُوي أَنَّه كان معادياً لهم فأراد إِذايتهم، فرجع من بعض طريقه وكذب عليهم ـ قاله الضَّحّاك ـ وقال للنَّبيِّ ﷺ: إِنَّهم قد منعوا الصدقة وطردوني وارتدوا، فغضب النبي ﷺ وهمَّ بغزوهم ونظر في ذلك، وبعث خالد بن الوليد إِليهم، فورد وفدهم منكرين لذلك[٣]، وروي عن أُمِّ سَلَمة

---

(١) ذكره الواحديُّ النيسابوريُّ في (أسباب النزول)، وهو خبر طويل، وذكره ابن إسحاق في السّيرة، وقد أورد خطبة ثابت بن قيس في الرَّدِّ على خطيب بني تميم وهو عطارد بن حاجب، وأورد شعر الزّبرقان بن بدر شاعر بني تميم، وشعر حسَّان بن ثابت في الرَّدِّ عليه، ومن شعر الزَّبرقان قوله:

نَحْنُ الْكِرَامُ فَلا حَيٌّ يُعَادِلُنَا ... مِنَّا الْمُلُوكُ وفِينَا تُنْصَبُ الْبِيَعُ
وَكَمْ قَسَرْنَا مِنَ الأَحْيَاءِ كُلِّهِمِ ... عِنْدَ النِّهَابِ وَفَضْلُ الْعِزِّ يُتَّبَعُ

ومن شعر حسَّان قوله:

أَكْرِمْ بِقَوْمٍ رَسُولُ اللهِ شِيعَتُهُمْ ... إِذا تَفَاوَتَتِ الأَهْوَاءُ والشِّيَعُ
أَهْدَى لَهُمْ مِدْحَتِي قَلْبٌ يُؤَازِرُهُ ... فِيما أُحِبُّ لِسَانٌ حَائِكٌ صَنَعُ
فَإِنَّهُمْ أَفْضَلُ الأَحْيَاءِ كُلِّهِمِ ... إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ الْقَوْلِ أَوْ شَمَعُوا

والصَّنَع هو الَّذي يُحْسِن القول ويُجيده، ومعنى «شَمعُوا»: هَزَلُوا، وأصل الشَّمع: الطَّرَبُ واللَّهْوُ، أمّا قول الأقرع بن حابس: إِنّ هذا الرَّجُلَ لَمُؤَتّىً لَهُ فمعناه: لَمُوَفَّق له.

(٢) المُصَدِّقُ: العاملُ الَّذي يجبي الصَّدقات.

(٣) أخرجه أحمد، وابن أبي حاتم، والطَّبرانيُّ، وابن منده، وابن مردويه، بسند جيِّد عن الحارث بن ضرار=

وابن عبّاس رضي الله عنهم أَنَّ الوليد بن عقبة، لمّا قرب منهم خرجوا إِليه متلقّين له، فرآهم على بُعْد ففزع منهم وظنَّ بهم الشَّرَّ وانصرف فقال ما ذكرناه[١]، وروي أَنَّه لمّا قرب منهم بلغه عنهم أَنَّهم قالوا: لا نعطيه الصَّدقة ولا نعطيه، فعمل على صحَّة هذا الخبر وانصرف فقال ما ذكرناه، فنزلت الآية بهذا السَّبب، والوليد ـ على ما ذَكَرَ مجاهد وقتادة ـ هو المشار إِليه بالفاسق، وحكى الزَّهراوي: قالت أُمُّ سَلَمة: هو الوليد بن عُقَبَة ثمَّ هي باقية فيمن اتَّصف بهذه الصِّفة غابر الدَّهر. و«الفِسْقُ»: الخروج عن نهج الحق، وهو مراتب متباينة كلُّها مظنَّة للكذب وموضع تَثَبُّت وتَبَيُّن، وتأَنَّس القائلون بقبول خبر الواحد بما يقتضيه دليل خطاب هذه الآية؛ لأَنَّه يقتضي أَنَّ غير الفاسق إِذا جاءَ بنبأٍ أَن يعمل بحسبه، وهذا ليس باستدلال قوي، وليس هذا موضع الكلام على مسأَلة خبر الواحد.

وقرأَ الجمهور من القراءِ: [فَتَبَيَّنُوا] من التَّبَيُّن، وقرأَ حمزة، والكسائيُّ، والحسن، وابن وثّاب، وطلحة، والأَعمش، وعيسى: [فَتَثَبَّتُوا] من التَّثَبُّت. و[أَنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿أن تصيبوا﴾ مفعول من أَجله، كأَنَّه تعالىٰ قال: مخافة أَن تصيبوا، وقال قتادة: قال رسول الله ﷺ عندما نزلت هذه الآية: «التَّثَبُّت من الله والعجلة من الشَّيطان»[٢]، قال منذر بن سعيد: هذه الآية تردُّ على من قال إِن المسلمين كلُّهم عدول حتّى تثبت الجرحة لأَنَّ الله تعالىٰ أَمر بالتَّبَيُّن قبل القبول[٣].

= الخزاعيّ، وأخرج مثله الطَّبرانيُّ، وابن منده، وابن مردويه، عن علقمة بن ناجية، وأخرجه الطبراني في الأوسط عن جابر بن عبد الله، مع اختلاف في الألفاظ.

(١) أخرجه ابن راهويه، وابن جرير، والطَّبرانيُّ، وابن مردويه، عن أُمِّ سَلَمة رضي الله عنها، وأخرجه ابن جرير، وابن مردويه، والبيهقيُّ في سننه، وابن عساكر، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. (الدُّرُّ المنثور).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة، وهو جزءٌ في آخر الحديث الَّذي رواه قتادة عن إرسال النَّبيِّ ﷺ الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق، واللَّفظ المذكور في الدُّرِّ المنثور: «التَّأَنِّي من الله والعجلة من الشَّيطان»، وذكره السُّيوطيُّ في الجامع الصَّغير من رواية البيهقيِّ في شعب الإيمان عن أنس رضي الله عنه، ثمَّ رمز له بأنَّه ضعيف.

(٣) إذ لا معنى للتَّثبُّت بعد إنفاذ الحكم، فإنْ حكم الحاكم قبل التَّثبُّت فقد أصاب المحكوم عليه بجهالة وهو ما نصَّت عليه الآية الكريمة ﴿أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾. ثمَّ إنَّ الله تبارك وتعالىٰ لم يأمر بالتَّبَيُّن إلاّ عند مجيء الفاسق لا مجيء المسلم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقوله يقتضي أَن المجهول الحال يخشى أَن يكون فاسقاً، والاحتياط لازم. قال النَّقاش: وقوله تعالىٰ: [فَتَبَيَّنُوا] أَبلغ من [تَثَبَّتُوا]؛ لأَنَّه قد يَتَثَبَّت من لا يَتَبَيَّن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ توبيخ للكذبة ووعيدٌ بالفضيحة، أَي: فليفكِّر الكاذب في أَنَّ الله تعالىٰ يفضحه على لسان رسوله ﷺ، ثمَّ قال: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾، أَي لشقيتم وهلكتم، والعَنَتُ: المشقَّة، أَي: لو يُطيعكم أَيُّها المؤمنون في كثير مما ترونه باجتهادكم وتقدُّمكم بين يديه، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ الآية، كأَنَّه تعالىٰ قال: ولكن أَنعم بكذا وكذا، وفي ذلك كفاية وأَمْرٌ لا تقومون بشكره، فلا تتقدَّموا في الأُمور واقنعوا بإِنعام الله تعالىٰ عليكم، وحبَّب الله تبارك وتعالىٰ الإِيمان وزَيَّنه بأَن خلق في قلوب المؤمنين حُبَّه وحَسَّنه، وكذلك تكْريهُ الكفر والفسوق والعصيان، وحكى الرُّمَّاني عن الحسن أَنَّه حبَّب الإِيمان بما وصف من الثَّواب عليه، وكرَّه الثَّلاثة المقابلة للإِيمان بما وصف من العقاب عليها، وقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ رجوعٌ من الخطاب إِلى ذكر الغيبة، كأَنَّه تعالىٰ قال: ومَن فعل هذا معه وقَبلَه وشكَر عليه فأُولَئك هم الرَّاشدون.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾ مصدر مؤكّد بنفسه لأَنَّ ما قَبْلَه هُوَ بمعناه؛ إِذ التَّحبيب والتَّزيين هو نفس الفضل، وقد يجيءُ المصدر مؤكّداً لما قَبْلَه إِذا لم يكن هو نفس ما قَبْله، كقولك: جاءَ زيد حقًّا ونحوه، وكان قتادة رحمه الله تعالىٰ يقول: قد قال تعالىٰ لأَصحاب محمد ﷺ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾، وأَنتم والله أَسخف رأْياً وأَطْيش أَحلاماً، فلْيَتَّهم رجلٌ نفسه ولْيَنْتَصح كتابَ الله تبارك وتعالىٰ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾.

[طَائِفَتَانِ] مرفوع بإِضمار فعل، والطَّائفة: الجماعة، وقد تقع على الواحد، واحْتُجَّ

لذلك بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾(١)، ورأى بعض النّاس أنّه يُجزي أن يشهد حدَّ الزّناة واحد، فهذه الآية الحُكمُ فيها في الأفراد وفي الجماعات واحد.

واختلف النّاس في سبب هذه الآية ـ فقال أنس بن مالك والجمهور: سببها ما وقع بين المسلمين وبين المتحزِّبين منهم أيضاً مع عبد الله بن أُبَيٍّ بن سَلُول حين مرَّ به رسول الله ﷺ وهو متَّجه لزيارة سعد بن عبادة رضي الله عنه في مرضه، فقال عبد الله بن أُبَيٍّ لما غَشِيَه حمار رسول الله ﷺ: لا تُغَبِّرُوا علينا، ولقد آذانا نَتَنُ حمارك، فردَّ عليه عبد الله بن رواحة رضي الله عنه الحديث بطوله... فتلاحى النأس حتّى وقع بينهم ضربٌ بالجريد، ويروى بالحديد(٢).

وقال أَبو مالك، والحسن: سببها أَنَّ فرقتين من الأَنصار وقع بينهما قتال، فأَصلحه رسول الله ﷺ بعد جهد ونزلت الآية في ذلك.

وقال السُّدِّيُّ: كانت بالمدينة امرأَة من الأَنصار يقال لها: أُمُّ بَدْرٍ(٣)، وكان لها زوج من غيرهم، فوقع بينهما شيءٌ أَوجب أَن يأْنف لها قومها وله قومه، فوقع قتال نزلت الآية بسببه(٤).

---

(١) من الآية (١٢٢) من سورة (التوبة).

(٢) حديث أنس رضي الله عنه أخرجه البخاريُّ ومسلم في صحيحيهما، وذكره الواحديُّ في (أسباب النزول) بسنده عن معتمر بن سليمان عن أبيه، ونقله عنه القرطبيُّ، وذكره السُّيوطيُّ في (الدُّرّ المنثور)، وزاد نسبته إلى الإمام أحمد، وابن جرير الطَّبريِّ، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقيِّ في سننه، وليس فيه أنَّ النَّبيَّ ﷺ مرَّ على ابن سلول وهو ذاهب إلى زيارة سعد بن عبادة، بل فيه أنَّه قيل للنَّبيِّ ﷺ: لو أتيتَ عبد الله بن أُبَيٍّ، فانطلق وركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سَبِخَة، فلمَّا انطلق إليهم قال: إليك عنّي فوالله لقد آذاني ريح حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجال من قومه، وغضب لكلٍّ منهما أصحابه، فكان بينهم ضربٌ بالجريد والأيدي والنِّعال، فأُنزل فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾. أمّا حديث زيارة سعد بن عبادة فقد أخرجه البخاريُّ ومسلم في صحيحيهما عن أُسامة بن زيد رضي الله عنه، وفيه أنَّ رسول الله ﷺ خرج يعود سعد بن عبادة، فمرَّ بمجلس فيهم عبد الله بن أُبَيٍّ وعبد الله بن رواحة، فخمَّر ابن أُبَيٍّ وجهه بردائه، وقال: لا تُغَبِّرُوا علينا... إلخ الحديث وهو طويل، وقد ذكره أبو الفرج البغداديُّ بطوله في كتابه «المغني».

(٣) في جميع كتب التَّفسير والحديث «أُمّ زيد».

(٤) أخرجه ابن جرير الطَّبريُّ، وابن أبي حاتم عن السُّدِّيِّ، قال: كان رجل من الأنصار يقال له عمران، =

و[بَغَتْ] معناه: طلبت العُلُوَّ بغير الحقِّ، ومدافعةُ الفئة الباغية تتوجَّه في كلِّ حال، وأَمَّا التَّهيُّؤُ لقتالها فمع الوُلاَة، وقيل لعليٍّ بن أَبي طالب رضي الله عنه: أَمُشْركون هم أَهل صفّين والجمل؟ قال: لا، من الشِّرك فرُّوا، قيل: أَفَمُنَافقون؟ قال: لا، لأَنَّ المنافقين لا يذكرون الله إلاَّ قليلاً، قيل: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا، وقال النَّبيُّ ﷺ: «حكم الله تعالىٰ في الفئة الباغية أَلاَّ يُجهز على جريح، ولا يُطلب هارب، ولا يُقتل أَسير»[١]. و[تَفِيءُ] معناه: ترجع، و«الإقساط»: الحكم بالعدل.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، يريد تعالىٰ أُخوة الدّين، وقرأَ الجمهور من القراءِ: ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وذلك رعاية لحال أَقل عدد يقع فيه القتال والتَّشاجر، والجماعة متى قصدوا الإصلاح فإنَّما هو بين رجلين رجلين، وقرأَ ابن عامر، والحسن ـ بخلاف عنه ـ: [بين إِخْوَتِكُم]، وقرأَ ابن مسعود، وزيد بن ثابت، وابن سيرين، والحسن، وعاصم الجحدريُّ، وثابت البنانيُّ، وحمّاد بن سلمة: [بين إِخْوَانِكُمْ]، وهي حسنة لأَنَّ الأَكثر من جمع الأَخ في الدِّين ونحوه من غير النَّسب إِخوان، والأَكثر من النَّسب إِخْوَةٌ وآخاءٌ، قال الشاعر:

وَجَـدْتُـمْ أَخَـاكُـمْ بَيْنَنَـا إِذْ نُسِبْتُـمُ ... وأَيُّ بنـي الآخَـاءِ تَنْبُـو مَنَـاسِبُـهْ؟[٢]

وقد تتداخل هذه الجموع، وكلُّها في كتاب الله تعالىٰ، فمنه ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾،

= تحته امرأة يقال لها أُمُّ زيد، وأَنَّها أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في علية لا يدخل عليها أحد من أهلها، وأن المرأة بعثت إلى أهلها فجاء قومها فأنزلوها لينطلقوا بها، وكان الرَّجل قد خرج، فاستعان أهلَ الرَّجل فجاء بنو عمِّه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها، فتدافعوا وتجادلوا بالنِّعال، فنزلت فيهم هذه الآية ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾، فبعث إليهم رسول الله ﷺ فأصلح بينهم وفاؤوا إلى أمر الله. (الدُّرُّ المنثور).

(١) ذكر القرطبيُّ هذا الحديث، قال: «وقال ابن عمر: قال النَّبيُّ ﷺ: «يا عبد الله، أتدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمَّة»؟ قال: الله ورسوله أعلم، فقال: «لا يُجْهز على جريحها، ولا يُقْتل أسيرها، ولا يُطْلب هاربها، ولا يُقْسم فَيْئُهَا».».

(٢) البيت في اللِّسان والتَّاج غير منسوب، وإنَّما قالا: «وأنشد أبو عليٍّ»، قال صاحب اللِّسان: «ويدلُّ على أنَّ أخاً فَعَلٌ مفتوحة العين جَمْعهم إيَّاها على أفعال نحو آخاءٍ، حكاه سيبويه عن يونس، وأنشد أبو عليٍّ: وجدتُّم بينكم دوننا... البيت»، ففي روايته: «بينكم دوننا» بدلاً من «أخاكم بيننا»، وفي الصِّحاح أنَّ الأخ أصلُه أَخَوٌ بالتَّحريك، قال: «لأنَّه جمع على آخاءٍ مثل آباءٍ، والذَّاهب منه واوٌ لأنَّك تقول: أَخوان».

ومنه ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ﴾[1]، فهذا جاءَ على الأَقل في الاستعمال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

هذه الآية والَّتي بعدها نزلت في خُلُق أَهل الجاهلية، وذلك لأَنَّهم كانوا يجرون مع شهوات نفوسهم، لم يُقَوِّمْهُمْ أَمْرٌ من الله تعالىٰ ولا نَهْي، فكان الرَّجل يسخر ويلمز ويهمز وينبز بالأَلقاب ويظنُّ الظنُّون فيتكلَّم بها ويغتاب ويفتخر إِلى غير ذلك من أَخلاق النُّفوس الباطلة، فنزلت هذه الآية تأْديباً لأُمَّة محمد ﷺ.

وذكر بعض النَّاس لهذه الآيات أَسباباً، فمِمَّا قيل: إِنَّ هذه الآية ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ نزلت بسبب عكرمة بن أَبي جهل، وذلك أَنَّه كان يمشي بالمدينة مسلَّحاً، فقال له قوم: هذا ابن فرعون هذه الأُمة، فعزَّ عليه ذلك وشكاه إِلى رسول الله ﷺ، والقويُّ عندي أَنَّ هذه الآيات نزلت تقويماً لسائر الخلق، ولو تتبّعت الأَسباب لكانت أَكثر من أَن تُحصى.

و[يَسْخَرْ] معناه: يستهزىء، والهُزْءُ إِنَّما يترتب متى ضعف امرؤٌ إِمَّا لصغر وإِمَّا لعلَّة حادثة أَو لِرَزِيَّة أَو لنقيصة يأْتيها، فيُنْهى المؤمنون عن الاستهزاءِ في هذه الأُمور وغيرها نهياً عامًّا، فقد يكون ذلك المُسْتَهْزَأُ به خيراً من السَّاخر. و«القوم» في كلام العرب واقع على الذُّكران، وهو من أَسماءِ الجمع كالرَّهط، وقول من قال إِنَّه من القيام أَو جمع قائم ضعيف، ومن هذا قول الشَّاعر وهو زهير:

وَمَـا أَدْرِي وَسَـوْفَ إِخَـالُ أَدْري ... أَقَـوْمٌ آلُ حِصْـنٍ أَمْ نِسَـاءُ؟[2]

---

(١) من الآية (٦١) من سورة (النّور).

(٢) قال زهير هذا البيت من قصيدة يهجو بها بني غُلَيب، وهم آل بيت من كلب لأنَّ رجلاً قد شكاهم إليه، ثمَّ علم أنَّه ظلمهم فندم على ذلك، وقد أراد بالقوم هنا الرِّجال دون النِّساء، وهذا موضع الاستشهاد بالبيت، وقوله: «وسوف إخال أدرى» معناه: سأبحث عن حقيقة حالهم، وهذا هُزْءٌ بهم وتوعُّد لهم، وقد استشهد صاحب اللِّسان بالبيت على أنَّ «القوم» هم الرِّجال لا النِّساء.

وهذه الآية تقتضي اختصاص القوم بالذُّكران، وقد يكون مع الذُّكران نساءٌ فيقال لهم: «قَوْمٌ» على تغليب حال الذُّكور، ثم نهى الله تعالىٰ النِّساءَ عمَّا نهى عنه الرِّجال من ذلك، وقرأ أُبيٌّ بن كعب، وابن مسعود: [عَسَوْ أَنْ يكونوا] و[عَسَيْنَ أَنْ يَكُنَّ].

و[تَلْمِزُوا] معناه: يطعن بعضكم على بعض بذكر النقائص ونحوه، وقد يكون «اللَّمْزُ» بالقول وبالإشارة ونحو هذا مما يفهمه الآخر، و«الهَمْزُ» لا يكون إلاَّ باللِّسان، وهو مشبَّه بالهمز بالعود ونحوه مما يقتضي المُمَاسَّة، قال الشّاعر:

وَمَنْ هَمَزْنَا عِزَّهُ تبَرْكَعَا[١]

وقيل لأعرابيٍّ: أتهمز الفأرة؟ فقال: الهِرُّ يهمزها، وحكى الثَّعلبيُّ أَنَّ «اللَّمْزَ» ما كان في المَشْهد، وأَن «الهَمْزَ» ما كان في المغيب، وحكى الزَّهراويُّ عن عليٍّ بن سليمان عكس ذلك، فقال: الهمزُ أَن تعيب بالحضرة واللَّمز في الغيبة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[٢]، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[٣]، وقرأ الجمهور: [تَلْمِزُوا] بكسر الميم، وقرأ الأعرج والحسن بضمِّها، قال أَبو عمرو بن العلاءِ: هي عربية، وقال أَبو حاتم: قراءَتنا بالضَّمِّ وأَحياناً بالكسر، وقوله تعالىٰ: [أَنفُسَكُمْ] معناه: بعضكم بعضاً، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[٤]، كأَنَّ المؤمنين كنفس واحدة إذ هم إخوة كما قال رسول الله ﷺ: «كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عُضْوٌ تداعى سائره بالسَّهر

---

(١) البيت لرؤبة بن العجاج، وهو من قصيدة قالها يمدح تميماً، وقد ذكره في اللِّسان مع بيت بعده باللَّفظ الَّذي ذكره ابن عطيَّة هنا، ولكنَّه في الدِّيوان مختلف عن ذلك، أمّا في اللِّسان فالبيتان هما:

وَمَـــنْ همَــزْنَــا عِــزَّهُ تَبَــرْكَعَــا　　عَلَــى اسْتِــهِ زَوْبَعَــةً أَوْ زَوْبَعَــا

ومعنى تَبَرْكَعَ: صُرِعَ فوقع على استِهِ، وأمّا في الدّيوان فالرِّواية:

وَمَـــنْ هَمَــزْنَـــا رَأسَـــهُ تَلَعْلَعَــا　　وَمَـــنْ أَبَحْنَــا عِــزَّه تَبَــرْكَعَــا

عَلَــى اسْتِــهِ رَوْبَعَــةً أَوْ رَوْبَعَــا

والهَمْزُ هو الدَّفع والضَّرب ـ والبيت شاهد على هذا المعنى في اللِّسان ـ، وتَلَعْلَع: ضَعُف من المرض أو التَّعب.

(٢) الآية (١) من سورة (الهُمَزَة).

(٣) من الآية (٥٨) من سورة (التَّوبة).

(٤) من الآية (٢٩) من سورة (النِّساء).

والحُمَّى»(١)، وهم كما قال أيضاً: «كالبُنْيان يشُدُّ بعضُه بعضاً»(٢).

و«التَّنَابز»: التَّلَقُّب، والنَّبَزُ واللَّقَبُ واحد، إِذ اللَّقب هو ما يُعْرف به الإِنسان من الأَسماءِ الَّتي يكره سماعها، ورُوي أَنَّ بني سلمة كانوا قد كثرت فيهم الأَلقاب، فدعا رسول الله ﷺ رجلاً منهم فقال له: يا فلان، فقيل له: إِنَّه يغضب من هذا الاسم، ثمَّ دعا آخر كذلك، فنزلت الآية في هذا(٣)، وليس من هذا قول المحدِّثين: سليمان الأَعمش، وواصل الأَحدب(٤). ونحوه مما تدعو الضَّرورة إِليه وليس فيه قصد استخفاف ولا أَذى، وقد قال عبد الله بن مسعود لِعَلْقَمَة: أَو تقول أَنت ذلك يا أَعور(٥)؟ وأَسند النَّقّاشُ إِلى عطاءٍ، قال رسول الله ﷺ: «كفُّوا أَولادكم»، قال عطاءٌ، مخافة الأَلقاب، وقال ابن زيد: معنى ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ أَي: لا يقل أَحدٌ لآخر: يا يهودي بعد إِسلامه، ولا «يا فاسق» بعد توبته، ونحو هذا، وحكى النَّقّاش أَنَّ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والإمام مسلم في صحيحه، عن النعمان بن بشير، ورمز له الإمام السُّيوطيُّ في الجامع الصَّغير بالصِّحَّة، ولفظه فيه: «مَثَلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمَّى».

(٢) أخرجه البخاريُّ ومسلم في صحيحيهما، والتِّرمذيُّ، والنَّسائيُّ في صحيحيهما، عن أبي موسى رضي الله عنه، وذكره الإمام السُّيوطيُّ في الجامع الصَّغير ورمز له بالصِّحَّة، كما أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤ـ١٠٤، ٤٠٥، ٤٠٩).

(٣) أخرجه أحمد، وعبد بن حميد، والبخاريُّ في الأدب، وأبو داود، والتِّرمذيُّ، والنَّسائيُّ، وابن ماجه، وأبو يعْلى، وابن جرير، وابن المنذر، والبغويُّ في معجمه، وابن حبّان، والشّيرازيُّ في الألقاب، والطَّبريُّ، وابن السُّنيُّ في عمل اليوم واللَّيلة، والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه، والبيهقيُّ في شعب الإيمان، عن أبي جبيرة بن الضَّحّاك رضي الله عنه، قال: فينا نزلت، في بني سَلَمة ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾، قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فيها رجل إلاَّ وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا أحدهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنَّه يكره هذا الاسم، فأنزل الله ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾. (الدُّرُّ المنثور).

(٤) أمَّا الأعمش فهو سليمان بن مهران الأسديُّ الكاهليُّ، أبو محمد، الكوفيُّ، الأعمش، ثقة حافظ، عارف بالقراءة، ورع، قال عنه الحافظ ابن حجر: لكنَّه يُدَلِّس، مات سنة سبع وأربعين أو ثمان وأربعين. وأمَّا الأحدب فهو واصل بن حيّان الأحدب، الأسديُّ الكوفيُّ، ثقة ثبت، مات سنة عشرين ومائة، قال العلماءُ: ليس هذا من التنابز بالألقاب لأنَّه أُريد به الصِّفة ولم يُرد به العيب، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن سَرْجِس قال: رأيت الأصْلَع يُقَبِّل الحجر، وفي رواية: الأُصَيْلِعَ، يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٥) في الصَّحابة عدد كبير ممن اسمه علقمة، ولا ندري من المقصود منهم.

كعب بن مالك، وابن أَبي حَدْرَدٍ تَلاحَيَا[١]، فقال له كعب: يا أَعرابيُّ، يريد أَن يُبعده من الهجرة، فقال له الآخر: يا يهودي؛ لمخالطة الأنصار اليهود في يثرب، فنزلت الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ يحتمل معنيين: أَحدهما فبئس اسم تكتسبونه بعصيانكم ونبزكم بالأَلقاب فتكونون فُسَّاقاً بالمعصية بعد إِيمانكم، والثاني بئس ما يقول الرَّجل لأَخيه يا فاسق بعد إِيمانه، وقال الرُّمَّانيُّ: هذه الآية تدُلُّ على أَنَّه لا يجتمع الفسوق والإِيمان، وهذه نزعة اعتزاليَّة، ثمَّ شدَّد الله تعالىٰ عليهم النَّهي بأَن حكم بظلم من لم يتب ويُقلع عن هذه الأَشياءِ الَّتي نهى عنها.

ثمَّ أَمر تبارك وتعالىٰ المؤمنين باجتناب كثير من الظَّنِّ، وأَلاَّ يعملوا ولا يتكلَّموا بحسبه لما في ذلك وفي التَّجسُّس من التَّقاطع والتَّدار، وحكم على بعضه أَنَّه إِثم؛ إِذ بعضه ليس بإِثم ولا يلزم اجتنابه، وهو ظنُّ الخير بالنَّاس، وحُسْنُه بالله تعالىٰ، والمظنون من شهادات الشّهود، والمظنون به من أَهل الشَّرِّ، فإِن سقوط عدالته وغير ذلك هو من حكم الظَّنِّ به، وظنُّ الخير بالمؤمن محمود، والظَّنُّ المنهيُّ عنه هو أَن يظنَّ سوءًا برجل ظاهره الصَّلاح، بل الواجب أَن يزيل الظَّنَّ وحكمه ويتأَوَّل الخير، وقال بعض النَّاس: [إِثمٌ] معناه: كذب، ومنه قول النَّبيِّ ﷺ: «إِيَّاكُم والظَّنَّ فإِن الظنَّ أَكذب الحديث»[٢]. وقال بعض النَّاس: معنى قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أَي إِذا تكلَّم الظَّانُّ إِثمٌ، وما لم يتكلَّم فهو في فُسْحة لأَنَّه لا يقدر على دفع الخواطر الَّتي يُبيحها قول النَّبيِّ ﷺ: «الحزمُ سوءُ الظَّنِّ»[٣]. وذكر النَّقَّاش عن أَنس رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قال: «احترسوا من النَّاس بسوءِ الظَّنِّ»[٤].

---

(١) أي: تنازعا وتخاصما.

(٢) أخرجه مالك، وأحمد، والبخاريُّ، ومسلم، وأبو داود، والتِّرمذيُّ، وابن المنذر، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهو جزءٌ من حديث ذكره السُّيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور، ولفظه كما ذكره: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُم والظَّنَّ فإِنَّ الظَّنَّ أكذب الحديث، ولا تجسَّسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تَباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يخطب الرَّجل على خطبة أَخيه حتّى ينكح أو يترك».

(٣) أخرجه أبو الشّيخ في الثّواب عن عليٍّ، والقضاعيُّ عن عبد الرَّحمن بن عائذ، ورمز له السُّيوطيُّ في الجامع الصَّغير بأنَّه حديث حسن.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط، وابن عدي في الكامل، عن أنس رضي الله عنه، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بأنه ضعيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وما زال أُولو العزم يحترسون من سوءِ الظَّنِّ ويسدُّون ذرائعه، قال سلمان الفارسيُّ: إنِّي لأَعُدُّ عُراق قِدْرِي[1] مخافة الظَّنِّ، وكان أَبو العالية يختم على بقيَّة طعامه مخافة سوءِ الظَّنِّ بخادمه، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الأَمانة خير من الخاتم، والخاتم من سوءِ الظَّنِّ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾، أَي: لا تبحثوا عن مُخَبَّآت أُمور النّاس، وادفعوا بالَّتي هي أَحسن، وأَخبروا بالظَّواهر الحسنة. وقرأَ الحسن، وأَبو رجاءٍ، وابن سيرين، والهُذَليُّون: ﴿ولا تحسَّسوا﴾ بالحاءِ غير منقوطة، وقال بعض النّاس: التَّجسُّس ـ بالجيم ـ في الشَّرِّ، والتَّحسُّس ـ بالحاءِ ـ في الخير، وهكذا ورد القرآن ولكن قد يتداخلان في الاستعمال، وقال أَبو عمرو بن العلاءِ: التَّجسُّس: ما كان من وراءَ وراءَ، والتَّحسُّس: الدُّخول والاستعلام، وصحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قال: «ولا تحسَّسوا ولا تجسَّسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إِخواناً»[2]. وذكر الثَّعلبيُّ حديث حراسة عمر بن الخطاب مع ابن عوف رضي الله عنهما ووجودهما الشَّرْب في ربيعة بن أُميَّة بن خلف، وذكر أَيضاً حديثه في نحو ذلك مع أَبي محجن الثَّقفيِّ[3]، وقال زيد بن وهب: قيل لابن مسعود: هل لك في الوليد بن عُقبة تقطر

---

(١) العُراق ـ بضمِّ العين ـ: العظم أكل لحمه، وفي بعض النُّسخ «لا أَعُدُّ» بدلاً من «لأعُدُّ».

(٢) سبق الاستشهاد بالجزء الأَوَّل منه وهو قوله ﷺ: «إِيَّاكم والظَّنَّ فإنَّ الظَّنَّ أَكذبُ الحديث»، وقد ذكرنا تخريجه في الهامش (٢) من الصفحة السابقة.

(٣) حديث حراسة عمر مع عبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنهما أخرجه عبد الرَّزاق، وعبد بن حميد، والخرائطيُّ في «مكارم الأخلاق»، عن زرارة بن مصعب بن عبد الرَّحمن بن عوف، عن المسور بن مخرمة، عن عبد الرَّحمن بن عوف، قال: إنَّه حرس مع عمر بن الخطاب ليلةً بالمدينة، فبينما هم يمشون شبَّ لهم سراج في بيت، فانطلقوا يؤُمُّونه، فلمَّا دَنَوْا منه إذ بابٌ مُجَافٍ على قوم لهم فيه أصواتٌ مرتفعة ولغط، فقال عمر ـ وأخذ بيد عبد الرحمن بن عوف ـ: أتدري بيت من هذا؟ قال: هذا بيت ربيعة بن أُميَّة بن خلف، وهم الآن شَرْبٌ فما ترى؟ قال: أرى أنَّا قد أتينا ما نهى الله عنه، قال الله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ فقد تجسَّسْنا، فانصرف عنهم وتركهم، والشَّرْبُ: القوم يشربون ويجتمعون على الشَّراب.

وأمَّا حديثه مع أبي محجن الثَّقفيِّ فقد قال أبو قُربة: حُدِّث عمر بن الخطاب أن أبا مِحْجَن الثَّقفيَّ يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته، فانطلق عمر رضي الله عنه حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلاَّ رجل، فقال أبو مِحْجَن: إنَّ هذا لا يحلُّ لك، قد نهاك الله عن التَّجسُّس، فخرج عمر وتركه.

لحيته خمراً؟ فقال: إنَّا قد نُهينا عن التَّجسُّس، فإن يظهر لنا أمْرٌ أَخذنا به[١].

﴿وَلَا يَغْتَب﴾ معناه: ولا يذكر أَحدكم من أَخيه شيئاً هو فيه ويكره سماعه، وروي عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها قالت عن امرأَة: ما رأَيتُ أَجمل منها إلاَّ أَنَّها قصيرة، فقال لها النَّبيُّ ﷺ: «اغْتَبْتِها، نظرت إلى أَسوأ ما فيها فذكرته»[٢]، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «إذا ذكرتَ ما في أَخيك فقد اغتبته، وإذا ذكرت ما ليس فيه فقد بَهَتَّه»[٣]، وفي حديث آخر: «الغِيبَةُ أَن يُذكر المؤمن بما يكره، قيل: وإن كان حقًّا؟ قال: إذا قلت باطلاً فذلك هو البُهتان»[٤]، وقال معاوية بن قُرَّة، وأَبو إسحاق السَّبيعيُّ[٥]: إذا مرَّ بك رجل أَقطع فقلت: ذلك الأَقطع، كانت غِيبة، وحكى الزَّهراويُّ عن جابر رضي الله عنه أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «الغِيبَةُ أَشدُّ من الزِّنى؛ لأَنَّ الزَّاني يتوب فيتوب الله عليه، والَّذي يغتاب يتوب فلا يُتاب عليه حتَّى يَسْتَحِلَّ»[٦].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان»، عن زيد بن وهب، وليس في الحديث ذكر لاسم الوليد بن عقبة، بل ذكره السيوطي في الدر المنثور بلفظ «هذا فلان تقطر لحيته خمراً».

(٢) أخرجه عبد بن حميد عن عكرمة، قال: إنَّ امرأة دخلت على النَّبيِّ ﷺ ثمَّ خرجت، فقالت عائشة: يا رسول الله، ما أجملها وأحسنها لولا أنَّ بها قِصراً، فقال لها النَّبيُّ ﷺ: «اغتبتيها يا عائشة»، فقالت: يا رسول الله: إنَّما قلت شيئاً هو بها، قال: «يا عائشة، إذا قلت شيئاً بها فهي غيبة، وإذا قلت ما ليس بها فقد بَهَتَّهَا». (الدُّرُّ المنثور).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود، والتِّرمذيُّ وصحَّحه، ، ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: ذكرك أخاك بما يكره. قال: يا رسول الله، أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه. (الدُّرُّ المنثور). والبُهتان هو القذف بالباطل.

(٤) أخرج عبد بن حميد، والخرائطيُّ في «مساوىء الأخلاق» عن عبد المطلب بن حنطب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الغِيبَةَ أن تذكر المرءَ بما فيه»، قال: إنَّما كُنَّا نرى أن نذكره بما ليس فيه، قال: «ذاكَ البُهْتَان».

(٥) معاوية بن قُرَّة بن إياس بن هلال المزني، أبو إياس البصريُّ، ثقة، عالم، مات سنة ثلاث عشرة ومائة، وهو ابن ست وسبعين سنة، وأبو إسحاق السَّبيعيُّ هو عمر بن عبد الله الهمدانيُّ، والسَّبيعيُّ بفتح السِّين المهملة وكسر الباء، مكثر، ثقة، عابد، مات سنة تسع وعشرين ومائة، وقيل قبْل ذلك. (تقريب التَّهذيب).

(٦) أخرجه ابن مردويه، والبيهقيُّ، عن أبي سعيد، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما. (الدُّرُّ المنثور). ومعنى (يَسْتَحِل): يسأله أن يُحِلَّه من أمره ويصفح عنه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد يموت من اغتبتَ أَو يأبَى، ورُوي أنَّ رجلاً قال لابن سيرين: إنِّي قد اغتبتك فحلِّلني، فقال: إنِّي لا أُحلِّل ما حرَّم الله، والغِيبةُ مشتقَّة من «غاب يغيب»، وهي القول في الغائب، واستعملت في المكروه، ولم يُبَح في هذا المعنى إلاَّ ما تدعو الضَّرورة إليه كتجريح الشُّهود، وفي التَّعريف لمن استنصح في الخطاب ونحوه لقول النَّبيِّ ﷺ: «أَمَّا معاوية فصعلوك لا مال له»[١]، وما يقال في الفَسَقة أَيضاً وفي وُلاة الجور ويُقصد به التَّحذير منهم، ومنه قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «أَعن الفاجر ترعون؟ اذكروا الفاجر بما فيه حتّى يعرفه النَّاسُ إذا لم تذكروه»[٢]، ومنه قوله: «بئس ابن العشيرة»[٣].

ثمَّ مثَّل تعالىٰ الغِيبة بأَكل لحم ابن آدم الميت، والعرب تشبِّه الغِيبة بأَكل اللَّحم، فمنه قول سُوَيْد بن أَبي كاهل:

فَــــإِذَا لاقَيْتُــــهُ عَظَّمَنِــــي   وإِذَا يَخْلُــو لَــهُ لَحْمِــي رَتَــع[٤]

---

(١) أخرجه مسلم في الرَّضاع والطَّلاق، وأبو داود في الطَّلاق، والتِّرمذيُّ والنَّسائيُّ في النِّكاح، ومالك في الطَّلاق، وأحمد في مسنده (٦ـ٤١٢)، ولفظه كما جاء في صحيح مسلم، عن أبي بكر بن الجهم بن صُخَيْر العدويِّ، قال: سمعتُ فاطمة بنتَ قيس تقول: إنَّ زوجها طلَّقها ثلاثاً، فلم يجعل لها رسول الله ﷺ سُكْنى ولا نفقة، قالت: قال لي رسول الله ﷺ: إذا حَلَلْتِ فآذنيني، فآذَنْتُهُ، فخطبها معاوية وأبو جهم وأُسامة بن زيد، فقال رسول الله ﷺ: أمَّا معاوية فرجل تَرِبٌ لا مال له، وأمّا أبو جهْم فرجل ضرَّاب للنِّساء، ولكن أُسامة بن زيد، فقالت بيدها هكذا: أُسامة أُسامة؟ فقال لها رسول الله ﷺ: طاعة الله وطاعة رسوله خير لك، قالت: فتزوجته فاغتبطت. ومعنى تَرِب: فقير.

(٢) أخرجه البيهقيُّ ـ وضَعَّفه ـ من طريق بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جدِّه. (ذكر ذلك السُّيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور).

(٣) أخرجه البخاريُّ وأبو داود في الأدب، ومسلم في البرّ، ومالك في حسن الخلق، وأحمد في المسند (٦ـ٣٨، ٨٠، ١٥٨، ١٧٣) ولفظه كما جاء في مسند أحمد، عن عروة بن الزُّبير أنَّ عائشة رضي الله عنها أخبرته أن رجلاً استأذن على النَّبيِّ ﷺ فقال: ائذَنُوا له، فبئس ابن العشيرة أو بئس أخو العشيرة، وقال مرَّة رجل، فلما دخل عليه ألان له القول، فلمّا خرج قالت له عائشة: قلتَ له الَّذي قلتَ ثمَّ أَلَنْتَ له القول؟ فقال: «أي عائشة، شرُّ النَّاس منزلةً عند الله يوم القيامة من ودَعَه النّاسُ أو تَرَكَه النّاسُ اتقاءَ فُحْشه».

(٤) الشّاعر هو سُوَيْد بن أبي كاهل، من بني يشكر، شاعر مخضرم، عاش في الجاهلية طويلاً، وعمّر في الإسلام ستين سنة، وبيته هذا من قصيدة له تعتبر من أغلى الشّعر وأنفسه، وهي المفضلية رقم ٤٠، قال الأصمعيُّ عنها: «كانت العربُ تفضلها وتقدِّمها وتَعُدُّها من حِكَمها، وكانت في الجاهلية تسمِّيها اليتيمة لما اشتملت عليه من الأمثال، قال في مطلعها: =

ومنه قول الآخر:

إذا أكلُوا لَحمي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ ... وَإنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْداً[١]

فوقفهم الله تعالىٰ ـ على جهة التَّوبيخ ـ بقوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾، فالجواب عن هذا: لا، وهم في حكم من يقولها، فخوطبوا على أنَّهم قالوا: لا، فقيل لهم: [فَكَرِهْتُمُوهُ]، وبعد هذا مُقَدَّرٌ تقديره: فكذلك فاكرهوا الغِيبَةَ الَّتي هي نظير ذلك، وعلى هذا المقدَّر يعطف قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، قاله أبو عليٍّ الفارسيُّ، وقال الرُّمَّانيُّ: كراهية هذا اللَّحم يدعو إليها الطَّبع، وكراهيَّة الغِيبَة يدعو إليها العقل، وهو أحقُّ أن يجاب لأنَّه بصيرٌ عالِمٌ، والطَّبْعُ أعمى جاهل، وقرأ الجمهور: [مَيْتاً] بسكون الياءِ خفيفة، وقرأ نافع، وابن القعقاع، وشيبة، ومجاهد بكسرها مشدَّدة، وقرأ أبو حيوة: [فَكُرِّهْتُمُوهُ] بضمِّ الكاف وشدِّ الرَّاءِ، ورواها أبو سعيد الخدريُّ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ. ثمَّ أعلمهم الله تعالىٰ بأنَّه تَوَّابٌ رحيم إبْقاءً منه تعالىٰ وإمْهالاً وتمكيناً من التَّوبة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ

= بَسَطَتْ رابِعَةُ الحَبْلَ لَنَا ... فَوَصَلْنَا الحَبْلَ مِنْهَا ما اتَّسَعْ

ورواية البيت في المُفَضَّليات، وفي الشِّعر والشعراء، «وَيُحَيِّينِي إذا لاقَيْتُه» وفي اللِّسان: «وَحَبِيبٌ لي إذا لاقَيْتُهُ»، وكان الحجَّاج قد تمثَّل يوم رُسْتَقْباذَ على المنبر بأبيات من قصيدة سويد هذه، منها هذا البيت، ومعنى رَتَع: أكَلَ، والرَّتْعُ في الأصل هو الأكل في الخصب.

(١) هذا البيت للمُقَنَّع الكِنْدي، واسمه محمد بن عُمَير، كان من أجمل النّاس وجهاً، وأَمَدِّهم قامةً، فكان إذا كشف عن وجهه أُصيب بالعين، فكان يتَقَنَّع دهره، فَسُمِّي بالمُقَنَّع، والبيت ضمن أبيات يقولها في قومه، منها:

لاَ أَحْمِلُ الحِقْدَ القَدِيمَ عَلَيْهِمُ ... وَلَيْسَ رَئِيسَ القَوْمِ مَن يَحْمِلُ الحِقْدَا
وَلَيْسُوا إلى نَصْرِي سِرَاعاً وَإنْ هُمُ ... دَعَوْنِي إلى نَصْرٍ أَتَيْتُهُمُ شَدّاً
إذَا أكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ ... وَإنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدا

والبيت هنا شاهد على أنَّ العرب تستعمل أكل اللَّحم في مكان الغِيبَة. فالمعنى هنا: إذا هم اغتابوني وذكروني في غيبتي بما أكره فلست أفعل مثلهم، بل أصون أعراضهم، ولا أتناول أحداً منهم بسوءٍ.

فِي قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ يحتمل أن يريد آدم وحوَّاءَ عليهما السَّلام، فكأنَّه تعالىٰ قال: إنَّا خلقناكم جميعاً من آدم وحوَّاءَ، ويحتمل أن يريد بالذَّكر والأُنثى اسْم الجنس، وكأنَّه تعالىٰ قال: إنَّا خلقنا كلَّ واحد منكم من ماءِ ذكر وأُنثى، وقَصْد هذه الآية التَّسوية بين النَّاس، ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾، أي: لِئَلاَّ تفاخروا ويريد بعضكم أن يكون أكرم من بعض، فإنَّ الطَّريق إلى الكرم غير هذا، ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾. وروى أبو بكرة: قيل: يا رسول الله، من خير النَّاس؟ قال: «من طال عُمُره، وحسُن عمله»[1]، وفي حديث آخر: مَنْ خَيْرُ النَّاس؟ قال: «آمرُهُم بمعروف، وأنهاهم عن منكر، وأَوصلهم للرَّحم، وأَتقاهم»[2].

وحكى الزَّهراويُّ أَنَّ سبب نزول هذه الآية غضب الحارث بن هشام، وعَتَّاب بن أَسيد حين أَذَّن بلال يوم فتح مكة على الكعبة[3]. وحكى الثَّعلبيُّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أَنَّ سببها قول ثابت بن قيس لِرَجلٍ لم يفسح له عند النَّبيِّ ﷺ: يابْنَ فلانة، فوبَّخه النبي ﷺ، وقال له: إنَّك لا تَفْضُل أَحداً إلاَّ في الدِّين والتَّقوى[4]، فنزلت

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ في الزُّهد، والدارميُّ في الرِّقاق، وأحمد في مسنده (٤ـ١٨٨، ٥ـ٤٠، ٤٣، ٤٤، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠)، ولفظه كما جاء في المسند، عن عبد الله بن بُسْر قال: أَتى النَّبيَّ ﷺ أعرابيَّان، فقال أحدهما: من خير الرِّجال يا محمد؟ قال النَّبيُّ ﷺ: «من طالَ عُمُرُه، وحَسُنَ عَمَلُه»، وقال الآخر: إنَّ شرائع الإسلام قد كثرت علينا، فبابٌ نتمسَّك به جامع؟ قال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦ـ٤٣٢)، عن دُرَّة بنت أبي لهب قالت: قام رجل إلى النَّبيِّ ﷺ وهو على المنبر فقال: يا رسول الله، أيُّ النَّاس خير؟ فقال ﷺ: «خير النَّاس أقرؤهم وأتقاهم، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأَوْصَلُهم للرَّحِم». وأورده السُّيوطيُّ في «الدُّرِّ المنثور» وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة.

(٣) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقيُّ في «الدلائل» عن ابن أبي مُلَيْكَة، قال ذلك في «الدُّرِّ المنثور»، وذكره الواحديُّ في «أسباب النُّزول» بدون سند عن مقاتل، قال: لمَّا كان يوم فتح مكَّة أمر رسول الله ﷺ بلالاً حتّى أَذَّن على ظهر الكعبة، فقال عتَّابُ بن أَسيد بن أبي العيص: الحمد لله الَّذي قبض أبي حتّى لم يَرَ هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً؟ وقال سهيل بن عمرو: إنْ يُرِدِ اللهُ شيئاً يُغَيِّره، وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به ربُّ السَّماءِ، فأتى جبريل عليه السَّلام النَّبيَّ ﷺ وأخبره بما قالوا، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقرُّوا، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية، وزجرهم عن التَّفاخر بالأنساب والتَّكاثر بالأموال، والازدراء بالفقراءِ.

(٤) ذكَرَهُ الواحديُّ في «أسباب النزول» بغير سند، ولم يَعزُه لأحد، وذَكَرَهُ الخازن والبغويُّ عن ابن عبّاس=

هذه الآية، ونزل الأمر بالتَّفسُّح في ذلك أيضاً.

و«الشُّعوب» جمع شَعْب، وهو أَعظم ما يوجد من جماعات النّاس مرتبطاً بنسب واحد، وتتلوه القبيلة ثمَّ العمارة ثمَّ البطن ثم الفخذ ثمَّ الأُسرة والفصيلة، وهما قرابة الرّجل الأَدنَوْن، فمُضر وربيعة وحِمْير شعوب، وقيس وتميم ومَذْحج ومراد قبائل، مُشَبَّهة بقبائل الرأس لأَنَّها قطع تقابلت، وقريش وسليم عمارات، وبنو قُصَيٍّ وبنو مخزوم بطون، وبنو هاشم وبنو أُميّة ونحوهما أَفخاذٌ، وبنو عبد المطلب أُسرة وفصيلة. وقال ابن جبير: الشُّعوب: الأَفخاذ، وروي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: الشُّعوب: البطون، وهذا غير ما تَمَالأَ[1] عليه اللُّغويون. وقال الثَّعلبيُّ: وقيل: الشُّعوب في العجم والقبائل في العرب والأَسباط في بني إِسرائيل، وأَمَّا الشعب الذي في هَمْدان الذي يُنسب إِليه الشَّعبيُّ فهو بطنٌ يقال له: الشَّعْب، وقيل للأُمم التي ليست بعرب: «شَعوبية» نسبة إِلى الشُّعوب، وذلك أَنَّ تفصيل أَنسابها خفيٌّ فلم يُعرف أَحدٌ منهم إِلاَّ بأَن يقال: فارسيٌّ، تركيٌّ، روميٌّ، فكأَنَّهم عرفوا بشعوبهم وهي أَعمُّ ما يُعبَّر به عن جماعتهم، ويقال لهم الشَّعُوبيّة بفتح الشين، وهذا من تعيين النَّسب، وقد قيل فيهم غير ما ذكرتُ، وهذا أَولى عندي.

وقرأَ الأَعمش: [لِتَتَعَارَفُوا]، وقرأَ عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما: [لِتَعْرفوا أَنَّ] على وزن «تَفْعِلُوا» بكسر العين وبفتح الأَلف من [أَنَّ] وإِعْمال [تَعْرِفُوا] فيها، ويحتمل ـ على هذه القراءَة ـ أَن تكون اللاَّم في قوله تعالىٰ: [لِتَعْرِفُوا] لام «كَيْ»، ويضطرب معنى الآية مع ذلك، ويحتمل أَن تكون لام الأَمر، وهو أَجود في المعنى، ويحتمل أَن يكون

= رضي الله عنهما بدون سند أيضاً، وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشّاف»: إنَّ الثَّعلبيَّ ذكره عن ابن عبّاس بغير سند، وأورده القرطبيُّ مسبوقاً بكلمة «وقيل» وبدون سند أيضاً، قالوا جميعاً: إنَّ الآية نزلت في ثابت بن قيس بن شماس حين أراد أن يجلس قريباً من النَّبيِّ ﷺ، وطلب إلى رجل أن يُفسح له في المجلس فلم يُفْسح له، فقال ثابت للرَّجل: من أنت؟ قال: أنا فلان، فقال ثابت: أنت ابن فلانة! فذكر أمّاً له كان يُعَيَّر بها في الجاهلية، فأغضى الرَّجلُ ونَكَس رأسه، فقال رسول الله ﷺ: من الذَّاكر فلانة؟ فقال ثابت: أنا يا رسول الله، فقال النَّبيُّ ﷺ: انظر في وجوه القوم، فنظر، فقال: ما رأيتَ؟ قال: رأيتُ أبيض وأسود وأحمر، فقال: فإنك لا تفضلهم إلاّ بالتّقوى، فنزلت في ثابت هذه الآية، ونزلت في الرّجل الذي لم يفسح له: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ ﴾ الآية.

(١) بمعنى: اجتمعوا واتفقوا.

المفعول محذوفاً تقديره: «الحَقَّ»، وإذا كانت لام «كي» فكأنَّه تعالىٰ قال: يا أيُّها النّاس أنتم سواءٌ من حيث أَنتم مخلوقون، وإنَّما جُعلتم قبائل لأَنْ تتعارفوا ولأَنْ تعرفوا الحقائق، وأَمَّا الشَّرفُ والكرم فهو بتقوى الله تعالىٰ وسلامة القلوب. وقرأ ابن مسعود: [لِتَعارَفُوا بَيْنَكُمْ، وخيركم عند الله أَتقاكم]، ورُوي أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَن سرَّه أَن يكون أكرم النّاس فَلْيَتَّقِ الله ربَّه»[١]. ثمَّ نبَّه تعالىٰ على الحذر بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أَي بالمُتَّقِي الَّذي يستحقُّ رتبة الكرم.

قوله تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾، قال مجاهد: نزلت في بني أَسد بن خزيمة، وهي قبيلة كانت تجاور المدينة، وكانوا قد أَظهروا الإسلام، وكانت نفوسهم ـ مع ذلك ـ دَخِلَةً[٢]، إنَّما يُحبُّونَ المغانم وعَرَض الدُّنيا، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: وذهبوا مرَّة إلى أَن يتسمَّوْا بالمهاجرين، فنزلت هذه الآية مُسَمِّيَةً لهم بالأَعراب، مُعَرِّفَةً لهم بذلك أَقدارهم، ومُخْرِجَةً ما في صدورهم من صورة معتقدهم، وهم أَعرابٌ مخصوصون كما ذكرنا، قال أَبو حاتم عن ابن الزُّبير: سمع النَّبيُّ ﷺ رجلاً يقرأُ: «قَالتِ الاعْرابُ» بغير همز، فردَّ عليه بِهَمْز قَطْع. وقد أَخبر الله تعالىٰ أَن في الأَعراب على الجملة من يؤمن بالله واليوم الآخر، فأَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ أَن يقول لهؤلاءِ المُدَّعين في الإيمان: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾، أَي: لم تصدِّقوا بقلوبكم، ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾.

والإسلام يقال بمعنيين: أَحدهما الَّذي يعُمُّ الإيمان والأَعمال، وهو الَّذي في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[٣]، والَّذي في قوله ﷺ: «بُنِيَ الإسلامُ عَلَى خَمْسٍ»[٤]، والَّذي في تعليم النَّبيِّ ﷺ لجبريل عليه السّلام حين قال: ما الإسلام؟

---

(١) ذكره القرطبيُّ بقوله: «وقد جاء منصوصاً عنه عليه الصَّلاة والسَّلام: «مَنْ أَحبَّ أن يكون أكرم النَّاس فليتَّق الله»، وفي البخاريِّ عن أبي هريرة قال: سُئِل رسول الله ﷺ: أيُّ النَّاس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم»، والأحاديث في ذلك كثيرة وصحيحة.

(٢) أصابها الفسادُ والعيب من الداخل، وفي بعض النّسخ «دغلة» بالغين، والداغل هو الَّذي يبغي الشَّرَّ لأصحابه ويحسبونه هم خيراً.

(٣) من الآية (١٩) من سورة (آل عمران).

(٤) أخرجه البخاريُّ، ومسلم، والتِّرمذيُّ، والنَّسائيُّ في الإيمان، ولفظه كما جاء في صحيح البُخاريِّ عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «بُنِيَ الإسلام على خمسٍ: شهادة أنْ لا إلَه إلاَّ الله=

قال: «أَن تعبد الله وحده لا تُشرك به شيئاً، وتقيم الصّلاة، وتُؤتي الزّكاة، وتصوم رمضان، وتحجَّ البيتَ إن استطعت إليه سبيلاً»[١]، والّذي في قوله ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «أَوْ مُسلِماً، إنّي لأُعطي الرَّجلَ وغيرُه أَحبُّ إليَّ منه»[٢] الحديث، فهذا الإسلام ليس هو في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾.

والمعنى الثّاني لِلَفظ الإسلام هو الاستِسلامُ والإظهار الّذي يُستَعصم به ويُحقَن الدَّمُ، وهذا هو الإسلام في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾، والإيمان الّذي هو التَّصديق أَخصُّ من الأوَّل.

ثمَّ صرَّح تعالىٰ لهم بأَن الإيمان لم يدخل قلوبهم، ثمَّ فتح تعالىٰ لهم باب التَّوبة بقوله سبحانه: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، الآية، وطاعةُ الله تعالىٰ ورسوله ﷺ في ضمنها الإيمان والأعمال.

وقرأ الجمهور من القراءِ: ﴿لَا يَلِتۡكُم﴾، من (لاَتَ يَليتُ) إذا نقص، يقال: «لاَتَهُ حقَّه» إذا نقصه منه، وقرأ أبو عمرو، والأعرج، والحسن، وعمرو: [لا يَألِتُكم] من (أَلَتَ

= وأَنَّ محمداً رسول الله، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، والحجِّ، وصوم رمضان».

(١) رواه البخاريُّ في كتاب الإيمان عن أبي هريرة قال: كان النَّبيُّ ﷺ بارزاً يوماً للنّاس، فأتاه رجل فقال: ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله، وتؤمن بالبعث، قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصّلاة، وتؤدّي الزّكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك، قال: متى السّاعة؟ قال: ما المسؤول بأعلم من السائل، وسأُخبرك عن أشراطها، إذا ولدت الأمة ربَّها، وإذا تطاول رعاةُ الإبل البُهْم في البنيان في خمس لا يعلمهن إلاّ الله، ثمَّ تلا النَّبيُّ ﷺ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، ثمَّ أدبر، فقال: ردُّوه فلم يروْا شيئاً، فقال: هذا جبريل جاء يعلِّم النّاسَ دينهم. اهـ. وكذلك رواه مسلم والتِّرمذيُّ في كتاب الإيمان، وأبو داود في السُّنَّة، وابن ماجه في المقدمة، وأحمد في المسند (١ـ٢٧، ٥١، ٥٣ ـ ٢ـ١٠٧ ـ ٤ـ١٢٩) واللفظ هنا للبخاري.

(٢) أخرجه الشيخان في صحيحيهما في كتاب الإيمان وفي كتاب الزّكاة، عن سعد رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ أعطى رهْطاً وسعْدٌ جالس، فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجبهم إليَّ، فقلت: يا رسول الله، مالك عن فلان، فوالله إنّي لأراه مؤمناً، فقال: (أو مُسلماً)، فسكتُّ قليلاً، ثمّ غلبني ما أعلم منه فعدتُّ لمقالتي، فقلت: مالك عن فلان فوالله إنّي لأراه مؤمناً، فقال: (أو مُسلماً)، فسكتُّ قليلاً، ثمَّ غلبني ما أعلم منه فعدتُّ لمقالتي وعاد رسول الله ﷺ، ثمّ قال: «يا سعدُ، إنّي لأعطي الرَّجل وغيره أحبُّ إليَّ منه خشية أن يُكبَّه الله في النّار». قال الإمام البخاري: ورواه يونس، وصالح، ومَعْمَرٌ، وابن أخي الزُّهريّ عن الزُّهريّ.

يَأْلِتُ)، وهو بمعنى (لات)، وكذلك يقال: (أَلِتَ) بكسر اللام (يَأْلَتُ)، ويقال أيضاً في معنى (لات): (آلَتَ يُولِتُ)، ولم يُقرأ بهذه اللُّغة. وباقي الآية بيِّنٌ في التَّرجية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

[إِنَّمَا] في هذه الآية حاصرةٌ تُعطي ذلك المعنى. وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي لم يشكُّوا في إيمانهم، ولم يُدَاخِلْهم ريب، وهم الصّادقون إذْ جاءَ فعلهم مُصدِّقاً لقولهم. ثمَّ أمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بتوبيخهم بقوله: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي بقولكم: «آمنّا»، وهو يعلم منكم خلاف ذلك لأَنَّه العليم بكلِّ شيءٍ.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾ نزل في بني أَسد أَيضاً، وذلك أَنَّهم قالوا في بعض الأَوقات للنَّبيِّ ﷺ: إنَّا آمنَّا بك واتَّبعناك ولم نحاربك كما فعلت مُحارب وحصفة وهوازن وغطفان وغيرهم، فنزلت هذه الآية، حكاه الطبريُّ وغيره. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: [يَمُنُّون عَلَيكَ إِسْلامَهُمْ].

وقوله تعالىٰ: [أَنْ] يحتمل أَن يكون مفعولاً صريحاً، ويحتمل أَن يكون مفعولاً من أَجله، وقوله تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ أَيْ بزعمكم إذْ تقولون آمنَّا، فقد لزمكم أَنَّ الله تعالىٰ مانٌّ عليكم، ويدلُّك على هذا المعنى قوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾، فعلَّق عليهم الحُكمَيْن: هم ممنونٌ عليهم على الصِّدق، وأَهلٌ أَن يقولوا أَسلمنا من حيث هم كذبة، وقرأ ابن مسعود: [إِذْ هَدَاكُمْ].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ يحتمل أَن يكون بمعنى: يُنْعِم، كما تقول: مَنَّ اللهُ عليك، ويحتمل أَن يكون بمعنى: يَذْكُرُ إحسانه فيجيءُ معادلاً لـ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾، وقال النَّاسُ قديماً: إذا كُفرت النِّعمة حَسُنَت المِنَّةُ، وإِنَّما المنَّةُ المُبطلةُ للصَّدَقة المكروهة ما وقع دون كُفر نعمة.

وقرأَ أَبو جعفر، ونافع، وشيبة، وقتادة، وابن وثّاب: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالتّاءِ على الخطاب، وقرأَ ابن كثير، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ: [بما يَعْمَلُون] بالياءِ من تحت على ذكر الغائب.

كمل تفسير سورة الحجرات والحمد لله ربّ العالمين

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة قٓ

هي مكيّة بإجماع من المتأوِّلين(١)، وروى أُبيٌّ بن كعب رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «من قرأ سورة قٓ هوَّن الله عليه الموت وسكراته»(٢).

(١) وحُكي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، وعن قتادة أنَّ فيها آية مدنيّة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض﴾، وهي رقم (٣٨)، وسورة (ق) هي أوّل المُفَصَّل، قال ابن كثير في تفسيره: والدّليل على ذلك ما رواه أبو داود في سننه عن أوس بن حذيفة قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف، قال: فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وأنزل رسول الله ﷺ بني مالك في قبة له، قال مسدّد (وكان في الوفد الّذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف)، قال: كان رسول الله ﷺ كلَّ ليلة يأتينا بعد العشاء يحدِّثنا، قال أبو سعيد: قائماً على رجليه حتّى يراوح بين رجليه من طول القيّام، فأكثر ما يحدِّثنا ﷺ ما لقي من قومه قريش، ثمَّ يقول ﷺ: «لا سواء، وكنّا مُسْتَضعفين مُسْتذلّين، (قال مسدّد: بمكّة)، فلمّا خرجنا إلى المدينة كانت الحرب سجالاً بيننا وبينهم، نُدالُ عليهم ويُدالُون علينا»، فلمّا كانت ليلة أبطأ عنّا ﷺ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت علينا اللّيلة، قال ﷺ: «إنَّه طرأ عليَّ حِزْبي من القرآن فكرهت أن أجيء حتّى أُتِمَّه»، قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف يُحَزِّبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المُفَصَّل وحده.

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عبد الرَّحمٰن، ورواه ابن ماجه عن أبي خالد الأحمر، ونحن إذا جمعنا الأرقام الّتي وردت في الحديث عن سور القرآن حتّى المفصَّل نجدها ثمانياً وأربعين سورة، والّتي تبدأ بعدهن هي سورة (ق)، أمّا الثّلاث فهي: البقرة، وآل عمران والنِّساء، وأمّا الخمس فهي: المائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتّوبة، وأمّا السبع فهي: يونس وهود ويوسف والرّعد وإبراهيم والحجر والنّحل، وأمّا التّسع فهي: الإسراءُ والكهف ومريم وطه والأنبياء والحجّ والمؤمنون والنّور والفرقان، وأمّا الإحدى عشرة فهي: الشّعراء والنّمل والقصص والعنكبوت والرّوم ولقمان والسّجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس، وأمّا الثّلاث عشرة فهي: الصافات وص والزُّمر وغافر وفصّلت والشّورى والزّخرف والدُّخان والجاثية والأحقاف ومحمد والفتح والحجرات، وبهذا استدلَّ ابن كثير على أن سورة (ق) هي أوَّل المفصَّل من القرآن الكريم.

(٢) لم أقف عليه بهذا اللّفظ، والّذي رواه الإمام أحمد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبا واقد اللّيثيَّ: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد؟ قال: بقاف واقتربت، وذكر ابن كثير في تفسيره أنَّ مسلماً رواه وكذلك أهل السُّنن الأربعة من حديث مالك به، كذلك روى الإمام أحمد عن أُم هشام بنت حارثة=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ ﴾.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: [قٓ] اسمٌ من أسماءِ القرآن، وقال أيضاً: اسمٌ من أسماءِ الله تبارك وتعالىٰ، وقال قتادة والشَّعبيُّ: هو اسم السُّورة، وقال ابن زيد، وعكرمة، ومجاهد، والضَّحّاك: هو اسم الجبل المحيط بالدُّنيا، وهو فيما يزعمون من زُمُرُّدَة خضراءَ، منها خُضرة السَّماءِ وخُضرة البحر. و[ٱلْمَجِيدِ]: الكريم في أوصافه الَّذي جمع كلَّ عليٍّ، و[قٓ] ـ على هذه الأقوال ـ مُقْسَمٌ به وبالقرآن المجيد، وجواب القَسَم مُنْتَظر، واختلف النّاسُ فيه ـ فقال ابن كيسان: جوابه ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾[1]، وقيل: الجواب ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾[2]، وقال الزَّهراويُّ، عن سعيد الأخفش: الجواب ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾، وضعَّفه النَّحّاس[3]، وقال الكوفيون من النُّحاة: الجواب ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ ﴾، والمعنى: قد عَجبُوا، قال منذر بن سعيد: وقد قيل: إنَّ جواب القَسَم في قوله تعالىٰ: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾[4]، وفي هذه الأقوال تكلُّف وتحكُّم على اللِّسان، وقال الزَّجّاج، والمبرِّد، والأخفش: الجوابُ مُقدَّر، تقديره: «قٓ والقرآن المجيد لَتُبْعَثُنَّ»، وهذا قولٌ حسَنٌ، وأَحسن منه أَن يكون الجواب هو الَّذي يقع عنه

= قالت: «ما أخذتُ ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ ﴾ إلاّ على لسان رسول الله ﷺ، كان يقرؤها كلَّ يوم جمعة على المنبر إذا خطب النّاس، ورواه مسلم من حديث ابن إسحاق، قال ابن كثير: (والقصد أنَّ رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السّورة بالمجامع الكبار كالعيد والجمع لاشتمالها على ابتداءِ الخلق، والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب، والجنّة والنّار، والثّواب والعقاب. . .».

(١) من الآية (١٨) من السورة.

(٢) من الآية (٣٧) من السورة.

(٣) قالوا: لأنّه لا يُعرف في أجوبة الأيمان قد، وإنّما تُجاب الأيمان إذا أُجيبت بأحد الحروف الأربعة «اللام، وإنَّ، وما، ولا»، أو بترك جوابها فيكون ساقطاً.

(٤) من الآية (٢٩) من السّورة.

الإِضراب بـ[بَلْ]، كأَنَّه تعالىٰ قال: والقرآن المجيد ما ردُّوا أَمْرك بِحُجَّة، أَو ما كذَّبوك بِبُرْهَان، أَو نحو هذا ممَّا لا بدَّ لك من تقديره بعد الَّذي قدَّر الزَّجاّج؛ لأَنك إِذا قلت الجواب «لَتُبْعَثُنَّ» فلا بُدَّ بعد ذلك أَن تقدِّر خبراً عنه يقع الإِضرابُ، وهو الَّذي جعلناه جواباً وجاءَ في المقدر أَخصر.

وقال جماعةٌ من المفسِّرين في قوله تعالىٰ [قَ]: إِنَّه حرف دالٌّ على كلمة، نحو قول الشّاعر:

قُلْـتُ لَهَـا قِفِـي فقَـالَـتْ قَـاف . . . . (١)

واختلفوا بعد، فقال القُرَظِيُّ: هو دالٌّ على أَسماءِ الله تعالىٰ هي: قادرٌ وقاهرٌ وقريبٌ وقاض وقابضٌ. وقيل: المعنى: قُضي الأَمر من رسالتك ونحوه. «والقرآن المجيد»، فجواب القسَم في الكلام الَّذي يدلُّ عليه [قَ]، وقال قوم: المعنى: قف عند أَمرنا، وقيل: المعنى: قُهِرَ هؤلاءِ الكفرة، وهذا أَيضاً وقع عليه القَسَم، ويحتمل أَن يكون المعنى: قيامُهم من القبور حقٌّ «والقرآن المجيد»، فيكون أَوَّل السُّورة من المعنى الَّذي اطَّرد بعْدُ، وعلى هذه الأَقوال، فثمَّ كلام مضمر وقع عنه الإِضرابُ، وهو خبرٌ

---

(١) هذا صدر بيت للوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط، كان أخاً لعثمان بن عفان رضي الله عنه لأمِّه، وقد تولّى الكوفة فاتُّهم بشُرْبِ الخمر، فكتب إليه الخليفة يأمره بالشُّخوص إليه، فخرج في جماعة، ونزل الوليد يسوق بهم، فقال:

قُلْـتُ لَهَـا: قِفِـي، فَقَـالَـتْ: قَـافْ ... لا تَحْسَبِينَـا قَـدْ نَسِينَـا الإيجَـافْ
والنَّشَـوَاتِ مِـنْ مُعَتَّـقٍ صـافْ ... وَعَـزْفَ قَيْنَـاتٍ عَلَيْنَـا عَـزَافْ

والإيجاف: العدْو، وهو أيضاً الحمل عليه، وانظر الخصائص لابن جنّي، والأغاني ٥ـ١٣١، وشواهد الشّافية، والمحتسب في وجوه شواذ القراءات لابن جنيٍّ، ومعاني القرآن للفرّاء، واللسان والتّاج ـ مادة وقف ـ، والشّعر في اللِّسان غير منسوب، قال: «إنّما أراد: (قَدْ وقَفْتُ) فاكتفى بذكر القاف، قال ابن جنيٍّ: ولو نقل هذا الشّاعر إلينا شيئاً من جملة الحال فقال ـ مع قوله قالت قاف ـ: وأمْسَكت زمام بعيرها أو عاجَتْهُ علينا، لكان أبْيَنَ لما كانوا عليه وأدلَّ على أنّها أرادت: قِفِي لنا قِفِي لنا، أي: تقول لي: قِفِي لنا متعجبةً منه، وهو إذا شاهدها وقد وقفت علم أن قولها (قافْ) إجابةٌ له لا ردٌّ لقوله وتعجُّبٌ منه». قال ابن كثير في تفسيره: «وفي هذا التَّفسير نظر، لأنَّ الحذف في الكلام إنّما يكون إذا دلَّ عليه دليلٌ، ومنْ أين يُفهم هذا من ذِكْر هذا الحرف؟»، كذلك قال ابن جنيٍّ تعليقاً على كلام الفراء واستشهاده بهذا الشِّعر: «وفي هذا ضعفٌ، ألا ترى إلى الفتح والكسر فيه؟» يعني أنَّه لو كان حرفاً من كلمة لما جاءت فيه القراءة بفتح الفاء وبكسرها.

عنهم، كأنَّه تعالىٰ قال: ما كذَّبوك ببرهان، أَو نحو هذا مما يليق مظهراً.

وقرأَ الجمهور من القراءِ: «قافْ» بسكون الفاءِ، قال أَبو حاتم: ولا يجوز غيرها إِلاَّ جواز سوءٍ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه القراءَة تحْسُن مع أَن تكون [قٓ] حرفاً دالاًّ على كلمة. وقرأَ الثَّقفيُّ، وعيسى: «قافَ» بفتح الفاءِ، وهذه تحسُن مع القول بأَنَّها اسمٌ للقرآن أَو للهِ تعالىٰ، وكذلك قرأَ الحسن، وابن أَبي إِسحاق: «قافِ» بكسر الفاءِ، وهي في رتبة الَّتي قبلها في أَن الحركة للالتقاءِ، وفي أَنَّها اسم للقرآن، و«المجيدُ» الكريمُ الأَوصاف الكثيرُ الخير[١].

واختلف النَّاسُ في الضَّمير في [عَجِبُوا]، لمن هو؟ فقال جمهور المتأَوِّلين: هو لجميع النَّاس، مؤمنهم وكافرهم؛ لأَنَّ كلّ مفطور عَجِب من بعثة بشر رسولاً لله[٢]، لكنَّ المؤمنين نظروا واهتدوا، والكافرين بقوا على عمايتهم وصمُّوا وحاجُّوا بذلك العجب، ولذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾، وقال آخرون: بل الضَّمير في [عَجِبُوا] للكافرين، ، كرَّر الكلام تأْكيداً ومبالغةً، والإِشارة بـ[هذا] يحتمل أَن تكون إِلى نفس مجيءِ البشر، ويحتمل أَن تكون إِلى القول الذي يتضمَّنه الإِنذار وهو الخبر بالبعث، ويؤيِّد هذا القول ما يأْتي بعده.

وقرأَ الجمهور: [أَئِذَا]، وقرأَ الأَعرج، وشيبة، وأَبو جعفر: [إِذَا] على الخبر دون استفهام[٣]، والعامل في [إِذَا] فعل مضمر، كأَنَّه تعالىٰ قال: أَنبعثُ إِذا؟ وإِلى هذا الفعل وقعت الإِشارة بقولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾، قال ابن جنِّيٍّ: ويحتمل أَن يكون المعنى: إِذا مِتنا بَعُدَ رجْعُنا، فيدلُّ ﴿رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ على هذا الفعل الَّذي هو (بَعُدَ) ويحلُّ محلَّ الجواب لقولهم: [إِذَا].

---

(١) قال ابن جنِّيٍّ: «يحتمل (قاف) بالفتح أمرين: أحدهما أن تكون حركته لالتقاء السَّاكنين، كما أنَّ من يقرأ بالكسر كذلك، غير أنَّ من فَتَح أتبع الفتحة صوت الألف لأنَّها منها، ومَنْ كسر فعلى أصل التقاء السَّاكنين، والآخر أنَّ (قاف) منصوبة الموضع بفعل مضمر، ولم تُصرَّف لاجتماع التَّعريف والتَّأنيث في معنى السُّورة».

(٢) في بعض النُّسخ «من بعثة بشر رسول الله».

(٣) يرى أبو حيَّان الأندلسيُّ أنَّه يجوز أن يكون استفهاماً حذفت منه الهمزة، ويجوز أن يكونوا عدلوا إلى الخبر وجواب [إذا] مضمر.

و«الرَّجْعُ» مصدر رجعتُه، وقولهم: [بَعيدٌ] معناه: بعيد في الأفهام والفكر كَوْنه، فأَخبر الله تعالىٰ ـ ردًّا على قولهم ـ بأَنَّه تعالىٰ يعلم ما تأكل الأَرض من ابن آدم وما تُبقي منه، وأَنَّ ذلك في كتاب، وكذلك يعود في الحشر معلوماً ذلك كلُّه، و«الحفيظ»: الجامع الَّذي لم يفته شيءٌ، وقال الرُّمَّانيُّ: حفيظٌ: منيع من أَن يذهب بِبِلَى ودُروس، وروي في الخبر الثَّابت أَنَّ الأَرض تأكل ابن آدم إلاَّ عَجْبَ الذَّنَبِ[1] وهو عظم كالخردلة فمنه يُركَّبُ ابن آدم، وحِفْظُ ما تنقص الأَرض إِنَّما هو ليعود بعينه يوم القيامة، وهذا هو الحقُّ، وذهب بعض الأُصوليِّين إِلى أَن الأَجساد المبعوثة يجوز أَن تكون غير هذه، وهذا عندي خلاف لظاهر كتاب الله تعالىٰ، ولو كانت غيرها فكيف كانت تشهد الجلود والأَيدي والأَرجل على الكفرة إِلى غير ذلك ممّا يقتضي أَنَّ أَجساد الدُّنيا هي الَّتي تعود؟ وقال ابن عبّاس، ومجاهد، والجمهور: المعنى: ما تنقص من لحومهم وأَبشارهم وعظامهم، وقال السُّدِّيُّ: معنى قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أَي ما يحصل في بطن الأَرض من موتاهم، وهذا قولٌ حسنٌ مُضَمَّنُهُ الوعيد، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما أَيضاً ـ فيما حكى الثَّعلبيُّ ـ: معناه: قد علمنا ما تنقص الأرض بالإِيمان من الكفرة الَّذين يدخلون في الإِيمان، وهذا قول أَجنبي من المعنى الذي قبلُ وبعدُ.

وقبل قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟﴾ مُضمر عنه وقع الإِضراب، تقديره: ما أَجادوا النَّظر، أَو نحو هذا، والَّذي يقع عنه الإِضرابُ بـ (بَلْ) الأَغلب فيه أَنَّه منفيٌّ تقضي (بلْ) بفساده، وقد يكون أَمراً مُوجباً تقضي (بَلْ) بترك القول فيه لا بفساده، وقرأَ الجمهور: [لَمَّا] بفتح اللاَّم وشدِّ الميم، وقرأَ الجحدريُّ: [لِمَا] بكسر اللاَّم وتخفيف الميم، قال أَبو الفتح: هي كقولهم: «أَعطيته لِمَا سَأَلَ»، وكما في التأْريخ «لِخَمْسٍ خَلَوْنَ»، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[2]، ومنه قول الشاعر:

---

(١) روى مسلم في صحيحه، وأبو داود، والنَّسائيُّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «كل ابن آدم يأكله التُّراب إلاَّ عَجْبَ الذَّنَب، منه خُلق، ومنه يُرَكَّب»، وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقد أورده الإمام السُّيوطيُّ في (الجامع الصَّغير)، ورمز له بأنَّه صحيح. والعَجْب ـ بسكون الجيم ـ: العظم الذي في أسفل الصُّلب عند العَجُز، وفي اللسان أنَّه ما انضم عليه الوَركان من أصل الذَّنَب المغروز في مُؤَخَّر العَجز.

(٢) من الآية (١٨٧) من سورة الأعراف، والمعنى في هذه الآية: لا يُجَلِّيها عند وقتها إلاَّ الله تعالىٰ، وكذلك المعنى في قولهم: «أَعطيتُه لِمَا سَأَلَ»: أَعطيته لسؤاله، والمثال الَّذي ذكره أبو الفتح في المحتسب: =

. . . . إِذَا هَبَّتْ لِقَارِيهَا الرِّيَاحُ[١]

و«الْمَرِيجُ» معناه: المختلط، قاله ابن زيد، أي بعضهم يقول ساحر، وبعضهم يقول كاهن، وبعضهم يقول شاعر[٢]، إلى غير ذلك من تخليطهم، وكذلك عادت فكرة كلٍّ واحد منهم مختلطة في نفسها، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: المريج: المُنكر، وقال مجاهد: المُلْتبس، والمريج: المضطرب أيضاً، وهو قريب من الأوّل، ومنه في الحديث «مَرِجَتْ عهودُهم»[٣]، ومن الأول: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾[٤]، وقال الشّاعر:

مَرِجَ الدِّينُ فَأَعْدَدْتُ لَهُ مُشْرِفَ الْحَارِكِ مَحْبُوكَ الْكَتَدْ[٥]

= «أعطيتُه ما سأل لطلبه»، أي عند طلبه، أو مع طلبه، وليس كما ذُكر هنا إذْ نُقل محرفاً، ومعنى «لِخَمْسٍ خَلَوْنَ»: عِنْدَ خَمْس خلَوْنَ، أو مَعَ خَمْسٍ خلَون. وعلى هذا يرجع المعنى في قراءة [لِمَا] بكسر اللاّم وفتح الميم خفيفة لمعنى القراءة العامّة [لَمَّا] بفتح اللاّم وشدِّ الميم.

(١) هذا عجز بيت ذكره في اللسان (عقر) شاهداً على أنَّ العَقْر موضعٌ معيَّن، والبيت بتمامه:

كَرِهْتُ العَقْرَ عَقْرَ بَنِي شُلَيْلٍ إِذَا هَبَّتْ لِقَارِيهَا الرِّيَاحُ

والبيت في المُحْتَسَب لابن جنيٍّ، والرِّواية فيه: «شَنِئْتُ العَقْر»، ومعنى شنئتُ: كرهتُ، وضُبطت (شليل) في اللّسان بفتح الشّين وكسر اللاّم الأولى، وضبطت في المحتسب بضمِّ الشّين وفتح اللاّم، ومعنى «إذا هبَّتْ لِقاريهَا»: إذا هبت عند وقتها الرِّياح، وهو موضع الاستشهاد هنا.

(٢) في الأصول: «وبعضهم كاهن، وبعضهم شاعر»، والزِّيادة للتوْضيح.

(٣) أخرجه أبو داود في الملاحم، وابن ماجه في الفتن، وأحمد في مسنده (٢ـ١٦٢، ٢١٢، ٢٢٠، ٢٢١)، ولفظه كما جاء في المسند: حدَّثنا عبد الله، حدَّثني أبي، ثنا إسماعيل، عن يونس، عن الحسن، أن عبد الله بن عمرو قال: قال لي رسول الله ﷺ: «كيف أنت إذا بقيت في حُثالة من النّاس»؟ قال: قلت: يا رسول الله، كيف ذلك؟ قال: «إذا مَرِجَتْ عهودُهم وأماناتُهم وكانوا هكذا»، وشبَّك يونس بين أصابعه يصف ذاك، قال: قلتُ: ما أصنع عند ذاك يا رسول الله؟ قال: «اتّقِ الله عزَّ وجلَّ، وخُذْ ما تعرف ودَعْ ما تُنكر، وعليك بخاصتك، وإيَّاك وعوامَّهم». ومثل هذا الحديث ما رواه الإمام أحمد أيضاً في مسنده عن ميمونة، قالت: قال رسول الله ﷺ ذات يوم: «كيف أنتم إذا مَرِج الدِّينُ، وظهرت الرَّغبة، واختلفت الإخوان، وحُرِّق البيتُ العتيق»، والشّاهد في الحديثين (مرج) بمعنى اختلط.

(٤) من الآية (١٩) من سورة (الرَّحمٰن).

(٥) البيت لأبي دُؤادٍ الإياديِّ ـ جارية بن الحجّاج ـ، وهو في اللّسان (مَرَجَ)، قال: «ومَرِجَ العهد والأمانة والدِّين: فَسَدَ، قال أبو دؤاد: مَرِج الدِّينُ. . . البيت. والحاركُ: الكاهل، والكَتَد: مجتمع الكتفين وهو الكاهل، ويقال كَتَد ـ بفتح التّاء وكسرها ـ وفي الحديث «كنا يوم الخندق ننقل التّراب على أكتادنا». يقول: إنَّه عندما اختلط الدِّين أعدّ للجهاد فرساً عالي الكاهل محكم الكتفين متين البناء، ومثل هذا البيت قول الداخل الهذليِّ يصف بقرة رماها بسهم: =

ثمَّ دلَّ تعالىٰ على العبرة بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾ الآية. و[زَيَّنَّاهَا] معناه: بالنُّجوم، و«الفُرُوج»: الفطور خلالها وأثناءَها، قاله مجاهد وغيره، وحكى النَّقّاش أن هذه الآية تعطي أن السَّماءَ مستديرة، وليس الأَمر كما حكى إذا تُدُبِّر اللَّفظ وما يقتضي. و«الرَّواسي»: الجبال، و«الزَّوْجُ»: النَّوْعُ، و«الْبَهِيجُ» قال ابن عباس، وقتادة، وابن زيد: هو الحسن المنظر.

وقوله تعالىٰ وجلَّ: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ منصوب على المصدر بفعل مضمر، و«الْمُنِيب»: الرّاجع إلى الحقِّ عن فكرة ونظر، وقال قتادة: هو المقبل بقلبه إلى الله تعالىٰ، وخصَّ تعالىٰ هذه الصنيفة بالذِّكر تشريفاً من حيث هي المنتفعة بالتَّبصرة والذِّكرى، وإلاَّ فهذه المخلوقات هي تبصرة وذكرى لكلِّ بشر، وقال بعض النَّحويين: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ مفعولان من أجلهما، وهذا محتمل، والأوَّل أرجح.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾، قيل: يعني جميع المطر، كلّه يتَّصف بالبركة، وإن ضَرَّ بعضه أحياناً ففيه مع ذلك الضُّرِّ الخاص البركةُ العامَّة، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: كان النَّبيُّ ﷺ إذا جاءَ المطر فسالت الميازيب قال: «لا مَحْل عليكم العام»، وقال بعض المفسِّرين: ﴿مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ يريد به ماءً مخصوصاً خالصاً للبركة ينزله الله تعالىٰ كلَّ سنة، وليس كلّ المطر يتّصف بذلك. وحَبُّ الحصيد هو البُرُّ والشَّعير ونحوه مما هو نبات محبب يُحصد، و[ٱلْحَصِيدِ] صفة لمحذوف[1]، وقال مجاهد: حبُّ الحصيد: الحنطة.

= فجـالَـتْ فـالْتَمَسْـتُ بـهِ حَشَـاهَـا ... فَخَـرَّ كَـأَنَّـهُ خُـوطٌ مَـرِيـجُ

(١) التّقدير: «وحَبَّ النَّبْتِ الْحَصيد»، وهذا قول البصريين، أمّا الكوفيون فيقولون: هذا من إضافة الشّيء إلى نفسه، كما يقال: مسجدُ الجامعِ، وربيعُ الأوّلِ، إذ المراد: المسجدُ الجامعُ، والرَّبيعُ الأوَّلُ، ومن=

و[بَاسِقَاتٍ] معناه: طويلات ذاهبات في السَّماءِ، ومنه قول أَبي[١] نوفل في ابن هُبيرة:

يَـابْـنَ الَّـذِيـنَ بِجِـدِّهِـمْ بَسَقَـتْ عَلَـى قَيْـسٍ فَـزَارَهْ[٢]

وروى قطبة بن مالك عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قرأَ: [بَاصِقَاتٍ] بالصَّاد[٣]، قال أَبو الفتح: الأَصل السّين، وإِنما الصَّاد بدلٌ منها لاستعلاءِ القاف. و«الطَّلْعُ» أَوَّل ظهور التَّمر في الكُفُرَّى[٤] وهو أَبيض منضَّد كحبِّ الرُّمَّان، فما دام ملتصقاً بعضه ببعض فهو نضيد، وإِذا خرج من الكفرى وتفرَّق فليس بنضيد. و[رِزْقاً] نصب على المصدر، والضمير في [بِهِ] عائد على المطر، ووصف البَلْدَة بـ «مَيْت» على تقدير القُطْر والبلد، وقرأَ النّاس: [مَيْتاً] مخفَّفاً، وقرأَ أَبو جعفر، وخالد: [مَيِّتاً] بالتَّثقيل، ثمَّ بيَّن تبارك وتعالىٰ موضع الشَّبه فقال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾، وهذه الآيات كلُّها إِنَّما هي أَمثلة وأَدلَّة على البعث، و«الخروج» يريد به الخروج من القبور.

و﴿أَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ قومٌ كان لهم بئر عظيمة وهي الرَّسُّ، وكلُّ ما لم يُطْوَ من بئر أَو معدن أَو نحوه فهو رسٌّ، وأَنشد أَبو عبيدة للنابغة الجعديِّ:

سَبَقْـتَ إِلَـى فَـرَطٍ نَـاهِـلٍ تَنَـابِلَـةً يَحْفُـرونَ الـرِّسَـاسَـا[٥]

= هذا قوله تعالىٰ في سورة الواقعة: ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، وقوله تعالىٰ في هذه السُّورة: ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾، وإِنَّما تضاف هذه الأشياء إلى أنفسها لاختلاف لفظ اسمها، وهذا هو قول الفرّاء، ذكره في «معاني القرآن»، وهو أيضاً قول ابن قتيبة.

(١) في الأصول: «ابن نوفل».

(٢) هذا البيت من شواهد أبي عبيدة في «مجاز القرآن»، قال: «﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ﴾ طوال، يقال: جبل باسق، وحَسَب باسق، قال أبو نوفل لابن هُبيرة: «يابْن الَّذين... البيت». وذكر صاحب اللِّسان هذا البيت شاهداً على أنَّ البُسوق هو الارتفاع في الفضل، قال: «وبَسَق على قومه: علاهم في الفضل، وأنشد ابن بَرِّي لأبي نوفل: يابن الَّذين... البيت»، والرِّواية في مجاز القرآن وفي اللِّسان: «بِفَضْلِهم» بدلاً من «بجدِّهم»، وفي حديث ابن الحنفيَّة: كيف بسق أبو بكر أصحابَ رسول الله ﷺ؟ أي: كيف ارتفع ذِكْرُه دونهم؟

(٣) ذكر ذلك الثَّعلبيُّ، ونقله القرطبيُّ، ثمَّ قال: «قلت: الَّذي في صحيح مسلم عن قطبة بن مالك قال: صَلَّيْتُ وصلى بنا رسول الله ﷺ فقرأَ ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾، حتَّى قرأَ: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ﴾، قال: فجعلتُ أردِّدها ولا أدري ما قال، إلاَّ أنَّه لا يجوز إبدال الصَّاد من السِّين لأجل القاف». اهـ.

(٤) وعاءُ طلع النَّخل هو الكُفُرُ، ويقال فيه: الكُفُرَّى والكِفِرَّى والكَفَرَّى، والكُفَرَّى. (انظر اللِّسان).

(٥) البيت في اللِّسان، والفَرَط ـ بفتح الفاء والرّاء ـ: القوم يتقدَّمون إلى الماء قبل الوارد فيهيِّئون لهم الدِّلاء=

وجاءَهم نبيٌّ يسمَّى حنظلة بن سفيان فيما رُوي، فجعلوه في الرَّسِّ وردموا عليه وأَهلكهم الله تعالىٰ، وقال كعب الأَحبار في كتاب الزَّهراويِّ: أَصحاب الرَّسِّ هم أَصحاب الأُخدود، وهذا ضعيف؛ لأَنَّ أَصحاب الأُخدود لم يكذِّبوا نبيًّا، إِنَّما هو مِلك أَحرق قوماً، وقال الضَّحّاك: الرَّسُّ بئْر قتل فيها صاحب يس، قال منذر: رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أَنَّهم قومُ عاد.

و«الأَيْكَةُ» شجر ملتفٌ، وهم قوم شعيب عليه السَّلام، والأَلف واللاَّم من «الأَيْكة» غير معرّفتين لأَنَّ «أَيكة» اسم علم كطلحة، يقال: أَيْكة ولَيْكة، فهي كالأَلف واللاَّم في الشَّمس والقمر وفي الصِّفات الغالبة، وفي هذا نظر، وقرأَ: [الأَيْكَةَ] بالهمز أَبو جعفر، ونافع، وشيبة، وطلحة.

و﴿ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ هم حِمْير، و«تُبَّع» اسم الملِك فيهم، يذهب تُبَّع ويجيءُ تُبَّع، مثل كسرى في الفرس وقيصر في الرُّوم، وكان أَسعد أَبو كرب أَحد التَّبابعة رجلاً صالحاً صحب حَبْرين فتعلَّم منهما دين موسى عليه السَّلام، ثمَّ إِنَّ قومه أَنكروا عليه ذلك، فندبهم إِلى محاجَّة الحَبْرين فوقعت بينهم مجادلة عظيمة، واتفقوا على أَن يدخل جميعهم النّار الَّتي في القربان فمن أَكلته النّار فهو المبطل، فدخلوا فاحترق قوم تُبَّع وخرج الحَبْران تعرق جباههما، فهلك القوم المخالفون وآمن سائر قوم تُبَّع بدين الحَبْرين، وفي الحديث اختلاف كثير أَثْبَتُّ أَصحَّ ذلك على ما في سير ابن هشام. وذكر الطَّبريُّ عن سهل بن سعد أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «لاَ تلعنوا تُبَّعاً فإِنَّه كان قد أَسلم»(١)، وذكر الثَّعلبيُّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أَنَّ تُبَّعاً كان نبيًّا.

= والأرسان ويملئون الحيَّاض ويستقون لهم، ومنه قول النَّبيِّ ﷺ: «أنا فَرَطُكم على الحوض» بمعنى: أنا المتقدِّم منكم إليه يوم القيامة، والنّاهل هو الشّارب وإن شئت العطشان، (انظر اللّسان)، ويروى «باهل» بالباء، وهكذا هي في الطَّبريِّ، ومعناها المتردِّد بلا عمل، والنّاهل أنسب للمعنى هنا، والتّنابلة جمع تَنْبل على وزن جعفر، وهو الرَّجل القصير، ولعلَّ ذلك يشير إلى كسل أو عجز عن العمل، والرِّساسُ جمع رَسٍّ، والرَّسُّ: البئر القديمة، أو هي المعدن، أي المنجم الَّذي يستخرج منه المعادن، وابن عطيَّة يستشهد بالبيت هنا على أنَّ كلَّ ما حُفِر من بئر أو قبر أو منجم يُسَمَّى رَسّاً، فإذا عرشت البئر بالحجارة فهي طوِيٌّ.

(١) أخرجه ابن جرير الطَّبريُّ، عن يونس، عن ابن وهب، عن ابن لَهِيْعَة، عن عمرو بن جابر الحضرميِّ، عن سهل بن سعد السَّاعدي.

قوله تعالىٰ: [كُلٌّ]، قال سيبويه: التَّقدير: كُلُّهم، وحذف لدلالة «كُلّ» عليه إيجازاً، والوعيد الَّذي حقَّ هو ما سبق به القضاءُ من تعذيب الكفرة وإهلاك الأُمم المكذِّبة، وفي هذا تخويف من كذَّب محمداً ﷺ.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾ توقيف للكفَّار وتوبيخ وإقامة للحجَّة الواضحة عليهم، وذلك أن جوابهم على هذا التَّوقيف هو: لم يقع عِيٌّ، ثمَّ همْ مع ذلك في لبْس من الإعادة، وهذا تناقض، يقال: عَيِيَ يَعْيَا إذا عجز عن الأمر، ويدغم هذا الفعل الماضي من هذا الفعل، ولا يدغم المستقبل منه، فيقال: عيَّ، ومنه قول لشّاعر:

عَيُّــوا بِــأَمْــرِهِــمُ كَمَــا عَيَّــتْ بِبَيْضَتِهَــا الْحَمَــامَــهْ[1]

و«الخلق الأَول» إنشاءُ الإنسان من نطفة على التَّدريج المعلوم، وقال الحسن: الخَلْقُ الأَوَّل آدم عليه السَّلام، وحكاه الرُّمَّانيُّ، و«اللَّبْسُ»: الشَّكُّ والرّيبُ واختلاط النّظر، و«الْخَلْق الْجَدِيدُ»: البعث من القبور.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾﴾.

هذه آيات فيها إقامة حُجج على الكُفّار في إنكارهم البعث والجزاءَ، و«الْخَلْقُ» إنشاءُ الشّيءِ على تقدير وترتيب حكميٍّ، و«الإنسان»: اسم الجنس، وقال بعض المفسِّرين: الإِنسان هنا آدم عليه السّلام، و[تُوَسْوِسُ] معناه: تتحدَّث في فكرتها، وسُمِّي صوت الحُلِيِّ وسوسة لخفائه، والوسوسة إنَّما تستعمل في غير الخير.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ عبارة عن قدرة الله تعالىٰ على العبد،

---

(١) هذا البيت لعبيد بن الأبرص الأسديّ، وهو من قصيدة أنشدها أمام حُجر يصف حال قومه بعد أن أذلّهم حُجْر وجعلهم عبيد العصا، وهو في اللّسان، ويروى:

بَــرِمَــتْ بَنُــو أَسَــدٍ كَمَــا بَــرِمَــتْ ببيْضَتِهَــا الحَمَــامَــهْ

والبيت هنا كما في اللّسان شاهد على أنّ الإدغام أكثر من التَّخفيف في (عَيِيَ)، يقال: عَيَّ بأَمْرِهِ وَعَيِيَ إذا لم يهتد إلى الصَّواب.

وكون العبد في قبضة القدرة والعلم، قد أُحيط به، فالقُربُ هو بالقدرة والسُّلطان؛ إذ لا ينحجب عن علْم الله تبارك وتعالىٰ باطن ولا ظاهر، وكلّ قريب من الأَجرام فبينه وبين قلب الإِنسان حجب، و«الوريد» عرقٌ كبير في العُنق، يقال: إِنَّهما وريدان عن يمين وشمال، قال الفرّاءُ: هو ما بين الحلقوم والعلباوين، وقال الحسن: الوريد: الوتين، قال الأَشرم: هو نهر الجسد، هو في القلب الوتين، وفي الظهر الأَبهر، وفي الذراع والفخذ: الأَكحل والنَّسَا، وفي الخنصر: الأُسيلم، و«الحبلُ» اسم مشترك فخصَّصه بالإِضافة إِلى الوريد، وليس هذا بإِضافة الشَّيءِ إِلى نفسه، بل هي كإِضافة الجنس إِلى نوعه، كما تقول: لا يجوز حي الطّير بلحمه.

وأَمَّا قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ فقال المفسِّرون: العامل في [إِذْ] هو [أَقْرَبُ]، ويحتمل عندي أَن يكون العامل فيه فعلاً مضمراً تقديره: اذكر إِذْ يَتَلَقَّى، ويحسن هذا المعنى لأَنَّه أَخبر خبراً مجرَّداً بالخلق، والعلم بخطرات الأَنفس، والقرب بالقدرة والمِلْك، فلمَّا تمَّ الإِخبار أَخبر بذكر الأَحوال الَّتي تُصَدِّق هذا الخبر وتُبَيِّن وروده عند السَّامع، فمنها: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾، ومنها مجيءُ سكرة الموت، ومنها النَّفخ في الصُّور، ومنها مجيءُ كلِّ نفس. و«الْمُتَلَقِّيَان»: المَلَكان المُوَكَّلاَن بكلِّ إِنسان، مَلك اليمين الذي يكتب الحسنات، ومَلَك الشِّمال الَّذي يكتب السَّيِّئات، قال الحسن: الحفظة أَربعة: اثنان بالنَّهار واثنان باللَّيل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويؤيِّد ذلك الحديث «يتعاقبون فيكم ملائكة باللَّيل وملائكة بالنَّهار»... الحديث بكماله[1]. ويُروى أَنَّ مَلك اليمين أَمير على مَلك الشِّمال، وأَنَّ العبد إِذا أَذنب يقول مَلك اليمين للآخر: تثبَّت لعلَّه يتوب، ورواه إِبراهيم التَّيميُّ وسفيان الثَّوريُّ، و[قَعِيدٌ] معناه: قاعد، وقال قوم هو بمنزلة «أَكيل» فهو بمعنى مُقَاعد، وقال الكوفيون: أَراد «قُعوداً» فجعل الواحد موضع الجنس، والأَوَّل أَصوب لأَنَّ المُقَاعد إِنَّما يكون عند قعود

---

(١) أخرجه البخاريُّ في المواقيت والتَّوحيد، ومسلم في المساجد، والنَّسائيُّ في الصَّلاة، ومالك في السَّفر، وأحمد في مسنده (٢ـ٢٥٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة باللَّيل وملائكة بالنَّهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثمَّ يعرج الَّذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلُّون». واللَّفظ للبخاريِّ.

الإنسان، والقاعد يكون قاعداً على كلِّ هيئات الإنسان، وقال مجاهد: قَعيدٌ رصد، ومذهب سيبويه أَن التَّقدير: عن اليمين قعيد وعن الشِّمال قعيد، فاكتفى بذكر الآخر عن ذكر الأَوَّل، ومثله عنده:

. . . . وَعَـزَّةُ مَمْطُـولٌ مُعَنًّـى غَـرِيمُهَـا(١)

ومثله قول الفرزدق:

إِنِّـي ضَمِنْـتُ لِمَـنْ أَتـانـي مـا جَنَـى   وَأَبـي فكـانَ وكُنْـتُ غَيْـرَ غَـدُورِ(٢)

وهذه الأَمثلة كثيرة، ومذهب المبرِّد أَنَّ التَّقدير: عن اليمين قعيد وعن الشِّمال، فأَخَّر [قَعِيدٌ] عن مكانه، ومذهب الفراءِ أَن لفظ «قعيد» يدل على الاثنين والجميع فلا يحتاج إِلى تقدير غير الظاهر.

قوله تعالىٰ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾، قال الحسن بن أَبي الحسن، وقتادة: يكتب الملكان جميع الكلام، فيثبت الله من ذلك الحسنات والسَّيِّئات ويمحو غير ذلك، وهذا ظاهر الآية. وقال أَبو الجوزاءِ، ومجاهد: يكتبان عليه كلَّ شيءٍ حتَّى أَنينه في مرضه،

---

(١) هذا عجز بيت قاله كثير من قصيدة له، والبيت بتمامه:

قَضَـى كُـلُّ ذي دَيْـنٍ فَـوَفَّـى غَـرِيمَـهُ   وعَـزَّةُ مَمْطُـولٌ مُعَنًّـىً غَـرِيمُهَـا

وقَضَى: أدَّى ما عليه من الدَّيْن لصاحبه، ووَفَّى: أعطاه حَقَّه كاملاً وافياً تامّاً، والغريم: الدّائن، ومَمْطُول: لم يأخذ حقَّه بل تأجَّل موعد الوفاء به مرَّة بعد أُخرى، والمُعَنَّى: المُتعب الَّذي كُلِّف ما يشُقُّ عليه أو الأسير، يقول: إنَّ صاحب كلِّ دَيْن أخذ حقَّه كاملاً إلاّ غريم عزَّة وهو أنا، فلم أزل محروماً مُتعباً لا أنال إلاّ الوعود بعد الوعود، والشّاهد الَّذي يقصده ابن عطيَّة هو قول كُثَيِّر: «غريمها» فقد تنازع فيه كلٌّ من (ممطول) و(مُعَنًّى)، وهو يريد هنا أنَّ الثاني وهو (مُعَنّىً) هو الَّذي عمل في (غريمها)، واكتفى بذكره عن ذكره مع الأوَّل وهو (ممطول)، على أنَّ بين النَّحويين خلاف طويل هنا، ويمكن الرُّجوع إليه في كتب النَّحو في البيت شاهد آخر في الموضوع ذاته، وهو في الشَّطر الأوَّل لأنّ (قضى) تطلب (غريمه) مفعولاً، وكذلك (وفَّى) تطلبه، والخلاف بين النَّحويّين في أيِّهما أحقُّ بالعمل مذكور في كتب النَّحو.

(٢) بيت الفرزدق هذا من شواهد النَّحويِّين أيضاً في باب التَّنازع، فإنَّ (كان) و(كُنتُ) كلّ منهما تطلب الخبر وهو «غير غدور»، وأصل الكلام: فكان غير غدور، وكنتُ غير غدور، فحذف أحد الخبرين اكتفاءً بدلالة الآخر عليه، وعند البصريين ـ وابن عطيَّة على مذهبهم ـ أنَّ الخبر الموجود هو خبر الثّاني، أمّا خبر الأوّل قد حذف لدلالة الثّاني عليه، وقد استشهد بهذا البيت الطّبريُّ والقرطبي، وهو مذكور في (معاني القرآن) للفراء، والكتاب لسيبويه، ومع كلّ هذا فهو غير موجود في الدِّيوان.

وقال عكرمة: المعنى: ما يلفظ من قولٍ خيرٍ أَو شرٍّ، وأَمَّا ما خرج عن هذا فإِنَّه لا يُكتب، والأَوَّل أَصوب، ورُوي أَنَّ رجلاً قال لجمله: «حَلْ»[١]، فقال مَلك اليمين: لا أَكتبها، وقال مَلك الشِّمال: لا أَكتبها، فأَوحى الله تعالىٰ إِلى مَلك الشِّمال أَن اكتب ما ترك صاحب اليمين، ورُوي نحوه عن هشام الحمصيِّ، وهذه اللَّفظة إِذا اعتبرت فهي بحسب مشيئته ببعيره، فإِن كان في طاعة فإِن «حَلْ» حسنة، وإِن كان في معصية فهي سيِّئة، والمتوسط بين هذين عسر الوجود، ولا بد أَن يقترن بكلِّ أَحوال المرءِ قرائن تخلِّصها للخير أَو لخلافه، وحكى الثَّعلبيُّ عن عليِّ بن أَبي طالب رضي الله عنه قال: قال النَّبيُّ ﷺ: إِنَّ مقعد الملَكين على الثنِيَّتَيْن، فقلمهما اللِّسان ومدادهما الرِّيق)[٢]، وقال الضَّحاك، والحسن: مقعدهما تحت الشّعر، وكان الحسن يحبُّ أَن ينظِّف عنفقته[٣] لذلك، قال الحسن: حتّى إِذا مات المرءُ طويت صحيفته، وقيل له يوم القيامة: ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٤]، عَدَل والله من جعله حسيب نفسه. و«الرَّقيب»: المراقب، و«العتيد»: الحاضر.

وقوله تعالىٰ: [وَجَاءَتْ] عطف ـ عندي ـ على قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى﴾، فالتّقدير: وإِذ تجيءُ سكرة الموت، وجُعل الماضي في موضع المستقبل تحقيقاً وتبييناً[٥] للأَمر، وهو أَحثُّ على الاستعداد واستشعار القرب، وهذه طريقة العرب في ذلك، وتبيين هذا في قوله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾، ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فإِنَّها صيرورة بمعنى الاستقبال. وقرأَ أَبو عمرو: ﴿وَجَآءَت سَّكْرَةُ﴾ بإِدغام التّاءِ في السّين، وسكرةُ الموت: ما يعتري الإِنسان عند نزعه، والنّاسُ فيها مختلفة أَحوالهم، لكن لكلِّ أَحد سَكْرة، وكان

---

(١) في اللِّسان: «يقال للنّاقة إِذا زجرتها: حَلْ جزمٌ، وحَلٍ مُنوَّن، . . . وقال ابن سِيدَه: ومن خفيف هذا الاسم: حَلْ وحَلِ لإِناث الإِبل خاصّة». فهو صوت لزجر النّاقة أَو الجمل، وقال الجوهريُّ في الصِّحاح: حَلْ: زجر للنّاقة، وحَوْبُ: زجر للبعير.

(٢) ذكره السُّيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور عن عليٍّ رضي الله تعالىٰ عنه موقوفاً، قال: أَخرج ابن أَبي الدُّنيا في الصَّمت، عن عليٍّ رضي الله عنه، قال: «لسان الإِنسان قلم المَلَك وريقُه مدادُه»، وذكره مرفوعاً من رواية أَبي نعيم، والدَّيلميُّ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: «إِنَّ الله لطَف المَلَكَيْن الحافظيْن حتّى أَجلسهما على النّاجذين، وجعل لسانه قلمهما، وريقه مدادهما». والنّاجذ: الضِّرس.

(٣) العنفقة شعيرات بين الشَّفة السُّفلى والذَّقن.

(٤) من الآية (١٤) من سورة (الإسراء).

(٥) في بعض النُّسخ: «وتثبيتاً للأَمر».

رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ للموت لسكرات»(١). وقوله تعالىٰ: [بِالْحَقِّ] معناه: بلقاءِ الله تبارك وتعالىٰ وفقد الحياة الدنيا، وفي مصحف ابن مسعود: [وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْحَقِّ بِالموْت]، وقرأها ابن جبير، وطلحة، ويروى أَنَّ أَبا بكر الصِّدِّيق قالها لابنته عائشة رضي الله عنهما، وذلك أَنَّها قعدت عند رأسه تبكي وهو ينازع فقالت:

لَعَمْرُكَ مـا يُغْنـي الثَّـرَاءُ عـن الْفَتَـى إِذا حَشْرجَت يَوْماً وضاقَ بها الصَّدْرُ(٢)

ففتح أَبو بكر رضي الله عنه عينيه وقال: لا تقولي هكذا وقولي: «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْحَقِّ بالموْتِ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيد»، وقد روي هذا الحديث عن مشاهير القرّاءِ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾(٣) فقال أَبو الفتح: إِن شئت علقت الباءَ بـ [جَاءَتْ] كما تقول: «جئت بزيد»، أَي: سقته، وإِن شئت كانت بتقدير: ومعها الموت(٤).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، والبخاريُّ، والترمذيُّ، والنَّسائيُّ، وابن ماجه، عن عائشة رضي الله عنها، ولفظه أنَّ رسول الله ﷺ كانت بين يديه ركوة أو علبة فيها ماءٌ، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: لا إِلَه إلاَّ الله، إنَّ للموت سكرات.

(٢) هذا البيت لحاتم الطَّائي، وهو من قصيدة أكثر فيها من الحكم، والرِّواية في الديوان: «أماويَّ، ما يغني الثَّراءُ»، والبيت في اللِّسان، والحشرجة: صوت النَّفس، وهو الغرغرة في الصَّدر. أمَّا «مَاوِيَّة» فهي امرأة حاتم، وهو هنا يناديها ويوجِّه لها الحديث في هذا البيت وفي ستة أبيات أُخرى من القصيدة نفسها، يقول في مطلع كلِّ بيت: أماوِيَّةَ.

(٣) أخرجه أحمد، وابن جرير، عن عبد الله بن اليمنيِّ مولى الزُّبير بن العوّام، قال: لمّا حضر أبو بكر تمثّلت عائشة بهذا البيت:

أَعَـاذِلُ مـا يُغْنـي الحِـذَارُ عَـن الْفَتَـى إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِها الصَّدْرُ

فقال أبو بكر رضي الله عنه: ليس كذلك يا بُنَيَّة، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾. أمَّا ما نقله ابن عطيَّة هنا وهو ﴿وجاءت سكرة الحق بالموت﴾ فقيل إنَّها قراءة قرأ بها أبو بكر رضي الله عنه، وقال القرطبيُّ: «إن أبا بكر رضي الله عنه رويت عنه روايتان: إحداهما موافقة للمصحف فعليها العمل، والأخرى مرفوضة تجري مجرى النسيان منه إن كان قالها، أو الغلط من بعض من نقل الحديث».

(٤) فهي متعلقة بمحذوف، وتقع حالاً، كقولك: خرج بثيابه، أي: وثيابه عليه، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦٓ﴾ أي: وزينتُه عليه. أمَّا على قول من قال إنَّ قراءة أبي بكر رضي الله عنه: ﴿وجاءت سكرة الحق بالموت﴾ قراءة فقد قال أبو الفتح بعد أن نسبها إلى طلحة وسعيد بن جبير: «كيف يجوز أن تقول: (جاءت سكرة الحق بالموت) وأنت تريد به (جاءت سكرة الموت بالحقِّ)؟ فيا ليت شعري أيَّتها الجائية بصاحبتها؟ قيل: إنَّهما اشتركتا في الحال، وكلٌّ منهما قريبة من صاحبتها حتّى كأنَّ كلّ واحدة منهما جاءت بالأخرى». اهـ. بتصرُّف.

واختلف المتأوِّلون في معنى «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْحَقِّ بِالْمَوْتِ» ـ فقال الطَّبريُّ ـ وحكاه الثَّعلبيُّ ـ الحَقُّ: الله تعالىٰ، وفي إضافة السَّكرة إلى اسم الله تعالىٰ بُعْدٌ، وإن كان ذلك سائغاً من حيث هي خلْق له، ولكنَّ فصاحة القرآن ورصفه لا يأْتي فيه هذا، وقال بعض المتأَوِّلين: المعنى: وجاءَت سكرة فراق الحياة بالموت، وفراق الحياة حقٌّ يعرفه الإنسان ويحيد منه بأَمَلِهِ، ومعنى هذا الحيد أَنَّه يقول: أَعيش كذا وكذا، فمتى فكَّر في قرب الموت حادَ بذهنه وأَمله إلى مسافة بعيدة من الزَّمان، وأَيضاً فحذر المرءِ وتحرُّزاته ونحو هذا حيد كلُّه. وقد تقدَّم القول في النَّفخ في الصُّور مراراً، و«يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ» هو يوم القيامة، وأَضافه إلى الوعيد تخويفاً.

قوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، قرأَ طلحة بن مصرف: [مَحَّا] بالحاءِ مثقلة[١]، و«السَّائق»: الحاثُّ على السَّير، واختلف النّاس في السائق والشّهيد ـ فقال عثمان بن عفان، ومجاهد، وغيرهما: مَلَكان مُوَكَّلان بكلِّ إنسان، أَحدهما يسوقه، والآخر من حفظته يشهد عليه، وقال أَبو هريرة رضي الله عنه: السَّائق مَلَك، والشَّهيد العمل، وقال منذر بن سعيد: السّائق مَلك، والشّهيد النَّبيُّ ﷺ، قال: وقيل: الشَّهيد الكتابُ الَّذي يلقاه منشوراً، وقال بعض النُّظار: [سَائِقٌ] اسم جنس، و[شَهِيدٌ] كذلك، فالسّاقة للنّاس ملائكةٌ يوكَّلون بذلك، والشُّهداءُ الحفظةُ في الدُّنيا وكلُّ ما يشهد، وقال ابن عبّاس، والضَّحّاك: السّائق مَلَك، والشّهيد جوارح الإنسان، وهذا يبعد على ابن عبّاس رضي الله عنهما لأَنَّ الجوارح إنَّما تشهد بالمعاصي، وقوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ يعمُّ الصّالحين، فإنَّما معناه: شهيد بخيره وشرِّه، ويقوى في [شَهِيدٌ] اسم الجنس، فتشهد بالخير الملائكة والبقاع، ومنه قوله ﷺ: «لا يسمع مدى صوت المؤذن إنسٌ ولا جانٌّ ولا شيءٌ إلاَّ شهد له يوم القيامة»[٢]، وكذلك تشهد بالشَّرِّ

---

(١) مع إدغام العين في الهاء فانقلبتا حاءً، كما قالوا: ذهب «مَحُمْ» يريدون «مَعَهُم»، انظر البحر المحيط ٨ـ١٢٤.

(٢) رواه البخاريُّ في كتاب الأذان، باب رفع الصَّوت بالنِّداء، عن عبد الرَّحمٰن بن عبد الله الأنصاريُّ ثمَّ المازنيُّ، عن أبيه، أنَّه أخبره أن أبا سعيد الخدريَّ قال له: إنِّي أراك تحبُّ الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذَّنت بالصَّلاة فارفع صوتك بالنِّداءِ، فإنَّه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌّ ولا إنس ولا شيءٌ إلاَّ شهد له يوم القيامة، قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ. ورواه البخاريُّ أيضاً في (بدء الخلق)، كما أخرجه النَّسائيُّ في الأذان، ومالك في النِّداء، وأحمد في مسنده (٣ـ٣٥، ٤٣، ٦٠).

الملائكة والبقاع والجوارح، وقال أَبو هريرة رضي الله عنه: السّائق مَلك والشّهيد العمل، وقال ابن مسلم: السَّائق شيطان، حكاه عنه الثَّعلبيُّ، والقول في كتاب منذر بن سعيد، وهو قول ضعيف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ ﴾.

قرأ الجحدريُّ: [لقد كنتِ] بكسر التّاءِ على مخاطبة النّفس، وكذلك كسر الكافات بعد، وقال صالح بن كيسان، والضَّحاك، وابن عبّاس: معنى قوله تعالىٰ: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ ﴾ الآيَةَ أَن يقال للكافر العاقل من ذوي الَّتي معها السَّائق والشَّهيد إذا حصل بين يدي الرَّحمٰن عزَّ وجلَّ، وعاين الحقائق الَّتي كان لا يُصدِّق بها في الدُّنيا ويتغافل عنها وعن النَّظر فيها: لقد كنت في غفلة من هذا، فلمَّا كُشف الغطاءُ عنك الآن احتَدَّ بصرك، أَي بصيرتك، وهذا كما تقول: «فلان حديد الذهن والفؤاد» ونحوه، وقال مجاهد: هو بصر العين، أَي: اشتدّ التفاتُه إِلى ميزانه وغير ذلك من أَهوال القيامة، وقال زيد بن أَسلم: قوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ ﴾ الآية مخاطبة للنّبيِّ محمد ﷺ، والمعنى أَنَّه خوطب بها في الدُّنيا، أَي: لقد كنت يا محمد، في غفلة عن معرفة هذا القصص والغيب حتّى أَرسلناك وأَنعمنا عليك وعلَّمناك فبصرك اليوم حديد.

وهذا التّأْويل يضعف من وجوه: أَحدها أَن «الْغَفْلَةَ» إِنَّما تنسب أَبداً إِلى مُقصِّر، ومحمد ﷺ لا تقصير له قبل بعثه ولا بعده، وثانيها أَنَّ قوله تعالىٰ ـ بعد هذا ـ ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ يقتضي أَنَّ الضَّمير إِنَّما يعود على أَقرب مذكور، وهذا الَّذي يقال له: ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ ـ وإِن جعلناه عائداً على ذي النّفس في الآية المتقدِّمة ـ جاءَ هذا الاعتراضُ لمحمد ﷺ بين الكلامين غير متمكن، فتأَمله، وثالثها أَنَّ معنى توقيف الكافر وتوبيخه على حاله في الدُّنيا يسقط، وهو أَجرى في الآية وأَولى بالوصف، والوجه عندي ما قاله الحسن، وسالم بن عبد الله أَنَّها مخاطبة للإِنسان ذي النَّفس المذكورة من مؤمن وكافر.

و﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: هي الحياة بعد الموت.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾، قال جماعة من المفسِّرين: قرينه من زبانية جهنَّم، أي قال: هذا العذابُ الَّذي لهذا الإنسان الكافر حاضرٌ عتيدٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ففي هذا تحريض على الكافر واستعجال به.

وقال قتادة، وابن زيد: بل قرينه المَلك المُوكَّل بسَوْقه، فكأنَّه قال: هذا الكافر الَّذي جُعل إليَّ سوقُه، فهو لديَّ حاضِرٌ، وقال الزَّهراويُّ: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾: شيطانه، وهذا ضعيف، وإنَّما أَوقع فيه أنَّ القرين في قوله: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ هو شيطانُه في الدُّنيا ومُغْويه بلا خلاف، ولفظة القرين اسم جنس، فسائقه قرين، وصاحبه من الزَّبانية قرين، وكاتب سيِّئاته في الدُّنيا قرين، وتحتمله هذه الآية، أي: هذا الَّذي أَحصيتهُ عليه عتيد لديَّ، وموجبُ عذابه. ومُمَاشي الإنسان في طريقه قرين، ومنه قول الشّاعر:

عن ٱلْمَرْءِ لاَ تَسْأَلْ وَسَلْ عَن قَرِينِهِ فَكُـلُّ قَـرِيـنٍ بِـالْمُقَـارِنِ يَقْتَـدِي[1]

والقرين الَّذي في هذه الآية غير القرين الَّذي في قوله تعالىٰ: ﴿۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ إذ المقارنة تكون على أنواع، وقال بعض العلماءِ: قرينه في هذه الآية عَمَلُه قلباً وجوارحاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ معناه: يقال: أَلْقيا في جهنَّم، واختلف النّاس، لمن يقال ذلك؟ فقالت جماعة من المفسِّرين: هو قول لِمَلَكَيْن من ملائكة العذاب، وقال عبد الرَّحمٰن بن زيد في كتاب الزَّهراويِّ: هو قول للسّائق والشّهيد، وحكى الزَّهراويُّ أَنَّ المأْمور بإِلْقاءِ الكافر في النّار اثنان، وعلى هذين القولين لا نظر في قوله تعالىٰ: [أَلْقِيَا]، وقال مجاهد وجماعة من المتأَوِّلين: هو قول للقرين، إمَّا السّائق وإمَّا الَّذي هو من الزبانية حسب ما تقدَّم، واختلف أَهل هذه المقالة في معنى قوله تعالىٰ: [أَلْقِيَا] وهي مخاطبة لواحد ـ فقال المبرِّد: معناه: أَلْقِ أَلْقِ، فإِنَّما أَراد تثنية الأَمر مبالغة وتأْكيداً

---

(١) هذا البيت شاهد على أنَّ القرين يقال لمن يمشي مع إنسان في طريقه، وأنَّ كلمة القرين تطلق على كلِّ من يقترن بالمرءِ في عمله أو في حياته، قال في اللّسان: «والقرين: صاحبك الَّذي يقارنك، وقرينك: الَّذي يُقارنك، والجمع قرناء».

فردَّ التَّثنية إلى الضَّمير اختصاراً، كما قال:

. . . . لَفَتْـكَ لأمْيَـنِ عَلَـى نَـابِـلِ[1]

يريد: ارم، ارم. وقال بعض المتأوِّلين: المراد: «الْقِيَنْ»، فعوَّض من النّون أَلِفاً كما نُعَوِّض من التَّنوين، وقال جماعةٌ من أَهل العلم بكلام العرب: هذا جرى على عادة العرب، وذلك أَنَّها كان الغالب عندها أَن يترافق في الأَسفار ونحوها ثلاثة، فكلُّ واحد منهم يخاطب اثنين، فكثر ذلك في كلامها وأَشعارها حتّى صار عُرفاً في المخاطبة، فاستعمل في الواحد، ومن هذا قولهم في الأَشعار: خليليَّ، وصاحِبيَّ، وقِفَا نَبْكِ[2]، ونحوه، وقد جرى المحدِّثون على هذا الرَّسم، فيقول الواحد: حدَّثنا ـ وإِنْ كان قد سمع وحده ـ، ونظير هذه الآية في هذا القول قولُ الحجَّاج: يا حَرَسَيَّ اضْرِبَا عنقه، وهو دليل على عادة العرب، ومنه قول الشاعر:

فَإِنْ تَزْجُرَانِي يابْنَ عَفَّان أَنْزَجِرْ وَإِنْ تَدَعَانِي أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعا[3]

---

(١) هذا عجز بيت قاله امرؤ القيس من أبيات له قالها بعد أن انتصر على بني أسد، والبيت بتمامه:

نَطْعَنُهُـمْ سُلْكَـى وَمَخْلُـوجَـةً لَفَتْـكَ لأمْيَـنِ عَلَـى نَـابِـلِ

وهو في الدِّيوان واللِّسان، والرِّواية في الديوان: «كَرَّكَ» بدلاً من «لَفْتَك»، وسُلْكَى: طعناً مستوياً أو أمام الوجه، ومخلوجة: معوجة عن يمين وشمال، يريد أَنَّهم يطعنونهم من أمامٍ ومن يمين وشمال، وكَرَّك: ردُّك، وكذلك لفْتُكَ، واللأم: السَّهم، والنابل: من يرمي بالنبل، والمعنى: إنَّنا نطعنهم ونعيد الطَّعن بسرعة كما نردُّ سهمين على صاحب نَبْل يرمي بسهمين ثمَّ يعادان عليه بسرعة. وقد روى صاحب اللِّسان أنَّ بعض أهل العلم سأل رؤبة عن هذا البيت فقال: حدَّثني أبي عن أبيه، قال: حدَّثتني عمَّتي وكانت في بني دارم أنَّها سألت امرأ القيس وهو يشرب طلاءً مع عَلْقَمة بن عَبَدَة عن معناه فقال: مررتُ بنابل وصاحبه يناوله الرِّيش لؤاماً وظُهاراً فما رأيت أسرع منه فشبَّهت به.

(٢) أمَّا (خليليَّ) فمثاله قول امرىء القيس:

خَلِيلَـيَّ مُـرَّا بـي علـى أُمِّ جُنْـدَبِ نُقَضِّـي لُبـانـات الْفُـؤَادِ الْمُعَـذَّبِ

وأمَّا (صاحبيَّ) فمثاله قول أبي تمام:

يـا صَـاحِبَـيَّ تَقَصَّيَـا نَظَـرَيْكُمَـا تَـرَيَـا وُجُـوهَ الأَرْضِ كَيْـفَ تصـوَّرُ
تَـرَيَـا نَهَـاراً مُشْمِسـاً قَـدْ شَـابَـهُ زَهْـرُ الـرُّبَـى فَكَـأَنَّمَـا هُـوَ مُقْمِـرُ

وأمَّا (قِفَا نبك)، فهو في مطلع معلقة امرىء القيس:

قِفَـا نَبْـكِ مِـنْ ذِكْـرَى حَبِيـبٍ وَمَنْـزِلِ بِسِقْـطِ اللِّوَى بَيْـنَ الـدَّخُـولِ فَحَـوْمَـلِ

(٣) هذا البيت من شواهد الفرّاء الَّتي ذكرها في (معاني القرآن)، قال: «العرب تأمر الواحد بما يؤمر به=

وقرأ الحسن بن أَبي الحسن: [أَلقياً] بتنوين [أَلْقِيَا]. و[كَفَّارٍ] بناءُ مبالغة، و[عَنِيدٍ] معناه: عاند عن الحقِّ، أَي مُنحرفٌ عنه.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ لفظ عامٌّ للمال والكلام الحسن والتعاون على الأَشياءِ، وقال قتادة، ومجاهد، وعكرمة: معناه: الزَّكاة المفروضة، وهذا التَّخصيص ضعيف، و[مُعْتَدٍ] معناه: بلسانه ويده، و[مُرِيبٍ] معناه: مُتَلَبِّس بما يُرْتاب به، أَرابَ الرَّجلُ إِذا أَتى بريبة ودخل فيها. قال الثَّعلبيُّ: قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وقال الحسن: [مُرِيبٍ]: شاكٌّ في الله تعالىٰ ودينه.

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ﴾ الآية، يحتمل أَن يكون [ٱلَّذِي] بدلاً من [كَفَّارٍ]، ويحتمل أَن يكون صفة له من حيث تَخَصَّص [كَفَّارٍ] بالأَوصاف المذكورة فجاز وصفه بعد بالمعرفة، ويحتمل أَن يكون [ٱلَّذِي] ابتداءً وخبره في قوله تعالىٰ: [فَأَلْقِيَاهُ]، ودخلت الفاءُ للإِبهام الَّذي في [ٱلَّذِي] فحصل الشَّبه بالشَّرط، وفي هذا نظر، ويَقْوَى عندي أَن يكون [ٱلَّذِي] ابتداءً، ويتضمَّن القول حينئذ بني آدم والشَّياطين الْمُغْوِين لهم في الدُّنيا، ولذلك تحرَّك القرين الشيطان ٱلْمُغْوِي في الدُّنيا فرام أَن يُبرىءَ نفسه

= الاثنان، فيقولون للرَّجل: قوما عنّا» وروى في ذلك مثالاً ثمَّ قال: «وأنشدني أبو ثروان: وإنْ تَزْجُرَاني... البيت، ونرى أنَّ ذلك منهم أنَّ الرَّجل أدنى أعوانه في إبله وغنمه اثنان، وكذلك الرّفقة أدنى ما يكونون ثلاثة، فجرى كلام الواحد على صاحبيه»، والزَّجر: المنع والنَّهْي والانتهار، يقال: زجره يزجره فانزجر وازدجر، والحماية: المَنْع والصِّيانة، والعِرْض: ما يُمدح ويُذَمُّ من الإنسان سواءٌ كان في نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره، ومعنى البيت: إن تركتماني حميتُ عرضي ممن يؤذيني، وإن زجرتماني انزجرتُ وصبرتُ. هذا والبيت لسويد بن كُرَاع العُكْلِيِّ، وكان قد هجا بني عبد الله بن دارم فاسْتَعْدَوْا عليه سعيد بن عثمان، فأراد ضربه، فقال سويد قصيدةً بدأها بقوله:

تَقـولُ ابْنَـةُ الْعَـوْفِـيِّ لَيْلَـى: أَلاَ تَـرَى ... إلـى ابْـنِ كُـرَاعٍ لا يَـزَالُ مُفَـزَّعَـا؟
مَخَـافَـةُ هَـذَيْـنِ الأميـرَيْـنِ سَهَّـدَتْ ... رُقَـادي وَغَشَّتْنـيَ بَيَـاضـاً مُقَـزَّعَـا
فَـإِنْ أَنْتُمَـا أَحْكَمْتُمَـانـي فَـازْجُـرَا ... أَرَاهِـطَ تُـؤْذِينـي مِـنَ النَّـاس رُضَّعَـا
وإِنْ تَـزْجُـرَانِـي يَـابْـنَ عَفَّـانَ أَنْـزَجِـرْ ... وَإِنْ تَـدَعَـانـي أَحْـمِ عِـرْضـاً مُمَنَّعَـا

وهذا يدل على أن العرب تخاطب الواحد بلفظ الاثنين، فقد خاطب سعيد بن عفان بقوله: (وإن تزجراني)، ولعله أراد سعيد بن عفان هذا ومن ينوب عنه أو يحضر معه. كذلك نلحظ أنَّه قال أيضاً (أحكمتماني) وهو خطاب للواحد بلفظ الاثنين.

ويخلِّصها بقوله لربِّه: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾، وقوله: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ ليست بحجَّة لأنَّه كذب في نفي الإطغاءِ عن نفسه جملة، والحقيقة أنَّه أطغاه بالوسوسة والتَّزيين، وأطغاه الله تعالىٰ بالخلق والاختراع حسب سابق قضائه الَّذي هو عدل منه لا ربَّ غيره، ويوصف بالضَّلال البعيد مبالغة، أَي لِتَعَذُّر رجوعه إِلى الهدى.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ﴾ معناه: قال الله تعالىٰ لا تختصموا لديَّ بهذا النوع من المقاولة الَّتي لا تفيد شيئاً إِذْ قد استوجب جميعكم النَّار. وقد أَخبر تعالىٰ بأَنَّه تقع الخصومات لديه في الظُّلامات ونحوها ممّا فيه اقتصاص واقتضاءٌ، فأَيَّده تعالىٰ بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾(١)، وجمع الضَّمير في قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ﴾ يريد تعالىٰ بذلك مخاطبة جميع القُرناءِ؛ إِذْ هو أَمرٌ شائع لا يقف على اثنين فقط، وهذا كما يقول الحاكم لِخَصمين: لا تغلظوا علي، يريد الخصمين ومن هو في حكمهما، وتَقْدِمَتُه تعالىٰ إِلى الناس بالوعيد هو ما جاءَت به الرُّسل عليهم السَّلام والكُتب من تعذيب الكفرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

المعنى: قد قدَّمتُ بالوعيد أَنِّي أُعذِّب الكفَّار في ناري فلا يُبدَّل القول لديَّ ولاَ يُنْقض ما أَبرمه كلامي، ثمَّ أَزال موضع الاعتراض بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، أَي: هذا عدلٌ فيهم؛ لأَنِّي أَعذرت وأَمهلت وأَنعمت بالإِدراكات وهديت السَّبيل والنَّجدين وبعثت الرُّسل. وقال الفرّاءُ: معنى قوله تعالىٰ: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ أَي ما يكذَّب لديَّ لعلمي بجميع الأُمور، فتكون الإِشارة ـ على هذا ـ إِلى كذب الَّذي قال: ﴿مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾، يجوز أَن يعمل في الظَّرف قوله تعالىٰ: ﴿بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾، ويجوز أَن يعمل فيه فعل مضمر، وقرأَ الجمهور من القرّاءِ وحفص عن عاصم: [نَقُولُ] بالنّون، وهي قراءَة الحسن، وأَبي رجاءٍ، وأَبي جعفر، والأَعمش،

---

(١) الآية (٣١) من سورة (الزُّمر).

ورجَّحها أَبو عليٍّ بما تقدَّم من قوله تعالىٰ: [قَدَّمْتُ] وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾، وقرأَ نافع، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ [يَقُولُ]، على معنى: يقول الله، وهي قراءَة الأَعرج، وشيبة، وأَهل المدينة، وقرأَ الحسن، وابن مسعود، والأَعمش أَيضاً: [يُقَالُ] على بناءِ الفعل للمفعول.

وقوله: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ تقرير وتوقيف، واختلف النّاس، هل وقع هذا التَّقرير فامتلأَت أَو هي لم تمتلىء؟ فقال بكلٍّ وجه جماعة من المتأَوِّلين، وبحسب ذلك تأَوَّلوا قولها: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، فمن قال إِنَّها امتلأَت جعل قولها: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ على معنى التَّقرير ونفي المزيد، أَي: وهل عندي موضع يُزاد فيه شيءٌ؟ ونحو هذا التَّأويل قول النَّبيِّ ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً»[(١)]، وهو تأْويل الحسن، وعمرو، وواصل. ومن قال إِنَّها كانت غير مَلأَى جعل قولها: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ على معنى السُّؤال والرَّغبة في الزِّيادة، قال الرُّمَّانيُّ: وقيل: المعنى وتقول خَزَنَتُهَا، والقول إِنَّها لقائلة أَظهر.

واختلف النّاسُ في قول جهنَّم ـ هل هو حقيقة أَو مجاز؟ أَي: حالها حالُ من لو نطق لقال كذا وكذا، فيجري هذا مجرى:

شَكَا إِلَيَّ جَمَلِي طُولَ السُّرَى[(٢)]

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاريُّ، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: أصبتُ شارفاً مع رسول الله ﷺ في المغنم يوم بدر، وأعطاني رسول الله ﷺ شارفاً أُخرى، فأنختها يوماً عند باب رجل من الأنصار وأنا أُريد أن أحمل عليها إذْخِراً لأبيعه، ومعي صائغٌ من بني قَيْنُقاع لأستعين به على وليمة فاطمة، وحمزة بن عبد المطلب يشرب في ذلك البيت، فثار إليهما حمزة بالسَّيف، فجَبَّ أسنمتهما وبقر خواصرهما ثمَّ أخذ من أكبادهما، قلت لابن شهاب: وَمِنَ السّنام؟ ـ وابن شهاب أحد الرُّواة ـ قال: جبَّ أسنمتهما فذهب بهما، قال: فنظرت إلى منظر أفظعني، فأتيت نبيَّ الله ﷺ وعنده زيد بن حارثة فأخبرته الخبر، فخرج ومعه زيد، فانطلق معه، فدخل على حمزة فتغيَّظ عليه، فرجع حمزة بصره فقال: هلْ أنتم إلاَّ عبيد لأبي؟ فرجع رسول الله ﷺ يُقَهْقِرُ حتّى خرج عنهم، وذلك قبل تحريم الخمر. اهـ. وفي رواية لمسلم أنَّ حمزة كان يشرب ومعه قَيْنة تغنّيه، والشّارف: الناقة المُسنَّة، وجمعها: شُرْف ـ بضمِّ الشّين وسكون الرّاء، والإذْخر: حشيش طيِّب الرّيح، وله ثمرة تُطحن فتدخل في الطِّيب، وجَبَّ: قطع، وبقَر: شقَّ، وتغيَّظ: أظهر الغيظ والغضب.

(٢) هذا البيت من الرَّجز في اللِّسان غير منسوب، وذكر معه بيتاً آخر، قال: يقال للبعير إذا أتعبه السَّير فمدَّ عنقه وكثر أنينه: قد شكا، ومنه قول الرّاجز:

ومجرى قول ذي الرُّمة:

. . . . تُكَلِّمُنِـي أَحْجَـارُهُ وَمَـلاَعِبُـهْ[١]

والَّذي يترجَّح في قول جهنَّم: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أنَّها حقيقة، وأنَّها قالت ذلك وهي غير ملأى، وهو قول أَنس بن مالك رضي الله عنه، ويبين ذلك الحديث الصَّحيح المتواتر، قول النَّبيِّ ﷺ: «يقول الله لجهنَّم: هل امتلأتِ؟ فتقول: هل من مزيد؟ حتّى يضع الجبّار فيها قدمه فتقول: قَطْ، قَطْ، وينزوي بعضها إلى بعض»[٢]، وقد اضطرب النّاس في معنى هذا الحديث، وذهب جماعة من المتكلِّمين إلى أَن «الجبَّار» اسم جنس، وأَنه يريد المتجبِّرين من بني آدم، ورووا أَن الله تعالىٰ يُعِدُّ من الجبابرة طائفة يَملأُ بهم جهنَّم آخراً، وروي عن النبي ﷺ أَن جلدة الكافر يصير غِلَظُهَا أَربعين ذراعاً، ويَعْظُم بدنُه على هذه النسبة[٣]، وهذا كله من ملءِ جهنم، وذهب الجمهور إلى أَن الجبَّار اسم الله تبارك وتعالىٰ، وهذا هو الصحيح، فإن في الحديث الصحيح «فيضع ربُّ العالمين فيها قَدَمَهُ»[٤]، وتأْويل هذا أَن «القَدَم» ما قدَّم لها من خَلْقه وجعلهم في

= شَكَـا إِلَـيَّ جَمَلِـي طُـولَ السُّـرَى ... صَبْـراً جُمَيْلِـي فكِـلاَنَـا مُبْتَلَـى

والسُّرَى: السَّير ليلاً، والابتلاء: المحنة تنزل بالمرءِ ليختبر بها، أو الغَمُّ والحزن والجهد الشَّديد في الأمر.

(١) هذا عجز بيت قاله ذو الرُّمَّة، وهو مع بيت قبله:

وَقَفْـتُ عَلَـى رَسْـمٍ لِمَيَّـةَ نَـاقَتِـي ... فَمَـا زِلْـتُ أَبْكِـي عِنْـدَهُ وَأُخَـاطِبُـهْ
وأَسْقِيـه حَتَّـى كَـادَ مِمَّـا أَبُثُّـهُ ... تُكَلِّمُنِـي أَحْجَـارُهُ وَمَـلاَعِبُـهْ

ومعنى أسقيه: أدعو له بالسُّقْيا، وأَبُثُّه: أشكو إليه، والبيت كالشَّاهد السّابق يدلُّ على أنَّ العرب قد تنسب القول إلى الحيوان والجماد تَجَوُّزاً.

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والتِّرمذيُّ، والنَّسائيُّ، وابن جرير، وابن مردويه، والبيهقيُّ في الأسماء والصِّفات عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنَّم يُلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتّى يضع ربُّ العزَّة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قَطْ قَطْ بعزَّتك وكرمك، ولا يزال في الجنّة فضل حتى ينشىء الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنَّة»، واللَّفظ لمسلم.

(٣) رواه مسلم في «الجنَّة»، والتِّرمذيُّ في «جهنم»، وأحمد في مسنده (٢ـ٢٦)، عن مجاهد، عن ابن عمر، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «يعظُم أهلُ النّار في النّار حتّى إنَّ بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وإن غِلَظَ جلده سبعون ذراعاً، وإن ضرسه مثل أُحد».

(٤) جاء التَّعبير بـ «ربُّ العالمين» في رواية لمسلم في الحديث الَّذي خرجناه في الهامش قبل السَّابق على هذا.

علمه من ساكنيها، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[١]، فالقَدَم ما قُدِّم من شيء، ومنه قول الشاعر:

صَلِّ لِرَبِّكَ وَٱتَّخِذْ قَدَماً ... يُنْجِيكَ يَوْمَ ٱلْعِثارِ والزَّلَلِ[٢]

ومنه قول العجّاج:

. . . . وَيُنْشِىءُ ٱلْمُلْكَ لِمَلْكٍ ذي قَدَمْ[٣]

أَي ذي شرف متقدِّم، وهذا التأويل مروي عن ابن المبارك[٤]، وعن النَّضر بن شُمَيْل[٥]، وهو قول الأُصوليين، وفي كتاب مسلم بن الحجَّاج: «فيضع الجبَّارُ فيها رجْله»[٦]، ومعناه الجمع الَّذي أُعِدَّ لها، يقال للجمع الكثير من النّاس: «رجْلٌ» تشبيهاً برجْل الجراد، قال الشّاعر:

فَمرَّ بِهَا رجْلٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَانْزَوَى ... إِلَيْهِمْ مِنَ الْحَيِّ الْيَمَانِيِّ أَرْجُلُ[٧]

---

(١) من الآية (٢) من سورة (يونس)، وقد اختلف المفسِّرون في معنى قوله تعالىٰ: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ وذكر أقوالهم ابنُ عطيّة في المجلد الرابع ص٤٤٦ وما بعدها، والمختار أنَّ «قدم الصِّدق» هو ما قدَّموه من أعمال، وهو الذي اختاره الطَّبريُّ.

(٢) قال هذا البيت الوَضّاح (جَذيمة بن مالك بن فهم التَّنوخي)، والرِّواية في القرطبيِّ «صَلِّ لِذِي العَرْشِ»، والشّاهد أنَّ «قَدَماً» هنا بمعنى ما يُقَدِّمه الإنسان من عمل، يقول: اعبد الله واعمل الأَعمال الصّالحة فتنجو يوم القيامة، ورُوي عن أحمد بن يحيى أنَّ القَدَم هي كلُّ ما قدَّمت من خير، ذكر ذلك صاحب اللِّسان.

(٣) هذا عجز بيت، وقد ورد البيت كاملاً في القرطبيِّ مع اختلاف في الألفاظ، قال:

زَلَّ بَنُو العَوَّامِ عَنْ آلِ الحَكَمْ ... وَتَرَكُوا المُلْكَ لِمَلْكٍ ذي قَدَمْ

والشّاهد هنا أنَّ قوله: «ذي قدم» معناه: ذو سابقة في الأفعال، أو ذي شرف متقدم كما قال ابن عطيّة.

(٤) هو عبد الله بن المبارك المَرْوزي، مولى بني حنظلة، ثقة، ثبت، فقيه عالم، جواد مجاهد، جُمعت فيه خصال الخير، مات سنة إحدى وثمانين، وله ثلاث وستون سنة. (تقريب التَّهذيب).

(٥) هو النضر بن شُمَيْل المازني، أبو الحسن النَّحْوي، نزيل مَرْو، ثقة ثبت، مات سنة أربع ومائتين، وله اثنتان وثمانون سنة، (تقريب التّهذيب).

(٦) جاء ذلك في إحدى الرِّوايات الَّتي رواها مسلم رحمه الله.

(٧) هذا البيت شاهد على أن (الرِّجْلَ) بكسر الرّاء وسكون الجيم هو الطائفة من الشّيء، أو الجمع من الشيء، وقد استشهد به القرطبيُّ، وذكره مع بيت آخر غير منسوبين، قال: يقال رأيتُ رِجْلاً من النّاس ورِجْلاً من الجراد، قال الشاعر: =

وملاك النَّظر في هذا الحديث أَنَّ الجارحة والتَّشبيه وما جرى مجراه منتف كلّ ذلك، فلم يبق إلاَّ إخراج الألفاظ على هذه الوجوه السّائغة في كلام العرب.

و«أُزْلِفَتْ» معناه: قُرِّبتْ، وقوله تعالىٰ: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ تأكيد وبيان أَنَّ هذا التَّقريب هو في المسافة، لأَنَّ «قُرِّبت» كان يحتمل أَن يكون المعنى: بالوعد والإخبار، فَرُفع الاحتمالُ بقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ الآيةَ. يحتمل أَن يكون معناه: يقال لهم في الآخرة عند إِزلاف الجنَّة: هذا هو الَّذي كنتم توعدون به في الدُّنيا، ويحتمل أَن يكون المعنى أَنَّه خطاب لأُمَّة محمد ﷺ، أَي: هذا هو الَّذي توعدون به أَيُّها النّاس لكلِّ أَوَّاب حفيظ، و«الأَوَّابُ»: الرَّجَّاع إِلى الطَّاعة وإِلى مراشد نفسه، وقال ابن عباس، وعطاءٌ: الأَوَّابُ المُسَبِّح، من قوله تعالىٰ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾[1]، وقال الشَّعبيُّ، ومجاهد، هو الَّذي يذكر ذنوبه فيستغفر، وقال المحاسبيُّ: هو الرَّاجع بقلبه إِلى الله تعالىٰ، وقال عُبَيْد بن عمير: كنَّا نتحدث أَنَّ الَّذي إِذا قام من مجلسه استغفر الله تعالىٰ ممَّا جرى في ذلك المجلس، وكذلك كان النَّبيُّ ﷺ يفعل. و«الحفيظ» معناه: لأَوامر الله تعالىٰ فيمتثلها، ولنواهيه فيتركها، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: حفيظ لذنوبه حتّى يرجع عنها.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ يحتمل أَن يكون من نَعْتِ «الأَوَّاب» أَو بدلاً من [كُلِّ][2]، ويحتمل أَن يكون رفعاً بالابتداءِ، والخبر: يقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾، ويحتمل أَن تكون شرطية فيكون الجواب: يقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾، وقوله تعالىٰ: [بِالْغَيْبِ] معناه: غير مشاهد له، إنما يصدِّق رسوله ويسمع كتابه، وجاءَ أَنَّ معناه: يوم

= فَمَرَّ بِنَا رَجْلٌ مِنَ النَّاسِ وانْزَوَى ... إِلَيْهِمْ مِنَ الحَيِّ اليَمَانِينَ أَرْجُلُ
قَبَائِلُ مِنْ لَخْمٍ وعُكْلٍ وَحِمْيَرٍ ... عَلَى ابْنَيْ نِزَارٍ بِالعَدَاوَةِ أَحْفَلُ

وفي اللِّسان: «والرِّجْلُ: الطَّائفة من الشَّيء، أُنثى، وخصَّ بعضهم به القطعةَ العظيمة من الجراد، والجمع أرجال... ومنه حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أَنَّه دخل مكَّة رِجْلٌ من جرادٍ، فجعل غلمان مكَّة يأخذون منه، فقال: أَمَا إنّهم لو علموا لم يأخذوا منه، كره ذلك في الحرم لأنَّه صيد».

(١) من الآية (١٠) من سورة (سبأ).

(٢) في قوله تعالىٰ: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾.

القيامة، و«الْمُنِيبُ»: الرَّاجع إلى الخير والمائل إليه، وقوله تعالىٰ: [ٱدْخُلُوهَا] تقرير يقال لهم، أَو: فيقال لهم، على ما تقدَّم. و«سلام» معناه: بأَمْن وسلامة من جميع الآفات، وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ مقابلٌ لقوله تعالىٰ قبْلُ في أَمر الكفار: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ خبرٌ بأَنَّهم يُعطون آمالهم أَجمع، ثمَّ أَبهم تعالىٰ الزِّيادة الَّتي عنده للمؤمنين المنعَّمين، وكذلك هي مُبْهمة في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1]، وقد فسّر ذلك الحديثُ الصّحيح في قوله ﷺ: «يقول الله تعالىٰ: أَعددت لعبادي الصَّالحين ما لا عينٌ رأَت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خَطر على قلب بشر، بَلْهَ ما اطلّعتم عليه»[2]، وقد ذكر الطبريُّ وغيره في تعيين هذا المزيد أَحاديث مطوَّلة وأَشياءَ ضعيفة؛ لأَنَّ الله تبارك وتعالىٰ يقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ وهم يُعَيِّنُونها تكلُّفاً وتعسُّفاً، ورُوي عن جابر بن عبد الله، وأنس رضي الله عنهما أَنَّ المزيد: النَّظرُ إلى وجه الله تعالىٰ بلا كيف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

[كَمْ] للتّكثير، وهي خبرية، والمعنى: كثيراً أَهلكنا قبلهم. و«القَرْن»: الأُمَّة من النّاس الَّذين يمرُّ عليهم قدرٌ من الزَّمان، واختلف النّاس في ذلك القدر ـ فقال

(١) من الآية (١٧) من سورة (السّجدة).

(٢) أخرجه البخاريُّ في التَّوحيد وبدء الخلق وتفسير سورة السَّجدة، ومسلم في الإيمان، والجنَّة، والتِّرمذيُّ في الجنَّة وتفسير سورة السَّجدة وتفسير سورة الواقعة، وابن ماجه في الزُّهد، والدارميُّ في الرِّقاق، وأحمد في مسنده (٢ـ٣١٣، ٣٧٠، ٤٧٠، ٥ـ٣٣٤)، ولفظه كما جاء في البخاريِّ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تبارك وتعالىٰ: أَعددتُ لعبادي الصَّالحين ما لا عَيْنٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خطر على قلب بشر»، قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، وفي رواية مسلم زيادة هي: «ذُخْراً، بَلْهَ ما اطلعتم عليه»، ومعنى ذخْراً: مُعَدّاً. وأمّا (بَلْهَ) فهو اسم فعل بمعنى (دَعْ).

الجمهور: مائة سنة، وقيل غير هذا، وقد تقدَّم القول فيه غير مرَّة، و«شِدَّةُ ٱلْبَطْشِ» هي بكثرة القوَّة والأموال والمُلك والصِّحةِ والأذهان إلى غير ذلك. وقرأ الجمهور من النّاس: [فَنَقَّبُوا] بشدِّ القاف المفتوحة على إسناد الفعل إلى القرون الماضية، والمعنى: وَلَجُوا البلاد من أَنْقابها، وفي الحديث: «إنَّ على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطّاعون ولا الدَّجّال»[1]، والمراد: تطوَّفوا ومشوْا طماعية في النَّجاة من الهلكة، ومنه قول الشّاعر:

وقــدْ نَقَّبْــتُ فــي الآفَــاقِ حَتَّــى ... رَضِيــتُ مــنَ الْغَنِيمَــةِ بــالإيــاب[2]

وقول الحارث بن حِلِّزَةَ اليَشْكُرِيِّ:

نَقَّبُــوا فــي الْبِــلادِ مِــنْ حَــذَرِ ٱلْمَــوْ ... تِ وجَالُوا في الأَرْضِ كُلَّ مَجَالِ[3]

وقرأ ابن عبّاس رضي الله عنهما، وابن يَعْمَر، ونصَّار بن يسار، وأبو العالية: [فَنَقِّبُوا] بشدِّ القاف المكسورة على الأمر لهؤلاءِ الحاضرين، و﴿هَلۡ مِن مَّحِيصٍ﴾ توقيف وتقرير، أَي: لا محيص، و«المحيص» موضع الحيص وهو الرّوغان والحياد، قال قتادة: حاصَ الكفرة فوجدوا أَمر الله مُتَّبِعاً مُدْرِكاً، وفي صدر البخاريِّ: «فحاصوا حَيْصَة حُمُر الوحش إلى الأبواب»[4] وقال ابن عبد شمس في وصف ناقته:

---

(١) أخرجه البخاريُّ في فضائل المدينة وفي الفتن، ومسلم في الحجِّ، ومالك في المدينة، وأحمد في مسنده (٢ـ٢٣٧، ٣٧٥، ٣٧٨)، عن نعيم بن عبد الله أنَّه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الدَّجال ولا الطّاعون»، والنَّقب: الخرق في الجدار، وجمعه أنقاب.

(٢) هذا البيت لامرىء القيس، وهو في الدّيوان، واللِّسان، ومجاز القرآن، والطَّبريِّ، والقرطبيِّ، والبحر، ورواية الدّيوان: (وقد طوَّفت في الآفاق)، والتَّنقيب: الذَّهاب في الأرض والتَّطواف، وهو موضع الاستشهاد هنا، والشّاعر يفخر بنفسه في هذا البيت وفي القصيدة كلِّها، ويقول: إنَّه قاد الجيوش في سبيل تحقيق مآربه الكبيرة، لكنَّه بعد أن تعب رضي بالعودة سالماً.

(٣) هو شاهد على أن معنى «نَقَّبُوا في البلاد...» هو: طوَّفوا في البلاد، وذهبوا فيها مذاهب متعدِّدة يلتمسون الهروب من الموت. والمجال: موضع الجولان، يقول: جالوا في الأرض وطوّفوا في كلِّ مكان.

(٤) أخرجه البخاريُّ في بدء الوحي وفي تفسير سورة النِّساء، وكلٌّ من أبي داود والتِّرمذيِّ في الجهاد، وأحمد في المسند (٢ـ٧٠، ١٠٠)، وهو حديث طويل، رواه ابن عبّاس رضي الله عنهما، عن أبي سفيان حين كان في تجارة بالشّام في المدَّة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفّار قريش، =

إِذَا حَاصَ الدَّلِيلُ رأَيْتَ مِنْهَا جُنُوحاً لِلطَّرِيقِ عَلَى اتِّسَاقِ[١]

وقرأ أبو عمرو ـ في رواية عُبَيْد عنه ـ: [فَنَقَبُوا] بفتح القاف وتخفيفها، وهي بمعنى التَّشديد، واللَّفظة أيضاً قد تقال بمعنى البحث والطَّلب، تقول: نقَّب عن كذا إذا استقصى عنه، ومنه «نقيب القوم» لأنَّه الَّذي يبحث عن أُمورهم ويباحث عنها، وهذا عندي تشبيه بالدُّخول من الأنقاب.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ يعني إهلاك من مضى، و«الذِّكْرَى»: التَّذكرة، و«القَلْبُ» عبارة عن العقل إذْ هو محلّه، والمعنى: لمن كان له قلبٌ واعٍ ينتفع به، وقال الشِّبليُّ: معناه: قلب حاضر مع الله تعالىٰ لا يغفل عنه طرفة عين، وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ معناه: صرف سمعه إلى هذه الأنباءِ الواعظة، وانتبه في سماعها، فذلك إلقاءٌ له عليها، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[٢]، أي: أثبتها عليك، وقال بعض النَّاس: قوله تعالىٰ: ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ وقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾[٣]، وقوله: ﴿سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾[٤]، هي ممّا قلَّ استعماله الآن وبعدت

= قال: إنَّ هرقل أرسل إليه مع صحبه وسألهم عن النَّبيِّ ﷺ، فقال: أيُّكم أقرب نسباً بهذا الرَّجل الَّذي يزعم أنه نبيٌّ؟ فقال أبو سفيان: قلت: أنا أقربهم نسباً، فلمَّا سأله هرقل قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه. وفي آخر الحديث أنّ هرقل أُتي برجل أرسل به ملِك غسّان يخبر عن رسول الله ﷺ، فلمّا استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمُخْتَتِنٌ هو أم لا، فنظروا إليه فحدَّثوه أنه مُختتن، وسأله عن العرب، فقال: هم يختتنون، فقال هرقل: هذا ملِك هذه الأمَّة قد ظهر، ثمَّ كتب هرقل إلى صاحب له برُومِيَة، وكان نظيره في العلم. وسار هرقل إلى حمص، فلم يَرِم حمص حتّى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النَّبيِّ ﷺ، وأنَّه نبيٌّ، فأذن هرقل لعظماء الرّوم في دسكرة له بحمص، ثمَّ أمر بأبوابها فَغُلِّقَت، ثمَّ اطَّلع فقال: يا معشر الرّوم، هل لكم في الفلاح والرُّشد وأن يثبت مُلْكُكُم فتبايعوا هذا النَّبيَّ؟ فحاصوا حَيْصة حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلِّقَت، فلمّا رأى هرقل نفرتهم وأَيس من الإيمان قال: رُدُّوهم عليَّ، وقال: إنّي قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدَّتكم على دينكم، فقد رأيتُ، فسجدوا له، ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل. اهـ.

(١) يستشهد المؤلف بهذا البيت على أنّ الحيص هو الحَيْدُ والرَّوَغَانُ، قال في اللِّسان: «الحَيْصُ: الحَيْد عن الشَّيء، حاص عنه يحيص حيصاً: رجع، ويقال: ما عنه محيصٌ، أي محيد ومهرب»، والدَّليلُ: المرشدُ، والجُنُوحُ: الميْلُ، والاتِّسَاقُ: الانتظام والاستواءُ. يقول الشّاعر: إذا حاد الدّليل عن الطّريق فإنّ ناقته تميل بحسِّها وخبرتها إلى الطّريق الصّحيح فتمضي فيه على اتساق.

(٢) من الآية (٣٩) من سورة (طه).

(٣) من الآية (١١) من سورة (الكهف).

(٤) من الآية (١٤٩) من سورة (الأعراف).

معانيه، وقول هذا القائل ضعيف، بل هي بيِّنة المعاني، وقد مضت في مواضعها، وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ قال بعض المتأوِّلين: معناه: وهو مُشاهد مُقبل على الأمر غير مُعرض ولا متفكر في غير ما يسمع، وقال قتادة: هي إشارة إلى أهل الكتاب، فكأنَّه تعالىٰ قال: إنَّ هذه العِبَر لَتَذْكِرَة لِمَن له فهم فيتدبَّر الأمر، أو لمن سمعها من أهل الكتاب فشهد بصحَّتها لعلمه بها من كتاب التَّوراة وسائر كتب بني إسرائيل، فـ[شَهِيدٌ] على التَّأويل الأوَّل من المشاهدة، وعلى التَّأويل الثَّاني من الشَّهادة، وقرأ السُّدِّيُّ: [أو أُلقِيَ السَّمعُ][(١)]، قال ابن جني: أيْ أُلْقِيَ السَّمْعُ منه، حكى أبو عمرو الدَّاني أَنَّ قراءَة السُّدِّيِّ ذكرت لعاصم فمقت السُّدِّيَّ وقال: أليس الله تعالىٰ يقول: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾[(٢)].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآيَة... خبرٌ مُضَمَّنُهُ الرَّدُّ على اليهود الَّذين قالوا: إنَّ الله خلق الأشياءَ كلَّها في ستَّة أيَّام ثمَّ استراح يوم السَّبت، فنزلت ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾، واللّغوبُ: الإعياءُ والنَّصَب والسَّأَم، يقال: لَغَبَ الرَّجل يَلْغُبُ إذا أَعيا[(٣)]، وقرأ السُّلَمِيُّ، وطلحة: [لَغُوبٍ] بفتح اللاَّم.

وتظاهرت الأَحاديث بأَن بدءَ خلق الأَشياءِ كان يوم الأَحد، وفي كتاب مسلم، وفي الدَّلائل لثابت حديث مضمّنه أَنَّ ذلك كان يوم السَّبت، وعلى كلِّ قول فأَجمعوا على أَنَّ آدم عليه السَّلام خُلق يوم الجمعة، فمن قال إنَّ البدأَة يوم السَّبت جعل خلق آدم عليه

---

(١) جاءت القراءة في الأصول بدون ضبط، وقد ضبطها ابن جنِّيٍّ في المحتسب، وأبو حيَّان في البحر، وهي بضمِّ الهمزة وكسر القاف من [أُلْقِيَ] وبرفع العين من [ٱلسَّمْعُ]، فالفعل مبني للمفعول، و[ٱلسَّمْعُ] نائب فاعل. قال أبو الفتح: «أي: أُلْقِيَ منه، وهذا كأنَّه أندى معنى إلى النَّفس من القراءة العامَّة، وذلك أن قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ معناه: أَلْقَى سمعه نحو كتاب الله تعالىٰ، وهو شهيد، أي: قلبُه حاضر معه، ليس غرضه أن يُصغي كما أُمر بالإصغاء نحو القرآن، ولا يجعل قلبَه إليه، إلاّ أنَّ ظاهر الأمر وأكثره أنَّه إذا أَلقى سمعه أيضاً فقلبُه أيضاً نحوه معه، وهذه القراءة المنفردة كأنّها أشدُّ تشابُهَ لفظ؛ لأنَّ ظاهرها أن قَلْبَه أُلْقي إليه، وليس في اللَّفظ أنَّه هو أَلقاه، فاتّصل بعض ببعض، فكأنَّه أُلْقِيَ إليه سمْعُه وقلْبُه، حتّى كأن مُلْقياً غيره أَلْقَى سَمْعَهُ إلى القرآن، وليس عجباً أن يقال: إنَّ قلبه عند ذلك معه، لأنَّه إذا كان هو الَّذي أَلقاه نحوه فالعُرف أن يكون قلبه معه، وهو شاهد لا غائب»، قارن هذا بما ذُكر عن عاصم.

(٢) من الآية (٢٢٣) من سورة (الشّعراء).

(٣) في اللِّسان: لَغَب يَلْغُب ـ بفتح الغين في الماضي وضمّها في المضارع، ولَغِبَ ـ بكسر الغين ـ لغة ضعيفة.

السَّلام كخلق بنيه لا يُعدُّ من الجملة الأُولى، وجعل اليوم الَّذي كملت المخلوقات عنده يوم الجمعة.

قوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، قال بعض المفسِّرين: المراد أَهل الكتاب لقولهم: ثمّ استراح يوم السَّبت، وهذه المقالة من أَهل الكتاب كانت بمكَّة قبل الهجرة، وقال النُّظَّار من المفسِّرين: قوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يراد به أَهل الكتاب وغيرهم من الكفرة، وعمَّ بذلك جميع الأَقوال الزّائفة من قريش وغيرهم، وعلى هذا التَّأْويل يجيءُ قول من قال إِنَّ الآية منسوخة بآية السَّيف، و[سَبِّحْ] معناه: صَلِّ بإِجماع من المتأَوِّلين. وقوله تعالىٰ: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ الباءُ للاقتران، أَي: سَبِّح سُبْحَةً[1] يكون معها حَمْدٌ، ومثله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾[2] على بعض الأَقوال فيها، و﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ هي الصُّبح، ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ هي العصر، قاله قتادة، وابن زيد، والنّاس، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: ﴿قبل الغروب﴾ الظهر والعصر، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ هي صلاة العشاءَيْن، وقال ابن زيد: هي العشاءُ فقط، وقال مجاهد: هي صلاة اللَّيل، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾، قال عمر بن الخطاب، وعلي بن أَبي طالب، وأَبو هريرة، والحسن، والشَّعبيُّ، وإِبراهيم، ومجاهد، والأَوزاعيُّ: هي الرَّكعتان بعد المغرب، وأَسنده الطَّبريُّ، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، عن النَّبيِّ ﷺ[3]، كأَنَّه رُوعي أَدبار صلاة النَّهار كما رُوعي أَدبار النُّجوم في صلاة اللَّيل فقيل: هي الرَّكعتان مع الفجر، وروي عن ابن عبّاس أَن «أَدبار السجود» الوتر، حكاه الثَّعلبيُّ، وقال ابن زيد، وابن عبّاس أَيضاً، ومجاهد: هي النَّوافل إِثر الصَّلوات، وهذا جار مع لفظ الآية، وقال بعض العارفين: هي صلاة اللَّيل، وقال الثَّعلبيُّ: وقال بعض العلماءِ في قوله تعالىٰ: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ ركعتا الفجر، ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ الرَّكعتان قبل المغرب، وقال بعض التّابعين: رأَيت أَصحاب محمد ﷺ يهبُّون إِليها كما يهبُّون إِلى المكتوبة، وقال قتادة:

---

(١) في اللِّسان: «السُّبْحَةُ: الدُّعاءُ، وصلاة التَّطوع والنَّافلة، يقال: فرغ من سُبْحَته، أي من صلاته النافلة، قال ابن الأثير: وإنَّما خُصَّت النافلة بالسُّبْحَة وإن شاركتها الفريضة في معنى التَّسبيح لأن التسبيحات في الفرائض نوافل، فقيل لصلاة النافلة سُبْحَة».

(٢) من الآية (٢٠) من سورة (المؤمنون).

(٣) قال الطَّبريُّ: حدثنا أبو كُرَيْب، قال: ثنا أبو فضيل، عن رشيد بن كُرَيْب، عن أبيه، عن ابن عبّاس، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بن عبّاس، ركعتان بعد المغرب أدبار السُّجود».

ما أدركت أحداً يصلي الرَّكعتين قبل المغرب إِلاَّ أنساً وأَبا برزة. وقرأ ابن عبّاس، وابن كثير، ونافع، وحمزة، وأَبو جعفر، وشيبة، وعيسى، وشبل، وطلحة، والأعمش: [وَإِدْبَارَ] بكسر الألف، وهو مصدر أُضيف إِليه وقت ثمَّ حذف الوقت، كما قالوا: جئتك مَقْدِم الحجِّ وخُفوقَ النَّجم ونحوه، وقرأ الباقون، والحسن، والأعرج: [وَأَدْبَارَ] بفتح الهمزة، وهو جمع دُبُر كطُنُبٍ وأَطناب، أَي: وفي أَدبار السُّجود، أَي في أَعقابه، قال أَوس بن حجر:

عَلَى دُبُرِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَأَرْضُنَا ... وَمَا حَوْلَهَا جَدْبٌ سَنِينٌ تَلْمَعُ[1]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالىٰ: [وَٱسْتَمِعْ] هو بمنزلة «وانْتظر»، وذلك أَنَّ محمداً ﷺ لم يؤمر بأَن يستمع في يوم النّداءِ لأَنَّ كلَّ من فيه يستمع، وإِنَّما الآية في معنى الوعيد للكفّار، وقيل لمحمد ﷺ: تحسَّس وتسَمَّع هذا اليوم وارتقبه فإِنَّ فيه تبيين صحَّة ما قلته، وهذا كما تقول لمن تَعِدُهُ بورود فَتْح: استمع كذا وكذا، أَي كُنْ منتظراً له مستمعاً، فعلى هذا فنصب [يَوْمَ] إِنَّما هو على المفعول الصَّريح. وقرأ ابن كثير [ٱلْمُنَادِي] بالياءِ وصلاً ووقفاً على الأَصل الَّذي هو ثبوتها؛ إِذ الكلام غير تامٍّ، وإِنَّما الحذف أَبداً في الفواصل وفي الكلام التَّام تشبيهاً بالفواصل، وقرأ أَبو عمرو، ونافعٌ في الوقف بغير ياءٍ لأَنَّ الوقف موضع تغيير، أَلا ترى أَنَّها تُبدَّل من التَّاءِ فيه الهاءُ في نحو «طلحة» و«حمزة»، وتبدَّل من التَّنوين الأَلف، ويضعف فيه الحرف كقولك: هذا فوجٌ، ويحذف فيه الحرف

---

(١) لم أجد هذا البيت في الدّيوان (دار صادر ـ تحقيق د. محمد يوسف نجم)، ودُبُر الشَّهر: آخره، يقال: جئتك دُبُرَ الشهر وفي دُبُره وعلى دُبُره، والجمع من كلٍّ ذلك أَدْبَار. وأرضٌ جَدْبٌ وجدبة بمعنى مجدبة، والجمع جدوب، وسُنِّت الأرضُ فهي مسنونةٌ وسَنِينٌ إِذا أُكِلَ نباتُها، ويقال: هذه بلادٌ سَنِين أي جدبة، (راجع اللّسان) فقد ذكر ذلك، واستشهد عليه بقول الطِّرِمَّاح:

بِمُنْخَـرَقٍ تَحِـنُّ الـرِّيـحُ فيـه ... حَنِيـنَ الْجُلْـبِ فـي الْبَلَـدِ السَّنِيـنِ

يعني: في البلد المحل.

في القوافي. وقرأ الباقون، وطلحة، والأعمش، وعيسى بحذف الياءِ وصلاً ووقفاً، اتباعاً لخط المصحف، وأيضاً فإنَّ الياءَ تحذف مع التَّنوين، فوجب أَن تحذف مع معاقب التَّنوين، وهما الألف واللاَّم.

قوله تعالىٰ: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، قيل: وصفه بالقرب من حيث يسمع جميع الخلائق، وروي عن النَّبيِّ ﷺ أَن مَلكاً ينادي من السَّماءِ: أَيَّتها الأَجساد الهامدة، والعظام البالية، والرّمم الواهية، هلُمَّ إِلى الحشر والوقوف بين يدي الله تعالىٰ(١). وقال كعب الأَحبار، وقتادة، وغيرهما: المكان صخرة بيت المقدس، واختلفوا في معنى صفتها بالقرب ـ فقال قوم: وصفها بذلك لقربها من النَّبيِّ ﷺ، أَي من مكَّة، وقال كعب الأَحبار: وصفها بالقرب من السَّماءِ، وروي أَنَّها أَقرب الأَرض إِلى السَّماءِ بثمانية عشر ميلاً، وهذا الخبر إِن كان بوحي، وإِلاَّ فلا سبيل إِلى الوقوف على صحَّته.

و«الصَّيْحَةُ» هي صيحةُ المنادي، و«الخروج» هو من القبور، و«يوْمُهُ» هو يوم القيامة، و«يوم الخروج» في الدُّنيا هو يوم العيد، وقال حسَّان بن ثابت:

وَلأَنْـــتِ أَحْسَـــنُ إِذْ بَـــرَزْتِ لَنَـــا ... يَـــوْمَ الْخُـــرُوجِ بِسَـــاحَـــةِ الْقَصْـــرِ
مِـــنْ دُرَّةٍ أَغْلَـــى بِهَـــا مَلِـــكٌ ... مِمَّـــا تَـــرَبَّـــبَ حَـــائِـــرُ الْبَحْـــرِ(٢)

قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾، العامل في [يَوْمَ] هو [ٱلْمَصِيرُ]. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر بتشديد الشِّين، والباقون خفَّفوها. و[سِرَاعاً] حال، قال بعض النَّحويِّين: هي من الضَّمير في قوله تعالىٰ: [عَنْهُمْ]، والعامل في الحال [تَشَقَّقُ]، وقال بعضهم: التَّقدير: يوم تشقَّق الأَرض عنهم يخرجون سراعاً، فالحال من الضَّمير في

---

(١) أخرجه ابن عساكر، والواسطيُّ في (فضائل بيت المقدس)، عن يزيد بن جابر، في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾، وفيه أنَّ الملك هو إسرافيل، وأخرج مثله ابن جرير عن كعب. (الدُّرُّ المنثور).

(٢) هذان البيتان من قصيدة قالها حسَّان ومطلعها:

حَـــيِّ النَّضيـــرَةَ رَبَّـــةَ الخِـــدْرِ ... أَسَـــرَتْ إِلَيْـــكَ وَلَـــمْ تَكُـــنْ تَسْـــرِي

وهما في الدّيوان، وفي اللِّسان ـ حير ـ والرِّواية فيه «بسَاحَةِ العَقْرِ»، ورُوي البيت الثَّاني «مِنْ دُرَّةٍ أَغْلَى الملوكُ بها»، والحائر: المكان المطمئن يجتمع فيه الماء فيتحير لا يخرج منه، وهو يُريدُ الدُّرَّة التي تَتَرَبَّى في الصّدف في قاع البحر. والشاهد أن «يوم الخروج» هو يوم العيد، يشبه حسَّان هذه المرأة بالدُّرَّة التي يعتزُّ بها ملك وقد نمت وتكونت في أعماق البحر.

«يخرجون»، والعامل «يخرجون»، وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ معادلٌ لقول الكفرة: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وعيدٌ محض للكفرة، واختلف النّاس في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ ـ فقال قتادة: نهى الله تعالىٰ عن التَّجبُّر، وتقدَّم فيه، فمعناه: وما أَنت عليهم بمُتَعَظِّم، من الجبروت، وقال الطَّبريُّ وغيره: معناه: وما أَنت عليهم بِمُسَلَّط تَجْبُرهم على الإِيمان، ويقال: جَبَرْتُه على كذا، أَي قَسرْتُه، فـ «جَبَّارٌ» مبالغة من جَبَرَ، وأَنشد المُفَضَّل:

عَصَيْنَا عَزْمَةَ الجَبَّارِ حَتَّى ... صَحِبْنَا الْخَوْفَ إِلْفاً مُعْلِمِينَا[2]

قال: أَراد بالجبَّار النُّعمان بن المنذر لولايته، ويحتمل أَن نصب «عَزْمَةَ» على المصدر وأَراد: عصينا مقدّمين عزمة جبار، فمدح نفسه وقومه بالعتو والاستعلاءِ، أَخلاقِ الجاهلية والحياة الدُّنيا، ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أَنَّ المؤمنين قالوا: يا رسول الله، لو خوَّفْتَنَا، فنزلت: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولو لم يكن هذا سبباً فإِنَّه لَمَّا أَعْلَمَهُ أَنَّه ليس بمُسَلَّط على جبرهم أَمرهم بالاقتصار على تذكير الخائفين من المؤمنين[3].

كمل تفسير سورة قٓ

---

(١) من الآية (٣) من هذه السّورة (ق).

(٢) هذا البيت من شواهد الفرّاء في (معاني القرآن)، ذكره مع بيت آخر فقال: «لست عليهم بمسلَّط، جعل الجبّار في موضع السُّلْطان من الجبرية، وأنشدني المُفضَّل:

وَيَوْمَ الحَزْنِ إِذْ حَشَدتْ مَعَدٌّ ... وكَانَ النَّاسُ إلاّ نَحْنُ دِينَا
عَصَيْنَا عَزْمَةَ الجَبَّارِ حَتَّى ... صَحِبْنَا الْخَوْفَ إِلْفاً مُعْلمِينَا

وقد استشهد صاحب اللّسان بالشَّطر الثّاني من البيت الأوّل على أن (دِين) بمعنى (دائن)، قال: «قومٌ دينٌ أي دائنون» قال: وذكر النّصف الثّاني من البيت.

وروي الشَّطر الثّاني من البيت الثّاني في (معاني القرآن): «صَبَحْنَا الْجَوْفَ إِلْفاً معلمينا»، ثمَّ ذكر أنَّ المراد بالجبّار هو النعمان بن المنذر لأنّه كان والياً عليهم. والإِلف: المألوف الذي اعتاده النّاسُ.

(٣) في بعض النُّسخ «الخائفين من النّاس»، والأولى ما أثبتناه لأنَّ الذكرى تنفع المؤمنين، ومن لا يخاف الوعيد من النّاس لا يتذكر فلا تنفع فيه الذِّكرى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الذاريات

هذه السُّورة مكِّيَّة بإجماع من المفسرين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ① فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ② فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ③ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ④ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ⑤ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ⑥ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ⑦ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ⑧ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ⑨ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ⑩ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ⑪ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ⑫ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ⑬ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ⑭ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ⑮ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ⑯﴾.

أَقسم الله تعالى بهذه المخلوقات تنبيهاً عليها، وتشريفاً لها، ودلالة على الاعتبار فيها، حتى يصير الناظر فيها إلى توحيد الله تعالى.

و«الذَّاريات»: الرِّياح، بإجماع من المتأولين، يقال: ذرت الرِّيح وأَذرت بمعنى[1]، وفي الرِّياح مُعتبرٌ من شدَّتها حيناً ولينها حيناً، وكونها مرَّة رحمة ومرَّة عذاباً، إلى غير ذلك، و[ذَرْواً] نصب على المصدر.

و«الحاملات وِقْراً» قال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: هي السحاب المُوقَرة بالماءِ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره: هي السُّفن المُوقَرة بالناس ومتاعهم، وقال جماعة من العلماءِ: هي أَيضاً ـ مع هذا ـ جميعُ الحيوان الحامل، وفي جميع ذلك مُعْتبر، و[وقْراً] مفعول صريح.

و«الجاريات يسراً» قال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وغيره: هي السُّفن في البحر، وقال آخرون: هي السَّحاب بالريح، وقال آخرون: هي الجواري من الكواكب، واللفظ يقتضي جميع هذا، و(يُسْراً) نعت لمصدر محذوف، وصفات المصادر

(١) ولكن قال الزجاج: يقال: ذَرَتْ فهي ذارية، وأَذْرت فهي مُذْرية.

المحذوفة تعود أَحوالاً، و(يُسْراً) معناه: بسهولة وقلة تكلُّف.

و«الْمُقَسِّمَات أَمْراً»: الملائكة، و«الأَمْر» هنا اسم الجنس، فكأنه تعالى قال: والجماعات التي تقسِّم أَمر الملكوت من الأَرزاق والآجال والخلق في الأَرحام وأَمر الرياح وغير ذلك؛ لأَن كل هذا إِنما هو بملائكة تخدمه، فالآية تتضمن جميع الملائكة لأَنهم كلهم في أُمور مختلفة، وأَنَّث «الْمُقَسِّمَات» من حيث أَراد الجماعات، وقال أَبو الطفيل عامر بن واثلة[1]: كان عليٌّ رضي الله عنه على المنبر، فقال: لا تسأَلوني عن آية من كتاب الله تعالى أَو سُنَّة ماضية إِلاَّ قلتُ، فقام إِليه ابن الكواءِ فسأَله عن هذه فقال: الذَّاريات: الرِّياح، والحاملات: السَّحاب، والجاريات: السُّفن، والمقسِّمات: الملائكة، ثم قال له: سلْ سؤال تعلُّم ولا تسأَل سؤال تعنُّت[2].

وهذا القَسَم واقع على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾، و(تُوعَدُونَ) يحتمل أَن يكون من الإِيعاد، ويحتمل أَن يكون من الوعد، وأَيهما؛ كان فالوصف له بالصدق صحيح، و[صَادقٌ] هنا موضوع بدل «صدْق» وضع الاسم موضع المصدر.

و«الدِّينُ»: الجزاءُ، وقال مجاهد: الحسابُ، والظاهر في الآية أَنها للكفَّار وأَنها وعيدٌ محضٌ بيوم القيامة.

ثم أَقسم الله تعالى بمخلوق آخر فقال: ﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾، فظاهر لفظة «السماءِ» أَنها لجميع السموات، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: هي السماءُ السابعة، و(الْحُبُك) ـ بضم الحاءِ والباءِ ـ الطرائق التي هي على نظام في الأَجرام، فحُبُك الرِّمال

---

(١) هو عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمرو بن جحش الليثي، أبو الطفيل، وربما سمِّي عمراً، ولد عام أُحد، ورأى النبي ﷺ، وروى عن أبي بكر فمَن بعده، وعمِّر إلى أن مات سنة عشر ومائة على الصحيح، وهو آخر من مات من الصحابة، قال ذلك مُسْلم وغيره. (تقريب التهذيب)، أما ابن الكواءِ فاسمه عبد الله.

(٢) ورُوي أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني مررتُ برجل يسأل عن تفسير مشكل القرآن ـ وهذا الرجل اسمه صَبيغٌ (على وزن أمير) ـ فقال عمر: اللهم أمْكِنِّي منه، فدخَلَ هذا الرجل يوماً على عمر وهو يلبس ثياباً وعمامة، وكان عمر يقرأُ القرآن، فلما فرغ قام إليه الرجل فقال: يا أمير المؤمنين، ما «الذَّارِيَاتِ ذَرْواً»؟ فقام عمر فحسر عن ساعديه وجعل يجلده، ثم قال: ألبسوه ثيابه، واحملوه على قَتَب، وابلغوا به حيَّه، ثم لِيَقُمْ خطيب فليقل: إن «صَبيغاً» طلب العلم فأخطأه، فلم يزل وضيعاً في قومه بعد أن كان سيِّداً فيهم.

والماءِ: الطرائق التي تصنع فيها الريح الهابَّةُ عليها، ومنه قول زهير:

مُكَلَّـــلٌ بعَميـــمِ النَّبْـــت تَنْسجُـــهُ   ريحٌ خَريقٌ لضاحي مَائِه حُبُكُ(١)

وحُبُك الدِّرع: الطرائق المتصلة في موضع اتصال الحلق بعضها ببعض، وفي بعض أَجنحة الطير حُبُك على نحو هذا، ويقال لتكسير الشَّعر: حُبُك، وفي الحديث: «إِن من ورائكم الكذَّاب المُضِلُّ، وإِنَّ رأسه من ورائه حُبُكاً حُبُكاً»(٢)، يعني جُعُودة شعره، فهو تكسُّره، ويظهر في المنسوجات من الأَكسية وغيرها طرائق في موضع تداخل الخيوط هُنَّ حُبُك، ويقال: نسج الثوب فأَجاد حبكه، فهذه من الحُبُك في اللغة، وقال منذر بن سعيد: إِن السماءَ في تأَلُّف جرمها هي هكذا لها حُبُك، وذلك لجودة خلقتها وإِتقان صنعتها، ولذلك عبَّر ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ بأَن قال: حُبُكها: حُسْن خِلْقتها، وقال ابن جبير: الحُبُك الزينة، وقال الحسن: حُبُكها كواكبها، وقال ابن زيد: الحُبُك الشدَّة، حُبكت: شُدَّت، وقرأَ: ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾(٣)، وقال ابن جنِّي: الحُبُك طرائق الغَيْم ونحو هذا، وواحد «الحُبُك» حَباك، ويقال للضَّفيرة التي تُشَدُّ بها حظار القصب ونحوه ـ وهي مستطيلة تصنع في ترحيب الغراسات المصطفة ـ: حِباكٌ، وقد يكون واحد الحُبُك حبيكة، وقال الرَّاجز:

كَـــأَنَّمَـــا جَلَّلَهـــا الحَـــوَّاكُ   طِنْفَســـةً فـــي وَشْيِهَـــا حِبَـــاكُ(٤)

---

(١) هذا البيت من قصيدة زهير التي قالها بعد أن أغار الحارث بن ورقاءَ الأسدي على بني عبد الله بن غطفان واستاق إبل زهير وراعيه يساراً، فقال زهير القصيدة يطالبه بردِّ إبله وراعيه. ورواية الديوان والمحتسب: (مُكَلَّل بأُصول النَّبت)، ويروى: (بأُصول النجم) كما في القرطبي والكشاف، ورواية اللسان كرواية ابن عطية هنا. والبيت في وصف ماءٍ ظاهر على وجه الأرض قد اصطفت على حافته طيورٌ صغيرة بيضاء، وزيَّنَه النباتُ الذي امتد على جوانبه كالأكاليل، وتَنْسِجه: تضم بعضه إلى بعض، فالريح تنسج الماءَ في هذا الوادي بمعنى أنها تضرب وجهه فتجعل فيه طرائق بعد أن تضم بعضه إلى بعض، والخريق: الشديدة، وهي صفة للريح، والضاحي: البارز للشمس، والحُبُك: الطرائق، وهو موضع الاستشهاد هنا، والمعنى أن هذا الماءَ الظاهر على وجه الأرض قد زيَّنته أكاليل النبات ومرت عليه الريح الشديدة فجمعت بعضه إلى بعض حتى أصبح طرائق من تكسُّره.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤ـ٢٠، ٥ـ٣٧٢) عن هشام بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن رأس الدَّجَّال من ورائه حُبُك حُبُك، فمن قال: أنت ربِّي افْتَتن، ومن قال: كذبتَ، ربِّي الله عليه توكلت، فلا يضره، أو قال: فلا فتنة عليه».

(٣) من الآية (١٢) من سورة (النبأ).

(٤) يصف الرَّاجز ظَهْر أتان من حُمُر الوحش بأن فيه خطوطاً وطرائق، وجَلَّلَها: أَلْبسها وكساها، والحَوَّاك: =

وقرأ جمهور الناس: (الْحُبُك) بضم الحاءِ والباءِ، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن، وأَبو مالك الغفاري بضم الحاءِ وسكون الباءِ تخفيفاً، وهي لغة بني تميم، كرُسْل في رُسُل، وهي قراءَة أَبي حيوة، وأَبي السَّمال، وقرأ الحسن أَيضاً، وأَبو مالك الغفاري: (الْحِبِك) بكسر الحاءِ والباءِ على أَنها لغة كإِطِل وإِبِل، وقرأ الحسن أَيضاً: (الْحِبْكُ) بكسر الحاءِ وسكون الباءِ، كما قالوا على جهة التخفيف: «إِبْلٌ» و«إِطْلٌ» بسكون الباءِ والطاءِ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: (الْحَبَك) بفتح الحاءِ والباءِ، وقرأ الحسن أَيضاً فيما رُوي عنه: (الْحِبُك) بكسر الحاءِ وضم الباءِ، وهي قراءَة شاذة غير متوجهة، وكأَنه أَراد كسرهما ثم تَوَهَّمَ (الْحُبُك) قراءَة الضم بعد أَن كسر الحاءَ فضم الباءَ، وهذا على تداخل اللغات، وليس في كلام العرب هذا البناءُ[(١)]، وقرأ عكرمة: (الْحُبَك) بضم الحاءِ وفتح الباءِ جمع حُبْكة، وهذه كلها لغات، والمعنى ما ذكرناه، والفرسُ المحبوك: الشديد الخِلْقة الذي له حُبَك في مَوَاضع من منابت شعره، وذلك دليل على حسن بنيته[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ يحتمل أَن يكون خطاباً لجميع الناس، مؤمن وكافر، أَي: اختلفتم بأَن قال منكم فريق: آمنا بمحمد وكتابه، وقال فريق آخر: كفرنا، وهذا قول قتادة، ويحتمل أَن يكون خطاباً للكفرة فقط، أَي: أَنتم في جنس من الأَقوال مختلف في نفسه، قوم منكم يقولون: ساحر، وقوم يقولون: كاهن، وقوم يقولون: شاعر، وقوم يقولون: مجنون، إِلى غير ذلك، وهذا قول ابن زيد، والضمير في [عَنْهُ] قال الحسن، وقتادة: هو عائد على محمد ﷺ، أَو كتابه، أَو شرعه، و[يُؤْفَكُ] معناه: يُصرف، فالمعنى: يُصرف من الكفار عن كتاب الله تعالى من صُرِف ممن غلبت شقاوته، وكان قتادة يقول: المأْفوك منَّا اليوم عن كتاب الله تعالى كثير، ويحتمل أَن

= الذي يحوك الثياب أي ينسجها، والطُّنْفَسَةُ: البساط أو النُّمرقة فوق الرحل، والوشي: الزخرف والنقش، والحِباك: الطريقة التي تحدثها الرياح في الرمال أو المياه، وهي موضع الاستشهاد هنا، يقول: كأن ظهر هذه الأتان بما فيه من نقوش وخطوط قد كساه الحائك الذي ينسج الثياب طنفسة موشاة فيها خطوط مستقيمة ذات ألوان متعددة. والبيتان في تفسير الطبري ومعهما بيت ثالث، وكذلك استشهد بهما القرطبي.

(١) يعني بناءَ (فِعُل) بكسر الفاءِ وضم العين، وقال بعض العلماءِ: إن هذا ليس من تداخل اللغات، وإنما هو تركيب من قراءتين، فإن صحَّ الأخذ به فإنه لا يبدو بعيداً.

(٢) أي: هيئة البناء الذي قام عليه شكله، وفي بعض النسخ: «على حُسْن مُنبته».

يعود الضمير على القول الذي يصرف بسببه من أراد الإسلام بأن يقال: هو سحر، هو كهانة، وهذا قول حكاه الزهراوي، ويحتمل أن يعود الضمير في [عَنْهُ] على القول، أي: يصرف عنه بتوفيق الله تعالى إلى الإسلام من غلبت سعادته، وهذا على أن يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ للكفار فقط، وهذا وجه حسن لا يُخل به إلاَّ أن عرف الاستعمال في «أفك» إنما هو في الصرف من خير إلى شر، وتأمل ذلك تجدها أبداً في المصروفين المذمومين، وحكى أبو عمرو عن قتادة أنه قرأ: ﴿مَنْ أَفَكَ﴾ بفتح الهمزة والفاءِ.

وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ دعاءٌ عليهم، كما تقول: قاتله الله، أو قتله الله، وعَقْرَى حَلْقَى[1]، وقال بعض المفسرين: معناه: لُعن الخراصون، وهذا تفسير لا تعطيه اللفظة، و«الخَرَّاصُ»: المُخَمِّن القائل بظنه وتقديره، فَتَحْتَه الكاهن والمرتاب ونحوه ممَّن لا يقين له، والإشارة إلى مُكَذِّبي محمد ﷺ على كل جهة من طرقهم[2]. و«الغَمْرَةُ» ما يُغشِّي الإنسان ويغطيه كغمرة الماءِ، والمعنى: في غمرة من الجهالة، و(سَاهُونَ) معناه: عن أنهم في غمرة وعن غير ذلك من وجوه النظر، وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ معناه: يقولون: متى يوم الدين؟ على معنى التكذيب، وجائز أن يقترن بذلك من بعضهم هزؤٌ وألاَّ يقترن، وقرأ السَّلَمي، والأعمش: (إِيَانَ) بكسر الهمزة وفتح الياءِ مخففة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾، قال الزجاج: نصب [يَوْمَ] على الظرف من مُقَدَّر تقديره؛ هو كائن يومَ هم على النار، أو نحو هذا، وقال الخليل وسيبويه: نصبه على البناءِ لمَّا أُضيف إلى غير متمكن، قال بعض النحاة: وهو في موضع رفع على البدل من ﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾، و[يُفْتَنُونَ] معناه: يحرقون ويعذبون في النار، قاله ابن

---

(١) يقال للمرأة: «عَقْرَى حَلْقَى»، بمعنى: عَقَرَها الله وحَلَقَها، أي: حلق شعرها أو أصابها بوجع في حلقها، وقد قيل لرسول الله ﷺ: إن صفية بنت حُيَيٍّ رضي الله عنها حائض، فقال: «عَقْرَى حَلْقَى، ما أُراها إلا حابستنا»، قال أبو عبيد: هو: «عَقْراً حَلْقاً» بالتنوين، والمحَدِّثون يقولون: «عَقْرَى حَلْقَى»، وأصل هذا ومعناه: عَقَرَها الله وحَلَقَها، أي أصابها بوجع في حلقها، كما تقول: رأَسْتُه، وبَطَنْتُه. (راجع اللسان، ومجمع الأمثال والمستقصى من أمثال العرب).

(٢) قيل للكذَّاب: خرَّاصٌ لأن الخَرْص في الأصل هو حَزْرُ ما على النخل من الرطب تَمْراً، أي تقدير ما عليها من البلح، وهو قائم على الظن والتخمين، والخَرَّاصون جمع خارص، ويقال: خَرَص واخْتَرَص، وخَلَق واخْتَلَق، وبَشَكَ وابْتَشَك، وسَرَج واسْتَرَج، ومانَ، بمعنى: كَذَبَ.

عباس، ومجاهد، وعكرمة، والجميع، ومنه قيل لِلْحَرَّةِ: فَتينٌ، كأن الشمس أَحرقت حجارتها، ومنه قول كعب بن مالك:

مَعَاطِنُ تَهْوِي إِلَيْهَا الْحُقُو ... قُ يَحْسَبُهَا مَنْ رَآهَا الْفَتِينَا[1]

وفَتَنْتُ الذَّهبَ: أَحرقتُه، ولما كان لا يُحْرَقُ إِلاَّ لمعنى الاختبار قيل لكل اختبار: فِتْنَةٌ، واستعملوا افْتُتِنَ بمعنى اخْتُبِرَ، و[عَلَى] هنا موصلة إِلى معنى «في»، وفي قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ إِضمار، أَي يقال لهم: ذوقوا حرقكم وعذابكم، قاله قتادة وغيره، والذوق استعارة، و[هَذا] إِشارة إِلى حرقهم، واستعجالهُم هو قولهم: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ وغير ذلك من الآيات التي تقتضي استعجالهم على جهة التكذيب منهم.

ولما ذكر تعالى حال الكفرة وما يلقون من عذاب الله عزَّ وجلَّ عقب ذلك بذكر المتقين وما يلقون من النعيم ليبين الفرق ويتبع الناسُ طريق الهدى، و«الجنات» و«العيون» معروف[2]، والمتَّقي في الآية مطلق في اتِّقاءِ الكفر والمعاصي، وقوله تعالى: (آخِذِينَ) نصب على الحال، وقرأ ابن أَبي عبلة: (آخِذُونَ) بواو، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: آخذين في دنياهم ما آتاهم ربهم من أَوامره ونواهيه وفرائضه وشرعه، فالحال على هذا محكية، وهي متقدمة في الزمان على كونهم في جنات وعيون، وقال جماعة من المفسرين: معنى قوله تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أَي مخلصين لنعم الله تعالى التي أَعطاهم من جنَّته ورضوانه، وهذه حال متصلة في المعنى لكونهم في الجنات، وهذا التأويل أَرجح عندي لاستقامة الكلام به، وقوله

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها كعب بن مالك في غزوة أُحد يفتخر، وقبل هذا البيت يقول:

وَأَبْقَتْ لَنَا جَلَمَاتُ الْجُرُ ... بِ مِمَّنْ نُوَازِي لَدُنْ أَنْ بُرِينَا

وجَلَمَات: من الجَلْم وهو القطع، ونُوازي: نُساوي، وبُرينا أصله بُرِئْنا بمعنى خُلقنا، أما المعاطن فهي مبارك الإبل على الماءِ، والحِقُّ هو من أولاد الإبل الذي بلغ أن يُركب ويُحمل عليه ويَضْرب الناقة، وإن كان صاحب اللسان لم ينص على أن (الحقوق) تكون جمعاً له، والفَتِينُ من الأرض: الحَرَّةُ التي قد أَلْبَسَتْها كلَّها حجارةٌ سودٌ كأنها مُحرقة، ويقال للأَمَة السوداءِ: مفتونة؛ لأنها كالحَرَّة في السواد كأنها مُحترقة، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا، فالشاعر يشبه الجمال الرابضة في معاطنها بالحجارة السوداء التي حرقتها الشمس بلهيبها. ومثل هذا البيت قول الكميت:

ظَعَائِنُ مِنْ بَنِي الحُلاَّفِ تَأْوِي ... إِلى خُرْسٍ نَوَاطِقَ كَالفَتِينَا

(٢) هكذا في الأصول، وكأنه يريد: أمرهما معروف.

تعالى: ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ يريد: في الدنيا، [مُحْسِنِينَ] بالطاعة والعمل الصالح.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾.

معنى قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ أن نومهم كان قليلاً لاشتغالهم بالصلاة والعبادة، فالمراد من كل ليلة، و«الهجوع»: النوم، وقال الأَحنف بن قيس: «لستُ من أَهل هذه الآية»، وهذا إِنصاف منه، وقيل لبعض التابعين: مدح الله تعالى قوماً كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، ونحن قليل من الليل ما نقوم، فقال: رحم الله تعالى امرأً رقد إِذا نعس، وأَطاع ربه إِذا استيقظ، وفسَّر أَنَسُ بن مالك هذه الآية بأَنهم كانوا يتنفَّلون بين المغرب والعشاءِ، وقال الرَّبيع بن خُثَيْم: المعنى: كانوا يصيبون من الليل حظًّا، وقال مُطَرِّف بن عبد الله: قلَّ ليلة أَتت عليهم هجعوها كلها، وقال ابن أَبي نُجَيْح ومجاهد: فالمراد عند هؤلاءِ بقوله تعالى: ﴿مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أَي من اللَّيالي، وظاهر الآية عندي أَنهم كانوا يقومون الأَكثر من ليلهم، أَي من كلِّ ليلة، وقد قال الحسن في تفسير هذه الآية: كابدوا قيام الليل، لا ينامون منه إِلاَّ قليلاً.

وأَمَّا إِعرابُ الآية فقال الضحاك في كتاب الطبري ما يقتضي أَن المعنى: كانوا قليلاً في عددهم، وتم خبر [كَانَ]، ثم ابتدأَ ﴿مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، فـ[مَا] نافية، و[قَلِيلاً] وقف حسن. وقال بعض النحاة: [مَا] زائدة، و[قَلِيلاً] مفعول مقدم لـ[يَهْجَعُونَ]، وقال جمهور النحويين: [مَا] مصدرية، و[قَليلاً] خبر [كَانَ]، والمعنى: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، و«الهجوع» مرتفع بـ[قَلِيلاً] على أنه فاعل، وعلى هذا الإِعراب يجيءُ قول الحسن وغيره ـ وهو الظاهر عندي ـ أَن المراد: كان هجوعهم من الليل قليلاً، وفسَّر ابن عمر والضحاك [يَسْتَغْفِرُونَ] بـ«يُصَلُّونَ»، وقال الحسن: معناه: يدعون في طلب المغفرة، والأَسحار مظنَّة الاستغفار، ويُروى أَن أَبوابَ الجنَّة تفتح فجر كل يوم، وفي قصة يعقوب عليه السلام في قوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾[1] أنه أَخَّر الاستغفار لهم

(١) من الآية (٩٨) من سورة (يوسف).

إلى السَّحر، قال أَبو زيد في كتاب الطبري: السَّحَرُ السدسُ الأَخير من اللَّيل.

قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾، الصحيح أَنها محكمة، وأَن هذا الحق هو على وجه الندب لا على وجه الفرض، و[مَعْلُومٌ][1] يراد به: متعارف، وكذلك قيام الليل الذي مدح به ليس من الفرائض، وأَكثر ما تقع الفضيلة بفعل المندوبات. وقال منذر بن سعيد: هي الزكاة المفروضة، وهذا ضعيف لأَن السُّورة مكيَّة وفرض الزكاة بالمدينة، وقال قوم من المتأَولين: كان هذا ثم نسخ بالزكاة، وهذا غير قوي، وما شَرَّع الله تعالى وجلَّ بمكة قبل الهجرة شيئاً من أَخذ الأَموال.

واختلف الناس في [الْمَحْرُومِ] اختلافاً هو عندي تخليط من المتأَخرين؛ إِذ المعنى واحد، وإِنما عبَّر علماءُ السلفِ في ذلك العبارات على جهة المثلات فجعلها المتأَخرون أَقوالاً، وحصرها مكي في ثمانية، و«المحروم» هو الذي تبعد عنه ممكنات الرزق بعد قربها منه فيناله حرمان وفاقة، وهو مع ذلك لا يسأَل، فهذا هو الذي له حق في أَموال الأَغنياءِ كما للسائل حق، قال الشعبي: أَعياني أَن أَعلم ما «المحروم»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المحروم: المحاربُ الذي ليس له في الإِسلام سهم مال، فهو ذو الحرفة المحدود، وقال أَبو قُلابة: جاءَ سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من أَصحاب النبي ﷺ: هذا المحروم، وقال ابن زيد: هو الذي أُصيبت ثمرته، وقال غيره: هو الذي ماتت ماشيته، وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: هو الكلب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد يكون الكلب محروماً في بعض الأَوقات والحالات، أَلا ترى إلى الذي كان يأْكل الثرى من العطش.. الحديث[2]؛ إلى غير هذا من الأَقوال التي إِنما ذكرت مثالاً،

---

(١) لم ترد كلمة [مَعْلوم] في هذه الآية، ولكنه يشير إلى ما ورد في الآيتين (٢٤، ٢٥) من سورة (المعارج)، فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾.

(٢) يشير إلى الحديث المعروف الذي أخرجه البخاري في الشرب والمظالم والأدب، ومسلم في السلام، وأبو داود في الجهاد، ومالك في صفة النبي ﷺ، وأحمد في مسنده (٢ـ٣٧٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل يمشي وهو بطريق إذ اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب كان يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغني، فنزل البئر فملأ خفه ماءً ثم أمسكه بفيه حتى رقي به فسقى الكلب فشكر الله له =

كأنه يقول: الذي أُصيبت ثمرته من المحرومين، والمعنى الجامع لهذه الأقوال أنه الذي لا مال له لحرمان أَصابه، وإلاَّ فالذي تصاب ثمرته وله مالٌ غيرها كثير ليس في هذه الآية بإجماع.

وبعد هذا مقدَّر من الكلام تقديره: فكونوا مثلهم أيها الناس وعلى طريقهم فإن النظر المؤدي إلى ذلك متجه، ففي الأَرض آيات لمن اعتبر وأَيقن، وهذه إشارة إلى لطائف الحكمة وعجائب الخلقة التي في الأرضين والجبال والمعادن والعيون وغير ذلك، وقرأ قتادة: [آيَةٌ] على الإفراد.

وقوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ إحالة على النظر في شخص الإنسان، فإنه أَكثر المخلوقات التي لدينا عبرة لما جعل الله تبارك وتعالى فيه ـ مع كونه من تراب ـ من لطائف الحواس، ومن أَمر النفس وحياتها ونطقها، واتصال هذا الجزءِ منها بالعقل، ومن هيئة الأَعضاءِ واستعدادها لتنفع أَو تحمل أَو تعين، قال ابن زيد: إنما القلب مضغة في جوف ابن آدم جعل الله فيه العقل، أَفيدري أَحدٌ ما ذاك العقل؟ وما صفته؟ وكيف هو؟ وقال الرُّمَّاني: النفس خاصة الشيءِ الذي لو بطل كل ما سواها مما ليست مضمنة به لم تبطل، وهذا تعمُّق لا أَحمده. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ توقيف وتوبيخ.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾، قال الضحاك، ومجاهد، وابن جبير: أَراد تعالى المطر والثلج، وقال واصل الأَحدب، ومجاهد: أَراد القضاءَ والقدر، أَي: الرزق عند الله تعالى يأْتي به كيف شاءَ، لا ربَّ غيره، وقرأَ ابن محيصن: [وفي السماء رازقكم]. و[تُوعَدُونَ] يحتمل أَن يكون من الوعد، ويحتمل أَن يكون من الوعيد، والكلُّ في السماءِ، قال الضحاك: المراد: من الجنة والنار، وقال مجاهد: من الخير والشر، وقال ابن سيرين: المراد الساعة، ثم أَقسم تعالى بنفسه على صحة هذا القول والخبر، وشبَّهه في اليقين به بالنطق من الإِنسان، وهو عنده في غاية الوضوح ولا يمكن أَن يقع فيه من اللَّبْس ما يقع في الرُّؤْية والسمع، بل النُّطق أَشد تخلُّصاً من هذه. واختلف القراءُ في قوله تعالى: ﴿مِّثۡلَ مَآ﴾ ـ فقرأَ حمزة، والكسائي، وعاصم ـ في رواية

= فغفر له»، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال رسول الله ﷺ: «في كل ذات كبد رطبة أجر».

أَبي بكر ـ: (مِثْلُ) بالرَّفع، ورويت عن الحسن، وابن أَبي إِسحق، والأَعمش ـ بخلاف عنهم ـ، وقرأ نافع، وأَبو عمرو، وابن كثير، وابن عامر، وأَبو جعفر، وأَهل المدينة، وجلُّ الناس: (مِثْلَ) بالنصب، فَوجْه الأُولى الرفع على النعت لـ[حَقٌّ]، وجاز نعت النكرة بهذا الذي قد أُضيف إلى المعرفة من حيث كان [مِثل] شائعاً عامًّا لوجوه كثيرة، فهو لا تُعرِّفه الإِضافة إلى معرفة؛ لأَنك إذا قلت: «رأَيتُ مثلَ زيد» فلم تُعرِّف شيئاً لأَن وجوه المماثلة كثيرة، فلما بقي الشياع جرى عليه حكم النكرة فَنُعتت به النكرة، و[مَا] زائدة تعطي تأكيداً، وإضافة [مِثْلُ] هي إلى قوله تعالى: [أَنَّكُمْ]. ووجه قراءَة النصب أَحد ثلاثة أَوجه: إِمَّا أَن يكون [مِثْلَ] قد بُني لَمَّا أُضيف إلى غير متمكن وهو في موضع رفع على الصفة لـ[حَقٌّ]، ولحقه البناءُ لأَن المضاف إليه قد يُكْسِبُ المضافَ بعض صفاته كالتأْنيث في قوله:

. . . . شَرِقَتْ صَدْرُ القَنَاة. . . .(١)

وكالتعريف في «غلام زيد» إلى غير ذلك، ويجرى [مِثْلَ] حينئذ مجرى ﴿عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾(٢) على قراءَة من فتح الميم، ومنه قول الشاعر:

عَلَى حينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّبَا . . . .(٣)

---

(١) هذه الجملة جزءٌ من بيت قاله الأعشى ميمون بن قيس، ويسمَّى صنَّاجة العرب، أدرك الإسلام ولم يسلم، والبيت من الطويل، وهو بتمامه:

وَتَشْـرَقُ بِـالقَـوْلِ الَّـذِي قَـدْ أَذَعْتُـهُ ... كَمَـا شَـرِقَـتْ صَدْرُ الْقَنَـاةِ مِـنَ الـدَّمِ

ومعنى أذعتُهُ: أَفْشَيْتُه وأَعْلَنْتُه، والقناة: الرمح، وشَرِقَ بريقه إذا غَصَّ وهو من باب عَلِمَ يَعْلَمُ، وقد استشهد به المؤلف على أن المضاف إليه قد يُكسب المضاف بعض صفاته كالتأنيث، فالقناة مؤنث، وصَدْر مذكَّر، ولكن لما أُضيف إلى القناة اكتسب منها التأنيث ولهذا أنث الفعل «شَرِقَ» فلحقت به تاءُ التأنيث فقيل: «شرقت»، والقياس أن يقال: «شَرِقَ صَدْرُ». ومثل هذا كثير في اللغة.

(٢) من قوله تعالى في الآية (١١) من سورة (المعارج): ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ في قراءة نصب الميم، ومعنى هذا أنها مبنية على الفتح لأنها مضافة إلى مبني، قال الخليل في كتاب سيبويه تعليلا لنصب الذي في موضع الرفع: «هذا كنصب بعضهم «يَوْمَئِذٍ» في كل موضع، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾.

(٣) هذا صدر بيت للنابغة الذبياني، والبيت بتمامه:

عَلَى حِيـنَ عَـاتَبْـتُ الْمَشِيـبَ عَلَـى الصِّبَـا ... وقُلْـتُ: أَلَمَّـا أَصْـحُ والشَّيْـبُ وَازِعُ؟

وهو في الديوان، وابن الشجري، والإنصاف، وشرح شواهد المغني، وابن يعيش، والمنصف، =

ومنه قول الآخر:

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ هَتَفَتْ . . . . (١)

فـ«غَيْرَ» فاعلة ولكنه فتحها.

والوجه الثاني ـ وهو قول المازني ـ أن [مِثْلَ] بُني لكونه مع [مَا] شيئاً واحداً، ويجيءُ ـ على هذا ـ في مضمار: «وَيْحَمَا، وأَيْنَمَا، وابْنَمَا»، ومنه قول حُمَيْد بن ثور:

أَلاَ هَيَّمَا مِمَّا لَقِيتُ وَهَيَّمَا وَوَيْحٌ لِمَنْ لَمْ يَدْرِ ماهُنَّ وَيْحَمَا(٢)

= وخزانة الأدب، والهمع، وشرح شواهد العيني. والوازع: الزاجر الناهي، وقد أسند الوَزْع إلى الشيب تجوزاً، يقول: إنه بكى على الديار في وقت مشيبه ومعاتبته لنفسه على هذا الضرب، أي: عاتبت نفسي على الصبا لمكان شيبتي. والشاهد في «حينَ» لأنه بُنِيَ على الفتح لإضافته إلى فعل بناؤه لازم وهو زمان مبهم، فهو ظرف، والمعنى: في وقتِ عاتبتُ، كقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ أي: في وقت غفلة. قال النحويون: ويجوز كسره للإعراب، ولكن المختار والأرجح بناؤه إذا تلاه فعلٌ مبني للتناسب بينهما، قال سيبويه: «كأنه جعل (حِينَ) و(عاتبت) شيئاً واحداً»، ومثله قول الشاعر:

لأَجْتَذِبَنَّ منهُنَّ قَلْبي تَحَلُّماً عَلَى حينَ يَسْتَصْبِينَ كُلَّ حَلِيمِ

إلاَّ أن بناءَ الفعل في البيت الأول لازم، وفي البيت الثاني عارض.

(١) هذا صدر بيت، وهو بتمامه:

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أنْ هَتَفَتْ حَمَامَةٌ فـي غُصُونٍ ذَاتِ أوْقَالِ

وهذا البيت مختلف في نسبته ـ فقيل: هو لأبي قيس ابن الأسلت «صيفي بن عامر»، وقيل: لقيس ابن رفاعة، وقيل: للشَّمَّاخ «معقل بن ضرار»، وليس في ديوانه، وهو في خزانة الأدب، واللسان ـ وكتاب سيبويه، ومغني اللبيب، وانظر أيضاً ابن يعيش، والتصريح، وابن الشجري، والهمع. والضمير في «منها» يعود على الوجناء وهي الناقة في بيت قبله، وفي البيت قَلْب، إذ أصل الكلام: «لم يمنعها من الشُّرْب» فقال بعد القلب: «لم يمنع الشرب منها»، ويروى «نطقت» بدلا من «هتفت»، ويروى: «في سَحُوقٍ» بدلاً من «غصون»، والسَّحوق: ما طال من شجر الدوم، والأوقال: جمع وَقْل، والوَقْل ثمار شجر الدوم كما قال في اللسان، والشاهد في البيت هنا أن «غَيْرَ» فاعل ولكنها رويت بفتح الراءِ، ومعنى هذا أنها مبنية على الفتح لأنها مضافة إلى مبني غير متمكن، ومعنى البيت أن هذه الناقة أرادت الشرب ولكن منعها منه أنها سمعت صوت حمامة في الغصون فنفرت وخافت، يصفها بأنها حديدة النفس، شديدة الحذر، دائمة الفزع.

(٢) هذا البيت في اللسان، و«هَيَّ» كلمة معناها التأسف والأسى، وقيل: التعجب، و«ما» في موضع رفع زائدة، قال ابن بَرِّي: ومنه قول حُمَيْد الأرقط: ألا هَيَّما. . . البيت، وقال الكسائي: «ومن العرب من يتعجب بِهَيَّ وفَيَّ وشَيَّ، ومنهم من يزيد «ما» فيقول: يا هَيَّما وي فَيَّما ويا شَيَّما، أي: ما أحسن هذا»، وقيل: بل هو تلهُّف، و«وَيْحَ» كلمة تقال رحمة، وكذلك «وَيْحَما»، قال الليث: «وَيْحَ كلمة رحمة لمن=

فلولا البناءُ وجب أن يكون منوناً، وكذلك قول الشاعر:

. . . . فَأَكْرِم بِنَا خالاً وَأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا[١]

والوجه الثالث أن ينصب [مِثْلَ] على الحال من قوله تعالى: [لَحَقٌّ] وهي حال من نكرة، وفيه خلاف، ولكن جوَّز ذلك الجرميُّ، وأما غيره فيراه حالاً من الذِّكر[٢] المرفوع في قوله تعالى: [لَحَقٌّ]؛ لأن التقدير: لَحَقٌّ هو، وفي هذا نظر، و«النطق» في هذه الآية: الكلام بالحروف والأصوات في ترتيب المعاني، ورُوي أن بعض العرب الفصحاء سمع هذه الآية فقال: من أحوج الكريمَ إلى أنَ يحلف؟ والحكاية وقعت في كتاب الثعلبي و«سبل الخيرات» متممة عن الأصمعي، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله قوماً أقسم لهم ربهم بنفسه فلم يصدقوه»[٣]، وروى أبو سعيد الخدري أن

= تنزل به بليَّة، وربما جعلت مع «ما» كلمة واحدة فقيل: وَيْحَمَا، ومعنى هذا أن [مِثْلَ] في الآية ركبت مع [مَا] في كلمة واحدة كما جعلت «ويح» مع «ما» في البيت.

(١) هذا عجز بيت قاله حسَّان بن ثابت من قصيدة له في الفخر مطلعها:

أَلَـمْ تَسْـأَلِ الـرَّبْـعَ الجَـديـدَ التَّكَلُّمَـا ... بِمَـدْفَـعِ أَشْـداخٍ فَبُـرْقَـةَ أَظْلَمَـا

والبيت بتمامه:

وَلَـدْنَـا بَنِـي العَنْقَـاءِ وابْنَـيْ مُحَـرِّقٍ ... فَـأَكْـرِمْ بِنَـا خـالاً وَأَكْـرِم بِنَـا ابْنَمَـا

وقد ورد الشطر الثاني في الأصول: «فَأَكْرِمْ بِهَا أُمّاً وَأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا»، والتصويب عن الديوان واللسان، والعنقاءُ: ثعلبة بن عمرو مُزَيْقياء بن عامر بن ماءِ السماءِ، ومُحَرِّق هو الحارث بن عمرو مزيقياء، وكان أول من عاقب بالنار، وقال الكلبي: سمِّي عمرو بن هند مُحَرِّقاً لأن سويد بن ربيعة التميمي قتل أخاً له ثم هرب، فقتل ابن هند سبعة من ولد سويد، وأقسم ليقتلن مائة من بني تميم، فبلغ ثمانية وتسعين أحرقهم بالنار، وصادف أن أقبل رجل من البراجم حين رأى الدخان ساطعاً وهو يحسب الطعام يُعمل ـ والبراجم جماعة من بني تميم تحالفوا وقالوا: نكون كبراجم اليد، أي مفاصلها ـ فلما دنا الرجل من النار قيل له: مِمَّن أنت؟ قال: من البراجم، فقال ابن هند: «إنَّ الشَّقي وافد البراجم» وألقاه في النار، فذهب قوله مثلا، وتحلل من يمينه بالحمراءِ بنت ضمرة النهشلية تتمة المائة. أما «ابْنَمَا» فهي «ابن» زيدت عليها الميم كما زيدت في (شدْقم وزُرْقم وشَجْعم) لنوع من الحيات، ويجوز عند إعراب «ابْنَم» أن تعرب الميم وحدها لأنها صارت آخر الاسم، وتبقى النون مفتوحة على كل حال، ومنهم من يُعربه من مكانَيْن، أي يجعل علامة الإعراب على النون والميم، وابن عطية يستشهد بالبيت لأن «ابن» بُنِيَت مع «ما» فصارتا معاً كلمة واحدة، وجاءت «ابن» مفتوحة على الرأي الأول الذي ذكرناه في الإعراب.

(٢) يعني: من ضمير الذِّكر، والذِّكر هو القرآن، إذ تقدير الكلام: إن الذِّكر لَحَقٌّ.

(٣) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية. (الدر المنثور).

النبي عليه الصلاة والسلام قال: «لو فَرَّ أَحدكم من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت»[١]، وأحاديث الرزق والأشعار فيه كثيرة.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ تقرير لتجتمع نفس المخاطب، وهذا كما تبدأُ المرءَ إذا أردتَ أن تحدثه بعجيب فتُقَرِّره: هل سمع ذلك أم لا؟ فكأنك تقتضي منه أن يقول: لا، ويستطعمك الحديث[٢]. و[ضَيْف] اسم جنس يقع للجمع وللواحد، وروي أن أضياف إبراهيم عليه السلام هؤلاءِ هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وأتباع لهم من الملائكة عليهم السلام، وجعلهم تعالى مكرمين إمَّا لأنهم عنده كذلك، وهذا قول الحسن، وإمَّا من حيث أكرمهم إبراهيم عليه السلام وخدمهم هو وسارة وذبح لهم العجل، وقيل: من حيث رفع مجالسهم. و[سَلاَماً] منصوب على المصدر، كأنهم قالوا: نُسَلِّم سلاماً، أو سلمت سلاماً[٣]، ويتجه أن يعمل فيه [قَالُوا] على أن يجعل [سَلاماً] بمنزلة «قولاً»، ويكون المعنى حينئذ أنهم قالوا تحية وقولاً معناه سلاماً، وهذا قول مجاهد، و[سَلاَمٌ] مرتفع على خبر ابتداءٍ، أي أمري سلام، أو واجب لكم سلام، أو على الابتداءِ والخبر محذوف كأنه قال: سلام عليكم، وإبراهيم عليه السلام قد حيَّا بأحسن؛ لأن قولهم دعاءٌ وقوله واجب قد تحصَّل لهم. وقرأ ابن وثاب، والنَّخَعي، وحمزة، والكسائي، وطلحة، وابن جبير: ﴿قَالَ سِلْمٌ﴾ بكسر السين وسكون اللام، والمعنى: نحن سلام، أو أنتم سلام، وقوله تعالى: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ معناه: لا نميزهم ولا عهد لنا بهم، وهذا أيضاً على تقدير: أنتم قوم منكرون، وقال أبو العالية: أنكر سلامهم في تلك الأرض وذلك الزمن.

و«راغ» معناه: مضى أثناءَ حديثه مخفياً زواله وانصرف مستعجلاً كأنه لم يُرد أن يفارقهم فمضى إلى ناحية من داره مستعجلاً ورجع لحينه، وهذا تشبيه بالروغان المعروف؛ لأن الرائغ يوهم أنه لم يزل، و«العِجْلُ» هو الذي حَنَذَه لهم[٤]، وحسبك أنه

---

(١) قال القرطبي بعد أن ذكر هذا الحديث: «أسنده الثعلبي».

(٢) استَطْعَم فلاناً الحديث: طلب منه أن يحدثه فيذيقه طعم حديثه. (المعجم الوسيط)، وفي قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ تفخيم لحديث ضيف إبراهيم، وتنبيه على أنه لم يكن معروفاً للنبي ﷺ وإنما عرفه بالوحي.

(٣) فهو المصدر السادُّ مسَدَّ الفعل المستغني به.

(٤) كما قال الله تعالى في سورة هود: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾، والحنيذ: المشوي، أو الذي يقطر دهنه.

عليه السلام أوقف للضيافة أوقافاً تُمضيها الأُمم على اختلاف أديانها وأجناسها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

المعنى: فَقَرَّبَه إليهم فأمسكوا عنه فقال: أَلا تأكلون؟ فيروى في الحديث أنهم قالوا له: إنَّا لا نأكل إلاَّ ما أَدَّينا ثَمَنه، فقال لهم إبراهيم عليه السلام: وأنا لا أُبيحه لكم إلاَّ بثمن، قالوا: وما هو؟ قال: أَن تسمُّوا الله تعالى عند الابتداءِ، وتحمدوه عند الفراغ من الأَكل، فقال بعضهم لبعض: بحق اتخذه الله تعالى خليلاً، فلما استمروا على ترك الأَكل أَوْجَس منهم خيفة، و«الوَجْسُ»: تَحسُّسُ النفس وخواطرها في الحذر، وذلك أَن أَكْل الضيف أَمَنَة ودليل على انبساط نفسه، والطعام حُرْمة وذمامٌ، والامتناع عن ذلك وحشة، فخشي إبراهيم عليه السلام أَن امتناعهم من أَكل طعامه إنما هو لشرٍّ يريدونه، فقالوا له: لا تخف، وعرَّفوه أنهم ملائكة، وبشَّروه وبشَّروا سارة معه بغلام عليم، أَي عالم في حال تكليفه وتحصيله، أَي سيكون عليماً، و«عليم» بناءُ مبالغة. وجمهور الناس على أَن الغلام هنا هو إسحاق بن سارة عليه السلام الذي ذكرت البشارة به في غير موضع، وقال مجاهد: هذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، والأول أَرجح، وهذا وَهْمٌ، ويروى أنه عرف كونهم ملائكة استدلالاً من بشارتهم إياه بالغيب.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾ يحتمل أَن يكون: قَرُبَتْ إليهم من ناحية من نواحي المنزل، ويحتمل أَن يكون هذا الإقبال كما تقول: أقبل فلان يشتمني أَو يفعل كذا إذا جدَّ في ذلك وتلبَّس به. و«الصَّرَّة»: الصَّيْحة، كذا فسَّره ابن عباس، ومجاهد، وسفيان، والضحاك، والمضطر الذي يصيح، وقال قتادة: معناه: في رنَّة، وقال الطبري: قال بعضهم: قالت: أَوَّه[1]، بصياح وتعجُّب، وقال النحاس: وقيل: ﴿فِى

(١) مقصورة الألف، كما قال الطبريُّ.

صَرَّةٍ﴾: في جماعة نسوة يتبادرن نظراً إلى الملائكة. وقوله تعالى: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ معناه: ضربت وجهها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لطمت، وهذا مما يفعله الذي يَرِدُ عليه أَمر يستهوله، وقال سفيان، والسدي، ومجاهد: ضربت بكفَّيها وجهها، وهذا مستعمل في الناس حتى الآن، وقولها: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ إما أن يكون تقديره: إني عجوز عقيم فكيف أَلِدُ؟ وإمَّا أَن يكون التقدير: عجوزٌ عقيمٌ يكون منها ولادة؟ وقدّره الطبري: أَتَلد عجوز عقيم، ويروى أنها كانت لم تلد قط، و«العقيم» من النساءِ التي لا تلد، ومن الرياح التي لا تلقح شجراً فهي لا بركة فيها. وقولهم: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي كقولنا الذي أخبرناك به قال ربك أن يكون، و«الحكيم» ذو الحكمة، و«العليم» معناه: بالمصالح وغير ذلك من المعلومات.

ثم قال إبراهيم عليه السلام للملائكة: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾، والخَطْبُ: الأَمر المُبْهم، وقيل: إنما يُعبَّر به عن الشدائد والمكاره غالباً حتى قالوا: «خطوب الزَّمان» وغير ذلك، وكأنه يقول: ما هذه الطَّامة التي جئتم لها؟ فأَخبروه حينئذ أَنهم أُرسلوا إلى سدوم قرية لوط عليه السلام بإهلاك أَهلها الكفرة العاصين المجرمين، و«المجرم»: فاعل الجرائم وهي صفات المعاصي من كفر ونحوه، واحدتها جريمة. وقولهم ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: لنهلكهم بهذه الحجارة، ومتى اتصلت «أَرسل» بـ«عَلَى» فهي في معنى المبالغة في المباشرة والعذاب. ومتى اتصلت بـ«إلى» فهي أخف، وانظر ذلك تجده مطرداً، وقوله تعالى: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ بيان تخرج به عن معتاد حجارة البَرَد التي هي من ماءٍ، ويُروى أَنه طين طُبخ في نار جهنم حتى صار حجارة كالآجُرّ، و[مُسَوَّمَةً] نعت لـ[حِجَارَةً]، وقيل: معناه: متروكة. وسومها من الإهلاك والإصابة، وقيل: معناه؛ معلَّمة بعلامتها من السماءِ، والسَّومى[1]: العلامة، أَي أَنها ليست من حجارة الدنيا، وقال الزهراوي والرُّمَّاني: قيل: معناه على كل حجر اسم المضروب به، قال الرُّمَّاني: وقيل: كان عليها أَمثال الخواتيم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تسويمها أن كان في الحجارة السود نقط بيض، وفي البيض سودٌ، ويحتمل أَن يكون المعنى أَنها بجملتها معلومة عند ربك لهذا المعنى معلمة له، لا أَن كل واحد منها له علامة خاصة به، و«المُسْرف»:

---

(١) جاء في اللسان: «والسُّومَةُ والسِّيمة والسِّيماءُ والسِّيمِيَاءُ: العلامة». ثم جاء: «والأصل في سِيمَا وسْمَى، فحولت الواو من موضع الفاءِ فوضعت في موضع العين، كما قالوا: ما أطيبه وأيطبه، فصار سِوْمَى، وجعلت الواو ياءً لسكونها وانكسار ما قبلها».

الذي يتعدى الطور، فإذا جاءَ مطلقاً فهو لأبعد غايات الكفر فما دونه.

ثم أَخبر الله تعالى أنه أَخرج بأمره من كان في قرية قوم لوط من المؤمنين منجياً لهم، وأَعاد الضمير على القرية ولم يصرح لها قبل ذلك بذكر لشهرة أمرها، ولأن القوم المجرمين معلوم أَنهم في قرية ولا بد، قال المفسرون: ولا فرق بين تقدم ذكر المؤمنين وتأَخره، وإِنما هما وصفان، ذكرهم[1] أَولاً بأَحدهما ثم آخراً بالثاني، قال الرُّمَّاني: الآية دالة على أَن الإِيمان هو الإِسلام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويظهر أَن في المعنى زيادة تحسِّن التقديم للإيمان، وذلك أَنه ذكره مع الإِخراج من القرية كأَنه تعالى يقول: لقد أمرنا بإِخراج كل مؤمن، ولا يشترط فيه أن يكون عاملا بالطاعات بل التصديق بالله تعالى فقط، ثم لما ذكر حال الموجودين ذكرهم بالصفة التي كانوا عليها وهي الكاملة التصديق والأَعمال. والبيت من المسلمين هو بيت لوط عليه السلام وكان هو وابنتاه، وقيل: وبنته، وفي كتاب الثعلبي: وقيل: لوطٌ وأَهلُ بيته ثلاثة عشر، وهلكت امرأَته فيمن هلك. وهذه القصة بجملتها ذكرت على جهة المثال لقريش، أَي أَنهم إِذا كفروا أَصابهم مثل ما أَصاب هؤلاءِ المذكورين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

المعنى: وتركنا في القرية المذكورة ـ وهي سدوم ـ أَثراً من العذاب باقياً مؤرخاً لا يفنى ذكره، فهو آيةٌ ـ أَي علامة ـ على قدرة الله تبارك وتعالى وانتقامه من الكفرة، ويحتمل أَن يكون المعنى: وتركنا في أَمرها، كما قال: ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾[2] وقال ابن جريج: ترك فيها حجراً منضوداً كبيراً جدًّا، و«الَّذين

(١) الضمير في «ذكَرَهُم» يعود على الموصوفين بالإيمان وبالإسلام.
(٢) الآية (٧) من سورة (يوسف).

يخافون العذاب» هم العارفون بالله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على قوله تعالى: [فيهَا]، أي: وتركنا في موسى وقصته أثراً أيضاً هو آية، ويحتمل أن يكون عطفاً على قوله تعالى قبل: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾، وفرعون هو صاحب مصر، و«السُّلْطَان» في هذه الآية: الحجة، و«تَوَلَّى» معناه أعرض وأدبر عن أمر الله تعالى، و«رُكْنُهُ»: سلطانه وجندُه وشدَّة أَمره، وهو الأَمر الذي يركن فرعون إليه ويستند في شدائده، وقال ابن زيد: (بِرُكْنِهِ): بجُمُوعه، وقال قتادة: بقومه، وقَوْلُ فرعون في موسى عليه السلام: «سَاحِرٌ أَو مَجْنُونٌ» هو تقسيم ظنَّ أن موسى عليه السلام لا بُدَّ أن يكون أحد هذين، وقال أَبو عبيدة: [أَوْ] هنا بمعنى «الواو»، واستشهد ببيت جرير:

أَثَعْلَبَـــةَ الْفَـــوَارسَ أَوْ رِيَـــاحَـــا   عَـدَلْـتَ بِهِـمْ طُهَيَّـةَ والْخشَـابَـا؟[(١)]

والخشَاب: بيوتٌ في بني تميم، وقولُ أَبي عبيدة ضعيف لا داعية إِليه في هذا الموضع، و[نَبَذْنَاهُمْ] معناه: طرحناهم، و«اليَمُّ»: البحر، وفي مصحف ابن مسعود: [فنبذناه]، و«المُليمُ»: الذي أَتَى من المعاصي ونحوها ما يُلامُ عليه، وقال أُمَيَّةُ ابنُ أَبي الصَّلْت:

. . . .   وَمَـنْ يَخْـذُلْ أَخَـاهُ فَقَـدْ أَلامَـا[(٢)]

---

(١) قال جرير هذا البيت من قصيدة يهجو بها الراعي النميري، والبيت في اللسان أيضاً، وطُهَيَّة على وزن سُمَيَّة: حيٌّ من تميم نُسبوا إلى أُمِّهم، والخِشاب: بنو رازم بن مالك، وربيعة وكعب بن مالك، وحنظلة، وهم بطون من تميم أيضاً. قال أبو عبيدة: [أَوْ] ها هنا في موضع الواو التي للمُوَالاة ـ أي للعطف ـ لأنه قد قالهما جميعاً له. ولكن ابن عطية لا يوافق أبا عبيدة على رأيه هذا لأن فرعون قالهما فعلا لموسى عليه السلام ولكنه أراد بهما الإبهام على السامع. قال ذلك أبو حيان الأندلسي في البحر.

(٢) هذا عجز بيت، وهو بتمامه:

تَعُــدُّ مَعَــاذِراً لا عُــذْرَ فِيهَــا   وَمَـنْ يَخْـذُلْ أَخَـاهُ فَقَـدْ أَلامَـا

ولم أجده في ديوان أُمَيَّة، ولكن وجدته في لسان العرب منسوباً إلى أُمِّ عُمَيْر بن سَلْمَى الحنفي تخاطب ولدها عُمَيْراً لأنه كان قد أَسلم أخاه لرجل كلابيٍّ له عليه دَمٌ فقتله، فعاتبته أُمُّه في ذلك وقالت هذا البيت، قال ابن بَرِّي: وعُذْره الذي اعتذر به أن الكلابيَّ التجأ إلى قبر سَلْمَى والد عُمَيْر، فقال لها عُمَيْر:

قَتَلْنَـا أَخَـانَـا لِلْـوَفَـاءِ بِجَـارِنَـا   وكَـانَ أَبُـونَـا قَـدْ تُجِيـرُ مَقَـابِـرُه

وقوله تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ﴾ عطف على قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾. وعَادٌ هي قبيلة هود النبي ﷺ، و«العقيم» معناه: التي لا بركة فيها، لا تلقح شجراً ولا تسوق مطراً، وقال سعيد بن المسيب: كانت ريح الجنوب، وروي عن علي رضي الله عنه: كانت نكباءَ[١]، وهذا عندي لا يصح عن عليٍّ رضي الله عنه لأنه يرادُّ قول النبي ﷺ: «نُصرتُ بالصَّبا، وأُهلكت عادٌ بالدبور»[٢]، و[تَذَرُ] معناه: تَدَع، وقوله تعالى: ﴿مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ يعني مِمَّا أذن الله تعالى لها في إهلاكه، و«الرميم»: الفاني المتقطع يبساً أو قِدَماً من الأشجار والورق أَو الحبال أَو العظام، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[٣]، أَي في قوام الرماد، ورُوي حديث: «إِنَّ تلك الريح كانت تهب على الناس فيهم العاديُّ وغيره، فتنزع العاديَّ من بين الناس وتذهب به»[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يحتمل أَن يراد: قيل لهم في أول بعث صالح عليه السلام: آمنوا وأَطيعوا فتُمتَّعوا متاعاً حسناً إِلى آجالكم، وهو «الحينُ» على هذا، وهو قول الحسن حكاه عنه الرُّمَّاني، ويجيءُ قوله تعالى: [فَعَتَوْا] مُرَتَّباً لفظاً في الآية ومعنى في الوجود متأخراً عن القول لهم: [تَمَتَّعُوا]، ويحتمل أَن يريد: إِذْ قيل لهم بعد عقر الناقة: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾[٥]، وهي «الحينُ» على هذا التأْويل، وهو قول الفراءِ، ويجيءُ قوله تعالى: [فَعَتَوْا] غير مُرَتَّب المعنى في وجوده، لأَن عتوهم كان قبل أَن يقال لهم: [تَمَتَّعُوا]، وكأَن المعنى: فكان من أَمرهم قبل هذه المقالة أَن عَتَوْا، وهو السبب في أَن قيل لهم ذلك وعُذِّبوا. وقرأَ جمهور القراءِ: [الصَّاعِقَةُ]، وقرأَ الكسائي ـ وهي قراءَة عُمَر وعثمان رضي الله عنهما ـ: [الصَّعقةُ]،

---

(١) الريح النَّكْباءُ: ريح انحرفت ووقعت بين ريحين كالصَّبا والشمال، والجمع «نُكْبٌ».

(٢) أخرجه البخاري في الاستسقاء والمغازي وبدء الخلق والأنبياء، ومسلم في الاستسقاءِ، وأحمد في مسنده (١ـ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٥٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما. ومعنى قول المؤلف قبل هذا الحديث: «لأنه يرادُّ قول النبي ﷺ» أنه يعارضه ويختلف عنه.

(٣) من الآية (٧٨) من سورة (يس).

(٤) أخرج ابن عساكر عن وهب قال: لما أرسل الله الريح على عادٍ اعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبهم من الريح إلاَّ ما تلين عليه الجلود وتلذه الأنفس، وإنهما لتمرُّ بالعاديِّ فتحمله بين السماءِ والأرض وتدمغه بالحجارة ـ ذكر ذلك الإمام السيوطي في (الدر المنثور)، والعاديّ: نسبة إلى عادٍ.

(٥) من الآية (٦٥) من سورة (هود).

وهي ـ على القراءتين ـ الصيحةُ العظيمة، ومنه يقال للوقعة الشديدة من الرعد: صاعقة، وهي التي تكون معه النار التي يُروى في الحديث أنها من المخْراق الذي بيد مَلَك يسوق السحاب[1]. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ يحتمل أن يريد: فجأةً وهم يُبصرون بعيونهم حالهم، وهذا قول الطبري، ويحتمل أن يريد: وهم ينتظرون ذلك في تلك الأيام الثلاثة التي أُعلموا به فيها ورأوا علاماته في تَلَوُّنهم، وهذا قول مجاهد حسب ما تقدَّم تفسيره، وانتظارهم للعذاب هو أشد من العذاب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾.

قال بعض المفسرين: (من قيام) معناه: ما استطاعوا أن يقوموا من مصارعهم، وقال قتادة وغيره: معناه: من قيامٍ بالأمر ودفعه، كما تقول: فلانٌ له بكذا وكذا قيام، أي: استصلاح وانتهاض، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم: (وقوم نوح) بالنصب، وهو عطف إمَّا على الضمير في قوله تعالى: [فَأَخَذَتْهُمُ]؛ إذ هو بمنزلة «أَهلكناهم»، وإما على الضمير في قوله تعالى: [فَنَبَذْنَاهُمْ]، وقرأ أَبو عمرو ـ فيما روى عنه عبد الوارث ـ: (وقومُ نوح) بالرفع، وذلك على الابتداءِ والخبر، وقرأ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [وقومِ نوح] بالخفض عطفاً على ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾، وقد روي النصب عن أَبي عمرو.

وقوله تعالى: [وَالسَّمَاءَ] نصب بإِضمار فعل تقديره: وبنينا السماءَ بنيناها،

---

(١) حديث الملَك الذي يسوق السحاب أخرجه الترمذي في تفسير سورة الرعد، وأخرجه أحمد في مسنده (٦ـ٢٧٤)، وهو حديث طويل رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه أن اليهود أقبلوا إلى النبي ﷺ فسألوه عن خمسة أشياءَ، وقالوا: إن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي، وكان آخر سؤال هو: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: «مَلَك من ملائكة الله عزَّ وجلَّ مُوَكَّل بالسحاب، بيده أو في يده مِخْراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمر الله»، قالوا: فما هذا الصوت الذي يُسمع؟ قال: «صوته»، قالوا: صدقت، إلخ الحديث. والمِخْراق: السيف.

و«الأَيْد»: القُوَّة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ووقعت في المصحف بياءَيْن، وذلك على تخفيف الهمز، وفي هذا نظر. وقوله تعالى: [لَمُوسِعُونَ] يحتمل أَن يريد: إِنا نوسع الأَشياءَ قوة وقدرة، كما قال تعالى: و﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾(١). أَي الذي يوسع أَهلَه إِنفاقاً، ويحتمل أَن يريد: لموسعون في بناءِ السماءِ، أَي جعلناها واسعة، وهذا تأْويل ابن زيد، وقال الحسن: أَوْسع الرزقَ بمطر السماءِ، و«الماهدُ»: المهيِّئُ الموَطِّئُ للموضع الذي يتمهد ويفترش.

قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي مُصْطَحبين مُتَلازمَيْن، وقال مجاهد: معناه أَن هذه إِشارة إِلى المتضادات والمتقابلات من الأَشياءِ كالليل والنهار، والشِّقوة والسعادة، والهدى والضلال، والسماءِ والأَرض، والسواد والبياض، والصحة والمرض، والكفر والإِيمان، ونحو هذا، ورجَّحه الطبري بأَنه أدل على القدرة التي توجد الضِّدين بخلاف ما يفعل بطبعه فعْلاً واحداً كالتسخين والتبريد، وقال ابن زيد وغيره: هي إِشارة إِلى الأُنثى والذكر من كل حيوان، والترجِّي الذي في قوله تعالى: [لَعَلَّكُمْ] هو بحسب خلق البشر وعرفهم، وقرأ الجمهور: [تَذَّكَّرُونَ] بتشديد الذال والإدغام، وقرأ أبي بن كعب [تَتَذَكَّرُونَ] بتاءَين وخفَّة الذال.

وقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أَمْرٌ بالدخول في الإِيمان وطاعة الله تعالى، وجعل الأَمر بذلك بلفظ الفِرار لينبِّه على أَن وراءَ الناس عقاباً وعذاباً وأَمراً حقُّه أَن يُفرَّ منه، فجمعت لفظة «فِرُّوا» بين التحذير والاستدعاءِ، وينظر إِلى هذا المعنى قول النبي ﷺ: «لا ملجأَ ولا منجى منك إِلاَّ إِلَيْك...» الحديث(٢). قال الحسين بن الفضل: من فرَّ إِلى غير الله تعالى لم يمتنع من الله عزَّ وجلَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ نهيٌ عن عبادة الأَصنام والشياطين وكل

---

(١) من الآية (٢٣٦) من سورة (البقرة).

(٢) أخرجه البخاري في الوضوءِ والدعوات والتوحيد، ومسلم في الذِّكر، وأبو داود في الأدب، والترمذي وابن ماجه في الدعاءِ، والدارمي في الاستئذان، وأحمد في مسنده (٤ـ٢٨٥، ٢٩٠، ٢٩٢)، وهو عن البراء بن عازب، ولفظه أن رسول الله ﷺ أمر رجلاً من الأنصار أن يقول إذا أخذ مضجعه: «اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجَّهت وجهي إليك، وفوَّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا مَنْجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت»، فإن مات مات على الفطرة.

مدعوٌّ من دون الله تعالى، وفائدة تكرار قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ الإبلاغ وهزُّ النفس وتحكيم التحذير، وإعادةُ الألفاظ بعينها في هذه المعاني بليغة بقرينة شدة الصوت.

وقوله تعالى: [كَذَٰلِكَ] تقديره: سيرة الأمم كذلك، أو الأمر في القديم كذلك، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ معناه إلاَّ قال بَعْضٌ هذا وبعضٌ هذا وبعضٌ الجميع، ألا ترى أن قوم لوط عليه السلام لم يقولوا قط: هو ساحر، وإنما قالوا: به جِنَّة، فلما اختلفت الفِرَق جعل الخبر عن ذلك بإدخال [أَوْ] بين الصيغتين، وليس المعنى أن كل أُمَّة قالت عن نبيِّها: إنه ساحر أو مجنون، فليست هذه كالمتقدمة في فرعون، بل هذه كأنه تعالى قال: إلاَّ قالوا: هو ساحر، أو قالوا: هو مجنون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ توقيف وتعجيب من توارد نفوس الكفرة في تكذيب الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم عَلَى تفرُّق أزمانهم، أَي: إنهم لم يتواصلوا لكنهم فعلوا فعلاً كأنه فعل من تَوَاصى، والعلَّة في ذلك أن جميعهم طاغ، والطاغي: المستعلي في الأرض المفسد العاتي على الله.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي عن الحرص المفرط عليهم وذهاب اليقين حسرات، ويحتمل أن يراد: فتولَّ عن التعب المفرط في دعائهم وضمهم إلى الإسلام، فلست بمصيطر عليهم ولست بملوم إذْ بلَّغت، فنحِّ نفسك عن الحزن عليهم وذكِّر فقط فإن الذكرى نافعة للمؤمنين ولمن قُضي له أن يكون منهم في ثاني حال، وعلى هذا التأويل فلا نَسْخَ في الآية إلاَّ في معنى الموادعة التي فيها: فإن آية السيف نسخت جميع الموادعات، وروى قتادة ـ وذكره الطبري ـ عن علي رضي الله تعالى عنه أنه لما نزلت﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ حزن المسلمون وظنواأنه أَمْر بالتولِّي عن الجميع وأن الوحي قد انقطع، حتى نزلت ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فسُرُّوا بذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، اختلف الناسُ في معناه مع

إجماع أَهل السُّنَّة على أَن الله تعالى لم يُرد أَن تقع العبادة من الجميع؛ لأَنه تعالى لو أَراد ذلك لم يصح أَن يقع الأَمر بخلاف إِرادته ـ فقال علي بن أَبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهم: المعنى: ما خلقت الجن والإِنس إِلاَّ لآمرهم بعبادتي وليقرُّوا لي بالعبودية، فعبر عن ذلك بقوله تعالى: [لِيَعْبُدُونِ]؛ إِذ العبادة هي مضمون الأَمر، وقال زيد بن أَسلم، وسفيان: المعنى خاص، والمراد وما خلقت الطائعين من الجن والإِنس إِلاَّ لعبادتي، ويؤيد هذا التأْويل أَن ابن عباس رضي الله عنهما روى عن النبي ﷺ أَنه قرأَ: [وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون]، وقال ابن عباس أَيضاً: معنى [لِيَعْبُدُونِ]؛ ليتذلَّلُوا لي ولقدرتي وإِن لم يكن ذلك على قوانين الشرع، وعلى هذا التأْويل فجميع الجن والإِنس عابد متذلِّل، والكفار كذلك، أَلا تراهم عند القحوط والأَمراض وغير ذلك؟ وتحتمل الآية أَن يكون المعنى: وما خلقت الجن والإِنس إِلاَّ مُعَدِّين ليعبدوني، وكأَن الآية تعديد نعمة، أَي: خلقت لهم حواسَّ وعقولاً وأَجساماً منقادة لحق العبادة وهذا كما تقول: البقر مخلوق للحرث، والخيل للحرب، وقد يكون منها ما لا يحرث وما لا يُحارب به أَصلاً، فالمعنى أَن الإِعداد في خلق هؤلاءِ إِنما هو للعبادة، لكن بعضهم تكسَّب صرف نفسه عن ذلك، ويؤيد هذا المنزع قول النبي ﷺ: «اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلق له»(١)، وقوله: «كُلُّ مولود يولد على الفطرة»(٢). . . الحديث.

وقوله تعالى: ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾ أَي أَن يرزقوا أَنفسهم ولا غيرهم، وقوله تعالى: ﴿أَن يُطْعِمُونِ﴾ إِمَّا أَن يكون المعنى: أن يطعموا خلقي، فأُضيف إِلى الضمير على جهة التَّجوُّز، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، وإِما أَن يكون الإِطعام هنا بمعنى النفع على العموم، كما تقول: أَعطيت فلاناً كذا وكذا طُعمةً، وأنت قد أعطيته عرضاً أو بلداً يجبيه، ونحو هذا، فكأَنه تعالى قال: «ولا أُريد أَن ينفعونِ»، فذكر جزءًا من المنافع وجعله دالاً على الجميع. وقرأَ الجميع: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾، وروى أَبو إِسحاق السبيعي، عن عبد الله بن زيد، قال أَبو عمرو الداني: عن ابن مسعود قال: أَقرأَني

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس، وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما، ورمز له الإمام السيوطي في (الجامع الصغير) بأنه صحيح.

(٢) أخرجه أبو يَعْلى في مسنده، والطبراني في الكبير، والبيهقي في السنن، عن الأسود بن سريع، ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في (الجامع الصغير): «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فأبواه يُهَوِّدانه أوْ يُنَصِّرَانه أوْ يُمَجِّسَانه»، وقد رمز له السيوطي بأنه حديث صحيح.

رسول الله ﷺ: [إني أنا الرزاق]، وقرأ جمهور القراءِ: [الْمَتِينُ] بالرفع، إمَّا على أنه خبر بعد خبر، أَوْ صفة لِـ[الرَّزَّاقُ]، وقرأَ يحيى بن وثَّاب، والأعمش: (الْمَتِينِ) بالخفض على النعت لـ [الْقُوَّةِ]، وجاز ذلك من حيث إن تأْنيث [الْقُوَّةِ] غير حقيقي، فكأنه قال: ذو الأَيْد والحبْل[1]، ونحوُه قوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٌ﴾[2]، وجوَّز أبو الفتح أن يكون خفض [الْمَتِينِ] على الجوار، و«الْمَتينُ»: الشديد.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، يريد تعالى أَهل مكة، وهذه آية وعيد صراح، وقرأَ الأَعمش: [فَإِنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا]، و«الذَّنُوبُ»: الحظُّ والنصيب، وأَصله من الدَّلو، وذلك أَن الذَّنوب هو مِلْءُ الدلو من الماءِ، وقيل: الذَّنوب: الدَّلْوُ العظيمة، ومنه قول الشاعر:

إِنَّــا إِذَا نَــازَلَنَــا غَــرِيــبُ
لَــهُ ذَنُــوبٌ وَلَنَــا ذَنُــوبُ
فَــإِنْ أَبَيْتُــمْ فَلَنَــا الْقَلِيــبُ[3]

وهو السَّجْل[4]، ومنه قول عَلْقَمَة بن عبدة:

وَفِـي كُـلِّ يَـوْمٍ قَـدْ خَبَطْـتَ بِنِعْمَـةٍ فَحُـقَّ لِشَـأْسٍ مِـنْ نَـدَاكَ ذَنُـوبُ[5]

---

(١) هذا رأي أبي الفتح ابن جني: يقول: ذكَّره على معنى الحبل، يريد: قُوَى الحَبْل؛ لقوله سبحانه: ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾.

(٢) من الآية (٢٧٥) من سورة (البقرة)، وقد سقطت تاء التأنيث في قوله سبحانه: (جَاءَهُ) لأن تأنيث «الموعظة» غير حقيقي.

(٣) استشهد الفراءُ في (معاني القرآن) بالبيتين الثاني والثالث، قال: «والذَّنوب في كلام العرب: الدَّلْو العظيمة، ولكن العرب تذهب بها إلى الحظِّ والنصيب، وبذلك أتى التفسير: فإن للَّذين ظلموا حظّاً من العذاب، كما نزل بالذين من قبلهم، وقال الشاعر:

لَنَــا ذَنُــوبٌ وَلَكُــمْ ذَنُــوبُ فَــإِنْ أَبَيْتُــمْ فَلَنَــا الْقَلِيــبُ

والذَّنوب يُذَكَّر ويُؤَنَّث». وقد أخذ عنه المفسرون هذا الاستشهاد، ونقلوا البيتين كما رواهما «لَنَا ولكم»، لكن ابن عطية زاد هنا البيت الأول، وجاءت الرواية فيه: «له ولنا» كما ترى، والبيتان أيضاً في اللسان والتاج، والرواية فيهما: «لها ذنوبٌ ولكم ذنوب»، وقد نقل صاحب الكلام الفراء الذي نقلناه هنا. والقَليب: البئر، تذكَّر وتؤنث، وفي الحديث أنه ﷺ وقف على قليب بدر، والجمع قُلُبٌ.

(٤) السَّجْل: الدَّلو العظيمة، مملوءة، أو فيها ماءٌ قلَّ أوْ كثُر (مذكَّر).

(٥) هذا البيت لعلقمة الفحل، وهو من قصيدة له يمدح فيها الحارث ملك الغساسنة في الشام على إثر الوقعة المعروفة باسم «يوم حليمة»، ومطلع القصيدة:

=

فروي أن الملك لما سمع هذا البيت قال: نعم وأَذْنُبُ، ومنه قول حسَّانٍ:

لاَ تَبْعَدَنَّ رَبِيعَةَ بْنَ مُكَدَّمٍ وَسَقَى الْغَوَادِي قَبْرَهُ بِذَنُوب[1]

و«أصحابهم» يراد به من تقدَّم من الأمم المعذبة، قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ تحقيق للأمر، بمعنى: هو نازل بهم لا محالة في وقته المعلوم فلا يستعجلوه، وقرأ ابن وثاب: [فلا تستعجلون] بالتاء من فوق، وبه قرأت فرقة، والباقون بالياء.

ثم أوجب تعالى الويل من يومهم الذي يأتي فيه عذابهم، و«الويل»: الشقاء والهم، وروي أن في جهنم وادياً يسمى ويلاً، والطبري يذهب أبداً إلى أن التوعد إنما هو به، وذلك في هذا الموضع قلق، لأن هذا الويل إنما هو من يومهم الذي هو في الدنيا، و[مِنْ] لابتداء الغاية، وقال جمهور المفسرين: هذا التوعد هو بيوم القيامة، وقال آخرون ـ ذكره الثعلبي ـ: هو بيوم بدر، وفي [يوعدون] ضميرعائد على الكلام، التقدير: يوعدون به، أو يوعدونه.

تم تفسير سورة الذاريات والحمد لله رب العالمين

= طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحِسَانِ طَرُوبُ بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ

وكان الحارث قد انتصر في «يوم حليمة» وأَسَر شَأساً شقيق الشاعر، وقد طلب الشاعرمن الملك بعد أن مدحه أن يعفو عن أخيه تقديراً لبطولته وإخلاصه لقومه وإن كان قد حارب المِلك، واستجاب المِلك لطلب الشاعر وأطلق سراح شأس وجميع الأسرى، وكان لكلمة الشاعر الأثر الكبير في ذلك.

ومعنى: «قد خَبَطْتَ بنعمة»: أعطيت من غير معرفة بمن تعطيه، وهذا غاية المدح، والذَّنوب: الدَّلْوُ فيها ماءٌ، أو لا ماءَ فيها، أو التي كان الماءُ فيها قريباً من مِلئِها... على اختلاف كلام اللغويين، ولكن المراد بها الحظُّ والنصيب، يقول الشاعر: إنك أيُّها المِلك تعطي النعمة من لا تعرفه، وتجود على كل الناس، وهذا يعطي أخي حقاً في أن يكون له نصيب من جودك ومعروفك، وقد سارت أبيات علقمة في الحارث مثلا في مديح الملوك.

(١) هذا البيت واحد من أربعة أبيات نُسبت لحسان بن ثابت، وقيل: لضرار بن الخطاب الفهري، وقيل: لمكرز بن خوص بن الأخيف العامري، وقال ابن سلام: الصحيح أنها لعمر بن شقيق بن سلامان، وربيعةُ بن مكدم من بني كنانة، وكانت بينهم وبين بني سليم وقعة قتل فيها ربيعةُ أربعة من بني سليم، وطعنه بعضهم طعنة قاتلة، فذهب إلى أُمه يطلب منها أن تسقيه فرفضت وطلبت إليه أن يقف على ثنيَّة الوادي حتى لا يهاجمهم القوم، ولكن ثعلباً مرَّ بفرسه التي كان عليها وقد مات، فنفرت الفرس وسقط ربيعة فدفن على الثَّنِيَّة، وقال الشاعر هذه الأبيات، والغوادي: جمع غادية وهي السحابة تنشأ فتمطر غدوة، يدعو له بالسقيا والري لما أظهره من الشجاعة والتضحية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الطور

هي مكية بإجماع من المفسرين والرواة(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾.

هذه مخلوقات أقسم الله تعالى بها تنبيهاً منه وتشريفاً، وليكون ذلك سبب النظر فيها والاعتبار بها، وذلك يؤول إلى التوحيد والمعرفة بحقوق الله تعالى.

و«الطُّور»، قال بعض أهل اللغة: كل جبل طور، فكأنه تبارك وتعالى أقسم بالجبال، إذ هو اسم جنس، وقال آخرون: الطور: كل جبل أجرد لا ينبت شجراً، وقال مجاهد في كتاب الطبري: الطور: الجبل بالسريانية، وهذا ضعيف، لأن من حكاه في العربية يقضي على هذا، ولا خلاف أن في الشام جبلاً يُسمَّى بالطُّور، وهو طور سيناءَ، فقال نوف البكالي: إنه الذي أقسم الله تعالى به لفضله على الجبال، إذ قد روي أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أني مهبط على أحدكم أمري ـ يريد رسالة موسى عليه السلام ـ، فتطاولت كلها إلا الطور فإنه استكان لأمر الله تعالى وقال: حسبي الله، فأهبط الله تعالى الأمر عليه، ويقال: إنه بمدين، وقال مقاتل بن حيان: هما طوران.

و«الكتاب المَسْطور» معناه بإجماع: المكتوب أسطاراً، واختلف الناس في هذا الكتاب المقسم به ـ فقال بعض المفسرين: هو الكتاب المنتسخ من اللوح المحفوظ للملائكة لتعرف منه جميع ما يفعله وتصرفه في العالم، وقال آخرون: بل أقسم الله تعالى بالقرآن، فإنه قد كان علم أنه يتخذ في رَقٍّ منشور، وقال آخرون: أقسم الله تعالى

(١) روى الأئمة عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بالطور في المغرب. متفق عليه..

بالكتب القديمة المنزلة، التوراة والإنجيل والزبور، وقال الفراء ـ فيما حكى الرُّمَّاني ـ: أقسم بالصحف التي تعطى وتؤخذ يوم القيامة بالأيمان والشمائل، وقال قوم: أقسم بالكتاب الذي فيه أعمال الخلق، وهو الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أَحصاها، وكتب بعض الناس (مَصْطُور) بالصاد، والقصد بذلك تشابه النطق بالحروف، والجمهور على السين. و«الرَّقّ»: الورق المعدة للكَتْب، وهي مُرَقَّقَة فلذلك سُمِّيت رقًّا، وقد غلب الاستعمال على هذا الذي هو من جلود الحيوان، و«المنشور» خلاف المطويِّ، وقد يحتمل أن يكون نَشْرهُ بمعنى بَشْره وترقيقه وصنعته، وقرأ أبو السَّمال: ﴿فِي رِقٍّ﴾ بكسر الراء.

واختلف الناس في ﴿الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ ـ فقال الحسن بن أبي الحسن البصري: هي الكعبة، وقال علي ابن أبي طالب، وابن عباس، وعكرمة رضي الله عنهم: هو بيت في السماء يقال له: الضراح، وهو بحيال الكعبة، ويقال: الضريح، ذكر ذلك الطبري، وهو الذي ذُكر في حديث الإسراء، قال جبريل للنبي ﷺ: (هذا البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك لا يعودون إليه،آخر ما عليهم)[١]، وبهذا عمارته، ويروى أنه في السماء السابعة، وقيل: السادسة، وقيل: إنه مقابل الكعبة، لو خرَّ لسقط عليها، وقال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: في كل سماءٍ بيت معمور وفي كل أرض كذلك، وهي كلها على خط مع الكعبة، وقاله علي ابن أبي طالب رضي الله عنه.

و«السَّقْفُ الْمَرْفُوعُ»: السماء، و«السَّقْفُ» طول في انحناءٍ، ومنه أسقف النصارى، ومنه السَّقْف، لأن الجدار وسَقْفه فيهما طول في انحناءٍ.

واختلف الناس في [المسجور] ـ فقال مجاهد وشِمْر بن عطية[٢] معناه: الموقد

---

(١) أخرجه ابن جرير، ومسلم، عن أنس، عن مالك بن صعصعة، رجل من قومه قال: قال نبي الله ﷺ: «رُفع إليَّ البيت المعمور، فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال: البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا، آخر ما عليهم)، وقال ابن كثير في تفسيره: «ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: (ثم رُفع إليَّ البيت المعمور، وإذ هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً، لا يعودون إليه، آخر ما عليهم)، يعني يتعبدون فيه ويطوفون كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، كذلك ذاك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة».

(٢) شِمر بن عطية ـ بكسر الشين المعجمة وسكون الميم ـ الأسدي، الكاهلي، الكوفي، قال عنه الحافظ العسقلاني في تقريب التهذيب: «صدوق من السادسة». وقد كتب في الأصول: سِمر ـ بالسين الخالية من النقط..

ناراً، وروي «إن البحر هو جهنم»[١] وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليهودي: أين جهنم؟ فقال: هي البحر، فقال علي رضي الله عنه: ما أظنه إلا صادقاً، وقرأ: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾، [ومنه ما روي عن النبي ﷺ: «إن البحر هو جهنم»،][٢] قال الثعلبي: وروي أن النبي ﷺ قال: «لا يركبن البحر إلا حاج أو معتمر أو مجاهد، فإن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً»[٣] وفي حديث آخر قال: «البحر نار في نار». وقال قتادة: المسجور: المملوءُ ماءً، وهذا معروف من اللغة ورجَّحه الطبري لوجود ماءِ البحر كذلك، ولهذا يعود القول الأول، لأن قولهم: «سَجَرْت التَّنُّور» معناه: ملأتها بماءٍ يحترق ويتقد، والبحر المسجور: المملوء ماءً، وهكذا هو معرض للعبرة، ومنه قول النمر بن تَوْلَب:

إِذَا شَـــاءَ طَـــالَـــعَ مَسْجُـــورَةً ... تَـرَى حَـوْلَهَـا النَّبْـعَ والسَّمَـاسِمَـا

سَقَتْهَـــا رَوَاعِـــدُ مِـــنْ صَيِّـــفٍ ... وَإِنْ مِـنْ خَـرِيـفٍ فَلَـنْ يَعْـدَمَـا[٤]

يصف ثوراً وعينا مملوءَة ماءً. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المسجور هو الذي

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، عن صفوان بن يعلى، عن أبيه، أن النبي ﷺ قال: (البحر هو جهنم)، قالوا لِيَعْلَى، فقال: ألا ترون أن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، قال: لا والذي نفس يعلى بيده لا أدخلها أبداً حتى أعرض على الله عزَّ وجلَّ، ولا يصيبني منها قطرة حتى أَلْقَى الله عزَّ وجلَّ. (المسند ٤ ـ ٢٢٣)..

(٢) ما بين العلامتين [...] سقط من أكثر النسخ، وأثبتته النسخة التونسية، ولعله تكرار للحديث السابق تخريجه في الهامش قبل هذا..

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد..

(٤) قال هذين البيتين النَّمِرُ بن تَوْلَب العُكْلِيُّ، وقد استشهد بهما أبو عبيدة في (مجاز القرآن)، وهو في البيتين يصف ثوراً وعيناً مملوءَة بالماءِ كما قال المؤلف، ومَسْجُورَة: مملوءة، يريد أنه يشاهد عيناً مملوءة بالماءِ، والنَّبْع: نوع من الشجر خشبه متين ولهذا تتخذ منه القِسِيُّ، والسَّماسم: الآبنوس أو شجر يشبهه، وكلٌّ من النَّبع والسَّماسم ينبت في أعالي الجبال والضمير في «سقتها» يعود على العين، والرواعد: جمع راعدة، وهي السحابة الممطرة، وغالباً ما يكون معها صوت الرعد، والصَّيِّف: المطر الذي يأتي في الصيف، والخريف: الفصل المعروف الذي يأتي بعد الصيف وقبل الشتاءِ، وقول الشاعر: «وإن مِنْ خريف» يعني به أنه إذا لم تمتلىء العين من مطر الصيف فإنها تمتلىء من مطر الخريف... والمعنى أن هذا الثور يشاهد الماءَ في هذه العين المملوءة به إما من مطر الصيف وإما من مطر الخريف، فإنها دائماً يملؤها الماءُ، والشاهد أن مسجورة بمعنى مملوءة.

ذهب ماؤه، فالمسجور: الفارغ، ويُروى أن البحار يذهب ماؤُها يوم القيامة، وهذا معروف في اللُّغة، فهو من الأضداد[١]، وقيل: يوقد البحر ناراً يوم القيامة، فذلك السَّجْرُ، وقال ابن عباس أيضاً: الْمَسْجُور: المحبوسُ، ومنه ساجور الكلب، وهي القلادة من عود أو حديد التي تمسكه، وكذلك لولا أن البحر يُمْسَك لفاض على الأرض، وقال علي ابن أبي طالب، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم: البحر المُقْسم به هو في السماءِ تحت العرش، والجمهور على أنه بحر الدنيا، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[٢]، وقال منذر ابن سعيد: المعنى هو القسم بجهنم، وسمَّاها بحراً لِسَعَتها وتموجها، كما قال ﷺ في الفرس: «وإن وجدناه لبحراً»[٣].

والقَسَم واقع على قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾، ويريد عذاب الآخرة للكفار، قاله قتادة، والعامل في [يَوْمَ] هو [وَاقِعٌ]، ويجوز أن يكون العامل فيه [دَافع]، والأول أبين، قال مكيٌّ: لا يعمل فيه [دَافِع]، قوله تعالى: [تَمُورُ] معناه: تذهب وتجيءُ بالرياح متقطِّعة متفتِّتة، والغبارُ الموَّارُ: الذي يجتمع ويذهب ويجيءُ بالرياح ثم هو كلُّه إلى ذهاب، ومنه قول الأعرابي: «وَغَادَرَت التُّرَابَ مَوْرا» يصف سنة قحطٍ، وأنشد ابن المثنى:

.... مَوْرُ السَّحابَة لاَ رَيْثٌ وَلاَ عَجَلُ[٤]

---

(١) يأتي المسجور بمعنى الفارغ في اللغة، وقد روى عطية وذو الرُّمَّة الشاعر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: خرجت أَمَةٌ لتستقي، فقالت: إن الحوض مسجور، أي: فارغٌ، قال ابن أبي داود: «ليس لذي الرُّمَّة حديث إلا هذا»، وفي اللسان ـ سجر ـ «وبئر سَجِرَةٌ: ممتلئةٌ، المسجور: الفارغ من كل ما تقدم، ضِدٌّ، عن أبي عليٍّ، أبو زيد: المسجور يكون المملوءَ ويكون الذي ليس فيه شيءٌ».

(٢) الآية (٦) من سورة (التكوير).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والأدب، ومسلم في الفضائل، وأبو داود في الأدب، والترمذي وابن ماجه في الجهاد، وأحمد في أكثر من موضع من مسنده، عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، قال: ولقد فزع أهل المدينة ليلةً فانطلق قِبَل الصوت، فرجع رسول الله ﷺ وهو يقول للناس: لم تُراعوا، لم تُراعوا، وقال للفرس: وجدناه بحراً، وإنه لبحر، قال أنس: وكان الفرسُ قَبْل ذلك يبطىءُ، قال: ما سُبق بعد ذلك.

(٤) هذا عجز بيت من قصيدة الأعشى المعروفة (وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ)، والبيت بتمامه على رواية ابن المثنى:

كَــأَنَّ مِشْيَتَهَــا مِــنْ بَيْــتِ جَــارَتِهَــا ... مَــوْرُ السَّحَـابَـةِ لا رَيْــثٌ وَلا عَجَــلُ =

أَراد مُضِيَّها. وقال الضحاك: [تَمُورُ]؛ تموج، وقال مجاهد: تدور، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تشقق، وهذه كلها تفاسير بالمعنى؛ لأن السماءَ العالية يعتريها هذا كله.

وسَيْرُ الجبال هو في أول الأمر ثم تَتَفَتَّت أثناءَ السير حتى تصير أخيراً كالعهن المنفوش[1]. والفاءُ في قوله تعالى: [فَوَيْلٌ] عاطفة جملة على جملة، وهي تتضمن ربط المعنى وتأكيدَه وإثباتَ الويل للمكذِّبين، و«الوَيْلُ»: السوءُ والمشقة والهمُّ الأَطول، ويروى أن في جهنم وادياً يُسمَّى وَيْلاً. و«الخَوْضُ»: التخبُّط في الأَباطيل، يُشبَّه بحوض الماءِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾[2]، و[يَوْمَ] الثاني بدل من [يَوْمَئِذٍ]، و[يُدَعُّونَ] قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: معناه: يدفعون في أعناقهم بشدَّة وإهانة وتَعْتَعَة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾[3]، وفي الكلام محذوف مختصر، تقديره: يقال لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ﴾، وإخبارهم بهذا على جهة التوبيخ والتقريع. وقرأَ أَبو رجاءٍ العُطَاردي[4]: [يوم يُدْعَون] من الدعاءِ، بسكون الدال وفتح العين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

= أما الرواية المشهورة، وهي التي في الديوان ـ ففيها (مَرُّ السَّحابة)، وعليها فلا شاهد في البيت، وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن)، وفي اللسان أن المَوْرَ هو التَّرَهْيُؤ، ومعناه: التحرك والمجيءُ والذهابُ كما تتكفَّأ النخلة العيدانة، يصفها بأنها عند عودتها من بيت جارتها تمشي في حركة مترددة وتتمايل في خيلاء، وهي لا تبطىء في مشيتها ولا تسرع بل تمضي في يُسر وسهولة.

(١) العِهْن: الصوف المصبوغ ألواناً، والقطعة منه عِهْنَة، والجمع عهون.

(٢) من الآية (٦٨) من سورة (الأنعام).

(٣) الآية (٢) من سورة (الماعون).

(٤) هو عِمْران بن مِلْحان ـ بكسر الميم وسكون اللام بعدها مهملة ـ، ويقال: ابن تَيْم، أبو رجاءٍ العُطَاردي، مشهور بكنيته، وقيل غير ذلك في اسم أبيه، مخضرم، ثقة، معمر، مات سنة خمس ومائة، وله من العمر مائة وعشرون سنة، (تقريب التهذيب) هذا وقد قرأ نفس القراءة ابن السميفع.

لمَّا قيل لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ﴾ وُقِفُوا بعد ذلك على الجهتين اللتين يمكن منهما دخول الشك في أنها النار، وهما: إِمَّا أَن يكون ثَمَّ سحرٌ يُلَبِّس ذات المرئي، وإِمَّا أَن يكون في بصر الناظر اختلال، وأَمرهم بِصَلْيها على جهة التقريع، ثم قيل لهم على جهة قطع رجائهم: ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾، أَي: عذابكم حَتْم فسواءٌ جزعكم وصبركم، لا بد من جزاءِ أَعمالكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ الآيات... يحتمل أَن يكون من خطاب أَهل النار فيكون إِخبارهم بذلك زيادة في غمِّهم وسوءِ حالهم، ويحتمل ـ وهو الأَظهر ـ أَن يكون إِخباراً لمحمد ﷺ ومعاصريه، لما فرغ من ذكر عذاب الكفَّار عقَّب ذلك بنعيم المتَّقين ليبين الفرق ويقع التحريض على الإِيمان. و«المُتَّقُونَ» هنا هم مُتَّقُو الشِّرك لأَنهم لا بُدَّ من مصيرهم إِلى الجنَّات، وكلما زادت الدرجة في التَّقوى قوي الحصول في حكم الآية حتى أَن المتَّقين على الإِطلاق هم في هذه الآية قطعاً على الله تعالى بحكم خبره الصَّادق. وقرأَ جمهور الناس: (فَاكِهِينَ)، ومعناه: فرحين مسرورين، وقال أَبو عبيدة: هو من باب «لابِنٍ وتامِرٍ»، أَي لهم فاكهة، والمعنى الأَول أَبرع[(١)]، وقرأَ خالد فيما حكى أَبو حاتم: (فَكِهِينَ)، والفَكِهُ والفَاكِهُ: المسرور المتنعِّم. وقوله تعالى: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أَي: من إِنعامه ورضاه عنهم، وقوله تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، هذا متمكن في مُتَّقي المعاصي الذي لا يدخل النار، ويكون في مُتَّقي الشِّرك الذي ينفذ عليه الوعيد بمعنى: ووقاهم ربهم عذاب الخلود في الجحيم، ويحتمل أَن يكون [الْجَحِيم] من طبقات جهنَّم ليست بمأْوى العصاة من المؤمنين، بل هي مخصصة للكفرة، فهم وإِن عُذِّبوا في نار فليسوا في عذاب الجحيم. وقرأَ الجمهور: (ووَقَاهُمْ) بتخفيف القاف، وقرأَ أَبو حيوة بتشديدها على المبالغة، وذلك كله مُشْتَقٌّ من الوقاية وهي الحائل بين الشيءِ وبين ما يضره. والمعنى: يقال لهم: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا﴾، و[هَنِيئاً] نصب على المصدر، وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ معناه أَن رُتَب الجنة ونعيمها هي بحسب الأَعمال، وأَمَّا نَفْس دخولها فهو برحمة الله تعالى وتغمُّده، والأَكل والشرب والتَّهنِّي ليس من الدخول في شيءٍ، وأَعمال العباد الصَّالحة لا توجب على الله تعالى التنعيم إِيجاباً، لكنه سبحانه قد جعلها أَمَارَةً على من

---

(١) في بعض النسخ: «والمعنى الأول أبدع».

سبق في علمه تنعيمه، وعلَّق الثواب والعقاب بالتكسُّب الذي في الأعمال.

وقوله تعالى: [مُتَّكِئِينَ] نصب على الحال، على حدِّ قوله تعالى: [فَاكِهِينَ]، والعامل في هاتين الحالتين الفعل مقدر في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾، ويجوز غير هذا، وفي هذا نظر، وقرأ أبو السَّمال: (على سُرَرٍ) بفتح الرَّاءِ الأُولى و[زَوَّجْنَاهُمْ] معناه: جعلنا لكل فرد منهم زوجاً، و«الحُور» جمع حوراءَ، وهي البيضاءُ القوية بياضَ بَيَاضِ العَيْن وسوادَ سوادِها، و«الْعِينُ» جمع عيناءَ، وهي الكسيرة العينين مع جمالهما، وفي قراءَة ابن مسعود، وإبراهيم النَّخَعي: [وزوجناهم بعيسٍ عين]، قال أبو الفتح: العَيْسَاءُ: البيضاءُ، وقرأَ عكرمة: [وَزَوَّجْنَاهُمْ حُوراً عِيناً]، وحكى أَبو عمرو عن عكرمة أَنه قرأَ: [بعيس عينٍ] على إِضافة [عِيسٍ] إِلى [عِينٍ](١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

قرأَ ابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وطلحة، والحسن، وقتادة، وأَهل مكة: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وقرأَ نافع، وأَبو جعفر، وابن مسعود ـ بخلاف عنه ـ وأَبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ وشيبة، والجحدري، وعيسى: [واتَّبَعَتْهم ذَرِّيَتهُم بإيمان أَلحقنا بهم ذُرِّيَّاتِهِمْ]، وروى خارجة عنه مثل قراءَة حمزة، وقرأَ ابن عامر، وابن عباس، وعكرمة، وابن جُبَيْر، والضحاك: [واتبعتهم ذُرِّيَّاتُهُمْ بإِيمان أَلحقنا بهم ذرياتِهِمْ] وقرأَ أَبو عمر، والأَعرج، وأَبو رجاء، والشعبي، وابن جبير، والضحاك: [وأَتْبَعْنَاهم ذَرِّياتهم بإِيمان أَلحقنا بهم ذَرِيَاتهم]، فلكون «الذُّرِّيَّة»

---

(١) قال أَبو الفتح بن جني: العيساءُ: البيضاءُ، والأَعْيَس: الأَبيض، ومثله: جملٌ أَعيَسٌ وناقة عيساءُ، قال في وصف امرأَةٍ:

كَأَنَّهَا البَكْرَةُ العَيْسَاءُ

وفي اللسان أَن العيساءَ هي البيضاءُ التي يخالط بياضها شيءٌ من شُقْرة.

جمعاً في نفسه حسُن الإفراد في هذه القراءَات، ولكون المعنى يقتضي انتشاراً وكثرةً حسُن جمع الذُّرِّيَّة في قراءَة من قرأَ: [ذُرِّيَّاتِهِمْ].

واختلف الناسُ في معنى الآية ـ فقال ابن عباس، وابن جُبَيْر، والجمهور: أخبر الله تعالى أَن المؤمنين الذين تتَّبعهم ذرِّيَّتهُمْ في الإيمان فيكونون مؤمنين كآبائهم ـ وإن لم يكونوا في التقوى والأَعمال كالآباءِ ـ فإنه يُلْحِق الأَبناءَ بمراتب أُولئك الآباءِ كرامةً للآباءِ، وقد ورد في هذا المعنى حديث عن النبي ﷺ[١]، فجعلوا الحديث تفسير الآية، وكذلك وردت أَحاديث تقتضي أَن الله تعالى يرحم الآباءَ رعياً للأَبناءِ الصالحين[٢]، وذهب بعض الناس إلى إخراج هذا المعنى من هذه الآية، وذلك لا يترتب إلاَّ بأَن نجعل اسْمَ «الذُّرِّيَّة» بمثابة نوعهم على نحو ما في قوله تعالى: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾[٣]، وفي هذا نظر، وقال ابن عباس أَيضاً، والضحاك: معنى هذه الآية أَن الله تعالى يلحق الأَبناءَ الصغار بأَحكام الآباءِ المؤمنين في الموارثة والدفن في قبور الإِسلام، وفي أَحكام الآخرة في الجنة، وحكى أَبو حاتم عن الحسن أنه قال: الآية في الكبَار من الذُّرِّيَّة وليس فيها من الصغار شيءٌ، وقال منذر بن سعيد: هي في الصغار لا في الكبار، وحكى الطبري قولاً معناه أَن الضمير في قوله تعالى: [بِهِمْ] عائد على الذُّرِّيَّة، والضمير الذي بعده في [ذُرِّيَّاتِهِمْ] عائد على [الَّذِينَ]، أَي: اتَّبعهم الكبار وأَلْحقنا نحن بالكبار الصغار، وهذا قولٌ مستكره.

وقوله تعالى: [بِإِيمَانٍ] هو في موضع الحال، فمن رأَى أَن الآية في الأَبناءِ الصغار

---

(١) وهو حديث أخرجه سعيد بن منصور، وهناد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لِتقَرَّ بهم عينه»، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الآية، وأخرج البزار، وابن مردويه رفعه إلى النبي ﷺ، كذلك رواه مرفوعاً النحاس في «الناسخ والمنسوخ» له عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم، قال أبو جعفر: «فصار الحديث مرفوعاً عن النبي ﷺ، وكذا يجب أن يكون؛ لأن ابن عباس لا يقول هذا إلا عن رسول الله ﷺ؛ لأنه إخبارٌ عن الله عزَّ وجلَّ بما يفعله، وبمعنى أنه أنزلها جلَّ ثناؤه».

(٢) منها ما أخرجه الطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وذريته وولده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول: يا رب قد عملتُ لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به»، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ الآية.

(٣) من الآية (٤١) من سورة (يس).

فالحال من الضمير في قوله تعالى: [اتَّبَعَتْهُمْ]، فهو من المفعولين، ومَنْ رأى أن الآية في الأَبناءِ الكبار فيحتمل أَن يكون الحال من المفعولين، ويحتمل أَن يكون من المتَّبعين الفاعلين، وأَرجح الأَقوال في هذه الآية القول الأَول؛ لأَن الآيات كلها في صفة إِحسان الله تعالى إِلى أَهل الجنة، فذكر من جملة إِحسانه أَنه يرعى المُحْسِن في المسيءِ، ولفظة [أَلْحَقْنَا] تقتضي أَن للمُلْحَق بعض التقصير في الأَعمال.

وقرأَ الجمهور من القراءِ: (أَلَتْنَاهُمْ) بفتح اللام من «أَلَتَ»، وقرأَ ابن كثير، وأَبو يحيى، وشبل: (أَلِتْنَاهُمْ) من «أَلِتَ» بكسر اللام، وقرأَ الأَعرج: [وَمَا آلَتْنَاهُمْ] على وزن أَفْعَلْنَاهُمْ، وقرأَ ابن كعب، وابن مسعود: [لِتْنَاهُمْ] من «لات»، وهي قراءَة ابن مصرف، ورواها القواسُ عن ابن كثير، وتحتمل قراءَة من قرأَ: [أَلَتْنَاهُمْ] بفتح اللام أَن تكون من «أَلات» فإِنه يقال: أَلاتَ يُليتُ إِلاتَةً، ولاَتَ يَليتُ ليتاً، وآلَتَ يُؤلِتُ إِيلاَتاً، وأَلَتَ يأْلَتُ، وأَلِتَ يَأْلِتُ إِلْتاً، وَوَلَتَ يَلِتُ وَلْتاً، كلها بمعنى بعض[(١)].

ومعنى هذه الآية أَن الله تعالى يلحق المقصِّر بالمحسن ولا يُنقص المحسن من أَجره شيئاً، وهذا تأْويل ابن عباس، وابن جُبَير والجمهور، ويحتمل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أَن يريد: من عملهم الحسن والقبيح، ويكون الضمير في [عَمَلهِمْ] عائداً على الأَبناءِ، وهذا تأْويل ابن زيد، ويُحَسِّن هذا الاحتمال قوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، والرَّهين: المُرْتَهَنُ، وفي هذه الأَلفاظ وعيد، وحكى أَبو حاتم عن الأَعمش أَنه قرأَ: [وَمَا لَتْنَاهُمْ] بغير أَلف وبفتح الّلام، قال أَبو حاتم: لاتجوز هذه القراءَة على وجه من الوجوه.

و«أَمْدَدْتُ الشَّيْءَ» إِذا سيرتَ إِليه شيئاً آخر يكثِّره أَو يكثر لديه، وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ إِشارة إِلى ما روي من أَن المُنَعَّم إِذا اشتهى لحماً نزل ذلك الحيوان بين يديه على الهيئة التي اشتهاه فيها، وليس يكون في الجنة لحم يَخْتَرُ[(٢)]، ولا يتكلف فيه الذبح والسلخ والطبخ، وبالجملة لا كلفة في الجنة.

---

(١) نقل هذا كله أبو الفتح ابن جني عن قطرب، وذكرمعاني أخرى للفظة «أَلَتَ»، واستشهد على كلامه بالشعر العربي، راجع المحتسب (٢ـ٢٩٠). والمراد من كلامه أن جميع هذه الصِّيغ بمعنى واحد.

(٢) أي: يَفسُد ويُنْتن، يقال: خَتِرَ اللحم والتمر والجوز خُتوراً، ويَخْتَرُ ختراً بمعنى: فسد وأنتن، وفي الحديث الشريف: «لولا بنو إسرائيل ما أنتن اللحم ولا خَتِرَ الطعام». اللسان.

و[يَتَنَازَعُونَ] معناه: يتعاطون، ومنه قول الأخطل:

نَازَعْتُهُ طَيِّبَ الرَّاحِ الشَّمولِ وَقَدْ صَاحَ الدَّجاجُ وَحانَتْ وَقْعَةُ السَّاري(١)

و«الكَأْسُ»: الإناءُ وفيه الشراب، ولا يقال في فارغ «كأسٌ»، قاله الزجاج، وقرأ الجمهور من السبعة وغيرهم: (لاَ لَغْوٌ) بالرفع (وَلاَ تَأْثِيمٌ) كذلك، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والحسن: [لاَ لَغْوَ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمَ] بالنصب على التبرية، وعلى الوجهين، فقوله تعالى: [فِيهَا] هو موضع الْخَبَر، وأَغْنَى خبر الأول عن ذكر خبر الثاني، و«اللَّغْوُ»: السقط من القول، و«التَّأْثيم» يلحق خمر الدنيا في نفس شُرْبها وفي الأفعال التي تكون من شُرَّابها، وذلك كله مرتفع في الآخرة.

و«اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ» أَجمل اللُّؤْلُؤ لأَن الصَّوْن والكِنَّ يُحَسِّنه، وقال ابن جبير: أَراد أنه الذي في الصَّدف لم تَنَلْهُ الأَيدي، وقيل للنبي ﷺ: إذا كان الغلمان كاللؤلؤ المكنون فكيف المخدومون؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «هم كالقمر ليلة البدر»(٢)، ثم وصف تعالى عنهم أَنهم في جملة تَنَعُّمهم يتساءَلون، أَي عن أَحوالهم وما نال كل واحد منهم، وأَنهم يتذكرون حال الدنيا وخشيتهم فيها عذاب الآخرة، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تساؤُلهم إذا بُعثوا في النفخة الثانية، و«الإِشفاقُ» أَشد الخشية ورقَّة القلب، وقد قرأَ أَبو حيوة: (وَوَقَّانَا) بتشديد القاف، وقرأَ الجمهور بتخفيفها،

(١) الضمير في (نازعته) يعود على شارب كان يشرب معه، وهو في بيت قبل هذا البيت يقول فيه:

وَشَارِبٍ مُرْبِحٍ بالكَأسِ نادَمَني لا بِالْحَصورِ وَلا فيها بِسَوَّارِ

ومعنى مُرْبح أنه يذبح للضيوف الرُّبَعَ وهو الفُصْلان الصغار، واحدها رابح، والحصور: الضَّيِّق البخيل، والسَّوَّار: المعربد الوثاب، وتنازعنا الشراب: تناولناه بعضنا من بعض، فهو يعطيني وأنا أُعطيه، والرَّاح: الخمر، والشمول: الخمر أيضاً، سميت بذلك لأنها تشمل بريحها الناس، وقيل: الشمول هي الخمر الباردة، والدجاج يراد به هنا الديوك، يعني أن وقت السحر قد حان، وإذا قيل: هذا دجاج فهم يريدون الديوك، وإذا قيل: هذه دجاج فهم يريدون الأنثى، والسَّاري: السائر بالليل، وَوَقْعَة السَّاري من قولهم: وقعت الإبل إذا بَركت، ويروى: (وَقْفَة) بالفاء.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة، قال: بلغني أنه قيل لرسول الله ﷺ: هذا الخدم مثل اللؤلؤ، فكيف بالمخدوم؟ قال: «والذي نفسي بيده إن فضل ما بينهما كفضل القمر ليلة البدر على النجوم»، هكذا ذكره السيوطي في الدر المنثور، وفي لفظ لابن جرير «إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

وأَمال عيسى الثقفي (وَقَانَا) بتخفيف القاف، و«السَّمُوم»: الحارُّ، قال الرُّمَّاني: هو الذي يبلغ مسامَّ الإنسان، وهو النار في هذه الآية، وقد يقال في حرِّ الشمس وفي الريح: سَمُوم، وقال الحسن: السَّمُوم اسم من أَسماءِ جهنم. و[نَدْعُوهُ] يحتمل أَن يريد: نعبده، ويحسن هذا على قراءَة من قرأَ: (أَنَّهُ) بفتح الأَلف، وهي قراءَة نافع ـ بخلاف ـ والكسائي، وأَبي جعفر، والحسن، وأَبي نوفل، أَي: من أَجل أَنه، وقرأَ باقي السبعة، والأَعرج، وجماعة: [إِنَّهُ] على القطع والاستئناف، ويحسن مع هذه القراءَة أن يكون [نَدْعُوهُ] بمعنى نعبده، أَو بمعنى الدعاءِ نفسه، ومن رأَى [نَدْعُوهُ] بمعنى الدعاءِ نفسه فيحتمل أَن يجعل قوله تعالى: [أَنَّهُ] بالفتح هو نفس الدعاءِ الذي كان في الدنيا، و[الْبَرُّ] هو الذي يَبرُّ ويُحْسن[١]، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

جَاءَتْ مِنَ الْبِيضِ زُعْراً لاَ لبَاسَ لَهَا ... إلاَّ الـدِّهَـاسُ وأُمٌّ بَـرَّةٌ وأَبُ[٢]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾
قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ
بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ
ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

هذا أَمر لرسول الله ﷺ بالدعاءِ إِلى الله تعالى ومتابعة نشر الرسالة، ثم قال تعالى مؤنساً له عليه الصلاة والسلام: فما أنت بإنعام الله تعالى عليك ولطفه بك كاهن ولا مجنون[٣]، وكانت العرب قد عهدت ملابسة الجنِّ الإِنْسَ بهذين الوجهين، فنسبت

---

(١) في اللسان: «البَرُّ من صفات الله تعالى، وهو العطوف على عباده بِبِرِّه ولُطْفه» وفيه: بَرَّ يَبَرُّ ويَبِر بالفتح والكسر.

(٢) البيت في اللسان، وقد ساقه شاهداً على أن «الدُّهْسَة» لونٌ يعلوه أدنى سوادٍ، ويكون في الرمال والمعز، والزَّعَر: قِلَّةٌ ورقَّةٌ وتفرُّقٌ في الشَّعر، و«زُعْر» هنا: جمع أزْعَر وَزَعِر، وفي حديث ابن مسعود أن امرأة قالت له: إنّي امرأة زعراءُ، أي قليلة الشعر، والبَرَّةُ: الرحيمة الكثيرة الحنان، يصف الشاعر جماعة من المعز بأنها أقبلت بلونها الأبيض وشعرها القليل المتفرق، وقد غطَّى لونَها شيءٌ من السواد الخفيف، ولكنها كانت تتمتع برعاية الأب والأم وما يحوطانها من الاهتمام والبر.

(٣) قيل: إن قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ معناه القَسَم، أي: وبنعمة الله ما أنت بكاهن ولا مجنون، وقيل: ليس قسماً، وإنما هو كما تقول: ما أنت بحمد الله بجاهل، أي: قد برَّأك الله تعالى من ذلك.

محمداً ﷺ إلى ذلك، فنفى الله تعالى عنه ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ الآية. رُوي أن قريشاً اجتمعت في دار النَّدوة فكثرت آراؤُهم في محمد ﷺ، حتى قال قائل منهم: تربَّصوا به ريب المنون فإنه شاعر سيهلك كما هلك زهير والنَّابغة والأَعشى وغيرهم، فافترقوا على هذه المقالة، فنزلت الآية في ذلك.

و«التَّرَبُّص»: الانتظار، ومنه قول الشاعر:

تَـرَبَّـصْ بهَـا رَيْـبَ الْمَنُـونِ لَعَلَّهَـا   تُطَلَّـقُ يَـوْمـاً أَوْ يَمُـوتُ حَلِيلُهَـا[1]

وأَنشد الطَّبريّ:

. . . . لَعَلَّهَـــــا   سَيَهْلِك عَنْهَا زَوْجُهَا أَوْ سَيَجْنَحُ[2]

وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا﴾ وعيدٌ في صيغة أَمر، و«الْمَنُونُ» من أَسماءِ الموت، وبه فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما، ومن أَسماءِ الدَّهر، وبه فسَّر مجاهد، وقال الأَصمعي: الْمَنُون واحد لا جمع له، وقال الأَخفش: هو جمع لا واحد له.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

و«الرَّيْب» هنا: الحوداث والمصائب لأَنها تريب من نزلت به، ومنه قول النبي ﷺ في أَمر ابنته فاطمة رضي الله تعالى عنها حين ذُكر أَن عليًّا رضي الله عنه يتزوج بنت أَبي جهل: «إِنما فاطمة بَضعة مني يُريبُني ما أَرابَها»[3]، يقال: أَرابَ وَرَابَ، ومنه قول الشاعر:

---

(١) البيت في اللسان، والطبري، والقرطبي، والبحر المحيط، وفتح القدير، وقد ذكروه جميعاً شاهداً على أن التَّربُّص هو الانتظار، وزاد بعضهم أن الفعل (تَرَبَّص) يتعدى بإسقاط حرف الجر، وأن الأصل: تربَّص إلى ريب المنون، وأنَّ (ريب المنون) هو الموت أو حوادث الدهر، والحليل هو الزوج، ومعنى البيت: انتظر الأيام وحوادثها فلعلَّ ذلك يحقق أملك بأن يموت زوجها أو يطلقها.

(٢) هذه هي الرواية التي انفرد بها الطبري لهذا البيت، ومع ذلك وقع تحريف في الكلمة الأخيرة، فوردت في أُصول الطبري ـ كما ذكر مُحَقِّقُهُ ـ «أو شحيح»، وبهذا اختل المعنى والوزن، وحاول الإصلاح فاختار بدلا منها كلمة «تُسَرَّح»، والتَّسريح هو الطلاق ويناسب المعنى، وفي الأصول المخطوطة هنا وردت الكلمة «أو سَيَجْنَح» أي يميل ويبعد عنها، وهو يعني الفراق والطلاق، ومن الغريب أن القرطبي نسب البيت إلى ابن عباس رضي الله عنهما، لكن المحقق أكرمه الله غيّر ذلك إلى: «قال الشاعر».

(٣) حديث فاطمة رضي الله عنها المشار إليه هنا أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، والترمذي في المناقب، وابن ماجه في النكاح، وهو عن المِسْوَرِ بن مخرمة، من طرق مختلفة، وفيه ـ واللفظ لمسلم ـ أن=

. . . . فَقَدْ رَابَنِي منهَا الْغَدَاةَ سُفُورُهَا[١]

وقول الآخر:

وَقَـدْ رابَنِـي قَـوْلُهَـا يَـا هَنَـا ... هُ. . . . . [٢]

وأمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بتوعُّدهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾.

وقوله تعالى: [بِهَذَا] يحتمل أن يشير إلى هذه المقالة «هو شاعر»، ويحتمل أن يشير

= المِسْور سمع رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول: «إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن يُنكحوا ابنتهم عليَّ بن أبي طالب، فلا آذَنُ لهم، ثم لا آذَنُ لهم، ثم لا آذَنُ لهم، إلاَّ أن يُحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما ابنتي بَضْعَةٌ مني، يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها»، وفي رواية: «وإنّي لستُ أُحَرِّم حلالاً ولا أُحِلُّ حراماً، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدُوِّ الله مكاناً واحداً أبداً»، وفي رواية ثالثة: «وإنَّها والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً»، قال الراوي: فترك عليٌّ الخِطْبة.

(١) هذا عجز بيت قاله توبة بن الحُمَيِّر في ليلى بنت عبد الله بن الرَّحالة التي أحبها وقال فيها الشعر ولما خطبها إلى أبيها رفض أن يزوجه إيَّاها، والبيت بتمامه:

وَكُنْـتُ إذا مـا جِئْـتُ لَيْلَـى تَبَـرْقَعَـتْ ... فَقَـدْ رَابَنِـي مِنْهَـا الْغَـدَاةَ سُفُـورهـا

وكان من خبر توبة أنه كان يزور ليلى بعد أن تزوجت في بني الأدْلع، وجاءَ يوماً لزيارتها فإذا هي سافرة لتحذِّره، ولم ير منها البشاشة التي تعوَّدها، فعلم أن ذلك لأمر ما، فرجع إلى راحلته فركبها ومضى، وتابعه بنو الأدلع ولكنه فاتهم، وقال في ذلك قصيدة منها هذا البيت، والشاهد أن «راب» في البيت بمعنى: فعل ما يُريب، فهي مثل أراب، قال ابن الأثير: هما بمعنى شَكَّكَني.

(٢) هذا صدر بيت قاله امرؤ القيس من قصيدة له يصف فيها فرسه وخروجه إلى الصيد، والبيت بتمامه:

وَقَـدْ رَابَنِـي قَـوْلُهَـا يـا هَنَـا ... هُ وَيْحَـكَ أَلْحَقْـتَ شَـرّاً بِشَـرّ

والبيت في اللسان، وقد ذكره شاهداً على أن «هَنَاه» اسم من أسماء النداءِ، ومعناه: «يا فُلان»، قال: «وقولهم: يا هَنُ أقْبل، يا رجلُ أقْبل، ويا هنانُ أقبلا، ويا هنونَ أقْبلوا، ولك أن تُدخل فيه الهاءَ لبيان الحركة فتقول: يا هَنَهْ، كما تقول: لِمَهْ وسُلْطَانِيَهْ، ولك أن تُشبع الحركة فتتولد ألف فتقول: يا هناهُ أقبل، وهذه اللفظة تختص بالنداء خاصةً، والهاءُ في آخره تصير تاءً في الوصل، ولك أن تقول: «يا هناهُ أقبل» بهاءٍ مضمومة. . . وأنشد أبو زيد لامرىء القيس: (وَقَدْ رابَني. . . البيت. يعني: كنّا مُتَّهَمَيْن فحقَّقْتَ الأمر»، والشاهد هنا كالشاهد في البيت السابق، ولكن قيل: إن «أرابني في كذا» معناها: شَكَّكَني وأوهمني الريبة فيه، فإذا استيقنت قلتَ: «رابني» بغير ألف، راجع اللسان.

إلى ما هم عليه من الكفر وعبادة الأصنام، و«الأحلام»: العقول، و[أَمْ] المتكررة في هذه الآية قدَّرها بعض النُّحاة بألف الاستفهام، وقدَّرها مجاهد بـ«بَلْ»، والنظر المحرَّر في ذلك أَن منها ما يتقدَّر بـ«بل والهمزة» على حدِّ قول سيبويه في قولهم: «إِنَّهَا لإِبِلٌ أَمْ شَاءٌ»، ومنها ما هي معادلة، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾، وقرأ مجاهد: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾، وهو معنى قراءَة الناس إلاَّ أَن العبارة بـ[أَمْ] خرجت مخرج التوقيف والتوبيخ، وحكى الثعلبي عن الخليل أَنه قال: «ما في سورة الطُّور من استفهام كلُّه استفهام وليس بعطف»، و[تَقَوَّلَهُ] معناه: «قال عن الغير: إِنه قاله»، فهي عبارة عن كذب مخصوص.

ثم عجَّزهم تعالى بقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾، والمماثلة المطلوبة منهم هي في النظم والرصف والإِيجاز، واختلف الناس، هل كانت العرب قادرة على الإِتيان بمثل القرآن قبل مجيءِ محمد ﷺ؟ فقال شُذَّاذٌ يُسَمَّوْن أَهل الصرفة: كانت قادرة وصُرفت، وقال الجمهور: لم تكن قطُّ قادرة، ولا في قدرة البشر أَن يأْتي بمثله؛ لأَن البشر لا يفارقه النسيان والسهو والجهل، والله تعالى محيط علمُه بكل شيءٍ، فإِذا ترتبت اللَّفظة في القرآن عَلِم بالإِحاطة التي تصلح أَن تَلِيهَا ويَحْسُن معها المعنى، وذلك متعذر في البشر. والهاءُ في [مِثْلِهِ] عائد على القرآن، وقرأَ الجحدري: [بحديثِ مِثْلِهِ] بإِضافة «الحديث» إلى [مِثْلِهِ]، فإِنها[(١)] ـ على هذا ـ عائدة على محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾، قال الطبري: معناه: أَمْ خُلِقُوا خَلْق الجماد من غير حَيٍّ[(٢)] فهم لا يُؤْمرون ولا يُنْهون كما هي الجمادات عليه؟ وقال آخرون: معناه: أم خُلقوا من غير علَّة ولا لغايةِ عقاب ولا ثواب فهم لذلك لا يسمعون ولا يتشرَّعون؟ وهذا كما تقول: فعلتُ كذا وكذا من غير علَّة، أَي لغير علَّة، ثم وقفهم تعالى على جهة التوبيخ على أَنفسهم، أَهم الذين خَلَقوا الأَشياءَ فهم لذلك يتكبَّرون؟ ثم خصَّص تعالى من الأَشياءِ السموات والأَرض لعظمها وشرفها في المخلوقات، ثم حكم تعالى عليهم بأَنهم لا يوقنون ولا ينظرون نظراً يؤدِّيهم إِلى اليقين.

---

(١) أي الهاءُ في [مِثْلِهِ].

(٢) عبارة الطبري أوضح، وهي: «أَخُلِق هؤلاءِ المشركون من غير شيءٍ، أي من غير آباءٍ ولا أُمَّهاتٍ؟».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ بمنزلة قوله تعالى: «أم عندهم الاستغناءُ عن الله تعالى في جميع الأُمور»؟ لأَن المال والصحة والقوة وغير ذلك من الأَشياءِ كلها مِنْ خزائن الله تبارك وتعالى. قال الزهراوي: وقيل: يريد بالخزائن العلم، وهذا قول حسنٌ إِذا تُؤُمِّل وبُسط، قال الرُّمَّاني: خزائنه تعالى: مقدوراته. و«المُصَيْطِرُ»: المُسَلَّط القاهر، وبذلك فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما، وأَصله بالسِّين، ولكن كتبه بعض الناسِ وقرأَه بالصَّاد مراعاة للطَّاءِ ليتناسب النُّطق، وحكى أَبو عبيدة: «تسيطرتَ عليَّ» إِذا اتخذتني خوَلاً.

و«السُّلَّم»: السبب الذي يصعد به، كان ما كان، من خشب أَو بناءٍ أَو حبال أَو غيره، ومنه قول ابن مقبل:

لاَ تُحْـرِزُ الْمَـرْءَ أَحْجَـاءُ الْبِـلاَدِ وَلاَ ... تُبْنَى لَهُ في السَّمَوَاتِ السَّلاَلِيمُ[(١)]

وحكى الرُّمَّاني قال: لا يقال «سُلَّم» إِلاَّ لِمَا بُني من الأَدراج وإِنما السُّلَّم المُشَبَّك، وبيت الشِّعر يردُّ عليه، والمعنى: أَلَهُم سُلَّم إِلى السماءِ يستمعون فيه؟ أَي عليه ومنه، وهذه حروف يسدُّ بعضها مسدَّ بعض[(٢)]، والمعنى: يستمعون الخَبر[(٣)] بصحة

(١) البيت لتميم بن أُبَيِّ بن مُقْبل العَجْلاني، وهو في اللسان، وتُحْرِزُ: تصون وتحفظ، والأَحْجَاءُ: النواحي، مثل الأَرْجاءِ، والواحد فيها حَجاً ورجاً مقصور، ويُروى: أَعْناءُ البلاد، والأَعْناءُ أَيضاً النواحي والجواني، والواحد عِنْو، والسلاليم جمع سُلَّم، وهو الدرجة والمِرْقاة، يذكَّر ويؤنث، وقد سمِّي السُّلَّم سُلَّماً لأنه يُسْلم الإنسان إلى حيث يريد. وقد احتاج الشاعر إلى زيادة الياء في «السلاليم» حتى يسلم الوزن.

(٢) ومثل هذا كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾، أي: على جذوع النخل، وهذا تقدير الأخفش، وأما أبو عبيدة فقدَّره: «يستمعون به».

(٣) يعني أن (يَسْتَمِعُونَ) لها مفعول محذوف تقديره: الْخَبَرَ، وقد جاءت هذه الجملة في بعض الأصول: «يستمعون الجن».

ما يَدَّعون، فلْيَأْتوا بالحجة المبيِّنة في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ﴾ الآية... معناه: أَم هم أهل الفضيلة علينا فيلزم لذلك انتحاؤُهم وتكبُّرهم؟ ثم قال تعالى: أَم تسأَلهم يا محمد على الإيمان بالله تعالى وشرعه أُجرة يُثقلهم غُرْمُها فهم لذلك يكرهون الدخول فيما يوجب غرامتهم؟ ثم قال تعالى: أَم عندهم علم الغيب فهم يُبيِّنُون ذلك للناس سُنناً وشرعاً يكتبونه، وذلك عبادة الأَوْثان وتسييب السوائب وغير ذلك من شرهم؟ وقيل: المعنى: فهم يعلمون متى يموت محمد الذي يتربَّصون به؟ و[يَكْتُبُونَ] بمعنى يحكمون، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني تعالى: أَم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون؟ ثم قال تعالى: أَمْ يُريدون كيداً بك وبالشَّرع؟ ثم جزم الخبر بأَنهم هم المكيدون، أَي هم المغلوبون، فسمَّى تعالى غلبتهم كيداً إِذْ كانت عقوبة الكيد.

ثم قال تعالى: أَم لهم إِلٰه غير الله يعصمهم ويمنعهم ويدفع في صدر إِهلاكهم، ثم نزَّه تبارك وتعالى نفسه عما يُشركون به من الأَصنام والأَوثان، وهذه الأَشياءُ التي وقفهم تعالى عليها حصرت جميع المعاني التي توجب الانتحاءَ والتكبُّر والبُعد من الائتمار، فوقَفهم تعالى عليها، أَي ليست لهم، ولا يبقى شيءٌ يوجب ذلك إِلاَّ أَنهم قوم طاغون، وهذه صفة فيها تكسُّبهم وإِيثارهم، فتعلق بذلك عقابهم. ثم وصفهم تعالى بأَنهم على الغاية من العُتُوِّ والتمسُّك بالأَقوال الباطلة في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا﴾ الآية، وذلك أَن قريشاً كان في جملة ما اقترحت «أَن تُسقِطَ السماءَ علينا كِسَفاً»، وهي القطَعُ، واحدها كِسْفَة، وتُجمع أَيضاً على «كِسْف» كتَمْرَة وتَمْر، وقال الرُّمَّاني: هي التي تكون بقدر ما يكسف ضوءَ الشمس، فأَخبر الله تعالى عنهم في هذه الآية أَنهم لو رأَوْا كسْفاً ساقطاً حسب اقتراحهم لبلغ بهم العُتُوُّ والجهل والبعد عن الحق أَن يُغالطوا أَنفسهم وغيرهم ويقولوا: «سَحَابٌ مَرْكُومٌ»، أَي كثير قد تراكم بعضه فوق بعض، ولهذه الآية نظائر في آيات أُخر[1].

---

(١) من ذلك قوله تعالى في الآية (٩٢) من سورة (الإسراء): ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾، وقوله تعالى في الآية (١٨٧) من سورة (الشعراء): ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: [فَذَرْهُمْ] وما جرى مجراه من الموادعة منسوخ بآية السيف، وقرأ أبو جعفر، وأبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ: (يَلْقَوْا)، والجمهور على (يُلاَقُوا). واختلف الناس في اليوم الذي تُوُعِّدُوا به ـ فقال بعض المتأولين: هو موتهم واحداً واحداً، وهذا على تجوُّز، و«الصَّعْقُ»: التعذيب في الجملة وإن كان الاستعمال قد كثر فيه فيما يصيب الإنسان من الصيحة المفرطة ونحوه، ويحتمل أن يكون اليوم الذي تُوعِّدُوا به يوم بَدْر لأنهم عُذِّبوا فيه، وقال الجمهور: التوعُّد بيوم القيامة لأن فيه صعقة تعمُّ جميع الخلائق، ولكن لا محالة أن بين صعقة المؤمن وصعقة الكافر فرقاً، وقرأ جمهور القراءِ: [يَصْعَقُونَ] من: صَعِقَ الرَّجلُ بكسر العين، وقرأ أبو عبد الرحمن: [يَصْعِقُونَ] بفتح الياءِ وكسر العين، وقرأ عاصم، وابن عامر، وأهل مكة ـ في قول شبل ـ: (يُصْعَقُونَ) بضم الياءِ وفتح العين، وذلك من: أصعق الرجل غيره، وحكى الأخفش: (صُعِقَ الرجلُ) بضم الصاد وكسر العين، قال أبو علي: فجائز أن يكون منه، فهو مثل «يُصْرَفُونَ»، قال أبو حاتم: وفتح أهل مكة الياءَ في قول إسماعيل.

و[يُغْني] معناه: يكون منه غَناءٌ ودفاعٌ، ثم أخبر تعالى بأنهم لهم دون هذا اليوم ـ أي قبله ـ عذاب، واختلف الناس في تعيينه ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: هو بدر والفتح ونحوه، وقال مجاهد: هو الجوع الذي أصاب قريشاً، وقال البراءُ بن عازب، وابن عباس أيضاً: هو عذاب القبر، ونزع ابن عباس رضي الله عنهما في وجود عذاب القبر بهذه الآية، وقال ابن زيد: هو مصائب الدنيا في الأجسام وفي الأحبة وفي الأموال، هي للمؤمنين رحمة وللكافرين عذاب، وفي قراءَة ابن مسعود رضي الله عنه: [دُونَ ذَلكَ قَرِيباً ولكن لا يَعْلَمُونَ].

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالصبر لحكم الله تبارك وتعالى والمضيِّ على نذارته وَوَعْده بقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾، ومعناه: بإدراكنا وأَعْيُن حفظنا لك وحيطتنا، كما تقول: فلان يرعاه الملك بعين، وهذه الآية ينبغي أن يُقَدِّرها كلُّ مؤمن في نفسه

فإنها تفسح مضايق الدنيا، وقرأ أبو السَّمال: (بِأَعْيُنَّا) بنون واحدة مشدَّدة.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ـ فقال أبو الأحوص عوف ابن مالك[١]: هو التَّسبيح المعروف، أي يقول في كل قيام: سبحان الله وبحمده، وقال عطاءٌ: المعنى: حين تقوم من كل مجلس، وقال ابن زيد: التسبيح هنا هو صلاة النوافل، وقال الضحاك، وابن زيد: هذه إشارة إلى الصلوات المفروضة، فقوله تعالى: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾: الظُّهر والعصر، أي: حين تقوم من نوم القائلة، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾: المغرب والعشاءُ، وقوله تعالى: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾: الصُّبح، ومَنْ قال هي النوافل جعل ﴿إِدْبَارَ النُّجُوم﴾: الصُّبح، ومَنْ قال هي النوافل جعل (إِدْبَارَ النُّجوم) ركعتي الفجر، وعلى هذا القول جماعة كثيرة منهم: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأبو هريرة، والحسن، رضيَ الله عنهم، وقد روي مرفوعاً، ومن جعله التسبيح المعروف جعل قوله تعالى: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ مثالاً، أي: حين تقوم وحين تقعد وفي كل تصرُّفك، وحكى منذر عن الضحاك أن المعنى: حين تقوم في الصلاة بعد تكبيرة الإحرام فقل: «سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك، وتعالى جدُّك...» الحديث[٢].

وقرأ سالم بن أبي الجعد[٣]، ويعقوب: (وأَدبار النجوم) بفتح الهمزة بمعنى: وأَعقاب، ومنه قول الشاعر:

---

(١) هو عوف بن مالك بن نَضْلة ـ بفتح النون وسكون الضاد المعجمة ـ الجُشَمي ـ بضم الجيم وفتح الشين المعجمة ـ أبو الأحوص الكوفي، مشهور بكنيته «أبو الأحوص»، ثقة، من الثالثة، قُتل في ولاية الحجاج على العراق. (تقريب التهذيب).

(٢) هذا الحديث أخرجه الترمذي في الصلاة، والنسائي في الافتتاح، وابن ماجه في الإقامة، والدارمي في الصلاة، وأحمد في مسنده (٣/ ٥٠، ٦٩)، عن أبي سعيد الخدري، ولفظه كما في مسند أحمد: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل واستفتح صلاته وكبَّر قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولاإلَه غيرك»، ثم يقول: «لا إلَه إلاّ الله» ثلاثاً، ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه»، ثم يقول: «الله أكبر» ثلاثاً، ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه».

(٣) هو سالم بن أبي الجعد رافع، الغطفاني الأَشجعي مولاهم، الكوفي، ثقة، وكان يرسل كثيراً، من الثالثة، مات سنة سبع أو ثمان وتسعين، وقيل: مائة أو بعد ذلك، ولم يثبت أنه جاوز المائة. (تقريب التهذيب).

فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الغَدَاةَ كَنَاظِرٍ مَعَ الصُّبْحِ في أَعْقَابِ نَجْمٍ مُغَرِّبِ[1]

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ بكسر الهمزة.

كمل تفسير سورة الطُّور والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) هذا البيت لقيس بن المُلَوَّح، وهو في الديوان، والأغاني، واللسان. وذكر صاحب اللسان أن المُبَرِّد نسب هذا البيت إلى أبي حَيَّة النُّمَيْري. والمُغَرِّب: الذي يأخذ في ناحية المَغْرب. والشاهد في البيت أن «أعقاب» بمعنى: بَعْده، أو خَلْفه، وأعقاب النجوم بمعنى (أدبار النجوم).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة النجم

هي مكِّيَّة بإجماع من المتأَولين[١]، وهي أَول سورة أَعلن بها رسول الله ﷺ، وجهر بقراءَتها في الحرم والمشركون يستمعون، وفيها سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإِنس غير أَبي لهب فإِنه رفع حفنة من تراب إِلى جبهته وقال: يكفيني هذا[٢]، وسبب هذه السُّورة أَن المشركين قالوا: إِنَّ محمداً يتقوَّل القرآن ويختلق أَقواله، فنزلت السُّورة في ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)
عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ
أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١)﴾.

أَقسم الله تعالى بهذا المخلوق تشريفاً له وتنبيهاً منه ليكون معتبراً فيه، حتى تؤول العبرة فيه إِلى معرفة الله تبارك وتعالى، وقال الزهراوي: المعنى: وربِّ النَّجم، وفي هذا قلق مع لفظ الآية، واختلف المتأَولون في تعيين النَّجم المُقسم به ـ فقال ابن عباس، ومجاهد، والفراءُ، وبيَّنه منذر بن سعيد: هو الجملة من القرآن إِذا تنزَّلت، وذلك أَنه رُوي أَن القرآن نزل على النبي ﷺ نجوماً، أَي أَقداراً مقدرة في أَوقات ما، ويجيءُ [هَوَى] ـ على هذا التأْويل ـ بمعنى نزل، وفي هذا الهُوِيِّ بُعْدٌ وتحاملٌ على

(١) لكن حكي عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا: إلا آية منها، وهي قوله تعالى في الآية ٣٢: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ الآية. قال القرطبي: والصحيح أنها مكية لما روى ابن مسعود أنه قال: هي أول سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكة.

(٢) روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس، وروي أيضاً مثله عن عبد الله، وفيه أن الرجل الذي أخذ كفًّا من تراب هو أُمية بن خلف، وقد أخرج هذا الحديث أيضاً الإمام مسلم، وابن أبي شيبة، وأبو داود، والنسائي، وابن مردويه، ذكر ذلك الإمام السيوطي في الدرّ المنثور.

اللُّغة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[١]، والخلاف في هذا كالخلاف في ذلك، وقال الحسن، ومعمر ابن المثنى، وغيرهما: النجم هنا اسم جنس، أَراد: والنجوم إِذا هوت، واختلف قائلوا هذه المقالة في معنى [هَوَى] ـ فقال جمهور المفسرين: هَوى للغروب، وهذا هو السابق إِلى الفهم من كلام العرب، وقال الحسن بن أَبي الحسن، وأَبو حمزة اليماني: هَوَى عند الانكدار في القيامة، فهي بمعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾[٢]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ في كتاب الثعلبي ـ: هوى في الانقضاض في أَثر العفْرِيَة[٣]، وهي رجوم الشياطين[٤]، وهذا القول تُساعده اللغة، والتأْويلات في [هَوَى] محتملة كلُّها قويةٌ، ومن الشاهد في النَّجم الذي هو اسم الجنس قول الرَّاعي:

فَبَاتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ فِي مُسْتَحِيرَةٍ سَرِيعٍ بِأَيْدِي الآكِلِينَ جُمُودُهَا[٥]

يصف إِهالةً صافية، والمُسْتحيرة: القِدْرُ التي يُطبخ فيها، قاله الزجاج، وقال الرُّمَّاني: هي شحمة صافية حين ذابت. وقال مجاهد، وسفيان: النَّجم في قَسَم الآية: الثُّرَيَّا، وسقوطها مع الفجر هو هويُّها، والعرب لا تقول النجم مطلقاً إِلا للثريا ومنه قول العرب: «طَلَع النَّجْمُ عشاءَ، فابْتَغى الرَّاعي كساءَ، طَلَعَ النَّجْمُ غُدَيَّهْ، فابْتَغى

---

(١) الآية (٧٥) من سورة (الواقعة)، وقد نقل الفراءُ عن عبد الله أنه قال عن قراءة الكسائي: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾: هو مُحْكم القرآن.

(٢) الآية (٢) من سورة (الانفطار).

(٣) في اللسان قال الخليل: «شيطان عِفْرِيةٌ وعِفْرِيتٌ، وهم العَفَارِيةُ والعَفَاريت، والعِفْرِيَةُ: الداهية».

(٤) وهي التي أشار إليها قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ الآيات إلى قوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾.

(٥) الراعي هو حُصَين بن معاوية النُّمَيْري، لُقِّب بالرَّاعي لأنه كان يصف راعي الإبل في شعره، والبيت في اللسان، وفي حماسة أبي تمام، وفي مجاز القرآن لأبي عبيدة، والمستحيرة: الجَفْنَة أو القِدْر التي يُطْبخ فيها، سمِّيت مستحيرة لأن الدَّسم يتحير فيها، والشاعر يتحدث في البيت عن امرأة أضافها، وقال: إنها كانت تَعدُّ النجم في هذه القِدْر، وأراد بالنجم كما قال صاحب اللسان: الثُّرَيَّا؛ لأن فيها ستة أَنْجم ظاهرة يتخللها نجوم صغار خفية، وابن عطية يقول: إن النجم هنا اسم جنس يراد به جميع النجوم، ومعنى(تعدُّ النجم) أنها النجوم في هذه المستحيرة وتستطيع أن تَعُدَّها ـ من العَدَد ـ لأنها صافية والنجوم ظاهرة فيها، قال أبو العلاء: وقد يجوز هذا الوجه، وقد يحتمل أن يكون (تَعُدُّ) بمعنى: تحسب وتظن، بمعنى أن المرأة تظن أن النجم في القدر لما تراه من بياض الشحم، وهذا الشحم الصافي الذي ذاب في القدر يجمد بسرعة عندما يأخذه الآكلون بأيديهم ويَبْعُد عن النار.

الرَّاعي شُكَيَّهْ»(١)، و[هَوَى] ـ على هذا القول ـ يحتمل الغروب ويحتمل الانكدار(٢)، و«هَوَى» في اللُّغة معناه: خرق الهواءَ ومقصده السُّفْل، أَو مَصيره وإِن لم يقصده، ومنه قول الشاعر:

هَـوَى ابْنـي مِـنْ شَفَـا جَبَـلٍ ... فَـزَلَّـتْ رِجْلُـهُ وَيَـدُهْ(٣)

وقول الشاعر:

وَإِنَّ كَـلاَمَ الْمَـرْءِ فـي غَيْـر كُنْهِـه ... لَكَالنَّبْلِ تَهْوِي لَيْسَ فيها نِصَالُهَا(٤)

وقول زهير:

. . . . هُـوِيَّ الـدَّلْـوِ أَسْلَمَهَـا الـرِّشَـاءُ(٥)

---

(١) ذكر هذا السجع صاحب اللسان في (نجم)، قال: «وفي التنزيل العزيز ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، أقسم الله تعالى بالنجم، وجاء في التفسير أنه الثُّرَيَّا، وكذلك سمتها العربُ، ومنه قول ساجعهم: طلع النَّجم عشاءَ. . . الخ والشَّكِيَّةُ هي الشَّكْوَى، يقال: شكوتُ فلاناً أشْكُوهُ شَكْوَى وشِكَايةً وشَكِيَّةً وشكاةً.

(٢) أي: التَّناثر في جهات متفرقة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾، والمعنى: انْتَثَرَتْ.

(٣) هَوى: سقط إلى أسفل وهو لم يقصد ذلك، وهذا هو موضع الشاهد، والشَّفا: حرف الشيءِ وحدُّه، قال الله تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ﴾، وزلَّ: زَلِقَ، ولم أقف على قائله.

(٤) البيت في اللسان غير منسوب، قال: «كُنْهُ كلِّ شيءٍ: قَدْرُهُ ونهايته وغايته. . . تقول: بلغت كُنْه هذا الأمر، أي غايته، وفعلتُ كذا في غير كنهه، وأنشد: (وَإِنَّ كلامَ المَرْءِ في غَيْر كُنْهِهِ. . . . البيت)، ولا يُشتق منه فعل، والنَّبْل: السهام، وهي مؤنثة لا واحد لها من لفظها، لا يقال نبلة، وتَهْوي: تسرع إلى الرَّمية، والنَّصْلُ: حديدة السَّهْم، يقول الشاعر: إن كلام المرءِ في غير مكانه ووقته وبدون هدف كالنَبل يرمي بها الإنسان وليس فيها نصلها، فهي لا تصيب هدفاً ولا تحقق غاية ولا قيمة لها ولا نتيجة.

(٥) هذا عجز بيت قاله زهير بن أبي سُلْمى، والبيت بتمامه:

فَشَـجَّ بِهَـا الأَمَـاعِـزَ فَهْـي تَهْـوِي ... هُـوِيَّ الـدَّلْـوِ أَسْلَمَهَـا الـرِّشَـاءُ

والبيت في الديوان، وفي اللسان، والشاعر يصف فيه حماراً وحشياً يقود قطيعاً من الأتن في أرض وعرة، فالفاعل بالفعل «شَجَّ» هو الحمار، والضمير في «بها» يعود على الأتُن، وشَجَّ الأرض معناها: ركب الأرض وعلاها، والأماعز: حُزون الأرض الكثيرة الحَصَى، وتَهْوي: تُسرع في انطلاقها وسط هذه الحُزون، والرشاءُ: الحبل الذي ترفع به الدلو من البئر، ومعنى «أسلمها» تركها وانقطع فهي تسقط بسرعة، يشبه زهير هذه الأتن وهي تجري بسرعة كبيرة وسط هذه الأرض الجرداء وخلف هذا الحمار الذي يقودها، يشبهها في سرعتها وانقضاضها، بالدَّلو التي انقطع حبلها وهي ملأى بالماء فاندفعت تهوي إلى أسفل.

ومنه قولهم للجراد: الهاوي[١]، ومنه: هُوِيُّ العقاب.

والقَسَم واقع على قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾، و«الضَّلَالُ» أبداً يكون بغير قصد من الإنسان إليه، و«الغَيُّ» شيءٌ كأنك تتكسَّبه وتريده، فنفى الله تعالى عن قلبه هذين الحالين، وغَوَى الرجل يَغْوي إذا سلك سبيل الفساد والعِوَج، نفى الله تعالى عن نبيِّه ﷺ أن يكون ضلَّ في هذه السبيل التي أَسلكه الله تعالى إيَّاها، وأثبت الله تعالى في سورة الضُّحى أنه قد كان قبل النُّبُوَّة ضالاً بالإضافة إلى حاله من الرُّشد بعدها[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ يريد تعالى محمداً ﷺ أنه ليس بمتكلم عن هواه، أي بهواه وشهوته، وقال بعض العلماءِ: المعنى: وما ينطق القرآن المنزل عن هوًى وشهوة، ونسب تعالى النطق إليه من حيث يُفهم منه، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾[٣]، وأَسند الفعل إلى القرآن ولم يتقدم له ذكر لدلالة المعنى عليه. وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ يُراد به القرآن بإجماع، والوحيُ: إلقاءُ المعنى في خفاءٍ، وهذه العبارة تعم المَلَك والإلهام والإشارة وكل ما يُحفظ من معاني الوحي. والضمير في قوله تعالى: [عَلَّمَهُ] يحتمل أَن يكون للقرآن، والأظهر أَنه لمحمد ﷺ، وأَمَّا المُعَلِّم فقال قتادة، والربيع، وابن عباس: هو جبريل عليه السلام، أَي: علَّم محمداً ﷺ القرآن، وقال الحسن: المُعَلِّم الشَّديد القُوى هو الله تعالى، «والْقُوَى» جمع قُوَّة، وهذا في جبريل عليه السلام متمكن، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[٤]، و﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ معناه: ذو قُوَّة، قاله قتادة، وابن زيد، والربيع، ومنه قول النبي ﷺ: «لا تحلُّ الصَّدقة لِغَنِيٍّ ولا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»[٥]، وأَصْل المِرَّة من مرائر الحبل[٦] وهي فتله وإِحكام عمله، ومنه قول امرىء القيس:

---

(١) إذا أجدب الناس قال العرب: «أتى الهاوي والعاوي، فالهاوي: الجراد، والعاوي: الذئب» (من اللسان).

(٢) وذلك في قوله تعالى في سورة الضُّحَى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾.

(٣) من الآية (٢٩) من سورة (الجاثية).

(٤) الآية (٢٠) من سورة (التكوير).

(٥) أخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، وأحمد عن عبد الله بن عمرو. والسَّوِيُّ: الصحيح السليم الأعضاء.

(٦) في اللسان: «المرائر: الحبال المفتولة على أكثر من طاق، واحدها مرير ومريرة» وفيه «كلُّ قُوَّة من قوى الحبل مِرَّة، وجمعها مِرَرٌ».

. . . . بِكُـلِّ مُمَـرِّ الفَتْـلِ شُـدَّتْ بِيَـذْبُـلِ[١]

وقال قوم ممن قال إنَّ «ذا المرَّة» جبريل: معنى ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾: ذو هيئة حسنة، وقال آخرون: بل معناه: ذو جسم طويل حسن، وهذا كله ضعيف[٢].

و[اسْتَوَى] مُسْنَد إلى الله تعالى في قول الحسن الذي قال: إنه المُتَّصف بقوله تعالى: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، وكذلك يجيءُ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ صفةً لله تعالى على معنى: وعظمتُه وقدرتُه وسُلطانُه نتلقى نحن أنه بالأُفق الأعلى، ويجيءُ المعنى نحو قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[٣]، ومن قال: إن المتَّصف بقوله تعالى: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ هو جبريل عليه السلام قال: إن [اسْتَوَى] مستند إلى جبريل عليه السلام، واختلفوا بعد ذلك ـ فقال الربيع، والزجاج: المعنى: فاستوى جبريل عليه السلام في الجوِّ وهو إذ ذاك بالأُفق الأعلى، فرآه رسول الله ﷺ بحراءَ قد سدَّ الأُفق، له ستمائة جناح، وحينئذٍ دنا من محمد ﷺ حتى كان قاب قوسين، وكذلك هو المرئي ـ في هذا القول ـ في «النَّزْلَة الأُخرى» في صفته العظيمة له ستمائة جناح عند السِّدرة، وقال الطبري والفراءُ: المعنى: فاستوى جبريل عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يعني محمداً ﷺ وقد تقدَّم ذكره في الضمير في [عَلَّمَهُ]، وفي هذا التأويل العطفُ على المُضْمر المرفوع دون أن يؤكد، وذلك عند النحاة مستقبح، وأَنشد الفراءُ حُجَّةً على قوله:

---

(١) هذا عجز بيت لامرىء القيس، روي بهذه الألفاظ، وورد هكذا في الأصول، ولكن الرواية الثابتة في الديوان، وفي شرح القصائد السبع لأبي بكر الأنباري، وفي موسوعة الشعر العربي تختلف عن ذلك، وليس فيها شاهد هنا، والبيت بتمامه كما في الديوان:

فَيَـا لَـكَ مِـنْ لَيْـلٍ كَـأَنَّ نُجُـومَـهُ ... بِكُـلِّ مُغَـارِ الفَتْـلِ شُـدَّتْ بِيَـذْبُـلِ

ويروى: (كأَن نجومه بأَمْرَاس كتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ)، وقد قال ابن الأنباري: إن الأصمعي لم يرو هذا البيت ضمن معلقة امرىء القَيس، ورواه يعقوب وغيره، قال يعقوب: معناه: كأن نجومه شُدَّتْ بِيَذْبُل، وهو الجبل، والمغار: الحَبْل الشديد الفتل، وكذلك (مُمَرُّ الفتل) معناه: مُحْكَم الفتل، وقوله: (مِنْ لَيْلٍ) معناه التفسير للتعجب، ولم يستشهد بهذا البيت أحد من المفسرين المعروفين كالطبري والقرطبي والزمخشري، لأن الرواية الصحيحة ليست فيها كلمة (مِرَّة أو مُمَرّ).

(٢) استشهد المفسرون على ذلك بأبيات من الشعر، ولكن ابن عطية لم يقبلها ويرى أنها أقوال ضعيفة.

(٣) الآية (٥) من سورة (طه).

أَلَــمْ تَــرَ أَنَّ النَّبْــعَ يَصْلُــبُ عُــودُهُ   ولا يَسْتَوِي وَالْخِرْوَعُ الْمُتَقَصِّفُ(١)

وقد ينعكس هذ الترتيب فيكون [اسْتَوَى] لمحمد ﷺ، و[هُوَ] لجبريل عليه السلام، وأمَّا [الأَعْلَى] فهو عندي لِقِمَّةِ الرأس وما جرى معه، وقال الحسن وقتادة: هو أُفُق مَشْرق الشمس، وهذا التخصيص لا دليل عليه.

واختلف الناس، إلى من استند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ ـ فقال الجمهور: استند إلى جبريل عليه السلام، أي: دنا إلى محمد ﷺ عند حراءٍ، فقال ابن عباس، وأنس رضي الله عنهم في حديث الإسراءِ ما يقتضي أنه مُسْتند إلى الله تعالى، ثم اختلف المتأولون ـ فقال مجاهد: كان الدُّنُوُّ إلى جبريل عليه السلام، وقال بعضهم: كان إلى محمد ﷺ، و﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ ـ على هذا القول ـ معه حذف مضاف، أي دنا سُلطانه ووحيُه وقَدْرُه، والانتقال وهذه الأوصاف منتفيةٌ في حق الله تبارك وتعالى.

والصحيح عندي أن جميع ما في هذه الآيات هو مع جبريل عليه السلام، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، فإن ذلك يقتضي بنزلة متقدمة، وما روي قط أن محمداً ﷺ رأى ربَّه عزَّ وجلَّ قبل ليلة الإسراءِ، أما إنَّ رؤْية القلب لا تُمنع بحال.

---

(١) هذا البيت من شواهد الفراء في (معاني القرآن)، والرواية فيه (يُخْلَق) بدلا من (يَصْلُبُ)، والنَّبْع: شجر صلب متين ينبت في أعالي الجبال، ومن خشبه تُتَّخذ القِسيُّ والسِّهام، والخِرْوَعُ: شجر ليِّن يتقصف بسهولة، ومن بذوره الملساء الكبيرة الحجم يُستخرج زيت الخِرْوَع، وهو بكسر الخاء، أما الخَرْوع بفتح الخاء فهو المرأة الفاجرة أو الناعمة التي تتثنَّى ليناً، وفرق كَبِير بين النَّبع والخِروع فلا يستوي الخروع بالنبع في الصلابة والمتانة، وهذا هو معنى البيت، أما الشاهد فيه فقد وضَّحه الفراء بقوله: «استوى هو وجبريل بالأفق الأعلى لمَّا أُسري به، وهو مطلع الشمس الأعلى، فأضمر الاسم في (اسْتَوَى)، ورد عليه (هُوَ)، وأكثر كلام العرب أن يقولوا: استوى هو وأبوه، ولا يكادون يقولون: استوى وأبوه، وهو جائز لأن في الفعل مُضْمَراً، أنشدني بعضهم: أَلَمْ تَرَ أَن النَّبْعَ. . . . البيت»، ومعنى ذلك أنه تمَّ عطف (هُوَ) الضمير البارز على الضمير المستتر في (اسْتَوَى)، وفي البيت هنا عطف (الخِروع) على الضمير المستتر في (يستوى)، ومثله في ذلك قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ﴾ فقد عطف (الآباء) على الضمير في (كُنَّا)، وحسَّن ذلك الفصلُ بينهما بقوله: (تُرَاباً).

هذا هو الرأي الذي قاله الطبري واستشهد بكلام الفراءِ، وقد علَّق عليه الإمام ابن كثير في تفسيره فقال: «وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك؛ فإن هذه الرؤيا لجبريل لم تكن ليلة الإسراء بل قبلها، ورسول الله ﷺ في الأرض، فهبط عليه جبريل عليه السلام وتدلى إليه، فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلةً أُخرى عند سدرة المنتهى، يعني ليلة الإسراء».

[ودَنَا] أعم من [تدَلَّى]، فبيَّن تعالى بقوله: [فَتَدَلَّى] هيئة الدُّنُوِّ كيف كانت. و[قَابَ] معناه: قَدْرَ، وقال قتادة وغيره: معناه: من طرف العود إلى طرفه الآخر، وقال الحسن ومجاهد: من الوَتر إلى العود في وسط القوس عند المقبض. وقرأ محمد بن السَّمَيْفَع اليماني: «وكان قيسَ قَوْسَيْنِ»، والمعنى قريب من قاب، ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ: «لَقَابُ قَوْسِ أَحدكم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»[١]، وفي حديث آخر «لَقَابُ قوس أَحدكم في الجنة». وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ معناه: على مقتضى نظر البشر، أي: لو رآه أحدكم لقال في ذلك: قوسان أو أدنى، وقال أبو رزين: ليست بهذه القوس ولكن قدر الذراعين أو أدنى، وحكى الزهراوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن القوس في هذه الآية ذراع تُقاس به الأطوال، وذكره الثعلبي وأنه من لغة الحجاز.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: فأَوحى الله تعالى إلى عبده محمد ﷺ ـ ما أَوحى، وقال بعض العلماءِ: المعنى: فأَوحى الله تعالى إلى عبده جبريل ـ عليه السلام ـ ما أَوحى، وفي قوله تعالى: ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ إبهام على جهة التفخيم والتعظيم، والذي عُرف من ذلك فرض الصلاة. وقال الحسن: المعنى: فأَوحى جبريل إلى عبد الله محمد عليهما الصلاة والسلام ما أَوحى، كالأَول في الإبهام، وقال ابن زيد: المعنى: فأَوحى جبريل إلى عبد الله ما أوحى الله تعالى إلى جبريل عليهما الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾، قرأ جمهور القُرَّاءِ بتخفيف الذَّال على معنى: لم يكذب قلب محمد عليه الصلاة والسلام الشيءَ الذي رأى بل صدَّقه وتحقَّقه نظراً، و«كَذَبَ» يَتَعَدَّى، وقال أَهل التأْويل ـ ومنهم ابن عباس رضي الله عنهما، وأَبُو صالح ـ: رأَى محمد ﷺ الله تعالى بفؤاده، وقال النبي ﷺ: «جعل الله تعالى نور بصري في فؤادي فنظرتُ إليه بفؤادي»[٢]، وقال آخرون من المتأَولين: ما رآه بعينه لم يكذب ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، وبدء الخلق، والرقاق، والترمذي في فضائل الجهاد، وأحمد في مسنده (٢ـ٤٨٢، ٣ـ١٤١)، ولفظه كما في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَقَابُ قوسٍ في الجنَّة خيرٌ مما تطلع عليه الشمس وتغرب»، وقال: «لَغَدْوَةٌ أو روحة في سبيل الله خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب».

(٢) هذا جزءٌ ورد في آخر حديث الخصومات من رواية لابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال عَنْها=

قلبه بل صدَّقه وتحققه، ويحتمل أَن يكون التقدير: «فيما رأى»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ فيما رُوي عنه ـ وعِكْرِمة، وكعب الأَحبار: إن محمداً ﷺ رأى ربَّه عزَّ وجلَّ بعيني رأْسه، ويبسط الزهراوي هذا الكلام عنهم، وأَبت عائشة رضي الله عنها، وقالت: أَنا سأَلت رسول الله ﷺ عن هذه الآيات فقال لي: «هو جبريل فيها كلها»(١)، وقال الحسن: المعنى: ما رأَى من مقدورات الله تعالى وملكوته، وسأَل أَبو ذرٍّ

= ابن كثير: فيها زيادة غريبة، وبعد أن نقل الحديث قال: وإسناده ضعيف، وحديث الخصومات أخرجه الإمام أحمد عن معاذ رضي الله عنه، وقال عنه الإمام ابن كثير: «وهو حديث المنام المشهور»، يعني أن الرؤيا التي وردت فيه كانت مناماً، وكذلك أخرجه الترمذي من حديث جهضم بن عبد الله اليمامي، وقال الحسن: صحيح، وأخرجه عبد الرزاق عن ابن عباس أيضاً وفي أوله: «أتاني ربِّي الليلة في أحسن صورة ـ أحسبه يعني في النوم ـ»، أما رواية ابن جرير التي فيها هذا الجزء الذي ذكره ابن عطية فهي كما في تفسير الطبري: «رأيتُ ربي في أحسن صورة، فقال لي: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت: لا يا رب، فوضع يده بين كتفيَّ، فوجدت بردها بين ثدْيَيَّ، فعلمت ما في السموات والأرض، فقلت: يا ربّ في الدرجات والكفارات ونقلِ الأقدام إلى الجُمُعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فقلت: يا رب إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلَّمتَ موسى تكليماً، وفعلتَ وفعلتَ، فقال: أَلم أَشرح لك صدرك؟ أَلم أَضع عنك وزرك؟ أَلم أفعل بك؟ ألم أفعل؟ قال: فأفضى إليَّ بأشياءَ لم يؤذن لي أن أحدثكموها، قال: فذلك قوله في كتابه يحدثكموه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾، فجعل نور بصري في فؤادي فنظرت إليه بفؤادي».

(١) هذا جزءٌ من حديث أخرجه البخاري في تفسير سورة النجم، ومسلم في الإيمان، وأحمد في مسنده (٦ـ٤٩)، والترمذي في تفسير سورة النجم، وهو عن مسروق، وزاد السيوطي في «الدر المنثور» نسبته إلى عبد ابن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه عن الشعبي، ولفظه كما جاء في صحيح مسلم: قال: كنت متكئاً عند عائشة، فقالت: يا أبا عائشة ـ وهذه كنية الإمام مسروق ـ ثلاثٌ من تكلم بواحدة فيهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هنَّ؟ قالت: من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال: وكنت متكئاً فجلست فقلت: يا أُمَّ المؤمنين أنظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته مُنْهبطاً من السماء ساداً عِظَمُ خلقه ما بين السماء إلى الأرض، فقالت: أو لم تسمع أن الله يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، أو لم تسمع أن الله يقول: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾. قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾. قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

النبيَّ ﷺ: هل رأيت ربَّك؟ فقال: «نورٌ أنَّى أَرَاه»[1] وهذا هو قول الجمهور، وحديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قاطع لكل تأويل في اللفظ؛ لأن قول غيرها إنما هو منتزعٌ من ألفاظ القرآن. وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما ـ فيما روى عنه هشام ـ: (ما كذَّب) بتشديد الذَّال، وهي قراءَة أَبي رجاءٍ، وأَبي جعفر، وقتادة، والجحدري، وخالد، ومعناه بيِّن على بعض ما قلناه، وقال كعب الأَحبار: إن الله تعالى قسم الكلام والرؤية بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام: فكلَّم موسى مرَّتين، ورآه محمد مرَّتين، وقالت عائشة رضي الله عنها: لقد قفَّ شعري لسماع هذا، وقلت: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ الآية[2]. وذهبت هي وابن مسعود، وقتادة، وجمهور العلماءِ إلى أَن المرئي هو جبريل عليه السلام في المرتين: في الأَرض وعند سِدرة المنتهى ليلة الإِسراءِ، وقد تقدَّم ذلك في سورة الإِسراءِ، وهو مشهور في كتب الصحاح.

وقرأَ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر هذه السُّورة كلها بفتح أَواخر الآيات فيها، وأَمال عاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ (رَأَى)، وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، بيْن الفتح والكسر، وأَمال حمزة والكسائي جميع ما في السُّورة، وأَمال أَبو عمرو ـ فيما روى عنه أَبو عبيد ـ (الأَعْلَى) و(تدَلَّى).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ خطاب لقريش، وهو من المِرَاءِ، والمعنى: أَتجادلونه في شيءٍ رآه وأَبصره؟ وهذه قراءَة الجمهور وأَهل المدينة، وقرأَ علي بن أَبي طالب، وابن عباس، وابن مسعود، وحمزة والكسائي: [أَفَتَمْرُونَهُ] بفتح التاءِ دون أَلف بعد الميم،

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، والترمذي في التفسير، وأحمد في مسنده (٥ـ١٥٧، ١٧١، ١٧٥)، عن عبد الله بن شقيق، ولفظه كما جاء في صحيح مسلم (عن أبي ذر قال: سألتُ رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: نورٌ أنّى أراه؟)، قال شراح الحديث: المعنى: حِجابه نورٌ فكيف أراه؟ وقال بعضهم: المعنى: إن النور منعني من الرؤية.

(٢) راجع الهامش (١) من صفحة (١١١) فهو الحديث نفسه. والآية من سورة (الأنعام)، ورقمها (١٠٣).

والمعنى: أَفتجحدونه[١]؟ وذلك أَن قريشاً لما أَخبرها رسول الله ﷺ بأَمره في الإِسراءِ كذَّبوا واستخفُّوا حتى وصف لهم بيت المقدس وأَمْر عيرهم وغير ذلك مما هو في حديث الإِسراءِ مستقصى، ورواها سعيد عن النَّخعي: [أَفَتُمْرُونَهُ] بضم التاءِ، قال أَبو حاتم: وذلك غلط من سعيد. وقوله تعالى: [يَرَى] مستقبلاً والرُّؤْية قد مضت عبارة تعُمُّ ما مضى وتشير إِلى ما يمكن أَن يقع بَعْدُ، وفي هذا نظر.

واختلف الناس في الضمير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ حسب ما قدَّمناه، فقال ابن عباس رضي الله عنهما، وكعب الأَحبار: هو عائد على الله تعالى، وقال ابن مسعود، وعائشة، ومجاهد، والربيع: هو عائد على جبريل عليه السلام، و[نَزْلَةً] معناه: مَرَّة، ونصبه على المصدر في موضع الحال. و«سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى» هي شجرة نبق [٢] قال كعب: هي في السماءِ السابعة، وروى ذلك مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ[٣]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: في السماء السادسة وقيل لها «سدرة المنتهى» لأَنها إِليها ينتهي علم كل عالم، ولا يعلم ما وراءَها صُعُدا إِلاَّ الله تبارك وتعالى، وقيل: سُمِّيت بذلك لأَنها إِليها ينتهي من مات على سُنَّة النبي ﷺ، وهم المؤمنون حقًّا من كل جيل، وقيل: سُمِّيت بذلك لأَن ما نزل من أَمر الله تعالى فعندها يُتَلَقَّى، ولا يتجاوزها ملائكة العلو، وما صعد من الأَرض فعندها يُتَلَقَّى ولا يتجاوزها ملائكة السُّفل، ورُوي عن رسول الله ﷺ أَن الأُمة من الأُمم تستظل بظلِّ الفَنَن منها[٤]، وقال رسول الله ﷺ:

---

(١) قال ابن خالويه: «الحجة لمن أثبت الألف في [أَفَتُمَارُونَهُ] أنه أراد: أَفتجادلونه، من المماراة والمجادلة بالباطل، ومنه قوله ﷺ: «لا تماروا بالقرآن فإن مِراءً فيه كُفْر»، والحجة لمن حذفها أنه أراد: أفتجحدونه»، واختار أبو عبيد هذه الأخيرة، قال: «لم يُماروه وإنما جحدوه»، ويقال: مَرَيْتُه حقَّه أي جحدتُه، قال الشاعر:

لَئِـــنْ هَجَـــرْتَ أَخَـــا صِـــدْقٍ وَمَكْـــرُمَـــةٍ لَقَـــدْ مَـــرَيْـــتَ أَخـــاً مَـــا كَـــان يَمْـــرِيكَـــا

(٢) النَّبق ـ بكسر الباءـ: ثمر السِّدْر، والواحدة نَبِقَة، ويقال: نَبْق بفتح النون وسكون الباءِ، وقد ذكر اللغتين ابنُ السكيت في (إصلاح المنطق)، وهي لغة المصريين، والأولى أفصح، وهي التي ثبتت عن النبي ﷺ.

(٣) جاء ذلك من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة، رواه أحمد في مسنده.

(٤) رواه الترمذي عن أسماءَ بنت أبي بكر رضي الله عنهما، وزاد السيوطي في الدر المنثور نسبته إلى ابن جرير، والحاكم، وابن مردويه، قالت: «سمعتُ النبي ﷺ يصف سدرة المنتهى، قال: يسير الراكب في الفَنن منها مائة سنة، يستظل بالفَنن منها مائة راكب. فيها فراش من ذهب، كأن ثمرها القلال». قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن».

«رُفعت لي سدْرَة المنتهى فإذا نبقُهَا مثل قلال هَجَر، وإذا ورقها مثل آذان الفيَلَة»[١].

قوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾، قال الجمهور: أراد تعالى أن يعظم مكان السِّدْرة ويشرفه بأن جنة المأوى عندها، قال الحسن: وهي الجنة التي وعد بها المؤمن العالم، وقال قتادة، وابن عباس ـ بخلاف ـ: هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداءِ والمؤمنين وليست بالجنة التي وعد بها المؤمنون جنة النعيم، وهذا يحتاج إلى سند، وما أراه يصح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأنس بن مالك ـ بخلاف ـ وابن الزبير، وأبو الدرداءِ، وزرُّ بن حُبَيْش، وقتادة، ومحمد بن كعب: ﴿عِنْدَهَا جَنَّهُ المَأْوَى﴾ بالهاءِ في (جَنَّهُ)، وهو ضمير محمد ﷺ، والمعنى: سَتَرَه وضمَّه إيواءُ الله تعالى وجميلُ صنعه به، يقال: «جَنَّه الليل وأَجَنَّه»، وردَّت عائشة وصحابة معها رضي الله عنهم هذه القراءَة وقالوا: أجن الله من قرأها، والجمهور قرأ: (جَنَّةُ) كالآية الأخرى: ﴿فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا﴾[٢]، وحكى الثعلبي أن معنى ﴿جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾: ضَمَّه المبيتُ والليل[٣]. وقوله تعالى: ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾، العامل في [إِذْ] [رَآهُ]، والمعنى: رآه في هذه الحال، و﴿مَا يَغۡشَىٰ﴾ معناه: من قدرة الله تعالى وأنواع الصِّفات التي يخترعها لها، وذلك مُبْهَم على جهة التفخيم والتعظيم، وقال مجاهد: ذلك تَبَدُّل أغصانها دُرًّا وياقوتاً ونحوه، وقال ابن مسعود، ومسروق، ومجاهد، وإبراهيم: ذلك جراد من ذهب كان يغشاها، وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «رأَيتها ثم حال دونها فراش من الذهب»[٤]، وقال الربيع، وأبو هريرة: كان يغشاها الملائكة كما يغشى الطير الشجر، وقيل غير هذا مما هو تكلُّف في الآية لأن الله تعالى أَبهم ذلك وهم يريدون شرحه، وقد قال رسول الله ﷺ: «فغشيها أَلوان لا أَدري ما هي»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد، وابن جرير، عن أنس رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٢) من الآية (١٩) من سورة (السجدة).

(٣) قال أبو حاتم بعد أن ذكر هذه القراءة وما فيها من اختلاف: «والذي عليه اللغة أن «جَنَّهُ اللَّيلُ»: أدركه الليل، وجَنَّ عليه الليلُ، وأَجَنَّهُ: ألبسه سواده».

(٤) رواه الحكيم الترمذي، وأبو يعْلى، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) جاء ذلك في حديث رواه أنس عن أبي كعب الأنصاري، وقد أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه، وفيه يقول النبي ﷺ: «ثم انطلق بي ـ يعني جبريل ـ حتى أتى سِدْرة المنتهى، قال: فغشيها أَلوانٌ=

قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: ما حال هكذا ولا هكذا[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ معناه: ولا تجاوز الحدَّ المرئي بل وقع عليه وقوعاً صحيحاً، وهذا تحقيق للأمر ونفيٌ لوجوه الريب عنه.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾. قالت جماعة من أَهل التأْويل: لقد رأَى الكبرى من آيات ربّه، والمعنى: من آيات ربّه التي يمكن أَن يراها البشر، فـ[الْكُبْرَى] ـ على هذا ـ مفعول بـ[رَأَى]، وقال آخرون: المعنى: لقد رأَى بعضاً من آيات ربّه الكبرى، فـ[الْكُبْرَى] ـ على هذا ـ وصف لـ[آيَاتِ]، والجمع مما لا يعقل في المؤنث يوصف أَبداً على حدِّ وصف الواحدة، وقال ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم: رأَى رفرفاً أَخضر من الجنة قد سدَّ الأُفق، وقال ابن زيد: رأَى جبريل عليه السلام في الصورة التي هو بها في السموات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: [أَفَرَأَيْتُم] مخاطبة لقريش، وهي من رؤْية العين لأَنه أَحال على أَجرام مرئية، ولو كانت «رأَى» التي هي استفتاءٌ لم تَتَعَدَّ.

ولما فرغ من ذكر عظمة الله تعالى وقدرته قال ـ على جهة التوقيف ـ: أَرأَيتم هذه الأَوثان وحقارتها وبُعدها عن هذه القدرة والصفات العلية؟

و«اللّات» صنم كانت العرب تُعظِّمه، قال أَبو عبيدة وغيره: كان في الكعبة، وقال

= ما أدري ما هي»، قال: «ثم دخلتُ الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا تُرابُها المسك»، قال الإمام ابن كثير بعد أن ذكر هذا الحديث: «هكذا رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه، وليس هو في شيءٍ من الكتب الستة، وقد تقدم في الصحيحين من طريق يونس، عن الزهري، عن أنس، عن أبي ذرٍّ هذا السياق سواء، فالله أعلم».

(١) يعني: ما اعْوَجَّ ولا مال هكذا ولا هكذا، يقال: حال الشيءُ بمعنى: اعْوَجَّ بعد استواءٍ.

قتادة: كان بالطائف، وقال ابن زيد: كان بِنَخْلَة عند سوق عكاظ، وقول قتادة أرجح، ويؤيده قول الشاعر:

وَفَــرَّتْ ثَقِيــفٌ إِلَــى لاَتِهَــا بِمُنْقَلَــبِ الْخَـائِـفِ الْخَـاسِـرِ(١)

والتَّاءُ في «اللَّاتِ» لام فعل كالباءِ من «باب، وقال قوم: هي تاءُ التأنيث، والتصريف يمنع ذلك، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وأبو صالح: [اللَّاتَّ] بشدِّ التاءِ، وقالوا: كان هذا الصنم حجراً، وكان عنده رجل من بَهز يلُتُّ سويق الحاج على ذلك الحجر ويخدم الأصنام، فلما مات عبدوا ذلك الحجر الذي كان عنده إجلالاً لذلك الرجل وسمَّوه باسمه، ورُويت هذه القراءَة عن ابن كثير، وابن عامر(٢).

و«العُزَّى» صخرة بيضاءُ كانت العرب أَيضاً تعبدها وتُعَظمها، قاله سعيد بن جبير، وقال مجاهد: كانت شُجيرات تعبد ثم لمَّا بليت انتقل أَمرها إِلى صخرة، و«عُزَّى» مؤنثة «عزيز» ككُبْرى وعُظْمَى(٣)، وكانت هذه الأَوثان تُعَظَّم وتُعبد، الوثن منها له قبيلة تُعَظِّمه، ويجيءُ كل من عزَّ العرب فيعظمها بتعظيم حاضرها، وقال أَبو عبيدة مَعْمر: كانت العُزَّى ومناة في الكعبة، وقال ابن زيد: كانت العُزَّى في الطائف، وقال قتادة: كانت بنَخْلة، وأَمَّا مناة فكانت بالمشلَّل من قديد، وذلك بين مكة والمدينة، وكانت أَعظم هذه الأَوثان قدراً، وأَكثرها عابداً، وكانت الأوس والخزرج تُهِلُّ لَهَا، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ فأَكَّدها بهاتين الصفتين، كما تقول: رأَيت فلاناً وفلاناً، ثم تذكر ثالثاً أَجلَّ منهما فتقول: وفلاناً الآخر الذي من أَمره وشأْنه، ولفظة «آخَر» و«أُخرى» يوصف بهما الثالث من المعدودات، وذلك نصٌّ في الآية، ومنه قول ربيعة بن مكدم:

وَلَقَــدْ شَفَعْتُهُمَــا بِــآخَــرَ ثَـالِــثٍ(٤)

---

(١) ثقيف: قبيلة كانت بالطائف، وهذا دليل على أن «اللات» كانت بالطائف.

(٢) وهي أيضاً قراءة منصور بن المعتمر أبو عتاب السلمي الكوفي المتوفى سنة ١٣٣هـ.

(٣) وقيل: هي واحدة من شجر السَّمُر، وكانت لغطفان، وكانوا يعبدونها وأقاموا عليها بيتاً وجعلوا لها سدنة، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إليها فهدم البيت وأحرق السَّمُرَة وهو يقول:

يَــا عُــزَّ كُفْــرَانَــكِ لا سُبْحَــانَــك إِنِّــي رَأَيْــتُ اللهَ قَــدْ أَهَــانَــك

و«عبد العُزَّى» هو أبو لهب، وقد كنَّاه الله تعالى فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾، ولم يُسَمِّه لأن اسمه محال.

(٤) هذا شاهد على أن لفظة «آخَر» يوصف بها الثالث، فالشاعر يقول: لقد أتبعتهما بثالث، وقال عنه: آخر،=

وهو التأويل الصحيح في قول الشاعر:

جَعَلْتُ لَهَا عُودَيْنِ مِنْ نَشَمٍ وَآخَرَ مِنْ ثُمَامَهْ[1]

وقرأ ابن كثير وحده: (وَمَنَاءَةَ) بالهمز والمدِّ، وهي لغة فيها، والأُولى أَشهر وهي قراءَة الناس، ومنها قول جرير:

أَزَيْدَ مَنَاةَ تُوعِدُ يابْنَ تَيْمٍ تَأَمَّلْ أَيْنَ تَاهَ بِكَ الْوَعِيدُ[2]

وقف تعالى الكفارَ على هذه الأَوثان وعلى قولهم فيها؛ لأَنهم كانوا يقولون: هي بناتُ الله، فكأَنه قال: أَرأَيتم هذه الأَوثان وقولكم هي بنات الله؟ أَلَكُمُ الذَّكَر ولَهُ الأُنثى؟ أَي: النَّوْعُ المستحسنُ المحبوبُ هو لكم موجودٌ فيكم، والمذمومُ المستثقلُ عندكم هو له بزعمكم؟ ثم قال تعالى ـ على جهة الإنكار ـ: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾، أَي عوجاءُ، قاله مجاهد، وقيل: [ضِيزَى] معناه: جائرة، قاله ابن عباس وقتادة، وقال سفيان: معناه: منقوصة، وقال ابن زيد: معناه: مُخَالِفَة، والعرب تقول: «ضِزْتُه حقَّه أَضيزُه» بمعنى: منعتُه منه وظلمتُه فيه، و«ضِيزَى» من هذا التصريف، وأَصْلها فُعْلَى بضم الفاءِ «ضُوزَى» لأَنه القياسُ؛ إِذْ لا يوجد في الصفات فِعْلى بكسر الفاءِ، كذا قال سيبويه وغيره، فإِذا كان هذا فهو «ضُوزَى» كسروا أَولها كما كُسِر أَوَّل «عِينٍ وبيضٍ» طلباً

= ولكن في اللسان أن الشَّفيع من الأعداد: ما كان زوجاً، تقول: كان وَتْراً فشفعته بآخر، قال الشاعر:

مَا كَانَ أَبْصَرَنِي بِغِرَّاتِ الصِّبَا فَالآنَ قَدْ شُفِعَتْ لِيَ الأَشْبَاحُ

يعني أنه يحسب الشخص اثنين لضعف بصره، فقد وصف الثاني بلفظ «آخر».

(١) النَّشَم: شجر جبليٌّ تُتَّخذ منه القِسِيُّ، وهو من عُتُق العيدان، وهو مثل النَّبْع في المتانة والاستعمال، والثُّمامة: واحدة الثُّمام، وهو نبت ضعيف له خوصٌ أو ما يُشبه الخوص، وربما حُشِيَ به وسُدَّ به خصاص البيوت، والشاهد في البيت هو استعمال لفظ «آخر» صفة العدد الثالث، فقد جعل الشاعر عودين من هذا الشجر المتين القوي المُسَمَّى بالنَّشَم، ثم جعل ثالثاً من هذا النبات الضعيف، ووصفه بأنه «آخر»، ولم أقف على قائل هذا البيت.

(٢) هذا البيت من قصيدة قالها جرير يهجو التَّيم، ومطلعها:

أَلا زَارَتْ وَأَهْلُ مِنَى هُجُودُ وَلَيْتَ خَيَالَهَا بِمِنَىً يَعُودُ

والرواية في الديوان: «تبَيَّن» بدلا من «تأمل»، ومناة: صنم كان لهذيل وخزاعة بين مكة والمدينة، يعبدونها من دون الله، والهاءُ فيه للتأنيث، ويُسكت عليها بالتاء، وزَيْدُ مناة: ابن تميم بن مُرٍّ، يُمَدُّ ويُقصر، قال ابن بَرِّي: قال الوزير: من قال زيد مناه بالهاء فقد أخطأ. (راجع اللسان).

للتخفيف؛ إذ الكسرة والياءُ أخف من الضمة والواو، كما قالوا: «بِيُوتٌ وعِصيٌّ» وهي في الأصل فُعول بضم الفاءِ، وتقول العرب: «ضُزْتُه أَضُوزُه»، فكان يلزم على هذا التصريف أن تكون «ضُوزَى» فُعْلَى، وفي جميع هذا نظر، وقرأَ ابن كثير: [ضِئْزَى] بالهمز على أنه مصدر كذِكْرى، وقرأَ الجمهور بغير همز.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾، يعني تعالى أَن هذه الأَوصاف ـ من أَنها إِناثٌ، وأَنها تُعبد من دون الله آلهة ونحو هذا ـ ما هي إِلاَّ أَسماءٌ، أَي تسمياتٌ اخترعتموها أَنتم وآباؤكم، لا حقيقة لها، ولا أَنزل الله تعالى بها بُرهاناً ولا حُجَّة، وقرأَ عيسى بن عمر: [سُلُطَانٍ] بضم اللام، وقرأَ هو وابن مسعود، وابن عباس، وابن وثاب، وطلحة، والأَعمش: [إن تَتَّبِعُونَ] بالتَّاءِ على المخاطبة، وقرأَ أَبو عمرو، وعاصم، ونافع، والأَعمش أَيضاً، والجمهور: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ بالياءِ على الحكاية عن الغائب.

و«الظَّنُّ»: مَيْلُ النفس إِلى أَحد معتقدَيْن متخالفَيْن دون أَن يكون ميلها بحجَّة ولا بُرهان، و«هَوَى الأَنْفس» هو إِرادتها الملذة لها، وإِنما تجد هوى الأَنفس دائماً في ترك الأَفضل لأَنها مجبولة بطبعها على حب الملذ، وإِنما يردعها ويسوقها إِلى حسن العاقبة العقلُ والشرع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ اعتراضٌ بين الكلامين فيه توبيخ لهم؛ لأَن سرد القول إِنما هو: «إِن يتبعون إِلاَّ الباطل وما تهوى الأَنفس أَم للإِنسان ما تمنى»، ثم اعترض بعد قوله تعالى: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، أَي: يفعلون هذه القبائح والهدى حاضر والحالُ هذه، فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ جملة في موضع الحال. و«الهُدَى» المشار إِليه هو محمد ﷺ وشرعُه، وقرأَ ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم: [ولقد جاءكم من ربكم] بالكاف فيهما، وقال الضحاك عنهما: إِنهما قرأا: [ولقد جاءك من ربك].

و«الإِنْسانُ» في قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ اسم الجنس، كأَنه تعالى يقول: ليست الأَشياءُ بالتمني والشهوات، إِنما الأَمر كله لله تعالى، والأَعمال جارية على قانون أَمره ونهيه، فليس لكم أَيُّها الكفرة مرادكم في قولكم: «هذه آلهتنا وهي تشفع لنا وتُقَرِّبنا زلفى» ونحو هذا. وقال ابن زيد، والطبري: الإِنسان هنا هو محمد ﷺ، بمعنى أَنه لم ينل كرامتنا بتأْميل بل بفضل من الله تعالى، أَو بمعنى: بل إِنه تمنى كرامتنا فنالها؛ إِذ

الكلُّ لله تعالى يهب من يشاءُ، وهذا ما تقتضيه الآية وإن كان اللفظ يعمه.

و«الآخِرَةُ والأُولَى»: الدَّاران، أَي: له كل أَمرهما ملكاً ومقدوراً وتحت سلطانه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ الآية... ردٌّ على قريش في قولهم: «الأَوثان شفعاؤُنا»، كأَنه تعالى يقول: هذه حال الملائكة الكرام فكيف بأَوثانكم؟ و[كَمْ] للتكثير، وهي في موضع رفع بالابتداءِ، والخبر ﴿لَا تُغْنِي﴾، والغِنَى: جَلْبُ النَّفع ودفع الضرِّ بحسب الأَمر الذي يكون فيه الغِنَى، وجمع الضمير في [شَفَاعَتُهُمْ] على معنى [كَمْ]، ومعنى الآية أَنْ يأْذن الله تعالى في أَن يُشفع لشخص ما يرضى عنه كما أذن في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ الآية[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾.

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ هم كفَّار العرب، وقوله تعالى: ﴿لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ﴾ معناه: ليصفون الملائكة بأَوصاف الأُنوثة، وأَخبر الله تعالى عنهم أَنهم لا علم لهم بذلك، وإنما هي ظنون منهم لا حُجَّة لهم عليها، وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه: «مِنْ عِلْم إلاَّ اتِّباعَ الظَّنِّ»، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ يعني: في المعتقدات والمواضع التي يريد الإنسان أَن يُحَرِّر ما يفعل ويعتقد، فإنها مواضع وحقائق لا تنفع الظُّنون فيها، وأَما في الأَحكام وظواهرها فَيُجْتَزَأُ فيها بالمظنونات. ثم سلَّى تعالى نبيَّه ﷺ وأَمره بالإعراض عن هؤلاءِ الكفرة، وما في الآية من موادعتهم منسوخ بآية السيف، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ معناه أَنه لا يُصدق بغيرها، وسعيُه وعملُه إنما هو لدنياه.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ معناه: هنا انتهى تحصيلهم من المعلومات، وذلك أَن المعلومات منها ما هي معقولات نافعة في الآخرة، ومنها ما هي أُمور فانية

(١) من الآية (٧) من سورة (غافر).

وأشخاص بائدة كالفلاحة وكثير من الصنائع وطلب الرياسة على الناس بالمخرقة، وكلها معلومات ولها علم، ومبلغ علم الكفرة إنما هو في هذه الدُّنياويَّات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ الآية... متصلٌ في معنى التَّسلية بقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ الآية... وعيدٌ للكفَّار ووعْدٌ للمؤمنين، وأسند الضَّلاَلَة والهدى إليهم بكَسْبِهِم وإن كان الجميع خلْقاً له واختراعاً، واللاَّم في قوله: [لِيَجْزِيَ] متعلقة بقوله تعالى: [ضَلَّ]، وبقوله تعالى: [اهْتَدَى]، فكأنه تعالى قال: ليصير أمرهم جميعاً إلى أن يجزيَ، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ اعتراضٌ بين الكلامَيْن، وقال بعض النحويين: اللام متعلقة بما في المعنى من التقدير، لأن تقديره: ولله ما في السموات وما في الأرض يضل من يشاءُ ويهدي من يشاءُ لِيَجْزِيَ. والنظر الأول أقل تكلُّفاً من هذا الإضمار، وقال قوم: اللام متعلقة بقوله تعالى في أول السورة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾، وهذا بعيد. و«الْحُسْنَى» هي الجنة، ولا حُسْنى دونها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: [الَّذينَ] نعتٌ لـ[الَّذينَ] المتقدم قبله، و[يَجْتَنِبُونَ] معناه: يَدَعُونَ جانباً، وقرأ جمهور القراءِ والناس: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾، وقرأ ابن وثاب، وطلحة، والأعمش، وعيسى، وحمزة، والكسائي: [كبير الإثم] على الإفراد الذي يراد به الجمع، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[1]، وكقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[2].

واختلف الناس في الكبائر، ما هي؟ فذهب الجمهور إلى أنها السَّبع الموبقات التي

---

(١) الآيتان (١٠٠)، (١٠١) من سورة (الشعراء).

(٢) من الآية (٦٩) من سورة (النساء).

وردت في الأَحاديث، وقد مضى القول في ذكرها واختلاف الأَحاديث فيها في سورة النساءِ، وتحرير القول في الكبائر أَنها كل معصية يوجد فيها حدٌّ في الدنيا وتَوَعُّدٌ بنار في الآخرة، أَو لعنة أو نحو هذا خاصٌّ بها، فهي كثيرة العدد، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما ـ حين قيل له: أَسَبْعٌ هي؟ ـ فقال: هي إِلى السبعين أَقربُ منها إِلى السبع، وقال زيد بن أَسلم: كبير الإِثم هنا يرادُ به الكفر. و«الفواحش» هي المعاصي المذكورة، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ هو استثناءٌ يصح أَن يكون متصلا، وإِن قدرتَه منقطعاً ساغ ذلك.

واختلف الناس في معنى [اللَّمَم] ـ فقال ابن عباس، وابن زيد: معناه: ما أَلَمُّوا به من الشِّرك والمعاصي في الجاهلية قبل الإِسلام، قال الثعلبي، عن ابن عباس، وزيد بن ثابت، وزيد بن أَسلم، وأَبيه: إِن سبب الآية أَن الكفار قالوا للمسلمين: قد كنتم بالأَمس تعملون أَعمالنا، فنزلت الآية، فهي مثل قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ﴾[1]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: معناه: إِلاَّ ما أَلَمُّوا به من المعاصي، الفلتة والسقطة دون دوام، ثم يتوبون منه، وذكر الطبري عن الحسن بن أَبي الحسن أَنه قال: هي اللَّمَّة من الزِّنى والسرقة وشرب الخمر ثم لا يعود، وهذا كالذي قبله، فكأَن هذا التأْويل يقتضي الرِّفق بالنَّاس في إِدخالهم في الوعد بالحسنى؛ إِذ الغالب في المؤمنين مواقعة المعاصي، وعلى هذا أَنشدوا ـ وقد تمثل به النبي ﷺ ـ:

إِنْ تَغْفِــرِ اللَّهُــمَّ تَغْفِــرْ جَمَّــا   وَأَيُّ عَبْــدٍ لَــكَ لاَ أَلَمَّــا[2]

---

(١) من الآية (٢٣) من سورة (النساء).

(٢) يُنسب هذا البيت إلى أُمَيَّة بن أبي الصَّلت، على أنه قاله عند احتضاره، والجَمُّ: الكثير، وألَمَّ الرجل: من اللَّمَمِ وهو صغار الذنوب، أو هو مقاربة المعصية دون مواقعة، والأول هو المناسب لمعنى البيت، وهو موضع الشاهد هنا، وقد نسب هذا البيت مع بيت آخر قبله إلى أبي خراش، قيل إنه مرَّ يسعى بين الصفا والمروة وهو يقول:

لا هُــمَّ هَــذَا خــامِــسٌ إنْ تَمَّــا   أَتَمَّــهُ اللهُ وَقَــدْ أَتَمَّــا

إنْ تَغْفِــرِ اللَّهُــمَّ تَغْفِــرْ جَمَّــا   وَأَيُّ عَبْــدٍ لَــكَ لا أَلَمَّــا؟

وقد ذكر ذلك صاحب اللسان نقلا عن ابن بَرِّي، وقد أخرج سعيد بن منصور، والترمذي وصححه، والبزَّار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في=

وقال أَبو هريرة، وابن عباس، والشعبي، وغيرهم: اللَّمَم: صغار الذنوب التي بين الحدَّيْن الدنيا والآخرة، وهي ما لا حدَّ فيه ولا وعيد مختصًّا بها مذكوراً لها، وإنما يقال صغار بالإضافة إلى غيرها، وإلاَّ فهي بالإضافة إلى الناهي عنها كبائر كلها، ويعضد هذا قولُ النبي ﷺ: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى لا محالة، فزنى العين النظر، وزنى اللسان النطق، والفرج يكذِّب ذلك أَو يصدِّقه، فإن تقدم فرجه فهو زانٍ، وإلاَّ فهو اللَّمَم»[(١)]، ورُوي أَن هذه الآية نزلت في نبْهَان التَّمار[(٢)]، فالناس لا يتخلصون من مواقعة هذه الصغائر، ولهم ـ مع ذلك ـ الحسنى إذا اجتنبوا التي هي في أَنفسها كبائر، وتظاهر العلماءُ في هذا القول وكثُر المائل إليه، وذكر الطبري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أَنه قال: اللَّمَم ما دون الشِّرك، وهذا عندي لا يصح عن عبد الله بن عمرو، وذكر المهدوي عن ابن عباس، والشعبي: اللَّمم ما دون الزِّنى، وقال نفطويه: اللَّمم ما ليس بمعتاد، وقال الرُّمَّاني: اللَّمم الهَمُّ بالذنب وحديث النفس به دون أَن يواقع، وحكى الثعلبي عن سعيد بن المسيب أَنه ما خطر على القلب، وذلك

= شعب الإيمان، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾، قال: هو الرجلُ يُلمُّ بالفاحشة ثم يتوب منها، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن تغفر اللهم تغفر جَمّاً، وأي عبد لك لا أَلمَّا»؟ ذكر ذلك الإمام السيوطي في الدر المنثور، وهذا هو الذي أشار إليه ابن عطية بقوله: «وقد تمثَّل به النبي ﷺ».

(١) أخرجه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللَّمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ، قال: «إن الله كتب على ابن آدم...» الحديث. (الدر المنثور).

(٢) وكان لنبهان هذا حانوت يبيع فيه تمراً، فجاءت امرأة تشتري منه تمراً، فقال لها: إن داخل الدكان ما هو خير من هذا، فلما دخلت راودها فأبت وانصرفت، فندم نبهان وأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: ما من شيءٍ يصنعه الرجل إلاَّ وقد فعلته إلاَّ الجماع، فقال: «لعلَّ زوجها غازٍ»؟ وفي رواية عن أبي الْيَسَر أن الرسول ﷺ قال له: «أَخَلَفْتَ غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟» حتى تمنى ـ أي نبهان ـ أنه لم يكن أسلم إلاَّ تلك الساعة، حتى ظن أنه من أهل النار، قال: وأطرق رسول الله ﷺ حتى أوحى الله إليه ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾، قال أبو الْيَسر: فأتيته فقرأها عليَّ رسول الله ﷺ، فقال أصحابه: يا رسول الله! أَلهذا خاصة أَمْ للناس عامة؟ فقال: «بل للناس عامة»، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب وفي الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

هو لمَّة الشَّيطان، قال الزهراوي: وقيل اللَّمم نظرة الفجأَة، وقاله الحسن بن الفضل. ثم أَنَّس تعالى بعد هذا بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ الآية. رُوي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أَنها نزلت بسبب قوم من اليهود كانوا يُعظِّمون أَنفسهم، ويقولون للطفل إِذا مات عندهم: هذا صدِّيق عند الله تعالى، ونحو هذا من الأَقاويل المُمَوَّهَة، فنزلت الآية فيهم[1] ثم هي بالمعنى عامة جميع البشر. وحكى الثعلبي عن الكلبي ومقاتل أنها نزلت في قوم من المؤمنين فخروا بأَعمالهم. وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ قال مكي بن أَبي طالب في المشكل: معناه: هو عالم بكم، وقال جمهور أَهل المعاني: بل هو التفضيل بالإِطلاق، أَي هو أعلم من الموجودين جملة، والعامل في [إِذْ] هو [أَعْلَمُ]، وقال بعض النحاة: العامل فيها فعل مضمر تقديره: اذكروا إِذ، والمعنى الأَول أَبين؛ لأَنَّ تقديره: فإِذا كان علمه قد أَحاط بكم وأَنتم في هذه الأَحوال ووقع بكم التخفي فأَحرى أن يقع بكم وأَنتم تغفلون وتجترحون.

والإِنشاءُ من الأَرض يراد به خلق آدم عليه السلام، ويحتمل أَن يراد به إِنشاءُ الغذاءِ، و[أَجِنَّةٌ] جمع جنين، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ ظاهره النهي عن أَن يُزَكِّي أَحدٌ نفسه، ويحتمل أَن يكون نهياً عن أَن يُزَكِّي بعض الناس بعضاً، وإِذا كان هذا فإِنما ينهى عن تزكية السُّمعة والمدح للدنيا، أَو القطع بالتزكية، ومن ذلك الحديث في عثمان بن مظعون عند موته[2]، وأَمَّا تزكية الإِمام والقدوة أَحداً ليؤتم به أَو ليَتَهَمَّمَ الناسُ بالخير

---

(١) أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو نعيم في المعرفة، وابن مردويه، والواحدي، عن ثابت بن الحارث الأنصاري، قال: كانت اليهود إذا هلك لهم صبيٌّ صغير قالوا: هذا صِدِّيق، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «كذبت يهود، ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمها إلاّ أنه شقيٌّ أو سعيد»، فأنزل الله عند ذلك ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ الآية. (الدر المنثور).

(٢) حديث عثمان بن مظعون أخرجه البخاري في الجنائز والتعبير، وأحمد في مسنده (٦ـ٤٣٦)، ولفظه كما في البخاري عن خارجة بن زيد بن ثابت أَنَّ أُمَّ العلاءِ ـ امرأةً من الأنصار ـ بايعت النبي ﷺ، أخبرته أنه اقتُسم المهاجرون قُرْعةً، فطار لنا عثمان بن مظعون، فأنزلناه في أبياتنا، فوجع وجعه الذي توفي فيه، فلما توفِّي وغُسِّل وكُفِّن في أثوابه دخل رسول الله ﷺ. فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال النبي ﷺ: وما يُدريك أن الله أكرمه؟ فقلت: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يُكرمه الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أمَّا هو فقد جاءه اليقين، والله إنِّي لأرجو له الخير، والله ما أدري ـ وأنا رسول الله ـ ما يُفعل بي، قالت: فو الله لا أُزَكِّي أَحداً بعده أبداً.

فجائز، وقد زكَّى رسول الله ﷺ بعض أَصحابه، أَبا بكر وغيره رضي الله عنهم، وكذلك تزكية الشهود في الحقوق جائز للضرورة إليها، وأَصل التزكية إنما هو التقوى، والله تعالى هو أَعلم بتقوى الناس منكم.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ الآية. قال مجاهد، وابن زيد، وغيرهما: نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، وذلك أَنه كان قد سمع قراءَة النبي ﷺ، وجلس إليه، وَوَعَظَهُ رسول الله ﷺ، فَقَرُبَ من الإسلام، وطمع النبي ﷺ فيه، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين وقال له: أَتترك مِلَّة آبائك؟ ارجع إلى دينك واثبت عليه وأَنا أَتحمل لك بكل شيءٍ تخافه في الآخرة، لكن على أَن تعطيني كذا وكذا من المال، فوافقه الوليد بن المغيرة على ذلك، ورجع عمَّا همَّ به من الإسلام، وضلَّ ضلالاً بعيداً، وأَعطى ذلك المال لذلك الرجل ثم أَمسك عنه وشَحَّ، فنزلت الآية فيه. وذكر الثعلبي عن قوم أَنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه في قصة جرت له مع عبد الله بن سعد بن أَبي سَرْح[1]، وذلك كله عندي باطل، وعثمان عن مثله مُنَزَّهٌ. وقال السُّدي: نزلت في العاص بن وائل، فقوله تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ ـ على هذا القول ـ هو في المال، وقال مقاتل بن حيان في كتاب الثعلبي: المعنى: وأَعطى من نفسه قليلاً في قربه من الإيمان، ثُمَّ أَكْدَى، أَي انقطع ما أَعطى، وهذا بيِّن من اللَّفظ، والآخر يحتاج إلى رواية، و[تَوَلَّى] معناه: أَدبر وأَعرض، والمراد: عن أَمر الله تعالى، و[أَكْدَى] معناه: انقطع عطاؤُه، وهو مُشَبَّه بالحافر في الأرض، فإنه إذا انتهى إلى كُدْية ـ وهي ما صلب من الأَرض ـ وقف وانقطع حفره، وكذلك: أَجْبَل الحافر إذا انتهى إلى جبل، ثم قيل لمن انقطع عمله: أَكْدَى وأَجْبَل.

---

(١) ذكر القرطبي أن خبر عثمان بن عفان مع أخيه ابن أبي سرح نقل عن ابن عباس، والسدي، والكلبي، والمُسَيَّب بن شريك، وفيه أن عثمان رضي الله عنه كان يتصدق وينفق في الخير، فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبي سَرْح: ما هذا الذي تصنع؟ يوشك ألاَّ يبقى لك شيءٌ، فقال عثمان: إن لي ذنوباً وخطايا، وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه، فقال له عبد الله: أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمَّل عنك ذنوبك كلها، فأعطاه وأشهد عليه، وأمسك عما كان يصنع من الصدقة، فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾، فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله، وقد ذكر ذلك الثعلبي، وذكره الواحدي في (أسباب النزول). وسابقة عثمان رضي الله عنه وتاريخه في الإسلام يجعلنا نؤكد رأي ابن عطية في نفي ذلك عنه.

وقوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ معناه: أَعَلِم من الغيب أَنَّ من تحمَّل ذنوب آخر فإن المُتَحَمِّل عنه ينتفع بذلك فهو لهذا الذي عَلِمَه يرى الحقَّ وله فيه بصيرة، أَم هو جاهل لم يُنَبَّأْ بما في صحف موسى ـ وهي التوراة ـ وفي صحف إبراهيم ـ وهي كتب نزلت عليه من السماءِ ـ من أَنه لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى؟ أَي: لا تحمل حاملة حِمْل أُخرى، وإنما يؤخذ كل أَحد بذنوب نفسه، فلما كان جاهلاً بهذا وقع في إعطاءِ ماله للذي قال له: أَنا أَتَحَمَّل عنه دَرَك الآخرة(١).

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾، وفي ما هو المُوَفَّى؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأْخذون الوليَّ بالوليِّ في القتل ونحوه، فوفَّى إبراهيم عليه السلام وَبَلَّغ هذا الحكم من أَنه لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، والربيع: ومن طاعة الله تعالى في ذبح ابنه عليهما السلام، وقال الحسن، وابن جبير وقتادة: وَفَّى تبليغ رسالته والمجاهدة في ذات ربه تعالى، وقال عكرمة: وفَّى هذه العشر الآيات: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فما بعدها، وقال ابن عباس، وقتادة، وعكرمة: وفَّى ما افْتُرِض عليه من الطَّاعات على وجهها، وتكمَّلت له شعب الإيمان والإسلام، فأَعطاه الله تعالى براءَته من النَّار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: وفَّى شرائع الإسلام ثلاثين سهماً، وقال أَبو أمامة ـ ورفعه إلى النبي ﷺ ـ: وفَّى أَربع صلوات في كل يوم، والأَقوى من هذه كلها القول العامُّ لجميع الطَّاعات المستوفية لدين الإسلام، فروي أَنها لم تُفرض على أَحد مُكَمَّلة فوفَّاها إلاَّ على إبراهيم ومحمد ﷺ، ومن الحجَّة لذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾(٢).

وقرأَ ابن جُبَيْر، وأَبو مالك، وابن السميفع: [وَفَى] مخففَّة الفاءِ، والخلاف فيما وَفَى به كالخلاف فيما وَفَّاه على القراءَة الأُولى التي فَسَّرنا ورويت هذه القراءَة عن النبي ﷺ، وقرأَها أَبو أُمامة(٣).

---

(١) أي: تَبِعَةَ الآخرة، يقال: ما لحقك من دَرَك فعليَّ خلاصه.

(٢) من الآية (١٢٤) من سورة (البقرة).

(٣) قال ابن جنِّي: «وهذا على تسمية المُسَبَّب باسم سببه، ألا ترى أنَّ معناه، الذي وعد ذلك فوفى بحاضره وسيفي بغائبه يوم القيامة، وذلك منهم لصدق الوعد، أي: إذا قال فقد فعل أو قد وقع ما يقوله، وهذا كقولهم: وعْد الكريم نقد، ونقد اللَّئيم وعْد».

و«الوِزْرُ»: الثقل، وأَنَّث «الْوَازِرَةَ» إمَّا لأنه أراد النَّفس، وإمَّا أنه أراد المبالغة كَعَلاَّمة ونسَّابة وما جرى مجراهما، و[أَنْ] في قوله سبحانه: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ مخفَّفة من الثقيلة، وتقديرها: أنه لا تزر، وحسَّن الحائل بينها وبين الفعل أن بقي الفعل مرتفعاً، فهي كقوله تعالى: ﴿أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ﴾[1] ونحوه، و[أَنْ] في موضع رفع أو خفض كلاهما مترتب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ﴾، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وأن، وأنه﴾ معطوف كل ذلك على «أَن» المقدرة في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾، وهي كلها بفتح الألف في قراءة الجمهور، وقرأ أبو السمال قعنب: [وَإِنَّ إِلَى رَبِّكَ المُنْتَهَى] بكسر الهمزة فيها وفيما بعدها، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ منسوخ بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[2]، وهذا لا يصح عندي عن ابن عباس رضي الله عنهما لأنه خبر لا يُنْسخ، ولأَن شروط النسخ ليست هنا، اللهم إلاَّ أن يُتَجوَّز في لفظة النسخ ليفهم سائلاً. وقال عكرمة: هذا الحكم كان في قوم إبراهيم وموسى عليهما السلام، وأَمَّا هذه الأُمَّة فلها سَعْيُ غيرها، والدليل حديث سعد بن عبادة، قال: يا رسول الله: هل لأُمِّي إن تطوعت عنها أَجر؟ قال: نعم[3]، وقال الربيع بن أَنس: هذا الإِنسان في هذه الآية هو الكافر، وأَمَّا المؤمن

---

(١) من الآية (٢٠) من سورة (المزمِّل).

(٢) من الآية (٢١) من سورة (الطُّور).

(٣) أخرج الإمام أحمد في مسنده عن هشام، قال: أخبرني أبي، قال: أخبرتني عائشة أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن أُمِّي افْتُلتت نفسها، وأظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها أجر أن أتصدق عنها؟ قال: نعم. وأخرجه مسلمٌ في صحيحه من عدة طرق، كلها تنتهي إلى هشام. ومعنى «افْتُلتت»، ماتت فجأة. قال الإمام ابن حزام النووي في شرحه لصحيح مسلم: «وفي هذا الحديث أن الصدقة عن الميت تنفع الميت ويصله ثوابُها، وهو كذلك بإجماع العلماءِ، وكذلك أجمعوا على وصول الدعاءِ وقضاء الدَّيْن بالنصوص الواردة=

فله ما سعى وما سعى له غيره، وسأل عبد الله بن طاهر بن الحسين والي خراسان الحُسَيْن بْنَ الفضل عن هذه الآية مع قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾[1]، فقال له: ليس له بالعدل إلاَّ ما سَعَى، وله بفضل الله ما شاءَ اللهُ، فقبَّل عبدُ الله رأس الحسين، وقال الجمهور: الآية محكمة، والتحرير عندي في هذه الآية أَنَّ مَلاك المعنى هو في اللام من قوله تعالى: [لِلإِنْسَانِ]، فإذا حققت الشيءَ الذي حقُّ الإنسان أَن يقول فيه: «لي كذا» لم تجده إلاَّ سعيه، وما تَمَّ بَعْدُ من رحمة بشفاعة أَو رعاية أَب صالح أَو ابن صالح أَو تضعيف حسنات أَو تغمُّد بفضل أو رحمة دون هذا كله، فليس هو للإنسان ولا يَسَعُهُ أَن يقول: «لي كذا وكذا» إلاَّ على تجوُّز وإلْحاق بما هو له حقيقة، واحتج بهذه الآية من يرى أَنه لا يعمل أَحدٌ عن أَحد بعد موته ببدن ولا مال، وفرَّق بعض العلماءِ بين البدن والمال، وهي عندي كلها فضائل للعامل وحسناتٌ تُذكر للمعمول عنه، وقد أَمر رسول الله ﷺ سعداً رضي الله عنه بالصدقة عن أُمه، والسَّعْيُ: الكَسْبُ.

وقوله تعالى: [يُرَى] فاعلُه حاضرو القيامة، أَي يراه الله تعالى ومَنْ شاهد الأَمر، وفي عرض الأَعمال على الجميع تشريف للْمُحْسنين وتوبيخ لِلْمُسيئين، ومنه قول النبي ﷺ: «من سمَّع بأَخيه فيما يكره سمَّع الله به سامع خلقه يوم القيامة»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ وعيدٌ للكافرين وعْدٌ للمؤمنين.

و«المُنْتَهَى»: يحتمل أَن يريد به الحشر والمصير بعد الموت، فهو مُنتهى بالإِضافة إِلى الدنيا وإِن كان بعده مُنْتهى آخر هو الجنة أَو النار، ويحتمل أَن يريد بالمنتهى الجنة أَو النار، فهو منتهى على الإِطلاق، ولكن في الكلام حذفُ مضاف، أَي: إِلى عذاب ربك ورحمته، وقال أُبَيُّ بن كعب رضي الله عنه: قال النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ

= في الجميع، ويصح الحج عن الميت إذا كان حج الإسلام، وكذا إذا وصَّى بحج التطوع على الأصح عندنا، واختلف العلماءُ في الصوم إذا مات وعليه صوم، فالراجح جوازه عنه للأحاديث الصحيحة فيه، وأما الصلاة وسائر الطاعات فلا تصله عندنا ولا عند الجمهور، وقال أحمد: يصله ثواب الجميع». وقد وضح القرطبي اسم الرجل كما هنا، وذكر أن الرجل سأل: فأي الصدقة أفضل؟ قال: سقي الماءِ.

(١) من الآية (٢٦١) من سورة (البقرة).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق والأحكام، ومسلم في الزهد، والترمذي في النكاح، وابن ماجه في الزهد، وأحمد في مسنده (٣ـ٤٠، ٥ـ٤٥). ولفظه كما في مسلم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمَّع سمَّع الله به، ومن راءَى راءَى الله به»، وروي مثله عن جندي العَلَقِيِّ ولكن بلفظ المضارعة: «من يُسَمِّع. . .».

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾: «لا فِكْرة في الرَّبِّ»[١]، وروى أَنس رضي الله عنه أَن النبي ﷺ قال: «إِذا ذُكر الرَّبُّ فانتهوا»[٢]، وقال أَبو هريرة رضي الله عنه: خرج رسول الله ﷺ يوماً على أَصحابه فقال: «فيم أَنْـتُمْ»؟ قالوا: نتفكَّر في الخالق سبحانه وتعالى، فقال عليه الصلاة والسلام: «تَفَكَّـرُوا فـي الخَلْـق ولا تَتَفَكَّـروا فـي الخـالـق فـإِنـه لا تحيـط الفكـرة»... الحديث[٣]، وذكر تعالى الضحك والبكاء لأنهما صفتان تجمعان أصنافاً كثيرة من الناس؛ إِذ الواحدة دليل السرور والأخرى دليل الحزن في الدنيا والآخرة، فنَبَّه تعالى على هاتين الخاصَّتين اللتين هما للإِنسان وحده، وقال مجاهد: المعنى: أَضحك أَهل الجنة وأبكى أَهل النار[٤]، وحكى الثعلبي في هذا أقوالاً استعاريَّة كَمَنْ قال: أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماءَ بالمطر، ونحوه، و﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ بَيِّنٌ، وحكى الثعلبي قولاً أَنه أَحيا بالإِيمان وأَمات بالكفر. و«الزَّوْجَيْن» في هذه الآية يريد به المُصْطَحِبَيْن من الناس، من الرجل والمرأَة وما ضارع من الحيوان، والخُنْثَىٰ مُتَمَيِّزٌ ولا بُدَّ لإِحدى الجهتين.

و«النُّطْفَةُ» في اللغة: القطعة من الماءِ كانت يسيرة أَو كثيرة، ويراد بها هنا الذُّكْران[٥].

وقوله: [تُمْنَى] يحتمل أن يكون من قولك: «أَمْنَى الرجل» إذا خرج منه المنيُّ، ويحتمل أن يكون من قولك: «منى الله الشيء» إذا خلقه، فكأنه قال: إذا تُخْلَق وتُقَدَّر. و«النَّشْأَةُ الأُخرى» هي إعادة الأجسام إلى الحشر بعد البلى في التركيب، وقرأ الناس:

---

(١) أخرجه الدارقطني في الإفراد، والبغوي في تفسيره، عن أُبَيِّ بن كعب، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة عن سفيان الثوري.

(٢) ذكره القرطبي بلفظ: «إذا ذكر الله تعالى فانْتَه»، وذكره الإمام السيوطي في (الجامع الصغير)، عن البزَّار، عن أَبي سعيد المقبري مرسلاً بلفظ «إذا ذكرتم بالله فانتهوا».

(٣) أخرجه أبو الشيخ عن يونس بن مسيرة، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يذكرون عظمة الله تعالى، فقال: ما كنتم تذكرون؟ قالوا: كنا نتفكر في عظمة الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: ألا في الله فلا تفكروا، ثلاثاً، ألا فتفكروا في عِظم ما خلق، ثلاثاً، وأخرج مثله أيضاً أبو الشيخ عن أبي أُمَيَّة مولى شبرمة واسمه الحكم، عن بعض أئمة الكوفة، مع زيادة في آخره، وأخرج أبو الشيخ أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله مع زيادة واختلاف في الألفاظ. ذكر ذلك الإمام السيوطي في «الدر المنثور».

(٤) اخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: مرَّ رسول الله ﷺ على قوم يضحكون، فقال: لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً، فنزل عليه جبريل فقال: إن الله هو أَضْحك وأَبْكى، فرجع إليهم فقال: ما خطوت أربعين خطوة حتى أتاني جبريل فقال: ائت هؤلاء فقل لهم: إن الله أضحك وأبكى. «الدر المنثور».

(٥) أي: يراد بها ماء الرجال.

(النَّشْأة) بسكون الشين وبالهمزة والقصر، وقرأ أبو عمرو، والأعرج: [النَّشَاءَةَ] ممدودة، و«أَقْنَى» معناه: أَكْسَبَ، تقول: قنيتُ المال أي كسبته، ثمَّ تُعَدَّى بعد ذلك بالهمزة، وتُعَدَّى بالتضعيف، ومنه قول الشاعر:

كَمْ مِنْ غَنِيٍّ أَصابَ الدَّهْرُ ثَرْوَتَهُ وَمِنْ فَقِيرٍ تَقَنَّى بَعْدَ إِقْلَالِ[1]

وعبَّر المفسرون عن «أَقْنَى» بعبارات مختلفة، فقال بعضهم: أَقْنَى معناه: اكْتَسَب ما يَقْتَني، وقال مجاهد: معناه: أَرْضى وأَغْنَى، وقال حضرمي: معناه: أَغنى نفسه و«أَقْنَى» أفقر عباده إليه، وقال الأخفش: أَغْنَى: أفقر، وهذه عبارات لا تقتضيها اللفظة، والوجه فيها بحسب اللغة: أَكْسَبَ ما يُقْتَنَى، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَقْنَى: أَقنع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقناعة خير قِنْيَة، والغِنَى عَرَضٌ زائل، فَـلِلهِ دَرُّ ابن عباس رضي الله عنهما.

و«الشِّعْرَى»: نجم في السماءِ، وقال مجاهد وابن زيد: هو مرْزَم الجوزاءِ[2]، وهما شعريان: إِحداهما الغميصاءُ[3] والأُخرى العَبُور، لأنها عبرت المَجَرَّة، وكانت خزاعة ممن يعبد هذه الشِّعرى، ومنهم أَبو كبشة، ذكره الزهراوي والثعلبي، واسمه عبد الشِّعرى، فلذلك خُصَّت بالذكر، أَي: وهو ربُّ هذا المعبود الذي هو لكم.

و«عَادٌ»: قوم هود، واختلف في معنى وصفها بالأُولى ـ فقال ابن زيد والجمهور: ذلك لأَنها في وَجْه الدَّهر وقديمه، فهي أُولَى بالإِضافة إِلى الأُمم المتأَخرة، وقال الطبري: سميت بالأُولى لأَن عاداً أخيرة ـ وهي قبيلة ـ كانت بمكة مع العماليق وهم بَنُو

---

(١) هذا البيت شاهدٌ هنا على أن (قَنِيَ) تتعدى بالتضعيف، و«كَمْ» هنا للتكثير، وأصاب ثروته: أضاعها، فكأنه أنزل بها إصابة ماحقة، والإقلال: الفقر والحاجة، يقول: كثير من الأغنياء أصابهم الدهر فضاعت ثرواتهم، وكثير من الفقراء أغناهم الدهر وأكسبهم الثروة، ولم أقف على قائل البيت.

(٢) أي الذي يأتي بعد الجوزاء ويتبعها، وهو اسمٌ لعدد من النجوم أشهرها مِرْزَمان: هما الشِّعْرَيَان: العَبُورُ والغُمَيْصَاءُ، وأُمُّ مِرزم: الريح، أو ريح الشمال الباردة؛ لأنها تأتي بِنَوءِ المِرْزَم ومعه المطر والبرد. (المعجم الوسيط). وفي اللسان: «الشِّعْرَى: كوكب نيِّر يقال له: المِرْزم، يطلع بعد الجوزاء وطلوعه في شدة الحر».

(٣) سمَّاها العرب بالغُمَيْصَاءِ لأنهم قالوا: إنها بكت على إثر العَبُور حتى غَمِصَتْ، أي صغرت، وهذا كناية عن قلة ضوئها.

لُقَيْم بن هزَّال، والقول الأول أبْيَن؛ لأَن هذا الأَخير لم يصح، وقال المبرد: عاد الأَخيرة هي ثمود، والدليل قول زهير:

. . . . كَـأَحْمَـر عَـادٍ ثُـمَّ تُـرْضِـعْ فَتَفْطِـمِ[١]

ذكره الزهراوي، وقيل: الأخيرة: الجَبَّارُون. وقرأَ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: (عَاداً) منونةً (الأُولَى) مهموزة، وقرأَ نافع فيما يُروى عنه: ﴿عَادَ الأولَى﴾ بإِزالة التنوين والهمز، وهذا كقراءَة من قرأَ: ﴿أَحَدُ اللهُ﴾[٢]، وكقول الشاعر:

. . . . وَلاَ ذاكِـــــرِ اللهَ إِلاَّ قَليـــــلاَ[٣]

وقرأَ قوم: (عَادِ الأُولَى)، والنطق بها (عادَنِ الأُولَى)، اجتمع سكون نون التنوين وسكون لام التعريف فكُسرت النون لالتقاءِ الساكنين، ولا فرق بينها وبين قراءَة

---

(١) هذا عجز بيت من المعلقة، وهو واحد من الأبيات التي يصف فيها الحرب وينفِّر منها، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

فَتَعْـرُكُكُـمْ عَـرْكَ الـرَّحَـى بِثِفـالِهَـا ... وتَلْقَـحْ كِشَـافـاً ثُـمَّ تُنْتِـجْ فَتُتْئِـمِ
فَتُنْتِـجْ لَكُـمْ غِلْمَـانَ أَشْـأَمَ كُلُّهُـمْ ... كَـأَحْمَـرِ عـادٍ ثُـمَّ تُـرْضِـعْ فَتَفْطِـمِ

يقول: إن الحرب تعرُكُكُمْ كما تَعْرُك الرَّحَى الحَبَّ مع الثِّفَالِهِ وهو الخِرقة التي توضع تحت الرحى ليقع عليها الطحين، والحرب تلقح في السنة مرتين وتلد توأمين، والشُّؤْم: ضِدُّ اليُمْن، ورجلٌ مَشْئُومٌ كما يقال رجل ميمون، والأشأم: أفعل من الشؤم وهو مبالغة، وأراد بأحمر عاد أحمر ثمود وهو قدار بن سالف الذي عقر الناقة، يقول: فَتَلِدُ لكم أبناءً في أثناء تلك الحروب كل واحد منهم أشأم كعاقر الناقة، ثم ترضعهم الحرب وتفطمهم، أي تكون ولادتهم ونشأتهم في أثناءِ الحرب فيصبحون مشائيم على آبائهم، والشاهد هو أنه أراد بأحمر عاد أحمر ثمود، فعادٌ تطلق على ثمود، وهي عادٌ الأخيرة.

(٢) من قوله تعالى في الآيتين الأولى والثانية من سورة (الصمد): ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، فقد قرئت: [أَحَدُ] بدون تنوين.

(٣) هذا عَجُز بيت لأبي الأسود الدؤَلي ـ ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي ـ والبيت بتمامه:

فَـــأَلْفَيْتُـــهُ غَيْـــرَ مُسْتَعْتِـــبٍ ... وَلا ذاكِـــرِ اللهَ إِلاَّ قَلِيـــلاَ

وهو في الكتاب، وخزانة الأدب، وابن الشجري، والأغاني، والمغني، واللسان، ويروى أن أبا الأسود أغوته امرأة بجمالها، وزعمت أنَّها صناعُ الكفِّ حسنة التدبير، وعرضت عليه الزواج فتزوجها، ولكنه وجدها قد أسرفت في ماله، ومدت يدها إلى خيانته، فهجاها بأبيات منها هذا البيت، وغير مُسْتَعْتِبٍ: أي غير راجع بالعتاب عن قبيح فعله، وهو يعني هذه المرأة، والشاهد في البيت حذف التنوين من «ذاكر» لالتقاءِ الساكنين ونصب ما بعده وإن كان الوجه الإضافة.

الجمهور إلاَّ ترك الهمز، وقرأَ نافع أَيضاً، وأَبو عمرو بالوصل والإِدغام: [عَادًا لُّولَى] بإِدغام النون في اللام ونقل حركة الهمزة إِلى اللام، وعاب أَبو عثمان المازني والمبرِّد هذه القراءَة وقالا: إِن هذا النقل لا يخرج اللام عن حدِّ السكون، وحقُّ أَلف الوصل أَن تبقى كما تقول العرب إِذا نقلت الهمزة من قولهم: «الأَحْمَر» فإِنهم يقولون: «الَحْمَرُ جاءَ»، فكذلك يقال هنا: «عاداً لُلولَى»، قال أَبو علي: والقراءَة سائغة، وأَيضاً فمن العرب من يقول: «لَحمَرُ جاءَ» فيحذف الأَلف مع النقل ويَعْتَدُّ بحركة اللام ولا يراها في حكم السكون، وقرأَ نافع فيما رُوي عنه: [عاداً اللُّؤْلَى] بهمز «اللُّؤْلَى»، يهمز الواو، ووجه ذلك أَنَّه لم يكن بين الواو والضمة حائل يحمل الهمزة فهمزها كما تهمز الواوُ المضمومة، وكذلك فعل من قرأَ: [على سؤقِهِ][1]، وكما قال الشاعر:

لَحَبَّ المُؤْقِدَانِ إِلَيَّ مُؤْسَى . . . .[2]

وهي لغة. وقرأَ الجمهور: [وَثَمُوداً] بالنصب عطفاً على [عَاداً]، وقرأَ عاصم، والحسن، وعصمة: [وَثَمُودَاْ] بغير صرف، وهي في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه بغير أَلف بعد الدال.

وقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ ظاهره: فما أَبقى عليهم، وتأَول ذلك بعضهم: فما أَبقي منهم عينا تطرف، وقد قال ذلك الحجاج حين سمع قول من يقول: إِن ثقيفاً من

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٢٩) من سورة (الفتح): ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾.

(٢) هذا صدر بيت قاله جرير من قصيدة له يمدح هشام بن عبد الملك، ويروى: لَحَبَّ الواقدان، وأحب الموقدين، وأنشده الزمخشري في كشافه كما هنا، والبيت بتمامه:

لَحَبَّ الْمُؤْقِدَانِ إِلَيْكَ مُؤْسَى وَجَعْدَةُ إِذْ أَضَاءَهُمَا الْوَقُودُ

وحَبَّ: فِعْل ماض أَصلُه حَبُب، مثل كَرُمَ، ومعناه: صار محبوباً، فأدغمت الباءُ الأولى في الثانية إما للقلب، وإما لنقلها إلى الحاءِ قبلها، فَلِذَا رُوي «لَحَبَّ ـ بفتح الحاءِ وضمها ـ واللام في «لَحَبَّ» لام جواب قسم محذوف، والمُؤْقدان هما موسى وجعدة، فإنهما يوقدان نار القرى للضيوف، كناية عن الكرم، والوُقود ـ بضم الواو ـ: مصدر بمعنى الإيقاد، وبالفتح ما يوقد به من حطب ونحوه، والمعنى: لما أضاء إيقاد النار موسى وجعدة ورأيتهما ذوي ضياءٍ وبهجة صارا محبوبَيْن، والشاهد هو قلب الواو همزة في «المؤقدان»، وفي «مُؤْسى» إجراءً لضمة ما قبلها مجرى ضمتها هي، وهذا هو مذهب سيبويه، وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت في أكثر من مناسبة.

ثمود، فأنكر ذلك وقال: إن الله تعالى قال: ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾، وهؤلاءِ يقولون: بقي منهم باقية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

نصب ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾ عطفاً على [ثَمُودَ]، وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ لأنهم كانوا أول أُمَّة كذبت من أَهل الأَرض، و«نوح» أَول الرُّسل، وجعلهم «أَظلَم وأَطْغى» لأَنهم سبقوا إِلى التكذيب دون اقتداءِ بأَحد قبلهم، وأَيضاً فإِنهم كانوا في غاية من العُتُوِّ، وكان عُمْر نوح عليه السلام قد طال في دعائهم، وكان الرجل يأْتي إِليه مع ابنه فيقول: احذَرْك من هذا الرجل فإِنه كذَّاب، ولقد حذَّرني منه أَبي وأَخبرني أَن جَدِّي حذَّره منه، فمشت على هذا أَخلاقهم أَلفاً إِلاَّ خمسين عاماً.

و«الْمُؤْتَفِكَةُ» قرية قوم لوط عليه السلام بإِجماع من المفسِّرين، ومعنى «الْمُؤْتَفِكَة»: المتقلبة؛ لأَنها أَفِكَت فأْتفكت، ومنه «الإِفْكُ» لأَنه قلْب الحق كذباً، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: (وَالْمُؤْتَفِكَاتِ) على الجمع، و[أَهْوَى] معناه: طرحها في هواءِ عال إِلى أَسفل، وهذا ما رُوي من أَن جبريل عليه السلام اقتلعها بجناحه حتى بلغ قرب السماءِ فهبط الجميع، ثم أُتْبعوا بحجارة، وهي التي غشَّاها الله تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ مخاطبة للإِنسان الكافر، كأَنه قيل له: هذا هو الذي له هذه الأَفاعيل، وهو خالقك المنعم عليك بكل النِّعم، ففي أَيها تشكُّ؟ و[تَتَمَارَى] معناه: تَتَشَكَّك، وقرأَ يعقوب: [ربِّكَ تَّمارَى] بتاءِ واحدة مشدَّدة، وقال أَبو مالك الغفاري[1]: إِن قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ إِلى قوله تعالى: [تَتَمَارَى] هو في صحف إِبراهيم وموسى عليهما السلام.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ يحتمل أَن يشير إِلى محمد ﷺ، وهو قول قتادة، وأَبي جعفر، ومحمد بن كعب القرظي، ويحتمل أَن يشير إِلى القرآن، وهو تأْويل قوم، وقال

(١) اسمه غَزْوان الغِفَاري، أَبو مالك الكوفيُّ، مشهور بكنيته، ثقة، من الثالثة، (تقريب التهذيب).

أَبو مالك: الإِشارة بهذا النَّذير إِلى ما سلف من الأخبار عن الأُمم، و[نَذِيرٌ] يحتمل أَن يكون بناءَ اسم فاعل، ويحتمل أَن يكون مصدراً، و«نُذُر» جمع نذير، وقال: [الأُولَى] بمعنى أنه في الرتبة والأَوصاف والمنزلة من تلك المتقدمة، والأَشبه أَن تكون الإِشارة إِلى محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ معناه: قربت القريبة، و[الآزِفَةُ] عبارة عن القيامة بإجماع من المفسرين، و«أَزِفَ» معناه: قَرُبَ جدًّا، وقال كعب بن زهير:

بَانَ الشَّبَابُ وأَمْسَى الشَّيْبُ قَدْ أَزِفَا ... وَلاَ أَرَى لِشَبَابٍ ذاهِبٍ خَلَفَا[1]

وقوله تعالى: (كَاشفَةٌ) يحتمل أَن يكون صفةً لمؤنثة، والتقدير: حالٌ كاشفة، أَو منَّةٌ كاشفة، أَو سعاية، قال الرُّمَّاني: أَو جماعة، ويحتمل أَن يكون مصدراً كالعاقبة و﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾[2]، ويحتمل أَن يكون بمعنى «كاشف» والهاءُ للمبالغة، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾[3]، وأَما معنى (كَاشِفَة) فقال الطبري، والزجاج: هو من كشف السِّرِّ، أَي: ليس من دون الله من يكشف وقتها ويعلمه، وقال الزهراوي عن منذر بن سعيد: هو من كشف الضُّرِّ ودَفعه، أَي: ليس من يكشف هولها وخطبها، وقرأ طلحة: «لَيْسَ لَهَا مِمَّا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله كَاشِفَةٌ وَهِيَ عَلَى الظَّالِمِينَ سَاءَتِ الْغَاشِيَةُ»[4].

و﴿هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ هو القرآن، وقوله تعالى: (أَفَمِنْ)؟ توقيف وتوبيخٌ، وفي حرف

---

(١) يبكي شبابه ويتوجس خيفة من الشيب، وبانَ: ذهب وارتحل. وأزِف: دنا واقترب جداً، وهو موضع الاستشهاد هنا. يقول: ذهب الشباب واقترب المشيب، فالكبر والعجز، وليس بعد ذلك إلا الفناء، فإذا ذهب الشباب فقد ذهب العمر كله في الحقيقة.

(٢) جاءت في قوله تعالى في الآية (١٩) من سورة (غافر): ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾.

(٣) الآية (٨) من سورة (الحاقة).

(٤) قال أبو الفتح بن جني: «هذه القراءة تدل على أن المراد بقراءة الجماعة: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾، حذف مضاف بعد مضاف، ألا ترى أن التقدير: «ليس لها من جزاءِ عبادة معبودٍ دون الله كاشفةٌ»، فالعبادة ـ على هذا ـ مصدر مضاف إلى المفعول، ، كقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾، ثم حذف المضاف الأول فصار تقديره: «ليس لها من عبادة معبودٍ دون الله كاشفة»، ثم حذف المضاف الثاني الذي هو «عبادة» فصار التقدير: «ليس لها من معبود دون الله كاشفة»، ثم حذف المضاف الثالث فصار إلى ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾. وقوله: «وَهِيَ عَلَى الظَّالِمِينَ ساءَتِ الغَاشِيَةُ» جارٍ مجرى قولهم: «زيدٌ بِئس الرجلُ»؛ لأن ساءَ بمعنى بِئْس».

أُبَيٍّ، وابن مسعود رضي الله عنهما «تَعْجَبُونَ، تَضْحَكُونَ» بغير واو عطف، وقرأ الحسن: ﴿تُعْجِبُونَ تُضْحِكُونَ﴾ بضم التاءِ فيهما وكسر الجيم والحاءِ وحذف واو العطف، وفي قوله تعالى وجلَّ: ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ حضٌّ على البكاءِ عند سماع القرآن، وروى سعد بن أَبي وقَّاص رضي الله عنه أَن رسول الله ﷺ قال: «إِن هذا القرآن أُنزل بِحُزْنٍ، فإِذا قرأْتموه فابكوا، فإِن لم تبكوا فتباكوا»[١]، ذكره الثعلبي.

و«السَّامِدُ»: اللاعبُ اللاهي، وبهذا فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من المفسِّرين، وقال الشاعر:

قِيلَ قُمْ فَانْظُرْ إِلَيْهِمْ ... ثُمَّ دَعْ عَنْكَ السُّمُودَا[٢]

و«سَمَدَ» بلغة حِمْير: غَنَّى، وهذا كله معنى قريب بعضه من بعض، وأَسند الطبري عن أَبي خالد الوالبي[٣]، قال: خرج علينا عليٌّ رضي الله عنه ونحن قيام ننتظره للصلاة فقال: مالي أَراكم سامدين؟

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الإقامة والزهد، وسعد هو أول من رمى بسهم في سبيل الله، وهو أحد العشرة المبشَّرين بالجنة.

(٢) البيت في اللسان ـ سمد ـ غير منسوب، وفي «الدُّرّ المنثور» ذكره الإمام السيوطي مع بيت آخر قبله منسوباً إلى هزيلة بنت بكر، قال: أخرج الطسي في مسائله، والطبراني، عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله تعالى: [سَامِدُونَ]، قال: السُّمود: اللهوُ والباطل، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول هزيلة بنت بكر وهي تبكي قوم عاد:

لَيْتَ عاداً قَبِلُوا الْحَقَّ ... وَلَمْ يُبْدُوا جُحُودَا
قِيلَ قُمْ فَانْظُرْ إِلَيْهِمْ ... ثُمَّ دَعْ عَنْكَ السُّمُودَا

وقد فُسِّر السمود بمعاني كثيرة، فقيل: هو اللهو واللَّعب، وقيل: هو الغِنَاءُ، وقيل: الاستكبار، وقيل: القيام في تَحَيُّر، وهذا المعنى يلائم البيت موضع الاستشهاد، وقيل: السمود: الغفلة والذَّهاب عن الشيءِ، وقيل: السُّمودُ يكون سروراً وحزناً، ومما رُوي في السُّمود قول القائل:

رَمَى الحِدْثَانُ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ ... بِأَمْرٍ قَدْ سَمَدْنَ لَهُ سُمُودَا
فَرَدَّ شُعُورَهُنَّ السُّودَ بيضاً ... وَرَدَّ وُجُوهَهُنَّ البِيضَ سُودَا

(٣) هو أبو خالد الوالبي ـ بموحَّدة قبلها كسرة ـ الكوفيُّ، اسمه هُرْمز، وقيل: هَرِم، مقبول، من الثانية، وفد على عمر، وقيل: حديثه مرسل فيكون من الثالثة، وخبره المروي هنا أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، ذكر ذلك السيوطي في «الدر المنثور».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يشبه أَنه رآهم في أَحاديث ونحوها مما يُظن أَنه غفلة مًّا، وقال إِبراهيم: كانوا يكرهون أَن ينتظروا خروج الإِمام قياماً، وفي الحديث: «إِذا أُقيمت الصلاة فلا تقوموا حتَّى تروني»[١].

ثم أَمر تعالى بالسجود وعبادة الله تعالى تحذيراً وتخويفاً، وهاهنا سجدة في قول كثير من أَهل العلم منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وردت بها أَحاديث صحاح، وليس يراها مالك رحمه الله تعالى[٢]، وقال زيد بن ثابت رضي الله عنه: إِنه قرأَ بها عند النبي ﷺ فلم يسجد.

تم تفسير سورة النجم والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) أخرجه البخاري في الجمعة والأذان، ومسلم في المساجد، وأبو داود، والترمذي في الصلاة، والنسائي في الإمامة والأذان، والدارمي في الصلاة، وأحمد في مسنده (٥ـ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٠)، ولفظه كما في مسلم، عن أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أُقيمت الصلاة فلا تقوموا حتى تروني». وقال ابن حاتم: «إذا أُقيمت أو نودي» وزاد إسحق في روايته حديث مَعْمَر وشيبان: «حتى تروني قد خرجت». قال العلماءُ: والنهي عن القيام قبل أن يروه لئلا يطول عليهم القيام، ولأنه قد يعرض له عارض فيتأخر بسببه.

(٢) لأنه يرى أن السجود المطلوب في الآية هو سجود الفرض في الصلاة، أما أكثر العلماء فيرون أن المراد هو سجود تلاوة القرآن، وبه قال أبو حنيفة والشافعي.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة القمر[١]

وهي مكيّة بإجماع إلاّ آية واحدة اختلف فيها، فقال جمهور الناس: هي مكيّة، وقال قوم: هي مما نزل يوم بدر، وقيل: بالمدينة، وهي قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾[٢]، وسيأتي القول في ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾.

[اقْتَرَبَت] معناه: قربت إلاّ أنه أبلغ، كما أَن اقْتَدر أَبلغ من قَدَر، و[السَّاعَةُ] القيامة، وأَمرها مجهول التحديد، لم يعلم إِلاّ أنها قَرُبت دون تحديد، وقال النبي ﷺ: «بُعثت أَنا والسَّاعة كهاتين» وأَشار بالسَّبَّابة والوسطى[٣]، وقال أَنس رضي الله عنه: خطب رسول الله ﷺ وقد كادت الشمس تغيب، فقال: «ما بقي من الدنيا فيما مضى إِلاّ كمثل ما بقي من هذا اليوم فيما مضى»[٤]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنِّي لأَرجو الله أَن

(١) في أكثر الأصول: «تفسير سورة اقتربت الساعة»، وآثرنا الاسم الذي يتفق مع المصحف الشريف الذي بين أيدينا.

(٢) هي الآية (٤٥)، وقد قيل عن قتادة: إن الخلاف وقع في ثلاث آيات (٤٤، ٤٥، ٤٦). ولكن أكثر العلماء يرون أن هذا ضعيف.

(٣) أخرجه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، عن أنس رضي الله عنه، وأخرجه الأئمة أحمد، والبخاري، ومسلم عن سهل بن سعد، ذكر ذلك الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» ورمز له بأنه حديث صحيح.

(٤) رواه الحافظ البزّار بسنده عن قتادة عن أنس، وقال ابن كثير بعد أن ذكر الحديث بسنده: «قلت: هذا=

يُؤَخِّر أُمتي نصف يوم»[١] وهذا منه ﷺ على جهة الرجاءِ والظن، لم يجزم به خبراً، فأَناف الله تعالى على أَمله وأخَّر أُمته أَكثر من رجائه، وكل ما يُروى في عمر الدنيا من التحديد فضعيف واهن.

وقوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ إخبارٌ عما وقع في ذلك، وذكر الثعلبي في ذلك أَنه قيل: إن المعنى: ينشق القمر يومئذ[٢]، وهذا ضعيف والأُمَّة على خلافه، وذلك أَن قريشاً سأَلت رسول الله ﷺ آية، فقيل: مجملة ـ وهذا قول الجمهور ـ وقيل: بل عيَّنوا شق القمر، ذكره الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما، فأَراهم الله تعالى انشقاق القمر، فرآه رسول الله ﷺ وجماعة من المسلمين والكفار، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا»[٣]، وممن قال من الصحابة رأَيتهُ: عبد الله بن مسعود، وجبير بن مطعم،

= حديثٌ مدارُهُ على خَلَف بن موسى بن خَلَف العمي عن أبيه، وقد ذكره ابن حبان في الثقات، وقال: ربما أخطأ»، ثم أورد حديثاً آخر رواه الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: إنه يُعضِّد الذي قبله، ولفظه كما في مسند أحمد: «كُنَّا جلوساً عند النبي ﷺ والشمس على قُعَيْقعانَ بعد العصر، فقال: ما أَعماركم في أعمار من مضى إلاّ كما بقي من النهار فيما مضى».

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم، وأحمد في مسنده (١ـ١٧٠)، ولفظه كما في المسند عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنِّي لأرجو ألا يعجز أُمَّتي عند ربِّي أن يؤخرهم نصف يوم»، فقيل لسعد: وكم نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة.

(٢) يعني: يوم القيامة. وقد قيل: إنَّ انشقاق القمر هو زوال الظلمة عنه بطلوعه في أثنائها، كما يُسَمَّى الصبح فَلَقاً لانفلاق الظُّلمة عنه، وقد يُعَبَّر عن انفلاقه بانشقاقه كما قال النابغة:

فَلَمَّـا أَدْبَـرُوا وَلَهُـمْ دَوِيٌّ ... دَعَـانَـا عِنْـدَ شَـقِّ الصبْـحِ دَاعِ

ولكن جمهور العلماء على أَنَّ الانشقاق قد وقع فعلاً، وقد ثبت ذلك في البخاري وغيره من حديث ابن مسعود، وابن عمر، وأنس، وجُبَيْر بن مطعم، وابن عباس رضي الله عنهم، وقد أنكر أبو حيان كل رأي يخالف صريح العبارة بلفظ قوي صريح.

(٣) أخرجه عبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن مردويه ـ من طريق أبي معمر ـ عن ابن مسعود، قال انشَق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا، وأخرج مثله ابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل ـ من طريق علقمة ـ عن ابن مسعود، قال: كنَّا مع النبي ﷺ بمنى، فانشق القمر حتى صار فرقتين، فتوارت فرقة خلف الجبل، فقال النبي ﷺ: اشهدوا، وأخرج مثله مسلم، والترمذي، وابن جرير وابن المنذر، وابن مردويه، والحاكم، والبيهقي، وأبو نعيم في الدلائل ـ من طريق مجاهد ـ عن ابن عمر، وفي آخره قال رسول الله ﷺ: اللهم اشهد، وأخرج أبو نعيم في الحلية ـ من طريق عطاءٍ، والضحاك ـ عن ابن عباس. . . مثله، إلا أنه ذكر أسماء الكفار الذين طلبوا من الرسول ﷺ آية.

وأخبر به عبد الله بن عمر، وأنس، وابن عباس، وحذيفة بن اليمان، وقال المشركون عند ذلك: سحرنا محمد، وقال بعضهم: سَحَر القمر، وقالت قريش: استخبروا المسافرين القادمين عليكم، فما ورد أَحد إلاَّ أَخبر بانشقاقه، وقال ابن مسعود: رأيته انشق فذهبت فرقة وراءَ جبل حراءَ، وقال ابن زيد: كان يُرى نصفه على قُعَيْقِعَان والآخر على أَبي قبيس، وقرأ حذيفة: «اقتربَت السَّاعَةُ وقَد انشَقَّ الْقَمَرُ»، وذكر الثعلبي عنه أَن قراءَته: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ انشَقَّ الْقَمَرُ» دون واو.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾، جاءَ اللفظ مستقبلاً لينتظم ما مضى وما يأتي، فهو إِخبارٌ بأَن حالهم هكذا، واختلف الناسُ في معنى [مُسْتَمِر] ـ فقال الزجاج: قيل: معناه دائمٌ مُتَمَاد، وقال قتادة، ومجاهد، والكسائي، والفراءُ: معناه: ذاهبٌ مارٌّ عن قريب يزول، وقال الضحاك، وأَبو العالية: معناه: مشدودٌ، من مراير الحبل، كأَنه سحْرٌ قد اسْتَمَرَّ، أَي: أُحْكمَ، ومنه قول الشاعر:

حَتَّى اسْتَمَرَّت عَلَى شَـذْرٍ مَرِيرَتُـهُ صِدْقَ العَزِيمةِ لاَ رَتًّا وَلاَ ضَرَعاً[1]

ثم أَخبر تعالى أَنهم كذَّبوا واتبعوا شهواتهم وما يَهْوَوْن من الأُمور، لاَ بِدَلِيلٍ ولا بِتَثَبُّت، ثم قال تعالى ـ عَلَى جهة الخبر الجزم ـ: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾، كأَنه تعالى يقول: وكلُّ شيءٍ إِلى غاية، فالحق يستقر ثابتاً ظاهراً، والباطل يستقر زاهقاً

---

(١) هذا البيت لِلَقيط بن يَعْمَر الإيادي من قصيدة قالها يدعو قومه إلى قتال كسرى ويحضهم على الحرب والفداءِ، ويقول في مطلعها:

يَـا دَارَ عَبْلَـةَ مِـنْ مُحْتَلِّهَـا الْجَـرَعَـا هَـاجَتْ لِيَ الهَـمَّ والأَحْـزَانَ والـوَجَعَـا

والبيت أحد الأبيات التي يتكلم فيها عن اختيار قائد شجاع، قادر على الحرب، قد حنكته الأيام وأكسبته الخبرة، فهو لا يستكين إذا عضه مكروه، ولا يعيش عيش المترفين إن ساعده رخاءُ العيش:

وَقَلِّـدُوا أَمْـرَكُـمْ للهِ دَرُّكُـمُ رَحْبَ الـذِّرَاعِ بِـأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلِعَا

لا مُتْـرفـاً إن رخَـاءُ العَيْـش سَـاعَـدَهُ وَلا إذَا عَـضَّ مَكْـرُوهٌ بِـهِ خَشَعَـا

ومعنى «اسْتَمَرَّتْ»: أُحْكِمَتْ، والشَّزْرُ: فَتْل الحَبْل مما يلي اليسار، وهو أَشَدُّ لفتله، والمريرةُ: إحكام الفَتْل ثم أُريد بها القوة، يقال: اسْتَمَرَّت مريرةُ الرَّجُل إذا قويت شكيمته، والصِّدْقُ: الكاملُ في كل شيءٍ، وصِدْقُ العزيمة: الثابت فيها المصمم عليها، ويُرْوَى «مُرَّ العزيمة»، كما يُروى «مُسْتَحْكِمَ السِّنِّ» بدلاً من «صِدْقَ العزيمة». والرُّتَّةُ: رِدَّةٌ قبيحة في اللسان من العيب، والذي في «الشعر والشعراءِ» وفي الديوان: «لاقَحْماً» والقَحْمُ: الشيخ الهرم يعتريه خرق وخوف، والضَّرَعُ: اللَّيِّن الذليل.

ذاهباً، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: [وكلُّ أمرٍ مُسْتَقِرٍّ] بالجرِّ في (مُسْتَقر)، يعني بذلك أشراطها، والجمهور على كسر القاف من (مُسْتَقِرٌّ) وقرأ نافع ـ بخلاف ـ وابن نصاح بفتحها، قال أبو حاتم: لا وجه لفتحها[1].

و«الأَنْبَاءُ» جمع نبأٍ، ويدخل في هذا جميع ما جاءَ به القرآن من المواعظ والقصص ومثلات الأُمم الكافرة، و[مُزْدَجَرٌ] معناه: موضع زجر وانتهاءٍ، وأَصله «مُزْتَجَرٌ» قلبت التاءُ دالاً ليناسب مخرجها مخرج الزاي، وكذلك تبدل تاءُ «افتعل» من كل فعل أَوله زايٌ كازْدَلَف وازْدان ونحوه.

وقوله تعالى: [حِكْمَةٌ] مرتفع إِمَّا على البدل من [مَا] في قوله تعالى: ﴿مَا فِيهِ﴾، وإِمَّا على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: هذه حكمة، و[بَالِغَةٌ] معناه: يبلغ المقصد بها من وعظ النفوس والبيان لمن له عقل، وقوله تعالى: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ يحتمل أَن تكون [مَا] نافية، أَي: ليس تُغْني مع عُتُوِّ هذه الناس، ويحتمل أَن تكون استفهاماً بمعنى التقرير، أَي: فَمَا غَنَاءُ النُّذر مع هؤلاءِ الكفرة؟

ثم سلَّى تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، أَي: لا تذهب نفسك عليهم حسرات، وتمَّ القول في قوله تعالى: [عَنْهُمْ]، ثم ابتدأَ وعيدهم، والعامل في قوله تعالى: [يَوْمَ] قوله تعالى: [يَخْرُجُون]، و[خُشَّعاً] حالٌ من الضمير في [يَخْرُجُونَ]، وتصرف الفعل يقتضي تقدم الحال، قال المهدوي: ويجوز أَن يكون حالاً من الضمير في [عَنْهُمْ]، وقال الرُّمَّاني: المعنى: فَتَولَّ عنهم واذكر يومَ، وقال الحسن: المعنى: فتولَّ عنهم اليومَ وانحذفت الواو من [يَدْعُ] لأَن كَتَبَةَ المصحف اتَّبعوا اللَّفظ لا ما يقتضيه الهجاءُ، وأَمَّا حذف الياءِ من [الدَّاعِ] ونحوه فقال سيبويه: حذفوها تخفيفاً، وقال أَبو عليٍّ، حذفت مع الأَلف واللاَّم؛ إِذ هي تحذف مع معاقبها وهو التنوين، وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ بضم الكاف، وقرأَ ابن كثير، وشبل، والحسن: [نُكْرٍ] بسكون الكاف، وقرأَ مجاهد، والجحدري، وأَبو قُلابة: [نُكِرَ] بكسر الكاف وفتح الراءِ على أنه مبني للمفعول، والمعنى في ذلك كله أَنه منكور غير معروف ولا يُرَى مثلُه، قال الخليل: النُّكُر نعتٌ للأَمر الشديد والرجل الداهية، وقال مالكُ بن عوف النَّصْري:

---

(١) قال أبو حيان في البحر: «وخُرِّجت عَلَى حذف مضاف، أي: ذو استقرارٍ وزمان استقرارٍ».

أَقْـدِمْ محـاجُ إِنَّـهُ يَـوْمٌ نُكُـر مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ يَحْمِي وَيَكُر(١)

و«نُكُر» فُعُل، وهو صفة، وذلك قليل في الصِّفات، ومنه «مِشْيَةٌ سُجُحٌ» قال الشاعر:

دَعُوا التَّخَاجُؤَ وامْشُوا مشْيَةً سُجُحاً إِنَّ الـرِّجَـالَ ذوُو عَصَـبٍ وتَـذْكيـرِ(٢)

ومثله: «رجلٌ شُلُلٌ»(٣) و«نَاقَةٌ أُجُدٌ»(٤).

وقرأ جمهور القراءِ: [خُشَّعاً]، وهي قراءَة الأعرج، وأَبي جعفر، وشيبة، والحسن، وقتادة. وقرأ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [خَاشعاً] وهي قراءَة ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، والجحدري، وهي إِفراد بمعنى الجمع، ونظيره قول الشاعر:

وَشَبَـاب حَسَـن أَوْجُهُهُـمْ مِـنْ إِيـادِ بْـنِ نِـزَار بْـنِ مَعَـدْ(٥)

---

(١) يريد الشاعر أن هذا اليوم يوم منكور غير معروف لأن أحداً لم ير مثله لما فيه من شدَّة، يقال: أَنْكَرْتُه فهو مُنْكَر، ونَكَرْتُه فهو منكور، وقد جمع الأعشى بين اللغتين حين قال: «وَأَنْكَرَتْني وَمَا كَانَ الَّذي نَكِرَتْ...»، ومعنى: يحمي: يدافع ويحفظ الشيءَ ويَمْنَعُه، ويكُرُّ: يحمل على العدوِّ ويعيد الحمل عليه مرة بعد أُخرى، يطالبه بالإِقدام في هذا اليوم الشديد العصيب الذي لم ير أحد مثله فإن اجتماعهما معاً يقوي عزمهما، ويساعدهما على حماية قومهما والكر على العدوِّ وهزيمته.

(٢) هذا البيت أحد أبيات سبعة قالها حسَّان بن ثابت في هجاء بني الحارث بن كعب رهط النجاشي الشاعر، والتَّخَاجُؤ: التباطُؤ في المشي، وقد روي هكذا في خزانة الأدب، وفي الديوان، ولكن جاء في معجم مقاييس اللغة: «ذروا التَّخَاجِىءَ»، والصحيح هو التَّخاجُؤ؛ لأن التَّفاعُل في مصدر «تفاعَل» حقُّه أن يكون مضموم العين، ولا تأتي مكسورة إلا في المعتل اللام، والمِشْيَةُ السُّجُح ـ بضم السِّين والجيم ـ هي المشية السَّهْلة، وقال الأزهري: هي أن يعتدل الإنسان في مشيه ولا يتمايل فيه تكبُّراً، وقد ذكر صاحب اللسان هذا البيت شاهداً على ذلك، وورد في حديث عليٍّ رضي الله عنه يُحَرِّض أصحابه على القتال: «وامشوا إلى الموت مِشْيَةً سُجُحاً»، وأُلُو عَصَبٍ: أصحابُ شِدَّة خَلْق، يقال: رجل معصوب الخَلْق، والرجل الذَّكر: القويُّ الشديد الأبيُّ.

(٣) يقال رجل مِشَلٌّ وشَلُولٌ وشُلُلٌ وشُلْشُلٌ، والمعنى فيها كلها أنه خفيف سريع، وجمع شُلُل: شُلُلُون.

(٤) ناقةٌ أُجُدٌ: متصلة الفَقار، تراها كأنها عظم واحد، والمراد أنها قوية موثَّقَةُ الخَلْق، والمادة تعطي معنى القوة والإحكام، يقال: بناءٌ مُؤَجَّدٌ بمعنى: مُقَوًّى مُحْكم. وكل هذه الأمثلة على وزن «فُعُل»، وهذا الوزن قليل في الصفات كما قال ابن عطية.

(٥) هذا البيت للحارث بن دوس الإيادي، ويروى لأبي دُواد الإيادي، وهو في البحر المحيط، وابن جرير الطبري، والقرطبي، وكلهم أخذه عن الفراءِ الذي استشهد به في (معاني القرآن)، قال: «إذا تقدم الفعل=

ورَجَّح أَبو حاتم هذه القراءَة، وذكر أن رجلاً من المتطوعة قال قبل أَن يستشهد: رأَيت النبي ﷺ في النوم فسأَلته عن [خُشَّعاً] و[خَاشعاً]، فقال: [خَاشعاً]، بالأَلف، وفي مصحف أُبَيّ بن كعب، وعبد الله رضي الله عنهما [خَاشعاً]، وخصَّ تعالى الأَبصار بالخشوع لأَنه فيها أَظهر منه في سائر الجوارح، وكذلك سائر ما في نفس الإِنسان من حياءٍ أَو صلف أَو خوف ونحوه إِنما يظهر في البصر.

و«الأَجْدَاثُ» جمع جَدَث وهو القبر، وشبَّههم تعالى بالجراد المنتشر، وقد شبَّههم في أُخرى بالفراش المبثوث[1]، وفيهم من كل هذا شبه، وذهب بعض المفسِّرين إِلى أَنهم أَولاً كالفراش حين يموج بعضٌ في بعض، ثم في رتبة أُخرى كالجراد إِذا توجَّهوا نحو المحشر والدَّاعي، وفي الحديث أَن مريم بنت عمران عليها السلام دعت للجراد فقالت: «اللهم أَعشها بغير رضاع، وتابع بنيها بغير شياع».

و«الْمُهْطِعُ»: المُسْرع في مَشْيه نحو الشيءِ مع هزٍّ ورَهَق ومَدِّ بصر نحو المقصد إِمَّا لخَوْف أَو طمع ونحوه، ويقول الكافرون: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ لما يَرَوْنَ من مخايل هوله وعلامات مشقته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ۝١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ۝١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٥ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧﴾.

سَوْقُ هذه القصة وعيدٌ لقريش وضَرْبُ مَثَل لهم، وقولُه تعالى: [وازْدُجرَ] إِخبارٌ من الله تعالى أَنهم زَجروا نوحاً عليه السلام بالسَّبِّ والنَّجْه[2] والتخويف، قاله ابن زيد وقرأَ: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾[3]، وذهب مجاهد إِلى أَن (وَازْدُجِرَ)

= قبل اسم مؤنث، وهو له، أو قبل جمع مثل الأنصار والأعمار وما أشبهها جاز تأنيث الفعل وتذكيره وجمعه، وقد أتى بذلك في هذا الحرف، فقرأه ابن عباس رضي الله عنهما: [خَاشعاً].

(١) في قوله تعالى في الآية (٤) من سورة (القارعة): ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾.

(٢) يقال: نَجَهَ فُلاناً نَجْهاً: ردَّه رَدًّا قبيحاً.

(٣) من الآية (١١٦) من سورة (الشُّعراءِ).

من كلام قوم نوح، كأَنهم قالوا: «مجنون وازدُجرَ»، والمعنى: استطير جُنُوناً واستعر جنوناً، وهذا قول فيه تعسُّفٌ وتحكُّم، وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وعاصم، والأَعرج، والحسن: (أَنِّي) بفتح الأَلف، أَي: بأَنِّي، كأَن دعاءَه كان هذا المعنى، وقرأَ عاصم أَيضاً، وابن أَبي إِسحق، وعيسى: (إِنِّي) بكسر الأَلف، كأَن دعاءه كان هذا اللفظ، قال سيبويه: المعنى: قال إِنِّي، وذهب جمهور المفسِّرين إِلى أَن المعنى: قد غلبني الكفَّار بتكذيبهم وتخويفهم فانتصر لي منهم بأَنْ تُهلكهم، ويحتمل أَن يريد: فانتصر لنفسك إِذ كذبوا رسولك، ويؤيده قول ابن عباس رضي الله عنهما: إِن المراد بقوله: ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ الله تعالى، فوقعت الإِجابة على نحو ما دعا نوح عليه السلام، وذهبت المتصوفة إِلى أَن المعنى: إِنِّي قد غلبتني نفسي في إِفراطي في الدعاءِ على قومي فانتصر منِّي يا ربِّ بمعاقبة إِن شئتَ، والقولُ الأَول هو الحق إِن شاءَ الله تعالى، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية، وذلك هو الانتصار من الكفار.

وقرأَ جمهور القراءِ: (فَفَتَحْنَا) بتخفيف التَّاءِ، وقرأَ ابن عامر، وأَبو جعفر، والأَعرج: (فَفَتَّحْنَا) بشدِّها على المبالغة، ورجَّحها أَبو حاتم بقوله تعالى: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾[1]. قال أَبو حاتم: يعني بالأَبواب المجرَّة، وهي شَرَج السماءِ كشَرَج العَيْبَة[2]، وقال قوم من أَهل التأْويل: الأَبواب حقيقة، فتحت في السماءِ أَبوابٌ جرَى منها الماءُ، وقال جمهور المفسِّرين: هو تشبيه ومجاز لأَن المطر كثُر كأَنه من أَبواب، و«المُنْهَمر»: الشديدُ الوقوعِ الغزيرُ، قال امرؤ القيس:

رَاحَ تَمْــرِيــهِ الصَّبَــا ثُــمَّ انْتَحَــى ... فيــه شُؤْبُــوبُ جَنُــوبٍ مُنْهَمِــرْ[3]

---

(١) من الآية (٥٠) من سورة (ص).

(٢) العَيْبَةُ: وعاءٌ من جلد ونحوه يكون فيه المتاع، وهو ما يُسَمَّى «الحقيبة»، وشَرَج العَيْبَة: عُرْوَتُها، فإذا أَدخلت عُراها بعضها في بعض قيل: شَرَّجْتَهَا، والمراد الفتحات التي تكون في الحقيبة إذا تركت عُرَاها بدون إحكام بإدخال بعضها في بعض فإنَّ هذه الفتحات تكون كالأبواب، تصوروا للسماءِ فتحات مثل الفتحات التي تكون في الحقيبة.

(٣) هذا بيت من ثمانية أبيات قالها امرؤ القيس في وصف الغيث، وقيل عنها في الديوان: «هذا أشعر ما جاء في وصفه»، ورواية الديوان: «مُنْفَجر» بدلا من «مُنْهَمِر»، وعلى هذا فلا شاهد فيه، ويكون الشاهد في البيت السابق كما جاء في الديوان وهو:

سَــاعَــةً ثُــمَّ انْتَحَــاهَــا وَابِــلٌ ... سَــاقِــطُ الأَكْنَــافِ وَاهٍ مُنْهَمِــرْ =

وقرأَ الجمهور: ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ بشدِّ الجيم، وقرأَ ابن مسعود وأَصحابه، وأَبو حَيْوة، والمفضل عن عاصم بتخفيفها، وقرأَ الجمهور: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ على اسم الجنس الذي يعُمُّ ماءَ السماءِ وماءَ العيون، وقرأَ علي بن أَبي طالب، والحسن، وعاصم، والجحدري: (فالْتَقَى الماءَان)، ويروى عن الحسن: [فالتقى الماوان].

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ قال فيه الجمهور: المعنى: على رُتبة وحالة قد قدرت في الأول وقضيت، وقال جمهور من المتأَولين: المعنى: على مقادير قد قدرت ورتبت وقت التقائه، ورَوَوْا أَن ماءَ الأَرض علا سبعة عشر ذراعاً، وكان ماءُ السماءِ ينزل عليه بقية أَربعين ذراعاً أَو نحو هذا لأَنه مما اختلفت فيه الروايات، ولا خبر يقطع العذر في شيءٍ من هذا التحديد، وقرأَ أَبو حَيْوة: [قُدِّر] بشدِّ الدَّال.

و(ذات أَلواح ودُسُر) هي السَّفينة، قيل: كانت أَلواحها وخشبها من ساج. و«الدُّسُر»: المسامير، واحدها دسارٌ، وهذا هو قول الجمهور، وهو عندي من الدفع المُتَتَابع؛ لأَن المسمار يدفع أَبداً حتى يستوي، وقال الحسن، وابن عباس أَيضاً: الدُّسر مقادم السَّفينة لأَنها تَدْسُر الماءَ أَيْ تدفعه، والدَّسْر: الدَّفْع، وقال مجاهد وغيره: الدُّسُر: نُطُق[1] السَّفينة، وقال أَيضاً: الدُّسُر: عوارض السَّفينة، وقال أَيضاً: أَضلاع السَّفينة، وقد تقدم القول في شرح قصة السَّفينة مستوعباً. وجمهور الناس على أَنها كانت كهيئة السُّفن اليوم كجؤجؤ الطائر[2]، وورد في بعض الكتب أَنها كانت مربَّعة طويلة في السماءِ واسعة السُّفل ضيقة العُلْو، وكان أَعلاها مفتوحاً للهواءِ والتنفس، قالوا: لأَن الغرض منها إِنما كان السلامة حتى يزول الماءُ، ولم يكن طلبَ الجري

= ومعنى «رَاحَ»: عادَ السحابُ بالمطر آخر النهار، وتَمْرِيه: تَسْتَدِرُّهُ، وأَصْلُه من مَرْي الضَّرْع، وهو مَسْحُه باليد حتى يُدِرَّ اللبن، وكذلك السحاب حين تضربُه ريح الصَّبَا الباردة يتجمَّع ويتكاثف فيسقط مطراً، فكأن ريح الصَّبَا مَرَتْهُ لينزل منه الماءُ، ثم جاءت الجنوبُ مُحَمَّلَةً بالأمطار من بحر الهند فأضافت إلى هذا السحاب ومطره شُؤْبُوباً آخر يتفجر وينزل بكثرة وشدَّة. وقد خصَّ ريح الصَّبا لأنهم يمطرون بها، وذكر ريح الجنوب لأن مطرها يكون غزيراً متدفقاً.

(١) النُّطُق: جمع نطاق، وهو حزام يُشَدُّ به وسط الشيءِ ليصير متيناً متماسكاً.

(٢) جُؤْجُؤُ الطائر: مُجْتمع رُؤُوس عظام الصدر، ويسمى صَدْرُ السفينة جُؤْجُؤاً، وفي حديث عليٍّ رضي الله عنه: (كأني أنظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينة أو نعامة جاثمة).

وقَصْدَ المواضع المعيَّنة، ومع هذه الهيئة فلها مجرى ومرسى، والله أَعلم كيف كانت، والجميع محتمل.

قوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، قال الجمهور: معناه: بحفظنا وكفايتنا وتحت نظر منَّا لأهلها، فسمَّى هذه الأَشياءَ أَعْيُناً تشبيهاً، إذ الحافظ المُتَحَفِّي من البشر إنما يكون ذلك الأمر نُصْب عينيه، وقيل: المراد مَنْ حَفِظها من الملائكة، سمَّاهم عيوناً، وقال الرُّمَّاني: وقيل: إن قوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ يريد به العيون المتفجرة من الأَرض، وهذا ضعيف. وقرأَ أَبو السَّمال: [بِأَعْيُنَّا] مُدْغمةً، وقرأَ جمهور الناس: ﴿كُفِرَ﴾ بضم الكاف وكسر الفاءِ، واختلفوا في المعنى ـ فقال ابن عباس، ومجاهد: يُراد بها الله تعالى، كأَنه قال: غَضَباً وانتصاراً لله تعالى، أَي: انتصر لنفسه فأَنجى المؤمنين وأَغرق الكافرين، وقال مكي: وقيل: [مَنْ] يُرادُ بها نوحٌ عليه السلام والمؤمنون؛ لأَنهم كُفرُوا من حيث كُفِر بهم، فجازاهم الله تعالى بالنجاة. وقرأَ يزيد بن رومان[(١)]، وعيسى، وقتادة: [كَفَرَ] بفتح الكاف والفاءِ.

والضمير في ﴿تَرَكْنَاهَا﴾ قال مكي بن أَبي طالب: هو عائد على هذه الفعلة والقصة، وقال قتادة، والنقاش، وغيرهما: هو عائد على هذه السَّفينة، قالوا: وإن الله تعالى أَرساها على الجودي حين تطاولت الجبال وتواضع هو، وهو جُبَيْل بالجزيرة بموضع يقال له: «بَاقِرْدَى»، وأَبقى خشبها هنالك حتى رأَتْ بعضه أَوائل هذه الأُمَّة، قال قتادة: وكم من سفينة كانت بعدها قد صارت رماداً. و﴿مُدَّكِرٍ﴾ أَصله «مُذْتَكِر»، أَبدلوا من التاءِ دالاً لتناسب الذَّال في النطق، ثم أَدغموا الذَّال في الدَّال، وهذه قراءَة الناس، قال أَبو حاتم: رويت عن النبي ﷺ بإسناد صحيح[(٢)]، وقرأَ قتادة: [مُذَّكِرٍ] بإدغام الثاني في الأول، قال أَبو حاتم: وذلك رديءٌ، ويلزمه أَن يقرأَ: [وَاذَّكَرَ بعد أمة][(٣)]، و[ومَاتَذَّخِرُونَ في بيوتكم][(٤)].

---

(١) هو يزيد بن رومان المدني، مولى آل الزبير، قال عنه في تقريب التهذيب: «ثقة، من الخامسة، مات سنة ثلاثين، وروايته عن أبي هريرة مرسلة».

(٢) فقد أخرج أحمد، والبخاري، ومسلم، وأَبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، والحاكم، وابن مردويه، عن ابن مسعود قال: قرأت على النبي ﷺ: [فَهَلْ مِنْ مُذَّكِرٍ] بالذال فقال: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ بالدال. (الدر المنثور).

(٣) من قوله تعالى ﴿وادكر بعد أمة﴾ من الآية (٤٥) من سورة (يوسف).

(٤) من قوله تعالى: ﴿وما تدخرون في بيوتكم﴾ من الآية (٤٩) من سورة (آل عمران).

وقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ توقيف لقريش، و«النُّذُرُ» هنا جمع «نَذير» المصدر، بمعنى: كيف كان عاقبة إنذاري لمن لم يَحْفل به كأَنتم أَيها القوم؟

و﴿ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ ﴾ معناه: سهَّلناه وقرَّبناه، و«الذِّكْر»: الحفظ عن ظهر قلب، قاله ابن جبير: لم يُستظهر من كتب الله تعالى سوى القرآن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يُسِّر بما فيه من حُسْن النظم وشرف المعنى، فله لَوْطَةٌ[1] بالقلوب وامتزاجٌ بالعقول السليمة.

وقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ استدعاءٌ وحضٌّ على حفظه وذكره لتكون زواجره وعلومه وهداياته حاضرة في النفس، قال مطرف: معناه: هل من طالب عِلْم فيُعَانُ عليه؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

الآية تعديد نعمه في أن الله تبارك وتعالى يسَّر الهدى ولا بخل من قبله، فـللهِ درُّ من قبل واهتدى، وتقدم تعليل: [مُدَّكِرٍ].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

«عادٌ» قبيلة، وقد تقدَّم قصصها.

قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾، موضع [كَيْفَ] نصب، إمَّا على خبر [كَانَ] وإمَّا على الحال، و[كَانَ] بمعنى: وُجِدَ وَوَقع في هذا الوجه، و[نُذُرِ] جمع «نَذِيرٍ» وهو المصدر، وقرأَ ورش وحده: [نُذُرِي] بالياءِ، وقرأَ الباقون: [نُذُرِ] بغير ياءٍ على خط المصحف.

---

(١) يقال: «لاط بالقلب» بمعنى: لصق به مع محبَّة.

و«الصَّرْصَرُ» قال ابن عباس، وقتادة، والضحاك: معناه: الباردة، وهو من الصرِّ، وقال جماعة من المفسِّرين: معناه: المُصَوِّتة نحو هذين الحرفين، مأخوذ من: صرَّت الرِّيح إذا هبت دُفَعاً كأنها تنطق هذين الحرفين: الصَّاد والرَّاءِ، وضوعف الفعل كما قالوا: «كَبْكَب وكَفْكَف» من «كَبَّ وكفَّ»، وهذا كثير، ولم يختلف القراءُ في سكون الحاءِ من [نَحْسٍ] وإضافة اليوم إليه إلاَّ ما رُوي عن الحسن أنه قرأَ: [فِي يَوْمٍ] بالتنوين [نَحِسٍ] بكسر الحاءِ، و[مُسْتَمِرٌّ] معناه: متتابع، قال قتادة: استمر بهم ذلك النحس حتى بلغهم جهنم، قال الضحاك في كتاب الثعلبي: المعنى: كان مُرًّا عليهم، وذكره النقاش عن الحسن، ورُوي أن ذلك اليوم الذي كان لهم فيه نحس مستمر كان يوم أَربعاءٍ، وروي في بعض الأَحاديث في تفسير هذه الآية: يوم نحس مستمر يوم الأَربعاءِ، فتَأول بعض الناس في ذلك أَنه مستصحبٌ في الزمان كله، وهذا عندي ضعيف، وإن كان أَبو بشر الدولابي ذكر حديثاً رواه أَبو جعفر المنصور عن أَبيه محمد عن أَبيه علي عن أَبيه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «آخر أَربعاء من الشهر يوم نحس مستمر»(١)، ويوجد نحو هذا في كلام الفرس والأَعاجم، وقد وجد ذكر الأَربعاء التي لا تدور في بعض شعر الخراسانيين المولَّدين، وذكر الثعلبي عن زِرِّ بن حُبَيْش في تفسير هذه الآية لعادٍ أَنه كان في أَربعاء لا تدور، وذكره النقاش عن جعفر بن محمد وقال: كان القمر منحوساً في رجل، وهذه نزغة سوءٍ عياذاً بالله تعالى أن تصح عن جعفر بن محمد.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ معناه: تنقلهم من مواضعهم نَزْعاً فتطرحهم، وروي عن مجاهد أَنها كانت تلقي الرجل على رأْسه فيتفتَّت رأْسُهُ وعنقه وما يلي ذلك بين يديه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فلذلك حَسُن التشبيه بأَعجاز النخل، وذلك أَن المُنْقَعر هو الذي ينقلع من قعره، فذلك التَّشعُّب الذي لأَعْجَاز النخل كان يشبهها ما تقطَّع وتشعَّب من شخص الإِنسان، وقال قوم: إنما شبَّههم بأَعْجاز النخل لأَنهم كانوا يحفرون حُفَراً ليمتنعوا فيها من

---

(١) أخرجه وكيع في الغرر، وابن مردويه في التفسير، والخطيب، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورمز له السيوطي في (الجامع الصغير) بأنه ضعيف.

الريح، فكأنه شبّه الحُفَر بعد النّزع بحفر أعجاز النَّخل، والنَّخل تُذكَّر وتُؤنث فلذلك قال تعالى هنا: [مُنْقعِرٍ]، وفي غير هذه السُّورة [خَاوِيَةٍ][1]، والكاف في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ﴾ في موضع الحال، قاله الزجاج، وما رُوي من خبر الخلجان وغيره ضعيف كله، وفائدة قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ التخويف وهزُّ الأَنْفُس. قال الرُّمَّاني: لما كان الإنذارُ أنواعاً كرَّر التذكير والتَّنبيه، وفائدة تكرار قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ التأكيد والتحريض وتنبيه الأَنْفُس، وهذا موجود في تكرار الكلام، مثل قول النبي ﷺ: «أَلاَ هل بلَّغت؟ أَلاَ هل بلَّغت؟ أَلاَ هل بلَّغت؟»[2]، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «أَلاَ وقول الزُّور، أَلا وقول الزُّور، أَلاَ وقول الزُّور»[3]، وكان رسول الله ﷺ إذا سلَّم على قوم سلَّم عليهم ثلاثاً، فهذا كلُّه نحوٌ واحد وإن تنوع.

و«ثَمُود» قبيلة صالح عليه السلام، وهم أَهل الحجْر، وقرأَ الجمهور: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا﴾، ونصبه بإضمار فعل يدلُّ عليه [نَتَّبِعُهُ]، و[وَاحِداً] نعت لـ[بَشَراً]، وقرأَ أَبو السَّمَّال: [أَبَشَرٌ مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ]، ورفعه إمَّا على إضمار فعل مَبْني للمفعول، والتقدير: أَيُنبَّأُ بَشَرٌ؟ وإمَّا على الابتداءِ، والخبرُ في قوله تعالى: [نَتَّبِعُهُ]، و[وَاحِداً] على هذه القراءَة حالٌ، إمَّا من الضمير في [نَتَّبِعُهُ] وإمَّا على المقدَّر مع [مِنَّا]، كأَنهم يقولون: أَبَشَرٌ كائن منَّا واحد؟ وفي هذا نظر[4]، وحكى أَبو عمرو الداني أَن قراءَة أَبي السَّمَّال: [أَبَشَرٌ مِنَّا وَاحِدٌ] بالرفع فيهما، وهذه المقالة من ثمود حسدٌ منهم لصالح عليه

---

(١) في قوله تعالى في الآية (٧) من سورة (الحاقة): ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾.

(٢) تكرر ذلك في حجة الوداع، حيث قال ﷺ: «يا أيُّها الناس، أي يوم هذا؟ قالوا: هذا يوم حرام، قال: أي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام، قال: فأَي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام، قال: إن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، ثم أعادها مراراً، ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: اللهم هل بلَّغت، مِراراً»، والحديث متفق عليه، وهذا جزءٌ منه كما رواه أحمد.

(٣) جاء ذلك في حديث عن الكبائر وأكبرها، وقد أخرجه مسلم في الإيمان، والترمذي في الشهادات، وأحمد في المسند (٥ـ٣٧)، ولفظه كما في مسلم عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه، قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: ألا أُنبِّئكم بأكبر الكبائر؟ (ثلاثاً)، الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور أو قول الزُّور، وكان رسول الله ﷺ متَّكِئاً فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

(٤) إن كان حالاً من الضمير في [نَتَّبِعُهُ] كان المعنى: أَنتَّبعه حالة كونه واحداً منفرداً لا نصير له؟ وإن كان حالاً من الضمير في [مِنَّا] كان المَعنى: أَيُنبَّأُ بَشَر كائن منَّا؟ ويكون الناصب لهذه الحال الظرف.

السلام، واستبعادٌ أَن يكون نوع من البشر يفضل بعضه بعضاً هذا الفضل، فقالوا: أَنكون جميعاً ونتبع واحداً، ولم يعلموا أَن الفضل بيد الله تعالى يُؤْتيه من يشاءُ، ويُفيض نور الهدى على من رَضيه.

وقولهم: ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ معناه: في أَمرٍ مُتلف مُهْلك بالإِتلاف، و[سُعُرٍ] معناه: في احتراق أَنْفُسٍ واستعارُوهَا حنقاً وهمًّا باتباعه، وقيل في «السُّعُر»: العناءُ، وقيل: الجنون، ومنه قيل: ناقة مسعورة إِذا كانت تفرط في سيرها، ثم زادوا بالتوقيف بقولهم: ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾؟ و«أُلْقيَ» بمعنى «أُنْزِلَ»، وكأَنه يتضمن عجلة في الفعل، والعرب تستعمل هذا الفعل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[(١)]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[(٢)]، و«الذِّكْرُ» هنا: الرِّسالةُ وما يمكن أَن يكون جاءَهم به من الحكمة والموعظة.

ثم قالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾، أَي: ليس الأَمر كما يزعم، و«الأَشِر» البَطِرُ المَرِحُ، فكأَنهم رَمَوْه بأَنَّه أَشِرَ فأَراد العُلُوَّ عليهم وأَن يقتادهم ويتملَّك طاعتهم، فقال الله تعالى لصالح عليه السلام: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾، وهذه بالياءِ من تحت قراءَة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه وجمهور الناس، وقرأَ ابن عامر، وحمزة، وعاصم[(٣)]، وابن وثاب، وطلحة، والأَعمش: [سَتَعْلَمُونَ] بالتاءِ على معنى: قُل لهم يا صالح، وقوله تعالى: [غداً] تقريب يراد به الزَّمان المسْتَقْبل لا يوماً بعينه، ونحوه المثل «مع اليوم غدٌ»[(٤)]، وقرأَ جمهور الناس: [الأَشِرُ] بكسر الشين كحذر بكسر الذال، وقرأَ مجاهد ـ فيما ذكر عنه ـ: [الأَشُرُ] بضم الشين كحَذُر بضم الذال، وهما

---

(١) من الآية (٣٩) من سورة (طه).

(٢) الآية (٥) من سورة (المزَّمل).

(٣) لعلَّ ذلك في رواية أبي بكر عنه، أما قراءته في رواية حفص فهي بالياءِ كما هي في المصحف.

(٤) يضرب هذا المثل في تنقل الدُّوَل على مرّ الأيام وكرها، والمثل كما ذكره الميداني في «مجمع الأمثال»: «إن مع اليوم غدا يا مُسْعدة». وقال الزمخشري في «المستقصى»: «يضربه الراجي للظفر بمراده في عاقبة الأمر وهو في بَدئه غير ظافر، قال:

لا تَقْلُوَاهَا وادْلُوَاهَا دَلْوَا ... إِنَّ مَعَ اليَوْمِ أَخَاهُ غَدْوَا

وهو في حديث عن الإبل، ومعنى «لا تَقْلُوَاهَا»: لا تسوقوها سوقاً شديداً، بل «ادْلُوَاهَا دَلْواً» أي: سوقوها سوقاً رفيقاً فإن الأيام ممتدة ولا داعي للسرعة، وهناك بعد اليوم غدٌ يمكن الوصول فيه.

بناءَان من اسم الفاعل، وقرأ أبو حيوة: [الأَشَرُ] بفتح الشين كأنه وصف بالمصدر، وقرأ أَبو قُلابة: [الأَشَرُّ] بفتح الشين وشدِّ الراءِ، وهو الأَفعل، ولا يستعمل إِلاَّ بالألف واللام، وهو كان الأَصيل لكنه رفض تخفيفاً وكَثْرَةَ استعمال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾.

هذه النَّاقة التي اقترحوها أَن تخرج من صخرة صماءَ من الجبل، وقد تقدَّم قصصها، فأَخبر الله تعالى صالحاً عليه السلام ـ على وجه التأْنيس ـ أَنه يُخرج لهم النَّاقة ابتداءً واختباراً، ثم أَمره تعالى بارتقاب الفرج وبالصبر، و«اصْطَبِرْ» أَصله: اصْتَبر «افْتَعل»، أُبدلت التاءُ طاءً لتناسب الصاد، ثم أَمره تعالى أَن يخبر ثمود بأَن الماءَ قسمة بينهم، وهو ماءُ البئر الذي كان لهم.

واختلف المتأَولون في معنى هذه القسمة ـ فقال جمهور منهم: قسمة بينهم، يتساوون فيه في اليوم الذي لاترد الناقة فيه، وذلك ـ فيما روي ـ أَن الناقة كانت ترد البئر غبًّا[١]، وتحتاج جميع مائها يومها، فنهاهم الله تعالى عن أَن يستأْثر أَهل اليوم الذي لا ترد الناقة فيه بيومهم، وأَمرهم بالتساوي مع الذين ترد الناقة في يومهم. وقال آخرون: معناه: الماءُ بين جميعهم وبين الناقة قسمة. و[مُحْتَضَرٌ] معناه: محضور مشهود مُتَوَاسى فيه[٢]، وقال مجاهد: المعنى: ﴿كُلُّ شِرْبٍ﴾، أَي من الماءِ يوماً ومن لبن الناقة يَوْماً [مُحْتَضَرٌ] لَهُمْ، فكأَنه أَنبأَهم بنعمة الله تعالى عليهم في ذلك.

و«صَاحِبُهُم» هو قُدار بن سالف، وبسببه سُمِّي الجزار القُدارَ للشبه في الفعل، قال الشاعر:

إِنَّـا لَنَضْـرِبُ بِـالسُّيُـوف رُءُوسَهُـمْ ضَـرْبَ الْقُـدَارِ نَقيعَـةَ الْقُـدَّامِ[٣]

---

(١) أي تَرِدُ يوماً ولا تَرِدُ يوماً.

(٢) بمعنى: التَّساوي فيه.

(٣) هذا البيت للْمُهَلْهِلْ، والقُدارُ في الأصل: الطَّبَّاخ، وقد يقال للجزَّار، قال في اللسان: «وفي حديث=

وقد تقدَّم شرح أَمر قدار بن سالف.

و«تَعَاطَى» هو مطاوع «عاطى»، فكأَن هذه الفعلة تدافعها الناسُ وأَعطاها بعضهم بعضاً، فتعاطاها هو وتناول العقر بيده، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ويقال للرجل الذي يُدخل نفسه في تحمُّل الأُمور الثقال: متعاط، على الوجه الذي ذكرناه، والأَصل «عَطَا يعطو» إِذا تناول، ثم يقال: عاطى غيره، ثم يقال: تعاطى، وهذا كما يقال: جَرَى وجارَى وتجارى، وهذا كثير.

ويُروى أَنه كان مع شَرْب ـ وهم التسعة رهط ـ فاحتاجوا ماءً فلم يجدوه بسبب وِرْد الناقة، فحمله أَصحابه على عقرها، ويُروى أَن ملأَ القبيل اجتمع على عقرها، ورويت أَسباب غير هذين، وقد تقدَّم ذلك.

و«الصَّيْحَةُ» يروى أَن جبريل عليه السلام صاحها في طرف من منازلهم فتفتَّتوا وهمدوا وكانوا كهشيم المحتظر، و«الهشيم» ما تهشَّم وتفتَّت من الأَشياءِ، وقرأَ جمهور الناس: [كهشيم المحتظِر] بكسر الظاءِ، ومعناه الذي يصنع حظيرة من الرعاءِ ونحوهم، قاله ابن إِسحق السبيعي، والضحاك، وابن زيد، وهي مأْخوذة من الحَظْر وهو المَنْع، والعرب وأَهل البوادي يصنعونها للمواشي والسكنى أَيضاً من الأَغصان والشجر المورق والقصب ونحوه، ولهذا كله هشيم يتفتَّت، إِمَّا في أَول الصنعة وإِمَّا عند بلى الحظيرة وتساقط أَجزائها، وحكى الطبري عن ابن عباس، وقتادة أَن «المحْتَظِر» معناه: المحترق، قال قتادة: كهشيم مُحْرَق. وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، وأَبو رجاءٍ: [الْمُحْتَظَرِ] بفتح الظَّاءِ، ومعناه الموضع الذي احتَظر، فهو مُفْتَعَل من الحظْر، أَو الشيءُ الذي احتُظر به، وقد روي عن سعيد بن جبير أَنه فسَّر ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ بأَن قال: هو التراب الذي يسقط من الحائط البالي، وهذا متوجه لأَن الحائط حظيرة، والسَّاقط هشيم، وقال أَيضاً هو وغيره: الْمُحْتَظِر معناه: المحرق بالنار، أَي كأَنه ما في الموضع

= عُمَيْر مولى أبي اللَّخم: أمرني مولاي أن أَقْدُرَ لحماً، أي: أطبخ قدراً من لحم»، والبيت في اللسان، والرواية فيه: «لنضربُ بالصَّوَارم هامَهَا»، والنَّقيعة: ما يُذبح للضيافة، أو طعام الرجل ليلة عُرسه، أو ما ينحر من النهب قبل القسمة، والقُدَّام: جمع قادم، وقيل: هو المَلِك. يقول: إنا لنضرب بالسيوف رءُوس أعدائنا كما يضرب الطباخ أو الجزَّار اللحم الذي يقدم في الطعام للضيوف، والشاهد أن القُدار بمعنى: الجزَّار.

المحتظر بالنار، وما ذكرناه عن ابن عباس وقتادة هو على قراءة كسر الظاءِ، وفي هذا التأويل بعض البُعد، وقال قوم: المحتظَر ـ بالفتح ـ: الهشيم نفسه، وهو مفتعَل، وهو كمسجد الجامع وشبهه.

وقد تقدم قصص قوم لوط عليه السلام، و«الحاصبُ»: السحابُ الرامي بالبَرَد وغيره، فشبه تلك الحجارة التي رُمي بها قو مُ لوط به في الكثرة والتوالي، وهو مأْخوذ من الحصباءِ، كأَن السحاب تحصب مقصده، ومنه قول الفرزدق:

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الشَّامِ تَحْصِبُهُمْ بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ القُطْنِ مَنْشُورِ(١)

وقال ابن المُسَيَّب: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأَهل المدينة: حصِّبوا المسجد، و«آل لوط»: ابنتاه فيما رُوي، و«سَحَرٍ» مصروف لأَنه نكرة لم يُرَد به يوم معين.

وقوله تعالى: [نِعْمَةً] نصب على المصدر، أَي: فعلنا ذلك إِنعاماً على القوم الذين نجيناهم، وهذا هو جزاؤُنا لمن شكر نعمنا وآمن وأَطاع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

المعنى: ولقد أَنذر لوط قومه أَخْذنا إِيَّاهم وبَطْشنا بهم، أَي عذابنا لهم، و[تَمارَوْا] معناه: تشككوا وأَهدى بعضهم الشك إِلى بعض بتعاطيهم الشُّبَه والضلال، و«النُّذُر» جمع نذير وهو المصدر، ويحتمل أَن يراد بالنُّذر هنا وفي قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ

---

(١) قال الفرزدق هذا البيت من قصيدة طويلة يمدح فيها يزيد بن عبد الملك ويهجو يزيد بن المهلب، وبعده يقول:

عَلَى عَمَائِمِنَا يُلْقَى وَأَرْحُلِنَا عَلَى زَوَاحِفَ نُزْجِيهَا مَحَاسِيرِ

وهو في البيتين يصف حالهم في اتجاههم إلى الممدوح في الشام، والريح الشديدة تحمل الحصباءَ فتلقيها على عمائمهم وهم يحملون أرحلهم على نياق تزحف من شدة الإعياء والتعب.

﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ جمع نذير الذي هو اسم الفاعل. و«الضَّيْف» يقع للواحد وللجميع، وقد تقدَّم ذكر أَضيافه وقصصهم مستوعباً.

وقوله تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ قال قتادة: هي حقيقة، جرَّ جبريل عليه السلام شيئاً من جناحه على أَعينهم فاستوت مع وجوههم، قال أَبو عبيدة: مَطْموسة بجلد كالوجه، وقال ابن عباس، والضحاك: هذه استعارة، وإنما حجب إدراكهم فدخلوا المنزل فلم يروا شيئاً، فجعل ذلك كالطمس. وقوله تعالى: [بُكْرَةً] قيل: كان ذلك عند طلوع الشمس، وأَدغم ابن محيصن[1] الدال في الصاد من قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم﴾، والجمهور على الإظهار، و(بُكْرَةً) نكرةٌ ها هنا فلذلك صُرفت.

وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى﴾ يحتمل أَن يكون من قول الله تعالى لهم، ويحتمل أَن يكون من قول الملائكة، و[نُذُرِ] جمع المصدر، أَي: وعاقبة نُذُري التي كذَّبتم بها، وقال تعالى: [مُسْتَقِرٌّ] في صفة العذاب لأَنه لم يكشفه عنهم كاشف بل اتصل ذلك بموتهم، وهم مدة موتهم تحت الأَرض معذبون بانتظار جهنم ثم يتصل ذلك بعذاب النار فهو أَمر متصل مستقر، وكرر قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ تأْكيداً وتوبيخاً، وروى ورش عن نافع: [وَنُذُرِي] بياءٍ.

و«آلُ فرعون» قومُه وأَتباعه، ومنه قول الشاعر:

فَـلاَ تَبْـكِ ميْتـاً بَعْـدَ مَيْـتٍ أَجَنَّـهُ ... عَلِـيٌّ وَعَبَّـاسٌ وَآلُ أَبِـي بَكْـرِ[2]

يريد المسلمين في مواراة النبي ﷺ، ويحتمل أَن يريد بـ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ قرابته على عُرف الآل، وخصهم بالذكْر لأَنهم عمدة القوم وكبراؤُهم.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يحتمل أَن يريد آل فرعون المذكورين أَخذناهم كذلك، يريدهم بالضمير لأَن ذلك الإغراق الذي كان في البحر كان بالعزَّة والقدرة، ويكون قوله: [بِآيَاتِنَا] يريد بها التِّسع، ثم أَكَّد بقوله: [كُلِّهَا]، ويحتمل أَن يكون قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ كلاماً تامًّا ثم يكون قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا

---

(١) في بعض النسخ: «وأَدغم أبو محمد».

(٢) أَجَنَّه: سَتَرهُ أو وضعه في القبر، قال في اللسان: «وفي الحديث: وَلِيَ دفن سيدنا رسول الله ﷺ وإجْنَانَه عليٌّ والعباس، أي: دَفْنه وسَتْرهُ»، يقول الشاعر: لا يستحق أي ميت أن تبكي عليه بعد أن مات محمد ﷺ، والشاهد أن «آل» بمعنى: قوم وأتباع.

كُلِّهَا﴾ يعود الضمير في [كذَّبوا] على جميع من ذكر من الأمم، ويجيءُ جميع الآيات مستقيماً، ويجيءُ قوله تعالى: [فَأَخَذْنَاهُمْ] كذلك يعود على جميع الأمم المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ الآية... خطابٌ لقريش، وَقَفَهم على جهة التوبيخ، أَثَمَّ خصلة من مال أَو قوَّة أبدان وبسطة أَو عقل أَو غير ذلك مما يقتضي أَنكم خير من هؤلاءِ المعذبين لمَّا كذَّبوا فتُرْجَى لكم ـ بذلك الفضل ـ النجاة من العذاب حين كذبتم رسولكم؟ أَم لكم في كتب الله تعالى المنزَّلة براءَة من العذاب؟ قاله الضحاك، وابن زيد، وعكرمة.

ثم قال تعالى لنبيِّه محمد ﷺ: أَمْ يَقولونَ نَحنُ جَميعٌ واثقون بأَنَّا منتصرون بقوتنا على جهة الإعجاب والتعاطي، سَيُهزمون فلا ينفع جمعهم، وقرأَ أَبو حيْوة: [أَم تَقُولُونَ﴾ بالتَّاءِ من فوق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾.

هذه عِدَةٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ أَن جَمْع قريش سيهزم نُصرة له، والجمهور على أَن الآية مكيَّة، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال: كنت أَقول في نفسي: أَي شيءٍ يهزم؟ فلما كان يوم بدر رأَيت رسول الله ﷺ في الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فإنما كان رسول الله ﷺ في بدر مستشهداً بالآية.

وقال قوم: إن الآية نزلت يوم بدر، وذلك ضعيف، والصواب أن الوعد أُنجز يوم بدر، قال أَبو حاتم: قرأَ بعض القراءِ: [سَيَهْزِمُ] بفتح الياءِ وكسر الزَّاي (الْجَمْعَ) نصباً،

قال أَبو عمرو الداني: قرأَ أَبو حيْوة: [سَنَهْزِمُ] بالنون وكسر الزَّاي [الْجَمْعَ] بالنصب (وَتُوَلُّونَ) بالتاءِ من فوق.

ثم تُركت هذه الأَقوالُ وأُضرب عنها تهمُّماً بأَمر السَّاعة التي عذابها أَشدُّ عليهم من كل هزيمة وقِتَال، فقال تعالى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾، «أدهى» أَفْعَل من الداهية وهي الرَّزيَّةُ العظمى تنزل بالمرءِ، و«أَمَرُّ» من المرارة، واللفظة ها هنا مستعارة لأَنها ليست فيما يُذاق.

ثم أَخبر تعالى عن المجرمين أَنهم في الدنيا في حيرة وإِتلاف وفَقْد هُدى، وفي الآخرة في احتراقٍ وتَسَعُّر من حيث هم صائرون إِليه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: في خُسران وجنون، و«السُّعُر» الجنون، وأَكثر المفسِّرين على أَن المجرمين هنا يراد بهم الكفَّار، وقال قوم: المراد بالمجرمين القدرية الذين يقولون إِن أَفعال العباد ليست بِقَدَر من الله تعالى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهم المُتَوَعَّدون بالسَّحب في جهنم، والسَّحْبُ هو الجَرُّ، وفي قراءَة ابن مسعود رضي الله عنه: [إِلَى النَّارِ]. وقوله تعالى: [فَذُوقُوا] استعارة، والمعنى: يقال لهم: ذوقوا، على جهة التوبيخ.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ ـ فقرأَ الجمهور من الناس: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ ﴾ بالنصب، وقالوا: المعنى: إِنَّا خلقنا كلَّ شيءٍ خلقناهُ بِقَدَر، وليست [خَلَقْنَاهُ] في موضع الصفة لـ[شَيْءٍ]، بل هو فعل دالٌّ على الفعل المضمر، وهذا المعنى يقتضي أَن كل شيءٍ مخلوق إِلاَّ ما قام دليل العقل على أَنه ليس بمخلوق كالقرآن والصفة وقرأَ أَبو السَّمَّال ـ ورجَّحه أَبو الفتح ـ: [إِنَّا كُلُّ] بالرفع على الابتداءِ، والخبرُ ﴿ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾، قال أَبو حاتم: «هذا هو الوجه في العربية، وقراءَتنا بالنصب مع الجماعة»[1].

---

(١) يرجِّح أبو الفتح الرفع لأنه من مواضع الابتداء، فهو عنده كقولك: زيدٌ ضربتُه، فـ﴿ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ جملة وقعت خبراً عن مبتدأ، ثم دخلت [إنَّ] فنصبت الاسم وبقي الخبر على تركيبه الأصلي، وقد اختار محمد بن يزيد النصب، قال: التقدير: إنَّا فعلنا كذا، فالفعل منتظر بعد «إنَّا»، فلما دلَّ ما قبله عليه حسُن إضماره، وردَّ أبو الفتح بأنه لا معنى لِتَوقُّع الفعل؛ لأن أصل خبر المبتدأ أن يكون اسماً، ومع =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقرأها قوم من أهل السُّنَّة بالرفع، والمعنى عندهم على نحو ما هو عند الأولين من أن كلَّ شيءٍ فهو مخلوق بقَدَرٍ سابق، و[خَلَقْنَاهُ] ـ على هذا ـ ليست صفةً لـ[شَيْءٍ]، وهذا هو مذهب أهل السُّنَّة، ولهم احتجاجٌ قويٌّ بالآية على هذين القولين[1].

وقالت القَدَريَّةُ ـ وهم الذين يقولون: لا قَدَر، والمرءُ وحده فاعلٌ أَفْعَالَهُ ـ[2]: القراءَةُ: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ﴾ برفع [كُلُّ]، و[خَلَقْنَاهُ] في موضع الصفة لـ[كُلُّ]، أي: إِنَّ أَمْرَنَا وشأننا كلُّ شيءٍ خلقناه فهو بقَدَر، أي بمقدارٍ وعلى حدٍّ ما في هيئته وزمنه وغير ذلك، فيزيلون بهذا التأويل موضع الحُجَّة عليهم بالآية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إِنِّي أَجد في كتاب الله تعالى قوماً يُسحبون في

= ذلك فإن أبا الفتح ابن جني يقول: إنَّ الجماعة على قراءة النصب، ومما يُقَوِّيها أنَّ «إنَّ» تطلب الفعل فهي أولى به، والنصب أدَلُّ على العموم في أن المخلوقات لله تعالى، ولو حُذفت [خَلَقْنَاهُ] المفسِّرَة وأُظهرت المضمرة لصار الكلام: إنَّا خَلَقْنَا كُلَّ شيءٍ بِقَدَرٍ، ولا يصحُّ أن يكون [خَلَقْنَاهُ] صفةً لـ[شَيْءٍ] لأن الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف، ولا تكون تفسيراً لما يعمل فيما قبله. والخلاف في أساسه نحوي يرجع إلى الصناعة، والأفضل أن نختار ما يتفق مع المعنى الصحيح.

(١) يقولون: إن الله تعالى قدَّر الأشياء بمعنى أنه عَلِمَ مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه، فلا يحدث شيءٌ إلا وهو صادرٌ عن علمه سبحانه وعن قدرته وإرادته، والخَلْقُ ليس لهم إلاَّ نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة، وحصل لهم ذلك بتيسير الله تعالى وبقدرته وتوفيقه وإلهامه، قال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ فقالوا: الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا، فنزلت هذه الآيات إلى قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، فقالوا: يا محمد، يكتُبُ علينا الذنبَ ويُعَذِّبنا؟ فقال: أنتم خصماءُ الله يوم القيامة، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القَدَر فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، وخرجه الترمذي أيضاً وقال: «حديث حسن صحيح»، وروى مسلم عن طاوس قال: أدركتُ ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كلُّ شيءٍ بقدر، وسمعت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: قال النبي ﷺ: «كُلُّ شيءٍ بقَدَرٍ حتى العَجْزُ والكَيْسُ، أو الكَيْس والعَجْزُ».

(٢) خرَّج ابن ماجه في سننه عن ابن عباس وجابر رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أُمَّتي ليس لهم في الإسلام نصيب: أهل الإرْجاء والقدر»، وفي صحيح مسلم أن ابن عمر رضي الله عنهما تبرأ من القدرية، ولا يُتَبَرَّأُ إلاَّ من كافر. وفي مسند أحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لكل أُمَّة مجوس، ومجوس أُمتي الذين يقولون لا قَدَر، إنْ مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم».

النَّار على وجوههم لأَنهم كانوا يُكذِّبون بالقَدَر، يقولون: المرءُ يخلق أَفعاله، وإِنِّي لا أَراهم، فلا أَدري أَشَيْءٌ مضى أَم شيءٌ بقي، وقال أَبو هريرة رضي الله عنه: خاصمت قريش رسول الله ﷺ في القَدَر فنزلت هذه الآية[١]، قال أَبو عبد الرحمن السلمي: فقال رجلٌ: يا رسول الله، ففيم العمل؟ أَفي شيءٍ نستأْنفه أَوْ في شيءٍ قد فُرغ منه؟ فقال رسول الله ﷺ: «اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلق لَهُ، سَنُيَسِّرُه لليُسْرَى، سَنُيَسِّرُهُ للعُسْرَى»[٢]. وقال أَنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «القدرية الذين يقولون الخيرُ والشرُّ بأَيدينا، ليس لهم في شفاعتي نصيب، ولا أَنا منهم ولا هم منِّي»[٣].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ أَي: إِلاَّ قَولةٌ واحدةٌ وهي «كُنْ»، وقوله تعالى: ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ تفهيم للناس بأَعجل ما يحسُّون، وفي أَشياءَ من أَمر الله تعالى أَوحى من لمح البصر، و«الأَشياعُ»: الفرَقُ المتشابهة في مذهب أَو دين ونحوه، الأَول شيعة للآخر والآخر شيعة للأَول.

ثم أَخبر تعالى أَن كل أَفعال الأُمم المُهْلَكَة مكتوبة محفوظة عليهم إِلى يوم الحساب، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، و[مُسْتَطَرٌ] مُفْتَعل من السَّطْر، تقول: سطرتُ وأَسْطرتُ بمعنى، وروي عن عاصم شدُّ الراءِ من (مُسْتَطَرٌّ)، قال أَبو عمرو: وهذا لا يكون إِلاَّ عند الوقوف، لغة معروفة.

وقرأَ جمهور الناس: (وَنَهَرٍ) بفتح الهاءِ والنون على أَنها اسم الجنس يراد به الأَنهار، أَو على أَنه بمعنى سعة في الرِّزق والمنازل، ومنه قول قيس بن الخطيم:

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتْقَهَا ... يَرَى قَائمٌ منْ خَلْفِهَا مَا وَرَاءَهَا[٤]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه مسلم، والترمذي، وابن ماجه من حديث وكيع عن سفيان الثوري.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري، وأخرج مثله الإمام البخاري عن علي عن النبي ﷺ أنه كان في جنازة، فأخذ عوداً فجعل ينكت في الأرض، فقال: ما منكم من أحد إلا كُتب مقعده من الجنة أو من النار، قالوا: ألا نتّكل؟ قال: اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ. ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ الآية، ورواه مسلم بلفظ أطول من هذا، وكذلك رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وقد أخرج أحمد مثله في مسنده عن أبي بكر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه النحاسُ عن أنس رضي الله عنه.

(٤) قال قيس بن الخطيم هذا البيت من قصيدة قاله بعدأن أخذ بثأره من قاتلي أبيه وجده، وقد اختلفت رواية الشطر الثاني من البيت، ففي الحماسة، والأغاني، ولباب الآداب، والمثل السائر، واللسان، =

فقوله: «أَنْهَرْتُ» معناه جعلت فتقها كنهر، وقرأ زهير الفُرْقبيُّ[1]، والأعمش: [وَنُهُر] بضم النون والهاءِ على أَنه جمع نهارٍ، إِذْ لا لَيْل في الجنة، وهذا سائغ في اللَّفظ قَلِقٌ في المعنى[2]، ويحتمل أَن يكون جمع نَهَر[3]، وقرأ مجاهد، وحميد، وأَبو السَّمَّال، والفياض بن غزوان[4]: [نهْرٍ] بسكون الهاءِ على الإِفراد.

وقوله تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ يحتمل أَن يريد الصدق الذي هو ضد الكذب، أَي: في المقعد الذي صدقوا في الخبر به، ويحتمل أَن يكون من قولك: «عُودٌ صَدْقٌ» أَي جيِّدٌ، و«رجُلٌ صَدْقٌ» أَي خيِّرٌ وذو خلال حسان، وقرأ جمهور الناس: (في مَقْعَد) على اسم الجنس، وقرأ عثمان البتِّي[5]: [في مَقَاعد] على الجمع، و«المليكُ المقتدرُ» هو الله تبارك وتعالى.

كمل تفسير سورة القمر والحمد لله ربّ العالمين

* * *

= والصحاح، والمخصص، والتاج، ومنتهى الطلب، وخزانة الأدب: (يرى قائِمٌ من دونها)، وفي حماسة المرزوقي، والعيني: (يرى قائماً من دونها)، وفي الموشح، والعكبري: (يَرَى قائمٌ من خلفها). ومعنى (مَلَكْتُ): شدَدْتُ، ومعنى (أَنْهَرْتُ): فتحت بها فتحاً كبيراً وأجريتُ الدم، ومعنى البيت كما قال المرزوقي: «شددتُ بهذه الطعنة كفِّي ووسعت خرقها حتى يرى القائم من دونها الشيءَ الذي وراءها»، ويرى كثير من النقاد أن هذا البيت فيه مبالغة غير مقبولة، قال ابن قتيبة في (المعاني الكبير): «وهذا من إفراط الشعر».

(١) اختلفت الأصول في كتابة هذا الاسم، والتصويب عن (المُحْتَسَب) لابن جني.

(٢) وعلى أنه جمع نهار يكون مثل «سَحَابٍ وسُحُب»، ومنه قول الشاعر:

لَــوْلا الثَّــرِيــدانِ هَلَكْنَــا بــالضُّمُــرْ ... ثَــرِيــدُ لَيْــلٍ وَثَــرِيــدٌ بــالنُّهُــرْ

فالنُّهُر هنا جمع نهار.

(٣) قال ابن جني: وهذا كما جاء عنهم من تكسير فَعَل على فُعُل، مثل أَسَد وأُسُد، وَوَثَن وَوُثُن.

(٤) في بعض النسخ: «الفياضُ بن عدوان»، ونميل إلى ترجيح ما أثبتناه.

(٥) هو أبو مسلم، وقد اختلفت الأصول في كتابة اسمه، والتصويب عن القرطبي والبحر المحيط.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الرحمن

وهي مكِّيَّة فيما قال الجمهور من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وقال نافع بن أَبي نُعيم[(١)]، وعطاءٌ، وقتادة، وكُرَيْب[(٢)]، وعطاءٌ الخراساني[(٣)]، عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي مدنية نزلت عند إباية سهيل بن عمرو وغيرِهِ أن يكتب في الصلح: «بسم الله الرحمن الرحيم»، والأول أَصح، وإنما نزلت حين قالت قريش بمكة: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾؟، وفي السيرة أن ابن مسعود جهر بقراءَتها في المسجد حتى قامت إِليه أَندية قريش فضربوه، وذلك قبل الهجرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾.

[الرَّحْمٰنُ] بناءُ مبالغة من الرحمة، وهو اسم اختص الله تعالى بالاتصاف به، وحكى ابن فُورك عن قوم أنهم يجعلون [الرَّحْمٰن] آية تامة، كأَن التقدير: الرحمنُ ربُّنَا، وقاله

---

(١) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم القارىء، المدني، مولى بني ليث، أصله من أصبهان، وقد ينسب لجده، صدوق، ثبت في القراءة، من كبار السابعة، مات سنة تسع وستين. (تقريب التهذيب).

(٢) كُرَيب بن أبي مسلم الهاشمي، مولاهم، المدني، أبو رِشْدين، مولى ابن عباس، ثقة، من الثالثة، مات سنة ثمان وتسعين. (تقريب التهذيب).

(٣) هو عطاء بن أبي مسلم أبو عثمان الخُراساني، واسم أبيه ميسرة، وقيل عبد الله، صدوق، «وقيل»: يَهِمُ كثيراً ويُرسل ويُدلس، من الخامسة، مات سنة خمس وثلاثين، لم يصح أن البخاري أخرج له. (تقريب التهذيب).

الرُّمَّاني وأَن التقدير: اللهُ الرحمنُ، وقال الجمهور: إِنما الآية ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، فهو جزءُ آية.

وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ تعديد نِعْمة، أي: هوَ مَنَّ به، وعلَّمه الناس، وخصَّ حُفَّاظه وفهمته بالفضل، قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه»(١)، ومن الدليل على أن القرآن غير مخلوق أَن الله تعالى ذكر القرآن في كتابه في أَربعة وخمسين موضعاً ما منها موضع صرَّح فيه بلفظة الخلق ولا أَشار إِليه، وذكر الإِنسان على الثُّلث من ذلك في ثمانية عشر موضعاً كلها نصت على خلقه، وقد اقترن ذكرهما في هذه السورة على هذا النحو.

و«الإِنْسَانُ» هنا اسم الجنس، حكاه الزهراوي وغيره، و«البَيَانُ»: النطق والفهم والإِبانة عن ذلك بقول، قاله ابن زيد والجمهور، وذلك هو الذي فُضل به الإِنسان من بين سائر الحيوان، وقال قتادة: هو بيان الحلال والحرام والشرائع، وهذا جزءٌ من البيان العام، وقال قتادة: «الإِنسان» هو آدم عليه السلام، وقال ابن كيسان: «الإِنسان» محمد ﷺ، وهذا التخصيص لا دليل عليه، وكل المعلومات داخلة في البيان الذي عُلِّمه الإِنسان، فكأَن الله تعالى قال: من ذلك البيان وفيه معتبر كون الشمس والقمر بحسبان، فحذف هذا كله، ورفع [الشَّمْسُ] بالابتداءِ، وهذا ابتداءُ تعديد نعَم.

واختلف الناس في قوله تعالى: [بِحُسْبَانٍ] ـ فقال مكي، والزهراوي، عن قتادة: هو مصدر كالحساب في المعنى، كالغُفْران والطُّغيان في الوزن، وقال أَبو عبيدة معمر بن المثنى، والضحاك: هو جمع حِسَابٍ، كشِهَابٍ وشُهْبان، والمعنى: إِن هذين لهما في طلوعهما وغروبهما وقطعهما البروج وغير ذلك حساباتٌ، وهذا مذهب ابن عباس، وأَبي مالك، وقتادة. وقال ابن زيد: لولا الليل والنهار لم يدر أَحد كيف يحسب شيئاً من مقادير الزمان، وقال مجاهد: الحُسْبان: الفَلَك المستدير، شبَّهه بحسبان الرَّحى وهو العود المستدير الذي باستدارته تدور المطحنة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾، قال ابن عباس، والسدي، وسفيان:

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، وأبو داود في الوتر، والترمذي في ثواب القرآن، وابن ماجه في المقدمة، والدارمي في فضائل القرآن، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وفي رواية أخرجها البخاري عن عثمان بن عفان أيضاً قال: قال النبي ﷺ: «إن أفضلكم من تعلَّم القرآن وعلَّمه».

«النَّجْم»: النباتُ الذي لا ساق له، وسُمِّي نجماً لأَنه نَجَم أَي ظهر وطلع، وهو مناسب للشجر يشبَّه به، وقال مجاهد، وقتادة، والحسن: النَّجم: اسم الجنس من نجوم السماءِ، والنِّسبة التي لها من السماءِ هي التي للشجرة من الأَرض لأَنهما في ظاهرهما، وسُمي الشجر من اشتجار غصونه وهو تداخلها، واختلف الناس في هذا السجود ـ فقال مجاهد والحسن: ذلك في النجم بالغروب ونحوه، وفي الشجر بالظل واستدارته، وكذلك في النجم على القول الآخر، وقال مجاهد أَيضاً ما معناه: إِن السجود في هذا كله تجوُّز، وهو عبارة عن الخضوع والتذلل ونحوه، ومنه قول الشاعر:

. . . . تَرَى الأُكْمَ فيه سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ(١)

وقال تعالى: ﴿يَسْجُدَانِ﴾ وهما جمعان لأَنه راعى اللفظة، لأَنه اسم مفرد اسم للنوع، وهذا كقول الشاعر:

أَلَـمْ يَحْـزُنْـكِ أَنَّ حِبـالَ قَـوْمِـي وَقَـوْمِـكِ قَـدْ تَبَـايَنَـتَـا انْقِطَـاعَـا(٢)

وقرأَ الجمهور: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ بالنصب عطفاً على الجملة الصَّغيرة وهي [يَسْجُدَانِ]؛ لأَن هذه جملة من فعل وفاعل وهذه كذلك، وقرأَ أَبو السَّمَّال: [والسَّماءُ رَفَعَهَا] بالرفع عطفاً على الجملة الكبيرة وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾؛ لأَن هذه جملة من مبتدأ وخبر، والأُخرى كذلك، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله

---

(١) هذا عجز بيت قاله زيد الخيل بن مهلهل الذي سمَّاه النبي ﷺ زيد الخير بعد إسلامه، والبيت بتمامه:

بِجَمْـعٍ تَضِـلُّ الْبُلْـقُ فـي حَجَـراتِـهِ تَـرَى الأُكْـمَ فيـهِ سُجَّـداً لِلْحَـوَافِـرِ

والبَلَق: سوادٌ وبياض في الدابة، والمراد هنا الخيل، والبُلْقة فيها ارتفاع التحجيل إلى الفخذين، والحَجَرَات: النواحي، وهي جمع حَجْرَة، وفي المثل ـ وهو في حديث علي ـ: «ودَعْ عنك نهباً صِيحَ في حَجراتِه»، أي في نواحيه، والأُكْمُ جمع الإكام، والإكام جمع أَكَمٍ، وأَكَمٌ جمع أَكمة وهي المكان المرتفع دون الجبال، والشاهد أن السجود هنا مجازي يدل على الخضوع والذلة.

(٢) هذا البيت من قصيدة للقطامي مدح بها زُفَر بن الحارث الكلابي الذي حماه من بني أَسد يوم الخابور وحمله وكساه وأعطاه مائة ناقة، والخطاب هنا لضُباعة بنت زُفَر لأنه كان أسيراً عند والدها، والحبال: العهود والمواصلة التي كانت بين قومه وقومها وهما قيس وتغلب، ولهذا يروى البيت (أَلَم يحزنك أن حبال قيس. . . وتغلب)، وتباينت: تفرقت، وقد رُوي أن ضُباعة لمَّا سمعت هذا البيت قالت: بَلَى والله قد أَحْزَنني، والشاهد أنه راعى اللفظ حين قال: (تباينتا) أي حبال القومين، وإلا فلو راعى المعنى لقال: (تباينت) لأن الضمير يعود على (الحبال)، وقد روي البيت: (تباينت)، وعلى هذا فلا شاهد فيه.

عنه: [وخَفَضَ الميزان]، ومعنى [وَضَعَ]: أَقَرَّ وأَثْبَت، و«المِيزَانُ»: العَدْلُ فيما قال الطبري، ومجاهد، وأكثر الناس. وقال ابن عباس، والحسن، وقتادة: إِنَّهُ الميزان المعروف، وهو جزءٌ من الميزان الذي يعبَّر به عن العدل، ويظهر عندي أَن قوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ يريد به العدل، وأَن قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾، وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ يريد به الميزان المعروف، وكل ما قيل محتمل سائغ. وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟﴾ نهي عن التعمد الذي هو طغيان بالميزان، وأَمَّا ما لا يقدر البشر عليه من التحرير بالميزان فذلك موضوع عن الناس، و[أَلاَّ] هو بتقدير: «لِئَلاَّ» أَو مفعولٌ من أَجله، و[تَطْغَوْا] نصب، ويحتمل أَن تكون [أَنْ] مفسرة فيكون [تَطْغَوْا] جزم بالنهي[1]، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [لاَ تَطْغَوْا] بغير «أَنْ». وقرأَ جمهور الناس: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟﴾ من أَخْسَرَ، أَي نَقَصَ وأَفْسَدَ، وقرأَ بلال بن أَبي بُردة: [ولا تَخسِرُوا] بفتح التاءِ وكسر السين من خَسَر، ويقال: خَسَرَ بمعنى نقص وأَفسد كَجَبَرَ وأَجْبَر، وقرأَ بلالٌ أَيضا ـ فيما حكى عنه ابن جني ـ: (تَخْسَرُوا) بفتح التاءِ والسين من خَسِر بكسر السين[2].

واختلف الناس في [الأَنام] ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما في بعض ما روي عنه: هم بنو آدم فقط، وقال الحسن بن أَبي الحسن: هم الثقلان الجن والإِنس، وقال ابن عباس أَيضاً، وقتادة، وابن زيد، والشعبي: هم الحيوان كله. و«الأَكْمَامُ» في النخل موجودة في موضعين: فجملة فروع النخلة في أَكمام من ليفها، وطلع النخلة في كِمٍّ[3] من جهة، وقال قتادة: أَكمام النخل رقابها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والكِمُّ من النبات كل ما التفَّ على شيءٍ وستره، ومنه كمائم الزهر، وبه شبه كُمُّ الثوب.

---

(١) علّق أبو حيان على ذلك في البحر بقوله: «لا يجوز أن تكون [أَنْ] مفسرة لأنه يشترط أن يكون ما قبلها جملة فيها معنى القول، وجملة ﴿وضع الميزان﴾ ليس فيها معنى القول.

(٢) قال أبو الفتح: «وهذا ينبغي أن يكون على حذف حرف الجرّ، أي: تَخْسَرُوا في الميزان، فلما حذف الجر أفضى إليه الفعل قبله فنصبه، كقوله تعالى: ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾، أي: في كلِّ مرصد.

(٣) في المحكم والتهذيب ضُبط بالضَّم، ولكن في المصباح والقاموس والنهاية: كِمُّ الطَّلْعِ وكُلِّ نَوْرٍ: بالكسر.

﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾، الحَبُّ ذو العصف هو القمح والشعير وما جرى مجراه من الحب الذي له سنبل وأوراق متشعبة على ساقه، وهي العصيفة إذا يبست، ومنه قول عَلْقمة بنُ عَبَدَة:

تَسْقِي مَذَانِبَ قَدْ مَالَتْ عَصِيفَتُهَا ... حَدُورُهَا مِنْ أَتِيِّ الماءِ مَطْمُومُ(١)

قال ابن عباس رضي الله عنهما: العصف: التِّبن، وتقول العرب: خرجنا نتعصَّف، أَي يستعجلون عصيفة الزرع، وقرأ ابن عامرٍ، وأَبو البرهسم: [وَالْحبَّ] ـ بالنصب عطفاً على [الأَرْضَ] ـ ﴿ذَا العَصْفِ وَالرَّيْحَانَ﴾، إلاَّ أَن أَبا البرهسم خفض النون. واختلفوا في الريحان ـ فقال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: معناه: الرِّزْقُ، ومنه قول الشاعر وهو النَّمِرُ بنُ تَوْلَب:

سَلاَمُ الإِلَهِ وَرَيْحَانُهُ ... وجَنَّتُهُ وَسَمَاءٌ دِرَرْ(٢)

وقال الحسن: هو ريحانكم هذا، وقال ابن جبير: هو كلُّ ما قام على ساقٍ، وقال ابن زيد، وقتادة: الريحانُ هو كل مشموم طيب الريح من النبات، وفي هذا النوع نعمة عظيمة، فمنه الأَزهار والمندل والعقاقير وغير ذلك وقال الفراءُ: العصف فيما يؤكل، والريحانُ كلُّ ما لا يؤكل. وقرأ جمهور الناس: ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾،

---

(١) قال علقمة هذا البيت من قصيدة يبكي فيها فراق الحبيبة، ويصف دمْعَه ويشبِّهه بما يفيض من الدَّلْو العظيمة حين تسرع بها الناقة، فالضمير في «تسقي» يعود على الناقة وقد ذكرها في الأبيات السابقة، والمَذَانب: مدافع الماءِ إلى الرياض، والواحد مَذْنَب، والعصيفة: ورق الزرع، ويروى: «زالت عصيفتها»، والمعنى في «مال» استوى وقارب أن يجف، والمعنى في «زال» أنه جفَّ وسقط وتفرَّق بفعل الرِّيح، وحَدُورها: ما انحدر من هذه المذانب واطمأن في الأرض أي انخفض، والأتِيُّ: السَّيْل القوي، والمطمومُ: المملوءُ بالماءِ. والشاهد أن العصيفة هي ورق الزرع الذي يتفتح عن الثمرة ويسقط. وهذا البيت من شواهد أبي عليٍّ في (مجاز القرآن)، وقد نقل المفسرون كلامه وكذلك نقله صاحب اللسان في (عصف).

(٢) استشهد صاحب اللسان بهذا البيت وبيت بعده على أن الريحان هو الرزق، قال: والعربُ تقول: سبحان الله وريحانه، قال أهل اللغة: معناه واسترزاقه، وهو عند سيبويه من الأسماء الموضوعة موضع المصادر، تقول: خرجتُ أبتغي ريحان الله، قال النَّمِرُ بنُ تَوْلَب:

سَلامُ الإلَهِ وَرَيْحانُهُ ... وَرَحْمَتُهُ وَسَمَاءٌ دِرَرْ

غَمَامٌ يُنَزِّل رزقَ العِبَادِ ... فَأَحْيَا البِلادَ وَطَابَ الشَّجَرْ

ومعنى قوله: «وريحانُه: ورزقه». والسماءُ الدُّرَرُ هي التي تصب المطر كثيراً فيأتي بالخيرالكثير.

وهذه القراءَة في المعنى كالأُولى، وفي الإعراب حسنة الاتساق عطفاً على [فَاكِهَةٌ]، وقرأ حمزة، والكسائي وابن محيصن: [وَالحَبُّ] بالرفع ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ بخفض [الرَّيْحَانِ] عطفاً على [الْعَصْفِ]، كأَن «الْحَبَّ» هُمَا لَهُ على أَن «العَصْفَ» منه الورق وكل ما يُعصف باليد والريح فهو رزق البهائم، و«الريحانُ» منه الحبُّ وهو رزقُ الإِنس، والريحانُ ـ على هذه القراءَة ـ لا يدخل فيه المشموم إلاَّ بتكلُّف. و«ريحان» هو من ذوات الواو، قال أَبو علي: إمَّا أَن يكون ريحان اسماً وُضع موضع المصدر، وإِمَّا أَن يكون مصدراً على وزن فَعْلان كاللَّيَّان وما جرى مجراه، أَصله رَوْحان، أُبدلت الواو ياءً[1] كما أَبدلوا الياءَ واواً في «أَشاوي»، وإِمَّا أَن يكون مصدراً مما شذَّ في المعتل كما شذَّ كَيْنُونَة وبَيْنُونة، فأَصله رَيْوَحان، قُلبت الواوُ ياءً وأُدغمت الياءُ في الياءِ فجاءَ (رَيِّحان) فخفف، كما قالوا: مَيِّتٌ ومَيْتٌ، وهَيِّن وهَيْن.

و«الآلاءُ»: النِّعم، واحدها إِلًى مثل مِعًى وَأَلًى مثل نَقًى، حكى هذين أَبو عبيدة، وأَلْيٌ مثل أَمْنٍ، وإِلْيٌ مثل حِصْنٍ، حكى هذين الزهراوي، والضمير في قوله تعالى: [رَبِّكُمَا] للجن والإِنس، وساغ ذلك ولم يُصَرَّح لها بذكر على أَحد وجهين: إِمَّا أَنهما قد ذكرا في قوله تعالى: [للأنَام] على ما تقدم من أَن المراد به الثقلان، وإِمَّا على أَن أَمرهما مفسَّر في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ و﴿خَلَقَ الجَانَّ﴾ فساغ تقديمهما في الضمير اتساعاً. وقال الطبري: يحتمل أَن يقال: هذا من باب ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾[2]،

---

(١) وذلك للفرق بينه وبين الرُّوحانِيِّ، وهو كلُّ شيءٍ له رُوحٌ.

(٢) من قوله تعالى في الآية (٢٤) من سورة (ق): ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾، فالله سبحانه وتعالى يخاطب في هذه الآية خازن النار مالك، فَثَنَّى والخطابُ لواحد، وهذا كثير في كلام العرب، ومنه البيت المشهور في مطلع معلقة امرىء القيس:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخولِ فَحَوْمَلِ

وقوله أيضاً في مطلع قصيدة أُخرى:

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدبِ ... لِنَقْضِي لُبَانَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذَّبِ

فهو يخاطب واحداً لكن اللفظ جاء للمثنى، وقال سويد بن كراع:

فَإِنْ تَزْجُرَانِي يَابْنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ ... وَإِنْ تَدَعَانِي أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعاً

وهو واضح جداً حيث يخاطب فرداً واحداً بلفظ المثنى، قالوا: والعلَّةُ في هذا أن أقلَّ أعوان الرجل في إبله وماله اثنان، وأن أقلَّ الرفقة ثلاثة، فجرى كلام الرجل على ما قد أَلِف من خطابه. أما «يا غلام=

و«يا غلام اضربا عنقه»، وقال منذر بن سعيد: خوطب من يعقل لأن المخاطبة بالقرآن كله للإنس والجان، ويُروى أن هذه الآية لما قرأها النبي ﷺ سكت أصحابه رضي الله عنهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن جواب الجن خير من سكوتكم، إني لما قرأتها على الجن قالوا: لا نُكَذِّبُ بآلاءِ ربنا»[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾.

قال كثير من المفسرين: «الإِنْسَان»: آدم عليه السلام، وقال آخرون: أراد اسم الجنس، وساغ ذلك من حيث إن أباهم مخلوق من الصلصال. واختلف الناس في اشتقاق الصلصال، فقال مكي ـ فيما حُكي ـ والنقاشُ: هو من «صَلَّ اللَّحْمُ وغيره» إذا أنْتَن، فهي إشارة إلى الحمأة، وقال الطبري وجمهور المفسرين: هو من «صَلَّ» إذا صوَّت، وذلك في الطين لكرمه وجودته، فهي إشارة إلى ما كان في تربة آدم عليه السلام من الطين الحُرِّ، وذلك أن الله تبارك وتعالى خلقه من طين طيِّب وخبيث ومختلف اللون، فمرَّة ذكر في خلقه هذا ومرَّة هذا، وكل ما في القرآن في ذلك من صفات ترددت على التراب الذي خُلق منه. والفَخَّار: الطين الطيب إذا مسَّه الماءُ فَخَر أي رَبَا وعَظُم. و«الجان»: اسم جِنْس كالجِنَّة، و«المارج»: اللهبُ المضطرب من النار، قال ابن عباس

= اضربا عنقه» فهو من كلام الحجاج.

(١) أخرج هذا الحديث الترمذيُّ، والحاكم في المستدرك، وزاد السيوطي نسبته إلى ابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، وهو من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: مالي أراكم سكوتاً؟ لقد قرأتُها على الجنِّ ليلة الجنِّ فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيتُ على قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: ولا بشيءٍ من نِعَمك ربَّنا نكذِّب، فلك الحمد، وقد صحح الحاكم هذا الحديث كما ذكر السيوطي في الدُّرِّ، كذلك صححه الذهبي، لكن الترمذي قال: غريب لا نعرفه إلاَّ من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد. وزهير بن محمد هذا قال عنه البخاري: «ما روى عنه أهل الشام فإنه مناكير، وما روى عنه أهل البصرة فإنه صحيح» وهذا الحديث مما رواه الوليد بن مسلم وهو من أهل الشام، ومع هذا فقد أخرج مثله البزَّار، وابن جرير، وابن المنذر، والدارقطني في الإفراد، وابن مردويه، والخطيب في تاريخه بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما.

رضي الله عنهما: وهو أَحسنُ النار المختلطُ من الألوان الشتَّى، وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «كيف بك إذا كنت في حُثالة من الناس قد مَرَجت عهودهم وأَماناتُهم»(١).

وكرر قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تأكيداً وتنبيهاً للنفوس وتحريكاً لها، وهذه طريقةٌ من الفصاحة معروفة، وهي من كتاب الله تعالى في مواضع، وفي حديث النبي ﷺ، وفي كلام العرب. وذهب قوم منهم ابن قُتَيْبَة وغيره إلى أَن هذا التكرار إنما هو لمَّا اختلفت النعم المذكورة كرَّر التوقيف مع كل واحدة منها وهذا أَحسن، قال الحسين بن الفضل: التكرار لطرد الغَفْلة والتأْكيد.

وخصَّ تعالى ذكر المشرقين والمغربين بالتشريف في إَضافة الربِّ إليهما لِعظَمِهما في المخلوقات، وأَنهما طرفا آية عظيمة وعبرة وهي الشمسُ وجريها، وحكى النقاش أَن «المشرقين» هما مشرق الشمس والقمر و«المغربين» كذلك، على ما في ذلك من العِبَر، وكلٌّ مُتَّجه، ومتى وقع ذكر المشرق والمغرب فهي إشارة إلى الناحيتين بجملتهما، ومتى وقع ذكر المشارق والمغارب فهي إشارة إلى مشرق كل يوم ومغربه، ومتى ذكر المشرقان والمغربان فهي إشارة إلى نهايتي المشارق والمغارب؛ لأَن ذكر نهايتي الشيءِ ذكْرٌ لجميعه، وقال مجاهد: هو مشرق الصيف ومغربه ومشرق الشتاءِ ومغربه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم، وابن ماجه في الفتن، وأحمد في المسند (٢ـ١٦٢، ٢١٢، ٢٢٠)، ولفظه كما في المسند أن عبد الله بن عمرو قال: قال لي رسول الله ﷺ: «كيف أنت إذا بقيت في حُثالة من الناس؟ قال: قلت: يا رسول الله كيف ذلك؟ قال: إذا مَرِجَتْ عهودُهم وأماناتُهم، وكانوا هكذا ـ وشبَّك يونس بين أصابعه يصف ذلك ـ قال: قلت: ما أصنع عند ذلك يا رسول الله؟ قال: اتق الله عزَّ وجلَّ، وخُذ ما تعرف ودع ما تُنكر، وعليك بخاصَّتك، وإيَّاك وعوامَّهم». ويونس هو راوي الحديث عن الحسن عن عبد الله بن عمرو.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ معناه: أَرسلهما إِرسالاً غير منحاز بعضهما من بعض، ومنه: مَرَجت الدابةُ، ومنه: الأمر المريج، أَي المختلط الذي لم يتحصل منه شيءٌ، ومنه ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾. واختلف الناسُ في البحرين ـ فقال الحسن، وقتادة: بحر فارس وبحر الروم، وقال الحسن أَيضاً: بحر القُلْزم واليمن وبحر الشام، وقال ابن عباس، وابن جبير: بحرٌ في السماء وبحر في الأَرض، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً: هو مطر السماءِ ـ سمَّاهُ بحراً ـ وبحر الأَرض، والظاهر عندي أَن قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ يريد بهما نوعي الماءِ العذب والأُجاج، أَي خلطهما في الأرض وأَرسلهما متداخلين في وضعهما في الأَرض قريب بعضهما من بعض، والعبرة في هذا التأْويل منيرة، وأَنشد منذر بن سعيد:

وَمَمْزُوجَةُ الأَمْوَاهِ لاَ الْعَذْبُ غَالِبٌ عَلَى المِلْحِ طِيباً لاَ وَلاَ المِلْحُ يَعْذُبُ(١)

وأَمَّا قوله تعالى: [يَلْتَقِيَانِ] فعلى التأْويلين الأَوَّلين معناهما: مُعَدَّان للالتقاءِ وحقُّهما أَن يلتقيا لولا البرزخ، وعلى القول الثالث أَنهما يلتقيان كل سنة مرة، فمن ذهب إِلى أَنه بحر يجتمع في السماءِ فهو قول ضعيف، وإِنما يتوجه اللقاءُ فيه وفي القول الرابع بنزول المطر، وفي القول الخامس بالأَنهار في البحر وبالعيون قرب البحر.

و«الْبَرْزَخُ»: الحاجز في كل شيءٍ، فهو في بعض هذه الأقوال أَجرام الأَرض، قاله قتادة، وفي بعضها القدرة، والبرزخُ أَيضاً المُدَّة التي بين الدنيا والآخرة للموتى، فهو حاجز، وقال بعض الناس: إِن ماءَ الأَنهار لا يختلط بالماءِ المِلْح بل هو بذاته باق فيه، وهذا يحتاج إِلى دليل أَو حديث صحيح وإِلاَّ فالعيان لا يقتضيه، وذكر الثعلبي في ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أَلغازاً وأَقوالاً باطنة لا يجب أَن يُلتفت إِلى شيءٍ منها.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ ـ فقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: معناه: لا يبغي واحد منهما على الآخر، وقال قتادة أَيضاً، والحسن: لا يبغيان على الناس والعُمران، وهذان القولان على أَن اللفظ من البَغْي، وقال بعض المتأَولين: هي من قولك: بَغَى إِذا طلب، فمعناه: لا يبغيان حالاً من الأَحوال غير حاليهما اللتين خُلقا وسُخِّرا لهما. وقال

---

(١) أي لا يغلبُ العَذْبُ على المِلْح فتصير الأمواهُ كلها عذبة، ولا يغلب المِلْح على العذب فتصير الأمواه كلها ملحة.

ابن عباس، وقتادة، والضحاك: اللؤلؤ: كبارُ الجوهر والمرجانُ: صغاره، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، ومُرَّة الهَمْدَاني[١] عكس هذا، والوصف بالصغر هو الصواب في اللؤلؤ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره: المرجان حجر أحمر، وهذا هو الصواب في المرجان، واللُّؤْلُؤُ بناءٌ غريب لا يُحفظ منه في كلام العرب أكثر من خمسة: اللُّؤْلُؤ، والجُؤْجُؤ، والدُّؤْدُؤ، واليُؤْيُؤ ـ وهو طائر ـ والبُؤْبُؤ، وهو الأصل[٢].

واختلف الناس في قوله تعالى: [مِنْهُمَا] ـ فقال أبو الحسن الأخفش في كتاب (الحجة): وزعم قومٌ أنه قد يخرج اللؤلؤ والمرجان من المِلْح ومن العذب، وردَّ الناسُ على هذا القول لأن الحِسَّ يخالفه ولا يخرج ذلك إلاَّ من المِلْح، وقد ردَّ الناسُ على الشاعر في قوله:

فَجَــاءَ بِهَــا مــا شِئْـتَ مِـنْ لَطَمِيَّـةٍ ... عَلَـى وَجْهِهَـا مَـاءُ الْفُـرَاتِ يَمُـوجُ[٣]

---

(١) هو مُرة بن شَرَاحيل الهَمْداني ـ بسكون الميم بعدها دالٌ غير منقوطة ـ أبو إسماعيل الكوفي، قال في تقريب التهذيب: «هو الذي يقال له: مُرَّة الطيِّب، ثقة عابد، من الثانية، مات سنة ست وسبعين، وقيل بعد ذلك».

(٢) اللُّؤْلُؤ: الدُّرُّ، وهو يتكون في الأصداف من رواسب أو جوامد صلبة لمَّاعة مستديرة في بعض الحيوانات المائية الدنيا من الرَّخَويَّات، واحدته: لُؤْلُؤَة، وجمعه: لآلِيء.

والجُؤْجُؤ: مجتمع رُءُوس عظام الصدر، وصدر السفينة وجمعه: جآجيء.

والدُّؤْدُؤ: آخر أيام الشهر، ويقال: ليلة دُؤْدُؤٌ: شديدة الظلْمة، وجمعه: دَآدِيء، وفي الحديث (ليس عفر الليالي كالدَّآدي)

واليُؤْيُؤ: طائر من جوارح الطير كالباشق، وهو طائر صغير قصير الذَّنَب، وجمعه: يَآيِيء.

والبُؤْبُؤ: الأصلُ، يقال: فلانٌ في بُؤبُؤ المجد، وقد يكون معناه: وسط الشيءِ، وكذلك من معانيه: إنسَانُ العَيْن، يقال: هو أعزُّ عليَّ من بؤبؤ عيني، أي من إنسانها، وهو في الوقت نفسه وسط العين.

(٣) هذا البيت لأبي ذُؤَيْب الهُذَلي، وهو من أبيات يصف فيها محبوبته ويشبهها بالدُّرَّة الثمينة التي تعب الغواص في الوصول إليها وسط لُجَج الماءِ، ثم جاء بها بعد كثير من التعب والإرهاق، فالضمير في (فجاء) يعود على الغواص وقد ذكره في الأبيات السابقة، وفي (بها) يعود الضمير على الدُّرَّة، واللَّطيمة: عيرٌ تحمل التجارة والعِطْر، فإن لم يكن فيها عِطْر فليست بلطيمة، فجعل الشاعر هذه الدُّرَّة تحملها عِيرُ اللَّطيمة، وقوله: (ما شئْتَ مِن لَطَمِيَّةٍ) في موضع الحال، أي جاء بها في هذه الحالة. والفُرَات: العذبُ من الماءِ، ويمُوج: يضطرب ويتحرك، جعل الماءَ العذب يتلاطم فوقها، قالوا: وقد أخطأ هنا، فقد ظنَّ أن الدُّرَّة إذا كانت في الماءِ العَذْب فليس لها شبيه، ولم يعلم أنها لا تكون في الماءِ العذب، ويروى الشطر الثاني: (تَدومُ البِحَارُ فَوْقَهَا وتَمُوجُ) أي: تسْكُن فوقها وتتحرك، و(دام) تفيد معنى السكون، ومنه (لا يَبُولَنَّ أحدكم فِي الماءِ الدائم)، وعلى هذا فلا شاهد في البيت، والرواية=

وقال الجمهور من المتأولين: إنما يخرج ذلك من الأُجاج في المواضع التي تقع فيها الأنهار والمياه العذبة، فلذلك قال تعالى: [مِنْهُمَا]، وهذا مشهور عند الغواصين، وقال ابن عباس، وعكرمة: إنما تتكون هذه الأَشياءُ في البحر بنزول المطر لأَن الصدف وغيرها تفتح أَجوافها للمطر، فلذلك قال تعالى: [مِنْهُمَا]، وقال أَبو عبيدة ما معناه: إن خروج هذه الأَشياءِ إِنما هو من المِلْح لكنه تعالى قال: [مِنْهُمَا] تَجَوُّزاً، كما قال الشاعر:

. . . . مُتَقَلِّــــداً سَيْفـــــاً وَرُمْحَــــا(١)

وكما قال الآخر:

. . . . عَلَفْتُهَـــا تِبْنـــاً وَمَـــاءً بَـــارِدَا(٢)

= الأخيرة هي رواية الديوان.

(١) هذا عجز بيت قاله عبد الله بن الزِّبَعْرى ـ كما في حواشي الكامل ـ والبيت بتمامه كما ذكره الفراءُ في (معاني القرآن):

وَلَقِيـــتُ زَوْجَـــكِ فـــي الـــوَغَـــى ... مُتَقَلِّـــداً سَيْفـــاً وَرُمْحَـــا

والرواية في خزانة الأدب ـ نقلا عن المبرد في الكامل ـ وفي اللسان ـ قَلَد ـ: «يَا لَيْتَ زَوجَك قَد غَدَا»، وتقلَّد الأمر: احتمله، وكذلك تقلَّد السيف، والمعنى في البيت: مُتَقَلِّداً سيفاً وحامِلا رُمْحاً، قيل: إن الرُّمح لا يُتَقَلَّد لكنه لمَّا جمع الرُّمح مع السيف حَمَلَه على مثل لفظه لأن المعنى يرجع إلى شيءٍ واحد، وهذا هو معنى كلام المبرد، وقد جعل البيت كقول الشاعر الآخر: (شرَّابُ ألبَابِ وسَمْنٍ وأَقِطْ)، فإن اللبن يشرب، ولكن السَّمْنَ والأقِط لا يشربان وإنما يؤكلان، لكنه لمَّا جمع بينها حمل الأخيرين على مثل لفظ الأول لأن المعنى يرجع إلى شيءٍ واحد.

(٢) هذا رجزٌ لم يعرف قائله، وفي بعض حواشي نسخة من الصحاح نسب إلى ذي الرُّمَّة، قال في الخزانة: وفتَّشت ديوانه فلم أجده فيه، وقد أورد العلامة الشيرازي، والفاضل اليمني صدراً، وجعلا الجزءَ المذكور هنا عَجُزاً، فصار كالآتي:

لَمَّـــا حَطَطْـــتُ الـــرَّحْـــلَ عَنْهَـــا وارِدَا ... عَلَفْتُهَـــا تِبْنـــاً وَمَـــاءً بَـــارِداً

وجعله آخرون صدراً، وأوردوا له عَجُزاً، فصار كالآتي:

علفتهـــا تبنـــاً ومـــاءً بـــارداً ... حَتَّـــى شَتَـــتْ هَمَّـــالَـــةً عَيْنَـــاهَـــا

والضمير في (عَلَفْتُهَا) يرجع إلى الدابة المعهودة، والشاهد أنه عطف الماءَ على التِّبن، ولا يقال عن الماءِ عَلَفٌ، ولهذا قالوا: التقدير: وسقيتها ماءً، وقيل: إنه لما جمع الماءَ مع التبن حمله على مثل لفظه، لأن المعنى يرجع إلى شيءٍ واحد، وهو بهذا كقول الراعي عبيد: =

فمن حيث هما نوعٌ واحدٌ فخروج هذه الأَشياء إنما هو منهما وإِن كانت تختص عند التفصيل المبالغ بأَحدهما، وهذا كما قال تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾[1]، وإِنما هو في إِحداهن وهي الدنيا إِلى الأَرض، وقال الرُّمَّاني: العذب فيهما كاللقاح للملح، فهو كما يقال: الولد يخرج من الذكر والأنثى. وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وأَهل المدينة: (يُخْرَجُ) بضم الياء وفتح الراءِ (اللُّؤْلُؤُ) رفعاً. وقرأَ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [يَخْرُجُ] بفتح الياءِ وضم الراءِ على بناءِ الفعل للفاعل، وهي قراءَة الحسن، وأَبي جعفر. وقرأَ أَبو عمرو ـ في رواية حُسين الجعفي عنه ـ: (يُخْرِجُ) بضم الياءِ وكسر الراءِ على إِسناده إِلى الله تعالى، أَي بتمكينه وقدرته (اللُّؤْلُؤَ) نصباً، ورواها عنه أَيضاً بالنون مضمومة وكسر الراءِ.

و«الْجَوَارِ» جمع جارية وهي السُّفُن، وقرأَ الحسن، والنَّخَعي: [الْجَوَارِي] بإِثبات الياءِ، وقرأَ أَبو جعفر، وشيبة بحذفها، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: [الْمُنْشَآتُ] بفتح الشين، أَي أَنشأَها الله تعالى أَو الناسُ، وقرأَ حمزة، وأَبو بكر ـ بخلاف عنه ـ: [الْمُنْشِآتُ] بكسر الشين، أَي تُنشىءُ هي السَّيْرَ إِقْبَالاً وإِدباراً، و«الأَعْلاَمُ» الجِبالُ وما جرى مجراها من الظِّراب والآكام[2]، وقال مجاهد: ماله شراع فهو من المنشآت وما لم يرفع له شراع فليس من المنشآت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ هو الذي يقتضي هذا الفرق، وأَما لفظة «المنشآت» فتعمّ الكبير والصغير.

والضمير في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ للأَرض، وكنَّى تعالى عنها ولم يتقدم لها

= إذا ما الغَانِيَاتُ بَرَزْنَ يَوْماً وَزَجَّجْنَ الْحَوَاجِبَ والْعُيُونَا

إذْ أن العيون لا تُزَجَّج مثل الحواجب، ولهذا كان التقدير: وكَحَّلْنَ العُيُونَا، أو يقال: إنه لما جمع العيون مع الحواجب حملها على مثل لفظها لأن المعنى يرجع إلى شيءٍ واحد. وقالوا: إن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما، وقد ورد هذا في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، فإن الرسل من الإنس فقط.

(١) من الآيتين (١٥، ١٦) من سورة (نوح).

(٢) الظِّراب: جمع ظَرِب وهو الجبلُ المنبسط. والآكام: جمع الجمع، والمفرد: أكمة وهي التَّل، وجمعها أَكمات وأَكَمٌ، وجمع الأكم إكامٌ، وجمع الإكام أُكُم، وجمع الأكُم آكام.

ذِكْرٌ لوضوح المعنى، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾(١) إلى غير ذلك من الشواهد، والإشارة بالفناءِ إلى جميع الموجودات على الأرض من حيوان وغيره، فغلبت عبارة من يعقل فلذلك قال: [مَنْ].

و«الوَجْهُ» عبارة عن الذات لأن الجارحة منفية في حق الله تعالى، وهذا كما تقول: هذا وجه القول والأمر، أي حقيقته وذاتُه، وقرأ جمهور الناس: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ على صفة لفظة الوجه، وقرأ عبد الله بن مسعود، وأُبَيٌّ رضي الله عنهما: [ذِي الْجَلاَلِ] على صفة الرَّبِّ تبارك وتعالى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: [يَسْأَلُهُ] يحتمل أن يكون في موضع الحال من «الوجه» والعامل فيه [يَبْقَى]، أي هو دائم في هذه الحال، ويحتمل أن يكون فعلاً مُسْتَأْنفاً إخباراً مجرداً، والمعنى: إن كل مخلوق من الأشياءِ فهو في قوامه وتمسكه ورزقه إن كان مما يُرزق بحالِ حاجةٍ إلى الله تعالى، فمن كان يسأل بنطق فالأمر فيه بيِّنٌ، ومن كان من غير ذلك فحاله يقتضي السؤال فأسند فعل السؤال إليه.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ أيْ يظهر شأْنٌ من قدرته التي سبقت في الأزل في ميقاته من الزمن، من إحياءٍ وإماتة ورَفْع وخَفْض وغير ذلك من الأمور التي لا يعلم نهايتها إلاَّ هو تعالى وجلَّ، و«الشَّأْنُ» اسم جنس للأُمور، قال الحسين بن الفضل: معنى الآية سوْقُ المقادير إلى المواقيت، وقد ورد في بعض الأخبار أن الله تعالى له في كل يوم في اللوح المحفوظ ثلاثمائة وستون نظرة، يُعِزُّ فيها ويُذلُّ، ويُحيي ويُميت، ويُغني ويُعدم، إلى غير ذلك من الأشياءِ، لا إله إلاَّ هو. وفي الحديث أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية فقيل: ما هذا الشأْنُ يا رسول الله؟ قال: «يغفرُ ذنباً، ويفرجُ كرباً، ويَرْفعُ

(١) من الآية (٣٢) من سورة (ص).

ويَضَعُ»[(١)]، وذكر النقاش أَن سبب هذه الآية قول اليهود: إِن الله استراح يوم السبت فلا ينفذ فيه شيئاً، تعالى عن قولهم.

وقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ عبارة عن إِتيان الوقت الذي قدَّر فيه وقضى أَن ينظر في أَمر عباده، وذلك يوم القيامة، وليس المعنى أَنَّ ثمَّ شغلاً يفرغ منه، وإِنما هي إِشارة وعيد، وقد قال ﷺ لِأَزَبِّ العَقَبَة: «أَما والله لأَفْرُغَنَّ لك ما حييت»[(٢)]. و«التَّفَرُّغ» من كل آدمي حقيقة، وفي قوله تعالى: (سَنَفْرُغُ) جَرْيٌ على استعمال العرب، ويحتمل أَن يكون التوعُّد بعذاب في الدُّنيا، والأَول أَبين. وقرأَ نافع، وابن كثير، وعاصم، وأَبو عمرو، وابن عامر (سنَفْرُغُ) بفتح النون وضم الراءِ[(٣)]، وقرأَ الأَعرج، وقتادة ذلك بفتح الراءِ والنون، ورويت عن عاصم، ويقال: فَرَغَ بفتح الراءِ، وفَرِغَ بكسرها، ويصح منهما جميعاً أَن يقال: يَفْرَغُ بفتح الراءِ، وقرأَ عيسى بكسر النون وفتح الراءِ، قال أَبو حاتم: هي لغة سُفْلَى مضر، وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي بالياءِ المفتوحة، وقرأَ حمزة، والكسائي بضم الياءِ، وقرأَ أَبو عمرو بفتحها وضم الراءِ، وقرأَ الأَعمش ـ بخلاف ـ وأَبو حيوة: [سَيُفْرَغُ] بضم الياءِ وفتح الراءِ وبناءِ الفعل للمفعول، وقرأَ عيسى بن عمر أَيضاً: [سَنَفْرِغُ] بفتح النون وكسر الراءِ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه [سَنَفْرُغَ إِلَيْكُمْ].

و«الثَّقَلَانِ»: الجنُّ والإِنس، يقال لكل ما يعظم أَمره: ثقيل، ومنه ﴿وَأَخْرَجَتِ

---

(١) أخرجه الحسن بن سفيان في مسنده، والبزار، وابن جرير، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، وابن عساكر، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ، وفي قول الله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾، قال: «من شأنه أن يغفر ذنباً، ويُفَرِّج كرباً، ويرفع قوماً ويضع آخرين»، زاد البزَّار: «هو يجيب داعياً». (الدر المنثور). وأخرج البزَّار مثله عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ.

(٢) هذا جزءٌ من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣ـ٤٦٢) عن كعب بن مالك، وكان ممن شهد بيعة العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها، وفي الحديث يقول كعب: (فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأبعد صوت سمعته قط: يا أَهْل الجَبَاجب ـ والجَباجب المنازل ـ هل لكم في مُذَمَّم والصُّباة معه قد أجمعوا على حربكم، فقال رسول الله ﷺ: هذا أَزَبُّ العَقَبة، هذا ابن أُزَيْب، اسمع أي عدوَّ الله، أما والله لأفرُغَنَّ لك»، وهو في سيرة ابن إسحاق أيضاً. والأَزَبُّ في اللغة: الكثير الشعر، وقال ابن الأثير في كتابه (النهاية في غريب الحديث): «هو شيطان اسمه أَزَبُّ العقبة، وهو الحيّة».

(٣) في الأصول: «بضم النون والراءِ»، والتصويب عن كتب القراءة والتفسير.

ﵟٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَاﵞ[١]، وقال النبي ﷺ: «إِني تاركٌ فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي»[٢]، ويقال لبيض النعام: ثَقَلٌ، قال لبيد:

فَتَـذَكَّـرا ثَقَـلاً. . . . .[٣]

وقال جعفر بن محمد الصادق[٤]: سُمِّي الجن والإِنس ثقلَيْن لأَنهما ثقلا بالذنوب، وهذا بارع ينظر إِلى خلقهما من طين ونار، وقرأ ابن عامر: [أَيُّهُ الثَّقَلاَنِ] بضم الهاءِ.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﵟإِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِﵞ ـ فقال الطبري: قال قوم: في الكلام محذوف تقديره: يقال لكم: يا معشر الجن والإِنس، قالوا: وهذه حكاية عن حال يوم القيامة، [يوم التنادِّ] على قراءَة من قرأ بشدّ الدَّال[٥]، قال الضحاك: وذلك أنه يفرُّ النَّاس في أَقطار الأَرض، والجنُّ كذلك، لما يرون من هول يوم القيامة، فيجدون سبعة صفوف من الملائكة قد أَحاطت بالأَرض فيرجعون من حيث جاؤوا، فحينئذ يقال لهم: ﵟيَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِﵞ. وقال بعض

---

(١) الآية (٢) من سورة (الزلزلة).

(٢) أخرج هذا الحديث مسلم في فضائل الصحابة، والدَّارميُّ في فضائل القرآن، وأحمد في مسنده (٣ـ١٤، ١٧، ٣٦، ٥٩)، ولفظه كما في مسند أحمد، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعِتْرتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يَرِدَا عليَّ الحوض»، وفي رواية أُخرى ذكرها أيضاً أحمد في مسنده زيادةٌ في أول الحديث هي قوله ﷺ: «إني أُوشك أن أُدعى فأجيب»، وزيادة في آخره هو قوله: «فانظروا بم تخلفوني فيهما».

(٣) هذا أول بيت قاله ثعلبةُ بن صُعَيْر المازني يذكر الظليم والنعامة، وليس من شعر لبيد، وقد قال ثعلبةُ هذا البيت من قصيدة يذكر فيها حبيبته عَمْرَةَ، وكيف وعدته ثم أخلفت وعدها، فتركها وسافر على ناقة شبَّهها بالظليم ـ وهو ذكر النَّعام ـ ثم استطرد يصف الناقة، والبيتُ بتمامه كما ذكره صاحب اللسان:

فَتَـذَكَّـرَا ثَقَـلاً رَثِيـداً بَعْـدَمَـا ... أَلْقَـتْ ذُكَـاءُ يَمِينَهَـا فـي كَـافِـرِ

ورواية البيت كما ذكرها المُفَضَّل الضبيُّ في المُفَضَّلِيَّات: «فَتَذَكَّرَتْ ثَقَلاً. . .» يعني النعامة التي يشبه بها ناقته، والثَّقل: المتاع وكلُّ شيءٍ مصون، وهو يريد هنا بيضها. والرَّثِيد: المنضود بعضه فوق بعض، وذُكاءُ ـ بضم الذال ـ: الشمس، والكافر: الليل؛ لأنه يغطي ويستر بظلمته كل شيءٍ، وكل ما غطى شيئاً فقد سَتَره وكَفَره، ومعنى «أَلْقت يمينها في كافر» مالت للمغيب، أو تهيأت له.

(٤) هو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي، أبو عبد الله، المعروف بالصادق، صدوق فقيه، إمام، من السادسة، مات سنة ثمان وأربعين. (تقريب التهذيب).

(٥) وذلك في قوله تعالى في الآية (٣٢) من سورة (غافر): ﵟوَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِﵞ.

المفسرين: بل هي مخاطبة في الدنيا، والمعنى: إن استطعتم الفرار من الموت بأَن تنفذوا من أَقطار السموات والأَرض، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن استطعتم بأذهانكم وفكركم أَن تَنفُذُوا فتعلموا علْم أَقطار السموات والأَرض، و«الأَقطارُ»: الجهات، وقوله تعالى: [فَانفُذُوا] صيغته الأَمر ومعناه التعجيز. و«السُّلطان» هو القوة على غرض الإنسان، ولا يستعمل إِلاَّ في الأَعظم من الأَمر والحجج أَبداً من القوي في الأُمور، فلذلك يعبِّر كثير من المفسرين عن السلطان بأَنه الحُجَّة، وقال قتادة: السلطان هنا الملك، وليس لهم ملك.

و«الشُّوَاظ»: لهبُ النار، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وقال أَبو عمرو بن العلاءِ: لا يكون الشواظ إِلاَّ من النار وشيءٍ معها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكذلك النار كلها لا تُحَسُّ إِلاَّ وشيءٌ معها.

وقال مجاهد: الشُّواظُ هو اللهب الأخضر المنقطع، ويؤيد هذا القولَ قولُ حسَّان بن ثابت يهجو أُمَيَّة بن أَبي الصلت:

هَجَوْتُكَ فاخْتَضَعْتَ حَليفَ ذُلٍّ ... بِقَافِيَةٍ تَأَجَّجُ كالشُّوَاظ[1]

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها حسان بن ثابت في الردِّ على هجاءِ أُمَيَّة بن خلف له، وليس أُمية بن أبي الصلت، والذي قال أُمية بن أبي الصلت هو الثعلبي في تفسيره، وكذلك الماوردي، ولكن ورد في الصحاح، واللسان، والتاج، وكتاب الوقف والابتداء لابن الأنباري وديوان حسان أن الأبيات في الردّ على أُمية بن خلف حين قال يهجو حسان بن ثابت:

أَلاَ مَنْ مُبْلِغٍ حَسَّانَ عَنِّي ... مُغَلْغَلَةً تَدِبُّ إِلى عُكَاظِ

أَلَيْسَ أَبُوكَ فِينَا كانَ قَيْناً ... لَدَى القَيْنَاتِ فَسْلاً في الحِفَاظِ

يَمَانِيّاً يَظَلُّ يَشُدُّ كِيراً ... وَيَنْفُخُ دائباً لَهَبَ الشُّوَاظ؟

ورواية البيت في الديوان تختلف كثيراً عما هنا، فهو هناك:

مُجَلَّلَةً تُعَمِّمُكُمْ شَنَاراً ... مُضَرَّمَةً تَأَجَّجُ كالشُّوَاظِ

والشنَّار: الأمر المشهور بالشُّنعة والقُبح، ويقال: عارٌ وشنار، وتُعَمِّمُكُمْ: تشملكم جميعاً وتتناول كل فرد منكم، أما رواية البيت كما ذكرها ابن عطية هنا فهي التي وردت في سيرة ابن هشام مع اختلاف يسير عما هنا، فقد وردت هكذا:

هَجَوْتُكَ فاخْتَضَعْتَ لِذُلِّ نَفْسٍ ... بِقَافِيَةٍ تَأَجَّجُ كالشُّوَاظِ =

وقال الضحاك: هو الدخان الذي يخرج من اللهب وليس بدخان الحطب. وقرأ الجمهور: (شُوَاظٌ) بضم الشين، وقرأ ابن كثير وحده[1]، وشبل، وعيسى: [شِوَاظٌ] بكسر الشين، وهما لغتان، وقال ابن عباس، وابن جُبَيْر: النُّحاسُ: الدُّخان، ومنه قول الأَعشى:

يُضِـــيءُ كَضَـــوْءِ سِـــرَاجِ السَّليـ ـطِ لَـمْ يَجْعَـلِ اللهُ فيـهِ نُحَـاسَـا[2]

والسليط: دُهن الشَّيْرَج، وقرأَ جمهور القراءِ: [وَنُحَاسٌ] بالرفع عطفاً على [شُوَاظٌ]، فمن قال إِن النحاس هو المعروف ـ وهو قول مجاهد، وابن عباس أَيضاً ـ قال: ويرسَلُ عليهما نحاسٌ، أَي: يُذاب ويُرْسَل عليهما، ومن قال هو الدخان قال: يُعذبون بدخان يُرسل عليهما. وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، والنَّخَعي، وابن أَبي إِسحاق: (وَنُحَاسٍ) بالخفض عطفاً على [نَارٍ]، وهذا مستقيم على ما حكيناه عن أَبي عمرو بن العلاءِ، ومن رأَى أَن الشواظ يختص بالنار قدَّر هنا: وشيءٍ من نحاس، وحكى أَبو حاتم عن مجاهد أَنه قرأَ: [وَنِحَاسٍ] بكسر النون والجرِّ، وعن عبد الرحمن بن أَبي بكر أَنه قرأَ: [وَنَحُسُّ] بفتح النون وضم الحاءِ والسين المشددة على أَنه فعل، كأَنه يقول: وَنَقْتُلُ بالعذاب[3]، وعن ابن جندب أَنه قرأَ: (وَنَحْسٌ) كما تقول: يومٌ نحْسٌ، وحكى أَبو عمرو مثل قراءَة مجاهد عن طلحة بن مصرف، وذلك لغة في نُحاس، وقيل: هو جمع نَحس، ومعنى الآية مستمر في تعجيز الجن والإِنس، أَي: أَنتما بحال من يُرسل عليه هذا فلا تنتصران.

= والشاهد في بيت حسَّان وفي شعر أُميَّة بن خلف استعمال الشواظ بمعنى اللهب.

(١) أي وحده من بين السبعة المشهورين في القراءة.

(٢) هذا البيت للنابغة الجعدي، عبد الله بن قيس، وليس للأعشى، وهو من قصيدة مشهورة للجعدي يقول في مطلعها:

لَبِسْـــتُ أُنَـــاســـاً فَـــأَفْنَيْتُهُـــمْ وأَفْنَيْـــتُ بَعْـــدَ أُنَـــاسٍ أُنَـــاسَـــا

وهو في الصحاح، والتاج، واللسان، وخزانة الأدب، والكامل. والسليط عند عامة العرب: الزيت، وعند أهل اليمن: دُهْن السِّمْسِم وهو الشَيْرج كما يقول ابن عطية، والنحاسُ: الدخان وهو الشاهد هنا. والضمير في «يُضيءُ» يعود على وجه الفتاة الذي ذكره في البيت السابق وهو:

أَضَـــاءتْ لَنَـــا النَّـــارُ وجْهـــاً أَغَـ ـــرَّ مُلْتَبِســاً بِـــالفُـــؤَادِ الْتِبَـــاسَـــا

(٣) قال أبو الفتح: «نَحُسُّ» أي نَقْتل بالعذاب، يقال: حسَّ القوم يَحُسُّهم حَسّاً إذا استأصلتهم، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾، أي: تقتلونهم قتلا ذريعاً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن
ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى
وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ
ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

جواب [إِذَا] محذوف مقصود به الإبهام، كأنه تعالى يقول: فإذا انشقت السماءُ فما أَعظم الهول، وانشقاقُ السماءِ انْفطارُها عند القيامة، وقال قتادة: السماءُ اليوم خضراءُ وهي يوم القيامة حمراءُ، فمعنى قوله تعالى: [وَرْدَةً] أَي: كحمرة الورد، وهو النوار المعروف، وهذا قول الزجاج والرمَّاني. وقال ابن عباس، وأَبو صالح، والضحاك: هي من لون الفرس الورد، فأُنِّث لكون السماءِ مؤنثة. واختلف الناس في قوله تعالى: [كَالدِّهَانِ] ـ فقال مجاهد، والضحاك: هو جمع دهن، قالوا: وذلك أن السماءَ يعتريها يوم القيامة أَلوانٌ وذوبٌ وتميُّعٌ من شدة الهول، وقال بعضهم: شبَّه لمعانها بلمعان الدُّهن، وقال جماعة من المتأَولين: الدهان: الجِلْد الأَحمر، وبه شبهها، وأَنشد منذر بن سعيد:

يَبِعْـنَ الـدِّهَـان الحُمْـرَ كُـلَّ عَشِيَّـة ... بِمَـوْسـمِ بَـدْرٍ أَوْ بِسُـوق عُكَـاظِ(١)

وقوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ﴾ نفي للسؤال، وفي القرآن الكريم آيات تقتضي أَن في القيامة سؤالاً وآياتٌ تقتضي نفيه كهذه وغيرها، فقال بعض الناس: ذلك في مواطن دون مواطن، وهو قول قتادة وعكرمة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ وهو الأَظهر في ذلك ـ: إن السؤال متى أُثبت فهو بمعنى التقرير والتوبيخ، ومتى نُفي فهو بمعنى الاستخبار المحض والاستعلام؛ لأَن الله تبارك وتعالى عليم بكل شيءٍ، وقال الحسن، ومجاهد: لا تسأَل الملائكة عنهم لأَنهم يعرفونهم بسيماهم، والسِّيما التي يُعرف بها المجرمون هي سواد الوجوه وزرقة العيون في الكفرة، قاله الحسن، ويحتمل أَن يكون غير هذا من التشويهات.

---

(١) قال في اللسان: «الدِّهان: الجِلْدُ الأحمر، وقيل: الأملس» فالبيت يصف من يبعن الجلد الأحمر في الأسواق كل عشية، وهو شاهد على أن الدِّهان هو الجلد الأحمر.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: يؤخذ كل كافر بناصيته وقدمه فيُطوى ويُجمع كالحطب، ويُلقى كذلك في النار، وقال النقاش: رُوي أن هذا الطيَّ على ناحية الصلب قَعَساً[1]، وقاله الضحاك، وقال آخرون: بل على ناحية الوجه، قالوا: فهذا معنى ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾، وقال قومٌ في كتاب الثعلبي: إنما يُسحب الكفرة سحباً، فبعضهم يُجر بقدميه، وبعضهم بناصيته، فأخبر في هذه الآية أن الأخذ يكون بالنواصي ويكون بالأقدام.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ﴾ قبلها محذوف تقديره: يُقال لهم على جهة التوبيخ والتقرير، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [هَذِهِ جَهَنَّمُ التي كُنْتُمَا بِهَا تُكَذِّبان، تَصليَانها لا تَموتَانِ فيها وَلاَ تَحْيَيَان]. وقرأ جمهور الناس: [يَطُوفُونَ] بفتح الياءِ وضم الطاءِ وسكون الواو، وقرأ طلحة بن مصرف: (يُطَوِّفُونَ) بضم الياءِ وفتح الطاءِ وشد الواو، وقرأ أَبو عبد الرحمن: [يُطَافُونَ]، وهي قراءَة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، والمعنى في هذا كله أَنهم يتردَّدون بين نار جهنم وجمرها وبين حميم، وهو ما غلي في جهنم من مائع عذابها، و«الحميم»: الماءُ السخن، وقال قتادة: إن العذاب الذي هو الحميم يُغلى منذ خلق الله تعالى جهنم، وأَنَى الشيءُ: حَضَر، وأَنَى اللحم أَو ما يُطبخ أو يُغلى: نضج وتناهى حرُّه والمرادُ منه، ويحتمل أَن يكون من هذا ومن هذا، وكونه من الثاني أَبين، ومنه قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾[2]، ومن المعنى الآخر قول الشاعر:

. . . . أَنَــى وَلِكُــلِّ حَــامِلَــةٍ تَمَــامُ[3]

---

(١) القَعَس: نقيض الحَدَب، وهو خروج الصدر ودخول الظهر، فالمراد أنهم يكونون على هذه الهيئة إذ تطوى أجسامهم بحيث تبرز الصدور وتلتقي النواصي بالأقدام.

(٢) من الآية (٥٣) من سورة (الأحزاب).

(٣) هذا عجز بيت استشهد به صاحب اللسان في (أنى)، ولم ينسبه، قال: «ابنُ الأنباري: الأنَى من بلوغ الشيء منتهاه، مقصور يكتب بالياء، وقد أَنَى يأني، وقال:

تَمَخَّضَــتِ الْمَنُــونُ لَــهُ بِيَــوْمٍ أَنَــى ولِكُــلِّ حَــامِلَــةٍ تَمَــامُ

أي أدرك وبلغ». وذكره في التاج ونسبه إلى عمرو بن حسان. وتَمَخَّض أصله: تحرَّك وتهيَّأ، والمراد هنا أن المنون أتت له بهذا اليوم الذي كان لا بد أن يأتي، وقد أدرك وبلغ كما أن كل حاملة لا بد أن تُتم حملها وتلد.

ويشبه أَن يكون الأَمر في المعنيين قريباً بعضه من بعض، والأَولُ أَعمُّ من الثاني.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾.

[مَنْ] في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ يحتمل أَن تقع على جميع المتصفين بالخوف الزاجر عن معاصي الله تعالى، ويحتمل أَن تقع لواحد منهم، وبحسب هذا قال بعض الناس في هذه الآية: إِن كل خائف له جنتان، وقال بعضهم: إِن جميع الخائفين لهم جنتان، و«الْمَقَامُ» هو وقوف العبد بين يدي ربه تعالى، يفسره ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(١)]، وأَضافَ المقام إِلى الله تعالى من حيث هو بين يديه. قال الثعلبي: «مَقَامُ رَبِّهِ» قيامُه على العبد، بيانه ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[(٢)]، وحكى الزهراوي هذا المعنى عن مجاهد، وفي هذه الإِضافة تنبيه على صعوبة الموقف، وتحريض على الخوف الذي هو أَسرع المطايا إِلى الله عزَّ وجلَّ، وقال قوم: أَراد جنة واحدة وثَنَّى على نحو قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾[(٣)]، وقول الحجاج: يا غلام اضربا عنقه، وهذا ضعيف؛ لأَن معنى التثنية متَّجه بلا وجه للفرار إِلى هذه الشَّاذَّة، ويؤيد التثنية قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾، وهي تثنية (ذات) لأَن أَصل (ذات) ذوات.

و«الأَفْنَان» يحتمل أَن يكون جمع فَنَنٍ وهو الغُصْن، وهذا قول مجاهد، فكأَنه تعالى مدحها بظلالها وتكاثف أَغصانها، ويحتمل أَن يكون جمع فَنٍّ، وهو قول ابن عباس

---

(١) الآية (٦) من سورة (المطففين).

(٢) من الآية (٣٣) من سورة (الرعد).

(٣) الآية (٢٤) من سورة (ق)، والخطاب من الله تعالى لواحد هو مالك خازن النار، لكن الله تعالى جعله لاثنين، وقد جرت عادة العرب على ذلك في كثير من أقوالهم وأشعارهم، وقد سبق التعليق على ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من هذه السورة. راجع صفحة ١٦٣ هامش ٢.

رضي الله عنهما، فكأنه تعالى مدحها بكثرة أنواع فواكهها ونعيمها[١]. و[زَوْجَانِ] معناه: نوعان، و[مُتَّكِئِينَ] حالٌ، إمَّا من محذوف تقديره: يتنعمون متكئين وإما من قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾، و«الاتكاء»: جلسة المتنعِّم المتمتِّع، وقرأ جمهور الناس: (فُرُشٍ) بضم الراء، وقرأ أبو حيوة: [فُرْشٍ] بسكون الراء، وروي في الحديث أنه قيل لرسول الله ﷺ: هذه البطائن من إستبرق فكيف الظواهر؟

قال عليه الصلاة والسلام: «هي من نور يتلألأ»[٢]، و«الإستبرق» ما خشن وحسن من الديباج، و«السُّنْدُسُ» مارقَّ منه، وقد تقدم القول في لفظة الإستبرق، وقرأ ابن محيصن: [مِنْ اسْتَبْرَقَ] على أنه فعل والألف وصل[٣].

و«الجَنَى» ما يُجْتَنَى من الثمار، ووصفه بالدنُوِّ لأنه فيما رُوي في الحديث يتناوله الرجل على أي حالة كان من قيام أو جلوس أو اضطجاع[٤] لأنه يدنو إلى مشتهيه.

---

(١) جاءَ الفنن في اللغة بمعنى الغُصن، وشواهده كثيرة في اللغة، ومنها قول الشاعر:

مـا هَـاجَ شَـوْقَـكَ مِـن هَـديلِ حَمـامَـةٍ ... تَـدْعُـو عَلَـى فَنَـنِ الغُصـونِ حَمَـامَـا

تَـدعُـو أبَـا فَـرخَيْـن صـادفَ ضـارِيـاً ... ذَا مِخْلَبَيْـن مِـن الصُّقُـورِ قَطَـامَـا

وقول النابغة:

بُكَـاءُ حَمَـامَـةٍ تَـدْعُـو هَـدِيـلاً ... مُفَجَّعَـةٍ عَلَـى فَنَـنٍ تَغَنَّـى

وجاء الفنن بمعنى النوع، وشاهده قول الشاعر:

ومِـنْ كُـلِّ أَفْنَـانِ اللَّـذَاذَةِ والصِّبَـا ... لَهَـوْتُ بِـهِ والعَيْـشُ أَخْضَـرُ نَـاضِـرُ

أي: ومن كل أنواع اللَّذاذة.

(٢) ذكره القرطبي قائلاً: وفي الخبر عن رسول الله ﷺ، ولكن في الدر المنثور ذكر السيوطي الخبر عن ابن عباس وابن جبير، قال: أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قيل له: بطائنها من إستبرق فما الظواهر؟ قال: ذاك مما قال الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، وكذلك قال: أخرج أبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ قال: ظواهرها من نور جامد. ونسب ابن كثير هذا إلى سفيان الثوري أو شريك. (راجع تفسير ابن كثير).

(٣) قال أبو الفتح في المحتسب: «هذه صورة الفعل البتَّة، بمنزلة اسْتَخْرَجَ، وكأنه سُمِّي بالفعل وفيه ضمير الفاعل، فحُكي كأنه جملة، وهذا باب إنما طريقه في الأعلام كتأبَّطَ شرّاً وشاب قرناها، وليس الإستبرقُ عَلَماً يُسمَّىً بالجملة».

(٤) أخرج الفريابيُّ، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد بن السري، وعبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، =

والضمير في قوله تعالى: [فيهنَّ] للفُرُش، وقيل: للجنات؛ إذ الجنتَّان جنات في المعنى.

و«قاصِرَاتُ الطَّرْفِ» هن الحور العين قصرن ألحاظهن على أزواجهن. وقرأ أبو عمرو عن الكسائي وحده، وطلحةُ، وعيسى، وأصحابُ علي، وابنُ مسعود رضي الله عنهما: [يَطْمُثْهُنَّ] بضم الميم، وقرأ جمهور القراءِ: (يَطْمِثْهُنَّ) بكسر الميم، والمعنى: لم يَفْتَضِضْهُنَّ[1]؛ لأن الطمْثَ دم الفرج فيقال لدم الحيض: طمثٌ، ويقال لدم الافتضاض: طَمْثٌ، فإذا نفي الطَّمث فقد نُفِي القرب منهن على جهة الوطء، قال الفراءُ: لا يقال «طَمَثَ» إلاَّ إذا افتضَّ، وقال غيره: «طَمَثَ» معناه: جامع بكراً أو غيرها.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا جَآنٌّ﴾ ـ فقال مجاهد: الجن قد تجامع نساءَ البشر مع أَزواجهن إذا لم يذكر الزوجُ الله تعالى، فنفى في هذه الآية جميع المجامعات، وقال حمزة بن حبيب: الجِنُّ في الجنَّة لهم قاصرات الطرف من الجن نوعهم، فنفى في هذه الآية الافتضاض عن البشريَّات والجنِّيَّات، ويحتمل اللفظ أن يكون مبالغة وتأكيداً كأنه تعالى قال: لم يطمثهن شيءٌ، أراد العموم التام لكنه صرَّح من ذلك بالذي يُعقل منه أنه يَطْمِث، وقال أبو عبيدة والطبري: إن من العرب من يقول: ما طَمَثَ هذا البعير حبل قط، أي ما مسَّه، فإن كان هذا المعنى: ما أدماه حبلٌ فهو يقرب من الأَول، وإلاَّ فهو معنى آخر غير ما قدمناه. وقرأ الحسن، وعمرو بن عبيد: [وَلاَ جَأْنٌ] بالهمز.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾.

= والبيهقي في البعث، عن البراء بن عازب في قوله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾، قال: (قريبة)، و﴿ذُلِّلَت قطوفها تذليلاً﴾، قال: (إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً ومضطجعين وعلى أي حال شاءُوا)، وفي لفظ قال: (ذُلِّلَتْ لهم فيتناولون منها كيف شاءُوا). (الدر المنثور).

(١) الافتضاض هو النكاح بالتَّدمية، (نقله صاحب اللسان عن الفراء).

«الْيَاقُوتُ والمرَجَانُ» من الأَشياء التي قد برع حُسْنُها، واستشعرت النفوسُ جلالها، فوقع التشبيه بها لاَ في جميع الأوصاف لكن فيما يُشبه ويحسن بهذه المشبهات، فالياقوت في امّلاَسِهِ[١]. وشفوفه، ومنه قول النبي ﷺ في صفة المرأة من نساء أهل الجنة: (يُرَى مخُّ ساقها من وراء العظم)[٢]، والمرجان في امّلاسِهِ وجمال منظره، وبهذا النحو من النظر سمَّت العربُ النساءَ بهذه الأشياء كدُرَّه بنت أبي لهب، ومَرْجانة أم سعيد، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ آية وعد وبسط لنفوس جميع المؤمنين لأنها عامة، قال ابن المنكدر، وابن زيد، وجماعة من أهل العلم: هي للبَرِّ والفاجر، والمعنى: إن جزاء من أحسن بالطاعة أن يُحسن إليه بالتنعيم، وحكى النقاش أن النبي ﷺ فسَّر هذه الآية فقال: «هل جزاءُ التوحيد إلاَّ الجنة»[٣]؟

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، اختلف الناس في معنى ﴿ مِن دُونِهِمَا﴾ ـ فقال ابن زيد وغيره: معناه إن هاتين دون تَيْنك في المنزلة والقدر، والأُولَيان جَنَّتا السابقين

---

(١) مصدر (امَّلس)، وأصل امَّلس هذه: انْمَلَس فأدغم (اللسان).

(٢) أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليُرى بياض ساقها من وراء سبعين حُلَّة من حرير حتى يُرى مخها». وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حُلَّة يرى مخ ساقهما من وراءِ الثياب»، قال ابن كثير في تفسيره: «تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه»، وقد روى مسلم عن محمد بن سيرين قال: إمَّا تفاخروا وإمَّا تذاكروا، الرجال أكثر في الجنة أم النساءُ؟ فقال أبو هريرة: أو لم يقل أبو القاسم ﷺ: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على ضوء كوكب دُرِّيٍّ في السماء، لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب». وأخرجه الترمذي في القيامة وفي الجنة، والدارمي في الرقاق. وذكر السيوطي في الدر المنثور زيادة في رواية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أخرجها أحمد، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي في البعث والنشور، قال: (ينظر إلى وجهها في خدها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيءُ ما بين المشرق والمغرب، وإنه يكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، وضعَّفه، عن ابن عمر. وأخرج مثله ابن النجار في تاريخه عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وكذلك أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، والبغوي في تفسيره، والديلمي في مسنده الفردوس، وابن النجار في تاريخه عن أنس. (الدر المنثور).

والأخريان جَنَّتَا أصْحَاب اليمين، قال الرُّمَّاني: قال ابن عباس رضي الله عنهما: الجنات الأَربع للخائف مقام ربّه تعالى، وقال الحسن: الأُولَيان للسابقين والأُخريان للتابعين، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: من دونهما في القرب من المُنعَّمين، وهاتان المُؤَخَّرتا الذِّكر أفضل من الأُولَيَيْنَ، يدل على ذلك أنه وصف عيني هاتين بالنَّضْخ والأُخريين بالجري فقط، وجعل هاتين مُدْهَامَّتَيْن من شدة النِّعمة والأُولَيَيْنَ ذواتا أفنان، وكل جنة ذات أفنان وإن لم تكن مُدْهَامَّة[1]. وأكثر الناس على التأويل الأول، وهذه استدلالات ليست بقواطع، ورُوي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: جنتان للمقربين من ذهب، وجنتان لأهل اليمين من فضة هما دون الأُولَيَيْنَ.

و[مُدهَامَّتَانِ] معناه: قد علا لونَها دُهْمَةٌ وسوادٌ من النضرة والخضرة، كذا فسَّره ابن الزبير رضي الله عنهما على المنبر، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴾[2]. و«النَّضَّاخة»: الفوّارة التي يهيج ماؤُها، قال ابن جبير: المعنى: نضاختان بأنواع الفاكهة، وهذا ضعيف.

وكرر تعالى «النَّخْل والرُّمَّان» لأنهما ليسا من الفاكهة، وقال يونس بن حبيب وغيره، كررهما ـ وهما من أفضل الفاكهة ـ تشريفاً لهما، كما قال تعالى: ﴿ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾[3].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ۝٧٦ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨ ﴾.

[خَيْرَاتٌ] جمع «خَيْرَةٍ» وهي أَفضل النساءِ، ومنه قول الشاعر:

---

(١) رجح الزمخشري هذا القول، وذكر غيره أن الأول أرجح لأنه ذكر فيه جَرْي العينين والنَّضْخ دون الجري، ولقوله: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ ﴾ وفي المتأخرتين قال: ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ ﴾، ولأن الاتكاء في الأُولَيَيْنَ على ما بطائنه من ديباج وهو الفُرُش وفي المتأخرتين الاتكاءُ على الرَّفرف وهو كَسْر الخباءِ، والفُرُش المُعَدَّة للاتكاء أفضل ولكن هذه مجرد استدلالات لا تقطع بالحقيقة كما قال ابن عطية رحمه الله.

(٢) الآيتان (٤، ٥) من سورة (الأعلى).

(٣) من قوله تعالى في الآية (٩٨) من سورة البرقة: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾.

وَلَقَدْ طَعَنْتُ مَجَامِعَ الرَّبَلاَتِ ... رَبَلاَتِ هِنْدٍ خَيْرَةِ الملكاتِ[1]

وقالت أمُّ سلمة رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾، قال: (خيرات الأخلاق، حسان الوجوه)[2] وقرأ بكر بن حبيب السهمي: [خَيِّراتٌ] بشد الياء المكسورة، وقرأ أبو عمرو بفتح الياءِ.

وقوله تعالى: [مَقْصُورَاتٌ] معناه: محجوباتٌ مصوناتٌ، وكانت العرب تمدح النساء بملازمة البيوت، ومنه قول الشاعر:

. . . . وَتَغفُلُ عَنْ إتْيَانِهِنَّ فَتُعْذَرُ[3]

يصف أن جيرانها يَزُرْنَها ولا تزورهن، ويروى أن بيت الأعشى قد ذُمَّ، وهو قوله:

كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيتِ جَارَتِهَا ... مَرُّ السَّحَابَةِ لا رَيْثٌ وَلاَ عَجَلُ[4]

---

(١) أنشد أبو عبيدة هذا البيت لرجل من بني عديِّ تَيْم جاهلي، وهو في الصحاح والتاج واللسان، والرَّبَلاتُ: جمع رَبْلَةٍ ورَبَلَة ـ بسكون الباء وفتحها ـ وهي ما حول الضَّرْع والحياء من باطن الفخذ، ومجامع الشيء: أصوله ومكان اجتماعها، يفخر بما فعله مع هند هذه ويصفها بأنها خير الملكات. والشاهد هو وصف المرأة بأنها خَيْرَة، يقال: فلانةُ الخيْرة من المرأتين، أي الأفضل، ويقال: رجلٌ خَيْرٌ وخَيِّرٌ، وامرأة خَيْرة وخَيِّرَة، والجمع أَخيارٌ وخِيارٌ، قال تعالى: ﴿أولئك لهم الخيرات﴾ أي الفاضلات من كل شيءٍ.

(٢) هذا جزءٌ من حديث ذكره السيوطي في الدر المنثور وقال: أخرجه ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه، عن أمِّ سلمة، قالت: قلت: يا رسول الله أخبرني عن قول الله: ﴿حورٌ عينٌ﴾، قال: حُورٌ: بيضٌ، عينٌ: ضخام العيون، شُفْر الحوراءِ، بمنزلة جناح النسر ـ وفي لفظ لابن مردويه: شُفر الجفون بمنزلة جناح النسر، قلت يا رسول الله أخبرني عن قول الله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾، قال: رقَّتهن كرقَّة الجلدة التي في داخل البيضة مما يلي القشر، قلت: يا رسول الله فأخبرني عن قول الله: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾، قال: صفاؤهن كصفاء الدُّر الذي في الأصداف الذي لم تمسُّه الأيدي، قلت: يا رسول الله فأخبرني عن قول الله: ﴿فيهنَّ خيراتٌ حسانٌ﴾، قال: خيرات الأخلاق حسانُ الوجوه... الحديث و(شُفْر العين) ـ بالضم ـ هو ما نبت عليه الشعر.

(٣) هذا عجز بيت قاله أبو قيس بن الأسلت الأنصاري، والبيت بتمامه:

وَتَكْسَلُ عَنْ جَارَاتِهَا فَيَزُرْنَهَا ... وَتَغْفُلُ عَنْ إتْيَانِهِنَّ فَتُعْذَرُ

والكسل: التثاقل عن الأمر الذي لا ينبغي أن يُتثاقل عنه. وتَغْفُل: تسهو، والشاهد أن الشاعر يمدحها بذلك، إذ ملازمة البيت تدل على الصيانة.

(٤) قال الأعشى هذا البيت من قصيدته المعروفة التي بدأها بالحديث عن هريرة، فقال: «وَدِّع هُرَيْرَة إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ»، وقبله يقول:

غَرَّاءُ فَرْعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا ... تَمْشي الْهُوَيْنَى كما يمْشي الْوَجِي الْوَحِلُ =

فقيل في ذمِّه: هذه جوَّالةٌ خرَّاجةٌ ولاَّجةٌ، ومن مَدْح القَصْر قولُ كُثَيِّرٍ:

وأَنــتِ الَّتــي حَبَّبْــتِ كُــلَّ قَصِيــرةٍ إلَــيَّ وَلَــمْ تَشْعُــرْ بِــذاكَ القَصَــائــرُ

أُرِيــدُ قَصِيــرَاتِ الحِجــاَلِ وَلَــمْ أُرِدْ قِصَارَ الخُطَى، شرُّ النِّساءِ البَحَاتِرُ[١]

وقال الحسن: مقصوراتٌ في الخيام: لَسْن بطوَّافات في الطُّرق.

و«الخِيَامُ»: البيوت من الخشب والثُّمام[٢] وسائر الحشيش، وهي بيوت المرتحلين من العرب. وخيام الجنة: بيوت اللؤلؤ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هي دُرٌّ مجوَّف، ورواه ابن مسعود عن النبي ﷺ، وإذا كان المسكن عند العرب من شعر فهو بيتٌ، ولا يقال له خيمة، ومن هذا قول جرير:

مَتَــى كــانَ الْخِيَــامُ بــذي طلــوح سُقيــتِ الْغَيْــثَ أَيَّتُهَــا الخِيَــامُ[٣]

= فهو يصفها بأنها بيضاءُ، طويلة الشعر، لامعة الأسنان، تمشي ببطءٍ، كأن مشيتها حين تخرج من بيت جارتها مرور السحابة لابطء فيها ولا سرعة، فهو مشي هادىء رزين. ووجه النقد ذكره المؤلف وإن كان فيما قاله مبالغة، فإن كلمات «جوَّالة... الخ» جاءت في صيغة مبالغة لا تحتملها ألفاظ البيت، ومجرد الزيارة لجارتها لا يعطي هذه الأوصاف. والوَجي هو الذي أصابه وجع في باطن رجله.

(١) هذا الوصف من كُثَيِّر يؤيد المعنى الذي ذكره ابن عطية وهو مدح القَصْر بمعنى الحَجْب في البيت والمنع من الخروج، يقال: امرأةٌ قصيرة وقَصورة بمعنى مقصورة في البيت، ممنوعة من الخروج. وفي حديث أسماء الأشهلية: «إنَّا معشر النساء محصوراتٌ مقصوراتٌ»، والبيتان في اللسان والتاج، والرواية فيهما: «عَنَيْتُ قَصيراتِ الحِجال وَلَمْ أُرِدْ...»، وفي التهذيب: «قَصُورات الحجال»، وفي رواية الفراء للبيت الأول: «لَعَمْري لقد حَبَّبْتِ كلَّ قَصُورَةٍ»، والبيتان أيضاً في «القرطبي» و«غريب القرآن»، و«البحر المحيط». والحجال جمع حَجَلَة وهي بيت يزين بالثياب والأسرة والستور. والبَحَاتِرُ جمع بُحْترة ـ بضم الباء ـ وهي القصيرة المجتمعة الخَلْق.

(٢) الثُّمامُ: عُشب من الفصيلة النجيلية يرتفع إلى مائة وخمسين سنتيمتراً، فروعه مزدحمة متجمعة، والنَّورة منه سنبلة مدَلاَّة، وكانوا يستخدمونه في تغطية البيوت التي يصنعونها من فروع الشجر وأخشابه، قيل: كانوا يتخذون ثلاثة أعواد أو أربعة من الخشب ثم يضعون عليها الثُّمام.

(٣) هذا مطلع قصيدة لجرير، والخيمة: بيت من بيوت الأعراب مستدير يبنيه الأعراب من عيدان الشجر، بحيث يقيمون ثلاثة أعوادٍ أو أربعة وينثرون فوقها الثُّمام، ولهذا قال جرير بعد هذا البيت:

تَنَكَّــر مــن مَعَــارِفِهَــا وَمَــالَــتْ دَعَــائِمُهَــا وَقَــدْ بَلِــي الثُّمَــامُ

وهو نبت تظلل به الخيام. وذو الطلوح: مكان.

يدعو لهذه الخيام إذا كانت في هذا المكان بالري والخير، قال بعض علماء اللغة: «كأنه لم يكن بذي طلوح خيامٌ قط»، وجرير يقول عنها خيام لأنها لم تصنع من شعر، بل أقيمت من خشب وحشيش.

ومنه قول امرىء القيس:

أَمَرْخٌ خِيَامُهُمُ أَمْ عُشُرْ؟[١] . . . . .

فاستفهم: هل هم منجدون أَمْ غائرون؟ لأن العُشُر مما لا ينبت إلاَّ في تهامة والمَرْخُ مما لا ينبت إلاَّ في نجد.

و«الرَّفْرَفُ»: ما تدلَّى من الأَسرة من غالي الثياب والبُسُط، وقال ابن جبير: الرَّفرفُ رياضُ الجنة، والأول أَصوبُ وأَبْيَن، وَوَجْهُ، قولِ ابن جبير أَنه من: رفَّ النَّبت إذا نعُم وحسُن. وما تدلَّى حول الخباء من الخرقة الشفافة [٢] يسمى رفرفاً، وكذلك يسميه الناسُ اليوم، وقال الحسن بن أبي الحسن: الرَّفرف: المرافق، و«العبقري»: بُسطٌ حسان فيها صور وغير ذلك تصنع بعبقر، وهو موضع يعمل فيه الوشي والديباج ونحوه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: العبقري: الزَّرابي، وقال ابن زيد: هي الطنافس، وقال مجاهد: هي الديباج الغليظ، وقرأ زهير الفرقُبي[٣]: [رَفَارِفَ] بالجمع وترك الصرف، وقرأ أَبو طعمة المدني، وعاصم ـ في بعض ما روي عنه ـ: [رَفَارِفٍ] بالصرف، وكذلك قرأ عثمان بن عفَّان رضي الله تعالى عنه: [رَفَارِفٍ وعَبَاقِرِيٍّ] بالجمع والصرف، ورويت عن النبي ﷺ[٤]، وغلَّط الزجاج والرُّماني هذه القراءَة، وقرأَ أَيضاً عثمان بن عفان رضي الله عنه في بعض ما رُوي عنه: [عَبَاقَرِيَّ] بفتح القاف والياءِ، وهذا على أَن اسم الموضع «عَبَاقَر» بفتح القاف، والصحيح في اسم الموضع «عَبْقَر»، قال امرؤ القيس:

---

(١) هذا صدر بيت قاله امرؤ القيس من قصيدة له يصف فرسه وخروجه إلى الصَّيد، والبيت بتمامه:

أَمَرْخٌ خِيَامُهُمُ أَمْ عُشُرْ ... أَمِ القَلْبُ فِي إِثْرِهِمْ مُنْحَدِرْ؟

والمرخ: شجر قصير وكثر في نجد، والعشر: شجر طويل ويكثر بالغور، والشاعر يستفهم كما قال ابن عطية، والشاهد أن الشاعر تحدث عن الخيمة التي تصنع من أشجار المرخ أو العشر ولم تصنع من شعر.

(٢) في بعض الأصول: «من الخرقة الهفافة».

(٣) اختلف الأصول في كتابة هذا الاسم، فهو في بعضها: زهير الفرفلي، وفي بعضها: زهير العرقبي، وفي بعضها: زهير فقط، والتصويب عن المحتسَب لابن جني، وتفسير الطبري.

(٤) أخرج ابن الأنباري في المصاحف، والحاكم وصححه، عن أبي بكر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قرأ: [مُتَّكِئِينَ على رَفَارِفٍ خُضْرٍ وعَبَاقِرِيٍّ حِسَانٍ].

كَـأَنَ صَليـلَ المَـرْوِ حيـنَ تَشُـذُّهُ ... صلِيـلُ زُيُـوفٍ يُنْتَقَـدْنَ بِعَبْقَـرَا[1]

قال الخليل والأصمعي: العرب إذا استحسنت شيئاً واستجادته قالت: عَبْقَرِي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومنه قول النبي ﷺ: (فلم أرَ عبقرياً من الناس يَفْري فَرِيَّهُ)[2] وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: العَبْقَرِيُّ سيِّد القوم وعينهم، وقال زهير:

بِخَيْـلٍ عَلَيْهَـا جِنَّـةٌ عَبْقَـرِيَّـةٌ ... جَديرونَ يَوْماً أَنْ ينَالُوا فَيسْتَعْلُوا[3]

ويقال: عَبْقَر مسكنٌ للجن، وقال ذو الرُّمَّة:

---

(١) هذا البيت من قصيدة امرىء القيس المعروفة التي قالها حين توجه إلى قيصر يستنجد به، والتي يقول في مطلعها: «سَمَا لَكَ شَوْقٌ بَعْدَ مَا كَانَ أَقْصَرَا»، وهو في البيت يصف صوت الحصى الذي كان يتطاير تحت أقدام ناقته، والمَرْوُ: حجارةٌ بيضٌ براقةٌ، أوْ أصلب الحجارة تقدح بالنار، والصليلُ: الصوتُ. وتشُذُّهُ: تُفَرِّقُه أو تُنَحِّيه عن طريقها، ويروى بدلاً منها: تُطِيرُهُ، والزُّيُوف: الدراهم الرديئة، وقيل: هي الدراهم الصلبة، ويُنْتَقَدْنَ: يُضْرَبْن بالأيدي للاختبار ومعرفة الزائف من الأصلي، وعَبْقَر: موضع باليمن، وهو الشاهد هنا، يقول: إن ناقتي في سرعتها تنثر الحجارة بأخفافها وتفرقها، فيقع بعضها على بعض فتحدث أصواتاً كأصوات الدراهم الصلبة إذا اختبرها الصَّيْرَف، وخصَّ الزُّيوف لأن صوتها أشد لكثرة ما فيها من النحاس.

هذا والبيت في اللسان، والرواية فيه: «تَشُدُّه»، ومعناها بعيد عن معنى البيت.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم في فضائل الصحابة، والترمذي في الرؤيا، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بينما أنا على بئر أَنْزِعُ منها جاءني أبو بكر وعمر، فأخذ أبو بكر الدَّلْو فنزَع ذَنُوباً أو ذَنُوبين، وفي نَزْعه ضعف، والله يغفر له، ثم أخذها ابن الخطاب من يد أبي بكر فاستحالت في يده غرباً، فَلَمْ أرَ عبقرياً من الناس يفري فريَّه، فنزَع حَتَّى ضربَ الناسُ بعَطَنٍ) والغَرْبُ: الدَّلْو العظيمة تُتخذ من جلد الثور، ومعنى (يَفْرِي فَرِيَّهُ): يجيد عمله ويأتي فيه بالعجب العُجاب. و(فَرِيَّهُ) بفتح الفاءِ وكسر الراء وشدِّ الياء المفتوحة، قال ابن الأثير في كتاب النهاية: «وحُكي عن الخليل أنه أنكر التثقيل وغلَّط قائله» فهو يضبطه بسكون الراءوفتح الياء، والعطنُ: مَبْرَكُ الإبل حول الماء، وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً لاتساع الناس في زمن عمر رضي الله عنه، وما فتح الله عليهم من الأمصار.

(٣) هذا البيت من قصيدة زهير التي يمدح بها سنان بن أبي حارثة المُرِّي، والتي يقول في مطلعها: (صَحَابكَ قَلْبٌ في الحِسَانِ طَرُوبُ)، وقوله «بخَيْل» متعلق بقوله في البيت السابق: «طاروا إلى مُسْتغيثهم»، أي أسرعوا بهذه الخيل، وعبقرية: نسبة إلى عبقر، وهي أرض كان العرب يظنون أن بها الجن وينسبون إليها كل عبقري، وجديرون: خليقون مستحقُّون، فَيَسْتَعْلُوا: يُحققون الظَّفَر والعُلُوَّ على العدوِّ، يصفهم بأنهم حين يركبون خيلهم لإنقاذ مستغيث بهم أهلٌ لأن ينتصروا وينالوا ما يريدون.

حَتَّى كَأَنَّ رِيَاضَ القُفِّ أَلْبَسَهَا ... مِنْ وَشْيِ عَبْقَرَ تَجْلِيلٌ وَتَنْجِيدُ[١]

وقرأ الأعرج: [خُضُرٌ] بضم الضاد.

وقرأ جمهور الناس: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ على إتباع «الرَّبِّ»، وقرأ ابن عامر وأهل الشَّام: [ذو الجلال] على إتباع «الاسم»، وكذلك في الأول[٢]، وفي حرف أُبيّ، وابن مسعود رضي الله عنهما: [ذي الجلال] في الموضعين، وهذا الموضع ممَّا أُريد فيه بالاسم مُسَمَّاه[٣]، والدعاءُ بهاتين الكلمتين حسَنٌ مرجُوُّ الإجابة، وقال رسول الله ﷺ: «أَلِظُّوا بِيَاذَا الجلالِ والإِكرام»[٤].

كمل تفسير سورة الرحمن والحمد لله ربّ العالمين

* * *

---

(١) البيت في الديوان، وفي اللسان، والتاج، والقرطبي، والبحر المحيط، والقُفُّ: ما ارتفع من الأرض وصلبت حجارته، وهو حجارة غاص بعضها في بعض، لونها أحمر ولا يخالطها من السهولة شيءٌ، ويكون فيه رياض وقيعان، فالروضة حينئذ من القُفِّ الذي هي فيه، ولو ذهبت تحفر فيه غلبتك كثرة حجارتها، والوشي: النَّقش، وعبقر هنا بمعنى المكان الذي تصنع فيه السجاجيد المنقوشة والديباج المزخرف، والتَّجليل: الكساءُ والتغطية، والتَّنجيد: التَّزيين بالفُرُش والسُّتور.

(٢) يعني في قوله تعالى في الآية (٢٧) من هذه السورة: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

(٣) فكأن تقدير الكلام: تبارك ربُّك، ويدلُّ على ذلك إسناد «تبارك» لغير الاسم في مواضع أُخرى، كقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، وقد قيل: إن الله تعالى ختم نعيم الدنيا في هذه السورة بقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ لأن البقاء مناسبٌ لما ذُكر من فناء العالم، وختم نعيم الآخرة هنا بما اشتق من البركة والنمو.

(٤) أخرجه الترمذي، وابن مردويه، عن أنس رضي الله عنه، وأخرجه ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد، والنسائي، وابن مردويه، عن ربيعة بن عامر رضي الله عنه. (الدر المنثور).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الواقعة

وهي مكيَّة بإجماع ممن يُعتد بقوله من المفسرين، وقيل: إن فيها آيات مدنية أَو ممَّا نزل في السفر(١)، وهذا كله غير ثابت، ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «من داوم على قراءَة سورة الواقعة لم يفتقر بداً»(٢)، ودعا عثمانُ ابنَ مسعود رضي الله عنهما إِلى عطائه فأَبى أَن يأْخذ، فقيل له: خذ للعيال فقال: إِنهم يقرءُون سورة الواقعة، وسمعت النبي ﷺ يقول: من قرأَها لم يفتقر أَبداً(٣).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فيها ذكر القيامة وحظوظ الناس في الآخرة، وفَهْم ذلك غنًى لا فقر معه، من فهمه شغل بالاستعداد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ

---

(١) أما المدني فآية واحدة هي قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، قال ذلك ابن عباس وقتادة، وأما الذي نزل في السفر فأربع آيات، منها آيتان نزلتا في السفر إلى مكة هما قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، وآيَتَان نزلتا في السفر إلى المدينة هما قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، قاله الكلبيُّ.

(٢) أخرجه أبو عُبَيْد في فضائله، وابن الضريس، والحارث بن أبي أُسامة، وأبو يعلى، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وذكر أبو عمرو بن عبد البر في «التمهيد» و«التعليق» والثعلبي أيضاً أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دخل على ابن مسعود رضي الله عنه يعوده في مرضه الذي مات فيه، فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: أفلا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني، قال: أفلا نأمر لك بعطائك؟ قال: لا حاجة لي فيه، حبسته عني في حياتي وتدفعه لي عند مماتي. قال: يكون لبناتك من بعدك، قال: أَتخشى على بناتي الفاقة من بعدي؟ إني أَمَرْتُهن أن يقرأن سورة الواقعة كل ليلة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تُصبه فاقة أبداً».

(٣) انظر ما سبق في هامش رقم (٢).

ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨
وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾.

[الْوَاقِعَةُ] اسمٌ من أَسماءِ القيامة كالصَّاخَّة والآزفة والطَّامة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وهذه كلها أَسماءٌ تقتضي تعظيمها وتشنيع أَمرها، وقال الضحاك: الواقعة: الصيحة، وهي النفخة في الصُّور، وقال بعض المفسرين: الواقعة صخرة بيت المقدس تقع عند القيامة، فهذه كلها معان لأَجل القيامة.

و[كَاذِبَةٌ] يحتمل أَن يكون مصدراً كالعاقبة والعافية وخائنة الأَعين، فالمعنى: ليس لها تكذيب ولاَ ردٌّ ولاَ مَثْنَوِيَّة[١]، وهذا قول قتادة والحسن، ويحتمل أَن يكون صفة لمقدَّر، كأَنه تعالى قال: ليس لوقعتها حال كاذبة، ويحتمل الكلام ـ على هذا ـ معنيَيْن: أَحدهما كاذبةٌ أَي مكذوبة فيما أَخبر به عنها، وسمَّاها كاذبة لهذا، كما تقول: قصة كاذبة، أَي مكذوب فيها، والثاني حالٌ كاذبة، أَي لا يمضي وقوعها، كما تقول: فلان إذا حمل لم يكذب.

وقوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ رفع على خبر ابتداءٍ، أَي هي خافضة رافعة، وقرأَ الحسن، وعيسى الثقفي، وأَبو حَيْوة: [خَافِضَةً رَافِعَةً] بالنصب على الحال بعد الحال التي هي ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، ولك أَن تُتابع الأَحوال كما لك أن تُتابع أَخبار المبتدأ، والقراءَة الأُولى أَشهر وأَبرع معنى، وذلك أَن موقع الحال من الكلام موقع ما لو لم يُذكر لاستُغني عنه، وموقع الجمل التي يجزم الخبر بها موقع ما يُتَهَمَّم به[٢].

واختلف الناس في معنى هذا الخفض والرفع في هذه الآية ـ فقال قتادة، وعثمان بن عبد الله بن سراقة: القيامة تخفض أَقواماً إِلى النار، وترفع أَقواماً إِلى الجنة، وقال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك: الصيحة تخفض صوتها لتُسمع الأَدنى، وترفعه لتُسمع الأَقصى، وقال جمهور من المتأَولين: القيامة تنفطر بها السماءُ والأَرض والجبال، وانهدامُ هذه البنية يرفع طائفة من الأَجرام ويخفض أُخرى، فكأَنها عبارة عن شدة الهول والاضطراب.

---

(١) أي لا تُثنَى ولا تَرْجِع.

(٢) قال أبو حيان في «البَحْر» بعد أن ذكر هذا الكلام نقلا عن ابن عطية: «وهذا الذي قاله سبقه إليه أبو الفضل الرازي».

والعامل في قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ ﴿وَقَعَتْ﴾؛ لأن هذه بدلٌ من (إذَا) الأُولى، وقد قالوا: إنَّ (وَقَعَت) هو العامل في الأُولى، وذلك لأن معنى الشرط فيهما قوي، فهي كمَنْ وَمَا في الشرط يعمل فيها ما بعدها من الأَفعال، وقد قيل: إنَّ (إِذَا) مضافة إلى (وَقَعَت) فلا يصح أن تعمل فيها، وإنما العامل فيها فعل مقدر.

ومعنى ﴿رُجَّت﴾: زُلزلت وحُرِّكت بعنف، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ومنه ارتَجَّ السهم في الغرض، إذا اضطرب بعد وقوعه، والرَّجة في الناس الأَمر المحرِّك. واختلف اللغويون في معنى ﴿بُسَّت﴾ ـ فقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة: معناه: فُتِّتَتْ كما تُبَسُّ البسيسةُ، وهي السويق، ويقال: بَسَسْتُ الدقيق إذا ثريته بالماءِ وبقي متفتتاً، وأنشد الطبري في هذا:

لاَ تَخْبِــزَا خَبْــزاً وَبُسَّــا بَسَّــا[(١)]

وقال: هذا قول لصٍّ أَعجله الخوف عن العجين فقال هذا لصاحبيه. وقال بعض اللغويين: [بُسَّت] معناه: سُيِّرت، قالوا: والخَبْزُ: السَّيْر الشديد وضرب الأَرض بالأَيدي، والبسُّ: السَّيْر الرفيق، وأَنشدوا البيت:

لاَ تَخْبِــزَا خَبْــزاً وَبُسَّــا بَسَّــا   وجنِّبَــاهَــا نَهْشَــلاً وعَبْســا

ذكر هذا أَبو عثمان اللغوي في كتاب «الأَفعال».

---

(١) هذا الرَّجز من شواهد أبي عبيدة في «مجاز القرآن»، وهو في «المخصص» و«الطبري» و«القرطبي» و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج»، واستشهد به أيضاً الفراء في «معاني القرآن»، وقد اختلفت الروايات في البيت الثاني فهو في الطبري ومعاني القرآن: (مَلْساً بِذَوْدِ الْحَلَسِيِّ مَلْسَا)، وفي اللسان: (وَلاَ تُطِيلاَ بِمُنَاخٍ حَبْسَا)، وفي المخصص: (مَلْساً بِذَوْدِ الحَدَسِيِّ مَلْسَا)، وهكذا تعددت واختلفت روايته، ويقولون: إن الرَّجز قاله لصٌّ من غطفان وأراد أن يخبز، فخاف أنْ يُعجل عن الخبز فأكله عجيناً وقال: (لا تَخْبزا خَبْزاً وبُسَّا بَسَّا)، ويظهر أن المعنى الثاني الذي ذكره ابن عطية للخبز والبَسِّ هو الأقرب، ويؤيد ذلك أن «المَلْس» ضربٌ من السير الرقيق، والذَّوْدُ: الثلاثة إلى العشرة من الإبل، فكأن ما سرقه اللصان كان إبلاً، وأن الحَلَسِيَّ هو صاحبها، وهو يقول لهما: لا تسيرا بالإبل المسروقة سَيْراً شديداً سريعاً، بل سيرا بها في رفق وَلِينٍ، وقد زاد في المخصص بعد هذين البيتين بيتين آخرين، وذكرهما أيضاً أبو زيد في «النوادر»، وهما:

مِــنْ غَــدْوَةٍ حَتَّــى كــأَنَّ الشَّمْسَــا   بــالأُفُــقِ الْغَــرْبِــيِّ تُطْلَــى وَرْسَــا

ومعنى «تُطْلَى وَرْسَا» أنها مالت للغروب وأصابتها صُفرته.

و«الْهَبَاءُ»: ما يتطاير في الهواءِ من الأجزاءِ الدقيقة ولا يكاد يُرَى إلاَّ في الشَّمس إِذا دخلت من كُوَّة، قاله ابن عباس ومجاهد، وقال قتادة: الهباءُ ما يتطاير من يبس النبات[١]، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: الهباءُ ما يتطاير من حوافر الخيل والدواب. وقال بن عباس رضي الله عنهما أَيضاً: الهباءُ ما يتطاير من شرر النار فإِذا طُفىء لم يوجد شيءٌ. و«الْمُنبَثُّ» ـ بالثاءِ المثلثة ـ: الشائع في جميع الهواءِ، وقرأَ النَّخعيُّ: [مُنْبَتًّا] بالتاءِ بنقطتين، أَي متقطعاً، ذكر ذلك الثعلبي، والقول الأَول في الهباءِ أَحسن الأَقوال.

والخطاب في قوله تعالى: [وَكُنتُمْ] لجميع العالم؛ لأَن الموصوفين من أَصحاب المشأَمة ليسوا في أُمة محمد ﷺ، و«الأَزْوَاجُ»: الأَنواعُ والضروب، قال قتادة: هذه منازل الناس يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ ابتداءٌ و[مَا] ابتداءٌ ثانٍ، و﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ خبر [مَا]، والجملة خبر الابتداءِ الأَول، وفي الكلام معنى التعظيم، كما تقول: «زيدٌ ما زيدٌ»، ونظير هذا في القرآن كثير، و«الْمَيْمَنَةُ» أَظهر ما في اشتقاقها أَنها من ناحية اليمين، وقيل: من اليُمْن، وكذلك «الْمَشْأَمَةُ» إِمَّا أَن تكون من اليد الشُّؤمى، وإِمَّا أَن تكون من الشُّؤم، وقد فُسِّرت هذه الآية بهذين المعنيين؛ إِذ أَصحاب المَيْمَنة الميامينُ على أَنفسهم، قاله الحسن والربيع، ويشبه أَن اليُمْن والشُّؤْمَ إِنما اشْتُقَّا من اليمين والشمال، وذلك على طريقتهم في السانح والبارِح[٢]، وكذلك اليَمَن والشَّامُ اشْتُقَّا من اليُمْنى والشؤمَى[٣].

وقوله تعالى: [والسَّابِقُونَ] ابتداءٌ، و[السَّابِقُونَ] الثاني قال بعض النحويين: هو نعت للأَول، ومذهب سيبويه أَنه خبر الابتداءِ، وهذا كما تقول: الناسُ الناسُ، وأَنت أَنت، وهذا على معنى التفخيم للأَمْر وتعظيمه، والمعنى هو أَن تقول: السَّابقُون إِلى

---

(١) في بعض النسخ: «ما يتطاير من لُبْس الثياب».

(٢) السانح: الطائر أو الظبي إذا مرَّ من مياسرك إلى ميامنك فولاَّك ميامنه، والعرب يَتَيَمَّنُون به، والبارح: الطائر أو الظبي إذا مرَّ من يمين الرائي إلى يساره، والعرب تتشاءم به.

(٣) في اللسان: «أشأَم وشاءَم إذا أتى الشأمَ، ويامَنَ القومُ وأَيمنوا إذا أَتَوْا اليمن»، وفيه أيضاً: «والشَّأم بلاد تذكَّر وتُؤنَّث، وسُمِّيت بها لأنها عن مشأمة القبلة».

الإِيمان السَّابِقُونَ إلى الجنة والرحمة، أُولئك. . .، ويتَّجه هذا المعنى على الابتداءِ والخبر.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ ابتداءٌ وخبر، وهو في موضع الخبر على قول من قال: «السَّابقون» الثاني صفة، و[الْمُقَرَّبُونَ] معناه: من الله تعالى في جنة عدن، قال جماعة من أَهل العلم: وهذه الآية متضمنة أَن العالم يوم القيامة على ثلاثة أَصناف: مؤمنون هم على يمين العرش وهنالك الجنة، وكافرون وهم على شمال العرش وهنالك النار[١]، والقول في يمين العرش وشماله نحو من الذي مرَّ في سورة الكهف في اليمين والشمال[٢]، وقد قيل في أَصحاب الميمنة واليمين: إِنهم مَنْ أَخذ كتابه بيمينه، وفي أَصحاب المشأَمة والشمال: إِنهم مَنْ أَخذه بشماله، فعلى هذا ليست نسبة اليمين والشمال إلى العرش، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: أَصحاب اليمين أَطفالُ المؤمنين، وقيل: المراد ميمنةُ آدم عليه السلام ومشأَمتُه المذكورتان في حديث الإِسراءِ في الأَسْوِدَة[٣].

و«السَّابقون» معناه: قد سبقت لهم السعادة وكانت أَعمالهم في الدنيا سبقاً إِلى أَعمال البرِّ وإِلى ترك المعاصي، فهذا عموم في جميع الناس، وخصَّص المفسرون من هذا أَشياءَ، فقال عثمان بن أَبي سودة[٤]: هم السابقون إِلى المساجد، وقال ابن سيرين: هم الذين صلَّوا للقبلتين، وقال كعب: هم أَهل القرآن، وقيل: هم غير هذا مما هو جزءٌ من الأَعمال الصالحة، ورُوي أَن النبي ﷺ سئل عن السابقين فقال: «هم الذين إِذا أُعطوا الحق قبلوه، وإِذا سُئلوه بذلوه وحكموا للناس بحكمهم لأَنفسهم»[٥]،

---

(١) والصنف الثالث هم السابقون، ذكر أصحاب الميمنة متعجباً منهم في سعادتهم، وأصحاب المشأمة متعجباً منهم في شقاوتهم، ثم ذكر السابقين مثبتاً حالهم، فأخبر أنهم نهاية في العظمة والسعادة.

(٢) في قوله تعالى: ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾.

(٣) جاء في حديث الإسراء كما رواه مسلم (ج١ ص٣٩٥): (فلما علونا السماءَ الدنيا فإذا رجل عن يمينه أَسْوِدَةٌ، وعن يساره أَسْوِدَة، قال: فإذا نظر قِبَل يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَل شماله بكى)، والرجل هو آدم عليه السلام، والأسودة التي على يمينه هي أهل الجنة من أولاده، والأسودة التي على شماله هي أهل النار منهم.

(٤) هو عثمان بن أبي سودة المقدسي، ثقة، من الثالثة.

(٥) ذكره المهدوي، وأخرجه الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها، عنه ﷺ أنه قال: «أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: الذين إذا أُعطوا الحق قبلوه، وإذا=

وقرأ طلحة بن مصرف: [في جَنَّةِ النَّعِيمِ] على الإفراد، و﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ عبارة عن أعلى منازل البشر في الآخرة، على سُرُر مَوْضُونَةٍ متكئين، وقيل لعامر بن عبد قيس[1] في يوم حلبة: من سبق؟ فقال: المقربون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

«الثُّلَّةُ»: الجماعة والفرقة، وهي تقع للقليل والكثير، واللفظ في هذا الوضع يعطي أن الجملة من الأولين أكثر من الجملة من الآخرين وهي التي عبَّر عنها بالقليل، واختلف المتأولون في معنى ذلك ـ فقال قوم ـ حكى قولهم مكي ـ: المراد بذلك الأنبياءُ عليهم السلام لأنهم كانوا في صدر الدنيا أكثر عدداً، وقال الحسن وغيره: المراد السابقون من الأمم والسابقون من هذه الأمة، وذلك إمَّا أن يقرن أصحاب الأنبياءِ عليهم السلام بجموعهم إلى أصحاب محمد ﷺ، فأولئك أكثر عدداً لا محالة، وإمَّا أن يقرن أصحاب الأنبياءِ عليهم السلام ممن سبق في أثناءِ الأمم السَّالِفَة إلى السابقين من جميع هذه الأمة فأولئك أكثر. وروي أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم حزنوا لقلة سابقي هذه الأمة على هذا التأويل، فنزلت ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ فرضوا[2]، وروي

= سُئِلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم».

(١) هو عامر بن عبد الله بن قيس، أبو بُردة بن أبي موسى الأشعري، وقيل: اسمه الحارث، قال عنه في (تقريب التهذيب): ثقة من الثالثة، مات سنة أربع ومئة وقد جاوز الثمانين.

(٢) أخرجه أحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أبي هريرة، وفي آخره: (فقال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة أو شطر أهل الجنة وتقاسمونهم الشطر الثاني»، وأخرج ابن مردويه، وابن عساكر، عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ ذكر فيها ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾، قال عمر: يا رسول الله: ثُلَّة من الأولين وثلة من الآخرين، فقال رسول الله ﷺ: يا عمر تعال فاستمع ما قد أنزل الله: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾، ألا وإنَّ من آدم إليَّ ثُلَّة، وأُمَّتي ثُلَّة، ولن نستكمل ثُلَّتنا حتى نستعين بالسودان من رعاة الإبل ممن يشهد أن لا إلَه إلاَّ الله وحده لا شريك له. وأخرجه ابن أبي حاتم من وجه آخر عن عروة بن رويم مرسلا. ورواه الحافظ ابن عساكر عن جابر.

عن عائشة رضي الله عنها أَنها تأَوَّلت أَن الفريقين في أُمة كل نبي هي في الصَّدر ثُلَّة وفي آخر الأُمة قليل، وقال النبي ﷺ فيما رُوي عنه: «الفرقتان في أُمتي، فسابقُ أَولِ الأُمة ثُلَّة، وسابقُ سائِرِها إِلى يوم القيامة قليل»[١].

وقرأَ الجمهور: [سُرُرٍ] بضم الراءِ، وقرأَ أَبو السَّمال: [سُرَرٍ] بفتح الراءِ، و«الْمَوْضُونَة»: المنسوجة بتركيب بعض أَجزائها على بعض كحلق الدرع، فإِن الدرع موضونة، ومنه قول الأَعشى:

وَمِــنْ نَسْــجِ داودَ مَــوْضُــونَــةٌ تَسيــرُ مَــعَ الحَــيِّ عِيــراً فَعِيــراً[٢]

وكذلك سقيفة الخوص ونحوه موضونة، ومنه وضينُ الناقة وهو حزامها لأَنه موضون، فهو كقتيل وجريح، ومنه قوله:

إِلَيْــكَ تَعْــدُو قَلِقــاً وَضِينُهــا مُعْتــرِضــاً فــي بَطْنِهــا جَنينُهَــا
مُخَالِفــاً ديــنَ النَّصــارى دِينُهــا[٣]

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه السُّرر الموضونة هي مَرْمُولَةٌ بالذهب[٤]، وقال عكرمة: هي مشبكة بالدُّرِّ والياقوت، و[مُتَّكِئِينَ] و[مُتَقَابِلِينَ] حالان، وفيهما ضمير مرفوع، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «مُتَّكئينَ عليها ناعمين».

---

(١) رواه سفيان عن أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ بلفظ «الثُّلَّتان جميعاً من أُمتي».

(٢) البيت لأعشى بني قيس بن ثعلبة من قصيدة يمدح بها هوذة بن علي الحنفي، واستشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن، يقول الأعشى في بيت سابق على هذا: إنه أعد للحرب عدتها، ثم يستطرد في هذا البيت فيقول: وأعددت لها درعاً موضونة، وهي التي نُسجت نسجاً مضاعفاً تُحمل فوق الجمال عيراً من ورائها عيرٌ، وداود عليه السلام هو الذي علمه الله تعالى صناعة الدروع.

(٣) الأبيات في التاج واللسان، والوَضِينُ: بطانٌ عريضٌ منسوج من سيور أو شعر، وسمَّت العرب وضين الناقة كذلك لأنه منسوج، والوضين بمعنى الموضون، وقد أنشد أبو عبيدة هذه الأبيات شاهداً على أن الوضين بمعنى الموضون، والكلام في الأبيات عن الناقة التي تعدو نحو الممدوح طمعاً في خيره، ومعنى أن وضينها قلِقٌ أنها هزلت واتسع الوضين عليها فصار قَلِقاً، قال صاحب اللسان عن البيت الأخير: أراد دينه هو لأن الناقة لا دين لها، وهذه الأبيات يُروى أن ابن عمر أنشدها لما اندفع من جَمْع، ووردت في حديثه، وأخرج الطبراني في المعجم عن سالم عن أبيه أن رسول الله ﷺ أفاض من عرفات وهو يقول:

إِلَيْــكَ تعــدو قَلِقــاً وَضِينُهَــا».

(٤) أي: مُزَيَّنَةٌ بالذهب، يقال: رَمَلَ السَّرير بمعنى: زيَّنَه بالذهب.

و«الْوِلْدَانُ»: صغارُ الخدم، عبارة عن أَنهم صغار الأسنان. ووصفهم تعالى بالخُلْد وإن كان جميع ما في الجنة كذلك؛ إشارة إلى أنهم في حال الولدان مخلدون لا تكبر لهم سِنٌّ، وقال مجاهد: لا يموتون، وقال الفراءُ: (مُخَلَّدُونَ) معناه: مُقَرَّطُون بالخَلَدَات، وهي ضرب من الأَقراط، والأَول أَصوب؛ لأَن العرب تقول للذي كبر ولم يشب: إنه مخلَّد.

و«الأَكواب»: ما كان من أَواني الشرب لا أُذن له ولا خرطوم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي جرارٌ من فضة، وقال أَبو صالح: مستديرة أَفواهها، وقال قتادة والضحاك: ليست لها عُرى. و«الإِبريقُ»: ما له خرطوم، قال مجاهد: وأُذن، وهو من أَواني الخمر عند العرب، ومنه قول عديٍّ بن زيد:

وَتَـدَاعَـوْا إِلَـى الصَّبُـوحِ فقـامـتْ قَيْنَـةٌ فـي يَمِينَهـا إِبْـريـقُ[1]

و«الكَأْسُ»: الآنية المُعَدَّة للشرب بها، بشريطة أَن يكون فيها خمر ونبيذ، أَو بسبيل ذلك، ومتى كان فارغاً فهو مُنْتَسب إلى جنسه زجاجاً كان أَو غيره، ولا يقال لآنية فيها ماءٌ أَو لبن: كأْسٌ.

وقوله تعالى: ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: من خمر سائلة، فوزنها مفعول، أَصلها معيون، وهذا تأْويل قتادة، وقوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ ذهب أَكثر المفسرين إلى أَن المعنى: لا يلحق رؤُوسهم الصداع الذي يلحق من خمر الدنيا، وقال قوم: معناه: لا يتفرقون عنها، بمعنى: لا تُقطع عنهم لذَّتهم بسبب من الأَسباب كما يفرق أَهل خمر الدنيا بأَنواع من التفريق، وهذا كما قال: (يتصدَّعُ السحاب عن المدينة)... الحديث[2].

---

(١) البيت لعدي بن زيد العبادي، وهو في اللسان والتاج، والرواية فيهما: (وَدَعَا بالصَّبُوحِ يوماً فجاءَت...)، والصَّبوح: شرابُ الصباح وهو خلاف الغَبُوق الذي هو شراب المساء. والقَيْنَة: الجارية، وغَلَب على المغنِّية، والإبريق: الإناءُ الذي له خرطوم، وهو فارسيٌّ معرب، وشاهده هذا البيت، وهناك أبيات كثيرة استعملت هذا اللفظ بالمعنى المذكور.

(٢) هذا جزءٌ من حديث أخرجه البخاري في المناقب، وأبو داود في الاستسقاء، وأحمد في مسنده (٣ـ٢٦١)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، والحديث كما جاء في مسند أحمد أن رجلاً نادى رسول الله ﷺ في يوم الجمعة وهو يخطب الناس بالمدينة، فقال: يا رسول الله! قحط المطر، وأمحلت الأرض، وقحط الناسُ، فاسْتَسْقِ لنا ربك، فنظر النبيُّ ﷺ إلى السماءِ وما نرى كثير سحاب، =

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ قال مجاهد، وقتادة، وابن جبير، والضحاك: معناه: لا تذهب عقولهم سُكْراً، والنَّزِيف: السكران، ومنه قول الشاعر:

. . . . شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ مَاءِ الْحَشْرَجِ(١)

وقرأ ابن أَبي إِسحاق: [ولا يَنْزِفُونَ] بكسر الزاي وفتح الياءِ، من: «نَزَفَ البِئْرَ» إذا استقى ماءَهَا، فهي بمعنى: تمَّ خمرهم ونَفَذت(٢)، هكذا قال أَبو الفتح. وحكاها أَبو حاتم عن ابن أَبي إِسحق، والجحدري، والأَعمش، وطلحة، وابن مسعود، وأَبي عبد الرحمن، وعيسى بضم الياءِ وكسر الزاي، قال: ومعناها: لا يفنى شرابهم، والعرب تقول: «أَنزف الرجلُ عَبْرَتَه». وتقول أَيضاً: «أَنْزَفَ» إِذا سكر، ومنه قول الأُبَيْرِد:

لَعَمْرِي لَئِنْ أَنْزَفْتُمُ أَوْ صَحَوْتُمُ ... لَبِئْسَ النَّدَامَى كُنْتُم آلَ أَبْجَرَا(٣)

= فاستسقى، فنشأ السحاب بعضه إلى بعض، ثم مُطروا حتى سالت مَشَاعبُ المدينة واضطردت طرقها أنهاراً، فما زالت كذلك إلى يوم الجمعة المقبلة ما تُقلع، ثم قام ذلك الرجل أو غيره ونبي الله ﷺ يخطب فقال: يا نبي الله، ادْعُ الله أن يحبسها عنَّا، فضحك النبي ﷺ ثم قال: اللَّهمَّ حوالَيْنا ولا علينا، فدعا ربَّه، فجعل السحاب يَتَصَدَّعُ عن المدينة يميناً وشمالاً يُمْطر ما حولها ولا يُمْطر فيها شيئاً).

(١) هذا عجز بيت لعمر بن أبي ربيعة، وهو في الديوان، وفي اللسان والتاج، وقال ابن بَرِّي: «البيت لجميل بن مَعْمر وليس لعُمَر بن أبي ربيعة»، ولكنه غير موجود في ديوانه، والبيت مع بيتين قبله كما في اللسان، وديوان ابن أبي ربيعة:

قَالَتْ: وَعَيْشُ أبي وَحُرْمَةُ إخْوَتي ... لأنَبِّهَنَّ الحَيَّ إنْ لَمْ تَخْرُجِ
فَخَرَجْتُ خَوْفَ يَمينِها فَتَبَسَّمَتْ ... فَعَلِمْتُ أنَّ يمينها لَمْ تُخْرجِ
فَلَثَمْتُ فَاهَا آخِذاً بِقُرُونِهَا ... شُرْبَ النَّزيفِ بِبَرْدِ ماءِ الحَشْرَجِ

والقُرون: ضفائر شعرها، والنَّزيف: السكران، أو الذي جفَّ ريقه من العطش، أو المحموم الذي جَفَّ ريقه، والحشرج: الماءُ الذي يجري على الحصى صافياً، أو كوز صغير يشرب منه، أو النقرة في الجبل يجتمع فيها الماءُ فيصفو للشرب.

(٢) جملة تحتاج إلى توضيح، والذي قاله أبو حاتم بعد أن استشهد بكثير من الشعر: «فكأنه سبحانه قال: لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يَنْزِفُونَ عُقُولَهم كما يُنزفُ ماءُ البئر».

(٣) أَبْجر: هو أَبْجَر بن جابر العجليّ، وكان نصرانيًّا، والبيت في الصحاح واللسان والتاج، وبعده يقول الأُبَيْرد:

شَرِبْتُمْ ومَدَّرْتُمْ وكَانَ أبُوكُمُ ... كَذاكُمْ إذا ما يَشْرَبُ الكَأسَ مَدَّرَا

والشاهد أن أنزف بمعنى سكر بدليل مقابلتها بقوله: صَحَا، يقول: سواءٌ سكرتم أو لم تسكروا فأنتم بئس الندامى يا آل أبْجَر.

وعطفت «الفاكهة» على «الكأس والأباريق».

قوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾، رُوي أن العبد يرى الطائر يطير فيشتهيه فينزل له كما اشتهاه، وربما أكل منه ألواناً بحسب تصرف شهوته إلى كثير مما رُوي في هذا المعنى.

وقرأ حمزة، والكسائي، والمفضل عن عاصم: [وَحُورٍ عِينٍ] بالخفض، وهي قراءَة الحسن، وأَبي عبد الرحمن، والأعمش، وابن القعقاع، وعمرو بن عبيد. وقرأَ أُبيُّ بن كعب، وابن مسعود: [وحوراً عيناً] بالنصب، وقرأ الباقون من السبعة: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ بالرفع، كل هذه القراءَات محمولة الإعراب على المعنى لا على اللفظ، فالخَفْض كأَن المعنى: قيل: تنعمون بهذا كله وبحورٍ عينٍ، وكأَن المعنى في قراءَة النصب: وتُعطون هذا كله وحُوراً عيناً، وكأَن المعنى في الرفع: لهم هذا كله وحُورٌ عِينٌ، ويجوز أَن يعطف [وَحُورٌ] على الضمير المستقر في [مُتَّكِئِينَ]، قال أَبو علي: ولم يؤكد لكون طول الكلام بدلاً من التوكيد، ويجوز أن يعطف على «الولدان» وإن كان طواف الحور يقلق، ويجوز أَن يعطف على الضمير المقدَّر مع قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾. وفي هذا كله نظر، وقد تقدم معنى «حور عين»، وقرأ إبراهيم النَّخَعيُّ: [وَحِيرٌ عِينٌ].

وخصَّ (سبحانه) المكنون من اللؤلؤ لأنه أَصفى لوناً وأَبعد عن الغَير، وسأَلت أُمُّ سَلَمة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن هذا التشبيه فقال: «صفاؤُهن كصفاءِ الدُّرِّ في الأَصداف الذي لا تمسه الأَيدي»[١]، و﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ أَن هذه الرُّتب والنعم هي بحسب أَعمالهم؛ لأَنه رُوي أَن المنازل والقسم في الجنة هي مقسَّمة على قدر الأعمال، ونفس دخول الجنة هو برحمة الله تبارك وتعالى وفضله لا بعمل عامل، فأَمَّا هذا الفضل وأَن دخولها ليس بعمل عامل ففيه حديث صحيح، قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة أَحد بعمله»، قالوا: ولا أَنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أَنا إِلاَّ أَن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة»[٢].

---

(١) راجع الهامش رقم (٢) ص(١٨٢) عند تفسير قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق والمرضى، ومسلم في المنافقين، وابن ماجه في الزهد، والدارميُّ في الرقاق، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، ففي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَنْ يُنَجِّي أحداً منكم عَمَلُه»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلاَّأن =

و«اللَّغْوُ»: سقط القول من فحش وغيره، و«التَّأْثِيمُ» مصدر بمعنى: لا يُؤَثِّم أحدٌ هناك غيرَه ولا نَفْسَه بقول كأَن يسمع ويتأَلَّم بسماعه. و[قِيلاً] مستثنى، والاستثناءُ متصل، وقال قوم: هو منقطع، و[سَلاَماً] نعت لِلْقِيلِ، كأَنه تعالى قال: إِلاَّ قليلاً سالماً من هذه العيوب وغيرها، وقال أَبو إِسحق الزجاج أَيضاً: [سَلاَماً] مصدر وناصبه [قِيلاً]، كأَنه تعالى ذكر أَنهم يقول بعضهم لبعض: سلاماً سلاماً، وقال بعض النحاة: [سَلاَماً] منتصب بفعل مضمر تقديره: اسلموا سلاماً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

«السِّدْرُ» شجرٌ معروف[١]، وهو الذي يقال له: شجر أُم غيلان، وهو من العضاه له شوك، وفي الجنة شجر على خلقته له ثمر كقلال هَجَر، طيب الطعم والريح، ووصفه تعالى بأَنه مخضود، أَي مقطوع الشوك لا أَذى فيه، وقال أُمَيَّة بن أَبي الصلت:

إِنَّ الْحَدائِقَ في الجِنَانِ ظَلِيلَةٌ ... فيها الْكَواعِبُ سِدْرُها مَخْضُودُ[٢]

وعبَّر بعض المفسِّرين عن [مَخْضُود] بأَنه الْمُوقَر حملا، وقال بعضهم: هو قطع الشوك، وهو الصواب، أَما إِن وقره هو كرمه، ورُوي عن الضحاك أَن بعض الصحابة أَعجبهم سِدْرُ وَجٍّ[٣] فقالوا: ليت لنا في الآخرة مثل هذا، فنزلت الآية، ولأَهل تحرير النظر هنا إِشارة في أَن هذا الخضد بإِزاء أَعمالهم التي سلموا فيها: إِذ أَهل اليمين تَوَّابون لهم سلام، وليسوا بسابقين.

و«الطَّلْحُ» كذلك من العضاه شجرٌ عظيمٌ كثير الشوك وشبهه في الجنة على صفات

= يتغمدني الله برحمته، سدِّدوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيءٌ من الدُّلْجَةِ والقَصْدَ القَصْدَ تبلغوا»، وفي البخاري أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «سدِّدُوا وقاربوا واعلموا أنْ لنْ يُدْخل أحدكم عملُه الجنَّة، وأنَّ أحبَّ الأعمال أدوَمُهَا إلى الله وإن قَلَّ».

(١) هو شجر النَّبق، والشجرة الواحدة تُسمى: سِدْرة.

(٢) يستشهد بالبيت على أن «مخضود» بمعنى: مقطوع الشوك، والبيت في القرطبي وفي الدر المنثور.

(٣) وَجٌّ: قيل: وادٍ بالطائف، وقيل: موضع بالبادية، وقيل: هو الطائف. (راجع اللسان).

كثيرة مباينة لحال الدنيا، و[مَنْضُودٍ] معناه: مركَّب ثمره بعضه على بعض من أَرضه إِلى أعلاه. وقرأَ علي بن أَبي طالب، وجعفر بن محمد رضي الله عنهما، وغيرُهما: [وَطَلْعٍ مَنْضُو]﴾، فقيل لعلي بن أَبي طالب رضي الله عنه: إنما هو (وَطَلْحٍ) فقال: وما لِلطَّلْح والجَنَّة؟ فقيل له: أَنصلحها في المصحف؟ فقال: إن المصحف اليوم لا يُهاج ولا يُغير. وقال علي بن أَبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهم: «الطَّلْحُ»: الموز، وقاله مجاهد وعطاءٌ. وقال الحسن: ليس بالموز ولكنه شجر ظلُّه بارد طيب.

و«الظِلُّ الْمَمْدُودُ» معناه: الذي لا تنسخه شمسٌ، ويُفَسِّر ذلك قول النبيِّ ﷺ: «إِن في الجنة شجرة يسير الركب الجواد في ظِلِّها مائة سنة لا يقطعها، واقرؤُوا إِن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾.»[(١)] إِلى غير هذا من الأَحاديث في هذا المعنى، وقال مجاهد: هذا الظل هو من طَلْحها وسدرها.

وقوله تعالى: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ أَي: بزوال الإِبَّان[(٢)] كحال فاكهة الدُّنيا، ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ بِبُعد التَّناول، ولا بشوك يؤذي في شجراتها، ولا بوجه من الوجوه التي تمتنع بها فاكهة الدنيا.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿وَفُرُشٍ﴾ بضم الراءِ، وقرأَ أَبو حيوة: [وَفُرْشٍ] بسكونها، والفُرُش: الأَسِرَّة، وروي من طريق أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه أَن في ارتفاع السرير منها مسيرة خمسمائة سنة، وهذا والله أَعلم لا يثبت، وإِنْ قُدِّر فمتأَولٌ خارج عن ظاهره، وقال أَبو عبيدة وغيره: أَراد بالفُرُش النساءَ. و(مَرْفُوعَةٍ) معناه في الأَقدار والمنازل، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

ظَلَلْتَ مُفْتَرِشَ الْهَلْبَاءِ تَشْتُمُنِي … عِنْدَ الرَّسُولِ فَلَمْ تَصْدُقْ وَلَمْ تُصِبِ[(٣)]

---

(١) أخرجه البخاري في «بدء الخلق» وفي تفسير سورة «الواقعة»، وفي «الرقاق»، وأخرجه مسلم والترمذي في «الجنة»، وابن ماجه في «الزهد»، والدارمي في «الرقاق»، وأحمد في أكثر من موضع من مسنده، ففي البخاري عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، يبلغ به النبيَّ ﷺ، قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظِلِّها مائة عام لا يقطعها، واقرءوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾»، وأخرج مثله عن سهل بن سعد، في رواية عن أبي سعيد «إن في الجنة لشجرة يسير الراكبُ الجوادَ المُضَمَّر السريع في ظلها مائة عام ما يقطعها».

(٢) الإبَّان: الأوان، قال الشاعر: «ولِحَصْد الزَّرْع إبَّان»، أي: وقت مُحَدَّدٌ وأوانٌ.

(٣) يستشهد ابن عطية بهذا البيت على أن المرأة تسمى فراشاً، وصحيح أن العرب تسمي المرأة فراشاً ولباساً وإزاراً، لكن هذا لا يتفق مع معنى البيت، إذ كيف يتفق افتراش المخاطب لامرأة هَلْبَاءَ وهي تشتمُ=

ومنه قول الآخر في تَعْديده على صِهْره: «وَأَفْرَشْتُكَ كريمتي»[(١)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾، قال قتادة: الضمير عائد على «الحور العِين» المذكورات قبل، وهذا فيه بُعْد لأن تلك قصة قد انقضت جملة، وقال أبو عبيدة مَعْمر: قد ذكرهُنَّ في قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ فلذلك رَدَّ الضمير وإنْ لم يتقدم ذكر لدلالة المعنى على المقصد، وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾[(٢)] ونحوه، و[أَنْشَأْنَاهُنَّ] معناه: خلقناهن شيئاً بعد شيءٍ، وقال رسول الله ﷺ في تفسير هذه الآية: «عجائز كُنَّ في الدنيا عُمْشاً رُمْصاً»[(٣)]، وقال عليه الصلاة والسلام لعجوز: «إن الجنة لا يدخلها عجوز»، فحزنت فقال: «إِنَّكِ إذا دخلت الجنة أُنشئت خلقاً آخر»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾، قيل: معناه دائمات البكارة، متى عاود الواطىء وجدها بكراً. و«الْعُرُبُ» جمع عَروب وهي المُتَحَبِّبَةُ إلى زوجها بإظهار محبته، قاله ابن عباس، والحسن، وعبَّر عنهن ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً بالعواشق، ومنه قول لبيد:

وفـي الحُـدُوجِ عَـروبٌ غَيْـرُ فَـاحِشَـةٍ ... رَيَّا الرَّوَادِفِ يَعْشَى دُونها الْبَصَرُ[(٥)]

= الشاعر عند الرسول؟ وكلمة الهَلْبَاءِ تطلق على المرأة الكثيرة الشعر، وعلى الناقة أو الدابة، وعلى مقعد الإنسان، وكل من الأمرين الأخيرين يمكن فهم البيت على أساسه فهما أقرب من فهمه على الأمر الأول.

(١) هذا واضح الدلالة على أن المرأة تُسمَّى فراشاً، فهو يقول لصهره: لقد جعلتُ كريمتي فراشاً لك، وهي نعمة تستحق الذكر.

(٢) من الآية (٣٢) من سورة (ص).

(٣) رواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وقال الترمذي: غريب، وزاد السيوطي في الدُّرِّ نسبته إلى عبد بن حميد، والبيهقي في البعث، والفريابي، وهناد وابن المنذر، وابن مردويه، عن أنس رضي الله عنه. والشُّمْطُ: جمع شمطاءَ وهي التي اختلط سواد شعرها ببياض ـ وقد ورد وصفهن بذلك في بعض الروايات ـ والعُمْش: جمع عمشاءَ وهي التي ضعف بصرها مع سيلان دمع العين في أكثر الأوقات، والرَّمَص؛ وسخ أبيض يتجمع في موق العين، ويقال: رَمِص فلان فهو أرمص، وهي رمصاءُ.

(٤) أخرجه عبد بن حميد، والترمذي في الشمائل، وابن المنذر، والبيهقي في البعث، عن الحسن، وأخرجه البيهقي في الشعب عن عائشة رضي الله عنها، كذلك أخرجه الطبراني في الأوسط عن عائشة رضي الله تعالى عنها. (الدر المنثور).

(٥) قاله لبيد بن ربيعة العامري من قصيدة له يتغنى فيها بالحياة الصحراوية، ويفتخر بمآثره، والحُدوج: جمع حِدْج وهو مركب للنساء كالهودج يوضع على ظهور الإبل، ويروى البيت: «وفي الخُدور»، =

وقال ابن زيد: العَرُوبُ: الحَسَنَةُ الكلام، وقد تجيءُ العَروب صفة ذَمٍّ على غير هذا المعنى، وهي الفاسدة الأخلاق كأنها عرَّبت[1]، ومنه قول الشاعر:

وَمَـا بَـدَلٌ مِـنْ أُمِّ عُثْمَـانَ سَلْفَـعٌ ... منَ السُّودِ وَرْهاءُ العِنانِ عَرِيبُ[2]

وقرأ ابن كثير، وابن عامر، والكسائي: [عُرُباً] بضم الراءِ، وقرأ حمزة، والحسن: [عُرْباً] بسكونها، وهي لغة بني تميم، واختُلف عن نافع، وأَبي عمرو، وعاصم.

وقوله تعالى: [أَتْرَاباً] معناه: في الشكل والقَدِّ حتى يقول الرائي: هم أَتْرابٌ، والتِّرْبُ هو الذي مسَّ التُّرابَ مع تِرْبِه في وقت واحد، وقال قتادة: [أَتْرَاباً] بمعنى: سنًّا واحدة، ويروى أَن أَهل الجنة هم على قدر ابن أَربعة عشر عاماً في الشباب والنُّضرة، وقيل: على أَمثال أَبناءِ ثلاث وثلاثين سنة، مُرْداً بيضاً مكحَّلين.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ ـ فقال الحسن بن أَبي الحسن وغيرُه: الأَوَّلون: سالِفُ الأُمم، منهم جماعةٌ عظيمة هم أَصحاب اليمين، والآخِرُون: هذه الأُمَّة، منهم جماعة عظيمة أَهل يمين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

بل جميعُهم إِلاَّ من كان من السَّابقين.

وقال قوم من المتأَولين: هاتان الفرقتان في أُمة محمد ﷺ، وروى ابن عباس

= والعَرُوب: المرأة التي تتحبَّب إلى زوجها، وهو موضع الاستشهاد هنا، ورَيَّا الرَّوادف: ممتلئة العجيزة، ويَعشى: يكِلُّ ويضعف البصر من شدة الضوء.

(١) التَّعريب: الفُحش وما قَبُح من الكلام، ومنه حديث عطاءٍ: أنه كره الإعراب للمحرم، وهو الإفحاشُ في القول.

(٢) البيت في التاج واللسان، وقد استشهد به على أن المرأة العَرُوب هي «العاصية لزوجها، الخائنة بفرجها، الفاسدة بنفسها»، قال صاحب اللسان حكاية عن ابن سيده: «وأنشد ثعلب هذا البيت ولم يُفسره، قال: وعندي أن «عَروب» في هذا البيت: الضَّحَّاكَةُ، وهم يعيبون النساء بالضحك الكثير، ورواية البيت فيهما تختلف عما هنا، فهي هناك:

فَمَـا خَلَـفٌ مِـنْ أُمِّ عِمْـرَانَ سَلْفَـعٌ ... مِـنَ السُّـودِ وَرْهـاءُ العِنَـانِ عَـرُوبُ

والسَّلْفَعُ: السليطة الجريئة. وقيل: هي قليلة اللحم السريعة المشي، وفي الحديث «شرُّهُنَّ السَّلْفعة» أي البَذِيَّةُ الفحّاشة القليلة الحياء، والورهاءُ: الخَرْقَاءُ الحمقاءُ في كل عمل.

رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «الثُّلَّتَانِ مِنْ أُمَّتي»[١]، فعلى هذا التابعون بإحسان ومن جرى مجراهم ثُلَّةٌ أُولى، وسائر الأمة ثُلَّةٌ أُخرى في آخر الزمان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾.

إعراب قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ قد تقدَّم في نظيره[٢]، وفي الكلام هنا معنى الإنحاءِ عليهم وتعظيم مصابهم.

و«السَّمُومُ»: أَشدُّ ما يكون عند الحَرِّ اليابس الذي لا بلل معه.

و«الحَمِيمُ»: الأَسود، وهو بناءُ مبالغة، واختلف الناس في هذا الشيءِ الأَسود الذي يُظِلُّ أَهل النار، ما هو؟ فقال ابن عباس ومجاهد، وأَبو مالك، وابن زيد: هو الدخان، وهذا قول الجمهور، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً: هو سرادق النار المحيط بأَهلها، فإِنه يرتفع من كل ناحية حتى يُظلَّهم. وحكى النقاش أَن «اليَحْمُوم» اسمٌ من أَسماءِ جهنم، وقاله ابن كيسان، وقال ابن أَبي بُريدة، وابن زيد أَيضاً في كتاب الثعلبي: هو جبلٌ في النار أَسودُ يَفزَع أَهلُ النار إِلى ذراه فيجدونه أَشد شيءٍ وأَمَرَّه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾، قال الطبري وغيره: معناه: ليس له صفة مدح في الظلال، وهذا كما تقول: ثوب كريم ونسب كريم، تعني بذلك أَن له صفات مدح[٣]، ويحتمل أَن يصفه بعدم الكرم على معنى أَلاَّ كرامة لهم، وذلك أَن المرءَ في الدنيا قد يصبر على سوءِ الموضع لقرينة إكرام يناله فيه من أَحد، فجمع هذا الظلُّ في النار أَنه سَيِّءُ الصفة وهم فيه مُهانون.

---

(١) سبق تخريجه عند تفسير الآيتين (١٣، ١٤) من هذه السورة، ص(١٩٢).

(٢) وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾، ص (١٩٠) من هذا المجلد.

(٣) عبارة الطبري أوضح من هذا، فقد قال: «ليس بكريم لأنه يؤلم كل من استظلَّ به، والعربُ تُتبع كلَّ منفي عنه صفة حَمْدٍ نَفْيَ الكرم عنه، فتقول: ما هذا الطعام بطيب ولا كريم، وما هذا اللحم بسمين ولا كريم، وما هذه الدار بنظيفة ولا كريمة».

و«الْمُتْرَفُ»: المنعَّم في سرف وتخوُّض، و(يُصِرُّونَ) معناه: يعتقدون اعتقاداً لا يَنْوُون عنه إقلاعاً، قال ابن زيد: لا يتوبون ولا يستغفرون، و«الْحِنْثُ»: الإِثم، ومنه قول النبي ﷺ: «من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحِنْثَ. . .» الحديث[١]، أراد عليه الصلاة والسلام: لم يبلغوا الحُلُم فتتعلّق بهم الآثام، وقال الخطابي: الحنْثُ في كلام العرب العِدْلُ الثقيل، يشبَّه الإِثم به. واختلف المفسرون في المراد بهذا الإِثم ـ فقال قتادة، والضحاك، وابن زيد: هو الشرك، وهذا هو الظاهر، وقال قوم ـ فيما ذكر مكي ـ: هو الحنث في قَسَمهم الذي يتضمنه قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ الآية[٢] في التكذيب بالبعث، وهذا أَيضاً يتضمن الكفر، فالقول به على عمومه أَولى، وقال الشعبي: الحِنْثُ العظِيمُ: اليمين الغَمُوسُ[٣].

وقد تقدم ذكر اختلاف القراءِ في قوله تعالى: [أَئِذَا] و[أَئِنَّا]، ويختص من ذلك بهذا الموضع أن ابن عامر يخالف فيه أَصله فيقرأُ: [أَيِذَا] [أَيِنَّا] بتحقيق الهمزتين فيهما على الاستفهام، ورواه أَبو بكر عن عاصم في قوله تعالى: [أئنا لمبعوثون]. والعامل في قوله تعالى: (أَئِذَا) فعل مضمر يدل عليه قوله تعالى: (لَمَبْعُوثُونَ)، تقديره: أَنُبْعَثُ أَو أَنُحْشَرُ؟ ولا يعمل فيه ما بعده لأَنه مضاف إِليه، وقرأَ عيسى الثقفي: [مُتْنَا] بضم الميم، وقرأَ جمهور الناس: (مِتْنَا) بكسرها، وهذا على لغة من يقول: مِتُّ أَموت على وزن فَعِل بكسر العين يفعُل بضمها، ولم يُحك منها عن العرب إِلاَّ هذه اللفظة وأُخرى هي فَضِل يفضُل. وقرأَ بعض القراءِ: [أَوْ آبَاؤُنَا] بسكون الواو من [أَوْ]، ومعنى الآية استبعاد أَن يبعثوا هم وآباؤُهم على حدٍّ واحد من الاستبعاد، وقرأَ الجمهور: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا﴾ بتحريك الواو على أَنها واو العطف دخل عليها أَلف الاستفهام، ومعناها شدة الاستبعاد

(١) أخرجه البخاري في العلم والجنائز، ومسلم في البرِّ، والترمذي، وابن ماجه، والنسائي في الجنائز، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، ولفظه فيه: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلميْن يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحِنْث إلا كانوا لهما حصناً حصيناً من النار»، فقيل: يا رسول الله، فإن كانا اثنين؟ قال: «وإن كانا اثنين»، فقال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: يا رسول الله، لم أقدم إلا اثنين، قال: «وإن كانا اثنين»، قال: فقال أُبيٌّ بن كعب أبو المنذر سيِّد القراءِ رضي الله عنه: لم أقدم إلا واحداً، قال: فقيل له: وإن كان واحداً؟ فقال: «إنما ذاك عند الصدمة الأولى».

(٢) من الآية (٣٨) من سورة (النحل).

(٣) اليمين الغموس: الكاذبة، تغمس صاحبها في الإثم، وفي الحديث «اليمينُ الغموسُ تذر الديار بلاقع».

في الآباءِ، كأَنهم استبعدوا أَن يُبعثوا ثم أَتَوْا بذكر مَنِ البعثُ فيهم أَبعد، وهذا بيِّن لأَهل العلم بلسان العرب.

ثم أَمر الله تعالى نبيه ﷺ أَن يعلمهم بأَن العالم محشور مبعوث ليوم معلوم مؤقت. و[مِيقَاتِ] مِفْعال من الوقت، كميعاد من الوعد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّآلُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ مخاطبة لكفار قريش ومن كان في حالهم، و[مِنْ] في قوله تعالى: ﴿مِن شَجَرٍ﴾ يحتمل أَن يكون للتبعيض، ويحتمل أَن تكون لابتداءِ الغاية، و[مِنْ] في قوله تعالى: ﴿مِّن زَقُّومٍ﴾ لبيان الجنس، والضمير في [مِنْهَا] عائد على الشجر، و[مِنْ] للتبعيض أَو لابتداءِ الغاية، والضمير في [عَلَيْهِ] عائد على المأْكول أَو على الأَكل، وفي قراءَة ابن مسعود رضي الله عنه: «لآكِلُونَ مِنْ شَجَرَةٍ» على الإِفراد.

و[الْهِيمِ] قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك: هو جمع «أَهْيَم» وهو الجمل الذي أَصابه الهُيَام ـ بضم الهاءِ ـ وهو داءٌ معطش يشرب منه الجمل حتى يموت أَو يسقم سقماً شديداً، والأُنثى هيماءُ، وقال بعضهم: هو جمع هيماءَ كعيْناءَ وعِينٍ وبَيْضاءَ وبِيضٍ، وقال قوم آخرون: هو جمع هايم وهايمة، وهو أَيضاً من هذا المعنى لأَن الجمل إِذا أَصابه ذلك هام على وجهه وذهب، وقال ابن عباس، وسفيان الثوري: الهِيمُ هنا الرمال التي لا تُرْوَى من الماءِ، وذلك أَن الهَيَام ـ بفتح الهاءِ ـ هو الرمل الدِّق الغَمْر المتراكم، وقال ثعلب: الهُيام ـ بضم الهاءِ ـ الرَّمل الذي لا يتماسك. وقرأَ ابن كثير، وابن عامر، وأَبو عمرو، والكسائي: [شَرْبَ الهِيمِ] بفتح الشين، وهي قراءَة الأَعرج، وابن المسيَّب، وشعيب بن الحبحاب، ومالك بن دينار، وابن جريج، ولا خلاف أَنه مصدر، وقرأَ مجاهد: [شِرْبَ الْهِيمِ] بكسر الشين، ولا خلاف أَنه اسم، وقرأَ أَهل المدينة وباقي السبعة: [شُرْبَ الْهِيمِ] بضم الشين، واختلف فيه ـ فقال قوم: هو مصدر، وقال آخرون: هو اسم لما يُشرب.

و«النُّزُلُ»: أَول ما يأكل الضيف، وقرأَ أَبو عمرو ـ في رواية ابن عياش ـ: [نُزْلُهُمْ] بسكون الزاي، وقرأَ الباقون، واليزيديُّ عن أَبي عمرو بضم الزاي، وهما بمعنى كالشُّغْل والشُّغُل.

و«الدِّينُ»: الجزاءُ.

ثم أَخبر تعالى أَنه الخالق، وحضَّ على التصديق على وجه التقريع، ثم ساق تعالى الحجة الموحية للتصديق، كأَن معترضاً من الكفار قال: ولِمَ أُصَدِّق؟ فقيل له: أَفرأَيت كذا وكذا؟ الآيات، وليس يوجد مفطورٌ يخفى عليه أَن المنيَّ الذي يخرج منه ليس فيه عمل ولا إِرادة ولا قدرة، و[أَمْ] في قوله تعالى: ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ ليست المعادِلة عند سيبويه؛ لأَن الفعل قد تكرَّر، وإِنما المعادِلة عنده: أَقام زيدٌ أَم عمرو؟ وهذه التي في هذه الآية معادِلة عند قوم من النحاة. وأَما إِذا تغاير الفعلان فليست بمعادِلة إِجماعاً، وقرأَ الجمهور: ﴿تُمْنُونَ﴾ بضم التاءِ، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما، وأَبو السَّمال: [تَمْنُونَ] بفتح التاءِ، ويقال: «أَمْنى الرجل ومَنَى» بمعنى واحد.

وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾ بشد الدال، وقرأَ ابن كثير وحده: [نَحْنُ قَدَرْنَا] بتخفيف الدال، والمعنى فيهما يحتمل أَن يكون بمعنى: قضينا وأَثبتنا، ويحتمل أَن يكون بمعنى: سوَّينا وعدَّلنا التَّقدُّم والتَّأَخُّر، أَي جعلنا الموت رُتَباً، ليس يموت العالَم دفعة واحدة، بل بترتيب لا يعدوه أَحد، وقال الطبري: معنى الآية: قدرنا بينكم الموت على أَن نبدلَ أَمثالكم، أَي تموت طائفة ونبدلها بطائفة، وهكذا قرناً بعد قرن. وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أَي على تبديلكم إِن أَردناه، وأَن ننشئكم بأَوصاف لا يصلها علمكم ولا تحيط بها فكركم، قال الحسن: من كونهم قردة وخنازير.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

تأَول الحسن هذا لأَن الآية تنحو إِلى الوعيد، وجاءَت لفظة السبق هنا على نحو قوله ﷺ: «فإِن استطعتم أَلا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا لا تفوتنكم»[1]. وقرأَ جمهور الناس: ﴿النَّشْأَةَ﴾ بسكون الشين، وقرأَ قتادة وأَبو

---

(١) أخرجه البخاري في المواقيت وفي تفسير سورة (ق) وفي التوحيد، وأبو داود في السُّنَّة، والترمذي في الجنة، وابن ماجه في المقدمة، وأحمد في مسنده (٤ـ ٣٦٠، ٣٦٢، ٣٦٥)، ولفظه كما جاء في مسند=

الأشهب[(١)]، وأبو عمرو ـ بخلاف ـ: [النَّشَاءَة] بفتحها وبالمدِّ، وقال أكثر المفسرين: أشار إلى خلق آدم عليه السلام ووقف عليه لأنك لا تجد أحداً ينكر أنه من ولد آدم عليه السلام، وأنه من طين، وقال بعضهم: أراد تعالى بالنشأة الأولى نشأة إنسان إنسان في طفولته، فيعلم المرءُ نشأته كيف كانت بما يرى من نشأة غيره.

ثم حضَّض تعالى على التذكُّر والنظر المؤدي إلى الإيمان، وقرأ الجمهور: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ مشددة الذال، وقرأ طلحة: [فَلَوْلاَ تَذْكُرُونَ] بسكون الذال وضم الكاف، وهذه الآية نَصٌّ في استعمال القياس والحضِّ عليه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

وقف تعالى الكفار على أمر الزرع الذي هو قوام العيش، وبيَّن لكل مفطور أن الحراث الذي يثير الأرض ويفرق الحَبَّ ليس يفعل في نبات الزرع شيئاً، وقد يُسمَّى الإنسان زارعاً، ومنه قوله تعالى: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾[(٢)]، لكن معنى هذه الآية: أأنتم تزرعونه زرعاً يتم أم نحن؟ وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقولنَّ زرعت، ولكن قل: حَرَثْتُ»، ثم تلا أبو هريرة رضي الله عنه هذه الآية[(٣)].

= أحمد: قال: سمعت قيس بن أبي حازم يحدث عن جرير، قال: كنا عند رسول الله ﷺ ليلة البدر، فقال: إنكم سترون ربكم عزَّ وجلَّ كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على هاتين الصلاتين قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، ثم تلا هذه الآية ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ قال شعبة: لا أدري قال (فإن استطعتم) أو لم يقل.

(١) هو جعفر بن حيَّان السعدي، أبو الأشهب العطاردي، البصري، مشهور بكنيته، ثقة، من السادسة، مات سنة خمس وستين وله خمس وتسعون سنة. (تقريب التهذيب).

(٢) من الآية (٢٩) من سورة (الفتح).

(٣) أخرجه البزَّار، وابن جرير، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي في «شعب الإيمان» وضعَّفه. (الدر المنثور).

و«الْحُطَامُ»: الْيَابِس المتفتّت من النبات الصائر إِلى ذَهاب، وبه شبه حطام الدنيا، وقيل: المعنى: تِبْناً لا قَمْحَ فيه، و[تَفَكَّهُونَ] قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: معناه: تعجبون، وقال عكرمة: تلاومون، وقال الحسن: معناه: تندمون، وقال ابن زيد: تتفجَّعون، وهذا كله تفسير لا يخصُّ اللفظة، والذي يخصُّ اللفظة هو: تطرحون الفكاهة عن أَنفُسكم، وهي المَسَرَّة والجزلُ، ورجلٌ فَكِهٌ إِذا كان منبسط النفس غير مكترث بشيءٍ، و«تَفَكَّهَ» من أَخوات «تَحَرَّجَ» و«تَحَوَّب». وقرأَ الجمهور: [فَظَلْتُمْ] بفتح الظاءِ، وروَى سفيان الثوريُّ في قراءَة عبد الله كسْرَ الظَّاءِ، قال أَبو حاتم: طُرحت عليها حركة اللام المحذوفة، وذلك رديءٌ في القياس، وهي قراءَة أَبي حَيْوة، وروى أَحمد بن موسى: [فَظَلَلْتُمْ] بلامَيْن الأُولى مفتوحة عن الجحدري، ورويت عن ابن مسعود رضي الله عنه بكسر اللام الأُولى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ قبله حذف تقديره: «يقولون»، وقرأَ الأَعمش، وعاصم الجُحْدري: ﴿أَئِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ بهمزتين على الاستفهام، والمعنى يحتمل أَن يكون: إنا المعذبون من الغرام، وهو أَشد العذاب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾[1]، ومنه قول الأَعشى:

إِنْ يُعَـذِّبْ يَكُـنْ غَـرَامـاً وَإِنْ يُعْـ ـــط جَـزِيـلاً فَـإِنَّـهُ لاَ يُبـالـي[2]

ويحتمل أَن يكون المعنى: إِنا لمحمَّلون الغَرام، أَي غرمنا في النفقة وذهاب زرعنا، تقول: «غَرِمَ الرجلُ وأَغْرَمْتُه فهو مُغْرم»، وتقدم تفسير «المحروم» وأَنه المحدود[3] المُحَارَف[4].

و«المُزْنُ»: السحابُ بلا خلاف، ومنه قول الشاعر:

---

(١) من الآية (٦٥) من سورة (الفرقان).

(٢) البيت من قصيدة طويلة يمدح فيها الأعشى إياس بن قبيصة الطائي، وهو في الديوان، وفي اللسان والتاج، والرواية فيها كلها: (إن يُعَاقِبْ) بدلا من (إِنْ يُعَذِّبْ). والغرامُ: اللازم من العذاب، والشرُّ الدائم، والوَلوع بالشيءِ، والجزيلُ: الكثير العظيم، يمدحه بِحُبِّ العقوبة والتعذيب إذا فعلهما، وبالكرم الشديد.

(٣) المحدود: القليل الحظ، الممنوع من الخير.

(٤) المحارَف: المحروم يَطْلُبُ فلا يُرزق، ولا يصيب خيراً من أَيِّ وجه توجَّه له.

ونَحْنُ كَمَاءِ المُزْنِ ما في نِصَابِنَا ... كَهامٌ وَلاَ فينا يُعَدُّ بَخيلُ(١)

و«الأُجَاجُ» أَشدُّ المياه ملوحة، وهو ماءُ البحر الأَخضر. و[تُورُونَ] معناه: تقتدحون من الأَزْنُد، تقول: أَوريت النار من الزنادِ، ووري الزِّنادُ نفسه، والزناد قد يكون من حجرين ومن حجر وحديدة ومن شجر لا سيَّما في بلاد العرب، فإِن أَزْنُدَهم من شجر ولا سيَّما في الشجر الرخو كالمرخ والعفار والكلخ وما أَشبهه، ولعادة العرب في أَن زنادهم من شجر قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾، وقال بعض أَهل النظر: أَراد بالشجرة نفس النار، كأَنه تعالى يقول: نوعها أَو جنسها، فاستعار الشجرة لذلك، وهو قول فيه تكلُّف. وقرأَ الجمهور: [آنْتُمْ] بالمدِّ، وروي عن أَبي عمرو، وعيسى: [أَنْتُمْ] بغير مدٍّ، وضعَّفها أَبو حاتم.

و[تَذْكِرَة] معناه: تُذكِّر نار جهنم، قاله مجاهد وقتادة، و«المَتَاعُ» ما يُنْتَفَع به، و«الْمُقْوِينَ» في هذه الآية: الكائنون في الأَرض القواءِ، وهي الفيافي، وعبَّر الناسُ في تفسير «الْمُقْوِينَ» بأَشياءَ ضعيفة، كقول ابن زيد: الخائفون ونحوه، ولا يقوم منها إلاَّ ما ذكرناه، ومن قال معناه: المسافرون فهو نحو ما قلناه، وهي عبارة ابن عباس رضي الله عنهما، تقول: «أَصبح الرجل» دخل في الصباح، و«أَصْحَرَ» دخل في الصحراءِ، و«أَقوى» دخل في الأَرض القَوَاءِ، ومنه «أَقْوَت الدارُ، أَقوى الطَّلَلُ» أَي صار قواءً، ومنه قول النابغة:

. . . . أَقْوَتْ وطالَ عَلَيْهَا سالِفُ الأَبَدِ(٢)

---

(١) هذا البيت للسَّمَوْأَل، وهو من قصيدته المشهورة التي قالها في الافتخار والاعتزاز بالنسب، والتي يقول في مطلعها:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ ... فكُلُّ رداءٍ يَرْتَديهِ جَمِيلُ

والمُزْنُ: السحابُ الأَبيض، واحدته: مُزْنة، والنِّصَابُ: الأَصْلُ، والكَهَام: الضَّعيف المُسِنُّ، وهما استعارة من «النصاب» بمعنى: المُدْية، ومن الكهَام بمعنى: غير القاطع.

(٢) هذا عجز بيت قاله النابغة الذبياني في مطلع قصيدة يمدح بها النعمان بن المنذر، ويعتذر إليه مما بلغه عنه من أنه يحب المُتَجَرِّدَة زوج النعمان، والبيت بتمامه:

يا دارَ مَيَّةَ بالعَلْيَاءِ فالسَّنَدِ ... أَقْوَتْ وَطالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الأَبَدِ

والعَلْيَاءُ ـ بفتح العين وبالمَدِّ ـ: رأسُ الجبل، والسَّنَد: ما علا عن سفح الجبل، وعَطف السَّنَد بالفاء هنا يفيد أن دار ميَّة كانت بالعلياء لكنها متصلة بالسَّنَد، وأَقْوَتْ: أقفرت وصارت خاوية خربة، وهو=

وقول الآخر:

. . . . أَقْـوَى وأَقْفَـرَ بَعْـدَ أُمِّ الْهَيْثَـمِ(١)

والفقير والغني إذا أَقْوَيَا سواءٌ في الحاجة إلى النار، ولا شيءَ يغني غناها في البرد، ومن قال: «إن أَقوى من الأَضداد من حيث يقال أَقوى الرجل إذا قويت دابته» فقد أَخطأَ، وذلك فعل آخر كأَترب إذا أَثْرَى.

ثم أَمر تبارك وتعالى نبيَّه ﷺ بتنزيه ربِّه عزَّ وجلَّ وتنزيه أَسمائه العُلَى عما يقوله الكفرة الذين حُجُّوا في هذه الآيات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

اختلف الناس في [لاَ] من قوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ ـ فقال بعض النحويين: هي زائدة، والمعنى: فأُقسم، وزيادتها في بعض المواضع معروف(٢)، كقوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾(٣)، وغير ذلك، وقال سعيد بن جبير وبعض النحويين: هي نافية، كأَنه تعالى يقول: فلا صحة لما يقوله الكفار، ثم

= موضع الاستشهاد هنا، والأبد: الدَّهر، والسالف: الماضي، يقول: طال عليها ما مضى من الدهر فصارت خراباً خاوية.

(١) البيت من معلقة عنترة «هل غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ، وهو بتمامه:

حُيِّيـتَ مِـنْ طَلَـلٍ تَقَـادَمَ عَهْـدُهُ أَقْـوَى وأَقْفَـرَ بَعْـدَ أُمِّ الهَيْثَـمِ

والطَّلَلُ: ما بقي شاخصاً من آثار الديار، والجمع أَطْلالٌ وطُلُولٌ، والإقواءُ والإقفارُ: الخلاءُ، وقد جمع بينهما لضرب من التأكيد، وأُمُّ الهيثم: كنية عَبْلَة، يحييه من بين الأطلال، أي يخصه بالتحية من بين الأطلال، ثم يقول: لقد قدم عهده بأهله، وقد خلا من السكان بعد رحيل حبيبته عنه.

(٢) أي: أمرٌ معروف.

(٣) من الآية (٢٩) من سورة (الحديد).

ابتدأ تبارك وتعالى فقال: «أُقْسِم»[١]، وقال بعض المتأولين: هي مؤكدة تعطي في القَسَم مبالغة، وهي كاستفتاح كلام يشبهه في القَسَم لا في شائع الكلام، ومنه قول الشاعر:

فَلاَ وَأَبي . . . . لاَ أَخُونُهَا[٢]

المعنى: «فَوَأَبي»، ولهذا نظائر، وقرأ الحسن والثَّقفي: ﴿فَلأُ قْسِمُ﴾ بغير أَلف، قال أَبو الفتح: التقدير: فَلأَنا أُقْسِم[٣].

وقرأ الجمهور من القراءِ: [بِمَوَاقِع] على الجمع، وقرأ عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهم ـ وأَهْلُ الكوفة: حمزة، والكسائي [بِمَوْقِع] على الإِفراد، وهو مرادٌ به الجمع، ونظير هذا كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[٤]، جَمَع من حيث لكل حمار صوت مختص، وأَفرد من حيث الأَصوات كلها صوتٌ.

واختلف الناس في «النُّجوم» هنا ـ فقال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وغيرهم: هي نجوم القرآن التي نزلت على محمد ﷺ، وذلك أَنه رُوي أَن القرآن نزل من عند الله عزَّ وجلَّ في ليلة القدر إِلى السماءِ الدنيا ـ وقيل: إِلى البيت المعمور ـ جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك على محمد ﷺ نجوماً مقطعة في مدَّة من عشرين سنة، ويؤيد هذا القول عودُ الضمير على القرآن في قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾، وذلك أَنَّ ذكْرَهُ لم يتقدم إِلاَّ على هذا التأْويل، ومن لا يتأَول هذا التأْويل يقول: إِن الضمير يعود على القرآن وإِن لم يتقدم له ذكْر لشُهرة الأَمر ووضوح المعنى، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾[٥]، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[٦]، وغير ذلك. وقال جمهور كثير من المفسرين: النجوم هنا

---

(١) معنى هذا أن النفي محذوف، وهذا المنفي هو اسم (لا) وخبرها، ولهذا قال أبو حيان في البحر: إن هذا لا يجوز بسبب حذف الاسم والخبر، وهذا أمرٌ لا يجوز إلا إذا دلَّ عليهما من الكلام دليل، كأن يقع الكلام جواباً لسؤال، وهو ما لم يحدث هنا.

(٢) في مكان النقط (. . . .) كلمة غير واضحة، والشاهد ذكره ابن عطية، وإذا قدرنا (لا) أداة استفتاح مثل (ألا) كان في هذا تنبيه على فضيلة القرآن ليتدبروه، ذكر هذا القرطبي وغيره.

(٣) قال أبو الفتح: «لأن هذا فعل حالٍ ـ أي حاضر ـ ولو أريد الفعل المستقبل للزمت فيه النون فقيل: «لأقسِمَنَّ».

(٤) من الآية (١٩) من سورة (لقمان).

(٥) من الآية (٣٢) من سورة (ص).

(٦) من الآية (٢٦) من سورة (الرحمن).

الكواكبُ المعروفة، واختُلف في مواقعها ـ فقال مجاهد وأَبو عبيدة: هي مواقعها عند غروبها وطلوعها، وقال قتادة: مواقعها هي مواضعها من السماءِ، وقيل: مواقعها عند الانقضاض إِثر العفاريت، وقال الحسن: مواقعها عند انكدار النجوم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ تأْكيدٌ للأَمر وتنبيه من المقسم به، وليس هذا باعتراض بين الكلامين، بل هذا معنى قصد التَّهمم به، وإِنما الاعتراض قوله تعالى: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾، وقد قال قوم: إِن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ اعتراض، وإِنَّ ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ اعتراضٌ في اعتراض، والتحرير هو الذي ذكرناه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ﴾ هو الذي وقع القَسَم عليه، ووصفه بالكرم على معنى إِثبات صفات المدح له ودفع صفات الحطيطة عنه.

واختلف المتأَولون في قوله تعالى: ﴿فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ بعد اتفاقهم على أَن «الْمَكْنُونَ»: المصونُ ـ فقال ابن عباس، ومجاهد: أَراد الكتاب الذي في السماءِ، وقال عكرمة: أَراد التوراة والإِنجيل، كأَنه تعالى قال: إِنه لكتابٌ كريمٌ ذُكر كرمه وشرفه في كتاب مكنون، فمعنى الآية ـ على هذا ـ الاستشهاد بالكتب المنزلة، وهذا كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾[1]، وقال بعض المتأَولين: أَراد مصاحف المسلمين، وكانت يوم نزلت الاية لم تكن، فهي ـ على هذا ـ إِخبار بغيب، وكذلك هو كتاب مصون إِلى يوم القيامة، ويؤيد هذا لفظة «المَسِّ» فإِنها تشير إِلى المصاحف، وهي مستعارة من مسِّ الملائكة.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ وفي حكمه ـ فقال بعض من قال إِن الكتاب المكنون هو الذي في السماءِ، قال: المُطَهَّرُونَ هنا: الملائكة، قال قتادة: فأَما عندكم فيمسُّه المشرك النجس والمنافق، قال الطبري: المُطَهَّرُونَ: الملائكة والأَنبياءُ عليهم السلام ومَن لا ذنب له، وليس في الاية ـ على هذا القول ـ حكم مسِّ المصحف لسائر بني آدم، ومن قال بأَنها مصاحف المسلمين قال: إِن قوله تعالى ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ إِخبار مضمنه النهي، وضَمَّةُ السين ـ على هذا ـ إِعرابٌ وقال بعض هذه الفرقة: الكلام نهيٌ، وضمَّة السِّين ضمَّة بناءٍ، قال جميعهم: فلا يمسُّ المصحف من بني آدم إِلاَّ الطاهر من الكفر والجنابة والحدث الأَصغر، قال مالك:

---

(١) من الآية (٣٦) من سورة (التوبة).

لا يحمله غير طاهر بعلاقته ولا على وسادة، وفي كتاب رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: «ولا يمسُّ القرآن إلاَّ طاهر»[(١)]، وقد رخَّص أبو حنيفة وقوم أن يمسَّه الجنب والحائض على حائل، غلاف ونحوه، ورخَّص بعض العلماءِ في مسِّه في الحدث الأصغر وفي قراءَته عن ظهر قلب، منهم ابن عباس وعامر الشعبي، لا سيما للمعلم والصبيان، وقد رخَّص بعضهم للجنب في قراءَته، وهذا الترخيص كله إنما هو على القول الذي ذكرناه من أن «المطهرين» هم الملائكة، أو على مراعاة لفظة المسِّ، فقد قال سلمان رضي الله عنه: لا أَمسُّ المصحف ولكن أَقرأُ القرآن. وقرأَ جمهور الناس: (الْمُطَهَّرُونَ) بفتح الطاءِ والهاءِ المشددة. وقرأَ نافع، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنهما ـ: [الْمُطْهَرُونَ] بسكون الطاءِ وفتح الهاءِ خفيفة، وهي قراءَة عيسى الثقفي. وقرأَ سلمان الفارسي: [الْمُطَهِّرُونَ] بفتح الطاءِ خفيفة وكسر الهاءِ وشدها، على معنى الذين يُطَهِّرُون أَنفسهم، ورويت عنه بشد الطاءِ والهاءِ، وقرأَ الحسن، وعبد الله بن عون، وسلمان الفارسي ـ بخلاف عنه ـ: [الْمُطَّهِّرُون] بمعنى: الْمُتَطَهِّرين، والقول بأَن ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ نهيٌ قولٌ فيه ضعف، وذلك أنه إذا كان خبراً فهو في موضع الصفة، وقوله تعالى بعد ذلك: [تَنْزِيلٌ] صفة أَيضاً، فإذ جعلناه نهياً جاءَ معنى أَجنبياً مُعْتَرضاً بين الصفات، وذلك لا يحسن في رصف الكلام فتدبَّره، وفي حرف ابن مسعود رضي الله عنه: «مَا يَمَسُّهُ»، وهذا يُقَوِّي ما رجَّحته من الخبر الذي معناه: حَقُّهُ وَقَدْرُهُ أَلاَّ يَمسَّه إلاَّ طاهر.

وقوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ مخاطبة للكفار، و«الحديث» المشار إليه هو القرآن المتضمن البعث، وأَن الله تعالى هو خالق الكل، وأَن ابن آدم مصرف بقدره وقضائه، وغير ذلك، و[مُدْهِنُونَ] معناه: يُلاَيِنُ بعضكم بعضاً ويتبعه في الكفر، مأْخوذ من الدهن لِلينه وامِّلاَسِهِ، وقال أَبو قيس بن الأَسلتْ:

الْحَـزْمُ والقُـوَّةُ خَيْـرٌ مـنَ الْـ ... إدْهَـانِ والْفَهَّـةِ والْهَـاعِ[(٢)]

---

(١) أخرجه عبد الرزاق، وابن أبي داود، وابن المنذر، عن عبد الله بن أبي بكر، عن أبيه، قال: في كتاب النبي ﷺ لعمرو بن حزم: «ولا تمسَّ القرآن إلا على طهور». (الدر المنثور).

(٢) الحزمُ: ضبطُ الرأي وإتقانه. والإدهانُ والمداهنةُ: المُصانعة واللِّين، ويقومان على الغش والنفاق وإظهار خلاف ما في الضمير، والكذبُ فيه كل ذلك، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا، والفَهَّةُ: العِيُّ والعجز عن الإبانة، وقيل: معناها السقطة، قال أبو عبيدة بن الجراح لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حين قال له يوم السقيفة: ابسط يدك أبايعك: فقال أبو عبيدة: ما رأيت منك فهَّةً في الإسلام قبلها، =

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي المهاودة فيما لا يحلُّ، والمداراة هي المهاودة فيما يحلُّ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: [مُدْهِنُونَ]: مكذبون.

قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، أَجمع المفسِّرون على أن الآية توبيخ للقائلين في المطر الذي نزله الله تعالى رزقاً للعباد: هذا بِنَوْءِ كذا وكذا، وهذا بِنَوْءِ الأَسد، وهذا بِنَوْءِ الجوزاءِ، وغير ذلك، والمعنى: وتجعلون شكر رزقكم، كما تقول لرجل: جعلت يا فلان إِحساني إِليك أَن سببتني، فالمعنى: جعلت شكر إِحساني، وحكى الهيثم بن عدي أَن من لغة أَزد شنوءَة: ما رزْق فلان؟ بمعنى: ما شكْره؟ وكان علي بن أَبي طالب رضي الله عنه يقرؤُها: [وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تَكْذِبُونَ]، وكذلك قرأَ ابن عباس رضي الله عنهما، ورويت عن النبي ﷺ[1] إلا أَن ابن عباس رضي الله عنهما ضم التاءِ وفتح الكاف، وعلي رضي الله عنه فتح التاءَ وسكن الكاف وخفف الذال، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وكـانَ شُكْـرُ الْقَـوْمِ عِنْـدَ المنـنِ   كـيُّ الصَّحيحـاتِ وفَـقْءُ الأَعْيُـنِ[2]

وقد أَخبر الله تعالى أنه أَنزل من السماءِ ماءً مباركاً فأَنشأَ به جنات وحبَّ الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد، رزقاً للعباد، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، أَي بهذا الخبر، وقرأَ عاصم في رواية المفضل عنه: [تَكْذِبُونَ] بفتح التاءِ وسكون الكاف وتخفيف الذال كقراءَة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وكَذِبهم في مقالهم بيِّنٌ

= أتبايعني وفيكم الصديق ثاني اثنين؟ والهاعُ: سوءُ الحرص مع الضعف، والبيت في اللسان ـ هيع ـ، وفي (جمهرة أشعار العرب)، والرواية فيهما:

الكَيْـسُ والقُـوَّة خيـرٌ مِـن الْـ   إِشْفَـاقِ والفَهَّـةِ والْهَـاعِ

وعلى هذا فلا شاهد فيه. والبيت في الأصمعية (٧٥)، والرواية فيهما: (خير من الإدهان والفكَّة) ـ بالكاف ـ ومعناها: الضعف، وهو أيضاً في (البيان والتبيين) وفي (الحيوان)، وفي (السِّمْط).

(١) أخرج ابن مردويه عن أبي عبد الرحمن السُّلميّ رضي الله عنه قال: قرأ علي رضي الله عنه (الواقعات) في الفجر فقال: «وتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُون»، فلما انصرف قال: إني قد عرفت أنه سيقول قائل: لِمَ قرأها هكذا؟ إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقرؤها كذلك، كانوا إذا مُطِروا قالوا: مُطِرْنَا بنوءِ كذا وكذا، فأنزل الله: «وتجعلون شكركم أنكم إذا مطرتم تكذبون».

(٢) لم أجد هذا الرجز إلاَّ في البحر المحيط، والرواية فيه (مَكانُ) بدلا من (وَكَان)، يصفهم بنكران الجميل ومقابلة الحسنة بالسيئة.

لأنهم يقولون: هذا بنوءِ كذا، وذلك كذب منهم وتخرُّص. وذكر الطبري أَن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: مُطرنا ببعض عثانين الأَسد، فقال له: «كذبتَ بلْ هو رزق الله»(١)، والمنهي عنه المكروه هو أَن يعتقد أَن للطَّالع من النجوم تأْثيراً في المطر، وأَما مراعاة بعض الطوالع على مقتضى العادة فقد قال عمر للعباس رضي الله عنهما وهما في الاستسقاءِ: يا عباس، يا عم النبي ﷺ: كم بقي من نَوْءِ الثُّريا؟ فقال العباس رضي الله عنه: العلماءُ يقولون إنها تعترض الأُفق بعد سقوطها سبعاً، قال ابن المسيَّب: فما مضت سبعٌ حتى مُطِروا(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ توقيف على موضع عجز يقتضي النظرُ فيه أَن الله تبارك وتعالى مالك كل شيءٍ، والضمير في ﴿بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ لنفس الإِنسان، والمعنى يقتضيها وإِن لم يتقدم لها ذكر، و«الحُلْقُوم» مجرى الطعام، وهذه الحالُ هي نزاع المرءِ للموت. وقوله تعالى: [أَنْتُمْ] إِشارة إِلى جميع البشر، وهذا من الاقتضاب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾(٣). وقرأَ عيسى بن عمر: [حِينِئِذٍ] بكسر النون، و[تَنْظُرُونَ] معناه: إِلى المنازع في الموت. وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ يحتمل أَن يريد ملائكته ورسله، ويحتمل أَن يريد: بقدرتنا وغلبتنا، فعلى الاحتمال الأَول يجيءُ قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ من النظر بالعين، وعلى التأْويل الثاني يجيءُ من النظر بالقلب، وقال عامر بن عبد قيس: ما نظرتُ إِلى شيءٍ إِلاَّ رأَيْتُ الله تعالى أَقرب إِليه مني.

ثم عاد التوقيف والتقرير ثانية بلفظ التَّخصِيص(٤)، و«المَدِينُ»: المملوك، هذا أَصح ما يقال في معنى اللفظة هنا، ومن عبَّر عنها بالمُجَازَي أَو المُحَاسَب فذلك هنا قلق، والمملوك يقلَّب كيف شاءَ المالك، ومن هذا المِلك قول الأَخطل:

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن إسماعيل بن أُمية.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري، عن سفيان، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم، عن أبي هريرة، والذي ذكر هذا الحديث لسعيد بن المسيّب هو محمد بن إبراهيم فقال ابن المسيّب: ونحن قد سمعنا من أبي هريرة، وقد أخبرني من شهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه... إلخ ما ذكره المؤلف.

(٣) من الآية (٢٩) من سورة (النساء).

(٤) في بعض النسخ: «بلفظ التحقيق»، والصواب ما أثبتناه، راجع الهامش رقم (٢) من الصفحة القادمة.

رَبَتْ فَرَبَى في حِجْرِهَا ابنُ مَدِينَة تَــرَاهُ عَلَــى مِسْحَــاتِــهِ يَتَــرَكَّــلُ[(١)]

أَراد: ابن أَمَةٍ مملوكة، وهو عبد يخدم الكَرْمَ، وقد قيل في معنى هذا البيت: أَراد أَكّاراً حَضَرِيًا لأَن الأَعراب في البادية لا يعرفون الفلاحة وعمل الكرم، فَنَسَبه إلى المدينة لما كان من أَهلها، فمعنى الآية: فلولا ترجعون النفس البالغة إلى الحُلْقُوم إن كنتم غير مملوكين ولا مقهورين، ودينُ الْمَلِك حُكْمُه وسُلْطَانُه، وقد نحا إلى هذا المعنى الفراءُ، وذكره مُستوعباً النقاش. وقوله تعالى: [تَرْجِعُونَهَا] سدَّت مَسَدَّ الأَجوبة والبيانات التي تقتضيها التخصيصات[(٢)]، و[إِذَا] من قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا﴾ و[إِنْ] المتكررة، وحمل بعض القول بعضاً إِيجازاً واقتضاباً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

ذكر الله تعالى في هذه الآية حال الأَزواج الثلاثة المذكورة في أَول السورة، وحال كل امرىء منهم، فأَما المرءُ من السابقين المقربين فسيلقى عند موته رَوْحاً وريحاناً، و«الرَّوْحُ»: الرحمةُ والسَّعة والفرج والفرح، ومنه: روح الله، و«الرَّيْحان»: الطِّيب، وهو دليل النعيم، وقال مجاهد: الريحان: الرِّزْقُ، وقال أَبو العالية، وقتادة، والحسن: الرَّيحان هو الشجر المعروف في الدنيا، يَلْقَى المُقرَّب ريحاناً من الجنة،

(١) البيت من قصيدة قالها أبو مالك غياث بن غوث الأخطل، وهي في وصف خمر بَيْسان من قرى فلسطين، وهي أول قصيدة في الديوان، والبيت في اللسان والتاج، والرواية فيهما: (رَبَتْ وَرَبَا في كَرْمِهَا)، والمِسْحاةُ: الفأسُ، ومعنى يتركَّلُ: يضغط عليها برجله أو يتورَّك عليها بها لتنزل في الأَرض. والشاهد أن قوله: (ابن مدينة) يمكن أن يُفهم على أنه أراد: ابن أَمَةٍ مملوكة، وذلك أنه يقال للأَمةِ: مدينة، أي مملوكةٌ، كما يقال للعبد: مَدينٌ، أي مملوك، ويمكن أن يفهم (ابن مدينة) على أنه من أهل الحضر الذين يسكنون المدن، وعلى هذا فلا شاهد فيه، وفي اللسان: «يقال للرجل الفَطِن العالم بالأمر: ابن بَجْدتها، وابن مدينتها، وابن بلدتها».

(٢) يريد بالتخصيصات أن الله تعالى خَصَّص عجزهم عن ارجاع الروح إلى الجسد وجعله أولاً مُقَيَّداً بوقت بلوغ الحلقوم، كما جعله ثانياً مُعَلَّقاً على انتفاء مربوبيتهم، فهم لا يقدرون على إرجاعها لأن مربوبيتهم موجودة فهم مقهورون ولا قدرة لهم. والمراد بقوله: «سَدَّت مَسَدَّ الأجوبة» أنَّ [تَرْجِعُونَهَا] سدَّ مسدَّ جواب [لَوْلا] الأولى، و[لَوْلا] الثانية في الآيات الكريمة.

وقرأ ابن عباس، والحسن، وجماعة كثيرة: [فَرُوحٌ] بضم الرَّاءِ، وقال الحسن: معناه: روحه تخرج في ريحانة، وقال الضحاك: الريحانُ: الاستراحة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

الريحان ما تنبسط إليه النفوس، وقال الخليل: هو طرف كل بَقْلة طيبة فيها أوائل النَّوْر، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما: «هما ريحانتاي من الدنيا»(١)، وقال النَّمر بن تَوْلَب:

سَلاَمُ الإِلَهِ ورَيْحَانُهُ ... وَرَحْمَتُهُ وَسَمَاءٌ دِرَرْ(٢)

وقالت عائشة رضي الله عنها: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: [فَرُوحٌ] بضم الراءِ.

وقوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ عبارة تقتضي جملة مَدْح، وصفةَ تَخَلُّصٍ وحصولاً في عال من المراتب، والمعنى: ليس في أَمرهم إلاَّ السَّلام والنجاة من العذاب، وهذا كما تقول في مدح رجل: أَمَّا فلان فناهيك به، أَو بِحَسْبك أَمْرُه، فهذا يقتضي جملة غير مُفَصَّلة من مدحه، وقد اضطربت عبارات المتأَولين في قوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ ـ فقال قوم: المعنى: فيقال له: «مُسَلَّم لك أَنك من أَصحاب اليمين»، وقال الطبري: المعنى: فسلام لك أَنت من أَصحاب اليمين، وقيل: المعنى: فسلامٌ لك يا محمد، أَي: لا ترى فيهم إِلاَّ السَّلامة من العذاب، فهذه الكاف في [لَكَ] إِمَّا أَن تكون للنبي ﷺ ـ وهو الأَظهر ـ ثم لكلِّ معتبر فيها من أُمَّته، وإِمَّا أَن تكون لمن يخاطبه من أَصحاب اليمين، وغيرُ هذا مما قيل فيه تكلُّفٌ.

و«المُكَذِّبُونَ الضَّالُّونَ» هم الكفار أَصحاب الشمال والمشأَمة، و«النُّزُلُ» أَوَّلُ شيءٍ يقدم للضيف، و«التَّصْلِيَةُ» أَن تباشر بهم النار، و«الجحيم» معظم النار وحيثُ تراكمها.

ولمَّا كَمُلَ تقسيم أَحوالهم وانقضى الخبر بذلك أَكَّد تعالى الإِخبار بأَن قال لنبيِّه

---

(١) أخرجه البخاري في (فضائل الصحابة) و(الأدب)، والترمذي في المناقب، ولفظه في البخاري عن ابن أبي نعيم: سمعتُ عبد الله بن عمر، وسأله عن المُحْرِم، قال شُعبة أحْسِبه يقتل الذباب، فقال: أهل العراق يسألون عن الذباب وقد قتلوا ابن ابنة رسول الله ﷺ، وقال النبي ﷺ: «هُمَا ريحانتاي من الدنيا».

(٢) سبق التعليق عليه في أول سورة الرحمن، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾. ص(١٦٢) هامش رقم (٢) من هذا المجلد.

محمد ﷺ مخاطبة تدخل معه أُمَّته فيها: إن هذا الذي أخبرتك به لَهُوَ حقُّ اليقين، وإضافة الحَقِّ إلى اليقين عبارة فيها مبالغة لأنهما بمعنى واحد، فذهب بعض الناس إلى أنه من باب «دار الآخرة» و«مسْجد الجامع»، وذهبت فرقة من الحُذَّاق إلى أنه كما تقول في أمر تؤكده: هذا يقين اليقين، أَو صواب الصواب، بمعنى أنه نهاية الصواب، وهذا أَحسن ما قيل فيه، وذلك لأَن «دار الاخرة» وما أَشبهها يحتمل أَن تقدِّر شيئاً أَضفت الدار إليه ووصفته بالآخرة ثم حذفته وأَقمت الصفة مقامه، كأَنك قلت: «دار الرجعة الآخرة»، أَو دار النشأَة الآخرة»، أَو «الحلقة الآخرة»، وهنا لا يتَّجه هذا، وإنما هي عبارة مبالغة وتأْكيد معناها أَن هذا الخبر هو نفس اليقين وحقيقته[١].

وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ عبارة تقتضي الأَمر بالإعراض عن أَقوال الكفرة وسائر أُمور الدنيا المختصة بها، والإقبال على أُمور الآخرة، وعبادة الله تعالى والدعاءِ إليه، وروى عقبة بن عامر[٢] أَنه لما نزل ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال النبي ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، فلما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم»[٣]، ويحتمل أَن يكون المعنى: سبِّح الله تعالى بذكر أَسمائه العُلَى، و«الاسم» هنا بمعنى الجنس، أَي: بأَسماءِ ربِّك، و«العظيم» صفة للرَّبِّ تعالى، وقد يحتمل أَن يكون «الاسم» هنا واحداً مقصوداً، ويكون «العظيم» صفة له، فكأَنه أَمره أَن يسبحه باسمه الأَعظم وإن كان لم يَنُصَّ عليه، ويؤيد هذا ويشير إليه اتصال سورة الحديد وأَولها فيه التَّسبيحُ وجملةٌ من أَسماءِ الله تعالى، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: «اسم الله الأعظم موجود في ستِّ آيات من أَول سورة الحديد»، فتأَمل هذا فإنه من دقيق النظر، ولله تعالى في كتابه العزيز غوامض لا تكاد الأَذهان تدركها.

كمل تفسير سورة الواقعة والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

(١) قال قتادة: «إن الله تعالى ليس بتارك أحداً من الناس حتى يقفه على اليقين من هذا القرآن، فأما المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين».

(٢) هو عقبة بن عامر الجهني، صحابي مشهور، اختلف في كنيته على سبعة أقوال، أشهرها أبو حماد، وولي أمْرَ مصر لمعاوية ثلاث سنين، وكان فقيهاً فاضلاً، مات في قرب الستين. (تقريب التهذيب).

(٣) أخرجه سعيد بن منصور، وأحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الحديد

وهي مدنية، قال النقاشُ وغيره: بإجماع من المفسرين، وقال غيره: هي مكية، ولا خلاف أَن فيها قرآناً مدنيًّا لكن يشبه صدرُها أَن يكون مكيًّا، والله تعالى أَعلم، وقد ذكرنا قول ابن عباس رضي الله عنهما أَن اسم الله عزَّ وجلَّ الأَعظم هو في ستِّ آيات من أَول سورة الحديد، ورُوي أَن الدعاءَ بعد قراءَتها مستجاب[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

قال أَكثر المفسرين: التَّسبيح هنا هو التَّنزيه المعروف في قولهم: «سبحان الله»، وهذا عندهم إِخبارٌ بصيغة الماضي مُضمَّنه الدوامُ وأَن التَّسبيح ممَّا ذُكر دائم مستمر، واختلفوا، هل هذا التسبيح حقيقة أَو مجاز على معنى أَن أَثر الصنعة فيها يُنبِّه الرائي على التسبيح؟ قال الزجاج وغيره: والقول بالحقيقة أَحسن، وقد تقدم القول فيه غير مرة، وهذا كله في الجمادات، وأَمَّا ما يمكن التسبيح منه فقول واحد أَن تسبيحهم حقيقة، وقال قوم من المفسرين: التسبيح في هذه السورة الصلاةُ، وهذا قول متكلف، فأَمَّا

---

(١) أخرج أحمد، والترمذي وحسَّنه، والنسائي، وابن مردويه، والبيهقي في «الشُّعب» عن العرباض بن سارية أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال: إنَّ فيهن آية أفضل من ألف آية، ولكن في إسناده بَقِيَّة بن الوليد وفيه مقال معروف، وقد أخرجه النسائي عن خالد بن معدان، ولم يذكر العرباض بن سارية، فهو حديث مرسل، وأخرجه ابن الضريس عن يحيى بن أبي كثير، وقد قال ابن كثير في تفسيره: «والآية المشار إليها ـ والله أعلم ـ هي قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ الآية، وكان يحيى بن أبي كثير يقول: فنراها الآية التي في آخر سورة الحشر.

فيمن يمكن منه ذلك فسائغ، وعلى أَن سجود ظلال الكفار هي صلاتهم، وأَمَّا في الجمادات فيقلق، وذلك أَن خضوعها وخشوع هيئتها قد يُسمى في اللغة سجوداً تجوزاً واستعارة، كما قال الشاعر:

. . . . تَرَى الأُكْمَ فِيه سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ[1]

ويبعد أَن تُسمَّى تلك صلاة إِلاَّ على تجوز.

وقوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عامٌّ في جميع المخلوقات، وقال بعض النحاة: التقدير: ما في السموات وما في الأَرض، فـ[مَا] نكرةٌ موصوفةٌ، فلما تكرر موصوفُها حذفها وأَقام الصفة مقامها، وهو العزيز بقدرته، وسلطانه، الحكيم بلطفه وتدبيره وحكمته، ومَلِك السموات والأرض هو سلطانها الحقيقي الدائم؛ لأَن ملك البشر مجازٌ فان، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أَي على كل شيءٍ مقدور.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾. الأَول: الذي ليس لوجوده بداية مُفْتَتَحَة، والآخر: الذي ليس له نهاية منقضية. وقال أَبو بكر الوراق: هو الأَول بالأَزلية والآخر بالأَبدية، وهو الأَول بالوجود؛ إِذ كُلُّ موجود فبعده وبه، والآخر إِذا نظر العقل في الموجودات حتى يكون إِليه منتهاها، قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[2]. و[الظَّاهِرُ] معناه: بالأَدلة ونظر العقول في صنعته، و[الْبَاطِنُ] بلطفه وغوامض حكمته وباهر صفته التي لا تصل إِلى معرفتها ـ على ما هي عليه ـ الأَوهام، ويحتمل أَن يريد تعالى بقوله: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ الذي بهر ومَلَكَ فيما ظهر للعقول وفيما خفي عنها، فليس في الظاهر غيره حسب قيام الأَدلة، وليس في باطن الأَمر وفيما خفي على النظرة ممَّا عَسَى أَن يُتوهم غيرُه. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عام في الأَشياءِ عموماً تامًّا.

وقد تقدم القول في خلق السموات والأَرض، وأَكثر الناس على أَن بدأَة الخلق في

---

(١) هذا عجز بيت سبق الاستشهاد به أكثر من مرة، وأولها عند تفسير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِآدَمَ﴾، والبيت في اللسان والتاج والطبري والقرطبي، وهو بتمامه:

بِجَمْعٍ تَضِلُّ الْبُلْقُ فِي حَجَرَاتِهِ تَرَى الأُكْمَ فِيهِ سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ

والبُلْق: جمع أبلق وهو الفرس إذا كان فيه بياض وسواد، والحَجرات: الجوانب، والأكم: التلال.

(٢) الآية (٤٢) من سورة (النجم).

يوم الأَحد، ووقع في مسلم أَن البداية في يوم السبت، وقال بعض المفسرين: الأَيام الستة من أَيام القيامة، وقال الجمهور: من أَيام الدنيا، وهو الأَصوب، و«الاستواءُ على العرش» هو بالغلبة والقهر المستمرَّيْن بالقدرة، وليس ما في قهر العباد من المحاولة والتعب، وقد تقدم القول في مسأَلة الاستواءِ مستوعباً في طه وغيرها. و﴿مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هو المطر والأَموات وغير ذلك، و﴿مَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ هو النبات والمعادن وغير ذلك، و﴿مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ الملائكة والرحمة والعذاب وغير ذلك، و﴿مَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ هو الأَعمال صالحها وسَيِّئُهَا والملائكة وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ﴾ معناه: بقدرته وعلمه وإِحاطته وهدايته، أَجمعت الأُمة على هذا التأْويل فيها، وأَنها مخرجة عن معنى لفظها المعهود، ودخل في الإِجماع من يقول بأَن هذا أَمر المُشْتَبَه كله، ينبغي أَن يمر ويؤمن به ولا يُفسَّر، وقد أَجمعوا على تأْويل هذه لبيان وجوب إِخراجها عن ظاهرها، قال سفيان الثوري: المعنى: علْمُه معكم، وتأْويلهم هذه حجة عليهم في غيرها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ خبر يعم جميع الموجودات، و[الأُمُورُ] هنا ليست جمع المصدر، بل هي جميع الموجودات لأَن الأَمر والشيءَ والموجود أَسماءٌ شائعة في جميع الموجودات أَعراضها وجواهرها، وقرأَ الجمهور: [تُرْجَعُ] بضم التاءِ، وقرأَ الأَعرج، وابن أَبي إِسحاق: [تَرْجِعُ] بفتح التاءِ.

وقوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ الآية تنبيه على العبرة فيما يتجاذبه الليل والنهار من الطُّول والقِصَر، وذلك متشعب مختلف حسب اختلاف الأَقطار والأَزمان الأَربعة، وذلك بحر من بحار الفكرة لمن تأَمله، و[يُولِجُ] معناه: يُدخل، و«ذاتُ الصُّدُور»: ما فيها من الأَسرار والمعتقدات وذلك أَغمض ما يكون، وهذا كما قالوا:

«الذِّئب مغبوطٌ بِذِي بطنه»(١)، وكما قال أَبو بكر الصديق رضي الله عنه: «إِنما هو ذو بطن بنت خارجة».

وقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية. أَمْرٌ للمؤمنين بالثبوت على الإِمان والنفقة في سبيل الله، ويروى أَن هذه الآية نزلت في غزوة العُسْرة، وهي غزوة تبوك، قاله الضحاك، وقال: الإِشارة بقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟﴾ إِلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، وحكمها باقٍ يندب إِلى هذه الأَفعال بقية الدهر. وقوله تعالى: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ تزهيدٌ وتنبيهٌ على أَن الأَموال إِنما تصير إِلى الإِنسان من غيره ويتركها لغيره، وليس له من ذلك إِلاَّ ما تضمنه قول رسول الله ﷺ: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إِلاَّ ما أَكلت فأَفنيت، أَو لَبستَ فأَبليت، أَو تصدقت فأَمضيت»(٢)، ويروى أَن رجلاً مرَّ بأَعرابي له إِبلٌ فقال له: يا أَعرابي، لمن هذه الإِبل؟ فقال: هي لله تعالى عندي، فهذا موافق مصيب إِن كان ممن صحب قولَه عملُه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية توطئةٌ لدعائهم وإِيجابٌ لأَنهم أَهل هذه الرُّتب الرفيعة، فإِذا تقرر ذلك فلا مانع من الإِيمان، وهذا كما تريد أَن تندب رجلاً إِلى عطاءٍ فتقول له: أَنت يا فلان من قوم أَجوادٍ فينبغي أَن تُكرم، وهذا مُطَّرد في جميع الأُمور، إِذا أَردتَ من أَحد فعلاً خَلَّقْته بخُلُق أَهل ذلك الفعل وجعلتَ له رتبتهم، فإِذا تقرر في هؤلاءِ أَن رسول الله ﷺ يدعوهم، وأَنهم مِمَّن أَخذ الله ميثاقهم، فكيف

---

(١) ويروى: الذئب يُغبط بغير بطنة، وما في بَطْنه، قال أبو عبيد: وذلك أنه ليس يُظن به الجوع أبداً، إنما يُظن به البِطْنة لأنه يعدو على الناس والماشية، قال الشعر:

وَمَنْ يَسْكُنِ الْبَحْرَيْنِ يَعْظُمْ طحالُه ... ويُغْبَطُ ما في بَطْنِهِ وهُوَ جائِعُ

وقال غيره: إنما قيل فيه ذلك لأنه عظيم الجفْرة أبداً، لا يبين عليه الضمور وإن أجهده الجوع، قال الشاعر:

لَكَالذِّئب مَغْبُوطُ الْحَشَا وهُوَ جَائِعُ.

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق، ومسلم في الزهد، وأبو داود في الطلاق، والترمذي في الزهد وتفسير سورة التكاثر، والنسائي في الوصايا، وأحمد في مسنده (٢ـ٣٦٨، ٤١٢، ٤ـ٢٤، ٢٦)، ولفظه كما في مسلم: عن مطرف، عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، قال: يقول: ابن آدم: مالي مالي، قال: وهل لك يا بن آدم من مالك إلاَّ ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت)، ومعنى «فأمضيت»: نفَّذت ما أردت التصدق به، وفي رواية عن أبي هريرة ذكرها أحمد في مسنده زيادة قوله: (ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس).

يمتنعون من الإيمان؟ وقرأ جمهور القراء: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ على بناءِ الفعل الفاعل، وقرأ أبو عمرو: [وَقَدْ أُخِذَ] على بناءِ الفعل للمفعول، والآخذُ على كلٍّ قول هو الله تعالى، وهذا الأخذ كان حين الإخراج من ظهر آدم عليه السلام على ما مضى في غير هذه السُّورة(١)، والمخاطبة ببناءِ الفعل للمفعول أشد غِلَظاً على المخاطب، ونحوه قول الله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾(٢)، وكما تقول لِامْرِئٍ: افعل ما قيل لك، فهو أبلغ من قولك: افعل ما قلتُ لك.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، قال الطبري: المعنى: إن كنتم مؤمنين في حالٍ من الأحوال فالآن، وهذا معنى ليس في لفظ الآية وفيه إضمار كثير، وإنما المعنى عندي أن قول الله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يقتضي أن يُقَدَّر بأثره: فأنتم في رُتَب شريفة وأقدار رفيعة إن كنتم مؤمنين، أي إذا دمتم على ما بدأتُم به.

وقرأ بعض السبعة: [يُنَزِّلُ] مثقَّلة، وقرأ بعضهم: [يُنْزِلُ] مخففة، وقرأها الحسن وعيسى بالوجهين، وقرأ الأعمش: [أَنْزَلَ]، والعبد في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ محمد ﷺ، و«الآيَات» آيات القرآن، و«الظُّلُمَات»: الكفر، و«النُّورُ»: الإيمان، وما في الآية وعْدٌ وتأنيس مؤكد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

المعنى: وما لكم ألاَّ تنفقوا في سبيل الله وأنتم تموتون وتتركون أموالكم؟ فناب مناب هذا القول قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وفيه زيادة تذكير بالله عزَّ وجلَّ وعبرة، وعنه يلزم القول الذي قدرناه.

---

(١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾، الآية (١٧٢) من سورة (الأعراف). المجلد الرابع، صفحة ٨٣.

(٢) من الآية (١١٢) من سورة (هود).

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ الآية، رُوي أَنها نزلت بسبب أَن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أَنفقت نفقات كثيرة حتى قال الناسُ: هؤلاءِ أَعظم أَجراً من كلِّ من أَنفق قديماً، فنزلت الآية مبينةً أن النفقة قبل الفتح أَعظم أَجراً، وهذا التأْويل على أَن الآية نزلت بعد الفتح، وقد قيل: إِنها نزلت قبل الفتح تحريضاً على الإنفاق، والأَول أَشهر، وحكى الثعلبي أَنها نزلت في أَبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفي نفقاته[1]، وفي معناه قول النبي ﷺ لخالد بن الوليد رضي الله عنه: «اتركوا لي أَصحابي، فلو أَنفق أَحدكم مثل أُحُد ذهباً ما بلغ مُدَّ أَحدهم ولا نصيفه»[2].

واختلف الناس في الفتح المشار إِليه في هذه الآية ـ فقال أَبو سعيد الخدري، والشعبي: هو فتح الحديبية، وقد تقدم في سورة الفتح تقدير كونه فتحاً، ورفعه أَبو سعيد رضي الله عنه إِلى النبي ﷺ أَنَّ أَفضل ما بين الهجرتين فتح الحديبية[3]. وقال

(١) ذكر ذلك الواحدي في كتابه «أسباب النزول» عن محمد بن غزوان عن الكلبي، ولكن الكلبي متَّهم بالكذب، كذلك رواه الواحدي بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما، وفي سنده ضعف، وذكره ابن كثير في تفسيره ثم قال: «هذا الحديث ضعيف الإسناد من هذا الوجه والله أعلم». وفضل أبي بكر رضي الله عنه وإنفاقه في سبيل الله أمران معروفان، ولا يقلل من ذلك ضعف هذا الحديث، ففي الصحيح عن النبي ﷺ كثير يؤكد فضله وسبقه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها. فبلغنا أن ذلك قيل للنبي ﷺ فقال: «دَعُوا لي أصحابي، فو الذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أُحد، أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم»، قال ابن كثير بعد أن ذكر هذا الحديث: «ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة، وكانت هذه المشاجرة بينهما في بني جذيمة الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا، فلم يُحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أُسر منهم، فخالفه عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر وغيرهما، فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك، والذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تسبُّوا أصحابي، فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه».

(٣) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبونعيم في الدلائل من طريق زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، حتى إذا كان بعسفان قال رسول الله ﷺ: يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم، قلنا: من هم يا رسول الله؟ أقريش؟ قال: لا، ولكنهم أهل اليمن، هم أرقُّ أفئدة وألْيَن قلوباً، فقلنا: أهم خير منَّا يا رسول الله؟ قال: لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه ما أدرك مُدَّ أحدكم ولا نصيفه، ألا إن هذا=

قتادة، ومجاهد، وزيد بن أَسلم: هو فتح مكة الذي أَزال الهجرة، وهذا هو المشهور الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونيَّة»[١]، وقال له رجل بعد فتح مكة: أُبايعك على الهجرة، فقال رسول الله ﷺ: «إِن الهجرة قد ذهبت بما فيها، وإِن الهجرة لشأنها شديد، ولكن أُبايعك على الجهاد»[٢]، وحكم الجهاد باق إِلى غابر الدهر، فمن أَنفق في وقت حاجة السبيل أَعظم أَجراً ممن أَنفق مع استغناءِ السبيل، وأَكثر المفسرين على أَن قوله تعالى: [يَسْتَوِي] مسند إِلى [مَنْ] وترك ذكر المعادل الذي لم يسْتَوِ معه لأَن قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ﴾ قد فَسَّره وبَيَّنه، ويحتمل أَن يكون فاعل [يَسْتَوِي] محذوفاً تقديره: لا يستوي منكم الإِنفاقُ، ويؤيد ذلك أَن ذكره قد تقدم في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ﴾، ويكون قوله تعالى: ﴿مَّنْ أَنفَقَ﴾ ابتداءٌ وخبره الجملة الآتية بَعْدُ[٣].

وقرأ جمهور السبعة: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وهي الوجه لأَن [وَعَدَ] ليس يعوقه عائق عن أَن ينصب الفعل المقدم، وقرأ ابن عامر: [وكُلٌّ وَعَدَ اللهُ الحُسْنَىَ]، فأَمَّا سيبويه رحمه الله تعالى فقدر الفعل خبراً لابتداءٍ، وفيه ضمير عائدٌ، وحذْفُهُ عنده قبيح

= فصل ما بيننا وبين الناس، ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ الآية. قال ابن كثير بعد أن أورد هذا الحديث: وهذا الحديثُ غريبٌ بهذا السياق، والذي في الصحيحين من رواية جماعة عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد ذكر الخوارج: «تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. . .» الحديث، ولكن روى ابن جرير هذا الحديث من وجه آخر، وساق الحديث من هذا الوجه ثم قال: فهذا السياق ليس فيه ذكر الحديبية، فإن كان ذاك ـ أي الرواية الأولى ـ محفوظاً كما تقدم فيحتمل أنه أنزل قبل الفتح إخباراً عما بعده.

(١) أخرجه البخاري في الصيد والجهاد ومناقب الأنصار والمغازي، ومسلم في الإمارة، والترمذي في السِّير، والنسائي في البيعة، وابن ماجه في الكفارات، والدارمي في السِّير، وأحمد في أكثر من موضع من مسنده، ولفظه كما جاء في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونيَّة، وإذا اسْتُنْفِرْتُمْ فانفروا».

(٢) أخرجه البخاري في المغازي عن مجاشع قال: أتيت النبي ﷺ بأخي بعد الفتح، فقلت: يا رسول الله، جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة، قال: ذهب أهل الهجرة بما فيها، فقلت: على أي شيءٍ تبايعه؟ قال: أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد، فلقيت أبا مَعْبَد بَعْدُ ـ وكان أكبرهما ـ فسألته، فقال: صدق مجاشع.

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ﴾. وقد ذكر أبو حيان هذا الرأي ووصفه بالبعد، وقال: «وهذا فيه تفكيك للكلام، وخروج عن الظاهر لغير موجب».

لا يجري إلاَّ في الشعر ونحوه، ومنه قول الشاعر:

قَـدْ أَصْبَحَـتْ أُمُّ الْخِيَـارِ تَـدَّعِـي عَلَـيَّ ذَنْبـاً كُلُّـهُ لَـمْ أَصْنَـعِ[1]

قال: ولكن حملوا الخبر على الصفات كقول جرير:

. . . . وَمَـا شَـيْءٌ حَمَيْـتَ بِمُسْتَبَـاحِ[2]

وعلى الصِّلات كقوله تعالى: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[3]، وذهب غير سيبويه إلى أن [وَعَدَ] في موضع الصفة، كأنه قال: أولئك وكُلٌّ وعد الله الحسنى، وصاحبُ هذا المذهب جعل في هذا التَّعسُّف في المعنى فِراراً من حذف الضمير من خبر الابتداءِ، و[الْحُسْنَى]: الجنَّة، قاله مجاهد، وقتادة، والوعدُ يتضمن ما قبل الجنة من نصر وغنيمة. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ قولٌ فيه وعْدٌ ووعيد.

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ الآية. قال بعض النحويين: [مَنْ]

---

(١) هذا الرجز قاله أبو النجم العجلي، و«أُمُّ الخيار» هي زوجته، و«الذَّنْب» الذي ادعته عليه وهو لم يصنعه هو الشَّيب والصلع والشيخوخة، يقول: إنها تلومني على شيبتي وشيخوختي وهو ذنب لم أرتكبه أنا، والشعر في خزانة الأدب للبغدادي، وفي كتاب سيبويه، وفي شرح شواهد المغني، وأمالي ابن الشجري ومغني اللبيب، وقد أكثر النحويون والبيانيون الكلام في هذا البيت، واختلفوا فيه اختلافاً كبيراً بين نصب (كلّه) ورفعه، وابن عطية ينقل عن سيبويه أن في الفعل (أصنع) ضمير يعود على المبتدأ وهو (كل)، وأن التقدير: «لم أصنعه»، والحذف عنده قبيح ولا يقبل إلاّ في الشعر، ولكن غير سيبويه يجيز ذلك كالفراء والكسائي وابن مالك، والبيانيون يقولون: إن رفع «كل» أفضل لأنه يقتضي أنه لم يصنع شيئاً من هذا الذي ادعته عليه من ذنوب، فالنفي ينصب على كل ذنب من الذنوب، وأما النصب فيقتضي أنه لم يصنع الذنوب مجتمعة، وهذا لا ينفي أنه قد صنع بعضها، وبعض العلماء ينقض ذلك، راجع خزانة الأدب، والمحتسب، والتسهيل وغيرها. ومثل هذا البيت قوله ﷺ ـ حين قال له ذو اليدين: أَقصُرت الصَّلاة أم نسيت يا رسول الله؟ ـ: «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ»، أي: لم تقصُر الصلاة ولم أنْسَ.

(٢) هذا عجز بيت قاله جرير يخاطب عبد الملك بن مروان، والبيت بتمامه:

أَبَحْـتَ حِمَـى تِهَـامَـةَ بَعْـدَ نَجْـدٍ وَمَـا شَـيءٌ حَمَيْـتَ بِمُسْتَبَـاحِ

يقول له: ملكت العرب وأبحت حماها بعد إبائها عليك، وما حميته لا يستطيع أحد أن يستبيحه لقوة سلطانك، وتهامة: ما هبط ونزل من بلاد العرب، ونجد: ما علا وارتفع منها، يعني ملكت جميع البلاد العربية، والبيت شاهد لجواز حذف الهاء من الفعل إذا وقعت جملته نعتاً؛ لأن النعت مع المنعوت كالصِّلة مع الموصول، وحذفها في الصِّلة حَسَن فضارعها النعت في ذلك، وتقدير الكلام: «وما شيءٌ حَمَيْتَه بِمُسْتَبَاح»، والبيت في الديوان، وفي الكتاب لسيبويه، وأمالي ابن الشجري، ومغني اللبيب.

(٣) من الآية (٩٤) من سورة (الإسراء).

ابتداءٌ، و[ذَا] خبره، و[الَّذي] صفة، وقال آخرون منهم: [مَنْ] ابتداءٌ، و[ذَا] زائدةٌ مع [الَّذي]، و[الَّذي] خبر الابتداءِ، وقال الحسن: نزلت هذه الآية في التطوع في جميع أَمر الدين، و«الْقَرْضُ» و«السَّلَفُ» ونحوه: أن يعطي الإنسان شيئاً وينتظر جزاءَه، و«التضعيف» من الله تعالى هو في الحسنات، يضاعف الله لمن يشاءُ من عشرة إلى سبعمائة، وقد ورد أَن التضعيف يزيد على سبعمائة، وقد مرَّ ذكر ذلك في سورة البقرة بوجوهه من التأْويل[1]. وقرأَ أَبو عمرو، ونافع، وحمزة، والكسائي: [فيُضَاعِفُهُ] بالرفع على العطف أَو على القطع والاستئناف، وقرأَ عاصم، وابن عامر: [فَيُضَاعِفَهُ] بالنصب بالفاءِ في جواب الاستفهام، وذلك قلقٌ، قال أَبو عليٍّ: لأَن السؤال لم يقع عن القرض، وإِنما وقع السؤال عن فاعل القرض، وإِنما تنصب الفاءُ فعلاً مردوداً على فعل مستفهم عنه، لكن هذه الفرقة حملت ذلك على المعنى، كأَن قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ﴾ بمنزلة أَن لو قال: أَيقرضُ اللهَ أَحدٌ فيضاعفَه، وقرأَ ابن كثير: [فَيُضَعِّفُهُ] مشددة العين مضمومة الفاءِ، وكذلك قرأَ ابن عامر، إِلاَّ أَنه فتح الفاءَ. و«الأَجْرُ الكَرِيم»: الذي يقترنُ به رضًى وإِقبال، وهذا معنى الدعاءِ: «يا كريم العفو»، أَي أَنَّ مع عفوه رضًى ومغنماً، وعفو البشر ليس كذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾.

العامل في [يَوْمَ] قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، و«الرُّؤْيَة» في هذه الآية رؤية عين، و«النُّورُ»، قال الضحاك بن مزاحم: هي استعارة، عبارة عن الهدى والحق الذي هم عليه وهدايتُهم الناس إلى الحق وصدقُهم في الأفعال والأَقوال، وقيل: تَتَبُّعهم الرشاد واعتقادُهم به واقتصاصُهم آثاره وعلاماته وأَنواره، وقيل: هي استعارة، عبارة عن الهدى والرضوان الذي هم فيه، وقال الجمهور: بل هو نور حقيقة، ورُوي في هذا

(١) راجع المجلد الثاني صفحة (٥٧) وما بعدها.

عن ابن عباس وغيره آثار مضمنها أَن كل مؤمن مُظهر للإِيمان يُعطى يوم القيامة نوراً، فَيُطْفَى نور كل منافق ويبقى نور المؤمنين، حتى إِن منهم من نوره يضيءُ كما بين مكة وصنعاءَ، رفعه قتادة إِلى النبي ﷺ، ومنهم من نوره كالنخلة السَّحُوق[١]، ومنهم من نوره يضيءُ ما يقرب من قدميه، قاله ابن مسعود رضي الله عنه، ومنهم من يهم نوره بالانطفاءِ مرَّةً ويَبينُ مرَّةً، على قدر المنازل في الطاعة والمعصية، وخص تعالى «بين الأَيدي» لأَنه موضع حاجة الإنسان إِلى النور.

واختلف الناس في قوله تعالى: [وَبِأَيْمَانِهِمْ] ـ فقال بعض المتأَولين: المعنى: وعن أَيمانهم، فكأَنه تعالى خصَّ جهة اليمين تشريفاً، وناب ذلك مناب أَن يقول: وفي جميع جهاتهم، وقال آخرون منهم: المعنى: وبأَيمانهم كتبُهم بالرحمة، وقال جمهور المفسرين: المعنى: يَسْعَى نورهم بين أَيديهم، يريد تعالى الضوءَ المنبسط من أَهل النور، وبأَيمانهم أَصْلُه والشيءُ الذي هو مُتَّقد فيه، فمُضَمَّن هذا القول أَنهم يحملون الأَنوار، وكونُهم غير حاملين [لها][٢] أَكرم، أَلا ترى أَن فضيلة عَبَّاد بن بشر، وأُسَيْد بن حُضَيْر[٣] رضي الله عنهما إِنما كانت بنور لا يحملانه؟ هذا في الدنيا فكيف في الآخرة؟ ومن هذه الآية انتزع حمل المُعْتَق للشمعة. وقرأَ الناسُ: [وَبِأَيْمَانِهِمْ] جمع يمين، وقرأَ سهل بن سعد، وأَبو حيوة: [وَبِإِيمَانِهِمْ] بكسر الأَلف، وهومعطوف على قوله تعالى: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، كأَنه تعالى قال: كافِياً بين أَيديهم وكائناً بسبب إِيمانهم.

وقوله تعالى: [بُشْرَاكُمُ] معناه: يقال لهم: بُشْراكم جنات، أَي دخولُ جنات، فحذف المضاف وأَقام المضاف إِليه مقامه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ إِلى

---

(١) السَّحُوق: الطويلة، يقال في وصف النخلة والمرأة.

(٢) ما بين العلامتين [. . .] زيادة لتوضيح المعنى.

(٣) أما «عبَّاد» فهو: عبَّاد بن بشر بن وَقْش ـ بفتح الواو وبالقاف وبالشين المعجمة ـ الأنصاريُّ، من قدماء الصحابة، أسلم قبل الهجرة، وشهد بدراً، وأبلى يوم اليمامة أحسن البلاء فاستشهد بها. كان النبي ﷺ يبعثه إلى القبائل يُصدِّقها ـ أي يجمع الصدقات ـ وجعله على مقاسم حنين، واستعمله على حرسه في تبوك.

وأما «أُسَيْد» فهو: أُسَيْد بن الحُضَيْر بن سِمَاك بن عَتيك الأوسي، صحابي، كان شريفاً في الجاهلية والإسلام، يعدُّ من عقلاء العرب وذوي الرأي فيهم، وكان يسمَّى الكامل، جرح في أُحد سبع جراحات، وثبت مع النبي ﷺ، وشهد الخندق والمشاهد كلها، وفي الحديث: «نعم الرجل أُسَيْد بن الحضَيْر»، توفي بالمدينة، وله ثمانية عشر حديثاً.

آخر الآية مخاطبة لمحمد ﷺ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: [ذَلكَ الْفَوْزُ الْعَظيمُ] بدون «هو».

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾، قال بعض النحاة: [يَوْم] بدلٌ من الأَول، وقال آخرون منهم: العاملُ فيه مضمر تقديره: اذكر، ويظهر لي أَن العامل فيه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، ويجيءُ معنى الفوز أَفخم، كأَنه تعالى يقول: إِن المؤمنين يفوزون بالرحمة يوم يعتري المنافقين كذا وكذا، لأَن ظهور المرءِ يوم خمول عدوه ومضَادِّه أَبدع وأَفخم، وقولُ المنافقين هذه المقالة المحكية هو عند انطفاءِ أَنوارهم كما ذكرنا قبل، وقولهم: «انْظُرُونَا» معناه: انتظرونا، ومنه قول الحطيئة:

وَقَـدْ نَظَـرْتُكُـمْ إِينَـاءَ عَـاشيَـة ... لِلْخمْس طَالَ بِهَا حَبْسي وتِبْسَاسِي[1]

وقرأَ حمزة وحده[2]، وابن وثاب، وطلحة، والأَعمش: [أَنْظِرونَا] بقطع الأَلف وكسر الظاءِ على وزن أَكْرِم، ومه قول عمرو بن كُلثوم:

أَبَـا هِنْـدٍ فَـلاَ تَعْجَـلْ عَلَيْنَـا ... وأَنْظِـرْنَـا نُخَبِّـرْكَ الْيَقِينَـا[3]

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها الحطيئة يهجو الزبرقان بن بدر لأنه لم يكرم جواره، ويمدح بغيض بن عامر الذي أعطاه وأكرم جواره، والبيت في الديوان، واللسان، والتاج، ومعنى «نظرتكم»: انتظرتكم، وهو موضع الاستشهاد هنا، وإِيناءَ: انتظار، والعاشية هي الإبل التي ترعى ليلا وتتعشّى بعد أن شربت، والخِمس بكسر الخاء: نوع من إظماء الإبل إذ يتركونها أربعة أيام بدون أن تشرب ثم يقدمون لها الماء في اليوم الخامس فتشرب حتى تشبع، والتِّبْساس: نوع من مداعبة الإبل بالمسح على ضرع الناقة، وبالصوت الذي يقال فيه: بس بس حتى تدرَّ لبنها، فالشاعر يقول: إنه فعل مثل ذلك مع الزبرقان وقومه، وانتظر طويلاً كالإبل التي تنتظر اليوم الخامس، ولكه لم ينل من عطائهم شيئاً، ورواية البيت في اللسان:

ولَقَـدْ نَظَـرْتُكُـمُ إِينَـاءَ صَـادِرَةٍ ... لِلْخِمْسِ طَـالَ بِهَـا حَـوْزي وتَنْسَـاسـي

والصادرة: الإبل التي عادت بعد أن شربت في اليوم الخامس. والحوز: السَّوْق قليلاً قليلاً، والتنساس: السوق السريع. وفي رواية أخرى: «ولقد نظرتكم أَعْشَاءَ»، ومعناها أيضاً: انتظرتكم انتظار هذه الإبل.

(٢) يعني: وَحْده من بين السبعة المشهورين بالقراءة.

(٣) هذا البيت من معلقة عمرو بن كلثوم، وأبو هند: عَمْرُو بن المنذر، وهو في البيت منصوب على النداء، والفاءُ في «فَلا تَعْجَلْ» تصل ما بعدها بما قبلها، وأَنْظِرْنَا معناه: انتظرنا، أو معناه: أَخّرنا ـ وهو موضع الاستشهاد هنا ـ. ونخبِّرْك: جواب شرط مقدر، أي: أن تنتظرنا أو أن تؤخرنا نخبِّرك اليقين. وقد استشهد الفراءُ بالبيت في «معاني القرآن».

ومعناه: أَخِّرونا، ومنه النَّظِرةُ إلى مَيْسَرَة، وقول النبي ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً» الحديث(١)، ومعنى قولهم «أَخِّرونا»: أَخِّروا مشيكم لنا حتى نلحق فنقتبس من نوركم، و«اقْتَبَسَ الرَّجُلُ واسْتَقْبَسَ»: أَخذ من نور غيره قبساً.

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ يحتمل أَن يكون من قول المؤمنين، ويحتمل أَن يكون من قول الملائكة، وقوله تعالى: [وَرَاءَكُمْ] حكى المهدوي وغيره من المفسِّرين أَنه لا موضع له من الإِعراب، وأَنه كما لو قال: ارجعوا ارجعوا، وأَنه على نحو قول أَبي الأَسود الدؤلي: «وراءَكَ أَوسع لك»، ولستُ أَعرف مانعاً يمنع أَن يكون العامل فيه [ارْجِعُوا]، والقول لهم: ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ هو على معنى التوبيخ لهم، أَي أَنكم لا تجدونه، ثم أَعلم عزَّ وجلَّ أَنه يضرب بينهم في هذه الحال بسور حاجز، فيسعى المنافقون في ظلمة، ويأْخذهم العذاب من الله تعالى، وحكي عن ابن زيد أَن هذا السور هو الأَعراف المذكور في سورة الأَعراف، وقد حكاه المهدوي، وقيل: هو حاجز آخر غير ذلك، وقال عبد الله بن عمرو، وكعب الأَحبار، وعُبادة بن الصامت، وابن عباس: هو الجدار الشرقي في مسجد بيت المقدس، وقال زياد بن أَبي سوادة: قام عُبادة بن الصامت على السور الشرقي من بيت المقدس فبكى وقال: من ها هنا أَخبرنا النبي ﷺ أَنه رأَى جهنم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفيه باب يسمى باب الرحمة، سمَّاه في تفسير هذه الآية عُبادة وكعبٌ، وفي الشرق من الجدار المذكور وادٍ يقال له: وادي جهنم: سمَّاه في تفسير هذه الآية عبد الله بن عمرو، وابنُ عباس رضي الله عنهم، وهذا القول في السور بعيد، والله تعالى أَعلم. وقال قتادة، وابن زيد: الرحمةُ الجنةُ، والعذابُ جهنمُ، والسُّور في اللغة الحجاب

---

(١) أخرجه البخاري، والترمذي، والدارمي في البيوع، ومسلم في الزهد، وابن ماجه في الصدقات، وأحمد في مسنده (١ـ٣٢٧، ٢ـ٣٥٩، ٥ـ٣٥١)، ولفظه كما في مسند أحمد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وهو يقول بيده هكذا ـ فأومأ أبو عبد الرحمن بيده إلى الأرض ـ: «من أَنْظَر مُعْسراً أو وضع لَهُ وقاه الله من فيح جهنم، ألا إن عمل الجنة حَزْن بربوة ـ ثلاثاً ـ ألا إن عمل النار سهل بسهوة، والسعيد مَن وُقي الفِتن، وما من جرعة أحب إليَّ مِن جرعة غيظ يكظمها عبْدٌ، ما كظمها عبْدٌ لله إلا ملأ الله جوفه إيماناً».

الذي للمدن[(١)] وهو مذكر، والسُّور أيضاً جمع سُورة وهي القطعة من البناءِ فيضاف بعضها إلى بعض حتى يتم الجدار، فهذا اسم جمع يسوغ تذكيره وتأْنيثه، وهذا الجمع هو الذي أراد جرير في قوله:

لمَّـا أَتَـى خَبَـرُ الـزُّبَيْـرِ تَـوَاضَعَـتْ   سُـورُ المَـدينـةِ وَالجِبَـالُ الخُشَّـعُ[(٢)]

وذلك أن المدينة لم يكن لها قط حجًى، وأيضاً فإن وصفَهُ أَنَّ جميع ما في المدينة من بناءٍ تواضَعَ أَبْلغُ، ومَنْ رَأَى أنه قصد السُّور الذي هو الحِجَى قال: إن ذلك إذا تواضع فغيره من المباني أحرى بالتواضع، فإذا كان السُّور في البيت يحتمل الوجهين فليس هو في قوة مَرِّ الرياح، وصدر القناة، وغير ذلك مما هو مذكَّر محْضٌ استفاد التأْنيث مما أُضيف إليه.

قوله تعالى: ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾، أي جهة المؤمنين، [وَظَاهِرُهُ] أي جهة المنافقين، والظاهر هنا البادي، ومنه قول الكتاب: «من ظاهر مدينة كذا».

وقوله تعالى: [يُنَادُونَهُمْ] معناه: ينادي المنافقون المؤمنين: أَلم نكن معكم في الدنيا؟ فيرد المؤمنون عليهم: بل كنتم معنا ولكنكم عرضتم أنفسكم للفتنة وحُبِّ العاجل والقتال عليه، قال مجاهد: فَتَنْتُمْ أَنفسكم بالنفاق، و[تَرَبَّصْتُمْ] معناه هنا: بإيمانكم، فأَبطأْتم به حتى مُتُّم، وقال قتادة: معناه: تَرَبَّصْتُمْ بنَا وبمحمد ﷺ الدوائر، وشككتم في أمر الله تعالى، و«الارتيابُ»: التَّشكُّك، و«الأَماني التي غرَّتهم» هي قولهم: سيهلك محمد هذا العام، ستهزمه قريش، ستأْخذه الأَحزابُ، إلى غير ذلك من أمانيهم، وطولُ الأمل غرَّارٌ لكل أَحد، و«أَمْر الله الذي جاءَ» هو الفتحُ وظهور الإِسلام، وقيل: هو موت المنافقين وموافاتهم على هذه الحالة الموجبة للعذاب. و«الغَرُورُ»: الشيطان بإجماع من المتأَولين، وقرأَ سماكُ ابن حرب بضم الغين، وأَبو حيوة، وينبغي لكل مؤمن أَن يعتبر هذه الآية في نفسه وتسويفه في توبته.

---

(١) في بعض النسخ: «والسور في اللغة الحِجى الذي للمدن»، والحِجى هو الستر أو الحاجز، شُبِّه بالعقل الذي يحفظ الإنسان من الهلاك.

(٢) البيت من قصيدة قالها جرير يهجو بها الفرزدق وغيره من الشعراء، وخَبَرُ ابن الزبير: قتله، وقد استشهد به ابن عطية على أن «السُّور» اسم جمع يجوز تذكيره وتأنيثه، وقد أنَّثه جرير، وقال صاحب اللسان: «أنَّث السُّور لأنه بعض المدينة، فكأنه قال: تواضعت المدينة»، والألف واللام في «الخُشَّع» زائدة لأن «خشع» خَبَرٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ استمرارٌ في مخاطبة المنافقين، قاله قتادة وغيره، وروي في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ حديث. وهو: أن الله تعالى يُقَرِّر الكافر فيقول له: «أرأيتك لو كان لك أَضعاف الدنيا أكنتَ تفتدي بجميع ذلك من عذاب النار؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول الله تعالى: قد سألتك ما هو أَيسر من ذلك وأَنت في صلب أَبيك آدم، لا تشرك بي، فأبيت إلاَّ الشِّرك»[(١)]، وقرأ جمهور القراءِ والناس: [يُؤْخَذُ] بالياءِ من تحت، وقرأَ أَبو جعفر القارىء: [تُؤْخَذُ] بالتاءِ من فوق، وهي قراءَة ابن عامر في رواية هشام عنه. وهي قراءَة الحسن، وابن أَبي إِسحاق، والأَعرج.

قوله تعالى: ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾، قال المفسرون: معناه: هي أَولى بكم، وهذا تفسير بالمعنى، وإِنما هي استعارة لأَنها من حيث تضُمُّهُمْ وتباشرهم هي تُوَالِيهِم وتكون لهم مكان المولى، وهذا نحو قول الشاعر:

. . . . تَحِيَّـةُ بَيْنِهِـمْ ضَـرْبٌ وَجِيـعُ[(٢)]

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء والرقاق، ومسلم في المنافقين، وأحمد في مسنده (٣ـ١٢٩)، ولفظه فيه: عن أبي عمران الجوني قال: سمعتُ أنس بن مالك يحدث عن النبي ﷺ، قال: «يقول الله عزَّ وجلَّ: لأَهْون أهل النار عذاباً: لو أن لك ما في الأرض من شيءٍ كنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك ما هو أهون من هذا وأنت في صُلْب آدم، ألاَّ تشرك بي فأبيت إلاَّ أن تُشرك بي».

(٢) هذا عجز بيت مشهور عن النحويين واللغويين، وقد قاله عمرو بن معد يكرب، ويشكك صاحب الخزانة في ذلك، والبيت بتمامه:

وَخَيْـلٍ قَـدْ دَلَفْـتُ لَهَـا بِخَيْـلٍ تَحِيَّـةُ بَيْنِهِـمْ ضَـرْبٌ وَجِيـعُ

وهو في خزانة الأدب، والكتاب لسيبويه، الخصائص، والعمدة، والتصريح، والمرزوقي، وابن يعيش، ونوادر أبي زيد، والخيل: الفرسان، ودَلَفْت: زحفت، وجيع: مُوجع، يقول: إذا تلاقوا في الحرب جعلوا الضرب الموجع بينهم بدلا من تحية بعضهم لبعض، والشاهد فيه جعل الضرب تحية على سبيل الاستعارة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ الآية ابتداءُ معنى مستأنف، وروي أنه كثر الضحك والمزاح في بعض تلك المدة في قوم من شبان المسلمين فنزلت هذه الآية، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ملَّ الصحابة ملَّة فنزلت الآية. ومعنى ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ أَلَمْ يَحِنْ، يقال: آن الشيءُ يأني إذا حان، ومنه قول الشاعر:

تَمَخَّضَــتِ الْمَنُــونُ لَــهُ بِيَــوْمٍ أَنَــى وَلِكُــلِّ حَــامِلَــةٍ تَمَــامُ[1]

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [أَلَمَّا يَأْنِ] ورُوي عنه أنه قرأ: [أَلَمْ يَئِنْ]، وهذه الآية على معنى الحضِّ والتقريع، قال ابن عباس رضي الله عنهما: عوتب المؤمنون بهذه الآية بعد ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، وسمع الفضل بن موسى قارئاً يقرأُ هذه الآية والفضلُ يحاول معصية فكانت الآيةُ سبب توبته، وحكى الثعلبي عن ابن المبارك أنه في صباه حرَّك العود ليضربه فإذا به قد نطق بهذه الآية فتاب ابن المبارك وكسر العود وجاءَه التوفيق[2].

و«الخُشوعُ»: الإخباتُ والتَّطامن، وهي هيئة تظهر في الجوارح متى كانت في القلب، فلذلك خصَّ تعالى القلب بالذكر، وروى شداد بن أَوس عن النبي ﷺ أَنه قال: «أَول ما يرفع من الناس الخشوعُ»[3]، وقوله تعالى: ﴿لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: لأَجل ذكر الله ووحيه الذي بين أَظهرهم، ويحتمل أَن يكون المعنى: لأَجل تذكير الله تعالى إيَّاهم وأَمره فيهم، وقرأَ عاصم في رواية حفص: [وَمَا نَزَلَ] مُخَفَّفَ الزاي، وقرأَ الباقون، وأَبو بكر عن عاصم: [وَمَا نَزَّلَ] بتشديد الزاي، على معنى: نَزَّلَ الله من الحق، وقرأَ أَبو عمرو ـ في رواية عياش ـ وهي قراءَة الجحدري، وابن القعقاع: ﴿وَمَا نُزِّلَ﴾ بكسر الزَّاي وشدِّها. وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، والأَعرج، وأَبو جعفر: ﴿وَلَا يَكُونُوا﴾ بالياءِ على ذكر

---

(١) هذا البيت في اللسان غير منسوب، وفي تالج منسوباً إلى عمرو بن حسان بن ثابت، وتمخَّضَ: تحرَّك وتهيَّأ، والمنون: المنية وأَنَى: حان، يقول: إن المنون أتت له بهذا اليوم الذي لا بد أن يأتي، وقد أدرك وبلغ كما أن كل حاملة لا بد أن يتم حَمْلُها.

(٢) ابن المبارك: هو عبد الله بن المبارك المروزي، من بني حنظلة، وحكاية الثعلبي بهذه الصيغة غير منطقية ولا صحيحة، ولهذا جاءت في بعض النسخ بصيغة أُخرى هي: «حرَّك العود ليضربه فسمع قارئاً ينطق بهذه الآية. . . » الخ.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير عن شداد بن أوس، وقد رمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث حسن، وزاد في الدر المنثور نسبته إلى ابن المنذر، وعبد بن حميد، وعبد الرزاق.

الغائب، وقرأ حمزة ـ فيما روى عنه سليمان ـ ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ على مخاطبة الحضور.
والإشارة في قوله تبارك وتعالى: ﴿كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ إلى بني إسرائيل المعاصرين لموسى ﷺ، ولذلك قال: ﴿مِن قَبْلُ﴾، وإنما شبَّهَ أهل عصر نبيٍّ بأهل عصر نبيٍّ آخر.
و«الأَمَدُ» قيل: معناه انتظار الفتح، وقيل: انتظار القيامة، وقيل: أمد الحياة، و[قَسَتْ] معناه: صلبت وقلَّ خيرها وانفعالها للطَّاعات وسكنت إلى معاصي الله تعالى ففعلوا من العصيان والمخالفة ما هو مأثور عنهم.

وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ الآية مخاطبةٌ لهؤلاءِ المؤمنين الذين ندبوا إلى الخشوع، وهذا ضَرْب مَثَل واستدعاءٌ إلى الخير برفق وتقريب بليغ، أي: لا يبعد عنكم أيها التاركون للخشوع رجوعكم إليه وتلبُّسكم به، فإن الله يُحيي الأرض بعد موتها، وكذلك يفعل بالقلوب، ويردُّها إلى الخشوع بَعْد بُعْدها عنه، وترجع هي إليه إذا وقعت الإنابة والتكسُّب من العبد بعد نفورها منه كما يحيي الأرض بعد أن كانت ميّتةً غبراءَ، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

قرأ جمهور القراءِ: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ﴾ بتشديد الصَّادالمفتوحة، على معنى المتصدِّقين، وكذا هي في مصحف أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه: «إِنَّ الْمُتَصَدِّقِينَ» بالتَّاءِ، وهو يؤيد هذه القراءَة، وأيضاً فيجيءُ قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ملائماً في الكلام للصدقة، وقرأ ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم: ﴿إِنَّ الْمُصَدِّقِين﴾ بتخفيف الصاد، على معنى الذين صَدَّقوا رسول الله ﷺ فيما بَلَّغ عن الله تعالى، وآمنوا به، ويؤيد هذه القراءَة أنها أكثر تناوُلاً للأُمَّة لأن كثيراً ممَّن لا يتصدَّق تعمه اللفظة في التصديق، ثم إن تقييدها بقوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ﴾ يردُّ مقصد القراءَتين بعضه من بعض.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ معطوف على المعنى؛ لأَن معنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾: إن الذين تَصَدَّقُوا، ولا يصحُّ هنا عطفٌ لفظيٌّ، قاله أبو علي في الحُجَّة، وقد تقدَّم معنى «القَرْض» ومعنى «المُضاعفة» التي وعَدَ اللهُ

تعالى بها هذه الأُمَّة، وتقدَّم معنى وصف الأَجْر بالكرم، كل ذلك في هذه السُّورة.

ويؤيد عندي قراءَة من قرأ: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ بشدِّ الصاد أَن الله تعالى حضَّ في هذه السُّورة على الإنفاق في سبيل الله، ثم ذكر في هذه أَهل الصَّدقة ووعدهم، ثم ذكر أَهل الإيمان والتصديق في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾، وعلى قراءَة من قرأَ: ﴿إِنَّ المُصَدِّقِينَ﴾ بتخفيف الصَّاد فَذِكْرُ المؤمنين مكرر في اللفظ، وكون الأَصناف مفردة بأَحكامها من الوعد أَبْيَن، والإيمان بمحمد ﷺ يقتضي الإيمان بجميع الرُّسل عليهم السلام، فلذلك قال تعالى: [وَرُسُلِهِ].

و«الصِّدِّيقُونَ» بناءُ مبالغة من الصدق، أَو من التصديق على ما ذكر الزجاج: «وفِعِّيل لا يكون ـ فيما أَحفظه ـ إلاَّ من فعل ثلاثي، وقد أَشار بعض الناس إلى أَنه يجيءُ من غير الثلاثي، وقال: «مِسِّيكٌ» من «أَمْسَكَ»، وأَقول إِنه يقال: مَسَكَ الرجلُ، وقد حُكي: مَسَكَ الشيءَ، وفيه نظر.

قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، اختلف الناسُ في تأْويل ذلك ـ فقال ابن مسعود، ومجاهد، وجماعة: [والشُّهَدَاءُ] معطوف على قوله تعالى: [الصِّدِّيقُونَ] والكلام متصل، ثم اختلفت هذه الفرقة في معنى هذا الاتصال ـ فقال بعضها: وصف الله تعالى المؤمنين بأَنهم صِدِّيقون وشهداءُ، فكلُّ مؤمن شهيدٌ، قاله مجاهد، وروى البراءُ بن عازب رضي الله عنه أَن النبي ﷺ قال: «مُؤْمِنُو أُمَّتي شهداءُ»، وتلا رسول الله ﷺ هذه الآية[(١)]، وإنما خصَّ رسول الله ﷺ ذكر الشهداءِ السبعة تشريفاً، ولأَنهم في أَعلى رتب الشهادة، أَلا ترى أَن المقتول في سبيل الله مخصوص أَيضاً من السبعة بتشريف ينفرد به، وقال بعضها: وصف الله تعالى المؤمنين بأَنهم صِدِّيقون وشُهداءُ لكن من معنى الشاهد لا من معنى الشهيد، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[(٢)]، فكأَنه تبارك وتعالى قال في هذه الآية: هم أَهل الصِّدق والشَّهادة على الأُمم عند ربِّهم، وقال ابن عباس، ومسروق، والضحاك: الكلام تام في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، وقوله تعالى: [والشُّهَدَاءُ] ابتداءٌ مستأْنف، ثم اختلفت هذه الفرقة في معنى الاستئناف ـ فقال بعضها: معنى الآية: والشهداءُ فإنهم صِدِّيقون

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن البراء بن عازب.

(٢) من الآية (٧٨) من سورة (الحج).

حاضرون عند ربِّهم، وعنى بـ«الشُّهَدَاءِ» الأنبياءَ عليهم السلام، فكأَن الأنبياءَ عليهم السلام يشهدون للمؤمنين بأَنهم صِدِّيقون، وهذا يفسِّره قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[1]، وقال بعضها: قوله تعالى: والشُّهَدَاءُ] ابتداءٌ يريد به الشهداءَ في سبيل الله، واستأْنف الخبر عنهم بأَنهم عند ربِّهم لهم أجرهم ونورهم، فكأَنه تعالى جعلهم صنفاً مذكوراً وحده، وفي الحديث: «إنَّ أَهل الجنة العُلْيا يراهم مَنْ دونهم كما ترون الكوكب الدُّرِّيَّ، وإن أَبا بكر وعمر منهما وأَنعما»[2].

وقوله تعالى: ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ خبر عن الشهداءِ فقط على الأَخير من الأَقوال، وهو خبر عن المؤمنين المذكورين في أَول الآية على الأَقوال الثلاثة الأُول، وقوله تعالى: [وَنُورُهُم] قال جمهور المفسرين هو حقيقة حسب ما رُوي مما تقدم ذكره في هذه السورة، وقال مجاهد وغيره: هو مجازي عبارة عن الهدى والكرامة والبشرى التي حصلوا فيها.

ولما فرغ ذكر المؤمنين وأهل الكرامة عقَّب تعالى بذكر الكفرة المكذبين ليبين الفرق، فذكرهم تعالى بَأَنهم أَصحاب الجحيم وسُكَّانه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

هذه آية وعظ وتبيين لأَمر الدنيا وضَعَة منزلتها، و[أَنَّمَا] سادَّة مسدَّ المفعولين للعلم لأَنها لا تدخل على اثنين، وهي ـ وإن كفَّت عن العمل ـ فالجملة بعدها نافية. و«الحياة الدنيا» في هذه الآية عبارة عن الأَشغال والتصرفات والفكر التي هي مختصة بالحياة الدنيا، وأَما ما كان من ذلك في طاعة الله تعالى وسبيله، وما كان من الضرورات التي

---

(١) من الآية (٤١) من سورة (النساء).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، والترمذي في سننه، وابن حبان في صحيحه، عن أبي سعيد، وأخرجه الطبراني في الكبير عن جابر بن سمرة، وابن عساكر عن أبي هريرة وعن أبي عمرو ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث صحيح.

تقيم الأَود وتُعين على الطاعات، فلا مدخل له في هذه الآية، وتأمل حالة الملوك بعد فقرهم يبن لك أن جميع ترفهم لعبٌ ولهو. و«الزِّينةُ» التَّحسين الذي هو خارج من ذات الشيءِ، و«التفاخر» هو بالأنساب والأموال وغيرها، و«التَّكاثُر» هو الرغبة في الدنيا وعددها لتكون العِزَّة للكاثر على المذهب الجاهلي(١).

ثم ضرب تعالى مثلاً للدنيا، فالكاف في قوله تعالى: [كَمَثَلِ] في موضع رفع صفة لما تقدم، وصورة هذا المثل أن الإنسان ينشأ في حجر مملكة فما دون ذلك، فيشبُّ ويقوى ويكسب المال والولد ويغشاه الناس، ثم يأخذ بعد ذلك في انحطاط فيشيخ ويضعف ويسقم وتصيبه النوائب في ماله وذريته ويموت ويضمحل أَمْرُه، وتصير أمواله لغيره وتتغير رسومه، فأَمْره مثل مطر أَصاب أَرضاً فنبت عن ذلك الغيث نبات مُعجب أَنيق، ثم هاج، أَي يَبِسَ واصفر ثم تحطم ثم تفرق بالرياح واضْمَحَلَّ.

واختلف المتأولون في لفظة [الْكُفَّار] هنا ـ فقال بعض أَهل التأْويل: هو من الكفر بالله تعالى، وذلك أَنهم أَشد تعظيماً للدنيا، وأَشد إعجاباً بمحاسنها، وقال آخرون منهم: هو من «كَفَر الْحَبَّ» أَيْ سَتَرَه في الأَرض، وهم الزُّراع، وخصَّهم بالذكر لأَنهم أَهل البصر بالنبات والفلاحة فلا يعجبهم إلاَّ المعجب حقيقة الذي لا عيب فيه، و«هَاجَ الزَّرْعُ» معناه: يَبس واصْفَرَّ، و«حُطام» بناءُ مبالغة، يقال: حطيم وحُطَام بمعنى محطوم أَو محتطم، كعجيب وعُجاب بمعنى معجب أَو مُتَعَجَّب منه.

ثم قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، كأَنه تعالى قال: والحقيقة ما هنا... ثم ذكر العذاب أَوَّلاً تَهَمُّماً به من حيث الحذر في الإنسان ينبغي أَن يكون أَولاً، فإذا تحذَّر من المخاوف مدَّ حينئذ أَمله، فذكَر اللهُ تعالى ما يَحْذَرُ قبل ما يطمع فيه وهو المغفرة والرِّضوان، وروي عن عاصم ضمُّ الراءِ من [وَرُضْوَانٌ].

و«مَتَاعُ الْغُرُور» معناه: الشيءُ الذي لا يُعَظِّمُ الاستمتاعَ به إلاَّ مُغْتَرٌّ، وقال عكرمة وغيره: متاع الغرور: القواريرُ(٢)، لأَن الفساد والآفات تسرع إليها، فالدنيا كذلك أَو هي أَشد.

---

(١) الكاثر هو الكثير، قال الأعشى:

وَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصىً ... وَإنَّمَا الْعِزَّةُ لِلْكَاثِرِ

(٢) لأنها معرضة للكسر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾.

لما ذكر تعالى المغفرة التي في الآخرة ندب في هذه الآية إلى المسارعة إليها والمسابقة، وهذه الآية حجة عند جميع العلماءِ في الندب إلى الطَّاعات، وقد استدل بها بعضهم على أن أَوَّل أَوقات الصلوات أَفضل لأنها تقتضي المسارعة والمسابقة، وذكر بعضهم في تفسير هذه الآية أَشياءَ هي على جهة المثال، فقال قوم من العلماءِ، منهم ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ معناه: كونوا في أَول صف في القتال، وقال آخرون ـ منهم أَنس بن مالك رضي الله عنه ـ: اشهدوا تكبيرة الإِحرام مع الإِمام، وقال آخرون ـ منهم علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ـ معناه: كن أَول داخل في المسجد وآخر خارج منه، وهذا كله على جهة المثال.

وذكر تعالى العَرْض من الجنة إذ المعهود أَنه أَقل من الطول، وقال قوم من أَهل المعاني: عبَّر عن المساحة بالعَرْض، ولم يقصد أَن طولها أَكثر ولا أَقل، وقد ورد في الحديث أَن سقف الجنة العرش، وورد في الحديث أَن السموات السبع في الكرسي كالدرهم في الفلاة، وأَن الكرسي في العرش كالدرهم في الفلاة[1].

وقوله تعالى: [أُعِدَّتْ] ظاهره أَنها مخلوقة الآن مُعدَّة، ونصَّ عليه الحسن في كتاب النقاش.

وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ﴾، قال ابن زيد: المعنى: ما حدث من حادث خيرٍ أَو شرٍّ، فهذا على معنى لفظ «أَصاب» لا على عُرف المصيبة فإن عُرفها في الشرِّ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ما معناه: إِنه أَراد عُرْف المصيبة، وخصها

(١) رواه ابن جرير في تفسيره، عن ابن زيد، عن أبيه، وأخرجه ابن مردويه عن أبي ذرٍّ، وأخرجه الآجُرِّي، وأبو حاتم البستي في صحيح مسنده، والبيهقي وذكر أنه صحيح، ولفظه كما ذكره ابن مردويه أن أبا ذرٍّ سأل النبي ﷺ عن الكرسي، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وأن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة».

بالذِّكر لأَنها أَهم على البشر، وهي بعض من الحوادث، فدلَّ على أَن جميع الحوادث خيرها وشرِّها كذلك، وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني بالقحوط والزلازل وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ يريد: بالموت والأَمراض وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ معناه: إلاَّ والمصيبة في كتاب، و[نَبْرَأَهَا]: نخلقها، يقال: برأَ اللهُ الخَلق، أَي خلقهم، والضمير عائد على المصيبة، وقيل: على الأَرض، وقيل: على الأَنفس، قاله ابن عباس، وقتادة، وجماعة، وذكر المهدوي جواز عود الضمير على جميع ما ذكر، وهي كلها معان صحاح لأَن الكتاب السابق أَزلي قبل هذه كلها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يريد تحصيل الأَشياءِ كلها في كتاب.

وقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ معناه: فعل الله تعالى هذا كله وأَعلمكم به ليكون سبب تسليمكم وقلَّة اكتراثكم بأَمر الدُّنيا، فلاتحزنوا على ما فاتكم ولا تفرحوا الفرح المبطر بما آتاكم فيها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس أَحد لا يحزن ويفرح ولكن من أَصابته مصيبة فجعلها صبراً ومن أَصاب خيراً فجعله شكراً، وقرأَ أَبو عمرو وحده: [أَتَاكُمْ] على وزن فعل ماض، وهذا ملائم لقوله تعالى: [فَاتَكُمْ]، وقرأَ الباقون من السبعة: [آتَاكُمْ] على وزن «أَعْطَاكُمْ» بمعنى: آتاكم اللهُ تعالى: وهي قراءَة الحسن، والأَعرج وأَهل مكة، وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه: «أُوتِيتُمْ»، وهي تؤيد قراءَة الجمهور.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ يدل على أَن الفرح المنهي عنه إنما هو ما أَدَّى إِلى الاختيال والفخر، وأَما الفرح بنعم الله تعالى المقترن بالشُّكر والتواضع فأَمر لا يستطيع أَحد دفعه عن نفسه، ولا حرج فيه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

اختلف النحاة في إعراب [ٱلَّذِينَ]، فقال بعضهم: هو في موضع رفع على الابتداءِ والخبر عنهم محذوف معناه الوعيد والذم، وحذفه على جهة الإِبهام نحو حذف الجواب

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية[١]، وقال بعضهم: هو رفع على خبر الابتداءِ، تقديره: هم الذين يبخلون، وقال بعضهم: هو في موضع نصب بإضمار «أعني» أو نحوه، وقال بعضهم: هو في موضع نصب صفة لـ[كُلَّ] لأن [كُلَّ] وإن كان نكرة فهو تخصيص لنوع مَّا، يسوغ لذلك وصفُه بالمعرفة، وهذا هو مذهب الأَخفش. و[يَبْخَلُونَ] معناه: بأَموالهم وأَفعالهم الحسنة من إيمانهم وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ يحتمل أَن يصفهم بحقيقة الأَمر بأَلسنتهم، ويحتمل أَن يريد أَنهم يُقتدى بهم في البخل فهم لذلك كأَنهم يأْمرون، وقرأَ الحسن: [بِالْبَخَلِ] بفتح الخاءِ والباءِ، وقرأَ جمهور القراءِ وأَهل العراق: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ بإِثبات [هُوَ]، وكذلك في إمامهم، وقرأَ نافع، وابن عامر: [فإن الله الغني الحميد] بترك [هُوَ] وهي قراءَة أَهل المدينة، وكذلك في إمامهم، وهذا لم يثبت قراءَةً إلاَّ وقد قرىء على النبي ﷺ، قال أَبو علي: فهو في القراءَة التي ثبت فيها يَحْسُنُ أَنْ يكون فصلاً ولا يَحْسُنُ أَن يكون ابتداءً؛ لأَن حذف الابتداءِ غير سائغ.

و«الكتاب» اسم جنس لجميع الكتب المنزلة، و«الميزان»: العدلُ في تأْويل أَكثر المتأَولين، وقال ابن زيد وغيره من المتأَولين: أَراد الموازين المتصرفة بين الناس، وهذا خير[٢] من القول الأَول، وقوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ يقوي القول الأَول.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾، عبَّر تعالى عن خلقه واتِّخاذه بالإِنزال، كما قال تعالى في الثمانية الأَزواج من الأنعام[٣]، وأَيضاً فإِن الأَمر بِكَوْن الأَشياءِ لما كان يُلقى من السماءِ جعل الكل نزولاً منها، وقال جمهور كثير من المفسرين: الحديد هنا أَراد به جنسه من المعادن وغيرها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل آدم عليه السلام من الجنة ومعه السَّنْدَان والكَلْبَتَان والميقَعَةُ[٤]. وقال حذَّاقٌ من المفسرين: أَراد به السلاحَ، ويترتب معنى الآية: فإِن الله تعالى أَخبر أَنه أَرسل رسلاً، وأَنزل كُتُباً وعدلاً

---

(١) من الآية (٣١) من سورة (الرعد).

(٢) في بعض النسخ «وهذا جزء من القول الأول».

(٣) في قوله تعالى في الآية (٦) في سورة الزُّمَر: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾.

(٤) السندان: قطعة من الحديد يطرق الحداد عليها ما يريد تشكيله من الحديد، والكَلْبتان: أداة يأخذ بهاالحداد الحديد من النار (كمَّاشة)، والمِيقعة: المطرقة.

مشروعاً، وسلاحاً، يحارب بها من عاند ولم يَهْتَد بِهَدْيِ الله، فلم يبق عُذْرٌ، وفي الاية ـ على هذا التأويل ـ حضٌ على القتال وترغيب فيه، وقوله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾ يقوي هذا التأويل، ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ أي: لِيَعْلَمَهُ موجوداً، فالتَّغَيُّر ليس في عِلْم الله تعالى، بل في هذا الحَدَث الذي خرج من العدم إلى الوجود، وقوله تعالى: [بِالْغَيْبِ] معناه: ما سمع من الأوصاف الغائبة عنه فآمن بها لقيام دلالة عليها، ثم وصف تبارك وتعالى نفسه بالقوة والعزة ليبيِّن أنه لا حاجة به إلى النُّصرة لكنها نافعة من عظَّم بها نفسه من الناس.

ثم ذكر تعالى رسالة نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام تشريفاً لهما بالذِّكر، ولأنهما من أول الرسل عليهم السلام، ثم ذكر تعالى نعمه على ذريتهما، وقوله تعالى: [وَالْكِتَابَ] يعني الكتب الأربعة فإنها جميعاً في ذريَّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وذكر تعالى أنهم مع ذلك منهم من فَسَقَ وعَنَدَ، فكذلك ـ بل أَحْرَى ـ جميع الناس ولذلك يشرع السلاح للقتال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

[قَفَّيْنَا] معناه: جئنا بهم بعد الأولين، وهو مأخوذ من القفا، أَي جاءَ بالثاني في قفا الأَول، فيجيءُ الأول بين يدي الثاني، ومنه القوافي التي تأْتي في أَواخر أَبيات الشِّعر، ثم ذكر تعالى عيسى عليه السلام تشريفاً وتخصيصاً، وقرأَ الحسن: [الأَنْجِيلَ] بفتح الهمزة، قال أَبو الفتح: هذا مثال لا نظير له، و﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ مفعولات [جَعَلْنَا]، والجَعْلُ في هذه الآية بمعنى: الخَلْق، وقوله تعالى: [ابْتَدَعُوهَا] صفة لـ[رَهْبَانِيَّةً]، وخَصَّها بأَنها ابتُدعت لأَن الرَّأْفة والرَّحمة في القلب لا كسْب للإِنسان فيهما، وأَمَّا الرهبانية فهي أَفعال بَدَن مع شيءٍ في القلب، ففيها موضع للتَّكسُّب، قال قتادة: الرَّأْفة والرَّحمة من الله تعالى، والرهبانية هم ابتدعوها، والمراد بالرَّأْفة والرَّحمة

حبُّ بعضهم في بعض وتوادُّهم، والمراد بالرهبانية رفض النِّساءِ واتخاذ الصَّوامع، والمعتزلة تعرب [رَهْبَانِيَّةً] أنها نصب بإضمار فعل يفسِّره [ابْتَدَعُوهَا]، وليست بمعطوفة على الرَّأفة والرَّحمة، ويذهبون في ذلك إلى أَنَّ الإنسان يخلق أَفعاله، فيعربون الآية على هذا[1]، وكذلك أَعربها أبو علي.

ورُوي في ابتداعهم الرَّهبانيَّة أَنهم افترقوا ثلاث فرق: ففرقة قاتلت الملوك على الدين فَغُلبت وقُتلت، وفرقة قعدت في المدن يدعون إلى الدِّين ويُبيِّنونه، ولم تُقاتل، فأَخذتها الملوكُ فنشرتها بالمناشير، وقُتلوا، وفرقة خرجت إلى الفيافي وبنت الصَّوامع والدِّيارات، وطلبت أَن تسلم قبل أَن تعتزل فتركت وذاكَ، وتَسَمَّوْا بالرُّهبان[2]، واسمهم مأْخوذ من الرهب وهو الخوف، وهذا هو ابتداعهم، ولم يعرض الله تعالى ذلك عليهم لكنهم فعلوا ذلك ابتغاءَ رضوان الله، هذا تأْويل أَبي أُمَامَةَ وجماعة، وقال مجاهد: المعنى: كتبناها عليهم ابتغاءَ رضوان الله، فـ«كَتَبَ» ـ على هذا ـ بمعنى: قَضَى، ويحتمل اللفظ أَن يكون المعنى: ما كتبناها عليهم إلاَّ في عموم المندوبات؛ لأَن ابتغاءَ رضوان الله تعالى بالقُرب والنوافل مكتوب على كل أُمَّة، فالاستثناءُ ـ على هذا الاحتمال ـ متَّصلٌ.

واختلف النَّاسُ في الضمير الذي في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، مَن المراد به؟ فقيل: إنَّ الذين ابتدعوا الرَّهبانيَّة لأَنفسهم لم يدوموا على ذلك ولا وفَّوْهُ حقَّه، بل غيَّروا وبدَّلوا، قاله ابن زيد وغيره، والكلام سائغ وإن كان فيهم مَن رَعَى، أَي: لم يرعوها بأَجمعهم، وفي هذا التأْويل لزوم الإتمام لكل من بدأَ بتَنَفُّل وتطوُّع، وأَنه يلزمه أَن يرعاه حقَّ رعاية، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: الضمير للملوك الذين حاربوهم وأَجلوهم، وقال الضحاك وغيره: الضمير للأَخلاف الذين جاءُوا بعد المبتدعين لها، وباقي الآية بيِّنٌ، وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه: «كَتَبْنَاهَا عَلَيهِمْ لكِنْ ابْتَدَعُوهَا».

---

(١) في بعض النسخ: «فَيَكْذِبُونَ»، وفي بعضها «فيعذِّبون» بدلا من «فيُعربون الآية على هذا»، ولعلَّ في هذا الكلام ما ينفي تهمة الاعتزال عن ابن عطية، وهي تهمة أَلصقها به بعضهم وأَشرنا إليها مراراً في هذا التفسير، وبخاصة في المقدمة.

(٢) أخرجه عبد بن حميد، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وأَبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، وابن عساكر، من طرق، عن ابن مسعود، وذكره الإمام السيوطي في الدرِّ المنثور وفي أوله زيادة على ما هنا.

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾، اختلف النَّاس، مَن المخاطب بهذا؟ فقالت فرقة من المتأولين: خوطب بها أَهل الكتاب، فالمعنى: يا أَيُّهَا الذين آمنوا بعيسى اتقوا الله وآمنوا بمحمد، ويؤيد هذا المعنى الحديثُ الصحيح عن النبي ﷺ: «ثلاثة يؤتيهم الله أَجرهم مرتين، رجل من أَهل الكتاب آمن بنبيِّه وآمن بي» الحديث[1]، وقال آخرون: المخاطبة للمؤمنين من أُمَّة محمد ﷺ، قيل لهم: يا أَيُّها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله، أَي اثبتوا على ذلك ودوموا عليه، وهذا هو معنى الأَمر أبداً لمن هو متلبِّس بما يؤمر به.

وقوله تعالى: ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ﴾ أَي نصيبين بالإِضافة إلى ما كان الأُمم قبلُ يعطونه، قال أَبو موسى الأَشعري رضي الله عنه: «كِفْلَيْنِ»: ضعفين بلسان الحبشة، ورُوي أَن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال لبعض الأَحبار: كم كان التضعيف للحسنات فيكم؟ فقال: ثلاثمائة وخمسون، فقال عمر رضي الله عنه: الحمد لله الذي ضاعف لنا إلى سبعمائة، ويؤيد هذا المعنى الحديثُ الصحيح الذي يقتضي أَن اليهود عملت إِلى نصف النهار على قيراط، والنصارى من الظهر إِلى العصر على قيراط، وهذه الأُمة من العصر إِلى الليل على قيراطين، فلمَّا احتجت اليهود والنصارى عن ذلك وقالوا: نحن أَكثر عملاً وأَقلُّ أَجراً، قال تعالى: هل نقصتكم من أَجركم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإِنَّه فضلي أُوتيه من أَشاءُ[2]. و«الكِفْلُ»: الحظُّ والنَّصيب. و«النُّور» هنا إِمَّا أَن يكون وعداً

---

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والبخاري ومسلم في صحيحيهما، والنسائي، وابن ماجه، وهو عن أبي موسى، وقد ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» ورمز له بالصحة، ولفظه كما جاء فيه: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيِّه وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتَّبعه وصدَّقه، فله أجران، وعبد مملوك أدَّى حق الله تعالى وحق سيِّده، فله أجران، ورجل كانت له أَمَةٌ فغذاها فأحسن غذاءها، ثم أدبها فأحسن تأديبها، وعلَّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها وتزوجها، فله أجران».

(٢) أخرجه البخاري في المواقيت، وأحمد في مسنده (٢ـ١٢٩)، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أوتي أهل التوراة التوراة، فعملوا حتى إذا انتصف النهار ثم عجزوا، فأُعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل، فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا، فأُعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أُوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأُعطينا قيراطين قيراطين، فقال أهل الكتابين: أي ربَّنا، لِمَ أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً ونحن كنا أكثر عملاً منهم؟ قال الله تعالى: هل ظلمتكم من أُجوركم من شيء؟ قالوا: لا، قال: فهو فضلي أُوتيه من أشاءُ».

بالنُّور الذي يسعى بين الأَيدي يوم القيامة، وإِمَّا أَن يكون استعارة للهدى الذي يُمْشَى به في طاعة الله تعالى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

رُوي أَنه لمَّا نزل هذا الوعد للمؤمنين، حسد أَهلُ الكتاب على ذلك، وكانت اليهود تعظِّم دينها وأَنفسها، وتزعم أَنها أَحباءُ الله وأَهل رضوانه، فنزلت هذه الآية مُعلمة أَن الله تعالى فعل ذلك وأَعلم به، ليعلم أَهل الكتاب أَنهم ليسوا كما يزعمون، و«لاَ» في قوله تعالى: (لِئَلاَّ) زائدة، كما هي في قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾(١) على بعض التأْويلات. وقرأَ ابن عباس، والجحدري: [لِيَعْلَمَ]، وروى إِبراهيم التيمي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «كَيْ يَعْلَمَ»، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لكَيْلاَ يعْلم»، وروي عن حِطَّان الرقاشي(٢) أَنه قرأَ: [لأَن يعلم]، وقرأَ ابن مسعود، وابن جبير، وعكرمة: [لِكَيْ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ]، وقرأَ الحسن ـ فيما روى ابن مجاهد ـ: [لَيْلاَ يَعْلَمْ] بفتح اللاَّم الأُولى وسكون الياءِ، فأَمَّا فتح اللام فلغة في لام الجر مشهورة، وأَصْلُ هذه القراءَة: «لأَنْ لاَ»، استغني عن الهمزة بلام الجرِّ فحذفت فجاءَ «لَنْ لاَ»، فأُدغمت النون في اللام للتشابه فجاءَ «لَلاَّ»، فاجتمعت أَمثلة فقلبت اللام الواحدة ياءً(٣). وقرأَ الحسن ـ فيما روى مطرف ـ: [لِيْلاَ] بكسر اللام الأُولى وسكون الياءِ، وتعليلها كالتي تقدمت.

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ معناه أَنهم لا يملكون فضل الله تبارك وتعالى، ولا يدخل تحت قدرتهم، وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه: [أَلاَّ يَقْدِرُوا] بغير نون. وباقي الآية بَيِّنٌ.

كمل تفسير سورة الحديد والحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) من الآية (٩٥) من سورة (الأنبياء).

(٢) حِطَّان بن عبد الله الرقاشي البصري، ثقة، من الثانية، مات في ولاية بشر على العراق، بعد السبعين، (تقريب التهذيب).

(٣) راجع «المحتسب» لأبي الفتح بن جني ففيه توضيح لذلك وتدليل بالأمثلة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة المجادلة

وهي مدنية بإجماع، إلاَّ أَن النقاش حكى أَن قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ الآيةَ مكيٌّ[١]، وروى أُبيُّ بن كعب رضي الله عنه أَن رسول الله ﷺ قال: «مَن قرأَ سورة المجادلة كُتب من حزب الله»[٢].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ عبارة عن إِدراك المسموعات على ما هي عليه بأَكمل وجوه ذلك دون جارحة ولا تكييف ولا تحديد، (تعالى الله عن ذلك)، وقرأَ الجمهور: ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ بالبيان، وقرأَ ابن مُحَيْصن: [قد سَّمِعَ] بالإِدغام، وفي قراءَة ابن مسعود رضي الله عنه: [قَدْ يَسْمع اللهُ]، وفيها: [واللهُ قد يَسْمع تحاورَكُمَا].

واختلف الناس في اسم التي تجادل ـ فقال قتادة: هي خوَيْلة بنت ثعلبة، وقيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنه قال: هي بنتُ حكيم، وقال بعض الرواة، وأَبو العالية: هي خُوَيْلة بنت دليج، وقال المهدوي: وقيل: خولة بنت دليج، وقالت عائشة رضي الله عنها: هي جميلة، وقال ابن إِسحاق: هي خولة بنت الصامت، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيها: خَوْلَة بنتُ خُوَيْلد، وقال محمد بن كعب القُرَظي، ومنذر بن سعيد: هي خولة بنت ثعلبة.

قال ابن سلام: [تُجَادِلُ]: تقاتل في القول، وأَصْلُ «الجَدْل»: الفَتْل.

---

(١) وقال ذلك الكلبي، وحكى القرطبي أنها مدنية في قول الجميع، إلا رواية عن عطاءٍ أن العشر الأُول منها مدني، وباقيها مكي.

(٢) لم أقف عليه.

وأكثر الرواة على أن الزوج في هذه الآية أَوْسُ بن الصامت الأنصاري[١]، أخو عُبادة بن الصامت، وحكى النقاش ـ وهو في المصنفات ـ حديثاً عن سَلَمة بن صخر البياضي[٢] أنه ظاهر من امرأته إنْ واقعها مدة شهر رمضان، فواقعها ليلة، فسأل قومه أن يسألوا رسول الله ﷺ فأَبَوْا وهابوا ذلك، وعظَّموا عليه جريرته، فذهب هو إلى رسول الله ﷺ بنفسه فسأله واسترشد، فنزلت الآية وقال له رسول الله ﷺ: أَتعتق رقبة؟ فقال: والله ما أَملك غير رقبتي، فقال: أَتصوم شهرين متتابعين؟ فقال: يا رسول الله وهل أَتيتُ إلاَّ في الصوم؟ فقال: أَتطعم ستين مسكيناً؟ فقال: لا أَجد، فأَعطاه رسول الله ﷺ صدقات قومه فكفَّر بها، فرجع سَلَمة إلى قومه فقال: إني وجدت عندكم الشدَّة والغلظة، ووجدت عند رسول الله ﷺ الرخصة والرفق، وقد أعطاني صدقاتكم[٣].

وأَما ما رواه الجمهور في شأْن أَوس بن الصامت فاختصاره أَن أَوْساً ظاهر من امرأَته خولة بنت خُوَيْلد، وكان الظهار في الجاهلية يوجب عندهم فُرْقةً مُؤَبَّدةً، قاله أَبو قلابة وغيره، فلما فعل ذلك جاءَت زوجتُه رسولَ الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن أَوساً أَكل شبابي، ونثرتُ له بطني، فلما كبرتُ ومات أَهلي ظاهرَ مني، فقال رسول الله ﷺ: ما أَراك إلاَّ حرمت عليه، فقالت: يا رسول الله لا تفعل؛ إني وحيدة ليس لي أَهل سواه، فراجعها رسول الله ﷺ بمثل مقالته، فراجَعَتْهُ، فهذا هو مجادلتُها، وكانت في خلال جدالها تقول: اللهم إليك أَشكو حالي وانفرادي وفقري إليه، وروي أَنها كانت تقول: اللهم إن لي منه صغاراً، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا،

---

(١) هو أوس بن الصامت بن قيس، الخزرجي، الأنصاري، أخو عبادة بن الصامت، ذكروه فيمن شهد بدراً، قال ابن حبان: مات في أيام عثمان وله خمس وثمانون سنة، وقيل: مات سنة أربع وثلاثين بالرملة، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة. (الإصابة). وقد ذكرت أكثر المصادر والروايات أنه هو الذي ظاهر من زوجته.

(٢) هو سَلَمة بن صخر بن سليمان بن الصِّمة ـ بكسر الصاد وشد الميم كما في المغني ـ الأنصاري، الخزرجي، ويقال: سلمان، ويقال له البَيَاضيُّ، صحابي، قال البغوي: لا أعلم له حديثاً مسنداً إلا حديث الظِّهار. (الإصابة).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن، وذكر البغوي أن الذين رَوَوْا عنه حديث الظِّهار هم: سعيد بن المسيّب، وسليمان بن يسار، وأبو سلمة، وسماك بن عبد الرحمن، ومحمد بن عبد الرحمن. (راجع الإصابة والدر المنثور).

فهذا هو اشتكاؤُها إلى الله، فنزل الوحي ـ عند جدالها ـ على رسول الله ﷺ بهذه الآية، وكانت عائشة رضي الله عنها حاضرة لهذه القصة كلها، فكانت تقول: سبحان مَنْ وَسِعَ سمعُه الأَصوات، لقد كنت حاضرة لهذه القصة كلها، وكان بعض كلام خَوْلة يخفى علي، وسمع الله تعالى جدالَها، فبعث رسولُ الله ﷺ في أَوْس وقال له: أَتعتق رقبة؟ فقال: والله ما أَملكها، فقال: أَتصوم شهرين متتابعين؟ فقال: والله ما أَقدر أَن أَصبر إِلاَّ على أَكلات ثلاث في اليوم، ومتى لم أَفعل ذلك غشي بصري، فقال له: أَتطعم؟ فقال: لا أَجد إِلاَّ أن يُعينني رسول الله بمعونة وصلاة ـ يريد الدعاءَ ـ، فأَعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعاً، ودَعَا لَهُ، وقيل: بثلاثين صاعاً، فكفَّر بالإِطعام وأَمْسَك أَهله.

وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «تُحاورُكَ في زوجها»، والمحاورةُ: مراجعةُ القول ومعاطاتُه، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو: [يَظَّهَّرُونَ] بالتشديد، وقرأَ أُبيٌّ بن كعب ـ بخلاف عنه ـ: [يَتَظَهَّرُون]، وقرأَ ابن عامر، وحمزة والكسائي: [يَظَّاهَرُونَ]، وقرأَ أُبيٌّ بن كعب أَيضاً: [يَتَظَاهَرُونَ]، وقرأَ عاصم، وأَبو جعفر، والحسن، وقتادة: [يُظَاهِرُونَ] بضم الياءِ من قولك «فَاعَلَ»، وهذه مستعملة جدًّا، وقولهم: «الظِّهَارُ» دليلٌ عليها، والمراد بهذا كله قول الرجل لامرأَته: أَنت عليَّ كَظَهْرِ أُمِّي، يريد: في التحريم، كأَنه إِشارة إِلى الركوب إِذْ عُرْفُه في ظهور الحيوان، وكان أَهل الجاهلية يقولون ذلك، فردَّ الله تعالى بهذه الآية على فعلهم، وأَخبر بالحقيقة من أَن الأُمَّ هي الوالدة، وأَما الزوجة فلا يكون حكمها حكم الأُمِّ. وقرأَ جمهور الناس: [أُمَّهَاتهِمْ] بنصب الأُمّهات، وقرأَ عاصم ـ في رواية المفضل عنه ـ: [أُمَّهَاتُهُمْ] بالرفع، وهذا على اللغتين في [مَا]، لغة أَهل الحجاز ولغة تميم، وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه: [مَا هُنَّ بأُمَّهَاتِهِمْ] بزيادة باءِ الجرِّ، وجعل الله تعالى القول بالظهار مُنكراً وزوراً، فهو مُحَرَّم لكنه إِذا وقع لزم، هكذا قال فيه أَهل العلم، لكن تحريمه تحريم المكروهات جدًّا، وقد رَجَّى الله بعده بأَنه عَفُوٌّ غفورٌ مع الكفَّارة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

اختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ ـ فقال قوم: المعنى: والذين يظاهرون من نسائهم في الجاهلية، كأنه تعالى قال: والذين كان الظهار عادتهم ثم يعودون إلى ذلك في الإسلام، وقاله القتبي، وقال أهل الظاهر: المعنى: والذين يظاهرون ثم يظاهرون ثانية، فلا تلزم عندهم كفارة إلاَّ بأن يعيد الرجل التظاهر، قال مُنذر بن سعيد: حينئذ هو عائد إلى القول الذي هو منكر وزور، وهذا قول ضعيف وإن كان القشيريُّ قد حكاه عن بُكَير بن عبد الله بن الأشج(١)، وقال بعض الناس: في هذه الآية تقديم وتأخير، وتقديرها: «فتحرير رقبة لما قالوا»، وهذا أيضاً قولٌ يُفْسد نَظْم الآية، وحُكي عن الأخفش لكنه غير قوي، وقال قتادة، وطاوس، ومالك، والزهري، وجماعة كبيرة من أهل العلم معنى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ أي بالوطءِ، المعنى: ثم يعودون لما قالوا إنَّهم لا يعودون إليه، فإذا ظاهر الرجل ثم وَطِىءَ فحينئذ تلزمه الكفارة في ذمته وإن طَلَّق أو ماتت امرأته، وقال الشافعي، وأبو حنيفة، ومالك أيضاً، وفريق من أهل العلم: [يَعُودُونَ] معناه: بالعزم على إمساك الزوجة وَوَطْئِهَا والتزام التكفير لذلك، فمتى وقع من المظاهِر هذا العزم فقد لزمت الكفارة ذمته، طلَّق أو ماتت امرأته، وهذان القولان في مذهب مالك، وهما حَسَنان، لزمت الكفارة فيهما بشرطين: ظِهَارٌ وَعَوْدٌ واختلف في «العَوْد»، ما هو؟ فقال الشافعي: العَوْد الموجب للكفارة أن يمسك عن طلاقها بَعْد الظِّهار، وبِمُضيٍّ ـ بعد الظِّهار ـ ما يمكنه أن يُطلِّق فيه فلا يُطلِّق.

و«الرَّقَبَة» في الظِّهار لا تكون عند مالك إلاَّ مؤمنة، ردَّ هذا المُطْلَق إلى المُقَيَّد الذي في كفارة القتل الخطأْ.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ ـ فقال الحسن، والثوري، وجماعة: من قَبْل الوطءِ، وجَعَلَت المسيس ها هنا: الوطءَ، فأباحت للمظاهِر التقبيل والمضاجعة والاستمتاع بأعلى المرأة كالحيض، وقال الجمهور من أهل العلم: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ عامٌ في نوعَي المسيس: الوطءِ والمباشرة، فلا يجوز لِمُظَاهر أن يطأ ولا يقبِّل ولا يلمس بيده ولا يفعل شيئاً من هذا النوع إلاَّ بعد الكفارة، وهذا قول مالك

(١) اختلفت الأصول في كتابة اسمه، فبعضهم كتبه «بكر»، وبعضهم كتبه «بشر»، والصواب أن ابن الأشج اسمه بُكَيْر، قال عنه في «تهذيب التهذيب»: «من أعلم أهل عصره بالحديث»، وقال عنه في «تقريب التهذيب»: «أبو عبد الله، أو أبو يوسف، مولى بني مخزوم، المدني، نزيل مصر، ثقة، من الطبقة الخامسة، مات سنة عشرين».

رحمة الله، وقوله تعالى: [ذَلِكُمْ] إشارة إلى «التَّحرير»، أي فَعَل ذلك عِظَةً لكم لتنتهوا عن الظِّهَار.

و«المُتَتَابِعُ» في الشهرين صيامُهما، ولا يفرق بين أيامهما، وجائز أن يصومهما الرجل بالعدد فيصوم ستين يوماً تباعاً، وجائز أن يصومهما بالأهلة، يبدأُ مع الهلال ويفطر مع الهلال، فإن جاءَ أحد شهريه ناقصاً فذلك يجزىءُ عنه، وجائز أن يبدأ صومه في وسط شهرين بِبعض الشهر الأول فيصوم إلى الهلال، ثم يصوم شهراً بالهلال، ثم يُتم الشهر الأول بالعدد، ولا أحفظ خلافاً من أهل العلم أن الصائم في الظِّهار إن أفسد التتابع باختياره أنه يبدأُ صومهما، واختلف الناس إذا أفسده لعذر غالب كالمرض والنسيان ونحوه ـ فقال أصحاب الرأي، والشافعي في أحد قوليه، والنَّخعي، وابن جبير، والحكم بن عُيينة، والثوري: يبتدىءُ، وقال مالك، والشافعي، وغيره: يَبْني، وأجمعوا على الحائض أنها تبني في صومها المُتتابع.

وإطعامُ المساكين في الظِّهار هو بالمُدِّ الهاشمي عند مالك، وهو مُدٌّ وثلث بِمُدِّ النبي ﷺ، وقيل: مُدَّان غير ثُلث، وروى ابن وهب أنه يطعم مُدَّين بِمُدِّ النبي ﷺ، وفي العلماءِ من يرى إطعام الظِّهار مُدًّا بمُدِّ النبي ﷺ، ولا يُجزىءُ في إطعام الظِّهار إلاَّ إكمال عدد المساكين، ولا يُجزىءُ أن يُطعم ثلاثين مَرَّتين ولا ما أشبهه، والطعام هو غالب قوت البلد. وقال مالك، وعطاءٌ، وغيره: إطعام المساكين أيضاً هو قبل التَّماسِّ حَمْلاً على العتق والصوم، وقال أبو حنيفة، وجمهور من أهل العلم: لم يَنُصَّ اللهُ تعالى على الشرط هنا فنحن لا نلزمه، وللمُظَاهر إذا كان من أهل الإطعام أن يطأَ قَبْل الكفارة ويستمتع.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا﴾ إشارة إلى الرخصة والتسهيل في النقل من التحرير إلى الصوم والإطعام، ثم شدَّد تعالى بقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾، أي فالتزموها وقفوا عندها، ثم توعَّد الكافرين بهذا الحديث والحكم الشرعي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا

خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

هذه الآية نزلت في المنافقين وقوم من اليهود كانوا في المدينة يَتَمَرَّسُون[١] برسُول الله ﷺ، ويتربصون[٢] به الدوائر، ويديرون عليه[٣]، ويتمنون فيه المكروه، ويتناجون بذلك، فنزلت هذه الآياتُ إلى آخر أمر النجوى فيهم.

و«المُحَادَّةُ»: أَن يعطي الإِنسان صاحبه حدَّ قوله أَو سلاحه وسائر أفعاله، وقال قوم: هي أَن يكون الإِنسان في حدٍّ وصاحبه في حدٍّ مخالف. و«كُبت الرجلُ» إِذا بقي حزيناً يبصر ما يكره ولا يقدر على دفعه، وقال قوم ـ منهم أبو عبيدة ـ: أَصْلُه: كُبِدُوا، أَيْ أَصابهم داءٌ في أَكبادهم، فأُبدلت الدال تاءً، وهذا غير قوي. و(ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) هم منافقو الأُمم الماضية الذين حادُّوا الرسل عليهم الصلاة والسلام قديماً، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ يريد: في هذا القرآن، فليس هؤلاءِ المنافقون بأَعذر من المتقدمين.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، العامل في [يَوْمَ] [مُهِينٌ]، ويحتمل أَن يكون فعلاً مضمراً تقديره: اذكر. وقوله تعالى: (وَنَسُوهُ) نسيانٌ على بابه؛ لأَن الكافر لا يحفظ تفاصيل أَعماله، ولما أَخبر تعالى أَنه على كل شيءٍ شهيد وَفَّقَ محمداً ﷺ توفيقاً تشاركه فيه أُمته.

وقوله تعالى: ﴿مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾، يحتمل [نَجْوَى] أَن يكون مصدراً مضافاً إِلى [ثَلاثَةٍ]، كأَنه تعالى قال: مِن سِرَار ثلاثة، ويحتمل [نَجْوَى] أَن يكون المراد به جمعاً من الناس سُمِّي بالمصدر، كما قال تعالى في آية أُخرى: ﴿إِذْ هُمْ نَجْوَى﴾[٤]، أَي أُولُو نجوى، فيكون قوله تعالى: [ثَلاثَةٍ] ـ على هذا ـ بدلاً من [نَجْوَى] أَو صفة، وفي هذا نظر، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ أَي بعِلْمِهِ وإِحاطته ومقدرته، وقرأَ جمهور

---

(١) تمرَّس به: احتك به.

(٢) تربَّص به: انتظر أن يحلَّ به شَرٌّ أو خير، وهم هنا ينتظرون الشرَّ.

(٣) أداره عن الأمر وعليه وداوره: لاوَصَهُ، يقال: أدرتُ فلاناً على الأمر إذا حاولتُ إلزامه إياه، وأدرته عن الأمر إذا طلبتُ منه تركه.

(٤) من الآية (٤٧) من سورة (الإسراء).

الناس: ﴿مَّا يَكُونُ﴾، وقرأ أبو جعفر القارىء، وأبو حَيْوَة: ﴿مَا تَكُونُ﴾ بالتاء منقوطة من فوق، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [وَلاَ أَربعَة إِلاَّ اللهُ خامسهم]، وكذلك: [إِلاَّ اللهُ رابِعُهُم] و[إِلاَّ اللهُ سَادِسُهُم]، وقرأ جمهور القراءِ: ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ عطفاً على اللفظ المخفوض، وقرأ الحسن، والأعمش، وابن أَبي إِسحاق: [وَلاَ أَكْثرُ] بالرَّفع عطفاً على الموضع؛ لأن التقدير: ما يكون نجوى، ومَنْ جعل النجوى مصدراً محضاً قدَّر قبل [أدْنَى] فعلاً تقديره: ولا يكون أدنى، وقرأ الخليل بن أَحمد: [ولا أكبر] بالباءِ بواحدة من تحت، وباقي الآية بيِّنٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ⁽٨⁾﴾.

هذه الآية نزلت في قوم من اليهود نهاهم رسول الله ﷺ عن التناجي بحضرة المؤمنين وإِظهار ما يُستراب به من ذلك فلم ينتهوا فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد وقتادة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في اليهود والمنافقين، وقرأ جمهور القراءِ: [وَيَتَنَاجَوْنَ] على وزن «يَتَفَاعلون»، وقرأ حمزة، والأعمش، وطلحة، وابن وثاب: [وَيَنْتَجُونَ][1] على وزن «يفتعلون»، وهما بمعنى واحد أبداً كيَقْتَتِلُونَ ويتقاتلون، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «وعِصْيَان الرَّسول».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ﴾ الآية، يريد بذلك ما كانت اليهود تفعله من قولهم في التحية: السَّامُ عليك يا محمد، وذلك أنه رُوي أَن اليهود كانت تأْتي فتقول: السَّامُ عليك يا محمد ـ والسَّامُ: الموت، وإِيَّاه كانوا يريدون ـ فكان رسول الله ﷺ يقول: وعليكم، فسمعتهم عائشة رضي الله عنها يوماً فقالت: بل عليكم السَّام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: مهلاً يا عائشة، إِن الله يكره الفُحْش والتَّفَحُّش، قالت: أَما سمعت ما قالوا؟ قال: أَما سمعتِ ما قُلتُ لهم؟ إِني قلتُ: وعليكم[2].

---

(١) مضارع «انْتَجَى»، جاءَ في اللسان «انْتَجَى القومُ وتَنَاجَوْا: تَسَارُّوا».

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، عن عائشة رضي الله عنها. (الدر المنثور).

ثمَّ كشف الله تعالى خُبث طويَّتهم والحُجَّة التي إليها يستريحون، وذلك أَنهم كانوا يقولون: نحن الآن نلقى محمداً بهذه الأُمور التي تَسوؤُه ولا يُصيبنا سوءٌ، ولا يُعاقبنا الله تعالى بذلك، ولو كان نبيًّا لهلكنا بهذه الأَقوال، وجهلوا أَن أَمرهم مؤخر إلى عذاب جهنم، فأَخبر الله تعالى بذلك، وأَنها كافِيَتُهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآية كلها في المنافقين، ويُشبه أَن يكون في المنافقين من تخلَّق بخُلُق اليهود.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٠﴾.

وصَّى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بأَلاَّ يكون منهم تناج في مكروه، وذلك عام في جميع الناس إلى يوم القيامة، وخصَّ تبارك وتعالى «الإِثم» بالذكر لعمومه، و«العُدْوان» لعظمته في نفسه؛ إذا هي ظُلاَماتُ العباد، وكذلك «معصية الرسول» ذكرها طعناً على المنافقين إذْ كان تناجيهم في ذلك.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ﴾ على وزن «تَتَفَاعلوا»، وقرأَ ابن محيصن: [فلاَ تَنَاجَوْا] بحذف التاءِ الواحدة، وقرأَ بعض القراءِ: [فَلاَ تَّنَاجُوا] بتشديد التاءِ لأَنها أُدغمت في التاءِ، وقرأَ الأَعمش وأَهل الكوفة: [فَلاَ تَنْتَجُوا] على وزن «تَفْتَعِلُوا». والناس على ضم العين من [الْعُدْوَان]، وقرأَها أَبو حيوة بكسر العين حيث وقع. وقرأَ الضحاكُ وغيره: [وَمَعْصِيَاتِ الرُّسُلِ] على الجمع فيهما[1].

ثم أَمر تعالى بالتَّناجي في البرِّ والتَّقوى، وذكَّر بالحشر الذي معه الحساب ودخول إحدى الدارين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ﴾، ليست [إِنَّمَا] للحصر ولكنها لتأْكيد الخبر، واختلف الناس في النجوى التي هي من الشيطان التي أَخبر عنها في هذه الآية ـ فقال جماعة من المفسِّرين: أَرادَ: إنما النَّجوى في الإِثم والعُدوان ومعصية الرَّسول من الشيطان، وقال

(١) في بعض النسخ: ﴿وَمَعْصِيَاتِ الرَّسُولِ﴾ على الجمع فيها.

قتادة وغيره: الإشارة إلى نجوى المنافقين واليهود، وقال عبد الله بن زيد بن أَسلم: الإشارة إلى نجوى قوم من المسلمين كانوا يقصدون مناجاة رسول الله ﷺ وليس لهم حاجة ولا ضرورة إلى ذلك، وإنما كانوا يريدون التَّنجح بذلك، وكان المسلمون يظنون أَن تلك النجوى في إخبارٍ بعَدُوٍّ قاصِدٍ ونحوه، وهذان القولان يُعَضِّدهما ما يأْتي من أَلفاظ الآية، ولا يُعضِّد القول الأَول. وقال عطية العَوْفي[1] في هذه الآية: نزلت في المناجاة التي يراها المؤمن فتسوؤُه، وفيما يراه النائم فكأَنه نجوى يناجى بها، وهذا قول أَجنبي من المعنى الذي قبله والذي بعده.

وقرأَ نافع وأَهل المدينة: [لِيُحْزِنَ] بضم الياءِ وكسر الزاي، والفعل منسوب إِلى الشيطان، وقرأَ أَبو عمرو، والحسن، وعاصم، وغيرهم: [لِيَحْزُنَ] بفتح الياءِ وضم الزاي، تقول: «حَزَنْتُ قلْبَ الرَّجلِ» إذا جعلتَ فيه حُزناً، فهو كقولك: «كَحَلْتُ العين»، وهو ضرب من التعدِّي كأَن المفعول ظرف، وقد ذكر سيبويه رحمه الله تعالى هذا المعنى من تَعَدِّي الأَفعال، وقرأَ بعض الناس: [لِيَحْزَنَ] بفتح الياءِ والزاي، و[الَّذِينَ] على هذه القراءَة رفعٌ بإِسناد الفعل إِليهم، يقال: حَزِنَ الرجل بكسر الزَّاي.

ثم أَخبر تعالى أَن الشيطان والتناجي الذي هو منه ليس بضارٍّ أَحداً إِلاَّ أَن يكون ضرًّا بإِذن الله، أَي بأَمره وقدره، ثم أَمر تعالى بتوكل المؤمنين عليه تبارك وتعالى، وهذا كلُّه يُقوِّي أَن التناجي الذي من الشيطان إِنما هو الذي وقع للمؤمنين منه خوف، وللخوف اللاحق للقلوب في هذا قال رسول الله ﷺ: «لا يتناجى اثنان دون واحد»[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) هو عطية بن سعد بن جُنَادة ـ بضم الجيم وبعدها نون خفيفة ـ العَوْفي، الجَدَليُّ، الكوفي، أبو الحسن، صدوقٌ يخطىءُ كثيراً، كان شيعيا، من الطبقة الثالثة، مات سنة إحدى عشرة. (تقريب التهذيب).

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، وابن مردويه، عن ابن مسعود رضي الله عنه، ولفظه كما جاء في الدر المنثور: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث فإن ذلك يُحزنه».

قرأ جمهور الناس: [تَفَسَّحُوا]، وقرأ الحسن، وداود بن أَبي هند[١]، [تَفَاسَحُوا]، وقرأ جمهور القراءِ: [في المجلس]، وقرأ عاصم وحده، وقتادة، وعيسى: ﴿فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾.

واختلف الناس في سبب الآية والمقصود بها ـ فقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد: نزلت في مقاعد الحرب والقتال، وقال زيد بن أَسلم، وقتادة: نزلت بسبب تضايق الناس في مجلس النبي ﷺ، وذلك أَنهم كانوا يتنافسون في القرب منه وسماع كلامه والنظر إِليه، فيأْتي الرجل الذي له الحق والسنُّ والقدم في الإِسلام فلا يجد مكاناً، فنزلت الآية بسبب ذلك، وقال مقاتل: أَقام رسول الله ﷺ قوماً ليجلس أَشياخ من أَهل بدر ونحو ذلك، فنزلت الآية، وروى أَبو هريرة رضي الله عنه أَن النبي ﷺ قال: «لا يقم أَحدٌ من مجلسه ثم يجلس فيه الرجل، ولكن تفسَّحوا يفسح الله لكم»[٢]، وقال بعض الناس: إِنما الآية مخصوصة في مجلس النبي ﷺ وليس في سائر المجالس، ويدل على ذلك قراءَة من قرأَ: [في المجلس]، ومن قرأَ: ﴿فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ فذلك مرادٌ أَيضاً لأَن لكل أَحد مجلساً في بيت النبي ﷺ وموضعه، فجمع لذلك، وقال الجمهور من أَهل العلم: السبب مجلس النبي ﷺ والحُكم مُطَّردٌ في سائر المجالس التي هي للطَّاعات، ومنه قول النبي ﷺ: «أَحبكم إِلى الله أَلْيَنُكُمْ مناكب في الصلاة ورُكَباً في المجالس»[٣]، وهذا قول مالك رحمه الله تعالى، وقال: ما أَرى الحكم إِلاَّ يطردُ في مجالس العلم ونحوها غابر الدهر، ويؤيد هذا القول قراءَة من قرأَ: ﴿فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾، ومن قرأَ: [في المَجْلِسِ] فذلك ـ على هذا التأويل ـ اسم جنس، فالسُّنَّة المندوب إِليها هي التَّفَسُّح، والقيامُ منهيٌّ عنه، وحديث النبي ﷺ حديث نهى أَن يقوم الرجلُ فيجلسُ الآخرُ في مكانه، فأَمَّا القيام إِجلالاً فجائز بالحديث، وهو قوله ﷺ

---

(١) هو داود بن أبي هند، القشيري، مولاهم، أبو بكر أو أبو محمد، البصري، ثقة متقن، من الطبقة الخامسة، مات سنة أربعين، وقيل قبلها. (تقريب التهذيب).

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان والجمعة، ومسلم في السلام، وأبو داود والترمذي في الأدب، والدارمي في الاستئذان، وأحمد في المسند (٢ـ١٧، ٤٥، ٣٣٨)، ولفظه كما في مسند أحمد «لا يُقم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه، ولكن تفسَّحوا وتوسَّعوا».

(٣) لم أقف عليه.

حين أَقبل سعد بن معاذٍ رضي الله تعالى عنه: «قوموا إلى سيدكم»(١)، وواجب على المعظَّم أَلاَّ يُحب ذلك ويأْخذ الناس به، لقوله عليه الصلاة والسلام: «من أَحبَّ أن يتمثل له الرجال قياماً فَلْيَتَبَوَّأْ مقعده من النار»(٢)، وقوله تعالى: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ معناه: في رحمته وجنَّته.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ معناه: إذا قيل لكم ارتفعوا وقوموا فافعلوا ذلك، ومنه نُشوز العظام، أَي نباتها، والنشز من الأَرض: المرتفع، واختلف الناس في هذا النشوز الذي أُمروا بامتثاله، ما هو؟ فقال الحسن، والضحاك، وقتادة: معناه: إذا دُعوا إلى قتال أَو طاعة أَو صلاة ونحوه، وقال آخرون: إذا دعوا إلى القيام عن النبي ﷺ؛ لأَنه عليه الصلاة والسلام أَحياناً كان يُحب الانفراد في أَمر الإِسلام، فربما جلس قوم وأَراد كل أَحد أَن يكون آخر الناس عهداً بالنبي ﷺ، فنزلت الآية آمرةً بالقيام عنه متى فهم ذلك بقول أَو فعل، وقال آخرون: معناه: انشزوا في المجلس بمعنى التَّفَسُّح؛ لأَن الذي يريد التوسع يرتفع إلى فوق في الهواءِ، فإذا فعل ذلك جملة اتسع الموضع، فيجيءُ [انْشُزُوا] في غرض واحد مع قوله تعالى: (تَفَسَّحُوا)، وقرأَ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: [انْشُزُوا] برفع الشين، وهي قراءَة أَبي جعفر، وشيبة، والأَعرج. وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [انْشِزُوا] بكسر الشين فيها، وهي قراءَة الحسن، والأَعمش، وطلحة، يقال: نَشَزَ يَنْشُزُ كَحَشَرَ يَحْشُرُ ويَحْشِر وعَكَفَ يَعْكُف ويَعْكِف. وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ﴾ جواب الأَمر.

واختلف الناس في ترتيب قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ - فقال جماعة من المتأَولين: المعنى: يرفع الله المؤمنين العلماءَ منكم درجات، فلذلك أَمر بالتَّفَسُّح من أَجلهم، ويجيءُ ـ على هذا ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ بمنزلة

---

(١) أخرجه البخاري في العتق والاستئذان، وأبو داود في الأدب، وأحمد في مسنده (٣ـ٢٢، ٦ـ١٤٢)، ولفظه فيه: عن أبي أُمامة بن سهل قال: سمعت أبا سعيد الخدري قال: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، قال: فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد فأتاه على حمار، قال: فلما دنا قريباً من المسجد قال رسول الله ﷺ: قوموا إلى سيدكم، أو خيركم، ثم قال: إن هؤلاء نزلوا على حكمك، قال: تُقتل مقاتلتهم وتُسبى ذراريهم، قال: فقال النبي ﷺ: لقد قضيت بحكم الله، وربما قال: قضيت بحكم الملك.

(٢) أخرجه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، عن معاوية، ورمز له الإمام السيوطي بأنه حديث حسن.

قولك: جاءَني العاقلُ والكريمُ والشجاعُ، وأنت تريد رجلاً واحداً. وقال آخرون: المعنى: يرفع اللهُ المؤمنين والعلماءَ، الصِّنفين جميعاً درجات، لكنا نعلم تفاضلهم في الدرجات من مواضع أُخر، ولذلك جاءَ الأمر بالتَّفسُّح عامًّا للعلماءِ وغيرهم. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره: المعنى: «يرفع الله الذين آمنوا منكم»، وتمَّ القولُ، ثم ابتدأَ بتخصيص العلماءِ بالدرجات، ونصبهم بإضمار فعل، فالمؤمنون رفع على هذا التأويل، وللعلماءِ درجات، وعلى هذا التأويل قال مطرِّف بن عبد الله بن الشخِّير: «فضل العلم أَحب إلي من فضل العبادة، وخير دينكم الورع»، ثم توعَّد تعالى وحذَّر بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ الآية، رُوي عن ابن عباس، وقتادة في سببها أَنَّ قوماً من شباب المسلمين كثرت مناجاتهم للنبي ﷺ في غير حاجة إلاَّ لتظهر منزلتهم، وكان رسول الله ﷺ سمحاً لا يردُّ أَحداً، فنزلت هذه الآية مشدِّدة عليهم في أَمر المناجاة، وقال مقاتل: نزلت في الأَغنياءِ لأَنهم غلبوا الفقراءَ على مناجاة رسول الله ﷺ وعلى مجلسه. وقال جماعة من الرواة: لم يُعمل بهذه الآية بل نُسخت قبل العمل، لكن استقر حكمها بالعزم عليه، كأَمر إبراهيم عليه السلام في ذبح ابنه عليه السلام، وصحَّ عن علي رضي الله عنه أَنه قال: ما عمل بها أَحدٌ غيري، وأَنا كنتُ سبب الرُّخصة والتخفيف عن المسلمين، وذلك لأَني أَردت مناجاة النبي ﷺ في أَمر ضروري، فصرفت ديناراً بعشرة دراهم، ثم ناجيته عَشْر مرَّاتٍ، أُقدِّم في كل مرَّة درهماً، وروي عنه أَنه تصدَّق في كل مرَّة بدينار، قال عليٌّ رضي الله عنه: ثم فهم رسول الله ﷺ أَن هذه العبادة قد شقَّت على الناس، فقال لي: يا عليٌّ، كم ترى أَن يكون حدُّ هذه الصدقة؛ أَتراه ديناراً؟ قلت: لا، قال: فنصف دينار؟ قلت: لا، قال: فكم؟ قلت: حبَّةٌ من شعير، قال: إنَّكَ لزهيد، فأَنزل الله تعالى الرخصة للواجدين، وأَمَّا من لا يجد فالرخصة له ثابتة بقوله سبحانه: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[1]، وقال مقاتل: بقي هذا الحكم عشرة أَيامٍ، وقال قتادة: بقي ساعة من نهار، وقرأَ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي وحسَّنه، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والنحاس، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأخرج مثله سعيد بن منصور، وابن راهويه، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم وصححه، عن علي رضي الله عنه.

الجمهور من الناس: [صَدَقَةً] بالإفراد، وقرأ بعض القراءِ: [صَدَقَاتٍ] بالجمع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾.

«الإِشفاقُ»: الفزع من العجز عن الشيءِ المُتَصَدَّق به أَو من ذهاب المال في الصدقة، وله وجوه كثيرة يقال فيها الإِشفاق، لكنه في هذا الموضع كما ذكرت. و﴿تَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ معناه: رجع بكم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية، معناه: دوموا على هذه الأَعمال التي هي قواعد شرعكم، ومَنْ قال إِن هذه الصدقة منسوخةٌ بآية الزكاة فقوله ضعيف لا يحصِّل كيفية النسخ، وما ذُكر في نحو هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما لا يصح عنه، والله تعالى أَعلم.

قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟﴾. نزلت في قوم من المنافقين تولوا قوماً من اليهود وهم المغضوب عليهم، وقال الطبري: ﴿مَّا هُم﴾ يريد المنافقين، و[مِنكُمْ] يريد به المؤمنين، و[مِنْهُمْ] يريد به اليهود.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التأْويل يجري مع قوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[1]، ومع قوله عليه الصلاة والسلام: «مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين»[2]، لأَنه مع المؤمنين بقوله ومع الكافرين بقلبه، لكن هذه الآية تحتمل تأْويلاً آخر وهو أَن يكون قوله تعالى: ﴿مَّا هُم﴾ يريد به اليهود، وقوله تعالى: ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ يريد به المنافقين، فيجيءُ فعل المنافقين ـ على هذا التأْويل ـ أَخَسَّ لأَنهم تولَّوْا قوماً مغضوباً عليهم ليسوا

---

(١) من الآية (١٤٣) من سورة (النساء).

(٢) أخرجه أحمد، ومسلم، والنسائي، عن ابن عمر رضي الله عنهما، وذكره الإمام السيوطي في الجامع الصغير ورمز له بالصحة، وفيه زيادة على ما هنا (تُعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة لا تدري أيهما تتبع». ومعنى العائرة: المترددة.

من أَنفسهم فيلزمهم ذِمامُهم ولا من القوم المُحِقِّين فتكون الموالاة صواباً. وقوله تعالى: [وَيَحْلِفُونَ] يعني المنافقين؛ لأَنهم كانوا إِذا وُقفوا على ما يأْتون به من بُغض النبي ﷺ وشتمه وموالاة عدُوِّه حلفوا أَنهم لا يفعلون ذلك واستسهلوا الحنث، ورُوي من هذا نوازل كثيرة اختصرتها إِيجازاً، وإِذا تُتُبِّعت في المصنفات وُجدت كقول ابن أُبَيٍّ: [لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ] وحلفه على أَنه لم يفعل، وغير ذلك.

و«الْعَذَابُ الشَّدِيدُ» هو عذاب الآخرة، وقرأَ جمهور الناس: [أَيْمَانَهُمْ] جمع يَمين، وقرأَ الحسن: [إِيمَانَهُمْ] أَي ما يظهرونه من الإِيمان.

و«الْجُنَّةُ»: ما يُتَستَّر به ويُتَّقَى المحذور، ومنه «المِجَنُّ» وهو التُّرْسُ، وقوله تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أَن يكون الفعل غير مُتَعَدٍّ، كما تقول: صَدَّ زيْدٌ، أَي: صدُّوا هم أَنفُسهم عن سبيل الله وعن الإِيمان برسوله، ويحتمل أَن يكون الفعل متعدياً، أَي: صدُّوا غيرهم من الناس عن الإِيمان ممَّن اقتدى بهم وجرى في مضمارهم، ويحتمل أَن يكون المعنى: فصدُّوا المسلمين عن قتلهم، وتلك سبيل الله فيهم لكن ما أَظهروه من الإِيمان صدُّوا به المسلمين عن ذلك، و«الْمُهين»: المُذِلُّ، من الهوان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

رُوي أَن المنافقين فخروا بكثرة أَموالهم وأَولادهم وأَظهروا السرور بذلك فنزلت الآية معلمةً أَن ذلك لا غَناءَ له عنهم ولا مدفع بسببه، والعامل في قوله تعالى: [يَوْمَ] [أَصْحَابُ] على تقدير فعل.

وأَخبر الله تعالى عنهم في هذه الآية أَنهم ستكون لهم أَيمان يوم القيامة وبين يدي الله تعالى يُخَيَّل إِليهم بجهلهم أَنها تنفعهم وتُقبل منهم، وهذا هو حسابُهم أَنهم على شيءٍ، أَي على فِعْل أَيِّ شيءٍ نافع لهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ في كتاب الثعلبي ـ:

قال عليه الصلاة والسلام: «ينادي منادٍ يوم القيامة: أَين خُصماءُ الله؟ فتأْتي القدرية مسودَّةً وجوههم مزرقة أَعينهم، فيقولون: ما عبدنا شمساً ولا قمراً، ولا اتخذنا من دونك إِلٰهاً»، قال ابن عباس رضي الله عنهما: صَدَقوا والله ولكن أَتاهم الإِشراك من حيث لا يعلمون، ثمَّ تَلاَ هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ معناه: تملَّكهم من كل جهة وغَلَب على نفوسهم، وهذا الفعل ممَّا استُعمل على الأَصل، فإِن قياس التعليل يقتضي أَن يقال: اسْتَحَاذَ، وحكى الفراءُ في كتاب «اللغات» أَن عمر رضي الله عنه قرأَ: [اسْتَحَاذَ].

و[يُحَادُّونَ] معناه: يعطون الحدَّ من الأَفعال والأَقوال، وقال بعض أَهل العلم بالمعاني: معناه: يكونون في حدٍّ غير الحدِّ الذي شرع الله تبارك وتعالى، ثم قضى الله تعالى على مُحادّه بالذل، وأَخبر بأَنه كتب فيما أَمضى من قضائه وقدره في الأَزل أنه يغلب هو ورسله كلَّ من حادَّ الله والرُّسل. وقرأَ نافع، وابن عامر: [وَرُسُلِيَ] بفتح الياءِ، وقرأَ الباقون بسكونها، وقال الحسن: ما أَمر الله تعالى قطُّ رسولاً بالقتال إِلاَّ وأَغلبه وظفَّره بقوته وعزَّته، لا ربَّ سواه، وقال غيره: ومن لم يؤمر بقتال فهو غالبٌ بالحُجَّة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

نفت هذه الآية أَن يوجد من يؤمن بالله تعالى حق الإِيمان ويلتزم شُعبه على الكمال يُوادُّ كافراً أَو منافقاً، ومعنى «يُوَادُّ» يكون بينهما من اللطف بحيث يودُّ كل واحد منهما صاحبه، وعلى هذا التأْويل قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: اللهم لا تجعل لمشرك قِبَلي يداً فتكون سبباً للمودَّة، فإِنَّك تقول: وتلا هذه الآية. وتحتمل الآية أَن يُراد بها: لا يوجد من يؤمن بالله والبعث يُوَادُّ من حادَّ الله من حيث هو محادٌّ؛ لأَنه حينئذ يودُّ المحادَّة، وذلك يوجب أَلاَّ يكون مؤمناً.

ويُروى أَن هذه الآية نزلت في شأْن حاطب بن أَبي بلتعة ومخاطبته أَهل مكة،

وظاهر هذه الآيات أنها متصلة المعنى، وأن هذه في معنى الذَّم للمنافقين الموالين لليهود، وإذا قُلنا إنها في أمر حاطب جاءَ ذلك أجنبيًّا في أمر المنافقين وإن كان شبيهاً به، و«الإخوان» هنا إخوة النَّسب بدليل اقترانه بالآباءِ، وعُرف «الإخوان» أنه في الأَودَّاءِ، كما أن عُرف «الإخوة» أنه في النسب، وقد يكون مستعملاً في إخاءِ الوُدِّ.

و﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ معناه: أثبته وخلقه بالإيجاد، وذهب أبو علي الفارسي وغيره من المعتزلة إلى أن المعنى: جعل في قلوبهم علامات تعرف الملائكة بها أنهم مؤمنون، وذلك لأنهم يرون أن العبد يخلق إيمانه، وقد صرَّح النقَّاشُ بهذا المذهب، وما أُراه قاله إلاَّ غير مُحَصِّل لما قال، وأمَّا أبو علي الفارسي فَعَن بَصَرٍ به[1]. وقرأَ جمهور القراءِ: [كَتَبَ] على بناءِ الفعل للفاعل، و[الإِيمَانَ] بالنصب، وقرأَ أبو حَيْوة، وعاصم ـ في رواية المفضل عنه ـ: [كُتِبَ] على بناءِ الفعل للمفعول، و[الإِيمَانُ] بالرفع.

وقوله تعالى: [أُولَئِكَ] إشارة إلى المؤمنين الذين تقتضيهم معنى الآية؛ لأَن المعنى: لكنك تجدهم لا يُوادُّون من حادَّ الله، وقوله تعالى: ﴿بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾: بِهُدًى ولُطف ونور وتوفيق إلٰهي ينقدح من القرآن ومن كلام النبي ﷺ، وقيل: المعنى: بالقرآن، لأَنه روحٌ، وقيل: المعنى: بجبريل عليه الصلاة والسلام.

و«الْحِزْبُ»: الفريق الذي يجمعه مذهب واحد، و«الْمُفْلِحُ»: الفائز بِبُغْيَتِه، وباقي الآية بيِّنٌ.

كمل تفسير سورة المجادلة والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

---

(١) قارن هذا بما نسبه بعضهم إلى المؤلف من ميله إلى الاعتزال، وراجع مقدمة هذا التفسير.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الحشر

هذه السُّورة مدنيَّة باتفاق من أَهل العلم، وهي سورة بني النَّضير؛ وذلك أَن رسول الله ﷺ كان قد عاهد بني النَّضير على سِلْمٍ وهم يرون أَنه لا تُردُّ له رايةٌ، فلما جرت هزيمة أُحُد ارتابوا وداخلوا قريشاً وغدروا، فلما رجع النبي ﷺ من أُحد تبيَّن له معتقد بني النَّضير وغدرهم بعهده وموالاتهم للكفَّار، فجمع إِليهم وحاصرهم وعاهدهم على أَن يُجليهم عن أَرضهم، فارتحلوا إِلى بلاد مختلفة: خيبر والشام وغير ذلك من البلاد، ثم كان أَمر بني قُرَيْظَة مرجعه ﷺ من الأَحزاب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾.

قد تقدَّم القول في تسبيح الجمادات التي يتناولها عموم «ما في السموات وما في الأرض»، وأَن أَهل العلم اختلفوا في ذلك، فقال قوم: ذلك على الحقيقة، وقال آخرون: ذلك مجاز، أَي أَن آثار الصنعة فيها والإِيجاد لها كالتسبيح وداعية إِلى التسبيح مِمَّن له أَن يسبح، وقال مكي: [سَبَّحَ] معناه: صلَّى وسجد، فهذا كله بمعنى الخضوع والطوع، و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صفتان مناسبتان لما يأْتي بعد من قصة العدو الذين أَخرجهم من ديارهم.

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هم بنو النَّضير، وكانت قبيلة عظيمة من بني إِسرائيل موازية في القَدْر والمنزلة لبني قريظة، وكان يقال للقبيلتين: الكاهنان لأَنهما من ولد الكاهن بن هرون، وكانت أَرضُهم وحصونهم قريبةً من المدينة، ولهم نخل

وأَموال عظيمة، فلما رجع رسول الله ﷺ من أُحُد خرج إِلى بني النضير فحاصرهم وأَجلاهم على أَن يحملوا من أَموالهم ما أَقلَّته الإِبل حاشى الحلقة ـ وهي جميع السلاح ـ، فخرجوا إِلى بلاد مختلفة، فذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ اختلف الناس في معنى ذلك بعد اتفاقهم على أَن «الْحَشْر» هو الجمع والتوجيه إِلى ناحية مَّا ـ فقال الحسن بن أَبي الحسن، وغيره: أَراد تعالى حَشْر القيامة، أَي هذا أَوله، والقيام من القبور آخره، وروى الحسن أَن النبي ﷺ قال لهم: «امضوا، هذا أَول الحشر وأَنا على الأَثر»[١]، وقال عكرمة، والزهراوي، وغيرهما: المعنى: لأَوَّل موضع الحشر وهو الشام، وذلك أَن أَكثر بني النضير جاءَت إِلى الشام، وقد رُوي أَن حشر القيامة هو إِلى الشام، وأَن النبي ﷺ قال لبني النضير: «اخرجوا»، قالوا: إِلى أَين يا محمد؟ قال: «إِلى أَرض المحشر»[٢]، وقال قوم ـ في كتاب المهدوي ـ المرادُ الحشر في الدنيا الذي هو الجلاءُ والإِخراج، فهذا الذي فعل رسول الله ﷺ ببني النَّضير أَوَّلُه، والذي فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأَهل خيبر آخره، وأَخبرت الآية بمغيب، وقد أَخبر النبي ﷺ بجلاءِ أَهل خيبر، ويحتمل أَن يكون آخر الحشر في قول النبي ﷺ في مرضه: «لاَ يَبْقَيَنَّ دينان في جزيرة العرب»، فإِن ذلك يتضمن إِجلاءَ بقاياهم، قال الخليل ـ فيما حكى الزجاج ـ: سميت جزيرة لأَنه أَحاط بها بحر الحبشة وبحر فارس ودجلة والفرات. وفي هذه الإِحاطة نظر.

وقوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ معناه: لِمَنَعَتِهم وكثرة عددهم، فلم تكن آمالكم وظنونكم تنتهي إِلى أَنهم يخرجون ويَدَعون أَموالهم لكم، وبحسب ذلك من المنعة والعُدَّة والتَّحصُّن ظنُّوا أَنهم لن يُقْدَرَ عليهم، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يريد: من جُند الله وحزب الله. وقوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ عبارة عن إِظهار الله تعالى المسلمين عليهم وإِلقائهم في حيِّز الهزم والذل. وقرأَ الجمهور: [الرُّعْبَ]

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن، (الدر المنثور).

(٢) أخرجه البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث»، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: من شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾: قال لهم رسول الله ﷺ يومئذ: اخرجوا: قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر.

بسكون العين، وقرأ أبو جعفر، وشيبة: [الرُّعُبَ] بضم العين.

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ - فقال الضحاك، والزجاج، وغيرهما: كلما هدم المسلمون من تحصينهم في القتال هدموا هم من البيوت وجبروا الحِصْن دأباً، فهذا معنى تخريبهم، وقال الزهري وغيره: كانوا لما أُبيح لهم ما تستقل به الإبل لا يدعون خشبةً حسنةً ولا نجافاً[1] ولا ساريةً إلاَّ قلعوها وخربوا البيوت عنه. وقوله تعالى: ﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من حيث فِعْلُهم بكفرهم داعية إلى تخريب المؤمنين بيوتَهم، فكأنهم قد خربوها بأيدي المؤمنين، وقال جماعة من المفسرين: إنهم لما أزمعوا الجلاءَ شحوا على ترك البيوت سليمة للمؤمنين فهدموا وخربوا بمعنى الإفساد على من يأتي، وقال قتادة: خرب المؤمنون من خارج ليدخلوا وخربوا هم من داخل، وقرأ جمهور القراءِ: [يُخْرِبُونَ] بسكون الخاءِ وتخفيف الراءِ، وقرأ أبو عمرو وحده، والحسن ـ بخلاف عنه ـ وقتادة، وعيسى: [يُخَرِّبُونَ] بفتح الخاءِ وشد الرَّاءِ، فقال فريق من العلماءِ اللغويين: القراءَتان بمعنى واحد، وقال أبو عمرو بن العلاءِ: «خرَّب» معناه: هدم وأفسد، و«أَخْرَبَ» معناه: ترك الموضع خراباً وذهب عنه.

ثم نبَّه تبارك وتعالى المؤمنين وغيرهم ممَّن له أن ينظر على نُصرة رسوله ﷺ وصنعه له فيمن حادَّه وناوأه بقوله: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾، أي العقول والأفهام.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾.

أَخبر تعالى في هذه الآية أنه كتب على بني إسرائيل جلاءً، وكانت بنو النَّضير ممَّن حلَّ بالحجاز عند موت موسى عليه الصلاة والسلام بيسير؛ لأنهم كانوا من الجيش الذي

---

(١) النِّجاف: أسكُفَّةُ الباب، أو هو الذي يستقبل الباب من أعلى الأسكُفَّة، ويقال له: الدَّوَّارة، والأسْكُفة هي العَتَبَة.

رجع، وقد عصوا في أن لم يقتلوا الغلام ابن ملك العماليق لجماله وعقله، وقد كان موسى عليه السلام قال لهم: لا تستحيوا أحداً، فلما رجع ذلك الجيش إلى بني إسرائيل بالشام وجدوا موسى عليه السلام ميتاً، وقال لهم بنو إسرائيل: أنتم عصاة، والله لا دخلتم علينا بلادنا، فقال أهل ذلك الجيش عند ذلك: ليس لنا أحب من البلاد التي غلبنا أهلها، فانصرفوا إلى الحجاز فكانوا فيه، فلم يجر عليهم الجلاءُ الذي أجراه بختنصر على أهل الشام، وقد كان الله تعالى كتب على بني إسرائيل جلاءً فنالهم هذا الجلاءُ على يدي محمد ﷺ، ولولا ذلك لعذبهم الله تعالى في الدنيا بالسيف والقتل كأهل بدر وغيرهم، ويقال: جَلاَ الرجلُ، وأَجلاه غيرُه، وقد يقال: أَجلى الرجل نفسه، بمعنى: جلا.

و«الْمُشَاقَّةُ»: كون الإنسان في شق ومخالفه في شق.

وقوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ سببها أَن بعض أَصحاب النبي ﷺ وضعوا أَيديهم في نخل بني النضير يقطعون ويحرقون، فقال بنو النضير: ما هذا الإِفساد يا محمد وأَنت تنهى عن الفساد؟ فكف عن ذلك بعض الصحابة، وذلك في صدر الحرب معهم، فنزلت الآية مُعْلِمةً أَن جميع ما جرى من قطع أَو إمساك فبإِذن الله تعالى، وردَّت الآية على قول بني النضير إِنَّ محمداً ينهى عن الفساد وها هو ذا يُفسد، فأَعلم الله تعالى أَن ذلك بإِذنه وليجزي الفاسقين من بني النضير.

واختلف الناسُ في «اللِّينَةِ» ـ فقال الحسن، ومجاهد، وأَبو زيد، وعمرو بن ميمون: اللِّينة: النخلة، اسمان بمعنى واحد، وجَمْعها لِينٌ وليانٌ، وقال الشاعر:

وَسَالِفَةٌ كَسَحُوقِ اللَّيَانِ ... أَضْرَمَ فيها الْغَوِيُّ السُّعُرْ[1]

(١) هذا البيت لامرىء القيس، وهو من قصيدة له يصف فيها فرسه وخروجه للصيد، وفيها يقول مشبهاً فرسه بالجرادة في خِفَّتها وسرعتها: (وأركبُ في الروع خيفانة...)، والبيت في اللسان (سحق) غير منسوب، وقد استشهد به القرطبي، وأبو حيان في البحر المحيط، والسالِفَةُ: أعلى العنق، أو هي ناحيته من مُعَلَّق القُرْط إلى الحاقنة، وسَحُوق اللَّيَان هي النخلة الطويلة الجرداءُ التي لا كَرَبَ لَها، والكَرَبُ هو الأصل العريض للسَّعَفِ إذا يَبس. والغويُّ: الغاوي المُفسد والسُّعُر: شدة الوقود، يشبه عُنَق فرسه بالنخلة الطويلة الجرداءِ، ويصفها بأنها شقراءُ اللون، فلذلك ذكر الوقود، والشاهد هنا أنه ذكر اللِّيان، وهو جمع اللِّينة.

وقال آخر:

طِرَاقُ الْخَوَافِي وَاقِعٌ فَوْقَ لِينَةٍ ... نَدَى لَيْلِهِ فِي رِيشِهِ يَتَرَقْرَقُ[1]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة من اللغويِّين: اللِّينة من النَّخل ما لم تكن عجوة، وقال سفيان بن سعيد الثوري: اللِّينة: الكريمة من النَّخل، وقال أبو عبيدة ـ فيما رُوي عنه ـ وسفيان: اللِّينة: ما تمرها لونٌ، وهو نوعٌ من التمر يقال له: اللَّون، قال سفيان: هو شديد الصُّفرة يشِفُّ عن نواه فيُرى من خارج، وأصلها «لِوْنَة» فأُبدلت لموافقة الكسرة، وقال أبو عبيدة أيضاً: اللِّين: ألوان النَّخل المختلطة التي ليس فيها عجوة ولا نوى. وقرأ ابن مسعود والأعمش: «أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قُوَّماً عَلَى أُصُولِها»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ الآية... إعلامٌ أَنَّ ما أُخذ من بني النَّضير ومن فَدَك فهو خاصٌّ للنبي ﷺ، وليس على حكم الغنيمة التي يُوجف عليها ويُقاتل فيها، بل على حكم خُمس الغنائم، وذلك أن بني النضير لم يوجف عليها ولا قوتلت كبير قتال، فأخذ منها رسول الله ﷺ لنفسه قوتَ عياله، وقسَّم سائرها في المهاجرين ولم يُعط الأنصار منها شيئاً، غير أن أبا دُجانة سِمَاكُ بنُ خَرَشَة وسَهْلَ بنُ حُنَيْف[3] شكيا فاقة عظيمة فأعطاهما، هذا قول جماعة من العلماءِ، وفي ذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كانت أموال بني النَّضير ممَّا أفاءَ الله تعالى على

(١) البيت لِذِي الرُّمَّة، وهو في اللسان (ريع)، والرواية فيه: (واقعٌ فَوْقَ رِيعَةٍ)، وعلى هذه الرواية لا يُستشهد به هنا، ولهذا استشهد به الطبري عند تفسير قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨﴾، وقد استشهد به صاحب اللسان أيضاً في (طرق)، يقال: طائرٌ طِرَاقُ الرِّيش: إذا ركب بعضه بعضاً، والخوافي: ما تحت القوادم في الطائر من الريش، والقوادم: أربع ريشات طويلة في أول جناح الطائر، ومفردها: قادمة، والشاعر هنا يصف بازياً بأن شَعْر خوافيه كثيفٌ بعضه فوق بعض، ويقول: إنه نزل فوق نخلة عالية، وأن الندى يلمع فوق ريشه، ويعني بهذا أنه قضى ليله فوق النخلة العالية، والشاهد ذكر اللِّينة هنا وهي النخلة الطويلة الجرداءُ.

(٢) في القرطبي أن هذه هي قراءة الأعمش، أما قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فهي: «ما قطعتم من لِينةٍ ولا تركتُمْ قَوْمَاءَ عَلَى أُصولِها». أما في البحر فذكر أنها قراءة عبد الله والأعمش وزيد بن علي.

(٣) أما سِماك بن خرشة الخزرجي الأنصاري فهو المعروف بأبي دُجانة، صحابي، كان شجاعاً، شهد بدراً وثبت في أُحد، وأُصيب بجراحات كثيرة، واستشهد في اليمامة، وكانت له مشية فيها خيلاءٌ، رآه النبي ﷺ في معركة فقال: هذه مشية يبغضها الله إلا في هذا المكان، وأما سَهْلُ فهو سَهْل بن حُنيف بن وهب الأنصاري، أبو سعد، صحابي من السابقين، شهد بدراً وثبت يوم أُحد، وآخى النبي ﷺ بينه وبين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، شهد مع علي صِفِّين، وتوفي بالكوفة، وله (٤٠) حديثاً شريفاً.

رسوله ﷺ ممَّا لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكان رسول الله ﷺ ينفق منها على أَهله نفقة سنة، وما بقي منها جعله في السلاح والكراع عُدَّة في سبيل الله تعالى، قال بعض العلماءِ: وكذلك كل ما فُتح على الأئمة ممَّا لم يوجف عليه فهو لهم خاصة، والوجيف دون التقريب[1]، يقال: وجف الفرس وأَوجفه الراكب، والإِيجاف: سرعة السير والاجتهاد فيه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

أَهل القرى المذكورون في هذه الآية هم أَهل الصفراءِ والينبوع ووادي القرى وما هنالك من قرى العرب التي تُسمى قرى عربية، وحكمها مخالف لبني النَّضير، ولم يحبس رسول الله ﷺ من هذه لنفسه شيئاً، بل أَمضاها لغيره؛ وذلك أَنها في ذلك الوقت فتحت، واختلف الناس في صفة فتحها ـ فقيل: غزاها رسول الله ﷺ، وبعث بعثاً إِلى كل مكان فأَطاع وأَعطاه أَهله فكان ممَّا لم يوجف عليه، وكان حكمه حكم الغنائم، وليس في الآية نسخ على هذا التأويل، وأَعطى رسول الله ﷺ جميع ذلك للمهاجرين ولم يعط الأَنصار شيئاً. وقال قتادة، ويزيد بن رومان: كانت هذه القرى قد أُوجف عليها ولكن كان هذا حكم ما لم يوجف عليه، ثم نسخ الله تعالى هذا الحكم بآية الأَنفال فجعل فيها الخُمس لهذه الأَصناف وبقيت الأَربعة الأَخماس للمقاتلة، وآية هذه السُّورة لم يكن فيها شيءٌ للمقاتلة، وهذا القول يضعف لأَن آية الأَنفال نزلت إِثر بَدْر قبل بني النضير وقبل أَمر هذه القرى بسنة ونيِّف، و«القربى» في هذه الآية قرابةُ النبي ﷺ، مُنعوا الصدقة فعُوضوا من الفيءِ.

وقوله تعالى: ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ ﴾ مخاطبة للأَنصار لأَنه لم يكن للمهاجرين في ذلك الوقت غنى، وقرأَ جمهور الناس: [يَكُونَ] بالياءِ، وقرأَ ابن

(١) التقريب: نوع من عَدْو الفرس عدواً بدون إِسراع، والوجيف: عدوٌ أَقل من التقريب ولكن فيه تحريك وإِتعاب للدابة.

مسعود، وأَبو جعفر، وهشام عن ابن عامر بالتاءِ، وهي «كان» التامة، وقرأ جمهور الناس: [دُولَةً] بضم الدال ونصب الهاءِ، وقرأَ أَبو عبد الرحمن السُّلَمي: [دَوْلَةً] بفتح الدال ونصب الهاءِ، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع، وهشام عن ابن عامر: [دُولَةٌ] بضم الدال والهاءِ، وقال عيسى بن عمر: هما بمعنى واحد، وقال الكسائي وحُذَّاق النظرة: الفتح في المُلْك ـ بضم الميم ـ لأَنها الفعلة في الدَّهر، والضم في المِلْك ـ بكسر الميم ـ والمعنى أَنها كالعواري، فيتداول الأَغنياءُ ذلك المال بتصرفاتهم ويبقى المساكين بلا شيءٍ، ولا حظَّ في شيءٍ من هذه الأَموال ليتيم غني ولا لابْن سبيل حاضر المال، وقد مضى القول في الغنائم في سورة الأَنفال.

ورُوي أَن قوماً من الأَنصار تكلموا في هذه القرى المُفْتَتَحَة وقالوا: لنا منها سهمنا، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ الآية... مؤدباً في ذلك وزاجراً، ثم اطَّرد بعْدُ معنى الآية في أَوامر النبي ﷺ ونواهيه، حتى قال قوم: إِن الخمر محرمة في كتاب الله تعالى بهذه الآية، وانتزع منها ابن مسعود رضي الله عنه لعنةَ الواشمة والمستوشمة... الحديث[1]، ورأَى مُحرماً في ثيابه المخيطة فقال له: اطرح هذا عنك، فقال له الرجل: أَتقرأُ عليَّ بذلك آية من كتاب الله تعالى؟ فقال ابن مسعود رضي الله عنه: نعم، وتلا هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ بيان لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، فكرَّر لام الجر كما كانت الأُولى مجرورة باللام ليبين أَن البدل إِنما هو منها، ثم وصفهم تعالى بالصفة التي تقتضي فقرهم وتوجب الإِشفاق عليهم، وهي إِخراجهم

(١) حديث الواشِمَة والمُسْتَوْشِمَة أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، وأحمد في مسنده، عن علقمة، عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «لعن الله الواشِمات والمُستَوْشِمَات، والمُتَنَمِّصات والمُتَفَلِّجات للحسن المُغَيِّرَات خلق الله». فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أُم يعقوب، فجاءت فقالت: إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت! فقال: ومالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله؟ فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول: فقال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، أما قرأت: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾؟ قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه، قالت: فإني أرى أهلك يفعلونه، قال: فاذهبي فانظري، فذهبت فنظرت فلم تر من حاجتها شيئاً، فقال: لو كانت كذلك ما جامعتها. واللفظ للبخاري، والوشْم: غرز الإبرة في البدن وذرُّ النِّيلج عليه حتَّى يزرقَّ أُثره أو يخضَر، والتَّنمُّص: نتف شعر الوجه بالخيط. والتَّفليج: أن تفرّق المرأة بين أسنانها طلباً للزينة.

من ديارهم وأَموالهم، وجميع المهاجرين إِمَّا أخرجهم الكفار وإِمَّا أَحوال الكفار وظهورهم وفرض الهجرة في ذلك الوقت، ووصفهم بالفقر وإن كان لهم بعض أَمْوال وهي حال الفقراءِ في اللغة، وقد مضى بيان هذا في سورة الكهف. وقوله تعالى: [يَبْتَغُونَ] في موضع الحال، والفضلُ والرضوان يراد بهما الآخرة والجنة، ونَصْرُ الله هو نَصْر شرعه ونبيِّه ﷺ.

و«الصَّادقون» في هذه الآية يجمع صدق اللسان وصدق الأَفعال لأَن أَفعالهم في أَمر هجرتهم إنما كانت وفق أَقوالهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾.

﴿الذين تبوءوا﴾ هم الأنصار، والضمير في [قَبْلِهِمْ] للمهاجرين، و«الدَّار» هي المدينة، والمعنى: تَبَوَّءُوا الدَّار مع الإيمان معاً، وبهذا الاقتران يصح معنى قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾، فتأَمَّله. والإِيمان لاَ يُتَبَوَّأُ لأَنه ليس مكاناً، ولكن هذا من بليغ الكلام، ويتخرج على وجوه كلُّها جميل حَسَن(١).

وأثنى الله تعالى في هذه الآية على الأَنصار بأَنهم يحبون المهاجرين رضي الله عن جميعهم، وبأَنهم يُؤثِرُون على أَنْفُسهم، وبأَنهم قد وُقُوا شُحَّ أَنفُسهم؛ لأَن مقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أَن هؤلاءِ الممدوحين قد وُقُوا الشُّحَّ.

و«الْحَاجَةُ»: الحَسَد في هذا الموضع، قاله الحسن، ويعمُّ بعْدُ جميع الوجوه التي هي بخلاف ما فعله النبي ﷺ في إِعطاءِ المهاجرين أَموال بني النَّضير والقرى. و[أُوتُوا]

---

(١) قيل: إنه نصب بفعل آخر غير «تبوَّأ»، والتقدير: والذين تَبَوَّءُوا الدار واعتقدوا الإيمان، فهو كقوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾، ويكون من باب: «علفتها تبناً وماءً بارداً»، أي: وسقيتها ماءً، ذكر ذلك أبو عليٍّ والزمخشري، وقيل: هو من باب حذف المضاف، والتقدير: تبوَّءُوا الدارَ ومواضعَ الإيمان، وقيل: هو على طريق المَثَل، كما تقول: تَبَوَّأَ من بني فلان الصميم.

معناه: أُعطوا، والضمير المرفوع بأن لم يُسَمَّ فاعله هو للمهاجرين.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية... صفة للأنصار، وقد روي ـ من غير ما طريق ـ أنها نزلت بسبب رجل من الأنصار ـ قال أبو المتوكِّل: هو ثابت بن قيس، وقال أبو هريرة رضي الله عنه في كتاب مكي: كنية هذا الرجل أبو طلحة، وخلط المهدوي في ذكر هذا الرجل ـ ندَبَ رسولُ الله ﷺ إلى ضيافة مهاجري، فانتدب الأنصاري ولم يكن له مال فذهب بالضيف وقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله ﷺ، قالت: والله ما عندي إلاَّ قُوت الصِّبية، فقال لها: نَوِّمي صبيانك، وأطفئي السراجَ، وقدِّمي ما عندنا للضيف ونوهمه أَنَّا نأكل، فَفَعَلا ذلك، فَلَمَّا غدَا على رسول الله ﷺ قال: «عجب الله من فعلك البارحةَ»، ونزلت الآية في ذلك[1].

والايثارُ على النفس أكْرم خُلُق، وقال حذيفة العدوي: طلبت يوم اليرموك ابن عمٍّ لي في الجرحى ومعي شيءٌ من ماءٍ، فوجدته، فقلت: أَسقيك؟ فأشار أن نعم، فإذا رجل يصيح: آهِ، فأشار ابن عمِّي أن انطلق إليه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أتشرب؟ فإذا آخر يقول: آهِ، فأشار هشام أن انطلق إليه، فجئته فإذا به قد فاضت نفسه، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعتُ إلى ابن عمي فإذا هو قد مات، فعجبت من إيثارهم رحمهم الله تعالى، وقال أبو يزيد البسطامي: قَدِم علينا شاب من بَلْخ فقال لي: ما حدُّ الزُّهد عندكم؟ فقلت: إذا فقدنا صَبَرْنا، وإذا وجدنا شَكَرْنا، قال: هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ، قلت: فما الزهد عندكم؟ قال: إذا فقدنا شَكَرْنا، وإذا وجدنا آثَرْنا.

وروي أن سبب هذه الآية أن النبي ﷺ لمَّا قسَّم هذه القرى في المهاجرين قال للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وتركتم لهم هذه»، فقالوا: بل نقسم لهم من أموالنا ونترك لهم هذه الغنيمة، فنزلت هذه الآية[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماءِ والصفات، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: أتى رجل لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال: ألا رجلٌ يضيف هذا لِلَيْلَةِ رحمه الله تعالى؟ فقال رجل من الأنصار ـ وفي رواية: فقال أبو طلحة الأنصاري: أنا يا رسول الله، فذهب به إلى أهله، الحديث كما ذكره ابن عطية.

(٢) ذكره الزمخشري في تفسيره دون سند، وذكره القرطبي قائلا: وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال=

و«الْخَصَاصَةُ»: الفاقة والحاجة، وهو مأخوذ من خصاص البيت، وهو ما يبقى بين عيدانه من الفروج والفتوح، فكأن حال الفقير هي كذلك يتخلَّلُها النقص والاحتياج، و«شُحُّ النَّفس» هو كثرة طَمَعِها وضبطها على المال والرغبة فيه وامتداد الأَمل، هذا جماع شح النفس، وهو داعية كل خلق سوءٍ، وقد قال رسول الله ﷺ: «من أَدى الزكاة المفروضة، وقرى الضيف، وأَعطى في النائبة، فقد برىء من الشُّح»(١).

واختلف الناس بعد هذا الذي قلناه ـ فذهب الجمهور والعارفون بالكلام إِلى هذا، وعلى هذا التأْويل كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يطوف وهو يقول: اللهم قِني شُحَّ نفسي، لا يزيد على ذلك، فقيل له في ذلك فقال: إِذا وقِّيته لم أَفعل سوءًا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

شُحُّ النفس فقر لا يُذْهِبُهُ غِنى المال بل يزيده وينصب به.

وقال ابن زيد، وابن جبير، وجماعة: من لم يأْخذ شيئاً نهاه الله تعالى عنه ولم يمنع الزكاة المفروضة فقد برىء من شُحِّ النفس، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: شُح النفس هو أَكل مال الغير بالباطل، وأَما منع الإِنسان ماله فهو بُخل، وهو قبيح ولكنه ليس بالشُّح، وقرأَ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: [شِحَّ] بكسر الشين. و[يُوقَ] وزنه «يُفْعَل»، من وقَى يقي، مثال: وَزَن يَزِنُ، وقرأَ أَبو حيوة: [يُوَقَّ] بفتح الواو وشد القاف، و[الْمُفْلِحُونَ]: الفائزون ببغيتهم.

واختلف الناس في تأْويل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ـ فقال الفراءُ: أَراد الفرقة الثالثة من الصحابة، وهي التي آمنت أَو كبرت في آخر مُدَّة النبي ﷺ، وقال جمهور العلماءِ: أَراد من يجيءُ من التابعين وغيرهم إِلى يوم القيامة، فوصف الله تبارك

= النبي ﷺ، وذكر ابن إسحاق في السيرة طرفاً منه جاءَ فيه أن النبي ﷺ قسَّم أموال بني النضير على المهاجرين الأولين إلا أنه أعطى سَهْل بن حُنيف وأبا دُجانة سِماك بن خراشة، وهذا يتفق مع ما ذكره الزمخشري، لكن الزمخشري ذكر أيضاً أنه أعطى معهما الحرث بن الصِّمة.

(١) أخرجه عبد بن حميد، عن مجمع بن يحيى بن جارية، قال: حدثني عمي خالد بن يزيد بن جارية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «برىء من الشح من أدَّى الزكاة، وقَرى الضيف، وأدَّى في النائبة». (الدر المنثور)، وزاد في الجامع الصغير نسبته إلى أبي يعلى في مسنده، والطبراني في الكبير، ثم رمز له الإمام السيوطي بأنه حديث حسن.

وتعالى القول الذي ينبغي أَن يلتزمه كل من لم يكن من الصدر الأَول. وإِعراب [الَّذِينَ] رفع عطفاً على [هُمْ] أَو على [والَّذِينَ] أو رفع بالابتداءِ. وقوله تعالى: [يَقُولُونَ] حالٌ فيها الفائدة، والمراد: والذين جاءُوا قائلين كذا، أَو يكون [يَقُولُونَ] صفة.

ولهذه الآية قال مالك وغيره: إِنه من كان له في أَحد من الصحابة قول سوءٍ أَو بغض[١] فلا حظَّ له في الغنيمة أَدباً له، وجاءَ بعض العارفين إِلى علي بن الحسين رضي الله عنهما فسبُّوا أَبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فقال لهم: أَمِنَ المهاجرين الأَولين أَنتم؟ قالوا: لا، قال: أَفَمِن الذين تبوَّءُوا الدار والإِيمان أَنتم؟ قالوا: لا، قال: فقد تبرأْتم من هذين الفريقين، وأَنا أَشهد أَنكم لستم من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ الآية... فقوموا، فَعَل الله تعالى بكم وفَعَل، وقال الحسن: أَدركت ثلاثمائة من الصحابة منهم سبعون بدريًّا كلهم يحدثني أَن النبي ﷺ قال: «من فارق الجماعة قِيدَ شبر فقد خلع رِبْقَة الإِسلام من عنقه»[٢]، فالجماعة أَلاَّ تسبُّوا الصحابة، ولا تُماروا في دين الله تعالى، ولا تُكفِّروا أَحداً من أَهل التوحيد بذنب.

و«الْغِلُّ»: الحِقْد والاعتقاد الرديءُ، وقرأَ الأَعمش: [في قُلُوبِنَا غِمْراً]، والغِمْر: الحِقْد: وقد تقدم الاختلاف في قراءَة: [رَؤُوف].

(١) في بعض النسخ: «أو نقص».

(٢) هذا جزءٌ من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤ـ١٣٠)، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن الحرث الأشعري، وفي آخره كما جاء في مسند أحمد: «وأنا آمركم بخمس، اللهُ أمرني بهن، بالجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فإنه من خرج من الجماعة قِيدَ شِبْر فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثَا جهنم ـ قالوا: يا رسول الله، وإن صام وصلّى؟ قال: وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم ـ فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عزَّ وجلَّ المسلمين المؤمنين عباد الله عزَّ وجلَّ». والرِّبْقَة في الأصل: عُروة في حبل تجعل في عنق البهيمة أو يدها تُمسكها، فاستعارها للإسلام يعني ما يَشُدُّ به المسلم نفسه من حدود الإسلام وأحكامه، وأمَّا قوله ﷺ: «فهو من جُثَا جهنم» فقد قال ابن الأثير في كتاب النهاية، «الجُثَا: جمع جُثْوة بالضم، وهو الشيءُ المجموع» فكأن المعنى: من جماعة جهنم، وتروى الكلمة جُثِيّ، وتروى: جُثَى، وقال أبو عبيدة: قد يكون المعنى: إنه ممن يجثو على الركب في جهنم. ورويت اللفظة في مسند أحمد «جُثَاءِ» بالهمزة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

هذه الآية نزلت في عبد الله بن أُبي بن سلول، ورفاعة بن التابوت، وقوم من منافقي الأنصار كانوا بعثوا إلى بني النَّضير وقالوا لهم: اثبتوا في معاقلكم فإنَّا معكم كيفما تقلبت حالكم، وإنما أرادوا بذلك أن تقوى نفوسهم عسى أن يثبتوا حتى لا يقدر محمد عليه الصلاة والسلام عليهم فيتم لهم مرادهم، وكانوا كَذَبَة فيما قالوا من ذلك، ولذلك لم يخرجوا حين أُخرج بنو النَّضير بل قعدوا في ديارهم، وقوله تعالى عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ معناه: ولئِن حاولوا نصرهم فإنهم ينهزمون ثم لا ينصر الله تعالى أحداً منهم.

وجاءَت الأَفعال غير مجزومة في قوله تعالى: ﴿ لَا يَخْرُجُونَ﴾ و﴿ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ لأَنها راجعة على حكم أنفُسهم لا على حكم الشرط، وفي هذا نظر(١).

ثم خاطب تعالى أُمة محمد ﷺ مُخبراً أن اليهود والمنافقين أَشد خوفاً من المؤمنين منهم من الله تعالى لأَنهم لا يتوقعون عاجل الشَّر من المؤمنين ولا يؤمنون بآجل العذاب من الله تعالى، وذلك لقلَّة فهمهم للأُمور وتوفيقهم للحق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

---

(١) علق أبو حيان في البحر على ذلك فقال: «وأَيُّ نظر في هذا وقد جاءَ على القاعدة المتَّفَق عليها من أنه إذا تقدم القَسَم على الشرط كان الجواب للقسم وحُذف جواب الشرط، وكان فعله بصيغة المُضيّ أو مجزوماً بلم، وله شرط وهو ألا يتقدمه طالب خبر، واللام في [لَئِنْ] مُؤذنة بِقَسَم محذوف قبله فالجوابُ له».

الضمير في قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ لبني النضير وجميع اليهود، هذا قول جماعة من المفسِّرين، ويحتمل أَن يريد بذلك اليهود والمنافقين؛ لأَن دخول المنافقين في قوله تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متمكن بيِّن، ومعنى الآية: لا يقاتلونكم في جيش بِفَحْصٍ[1]، و«الْقُرَى»: المدن، قال الفراءُ: هذا جمع شاذٌ، قال الزجاج: ما في القرآن فليس بشاذ، وهو مثل: ضَيْعَةٍ وضُيَع.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وكثير من المكِّيِّين: [جِدَارٍ] على معنى الجنس، وقرأَ كثير من المكِّيِّين، وهارون عن ابن كثير: [جَدْرٍ] بفتح الجيم وسكون الدال، ومعناه: أَصل بنيان كالسُّور ونحوه، وقرأَ الباقون من القراءِ: [جُدُرٍ] بضم الجيم والدال، وهو جمع جِدَارٍ، وقرأَ أَبو رجاءٍ، وأَبو حَيْوة: [جُدْرٍ] بضم الجيم وسكون الدال، وهو تخفيف في جمع جِدارٍ، ويحتمل أَن يكون من جدر النخيل، أَي من وراءِ نخلهم إِذ هي ممَّا يُتَّقى به عند المضايقة[2].

وقوله تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أَي في غائلتهم وإِحَنِهم[3]، وفي قراءَة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُم أَشَتُّ]، وهذه حال الجماعات المتخاذلة، وهي المغلوبة أَبداً في كل ما تحاول، واللفظة مأْخوذة من الشتات وهو التفرُّق ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ معناه: مثلهم كمثل الذين من قبلهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم بنو قَيْنُقَاع؛ لأَن النبي ﷺ أَجلاهم عن المدينة قبل بني النَّضير، وكانوا مِثْلاً لَهُم، وقال قتادة ومجاهد؛ الذين من قبلهم أَهلُ بدر الكفَّار؛ فإِنهم قبلهم ومِثْلٌ لهم في أَن غُلبوا وقُهروا، وقال بعض المتأَولين: الضمير في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ للمنافقين، وهم منافقو الأُمم المتقدِّمة؛ وذلك أَنهم غُلبوا ونالتهم الذِّلَّة على وجه الدهر، فهم مثل لهؤلاءِ، ولكن قوله تعالى: [قَرِيباً] إِمَّا أَن يكون في زمن موسى عليه السلام، وإِلاَّ فالتَّأْويل المذكور يضعف، إِلاَّ أَن يجعل [قَرِيباً]

---

(١) يريد: بأَرض منبسطة مكشوفة، وفي اللسان ذكر أن فحص الأُرْدن: ما انبسط منه وكشف من نواحيه.

(٢) في بعض النسخ: «عند المصافقة»، والمصافقة هي الضرب.

(٣) الغائلة: الحقد الباطن والشَّر، والإحَن: الحقائد والأضغان، ومفردها إِحْنَة، يقال: إنَّ الإحَن تجرُّ المِحَن.

ظرفاً للذَّوْقِ، فيكون التقدير: ذاقوا وبَالَ أَمرهم قريباً من عصيانهم وبحدثانه، ولا يكون المعنى أَنَّ المثلَ قريب في الزَّمن مِنَ المُمَثَّل له، وعلى كل تأويل فـ[قَرِيباً] ظرفٌ أَو نعت لظرف. و«الْوَبَالُ»: الشِّدَّة والمكروه وعاقبة السوءِ، و«الْعَذَابُ الأَلِيمُ» هو في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ معناه: مثل هاتين الفرقتين من المنافقين وبني النَّضير كمثل الشيطان والإِنسان، فالمنافقون مثلهم الشَّيطان، وبنو النَّضير مثلهم الإِنسان، وذهب مجاهد وجمهور من المتأَوِّلين إِلى أَن الشَّيطان والإِنسان في هذه الآية اسْمَا جِنْس؛ لأَن العرف أَن يَعمل هذا الشَّياطينُ بناس، كما يغوي الشَّيطان الإِنسان ثمَّ يفرُّ عنه بعد أَن يُورِّطه، كذلك أَغوى المنافقون بني النضير وحرَّضوهم على الثُّبوت ووعدوهم النصر، فلما غدر بنو النَّضير وكشفوا عن وجوههم، تركهم المنافقون في أسوأ حال، وذهب قوم من رواة القصص أَن هذا في شيطان مخصوص مع عابد من العُبَّاد مخصوص، وذكر الزجاج أَن اسمه برصيصا، قالوا: إِنَّه استُودع امرأَةً، وقيل: سيقَتْ إِليه ليشفيها بدعائه من الجنون، فسوَّل له الشَّيطان الوقوع عليها، فحملت، فخشي الفضيحة، فسوَّل له قَتْلَها ودَفْنها، ففعل، ثم شهره، فلمَّا استُخرجت المرأَة وحُمِل العابد شرَّ حمل، وهو قد قال: إِنها ماتت فقُمتُ عليها ودفنتها، فلما وُجدت مقتولة علموا كذبه، فتعرَّض له الشَّيطان وقال له: اكفر واسجد لي وأَنا أُنجِّيك، ففعل، وتركه عند ذلك وقال: إِنِّي بريءٌ منك. وهذا كله حديث ضعيف، والتأويل الأَول هو وجه الكلام، وقول الشيطان «إِنِّي أَخاف الله» رياءٌ وسُمعة، وليست على ذلك عقيدته، ولا يعرف اللهَ تعالى حق معرفته، ولا يحجزه خوفُه عن سوءٍ يوقع فيه ابن آدم من أَول إِلى آخر.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ الآية، يحتمل الضمير أَن يعود على المخصوصيْن المذكوريْن، ويحتمل أَن يعود على اسمي الجنسين، أَي: هذا هو عاقبة كل شيطان وإِنسان يكون أَمرهما هكذا، وقرأَ الحسن، وعمرو بن عبيد: [عَاقِبَتُهُمَا] بالرفع، وقرأَ الجمهور: ﴿عَاقِبَتَهُمَا﴾ بالنصب، وموضع [أَنَّ] يخالف إِعراب «العاقبة» في القراءَتين، وقرأَ ابن مسعود، والأَعمش: [خَالِدَانِ] بالرفع على أَنه خبر [أَنَّ] والظَّرف ملغى، ويلحق هذه القراءة من الاعتراض إِلغاءُ الظرف مرتين، قاله الفراءُ، وذلك جائز عند سيبويه على التأْكيد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾.

هذه آية وعظ وتذكير وتقريب للآخرة، وتحذير ممَّن لا تخفى عليه خافية، وقرأَ جمهور الناس: (وَلْتَنْظُرْ) بسكون اللام وجزم الراءِ على أَصل لام الأَمر، وقرأَ يحيى بن الحارث، وأَبو حيوة، وفرقة كذلك بلام الأَمر، إلاَّ أنها كسرت على أَصل لام الأَمر، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن ـ فيما رُوي عنه ـ: [وَلِتَنْظُرَ] بنصب الراءِ على لام «كيْ»، كأَنه تعالى قال: وأَمرنا بالتقوى لتنظر، أَو كأَنه تعالى قال: اتقوا الله وليكن تقواكم لتنظر.

وقوله تعالى: (لِغَدٍ) يريد يوم القيامة، قال قتادة: قرب الله تعالى القيامة حتى جعلها غداً، وذلك لأَنها آتية لا محالة، وكلُّ آتٍ قريب، ويحتمل أَن يريد تعالى بقوله: (لِغَدٍ) لِيَوْم الموت لأَنه لكل إِنسان كغده، ومعنى الآية: ما قدمت من الأَعمال، فإِذا نظرها الإِنسان تزيَّد من الصَّالحات وكفَّ عن السَّيِّئات، وقال مجاهد، وابن زيد: الأَمس الدُّنيا وغدٌ الآخرة.

وقرأَ الجمهور: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ بالتاءِ من فوق على مخاطبة جميع الذين آمنوا، وقرأَ أَبو حيوة: [ولا يكونوا] بالياءِ من تحت، كناية عن «نَفْس» التي هي اسم الجنس، و﴿الذين نسوا الله﴾ هم الكفَّار، والمعنى: تركوا الله تعالى وغفلوا عنه حتى كانوا كالنَّاسين، وعبَّر تعالى عمَّا خصَّهم به من الضَّلاَلة بـ «أَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ»، سمَّى عقوبتهم باسم ذنبهم بوجْهٍ مَّا، وهذا أَيضاً هو الجزاءُ بالذنب على الذنب، فكسبوا هم نسيان جهة الله تعالى، فعاقبهم الله تعالى بأَن جعلهم ينسون أَنفسهم، قال سفيان: المعنى: حظَّ أَنفسهم، ويعطي لفظ هذه الآية أَن من عرف نفسه ولم ينسها عرف ربه سبحانه، وقد قال علي بن أَبي طالب رضي الله تعالى عنه: اعرف نفسك تعرف ربك، ورُويَ عنه أَنه قال أَيضاً: من لم يعرف نفسه لم يعرف ربَّه. وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه: [وَلاَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ] بزيادة «لا».

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ الآية... موعظةٌ للإنسان، وذمٌ لأخلاقه في غفلته وإعراضه عن داعية الله تعالى، وذلك أن القرآن نزل عليهم وفهموه وأعرضوا عنه، وهو لو نزل على جبل وفهم الجبل منه ما فهم الإنسان لخشع واستكان وتصدَّع من خشية الله تبارك وتعالى، وإذا كان الجبل على عِظَمِهِ وقوته يفعل هذا فما عسى أن يحتاج ابن آدم ليفعل، لكنه يُعرض ويصُدُّ على حقارته وضعفه، وضرب الله تبارك وتعالى هذا المثل ليتفكر فيه العاقل ويخشع ويلين قلبه، وقرأ طلحة بن مصرف: [مُصَّدِّعاً] على إدغام التاءِ في الصاد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

لمَّا قال تعالى: ﴿مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ جاءَ بالأوصاف التي توجب لمخلوقاته هذه الخشية، و«الْغَيْبُ»: ما غاب عن المخلوقين، و«الشَّهَادَةُ»: ما شهدوه، وقال حرب المكي: الغيب الآخرة، والشهادة الدُّنيا، وقرأ جمهور الناس: [الْقُدُّوسُ] بضم القاف، وهو فعْلٌ من تَقَدَّسَ إذا تَطَهَّر، وحظيرة القدس الجنة لأنها طاهرة، ومنه: رُوحُ القُدس، والأرض المقدَّسة، وبيت المقدس، ورُوي عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه أنه قرأ: [الْقَدُّوسُ] بفتح القاف، وهي لغة. و«السَّلاَمُ» معناه: الذي سُلِم من جوره، وهذا اسم على حذف مضاف، أي ذو السلام، لأن الإيمان به وتوحيده وأفعاله هي لمن آمن سلامٌ كلها. و«الْمُؤْمِنُ» اسم فاعل من «آمَنَ» بمعنى «أَمَّنَ»، وقال أحمد بن يحيى ثعلب: معناه: المُصَدِّقُ المؤمنين في أنهم آمنوا، قال النحاسُ: أو في شهادتهم على الناس في القيامة، وقال ناسٌ من المتأولين: معناه: المُصَدِّقُ نفسه في أقواله الأزلية، لا إله غيره، و«الْمُهَيْمِنُ» معناه: الأمين والحفيظ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقال مؤرج: المهيمن: الشاهد بلغة قريش، وهذا بناءٌ لم يجيءْ منه في الصفات إلاَّ مُهَيْمِن ومُسَيْطِر ومُبَيْقِر ومُبَيْطِر، وجاءَ منه في الأسماءِ «مُحَيْمِر» وهو اسم وادٍ و«مُدَيْبِر». و«الْجَبَّارُ» هو الذي لا يدانيه شيءٌ ولا يلحق رتبته، ومنه «نخلةٌ جبارةٌ» إذا لم تلحق، وأنشد الزهراويُّ:

أَطَـافَـتْ بِـهِ جِيـلانُ عِنْـدَ قِطَـافِـهِ وَرَدَّتْ إِلَيْـهِ المـاءَ حَتَّـى تَجَبَّـرَا[1]

و[الْمُتَكَبِّرُ] معناه: الذي له التكبُّر حقاً.

ثم نزَّه تعالى نفسَه عن إشراك الكفار به الأَصنامَ التي ليس لها شيءٌ من هذه الصِّفات، و[الْبَارِىءُ] بمعنى: الخالق، بَرَأَ اللهُ تعالى الخَلْقَ، أَي أَوجدهم، و[الْمُصَوِّرُ] هو الذي يوجد الصُّور، وقرأ عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه: [الْمُصَوَّرَ]، على إعمال [الْبَارِىءُ] فيه، وهي حسنة، يُراد بها الحُسْن في الصور، وقال قوم عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: إنه قرأَ: [الْمُصَوَّرِ] بفتح الواو وكَسْر الراءِ، على قولهم: «الحَسنُ الوَجْهِ».

وقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أَي: ذات الحسن في معانيها القائمة بذاته لا إِله إِلاَّ هو، وهذه الأَسماءُ هي التي حصرها رسول الله ﷺ بقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وتسعين اسماً، مائة إِلاَّ واحداً، من أَحصاها دخل الجنة»[2]، وقد ذكرها الترمذي وغيره مُسْنَدَةً، واختلف الرواة في بعضها، ولم يصحَّ فيها شيءٌ إِلاَّ إِحصاؤُها دون تَعْيين، وباقي الآية بَيِّنٌ.

كمل تفسير سورة الحشر والحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) هذا البيت لامرىء القيس، وهو من قصيدته التي قالها حين توجه إلى قيصر مستنجداً به على بني أسد، وهو في الديوان، واللسان، والتاج ـ مادة جبل ـ والشاعر يصف هنا وفي الأبيات التي قبل هذا نخيلا ارتفع وعلا، وكثرت فروعه، وَتَدَلَّت القنوان منه بالبسْر الأحمر وجيلان ـ بكسر الجيم ـ قوم كان كسرى يرسلهم عمالا إلى البحرين، ـ وقد تضبط (جَيلان) بفتح الجيم ـ يقول: طافت بهذا النخل جيلان عند قطافه، وجمعت حوله الماءَ حتى ارتفع في السماءِ عالياً، والشاهد على هذا في قوله: «تجبَّرا»، ولكن الرواية في الديوان وفي التاج «حتى تحيَّرا» بالحاءِ والياءِ، وقد اختلفت الروايات في البيت، فروي:

أُتِيــحَ لَـــهُ جَيْـــلانُ عِنْـــدَ جَـــذَاذِهِ وردَّدَ فيـــه الطَّـــرْفَ حَتَّـــى تَحَيَّـــرَا

ورواية التهذيب: «عند جداره»، ورواية شرح القاموس: «عند قطافه»، ورواية الديوان: «وردَّدَ فيه العَيْنَ حتى تَحَيَّرَا»، وعلى كل هذه الروايات لا شاهد في البيت، والتحيُّر يرجع إلى الطرف، فقد تحير في ارتفاع النخل وكثرة فروعه.

(٢) حديث «إن لله تسعة وتسعين اسماً» ذكره الإمام السيوطي في «الجامع الصغير»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: إنه حديث صحيح، وقد أخرجه الترمذي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، والبيهقي في شعب الإيمان ـ هذا والأسماءُ مذكورة في مسند الترمذي وغيره مع اختلاف الرواة في بعضها كما قال ابن عطية رحمه الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الممتحنة[(١)]

وهي مدنيَّة بإجماع من المفسِّرين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١﴾.

«الْعَدُوُّ» اسم يقع للجمع والمفرد، والمراد به ها هنا كفار قريش، وهذه الآية نزلت بسبب حاطب بن أَبي بَلْتَعَة[(٢)]، وذلك أَن رسول الله ﷺ أَراد الخروج إِلى مكة عام الفتح، فورَّى عن ذلك بِخَيْبَر، فشاع في الناس أَنه خارج إِلى خيبر، وأَخبر هو جماعة من أَصحابه بقصده إِلى مكة، منهم حاطب بن أَبي بَلْتَعَة، فكتب حاطب إِلى قوم من كفَّار مكة يخبرهم بقصد رسول الله ﷺ إِيَّاهم، فجاءَ الخبر إِلى رسول الله ﷺ بذلك فبعث عليًّا والزُّبيرَ وثالثاً، قيل هو المقداد، وقيل أَبو مَرْثَد[(٣)]، وقال: انطلقوا حتى تأْتوا

---

(١) قيل: اسم السورة [المُمْتَحَنَة] بفتح الحاءِ، إضافة إلى المرأة التي نزلت فيها، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط، امرأة عبد الرحمن بن عوف، وقيل: هي [المُمْتَحِنَة] بكسر الحاءِ؟ إِذْ أُضيف الفعل إلى السورة مجازاً.

(٢) هو حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، صحابي جليل، شهد الوقائع كلها مع رسول الله ﷺ، وكان من أشد الرماة، وكانت له تجارة واسعة، بعثه النبي ﷺ بكتابه إلى المقوقس حاكم مصر، كان أحد فرسان قريش وشعرائها، مات في المدينة. (الإصابة).

(٣) المقداد بن عمرو بن ثعلبة، البهراني، ثم الكندي، ثم الزهري، تبنَّاه الأسود بن عبد يغوث الزهري فنسب إليه فقيل: المقداد بن الأسود، صحابي مشهور، من السابقين، لم يكن ببدر فارساً غيره، مات سنة ثلاث وثلاثين، وأما أبو مَرْثَد فهو كنَّاز بن الحصين بن يربوع الغنوي، أبو مَرْثَد ـ بفتح الميم وثاءِ بعد الراءِ الساكنة، صحابي بدريٌّ مشهور بكنيته، مات سنة اثنتي عشرة للهجرة (تقريب التهذيب)، وأما عليٌّ والزبير فغنيَّان عن التعريف.

روضة خاخ(١) فإن بها ظعينة(٢) معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فانطلقوا حتى وجدوا المرأة، واسمها سارة، مولاة لقوم من قريش، وقيل: بل كانت امرأةً من مزينة ولم تكن سارة، فقالوا لها: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، ففتَّشوا جميع رحلها فما وجدوا شيئاً، فقال بعضهم: ما معها كتاب، فقال عليٌّ رضي الله عنه: ما كذب رسول الله ﷺ ولا كُذب، والله لتخرجن الكتاب أو لَنُجَرِّدَنَّكِ، فقالت: اعرضوا عني، فحلَّته من فروة رأسها، وقيل: أَخرجته من حجزتها، فجاءُوا به رسول الله ﷺ(٣)، فقال لحاطب: من كتب هذا؟ فقال أنا يا رسول الله، ولكن لا تعجل عليَّ، فوالله ما فعلت ذلك ارتداداً عن ديني ولا رغبة عنه، ولكني كنت امرءًا ملصقاً في قريش ولم أكن من أَنفُسها، فأَحببت أن تكون لي عندهم يَدٌ يَرْعَوْنَني بها في قرابتي، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أَضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «صدق حاطب، إنه من أَهل بدر، وما يُدريك يا عمر لعلَّ الله قد اطَّلع على أَهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم، لا تقولوا لحاطب إلا خيراً»، فنزلت الآية لهذا السبب(٤). وروي أَن حاطباً كتب: «إن رسول الله ﷺ يريد غزوكم في مثل الليل والسيل، وأُقسم بالله لو غزاكم وحده لنُصر عليكم فكيف وهو في جَمٍّ كثير».

و[تُلْقُونَ] في موضع الصِّفة لِـ[أَوْلِيَاءَ]، و«أَلْقَيْتُ» يتعدى بحرف الجر وبغير حرف الجر، فدخول الباءِ وزوالها سواءٌ، وهذا نظير قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾(٦)، وروى المعلى عن عاصم أَنه قرأَ: ﴿وقد كفروا لما﴾ بلام.

---

(١) مكان بين مكة والمدينة، على بعد اثني عشر ميلا من المدينة.

(٢) الظعينة: المرأة في الهودج.

(٣) قيل: كان في الكتاب ما يأتي: «إن رسول الله ﷺ قد توجَّه إليكم بجيش كالليل، يسير كالسيل، وأُقسم بالله لو لم يسر إليكم إلا وحده لأظفره اللهُ بكم، وأنجز له موعده فيكم، فإن الله وليُّه وناصره».

(٤) أخرجه أحمد، والحميدي، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وأبو عوانة، وابن حبان، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي وأبو نعيم معاً في الدلائل، عن علي رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٥) من الآية (٣٩) من سورة (طه).

(٦) من الآية (١٥١) من سورة (آل عمران).

وقوله تعالى: [يُخْرِجُونَ] في موضع الحال من الضمير في [كَفَرُوا]، والمعنى: يُخرجون الرَّسول ويُخرجونكم، وهي حال مؤكدة فلذلك ساق الفعل مستقبلاً والإخراج قد مرَّ، وتضييق الكفَّار على النبي ﷺ والمؤمنين إخراج إذ كان مؤدياً إلى الإخراج، وقوله تعالى: ﴿أَن تُؤْمِنُوا﴾ مفعول من أَجله، أَي أَخرجوكم من أَجل أَن آمنتم بربكم، وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ﴾ شرط جوابه متقدمٌ في معنى ما قبله، وجاز ذلك لما لم يظهر عمل الشرط، والتقدير: إنْ كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاءَ مرضاتي فلا تتَّخذوا عدُوِّي وعدوكم أَولياءَ، و[جِهَاداً] نصب على المصدر، وكذلك [ابْتِغَاءَ]، ويجوز أَن يكون ذلك مفعولاً من أَجله، و«الْمَرْضَاةُ» مصدرٌ كالرِّضى، و[تُسِرُّونَ] بدلٌ من [تُلْقُونَ]، ويجوز أَن يكون في موضع خبر ابتداءٍ كأنه تعالى قال: أنتم تُسِرُّون، ويصح أن يكون فعلاً مرسلاً ابتدأَ به القول، والإِلْقاءُ بالمودَّة معنىً مَّا، والإِسرارُ بها معنى زائد على الإلقاءِ، فترجح بهذا أَن [تُسِرُّونَ] فعلٌ ابتُدىء به القول، أَي تفعلون ذلك وأَنا أَعلم، وقوله تعالى: [أَعْلَمُ] يحتمل أَن يكون «أَفعل»، ويحتمل أَن يكون فعلاً لأَنك تقول: «علمتُ بكذا» فتُدخل الباءَ، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ﴾ الآية... جملةٌ في موضع الحال، وقرأَ أَهل المدينة: [وَأَنَا] بإِشباع الأَلف في الإِدراج، وقرأَ غيرهم: [وَأَنَا] بطرح الأَلف في الإِدراج.

والضمير في [يَفْعَلْهُ] عائد على الاتخاذ المذكور، و[سَوَاءَ] يجوز أَن يكون مفعولاً بـ[ضَلَّ]، وذلك على تَعَدِّي [ضَلَّ]، ويجوز أَن يكون ظرفاً على غير التعدِّي لأنه يجيءُ بالوجهين، والأَول أَحسن في المعنى، و«السَّوَاءُ»: الوسط، وذلك لأَنه تتساوي نسبته إِلى أَطراف الشيءِ، و«السَّبِيلُ» هنا شرعُ الله تعالى وطريق دينه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝٤﴾.

أَخبر الله تعالى أَن مداراة هؤلاءِ الكفَّار غير نافعة في الدُّنيا وأَنها ضارَّة في الآخرة،

ليبيِّن فساد رأي مصانعتهم، فقال تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي: إن يتمكَّنوا منكم وتَحْصُلُوا في ثِقَافِهِم ظهرت العداوة وانبسطت أَيديهم بضرركم وقَتْلكم، وأَلسنتُهم بسَبِّكم، وهذا هو السُّوءُ، وأَشد من هذا كله أَنهم إنما يُقْنِعُهم منكم أَن تكفروا، وهذا هو وُدُّهم.

ثم أَخبر تعالى أَن هذه الأَرحام التي رغبتم في وصلها ليست بنافعة يوم القيامة، فالعامل في [يَوْمَ] قوله تعالى: [تَنْفَعَكُمْ]، وقال بعض النحاة في كتاب الزهراوي: العامل فيه [يَفْصِلُ] وهو ممَّا بعده لا ممَّا قبله.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، والعامة: [يُفْصَلُ] بضم الياءِ وسكون الفاءِ وتخفيف الصَّاد مفتوحة، وقرأَ ابن عامر، والأَعرج، وعيسى: [يُفَصَّلُ] بضم الياءِ وفتح الفاءِ وشد الصاد منصوبة، واختُلف ـ على هاتين القراءَتين ـ في إعراب قوله تعالى: [بَيْنَكُمْ] ـ فقيل: نُصب على الظرف، وقيل: رُفع على ما لم يُسَمَّ فاعله إلاَّ أَن لفظه بقي منصوباً لأَنه كذلك كثر استعماله، وقرأَ عاصم، والأَعمش: [يَفْصِلُ] بفتح الياءِ وسكون الفاءِ وكسر الصاد خفيفة، وقرأَ حمزة، والكسائي، وابن وثاب: [يُفَصِّلُ] بضم الياءِ وفتح الفاءِ وشدِّ الصاد المكسورة، وإِسناد الفعل في هاتين القراءَتين إلى الله تعالى، وقرأَ النَّخعي، وطلحة بن مصرِّف: [نُفَصِّلُ] بنون العظمة مرفوعة وفتح الفاءِ وشدِّ الصَّاد، وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيد وتحذير.

وقرأَ جمهور السبعة: [إِسْوَةٌ] بكسر الهمزة، وقرأَ عاصم وحده: [أُسْوَةٌ] بضمها، وهما لغتان، والمعنى: قُدوة وإِمام، و«إِبْرَاهِيمُ» ﷺ هو خليل الرحمن عزَّ وجلَّ، واختلف الناس في «الذين معه» ـ فقال قوم من المتأَولين: أَراد من آمن به من الناس، وقال الطبري وغيره: أَراد الأَنبياءَ الذين كانوا في عصره عليه السلام وقريباً من عصره، وهذا القول أَرجح لأَنه لم يُرْوَ أَن إبراهيم عليه السلام كان له أَتباع مؤمنون في مكافحته نمروذ، وفي البخاري أَنه عليه الصلاة والسلام قال لسارة حين رحل بها إلى الشام مهاجراً من بلد النمروذ: ما على الأَرض من يعبد الله غيري وغيرك، وهذه الأُسوة مفيدة في التَّبري من الإشراك وهو مُطَّرد في كل ملَّة، وفي نبينا ﷺ أُسوة حسنة على الإطلاق لأَنها في العقائد وفي أَحكام الشرع كلها.

وقرأَ جمهور الناس: [بُرَءَاءُ] على وزن فُعَلاءَ، والهمزة الأُولى لام الفعل، وقرأَ عيسى الثقفي: [بِرَاءٌ] على وزن فِعال بكسر الفاءِ ككريم وَكِرَامٍ، وقرأَ يزيد بن القعقاع:

[بُرَاءُ] على وزن فُعال بضم الفاءِ كَتُؤَام، وقد رُويت عن عيسى قراءَة ـ قال أَبو حاتم: زعموا أَنه عيسى الهمداني ـ، «ويَجوُز»: [بَرَاءٌ] على المصدر بفتح الباءِ، يُوصفُ به الجمع والإِفراد[١].

وقوله تعالى: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ معناه: كذَّبناكم في أَقوالكم ولم نؤمن بشيءٍ منها، ونظير هذا قوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله عزَّ وجلَّ: «فهو مؤمن بي كافر بالكوكب»[٢]، ولم يُلحق العلامة في [بَدَا][٣] لأَن تأْنيث العداوة والبغضاءِ غير حقيقي.

ثم استثنى تعالى استغفار إِبراهيم عليه الصلاة والسلام لأَبيه، فذكر أَنه كان عن موعدة، وقد فسَّرنا ذلك في موضعه، وهذا استثناءٌ ليس من الأَول، والمعنى عند مجاهد، وقتادة، وعطاءِ الخرساني، وغيرهم أَن الأُسوة لكم في هذا الوجه لا في هذا الآخر لأَنه كان في علَّة ليست في نازلتكم، ويحتمل أَن يكون الاستثناءُ من التَّبري والقطيعة التي ذكرت، أَي لم تبق صلة إِلاَّ كذا.

وقوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ الآية... حكايةٌ عن قول إِبراهيم عليه الصلاة والسلام والذين معه أَنه هكذا كان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

---

(١) يريد أن يقول: قال أبو حاتم: زعموا أن عيسى الهمداني قرأ: [بَرَاءٌ] على المصدر بفتح الباءِ، ويجوز أن يكون كلام أبي حاتم صحيحاً.

(٢) هذا جزءٌ من حديث رواه مسلم في الإيمان، والبخاري في الأذان والاستسقاء والمغازي والتوحيد، وأبو داود في الطب، ومالك في باب الاستسقاءِ من الموطإ، ولفظه كما في صحيح مسلم عن زبير بن خالد الجُهَني: قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحُدَيْبِيَة في إثر السماءِ كانت من الليل، فلما انصرف أقبل الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسولُه أعلم، قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بِنَوْءِ كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب.

(٣) في أكثر النسخ: ولم تُلحق العلامة في [بُرَءَاءُ]، وهو خطأ من النُّسَّاخ. والمراد أن علامة التأنيث لم تلحق بالفعل [بَدَا] لأن التأنيث في «العداوة والبغضاء» مجازيٌّ.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا﴾ الآية... حكايةٌ عن إبراهيم عليه السلام ومن معه، والمعنى: لا تغلِّبهم علينا فنكون لهم فتنةً وسببَ ضلالة لأنهم يتمسَّكون بكفرهم ويقولون: إنما غلبناهم لأنَا على الحق وهم على الباطل، نحا هذا المعنى قتادة، وأبو مجلز، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تُسَلِّطهم علينا فيفتنونا عن أديانانا، فكأنه قال: لا تجعلنا مفتونين، فعبَّر عن ذلك بالمصدر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا أَرجح الأَقوال لأَنهم إِنما دعَوْا لأَنفُسهم، وعلى منحى قتادة إِنما دعوا للكفَّار، أَما إِن مقصدهم إِنما هو أَن يندفع عنهم ظهور الكفَّار الذي بسببه فُتن الكفَّار، فجاءَ في المعنى تحليق بليغ، ونحوه قول النبي ﷺ: «بئس الميت سعد»[١] ليهود؛ لأَنهم يقولون: لو كان محمد نبيًّا لم يمت صاحبه.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ الآية... خطاب لأُمة محمد ﷺ، وقوله سبحانه: [لِمَنْ] بدل من قوله: [لَكُمْ]، وكرر حرف الجر ليتحقَّق البدل، وذلك عُرف هذه المبدلات، ومنه قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾[٢]، وهو في القرآن كثير، وأَكثر ما يلزم من الحروف اللام، ثم أَعلم تعالى باستغنائه عن العبادة، وأَنه الحميد في ذاته وأَفعاله، لا يُنقص ذلك كفر كافر ولا نفاق منافق.

ورُوي أَن هذه الآيات لما نزلت وأَزمع المؤمنون امتثال أَمرها وصَرْم حبال الكفرة وإِظهار عداوتهم، لحقهم تأَسف على قراباتهم أَن لم يؤمنوا ولم يهتدوا حتى يكون

---

(١) هذا جزءٌ من حديث أخرجه البخاري في الجنائز ومناقب الأنصار والفرائض، ومسلم، ومالك في موطئه في الوصية، وهو عن سعد بن أبي وقاص، قال: (مرضتُ بمكة مرضاً فأشفين منه على الموت، فأتاني النبي ﷺ يعودني، فقلت: يا رسول الله، إن لي مالاً كثيراً وليس يرثني إلا ابنتي، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: لا، قال: قلت: فالشَّطْرُ؟ قال: لا، قلت: الثُّلُث؟ قال: الثلث كبير، إنك إن تركت ولدك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكفَّفون الناس، وإنَّك لن تُنفق نفقةً إلا أُجِرْتَ عليها حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك، فقلت: يا رسول الله، أُخَلَّف عن هجرتي، فقال: لنَ تُخَلَّف بعدي فتعمل عملا تُريد به وجه الله إلا ازددت به رفعة ودرجة، ولعلَّ أن تُخَلَّف بعدي حتى ينتفع بك أقوامٌ ويُضَرَّ بك آخرون، لكن البائس سعد بن خولة يرثي له رسول الله ﷺ أن مات بمكة)، قال سفيان: وسعد بن خولة رجلٌ من بني عامر بن لؤي.

(٢) من الآية (٨) من سورة (الحشر)، وقوله سبحانه [لِلْفُقَرَآءِ] بدل من قوله قبلها ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وهما معطوفان على مجرور باللام.

بينهم الوُدُّ والتواصل، فنزلت ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ الآيةُ مُؤنسةً في ذلك، ومُرَجِّيَةً أَن يقع، فوقع ذلك بإِسلامهم في الفتح، وصار الجميع إِخواناً، ومن ذكر أَن هذه المودَّة تزوُّج النبي ﷺ أُم حبيبة بنت أَبي سفيان وأَنها كانت بعد الفتح فقد أَخطأَ؛ لأَن النبي ﷺ تزوجها وقت هجرة الحبشة، وهذه الآيات نزلت سنة ثمانٍ من الهجرة، ولا يصح ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما إِلاَّ أَن يسوقَه مثالاً وإِن كان متقدماً لهذه الآية لأَنه استمر بعد الفتح كسائر ما نشأَ من المودَّات، و«عَسَى» من الله واجبة الوقوع إِن شاءَ الله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

اختلف الناس في هؤلاءِ الذين لم ينْه عنهم أَن يتبرَّءُوا منهم ـ فقال مجاهد: هم المؤمنون من أَهل مكة الذين آمنوا ولم يهاجروا وكانوا لذلك في رتبة سوءٍ لتركهم فرص الهجرة، وقال آخرون: أَراد المؤمنين التاركين للهجرة كانوا من أَهل مكة وغيرهم، وقال الحسن، وأَبو صالح: أَراد خُزاعة وبني الحارث وقبائل من العرب كفاراً إِلاَّ أَنهم كانوا مظاهرين للنبي ﷺ، مُحبِّين فيه وفي ظهوره، ومنهم كنانة وبنو الحارث بن عبد مناة ومُزَيْنَة، وقال قوم: أَراد من كفار قريش من لم يقاتل ولا أَخرج ولا أَظهر سوءًا، وعلى هذين القولين فالآية منسوخة بالقتال، وقال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: أَراد النساءَ والصبيان من الكفرة، وقال: إِن الآية نزلت بسبب أُمِّ أَسماءَ حين استأْذنت النبي ﷺ في برِّها وصلتها فأَذن لها، وكانت المرأَة خالتها فيما رُوي فسمَّتها في حديثها أُمًّا، وقال أَبو جعفر بن النحاس، والثعلبي: أَراد المستضعفين من المؤمنين الذين لم يستطيعوا الهجرة، وهذا قول ضعيف، وقال مُرَّة الهمداني، وعطية العوفي: نزلت في قوم من بني هاشم منهم العباسُ رضي الله تعالى عنه، وقال قتادة: نسختها ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ بدل، وهذا هو بدل

(١) من الآية (٥) من سورة (التوبة).

الاشتمال، و«الإِقْسَاطُ»: العدلُ، و[ظَاهَرُوا] معناه: عاونوا، و«الَّذِينَ قَاتَلُوا في الدِّين وأَخرجوهم» مَرَدَةُ قريش.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ الآية... نزلت إِثْر صلح الحديبية، وذلك أَن الصُّلْح تَضَمَّن أَنْ يَرُدَّ المؤمنون إِلى الكفَّار كلَّ من جاءَ مسلماً من رجل أَو امرأَة، فنقض الله تعالى من ذلك أَمر النساءِ بهذه الآية، وحكم بأَن المهاجرة المؤمنة لا تُرَدُّ إِلى دار الكُفْر بل تبقى تستبرىء وتتزوج، ويُعطى زوجها الكافر الصداق الذي أَنفق، وأَمر أَيضاً المؤمنين بطلب صداق من فرّت امرأَته من المؤمنين، وحكم تعالى بهذا في النازلة، وسمَّاهُنَّ تعالى مؤمنات قبل أَن يُتَيَقَّن ذلك لأَنه ظاهر أَمرهن، و[مَهَاجِرَاتٍ] نصب على الحال، و[امْتَحِنُوهُنَّ] معناه: جربوهن واستخبروا حقيقة ما عندهن.

واختلف الناس في هذا الامتحان، كيف كان؟ فقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وعكرمة: كان بأَن تُسْتَحْلف المرأَة أَنها ما هاجرت لبغض زوجها، ولا بجريرة جَرَّتها، ولا بسبب من أَعراض الدنيا سوى حبِّ الله تعالى ورسوله ﷺ والدَّار الآخرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً: الامتحان أن تُطالب بأَن تشهد أَن لا إِله إِلاَّ الله وأَن محمداً رسول الله، فإِذا فعلت ذلك لم تُرد، وقال فريق منهم عائشة أُم المؤمنين رضي الله تعالى عنها: هو أَن تعرض عليها الشروط التي في الآية بعد هذا من ترك السرقة والزنى والبهتان والعصيان، فإِذا أَقرّت المرأَة بذلك فهو امتحانها، وقيل: إِن هذه الآية نزلت في أُميمة بنت بشر امرأَة حسَّان بن الدحداحة، وفي كتاب الثعلبي أَنها نزلت في سُبيعة بنت الحارث[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ إِشارةٌ إِلى الاسترابة ببعضهن، وحضٌّ على امتحانهن، وذكر تعالى العلة في أَلاَّ يُرَدَّ النساءُ إِلى الكفَّار وهي امتناع الوطءِ وحُرْمته، وقرأَ طلحة: ﴿لاَ هُنَّ يَحْلِلْنَ لَهُمْ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ

(١) في «أسد الغابة» أن اسمها «سعيدة بنت الحارث الأسلمية».

أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

أَمر الله تعالى بأَن يُؤْتى الكفَّار مهور نسائهم اللاتي هاجرن مؤمنات، ورفع الجناح في أَن يتزوجن بعد إِيتاءِ أُجورهن، وأَمر المسلمين بفراق الكافرات وأَلاَّ يمسكوا بعصَمِهِنَّ، فقيل: الآيات في عابدات الأَوثان ومن لا يجوز نكاحها ابتداءً، وقيل: هي عَامة نُسخ منها نساءُ أَهل الكتاب.

و«العِصَمُ» جمع عصمة، وهي أَسباب الصحبة والبقاءِ في الزوجية، وكذلك العصمةُ في كل شيءٍ هي السبب الذي يُعتصم به ويعتمد عليه، وقرأَ جمهورُ السبعة والناسُ: [تُمْسِكُوا] بضم التاءِ وكسر السين وتخفيفها، من «أَمسك»، وقرأَ أَبو عمرو[1] وحده، وابن جبير، ومجاهد، والأَعرج، والحسن ـ بخلاف: ﴿وَلاَ تُمَسِّكُوا﴾، من «مسَّك» بالشد في السين، وقرأَ الحسن، وابن أَبي ليلى، وابن عامر ـ في رواية عبد الحميد ـ: [وَلاَ تَمَسَّكُوا] بفتح التاءِ والميم وفتح السين وشدها، وقرأَ الحسن: [وَلاَ تَمْسِكُوا] بفتح التاءِ وسكون الميم وكسر السين مخففة، ورأَيت لأَبي علي الفارسي أَنه قال: سمعتُ الفقيه أَبا الحسن الكرخي يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾: إِنه في الرجال والنساءِ، فقلت له: النحويون لا يرون هذا إِلاَّ في النساء؛ لأَن «كَوَافر» جمع «كافرة»، فقال: وايْش يمنع من هذا؟ أَليس الناسُ يقولون: طائفة كافرة وقرية كافرة؟ فَبُهِتُّ وقلت: هذا تأْييد[2].

وأَمر الله تعالى أَن يُسأَل أَيضاً الكافرون أَن يدفعوا الصدقات التي أَعطاها المؤمنون لمن فرَّ من أَزواجهم إِلى الكفار، وقرر الحكْم بذلك على الجميع، فروي عن ابن شهاب أَن قريشاً قالت: نحن لا نرضى هذا الحكم ولا نلتزمه ولا ندفع لأَحدٍ صداقاً، فنزلت بسبب ذلك هذه الآية الأُخرى ﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾ الآية، فأَمر الله تعالى المؤمنين أَن يدفعوا إِلى من فرَّت زوجته ففاتت بنفسها إِلى الكفار صداقه الذي أَنفق، قال ابن عباس

(١) يعني: وحده من بين السبعة المشهورين، وإلا فقد قرأ بها غيره كما ذكر المؤلف.
(٢) علَّق أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط) على كلام أبي علي الفارسيِّ بقوله: «وهذا الكوفي معتزلي فقيه، وأبو علي معتزلي، فأعجبه هذا التخريج، وليس بشيءٍ؟ لأنه لا يقال «كافرة» في وصف الرجال إلا تابعاً لموصوفها أو يكون محذوفاً مُراداً، أما بغير ذلك فلا يُجمع فاعلة على فواعل إلا ويكون للمؤنث».

رضي الله عنهما ـ في كتاب الثعلبي ـ: خمس نسوة من نساءِ المهاجرين رجعن عن الإسلام ولَحِقْنَ بالمشركين: أُمُّ الحكم بنت أَبي سفيان، وكانت تحت عياض بن شداد[١]، وفاطمة بنت أَبي أُميَّة أُخت أُمِّ سَلَمة، وكانت تحت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعَبْدة بنت عبد العزيز، كانت تحت هشام بن العاص. وأُم كلثوم بنت جرول، كانت تحت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأَعطاهم النبي ﷺ مهور نسائهم من الغنيمة[٢].

واختلف الناس، من أَي مال يُدفع إِليه الصداق؟ فقال محمد بن شهاب الزهري: يُدفع إِليه من الصدقات التي كانت تدفع إِلى الكفار بسبب من هاجر من أَزواجهم، أَراد الله تعالى دفعها إِليهم حين لم يرضوا حكمه حسب ما ذكرناه، وهذا قول صحيح يقتضيه قوله تعالى [فَعَاقَبْتُمْ]، وسنبين ذلك عند تفسير اللفظة إن شاء الله تعالى، وقال مجاهد، وقتادة: يُدفع إِليه من غنائم المغازي، وقال هؤلاءِ: المعاقبة هي الغزو والمغنم، وتأَوَّلوا اللَّفظة بهذا المعنى، وقال الزهراوي أَيضاً: يُدفع إِليه من أَيِّ وجوه الفيءِ أَمكن.

و«المعاقبة» في هذه الآية ليست بمعنى مجازاة السوءِ بسوءٍ، ولكنها بمعنى: فَصِرْتُم منهم إِلى الحال التي صاروا إِليها منكم، وذلك بأَن يفوت إِليكم شيءٌ من أَزواجهم، وهكذا هو التعقيب على الحمل والدواب، أَن يركب هذا عُقْبَة وهذا عُقْبَة، وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه: «وَإِنْ فَاتَكُم أَحَدٌ من أَزواجكم»، ويقال: عاقب الرجل صاحبه في كذا، أَي: جاءَ فعْل كل واحد منهما بعقب فعْل الآخر، ويقال: أَعقب الرجل، ومنه قول الشاعر:

وَحَـارَدَتِ النُّكْـدُ الْجِـلادُ ولَـمْ يَكُـنْ ... لِعُقْبَـةِ قِـدْرِ الْمُسْتَعِيـرِيـنَ مُعْقِـبُ[٣]

---

(١) هو عياضُ بن شداد بن غَنْم بن زهير بن أَبي شداد القرشي الفهري، شهد المواقع كلها، وكان يُسَمَّى: زاد الراكب لأنه كان يؤثر رفقته بزاده.

(٢) لم يذكر هنا غير أربع، والذي في كتاب الثعلبي أنهن ستُّ نسوة، ويضاف إلى ما هنا: بَرْوع بنت عُقبة، كانت تحت شمَّاس بن عثمان، وشَهْبَة بنت غَيْلان، ولم يذكر اسم زوجها.

(٣) هذا البيت للكميت، وهو في الديوان والتاج واللسان، وهو في وصف الإبل، ومعنى حارَدَتْ: انقطعت ألبانها أو قلَّت، يقال: ناقة مُحَارِدٌ ومحارِدَةٌ: بمعنى: شديدة الحِرَادِ، والنُّكْدُ: التي ماتت أولادها، والجلاد: الغِلاظُ الجلودِ، القصارُ الشُّعورِ، الشِّدادُ النصوص، وهذا النوعُ من الإبل أقوى وأصبر وأقلُّ=

ويقال: عقَّب ـ بشدِّ القاف ـ أي أصاب عُقْبى، والتَّعقيب: غزْوٌ إثْر غزْو، ويقال: عَقَب ـ بتخفيفها ـ، ويقال: عَقِب ـ بكسرها ـ، كلُّ ذلك بمعنى يقرُب بعضه من بعض، ويجمع ذلك قُربى. وقرأ جمهور الناس: [عَاقَبْتُمْ]، وقرأ الأعرج، ومجاهد، والزهري، وعكرمة، وحميد: [عَقَّبْتُمْ] بالتشديد في القاف، وقرأ الأعرج أيضاً وأبو حيوة، والزهراوي أيضاً: [عَقَبْتُمْ] بفتح القاف خفيفة، وقرأ النَّخعي، والزهري أيضاً: [عَقِبْتُمْ] بكسر القاف، وكلها بمعنى: غَنِمْتُمْ، ورُوي عن مجاهد: [أَعْقَبْتُمْ] بألف مقطوعة قبل العين، وهذه الآية كلُّها قد ارتفع حكمها. ثم ندب تعالى إلى التقوى وأوجبها، وذكر العِلَّة التي بها تجب التقوى وهي الإيمان بالله تعالى والتصديق بوحدانيته وصفاته وعقابه وإنعامه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

هذه بيعة النساءِ في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا، وهي كانت في المعنى بيعة الرجال قبل فرض القتال، وسمَّاهم تبارك وتعالى: «المؤمنات» بحسب الظاهر من أَمرهن، ورفضُ الإشراك هو محض الإيمان، وقتل الأَولاد هو من خوف الفقر والفاقة، وكانت العرب تفعل ذلك، وقرأ الحسن، وأَبو عبد الرحمن: [يُقَتِّلْنَ] بضم الياءِ وفتح القاف وكسر التاءِ مشدَّدة.

و«الإِتْيانُ بالبهتان» قال أَكثر المفسِّرين: معناه أَن تَنْسُب إِلى زوجها ولداً ليس هو له، واللَّفظ أَعم من هذا التخصيص، وإِن الفِرْية بالقول على أَحد من الناس بعظيمة لِمَنْ

= لَبَناً من نوع آخر أغزر لَبَناً وأضعف ويقال له: الخور، والعُقْبَة من التَّعقيب، وهو أن يأتي شيءٌ بعد شيءٍ، يقال: عَقَب هذا هذا إذا جاء بعده، ويقال أيضاً: أعْقَبَ هذا هذا، فهو عُقْبَةٌ له، والبيت شاهد على أن أعْقَبَ بمعنى عَقَبَ، فالشاعر يقول: مُعْقِبٌ، والقِدْر: إناءٌ يُطبخ فيه ـ وهي مؤنثة وقد تذكَّر ـ، يقول: لقد جفَّت ألبان الإبل حتى لم يبق شيءٌ يأخذه أحد من المستعيرين بعد آخرهم، أي لم يبق بعد الآخر آخر ثان.

هذا[١]، وإن الكذب فيما اؤتُمِنَّ عليه من الحيض والحمل لِفريةُ بهتان، وبعض أقوى من بعض، وذلك أن بعض الناس قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾ يراد به اللسان في الكلام، والفم في القُبلة ونحوها، و«بين الأرْجُل» يراد به الفروج، وولَد الإلحاق ونحوه. و«المعروف» الذي نُهي عن العصيان فيه، قال أَنس، وابن عباس، وزيد بن أَسلم رضي الله عنهم: هو النَّوح وشق الجيوب ووشم الوجوه ووصل الشعر وغير ذلك من أَوامر الشريعة فرضها وندبها.

ويُروى أَن جماعةً من النساءِ فيهن هند بنت عتبة ـ بايَعْن رسول الله ﷺ، فقرأَ عليهن الآية، فلما قَرَّرهن على أَلاَّ يُشْرِكن قالت هند: وكيف نطمع أن تقبل منَّا ما لم تقبله من الرجال، بمعنى أن هذا بَيِّنٌ لزومه، فلما وقف على السَّرقة قالت: والله إِني لأُصيب الهنة من مال أَبي سفيان لا أَدري ما يحلُّ لي من ذلك، فقال أَبو سفيان ـ وكان حاضراً ـ: ذلك حلالٌ فيما مضى وبقي، وقال لها رسول الله ﷺ كُلي وولدك بالمعروف، وقد تكرر هذا المعنى في الحديث الآخر، قولها: «إِن أَبا سفيان رجل مسِّيك»، فلما وقف على الزِّني قالت: يا رسول الله وهل تزني الحُرَّة؟ قال لها رسول الله ﷺ: لا، ما تزني الحُرَّة، وذلك أَن الزِّنى في قريش إِنما كان في الإماءِ في أَغلب الأَمر، وفيما يعرِف مثل هند، وإِلاَّ فالبغايا قد كُنَّ أَحراراً، فلما وقف على قتل الأَولاد قالت: نحن ربَّيناهم صغاراً، وقتلتهم أَنت ببدرٍ كباراً، فضحك رسول الله ﷺ، فلما وقف على العصيان في المعروف قالت: ما جلسنا هذا المجلس وفي أَنفسنا أَن نعصيك[٢]. ويروى أَن جماعة نساءٍ بايعن النبي ﷺ فقلن: يا رسول الله نبايعك على كذا وكذا الآية. فلما فرغن قال رسول الله ﷺ: فيما اسْتَطَعْتُنَّ وأَطَقْتُنَّ، فقُلْن: اللهُ ورسوله أَرحم بنا منَّا بأَنفُسنا.

وقوله تعالى: [فَبَايِعْهُنَّ] معناه: امْض معهن صفقة الإيمان بأَن يُعْطِينَ ذلك من أَنْفُسهن ويُعْطَيْن عليه الجنة، واختلفت هيئات مبايعة رسول الله ﷺ النساءَ بعد الإجماع على أَنه لم تمسَّ يده الشريفة يد امرأَة أَجنبية ـ فيروى عن عائشة رضي الله عنها وغيرها

(١) يعني أن الافتراء على أحد من الناس بالقول أنه ارتكب عظيمة من الأمور لَهِيَ من هذا النوع.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور، وابن سعد، عن الشعبي رضي الله عنه، وأخرج مثله ابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما. (الدر المنثور).

هذا وحديث المبايعة مذكور في البخاري، ومسلم، وابن مردويه، عن أُم عطية.

أنها قالت: إنه بايع النساءَ قولاً[(١)]، وقال: «إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأةٍ واحدة»[(٢)]، وقالت أسماءُ بنت يزيد بن السَّكن: كنتُ في النسوة المبايعات، فقلت: يا رسول الله، ابسُطْ يدك نبايعك، فقال لي ﷺ: «إنِّي لا أُصافح النساءَ لكن آخُذُ عليهن ما أخذ الله عليهن»[(٣)]، وذكر النقاش حديثاً أن النبي ﷺ مدَّ يده المكرمة من خارج بيت، ومدَّ نساءٌ من الأنصار أَيديهن من داخله فَبَايَعْنَ[(٤)]، وما قَدَّمتُه أَثبت، وروي عن الشعبي أنه ﷺ لفَّ ثوباً كثيفاً على يده، وجاءَ نسوة فَلَمَسْنَ يده كذلك[(٥)]، ورُوي عن

---

(١) روى البخاري عن عُرْوَة أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن النبي ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، قال عُرْوَة: قالت عائشة: فمن أقَرَّ بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك» كلاماً، ولا والله ما مسَّت يَدُه يَدَ امرأة في المبايعة قط، ما يُبايعُهن إلا بقوله: «قد بايعتك على ذلك»، هذا لفظ البخاري، وقد أخرج الحديث أيضاً عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مردويه، عن عائشة رضي الله عنها. (الدر المنثور). وأخرجه أيضاً أحمد (٦ـ١٥٣) والترمذي.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن سعد، وأحمد والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، عن أُمَيْمة بنت رقيقة، ولفظه كاملا أنها قالت: أتيتُ النبي ﷺ في نساءٍ لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن: «ألاَّ نُشْرِكَ باللهِ شَيْئاً» حتى بلغ ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ فقال: فيما استطعتن وأطقتُنَّ، قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أُصافح النساءَ، إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة». (الدر المنثور).

(٣) أخرجه سعيد بن منصور، وابن سعد، وأحمد، وابن مردويه، عن أسماءَ بنت يزيد رضي الله عنها، قالت: بايعتُ النبي ﷺ في نسوة فقال: «إنِّي لا أُصافحكن، ولكن آخذ عليكن ما أخذ الله». (الدر المنثور).

(٤) أخرج أحمد، وابن سعد، وأبو داود، وأبو يعلى، وعبد بن حميد، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، عن إسماعيل بن عطية، عن جدته أُم عطية رضي الله عنها، قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جمع نساء الأنصار في بيت، فأرسل إليهن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقام على الباب فسلم، فقال: أنا رسول رسول الله ﷺإليكن، تبايعن على ألا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن، ولا تزنين. . . الآية؟ قلنا: نعم، فمدَّ يده من خارج البيت، ومددنا أيدينا من داخل البيت، قاله إسماعيل: فسألت جدتي عن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ قالت: نهانا عن النياحة.

وهذه الرواية عن أُم عطية تفيد أن الذي تكلم مع النساء ومدَّ يده هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أما رواية النقاش التي ذكرها ابن عطية فتفيد أن النبي مدَّ يده المكرَّمة، ونلحظ أن ابن عطية علَّق على رواية النقاش بقوله: «وما قدمتُهُ أثبت».

(٥) أخرجه سعيد بن منصور، وابن سعد، عن الشعبي رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يبايع النساءَ ووضع على يده ثوباً، فلما كان بعدُ كان يخير النساءَ فيقرأ عليهن هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ=

الكلبي أَنَّه قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلمس النساءُ يده وهو خارج من بيتٍ وهُنَّ فيه لا يراهُنَّ[١]، وذكر النقاش وغيره أَن النبي ﷺ بايعه النساءُ بمكَّةَ على الصَّفَا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يصافحهن[٢]، ورُوي من حديث عمرو بن شعيب، عن أَبيه، عن جدِّه، رفعه النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعن عروة بن مسعود الثَّقفي أنه ﷺ غَمَس يده في إناءٍ فيه ماءٌ، ثم دفعه إلى النساءِ يغمسن أَيديهن فيه[٣].

ثم أَمره تبارك وتعالى بالاستغفار لهنَّ، ورجَّاهُنَّ في غُفرانه ورحمته بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، قال ابن زيد، والحسن، ومنذر بن سعيد: هم اليهود لأَن غضب الله عزَّ وجلَّ قد صار عُرفاً لهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم في هذه الآية كفار قريش؛ لأَن كل كافر فعليه غضب الله تعالى لا يردُّ ذلك ثبوت غضب الله على اليهود.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا سيَّما في المَرَدَة ككفَّار قريش، إذ أَعمالهم معصية ليست بمجرد ضلال بل فيها مناورات[٤] مقصودة، وفي الكلام في التشبيه الذي في قوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ﴾ يتبيَّن الاحتياج إلى هذا الخلاف، وذلك أَن اليأس من الآخرة إمَّا أَن يكون بالتكذيب بها، وهذا هو يأْس كفار مكة، وإمَّا أَن يكون باليأْس عن الحظ فيها والنعمة مع التصديق بها، وهذا هو يأْس اليهود، فمن قال إن القوم المشار إليهم هم كفَّار مكَّة قال: معنى قوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾: كما يئس الكافر من صاحب قبر؛ لأنه إذا مات له حميم

= يُبَايِعْنَكَ﴾ الآية... ثم ذكر حضور هند امرأة أبي سفيان وكلامها. (الدر المنثور).

(١) راجع الهامش رقم (٤) من الصفحةالسابقة، هذا وقد أخرجه أيضاً ابن جرير الطبري عن أُم عطية رضي الله عنها.

(٢) في تفسير ابن كثير أن مقاتل بن حيان قال: أُنزلت هذه الآية يوم الفتح، بايع رسول الله ﷺ الرجال على الصفا، وعُمر بايع النساءَ يُحَلِّفهن عن رسول الله ﷺ... ثم قال ابن كثير: رواه ابن أبي حاتم. ثم ساق روايته، فيها خبر هند بنت عتبة.

(٣) أخرجه ابن سعد، وابن مردويه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جَدِّه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا بايع النساءَ دعا بقدح من ماءٍ فغمس يده فيه ثم يغمسن أيديهن، فكانت هذه بيعته.

(٤) اختلفت الأصول في هذه الكلمة، ففي بعضها جاءت: «شرارات» وفي بعضها كانت «سرارات».

قال: هذا آخر العهد به، لن يُبعث أبداً، فمعنى الآية أن اعتقاد أَهل مكَّة في الآخرة كاعتقاد الكافر في البعث ولقاءِ موتاه، وهذا هو تأْويل ابن عباس، والحسن، وقتادة في معنى قوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾. ومن قال إِن القومَ المشار إِليهم هم اليهود قال: معنى قوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾: كما يئس الكافر من الرَّحمة إِذا ماتَ وكان صاحب قبر، وذلك أَنه يُروى أَن الكافر إِذا كان في قبره عُرض عليه مقعده من الجنة أن لو كان مؤمناً، ثم يُعرض عليه مقعده من النار الذي يصير إِليه[1]، فهو يائس من رحمة الله تعالى مع علمه بها ويقينه، وهذا تأْويل مجاهد، وابن جبير، وابن زيد في قوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾، فمعنى الآية أن يأَس اليهود من رحمة الله تعالى في الآخرة مع عِلمهم بها كيأْس ذلك الكافر في قبره، وذلك لأَنهم قَدْ رِينَ على قُلوبهم، وحملهم الحسد على ترك الإِيمان، وغلب على ظنونهم أَنهم مُعَذَّبون، وهذه كانت صفة كثير من مُعاصري النبي ﷺ.

و[مِنْ] في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ على القول الأَول لابتداءِ الغاية، وفي القول الثاني هي لبيان الجنس أَو للتبعيض، يتوجَّهان فيها، وبيان الجنس أَظهر.

كمل تفسير سورة الممتحنة والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

---

(١) حديث إن الميت يعرض عليه مقعده. الخ. أخرجه البخاري في الجنائز وبدء الخلق والرقاق، ومسلم في الجنة، والترمذي في الجنائز، وكذلك كل من النسائي، ومالك في الجنائز، وابن ماجه في الزهد، وأحمد في مسنده (٢-١٦، ٥١، ١١٣، ١٢٣)، ولفظه كما في مسند أحمد: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم أحد إلا يعرض عليه بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى تبعث إليه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الصف

وهي مدنية في قول الجمهور، وقال مكي عن ابن عباس رضي الله عنهما، والمهدوي عن عطاءٍ ومجاهد: إنها مكِّيَّة، والأول أصح لأن معاني السُّورة تعضده، ويشبه أن يكون فيها المكي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ ﴾.

قد تقدَّم القول غير مرَّة في تسبيح الجمادات، و«الْعَزِيزُ» في سلطانه وقدرته، و«الحكيم» في أَفعاله وتدبيره، واختلف الناس في السبب الذي نزلت فيه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ـ فقال ابن عباس، وأبو صالح: نزلت بسبب أَن جماعة قالوا: لَوَددنا أَن نعرف أَحب الأَعمال إِلى ربنا حتى نعتني به، ففرض الله تعالى الجهاد، وأَعلمهم بفضله لديه، وأَنه يحب المقاتلين في سبيله كالبنيان المرصوص، وكان إِذْ فُرض قد تكرَّهه قوم منهم، وفرَّ من فرَّ يوم أُحد، فعاتبهم الله تعالى بهذه الآية، وقال قتادة والضحاك: نزلت بسبب أَن جماعة من شباب المسلمين كانوا يتحدثون عن أَنفسهم في الغزو بما لم يفعلوا، ويقولون فعلنا وصنعنا، وذلك كذب، فنزلت الآية في ذلك، وقال ابن زيد: نزلت في المنافقين لأَن جملة منهم كانوا يقولون للمؤمنين: نحن منكم ومعكم، ثم يظهر من أَفعالهم خلاف ذلك، فنزلت الآية عتاباً لهم.

وحكم هذه الآية باقٍ غابر الدهر، وكل من يقول ما لا يفعل فهو ممقوت مَذِق

الكلام[١]، والقول الأخير في المنافقين إنما يتوجه بأن يكونوا غير مُجَلِّحين بالنفاق[٢]، فلذلك خوطبوا بالمؤمنين، أي: في زعمكم وما تُظهرون، والقول الأول يترجَّح بما يأتي بعد من أمر الجهاد والقتال.

و«الْمَقْتُ»: البغض من أجل ذنب أو ريبة أو دناءَة يصنعها الممقوت، هذا حدُّ المقت، فتأمَّله، و[مَقْتاً] نصب على التمييز، والتقدير كَبُر فِعْلكم مقتاً، والمراد: كبر مَقْتُ فِعْلكم، فحذف المضاف إليه ونصب المضاف على التمييز، وهذا كما تقول: تَفَقَّأَ شحماً بطنُك، ثم تقول: تَفَقَّأَ بطنُك شحماً، و﴿أَن تَقُولُوا﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من المقدر، ويحتمل أن يكون خبر ابتداءٍ مضمَر، ويحتمل ـ على غير هذا التقدير ـ أن يكون فاعلاً بـ[كَبُرَ]، وقول المرءِ ما لا يفعل يوجب مقت الله تعالى، ولذلك فرَّ كثير من العلماءِ من الوعظ والتذكير وآثروا السكوت.

ثم أكَّد تعالى الإخبار بمحبته للمقاتلين صفًّا، ومحبة الله تعالى هي ما يظهر عليهم من نصره وكرامته، وهي هنا صفة فعل وليست بمعنى الإرادة لأن الإرادة لا يصح أن يقع ما يخالفها، ونحن نجد المقاتلين على غير هذه الصفة كثيراً، وقال بعض الناس: قتال الرَّجَّالة[٣] أفضل من قتال الفرسان لأن التَّراصَّ فيه يتمكن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف خَفِيَ على قائله مقصد الآية، وليس المراد نفس التصافِّ، وإنما المقصد الجدُّ في كل أوطان القتال وأحواله، وقصد بالذِّكْر أشدَّ الأحوال وهي الحالة التي تحوج إلى القتال صفًّا متراصًّا، ونابت هذه الحال المذكورة مناب جميع الأحوال، وقضت الآية بأن الذين يبلغ جِدُّهم إلى هذه الحال حريُّون ألاَّ يُقَصِّروا عن حال، و«الْمَرْصُوصُ»: المصفوف المُتَضَام، وقال أبو بَحْرِيَّة[٤]: «إذا رأيتموني ألتفت في

(١) من معاني كلمة «الْمَذْق»: الكذب وعدم الإخلاص.

(٢) يعني: ركبوا رُءُوسهم في النفاق ومضوا فيه إلى غايته.

(٣) جمع راجِلٍ وهو الذي يقاتل وهو على رجليه.

(٤) اختلفت النسخ في كتابة اسمه، فهو في بعضها: أبو يحيى، وفي بعضها: أبو بحيرة، والصواب ما أثبتناه، وهو عبد الله بن قيس الكندي السَّكوني التراغمي أبو بحريَّة الحمصي، شهد خطبة عمر بالجابية، وروى عن معاذ بن جبل، وأبي الدرداء، وأبي عبيدة بن الجراح وأبي هريرة، وروى عنه ابنه وخلق كثير، قال ابن عبد البرّ: «هو تابعي ثقة»، وقال الحافظ في التقريب: «حمصي مشهور مخضرم، =

الصف فجزُّوا فؤادي»[١]، ومنه قول الشاعر:

بِـــالشَّـــامِ بَيْـــنَ صَفَـــائِـــحٍ صُـــمٍّ تَـــرَصَّـــصُ بِـــالْجَنُـــوبِ[٢]

وقال منذر بن سعيد، والفراءُ، وغيرهما: المرصوصُ: المعقود بالرصاص، وهذا يحتمل أن يكون أصل اللفظه.

ثم ذكر تعالى مقالة موسى عليه السلام، وذلك ضرب مثل للمؤمنين الذين يقولون ما لا يفعلون، ذكَّرهم الله تعالى بقوم آذوا نبيَّهم على علم منهم بنبوَّته، وَزَاغُوا فأَزَاغَ اللهُ تعالى قلوبهم، فاحذروا أيها المؤمنون أن يُصَيِّركم العصيان وقول الباطل إلى مثل حالهم، وقال أبو أُمامة: هم الخوارج، وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: هم الحرورية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

المعنى أنهم أشباههم في أنهم لما زاغوا أزاغ الله تعالى قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ تقرير، والمعنى: تؤذونني بِتَعَنُّتِكم وعصيانكم واقتراحاتكم، وهذه كانت أفعال بني إسرائيل.

وانظر أنه تعالى أَسند الزَّيْغ إليهم لكونه فعل حطيطة[٣]، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[٤]، وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾[٥] فقد أَسند التوبة إلى نفسه لكونها فعل رِفعة، ومنه قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٦]، و«زَاغَ» معناه: مالَ، وصار عُرفها في الميل عن

= ثقة، مات سنة سبع وسبعين» رضي الله عنهم أجمعين.

(١) الذي في الطبري: «فجَئُوا لحيي»، وهي من وَجَأَه إذا دَفَعَه بجُمْع كفِّه في الصدر أو العُنق.

(٢) الصَّفائح: جمع صفيحة وهي كل عريض من حجارة أو لوح ونحوهما، والصُّم: المُصْمتة الصُّلْبة، وتَرَصَّصُ: أُحْكِمَ جمْعه وضُمَّ بعضه إلى بعض، وكلُّ ما أُحْكِم وضُمَّ فقد رُصَّ، وهو موضع الاستشهاد هنا، ولم أقف على هذا البيت في المراجع التي بين يديَّ.

(٣) نزول في المكانة وتحقير.

(٤) من الآية (١٩) من سورة (الحشر).

(٥) من الآية (١١٨) من سورة (التوبة).

(٦) الآية (٨٠) من سورة (الشعراء).

الحق، و﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ معناه: طبع عليها وختم وكثُر مَيْلُها عن الحق، وهذه هي العقوبة على الذنب بالذنب، وأَمال ابن أَبي إِسحاق [زَاغوا].

قال عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

المعنى: واذكر يا محمد إذ قال عيسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، وهذا مثال آخر ضربه الله تعالى لكفار قريش، وحكي عن موسى عليه السلام أنه قال: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ وعن عيسى عليه السلام أَنه قال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ من حيث لم يكن له فيهم أَب. و[مُصَدِّقاً] حال مؤكدة، و[مُبَشِّراً] عطف عليه، وقوله: ﴿يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى﴾ وقوله: ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ﴾ جملتان كل واحدة منهما في موضع خفض على الصفة لـ[رَسُولٍ]، و«أَحْمَد» فعل سمِّي به، ويحتمل أَن يكون أَفعل كأَسود، وهو في هذه الآية للكلمة لا الشخص، وليست على حدِّ قولك: جاءَنا أَحمد؛ لأَنك ها هنا أَوقعت الاسم على مسمَّاه، وفي هذه الآية إنما أَراد: اسمه هذه الكلمة، وذكر أَبو علي هذا العرض، ومنه ينفك إِعراب قوله تعالى: ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾(١)، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، ونافع، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ: [من بعديَ] بفتح الياءِ، وقرأَ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم ـ في رواية حفص ـ: ﴿مِنۢ بَعْدِى﴾ بسكون الياءِ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الآية... يحتمل أَن يريد عيسى عليه السلام، وتكون الآية وما بعدها تمثيلاً بأُولئك لهؤلاءِ المعاصرين لمحمد ﷺ، ويحتمل أَن يكون التمثيل قد فرغ عند قوله: [أَحْمَد]، ثم خرج إِلى ذكر أَحمد، لمَّا تطرَّق ذكره فقال تعالى مخاطبة للمؤمنين: فلمَّا جاءَ أَحمد هؤلاءِ الكفار قالوا: هذا سحر مبين، و«البيِّنَات» هي الآيات والعلامات، وقرأَ جمهور الناس: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ إِشارة إِلى ما جاءَ به، وقرأَ ابن مسعود، وطلحة، والأَعمش، وابن وثاب: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ﴾ إِشارة إِليه بنفسه.

(١) من الآية (٦٠) من سورة (الأنبياء).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ تعجيب وتقرير، أي لا أحد أظلم منه، و«افتراءُ الكذب» هو قولهم: «هذا سحرٌ» وما جرى مجرى هذا من الأقوال بغير دليل، وقرأ الجمهور: [يُدْعَى] على بناءِ الفعل للمفعول، وقرأ طلحة بن مصرف: [يَدَّعِي] بمعنى: ينتمي وينتسب، ومن ذلك قول الشاعر:

فَرَمَيْتُ فَوْقَ مُلاءَةٍ مَحْبُوكَةٍ وَأَبَنْتُ لِلأَشْهَادِ حَزَّةَ أَدَّعِي[1]

والمعنى ـ على هذه القراءَة ـ إنما هو إشارة إلى الأنبياءِ عليهم السلام، لمَّا حكى عن الكفار أنهم قالوا: «هذا سِحْرٌ» بيَّن بعد ذلك أن العقل لا يقبله، أي: وهل أظلم من هذا الذي يزعم أنه نبيٌّ ويدَّعي إلى الإسلام وهو مع ذلك مُفْتَرٍ على ربِّه؟ وهذا دليل واضح لأن مسالك أهل الافتراءِ والْمَخْرَقَة[2] إنما هي دون هذا وفي أُمور خسيسة، وضبط النقاشُ هذه القراءَة [يُدَّعَى] بضم الياءِ وفتح الدال المشددة على ما لم يسمَّ فاعله.

والضمير في [يُرِيدُونَ] للكفار، واللام في قوله تعالى: [لِيُطْفِئُوا] لام مؤكدة دخلت على المفعول؛ لأن التقدير: يريدون أن يطفئوا، و«أن» مع الفعل في تأويل المصدر، فكأنه تعالى قال: يريدون إطفاءَ، وأكثر ما تلزم هذه اللامُ المفعولَ إذا تقدَّم، تقول: لِزيدٍ ضربت ولِرُؤْيتك قصدت. و«نورُ الله» هو شرعه سبحانه وبراهينه، وقوله تبارك وتعالى: [بِأَفْوَاهِهِمْ] إشارة إلى الأقوال، أي بقولهم: سِحْر وشِعْر وتكَهُّن وغير ذلك.

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وابن محيصن، والحسن وطلحة، والأعرج: [واللهُ مُتِمٌّ] بالتنوين [نُورَهُ] بالنصب، وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، والأعمش: ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ ﴾ بالإضافة، وهي في معنى الانفصال، وفي هذا نظر.

---

(١) قال هذا البيت ساعدةُ بن العَجْلان الهذليُّ يرثي أخاه مسعوداً حين قتله ضَمْرة بن بكر، وهو من قصيدة مطلعها:

لَمَّا سَمِعْتُ دُعَاءَ ضَمْرَةَ فيهِمُ وَذَكَرْتُ مَسْعُوداً تَبَادَرَ أَدْمُعِي

المُلاءَةُ: المِلْحفة، ومحبوكة: مشدودة محكمة، وأبَنْتُ للأشْهَادِ: أعلنتُ للملأ والحضور، وحَزَّة: حين، وأدَّعي: أنْتَسِب، يقول: إنه رَمَى هذه الرمية فأصابت الملاءَة المحبوكة على عَدُوِّه، وإنه أعلن عن نفسه بقوله: خُذْها وأنا ابن فلان، والشاهد هنا أن «أدَّعي» بمعنى: أنْتَسِب وأنتمي.

(٢) المَخْرقة: الاختلاق والافتراءُ، قال أبو الهيثم: «الاختراق والاختلاق والاختلاص والافتراءُ واحد».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢﴾.

هذا تأكيد لأَمر الرِّسالة وشدٌّ لأَزْرِها، كما يقول الإنسان لأَمر يثبته ويُقَوِّيه: أَنا فعلتُه، أَي: فمن يقدر على معارضته فليعارض، و«الرَّسولُ» المشار إِليه هو محمد ﷺ. وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ لفظ يصلح للعموم، وأَن يكون المعنى: أَلاَّ يبقى موضع فيه دين غير الإِسلام، وهذا لا يكون إِلاَّ عند نزول عيسى عليه السلام، قاله أَبو هريرة، ومجاهد، ويحتمل أَن يكون المعنى: أَن يظهره حتى لا يوجد دين إِلاَّ والإِسلام أَظهر منه، وهذا قد كان وَوُجد.

ثم ندب تعالى المؤمنين وحضَّهم على الجهاد بهذه التجارة التي بيَّنها، وهي أَن يعطي المرءُ نفسه وماله ويأْخذ ثمناً جنة الخُلْد، وقرأَ جمهور الناس والقراءِ: [تُنْجيكُمْ] بتخفيف النون وكسر الجيم دون شدٍّ، وقرأَ ابن عامر وحده[1]، والحسن، والأَعرج، وابن أَبي إِسحاق: [تُنَجِّيكُمْ] بفتح النون وشدِّ الجيم. وقوله تعالى: [تُؤْمِنُونَ] لفظه لفظ الخبر ومعناه الأَمر، أَي: آمنوا، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه [أَلِيمٌ، آمِنوا باللهِ وجاهِدُوا]. وقوله تعالى: [تُؤْمِنُونَ] فعل مرفوع تقديره: ذلك أَنه تؤمنون[2]، وقال الأَخفش: هو عطف بيان على [تِجَارَةٍ]، قال المبرد: هو بمعنى: آمنوا على الأَمر، ولذلك جاءَ [يَغْفِرْ] مجزوماً، وقوله تعالى: [ذَلِكُمْ] إِشارة إِلى الجهاد والإِيمان، و[خَيْرٌ] هنا يحتمل أَن يكون للتفضيل، فالمعنى: من كلِّ عمل، ويحتمل أَن يكون إِخباراً أَن هذا خيرٌ في ذاته ونفسه.

والجزمُ في قوله تعالى: [يَغْفِرْ] على الجواب للأَمر المقدر في [تُؤْمِنُونَ]، أَو على ما يتضمنه قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ من الحضِّ والأَمر، وإِلى نحو هذا ذهب الفراءُ، ورُوي

(١) أي: من السبعة.

(٢) علَّق أبو حيان الأندلسي على كلام ابن عطية هذا بعد أن نقله بقوله: «وهذا ليس بشيءٍ لأن فيه حذف المبتدأ وحذف «أنه» وإبقاء الخبر، وهذا لا يجوز». البحر المحيط (٨ـ٢٦٣).

عن أَبي عمرو ابن العلاءِ أَنه قرأَ: [يَغْفِلَّكُمْ] بإدغام الراءِ في اللام، ولا يجوِّز ذلك سيبويه، وقوله تعالى: [وَمَسَاكِنَ] عطف على [جَنَّاتٍ]، و«طيبُ المساكن»: سَعَتُها وجمالُها، وقيل: طيبُها المعرفةُ بدوام أَمرها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الصحيح، وأَيُّ طيب مع الفناءِ والموت؟

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: [وَأُخْرَى]، قال الأَخفش: هي في موضع خفض عطفاً على [تجَارَة]، وهذا قولٌ قلقٌ قد ردَّ عليه ناسٌ واحْتَجَّ له آخرون، والصحيح ضعفه لأَن هذه «الأُخرى» ليست ممَّا دلَّت عليه، إنما هي ممَّا أُعطي ثمناً وجزاءً على الإِيمان والجهاد بالنفس والمال. وقال الفراءُ: [وَأُخْرَى] في موضع رفع، وقال قوم: [أُخْرَى] في موضع نصب بإضمار فعل، كأَنه تعالى قال: يغفرْ ذنوبكم ويُدخلْكم جنات ويمنحْكُم أُخرى وهي النصر والفتح القريب، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [نصراً من الله وفتحاً] بالنصب فيهما، ووصفها تعالى بأَن النفوس تحبها من حيث هي عاجلة في الدنيا، وقد وكلت النفس بحب العاجل، ففي هذا تحريض، ثم قوَّاه تعالى بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذه الأَلفاظ في غاية الإِيجاز وبراعة المعنى.

ثم ندب الله تعالى المؤمنين إِلى النصرة، ووضع لهم هذا الاسم وإِن كان العُرْف قد خصَّ به الأَوس والخزرج، وسمَّاهم الله تعالى به. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، والأَعرج، وعيسى: [أَنْصَاراً] منَّوناً [للهِ]، وقرأَ الباقون[1]، والحسن، والجحدري بالإِضافة، وفي حرف عبد الله[2]: [أَنتم أَنصار الله].

ثم ضرب تعالى المثل بقوم بادروا حين دُعوا، وهم الحواريُّون، والحواريون

---

(١) أي: من السبعة.

(٢) في بعض النسخ: «وفي حرف أُبيٍّ».

خُلْصان(١) الأَنبياءِ عليهم السلام، سُمُّوا بذلك لأنه ردَّد اختيارهم وتصفيتهم وكذلك ردَّد تخيل الحواري، واللفظتان من «الحَوَر»، وقيل: سُمُّوا بذلك لبياض ثيابهم، وكانوا غسَّالين(٢) نصروا عيسى عليه السلام، واستُعمل اسمهم حتى قيل للناصر العاضد: حواري، وقال النبي ﷺ: «وحواري الزبير»(٣)، وافتراق طوائف بني إسرائيل هو في أَمر عيسى عليه السلام، قال قتادة: والطائفة الكافرة ثلاث فرق: اليعقوبية وكلُّهم قالوا: هو الله، والإسرائيلية وهم قالوا: هو ابن الله، والنسطورية وهم قالوا: هو إِله، وأُمُّه إِلٰه، والله تعالى ثالثهما، تعالى الله سبحانه عن أَقوالهم عُلُوًّا كبيراً.

قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾، قيل: ذلك قبل محمد ﷺ، وبعد فترة من رفع عيسى عليه السلام، ردَّ الله تعالى الكرَّة عليهم لمن آمن به فغلبوا الكافرين الذين قتلوا صاحبه الذي أُلقي عليه الشبه، وقيل: ذلك لمحمد ﷺ، أَصبح المؤمن بعيسى عليه السلام ظاهراً لإِيمانه بمحمد ﷺ، وذلك لأنه لا يؤمن أَحد حق الإِيمان بعيسى عليه السلام إِلاَّ وفي ضمن ذلك الإِيمان بمحمد ﷺ؛ لأَنه بشَّر به وحرَّض عليه، وقيل: كان المؤمنون قديماً به ظاهرين بالحُجَّة وإِن ظلُّوا مفترقين في البلاد، مغلوبين في ظاهر الحياة الدنيا، وقرأ مجاهد، وحُميد، والأَعرج، وابن محيصن: [فَآيَدْنَا] مخفَّفة الياءِ ممدودة الأَلف.

كمل تفسير سورة الصَّف والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

---

(١) الخُلْصان: الخالِصُ من الأَخدان، يستوي فيه الواحد والجمع. (المعجم الوسيط).

(٢) المشهور أنهم كانوا قَصَّارين، أي يدقُّون الثياب ويبيِّضونها.

(٣) أخرجه الشيخان، كما أخرجه البزار عن عائشة رضي الله عنها، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده، والبزار والطبراني عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: (تفسير ابن كثير، ومجمع الزوائد ٩ـ١٥١)، كما أخرجه ابن ماجه في المقدمة، ولفظه كما جاء في البخاري ـ باب فضائل الصحابة ـ عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبيٍّ حواريَّ، وإنَّ حواريَّ الزُّبير بن العوام».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الجمعة(١)

وهي مدنيَّة، وذكر النقاش قولاً أنها مكِّيَّة، وذلك خطأٌ ممَّن قاله؛ لأَن أَمر اليهود لم يكن إلاَّ بالمدينة، وكذلك أَمْر الجمعة لم يكن قط بمكَّة، أَعني إقامتها وصلاتها، وأَمَّا أَمْر الانفضاض فلا مرية في كونه بالمدينة، وذكر النقاش عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: كُنَّا جلوساً عند رسول الله ﷺ حين نزلت سورة الجمعة(٢)، وهذا أَيضاً ضعيف؛ لأَن أَبا هريرة رضي الله عنه إنما أَسلم أَيَّام خيبر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾.

تقدَّم القول في مثل أَلفاظ الآية الأُولى بأَجمعها، واختلفت القراءَة في إعراب الصفات في آخرها، فقرأ جمهور الناس: [الْمَلِكِ] بالخفض نعتاً [للهِ]، وكذلك

(١) في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة»، وأخرجه أيضاً الترمذي، وابن مردويه.

(٢) ذكر الإمام ابن كثيرفي تفسيره أن هذا الحديث رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن جرير، من طرق، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وزاد الإمام السيوطي في الدر المنثور نسبته إلى سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه كما ذكره السيوطي: (كنا جلوسا عند النبي ﷺ حين أُنزلت سورة الجمعة، فتلاها فلما بلغ ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قال له رجل: يا رسول الله، من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا؟ فوضع يده على رأس سلمان الفارسي رضي الله عنه وقال: «والذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالثريَّا لناله رجال من هؤلاء»، وتأمل قول المؤلف: إن هذا ضعيف.

ما بعده، وقرأ أبو وائل شقيق[١]، ومسلمة، وأبو الدينار: [الْمَلِكُ] بالرفع على القطع، وكذلك ما بعده، وفتح أبو الدينار القاف من [الْقَدُّوسِ].

و«الأُمِّيُّونَ» يراد بهم العرب، والأمِّي في اللغة: الذي لا يكتب ولا يقرأ، منسوب إلى «أُمِّ القرى» وهي مكَّة، وهذا ضعيف؛ لأن الوصف بالأُمِّيين ـ على هذا ـ يقف على قريش. وإنما المراد جميع العرب، وفيهم قال النبي ﷺ: «إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نحسب ولا نكتب، الشهر هكذا وهكذا»[٢]، وهذه الآية تعديد نعم الله تعالى عليهم فيما أولاهم، و«الآياتُ المتْلُوَّةُ»: القرآن، و[يُزَكِّيهِمْ] معناه: يطهِّرهم من الشِّرك، وينمِّي الخير فيهم، و«الكتاب»: الوحي المتْلُوُّ، و«الحِكْمَةُ»: السُّنَّةُ التي هي على لسانه عليه الصلاة والسلام.

ثم أظهر تعالى تأكيد النعمة بذكر حالهم التي كانت في الضد من الهداية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، و﴿آخَرِينَ﴾ في موضع خفض عطفاً على [الأُمِّيِّينَ]، أو في موضع نصب عطفاً على الضمائر المتقدِّمة، واختلف الناس في المَعْنِيِّين بقوله تعالى: ﴿وَآخَرِينَ﴾ ـ فقال أبو هريرة رضي الله عنه وغيره: أراد فارس، وقد سُئل رسول الله ﷺ: من الآخرون؟ فأخذ بيد سلمان الفارسي رضي الله عنه وقال: «لو كان الدين في الثريَّا لناله رجال من هؤلاءِ»، خرجه مسلم[٣]، وقال سعيد بن جبير، ومجاهد: أراد الرُّوم والعجم، فقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾ ـ على هذين القولين ـ إنما يريد به: في البشرية والإيمان، كأنه تعالى قال: وآخرين من الناس، وقال مجاهد أيضاً، وعِكْرِمة، ومقَاتل: أراد التابعين من أبناءِ العرب[٤]، فقوله تعالى: [مِنْهُمْ] يريد

---

(١) هو شقيق بن سلمة الأسدي، أبو وائل، الكوفي، قال عنه في التقريب: «ثقة، مخضرم، مات في خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وله مائة سنة».

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن المنذر، وابن مردويه، ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور، وقد أخرجه أيضاً الإمام أحمد في مسنده (٢ـ٤٣، ٥٢، ١٢٢، ١٢٩)، ولفظه فيه أن الأسود بن قيس قال: سمعت سعيد بن عمرو بن سعيد يحدِّث أنه سمع ابن عمر يحدِّث عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّا أمَّة أُمِّيَّة لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا ـ وعقد الإبهام في الثالثة ـ، والشهر هكذا وهكذا وهكذا، يعني تمام الثلاثين».

(٣) راجع الهامش رقم (٢) من الصفحة السابقة.

(٤) روى ابن أبي حاتم عن سهل الساعديِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في أصلاب أُمَّتي رجالاً ونساءً يدخلون الجنة بغير حساب، ثم تلا: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾، قال الإمام القرطبي: والقول الأول أثبت.

به النَّسب والإِيمان، وقال ابن زيد ومجاهد والضحاك وابن حبان: أراد بقوله تعالى: [وآخَرِينَ] جميع طوائف الناس ويكون [مِنْهُمْ] في البشرية والإيمان على ما قلناه، وذلك أَنَّا نجد بعثه عليه الصلاة والسلام إِلى جميع الخلائق، وقال ابن عمر رضي الله عنهما لأَهل اليمن: أَنتم هم.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ﴾ نفيٌ لما قَرُب من الحال، والمعنى أَنهم مزمعون أَن يلحقوا بهم، وهي «لم» زيدت عليها «ما» تأكيداً، قال سيبويه: «لَمَّا» نَفْي قولك: «قد فعل»، و«لَمْ» نفْي قولك: «فعل» دون «قَدْ».

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ الآية... تَبْيينٌ لموقع النعمة وتخْصيصه إِيَّاهم بها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾.

الذين حُمِّلوا التوراة هم بنو إِسرائيل والأَحبار المعاصرون لرسول الله ﷺ، و[حُمِّلُوا] معناه: كُلِّفُوا القيام بأَوامرها ونواهيها، فهذا كما حمل الإِنسان الأَمانة، وليس ذلك من الحمل على الظهر وإِن كان مُشْتَقًّا منه، وذكر تعالى أَنهم لم يَحْملوها، أَي: لم يُطيقوا أَمرها ويَقِفوا عند حدِّها حين كذبوا بمحمد ﷺ والتوراةُ تنطق بِنُبُوَّته، فكأَن كل خير لم ينتفع به من حُمِّله، كمثل حمارٍ عليه أَسفارٌ فهي عنده والزِّبل وغير ذلك بمنزلة واحدة.

وقرأَ يحيى بن يَعْمَر: [حَمَلُوا] بفتح الحاءِ والميم مخففة، وقرأَ المأْمون العباسي: «يُحَمَّل» بضم الياءِ وفتح الحاءِ وشدِّ الميم المفتوحة، وفي مصحف ابن مسعود: [كَمَثَلِ حِمَارٍ] بغير تعريف، و«السِّفْرُ»: الكتابُ المجتمع الأَوراق مُنَضَّدة، ثم بيَّن تعالى حال مثلهم وفساده بقوله سبحانه: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾، والتقدير: بئس المثل مثل القوم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ﴾ الآية. رُوي أَنها نزلت بسبب أَن

يهود المدينة لمَّا ظهر رسول الله ﷺ خاطبوا يهود خيبر في أمره، فذكروا نُبُوَّته، وقالوا لهم: إن رأيتم اتِّباعه أطعناكم، وإن رأيتم خلافه خالفناه معكم، فجاءَهم جواب أهل خيبر يقولون: نحن أبناءُ إبراهيم خليل الرحمن، وأبناءُ عُزَيْر ابن الله، ومنَّا الأنبياءُ، ومتى كانت النُّبوَّة في العرب؟ نحن أحق بالنبوة من محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولا سبيل إلى اتباعه، فنزلت الآية بمعنى: إنكم إذا كنتم من الله بهذه المنزلة فقُربه وفِراقُ هذه الحياة الخسيسة أَحب إليكم فتمنوا الموت إن كنتم صادقين تعتقدون في أنفسكم هذه المنزلة.

ثم أَخبر تعالى عنهم أَنهم لا يَتَمَنَّوْنه ولا يلقونه إلاَّ كرهاً لعلمهم بسوءِ حالهم عند الله تعالى وبعدهم عنه، هذا هو اللازم من أَلفاظ الآية، وروى كثير من المفسِّرين أَن الله تعالى جعل هذه الآية معجزة لمحمد ﷺ، وآية باهرة، وأَعلمه أَنه إن تمنى أَحد منهم الموت في أَيام معدودة ماتَ وفارق الدُّنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: تمنوا الموت في جهة التعجيز وإظهار الآية، فما تمنَّاه أَحدٌ خوفاً من الموت وثقةً بصدق محمد ﷺ[1].

ثمَّ توعَّدهم تعالى بالموت الذي لا محيد لهم عنه، ثمَّ بما بعده من الرَّدِّ إلى الله تعالى، وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه: [تفِرُّونَ منْهُ مُلاَقِيكُمْ] بإسقاط [فَإِنَّهُ].

وقوله تعالى: [فَيُنَبِّئُكُمْ] أَي: إنباءَ مُعَاقِبٍ مُجازٍ عليه بالتعذيب، وقرأَ ابن أَبي إسحاق: [فَتَمَنَّوِا المَوتَ] بكسر الواو، وكذلك يحيى بن يَعْمَر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا جهل قال: إن رأيتُ محمداً عند الكعبة لآتينَّه حتى أطأ على عُنقه، قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنَّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً»، أخرجه الإمام أحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي.

النداءُ بالجمعة هو في ناحية المسجد، وكان على الجدار في مسجد رسول الله ﷺ، وقال السائب بن يزيد[(١)]: كان للنبي ﷺ مؤذن واحد على باب المسجد، وفي مصحف أَبي داود: وكان بين يديه وهو على المنبر أَذان، وهو الذي استعمل بنو أُمَيَّة، وبقي بقرطبة إِلى الآن، ثم زاد عثمان رضي الله عنه النداءَ على الزوراءِ يُسمع الناس، فقوم عبَّروا عن زيادة عثمان بالثاني كأَنهم لم يتعدُّوا الذي كان بين يدي النبي ﷺ، وقومٌ عبَّروا عنه بالثالث. وقرأَ ابن الزبير، والأَعمش: [الْجُمْعَةِ] بإِسكان الميم، وهي لغة.

والمأْمور بالسَّعي هو المؤمن الصحيح البالغ الحرُّ الذَّكَر، ولا جمعة على مسافر في طاعة، فإِن حضرها أَحسن وأَجْزَته، واختلف الناس في الحدِّ الذي يلزم منه السَّعي ـ فقال مالك: ثلاثة أَميال من منزل الساعي إِلى المنادي، وقال فريق: من منزل الساعي إِلى أَول المدينة التي فيها النداءُ، وقال أَصحاب الرأْي: يلزم أَهل المدينة كلها السَّعي من سمع النداءَ ومن لم يسمع وإِن كانت أَقطارها فوق الثلاثة أَميال، وقال أَبو حنيفة: ولا يلزم مَنْ منزله خارج المدينة كزرارة من الكوفة، وإِنما بينهما مجرى نهر، ولا تجوز لهم إِقامتُها لأَن مْنْ شروطها الجامع والسُّلطان القاهر والسُّوق القائمة، وقال بعض أَهل العلم: السعي من خمسة أَميال، وقال الزهري: من ستَّة أَميال، وقال أَيضاً: من أَربعة أَميال، وقاله ابن المنكدر، وقال ابن عمر، وابن المسيَّب، وابن حنبل: إِنما يلزم السعي من سمع النداءَ، وفي هذا نظر.

والسَّعي في الآية ليس الإِسراع في المشي كالسَّعي بين الصَّفا والمروة، وإِنما هو بمعنى قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[(٢)]، فالقيامُ والوضوءُ ولبسُ الثوب والمشيُ سعيٌ كلُّه إِلى ذكر الله تعالى، قال الحسن، وقتادة، ومالك، وغيرهم: إِنما

---

(١) هو السائب بن يزيد بن سعيد بن ثُمامة الكندي، ويعرف بابن أُخت النَّمِر، صحابي صغير، له أحاديث قليلة، وحُجَّ به في حجة الوداع وهو ابن سبع سنين، وولاه عمر سوق المدينة، مات سنة إحدى وتسعين، وقيل: قبل ذلك، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة. (تقريب التهذيب).

(٢) الآية (٣٩) من سوة (النجم)، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾، فالسعي في هذه الآيات هو العمل، ومن هذا المعنى قول زهير بن أبي سُلمى:

سَعَى بَعْدَهُم قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُوا ... فَلَمْ يُفْلِحُوا وَلَمْ يُلامُوا وَلَمْ يَأْلُوا

فمعنى «سعى» في كل هذه الأمثلة: عَمِل.

تُؤتَى الصلاة بالسَّكينة، والسَّعيُ هو بالنِّيَّة والإرادة والعمل(١)، و«الذِّكْرُ» هو وعظ الخطبة، قاله ابن المسيَّب، ويؤيد ذلك قول النبي ﷺ: «إِنَّ الملائكة على أبواب المسجد يوم الجمعة، يكتبون الأول فالأول، فإذا خرج الإمامُ طُويت الصُّحف وجلست الملائكة يستمعون الذِّكر»، والخطبة عند جمهور العلماءِ شرط في انعقاد الجمعة، وقال الحسن: هي مستحبَّة، وقرأ عمر بن الخطاب، وعليٌّ، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وجماعة من التابعين رضوان الله عليهم أجمعين: ﴿فامضوا إلى ذكر الله﴾(٢)، وقال ابن مسعود: لو قرأتُ: [فَاسْعَوْا] لأسرعتُ حتى يقع ردائي.

واختَلف الناسُ في البيع في الوقت المنهي عنه إذا وقع: ما الحكم فيه؟ بعد إجماعهم على وجوب امتناعه بدءًا ـ فقال الشافعي: يمضىٰ، وقالَ مَرَّةً: يُفسخ ما لم يفت، فإن فات مضى. وقال مالك: يُفسخ ما لم يفت، فإن فات أَصلح بالقيمة، واختُلف في وقت التقويم ـ فقيل: وقت القبض، وقيل: وقت الحكم.

وقوله تعالى: [ذَٰلِكُمْ] إشارة إلى السعي وترك البيع، وقوله سبحانه: [فَانْتَشِرُوا] أَجمع الناس على أَن مقتضى هذا الأمر الإباحة، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أَنه للإباحة في طلب المعاش، وأَن ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾(٣)، إلاَّ ما رُوي عن أَنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ذلك الفضلُ المُبْتَغَى هو عيادة مريض أَو صِلَة صديق أَو اتباع جنازة»(٤).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا ينبغي أَن يكون المرءُ بقيةَ يوم الجمعة(٥)، ويكون تخيُّره(٦) صبح يوم

(١) وقيل: إن معنى «السَّعْي» هنا هو القَصْدُ، قال الحسن: والله ما هو بِسَعْي على الأقدام ولكنه سَعْي بالقلوب والنيَّة، وقيل: إن السَّعْي في الآية هو سَعْيٌ على الأقدام، وهو الدرجة العالية، فهو فضل وليس بشرط، أما السَّعْيُ بمعنى الجري والاشتداد فيه فهو غير مراد.

(٢) هذه القراءَة تبين أن المراد مجرد العمل والمضي فيه لا أنه السعي بالجري والاشتداد فيه.

(٣) من الآية (٢) من سورة (المائدة).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره عن أنس رضي الله عنه.

(٥) يعني: ينبغي أن يكون في عيادة المريض أو صلة الصديق أو اتباع الجنازة أو ما شابه ذلك من الفضل.

(٦) يقصد تخيُّر العمل وأن ذلك يكون صباح يوم السبت.

السبت، قاله جعفر بن محمد الصادق، وقال مكحول: الفضل المُبْتَغَى: العلم، فينبغي أن يطلب إِثر الجمعة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا﴾ الآية، نزلت بسبب أن رسول الله ﷺ كان قائماً على المنبر يخطب يوم الجمعة، فأقبلت عيرٌ من الشام تحمل مِيرَةً[١]، وصاحبُ أمْرِها دِحْيةُ بن خليفة الكلبي، قال مجاهد: وكان من عُرفهم أن تدخل العير المدينة بالطبل والمعازف والصياح من ورائها، فدخلت العير بمثل ذلك، فانفض أهل المسجد إلى رؤْية ذلك وسماعه، وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر، ولم يبق معه غير اثني عشر رجلاً، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أنا أحدهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولم تَمُرَّ بي تسميتهم في ديوان فيما أذكره[٢]، إلاَّ أني سمعت أبي رحمه الله تعالى يقول: هم العشرة المشهود لهم بالجنة، واختُلف في الحادي عشر، فقيل: عمار بن ياسر رضي الله عنه، وقيل: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في كتاب الثعلبي: بقي معه ثمانية نفر، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «لولا هؤلاءِ لكانت الحجارة سُوِّمت على المُنْفَضِّين من السماءِ»[٣]، وفي حديث آخر «والذي نفس محمد بيده لو تتابعتم حتى لا يبقى منكم أحدٌ لسال عليكم الوادي ناراً»[٤]، وقال قتادة: بلغنا أنهم فعلوا ذلك ثلاث مرات؛ لأن قدوم العير كان يوافق يوم الجمعة، بسبب أن المراحل كانت تُعطي ذلك، وقال تعالى: [إِلَيْهَا] ولم يقل: «إِليهما»

---

(١) المِيرَةُ: الطعام يجمع للسفر ونحوه.

(٢) روى أسد بن عمرو والد أسد بن موسى بن أسد حديثاً مرسلا فيه أسماؤهم، وجاء فيه أن رسول الله ﷺ لم يبق معه إلا أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وابو عبيدة بن الجراح، وسعيد بن زيد، وبلال، وعبد الله بن مسعود في إحدى روايتين، وفي الرواية الأخرى عمار بن ياسر رضوان الله عليهم أجمعين.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن مقاتل بن حيان، وقد ذكر فيه قصة العير التي قدمت مع دحية يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب على المنبر، وفي آخره: (فقال النبي ﷺ عند ذلك ـ لولا هؤلاءـ يعني الذين بقوا في المسجد عند النبي ﷺ ـ لقصدت إليهم الحجارة من السماءِ، ونزل ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾) (الدر المنثور).

(٤) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن، وأخرج مثله عن قتادة، كذلك أخرج مثله البيهقي في شُعب الإيمان. (الدر المنثور).

تقديماً للأهم إذ كانت هي سبب اللهو ولم يكن اللهو سببها[١]، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: «ومِن التجارة لِلَّذين اتَّقوا والله خير الرازقين».

وتأَمَّلْ أَن قُدِّمت التجارة مع الرؤْية لأَنها أَهمُّ، وأُخِّرت مع التفضيل لتقع النفس أَولاً على الأَبْيَن.

وفي هذه الآية قيام الخطيب، وأَول من استراح في الخطبة عثمان رضي الله عنه، وأَول من خطب جالساً معاوية رضي الله عنه. و«الرَّزَّاق» صفة فعل، وقد يتصف بها بعض البشر تجوُّزاً إذا كان سبب رزق الحيوان، والله تعالى خير الرازقين.

كمل تفسير سورة الجمعة والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

---

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط: «وقرىء [إلَيهِمَا] بالتثنية للضمير، كقوله تعالى: ﴿إن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾، وتخريجه على أن يُتجوَّز بـ[أَوْ] فتكون بمعنى «الواو».».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة المنافقون

وهي مدنيَّة بإجماع، وذلك أنها نزلت في غزوة بني المصطلق[1] بسبب أَن عبد الله بن أُبَيّ بن سلول كان منه في تلك الغزوة أَقوال، وكان له أَتباع يقولون قوله، فنزلت السُّورة كلها بسبب ذلك، ذكر الله تعالى فيها ما تقدم من المنافقين من حَلِفهم وشهادتهم في الظاهر بالإيمان، وأَنهم كَذَبة، وذكر تعالى فيها ما تأَخر منهم ووقع في تلك الغزوة، وسيأْتي بيان ذلك فصلاً فصلاً عند تفسير الآيات إِن شاءَ الله تعالى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾.

فضح الله تعالى بهذه الآية سريرة المنافقين، وذلك أَنهم كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: نشهد إِنَّك لرسول الله، وهم في إِخبارهم هذا كاذبون؛ لأَن حقيقة الكذب أَن يخبر الإنسان بضد ما في قلبه، وكسرت الأَلف من [إِنَّ] في الثلاثة لدخول اللام المؤكدة في الخبر وذلك لا يكون مع المفتوحة، وقوله تعالى: [يَشْهَدُ] وما جرى مجراها من أَفعال اليقين والعلم تجابُ بما يجاب به القَسَم، وهي بمنزلة القَسَم.

وقرأَ الناس: [أَيْمَانَهُمْ] جمع يمين، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن ـ بخلاف عنه ـ:

(١) سبب النزول ذكره الواحدي في كتابه «أسباب النزول»، وأخرجه ابن إسحاق في السيرة، وكذا أخرجه الطبري من طريقه، وأصل القصة في الصحيحين من طريق أبي إسحق عن زيد بن أرقم، ورواها الترمذي، والنسائي، والحاكم من طريق أبي سعد الأَزْدي.

[إِيمَانَهُمْ] بكسر الأَلف، أي: هذا الذي يُظهرون، وهذا على حذف مضاف تقديره: إِظْهار، و«الْجُنَّةُ»: ما يُتَسَتَّر به في الأَجرام والمعاني، وقوله تعالى: [فَصَدُّوا] يحتمل أَن يكون غير مُتَعَدٍّ، تقول: «صدَّ زيدٌ»، ويحتمل أَن يكون متعدِّياً كما قال:

صَـــدَدْتِ الْكَـأْسَ عَنَّـا أُمَّ عَمْـرٍو . . . . (١)

فالمعنى: صدُّوا غيرهم ممن كان يريد الإِيمان، أَو من المؤمنين في أَن يقاتلوهم أَو ينكروا عليهم، وتلك سبيل الله تعالى فيهم، وقد تقدَّم تفسير نظير هذه الآية.

وقوله تعالى: [ذَلِكَ] إِشارةٌ إِلى فعل الله تعالى بهم في فضيحتهم وتوبيخهم، ويحتمل أَن تكون الإِشارة إِلى سوءِ ما عملوا، فالمعنى: ساءَ عملهم بأَن كفروا بعد إِيمان.

وقوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ إِمَّا أَن يراد به: منهم من كان آمن ثم نافق بعد صِحَّةٍ من إِيمانه، وقد كان هذا موجوداً، وإِمَّا أَن يريدهم كلهم، فالمعنى: ذلك بأنهم أظهروا الإيمان ثم كفروا في باطن أمرهم، فسمَّى ذلك الإِظهار إِيماناً، وقرأَ بعض القراءِ: [فَطَبَعَ] على بناءِ الفعل للفاعل، وقرأَ جمهور القراءِ: (فَطُبِعَ) بضم الطاءِ على بنائه للمفعول بغير إِدغام، وأَدغم أَبو عمرو(٢)، وقرأَ الأَعمش: [فطبع الله]، وعبَّر الله تعالى بالطبع على ما خلق في قلوبهم من الريب والشَّك وخَتَم عليهم به من الكفر والمصير إِلى النار.

وقوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ توبيخٌ لهم: لأَنهم كانوا رجالاً أَجمل شيءٍ وأَفصحه، فكان منظرهم يروق وقَوْلُهم يخلب، لكن الله تعالى جعلهم كالخُشُب المُسَنَّدة إِذْ لا أَفهام لهم نافعة، ولا نظر يصيب، فذلك المنظر لا مَخْبَر له كالخُشُب المُسَنَّدة، إِنما هي أَجرام لا عقول لها، معتمدة على غيرها،

(١) هذا صدر بيت هو الخامس في معلقة عمرو بن كلثوم في كثير من الروايات، وأسقطه وبيتين بعده أبو بكر الأنباري في «شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات»، والبيت بتمامه:

صَـدَدْتِ الْكَـأْسَ عَنَّـا أُمَّ عَمْـرو ... وَكَـانَ الْكَـأْسُ مَجْـرَاهَـا الْيَمِينَـا

والرواية في «موسوعة الشعر العربي»: «صَبَنْتِ الكَأسَ» بمعنى: صَرَفْتِ، وعلى هذا فلا شاهد فيه، يقول: صرفت الكأس عنا يا أُم عمرو؟ وكان مجرى الكأس على اليمين فأجريتها على اليسار. يعني أنها تعمدت إبعادها عنه.

(٢) يعني أدغم عَيْن[فَطُبِعَ] في عين [عَلَى].

لا تَثْبُت بنفسها، ومنه قولهم: «تساند القوم» إذا اصطفُّوا وتقابلوا للقتال، وقد يحتمل أَن يُشَبِّه اصطفافهم في الأَندية باصطفاف الخُشُب المُسَنَّدة، وخلوهم من الأَفهام النافعة بخُلوِّ الخشب من ذلك، وقال رجل لابن سيرين: رأَيتني في النوم محتضناً خشبة، فقال ابن سيرين: أَظنك من أَهل هذه الآية، وتلا ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾.

وقرأَ عِكْرمة، وعطية: [يُسْمَعْ] بالياءِ مضمومة، وقرأَ نافع، وابن عامر، وحمزة، وعاصم: [خُشُبٌ] بضم الخاءِ والشين، وقرأَ قنبل، وابن كثير، وأَبو عمرو، والكسائي: [خُشْبٌ] بضم الخاءِ وسكون الشين، وهي قراءَة البَرَاءِ بن عازب رضي الله عنه، واختيار أَبي عُبَيد، وقرأَ سعيد بن جبير، وسعيد بن المسيَّب: [خَشَبٌ] بفتح الخاءِ والشين، وذلك كله جمع «خَشَبَة» بفتح الخاءِ والشين، فالقراءَتان أَولاً كما تقول: بَدَنَةٌ وبُدُنٌ وبُدْنٌ، قاله سيبويه، والأَخيرة على الباب في ثَمَرَة وثَمَر.

وكان عبد الله بن أُبَيٍّ من أَبهى المنافقين وأَطولهم، ويدل على ذلك أَنه لم يوجد قميص يكسو العباس رضي الله عنه غير قميصه، وقد تقدم في سورة البقرة تحرير أَمر المنافقين وكيف سترهم الإِسلام.

وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ فَضْحٌ أَيضاً لما كانوا يُسِرُّونه من الخوف، وذلك أَنهم كانوا يتوقعون أَن يأْمر النبي ﷺ ـ عن الله ـ بقتلهم، قال مقاتل: فكانوا متى سمعوا نُشدان ضالة، أَو صياحاً بأَيِّ وجه كان، أَو أُخبروا بنزول وحي، طارت قلوبهم وطاشت عقولهم حتى يسكن ذلك ويكون في غير شأْنهم، وجرى هذا اللَّفظ مثلاً في الخائف، ونحوه قول الشاعر:

يُرَوِّعُهُ السِّرَارُ بِكُلِّ أَرْضٍ ... مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ بِهِ السِّرَارُ(١)

وقول جرير:

مَازِلْتَ تَحْسَبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ ... خَيْلاً تَكُرُّ عَلَيْهِمُ وَرِجَالاً(٢)

---

(١) السِّرَارُ: المُسَارَّة والمناجاة، وفي حديث عمر أنه كان يحدثه عليه الصلاة والسلام كأخي السِّرار، لخفض صوته، ويُرَوِّعه: يُفزعه ويُخيفه، يقول: إنه يخاف من المناجاة وخفي الأصوات خشية أن يكون هذا السِّرارُ خاصّاً به. ولم أقف على قائل هذا البيت.

(٢) لم أجد هذا البيت في ديوان جرير، وقد نسبه الزمخشري والقرطبي إلى الأخطل، وذكر صاحب البحر المحيط أن ابن عطية نسبه إلى جرير، وأن الزمخشري نسبه للأخطل. وحَسِبَ الشيءَ يَحْسَبه: ظنَّه، وكرَّ=

ثم أَخبر تعالى بأَنهم هم العدو، وحذَّر منهم، و«العَدُوُّ» يقع للواحد وللجمع. وقوله تعالى: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ دعاءٌ يتضمن الإقصاءَ والمنابذة وتمني الشَّر لهم.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ معناه: يُصرفون، فيحتمل أَن تكون [أَنَّى] استفهاماً، كأَنه تعالى قال: كيف يُصرفون؟ أَوْ: لأَيِّ سبب لا يرون رُشْد أَنفسهم؟ ويحتمل أَن تكون [أَنَّى] ظرفاً لـ[قَاتَلَهُمُ] كأَنه تعالى قال: قاتَلَهُم اللهُ كيف انصرفوا وصُرفوا، فلا يكون في القول استفهام على هذا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

كان من أَمر عبد الله بن أُبَيِّ بن سلول أَنه خرج مع رسول الله ﷺ في غزوة بني المصطلق، فبلغ الناسُ إِلى ماءٍ سبق إِليه المهاجرون، وكأَنهم غلبوا الأَنصار عليه بعض الغَلَبة، فقال عبد الله بن أُبَيِّ لأَصحابه: قد كنتُ قلت لكم في هؤلاءِ الجلابيب ما قلتُ فلم تسمعوا مني، وكان المنافقون ومَنْ لا يتحرى، يُسَمُّون المهاجرين رضي الله عنهم الجلابيب، ومنه قول حسَّان بن ثابت:

أَرَى الْجَلاَبِيبَ قَدْ عَزُّوا وَقَدْ كَثُرُوا ... وابْنُ الفُرَيْعَةِ أَمْسَى بَيْضَةَ الْبَلَدِ[1]

= يكُرُّ: رجع إلى الهجوم، وهو خلاف الفَرّ، يصوِّر خوفه الذي يوقع في ظنِّه أن كل شيءٍ عدوٌّ يهاجمهم. ورجالا في البيت معطوفة على «خيلا».

هذا والمعنى المقصود في البيتين كثير مطروق في الشعر العربي، وقد غالى المتنبي فيه حين قال:

وَضَاقَتِ الأَرْضُ حَتَّى صَارَ هَارِبُهُمْ ... إذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلا

(١) البيت في ديوان حسَّان، والرواية فيه: «أَمْسَى الْخَلاَبِيسُ...» ومعناها: المُتَفَرِّقون الذين يأتون من هاهُنا وهاهُنا، والرواية في اللسان، والتهذيب، وشرح الشواهد الكبرى للعيني، والأغاني، ومعجم ما استعجم، وسمط اللآلىء، وتاريخ الطبري: «أَمْسَى الجلابيب»، وبَيْضَة البَلَدِ هي بيضة النعامة تتركها في الصحراءِ لا راعي يرعاها ولا حامي يحميها، فهي مثال للذِّلة والهوان، وابن الفُرَيْعَة هو حسَّان، قال=

فقال النبي ﷺ: أتحضُّ علينا يا حسَّان؟ ثم إن الجَهْجَاهَ الغفاريَّ ـ وكان أجيراً لِعمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ وَرَد إلى الماءِ بفرس لِعُمر، فازدحم هو وسِنانُ بن وبرة الجهني ـ وكان حليفاً للأوس ـ، فكسع الجَهْجَاهُ سِناناً، فغضب سِنَان وتَثَاورا، ودعا الجهجاه بالمهاجرين، ودعا سِنان بالأنصار، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «ما بال دَعوى الجاهلية»، فلما أُخبر بالقصة قال: «دعوها فإنها مُنْتِنَة»، واجتمع في الأمر عند عبد الله بن أُبَيٍّ قوم من المنافقين ـ كان فيهم زَيْدُ بن أَرقم[1] فتًى صغيراً لم يُتَحَفَّظ منه ـ، فقال عبد الله بن أُبيٍّ: أَوَ قَدْ تداعوا علينا؟ والله ما مَثَلنا ومَثَلهم إلاَّ كما قال الأُوَّلُ: «سمِّن كلبك يَأْكُلْكَ»[2]، وقال لهم: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأَعزُّ منها الأَذلَّ، وقال لهم: إنما يقيم هؤلاءِ المهاجرون مع محمد بسبب معونتكم لهم وإنفاقكم عليهم، ولو قطعتم ذلك عنهم لَفَرُّوا، فذهب زيد بن أَرقم إلى عمِّه ـ وكان في حِجره ـ وأَخبره، فأَتى به رسول الله ﷺ فأَخبره، وقال له رسول الله ﷺ: «يا زيد، غضبتَ على الرجل، أَو لعلَّك وهمتَ»؟ فأَقسم زيدٌ ما كان شيءٌ من ذلك، ولقد سمع من عبد الله بن أُبَيٍّ

= في القاموس: «وحسَّان بن ثابت يُعرف بابن الفُرَيْعة كجُهينة، وهي أُمُّه»، ويعني حسَّان بكلامه في البيت أن أذل الناس وسفلتهم قد عزُّوا وكثروا بعد هذه الذِّلَّة وأنه وهو ابن الفُرَيْعَة الذي كان ذا ثروة وثراءٍ قد أُخِّر عن شرفه القديم، واستُبِد بالأمر من دونه، فهو بمنزلة بيضة البلد التي تبيضها النعامة ثم تتركها للضياع في الفلاة فلا تحضنها ولا ترعاها، وقد روي عن أبي العباس أن العرب تقول للرجل الكريم: هو بيضة البلد يمدحونه، ويقولون للآخر: هو بيضة البلد يَذُمُّونه، فهو من الأضداد ـ راجع اللسان ـ.

(١) هو زيد بن أرقم الخزرجي الأنصاري، صحابي جليل، غزا مع النبي ﷺ سبع عشرة غزوة، وشهد صفين مع عليٍّ رضي الله عنه، وله في كتب الحديث سبعون حديثاً، ومات سنة ستٍّ وستين، وقيل: ثمان وستين. (تهذيب التهذيب، وتقريب التهذيب، وخزانة البغدادي).

(٢) هذا مثل معروف، ويُروى: «أَسْمِنْ كلبك. . .»، قالوا: أول من قاله هو حازم بن المنذر الحماني، وذلك أنه وجد طفلاً صغيراً فحمله إلى بيته وأمر أَمَةً له أن ترضعه فأرضعته حتى فُطم وأدرك وراهق، فجعله راعياً لغنمه، وسمَّاه جحيشاً، فكان يرعى الشاة والإبل، ثم أحبته ابنة لحازم يقال لها: راعوم، وأحسَّ حازم بالعلاقة بينهما فرصدهما ثم تبعهما حتى رآهما في موقف سوءٍ، فقال: «سمِّن كلبك يأكلك»، فأرسلها مثلاً، وشدَّ على جحيش بالسيف فأفلت منه ولحق بقومه همدان، وانصرف حازم إلى ابنته وهو يقول: «موتُ الحُرَّة خير من العِرَّة» فأرسلها مثلاً، فلما وصل إليها وجدها قد ماتت مختنقة فقال: «هان علي الثُّكل لِسُوءِ الفِعْل» فأرسلها مثلاً، ثم أنشأ يقول أبياتاً منها:

قَــدْ هَــانَ هَــذَا الثُّكْــلُ لَــوْلا أَنَّنِــي ... أَحْبَبْــتُ قَتْلَــكِ بِــالحُسَــامِ الصَّــارِمِ
وَلَقَــدْ هَمَمْــتُ بِــذَاكَ لَــوْلا أَنَّنِــي ... شَمَّــرْتُ فِــي قَتْــلِ اللَّعِيــنِ الظَّــالِمِ

ما حكى، فعاتب رسول الله ﷺ عبد الله بن أُبَيٍّ عند رجال من الأنصار، فبلغه ذلك فجاءَ وحلف ما قال، وكذَّب زيداً، وحلف معه قوم من المنافقين، فكذَّب رسولُ الله ﷺ زيداً وصدَّق أَيْمان عبد الله بن أُبي، فبقي زيد في منزله لا يتصرف حياءً من الناس، فنزلت هذه السورة عند ذلك، فبعث رسول الله ﷺ في زيد وقال: لقد صدَّقك الله يا زيد ووفت أُذُنك، فخزي عند ذلك عبد الله بن أُبي بن سلول، ومقته الناس، ولامه المؤمنون من قومه، وقال بعض منهم: امض إلى رسول الله ﷺ واعترف بذنبك فيستغفر لك، فلوى رأسه إنكاراً لهذا الرأي وقال لهم: لقد أَشرتم عليَّ بالإيمان فآمنت، وأَشرتم عليَّ أَن أُعطي زكاة مالي ففعلت، ولم يبق لكم إلاَّ أن تأمروني بالسُّجود لمحمد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا هو قصص هذه السُّورة موجزاً.

و«تعال» نداءٌ يقتضي لفظه أَنه دعاءُ الأَعلى للأَسفل، ثم استعمل في كل داعٍ لما فيه من حسن الأَدب، وقرأَ نافع، والمفضَّل عن عاصم: [لَوَوْا] بتخفيف الواو، وهي قراءَة الحسن ـ بخلاف ـ، ومجاهد، وأَهل المدينة، وقرأَ الباقون، وأَبو جعفر، والأَعمش: [لَوَّوْا] بشد الواو على تضعيف المبالغة، وهي قراءَة طلحة، وعيسى، وأَبي رجاءٍ، وزرٍّ، والأَعرج، وقرأَ بعض القراءِ هنا: [يَصِدُّونَ] بكسر الصاد، والجمهور بضمها.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. رُوي أَنه لمَّا نزلت: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[1] قال رسول الله ﷺ: «لأزيدنَّ على السبعين»[2]، وفي حديث آخر «لو علمتُ أَني إِنْ زدتُ غُفر لهم لزِدْتُ»[3]، فكأَنه عليه الصلاة والسلام رجا أَن هذا

---

(١) من الآية (٨٠) من سورة (التوبة).

(٢) هذا جزءٌ من حديث أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عروة وأخرج مثله ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد. (الدر المنثور).

(٣) أخرج هذا الحديث أحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، والنحاس، وابن حبان، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: سمعت عُمر يقول: لما توفي عبد الله بن أُبي دُعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام عليه، فلما وقف قلتُ: أَعَلى عدوِّ الله عبد الله بن أُبيٍّ القائل كذا وكذا، والقائل كذا وكذا؟ أُعَدِّد أيامه ورسول الله ﷺ يبتسم، حتى إذا أكثرتُ قال: يا عمر أَخِّر عني، إنِّي قد خُيِّرت، وقد قيل لي: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، فلو أعلم أني إن زدْتُ على السبعين غُفر له لزدتُ عليها، ثم صلى عليه رسول الله ﷺ، ومشى=

الحدَّ ليس على جهة الحتم جملة، بل على أَن ما يجاوزه يخرج عن حكمه، فلما فعل ابن أُبَيٍّ وأَصحابه ما فعلوا شدَّد الله تعالى عليهم في هذه السُّورة، وأَعلم أَنه لا يغفر لهم دون حدٍّ في الاستغفار(١)، وفي قول النبي ﷺ: «لو علمتُ أَني لو زدتُ غُفر لهم» نصٌّ على رفض دليل الخطاب(٢).

وقرأَ جمهور الناس: [أَسْتَغْفَرْتَ] بالقطع وأَلف الاستفهام، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [آسْتَغْفَرْتَ] بمدَّة على الهمزة، وهي أَلف التسوية، وقرأَ أَيضاً بوصل الأَلف دون همز على الخبر، وفي هذا كله ضعف؛ لأَنه في الأُولى أَثبت همزةَ الوصل وقد أَغنت عنها همزة الاستفهام، وفي الثانية حَذَفَ همزةَ الاستفهام وهو يريدها، وهذا مما لا يُستعمل إِلاَّ في الشِّعر.

وقوله تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ إِشارة إِلى عبد الله بن أُبي ومَنْ قال بقوله، قاله عليُّ ابن سليمان(٣)، ثمَّ سفَّه تعالى أَحْلاَمَهم في أَن ظنُّوا أَن إِنفاقهم هو سبب رزق المهاجرين، ونسوا أَن حرمان الرِّزق بيد الله تعالى، إِذا انسد بابٌ انفتح غيره. وقرأَ الفضل بن عيسى الرَّقاشي(٤): [حَتَّى يُنْفِضُوا] بضم الياءِ وتخفيف الضاد، يقال: أَنْفَضَ الرجلُ إِذا فني طعامُه فنفض وعاءَه. و«الخزائن» موضع الإِعداد، ونجد القرآن قد نطق في غير موضع بالخزائن، ونجد في الحديث (خزنة الريح)(٥)، وفي القرآن ﴿ مِن جِبَالٍ فِيهَا

= معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه، فعجبتُ لي ولِجُرْأَتِي على رسول الله ﷺ وآله، والله ورسوله أعلم، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾، فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده حتى قبضه الله عزَّ وجلَّ: (الدر المنثور).

(١) يقول ابن عطية في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ وإذا ترتب التخيير في هذه الآية صحَّ أن ذلك التَّخيير هو الذي نُسخ بقوله تعالى في سورة المنافقين: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

(٢) لأن دليل الخطاب يقتضي أن الزيادة على السبعين يُغفر معها، فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ عَلِمْتُ» فجعل ذلك مما لا يعلمه ومما ينبغي أن يُتَعَلَّم ويطلب علمه من الله عزَّ وجلَّ، وفي هذا حجة عظيمة للقول برفض دليل الخطاب، وابن عطية بما قاله هنا يشير إلى ما قاله مالِكٌ رحمه الله في مسائل تقتضي القول بدليل الخطاب. (راجع المجلد الرابع ص ٣٧٢ من هذا التفسير).

(٣) قال عنه في التقريب: «شامي مجهول، من الطبقة السابعة».

(٤) هو الفضل بن عيسى بن أبان الرَّقاشي، أبو عيسى البصري الواعظ، مُنْكر الحديث، ورمي بالقَدَر، من الطبقة السادسة.

(٥) التعبير بلفظ «خَزَنَة» كثير في الحديث الشريف، ومنه ما رواه أحمد في مسنده (٢ـ٣٦٦) عن أبي هريرة=

﴿مِنۢ بَرَدٖ﴾(١)، فجائز أن يكون هذا عبارة عن القدرة، وأن هذه الأشياءَ إيجادُها عند ظهورها، وجائز ـ وهو الأظهر ـ أن منها أشياءَ مخلوقة موجودة يصرِّفها الله تعالى حيث يشاءُ، وظواهر ألفاظ الشريعة تعطي هذا، ومعناه في التفسير قال: عتت على الخُزَّان(٢)، وفي الحديث: «ما انفتح باب من خزائن الريح على قوم عادٍ إلاَّ قدر حلقة الخاتم، ولو انفتح من خزائن الريح على قدر منخر الثور لهلكت الدنيا»(٣)، وقال رجل لحاتم الأصمِّ: من أين تأكل؟ فقرأ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، وقال الجُنَيْد: «خزائن السماءِ الغيوب، وخزائن الأرض القلوب».

وقرأ الجمهور: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ﴾ بضم الياءِ وكسر الراءِ، بمعنى أن العزيز يُخرج الذليل ويُبعده، وقرأ أبو حاتم: [لَنَخْرُجَنَّ] بنون الجماعة مفتوحة وضم الراءِ [الأَعَزَّ] نصباً ﴿مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ أيضاً نصباً على الحال، وذكرها أبو عمرو الداني عن الحسن(٤)، ورُويت هذه القراءَة: [لَنُخْرِجَنَّ] بضم النون وكسر الراءِ، وقرأ قوم ـ فيما حكى الفراءُ والكسائي، وذكرها المهدوي ـ: ﴿لَيَخْرُجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ بفتح الياءِ وضم الراءِ

= رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجاً ـ أو قال زوجين ـ من ماله، ـ أراه قال: في سبيل الله ـ دَعَتْهُ خَزَنَة الجنة: يا مُسْلم، هذا خير هلُمَّ إليه»، وما رواه أيضاً عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودِّع فقال: أنا محمد النبي الأمي، قالها ثلاث مرات ـ ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، وعلمت كم خَزَنَة النار وحملة العرش. . .» الخ، أمَّا ما أشار إليه ابن عطية فلم أقف عليه بهذا اللفظ، لكنه ورد بلفظ (خزائن) في الحديث الذي سيذكره المؤلف بعد هذا مباشرة.

(١) من الآية (٤٣) من سورة (النُّور).

(٢) في بعض النسخ: «ومعنا في التفسير. . . الخ»، وعلى كل فالتعبير قلِقٌ مما يدل على أن فيه تحريفاً من النساخ.

(٣) أخرج ابن أبي الدنيا، وأبو يعلى، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فتح الله على عاد من الريح التي هلكوا فيها إلا مثل الخاتم. . .» الحديث. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «الريح مسجونة في الأرض الثانية، فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحاً تهلك عاداً، قال: أي ربِّ، أُرسل عليهم من الريح قدر منخر ثور؟ قال له الجبار: لا، إذاً تكفأ الأرض ومَنْ عليها، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم، فهي التي قال الله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾.

(٤) قال أبو حيان في البحر بعد أن ذكر هذه القراءة: «ونَصَبَ [الأعَزَّ] على الاختصاص، كما قال: «نحن العربَ أقرى الناس للضيف»، ونصب [الأذَلَّ] على الحال.

ونصب [الأَذَلَّ] على الحال، بمعنى أَنَّنا نحن الذين كنَّا أَعِزَّةً سنخرج أَذِلاَّءَ(١)، وجاءَت هذه الحال معرفة وفيها شذوذ، وقد حكى سيبويه: «ادخلوا الأَوَّل فالأَوَّل».

ثم أَعلم الله تعالى أَن العزَّة لله سبحانه، وللرسول ﷺ، وللمؤمنين، وفي ذلك وعيد، وروي أَن عبد الله بن عبد الله بن أُبَيٍّ ـ وكان رجلاً صالحاً ـ لمَّا سمع الآية جاءَ إِلى أَبيه وقال له: أَنت والله يا أَبت الذليل ورسول الله ﷺ العزيز، فلما وصل إِلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله على باب السِّكَّة التي يسلكها أَبوه، وجرد السيف ومنعه الوصول، وقال: والله لا دخلت إِلى منزلك إِلاَّ أَن يأْذن لك في ذلك رسول الله ﷺ، وعبد الله بن أُبَيٍّ في أَذل حال، وبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فبعث إِليه أَن خلِّه يمضي إِلى منزله، فقال: أَما الآن فنعم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

الإِلْهَاءُ: الاشتغال بشهوة ولذَّة، و«ذِكْرُ اللهِ» هنا عامٌّ في التوحيد والصلاة والدعاءِ وغير ذلك من فرض ومندوب، هذا قول الحسن وجماعة من المفسِّرين، وقال الضحاك، وعطاءٌ وأَصحابُه: المراد بالذِّكر الصلاةُ المكتوبة، والأَول أَظهر، وكذلك قوله تعالى: و﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ قال جمهور من المتأَولين: المراد الزكاة، وقال آخرون: ذلك عامٌّ في مفروض ومندوب، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أَي علاماتُه وأَوائل أَمره، وقوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ طلباً للكَرَّة والإِمهال، وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه: [أَخَّرْتَنِ] بغير ياءٍ، وسماه تعالى قريباً لأَنه آت، وأَيضاً فإِنما يتمنى ذلك ليقضي فيه العمل الصالح فقط، وليس يتسع الأَمل حينئذ لطلب العيش وتصرفه، وفي مصحف أُبي: [فَأَتَصدَّقَ]، وقوله تعالى: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ظاهره العموم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الحجُّ، ورُوي عنه أَنه قال في

(١) تعبير الفراء أدقُّ وأوضح، قال: «كأنك قلت: لَيَخرُجَن العزيزُ منها ذليلاً».

مجلسه يوماً: «ما من رجل لا يؤدي الزكاة والحج إلاَّ طلب الكَرَّة عند موته»، فقال له رجل: أما تتَّقي الله؟ أَمُؤْمن يطلب الكَرَّة؟ فقال له ابن عباس رضي الله عنهما: نعم وقرأ الآية(١).

وقرأ جمهورُ السبعة والناسُ: [وَأَكُنْ] بالجزم عطفاً على الموضع؛ لأَن التقدير: إن تُؤَخِّرني أَصَّدَّق وأَكُنْ من الصَّالحين، هذا مذهب أَبي علي الفارسي، فأَمَّا ما حكاه سيبويه عن الخليل فهو غير هذا، وهو أَنه جزم على تَوَهُّم الشَّرط الذي يدل عليه التمني، ولا موضع هنا لأَن الشرط ليس بظاهر، وإنما يعطف على الموضع حيث يظهر الشرط، كقوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ﴾(٢)، فمن قرأ بالجزم عطف على موضع ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ لأَنه لو وقع هناك فعل كان مجزوماً، وكذلك من قرأَ: [وَيُكَفِّرْ] بالجزم عطفاً على موضع ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾(٣)، وقرأَ أَبو عمرو، والحسن، وأَبو رجاءٍ، وابن أَبي إِسحاق، ومالك بن دينار، وابن محيصن، والأَعمش، وابن جبير، وعُبَيْد الله بن الحسن العنبري: [وأَكُونَ] بالواو نصباً، قال أَبو حاتم ـ وكان من العلماءِ الفصحاءِ ـ: [وَأَكُونَ] بالنصب عطفاً على [فَأَتَصَدَّقَ]، وقال أبو حاتم في كتبها في المصحف بغير واو: إِنهم حذفوا الواو كما حذفوها من «اتَّخَذَ» وغيره، ورجَّحها أَبو علي، وفي مصحف أُبي بن كعب، وابن مسعود رضي الله عنهما: «فَأَتَصَدَّقَ وَأَكُونَ».

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ حضٌّ على المبادرة ومسابقة الأَجل بالعمل الصَّالح، وقرأَ السبعة والجمهورُ: [تَعْمَلُونَ] بالتَّاءِ على المخاطبة لجميع الناس، وقرأَ عاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ: [يَعْمَلُونَ] بالياءِ على تخصيص الكفَّار بالوعيد.

كمل تفسير سورة المنافقون والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

---

(١) روى الترمذي عن الضحاك بن مُزاحم عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «من كان له مالٌ يبلِّغه حَجَّ بيت ربِّه أو تجب عليه فيه زكاةٌ فلم يَفْعَل، سأَل الرجعة عند الموت»، فقال رجل: يا ابن عباس اتَّق الله، إنما سأل الرجعة الكفار، فقال سأتلو عليك بذلك قرآناً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ . . . إلى قوله ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، قال: فما يوجب الزكاة؟ قال: إذا بلغ المالُ مائتين فصاعداً، قال: فما يوجب الحجَّ؟ قال: الزَّادُ والراحلة.

(٢) من الآية (١٨٦) من سورة (الأعراف).

(٣) من الاية (٢٧١) من سورة (البقرة). هذا والفرق بين العطف على الموضع والعطف على التوهم ـ وهو أساس الخلاف بين الفارسي وسيبويه ـ أن العامل في العطف على الموضع موجود دون مُؤَثِّر، والعامل في العطف على التوهم مفقود وأَثَرُه موجود، ومن هذا نرى أنه خلاف مبني على مجرد التقدير.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة التغابن

قال بعض المفسِّرين: هي مدنية، وقال آخرون منهم: هي مكية إلاَّ من قوله تعالى وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ ﴾ إلى آخر السُّورة فإنه مدني(١)، وذكر الثعلبي عن ابن عمران أن النبي ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلاَّ وفي تشابيك رأسه مكتوب خمس آيات من فاتحة سورة التغابن»(٢).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ عُمومٌ معناه التنبيه، و«الشيءُ» هو الموجود.

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ تعديد نعمة، والمعنى: فمنكم كافر لنعمته في الإيجاد حين لم يوجد لجهله بالله، ومنكم مؤمن بالله، والإيمان بالله تعالى شكر لنعمته، فالإشارة ـ على هذا التأويل في الإيمان والكفر ـ هي إلى اكتساب العبد، هذا قول جماعة من المتأولين، وحجتهم قول النبي ﷺ: «كلُّ مولود يولد على الفطرة»(٣)،

---

(١) وقال الضحاك: هي مكيّة.

(٢) أخرجه ابن حبان في الضعفاءِ، والطبراني، وابن مردويه، وابن عساكر، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ولفظه كما ذكره في «فتح القدير»: «ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من سورة التغابن»، وقال ابن كثير في تفسيره: أورده ابن عساكر في ترجمة الوليد بن صالح، وهو غريب جداً بل مُنكَر»، وأخرج البخاري في تاريخه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من أول سورة التغابن. هذا وفي اللسان قال: «والشَّبكة: الرأسُ، وجمعها شبَك»، والشَّبْكُ في الأصل: الخلط والتداخل.

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، =

وقول الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾(١)، وكأن العبارة في قوله تعالى: [فَمِنكُمْ] تعطي هذا كله، وكذلك يقوِّيه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وقيل: المعنى: خلقكم منكم مؤمن ومنكم كافر في أصل الخِلْقَة، فهي جملة في موضع الحال، فالإشارة ـ على هذا ـ في الإيمان والكفر هي إلى اختراع الله تعالى وخلقه، وهذا تأويل ابن مسعود، وأبي ذرٍّ رضي الله عنهما، ويجري مع هذا المعنى قول النبي ﷺ: «إنَّ أحدكم يكون في بطن أُمه نطفة أربعين يوماً، ثم علقة أربعين يوماً، ثم مضغه أربعين يوماً، ثم يجيءُ مَلَك فيقول: يا ربِّ، أذكر أم أُنثى؟ أشقيٌّ أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأَجل، فيكتب ذلك في بطن أُمه»(٢)، فقوله في الحديث: «أشقيٌّ أم سعيد»؟ هو في هذه الآية ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾، ويجري مع هذا المعنى قوله في الغلام الذي قتله الخضر: «إنه طبع يوم طبع كافراً»(٣)، وما رَوى ابن مسعود رضي الله عنه أَنه عليه الصلاة والسلام قال: «خلق الله فرعون في البطن كافراً، وخلق يحيى بن زكرياءَ مؤمناً»(٤)، وقال عطاءُ بن أَبي رباح: معنى الآية: فمنكم كافرٌ بالله مؤمن بالكوكب، ومؤمن بالله كافر بالكوكب، وقدم الكافر لأَنه أَعرف من جهة الكثرة.

وقوله تعالى: [بِالْحَقِّ] أَي: حين خلقها محقوقاً في نفسه ليس عبثاً ولا لغير معنى،

= فأبواه يُهَوِّدانه أَو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه، كما تُنتج البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ، هل تحسُّون فيها من جدعاءَ؟» ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: واقرءُوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ....﴾ الآية. ورواه الإمام أحمد في مسنده بلفظ: «ليست نَسَمة تُولد إلا وُلدت على الفطرة»، وفي رواية لمسلم «كل إنسان تلده أُمُّه على الفطرة».

(١) من الآية (٣٠) من سورة (الرُّوم).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وبن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، ولفظه كما في ابن جرير والدر المنثور: «إذا مكث المنيُّ في الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس فعرج به إلى الرب، فيقول: يا رب، أَذَكَر أم أنثى؟ فيقضي الله ما هو قاض، فيقول: أشقيٌّ أم سعيد؟ فيكتب ما هو لاقٍ»، وقرأ أبو ذرٍّ من فاتحة التغابن خمس آيات إلى قوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

(٣) أخرجه مسلم في القَدَر وفي الفضائل، وأبو داود في السُّنَّة، والترمذي في تفسير سورة الكهف، وأحمد في مسنده (٥ـ١١٩، ١٢١)، ولفظه كما في صحيح مسلم، عن أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغلام الذي قتله الخَضر طُبع كافراً، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً».

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره عن ابن مسعود رضي الله عنه، ولفظه: قال النبي ﷺ: «خلق الله فرعون في بطن أُمه كافراً، وخلق يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً».

وقرأ جمهور الناس: [صُوَرَكُمْ] بضم الصاد، وقرأ أبو رُزَيْن: [صِوَرَكُمْ] بكسرها، وهذا تعديد النعمة في حسن الخلقة لأن أعضاءَ ابن آدم متصرفة في جميع ما تتصرف به أعضاءُ الحيوان وبزيادات كثيرة فُضِّل بها، ثم هو مفضَّل بحسن الوجه وجمال الجوارح، وحُجَّة هذا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(١)، وقال بعض العلماءِ: النعمة المُعَدَّدَة هنا إنما هي صورة الإنسان من حيث هو إنسان مدرك عاقل، فهذا هو الذي حَسُن له حتى لحق ذلك كمالات كثيرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقول الأول أجرى على لغة العرب لأنها لا تعرف الصور إلاَّ الشكل.

وذكر تعالى علمه بما في السموات والأرض، فعلم أعظم المخلوقات، ثم تدرَّج القول إلى أخفى من ذلك وهو جميع ما يقوله الناس في سرٍّ وعَلَن، ثم تدرَّج إلى خفيٍّ وهو ما يهجس بالخواطر، و«ذاتُ الصَّدْر»: ما فيه من خطرات واعتقادات، كما يقال: «الذئب مغبوطٌ بذي بطنه»(٢)، والصدر هنا عبارة عن القلب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ جزمٌ، أَصله: يأتيكم، قال سيبويه: «واعلم أن الآخر إذا كان يُسكَّن في الرفع حذف في الجزم»، والخطاب في هذه الآية لقريش، ذُكِّروا ما حلَّ بعادٍ وثمود وقوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام وغيرهم ممن سمعت قريش أخبارهم، و«وَبَالُ الأَمْرِ»: مكروهُهُ وما يسوءُ منه.

---

(١) الآية (٤) من سورة (التِّين).

(٢) هذا مثل معروف، ويروى: الذئب يُغبط بغير بطنة»، و«يُغبط ما في بطنه»، قال أبو عبيدة: وذلك أنه ليس يُظن به الجوع أبداً، إنما يُظن به البِطْنة لأنه يعدو على الناس والماشية، قال الشاعر:

وَمَنْ يَسْكُنِ الْبَحْرَيْنِ يَعْظُمْ طِحَالُهُ ... وَيُغْبَطْ مَا فِي بَطْنِهِ وَهُوَ جَائِعُ

وقال غيره: إنما قيل له ذلك لأنه عظيم الجفرة أبداً، لا يبين عليه الضمور وإن جهده الجوع، وقال الشاعر:

لَكَالذِّئْبِ مَغْبُوطُ الْحَشَا وَهُوَ جَائِعُ

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ﴾ إشارة إلى ذوق الوبال وكون عذاب الآخرة لهم، ثم ذكر تعالى من مقالات أُولئك الماضين ما هو مشبه لقول الكفار من قريش من استبعاد بعثة الله تعالى للبشر، ونُبوَّة أَحد من بني آدم، وحسَد الشخص المبعوث. وقوله: [أَبَشَرٌ] رفع بالابتداءِ، وجمع الضمير في [يَهْدُونَنَا] من حيث كان «البَشَر» اسم هذا النوع الآدمي، كأنهم قالوا: أناسٌ هداتُنا؟ وقوله تعالى: ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ عبارة عمَّا ظهر من هلاكهم وأَنهم لن يضرُّوا الله شيئاً فبان أَنه كان غنيًّا أَولاً، وبسبب ظهور هلاكهم بعد أَن لم يكن ظاهراً ساغ استعمال هذا الغَنَاءِ مُستنداً إلى اسم الله تعالى؛ لأَن بناءَ «اسْتَفْعَلَ» إنما هو لطلب الشيءِ وتحصيله بالطلب.

وقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا﴾ يخصُّ قريشاً ثم هي بعْدُ تعُمُّ كل كافر بالبعث، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «الزَّعْم كنية الكذب»، وقال عليه الصلاة والسلام: «بئس مطيَّةُ الرجل زعموا»(١)، ولا توجد «زَعَم» مستعملة في فصيح من الكلام إلاَّ عبارة عن الكذب أَو قول انفرد به قائله فيريد قائله أَن يلقي عهدته على الزاعم، ففي ذلك ما ينحو إلى تضعيف الزعم، وقول سيبويه: «زَعَم الخليل» إنما يجيءُ فيما ينفرد به الخليل.

ثم أَمره الله تعالى أَن يجيب نفيهم بما يقتضي الردَّ عليهم وإيجاب البعث وأَن يُؤكد ذلك بالقَسَم، ثم توعَّدهم في آخر الآية بأَنهم يُخبَرون بأَعمالهم على جهة التوقيف والتوبيخ المؤدي إلى العقاب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

هذا دعاءٌ إلى الله تعالى وتبليغٌ وتحذيرٌ، و«النُّور»: القرآن. والعامل في [يَوْمَ]

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، وأبو داود، عن حذيفة، ورمز له السيوطي في «الجامع الصغير» بأنه ضعيف.

يحتمل أَن يكون [تُنبَّؤُنَّ]، ويحتمل أَن يكون [خَبيرٌ]، وهو تعالى خبير في كل يوم لكن يخصُّ ذلك اليوم لأنه يومٌ تضرهم فيه خِبْرة الله تعالى بأُمورهم، وقرأ جمهور السبعة: [يَجْمَعُكُمْ] بضم العين، وقرأَ أَبو عمرو بسكونها، ورُوي عنه أَنه أَشمَّها الضمَّ، وقرأَ سلام ويعقوب: [نَجْمَعُكُمْ] بالنون وضم العين، وهذا على جواز تسكين الحركة وإن كانت للإعراب، كما قال جرير:

. . . . فَلَـمْ تَعْـرِفْكُـمُ الْعَـرَبُ[١]

و«يوم الجمع» هو يوم القيامة، وهو يوم التغابن؛ وذلك أَن كل واحد يُبعث من قبره وهو يرجو حظًّا أَو منزلةً، فإذا وقع الجزاءُ عيَّر المؤمنون الكافرين لأَنهم يُجزون الجنة ويحصل الكفار في النار، نحا هذا المعنى مجاهد وغيره، وليس هذا الفعل في «التَّغابن» من اثنين، بل هو كَتَواضَعَ وتَحَامَلَ[٢].

وقرأَ نافع، وابن عامر، والمفضل عن عاصم: [نُكَفِّرْ] بنون، وكذلك [نُدْخِلْهُ]، وهي قراءَة الأَعرج، وأَبي جعفر، وشيبة، والحسن ـ بخلاف ـ وطلحة، وقرأَ الباقون[٣]، والأَعمش، وعيسى، والحسن في الموضعيْن بالياءِ، على معنى: يُكَفِّر الله، والأَول هو نون العظمة.

وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ يحتمل أَن يريد المصائب التي هي رزايا، وخصها بالذِّكر لأَنها الأَهمُّ على الناس والأَبيَنُ أَثراً في نفوسهم، ويحتمل أَن يريد جميع الحوادث من خيرٍ وشرٍّ، وذلك أَن الحكم واحد في أَنها بإذن الله تعالى، و«الإِذْنُ» في

---

(١) هذه الجملة آخر بيت قاله جرير يهجو بني العم الذين أعانوا عليه الفرزدق، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

مَـا لِلْفَـرَزْدَقِ مِـنْ عِـزٍّ يَلُـوذُ بِـهِ ... إلا بَنُـو الْعَـمِّ فـي أَيْـدِيهِـمُ الْخُشُـبُ

سِيـرُوا بَنـي العَـمِّ فـالأَهْـوَازُ مَنْـزِلُكُـمْ ... وَنَهْـرُ تِيـرَى فَلَـمْ تَعْـرِفْكُـمُ الْعَـرَبُ

ونهر تيرى بلدٌ من نواحي الأهواز.

(٢) وقيل: بل هو تغابن بين أهل الجنة وأهل النار، وذلك أن أهل الجنة غبنوا أهل النار، لأن أهل الجنة أخذوا الجنة، وأهل النار أخذوا النار، على طريق المبادلة، فوقع الغَبْن لأجل مبادلة الخير بالشر، والجيِّد بالرديء، والنعيم بالعذاب، يقال: غَبَنْتُ فلاناً إذا بايَعته أو شَارَيْته فكان النقص عليه والغلبة لك، وكذلك أهل الجنة وأهل النار، وإذا قيل إنه لم تقع بينهما معاملة حتى يكون هناك غَبْن قيل: هو تمثيل للغبن في الشراء والبيع، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾.

(٣) أي: من السبعة.

هذا الموضع عبارة عن العلم والإرادة وتمكين الوقوع.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ قال فيه المفسِّرون: المعنى: من آمن بالله تعالى وعرف أَن كل شيءٍ بقضاءِ الله وقدره وعلمه، هانت عليه مُصيبَتُه، وسلَّم الأَمر لله تعالى. وقرأ سعيد بن جبير، وطلحة بن مُصَرِّف: [نَهْدِ] بالنون، وقرأ الضحاك: [يُهْدَ] بضم الياءِ وفتح الدال [قَلْبُهُ] رفعاً، وقرأ عكرمة، وعمرو بن دينار: [يَهْدَأْ قَلْبُهُ][1] برفع القلب، ورُوي عن عكرمة أنه سكَّن بدل الهمزة أَلفاً، على معنى أَن صاحب المصيبة يُسَلِّم فتسكُن نفسه، ويُرشد الله تعالى المؤمن به إِلى الصَّواب في الأُمور. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عموم مطلق على ظاهره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ عطف على قوله: [فَآمِنُوا]، وفي قوله سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ إِلى آخر الآية وعيدٌ وتبرئة لمحمد ﷺ إِذا بلَّغ، وفي قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تحريضٌ للمؤمنين على مكافحة الكفار والصبر على دين الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ إِلى آخر السُّورة، قُرْآنٌ مَدَنيٌّ، اختلف الناس في سببه ـ فقال عطاءُ بن أَبي رباح: إِنه نزل في عوف بن مالك الأَشجعي، وذلك أَنه أَراد غزواً مع النبي ﷺ، فاجتمع أَهله وأَولاده فثبَّطوه وشكوا إِليه فراقه، فلم يَغزُ، ثم إِنه ندم وهَمَّ بمعاقبتهم، فنزلت الآية بسببه محذِّرة من الأَزواج والأَولاد وفتنتهم، ثم صرف تعالى عن معاقبتهم بقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟﴾.

وقال بعض المفسِّرين: سبب الآية أَن قوماً آمنوا بالله تعالى وثَبَّطهم أَزواجهم وأَولادهم عن الهجرة فلم يهاجروا إِلاَّ بعد مُدَّة، فوجدوا غيرهم قد تفقَّه في الدِّين،

(١) بفتح الياءِ وبهمزة ساكنة في آخر الفعل، من الهدوء، ذكر ذلك أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط».

فندموا وأَسفوا وهمُوا بمعاقبة أَزواجهم وأَولادهم.

ثم أَخبر تعالى أَن الأَموال والأَولاد فتنة تشغل المرءَ عن مراشده، وتحمله من الرَّغبة في الدُّنيا على ما لا يحمده في آخرته، ومنه قوله ﷺ: «الولد مَبْخَلَةٌ مَجْبَنة»(١)، وخرَّج أَبو داود حديثاً في مُصنَّفه أَن رسول الله ﷺ كان يخطب يوم الجمعة حتى جاءَ الحَسَن والحُسَين رضي الله تعالى عنهما، وعليهما قميصان أَحمران يَجُرَّانهما، يَعْثران ويقومان، فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر حتى أَخذهما وصعد بهما، ثم تلا هذه الآية وقال: إِني رأَيت هذين فلم أَصبر، ثم أَخذ في خطبته(٢).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه ونحوها هي فتنة الفضلاءِ، فأَما فتنة الجهال الفسقة فمؤديةٌ إِل كل مَهْلَكة، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «لا يقولنَّ أَحدكم: اللهم اعصمني عن الفتنة، فإِنه ليس يرجع أَحد إِلى أَهلٍ ومالٍ إِلاَّ وهو مشتمل على الفتنة، ولكن لِيَقُل: اللهم إِني أَعوذ بك من مُضِلاَّت الفِتَن»، وقال عمر لحذيفة رضي الله عنهما: كيف أَصبحتَ؟ قال: أَصبحتُ أُحبُّ الفتنة وأَكره الحقَّ، فقال عمر: ما هذا؟ قال: أُحبُّ ولدي وأَكره الموت.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾.

---

(١) أَخرجه أبو يَعْلَى في مسنده، ولفظه كما ذكره السيوطي في الجامع الصغير «الولد ثمرة القلب، وإنَّه مَجْبَنَة مَبْخَلَة مَحْزَنة»، وقد رمز له السيوطي بأنه حديث ضعيف، وأخرجه البزَّار عن أبي سعيد بهذا اللفظ ثم قال؟: «لا نعرفه إلا بهذا الإسناد»، وقال أحمد: حدثنا الأشعث بن قيس قال: قدمت على رسول الله ﷺ في وفد من كندة، فقال: «هل لك من ولد»؟ قلت: غلام وُلد لي في مخرجي إليك من ابنة حمد، ولوددت أن بمكانه سبع القوم، فقال: «لا تقولن ذلك فإن فيهم قرة عين وأجراً إذا قُبِضُوا»، ثم قال: «ولَئِن قلتَ ذاك إنهم لَمَجْبَنَة مَحْزَنَةٌ»، قال الإمام ابن كثير في تفسيره: تفرَّد به أحمد.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم، وابن مردويه، عن بُرَيْدة رضي الله عنه، وأخرج مثله ابن مردويه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (الدر المنثور).

قال قتادة وفريق من الناس: إنَّ قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ناسخٌ لقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾(١)، ورُوي أن الأمر نزل بحقِّ التُّقَاة فشق ذلك على الناس حتى نزل ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، وذهبت فرقة منهم أَبو جعفر النحاس إِلى أنه لا نَسْخ في الآيتين، وأَن قوله تعالى: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ مقصده: فيما استطعتم، ولا يُعقل(٢) أَن يطيع أَحدٌ فوق طاقته واستطاعته، فهذه على التأويل مُبيِّنة لتلك، وتحتمل هذه الآية أَن تكون: فاتَّقوا الله مُدَّة استطاعتكم التقوى، وتكون [مَا] ظرفاً للزمان كله، كأَنه يقول: حياتَكُمْ وما دام العمل ممكناً.

قوله تعالى: [خَيْراً]، ذهب بعض النحاة إِلى أَنه نصب على الحال، وفي ذلك ضعف، وذهب آخرون منهم إِلى أَنه نصب بقوله سبحانه: [أَنفِقُوا]، قالوا: والخير هنا المالُ، وذهب فريق آخرون منهم إِلى أَنه نعت لمصدر محذوف تقديره: إِنفاقاً خيراً، ومذهب سيبويه أَنه نصب بإِضمار فعل يدل عليه قوله تعالى: [أَنفِقُوا].

وقرأَ أَبو حيوة: [يُوَقَّ] بفتح الواو وشدِّ القاف، وقرأَ ابن عمر رضي الله عنهما: [شِحَّ] بكسر الشين، وتقدم تفسيره في سورة الحشر، وقال الحسن: نظرك إِلى امرأَة لا تملكها من الشُّحِّ، وقيل: يا رسول الله، ما يُدخلُ العَبْدَ النَّارَ؟ قال: «شُحٌّ مطاعٌ، وهوًى مُتَّبَعٌ، وجُبْنٌ هالعٌ، وإِعجاب المرءِ بنفسه»، ذكره النقاش(٣)، والحديث في المصنفات أن النبي ﷺ قال: «إِذا رأَيتَ شُحًا مُطاعاً وهوًى مُتَّبعاً وإِعجابَ كلِّ ذي رأْي برأْيه، فعليك بِخُوَيْصة نفسك»(٤).

وقرأَ جمهور السبعة: [يُضَاعِفْهُ]، وقرأَ ابن كثير وابن عامر: [يُضَعِّفْهُ](٥)، وذهب

---

(١) من الآية (١٠٢) من سورة (آل عمران).

(٢) في بعض النسخ: «ولا يُقصد».

(٣) وأخرج البخاري في تاريخه، وأبو داود، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «شرُّ ما في رجل شحٌّ هالعٌ وجُبْن خالعٌ»، ذكر ذلك السيوطي في «الجامع الصغير» ورمز له بأنه حديث حسن، وزاد في «الدر المنثور» نسبته إلى ابن أبي شيبة، وابن مردويه، والبيهقي.

(٤) أخرجه الترمذي في التفسير، وأبو داود في الملاحم، وابن ماجه في الفتن.

(٥) اختلفوا في حذف الألف من [يُضَاعِفْهُ] هنا وفي البقرة، واختلفوا في تضعيف العين، راجع كتاب «النشر في القراءات العشر» لابن الجزري.

بعض العلماءِ إِلى أَن هذا الحضَّ هو على أَداءِ الزكاة المفروضة، وذهب آخرون منهم إِلى أَن الآية في المندوب إِليه، وهو الأَصح إِن شاءَ الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ إِخبارٌ بمجازاته تعالى على الشيءِ، وأَنه يحط به عمن شاءَ الله العظيم، لا ربَّ غيره.

كمل تفسير سورة التغابن والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الطلاق

وهي مدنية بإجماع من أهل التفسير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾.

الطلاق على الجملة مكروه لأنه تبديد شمْل في الإسلام، وروى أبو موسى الأَشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تطلِّقوا النساءَ إلاَّ من ريبة، فإن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات»[1]، وروى أنس عنه عليه الصلاة والسلام قال: «ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلاَّ منافق»[2].

واختُلف في البداية بالنبي ﷺ ثم قوله تعالى بعد ذلك [طَلَّقْتُمُ] ـ فقال بعض النحويين ـ حكاه الزهراوي ـ: ذلك خروج من مخاطبة أفرادٍ إلى مخاطبة جماعة، وهذا موجود، وقال آخرون منهم: إن في نداءِ النبي ﷺ أُريدت أُمته معه، فلذلك قال تعالى: [طَلَّقْتُمُ]، وقال آخرون منهم: إن المعنى: يَأَيُّهَا النبي قل لهم: إذا طلقتم، وقال آخرون: إنه من حيث يقول الرجل العظيم: «فعَلْنا، وَضَعْنَا»، خوطب النبي ﷺ في هذه

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، عن أبي موسى رضي الله عنه، ورمز له الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» بأنه حديث ضعيف.

(٢) أخرجه ابن عساكر عن أنس رضي الله عنه، ذكره الإمام السيوطي في «الجامع الصغير»، ورمز له بالضعف.

بـ[طَلَّقْتُمُ] إظهاراً لتعظيمه، وهذا على نحو قوله تعالى في عبد الله بن أُبَيٍّ: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾[1] إذا كان قوله مما يقوله جماعة، فكذلك النبي ﷺ في هذه الآية ما يُخاطب به فهو خطاب لجماعة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي يظهر لي في هذا أَنهما خطابان مفترقان، خوطب النبي ﷺ على معنى تنبيه لسماع القول وتَلَقِّي الأَمر، ثم قيل له: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، أَي أَنت وأُمَّتُك[2]، فقوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ ابتداءُ كلام كما لو ابتدأَ السُّورة به، وطلاق النساءِ حَلُّ عِصْمتهن، وصورة ذلك وتنويعه مما لا يختص بالتفسير.

وقوله تعالى: ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾، أَي: لاستقبالها وقوامها وتقريبها عليهن، وقرأَ عثمان، وابن عباس، وأُبَيُّ بن كعب، وجابر بن عبد الله، ومجاهد، وعليُّ بن الحسين، وزيد بن علي، وجعفر بن محمد رضي الله عن الصحابة والتابعين: [في قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ]، وروي عن بعضهم وعن ابن عمر رضي الله عنهما: ﴿لِقُبُلِ عِدَّتِهِنَّ﴾، أَي لاستقبالها، وروى ابن عمر القراءَتين عن النبي ﷺ[3]، وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه: [لِقُبُلِ طُهْرِهِنَّ].

ومعنى هذه الآية ألاَّ يطلِّق أَحد امرأَته إلاَّ في طُهْر لم يمسَّها فيه، هذا على مذهب مالك رحمه الله وغيره مِمَّن قال: إِنَّ «الأَقْراءَ»: الأَطهارُ، فيطلق عندهم المطلِّق في طُهْر لم يمسَّ فيه، وتعتد به المرأَة ثم تحيض حيضتين تعتد بالطهر الذي بينهما، ثم تقيم في الطهر الثالث مُعْتَدَّة به، فإذا رأَت أَول لحيضة الثالثة حلَّت، ومن قال بأَن «الأَقراءَ»: الحيضُ ـ وهم العراقيون ـ قال: [لِعِدَّتِهِنَّ] معناه أن تطلق طاهراً فتستقبل ثلاث حِيض كوامل، فإذا رأَت الطهر بعد الثالثة حلَّت، ويخفُّ عند هؤلاءِ مسَّ في طهر الطلاق أَو لم يمسّ، وكذلك مالكٌ يقول: «إِن طلَّق في طُهْر قد مسَّ فيه مضى الطلاق»، ولا يجوز

---

(١) من الآية (٧) من سورة (المنافقون).

(٢) يقول بعض العلماء: إن الخطاب له والمعنى له وللمؤمنين، وإذا أراد الله بالخطاب المؤمنين لاطفه بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، فإذا كان الخطاب باللفظ والمعنى جميعاً له قال: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾.

(٣) أخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه، عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ في قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ﴾، وأخرج ابن الأنباري، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قرأ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِقُبُلِ عِدَّتِهِنَّ﴾، وقُبُل الشيءِ هو إقباله وأوّله.

طلاق الحائض لأنها تطول العِدَّة عليها، وقيل: بَلْ تَعْتَد، ولو علل بالتطويل لا ينبغي أَن يجوز ولو رضيته[١]، والأَصل في ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: طلقتُ امرأَتي وهي حائض، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لِعُمَر: «مُرْهُ فليراجعها ثم لِيُمْسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم يطلقها إِن شاءَ، فتلك العِدَّة التي أَمر الله تعالى بها أَن يُطَلَّق لها النساءَ»[٢]، وروى حذيفة أَنه عليه الصلاة والسلام قال: «طلِّقوا المرأَة في قُبُلِ طُهْرِهَا»[٣]. ثم أَمر تعالى بإِحصاء العِدَّة لما يلحق ذلك من أَحكام الرَّجعة والسُّكنى والميراث وغير ذلك[٤].

ثم أَخبر تعالى بأَنهن أَحق بسُكنى بيوتهن التي طُلِّقن فيها، فنهى عن إِخراجهن وعن خروجهن[٥]، وسُنَّة ذلك أَلاَّ تبيت المرأَة المطلَّقة «بعيدة»[٦] عن بيتها ولا تغيب عنه نهاراً إِلاَّ في ضرورة وما لا خطب له من جائز التصرف، وذلك لحفظ النسب والتَّحرز بالنساءِ، فإِن كان البيت ملكاً للزوج أو بِكِراءٍ منه فهذا حُكْمه، فإِن كان لها فعليه الكراءُ، فإِن كانت قد أَمتعته مدة الزوجية ففي لزوم خروج العدة له قولان في المذهب: اللزم رعاية لانفصال مُكارمة النكاح، والسقوط من أَجل أَن العِدَّة من سبب النكاح.

---

(١) الرأي الذي عليه علماء المسلمين أن مَنْ طلَّق في طُهْر لم يُجامع فيه نفذ طلاقُه وأصاب السُّنَّة، فإن طلَّق حائضاً نفذ طلاقُه وأخطأ السُّنَّة، ويرى سعيد بن المسيَّب أن الطلاق في الحيض لا يقع لأنه خلاف السُّنَّة، وإلى ذلك ذهب الشِّيعة.

(٢) أخرجه مالك، والشافعي، وعبد الرزاق في المصنف، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو يعْلَى، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرج مثله ابن مردويه عن ابن عمر أيضاً ولكن من طريق أبي الزبير. (الدر المنثور).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) وهذا في المدخول بها؟ لأن غير المدخول بها لا عدَّة عليها لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾.

(٥) أي: لا يجوز للزوج أن يخرجها من مسكن النكاح ما دامت في العدَّة، ولا يجوز لها هي أن تخرج إلا للضرورة، فإن خرجت فهي آثمة، لكن العدة لا تنقطع بخروجها. قال الإمام القرطبي: «والرجعية والمبتوتة في هذا سواءٌ، وهذا لصيانة ماءِ الرجل، وهذا معنى إضافة البيوت إليهن، فهي إضافة إسكان وليست إضافة تمليك»، على أن هناك خلافاً بين الفقهاءِ وتفريقاً بين الرجعية والمبتوتة، وبين الخروج نهاراً والخروج ليلاً، وموضعه كتب الفقه.

(٦) ما بين العلامتين سقط من الأصول.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ ـ فقال قتادة، والحسن، ومجاهد: ذلك الزِّنى، فيخرجن للحَدِّ، وهو قول الشعبي، وزيد بن أَسلم، وحمَّاد، والليث. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ذلك الْبَذَاءُ على الأَحْماءِ، فتخرج ويسقط حقها في السكنى، وتلزم الإقامة في مسكن تتخذه حِفْظاً للنسب، وفي مصحف أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه: «إلاَّ أَن يَفْحُشْنَ عَلَيْكُمْ»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً: الفاحشةُ جميعُ المعاصي، فمتى سرقت أَو زنت أَو أَربت في تجارة أَو غير ذلك فقد سقط حقها في السُّكنى، وقال ابن عمر، والسُّدي: الفاحشةُ الخروج عن البيت خروج انتقال، فمتى فعلت ذلك سقط حقها في السكنى، وقال قتادة أَيضاً: المعنى: أَن يأْتين بفاحشةٍ في نشوز عن الزوج فيطلِّق بسبب ذلك فلا يكون عليه سكنى، وقال بعض الناس: الفاحشةُ متى وردت معرَّفة فهي الزِّنى، ومتى جاءَت منكرة فهي في المعاصي، فمرة يراد بها سوءُ عِشْرة الزوج ومرة غير ذلك.

وقرأَ عاصم: [مُبَيَّنَةً] بفتح الياءِ المشددة[1]، تقول: بانَ الأَمْرُ وبَيَّنته على التضعيف على التعدية، وقرأَ الجمهور بكسرها، تقول: بانَ الأَمرُ وبَيَّن بمعنى واحد، إلاَّ أَن التضعيف للمبالغة، ومن ذلك قولهم: قد بَيَّنَ الصُّبْحُ لذي عينين.

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى جميع أَوامره في هذه الآية، وقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، قال قتادة وغيره: يريد به الرَّجعة، أَي: أَحْصُوا العِدَّة، وامْتثلوا هذه الأَوامر المثَقِّفَة لنسائكم، الحافظة لأَنسابكم، وطَلِّقوا على السُّنَّة، تجدوا المَخْلَص إن ندمتم، فإنكم لا تدرون لعلَّ الرَّجعة تكون بعد، والإِحداثُ هنا بَيِّن التوجيه، عبارةٌ عَمَّا يوجد من التراجع، وجوَّز قوم أَن يكون المعنى: أَمْراً من النَّسْخ، وفي ذلك بُعْدٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ يريد به آخِرَ الْقُرْءِ، و«الإِمْسَاكُ بالْمَعْرُوفِ» هو حُسْنُ العِشْرة في الإِنفاق وغير ذلك، و«الْمُفَارَقَةُ بِالْمَعْرُوفِ» هي أَداءُ المهر والمتعةُ ودفْعُ جميع الحقوق والوفاءُ بالشروط وغير ذلك حسب نازلة نازلة، وقوله تعالى: ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾ يريد: على الرجعة، وذلك شرط في صحة الرجعة،

---

(١) لعلها قراءَة أبي بكر عنه، أما قراءة حفص عن عاصم فهي بكسر الياءِ المشددة كما هو ثابت في المصحف.

وللمرأة منع الزوج من نفسها حتى يُشْهِد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد: على الرَّجعة وعلى الطلاق؛ لأن الإشْهاد يرفع من النوازل إشكالات كثيرة، وتَقْييد تاريخ الإشهاد من الإشهاد، وقال النَّخَعي: العَدْلُ مَنْ لم تظهر منه ريبة، وهذا قول الفقهاءِ، والعَدْل حقيقةً الذي لا يخاف إلاَّ الله تعالى، وقوله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ أَمْرٌ للشهود، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ﴾ إشَارةٌ إلى إقامة الشهادة، وذلك أن جميع فصول الأَحكام والأُمور فإنما تدور على إقامة الشهادة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، قال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وكثير من المتأولين: هو في معنى الطلاق، أي: ومن لا يتعدى في طلاق السُّنَّة إلى طلاق الثلاث وغير ذلك يجعل اللهُ له مخرجاً إن ندم بالرَّجعة، ويرزقه ما يطعم أَهله، ويوسع عليه، ومن لا يَتَّق الله فربَّما طلَّق وبَتَّ وندم فلم يكن له مخرجٌ، وزال عنه رزق زوجته، وقد فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما نحو هذا، فقال لِمُطَلِّقٍ ثلاثاً: إنك لم تتق الله تعالى، فبانت منك امرأَتُك ولا أَرى لك مخرجاً، وقال ابن عباس أَيضاً: معنى ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾: يخلِّصه من كرب الدنيا والآخرة، واختلفت أَلفاظ رُواة هذه القصة عن ابن عباس رضي الله عنهما، لكن هذا هو المعنى.

وقال بعض رواة الآثار: نزلت هذه الآية في عوف بن مالك الأَشجعي، وذلك أَنه أُسر ولدُه، وقُدر عليه، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأَمره بالتقوى، فقيل: لم يلبث أَن تَفَلَّت ولدُه، وأَخذ قطيع غنم للقوم الذين أَسروه، وجاءَ أَباه، فسأَل عوف رسول الله ﷺ: أَتطيب له تلك الغنم؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم، ونزلت الآية في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ الآية كلُّها عظةٌ لجميع الناس، و«الحَسْبُ»: الكافي المرضي، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: هذه أَكثر الآيات حضًّا على التفويض، وروي أَن رجلاً قال لِعُمر رضي الله عنه: وَلِّني مِمَّا ولاَّكَ اللهُ تعالى، فقال له عمر: أَتقرأُ القرآن؟ قال: لا، قال عمر: فإني لا أُولي من لا يقرأُ القرآن، فتعلم الرجلُ رجاءَ الولاية، فلما حفظ كثيراً من القرآن تخلَّف عن عمر، ثم لَقِيَه يوماً فقال له عمر رضي الله عنه: ما أَبطأَ بك؟ قال: تعلمتُ القرآن فأَغناني اللهُ عن عمر وعن بابه، ثم قرأَ هذه الآية من هذه السُّورة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ بيانٌ وحضٌّ على التوكل، أي: لا بد من نفوذ أمر الله تعالى توكَّلْتَ أيُّها المرءُ أم لم تتوكَّل، قاله مسروق، فإن توكَّلت كفاك وتعجلتَ الراحة والبركة، وإن لم تتوكل وكلَكَ إلى عجزك وتَسَخُّطك، وأمره عزَّ وجلَّ في الوجهين نافذ.

وقرأ داود بن أَبي هند[1] ـ ورويت عن أَبي عمرو ـ ﴿بَالِغٌ أَمْرُهُ﴾ برفْع الأمر[2]، وحذف مفعول تقديره: بالغٌ أَمْرُهُ ما شاءَ، وقرأ جمهور السبعة، والناسُ: ﴿بَالِغٌ أَمْرَهُ﴾ بنصب الأمر[3]، وقرأ حفصٌ والمفضل عن عاصم: ﴿بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ على الإضافة وترك التنوين في [بَالِغُ]، ورويت عن أَبي عمرو، والأعمش، وهي قراءَة طلحة بن مصرف. وقرأ جمهور الناس: [قَدْراً] بسكون الدال، وقرأ بعض القراءِ: [قَدَراً] فتح الدال، وهذا كله حضٌّ على التوكل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

«اللَّائي» هو جمع ذات فيما حكى أَبو عبيدة، وهو ضعيف، والذي عليه الناس أنه جمع «التي»، وقد يجيءُ جمعاً لـ«الذي»، واليائساتُ من المحيض على مراتب، فيائسة هو أول يأسها فهذه ترفع إلى السُّنَّة ويبقيها الاحتياط على حكم من ليست بيائسة لأنها لا تدري لعل الدم يعود، ويائسة قد انقطع عنها الدم لأنها طعنت في السن ثم طُلِّقت وقد مرت عادتها بانقطاع الدم إلاَّ أنها ممن يخاف أن تحمل نادراً، فهذه التي في الآية

(١) هو داود بن أبي هند القشيري، مولاهم، أبو بكر أو أبو محمد، البصري، ثقة مُتْقِن، كان يهم بآخرة، من الطبقة الخامسة، مات سنة أربعين، وقيل: مات قبلها، (تقريب التهذيب).

(٢) مع تنوين [بَالغٌ].

(٣) مع التنوين في [بَالغٌ] أيضاً.

على أَحد التأْويلين في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾، وهو قول من جعل الارتياب بأَمر الحول، وهو الأَظهر، ويائسة قد هرمت حتى تيقن أَنها لا تحمل، فهذه ليست في الآية لأَنها لا ترتاب بحملها، لكنها في حكم الأَشهر الثلاثة إِجماعاً فيما علمت، وهي في الآية على تأْويل من يرى أَن قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ معناه في حكم اليائسات، وذلك أَنه روى إِسماعيل بن أَبي خالد أَن قوماً منهم أُبَيُّ بن كعب رضي الله عنه، وخلاَّد بن النعمان(١) لمَّا سمعوا قول الله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾(٢) قالوا: يا رسول الله، فما عِدَّة من لا قُرْءَ لها من صِغَر أَو كِبَر؟ فنزلت هذه الآية، فقال قائل منهم: فما عِدَّةُ الحامل؟ فنزلت ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾(٣)، وقد تقدَّم ذكر الخلاف في تأْويل ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾.

و«أُولات» جمع ذات، وأَكثر أَهل العلم على أَن هذه الآية تعم الحوامل المطلقات والمعتدَّات من الوفاة، والحُجَّةُ حديث سُبَيْعة الأَسْلمية، قالت: «كنت تحت سعد بن خولة، فتوفي في حَجَّة الوداع»، ووضعت حملها قبل أَربعة أشهر، فقال لها النبي ﷺ: «قد حَلَلْتِ»، وأَمرها أَن تتزوج(٤). وقال ابن مسعود رضي الله عنه: نزلت سورة النساءِ القُصرى بعد الطُولى، يعني أَن قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ نزل بعد قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾(٥)، وقال علي بن أَبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهم: إِنما هذه في المطلقات، وأَمَّا في الوفاة فعدَّة الحامل آخر الأَجلين، فإِنْ وضعت قبل أَربعة أَشهر وعَشْر تمادت إِلى آخرها، والقول الأَول أَشهر، وعليه الفقهاءُ، وقرأَ الضحاك: [أَحْمَالَهُنَّ] على الجمع.

---

(١) جاءَ في الإصابة أنه خلاد بن النعمان الأنصاري، وأن مُقاتل أبو سليمان ذكر في تفسيره أنه سأل النبي ﷺ عن عِدَّة التي لا تحيض، فنزلت ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾ الآية.

(٢) من الآية (٢٢٨) من سورة (البقرة).

(٣) أخرجه عبد الرزاق، وابن المنذر، من طريق الثوري، عن إسماعيل، هكذا قال السيوطي في «الدر المنثور»، وليس في النص الذي أورده ذِكْرٌ لمن سأل الرسول ﷺ.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن مردويه، عن سُبَيْعة الأسلمية، وفيه أنها وضعت بعد وفاة زوجها بخمس وعشرين ليلة وأخرج مثله ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن مردويه، عن أبي السنابل بن بعكك، وفيه أن سُبَيْعة وضعت بعد وفاة زوجها بثلاث وعشرين ليلة، وفي رواية لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن المسور بن مَخْرمة أنها لم تمكث إلا ليالي يسيرة. (الدر المنثور).

(٥) من الآية (٢٣٤) من سورة (البقرة).

وأمر الله تعالى إسكان المطلَّقات، ولا خلاف في التي لم تُبَت، وأَمَّا الْمَبْتُوتة فمالِك رحمه الله تعالى يرى لها السكنى لمكان حفظ النسب، ولا يرى لها نفقة لأن النفقة بإزاءِ الاستمتاع، وهو قول الأَوزاعي، والشافعي، وابن أَبي ليلى، وأَبي عُبَيْد، وابن المسيَّب، وعطاءٍ، والشَّعبي، وسليمان بن يسار. وقال أَصحاب الرأي والثُّوري: لها السَّكن والنَّفقة، وقال جماعة من العلماءِ: ليس لها سُكْنى ولا نفقة.

و«الوُجْدُ»: السَّعة في المال، وضمُّ الواو وفَتْحها وكسرها هي كلها بمعنى واحد، وقرأَ الجمهور: [وُجْدِكُمْ] بضم الواو بمعنى السَّعة في الحال، وقرأَ الأَعرج ـ فيما ذكر عِصْمة ـ: [وَجْدِكُمْ] بفتح الواو، وذكرها أَبو عمرو عن الحسن، وأَبي حَيْوة، وقرأَ الفيَّاض بن غزوان، ويعقوب بكسر الواو، وذكرها المهدوي عن الأَعرج، وعمرو بن ميمون.

وأَمَّا الحامل فلا خلاف في وجوب سكناها ونفقتها، بُتَّتْ أَو لم تُبت؛ لأَنها مُبيَّنة في الآية، واختلفوا في نفقة الحامل المتوفَّى عنها زوجها على قولين لعلماءِ الأُمة، فمنعها قوم، وأَوجبها في التركة قوم، وكذلك النفقة على المرضع واجبة وهي الأجر مع الكسوة وسائر المؤن التي بَسْطُها في كتب الفقه.

وقوله تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾، أَي: ليأْمُر كل واحد صاحبه بخير، ولا شك أَن من أَمر بخير فهو أَسرع إِلى فعل ذلك الخير، وليقبل كل أَحد ما أُمِر به من المعروف فالقبول والامتثال هو الائتمار، وقال الكسائي: [ائتَمِرُوا] معناه: تشاوروا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾(١)، ومنه قول امرىء القيس:

. . . . وَيَعْـدو عَلَـى الْمَـرْءِ مَـا يَـأْتَمِـرْ(٢)

---

(١) من الآية (٢٠) من سورة (القصص).

(٢) هذا عجز بيت قاله امرؤ القيس في مطلع قصيدة له يصف فيها فرسه وخروجه إلى الصيد، والبيت بتمامه:

أَحَـارِ بْـنَ عَمْـرٍو كَـأَنِّـي خَمِـرْ وَيَعْـدُو عَلَـى الْمَـرْءِ مَـا يَـأْتَمِـرْ

والخَمِرْ: الذي خالطه داءٌ أو وجع أو سُكْر، ويعدو: يرجع، و«ما يَأتمِرْ»: ما يدبِّره ويريد أن يوقعه بغيره، يقول مخاطباً الحارث بن عمرو: إنه يشعر بحالة غير عادية، كأنه مريض أو سكران، وإن ما يدبره الإنسان لغيره من شرور يعود عليه هو.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي: تشطَّطت المرأة في الحدِّ الذي يكون أُجرةً على الرِّضاع فلِلزَّوج أن يسترضع أُخرى بما فيه رفقُهُ، إلاَّ إنْ لم يقبل المولود غير أُمِّه فتجبر حينئذ على رضاعه بأُجرة مِثلها ومِثْل الزوج في حالهما أو غناهما. ثم خصَّ الله تعالى أهل الجِدَة على الإنفاق وأهل الإقتار على التوسط، كلٌّ بقدر حاله، وهذا هو العدل بينهم لئلا تضيع هي ولا يتكلَّف هو ما لا يُطيق.

واختلف العلماءُ في الذي يعجز عن نفقة امرأته ـ فقال مالك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبو هريرة، وابن المسيَّب، والحسن يُفرَّق بينهما، وقال أصحاب الرأْي، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وجماعة: لا يُفرَّق بينهما، ثم رجَّى تعالى باليُسْر تسهيلاً على النفوس وتطييباً لها.

وقرأ الجمهور: [وَيُعْظِمْ] بالياءِ، وقرأ الأعمش: [وَنُعْظِمْ] بالنون، واختُلف عنه[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾.

«كَأَيِّنْ» هي كاف الجرِّ دخلت على «أَيّ»، وهذه قراءَة الجمهور، وقرأ ابن كثير، وعُبَيْد عن أَبي عمرو: [وَكَائِنٍ] ممدودة مهموزة، كما قال الشاعر:

وَكَـائِـن بـالأبَـاطِـحِ مِـنْ صَـدِيـقٍ . . . .[2]

(١) لاحظ أن هذا تأخر عن موضعه.

(٢) البيت لجرير، وهو من قصيدة يمدح بها الحجاج بن يوسف، وقد ذكر المؤلف صدر البيت فقط، والبيت بتمامه:

وَكَـائِـن بـالأبَـاطِـحِ مِـنْ صَـدِيـقٍ ... يَـرَانـي لَـوْ أُصِبْـتُ هُـوَ الْمُصَـابَـا

والأباطح: جمع أبطح، وهو مَسيلٌ واسع للماء فيه دقاق الحصى، والمصيبة: ما أصاب من الدهر،=

وقرأ بعض القراءِ: [وَكَاينِ] بتسهيل الهمزة، وفي هذين الوجهين قَلْب؛ لأن الياءَ قبل الألفات. و«الْعُتُوُّ»: تَرْكُ الائتمار والقبول.

وقوله تعالى: [فَحَاسَبْنَاهَا] قال بعض المتأولين: الآية في الآخرة، أَي: ثَمَّ هو الحساب والتعذيب والذوق وخسارة العاقبة، وقال آخرون: ذلك في الدنيا، ومعنى ﴿حاسبناها حسابا شديدا﴾ لَمْ نغتفر لهم زَلَّة بل أُخذوا بالدقائق من الذنوب. وقرأ نافع، وأبو بكر، وابن ذكوان: [نُكُراً] بضم الكاف، وأَسكنها الباقون، وهي قراءَة عيسى، وقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يظهر منه أَنه بيان لوجه خُسران عاقبتهم، فيتأَيد بذلك أَن تكون المحاسبة والتعذيب والذوق في الدنيا.

ثم ندب تعالى أُولي الأَلباب إِلى التَّقوى تحذيراً، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ صفة لـ«أُولي الأَلْبَابِ»، وقرأَ نافع، وابن عامر: [نُدْخِلْهُ] بالنون، وكذلك روى المفضل عن عاصم، وقرأَ الباقون بالياءِ، وقوله تعالى: ﴿قد أنزل الله إليكم ذكرا رسولا﴾، اختلف الناسُ في تقرير ذلك ـ فقال قوم من المتأَولين: المراد بالاسمين القرآن، و«رَسُولاً» بمعنى رسالة، وذلك موجود في كلام العرب، وقال آخرون: [رَسُولاً] نعت أَو كالنعت لقوله سبحانه: [ذِكْراً]، فالمعنى: ذِكْراً ذا رسولٍ، وقيل: «الرسول» ترجمة عن «الذِّكْر» كأنه بدلٌ منه، وقال آخرون: المراد بهما جميعاً محمد ﷺ، والمعنى: ذا ذِكْرٍ رسولاً، وقال بعض حُذَّاق المتأَولين: الذِّكْرُ اسمٌ من أَسماءِ الرسول عليه الصلاة والسلام، واحتج بهذه القاضي أَبو بكر الباقلاني في تأْويل قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[1]، وقال بعض النحاة: معنى الآية: ذِكْراً بعث رسولاً، فهو منصوب بإِضمار فعل، وقال أَبو علي الفارسي: يجوز أَن يكون [رَسُولاً] معمولاً للمصدر الذي هو الذِّكْر[2].

= يتكلم عن التعاون والوفاء والمساندة بين الأصدقاء في وقت كبر فيه وذهب شبابه، يقول في مطلع القصيدة:

سَئِمْتُ مِنَ الْمُوَاصَلَةِ الْعِتَابَا ... وَأَمْسَى الشَّيْبُ قَدْ وَرِثَ الشَّبَابَا

(١) من الآية (٢) من سورة (الأنبياء).

(٢) وقيل: الذِّكْرُ هنا هو الشرف، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، ثم بيَّن الله تعالى هذا الشرف بقول: [رَسُولاً]، وقيل: إن الرسول هنا هو جبريل، فيكون هو والذِّكر مُنَزَّلين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأَبْيَن الأقوال عندي معنًى أن يكون «الذِّكر» القرآن، و«الرَّسولُ» مُحَمَّداً ﷺ، والمعنى: بعث رسولاً، لكن الإيجاز اقتضى اختصار الفعل الناصب للرسول، ونحا هذا المنحى السُّدِّي.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر: [مُبَيَّنَاتٍ] بفتح الياءِ، وقرأها بكسر الياءِ ابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائي، والحسن، والأعمش، وعيسى. وسائر الآية بَيِّنٌ، والرزقُ المشار إليه رزق الجنة لدوامه ودُرُوره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾.

لا خلاف بين العلماءِ أن السموات سبعٌ لأن الله تعالى قال: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾[(١)]، وفسَّر رسول الله ﷺ أمرهن في حديث الإسراءِ، وقال عليه الصلاة والسلام لسعدٍ رضي الله عنه: «حكمت فيهم بحكم الملِك من فوق سبع أَرْقِعَة»[(٢)]، ونطقت بذلك الشريعة في غير ما موضع، وأَمَّا الأَرض فالجمهور على أَنها سبع أَرضين، وهو ظاهر هذه الآية، وأَن المماثلة إنما هي في العدد، ويستدل بقول رسول الله ﷺ: «من غصب شبراً من أَرضٍ طُوِّقه من سبع أَرضين»[(٣)]، إلى غير هذا ممَّا وردت به روايات، وروي عن قوم من العلماءِ أَنهم قالوا: الأَرض واحدة، وهي مماثِلةٌ لكل سماءٍ بانفرادها

(١) من الآية (٣) من سورة (المُلْك).

(٢) جاء ذلك في حادثة نزول بني قريظة على حكم سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه، وقد ذكره ابن هشام في السيرة، قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن عمرو عن سعد بن معاذ، عن علقمة بن وقَّاص الليثي، قال: قال رسول الله ﷺ لسعد: «لقد حكَمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»، والأرقعة السموات، والواحدة رقيع.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق، ومسلم في المساقاة، ولفظه كما في البخاري، عن أبي سَلَمة بن عبد الرحمن ـ وكانت بينه وبين أُناس خصومة في أرض ـ فدخل على عائشة رضي الله عنها فذكر لها ذلك فقالت: يا أبا سَلَمة، اجتنب الأرض، فإن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ ظلم قيدَ شبر طُوِّقه مِنْ سبع أرضين». ذكر السيوطي في الجامع الصغير أن أحمد أخرجه هو والبخاري ومسلم عن عائشة وعن سعيد بن زيد، ثم رمز له بأنه صحيح.

في ارتفاع جرمها، وفي أَن فيها عَالماً يَعْبُد، كما في كل سماءٍ عالم يَعْبُد.

وقرأ الجمهور: [مِثْلَهُنَّ] بالنصب، وقرأ عاصم: [مِثْلُهُنَّ] بالرفع(١)، و«الأَمْرُ» هنا الوحي وجميع ما يأمر به تعالى مَنْ يعقل ومن لا يعقل، فإِن الرِّياح والسَّحاب وغير ذلك مأمورٌ كله، وباقي السُّورة حضٌّ على توحيد الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم معناه الخصوص، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ عموم على إطلاقه.

كمل تفسير سورة الطلاق والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

(١) قراءة عاصم ـ في رواية حفص ـ بالنصب مثل الجمهور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة التحريم

وهي مدنية بإجماع من أهل العلم بلا خلاف(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٢ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۝٣﴾.

رُوي في الحديث عن زيد بن أَسلم والشعبي وغيرهما ما معناه أَن رسول الله ﷺ لما أَهدى إِليه المقوقس مارية القبطية اتخذها سُرِّية(٢)، فلما كان في بعض الأَيام وهو يوم حفصة بنت عمر رضي الله عنهما ـ وقيل: بل كان في يوم عائشة رضي الله عنها ـ جاءَ رسول الله ﷺ إلى بيت حفصة فوجدها قد مرَّت لزيارة أبيها، فبعث رسول الله ﷺ في جاريته، فَقَالَ معها(٣)، فجاءَت حفصة فوجدتهما، فأَقامت خارج البيت حتى أَخرج رسول الله ﷺ مارية وذهبت، فدخلت حفصة غَيْرَى متغيرة، فقالت: يا رسول الله، أَما كان في نسائك أهون عليك منِّي؟ أَفي بيتي وعلى فِراشي؟ فقال لها رسول الله ﷺ مترضِّياً لها: أُيرضيك أَن أُحرِّمها؟ قالت: نعم، فقال: إِنِّي قد حرَّمتُها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وقال مع ذلك: والله لا أطؤها أَبداً، ثم قال: لا تخبري بها أَحداً، فمن قال: إِن ذلك كان في يوم عائشة قال: اسْتكَتمها خوفاً من غضب عائشة، وحُسْن عِشْرة لها، ومن قال: بل كان في يوم حفصة قال: اسْتَكْتمها

---

(١) وتُسَمَّى سورة «النَّبيِّ».

(٢) قال أهل اللغة في الجارية التي يتسرَّاها مالكها لم سُمِّيت سُرِّية؟: نُسبت إِلى السِّرِّ ـ وهو الجماع ـ وضُمَّت السِّين للفروق بين الحرَّة والأمة، فقيل للحرة التي تنكح سرا: سِرِّية، وقيل للمملوكة التي يتسراها صاحبها: سُرِّية. وقيل: سُمِّيت سُرِّية لأنها موضع سرور الرجل.

(٣) أي: قضى معها وقت القيلولة.

لنفس الأَمر، ثم إن حفصة قرعت الجدار الذي كان بينها وبين عائشة رضي الله عنهما لتبشِّرها بالأَمر، ولم تر في إِفشائه إِليها حرجاً، واسْتَكْتَمَتْهَا، فأَوحى الله بذلك إِلى نبيِّه ﷺ، ونزلت الآية(١).

ورُوي عن عِكْرِمة أَن هذا نزل بسبب أُم شريك التي وهبت نفسها للنبي ﷺ(٢)، وذكر النقاش نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما. وروى عُبَيْد بن عُمر عن عائشة رضي الله عنها أَن هذا التحريم المذكور في الآية إِنما هو بسبب شراب العسل الذي شربه عند زينب بنت جحش، فتمالأَت عائشة وحفصة وسودة على أَن تقول له من دنا منها: أَكلت مغافير ـ والمغافير صمْغُ العُرْفط ـ وهو حلوٌ ثقيل الريح، ففعلن ذلك، فقال رسول الله ﷺ: لا، ولكني شربت عسلاً، فقلن له: جَرَسَتْ نحلُه العُرْفط، فقال رسول الله ﷺ: لا أَشربُه أَبداً، وكان يكره أَن توجد منه رائحة ثقيلة، فدخل ـ بعد ذلك ـ على زينب رضي الله عنها فقالت له: أَلا نسقيك من ذلك العسل؟ فقال: لا حاجة لي به، قالت عائشة رضي الله عنها: تقول سَوْدة حين بلغها امتناعه: والله لقد حرمناه، قلت لها: اسكتي(٣).

---

(١) أخرج هذا الخبر ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرج مثله ابن سعد، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، وأخرج مثله عبد بن حميد، عن قتادة، قال ابن العربي: «إن من روى أنه ﷺ حرَّم مارية فإنه أمثل في السَّند وأقرب إلى المعنى، لكنه لم يُدَوَّن في الصحيح، ورُوي مرسلا». ونقل ابن كثير في تفسيره هذا الحديث عن ابن جرير، عن زيد بن أسلم، وعن الهيثم بن كليب، عن عمررضي الله عنه، ثم قال: «وهذا إسناده صحيح، ولم يُخرجه أحد من أصحاب الكتاب السِّتَّة، وقد اختاره الحافظ الضياءُ المقدسي في كتابه المستخرج.

(٢) قال ابن كثير: «وهذا قولٌ غريب»، وقال ابن العربي عن هذا أنه أضعف الأقوال، قال: «أما ضعفه في السَّند فلعدم عدالة رواته، وأما ضعفه في معناه فلأن ردَّ النبي ﷺ للموهوبة ليس تحريماً لها، لأن من ردَّ ما وُهب له لم يحرم عليه، إنما حقيقة التحريم أنه يكون بعد التحليل»، هذا وأُم شريك هذه اختلف في اسمها، فقيل: غُزَيَّة، وغَزِيَّة، وقيل: غُزَيْلة، وقيل: ليلى بنت حكيم، وشهرتها: أُم شَريك بنت جابر الأسدية.

(٣) أخرجه ابن سعد، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن المنذر، وابن مردويه، عن عائشة رضي الله عنها، وأخرج مثله ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال القرطبي: «وهو أصحُّ الأقوال»، وقال ابن كثير: «والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسَل كما في البخاري عند هذه الآية»، ثم ساق كلام البخاري، وذكر بعد ذلك أن مُسْلماً روى هذا الحديث في كتاب الطلاق. ومعنى (جَرَسَتْ نَحْلَةُ العُرْفُط): رَعَتْ نحلُه شجر العُرْفُط الذي صمغه المغافير، فلهذا ظهر ريحُه في العَسَل الذي شربْتَه يا رسول الله، والجَرْسُ هو الأكل، والمغافير: بَقْلة أو صمغة=

والقول الأَول ـ أن الآية نزلت بسبب مارية ـ أَصحُّ وأَوضح، وعليه تفقَّه الناسُ في الآية، ومتى حرَّم الرجل مالاً أَوْ جاريةً دون أَن يعتق أَو يشترط عتقاً أَو نحو ذلك فليس تحريمه بشيءٍ، واختلف العلماءُ إِذا حرَّم زوجته بأَن يقول: «أنتِ عليَّ حرامٌ» أَو: «الحلالُ عليَّ حرام»، ولا يستثني زوجته ـ فقال مالك: هي ثلاث في المدخول بها، وينوى في غير المدخول بها، فهو ما أَراد من واحدة أَو اثنتين أَو ثلاث، وقال عبد الملك بن الماجشون: هي ثلاث في الوجهين، ولا ينوى في شيءٍ، وقال أَبو المصعب وغيره ـ ورواه ابن خُوَيْز منداد عن مالك ـ: إِنَّها واحدة بائنة في المدخول بها، ورُوي عن عبد العزيز بن الماجشون أَنه قال: يحملها على واحدة رجعية، وقال غير واحد من أَهل العلم: التحريم لا شيءَ، وإِنما عاتب اللهُ رسوله ﷺ فيه ودَلَّه على تَحِلَّة اليمين المبينة في المائدة لقوله: «قد حرَّمتها وواللهِ لا أَطؤها أَبداً»، وقال مسروق: ما أُبالي أَحرَّمتها أَو قصعة من ثريد، وكذلك قال الشعبي: «ليس التحريم بشيء، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[2]، ومُحَرِّم زوجته قد سمَّى حراماً ما جعله الله حلالا، وحرَّم ما أَحلَّ الله له». وقال أَبو بكر الصديق، وعمر الفاروق، وابن مسعود، وابن عباس وعائشة، وابن المسيَّب، وعطاءٌ، وطاوس، وسليمان بن يسار، وابن جُبَيْر، وقتادة. وأَبو ثور الأَوزاعي، والحسن، وجماعة: التحريم يلزم فيه تكفير يمين بالله تعالى، والتَّحِلَّة إِنما هي من أَجل التحريم، ولم يقل رسول الله ﷺ: «والله لا أَطؤها»، وقال أَبو قلابة: «التحريم ظهار»، وقال أَبو حنيفة، وسفيان، والكوفيون: «هو ما أَراد من الطلاق، فإِن لم يُرد بذلك طلاقاً فهو لا شيء»، وقال آخرون: «هو ما أراد من الطلاق، فإِن لم يُرد طلاقاً فهي يمين».

ودعا الله تعالى نبيَّه ﷺ باسم النُّبوة الذي هو دال على شرف منزلته وعلى فضيلته التي خَصَّه بها دون البشر وقدَّره، كالمعاتب على سبب تحريمه على نفسه ما أَحلَّ الله تعالى له.

= متغيرة الرائحة، فيها حلاوة، والعُرْفُط: نبتٌ له ريحٌ كريح الخمر.

(١) من الآية (١١٦) من سورة (النحل).

(٢) من الآية (٨٧) من سورة (المائدة).

وقوله تعالى: ﴿ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ ﴾ جملة في موضع الحال من الضمير الذي في [تُحَرِّمُ]، و«المَرْضَاةُ» مصدر كالرِّضَى، ثم غفر له تعالى ما عاتبه فيه ورَحِمَه.

وقوله تعالى: ﴿ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ ﴾ أَي: بيَّن وأَثبت، وقال قوم من أَهل العلم: هذه إِشارة إِلى تكفير التحريم، وقال آخرون: هي إِشارة إِلى تكفير اليمين المقترنة بالتحريم. و«التَّحِلَّةُ» مصدر، وَزْنها «تَفْعِلَة»، وأدغم لاجتماع المثلين، وأَحال في هذه الآية على الآية التي فسَّر فيها الإِطعام في كفَّارة اليمين بالله تعالى، و«المَوْلَى»: المُوَالي النَّاصرُ العاضِدُ.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ ﴾ الآية معناه: اذكر يا محمد ذلك على وجه التأَنيب والعتب لهن، وقال الجمهور: «الحديث» هو قوله ﷺ في أَمْر مارية، وقال آخرون: إِنما هو قوله عليه الصلاة والسلام: إِنما شربتُ عسلاً، و«بَعْضُ أَزْوَاجِهِ» هي حَفْصة رضي الله عنها، و[نَبَّأَتْ] معناه: أَخبرت، وهذه قراءَة الجمهور، وقرأَ طلحة: [أَنْبَأَتْ]، وكان إِخبارها لعائشة رضي الله عنها، وهذا ونحوه هو التظاهر الذي عوتبتا فيه، وقال ميمون بن مهران: الحديث الذي أَسرَّ إِلى حفصة أَنه قال لها: وأَبشري بأَن أَبا بكر وعمر يملكان أَمر أُمتي من بعدي خلافةً، وتعدَّت «نَبَّأَ» في هذه الآية مرة إِلى مفعولين ومرة إِلى واحد لأَن ذلك يجوز في أَنبأَ ونبَّأَ إِذا كان دخولهما على غير الابتداءِ والخبر، فمتى دخلت على الجملة تعدَّت إِلى ثلاثة مفعولين، ولا يجوز الاقتصار، وقوله سبحانه: ﴿ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ﴾ أَي أَطلعه.

وقرأَ الكسائي وحده، وأَبو عبد الرحمن، وطلحة، والحسن، وقتادة: [عَرَفَ] بتخفيف الراءِ، وقرأَ الباقون وجمهور الناس: [عَرَّفَ] بشدها، والمعنى في اللفظة مع التخفيف: جار بالعَتْب واللوم، كما تقول لإِنسان يؤذيك: قد عرفتُ لك هذا، ولأَعرفنَّ لك هذا، بمعنى: لأُجازينَّك عليه، ونحوه في المعنى قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ ﴾[1] فعِلْم الله تعالى زعيم بمجازاتهم، وكذلك معرفة النبي ﷺ، والمعنى مع الشَّدِّ في الرَّاءِ: أَعلم به وأَبَتَّ عليه، وقوله تعالى: ﴿ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ ﴾ أَي تكرُّماً وحياءً وحُسْن عِشْرة، قال الحسن: ما استقصى كريم قط، ورُوي أَن رسول الله ﷺ طلَّق حينئذ حفصة رضي الله عنها، ثم إِن الله تعالى

(١) من الآية (٦٣) من سورة (النساء).

أَمره بمراجعتها، ورُوي أَن رسول الله ﷺ عاتبها ولم يطلِّقها، فلما أَخبر رسول الله ﷺ بالخبر وأَنها أَفشته إِلى عائشة ظنت أَن عائشة فضحتها، فقال: «من أَنبأَكَ هذا»؟ على جهة التثبُّت، فلما أَخبرها أَن الله تعالى أخبره سكتت وسلمت.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾.

المخاطبة بقوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هي لحفصة وعائشة رضي الله عنهما، وفي حديث البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلتُ لعمر: من اللتان تظاهرتا على رسول الله ﷺ؟ قال: حفصة وعائشة، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ معناه: مالت عن المَعْدَلة والصواب، والصَّغَا: الميْلُ، ومنه صاغية الرجل، وهم حواشيه الذين يميلون إليه، ومنه: أَصْغَى إِليه بسمعه، وأَصْغَى الإِناءُ، وفي قراءَة ابن مسعود رضي الله عنه: [فقد زاغت قُلُوبُكُمَا]، والزَّيْغُ: المَيْل، وعُرْفه في خلاف الحق، قال مجاهد: كنا نرى «صَغَتْ» شيئاً هيناً حتى سمعنا قراءَة ابن مسعود: «زاغت»، وجمع القلوب من حيث الاثنان جَمْعٌ، ومن حيث لا لَبْس في اللفظ، وهذا نظير قول الشاعر:

. . . . ظَهْرَاهُمَا مِثْلُ ظُهُورِ التُّرْسَيْنِ[1]

---

(١) هذا البيت من رجز الشاعر الإسلامي الخطام المجاشعي، يقول:

وَمَهْمَهٍ قَذَفَيْنِ مَرْتَيْنِ ظَهْرَاهُمَا مِثْلُ ظُهُورِ التُّرْسَيْنِ

والمَهْمَه: القفْر المخوف، والقَذَفُ ـ بفتح القاف والذال وقد تكونان بالضم ـ هو البعيد من الأرض، وفي رواية فَدفَيْن، والفدفد: الأَرض المستوية، والمَرْتُ ـ بفتح الميم وسكون الراء بعدهما تاءٌ ـ هو الأرض التي لا ماء فيها ولا نبات، والظَّهْر: ما ارتفع من الأرض، وهو يستشهد بالبيت على جواز معاملة المثنى على أنه جمع، والعرب يقولون: أقلُّ الجمع اثنان؟ لأن التثنية جمع شيءٍ إلى مثله، قال سيبويه: سألت الخليل عن قوله «ما أحسن وجوههما»؟ فقال: الاثنان جماعة، وعلى هذا جاءَ قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾، وقال الزجاج نقلا عن بعض النحويين: إنما جُعلت تثنيةُ ما في الإنسان منه واحد، جَمْعاً؛ لأن أكثر أعضائه فيه منها اثنان، فحمل ما كان فيه الواحد على مثال ذلك.

ومعنى الآية: إِنْ تُبْتما فقد كان منكما ما ينبغي أَن يُتاب منه، وهذا الجواب الذي هو للشرط هو متقدم في المعنى، وإِنما ترتَّب جواباً في اللفظ، و﴿إن تظاهرا﴾ معناه: تتعاونا، فأُدغمت التاءُ في الظاءِ بعد البدل، وقرأ عكرمة مولى ابن عباس بتاءَين على الأَصل، وقرأ الكوفيون، وطلحة، وأَبو رجاءٍ، والحسن بتخفيف الظاءِ على حذف التاءِ الواحدة، ورُوي عن أَبي عمرو أَنه قرأ بتشديد الظاءِ والهاءِ دون أَلف، و«الْمَوْلَى»: الناصر والمعين، وقوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أَن يكون عطفاً على اسم الله تعالى في قوله: [هُوَ]، فيكون ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في الولاية، ويحتمل أَن يكون [جِبْرِيلُ] رفعاً بالابتداءِ وما بعده عطف عليه و[ظَهِيرٌ] الخبر، فيكونون حينئذ من الظهر لا في الولاية، ويختص بأَنه مولى الله سبحانه وتعالى.

واختلف الناس في «صَالح المؤمنين» ـ فقال الطبري وغيره من العلماءِ: ذلك على العموم يدخل في ذلك كل صالح، وقال الضحاك، وابن جبير، وعكرمة: المراد أَبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رواه ابن مسعود عن النبي ﷺ[(١)]، وقال مجاهد نحوه، وقال أَيضاً: وعليٌّ رضي الله عنه، وروى عليٌّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أَنه قال: «صالح المؤمنين علي بن أَبي طالب»[(٢)] ذكره الثعلبي، وقال قتادة، والعلاءُ بن زياد، وغيرهما: هم الأَنبياءُ عليهم الصلاة والسلام، وإِنما يترتب ذلك بأَن تكون مظاهرتهم بأَنهم قدوة وأُسوة، فهم عونٌ بهذا المعنى، وقوله تعالى: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أَن يكون اسم جنس مفرد، ويحتمل أَن يريد: «وصالحوا» فحذفت الواو في خط المصحف كما حذفوها في قوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾[(٣)] وغير ذلك.

ويروى عن أَنس بن مالك رضي الله عنه أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، لا تكترث بأَمر نسائك، والله معك وجبريل معك وأَبو بكر معك وأَنا معك، فنزلت الآية موافقة نحواً من قول عمر[(٤)]. قال المهدوي: رُوي أَن

---

(١) أخرجه ابن عساكر عن ابن مسعود رضي الله عنه، وأخرج مثله الطبراني في الأوسط، وابن مردويه، عن ابن عمر، وابن عباس رضي الله عنهم. (الدر المنثور).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف عن عليٍّ رضي الله عنه، وأخرج مثله ابن مردويه عن أسماء بنت عُمَيْس. (الدر المنثور).

(٣) الآية (١٨) من سورة (العلق).

(٤) رواه البخاري، عن أنس رضي الله عنه، كذلك رواه ابن أبي حاتم عنه. (الدر المنثور).

هذه الآية نزلت على لسان عمر رضي الله عنه، وكذلك روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لزوجات النبي ﷺ: «عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُن أَن يُبَدِّله أَزواجاً خيراً منكن»، فنزلت الآية على نحو قوله[١]، وقال عمر رضي الله عنه: قالت لي أُم سلمة: «يا بْن الخطاب أَدخلتَ نفسك في كل شيءٍ حتى دخلتَ بين الرسول ﷺ وبين نسائه»، فأَخذتني أَخْذاً كسرتني به، وقالت لي زينب بنت جحش: يا عمر: أَما يقدر رسول الله ﷺ أَن يعظ نساءَه حتى تعظهن أَنت؟

وقرأَ الجمهور: [طَلَّقَكُنَّ] بفتح القاف وإِظهارها، وقرأَ أَبو عمرو ـ في رواية عباس عنه ـ بِإِدغامها في الكاف وشدها، قال أَبو علي: وإِدغام القاف في الكاف حَسَن، وقرأَ ابن كثير، وابن عامر، والكوفيون، والحسن، وأَبو رجاءٍ، وابن محيصن: [أَنْ يُبْدِلَهُ] بسكون الباءِ وتخفيف الدال، وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، والأَعرج، وأَبو جعفر: [أَنْ يُبَدِّلَهُ] بفتح الباءِ وشدِّ الدال، وهذه لغة القرآن في هذا الفعل.

وكرر تعالى الصفات مبالغة وإِن كان بعضها يتضمن بعضا، فالإِسلام إِشارة إِلى التصديق والعمل، والإِيمانُ تخصيص وتنبيه على شرف وقعه، و«قانتاتٌ» معناه: مطيعات، و«السَّائحات» قيل: معناه صائمات، قاله أَبو هريرة، وابن عباس، وقتادة، والضحاك، وذكر الزجاج أَن النبي ﷺ قاله: وقيل: معناه: مهاجرات، قاله زيد بن أَسلم، وقال ابن زيد: ليس في الإِسلام سياحة إِلاَّ الهجرة، وقيل: معناه: ذاهبات في طاعة الله تعالى، وشبه الصائم بالسائح من حيث ينهمك السائح ولا ينظر في زاد ولا مطعم، وكذلك الصائم يمسك عن ذلك فيستوي هو والسائح في الامتناع وشظف العيش بفقد الطعام، وقوله تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ تقسيم لكل واحدة من الصفات المتقدمة، وليست هذه الواو مما يمكن أَن يقال فيها: واو الثمانية؛ لأَنها ها هنا ضرورية ولو سقطت لاختلَّ المعنى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا

(١) جاء هذا في حديث طويل رواه مسلم في صحيحه، وأخرجه عبد بن حميد، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ
وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ
بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾ معناه: اجعلوا وقاية بينكم وبين النار، وقد تقدم غير مرة تعليل اللفظة، وقوله تعالى: [وَأَهْلِيكُمْ] معناه: بالوصية لهم والتقديم والحمل على طاعة الله تعالى، وفي حديث «لا تزني فيزني أَهلك»، وفي حديث آخر «رحم الله رجلا قال: يا أَهلاه، صلاتَكُم، صيامكُم، مِسْكِينَكُم، يَتِيمَكُمْ»[1]، وقرأَ الجمهور: [وَقُودُهَا] بفتح الواو، وقرأَ مجاهد، والحسن، وطلحة، وعيسى، والفياض بن غزوان، وأَبو حيوة بضمها، وقيل: هما بمعنى، وقيل: الضم مصدر والفتح اسم، ويروى أن الحجارة هي حجارة الكبريت وقد تقدم في البقرة، ويروى أَنها جميع أَنواع الحجارة، وفي بعض الحديث أَن عيسى بن مريم عليه السلام سمع أَنيناً بفلاة من الأَرض، فتتَّبعه حتى بلغ إِلى حجر يَئِنُّ ويحزن، فقال له: مالك أَيُّها الحجر؟ قال: يا روح الله إِني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ فخفت أَن أَكون من تلك الحجارة، فعجب منه عيسى عليه السلام وانصرف، ويشبه أَن يكون هذا المعنى في التوراة أَو في الإِنجيل، فذلك الذي سمع الحجر إِذا عُبِّر عنه بالعربية كان هذا اللفظ.

ووصْف الملائكة بالغلظة معناه في القلوب والبطش الشديد والفظاظة، كما قال تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[2]، و«الشِّدَّةُ»: القوَّة، وقيل: المراد شدَّتهم على الكفَّار فهي بمعنى الغلظة. ثم وصفهم تعالى بالطواعية لربهم، وكرَّر المعنى تأْكيداً بقوله سبحانه: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وفي قوله تعالى:

---

(١) لم أقف على هذا الحديث والذي قبله، والحديث الواضح في معنى الآية هو الذي رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، من حديث عبد الملك بن الربيع بن سبرة، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «مُروا الصبيَّ بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها»، وهذا لفظ أبي داود، ومثله في معنى الآية ما أخرجه ابن مردويه، عن زيد بن أسلم، قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، قالوا: يا رسول الله كيف نقي أهلنا ناراً؟ قال: تأمرونهم بما يحبه الله وتنهَوْنهم عمَّا يكره الله».

(٢) من الآية (١٥٩) من سورة (آل عمران).

﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ ما يقتضي أَنهم يدخلون الكفار النَّار بجد واختيار ويغلظون عليهم، فكأَنه قال بعد تقرير هذا المعنى: فيقال للكفار: «لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ»، أَي أَن المعذرة لا تنفعكم، وإِنما تجزون بأَعمالكم، فلا تلوموا إِلاَّ أَنفسكم.

ثم أَمر عباده بالتوبة، والتوبةُ فرض على كل مسلم، و«تاب» معناه: رجع، فتوبة العبد رجوعه من المعصية إِلى الطاعة، وتوبة الله تعالى على العبد إِظهار صلاحه ونعمته عليه في الهداية للطاعة، وقبول توبة الكافر يُقطع على الله تعالى بها إِجماعاً من الأُمة، واختلف الناس في توبة العاصي ـ فجمهور أَهل السُّنَّة على أَنه لا يُقطع بقبولها ولا ذلك على الله تعالى بواجب، والدليل على ذلك دعاءُ كل أَحد من التائبين في قبول التوبة، ولو كان مقطوعاً به لما كان للدعاءِ معنًى في قبولها، وظواهر القرآن في ذلك هي كلها بمعنى المشيئة، وروي عن الحسن الأَشعري أَنه قال: التوبة إِذا توافرت شروطها قطع على الله تعالى بقبوله لأَنه أَخبر بذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تمسُّك بظواهر القرآن، وعلى هذا القول أَطبقت المعتزلة، والتوبة: الندم على فارط معصية، والعزم على ترك مثلها في المستقبل، هذا من المتمكن، وأَما غير المتمكن كالمجبوب في الزنى فالندم وحده يكفيه، والتوبة عبادة كالصلاة وغيرها، فإِذا تاب العبد وحصلت توبته بشروطها وقبلت ثم عاود الذنب فتوبته الأُولى لا تفسدها عودة، بل هي كسائر ما يحصل من العبادات.

و«النَّصُوحُ» بناءُ مبالغة من النُّصح، أَي توبة نصحت صاحبها وأَرشدته، وقرأَ الجمهور: [نَصُوحاً] بفتح النون، وقرأَ أَبو بكر عن عاصم، وخارجة عن نافع، والحسن، والأَعرج، وعيسى: [نُصُوحاً] بضم النون، وهو مصدر، يقال: نصح يَنْصَح نصَاحةً ونُصُوحاً، قاله الزجاج، فوصف التوبة بالمصدر كالعدل والزور ونحوه، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: التوبة النَّصوحُ هي أَن يتوب ثم لا يعود ولا يريد أَن يعود، وقال أَبو بكر الوراق: هي أَن تضيق عليك الأَرض بما رحبت كتوبة الذين خُلِّفوا.

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ﴾ الآية ترجية، وقد رُوي أَن «عَسَى» من الله تعالى واجبة، والعامل في [يَوْمَ] هو [يُدْخِلُكُمْ]، ورُوي في معنى قوله تعالى: ﴿يوم لا يخزي الله

النبي﴾ أن محمداً ﷺ تضرَّع في أمر أُمَّته فأَوحى الله تعالى إليه: إن شئت جعلتُ حسابهم إليك، فقال: يا ربِّ أَنت أَرحم بهم، فقال الله تعالى: إذاً لا أُخزيك فيهم، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿يوم لا يخزي الله النبي﴾، والخِزْيُ المكروُه الذي يترك الإنسان حيران خجلاً مهموماً بأَن يرى نقصه أَو سوءَ منزلته.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ﴾ يحتمل أَن يكون معطوفاً على [النَّبِيّ] فيخرج المؤمنون من الخزي، ويحتمل أَن يكون ابتداءً، و﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾ جملة هي خبره، ويبقى النبي ﷺ مخصوصاً مُفضلاً بأَنه لا يَخزى، وقد تقدم القول في نظير قوله تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾، وقرأَ سهل بن سعد: [بِإِيْمَانِهِمْ] بكسر الهمزة، وقولُهم: ﴿أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ قال الحسن بن أَبي الحسن: هو عندما يرون من انطفاءِ نور المنافقين حسب ما تقدم تفسيره، وقيل: يقوله من أُعطي من النور بقدر ما يرى من موضع قدميه فقط.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

هذه الآية تأكيد لأَمر الجهاد وفرضه المتقدم، والمعنى: دُمْ على جهاد الكافرين بالسيف، وجاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم، وضربهم في كل جرائمهم وعند قوة الظن بهم، ولم يعين الله تعالى لرسوله ﷺ منافقاً يقع القطع بنفاقه؛ لأَن التشهد الذي كانوا يُظهرون كان مُلْبساً لأَمرهم، مُشبهاً لهم بالعصاة من الأُمة، و«الغِلْظَةُ عليهم» هي فظاظة القلب والانتهار وقلة الرفق بهم، وقرأَ الضحاك: [وَأَغْلِظْ] بكسر اللام وقطع الأَلف.

وهذان المثلان اللَّذان للكفار والمؤمنين معناهما أَن من كفر لا يُغني عنه من الله شيءٌ، ولا ينفعه وَزَرٌ[1] ولو كان متعلقاً بأَقوى الأَسباب، وأَن من آمن لا يدفعه دافع عن رضوان الله تعالى ولو كان في أَسوإِ منشأ وأَخسِّ حال، وقال بعض الناس: إن في

(١) الوَزَر: الملجأُ والمُعْتَصَم.

المثلين عبرة لزوجات النبي ﷺ حين تقدم عتابُهُنَّ، وفي هذا بُعْد لأَن النَّص أَنه للكفار يُبعد هذا.

واختلف الناس في خيانة هاتين المرأَتين ـ فقال ابن عباس وغيره: خانتا في الكفر، وفي أَن امرأَة نوح كانت تقول للناس: إِنه مجنون. وأَن امرأَة لوط كانت تقول لقومه متى ورد ضيف، فتخبر به، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وما بغت زوجة نبي قط ولا ابتُلي الأَنبياءُ عليهم الصلاة والسلام في نسائهم بهذا، وقال الحسن ـ في كتاب النقاش ـ: خانتاهما بالكفر والزنى وغيره، وقرأَ الجمهور: [يُغْنِيَا] بالياءِ، وقرأَ بشر بن عبيد: [تُغْنيَا] بالتاءِ من فوق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

امرأَة فرعون اسمها «آسية»، وقولها: [وَعَمَلِهِ] معناه: وكُفْره وما هو عليه من الضلالة، هذا قول كافة المفسِّرين، وقال جمهور من المفسِّرين: معناه: من ظلمه وعقابه وتعذيبه لي، ورُوي في هذا أَن فرعون اتَّصل به إِيمانها بموسى عليه السلام، وأَنها تحب أَن تغلب، فبعث إِليها قوماً فقال: إِن رأَيتم منها ذلك فابطحوها في الأَرض، وَوَتِّدُوا يديها ورجليها، وأَلقوا عليها أَعظم حجر، وإِن لم تروا ذلك فهي امرأَتي، قال: فذهب القوم، فلما أَحسَّت الشَّرَّ منهم دعت بهذه الدعوات؛ فقبض الله تعالى روحها، ووضع أُولئك الحجر بشخص لاروح فيه، ورُوي غير هذا مما يطول فاختصرته لعدم صحته. وقال آخرون ـ في كتاب النقاش ـ: [وَعَمَلِهِ] كناية عن الوطءِ والمضاجعة، وهذا ضعيف.

واختلف الناس في الفرج التي أَحصنت مريم عليها السلام ـ فقال الجمهور: هو فرج الدِّرْع الذي كان عليها، وأَنها كانت صبيَّة، وأَن جبريل عليه السلام نفخ فيه الروح من جيب الدِّرع، وقال قوم: هو الفرج الجارحة، ولفظة [أَحْصَنَتْ] ـ إِذا كان فرج الجارحة ـ متمكنة حقيقة، والإِحصانُ: صَوْنُه، وهي فيه مستعملة، وإِذا قدرناه فرج الدِّرْع فلفظة [أَحْصَنَتْ] مستعارة من حيث أَحصنته وصانته ومن حيث سار مسلكاً لولدها.

وقوله تعالى: [فَنَفَخْنَا] عبارة عن فعل جبريل عليه السلام، ونَفْخ جبريل عليه السلام حقيقة، وإن ذهب ذاهب إلى أن النَّفْخ فعل الله تعالى، فهو عبارة عن خلقه واختراعه الولد في بطنها، وشبه ذلك بالنفخ الذي من شأنه أن يُسير الشيءَ برفق ولطف، وقوله تعالى: ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ إضافة مخلوق إلى خالق، ومملوك إلى مالك، كما تقول: بَيْتُ الله، وناقة الله، كذلك الروح والجنس كله هو روح الله.

وقرأَ الجمهور: [وَصَدَّقَتْ] بشدِّ الدال، وقرأَ أَبو مجلز بتخفيفها، وقرأَ جمهور الناس: [بِكَلِمَاتِ] على الجمع، وقرأَ الجحدري: [بِكَلِمَةِ] على الإفراد، فأَما الإفراد فَيُقَوِّي أَنْ يريد أَمر عيسى عليه السلام، ويحتمل أَن يريد اسم جنس وهو التوراة، ومن قرأَ بالجمع فَيُقَوِّي أنه يريد التوراة، ويحتمل أَن يريد أَمر عيسى عليه السلام. وقرأَ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم، ونافع: [وَكِتَابِهِ] على التوحيد، وقرأَ أَبو عمرو، وحفص عن عاصم، وخارجة عن نافع: (وَكُتُبِهِ) بضم التاءِ على الجمع، وقرأَ أَبو رجاءِ بسكون التاءِ: [وَكُتْبِهِ]، وذلك كله مُراد به التوراة والإنجيل.

و«الْقَانِتُونَ»: العابدون، والمعنى: كانت من القوم القانتين في عبادتها وحال دينها.

كمل تفسير سورة التحريم، والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة المُلك[(١)]

وهي مكية بإجماع، وكان رسول الله ﷺ يقرؤها كل ليلة عند أَخْذ مضجعه، ورواه جماعةٌ مرفوعاً إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنه، ورُوي عنه أنه قال: «إنها لتُنَجِّي من عذاب القبر، وتجادل عن حافظها حتى لا يُعَذَّب»[(٢)]، ويروى أن في التوراة سورة الملك، من قرأها في ليلة فقد أَجاد وأَطيب[(٣)]، ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «وَدِدْتُ أَن سورة (تَبَارَكَ الَّذي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) في قلب كل مؤمن»[(٤)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾.

«تَبَارَكَ» تَفَاعَلَ، من البركة، وهي التَّزَيُّد في الخيرات، ولم يستعمل «يتبارك»

---

(١) وتسمى الواقية، والمُنْجية.

(٢) أخرج الترمذي، والحاكم، وابن مردويه، وابن نصر، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، قال: ضرب رجل من أصحاب رسول الله ﷺ خباءَه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة «المُلْك» حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «هي المانعة، هي المُنْجية، تنجيه من عذاب القبر»، قال الترمذي: حديث حسن غريب. (الدر المنثور).

(٣) أخرج الطبراني، وابن مردويه بسند جيد عن ابن مسعود، قال: كنَّا نسميها في عهد رسول الله ﷺ المانعة، وإنها لفي كتاب الله سورة المُلْك، من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب. (الدر المنثور).

(٤) أخرجه عبد بن حميد في مسنده ـ واللفظ له ـ والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، عن ابن عباس أنه قال لرجل: ألا أُتحفك بحديث تفرح به؟ قال: بلى، قال: اقرأ (تَبَارَكَ الَّذي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)، وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك، فإنها المُنْجية والمجادلة يوم القيامة عند ربها لقارئها، وتطلب له أن تنجِّيه من عذاب النار، وينجو بها صاحبها من عذاب القبر، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوَدِدْتُ أنها في قلب كل إنسان من أمتي». (الدر المنثور).

ولا «متبارك». وقوله تعالىٰ: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ عبارة عن تحقيق الْمُلْك؛ وذلك أَن اليَدَ في عُرف الآدميِّين هي آلة التملُّك، فهي مستعارة لذلك، و«الْمُلْكُ» على الإطلاق هو الذي لا يَبيدُ ولا يختل منه شيءٌ، وذلك هو مُلكُ الله تعالىٰ، والمرادُ في هذه الآية: ملك الملوك، فهي بمنزلة قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾[(١)] ذكره الثعلبي عن ابن عباس، وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم، فالشيءُ معناه في اللغة: الموجود.

و«الموتُ والحياةُ» معنيان يتعاقبان جسم الحيوان، يرتفع أَحدهما بحلول الآخر، وما جاءَ في الحديث من قوله ﷺ: «يُؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أَملح فيذبح على الصراط»[(٢)]، فقال أَهل العلم: ذلك تمثال كبش يُوقع اللهُ تعالىٰ العِلْم الضروري لأهل الدارين أَنه الموت الذي خافوه في الدنيا، ويكون ذلك التمثال حاملاً للموت لا عَلَى أَنه يحلُّ الموت فيه، فتذهب عنه حياتُه، ثم يقرن الله تعالىٰ بذبح ذلك التمثال إِعدام الموت، وقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾، أَي: ليختبركم في حال الحياة ويُجازيكم بعد الموت، وقال أَبو قتادة ـ ونَحْوه عن ابن عمر ـ: قلتُ: يا رسول الله، ما معنى قوله تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؟ فقال: «يقول تعالىٰ: أَيكم أَحسن عَقْلاً، وأَشد لله تعالىٰ خوفاً، وأَحسنكم في أَمْره ونَهْيه نظراً، وإِن كانوا أَقلَّكُم تطوعاً»، وقال ابن عباس، وسفيان الثوري، والحسن بن أَبي الحسن: أَيّكم أحسن عملاً: أَزهدكم في الدنيا. وقوله تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ دالٌّ على فعل، تقديره: فينظر أَو يعلم أَيكم، وقال جماعة من المتأولين: الموتُ والحياة عبارة عن الدنيا والآخرة، سمَّى هذه موتاً من حيث فيها الموت، وسمَّى تلك حياة من حيث

---

(١) من الآية (٢٦) من سورة (آل عمران).

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري في تفسير سورة مريم، ومسلم في الجنة، والترمذي في تفسير سورة مريم، والدارمي في الرقاق، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٧٧، ٤٢٣، ٣/ ٩)، ولفظه كما في المسند «عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يُؤتى بالموت يوم القيامة كبشاً أملح، فيقال: يا أهل الجنة، تعرفون هذا؟ فيطَّلعون خائفين مشفقين، قال: يقولون: نعم، قال: ثم ينادى أهل النار: تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، قال: فَيُذبح، ثم يقال: خلود في الجنة، خلود في النار»، وفي رواية البخاري «ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾، وهؤلاء في غفلة الدنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

لا موت فيها، فوصفهما بالمصدرين على تقدير حذف مضاف كعَدْل وزَوْر، وقدَّم الموت في اللفظ لأنه متقدم في النفس هيبة وغلظة.

و﴿طِبَاقًا﴾ قال الزجاج: هو مصدر، وقيل: هو جمع طَبْقَة أَو جمع طبق مثل رحْبة ورحاب أَو جبل وجبال، والمعنى: بعضها فوق بعض، وقال أَبان بن تغلب: سمعت أَعرابياً يذم رجلاً فقال: شرُّه طباق، وخيرُه غير باق، وما ذكر بعض المفسرين في السموات أَن بعضها من ذهب وفضة وياقوت ونحو هذا ضعيف كلُّه لم يثبت بذلك حديث، ولا يعلم أَحد من البشر حقيقة لهذا.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ معناه: من قِلَّةِ تناسب ومن خروج عن الاتفاق، والأمر المتفاوت هو الذي يجاوز الحدود التي له زيادةً أَو نقصاً، وقرأَ جمهور القراءِ: [مِنْ تَفَاوُتٍ﴾، وقرأَ حمزة، والكسائي، وابن مسعود، وعلقمة، والأسود، وابن جبير، وطلحة، والأعمش: [من تَفَوُّتٍ][(١)]، وهما بمعنى واحد[(٢)]، وقال بعض العلماءِ: ﴿فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ معنيٌّ بهِ السموات فقط، وهي التي تضمن اللفظ، وإِيَّاها أَراد بقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾، وإِيَّاها أَراد بقوله: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ﴾ الآية، قالوا: وَإِلاَّ ففي الأرض فطور، وقال آخرون: ﴿فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ معني به جميع ما خلق الله تعالىٰ من الأَشياءِ فإِنَّها لا تفاوت فيها ولا فطور جارية على غير إِتقان، ومتى كانت فطورٌ لا تفسد الشيءَ المخلوق من حيث هو ذلك الشيءُ بل هي إِتقان فيه فليست تلك المرادة في الآية، وقال منذر بن سعيد: أَمر الله تعالىٰ بالنظر إِلى السماءِ وخلقها ثم أَمر تعالىٰ بالتكرير في النظر، وكذلك جميع المخلوقات متى نظرها ناظر ليرى فيها خَلَلاً أَو نقصاً فإِن بصره ينقلب خاسئاً حسيراً، و«رَجْعُ البصر» تَرْديدُهُ في الشيءِ المُبْصَر. وقوله تعالىٰ: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ معناه: مَرَّتين، ونصبه على المصدر، و«الخاسِيءُ»: المُبْعَد بِذُلٍّ عن شيءٍ أَراده وعرض عليه، ومنه الكلب الخاسىءُ، ومنه قول النبي ﷺ لابن صيَّاد: «اخسَأْ، فلن تعدو قدرك»[(٣)]، ومنه قوله تعالىٰ في الكفار

---

(١) بدون ألف وبشد الواو.

(٢) وهذا كثير في اللغة، ومنه: تباعُد وتبعُّد، وتعاهُد وتعهُّد، وتحامُل وتحمُّل، وتصاغُر وتصغُّر، وتضاعُف وتضعُّف، وتظاهر وتظهُّر. فالمعنى واحد في كل مثال من هذه الأمثلة.

(٣) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري في الجنائز والجهاد والقدر والأدب، وأخرجه كل من مسلم والترمذي في الفتن، وأبو داود في الملاحم، والدارمي في المقدمة، وأحمد في مسنده (١/ ٣٨٠، =

الحريصين على الخروج من جهنم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾[1]، وكذلك هذا البصر يحرصُ على رؤية فُطُورٍ أَو تَفَاوُتٍ فلا يجد ذلك فينقلب خاسئاً، و«الحَسِيرُ»: المُعْيِي الكالُّ، ومنه قول الشاعر:

لَهُنَّ الْوَجَى أن كُنَّ عَوْناً عَلَى النَّوَى ... وَلاَ زالَ مِنْهَا ظَالِعٌ وَحسيرُ[2]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾.

أَخبر الله تعالىٰ أنه زيَّن السماءَ الدنيا إِلَيْنا ـ أَي التي تلينا ـ بمصابيح وهي النجوم، فإِن كان جميع النجوم في السماءِ الدنيا فهذا اللفظ عامٌّ للكواكب، وإِن كان في سائر السموات كواكب فإِمَّا أَن يريد كواكب سماءِ الدنيا فقط، وإِما أَن يريد الجميع على أَن ما في غيرها لمَّا كانت هي تشفُّ عنه ويظهر منها فقد تزينت به بوجه ما، ومَنْ تكلف القول لمواضع الكواكب وفي أَي سماءٍ هي فقوله ليس من الشريعة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا﴾ معناه: وجعلنا منها، وهذا كما تقول: أَكرمتُ بني فلان وصنعت بهم، وأَنت إِنما فعلت ذلك ببعض دون بعض، ويوجب هذا التأويل في الآية أَن الكواكب الثابتة والبروج وكل ما يُهتدى به في البر والبحر فليست برواجم،

= ٣/٢٦٨، ٤/١٧٠، ٥/١٤٨)، ولفظه كما في مسند أحمد، عن عبد الله قال: كنا نمشي مع النبي ﷺ. فمرّ بابن صياد، فقال: إني قد خبأتُ لك خبأ، قال ابن صياد: دُخ، قال: فقال رسول الله ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدرك»، فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنقه، قال: «لا، إن يكن الذي نخاف فلن تستطيع قتله». قال العلماء: الدُّخُّ هو الدخان، ولم يكملها، وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد أضمر له آية من سورة الدخان، وهي قوله تعالىٰ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾.

(١) من الآية (١٠٨) من سورة (المؤمنون).

(٢) الوَجَى: الحفا، وقيل: يكون قبل الحفا، وقيل: بل هو أشدُّ من الحفا، والنَّوَى: البُعْد والفراق والانتقال إلى مكان بعيد، والظَّالع: الذي أُصيب بالعرج من أَلم في رجله، والحسير: الذي كلَّ وتعب وأصبح عاجزاً عن السير، يقال: حَسَرت الدابَّة والناقةُ حَسْراً: أَعْيَت وكلَّت، وهو موضع الاستشهاد هنا، يطلب للنُّوق الوجى والظَّلع والإِعياء لأنهن كن عوناً على فراق الأحبة.

وهذا نص في حديث السير، وقال قتادة: خلق الله تعالىٰ النجوم للسماءِ زينة ورجوماً للشياطين. وليُهتدى بها في البر والبحر، ومن قال غير هذه الخصال الثلاث فقد تكلَّف وأَذهب حظَّه من الآخرة. و﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ معناه أعددنا، والضمير في ﴿لَهُمۡ﴾ عائد على الشياطين.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ﴾ بالرفع على الابتداءِ، والخبر في المجرور المتقدم، وقرأ الحسن ـ في رواية هارون عنه ـ: [عَذَابَ جهَنَّمَ] بالنصب على معنى: وأعتدنا للذين كفروا عَذَابَ جهنَّم، فالواو عاطفة فعل على فعل، وتضمنت هذه الآية أَن عذابَ جهنم للكفار المخلَّدين، وقد جاءَ في الأَثر أَنه يمرُّ على جهنَّم زُمَرٌ تخفق أَثوابُها، قد أَخلتها الشفاعة، فالذي يقال في هذا أَنَّ «جَهَنَّمَ» تختص به الطبقة العُلْيا من النار، ثم قد تسمَّى الطبقات كلها «جَهَنَّمَ» باسم بعضها، وهذا كما يقال «نجم» للثريَّا، ثم يقال ذلك للكواكب اسم جنس، فالذي في هذه الآية جَهَنَّمُ بأسرها، أي جميع الطبقات، والتي في الأثر هي الطبقة العليا لأَنها مقرُّ العصاة. و«الشَّهِيقُ» أَقبح ما يكون من صوت الحمار، فاحتدام النار وغليانها يصوِّت مثل ذلك.

قوله تعالىٰ: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾، أَي: يُزَايِل بعضُها بعضاً لشدة الاضطراب، كما قال الشاعر في صفة الكلب يحتدم في جريه:

يكـادُ يَخْـرجُ مِـنْ إهـابِـهْ[1]

وقرأ الضحاك: [تَمَايَزُ] بالألف، وقرأ طلحة: [تتَمَيَّزُ] بتاءين، وقرأ الجمهور: ﴿تَمَيَّزُ﴾ مخففة التاءِ، وقرأ البزيُّ وقومٌ: [تَكَادُ تَّمَيَّزُ] بضم الدال وشدّ التاءِ على أنها «تتَمَيَّزُ» وأَدغم إِحدى التاءَيْن في الأُخرى، وقرأ قوم بإِدغام الدال في التاءِ، وهذا فيه إِدغام الأَقوى في الأَضعف، وقوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ معناه: على الكفرة بالله تعالىٰ، وقوله سبحانه: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ﴾ الفوج هو الفريق من الناس، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾[2]، والآية تقتضي أَنه لا يُلقى فيها أَحدٌ إِلاَّ سُئل ـ على جهة التوبيخ

---

(١) الإهاب: الجلْد المغلَّف لجسم الحيوان قبل أن يُدبغ، وهذا نوع من التجوُّز يدل على شدة النشاط في العَدو، وجمع الإهَاب: أُهُبٌ.

(٢) من الآية (٢) من سورة (النصر).

ـ عن النُّذُر، فأَقَرُّوا بأَنهم جاءوهم وكذبوهم، وقوله تعالىٰ: ﴿ كُلَّمَآ ﴾ حَصْرٌ، فإِذاً الآية تقتضي في الأَطفال من أَولاد المشركين وغيرهم وَمَنْ نُقَدِّره صاحب فترة أَنهم لا يدخلون النار لأَنهم لم يأْتهم نذير.

(واختلف الناس في أَمر الأَطفال، فاجتمعت الأَمة على أَولاد الأَنبياءِ عليهم السلام أَنهم في الجنة)[١]، واختلفوا في أَولاد المؤمنين ـ فقال الجمهور: هم في الجنة، وقال قوم: هم في المشيئة. واختلفوا في أَولاد المشركين ـ فقالت فرقة: هم في النار، واحتجوا بحديث روي «هم من آبائهم»[٢]، وتأَول المخالف هذا الحديث أَنه في أَحكام الدنيا، وقال آخرون: هم في المشيئة، وقال آخرون: هم في الجنة واحتج هذا الفريق بهذه الآية في مساءَلة الخزنة، وبحديث وقع في صحيح البخاري في كتاب التعبير يتضمن أَنهم في الجنة[٣]، وبقوله عليه الصلاة والسلام: «كلُّ مولود يولد على الفطرة، فأَبواه يهوِّدانه أَو ينصِّرانه أو يمجِّسانه»[٤]، والأَطفال لم يبلغوا أَن يُصنع بهم شيءٌ من هذا.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ يحتمل أَن يكون من قول الملائكة للكفار حين أَخبروا عن أَنفسهم أَنهم كذبوا النُّذُر، ويحتمل أَن يكون من كلام الكفار للنُّذُر.

---

(١) سقطت العبارة التي بين العلامتين (. . . .) في جميع النسخ، ولم تثبت إلا في النسخة التونسية.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد، وكذلك أخرجه أبو داود في الجهاد، وابن ماجه في الفتن، ولفظه كما في صحيح مسلم عن الصعب بن جَثَّامة أن النبي ﷺ قيل له: لو أن خيلاً أغارت من الليل فأصابت من أبناء المشركين، قال: «هم من آبائهم»، وفي رواية ذكرها مسلم أيضاً «هم منهم»، وواضح من الحديث أن هذا الحكم في الدنيا. ولهذا أثبتنا الحديث كما في صحيح مسلم، وإلا فقد ورد في النسخ الأصلية «هم مع آبائهم»، وزاد بعض النسخ «هم مع آبائهم في النار».

(٣) هو حديث طويل ذكره الإمام البخاري في آخر كتاب التعبير عن سمرة بن جندب، وفيه يقص النبي ﷺ قصة رؤيا رآها في المنام، وفيها أنه رأى رجلاً طويلاً وحوله ولدان، وفسَّر الملكان ما رأى فقالا: إن هذا الرجل هو إبراهيم عليه السلام، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة، قال الراوي: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله، وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأولاد المشركين». ومعنى ذلك أنهم في الجنة لأنهم ماتوا على الفطرة.

(٤) أخرجه أبو يعْلى في مسنده، والطبراني في الكبير، والبيهقي في السنن، عن الأسود بن سريع، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بأنه صحيح.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١١ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝١٤ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ۝١٥﴾.

المعنى: وقال الكفار للخزنة في محاورتهم: لو كنا نسمع أَو نعقل سَمْعاً أَو عقلاً يُنتفع به ويغني شيئاً لآمَنَّا ولم نستوجب الخلود في السعير.

ثم أَخبر تعالىٰ محمداً ﷺ أَنهم اعترفوا بذنبهم في وقت لا ينفع فيه الاعتراف، وقوله تعالىٰ: ﴿فَسُحْقًا﴾ نصب على جهة الدعاءِ عليهم، وجاز ذلك فيه وهو من قِبَل الله تعالىٰ من حيث هذا القول فيهم مستقر أَزلاً وجوده لم يقع ولا يقع إلاَّ في الآخرة، فكأَنه لذلك في حيِّز المتوقَّع الذي يدعى فيه، كما تقول: سحقاً لزيد وبُعداً، وانتصب في هذا كله بإِضمار فعل، وأَمَّا ما وقع وثبت فالوجه فيه الرفع، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾(1) و﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾(2)، وغير هذا من الأَمثلة. وقرأَ الجمهور: ﴿فَسُحْقاً﴾ بسكون الحاءِ، وقرأَ الكسائي: [فَسُحُقاً] بضم الحاءِ، وهما لغتان.

ثم وصف تعالىٰ أَهل الإِيمان وهم الذين يخشون ربهم، وقوله تعالىٰ: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ يحتمل معنيين: أَحدهما: بالغيب الذي أُخبروا به من الحشر والصراط والميزان والجنة والنار، فآمنوا بذلك وخشوا ربهم فيه، ونحا إِلى هذا قتادة، والمعنى الثاني: يخشون ربهم إِذا غابوا عن أَعين الناس، أَي في خلواتهم، ومنه تقول العرب: «فلان سالم الغيب»، أَي لا يضر، فالمعنى: يعملون بحسب الخشية في صلاتهم وعبادتهم وانفرادهم، فالاحتمال الأَول مَدْح بالإِخلاص والإِيمان، والثاني مَدْح بالأَعمال الصالحة في الخلوات، وذلك أَحرى أَن يفعلوها علانية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ مخاطبة لجميع الخلق، قال ابن عباس

---

(1) الآية (1) من سورة (المطفِّفين).

(2) من الآية (٤٦) من سورة (الأعراف)، والآية (٤) من سورة (الرعد)، والآية (٣٢) من سورة (النحل)، والآية (٥٥) من سورة (القصص)، والآية (٧٣) من سورة (الزُّمَر).

رضي الله عنهما: سببها أَن المشركين قال بعضهم لبعض: أَسِرُّوا قولكم لا يسمعكم إلا محمد، فالمعنى: إِن الأَمر سواءٌ عند الله تعالىٰ لأَنه يعلم ما هجس في الصدر دون أَن يُنطق به، فكيف إِذا نُطق به سراً أَو جهراً، و«ذَاتُ الصُّدور»: ما فيها، وهذا كما يقال: «الذِّئبُ مَغْبُوطٌ بِذي بَطْنِهِ»[1]، وقد تقدم تفسيره غير مرة.

قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، اختلف الناس في إعراب (مَنْ) ـ فقال بعض النحاة: إِعرابها رفع، كأَنه تعالىٰ قال: أَلا يعلم الخالق خلقه ؟ فالمفعول على هذا محذوف، ومنهم من قال: إِعرابها نصب، كأَنه تعالىٰ قال: أَلا يعلم الله من خَلَق ؟ وقال مكيٌّ: وتعلَّق أَهل الزَّيغ بهذا التأَويل؛ لأَنه يعطي أَن الذين خلقهم الله تعالىٰ هم العباد من حيث قال: (مَنْ)، فتخرج الأَعمال عن ذلك، لأَن المعتزلة تقول: العباد يخلقون أَعمالهم، وتعلُّقهم بهذا التأَويل ضعيف، والكلام مع المعتزلة في مسأَلة خلق الأَعمال مأَخذه غير هذا؛ لأَن هذه الآية لا حجة فيها لهم ولا عليهم.

و«الذَّلُولُ» فَعولٌ بمعنى مفعول، أَي مذلولة، فهي كرَكُوبٍ وحَلوبٍ، يقال: ذلولٌ بيِّن الذِّلِّ، بكسر الذال، وذليلٌ بيِّن الذُّلِّ، بضم اللام.

واختلف المفسرون في معنى «المناكب»، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: مناكبها: أَطرافها، وهي الجبال، وقال منذر بن سعيد: جوانبها، وهي النواحي، وقال مجاهد: هي الطُّرُق والفجاج، وهذا قول جارٍ مع اللغة؛ لأَنها تنكبُ يمنةً ويسرةً وينكبُ الماشي فيها، فهي مناكب[2].

وهذه الآية تعديد نِعَمٍ في تقريب التصرف للناس، وفي التمتع في رزق الله تعالىٰ، و«النُّشور»: الحياة بعد الموت.

---

(١) هذا مثل يقال في الذئب لأنه ليس يُظَنُّ به الجوع، بل تُظَنُّ به البِطنة لكثرة عدوانه على الناس والماشية، ويروى: الذئب يُغبط بغير بِطنة، وذو بطنة، قال الشاعر:

وَمَـنْ يَسْكُـن البَحْـرَيْـن يَعْظُـمْ طحـالُـهُ ... ويُغْبَـط مـا فـي بَطْنِـهِ وَهـوَ جـائِـعُ

وقيل: إنما قيل هذا في الذئب لأنه عظيم الجفرة أبداً لا يبين عليه الضمور وإن أجهده الجوع.

(٢) وقيل: بل أشبه تفسير هو تفسير من قال: جبالُها، لأن قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ معناه: سهَّل لكم السلوك فيها، فأمكن لكم السلوك في جبالها، فهو أبلغ في التذليل. وقد روي أن بشير بن كعب كانت له سُرِّية، فقال لها: إن أخبرتني ما مناكب الأرض فأنت حرة، فقالت: مناكبها: جبالها، فصارت حُرة، فأراد أن يتزوجها فسأل أبا الدرداء فقال له: دع ما يَريبُكَ إلى ما لا يريبك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وابن عامر: ﴿ءَأَمِنتُم﴾ بهمزتين محققتين من غير مدٍّ، وقرأ أبو عمرو، ونافع: [النُّشُورُ آمِنتُمْ] بهمزة ومدٍّ، وقرأ ابن كثير: [النُّشُورُ وآمِنتُمْ]، يُبدل الهمزة واواً لكونها بعد ضمَّة، ويمدُّ بعد الواو.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ جارٍ على عُرف تلقِّي البشر أَوامر الله تعالىٰ، ونزول القدر بحوادثه ونِعَمه ونِقَمه وآياته من تلك الجهة، وعلى ذلك صار رفع الأيدي والوجوه في الدعاءِ إلى تلك الجهة والناحية. و«خَسفُ الأَرْض»: أَن تذهب سفلاً. و﴿تَمُورُ﴾ معناه: تتموَّج وتذهب كما يذهب التراب الموَّار في الريح، وكما يذهب الدَّم الموَّارُ، ومنه قول الأَعرابي: «وغادرت التراب موراً».

و«الْحاصِب»: البَرَدُ وما جَرى مجراه؛ لأَنه في اللغة الرِّيحُ ترمي بالحصباءِ، ومنه قول الفرزدق:

مُسْتَقْبِلِينَ شمالَ الشَّامِ تَرْجُمُهُمْ بِحاصِبٍ كَنَدِيفِ القُطْنِ مَنْثُور[1]

وقرأ جمهور السبعة: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ بالتاءِ، وقرأ الكسائي وحده: [فَسَيَعْلَمُونَ] بالياءِ، وقرأ السبعة وغيرهم: ﴿نَذِيرِ﴾ بغير ياءٍ، على طريقتهم في الفواصل المشبهة بالقوافي، وقرأ نافع في رواية وَرْش وحده [نذيري] بياءٍ على الأَصل، وكذلك في ﴿نَكِيرِ﴾، و«النَّكير»: مصدرٌ بمعنى الإنكار، و«النَّذيرُ» كذلك، ومنه قول حسَّانِ بن ثابت:

---

(١) هذا البيت من قصيدة للفرزدق يمدح فيها يزيد بن عبد الملك ويهجو يزيد بن المهلَّب، والحاصب: الريح الشديدة تحمل الحصباء، وهو موضع الاستشهاد هنا، و«نديف القُطن» هو القطن حين يُطرق بالمِنْدف، فيصير نديفاً، ورواية البيت في الديوان:

مُسْتَقْبِلِينَ شَمالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا بحاصِبٍ كَنَديفِ القُطْنِ مَنْثُورِ

فَــأَنْــذَرَ مِثْلَهَــا نُصْحــاً قُــرَيْشــاً   مِــنَ الــرَّحْمــنِ إِنْ قَبِلــتْ نَــذِيــرِي(١)

ثم أَحال على العبرة في أَمر الطير وما أَحْكَمَ مِنْ خِلقتها، وذلك يُبيِّن عجز الأَصنام والأَوثان، و﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ جمع «صافَّة» وهي التي تبسط جناحيها وتصُفُّهما حتى كأَنها ساكنة، و«قَبْضُ الجناح» ضَمُّه إِلى الجنب، ومنه قول أَبي خراش:

. . . .   يَحُثُّ الْجَنَاحَ بِالتَّبَسُّطِ والْقَبضِ(٢)

وهاتان حالان للطائر يستريح من إِحداهما إِلى الأُخرى. وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾ عطف المضارع على اسم الفاعل، وذلك كما عطف اسم الفاعل على المضارع في قول الشاعر:

بَــاتَ يُعَشِّيهــا بِعضْــبٍ بــاتِــرِ   يَقْصِــدُ فــي أَسْــوُقِهَــا وَجــائِــرِ(٣)

(١) قال حسان بن ثابت هذا البيت من أبيات له في يوم قريظة بعد أن حاصرهم النبي ﷺ ونزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم فيهم بقتل المقاتلة وسبْي الذراري، وفي أول هذه الأبيات يقول حسان:

لَقَــدْ لَقِيَــتْ قُــرَيْظَــةُ مَــا سَــاءَهَــا   وَمَــا وَجَــدَتْ لِــذُلٍّ مِــنْ نصيــر

ورواية البيت في الديوان: «فَأَرْدَفَ مِثْلَهَا»، أما في سيرة ابن هشام وفي شرح شواهد المغني فالرواية «فَأَنذَرَ مِثْلَها». والشاهد هنا استعمال كلمة النذير بمعنى الإنذار. قال صاحب اللسان: «والجيِّد أن الإنذار المصدر، والنذير الاسم».

(٢) هذا عجز بيت لأبي خراش الهذلي، والبيت بتمامه:

يُبَــادِرُ جُنْــحَ اللَّيْــلِ فَهْــوَ مُهَــابِــذٌ   يَحُــثُّ الجناحَ بــالتَّبَسُّــطِ وَالْقَبْــضِ

والمُهابذة: الإسراع، ويروى بدلاً منها: «فهو مُوائِلٌ»، ومعنى وَاءل: لجأ وخَلص، ويقَال: وَاءل الطائر أيضاً بمعنى: بادَرَ، والتَّبَسُّط: مدُّ الجناحين، والقَبْضُ: ضمُّهما إلى الجانبين، وهما حالان للطائر يستريح من إحداهما إلى الأخرى كما قال المؤلف، والبيت في ديوان الهذليين، واللسان، والقرطبي.

(٣) هذا البيت من الأبيات التي لم يعرف قائلها، ويُعَشّيها: يطعمها العَشَاء ـ بفتح العين ـ وهو الطعام الذي يؤكل في وقت العشاء، ويروى بدلاً منها «يُغَشِّيها» بالغين المعجمة، وهو من الغِشاء كالغِطاءِ وزناً ومعنى، أي يشملها ويعمُّها، والضمير المؤنث هنا للإبل، والبيت في وصف إنسان كريم أسرع إلى عقر إبله لضيوفه، والعضب: السيف، وباتر: قاطع حاد، وهو صفة للعضب، وجملة (يقصد) صفة ثانية له، و(جائر) صفة ثالثة، ومعنى (يقصد): يتوسط ولا يجاوز الحدَّ، والأَسْوُق: جمع ساق، جمع قلَّة، وهي ما بين الركبة والقدم، وجائر: ظالم مجاوز للحدِّ، ويروى (أسؤق) بهمز الواو، والبيت في خزانة الأدب، وأمالي ابن الشجري، والعيني، والأشموني، وهو شاهد على جواز عطف اسم الفاعل (جائر) على الفعل المضارع (يقصد). وللنحويين فيه كلام كثير.

وقرأ طلحة بن مصرف: [أَمَنْ] بتخفيف الميم في هذه، وقرأ التي بعدها مُثَقَّلة كالجماعة، و«الْجُندُ» أعوان الرجل على مذهبه، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ خطاب لمحمد ﷺ بعد تقدير: قل لهم يا محمد: أَمَّن هذا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

هذا أَيضاً توقيف على أَمر لا مدخل للأصنام فيه، والإشارة بالرِّزْق إلى المطر لأَنه أَعظم الأَرزاق، ثم أَخبر تعالىٰ عنهم أَنهم لَجُّوا وتمادوا في التمنع عن طاعة الله تعالىٰ، وهو العُتُوُّ، و«النُّفُورُ» البُعْدُ عن الحقِّ بسرعة ومبادرة، يقال: نَفَر عن الأَمر نُفُوراً، ونَفَر إلى الأَمر نَفيراً، ونَفَرت الدابَّةُ نِفَاراً.

واختلف أَهل التأْويل في سبب قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا﴾ الآية ـ فقال جماعة من رُوَاة الأَسباب: نزلت مثلاً لحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ولأَبي جهل بن هشام، وقال ابن عباس، وابن الكلبي وغيرهما: نزلت مثلاً لمحمد ﷺ ولأبي جهل بن هشام، وقال ابن عباس أَيضاً، ومجاهد، والضحاك: نزلت للمؤمنين والكافرين على العموم، وقال قتادة: نزلت مخبرةً بأَحوال القيامة، وأَن الكفار يمشون فيها على وجوههم، والمؤمنون يمشون على استقامة، وقيل للنبي ﷺ: كيف يمشي الكافر على وجهه؟ فقال: «الذي أَمشاه في الدنيا على قدميه قادر أَن يمشيه في الآخرة على وجهه»[(١)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فَوَقَفَ الكفَّارُ على ما بين الحالتين حينئذ، ففي الأَقوال الثلاثة الأُول المَشْيُ مجازٌ

(١) أخرجه البخاري في الرقاق وفي تفسير سورة الفرقان، ومسلم في المنافقين، والترمذي في تفسير سورة الإسراء، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٥٤، ٣٦٣). ولفظه كما في البخاري عن قتادة: حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا نبي الله، يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة قال: «أَلَيْس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة»؟ قال قتادة: بَلى وعِزَّةِ ربِّنا.

بتخيُّل، وفي القول الرابع هو حقيقة تقع يوم القيامة.

ويقال: «أَكبَّ الرجلُ» إذا ردَّ وجهه إلى الأرض، و«كبَّه غيره»، قال عليه الصلاة والسلام: «وهل يكُبُّ الناسَ في النار على مناخرهم إلاَّ حصائد أَلسنتهم»(١)؟ فهذا الفعل خلاف للباب، أَفْعَل لا يتعدَّى، وفَعَل يتعدَّى، ونظيره «قشعت الريحُ السحاب فانقشع». و[أَهْدىَ] في هذه الآية «أَفْعَل» من الهدى.

وقرأ طلحة: [أَمَنْ يَمْشِيْ] بتخفيف الميم، وأَفرد تعالىٰ السمع لأنه اسم جنس يقع للقليل والكثير، و﴿قَلِيلًا﴾ نصب بفعل مضمر، و(ما) مصدرية، وهي في موضع رفع، وقوله تعالىٰ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يقتضي ظاهره أَنهم يشكرون قليلاً، فهذا إِمَّا أَن يُريد به ما عَسى أَن يكون للكافر من شكر، وهو قليل غير نافع، وإِما أَن يريد نفي الشكر عنهم جملةً فعبَّر بالعلَّة، كما تقول العرب: «هذه أَرض قَلَّما تُنبت كذا» وهي لا تُنبته البَتَّةَ، ومن شُكْر رسول الله ﷺ على هذه النعمة أَنه كان يقول في سجوده: «سَجَدَ وَجْهي للَّذي خلقه وصوَّره وشقَّ سمعه وبصره»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان والزكاة والمناقب والأحكام، ومسلم في الإيمان والمساجد والزكاة، وأبو داود في السنة، والترمذي في الديات والإيمان، والنسائي في الإيمان، وابن ماجه في الفتن، والدارمي في السِّير، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، منها (٥/ ٢٣١)، ولفظه كما في مسند أحمد عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: لقد سألتَ عن عظيم، وإنه لَيَسير على من يسَّره الله عليه، تعبد الله ولا تُشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّة، والصدقة تطفىء الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾، ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ فقلت: بلى يا رسول الله، قال: رأسُ الأمر وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألاَ أُخبرك بملاك ذلك كله؟ فقلت له: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه فقال: كُفَّ عليك هذا، فقلت: يا رسول الله، وإنَا لَمُؤَاخَذُونَ بما نتكلم به؟ فقال: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا مُعاذُ، وهل يكبُّ الناسَ على وجوههم في النار ـ أو قال على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم؟.

(٢) أخرجه مسلم في المسافرين وفي السجود، والترمذي في الجمعة والدعوات، والنسائي في التطبيق، وابن ماجه في الإقامة، وأحمد في مواضع مختلفة من مسنده، ولفظه كما جاء فيه (١/ ٩٤، ٩٥)، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا كبر استفتح ثم قال: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرضَ حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، إنَّ صلاتي ونُسُكي وَمَحْيايَ ومماتي لله ربِّ العالمين لا شريكَ له وبذلك أمرتُ وأنا من المسلمين ـ قال أبو النَّضر: وأنا أول المسلمين ـ اللهم لا إله إلا أنت، أنت ربِّي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً، لا يغفر الذنوب=

و﴿ ذَرَأَكُمْ ﴾ معناه: بثَّكم، و«الحَشْرُ» المشارُ إليه هو بعث القيامة، وإليه أشار بقوله تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾، فأخبر تعالىٰ أنهم يستعجلون أمر القيامة ويُوقَفُون على الصدق في الإخبار بذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾ ﴾.

أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ أَن يخبرهم أَن عِلْم يوم القيامة والوَعْدَ الصِّدق هو مما ينفرد الله تعالىٰ به، وأَن محمداً ﷺ إنما هو نذير، يَعْلَمُ ما عُلِّم، ويُخبر بما أُمر أَن يخبر به.

قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾، الضمير للعذاب الذي تَضمَّنه الوعد، وهذه حكاية حالٍ تأتي، والمعنى: فإذا رأَوْهُ، و﴿ زُلْفَةً ﴾ معناه: قريباً وقال الحسن: عياناً، وقال ابن زيد: حاضراً، و﴿ سِيٓـَٔتْ ﴾ معناه: ظهر فيها السوءُ، وقرأَ جمهور الناس: ﴿سِيئَتْ﴾ بكسر السين، وقرأَ أَبو جعفر، والحسن، ونافع أَيضاً، وابن كثير، وأَبو رجاءٍ، وشيبة، وابن وثَّاب، وطلحة بالإشمام بين الضم والكسر، وقرأَ جمهور الناس: ﴿ تَدَّعُونَ ﴾ بفتح الدال وشدِّها، على وزن تَفْتَعلون، أَي: تتداعون أَمره بينكم، وقال الحسن: تدَّعون أَنه لا جنَّة ولا نار، وقرأَ أَبو رجاءٍ، والحسن، والضحاك، وقتادة، وابن يسارٍ،

= إلاّ أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيِّئَها، لا يصرف عني سيِّئها إلا أنت، تباركت وتعاليتَ، أستغفرك وأتوب إليك». وكان إذا ركع قال: «اللهم لك ركعتُ، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخِّي وعظامي وعصبي»، وإذا رفع رأسه من الركعة قال: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد مِلْءَ السموات والأرض وما بينهما وملء ما شئتَ من شيء بعد»، وإذا سجد قال: «اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمتُ، سجد وجهي للذي خلقه فصوره فأحسن صوره، فشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين»، فإذا سلَّم من الصلاة قال: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنتُ، وما أنت أعلم به مني، أنتَ المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنتَ».

وسلام: ﴿تَدْعُونَ﴾ بسكون الدال، على معنى: تستعجلون، كقولهم: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾(١)، ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾(٢)، وغير ذلك.

ورُوي في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ الآية.. أنهم كانوا يَدْعون على محمد ﷺ وأصحابه بالهلاك، وقيل: بل كانوا يتآمرون بينهم بأن يُهلكوهم بالقتال ونحوه، فقال الله تعالىٰ له: قل لهم: أرأيتم إن كان هذا الذي تريدون بنا وتَمَّ ذلك فينا، أو رأيتم إن رحمنا الله فنصرنا ولم يُهلكنا مَنْ يُجيركم من العذاب الذي يوجبه كفركم على كل حال؟ وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفصٌ عن عاصم: ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾ بنصب الياءَيْن، وأسكن الكسائي، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ الياءَ في [مَعِيْ]، وقرأ حمزة بإسكان الياءَين، وروى الحسن عن نافع أنه أسكن الياءَ من ﴿أَهْلَكَنِي﴾، وقال أبو علي: التحريك في الياءَيْن حسنٌ وهو الأَصل، والإِسكان ـ كراهية الحركة في حرف اللين ـ للنجاة من ذلك.

وقرأ الكسائي وحده: [فسيعلمون] بالياءِ، وقرأ الباقون بالتاءِ على المخاطبة، ثم وقفهم تعالىٰ على مياههم التي يعيشون منها إن غارت ـ أي ذهبت في الأَرض ـ من يجيئُهم بماءٍ كثير كاف، و«الغَوْرُ» مصدر يوصف به على معنى المبالغة، ومنه قول الأَعرابي: «وغادرت الترابَ مَوْراً والماءَ غَوْراً». و«الْمَعِينُ» فَعيلٌ من «مَعَنَ الماءُ» إذا كثُر أَو مفعولٌ من «العَيْن»، أَي: جارٍ كالعين، أَصله مَعْيُون، وقيل: هو من «العَيْن» لكن من حيث يُرى بعين الإِنسان، لا من حيث يشبه العَيْن الجارية، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: مَعِينٌ: عذبٌ، وعنه ـ في كتاب الثعلبي ـ مَعِينٌ: جارٍ، وفي كتاب النقاش: مَعِينٌ: طاهِرٌ، وقال بعض المفسرين وابْنُ الكلبي: أُشير في هذا الماءِ إِلى بئر زمزم وبئر ميمون، ويُشبه أَن تكون هاتان عُظْم ماءِ مكة، وإلاَّ فكانت فيها آبارٌ كثيرة كخُم والجفر وغيرهما.

كمل تفسير سورة الملك والحمد لله رب العالمين

---

(١) جاء ذلك في الآية (١٦) من سورة (ص)، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ١٦﴾.

(٢) جاء ذلك في قوله تعالىٰ في الآية (٣٢) من سورة (الأنفال): ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سُورة القلَم

وهي مكِّيَّة، ولا خلاف فيها بين أَحد من أَهل التأويل[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾.

[نٓ] حرف مقطَّع في قول جمهور المفسرين، فيدخله من الاختلاف ما يدخل أَوائل السور، ويختص هذا الموضع من الأَقوال بأَن قال ابن عباس ومجاهد: [نٓ] اسم الحوت الأَعظم الذي عليه الأَرضون السبع فيما يروى، وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك: [نٓ] اسم للدواة، فهذا إِما أَن يكون لغة لبعض العرب أَو تكون لفظة أَعجمية، قال الشاعر:

إِذَا مَا الشَّوْقُ بَرَّحَ بِي إِلَيْهِمْ   أَلْقَتِ النُّونُ بِالدَّمْعِ السَّجُوم[2]

فمن قال بأَنه اسم الحوت جعل «الْقَلَمَ» الْقَلَمَ الذي خلقه الله تعالىٰ وأَمره فكتب الكائنات، وجعل الضمير في [يَسْطُرُونَ] للملائكة، ومن قال بأَن [نٓ] اسم للدواة جعل «الْقَلَمَ» هو المتعارف بأَيدي الناس، نصَّ ذلك ابن عباس، وجعل الضمير في

(١) نقل الماوردي عن ابن عباس وقتادة: هي مكِّيَّة من أولها إلى قوله تعالىٰ: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ الآية ١٦ ـ ومن بعد ذلك إلى قوله تعالىٰ: ﴿أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ـ الآية ٣٣ـ مدنيّ، ومن بعد ذلك إلى قوله تعالىٰ: ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ـ الآية ٤٧ـ مكيٌّ، ومن بعد ذلك إلى قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ـ الآية ٥٠ـ مدنيٌّ، وما بقي مكيٌّ.

(٢) الدَّمع السَّجوم: السائل المنصب من العين قليلاً كان أو كثيراً. (اللسان).

﴿يَسْطُرُونَ﴾ للناس، فجاءَ القسم ـ على هذا ـ بمجموع أَمر الكتاب الذي هو قوامٌ لِلعلوم والمعارف وأُمور الدنيا والآخرة، فإن القلم أَخو اللسان ومطية الفطنة ونعمة من الله تعالىٰ عامة، وروى معاوية ابن قُرَّة أَن النبي ﷺ قال: «نٓ لوحٌ من نور»[(١)]، وقال ابن عباس أَيضاً وغيره: ﴿نٓ﴾ حرف من حروف الرحمن، وقالوا: إنه تَقَطَّع في القرآن إلى «آلر» و«حمٓ» و«نٓ».

وقرأ عيسى بن عمر ـ بخلاف ـ: (نُونَ) بالنصب، والمعنى: اذكر نونَ، وهذا يَقْوى مع أَن يكون اسماً للسورة، فهو مؤنث سُمِّي به مؤنث، ففيه تأنيث وتعريف ولذلك لم ينصرف، وانصرف «نُوح» لأَن الخِفَّة بكونه على ثلاثة أَحرف غلبت على علَّة العُجْمة، وقرأ ابن عباس، وابن أَبي إسحاق، والحسن: [نُونِ] بكسر النون، وهذا كما تقول في القسم: اللهِ، وكما قالوا: جَيْرِ[(٢)]، وقيل: كُسرت لاجتماع الساكنين، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، وحفص عن عاصم: [نُونْ] بسكون النون، وهذا على أَنه حرف منفصل فحقُّه الوقوف عليه، وقرأ قوم منهم الكسائي: ﴿نُ وَٱلْقَلَمِ﴾ بالإدغام دون غُنَّة، وقرأ آخرون بإدغام وبِغُنَّة، وقرأ الكسائي ويعقوب، وأَبو بكر عن عاصم بالإخفاءِ بين الإدغام والإظهار، و[يَسْطُرُونَ] معناه: يكتبون سطوراً، فإن أَراد الله تعالىٰ الملائكة فهو كتب الأَعمال وما يؤمرون به، وإن أَراد تعالىٰ بني آدم فهي الكتب المنزلة والعلوم وما جرى مجراها.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ هو جواب القسم، و[مَا] ها هنا عاملة لها اسم وخبر، وكذلك هي متى دخلت الباءُ في الخبر، وقوله تعالىٰ: ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ اعتراض، كما تقول لإنسان: أَنت ـ بحمد الله ـ فاضل.

وسبب هذه الآية أَن قريشاً رمت رسول الله ﷺ بالجنون، وهو سَتْر العقل، بمعنى أَن كلامه خطأٌ ككلام المجنون، فنفى الله تعالىٰ ذلك عنه، وأَخبره بأَن له الأَجر، وبأَنه على الخلق العظيم تشريفاً له ومدحاً.

---

(١) أخرجه ابن جرير، عن معاوية بن قُرَّة، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ قال: لوحٌ من نور، وقَلَمٌ من نور يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة». (الدر المنثور) و(تفسير الطبري).

(٢) جَيْرِ بمعنى اليمين، يقال: جَيْرِ لا أفعل كذا وكذا، قال الجوهري: «قولهم جَيْرِ لا آتيك ـ بكسر الراء ـ يمينٌ للعرب، ومعناها حَقًّا»، راجع الصحاح واللسان.

واختلف الناس في معنى [مَمْنُون] ـ فقال أكثر المفسرين: هو الواهن المنقطع، يقال: «حبل ممنون» أي ضعيف، وقال آخرون: معناه: غير مَمْنُون عليك، أي: لا يكدِّره منٌّ به، وقال مجاهد: معناه: غير مُسَرَّد ولا محسوب محصَّل، أي: بغير حساب، وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «خُلُقُهُ القرآن»[١]، أي آدابه وأوامره، وقال عليٌّ رضي الله عنه: الخُلُق العظيم أدب القرآن، وعبَّر ابن عباس رضي الله عنهما عن الخُلُق بالدِّين والشرع، وذلك لا محالة رأس الخلق ووكيده، أَمَا إنَّ الظاهر من الآية أَن الخُلُق هو الذي يضادُّ مقصد الكفار في قولهم: «مجنون» أَي غير محصِّل لما يقول، وإنما مدحه تعالىٰ بكرم السجية وبراعة القريحة والمَلَكَة الجميلة وجودة الضرائب[٢]، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «بُعثت لأُتَمِّم مكارم الأَخلاق»[٣]، وقال جُنَيْد: «سُمِّيَ خُلُقه عظيماً إذ لم يكن له هِمَّة سوى الله تعالىٰ، عاشر الخَلْق بخُلُقه وزايلهم بقلبه، فكان ظاهره مع الخَلْق وباطنه مع الحق»، وفي وصيَّة بعض الحكماءِ: «عليك بالتَّخَلُّق مع الخَلْق، وبالصدق مع الحق، وحُسْن الخُلُق خير كلُّه»، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن المؤمن لَيُدْرك بحُسْن خُلُقه درجة قائم الليل صائم النهار»[٤]، وقال: «ما شيءٌ أَثقل في الميزان من خُلُق حسن»[٥]،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وعبد بن حُميد، ومسلم، وابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه عن سعد بن هشام، قال: أتيت عائشة فقلت: يا أُمَّ المؤمنين، أخبريني بخلق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خُلُقه القرآن، أما تقرأ القرآن ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وأخرج مثلَه ابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن أبي الدرداء، وأَخرج مثلَه ابنُ مردويه عن عبد الله بن شقيق العقيلي، وأخرج مثله ابن أبي شيبة، والترمذي وصححه، وابن مردويه عن أبي عبد الله الجدلي، وأخرج ابن مردويه عن زينب بنت يزيد بن وسق قالت: كنتُ عند عائشة إذ جاءها نساء أهل الشام، فقلن: يا أُمَّ المؤمنين، أخبرينا عن خُلُق رسول الله ﷺ، قالت: كان خُلُقُه القرآن، وكان أشدَّ الناس حياء من العواتق في خدرها. (الدرُّ المنثور).

(٢) من معاني الضَّرْب: المشاركةُ في الأمر والإِسراعُ فيه.

(٣) أخرجه الإمام مالك في موطئه، والإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣٨١)، ولفظه فيه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما بُعثتُ لأتمِّم صالح الأخلاق».

(٤) أخرجه أبو داود: وابن حبَّان في صحيحه، عن عائشة رضي الله عنها، وقد رمز له الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» بأنه حديث حسن، ولفظه كما جاء فيه «إن المؤمن ليدرك بحُسْن الخُلُق درجة القائم الصائم».

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/ ٤٤٢)، والترمذي في البر، ولفظه كما في مسند أحمد: عن عطاءِ بن=

وقال: «أَحبُّكُم إِليَّ أَحاسنكم أخلاقاً»[١]، والعدل والإحسان والعفو والصِّلة من الخُلُق.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَتُبۡصِرُ﴾، أَي أنتَ وأُمَّتك، و﴿يُبۡصِرُونَ﴾ أَي هُم، واختلف الناس في معنى قوله تعالىٰ: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ فقال أَبو عثمان المازني: الكلام تامٌّ في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُبۡصِرُونَ﴾، ثم استأَنف قوله تعالىٰ: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾، وقال الأَخفش: بل الإِبْصار عامل في الجملة المستفهم عنها، في معناها، وأَما الباءُ فقال أَبو عُبَيْدة مَعْمَر، وقتادة: هي زائدة، والمعنى: أَيُّكمُ الْمَفْتُونُ[٢]؟ وقال الحسن، والضحاك: [الْمَفْتُونُ] بمعنى الفتنة، كما قالوا: «ماله معقول»[٣] أَي عَقْل، وكما قالوا: «اقْبَلْ مَيْسُوره ودَعْ مَعْسُوره»، فالمعنى: بأَيِّكم هي الفتنة والفساد الذي سَّموه جنوناً؟ وقال آخرون: المعنى: بِأَيِّكُم فُتن الْمَفْتون؟ وقال الأَخفش: المعنى: بأَيِّكم فِتْنَةُ المفتون؟ ثم حذف المضاف وأُقيم المضاف إِليه مقامه، وقال مجاهد، والفراءُ: الباءُ بمعنى «في» أَي: في أَيِّ فريق منكم النوعُ المفتون؟ وهذا قول حَسَنٌ قليل التكلُّف، ولا نقول إِنَّ حرفاً بمعنى حرف، بل نقول: إِن هذا المعنى يُتَوَصَّل إِليه بـ«في» وبالباءِ أَيضاً. وقرأَ ابن أَبي عبلة: ﴿فِي أَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾.

= نافع أَنهم دخلوا على أُمِّ الدرداءِ فأخبرتهم أنها سمعت أبا الدَّرداءِ يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أفضل شيءٍ في الميزان ـ قال ابن أبي بكير: أثقل شيءٍ في الميزان ـ يومَ القيامة الخُلُقُ الحسن».

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، وفي المناقب، والترمذي في البر، وأحمد في مسنده (٤/ ١٩٣)، ولفظه كما جاء في مسند أحمد: عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني في الآخرة محاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني في الآخرة مساويكم أخلاقاً، الثرثارون المُتَفَيْقهون المُتَشَدِّقون».

(٢) وزيادة الباء كثيرة في كلام العرب، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، ومنه قول الراجز:

نَحْــنُ بَنُــو جَعْــدَةَ أَصْحــابَ الْفَلَــجِ ... نَضْـرِبُ بـالسَّيْـف ونَـرجُـو بـالْفَـرَجْ

أي: ونرجو الفَرَج، هذا والفَلَجُ ـ بفتح الفاء واللام ـ: مدينةٌ بأرض اليمامة كانت لبني جعدة ـ (راجع الخزانة، وشواهد المغني، والاقتضاب).

(٣) من كلام العرب: «ما لفُلان مجلودٌ ولا معقول»، أي ماله عقلٌ ولا جلادة، وقال الراعي:

حَتَّــى إِذَا لَــمْ يَتْـرُكُــوا لِعِظَــامِــهِ ... لَحْمـــاً ولاَ لِفُــؤَاده مَعْقُـــولا

أي عقلاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الآية وعيدٌ، والعامل في قوله سبحانه: ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ هو [أَعْلَمُ]، وقد قوَّاه حرف الجر فلا يحتاج إلى إضمار فعل، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ يريد قريشاً، وذلك أنهم قالوا في بعض الأوقات لرسول الله ﷺ: لو عبدتَ آلهتنا وعظَّمتها لعبدنا إلٰهك وعظَّمناه، ووَدُّوا أن يداهنهم رسول الله ﷺ ويميل إلى ما قالوا فيميلوا هم أيضاً إلى قوله ودينه، و«الإِدْهان»: الملاينة فيما لا يحلُّ، والمُدَاراة: الملاينة فيما يحِلُّ، وقوله تعالىٰ: [فَيُدْهِنونَ] معطوف وليس بجواب؛ لأنه لو كان لنصب.

و«الْحَلاَّف»: المُرَدِّد لِحَلِفِهِ الذي قد كثر منه، و«الْمَهِينُ»: الضعيف العقل والرأي، قاله مجاهد وهو من «مَهُن» إذا ضعف، والميمُ فاءُ الفِعْل[1]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الْمَهين: الكذَّاب.

و«الْهَمَّازُ»: الذي يقع في الناس، وأصل الهَمْز في اللغة الضَّرْبُ طعناً باليد أو بالعصا أو نحوه، ثم استُعير للذي ينال بلسانه، قال منذرٌ: وبعينه وإِشارته، وسُمِّيت الهمزة لأن في النطق بها حِدَّة وعجلة فشُبِّهت بالهمز باليد، وقيل لبعض الأعراب: أتهمز الفأرة؟ فقال: الهِرَّةُ تَهْمزها، وقيل لآخر: أَتَهْمز إِسرائيل؟ فقال: إِنِّي إذاً لَرَجُل سوءٍ.

و«النَّميمُ» مصدرٌ كالنَّميمة، وهو نقل ما يُسمع ممَّا يسوءُ ويحرِّش النفوس، وروى حذيفة أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنَّة قتَّاتٌ»[2]، وهو النمَّام، وذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه الأوصاف هي أجناسٌ لم يرد بها رجلٌ بعينه، وقالت طائفة: بل نزلت في مُعَيَّن، واختلف فيه ـ فقال بعضهم: هو الوليد بن المغيرة، ويؤيد ذلك غناهُ وأنه أشهرهم بالمال والبنين، وقال الشعبيُّ وغيره: هو الأخنس بن شُرَيق، ويؤيد ذلك أنه كانت له هنة في حلقه كزنمة الشاة، وأيضاً فكان من ثقيف مُلصقاً في قريش، وقال

---

(١) «مَهُن» ـ بضم الهاءِ ـ معناها: ضعف، ومنها هذه الآية، ومنها أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿خلق من ماء مهين﴾ أي من ماءٍ قليل ضعيف، ومن ذلك أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، ومسلم في الإيمان، وأبو داود في الأدب، والترمذي وأحمد في أكثر من موضع في مسنده، وذكر ابن كثير في تفسيره أن عبد الرزاق أخرجه أيضاً عن حذيفة، وقال أيضاً: رواه الجماعة إلا ابن ماجه.

ابن عباس في كتاب الثعلبي: هو أَبو جهل، وذكر النقاش عُتبة بن ربيعة، وقال مجاهد: هو الأَسْود بن عبد يغوث، وظاهر اللفظة عموم من بهذه الصفة، والمخاطبة بهذا المعنى مستمرة باقي الزمان لا سيما لولاة الأُمور.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾.

قال كثير من المفسرين: الخَيْر هنا المال، فوصفه بالشُّحِّ، وقال آخرون: بل هو على عمومه في المال والأفعال الصالحة، ومن يُمنع إيمانَه وطاعتَه فقد مُنع الخير، و«المعتدي»: المتجاوز لحدود الأَشياءِ، و«الأَثيم» فَعيل من الإِثم بمعنى آثِم، وذلك من حيثُ أَعمالُه قبيحة تُكسب الإِثم.

و«العُتُلُّ»: القويُّ البِنْية، الغليظُ الأَعضاءِ، المُصَحَّح، القاسي القلب، البعيدُ الفهم، الأَكولُ الشَّروبُ الذي هو بالليل جيفة وبالنهار حمار، وَكل ما عبَّر به المفسرون عنه من خلال النقص فمن هذه التي ذكرتُ تَصْدُر، وقد ذكر النقاشُ أَن النبي ﷺ فسَّر «العُتُلَّ» بنحو هذا[1]، وهذه الصفات كثيرة التلازم، والعَتْلُ: الدَّفْع بشدة، ومنه العَتَلَة ـ وقوله تعالىٰ: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ معناه: بعد ما وصفناه به، فهذا الترتيب إِنما هو في قول الواصف لا في حصول تلك الصفات في الموصوف، وإِلاَّ فكونه عُتُلاًّ هو قبل كونه صاحب خير يمنعه.

و«الزَّنيمُ» في كلام العرب: الملصق في القوم وليس منهم، وقد فسَّر به ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية، وقال مُرَّة الهَمْدَاني: إِنما ادَّعاه أَبوه بعد ثماني عشرة سنة، يعني الذي نزلت فيه هذه الآية، ومن ذلك قول حسان بن ثابت:

---

(١) ذكر الماوردي عن شَهْر بن حَوشب عن عبد الرحمن بن غنم ـ ورواه ابن مسعود ـ أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنَّة جوَّاظٌ ولا جَعْظَريٌ ولا العُتُلُّ الزَّنيمُ»، فقال رجلٌ: ما الجوَّاظُ؟ وما الجَعْظريُّ وما العُتُلُّ الزَّنيم؟ فقال رسول الله ﷺ: «الجَوَّاظُ: الذي جمع ومنع، والجَعْظَرِيُّ: الغليظ، والعُتُلُّ الزَّنيمُ: الشديدُ الخَلْق، الرحيبُ الجوف، المُصَحَّح الأكولُ الشَّروب الواجدُ للطعام، الظَّلُوم للناس»، وذكره الثعلبيُّ عن شدَّاد بن أوس.

وَأَنْتَ زَنِيمٌ نِيطَ في آلِ هاشِمٍ ... كَمَا نِيطَ خَلْفَ الراكِبِ الْقَدَحُ الْفَرْدُ(١)

وقول حسان أيضاً:

زَنِيمٌ تَداعَاهُ الرِّجَالُ زِيَادَةً ... كَمَا زِيدَ في عَرْضِ الأَدِيمِ الأَكَارِعُ(٢)

فقال كثير من المفسرين: هذا هو المراد بالآية، وذلك أن الأَخْنس بن شُرَيْق كان من ثقيف حليفاً لقريش، وقال ابن عباس: أراد بالزنيم أَنَّ له زَنَمَةً في عنقه كزَنَمَة الشَّاة، وهي الهَنَةُ التي تتعلق في حلقها، وما كنا نعرف المشار إليه حتى نزلت فعرفناه بِزَنَمتِهِ، وقال أَبو عبيد: يُقال لِلتَّيْس: زَنيمٌ؛ إِذْ له زَنَمَتان، ومنه قول الأعرابي في صفة شاته: (كأن زَنَمَتَيْها تَتْوَا قُلَيْسِيَةٍ)(٣) ورُوي أَن الأَخنس بن شريق كان بهذه الصفة، كان له زَنَمَةٌ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لمَّا نزلت هذه الصفات لم نعرف صاحبها حتى نزل ﴿زَنِيمٍ﴾ فعُرف بِزَنَمَته، وقال بعض المفسرين: الزَّنيم: المريب القبيح الأَفعال.

واختلفت القراءة في قوله تعالىٰ: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ ـ فقرأَ ابنُ كثير، ونافع، وأَبو عمرو، والكسائي، وحفص عن عاصم، وأَهل المدينة: ﴿أَنْ كَانَ﴾ على الخبر،

---

(١) هذا البيت من شواهد أبي عبيدة في «مجاز القرآن»، وهو في ديوان حسان بن ثابت سابع أبيات ثمانية قالها حسان في هجاء أبي سفيان دفاعاً عن النبي ﷺ، ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه لحسان: «اهْجُه وجبريل معك، أيّدك الله بروح القُدُس، اذهب إلى أبي بكر يعلِّمك من تلك الهنات»، ورواية الديوان: «وكنْتَ دعياً»، وفي اللسان: «وأنْتَ دَعيٌّ»، وفي الأغاني: «وأنت هَجينٌ»، وعلى كل هذه الروايات لا شاهد في البيت، والزنيم: المُسْتَلْحَق في قوم ليس منهم ولا يُحتاج إليه، ونيط: ألحق بالقوم وليس منهم، والقَدَحُ الفَرْدُ هو القدح الذي يُعَلَّق في آخر الرَّحْل بعد الفراغ من الترحال، وفي الحديث: «لا تجعلوني كَقدح الراكب»، أي لا تؤخروني في الذكر.

(٢) لم أجد هذا البيت في ديوان حسَّان، وقال في اللسان: «وأنشد ابن بَرِّي للخطيم التَّميمي، جاهلي: (زَنيمٌ تداعاه الرجالُ) البيت، ووجدت حاشية صُورتُها: الأعرف أن هذا البيت لحسَّان، قال: وفي الكامل للمبرد روى أبو عُبَيْد وغيره أن نافعاً سأل ابن عباس عن قوله تعالىٰ: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾؟ ما الزَّنيمُ؟ قال: هو الدعيُّ المُلزق، أما سمعتَ قول حسان ابن ثابت (زَنيمٌ تَداعَاهُ الرِّجال) البيت» ـ والأكارع: جمع كُراع ـ أو هو جمع الجمع ـ والكُراعُ من الإنسان: ما دون الركبة إلى الكعب، والأديم: الجلد، ومعنى (تداعاه الرجال) أنه مجهول الأب يدَّعيه كل واحد لنفسه.

(٣) هكذا في الأصول، وجاء في لسان العرب: «ومن كلام بعض فِتيان العرب يَنْشُدُ عَنْزاً في الحرم: وكأَنَّ زَنَمَتَيْها تَتْوَا قُلَيْسِيَةٍ»، وفي القاموس: «تَتْوا القَلَنْسُوة»، وفي شرح القاموس: «والصوابُ تَتْوَا الفُسَيْلة»، والفُسيلة: النَخلة الصغيرة تُقطع من الأم أو تقلع من الأرض فتغرس، ومعنى (تَتْوَاهَا) ذؤابتاها.

وقرأ حَمزة: [أَأَنْ كانَ] بهمزتين مُخفَّفتين على الاستفهام، وقرأ ابن عامر، والحسن، وابن أَبي إِسحاق، وعاصم، وأَبو جعفر: [آنْ كانَ] على الاستفهام بتسهيل الهمزة الثانية، والعامل في [أَنْ] فعل مضمر تقديره: كَفَر أَو جَحَد أَو عَنَد، ويُفسِّر هذا الفعلَ قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ الآية، وجاز أَن يعمل المعنى وهو متأخر من حيث كان قوله تعالىٰ: ﴿أَن كَانَ﴾ في منزلة الظَّرف؛ إِذ يُقدَّر باللام، أَي: لأن كان، وقد قال فيه بعض النحاة: إِنه في موضع خفض باللام كما لو ظهرت، فكما عمل المعنى في الظرف المتقدم كذلك يعمل في هذا، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[(١)]، فالعامل في [إِذَا] معنى قوله تعالىٰ: «إِنَّكُمْ لَفي خَلْقٍ جَدِيدٍ تُبعثون»، أَو نحوه من التقدير، ولا يجوز أَن يعمل [يُنَبِّىءُ][(٢)] في [إِذَا] لأَنه مضاف إِليه قد أَضيف إِذاً إِلى الجملة، ولا يجوز أَن يعمل في [إِنَّ]، قال: لأنها جواب لِـ [إِذَا] ولا تعمل فيما قبلها.

وأَجاز أَبو عليٍّ أَن يعمل فيه [عُتُلٍّ] وإِن كان قد وُصف[(٣)]، ويصح ـ على هذا النظر ـ أَن يعمل فيه [زَنيم] لا سيَّما على قول من يفسره بالقبيح الأَفعال، ويجوز أَن يعمل في ﴿أَن كَانَ﴾ «تُطِيعُهُ» التي يقتضيها قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾، وهذا على قراءة الاستفهام يَبْعُد، وإِنما يتَّجه: لاَ تُطِعْه لأَجْل كونه كذا، وَلَهُ ـ على كُلِّ وَجْه ـ مفعولٌ من أَجله، وتأَمل. وقد تقدم القول في «الأَساطير» في غير ما موضع.

وقوله تعالىٰ: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ معناه: على الأَنف، قاله المبرد، وذلك أَن الخرطوم يستعار في أَنف الإِنسان، وحقيقته في مخاطم السباع، ولم يقع التوعُّد في هذه الآية بأَن يُوسَمَ هذا الإِنسان على أَنفه بِسِمَةٍ حقيقةً، بل هذه عبارةٌ عن فعل يشبه الوسْم على الأَنف، واختلف الناس في ذلك الفِعْل ـ فقال ابن عباس: هو الضرب بالسيف، أَن يُضرب به في وجهه وعلى أَنفه فيجيءُ ذلك كالوسْم على الأَنف، وحلَّ به ذلك يوم بَدر، وقال محمد بن يزيد المبرد: ذلك في عذاب الآخرة في جهنم، وهو تعذيب بنارٍ على أُنوفهم، وقال آخرون: ذلك في يوم القيامة، أَن يُوسَم على أَنفه بِسِمَةٍ

---

(١) من الآية (٧) من سورة (سبأ).

(٢) في بعض النسخ: «ولا يجوز أن يعمل (تُتْلَى)»، وهذا يناسب المعنى إذا كان الكلام عن الآية التي في سورتنا هذه (القلم)، ولكن الكلام عن آية سورة (سبأ) ويتفق معها ما أثبتناه هنا.

(٣) قال أبو حيان في البحر المحيط: «وهذا قول كوفي ولا يجوز ذلك عند البصريين».

يُعرف بها كُفْره وانحطاط قدره، وقال قتادة وغيره: معناه: سَيُفعل به في الدنيا من الذَّم والمقت والإِشهار بالشَّر ما يبقى فيه ولا يخفى به، فيكون ذلك كالوسْم على الأَنف ثابتاً بيِّناً، وهذا المعنى كما تقول: «سأُطَوِّقُكَ طوق الحمامة» أَي: أُثبت الأَمر بيِّناً فيك، ونَحْوَ هذا أَراد جرير بقوله:

لمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَق ميسَمِي . . . .[1]

وفي الوَسْم على الأَنف تشويه، فجاءت استعارة في المذمَّات بليغة جداً، وإِذا تأَملت حال أَبي جهل ونظرائه وما ثبت لهم في الدنيا من سُوءِ الأُحدوثة رأَيتَ أَنهم قد وُسِمُوا على الخراطم.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾، يريد تعالىٰ قريشاً، أَي: امتحنَّاهم، و«أَصحابُ الجنَّة» ـ فيما ذُكر ـ قومٌ إِخوة، كان لأَبيهم جنَّةٌ وحرثٌ مُغِلٌّ، فكان يُمْسك منه قُوتَه ويتصدق على المساكين بباقيه، وقيل: بل كان يحمل المساكين معه في وقت حصاده وجَدِّه[2] فيجزيهم منه[3]، فمات الشيخ، فقال ولده: نحن جماعة، وفِعْل أَبينا كان خطأً، فلنذهب إِلى جنَّتنا، ولا يدخلها علينا مسكين ولا نعطي منها شيئاً، قال: فبيَّتوا أَمرهم وعَزْمهم على هذا، فبعث الله طائفاً بالليل من النار أَو غير ذلك فاحترقت، فقيل: أَصبحت سوداءَ، وقيل: بيضاءَ كالزرع اليابس المحصود، فلما أَصبحوا إِلى جَنَّتهم لم يروها فحسبوا أَنهم قد أَخطؤوا الطريق، ثم تَبَيَّنوها فعلموا أَن الله تعالىٰ أَصابهم فيها، فتابوا حينئذ وأَنابوا وكانوا مؤمنين من أَهل الكتاب، فشبَّه الله تعالىٰ قريشاً بهم في أَنه

---

(١) هذا صدر بيت قاله جرير من قصيدته المعروفة: (لمنَ الديارُ كأنها لم تُحْلَلِ)، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

أَعْـددتُ للشُّعـراءِ سُمَّـاً نـاقِعـاً ... فَسَقَيْـتُ آخـرَهُـم بكـأْسِ الأَوَّلِ
لمـا وضعْـتُ عَلـى الفَـرَزدَقِ مِيَسَمـي ... وَضَغَـا البَعيثُ جَدعْـتُ أَنفَ الأَخطَلِ

والوَسْم أَثَرُ الكَيِّ، وهو يريد هنا أنه رماه بقصائد من الشعر تركت أثرها في سُمعته وكرامته كما يترك الميسَمُ أثره في الجلد، و«ضَغَا»: صاح من الألم وتذلَّل كالكلب حين يُضرب فيعوي ويصرخ من شدة الألم، و«جدعت أنفه»: قطعته، وجرير في هذا البيت يهاجم ثلاثة من فطاحل الشعراء ويقول: إنه فضحهم وأذلهم أمام الناس بما قاله فيهم من الشعر.

(٢) جَدَّ الشيء: قطعه عند الحصاد.

(٣) أي: يكافئهم منه، يقال: جزى فلاناً حقَّه، أي أعطاه.

امتحنهم بمحمد ﷺ وهداه كما امتحن أُولئك بفعل أَبيهم وبأَوامر شرعهم، فكما حلَّ بأُولئك العقاب في جنتهم كذلك يحلُّ بهؤلاءِ في جميع دنياهم وحياتهم، ثم التوبة معروضة لمن بقي منهم كما تاب أُولئك، وقال كثير من المفسرين: السنون السبع التي أَصابت قريشاً هي بمثابة ما أَصاب أُولئك في جَنَّتهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ أَي لَيَجُدُّنها، وصرام النخل جَدُّ ثمره، وكذلك في كل شجرة، و﴿مُصْبِحِينَ﴾ معناه: إذا دخلوا في الصباح، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ معناه وَلا يتوقفون في ذلك ولا يَنْثنونَ عن رأْي منع المساكين، وقال مجاهد: معناه: ولا يقولون «إن شاءَ الله»، بل عزموا على ذلك عَزْم من يملك أَمره. و«الطَّائف»: الأَمر الذي يأْتي بالليل، ذكر هذا التَّخصيص الفراءُ، ويردُّه قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[(1)]، و«الصَّريمُ» قال الفراءُ ومنذر وجماعة: أَراد به الليلَ، من حيث اسْوَدَّت جُثثهم، وقال آخرون: أَراد به الصبح، من حيث ابْيَضَّت كالحصيد، قاله سفيان الثوري، و«الصَّريمُ» يقال لِلَّيل وللنَّهار من حيث كلٌّ واحد منهما ينصرم من صاحبه، وقال ابن عباس: الصريمُ: الرماد الأَسود بلُغة جذيمة، وقال ابن عباس أَيضاً وغيرُه: الصريم: رملةٌ باليمن معروفة لا تُنْبت، فشبَّه جُثَثَهم بها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

«تَنَادَوْا» معناه: دَعَا بعضُهم بعضاً إِلى المضيِّ لميعادهم، وقرأَ بعض السبعة: [أَنُ اغْدُوا] بضم النون، وبعضهم بكسرها، وقد تقدم هذا مراراً، وقوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ يحتمل أَن يكون من «صِرام النخل»، ويحتمل أَن يريد: إن كنتم أَهل عزم وإِقدام على رأْيكم، من قولك: «سيف صارم».

و﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ معناه: يتكلمون كلاماً خفيًّا، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾[(2)]،

---

(١) من الآية (٢٠١) من سورة (الأعراف).

(٢) من الآية (١١٠) من سورة (الإسراء).

وكان هذا التخافت خوفاً من أَن يشعر بهم المساكين، وكان لفظهم الذي يتخافتون به ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾، وقرأ ابن مسعود، وابن أَبي عبلة: [لاَ يَدْخُلَنَّهَا] بسقوط [أَنْ].

وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ يحتمل أَن يريد به: على مَنْع، من قولهم: «حارَدَتِ الإِبِلُ» إِذا قلَّتْ أَلبانُها فَمَنَعَتْها، و«حاردت السَّنَةُ» إِذا كانت شهباءَ لا غلَّة لها، ومنه قول الشاعر:

وَحَارَدَتِ النُّكْدُ الْجِلادُ وَلَمْ يَكُنْ ... لِعُقْبَةِ قِدْرِ الْمُسْتَعِيرِينَ مُعْقِبُ(١)

ويحتمل أَن يريد بالحَرْد: القصدَ، وبذلك فسَّر بعض اللغوينِ، وأَنشد عليه:

أَقْبَلَ سَيْلٌ جاءَ مِنْ عِنْدِ اللهْ ... يَحْرِدُ حَرْدَ الْجَنَّةِ الْمُغِلَّهْ(٢)

أَي: يقصد قصدها، ويحتمل أَن يريد بالحرَدْ: الغضبَ، يقال: «حِردَ الرجلُ يحْرِدُ حَرَداً» إِذا غضب، ومنه قول الأَشهب بنَ رُمَيْلَة:

أُسودُ شَرىً لاَقَتْ أُسودَ خَفِيَّةٍ ... تَساقَوا عَلَى حَرْدٍ دِماءَ الأَساوِدِ(٣)

---

(١) هذا البيت للكُميت الشاعر، وهو في اللسان، والرواية في الأصول: (لِعُقْبَةَ قِدْرُ المُسْتَعِيرِ بْنِ مُعْقب)، وقد صوب محقق لسان العرب البيتَ، وأثبته كما ذكرناه (دار المعارف ـ القاهرة)، والنُّكْدُ: الإبل التي ماتت أولادها، والجلادُ: الغلاظُ الجلود، القصارُ الشعور، الشِّدادُ الفصوص، وهي أقوى وأصبر وأقل لبناً من الخُور، والخُورُ أغزر لبناً وأضعف قوة، وعُقبة القدر: ما التزق بأسفلها من تابل وغيره، وأعْقب الرجلُ: ردَّ إليك ذلك، يصف سوء الحال ويقول: إن الإبل القوية مَنَعت ألبانَها، وإن الرجل أصبح لا يردُّ ما استعاره حتى ولو كان «عُقْبة القدْر».

(٢) هذا البيت في اللسان، والقرطبي والكامل، وهو غير منسوب، وقد ذكر شاهداً على أن الحَرد يكون بمعنى القَصْد، جاء في اللسان: «وتقول للرجل: قد أقبلتُ قِبَلَكَ، وقَصَدْتُ قصدكَ، وحَردكَ» ثم ذكر البيت، ولكن الرواية فيه: (وجاء سيْلٌ كانَ من أمر الله)، والجَنةُ المُغلَّة: ذاتُ الغَلَّة. والبيت أيضاً في «معاني القرآن» للفراء، و«الكامل» للمبرد، و«مجاز القرآن» لأبي عبيْدة.

(٣) وهذا البيت أيضاً في اللسان، ذكره شاهداً على أن الْحرَدَ يكون بمعنى الغضب والغيظ، ثم ذكر خلاف اللغويين في ضبط «الحَرْد» إذا كان بهذا المعنى، فبعضهم يقوله بفتح الراء، وآخرون يجعلونه بسكونها، ويُروى البيت بألفاظ أُخرى في الشطر الثاني:

أُسودُ شَرَى لاقَتْ أُسودَ خَفِيَّةٍ ... تَساقَيْنَ سُمًّا كُلُّهُنَّ حوارِدُ

والشَّرَى: مكان مشهور بكثرة الأسود، وقيل: بل هذا التعبير يذكر للتدليل على الشجاعة، يقال للشجعان: ما هُم إلا أسود الشَّرى، والخَفِيَّةُ: غَيْضة مُلْتَفَّةٌ يتخذها الأسد عرينه، وهي خَفيَّتُه، والشَّرى=

وقوله تعالىٰ: [قادِرينَ] يحتمل أَن يكون من القُدْرة، أَي: هم قادرون في زعمهم، ويحتمل أَن يكون من التقدير، كأَنهم قد قَدَرُوا على المساكين، أَي ضيَّقوا عليهم، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أَي محترقةً، حسبوا أَنهم قد ضلُّوا الطريق، وأَنها ليست تلك، فلما تَحقَّقوها علموا أَنها قد أُصيبت، فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، أَي: قد حُرمنا غَلَّتها وبركتها، فقال لهم أَعْدلهم قولاً وعقلاً وخُلقاً، وهو الأَوسط، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾[2]، أَي عُدُلاً خياراً، و[تُسَبِّحونَ] قيل: هي عبارة عن طاعة الله تعالىٰ وتعظيمه والعمل بطاعته، وقال مجاهد وأَبو صالح هي كانت لفظة الاستثناءِ عندهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا يردُّ عليه قولهم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾. فبادَرَ القومُ وتابوا عند ذلك، وسبَّحوا واعترفوا بظلمهم في اعتقادهم منع الفقراءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

[يَتَلاوَمونَ] معناه: يجعل كل واحد اللوم في حيِّز صاحبه ويُبَرِّىءُ نفسه، ثم أَجمعوا على أَنهم طغوا، أَي تعدوا ما يلزم من مواساة المساكين ثم انصرفوا إِلى رجاءِ الله تعالىٰ وانتظار الفرج من لَدُنه في أَن يبدلهم بسبب تَوْبتهم وإِنابتهم خيراً من تلك الجنة.

وقرأَ جمهور القراءِ: (يُبْدِلَنَا) بسكون الباءِ وتخفيف الدال، وكذلك قرأَ الحسن،

= والخَفِيَّةُ اسمان علمان لموضعين كما جاء في اللسان، والشاهد في البيت قوله: (عَلَى حَرْدٍ)، أي: على غضب وغيظ، وعلى الرواية الثانية قوله: (كُلُّهُنَّ حواردُ)، أي: كلُّهن غضب وغيظ، والبيت أيضاً في الكامل، ومجاز القرآن، والسِّمط، والعيني، والخزانة، ومعجم ما استعجم.

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (٧) من سورة (الطلاق): ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾.

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (١٤٣) من سورة (البقرة): ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

وابن محيصن، والأعمش، وقرأ نافعٌ، وأبو عمرو بالتثقيل وفتح الباءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ ابتداءُ مخاطبة للنبي ﷺ في أمر قريش، والإشارة بـ [ذَٰلِكَ] إلى العذاب الذي نزل بالجنة أي: كذلك العذابُ هو العذابُ الذي ينزل بقريش بغتة، ثم عذابُ الآخرة أشد عليهم من عذاب الدنيا، قال كثير من المفسرين: العذاب النازل بقريش المماثل لأمر الجنة هو الجدب الذي أصابهم سبع سنين حتى رأوا الدخان وأكلوا الجلود.

ثم أخبر تعالىٰ أن المتقين لهم عند ربهم جنات النعيم، فروي أنه لما نزلت هذه الآية قالت قريش: إن كان ثَمَّ جنات نعيم فلنا فيها أكبر الحظ، فنزلت: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وهذا على جهة التوقيف والتوبيخ وقوله تعالى: (ما لَكُمْ) توبيخ آخر، ابتداءٌ وخبر، جملة منحازة، وقوله تعالىٰ: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ جملة منحازة كذلك، و[كَيْفَ] في موضع نصب بـ [تَحْكُمُونَ].

وقوله تعالىٰ: [أَمْ] هي المقدرة بـ «بل وألف الاستفهام»، و[كتابٌ] معناه: مُنَزَّل من عند الله، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾، قال بعض المتأولين: هو استئناف قول على معنى: إن كان لكم كتاب فلكم فيه مُتَخَيَّر، وقال آخرون: [إِنَّ] معمولة لـ [تَدْرُسُونَ]، أي: في الكتاب: إنَّ لكم ما تختارون من النعيم، وكُسرت الألف من [إِنَّ] لدخول اللام في الخبر، وهي في معنى «أَنَّ» بفتح الألف، وقرأ طلحة، والضَّحاك: [أَنَّ لكم] بفتح الألف، وقرأ الأعرج: [أَئِنَّ لكُم] على الاستفهام.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ مخاطبة للكفار، كأنه يقول: هل أقسمنا لكم قَسَماً فهو عهد لكم بأنا نُنَعِّمكم يوم القيامة وما بعده؟ وقرأ جمهور القراءِ: [بالغَةٌ] بالرفع على الصفة لـ [أيمانٌ]، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [بالِغَةً] بالنصب

على الحال، وهي حال من نكرة مخصصة بقوله تعالىٰ: [عَلَيْنا][١]، وقرأ الأعرج: [أَئِنّ لكم]، وكذلك في التي تقدمت في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾.

ثم أمر الله تعالىٰ محمداً ﷺ ـ على جهة إقامة الحجة عليهم ـ أَن يسأَلهم عن الزعيم لهم بذلك، من هو؟ والزَّعيمُ: الضَّامن للأَمر والقائم به.

ثم وقفهم تعالىٰ على أَمر الشركاءِ عسى أَن يظنوا أَنهم ينفعونهم في شيءٍ من هذا، وقرأ ابن مسعود، وابن أَبي عبلة: [أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فَلْيَأْتوا بِشِرْكِهِمْ] بكسر الشين دون أَلف، والمراد بذلك ـ على القراءتين ـ الأَصنام، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ قيل: هو استدعاءٌ وتوقيف في الدنيا، أَي: ليُحضروهم حتى نرى هل هم بحال من يضرُّ وينفع أَمْ لا، وقيل: هو استدعاءٌ وتوقيف على أَن يأَتوا بهم يوم القيامة، يوم يكشف عن ساق.

قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، قال مجاهد: هي أَول ساعة من القيامة، وهي أَفظعها، وتظاهر حديث عن النبي ﷺ «أَنه ينادي مناد يوم القيامة: ليتبع كلُّ أَحد ما يعبد، قال: فيتبع من كان يعبد الشمسَ الشمسَ، ويتبع من كان يعبد القمرَ القمرَ، وكذلك كلُّ عابد لكل معبود، ثم تبقى هذه الأُمة وَغُبَّرات أَهل الكتاب[٢] معهم منافقوهم وكثير من الكفرة، فيقال لهم: ما شأَنكم؟ لم تقفون وقد ذهب الناس؟ فيقولون: ننتظر ربَّنا، قال: فَيجيئُهم الله في غير الصورة التي عرفوه بها، فيقول: أَنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، قال: فيقول: أَتعرفونه بعلامة ترونها؟ فيقولون: نعم، فيكشف لهم عن ساق، فيقولون نعم أَنتَ ربُّنا، ويخرون للسجود، فيسجد كل مؤمن وترجع أَصلاب المنافقين والكفار كصياصي البقر عظماً واحداً فلا يستطيعون سجوداً»[٣]. هكذا هو الحديث وإِن اختلفت منه أَلفاظ بزيادة أَو نقصان، وعلى كل

---

(١) وهذا كما أجاز العلماء نصب (حَقًّا) على الحال من (مَتاعٌ) في قوله تعالىٰ: ﴿مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وقد قيل أيضاً: إن (بالِغَةً) حال من الضمير في (لَكُم) لأنه خبر عن (أَيْمانٌ) ففيه ضمير منه، وقيل: إنها حال من الضمير في (عَلَيْنَا) إن قُدرت (عَلَيْنَا) وصفاً للأَيمان لا متعلقاً بنفس الأَيمان، لأن فيه ضميراً منه كما يكون إذا كان خبراً عنه.

(٢) غُبَّر كل شيء: بقيَّته وآخره، والجمع غُبَّراتٌ.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، وفي تفسير سورة (ن)، ومسلم في الإيمان، وأبو داود في الرقاق، وابن جرير في تفسيره، وأحمد في مسنده (٣/ ١٧)، وزاد السيوطي في «الدر المنثور» نسبته إلى ابن المنذر وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وهو حديث طويل ذكره المؤلف مختصراً ـ=

وَجْه مما ذكرتُه من كشف الساق وما في الآية أيضاً من ذلك فإنما هو عبارة عن شدة الهول وعظم القدرة التي يُري اللهُ تعالىٰ ذلك اليوم، حتى يقع العلم أَن تلك القدرة إنما هي لله تعالىٰ وحده، ومن هذا المعنى قول الشاعر في صفة الحرب:

كَشَفَتْ لَهُمْ عَنْ سَاقِهَا ... وبَدَا مِنَ الشَّرِّ الْبَرَاحُ(١)

ومنه قول الآخر:

قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا فشُدُّوا ... .(٢)

وقول الآخر:

فِي سَنَةٍ قَدْ كَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ... حَمْرَاءَ تَبْرِي اللَّحْمَ عَنْ عُرَاقِهَا(٣)

= والصياصي: جمع صيصَة وهي قَرْن البقر ونحوه.

(١) البيت لِجَدِّ طرفة، وهو في اللسان، ومعاني القرآن، والقرطبي، والبحر المحيط، وديوان الحماسة، والخصائص، والمحتسب، وجَدُّ طرفة هذا اسمه سعْدُ بن مالك، ورواية الفراء في معاني القرآن كما هنا: (البراحُ)، ولكن في اللسان والقرطبي: (وبدا من الشَّر الصُّراحُ).

قال في اللسان: «الساق في اللغة: الأمر الشديد، وكَشْفه مَثَلٌ في شدة الأمر، كما يقال للشحيح: «يَدُه مغلولةٌ»، ولا يَد ثَمَّ ولا غُلّ، وإنما هو مثلٌ في شدة البخل، وكذلك هذا، لا ساقَ هنا ولا كَشْف، وأصْله أن الإنسان إذا وقع في أمر شديد يقال: شمَّر عن ساعده وكشف عن ساقه، للاهتمام بذلك الأمر العظيم»، ثم نقل عن ابن سيده أن هذا لا يَدفع أن الساق إذا أريدت بها الشدة فإنما هي مشبَّهة بالساق هذه التي تعلو القدم، وأنه إنماقيل ذلك لأن الساق هي الحاملة للجُملة، المُنْهضة لها، فذكرت هنا تشبيهاً وتشنيعاً. هذا والبَرَاح: البَين الواضح، والصُّراح: الخالص الواضح.

(٢) هذا بيت من الرجز وبعده يقول الراجز:

. . . . وجَدَّت الْحَرْبُ بِكُم فَجِدُّوا

وتَشْمير الإزار والثوب: رَفْعُه، وشَمَّر عن ساقه: خَفَّ وجَدَّ في الأمر أو أراده وتهيَّأ له، والشِّدَّة: الصَّلابة، وهي ضدُّ اللين، والمراد هنا: كونوا أقوياء، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾، وقوله: ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ والجدُّ: الاجتهاد، وجَدَّ به الأمْرَ: اشْتَدَّ، فالمعنى: اشتدت الحرب فاجتهدوا فيها.

(٣) هذا الرجز في اللسان، وأساس البلاغة، والقرطبي، والبحر المحيط، ولم ينسبه أحد منهم، وقبله يقول الشاعر:

عَجِبْتُ مِنْ نَفْسِي وَمِن إشْفَاقِهَا ... وَمِنْ طِرَادِي الطَّيْرَ عن أرْزاقِهَا

والشاهد في قوله: «قد كشفت عن ساقها»، والعُراقُ ـ بضم العَين ـ: العظم بغير لحم، فإن كان عليه لحم فهو عَرْق بالفتح، فالمعنى: تَبْري اللحم عن العظم.

وأَصل ذلك أَنَّ من أَراد الجِدَّ في أَمر يُحاوله فإِنه يكشف عن ساقه تشميراً وجدًّا، وقد مدح الشعراءُ بهذا المعنى، فمنه قول دُرَيْد:

كَمِيشُ الإِزار خارجٌ نِصْفُ ساقِهِ صَبورٌ عَلَى الأَعْداءِ طَلاَّعُ أَنْجُد(١)

وعلى هذا من أَراد الجِدَّ والتشمير في طاعة الله تعالىٰ، قال عليه الصلاة والسلام: «إِزْرَةُ المؤمن إِلى نصف ساقِه»(٢).

وقرأَ جمهور الناس: (يُكْشَفُ) بضم الياءِ على بناءِ الفعل للمفعول، وقرأَ ابن مسعود: [يَكْشِفُ] بفتح الياءِ وكسر الشِّين على معنى: يكشفُ اللهُ، وقرأَ ابن عباس: [تَكْشِفُ] بفتح التاءِ على أَن القيامة هي الكاشفة وقرأَ ابن عباس أَيضاً: [تُكْشَفُ] بضم التاءِ على معنى: تكشف القيامة والشِّدة الحال الحاضرة، وحكى الأَخفش عنه أَنه قرأَ: [نَكْشِفُ] بالنون مفتوحة وكسر الشين، ورويت عن ابن مسعود.

وقوله تعالىٰ: [وَيُدْعَوْنَ] ظاهرُهُ أَن ثَمَّ دعاءٌ إِلى سجود، وهذا يردُّه ما قد تقرر في الشرع من أَن الآخرة ليست بدار عمل، وأَنه لا تكليف فيها، وإِذا كان هذا فإِنما الداعي ما يرونه من سجود المؤمنين فيريدون أَن يسجدوا عند ذلك فلا يستطيعون، وقد ذهب بعض العلماءِ إِلى أَنهم يُدعون إِلى السجود على جهة التوبيخ، وخرَّج بعض الناس من قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أَنهم كانوا يستطيعون قبل ذلك، وذلك غير لازم،

---

(١) هذا البيت لدُرَيْد بن الصِّمة، وهو في اللسان، والشعر والشعراء، والكامل، والأصمعيات (الأصمعية ٢٨)، وقد قال دُرَيْد هذه القصيدة في رثاء أخيه عبد الله، والخبر في العقد الفريد، وفي ديوان المعاني، وكَمِيشُ الإزار: فعيل بمعنى مفعول، وهو من قولهم: كمش ذَيْلَه بمعنى: قَلَّصَه، وفي اللسان: «رجل كميش الإزار: مُشَمِّره»، ويؤيد هذا المعنى وَصْفُه بعد ذلك بخروج نصف ساقه من الثياب، و«صبُور على الأعداء» معناها أنه صبور في الحرب لا يسلِّم بسهولة ولا يَفِرُّ، بل يبقى في المعركة مهما طال وقتها حتى ينتصر، ويروى بدلاً من «الأعداء»: «العَزَّاء» وهي الشِّدة، و«طَلاَّعُ أَنْجد»: ركَّاب لصعاب الأمور، أو المتطلع للأمور السامية، والأَنْجد: جمع نَجْد، وهو ما ارتفع وغَلُظ من الأرض، أو هو الطريق في الجبل.

(٢) أخرجه أبو داود، ومالك في «اللباس» وأحمد في مسنده (٣/ ٥، ٦/ ٣١)، ولفظه كما في مسند أحمد: عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، أنه سمع أبا سعيد سُئل عن الإزار فقال: على الخبير سقطتَ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إزرةُ المؤمن إلى أنصاف الساقين، لا جناح أو لا حرج عليه فيما بينه وبين الكعبين، ما كان أسفل من ذلك فهو في النار، لا ينظر الله إلى من جرَّ إزاره بَطَراً». والإزرةُ بالكسر: الحالة وهيئة الانتزار، وهذا مثل الرِّكْبة والجِلْسة.

وعقيدة الأَشعرية أَن الاستطاعة إِنما تكون مع التَّلَبُّس بالفعل لا قَبْله، وهذا القَدْر كاف من هذه المسأَلة ها هنا.

و﴿خاشِعَةً﴾ نصب على الحال، وجوارحهم كلُّها خاشعة، أَي ذليلة، ولكنه تعالىٰ خصَّ الأَبصار بالذكر لأَن الخشوع فيها أَبْيَن منه في كل جارحة. وقوله تعالىٰ: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ معناه: تزعج نفوسهم وتظهر عليهم ظهوراً يخزيهم، وقوله سبحانه: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ يريد في دار الدنيا وهم سالمون ممَّا نال عظام ظهورهم من الاتصال والعُتُوِّ، وقال بعض المتأَولين: السُّجود هنا عبارة عن جميع الطاعات، وخص السُّجود بالذكر من حيث هو عُظْم الطاعات، ومن حيث به وقع امتحانهم في الآ خرة، وقال إبراهيم التميمي[(١)]، والشعبي: أَراد بالسجود الصلوات المكتوبة، وقال ابن جُبَيْر: المعنى: كانوا يسمعون النداءَ للصلاة و«حيَّ على الفلاح» فلا يجيئون، وفُلج الربيع بن خُثَيْم[(٢)] فكان يُهادَى بين رجلين إِلَى المسجد، فقيل له: إِنك لمعذور، فقال: من سمع «حيَّ على الفلاح» فليجب ولو حَبْواً، وقيل لابن المسيَّب: إِن طارقاً يريد قتلك فاجلس في بيتك، فقال: أَسْمَع «حيَّ على الفلاح» فلا أُجيب؟ والله لا فعلتُ. وهذا كله قريب بعضُه من بعض.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ وعيد، ولم يكن ثَمَّ مانع ولكنه كما تقول: «دعني مع فلان»، أَي: سأُعاقبه، و[مَنْ] في موضع نصب عطفاً على الضمير في [ذَرْني]، أَو نصب على المفعول معه، و«الحديث» المشار إِليه هو القرآن المخبر بهذه الغيوب. و«الاسْتِدْراج» هو الحمل من رتبة إِلى رتبة حتى يصير المحمول إِلى شرٍّ، وإِنما يُستعمل الاستدراج في الشَّر، وهو مأَخوذ من الدرج، قال سفيان الثوري: تُسبغ

---

(١) هو إبراهيم بن سالم بن أَبي أُمية التَّميمي، المدني، أبو إسحاق المعروف ببَرَدَان ـ بفتح الباء والراء ـ، صدوق، من السادسة، مات سنة ثلاث وخمسين، وهناك إبراهيم بن أَدهم بن منصور العَجلي، أَبو إسحاق البلخي الزاهد، من الطبقة الثامنة، مات سنة اثنتين وستين، إذ يقال له أيضاً: التميمي، ولكنا نميل إلى أن المقصود هو الأول.

(٢) هو الرَّبيع بن خُثَيْم (بضم الحاء وفتح الثاء ـ، وضبطه في الخلاصة «خَيْثم» بفتح الخاء وسكون الياء وفتح الثاء) بن عائذ بن عبد الله الثوري، أَبو يزيد الكوفي، ثقة، عابد، مخضرم، من الطبقة الثانية، قال له عبد الله بن مسعود: لو رآك رسول الله ﷺ لأَحَبَّك، مات سنة إحدى وستين، وقيل: بل سنة ثلاث وستين. (تقريب التهذيب).

عليهم النعم ويمنعون الشكر، وقال غيره: كلما زادوا ذنباً زيدوا نعمة، وفي معنى الاستدراج قول النبي ﷺ: «إن الله تعالىٰ يُمْلي للظالم حتى إذا أَخذه لم يُفلته»(١)، وقال الحسن: «كم من مُسْتَدْرج بالإحسان إليه ومغرور بالسَّتْر عليه».

و﴿أُمْلِي لَهُمْ﴾ معناه: أُؤخرهم مُِلاوة من الزمان، وهي البرهة والقطعة، يقال: مُِلاوة بضم الميم وفتحها وكسرها، و«الكَيْدُ» هنا عبارة عن العقوبة التي تحلُّ بالكفار من حيث هي على كيْد منهم، فسَمَّى العقوبة باسم الذنب، و«الْمَتين»: القوِيُّ الذي له متانة، ومنه الْمَتْنُ: الظَّهْر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

هذه «أَمْ» التي تتضمن الإضراب عن الكلام الأَول لا على جهة الرفض له، لكن على جهة التَّرْك والإقبال على ما سواه، وهذا التوقيف هو لمحمد ﷺ، والمراد به توبيخ الكفار؛ لأنه لو سأَلهم أَجراً فأَثقلهم عدم ذلك لكان لهم بعض العُذْر في إعراضهم وفرارهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ معناه: هل لهم علم بما يكون فيدَّعون مع ذلك أَن الأَمر على اختيارهم جار؟

ثم أَمر تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالصبر لِحُكْمه، وأَن يمضي لما أُمِر به من التبليغ واحتمال الأَذى والمشقة، ونَهَى عن الضَّجر والعجلة التي وقع فيها يونس عليه السلام، ثم ذكر تعالىٰ القصة باقتضاب وذكر ما وقع في آخرها من ندائه من بطن الحوت وهو مكظوم، أَي غيظه في صدره، وحقيقة «الكظم» هو الغيظ والحزن والندم، فحمل المكظوم عليه تجوزاً وهو في الحقيقة كاظم، ونحو هذا قول ذي الرُّمَّة:

---

(١) أَخرجه البخاري في تفسير سورة (هود)، وكذلك الترمذي، أَما مسلم فأخرجه في البر، وابن ماجه في الفتن، ولفظه كما جاء في البخاري: عن أَبي موسى رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليُمْلي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته»، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

وَأَنْتَ مِنْ حُبِّ مَيٍّ مُضْمِرٌ حَزَناً   عَاني الْفُؤَادِ قَرِيحُ الْقَلْبِ مَكْظُومُ[١]

وقال النَّقاش: المكظوم الذي أُخِذ بكظمه وهو مجاري القلبِ، ومنه سُمِّيت «الكاظِمَة» وهي القناة في جوف الأرض[٢].

وقرأ جمهور الناس: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ﴾، أسند الفعلَ دون علامة تأنيث لأن تأنيث النعمة غير حقيقي، وقرأ ابن مسعود، وأُبَيُّ بن كعب، وابن عباس: ﴿لَوْلاَ أَنْ تَدارَكَتْهُ﴾ على إظهار العلامة، وقرأ ابن هرمز[٣]: [لَولاَ أَن تَدَّارَكَهُ] بشدِّ الدال على معنى: تَتَداركه، وهي حكاية حال تأتي فلذلك جاءَ بالفعل مستقبلاً. بمعنى: لولا أن يقال فيه: تتداركه نعمة من ربِّه، ونحوه قوله تعالىٰ: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ﴾[٤]، فهذا وجه هذه القراءَة، ثم أُدغمت التاءُ في الدال. و«النِّعمة» هي الصفح والتَّوب والاجتباءُ الذي سبق له عنده، و«العَرَاءُ»: الأرض الواسعة التي ليس فيها شيءٌ يُوَارِي من بناءٍ أو نبات أو غيره من جبل ونحوه، ومنه قول الشاعر:

فَـرَفَعْـتُ رِجْـلاً لا أَخَـافُ عِثَـارَهَـا   ونبـذتُ بـالأَرْضِ الْعَـراءِ ثِيـابـي[٥]

وقد نُبذ يونس عليه السلام بالأَرض العَرَاءِ غير مذموم. و«اجْتَبَاهُ» معناه: اختاره واصطفاه.

---

(١) الحَزَنُ والحُزْن بمعنى واحد، قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾، وقد فرق بعض اللغويين بينهما تفرقة لا تخرجهما عن أن المعنى فيهما ضد الفرح، والمكظوم: الحزين الذي يخفي حزنه ويكتمه فيسبب له ألماً أكثر، وهو موضع الاستشهاد هنا. وقد كثر الكلام في معنى القَرح وفي التفريق بينه وبين الجرح، والمعنى في النهاية واحد.

(٢) هكذا جاءت كلمة «الكاظمة» في الأصول، والذي في لسان العرب أن «الكاظمة» موضع، قال امرؤ القيس:

إذَا هُـنَّ أَقْسَـاطٌ كَـرِجْـلِ الـدَّبَـى   أَو كَقَطَـا كَـاظِمَـةَ النَّـاهِـلِ

أما القناة التي في جوف الأرض فتسمَّى «الكِظامة»، قال في اللسان: «قناة في باطن الأرض يجري فيها الماءُ، وفي الحديث أن النبي ﷺ أَتَى كِظَامَةَ قوم فتوضأ منها ومسح على خفَّيه، الكِظامة كالقناة، وجمعها كظائم».

(٣) في بعض النسخ زيادة «والحسن» أي أن الحسن قرأ بها أيضاً.

(٤) من الآية (١٥) من سورة (القصص).

(٥) هذا البيت لقيس بن جَعْدة، وهو من شواهد أَبي عبيدة في «مجاز القرآن»، وذكره صاحب اللسان، واستشهد به الطبريُّ في تفسيره، وقيْسٌ هذا رجلٌ من خُزاعة، وهو أَحد الفَرَّارين في الحروب، والعثار: السقوط، وفي المثل «مَن سَلَكَ الجَدَدَ أَمِنَ العِثار»، والنَّبْذُ: الطَّرحُ والإلقاء بعيداً، والعَراء: وجه الأرض الخالي، وهو موضع الاستشهاد هنا.

ثم أَخبر تعالىٰ نبيّه ﷺ بحال نظر الكفار إليه، وأَنهم يكادون من الغيظ والعداوة يُزْلقونه فَيُذْهبون قدمه من مكانها ويسقطونه. وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ بضم الياءِ، من «أَزْلَقَ»، وقرأَ نافع وحده: [لَيَزْلِقُونَك] بفتح الياءِ من «زَلِقَت الرِّجْل»، يقال: زَلِقت الرجل ـ بكسر اللام ـ وَزَلَقْتُهُ ـ بفتحها ـ، مثل «حَزِنَ» و(حَزَنْتُهُ)، و«شَتِرَتِ العَيْنُ» و«شَتَرْتُهَا»[1]، وفي مصحف ابن مسعود: [لَيُزْهِقُونَكَ] بالهاءِ، وروى النَّخَعِيُّ أَن في قراءة ابن مسعود: [لَيُنْفِذُونَكَ][2]، وفي هذا المعنى الذي في نظرهم من الغيظ والعداوة قول الشاعر:

يَتَقَـارَضُـونَ إِذَا الْتَقَـوْا فـي مَجْلِسٍ نَظَـراً يُـزِيـلُ مَـواطِـىءَ الأَقْـدامِ[3]

وذهب قوم من المفسرين ـ وذكره الفراءُ ـ إِلى أَن المعنى: يأَخذونك بالعين، وذكر أَن اللَّقْع بالعين[4] كان في بني إِسرائيل، قال ابن الكلبي: كان رجل يتجوع ثلاثة أَيام ثم لا يتكلم على أَي شيءٍ إِلاَّ أَصابه بالعين، فسأَله الكفار أَن يصيب النبي ﷺ فأَجابهم إِلى ذلك لكن عصم الله تعالىٰ نبيّه ﷺ، وقال الزجاج: كانت العرب إِذا أَراد أَحدهم أَن يعتانَ[5] أَحداً تجوَّع ثلاثة أَيام، وقال الحسن: دواءُ من أَصابته العين أَن يقرأَ هذه الآية، و«الذِّكْرُ» في الآية القرآنُ. ثم قرر تعالىٰ أَن هذا القرآن العزيز ذِكْرٌ للعالمين من الجنَّة والإِنس، وَوَعْظٌ لهم، وحُجَّةٌ عليهم، فالحمد لله الذي أَنعم علينا به، وجعلنا من أَهله وحملته، لا ربَّ غيره.

تم تفسير سورة القلم والحمد لله رب العالمين

---

(١) الشَّتْرُ: انقلاب في جفن العَيْن، وقيل: هو استرخاء الجفن الأسفل.

(٢) معناها: يصرعونك، قال ذلك مجاهد، وقال بعضهم: إذا زلق السَّهْم وزهق قيل له: نفذ، فالمعنى في نفذ هو المعنى في زلق وزهق، وكأنه تعالىٰ يقول: إنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالبغضاء يكاد يسقطك.

(٣) البيت في اللسان، والتاج، والقرطبي، والبحر المحيط، ولم ينسبه أحد منهم، والمُقَارضة تكون في العمل السَّيِّىء والقول السَّيِّىء يقصد الإنسان به صاحبه، وقد تكون في الخير قليلاً، والمعنى هنا: ينظر بعضهم إلى بعض بالبغضاء والعداوة نظراً يزلزل مواضع الأقدام، ويروى «يُزِلُّ» بدلاً من «يزيل»، والمعنى واحد.

(٤) يقال: لَقَعه بِبَعْرة، أي رماه بها، ولقعه بعَيْنه، أي عانه، بمعنى: أصابه بعينه. (اللسان).

(٥) أي: يصيبه بالعين، يقال: عان فلانٌ الرجلَ يَعينه عيناً فهو عائن، والمصاب مَعين، وفي الحديث الشريف «العين حقٌ» ـ أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ، ويقال: اعتانَ لنا فلان: أي صار لنا عيناً وجاسوساً، ولكنه استعمل اعتان بمعنى عانَ هنا.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة الحاقة

وهي مكية بإجماع. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: خرجت يوماً بمكة معترضاً لرسول الله ﷺ فوجدته قد سبقني إلى المسجد الحرام، فجئت فوقفت وراءه، فافتتح سورة الحاقة، فلما سمعت سرْد القرآن قلت في نفسي: إنه لشاعر كما تقول قريش، حتى بلغ إلى قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾، ثم مرَّ حتى انتهى إلى آخر السورة، فأدخل الله تعالىٰ في قلبي الإسلام[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾.

«الحاقَّةُ» اسم فاعل من «حقَّ الشيءُ يَحِقُّ» إذا كان صحيح الوجود، ومنه ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾[(٢)]، والمراد به البعثُ والقيامة، قاله ابن عباس وغيره، وسُمِّيت القيامة حاقة لأنها حقَّقت لكل عامل عمله، وقال بعض المفسرين: «الحاقَّةُ» مصدر كالعاقبة والعافية، فكأَنه قال: ذات الحق، وقال ابن عباس وغيره: سُمِّيت القيامة حاقة لأنها تبدي حقائق الأشياءِ، واللفظة رفع بالابتداءِ، و[ما] رفع بالابتداءِ أيضاً، و[الْحَاقَّةُ] الثانية خبر [ما]، والجملة خبر الأُولى، وهذا كما تقول: «زيدٌ ما زيدٌ»، على معنى التعظيم له وإِبْهام التعظيم أيضاً ليتخيَّل السامع أقصى جهده.

(١) أخرج هذا الخبر الإمام أحمد في مسنده (الدُّرُّ المنثور).
(٢) من الآية (٧١) من سورة (الزُّمَر)، من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ مبالغةٌ في هذا المعنى، أي أن فيها ما لم تَدْره من أهوالها وتفصيل صفاتها، و[ما] تقرير وتوقيف، وقوله تعالىٰ: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ ابتداءٌ وخبر في موضع نصب بـ [أَدْرَاكَ]، و[ما] الأُولى ابتداءٌ، وخبرها [أَدراك ما الحاقَّةُ]، وفي [أَدْراكَ] ضمير عائد على [ما]، هو ضمير الفاعل.

ثم ذكر تعالىٰ تكذيب ثمود وعاد بهذا الأمر الذي هو حق مشيراً إلى أن مَن كذَّب بذلك ينزل به مثل ما نزل بأُولئك. و«القارعة» من السماءِ: القيامةُ أَيضاً لأَنها تقرع القلوب بصفاتها. و«ثمود» اسم عربيٌ معرفة، فإذا أُريد به القبيلة لم ينصرف، وإذا أُريد به الحيُّ انصرف، وأَما «عاد» فكونه على ثلاثة أَحرف وساكن الأَوسط دفع في صدر كل علة فهو مصروف.

و«الطَّاغِيَةُ» قال قتادة: معناه الصيحة التي خرجت عن حَدِّ كل صيحة، وقال قوم: المرادُ: بسبب الفئة الطاغية، وقال آخرون منهم مجاهد، وابن زيد: المعنى: بسبب الفعْلة الطاغية التي فعلوها، وقال ابن زيد ما معناه: «الطَّاغية» مصدر كالعاقبة، فكأَنه تعالىٰ قال: بطغيانهم، وقاله أَبو عبيدة، ويُقوِّي هذا قوله تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾[1]، وأَولى الأَقوال وأَصوبها الأَول؛ لأَنه مناسب لما ذكر في عاد إذ ذكر فيه الوجه الذي وقع به الهلاك، وعلى سائر الأَقوال لا يتناسب الأَمران؛ لأَن طغيان ثمود سبب، والريح لا تناسب ذلك لأَنها ليست بسبب الإهلاك بل آلته كما هي الصيحة.

و«الصَّرْصَرُ» يحتمل أَن يكون من «الصرِّ» أَي البرد، وهذا قول قتادة، ويحتمل أَن يكون من «صَرَّ الشيءُ» إذا صوَّت، قال قوم. وصوت الريح صرير، كأَنه يحكي هذين الحرفين. و«العاتِيَةُ» معناه: الشديدة المخالفة، وكانت الريح قد عَتَتْ على الخُزَّان بخلافها، وعَتَتْ على قوم عاد بشدتها. وروي عن علي بن أَبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهما أَنهما قالا: إنه لم تنزل من السماءِ قطرة ماءٍ قط إلا بمكيال على يد مَلَك، ولا هبت ريح قط إلاَّ كذلك، إلاَّ ما كان من طوفان نوح عليه السلام وريح عاد، فإن الله تعالىٰ أَذن لهما في الخروج دون إذن الخُزَّان.

(١) الآية (١٠) من سورة (الشمس).

و«التَّسْخيرُ»: استعمال الشيءِ باقتدار عليه، وروي أن الريح بدأت بهم صبح يوم الأَربعاءِ لثَمَان بقين لشوال، وتمادت بهم إلى آخر يوم الأَربعاءِ تكملة الشهر. و[حُسُوماً] قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وأبو عبيدة: معناه: كاملة تباعاً لم يتخللها غير ذلك، وهذا كما تقول العرب: «ما لقيته حَوْلاً مُجَرَّماً» قال الشاعر:

عَـوازِبُ لَـمْ تَسْمَـعْ نُبُـوحَ مُقَـامَـةٍ ... وَلَـمْ تَـرَ نَـاراً تِـمَّ حَـوْلٍ مُجَـرَّمِ[1]

---

(١) هذا البيت لطُفَيْل الغَنَوي، الشاعر الجاهلي الذي عرف بوصفه للخيل حتى قال عنه في المؤتلف: «طُفيل الخيل»، جاء في كتاب الأمالي لأبي علي إسماعيل القالي: وقرأتُ على أبي بكر بن دريد لطُفَيْل الغنوي يصف إبلاً:

عَـوَازِبُ لَـم تَسْمَـعِ نُبُـوحَ مُقَـامَـةٍ ... وَلَـم تَـرَ نَـاراً تِـمَّ حَـوْلٍ مُجَـرَّمِ
سِـوَى نَـار بَيْـضٍ أَوْ غَـزَالٍ صَـريمـةٍ ... أَغَـنَّ مِـنَ الْخُنْـسِ الْمَنَـاخِـرِ تَـوْأَمِ
إِذَا راعِيَـاهَـا أَنْضجَـاهُ تَـرَامَيَـا ... بِـهِ خِلْسَـةً أَو شَهْـوةَ الْمُتَقَـرِّمِ

ونسبه في «الشعر والشعراء» لطُفَيْل أيضاً، وقال: إنه سبق به وجاء الحطيئة فأخذه منه وقال:

عَـوَازِبُ لَـم تَسْمَـعْ نُبُـوحَ مُقَـامَـةٍ ... وَلَـم تُحْلَـبْ إلاَّ نَهَـاراً ضَجُـورُهَـا

يعني: لم تُحلب التي تضجر من الحلْب في البرد، ولكن تحلب إذا طلعت عليها الشمس، وكان ابن قتيبة قد سبق في ترجمته للحطيئة في كتاب (الشعر والشعراء) قد نسب هذا البيت الأخير هنا للحطيئة، وقال: إنه سبق به، وجاء ابن مقبل بعده فأخذه عن الحطيئة، وقال:

عَـوازِبُ لَـمْ تَسْمَـعْ نُبُـوحَ مُقَـامَـةٍ ... وَلَـم تَـرَ نَـاراً تِـمَّ حَـولٍ مُجَـرَّمِ

وهو البيت نفسه الذي نسبه إلى طفيل الغنوي، وهكذا ناقض ابن قتيبة نفسه في كتاب واحد، فنسب البيت إلى طُفيلٍ الغَنَوي مرة، ونسبه إلى ابن مقبل مرة أخرى، وجعل البيت سابقاً على بيت الحطيئة مرة ولاحقاً له مرة أخرى، لكن رواية القالي في كتاب الأمالي تُرجِّح أن البيت لطفيل الغنوي.

وعوازب: بعيدات عن البيوت، والنُّبُوح: أَصوات الناس وضجيج السكان في الحيِّ، والمُقامة: حيث يقيم الناس، وتِمُّ الحول: تمامه وكماله، والمُجَرَّم: المكمل، يقول: إن هذه الإبل لقوم من أهل العزة والمنعة، ولهذا فهي ترعى وتمضي بعيداً حيث شاءت لا تُمنع ولا تخاف، ولبُعدها هذا فإنها لم تسمع أصوات الناس ولا ضجيج السكان في الحي، ولم تَرَ ناراً سوى نار بيض نعام يصيبه راعيها فيشويه، أو لحم غزال صغير ضئيل يصيده ثم يشويه أيضاً، والصَّريمة: القطعة من الإبل، وأغن: في صوته غُنة، والأخنس: القصير الأنف، وكل ظبي فهو أخنس، والتوأم: الذي وُلد مع غيره ولهذا كان صغير الجسم، وإذا صغر جسمه صغرت النار التي توقد لشوائه، وقوله: (ترامَيا به) يعني الغزال، يترامى الراعيان لحمه عند الأكل. وخلْسة: اختلاساً، والمُتَقرِّم: شديد الشهوة إلى اللحم.

هذا وقد جاء في الأصول «المحرم» بالحاء بدلاً من «المجَرَّم» بالجيم.

وقال الخليل: أَيْ شُؤماً ونحساً، وقال ابن زيد: حُسوم: جمع حاسم كجالسٍ وقاعد، ومعناه أَن تلك الأَيام قطَّعتهم بالإِهلاك، ومنه: حسم العِلَل، ومنه: الحسام. والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ يحتمل أَن يعود على الليالي والأَيام، ويحتمل أَن يعود على «دارهم وحِلَّتِهم» لأَن معنى الكلام يقتضيها وإِن لم يُلفظ بها. قال الثعلبي: وقيل: يعود على الريح، وقد تقدم القول في التشبيه بأَعجاز النخل في سورة «اقْتَربت السَّاعة»، و«الْخاوِيةُ»: السَّاقطة التي قد خلت أَعجازها بلًى وفساداً.

ثم وقف تعالىٰ على أَمرهم توقيف اعتبار بقوله سبحانه: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾، واختلف المتأَولون في [باقية] ـ فقال قوم منهم ابن الأنباري: هي هنا مبالغة كَعلاَّمة ونسَّابةٍ، والمعنى: من باقٍ، وقال ابن الأَنباري أَيضاً: معناه: من فئة باقية، وقال آخرون: [باقية] مصدر، فالمعنى: من بقاءٍ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧﴾.

قرأَ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، وأَبو جعفر، وشيبة، وأَبو عبد الرحمن، والناس: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ بفتح القاف وسكون الباءِ، أَي الأُمم الكافرة التي كانت قبله، ويؤيد ذلك ذكره بعد قصة نوح في طغيان الماءِ؛ لأَن قوله: ﴿مَنْ قَبْلَهُ﴾ قد تَضَمَّنهم فَحَسُن اقتضاب أَمرهم بعد ذلك دون تصريح، وقرأَ أَبو عمرو والكسائي، وعاصم ـ في رواية أَبان ـ والحسن ـ بخلاف عنه ـ وأَبو رجاءٍ، والجحدريُّ، وطلحة: ﴿وَمَنْ قِبَلَهُ﴾ بكسر القاف وفتح الباءِ، أَي أَجْناده وأَهل طاعته، ويؤيد ذلك أَن في مصحف أُبيٍّ بن كعب: [وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ مَعَهُ]، وفي حرف أَبي موسى الأَشعري: [وَمَنْ تِلْقَاءَهُ]، وقرأَ طلحة بن مصرف: [وَمَنْ حَوْلَهُ]. و[قِبَلُ الإِنسان]: ما يليه في المكان، وكثر استعمالها حتى صارت بمنزلة: عندي وفي ذِمَّتي وما يَليني بأَيِّ وجه وَلِيَني.

و«المؤتفكات»: قرى قوم لوط عليه السلام، وكانت أَربعاً فيما رُوي، وائْتُفِكتْ: قُلبت وصار عاليها سافلها فائْتَفكَتْ هي فهي مُؤْتَفِكَة، وقرأ الحسن هنا: [والمُؤْتَفِكَةُ] على الإفراد، و«الْخَاطِئَة» إمَّا أَن يكون صفةً لمحذوف، كأَنه قال: بالفِعْلَة الخاطئة، وإِما أَن يريد المصدر، أَي بالخطأِ في كفرهم وعصيانهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ يحتمل أَن يكون «الرسول» اسم جنس، كأَنه قال: فعصى هؤلاءِ الأَقوام والفِرق أَنبياءَ الله تعالىٰ الذين أَرسلهم إِليهم، ويحتمل أَن يكون «الرسول» بمعنى الرسالة، وقال الكلبي: يعني موسى عليه السلام، وقال غيره ـ في كتاب الثعلبي ـ: يعني لوطاً عليه السلام. و«الرابية»: النامية التي قد عظمت جداً، ومنه: الربا، وَرَبَا المال، ومنه ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[1].

ثم عدد تعالىٰ على الناس نعمته في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الماءُ﴾ والمراد: طغى الماءُ في وقت الطوفان الذي كان على قوم نوح عليه السلام، والطغيان: الزيادة على الحدود المتعارفة في الأَشياءِ، ومعناه: طغى على خُزَّانه في خروجه، وعلى البشر في أَن أَغرقهم، قال قتادة: عَلاَ على كل شيءٍ خمسة عشر ذراعاً، و«الجارية»: السفينة.

والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ عائد على الفعلة، أَي: مَن تذكَّرها ازدجر، ويحتمل أَن يعود على [الْجَارِيَة]، أَي: مَنْ سمعها اعتبر، و«الجاريَةُ» يراد بها سفينة نوح عليه السلام، قاله مُنذر، وقال المهدوي: المعنى: في السُّفن الجارية، وقال قتادة: أَبقى الله تعالىٰ تلك السفينة حتى رأَى بعضَ عيدانها أَوائل هذه الأُمَّة، وغيرُها من السفائن التي صنعت بعدها قد صارت رماداً.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ عبارة عن الرجل الفَهِم المنور القلب الذي يسمع القول فيتلقاه بفَهْم وتدبُّر، قال أَبو عمران الجوني: [واعيَة] عَقَلت عن الله عزَّ وجلَّ، ويروى أَن رسول الله ﷺ قال لعلي بن أَبي طالب رضي الله عنه: «إِني دعوت الله أَن يجعلها أُذنك يا علي»، قال عليٌّ رضي الله عنه: فما سمعتُ بعد ذلك شيئاً فنسيته[2].

---

(١) من الآية (٥) من سورة (الحج)، وتكررت في الآية (٢٩) من سورة (فصلت).

(٢) ذكره الثعلبي، عن الحسن، وأَخرج نحوه سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أَبي حاتم، =

وقرأ الجمهور: (تَعِيَهَا) بكسر العين على وزن «تَلِيَهَا»، وقرأ ابن كثير ـ في رواية الحلواني ـ وقنبل، وابن مصرف: [وَتَعْيَهَا] بسكون العين، جعل الياءَ التي هي علامة في المضارع بمنزلة الكاف من «كَتِف»؛ إذْ حرف المضارعة لا يفارق الفعل فَيُسكَّن تخفيفاً، كما يقال: «كَتْف»، ونحو هذا قول الشاعر:

قَالَتْ سُلَيْمَى اشْتَرْ لَنَا سَوِيقاً[(١)]

على أَن هذا البيت منفصل، فهو أَبعد، لكن ضرورة الشعر تسامح به.

ثم ذكَّر تعالىٰ بأَمر القيامة، و«الصُّورُ»: القرنُ الذي يُنفخ فيه، قال سليمان بن أَرقم: بلغني أَن رسول الله ﷺ سُئل عن الصور فقال: «هو قرن من نور، فمه أَوسع من السموات»[(٢)] والنفخة المشار إِليها في هذه الآية نفخة القيامة التي للفزع، ومعها يكون الصعق ثم نفخة البعث، وقيل: هي نفخات ثلاث: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ثم نفخة البعث، والإِشارة بآيتنا هذه إِلى نفخة الفزع لأَن حمل الجبال هو بعدها، وقرأَ الجمهور: (نَفْخَةٌ) بالرفع، لمَّا نعت صح رفعه[(٣)]، وقرأَ أَبو السَّمال بالنصب.

وقرأَ جمهور القراءِ: [وَحُمِلَت] بتخفيف الميم، بمعنى: حملتها الرياح والقدرة، وقرأَ ابن عامر فيما روي عنه: [وَحُمِّلَت] بشدِّ الميم، وذلك يحتمل معنيين: أَحدهما أَنها حاملةٌ حَمَلَتْ قدرةً لله تعالىٰ وعُنفاً وشدة تُفَتِّتها، فهي مُحَمَّلة حاملة، والآخر أَن تكون محمولة حَمَلَتْها ملائكةٌ أَو قدرةٌ.

= وابن مردويه، عن مكحول قال: لما نزلت ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ قال رسول الله ﷺ: «سأَلتُ ربي أن يجعلها أُذُنَ عليٍّ»، قال مكحول: فكان عليٌّ يقول: «مَا سمعتُ من رسول الله ﷺ شيئاً فنسيته».

(١) السويقُ: طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير، سمِّي بذلك لانسياقه في الحلق، والجمع أَسْوقة، وقد ذكر ابن عطية أَن التسكين في البيت ضرورة شعرية تسمح به.

(٢) الذي في كتب السنة الصحيحة عن عبد الله بن عمرو أَن أَعرابياً سأَل النبي ﷺ عن الصور فقال: «قَرْن يُنفخ فيه»، هكذا أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ٩٦٢، ١٩٣، وأَخرجه الترمذي في القيامة وفي تفسير سورة الزُّمَر، والدارمي في الرقاق، وليس فيه هذه الزيادة التي ذكرها سليمان بن أرقم، وقد ذكر الإمام ابن حجر العسقلاني في كتابه «تقريب التهذيب» أن سليمان بن أرقَم هذا ضعيف.

(٣) ذكر أَبو حيان الأندلسي رأي ابن عطية هذا وعلق عليه بقوله: «ولو لم يُنْعت لصحَّ، لأن «نفخة» مصدر محدود، ونعتُه ليس بنعت تخصيص، إنما هو نعت توكيد». راجع البحر المحيط (الجزء الثامن صفحة ٣٢٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾. قال: [فَدُكَّتا] وقد ذكر جمعاً، وساغ ذلك لأَن المذكور فرقتان، وهذا كما قال الشاعر:

أَلَـمْ يَحْـزُنْـكِ أَن حِبـالَ قَـوْمـي ... وَقَـوْمِـكِ قَـدْ تَبـايَنَتـا انْقِطـاعـا(١)

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾(٢)، و«دُكَّتا» معناه: سُوِّي جميعهما، كما يقال: «ناقة دكاءُ» إذا ضعفت فاستوت حدبتها مع ظهرها.

و«الْوَاقِعَةُ»: القيامة والطَّامَّة الكبرى، وقال بعض الناس: هي إشارة إلى صخرة بيت المقدس، وهذا ضعيف، و«انشقاق السماءِ» هو تفطُّرها وَتَمَيُّزُ بعضها من بعض، وذلك هو الوهن الذي ينالها، كما يقال في الجُدْران البالية المشقَّقة: واهية، و«الْمَلَكُ» اسم جنس يريد به الملائكة، وقال جمهور المفسرين: الضمير في [أَرْجائِها] عائد على السماءِ، أَي الملائكةُ على نواحيها وما لَمَّ به(٣) منها، و«الرَّجا» الجانب من الحائط والبئر ونحوه، ومنه قول الشاعر:

كَـأَنْ لَـمْ تَـرَي قَبْلـي أَسيـراً مُقَيَّـداً ... وَلاَ رَجُلاً يُرْمَى بِهِ في الرَّجَوَانِ(٤)

---

(١) هذا البيت هو الرابع من قصيدة للقطَاميِّ (عُمَيْر بن شُيَيْم التغلبي) يمدح بها زُفر بن الحارث الكلابي، لأن زُفر هذا قد أنقذه من الموت بعد أن أسره قومه في موقعة الخابور، وزاد بأن حَمَلَه وكساه وأعطاه مائة ناقة، والكلام في القصيدة مُوجَّه إلى «ضُباعة» بنت زفر، والشاعر يركز على ما حدث بين قبيلته تغلب وقبيلة زفر وهي قيس من عداء ومن انقطاع لِصِلات المودَّة، والحبال هي العهود والمواثيق التي كانت بين القبيلتين، وتباينت: تفرقت، وقد روي أن ضباعة لمَّا سمعت هذا البيت قالت: «بَلَى والله لقد حَزَنني». والشاهد أن الشاعر قال عن الحبال وهي جمع: «تباينتا» بلفظ التثنية، والذي سوّغ ذلك أنه يتكلم عن قبيلتين.

(٢) من الآية (٣٠) من سورة (الأنبياء)، وقد قال تعالىٰ: ﴿كَانَتَا﴾ مع أن الكلام عن السموات والأرض لأنهما صنفان: السموات، والأرض، وهذا الأسلوب كثير مستعمل في القرآن الكريم وفي الشعر العربي.

(٣) «لَمَّ به» مثل «أَلَمَّ به»، فالمعنى فيهما: أتاه فنزل به. «راجع كتب اللغة والمعاجم».

(٤) هذا البيت للمرادي، وذكره صاحب اللسان في «رجا» مع بيت قبله، وهما:

لَقَـدْ هَـزِئَـتْ منِّـي بنَجْـرانَ إذ رَأَت ... مَقَـامِـيَ فـي الْكَبْلَيْـنِ أُمُّ أَبـانِ
كَـأن لَـمْ تَـرَي قَبْلـي أَسيـراً مُكَبَّـلاً ... وَلاَ رَجُـلاً يُـرمَـى بـه فـي الـرَّجَـوَانِ

والرَّجوان: مُثَنَّى «رجا» المقصور، وهو ناحية الشيء، وخصَّ بعض اللغويين به ناحية البئر من =

أَي: يُلْقني في بئر فلا أَجد ما أَتمسَّك به، وقال الضحاك [أَيضاً][(١)] وابن جبير: الضمير في [أَرْجائِهَا] عائد على الأَرض وإِن لم يتقدم لها ذكر قريب لأَن القصة واللفظة تقتضيان إِفهام ذلك، وفسَّرا هذه الآية بما روي أَن الله تعالىٰ يأَمر ملائكة السماءِ الدنيا فيقفون صفاً على حافات الأَرض، ثم يأَمر ملائكة السماءِ الثانية فيصفون خلفهم، ثم كذلك ملائكة كل سماءٍ، فكلما بدا أَحد من الجن والإِنْس وجد الأَرض قد أُحيط بها[(٢)]، قالوا: فهذا تفسير هذه الآية، وهو أَيضاً معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[(٣)]، وهو أَيضاً تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾[(٤)] على قراءة من شدَّ الدال، وهو تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾[(٥)].

واختلف الناس في الثمانية الحاملين العرش ـ فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هي ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم أَحد عِدَّتهم، وقال ابن زيد: هم ثمانية أَملاك على هيئة الوعول، وقال جماعة من المفسرين: هم على هيئة الناس، أَرجُلهم تحت الأَرض السابعة ورؤُوسهم وكواهلهم فوق السماءِ، وروي عن النبي ﷺ أَنه قال: «هُمُ اليوم أَربعة، فإِذا كان يوم القيامة قواهم الله تعالىٰ بأَربعة سواهم»[(٦)] والضمير في قوله تعالىٰ: [فَوْقَهُمْ] قيل: هو للملائكة الحَمَلة، وقيل: للعالم كله، وكل قدرة كيفما تصورت فإِنما هي بحول الله تعالىٰ وقوته.

= أعلاها إلى أسفلها وحافتيها، ويقال: «رُمي به في الرجوان» والمعنى: اسْتُهين به فكأنه رُمي هناك، أي في المهالك، و«المَكبَّل» كما في رواية اللسان هو الذي قُيِّد، والكَبْل هو القيد، وقد جاء لفظه في رواية ابن عطية هنا.

(١) زيادة في الأصول لا حاجة إليها.

(٢) الخبر في تفسير ابن جرير، عن الضحاك بن مزاحم، ولم يرفعه إلى النبي ﷺ.

(٣) الآية (٢٢) من سورة (الفجر).

(٤) من الآيتين (٣٢، ٣٣) من سورة (غافر).

(٥) من الاية (٣٣) من سورة (الرحمن).

(٦) أخرجه ابن جرير الطبري من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن رسول الله ﷺ، ورواه الطبري أيضاً من طريق ابن إسحاق، وهو خبر مقطوع في الروايتين.

قوله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي
ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا
هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا
حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾.

الخطاب بقوله تعالىٰ: [تُعْرَضُونَ] لجميع العالم، وروي عن أَبي موسى الأَشعري، وابن مسعود أَن في القيامة عَرْضتين، فيهما معاذير، وتوقيف، وخصومات، وجدال، ثم تكون عرضةٌ ثالثة تتطاير فيها الصحف بالأَيمان والشمائل. وقرأَ حمزة والكسائي: [لا يَخفَى] بالياءِ، وهي قراءَة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وابن وثَّاب، وطلحة، والأَعمش، وعيسى، وقرأَ الباقون بالتَّاءِ على مراعاة تأَنيث [خافِيَةٌ]، وهي قراءة الجمهور، وقوله تعالىٰ: [خافِيَةٌ] معناه: ضمير ولا مُعتقد.

و«الَّذين يُعطون كُتُبهم بأَيمانهم» هم المُخلَّدُونَ في الجنة أَهل الإِيمان، واختلف أَهل العقل والعلم في الفرقة التي ينفذ عليها الوعيد من أَهل المعاصي، متى تأَخذ كُتُبها؟ فقال بعضهم: الأَظهر أَنها تأْخذها مع الناس، وذلك يؤنسها مدة العذاب، قال الحسن: فإِذا أُعطي كتابه بيمينه لم يقرأْه حتى يأْذن الله له، فإِذا أَذن له قال: ﴿هاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتابِيَه﴾، وقال آخرون: الأَظهر أَنه إِذا أُخرجوا من النار، والإِيمانُ يؤنسهم في وقت العذاب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو ظاهر هذه الآية لأَن من يسير إِلى النار كيف يقول هاؤم اقرؤوا كِتابيه؟

وأَما «هاؤُم» فقال قوم: أَصله «هاؤمُوا» ثمَّ نقله التخفيف والاستعمال، وقال آخرون: هذه الميم ضمير الجماعة. وفي هذا كله نظر، والمعنى على كل وجه: تعالوا، فهو استدعاءٌ للفعل المأْمور به، وقوله: ﴿اقرؤوا كتابيه﴾ هو استبشارٌ وسرور.

وقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ الآية عبارة عن إِيمانه بالبعث وغيره، قال قتادة: ظنَّ هذا ظنًّا يقينياً فنفعه، وقومٌ ظَنُّوا ظنَّ شك فشقوا به، و[ظَنَنْتُ] هنا واقعة موقع «تَيَقَّنْتُ»، وهي في مُتَيَقَّن لم يقع بعد ولا خرج إِلى الحسِّ، وهذا هو باب الظَّن الذي يقع موقع اليقين،

وقرأ بعض القراءِ: [كِتَابِيَهْ] و[حِسَابِيَهْ] و[مَالِيَهْ] و[سُلْطَانِيَهْ] بالهاءِ في الوصل والوقف اقتداءً بخط المصحف، وهي في الوصل بِنيَّة الوقف لأَنها هاءُ السَّكْت فلا معنى لها في الوصل، وَطَرَحَ الهاءَات في الوصل لا في الوقف الأَعمشُ وابن أَبِي إِسحاق، قال أَبو حاتم: قراءتنا إِثبات الهاءات في الوقف وطرحها في الوصل، وبذلك قرأ ابن أَبي محيصن، وسلام، قال الزهراوي: إِثبات الهاءِ في الوصل لَحْنٌ لا يجوز عند أَحد عَلِمْتهُ.

و[راضِيةٍ] معناه: ذات رضى، فهو بمعنى مرضية، وليست بناءَ اسم فاعل، و[عَالِيَةٍ] معناه: في المكان والقدر وجميع وجوه العُلُوِّ.

و«القُطوف» جمع قطف، وهو ما يُجتنى من الثمار ويقطف، ودُنُوُّها هو أَنها تأَتي طوع التمني فيأْكلها القائم والقاعد والمضطجع بفيه من شجرتها. و[أَسْلَفْتُمْ] معناه: قدَّمتم، و«الأَيام الخالية» هي أَيام الدنيا لأَنها في الآخرة قد خلت وذهبت، وقال وكيع، وابن جبير، وعبد العزيز بن رفيع: المراد: بما أَسلفتم من الصوم. وعُمُومُها في كل الأَعمال أَولى وأَحسن.

و«الذين يُؤْتون كُتُبهم بِشَمَائِلهم» هم المُخَلَّدُونَ في النار أَهل الكفر، فيتمنَّوْن أَن لو كانوا معدومين لا يجري عليهم شيءٌ. وقوله: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ إشارة إِلى مَوْتة الدنيا، أَي ليتها لم يكن بعدها رجوع ولا حياة، وقوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ﴾ يحتمل أَن يريد الاستفهام على معنى التقرير لنفسه والتوبيخ، ويحتمل أَن يريد النفي المحض، و«السُّلْطَانُ» في الآية: الحُجَّةُ، على قول عكرمة ومجاهد، وقال بعضهم ـ ونحا إِليه ابن زيد ـ: تنطق بذلك ملوك الدنيا الكفرة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والظاهر عندي أَن سلطان كل أَحد هو حاله في الدنيا من عَدَد وعُدَدٍ، ومنه قول النبي ﷺ: «لا يُؤَمَّنَّ الرجل في سلطانه، ولا يُجلس على تكرمته إلا بإِذنه»[1].

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد، وأبو داود في الصلاة، والترمذي في المواقيت والأدب، والنسائي في الإمامة، وابن ماجه في الإقامة، وأحمد في مسنده (١٨٤/١، ٥/ ٢٧٢)، ولفظه كما جاء في مسند أحمد: عن أبي مسعود الأنصاري البدريّ، عن النبي ﷺ، قال: «يَؤُم القومَ أَقرؤُهم لكتاب الله تعالىٰ وأَقدمهم قراءة، فإن كانت قراءتهم سواء فليؤمهم أَقدمهم هجرة، فإن كانت هجرتهم سواء فليؤمهم=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾.

المعنى: يقول الله تعالىٰ، أو الملك ـ بِأَمْرِهِ ـ للزبانية: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾، أَي: اجعلوا في عنقه غلاً، قال ابن جريج: نزلت في أَبي جهل.

و[ذَرْعُهَا] معناه: مبلغ كَيْلها، وقد جعل الله تعالىٰ السبعمائة، والسبعين، والسبعة، مواقف ونهايات لأَشياءَ عظام، فلذلك مشى العرب وغيرهم على أَن يجعلوها نهايات، وهذه السلسلة من الأَشياءِ التي جعل الله تعالىٰ فيها السبعين نهاية، وقرأَ السدي: ﴿ذَرْعُهَا سَبْعِينَ﴾ بالياءِ، وهذا على حذف خبر الابتداءِ، واختلف الناس في قدر هذا الذراع[1] ـ فقال ابن عباس، ومحمد بن المنكدر، وابن جريج: هو بذراع الملك وقال نوف البكالي وغيره: في الذراع سبعون باعاً، في كل باع كما بين الكوفة ومكة. وهذا يحتاج إِلى سند. وقال حذاقٌ من المفسرين: هي بالذراع المعروفة منا، وإِنما خوطبنا بما نعرفه ونحصِّله، وقال الحسن: الله أَعلم بأَيِّ ذراع هي، وقال سويد بن نجيح ـ في كتاب الثعلبي ـ: بلغني أَن جميع أَهل النار في تلك السلسلة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لو وُضع منها حلقة على جبل لذاب كالرصاص. وقوله تعالىٰ: [فَاسْلُكُوهُ] معناه: فأَدْخِلوه، ومنه قول أَبي وجزة السعديِّ يصف حمر وحش:

حتَّى سَلَكْنَ الشَّوَى منْهُنَّ في مَسَك ... مـنْ نَسْـلِ جَـوَّابَـةِ الآفـاقِ مِهـداج[2]

= أَكبرهم سناً، ولا يُؤَمُّ الرجلُ في أَهله ولا في سلطانه، ولا يجلس على تكرمته في بيته إلاَّ أَن يأذن لك أو إلاَّ بإذنه».

(١) الذراع: اليد، وهي مؤنثة، وقد تذكَّر، (راجع اللسان).

(٢) يصف أَبو وجزة حُمر الوحش فيقول في هذا البيت وفي بيت قبله:

مـــازِلْـــنَ يَنْسُبْـــنَ وهْنـاً كُـــلَّ صـادقَـــةٍ ... بـــاتَـــتْ تُبـاشِــرُ عُــرْمـاً غَيْــرَ أَزْواجِ
حَتَّـــى سَلَكْـــنَ الشَّــوَى مِنْهُـــنَّ فـــي مَسَـكٍ ... مِـــنْ نَسْـــلِ جَـــوَّابَـــةِ الآفـــاقِ مِهْـــداجِ

والشوى: اليَدان والرِّجلان، وسَلكْن: أَدخَلْن، وهو موضع الاستشهاد هنا والمسلَك: الذَّبْل من العاج كهيئة السِّوار تجعله المرأة في يديها، فهو مثل الأسورة، وفي الحديث أنه ﷺ رأى على عائشة مَسَكتين من فضة، والذَّبْل: قرون الأوعال، وجوَّابة الآفاق هي السحابة التي تحركها الرياح فتتحرك=

ورُوي أَن هذه السلسلة تدخل في فم الكافر وتخرج من دبره، فهي في الحقيقة التي تُسلك فيه، لكن الكلام جرى مجرى قولهم: أَدخلتُ القَلَنْسُوَةَ في رأسي، وفمي في الحجر، ورُوي أَن هذه السلسلة تُلوى حول الكافر حتى تغمُّه وتضغطه، فالكلام ـ على هذا ـ على وجهه، وهو المسلوك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ المراد به: على إِطعام طعام المسكين، وإِضافة الطعام إِلى المسكين من حيث له إِليه نسبةٌ مَّا، وخُصَّت هذه الخَلَّة من خلال الكافر بالذكر لأَنها من أَضَرِّ الخلال في البشر، إِذا كثرت في قوم هلك مساكينهم.

واختلف المتأَولون في قوله تعالىٰ: [حَميمٌ] ـ فقال جمهور المفسرين: هو الصديق اللطيف المودة، فنفى الله تعالىٰ أَن يكون للكافر هنالك من يواليه، ونفى أَن يكون له طعام إِلاَّ من غسلين، وقال محمد بن المستنير: الحميمُ الماءُ الحارُّ، فكأَنه تعالىٰ أَخبر أَن الكافر ليس له ماءٌ ولا شيءٌ مائع ولا طعامٌ إِلاَّ من غسلين، وهو ـ فيما قال اللغويون ـ ما يجري من الجراح إِذا غُسلت، قال ابن عباس: هو صديد أَهل النار، وقال قتادة وابن زيد: الغِسْلين والزَّقوم أَخبث شيءٍ وأَبْشَعُه، وقال الضحاك، والربيع هو شجر يأَكله أَهل النار، وقال بعض المفسرين: هو شيءٌ يجري من ضريع لأَن الله تعالىٰ قد أَخبر أَنه ليس لهم طعام إِلاَّ من ضريع[1]، وفي أُخرى إِلاَّ مِن غِسْلين، فهما شيءٌ واحدٌ أَو اثنان متداخلان، ويحتمل أَن يكون الإِخبار هنا عن طائفة وهناك عن طائفة ويكون الغِسْلين والضريع متباينين على ما يفهم في لسان العرب. وخبر [لَيْسَ] في [لَهُ]، وقال المهدوي: ولا يصح أَن يكون [ها هنا].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد يصح ذلك إِن شاء الله تعالىٰ.

= وتسير في آفاق السماء، ونسلها هو المطر، لأن الريح تستدرُّ السحاب وتُلقحه فيمطر، من نسلها، والريح المهْداج هي التي لها صوت وحنين، وهو من الهَدَجَة، وهو حنين الناقة على ولدها، يقول: إن حمر الوحش وردت الماء ليْلاً وأثارت القَطَا التي صاحت: قَطَا قَطَا، فخبرت باسمها فكانت صادقة، هذه الحمر دخلت في الماء الذي نسلته الريح بأرجلها وأيديها حتى صار لها مثل السوار الذي تضعه المرأة في يديها. أما العُرم فهو بيض القطا، وهي تضعه في أعداد فردية فلا يكون أزواجاً كما قال.

(١) وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾. الآية (٦) من سورة (الغاشية).

و«الخاطىءُ»: الذي يفعل ضد الصواب متعمداً لذلك، و«المخطىءُ» الذي يفعله غير متعمد، وقرأ الحسن، والزهري: [الْخَاطِيُونَ] بالياءِ دون همز، وقرأ طلحة، وأبو جعفر، وشيبة، ونافع ـ بخلاف عنه ـ: [الْخَاطُونَ] بضم الطاءِ دون همز.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾، قال بعض النحاة: (لاَ) زائدة، والمعنى: فأُقْسِم، وقال آخرون مِنْهم: [لاَ] ردٌّ لما تقدم من أَقوال الكفار، والبداية [أُقْسِمُ]، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: ﴿فَلأُقْسِمُ﴾ لأَن لام القسم معها أَلف القَسَم[1].

قوله تعالىٰ: ﴿بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾. قال قتادة بن دعامة: أَراد الله تعالىٰ أَن يعُمَّ القسم جميع مخلوقاته، وقال غيره: أَراد الأَجساد والأَرواح.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول حسن عام.

وقال ابن عطاءٍ: ما تُبصرون من آثار القدرة وما لا تُبصرون من آثار القدرة، وقال قومٌ: أَراد بقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ الملائكةَ.

و«الرَّسُولُ الكريم» هو جبريل عليه السلام في تأْويل جماعة من العلماءِ، ومحمد ﷺ في قول آخرين، وأُضيف القول إِليه لأنه هو الذي تلاه وبلَّغه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٤٨ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٥٢﴾.

نَفى تعالىٰ أَن يكون القرآن قول شاعر كما زعمت قريش، ونصب [قَليلاً] بفعل

---

(١) قال أَبو الفتح في تخريج هذه القراءة: «هذا فعل الحال، وهناك مبتدأٌ محذوف، أي: لأنا أُقْسِمُ، فدلَّ على أَن جميع ما في القرآن من الأقسام إنما هو على حاضر الحال»، وتبع الزمخشري أبا الفتح فيما قال، لكن أبا حيان الأندلسي عارضهما فقال: «إنما ذهبا إلى ذلك لأنه فعل حال، وفي القَسم عليه خلاف، والذي اختاره ابن عصفور وغيره أن فعل الحال لا يجوز أَن يقسم عليه». (راجع المحتَسب لابن جني، وتفسير الزمخشري، والبحر المحيط).

مضمر يدل عليه [تُؤْمِنونَ]، و(مَا) يحتمل أَن تكون نافية فينتفي إِيمانهم أَلْبَتَّةَ، ويحتمل أَن تكون مصدرية ويتصف بالقِلَّة إِمَّا الإِيمان وإِما العَدَد الذين يؤمنون، فعلى اتصاف إِيمانهم بالقلة فهو الإِيمان اللغوي؛ لأَنهم قد صدَّقوا بأَشياءَ يسيرة لا تغني عنهم شيئاً؛ إِذْ كانوا يصدقون أَن الخير والصلة والعفاف الذي كان يأَمر به رسول الله ﷺ صواب، ثم نَفَى تعالىٰ أَن يكون [القرآن] قول كاهن كما زعم بعضهم. وقرأَ ابن كثير، وابن عامر، والحسن، والجحدري: ﴿قَلِيلاً مَا يُؤْمِنونَ﴾ و﴿قَلِيلاً ما يَذَّكَّرُونَ﴾ بالياءِ فيهما، وقرأَ الباقون بالتاءِ من فوق، ورجَّح أَبو عمرو قراءة التاءِ من فوق بقوله: ﴿فَمَا مِنكُم﴾، وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب: «مَا تَتَذَكَّرُونَ» بتاءين. و[تَنْزِيلٌ] رُفع بالابتداءِ، أَيْ: هو تنزيلٌ.

ثم أَخبر تعالىٰ أَن محمداً لو تقوَّلَ علينا شيئاً لعاقبه بما ذَكَر، والتقوُّل أَن يقول الإِنسان عن آخر: إِنه قال شيئاً لم يفعله، وقرأَ ذكوان وابنه محمد[1] ﴿وَلَو يَقُولُ عَلَيْنَا﴾ بالياءِ وضم القاف، وهذه القراءَة مُعرِّضة بما صرحت به قراءةِ الجمهور، ويُبيِّن التعريض قوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ اختلف في معناه ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: [بالْيَمَينِ]: بالقُوَّة[2]، ومعناه: لَنِلْنا عقابه بقوة منا، أَو يكون المعنى: لنزعنا منه قوته، وقال آخرون: هي عبارة عن الهوان، كما يقال لمن يُسْجَن[3] أَو يُقام لعقوبة: قد أُخذ بيده وبيمينه.

و«الْوَتِين» نياط القلب، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وهو عِرْقٌ غليظ تصادفه شفرة الناحر، ومنه قول الشَّماخ:

إِذَا بَلَّغْتِنِــي وَحَمَلْــتِ رَحْلِــي ... عَـرابَـةَ فـاشْـرَقي بِـدَمِ الْـوَتيـنِ[4]

---

(١) ذكوان هو أبو صالح السَّمَّان الزيات، المدني، ثقة ثبت، كان يجلب الزيت إلى الكوفة، من الطبقة الثالثة، مات سنة إحدى ومائة، أما ابنه محمد، فهو ابن أبي صالح السَّمان، صدوق، من السادسة، قال عنه في تقريب التهذيب: «يَهِم».

(٢) ومنه قول الشماخ بن ضرار:

إِذَا مَــا رَايَــةٌ رفِعَــتْ لِمَجْــدٍ ... تَلَقَّــاهــا عَــرَابَــةُ بــاليَميــنِ

(٣) في بعض النسخ: «لمن يُسَخَّر».

(٤) كان الشماخ قد خرج يريد المدينة، فصحب عَرَابَةَ بن أوس الأنصاري، فسأله عرابَة عما يريد بالمدينة، فقال: أردت أن أَمْتار لأهلي، وكان مع عرابة بعيران، فأنزل الشماخ وأكرمه، وأوقر له بعيريه تمراً=

فمعنى الآية: لأذهبنا حياته معجَّلاً. و«الحاجزُ»: المانع، وجمع [حاجِزينَ] على معنى أَحد؛ لأنه يقع على الجمع، ونحوه قوله عليه الصلاة والسلام: «لم تحلَّ الغنائم لأَحد سود الرؤوس قبلكم»(١).

والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ﴾ عائد على القرآن، وقيل: على محمد ﷺ، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ وعيدٌ، وكونُه حسرة على الكافرين هو من حيث كفروا به ويَرَوْن من آمن به يُنَعَّم وهم يُعَذَّبون.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، ذهب الكوفيون إلى أنها إضافة الشيءِ إلى نفسه، كدار الآخرة ومسجد الجامع، وذهب البصريون والحُذَّاق إلى أَن الحق مضاف إلى الأَبلغ من وجوهه، وقال المبرد: إنما هو كقولك: عين اليقين ومحض اليقين.

ثم أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالتسبيح باسمه العظيم، وفي ضمن ذلك الاستمرار على رسالته، والمُضيُّ لأَدائها وإِبلاغها وروي أَن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «اجعلوها في ركوعكم»، واستحبَّ التزامَ ذلك جماعةٌ من العلماءِ، وكره مالك لزوم ذلك لئلا يُعَدّ فرضاً واجباً.

تم تفسير سورة الحاقة والحمد لله رب العالمين

* * *

= وبُراً، فقال فيه أبياتاً منها هذا البيت، والخطاب فيه للناقة، والرَّحْل: ما يوضع على ظهر البعير للركوب، وكل ما يُعد للرحيل، وعرابة هذا صحابي جليل، والوتين: هو العرق الذي وصفه ابن عطية، وشَرِق يَشْرَق بمنى: غَص، يقول لناقته: إذا أنت أوصلتني إلى عرابة فقد تحققت كل آمالي، ولا حاجة بي إليك، ولا يهمني أن أريق دمك.

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الأنفال، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٥٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لم تحل الغنائم لقوم سود الرؤوس قبلكم، كانت تنزل النار من السماء فتأكلها»، لأن يوم بدر أسرع الناس في الغنائم فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾. راجع مسند أحمد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة المعارج[(١)]

وهي مكية، لا خلاف بين الرواة في ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾.

قرأ جمهور السبعة: (سَأَلَ) بهمزة محققة، قالوا: والمعنى دَعَا داعٍ، والإشارة إلى من قال من قريش: «﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾»[(٢)]، وروي أن قائل ذلك هو النضر بن الحارث، وإلى من قال: «رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا»[(٣)]. وقال بعضهم: المعنى: بحث باحث واستفهم مُسْتَفْهِم، قالوا: والإشارة إلى قول قريش: «مَتَى هَذَا الْوَعْدُ»[(٤)]؟ وما جرى مجراه، قاله الحسن وقتادة.

فأمَّا من قال: المعنى: دَعَا داعٍ فالباءُ في قوله تعالىٰ: [بِعَذَاب] على عُرفها، وأمَّا من قال: المعنى: استفهم مُسْتَفْهِم فالباءُ تُوَصِّل توصيل «عَنْ»، كأنه تعالىٰ قال: «عن عذاب»، وهو كقول علقمة بن عبدة:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي ... بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ[(٥)]

(١) في بعض النسخ: تفسير سورة سأل سائل.
(٢) جاء ذلك في الآية (٣٢) من سورة (الأنفال).
(٣) جاء ذلك في الآية (١٦) من سورة (ص).
(٤) جاء ذلك في الآية (٤٨) من سورة (يونس).
(٥) هذا البيت من قصيدته المشهورة التي قالها في مدح الحارث ملك الغساسنة في الشام بعد وقعة «يوم=

وقرأ نافع، وابن عامر: [سالَ] ساكنة الألف، واختلف القراءُ فيها، فقال بعضهم: هي «سأَل» المهموزة إلا أَنها سهلت، كما قال:

. . . . لا هَنـاكِ الْمَـرْتَـعُ[(١)]

ونحو ذلك، وقال بعضهم: هي لغة من يقول: «سِلْتُ أَسَالُ وَيَتَسَاوَلاَن»[(٢)]، وهي لغة مشهورة حكاها سيبويه فتجيءُ الأَلف منقلبة عن الواو التي هي عين كقال وخاف، وأَما قول الشاعر:

سَالَـتْ هُـذَيْـلٌ رَسُـولَ الله فـاحِشَـةً ... ضَلَّتْ هُذَيْلٌ بِمَا سَالَتْ وَلَمْ تُصِبِ[(٣)]

= حليمة»، والتي بدأها بقوله: (طَحَا بِكَ قَلْبٌ في الْحِسَانِ طَرُوبُ)، والأدواء: جمع داء، ويريد هنا طباعَهُنَّ الخفية التي هي بمنزلة المرض فيهن، يقول: إنه خبير بطباع النساء وبوسائل معالجتهن، ثم ذكر بعد ذلك شيئاً من خبرته بهن، والشاهد أن الباء في «بالنساء» بمعنى «عن»، والمعنى: فإن تسألوني عن النساء.

(١) هذه الجملة وردت في آخر بيت للفرزدق، والبيت بتمامه:

رَاحَـت بِمَسْلَمَـةَ البغـالُ عَشِيَّـةً ... فَـارْعَـيْ فَـزَارَةُ لاَ هَنَـاكِ الْمَـرْتَـعُ

وهو في الديوان، والكتاب لسيبويه، والخصائص لابن جني، والمحتسَب له أيضاً، وفي شرح شواهد الشافية، وفي ابن يعيش، والمقتضب، وابن الشجري، والمقرب، وقد قال الفرزدق هذا البيت حين عُزل مَسْلَمَة بن عبد الملك، وتولى بعده عُمَر بن هُبَيْرة الفزاري، فهجا الفرزدق الفزاريِّين، ودعا عليهم هنا أَلا يَهْنَئُوا بولايته. والبغال في البيت هي البغال التي حملت مسلمة عند عَزله، يقول: إن البغال قد حملت مسلمة عشية، وأصبحت أنت يا فزارة صاحبة الأمر، فتصرفي في الأمور، وتمتعي بالخيرات، لا هنئت بها ولا نعمت، والشاهد إبدال الألف من الهمزة في «هناك»، وهي في الحقيقة ضرورة شعرية، وكان من الصحيح أن تجعل بَيْن بَيْن لأنها متحركة لا ساكنة.

(٢) في بعض النسخ: «سَالَ يَسَالُ»، وقد قال الزمخشري حين ذكر هذه اللغة: «وهما يتسايلان»، ونحسبه خطأً من الناسخ لأن الزمخشري يعرف أَن الكلمة واوية هنا.

(٣) هذا البيت لحسان بن ثابت الأنصاري، وهو بيت وحيد قاله حسَّان يعيِّر هذيلاً وكانت قد سألت رسول الله ﷺ أَن يُباح لها الزنى، والشاهد فيه إبدال الهمزة أَلِفاً من باب التسهيل وليس على لغة من قال: «سِلْت أَسَالُ»، قال الشنتمري: «لأن البيت لحسان وهذه ليست لغته».

ومثل بيتي الفرزدق وحسان قول القُرَشي زيد بن عمرو بن نفيل عن زوجتيه حين طلبتا الطلاق منه:

تِلْـكَ عِـرْسَـايَ تَنْطِقَـانِ عَلَـى عَمْـ ... ـدٍ إلـى الْيَـوْمِ قَـولَ زُور وَهَتْـرِ
سَـالَتَـانـي الطَّـلاقَ أَنْ رَأَتَـانـي ... قَـلَّ مـالـي، قَـدْ جِئْتُمَـانِـي بِنُكْـرِ

وكون الشاعر من قريش ينفي أَنه على لغة «سِلْتُ ولا يَسَالُ»، بل هو من بَاب التخفيف بإبدال الهمزة أَلفاً.

فإن سيبويه قال: هو على لغة تسهيل الهمزة، وقال غيره: هو على لغة من قال: «سِلتُ»، وقال بعضهم في الآية: هي من «سَالَ يَسيلُ» إذا جرى، وليست من معنى السؤال، قال زيد بن ثابت وغيره: في جهنم وادٍ يسمَّى «سائلاً»، والإِخبارُ هنا عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل ـ إن لم يصح أمر الوادي ـ أن يكون الإِخبار عن نفوذ القَدَر بذلك العذاب، فاستعير له لفظ السَّيْل لمَا عُهد من نفوذ السيْل وتصميمه.

وقرأ ابن عباس: [سَالَ سَيْلٌ] بسكون الياءِ[١]، وقرأ أُبَيُّ بن كعب، وابن مسعود: [سَالَ سالٍ] مثل «قال»، أُلْغيت الياءُ من الخَطِّ تخفيفاً، والمراد «سايل» إذ سؤال الكفار عن العذاب ـ حسب قراءَة الجماعة ـ إنما كان على أنه كذب، فوصفه الله تعالىٰ بأنه واقع وعيداً لهم.

قوله تعالىٰ: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾، قال بعض النحويين: اللام تُوَصِّل المعنى توصيل «عَلَى»[٢]، وروي أن في مصحف أُبَيٍّ بن كعب: قوله تعالىٰ [عَلَى الْكَافِرِينَ]، وقال قتادة والحسن: المعنى: كأن قائلاً قال: لِمَنْ هذا العذاب الواقع؟ فقيل: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾.

و«الْمَعَارِجُ» في اللغة: الدَّرَجُ في الأجرام، وهي هنا مستعارة في الرُّتب والصفات الحميدة، قاله ابن عباس، وقتادة، وقال ابن عباس: «المعارج»: السمواتُ تعرج فيها الملائكة من سماءٍ إلى سماءٍ، وقال الحسن: هي المراقي في السماءِ. وقوله تعالىٰ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ معناه: تصعد، على أصل اللغة في اللفظة. و«الرُّوحُ» عند جمهور العلماءِ هو جبريل عليه السلام، خصَّصه بالذكر تشريفاً، وقال مجاهد: الرُّوحُ: ملائكة حفظة للملائكة الحافظين لبني آدم، لا تراهم الملائكة كما لا نرى نحن الملائكة، وقال بعض المفسرين: هو اسم الجنس في أرواح الحيوان.

واختلف المتأَولون في قوله تعالىٰ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ـ فقال منذر بن سعيد وجماعة من الحُذَّاق: المعنى: تعرج الملائكة والروح إليه في يوم من

---

(١) قال أبو الفتح تعليقاً على هذه القراءة: «السَّيْل هنا: الماءُ السائل، وأَصله المصدر، من قولك: سال الماءُ سيلاً، إلاَّ أنه أُوقع على الفاعل ـ أي قُصد به معنى اسم الفاعل ـ كقوله تعالىٰ: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: غائراً».

(٢) يعني أن اللاَّم بمعنى «عَلَى».

أَيامكم هذه، ومقدار المسافة ـ إن لو عرجها آدميٌّ ـ خمسون أَلف سنة، وقاله ابن إِسحاق، فمَنْ جعل «الروح» جبريلَ ونوعاً من الملائكة قال: المسافة هي من قعر الأَرض السابعة إِلى العرش، قاله مجاهد، ومَن جعل «الروح» جنس أَرواح الحيوان قال: المسافة بين وجه هذه الأرض إِلى منتهى العرش علُوًّا، قاله وهب بن مُنَبِّه، وقال قوم: المعنى: تعرج الملائكة والروح إِليه في يوم كان مقداره في نفسه خمسين أَلف سنة من أَيامكم، ثم اختلفوا في تعيين ذلك اليوم ـ فقال عكرمة، والحكم: أَراد الله تعالىٰ مدة الدنيا فإِنها خمسون أَلف سنة، لا يدري أَحد ما مضى منها ولا ما بقي، فالمعنى: تعرج الملائكة والروح إِليه في مدة الدنيا وبقاءِ هذه البنية، ويتمكن ـ على هذا ـ في «الرُّوح» أَن يكون اسم جنس أَرواح الحيوان. وقال ابن عباس وغيره: بل اليوم المشار إِليه هو يوم القيامة ـ ثم اختلفوا ـ فقال بعضهم: قدره في الطول قدر خمسين أَلف سنة، وهذا هو ظاهر قول النبي ﷺ: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلاَّ جعل الله له صفائح من نار يوم القيامة تكوى بها جبهته وظهره وجنباه في يوم كان مقداره خمسين أَلف سنة»[(١)]. وقال ابن عباس، وأَبو سعيد الخدري: بل قَدْرُه في هَوْله وشدته ورزاياه للكفار قدر خمسين أَلف سنة، وهذا كما تقول في اليوم العصيب: إِنه كَسَنة، ونحو هذا، قال أَبو سعيد: قيل: يا رسول الله، ما أَطولَ يوماً مقداره خمسون أَلف سنة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده إِنه ليخفُّ على المؤمن حتى يكون أَخفَّ عليه من صلاة مكتوبة»[(٢)]، وقال عكرمة: المعنى كان مقدار ما ينقضي فيه من القضايا والحساب قدر ما ينقضي بالعدل في خمسين أَلف سنة من أَيام الدنيا.

وقد ورد في يوم القيامة أَنه كأَلف سنة، وهذا يشبه أَن يكون في طوائف دون طوائف.

والعامل في قوله تعالىٰ: [يَوْمٍ] ـ على قول من يقول إِنه يوم القيامة ـ قوله تعالىٰ:

---

(١) هذا جزء من حديث طويل أَخرجه مسلم في الزكاة، وأحمد (٢/ ٢٦٢)، وهو عن أَبي هريرة رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يُؤَدِّي منها حَقَّها إلاَّ إذا كان يومُ القيامة صُفِّحت له صفائح من نار، فأُحْمِيَ عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بَرَدَت أُعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين أَلف سنة، حتى يُقضى بين العباد فيرى سبيله إمَّا إلى الجنة وإما إلى النار»، بلفظ مسلم.

(٢) أَخرجه أحمد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن حبان، والبيهقي في البعث، عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه، (الدر المنثور).

[مِنْ دافعٍ]، وعلى سائر الأقوال [تَعْرُجُ]. وقرأَ جمهور القراءِ: [تَعْرُجُ] بالتاءِ من فوق، وقرأَ الكسائي وحده: [يَعْرُجُ] بالياءِ لأَن التأنيث غير حقيقي، وبالياءِ من تحت قرأَ ابنُ مسعود لأنه كان يُذَكِّر الملائكة، وهي قراءة الأعمش.

ثم أَمر تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالصبر الجميل، وهو الذي لا يلحقه عَتْبٌ من فَشَلٍ ولا شكٌّ ولا قِلَّةُ رضى ولا غير ذلك، والأَمر بالصبر الجميل محكم في كل حالة، وقيل: نزلت هذه الآية قبل الأَمر بالقتال.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ يعني يوم القيامة؛ لأنهم يكذِّبون به فهو في غاية البعد عندهم، وإِنه تعالىٰ يراه قريباً من حيث هو واقع وآت وكلُّ آت قريب، وقال بعض المفسرين: الضمير في [يَرَوْنَهُ] عائد على العذاب، وقوله تعالىٰ: [يَوْمَ] نصب بإِضمار فعل على البدل من الضمير المنصوب، و«الْمُهْلُ»: عَكَرُ الزيت، قاله ابن عباس وغيره، فهي[1] لسوادها وانكدار أَنوارها تشبه ذلك، والمُهْل أَيضاً ما أُذيب من فضة ونحوها، قاله ابن مسعود وغيره[2]، فتجيءُ له أَلوان وتميُّع مختلط، والسماءُ أَيضاً للأَهوال التي تدركها تصير مثل ذلك، و«الْعِهْنُ» الصوف دون تقييد، وقال بعض اللغويين: هو الصوف المصبوغ أَلواناً، وقيل: المصبوغ أَي لون كان، وقال الحسن: هو الأَحْمر، واستدل من قال إِنه المصبوغ أَلواناً بقول زهير:

كَـأَنَّ فُتَـاتَ الْعِهْـنِ فـي كُـلِّ مَنْـزِلٍ نَـزَلْـنَ بِـهِ حَـبُّ الْفَنَـا لَـمْ يُحَطَّـمِ[3]

وحَبُّ الْفَنَا هو عِنَب الثَّعلب، وكذلك هو عند طيبه وقبل تحطيمه أَلوان، بعضه أَحمر، وبعضه أَصفر، وبعضه أَخضر؛ لاختلافه في النضج، وتشبَّه الجبال به على هذا لأَنها جُدد بِيضٌ وحُمْرٌ وسودٌ، فيجيءُ التشبيه من وجهين: أَحدهما في الأَلوان، والثاني

---

(١) أي السماء.

(٢) في بعض النسخ: قاله ابن عباس وغيره.

(٣) هذا بيت من معلقة زهير بن أَبي سُلمى، والتي بدأها بقوله: (أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَم تَكَلَّمِ)، وزهير في هذا البيت وأبيات معه يصف بعض النسوة في سفرهن على الإبل في هوادج من الصوف قد أُلقيت عليها أستار رقيقة حمراء اللون تشابه الدم في حمرتها، والفُتاتُ: اسمٌ لما انفَتَّ من الشيء، أي تقطع وتفرق، وأَصله من الفَتِّ والتقطيع والتفريق، والفعل منه فَتَّ يفتُّ، والعِهْن: الصوف المصبوغ أَلواناً، والفَنَا: عِنَب الثعلب، والتَّحطم: التَّكَسُّر، يقول: كأن قطع الصوف المصبوغ الذي زُيِّنت به الهوادج في كل منزل نزلته هؤلاء النسوة ـ حبُّ عنب الثعلب إذا كان غير مُحَطم، لأنه إذا حُطِّم زايله لونه الأحمر.

في الانتقاش، ومن قال إن «الْعِهْنَ» هو الصوف دون تقييد جعل التشبيه في الانتقاش وتخلخل الأجزاءِ فقط، قال الحسن: والجبال يوم القيامة تسير بالريح ثم يشتد الأمر بها فتصير كالعِهْن، ثم لا يزال الأمر بها فتصير هباءً مُنْبَثًّا.

وقرأ السَّبعة والحسن والمدنيون وطلحة والناس: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ﴾ على بناءِ الفعل للفاعل، و«الْحَمِيمُ» ـ في هذا الموضع ـ: القريبُ والوليُّ، فالمعنى: ولا يسأله نصرة ولا منفعة لعلمه أنه لا يجدها عنده، قال قتادة: المعنى: ولا يسأله عن حاله لأنها ظاهرة، قد بصر كل أحد حالة الجميع وشُغل بنفسه، وقرأ ابن كثير ـ من طريق السُّدِّي ـ وأبو جعفر وشيبة ـ بخلاف عنهما ـ وأبو حيوة: [ولا يُسْأَلُ] على بناءِ الفعل للمفعول، فالمعنى: ولا يُسأل إبصاره؛ لأن كل مجرم له سيما يُعرف بها، وكذلك كل مؤمن له سيما خير، وقيل: المعنى: لا يُسأَل عن أعماله وذنوبه ليؤخذ بها وَلِيُّهُ وَوَزَرُه.

و[يُبَصَّرُونَهُمْ] ـ على هذه القراءات ـ قيل: معناه: في النار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: في المحشر يبصر المجرم حميمه ثم يفر عنه لشغله بنفسه، تقول: بَصُر فلان بالشيءِ وبَصَّرتُه به: أَرَيْتُه إيَّاه، ومنه قول الشاعر:

إذَا بَصَّرْتُكِ الْبَيْدَاءَ فَاسْرِي ... وَأَمَّا الآنَ فَاقْتَصِدي وَقِيلِي[1]

وقرأ قتادة: [يُبْصِرُونَهُمْ] بسكون الباءِ وكسر الصاد خفيفة، وقال مجاهد: [يُبْصِرُونَهُمْ] معناه: يُبصر المؤمنون الكفار في النار، وقال ابن زيد: يُبصر الكفارُ من أَضلَّهم في النار عبرةً وإِشفاقاً عليهم وخزياً لهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) بَصَّرها: جعلها تعرف وتدرك أحوالها ودروبها، والسُّرى: السَّير ليلاً، والاقتصاد: عدم الإفراط في الجهد، وقِيلي: استريحي في وقت القيلولة، أي وقت الظهر، يقول لناقته: إذا أنا دَلَلْتُك على الطريق فأسرعي بالسير ليلاً في الصحراء، أما الآن ونحن في وقت القيلولة فاستريحي وقللي جهدك.

المُجْرم ـ في هذه الآية ـ: الكافر، بدليل شدة الوعيد وذِكْرِ «لَظَى»، وقد يدخل مجرم المعاصي فيما ذكر من الابتداءِ. وقرأ جمهور الناس: [يَوْمِئِذٍ] بكسر الميم، وقرأ الأَعرج بفتحها، ومن حيث أُضيف إِلى غير متمكن جاز فيه الوجهان، وقرأ أَبو حيوة: ﴿مِّنْ عَذَابِ﴾ منوَّناً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بفتح الميم، «والصاحبة» ـ هنا ـ: الزوجة.

و«الْفَصِيلَةُ» ـ في هذه الآية ـ: قرابة الرجل الأَدنون، مثال ذلك بنو هاشم مع النبي ﷺ، والفصيلة في كلام العرب أَيضاً: الزوجة، ولكن ذِكْر «الصاحبة» في هذه الآية لم يُبق في معنى الفصيلة إِلاَّ الوجه الذي ذكرناه. وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ الفاعل هو الفداءُ الذي تضمنه قوله سبحانه: ﴿لَوْ يَفْتَدِي﴾، فهو كالمتقدم الذكر، وقرأ الزهري: [تُؤْوِيهُ] و[تُنْجِيهُ] برفع الهاءين.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ رَدٌّ لقولهم وما ودُّوه، أَي: ليس الأَمر كذلك، ثم ابتدأ الإِخبار عن «لَظَى» وهي طبقة من طبقات جهنم، وفي هذا اللفظ تعظيم لأَمرها وهولها. وقرأ السبعة، وأَبو جعفر والحسن، والناس: [نَزَّاعَةٌ] بالرفع، وقرأ حفص عن عاصم: [نَزَّاعَةً] بالنصب، فالرفع على أَن يكون [لَظَى] بدلاً من الضمير المنصوب و[نَزَّاعَةٌ] خبر [إِنَّ]، أَو على إِضمار مبتدأ، أَي: هي نزاعةٌ، أَو على أَن يكون الضمير في [إِنَّهَا] للقصة و[لَظَى] ابتداءً، و[نَزَّاعَةٌ] خبرٌ، أَو على أَن يكون [لَظَى] خبر [إِنَّ] و[نَزَّاعَةٌ] بدلاً من [لَظَى] أَو على أَن يكون [لَظَى] خبراً و[نَزَّاعَةٌ] خبرٌ بعد خبر، وقال الزجاج: [نَزَّاعَةٌ] رفع بمعنى المدح.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو القول بأَنها خبر ابتداءٍ تقديره: هي نَزَّاعَةٌ؛ لأَنه إِذا تضمن الكلام معنى المدح أَو الذم جاز لك القطع رفعاً بإِضمار مبتدأ، أَو نصباً بإِضمار فعل. ومن قرأ بالنصب فذلك إِمَّا على مدح [لَظَى] كما قلنا، وإِمَّا على الحال من [لَظَى] لما فيها من معنى التَّلَظِّي، كأَنه تعالىٰ قال: كلاَّ، إِنَّها النار تَتَلَظَّى نزاعةً، قال الزجاج: فهي حال مؤكدة.

و«الشَّوَى» جِلْد الإنسان، وقيل: جلد الرأْس والهامة، قاله الحسن، ومنه قول الأَعشى:

قَـالَـتْ قُتَيْلَـةُ مـا لَـهُ قَـدْ جُلِّلَـتْ شَيْبـاً شَـواتُـهْ؟[١]

ورواه أَبو عمرو بن العلاءِ: «سَرَاتُه»، فلا شاهد في البيت على هذه الرواية، قال أَبو عبيدة: سمعتُ عربياً يقول: «اقشعرَّت شَوَاتي». والشَّوى أَيضاً قوائم الحيوان، ومنه «عَبْلُ الشَّوَى»[٢]، والشَّوى أَيضاً كلُّ عضو ليس بمقتل، ومنه «رَمَى فأَشْوَى»[٣] إذا لم يُصب المقتل، وقال ابن جبير: الشَّوى: العَصَب والعقِب، فنارُ «لَظَى» تُذهب هذا من ابن آدم وتنزعه.

وقوله تعالىٰ: ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ يريد الكفار، واختلف الناس في دعائها ـ فقال ابن عباس وغيره: هي حقيقة، تدعوهم بأَسمائهم وأَسماءِ آبائهم، وقال الخليل بن أَحمد: هي عبارة عن حرصها عليهم واسْتُدنائِهَا لهم وما توقعه من عذابها، وقال ثعلب: [تَدْعو] معناه: تُهلك، تقول العرب: «دعاك الله» أَي أَهلكك، وحكاه الخليل عن العرب.

و«أَوْعَى» معناه: جعله في الأَوعية، تقول: وعيتُ العلم وأَوْعيت المال والمتاع، ومنه قول الشاعر:

الْخَيْـرُ يَبْقَـى وَإِنْ طَـالَ الـزَّمـانُ بِـهِ والشَّرُّ أَخْبَثُ ما أَوْعَيْتَ مِنْ زَادِ[٤]

وهذه إِشارة إِلى كفار أَغْبياء جعلوا جمع المال وكيد أَمرهم ومعنى حياتهم،

---

(١) البيت في اللسان، والطبري، والقرطبي، والبحر المحيط، وفتح القدير، وقد قيل: هو من الأبيات المنسوبة للأعشى، واستشهد به أيضاً أبو عبيدة في «مجاز القرآن»، والشوى: جِلْدة الرأس، والمفرد: شواة، وقد أنشد الأخفش هذا البيت لأبي عمرو بن العلاء فقال له: صحفتَ، وإنما هي: سَرَاتُهُ ـ بالسين ـ أي جوانبه، فسكت الأخفش ثم قال لمن حوله: بل هو الذي صحف وهي شواته.

(٢) الشَّوَى: جلدة الرأس، والشَّوَى: اليدان والرجلان وأطراف الأصابع، والشَّوَى: الشيءُ اليسير الهيِّن، وفي اللغة شواهد كثيرة لهذه المعاني، والعَبْل: الضخم من كل شيءٍ، هو عبل الذراعَيْن، وفرسٌ الشَّوَى: ضخم القوائم.

(٣) أي: رَمَى فأصاب الأطراف وهي ليست بمقتل.

(٤) هذا البيت لعَبِيد بن الأبرص، وهو من قصيدة له مطلعها:

طَـافَ الْخَيَـالُ عَلَيْنَـا لَيْلَـةَ الْـوَادي مِـنْ أُمِّ عَمْـرٍو، وَلَـم يُلْمِـمْ لِميعـادِ

وهو في الديوان، واللسان، وقال محقق الديوان: إن هذا البيت لم يرد إلاَّ في الخزانة والأغاني، وأوعَيْتَ: حفظتَ في وعاءٍ، وهو الشاهد هنا، والمعنى: إن الخير يبقى على الزمن مهما طال، وإن الشر هو أخبث ما حفظت وادخرت من زاد، هذا والقصيدة كلها فيها اضطراب في ترتيبها وعدد أبياتها تجده في المراجع المختلفة.

فجمعوه من غير حِلٍّ، ومنعوه من حقوق الله تعالىٰ، وكان عبد الله بن حكيم لا يربط كيسه ويقول: سمعتُ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ عموم لاسم الجنس، لكن الإشارة هنا إلى الكفار لأن الأمر فيهم وكيد كثير، و«الهَلَعُ» فزعٌ واضطراب يعتري الإنسان عند المخاوف وعند المطامع، ونحوُهُ قوله عليه الصلاة والسلام: «شَرُّ ما في العبد شُحٌّ هالِعٌ وَجُبْنٌ خالِعٌ»[١]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ معناه: إلاَّ المؤمنين الذين أَمْرُ الآخرة أوكد عليهم من أَمر الدنيا، والمعنى: إن هذا المعنى فيهم يقِلُّ لأنهم يجاهدونه بالتقوى. وقرأَ الجمهور: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ بالإفراد، وقرأَ الحسن: [على صَلَوَاتِهم] بالجمع، وقوله تعالىٰ: [دائِمُونَ]، قال الجمهور: المعنى: مرابطون قائمون لا يخلون في وقت من الأوقات بها فيتركونها، وهذا في المكتوبة، وأَما النافلة فالدوام عليها هو الإكثارُ مِنْهَا بحسب الطاقة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أَحبُّ العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه»[٢]، وقال ابن مسعود: الدوامُ: صلاتُها لوقتها، وتَرْكُها كُفْر، وقال عقبة بن عامر: [دائِمون]: يَقِرُّون في صلاتهم ولا يلتفتون يميناً ولا شمالاً، ومنه الماءُ الدائم[٣].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾.

---

(١) أَخرجه أبو داود في الجهاد، وأَحمد في المسند (٢/ ٣٠٢)، عن أَبي هريرة رضي الله عنه، والهَلَع: شدةُ الجزع الذي يجعل الإنسان غير قادر على التصرف بحكمة أمام الخير والشر. والخالع: الذي كأنه يخلع فؤاده لِشدَّته.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، ومسلم في المسافرين، وأبو داود في التطوع، والنسائي في قيام الليل، وابن ماجه في الزهد، وأحمد في أكثر من موضع في مسنده، وهو عن عائشة رضي الله عنها، وقد اختلفت أَلفاظُهُ باختلاف الروايات، وفي البخاري عن عائشة أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، فقال: من هذه؟ قالت: فلانة، تذكر من صلاتها قال: مَهْ، عليكم بما تُطيقون، فوالله لا يملُّ الله حتى تملُّوا، وكان أَحبَّ الدِّين إليه ما داوم عليه صاحبه. (كتاب الإيمان).

(٣) أي: الماءُ الساكن، كما جاءَ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يبولنَّ أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه».

قال قتادة، والضحاك، وقوم: «الحقُّ المعلومُ» هو الزكاة المفروضة. وقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد: هذه الآية في الحقوق التي سوى الزكاة، وهي ما ندبت الشريعةُ إليه من المواساة، وقد قال ابن عمر، والثعلبي، ومجاهد، وكثير من أَهل العلم: إن في المال حقاً سوى الزكاة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الأَصحُّ في هذه الآية؛ لأَن السورة مكية وفرض الزكاة وبيانها إنما كان بالمدينة.

و«السائل»: المتكفف، و«المحرومُ»: الذي قد ثبت فقره ولم تنجح سعايتهُ لدنياه، قالت عائشة رضي الله عنها: هو الذي لا يكاد يتيسَّر له مكسبه، وقال بعض أَهل العلم: المحروم من احترق زرعه، وقال بعضهم: المحروم من ماتت ماشيته.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه أَنواع الحرمان، لا أَن الاسم يلزمُ هذا خاصَّةً.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: المحرومُ: الكَلْبُ، أَراد ـ والله أَعلم ـ أَن يعطي مثالاً من الحيوان ذي الكبد الرطبة لما فيه من الأَجر حسب الحديث المأْثور(١)، وقال الشعبي: أَعياني أَن أَعلم من المحروم، وحكى عنه النقاشُ أَنه قال وهو ابن سبعين سنة: سأَلتُ عنه وأَنا غلامٌ فما وجدتُ شفاءً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

رحم الله تعالىٰ الشعبي فإنه في هذه المسأَلة محروم، ولو أَخذه اسم جنس فيمن عَسُرت مطالبه كان له، وإنما كان يطلب نوعاً مخصوصاً كالسائل.

و«يَوْمُ الدِّين» هو يوم القيامة، سُمِّي بذلك لأَنه يوم المجازاة، والدِّين: الجزاءُ،

---

(١) جاء هذا في حديث مشهور، رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، ومالك، وأحمد، عن أَبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثَّرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثْلُ الذي بلغ بي، فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه ثم رقي فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله، وإنَّ لنا في البهائم أَجراً؟ قال: في كل كبدٍ رَطْبة أَجْرٌ»، واللفظ للبخاري.

تقول العرب: «كما تُدِينُ تُدان»(١). ومنه قول الفِنْد الزمَّانيِّ:

وَلَـــمْ يَبْـــقَ سِـــوَى الْعُـــدْوا ... نِ دِنَّـــاهُـــمْ كَمَـــا دَانُـــوا(٢)

و«الإشفاق»: الخوف من أمر يتوقع؛ لأن نيل عذاب الله تعالىٰ للمؤمنين متوقَّع، والأكثر ناج بحمد الله تبارك وتعالىٰ، لكن عذاب الله عزَّ وجل لا يأمنه إلاَّ من لا بصيرة له. و«الفروج» في هذه الآية هي الفروج المعروفة، والمعنى: [يحفظونها](٣) من الزنى، وقال الحسن بن أبي الحسن: أراد فروج الثياب، وإلى معنى الوطءِ يعود، ثم استثنى تعالىٰ الوطءَ الذي أباحه الشرعُ في الزوجات والمملوكات. وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾، حسَّن دخول «عَلَى» في هذا الموضع قوله تعالىٰ: ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، فكأنه تعالىٰ قال: إلاَّ أنهم غير ملومين على أزواجهم وما ملكت أيمانهم.

وقوله تعالىٰ: [ابْتَغَى] معناه: طلب، وقوله سبحانه: ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ معناه: سوى ما ذُكر، كأنه أمْر قد حُدَّ فيه حَدٌّ فمن طلب بُغيته وراءَ الحدِّ فهو كمستقبل حدٍّ في

---

(١) هذا مثل معروف، ومعناه: كما تُجازي الناسَ تُجازَى منهم، يعني: إن فعلتَ حسناً كان جزاؤك من الناس حسناً، وإن فعلت سيئاً كان جزاؤك سيئاً، ويجوز أن يجري كلا الأمرين على الجزاء، أي: كما تجازي أنت الناسَ على صنيعهم مَعَك كذلك تُجازَى على صنيعك معهم، قال خُوَيْلد بن نوفل الكلابي يخاطب الحارث بن أبي شَمِر الغسَّانيَّ وكان قد اغتصب ابنته:

يَـــا أَيُّهـــا الْمَلِـــكُ الْمَخُـــوفُ أَمَـــا تَـــرَى ... لَيْـــلاً وَصُبْحـــاً كَيْـــفَ يَخْتَلِفَـــانِ؟
هَـــلْ تَسْتَطِيـــعُ الشَّمْـــسُ أَن تَـــأْتـــي بِهَـــا ... لَيْـــلاً وَهَـــلْ لَـــكَ بِـــالْمَلِيـــكِ يَـــدَانِ؟
يَـــا جَـــارِ أَيْقِـــنْ أَنَّ مُلْكَـــكَ زَائِـــلٌ ... واعْلَـــم بِـــأَنَّ كَمَـــا تَـــدِيـــنُ تُـــدَانُ

ونلاحظ أن في البيت الأخير إقواءً.

(٢) الفِنْد الزمَّانيُّ اسمه شَهْلُ بن شيبان بن ربيعة بن زِمَّان، والفِنْد: القطعة من الجبل، وهو واحد من فرسان ربيعة المعدودين، والبيت من قصيدة قالها في حرب البسوس، وأورد أبو تمام قطعة من أوّلها في الحماسة، وهو أيضاً في خزانة الأدب للبغدادي وفي المغني، ومن أبيات هذه القصيدة:

صَفَحْنَـــا عَـــنْ بَنِـــي ذُهْـــلٍ ... وقُلْنَـــا: الْقَـــوْمُ إِخْـــوانُ
فَلَمَّـــا صَـــرَّحَ الشَّـــرُّ ... فَـــأَضْحَـــى وَهْـــو عُـــرِيَـــانُ
وَلَـــمْ يَبْـــقَ سِـــوَى الْعُـــدْوا ... نِ دِنَّـــاهُـــمْ كَمَـــا دانُـــوا

يقول: عفونا عنهم، فلما انكشفت حقيقتهم وظهر الشرُّ واضحاً لم يبق أمامنا إلاَّ أن نقاتلهم ونعتدي عليهم كما اعتدوا علينا.

(٣) زيادة لتوضيح المعنى.

الأَجرام وهو يتعدى وراءَه إِلى خَلْفه، و«العادون»: الذين يتجاوزون حدود الأَشياءِ التي لها حدود، كان ذلك في الأَجرام أَو في المعاني.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا ۖ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

«الأَمانات» جمع أَمانة، وجَمَعها لأَنها تكون متنوعة من حيث هي في الأَموال والأَسرار، وفيما بين العبد وربِّه سبحانه فيما أَمَرَهُ به ونهاه عنه، قال الحسن: الدين كلُّه أَمانة، وقرأَ ابن كثير وحده من السبعة: [لِأَمَانَتِهِمْ] بالإِفراد، و«العَهْدُ»: كلُّ ما تقلده الإِنسان من قول أَو فعل أَو مودة، إِذا كانت هذه الأَشياءُ على طريق البرِّ فهو عهد ينبغي رَعْيُه وحفظه، وقد قال النبي ﷺ: «حُسْن العهد من الإِيمان»(١). و[رَاعُونَ] جمع راع أَي حافظ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ معناه ـ في قول جماعة من المفسرين ـ أَنهم يحفظون ما يشهدون فيه ويتيقَّنونه ويقومون بمعانيه حتى لا يكون لهم فيه تقصير، وهذا هو وصف من تمثيل النبي عليه الصلاة والسلام «عَلَى مِثْل الشمس فاشْهد»(٢)، وقال آخرون: معناه: الذين إِذا كانت عندهم شهادة ورأَوْا حقاً يدرس، أَو حُرمة الله تعالىٰ تُنْتَهَك قاموا بشهادتهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: شهادتهم في هذه الآية أَن الله تعالىٰ وحده لا شريك له، وروي عن النبي ﷺ أَنه قال: «خير الشهداءِ الذي يأَتي بشهادته قبل أَن يُسْأَلها»(٣). واختلف الناس في معنى هذا الحديث بحسب المعنيين اللذيْن ذكرنا في الآية: أَحدهما أَن يكون يحفظها متقنة فيأَتي بها ولا يحتاج أَن يستفهم

(١) الذي في البخاري في كتاب الأدب: «باب حُسْنُ العَهْد من الإيمان»، وتحته حديث عن عائشة، وغيرتها من خديجة رضي الله عنهما، وفي الترمذي: «ما جاء في حسن العهد». والذي ورد في العهد عن الرسول ﷺ قوله: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

(٢) لم أقف عليه.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأحكام، وأحمد في مسنده ٥/ ١٩٣، ومُسْلم في كتاب الأقضية، عن زيد بن خالد الجهني أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أُخبركم بخير الشهداءِ؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها، أو يُخبر بشهادته قبل أن يُسألها».

عن شيءٍ منها ولا أَن يعارض، والثاني إِذا ما رأَى حقاً يعمل بخلافه وعنده في إِحياءِ الحقِّ شهادةٌ، وروي أَيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «سيأَتي قوم يَخُونون ولا يُؤْتمنون، ويَشهدون ولا يُسْتشهدون، ويظهر فيهم السِّمَن»(١)، واختلف الناس في معنى هذا الحديث ـ فقال بعضهم: هم قوم مؤمنون يتعرضون ويحرصون على وضع أَسمائهم في وثائق الناس، وينصبون لذلك الحبائل من زيٍّ وهيئة، وهم غير عدول في أَنفسهم، فيغرُّون بذلك ويضرُّون.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا في ابتداءِ الشهادة لا في أَدائها، ويجيءُ قوله عليه الصلاة والسلام: «وَلاَ يُستشهدون»، أَي: وهم غير أَهل لذلك.

وقال آخرون من العلماءِ: هم شهود الزُّور، يؤدونها والمشهود عليهم لم يُشهدهم ولا الآخر(٢).

وقرأَ حفص عن عاصم: (بشَهادَاتِهِمْ) على الجمع، وهي قراءَة أَبي عبد الرحمن، والباقون [بشَهَادَتِهِمْ] على الإِفراد الذي هو اسم الجنس. و«المحافظة على الصلاة»: إِقامتها في أَوقاتها بشروط صحتها وكمالها، وقال ابن جريج: يدخل في هذه الآية التطوع.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ الآية. نزلت لأَن رسول الله ﷺ كان يصلي عند الكعبة أَحياناً ويقرأُ القرآن، فكان كثير من الكفار يقومُون من مجالسهم مسرعين إِليه يتسمَّعون قراءَته، ويقول بعضهم لبعض: شاعر وكاهن ومفتر وغير ذلك. و[قِبَلَكَ] معناه: فيما يَليك، و«المهطع»: الذي يمشي مسرعاً إِلى شيءٍ قد أَقبل عليه ببصره، قال ابن زيد: لا يطرف.

---

(١) أَخرجه البخاري في الشهادات، وفضائل الصحابة، والأَيمان، وأبو داود في السُّنة، والترمذي في الفتن، والنسائي في الأَيمان، وأَحمد في مسنده ٤/٤٢٦، ٤٢٧، ٤٣٦، ٤٤٠، ولفظه كما في البخاري: عن عمران بن حُصَيْن رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «خيركم قرني، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يَلُونهم ـ قال عمران: لا أدري أَذكَر النبي ﷺ بَعْدُ قرنين أو ثلاثة ـ قال النبي ﷺ: إن بعدكم قوماً يخونون ولا يُؤْتمنون، ويشهدون ولا يُستشهدون، ويَنْذرُون ولا يَفُون، ويظهر فيهم السِّمَن» ومعنى قوله: «ويظهر فيهم السِّمَن» أنهم يتعاطون أسباب السِّمَن ويتوسعون في المآكل والمشارب التي تسبب السِّمَن. (راجع اللسان وكتاب النهاية في غريب الحديث لابن الأثير).

(٢) في بعض النسخ: «هم شهود الزُّور لأنهم يؤدونها والحالُ لم تُشهدهم ولا المشهود عليهم».

و[عِزِينَ] جمع عِزَة، قال بعض النحاة: أَصلها عِزْوَة، وقال آخرون منهم، أَصلها عِزْهة وجمعت بالواو والنون عِوَضاً مما انحذف منها نحو سنة وسنون، ومعنى العِزَة: الجمع اليسير، فكأَنهم قالوا: ثلاثةً ثلاثةً، أَو أَربعةً أَربعةً، ومنه قول الراعي:

أَخَليفَـةَ الـرَّحْمـنِ إِنَّ عَشِيـرَتـي ... أَمْسَـى سَـراتُهُـمُ إِلَيْـكَ عِـزِينـاً[1]

وقال أَبو هريرة رضي الله عنه: خرج النبي ﷺ على أَصحابه وهم حِلَقٌ متفرقون فقال: «ما لي أَراكم عِزِينَ»[2]؟

وقوله تعالىٰ: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ نزلت لأَن الكفار قالت: إِن كانت ثَمَّ آخرةٌ وجَنَّة فنحن أَهلها وفيها؛ لأَن الله تعالىٰ لم ينعم علينا في الدنيا بالمال والبنين وغير ذلك إِلاَّ لرضاه عنا. وقرأَ السبعة، والحسن، والجمهور: [يُدْخَلَ] بضم الياءِ وفتح الخاءِ على البناءِ للمفعول، وقرأَ المفضل عن عاصم، وابنُ يَعْمر، وأَبو رجاءِ، وطلحة: [يَدْخُلَ] بفتح الياءِ وضم الخاءِ على بناءِ الفعل للفاعل، وقوله تعالىٰ: [كَلاًّ] رَدٌّ لقولهم وطمعهم، أَي: الأَمر ليس كذلك.

ثم أَخبر تعالىٰ عن خلقهم من نطفة قذرة، وأَحال في العبارة عنها على علم الناس، أَي: مَنْ خُلق من ذلك فليس بنفس خَلْقه يُعطى الجنة، بل بالأَعمال الصالحة إِن كانت، وقال قتادة في تفسيرها: إِنما خُلقتَ من قَذَرٍ يا ابْنَ آدم فاتَّقِ الله تعالىٰ، وقال أَنَسٌ: كان أَبو بكر رضي الله عنه إِذا خطبنا ذكر مَنَاتِنَ ابنِ آدم، ومُرُورَهُ في مجرى البول مرتين، وكونَهُ نطفة في الرَّحِمِ ثم عَلَقة ثم مُضْغة إِلى أَن يخرج فيتلوَّث في نجاستِه طفلاً، فلا يُقلع أَبو بكر رضي الله عنه حتى يتقذَّر أَحدنا نفسه.

---

(١) الشاعر هو حُصَيْن بن معاوية، من بني نُمَير، وكان يقال لأبيه في الجاهلية: معاوية الرئيسُ، وكان سيداً، وإنما قيل له: «الراعي» لأنه كان يصف راعي الإبل، وقيل: سُمّي «راعي الإبل» ببيت قاله. والسرَاةُ: الأشراف الكرام، وهي جمع سَرِيٍّ التي تعطي معنى المروءة والسخاء والشرف، وَعِزِينَ: متفرقون جماعات جماعات. وهي موضع الشاهد في البيت.

(٢) أَخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة، وأَخرج عبد بن حميد عن عُبادة بن أَنس قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد فقال: «ما لي أراكم عزين حِلَقاً حِلَق الجاهلية، قعد رجل خلف أَخيه»، وأَخرج عبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن مردويه مثلَه عن جابر بن سمرة. (الدر المنثور).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

قرأ الجمهور: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ ﴾ وذلك على أن تكون [لا] زائدة، أو على أن تكون رداً لفعل الكفار وقولهم، ثم يقع الابتداءُ بالقَسَم، وقرأ ابن كثير: [فَلأُ قْسِمُ] دون ألف مفردة.

و«المشارقُ والمغارب» هي مطالع الشمس والقمر وسائر الكواكب وحيثُ تَغْرُب لأنها مختلفة عند التفصيل، فلذلك جمع، وقرأ عبد الله بن مسلم، وابن محيصن: [بِرَبِّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ] على الإفراد، ومتى ورد المشرق والمغرب على الإفراد فهي عبارة عن موضع الشروق وموضِع الغروب بجملته وإن كان يتفصل، ومتى ورد المشرقان والمغربان فهي عبارة عن طرفي موضع الشروق وطرفي موضع الغروب. وأقسم الله تعالىٰ في هذه الآية بمخلوقاته على إيجاب قدرته على أن تُبَدِّلَ خيراً من ذلك العالم، وأنه لا يسبقه شيءٌ إلى إرادته.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ ﴾ الآية وعيدٌ، وما فيه من معنى المهادنة فمنسوخ بآية السيف، ورُوي عن ابن كثير أنه قرأ: [يَلْقَوْا] بغير ألف، وهي قراءَة أَبي جعفر، وابن محيصن.

و﴿ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ ﴾ بدل من قوله تعالىٰ: ﴿ يَوۡمَهُمُ ﴾، وقرأ الجمهور: (يَخْرُجُون) بفتح الياءِ وضمِّ الراءِ، وروى أَبو بكر عن عاصم ضمَّ الياءِ وفتحَ الراءِ.

و«الأَجْداثُ»: القبور. و«النُّصُب»: ما نُصب للإنسان فهو يقصد مسرعاً إليه من عَلَم أَو بناءٍ أَو صَنَم لأَهل الأصنام، وقد كثر استعمال هذا الاسم في الأَصنام حتى قيل لها: الأَنصاب، ويقال لشبكة الصائد: نُصُب، وقال أَبو العالية: ﴿ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴾ معناه: إلى غايات يستبقون، وقرأ جمهور السبعة وأَبو بكر عن عاصم: (نَصْب) بفتح النون[1]، وهي قراءَة أَبي جعفر، ومجاهد، وشيبة، وابن وثاب، والأَعرج، وقرأ

(١) مع سكون الصاد، نص على ذلك كل من القرطبي وأبي حيان في تفسيريهما.

الحسن، وقتادة ـ بخلاف عنهما ـ: [نُصْب] بضم النون[١]، وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم: [نُصُب] بضم النون والصاد، وهي قراءة الحسن عن أَبي العالية، وزيد بن ثابت، وأَبي رجاءٍ. وقرأ مجاهد، وأَبو عمران الجوني: [نَصَب] بفتح النون والصاد.

و[يُوفِضُونَ] معناه: يسرعون، ومنه قول الراجز:

لأَنْعَتَــنْ نَعــامَــةً مِيفــاضَــا خَـرجاءَ ظَلَّت تَطْلُبُ الإِضاضَـا[٢]

و[خاشِعَةً] نصب على الحال ومعناه: ذليلةً منكسرة، و[تَرْهَقُهُمْ] معناه: تظهر عليهم وتُلِحُّ وتُضَيِّق نفوسهم، ومن هذه اللفظة «الْمُرَهَّق» من السادة بحوائج الناس[٣]، و«المُرْهَقُ» بالدَّيْن[٤]، «وخُلُقٌ فيها رَهَق»، أَيْ إسراعٌ إِلى الناس، و«سَيْفُ فلان فيه رَهَق»، ومنه «مراهقة الأَحلام»، و«إِرهَاقُ الصلاة» أي مزاحمة وقتها[٥].

تم تفسير سورة المعارج والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) مع سكون الصاد، قال ذلك أَبو حيان في «البحر المحيط».

(٢) هذا الرجز في اللسان (أَضَضَ ـ وَوَفَضَ)، واستشهد به أبو حيان الأندلسي في «البحر»، وكذلك ذكره الفراء في «معاني القرآن». ولم ينسب أحدٌ هذا الرجز، والنعامةُ الميفاضُ: المُسْرِعةُ، والخَرْجَاءُ هي التي فيها لونان سوادٌ وبياضٌ، وقيل: التي لون سوادها أكثر من بياضها يقال: اخْرَجَّت النعامةُ فهي خَرجاء، والإِضاضُ هو الملجأ، قال الفراءُ: «تطلب الإضاضا» معناه: تطلب موضعاً تدخل فيه وتلجأُ إِليه، وفي الطبري واللسان «تغدو» بدلاً من «تطلب». يصف الشاعر النعامة بأنها سريعة، وبأن لونها بين السواد والبياض، وبأنها خائفة تطلب ملجأً تلجأُ إِليه.

(٣) قال في اللسان: الْمُرَهَّقُ: الذي يغشاهُ السؤالُ والضِّيفان، قال ابن هَرْمة:

خَيْـــرُ الـــرِّجَـــال الْمُـــرَهَّقُــونَ كَمَـــا خَيْـــرُ تـــلاعِ الْبـــلادِ أَكْلَـــؤُهَـــا

(٤) وفي اللسان أَيضاً: رَهِقَه دَيْنٌ فهو يَرْهَقُه إذا غَشِيَهُ.

(٥) وفيه أَيضاً: «وأَرْهَقْنَا الصلاةَ»: أَخَّرناها حتى دنا وقتُ الأُخرى، وفي حديث ابن عمرو: «وأرهقنا الصلاةَ ونحن نتوضأُ» أَي أخرناها عن وقتها حتى كدنا نُلحقها بالصلاة الأُخرى، ورهِقَتْنا الصلاة رَهَقاً: حانت.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة نوح

وهي مكية بإجماع من المتأولين، قال أُبَيُّ بن كعب: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح»[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾.

نوحٌ عليه السلام هو نوح بن لامك[٢]، وقد مرَّ ذكره وذكر عمره ﷺ، وصُرف «نوحٌ» مع عُجمته وتعريفه لِخِفَّته وسكون الوسط من حروفه.

قوله تعالىٰ: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾، يحتمل أن تكون [أَنْ] مفسِّرة لا موضع لها من الإعراب، ويحتمل أن يكون التقدير: بأن أَنذر قومك، وهي ـ على هذا ـ في موضع نصب عند قوم من النحاة، وفي موضع خفض عند آخرين، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: [إِلَى قَوْمِهِ أَنْذِرْ قَوْمَكَ] دون «أَن»، و«العذاب الذي تُوُعِّدوا به» يحتمل أن يكون عذاب الدنيا، وهو الأَظهر والأَليق بما يأْتي بعد، ويحتمل أن يكون عذاب الآخرة.

وقرأَ جمهور السبعة: [أَنُ اعْبُدوا] بضم النون من [أَن] إتباعاً لضمة الباءِ وتَرْكاً لمراعاة الحائل لخفَّة السكون، فهو كأَن ليس ثَمَّ حائل، وقرأَ عاصم، وحمزة، وأَبو عمرو ـ في رواية عبد الوارث ـ: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟﴾ بكسر النون، وهذا هو الأَصل في التقاءِ

(١) لم أَقف عليه.
(٢) هو نوح بن لامك بن مُتَوَشْلخ بن أَخنوخ ـ وهو إدريس ـ بن يرد بن مهلايل بن أَنوش بن قَينان بن شيث بن آدم عليه السلام. هكذا ذكر المفسرون.

الساكنين من كلمتين، و[يَغْفِرْ] جواب الأمر، وقوله سبحانه: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ قال قوم: [مِنْ] زائدة، وهذا نحوٌ كوفي، وأَما الخليل وسيبويه فلا يجوز عندهما زيادتها في الواجب، وقال قوم: هي لبيان الجنس، وهذا ضعيف لأَنه ليس هنا جنس يُبَيَّن، وقال آخرون: هي بمعنى «عن»، وهذا غير معروف في أَحكام «مِنْ»، وقال آخرون: هي لابتداءِ الغاية، وهذا قول يَتَّجه، كأَنه يقول: يبتدىءُ الغُفران من هذه الذنوب العظام التي لهم، وقال آخرون: وهي للتبعيض، وهذا عندي أَبين الأَقوال، وذلك أَنه لو قال: «يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» لعَمَّ هذا اللفظ ما تقدم من الذنوب وما تأَخر عن إِيمانهم، والإِسلام يجبُّ ما قبله، فهي بعضٌ من ذنوبهم، فالمعنى: يغفر لكم من ذنوبكم، وقال بعض المفسرين: أَراد: يغفر لكم من ذنوبكم المهمَّ الموبق الكبير؛ لأَنه أَهم عليهم، وبه ربما كان اليأْسُ عن الله تعالىٰ قد وقع لهم، وهذا قولٌ مُضَمَّنه أَن [مِنْ] للتبعيض، والله تعالىٰ الموفق. وقرأَ أَبو عمرو: [يَغْفِر لَكُمْ] بالإِدغام، ولا يجيز ذلك الخليل وسيبويه؛ لأَن الراءَ حرف مكرر فإِذا أُدغم في اللام ذهب التكرير واختلَّ المسموع.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مما تَعَلَّلت المعتزلة به في قولهم: «إِن للإِنسان أَجلين»، وذلك أَنهم قالوا: لو كان واحداً مُحَدَّداً لما صحَّ التأْخير إِن كان الحدُّ قد بلغ، ولا المعاجلة إِن كان الحدُّ لم يبلغ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس لهم في الآية تعلُّق؛ لأَن المعنى أَن نوحاً عليه السلام لم يعلم هل هم مِمَّن يؤخر أَو ممن يعاجل، ولا قال لهم إِنكم تؤخرون عن أَجل قد حان لكم، لكن قد سبق في الأَزل أَنهم إِمَّا مِمَّن قُضي له بالإِيمان والتأْخير، وإِمَّا مِمَّن قُضي عليه بالكفر والمعاجلة، ثم تشدَّد هذا المعنى ولاح بقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾.

وقد حكى مكيٌّ القول بالأَجلين ولم يُقَدِّرْ قدره. وجواب [لَوْ] مُقدَّر يقتضيه المعنى، كأَنه قال: فما كان أَحزمكم وأَسرعكم إِلى التوبة لو كنتم تعلمون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ

إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝١١﴾.

هذه المقالة قالها نوح عليه السلام بعد أن طال عمره وتحقق اليأس من قومه، وقوله: ﴿لَيۡلٗا وَنَهَارٗا﴾ عبارة عن استمرار دعائه وأنه لم يَنِ فيه قط. ويروى عن قتادة أن نوحاً عليه السلام كان يجيئه الرجل من قومه بابنه فيقول لابنه: يا بني احذر هذا الرجل فإن أبي قد حذرني إياه ويقول إنه مجنون. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: [دُعَائِيَ] بالهمز وفتح الياءِ، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي بسكون الياءِ دون همز، وروى شبل عن ابن كثير: [دُعَايَ] بنصب الياءِ دون همز مثل «هدايَ»، وقرأ عاصم أيضاً، ويعقوب، وسلام بهمزة وياءٍ ساكنة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾ معناه: ليؤمنوا فيكون ذلك سبب الغفران، وقوله سبحانه: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ يحتمل أن يكون حقيقة ويحتمل أن يكون عبارة عن إعراضهم وشدة رفضهم لأقواله ودعائه، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾، ومعناه: جعلوها أغطية على رؤوسهم. و«الإِصرارُ»: الثبوت على معتقد مَّا، وأكثر استعماله في الذنوب.

ثم كرر ﷺ صفة دعائه لهم بياناً وتوكيداً، و[جِهاراً] يريد علانيةً في المحافل، و«الإِسرارُ» ما كان من دعائه الأفراد بينه وبينهم على انفرادٍ، وهذا غاية الجد. وقوله: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ... يُرْسِلِ السَّماءَ﴾ يقتضي أن الاستغفار سبب لنزول المطر في كل أُمة، ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه استسقى بالناس فلم يزد على أن استغفر ساعةً ثم انصرف، فقال له قوم: ما رأيناك اسْتَسْقيت يا أمير المؤمنين، فقال: والله لقد استنزلت المطر بمجاديح السماءِ[1]، ثم قرأ هذه الآية رضي الله عنه، وشكا رجل إلى الحسن الجدب فقال له: استغفر الله تعالىٰ، وشكا إليه آخر الفقر فقال له: استغفر الله سبحانه، وقال له آخر: ادع الله تعالىٰ أن يرزقني ولداً، فقال له: استغفر الله تعالىٰ، فقيل له في ذلك فنزع بهذه الآية. والاستغفار الذي أحال عليه الحسن ليس هو

---

(١) مجاديحُ السماء: أنواؤها، يقال: أرسلت السماءُ مجاديحها، والمفرد: مِجْدح وهو نجم من النجوم كانت العرب تزعم أنها تمطر به، وعمر رضي الله عنه أراد بقوله أن يُبْطل الأنواءَ وأن يكذب بها، وأن يقول لهم: إن الاستغفار هو الذي يُستسقى به وليست النجوم.

عندي لفظة الاستغفار فقط، بل الإِخلاص والصدق في الأَقوال والأَعمال، وكذلك كان استغفار عمر رضي الله عنه.

ورُوي أَن قوم نوح عليه السلام كان قد أَصابتهم قحوط وأَزمة فلذلك بدأَهم في وعده بأَمر المطر ثم ثنَّى بالأَموال والبنين، قال قتادة: لأَنهم كانوا أَهل حب للدنيا وتعظيم لأَمرها، فاستدعاهم الله تعالىٰ إِلى الآخرة من الطريق التي يحبونها. و«مِدْرار» مفعال من «الدَّرِّ» كمذكار وميقات، وهذا البناءُ لا تلحقه هاءُ التأَنيث.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

وعدهم بالأَموال والبنين والجنات والأَنهار لمكان حبهم للدنيا، واختلف الناس في معنى قوله تعالىٰ حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ـ فقال أَبو عبيدة وغيره: معناه: تخافون، ومنه قول الهذلي:

إِذا لَسَعَتْـهُ النَّحْـلُ لَـمْ يَـرْجُ لَسْعَهَـا ... وَخَالَفَها في بَيْتِ نُوبٍ عَوَامِلِ[1]

قالوا: و«الوَقَارُ» بمعنى العظمة والسلطان، فكأَن الكلام ـ على هذا ـ وعيدٌ وتخويفٌ. وقال بعض العلماءِ: [تَرْجونَ] على بابها في الرجاءِ، وكأَنه قال: ما لكم لا تجعلون رجاءَكم لله تعالىٰ وللقائه، و[وَقَاراً] يكون ـ على هذا التأْويل ـ منهم، كأَنه

(١) هذا البيت لأَبي ذُؤَيب الهُذلي، واسمه خُويلد بن خالد بن مُحَرِّث، وهو من قصيدته المشهورة (أَسَأَلْتَ رَسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ)؟

وفيه يصف الشاعر كيف يجمع الرجل الماهر عسل النحل من أعلى الجبل. ومعنى (لَم يَرج) لم يخف، وهو موضع الاستشهاد هنا، وخَالَفَهَا: جاء إلى عَسَلِها وهي ترعى بعيداً، و«نُوب» معناها: تنتاب المرعَى فتأكل ثم ترجع فتصنع العسل، و«عوامل» تعمل العسل، وكان الشاعر يتحدث عن حبيبته فقال: إن حديثها مثل العسل الممزوج باللبن، ثم بدأ يتحدث عن العسل، وأن النحل تعيش في أعلى قمة في الجبل فلا يستطيع الوصول إليها إلا حاذق ماهر، يصعد إليها على الحبال، وإذا لسعته النحل فإنه لا يخاف هذا، وهو يتحين الوقت الذي تخرج فيه إلى المرعى بعيداً فيأتي إلى عسلها ليجمعه من بيت كل من فيه يعمل.

يقول: تُؤَدَةً منكم وتمكُّناً في النظر؛ لأَن الكفر مُضَمَّنه الخفة والطيش وركوب الرَّأس.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، قال ابن عباس، ومجاهد: هي إشارة إلى التدريج الذي للإِنسان في بطن أُمِّه من النطفة والعلقة والمضغة، وقال جماعة منْ أَهل التأْويل: هي إشارة إلى العبرة في اختلاف أَلوان الناس وخَلْقهم وخُلُقهم ومِلَلِهِم، و«الأَطوارُ»: الأَحوال المختلفة، ومنه قول النابغة:

فَـإِنْ أَفـاقَ فَقَـدْ طَـارَتْ عَمَـايَتُـهُ   وَالْمَـرءُ يُخْلَـقُ طَـوْراً بَعْـدَ أَطْـوَارِ(١)

وقرأَ الجمهور: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ بالتَّاءِ، وقرأَت فرقة بالياءِ على فعل الغائب، و[طِبَاقاً] قيل: هو مصدر، أَي مطابقة، جعل كل واحدة طبقاً للأُخرى، ونحوه قول امرئِ القيس:

. . . .   طَبَّــقَ الأَرْضَ تَحَــرَّى وَتَــدِرْ(٢)

وقيل: هو جمع «طبق»، وهو نعت لـ «سَبْع»، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [طباقٍ] بالخفض على النعت لـ [سَمَوات]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ ساغ ذلك لأَن القمر من حيث هو في إحداها فهو في الجميع، ويُروى أَن القمر في السماءِ الدنيا، وقال عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم: إن الشمس والقمر أَقفاؤهما إلى الأَرض وإقبال نورهما وارتفاعه في السماءِ، وهذا الذي تقتضيه لفظة السراج، وقيل: إن الشمس في السماءِ الخامسة، وقيل: في الرابعة، وقال عبد الله بن

(١) هذا البيت من قصيدة نابغة بني ذبيان التي بدأها بقوله: (عُوجُوا فَحَيُّوا لِنُعْمٍ دِمْنَةَ الدَّارِ)، يصف بيت «نُعْم» حبيبته بعد أن رحلت عنه ولم تترك غير الذكريات الحلوة، والضمير في (أفاق) يعود على قلبه، والعَمَاية: الضَّلال، يقول: لَولاَ ما كان بيني وبين نُعْم من صلات ومحبة لأقصر قلبي عن حبها، فإن أَفاق من الهوى فلا عجب في ذلك فقد طالت ضلالته، والمرءُ يمكن أن يتبدل وتتغير أحواله، فهو كقول الآخر: (صحا القلبُ عن سلمى وأقصر باطله).

(٢) هذا عَجُز بيت جعله امرؤ القيس مطلع أبيات يصف فيها مطراً دام عليهم يوماً وليلة، والبيت بتمامه:

دِيَمـــةٌ هَطْـــلاءُ فيهـــا وَطَـــفٌ   طَبَّـــقَ الأَرْضَ تَحَـــرَّى وَتَـــدِرْ

والدِّيمة: المطر الذي دام يوماً وليلة، أو يدوم طويلاً في سكون، وهَطْلاء: تتابع ماؤُها متفرقاً، والوَطَفُ: القُرْب من الأرض مع كثرة الماء، فالسحابة التي ينزل منها المطر قريبة من الأرض وغزيرة الماءِ، وطَبَّق الأَرْضَ: عمها وشملها كلها، وتحرَّى: تقصد حِرَاهم وهو الفناءُ، ومعنى تَدِر: تعتمد المكان وتثبت فيه.

عمرو: هي في الشتاءِ في الرابعة، وفي الصيف في السابعة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ استعارة، من حيث أخذ آدم عليه السلام من الأرض ثم صار الجميع نَابتاً منه، وقوله: [نَباتاً] مصدر جار على غير المصدر، والتقدير: فَنَبَتُّم نباتاً، و«الإعادة فيها» هي بالدفن فيها الذي هو عُرف البشر، و«الإخراجُ» هو بالبعث يوم القيامة لموقف العرض والجزاءِ.

وقوله تعالىٰ: [بِسَاطاً] يقتضي ظاهره أَن الأَرض بسيطة وغير كُرويَّةٍ، واعتقاد أَحد الأَمرين غير قادح في الشرع بنفسه اللهم إِلاَّ أَن يترتب على القول بالكرويَّة نظر فاسدٌ، وأَما اعتقاد كونها بسيطة فهو ظاهر كتاب الله تعالىٰ، وهو الذي لا يلحق به فساد أَلبَتَّةَ، واستدل ابن مجاهد على صحة ذلك بماءِ البحر المحيط بالمعمور فقال: لو كانت الأَرض كرويَّة لما استقر الماءُ عليها. و«السُّبُلُ»: الطُرق، و«الفجاجُ»: الواسعة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾.

المعنى: فلما لم يطيعوا ويئس نوح عليه السلام من إِيمانهم قال نوح: ربِّ إِنهم عصوني واتَّبعوا أَشرافهم وغُواتهم، فعبَّر عنهم بأَن أَموالهم وأَولادهم زادتهم خساراً، أَيْ خُسراناً.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي، ونافع ـ في رواية خارجة عنه ـ: [وَوُلْدُهُ] بضم الواو وسكون اللام، وهي قراءة ابن الزبير، والحسن، والأَعرج، والنخعي، ومجاهد. وقرأَ نافع، وعاصم، وابن عامر: [وَوَلَدُهُ] بفتح الواو واللام وهما بمعنى واحد كبُخْل وبَخَل، وهي قراءة أَبي عبد الرحمن، والحسن، وأَبي رجاءٍ، وابن وثاب، وأَبي جعفر، وشيبة، وقرأَ: [وَوِلْدُهُ] بكسر الواو الجحدريُّ، وزرٌّ، والحسن، وابن أَبي إِسحاق، وطلحة، قال أَبو عمرو: «وُلْدٌ» بضم الواو وسكون اللام: العشيرة والقوم، وقال أَبو حاتم: يمكن أَن يكون «الوُلْد» بضم الواو جمع «الوَلَد» وذلك كخُشْب وخَشَب، وقال حسَّان بن ثابت:

يا بِكْرَ آمِنَةَ المُبَارَكِ ذِكْرُهُ ... مِنْ وُلْدِ مُحْصَنَةٍ بِسَعْدِ الأَسْعُدِ[(١)]

وقرأ جمهور الناس: (كُبَّاراً) بشد الباءِ، وهو بناءُ مبالغة نحو حسّان، قال عيسى: هي لغة يمانية، وعليها قول الشاعر:

والمرءُ يُلْحِقُهُ بِفِتْيَانِ النَّدَى ... خُلُقُ الْكَرِيمِ وَلَيْسَ بِالْوُضَّاءِ[(٢)]

بضم الواو، وقرأ ابن مُحَيْصِنٍ، وعيسى بن عمر: [كُبَاراً] بتخفيف الباءِ، وهو بناءُ مبالغة إِلاَّ أَنه دون الأَول، وقرأَ ابن مُحَيْصِنٍ ـ فيما روى عنه أَبو الإِخريط وهب بن واضح ـ: [كِباراً] بكسر الكاف، قال ابن الأَنباري: هو جمع كبير، فكأَنه جعل [مَكْراً] مكان ذُنوب وأَفاعيل ونحوه[(٣)].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ إِخبارٌ عن تواصيهم بأَصنامهم على العموم، ما كان منها مشهور المكانة، وما كان منها يختص بواحد من الناس، ثم أَخذوا يَنُصُّون على المشهور من الأَصنام، وهذه الأَصنام رُوي أَنها أَسماءُ رجال صالحين كانوا في صدر الدنيا، فلما ماتوا صوَّرهم أَهل ذلك العصر من حجر وقالوا: ننظر إِليها فنذكر أَفعالهم، فهلك ذلك الجيل وكثُر تعظيم الآخر لتلك الحجارة ثم كذلك حتى عُبدت ثم انتقلت تلك الأَصنام بأَعيانها ـ وقيل: بل بالأَسماءِ فقط ـ إِلى قبائل من العرب، فكانت «وَدٌّ» في كلب بدُومَة الجندل، وكانت «سُوَاعُ» في هُذَيْل، وكانت «يَغُوثُ» في مُراد، وكانت «يَعُوقُ» في هَمَدان، وكانت «نَسْرُ» في ذي الكَلاَعِ مِنْ حِمْيَر.

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها حسان في رثاء النبي ﷺ، ويقول في مطلعها:

مَا بَالُ عَيْنِي لاَ تَنَامُ كَأَنَّمَا ... كُحِلَتْ مَآقِيهَا بِكُحْلِ الأَرْمَدِ

وآمنة هي أم النبي عليه الصلاة والسلام، وهي بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، والقصيدة في الديوان وفي سيرة ابن هشام والرواية فيهما: «المباركُ بِكْرها»، وكذلك ورد فيها: «ولدته محصنة» بدلاً من «من وُلْدِ مُحْصَنَة»، وعلى هذا فلا شاهد فيه. والْمُحْصَنَةُ: العفيفة، وفي القرآن الكريم ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ والأسعدُ: جمع سَعْد، وهو اسم لطائفة معروفة من النجوم سُمِّي كل واحد منها سَعْداً، وأُضيف أو وُصف بما يميزه عن غيره، ويقال فيها «السُّعود»، كذلك يقال: «سَعْد السُّعُود»، والشاعر يصف الرسول ﷺ بأنه نجم هذه النجوم.

(٢) هذا البيت لأبي صَدَقَةَ الدُّبَيْرِي، وهو في اللسان ـ وضأ ـ، والوضاءة هي الحسن والنظافة والبهجة، يقال: هذا رجل وضيء، وهو من قوم أوضياء وَوِضاء وَوُضَّاء، وجمع وُضَاء: وُضَاءون، ومعنى البيت أن الإنسان ينسب إلى الكرام ويكون منهم بالخلق الكريم لا بالحسن والنظافة.

(٣) يعني أن قوله تعالىٰ: ﴿مَكْرًا﴾ معناه «ذنوب»، ولهذا جاء وصفه بالجمع وهو ﴿كِباراً﴾ على هذه القراءة.

وقرأ نافع وحده ـ ورُويت عن عاصم ـ: [وُدًّا] بضم الواو، وقرأ الباقون[١]، والأَعمش، والحسن، وطلحة، وشيبة، وأَبو جعفر ـ بخلاف عن الثلاثة ـ: [وَدًّا] بفتح الواو، قال الشاعر:

حَيَّــاكَ وَدٌّ فَــإِنَّــا لا يَحِــلُّ لَنَــا   لَهْوُ النِّساءِ وَإِنَّ الدِّينَ قَدْ عَزَمَا[٢]

فيقال: إِنه أَراد ذلك الصنم، ويروى بضم الواو وفتحها.

وقرأَ الأَعمش: [ولا يغوثاً ويعوقاً] بالصرف، وذلك وهْم لأَن التعريف لازم ووزن الفعل. وقوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ هو إِخبار نوح عليه السلام عنهم، وهو منقطع مما حكاه عنهم، وهو منقطع مما حكاه عنهم، والمعنى: وقد أَضل هؤلاءِ القائلون كثيراً من الناس والأَتباع والعوام، ثم دعا عليهم إِلى الله تعالىٰ بأَلاَّ يزيدهم إِلاَّ ضلالاً، وذكر الظَّالمين لتعُمَّ الدعوةُ كل من جرى مجراهم. وقال الحسن ـ في كتاب النقاش ـ: أَراد بقوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟﴾ الأَصنام المذكورة، وعبَّر عنها بضمير من يعقل من حيث يعاملها جمهور أَهلها معاملة من يعقل ويسند إِليها أَفعال العقل.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ ابتداءُ إِخبار من الله تعالىٰ لمحمد ﷺ، أَي إِن دعوة نوح عليه السلام أجيبت فآلَ أَمْرُهم إِلى هذا، و[ما] في قوله تعالىٰ: [مِمَّا] زائدة، فكأَنه تعالىٰ قال: من خطيئاتهم أُغرقوا، وهي لابتداءِ الغاية، وقرأَ [مما خَطِيئَتِهِمْ] على الإِفراد الجحدريُّ والحسن، وقرأَ أَبو عمرو وحده، والحسن، وعيسى، والأَعرج، وقتادة ـ بخلاف عنهم ـ: [مما خَطَاياهُمْ] على تكسير الجمع، وقوله تعالىٰ: ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ يعني جهنم، وعبَّر عن ذلك بفعل المضي من حيث الأَمر متحقق، وقيل: أَراد عرضهم على النار غُدُوًّا وعشِيًّا عبَّر عنه بالإِدخال، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟﴾ أَي: لم يجد المغرقون أَحداً سوى الله تعالىٰ ينصرهم ويصرف عنهم بأَس الله.

---

(١) أي الباقون من السبعة المعروفين.

(٢) وَدُّ هو الصَّنَم الذي لقوم نوح ثم صار في قبيلة كلب بدومة الجندل، وقيل: كان لقريش صنم يدعونه وُدًّا، ومنه سُمّيَ «عَبْدُ وُدٍّ»، والكلمة تنطق بفتح الواو وبضمها، وقد تقال بالألف «أُدٌّ»، ومعنى (إن الدِّين قد عَزَم) أن أصحاب الدِّين قد عزموا، فهو كقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي عَزَم أصحابه، وقد يكون المعنى: جدَّ الأمر وجدَّ الدين، يقول الشاعر بعد أن حَيَّا الصنم: إن الدِّين قد جَدَّ بنا وألزمنا أن نبتعد عن لهو النساءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

رُوي عن محمد بن كعب، ومقاتل، والربيع، وابن زيد أَنَّ نوحاً عليه السلام لم يدع بهذه الدعوة إِلاَّ بعد أَن أَخرج الله تعالىٰ كل مؤمن من أَصلابهم، وأَعقم أَرحام النساءِ قبل العذاب بسبعين سنة، قال قتادة وبعد أَن أَوحى إِليه أَنه لن يُؤمن من قومك إِلا من آمن، وقد كان قبل ذلك طامعاً فيهم حدباً عليهم، وفي حديث النبي ﷺ أَنه ربَّما ضربه ناسٌ منهم أَحياناً حتى يُغشى عليه فإِذا أَفاق قال: اللهم اغفر لقومي فإِنهم لا يعلمون[1]. و«دَيَّار» أَصله دَيْوارٌ، وهو فَيْعال من الدوران، أَي من يجيء ويذهب، يقال منه: دَوَّارٌ ووزنه فَعَّال، ودَيَّارٌ ووزنه فَيْعالٌ وأَصله دَيْوَارٌ، وهذا كالْقَوَّامِ والقَيَّام.

وقرأَ جمهور الناس: (وَلِوَالِدَيَّ)، وقرأَ أُبَيُّ بن كعب: [ولأَبَوَيَّ]، وقرأَ سعيد بن جبير: (وَلِوَالِدِي) بكسر الدال، يخص أَباه بالدعوة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكْفُر لنوح أَبٌ ما بينه وبين آدم عليهما السلام، وقرأَ يحيى بن يَعْمَر، والجحدريُّ: [وَلِوَلَدَيَّ] بفتح اللام والدال وشدِّ الياءِ مفتوحة، وهي قراءة النَّخَعي، يخصُّ بالدعاءِ ابنيه، وبَيْتُه هو المسجد فيما قال ابن عباس وجمهور المفسرين، وقال ابن عباس أَيضاً: بَيْتُه شريعته ودينه، استعار لهما بَيْتاً، كما يقال: قُبَّة الإِسلام وفُسْطاطُ الدين، وقيل: أَراد سفينته، وقيل: أَراد داره، وقوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ تعميم بالدعاءِ لمؤمني كل ملَّة، وقال بعض العلماءِ: إِن الذي استجاب لنوح عليه السلام فأَغرق بدعوته أَهل الأَرض الكفار لَجَدير أَن يستجيب له فيرحم بدعوته المؤمنين. و«التَّبارُ» الهلاك وَذَهاب الرسم، وقرأَ حفصٌ عن عاصم، وهشامٌ وأَبُو قرة عن نافع: [بَيْتِيَ] بتحريك الياءِ، وقرأَ الباقون بسكونها.

تم تفسير سورة نوح والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء والمرتدين، ومسلم في الجهاد، وابن ماجه في الفتن، وأحمد في مسنده في أكثر من موضع، ولفظه كما جاء في البخاري عن شقيق، عن عبد الله: «كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدْمَوهُ فهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: ربِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، ولم يصرح بأنه نوح عليه السلام، بل جاءَ في كل هذه المراجع: (ويحكي نبياً من الأنبياءِ).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سُورة الجنّ

وهي مكِّيَّةٌ بإجماع من المفسرين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝﴾.

قرأ جمهور الناس: ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾ من «أَوْحَى يُوحِي»، وقرأ أبو إياس جُوَيَّةُ بن عائذ: [قُلْ وَحِيَ] من «وَحَى يَحِي»، و«وَحَى» و«أَوْحَى» بمعنى واحد، وقال العجَّاج:

وَحَى لَهَا القَرارَ فَاسْتَقرَّتِ[1]

وقرأ أَيضاً جُؤَيَّة فيما روى عنه الكسائيُّ ـ: [قُلْ أُحِيَ]، أَبدلت الواو همزة كما أَبدلوها في وسادة وإِسادة، وغير ذلك، وكذلك قرأ ابن أَبي عبلة[2]، وحكى الطبري عن عاصم أنه كان يكسر كل أَلف في السورة من «أَنَّ» و«أَنَّه» إلا قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾، وحكى عن أَبي عمرو أنه كان يكسر من أَوَّلها إِلى قوله تعالىٰ: ﴿وأَنْ لَوِ

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها العجاج في وصف الخالق سبحانه وتعالىٰ وأَعماله ويوم الحساب وأهواله، وقيل إنه أنشدها أمام أبي هريرة رضي الله عنه، وفيها يقول:

الحَمْدُ لله الَّذي تَعَلَّتِ ... بِأَمْرِه السَّماءُ واسْتَقَلَّتِ
بِإِذْنِهِ الأَرْضُ وما تعنَّتِ ... أَرْسَى عَلَيْهَا بالجِبالِ الثُّبَّتِ
وَحَى لَهَا القَرارَ فَاسْتَقَرَّتِ ... رَبُّ البِلادِ والعِبادِ القُنَّتِ

فقال له أبو هريرة: إنك تؤمن بيوم الحساب، هذا والعجاج من شعراء النصرانية.

(٢) قال أبو الفتح في «المحتسب»: «وأصله «وُحِيَ»، فلما انضمت الواو ضماً لازماً همزت، على قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾... وتقول على هذا: أُحِيَ إليه فهو مُوحِيٌّ إليه، فتَرُدُّ الواو لزوال الضمة عنها، ومثله: أُعِدَ فهو موعود، وأُرِثَ فهو مَوْرُوثٌ».

اسْتَقامُوا﴾ فإنه كان يفتح هذه وما بعدها إلى آخر السورة، فعلى ما حكى يلزم أن تكون الألف مكسورة في قوله تعالىٰ: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾، وليس ما ذَكَر بثابت. وذكر أبو عَليٍّ الفارسي أن ابن كثير، وأبا عمرو فتَحَا أربعة أحرف من السورة وكَسَرا غير ذلك ـ ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾، ﴿وأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا﴾، ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ﴾ ـ وأن نافعاً وعاصماً ـ في رواية أبي بكر والمفضل ـ وافقا في الثلاثة الأولى وكَسَرَا ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ﴾ مع سائر ما في السورة، وذكر أن ابن عامر وحمزة والكسائي كانوا يقرؤون كل ما في السورة بالفتح إلاَّ ما جاءَ بعد قولٍ أو فاءِ جزاءٍ، وكذلك حفص عن عاصم، فترتب إجماع القراءِ على فتح الألف من ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾، ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا﴾، ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ﴾، وذكر الزهراوي عن علقمة أنه كان يفتح الألف في السورة كلها.

واختلف الناسُ في الفتح من هذه الألفات وفي الكسر اختلافاً كبيراً يطول حصره وتقصِّي معانيه ـ قال أبو حاتم: أما الفتح فعلى «أُوحِيَ» فهو كله في موضع رفع على ما لم يُسَمَّ فاعله، وأما الكسر فحكاية وابتداءٌ وبعد القول.

وهؤلاءِ النفر من الجن هم الذين صادفوا رسول الله ﷺ يقرأُ ببطن نخلة في صلاة الصبح وهو يريد عكاظ[1]، وقد تقدم قصصهم في سورة «الأحقاف» في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾[2]، وكان سبب ذلك حراسة السماءِ من استراق السمع.

وقول الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾ الآيات هو خطاب منهم لقومهم الذين تولَّوْا إليهم منذرين، و﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ معناه: ذو عجب؛ لأن العجب يقع من سامع القرآن لبراعته

---

(١) أخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، والحاكم، والطبراني وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي معاً في «الدلائل»، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: أُحيل بيننا وبين خبر السماءِ وأُرسلت علينا الشهب، فقالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماءِ إلا شيءٌ حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما الذي حال بينكم وبين خبر السماءِ، فانصرف أولئك الذين ذهبوا نحو تهَامَةَ إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماءِ، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا، إنَّا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نُشرك بربنا أحداً، فأنزل الله على نبيه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾، وإنما أُوحي إليه قول الجن.

(٢) من الآية (٢٩).

وفصاحته ومُضَمَّناته، وليس نفس القرآن هو العجب، وقرأَ جمهور الناس: ﴿إِلَى الرُّشْدِ﴾ بضم الراءِ وسكون الشِّين، وقرأَ عيسى الثقفي: [إلى الرَّشَدِ] بفتح الراءِ والشين، ومن كسر الهمزة من قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ﴾ فعلى القطع، وتعطف الجملة على قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾، ومن فتح الألف من قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ﴾ فقد اختلفوا في تأويل ذلك، فقال بعضهم: هي عطف على ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾، فيجيءُ على هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ﴾ ممَّا أُمِر أَن يقول إِنَّه أُوحي إِليه، وليس يكون من كلام الجن، وفي هذا قلق، وقال بعضهم: بل هي عطف على الضمير في [بِهِ]، كأَنهم يقولون: فآمنا به وبأَنه تعالىٰ جَدُّ ربنا، وهذا القول أَبْيَن في المعنى لكن فيه من جهة النحو العطف على الضمير المخفوض دون إِعادة الخافض، وذلك لا يحسن.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ بفتح الجيم وإِضافته إِلى «الرَّبِّ» تعالىٰ، وقال جمهور المفسرين: معناه: عظمته، وروي عن أَنس أَنه قال: كان الرجل إِذا قرأَ البقرة وآل عمران جَدَّ في أَعيننا، أَي عَظُم، وقال أَنس بن مالك، والحسن: جَدُّ رَبِّنَا: غناه، فهذا هو من الجَدِّ الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «وَلاَ ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ»[1] وقال مجاهد: ذِكْرُهُ، وقال بعضهم: جلالُه، وقال ابن عباس: قَدْرُه وَأَمْرُهُ، وهذا كله مُتَّجه لأَن الجَدَّ هو حظ المجدود من الخيرات والأَوصاف الجميلة، وَجَدُّ الله تعالىٰ هو الحظُّ الأَكمل من السلطان القاهر والطبقات العليَّة والعظمة، ومن هذا قال اليهودي حين قدم رسول الله ﷺ المدينة: «يا بني قيلة هذا جَدُّكُم الذي تنتظرون»[2] أَي حظكم من الخيرات وبختكم، وقال علي بن الحسين، وأَبو جعفر الباقر، وابنه جعفر، والربيع بن أَنس: ليس لله تعالىٰ جَدٌّ، وهذه مقالة قوم جهلة من الجن جعلوا الله تعالىٰ جَدًّا، أَي أَبًا

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان والاعتصام والقدر والدعوات، ومسلم في الصلاة والمساجد، وأبو داود في الصلاة والوتر والأدب، والترمذي في الصلاة، والنسائي في السهو، والدارمي في الصلاة، ومالك في القدر من موطئه، وأحمد في مسنده (٣/ ٨٧، ٤/ ٩٣، ٩٧، ٩٨، ١٠١)، ولفظه كما جاء فيه عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ إذا قال: سمع الله لمن حمده، قال: «اللهم ربنا لك الحمد مِلْءَ السموات ومِلْءَ الأرض وَمِلْءَ ما شئت من شيءٍ بعد، أهل الثناءِ والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجَدُّ»، ومعنى ذلك أن من كان له حظٌ في الدنيا لم ينفعه ذلك الحظُّ في الآخرة.

(٢) جاء هذا في حديث طويل عن هجرة النبي ﷺ ورواه البخاري في مناقب الأنصار عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

أَب، قال كثير من المفسرين: هذا قول ضعيف، وقولهم: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ يدفعه، وكونهم على شريعة متقدمة ـ فيما روي ـ وفهمهم للقرآن، وقرأ محمد بن السميفع اليماني: [جَدَى ربِّنَا] وهو الجَدْوى والنَّفْع، وقرأ عكرمة: [جَدٌّ رَبُّنَا] بفتح الجيم وضم الدال وتنوينها ورفع الرب، كأنهم يقولون: تعالىٰ عظيم هو ربُّنا، و«رَبُّنَا» بدلٌ، والجَدُّ: العظيم في اللغة، وقرأ حميد بن قيس[1]: [جُدُّ رَبِّنَا] بضم الجيم، ومعناه: العظيم، حكاه سيبويه وَأَضَافَهُ إلى «الرَّبِّ» فكأنه قال: «عَظِيم ربِّنَا»، وهذه إضافة تجريد، يرفع النحاةُ هذا الاسم إذا أُضيفت الصفة إلى الموصوف، كما تقول: «جاءني كريمُ زَيْدٍ» تريد: زيدٌ الكريم، ويجري مجرى هذا عند بعضهم قول المتنبي:

. . . . عَظيـمُ الْمُلْـكِ فـي الْمُقَـلِ[2]

أَراد: المُلْك العظيم، قال بعض النحاة: وهذا المثال معترض لأنه أَضاف إلى جنس فيه العظيم والحقير، وقرأ عِكْرمة أَيضاً: [جَدًّا رَبُّنَا] بفتح الجيم والدال وتنوينها ورفع «الرَّبِّ»، نصب [جَدًّا] على التمييز كما تقول: «تَفقَّأْتُ شحْماً[3] وتَصَبَّبْتُ عرقاً»، وقرأ قتادة: [جِدًّا ربُّنا] بكسر الجيم وشدِّ الدال ورفع الرَّبِّ، فنصب [جِدًّا] على الحال، ومعناه: حقيقة ومتمكناً، وهذا معنى غير الأول، وقرأ أَبو الدرداءِ: [تَعَالَى ذِكْرُ ربِّنَا]، وروي عنه «جلالُ رَبِّنا».

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ﴾، لا خلاف أَن هذا قول الجن، وكَسْرُ الأَلف فيه

(١) هو حميد بن قيس المكيُّ الأعرج، أبو صفوان القارىء، قال عنه في «تقريب التهذيب» ليس به بأس، وعدَّه من الطبقة السادسة، وقال: إنه مات سنة ثلاثين، وقيل: بعدها.

(٢) هذا جزءٌ من بيت قاله المتنبي في قصيدة له وردت في الديوان تحت عنوان: (أنا الغريقُ فما خوفي من البلل)؟ وهي قصيدة قالها في مدح سيف الدولة، والبيت بتمامه:

مُطَـاعَـةُ اللَّحـظِ فـي الألحـاظِ مـالِكَـةٌ لِمُقْلَتَيْهَـا عَظِيـمُ الْمُلْـكِ فـي الْمُقَـلِ

واللحْظُ: النظر بجانب العين من الخارج، والمقلة: العين، يصف جمال عينيها ونظراتها فيقول: إن لَحْظها مُطاعٌ بين ألحاظ النساء الحسان، إذا دعا أحداً إلى هواها أجاب مطيعاً، فهي مالكة بين ذوات القناع تعلوهن جمالاً ودلالاً، ومُقْلتاها مالكتان في دولة الْمُقَل لهما من دون هذه الدولة الأمر النافذ، وابن عطية يستشهد بأن كلمة «عظيم» صفة لكلمة «الْمُلْك» وهي مضافة إليها، فهي من إضافة الصفة إلى الموصوف، ولقد اعترض بعض النحاة على ذلك بما ذكر المؤلف.

(٣) الفَقْءُ: الشَّقُّ، يقال: فقأ الثمرة فقأً: شَقَّها، وتَفَقُّؤاً مصدر تَفَقَّأَ، ومعنى تَفَقَّأْتُ شحماً: امتلأتُ شحماً حتَّى تشقَّق جلدي.

أَبْيَن، وفتْحها لا وَجْه له إلا اتباع العطف على الضمير، كأَنهم قالوا: وآمَنَّا الآن بأَن سفيهنا كان قوله على الله شططاً، والسَّفيه المذكور قال جمهور من المفسرين: هو إبليس لعنه الله، وقال آخرون: هو اسم جنس لكلِ سفيه منهم، ولا محالة أَن إبليس صدر في السفهاءِ، وهذا القول أَحسن، و«الشَّطَطُ»: التَّعدي وتجاوز الحدِّ بقول أَو بفعل، ومنه قول الأعشى:

أَتَنْتَهُـونَ ؟ وَلاَ يَنْهَـى ذَوي شَطَـطٍ ... كالطَّعْنِ يَذْهَبُ فيه الزَّيْتُ والْفُتُلُ[1]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ هو كلام أُولئك النفر من الجن، لا يحتمل غير ذلك، وكسر الأَلف فيه أَبْين، والمعنى: إنا كنا نظن قبل إيماننا أَن الأَقوال التي كنا نسمع من إبليس وغواة الجن والإِنس في جهة الآلهة وما يتعلق بذلك حق وليست بكذب؛ لأَنا كنا نظن بهم أَنهم لا يكذبون على الله تعالىٰ ولا يرضون ذلك، وقرأَ جمهور الناس: (تَقُولَ) بالتاءِ وضم القاف مخففة، وقرأَ الحسن، والجحدري، وابن أَبي بكرة، ويعقوب: [تَقَوَّلَ] بفتح التاءِ والقاف والواو مشددة، والتَّقَوُّل خاص بالكذب، والقول عامٌ له وللصدق ولكن قولهم: [كَذِباً] يردُّ القول هنا إِلى معنى التَّقَوُّل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

هذه الأَلف من [أَنَّهُ] اختلف في فتحها وكسرها والكسر أَوجه، والمعنى في الآية ما كانت العرب تفعله في أَسفارها وتغرُّبها في الرعي وغيره، فإن جمهور المفسرين رَوَوْا أَن الرجل كان إذا أَراد المبيت والحلول في وادٍ صاح بأَعلى صوته: يا عزيز هذا

---

(١) هذا البيت من قصيدة الأعشى التي بدأها بقوله: «وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرتَحِلُ»، وفيها يفتخر بشجاعة قومه ويخاطب يزيد بن مسهر الشيباني بأن يبلغ قومه بهذه الشجاعة وبأنهم فعلوا الأفاعيل في بني أسد وغيرهم، ثم يقول: إذا علمتم ذلك هل تنتهون عن قتالنا؟ إنه لا يَنْهى العدو المتجاوز للحدود إلاَّ الطعنُ القوي الذي يصيبه بجراح واسعة يغيب فيها الزيت والفتائل. والشَّطَطُ: تجاوز الحد والمبالغة في العدوان، وهو موضع الاستشهاد هنا.

الوادي إِني أَعوذ بك من السفهاءِ الذين في طاعتك، فيعتقد بذلك أَن الجنيَّ الذي بالوادي يمنعه ويحميه، فروي أَن الجن كانت تقول عند ذلك: ما نملك لكم ولا لأَنفسنا من الله شيئاً، قال مقاتل: أَول من تعوَّذ بالجن قوم من أَهل اليمن ثم بنو حنيفة ثم فَشَا ذلك في العرب، وروي عن قتادة أَن الجن كانت لذلك تحتقر بني آدم وتزدريهم لما يرون من جهلهم، فكانوا يزيدونهم مخافة، ويتعرضون للتخيُّل لهم بمنتهى طاقتهم، ويغوونهم في إِرادتهم لما رأَوا رقَّة أَحلامهم، فهذا هو الرهق الذي زادته الجنُّ بني آدم، وقال مجاهد، والنَّخعي، وعبيد بن عمير: بنو آدم زادوا الجن رهقاً وهو الجرأَة والانتحاءُ عليهم والطغيان وغشيان المحارم والإِعجاب لأَنهم قالوا: سدنا الجن والإِنس، وقد فسَّر قوم الرهق بالإِثم، وأَنشد الطبري في ذلك بيت الأَعشى:

لاَ شَـيْءَ يَنْفَعُنِـي مِـنْ دونِ رُؤْيَتِهَـا ... هَلْ يَشْتَفِي وَامِقٌ ما لَمْ يُصِب رَهَقَا ؟(١)

وقال: معناه: ما لم يغش محرماً، فالمعنى: زادت الجنُّ الإِنس إِثماً لأَنهم عظموهم فزادوهم استحلالاً لمحارم الله تعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟﴾ يريد بني آدم الكفار، ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ مخاطبة لقومهم من الجن، وقولهم: ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ يحتمل معنيين: أَحدهما بعث الحشر من القبور، والآخر بعث آدميٍّ رسولاً، و[أَنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ﴾ مخففة من الثقيلة، وهي تسدُّ مَسَدَّ المفعولين، وذكر المهدوي تأويلاً أَن المعنى: وأَن الجنَّ ظنُّوا كما ظننتم أَيها الإِنس، فهي مخاطبة من الله تعالىٰ.

وقولهم: ﴿أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ﴾ معناه: الْتَمَسْنا، ويظهر بمقتضى كلام العرب أَنها استعارة لتجريبهم أَمرها وتعرضهم لها، فسمَّى ذلك لَمْساً إِذ كان اللَّمْس غاية غرضهم، ونحو هذا قول المتنبي:

---

(١) قال الأعشى هذا البيت من قصيدة يصف هواه ووجده بمحبوبته، ومطلعها: (نام الْخَلِيُّ وبتُّ اللَّيْلَ مُرتَفِقاً)، والبيت في اللسان، والقرطبي، والبحر، وفتح القدير. والوامق: المحبُّ، وفي بعض الروايات (يشتفي عاشق)، وفي اللسان: «والرَّهَق: غشيان المحارم من شرب الخمر ونحوه، قال ابن بَرِّي: وكذلك فُسِّر الرهق في شعر الأعشى بأنه غِشْيانُ المحارم وما لا خير فيه في قوله: لا شيءَ ينفعني... البيت»، وقد يُفسَّر الرهق في البيت بأنه الضعف والتذلل للمحبوب، والأقوال في معنى الرهق كثيرة، فقد قيل: هو الفساد، وقيل: الظلم، وقيل: السفه، وقيل: الذلة والضعف، وقيل: السرعة إلى الشرِّ، وقيل: العظمة والطغيان. وقيل غير ذلك، راجع اللسان.

تَعَدَّ الْقُرَى وَالْمُسْ بنا الْجَيْشَ لَمْسَةً   نُبَارِ إِلَى مَا تَشْتَهي يَدَكَ الْيُمْنَى(١)

فعبَّر عن صدم الجيش بالجيش وحربه باللَّمس، وهذا كما تقول: «الْمس فلاناً في أَمر كذا» أَي جرب مذهبه فيه، و[مُلِئَتْ] إما أَن تكون في موضع المفعول الثاني لـ ﴿وَجَدْنَآ﴾، وإما أَن يقصر الفعل على مفعول واحد وتكون [مُلِئَتْ] في موضع الحال، وكان الأَعرج يقرأُ: [مُلِيَتْ] بغير همز، و«الشُّهُبُ» كواكب الرجم، و«الْحَرَسُ» يحتمل أَن يريد الرمي بالشهب وكرَّر المعنى بلفظ مختلف، ويحتمل أَن يريد الملائكة.

و[مَقَاعِدَ] جمع مقعد، وقد فسَّر رسول الله ﷺ صورة قعود الجن أَنهم كانوا واحداً فوق واحد، فمتى أُحْرِق الأَعلى طلع الذي تحته مكانه، فكانوا يسترقون الكلمة فيبلغونها إِلى الكهان ويزيدون معها، ويزيد الكهان للكلمة مائة كذبة. وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ﴾ الآية.. قطع على أَنه كل من استمع الآن أَحرقه شهاب، فليس هنا بَعْدُ سَمْعٌ، إنما الإِحراق عند الاستماع، وهذا يقتضي أَن الرجم كان في الجاهلية ولكنه لم يكن بمستأصل، وكان الحرس ولكنه لم يكن شديداً، فلما جاءَ الإِسلام اشتد الأَمر حتى لم يكن فيه يُسْر ولا سماحة، ويدل على هذا قولُ النبي ﷺ لأَصحابه وقد رأَوْا كوكباً راجماً: «ماذا كنتم تقولون لهذا في الجاهلية؟»، قالوا: كنا نقول: وُلد ملك مات ملك، فقال عليه الصلاة والسلام: «ليس الأَمر كذلك»، ثم وصف صعود الجن(٢).

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها المتنبي يحثُّ سيف الدولة على لقاءِ الروم في السَّنْبوس سنة أربعين وثلاثمائة (٩٥١م)، وكان قد عزم على لقائهم ثم بلغه عدتهم أربعين ألفاً فتهيب أصحابه الموقف، لكن المتنبي تحدث عن بطولات العرب والمسلمين وعن أمجادهم، وقال: إنا نقصد للموت كما يقصد الحبيب لقاء محبوبه، ومعنى (تَعَدَّ القُرَى): تجاوزها، والخطاب لسيف الدولة، و(نُبَار) معناها: نسابق، يقول لسيف الدولة: تجاوز القرى العامرة إلى الصحراء وَأَلْقَ بنا جيش الروم حتى نلامسه ملامسة فستجدنا نسابق يَدَكَ اليُمْنى ونسبقها إلى ما تشتهي نَفْسُك وهو هزيمة الروم والسيطرة على بلادهم، ولعلَّه يعني أن النصر بنا يكون أسرع إليك مما لو تناولته بيدك أنت، والشاهد أنه عبَّر عن صدام الجيش بالجيش مستخدماً لفظة اللَّمْس.

(٢) هذا الحديث أَخرجه الإمام أحمد عن علي بن الحسين عن ابن عباس رضي الله عنهم، كما أَخرجه مسلم من حديث صالح بن كيسان والأوزاعي ويونس، ومعقل بن عبيد الله، أربعتهم عن الزهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس، عن رجل من الأنصار، كما رواه النسائي في التفسير من حديث الزبيدي، عن الزهري، ورواه الترمذي عن الحسين بن حريث، عن الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، عن الزهري، ولفظه كما في مسند أَحمد: كان رسول الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه ـ قال =

وقد قال عَوْف بن الخَرِع ـ وهو جاهلي ـ:

فَـانقَـضَّ كـالـدُّرِّيِّ يَتْبَعُـهُ نَقْـعٌ يَثُـورُ تَخـالُـهُ طُنُبـاً(١)

وهذا في أَشعارهم كثير. و[رَصَداً] نعت للشِّهابِ، ووصفه بالمصدر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية... معناه: لا ندري، أَيُؤْمن الناس بهذا النبي فيرشدوا أَم يكفرون به فينزل بهم الشَّرُّ؟

= عبد الرزاق: من الأنصار ـ فَرُمي بنجم فاستنار، فقال ﷺ: «ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية»؟ قالوا: كنا نقول: يُولد عظيم أو يموت عظيم ـ قلت للزهري: أكان يُرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم ولكن غلظت حين بُعث النبي ﷺ ـ قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإنها لا يُرْمَى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالىٰ إذا قضى أَمْراً سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح السماء الدنيا، ثم يستخبر أَهل السماء الذين يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماءٍ سماءٍ حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخطف الجن السمع فَيُرْمون، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون»، قال الإمام ابن كثير في تفسيره بعد أن أورد الحديث: هكذا رواه الإمام أحمد.

وقد روى البخاري عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾ عن عكرمة أنه قال: سمعتُ أبا هريرة رضي الله عنه يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله تعالىٰ الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ـ ووصف سفيان بيده فحرفها ونشر أصابعه ـ فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يُلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يُدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، كذا وكذا؟ فَيُصدَّق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»، قال ابن كثير: «انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم من هذا الوجه، وقد رواه أبو داود والترمذي، وابن ماجه، من حديث سفيان بن عيينة به، والله أعلم».

(١) هذا البيت لأوس بن حَجَر، وليس لعوف بن الخرع، وهو في أول قصيدة في ديوان أَوس، وهو في وصف ثور وحشي يخوض معركة مع كلاب صَيْد أطلقها عليه صاحبها، والدُّرِّيُّ ـ بضم الدال المشددة أو بكسرها أو بفتحها ـ هو الكوكب المضيءُ الثاقب، منسوب إلى الدُّرِّ ـ وفيه كلام كثير ـ ورواية الديوان: دِرِّيءٌ، وهو أيضاً الكوكب المنقض يدرأ على الشيطان ـ هكذا قال صاحب اللسان ـ والنَّقع: الغبار الثائر اللامع، والطُّنُبُ: الفسطاطُ المضروب ـ الخيمة المنصوبة ـ وتَخاله: تحسبه، يشبهه بالكوكب اللامع الذي ينقض من السماء، ويشبه الغبار الذي أثاره في هجومه على الكلاب بالخيمة المنصوبة، أما بيت عوف المقصود فهو قوله:

فَـرَدَّ عَلَيْنـا الْعَيْـرَ مِـنْ دونِ إِلْفِـهِ أَوِ الثَّـوْر كـالـدُّرِّي يَتْبَعُـهُ الـدَّمُ

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

هذا كله من قول الجن إلى آخر قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي غير الصالحين، كأنهم قالوا: ومنا قوم أو فرقة دون صالحين، وهي لفظة تقع أحياناً موقع «غير»، و«الطَّرائِقُ»: السِّيَر المختلفة، و«الْقِدَدُ» كذلك هي الأشياءُ المختلفة كأنه قَدْ قُدَّ بعضها من بعض وفصل، قال ابن عباس، وعكرمة، وقتادة: ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أَهْوَاءً مختلفة، وقال غيرهم: فرق مختلفون، قال الكميت:

جَمَعْتَ بـالـرَّأي مِنْهُـمْ كُـلَّ رافِضَـةٍ ... إِذْ هُمْ طَرَائِقُ في أَهْوَائِهِمْ قِدَدُ(١)

قولهم: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ﴾، الظَّن هنا بمعنى العلم، وهذا إِخبارٌ منهم عن حالهم بعد إِيمانهم كما سمعوا من محمد ﷺ، و«الْهُدَى» يريدون به القرآن، سمَّوه هدى من حيث هو سبب الهدى، و«الْبَخْسُ»: النقص، و«الرَّهَقُ»: تحميل ما لا يطاق وما يثقل من الأنكاد ويَفدح، وقال ابن عباس: البَخْسُ نقص الحسنات، والرَّهق الزيادة في السيئات، وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب: [فلا يَخَفْ] بالجزم دون أَلف.

وقسَّم الله تعالىٰ بعد ذلك حالَ الناس في الآخرة على نحو ما قسَّم قائلُ الجن بقوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾، و«القاسِطُ»: الظالم، قاله مجاهد، وقتادة، والناس، ومنه قول الشاعر:

قَـوْمٌ هُـمُ قَتَلُـوا ابْـنَ هِنْـد عَنْـوَةً ... عَمْراً وَهمْ قَسَطُوا عَلَى النُّعْمانِ(٢)

---

(١) الرَّوافض: جنود تركوا قائدهم وانصرفوا فكل طائفة منهم رافِضَةٌ، والنِّسبة إليهم، رافضيٌّ، والطرائق: الفِرَقُ المختلفة، والآراءُ والمذاهب المتباينة، ومفردها: طريقة، وأوضح معانيها: السُّنَّة والمذهب والرأْيُ وما هو عليه، والقِدَّةُ: الفرْقَةُ والطريقة من الناس إذا كان هَوَى كل واحد على حدَةٍ، يقول الشاعر: جَمعْتَهم على رأي واحد بعد أن كانوا فرقاً مختلفة.

(٢) هذا البيت من قصيدة قالها الفرزدق يمدح بني تغلب ويهجو جريراً، وقد بدأها بقوله: (يا بن المراغةِ=

والمُقْسِط: العادل، وإنما هذا التقسيم ليذكر حال الفريقين من النجاة والهلكة، ويُرَغِّب في الإسلام من لم يدخل فيه، فالوجه أن يكون ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ مخاطبةً من الله تعالىٰ لمحمد ﷺ، ويؤيده ما بعده من الآيات. و﴿تَحَرَّوْا﴾ معناه: طلبوا باجتهادهم، ومنه قول النبي ﷺ: «لا تَتَحَرَّوْا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها»[1]. وقوله تعالىٰ: ﴿لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ نظير قوله تعالىٰ: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.

الضمير في قوله تعالىٰ: (اسْتَقَامُوا). قال أبو مِجْلز، والفراءُ، والربيع بن أَنس، وزيد بن أَسلم، والضحاك ـ بخلاف عنه ـ: هو عائد على قوله سبحانه: ﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾، و«الطريقة» طريقة الكفر، أَي: لو كفر من أَسلم من الناس لأَسقيناهم ماءً إملاءً لهم واستدراجاً، وقال ابن عباس، وقتادة، وابن جبير، ومجاهد: الضمير عائد على «القاسطين»، والمعنى: على طريقة الإسلام والحق، وهذا المعنى نحو قوله تعالىٰ:

= والهجاءُ إذا التقت أعناقُه...)، وقبل البيت يقول:

مـا ضَـرَّ تَغْلِـبَ وائـلٍ أَهَجَـوتَهَـا ... أَمْ بُلْـتَ حَيْـثُ تَنَـاطَـحَ الْبَحْـرانِ ؟
يـا بْـنَ الْمَـراغَـة إنَّ تَغْلِـبَ وائِـلٍ ... رَفَعُـوا عِنَـانـي فَـوقَ كُـلِّ عِنَـانِ

وابنُ هنْد هو عَمرو بن المنذر اللخمي، ملك الحيرة في الجاهلية، وكان شديد البأس، قتله عمرو بن كلثوم أَنَفة وغَضَباً لأمِّه حين أرادت أم الملك أن تستخدمها. في خبر طويل يروى في كتب الأدب. وعَنْوَةَ: قَهراً، وقَسَطُوا: جارُوا، وهي موضع الاستشهاد، فإن (قَسَطَ) بمعنى (جَارَ)، و(أَقْسط) بمعنى (عَدَلَ).

(١) أخرجه البخاري في المواقيت، وفي فضل الصلاة في المسجد الحرام. ومسلم في المسافرين. والنسائي في المواقيت. ومالك في القرآن من الموطأ، وأحمد في مسنده (٦/ ٢٥٥، ٢/ ١٣، ١٩، ٣٣)، ولفظه كما جاء في مسند أحمد: عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إنما نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة أن يتحرى بها طلوع الشمس وغروبها.

(٢) من الآية (٢٤) من سورة (البقرة)، ثم تكررت في الآية (٦) من سورة (التحريم).

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾(١)، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾(٢)، وهذا القول أَبْيَن، لأَن استعارة الاستقامة للكفر قلقة.

وقرأَ الأَعمش، وابن وثاب: [وأن لَوُ استقاموا] بضم الواو، وقال أَبو الفتح: هذا تشبيه بواو الجماعة ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾(٣)، والماءُ الغَدَقُ هو الماءُ الكثير، وقرأَ جمهور الناس: (غَدَقاً) بفتح الدال، وقرأَ عاصم ـ في رواية الأَعمش عنه ـ بكسرها.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ إن كان المسلمون فمعناه: لنختبرهم، وإِن كان القاسطون فمعناه: لنمتحنهم ونستدرجهم، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حيث يكون الماءُ فَثَمَّ المال، وحيث المالُ فَثَمَّ الفتنة»، ونزع بهذه الآية، وقال الحسن، وابن المسيَّب، وجماعة من التابعين: كانت الصحابة مطيعين سامعين، فلما فتحت كنوز كسرى وقيصر وثب بعثمان رضي الله عنه فقُتل وثارت الفِتَنُ. و[يَسْلُكْهُ] معناه: يُدْخله، وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي: (يَسْلُكْهُ) بفتح الياءِ، أَي: يسلكه الله، وقرأَ بعض التابعين: [يُسْلِكْهُ] بضم الياءِ، من أَسْلَكَ، وهما بمعنى، وقرأَ باقي السبعة: [نَسْلُكْهُ] بنون العظمة، وقرأَ ابن جبير: [نُسْلِكْهُ] بنون مضمومة ولام مكسورة، و[صَعَداً] معناه: شاقًا، تقول: «فلان في صَعَدٍ من أَمره» أَي في مشقة، و«هذا أَمر يتصَعَّدني»، قال عمر رضي الله عنه «ما تصعَّدني شيءٌ كما تتصَعَّدني خطبة النكاح»، وقال ابن عباس، وأَبو سعيد الخدري: صَعَد: جبل في النار، وقرأَ قوم: [صُعُداً] بضم الصاد والعين، وقرأَ الجمهور بفتح الصَّاد والعين، وقرأَ ابن عباس، والحسن بضم الصاد وفتح العين، قال الحسن: معناه: لا راحة فيه.

ومَنْ فَتَح الأَلف من ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ جعلها عطفاً على قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ﴾، ذَكَرَهُ سيبويه، و«المساجد» قيل: أَراد بها البيوت التي للعبادة والصلاة في كل مِلَّة، وقال الحسن: أَراد كل موضع سُجد فيه، كان مخصوصاً لذلك أَو لم يكن؛ إذ الأَرض كلها مسجد لهذه الأُمة، ورُوي أَن هذه الآية نزلت بسبب تغلُّب قريش على

(١) من الآية (٦٥) من سورة (المائدة).
(٢) من الآية (٦٦) من سورة (المائدة).
(٣) من الآية (١٦) من سورة (البقرة).

الكعبة حينئذ، فقيل لمحمد ﷺ: المواضع كلها لله تعالىٰ فاعبده حيث كان، وقال ابن عطاءٍ: المساجد: الآراب[1] التي يُسجد عليها، واحدها مَسْجَد ـ بفتح الجيم ـ، وقال سعيد بن جبير: نزلت الآية لأن الجن قالت: يا رسول الله كيف نشهد الصلاة معك على نأينا عنك؟ فنزلت الآية ليخاطبهم بها على معنى: إنَّ عبادتكم حيث كنتم مقبولة، وقال الخليل بن أحمد: معنى الآية: ولأن المساجد لله فلا تدعوا ـ أي لهذا السبب ـ، وكذلك عنده ﴿لإيلاف قريش... فليعبدوا﴾[2]، وكذلك عنده ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[3]، والمساجد المخصوصة بيِّنة التمكن في كونها لله تعالىٰ، فيصح أن تفرد للصلاة والدعاءِ وقراءة العلم وكل ما هو خالص لله تعالى، وألاَّ يتحدث فيها في أمور الدنيا، ولا يتجرّ، ولا تُتّخذ طرقاً، ولا يُجعل فيها لغير الله تعالىٰ نصيب، ولقد قعدتُ للقضاءِ بين المسلمين في المسجد الجامع بالمرية ثم رأَيت فيه من سوءِ خُلق المتخاصمين وصياحهم وَأيمانهم وفجور الخصام وغائلته ودخول النسوان ما رأَيت تنزيه البيت عنه فقطعت القعود للأحكام فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً من الله تعالىٰ، ويحتمل أَن يكون إخباراً عن الجن، وقرأَ بعض القراءِ ـ على ما تقدم ـ: ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ بفتح الأَلف، وهذا عطف على قوله تعالىٰ: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾، و«الْعَبْدُ» على هذه القراءَة، قال قوم: هو نوح عليه السلام، والضمير في [كادُوا] لِكُفَّار قومه، وقال آخرون هو محمد ﷺ، والضمير في [كادُوا] للجن، والمعنى أَنهم كادوا يَتَقَصَّفُون[4] عليه لاستماع القرآن، وقرأ آخرون: [وَإِنَّهُ] بكسر الهمزة، و«العَبْدُ» محمد ﷺ، والضمير في [كادوا] يحتمل أَن يكون للجن على المعنى الذي ذكرناه، ويحتمل أَن يكون لكفار قومه وللعرب في اجتماعهم على ردِّ أَمره، ولا يتَّجه أَن يكون «العبد» نوحاً عليه السلام إلاَّ على تحامل في تأْويل نَسَق الآية، وقال ابن جبير: معنى الآية أَنها قول الجن لقومهم يحكون، و«العَبْدُ» محمد ﷺ، والضمير في [كادوا] لأَصحابه الذين يطوعون له

---

(١) الآراب: جمع إِرْب وهو العُضُو، يقال: السجود على سَبْعَة آراب، أي أعضاء.

(٢) الآيات (١، ٢، ٣) من سورة (قريش).

(٣) من الآية (٩٢) من سورة (الأنبياء).

(٤) يَتَقَصَّفُون: يجتمعون عليه مع تدافع شديد حتى يقصف بعضهم بعضاً من شدة الزحام، وفي حديث أَبي بكر رضي الله عنه: «كان يصلي ويقرأ القرآن فَتتقَصَّفُ عليه نساءُ المشركين وأبناؤهم»، أي يزدحمون.

ويقتدون به في الصلاة، فهم عليه لِبَدٌ، وهي الجماعات، شُبِّهت بالشيءِ المتلَبِّد بعضه فوق بعض، ومنه قول عبد مناف بن ربع:

صَـابُـوا بِسِتَّـةِ أَبْيَـاتٍ وَأَرْبَعَـةٍ   حَتَّـى كَـأَنَّ عَلَيْهِـمْ جَـانِيـاً لُبَـدَا[(١)]

يريد الجراد، سماه جانِياً لأَنه يَجْني الأَشياءَ بأَكله، [ويروى جابياً بالباءِ لأَنه يجبي الأَشياءَ بأَكله][(٢)].

وقرأَ ابن عباس وجمهور السبعة: [لِبَداً] بكسر اللام، جمع لِبْدَة، وقال ابن عباس: أَعواناً، وقرأَ ابن عامر ـ بخلاف عنه ـ ومجاهد، وابن محيصن: [لُبَداً] بضم اللام وتخفيف الباءِ المفتوحة، وهو جمع أَيضاً، ورُوي عن الجحدري [لُبُداً] بضم اللام والباءِ، وقرأَ أَبو رجاءٍ: [لِبَّداً] بكسر اللام وشدِّ الباءِ المفتوحة، وقرأَ الجحدري والحسن ـ بخلاف عنهما ـ: [لُبَّداً] بضم اللام وشدِّ الباءِ، وهو جمع «لأَبد»، فإِن قدرنا الضمير للجن فبِتَقَصُّفهم[(٣)] عليه لاستماع الذكر، وهذا تأَويل ابن عباس والضحاك، وإِن قدرناه للكفار فبتمالئهم عليه وإِقبالهم على أَمره بالتكذيب والردِّ، وهذا تأَويل الحسن وقتادة. و[يَدْعُوهُ] معناه: يعبده.

وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: ﴿قالَ إِنَّما أَدْعُو رَبِّي﴾، وهي قراءَة جمهور السبعة، وهذه قراءة تؤيد أَن «العَبْدَ» هو نوح عليه السلام، وقرأَ عاصم، وحمزة، وأَيوب، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ﴾، وهذه تؤيد أَنه محمد ﷺ، وإِن كان الاحتمال باقياً من كليهما، واختلف القراءُ في فتح الياءِ من [رَبِّي] وفي سكونها.

ثم أَمر تعالىٰ محمداً ﷺ بالتبري من القدرة، وأَنه لا يملك لأَحد ضراً ولا رشداً، بل الأَمر كله لله تعالىٰ، وقرأَ الأَعرج: [رُشُداً] بضم الراءِ والشين، وقرأَ أُبَي بن كعب:

---

(١) البيت من قصيدة قالها عبد مناف بن ربع الهُذَلي، وهو في ديوان الهُذَلِيِّين، وفي اللسان ـ صابَ وَجَبأ ـ، ومعنى صَابُوا بهم وَقَعُوا بهم، والجاني هو الجراد، سمِّي بذلك لأنه يجني الثمار، أو يجني على القوم في طعامهم، أما رواية جابياً بالباء فالمراد أَيضاً الجراد، قال صاحب اللسان نقلاً عن التهذيب: «الجابِىءُ: الجرادُ، يُهمز ولا يُهمز، وجبأ الجرادُ: على البلد، قال الهذلي: صابوا بِستَّةٍ... البيت»، واللُّبَدُ: الكثير، يقال: مالٌ لُبَدٌ أي كثير لا يُخافُ فناؤه كأنه التَبَدَ بعضه على بعض، وفي التنزيل العزيز ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾، أي كثيراً جماً.

(٢) ما بين العلامتين [....] سقط من أكثر النسخ.

(٣) أي: باجتماعهم وازدحامهم حوله.

[لا أَملِكُ لكُمْ غيًّا ولا رشداً]، وقوله تعالىٰ: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أَي: من عند سواه، و«المُلْتَحَدُ»: الملجأُ الذي يُمالُ إِليه ويُرْكن، ومنه الإِلحادُ والميل، ومنه اللَّحْدُ الذي يُمال به إِلى أَحد شِقَّي القبر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

اختلف الناس في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾ ـ فقال الحسن ما معناه: إِنه استثناءٌ منقطع، والمعنى: لن يُجيرني من الله أَحدٌ إِلاَّ بلاغاً، فإِنِّي إِن بلَّغتُ رحمني بذلك، والإِجارة للبلاغ مستعارة إِذْ هو سبب إِجارة الله تعالىٰ ورحمته، وقال بعض النحاة: على هذا المعنى هو استثناءٌ مُتَّصل، والمعنى: لن أَجد مُلْتحداً إِلاَّ بلاغاً، أَي شيئاً أَميل إِليه وأَعتصم به إِلاَّ أَن أُبلِّغ وأُطيع فيجيرني الله. وقال قتادة: التقدير: لا أَملك إِلاَّ بلاغاً فأَما الإِيمان والكفر فلا أَملكه، وقال بعض المتأَولين: ﴿إِلَّآ﴾ بتقدير الانفصال، و[إِنْ] شرط، و[لا] نافية، كأَنه يقول: ولن أَجد مُلتحداً إِن لم أُبلغ من الله ورسالاته، و[من] في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لابتداءِ الغاية، وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ﴾ يريد الكفر بدليل الخلود المذكور، وقرأَ طلحة بن مصرف: ﴿فَأَنَّ لَهُۥ﴾ على معنى: فجزاؤه أَنَّ له.

قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟﴾، ساق الفعل في صيغة الماضي تحقيقاً لوقوعه، وقوله سبحانه: ﴿مَنْ أَضْعَفُ﴾ يحتمل أَن تكون [مَنْ] في موضع رفع على الاستفهام والابتداءِ، و[أَضْعَفُ] خبرها، ويحتمل أَن تكون [مَنْ] في موضع نصب بقوله: [فَسَيَعْلَمونَ]، و[أَضْعَفُ] خبر ابتداءِ مضمر.

ثم أَمره الله تعالىٰ بالتَّبَرِّي من معرفة الغيب في وقت عذابهم الذي وُعدوا به، و«الأَمَدُ: المُدَّة والغاية، و[عَالِمُ] يحتمل أَن يكون بدلاً من [رَبِّي]، ويحتمل أَن يكون خبر ابتداءِ مضمر على القطع، وقرأَ السُّدي: [عَلِمَ] على الفعل ونصب الباءِ[1]، وقرأَ

(١) أي من قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْغَيْبَ﴾.

الحسن: ﴿فَلاَ يَظْهَرُ﴾ بفتح الياءِ والهاءِ [أَحَدٌ] بالرفع، وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ معناه: فإنه يُظْهِرُ على ما شاءَ مما هو قليل من كثير، ثم يبثُّ الله تعالىٰ حول ذلك الملك الرسول حَفَظَةً رصداً لإِبليس وحزبه من الجن والإِنس.

وقوله تعالىٰ: [لِيَعْلَمَ]، قال قتادة: معناه: ليعلم محمد أَن الرسل قد أَبلغوا رسالات ربهم وحُفظوا ومُنع منهم، وقال سعيد بن جُبير: معناه: ليعلم محمد أَن الملائكة الحفظة الرصد النازلين بين يدي جبريل ـ عليه السلام ـ وخَلْفه قد أَبلغوا رسالات ربهم، وقال مجاهد: معناه: ليعلم من كذَّب أَو أَنكر أَن الرسل قد بلَّغت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا العلم لا يقع إلاَّ في الآخرة.

وقيل: المعنى: لِيَعْلَمَ الله رُسُلَه مبلغين خارجين إلى الوجود، لأَنَّ علمه سبحانه بكل شيءٍ قد تقدم، وقرأَ الجمهور: (لِيَعْلَمَ) بفتح اللام، أَي: ليعلم الله تعالىٰ، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما: [لِيُعْلِمَ] بضم الياءِ، وقرأَ أَبو حيوة: [رِسالَةَ رَبِّهِمْ] على التوحيد، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [وَأُحِيطَ] على ما لم يُسَمَّ فاعله، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا﴾ معناه: كل شيءٍ معدود، وقوله تعالىٰ: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ﴾ الآية مُضَمَّنة أَنه تعالىٰ قد علم ذلك، فعلى هذا الفعل المضمن انعطف (أَحاط ـ أَحصى)، والله تعالىٰ المُرْشد بمَنِّه وكرمه.

كمل تفسير سورة الجن والحمد لله رب العالمين

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة المُزمل

وهي مكية كلها في قول المهدويِّ وجماعة[1]، وقال الجمهور: هي مكية إلاَّ قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾ إلى آخر السورة، فإن ذلك نزل بالمدينة[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ نداءٌ للنبي ﷺ، واختلف الناس، لِمَ نودي بها؟ فقالت عائشة، والنَّخَعي، وجماعة: لأنه كان في وقت نزول الآية مُتزمِّلاً بكساءٍ، والتَّزَمُّل: الالتفاف في الثياب بِضَمٍّ وتشمير، ومنه قول امرىءِ القيس:

كَأَنَّ أَبَانَا فِي أَفَانِينِ وَدْقِهِ ... كَبِيرُ أُنَاسٍ فِي بِجَادٍ مُزَمَّلِ[3]

وخفض «مُزَمَّلِ» في هذا البيت هو على الجوار، وإنما هو نعت لـ «كَبِيرُ»، فهو عليه

---

(١) منهم الحسن، وعكرمة، وعطاءٌ، وجابر.

(٢) وقيل: بل هي مكية إلاَّ آيتان منها، قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ والتي تليها.

(٣) هذا البيت من معلقة امرىء القيس، وهو أحد أبيات وصف فيها المطر والبرق والرعد وصفاً رائعاً، وهذه الرواية للبيت رواية الأصمعي، وقال: هُمَا أَبَانَانِ، جبلٌ أبيض وجبل أسود، وهما لبني عبد مناف، وأفانين: ضروب، والوَدْقُ: المطر، وفي رواية غير الأصمعي (كأنَّ ثَبيراً في عَرانِينِ وَبْلِهِ)، وثبير: جبل بمكة، وعرانين الشيءِ: أوائله، والوَبْلُ المطر العظيم، والبجادُ: كساءٌ من أكسية الأعراب يصنع من وبر الإبل وصوف الغنم ويكون مخططاً، ومُزَمَّلٌ: مُلْتَف، يقول الشاعر: إن المطر قد ألبس الجبل فكأنه مما ألبسه كبير أناسٍ ملتف في ثيابه، ومُزَمَّل صفة كبير، ولكنه أجراه على إعراب كلمة «بجاد» للمجاورة، كما تقول العرب: هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ، يخفضون خَرِباً لمجاورته للضَّب وهو صفة للجحر.

الصلاة والسلام ـ على قول هؤلاءِ ـ إنما دُعي بهيئة في لباسه، وقال قتادة، كان تَزَمَّل في ثيابه للصلاة واستعد فنودي على معنى: يَا أَيُّها المستعد للعبادة المتزمِّلُ لها، وهذا القول أَمدح له ﷺ، وقال عكرمة: معناه: يا أَيها المتزمِّلُ للنبوَّة وأَعبائها، أَي: المُشَمِّر المجِدُّ، وقال جمهور المفسرين والزهري بما في البخاري من أَنه عليه الصلاة والسلام لمَّا جاءَه المَلَك في غار حراءَ وحاوره بما حاوره رجع رسول الله ﷺ إلى خديجة رضي الله عنها فقال: زَمِّلوني زمِّلوني، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾، وعلى هذا نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾، وفي مصحف ابن مسعود، وأُبَيِّ بن كعب: [يَا أَيُّهَا المُتَزَمِّلُ]، وقرأَ بعض الناس: [يا أيها المُزَمَّلُ] بفتح الزاي وتخفيفها وفتح الميم وشدها، والمعنى: الذي زمَّله أَهلُه أَو زُمِّل للنبوة، وقرأَ عكرمة: [يا أيهاالمُزَمِّلُ] بكسر الميم وشدها وتخفيف الزاي، أَي: المُزَمِّل نفسه.

واختلف الناس في هذا الأَمر بقيام الليل كيف كان؟ فقال جمهور أَهل العلم: هو أَمر على جهة الندب قد كان لم يُفرض قط، ويؤيد هذا الحديثُ الصحيح أَن رسول الله ﷺ قام ليلة في رمضان خلف حصير الحجرة، فصلَّى وصلَّى بصلاته ناس، ثم كثروا من الليلة القابلة، ثم غص المسجد بهم في الثالثة أَو الرابعة فلم يخرج رسول الله ﷺ، فحصبوا بابه فخرج مغضباً وقال: «إِنِّي إنما تركت الخروج لأَني خفت أَن تفرض عليكم»، وقيل: إِنه عليه الصلاة والسلام لم يكلمهم إِلاَّ بعد أَن أَصبح[1] وقال آخرون: كان فرضاً في وقت نزول هذه الآية، واختلف هؤلاءِ ـ فقال بعضهم: كان فرضاً على النبي ﷺ خاصة وبقي كذلك حتى توفي ﷺ، وقيل: بل نُسخ عنه ولم يمت إِلاَّ والقيام تطوع، وقال بعضهم: كان فرضاً على الجميع، ودام الأَمر ـ على ما قال

(١) روى هذا الحديث الشيخان، البخاري في باب الأدب، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، ولفظه كما في البخاري: عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: احْتَجَرَ رسول الله ﷺ حُجيرة مُخَصَّفَةً أو حصيراً، فخرج رسول الله ﷺ يُصلي إليها فَتَتَبَّع إليه رجالٌ وجاؤوا يُصلُّون بصلاته، ثم جاؤوا ليلةً فحضروا وأَبطأَ رسول الله ﷺ عنهم فلم يخرج إليهم، فرفعوا أَصواتهم وحصبوا الباب، فخرج إليهم مُغضباً، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما زال بكم صنيعكم حتى ظننت أنه سيُكتب عليكم، فعليكم بالصلاة في بيوتكم، فإن خَيْرَ صلاةِ المرءِ في بيته، إلاَّ الصلاةَ المكتوبة.

وأخرج ابن جرير الطبري مثلَه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة، وفيه أن النبي ﷺ قال للناس حين خرج مُغْضَباً: «يا أَيُّها الناس اكْلَفوا من الأَعمال ما تُطيقون، فإن الله لا يَمَلُّ من الثواب حتى تَمَلُّوا من العمل، وخير الأَعمال ما دمتم عليه»، ومعنى اكلفوا: تَحَمَّلوا.

سعيد بن جبير ـ عشر سنين، وقالت عائشة، وابن عباس رضي الله عنهما: دام عاماً، ورُوي عنها أيضاً أنه دام ثمانية أشهر ثم رحمهم الله تعالىٰ فنزلت: ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ فخفف عنهم، وقال قتادة: بقي عاماً أو عامين. وقرأ أبو السمال: [قُمُ الليل] بضَم الميم لاجتماع الساكنين، والكسر في كلام العرب أكثر كما قرأ الناس.

وقوله تعالىٰ: (نِصْفَهُ) يحتمل أن يكون بدلاً من قوله سبحانه: (قَليلاً)، ويحتمل أن يكون بدلاً من (اللَّيْل)، وكيف تقلّب المعنى فإنه أمر بقيام نصف الليل أو أكثر شيئاً أو أقل شيئاً. فالأكثر عند العلماءِ لا يزيد على الثلثين، والأقل لا ينقص عن الثُّلث، ويقوي هذا حديث ابن عباس رضي الله عنهما في بيت ميمونة رضي الله عنها، قال: فلما انتصف الليل أو قبله بقليل قام رسول الله ﷺ[1]. ويلزم على هذا البدل الذي ذكرناه أن يكون الليل قد وقع عليه الوصف بـ «قليل»، وقد يحتمل عندي قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أن يكون استثناءً من القيام، فيجعل الليل اسم جنس، ثم قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي الليالي التي تُخل بقيامها عند العُذر ونحوه، وهذا النظر يحسن مع الندب جداً، وقد تكلم الجرجاني في نظمه في هذه الآية بتطويل وتدقيق غير مفيد، أكثره غير صحيح، وقرأ الجمهور: ﴿أَوُ انقُصْ﴾ بضم الواو، وقرأ الحسن، وعاصم، وحمزة بكسر الواو، وقرأ عيسى بالوجهين، والضميران في (مِنْهُ)، (عَلَيْه) عائدان على «النصف».

وقوله تعالىٰ: [وَرَتِّل] معناه في اللغة: تمهَّل وفرِّق بين الحروف لِتَبين، والمقصد أن يجد الفكر فسحة للنظر وفهم المعاني، وبذلك يرقُّ القلب ويفيض عليه النور والرحمة، قال ابن كيسان: المراد تفهُّمه تالياً له، ومنه: «الثَّغْرُ الرَّتِل» أي الذي بينه فُسَح وفُتوح، ورُوي أن قراءَة رسول الله ﷺ كانت بَينةً مُتَرَسِّلةً، لو شاءَ أحدٌ أن يعد الحروف لعدها[2].

---

(١) أخرجه أبو داود، والبيهقي في السُّنَن، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: بتُّ عند خالتي ميمونة فقام النبي ﷺ يصلي من الليل، فصلى ثلاث عشرة ركعة منها ركعتا الفجر، فحزرتُ قيامه في كل ركعة بمقدار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، والله أعلم.

(٢) في رواية لأبي داود في كتاب الأدب: «كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيل وترسيل»، وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي مُليكة عن بعض أزواج النبي ﷺ أنها سئلت عن قراءة النبي ﷺ فقالت: إنكم لا تستطيعونها، فقيل لها: أخبرينا بها، فقرأَتْ قراءةً ترسَّلت فيها، وروى أنسٌ أن النبي ﷺ كان يَمُدُّ صوته بالقراءة مداً.

و«القول الثقيل» هو القرآن، واختلف الناس، لم سمَّاه ثقيلاً؟ فقال جماعة من المفسرين: لما كان يحلُّ في رسول الله ﷺ من ثقل الجسم حتَّى أنه كان إذا أُوحي إليه وهو على ناقته بركت به، وحتى كادت فخذه أَن تَرُضَّ فخذ زيد بن ثابت رضي الله عنه، وقال أَبو العالية والقرظي: بل سَمَّاه ثقيلاً لثقله على الكفار والمنافقين بإِعجازه ووعيده ونحو ذلك، وقال حُذَّاق العلماءِ: معناه: ثقيل المعاني من الأَمر بالطاعات والتكاليف الشرعية من الجهاد ونحوه ومزاولة الأَعمال الصالحة دائماً، قال الحسن: «إِن الهَذَّ خفيف ولكن العمل ثقيل»(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾، قال ابن جبير، وابن زيد: هي لفظة حبشية، تَنَشَّأَ الرجلُ إِذا قام من الليل، فـ«ناشئة» ـ على هذا ـ جمع «ناشيءٍ» أَي قائم، و﴿أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ معناه: ثبوتاً واستقلالاً بالقيام، ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أَي بخُلُوِّ أَفكارهم وإِقبالهم على ما يقرءُونَه، قال ابن عباس وأَنس بن مالك، وعلي بن الحسين: ناشئة الليل هي ما بين المغرب والعشاءِ، وقالت عائشة، ومجاهد: الناشئة القيامُ بعد النوم، ومن قام أَول الليل قبل النوم فلم يقم ناشئة الليل، وقال ابن جبير، وابن زيد، وجماعة: ناشئة الليل ساعاته كلها، لأَنها تنشأ شيئاً بعد شيءٍ، وقال ابن عباس، وابن الزبير، وأَبو مجلز، والحسن: ما كان بعد العشاءِ فهو ناشئة الليل وما كان قبلها فليس بناشئة، قال ابن عباس: كانت صلاتهم أَول الليل فهي أَشدُّ وَطْأً، أَي أَجْدَرُ أَن تخصوا ما فرض الله عليكم من القيام؛ لأَن الإِنسان متى نام لم يدر متى يستيقظ، وقال الكسائي: ناشئة الليل أَوله، وقال ابن عباس، وابن الزبير أَيضاً: الليل كله ناشئة، و﴿أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ ـ على هذا ـ يحتمل أَن يكون: أَشد ثبوتاً، فيكون نسب الثبوت إِليها من حيث هو للقائم فيها، ويحتمل أَن يريد أَنها صعبة القيام لمنعها النوم، كما قال: «اللهم اشدد وطأَتك على مضر»(٢)، فذكرها تعالىٰ بالصعوبة ليُعْلَمَ عِظَم الأَجر فيها، كما قد وُعِدَ عليه الصلاة

(١) الْهَذُّ: سرعة القراءَة، يقال: هو يَهُذُّ القرآن ويهُذُّ الحديث هذاً، أَي يسرده، قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: قرأتُ المفصَّل الليلة، فقال: أَهذًّا كهذِّ الشعر؟ أَراد: أَتهذُّ القرآن هذًّا فتسرع فيه كما تسرع في قراءَة الشعر؟

(٢) هذا جزء من حديث أَخرجه البخاري في الأذان والاستسقاء والجهاد والأنبياء وتفسير سورة النساء والأدب، ومسلم في المساجد، وأبو داود في الصلاة والوتر، والنسائي في التطبيق، وابن ماجه في الإقامة، وأحمد في مسنده (٢/٢٣٩، ٢٥٥، ٢٧١)، ولفظه كما جاءَ فيه عن أَبي هريرة رضي الله عنه=

والسلام على الوضوءِ على المكاره والمشي في الظلام إلى المساجد ونحوه، وقرأَ الجمهور: (وَطْأً) بفتح الواو وسكون الطاءِ، وقرأَ أَبو عمرو، وابن عامر، ومجاهد، وابن الزبير، وابن عباس: [وِطَاءً] على وزن فِعَالٍ، والمعنى: مُوَافَقَةً؛ لأَنه بخُلوِّ البال من أَشغال النهار يُوافِقُ قلبُ المرءِ لسانَه وفِكْرُهُ عبارَتَهُ، فهذه مواطأَةٌ صحيحة، وبهذا المعنى فسَّر اللفظَ مجاهدٌ وغيرُهُ، وقرأَ قتادة ـ في رواية حسين ـ: [وِطْأً] بكسر الواو وسكون الطاءِ والهمزة مقصورة[1]، وقرأَ أَنس بن مالك: [وَأَصْوَبُ قِيلاً]، فقيل له: إنما هو(أَقْوَمُ) فقال: أَقْوَمُ وأَصْوَبُ وَأَهْيأُ واحدٌ.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾، أَي تصرفاً وتردُّداً في أُمورك كما يتردَّد السابح في الماءِ، ومنه سمِّي الفَرَسُ سابحاً لِتَثَنِّيه واضطرابه، وقال قومٌ من أَهل العلم: إنما معنى الآية التَّنبيه على أَنه إن فات حزب الليل بنوم أَو عذر فليخلف بالنهار؛ فإن فيه سبحاً طويلاً. وقرأَ يحيى بن يَعْمَر: [سَبْخاً طويلاً] بالخاءِ المعجمة، ومعناه: خِفَّة لك من التكاليف، والتَّسبيخ: التخفيف، ومنه قول النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها في السارق الذي سرقها فكانت تدعو عليه: «لا تُسَبِّخِي عنه»[2]، فمعناه: لا تُخَفِّفي عنه. قال أَبو حاتم: فسَّر يحيى السَّبْخَ بالنَّوْم.

وقال سهلٌ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ يُراد به: بسم الله الرحمن الرحيم في ابتداءِ صلاتك. و(تبَتَّلْ) معناه: انْقطع من كل شيءٍ إلاَّ منه، وافرغ إليه، وقال زيد بن أَسلم: التَّبتُّل: رفض الدنيا، ومنه: تَبَتَّل الحبلُ، وقولهم في المطلَّقة: بَتْلَة[3]، ومنه: البتول، و(تَبْتِيلاً) مصدر على غير الصَّدْر[4].

= «لما رفع النبي ﷺ رأسه من الركعة الآخرة من صلاة الصبح قال: اللهم أَنج الوليد بن الوليد، وسَلَمة بن هشام، وعياش بن أَبي ربيعة، والمستضعفين بمكة، اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف».

(١) يعني غير محدودة كالقراءة السابقة.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢١٥) وأبو داود في الوتر والأدب، ومنه قول الشاعر:

فسبِّخْ عَلَيْكَ الهَمَّ واعْلَم بأنَّهُ ... إذا قدَّر الرحمَنُ شيئاً فكائنُ

(٣) في اللسان: «ومنه: طَلَّقها بَتَّةً بَتْلَةً، قال ذو الرمة:

رَخيماتُ الْكَلامِ مُبَتَّلاتٌ ... جَواعِلُ في البُرَى قَصَباً خِدالاَ

أَراد: مُبَتَّلات الكلام مقطَّعات له».

(٤) لأن صدر الكلام يقتضي أن يقول: «تبَتُّلاً» ليتفق مع قوله سبحانه: ﴿وَتَبَتَّل﴾ لكنه قال: ﴿تَبْتِيلاً﴾ لأن معنى=

وقرأ حمزة، والكسائي، وابن عامر، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ [رَبِّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ] بالخفض على البدل من (رَبِّكَ)، وقرأ الباقون، وحفص عن عاصم: ﴿ربُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ﴾ بالرفع على القطع، أَي: هو ربُّ، أَو على الابتداءِ والخبر ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾، وقرأَ ابن عباس، وأَصحاب عبد الله: [رَبُّ المَشَارِقِ وَالمَغَارِب] بالجمع، و«الوكيلُ»: القائم بالأُمور الذي توكل إِليه الأَشياءُ.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ الآية، قيل: هي مُوَادعة منسوخة بآية السيف، والمراد بالآية قريش. وقال بعض العلماءِ: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ منسوخ، وأَما الصبر على ما يقولون فقد يتوجه أَحياناً ويبقى حكمه فيما يتوجه من الهجر الجميل بين المسلمين، قال أَبو الدَّرْداءِ: إِنا لنكشر في وجوه قوم وإِن قلوبنا لتلعنهم، والقول الأَول أَظهر؛ لأَن الآية إِنما هي في كفارِ قريشٍ وردِّهم رسالته وإِعلامِهم بذلك، ولا يمكن أَن يكون الحكم في هذا المقام باقياً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ وعيد لهم، ولم يتعرض أَحدٌ لمنعه منهم لكنه إِبلاغٌ بمعنى: لا تشغل بهم فكراً، وَكِلْهُم إِليَّ. و«النَّعْمَةُ»: غضارة العيش وكثرة المال[1]، والمُشار إِليهم كفار قريش أَصحاب القليب ببدر، ويُروى أَنه لم يكن بين نزول هذه الآية وبين بدر إِلاَّ مدة يسيرة نحو عام، وليس الأَمر كذلك، والتقدير الذي يُعَضِّده الدليل من أَخبار رسول الله ﷺ يقتضي أَن بين الأَمرين نحو عشر سنين، ولكن ذلك قليل أُمْهلوه.

و(لَدَيْنَا) بمنزلة: عندنا، و«الأَنْكَالُ» جمع نِكْلٍ وهو القيد من الحديد، ويروى أَنها قيود سودٌ من نار. و«الطعام ذو الغُصَّة»: شجرة الزَّقُّوم، قاله مجاهد وغيرهُ، وقيل:

= تبَتَّلَ: بتَّل نفسه، فجيءَ على المعنى مراعاة لحق الفواصل.

(١) النَّعْمة بالفتح: التَّنَعُّم، وبالكسر الإنْعام وما يُنْعم به، وتأتي بالضمة ومعناها المَسَرَّةُ.

شوك من نار يعترض في حلوقهم لا يخرج ولا ينزل، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وكل مطعوم هناك فهو ذو غصة، وروي أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية فصُعق[١]. والعامل في قوله تعالىٰ: [يَوْمَ] الفعلُ الذي تضمنه قوله سبحانه: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ﴾، وهو استقرار أو ثبوت. و«الرَّجفان»: الاهتزاز والاضطراب من فزع وهول، و«الْمَهِيلُ»: اللَّين الرخو الذي يذهب بالريح وَيجيءُ، فهي تُهيله، والأَصل مَهْيُول، استثقلت الضمة على الياءِ فسُكِّنت، واجتمع ساكنان فحذفت الواو، وكسرت الهاءُ بسبب الياءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ﴾ الآية.... خطاب للعالم لكن المُواجَهُون قريش، وقوله تعالىٰ: ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ نحو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[٢]، وتمثيله لهم أَمرهم بفرعون وعيدٌ، كأَنه تعالىٰ يقول: فحالهم من العذاب والعقاب إن كفروا سائرةٌ إلى مثل حال فرعون. وقوله تعالىٰ: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ يريد تعالىٰ موسى عليه السلام، والأَلف واللام للعهد، و«الْوَبِيلُ»: الشديد الرديءُ العُقبى، يقال: كلأٌ وَبيلٌ ومستوبلٌ إذا كان ضاراً لمن يرعاه[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ معناه: كيف تجعلون واقياً لأَنفسكم، و[يَوْماً] مفعول بـ[تتَّقُون]، وقيل: هو مفعول بـ[كَفَرتُمْ] على أَن تجعله بمنزلة «جحدتم»، فـ[تتَّقُونَ] ـ على هذا ـ من التقوى، أَي تتَّقون عقاب الله، ويجوز أَن يكون [يَوْماً] ظرفاً، والمعنى: تتَّقون عقاب الله يوماً، و[يَجْعَلُ] يصح أَن يكون مُسْنَداً إلى اسم الله تعالىٰ، ويصحُّ أَن يكون مسنداً إلى اليوم، وقوله تعالىٰ: [الْوِلْدَانَ] يريد به صغار الأَطفال، وقال قوم: هذه حقيقة، فتشيب رؤُوسهم من شدة الهول، كما يُرى الشيب في الدنيا من الهمِّ المفرط كهول البحر ونحوه، وقال آخرون من المتأَولين: هو تجوز وإِبلاغ في

---

(١) أخرج أَحمد في الزهد، وهناد، وعبد بن حَميد، ومحمد بن نصر، عن حمران أن النبي ﷺ قرأ ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾، فلما بلغ ﴿أَلِيمًا﴾ صعق. وأَخرج أبو عبيد في فضائله، وأَحمد في الزهد، وابن أبي الدنيا في نَعت الخائفين، وابن جرير، وابن أَبي داود في الشريعة، وابن عدي في الكامل، والبيهقي في شُعب الإيمان، من طريق حمران بن أعين، عن أَبي حرب بن أَبي الأسود أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقرأ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ فصُعق.

(٢) من الآية (٤١) من سورة (النساء).

(٣) يقال: ماءٌ وبيلٌ: أي وخيم غير مريءٍ، وكلأٌ مُسْتَوبَل وطعام وَبيل ومُسْتَوبل: إذا لم يُمْرىء ولم يُسْتمرأ.

وصف هول ذلك اليوم، وواحد الولدان: وليد، وواحد الشِّيب أَشْيَب.

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾، قيل: هذا على النسب، أَي ذات انفطار، كامرأَة حائض وطالق، وقيل: السماءُ تُذكَّر وتؤنَّث، وينشد في التذكير:

فَلَــوْ رَفَــعَ السَّمــاءُ إِليْــهِ قَــوْمــاً لَحِقْنَــا بــالسَّمــاءِ مَــعَ السَّحَــاب(١)

وقيل: من حيث لم يكن تأنيثها حقيقياً جاز أَن تسقط علامة التأنيث لها، وقيل: لم يُرِدْ باللفظة قصد السماءِ بعينها، وإِنما أَراد ما علا من مخلوقات الله تعالىٰ، كأَنه قَصَد قَصْدَ السَّقْف فذكَّر على هذا المعنى، قاله منذر بن سعيد، وأَبو عبيدة مَعْمر، والكسائي، و«الانفِطارُ»: التَّصَدُّع والانشقاق على غير نظامٍ يُقصد، والضمير في [بِهِ] قال مُنْذرٌ وغيره: هو عائد على اليوم، وقال مجاهد: هو عائد على الله تعالىٰ، وهذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾(٢) أي بالغَمام الذي هو ظُلَلٌ يأْتي الله تعالىٰ فيها، والمعنى: يأْتي أَمره وقدرته، وكذلك ﴿مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ أي بأَمره وسُلطانه، والضمير في قوله تعالىٰ: [وَعْدُهُ] ظاهر أَنه لله تعالىٰ، ويحتمل أَن يكون لليوم لأَنه يضاف إِليه من حيثُ هو فيه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

الإِشارة بـ [هذه] يحتمل أَن تكون لما ذكر من الأَنكال والجحيم والأَخذ الوبيل

---

(١) هذا البيت من شواهد الفراءِ في «معاني القرآن»، وكذلك استشهد به صاحب اللسان والطبري، والقرطبي في تفسيره، وأبو حيان في «البحر المحيط»، ولم ينسبه أحد، ورواية القرطبي والبحر: «لحقنا بالسماءِ وبالسحاب». قال الفراءُ: السماءُ تُذكَّر وتُؤنَّث، وهي هنا في وجه التذكير، وقال صاحب اللسان: «وسماءُ كل شيءٍ: أعلاه، مذكر، والسماء: سقف كل شيءٍ وكل بيت». وقال الزجاج: «السماءُ كلُّ ما علاك فأظَلَّك، ومنه قيل لسقف البيت سماءٌ»، وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾.

(٢) من الآية (٢٥) من سورة (الفرقان).

ونحوه، ويحتمل أن تكون إلى السورة بأجمعها، ويحتمل أن تكون إلى القرآن بمعنى أن الأقوال المنصوبة فيه تذكرة، والتَّذْكِرة مصدر كالذكر، وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَآءَ﴾ الآية ليس معناه إباحة الأمر وضده، بل يتضمن معنى الوعيد والوعد، و«السَّبيل» هنا سبيل الخير والطاعة.

قوله تعالىٰ: ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ﴾ الآية، نزلت تخفيفاً لما كان استمر استعماله من أمر قيام الليل إمَّا على الوجوب أو على الندب حسب الخلاف الذي ذكرناه، ومعنى الآية: إنَّ الله يعلم أنك تقوم أنت وغيرك من أُمتك قياماً مختلفاً، مَرَّةً يكثر ومرَّةً يقلُّ، ومرَّةً أدنى من الثلثين ومرَّةً أدنى من الثلث، وذلك لعدم تحصيل البشر لمقادير الزمان مع عذر النوم، وتقدير الزمان حقيقة إنما هو لله تعالىٰ، وأما البشر فلا يُحصي ذلك، فتاب الله عليهم، أي رجع بهم من الثقل إلى الخفة، وأمرهم بقراءة ما تيسَّر منه، ونحو هذا تعطي عبارة الفراءِ ومنذر، فإنهما قالا: [تُحْصُوهُ]: تحفظوهُ، وهذا التأويل هو على قراءة من قرأ: ﴿وَنِصْفِه وَثُلُثِهِ﴾ بالخفض عطفاً على «الثُّلُثَيْن»، وهي قراءة أبي عمرو، ونافع، وابن عامر، وأمَّا من قرأ ﴿وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ بالنصب عطفاً على [أَدْنَى] ـ وهي قراءة باقي السبعة ـ فالمعنى عنده آخر، وذلك أن الله تعالىٰ قد قدَّر أنهم يُقَدِّرون الزمان على نحو ما أمر به في قوله سبحانه: ﴿نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه﴾، فلم يبق إلاَّ أن يكون قوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَ أَلَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ﴾ [بمعنى][1]: لن تُطيقوا قيامه لكثرته وشدته، فخفف الله تعالىٰ عنهم فضلاً منه لا لِعِلَّة جهلهم بالتقدير وإحصاءِ الأوقات، ونحو هذا تعطي عبارة الحسن وابن جبير، فإنهما قالا: [تُحْصُوهُ]: تُطيقوهُ، وقرأ جمهور القراءِ والناس: (وَثُلُثَهُ) بضم اللام، وقرأ ابن كثير في رواية شبل عنه: [وثُلْثَهُ] بسكون اللام.

وقوله تعالىٰ: ﴿فاقرؤوا ما تيسر من القرآن﴾ إباحةٌ، هذا قول الجمهور، وقال ابن جبير وجماعةٌ: هو فرض لا بُدَّ منه ولو خمسين آية، وقال الحسن وابن سيرين: قيام الليل فرض، ولو قَدْر حلْب شاة، إلاَّ أن الحسن قال: من قرأ مائة آية لم يحاجَّه القرآن، واستحسن هذا جماعة من العلماءِ، قال بعضهم: والركعتان بعد العتمة مع الوتر تدخلان في حكم هذا الأمر وامتثاله، ومَنْ زاد زادَهُ الله تعالىٰ ثواباً.

و[أَنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَ أَنْ﴾ مخففة من الثقيلة، والتقدير أنَّه يكون، فجاءت

---

(١) ما بين العلامتين زيادة لتوضيح المراد.

السِّين عوضاً من المحذوف، وكذلك جاءَت في قول أَبي مِحْجَن:

وَلاَ تَـدْفِنَنِّـي بـالْفَـلاَةِ فَـإِنَنـي ... أَخَـافُ إِذا مـا مِـتُّ أَنْ لاَ أَذوقُهَـا[١]

و«الضَّرْبُ في الأَرض» هو السفر للتجارة، وضَرْبُ الأَرض هو المشي للتَّبَرُّز والغائط[٢]، فذكر الله تعالىٰ أَعذار بني آدم التي هي حائلة بينهم وبين قيام الليل، وهي المرض والسفر في تجارة أَو غزو، فخفف عنهم القيام لهذا، وفي هذه الآية فضيلة الضرب في الأَرض للتجارة وسَوْقٌ لها مع سفر الجهاد، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أَحبُّ الموت إِليَّ بَعْد القتل في سبيل الله أَن أَموت بين شعبتي رَحْلي[٣] أَضرب في الأَرض أَبتغي من فضل الله.

ثم كرر الله تعالىٰ الأَمر بقراءة ما تَيَسَّر منه تأْكيداً، والصلاة والزكاة هنا المفروضتان، فمن قال إِن القيام بالليل غير واجب قال: معنى الآية: خذوا من هذا النَّفْل ما تَيَسَّر وحافظوا على فرائضكم، ومن قال إِنَّ شيئاً من القيام واجب قال: قد قَرَنَه الله تعالىٰ بالفرائض لأَنه فرض.

وإِقراضُ الله تعالىٰ هو استلاف العمل الصالح عنده، وقرأ جمهور الناس: ﴿هُوَ

---

(١) هذا ثاني بيت في قصيدة معروفة لأبي مِحْجَن الثَّقَفي، وقبله يقول:

إِذَا مِـتُّ فـادْفِنـيٌ إِلَـى جَنْـب كَـرْمَـةٍ ... تُـرَوِّي عِظَـامـي بَعْـدَ مَـوْتـي عُـروقُهَـا

والخطاب موجه إلى ابنه يأمره بذلك، وفي الأبيات مبالغة على حُبِّه للخمر، والفَلاَةُ: الأرض المُهْلِكة التي لا عَلَم بها ولا ماء، ومعنى هذا أنه لا كَرْمَ فيها، فكأنه يأمره ألاَّ يدفنه إلا بمكان ينبت فيه العنب، وكان أَبو مِحْجَن هذا فارساً شجاعاً في الجاهلية والإسلام إلاَّ أنه كان مولعاً بشرب الخمر، وقد حدَّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وله في ذلك أخبار طويلة في كتب الأدب، وفيها كلام كثير عن معنى «الخوف» في كلامه، فارجع إليه في «خزانة الأدب»، وفي «الحاشية الهندية» للدماميني عند تعليقه على قول ابن هشام في كتاب «المغني»: «الخوف في هذا البيت يقين». والشاهد هنا أَنَّ (أَنْ) مخففة من الثقيلة لوقوعها بعد الخوف بمعنى اليقين، واسْمُها ضمير الشأن محذوف، وخَبَرُها جملة (أَن لا أذوقُها).

(٢) تَبَرَّزَ: خرج إلى البَرَاز، وهو الأرض الواسعة الخالية من الشجر ونحوه، والغائط: المنخفض الواسع من الأرض، يقال: ذهب إلى الغائط وجاء منه، كناية عن التَّبَرُّز، وفي التنزيل العزيز: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾.

(٣) الرَّحْل: مَسْكن الإنسان وما يستصحبه من الأثاث، وفي الحديث الشريف: «إذا ابتَلَّت النعال فالصلاة في الرِّحال».

خَيْرًا﴾ على أن يكون [هُوَ] فَصْلاً، وقرأ محمد بن السميفع، وأبو السَّمال: [هُوَ خَيْرٌ] على أن يكون [هُوَ] ابتداءً و[خَيْرٌ] خبره والجملة تَسُدُّ مَسَدَّ المفعول الثاني لـ[تَجِدُوهُ].

ثم أَمَرَ الله تعالىٰ بالاستغفار، وأَوجب لنفسه صفة الغفران، لا إِلـٰه غيره، قال بعض العلماءِ: فالاستغفار بعد الصلاة مستنبط من هذه الآية ومن قوله تعالىٰ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعهدتُ أَبِي رحمه الله تعالىٰ يستغفر إِثر كل مكتوبة ثلاثاً بعقب السلام وَيأْثِرُ[2] في ذلك حديثاً، فكأَن هذا الاستغفار من النقص وتقلُّب الفكر أَثناءَ الصلاة، وكان السلف الصالح يصلون إِلى طلوع الفجر ثم يجلسون للاستغفار إِلى صلاة الصبح.

كمل تفسير سورة المزمل والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

---

(١) الآيتان (١٧، ١٨) من سورة (الذاريات).

(٢) يقال: أَثَرَ الحديثَ بمَعْنى نقله ورواه عن غيره، ومضارع (أَثَرَ) هذه هو (يأْثُرُهُ ويَأْثِرُهُ) بضم الثاء وبكسرها (راجع لسان العرب).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة المُدّثر

وهي مكية بإجماع من أهل التأويل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

اختلفت القراءَةُ في [الْمُدَّثِّر] على نحو ما ذكرناه في [الْمُزَّمِّل]، وفي حرف أُبَيِّ بن كعب: «الْمُتَدَثِّر» ومعناه: المُتَدَثِّر بثيابه، والدِّثارُ: ما يتغطَّى الإِنسان به من الثياب.

واختلف الناس، لم ناداه بالمدَّثِّر؟ فقال جمهور المفسرين بما ورد في البخاري من أنه ﷺ لمَّا فرغ من رؤية جبريل عليه السلام على كرسيٍّ بين السماءِ والأَرض فرُعب منه ورجع إِلى خديجة، قال: زَمِّلُوني زَمِّلُوني، فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[1]، وقالت عائشة،

(١) أخرجه البخاري عن وكيع، عن علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، قال: سألتُ أبا سَلَمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، قلت: يقولون: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، فقال أبو سَلَمَة: سألت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن ذلك، وقلتُ له مثل الذي قلتَ، فقال جابر: لا أُحَدِّثك إلاَّ ما حدثنا رسول الله ﷺ، قال: «جاورت بِحراء، فلما قضيتُ جواري هبطت، فنوديتُ فنظرتُ عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أرَ شيئاً، ونظرت خلفي فلم أرَ شيئاً، فرفَعْتُ رأسي فرأيتُ شيئاً، فأتيتُ خديجة فقلتُ: دَثِّروني وصبُّوا عليَّ ماءً بارداً، قال: فدثَّروني وصبُّوا عليَّ ماءً بارداً، فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾، هكذا ساقه البخاري من هذا الوجه، ورواه مسلم من طريق عُقَيْل، عن ابن شهاب، عن أَبي سَلَمة، قال: أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «فبينا أنا أَمشي إذ سمعت صوتاً من السماءِ، فرفعت بصري قِبلَ السماء، فإذا الملك الذي جاءني بِحِراءَ قاعد على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فَجُئِثْتُ منه ـ أي خفتُ وفزعتُ ـ حتى هويت إلى الأرض، فجئتُ إلى أَهلي فقلت: زمِّلوني زمِّلوني، فأُنزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ..﴾ إلى ﴿فاهْجُرْ﴾. وهذا السياق هو المحفوظ، ويقتضي أن الوحي قد نزل أولاً بقوله تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، لقوله في الحديث=

والنَّخَعيُّ، وقتادة: نُودِي وهو في حال تدثُّر فدعي بحالٍ من أَحواله، ورُوي أنه كان تدثَّر في قطيفة، وقال آخرون: معناه: يا أيُّها النائم، وقال عكرمة: معناه: يا أيُّها المدَّثِّر للنبوة، وأثقالها.

واختلف الناس في أَول ما نزل من كتاب الله تعالىٰ، فقال جابر بن عبد الله، وأَبو سَلَمة، والنَّخَعي، وجماعة: هو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ الآيات، وقال الزهري والجمهور: هو ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، وهذا هو الأَصح، وحديث صدر البخاري نصٌّ في ذلك[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ بِعْثة إِلى جميع الخلق، قال قتادة: المعنى: أَنذر عذاب الله ووقائعه بالأمم، وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ معناه: عَظِّمْه بالعبادة وبثِّ شرعه، ورُوي عن أَبي هريرة أَن بعض المؤمنين قال: بِمَ نفتتح صلاتَنا؟ فنزلت: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾.

= «فإذا المَلَك الذي جاءني بِحِرَاءَ»، ثم حدثت فترة، ثم نزل الوحي وتتابع. وذكر الإمام السيوطي في «الدر المنثور» أن هذا الحديث قد أخرجه الطيالسي وعبد الرزاق، وأحمد، والبخاري، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، وابن الضَّريس، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن الأنباري في المصاحف، ورواية أحمد في مسنده (٣/ ٣٢٥) تشبه في لفظها لفظ رواية مسلم، وقد أخرج البخاري أيضاً الحديث من طريق عُقَيْل بلفظ مسلم.

(١) هذا حديث طويل أخرجه البخاري في كتاب (بدء الوحي) عن عائشة رضي الله عنها، قالت: أَول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤْيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤْيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاءُ، وكان يخلو بغار حِراءَ فيتحنَّث فيه ـ وهو التَّعَبُّد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن يَنْزِع إلى أَهله ويتزوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها، حتى جاءَه الحق وهو في غار حراءَ، فجاءَه الملَك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فَغَطني حتى بلغ مني الْجَهْد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الْجَهْد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ؟ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجُف فؤاده، فدخل على خديجة بنتِ خُوَيْلد، فقال: زَمِّلوني زَمِّلوني، فزَمَّلُوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلاَّ، والله ما يُخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرَّحِم، وتَحمل الكَلَّ، وتَكْسب المعدوم، وتَقْري الضيف، وتُعين على نوائب الحق...» إلى آخر الحديث، وقد أورد الإمام السيوطي هذا الحديث في «الدُّر المنثور» وذكر أن ممن أَخرجه عبد الرزاق، وأَحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وابن جرير، وابن الأنباري في المصاحف، وابن مردويه، والبيهقي من طريق ابن شهاب، عن عروة بن الزبير عن عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها، وهذا الحديث واضح الدلالة على أن قوله تعالىٰ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ هو أول ما نزل من القرآن كما ذكر ابن عطية رحمه الله.

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ ـ قال ابن سيرين، وابن زيد ابن أَسلم، والشافعي، وجماعة: هو أَمْرٌ بتطهير الثياب حقيقة، وذهب الشافعي وغيره من هذه الآية إلى وجوب غسل النجاسات من الثياب، وقال الجمهور: هذه الأَلفاظ استعارة في تنقية الأَفعال والنفس واعرض، وهذا كما تقول: فلان طاهر الثوب، ويقال للفاجر: دنس الثوب، ومنه قول الشاعر:

وَإِنِّـي بِحَمْـدِ اللهِ لا ثَـوْبَ فَـاجِـرٍ لَبِسْـتُ وَلاَ مِـنْ غَـدْرَةٍ أَتَقَنَّـعُ(١)

وقال الآخر:

لاَ هُـمَّ إِنَّ عَـامِـرَ بْـنَ جَهْـمِ أَوْذَمَ حَجًّـا فـي ثِيَـابٍ دُسْـمِ(٢)

أَي دَنِسَة، وقال ابن عباس، والضحاك، وغيرهما: المعنى: ولا تلبسها على غدر ولا فجور، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً: المعنى: لا تلبسها من مكسب خبيث، وقال النَّخَعيُّ: المعنى: طهِّرها من الذنوب، وهذا كله معنى قريب بعضه من بعض، وقال طاووس: المعنى: قصِّرها وشمِّرها فذلك طُهْرة للثياب.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿والرِّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ بكسر الراءِ، وقرأَ حفص عن عاصم، والحسنُ، ومجاهدٌ، وأَبو جعفر، وشيبة، وأَبو عبد الرحمن والنَّخَعي، وابن وثَّاب، وقتادة، وابن أَبي إِسحاق، والأَعرج: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ بضم الراءِ، فقيل: هما بمعنى واحد يراد بهما الأَصنام والأَوثان، وقيل: للأَصنام عموماً، قاله عكرمة، ومجاهد، والزهري، وقال ابن عباس: الرُّجْزُ: السُّخط، فالمعنى: اهجر ما يُؤَدي إِليه ويوجبه،

(١) هذا البيت قاله غيلان بن سَلَمة الثَّقفي، وهو في اللسان ـ ثوب ـ وفي الطبري، والقرطبي، وابن كثير، والبحر المحيط، والدُّر المنثور، وفتح القدير، وقد نقل في اللسان عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «معنى الآية: لا تَلْبس ثيابكَ على معصية، ولا على فجور كُفْر»، واحتج بقول الشاعر: إنِّي بِحَمْدِ الله... البيت. ويروى البيت «وَلا من خَزيَةٍ» بدلاً من «وَلاَ من غَدْرَةٍ»، والخِزْيَة: البَلِيَّةُ والخَصْلة يستحي منها الإنسانُ، والغَدْرَةُ: نقض العهد وتَرك الوفاء به، والتَّقَنُّعُ: التغطي بثوب أو نحوه، والمراد هنا أنه لم يفعل شيئاً يستحي منه ويتوارى خجلاً من الناس.

(٢) هذان بيتان من الرَّجز أوردهما صاحب اللسان ـ وذم ـ شاهداً على أن (أَوذَم) بمعنى أَوْجَبَ، يقال: أَوذَم على نفسه حَجًّا أو سفراً: أوجبه، والثياب الدُّسْمُ هي المتلطِّخة بالذنوب، يقول الشاعر: إن عامر بن جَهْم قد أحرم بالحجِّ وهو مُدَنَّس بالذنوب. والبيتان أيضاً في القرطبي وفي البحر المحيط، ولم ينسبهما أحدٌ ممن ذكرهما، والشاهد أن الراجز هنا كنَّى عن دَنَس النفس بالثياب الدَّنسة.

وقال الحسن: كل معصية رجزٌ، وروى جابر أن النبي ﷺ فسّر هذه الآية بالأوثان[(١)].

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ ـ فقال ابن عباس وجماعة: معناه: لا تُعْطِ عطاءً لِتُعْطَى أكثر منه، فكأنه من قولهم: «مَنَّ إذا أعْطى»، وقال الضحاك: وهذا خاص بالنبي ﷺ ومباح لأمته لكن لا أجْر لهم فيه، قال مكّيٌّ: وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾[(٢)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا معنى أجنبي من معنى هذه السورة.

وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾: لا تقل: دعوتُ فلم أُجَبْ، ورُوي عن قتادة أن المعنى: لا تُدِلَّ بعملك[(٣)]، ففي هذا التأويل تحريض على الجِدّ وتخويف، وقال ابن زيد: معناه: ولا تَمْنُن على الناس بِنبُوَّتك تستكثر بأجْر أو كسبٍ تطلبه منهم، وقال الحسن بن أبي الحسن: معناه: ولا تَمْنُن على الله تعالىٰ بِجِدِّك تَستكثر أعمالك ويقع لك بها إعجاب، فهذه كلها من المنِّ الذي هو تعديد اليد وذكْرها، وقال مجاهد: معناه: ولا تَضْعُف تستكثر ما حَمَّلْناكَ من أعباءِ الرسالة أو تستكثر من الخير، فهذا من قولهم: «حَبْلٌ منين» أي ضعيف[(٤)]. وفي قراءة ابن مسعود: [وَلاَ تَمْنُنْ أنْ تَسْتَكْثِر]، وقرأ الأعمش: [تَسْتَكْثِرَ] بنصب الراءِ على تقدير «أنْ» مضمرة، وضعَّف أبو حاتم الجزم، وقرأ ابن أبي عبلة: [وَلاَ تَمْنُنْ فَتَسْتَكْثِرَ] بالفاءِ العاطفة والجزم، وقرأ أبو السَّمال: [ولا تَمُنَّ] بنون واحدة مشددة.

---

(١) جاء هذا في حديث جابر الذي رواه الإمام أحمد من طريق ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، يقول: أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثم فتر الوحي عني فترة، فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماءِ فرفعت بصري قِبَل السماءِ فإذا الملك الذي جاءَني بِحِرَاءَ الآن قاعد على كرسيٍّ بين السماءِ والأرض، فَجُئِثْتُ منه فرقاً ـ أي فزعت ورُعبت ـ حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلتُ: زمِّلوني زمِّلوني، فزملوني، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾، قال أبو سَلَمة: الرُّجْزُ: الأوثان، ثم حمي الوحيُ وتَتَابع، اهـ. وهذه الرواية تفيد أن هذا التفسير من أبي سلمة.

(٢) من الآية (٣٩) من سورة (الرُّوم).

(٣) من قولهم: «أدَلَّ عليه» بمعنى: وَثِق بمحبته فأفرط عليه، وهي بمعنى تَدَلَّل عليه.

(٤) ذكر ابن عطية ستة أقوال في الآية، وذكر القرطبي فيها أحد عشر تأويلاً.

﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾، أي لوجه ربك وطلب رضاه، كما تقول: فعلتُ كذا لله تعالىٰ، والمعنىٰ: على الأذى من الكفار، وعلى العبادة، وعن الشهوات، وعلى تكاليف النبوة، قال ابن زيد: وعلى حرب الأحمر والأسود، لقد حمل ﷺ أمراً عظيماً.

و«النَّاقور»: الذي ينفخ فيه، وهو الصور، قاله ابن عباس وعكرمة، وقال خُفافُ ابنُ نَدْبة:

إِذَا نَـاقُـورُهُـم يَـوْمـاً تَبَـدَّى أَجابَ النَّاسُ مِنْ شَرْقٍ وغَرْبِ[1]

وهو «فاعول» من النَّقر، وقال أبو حبَّان[2]: أَمَّنا زُرارة بنُ أَوْفى[3] فلما بلغ ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾ خرَّ ميتاً، وروي أن النبي ﷺ قال يوماً لأصحابه: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقمه وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر بالنفخ»؟ ففزع الصحابة فقالوا: كيف نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»[4].

و﴿ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ﴾ معناه: فيه عُسْرٌ في الأُمور الجارية على الكفار، فوصف الله تعالىٰ اليوم بالعُسْر لكونه ظرف زمان له، وكذلك تجيءُ صفته باليسر، وقرأ الحسن: [عَسِرٌ] بغير ياءٍ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۝١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ۝١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ

---

(١) الناقورُ هو الصُّور الذي ينفخ فيه، والنَّقْرُ في كلام العرب: الصوت، يقول خُفاف: إن هؤلاءِ القوم لهم مكانتهم بين الناس، فإذا تنادوا يوماً لأمر أجابهم كل من في الشرق والغرب، والشاعر اسمه خُفافُ بن عُمَيْر بن الحارث بن الشريد السُّلَميُّ، واسم أُمِّه نَدبة ـ بفتح النون وبضمها، وإليها يُنسب، وهو أَحد أَغربة العرب، أي من سودانهم، وهم ثلاثة: عنترة، والسُّلَيْك السَّعْدي، وخُفاف هذا.

(٢) اختلفت الأصول في كتابة هذا الاسم، فهو في بعضها (أبو جناب)، وفي بعضها (أبو خُفاف)، وفي بعضها (أبو حِبَّان) ـ وهذا يتفق مع ما في القرطبي ـ، وجاء في الدر المنثور عن ابن سعد، والحاكم أن الذي قال ذلك هو (بَهْزُ بن حكيم)، قال: فكنت فيمن حمله.

(٣) هو زُرَارَةُ ـ بضم أوله ـ ابن أوفى العامري، الْحَرَشي، أبو حاجب البصري، قاضي البصرة، قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني: «ثقة، عابد، من الطبقة الثالثة، مات فجأة في الصلاة سنة ثلاث وتسعين».

(٤) رواه ابن جرير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وزاد الإمام السيوطيُّ في «الدُّر المنثور» نسبته إلى ابن أبي شيبة، والطبراني، وابن مردويه.

قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ وعيدٌ محضٌ، والمعنى: أنا أكفي عقابه وشأنه كله، ولا خلاف بين المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، فيروى أنه كان يلقَّب بالوحيد لأنه لا نظير له في ماله وشرفه في بيته، فذكر «الوحيد» في الآية في جملة النِّعم التي أُعطي، وإن لم يثبت هذا، فقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ معناه: مُنفرداً قليلاً ذليلاً، فجعلت له المال والبنين[1]، فجاءَ ذكْر الوحْدة مقدمةً حَسُن معها موقع المال والبنين، وقيل: المعنى: خلقته وحدي لم يشركني فيه أحد، فـ[وَحِيداً] حال من التاءِ في [خَلَقْتُ][2].

و«الْمَالُ الممدودُ» قال مجاهد، وابن جُبير: هو أَلف دينار، وقال سفيان: بلغني أنه أَربعة آلاف، وقاله قتادة، وقيل: عشرة آلاف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا مدٌّ في العدد.

وقال النعمان بن سالم: هي الأَرض لأَنها مُدَّت، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: المال الممدود: الرَّيع الْمُسْتَغَلُّ مشاهرةً، فهو مَدٌّ في الزمان لا ينقطع.

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ معناه: حضوراً متلاحقين، قال مجاهد وقتادة: كان له عشرة من الولد، وقال ابن جبير: كان له ثلاثة عشر، و«التَّمْهِيدُ» التَّوْطئة والتَّهيئة، قال سفيان: المعنى: بسطتُ له العيشَ بَسْطاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ وصفٌ لجشع الوليد ورغبتهِ في الازدياد من الدنيا، وقوله تعالىٰ: [كَلاَّ] زَجْرٌ وردٌّ على أُمنية هذا المذكور، ثم ذكر تعالىٰ عنه أنه كان معانداً مخالفاً لآيات الله وعِبَره[3]، يقال: بعير عنودٌ للَّذي يمشي مخالفاً للإبل، ويحتمل أن يريد بالآيات آيات القرآن، وهو الأَصح في التأويل بسبب كلام الوليد في

---

(١) فتكون (وَحيداً) حالاً من الضمير المحذوف العائد على (مَن) في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ خَلَقْتُ﴾.

(٢) وقيل: يجوز أن يكون حالاً من ضمير النصب في (ذَرْني)، ويكون المعنى: ذرني وحدي معه فأنا أَجزيك في الانتقام منه.

(٣) في بعض النسخ: «وَغِيَره»، وكأنه من تغيُّر الحال، إذ يقال: لا أراني اللهُ بك غيَراً، أي أحوالاً متغيرة.

القرآن بأنه سحر، و«أُرْهِقُهُ» معناه: أُكلفه بمشقة وعُسر، و«صَعَود» عقبة في نار جهنم، وروى ذلك أَبو سعيد الخدريُّ عن النبي ﷺ[١]، كلما وُضع عليها شيءٌ من الإِنسان ذاب، والصعود في اللغة: العَقَبة الشاقة.

قوله تعالىٰ مخبراً عن الوليد: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ الآية. روى جمهور من المفسرين أَن الوليد سمع من القرآن ما أَعجبه وَمَدَحه، ثم سمع كذلك مراراً حتى كاد أَن يُقارب الإِسلام، ودخل إِلى أَبي بكر الصديق رضي الله عنه مراراً، فجاءَه أَبو جهل فقال: يا وليد، أَشعرتَ أَنَّ قريشاً قد ذَمَّتْك بدخولك إِلى ابن أَبي قحافة، وزعَمَتْ أَنك إِنما تقصد أَن تأكل طعامه؟ وقد أَبغضتك لمقاربتك أَمر محمد، وما يخلصك عندهم إِلاَّ أَن تقول في هذا الكلام قولاً يُرضيهم، ففتنه أَبو جهل فافتتن، وقال: أَفْعَل ذلك، ثم فكَّر فيما عسى أَن يقول في القرآن، فقال: أَقول هو شعر، ما هو بشعر، أَقول: هو كاهن، ما هو بكاهن، أَقول: هو سحر يُؤْثر، هو قول البشر[٢]، أَي ليس مُنَزَّلاً من عند الله تعالىٰ، قال أَكثر المفسرين: فقوله تعالىٰ: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ دعاءٌ عليه وتَقْبيح لحاله، أَي أَنَّه ممن يستحق ذلك. ورُوي عن الزهري وجماعة غيره أَن الوليد حاجَّ أَبا جهل وجماعة من قريش في أَمر القرآن، وقال: إِن له والله لحلاوة، وإِن أَصله لَغَدِقٌ[٣]، وإِنَّ فرعه لَجَنَاةٌ[٤]، وإِنه ليحكم ما تحته، وإِنه ليَعْلُو ولا يُعْلى، ونحو هذا من الكلام، فخالفوه فقالوا له: هو شِعر، فقال: والله ما هو بِشِعر، ولقد عرفنا الشِّعر هَزَجَهُ وَبسيطه[٥]، قالوا: فهو كاهن، فقال: والله ما هو بكاهن، ولقد رأَينا الكهان وزَمْزَمتهم[٦]، قالوا: فهو مجنون، قال: والله ما هو بمجنون، ولقد رأَينا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن أَبي الدنيا، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي. (الدُّرُّ المنثور).

(٢) ذكره الواحدي بسنده في «أسباب النزول» عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه ابن جرير في تفسيره، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل.

(٣) من قولهم: أَغْدقت الأرضُ: أَخصبت، والعيشُ: اتَّسع، والمطر: كَثُر، فالمراد أنه كثير الخير والبركة.

(٤) الْجَنَاةُ: كلُّ ما يُجْنَى ويجمع من الشجر، والمراد أنه كثير الخير قريبه لمن يريد أن ينتفع به.

(٥) الهَزَج: نوع من بحور الشعر العربيِّ، سمِّي بذلك لتقارب أَجزائه، ولأن نغمته فيها ترنم خفيف مُطْرب، والبسيط أيضاً أحد بحور الشعر الكثيرة الشيوع.

(٦) الزَّمْزمة: صوتٌ مُبهم يديره الكاهن في حَلْقه وخيشومه، لا يُحرك فيه لساناً ولا شفة.

الجنون وخنقه[١]، قالوا: هو سِحر، قال: أَمَّا هذا فيشبه أنه سِحر، ويقول أَقوال نَفْسه[٢].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فيحتمل قوله تعالىٰ: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أَن يكون دعاءً عليه على معنى تقبيح حاله، ويحتمل أَن يكون دعاءً مقتضاه استحسان منزعه[٣] الأَول في مدحه القرآن، وفي نَفْيه الشِّعر والكهانة والجنون عنه، فيجري هذا مجرى قول النبي ﷺ لأَبي جندل بن سهيل: «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرُ حَرْبٍ»[٤]، ومجرى قول عبد الملك بن مروان: قاتل الله كُثَيِّراً، كأَنه رآنا حين قال كذا[٥]، وهذا معنى مشهور في كلام العرب.

ثم وصف تعالىٰ إِدْباره واستكباره وأَنَّه ضلَّ عند ذلك وكفر، وإِذا قلنا إِن ذلك دُعاءٌ على مُستَحسن فعله فيجيءُ قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ فيما احتَجَّ به للقرآن فرأَى ما فيه من عُلُوِّ مرتبة محمد ﷺ فَعَبَس لذلك وبَسَرَ، أَيْ قطَّب وقَبَضَ ما بَيْن عينيه وارْبَدَّ وجهه حسداً له، فأَدْبَرَ، أَي ارْتَكَسَ في ضلاله، وزال إِقباله أَوَّلاً ليهتدي وَلَحِقَتْه الكبرياءُ، وقال: هذا سِحْرٌ يُؤْثَر، ومعناه: يُرْوى ويُحْمَل[٦]، أَي يحمله محمد عن غيره، وعلى التأْويل الأَول أَن الدعاءَ عليه دعاءٌ على مُسْتَقْبَح فِعْله يجيءُ قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ معنىً

---

(١) من الاختناق، وهو ما يفعله الإنسان بنفسه من تضييق الحَلْق.

(٢) ذكره الطبري بنحو من هذا.

(٣) أي مَيلَه واتجاهه الأول من مدح للقرآن ونفي للشعر عنه.

(٤) جاء هذا في حديث طويل عن صلح الحُدَيْبِيَة وما تبعه من أحداث، وقد أخرجه البخاري في كتاب الشروط، وأبو داود في الجهاد، وأحمد في مسنده (٤/ ٣٣١)، وفي الحديث أَنَّ «أبا بصير» وهو رجل من قريش أسلم وجاء إلى المدينة، فأرسلت قريش رجلَيْن في طلبه طبقاً لما تمَّ الاتفاق عليه في عهد الحديبية، فسلمه النبي ﷺ للرجلين، ولكن أبا بصير احتال عليهما وقتل أحد الرجلين، ثم عاد إلى المدينة وقال لرسول الله ﷺ: يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذِمَّتك، قد رَدَدْتني إليهم ثم نجاني الله منهم، فقال ﷺ: «وَيْلُ أُمِّه مِسْعَر حَرب لو كان له أَحد»، فلما سمع ذلك عرف أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه سيردُّه إلى قريش فخرج حتى أتى سيفَ البحر، وخرج أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، واجتمع معهما نفر كثير. . . إلخ الحديث، وكلام الرسول ﷺ كان عن أَبي بصير.

(٥) يأتي هذا التعبير «قاتَلَ اللهُ فلاناً» بمعنى: لَعَنه أو قَتَله أو عاداه، وقد يأتي بمعنى التعجب من الشيء كقولهم: «تَرِبَت يَدَاه».

(٦) في بعض النسخ: «ويحتمل».

معاداً بعينه؛ لأن ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ يقتضيه[(١)]، لكنه إخبارٌ بترديده النَّظر في الأمر، وقد رُوي أن النبي ﷺ دعا الوليد، فقال له: أنْظُرُ وأُفكِّرُ، فلما فكَّر قال ما تقدم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾.

[سَقَر] هو الدرك السادسُ من جهنَّم على ما رُوي، و«أُصْلِيهِ» معناه: أجعله فيها مباشراً لنارها، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ هو على معنى التَّعجب من عظم أمرها وعذابها، ثم بيَّن تعالىٰ ذلك بقوله: ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾، المعنى: لا تُبقي على من أُلْقي فيها ولا تَذَرُ غايةً من العذاب إلاَّ أَوصلته إليها.

قوله تعالىٰ: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وأَبُو رَزين، وجمهور الناس: معناه: مُغَيِّرَةٌ للبشرات، مُحرقة للجلود، مُسودة لها، فـ «الْبَشَرُ» جمع بشرة، وتقول العرب: لاحت النارُ الشيءَ إذا أَحرقته وسوَّدته، وقال الشاعر:

لأَحَـهُ الصَّيْـفُ والغَيـارُ وَإِشْفـا ... قٌ عَلَـى سَقْبَـة كَقَـوْسِ الضَّـالِ[(٢)]

وأَنشد أَبو عبيدة:

. . . . يـاابْنَـةَ عَمِّـي لأَحَنـي الْهَـوَاجِـرُ[(٣)]

---

(١) هكذا في الأصول، ولعله يريد: لأن ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ كلام يقتضيه.

(٢) البيت للأعشى، وهو من قصيدته المعروفة «ما بُكاءُ الكبير بالأَطلال»، واستشهد به صاحب اللسان في «سَقَبَ» و«ضيل» والضمير في «لاحَهُ» يعود على حمار الوحش الذي ذكره في البيت السابق، ومعنى لاَحَه: غَيَّر لونه إلى سوادٍ، يقال: لاَحَهُ السَّفر والبَرْد والسُّقم والحُزْن والعطش بمعنى غيَّره، والغِيارُ: الغنيمة يأتي بها الإنسان لأهله، والمراد هنا أن الحمار الوحشي قد غيره الصيف والتعب في الغنيمة التي يأتي بها لرفيقته من الأُتُن وهي «السَّقْبَةُ»، وفي الديوان بدلاً من الغيار «الصِّيَالُ»، والمراد: المواثبة والعِراكُ مع غيره من الحمر دفاعاً عن هذه الأتان، والسَّقْبَة: الجحشة التي لا تلدُ إلا ذكوراً، أو تضع أكثر ما تضع من الذكور، وفي الديوان «صَعْدَة» وهي الأتَان أيضاً، والضَّالُ: شجر السِّدْر من شجر الشوك، وينبت في السهول والوعُور، وقوسُ الضَّال إذا بُرِيَتْ جَزلةً ليكون أَقوى لها، وإنما يحتمل ذلك منها لِخِفَّةِ عودها، ذكر ذلك في اللسان، ثم استشهد بالبيت على ذلك، يشبه الشاعر الأتان بهذا القوس بعد أن وصف حمار الوحش بالسواد والتغير من أجل دفاعه عنها.

(٣) هذا عجز بيت استشهد به القرطبي أيضاً، والبيت بتمامه: =

وقال الحسن، وابن كيسان: [لَوَّاحَةٌ] بناءُ مبالغة من «لاحَ يَلوحُ» إذا ظهر، فالمعنى أَنها تظهر للناس وهم البشر من مسيرة خمسمائة عام، وذلك لعظمها وهولها وزفيرها، وقرأَ عطية العوفي: [لَوَّاحَةً] بالنصب.

وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ابتداءٌ وخبره مقدم في المجرور، ولا خلاف بين العلماءِ أَنهم خزنة جهنم المحيطون بأَمرها، الذين إِليهم جماع أَمر زبانيتها، وقد قال بعض الناس: إِنهم على عدد حروف «بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ» لأَن بها تقووا، ورُوي أَن قريشاً لما سمعت هذا كثر إِلغاطهم(١) فيه وقالوا: لو كان هذا حقّاً فإِن العدد قليل، فقال أَبو جهل: هؤلاءِ تسعة عشر وأَنتم الدَّهْم(٢)، أفيعجز عشرة منا عن رجل منهم؟ وقال أَبو الأَشدّ ابن الجمحي(٣): أَنا أجهضهم(٤) عن النار، إِلى غير هذا من أَقوالهم السخيفة، فنزلت في أَبي جهل: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾(٥) الآية. وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع، وطلحة بن سليمان(٦): [تسعَةَ عْشَرَ] بسكون العين من [عَشَرَ] لتوالي الحركات، وقرأَ أَنس بن مالك، وأَبو حيوة: [تسعةُ عشَرَ] برفع التاءِ، ورُوي عن أَنس بن مالك أَنه قرأَ: ﴿تسعة أعشر﴾، وضعفها أَبو حاتم(٧).

= تقـولُ مـا لاَحَـكَ يـا مُسَـافِـرُ ... يـابْنَـةَ عَمِّـي لاَحَنـي الْهَـوَاجِـرُ

والهواجر: جمع هاجرة وهي شدة الحر في وقت الظهيرة، تسأله: ماذا غيَّرَكَ أيها المسافر؟ فيقول لها: غيرني يا بنت عَمِّي شِدَّة الحرِّ في وقت الظهيرة، والبيت أيضاً في «مجاز القرآن»، وفي «الألوسي».

(١) أَلْغَطَ القومُ: صوَّتوا أصواتاً مختلفة مبهمة لا تفهم.

(٢) الدَّهم ـ بفتح الدال ـ: العَدَدُ الكثير، يقال: جاءَ دهم من الناس، وجيش دهم أي كثير.

(٣) في بعض النسخ: «أبو الأسْود»، وما أثبتناه، هنا يوافق ما في حاشية الجمل، واسمه أُسَيْد بن كِلْدة الجُمحي، كان شديد البأس، وكان من أعداءِ النبي ﷺ.

(٤) أي أُعجلهم عنها، وفي الحديث الشريف: «فأَجهضوهم عن أَثقالهم يوم أُحد».

(٥) الآية (٢٤) من سورة (القيامة).

(٦) في بعض النسخ: «طلحة بن شبل»، وما أثبتناه يوافق ما في «المحتسب» ج٢ صفحة ٣٣٨.

(٧) قال أبو الفتح في المحتسب: أما «تِسْعَةَ عْشَرَ» بفتح هاء تسعة وسكون عين عشر ـ فلأجل كثرة الحركات، وأن الاسمين جُعلا كاسْمٍ واحد، فلم يوقف على الأول منهما فيُحتاج إلى الابتداء بالثاني، فلما أُمِنَ ذلك أُسكن تخفيفاً أوله، وجعل ذلك أمارة لقوة اتصال أحد الاسمين بصاحبه، وقال أبو حاتم في «تِسْعَةَ أَعْشُرَ»: لا وجه له نعرفه، إلاَّ أن يعني تسعة أَعْشرَ جمع العَشْر أو شيئاً غير الذي وقع في قلوبنا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً﴾ تبيين لفساد أقوال قريش، أي: إنا جعلناهم خلقاً لا قِبَل لأحد من الناس بهم، وجعلنا عدتهم هذا القدر فتنةً للكفار، لِيَقع منهم من التعاطي والطمع في المغالبة ما وقع، ويستيقن أَهل الكتاب ـ التوراة والإِنجيل ـ أَن هذا القرآن من عند الله تعالىٰ؛ إِذ يجدون هذه العِدَّة في كتبهم المنزَّلة التي لم يقرأْها محمد ﷺ ولا هو من أَهلها، ولكن كتابه يصدق ما بين يَدَيْه من كتب الأنبياءِ صلى الله عليه وعليهم وسلم؛ إِذ جميع تلك حق يتعاضد، مُنَزَّل من عند الله تعالىٰ، قال هذا المعنى ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما، وبورود الحقائق من عند الله عزَّ وجلَّ يزداد كلُّ من آمن إِيماناً، ويزول الريب عن المصدقين من أَهل الكتاب ومن المؤمنين.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية... نوعٌ من الفتنة لهذا الصنف المنافق أَو الكافر، أَي: جاروا وضلُّوا ولم يهتدوا لمقصد الحق، فجعلوا يستفهم بعضهُم بعضاً عن مراد الله تعالىٰ بهذا المثال استبعاداً أَن يكون هذا من عند الله تعالىٰ، قال الحسين بن الفضل: السورة مكِّيَّة ولم يكن بمكة نفاقٌ، وإِنما المرض في هذه الآية الاضطراب وضعف الإِيمان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾، أَي: بهذه الصفة وهذا الرَّيْن(١) على القلوب يُضل، ثُمَّ أَخبر تعالىٰ أَنه يهدي من يشاءُ من المسلمين المؤمنين لما ورد، وذلك لعلمهم بالقدرة، ووقوف عقولهم على كُنْه(٢) سلطان الله تعالىٰ، فهم موقنون مُتَصَوِّرون صحة ما أَخبرت به الأَنبياءُ عليهم السلام وكُتُبُ الله تعالىٰ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ إِعلاماً بأَن الأَمر كُلَّه لله سبحانه، وأَنه فوق

(١) الرَّيْن: الغطاء والحجاب الكثيف.
(٢) الكُنْهُ: جوهر الشيء وحقيقته.

ما يُتَوَهَّم، وَأَنَّ الخبر إِنما هو عن بعض القدرة لا عن كلها، والسماءُ[١] عامرة بأَنواع من الملائكة، كلُّهم في عبادة متصلة، وخشوع دائم وطاعة، لا فترة في شيءٍ من ذلك ولا دقيقة واحدة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾، قال مجاهد: الضمير في قوله تعالىٰ: [هِيَ] للنار المذكورة، أَيْ يُذَكَّرُ بها البشر فيخافونها فيطيعون الله تعالىٰ، وقال بعض الحذَّاق: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هِىَ﴾ يراد بها الحالُ والمخاطبة والنِّذَارة، قال الثعلبي: وقيل: ﴿وَمَا هِىَ﴾ يراد نارُ الدنيا، أَي: إِن هذه تذكرة للبشر بنار الآخرة.

وقوله تعالىٰ وجلَّ: [كَلاَّ] ردٌّ على الكافرين وأَنواع الطاعنين على الحق، ثم أَقسم تعالىٰ بالقمر، تخصيص تشريف وتنبيه على النظر في عجائبه، وقدرة الله تعالىٰ في حركاته المختلفة التي هي مع كثرتها واختلافها على نظام واحد لا يختل، وكذلك هو القسم بالليل والصبح، فيعود التعظيم في آخر الفكرة وتحصيل المعرفة إِلى الله تعالىٰ، مالك الكلِّ، وَقِوامِ الوجود، ونُورِ السموات والأَرض، لا إِله إِلاَّ هو العزيز الغفار.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم: [إِذَا دَبَرَ] بفتح الدال والباءِ[٢]، وهي قراءة ابن عباس، وابن الزبير، وابن المسيب، ومجاهد، وعطاءٍ، ويحيى بن يَعْمَر، وأَبي جعفر، وشيبة، وأَبي الزِّناد، وقتادة، وعمر بن عبد العزيز، والحسن، وطلحة. وقرأَ نافع، وحمزة، وحفص عن عاصم: ﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾ بتسكين الدال وفعل رباعي، وهي قراءة سعيد بن جبير، وأَبي عبد الرحمن، والحسن ـ بخلاف عنهم ـ والأَعرج، وأَبي شيخ، وابن محيصن، وابن سيرين. قال يونس بن حبيب: «دَبَرَ» معناه: انقضى، و«أَدْبَرَ» معناه: تولَّى، وفي مصحف ابن مسعود، وأُبَيِّ بن كعب: [إِذَا أَدْبَرَ] بالأَلف في [إِذَا][٣] والفعل رباعي، وهي قراءة الحسن، وأَبي رُزَيْن، وأَبي رجاءٍ، ويحيى بن يَعْمَر، وسأَل مجاهدُ ابنَ عباسٍ رضي الله عنهما عن «دَبَرَ اللَّيْلُ»، فتركه حتى إِذا سمع المنادي الأَول للصبح قال له: يا مجاهد

---

(١) في بعض النسخ: «والمملكة عامرة»، وفي بعضها: «والسماء كلها عامرة».

(٢) الذي في الأصول «دَبَرَ» بفتح الدال والباء، ولم تُذكر (إِذَا)، وذكرناها لأنها بالألف، وهي تختلف عن قراءة عاصم برواية حفص (إِذ) الثابتة في المصحف. واعتمدنا في ذلك على ما ذكره القرطبي وأبو حيان في البحر المحيط.

(٣) زاد في بعض النسخ «وفتح الدال»، وهذا خطأً من النساخ لأن الفعل الرباعي لا تفتح معه الدال.

هذا حين دَبَر الليل، وقال قتادة: «دَبَرَ الليل»: وَلَّى، وقال الشاعر:

وَأَبِي الَّـذي تَـرَكَ الْمُلُـوكَ وَجَمْعَهُـمْ ... بِهُضَـامَ هـامِـدَةً كَـأَمْسِ الـدَّابِـرِ[1]

والعربُ تقول في كلامها: «كأَمْسِ الْمُدْبِرِ». قال أَبو علي: فالقراءتان جميعاً حسنتان.

وأَسْفر الصُبح: أَضاءَ وانتشر ضوْءُهُ قبل طلوع الشمس بكثير، والإِسْفارُ رُتَب: أَوَّل ووسط وآخر، ومن هذه اللفظة السَّفر والسِّفْر والسَّفِيرُ[2]، وسفرت المرأَة عن وجهها، وكلها ترجع إِلى معنى الظُّهور والانجلاءِ، وقرأَ عيسى بن الفضل، وابن السّميفع: [إذا سَفَرَ]، فكأَن المعنى: طرح الظُّلمة عن وجهه، وضعَّفها أَبو حاتم.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾، قال قتادة، وأَبو رزين، وغيرهما الضمير لجهنم، ويحتمل أَن يكون الضمير للنذارة وأَمْر الآخرة، فهو للحال والقصة، وتكون هذه الآية مثل قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾[3]، و«الْكُبَر» جمع كبيرة، وقرأَ جمهور القراءِ: [لإِحْدَى] بهمزة في أَلف «إِحْدَى»، ورُوي عن ابن كثير أنه قرأَ: [لاَحْدَى] دون همزة، وهي قراءة نصر بن عاصم، قال أَبو علي: التخفيف في «إِحْدَى

---

(١) هذا البيت في اللسان غير منسوب، ذكره شاهداً على أن الدابر بمعنى الذاهب، قال: «وأَمْسِ الدَّابرُ: الذَّاهب، وقالوا: مضى أَمْسِ الدَّابر وأَمْسِ المُدْبر، وهذا من التَّطوع المُشَامّ للتأكيد لأن اليوم إذا قيل فيه أَمْسِ فمعلوم أَنه دَبَر، لكنه أكَّده بقوله: الدَّابر، قال الشاعر: وأَبي الذي. . . البيت»، والرواية فيه: «بصُهاب» بدلاً من «هضام» والهضام: الأرض المنخفضة التي تغيب عن النظر لانخفاضها. أَمَّا «صُهابُ» فموضع جعلوه اسماً للبقعة، وأَنشد الأصمعي هذا البيت شاهداً على ذلك. راجع اللسان ـ دَبَرَ وصَهَبَ.

(٢) السَّفرَ: الصُّبْحُ وَالفَجرُ، قال الأخطل:

إنـي أَبِيـتُ وَهَـمُّ اللَّيْـلِ يَبْعَثُـهُ ... مِـنْ أَوَّلِ اللَّيْـلِ حَتَّـى يُفْـرِجَ السَّفَـرُ

أَي: أبيت أَسْري إلى انفجار الصبح.

والسِّفْر ـ بالكسر ـ: الكتابُ، وقيل: هو الكتاب الكبير، وقيل: هو جزءٌ من التوراة، والجمع أَسفار.

والسفيرُ: الرسولُ والمصلح بين القوم، والجمع سفراءُ، يقال: سفرتُ بين القوم إذا سعيتَ بينهم في الإصلاح. «راجع اللسان».

(٣) الآيتان (٦٧، ٦٨) من سورة (ص).

الكُبَرِ» أَن تجعل الهمزة فيها بَيْن بَيْن، فأَمَّا حذف الهمزة فليس بقياس، وقد جاءَ حذفها، قال أَبو الأَسود الدؤَليُّ لزياد:

يَـا أَبَـا الْمُغِيـرَةِ رُبَّ أَمْـرٍ مُعْضِـلٍ ... فَـرَّجْتُـهُ بِـالنُّكْـرِ مِنِّـي والـدَّهَـا[1]

وأَنشد ثعلب:

إِنْ لَـمْ أُقَـاتِـلْ فَـالْبِسُـونِـي بُـرْقُعَـاً ... وَفَتَخَـاتٍ فِـي الْيَـدَيْـنِ أَرْبَعَـا[2]

قوله تعالىٰ: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾، قال الحسن بن أَبي الحسن لاَ نذير أَدْهى من النار، فهذا القول يقتضي أَن [نَذِيراً] حال من الضمير في [إِنَّهَا]، أَوْ من قوله تعالىٰ: [لإِحْدَى]، وكذلك أَيضاً على الاحتمال في أَن تكون [إِنَّها] يراد بها قصة الآخرة وحال المعاد. وقال أَبُو رَزين: الله جلَّ ذِكْره هو النذير، فهذا القول يقتضي أَن [نَذِيراً] مفعول لفعل تقديره: اعبدوا نذيراً للبشر، أَو ادعو نذيراً للبشر، وقال ابن زيد: النذيرُ محمد ﷺ، فهذا القول يقتضي أَن [نذيراً] معمول لفعل تقديره، نادِ نذيراً، أَو بلغ نذيراً، ونحو هذا، ويحتمل أَن يكون [نَذِيراً] مصدراً مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[3]؟ وهو اختيار الخليل في هذه الآية، ذكره الثعلبيُّ، قال: ولذلك يوصف به المؤنث. وقرأَ ابن أَبي عبلة: [نَذِيرٌ] بالرفع على إِضمار «هو».

قوله تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾، قال الحسن: هو وعيد نحو قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[4]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾[5].

---

(١) أبو الأسود هو عَمْرو بن سفيان بن جندل، من التَّابعين، وكانت له أَخبار مع زياد بن أَبيه قال فيها شعراً، والأَمْرُ المُعْضل هو الشديد المُعْجز، والنُّكْرُ: الدهاء والفطنة، والدَّهَا: العَقْلُ وجودةُ الرأي والبصرُ بالأُمور، يقول: إنه بعقله وفطنته يتغلب على الصعاب والمشكلات، والشاهد حذف الألف في «أَبَا».

(٢) البُرْقُع: بضم القاف وبفتحها: غطاءٌ تغطي به البدوية وجهها، ولا يظهر منه سوى العينين، والفَتَخَات: جمع فَتْخَة وَفَتَخَة، وهي حَلْقة تلبس في الإصبع كالختم ولا فصَّ فيها، وكانت نساء الجاهلية يلبسنها في أصابعهن العشر، وقد تكون في أصابع الرجلين، وفي حديث عائشة رضي الله عنها في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: القُلْبُ والفَتَخَةُ. والشاهد في البيت هنا حذف الهمزة في «فَالْبِسُوني».

(٣) من الآية (٤٥) من سورة (سبأ).

(٤) من الآية (٢٩) من سورة (الكهف).

(٥) من الآية (٢٤) من سورة (الحجر).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هو بيانٌ في النِّذارة، وإعلام بأَن كل أَحد يسلُك طريق الهدى والحق إذا حقَّق النظر، أَو بعينه يتأَخَّر عن هذه الرتبة لغفلته وسوءِ نظره.

ثم قوَّى تعالىٰ هذا المعنى بقوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾؛ إِذْ لزم بهذا القول أَن المقصِّر مرتهن بسوءِ عمله، وقال الضحاك: المعنى: كلُّ نفس حقت عليها كلمة العذاب، ولا يرتهن الله تعالىٰ أَحداً من أَهل الجنة إن شاءَ الله تعالىٰ. والهاءُ في [رَهِينَةٌ] للمبالغة، أَو على تأَنيث اللفظ لا على معنى الإنسان.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ استثناءٌ ظاهر الانفصال، وتقديره: لكن أَصحاب اليمين؛ وذلك لأَنهم لم يكتسبوا ما هم به مرتهنون، قال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: أَصحاب اليمين في هذه الآية أَطفال المسلمين، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الملائكة عليهم السلام، وقال الضحاك: هم الذين سبقت لهم من الله الحسنى، وقال الحسن، وابن كيسان: هم المسلمون المخلصون، ليسوا بِمُرْتَهَنين. ثم ذكر تعالىٰ حال أَصحاب اليمين، وأَنهم في جنات يسأَل بعضهم بعضاً عمَّن غاب من معارفهم، فإِذا علموا أَنهم مجرمون في النار قالوا لهم ـ أَو قالت الملائكة ـ: «ما سَلَكَكُمْ في سَقَرَ»، و«سَلَكَ» معناه: أَدْخل، ومنه قول أَبي وَجزة السعديِّ:

حَتَّى سَلَكْنَ الشَّوَى مِنْهُنَّ في مَسَكٍ ... مِنْ نَسْلِ جَوَّابَةِ الآفَاقِ مِهْدَاجِ[1]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ

---

(١) قال أبو وَجْزة هذا البيت في وصف حُمُر الوحش، ومعنى سَلَكْنَ: أَدْخَلْنَ، وهو الشاهد هنا، والشَّوَى: اليدان والرجلان، والمَسَكُ: الأسورةُ من العاج وغيره، وقد استعاره أَبو وَجْزَةَ فجعل ما تُدخل فيه الأُتُنُ أَرجلها من الماء مَسَكاً، أي سواراً حول أطرافها. وَجَوَّابةُ الآفاق هي السحابة التي تطوف بالآفاق، جعل الماء نَسْلاً لها لأن الريح تستدرُّ السحاب وتُلْقِحُهُ فيمطر، فالماء من نسلها، والْمهداجُ من الهَدَجَة، وهو حنين الناقة على ولدها، يقول: إن الأُتُن أتت في طلب الماء ليلاً، وإنها أَدخلت أرجلها في ماءٍ فالتفت حولها كالأساور، وهو ماءٌ تنزلُه الريح من السحابة التي لها صوت كصوت الناقة حين تَحِنُّ على ولدها.

حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

هذا هو اعتراف الكفار على أنفسهم، وفي نَفْي[1] الصلاة يدخل الإِيمان بالله تعالىٰ، والمعرفةُ به، والخشوع له والعبادة. والصلاةُ تنتظم مُعْظَمَ الدين وأَوامرَ الله تعالىٰ وواجبات العقائد. وإِطعام المساكين ينتظم الصدقة فرضاً وطواعيةً وكل احتمال تندب إِليه الشريعة بقول أَو فعل. والخَوْضُ مع الخائضين عُرْفُه في الباطل، قال قتادة: المعنى: كُلَّما غوى غاوٍ غَوَوْا معه، والتكذيبُ بيوم الدين كُفْرٌ صراحٌ بالله تعالىٰ.

و«اليقينُ» معناه عندي: صحةُ ما كانوا يكذبون به من الرجوع إِلى الله تعالىٰ والدار الآخرة، وقال المفسرون: «اليقينُ»: الموت، وذلك عندي ـ هنا ـ مُتَعَقَّبٌ؛ لأَن نفس الموت يقين عند الكافر وهو حيٌّ، فإِنما اليقين الذي عنوا في هذه الآية فهو الشيءُ الذي كانوا يكذبون به وهم أَحياءٌ في الدنيا فيتيقنونه بعد الموت، وإِنما يُفَسَّر اليقين بالموت في قوله تعالىٰ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[2].

ثم أَخبر تعالىٰ أَن شفاعة الشافعين لا تنفعهم، فتقرَّر من ذلك أَنَّ ثَمَّ شافعين، وفي صحة هذا المعنى أَحاديث، قال ﷺ: «تشفع الملائكة ثم النبيُّون ثم العلماءُ ثم الشهداءُ ثم الصالحون، فَيُشَفَّعون، ثم يقول الله تعالىٰ: شفع عبادي وبقيت شفاعة أَرحم الراحمين، فلا يبقى في النار من كان له إِيمان»[3]. وروى الحسن أَنَّ الله يُدخل بشفاعة رجل من هذه الأُمة إِلى الجنة مثل ربيعة ومضر، وفي رواية أَبي قُلابة: أَكثر من بني

---

(١) في إحدى النسخ: «وفي معنى الصلاة».

(٢) الآية (٩٩) من سورة (الحِجْر).

(٣) حديث الشفاعة حديث طويل، وقد أخرجه البخاري، ومسلم، وأحمد، وفي لفظ البخاري في كتاب التوحيد: «فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون، فيقول الجبار: بقيت شفاعتي، فيقبض قبضة من النار فيخرج أقواماً قد امْتُحِشُوا، فَيُلْقون في نهر بأفواه الجنة يقال له ماءُ الحياة... الحديث»، وفي لفظ أَحمد (٣/ ٩٤): «ثم يقول الله: شفعت الملائكة وشفع الأنبياء وشفع المؤمنون وبقي أرحم الراحمين، قال: فيقبض قبضة من النار، أو قال قبضتين، ناس لم يعملوا خيراً قط قد احترقوا حتى صاروا حِمماً، قال: فيؤتى بهم إلى ماء يقال له ماء الحياة... إلخ». ومعنى (امتحشوا) أنهم تناولهم اللهب فأحرق جلودهم فكشف العظم وشيَّط أعاليه.

تميم[١]. وقال الحسن: كنا نحدث أن الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته[٢].

ثم قال تعالىٰ وجلّ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾، أي والحال المنتظرة هي هذه الموصوفة؟ وقوله تعالىٰ في صفة الكفار المعرضين في تولٍّ واجتهادٍ في نفور: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ إثبات لجهالتهم، لأن الحُمُر من جاهل الحيوان جداً، وقرأ الأعمش: [حُمْرٌ] بإسكان الميم، وفي حرف ابن مسعود: «حُمُرٌ نافِرَةٌ»، وقرأ نافع، وابن عامر، والمفضل عن عاصم: [مُسْتَنْفَرَةٌ] بفتح الفاءِ، وقرأ الباقون بكسر الفاءِ، واختلف عن نافع، وعن الحسن، والأعرج، ومجاهد، فأمّا فتح الفاءِ فمعناه: استنفرها فزعُها من القَسْورة، وأما كسْر الفاءِ فعلى أن «نفَرَ» و«اسْتَنْفَرَ» بمعنى واحد، بمنزلة «عَجِبَ» و«اسْتَعجبَ» و«سَخِرَ» و«اسْتَسْخرَ»، فكأنها نفرت هي، ويُقَوِّي ذلك قوله تعالىٰ: [فَرَّتْ]، وبذلك رجح أبو علي قراءة الكسر[٣].

واختلف المفسرون في معنى «الْقَسْوَرَة» ـ فقال ابن عباس، وأبو موسى الأشعريُّ، وقتادة، وعِكْرمة: القَسْوَرة: الرُّماةُ، وقال ابن عباس أيضاً، وأبو هريرة، وجمهور من اللغويين: القَسْورة: الأسدُ، وقال الشاعر:

مُضَمَّـــرٌ تَحْــذَرُهُ الأَبْطَـــالُ   كَــأَنَّـــهُ الْقَسْــوَرَةُ الـــرِّئْبَـالُ[٤]

---

(١) أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ قال: يقولون: كلما غَوَى غاوٍ غوينا معه، وفي قوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ قال: تعلموا أن الله يُشَفِّع المؤمنين يوم القيامة بعضهم في بعض، قال: وذُكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «إن في أُمّتي رجلاً ليُدخلن الله الجنة بشفاعته أكثر من بني تميم»، وقال الحسن: «أكثر من ربيعة ومُضر».

(٢) في آخر الحديث في الهامش السابق: «قال: وكنا نحدث أن الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته»، وأخرجه أبو داود في الجهاد.

(٣) قال الفراءُ في «معاني القرآن»: وهما جميعاً كثيرتان في كلام العرب ـ يعني اللغتين ـ ثم أنشد دليلاً على الكسر:

أَمْسِــكْ حِمَـــارَكَ إِنَّـــهُ مُسْتَنْفِـــرٌ   فِــي إِثْــرِ أَحْمِــرَةٍ عَمَــدْنَ لِغُــرَّبِ

و(غُرَّب) جبل دون الشام في بلاد بني كلب، وعنده عين ماء يقال لها: الغُرَّبة، والبيت في القرطبي وفي المحيط وفي اللسان.

(٤) الضُمور: الهزالُ والتصاق البطن بالظهر، وهو دليل على سلامة الجسم، والقسورة: الأسد، وهذا هو المعروف فيه، وإن كان اللغويون قد ذكروا فيه أقوالاً كثيرة، فهو الرَّامي والصائد، والكلب، والعزيزُ يَقْتَسِر غيره ويقهره، والرئبال: واحد من أسماءِ الأسد، يُهمز ولا يُهمز، ولم أقف على قائل البيت.

وقال ابن جبير: القَسْوَرة: رجالُ القنص، وقاله ابن عباس أيضاً، وقيل: القَسْورةُ: رِكْزُ الناس، وقيل: القَسْورة: الرجال الشداد، قال لبيد:

إِذَا مَـا هَتَفْنَـا هَتْفَـةً فـي نَـدِيِّنَـا   أَتَانَا الرِّجالُ الْعَانِدونَ الْقَسَاوِرُ(١)

وقال ثعلب: القَسْوَرة: سوادُ أَوّل الليل خاصة لا آخره. واللفظة مأخوذة من القَسْر الذي هو الغَلَبة والقهر.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ معناه: من هؤلاءِ المعرِضين، أَي يريد كل إِنسان منهم أَن ينزل عليه كتاب من الله تعالىٰ، وكان هذا من قول عبد الله بن أَبي أُمية وغيره، ورُوي أَنَّ بعضهم قال: إِن كان يُكتب في صحفٍ ما يُعمل فلتعرض تلك الصحف علينا، فنزلت هذه الآية. و[مُنَشَّرَةً] معناه: غير مطويةٍ، منشورة، وقرأَ سعيد بن جبير: [صُحْفاً] بسكون الحاءِ، وهي لغة تميمية، وقرأَ: [مُنْشَرَةً] بسكون النون وتخفيف الشين، وهذا على أَن يشبه «نَشرَ الثَّوبَ» بـ «أَنْشَرَ اللهُ الميتَ»؛ إِذ الطيُّ كالموت، وقد عكس التيميُّ التشبيه في قوله:

رَدَّتْ صَنَـائِعُـهُ عَلَيْـهِ حَيَـاتَـهُ   فَكَـأَنَّـهُ مِـنْ نَشْـرِهَـا مَنْشُـورُ(٢)

ولا يقال في الميت يَحْيَا: مَنْشُورٌ إِلاَّ على التشبيه بالثوب، وأَما محفوظ اللغة فهو

(١) هذا بيت من «متفرقات» نسبت إلى لبيد، وذكرت في آخر الديوان، والرواية فيه «الصائِدُونَ» بدلاً من «العائِدُونَ» وهو في القرطبي «العائدون»، وفي البحر المحيط «الصائدون» وفي فتح القدير «العابدون». ويحاول بعض الشراح توضيح معنى «الصائد» بأنه من الصَّيَد وهو مَيْل العنق من الكبر أَو من المرض، أما «العائدون» و«العابدون» فلا نجد لهما هنا معنى، وأما «العاندون» فهي جمع عاند وهو الباغي الذي يردُّ الحق مع العلم به، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، قالوا في تفسيره: هو الطاغي المجاوز للقدر، الذي يعرف الشيءَ فيميل عنه ويأباه. والنَّدِيُّ: المجلس ما دام القوم مجتمعين فيه، فإذا تفرقوا عنه فليس بنديٍّ، ومثله النادي، والقساور: جمع قسورة وهو الأسد في الأصل، والمرادُ به هنا الرجال الأشداءُ. يقول: إذاما صِحْنَا صيحة القوة في مجتمعنا خضع لنا الرجال الأشداءُ المتكبرون الذين لا يخضعون لأحدٍ كبراً وعناداً.

(٢) الصنائع: جمع صنيعة، وهي ما أعطيته وأسديته من معروف أو يد إلى إنسان. ونَشْرُ الصنائع: إذاعَتُها وشهرتها بين الناس، ومنشور هنا بمعنى أَنَّه حيٌّ، يقول: إن ما صنعه من معروف وخير ذاع في الناس وانتشر حتى ردَّ على الممدوح حياته فكأنه هو نفسه حيٌّ بين الناس، والشاهد هنا أَن الشاعر شبَّه إحياءَ الممدوح بنشر المعروف والخير، وهذا عكس المألوف وهو تشبيه الثوب المطوي بالميت كأنه ميت بطيِّه، فإذا نُشِر صار حيّاً.

«نَشَرْتُ الصحيفةَ» و«أَنْشَرَ اللهُ الميِّتَ»، وقد جاءَ عنهم «نَشَرَ اللهُ الميِّتَ».

وقوله تعالىٰ: [كَلاَّ] ردٌّ على إرادتهم، أي: ليس الأمر كذلك، ثم قال تعالىٰ: ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾، المعنى: هذه العلَّةُ والسبب في إعراضهم، فكأَن جهلهم بالآخرة سبب امتناعهم من الهدى حتى هلكوا. وقرأ أبو حيوة: [تَخافونَ] بالتاءِ من فوق، ورويت عن ابن عامر. ثم أَعادَ تعالىٰ الردَّ والزجر بقوله تعالىٰ: [كَلاَّ]، وأَخبر أَن هذا القول والبيان وهذه المحاورة بجملتها تذكرة، فمن شاءَ وفَّقه لذكْر معاده، ثم أَخبر أَن ذكْر الإنسان معاده، وجَرْيَه إلى فلاحه إنما هو كله بمشيئة الله تعالىٰ، وليس يكون شيءٌ إلاَّ بها.

وقرأَ نافع، وأَهل المدينة، وسلام، ويعقوب: [تَذْكُرُونَ] بالتاءِ من فوق، وقرأَ أَبو جعفر، وعاصم، وأَبو عمرو، والأَعمش، وطلحة، وابن كثير، وعيسى، والأَعرج: [يَذْكُرُونَ] بالياءِ من تحت، ورُوي عن أَبي جعفر بالتاءِ من فوق وشدِّ الذَّال، كأَنه «تَتَذَكَّرُون» فأَدْغم.

وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ خبر جزم، معناه أَن الله تعالىٰ أَهْلٌ بصفاته العُلَى، ونِعَمه التي لا تُحصى، ونِقَمه التي لا تُدفع، لأَن يُتَّقى ويُطاع، ويُحْذَرَ عصيانُه وخلافُ أَمره، وأَنه تعالىٰ بفضله وكرمه أَهْل لأَن يغفر لعباده إذا اتَّقوه. وروى أَنس بن مالك أَن النبي ﷺ فسَّر هذه الآية فقال عليه الصلاة والسلام: «يقول ربكم جلَّت عظمته: أَنا أَهلٌ أَن أُتَّقى فلا يجعل معي إله غيري، ومن اتَّقى أَن يَجْعل معي إلهاً غيري فأَنا أَغفر له»[1]، وقال قتادة: هو أَهلٌ لأَن تُتَّقَى محارمُه، وأَن يغفر الذنوب.

كمل تفسير سورة المدَّثِّر والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد، والدارميُّ، والترمذي وحَسَّنه، والنسائي، وابن ماجه، والبزَّار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عديٍّ وصححه، وابن مردويه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وذكر ابن كثير في تفسيره أن البغويَّ وغيره رواه من حديث سهيل بن عبد الله القطعي به، وذكر أيضاً عن الترمذي أنه قال: «حسن غريب وسُهَيْل ليس بالقوي»، وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن دينار قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه، وابن عمر، وابن عباس رضي الله عنهم يقولون: سُئل رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ قال: «يقول الله: أنا أهلٌ أن أُتقى فلا يُجعل معي شريك، فإذا اتُّقيت ولم يُجعل معي شريك فأنا أهل أن أغفر ما سوى ذلك».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة القيامة

وهي مكية بإجماع من أَهل التأويل، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من سأَل عن القيامة أَو أَراد أَن يعرف حقيقة وقوعها فليقرأ هذه السورة، وقال المغيرة بن شعبة[1]: يقول الناس: القيامة القيامة، وإنما قيامةُ المرءِ موتُه، ورُوي أَيضاً عن ابن جبير أَنه حضر جنازة رجل فقال: أَمَّا هذا فقد قامت قيامتُه، ورُوي مثله عن علقمة، ذكره الثعلبي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقيامة الرجل في خاصته ليست بالقيامة الجامعة لجميع الخلق بعد البعث، لكن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه كأَنه قال هذا لمن يستبعد قيام الآخرة، ويظن طول الأَمد بينه وبينها، فتوعَّده بقيامة نفسه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

قرأَ جمهور السبعة: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وقرأَ ابن كثير، والحسن ـ بخلاف عنه ـ والأعرج: [لأُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ * وَلأُقْسِمُ][2] فأَما القراءة الأُولى فاختلف في تأْويلها ـ فقال ابن جبير: [لاَ] استفتاح كلام بمنزلة «أَلاَ»، وأَنشدوا على ذلك:

---

(١) هو المغيرةُ بن شُعبة بن مسعود بن معتِّب الثَّقفي، صحابي مشهور، أَسلم قبل الحُدَيْبِيَةَ وولي أَمر البصرة ثم الكوفة، مات سنة خمسين على الصحيح. (تقريب التهذيب).

(٢) قال الطبري في تفسيره: «والقراءة التي لا أستجيز غيرها في هذا الموضع «لا» مفصولةً».

فَـلاَ وَأَبِيـكِ ابْنَـةَ الْعَـامِـرِيِّ   لا يَـدَّعـي الْقَـوْمُ أَنِّـي أَفِـرْ(١)

وقال أبو علي: [لاَ] صلةٌ زائدة كما زيدت في قوله تعالىٰ: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾(٢)، ويُعترضُ هذا بأَنَّ هذه في ابتداءِ كلام، ولا تُزادُ «لا» و«ما» ونحوهما من الحروف إلاَّ في تضاعيف كلام، فينفصل عن هذا بأن القرآن كلَّه كالسورة الواحدة وهو في معنى الاتصال فجاز فيه هذا. وقال الفراءُ: [لاَ] نفيٌ لكلام الكفار وزَجْرٌ لهم وردٌّ عليهم. ثم استأنف تعالىٰ ـ على هذه الأقوال الثلاثة ـ قوله تعالىٰ: ﴿أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وأقسم الله تعالىٰ بيوم القيامة تنبيهاً منه لعظمته وهوله.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ﴾، القول في [لاَ] على نحو ما تقدم.

وأَما القراءة الثانية فتحتمل أَحد أَمرين: إمَّا أَن تكون اللام دخلت على فعل الحال، والتقدير: لأَنَا أُقسم، فلا تلحق النون لأن النون إنما تدخل في الأكثر لتفرق بين فعل الحال والفعل المستقبل، فهي تلزم المستقبل في الأكثر، وإما أَن يكون الفعل خالصاً للاستقبال، فكان الوجه والأكثر أَن تلحق النون، إمَّا الخفيفة وإمَّا الثَّقيلة، لكن قد ذكر سيبويه أَن النون قد تسقط مع إرادة الاستقبال وتُغني اللام عنها، كما قد تسقط اللام وتُغني النون عنها، وذلك في قول الشاعر:

وَقتيـلُ مُـرَّةَ أَثْـأَرَنَّ فَـإِنَّـهُ   فَـرْغٌ، وَإِنَّ قَتِيلَهُـمْ لَـمْ يُثْـأَرِ(٣)

---

(١) هذا البيت لامرىء القيس قاله من قصيدة يصف فيها فرسه وخروجه إلى الصَّيْد، وقد بدأها بقوله:

أَحـارِبْـنَ عَمْـرٍو كَـأَنِّـي خَمِـرْ   وَيَعْـدُو عَلَـى الْمَـرْءِ مـا يـأْتَمِـرْ
فَـلاَ وَأَبِيـكِ ابْنَـةَ الْعَـامِـرِيِّ   لاَ يَـدَّعِـي الْقَـوْمُ أَنـي أَفِـرْ

يخاطب الحارث بن عمرو بقوله: إني أُحِسُّ بأني مريض أَو أُصبت بالسُّكْر، والمرءُ يرجع إليه ما يريد هو أن يوقعه بغيره، ثم يخاطب ابنة العامريِّ بأنه رجل شجاع، ولا يملك أحد أن يدعي عليه بأنه جبان يفر من المواجهة، وقد استدلوا بهذا البيت على أن «لا» أداة استفتاح بمنزلة «أَلاَ».

(٢) من الآية (٢٩) من سورة (الحديد).

(٣) هذا البيت من قصيدة قالها عامر بن الطُّفيل بعد أن هُزم قومه أمام غطفان في يوم يُسَمَّى يوم الرَّقَم، وقد قُتل أخوه حنظلة بن الطفيل في هذا اليوم، وهو الذي يُسميه قتيل مُرَّة، وعامِرُ هذا فارس أدرك الإسلام ولم يُسلم، والرواية الصحيحة للبيت كما في المفضليات ٣٦٤ والأصمعيات ٢٥٢ وخزانة الأدب ٢١٦/٤ هي مع بيت قبله:

وَلأَثْـأَرَنَّ بِمـالِـكٍ وَبِمـالِـكٍ   وَأَخـي الْمَـرْوَراةِ الـذي لَـمْ يُسْنَـدِ =

المراد: لأَثْأَرَنَّ.

وأَمَّا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ فقيل: [لَآ] نافية، وإن الله تعالىٰ أَقسم بيوم القيامة ونَفَى أَن يُقسم بالنفس اللَّوامة، نصَّ عليه الحسن، وقد ذهب هذا المذهب قومٌ ممن قرأَ: ﴿لَأُقْسِمُ﴾ وذلك قلِقٌ، وهو في القراءة الثانية أَمكن، وجمهور المتأَولين على أَن الله تعالىٰ أَقسم بالأَمرين.

واخْتُلف في «النَّفْسِ اللَّوَّامة»، ما معناه؟ فقال الحسن: هي اللَّوَّامة لصاحبها في ترك الطاعة ونحوه، فهي ـ على هذا ـ ممدوحة، ولذلك أَقسم الله تعالىٰ بها، وقال ابن عباس، وقتادة: هي الفاجرة الجشعة اللَّوَّامة لصاحبها على ما فاته من سعي الدنيا وأَعْراضها، فهي ـ على هذا ـ ذميمة، وعلى هذا التأويل يحسن نَفْي القسم بها، والنفس في الآية اسم جنس لنفوس البشر، وقال ابن جبير ما معناه: إنَّ القَسَم بها من اسم الجنس لأَنها تلوم على الخير والشر، وقيل: المرادُ نفس آدم عليه السلام لأَنها لم تزل لائمة له على فعله الذي أَخرجه من الجنة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكل نفس متوسطة ليست بالمطمئنة ولا بالأَمارة بالسوءِ فإِنَّها لوامة في الطرفين، مرةً تلوم على ترك الطاعة، ومرةً تلوم على فوت ما تشتهي، فإِذا اطمأَنت خلصت وصفت.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ تقريرٌ وتوبيخٌ، و«الإِنسان» اسم الجنس، وهذه أَقوال كانت لكفَّار قريش، فعليها الرَّدُّ. وقرأَ جمهور الناس: ﴿نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ بالنون ونصب الميم من العظام، وقرأَ قتادة بالتاءِ ورفع الميم من العظام، ومعنى ذلك: في

= وَقَتِيــلِ مُــرَّةَ أَثْــأَرَنَّ فَــإِنَّــهُ ... فَــرْعٌ وَإِنَّ أَخــاهُــمُ لَــمْ يُقْصَــدِ

فإن القصيدة دالية وليست رائية، أما أخو المَرَوْراة فهو أخوه الثاني «الحكم بن طفيل» الذي خَنق نفسه لما شعر بالهزيمة ومات في مكان يُسمَّى «المَرَوراة»، وإليه نسب بهذه الصيغة. ومعنى «فَرْعٌ»: رأسٌ عالٍ في الشرف، ولم يقصد: لم يُقتل، يقال: «أَقْصَدْتُ الرجلَ» إذا قتلته. ويروى (فِرغٌ) بمعنى هَدَر، والثَّأْرُ هو قتل القاتل، والبيت شاهد على أن الفعل المضارع قد يخلو من اللام استغناءً بالنون، والأكثر في اللغة أن يجتمعا فيقال: لأَثْأَرَنَّ. وكلمة (قتيل) يجوز فيها الرفع والنصب والجرُّ، وتعليل ذلك واردٌ في كتب النحو واللغة.

القيامة وبعد البعث من القبور، وقرأ أبو عمرو بإدغام العين في العين.

ثم قال تعالىٰ: (بَلَى)، وهي إيجابُ ما نُفي، وبابُها أن تأتي بعد النفي، والمعنى: بل نجمعها قادرين، فنصب (قَادِرِينَ) على الحال، وقرأ ابن أبي عبلة: [قَادِرُونَ] بالرفع. وقال القتبي: ﴿نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ معناه: نُتْقِنُهَا سَوِيَّةً، والبنان: الأصابع، وكأن الكفار لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناءِ، والإرمام قيل لهم: إنها تجمع ويُسَوَّى أكثرها تفرقاً وأَدَقُّها أجزاءً وهي عظام الأنامل ومفاصلها، وهذا كله عند البعث. وقال ابن عباس وجمهور المفسرين ﴿نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾: نجعلها في حياته هذه بضعة أو عظماً واحداً كخُفِّ البعير لا تفاريق فيه، فكأن المعنى: قادرين الآن في الدنيا على أن نجعلها دون تفرُّق فتقل منفعته بيده، فكأن التقدير: بَلَى نحن أهل أن نجمعها، قادرين الآن على إزالة منفعته بيده، ففي هذا توعُّدٌ ما. والقول الأول أجري مع رصف الكلام، ولكن على هذا القول الآخر جمهور من العلماءِ[١].

قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾. قال بعض المتأولين: الضمير في [أَمَامَهُ] عائد على الإنسان، ومعنى الآية أن الإنسان إنما يريد شهواته ومعاصيه ليمْضي فيها أبداً قدماً راكباً رأسه ومطيعاً أمله ومُسَوِّفاً بتوبته. قاله مجاهد، والحسن، وعكرمة، وابن جبير، والضحاك والسدي، وقال السُّدي: المعنى: ليظلم على قدر طاقته، وقال الضحاك: المعنى: يركب رأسه في طلب الدنيا دائماً. وقوله تعالىٰ: [لِيَفْجُرَ] تقديره: لكي يفجر.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ما يقتضي أن الضمير في [أَمَامَهُ] عائد على «يوم القيامة»، والمعنى أَنَّ الإنسان هو في زمان وجوده أمام يوم القيامة وبين يديه، ويوم القيامة خلفه، فهو يريد شهواته ليفجر في تكذيبه بالبعث وغير ذلك بين يدي يوم القيامة، وهو لا يعرف قدر الضرر الذي هو فيه، ونظير قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ﴾ قول قَيْس بنِ سَعْدٍ:

---

(١) من أسرار البلاغة القرآنية هنا أن الآية وهي تردُّ على إنكار الكفار لجمع العظام، لم تكتف ببيان قدرة الله تعالىٰ على جمعها، بل ذكرت شيئاً آخر أدق من مجرد الجمع وأدلَّ على القدرة وهو التسوية، ثم إن العلم الحديث قد اكتشف سرَّ البصمة التي في أطراف الأصابع، وهي علامة من علامات القدرة الإلهية ذكرتها الآية قبل العلم وأهله بمئات السنين.

أَرَدْتُ لِكَيْمَا يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهَا ... سَراويلُ قيْسٍ والْوُفُودُ شُهُود[١]

و[بَلْ] في أول الآية إضرابٌ على معنى الترك لا على إبطال الكلام الأول، وقد تجيءُ «بَلْ» لإبطال الكلام الذي قبلها.

وسؤال الكافر ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؟ هو على معنى التكذيب والْهُزْءِ، كما تقول لِمُحَدِّثٍ بأمر تُكَذِّبه: متى يكون هذا؟ و«أَيَّانَ» لفظة بمعنى «متى»، وهي مبنيَّة لتضمنها معنى الاستفهام، فأشبهت الحروف المُضَمَّنَة المعاني، وكان حقُّها أَن تُبْنَى على السكون، ولكن فتحت النون لالتقاءِ الساكنين: الألفُ وهي.

وقرأ أبو عمرو، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والجحدري، وعاصم، والأعمش، وأبو جعفر، وشيبة: [بَرِقَ] بكسر الراءِ بمعنى: شَخَص وشق وحار[٢]، وقرأ نافع، وعاصم ـ بخلاف ـ وعبد الله بن أبي إسحاق، وزيد بن ثابت ونصر بن عاصم: [بَرَقَ] بفتح الراءِ بمعنى: لَمَعَ وصار له بَرْقٌ عند الموت، والمعنى متقارب في القراءَتين، وقال أبو عبيدة: بَرَقَ بالفتح: شَقَّ، وقال مجاهد: هذا عند الموت، وقال الحسن: هذا في يوم القيامة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ﴾ على أنه فاعل، وقرأ أبو حيوة: [وخُسِفَ] بضم الخاءِ وكسر السين ﴿ٱلۡقَمَرُ﴾ مفعول لم يُسَمَّ فاعله، يقال: خَسَفَ القمرُ وخَسَفَه اللهُ، وكذلك الشمس، وقال أبو عبيدة وجماعة من اللغويين: الخسوف والكسوف بمعنى واحد، وقال ابن أبي أُوَيْس[٣]: الكسوفُ: ذهاب بعض النور،

---

(١) هذا البيت قاله قَيْسُ بنُ سَعْد بن عُبادة الخزرجي الأنصاري، وهو صحابي جليل، وقد قاله مع بيت آخر أمام معاوية بن أبي سفيان، فقد طاول رومياً أمام معاوية ـ أو غيره من الأمراء ـ فتجرَّد قيس من سراويله وألقاها إلى الرومي، فَفَضَلَتْ عنه، فقال بيتين يعتذر بهما عن فعلته، وهما:

أَرَدْتُ لِكَيْمَا يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهَا ... سَرَاوِيلُ قَيْسٍ وَالْوُفُودُ شُهُودُ
وَألاَّ يَقُولُوا: غَابَ قَيْسٌ وَهَذِهِ ... سَرَاوِيلُ عَادِيٍّ نَمَتْهُ ثَمُودُ

والسراويل كلمة أعجمية عُرِّبت وَأُنِّثت، ومثل هذا في التعدية بإلى قول كثيِّر:

أُرِيدُ لأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا ... تَمَثَّلُ لي لَيْلَى بِكُلِّ سَبِيلِ

(٢) المراد أنه نظر أمامه وفتح عينيه ولم يَطْرِف، وقد قيل: إن الكسر لا يكون إلاَّ في التحيُّر، وإن الفتح لا يكون إلاَّ الضياءَ، وقال أهل اللغة: هما بمعنى واحد.

(٣) هو إسماعيل بن عبد الله بن أُوَيْس بن مالك بن أبي عامر الأَصْبَحي، أبو عبد الله بن أبي أويس المدني، =

والخسوف: ذهاب جميعه، وروى عروة وسفيان أَن رسول الله ﷺ قال: «لا تقولوا كسفت الشمس ولكن قولوا خسفت»(١).

قوله تعالىٰ: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، غلب التذكير على التأْنيث وقيل: ذلك لأَن تأْنيث الشمس غير حقيقي، وقيل: المراد: وجُمع بين الشمس والقمر، وكذلك قرأَ ابن أَبي عبلة، ولذلك أَسقط علامة التأْنيث، وفي مصحف عبد الله بن مسعود «وَجُمع بين الشَّمْسِ والقَمَرِ». واختلف المتأَولون في معنى الجمع بينهما ـ وقال عطاءُ بن يسار: يُجمعان فيقذفان في النار، وقيل: في البحر فيصير نار الله العظمى، وقيل: يُجمع الضَّوْءَان فيُذهب بهما.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ بفتح الميم والفاءِ عَلَى المصدر، أَي: أَين الفرارُ؟ وقرأَ ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وأَيوب السختياني، وكلثوم بن عياض، ومجاهد، ويحيى بن يَعْمَر، وحمَّاد بن سلمة، وأَبو رجاءٍ، وعيسى، وابن أَبي إِسحاق: [أَيْنَ المَفِر] بفتح الميم وكسر الفاءِ، على معنى: أَين موضع الفرار؟ وقرأَ الزهري: [أَيْنَ المِفَرُّ] بكسر الميم وفتح الفاءِ، بمعنى: أَين الْجَيِّد الفِرار.

و[كَلاَّ] زَجْرٌ يقال للإِنسان يومئذ، ثم يعلم أَنه لا وَزرَ له، أَي لا ملجأَ ولا معين، وعبَّر المفسرون عن «الوزر» بالجبل، قال مطرف بن الشخير وغيره: «وهو كان وزر فُرَّار العرب في بلادهم فلذلك استعمل» والحقيقة أَنه الملجأُ جبلاً كان أَوْ حصناً أَو سلاحاً أَوْ رجُلاً أَو غيره. وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ معناه: إِلى حُكم ربك ونحوه من التقدير، و«الْمُسْتَقَرُّ» رفع بالابتداءِ، وخبره في المقدر الذي يتعلق به المجرور المتقدم، وتقدير الكلام: الْمُسْتَقَرُّ ثابتٌ أَو كائن إِلى ربك يومئذ، والمُسْتَقَرُّ موضع الاستقرار.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ قسمة تستوفي كل عمل، أَي: يُعْلَم بكل ما فعل،

= صدوق، أَخطأَ في أَحاديث من حفظه، من الطبقة العاشرة، مات سنة ست وعشرين. (تقريب التهذيب).

(١) أَخرجه مسلم في كتاب الكسوف، قال: أخبرنا يحيى بن يحيى، أخبرنا سفيان بن عُيَيْنة عن الزهري، عن عروة، قال: لا تقل: كسفت الشمس ولكن قل: خسفت الشمس. وفي البخاري في كتاب الكسوف أيضاً: باب هل يقول: كسفت الشمس أو خسفت. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾.

ويجده محصلاً، وقال ابن عباس، وابن مسعود: المعنى: بما قدم في حياته وأَخَّر من سُنَّة[١] يعمل بها بعده، وقال ابن عباس أَيضاً: بما قدم من المعاصي وأَخَّر من الطاعات، وقال زيد بن أَسلم: بما قدم من ماله لنفسه وبما أَخَّر منه للوارث.

وقوله تعالىٰ: [بَلْ] إضرابٌ بمعنى التَّرك، لا على معنى إِبطال القول الأَول، و[بَصِيرَةٌ] يحتمل أَن يكون خبراً عن «الإِنسان» ولحقته هاءُ التأْنيث كما لحقت «علاَّمة، ونَسَّابة»، والمعنى: إِنه فيه وفي عقله وفطرته حُجَّة وشاهد مبصر على نفسه، ولو اعتذر عن قبيح أَفعاله فهو يعلم قُبْحها، وكذلك لو استتر بسُتُوره واختفى بأَفعاله ـ على التأْويلين في المعاذير ـ، ويحتمل [بَصِيرَةٌ] أَن يكون ابتداءً وخبره في قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾، والهاءُ للتأْنيث، ويراد بالبصيرة جوارحُه، والملائكة الحفظة، وهذا هو تأْويل ابن عباس رضي الله عنهما. و«الْمَعَاذِيرُ» هنا، قال الجمهور: هي الأَعذار، جمع «مَعْذِرَة»، وقال السُّدي، والضحاك: هي السُّتُور بلُغَة اليمن، يقولون لِلسِّتْر: المعذار[٢]، وقال الحسن: المعنى: بل الإِنسان على نفسه بَلِيَّةٌ ومحنة، كأَنه ذهب إِلى البصيرة التي هي طريقة الدَّم وداعية طلب الثأْر[٣]. وفي هذا نظر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾.

الضمير في [به] عائد على كتاب الله تعالىٰ، ولم يَجْر له ذِكْر ولكن القرائن تُبَيِّنه،

---

(١) في بعض النسخ: «وأَخَّر من شُبهة».

(٢) وفي ذلك يقول الشاعر:

وَلَكِنَّهَا ضَنَّتْ بِمَنْزِلِ سَاعَةٍ ... عَلَيْنَا وَأَطَّتْ فَوْقَهَا بِالْمَعَاذِرِ

(٣) في اللسان: «والبصيرة: مقدار الدرهم من الدَّم، والبصيرةُ: الثأْرُ، وقيل: البصيرة من الدَّم ما لم يَسِل، وقيل: هو الدفعة منه، وقيل: البصيرةُ دمُ البكر، قال:

راحوا بَصَائِرُهُمْ عَلَى أَكْتَافِهِمْ ... وَبَصِيرَتِي يَعْدُو بِهَا عَتَدٌ وَأَى

يعني بالبصائر دم أَبيهم، يقول: تركوا دم أَبيهم خلفهم ولم يَثْأَروا به وطلبتهُ أنا».

فهذا كقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾[١]، وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ﴾[٢]، يعني النفس.

واختلف المتأولون في السبب الموجب أن يُؤمر رسول الله ﷺ هذا الأمر ـ فقال الشعبي: كان رسول الله ﷺ لحرصه على أداءِ الرسالة والاجْتهاد في ذات الله تعالىٰ، ربما أراد النطق ببعض ما أُوحي إليه قبل كمال أداءِ الوحي، فأُمر ألاَّ يعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليه وحيه، وجاءت هذه الآية في هذا المعنى، وقال الضحاك: كان سببها أن رسول الله ﷺ كان يخاف أن ينسى القرآن فكان يدرسه حتى غلب عليه ذلك وشق، فنزلت الآية في ذلك، وقال كثير من المفسرين ـ وهو في صحيح البخاري عن ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يُعالج من التَّنزيل شِدَّة، وكان مما يحرك شفتيه مخافة أن يذهب عنه ما يُوحَى إليه لحينه، فنزلت الآية بسبب ذلك، وأَعْلمه الله تعالىٰ أنه يجمعه في صدره[٣].

وقوله تعالىٰ: [وَقُرْآنَهُ] يحتمل أن يريد به: وقِرَاءَتَه، أي تقرؤه أَنتَ يا محمد، والقرآنُ مصدر كالقراءَة، ومنه قول الشاعر في عثمان رضي الله عنه:

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عنوانُ السُّجودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبيحاً وَقُرْآنا[٤]

---

(١) من الآية (٣٢) من سورة (ص).

(٢) من الآية (٢٦) من هذه السورة (القيامة).

(٣) أخرجه الطيالسي، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه كما ذكره في الدر المنثور: قال: كان رسول الله ﷺ يُعالج من التنزيل شدَّة، وكان يحرِّك به لسانه وشفتيه مخافة أن يتفلت منه، يريد أن يحفظه، فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾. قال: يقول: إن علينا أن نجمعه في صدرك ثم تقرؤه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾، يقول: إذا أنزلناه عليك ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، فاستمع له وأنصت، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، بيّنه بلسانك، وفي لفظ، علينا أن نقرأه، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل أَطْرَقَ، وفي لفظ: اسْتَمَعَ، فإذا ذهب قرأ كما وعده الله عزَّ وجلَّ.

(٤) هذا البيت لحسان بن ثابت، وقد جاء في الديوان ضمن أبيات قالها حسان يرثي عثمان بن عفان رضي الله عنه، وجاء في اللسان أيضاً منسوباً إلى حسان مرتين، وقال ابن عبد البرِّ: هذا البيت يختلف فيه، فهو يُنسب لغير حسان، وقال بعضهم هو لعمران بن حطان، والأشْمط: الذي اختلط سواد شعره ببياض، والقرآن: القراءة، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا، يصف الشاعر عثمان رضي الله عنه بكثرة العبادة التي تظهر في السجود الطويل، وقضاء الليل في التسبيح وقراءة القرآن.

ويحتمل أن يريد: علينا جَمْعه وتأليفه في صدرك، فهو مصدرٌ من قولك: «قَرَأْتُ» أَيْ جَمَعْتُ، ومنه قولهم في المرأَة التي لم تلد: «ما قرأَت نَسْلاً قط»[1]، ومنه قول الشاعر:

ذِراعَـــيْ بَكْـــرَةٍ أَدْمـــاءَ بِكْـــر هِجَـانِ اللَّـوْنِ لَـمْ تَقْـرَأْ جَنِينَـا[2]

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ﴾، أَي قرأَه الملَك الرسول عنا، وقوله سبحانه: ﴿فَاتَّبِعْ﴾ يحتمل أَن يريد: بذهنك وفكرك، أَي فاستمع قراءَته، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أَن يريد: فاتَّبع في الأَوامر والنواهي، قاله ابن عباس أَيضاً، وقتادة، والضحاك. وقرأَ أَبو العالية: [وَقَرَتَهُ فَإِذَا قَرَتَهُ فَاتَّبِعْ قَرَتَهُ] بفتح القاف والراءِ والتاءِ من غير همز ولا أَلف في الثلاثة[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾، قال قتادة وجماعة معه: معناه: أَن نُبيِّنه لك ونُحَفِّظكَهُ، وقال كثير من المتأَولين: معناه: أَن تُبيِّنه أنت، وقال قتادة أَيضاً: معناه: أَن نُبيِّنَه حلالَه وحرامَه ومُجمله ومُفَسَّره.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ رجوع إِلى مخاطبة قريش، يردُّ عليهم وعلى أَقوالهم في ردِّ الشريعة بقوله تعالىٰ: [كَلاَّ]، أَي: ليس ذلك كما تقولون، وإِنما أَنتم قوم قد غلبتكم الدنيا بشهواتها، فأَنتم تحبونها حُبًّا تتركون معه الآخرة والنَّظَرَ في أَمرها، وقرأَ الجمهور: [تُحِبُّونَ] بالتاءِ على المخاطبة، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وابن

---

(١) هكذا في الأصول إلاَّ في نسخة واحدة فقد جاءت الجملة «ما قَرَأَتْ سلىً قط». وهذا يتفق مع ما في اللسان، ومعناها: ما حَمَلَتْ ملقوحاً.

(٢) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم المعروفة، والرواية المشهورة: (ذراعَيْ عَيْطَلٍ)، والعَيْطَل: الطويلة العُنق، والأَدْماءُ: البيضاءُ، والبكرُ: الفتيَّة، و«هجان اللون» معناه: بيضاء، والهجان أَيضاً: الكريم، و«لم تقرأْ جنينا» معناه: لم تحمل قطُّ، أو لم تَضُمَّ في رحمها ولداً، ويروى الشطر الثاني (تَرَبَّعت الأَجارع والمتونا)، ومعناه: قضت الربيع في الأجارع وهو من الرمل ما لم يبلغ أن يصير حَبْلاً، أي رملاً مستطيلاً شبيهاً بالحبل. والشاهد أن «تقرأ» في البيت بمعنى «تجمع»، أو «تضم»، ومنه قولهم: «قرأتُ الماءَ في الحوض» أي جَمَعْتُهُ.

(٣) نقل أبو حيان في البحر المحيط هذه القراءة عن ابن عطية ثم قال: «ولم يتكلم ـ ابن عطية ـ على توجيه هذه القراءة الشاذة، ثم قام أبو حيان بتوجيه القراءات توجيهاً غير واضح أو مقنع، وعلى كلٍّ فهي قراءة شاذة».

عامر، والحسن، ومجاهد، والجحدري، وقتادة: [يُحبُّونَ] بالياءِ على ذكْر الغائب، وكذلك [تَذَرُونَ].

ولما ذكر تعالىٰ الآخرة أَخبر بشيءٍ من حال أَهلها، فقوله تعالىٰ: [وُجُوهٌ] رفع بالابتداءِ، والابتداءُ بالنكرة لأَنها تخصصت بقوله تعالىٰ: [يَوْمَئِذٍ] و[نَاضِرَةٌ] خبر [وُجُوه] ـ وقوله تعالىٰ: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ جملة هي في موضع خبر بعد خبر، وقال بعض النحويِّين: [ناضِرَةٌ] نعت لـ [وُجُوه]، و﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ خبر عن [وجوه]، فعلى هذا كثر تخصيص «الْوُجُوه» فَحَسُن الابتداءُ بها، و[ناضِرَةٌ] معناه: ناعمة، والنُّضرة: النعمة وجمال البشرة، قال الحسن: وحق لها أَن تنضر وهي تنظر إِلى الخالق جل وتعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾، حمل هذه الآية جميعُ أَهل السُّنة على أَنها متضمنة رؤية المؤمنين لله تعالىٰ، وهي رؤية دون محاذاة ولا تكييف ولا تحديد، كما هو تعالىٰ معلوم موجود لا يُشبه الموجودات، كذلك هو مَرْئِيٌّ لا يشبه المرئيات في شيءٍ، فإِنه ليس كمثله شيءٌ، لا إِله إِلاَّ هو. وروى عُبادة بن الصامت أَن النبي ﷺ قال: «حَدَّثتكم عن الدَّجال أَنه أَعور، وإِن ربكم ليس بأَعور، وإِنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا»[١]، وقال ﷺ: «إِنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامُون في رؤيته»[٢]، وقال الحسن: تنظرون إِلى الله تعالىٰ بلا إِحاطة، وأَما المعتزلة الذين ينفون

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد وفي حجة الوداع، ومسلم وابن ماجه في الفتن، وأبو داود في الملاحم، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٣، ٣٧، ٥/ ٣٨)، ولفظه كما في البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما: قال: كنا نتحدث بِحَجَّة الوَداع والنبي ﷺ بين أَظْهُرنا ولا ندري ما حَجَّة الوداع، فحمد الله وأَثنى عليه، ثم ذكر المسيح الدجال فأَطنب في ذكره، وقال: ما بعث الله من نبي إلاَّ أَنذر أُمته، أَنذره نوحٌ والنبيُّون من بعده، وإنه يخرج فيكم، فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم أن ربكم ليس على ما يخفى عليكم ـ ثلاثاً ـ، إنَّ ربكم ليس بأعور، وإنه أَعور عين اليمنى، كأن عينه عِنَبة طافية، أَلا إن الله حرَّم عليكم دماءكم وأموالكم. . . الحديث)، وهو طويل.

(٢) روى جرير بن عبد الله قال: كنا عند رسول الله ﷺ جلوساً، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم عياناً. كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أَلاَّ تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»، ثم قرأ: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾. متفق عليه، وخرَّجه أيضاً أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة أَن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟ قالوا: لا، قال: إنكم ترون ربكم كذلك، وقد أخرج هذا الحديثَ أيضاً الدارقطني عن أبي هريرة، وأَخرجه أَحمد، وعبد بن حميد، والدارقطني، والحاكم، =

رؤية الله تعالىٰ فذهبوا في هذه الآية إلى أن المعنى: إلى رحمة ربِّها ناظرة، أو إلى ثوابه أو مُلكه، فقدَّروا مضافاً محذوفاً، وهذا وجه سائغ في العربية، كما تقول: «فلان ناظر إليك في كذا» أي إلى صُنعك في كذا، والرؤية إنما يثبتها بأدلة قطعية غَيْرُ هذه الآية، فإذا ثبتت حسُن تأويل أهل السنة في هذه الآية وقوِيَ، وذهب بعض المعتزلة في هذه الآية إلى أن قوله تعالىٰ: [إلى] ليست بحرف الجرِّ، وإنما هي «إِلى» واحدة الآلاءِ، فكأنه تعالىٰ قال: نِعْمة ربِّها منتظرة أو ناظرة، من النظر بالعين، ويقال: «نظرتُك» بمعنى «انتظرتك»، ومنه قول الحطيئة:

وَقَـدْ نَظَـرْتُكُـمُ إِينَـاءَ صـادِرةٍ ... لِلْخِمْسِ طَالَ بِهَا حَوْزِي وَتَبْسَاسي (١)

= والبيهقي عن أبي سعيد الخدري.

(١) اختلفت رواية هذا البيت في كثير من المصادر، فيروى: «أَبْنَاءَ» بدلاً من «إيناءَ»، و«غاشية» بدلاً من «صادرة»، ويروى «لِلْوِرْدِ» بدلاً من «لِلْخِمْس»، ويروى «تَنْسَاسي» بالنون بدلاً من «تَبْسَاسي» بالباء، ويروى «طار» بدلاً من «طال»، وقد استشهد به صاحب اللسان في كثير من الأماكن، وكذلك أكثر المفسرون من الاستشهاد به، و«نظرتكم» هنا معناها: انتظرتُكم، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا، والإيناء: الانتظارُ، والصادرةُ، الإبل الراجعة عن الماءِ، يقول: انتظرتكم كما تنتظر الإبلُ الصادرة عن الماء التي تَرِدُ الخِمْسَ ثم تُسقى لتَصْدُرَ، وكان من عادة العرب أن الإبل ترد الماءَ فتشرب يوم وردها وتصدرُ في ذلك اليوم أي تبتعد عن الماءِ، وتظل بعد ذلك في المرعى ثلاثة أيام بعد يوم الصَّدَر، وترد اليوم الرابع وهو في الحقيقة الخامس، فهذا هو الخمس الذي تنتظره الإبل، والحَوْزُ: السَّوْق الهادىء، والتَّنْسَاسُ: السَّوْق الشديد. وقد قيل: إن الحَوْز هو السَّير الشديد، وأن الرواية التَّبْساس ومعناه أن يقول الحالب للإبل: بُسَّ بُسَّ لِتُدِرَّ اللبن، وبعد هذا يقول الحطيئة:

لَمَّـا بَـدَا لـي مِنْكُـمْ عَيْـبُ أَنْفُسِكُـمْ ... وَلَـمْ يَكُـنْ لِجِراحي عِنْـدكُـمْ آسِـي
أزمعـتُ أَمْـراً مُـرِيحَـاً مِـنْ نَـوَالِكُـمْ ... وَلَـنْ تَـرَى طَـارِداً لِلْمَـرْءِ كَـالْيَـاسِ

هذا وقد قيل: إن تأويل «نَظَر» بمعنى «انْتَظَر» مدخول، لأن العرب إذا أرادت بالنظر الانتظار قالوا: نَظَرْتُه، ولاَ يقولون: نَظَرْتُ إليه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾، و﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾، ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾، فالمعنى فيها: ينتظرون، أما إذا أراد العرب النظر بالعين جاءوا بـ «إلى»، وقد ذكرت «إلى» هنا، وذكر معها الوُجوهُ فقيل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، قال ابن أبي ربيعة:

نَظَـرْتُ إِلَيْهـا بـالْمُحَصَّـبِ مِـنْ مِنـىً ... وَلِـي نَظَـرٌ لَـوْلاَ التَّحَـرُّجُ عـارِمُ

وقال امرؤ القيس:

نَظَـرْتُ إِلَيْهـا وَالنُّجـومُ كَـأَنَّهـا ... مَصَـابِيـحُ رُهْبَـانٍ تُشَـبُّ لِقُفَّـالِ

فإذا أراد العرب بالنظر الفِكرَ والتأمُّلَ قرنوه بحرف الجرِّ «في» فقالوا: نظر في الأمر، بمعنى فكر فيه وتأمل.

والتَّبْساسُ أَن يُقال للناقة «بُسّ بُسّ» لتدرَّ على الحالب، وفسَّر أَبو عبيدة في غريبه هذا البيت على روايةٍ أُخرى وهي:

. . . . طـارَ بِهـا حَـوْزي وَتَنْسَـاسـي

بالنون وهو السَّيْر الشديد، فتأَمله.

و«الباسِرَةُ»: العابسة المغمومة النفوس، والبُسُور أَشدُّ العبوس، وإِنما ذكر تعالىٰ الوجوه لأَنه فيها يظهر ما في النفوس من سرور أَو غمٍّ، والمراد أَصحاب الوجوه.

وقوله تعالىٰ: [تَظُنُّ] إِنْ جعلناه بمعنى «تُوقِن» فهو لم يقع بعد على ما قد بيَّنَّاه، وإِن جعلنا الظن هنا على غَلَبَته فذلك محتمل، و«الفاقِرَةُ»: المصيبة التي تكسر فقار الإِنسان، قال ابن المسيب: هي قاصمة الظَّهر، وقال أَبو عبيدة: هي من «فَقَرْتُ البعير» إِذا وسمتُ أَنفه بالنار.

وقوله تعالىٰ: [كَلاَّ] زَجْرٌ لقريش وتوكيد لهم بموطن من مواطن الهول وأَمر الله تعالىٰ الذي لا محيد لبشر عنه، وهي حالة الموت والمنازعة التي كتبها على كل حيوان، و[بَلَغَتْ] يريد النفس، و«التَّرَاقي» جَمْعُ «تَرْقُوَة»، وهي عظام أَعلى الصدر، ولكل أَحدٍ تَرْقوتان لكن من حيث هذه الأَفْرادُ في كثيرين جُمع؛ إِذ النفس المرادة اسم جنس، والتراقي موازية للحلاقيم، فالأَمر كلُّه كناية عن حال الحشرجة ونزاع الموت، يَسَّره الله تعالىٰ علينا.

واختلف الناس في معنى قوله تعالىٰ: ﴿مَنْۜ رَاقٍ﴾ ـ فقال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، وأَبو قِلابة: معناه: مَنْ يَرْقي ويُطب ويشفي ونحو هذا مما يتمناه أَهل المريض، وقال ابن عباس أَيضاً، وسليمان التيمي، ومقاتل بن سليمان: هذا القول للملائكة، والمعنى: مَنْ يَرْقَى بروحه ـ أَيْ يصعد ـ إِلى السماءِ؟ أَملائكة الرحمة أَم ملائكة العذاب؟ وقرأَ حفص عن عاصم بالوقف على (مَنْ)، ويبتدىء [رَاقٍ]، وأَدغم الجمهور، قال أَبو علي: لا أَعرف وجه قراءة عاصم، وكذلك قرأَ: ﴿بَلْۜ رَانَ﴾[1].

قوله تعالىٰ: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾، يريد: وتيقَّن المريض أَنه فراق الأَحبة والأَهل

(١) من الآية (١٤) من سورة (المطففين)، وقد قال أبو حيان في البحر المحيط تعليلاً لقراءة حفص عن عاصم هذه: «وكأن حَفصاً قصد أَلاَّ يُتَوَهَّم أنهما كلمة واحدة فسكت سكتة لطيفة ليُشعر أنهما كلمتان».

والمال والحياة، وهذا اليقين فيما لم يقع بعد، ولذلك استُعملت فيه لفظة الظَّن، وقال[١] ابن عباس رضي الله عنهما: أيقن أنه الفراق، وقال في تَفْسيره: ذهب الظن.

واختُلف في معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ ـ فقال ابن عباس، والحسن، والربيع بن أنس، وإسماعيل بن أَبي خالد: هذه استعارة لشدة كرب الدنيا في آخر يوم منها وشدة كرب الآخرة في أَول يوم منها، لأنه بين الحالتين قد اختلطا له، وهذا كما يقولون: «شَمَّرَتِ الحرب عن ساقٍ»[٢]، وعلى بعض التأويلات في قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[٣]. وقال ابن المسيب، والحسن: هي حقيقة، والمراد ساقا الميت عند تكفينه، أَي: لَفَّهما الكفن، وقال الشعبي: وأَبو مالك، وقتادة: هو التفافهما بشدة المرض لأَنه يقبض ويبسط ويركب هذا على هذا وقال الضحاك: المراد سوق حاضريه من الإنس والملائكة؛ لأَن هؤلاءِ يجهزون روحه إلى السماءِ، وهؤلاءِ يجهزون بدنه إلى القبر. وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ معناه: إلى حكم ربك وعدله، فإِمَّا إلى جنة وإِمَّا إلى نار، و«الْمَسَاقُ» مصدر من السَّوْقِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

هذه الآيات كلها إنما نزلت في أَبي جهل بن هشام، ثم كادت هذه الآية أَن تصرح به في قوله تعالىٰ: ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ فإِنها كانت مشية بني مخزوم، وكان أَبو جهل يكثر منها، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ تقديره: فلم يُصَدِّق ولَمْ يُصَلِّ، وهذا نحو قول الشاعر:

فَـأَيُّ خَميـسٍ لاَ أَبـانَـا نَهـابُـهُ ... وَأَسْيافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ كَبْشِهِ دَمَا ؟[٤]

---

(١) في بعض النسخ: «وقرأ ابن عباس».

(٢) شَمَّر: مَرَّ جادًّا في الأمر، وشمَّر عن ساقه: جَدَّ وخَفَّ، والسَّاقُ في اللغة: الأَمرُ الشديد، وكَشْفُ السَّاق مَثَلٌ في شدَّة الأمر، كما يقال: «يَدُه مغلولة» إذا وصفته بالشُّح، ولا يَدَ هناك ولا غُلَّ، وإنما هو مثل في شدَّة البخل، كذلك هنا لا ساق ولا كشف وإنما هو كناية عن شدة الأمر وقسوته. (راجع اللسان).

(٣) من الآية (٤٢) من سورة (القلم).

(٤) الخميس: الجيش الكبير، سمِّي بذلك لأَنه يتكون من خمسة أقسام: المقدمة، والوسط والميمنة =

وقول الآخر:

إنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لاَ أَلَمَّا؟[١]

فـ [لا] في الآية نافيةٌ لاَ عاطفة. و[صَدَّقَ] معناه: برسالة الله تعالىٰ ودينه، وذهب قوم إلى أنه من الصدقة والأول أصوب. و[يَتَمَطَّى] معناه: يمشي المُطَيْطَا، وهي مشية بتبختر، قال زيد بن أسلم: كانت مشية بني مخروم، وهي مأخوذة من المَطَا وهو الظهر، لأنه ينثني فيها، وقال النبي ﷺ: «إذا مشت أُمتي الْمُطَيْطَا، وخدمتهم الروم وفارس، سلِّط بعضهم على بعض»[٢]، وقال مجاهد: نزلت هذه الآيات في أبي جهل بن هشام.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ وعيدٌ ثان، ثم كرر ذلك تأكيداً، والمعنى: أَولى لك الازدجار والانتهاءُ، وهو مأخوذ من «وَلِيَ»، والعرب تستعمل هذه الكلمة زجراً، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾[٣]، ويروى أَن رسول الله ﷺ لبَّبَ أَبا جهل يوماً في البطحاءِ وقال له: إن الله يقول لك: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾، فنزل القرآن على نحوها[٤]، وفي شعر الخنساءِ:

= والميسرة والساقة، والإباءُ: الامتناعُ، وكبش القوم سيدهم وحاميهم والمنظور إليه فيهم، وكبش الكتيبة: قائدها، والاستفهام هنا للنفي أو للإنكار، يقول: كيف نخاف جيشاً لم يمتنع علينا وسيوفنا تقطر دماً من قائده وحاميه؟ والشاهد أنَّ «لا أَبَانا» بمعنى: لم يأبَنا ولم يمتنع علينا، ومثله قول زهير:

وَكَانَ طَوَى كَشْحاً عَلَى مُسْتَكِنَّةٍ فَلاَ هُوَ أَبْداها وَلَمْ يَتَقَدَّمِ

أي: لَم يُبْدها ولم يتقدم.

(١) هذان البيتان من الرجز من الشعر المختلف في نسبته، فقد نسبهما ابن بَرِّي لأُمية بن أَبي الصلت، ولم أجدهما في ديوانه، ونسبهما مسلم بن أبي طرفة الهذلي لأبي خراش الهُذَلِيُّ مع بيتين غيرهما، وفي اللسان نسبهما مرة إلى أمية ومرة أُخرى إلى أبي خراش، والجمُّ: الكثير المجتمع، و«أَلَمَّ» من الإلمام وهو مقاربة الذنب دون الوقوع فيه، أو ارتكاب الذنوب الصغيرة، والشاهد هنا أن «لا» بمعنى «لم»، والمعنى: وأي عبد لك لم يرتكب الذنوب الصغيرة؟ لكنهم قالوا: «إن «لا» بهذا المعنى تكون أفصح إذا كُرِّرت، وقلَّما تتكلم العرب بمثل هذا إلاَّ وكررت «لا» مرتين، كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾، أي: لَم يُصَدِّق وَلَم يُصَلِّ.

(٢) أَخرجه الترمذي وابن عمر عن ابن جرير في تفسيره، وقال عنه السيوطي في الجامع الصغير: حديث حسن، واستشهد به صاحب اللسان والقرطبي.

(٣) من الآية (٢١) من سورة (محمد).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره عن قتادة ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ وعيد على وعيد، كما تسمعون، زعم أن هذا أُنزل في عدو الله أبي جهل، ذُكِر لنا أن نبيَّ الله ﷺ أَخذ بمجامع ثيابه فقال: =

هَمَمْــتُ بِنَفْسِــي كُــلَّ الهُمُــومِ فَــأَوْلَــى لِنَفْسِــي أَوْلَــى لَهَــا[1]

وقوله تعالىٰ: [أَيَحْسَبُ] توبيخ وتوقيف، و[سُدًى] معناه: مهملاً لا يُؤْمر ولا يُنْهى، ثم قرَّر تعالىٰ على أحوال ابن آدم في يد الله التي إذا تُؤملت لم يُنكر معها جوازَ البعث عاقلٌ. وقرأ الجمهور: ﴿أَلَمْ يَكُ﴾ بالياءِ، وقرأ الحسن: [أَلم تَكُ] بالتاءِ من فوق، و«النُّطْفَةُ» القطعة من الماءِ، يقال ذلك للقليل والكثير. والْمَنِيُّ معروف. وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم، وأَبو عمرو ـ بخلاف ـ وابن محيصن، والجحدري، وسلام، ويعقوب: (يُمْنَى) بالياءِ، يريد بذلك المني، ويحتمل أَن يكون [يُمْنَى] من قولك: «أَمْنَى الرجلُ»، ويحتمل أَن يكون من قولك: «مَنَى اللهُ الخلقَ»[2]، فكأَنه تعالىٰ قال: من منِيٍّ يُخْلق، وقرأَ جمهور السبعة، والناسُ: [تُمْنى] بالتاءِ، يراد بذلك النطفة، و[تُمْنَى] تحتمل الوجهين اللذين ذكرنا. و«العَلَقَةُ» القطعة من الدَّم؛ لأَن الدَّم هو العَلَق.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ معناه: فخلق الله تعالىٰ منه بشراً مركباً من أَشياءَ مختلفة، فسَوَّاه شخصاً مستقلاً، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [يخلق] بالياءِ فعلاً مستقبلاً. و«الزَّوْجَيْن»: النوعين[3] ويحتمل أَن يريد المزدوجين من البشر.

= ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾، فقال عدوُّ الله أبو جهل: أيوعدني محمد؟ والله ما تستطيع لي أنت ولا ربُّك شيئاً، والله لأنا أعزُّ من مشى بين جبليها. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن سعيد بن جبير، قال: سألت ابن عباس عن قول الله تعالىٰ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾، أشيءٌ قاله رسول الله ﷺ لأبي جهل من قِبَل نفسه أَم أَمَرَهُ الله به؟ قال: بل قاله من قِبَل نفسه ثم أنزله الله.

(١) المعنى: الوَيْلُ لنفسي، ويروى البيت: «وجمت بنفسي»، ويروى «بعض الهموم». والبيت من قصيدة قالتها في رثاءِ أخيها معاوية حين قتله بنو مُرَّة، وزعم أبو عبيدة أنها قالته في رثاءِ أخيها صخر حين دفن بأرض بني سُلَيم، وهي من أبلغ مراثيها.

(٢) ومثل هذا ما ورد في الحديث: أن مُنْشداً أنشد النبي ﷺ:

لاَ تَــأمَنَــنَّ وَإِنْ أَمْسَيْــتَ فــي حَــرَمٍ حَتَّـى تُـلاقِـيَ مـا يَمْنِـي لَـكَ الْمَـانِـي
فَـالْخَيْـرُ والشَّـرُّ مَقْـرونـانِ فـي قَـرَنٍ بِكُـلِّ ذلِـكَ يَـأْتِيـكَ الْجَـدِيـدانِ

فقال النبي ﷺ: «لو أدرك هذا الإسلام». والمعنى: حتى تلاقي ما يُقدِّر لك المُقَدِّر وهو الله عزَّ وجلَّ.

(٣) هكذا في الأصول، وقد راعى المؤلف لفظ الآية ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ﴾.

ثم وقف تعالىٰ توقيف توبيخ وإقامة حجة بقوله تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وقرأ الجمهور بفتح الياءِ الأخيرة من [يُحْيِيَ]، وقرأ طلحة بن سليمان، والفياض بن غزوان بسكونها، وهي تحذف من اللفظ لسكون اللام من [الْمَوْتَى]. ويُروى أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وبلى»[1]، ويروى أنه كان يقول: «بلَى»[2] فقط.

كمل تفسير سورة القيامة والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن الأنباري في المصاحف، عن صالح أبي الخليل، وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة في قوله تعالىٰ: [سُدًى]، قال: أن يُهمل، وفي قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، قال: ذُكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: إذا قرأها: «سبحانه وبلَى».

(٢) أخرج البخاري في تاريخه عن أبي أُمامة قال: صليتُ مع رسول الله ﷺ بعد حجته، فكان يكثر من قراءة ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، فإذا قال: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ سمعته يقول: «بلَى»، وأنا على ذلك من الشاهدين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الإنسان(١)

قال بعض العلماءِ: هي مكية كلُّها، وحكى النقاش، والثعلبي عن مجاهد وقتادة أَنها مدنية، وقال الحسن وعِكْرِمة: منها آية مكية، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾، والباقي مدني، وأَنها نزلت في صنيع علي بن أَبي طالب رضي الله عنه في إطعامه عشاءَه وعشاء أَهْله وولده لمسكين ليلة، ثم ليتيم ليلة، ثم لأَسير ليلة ثالثة، متواليات، وقيل: نزلت في صنيع أَبي الدحداح رضي الله عنه(٢)، والله تعالىٰ أَعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾.

﴿هَلْ﴾ في كلام العرب قد تجيءُ بمعنى «قَدْ»، حكاه سيبويه، لكنها لا تخلو من تقرير، وبابها المشهور الاستفهام المحض، والتقرير أَحياناً، فقال ابن عباس: هي هنا بمعنى «قد»، و﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يراد به آدم عليه السلام، و«الحِينُ» هو المدَّة التي بقي فيها طيناً قبل أَن تنفخ فيه الروح، أَي أَنه شيءٌ لم يكن مذكوراً مُنَوَّهاً به في العالم، وفي حالة العدم المحض قبل أَن لم يكن شيئاً ولا مذكوراً. وقال أَكثر المتأَولين: «هَلْ» تقرير، و«الإنسان» اسم الجنس، أَي: إذا تأَمل كل إنسان نفسه علم بأَنه قد مرَّ حين من

(١) وتُسَمَّى سورَة الدهر.
(٢) أَبو الدَّحداح صحابي من الأنصار، صام يوماً، فلما أراد أن يُفطر جاء مسكين، وأسير، فأطعمهم ثلاثة أرغفة، وبقي له ولأهله رغيف واحد، فنزلت فيهم هذه الآية، قال ذلك مقاتل، وقال الخازن: قيل: نزلت في رجل من الأنصار يقال له: أبو الدَّحداح.

الدهر عظيم لم يكن هو فيه شيئاً مذكوراً، أَي لم يكن موجوداً، وقد يُسمى الموجود شيئاً فهو مذكور بهذا الوجه، و«الحين» هنا: المدَّة من الزمن غير محدودة تقع على القليل والكثير، وإنما يحتاج إلى تحديد الحِين في الأَيمان، فيمن حلف أَلاَّ يكلم أَخاه حيناً، فذهب بعض العلماءِ إلى أَن الحين سنة، وقال بعضهم: ستة أَشهر، والقويُّ في هذا أَن «الإِنسان» اسم الجنس، وأَن الآية جعلت عبرة لكل أَحد من الناس ليعلم أَن الصانع له قادر على إعادته.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، هو هنا اسم الجنس بلا خلاف لأَن آدم عليه السلام لم يخلق من نطفة، و[أَمْشَاجٍ] معناه: أَخلاط، واحدها «مَشَج» بفتح الميم والشين، قاله ابن السكيت وغيره، وقيل: «مَشْج» مثل عَدْل وأَعدال، وقيل: «مَشيج» مثل شريف وأَشراف.

واختلف في المقصود من «الخَلْط» ـ فقيل: هو أَمشاج ماءِ الرجل بماءِ المرأَة، وأَسند الطبري حديثاً ـ وهو أَيضاً في بعض المصنفات ـ أَن عظام ابن آدم وَعَصَبه من ماءِ الرجل، ولحمه وشحمه من ماءِ المرأَة، وقيل: هو اختلاط أَمر الجنين بالنقلة من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى غير ذلك، فهو أَمر مختلط، وقيل: هو اختلاط الدم والبلغم والسوداءِ والصفراءِ فيه. و[نَبْتَلِيهِ] معناه: نختبره بالإيجاد والكون في الدنيا، وهو حالٌ من الضمير في [خَلَقْنَا]، كأَنه قال: مختبرين له بذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ عطف جملة نِعَم على جملة نِعَم، وقال بعض النحويين: إنما المعنى: فَلِنَبْتَليه جعلناه سميعاً بصيراً، ثم ترتب اللفظ مؤخراً متداخلاً كأَنه قال: نحن نَبْتَليه فلذلك جعلناه، والابتلاءُ ـ على هذا التأْويل ـ هو بالأَسماع والأَبصار لا بالإِيجاد، وليس [نَبْتَليه] حالاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ يحتمل أَن يريد السبيل العامة للمؤمن والكافر، وذلك بخلق الحواسِّ وموهبة الفطرة ونصب الصنعة الدالَّة على الصانع، و﴿هَدَيْنَٰهُ﴾ ـ على هذا ـ بمعنى أَرشدناه، كما يرشد الإِنسان إلى طريق ويُوقف عليه. ويحتمل أَن يريد بالسبيل اسم الجنس، أَي: هدى المؤمن لإيمانه والكافر لكفره، فـ ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾ ـ على هذا ـ كأَنه بمعنى أَريناه فقط، وليس الهدى في هذه الآية بمعنى خلق الهدى والإِيمان، وقوله تعالىٰ: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ حالان وقسمتها [إِمَّا]. قال أَبو عمرو الداني:

وقرأ أبو العاج: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(١) وأبو العاج هو كثير بن عبد الله السلمي، شامي، وَلِيَ البصرة لهشام بن عبد الملك.

و﴿أَعْتَدْنَا﴾ معناه: أعددنا، وقرأ نافع، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: [سَلاَسِلاً] بالصرف، وهذا على ما حكاه الأخفش من لغة من يصرف كل ما لا ينصرف إلا أَفْعَل(٢)، وهي لغة الشعراءِ، ثم كثُر حتَّى جرى في كلامهم، وقد عُلِّل بِعِلَّة، وهي أَنه لما كان هذا الضرب من الجموع يُجمع أَشبه الآحاد فصرف، وذلك من شِبْهِ الآحاد موجود في قولهم: «صواحب وصواحبات»، وفي قول الشاعر:

. . . . نَــوَاكِسِــي الأَبْصَــار(٣)

بالياءِ جَمْع «نَوَاكس»، وهذا الإِجراءُ في [سَلاَسِلاً] و[قَوَارِيرًا] ثبت في مصحف ابن

---

(١) بفتح الهمزة من (أَمَّا)، قال أبو حيان في البحر المحيط: «وهي لغة حكاها أبو زيد عن العرب، وهي التي عدها بعض الناس في حروف العطف»، وقال الزمخشري: «وهي قراءةٌ حسنة»، وعلَّق على كلامه الإمام ناصر الدين أحمد بن المنير فقال في كتابه (الانتصاف): «واستحسانه لهذه القراءة لتخيُّله أن في التقسيم إشعاراً بغرضه الفاسد»، وذلك لأن الزمخشري جعل «أَمَّا» هنا للتفصيل وتقسيم الناس إلى شاكر بتوفيق الله تعالىٰ، وكفور بسوءِ اختياره هو، ولما كان الشكر قليلاً قال الله: ﴿شَاكِرًا﴾، ولما كان كفر النعمة كثيراً قال تعالىٰ: ﴿كَفُورًا﴾ بصيغة المبالغة.

(٢) يريد: «إلاَّ أفعل مِنْكَ»، لأنه لا يوجد في العرب من يقول مثلاً: «أَنا أكرَمٌ منك» بالتنوين، والسبب أَنَّ «من» تقوم مقام الإضافة، ولا يُجمع بين تنوين وإضافة في حرف، لأنهما دليلان من دلائل الأسماءِ ولا يجمع بين دليلين، قال ذلك الفراءُ.

(٣) هاتان الكلمتان قالهما الفرزدق في بيت من الشعر من قصيدة يمدح بها آل المهلَّب، وخصَّ من بينهم «يزيد» ابنه، والبيت هو:

وإِذَا الــرجـــالُ رَأَوْا يَــزيــدَ رَأَيْتَهُــمْ   خُضُــعَ الــرِّقــابِ نَــوَاكِــسَ الأَبْصَــارِ

وخُضُع: جمع خَضُوع مبالغة في خاضع، وهو المتواضع المُتَطَامن، وقد يُضبط بسكون الضاد فيقال: خُضْع، وهو جمع أَخْضع كأَبْيَض، وهو الذي في عنقه تطامن طبيعي لأنه خُلق هكذا، ومعنى نواكس أنهم ينكسون أبصارهم عند رؤيته هيبةً وإجلالاً له، يقال: «نكس رأسه» إذا طَأْطَأَه من الذل، ونواكس جمع ناكِسٍ، وهو جمع شاذٌّ، لأن «ناكس» صفة للعاقل، ولا يجمع «فاعل» على «فواعل» إلا إذا كان لغير العاقل، وقد اضطر الفرزدق لذلك لأنه يجوز لك أن تقول: هي الرجل كما تقول: هي الجمال، فشبه الرجال بالجمال، أما رواية البيت «نَوَاكِسِي» بالياء فلأَن الشاعر ردَّ النواكِسَ إلى الرِّجال، فكأَن أصل الكلام: وإذا الرجال رأيتهم نواكِسَ أَبصارُهُم، فكأن النواكس للأبصار فنقلت إلى الرجال فدخلت الياءُ، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا، وفي البيت كلام كثير، راجع كتب النحو، والكتاب لسيبويه، ولسان العرب.

مسعود ومصحف أُبَيِّ بن كعب ومصحف المدينة ومكة والكوفة والبصرة[١]. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة: [سَلاَسِلاَ] على ترك الصرف في الوصل والوقف، وهي قراءة عمرو بن عبيد. وقرأ أبو عمرو، وحمزة ـ فيما روي عنهما ـ: [سَلاَسِلَ] في الوصل، و[سَلاَسِلاَ] بأَلِفٍ دون تنوين في الوقف، ورواه هشام عن ابن عامر؛ لأن من العرب من يقول: «رَأَيْتُ عُمَرَا»، يقف بأَلِفٍ، وأيضاً فالوقف بالألف في [سَلاَسِلاَ] اتباعٌ لخطِّ المصحف.

و«الأَبْرارُ» جمع «بَارٍّ»، كشاهِدٍ وأَشْهاد، قال الحسن: هم الذين لا يؤذون الذَّرَّ ولا يرضون بالشَّر، و«الْكَأْسُ»: ما فيه نبيذ أو نحوه مما يُشرب به، قال ابن كيسان: لا يقال «كأس» إلاَّ لما فيه نبيذ ونحوه، ولا يقال «ظعينة» إلاَّ إذا كان عليها امرأَةٌ، ولا يقال «مائدة» إلاَّ وعليها طعام، وإلاَّ فهو «خوان». و«المِزاجُ»: ما تمزج به الخمور ونحوها، وهي أَيضاً مِزاجٌ له لأنهما تمازَجَا مِزاجاً، قال بعض الناس: المِزَاجُ نَفْس الكافور، وقال قتادة: قوم تُمزج لهم بالكافور وتُختم بالمسك، وقال الفراءُ: يقال: إن في الجنة عيناً تُسَمَّى كافوراً، وقال بعض المتأولين: إنما أَراد كافوراً في النكهة والعرف كما تقول إذا مدحت طعاماً: هذا الطعام مسك.

وقوله تعالىٰ: ﴿عَيْنًا﴾ قيل: هو بدل من قوله تعالىٰ: ﴿كَافُورًا﴾، وقيل: هو مفعول بقوله تعالىٰ: ﴿يَشْرَبُونَ﴾ أيْ يشربون ماءَ هذه العين من كأْسٍ عطِرةٍ كالكافور، وقيل: نصب ﴿عَيْنًا﴾ على المدح أَو بإِضمار «أَعْنِي»، وقوله تعالىٰ: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ بمنزلة «يَشْرَبُهَا»، فالباءُ زائدة، قال الهذلي:

شَـرِبْـنَ بِمـاءِ الْبَحْـرِ. [٢]

---

(١) يعني أن التنوين في [سَلاَسلاً] و[قَوَاريراً] ثبت في هذه المصاحف، وهذه حُجَّة لمن قرأ بالتنوين، فهو يتبع المصاحف، وهناك حجة ثانية هي أنَّ [قَواريراً] الأول نُون لأنه رأسُ آية، وكل رُؤوس الآيات جاءت مُنوَّنة، مثل (مَذكوراً، سميعاً بصيراً)، ونُون [قَواريراً] الثاني على الجوار للأول، وهاتان الحجتان غير ما ذكره ابن عطية من أن هذه الجموع أشبهت الآحاد فجُمعت جَمْع الآحاد، وأيضاً فإنه قد أشار إلى اتباع خط المصاحف، وأَما من ترك التنوين فيهما فقد أَتى بمحض قياس العربية، قاله ابن خالويه.

(٢) هذا بداية بيت قاله أبو ذؤيب الهذلي في إحدى قصائده والبيت بتمامه:

شَـرِبْـنَ بِمـاءِ الْبَحْـرِ ثـم تَنَصَّبَـتْ مَتَـى لُجَـجٍ خُضْـرٍ لَهُـنَّ نَئِيـجُ =

أَيْ: شَرِبْن ماءَ البحر، وقرأ ابن أَبي عبلة: [يَشْرَبُهَا عبادُ الله]، و«عِبَادُ الله» هُنَا خصوص في المؤمنين الناعمين؛ لأَن جميع الخلق عباده. و﴿ يُفَجِّرُونَهَا ﴾ معناه: يشقُّونها[١] بعود قصب[٢] ونحوه حيث شاؤوا، فهي تجري عند كل أَحد منهم، هكذا ورد الأَثر، قال الثعلبي: وقيل: عين في دار النبي عليه الصلاة والسلام تُفَجَّر إِلى دور الأَنبياءِ عليهم السلام ودور المؤمنين. وهذا قول حسن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾.

وصف الله تعالىٰ حال الأَبرار بأَنهم كانوا يوفون بالنَّذْر، أَي كل ما نذروه وأَعطوا به عهداً[٣]، يقال: وَفَى الرجل وأَوفى، واليومُ المشار إِليه يومُ القيامة، و﴿ مُسْتَطِيرًا ﴾ معناه: متصلاً شائعاً كاستطارة الفجر والصَّدْع في الزجاجة، وبه شُبِّه في القلب، ومن ذلك قول الأَعشى:

فَبَـانَـتْ وَقَـدْ أَوْرَثَـتْ فـي الفُـؤا ... دِ صَـدْعـاً ـ عَلَـى نَـأْيِهَـا مُسْتطيـراً[٤]

= يصف الشاعر السحابات التي شربت من ماء البحر، وتَنَصَّبت: ارتفعت إلى أعلى، ويُروى: ترفَّعت، ويروى: تصعَّدت، و«مَتَى» بمعنى «مِنْ»، ولَهُنَّ نَئِيجٌ: لهنَّ مَرٌّ سريعٌ، والشاهد هنا أن «شرب به» بمعنى شربه، وأن الباءَ زائدة، وهذا مثل قولهم: «فلان يتكلم بكلام حسن» أي: يتكلم كلاماً حسناً. وقيل: إن الباءَ في الآية ليست زائدة، وإنما هي بمعنى «من»، فالمعنى: يشرب منها، قاله القتبي.

(١) في بعض النسخ: «يُنْبعونها».

(٢) القَصَب: كلُّ نبات ذي أنابيب، والمفرد: قَصَبة. قال في اللسان: «وكل نبات كان ساقه أنابيب وكعوباً فهو قصب».

(٣) النذر هو إيجاب المكلف على نفسه من الطاعات ما لو لم يُوجبه لم يلْزمه، فهو يوجب على نفسه شيئاً غير واجب عليه، وقد قال قتادة: المراد: يوفون بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة وغيره من الواجبات، ويُقوي هذا قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ ﴾، أي أَعمال نُسكهم التي ألزموا بها أَنفسهم حين أَحرموا بالحج، ومعنى هذا أن النَّذْر يندرج فيه ما التزمه المرءُ بإيمانه من امتثال أَمر الله، قال ذلك القشيري، ونقله عنه القرطبي.

(٤) هذا البيت من قصيدة قالها الأَعشى يمدح هوذة بن علي الحنفي، وبعده يقول: =

وقول ذي الرُّمَّة:

أَرادَ الظَّاعِنُونَ لِيَحْزُنُونِي فَهَاجُوا صَدْعَ قَلْبِي فَاسْتَطَارَا(١)

وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ يحتمل أَن يعود الضمير على «الطعام»، أَي: وهو محبوب للفاقة والحاجة، وهو قول ابن عباس ومجاهد، ويحتمل أَن يعود على الله تعالىٰ، أَي: لوجهه وابتغاءَ مرضاته، قاله أَبو سليمان الداراني، والأَول أَمدح لهم لأَن فيه الإِيثار على النفس، وعلى الاحتمال الثاني قد يفعله الأَغنياءُ أَكثر، وقال الحسن بن الفضل: الضمير عائد على الإِطعام، أَيْ مُحقِّين في فعلهم ذلك، لا رياءَ فيه ولا تكلُّف. و«المِسْكين»: الطَّواف المنكشف في السؤال، و«اليتيمُ»: الصبيُّ الذي لا أَب له من الناس، والذي لا أُمَّ له من البهائم، وهي صفة قبل البلوغ، وقد قال النبي ﷺ: «لا يُتْم بعد حُلُم»(٢)، و«الأَسيرُ» معروف، فقال قتادة: أَراد أَسرى الكفار وإِن كانوا على غير الإِسلام، قال الحسن: ما كان أَسراهم إِلاَّ مشركين؛ لأَن في كل كبد رطبة أَجْراً، وقال بعض العلماءِ: هذا مما نُسخ بآية السيف، وَإِما أَنه محكم ليحفظ حياة الأَسير إِلى أَن يرى الإِمام فيه رأيه، وقال مجاهد، وابن جبير، وعطاءٌ: أَراد المسجونين من الناس، ولهذا يُحض على صدقة السجن، فهذا تشبيه، ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يُؤْسر أَحدٌ في الإِسلام بغير العدول»(٣) وروى الخدريُّ أَن النبي ﷺ فسَّر الأَسير هنا بالمملوك المسجون(٤)، وقال: أَراد أَسرى المسلمين الذين تركوا في

= كَصَدْعِ الزُّجَاجَةِ مَا تَسْتَطِيـ ـعُ كَفُّ الصَّنَاعِ لَهَا أَن تُحِيرا

والبين: البُعد والفراق، والصَّدع: الشق في الشيءِ الصلب، ثم استعمل في القلب تجوزاً، والنَّأي: البُعد، ومستطيراً: منتشراً شائعاً، والصنَّاع: الماهر في الصنعة، وأن تُحيرَا: أن تُصلحها وترجعها كما كانت، والشاهد استعمال كلمة مستطيراً بمعنى الانتشار والاستطالة في بيان ما يحدثه ألم الفراق في القلب تشبيهاً له بالزجاجة. والبيت في الطبري، وابن كثير، والقرطبي، والشوكاني.

(١) الحُزْن: نقيض الفرح، وتقول: حَزَنَني وأَحْزَنَني، وصدْع القلب كناية عمَّا حدث فيه من آلام وأَحزان، واستطار: انتشر وتشعب واستطال، والشاهد هو ما ذكرناه في البيت السابق.

(٢) أخرجه أبو داود عن عليٍّ، ورمز له الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» بأنه حديث حسن، ولفظه كما ذكره السيوطي: «لا يُتْمَ بعد احتلام، ولا صُمات يوم إلى الليل».

(٣) النص كما في اللسان: «لا يُؤْسر أحد في الإسلام بشهادة الزور، إنا لا نقبل إلا العدول» والمعنى: لا يحبس أحد إلا بشهادة العدول.

(٤) أَخرج ابن مردويه، وأبو نعيم، عن أَبي سعيد، عن النبي ﷺ في قول الله: [مِسْكيناً]، قال: فقيراً، =

بلاد الحرب رهائن وخرجوا لطلب الفداءِ، وقال أَبو حمزة الثُّمَاليُّ[١]: الأَسير هنا المرأَة، ودليله قول النبي ﷺ: «اسْتَوْصوا بالنِّساءِ خيراً فإِنَّهن عَوَانٍ عندكم»[٢].

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾، المعنى: يقولون لهم عند الإِطعام، وهذا إِما أَن يكون المُطْعِم يقول ذلك نصًا، فحكى ذلك، وإِما أَن يكون ذلك مما يقال في الأَنْفُس وبالنِّية، فمدح بذلك، وهذا تأْويل مجاهد وابن جبير. وقرأَ أَبو عمرو في رواية ابن عياش بجزم الميم من [نُطْعِمْكُمْ][٣]، قال أَبو علي: سكن تخفيفاً، و«الشُّكُورُ» مصدر كالشُّكْر، ووصف اليوم بالعَبُوس هو على التجوز، كما تقول: «ليلٌ نائم» أَي فيه نوم، و«القَمْطَرِيرُ» والقُمَاطِرُ هو في معنى العُبُوس والازْبداد، يقال: «اقمطرَّ الرجلُ» إِذا جمع ما بين عينيه غضباً، ومنه قول الشاعر:

بَنِي عَمِّنَا هَلْ تَذْكُرونَ بَلاءَنَا ... عَلَيْكُمْ إِذَا ما كانَ يَوْمٌ قُمَاطِرُ[٤]

= [وَيَتِيماً] قال: لا أَب له، [وأَسيراً] قال: المملوك والمسجون. (الدرُّ المنثور). وذكره الثعلبي فقال: «قال أَبو سعيد الخدري: قرأَ رسول الله ﷺ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ فقال: المسكين الفقير، واليتيم الذي لا أَب له، والأَسير المملوك المسجون».

(١) هو ثابت بن أَبي صفية الثُّمَالي ـ بضم المثلَّثة وتخفيف الميم ـ أَبو حمزة، واسم أَبيه دينار، وقيل: سعيد، وهو كوفي، ضعيف، رافضي، من الطبقة الخامسة، مات في خلافة أَبي جعفر. (تقريب التهذيب).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٧٢) عن أَبي حُرَّة الرقاشي عن عمه قال: كنت آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق أذود عنه، فقال. وساق حديثاً طويلاً جاء فيه: «فاتقوا الله عزَّ وجلَّ في النساءِ فإنهن عندكم عوانٍ لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإن لهن عليكم ولكم عليهن حقاً، ألا يوطئن فُرُشكم أحداً غيركم، ولا يأذنَّ في بيوتكم لأحد تكرهونه، فإن خفتم نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح»، وأَخرجه الترمذي عن عمرو بن الأحوص الجُشَمي، وقال: حديث حسن صحيح، كذلك أخرجه ابن ماجه، ووصيتهُ ﷺ بالنساء في حجة الوداع ثابتة في كتب السنة الصحيحة ولكن تختلف الألفاظ بعض الشيءِ عما ورد هنا.

(٣) اختلفت النسخ في إثبات اسم الراوي، ففي بعضها: ابن عياش، وفي بعضها: عياش، وفي بعضها: عباس، ولم يذكر هذه القراءة تقريباً غير ابن عطية، فلم يذكرها الطبري ولا القرطبي ولا أبو حيان ولا الزمخشري، كذلك لم نجدها في كتاب (النشر في القراءات العشر) لابن الجزري، ولا في كتاب (الحجة) لابن خالويه، وابن عياش هو عباس بن عياش بن أبي ربيعة.

(٤) هذا البيت ذكره الفراءُ شاهداً على أَن «القُمَاطِر» هو الشديد، وعنه ذكره المفسرون، كالطبري، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني، وهو أَيضاً في اللسان، ولم ينسبه أحد إلى قائل معين، ويروى: «هل تُدركون» بدلاً من «هل تذكرون»، والبلاءُ: الاجتهاد وحسن الصنيع في الحرب، واليوم القُمَاطر=

وقال الآخر:

فَفِـرُّوا إذا مـا الْحَـرْبُ ثـارَ غُبـارُهـا وَلَجَّ بِها الْيَوْمُ الْعَبُوسُ الْقُمَاطِرُ(١)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من عينيه مثل القَطِران، وعبَّر ابن عباس عن القمطرير بالطويل، وعبَّر عنه ابن الكلبي بالشديد، وذلك كله قريب في المعنى.

وقرأ الجمهور: (فَوَقَاهُمُ) بتخفيف القاف، وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع: [فَوَقَّاهُم] بتشديد القاف، و«النَّضْرةُ» حال البشرة، وذلك لا يكون إلاَّ مع فرح النفس وقرة العين، وقرأ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: ﴿وَجَازَاهُمْ﴾ بأَلِف، وقوله تعالىٰ: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ عام، عن الشهوات وعلى الطاعات والشدائد، ففي هذا يدخل كل ما خصص الناس من صوم ونحوه، و﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ حالٌ من الضمير المنصوب في ﴿جَزَاهُمْ﴾ وهو الهاءُ والميم، وقرأ أَبو جعفر وشيبة: [مُتَّكِينَ] بغير همز، و﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾: السُّرُر المستورة بالحجال، وهذا شرط لبعض اللغويِّين، وقال بعض اللغويين: كل ما يُتَوَسَّد ويفترش مما له حشو فهو أَريكة وإن لم يكن في حَجَلة(٢). وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَرَوْنَ﴾ الآية عبارة عن اعتدال مسِّ هوائها، وذهاب ضرورتي الحرِّ والقرِّ عنها، وكون هوائها سجْسَجاً كما في الحديث المأْثور(٣)، ومسُّ الشمس هو أَشدُّ الحرِّ، والزمهرير أَشدُّ البرد، وقال ثعلب: الزَّمهرير بلغة طيىءٍ: القَمر.

= والمُقْمَطِرُّ والقَمْطريرُ هو الذي يُقَبِّض ما بين العينين لشدَّته، هكذا قال في اللسان.

(١) هذا البيت في القرطبي وفتح القدير، والبحر المحيط، و«ثار غبار الحرب» كناية عن اشتداد المعركة واحتدام القتال، ولَجَّ في الأمر: تمادى عليه وأَبى أن ينصرف عنه، والبيت كسابقه في الاستشهاد، ونسبة العبوس إلى اليوم تجوز، ومثل هذين البيتين قول حذيفة بن أَنس الهُذَليِّ:

بَنُـو الْحَـرْبِ أُرْضِعْنـا بهـا مُقْمَطِـرَّةً وَمَـنْ يُلْـقَ مِنَّـا يُلْـقَ سِيـدٌ مُـدَرَّبُ

والسِّيدُ المدرَّب هو الأسد الضاري.

(٢) الحَجَلةُ: ساتر كالقُبَّة يُزَين بالثياب والسُّتور للعروس، أو سِترٌ يضرب للعروس في جوف البيت.

(٣) السجْسج: الهواء المعتدل بين الحر والبرد، والحديث هو: «نهارُ الجنة سَجْسَجٌ»، وفي رواية «إن هواء الجنة سَجْجَ لا حرٌّ ولا بردٌ».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

اختلف النحويون في إعراب قوله تعالىٰ: ﴿وَدَانِيَةً﴾ ـ فقال الزجاج وغيره: هو حالٌ عطفاً على ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، وقال أيضاً: يجوز أن يكون صفةً للجنة، فالمعنى: وجزاهم جنةً دانيةً[1]، وقرأ جمهور الناس: ﴿دَانِيَةً﴾، وقرأ الأعمش: (وَدَانِياً عَلَيْهِمْ)، وقرأ أبو حيوة: [وَدَانِيَةٌ] بالرفع، وقرأ أُبَيٌّ بن كعب: [وَدَانٍ]، فهو مفردٌ مرفوع في الإعراب، ودُنُوُّ الظلال بتوسطٍ أَنْعَم لها لأن الشيءَ الْمُظل إذا بَعُد فَتَر ظلُّه لا سيَّما من الشجر. و«التَّذْليلُ» أن تَطِيبَ الثَّمرةُ فتتدلَّى وتنعكس نحو الأرض، والتَّذليل في الجنة هو بحسب إرادة ساكنيها، قال قتادة، وسفيان، ومجاهد: إن كان الإنسان قائماً تناول الثَّمر دون كلفة، وإن كان قاعداً فكذلك، وإن كان مضطجعاً فكذلك، فهذا تذليلها، لا يردُّ اليدَ عنها بُعد ولا شوك، ومن اللفظة قول امرىءِ القيس:

. . . . كَـأُنْبـوبِ السَّقِـيِّ الْمُـذَلَّـلِ[2]

ومنه قول الأنصاري: «والنخل قد ذُلِّلت فهي مطوقة بثمرها»، و«القُطوفُ» جمع قطف وهو العنقود من النخل والعنب ونحوهما.

و«الآنِيَةُ» جمع إناءٍ، و«الكُوبُ» ما لا عروة له ولا أُذن من الأواني، وهي معروفة

---

(١) معنى ذلك أنها صفة لموصوف محذوف تقديره: جَنَّةً، وقيل: انتصبت [دَانِيَةً] على المدح، أما رفع [دانٍ] في قراءة أُبَيٍّ فهو على الاستئناف.

(٢) البيت بتمامه:

وَكَشْـحٍ لَطيـفٍ كَـالْجَـديـلِ مُخَصَّـرٍ   وسـاقٍ كَـأُنْبـوبِ السَّقِـيِّ الْمُـذَلَّـلِ

والكَشْحُ هو الخِصْرُ، ولطيف: رقيق، والجديلُ: خطامٌ يُتخذ من الجلد، والمُخصَّرُ: الدَّقيق الوسط، والأنبوب: ما بين العقدتين من القصب من كل نبات مُجَوَّف، والسَّقِيُّ: النخل المرويُّ، والمُذَلَّلُ: الذي كثر ماؤهُ فأصبح ليِّناً يطاوع كل من يتناوله، وذلك أنهم كانوا في أيام الثَّمر يلِحُون على النَّخل بالسقي فهو حينئذ «سَقِيٌّ» و«مُذَلَّلٌ»، يقول: إن خصرها رقيق ليِّنٌ كأنه الزِّمام الرقيق، وإن ساقها متألقٌ طريٌّ ريّان يحكي في صفاء لونه النبات الذي كثر ماؤه فَلانَ.

الشكل في تلك البلاد، وهو الذي تقول له العامة «القب»، لكنها تسمي ذلك ما له عروة، وذلك خطأٌ أَيضاً، وقال قتادة: الكوب القَدَح، و«القواريرُ» الزجاجُ. واختلف القراءُ، فقرأَ نافع، والكسائي وأَبو بكر عن عاصم: (قَوَاريراً، قَوَاريراً) بالإِجراءِ فيهما على ما تقدم في [سَلاسِلاً][١]، وقرأَ ابن عامر، وحمزة: [قَواريرَ، قَوَاريرَ] بترك الإِجراءِ فيهما[٢]، وقرأَ ابن كثير بالإِجراءِ في الأَول وتركه في الثاني[٣]، وقرأَ أَبو عمرو إِذا وقف في الأَول بأَلف دون تنوين، وبِتَرْك الإِجراءِ في الثاني. وقوله تعالىٰ: ﴿مِن فِضَّةٍ﴾ يقتضي أَنها من زجاج ومن فضَّة، وذلك متمكن لكونه من زجاج في شفوفه ومن فضة في جوهره، وكذلك فضة الجنة شفافة، وقال أَبو علي: جعلها من فضة لصفائها وملازمتها لتلك الصفة، وليست من فضة في حقيق أَمرها، وإِنَّما هذا كقول الشاعر:

أَلاَ أَصْبَحَتْ أَسْمَاءُ جَاذِمَةَ الْوَصْلِ ... وَضنَّتْ عَلَيْنا والضَّنينُ مِنَ البُخْلِ[٤]

وقوله تعالىٰ: ﴿قَدَّرُوهَا﴾ يحتمل أَن يكون الضمير للملائكة، ويحتمل أَن يكون للطائفين، ويحتمل أَن يكون للمنعَّمين، والتقدير إِما أَن يكون على قدر الأَكُفِّ، قاله الربيع، أَو على قدر الريِّ، قاله مجاهد، وهذا كله على قراءة من قرأَ: ﴿قَدَّرُوهَا﴾ بفتح القاف، وقرأَ ابن أَبزى، وعليٌّ، والجحدريُّ، وابن عباس، والشَّعبيُّ، وقتادة: ﴿قُدِّرُوهَا﴾ بضم القاف وكسر الدال، قال أَبو علي: كأَن اللفظ «قُدِّروا عليها»، وفي المعنى قلب لأَن حقيقة المعنى أَن يقال: قُدِّرت عليهم، فهي مثل قوله تعالىٰ: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾[٥]، ومثل قول العرب: «إِذا طلعت الجوزاءُ أُلقي العود على الحرباءِ»، حكاه أَبو علي.

---

(١) يعني بتنوينهما وَصْلاً وإبدال التنوين أَلِفاً في الوقف.

(٢) يعني بمنع صرفهما، وهي قراءة حفص عن عاصم.

(٣) يعني بصرف الأول ومنع الصرف في الثاني.

(٤) هذا البيت لِخداش بن بشر المجاشعي المعروف باسم البعيث، وهو في اللسان ـ جذم وضَنَّ ـ ويروى «خنساءُ» بدلاً من «أسماء»، و«الحبل» بدلاً من «الوصل». وجَذَم: قَطَع، يقال: جذب فلان حبْل وصله وجذمه إذا قطعه، والضَّنُّ: البُخْل، وأراد بقوله: (والضَّنين من البخل) أن الضَّنين مخلوق من البخل، كقولهم: هو مجبول من الكرم، وهي مخلوقة من البخل، وهذا على المجاز لأن المرأة جوهر والبخل عَرَض، والجوهر لا يكون من العرض، إنما يريد أن البخل تمكن فيها حتَّى كأنها مخلوقة منه، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا.

(٥) من الاية (٧٦) من سورة (القصص).

وكون الزنجبيل مزاجاً هو على ما ذكرناه في العرف ولذع اللسان، وذلك من لذات المشروب، والزنجبيل طيب حارٌّ، وقال الشاعر:

كَأَنَّ جَنِيًّا مِنَ الزَّنْجَبِيـ ـلِ باتَ بِفِيهَا وَأَرْياً حَشُورَا(١)

وقال الْمسيَّبُ بن عَلَس:

وَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّنْجَبِيلِ بِهِ إِذْ ذُقْتَهُ وَسُلافَةَ الْخَمْرِ(٢)

وقال قتادة: الزَّنجبيل اسمٌ لعين يشرب منها المقربون صرفاً، ويُمزج لسائر أَهل الجنة. و[عَيْناً] بدل من [كَأْساً]، أَو من [زَنْجَبيلاً] على القول الثاني(٣).

و[سَلْسَبيلاً] قيل: هو اسمٌ بمعنى السَّلْس الْمُنْقاد الْجَرْيَة، وقال مجاهد: حديد الجرية(٤)، وقيل: هي عبارة عن اتساعها، وقال ابن الأَعرابي: لم أَسمع هذه اللفظة إلاَّ في القرآن، وقال آخرون: [سَلْسَبيلاً] صفة لقوله تعالىٰ: [عَيْناً]، و[تُسَمَّى] بمعنى: تُوصف وتشهر، وكونه مصروفاً مما يؤكد كونه صفةً لا اسماً(٥)، وقال بعض المفسرين: [سَلْسَبِيلاً] أَمر للنبي ﷺ ولأُمته بسؤال السبيل إِليها، وهذا قول ضعيف لأَن

---

(١) هذا البيت للأعشى، وهو من قصيدته التي مدح بها هوذة بن عليٍّ الحنفي، والرواية في الديوان: (خَالَطَ فَاهَا)، والْجَنِيُّ: ما جُني لساعته من الثمر، ويكُون لهذا غضاً طيباً لم يلحقه تغيير، والأَرْيُ: العَسَلُ والْمَشُورُ: المستخرج من الخليَّة، يصف ريقها ويشبهه في حلاوته بالزنجبيل والعسل الصافي، والشاهد أن العرب تستطعم الزنجبيل إلى هذه الدرجة.

(٢) المسيَّب لقب لُقِّب به، واسمه زهير بن عَلَس بن مالك، والبيت مع بيت بعده من أفضل ما قيل، وقد سبق إلى ما فيهما من معنى، وأَخذه عنه غيره، وفيهما يقول:

وَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّنْجَبِيلِ بِهِ إِذْ ذُقْتَهُ وَسُلافَةَ الْخَمْرِ
شَرِقاً بماءِ الذَّوْبِ أَسْلَمَهُ لِلْمُبْتَغِيهِ مَعَاقِلُ الدَّبْرِ

ومعنى «شَرِقاً» مختلطاً، وهي حال، والدَّبْر: النحل، وسُلافة الخمر: أول ما يعصر منها، وهو أَخلصها وأَفضلها، يذكر ثغر المرأة ويشبه ما فيه بطعم الزنجبيل وبأَصفى وأفضل أَنواع الخمر، والشاهد أن طعم الزنجبيل ممدوح محبوب عند العرب.

(٣) في الأصول: أو من (عين)، وما أثبتناه هنا يتفق مع ما في «البحر المحيط»، وهو الملائم لقوله: «على القول الثاني»، أي قول قتادة.

(٤) في بعض النسخ: «جيِّد الجرية»، وما أثبتناه يتفق مع ما في الطبري، ولعل معناه أن جريه محدد يقصد هدفاً معيناً.

(٥) في بعض النسخ: «لا أَمراً»، وكأنه ينفي الرأي الذي سيذكره بعد ذلك وهو أن الكلمة أَمر للنبي ﷺ.

براعة القرآن وفصاحته لا تجيءُ هكذا، واللفظة معروفة في اللسان، وأن «السَّلْس والسَّلْسبيل» بمعنى واحد ومتقارب.

و[مُخَلَّدونَ] قال جمهور الناس: معناه: باقون، من الخلود، وجعلهم ولْداناً لأَنهم في هيئة الولدان في السن، لا يتغيرون عن تلك الحال، وقال أَبو عبيدة وغيره: [مُخَلَّدُونَ] معناه: مُقَرَّطون، والخلدات حُلًى تُعَلَّق في الآذان، ومنه قول الشاعر:

وَمُخَلَّـدَات بِـاللُّجَيْـنِ كَـأَنَّمَـا ... أَعْجـازُهُـنَّ أَقَـاوِزُ الكُثْبـانِ[1]

وشهرة هذه اللغة في حِمْير.

وشبههم تعالىٰ باللؤلؤ المنثور في بياضهم وانْتشارهم في المساكن يجيئون ويذهبون، وفي جمالهم، ومنه سميت المرأَة دُرَّة وجوهرة، ثم كرَّر تعالىٰ ذكْر الرؤية مبالغة، و[ثَمَّ] ظرف، والعامل فيه [رَأَيْتَ] أَو معناه، وقال الفراءُ: التقدير: إذا رأَيْتَ ما ثمَّ رَأَيتَ، وحذفت «ما». وقرأَ حميد الأَعرج: [ثُمَّ] بضم الثاءِ، و«النَّعيمُ» ما هم فيه من حسن عيش. و«الْمُلْكُ الكبيرُ» قال سفيان: هو استئذان الملائكة وتسليمُهُمْ عليهم وتعظيمُهُمْ لهم في ذلك كالملوك، وقال أَكثر المفسرين: «الْمُلْك الكبير» اتساع مواضعهم، روي عن عبد الله بن عمر أَنه قال: ما من أَهل الجنة من أَحد إِلاَّ يسعى عليه أَلف غلام، كلهم مختلف شغله من شغل أَصحابه، وأَدنى أَهل الجنة منزلة من ينظر في مُلكه مسيرة أَلف عام، يرى أَقصاه كما يرى أَدناه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ﴿٢٣﴾ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ﴿٢٤﴾ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

قرأَ نافع، وحمزة، وأَبان عن عاصم: [عَالِيهِمْ] بالرفع للابتداءِ، وهي قراءة

---

(١) البيت في اللسان وفي الطبري غير منسوب، ومُخَلَّدات: يلبسن الخلدات وهي الأقراط، والقرطُ يُسَمَّى الْخَلدة، واللُّجَيْن: الفضة، ولزوم صيغة التصغير هذه فلا مُكَبَّر له، ومثله في ذلك الثُّريَّا والكُمَيْت، والأَعجاز: أرداف المرأَة، والواحد عَجُز، والأقاوز: جمع قَوْز، وهو مرتفع صغير مستدير من الرمل تُشَبَّه به أرداف النساء، وقد قيل: إن أَصله أَقَاويز بالياءِ، وقد حذفها الشاعر ضرورة.

الأَعرج، وأَبي جعفر، وشيبة، وابن محيصن، وابن عباس بخلاف عنه ـ، وقرأَ الباقون وعاصم: [عَالِيَهُمْ] بالنصب على الحال، والعامل فيه [لَقَّاهُمْ] أَو [جَزَاهُمْ]، وهي قراءة عمر بن الخطاب، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، والجحدري، وأَهل مكة. وقرأَ الأَعمش، وطلحة: [عَالِيَتُهُمْ]، وكذلك هي في مصحف عبد الله، وقرأَ أَيضاً الأَعمش: [عَالِيَتَهُمْ] بالنصب على الحال، وقد يجوز في النصب في القراءتين أَن تكون على الظرف؛ لأَنه بمعنى: فوقهم، وقرأَت عائشة رضي الله عنها: [عَلَتْهُمْ] بتاءِ فعل ماض، وقرأَ مجاهد، وقتادة، وابن سيرين، وأَبو حيوة: [عَلَيْهِمْ] بالياءِ.

و«السُّنْدُس» رقيق الديباج والمرتفع منه، وقيل: السندُس هو الحرير الأَخضر، و«الإِسْتَبْرَقُ» والدِّمَقْسُ هما الأَبيض، والأرجوان هو الأَحمر. وقرأَ حمزة والكسائي: [خُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٍ] بالخفض فيهما، وهي قراءة الأَعمش، وطلحة، ورويت عن الحسن، وأَبي عمرو ـ بخلاف عنهما ـ، على أَن «خُضْراً» نعت للسندس، وجائز جمع صفة اسم الجنس إِذا كان اسماً مفرداً، كما قالوا: «أَهلك الناسَ الدينارُ الصُّفْر والدِّرهمُ البيضُ»، وفي هذا قُبح، والعرب تفرد صفة اسم الجنس وهو جمع أَحياناً فيقولون: «هو حصىً أَبيض»، وفي القرآن: ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾[1]، و﴿نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾[2] فكيف بأَن لا يفرد هذا الذي هو صفة لواحد في معنى جمع. و[إِسْتَبْرَقٍ] في هذه القراءَة عطف على [سُنْدُسٍ]، وقرأَ نافع، وحفص عن عاصم، والحسن، وعيسى: ﴿خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ بالرفع فيهما، [خُضْرٌ] نعت لـ [ثِيَابُ]، و[إِسْتَبْرَقٌ] عطف على [ثِيَابُ]، وقرأَ أَبو عمرو، وابن عامر، ونافع أَيضاً: [خُضْرٌ] رفعاً و[إِسْتَبْرَقٍ] خفضاً، و[خُضْرٌ] صفة لـ [ثِيَابُ] و[إِسْتَبْرَقٍ] عطف على [سُنْدُسٍ]، وقرأَ ابن كثير، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ: [خُضْرٍ] خَفضاً و[إِسْتَبْرَقٌ] رَفعاً، فخفض [خُضْرٍ] على ما تقدم أَوَّلاً، و[إِسْتَبْرَقٌ] عطف على [ثِيَابُ]، و«الإِسْتَبْرَقُ» غليظ الديباج، وقرأَ ابن محيصن: [وَاسْتَبْرَقَ] موصولة الأَلف مفتوحة القاف، كأَنه مثال الماضي من بَرِقَ واسْتَبْرَقَ كَعَجِب واسْتَعْجَبَ، قال أَبو حاتم: لا يجوز، والصواب أَنه اسم جنس لا يَنبغي أَن يحمل ضميراً، ويؤيد ذلك دخول لام المعرفة عليه، والصواب فيه قطع الأَلف وإِجراؤه على

---

(١) من الآية (٨٠) من سورة (يس).

(٢) من الآية (٢٠) من سورة (القمر).

قراءة الجماعة. وقرأ أَبو حيوة: [عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ] بالرفع (سُنْدُسٌ خُضْرٌ وإِسْتَبْرَقٌ) رفعاً في الثلاثة، وقوله تعالىٰ: [وَحُلُّوا] أي جعل لهم حلي، و[أَساوِر] جمع أَسْوِرَة، وأَسْوِرَة جمع سوار، وهو من حلي الذراع.

قوله تعالىٰ: ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾، قال أَبو قُلابة، والنَّخَعي: معناه لا يصير بولاً بل يكون رشحاً من الأَبدان أَطيب من المسك، وهنا محذوف يقتضيه القول تقديره: يقول الله تعالىٰ لهم والملائكة عنه: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ الآية... تثبيتٌ لمحمد ﷺ، وتقوية لنفسه على أفعال قريش وأَحوالهم، و«حُكْمُ رَبِّه» تعالىٰ أَن يبلِّغ ويكافح ويتحمل المشقة ويصبر على الأَذى ليعرِّف الله تعالىٰ إِليهم. وقوله تعالىٰ: ﴿آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ هو تخيير في أَن يعرف الذي ينبغي أَلاَّ يطيعه بأَي وصف كان من هذين؛ لأَن كل واحد منهم فهو آثم وهو كفور، ولم تكن الأُمة حينئذ من الكثرة بحيث يقع الإِثم على العاصي، واللفظ أَيضاً يقتضي نهي الإِمام عن طاعة آثِم من العصاة أَو كفور من المشركين، وقال أَبو عبيدة: (أَوْ) بمعنى «الواو» وليس في هذا تخيير.

ثم أَمره تعالىٰ بذكر ربِّه عزَّ وجلَّ دأَباً بُكْرةً وأَصيلاً، ومن الليل بالسجود والتسبيح الذي هو الصلاة، ويحتمل أَن يريد قَوْلَ: «سبحان الله»، وذهب قوم من أَهل العلم إِلى أَن هذه الآية إِشارة إِلى الصلوات الخمس، منهم ابن حبيب وغيره، فالبُكْرَةُ: صلاةُ الصبح، والأَصيل الظهر والعَصْر، ومن الليل: المغربُ والعِشاءُ، وقال ابن زيد وغيره: كان هذا فرضاً ونُسخ، فلا فرض إِلا الخمسة، وقال قوم، هو محكم على جهة الندب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

الإِشارة بـ [هؤلاءِ] إِلى كفار قريش، و«العاجِلَةُ»: الدنيا، وحُبُّهم لها أَنهم لا يعتقدون غيرها، و﴿يَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ﴾ معناه: فيما يَأْتي من الزمان بعد موتهم، وقال لبيد:

أَلَيْسَ وَرَائِي إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي لُزُومُ الْعَصَا تُحْنَى عَلَيْهَا الأَصابِعُ(١)

ووصف اليوم بالثِّقَل على جهة النَّسب، أَي ذا ثِقَل من حيث الثقل فيه على الكفار، وهو كلَيْل نائم.

ثم عدد تعالىٰ النعمة على عباده في خلقهم وإيجادهم وإتقان بنيتهم وشد خِلْقَتِهم، و«الأَسْرُ»: الخلْقة واتِّساق الأَعضاءِ والمفاصل، وقد قال أَبو هريرة، والحسن، والربيع: الأَسْرُ: المفاصل والأَوصال، وقد قال بعضهم: الأَسْرُ: القوة، ومنه قول الشاعر:

فَأَنْجَاهُ غَدَاةَ الْمَوْتِ مِنِّي شَدِيدُ الأَسْرِ عَضَّ عَلَى اللِّجَامِ(٢)

وقول الآخر:

مِنْ كُلِّ مُجْتَنَبٍ شَدِيدٍ أَسْرُهُ سَلِسِ الْقِيَادِ تَخَالُهُ مُخْتَالا(٣)

قال الطبري: ومنه قول العامة: «خذه بأَسره» يريدون: خذه كله(٤).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَصل هذا فيما له شدٌّ ورباط كالعظم ونحوه، وليس هذا مما يختص بالعامة، بل

---

(١) هذا البيت من قصيدته التي قالها يرثي أَخاه أربد، والتي يقول في مطلعها: (بَلِينَا وما تَبْلَى النُّجُومُ الطوَالِعُ)، والرواية في النسخ الأَصلية: «أَدبُّ مع الوِلْدان أَزحف كالنسر» والتصويب عن الديوان واللسان، ووراء ـ هنا ـ بمعنى أَمام. ، كمعناها في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ أَي أَمامهم، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الفراء: إن هذا المعنى لا يجوز إلاّ في المواقيت من الليالي والأيام، تقول: وراءك بردٌ شديد، وتراخت: تباعدت وأَبطأَت، ولزوم العصا: مصاحبتها والاعتماد عليها عند المشي، تُحْنَى: تُضَمُّ وتجتمع.

(٢) غداة الموت: صباح يوم الموت، وشديد الأسر: قويُّ المفاصل، والمراد هنا الفرس، يقول: أَنقذه مني عند اشتداد المعركة وكثرة الموت فرسٌ قوي متين. والشاهد أَن الأسر بمعنى القوة. ولم أَقف على قائل هذا البيت.

(٣) البيت للأخطل، وهو في الطبري، والقرطبي، والشوكاني، وهو في وصف الخيل، والمجتنب: الذي يرفقه صاحبه بجانب فرسه ولا يركب عليه، وكان العرب يركبون الإبل ويجنبون الخيل فإذا صاروا إلى الحرب ركبوا الخيل، وشديد الأسر: قويٌّ، وسَلِسُ القياد: ينقاد في سهولة إذا قاده صاحبه إلى جانبه، ومختالاً: يُخيل إليك أنه من نشاطه وحيوته يختال في مشيته، والبيت شاهد على أن الأَسْر بمعنى القوة.

(٤) نصُّ عبارة الطبري: «ومنه قول العامة: خذه بأَسْره، أي: هو لك كله»، وواضح أن الطبري فعلاً قد أراد جمهور الناس.

هو من فصيح كلام العرب، اللهم إلاَّ أن يريد بالعامة: جمهور العرب. ومن اللفظة «الإِسارُ» وهو القِدُّ الذي يُشدُّ به الأَسير.

ثم توعَّد تعالىٰ بالتبديل، واجتمع من القولين ـ تعديد النعمة والوعيد والتبديل ـ احتجاج على مُنكري البعث، أي: مَنْ هذا الإيجادُ والتبديلُ ـ إذا شاءَ ـ في قُدرته فكيف تتعذر عليه الإعادة؟

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ يَحْتمل أن يشير إلى هذه الآية، أو إلى السورة بأَسرها، أو إلى الشريعة بجملتها، وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَآءَ﴾ ليس على جهة التخيير، بل فيه قرينة التحذير والحض على اتخاذ السبيل، و«السَّبيلُ» هنا سبيل النجاة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ نفْي لقدرتهم على الاختراع وإيجاد المعاني في نفوسهم، ولا يردُّ هذا ما لهم من الاكتساب والميل إلى الكفر[1]، وقرأَ عبد الله: [وَمَا تَشاءُونَ إلاَّ ما شاءَ اللهُ]، وقرأَ يحيى بن وثاب: [تِشَاءُونَ] بكسر التاءِ، وقوله تعالىٰ: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ معناه: يعلم ما ينبغي أَن يُيَسِّر عبده إليه، وفي ذلك حكمة لا يعلمها إلاَّ هو.

و[الظَّالِمِينَ] نصب بإضمار فعل تقديره: ويُعَذِّب الظالمين أَعَدَّ لهم[2]، وفي قراءة ابن مسعود: [ولِلظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ] بتكرير اللام، وقرأَ جمهور السبعة: ﴿وَمَا تَشاءُونَ﴾ بالتاءِ على المخاطبة، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [يَشَاءُونَ] بالياءِ، وقرأَ الزبير، وأَبان بن عثمان، وابن أَبي عبلة: [وَالظَّالِمونَ] بالرفع، قال أَبو الفتح: ذلك على ارتجال جملة مستأَنفة.

تم تفسير سورة الإنسان والحمد لله رب العالمين

---

(١) قال القرطبي: «أَخبر أَن الأمر إليه سبحانه ليس إليهم، وأنه لا تنفذ مشيئة أحد ولا تتقدم إلاَّ أن تتقدم مشيئته سبحانه».

(٢) قال الزجاج: «نصب (الظالمينَ) لأن قبله منصوب، أي: يدخل من يشاء في رحمته، ويُعذب الظالمين، أي المشركين، ويكون (أَعَدَّ لَهُم) تفسيراً لهذا المضمر، كما قال الشاعر:

أَصْبَحْتُ لا أَحْمِلُ السِّلاَحَ وَلاَ ... أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا
وَالذِّئْبَ أَخْشَاهُ إِنْ مَرَرْتُ بِهِ ... وَحْدِي وَأَخْشَى الرِّيَاحَ وَالْمَطَرَا

أَي: أَخشى الذئبَ أَخشاهُ، والاختيار النصب، وإن جاز الرفع، تقول: أَعطيتُ زيداً وعمراً أَعددتُ له بِراً، فيُختارُ النصب، أي: وبَرَرتُ عَمْراً، أَو أَبَرُّ عمروا».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة المرسلات[(١)]

وهي مكية في قول جمهور المفسرين، وحكى النقاش أنه قيل: إن فيها من المدني قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾[(٢)]، على تأويل من قال إنها حكاية عن حال المنافقين، وإنها بمعنى قوله تعالىٰ: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[(٣)]، وقال ابن مسعود: نزلت هذه السورة ونحن مع رسول الله ﷺ بخيبر... الحديث بطوله[(٤)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾
عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ
نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

قال كثير من المفسرين: «الْمُرْسَلَاتُ»: الرُسُل إلى الناس من الأنبياءِ عليهم السلام، كأنه تعالىٰ قال: والجماعات المرسلات، وقال أبو صالح، ومقاتل، وابن مسعود: المرسلات: الملائكة المرسلة بالوحي وبالتعاقب على العباد طرفي النهار، وقال ابن

(١) أخرج ابن شيبة، والبخاري، ومسلم، وابن ماجه، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أُم المفضل سمعته وهو يقرأ «والْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً» فقالت: يا بني، لقد ذكرتني بقراءتك هذه السورة أنها لآخر ما سمعتُ من رسول الله ﷺ يقرأُ بها في المغرب.

(٢) وهي الآية (٤٨) من السورة.

(٣) من الأية (٤٢) من سورة (القلم).

(٤) أخرجه البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن مردويه، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: بينما نحن مع النبي ﷺ في غار بمنى إذ نزلت عليه سورة (المُرْسلاتِ عُرْفاً)، فإنه يتلوها، وإني لألقاها من فيه، وإن فاهُ لرطبٌ بها، إذ وثبت عليه حيَّةٌ، فقال النبي ﷺ: اقتلوها، فابتدرناها فذهبت، فقال النبي ﷺ: وُقيَتْ شرَّكم كما وُقِيتُم شرَّها. (الدُّر المنثور).

مسعود أيضاً، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة: المرسلات: الرياح، وقال الحسن بن أَبي الحسن: المرسلاتُ: السحاب. و[عُرْفاً] معناه على القول الأول: عُرْفاً من الله وإِفضالاً(١) على عباده ببعثه الرسل عليهم السلام، ومنه قول الشاعر:

مَـنْ يَفْعَـلِ الْخَيْـرَ لا يَعْـدِمْ جَـوازِيَـهُ ... لاَ يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللهِ والنَّاسِ(٢)

ويحتمل أَن يريد بقوله [عُرْفاً] متتابعة، على التشبيه بتتابع عُرف الفرس وأَعراف الجبال ونحو ذلك، والعرب تقول: «الناسُ إِلى فلان عُرْفٌ واحد» إِذا توجهوا إِليه، ويحتمل أَن يريد: بالعرف، أَي بالحق والأَمر بالمعروف، وهذه الأَقوال في [عُرْفاً] تَتَّجه في قول من قال: المرسلات هي الملائكة، ومن قال إِن المرسلات هي الرياح اتجه في «العرف» أَن يقال: التأَول على تخصيص الرياح التي هي نِعَمٌ بها الأَرزاق والنجاة في البحر وغير ذلك مما لا نقمة فيه، ويكون الصنف الآخر من الريح في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾، ويحتمل أَن يكون [عُرْفاً] بمعنى: والمرسلات الرياحُ التي يعرفها الناس ويعهدونها، ثم عقَّب بذكر الصنف المستنكر الضارِّ وهي العاصفات، ويحتمل أَن يريد بالعرف مع الرياح التَّتابع كعُرف الفرس ونحوه، وتقول العربُ: «هبَّ عُرف من ريح»، والقول في العُرف مع أَن المرسلات هي الرياح يطَّرد على أَن المرسلات هي السحاب، وقرأَ عيسى: [عُرُفاً] بضم الراءِ. و«العاصفُ» من الريح: الشديدة العاصفة للشجر وغيره.

واختلف الناس في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾ ـ فقال مقاتل، والسُّدي: هي الملائكة تنشر صحف العباد بالأَعمال، وقال ابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وقتادة: هي الرياح تنشر رحمة الله تعالىٰ ومطره، وقال بعض المتأَولين: الناشراتُ طوائف الملائكة التي تباشر إِخراج الموتى من قبورهم للبعث، فكأَنهم يحيونهم، وقال قوم: الناشرات

(١) الإفْضال: الإحسان، يقال: أَفضل الرجلُ على فلان بمعنى: أناله من فضله وأَحسن إليه. (لسان العرب).

(٢) البيت للحطيئة، وهو في ديوانه، وفي اللسان، وهو من الأبيات المشهورة في قيمة المعروف وأثره بين الناس، قال ابن جني: «ظاهر هذا أن تكون (جوازِيَهُ) جمع جاز، أي: لا يعدم جزاءً عليه، وجاز أن يجمع جزاءٌ على جوازٍ لمشابهة اسم الفاعل للمصدر، فكما جمع سَيْل على سوائل كذلك يجوز أن يكون جوازيه جمع جزاءٍ». والعرف: المعروف، وهو خلاف المنكر، أو ما يستحسن من الأفعال، وفي الحديث الشريف: «أهل المعارف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة».

الرمم في بعث يوم القيامة، يقال: نشر الميت، ومنه قول الأعشى:

. . . . يَـا عَجَبـاً لِلْمَيِّـتِ النَّـاشِـرِ(١)

وقيل: الناشراتُ البقاعُ التي تحيا بالأَمطار، شبهت بالميِّت يُنشر، وقال أَبو صالح: الناشرات الأَمطار تحيي الأَرض.

﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ﴾، قال ابن عباس، وابن مسعود، وأَبو صالح، ومجاهد، والضحاك: هي الملائكة تفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام، وقال قتادة، والحسن، وابن كيسان: الفارقاتُ آياتُ القرآن.

وأَمَّا ﴿المُلقيات ذكراً﴾ فهي في قول الجمهور: الملائكة، قال مقاتل: جبريل عليه السلام ونحوه، وقال آخرون: هي الرسل عليهم السلام، وقرأَ جمهور الناس: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ﴾ بسكون اللام، أَي تُلقيه من عند الله تعالىٰ وبأَمره إِلى الرسل عليهم السلام، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما ـ فيما ذكر المهدوي ـ: ﴿فَالمُلَقَّيٰتِ﴾ بفتح اللام وفتح القاف وشدها، أَيْ: تَلَقَّاه من قبَل الله تعالىٰ. وقرأَ ابن عباس أَيضاً: ﴿فالمُلَقِّيٰتِ﴾ بفتح اللام وشدِّ القاف وكسرها، أَي: تُلقيه هي للرسل عليهم السلام، و«الذِّكْرُ» الكتبُ والشرائع ومُضَمَّناتها.

واختلف القراءُ في قوله تعالىٰ: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾، فقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ وأَبو جعفر، وشيبة بسكون الذَّال في ﴿عُذْرًا﴾ وضمها في [نُذُراً]، وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وإِبراهيم التَّيمي بسكون الذال فيهما، وقرأَ طلحة، وعيسى، والحسن ـ بخلاف ـ وزيد بن ثابت، وأَبو جعفر وأَبو حيوة، والأَعمش عن ابن كثير عن عاصم بضمها فيهما. وإِسكانُ الذال على أَنهما مصدران، يقال: عُذْرٌ وعذيرٌ، ونُذْر ونذير، كنكير ونُكْر، وضم الذال يصحُّ معه

---

(١) هذا عجز بيت قاله الأعشى من قصيدته التي يهجو فيها علقمة بن علاثة ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

لَـو أَسْنَـدَتْ مَيْتـاً إِلَـى نَحْـرِهـا ... عـاشَ وَلَـمْ يُنْقَـلْ إِلـى قـابـرِ
حَتَّـى يقـولَ النَّـاسُ مِمَّـا رَأَوْا: ... يـا عَجَبـاً لِلْمَيِّـتِ النَّـاشِـرِ

والشاهد أن الناشر بمعنى الحيِّ، يقال: نَشَر الله الميت: أحياه، والبيت في الديوان، واللسان، وقد سبق الاستشهاد به.

المصدر ويصح أَن يكون جمعاً لنذير وعاذر واللذين هما اسما فاعل، والمعنى أَن الذِّكْر يُلْقى بإعذارٍ وإنذارٍ، أَوْ يُلقيه مُعْذِرون ومُنذِرون، وأَما النصب في قوله تعالىٰ: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ فيصح إذا كانا مصدرين أن يكون ذلك على البدل من «الذِّكْر»، ويصح أن يكون على المفعول للذِّكْر، كأنه تعالى قال: فالمُلْقيات أنْ نذكُر عُذْراً، ويصح أن يكون [عُذْراً] مفعولاً من أجله، أي تلقى الذكر من أجل الإعذار والإنذار وأما إذا كان (عُذْراً أو نُذْراً) جمعاً فالنصب على الحال، وقرأَ إبراهيم التَّيمي: [عُذْراً وَنُذْراً] بواوٍ بدل «أَو».

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾، هذا الذي وقع عليه القسم، والإشارة إلى البعث، و«طَمْسُ النجوم» إزالةُ أَضوائها واستواؤُها مع سائر جرم السماءِ، و«فَرْجُ السماءِ» هو بانفطارها حتى تحدث فيها فروج، و«نَسْفُ الجِبَالِ» هو بعد التَّسيير، وقيل: كونها هباءً وهو تفريقها بالريح، وقرأَ الجمهور: ﴿أُقِّتَتْ﴾ بالهمزة وشدِّ القاف، وقرأَ بتخفيف القاف مع الهمز عيسى، وخالد[1]، وقرأَ أبو عمرو وحده: [وُقِّتَتْ] بالواو، وقرأَ بها أبو الأَشهب، وعيسى، وعمرو بن عبيد، قال عيسى: هي لغة سُفْلى مضر، وقرأَ أبو جعفر بواو واحدة خفيفة القاف، وهي قراءة ابن مسعود، والحسن، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [ووُقِتَتْ] بِواوَيْن، على وزن فُوعلت، والمعنى: جُعل لها وقت مُسَطَّر فجاءَ وحانَ، والواو في هذا كله هي الأَصل، والهمزة بدل.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ تعجيب وتوقيف على عِظَم ذلك اليوم وهوله، ثم فسَّر تعالىٰ ذلك الذي عجَّب منه بقوله: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ يعني تعالىٰ: بَيْن الخلق في منازعتهم وحسابهم ومنازلهم من جنة أَو نار، ومن هذه الآية انتزع القضاةُ الآجال في الحكومات ليقع فصل القضاءِ عند تمامها، ثم عظَّم سبحانه يوم الفصل بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾، على نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾[2] وغير ذلك، ثم أَثبت تعالىٰ الويل للمكذبين في ذلك اليوم، والمعنى: للمكذِّبين به في الدنيا وبسائر فصول الشرع، و«الْوَيْلُ» هو الحرب والحزن على نوائب تحدث بالمرءِ، ويُروى عن النعمان بن بشير، وابن مسعود، وعمار بن ياسر أَن وادياً في جهنم اسمه الْوَيْلُ.

---

(١) هو خالد بن إلياس أو إياس بن صخر، أبو الهيثم العدوي المدني، إمام المسجد النبوي، وفي بعض الأصول: «وخلف»، وأثبتنا ما يوافق القرطبي.

(٢) الآية الثَّالثة من سورة (الحاقة).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

قرأ جمهور القراء: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ﴾ بضم العين على استئناف الخبر، وقرأ أبو عمرو ـ فيما رُوي عنه ـ: ﴿ثُمَّ نُتْبِعْهُمُ﴾ بجزم العين عطفاً على [نُهْلِكْ]، وهي قراءة الأعرج، وعلى حسب هاتين القراءتين يجيءُ التأويل في [الأَوَّلينَ]، فَمَنْ قرأ الأولى جعل [الأَوَّلينَ] الأُممَ التي تقدمت قريشاً بأَجمعها، ثم أَخبر تعالىٰ أنه يُتْبِعُ [الآخرين] مِنْ قريش سِيَرَ أُولئك إذا كفروا وسلكوا سبيلهم، ومَنْ قرأ الثانية جعل [الأَوَّلينَ] قومَ نوح وإبراهيم ومن كان معهم، و[الآخرينَ] قوم فرعون وكلَّ من تأَخَّر وقرب من مُدَّة محمد ﷺ، وفي حرف عبد الله: «وَسَنُتْبِعُهُم»، ثم قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾، أَي في المستقبل، فتدخل هنا قريش وغيرها من الكفار.

وأَما تكرار قوله تعالىٰ في هذه السورة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ فقيل: ذلك بمعنى التأكيد فقط، وقيل: بل في كل آية منها ما يقتضي التصديق، فجاءَ الوعيد على التكذيب يؤكد الذي في الآية[1].

ثم وقف تعالىٰ على أَصل الخلقة التي يقتضي النظر فيها تجويز البعث، و«الْمَاءُ الْمَهِينُ» معناه: الضعيف، وهو المنيُّ من الرجل والمرأَة، و«الْقَرَارُ الْمَكِينُ» الرَّحِمُ وبطن المرأَة، و«الْقَدَرُ الْمَعْلُومُ» وقتُ الولادة، ومعناه: معلوم عند الله تعالىٰ في شخص شخص، وأَما عند الآدميين فيختلف، فليس بمعلوم قَدَر شخص بعينه، وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، ونافع، والكسائي: [فَقَدَّرْنَا] بتشديد الدال، وقرأَ الباقون بتخفيفها، وهما بمعنى، من القُدْرة والقدر، ومن التقدير والتوقيف، وقوله

---

(١) وقيل: كرَّر الوعيد على التكذيب لأنه قسَّمه بينهم على قدر تكذيبهم، فإن لكل مكذب بشيءٍ قدراً من العذاب غير العذاب الذي يَسْتَحقه على تكذيبه بشيءٍ آخر، وربَّ شيءٍ كذَّب به هو أَعظم جُرْماً من تكذيبه بشيءٍ آخر، لأنه أَقبح في تكذيبه وأَعظم في الردِّ على الله، فإنما يقسم له من الويل على قدر ذلك، وعلى قدر وفاقه، وهو قوله تعالىٰ: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾.

تعالىٰ: ﴿ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾ يُرَجِّح قراءة الجماعة، أَما إِن ابن مسعود روى عن النبي ﷺ أَنه فسّر «القادرين» بالْمُقَدِّرين، وقرأ ابن أَبي عبلة: [فقَدَّرنا] بتشديد الدال ﴿فَنِعْمَ الْمُقْتَدِرونَ﴾.

و«الْكِفاتُ» الستر والوعاءُ الجامع للشيءِ بإِجماع، تقول: كَفَت الرجل شعره، إِذا جمعه بخرقة، والأَرضُ تكْفِتُ الأَحياءَ على ظهرها، وتكْفِتُ الأَمواتَ في بطنها، و[أَحْيَاءً] ـ على هذا التأويل ـ معمول لقوله سبحانه: ﴿كِفَاتًا﴾؛ لأَنه مصدر، وقال بعض المتأَولين: ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ إِنما هو بمعنى أَن الأَرض فيها أَقطارٌ أَحياءٌ وأَقطارٌ أَموات، يراد: ما يُنبت وما لا يُنبت، فنصب ﴿أَحْيَآءً﴾ ـ على هذا ـ إِنما هو على الحال من «الأَرض»، والتأْويل الأَول أَقوى، وقال بُنَان: خرجنا مع الشعبي إِلى جنازة فنظر إِلى الجبانة فقال: هذه كِفاتُ الموتى، ثم نظر إِلى البيوت فقال: هذه كِفاتُ الأَحياءِ، وكانت العرب تُسمي «بَقيع الغَرْقد» كَفْتَةَ لأَنه مقبرةٌ يضم الموتى(١)، وفي الحديث «خَمِّروا آنِيَتَكُم، وأَوْكُوا أَسْقِيَتَكم، واكْفِتُوا صِبْيَانكم، وأَغْلقُوا أَبْوابكم، وأَطْفِئُوا مَصابِيحَكُمْ»(٢)، ودفن ابن مسعود قَملة في المسجد ثم قرأ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾، ولما كان القبر كِفاتاً كالبيت قُطع من سرق منه.

و«الرَّوَاسِي» الجبالُ؛ لأَنها رَسَتْ، أَي ثبتت، و«الشَّامِخُ» المرتفعُ، ومنه: شمخ بأَنفه، أَي ارتفع واستعلى، شبه المعنى بالشخص. و«أَسْقَى» جعله سقياً للغلات والمنافع، و«سَقَى» معناه: للشفة خاصةً، هذا قول لجماعة من أَهل اللغة، وقال آخرون: هما بمعنى واحد، و«الفُراتُ» الصَّافي، ولا يقال لِلْمِلْح فُراتٌ، وهي لفظة

---

(١) ويقال: انكفت القوم إلى منازلهم، أي انقلبوا، فمعنى الكفات أنهم يتصرفون على ظهرها وينقلبون إليها ويدخلون فيها، وأنشد سيبويه:

كِـرامٌ حيـنَ تَنْكَفِـتُ الأَفـاعِـي ... إِلَـى أَجْحـارِهِـنَّ مـنَ الصَّقِيـعِ

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق والأشربة، ومسلم وابن ماجه في الأشربة، والترمذي في الأطعمة، ومالك في صفة النبي ﷺ بالموطأ، وأحمد في مسنده (٣/ ٣٠١، ٣٠٦، ٣٥٥)، ولفظه كما في مسند أحمد: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أَغْلقوا أبوابكم، وخَمِّروا آنِيَتَكُم، وأَطْفِئُوا سُرُجَكُم، وأَوْكُوا أَسْقِيَتَكم، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً، ولا يكشف غطاء، ولا يحلُّ وِكاءً، وإِنَّ الفُوَيْسقَةَ تضرم البيت على أهله»، يعني الفأرة. وفي رواية «وأجيفوا الأبواب»، ومعنى «خَمِّرُوا»: غطُّوا، يقال: خمَّرت المرأة رأسها، أَي غطَّتْهُ بالخمار، وأَوْكُوا: اربطوا فم السقاءِ وهو القِرْبة، والوكاءُ هو الشيءُ الذي تربط به القربة، ومعنى «اكفتوا صبيانكم»: ضموهم إليكم حماية لهم.

تجمع ماءَ المطر ومياه الأنهار، وخص النهر المشهور هذا تشريفاً له، وهو نهر الكوفة، وسيحان هو نهر بلخ[1]، وجيحان[2] هو نهر دجلة، والنيل نهر مصر، وحُكي عن عكرمة أَن كل ماءٍ في الأَرض فهو من هذه، وفي هذا بُعد، والله تعالىٰ أَعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ هو للمكذبين الذين لهم الويل، يقال لهم: انطلقوا إِلى ما كنتم به تكذبون من عذاب الآخرة، ولا خلاف في كسر اللام من قوله تعالىٰ: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ في هذا الأمر الأول، وقرأَ يعقوب ـ في رواية رويس ـ: ﴿انطَلَقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ بفتح اللام، على معنى الخبر، وقرأَ جمهور الناس: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ بكسر اللام، على معنى تكرير الأَمر الأَول، وبيان الْمُنْطَلَق إِليه، وقال عطاءٌ: الظِّلُّ الذي له ثلاث شُعب هو دخان جهنم، رُوي أَنه يعلو من ثلاثة مواضع فيراه الكفار فيظنون أَنه مُغْن فيهرعون إِليه فيجدونه على أَسوأ وصف، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه المخاطبة إِنما تقال يومئذ لِعَبَدَةِ الصَّليب إِذا اتَّبع كل أَحد ما كان يعبد، فيكون المؤمنون في ظل الله تعالىٰ، ولا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ، ويقال لِعَبَدَة الصَّليب: انطلقوا إِلى ظِلِّ معبودكم وهو الصليب له ثلاث شُعب، والشُّعب تفرق الجسم الواحد فرقاً، ثم نفى تعالىٰ عنه محاسن الظِّلِّ.

والضمير في [إِنَّها] لجهنم، وقرأَ عيسى بن عمر: [بِشَرَارٍ] بأَلِف، جمع شرارة، وهي لغة تميم، و«الْقَصْر» في قول ابن عباسٍ وجماعة من المفسرين: اسم نوع

---

(١) سَيْحان: نهر كبير بين أنطاكية والروم، يمرُّ بأَذَنَة ثم ينفصل عنها فيصب في بحر الروم، وبلْخ: مدينة مشهورة بخراسان، (معجم البلدان).

(٢) جَيْحان ـ بالفتح ثم السكون والحاء المهملة: نهر بالمصيصة بالثغر الشامي، ومخرجه من بلاد الروم، ويصب في بحر الشام، قال أبو الطيب:

سَرَيْتَ إِلى جَيْحانَ من أَرْضِ آمِدٍ ... ثَلاثاً، لَقَدْ أَدْناكَ رَكْضٌ وَأَبْعَدا

(راجع معجم البلدان).

القُصُور، وهي الأَدْؤُر الكبار مُشَيَّدَة، وقد شبهت العرب بها النُّوق، ومن المعنى قول الأَخطل:

كَـأَنَّهـا بُـرْجُ رُومِـيٍّ يُشَيِّـدُهُ   لُـزَّ بِجِـصٍّ وَآجُـرٍّ وَأَحْجـارِ[1]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: القَصْر أَيضاً خشب كان في الجاهلية يُقْطع من جَزْل الحطب من النخل وغيره، على قدر الذراع وفوقه ودونه، يُسْتَعَدُّ به للشتاءِ، يُسَمَّى القَصْر، واحده قَصْرة[2]، وهو المراد في الآية، وإنما سُمِّي بالقَصْر لأَنه يحيط بالقصرة. وقال مجاهد: القَصْر حُزَمَ الحطب، وهذه قراءة الجمهور. وقرأَ ابن عباس أَيضاً وابن جبير: [كَالْقَصَر] بفتح الصاد، جمع قَصَرَة، وهي أَعناق الخيل والإِبل، وكذلك هي أَيضاً في الناس[3]، وقال ابن عباس: جذور النخل، وقرأَ ابن جُبَيْر أَيضاً والحسن: [كالْقِصَرِ] بكسر القاف وفتح الصاد، وهي جمع قَصْرَة كَحَلْقَةٍ وحِلَق من الحديد.

واختلف الناس في «الجِمالات»، فقال جمهور المفسرين: هي جمع «جِمال» على صحيح البناءِ كرجال ورجالات، وقال آخرون: أَراد بالصُّفْرِ: السُّودَ، وأَنشدوا على ذلك بيت الأَعشى:

تِلْـكَ خَيْلـي مِنْـهُ وَتِلْـكَ رِكَـابـي   هُـنَّ صُفْـرٌ أَوْلادُهـا كـالـزَّبِيـبِ[4]

---

(١) هذا البيت من قصيدة طويلة قالها أَبو أُمامة غياث بن غوث التغلبي المعروف بالأَخطل، ومطلعها: (تَغَيَّرَ رسْمُ الدَّار مِنْ سَلْمَى بأَحْفار)، وهو في وصف الناقة، وقد استشهد به المؤلف هنا على أَن العرب قد تشبه النُّوقَ في ضخامتها بالقصور أو بالدُّور الكبيرة، والبُرجُ: البناء العالي أَو الحصن، ولُزَّ الشيءُ بالشيءِ: شُدَّ وأُلْصِق، والجِصُّ: من مواد البناءِ، والآجُرُّ اللَّبِنُ المُحْرَقُ المُعَدُّ للبناءِ والقصيدة في الديوان وفي جمهرة أشعار العرب.

(٢) على وزن تَمْرَة وتَمْر.

(٣) جاء في اللسان: «والقَصَرَةُ بالتحريك: أَصْل العُنق، قال اللحياني: إنما يقال لأصل العُنق قَصَرة إذا غلظت، والجمع قَصَرٌ».

(٤) قال الأعشى هذا البيت في قصيدة له يمدح بها قيس بن معديكرب، والبيت يشير إلى خَيْل كريمة أَهداها إليه قيسٌ هذا، فهو يقول: إن خيلي كلها منه، ثم يصف أَلوانها بأَنها صفراء وأَولادها مثل الزبيب في اللون، والعربُ تُسمي السُّود من الإبل أو الخيل صُفْراً لأنه يشوب سوادَها شيءٌ من صفرة، كما قيل لِبيضِ الظباءِ: الأدْمُ لأن بياضها تعلوه كُدْرة، والشَّرر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار كان أشبه شيءٍ بالإبل السود لما يشوبها من صفرة، وضعف بعضهم هذا القول ورأَى أَن هذا محال في اللغة، إذ=

وقال جمهور الناس: بل «الصُّفْرُ»: الفاقعة لأنها أَشبه بلون الشَّرَر، وشبَّه الشَّرر بالجمالات، وقرأَ الحسن: [صُفُرٌ] بضم الصَّادِ والفاءِ، وقال ابن عباس، وابن جبير: الجمالات قلُوسُ السفن[1]، وهي جمالاتها العظام إِذا جمعت مستديرة بعضها إِلى بعض جاءَ منها أَجرام عظام، وقال ابن عباس: الجمالاتُ قِطعُ النحاس الكبار، وكان اشتقاق هذه اللفظة من اسم الجملة.

وقرأَ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: (جِمَالَةٌ) بكسر الجيم، لحقت التاءُ جمالاً لتأْنيث الجمع فهي كَحَجَر وحِجارة، وقرأَ ابن عباس، وأَبو عبد الرحمن، والأَعمش: [جُمالَةٌ] بضم الجيم، وقرأَ باقي السبعة والجمهور وعمر بن الخطاب رضي الله عنه: [جِمالاتٌ] على ما تفسَّر بكسر الجيم، وقرأَ ابن عباس أَيضاً، وقتادة، وابن جبير، والحسن، وأَبو رجاءٍ ـ بخلاف عنهما ـ: [جُمالاتٌ] بضم الجيم، واختُلف عن نافع، وأَبي جعفر، وشيبة، وكان ضم الجيم فيها من الجملة لا من الجمل، وكسرها من الجمل لا من الجملة.

ولما ذكر تعالىٰ المكذبين قال مخاطباً لمحمد ﷺ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾، أَي في يوم القيامة أَسكتتهم الهيبة وذُلُّ الكفر، وهذا في موطن خاص فإنهم لا ينطقون فيه؛ إِذ قد نطق القرآن بنطقهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾[2] ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا﴾[3]، فهي مواطن، و[يَوْمُ] مضاف إِلى قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾. وقرأَ الأعرج، والأَعمش، وأَبو حيوة: [هَذَا يَوْمَ]، لما أَضاف إِلى غير متمكن بناه، فهي فتحة بناءٍ، وهي في موضع رفع، ويحتمل أَن يكون ظرفاً وتكون الإِشارة بـ [هَذَا] إِلى رَمْيِها بشَرَر كالقصر. وقوله تعالىٰ: ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ معطوف على ﴿يُؤْذَنُ﴾، ولم ينصب في وجوب النفي لتشابه رؤوس الآي، والوجهان جائزان.

وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ﴾ مخاطبة للكفار يومئذ، و«الأَولُونَ» المشار

= كيف نتحدث عن شيءٍ يشوبه لون بقِلَّة فننسبه كله إلى هذا اللون القليل؟

(١) القُلُوسُ: جمع قَلْس، وهو حَبْل غليظ من حبال السفن، ويُجمع أَيضاً على أَقْلاس.

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٧٥) من سورة (النساء): ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، وتكررت في قوله تعالىٰ في الآية (١٠٧) من سورة (المؤمنون): ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾، وفي قوله سبحانه في الآية (٣٧) من سورة (فاطر): ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

(٣) من قوله تعالىٰ في الآية (١١) من سورة (غافر): ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾.

إِليهم قوم نوح وغيرهم ممن جاءَ في صدر الدنيا وعلى وجه الدهر. ثم وقف تعالىٰ عبيده الكفار المستوجبين عقابه بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾، أَي: إِن كان لكم حيلةٌ أَو مكيدة تُنجيكم فافعلوها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ذَكَر تعالىٰ حالة المتقين عَقِبَ ذِكْر حالة أَهل النار ليبين الفرق، و«الظِّلالُ» في الجنة عبارة عن تكاثف الأَشجار وجودة المباني، وإِلاَّ فلا شمس تؤذي هنالك حتى يكون ظِلٌّ يجير من حرِّها، وقرأَ الجمهور: ﴿فِى ظِلَـٰلٍ﴾، وقرأَ الأَعرج، والأَعمش: [في ظُلَلٍ] بضم الظاءِ، و«العيونُ» الماءُ النابع، وقوله تعالىٰ: ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ إِعلامٌ بأَن المأْكل والمشرب هنالك إِنما يكون برسم شهواتهم، بخلاف ما هي الدنيا عليه، فإِن فيها شاذٌّ نادر، والعُرْف أَن المرءَ يردُّ شهوتَه إِلى ما يقتضيه وُجْده، وهنا محذوف يدل عليه اللفظ، تقديره: يقال لهم: كلوا. و[وهَنِيئاً] نصب على الحال، ويجوز أَن يكون نصبه على جهة الدعاءِ. والكاف في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ كاف تشبيه، والإِشارة بذلك إِلى ما ذكره من نعيم أَهل الجنة.

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟﴾ مخاطبة لقريش، على معنى: قل لهم يا محمد، وهذه صيغة أَمْر معناها التهديد والوعيد، وقد بيَّنَ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿قَلِيلًا﴾، ثم بيَّن تعالىٰ لهم الإِجرام الموجب لتعذيبهم، وقال مَن جعل السورة كلَّها مكية: إِن هذه الآية في كفار قريش، وقال مَن جعل هذه الآية منها مدنية: إِن هذه الآية نزلت في المنافقين، وقال مقاتل: نزلت في ثقيف لأَنهم قالوا للنبي ﷺ: حُطَّ عنا الصلاة فإِنَّا لا نَنحَني لأَنها مَسَبَّة، فأَبى رسول الله ﷺ وقال: لا خير في دين لا صلاة فيه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾، قيل: هي حكاية حال المنافقين في الآخرة إِذا سجد الناس فأَرادوا هم السجود فانصرفت أَصلابهم إِلى الأَرض وصارت فقاراتهم كصياصي البقر، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيرُه، وقال قتادة في

آخرين: هذه حال كفار قريش في الدنيا، كان رسول الله ﷺ يدعوهم وهم لا يجيبون، وذِكْرُ الركوع عبارة عن جميع الصلاة، هذا قول الجمهور، وقال بعض المتأولين: عنى بالركوع التواضُعَ، كما قال الشاعر:

. . . . تَرَى الأُكْمَ فِيهِ سُجَّداً لِلحَوافِرِ(١)

أَيْ مُتَذَلِّلة، وتأول قتادة الآية قاصدة الركوع نفسه، وقال: عليكم بحسن الركوع، والذي أقول: إن ذكْر الركوع هنا وتخصيصه من بين سائر أحوال العبادة إنما كان لأن كثيراً من العرب كان يأنف من الركوع والسجود، ويراها هيئة مُنكرة، لما كان في أخلاقهم من العجرفة، ألا تَرَى أن بعضهم قد سئل فقيل له: كيف تقول: استخذأتُ أو اسْتَخْذَيْتُ؟ فقال: كلٌّ لا أقول، قيل له: لِمَ؟ قال: لأن العرب لا تستخذئُ، فظن أنه سئل عن المعنى، ولم يفهم أنه سُئِل عن اللفظة(٢)، وفي كتاب السِّير عن بعض العرب أنه استعفى متكلماً عن قومه ونفسه رسول الله ﷺ من الصلاة، فلم يُجبه رسول الله ﷺ، قيل: قال له: لا بُدَّ من الصلاة، فقال عند ذلك: سَنُؤْتيكها وإن كانت دناءة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ يُؤَيِّد أن الآية كلها في قريش، والحديث الذي يقتضيه الضمير في [بَعْدَهُ] هو القرآن، وهذا توقيف وتوبيخ، وروي عن يعقوب أنه قرأ: [تُؤْمِنونَ] بالتاءِ من فوق، على المواجهة، ورُويت عن ابن عامر.

كمل تفسير سورة المرسلات والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) هذا عجز بيت قاله زيد الخيل، وقد سبق الاستشهاد به أكثر من مرة، وهو في الطبري، والقرطبي، والبحر، والشوكاني، وفي اللسان، ويستشهد به المؤلف على أن السجود بمعنى الخضوع والتواضع، والبيت بتمامه:

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ فِي حَجَرَاتِهِ ... تَرَى الأُكْمَ فِيهِ سُجَّداً للْحَوافِرِ

والبُلْق: جمع أَبلق، والبَلَقُ سوادٌ وبياض في الدَّابة، وقيل: هو ارتفاع التَّحْجيل إلى الفخذَيْن، والحَجَرَات: النواحي، والمفرد حَجْرَة، والأُكْمُ جمع إكام، وهي جمع أَكَم والواحدة أَكَمَةٌ، وهي المجموعة من الحجارة وهي دون الجبل لكنها غليظة، يقول: إنها مع أنها غليظة تخضع لحوافر الخيل.

(٢) قال اللغويون: إن هذا العربي أجاب عن السؤال وهو لا يدري، فقد نطق الكلمة بالهمزة لا بالياء، وكان هذا هو الهدف من السؤال.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سُورة النبأ

وهي مكية بإجماع، وليس فيها نسخٌ ولا حكم إلاَّ ما قاله بعض الناس في قوله تعالىٰ: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ من أنه منسوخ، وهو قول خلف، لأن الأخبار لا تُنسخ، وإنما ذكرنا هذا القول تنبيهاً على فساده.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۞ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۞ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۞ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۞ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۞ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۞ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۞ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۞ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۞ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۞ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۞ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۞ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۞ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۞ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۞﴾.

أَصل ﴿عَمَّ﴾ عن ما، ثم أُدغمت النون بعد قلبها فبقي «عمَّا» في الخبر وفي الاستفهام، ثم حذفوا الألف في الاستفهام فرقاً بينه وبين الخبر، ثم من العرب من يخفف الميم تخفيفاً فيقول: «عم»، وهذا الاستفهام بـ «عَمَّ» هو استفهام توقيف وتعجيب منهم. وقرأ أُبَيُّ بن كعب، وابن مسعود وعِكْرِمة، وعيسى: [عَمَّا] بالألف، وقرأ الضحاك: [عَمَّه] بهاءٍ، وهذا إنما يكون عند الوقف.

و﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال قوم: هو الشرع الذي جاءَ به محمد ﷺ، وقال مجاهد وقتادة: هو القرآن خاصة، وقال قتادة أَيضاً: هو البعث من القبور. ويحتمل الضمير في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أَن يريد به جميع العالَم، فيكون «الاختلاف» حينئذ يراد به تصديق المؤمنين وتكذيب الكافرين ونزغات الملحدين، ويحتمل أَن يريد بالضمير الكفار من قريش، فيكون «الاختلاف» شك بعض وتكذيب بعض، وقولهم شِعْر وسِحر وكهانة وجنون وغير ذلك، وقوله تعالىٰ: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ متعلق بـ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ الظاهر[1]، كأنه تعالىٰ

---

(١) هذا رأي، ورأيٌ آخر يقول: إن (عَن) لا تتعلق بـ (يَتَساءلون) الذي في التلاوة، لأنه كان يلزم دخول=

قال: لم يتساءَلون عن هذا النبأ ؟ وقال الزجاج: الكلام تامٌّ في قوله تعالىٰ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، ثم كان مقتضى القول أن يُجيب مجيبٌ فيقول: يتساءَلُون عن النبأ العظيم، فاقتضى إيجاز القرآن ببلاغته أن يبادر المحتَجُّ بالجواب الذي تقتضيه الحالُ والمجاورةُ، اقتضاباً للْحُجَّة وإسراعاً إلى موضع قطعهم، وهذا نحو قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾(١)، وله أَمثلة كثيرة، وقد وقع التنبيه عليها في مواضعها.

وقرأ السبعة، والحسن، وأَبو جعفر، وشيبة، والأَعمش: [كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ] بالياءِ في الموضعين، على ذكْر الغائب، فظاهر الكلام أَنه ردٌّ على الكفار في تكذيبهم، ووعيدٌ لهم في المستقبل، وكرر الزَّجر تأكيداً، وقال الضحاك: المعنى: كلاَّ سيعلمون، يعني الكفار على جهة الوعيد، ثم كلاَّ سيعلمون، يعني المؤمنين على جهة الوعد، وقرأَ ابن عامر ـ فيما رُوي عنه ـ ومالك بن دينار، والحسن ـ بخلاف ـ ﴿كَلاَّ سَتَعْلَمونَ﴾ بالتاءِ في الموضعين، على مخاطبة الحاضر، كأنه تعالىٰ يقول: قُلْ لهم يا محمد، وكرر عليهم الزجر والوعد تأكيداً، وكلٌّ تأويل في هذه القراءة غير هذا متعسِّف. وقرأَ قوم: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ بالياءِ على جهة الردِّ والوعيد للكفار، ثم ﴿كَلاَّ سَتَعْلَمونَ﴾ بالتاءِ من فوق على جهة الردِّ على الكفار والوعد للمؤمنين، فالعلم في هذه الآية بمعنى «ستعرفون»، فلذلك لم يَتَعَدَّ.

ثم وقفهم تعالىٰ على آياته وغرائب مخلوقاته وقدرته التي يوجب النظرُ فيها الإِقرارَ بالبعث والإِيمانَ بالله تعالىٰ، «والمِهادُ» الفِراش الممهَّد الوطيءُ، وكذلك الأَرض لبنيتها(٢)، وقرأَ مجاهد، وعيسى، وبعض الكوفيين: [مَهْداً]، والمعنى نحو الأَول، وشبَّه سبحانه الجبال بالأَوتاد لأَنها تمسك وتثقل وتمنع الأَرض أَن تميد، و[أَزْواجاً] معناه: أَنواعاً في أَلوانكم وصوركم وأَلسنتكم، وقال قوم: معناه مزدوجين ذكراً وأُنثى.

و«السُّبات» السُّكُونُ، وسَبَتَ الرجلُ معناه: استراح واتَّدَعَ(٣) وترك الشغل، ومنه

= حرف الاستفهام، فيكون: أَعَن النبأ العظيم ؟ كقولك: كم مالك ؟ أثلاثون أَم أربعون ؟ فوجب لما ذُكر امتناع تعلق بـ (يَتَسَاءَلونَ) الذي في التلاوة، وإنَّما يتعلق بـ «يَتَسَاءَلُونَ» آخر مضمر، وحَسُن ذلك لتقدم (يَتَسَاءَلونَ)، قال ذلك المهدوي، ونقله عنه القرطبي، وذكره أبو حيان في البحر مجملاً بدون تفصيل.

(١) من الآية (١٩) من سورة (الأنعام).

(٢) هكذا في جميع الأُصول.

(٣) اتَّدَعَ: ترَفه وارتاح، قال في اللسان: «رَجُلٌ مُتَّدِعٌ»، أي: صاحبُ دَعَةٍ وراحةٍ.

السُّبَاتُ وهي علَّةٌ معروفة؛ سُمِّيت بذلك لأَن السكون أَو السكوت أَفرط على الإِنسان حتى صار ضارًّا قاتلاً[١]، والنوم شبيه به إِلاَّ في الضرر، وقال أَبو عبيدة: ﴿سُبَاتًا﴾: قَطْعاً للأَعمال والتصرف، والسَّبْتُ: القَطْع، ومنه «سَبَتَ الرجلُ شَعْرَه» إِذا قطع شَعْرَه، ومنه النِّعال السبتِيَّةُ وهي التي قطع عنها الشعر.

و﴿لِبَاسًا﴾ مصدر، وكان الليل كذلك من حيث يغشى الأَشخاص فهي تلبسه وتتدرَّعُه، ويقال: جعله لباساً لأَنه يطمس نور الأَبصار ويُلبس عليها الأَشياءَ، والتصريفُ يضعف هذا القول لأَنه كان يجب أَن يكون «مُلْبِسا»، ولا يقال «لباس» إِلاَّ من لبس الثياب. و﴿جَعَلْنَا النَّهارَ مَعَاشاً﴾ على حذف مضاف، أَو على النسب، وهذا كما تقول: «لَيْلٌ نائمٌ». و«السَّبْعُ الشِّدادُ»: السموات، والأَفصح في لفظة السماءِ التأنيث، ووصفها بالشدة لأَنه لا يُسرع إِليها فسادٌ لِوَثَاقَتِها، و«السِّراجُ»: الشمس، و«الوَهَّاجُ»: الحارُّ المضطرم الاتِّقاد، المتعالي اللهب، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: إِن الشمس في السماءِ الرابعة إِلينا ظهرها، ولَهَبُها مضطرمٌ علوًّا.

واختلف الناس في ﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾ فقال الحسن بن أَبي الحسن، وأُبَيُّ بن كعب، وابن جُبَيْر، وزيد بن أَسلم، ومقاتل، وقتادة: هي السموات، وقال ابن عباس، وأَبو العالية، والربيع، والضحاك: المعصراتُ هي السحاب القاطرة، وهو مأخوذ من العصر؛ لأَن السحاب ينعصر فيخرج منه الماءُ، وهذا قول الجمهور، وبه فسَّر الحسن بن محمد العنبري القاضي بيت حسان:

كِلْتَاهُمَا حَلَبُ الْعَصير. . . . . البيت[٢].

---

(١) جاءَ في اللسان: «المسبوتُ: الميت والمغشَى عليه، وكذلك العليلُ إِذا كان ملقىً كالنائم يغمض عينيه في أكثر أحواله مسبوتٌ، وفي حديث عمرو بن مسعود، قال لمعاوية: ما تسأل عن شيخ نومه سباتٌ، وليله هُبات؟ السبات: نوم المريض والشيخ المسن».

(٢) هذا جزء من بيت قاله حسان في قصيدته التي مطلعها: (أسألتَ رسم الدار أَم لم تسأَل) وهو في الديوان وفي اللسان، وقد رُوي بروايتين: الأولى:

كِلْتَاهُمَا حَلَبُ الْعَصِيرِ فَعَاطِنِي ... بِزُجَاجَةٍ أَرْخَاهُمَا لِلْمِفْصَلِ

والثانية: (كِلْتَاهُمَا عَرَقُ الزُّجاجَةِ فاسْقِني. . البيت)، والعصير والعُصارة: ما تحلَّب منه الشيء إذا عصرتَه، والمَفصِل ـ بفتح الميم وكسر الصاد ـ: اللسان، ويُرْوى المِفْصَل ـ بكسر الميم وفتح الصاد، راجع اللسان والصحاح، والضمير في (كلتاهما) يعود على نوعين من الخمر ذكرهما في البيت السابق، =

وقال بعض مَنْ سَمَّيْتُ: هي السحاب التي فيها الماءُ ولمَّا تُمطر، كالمرأة المُعْصر، وهي التي دنا حيضها ولم تحض بعد، وقال ابن كيسان: قيل للسحاب مُعْصرات من حيث تُغيث، فهي من «العُصْرة»، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[1]، وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد: المعصرات: الرياح لأنها تعصر السحاب، وقرأ ابن الزبير، وابن عباس والفضل بن عباس، وقتادة، وعكرمة: ﴿وَأَنزَلْنَا بِالْمُعْصِرَاتِ﴾، فهذا يقوي أنه أراد الرياح. و«الثَّجَّاجُ»: السريعُ الاندفاع كما يندفع الدَّمُ من عروق الذبيحة، ومنه قول النبي ﷺ وقد قيل له: ما أفضل الحج؟ فقال: «العجُّ والثَّجُّ»[2]، أراد: التضرُّع بالدعاءِ الجهير وذبح الهدي. و«الحَبُّ»: جنس الحبوب الذي ينتفع به الحيوان، و«النباتُ»: العُشب الذي يستعمل رطباً لإنسان أو بهيمة، فذكر الله تعالىٰ موضع المنفعتين. و﴿أَلْفَافًا﴾ جمع «لُفّ» بضم اللام و«لُفٌّ» جمع «لَفَّاءَ»، والمعنى مُلْتَفَّاتُ الأغصان والأوراق، وذلك أبداً موجود مع النضرة والريِّ، وقال قوم: ﴿أَلْفَافًا﴾ جمع «لِفٍّ» بكسر اللام، واللِّفُّ: الجنةُ المُلْتَفَّة الأغصان، وقال الكسائي: «ألفافٌ» جمع «لفيف»، وقد قال الشاعر:

أَحَابِيشُ أَلْفَافٍ تَبَايَنَ فَرْعُهُم ... وَجِذْمُهُم عن نِسْبَةِ الْمُتَقَرِّبِ[3]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾.

= واحدة ممزوجة بالماءِ لا يريدها، والثانية خالصة صافية وهي التي يريدها، قال:

إنَّ الَّتي نَاوَلْتَنِي فَرَدَدْتُها ... قُتِلَتْ قُتِلْتَ، فَهاتِها لَمْ تُقْتَلِ

(١) من الآية (٤٩) من سورة (يوسف).

(٢) العَجُّ هو رفع الصوت بالتلبية، والثَّجُّ هو إراقة الدماءِ وذبح الهدايا.

(٣) الأحابيشُ: أحياءٌ من القَارَةِ تجمعوا في حرب كانت بين بني لَيْث وقريش قبل الإسلام، فسميت تلك الأحياءُ بالأحابيش من قِبَل تجمعها، والقَارَةُ قبيلة من كنانة، سمُّوا قارة لاجتماعهم والتفافهم، وأَلْفَافٌ: جمع لفيف، واللَّفيف: القومُ يجتمعون من قبائل شتَّى ليس أَصلهم واحداً، وفَرْعُ الرجل: أولاده، وجِذْمُ القوم: أَصلهم، والنِّسْبَةُ القرابة، والتَّقَرُّب: التَّداني إلى الشيءِ والتوصُّل إلى إنسانٍ بقربه، والشاهد في البيت أن الألفاف هي جمع لفيف، واللفيف هم القوم الذين يجتمعون بعضهم مع بعض.

«يومُ الفَصْلِ» هو يوم القيامة؛ لأَن الله تعالىٰ يفصل فيه بين المؤمنين والكافرين، وبين الحق والباطل، و«الْميقاتُ» مِفْعالٌ من الوقت، كميعادٍ من الوعد. وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾ بدل من [يَوْمَ] الأول، و«الصُّورُ»: القَرْنُ الذي يُنفخ فيه لبعث الناس، هذا قول الجمهور، ويحتمل هذا الموضع أَن يكون «الصُّور» فيه جمع «صورة»، أَي: يومَ يردُّ الله تعالىٰ الأَرواح إِلى الأَبدان، هذا قول بعضهم في «الصُّور»، وجوَّزه أَبو حاتم، والأَول أَشهر، وبه تظاهرت الآثارُ، وهو ظاهر كتاب الله تعالىٰ في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾[1]، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما: [في الصُّوَرِ] بفتح الواو. و«الأَفواجُ»: الجماعاتُ يتلو بعضها بعضاً، واحدها فوجٌ.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وأَبو جعفر، وشيبة، والحسن: [وَفُتِّحَتِ] بشد التَّاءِ على المبالغة، وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي: [وَفُتِحَتِ] دون شدٌّ. وقوله تعالىٰ: ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ معناه: تنفطر وتتشقَّق حتى يكون فيها فتوح كالأَبواب في الجدران، وقال آخرون ـ فيما حكى مكي بن أَبي طالب ـ: الأَبواب هنا فِلَق الخشب التي تجعل أَبواباً لفتوح الجدران، أَي تتقطع السماءُ قِطعاً صغاراً حتى تكون كأَلواح الأَبواب، والقول الأَول أَحسن، وقال بعض أَهل العلم: تنفتح في السماءِ أَبواب للملائكة من حيث ينزلون ويصعدون، وقوله تعالىٰ: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ عبارة عن تلاشيها وفنائها بعد كونها هباءً منبثًّا، ولم يُرد تعالىٰ أَن الجبال تعود تشبه الماءَ على بُعْد من الناظر إِليها.

و﴿مِرْصَادًا﴾ موضع الرصد، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[2]، ويروى عن الحسن بن أَبي الحسن أَنه قال: لا يدخل أَحد حتى يجوز على جهنم، فمن كانت له أَسباب نجاةٍ نجا وإِلاَّ هلك، وقال قتادة: تعلموا أَنه لا سبيل إِلى الجنة حَتَّى تقطع النار، وفي الحديث الصحيح: «إِن الصراط جسرٌ يُنْصب على مَتْن جهنم، ثم يجوز عليه الناس، فناج ومكدوس»[3]، وقال بعض المتأولين: «مرصادٌ» مفعال بمعنى

---

(١) من الآية (٦٨) من سورة (الزُّمَر).

(٢) الآية (١٤) من سورة (الفجر).

(٣) هذا جزءٌ من حديث طويل أَخرجه البخاري، ومسلم، وابن ماجه، وأَحمد، عن أَبي سعيد الخدري، وفيه كما جاء في البخاري، في كتاب التوحيد «ثم يؤتى بالجسر فيُجعل بين ظَهْرَيْ جهنم، قلنا: =

راصد، وقرأ أبو مَعْمَر المِنْقَري[(١)]: ﴿أَنَّ جَهَنَّمَ﴾ بفتح الألف، والجمهور على كسرها، و«الطَّاغونَ»: الكافرون، و«الْمَآبُ»: المرجع، و«الأَحْقابُ» جمع حُقَب ـ بضم الحاءِ وفتح القاف، وحِقَب بكسر الحاءِ، وحُقُب بضمها وضم القاف، وهو جمع حِقْبة، ومنه قول مُتَمِّم:

وَكُنَّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً ... منَ الدَّهْر حَتَّى قيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا[(٢)]

وهي المدة الطويلة من الدَّهْر[(٣)] غير محدودة، ويقال للسنة أَيضاً: حِقْبة، وقال

= يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: مدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عليه خطاطيفُ وكلاليبُ وحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لها شوكة عُقَيفَاءُ تكون بنَجْد يقالُ لها: السَّعدان، المؤمِنُ عليها كالطَّرْف وكالْبَرْق وكالرِّيح وكأجاويد الخيل والرِّكاب، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، ونَاجٍ مَخدوشٌ ومَكدُوسٌ في نار جهنم، حتى يَمُرَّ آخرهم يُسْحَبُ سَحْباً... الحديث»، وهو طويل. هذا والمَدْحَضَةُ: المزلقة. والمزلَّةُ: موضع الزَّلَل، يقال: أرضٌ مَزِلَّة. والكلاليب: جمع كُلَّاب، وهو الحديدة المعوجَّةُ من ناحية رأسها يُعَلَّق بها الشيءُ. وَحسَكُ السَّعدان: نباتٌ له ثمرةٌ خشنة تتعلق بأصواف الغنم وأوبار الإبل، والطَّرْفُ: تحريك العَيْن أو الجفن. والمخدوش: الذي أُصيب جلده بجروح، والمكْدُوسُ: الذي دفع من ورائه فسقط على وجهه وسقط غيره فوقه فتجمع بعضهم على بعض.

(١) هو عبد الله بن عمرو بن أبي الحجاج التَّيمي، أبو مَعْمَر المِنْقري، قال عنه في تقريب التهذيب: «ثقة، ثَبْت، رمي بالقدر، مات سنة أربع وعشرين».

(٢) مُتَمِّم بن نُوَيْرة كان له أَخٌ اسمه مالك بن نُوَيْرة، وهو الذي قتله خالدُ بن الوليد في حروب الرِّدَّة، وتزوج امرأَته، وقتل من قومه مقتلة عظيمة، وكان هذا أحد الأسباب التي جعلت عمر بن الخطاب يسخط على خالد، ويوم أن استشهد زيد بن الخطاب في حرب مسيلمة قال عمر رضي الله عنه لِمُتَمِّم بن نويرة: أنشدني بعض ما قلْتَ في أخيك مالك، فأنشده شعره الذي يقول فيه:

فَلَمَّا تفَرَّقْنَا كَأَنِّي ومالِكاً ... لِطُولِ اجْتماعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا
وَكُنَّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً ... مِنَ الدَّهْر حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا

وأَرادَ بندماني جذيمة «مالكاً وعقيلاً» ابني فارج بن كعب، فقد نادما جَذِيمَةَ الأَبرش حين ردَّا عليه ابن أخته «عمرو بن عدي»، فحكَّمهما فاختارا منادمته، فكانا نديميه فترة من الزمن، ثم غدر بهما وقتلهما، ولما أَنشد مُتَمم شعره لعمر بن الخطاب رضي الله عنه قال عمر: يا مُتَمِّم لو كنتُ أَقول الشعر لسرَّني أن أَقول في أخي زيد بن الخطاب مثل ما قلتَ في أَخيك، قال مُتَمم: يا أمير المؤمنين، لو قتل أَخي قتلة أَخيك ما قلت فيه شعراً أبداً، قال عمر: يا متمم، ما عزَّاني أحد في أَخي بأحسن مما عزيتني به، وذلك أن زيد بن الخطاب قتل شهيداً في يوم اليمامة، أما مالك ابن نويرة فقد قتل مرتدًّا عن الإسلام.

(٣) في بعض النسخ: «من السَّنة».

بشر بن كعب[١]: حدُّها على ما ورد في الكتب المنزلة ثلاثمائة سنة، وقال هلال الهجري: ثمانون سنة، قالا: في كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً، وقال ابن عباس، وابن عمر رضي الله عنهم: ثمانون ألف سنة، وقال الحسن: سبعون ألف سنة، وقيل: خمسون ألف سنة، وقال أبو أُمامة عن النبي ﷺ: إنه ثلاثون ألف سنة[٢]، وأكثَرَ الناسُ في هذا، واللازم أن الله تعالىٰ أخبر عن الكفار أنهم يلبثون أحقاباً، كلما مرَّ حُقُب جاءَ غيره، إلى غير نهاية، قال الحسن: ليس لها عدة إلاَّ الخلود في النار، ومن الناس من ظن لذكْر الأَحقاب أَن مدة العذاب تنحصر وتتم، فطلبوا التأويل لذلك، فقال مقاتل بن حيان[٣]: الحُقُب سبعة عشر أَلف سنة، وهي منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[٤]، وقد ذكرنا فساد هذا القول[٥]. وقال آخرون: الموصوف باللبث أحقاباً هم عصاة المؤمنين. وهذا أَيضاً ضعيف، ما بَعْدَه في السورة يردُّ عليه، وقال آخرون: إنما المعنى: لابثين فيها أَحقاباً غيْرَ ذائقين بَرْداً ولا شراباً، فبهذه الحال يلبثون أَحقاباً، ثم يبقى العذابُ سرمداً وهم يشربون أَشربة جهنم.

وقرأَ الجمهور: ﴿لَّٰبِثِينَ﴾، وقرأَ حمزة وحده، وابن مسعود، وعلقمة، وابن وثاب، وعمرو بن ميمون، وعمرو بن شرحبيل[٦]: [لَبِثِينَ] جمع «لَبِثٍ»، وهي قراءة معترضة، لأَن فَعِلاً إنما يكون لما صار خُلُقاً كحَذِرٍ وفَرِق، وقد جاءَ شاذًّا فيما ليس بخلق، وأَنشد الطبري وغيره في ذلك بيت لبيد:

أَوْ مِسْحَلٍ عَمِلٍ عِضادَةَ سَمْحَجٍ ... بِسَرَاتِهَا نَدَبٌ لَهُ وكُلُومُ[٧]

---

(١) الذي في الدر المنثور «بشير بن كعب».

(٢) أَخرجه ابن عمر العدني في مسنده، وابن أَبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، بسند ضعيف، عن أبي أُمامة (الدرُّ المنثور).

(٣) هو مقاتل بن حيان، النَّبَطي ـ بفتح النون والباء ـ أبو بسطام البلخي الخزاز، قال عنه في (تقريب التهذيب): «صدوق فاضل، أَخطأَ الأزدي في زعمه أَن وكيعاً كذَّبه، وإنما كذب الذي بعده، مات قبل الخمسين بأرض الهند».

(٤) هي الآية (٣) من هذه السورة (النبأ).

(٥) عندما قال في بداية تفسير هذه السورة: «لأن الأخبار لا تُنسخ».

(٦) أَما ابن ميمون فهو عمرو بن ميمون بن مهران الجزري، أبو عبد الله، سبط سعيد بن جبير، ثقة فاضل، مات سنة سبع وأربعين، وأَمَّا ابن شرحبيل فهو عمرو بن شُرحبيل بن سعيد، بن سعد بن عبادة الأنصاري. (تقريب التهذيب).

(٧) البيت في وصف حمار الوحش، وهو في الديوان، واللسان، والطبري، ومعاني القرآن، والمِسْحلُ: =

قال المعترض في القراءة: لا حُجةَ في هذا البيت لأن «عَملاً» قد صار كالخلق الذي يواظب على العمل به حتى إنه ليُسَمَّى به في وقت لا يعمل فيه، كما تقول «كاتب» لمن كانت له صناعة وإن لم يكتب أكثر أَحيانه، قال المحتجُّ لها: شبه «لبث» لدوامه بالخُلُق لما صار اللُّبث من شأنه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ
حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾
إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾
جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾.

قال أَبو عبيدة، والكسائي، والفضل بن خالد، ومعاذ النحوي: البَرْدُ في هذه الآية النومُ، والعرب تُسميه بذلك لأَنه يُبْرد سورة العطش، ومن كلامهم: «منع البَرْدُ البَرْدَ»[1]، وقال جمهور الناس: البَرْدُ في الآية مَسُّ الهواءِ البارد، وهو القرُّ، أَي: لا يمسهم منه ما يُستلذُّ ويكسر عذاب الحرِّ، فالذَّوق ـ على هذين القولين ـ مستعار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: البَرْدُ الشرابُ البارد المُسْتَلَذُّ، ومنه قول حسان بن ثابت:

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمُ ... بَرَدَى يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ[2]

= الحمارُ الوحشيُّ، وهي صفة غالبة، وسمِّي بذلك لأن نهيقه يُسمَّى السَّحيل، وعَمِل ـ بوزن فَرِحَ ـ: وصفٌ له: وهي بمعنى عامل، ويروَى: (سَنِج) ـ بمعنى بَشِم ـ ويروى أيضاً (شنِج) ـ بمعنى ملازم للأتان ـ، أما العضادة فهي ما يكون بجانب الشيءِ ويكون عوناً له، فهي هنا بمعنى أنهُ بجانب أنثاه وهو عون لها ومرافق، والسَّمْحَج: الأتان الطويلة الظهر، وسَراتُها وسط ظهرها، ونَدَبٌ: جمع نَدَبَة، وهي أثر الجرح، والكلوم: الجروح ومفردها كَلْم. يريد أن هذا الحمار يرافق أنثاه دائماً وهو كثير العضِّ لها حتى امتلأ ظهرها بالجروح وآثارها. والشاهد كما قال الفراء إن الشاعر أوقع (عمل) على (عضادة)، قال: ولو كان (عاملاً) لكان أفضل.

(١) يعني: أذهب البَرْدُ النوم.

(٢) هذا البيت من قصيدة لحسان مطلعها: (أسأَلْتَ رسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ)؟ والبريصُ: موضعٌ بالشام كان موطن آل جفنة، وبَرَدَى: نهر دمشق، ولو أن المؤلف هنا يستشهد بالبيت على أن البَرْد هو الشراب البارد المُسْتلذ، والرحيق: الخمر، ويُصَفَّق: يمزج بالخمر، والسَّلْسل: السَّهْل اللَّيِّن. وقد روي =

ومنه قول الآخر:

أَمـانِـيُّ مِـنْ سُعْـدَى حِسـانٌ كَـأَنَّمـا سَقَتْكَ بِها سُعْدَى عَلَى ظَمَإٍ بَرْدَا[1]

ثم قوله تعالىٰ: ﴿ولا شراباً إلا حميماً﴾، فالاستثناءُ متصل، و«الحميمُ»: الحارُّ الذائب، وأكثر استعماله في الماءِ السخن والعرق، ومنه الحمَّامُ، وقال ابن دُرَيْد: الحميمُ دموعُ أَعينهم، وقال النقاش: الحميمُ الصُّفْرُ[2] المذابُ المتناهي الحر، واختلف الناسُ في «الغَسَّاقِ» ـ فقال قتادة، والنَّخَعي، وجماعة: هو ما يسيل من أَجسام أَهل النار من صديد ونحوه، يقال: غسق الجرحُ إذا سَال منه قيح ودم، وغسقت العين إذا دمعت وخرج قذاها، وقال ابن عباس ومجاهد: الغَسّاقُ مشروب لهم مفرط الزمهرير كأنه في الطرف الثاني من الحميم، يشوي الوجوه بِبرْده، وقال عبد الله بن بريدة: الغَسّاقُ المُنْتن.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، ونافع، وابن عامر، وعاصم[3]، وجماعة من الجمهور: [غَسَاقاً] مخففة السِّين، وهو اسمٌ على ما قدمناه، وقرأَ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وابن أَبي إسحاق، والشعبيُّ، والحكم بن عُيَيْنة، وقتادة، وابن وثاب: ﴿غسَّاقاً﴾ مشددة السين، وهي صفةٌ أُقيمت مقام الموصوف، كأنه تعالىٰ قال: ومشروباً غساقاً، أَي كأنه سائل من أَبدانهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ معناه: لأَعمالهم وكفرهم، أَي: هو جزاؤهم الجدير بهم، الموافق مع التحذير لأَعمالهم، فهي كُفْرٌ والجزاءُ نارٌ. و﴿يَرْجُونَ﴾ قال أَبو عبيدة وغيره: معناه: يخافون، وقال غيره: الرجاءُ هنا على بابه، ولا رجاءَ إلاَّ وهو مُقترنٌ بخوف، ولا خوف إلاَّ وهو مُقْترنٌ برجاءٍ، فذكر أَحد القسمين لأَن المقصد العبارة عن

= البيت: (كأساً يصفق) في الخزانة، والمعرب، ومنتخبات من أخبار اليمن، وروي في طبقات الشعراء: (خمراً يصفق)، وفي اللسان (بَرَدَى تُصَفَّقُ).

(١) ذكر صاحب أمالي القالي أن الرياشيَّ أنشد لِرَجُلٍ من بني الحارث هذين البيتين:

مُنـىً إنْ تَكُـنْ حَقـاً تَكُـنْ أَحْسَـنَ الْمُنَـى وَإِلاَّ فَقَـدْ عِشْنَـا بِهَـا زَمَنـاً رَغْـدَا

أَمَـانِـيُّ مِـنْ سُعْـدَى حِسـانٌ كَـأَنَّمـا سَقَتْـكَ بِهَـا سُعْـدَى عَلَـى ظمإٍ بَـرْدَا

أي شراباً بارداً مُسْتَلَذًّا.

(٢) الصُّفر: النحاس الأصفر، أو النحاس الخالص من كل شيءٍ.

(٣) أي في رواية أبي بكر عنه.

تكذيبهم، كأنه تعالىٰ قال: إنهم كانوا لا يصدقون بالحساب، فهم لذلك لا يرجونه ولا يخافونه. وقرأ جمهور الناس: ﴿كِذَّابًا﴾ بشدِّ الذال وكسر الكاف، وهو مصدر بلغة بعض العرب، وهي يمانيَّة، ومنه قول أحدهم وهو يستفتيني: «اَلْحَلْقُ أَحَبُّ إِليكَ أَم القِصَّارُ»[1]؟ ومنه قول الشاعر:

لَقَـدْ طَـالَمَـا ثَبَّطَتْنِـي عَـنْ صَحَـابَتِـي ... وَعَنْ حِوَجٍ قِضَّاؤُها مِنْ شِفائِيَا[2]

وهذا عندهم مصدر من فَعَّل، وقال الطبري: لم يختلف القراءُ في هذا الموضع في «كِذَّاب»، وأُراه أَراد السبعة، وأمَّا في الشَّاذ فقرأ علي بن أَبي طالب، وعوف الأعرابي، وعيسى ـ بخلاف ـ والأَعمش، وأَبو رجاءٍ: [كِذَاباً] بكسر الكاف وتخفيف الذال، وقرأ عبد الله بن عمر بن عبد العزيز: [كُذَّاباً] بضم الكاف وشد الذال على أنه جمع كاذب، ونصبه على الحال، قاله أَبو حاتم[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ﴾ يريد: كلّ شيءٍ شأنه أَن يُحصى، وفي هذا الخبر رَبْطٌ لأَجزاءِ القصة بأَوَّلها، أَي: هم مُكَذِّبون كافرون ونحن قد أَحصينا بالقول لهم في الآخرة: «ذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً»، وكان عبد الله بن عمر[4] رضي الله عنهما يقول: ما نزلت في أَهل النار آية أَشد من قوله تعالىٰ: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، ورواه أَبو هريرة عن النبي ﷺ[5].

---

(١) هذا الكلام منقول عن الفراءِ، وقد نقله أَيضاً صاحب اللسان، قال الفراءُ في (معاني القرآن): «هي لغة يمانية فصيحة، يقولون: كذَّبت به كِذَّاباً، وخَرَّقت القميص خِرَّاقاً، وكلُّ فَعَّلت فمصدره فِعَّالٌ في لغتهم مشدد، قال لي أَعرابيٌّ منهم على المروة يستفتيني: اَلْحَلْقُ أَحبُّ إِليك أَم القِصَّارُ؟ يعني: هل حلق الشعر أحبُّ إليك أَم تقصيره؟

(٢) هذا البيت في (معاني القرآن) للفراءِ، ونقله عنه صاحب اللسان: «قال الفراء: وأَنشدني بعض بني كلب. . . وذكر البيت»، وهو في الطبري، والقرطبي، والبحر المحيط، وابن كثير، وثَبَّطَهُ عن الشيءِ: عوَّقه وبطَّأَ به، والحِوَجُ: جمع حاجة وهي ما يفتقر إليه الإنسان، يقول: لقد عوَّقتني عن أَصحابي وعن حاجات في قضائها شفائي.

(٣) يقول أبو حاتم: «لا وجه إلا أَن يكون (كُذَّاباً) جمع كاذب، فتنصبه على الحال، وقد يجوز أن يكون وصفاً لمصدر محذوف، أَي: كَذَّبوا بآياتنا كِذَّاباً كُذَّاباً، أي كِذَّاباً متناهياً في معناه، فهو واحدٌ لا جمع له، كرجل حُسَّان، وَوَجه وُضَّاء».

(٤) هذا يوافق ما في (البحر المحيط)، ولكن في (الدُّر المنثور) وفي تفسير ابن كثير: (عبد الله بن عمرو).

(٥) قال ابن كثير في تفسيره: «وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن محمد بن مصعب الصوري، حدثنا=

ولما ذكر تعالىٰ أمر أَهل النار عقَّب بذكر أَهل الجنة ليبين الفرق، و«المفاز» موضع الفوز؛ لأَنهم زحزحوا عن النار، وأُدخلوا الجنة، و«الحدائق» البساتين التي عليها جدرات أَو حظائر، و﴿ أَتْرَابًا ﴾ معناه: على سنٍّ واحدة، والتِّرْبان هما اللذان مسَّا التراب في وقت واحد، و«الدِّهاقُ» الْمُتْرَعة فيما قال الجمهور، وقال ابن جبير ومجاهد: معناه: المتابعة، وهي من الدَّهق، وقال عكرمة: هي الصافية، وفي البخاري، قال ابن عباس: سمعتُ أَبي في الجاهلية يقولُ للساقي: اسقني كأساً دهاقاً. و«اللَّغْوُ» سقط الكلام، وهو ضروب، وقد تقدم القول في ﴿ كِذَّابًا ﴾ إلاَّ أَن الكسائي من السبعة قرأَ في هذا الموضع: [كِذَاباً] بالتخفيف، وهو مصدر، ومنه قول الأَعشى:

فَصَدَقْتُها وَكَذَبْتُها ... وَالْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُه[1]

واختلف المتأولون في قوله تعالىٰ: ﴿ حِسَابًا ﴾ ـ فقال جمهور المفسرين واللغويين: معناه: مُحْسِباً، أَي كافياً، من قولهم: أَحسبني هذا الأَمر، أَي كفاني، ومنه، حسبي الله، وقال مجاهد ما معناه: إن ﴿ حِسَابًا ﴾ معناه: مُقَسَّطاً على الأَعمال؛ لأَن نفس دخول الجنة هو برحمة الله تعالىٰ وتفضُّله لا بعمل، والدرجات فيها والنعم على قدر الأَعمال، فإذا ضاعف الله تعالىٰ لقوم حسناتهم بسبعمائة مثلاً ومنهم المكثر من الأَعمال والمُقِلُّ أَخذ كل واحد سبعمائة بحسب عمله، وكذلك في كل تضعيف، فالحساب هنا هو بموازنة أَعمال القوم، وقرأَ الجمهور: ﴿ حِسَابًا ﴾ بكسر الحاءِ وتخفيف السين مفتوحة، وقرأَ ابن قطيب: [حَسَّاباً] بفتح الحاءِ وشدِّ السين، قال أَبو الفتح: جاءَ بالاسم من أَفْعل على فَعَّال كما قالوا: أَدْرك فهو دَرَّاك، وقرأَ ابن عباس، وسراج: (عَطاءً حَسَناً) بالنون من الحسن، وحكى عنه المهدوي أَنه قرأَ:

= خالد بن عبد الرحمن، حدثنا جسْر بن فرقد عن الحسن قال: سألتُ أَبا برزة الأسلمي عن أَشد آية في كتاب الله على أهل النار، قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأ: ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾، قال: «أُهلك القومُ بمعاصيهم الله عزَّ وجلَّ» وجِسْر بن فرقد ضعيف الحديث بالكلية» اهـ. وفي الدر المنثور: (أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن الحسن بن دينار أَنه سأل أَبا بَرزة الأسلمي إلخ)، الحديث ولكن لم يرفعه إلى الرسول ﷺ.

(١) البيت في الزمخشري غير منسوب، وفي القرطبي منسوباً للأعشى أيضاً، قال الشهاب: «وضمير (صَدَقْتُهَا وَكَذَبْتُها) للنفس، والمراد أَنه يَصْدُق نفسه تارة بأن يقول إن أمانيها مُحقَّقة، وتكذيبها بخلافه، أَو على العكس».

[حَسْباً] بفتح الحاءِ وسكون السين وبالباءِ، وقرأَ شريح بن يزيد الحمصي: [حِسَّاباً] بكسر الحاءِ وشد السين المفتوحة، وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، والأَعرج، وأَبو جعفر، وشيبة، وأَهل الحرمين: [رَبُّ] بالرفع، وكذلك [الرَّحْمَنُ]، وقرأَ ابن عامر، وعاصم، وابن مسعود، وابن أَبي إِسحاق وابن محيصن، والأَعمش: [رَبِّ] بالخفض، وكذلك [الرَّحْمَنِ]. وقرأَ حمزة، والكسائي: [رَبِّ] بالخفض، و[الرَّحْمَنُ] بالرفع، وهي قراءة الحسن، وابن وثاب، والأَعمش، وابن محيصن ـ بخلاف عنهما، ووجوه هذه القراءة بينة[(١)]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ الضمير للكفار، أَي: لا يملكون من أَفضاله وإِجماله أَن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها، وهذا في موطن خاص.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

اختلف الناس في «الروح» المذكور في هذا الموضع ـ فقال الشعبي والضحاك: هو جبريل عليه السلام، ذكره خاصة من بين الملائكة تشريفاً، وقال ابن مسعود: هو ملك عظيم، أَكبر الملائكة خِلْقة يسمى بالروح، وقال ابن زيد: كان أَبي يقول: هو القرآن، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾[(٢)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالقيام فيه مستعار يراد به بيانُه وظهوره وشدة آثاره، والأَشياءُ الكائنة عن تصديقه وتكذيبه، ومع هذا في القول قَلَقٌ، وقال مجاهد: الروحُ خَلْقٌ على صورة بني آدم يأكلون ويشربون، وقال ابن عباس عن النبي ﷺ: «الروح خلق غير الملائكة، وحفظة للملائكة كما الملائكة حفظة للأَنبياءِ ولنا»، وقال ابن عباس، والحسن، وقتادة: الروحُ

---

(١) أما الخفض فعلى النعت لـ (رَبِّ) من قوله تعالى: (جَزَاءً من رَبِّكَ)، وأما الرفع فعلى الاستئناف، فيكون (رَبُّ) مبتدأ وخبره (الرَّحمَن)، أو (رَبُّ) يكون خبر لمبتدأ محذوف، و(الرَّحْمَنُ) خبر ثان، وفي القراءة الأخيرة لحمزة والكسائي فإن (رَبِّ) تكون مخفوضة على النعت، و(الرَّحْمَنُ) تكون مرفوعة على أنها خبر مبتدأ، أي: هو الرحمن.

(٢) من الآية (٥٢) من سورة (الشورى).

هنا اسم جنس يُراد به أَرواح بني آدم، والمعنى: يوم تقوم الأَرواح في أَجسادها إِثْر البعث والنشأَة الآخرة، ويكون الجمع من الإِنس والملائكة صفاً[1]، ولا يتكلم أَحد هيبة وفزعاً، إلا مَن أَذن له الرحمن من مَلَك أَو نبي، وكان أَهلاً أَن يقول صواباً في ذلك الموطن، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الضمير في ﴿يَتَكَلَّمُونَ﴾ عائد إلى الناس خاصة، و«الصواب» المشار إليه هو «لا إله إلاَّ الله»، قال عكرمة: أَي قالها في الدنيا.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي الحقُّ كونُه ووجوده، وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ وعدٌ ووعيد وتحريض، و«الْمَآبُ» المرجعُ وموضعُ الأَوبة، والضمير الذي هو الكاف والميم في ﴿أَنذَرْنَٰكُمْ﴾ هو لجميع العالم وإِن كانت المخاطبة لمن حضر النبيَّ ﷺ من الكفار، و«العذابُ القريبُ» عذابُ الآخرة، ووصفه بالقرب لِتَحَقُّق وقوعه، وأَنه آت وكلُّ آتٍ قريب، والجميع داخل في النذارة منه، و«نظر المرءِ إلى ما قدمت يداه من عمل» قيامٌ للحُجَّة عليه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «المرءُ» هنا المؤمن، وقرأ ابن أَبي إِسحاق: [الْمُرْءُ] بضم الميم، وضَعَّفَها أَبو حاتم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾، قيل: إن هذا تَمَنٍّ أَن يكون شيئاً حقيراً لا يُحاسب ولا يُلتفت إليه، وهذا قد تجده في الخائفين من المؤمنين، فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ليتني كنت بعرة»، وقال أَبو هريرة، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إن الله تعالىٰ يحضر البهائم يوم القيامة فيقتص من بعضها لبعض، ثم يقول لها بعد ذلك: كوني تراباً، فيعود جميعها تراباً، فإذا رأَى الكفار ذلك تمنَّوا مثله. قال أَبو القاسم بن حبيب: رأَيت في بعض التفاسير أَن الكافر هنا إِبليس، إذا رأَى ما حصل للمؤمنين من بني آدم من الثواب قال: يا ليتني كنت تراباً، أَي كآدم الذي خُلق من تراب واحتقره هو أَولاً.

كمل تفسير سورة النبأ والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) في إحدى النسخ: «ويكون الجمع بين الإنس والملائكة حقاً».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سُورة النَّازعات

هي مكية بإجماع من المتأولين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴿١١﴾﴾.

قال ابن مسعود وابن عباس: «النَّازعاتُ»: الملائكةُ تنزع نفوس بني آدم، و[غَرْقاً] ـ على هذا القول ـ إِمَّا أَن يكون مصدراً بمعنى الإِغراق والمبالغة في الفِعْل، وإِما أَن يكون كما قال علي وابن عباس رضي الله عنهم: تغرق نفوس الكفرة في نار جهنم، وقال السُّدي وجماعة: النَّازعاتُ: النفوسُ تَنْزِعُ بالموت إِلى ربها، و[غَرْقاً] هنا بمعنى الإِغراق أَي تغرق في الصدور، وقال عطاءٌ ـ فيما روي عنه ـ: النازعاتُ: الجماعاتُ النازعات بالْقِسِيِّ(١)، و[غَرْقاً] بمعنى الإِغراق، وقال الحسن، وقتادة، وأَبو عبيدة، وابن كيسان، والأَخفش: النازعات: النجومُ لأَنها تَنْزِعُ من أُفق إِلى أُفق، وقال قتادة: النازعاتُ: النفوسُ التي تحنُّ إِلى أَوطانها وتَنْزِعُ إِلى مذاهبها، ولها نَزْع عند الموت، وقال مجاهد: النازعاتُ: المنايا لأَنها تنزع نفوس الحيوان، وقال عطاءٌ وعكرمة: النازعاتُ: القِسِيُّ أَنفسها لأَنها تنزع بالسهام.

واختلف في «النَّاشِطاتِ» ـ فقال ابن عباس ومجاهد: هي الملائكة لأَنها تَنْشِطُ النفوس عند الموت، أَي تحلُّها كحلِّ العِقال، وتَنْشَط بأَمر الله تعالىٰ إِلى حيث كان، وقال مجاهد: النَّاشطات: المَنايا، وقال ابن عباس أَيضاً، وقتادة، والأَخفش، والحسن: الناشطاتُ: النجومُ لأَنها تَنْشِطُ من أُفُق إِلى أُفُق، أَي تذهب وتسير بسرعة،

---

(١) جمع قَوْس، وهي آلة معروفة على هيئة هلال تُرمى بها السهام.

ومن ذلك قيل لِبَقَر الوحش: النَّواشِطُ؛ لأَنَّهن يذهبن بسرعة من موضع إلى آخر، وقال عطاءٌ: الناشطاتُ في الآية: البقرُ الوحشيةُ وما جرى مجراها من الحيوان الذي يَنْشِط من قُطْر إلى قُطْر، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

أَمْسَتْ هُمُومي تَنْشِطُ الْمَنَاشِطَا ... الشَّامَ بِي طَوْراً وَطَوْراً واسِطاً[1]

وكأن هذه اللفظة في هذا التأويل مأخوذة من النشاط، وقال عطاءٌ أيضاً وعكرمة: الناشطاتُ الأَوْهَاق[2]، تقول: نَشَطْتُ البعير والإنسان إذا رَبَطْتَه، وأَنْشَطْتُه إذا حَلَلْتَه، حكاه الفراءُ وخولف فيه، ومنه الحديث «كَأَنَّمَا أُنْشِطَ من عِقالٍ»[3]، وقال ابن عباس أيضاً: الناشطاتُ: النفوسُ المؤمنة تَنْشِطُ عند الموت للخروج.

والسَّبْحُ: العومُ في الماءِ، وقد يستعمل مجازاً في خرق الهواءِ والتقلُّب فيه، واختلف في «السَّابِحاتِ» في الآية، ما هي؟ فقال قتادة والحسن: هي النجوم لأنها تسبح في فَلَك، وقال عليٌّ ومجاهد رضي الله عنهما: هي الملائكة لأنها تتصرَّف في الآفاق بأمر الله تعالىٰ، تجيءُ وتذهب، وقال أبو رَوْق[4]: السَّابحاتُ: الشمس والقمرُ والليلُ والنهارُ، وقال بعض المتأولين: السَّابحات: السحابُ لأنها كالعائمة في الهواءِ، وقال عطاءٌ وجماعة: السَّابحات: الخيلُ، ويقال للفرس: سابحٌ، وقال آخرون السَّابحاتُ: الحيتانُ دوابُّ البحر فما دونها، وذلك من عظيم المخلوقات، فيروى أن الله تعالىٰ بثَّ في الدنيا أَلف نوع من الحيوان، منها أَربعمائة في البَرِّ وستمائة في البحر، وقال عطاءٌ أَيضاً: السَّابحاتُ: السُّفن، وقال مجاهد أَيضاً: السَّابحات: المنايا تسبح في نفوس الحيوان.

واختلف في «السَّابِقاتِ»، فقال مجاهد: هي الملائكة، وقيل: هي الرياح، وقال عطاءٌ: هي الخَيْل، وقيل: النجوم، وقيل: المنايا تسبق الآمال، وقال الشاعر:

---

(١) البيت لهِمْيان بن قُحافة، وهو في اللسان شاهدٌ على أَن الهموم تَنْشِطُ بصاحبها. وواسط تطلق على مُدن ومواضع كثيرة، ولكن أشهرها وأقربها إلى الذكر مدينة بين البصرة والكوفة، وسميت بذلك لتوسطها تماماً بين المدينتين.

(٢) الأوهاق: جمع وَهَق ـ بفتح الهاء وقد تسكن ـ والوَهَق: الحبل تُشد به الإبل والخيل لئلا تفِرَّ، ويقال: لا بُدَّ في طرفه من أنشوطة.

(٣) أخرجه أبو داود في البيوع والطب. وهو عن الذي أصابه السحر يبرأُ منه. ومعنى «أُنْشِط» فيه: حُلَّ، والمألوف أن الجَمَل إذا حُلَّ عقاله نهض بسرعة.

(٤) هو عطية بن الحارث، أَبو رَوْق ـ بفتح الراء وسكون الواو بعدها قاف ـ الهمداني الكوفي، صاحب التفسير، صدوق، من الطبقة الخامسة. (تقريب التهذيب).

لاَ أَرَى الْموتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شيءٌ(١)

وأَمَّا «الْمُدَبِّرَاتُ» فلا أَحفظ خلافاً أَنها الملائكة، ومعناها أَنها تدبِّر الأُمور التي يسخرها الله تعالىٰ لها وصرَّفها فيها كالرياح والسحاب وسائر المخلوقات.

قال ابن زيد: «الرَّاجفةُ»: الأَرض بأَهْلها، تهتزُّ بنفخة الصُّور الأُولى، وقيل: الرَّاجفة النفخة نفسها، و«الرَّادفة» النفخة الأُخرى، ويروى أَن بينهما أَربعين سنة، وقال عطاءٌ: الراجفةُ القيامة، والرادفة البعث، وقال ابن زيد: الراجفةُ الموتُ، والرادفة الساعةُ، وقال أُبَيُّ بن كعب: كان النبي ﷺ إِذا ذهب ربع الليل قام وقال: «يا أَيُّها الناس اذكروا الله، جاءَت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاءَ الموتُ بما فيه»(٢).

ثم أَخبر تعالىٰ عن قلوب ترجف ذلك اليوم، أَي ترتعد خوفاً وفَرَقاً من العذاب، ووجيف القلب يكون من الفزع، ويكون من الإِشفاق، ومنه قول الشاعر قيس بن الخطيم:

إِنَّ بَنِـي جَحْجَبَـى وَأُسْـرَتَهُـمْ   أَكْبـادُنَـا مِـنْ وَرَائِهِـمْ تَجِـفُ(٣)

ورُفع [قُلُوبٌ] بالابتداءِ، وجاز ذلك وهو نكرة لأَنها قد تخصصت بقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾(٤).

---

(١) يعني أن الموت يسبق أفكار الناس وآمالهم وتخطيطهم للغد، ولم أَقف على قائله ولا بقيته.

(٢) أَخرجه أَحمد، والترمذيُّ وحسَّنه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أُبي بن كعب، ذكر ذلك في الدرِّ المنثور، ولفظه كما جاء فيه «كان رسول الله ﷺ إذا ذهب رُبع الليل قام فقال: يا أَيُّها الناس، اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه».

(٣) هكذا ورد البيت في الأصول، ولكن في الديوان نجد الشطر الأول في بيت مع اختلاف في الألفاظ، وهو:

أَبْلِـغْ بَنِـي جَحْجَبَـى وَقَـوْمَهُـمْ   خَطْمَـةَ أَنَّـا وراءَهُـمْ أُنُـفُ

وجَحْجَبة وخَطْمَة: حيان لقبيلة قيس بن الخطيم، لأنه أَوسيٌّ، وفي رواية (أَبلغ بني مَذْحِج وقومهم)، وفي الأغاني: (وإِخوَتَهم... زيداً بأَنَّا)، ومعنى البيت نأنف من ورائهم. ثم نجد الشطر الثاني في بيت آخر بعد بيتين من الأول، وهو:

إِنَّـا وَلَـوْ قَـدَّمُـوا الَّتِـي عَلِمـوا   أَكْبَـادُنَـا مِـنْ وَرَائِهِـمْ تَجِـفُ

وفي الأصمعيات (الذي علموا)، وفي الأغاني (إِنَّا وَإِنْ قَلَّ نَصْرُنَا لَهُمُ)، وتجف: تضطرب وتخفق، يقال: وجف القلب: خفق، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا. ومعنى البيت: إنهم وإن كانوا قد قدَّموا ما قدَّموا من أَعمال يعرفونها وننكرها عليهم؛ فإننا نشفق عليهم من وراء غيبهم.

(٤) حكى أَبو حيان في البحر هذا عن ابن عطية، ثم عقَّب بقوله: «ولا تتخصَّصُ الأَجرامُ بظروف الزمان، =

واختلف الناس في جواب القسم، أَين هو ؟ فقال الفراءُ والزجاج: هو محذوف دلَّ الظاهر عليه، تقديره: لَتُبْعَثُن أو لَتُعَاقَبُنَّ يوم القيامة، وقال بعض النحاة: هو في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾، وهذا ضعيف لِبُعْد القول، ولأن المعنى هنالك يستحق «أَنَّ»، وقال آخرون: هو في قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ﴾ على تقدير حذف اللام، كأنه تعالىٰ قال: لَيَوْمَ، وقال آخرون: هو موجود في جملة قوله تعالىٰ: ﴿يوم ترجف الراجفة. . . . قلوب يومئذ واجفة﴾، كأنه تعالىٰ قال: لَتجِفَنَّ قلوب يوم كذا، ولما دلَّت القلوب على أَصحابها ذكر بعد ذلك أَبصارها وخشوعها، ذُلَّها وما يظهر منها من الهم بالحال.

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَقُولُونَ ﴾ هي حكاية حالهم في الدنيا، معناه: هم الذين يقولون، وقولهم: ﴿أَئِنَّا﴾ هو على جهة الاستخفاف والعجب والتكذيب، وقرأَ ابن أَبي إِسحاق، وابن يَعْمَر: [آئِنَّا] بهمزتين ومَدَّة، على الاستفهام، وقرأَ جمهور القراءِ: [أَينَّا] باستفهام وهمزة واحدة.

و«الحافِرَةُ» لفظة توقعها العربُ على أَوَّل أَمر رُجع إِليه من آخره، يقال: عاد فلانٌ في الحافرةِ إِذا ارتكس في حالٍ من الأَحوال، ومنه قول الشاعر:

أَحــافِــرَةً عَلَـى صَلَــعٍ وَشَيْــبِ ؟ مَعَــاذَ اللهِ مِــنْ سَفَــهٍ وَعــارِ(١)

والمعنى: أَئِنَّا لمردودون إِلى الحياة بعد مفارقتها بالموت ؟ وقال مجاهد والخَليل: الحافرة الأَرضُ، فاعِلَةٌ بمعنى مفعولة، وقيل: بل هو على النَّسب، أَي ذات حفر، والمراد القبور لأَنها حُفرت للموتى، فالمعنى: أَئِنَّا لمردودون أَحياءً في قبورنا ؟ وقال زيد بن أَسلم: الحافرةُ النارُ، وقرأَ أَبو حيوة: [في الْحَفِرَةِ] بغير أَلف، فقيل: هو بمعنى الحافرة، وقيل: هي الأَرض المُنْتنة المتغيرة بأَجساد موتاها، من قولهم: حُفرت أَسنانُه إِذا تآكلت وتغيَّر ريحها.

و«النَّاخِرَةُ»: الْمُصَوِّتَةُ بالريح الْمُجَوَّفَةُ، ومنه قول الشاعر:

= وإنَّما تخصَّصت بقوله تعالىٰ: ﴿ وَاجِفَةٌ ﴾.

(١) البيت في اللسان، والطبري، والقرطبي، والكشاف، وفتح القدير، والبحر المحيط، وهو غير منسوب، والرواية في الطبري: «من سَفَهٍ وطيش»، يقال: رجع عَلى حافِرَتِهِ، أَي الطريق الذي جاءَ منه، ومعنى البيت: أأَرْجع إلى ما كنتُ عليه في شبابي من الغزل واللهو وفعل العار بعد أَن شبْت وصَلِعْتُ ؟

وَأَخْلَيْتُهـا مِـنْ مُخِّهـا فَكَـأَنَّهـا قَوارِيرُ في أَجْوافِهَا الرِّيحُ تَنْخُرُ(١)

وروي: تَصْفِرُ. و[نَاخِرةً] هي قراءة حمزة، وعاصم، في رواية أبي بكر ـ وعمر بن الخطاب، وابن مسعود، وأُبَيٍّ بن كعبٍ، وابن عباس، وابن الزبير، ومسروق، ومجاهد، وجماعة سواهم، وقرأ الباقون، وحفص عن عاصم، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أَبي طالب، وابن مسعود، والحسن، والأَعرج، وأَبو رجاءٍ، وأَبو جعفر، وشيبة، وأَبو عبد الرحمن، وابن جبير، وأَهل مكة، وشبل، وقتادة، وأَيوب، والنَّخعي، وابن وثاب: [نَخِرَةً] دون أَلف بعد النون، ومعناه: باليةٌ متعفنة قد صارت رميماً، يقال: نخر العودُ والعظْمُ إِذا بَلِيَ وصار يتفتَّتُ، وحُكي عن أَبي عبيدة، وأَبي حاتم، والفراءِ، وغيرهم أَن النَّاخرة والنَّخِرَة بمعنى واحد، كطامِع وطَمِعٍ، وحاذِرٍ وحَذِرٍ، والأَكثر من الناس على ما قدمناه، قال أَبو عمرو بن العلاءِ: النَّاخِرَةُ التي لم تنخر بَعْد، والنَّخِرَةُ التي قد بَلِيَت.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾.

ذكر الله تعالىٰ عنهم قولهم: ﴿ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾، وذلك أَنهم لتكذيبهم بالبعث وإِنكارهم قالوا: لو كان هذا حقًّا لكانت كرَّتنا ورَجْعَتُنا خاسرة؛ إِذْ هي إِلى النار، وقال الحسن: [خَاسِرَة] معناه: كاذبة، أَي ليست بكافية، ورُوي أَن بعض صناديد قريش قال ذلك.

ثم أَخبر الله تعالىٰ عن حال القيامة فقال: ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾، أَي نفخة في الصُّور، فإِذا الناس قد نشروا وصاروا أَحياءً على وجه الأَرض، وفي قراءة عبد الله:

---

(١) لم يذكر هذا البيت أحد من المفسرين غير ابن عطية وصاحب «البحر المحيط»، والمُخُّ: نقيُ عظام القَصَب، والقواريرُ: جمع قارورة، وهي وعاءٌ من زجاج يستقرُّ فيه الشراب، وتَنْخُر: تَصَوِّتُ صوتاً يشبه صوت الأنف، يقول: إنه أفرغها من مخها فأصبحت خالية كأنها القوارير التي تصوِّت فيها الريح.

[فإنما هي وقعة واحدة]، و«الساهرة» وجه الأَرض، ومنه قول أُمَيَّة بن أَبي الصلت:

وَفيها لَحْمُ ساهِرَةٍ وَبَحْرٍ وَمَا فاهُوا بِهِ لَهُمُ مُقيمُ(١)

وقال وهب بن مُنَبِّه: السَّاهرة جبلٌ بالشام يمدُّه الله تعالىٰ لحشر الناس يوم القيامة كيف شاءَ، وقال أَبو العالية وسفيان: السَّاهرةُ أَرضٌ قريبة من بيت المقدس، وقال قتادة: السَّاهرة جهنم لأَنه لا نوم لمن فيها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: السَّاهرةُ أَرض مكة، وقال الزهري: السَّاهرة الأَرض كلها.

ثم وقف تعالىٰ نبيَّه محمداً ﷺ على جهة جمع النفس لتلقي الحديث، فقال تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ الآية. و«الوادي المقدس» وادٍ بالشام، قال منذر بن سعيد: هو بين المدينة ومصر، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، والأَعمش، وابن أَبي إِسحاق، وقعنب: [طِوًى] بكسر الطاء مُنَوَّنة، ورويت عن عاصم، وقرأَ الجمهور: [طُوًى] بضم الطاءِ، وأَجرى بعض القراءِ [طُوى]، وترك إِجراءَه ابن كثير، وأَبو عمرو، ونافع، والحسن، وجماعة وقد تقدم شرح هذه اللفظة في سورة طه(٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱذْهَبْ﴾ تفسير النداءِ الذي ناداه ربُّه، ويحتمل أَن يكون المعنى: قال له اذهب، وفي هذه الأَلفاظ استدعاءٌ حَسَن، وذلك أَنه أُمر أَن يقول له: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾، وهذا قولٌ جوابُ كلِّ عاقل عنده: نَعَم أُريد أَن أَتزكَّى، والتَّزكِّي هو التَّطهر من النقائص والتَّلبس بالفضائل، وفسَّر بعضهم ﴿تَزَكَّىٰ﴾ بـ «تُسْلِم»، وفسَّرها بعضهم بقول «لا إِله إِلاَّ الله»، وهذا تخصيص، وما ذكرناه يَعُمُّ كل هذا، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ: [تَزَّكَّى] بشدِّ الزاي، وقرأَ الباقون: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ بتخفيف الزاي.

ثم أَمر [الله تعالىٰ](٣) موسى عليه السلام بأَن يفسِّر له التَّزكي الذي دعاه إِليه بقوله:

---

(١) هذا البيت من شواهد أَبي عبيدة في مجاز القرآن، وهو في اللسان، والطبري، والقرطبي والبحر المحيط، وفتح القدير، ومعاني القرآن، والساهرة: الأرض، قال الفراءُ: سُمِّيت بذلك لأن فيها الحيوان نوْمَهم وسَهَرَهم، ومُقيم: دائمٌ حاضر عندهم، يقول في وصف الجنة: إن فيها من اللحم من صيد الأرض ولحم البحر، وكل ما فاهت به أَفواههم وجدوه حاضراً مقيماً عندهم.

(٢) راجع صفحة ٨٣ من المجلد السادس.

(٣) ما بين العلامتين زيادة للتوضيح.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾، والعلم تابع للهدى، والخشية تابعة للعلم، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1].

و﴿ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ العَصَا واليَدُ، قاله مجاهد وغيره، وهما قَصَب موسى عليه السلام للتحدي[2]، فوقعت المعارضة في الواحدة، وانغلِب فيها فريق الباطل. وقال بعض المفسرين: ﴿أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ حقيقة، قام من موضعه موليًا فارًّا بنفسه من مجالسة موسى عليه السلام، وقال الجمهور: ﴿أَدْبَرَ﴾ كناية عن إعراضه عن الإيمان، و﴿يَسْعَىٰ﴾ معناه: يجتهد على أمر موسى عليه السلام[3] والرَّدِّ في وجه شرعه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَحَشَرَ﴾ معناه: جمع أَهل مملكته، ثم ناداهم بقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، ورُوي عن ابن عباس أَنه قال: المعنى: فنادى فحشر، وقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ نهاية في المَخْرقة، ونحوها باق في ملوك مصر وأَتباعهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿نَكَالَ﴾ منصوبٌ على المصدر، وقال قوم: «الآخِرَةُ» قولُه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، و﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وروي أنه مكث بعد قوله ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أَربعين سنة، وقيل: كانت هذه المدة بين الكلمتين، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، و﴿الأخِرَةَ﴾ قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وقال ابن رُزَين: الأُولى كُفْره وعصيانُه، والآخرةُ قولُه: (أَنا رَبُّكُمُ الأَعْلَى) وقال ابن زيد: الأولى الدنيا، والآخرةُ الدارُ الآخرة، أَي: أَخذه الله تعالىٰ بعذاب جهنم وبالغرق في الدنيا، وقال مجاهد: هذه عبارةٌ عن أَول معاصيه وكُفْره وآخرِها، أَيْ نكَّل بالجميع،

---

(١) من الآية (٢٨) من سورة (فاطر).

(٢) هذا من قولهم: «أَحرز قَصَب السبْق»، إذ أَنهم كانوا يَنْصُبون في حلبة السباق قَصبة فمن سبق أَخذها ليُعْرف أَنَّه السابق.

(٣) اختلفت النسخ الأَصلية في هذه الجملة، ففي بعضها: «يجتهد على أمر موسى»، وفي بعضها: «يروم جُلَّ أمر موسى»، وفي بعضها: «يَتَحَزَّم أمر موسى».

و﴿نَكَالَ﴾ نصب على المصدر، والعامل فيه على رأي سيبويه [أَخَذَ]؛ لأنه في معناه، وعلى رأي أبي العباس المبرد فِعْلٌ مضمر من لفظ «نكال»، كأنه قال: نَكَّله نَكَالَ.

ثم وقف تعالىٰ على موضع العبرة بحال فرعون، وتعذيبه، وفي الكلام وعيد للكفار المخاطبين برسالة محمد ﷺ، ثم وقفهم مخاطبة منه تعالىٰ لجميع العالم، والمقصد الكفار، ويحتمل أن يكون المعنى: قل لهم يا محمد: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ الآية. وفي هذه الآية دليل على أن بعث الأجساد من القبور لا يتعذَّر على قدرة الله تعالىٰ، و«السَّمْكُ» الارتفاع الذي بين سطح السماءِ الأسفل الذي يلينا وبين سطحها الأعلى الذي يلي ما فوقها، وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ يحتمل أن يريد: خلقها ملساءَ مستويةً ليس فيها مرتفع ومنخفض، و يحتمل أن يكون عبارة عن إتقان خلقها، ولا يقصد معنى امِّلاس سطحها، والله تعالىٰ أعلم كيف هي.

و﴿أَغْطَشَ﴾ معناه: أظلم، والأَغْطَشُ: الأعمى، ومنه قول الشاعر:

نَحَرْتُ لَهُمْ مَوْهِناً نَاقَتِي ... وَلَيْلُهُمْ مُدْلَهِمٌّ غَطِشْ(١)

ونسب الليل والضحى إليها من حيث هما ظاهران منها وفيها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ متوجِّهٌ على أن الله تعالىٰ خلق الأرض ولم يَدْحُها، ثم استوى إلى السماءِ وهي دخان فخلقها وبناها، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وقرأ مجاهد: «والأَرْضَ مَعَ ذَلكَ»، وقال قوم: إن ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ معناه: مع ذلك، والذي قلناه مترتب عليه آيات القرآن كلها، ونسب الماءَ والمرعى إلى الأرض من حيث هما منها يظهران، ودَحْو الأرض: بَسْطُها، ومنه قول أُمَيَّة بن أبي الصلت:

دَارٌ دحاها ثُمَّ أَسْكَنَنَا بِها ... وَأَقامَ بالأُخْرى الَّتي هي أَمْجَدُ(٢)

---

(١) البيت للأعشى، وقد ذكره في القرطبي، والرواية فيه:

عَقَرْتُ لَهُمْ مَوْهِناً نَاقَتِي ... وَغَامِرُهُم مُدْلَهِمٌّ غَطش

كذلك استشهد بالشطر الثاني صاحب فتح القدير، واللفظ فيه كاللفظ في القرطبي. وعَقَر الناقة: قطع إحدى قوائمها لتسقط فيتمكن من ذبحها، ثم درج العُرف على استعمال العَقْر في الذبح، والموهن: نحو نصف الليل أو بعد ذلك بساعة، والغامرُ هو الليل لأنه يغمر الناس ويغطيهم، ومُدْلَهِمٌّ: كثيف الظلام، وغَطِش: شديد الظلام، وهو موضع الاستشهاد هنا.

(٢) ويروى: «ثُمَّ أَعْمَرَنَا بها»، وهي في الطبري، والدَّحْو هو البسط، يقال: دَحَا الأرض دَحْواً: بَسَطَها، =

وقرأ الجمهور: ﴿والأرْضَ﴾ نصباً، وقرأ الحسن، وعيسى: [والأرضُ] بالرفع، وقرأ الجمهور: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ نصباً، وقرأ الحسن، وعمرو بن عبيد: ﴿والجبالُ﴾ رفعاً. و﴿أَرْسَىٰهَا﴾ معناه: أثبتها، وجميع هذه النعم إذا تُدُبِّرت فهي متاعٌ للناس والأنعام، يتمتعون فيها وبها، وقرأ الجمهور: ﴿مَتَٰعًا﴾ بالنصب، وقرأ ابن أبي عبلة: [متٰعٌ] بالرفع.

و﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ هي القيامة، قاله ابن عباس، والضحاك، وقال الحسن، وابن عباس أيضاً: النفخة الثانية، وقوله تعالىٰ: ﴿مَا سَعَىٰ﴾ معناه: ما عمِل من سائر عمله، ويتذكر ذلك بما يرى من جزائه. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ بضم الباءِ وشد الراءِ المكسورة، وقرأ عكرمة، ومالك بن دينار، وعائشة رضي الله عنها: [وَبَرَزَت] بفتح الباءِ والراءِ، وقرأ جمهور الناس: ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ بالياءِ، أي: لمن يُبصر ويُحصِّل، وقرأ عكرمة، ومالك بن دينار، وعائشة رضي الله عنها: [لِمَنْ تَرَى] بالتاءِ، أي: تراه أنت يا محمد، فالإشارة إلى كُفَّار مكة، أو إشارة إلى الناس والقصد كُفار مكة، ويحتمل أن يكون المعنى: لمن تراه الجحيم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾(١)، وقرأ ابن مسعود: [لِمَنْ رأى] على فعل ماض.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿طَغَىٰ﴾ معناه: تجاوز الحدود التي ينبغي للإنسان أن يقف عندها، و﴿آثر الحياة الدنيا﴾ عَلَى الآخِرَةِ لتكذيبه بالآخرة، و﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾ المنزلُ والمسكن حيث يأوي المرءُ ويلازم. و﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ هو يوم القيامة وإنما المراد: مَقَامَ بَيْن يدي ربه، فأضاف المقام إلى الله تعالىٰ من حيث هو بين يديه، وفي ذلك تفخيمٌ للمقام وتعظيم لهوله وموقعه من

= وهذا التعبير كثير مطروق في الشعر العربي، قال زيد بن عمرو بن نُفيل:

دَحَـاهـا فَلَمَّـا رَآهـا اسْتَـوَتْ عَلَـى الْمـاءِ أَرْسَـى عَلَيْهَـا الْجِبَـالاَ

(١) من الآية (١٢) من سورة (الفرقان).

النفوس، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: خافه عند المعصية فانتهى عنها. و﴿ٱلْهَوَىٰ﴾ هو شهوات النفس وما جرى مجراها، وأكثر استعماله إنما هو في غير المحدود، قال سهل التَّستُري: لا يسلم من الهوى إلا الأنبياءُ عليهم السلام وبعض الصديقين، وقال بعض الحكماءِ: إذا أردتَ الصواب فانظر هواك فخالفه، وقال الفَضْلُ بن عياض: أفضل الأعمال خلاف الهوى.

قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية... نزلت بسبب أن قريشاً كانت تُلح في البحث عن وقت الساعة التي كان رسول الله ﷺ يخبرهم بها ويتوعدهم بأمرها ويكثر من ذلك، و﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ معناه: مَتى ثُبوتها ووقت رسوها، أي ثُبوتها، كأنه شيءٌ يسير إلى غاية مَّا ثم يقف كما تفعل السفينة التي ترسو، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: [إِيَّانَ] بكسر الألف.

ثم قال تعالىٰ لنبيِّه عليه السلام ـ على جهة التوقيف ـ: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾، أي: من ذكر تحديدها ووقتها، أي: لسْتَ من ذلك في شيءٍ، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ﴾، وقالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يَسْأَل عن الساعة كثيراً، فلما نزلت هذه الآية انتهى[(١)]. وقرأ أبو جعفر، وعمر بن عبد العزيز، وأبو عمرو ـ بخلاف ـ وابن محيصن، والأعرج، وطلحة، وعيسى: [مُنْذِرٌ] بالرفع بتنوين «مُنْذر»، وقرأ جمهور القراءِ: ﴿مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ بإضافة [مُنْذِرُ] إلى [مَنْ].

ثم قرَّب تعالىٰ أمْر السَّاعة بإخباره أن الإنسان عند رؤيته إيَّاها يظن أنه لم يلبث إلاَّ عشيَّة يوم أوْ بُكْرته، فأضاف «الضُّحَى» إلى «العَشِيَّة» من حيث هما طرفان للنهار، وقد بدأ بذكر أحدهما فأضاف الآخر إليه تَجُوزاً وإيجازاً[(٢)].

كمل تفسير سورة النازعات والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه البَزَّار، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن عائشة رضي الله عنها، وأخرجه سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن عروة مرسلاً.

(٢) قال الفراءُ في معاني القرآن: «يقول القائل: وهل للعشيِّ ضُحى؟ إنما الضُّحى لصدر النهار، فهذا بيِّن ظاهر من كلام العرب أن يقولوا: آتيك العَشِيَّةَ أو غداتها، وآتيك الغَداةَ أو عشِيَّتَها، وأنشدني بعض بني عقيل:

نَحْــنُ صَبَحْنَــا عَــامِــراً فــي دارِهَــا ... عَشِيَّــةَ الْهِــلالِ أَوْ سَــرارِهَــا

أراد: عَشِيَّةَ الهلال أو عَشِيَّة سَرار العَشِيَّة، فهذا أَسَدُّ من آتيك الغداةَ أو عشِيَّتَها».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة عبس[١]

وهي مكية كلها بإجماع من المفسرين.

وقصص هذه السورة التي لا تفهم الآية إلاَّ به أَن رسول الله ﷺ كان شديد الحرص على إِسلام قريش وأَشرافهم، وكان يتحَفَّى بدعائهم إلى الله تعالىٰ، فبينا هو يوماً مع رجل من عظمائهم ـ قيل: هو الوليد بن المغيرة المخزومي، وقيل: عتبة بن ربيعة، وقيل: شيبة، وقيل: العباس، وقيل: أُمَيَّةُ بن خلف، وقيل: أُبَيُّ بن خلف. وقال ابن عباس: كان في جمع منهم، فيهم عُتْبة والعباسُ وأَبو جهل ـ إِذْ أَقبل عبد الله بن أُمِّ مكتوم القرشي الفهري من بني عامر بن لُؤَي، وهو رجل أَعمى، يقوده رجل آخر، فأَومأَ رسول الله ﷺ إلى قائده أَن يُؤَخره عنه، فَفَعَل، فدفعه عبد الله وأَقبل نحو رسول الله ﷺ وقال: اسْتَدْنني يا محمد، علِّمني مما علَّمك الله، فكان في ذلك كلِّه قطع لحديث رسول الله ﷺ مع الرجل المذكور من قريش، وكان رسول الله ﷺ قد قرأَ عليه القرآن وقال له: أَترى بما أَقول بأساً؟ فكان ذلك الرجل يقول: لا والدُّمَى ـ يعني الأَصنام ـ ويروى: لا والدِّما ـ يعني الذبائح التي للأَصنام ـ، فلما شغب عليه أَمر عبد الله بن أُمِّ مكتوم عبس وأَعرض عنه، وذهب ذلك الرجل، فيروى أَن النبي ﷺ انصرف إلى بيته فَلُوِيَ رَأْسُه وشخص بصره وأُنزلت عليه السورة[٢]. قال سفيان الثوري: فكان بعد ذلك إِذَا رَأَى ابنَ أُمِّ مكتوم قال: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي عزَّ

---

(١) قال الشوكاني في فتح القدير: «وتُسمى سورة السَّفَرة».

(٢) ذكره الواحديُّ في (أسباب النزول)، وأخرج الترمذيُّ وحسَّنه، وابن المنذر، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: أُنزلت سورة عبس وتولَّى في ابن أُمِّ مكتوم الأعمى، وساقت الخبر، وأخرج مثلَه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأَبو يَعْلَى، عن أَنس رضي الله عنه، وأَخرج ابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: بينا رسول الله ﷺ يناجي عُتبة بن ربيعة، والعباس بن عبد المطلب، وأَبا جهل بن هشام، وكان يتصدى لهم كثيراً، ويحرصُ أن يؤمنوا، فأَقبل إليه رجل أَعمى، . . . . وساق القصة.

وجلَّ، وبَسَط له رِدَاءَه، قال أَنس بن مالك: رأَيتُهُ يوم القادسية وعليه دِرْعٌ ومعه رايةٌ سوداء، واستخلفه النبي ﷺ على المدينة مرتين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

العُبُوس: تقطيب الوجه وارْبدادُه عند كراهية أَمر، وفي مخاطبته ﷺ بلفظ ذكر الغائب مبالغة في العتب، لأَن في ذلك بعض الإعراض، وقال كثير من العلماءِ، وابن زيد، وعائشة وغيرهما من الصحابة: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لَكَتَم هذه الآيات وآيات قصة زيد وزينب بنت جحش. و«التَّوَلِّي» هنا الإعراض، و[أَنْ] مفعول من أجله. وقرأ الحسن: (آن جاءَهُ) بمَدَّةِ تقرير وتوقيف، والوقف ـ على هذه القراءَة ـ على ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾، وهي قراءة عيسى[1]. وذكر الله تعالىٰ ابن أُمِّ مكتوم بصفة العمى الذي شأن البشر احتقاره، وبيَّن أَمره بِذِكْر ضده من عُتُوِّ ذلك الكافر، وفي هذا دليلٌ على أَن ذكر هذه العاهاتِ ـ متى كانت لمنفعة، أَو أَن شُهرتها تعرِّف السامع صاحبها دون لبس ـ جائزٌ، ومنه قول المحدِّثين سليمان الأَعمش، وعبد الرحمن الأَعرج، وسالم الأَفطس، ونحو هذا، ومتى ذكرت هذه الأَشياءُ على جهة التَّنَقُّص فتلك الغِيبَة، وقد سمع رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها تذكر امرأَة، فقالت: إِنها لقصيرة، فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد قلت كلمة لو مزجت بالبحر لمزجته»[2].

ثم خاطب تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالعتْب فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ

---

(١) الذي في البحر المحيط أَن الحَسَن، وأَبا عمران الجوني، وعيسى قرءوا بهمزةٍ ومدَّةٍ بعدها. وفي المحتسب (آنْ جاءَهُ) بالمد.

(٢) أَخرجه أبو داود في الأدب، والترمذي في القيامة، وأحمد في مسنده (٦/ ١٨٩)، ولفظه كما في مسند أَحمد: عن أَبي حذيفة، وكان من أَصحاب عبد الله، وكان طلحة يحدث عنه، عن عائشة قالت: «حكيت للنبي ﷺ رجلاً، فقال: ما يسرني أني حكيت رجلاً وأن لي كذا وكذا، قالت: فقلت: يا رسول الله، إن صفية امرأةٌ ـ وقال بيده كأنه يعني قصيرة ـ فقال: لقد مزجتِ بكلمة لو مُزج بها ماءُ البحر مُزجت»، قال عبد الله ـ ابن الإمام أحمد ـ: وجدت هذا الحديث في كتاب أَبي بخط يده.

﴿الذِّكْرَىٰ﴾. أي: وما يطلعك على أمره وعُقبى حاله؟ ثم ابتدأ القول: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾، أي: تنمو بركتُه ويتطهَّر لله تعالىٰ وينفعُ إيمانه. وأَصل ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾: يَتَزَكَّى، فأدغم التاءَ في الزاي، وكذلك ﴿يذَّكَّر﴾. وقرأَ الأعرج: [يَذْكُر] بسكون الذال وضم الكاف، ورويت عن عاصم، وقرأَ جمهور السبعة: [فَتَنْفَعُهُ] بضم العين على العطف، وقرأَ عاصم وحده[١]، والأَعرج: (فَتَنْفَعَهُ) بالنصب في جواب التَّمني؛ لأَن قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ في حكم قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾.

ثم أَكَّد تعالىٰ عتب نبيِّه ﷺ بقوله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾، أَي بمالِهِ، و﴿تَصَدَّىٰ﴾ معناه: تتعرض بنفسك، وقرأَ ابن كثير، ونافع: [تصَّدَّى] بشد الصاد، على إدغام التاءِ، وقرأَ الباقون، والأَعرج، والحسن، وأَبو رجاءٍ، وقتادة، وعيسى، والأعمش ﴿تَصَدَّىٰ﴾ بتخفيف الصاد، على حذف التاءِ، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [تُصَدَّى] بضم التاءِ وتخفيف الصاد، على بناءِ الفعل للمفعول، أَي: يُصَدِّيك حرصُك على هؤلاءِ الكفار أَن يسلموا، تقول: تَصَدى الرجلُ وصَدَّيته، كما تقول: تَكَسَّب وَكَسَّبْتُه، ثم قال تعالىٰ تحقيراً لشأْن الكفار: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، أَي: وما يضرك أَلاَّ يفلح؟ فهذا حضٌّ على الإِعراض عن أَمرهم، وترك الاكتراث بهم.

ثم قال تعالىٰ مبالغاً في العَتْب: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾، أَي يمشي، وقيل: المعنى: يسعى في شؤونه وأَمْر دينه وتَقَرُّبه منك، وهو يخشى الله تعالىٰ، ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾، أَي: تشتغل، تقول: لَهِيتُ عن الشيءِ أَلْهَى إذا اشتغلت، وليس من اللهو الذي هو من ذوات الواو، أَمَا إنَّ المعنى يتداخل. وقرأَ الجمهور من القراءِ: ﴿تَلَهَّىٰ﴾ بفتح التاءِ، على حذف التاءِ الواحدة، وقرأَ ابن كثير ـ فيما رُوي عنه ـ: [تّلهى] بالإِدغام، وقرأَ طلحة بن مصرف: [تَتَلَهَّى] بتاءَين، وروي عنه [تَلْهَى] بفتح التاءِ وسكون اللام وتخفيف الهاءِ المفتوحة، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [تُلَهَّى] بضم التَّاءِ[٢]، أَي يُلهيك حرصك على أُولئك الكفار، وفي حديث النبي ﷺ: «وَمَا اسْتَأْثَرَ الله بعلمه فَالْهَ عنه»[٣] وقوله تعالىٰ

---

(١) أي من القراء السبعة، وإلاَّ فقد قرأ بها الأعرج.

(٢) أما ضبط اللام والهاء فقد أخذناهما عن المحتَسب.

(٣) وجدت هذا الحديث في كتاب النهاية لابن الأثير، وفي لسان العرب ـ أثر ـ واللفظ فيهما: «إذا استأثر الله بشيء فالْهَ عنه»، ولم يذكرا شيئاً عن رواته، واستأثر بالشيء: خص به نفسه، ومعنى «الْهَ عنه»: اتركه.

في هاتين: ﴿أَمَّا مَنْ﴾، ﴿وَأَمَّا مَنْ﴾ فالسبب ما ذكر من كفار قريش وعبد الله بن أُمِّ مكتوم، ثم هي بَعْدُ تتناول من شَرِكَهم[١] في هذه الأوصاف، فحملة الشرع والعلم والحكام مخاطبون في تقريب الضعيف من أهل الخير، وتقديمه على الشريف العاري من الخير، بِمِثْلِ ما خوطب النبي ﷺ في هذه السورة.

ثم قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ﴾ يا محمد، أَي: ليس الأمر في حقِّه كما فعلتَ، إن هذه السورة والقراءة التي كنت فيها مع ذلك الكافر تذكرةٌ لجميع العالم، لا يُؤْثر فيها أحد دون أَحد، وقيل: المعنى: إن هذه المَعْتَبَة تَذْكِرَةٌ لك يا محمد، ففي هذا التأويل إجلالٌ لمحمد ﷺ وتأنيسٌ له. وقوله تعالىٰ: ﴿فِي صُحُفٍ﴾ متعلق بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾، وهذا يؤيد أَن التذكِرة يراد بها جميع القرآن، وقال بعض المتأَولين: الصحف هنا اللوح المحفوظ، وقيل: صحف الأَنبياء عليهم السلام الْمُنَزَّلةُ، وقيل: مصاحف المسلمين.

واختلف الناس فِيَ «السَّفَرة» ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الملائكة لأَنهم كَتَبَةٌ، يقال: سفرتُ أَي كَتبتُ، ومنه السِّفْرُ[٢]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الملائكة سَفَرة لأَنهم يسفرون بين الله تعالىٰ وبين أَنبيائه، وقال قتادة: هم القُراءُ، وواحد السَّفَرة: سافِر، وقال وهب بن مُنَبِّه: هم الصحابة؛ لأَن بعضهم يسفر إِلى بعض في الخير والتعليم والتعلم، والقول الأَول أَرجح، ومن اللفظة قول الشاعر:

فَمَا أَدَعُ السِّفَارة بَيْنَ قَوْمي ... وَلاَ أَمْشِي بِغِشٍّ إِنْ مَشَيْتُ[٣]

و«الصُّحفُ» ـ على هذا ـ صحفٌ عند الملائكة أَو اللوح، وعلى القول الآخر هي المصاحف.

---

(١) أي اشترك معهم فيها، وشَرِك تأتي بمعنى شارك.

(٢) هو الكتاب الكبير.

(٣) هذا البيت ذكره الفراء في معاني القرآن، وهو في الطبري، والقرطبي، والبحر المحيط، وفتح القدير، مع اختلاف كبير في الشطر الثاني، ولم ينسبه أحد منهم، ويروى (وَمَا) بدلاً من (فَمَا)، وكذلك يروى (وَمَا) بدلاً من (وَلاَ)، و(ما أَسعَى) بدلاً من (وما أَمشي)، يفتخر الشاعر بأنه سفير يصلح بين أبناء قومه.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعاءٌ على اسم الجنس، وهو عموم يراد به الخصوصُ، والمعنى: قتل الإنسان الكافر، ومعنى ﴿قُتِلَ﴾: هو أهل أن يُدْعى عليه بهذا، وقال مجاهد: ﴿قُتِلَ﴾ معناه: لُعن، وهذا تحكُّم، وقوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ يحتمل معنى التعجب، ويحتمل معنى الاستفهام توقيفاً، أي: أيُّ شيءٍ أكْفَرَهُ؟ أيْ جعله كافراً.

وقيل: إن هذه الآية نزلت في عتبة بن أبي لهب، وذلك أنه غاضب أباه فأتى النبيَّ ﷺ، ثم إنَّ أباه استصلحه وأعطاه مالاً وجهَّزه إلى الشام، فبعث عتبة إلى النبي ﷺ وقال: إني كافر بربِّ النجم إذا هَوَى، فيروى أن رسول الله ﷺ قال: «اللهمَّ ابعث إليه كلبك حتى يأكله»، ويروى أنه قال: «أما يخاف أن يُرسل الله عليه كلبه فيأكله»، ثم إن عتبة خرج في سَفَر فجاءَ الأسد فأكله من بين رفاقه[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ استفهام على معنى التقرير على تفاهة الشيءِ الذي خَلَق الإنسانَ منه، وهي عبارة تصلح للتحقير وللتعظيم، والقرينةُ تبيِّن الغرض، وهذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾[٢]، و«النُّطفة» المشار إليها هي ماءُ الرجل وماءُ المرأَة. وقرأَ جمهور الناس: ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ بشدِّ الدال، وقرأَ بعض القُراءِ: [فَقَدَرَهُ] بتخفيفها، والمعنى: جعله بقدرٍ وحَدٍّ مَعْلوم من الأَعضاءِ والخُلُق والأَجل وغير ذلك من إنجابه حسب إرادته تعالىٰ في إنسانٍ إنسانٍ.

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ ـ فقال ابن عباس، وقتادة، وأَبو صالح، والسدي: هي سبيل الخروج من بطن المرأَة ورحمها، وقال

---

(١) قال الإمام السيوطي في الدر المنثور: «أخرج ابن المنذر عن عِكْرمة في قوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ قال: نزلت في عتبة بن أبي لهب حين قال: «كفرتُ بربِّ النجم إذا هوى، فدعا عليه النبي ﷺ فأخذه الأسد بطريق الشام». وروى الضحاك هذا الخبر عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكر ذلك القرطبي».

(٢) الآيتان (١٢)، (١٣) من سورة (المرسلات).

الحسن ما معناه: إنَّ السبيل هي سبيل النظر القويم المؤدي إلى الإيمان، وتَيْسيرُهُ له هو هِبَةُ العقل، وقال مجاهد: أراد السبيل عامة، اسم الجنس في «هدى وضلال»، أي: يَسَّر قوماً لهذا وقوماً لهذا، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[(١)].

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ معناه: أمر أن يُجعل له قبر، وفي ذلك تكريم لئلا يطرح كسائر الحيوان، والقابِرُ هو الذي يتناول جعل الميت في القبر، والمُقْبر هو الذي يأمر بقبر الميت ويقرِّره. و﴿أَنشَرَهُۥ﴾ معناه: أحياه، يقال: نَشَر الميِّتُ وأَنْشَرَهُ اللهُ، وقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا شَآءَ﴾ يريد: إذا بلغ الوقت الذي قد شاءَه، وهو يوم القيامة، وقرأ بعض القراءِ: ﴿إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ بتحقيق الهمزتين[(٢)]، وقرأ جمهور الناس: [إذا شا ءَانْشَرُه] بِمَدَّةٍ وبتسهيل الهمزة الأُولى، وقرأ شعيب بن أبي حمزة[(٣)]: [إِذَا شَاءَ نَشَرَهُ]، وقرأ الأعمش: [إذا شَا أَنْشَرَهُ] بهمزة واحدة.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ ردٌّ لما عَسى أن يكون للكفار من الاعتراضات في هذه الأقوال المسرودة، ونفي مؤكد لطاعة الإنسان لربه، وإثباتٌ أنه ترك حق الله تعالىٰ ولم يقض أمره، قال مجاهد: لا يقضي أحد أبداً ما افتُرض عليه. ثم أمر تعالىٰ الإنسان بالعبرة والنظر إلى طعامه والدليل فيه، وذهب أُبَيُّ بن كعب، ، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وغيرهم إلى أن المراد: إلى طعامه إذا صار رجيعاً ليتأمل حيث تصير عاقبة الدنيا، وعلى أي شيءٍ يتفانى أهلها، وتستدير رحاها، وهذا نظير ما روي عن ابن عمر أن الإنسان إذا أحدث فإن مَلَكاً يأخذ بناصيته عند فراغه فيردُّ بصره إلى نحوه مُوقِفاً له ومُعَجِّباً، فينفع ذلك مَنْ له عقل، وذهب الجمهور إلى أن معنى الآية: فلينظر الإنسان إلى مطعوماته وكيف يسَّرها الله تعالىٰ له بهذه الوسائط المذكورة من صبِّ الماءِ وشق الأرض، ويُروى أَنَّ رجلاً أضافه عابد، فقدم إليه رغيفاً قَفَاراً[(٤)] فكأن الرجل

---

(١) الآية (٣) من سورة (الإنسان).

(٢) في بعض النسخ: «بتخفيف الهمزتين»، والصواب ما أثبتناه.

(٣) هذا يوافق ما في القرطبي، ويؤكده أن صاحب البحر المحيط نقله عن ابن عطية هكذا: «وفي كتاب ابن عطية: وقرأ شعيب بن أبي حمزة»، ولكن في المحتسب: «ومن ذلك قراءة شعيب بن أبي عمرة» بالعين والراءِ، وأحسبه تصحيفاً. وشعيب هذا هو: أبو بشر بن دينار، المعروف باسم: شعيب بن أبي حمزة الأموي، قال عنه في تقريب التهذيب: «ثقة، عابد، مات سنة اثنتين وستين أو بعدها».

(٤) الخبزُ القَفَار: هو الخبز بدون إدام.

استخشنه، فقال له: كُلْه فإن الله تعالىٰ لم يُنْعم به ويُكَمِّله حتى سخَّر فيه ثلاثمائة وستين عاملاً، الماءُ والريح والشمس ثلاثة من ذلك.

وقرأ عاصمٌ، وحمزة، والكسائي: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا﴾ بفتح الأَلف على البدل، وهي قراءة الأَعرج، وابن وثاب، والأعمش، وردَّ على هذا الإعراب قومٌ بأن الثاني ليس من الأَول، وليس كما ردُّوا؛ لأَن المعنى: فلينظر الإنسان إلى إنعامنا في طعامه، فترتَّب البدل وصحَّ، و﴿أَنَّا﴾ في موضع خفض، وقرأ الجمهور: [إنّا صَبَبْنا] بكسر الأَلف على استئناف تفسير الطعام، وقرأ بعض الناس: [أَنّى] بمعنى كيف، ذكرها أَبو حاتم، وصبُّ الماءِ هو المطر، وشق الأَرض هو بالنَّبات.

و«الحَبُّ»: جمع حَبَّةٍ ـ بفتح الحاء ـ وهو كل ما يتخذه الناسُ ويؤثرونه كالقمح والشعير ونحوه، والحِبَّةُ ـ بكسر الحاءِ ـ كل ما ينبت من البذور ولا يُحتَفل به ولا هو بِمُتَّخَذٍ، و«القَضْب» قال بعض اللغويين هو الفَصَافِص[1]، وهذا عندي ضعيف لأَن الفَصَافص هي للبهائم، فهي داخلة في «الأَبِّ»، وقال أَبو عبيدة: القَضْب: الرَّطْبة[2]، وقال الحسن: هو العَلَف، وأَهل مكَّة يسمون القَتَّ القَضْبَ، قال ثعلب: لأَنه يُقضب كل يوم، والذي أَقول: إنَّ القَضْبَ هنا هو كل ما يُقْضب ليأكله ابن آدم غضًّا من النبات كالبقول والهليون[3] ونحوه، فإنه من المطعوم جزءٌ عظيم، ولا ذِكْر له في الآية إلاَّ في هذه اللفظة.

و«الغُلْب»: الغِلاظُ الناعمة القوية، و«الحديقةُ»: الشَّجر الذي قد أُحدق بجدار ونحوه، و«الأَبُّ»: الْمَرْعَى، قاله ابن عباس، وابن زيد، ومجاهد، وقتادة، وقال الضحاك: الأَبُّ: التِّين، وفي اللفظة غرابة، وقد توقف في تفسيرها أَبو بكر وعمر رضي الله عنهما. و[مَتاعاً] نصب على المصدر، والمعنى: تتمتعون به أَنتم وأَنعامكم، فابن آدم في السبعة المذكورة، والأَنعام في الأَبِّ.

---

(١) الفصافص: جمع فِصْفِصة، وهي نبات عُشْبي كَلَئِيٌّ مُعَمَّر من الفصيلة القرنية يُسَمَّى: البرسيم الحجَازي، وهو في الشام: فِصَّة. (المعجم الوسيط).

(٢) جاء في الصحاح: «والقَضْبَةُ والقَضْبُ: الرَّطبة، وهي الإسْفِسْتُ بالفارسية».

(٣) الهِلْيُون: جنس نبات من الفصيلة الزنبقية، فيه نوع زراعيٌّ مشهور يؤكل، وتسميه العامة: (كشك أَلماس) في مصر، وفيه أَنواع للتزيين، وأَنواعٌ بَرِّيَّة يتبقلونها ويستعملونها، كالهِلْيُون الزراعي. (المعجم الوسيط).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ ٱلصَّآخَّةُ ﴾: اسم من أَسماءِ يوم القيامة، واللفظة في حقيقتها إِنَّما هي لنفخة الصُّور التي تصخُّ الآذان أَيْ تُصِمُّها، ويستعمل هذا اللفظ في الداهية التي يُصِمُّ نبؤُها الآذان لصعوبتها، وهذه استعارة، وكذلك في الصيحة المفرطة التي يصعب وَقْعُها على الأُذن.

ثم ذكر تعالىٰ فِرار المرءِ من القوم الذين معهودهم أَلاَّ يفر عنهم في الشدائد، ثم رتَّبهم تعالىٰ الأَول فالأَول محبَّةً وحُنُوًّا، وقرأَ أَبو إِياس جؤية[1]: [مِنْ أَخِيهُ * وَأُمِّهُ وَأَبِيهُ] بضمِّ الهاءِ في كلها، قال مُنْذر بن سعيد وغيره: هذا الفرار هو خوف من أَن يتبع بعضهم بعضاً بتبعات، إِذ الْمُلاَبَسَةُ تَعَلُّق المطالبة، وقال جمهور الناس: إِنما ذلك لِشدَّة الهول، على نحو ما رُوي أَن الرُّسل تقول يومئذ: نفسي نفسي، لا أَسألك غيري[2]. و«الشَّأنُ الَّذي يُغْنيه» هو فكره في سيئاته، وخوفُه على نفسه من التخليد في النار، والمعنى: يُغنيه عن اللقاءِ مع غيره، والفكرة في أَمره، قال قتادة: أَفضى كلُّ إِنسان إِلى ما يشغله عن غيره[3]، وقال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «لا يضُرُّك في القيامة كان عليك ثياب أَم لا»، وقرأَ هذه الآية[4]. وقال عليه الصلاة والسلام نحوه لِسَوْدَةَ

(١) هو جُؤَيَّة بن عائذ، أَبو إياس. وقد ذكر اسمه لكثرة من عرف بأبي إياس.

(٢) جاء ذلك في حديث الشفاعة، وهو حديث متفق عليه، وسبق لنا تخريجه في أكثر من موضع من هذا التفسير، وفيه أن الناس يجتمعون في صعيد واحد يوم القيامة، وتدنو الشمس، ويبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يُطيقون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم ؟ أَلا تنظرون من يشفع لكم ؟ فيذهبون إلى آدم ويطلبون منه أن يشفع للناس، فيقول: (إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبْله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري)، فيذهبون إلى الأنبياء جميعاً واحداً بعد واحد، وكل نبي يقول نفسي نفسي. إلى أن يذهبوا إلى محمد ﷺ فيقول: أنا لها، أنا لها. . . الحديث.

(٣) الجملة في الطبري عن قتادة: «أَفضى إلى كل إنسان ما يشغله عن النّاس».

(٤) أخرج هذا الحديث ابن جرير عن أنس رضي الله عنه، قال: «سألت عائشة رسول الله ﷺ، قالت: يا رسول الله، بأَبي أَنت وأُمي، إنِّي سائلتُك عن حديث أَخبرني أنت به، قال: إن كان عندي منه علم، =

رضي الله عنها وقد قالت: واسَوْأَتاهُ، ينظر بعض الناس إلى بعض يوم القيامة[(١)]، وقرأ جمهور الناس: ﴿يُغْنِيهِ﴾ بالغين منقوطة وضمِّ الياءِ على ما فسَّرناه، وقرأ ابن محيصن والزهري، وابن السميفع: [يَعْنِيهِ] بفتح الياءِ وعين غير منقوطة، من قولك: عناني الأمرُ، أَي قصدني وأَرادني.

ثم ذكر تعالىٰ اختلاف الوجوه من المؤمنين الواثقين برحمة الله تعالىٰ حين بدت لهم تباشيرها، ومن الكفار، و﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ معناه: نَيِّرَةٌ بادٍ ضوؤها وسرورها. و﴿تَرْهَقُهَا﴾ معناه: تُلحُّ عليها، و﴿الْقَتَرَةُ﴾: الغبار، والغَبَرَةُ الأُولى إنما هي من العبوس والهمِّ، كما يُرى على وجه المهموم والميت والمريض شبه الغبار، وأَما القَتَرَةُ فغبارُ الأَرض، ويقال: إن ذلك يغشاهم من التراب الذي تَعودُ إِليه البهائم[(٢)]، ثم فسَّر تعالىٰ أَصحاب هذه الوجوه المغبرَّة بأنهم الكفرة، قريش يومئذ ومن جرى مجراها قديماً وحديثاً.

كمل تفسير سورة عبس والحمد لله رب العالمين

* * *

= قالت: يا نبي الله كيف يُحشر الرجال؟ قال: حُفاةً عُراةً، ثم انتظرت ساعة فقالت: يا نبي الله كيف يُحشر النساء؟ قال: كذلك حُفاةً عُراةً، قالت: واسَوْأَتاه من يوم القيامة، قال: وعن ذلك تسأليني؟ إنه قد نزلت عليَّ آيةٌ لا يَضرُّك كان عليك ثيابٌ أم لا، قالت: أَيُّ آية هي يا نبي الله؟ قال: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾. هكذا رواه الطبري في تفسيره، وأخرج مثله الحاكم وصححه ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها، وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يحشر الناس يومَ القيامة حفاةً... الحديث.

(١) أَخرجه الطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي، عن سودة بنت زمعة، قالت: قال النبي ﷺ: يبعث الناسُ حُفاةً عُراةً غُرلاً، قد أَلجمهم العرقُ وبلغ شحوم الآذان، قلت: يا رسول الله، واسَوأتاه، ينظر بعضنا إلى بعض، قال: شُغل الناسُ عن ذلك، وتلا: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾. (الدُّر المنثور)، وأخرج الطبراني في الأوسط بسند صحيح مثل ذلك عن أُم سَلمة رضي الله عنها.

(٢) أي ترجع، وفي الخبر: إن البهائم إذا صارت تراباً يوم القيامة حُوِّل ذلك التراب في وجوه الكفار.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة التكوير

وهي مكّيّة بإجماع من المتأولين(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾.

هذه كلها أَوصاف يوم القيامة، و«تكوير الشمس» هو أَن تُدار ويُذهب بها إِلى حيث شاءَ الله تعالىٰ، كما يُدار كَوْرُ العمامة(٢)، وعبَّر المفسرون عن ذلك بعبارات، فمنهم من قال: ذهب نورها، ومنهم من قال: رمي بها، قاله الربيع بن خثيم، وغير ذلك مما هو أَشياءُ تابعة لتكويرها. و«انكدار النجوم» هو انقضاضها وهبوطها من مواضعها، ومنه قول الراجز:

أَبْصَـر خِـرْبـانَ فَضـاءٍ فـانْكَـدَرْ   تَقَضِّيَ البَـازي إِذَا البـازي كَسَـرْ(٣)

---

(١) روى الترمذيُّ وحسَّنه، وأحمدُ، وابنُ المنذر، والطبرانيُّ، والحاكمُ وصحَّحه، وابنُ مردويه، عن بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّه أَن ينظر إِلى يوم القيامة كأَنه رأيُ عيْن فليقرأ: إذا الشَّمْسُ كُوِّرتْ، وإذا السَّماءُ انفطَرَتْ، وإذا السَّماءُ انشقَّتْ».

(٢) الكَوْرُ: الزِّيادة، يعني: كما تُدار الزيادة التي في طرف العمامة على الرأس، وقيل: كلُّ دارةٍ من العمامة كَوْرٌ، وكلُّ دَوْرٍ كَوْرٌ، وتَكْويرُ العمامة كَوْرُها.

(٣) هذان بيتان من الرجز قالهما العجَّاج بن رُؤْبة، وهما من قصيدة له يمدح عَمرَو بن عُبَيْد الله بن مَعْمر، وفي مطلعها يقول:

قَـدْ جَبَـرَ الـدِّيـنَ الإلَـهُ فَجَبَـرْ

وترتيب الأبيات هنا يختلف عما في الديوان، فهو هناك يقول عن ممدوحه: =

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ٱنكَدَرَتْ﴾: تغيَّرت، من قولهم: ماءٌ كَدِرٌ، أي متغيِّر اللون. و«تَسْيِيرُ الجبال» قيل: هو نسفها، وإنما ذلك في صدر هول يوم القيامة.

و«العِشارُ» جمع عُشَراءَ، وهي الناقة التي قد مرَّ لحملها عشرة أشهر، وهي أنْفس ما عند العرب، وتَهَمُّمُهُم بها عظيم للرغبة في نسلها، فإنما تُعطَّل عند شدة الأَهوال[1]، وقرأ مُضَر عن اليزيدي: [عُطِلَتْ] بتخفيف الطاءِ.

و«حَشْرُ الْوُحوش» هو جمعها، واختلف الناس في هذا الجمع، ما هو؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو حَشْرُها بالموت؛ لأنها لا تبعث يوم القيامة، ولا يحضر القيامة غير الثقلين[2]، وقال قتادة وجماعة: حشرت للجمع يوم القيامة، ويقتص للجَمَّاءِ من الْقَرْنَاءِ[3]، فجعلوا أَلفاظ الحديث حقيقة لا مجازاً، مثالاً في العدل[4]، وقال أُبَيُّ بن كعب: حشرت في الدنيا في أَول هول يوم القيامة، فإنها تَفِر في الأَرض، وتجتمع إِلى بني آدم تأَنُّساً بهم. وقرأَ الحسن: [حُشِّرتْ] بشد الشّين على المبالغة.

و«تَسْجيرُ البحار» قال قتادة، والضحاك: معناه: فرغت من مائها وذهبت حيث شاءَ الله تعالىٰ، وقال الحسن: يبست، وقال الربيع بن خثيم: معناه: مُلئت وفاضت

= دَانَى جَنَاحَيْهِ مِنَ الطُّورِ فَمَرْ ... تَقَضِّيَ الْبَازِي إذا الْبَازِي كَسَرْ
أَبْصَرَ خِزْبَانَ فَضَاءٍ فَانْكَدَرْ ... شَاكِي الْكَلالِيبِ إذا أَهْوَى اطَّفَرْ

والطُّور: جبل مختلف في موضعه، لكنه هنا يريد الشام، والخِزْبان: ذَكَرُ الحُبارى، أو هو الحُبارى كلها، والكلاليب: المخالب، واطَّفَر: ظَفر، وأَصله اظْتَفَر، فَقلبت التاءُ طاء وأدغمت في الظاءِ فصارت اطَّفَر. يقول: إن الممدوح مثل البازي الذي اقترب من جبل الطور، ثم انقض من أعلى الجو لأنه رأى أسراب الحبارى على الأرض، وله مخالب كأنها الكلاليب، وهو بانقضاضه هذا لا بد أن يظفر بصيده. والشاهد أن «انكدر» بمعنى: انقضَّ.

(١) إنما سُمِّيت في الآية (عِشاراً) باعتبار ما سبق لها، قال القرطبي: «وهذا على وجه التَمْثِيل، لأنه في القيامة لا يكون عُشَرَاء، فالمعنى أنه لو كان عُشَرَاءُ لعطَّلها أَهْلُها واشتغلوا بأنفسهم».

(٢) هما الجنُّ والإِنْس.

(٣) الجَمَّاءُ: الجلحاءُ التي لا قرون لها.

(٤) يشير إلى الحديث الشريف الذي أَخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٢٣٥، ٣٢٣، ٣٦٣ ـ ١/ ٧٢) عن أَبي هريرة رضي الله عنه، وهو: قال رسول الله ﷺ: «لَتُؤَدُّنَّ الحقوق إلى أَهلها يوم القيامة حتى يُقْتَصَّ للشاة الجَماء من الشَّاةِ القَرْناء تنطحها»، قال أَبو جعفر: «يعني في حديثه: يُقادُ للشاء الجلحاءِ». أي يؤخذ لها حقها.

وفُجِّرت من أَعاليها، وقال أُبي ابن كعب: وسُفيان، ووهْب، وابن زيد: معناه: أُضرمتْ ناراً كما يسجر التَّنُّورُ[١]، وقال ابن عباس: جهنم في البحر الأَخضر، ويحتمل أَن يكون المعنى: مُلِكت وقُيِّد اضطرابُها حتى لا تخرج على الأَرض بسبب الهول، فتكون اللفظة مأخوذة من «ساجور الكلب»[٢]، وقيل: هذه بحار نار في جهنم تسجر يوم القيامة، وقد تقدم نظير هذه الأَقوال منصوصة لأَهل العلم في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾[٣]، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [سُجِرَتْ] بتخفيف الجيم، وقرأَ الباقون بشدها، وهي مُتَرَجِّحةٌ بكون البحار جمعاً، كما قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾[٤]، وكما قال سبحانه: ﴿صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾[٥]، ومثله: ﴿قصر مشيد﴾[٦]، و﴿بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[٧] لأَنها جماعة، وذهب قوم من الملحدين إِلى أَن هذه الأَشياءَ المذكورة استعارات في كل ابن آدم وأَحوال له عند موته[٨]، فالشمسُ نفسُه، والنجومُ عيناه وحواسُّه، والعِشارُ ساقاهُ، وهذا قول سُوءٍ وخيم غَثٌّ ذاهبٌ إِلى إِثبات الرموز في كتاب الله تعالىٰ.

و«تَزْويجُ النُّفُوسِ» هو تنويعُها؛ لأَن الأَزواج هي الأَنواعُ، والمعنى: جُعل الكافر مع الكافر، والمؤمن مع المؤمن، وكل شكل مع شكله، رواه النعمان بن بشيرٍ عن النبي ﷺ[٩]، وقاله عمر بن الخطاب وابن عباس رضي الله عنهم، وقال: هذا نظير قوله

---

(١) التَّنور: الفُرن يخبز فيه، وجمعه: تنانير.
(٢) ساجور الكلب: قلادة أو خشبة توضع في عنقه.
(٣) الآية (٦) من سورة (الطور).
(٤) من الآية (١٣) من سورة (الإسراء).
(٥) من الآية (٥٢) من سورة (المدثّر).
(٦) من الآية (٤٥) من سورة (الحجّ).
(٧) من الآية (٧٨) من سورة (النساء).
(٨) في بعض النسخ: «استعاراتٌ كلها في ابن آدم وأحواله»، ولكن أكثر النسخ على ما أثبتناه.
(٩) أَخرج ابن مردويه عن النُّعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾، قال: «هما الرجلان يعملان العمل يدخلان الجنة والنار». وأَخرج عبد الرزاق، وابن أَبي شيبة، وسعيد بن منصور، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أَبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم وصححه والبيهقي في البعث، وأبو نعيم في الحلية، عن النعمان بن بشير، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سُئل عن قوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾، قال: يُقرنُ بين الرجل الصالح مع الصالح في الجنة، ويقرن بين الرجل السُّوء مع السُّوء في النار، فذلك تزويج الأَنفُس. وفي رواية=

تعالىٰ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾، وفي الآية ـ على هذا ـ حضٌّ على دليل الخير، فقد قال ﷺ: «المرءُ مع من أَحب»[١]، وقال عليه الصلاة والسلام: «فلينظر أَحدكم من يخالِلْ»[٢]. وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٣]، وقال مقاتل بن سليمان: زُوِّجت نفوس المؤمنين بزوجاتهم من الحور العين وغيرهن، وقال عكرمة، والضحاك، والشعبي: زُوِّجت الأَرواح بالأَجساد. وقرأَ عاصم: [زُووجَتْ] غير مدغم[٤].

و﴿الموؤودة﴾ اسم معناه: المثقل عليها، ومنه: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾[٥]، ومنه: «اتَّئِدْ»، أَي تَوَقَّر واثقل، وعُرف هذا الاسم في البنات اللواتي كان قوم من العرب يدفنونهن أَحياءً، يحفر الرجل شبه البئر أَو القبر ثم يسوق ابنته فيلقيها فيها، وإِذا كانت صغيرة جِدًّا خدَّ[٦] لها في الأَرض ودفنها، وبعضهم كان يفعل ذلك خشية الإِملاق وعدم المال، وبعضهم غيرةً وكراهيةً للبنات وجاهلية، وقرأَ الجمهور: ﴿ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ بهمزة من «وَأَدَ»، وفي حرف ابن مسعود: «وَإِذا الْمَاوُودَةُ»، وقرأَ البَزِّي: ﴿المَؤُودَةُ﴾ بهمزة

= لابن أبي حاتم عن النعمان بن بشير: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾، قال: الضُّرباءُ، كلُّ رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله، وذلك بأن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾، قال: هم الضُّرباءُ.

(١) أَخرجه البخاري في الأدب، ومسلم في البرِّ، والترمذي في الزهد والدعوات، والدارمي في الرقاق، وأَحمد في عشرات من المواضع، ولفظه كما في مسند أَحمد (٣/ ١٠٤): عن أَنس قال: كان يعجبنا أن يجيءَ الرجل من أَهل البادية فيسأَل رسول الله ﷺ، فجاءَ أَعرابي فقال: يا رسول الله متى قيام الساعة؟ وأُقيمت الصلاة فصلى رسول الله ﷺ، فلما فرغ من صلاته قال: أين السائل عن الساعة؟ قال: أنا يا رسول الله، قال: وما أعددتَ لها؟ قال: ما أَعددتُ لها من كثير عمل لا صلاة ولا صيام، إلا أَني أُحبُّ الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: المرءُ مع من أَحب، قال أَنس: فما رأَيتُ المسلمين فرحوا بعد الإِسلام بشيءٍ ما فرحوا به.

(٢) هذا جزءٌ من حديث أَخرجه أَبو داود والترمذي عن أَبي هريرة، ولفظه كما ذكره السيوطي في الجامع الصغير: «الرجلُ على دين خليله، فلينظر أَحدكم من يخالِلْ». وقد رمز له السيوطي بأنه حديث حسن.

(٣) من الآية (٦٧) من سورة (الزخرف).

(٤) الذي في الأُصول: ﴿زوجت﴾ بدون ضبط، وقد أَخذنا الضبط عن البحر المحيط حيث قال: «على فُوعِلَتَ، والمفاعلة تكون بين اثنين».

(٥) من آية الكرسي، ورقمها (٢٥٥) من سورة (البقرة).

(٦) خَدَّ: حَفَرَ وشَقَّ.

مضمومة على الواو مثل «المُعوذة»[١]، وقرأ بعض القراءِ: ﴿الْمَوُودَةُ﴾ بضم الواو الأُولى وتسهيل الهمزة، وقرأ الأعمش: [الْمَوْدَةُ] بسكون الواو على وزن «الفَعْلَة»، وقرأ بعض السلف: [الْمَوَدَّةُ] بفتح الواو والدال المشدَّة، جعل البنت مَوَدَّةً. وقرأ جمهور الناس: ﴿سُئِلَتْ﴾، وهذا على وجه التوبيخ للعرب الفاعلين ذلك؛ لأنها تُسأَل ليصير الأمر إلى سؤال الفاعلين، ويحتمل أن تكون: مَسئُولاً عنها مطلوباً الجواب منهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[٢]، وكما سئل التراث والحقوق. وقرأ ابن عباس، وأُبَيُّ بن كعب، وجابر بن زيد، وأبو الضحى، ومجاهد، وجماعة كبيرة منهم ابن مسعود، والربيع بن خثيم [سَأَلَتْ]، ثم اختلف هؤلاءِ، فقرأ أكثرهم: [قُتِلَتْ] بفتح اللام وسكون التاءِ [الثانية][٣]، وقرأ أبو جعفر: [قُتِّلَتْ] بشد التاءِ على المبالغة، وقرأ ابن عباس، وجابر، وأبو الضحى، ومجاهد: [قُتِلْتُ] بسكون اللام وضم التاءِ [الثانية]، وقرأ الأعرج: [سِيلَتْ] بكسر السين وفتح اللام دون همز. واستدل ابن عباس رضي الله عنهما بهذه الآية في أن أولاد المشركين في الجنة لأن الله تعالىٰ قد انتصر لهم ممن ظلمهم.

و«الصُّحف المنشورة» قيل: هي صحف الأعمال تنشر ليقرأ كل امرىءٍ كتابه، وقيل: هي الصحف التي تتطاير بالأَيمان والشمائل للجزاءِ، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وأبو جعفر، والأعرج، وشيبة، والحسن، وأبو رجاءِ، وقتادة: [نُشِرَتْ] بتخفيف الشين المكسورة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [نُشِّرَتْ] بشدِّ الشين على المبالغة. و«الكَشْطُ»: التقشير، وذلك كما يكشط جلد الشاة حين تسلخ، وكَشْط السماءِ هو طيُّها كَطَيِّ السِّجل، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: [قُشِطت] بالقاف، وهما بمعنى واحد.

و﴿سُعِّرَتْ﴾ معناه: أُضرمت نارها، وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: (سُعِّرَتْ) بشدِّ العين، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن

---

(١) قال في البحر المحيط: «يحتمل أن تكون كقراءة الجمهور، ثم نقل حركة الهمزة إلى الواو بعد حذف الهمزة، ثم همز الواو المنقول إليها الحركة، ويحتمل أن يكون اسم مفعول من آد. . . .».

(٢) من الآية (٣٤) من سورة (الإسراء).

(٣) ما بين العلامتين [. . . . .] زيادة للتوضيح، وقد تكرر ذلك مرة ثانية بعد قليل.

عاصم بتخفيفها، وهي قراءَة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وقال قتادة: سعَّرها غضب الله عزَّ وجلَّ وذنوب بني آدم.

و﴿أُزْلِفَتْ﴾ معناه: قُرِّبت ليدخلها المؤمنون، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة من المفسرين: إِلى هذين ما انتهى الحديث، وذلك أَن الغرض المقصود بقوله تعالىٰ: (وَإِذَا، وَإِذَا) في جميع ما ذكرنا إِنما تمَّ بقوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾، أَي: ما أَحضرت من شرٍّ فدخلت به جهنم، أَو من خير فدخلت به الجنة، و﴿نَفْسٌ﴾ هنا اسم جنس، أَي: علمت النفوسُ، ووقع الإِفراد لينبِّه الذِّهن على حقارة المرءِ الواحد وقِلَّة دفاعه عن نفسه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾، إِما أَن تكون [لاَ] زائدة، وإِما أَن يكون ردًّا لقول قريش في تكذيبهم بنبوَّة محمد ﷺ وقولهم: إِنه ساحر وكاهن ونحو ذلك، ثم أَقسم الله تعالىٰ بالخُنَّسِ الجواري الكُنَّسِ، فقال جمهور المفسرين: إِن ذلك الدَّراري السبعة، الشَّمسُ والقَمَرُ وزُحَلُ وعُطارِدُ وَالمرِّيخُ والزُّهَرَةُ والمُشْتِرِي. وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: المراد الخمسة دون الشمس والقمر، وذلك أَن هذه الكواكب تَخْنِسُ في جريها، أَي تتقهقر فيما ترى العين، وهي جوارٍ في السماءِ، وأَثبت يعقوب الياءَ في [الجواري] في الوقف، وحذفها الباقون، وهيَ تَكْنِسُ في أَبراجها، أَي تَسْتَتِرُ، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، والحسن، وقتادة: المرادُ النجومُ كلها، لأَنها تَخْنِسُ وتَكْنِس بالنهار حين تختفي، وقال عبد الله بن مسعود، والنَّخَعِيُّ، وجابر بن زيد، وجماعة من المفسرين: المراد «بالخُنَّس الجواري الكُنَّس» بقر الوحش لأَنها تفعل هذه الأَفعال في كناسها، وهي المواضع التي تأوي إِليها من الشجر والغِيران ونحوه، وقال ابن عباس، وابن جبير والضحاك: هي الظباءُ، وذهب هؤلاءِ في ﴿الخنس﴾ إِلى أَنه من صفة الأُنوف لأَنها يلزمها الخَنس، وكذلك هي بقر الوحش أَيضاً، ومن ذلك قول الشاعر:

سِوَى باز بِيضٍ أَوْ غَزالٍ صَرِيمَةٍ أَغَنٌّ من الخُنْسِ المَناخِرِ تَوْأَمِ(١)

و«عَسْعَسَ اللَّيْلُ» في اللغة إذا كان غير مستحكم الإظلام، فقال الحسن بن أبي الحسن: ذلك في وقت إقباله، وبه وقع القَسَم، وقال عليٌّ، وابن عباس، وزيد بن أَسلم، ومجاهد، وقتادة: ذلك عند إدباره وبه وقع القَسَم، ويرجح هذا قولُه تعالىٰ بَعْدُ: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، فكأنهما حالان متَّصلان، ويشهد لذلك قول علقمة بن قُرْطٍ:

حَتَّى إذا الصُّبْحُ لَها تَنَفَّسَا وَانْجابَ عَنْهَا لَيْلُها وَعَسْعَسَا(٢)

وقال أَبو العباس المبرد: أَقسم تعالىٰ بإقباله وإدباره معاً، قال الْخلِيلُ: يقال: عَسْعَسَ الليل وسَعْسَع إِذَا أَقبل وأَدبر.

و«تَنَفَّس الصُّبْحُ»: استطار واتَّسع ضوءُه، وقال علوان بن قيس:

وَلَيْلٍ دَجِيٍّ قد تَنَفَّسَ فجْرُهُ لَهُمْ بَعْدَ أَن خالُوهُ لَنْ يَتَنَفَّسَا(٣)

والضمير في [إِنَّهُ] للقرآن، و«الرسولُ الكريمُ» في قول جمهور الناس: جبريل عليه السلام، وقال آخرون: هو محمد عليه الصلاة والسلام في الآيات كلها، والقولُ الأَول

(١) البازُ: لغة في البازي، يقال: بازُ دَجْنٍ، وبازُ بيضٍ، وهو نوع من الصقور التي يُصادُ بها، والصَّريمة: القطعة المنقطعة من معظم الرمل، والأَغَنُّ: الذي في صوته غُنَّةٌ، وظبيٌ أَغَنُّ: يخرج صوته من خيشومه، والخَنَس في الأنف: تأَخُّره إلى الرأس وارتفاعه عن الشَّفة وليس بطويل ولا مُشْرف، وقيل: هو قِصَر الأنف ولزوقه بالوجه، وأصله في الظِّباءِ والبقر، وهو موضع الاستشهاد هنا، والمناخر: جمع مِنْخر، والتَّوْأَم: المولود مع غيره في بطن من الاثنين إلى ما زاد، ذكراً أو أُنثى. ولم أقف على قائل هذا البيت.

(٢) البيتان للعجاج، وهما من شواهد أَبي عبيدة في مجاز القرآن، وهما في الطبري، والقرطبي والبحر المحيط، وابن كثير. والتَّنَفُّس: استمداد النَّفَس، وتَنَفَّس الصُّبْحُ: تَبَلَّج وامتدَّ حتى صار نهاراً بيِّناً، وانْجَابَ: انكشف وذهب، وابن عطية يستشهد بالبيت على أن معنى (عَسْعَسَ) هو: أَدْبَرَ، وقال ابن كثير في تفسيره: «وعندي أَن المراد بقوله: ﴿إِذَا عَسۡعَسَ﴾: إذا أَقبل، وإن كان يصحُّ استعماله في الإدبار أَيضاً، لكن الإقبال ها هنا أَنسب، كأنه أَقسم بالليل وظلامه إذا أَقبل وبالفجر وضيائه إذا أَشرق، كما قال تعالىٰ: ﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، وهي وجهة نظر، واللغة تسمح بالرأيين، والله أعلم».

(٣) في بعض الروايات: (وليل رَجُوجيٍّ تَنَفَّس فَجْرُهُ)، وتَنَفَّس فَجْرُهُ: طَلَع، وقيل: أَضاءَ، والمعنى واحد، وخالوه: حسبوه لطول الليلِ وشدة ظلامه. والدُّجَى: سوادُ الليل مع غَيْم، يقال: دَجَا الليلُ فهو داجٍ ودَجِيٌّ.

أَصحُّ، و﴿كَرِيمٍ﴾ في هذه الآية صفة تقتضي رَفْع المذامِّ، ثم وصفه تعالىٰ بقوة منحه الله تعالىٰ إيّاها.

واختلف الناس في تعلُّق قوله تعالىٰ: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾، فذهب بعض المتأولين إلى تعلُّقه بقوله سبحانه: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾، وذهب آخرون إلى أن الكلام تمَّ في قوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾، وتعلَّق الظرف بقوله: ﴿مَكِينٍ﴾، ومعناه: له مكانة ورفعة.

وقوله تعالىٰ: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ معناه: مقبول القول مصدَّق فيما يقوله مُؤْتَمن على ما يُرسَل به ويؤديه مِن وحي وامتثال أَمْر، وقرأ أَبو جعفر: [ثُمَّ] بضم الثاءِ، وذكر الله تعالىٰ نفسه بالإضافة إلى عرشه تنبيهاً على عِظم ملكوته.

وأَجمع المفسرون على أَن قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ يُراد به محمد ﷺ، والضمير في ﴿رَءَاهُ﴾ لجبريل عليه السلام، وهذه الرؤية التي كانت بعد أَمْر غار حراءَ حين رآه على كرسي بين السماءِ والأَرض، وقيل: هي الرؤية التي رآه عند سدرة المنتهى في الإسراءِ، وسمَّى ذلك الموضع أُفُقاً مجازاً، وقد كانت لرسول الله ﷺ رؤية ثانية بالمدينة، وليست هذه. ووصف تعالىٰ الأُفُق بالمُبين لأَنه كان في الشرق من حيث تطلع الشمس، قاله قتادة، وأَيضاً فكلُّ أُفق فهو في غاية البيان.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ بالضاد بمعنى: بخيل، أَي: يشِحُّ به ولا يُبلِّغ ما قيل له ويبخل كما يفعل الكاهن حتى يُعطى حُلوانه[1]. وبالضاد هي في خطوط المصاحف كلها فيما قال الطبري، وهي قراءة نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، وعثمان بن عفان، وابن عباس، والحسن، وأَبي رجاءٍ، والأَعرج، وأَبي جعفر، وشيبة، وجماعة وافرة. وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، والكسائي، وابن مسعود، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وابن عُمر، وابن الزبير، وعائشة، وعمر بن عبد العزيز، وابن جُبَيْر، وعروة بن الزبير، ومسلم بن جندب، ومجاهد، وغيرهم: [بِظَنِين] بالظاءِ، أَي بِمُتَّهَم، وهذا في المعنى نظير وصفه بأَمِينٍ، وقيل: معناه: بضعيف القوة، من قولهم: بِئْرٌ ظَنون[2] إذا كانت قليلة الماءِ، ورجَّح أَبو عبيد قراءَة الظاءِ مشالة لأَن

---

(١) الحُلْوان: أُجرة الدَّلال، والرِّشوة.

(٢) جاءَ في اللسان: «بِئْرٌ ظَنون، قليلة الماءِ لا يُوثق بمائها.... وفي الحديث: فنزل على ثَمَدٍ بوادي الحُدَيْبِيَة ظَنُون الماءِ».

قريشاً لم تُبخِّل محمداً ﷺ فيما يأتي به وإنَّما كذبته فقيل ما هو بِمُتَّهم.

ثم نفى تعالىٰ عن القرآن أن يكون كلام شيطان، على ما قالت قريش إن محمداً كاهن، و﴿رَّجِيمٍ﴾ معناه مُبْعدٌ مَرْجومٌ بالكواكب واللعنة وغير ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ توقيف وتقرير، على معنى: أَين المذهب لأَحد عن هذه الحقائق، و«الذِّكْرُ» هنا مصدرٌ بمعنى التَّذْكِرَة. ثم خصَّص تعالىٰ من شاءَ الاستقامة بالذكر تشريفاً وتنبيهاً وذكراً لتكسُّبهم أَفعال الاستقامة. ثم بيَّن تعالىٰ أَن تكسُّب المرءِ على العموم في استقامة وغيرها إنما يكون مع خلق الله تعالىٰ واختراعه الإيمان في صدر المرءِ، ورُوي أنه نزل قوله تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ فقال أَبو جهل: هذا أَمْر قد وُكِلَ إِلَيْنَا، فإن شئنا استقمنا وإن لم نشأ لم نستقم، فنزلت: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وفي الحديث: «يقول الله: يابن آدم، تريد وأُريد، فتتعب فيما تريد، ولا يكون إلاَّ ما أُريد»[1].

كمل تفسير سورة التكوير والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) لَم أَقف عليه في جميع الكتب الصحيحة التي بين يدي، وقد قرأتُ حديثاً قدسيّاً أَخرجه أَبو عيسى الترمذي في صحيحه، عن أَبي ذرٍّ، جاءَ في آخره على لسان الحق تبارك وتعالىٰ: (ذلك بأَني جوادٌ ماجد، أفعل ما أُريد، عطائي كلام، وعذابي كلام، إنما أَمري إذا أردته أن أَقول له: كن فيكون).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الانفطار

وهي مكيّة كلها بإجماع من المفسرين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

هذه أَوصاف يوم القيامة. و«انفطارُ السماءِ» انشقاقُها على غير نظام مقصود، إنما هو انشقاق لتزول زينتها. و«انتثارُ الكواكب» سقوطُها من مواضعها التي هي فيها كالنظام. و«تفجير البحار» يحتمل أَن يكون من امتلائها فتفجر من أَعاليها وتفيض على ما يليها، ويحتمل أَن يكون تفجير تفريغ من قيعانها فيذهب الله تعالىٰ ماءَها حيث شاءَ، وقيل: يفجر بعضها إِلى بعض فيختلط العذبُ بالمِلْح وتصير واحداً، وهذا نحو الاختلاف في ﴿سُجِّرَتْ﴾ في السورة التي قَبْل. وقرأَ مجاهد والربيع بن خثيم: ﴿فُجِرَتْ﴾ بتخفيف الجيم. و«بَعْثرة القبور» نَبشُها عن الموتى الذين فيها.

وقوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ هو جوابُ [إِذَا]، و﴿نَفْسٌ﴾ هنا اسم الجنس: وإِفرادُها ليبين لذهن السامع حقارتها وقلّتها وضعفها عن منفعة ذاتها إِلاَّ من رحم الله تعالىٰ، وقال كثير من المفسرين في معنى قوله تعالىٰ: ﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾: إِنها عبارةٌ عن جميع الأَعمال؛ لأَن هذا التقسيم يعم الطاعات المعلومة والمتروكة، وكذلك المعاصي. وقال ابن عباس ومحمد بن كعب القُرظي: معناه: ما قدمت في حياتها وما أَخرت مِمَّا سَنّتْهُ فعمل به بعد موتها.

ثم خاطب تعالىٰ جنس ابن آدم فوقَّفَه ـ على جهة التوبيخ والتنبيه ـ على أَي شيءٍ

أَوجب أَن يغتَرَّ بربِّه الكريم فيعصيه ويجعل له نِدًّا، وغير ذلك من أَنواع الكفر، وهو الخالق المُوجِد بعد العدم. ورُوي أَن النبي ﷺ قرأَ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ فقال: جهله[1]، وقاله عمر رضي الله عنه وقرأَ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[2]، وقال قتادة: غرَّه عدوُّه المسلَّط عليه، وقال بعض العلماءِ: غرَّه ستر الله تعالىٰ عليه، وقال غيرُه: غرَّه كرم الله تعالىٰ. ولفظة «الكريم» تُلَقِّن هذا الجواب، فهذا من لطف الله عزَّ وجلَّ بعباده العصاة المؤمنين. وقرأَ ابن جبير، والأَعمش: (مَا أَغرَّكَ) على وزن أَفْعَلَك، والمعنى: ما دعاك إِلى الاغترار؟ ويكون المعنى تعجُّباً مَحضاً. وقرأَ الجمهور: [فعدَّلك] بشدِّ الدال، وقرأَ الكوفيون، والحسن، وأَبو جعفر، وطلحة، والأَعمش، وأَبو رجاءِ، وعيسى، وعمرو بن عبيد: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بتخفيف الدال، والمعنى: عدل أَعضاءَك بعضها ببعض، أَي وازَنَ بينها.

قوله تعالىٰ: ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾، ذهب الجمهور إِلى أَن [في] متعلقة بـ ﴿رَكَّبَكَ﴾، أَي: في صورة قبيحة أَو حَسَنة أَو مشوَّهة أَو سليمة أَو نحو ذلك، وذهب بعض المتأولين إِلى أَن المعنى: فعدلك في أَيِّ صورة، بمعنى: إِلى أَيِّ صورة، حتى قال بعضهم: المعنى: لم يجعلك في صورة خنزير ولا حمار، وذهب بعض المتأولين إِلى أَن المعنى الوعيد والتهديد، أَي: الذي إِن شاءَ ركبك في صورة حمار أَو خنزير أَو غيره، و[ما] في قوله تعالىٰ: ﴿مَا شَآءَ﴾ زائدة، فيها معنى التأكيد والتركيب والتأليف وجمع شيءٍ إِلى شيءٍ، وروى خارجةُ عن نافع: (رَكَّبَك كَلاَّ) بإِدغام الكاف في الكاف.

ثم ردَّ تعالىٰ على سائر أَقوالهم ورَدَعَ عنها بقوله سبحانه: ﴿كَلَّا﴾، ثم أَثبت تعالىٰ لهم تكذيبهم بالدِّين، وهذا الخطاب عام ومعناه الخصوص في الكفار، وقرأَ جمهور الناس: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ بالتاءِ من فوق، وقرأَ الحسن وأَبو جعفر: [يُكَذِّبونَ] بالياءِ، و«الدِّينُ» هنا يحتمل أَن يريد به الشرع، ويحتمل أَن يريد الجزاءَ والحساب.

و«الْحَافِظُونَ» هم الملائكة الذين يكتبون أَعمال ابن آدم، ووصفهم تعالىٰ بالكرم الذي هو نفي الْمَذَامِّ، و(يَعْلَمُونَ ما يَفْعَلُونَ) لمشاهدتهم حال بني آدم، وقد روي

(١) أَخرجه عبد بن حميد عن صالح بن مسمار، قال: بلغني أن النبي ﷺ تلا هذه الآية... الحديث.

(٢) أَخرجه سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والآية الكريمة من سورة (الأحزاب) ورقمها (٧٢).

حديث ذكره سفيان يقتضي أن العبد إذا عمل سيئةً مما لا يُرى ولا يُسمع مثل الخواطر المستَصْحبة ونحوها أن الملَك يجد ريح تلك الخطيئة بإدراك قد خلقه الله تعالىٰ لهم[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾.

«الأَبْرَارُ» جمع بَرٍّ، وهو الذي قد اطَّردَ بِرُّه عموماً، فَبَرَّ ربَّه في طاعته إياه، وبَرَّ أَبويه، وبَرَّ الناسَ في رفْع ضره عنهم، وجلب ما استطاع من الخير لهم، وبَرَّ الحيوان وغير ذلك في أن لم يفسد منها شيئاً عبثاً وبغير منفعة مباحة، و«الفُجَّارُ» الكُفَّارُ، و[يَصْلَوْنَهَا] معناه: يباشرون حرَّها بأبدانهم، و«يَوْمُ الدِّين» هو يوم الجزاءِ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾، قال بعض المتأولين: هذا تأكيد في الإخبار عن أنهم يَصْلَونها، وأَنهم لا يمكنهم المغيب عنها يومئذ، وقال آخرون: المعنى: وما هم عنها بغائبين في البرزخ، كأنه تعالىٰ لمَّا أَخبر عن صَلْيهم إِيَّاها يوم الدِّين أَخبر بعد ذلك عن المدة التي قَبْل يوم الدِّين، وذلك أَنهم يرون مقاعدهم من النار غُدوة وعَشِيَّة، فهم مشاهدون لها. ثم عظَّم تعالىٰ قَدْر هوْل يوم الدِّين بقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾، ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ﴾.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وابن أَبي إِسحاق، وعيسى، وابن جندب [يَوْمُ] برفع الميم على معنى: هو، يومُ وقرأَ الباقون، والحسن، وأَبو جعفر وشيبة، والأَعرج: [يَوْمَ] بالنصب على الظرف، والمعنى: الجزاءُ يومَ، فهو ظرف في معنى خبر الابتداءِ.

ثم أَخبر تعالىٰ بضَعْف الناس يومئذ، وأَنه لا يغني بعضهم عن بعض، وأَن الأَمر له تبارك وتعالىٰ، قال قتادة: كذلك هو اليوم، والله تعالىٰ هنالك لا يُنازعه أَحد، ولا يُمَكِّن أَحداً من شيءٍ كما مكَّنه في الدنيا.

كمل تفسير سورة الانفطار والحمد لله رب العالمين

---

(١) الذي ذكره القرطبي هنا أن سفيان هو القائل، قال: «وسُئل سفيان: كيف تعلم الملائكة أن العبد قد همَّ بحسنة أو سيِّئة؟ قال: إذا همَّ العبد بحسنة وجدوا منه ريح المسك، وإذا همَّ بسيئة وجدوا منه ريح النَّتن».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة المطففين

وهي مكيّة في قول جماعة من المفسرين، واحتجوا بذكر الأَساطير، وهذا على أَن تطفيف الكيل والوزن كان بمكة حسب ما هو في كل أُمّة، لا سِيَّما مع كفرهم، وقال ابن عباس، والسدي، والنقاش، وغيرهم: السورة مدنية، قال السدي: كان بالمدينة رجل يُكنى أَبا جهنية، له مكيالان، يأخذ بالأَوفى ويُعطي بالأَنقص، فنزلت السورة، ويقال: إِنها أَول سورة أُنزلت بالمدينة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً ـ فيما روي عنه ـ: نزل بعضها بمكة، ونزل أَمر التطفيف بالمدينة؛ لأَنهم كانوا أَشدَّ الناس فساداً في هذا المعنى، فأَصلحهم الله تعالىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَمر الكيل والوزن وكيدٌ جداً، وتصرُّفه في المدن ضروري في الأَموال التي هي حرامٌ بغير حق، والإِفسادُ فيه كبيرةٌ لا يَنفع فيها دافِعٌ إِلاَّ التوبة، ولا يُخَلِّص إِلاَّ ردُّ الْمَظْلَمة إِلى صاحبها. قال مالك بن دينار: احتضر جارٌ لي، فجعل يقول: جبلان من نار، فقلتُ له: ما هذا؟ فقال: يا أَبا يحيى، كان لي مكيالان، آخذُ بالوافي وأُعطي بالناقص، وقال عِكرمة: أَشهد على كلِّ كيَّالٍ أَوْ وزَّان أَنه في النار، وقال بعض العرب: لا تلتمسوا المُرُوءَةَ ممن مُرُوءَتُه في رؤوس المكاييل وأَلْسنة الموازين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَيْلٌ ﴾ معناه: الثُّبور والحزن والشقاءُ الأَدْوم، وقد روي عن ابن مسعود وغيره أَنَّ وادياً في جهنم يسمَّى وَيْلاً، ورفع [وَيْلٌ] على الابتداءِ، ورفعه على معنى: ثبت لهم واستقر، وما كان في حيِّز الدعاءِ والتَّرقب فهو منصوب نحو قولهم:

رغياً وسَقْياً. و«الْمُطَفِّفُ»: الذي ينقص الناسَ حقوقهم، والتطفيف: النُّقصان، أَصله من الشيءِ الطفيف وهو النَّزر، والمُطَفِّف إنما يأخذ بالميزان شيئاً طفيفاً. وقال سلمان: الصلاة مكيالٌ، فمن أَوفى أُوفي له، ومن طفَّف فقد علمتم ما قال الله تعالىٰ في المطففين، وقال بعض العلماءِ: يدخل التَّطفيف في كل عمل وقول، ومنه قول عمر رضي الله عنه: طفَّفت معناه: نقصت الأَجر أَو العمل، ولذلك قال مالك رحمه الله: يقال لكل شيءٍ وفاءٌ وتطفيف، فجاءَ بالنَّقيضين. وقد ذهب بعض الناس إِلى أَن التَّطفيف هو تجاوز الحدِّ في وفاءٍ أَو نُقصانٍ، والمعنى والقرائن بحسب قولٍ قولٍ تبيِّنُ المراد، وهذا عندي حدٌّ صحيح، وقد بيَّن الله تعالىٰ أَن التَّطفيف ها هنا إِنما أَراد به أَمر الوزن والكيل.

و﴿ ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[1] معناه: قبضوا منهم، و﴿ كَالُوهُمْ ﴾ معناه: أَقبضوهم، يقال: كِلْتُ منك واكْتَلْتُ عليك، ويقال: كِلْتُكَ وكِلْتُ لك، فلما حذفت اللام تعدَّى الفعل، قاله الفراءُ والأَخفش وأَنشد أَبو زيد:

وَلَقَــدْ جَنَيْتُــكَ أَكْمُــؤاً وَعَسَـاقِــلاً ... وَلَقَـدْ نَهَيْتُـكَ عَـنْ بَنَـاتِ الأَوْبَـرِ[2]

وعلى هذا المعنى هي قراءَة الجمهور، وكان عيسى بن عُمر يَجْعلها حرفين[3]، ويقف على [كالُوا] [أَوْ وَزَنُوا] ويبتدىءُ ﴿هم يخسرون﴾، أَي: إِذا كالوا أَوْ وزنوا،

---

(١) قال الفراءُ في (معاني القرآن): «﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ ﴾، الهاءُ في موضع نصب، تقول: قد كِلْتُك طعاماً كثيراً، وكِلْتَني مثلَه، تريد: كِلْتَ لي، وكِلْتُ لك، وسُمِعَتْ أَعرابية تقول: إذا صدر الناس أَتينا التاجر، فيكيلُنا المُدَّ والمُدَّيْن إلى الموسم المقبل، فهذا شاهد، وهو من كلام أَهل الحجاز ومَن جاورهم من قيس».

(٢) هذا البيت مجهول القائل، وهو في اللسان، وابن عقيل، والمغني لابن هشام، وهو من شواهد النحويين، وكذلك استشهد به من المفسرين الزمخشري في الكشاف، والأَكْمُؤُ: جمع كَمْءٍ، وهو فُطْر من الفصيلة الكَمْئيَّة، وهي أَرضية تنتفخ حاملات أَبواغها فتُجنى وتُؤكل مطبوخة، وهي مختلفة الأحجام والأنواع، والعَسَاقِلُ: نوع من الكَمْأَة أَبيضُ اللون، والمفرد عُسْقُول، وهو جزءٌ من جذر يكون في الأرض مكْتَنزاً مُنْتَفِخاً محتوياً على مواد غذائية كالبطاطس «وابن أَوْبَر» أَيضاً عَلَم على نوع رديء من الكمأَة، ثم جُمع على «بَنات أَوْبَر» كما يقال في جمع بن عُرْس: «بناتُ عُرس» ولا يقال: «بنُو عُرْس» لأنه لما لا يعقل. والبيت شاهد على أَنه يجوز حذف اللام ويتعدى الفعل بنفسه، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾، أَي قدَّرنا لَهُ، ويقال: وهبتُك ديناراً وصدتك ظبياً، أَي: وهبتُ لك، وصدتُ لك.

(٣) أي كلمتين.

ورويت عن حمزة(١)، فقوله تعالىٰ: [هُمْ] تأكيد للضمير. وظاهر هذه الآية يقتضي أن الكيل والوزن على البائع، وليس ذلك بالجليِّ، وصدر الآية هو في المشترين، قدَّمهم بأَنهم يستوفون ويشاحُّون في ذلك، إِذ لا تمكنهم الزيادة على الاستيفاءِ لأَن البائع يحفظ نفسه، فهذا مبلغ قدرتهم في ترك الفضيلة والسماحة والمندوب إِليه، ثم ذكر تعالىٰ أَنهم إِذا باعوا أَمكنهم من الظلم والتطفيف أَن يُخْسِروا لأَنهم يتولون الكيل للمشتري منهم، وكذلك هم بحالة من يُخْسِر البائع إِن قدر. و[يُخْسِرُونَ] تَعَدَّى بالهمزة، يقال: خَسِر الرجلُ وأَخْسَرَ غيره، والمفعول بـ[كَالُوا] محذوف.

ثم وقفهم تعالىٰ على أَمر القيامة وذَكَّرهم بها، وهذا يؤيد أَنها نزلت بالمدينة في قوم مؤمنين، وأُريد بها ـ مع ذلك ـ من غير هذه الأُمة. و[يَظُنُّ] هنا بمعنى يتحقق ويعلم. و«اليومُ العظيمُ» يومُ القيامة، و[يَوْمَ] ظرف عمل فيه فعلٌ مقدَّر، «تُبعثون» ونحوه، وقال الفراءُ: هو بدل من «يومِ عظِيم» لكنه مبني، ويأبى ذلك البصريون لأَنه مضاف إِلى مُعْرب.

و«قيامُ الناسِ فيه لربِّ العالمين» يختلف الناسُ فيه بحسب منازلهم، فروي عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أَنه يقام فيه خمسين أَلف سنة(٢)، وهذا بتقدير شدته، وقيل: ثلاثمائة سنة، قاله النبي عليه الصلاة والسلام(٣)، وقال ابن عُمر: مائة سنة، وقيل: ثمانون سنة، وقال ابن مسعود: أَربعون سنة رافعي رؤوسهم إِلى السماءِ لا يُؤْمرون ولا يكلَّمون، وقيل غير هذا، وفي هذا كله آثارٌ مروية، ومعناها أَن كُلَّ مُدَّةٍ

(١) والذي روى ذلك هو أَبو عُبَيْدٍ، ولكنه قال: والاختيارُ أَن يكونا كلمة واحدةً من جهتين: إِحداهما: الخَطُّ، وذلك أَنهم كتبوهما بغير أَلف، ولو كانتا مقطوعتين لكتبتا: (كالوا) و(وزَنُوا) بالألف في الآخر، والأخرى أنه يقال: كِلْتُك ووزَنْتُك بمعنى: كِلْتُ لَكَ ووزنتُ لك.

(٢) أَخرجه الطبراني، وأَبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن ابن عمر ـ هكذا في الدرِّ المنثور، وليس ابن عمرو كما في الأصول هنا ـ ولفظه كما ذكره في الدر المنثور: قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال: كيف بكم إذا جمعكم الله كما يُجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظرُ إليكم؟

(٣) أَخرج ابن مردويه عن أَبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال لبشير الغفاريِّ: كيف أَنتَ صانعٌ في يوم يقوم الناس لربِّ العالمين مقدار ثلاثمائة سنة من أيام الدنيا، لا يأتيهم خبر من السماء، ولا يُؤْمَر فيهم بأمر؟ قال بشير: المستعانُ بالله يا رسول الله، قال: إذا أَويتَ إلى فراشك فتعوَّذ بالله من شرِّ يوم القيامة ومن شرِّ الحساب.

لقوم ما تقتضي حالهم وشدَّة أَمرهم ذلك، ورُوي أَن القيام فيه على المؤمن هو على ما بين الظهر إلى العصر، ورُوي أَنه على بعض الناس على قدر صلاة مكتوبة، وفي هذا القيام هو إلجام العرق للناس، وهو أَيضاً مُخْتَلِفٌ، فيروى عن النبي ﷺ من طريق عقبة بن عامر أَنه يُلجم الكافر إلجاماً[(١)]، ويروى أَن بعض الناس يكون فيه إلى أَنصاف ساقيه، وبعضهم إلى فوق، وبعضهم إلى أَسفل[(٢)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾.

هذه الآية وما بعدها يظهر أَنها من نمط المكيِّ، وهو أَحد الأقوال التي ذكرناها قَبْل. و﴿كَلَّآ﴾ يجوز أَن تكون ردًّا لأَقوال قريش، ويحتمل أَن تكون استفتاحاً بمنزلة «أَلاَ»، وهذا قول أَبي حاتم واختياره، و﴿ٱلْفُجَّارَ﴾: الكفار، و«كِتَابُهُم» يراد به الذي فيه تحصيل أَمرهم وأَفعالهم، ويحتمل عندي أَن يكون المعنى: وعدادُهم وكتاب كونهم هو في سِجِّين، أَي: هنالك كُتبوا في الأَزل. وقرأَ أَبو عمرو، والأَعرج وعيسى: [الفُجَّارِ] بالإمالة، و«الأَبْرار» بالفتح، قاله أَبو حاتم.

واختلف الناس في [سِجِّينٍ] ما هو؟ فقال الجمهور: هو فِعِّيل من السَّجن، كسكِّير وشرِّيب، أَيْ في موقع ساجِنٍ وساكر وشارب، فجاءَ «سِجِّين» بناءَ مبالغة، قال مجاهد: وذلك في صخرة تحت الأَرض السابعة، وقال كعبٌ حاكياً عن التوراة، وأُبَيُّ بن كعب: هو في شجرة سوداءَ هنالك، وقيل ـ عن النبي عليه الصلاة والسلام ـ

---

(١) أَخرج مالك، وهناد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن المنذر، وابن مردويه، عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أَحدهم في رشحه إلى أَنصاف أُذنيه.

(٢) أَخرجه مسلم في الجنة، والترمذي في القيامة، وأَحمد في مسنده (٥/ ٢٥٤، ٦/ ٤)، ولفظه كما جاء فيه: عن أَبي أُمامة أن رسول الله ﷺ قال: تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل، ويُزاد في حرها كذا وكذا، يغلي منها الهوام كما تغلي القُدُورُ، يعرقون فيها على قدر خطاياهم. منهم من يبلغ إلى كعبيه، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه، ومنهم من يبلغ إلى وسطه، ومنهم من يلجمه العرق.

في بئر هنالك[(١)]، وقيل تحت خَدِّ[(٢)] إبليس، وقال عطاءٌ الخراساني: هي الأَرض السفلى، وقاله البَرَاءُ عن النبي ﷺ، وقال عكرمة: «سِجِّين» عبارة عن الخسار والهوان، كما تقول: بلغ فلان الحضيض، إذا صار في غاية الخمول، وقال قوم من اللغويين: «سِجِّين» نُونُه بدلٌ من لامٍ، وهو من السِّجيل. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾ تعظيم لأَمر هذا السجين وتعجيب منه، ويحتمل أن يكون تقريرَ استفهام، أَي: هذا مما لم تكن تعلمه قبل الوحي.

قوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾، مَنْ قال بالقول الأَول في [سِجِّين] فـ [كِتابٌ] مرتفع عنده على خبر [إِنَّ]، والظَّرف الذي هو ﴿لَفِي سِجِّينٖ﴾ ملغى، ومَنْ قال في [سِجِّينٍ] بالقول الثاني فـ [كِتابٌ] مرتفع عنده على خبر ابتداءٍ مضمر، والتقدير، هو كتاب مرقوم، ويكون هذا الكلام مُفَسِّراً لـ [سِجِّينٍ]، ما هو. و[مَرْقومٌ] معناه: مكتوبٌ رُقِم لهم بِشَرٍّ، ثم أَثبت تعالىٰ للمكذبين بيوم الحساب والدينِ الويلَ.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ إشارة إلى ما يتضمنه المعنى في قوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾، وذلك أَنه يتضمَّن أَنه يُرفع ليوم عَرْض وجزاءٍ، وبهذا يتم الوعيد ويتَّجه معناه، و«الْمُتَعَدِّي»: الذي يتجاوز حدود الأَشياءِ، و[أَثِيم] مبالغة في «آثِم». وقرأَ الجمهور: [تُتْلَى] بالتاءِ، وقرأَ أَبو حيوة: [يُتْلَى] بالياءِ من تحت. و«الأَساطِيرُ» جمع أُسطورة وهي الحكايات التي سطِّرت قديماً، وقيل: هو جمع أَسطارٍ، وأَسطارٌ جمع سَطْر، ويروى أَن هذه الآية نزلت بمكَّة في النضر بن الحارث بن كِلْدة، وهو الذي كان يقول: أَساطير الأَولين، وكان هو قد كتب بالحِيرَة أَحاديث رُستم واسفنديار، وكان يُحدِّث بها بمكة ويقول: أَنا أَحسن حديثاً من محمد، فإنما يحدثكم بأَساطير الأَولين.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّاۖ﴾ زجرٌ وردٌّ لقولهم «أَساطير الأَولين»، ثم أَوجب تعالىٰ أَن ما كَسَبُوا من الكفر والطغيان والعتو قَدْ ران على قلوبهم، أَي غطَّى عليها وغَلَب، فهم مع ذلك لا يبصرون رشداً، ولا يخلُص إلى قلوبهم خير، يقال: رانت الخمر على عقل

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره عن أَبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «الفَلَقُ جُبٌّ في جهنم مُغَطىً، وأَمَّا سِجِّينٌ فمفتوحٌ». قال ابن كثير بعد أن ذكر هذا الخبر: «وهو حديث غريب مُنْكرٌ لا يصحُّ، والصحيح أَن سِجِّيناً مأخوذ من السجن وهو الضِّيق»، ثم ذكر ما يراه دليلاً على ذلك.

(٢) في بعض الأصول: «حَدِّ إبليس» بالحاءِ دون نقط، وهو يوافق ما في الطبري، وفي بعضها: «خَد» بالخاءِ المنقوطة، وهو يوافق ما في القرطبي والدر المنثور وفتح القدير.

شاربها، وران الغَشْيُ على قلب المريض، وكذلك الموتُ، ومنه قول الشاعر:

ثُــمَّ لمَّــا رآهُ رانــتْ بِــهِ الخَمْـ ـــرُ وألاَّ تــرينَــهُ بــاتِّقــاءِ(١)

والبيت لأبي زُبَيْد، قال الحسن، وقتادة: الرَّيْن: الذَّنب على الذَّنب حتى يموت القلب، ويُروى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الرجل إذا أذنب صارت نُكْتة سوداءُ في قلبه، ثم كذلك حتى يتغطى، فذلك الران الذي قال الله تعالىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾(٢). وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر بإدغام اللام في الراءِ، وقرأ نافع أيضاً بالإدغام والإمالة، وقال أبو حاتم: القراءَةُ بالفتح والإدغام، وعلَّق تعالىٰ اللوم بهم فيما كسبوه ـ وإن كان ذلك بخلْقٍ منه سبحانه واختراع ـ لأن الثواب والعقاب متعلِّق بكسب العبد، و﴿كَلَّآ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ﴾ يصلح فيها الوجهان اللذان تقدم ذكرهما، والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ﴾ وفي ﴿رَّبِّهِمْ﴾ هو للكفَّار، فَمَنْ قال بالرؤية ـ وهم أهل السُّنة ـ قال: إنَّ هؤلاءِ لا يرون ربهم، فهم محجوبون عنه، واحتجَّ بهذه الآية مالكُ بن أنس عن مسألة الرؤية من جهة دليل الخطاب، وإلاَّ فلو حَجَب الرؤيةَ عن الكلِّ لما أغنى هذا التخصيص، وقال الشافعي: فلمَّا حجبَ قوماً بالسخط دلَّ أن قوماً يرونه بالرضى. ومَنْ قال بألاَّ رؤية ـ وهو قول المعتزلة ـ قال في هذه الآية: إنهم محجوبون عن رحمة ربهم وغُفرانه. و«صَلْيُ الْجَحِيمِ» هو مباشرة حرِّ النار دون حائل.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ هو على معنى التوبيخ لهم والتقريع، وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ مفعول لم يُسَمَّ فاعله؛ لأنه قول بُني له الفعل الذي هو [يُقالُ](٣)، وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَآ﴾ إشارةٌ إلى تعذيبهم وكونهم في الجحيم.

---

(١) البيت في اللسان (ران) منسوباً لأبي زُبَيْد، وقد استشهد به أبو عُبيدة في (مجاز القرآن)، وهو في وصف سكران غلبت عليه الخمر، يقال: رانَتْ به الخمر، أي غلبت على قلبه وعقله، وكلُّ ما غلبك وعلاكَ فقد ران بك وران عليك.

(٢) أخرجه أحمد، وعبد بن حميد، والحاكم، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن حبان، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يناقش أبو حيان الأندلسي هذا الكلام مناقشة طويلة عند تفسير قوله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۝٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩﴾.

لما ذكر تعالىٰ أَمر كتاب الفجار عقَّب ذلك بذكْر كتاب ضدهم ليبين الفرق، و«الأَبْرارُ» جمع بَرٍّ، وقرأَ ابن عامر بكسر الراءِ، وقرأَ ابن كثير، ونافع بفتحها، وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي بإمالتها. و﴿عِلِّيُّونَ﴾ هو جمع عِلِّيي، عَلَى وزن فِعِّيل بناءَ مبالغة، يريد بذلك الملائكة فلذلك أُعرب بالواو والنون، وقيل: يريد المواضع العَلِيَّةَ لأَنَّهُ عُلُوٌّ فوق عُلُوٍّ، فَلمَّا كان هذا الاسم على هذا الوزن لا واحد له أَشبه «عشرين» فأُعرب إِعراب الجموع إِذْ أَشبهها، وهو أَيضاً مثل «قِنَّسْرين»، فإِنك تقول: طابت قِنَّسْرونَ ودخلت قِنَّسْرينَ[1].

واختلف الناس في الموضع المعروف بِعِلِّيِّينَ، ما هو؟ فقال قتادة: قائمة العرش اليُمْنى، وقال ابن عباس: السماءُ السابعة تحت العرش، وروي ذلك عن النبي عليه الصلاة والسلام، وقال الضحاك: هو عند سِدْرة المنتهى، وقال ابن عباس: العِلِّيُّونَ: الجنة، وقال مكي: وقيل هو في السماءِ الرابعة، وقال الفراءُ عن بعض العلماءِ: هو في السماءِ الدنيا، والمعنى أَن كتابهم الذي فيه أَعمالهم هنالك تَهَمُّماً بها وترفيعاً لها، وأَعمال الفجار في سِجِّين في أَسفل سافلين؛ لأَنه روي عن أُبَيٍّ بن كعب، وابن عباس أَن أَعمالهم يُصعد بها إِلى السماءِ فتأْباهَا، ثم تُردُّ إِلى الأَرض فتأْباها أَرْضٌ بعد أَرض حتى تنتهي في سِجِّين تحت الأَرض السابعة. و﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ في هذه الآية خبر [إِنَّ] والظَّرْف مُلْغى[2]. و«الْمُقَرَّبون» في هذا الموضع الملائكة المُقَرَّبون عند الله تعالىٰ،

---

(١) بكسر القاف وفتح النون المشددة ثم سين بدون نقط، وقد تكسر النون مع التشديد، وهي مدينة بالشام تمَّ فتحها على يد أَبي عبيدة بن الجراح سنة ١٧ للهجرة، وكانت شيئاً واحداً مع حمص. (راجع معجم البلدان للحموي (٥/ ٤٠٢ وما بعدها).

(٢) ذكر أَبو حيان الأَندلسي هذا الإِعراب عن ابن عطية، ثم اعترض عليه بقوله: «وقول ابن عطية (والظرف الذي هو ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾ مُلْغَى» قولٌ لا يصحُّ، لأَن اللام التي في ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾ داخلة على الخبر، =

أَهل كل سماءٍ، قاله ابن عباس وغيره.

و﴿الأرائِكُ﴾ جمع أَريكة، وهي السُّرُر في الحجال، و﴿يَنْظرونَ﴾ معناه: إِلى ما عندهم من النعيم، ويحتمل أَن يريد: بعضُهم إِلى بعض، وقيل ـ عن النبي ﷺ ـ: ينظرون إِلى أَعدائهم في النار كيف يُعذبون[1].

وقرأَ جمهور الناس: ﴿تَعْرِفُ﴾ على مخاطبة محمد ﷺ، بفتح التاءِ وكسر الراءِ ﴿نَضْرَةَ﴾ نصباً، وقرأَ أَبو جعفر، وابن أَبي إِسحاق، وطلحة، ويعقوب: [تُعْرَفُ] بضم التاءِ وفتح الراءِ [نَضْرَةُ] رفعاً، وقرأَ قوم: [يُعْرَفُ] بالياءِ لأَن تأْنيث ﴿النَّضْرة﴾ ليس بحقيقي، و﴿النَّضْرَةُ﴾: النعمة والرونق، و﴿الرَّحيقُ﴾: الخمرُ الصافية، ومنه قول حسان:

يَسْقُـونَ مَـنْ وَرَدَ الْبَـرِيـصَ عَلَيْهِـمُ ... بَـرَدَى يُصَفَّـقُ بـالـرَّحيـق السَّلْسَـلِ[2]

و﴿مختوم﴾ يحتمل أَن يُختم على كؤوسه التي يشرب بها تَهمُّماً وتَنَظُّفاً، والأَظهر أَنه مختوم شُرْبُه بالرائحة المسكيَّة حسب ما فسَّره قوله تعالىٰ: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ﴾.

واختلف المفسرون في قوله تعالىٰ: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ﴾ ـ فقال ابن مسعود وعلقمة: معناه: خِلْطُه وَمِزَاجه، وقال ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير: معناه: خاتمته، أَي تجد الرائحة عند خاتمة الشرب رائحة المسك، وقال أَبو علي: المراد لذاذة المقطع

= وإذا كانت داخلةً على الخبر فلا إلغاءَ في الجار والمجرور، بل هو الخبر، ولا جائز أن تكون هذه اللام دخلت في ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾ على فضلة هي معمولةٌ للخبر أَوْ لِصِفَةِ الخبر فيكون الجار والمجرور مُلْغىً لا خبراً، لأن ﴿كِتَٰبٌ ۝٣٨﴾ موصوف بـ ﴿مَّرۡقُومٞ﴾ فلا يعمل، ولأن «مرقوماً» الذي هو صفة لـ ﴿كِتَٰبٌ ۝٣٨﴾ لا يجوز أَن تدخل اللام في معموله، ولا يجوز أَن يتقدم معموله على الموصوف، فيتعين بهذا أَنَّ قوله سبحانه: ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ هو خبر (إِنَّ). ا.هـ بتصرف، وهذا الكلام في رأي أَبي حيان يَنْطبق ايضاً على قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ الآيات. راجع البحر المحيط (٨/ ٤٤٠).

(١) ذكر ذلك المهدوي، ونقله عنه القرطبي في تفسيره دون أن يذكر «كيف يُعذَّبون».

(٢) سبق الاستشهاد بهذا البيت في أكثر من موضع في هذا التفسير، وقد قاله حسان بن ثابت في قصيدة يمدح بها أولاد جفنه ملوك الشام، وهو في الديوان، واللسان، والطبري، والقرطبي، والبحر المحيط في أكثر من موضع، ويُصَفَّقُ: يخلط ويُمزج، أَو يُحول من إناءٍ إلى آخر لِيَصْفُو، والبريص: نهرٌ بدمشق، وكذلك بَرَدَى. والسَّلْسل: السهل السائغ في حلوقهم.

وذكاءُ الرائحة مع طيبِ المطعم، وكذلك هو قوله تعالىٰ: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿زَنجَبِيلًا﴾[٢]، أي تجد في اللسان، وقد قال ابن مقبل:

مِمَّا يُعَتَّقُ في الحانوت باطِنُها ... بالفُلْفُلِ الجَوْنِ والرُّمانِ مَخْتومُ[٣]

وقال مجاهد: معناه: طِينُه الذي يُختم به مسكٌ بدل الطين الذي في الدنيا، وهذا إنما يكون في الكؤوس، لأَن خمر الآخرة ليست في دنانٍ، إنما هي في أَنهار. وقرأَ الجمهور: ﴿خِتَٰمُهُۥ﴾، وقرأَ عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، والكسائي، والضحاك، والنَّخَعي: [خاتَمُهُ]، وهذه بيِّنةٌ، المعنى: أَنه يراد بها الطبع على الرحيق، وروي عنهم أَيضاً كسر التاءِ.

ثم حرَّض تعالىٰ على الجنة بقوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾، والتَّنافُس في الشيءِ المُغَالاةُ فيه، وأَن يتبعه كل واحد نفسه، فكأَن نفسيهما تتباريان فيه، وقيل: هو من قولك: شيءٌ نفيسٌ، فكأن هذا يعظِّمه، ويعظِّمه الآخر، ويستبقان إِليه.

و«المِزاجُ»: الخلْطُ، والضمير عائد على «الرحيق»، واختلف الناس في ﴿تَسْنِيمٍ﴾ـ فقال ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهم: التَّسْنيمُ أَشرف تراب في الجنة، وهو اسم مذكَّر لماءِ عيْن في الجنة، وهي عين يشربها المقربون صرفاً، ويمزج رحيق الأَبرار بها، قاله ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وأَبو صالح، وغيرهم. وقال مجاهد ما معناه: إن «تَسْنِيماً» مصدر من «سنَّمت» إذا علوت، ومنه السنام، فكأَنها عيْن قد عَلَت على أَهل الجنة فهي تنحدر، وقاله مقاتل بن سليمان، وذهب قوم إِلى أَن الأَبرار والمقربين في هذه الآية بمعنى واحد يقع لكلٍّ من نعم في الجنة، وذهب الجمهور من المتأولين إِلى أَن منزلة الأَبرار دون منزلة المقربين، وأَن الأَبرار هم أَصحاب اليمين، وأَن المقرَّبين هم السابقون.

---

(١) من الآية (٥) من سورة (الإنسان).

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (١٧) من سورة (الإنسان): ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾.

(٣) الحانوت: بيت الخَمَّار، وهو مكان تُعاقر فيه الخمرُ وتُباع، وهو يذكَّر ويؤنث. وتَعْتِيقُ الخمر: حفظُها لمدة طويلة حتى تصبح قديمة، والفُلفل ـ بالضَّم وبالكسر في الفاءِ الأولى ـ: حبٌّ هندي، شجره مثل شجر الرمان، يُجنى وهو أَخضر، ثم يُشرُّ في الظل فيسودُّ وينكمش، والجَوْن: الأَسود المشرب بالحمرة، وقيل: النبات الذي يضرب إلى السواد من شدة خضرته. ومختوم معناه: يجد من يشربها في فمه حدَّة الفلفل وطعم الرمان.

و﴿عَيْنًا﴾ منصوب إمَّا على المدح، وإما أن يعمل فيه ﴿تَسْنِيمٍ﴾ على رأي من رآه مصدراً، وينتصب على الحال من ﴿تَسْنِيمٍ﴾، أو ﴿يُسْقَوْنَ﴾، قاله الأخفش، وفيه بُعْدٌ، وقوله تعالىٰ: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ معناه: يشربها، كقول الشاعر:

شَرِبْنَ بماءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَرَفَّعَتْ ... مَتَى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيجُ(١)

ثم ذكر تعالىٰ أن الذين أجرموا بالكفر ـ أي اكتسبوه ـ كانوا في دنياهم يضحكون من المؤمنين، ويَسْتَخِفُّون بهم، ويتخذونهم هزوءًا. ويروى أن هذه القصة نزلت في صناديد قريش وضعفة المؤمنين، وروي أنها نزلت بسبب أن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه وجماعة معه من المؤمنين مرُّوا بجمع من الكفار في مكة، فضحكوا منهم، واستَخَفُّوا بهم عبثاً ونُقصان عقل، فنزلت الآية في ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

الضمير في ﴿مَرُّوا۟﴾ للمؤمنين، ويحتمل أن يكون للكفار، وأما الضمير في ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ فهو للكفار لا يحتمل غير ذلك، وكذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ٱنقَلَبُوٓا۟﴾. و﴿فَكِهِينَ﴾ معناه: أصحاب فاكهة ومرحٍ ونشاط وسرور باستخفافهم بالمؤمنين، يقال: رجل فاكِهٌ كَلابِنٍ وتامِرٍ(٢)، وهكذا بألِفٍ هي قراءة الجمهور، ويقال: رجل فَكِهٌ، من هذا المعنى، وقرأ حفصٌ عن عاصم: (فَكِهِينَ) بغير ألف، وهي قراءة أبي جعفر، وأبي رجاءٍ، والحسن، وعكرمة.

---

(١) هذا البيت لأبي ذؤيب الهذليّ، ويُروى: (تَرَوَّت بماءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَنَصَّبَتْ، على حَبَشِيَّات. . .) والكلام عن السحاب، فهو يعني أن السحاب شربن من ماء البَحْر، و«مَتَى» معناها «من» في لغة هذيل، فهو يعني: مِنْ لُجَجٍ خُضْرٍ أخرجت الماءَ من البحر، وقوله: (ثُمَّ تَرَفَّعَتْ) معناه: ثم ارتفعت، وهو أيضاً معنى (تَنَصَّبَتْ) في الرواية الثانية، ومعنى (لَهُن نَئِيجُ): لَهُنَّ مَرٌّ سريع، يقال: نَأَجَتِ الريح، إذا أسرعت ولها صوتٌ، فمعنى البيت أن السحاب شرب من ماءِ البحر ثم ارتفع من لُجَجٍ خضر أخرجت هذا الماءَ من البحر بوساطة ريح تمرُّ بسرعة شديدة.

(٢) اللاَّبن: صاحب اللبن، والتَّامِر صاحب التَّمْر، وكلٌّ منهما يتمتع ويتنعم بحاجته.

وأَما الضمير في «رَأَوا» وفي «قالوا» فقال الطبري وغيره: هو للكفار، والمعنى أَنهم يرمون المؤمنين بالضلال، والكفار لم يُرسلوا على المؤمنين حَفَظَة لهم، وقال قومٌ: بل المعنى بالعكس، وإِنما معنى الآية: وإِذا رأَى المؤمنون الكفار قالوا: إِنهم ضالون، وهو الحق فيهم، ولكن ذلك يثير الكلام بينهم، فكأن في الآية حضاً على الموادعة، أَي إِنَّ المؤمنين لم يُرسلوا حافظين على الكفار، وهذا كله منسوخ ـ على هذا التأويل ـ بآية السيف.

ولما كانت الآية المتقدمة قد نطقت بيوم القيامة وأَن الويل يومئذ للمكذبين، ساغ أَن يقول: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ على حكاية ما يقال يومئذ وما يكون. و﴿ٱلَّذِينَ﴾ رُفع على الابتداءِ، وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ معناه: إِلى أَعدائهم في النار، قال كعب: لأَهل الجنة كُوىً ينظرون منها، وقال غيره: بينهم جسم عظيم شفاف يرون منه حالهم[1].

و﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ تقرير وتوقيف لمحمد ﷺ وأُمَّته، ويحتمل أَن يريد: «يَنْظُرون هَلْ ثُوِّبَ»، فالنظر واقع على ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾، والمعنى: هل جُوزي، ويحتمل أَن يكون المعنى: يقول بعضهم لبعض. وقرأَ ابن محيصن، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [هَثُّوِّبَ] بإِدغام اللام في الثاءِ لتقاربهما في المخرج، وقرأَ الباقون: ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ لا يُدغمون، وفي قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانُوا۟﴾ حذف تقديره: جزاءَ ما كانوا، أَو عذاب ما كانوا يفعلون.

كمل تفسير سورة المطفِّفين والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

(١) قال الله تعالىٰ في آية أُخرى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية بلا خلاف بين المتأولين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾.

هذه أَوصاف يوم القيامة، و«انشقاق السماءِ» هو تفطرها لهول يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾[1]، وقال الفراءُ، والزجاج، وغيرهما: هو تشققها بالغمام، وقال قومٌ: تَشَقُّقها هو تفتُّحها أَبواباً لنزول الملائكة وصعودهم في هول يوم القيامة. وقرأَ أَبو عمرو: [انْشَقَّت]، يقف على التاءِ كأنه يُشِمُّها شيئاً من الجرِّ، وكذلك في أَخواتها. قال أَبو حاتم: وسمعتُ أَعرابياً فصيحاً في بلاد قيس يكسر هذه التّاءاتِ، وهي لغة.

و﴿أَذِنَتْ﴾ معناه: استمعت وسمعت أَمره ونهيه، ومنه قول النبي ﷺ: «ما أَذن الله لشيءٍ إِذْنَه لنبيٍّ يتغنى بالقرآن»[2]، ومنه قول الشاعر:

---

(١) من الآية (١٦) من سورة (الحاقة).

(٢) أَخرجه البخاري في التوحيد، وفي فضائل القرآن، ومسلم في المسافرين، وأَبو داود في الوتر، والترمذي في ثواب القرآن، والنسائي في الافتتاح، والدارمي في الصلاة وفي فضائل القرآن، وأَحمد في مسنده (٢/ ٢٧١، ٢٨٥، ٤٥٠)، ولفظه كما في البخاري عن أَبي هريرة، سمع النبيَّ ﷺ يقول: «ما أَذِنَ اللهُ لشيءٍ ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به»، ولفظه كما في مسند أَحمد «ما أَذِنَ الله لشيءٍ ما أُذن لنبي أن يتغنى بالقرآن». ومعنى (أَذِنَ): استمع وقبل.

صُمٌّ إذا سَمِعوا خَيْراً ذُكِرْتُ بِهِ   وَإِذَا ذُكِرْتُ بِسوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنوا(١)

وقوله تعالىٰ: ﴿وَحُقَّتْ﴾، قال ابن عباس، وابن جبير: معناه: وحُقَّ لها أن تسمع وتطيع، ويحتمل أن يريد: وحُقَّ لها أن تَشَّقق لشدة الهول وخوف الله تعالىٰ.

و«مَدُّ الأرض» هو إزالة جبالها حتى لا يبقى فيها عِوَج ولا أَمْت، فذلك مَدُّها، وفي الحديث: «إن الله تعالىٰ يَمُدُّ الأرض يوم القيامة مدَّ الأديم العُكاظي»(٢).

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾، يريد: من الموتى، قاله الجمهور، وقال الزجاج: من الكنوز، وهذا ضعيف لأن ذلك يكون وقت خروج الدجال، وإنما تُلقي يوم القيامة الموتى. و﴿تَخَلَّتْ﴾ معناه: خَلَت عما كان فيها، أي لم تتمسك منهم بشيء.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ مخاطبة للجنس، و«الكادِحُ»: العاملُ بشدة وسرعة واجتهاد مؤثر، ومنه قول النبي ﷺ: «من سأل وله ما يُغنيه جاءَت مسألته حدوثاً أو كدوحاً في وجهه يوم القيامة»(٣)، والمعنى: إنك عامل خيراً أو شرًّا، وأنت لا محالة في ذلك سائر إلى ربك لأن الزمن يطير بعمر الإنسان، وإنما هو في مدة عمره في سير حثيث إلى ربه. وهذه آية وعظ وتذكير، أي: فكن على حذر من هذه الحال، واعمل عملاً صالحاً تجده، وقرأ طلحة بإدغام كاف ﴿إِنَّكَ﴾ في كاف ﴿كَادِحٌ﴾، ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

---

(١) هذا البيت قاله قَعْنَب بن أُمِّ صاحب، وهو في اللسان، والطبري، والقرطبي، والبحر المحيط، وفتح القدير ومجاز القرآن، والسِّمط، وقبله يقول قعنب:

إنْ يَسْمَعُوا رِيبَةً طاروا بها فَرَحاً   مِنِّي وَمَا عَلِموا مِنْ صالحٍ دَفَنوا

وهو شاهد على أَنَّ (أَذِن) بمعنى: استمع.

(٢) أخرجه الحاكم بسند جيِّد عن جابر عن النبي ﷺ، قال: «تُمَدُّ الأرض يوم القيامة مدَّ الأَديم، ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه». والأديم: الجلْدُ، والعكاظيُّ: نسبة إلى عكاظ، والمراد: مما حُمل إلى عكاظ فبيع بها.

(٣) أخرجه أبو داود والنَّسائي في الزكاة، وأحمد في مسنده (٢/ ٩٤، ٥/ ١٩)، ولفظه كما في مسند أحمد، عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المسأَلةُ كُدُوحٌ في وجه صاحبها يوم القيامة، فمن شاء فليستبق على وجهه، وأَهون المسألة مسألةُ ذي الرحم تسأله في حاجة، وخيرُ المسألة المسألةُ عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول». قال ابن الأثير: الكُدوحُ الخدوشُ، وكلُّ أثر من خَدْشٍ أَو عَضٍّ فهو كَدْحٌ.

وَمَــا الإِنْسَــانُ إِلاَّ ذو اغْتِــرارٍ طِوالَ الدَّهْرِ يَكْدَحُ في سَفَالِ[١]

وقال قتادة: من استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله تعالى فليفعل، وقوله تعالى: [فملاقيه] معناه: فملاق عذابه أو تنعيمه.

واختلف النحاة في العامل في [إذا] فقال بعض النحاة: العامل [انْشَقَّتْ]، وأبى ذلك كثير من أئمتهم، لأن [إذا] مضافة إلى [انْشَقَّتْ]، ومَنْ يُجيز ذلك تضعف عنده الإضافة ويقوى معنى الجزاء[٢].

وقال آخرون منهم: العامل ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾، وقال بعض حُذَّاقهم: العامل فعلٌ مضمر. وكذلك اختلفوا في جواب [إِذَا] ـ فقال كثير من النحاة: هو محذوف لعلم السامع به، وقال أَبو العباس المبرد، والأَخفش: هو في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾، أَي: إِذا انشقت السماءُ فأَنت ملاقي الله تعالىٰ، وقيل: التقدير: فيا أَيُّها الإِنسان، وجواب [إِذا] في الفاءِ المقدرة. وقال الفراءُ عن بعض النحاة: هو [أَذِنَتْ] على تقدير زيادة الواو[٣]. فأما الضمير في [فَمُلاقيهِ] فقال جمهور المتأولين: هو عائد على الربِّ تعالىٰ، فالفاءُ ـ على هذا ـ عاطفة [مُلاق] على [كادح]، وقال بعض الناس: هو عائد على الكدح فالفاءُ ـ على هذا ـ هي عاطفةٌ جملة الكلام على التي قبلها، والتقدير: فأنت ملاقيه[٤]، والمعنى: ملاق جزاءَه خيراً كان أَو شرًّا.

ثم قسَّم تعالىٰ الناس إلى المؤمن والكافر، فالمؤمنون يُعطون كُتُبهم بأَيمانهم، ومن ينفذ عليه الوعيد من عصاتهم فإِنه يُعطى كتابه عند خروجه من النار، وقد جوَّز قوم أَن يُعطاه أَولاً قبل دخول النار، وهذه الآية تردُّ على هذا القول. و«الحِسابُ اليَسيرُ» هو العرض، وأَمَّا من نُوقش الحساب فإِنه يهلك ويعذب، كذلك قال رسول الله ﷺ لعائشة

---

(١) الاغترار: الغفلة، والكَدْحُ: السعْي والمشقَّة، والسفال: مصدر سَفل وهو نقيض العُلُوّ والرفعة، يقول: إن الإنسان يعيش دائماً في غفلة، ويتعب نفسه في حقير الأُمور التي لا تنفعه أو تنهض به.

(٢) نقل أبو حيان كلام ابن عطية هذا، ثم علَّق عليه بقوله: «وهذا القول نحن نختاره، وقد استدللنا على صحته فيما كتبنا، والتقدير: وقت انشقاق السماء وقت مدّ الأرض».

(٣) قال القرطبي تعليقاً على هذا الكلام: «وهذا غلط، لأن العرب لا تُقحم الواو إلاَّ مع «حَتَّى ـ إذا» كقوله تعالىٰ: ﴿حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها﴾، ومع «لَمَّا» كقوله تعالىٰ: ﴿فلما أسلما وتله للجبين وناديناه﴾ معناه: نادَيْناهُ، الواو لا تُقحم مع غير هذين».

(٤) أَيضاً نقل أَبو حيان الأندلسي هذا الكلام عن بن عطية في البحر المحيط، وعقب بقوله: «ولا يتعيَّن ما قاله، بل يصحُّ أَن يكون معطوفاً على (كادحٌ) عطف المفردات».

رضي الله عنها، وذلك أن رسول الله ﷺ قال: «من حوسب عُذِّب»، فقالت عائشة رضي الله عنها: أَلم يقل الله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ الآية؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إنما ذلك العرض، وأَمَّا من نوقش الحساب فإنه يهلك»[١]، وفي الحديث من طريق ابن عمر رضي الله عنه، قال: «يُدني الله تعالىٰ العبد حتى يضع عليه كنفه، فيقول: أَلم أَفعل بك كذا وكذا؟ ـ يُعَدِّدُ عليه نعمه ـ، ثم يقول له: فلم فعلت كذا وكذا؟ ـ لمعاصيه ـ فيقف العبد خزياناً، فيقول الله تعالىٰ: سترتها عليك في الدنيا وأَنا أَغفرها لك اليوم»[٢]. وقالت عائشة رضي الله عنها: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «اللهم حاسبني حساباً يسيراً»، فقلت: يا رسول الله وما هو؟ فقال: «أَنْ يتجاوز عن السيآت»[٣]، وروى ابن عمر أَن النبي ﷺ قال: «من حاسب نفسه في الدنيا هوَّن الله حسابه يوم القيامة»[٤]. وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أَي الذين أَعدَّ الله تعالىٰ له في الجنة، إِمَّا من نساءِ الدنيا وإِما من الحور العين وإِما من الجميع.

---

(١) أَخرجه أَحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن المنذر، وابن مردويه، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أَخرجه البخاري في الأدب وفي تفسير سورة هود وفي التوحيد، وأَخرجه مسلم في التوبة، وابن ماجه في المقدمة، ولفظه كما في البخاري، عن صفوان بن محرز، قال: بينا ابن عمر يطوف إذ عرض رجل فقال: يا أَبا عبد الرحمن، أو قال: يابن عمر هل سمعت النبي ﷺ في النجوى؟ قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: يُدْنَى المؤمن من ربه ـ وقال هشام: يدنو المؤمن ـ حتى يضع عليه كَنَفَه، فيقرره بذنوبه، تعرف ذنب كذا؟ يقول: أَعرفُ ربِّ، يقول أَعرف مرتين، فيقول: سَتَرْتُهَا في الدنيا وأَغفرها لك اليوم، ثم تطوى صحيفة حسناته، وأَما الآخرون، أو الكفار، فَيُنادَى على رؤوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم.

(٣) أَخرجه أَحمد، وابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن عائشة رضي الله عنها، ولفظه كما ذكره السيوطي في الدر المنثور: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: اللهم حاسبني حساباً يسيراً فلما انصرف قلت: يا رسول الله، ما الحساب اليسير؟ قال: أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه، إنَّه من نوقش الحساب هلك».

(٤) لم أَقف عليه، والذي رواه الترمذي في هذا المعنى قوله ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أَن تُحاسبوا».

هذا وقد أَورد الطبري سؤالاً في موضوع الحساب فقال: «إن قال قائل: كيف قِيل: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ﴾ والمحاسبة لا تكون إلا بين اثنين، والله القائم بأعمالهم، ولا أَحد له قِبَل ربِّه طَلِبَةٌ فيحاسبه؟ قيل: إن ذلك تقرير من الله للعبد بذنوبه، وإقرار من العبد بها وبما أَحصاه كتاب عمله، فذلك المحاسبة على ما وصفنا، ولذلك قيل: يحاسب».

والكافر يُؤتى كتابه من ورائه لأَن يديه مغلولتان، وروي أَن يده تدخل من صدره حتى تخرج من وراءِ ظهره فيأخذ كتابه بها.

ويقال إِن هاتين الآيتين نزلتا في أَبي سلمة بن عبد الأَسد[1] وفي أَخيه الأَسود، وكان أَبو سلمة من أَفضل المسلمين وأَخوه من عُتاة الكافرين. و﴿يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ معناه: يصيح منتحباً: واثُبُوراه واحَزَنَاه ونحو هذا مما معناه: هذا وقتُك،وأَوانُك، أَي احضرني، الثُّبور اسمٌ جامعٌ للمكاره كالويل.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والكسائي، وعمر بن عبد العزيز، والجحدري، وأَبو الشعثاءِ، والأَعرج: [وَيُصَلَّى] بشد اللام وضم الياءِ على المبالغة. وقرأَ نافع أَيضاً، وعاصم ـ في رواية أَبان ـ بضم الياءِ وتخفيف اللام، وهي قراءة أَبي الأَشهب، وعيسى، وهارون عن أَبي عمرو. وقرأَ عاصم، وأَبو عمرو، وحمزة، وأَبو جعفر، وقتادة وعيسى، وطلحة، والأَعمش بفتح الياءِ على بناءِ الفعل للفاعل، وفي مصحف ابن مسعود: «وَسَيَصْلَى». وقوله تعالىٰ: ﴿فِيٓ أَهْلِهِۦ﴾ يريد في الدنيا، أَي تملَّكه ذلك لا يدري إِلاَّ السرور بأَهله دون معرفة الله تعالىٰ، والمؤمن إِن سُرَّ بأَهله لا حرج عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ معناه: أَن لن يرجع إِلى الله تعالىٰ مبعوثاً محشوراً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم أَعلم ما معنى [يحور] حتى سمعتُ أَعرابية تقول لِبُنَيَّة لها: حوري، أَي ارجعي. والظَّن هنا على بابه، و[أَنْ] وما بعدها تسدُّ مسدَّ مفعولي [ظَنَّ]، وهي «أَنْ» المخففة من الثقيلة، و«الحَوْرُ»: الرجوع على الأَدراج، ومنه: «اللهم إِني أعوذ بك من الحَوْر بعد الكَوْرِ»[2].

---

(١) هو عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، أَبو سَلَمة، أخو النبي ﷺ من الرضاعة، وابن عمته بَرَّة بنت عبد المطَّلب، كان من السابقين، شهد بدراً، ومات في حياة النبي ﷺ بعد أُحد، فتزوج النبي ﷺ بعده زوجته أُم سَلَمة. (تقريب التهذيب).

(٢) هذا جزءٌ من حديث نبويٍّ شريف معناه: أَعوذ بك من النقصان بعد الزيادة، والحديث رواه مسلم في الحج، والترمذي وابن ماجه في الدعاءِ، والنسائي في الاستعاذة، والدارمي في الاستئذان، وأحمد في مسنده (٥/ ٨٢، ٨٣)، ولفظه كما في مسند أَحمد: عن عبد الله بن سرجس قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر قال: «اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا، واخلُفنا في أَهلنا، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلَب، ومن الحَوْر بعد الكَوْر، ودعوة المظلوم، وسوء المنظر في الأهل والمال»، وسئل عاصم ـ الراوي عن عبد الله ـ عن الحَوْر بعد الكور، قال: حار بعد ما كان.

ثم ردَّ الله تعالىٰ على ظن هذا الكافر بقوله سبحانه: ﴿بَلَىٰٓ﴾، أَي: يحور ويرجع، ثم أَعلمهم أَنَّ الله تعالىٰ لم يزل بصيراً بهم، لا تخفى عليه أَفعال أَحد منهم، وفي هذا وعيد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾

[لَا] زائدة، والتقدير: فأُقسم، وقيل: [لَا] ردٌّ على أَقوال الكفار، وابتدأ القول: أُقْسِمُ، وقَسَم الله تعالىٰ بمخلوقاته هو على جهة التشريف لها وتعريضها للعبرة، إِذ القسم بها منبه منها. و﴿ٱلشَّفَقِ﴾ الحمرة التي تعقب غيبوبة الشمس مع البياض التابع لها في الأَغلب، وقيل: الشفق هنا النهار كله، قاله مجاهد، وهو قول ضعيف، وقال أَبو هريرة وعمر بن عبد العزيز: الشفقُ البياضُ الذي يتلو الحُمرة.

و﴿وَسَقَ﴾ معناه: جَمَعَ وضَمَّ، ومنه الوسْق، أَي الأَصوع المجموعة، والليل يَسِقُ الحيوان جملة، أَيْ يجمعها في نفسه ويضمها، وكذلك جميع المخلوقات التي في الأَرض والهواءِ من البحار والجبال والرياح وغير ذلك.

و«اتِّساق القمر» كمالُه وتمامه بدراً، فالمعنى: امتلأَ من النور.

وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وعمر، وابن عباس ـ بخلاف عنهما ـ وأَبو جعفر، والحسن، والأَعمش، وقتادة، وابن جبير ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ بضم الباءِ، على مخاطبة الناس، والمعنى: لتركبن الشدائد، الموتَ والبعث والحساب حالاً بعد حال، أَو تكون الأَحوال من النطفة إِلى الهرم، كما تقول: طبقة بعد طبقة، و﴿عَن﴾ تجيءُ بمعنى «بَعْد»، كما تقول: «ورث المجد كابراً عن كابر»، وقيل: المعنى: لتركَبُنَّ هذه الأَحوال أُمَّة بعد أُمَّة، ومنه قول العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه في النبي ﷺ:

وَأَنْـتَ لَمَّـا بُعِثْـتَ أَشْـرَقَـتِ الأَرْ ... ضُ وَضَـاءَتْ بِنُـورِكَ الطُّـرُقُ
تُنْقَـلُ مِـنْ صَـالِـبٍ إِلَـى رحِـم ... إِذَا مَضَـى عَـالَـمٌ بَـدَا طَبَـقُ[1]

---

(١) البيت الثاني في اللسان، واستشهد بالبيتين أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط، والصَّالب: الصُّلْب وهو الظَّهْر، وهو قليل الاستعمال في اللغة، والرَّحِمُ: موضع تكوين الجنين وَوِعاؤهُ في البطن. ومعنى=

أَي قَرْن من الناس؛ لأَنه طبق الأَرض، قال الأَقرعُ بن حابس:

إِنِّي امْرُؤٌ قَدْ حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطُرَهُ ... وَسَاقَنِي طَبَقٌ مِنْهُ إِلَى طَبَقِ[1]

أَيْ حالٌ إِلى حال، وقيل: المعنى: لتركبُنَّ الآخرة بعد الأُولى، وقرأَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: [لَيَرْكَبُنَّ] على أَنهم غُيَّب، وقال أَبو عبيدة: المعْنى: لتركبُنَّ سَنَنَ من قبلكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كما في الحديث: «شِبْراً بِشِبْر، وذراعاً بذراع»[2]، فهو طبق عن طبق، ويلتئم هذا المعنى مع هذه القراءة التي ذكرنا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويَحْسُن مع القراءة الأُولى، وقرأَ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وعمرو بن مسعود[3]، وابن عباس، ومجاهد، والأَسود، وطلحة، وابن جُبَير، ومعروف، والشَّعبي، وأَبو العالية، وابن وثاب، وعيسى: [لَتَرْكَبَنَّ] بفتح الباءِ، على معنى: أَنتَ يا محمد، فقيل: المعنى: حالاً بعد حال من معالجة الكفار، وقال ابن عباس: سماءً بعد سماءٍ في الإِسراءِ، وقيل: هي عِدَةٌ بالنصر، أَي لتركَبَنَّ أَمْر العرب قبيلاً بعد قبيل[4] وفتحاً بعد فتح كما كان ووُجد بعد ذلك، وقال ابن مسعود: المعنى: لتركَبَنَّ السماءَ في أَهوال يوم القيامة حالاً بعد حال، تكون كالمهل وكالدهان وتنفطر وتتشقَّق، فالسماءُ هي الفاعلة،

= (إذا مَضَى عالَمٌ بدا طَبَقٌ): إذا مضى قرنٌ ظهر قرنٌ آخر، وإنما قيل للقَرْن طبَقٌ لأنهم طَبَقٌ للأرض ثم ينقرضون ويأتي طبقٌ للأرض آخر.

(١) الأقرع بن حابس هو أحد حُكَّام العرب في الجاهلية، ومعنى (حَلَبْتُ الدهرَ أَشْطُرَهُ) خبرتُ ضروبه، إذْ مرَّ بي خيرُهُ وشرُّه، يقال ذلك تشبيهاً بحلب أَخلاف الناقة كلها ما كان منها ممتلئاً وما كان غير ممتلىء، والناقة لها خِلْفان قادمان (أماميَّان) وخِلْفان خلفهما، فكأنه حلب القادمَيْن وهما الخير، والآخرين وهما الشَّر، وكلُّ خِلْفين شَطْرٌ، أي نصف. ومعنى (ساقني طبق منه إلى طبق): ساقني حالٌ من الزمان إلى حالٍ آخر، وهذا كناية عن الخبرة المتنوعة. وهذا هو موضع الاستشهاد هنا.

(٢) هذا جزءٌ من حديث أَخرجه البخاري في الأنبياء وفي الاعتصام، ومسلم في العلْم، وابن ماجه في الفتن، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، والحديث بتمامه كما أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري، وعن عطاء بن يسار: قال رسول الله ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الذين من قَبْلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ لاتبعتموهم، قلنا: يا رسوَل الله، آليهود والنصارى؟ قال: فمن؟».

(٣) في بعض النسخ: «وعمر، وابن مسعود».

(٤) القَبِيل: الجيلُ والجماعة من الناس، من قوم شتَّى أَو من أَب واحد.

وقرأ ابن عباس أيضاً، وعمر رضي الله عنهم: [لَيَرْكَبَنَّ] على ذكر الغائب، فإمَّا أن يراد محمد ﷺ على المعاني المتقدمة، وقاله ابن عباس يعني نبيكم ﷺ إماماً، قال بعض الناس في كتاب النقاش من أن المراد القمر لأنه يتغير أحوالاً وأسراراً واستهلالاً.

ثم وقف تعالىٰ نبيَّه ﷺ ـ والمراد أُولئك الكفار ـ بقوله سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: ما حُجَّتهم مع هذه البراهين الساطعة؟ وقرأ الجمهور: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ بضم الياءِ وشد الذال، وقرأ الضحاك بفتح الياءِ وتخفيف الذال وإسكان الكاف. و﴿يُوعُونَ﴾ معناه: يجمعون من الأعمال والتكذيب والكفر، كأنهم يحملونها في أوعية، تقول: وعيتُ العلمَ وأوعيتُ المتاع، وجعل تعالىٰ البشارة في العذاب لمَّا صرح به، وإذا جاءت مُطْلقة فإنما هي في الخير.

ثم استثنى تعالىٰ من كفار قريش القوم الذين كانوا سبق لهم الإيمان في قضائه. و﴿مَمْنُونٍ﴾ معناه: مقطوع، من قولهم: حبلٌ مَنينٌ، أي مقطوع، ومنه قول الحارث بن حِلِّزَةَ الْيَشْكُرِيِّ:

فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ وَالْوَقْـ ـعِ منيناً كأنه أَهْباءُ[1]

يريد: غباراً متقطعاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَمْنُونٍ﴾ مُعَدَّدٌ عليهم محسوبٌ مُنَغَّص بالمنِّ[2].

كمل تفسير سورة الانشقاق والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) هذا البيت من معلقة الحارث بن حلِّزة، والضمير في «خَلْفَهَا» يعود على الناقة التي كان الشاعر يصفها في الأبيات السابقة ويقول: إنَّها آنست صوتاً وأفزعها القنَّاص حين دنا الإمساء، والرَّجع: رجع قوائمها، والوَقْع: وقع خفافها، والمنين: الغُبار الدقيق، وكلُّ ضعيف فهو منين، والأهباء: جمع هباءٍ، وهو الغبار الذي ينتشر كأنه دخان، وتراه إذا دخلت الشمس من نافذة أو كُوَّة كأنه غبارٌ يتناثر من السماء، ويروى البيت: الإهباء ـ بكسر الهمزة ـ ومعناها: إثارة الناقة لِلْهباء، يقول: لقد ذعرت وفرت، وجعلت تعدو بسرعة مثيرة خلفها الغبار الرقيق المتفرق.

(٢) بمعنى أن الله تعالىٰ لا يَمُن عليهم الأجر الذي يعطيه لهم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة البروج

وهي مكيّة بإجماع من المتأولين، لا خلاف في ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾.

اختلف الناس في «البروج» ـ فقال الضحاك وقتادة: هي القصور، ومنه قول الأخطل:

كَأَنَّهَا بُرجُ رُومِيٍّ يُشَيِّدُهُ ... بَانٍ بِجِصٍّ وَآجُرٍّ وأَحْجَارِ[(١)]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: البروجُ: النجومُ لأنها تتبرَّج بنورها، والتَّبرج: التَّظاهر والتَّبدي، وقال الجمهور وابن عباس أيضاً: البروج هي المنازل التي عرفتها العرب، وهي اثنا عشر عَلَى ما قسَّمته، وهي التي تقطعها الشمس في سنة والقمر في ثمانية وعشرين يوماً، وقال قتادة: معناه: ذاتُ الرمل والماءِ، يريد أَنها مبنية في السماءِ، وهذا قول ضعيف.

و﴿اليوم الموعود﴾ هو يوم القيامة باتفاق، قاله النبي ﷺ[(٢)]، ومعناه: الموعود به.

---

(١) يصف الأخطل الناقة في هذا البيت، ويشبهها في ضخامتها بالقصر الكبير المرتفع، وهذا التصوير تكرر كثيراً في كلام العرب. وشيَّد البناءَ، رَفَعه وعَلاَّه، أَو طَلاَه بالشِّيد، وهو كلُّ ما طُلِي به البناء. والجِصُّ والآجُرُّ والحجارة: من موادِّ البناءِ، ويروى: «لُزَّ بجصٍّ» بدلاً من «بان بجصٍّ».

(٢) أَخرج عبد بن حميد، والترمذي، وابن أَبي الدنيا في الأُصول، وابن جرير، وابن المنذر وابن أَبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن أبي هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يومُ القيامة، واليومُ المشهود يومُ عَرَفَةَ، والشاهدُ يومُ الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلاّ استجاب الله له، ولا يستعيذ بشيءٍ إلاَّ =

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ معناه: عليه، أو بِهِ، أو فيه، وهذا يترتب بحسب الخلاف في تعيين المراد بـ ﴿شاهِد ومشهود﴾، فقد اختلف الناس في المشار إليه بهما ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: الشاهدُ: الله تعالىٰ، والمشهود: يومُ القيامة، وقال ابن عباس أيضاً، والحسن بن علي، وعكرمة: الشاهدُ: محمد ﷺ، والمشهود: يوم القيامة، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾[١]، وقال تعالىٰ في يوم القيامة: ﴿ذلك يوم مشهود﴾[٢]. وقال مجاهد وعكرمة أيضاً: الشاهد: آدم عليه السلام وجميع ذريته، والمشهود: يوم القيامة. و«شاهد» اسم جنس على هذا، وقال بعض من بسط قول مجاهد وعكرمة «شاهد» يراد به رجل فرد أو نَسَمة من النَّسم، ففي هذا تذكير لحقارة المسكين ابن آدم، و«المشهود» يوم القيامة، وقال الحسن بن أَبي الحسن وابن عباس أَيضاً: الشاهد: يوم عرفة ويوم الجمعة، والمشهود: يوم القيامة، وقال عليٌّ، وابن عباس، وأَبو هريرة، والحسن، وابن المسيب وقتادة: «شاهد» يوم الجمعة، و«مشهود» يوم عرفة، وقال ابن عمر: «شاهد» يوم الجمعة، و«مشهود» يوم النحر، وقال جابر: «شاهد» يوم القيامة، و«مشهود» الناس، وقال محمد بن كعب: الشاهد: أَنت يا بن آدم، والمشهود: الله تعالىٰ، وقال ابن جبير بالعكس، وتلا: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[٣]، وقال أَبو مالك: الشاهد: عيسى عليه السلام، والمشهود: أُمَّته، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[٤]، وقال ابن المسيب: «شاهد»: يوم التروية، و«مشهود»: يوم عرفة، وقال بعض الناس في كتاب النقاش: الشاهد يوم الاثنين، والمشهود يوم الجمعة، وذكره الثعلبي. وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: الشاهد: يوم عرفة، والمشهود: يوم النحر، وعنه أَيضاً: «شاهد»: يوم القيامة، و«مشهود»: يوم عرفة،

= أَعاذه الله منه»، قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلاَّ من حديث موسى بن عُبَيْدَة الرَّبَذي، ومُوسى بن عُبَيْدة يضعف في الحديث، ضعَّفه يحيى بن سعيد وغيره من قبَل حفظه، وقال ابن كثير: «روى هذا الحديثَ ابنُ خزيمة من طرق عن موسى بن عُبَيْدَةَ الرَّبَذي، وهو ضعيف، وقد رُوي موقوفاً على أَبي هريرة، وهو أشبه». كذلك قال الحافظ ابن حَجَر في «التقريب» عن موسى بن عُبَيْدَة: إنه ضعيف.

(١) من الآية (٤٥) من سورة الأحزاب، وتكررت في الآية (٨) من سورة (الفتح).

(٢) من الآية (١٠٣) من سورة (هود).

(٣) من الآية (٧٩)، وتكررت في الآية (١٦٦) من سورة (النساء)، كذلك تكررت في الآية (٢٨) من سورة (الفتح).

(٤) من الآية (١١٧) من سورة (المائدة).

وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «شاهد»: يوم الجمعة، و«مشهود»: يوم عرفة، قاله عليٌّ وأبو بكر والحسن. وقال إبراهيم النَّخَعي: الشاهد: يوم الأضحى، والمشهود: يوم عرفة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ووصف هذه الأيام بشاهدٍ لأنها تشهد لحاضريها بالأعمال، والمشهود فيما مضى من الأقوال بمعنى المشاهَد ـ بفتح الهاءِ ـ، وقال الترمذي الشاهد: الملائكة الحفظة، والمشهود عليهم: الناس، وقال عبد العزيز بن يحيى ـ عند الثعلبي ـ: الشاهدُ محمدٌ عليه الصلاة والسلام، والمشهود عليهم أُمَّته، ونحو قوله تعالىٰ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[١]، أي شاهداً، وقيل: الشاهد الأنبياءُ عليهم السلام، والمشهود عليهم أُمَمُهُم، وقال الحسن بن الفضل: الشاهدُ أُمَّة محمد ﷺ، والمشهود عليهم قوم نوح عليه السلام وسائر الأُمم حسب الحديث المنصوص في ذلك. وقال ابن جبير أيضاً: الشاهدُ الجوارحُ التي تنطق يوم القيامة فتَشهد على أصحابها، والمشهود عليهم أَصحابها، وقال بعض العلماءِ: الشاهد الملائكة المتعاقبون في الأمة، والمشهود قُرْآن الفجر، وتفسيره ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[٢]. وقال بعض العلماءِ: الشاهد النجم، والمشهود عليه الليل والنهار، أي: يشهد النجم بإقبال هذا وإدبار هذا، ومنه قول النبي ﷺ: «حَتَّى يطلع الشاهد»[٣]، «الشاهد النجم» وقال بعض العلماءِ: الشاهد هو الله تعالىٰ والملائكة وأُولو العلم، والمشهود به الوحدانيةُ وأَنَّ الدين عند الله الإِسلام، وقيل: الشاهد مخلوقاتُ الله تعالىٰ، والمشهود به وحدانيته، وأَنشد الثعلبي في هذا المعنى قول الشاعر:

وَفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ ... تَـدُلُّ عَلَـى أَنَّـهُ الـواحِـدُ[٤]

---

(١) من الآية (٤١) من سورة (النساء).

(٢) من الآية (٧٨) من سورة (الإسراء).

(٣) أَخرجه مسلم في المسافرين، والنسائي في المواقيت، ففي صحيح مسلم عن أَبي بصرة الغفاريِّ، قال: صلَّى بنا رسولُ الله ﷺ بالمُخَمَّصِ ـ موضع معروف لهم ـ فقال: إن هذه الصلاة عُرضت على من كان قبلكم فضيَّعوها، فمن حافظ عليها كان له أَجره مرَّتين، ولا صلاة بعدها حتى يطلُع الشاهدُ «والشاهد النجم». هذا والأجران أحدهما لامتثال أَمر الله تعالىٰ، والثاني للمحافظة عليها.

(٤) الآية: العلامة، جعل الأَشياءَ كلها علامات دالَّةٍ على وحدانية الله سبحانه وتعالىٰ.

و[قُتِلَ] معناه: فعل الله تعالىٰ بهم ذلك لأنهم أهل له، فهو على جهة الدعاءِ بحسب البشر، لا أن الله تعالىٰ يدعو على أحد، وقيل ـ عن ابن عباس ـ: معناه: لُعن، وهذا تفسير بالمعنى، وقيل: هو إخبارٌ بأن النار قتلتهم، قاله الربيع بن أنس، وسيأتي بيانه.

واختلف الناس في أصحاب الأُخدود ـ فقيل: هم قومٌ كانوا على دين، وكان لهم ملك، فزنى بأُخته، ثم حَمَلَه بعض الناس(١) على أن يسن في الناس نكاح الأخوات والبنات، فَحَمَلَ الناسَ على ذلك، فأطاعه كثير وعصته فِرقٌ، فَخَدَّ لهم أخاديد ـ وهي حفائر طويلة كالخنادق ـ وأضرم لهم ناراً وطرحهم فيها، ثم استمرت المجوسية في مطيعيه، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: صاحب الأُخدود مِلِك من حمْيَر، كان بمزارع(٢) من اليمن، اقتتل هو والكفار مع المؤمنين، ثم غلب في آخر الأمر، فحرَّقهم على دينه إذْ أبَوْا دينه، ومنهم كانت المرأة ذات الطفل التي تلكَّأت فقال لها الطفل: امضي في النار فإنك على الحق. وحكى النقاش عن علي رضي الله عنه أن نبيَّ أصحاب الأُخدود كان حبشياً، وأن الحبشة بقية أصحاب الأُخدود، وقيل: صاحب الأُخدود ذُو نُوَاس في قصة عبد الله بن الثَّامر التي وقعت في السِّير، وقيل: كان صاحب الأُخدود في بني إسرائيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ورأيت في بعض الكتب أن صاحب الأُخدود هو محرِّق، وأنه الذي حرَّق من بني تميم المائة، ويُعترض هذا القول بقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾، فينفصل عن هذا الاعتراض بأن هذا الكلام منقطع من قصة أصحاب الأُخدود، وأن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿هُمْ﴾ قريش الذين كانوا يفتنون الناس المؤمنين والمؤمنات.

واختلف الناسُ في جواب القَسم ـ فقال بعض النحاة: هو محذوف لِعلْم السامع به، وقال آخرون: هو قوله تعالىٰ: ﴿قُتِلَ﴾، والتقدير: لَقُتِلَ، وقال قتادة: هو في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾، وقال آخرون: هو في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارِ﴾ بدل من ﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾، وهو بدل اشتمال، وهذه قراءة

(١) في بعض النسخ: «ثم حمله بعض نسائه»، وفي بعضها: «فزنى بابنته».
(٢) في بعض النُّسخ: بمدارج، ولعله يريد أرضاً متدرجة.

الجمهور ﴿ٱلنَّارِ﴾ بخفض الراءِ، وقرأَ قوم: [النَّارُ] بالرفع، على معنى: قتلتهم النارُ. و[الوُقودُ] ـ بالضَّم ـ مصدر من: وقدت النار إِذا اضطرمت، و﴿الوَقُودُ﴾ ـ بفتح الواو ـ ما توقد به، وقرأَ الجمهور بفتح الواو، وقرأَ الحسن، وأَبو رجاءٍ، وأَبو حَيْوَة بضمها.

وكان من قصة هؤلاءِ أَن الكفار قَعَدُوا، وضُم المؤمنون فعرض عليهم الدخول في الكفر، فمن أَبَى رُمي في أُخدود النار فاحترق، فروي أَنه احترق عشرون أَلفاً. قال الربيع بن أَنس، وابن إِسحاق، وأَبو العالية: بعث الله تعالىٰ على المؤمنين ريحاً فقبضت أَرواحهم، أَو نحو هذا، فخرجت النار وأَحرقت الكافرين الذين كانوا على حافتي الأُخدود، وعلى هذا يجيءُ ﴿قُتِلَ﴾ خبراً لا دعاءً، وقال قتادة: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ يعني المؤمنين.

و﴿نَقَمُوا۟﴾ معناه: اعتدوا وتعدوا، وقرأَ جمهور الناس: ﴿نَقَمُوا۟﴾ بفتح القاف، وقرأَ أَبو حَيْوةَ، وابن أَبي عبلة: [نَقِمُوا] بكسر الفاءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿فَتَنُوا﴾ معناه: أَحْرقوا، وفتنتُ الذهب والفضة في النار: أَحرقتهما، والْفَتِينُ: حجارةُ الحرَّة السودُ لأَن الشمس كأَنها أَحرقتها. ومَنْ قال إِن هذه الآيات الأَواخر في قريش جعل الفتنة الامتحان والتعذيبَ، ويُقَوِّي هذا التأْويلَ بعْضَ التقوية قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾؛ لأَن هذا اللفظ في قريش أَحْكم منه في أُولئك الذين قد عُلم أَنهم ماتوا على كفرهم، وأَمَّا قريش فكان فيهم وقت نزول الآية من تابَ بعد ذلك وآمن بمحمد ﷺ. و«جَهنَّمُ والحريقُ» طبقتان من النار، ومن قال إِن النار خرجت فأَحرقت الكفارَ القعودَ جعل الحريق في الدنيا. و«البطشُ» الأَخْذُ بقوة وسرعة، و﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ قال الضحاك، وابن زيد: معناه: [يُبْدِىءُ] الخَلْقَ بالإِنشاءِ و[يُعيدُ] بالحشر، وقال ابن عباس ما معناه: إِن ذلك عام في جميع الأَشياءِ، فهي عبارة عن أَنه يفعل كل شيءٍ، أَي: يُبْدىءُ كل ما يبدأُ ويُعيدُ كل ما يُعادُ، وهذان قسمان يستوفيان جميع الأَشياءِ، وقال الطبري: معناه: يبدىءُ العذاب ويعيده على الكفار.

و﴿ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ صفتا فِعل، الأُولى سَتْرٌ على عباده، والثانية لُطْف بهم وإحسانٌ إليهم، وخصص العرش بإضافة نفسه إليه تشريفاً للعرش وتنبيهاً على أنه أعظم المخلوقات. وقرأ حمزة، والكسائي، والمفضل عن عاصم، والحسن، وابن وثاب، والأعمش، وعمرو بن عبيد [المجيدِ] بخفض الدال صفةً للعرش، وهذا على أن المجد والتمجُّد قد يوصف به كثير من الموجودات، وقد قالوا: مَجَدَت الدابةُ إذا سمنت، وأمجدتُها إذا أحسنتَ عليها، وقالوا: «في كل شجر نار واستمجد المَرْخُ والعَفَارُ»[(١)]، أي كثرت نارهما، وقرأ الباقون والجمهور: ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ بالرفع صفة لله تعالىٰ. وقرأ الجمهور: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾، وروي عن ابن عامر: (ذي العَرشِ) نعتاً لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾.

هذا توقيف للنبي ﷺ وتقرير، بمعنى: فاجعل هؤلاءِ الكفرة الذين يخالفونك وراءَ ظهرك ولا تهتم، فقد انتقم الله تعالىٰ من أُولئك الأقوياءِ الأشداءِ فكيف بهؤلاءِ؟ و﴿ٱلْجُنُودِ﴾: الجموع المُعَدَّةُ للقتال والجري نحو غرض واحد، وناب فرعون بالذكر مناب قومه وآله إذ كان رأسهم، و﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ في موضع خفض على البدل من ﴿ٱلْجُنُودِ﴾.

ثم ترك القول بحاله، وأَضرب عنه إلى الإخبار بأَن هؤلاءِ الكفار بمحمد ﷺ لا حجة لهم عليه ولا برهان، بل هو تكذيبٌ مجرد سببه الحسد، ثم توعدهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾، أَي وعذاب الله تعالىٰ ونقمته، وقوله تعالىٰ: ﴿مِّن وَرَآئِهِم﴾ معناه يأتي من بعد كفرهم وعصيانهم.

---

(١) الْمَرْخُ: شجر من العضاة من الفصيلة العشارية ينفرش ويطول في السماء، ليس له ورق ولا شوك، سريع الْوَرْيُ يقتدحُ به، والعَفَارُ: شجيرة من الفصيلة الأريكيَّة لها ثَمَرٌ لُبِّيٌّ أحمر، ويُتَّخذ منه الزنادُ، فيسرع الوري. وهذا مثل من أمثال العرب، والمعنى أنهما استكثرا من النار، كأنهما أخذا من النار ما هو حسبهما فصلحا للاقتداح بهما، وقيل: لأنهما يُسرعان الوَرْيَ فَشُبِّها بمن يكثر من العطاء طلباً للمجد.

ثم أَضرب تعالىٰ عن تكذيبهم مُبطلاً له ورادًّا عليه، وأَخبر أنه قرآن مجيد، أَي: لا مَذَمَّة فيه، وهذا ممَّا تقدم من وصف غير الله تعالىٰ بالمجد والتمجُّد. وقرأَ ابن السّميفع اليمانيُّ: ﴿قُرۡءَانُ مَجِيدٍ﴾ على الإِضافة وأَن يكون الله تعالىٰ هو المجيد. و﴿اللَّوۡحُ﴾ هو اللَّوْحُ المحفوظ الذي فيه جميع الأَشياءِ، وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ بِالخَفْض صفة لِلَّوْح المشهور بهذه الصفة، وقرأَ نافع وحده ـ بخلاف عنه ـ وابن محيصن، والأَعرج: [مَحْفُوظٌ] بالرفع صفة للقرآن، على نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(١)، أَي هو محفوظ في القلوب لا يُدركه الخطأُ والتبديل. وقال أَنس: إِن اللوح المحفوظ هو في جهة إِسرافيل عليه السلام، وقيل: هو من دُرَّة بيضاءَ، قاله ابن عباس، وهذا كله مما قصَّرت به الأَسانيد، وقرأَ ابن السميفع: [في لُوحٍ] بضم اللام.

كمل تفسير سورة البروج والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

(١) من الآية (٩) من سورة (الحجر).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة الطارق

وهي مكيّة، لا خلاف بين المفسرين في ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ ﴾.

أَقسم الله تعالىٰ بالسماءِ المعروفة في قول جمهور المفسرين، وقال قوم: السَّماءُ هنا المطر، والعرب تُسَمِّي سماءً لِمَا كان من السماءِ، وتُسَمِّي السحاب سماءً، قال الشاعر:

إِذا نَــزَلَ السَّمــاءُ بِــأَرْضِ قَــوْمٍ ... رَعَيْنــاهُ وَإِنْ كــانــوا غِضــابَــا[١]

وقال النابغة:

كَــالأُقْحُــوَانِ غَــدَاةَ غِــبِّ سَمَــائِــهِ ... .[٢]

---

(١) هذا البيت للشاعر معاوية بن مالك الذي سمِّي «مُعَوِّد الحكمَاء»، ورواية اللسان «إذا سَقَطَ السماءُ»، وهذا يؤكد أن المراد بالسماء المطر، يفخر بقومه ـ على عادة العرب ـ بأنهم أَعِزَّة، ولعزَّتهم فإنهم يرعون ماشيتهم حيث يشاءون حتى ولو كان ذلك في أرض قوم عرفوا بالعنف والغضب.

(٢) هذا صدر بيت قاله النابغة ضمن قصيدة يمدح بها النعمان بن وائل الكلبي، والبيت مع بيت قبله يصف أسنان محبوبته وثغرها، ويشبه هذا الثغر بالأقحوان الذي نزل المطر على أرضه وسقاه فأينع، ثم جفت أعاليه وبقي أسفله ندياً رطباً، والبيتان هما:

تَجْلُــو بِقَــادِمَتَــيْ حَمَــامَــةِ أَيْكَــةٍ ... بَــرَداً أُسِــفَّ لِثَــاتُــهُ بِــالإِثْمِــدِ
كَــالأُقْحُــوانِ غَــداةَ غِــبِّ سَمَــائِــهِ ... جَفَّــتْ أَعَــالِيــهِ وَأَسْفَلُــهُ نَــدِي

والأُقحوان نبات مِن الفصيلة المركبة من جنس «أَنْثَاميس وجنس كِرِزَنْثِيُوم»، وتسمِّيه العامَّة في مصر «أراولة»، وفي الشام «الغريب»، وغِبّ: عَقِب وبَعْد، وسماؤهُ: مطره، وهي موضع الاستشهاد، =

و«الطَّارق»: الذي يأتي ليلاً، وهو اسم الجنس لكل ما يظهر أَو يأتي ليلاً، ومنه نهى النبي ﷺ الناسَ في أَسفارهم أَن يأتي الرجل أَهله طروقاً[1]، ومنه طروق الخيال، وقال الشاعر:

يـا نـائِـمَ اللَّيْـلِ مُغْتَـرًّا بـأَوَّلِـهِ إِنَّ الْحَوَادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحارَا[2]

ثم بيَّن تعالىٰ الطارق الذي قَصَدَ من هذا الجنس المذكور وهو ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾، وقيل: بل معنى الآية: والسماءِ وجميع ما يطرق فيها من الأُمور والمخلوقات، ثم ذكر تعالىٰ بعد ذلك ـ على جهة التَّنبيه ـ أَجلَّ الطارقات قدراً وهو النجم الثاقب.

فكأنه تعالىٰ قال: وما أَدراك ما الطارق حقَّ الطارق.

واختلف المتأولون في ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ ـ فقال الحسن بن أَبي الحسن ما معناه أَنه اسم الجنس، لأَنها كلها باقية أَي ظاهرة الضوءِ: يقال: ثَقَب النجمُ إِذا أَضاءَ، وثَقَبت النارُ كذلك، وثَقَبت الرائحةُ إِذا سطعت، ويقال للْمُوقِدِ: أَثْقب نارك، أَي أَضِئْها. وقال ابن زيد: أَراد نجماً مخصوصاً وهو زُحل، ووصفه بالثقوب لأَنه مُبرِّز على الكواكب في ذلك، وقال ابن عباس: أَراد الجدي، وقال بعض هؤلاءِ: ثَقَب النجمُ إِذا ارتفع، فإِنما وصف زُحَلاً بالثقوب لأَنه أَرفع الكواكب مكاناً، وقال ابن زيد أَيضاً وغيرُه: النجم الثاقب: الثُّرَيَّا، وهو الذي تطلق عليه العرب اسم الجنس معرفاً.

= والصورة التشبيهية مركَّبة من لون أبيض صاف تحيط به الخضرة الداكنة مع جفاف في الأعالي وندى في الأَسفل.

(١) أَخرجه البخاري في العمرة والنكاح، ومسلم في الإمارة، والترمذي والدارمي في الاستئذان، وأحمد في مسنده (١/ ١٧٥، ٣/ ٣٠٢)، ولفظه كما في مسند الدارمي: (عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أَهله ليلاً، أو يخونهم، أو يلتمس عثراتهم)، قال سفيان ـ راوي الحديث: قوله: (أَو يخونهم أو يلتمس عثراتهم) ما أدري أشيءٌ قاله محارب أو شيءٌ هو في الحديث. ورواية أَحمد عن سعد بن أَبي وقاص أنه قال: (إن رسول الله ﷺ نَهَى أَن يطرق الرجل أهله بعد صلاة العشاء).

(٢) هذا بيت مشهور متداول، ومع ذلك لم يتفق الرواة على قائله، فالقرطبي ينسبه لابن الرومي، وهو بعيد عن روح بن الرومي، وغير موجود في ديوانه، واستشهد به الحافظ في كتاب الحيوان ولم ينسبه، وذكره الغزالي في كتابه «الإحياء»، ويروى (يا راقد الليل مسروراً بأوَّله)، وبعده بيت آخر يذكر دائماً معه في مجال الاستشهاد هو:

لا تَفْــرَحَـــنَّ بِلَيْــلٍ طــابَ أَوَّلُــهُ فَــرُبَّ آخِــرِ لَيْــلٍ أَجَّــجَ النَّــارَا

وجواب القسم في قوله تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ﴾، وقرأ جمهور الناس: [لَمَا] مخففة الميم، قال الحُذَّاق من النحويين وهم البصريون: [إِنْ] مخففة من الثقيلة، واللام لام التأكيد الداخلة على الخبر، وقال الكوفيون: [إِنْ] بمعنى «ما» النافية، واللام بمعنى «إلاَّ»، فالتقدير: ما كلُّ نفس إلاَّ عليها حافظ، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، والأعرج، وأَبو عمرو، ونافع ـ بخلاف عنهما ـ وقتادة: (لَمَّا) بتشديد الميم، وقال أَبو الحسن الأَخفش: [لَمَّا] بمعنى «إلاَّ»، لغة مشهورة في هُذَيل وغيرهم، تقول: أَقسمتُ عليك لمَّا فعلت كذا، أَي: إلاَّ فعلت كذا.

ومعنى هذه الآية ـ فيما قال قتادة وابن سيرين وغيرهما ـ إن كل نفس مكلَّفة فعليها حافظ يحصي أَعمالها ويُعِدُّها للجزاءِ عليها، وبهذا الوجه تدخل الآية في الوعيد الزاجر. وقال الفراءُ: المعنى: عليها حافظ يحفظها حتى يسلمها إِلى القدر، وهذا قول فاسد المعنى لأَن مدة الحفظ إِنما هي بقَدَر، وقال أَبو أُمامة: قال النبي ﷺ في تفسير هذه الآية: «إن لكل نفس حَفَظَةً من الله تعالىٰ يَذُبُّون عنها كما يُذَبُّ عن العسل، ولو وُكل المرءُ إِلى نفسه طرفة عين لاختطفته الغِيَرُ والشَّياطين»[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ توقيف لمنكري البعث على أَصل الخِلقة الدالَّة على أَن البعث جائز ممكن، ثم بادر اللفظة إِلى الجواب[٢] اقتضاباً وإِسراعاً إِلى إِقامة الحجة؛ إِذ لا جواب لأَحد إلاَّ هذا. ﴿دَافِقٍ﴾ قال كثير من المفسرين: هو بمعنى مدفوق، وقال الخليل وسيبويه: هو على النسب، أَي: ذا دَفْق، والدَّفْق: دَفْع الماءِ بعضه ببعض كدفع الوادي والسيل إِذا جاءَ يركب بعضه بعضاً، ويصح أَن يكون

---

(١) الذي أثبته السيوطي في الدر المنثور، عن أبي أمامة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وُكِّل بالمؤمن ثلاثمائة وستون مَلَكاً يدفعون عنه ما لم يقدر عليه، من ذلك للبصر سبعة أملاك، يَذبُون عنه كما يُذَبُّ عن قصعة العسل من الذباب في اليوم الصائف، وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل، كلُّهم باسطٌ يديه فاغرٌ فاه، وما لو وُكِلَ العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين»، والذي في القرطبي عن أبي أمامة: «وُكِّلَ بالمؤمن مائة وستون مَلَكاً يَذبّون عنه ما لم يقدر عليه، من ذلك البصر، سبعة أملاك يذبُّون عنه، كما يُذَبُّ عن قصعة العسل الذبابُ ولو وُكِلَ العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين»، قال السيوطي في الدر المنثور: «أَخرجه بن أَبي الدنيا في مكايد الشيطان، والطبراني والصابوني في المائتين، عن أَبي أُمامة رضي الله عنه». لاحظ اختلاف الروايات، وهذا راجع إلى اختلاف الرواة عن أَبي أُمامة.

(٢) هكذا كل الأصول، وكلمة «اللفظة» هنا تكاد تكون زائدة.

الماءُ دافقاً لأَن بعضه يدفع بعضاً، فمنه دافقٌ ومدفوق.

قوله تعالىٰ: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾، قال قتادة والحسن وغيرهما: معناه: من بين صُلْب كل واحد من الرجل والمرأَة وترائبه، وقال سفيان وقتادة أَيضاً وجماعة: من بين صُلْب الرجل وترائب المرأَة، والضمير في ﴿يَخْرُجُ﴾ يحتمل أَن يكون للإِنسان، ويحتمل أَن يكون للماءِ، وقرأَ الجمهور: ﴿الصُّلْبِ﴾ بسكون اللام، وقرأَ أَهل مكة وعيسى: [الصُّلُبِ] بضم اللام على الجمع. و«التَّرِيبَةُ» من الإِنسان: ما بين التَّرْقُوَةِ إِلى الثدي، قال أَبو عبيدة: مُعَلَّقُ الحلي على الصدر، وجمع ذلك «تَرِيبٌ»، قال المثقب العبديُّ:

وَمِـنْ ذَهَـبٍ يُسَـنُّ عَلَـى تَـرِيـبٍ ... كَلَوْنِ الْعاجِ لَيْسَ بِذِي غُضُونِ(١)

وقال امرؤ القيس:

. . . . تَـرَائِبُهَـا مَصْقُـولَـةٌ كَـالسَّجَنْجَـلِ(٢)

فجمع التَّرِيبَة وما حولها فجعل ذلك ترائب. وقال مكي عن ابن عباس: إِن «التَّرائب» أَطرافُ المرءِ، رجلاه ويداه وعيناه، وقال معمر: التَّرائب جمع تَرِيبَة وهي عُصارة القلب، ومنها يكون الولد، وفي هذه الأَقوال تحكُّم على اللغة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: التَّرائب موضع القلادة، وقال أَيضاً: هي ما بين ثَدْيَي المرأَة، وقال ابن جُبير: هي أَضلاع الرجل التي أَسفل الصلب، وقال مجاهد: هي الصدر، وقال:

---

(١) المثقَّب لقبٌ له، واسمه: عائذ بن محصن بن ثعلبة، والبيت من قصيدة مشهورة له قال عنها أَبو عمرو ابن العلاء: «لو كان الشعر مثلَها لوجب على الناس أَن يتعلموه»، والبيت في الديوان، واللسان، والمفضليات، والقرطبي، والبحر المحيط، والطبري، ومجاز القرآن. وفتح القدير، ومعنى «يُسَنّ»: يُصْقَل، والتَّريب: جمع تَرِيبَة، وهذه تجمع أيضاً على ترائب، وهي موضع القلادة من الصدر، يصف محاسن محبوبته، ويروى البيت: (ومن ذهبٍ يَلُوحُ عَلَى تَرِيبٍ).

(٢) هذا عجز بيت من معلقة امرىء القيس المشهورة، والبيت بتمامه:

مُهَفْهَفَـةٌ بَيْضَـاءُ غَيْـرُ مُفَـاضَـةٍ ... تَـرَائِبُهَـا مَصْقُـولَـةٌ كَـالسَّجَنْجَـلِ

وهو في الديوان واللسان وموسوعة الشعر العربي، والقرطبي، والبحر المحيط، وفتح القدير، وغيرها، والمُهَفْهَفَة هي الخفيفة اللحم اللطيفة في رقة، وغير مفاضة: غير عظيمة البطن وَلاَ رَهْلة، والتَّرائب: جمع تَرِيبَة وهي موضع القلادة من الصدر، ومصقولة: لامعة صافية، والسَّجَنْجَل: المِرآةُ أو سبيكةُ الفضة وكلها أَوصاف حِسِّيَّة.

هي التراقي، وقال: هي ما بين المنكبين والصدر.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ﴾ الضمير في [إِنَّهُ] لله تعالىٰ، واختلف المفسرون في الضمير في [رَجْعِهِ] فقال ابن عباس، وقتادة: هو عائد على الإنسان، أي: على ردِّه حيًّا بعد موته، وقال الضحاك: هو عائد على الإنسان، لكن المعنىٰ: يُرجعه ماءً كما كان أَوَّلاً، وقال الضحاك أَيضاً: يُرجعه من الكِبَر إلى الشباب، وقال عكرمة، ومجاهد: هو عائد على الماءِ، أَيْ يردُّه في الإحليل، وقيل: في الصُّلْب، والعامل في [يَوْمَ] ـ على هذين القولين الأَخيرين ـ فعلٌ مضمر تقديره: اذكر يومَ تُبلى السرائر، وعلى القول الأَول ـ وهو أَظهر الأَقوال وأَبْينها ـ اختلفوا في العامل في [يَوْمَ] ـ فقال بعضهم: العامل «ناصِرٌ» من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾، وقيل: العامل «الرَّجْعُ» من قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ﴾، قالوا: وفي المصدر من القوة بحيث يعمل وإنْ حال خَبَرَانِ بينه وبين معموله، وقيل: العامل فعلٌ مضمر تقديره: «إِنَّه على رجعه لقادرٌ يُرجعه يوم تُبْلَى السرائر»، وكلُّ هذه الفِرق فرَّت من أَن يكون العامل «قادِرٌ»؛ لأَن ذلكَ يظهر منه تخصيص القدرة في ذلك اليوم وحده، وإذا تُؤُمِّلَ المعنى وما يقتضيه فصيح كلام العرب جاز أَن يكون العامل «قادِرٌ»، وذلك أَنه على رجعه لقادرٌ، أَي: على الإطلاق أَوَّلاً وَآخِراً وفي كل وقت، ثم ذكر تعالىٰ وخَصَّص من الأَوقات الوقت الأَهم على الكفار؛ لأَنه وقت الجزاءِ والوصول إِلى العذاب، فتجتمع النفوسُ إِلى حذره والخوف منه.

و﴿تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ معناه: تُخْتبر وتُكتشف بواطنها، وروى أَبو الدرداءِ عن النبي ﷺ أَن السرائر التي يبتليها الله تعالىٰ من العباد: التوحيد والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة، وصوم رمضان[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه عُظْم الأَمر. وقال أَبو قتادة: الوجه في الآية العموم في جميع السرائر، وليس يمتنع في الدنيا من المكاره إِلاَّ بأَحد وجهين: إِمَّا بقوة في ذات الإِنسان وإِما بناصر

---

(١) أَخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) عن أَبي الدرداء، ولفظه كما ذكره السيوطي في (الدر المنثور): قال رسول الله ﷺ: «ضمن الله خَلْقه أربعة، الصلاة والزكاة وصوم رمضان والغُسل من الجنابة، وهن السرائر التي قال الله ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، وفي رواية ذكرها المهدوي «ائتمن اللهُ تعالىٰ خَلْقَه على أَربع: . . . . الحديث».

خارج عن ذاته، فأخبر الله تعالىٰ عن الإنسان أنه يعدمهما يوم القيامة فلا يعصمه من أمر الله تعالىٰ شيءٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾.

«السَّماءُ» في هذا القَسَم يحتمل أن تكون المعروفة، ويحتمل أن تكون السحاب، و«الرَّجْع»: المطر وماؤه، ومنه قول الهُذَليِّ:

أَبْيَـضُ كَـالـرَّجْـعِ رَسُـوبٌ إِذَا ... مـا ثـاخَ فـي مُحْتَفَـلٍ يَخْتلـي[1]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الرَّجْع: السحاب والمطر، قال الحسن: لأنه يرجع بالرزق كلَّ عام، وقال غيره: لأنه يرجع إلى الأرض، وقال ابن زيد: الرجعُ مصدر رجوع الشمس والقمر والكواكب من حال إلى حالٍ، ومن منزلة إلى منزلة، تذهب وترجع.

و«الصَّدْعُ»: النباتُ؛ لأن الأرض تتصدَّع عنه، وهذا قول يناسب قول من قال: إن الرَّجْعَ هو المطر، وقال مجاهد: الصَّدْعُ: ما في الأرض من شعاب ولِصَاب[2] وخندق وتَشقُّق بِحرْثٍ وغيره، وفيها أُمور فيها معتبر، وهذا قول يناسب القول الثاني في «الرَّجْع».

والضمير في [إِنَّهُ] للقرآن ـ ولم يتقدم له ذكر ـ من حيث القول في جزءٍ منه والحالُ تقتضيه. و[فَصْلٌ] معناه: جَزْمٌ، فَصل الحقائق من الأَباطيل، و«الْهَزْلُ»: اللَّعِبُ الباطِلُ.

ثم أَخبر تعالىٰ عن قريش أَنهم يكيدون في أَفعالهم وأَقوالهم وتمرسهم بالنبي عليه

---

(١) البيت للْمُتَنَخِّل الهُذَلي يصف السيف، وهو في اللسان، والطبري، والقرطبي، والبحر، وفتح القدير، ومجاز القرآن، والرَّجْعُ: قيل هو ماء المطر، وقال في اللسان: هو الغدير يتردد فيه الماءُ، وسيْفٌ رَسُوبٌ: ماضٍ يغيب في الضريبة، وكان لرسول الله ﷺ سيف يقال له رسوبٌ، وثاخ: غابَ واختفى، والمُحتَفَلُ: أَعظم موضع في الجسد، ويختلي: يقطع. يقول: إن هذا السيف يترقرق البياض فيه كأنه ماء الغدير، وهو سيف ثقيل يغيب في الجسد، وإذا ما ضرب به غاب في الضريبة وقطع.

(٢) اللِّصاب: جمع لِصْبٍ، وهو كل مضيق في الجبل أو الوادي.

الصلاة والسلام وتدبيرهم ردَّ أَمره، ثم قوى الله تعالىٰ ذلك بالمصدر وأَكَّده، وأَخبر سبحانه عن أَنه يفعل بهم عقاباً سمَّاه كيْداً، على العُرف في تسمية العقوبة باسم الذنب، ثم ظهر من قوله تعالىٰ: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أَن عقابه الذي سمَّاه كيْداً متأَخر حتى ظهر بِبَدْرٍ وغيره، وقرأَ جمهور الناس: ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾، وقرأَ ابن عباس: [مَهِّلْهُمْ]، وفي هذه الآية مُوَادعة نسختها آية السيف.

وقوله تعالىٰ: ﴿رُوَيْدًۢا﴾ معناه: قليلاً، قاله قتادة، وهو حالٌ، وهذه اللفظة إِذا تقدمها شيءٌ تَصِفُه، كقولك: سَيْراً رُوَيداً، أَو تقدمها فِعْلٌ يعمل فيها كهذه الآية، وأَما إِذا ابتدأْت بها فقلت: «رُوَيْداً يا فلان» فهي بمعنى الأَمر بالتَمَهُّل، تجري مجرى قولهم: صبراً يا زيد وقليلاً يا عمرو[1].

كمل تفسير سورة الطارق والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) قال الأزهري: إن «رُوَيْد» له أَربعة أَوجه: اسم للفعل، وصفة، وحال، ومصدر، فالاسم نحو قولك: رُوَيْدَ عَمْراً، أَي أَرْوِدْ عمراً، بمعنى أَمهِلْه، والصفة نحو قولك: ساروا سَيْراً رُوَيْداً، والحال نحو قولك: سار القوم رويداً، لما اتَّصل بالمعرفة صار حالاً لها، والمصدر نحو قولك: رُوَيْدَ عَمْرٍو، بالإضافة، كقوله تعالىٰ: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾. (راجع اللسان وغيره من كتب اللغة).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الأعلى

وهي مكيَّة في قول الجمهور، وحكى النقاش عن الضحاك أنها مدنية، وذلك ضعيف، وإنما دعاه إليه قول من قال: إنه ذكر صلاة العيد فيها[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾.

﴿سَبِّحِ﴾ في هذه الآية بمعنى: نزِّه وقَدِّس وقل: سبحانه عن النقائص والغِيَر[(٢)] جميعاً وما يقول المشركون، و«الاسم» الذي هو «ألف، سين، ميم» يأتي في مواضع من الكلام الفصيح يُراد به المسمَّى، ويأتي في مواضع يُراد به التَّسمية، نحو قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً»[(٣)] وغير ذلك، ومتى أُريد به المسمَّى فإنما هو صِلَة كالزائد، كأنه تعالىٰ قال في هذه الآية سبِّح ربَّك، أي نزِّه، وإذا كان الاسم واحداً من الأسماءِ كزيْد وعمرو فيجيءُ في الكلام على ما قُلْتَ، تقول: «زيد قائم» تريد المسمَّى،

---

(١) أخرج البخاري، وابن سعد، وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مُصْعبُ بن عمير، وابن أُمِّ مكتوم، فجعلا يُقرآننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاءَ عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ، فما رأيتُ أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاءَ، فما جاء حتى قرأت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في سور مثلها.

(٢) هي أحوال الدهر وأحداثه المتغيِّرة، قيل: مفرده، غيرة: وقيل بل هو مفرد، وجمعه أغيار.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد والشروط والدعوات، ومسلم في الذكر، والترمذي في الدعوات وابن ماجه في الدعاء، ولفظه كما في صحيح البخاري: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً، مائةً إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة»، أحصاها: حفظها.

وتقول: «زيد ثلاثة أَحرف» تريد التَّسمية، وهذه الآية تحتمل الوجه الأول، وتحتمل أَن يراد بالاسم التسميةُ نفسها على معنى: نزِّه اسم ربِّك عن أَن يُسَمَّى به صنم أَوْ وثن فيقال له: إِلاَهٌ وربٌّ ونحو ذلك.

و﴿ٱلْأَعْلَى﴾ يصح أَن يكون صفة للاسم، ويصح أَن يكون صفة للرب تعالىٰ، وذكر الطبري أَن ابن عمر وعلياً رضي الله عنهما قرأا هذه السورة: [سُبحانَ رَبِّيَ الأَعْلى، الَّذي خَلَقَ فَسَوَّى] قال: وهي في مصحف أُبَيٍّ بن كعب كذلك، وهي قراءة أَبي موسى الأَشعري وابن الزبير، ومالك بن دينار، وروى ابن عباس رضي الله عنهما أَن النبي ﷺ كان إِذا قرأَ هذه الآية قال: «سبحان ربي الأعلى»[١]، وكان ابن مسعود، وابن عمر، وابن الزبير يفعلون ذلك، ولما نزلت هذه السورة قال النبي ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»[٢]، وقال قوم: معنى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾: نزِّه اسم الله تعالىٰ عن أَن تذكره إِلاَّ وأَنت خاشع، وقال ابن عباس: معنى الآية: صلِّ باسم ربك الأَعلى، كما تقول: ابدأْ باسم الله تعالىٰ، وحُذف حرف الجر.

و﴿سَوَّىٰ﴾ معناه: عدَّل وأَتْقن حتى صارت الأُمور مستوية دالَّةً على قدرته ووحدانيته، وقرأَ جمهور القُرَّاءِ: ﴿قَدَّرَ﴾ بشدِّ الدال، فيحتمل أَن تكون من القَدَر والقضاءِ، ويحتمل أَن تكون من التقدير والموازنة بين الأَشياءِ، وقرأَ الكسائي وحده: [قَدَرَ] بتخفيف الدال، فيحتمل أَن تكون من القُدرة، ويحتمل أَن تكون من التقدير والموازنة، وقوله تعالىٰ: ﴿فَهَدَىٰ﴾ عامٌّ لجميع الهدايات في الإِنسان والحيوان، وقد خصَّص بعض المفسرين أَشياءَ من الهدايات ـ فقال الفراءُ: معناه: هدَى وأَضلَّ، واكتفى بالواحدة لدلالتها على الأُخرى، وقال مقاتلٌ والكلبي: هدى الحيوان إِلى وَطْءِ الذكور الإِناث، وقيل: هدى المولود عند وضعه إِلى مصِّ الثدي، وقال مجاهد: هدى الناس إِلى الخير والشر والبهائم للمراتع.

---

(١) أَخرجه أَحمد، وأَبو داود والبيهقي في سننه، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأَخرج مثله عبد الرزاق، وابن أَبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير. (الدر المنثور).

(٢) أَخرجه أَحمد وأَبو داود، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مردويه، عن عقبة بن عامر الجهني، ولفظه كما ذكره السيوطي في الدُّر المنثور: قال: لمَّا أُنزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال لنا رسول الله ﷺ: اجعلوها في ركوعكم، فلما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: اجعلوها في سجودكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه الأَقوال مثالات، والعمومُ في الآية أَصوب في كل تقدير وفي كل هداية.

و﴿ٱلْمَرْعَىٰ﴾: النباتُ، وهو أَصل في قوام العيش، إِذْ هو غذاءُ الأَنعام، ومنه ما ينتفع به الناس في ذواتهم، و﴿الغُثَاءُ﴾: ما يبس وجفَّ وتحطَّم من النبات، وهو الذي يحمله السيل، وبه شُبِّه الناس الذين لا قدر لهم، و﴿الأَحْوى﴾ قيل: هو الأَخضر الذي عليه سوادٌ من شدة الخضرة والغضارة، وقيل: هو الأَسود سواداً يضرب إِلى الخضرة، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

لَمْيَـاءُ فـي شَفَتَيْهَـا حُـوَّةٌ لَعَـسٌ ... وَفي اللِّثَاتِ وفي أَنْيابِهَا شَنَبُ[1]

وتقدير هذه الآية: أَخرج المرعى أَحْوَى، أَيْ أَسودَ من خُضرته ونضارته، فجعله غُثاءً عند يُبْسه، فـ ﴿أَحْوَىٰ﴾ حالٌ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: فجعله غُثاءً أَحوى، أَي أَسود؛ لأَن الغُثاءَ إِذا قَدُم وأَصابته الأَمطار اسوَدَّ وتقبَّض فصار أَحوى، فهذا صفة.

قوله تعالىٰ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، قال الحسن، وقتادة، ومالك بن أَنس: هذه الآية في معنى قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ الآية[2] وعده الله تعالىٰ أَن يُقْرِئه، وأَخبره أَنه لا ينسى نسياناً لا يكون بعده تذكُّر فَيُذْهب الآية، وذلك أَن النبي ﷺ كان يحرك شفتيه مبادرة خوفاً منه أَن ينسى، وفي هذا التأويل آية للنبي ﷺ في أَنه أُمِّيٌّ وحفظ الله تعالىٰ عليه الوحي وأَمَّنه من نسيانه، وقال آخرون: ليست الآية في معنى تلك، وإِنما هذه وعْدٌ بإِقراءِ الشرع والسُّوَر، وأَمْرٌ بأَلاَّ ينسى، على معنى التثبيت والتأكيد، وقد علم تعالىٰ أَن ترك النسيان ليس في قدرته، فهو نهيٌ عن إِغفال التعاهد، وأَثبت الياءَ في ﴿تَنْسَى﴾ لتعديل رؤوس الآي[3]، وقال الجنيد: معنى ﴿لا تَنْسَى﴾: لا تترك العمل بما تضمن من أَمر ونهي.

---

(١) البيت في الديوان، واللسان، والقرطبي، والبحر المحيط، وفتح القدير، والشَّفة اللمياءُ هي اللطيفة القليلة الدَّم، وهذا يُعطيها سمرة كانت محبوبة عند العرب، والحُوَّة: السَّواد الضارب إلى الخضرة، وهو موضع الاستشهاد بالبيت هنا، واللَّعَسُ ـ بفتح اللام المشددة والعين: لون الشفة إذا كانت تميل إلى السواد القليل، واللِّثات: جمع لثَة، والشَّنب: بُرودة وعذوبة في الفم ورقَّة في الأسنان.

(٢) من الآية(١٦) من سورة (القيامة).

(٣) يعني بالياء في ﴿تنسى﴾ الألف التي أَصلها ياءٌ، يقال: نَسيَ يَنْسَى.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال الحسن وقتادة وغيرهما: معناه: مما قضى الله سبحانه بِنَسْخِه وأَن تُرْفع تلاوتُه وحكمه، وقال الفراءُ وجماعة من أَهل المعاني: هو استثناءٌ صِلَةٌ في الكلام، على سنة الله تعالىٰ في الاستثناءِ، وليس ثَمَّ شيءٌ أُبيح نسيانُه، وقال ابن عباس: إلاَّ ما شاءَ الله أَن ينسيكه لِتَسُنَّ به، على نحو قوله ﷺ: «إِنِّي لأَنْسَى، وأُنَسَّى لأَسُنَّ»[١]. وقال بعض المتأولين: إلاَّ ما شاءَ الله أَن يغلبك النسيانُ عليه ثم يذكِّرك به بعد، ومن هذا قول النبي عليه الصلاة والسلام حين سمع قراءة عبّاد بن بشر: «رحمه الله تعالىٰ، لقد أَذكرني كذا وكذا آيةً في سورة كذا»[٢].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ونسيانُ النبي ﷺ ممتنع فيما أُمِر بتبليغه؛ إِذْ هو معصوم، فإذا بلَّغه وَوُعِيَ عنه فالنسيان جائز على أَن يتذكر بعد ذلك، أَو على أَن يسن، أَو على النسخ.

ثم أَخبره تعالىٰ أَنه يعلم الجهر من الأَشياءِ وما يخفى منها، وذلك لإحاطته بكل شيءٍ علماً، وبهذا يصح الخبر أَنه لا ينسى شيئاً إِلاَّ ذكَّره الله تعالىٰ به. وقوله تعالىٰ: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ معناه: نذهب بك نحو الأُمور الْمُسْتَحسنة في دنياك وأُخراك، من النَّصر والظَّفَر وعُلُوِّ الرسالة والمنزلة يوم القيامة والرفعة في الجنة.

ثم أَمره تعالىٰ بالتذكير، واختلف الناس في معنى قوله تعالىٰ: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ فقال الفراءُ، والنحاسُ، والزهراويُّ: معناه: وإِن لم تنفع فاقتصر على القسم الواحد لدلالته على الثاني، وقال بعض الحُذَّاق: إنما قوله تعالىٰ: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ اعتراضٌ بين الكلامين على جهة التوبيخ لقريش، أَي: إِنْ نفعت الذكرى في هؤلاءِ الطُّغاة العُتاة، وهذا كنحو قول الشاعر:

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، باب السهو.

(٢) أَخرجه البخاري في الشهادات، ومسلم في المسافرين، وأحمد في مسنده (٦/ ٦٢، ٥/ ١٥٣)، ولفظه كما في البخاري: عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع النبي ﷺ رجلاً يقرأُ في المسجد فقال: رحمه الله، لقد أَذكرني كذا وكذا آيةً أَسقَطْتُهُنَّ من سورة كذا وكذا، وزاد عبَّادُ بن عبد الله عن عائشة: تهجَّد النبي ﷺ في بيتي، فسمع صوت عبَّادٍ في المسجد، فقال: يا عائشة، أَصَوْتُ عبَّادٍ هذا؟ قلت: نعم، قال: اللهم ارحم عباداً.

هذا وعبَّادُ بن بشر من قدماءِ الصحابة، أَسلم قبل الهجرة، وشهد بدراً، وأَبْلَى يوم اليمامة فاستشهد بها، رحمه الله.

لَقَدْ أَسْمَعْتَ ـ لو ناديت حَيّاً ـ وَلَكِنْ لاَ حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي[(١)]

وهذا كله كما تقول لرجل: قُلْ لفلان وأَعِدْ لَهُ إِنْ سَمِعَكَ، إنما هو توبيخ للمشار إليه.

ثم أَخبر الله تعالىٰ أنه سيذكَّرُ من يخشى الله تعالىٰ والدارَ الآخرة، وهم العلماءُ والمؤمنون، كلٌّ بقدر ما وُفِّق، ويتجنب الذكرى ونفعها من سبقت له الشقاوة فكفر، ووجب له صَلْيُ النار، وقال الحسن: «النَّارُ الكبرى» نار الآخرة، والصغرى نارُ الدنيا، وقال بعض المفسرين: إن جميع نار الآخرة وإن كانت شديدة فهي تتفاضل، ففيها شَيءٌ أَكبر من شيءٍ، وقال الفراءُ: الكبرى هي السُّفلى من أَطباق النار.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ معناه: لا يموت فيها موتاً مريحاً ولا يحيا حياةً هنيَّة، فهو لا محالة حيٌّ، وقد ورد في خبر أَن العصاة في النار موتى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَراده على التشبيه لأَنه كالسُّبات[(٢)] والركود والهمود، فجعله موتاً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَفْلَحَ﴾ في هذه الآية معناه: فاز ببغيته، و﴿تَزَكَّىٰ﴾ معناه: طهَّر نفسه ونمَّاها بالخير، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من قال لا إِله إِلاَّ الله تطهَّر من الشرك»، وقال الحسن: من كان عمله زاكياً، وقال أَبو الأَحوص: من رَضَخَ[(٣)] من ماله وزكَّاه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ معناه: وحَّده وصلَّى له الصلوات التي فرض عليه، وتَنَفَّل أَيضاً بما أَمكنه من صلاة وبرٍّ، وقال أَبو سعيد الخدري، وابن عمر، وابن المسيب: هذه الآية في صبيحة يوم الفطر فـ﴿تَزَكَّىٰ﴾ هو أَدَّى زكاة الفطر، و﴿ذكر اسم ربه﴾ هو ذكْرُ الله تعالىٰ في طريق المصلى إلى أَن يخرج الإِمام، و«الصلاة» هي

(١) فالجملة الاعتراضية في البيت تفيد معنى التوبيخ، وتفيد أَن الإرشاد والنصح ينفعان من يستحق أن يوصف بالحياة، أما من لا يستفيد من النصيحة فكأنه ميت وإن كان في صورة الأحياءِ.

(٢) السُّبات: الراحة، والنوم.

(٣) رَضَخَ له من ماله: أَعطاه قليلاً من كثير.

صلاة العيد، وقد روي هذا التفسير عن النبي ﷺ[(١)]. وقال قتادة وكثير من المتأولين: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ معناه: أَدَّى زكاة ماله، و﴿صَلَّىٰ﴾ معناه: صلَّى الخمس.

ثم أَخبر الله تعالىٰ الناس أَنهم يؤثرون الحياة الدنيا، فالكافر يُؤْثرها إِيثار كُفْر يَرَى أَلاَّ آخرة، والمؤمن يُؤْثرها إِيثار معصية وغَلَبَة نفس إلاَّ من عصم الله تعالىٰ. وقرأَ أَبو عمرو وحده[(٢)]: [يُؤْثرونَ] بالياءِ، وقال: يعني الأَشْقَيْن، وهي قراءة ابن مسعود، والحسن، وأَبي رجاءٍ، والجحدري، وقرأَ الباقون والناس: ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ بالتاءِ على المخاطبة، وفي حرف أُبَيٍّ بن كعب: [بَلْ أَنتُمْ تُؤْثرون]، وسبب الإِيثار حبُّ العاجل، والجهل ببقاءِ الآخرة، وقال عمر رضي الله عنه: ما الدنيا في الآخرة إلاَّ كنفخة أَرنب.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ قال الضحاك: أَراد القرآن، وروي أَن القرآن انتسخ من الصحف الأُولى، وقال سعيد ابن جبير عن ابن عباس: الإِشارة إِلى معاني السورة، وقال ابن زيد: الإِشارة إِلى هذين الخبرين: إِفلاح من تزكَّى، وإِيثارُ الناس للدنيا مع فضل الآخرة عليها. وهذا هو الأَرجح لقرب المشار إِليه بـ[هَٰذَا].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾، أَي لم ينسخ هذا قط في شرع من الشرائع، فهو في الأُولى وفي الأَخيرات، ونظير هذا قول النبي ﷺ: «إِنَّ ممَّا أَدرك الناس من كلام النبوَّة الأُولى إِذا لم تَسْتَحِ فاصنع ما شئت»[(٣)]، أَي: إِنه مما جاءت به الأُولى واستمر في الغير.

وقرأَ الجمهور: ﴿ٱلصُّحُفِ﴾ مضمومة الحاءِ، وروى هارون عن أَبي عمرو سكون الحاءِ، وهي قراءة الأَعمش، وقرأَ أَبو رجاءٍ: [إِبْرَهَمَ] بغير ياءٍ ولا أَلف، وقرأَ ابن الزبير: [إِبْرَاهامَ]، وكذلك أَبو موسى الأَشعري في كل القرآن، وقرأَ عبد الرحمن بن أَبي بكر: [إِبْرَاهِمَ] بكسر الهاءِ وبغير ياءٍ في جميع القرآن.

ورُوي أَن صُحُف إِبراهيم عليه السلام نزلت في أَول ليلة من رمضان، والتوراة في

---

(١) أَخرج ابن مردويه عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: قد أفلح من تزكى، وذكر اسم ربِّه فصلَّى، ثم يُقسِّم الفطرة قبل أن يغدو إلى المصلَّى يوم الفطر.

(٢) أَيْ من القراءِ السبعة.

(٣) أَخرجه البخاري في الأنبياءِ والأَدب، وأَبو داود في الأَدب، وابن ماجه في الزهد، ومالك في موطنه، باب السفر، وأحمد في مسنده (٤/ ١٢١، ١٢٢، ٥/ ٢٧٣).

السادسة من رمضان، والزبور في اثنتي عشرة منه، والإنجيل في ثماني عشرة منه، والقرآن في أَربع عشرة منه[(١)].

كمل تفسير سورة الأعلى والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

(١) قال ابن جرير في تفسيره: «حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، عن أَبي الخلد، قال: نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأُنزلت التوراة لستٍّ ليال خلون من رمضان، وأُنزل الزبور لاثنتي عشرة ليلة، وأُنزل الإنجيل لثماني عشرة، وأُنزل القرآن لأربع وعشرين»، وهذا يصحح لنا ما في الأصول هنا من أن القرآن أُنزل في الرابع عشر من رمضان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سُورة الغاشية

وهي مكيّة بلا خلاف في ذلك بين أَهل التأويل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ ﴾.

قال بعض المفسرين: ﴿هَلْ﴾ بمعنى «قد»، وقال الحذاق: هي على بابها توقيفٌ فائدته تحريك نفس السامع إِلى تلقِّي الخبر، وقيل: المعنى: هل كان هذا من علمك لولا أَن علمناك؟ ففي هذا التأويل تقرير النعمة. و﴿الْغَاشِيَةِ﴾: القيامة لأَنها تغشى العالم كله بهولها وتغييرها لِبِنْيَتِهِ، قاله سفيان وجمهور من المتأولين، وقال ابن جبير ومحمد بن كعب: الغاشية: النارُ، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾[1]، وقال: ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[2]، فهي تغشى سكانها، والقول الأَول يؤيده قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾، والوجوه الخاشعة هي وجوه الكفار، وخشوعُها ذُلُّها وتغيُّرُها بالعذاب.

واختلف الناسُ في قوله تعالىٰ: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾، فقال ابن عباس، والحسن، وابن جبير، وقتادة: معناه: عاملةٌ في النار ناصبةٌ فيها، والنَّصَب: التَّعب، لأَنها تكبرت عن العمل لله تعالىٰ في الدنيا فأَعملها في الآخرة في ناره، وقال عِكرمة والسُّدِّيُّ: المعنى: عاملةٌ في الدنيا ناصبةٌ يوم القيامة، فالعمل ـ على هذا ـ هو مساعي الدنيا، وقال ابن عباس، وزيد بن أَسلم، وابن جبير: المعنى: هي عاملة في الدنيا ناصبة فيها.

(١) من الآية (٥٠) من سورة (إبراهيم).
(٢) من الآية (٤١) من سورة (الأعراف).

لأنها على غير هدى، فلا ثمرة لعاملها إلا النصب، وخاتمته النار، وقالوا: الآية في القِسِّيسينَ وعُبَّاد الأوثان وكل مجتهد في كفر، وقد ذهب إلى هذا المذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تأويل الآية، وبكى رحمةً لراهب نصراني رآه مجتهداً[١]، وفي الحديث أن النبي ﷺ ذكر القدرية فبكى وقال: إن فيهم المجتهد[٢].

وقرأ ابن كثير ـ في رواية شبل ـ وابن محيصن: [عاملةً ناصبةً] بالنصب على الذَّم، والناصبُ فعل مضمر تقديره: أَذُمُّ أَو أَعني أَو نحو هذا، وقرأ الستة وحفص عن عاصم، والأَعرج، وطلحة، وأَبو جعفر والحسن: [تَصْلَى] بفتح التَّاءِ وسكون الصاد، على بناءِ الفعل للفاعل، أَي الوجوه، وقرأَ أَبو بكر عن عاصم، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ وأَبو رجاءٍ، وأَبو عبد الرحمن، وابن محيصن ـ واختُلف عن نافع وعن الأَعرج ـ: [تُصْلَى] بضم التاءِ وسكون الصاد، وذلك يحتمل أَن يكون من «صَلَيْتُه النار» بمعنى أَصليته فيكون كتُضرب، ويحتمل أَن يكون من أَصليتُه فيكون كتُكرم، قرأَ بعض الناس: [تُصَلَّى] بضم التاءِ وفتح الصاد وشدِّ اللام، على التعدية بالتضعيف، حكاها أَبو عمرو بن العلاءِ. و﴿الحامية﴾: المسعَّرة التوقد المتوهجة. و﴿الآنِيةُ﴾: التي قد انتهى حرُّها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾[٣]، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقال ابن زيد: معنى ﴿ءَانِيَةٍ﴾: حاضرة لهم، من قولهم: أَنَى الشيءُ إِذا حضر.

واختلف الناس في ﴿الضَّريع﴾ ـ فقال الحسن وجماعة من المفسرين هو الزَّقُّوم؛ لأَن الله تعالىٰ قد أَخبر في هذه الآية أَن الكفار لا طعام لهم إِلاَّ من ضريع، وقد أَخبر أَن الزَّقُّوم طعام الأَثيم[٤]، فذلك يقتضي أَن الضريع هو الزقوم. وقال سعيد بن جبير: الضريع حجارة في النار. وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة: الضَّريع شِبْرِقٌ

---

(١) أخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، والحاكم، عن أَبي عمران الجوني، قال: مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه براهب فوقف، ونودي على الراهب فقيل له: هذا أَمير المؤمنين، فاطَّلع فإذا إنسان به من الضُّرِّ والاجتهاد وترك الدنيا، فلما رآه عمر بكى، فقيل له: إنه نصراني فقال: قد علمتُ ولكني رحمته، ذكرت قول الله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ فرحمت نصبه واجتهاده وهو في النار.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) من الآية (٤٤) من سورة (الرحمن).

(٤) وذلك في قوله تعالىٰ في الآيتين (٤٣، ٤٤) من سورة الدخان: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾.

النار، وقال أَبو حنيفة: الضريع الشِّبرق(١)، وهو مرعى سوءٍ لا تعقد السائمة عليه شحماً ولا لحماً، ومنه قول ابن عَيْزَارَةَ الهُذَلِيِّ:

وَحُبِسْنَ في هـزْم الضَّـريـعِ فَكُلُّهـا ... حَـدْبـاءُ دامِيَـةُ الْيَـدَيْـنِ حَـرودُ(٢)

وقال أَبو ذُؤَيْب:

رَعَى الشِّبرِقَ الرَّيَّانَ حتَّى إذا ذَوَى ... وَعَاد ضَريعاً بانَ مِنْهُ النَّحائِصُ(٣)

وقيل: الضريع: العِشْرِقُ(٤)، وقال النبي ﷺ: «الضريع شوك في النار»(٥)، وقال بعض اللغويين: الضَّريع يَبِسُ العَرْفَج(٦) إذا تحطم، وقال آخرون: هو رَطْبُ العَرْفج، وقال الزجاج: هو نَبْت كالعَوْسج(٧)، وقال بعض المفسرين: الضريعُ نبت في البحر

---

(١) جاء في اللسان: «الشِّبْرق، بالكسر: نباتٌ غضٌّ، وقيل: شجر مَنْبته نجد وتهامة، وثمرته ساكَّة صغيرة الجِرْم، حمراءُ مثل الدم، مَنْبتها السِّباخُ والقيعان، واحدته شِبْرِقة».

(٢) البيت في اللسان، والقرطبي، والبحر المحيط، وفتح القدير، وفي التاج، والكشاف، والشاعر هو قَيْس بن عَيْزَارة ـ بفتح العين ـ والبيت في وصف إبل وسُوءِ مرعاها، وقد وصفها بشدة الهُزال، وهَزْمُ الضريع: ما تكسَّر منه، والحدباءُ: الناقة التي ظهرت حراقِفُها ـ والحرقَفَةُ رأسُ الوَرك ـ وكَبرَ ظَهْرها وبَدَا عالياً، والحرودُ: التي لا تكادُ تُدِرُّ لبناً، والسبب في أن يديها دَمِيَت أنها ترعى هذا الشوك وتتعرض له.

(٣) البيت في القرطبي، والبحر المحيط، وفتح القدير، والكشاف، وقدَ نسب فيها كلها إلى أبي ذُؤيب الهذلي، ولكنا لم نجده في ديوانه، والشبرقُ: نبتٌ يسميه أَهل الحجاز ضريعاً إذا يَبس، وغيرهم يُسَمِّيه الشِّبرق، وذَوَى: ذَبُل ويبسَ وضَعُف، والنَّحائصُ: جمع نَحُوصٍ، وهي الأتان الوحشية، وقيل: هي التي في بطنها ولد، وقال الأصمعي: النحوصُ من الأُتُن هي التي لا لَبن بها، وقيل: هي التي لا لَبن بها ولا ولد لها.

(٤) العشْرقُ: من الحشيش، ورقه شبيه بورق الغار، إلاَّ أنه أَعظم منه وأكبر، إذا حرَّكته الريحُ تَسمَع له زجلاً، وله حَمْل كَحَمْل الغار إلاَّ أَنه أَعظم منه. (راجع اللسان).

(٥) أَخرجه بن مردويه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما، ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾، قال: قال رسول الله ﷺ: «شيءٌ يكون في النار، شبه الشوك، أَمَرُّ من الصبر، وأَنْتَن من الجيفة، وأَشدُّ حرًّا من النار، سماه اللهُ الضريع، إذا طَعِمَهُ صاحبه لا يدخل البطن، ولا يرتفع إلى الفم، فيبقى بين ذلك، ولا يُغني من جوع». (الدر المنثور).

(٦) العَرْفج: نَبْت سهْليٌّ سريع الاتِّقاد، واحدته عَرْفَجة، وقيل: هو من شجر الصيف، وهو ليِّن أَغبر، له ثمرة خشناء كالْحَسَك.

(٧) العَوْسَجُ: شجر من شجر الشوك، له ثمر أَحمر مُدَوَّر كأنه خرز العقيق، والمفرد: عَوسَجَة. (عن اللسان).

أَخضر مُنْتِن مُجَوَّف مستطيل، له نَوْر فيه كبير(١)، وقال ابن عباس أَيضاً: الضريع شجر من نار. وكُلُّ من ذكر شيئاً مما قدمناه فإنما يعني أَن ذلك من نار ولا بُدّ، وكلُّ ما في النار فهو نارٌ، وقال قوم: ضَريع: وادٍ في جهنم، وقال جماعة من المتأولين: الضريعُ طعامُ أَهل النار، ولم يُرد أَن يخصص شيئاً مما ذُكر، قال بعض اللغويِّين: وهذا مما لا تعرفه العرب، وقيل: الضريعُ: الجلدةُ التي على العظم تحت اللحم، ولا أَعرف من تأول الآية بهذا، وأَهل هذه الأَقاويل يقولون: الزَّقُّوم لطائفة، والضَّريعُ لطائفةٍ، والغِسْلينُ لطائفة.

واختلف في المعنى الذي سُمِّي به ضريعاً ـ فقيل: هو ضريعٌ بمعنى مُضْرِع، أَي مضعف للبدن مُهْزِلٌ، ومنه قول النبي ﷺ في وَلَدَيْ جعفر بن أَبي طالب رضي الله عنهم: «ما لي أَراهما ضارعَيْن»(٢)؟ يريد هزيلَيْن، ومن فَعِيل بمعنى مُفْعل قول عمرو بن معديكرب:

أَمِـنْ رَيْحـانَـةَ الـدَّاعِـي السَّمِيـعُ ... يُـؤَرِّقُنِـي وَأَصْحـابِـي هُجُـوعُ(٣)

يريد: المُسمِع. وقيل: ضَريعٌ: فَعِيل من المضارعة، أَي لأَنه يشبه المرعى الجيِّد ويضارعه في الظاهر، وليس به.

ولما ذكر تعالىٰ وجوه أَهل النار عقَّب ذلك بذكر وجوه أَهل الجنة ليبين الفرق، وقوله تعالىٰ: ﴿لِّسَعْيِهَا﴾ يريد به: لعملها في الدنيا وطاعتها، والمعنى: لثواب سعيها والتنعيم عليه، ووصف تعالىٰ الجنة بالعُلوِّ، وذلك يصح من جهة المسافة والمكان، ومن جهة المكانة والمنزلة أَيضاً.

---

(١) اختلفت النسخ في كتابة هذه الجملة، واخترنا أَقربها إلى ما يلائم المعنى العام.

(٢) أَخرجه مالك في الموطأ، في كتاب العين.

(٣) هذا البيت هو مطلع قصيدة مشهورة للشاعر ذكر صاحب الأغاني سببيْن لإنشادها، أَولُهما أن عمراً هذا تزوج امرأةً من مُراد تسمَّى «ريحانة»، وذهب مغيراً قبل أن يدخل بها، فلما قدِم أُخبر أَنه قد ظهر بها وَضَحٌ ـ وهو داءٌ تحذره العرب ـ فطلقها وتزوجها رجل آخر من بني مازن بن ربيعة، وبلغ ذلك عمراً، كما بلغه أَنَّ ما قيل عن مرضها غير صحيح، فأخذ يشبب بها. وثانيهما أن «ريحانة» هذه هي أُخته، وأن الصِّمة ـ والدُ دُرَيْد بن الصِّمة ـ قد سباها بعد أن غزا بني زبيد، ولم يستطع عمرو أن يسترجعها. والشاهد هنا أن «السَّميع» بمعنى «المُسْمِع»، كما أن «البديع» بمعنى «المبدع»، والمعنى: إن الشوق الداعي المُسمِع يؤرقني في الوقت الذي ينام فيه أَصحابي ويستريحون، عَلَى أن للنحويين كلاماً كثيراً في هذا البيت، فمنهم من يقول ما ذكرناه ومنهم من يخالف، ويدور بين الطرفين نقاش طويل في الإعراب وفي المعنى. والبيت في الأصمعيات، واللسان، والتاج، وفي الخزانة، والشعر والشعراء.

وقرأ نافع وحده، وابن كثير، وأبو عمرو ـ بخلاف عنهما ـ والأعرج، وأهل مكة والمدينة: [لا تُسْمَعُ فيها لاغيةٌ] بضم التاءِ من فوق، ورفع ﴿ لَٰغِيَةً ﴾، ففسَّره بعضهم: لا تُسمع فيها كلمةٌ لاغية، أي ذات لغو، فهي على النسب، وفسَّره بعضهم على معنى: لا تُسمع فيها فئة أو جماعةٌ لاغية ناطقة بسوءٍ، وقال أبو عبيدة: ﴿ لَٰغِيَةً ﴾ مصدر كالعاقبة والجاثية، وقرأ الجحدري: [لا تُسْمَعُ] بضم التاءِ [لاَغِياً] بالنصب، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [لاَ يُسْمَعُ] بالياءِ من تحت مضمومة [لاغِيَةٌ] بالرفع، وهي قراءة ابن محيصن، وعيسى، والجحدري أيضاً، إلاَّ أنه قرأ: [لاَغِيَةً] بالنصب، على معنى: لا يُسمع أحدٌ كلمةً لاغية، من قولك: أسمعتُ زيداً، وقرأ الباقون، ونافع ـ في رواية خارجة ـ والحسن، وأبو رجاءٍ، وأبو جعفر، وقتادة وابن سيرين، وأبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ: ﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ بفتح التاءِ [لاغِيَةً] بالنصب، والمعنى إمَّا على الكلمة وإمَّا على الفئة، والفاعل بـ ﴿تَسْمَعُ﴾ إمَّا الوجوه، وإمَّا محمد ﷺ ـ قاله الحسن ـ وإمَّا أنتَ أيها المخاطب عموماً. و«اللَّغْوُ» سَقَط القول، فذلك يجمع الفُحْش وسائر الكلام السَّفاسف[1] الناقص، وليس في الجنة نقصان ولا عيب فعل ولا قول، والحمد لله وَلِيِّ النعمة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ عَيْنٌ ﴾ في هذه الآية اسم جنس، ويحتمل أن تكون عيناً مخصوصة ذُكرت على جهة التشريف لها. ورَفْعُ السُّرُر أَشرف لها، و﴿الأَكْوابُ﴾ أَوان كالأَباريق لا عُرَى لها ولا آذان ولا خراطيم، وشكلها عند العرب معروف، و﴿ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ معناه: بِأَشْرِبَتها مُعَدَة، و«النُّمْرُقَةُ»: الوسادة، ويقال: نِمْرِقَةٌ بكسر النون والراءِ، قال زهير:

كُهُولاً وَشُبَّاناً حِساناً وُجُوهُهُمْ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ ونمارِقِ[2]

---

(١) أي: الحقير الرديء من كل قول أو فعل.

(٢) لم أجد هذا البيت في ديوان زهير «دار صادر ببيروت»، وقد ذكره في البحر المحيط منسوباً أيضاً إلى=

و﴿الزرابي﴾ واحدتها «زَرِبيَّة»، ويقالُ بفتح الزاي، وهي كالطنافس لها خَمْلٌ[١]، قاله الفَراءُ، وهي ملونات و﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ معناه: كثيرة متفرقة.

ثم أَقام تعالىٰ الحجة على منكري قدرته على بعث الأَجساد بأَن وقَفَهم على مواضع العبرة في مخلوقاته، و﴿ٱلْإِبِلِ﴾ في هذه الآية هي الجمال المعروفة، هذا قول الجمهور من المتأولين، وفي الجمل آيات وعبر لمن تأمل، ليس في الحيوان مَا يَقوم من البروك بحمله سواه، وهو على قوته غاية في الانقياد، قال الثعلبي في بعض التفاسير: إن فأرة جرت بزمام ناقة فتبعتها حتى دخلت الجحر فبركت الناقة وأَدنت رأَسها من فم الجحر، وكان شريح القاضي يقول لأَصحابه: اخرجوا بنا إِلى الكُناسَة[٢] حتى ننظر إِلى الإِبل كيف خُلقت، وقال أَبو العباس المبرد: الإِبل هنا: السحابُ لأَن العرب قد تسميها بذلك إِذ تأتي أَرسالاً كالإِبل، وتُزَجَى كما تُزَجَى[٣] الإِبل، وهي في هَيئَتها أَحياناً تشبه الإِبل والنعام، ومنه قول الشاعر:

كَــأَنَّ السَّحــابَ دُوَيْــنَ السَّمــا ءِ نَعَــامٌ تَعَلَّــق بــالأَرْجُــل[٤]

وقرأَ أَبو عمرو ـ بخلاف ـ وعيسى: [الإِبِلِّ] بشد اللام[٥]، وهي السحاب كما ذكر قوم من اللغويين والنقاش، وقرأَ الجمهور: ﴿خُلِقَتْ﴾ بفتح القاف وضم الخاءِ، وقرأَ

= زهير، والكهل: الرجل إذا جاوز الثلاثين ووخطه الشيب، قال ذلك في الصحاح، والسُّرر: جمع سرير، والنَّمارق: جمع نُمرقة، وهي بضم النون، وقد تأتي بكسرها كما قال ابن عطية، قال الفراء: النُّمرقة هي الوسادة، وفي الحديث: «اشتريت نُمرقة».

(١) الخَملُ: هُدْب القطيفة ونحوها مِمَّا ينسج وله فضول، وقد يقال الخَمْل على القطيفة نفسها. (المعجم الوسيط).

(٢) الكُناسة: سوق الكوفة، وكانت الإبل تأتي إليها بالبضائع أو تصدر عنها، وهي مثل المربد سوق البصرة. وتنطق بضم الكاف.

(٣) زَجَّى الشيء وأَزْجاه: ساقه ودفعه، والرِّيحُ تُزجي السحاب، أي تسوقه سوقاً رفيقاً، وفي الكتاب العزيز: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾.

(٤) البيت في البحر المحيط غير منسوب أَيضاً، و«دُون» نقيض «فوق»، ويقال: هذا دُونَ ذلك، أَي أَقرب منه، وقد صغَّرها الشاعر هنا ليشير إلى أن المسافة بين السحاب والسماء قليلة، وهذا يعني أن السحاب كثير الارتفاع، والبيت يدل على أن السَّحاب قد شُبِّه بالإبل، ولكنه قطعاً لا يُعطي دلالة لغوية على أن الإبل هي السحاب كما يقول أَصحاب هذا الكلام.

(٥) الإبل: لا واحد لها من لفظها، وهي مؤنثة مثل أَسماءِ الجموع التي لا واحد لها من لفظها، ويقال: «إِبْل»: بسكون الباءِ، والجمع: آبال.

علي بن أَبي طالب: [خَلَقْت] بفتح الخاءِ وسكون القاف، على فعل المتكلم، وكذلك [رَفَعْتُ، ونَصَبْتُ، وسَطَحْتُ]، وقرأَ أَبو حيوة: ﴿رُفِّعَتْ، وَنُصِّبتْ، وَسُطِّحَتْ﴾ بالتشديد فيها. و[نُصِبَتْ] معناه: أُثبتت قائمة في الهواءِ لا تنبطح، وقرأَ الجمهور: ﴿سُطِحَتْ﴾ بتخفيف الطاءِ، وقرأَ هارون الرشيد: [سُطِّحَتْ] بشد الطاءِ على المبالغة، وهي قراءة الحسن. وظاهر هذه الآية أَن الأَرض سَطْحٌ لا كُرَة، وهو الذي عليه أَهل العلم، والقول بكرويتها ـ وإِن كان لا ينقض ركناً من أَركان الشرع ـ فهو قول لا يُثبته علماءُ الشرع[١].

ثم أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالتذكير بهذه الآيات ونحوها. ثم نفى تعالىٰ أَن يكون مسيطراً على الناس، أَي قاهراً مُخْبِراً لهم مع تكبُّر متسلطاً عليهم، يقال: تسيطر علينا فلان، وقرأَ بعض الناس: [بِمُسَيْطِرٍ] بالسين، وبعضهم [بمُصَيْطِرٍ] بالصاد، وقرأَ هارون: [بمُسَيْطَر] بفتح الطاءِ، وهي لغة تميم، وليس في كلام العرب على هذا البناء غير «مُسَيْطر، ومُبَيْطر، ومُبَيْقر، ومُهَيمن»[٢]، وفي الأَسماءِ «مُدَيْبر، ومُجَيْمر»، وهو اسم واد، ويحتمل أَن يكون هذان مُصغَّرين[٣].

قوله تعالىٰ: ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾، قال بعض المتأولين: «الاستثناءُ مُتَّصل، والمعنى: إِلاَّ من تولَّى وكفر فأَنت مسيطر عليه، فالآية ـ على هذا ـ لا نسخ فيها، وقال آخرون منهم: الاستثناءُ منفصل، والمعنى: ﴿لست عليهم بمصيطر﴾ وتمَّ الكلام، وهي آية مُوَادعة منسوخة بالسيف، ثم قال تعالىٰ: ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ﴾، وهذا هو القول الصحيح؛ لأَن السورة مكيَّةٌ، والقتال إِنما نزل بالمدينة، و﴿مَنْ﴾ بمعنى «الذي». وقرأَ ابن عباس، وزيد بن أَسلم، وقتادة، وزيد بن علي: (أَلاَ مَنْ تَوَلَّى) بفتح الهمزة، على معنى استفتاح الكلام، و﴿مَنْ﴾ ـ على هذه القراءة ـ شرطية. و(العَذَابُ الأَكْبَرُ) عذابُ الآخرة؛ لأَنهم قد عُذِّبوا في الدنيا بالجوع والقتل وغيرهما، وقرأَ ابن مسعود: [فإِنَّهُ يُعَذِّبُهُ اللهُ].

---

(١) كان هذا في عصره، أما الآن فلا يُقبل هذا الفهم، ومعنى الآية لا يتعارض مع الحقائق والواقع، فالأرض مسطوحة أمام العين فقط، ولم تتعرض الآية لكرويتها أو انبساطها من أولها إلى آخرها، والقرآن الكريم يقول في آية أخرى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾.

(٢) وهذه الأربعة أسماء فاعلين، من: سَيْطر، وبَيْطَرَ، وبَيْقرَ، وهَيْمَن.

(٣) فهما في الأصل: مُدَبِّرٌ ومُجَمِّر، وبعد التصغير كانا مُدَيْبِر ومُجَيْمر.

وقرأ الجمهور: ﴿إِيَابَهُمْ﴾، مصدرٌ من «آب يَؤوبُ» إذا رجع، وهو الحشر والردُّ إلى الله تعالىٰ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: [إِيَّابُهُمْ] بشد الياءِ، على وزن «فِعَّال» بكسر الفاءِ، أَصله «فيعال»، من «أَيَّبَ»، أَصله «فَيْعَلَ»، ويصحُّ أَن يكون من «أَوَّبَ» فيجيءُ «إيواباً» وسهلت الهمزة، وكان اللازم في الإِدغام ردها «إِوَّاباً»، لكن استحسنت فيه الياءُ على غير قياس[1].

كمل تفسير سورة الغاشية والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

(١) قال صاحب اللوامح وتبعه الزمخشري: «هو نحو كذَّب كِذَّاباً، وقيل فيه «إيواباً. لأن الواو الأولى قلبت ياءً لانكسار ما قبلها»، ويرفض أَبو حيان في البحر المحيط هذا الكلام، ويناقشه مناقشة لغوية مبسوطة. وقال الأزهري: «لا أَدري مَنْ قرأَ «إِيَّابهم» بالتشديد، والقراء على التخفيف».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة الفجر

وهي مكيّة عند جمهور المفسرين، وحكى أبو عمرو الداني في كتابه المؤلف في تنزيل القرآن عن بعض العلماءِ أنه قال: إنها مدنية، والأول أشهر وأصَحُّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾.

قال جمهور المفسرين: «الفَجْرُ» هنا هو المشهور الطالع في كل يوم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الفجرُ: النَّهار كلُّه، وقال ابن عباس أيضاً وزيد بن أسلم: الفجر الذي أقسم الله تعالىٰ به: صلاة الصبح، وقرأ: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾[1]، وقال مجاهد: إنما أراد فجر يوم النحر، وقال الضحاك: المراد فجر ذي الحِجَّة، وقال مقاتل: المراد فجر ليلة جمْع[2]، وقال ابن عباس أيضاً: المراد فجر أول يوم المحرَّم لأنه فجر السنة، وقيل: المراد فجر العيون من الصخور وغيرها، وقال عكرمة: المراد فجر يوم الجمعة.

واختلف الناس في «اللَّيالي العَشْر» ـ فقال بعض الرواة: هي العشرُ الأول من رمضان، وقال ابن عباس والضحاك: هي العشر الأواخر من رمضان، وقال يمانُ[3] وجماعة من المتأولين: هي العشر الأُول من المحرم، وفيها يوم عاشوراءَ، وقال ابن

---

(١) في بعض النسخ «وقراءتُها هي قُرآن الفَجْر».

(٢) جَمْعٌ هي المزدلفة، وسميت بذلك لاجتماع الناس بها، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «بعثني رسول الله ﷺ في الثَّقَل من جَمْع بلَيْل»، وجمع عَلَم للمزدلفة.

(٣) لم يذكر أحد من المفسرين الاسمَ كاملاً، وهناك أكثر من واحد بهذا الاسم.

الزبير، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي، وعطية العوفي: هي عشر ذي الحَجة، وقال مجاهد: هي عَشْر موسى عليه السلام التي أتمَّها اللهُ تعالىٰ له. وقرأ الجمهور: ﴿وَلَيَالٍ﴾، وقرأ بعض القُرَّاءِ: [وَلَيَالِي عَشْرٍ] بالإضافة، وكأن هذا على أَنَّ «العَشْر» مشارٌ إليه معيَّنٌ بالعلم به، ثم وقع القسم بلَيَالِيهِ، فكأَن «العَشْر» اسمٌ لَزِمه، وهذا نحو قولهم: «فعلتُ كذا في العشر الأَوسط»، فإنما هذا على أَن «العَشْرَ» اسمٌ لَزِم حتى عومل معاملة الفرد ثم وُصف به، ومن راعى فيه الليالي قال «العَشْر الوُسُط».

واختلف الناس في «الشَّفْع والوَتْر» ـ فقال جابر عن النبي ﷺ: «الشَّفع يومُ النحر، والوَتْر يومُ عَرَفة»[١]، وروى أَبو أَيوب عنه ﷺ أَنه قال: «الشَّفْع يومُ عَرَفة ويومُ الأَضحى، والوتر ليلة النَّحْر»[٢]، وروى عِمْرانُ بن حُصَين عنه عليه الصلاة والسلام أَنه قال: «هي الصلواتُ منها الشَّفع ومنها الوتر»[٣]، وقال ابن الزبير وغيره: الشفع اليومان من أَيام التشريق، والوَتر اليوم الثالث، وقال آخرون: الشَّفعُ العالم، والوتر الله سبحانه؛ إِذْ هو تعالىٰ الواحد محضاً، وسواه ليس كذلك، وقال بعض المتأَولين: الشفع آدمُ وحواءُ عليهما السلام، والوَتْر الله سبحانه وتعالىٰ، وقال ابن سيرين، ومسروق، وأَبو صالح: الشفع والوَتْر شائعان في الخلق كله: الإيمان والكفر، والإِنس والجن، وما اطَّرَدَ نحو هذا، فهي أَضدادٌ أَو كالأَضداد، ووترها الله تعالىٰ فردٌ واحدٌ، وقيل: الشفع الصفا والمروة، والوَتْر البيتُ، وقال الحسين بن الفضل: الشفع أَبواب الجنة لأَنها ثمانية، والوَتْر أَبواب النار لأَنها سبعة، وقال مقاتل: الشفع الأَيام والليالي، والوَتْر يوم القيامة لأَنه لا ليل بعده، وقال أَبو بكر الوَرَّاق: الشفع تضادُّ أَوصاف المخلوقين كالعِزِّ والذُّلِّ ونحوه، والوتر اتحاد صفات الله تعالىٰ، عزٌّ محض وكَرَمٌ محض، ونحوه، وقيل: الشفعُ قِرانُ الحج والعمرة، والوَتْر الإِفرادُ بالحج، وقال

---

(١) أَخرجه أحمد، والنسائي، والبَزَّار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن جابر، وأورده السيوطي في الدُّرِّ المنثور، ولفظه أَن النبي ﷺ قال: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾، قال: العَشْر عَشْر الأَضحى، والوَتْر يومُ عرفة، والشفع يومُ النحر.

(٢) أَخرج الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف، عن أبي أيوب، عن النبي ﷺ أنه سُئل عن الشَّفع والوَتر فقال: «يومان وليلة، يوم عرفة ويوم النحر، والوتر ليلةُ النحر، ليلة جَمْع». (الدر المنثور).

(٣) أَخرجه أَحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن عمران بن حُصَين.

الحسن: أقسم الله تعالىٰ بالعدد لأنه إمَّا شفع وإمَّا وَتْر، وقال بعض المفسرين: الشفع حواءُ والوَتْر آدم عليهما السلام، وقال ابن عباس ومجاهد: الوَتْر صلاة المغرب، والشفع صلاة الصبح، وقال أبو العالية: الشفع الركعتان من المغرب، والوَتْر الركعة الأخيرة، وقال بعض العلماءِ: الشفع تنفُّلُ الليلِ مثنى مثنى، والوتر الركعة الأخيرة المعروفة.

وقرأ جمهور القراءِ والناسُ: ﴿وَٱلْوَتْرِ﴾ بفتح الواو، وهي لغة قريش وأهل الحجاز، وقرأ حمزة، والكسائي: والحسن ـ بخلاف ـ وأبو رجاءٍ، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش، وقتادة: [وَالْوِتْرِ] بكسر الواو، وهي لغة تميم وبكر، وذكر الزهراوي أن الأغرَّ رواها عن ابن عباس، وهما لغتان في الفَرد، وأمّا في الذَّحل[1] فإنَّما هو «وِتْرٌ» بالكسر لا غير، وقد ذكر الزهراوي أن الأصمعي حكى فيه اللغتين، الفتح والكسر.

و«سُرى الليل» ذهابُه وانقراضه، هذا قول الجمهور، وقال ابن قتيبة، والأخفش، وغيرهما: المعنى: إذا يُسْرَى فيه، فيخرج هذا الكلام مخرج «ليل نائم ونهار صائم»، وقال مجاهد، وعكرمة، والكلبي: أراد بهذا ليلة جمْعٍ لأنها يُسْرَى فيها، وقرأ الجمهور: ﴿يَسْرِ﴾ دون ياءٍ في وصل ووقف، وقرأ ابن كثير: [يَسْري] بالياءِ في وصل ووقف، وقرأ نافع، وأبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ: [يَسْري] بياءٍ في الوصل ودونه في الوقف، وحذفها تخفيف لاعتدال رؤوس الآي إذ هي فواصل كالقوافي، قال اليزيديُّ: الوصل في هذا وما أشبهه بالياءِ، والوقف بغير ياءٍ على خط المصحف، ووقف تعالىٰ على هذه الأقسام العظام هل فيها مقنع وحسب لِذِي عقل. و﴿الحِجْرُ﴾: العقلُ والنُّهْيَةُ، والمعنى: فيزدجر ذو الحجر وينظر في آيات الله تعالىٰ.

ثم وقف تعالىٰ على مصارع الأُمم الخالية الكافرة، وما فعل بها من التعذيب والإهلاك، والمراد بذلك توعُّد قريش ونصب المثل لها. و﴿عَادٍ﴾، قبيلة، لا خلاف في ذلك، واختلف الناس في ﴿إِرَمَ﴾ ـ فقال مجاهد وقتادة: هي القبيلة بعينها، وعلى هذا قال ابن قيس الرقيات:

مَجْداً تَلِيداً بَنَاهُ أَوَّلُهُ ... أَدْرَكَ عَاداً وَقَبْلَها إِرَمَا[2]

---

(١) الذَّحْلُ: الحِقدُ والعداوة.

(٢) البيت من قصيدة قالها عُبَيْد الله بن قيس الرُّقَيَّات يمدح عمر بن عبد العزيز، وهو في القرطبي، والبحر=

وقال زهير:

وَآخَرِينَ تَرى المـاذِيَّ عُـدَّتَهُـمْ مِنْ نَسْجِ دَاودَ أَوْ ما أَوْرَثَتْ إِرَمُ[1]

وقال ابن إسحاق: إرمٌ هو أَبُو عاد كلِّها، وهو عَادُ بن عوْص بن إِرَم بن سام بن نوح عليه السلام، وقال غير ابن إسحاق: هو أَحد أَجدادها، وقال جمهور المفسرين: إرمٌ مدينة لهم عظيمة كانت على وجه الدهر باليمن، وقال محمد بن كعب: هي الإسكندرية، وقال سعيد بن المسيب والمقبُري[2]: هي دمشق، وهذان القولان ضعيفان، وقال مجاهد: «إِرَم» معناه: قديمة. وقرأَ الجمهور: ﴿بِعَادٍ إِرَمَ﴾، فصرفوا «عاداً» على إرادة الحيِّ، ونعتوا بـ «إِرَم» بكسر الهمزة على أَنها القبيلة بعينها، ويؤيد هذا قولُ اليهود للعرب سيخرج فينا نبيٌّ نتَّبعه، نقتلكم معه قتل عادٍ إِرَم، فهذا يقتضي أَنها قبيلة، وعلى هذه القراءة يتجه أَن يكون «إِرَمُ» أَباً لعاد أَوْ جدًّا غلب اسمه على القبيلة. وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: ﴿بِعَاد * إِرَم﴾ على ترك الصرف في «عاد» وإِضافتها إِلى «إِرَمَ»، وهذا يتجه على أَن يكون «إِرَمُ» أَباً أَو جَدًّا، وعلى أَن تكون مدينة. وقرأَ الضحاك: [بِعَادَ أَرَمَ] بفتح الدال والهمزة من «أَرَمَ» وفتح الراءِ والميم، على ترك الصرف في «عاد» والإِضافة، وقرأَ ابن عباس والضحاك: [بِعَادٍ أَرَمَّ] بشدِّ الميم على الفعل الماضي بمعنى: بَلِيَ وصار رَمِيماً، يقال: أَرَمَّ العظمُ ورَمَّ وَأَرَمَّهُ اللهُ، تُعَدِّي «رَمَّ» بالهمزة. وقرأَ ابن عباس أَيضاً: «أَرَمَّ ذاتَ» بالنصب في التاءِ، على إِيقاع الإِرْمام عليها، أَي: أَبْلاها ربُّك وجعلها رميماً، وقرأَ ابن الزبير: [أَرِمَ] بفتح الهمزة

= المحيط، وفتح القدير، والكشّاف، والتَّليد: القديم الأصلي الذي ورثته أو وُلد عندك، وهو نقيض الطارف، وعادٌ هي القبيلة المعروفة، ويضرب بها المثل في القِدَم، وإرم هي نفس القبيلة، وعلى هذا يستشهد المؤلف بالبيت، وقيل غير ذلك مما سيذكره.

(١) هذا البيت من قصيدة قالها زهير بن أَبي سُلْمى يمدح هرم بن سنان، والماذيُّ: الدُّروع السهلة اللَّيِّنة الضافية، من نَسْج داود: من صنعته التي عرف بها، وإرَمُ: هي القبيلة، وأراد بذلك أنها دروع قديمة مُتَوَارَثَة جيدة النسج، منسوبة إلى النبي داود عليه السلام أول من عمل الدروع، أَو من ميراث تركته إرم القديمة.

(٢) هو كَيْسان بن سعيد المَقْبُري المدني، أَبو سعيد، مولى أُم شريك، ولهذا لم يعرف نسبه، وهو تابعيٌّ ثقة، كثير الحديث، كان منزله بالقرب من المقابر فاشتهر بالمقبُري، أَوْ لأنه تولى النظر في أَمر القبور، توفي سنة مائة.

وكسر الراءِ، وهي لغة في المدينة، وقرأ الضحاك بن مزاحم: [أَرْمَ] بسكون الراءِ وفتح الهمزة وهي تخفيف في «أَرِم» كَفَخْذٍ وَفَخِذْ.

واختلف الناسُ في قوله تعالىٰ: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ فمَنْ قال «إِرَمُ مدينة» قال: العِمَادُ هي أَعمدة الحجارة التي بُنيت بها، وقيل: القصورُ العالية والأَبراجُ، يقال لها: عماد، ومَنْ قال «إِرَمُ» قبيلة قال: العمادُ إِمَّا أَعمدة أَبْنِيَتِهِمْ وإِمَّا أَعمدة بيوتهم التي يرحلون بها؛ لأَنهم كانوا أَهل عمود ينتجعون البلاد، قاله مقاتل وجماعة، وقال ابن عباس: هي كناية عن طول أَبدانهم.

وقرأ الجمهور: ﴿لَمْ يُخْلَقْ﴾ بضم الياءِ وفتح اللام [مِثْلُها] رفعاً، وقرأ ابن الزبير: [لَمْ يَخْلُقْ] بفتح الياءِ وضم اللام [مِثْلَهَا] نصباً، وذكر أَبو عمرو الداني عنه أَنه قرأَ: (لَمْ نَخْلُق) بالنون وضم اللام [مِثْلَها] نصباً، وذكر التي قبل هذه عن عكرمة، والضمير في [مِثْلُها] يعود إِمَّا على المدينة وإِمَّا على القبيلة.

وقرأ يحيى بن وثاب: [وَثَمُوداً] بتنوين الدال، و﴿جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ﴾ معناه: خرقوه ونحتوه، وكانوا في واديهم قد نحتوا بيوتهم في حجارة، و«الوادي» ما بين الجبلين وإِن لم يكن فيه ماءٌ، هذا قول كثير من المفسرين في معنى ﴿جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾، وقال الثعلبي: يريد: بِوادي القرى، وقال قوم: المعنى: جابوا واديهم وجلبوا ماءَهم في صخر شقُّوه، وهذا فعل ذي القوة والآمال، وقرأَ ابن كثير: [بِالوادِي] بالياءِ، وقرأَ أَكثر السبعة: ﴿بِٱلْوَادِ﴾ بدون ياءٍ، واختلف في ذلك عن نافع وقد تقدم هذا.

و﴿فِرْعَوْنَ﴾ هو فرعون موسى عليه السلام، واختلف الناس في أَوتاده ـ فقيل: أَبنيته العالية العظيمة، قاله محمد بن كعب، وقيل: جنوده الذين بهم ثبت ملكه، وقيل: المراد أَوتاد أَخبية عساكره وذُكرت لكثرتها ودلالتها على غزواته وطوافه في البلاد، قاله ابن عباس، ومنه قول الأَسود بن يَعْفُر:

. . . . فـي ظِـلِّ مُلْـكٍ ثـابِـتِ الأَوْتَـادِ[1]

---

(١) هذا عجز بيت قاله الأَسود بن يَعْفُر، وهو من قصيدة يتذكَّر فيها الشاعر أيام شبابه، ويتحسر على سعادته الضائعة، وما كان ينعم به من لهو ومجون وفروسية، شأنه شأن الفرسان في الجاهلية، والبيت بتمامه:

وَلَقَـدْ غَنُـوا فيهـا بـأَنْعَـمِ عِيشَـةٍ فـي ظِـلِّ مُلْـكٍ ثَـابِـتِ الأَوْتَـادِ =

وقال قتادة: كانت له أَوتاد يلعب عليها الرجال بين يديه وهو مشرف عليهم، وقال مجاهد: كان يوتد الناس بأوتاد الحديد، يقتلهم بذلك، يضربها في أَبدانهم حتى تنفذ إلى الأَرض، وقيل: إنما فعل ذلك بزوجته آسية، وقيل: فعل ذلك بماشطة بنته لأَنها كانت آمنت بموسى عليه السلام.

و«الطغيانُ»: تجاوز الحدود، و«الصَّبُّ» مستعمل في السَّوط لأَنه يقتضي سرعة في النزول، ومنه قول الشاعر في المحدودين في الإِفك:

فَصُبَّتْ عَلَيْهِمْ مُحْصداتٌ كَأَنَّهَا ... شَآبيبُ لَيْسَتْ مِنْ سَحابٍ وَلا قطْرِ[1]

ومن ذلك قول المتأَخر في صفة الخيل:

صَبَبْنَا عَلَيْهَا ظَالِمِينَ سِيَاطَنَا ... فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سِرَاعٌ وَأَرْجُلُ[2]

وإنما خُصَّ السَّوط بأن يستعار للعذاب لأنه يقتضي من التكرار والترداد ما لا يقتضيه السيف ولا غيره، وقال بعض اللغويين: السَّوْط هنا مصدر، من: ساطَ يَسُوطُ، فكأَنَّهُ تعالىٰ قال: خِلْط عذاب[3].

و«المِرْصادُ» و«المَرْصَدُ»: موضع الرصد، قاله اللغويون، أَي أَنه عند لسانِ كُلِّ قائل، ومرصدٌ لكلِّ فاعل، وعلى هذا التأويل في المرصاد جاءَ جواب عامر بن قيس

= وَغَنُوا: أَقاموا، يقول: إن أهل هذه الديار التي يتحسَّر عليها كانوا يعيشون فيها منعَّمين تحت حكم ثابت متين.

(١) حديث الإفك معروف، والذين حُدُّوا فيه هم حسَّان، وحَمْنَة، ومسْطَح، وهم الذين افتروا على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقد روى ابن إسحاق في السيرة أربعة أبيات من الشعر قيلت فيهم، ولم ينسبها لشاعر معين، بل قال: «وقال قائل مِنَ المسلمين»، وهذه الأبيات على قافية الحاء، والبيت المذكور هنا هو آخرها، لكن روايته تختلف عما هنا، فهو:

وَصُبَّتْ عَلَيْهِمْ مُحْصَدَاتٌ كَأَنَّهَا ... شَآبِيبُ قَطْرٍ مِنْ ذُرَى الْمُزْنِ تَسْفَحُ

والمحصداتُ هي السِّيَاط المحكمة الفتل، الشديدة الصلابة. والشآبيب: جمع شُؤْبوب وهو الدفعة من المطر، والذُّرى: الأعالي، والمُزْن: السحاب، وتَسْفَح: تسيل وتنزل بكثرة ـ أما المعنى بحسب المذكور هنا فهو أن هؤلاء المفترين قد صُبَّتْ عليهم السياط الشديدة كأنها المطر الغزير، ولكنه مطر من نوع خاص، فهو لم ينزل من السحاب ولا من الماء، بل من سياطٍ محكمة الفتل.

(٢) يقول الشاعر: إننا صببْنَا على هذه الخيلِ سياطنا، وكنا لها ظالمين، فأسرعت تجري كأنها تطير.

(٣) لأن من معاني «السَّوْط» في اللغة: الخَلْطُ، يقال: ساطه: أَي خَلَطَهُ، فكأنه قال: خِلط عذاب.

لعثمان رضي الله عنه حين قال له: أين ربك يا أعرابي؟ قال: بالمرصاد، ويحتمل أن يكون «المرصاد» في الآية اسم فاعل، كأنه تعالىٰ قال: لَبالرَّاصد، فعبَّر ببناءِ مبالغة[1]، وروي في بعض الحديث «إنَّ على جسر جهنم ثلاث قناطر، على إحداها الأمانة، وعلى الأخرى الدم، وعلى الأخيرة الربُّ تعالىٰ، فذلك قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾.

ذكر الله تعالىٰ في هذه الآية ما كانت قريش تقوله وتستدل به على إكرام الله تعالىٰ وإهانته لعبده، وذلك أنهم كانوا يرون أن مَنْ عنده الغِنى والثروة والأَولاد فهو المُكْرم، وبضدِّه المُهان، ومن حيث كان هذا المقطع غالباً على كثير من الكفار جاءَ التوبيخ في هذه الآية لاسم الجنس؛ إذْ قد يقع بعض المؤمنين في شيءٍ من هذا المنزع، ومن ذلك حديث الأَعراب الذين كانوا يقصدون المدينة على النبي ﷺ، فمن نال خيراً قال: هذا دِينٌ حسن، ومن ناله شرٌّ قال: هذا دِينُ سوءٍ.

و﴿ٱبْتَلَىٰهُ﴾ معناه: اختبره، و﴿نَعَّمَهُۥ﴾ معناه: جعله ذا نعمة، وقرأَ ابن كثير: [أَكْرَمَني] بالياءِ في وَصْل ووقف، وحذفها عاصم، وابن عامر وحمزة، والكسائي في الوجهين، وقرأَ نافع بالياءِ في الوصل وحذفها في الوقف، وكذلك ﴿أَهَٰنَنِ﴾، وخيَّر في الوجهين أَبو عمرو. وقرأَ جمهور الناس: ﴿فَقَدَرَ﴾ بتخفيف الدال، بمعنى: ضَيَّق، وقرأَ الحسن ـ بخلاف ـ وأَبو جعفر، وعيسى، وخالد: [فَقدَّرَ] «بشدِّ الدال»[3]، بمعنى: جعله على قدر، وقيل: هما بمعنى واحد في معنى التَّضييق؛ لأَنه ضعَّف [قَدَّرَ]

---

(١) ذكر أبو حيان في البحر المحيط كلام ابن عطية هذا، وعلَّق عليه بقوله: «ولو كان كما زعم لم تدخل الباءُ، لأنها ليست في مكان دخولها لا زائدة ولا غير زائدة».

(٢) أخرجه الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن سالم بن أَبي الجعد، وأخرج مثلَه ابنُ جرير عن عمرو بن قيس، ولم يرفعه أي منهما إلى النبي ﷺ. (الدر المنثور).

(٣) ما بين علامتي التَّنصيص زيادة للتوضيح.

مبالغةً لا تعديةً، ويقتضي قول الإنسان: ﴿أَهَٰنَنِ﴾؛ لأن «قَدَّرَ» مُعَدًّى إنما معناه: أَعطاه ما يكفيه، ولا إهانة مع ذلك.

ثم قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا﴾ ردًّا على قولهم ومعتقدهم، أَي: ليس إكرامُ الله تعالىٰ وإهانتُه كذلك، وإنما ذلك ابتلاءٌ، فحقٌّ من ابْتُليَ بالغنى أَن يشكر ويطيع، ومن ابْتُلِيَ بالفقر أَن يشكر ويصبر، وأَما إكرامُ الله تعالىٰ فهو بالتقوى، وإهانتُه فبالمعصية. ثم أَخبرهم تعالىٰ بأَعمالهم من أَنهم لا يكرمون اليتيم، وهو ـ من بني آدم ـ الذي فقد أَباه وكان غير بالغ، ومن البهائم ما فقد أُمَّه، وقال النبي ﷺ: «أَحبُّ البيوت إلى الله تعالىٰ بيتٌ فيه يتيمٌ مُكرم»[١].

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: [تَحُضُّونَ] بمعنى: يَحُضُّ بعضكم بعضاً، أَو تحُضُّون أَنفسكم، وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي: (تَحَاضُّون) بفتح التاءِ، بمعنى: يتحاضُّون، أَي يحضُّ قومٌ قوماً، وقرأَ أَبو عمرو: [يَحُضُّون] بياءٍ من تحت مفتوحة وبغير أَلف، وقرأَ عبد الله بن المبارك: [تُحَاضُّون] بضم التاءِ ـ على وزن تقاتلون ـ، أَيْ أَنفسكم، أَي بعضكم بعضاً، ورواها الشَّيْرَزِيُّ عن الكسائي، وقد يجيءُ «فاعَلْت» بمعنى «فعَلْتُ»، وهذا منه، وإلى هذا ذهب أَبو علي، وأَنشد:

تحَاسَنْت بِهِ. . . . .[٢]

أَي: حَسُنت، وأَنشد أَيضاً:

إذا تخازرْتُ وَمَا بِي مِنْ خَزَرْ[٣]

---

(١) أَخرجه البيهقي في شعب الإيمان، عن عمر رضي الله عنه، وأَخرجه العقيلي في الضعفاءِ وأبو نعيم في الحلية عن عمر أَيضاً ولكن بلفظ «خير بيوتكم بيتٌ فيه يتيمٌ مُكرم»، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه صحيح.

(٢) البيت غير واضح في الأُصول، ولم نستطع قراءة شيءٍ منه إلاَّ ما أَثبتناه، وهو: (تحاسَنت به)، هو موضع الاستشهاد، حيث أن «تحاسَنَ» بمعنى «حَسُنَ»، كما قال المؤلف، لأن «تفاعل» قد تأتي بمعنى «فعل».

(٣) ذكر صاحب اللسان عن ابن بَرِّى أن هذا البيت من الرجز يروى مع أبيات أُخرى لعمرو بن العاص رضي الله عنه، وهذا هو المشهور، ويقال: إنها لأرطاةَ بن سُهيَّة وتمثل بها عمرو بن العاص، والأبيات كما أَنشدها أَبو عبيد:

إذا تَخَـازَرْتُ وَمَـا بِـي مِـنْ خَـزَرْ =

ويحتمل أَن يكون مفاعلة، ويتجه ذلك على رجف(١)، فتأمله. وقرأ الأعمش: [تتحَاضُّون] بتاءين. و«طعام» في هذه الآية بمعنى: إطعام، وقال قوم: أراد نفس طعامه الذي يأكل، ففي الكلام حذف تقديره: على بذل طعام المسكين، وقد تقدم القول في سورة براءة في المسكين والفقير بما يغني عن إعادته.

وعدَّد تعالىٰ عليهم جِدَّهم في أكل التراث؛ لأنهم كانوا لا يُوَرِّثون النساءَ ولا صغار الأَولاد، وإنما كان يأخذ المال من يقاتِل ويحمي الحوزة(٢) و«اللَّمُّ»: الجمع واللَّف، قال الحسن: هو أَن يأخذ في الميراث حظَّه وحظَّ غيره، وقال أَبو عبيدة: «لَمَمْتُ ما على الخِوان» إذا أَكلتُ جميع ما عليه بأسره، ومنه «لَمُّ الشَّعث»، ومنه قول الشاعر:

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخاً لا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ أَيُّ الرِّجالِ الْمُهَذَّبُ ؟(٣)

و«الجَمُّ»: الكثير الشديد، ومنه قول الشاعر:

إِنْ تغفِرِ اللَّهُمَّ تَغفِرْ جَمَّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لاَ أَلَمَّا؟(٤)

= ثُمَّ كَسَرْتُ الْعَيْنَ مِنْ غَيْرِ عَوَرْ
وَجَدْتَنِي أَلْوَى بَعِيدَ الْمُسْتَمَرْ
أَحْمِلُ مَا حُمِّلْتُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرْ

ونلحظ أن المؤلف هنا يقول: «وأنشدها أبو علي»، وفي اللسان «وأنشدها أبو عبيد»، والخَزْر هو النظر بمُؤْخر العين، والتَّخازُر هو إظهار الْخَزَز مع أنه غير موجود، وهو مثل تَعَامَى وتَجَاهَل وتَغَافل، بمعنى أظهر العمى والجهل والغفلة، ومعنى «أَلْوَى بعيد الْمُستَمَر» أنه قويٌّ في الخصومة لا يسأم المِراسَ. (راجع الكتاب لسيبويه، والأمالي للقالي، والمحتسب لابن جني، والمقتضَب، وابن يعيش، واللسان).

(١) هكذا في الأُصول، ولعلَّه يريد: على اضطراب واهتزاز في المعنى.

(٢) حَوزَة الرجل: ما في مِلْكه.

(٣) البيت للنابغة، وهو من قصيدة يعتذر فيها للنعمان ويمدحه. و«مُسْتَبْقٍ» معناها: مُبْقٍ، فالسين والتاءُ للمبالغة، و«أَخاً»: صديقاً، و«تَلُمُّه»: لا تقبل منه ما فيه من عيوب، وأَصل اللَّمِّ الجمعُ، وقد استعمل هنا مجازاً في جمع مختلِف الطباع وقبولها سواءٌ أكانت مُرضية أو غير مرضية، و«الشَّعث»: ما تفرق. و«أيُّ» اسم استفهام للإنكار، أو للنفي، إذ لا يوجد رجل كامل التهذيب، وجملة «أَيُّ الرجال المهذب» بيان لما قبلها، وقد كان حماد الراوية يقدم النابغة لمثل هذا: ويقول: هذا ربع بيت يغنيك عن غيره، ومعنى البيت: إنك لا تستطيع أن تحتفظ بالأَصدقاءِ ما لم تقبل بعض عيوبهم، لأنه لا يوجد إنسان كامل الخُلُق.

(٤) في اللسان ـ جَمَمَ ـ وفي مغني اللبيب أَن هذا البيت لأبي خراش الهُذلي، وفي اللسان ـ لَمَمَ ـ وفي شرح=

ومنه الجَمُّ من الناس.

ثم قال تعالى: [كَلاَّ] ردًّا على أفعالهم هذه، وتوطئة للوعيد، أي: سترون أن أفعالكم ليست على قوام[١] إذا دُكَّت الأَرض، ودَكُّها هو تسويتها بذهاب جبالها، والناقة الدَّكاءُ هي التي لا سنام لها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ معناه: وجاءَ قَدره وسلطانه وقضاؤُه، وقال منذر بن سعيد: معناه ظهورُهُ للخلق هنالك، ليس مجيءَ نُقْلة، وكذلك مجيءُ الصاخَّة ومجيءُ الطَّامة[٢]. و﴿المَلَكُ﴾ اسم جنس، يريد جميع الملائكة، ورُوي أن ملائكة كل سماءٍ يكونون صفاً حول الأَرض في يوم القيامة، وذكر الطبري في ذلك حديثاً طويلاً اختصرته، وبهذا المعنى يتفسَّر قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾[٣] على قراءَة من شدَّ الدال، وقوله تعالىٰ في سورة الرحمن: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟﴾ الآية[٤].

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي في هذه الآية: ﴿تُكْرِمُونَ﴾ بالتاءِ، وكذلك سائر الأَفعال بعدها على الخطاب، وقرأَ أَبو عمرو، والحسن، ومجاهد، وأَبو رجاءٍ، وقتادة، والجحدريُّ: [يُكْرِمونَ] بالياءِ في جميعها، على ذكر الغائب؛ إذ قد تقدم اسم جنس الإِنسان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

رُوي في قوله تعالىٰ: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ أنها تُساق إِلى الحشر بسبعين أَلف

= الزوزني أنه لأُميَّة بن أبي الصلت، ولعلَّ أبا خِراش قد استشهد به، والجَمُّ: الكثير المجتمع، واللَّمَمُ: صغار الذنوب.

(١) القَوَام: العدل والاستقامة.

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالىٰ في الآية (٣٣) من سورة عبس: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾، وإلى قوله تعالىٰ في الآية (٣٤) من سورة النازعات: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾.

(٣) من قوله تعالىٰ في الآية (٣٢) من سورة غافر: ﴿ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد﴾.

(٤) من الآية (٣٣) من سورة الرحمن.

زمام، يُمسك كلَّ زمام منها سبعون أَلف مَلَك، فيخرج منها عُنق فتنتقي الجبابرة من الكفار... في حديث طويل مختلف الألفاظ[١] و﴿جَهَنَّمَ﴾ هنا هي النار بجُمْلتها، ورُوي أنه لما نزلت ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ تغيَّر لون النبي ﷺ[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ معناه: يتذكر عصيانه وطغيانه، وينظر ما فاته من العمل الصالح، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، أَي: وأَنَّى له نفع الذكرى؟ ثم ذكر تعالىٰ عنه أنه يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾، واختلف في معنى قوله: ﴿لِحَيَاتِى﴾ فقال جمهور من المتأولين: معناه: لحياتي الباقية، يريد الآخرة، وقال قوم من المتأولين: المعنى: لحياتي في قبري عند بعثي الذي كنت أُكذِّب به وأَعتقد أَني لن أَعود حياً، وقال ﴿لِحَيَاتِى﴾ هنا مجازاً، أَيْ: ليتني قدمت عملاً صالحاً لأَنعم به اليوم وأَحيا حياةً طيبة، فهذا كما يقول الإِنسان: أَحْيني في هذا الأمر، وقال بعض المتأولين: المعنى: لوقت أَو لمدة حياتي الماضية في الدنيا، وهذا كما تقول: جئت لطلوع الشمس، ولتاريخ كذا، ونحوه.

وقرأ جمهور القراءِ، وعليُّ بن أَبي طالب، وابن عباس، وأَبو عبد الرحمن: ﴿يُعَذِّبُ﴾ و﴿يُوثِقُ﴾ بكسر الذال والثاءِ، وعلى هذه القراءة في الضمير في ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ و﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾ لله تعالىٰ، والمصدر مضاف إِلى الفاعل، ولذلك معنيان: أَحدهما أَن الله تعالىٰ لا يكلُ عذاب الكفار يومئذ إِلى أَحد، والآخر أَن عذابه من الشدة في حيِّز لم يعذَّب قطُّ أَحدٌ بمثله في الدنيا[٣]، ويحتمل أَن يكون الضمير للكافر، والمصدر مضاف

---

(١) أَخرجه ابن جرير، قال: حدثنا أَبو كريب، قال: ثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربيُّ، عن إسماعيل بن رافع المدني، عن يزيد بن أَبي زياد، عن محمد بن كعب القرظي، عن رجل من الأَنصار، عن أَبي هريرة، وهو حديث طويل: وانظر الهامش التالي.

(٢) أَخرجه ابن مردويه عن أَبي سعيد، وفيه: «لما نزلت هذه الآية تغيَّر رسول الله ﷺ، وعُرف في وجهه، حتى اشتدَّ على أَصحابه ما رأوا من حاله، فسأله عليٌّ فقال: جاءَ جبريل فأقرأني هذه الآية ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾، فقيل: وكيف يُجاءُ بها؟ قال: يجيءُ بها سبعون أَلفَ مَلَك، يقودونها بسبعين أَلف زمام، فتشرد شردة لو تُركت لأَحرقت أَهل الجمع»، وأَخرج مثلَه ابن وهب في كتاب الأهوال، عن زيد بن أَسلم، وأَخرج مسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أَبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون أَلف زمام، مع كل زمام سبعون أَلف مَلَك يجرونها».

(٣) في بعض النسخ: «لم يُعَذِّب قطُّ أَحداً بمثله في الدنيا».

إِلى المفعول. وقرأَ الكسائي، وابن سيرين، وابن أَبي إِسحاق، وسوَّاد القاضي(١): (يُعَذَّبُ) و(يُوثَقُ) بفتح الذال والثاءِ، ورويت كثيراً عن النبي ﷺ(٢)، فالضميران ـ على هذا ـ للكافر الذي هو بمنزلة جنسه كله، والمصدر مضاف إِلى المفعول، ووضع «عذاب» موضع «تعذيب»، كما قال:

وَبَعْدَ عطائِكَ الْمِائَةَ الرِّتاعا ؟(٣)

ويحتمل أَن يكون الضميران في هذه القراءة لله تعالىٰ، كأنه سبحانه قال: لا يُعذَّبُ أَحدٌ قطُّ في الدنيا عذاب الله تعالىٰ للكفار، فالمصدر مضاف إِلى الفاعل، وفي هذا التأويل تحامل. وقرأَ الخليل بن أَحمد(٤): [وِثَاقَهُ] بكسر الواو.

ولما فرغ ذكر هؤلاءِ المعذَّبين عقَّب تعالىٰ بذكر نفوس المؤمنين وحالهم، فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ الآية. و«الْمُطْمَئِنَّةُ» معناه: الموقنة غاية اليقين، أَلا ترى أَن إِبراهيم عليه السلام قال: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ ؟ فهي درجة زائدة على

---

(١) هو سوَّادُ بن عبد الله بن قدامة التميمي، العنبري، كان قاضي البصرة، قال عنه صاحب كتاب «تقريب التهذيب»: «صدوق، محمود السِّيرة، تكلَّم فيه الثوري لدخوله في القضاءِ، مات سنة ست وخمسين»، وهناك حفيده واسمه: سوَّار بن عبد الله بن سوَّار، كان قاضي الرصافة وغيرها، مات سنة خمس وأَربعين، ونعتقد أَن الأول ـ وهو الجَدُّ ـ هو المقصود، لأنه كان أَشهر بالقضاء، وهذا الثاني كان أَشهر من جده في الحديث.

(٢) أَخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن مردويه، وابن جرير، والبغوي، والحاكم وصححه، وأبو نعيم، عن أبي قلابة، عمَّن أَقرأَه النبي ﷺ، وفي رواية مالك بن الحويرث أَن النبي ﷺ أَقرأَه ـ وفي لفظ: أَقرأَ إِياه ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد﴾ منصوبة الذال والثاءِ. (الدر المنثور).

(٣) هذا عجز بيت قاله القطاميُّ، وهو من قصيدة طويلة مدح بها زُفَرَ بن الحارث الكلابي، وكان زُفر قد أَسر القطاميَّ في الحرب التي كانت بين قيس وتغلب، وأَرادت قيس قتله، لكن زُفر حال بينهم وبينه، ومَنَّ عليه، وأَعطاه مائة من الإبل، وأَطلق سراحه، فقال قصيدته، والبيت بتمامه:

أَكُفْـــراً بَعْـــدَ رَدِّ الْمَـــوت عَنِّـــي ... وَبَعْـدَ عَطَـائِـكَ الْمـائَـةَ الـرتـاعَـا ؟

والاستفهام في (أَكُفراً) إنكاريٌّ، والمعنى: أَأَكفُرُ كفراً ؟ والرِّتاع: جمع راتعة، وهي الراعية، يقول: أَأَخونك بعد أَنْ مننتَ عليَّ وأَطلقتَ سراحي وأَعطَيْتَني هذه المائة ؟ والشاهد أَن «العطاءَ» هنا بمعنى «الإعطاءِ»، ولهذا عمل عمله، والمفعول الثاني محذوف، وتقديره: بعد إعطائك المائة الرِّتاع إِيَّايَ، و(رَدِّ): مصدر مضاف إِلى المفعول، وفاعله محذوف، والتقدير: بَعْد ردِّك الموتَ عنِّي.

(٤) هو الخليل بن أَحمد الأزديُّ الفراهيديُّ، أَبو عبد الرحمن، البصريُّ اللغويُّ، صاحب العروض والنحو، صدوق عالم عابد، وهو أُستاذ سيبويه، مات بعد الستين.

الإِيمان، وهي ألاَّ يبقى على النفس في يقينها مطلب يُحرِّكها إلى تحصيله.

واختلف الناس في هذا النداءِ، متى يقع؟ فقال ابن زيد وغيره: هو عند خروج نفس المؤمن من جسده في الدنيا، ورُوي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سأل عن ذلك رسولَ الله ﷺ فقال له: «إنَّ المَلَكَ سيقولها لك يا أبا بكر عند موتك»[1]، ومعنى ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ ـ على هذا التأويل ـ: ارجعي بالموت، وقوله تعالىٰ: ﴿فِي عِبَٰدِي﴾ معناه: في عداد عبادي الصالحين، وهذه قراءة الجمهور، بجمع (عبادي). وقيل: النداءُ عند قيام الأجساد من القبور، فقوله تعالىٰ: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ معناه: بالبعث من موتك ارجعي إلى الله تعالىٰ، وقيل: «الرَّبُّ» هنا: الإِنسان ذو النفس، أي: ادخلي في الأجساد، و«النفس» اسم جنس[2]، وقال بعض العلماءِ: هذا النداءُ هو الآن للمؤمنين، كَما ذكر الله تعالىٰ حال الكافرين قال: يا مؤمنون[3] دُومُوا وجِدُّوا حتى ترجعوا راضين مَرْضِيِّينَ، فالنَّفس ـ على هذا ـ اسم الجنس. وقرأ ابن عباس، وعكرمة، وأبو شيخ، والضحاك، واليماني، ومجاهد، وأبو جعفر: (فَادْخُلِي في عَبْدِي)، فالنفس ـ على هذا ـ ليست باسم الجنس، وإنما خاطب مفردة، قال أبو شيخ: الروح تدخل في البدن، وفي مصحف أُبَيّ بن كعب: «يَا أَيَّتُهَا الآمِنةُ الْمُطْمَئِنَّةُ، الَّتي إلى ربِّك راضيَةً مَرْضيَّة، فارْجعي في عَبْدي»، وقرأ سالم بن عبد الله: [فادْخُلي في عبادي وَلِجي جَنَّتي]. وتحتمل قراءَة «عبدي» أن يكون «العبد» اسم جنس، جعل عباده كالشيءِ الواحد دلالةً على الالتحام، كما قال عليه الصلاةُ والسلام: «وهُمْ يدٌ على مَنْ سواهم»[4]. وقال

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، عن سعيد بن جبير، وأخرجه الحكيم الترمذي في (نوادر الأصول) من طريق ثابت بن عجلان، عن سليم بن أبي عامر، وأخرجه بن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياءُ في المختارة، من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) واستدلوا على هذا بقراءة ابن عباس رضي الله عنهما: (فَادْخُلِي في عَبْدي) على التوحيد، وقراءة ابن مسعود: «في جَسَدِ عَبْدِي».

(٣) في جميع الأصول: «يا مؤمنين».

(٤) أخرجه أبو داود في الجهاد والديات، والنسائي في القسامة، وابن ماجه في الديات، وأحمد في مسنده (١/ ١١٩، ١٢٢، ٢/ ١٨٠، ١٩٢، ٢١١، ٢١٥)، ولفظه كما في مسند أحمد عن أبي حسان أن علياً رضي الله عنه كان يأمر بالأمر فيُؤْتَى، فيقال: قد فعلنا كذا وكذا، فيقول: صدق الله ورسوله، قال: فقال له الأشتر: إن هذا الذي تقول قد تَفَشَّغ في الناس ـ كثر وانتشر ـ، أَفَشيْءٌ عهده إليك رسول الله ﷺ؟ قال=

آخرون: هذا النداءُ إنما هو في الموقف عندما يُنطلق بأهل النار إلى النار، فنداءُ النفوس ـ على هذا ـ إنما هو نداءُ أرباب النفوس مع النُّفوس. ومعنى ﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ ـ على هذا ـ: إلى رحمة ربك، و«العبادُ» هنا: الصالحون المتَّقون.

كمل تفسير سورة الفجر والحمد لله رب العالمين

* * *

= عليٌّ رضي الله عنه: ما عهد إليَّ رسول الله ﷺ شيئاً خاصةً دون الناس، إلاَّ شيءٌ سمعتهُ منه فهو في صحيفة في قراب سيفي، قال: فلم يزالوا به حتى أخرج الصحيفة، قال: فإذا فيها: «من أحدثَ حَدَثاً أوْ آوَى مُحْدِثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه صَرفٌ ولا عَدل»، قال: وإذا فيها: «إنَّ إبراهيم حرَّم مكَة، وإنِّي أُحرم المدينة، حرام ما بين حَرَّتَيْها وحماها كله، لا يُخْتَلَى خَلاَهَا، ولا يُنَفَّر صيدها، ولا تُلْتَقطُ لُقَطَتُها إلاَّ لمن أشار بها، ولا تقطع منها شجرة إلاَّ أن يعلف رجلٌ بعيره، ولا يُحمل فيها السلاح لقتال»، قال: وإذا فيها: «المؤمنون تتكافأ دماؤُهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يَدٌ على من سواهم، ألاَ لا يُقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عَهْد في عهده».

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة البلد

وهي مكيّة في قول جمهور المفسرين، وقال قوم: هي مدنية[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۝٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾.

قرأ الحسن بن أَبي الحسن: (لأُقْسِمُ)، وقرأ الجمور: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾، واختلفوا ـ فقال الزجاج وغيره: [لاَ] صلة زائدة مؤكدة، واستأنف قوله تعالىٰ: ﴿أُقۡسِمُ﴾، وقال مجاهد: [لاَ] ردٌّ لكلام متقدم للكفار، ثم استأنف قوله تعالىٰ: ﴿أُقۡسِمُ﴾، وقال بعض المتأولين: [لا] نفيٌ لِلْقسم بالبلد، أَخبر الله تعالىٰ أنه لا يُقْسِم به.

ولا خلاف بين المفسرين أَن البلد المذكور هو مكَّة. واختُلف في معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ ـ فقال ابن عباس وجماعة: معناه: وأَنت حلال بهذا البلد يحلُّ لك فيه قتل من شئت، وكان هذا يوم فتح مكة، وعلى هذا يترتب قول من قال: السورة مدنية نزلت عام الفتح، ويتركب على هذا التأويل قول من قال: [لا] نافيةٌ، أَي: إن هذا البلد لا يُقْسِم اللهُ تعالىٰ به، وقد جاءَ أَهلُه بأَعمال توجب إِحلال حرمته، ويتَّجه أَيضاً أَن تكون [لا] غير نافية. وقال بعض المتأولين: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ معناه: ساكِنٌ بهذا البلد، وعلى هذا يجيءُ قولُ من قال: هي مكِّية، والمعنى على إِيجاب القَسَم بيِّن، وعلى نفيه أَيضاً يتَّجه على معنى: لا أُقسم ببلد أَنت ساكنه على أَذى هؤلاءِ القوم وكفرهم. وذكر الثعلبي عن شرحبيل بن سعد أَن معنى ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾، أَي: قد

---

(١) قال القرطبي في تفسيره: «مكيَّةٌ باتفاق»، وقال الشوكاني في فتح القدير: «وهي مكيَّة بلا خلاف»، وأَما أَبو حيان في البحر المحيط فقال: «هذه السورة مكية في قول الجمهور، وقيل مدنية».

جعلوك حلالاً مُستَحل الأذى والإخراج والقتل لك لو قدروا، وإعراب ﴿ٱلْبَلَدِ﴾ عطف بيان.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ قسم مستأنف على قول من قال: [لا] نافية، ومعطوف على قول من قال: [لا] غير نافية، واختلف الناس في معنى قوله سبحانه: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ ـ فقال مجاهد: هو آدم عليه السلام وجميع ولده، وقال بعض رواة التفسير: هو نوحٌ عليه السلام وجميع ولده، وقال أبو عمران الْجَوْني: هو إبراهيم عليه السلام وجميع ولده، وقال ابن عباس ما معناه: إن الوالد والولد هنا على العموم، فهي أسماءُ جنس يدخل فيها جميع الحيوان، وقال ابن عباس، وابن جبير، وعكرمة: ﴿وَوَالِدٍ﴾ معناه: كلُّ من وَلَدَ وأَنْسل، وقوله: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ لم يَبْق تحته إلاَّ العاقر الذي ليس بوالد البتَّة.

والقسم واقع على قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾، واختلف الناسُ في ﴿الكَبَدِ﴾ ـ فقال جمهور الناس: «الإنسان» اسم الجنس كُلِّه، والكَبدُ: الْمشقَّةُ والمكابدة، أَي: يكابد أَمر الدنيا وأَمر الآخرة، ومن ذلك قول لبيد:

يَـا عيْـنُ هـلاَّ بكيْـتِ أَرْبَـد إِذْ ... قُمْنَـا وقـام الْخُصـومُ فـي كَبَـدِ[(١)]

وقول ذي الإِصبع:

لِـيَ ابْـنُ عَـمٍّ لـوَ انَّ النَّـاسَ فـي كَبَـدِ ... لَظَـلَّ مُحْتَجِـزاً بِـالنَّبْـل يَـرْمينـي[(٢)]

وبالمشقَّة في أَنواع أَحوال الناس فسَّره الجمهور، وقال الحسن: لم يخلق الله تعالىٰ

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها لبيد يرثي بها أَربد بن قيس بن جَزْءٍ، وكان أَخاً للبيد من أُمه، وقد وفد على النبي ﷺ في عام الوفود مع جماعة، وعرض عليه الرسول ﷺ الإسلام فلم يُسلم، وفي أَثناءِ عودته أَصابته صاعقة فأَحرقته، والبيت في الديوان، واللسان، والطبري، والقرطبي، والبحر المحيط، واستشهد به أَبو عبيدة في مجاز القرآن، كما استشهد به الزمخشري في الكشاف، وابن عباس في خبر نقله السيوطي في الدرِّ المنثور.

(٢) الشاعر اسمه حُرْثان بن الحارث، وسُمِّي ذا الإصبع لأن حيَّةً نهشت إبهام قدمه فقطعها، والبيت من قصيدة يتحدث فيها ذو الإصبع عن عداوة وقعت بين أَبناءِ قبيلته، فقد كان بنو عدوان من أَعزِّ العرب وأَكثرهم مالاً، ثم وقع بينهم بأسُهم فتفانوا، ووقف الشاعر يرقب هذه المحنة ويصور نتائجها، والمُحْتجِزُ هو الذي يشدُّ وسطه بثوب أَو نحوه، والبيت في البحر المحيط، وفتح القدير، وأمالي القالي، والمفضَّليات، ومنتهى الطلب، والأغاني، وشعراءِ الجاهلية، والرواية في المفضَّليات: «وَلِي ابنُ عمٍّ»، وفي أَمالي القالي: «محتجراً» بالراءِ، ونحسبه خطأً مطبعياً.

خلقاً يكابد ما يكابد ابنُ آدم، وقال ابن عباس، وابن شداد، وأَبو صالح، والضحاك، ومجاهد: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ معناه: منتصب القامة واقفاً[1]، وقال ابن زيد: «الإِنسان» آدمُ عليه السلام، و«في كَبد» معناه: في السماءِ، سَمَّاها كَبَداً، وهذان القولان قد ضُعِّفا، والقول الأَول هو الصحيح.

ورُوي أَن سبب هذه الآية وما بعدها هو أَبو الأَشَدَّين[2]، رجل من قريش شديد القوة، واسمه أُسَيْد بن كلدة الجُمحي، كان يحسب أَن أَحداً لا يقدر عليه[3]، ويقال: بل نزلت في عمرو بن عبدِ ودٍّ، ذكره النقاش، وهو الذي اقتحم الخندق بالمدينة، وقتله علي بن أَبي طالب رضي الله عنه خلف الخندق، وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل، أَذنب فاستفتى النبي عليه الصلاة والسلام فأمره بالكفَّارة، فقال: لقد أَهلكت مالاً في الكفَّارات والنفقات منذ تبعت محمداً[4]، وكان كل واحد منهم قد ادَّعى أَنه أَنفق مالاً كثيراً على إِفساد أَمر النبي ﷺ، أَو في الكفَّارات على ما تقدم، فوقف القرآن على جهة التوبيخ للمذكور، وعلى جهة التوبيخ لاسم الجنس كله.

و﴿يَقْدِرُ﴾ نُصب بـ [لَنْ]، و[أَنْ] مخففة من الثقيلة، وكان قول هذا الكافر ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ كذباً منه؛ فلذلك قال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ ؟ أَيْ أَنه رُئي وأُحْصِيَ فعلُه، فماله يكذب، ومن قال: «إِن المراد اسم الجنس غير معيَّن مفرد» جعل قوله تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ بمعنى: أَيظنُّ الإِنسان أَن ليس عليه حفظة يرون أَعماله ويُحصونها إِلى يوم الجزاءِ ؟ وقال النبي ﷺ: «لا تزولُ قدَما عبْدٍ يوم القيامة حتى يُسأل: عن عُمُره فِيمَ أَفناه؟ وجسمه فِيمَ أَبلاه؟ وعن ماله، من أين اكتسبه وأَين أنفقه؟»[5].

واختلف القراءُ في قوله: ﴿لُبَداً﴾ فقرأ جمهور الناس: [لُبَداً] بضم اللام وفتح

---

(١) يعني لا يمشي على أربع كبقية الحيوانات.

(٢) كذا في الأصول، وهو يوافق ما في «البحر المحيط»، و«معاني القرآن» للفراءِ، و«القرطبي»، أما في «الطبري» و«الكشاف» و«روح المعاني» و«البيضاوي» و«الثعلبي» فهو: أَبو الأَشد.

(٣) قيل: كان هذا الرجل يأخذ الأديم العكاظي فيجعله تحت قدميه، ثم يقول: من أَزالني عنه فله كذا، فيجذبه عشرة من الرجال حتى يتمزق ولا تزول قدماه، وكان من أَعداء النبي ﷺ.

(٤) وقوله هذا إِمَّا أَن يكون استطالةً بما أَنفق فيكون طغياناً منه، وإما أن يكون أسفاً منه فيكون ندماً وحسرة منه، وهو في الحالتين من الخاسرين.

(٥) أخرجه الترمذي في القيامة.

الباءِ، وقرأ مجاهد: [لُبُداً] بضمهما، وذلك جمع «لِبْدة» أو جمع «لبود» بفتح اللام، وقرأ أَبو جعفر يزيدُ: [لُبَّداً] بضم اللام وفتح الباءِ وشدِّها، فيكون مفرداً نحو «زُمَّل»، ويكون جمع «لابد»، وقد روي عن أَبي جعفر [لُبْداً] بسكون الباءِ، والمعنى في هذه القراءات كلها: مالاً كثيراً ملتبداً بعضه فوق بعض من التكاثف والكثرة، وقرأ الحسن: [لَم يَرْهُ] بسكون الراءِ لتوالي الحركات.

ثم عدَّد تعالىٰ على الإنسان نعمه التي بها تقوم الحجة، وهو جوارحه، وقرن تعالىٰ الشَّفتين باللسان لأَن نعمة العبارة والكلام لا تصحُّ إلاَّ بالجميع، وفي الحديث: «يقول الله تعالىٰ: ابن آدم، إنْ نازعك لسانك إلى ما لا يحلُّ لك فقد أَعنتك عليه بشفتين فأَطبق»[1]، واختلف الناس في «النَّجْدَيْن» ـ فقال ابن مسعود، وابن عباس، والناس: طريق الخير وطريق الشر، أَي: عرضنا عليه طريقهما، وليست الهداية هنا بمعنى الإِرشاد، وقال ابن عباس أَيضاً، والضحاك: النَّجدان: ثَدْيَا الأُم، وهذا مثال، والنَّجْد: الطريق المرتفع، وأَنشد الأَصمعي:

كَميشُ الإِزارِ خارجٌ نِصْفُ ساقِهِ ... صبورٌ عَلَى الأَرْزاءِ طَلاَّعُ أَنْجُدِ[2]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾﴾.

---

(١) روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أَبي الربيع الدمشقي، عن مكحول قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالىٰ: يا بن آدم، قد أَنعمتُ عليك نعماً عظاماً لا تُحصِي عددها ولا تطيق شكرها، وإن مما أنعمتُ عليك أَن جعلتُ لك عينين تنظر بهما، وجعلتُ لهما غطاءً، فانظر بعينيك إلى ما أَحلَلْتُ لك، وإن رأيتَ ما حرَّمتُ عليك فأَطْبق عليهما غطاءهما، وجعلتُ لك لساناً وجعلتُ له غلافاً، فانطق بما أَمرتُك وأَحللتُ لك، فإن عرض عليك ما حرَّمت عليك فأَغْلق عليك لسانك، وجعلتُ لك فرجاً وجعلتُ لك ستراً، فأصبْت بفرجك ما أَحْلَلْتُ لك، فإن عرض عليك ما حرَّمتُ عليك فأَرخ عليك سترك، ابن آدم إنك لا تحمل سخطي ولا تطيق انتقامي». وفي لفظ للقرطبي عن أَبي حازم: «إن نازعك لسانك إلخ».

(٢) رجلٌ كميشُ الإزار: مُشمِّرهُ، والأرزاءُ: المصائب، واحدها: رُزْءٌ، وطَلاَّع أَنْجُد: ضابط للأمور غالب لَهَا، والأنجد جمع نجْد، وهو الطريق في الجبل إذا كان مرتفعاً شديداً، والشاعر يصف الممدوح هنا بأنه سريع إلى الأمور، حاسم في مقابلتها بهمة ونشاط، وبأنه صبور على مصائب الدهر، وبأنه غالب للأمور متطلع للسامي منها.

﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾ في هذه الآية ـ على عُرف كلام العرب ـ استعارة لهذا العمل الشاق على النفس من حيث هو بذل مال، تشبيه بالعقبة من الجبل، وهي ما صعب منه وكان صعوداً، و﴿ٱقْتَحَمَ﴾ معناه: دخلها وجاوزها بسرعة وضغط وشدة، وأَما المفسرون فرأَوا أَن ﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾ يراد بها جبل في جهنم لا ينجِّي منه إلاَّ هذه الأَعمال ونحوها، قاله ابن عباس، وقتادة، وكعب. قال الحسن: العقبةُ جهنَّم، قال هو وقتادة: فاقتحِموها بطاعة الله تعالىٰ، وفي الحديث «إن اقتحامها للمؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاءِ»[١].

واختلف الناسُ في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا﴾ ـ فقال جمهور المفسرين: هو تَحْضيض بمعنى «فأَلاَ»، وقال آخرون: هو دعاءٌ بمعنى أَنه يستحق أَن يُدْعى عليه بأَلاَّ يفعل خيراً، وقيل: هو نفي، أَي: فما اقتحم، وقاله أَبو عبيدة، والزجاج، وهذا نحو قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾[٢]، فهو نفي محض، كأَنه تعالىٰ قال: وهبنا له الجوارح ودَلَلْناه على السبيل فما فعل خيراً[٣].

ثم عظَّم تعالىٰ أَمر العقبة في النفوس بقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾، ثم فسَّر تعالىٰ اقتحام العقبة بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾، وذلك أَن التقدير: وما أَدراك ما اقتحام العقبة ؟ هذا على قراءَة من قرأَ: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ بالرفع على المصدر، وأَما من قرأَ: [فَكَّ] على الفِعْل، ونَصب «الرقبة» فليس يحتاج أَنْ يُقَدَّر: «وما أَدراك ما اقتحام» بل يكون التعظيم للعقبة نفسها، ويجيءُ [فَكَّ] بدلاً من [اقْتَحَمَ] وَمُبَيِّناً له.

وقرأَ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿فك رقبة أو إطعام﴾، وقرأَ أَبو عمرو: [فَكَّ رَقَبَةً أَوْ أَطْعَمَ]، وقرأَ بعضُ التابعين: [فَكَّ رَقَبَةٍ] بالخفض، وقرأَ ابن كثير، والكسائي، وأَبو عمرو أَيضاً: [فَكَّ رَقَبَةً] بالنصب (أَوْ إِطْعام)، وترتيب هذه القراءات، ووجوهها بينةٌ. و«فَكُّ الرقبة» معناه: بالعِتْق من ربقة الأَسْر والرق، وفي الحديث عن

---

(١) لم أَقف عليه.

(٢) الآية (٣١) من سورة (القيامة).

(٣) قال الفراءُ والزَّجاج: «ذكر (لا) مرةً واحدةً، والعرب لا تكاد تفرد «لا» مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع حتى يُعيدوها في كلام آخر، كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وإنما أفردوها لدلالة آخِر الكلام على معناه، فيجوز أن يكون قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قائماً مقام التكرير، كأنه قال: فلا اقتحم العقبة ولا آمن».

النبي ﷺ: «من أَعتق نسمة مؤمنة أَعتق الله بكل عضو منها عُضواً من النار»[١]، وقال أَعرابي للنبي ﷺ: دُلَّني على عمل أَنجو به، فقال: «لئن قصرت القول لقد عرضتَ المسأَلة، فُكَّ الرقبة وأَعْتِقِ النَّسمَة»، فقال الأَعرابي أَليس هذا واحداً؟ فقال النبي ﷺ: «لا، عِتْق النَّسَمة أَن تنفرد بعِتْقها، وفَكُّ الرقبة أَن تُعين في ثمنها».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكذلك فكُّ الأسير إن شاءَ الله تعالىٰ وفداؤه أَن ينفرد الفادي. ثم قال النبي ﷺ للأَعرابي: «وَأَبْقِ على ذي الرَّحِمِ الظالم، فإِن لم تُطق هذا كلَّه فكُفَّ لسانك إِلاَّ من خير»[٢].

و﴿المسغبة﴾: المجاعة، والسَّاغِبُ: الجائع، وقرأَ جمهور الناس: ﴿ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤﴾ على نعت [يوْم]، وقرأَ عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، والحسن، وأَبو رجاءٍ: (ذا مَسْغَبةٍ) على أَن يعمل فيه [أَطْعمَ] أَو [إِطْعَامٌ] على القرءاتين المذكورتين، وفي هذا حذف الموصوف وإِقامة الصفة مقامهُ؛ لأَن التقدير: إِنساناً ذا مسْغبة، و[يَتِيماً] بدلٌ على هذه القراءة، ويصحُّ أَن يكون صفة لقوله تعالىٰ: ﴿ذا مسغبة﴾، ووصفت الصفة لما قامت مقام موصوفها المحذوف فأَشبهت الأَسماءَ، و«المسغبة» الجوعُ العامُّ، وقد يقال في الخاصِّ: سَغِب الرَّجلُ إِذا جاع.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ معناه: ذا قرابة، لتجتمع الصدقة والصلة، وهذا نحو ما قال رسول الله ﷺ لزينب امرأَة عبد الله بن مسعود: «تصدَّقي على زوجك فهي لك صدقة وصلة»[٣]. و[أَوْ] في قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ مِسْكِينًا﴾ فيها معنى الإِباحة ومعنى

---

(١) أَخرجه بن أَبي شيبة، وأَحمد، والبخاري، ومسلم، وابن مردويه، عن أَبي هريرة وأَخرج مثلَه بن مردويه عن أَبي نُجيح السلميِّ. (الدر المنثور). وأَبو نجيح هذا هو عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه.

(٢) أَخرجه أَحمد، وابن حبان، وابن مردويه، والبيهقي، عن البراءِ، وفي الرواية التي ذكرها السيوطي في الدرِّ المنثور «فإن لم تُطق ذلك فأَطعم الجائع، واسْق الظمآن، وأْمُرْ بالمعروف وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك فكُفَّ لسانَك إلاَّ من خير».

(٣) أَخرجه الإِمام أَحمد في مسنده (٢/ ٣٧٣، ٣٧٤) عن أَبي هريرة، وفيه أَن النبي ﷺ انصرف من الصبح يوماً، فأَتى النساءَ في المسجد، فوقف عليهن فقال: يا معشر النساءِ، ما رأيتُ من نواقص عقول ودين أذهبَ لقلوب ذوي الأَلباب منكن، فإني قد رأيتكن أكثر أَهل النار يوم القيامة، فتقرَّبن إلى الله =

التَّخيير؛ لأن الكلام يتضمن معنى الحضّ والأَمر، وفيها أَيضاً معنى التفصيل المجرد؛ لأن الكلام يجري مجرى الخبر الذي لا تكون «أَو» فيه إلاَّ مفصِّلة، وأَما معنى الشك والإِبهام فلا مدخل لهما في هذه الآية، والإِبهام نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ﴾[1]، وقول أَبي الأَسود:

أُحِبُّ مُحَمَّداً حُبّاً شديداً وَعَبَّاساً وحمزةَ أَو عليَّا[2]

و﴿ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾ معناه: مدقعاً قد لصق بالتراب، وهذا مما ينحو إِلى أَن المسكين أَشد فاقةً من الفقير، قال سفيان: هم المطروحون على ظهر الطريق قعوداً على التراب لا بيوت لهم، وقال ابن عباس: هو الذي يخرج من بيته ثم يقلب وجهه إِلى بيته مستيقناً أَنه ليس فيه إِلا التراب.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ معطوف على قوله تعالىٰ: ﴿ٱقۡتَحَمَ﴾، ويتوجه فيه معاني ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ﴾ المذكورة من النفي والتحضيض والدعاءِ، ورجَّح أَبو عمرو بن العلاءِ قراءَته: (فَكَّ رقَبةً) بقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ كَانَ﴾، ومعنى ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ أَيْ كان وقت

= ما استطعتن، وكان في النساءِ امرأةُ عبد الله بن مسعود فأتت إلى عبد الله بن مسعود فأخبرته بما سمعت من رسول الله ﷺ، وأخذت حُلياً لها، فقال ابن مسعود: فأين تذهبين بهذا الحليِّ؟ فقالت: أَتقرب به إلى الله عزَّ وجلَّ ورسوله، لعلَّ الله ألاَّ يجعلني من أَهل النار، فقال: ويلك، هَلُمِّي فتصدقي به عليَّ وعلى ولدي، فأنا له موضع، فقالت: لا والله حتى أذهب به إلى النبي ﷺ. فذهبت تستأذن على النبي ﷺ، فقالوا للنبي ﷺ: هذه زينب تستأذن يا رسول الله، فقال: أَيُّ الزَّيانب هي؟ فقالوا: امرأة عبد الله بن مسعود، فقال: ائذنوا لها، فدخلت على النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني سمعتُ منك مقالةً فرجعتُ إلى ابن مسعود فحدثتُه، وأَخذتُ حُلياً أَتقرب به إلى الله وإليك رجاءَ أَلا يجعلني الله من أَهل النار، فقال لي ابن مسعود: تصدَّقي به عليَّ وعلى ولدي، فأنا له موضع، فقلتُ حتى أستأذن النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: تصدَّقي به عليه وعلى بنيه فإنهم له موضع، ثم قالت: يا رسول الله، أرأيت ما سمعتُ منك حين وقفتَ علينا، ما رأيت من نواقص عقول قط ولا دين أَذهب بقلوب ذوي الألباب منكن، قالت: يا رسول الله، فما نُقصان ديننا وعقولنا؟ فقال: أَمَّا ما ذكرتُ من نقصان دينكنَّ فالحيضة التي تُصيبكنَّ، تمكث إحداكن ما شاء الله أن تمكث لا تصلي ولا تصوم، فذلك من نقصان دينكن، وأَمَّا ما ذكرتُ من نقصان عقولكن فشهادتكن، إنما شهادة المرأة نصف شهادة.

(١) من الآية (٢٤) من سورة (سبأ).

(٢) أبو الأسود الدؤلي هو ظالم بن عمرو بن جندل الكناني، وهو يعد في الشعراء والنحويِّين، وكان علويَّ الرأي، وشهد مع الإمام عليٍّ وقعة صِفِّين، وولي البصرة لابن عباس، والبيت يلتقي مع هذه الاتجاهات، و«أَو» فيه للإبهام.

اقتحامه للعقبة من الذين آمنوا، وليس المعنى أنه يقتحم ثم يكون بعد ذلك؛ لأَن الاقتحام كان يقع من غير مؤمن، وذلك غير نافع.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ معناه: على طاعة الله تعالىٰ وبلائه وقضائه، وعن الشهوات والمعاصي. و﴿الْمَرْحَمَةُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل ما يؤدي إلى رحمة الله تعالىٰ، وقال آخرون: هو التراحم وعطفُ بعض الناس على بعض، وفي ذلك قوام الناس، ولو لم يتراحموا هلكوا.

و﴿الْمَيْمَنَةُ﴾ مفعلة، وهي ـ فيما روي ـ عن يمين العرش، وهو موضع الجنة ومكان المرحومين من الناس. و﴿الْمَشْأَمة﴾ الجانب الأَشأم، وهو الأَيسر، وفيه جهنم، وهو طريق المعذبين، يؤخذ بهم ذات الشمال، وهذا مأخوذ من اليَمَن والشام، للواقف بباب الكعبة متوجهاً إلى مطلع الشمس، واليد الشؤمى هي اليسرى، وذهب الزجاج وقوم إلى أَن ذلك مأخوذ من اليُمْن والشُّؤْم.

وقرأَ ابن كثير، وابن عامر، ونافع، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم: [مُوصدةٌ]، على وزن «مُوعَدة»، وكذلك في سورة (الْهُمزة)[(١)] وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، وحَفْصٌ عن عاصم بالهمز في السورتين، ومعناهما جميعاً: مُطْبَقَةٌ مغلقة، يقال: «أَوْصَدْتُ وآصَدْتُ» بمعنى: أَطبقتُ وأَغلقتُ، فَمُوصَدَةٌ ـ دون همز ـ من «أَوْصَدْتُ»، وقد يحتمل أَن يهمز من يراها من «أَوْصَدْتُ» من حيث قيل: الواو حرف مضمومٌ على لغة من قرأَ: [بالسُّؤْق][(٢)]، ومنه قول الشاعر:

لحَبَّ الْمُؤْقِدَان إِلَيَّ مُؤْسَى . . . . [(٣)]

---

(١) في قوله تعالىٰ في الآية (٨): ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾.

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٣٣) من سورة (ص): ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾.

(٣) هذا صدر بيت قاله جرير من قصيدة يمدح بها هشام بن عبد الملك، والبيت بتمامه:

لَحَبَّ الْمُؤْقِدان إِلَيَّ مُؤْسَى وَجَعْدَةُ لَو أَضاءَهُمَا الوُقُودُ

و«حَبَّ» فعل ماض، أصله «حَبُبَ» على وزن «كَرُمَ»، ومعناه: صار محبوباً، أُدغمت الباءُ الأولى في الثانية، إمَّا للقلب. . . أو بنقلها إلى الحاء قبلها، فلذا روي «لَحُبَّ» بفتح الحاءِ وضمها، واللام في «لَحَبَّ» جواب قسم محذوف، ولم يُؤت بـ «قد» مع اللام في «لَحَبَّ» لإجرائه مجرى فعل المدح في مثل «والله لنعم الرجلُ زيد»، وأراد بالمؤقدان من يوقد نار القِرَى، فإنه المتبادر في استعمالات العرب وبخاصة إذا استعمل في مقام المدح والوصف بالكرم. و«الوَقُود» ـ بفتح الواو ـ: ما يوقد به من =

بالهمز فيهما. و«مُؤْصَدةٌ» من «آصَدْتُ»، ويحتمل أَن يسهل الهمزة فيجيءُ «مُوصدة» من «آصدتُ»، ومن اللفظة «الوصيد»[1]، وقال الشاعر:

قَــوْمــاً يُعــالــجُ قُمَّــلاً أَبْنــاؤُهُــمْ وَسَــلاَسِــلاً حلقــاً وبــابــاً مُــؤْصَــداً[2]

كمل تفسير سورة البلد والحمد لله رب العالمين

* * *

= الحطب، و«الوُقودُ» ـ بضم الواو ـ: مصدر بمعنى الإيقاد. و«موسى» و«جعدة» ولدا هشام بن عبد الملك، والمعنى: لما أضاء إيقاد النار موسى وجعدة ورأيتُهما من ذوي الوضاءة والنور والبهجة صارا محبوبين لي. وكان موسى بن هشام وأخته جعدة بنت هشام مشهورين بالسخاءِ وإيقاد النار للقرى. والشاهد هو همز الواو في كل من «المؤقدان» و«مُؤْسَى»، وفي البيت روايات كثيرة تجدها في اللسان، والخصائص لابن جني، ومخطوطة أنساب الأشراف.

(١) الوصيد: فناء الدار والبيت، وفي التنزيل العزيز ﴿وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ ويقال فيه: «الأصيد».

(٢) هذا البيت قاله الأعشى من قصيدة يخاطب بها كسرى حين أراد منهم رهائن، وفي القصيدة يقول لكسرى: لنقاتلنَّكم قتالاً يُخرِّب الديار، ونحن لَسْنا كغيرنا محبوسين خلف الأبواب الموصدة والسلاسل الموثقة، هذا والقُمَّلُ: دواب صغار من جنس القرْدان إلاّ أنها أصغر منها، واحدتها قُمَّلة، تركب البعير عند الهزال، ويروى: «أُجُداً» بدلاً من «حَلقاً»، والأجد: الموثقة، و«المُؤْصد»: المغلق. وهي موضع الاستشهاد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة الشمس

وهي مكيّة[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾.

أَقسم الله تعالىٰ بالشمس، إما على التنبيه منها وإما على تقدير: وربِّ الشمس، و«الضُّحى» ـ بضم الضاد والقصر ـ: ارتفاعُ الضوءِ وكماله، وبهذا فسَّر مجاهد، وقال قتادة: هو النهار كله، وقال مقاتل: ضحاها: حَرُّها، كقوله تعالىٰ في «طه»: ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾[٢]. و«الضَّحاءُ» ـ بفتح الضاد والمدِّ: ما فوق ذلك إلى الزوال.

والقمر يتلو الشمسَ من أَول الشهر إلى نصفه في الغروب، تغرب هي ثم يغرب هو، ويتلوها في النصف الآخر بنحو آخر، وهو أَن تغرب هي فيطلع هو. وقال الحسن بن أَبي الحسن: [تَلَاهَا]: تبعها دأَباً في كل وقت؛ لأَنه يستضيءُ منها فهو يتلوها لذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا اتباعٌ لا يختص بنصف أَول من الشهر ولا بآخر، وقاله الفراءُ أَيضاً، وقال الزجاج وغيره: [تَلَاهَا] معناه: امتلأَ واستدار فكان لها تابعاً في المنزلة من الضياءِ

(١) قال القرطبي: «مكّيّة باتفاق».
(٢) في قوله تعالىٰ في الآية (١١٩) من سورة (طه): ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩﴾.

والقدر؛ لأنه ليس في الكواكب شيءٌ يتلو الشمس في هذا المعنى غير القمر، قال قتادة: إنما ذلك ليلة البدر، تغيب هي فيطلع هو.

و«النَّهارُ» في ظاهر هذه السورة والتي بعدها أنه من طلوع الشمس، وكذلك قال الزجاج في كتاب الأنواءِ وغَيْرُه. واليوم من طلوع الفجر، ولا يختلف أن نهايتهما مغيب الشمس، والضمير في ﴿جَلَّىٰهَا﴾ يحتمل أن يعود على الشمس، ويحتمل أن يعود على الأرض وعلى الظلمة، وإن كان لم يجيءْ لذلك ذكرٌ فالمعنى يقتضيه، قاله الزجاج، وجَلَّى معناه: كشف وضوءاً، والفاعل لـ «جَلَّى» ـ على هذه التأويلات ـ النهارُ، ويحتمل أن يكون الفاعلُ الله تعالىٰ، كأنه قال: والنهار إذا جلَّى الله الشمس، فأقسم بالنهار في أكمل حالاته. و﴿يَغْشَىٰهَا﴾ معناه: يُغَطِّي، والضمير للشمس على تجوُّز في المعنى، أو للأرض.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ وكل ما بعده من نظائره في السورة يحتمل أن تكون [ما] فيه بمعنى «الذي»، قاله أبو عبيدة، أي: ومن بناها، وهو قول الحسن ومجاهد؛ لأن «ما» تقع عامَّة لمن يعقل ولما لا يعقل، فيجيءُ القسَم بنفسه تعالىٰ، ويحتمل أن تكون [ما] في جميع ذلك مصدرية، قاله قتادة، والمبرد، والزجاج، كأنه تعالىٰ قال: والسماءِ وبُنْيَانِها.

و«طَحَا» بمعنى «دَحَا»، و«طَحَا» أيضاً في اللغة بمعنى: ذهب كلَّ مذهب، ومنه قول عَلْقَمَة بن عَبْدَة:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ في الحِسانِ طَرُوب بُعَيْدَ الشَّباب عَصْرَ حان مشيبُ(١)

و«النفس» التي أقسم الله بها اسمُ الجنس، و«تَسْوِيتُها» إكمال عقلها ونظرها، ولذلك ربط الكلام بقوله تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا﴾... الآية، فالفاءُ تعطي أن التسوية هي هذا الإلهامُ، ومعنى قوله تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا﴾ أيْ عرَّفها طُرُق ذلك، وجعل لها

(١) هذا مطلع قصيدة قالها علقمة في مدح الحارث ملك الغساسنة في الشام ليطلق سراح أخيه ومن معه من تميم ممن كانوا قد أُسروا في وقعة «يوم حليمة»، ومعنى «طَحَا بكَ»: ذهب بك كل مذهب، واتَّسع، والطَّربُ: خِفَّة تصيب الإنسان لشدة الفرح أو حتى لشدة الحزن، وفي البيت إيقاع موسيقى حنون، مع متانة في البناء، ومفارقة حلوة بين الحنين إلى الحُب والجمال، وبين المرحلة المتقدمة في السِّن التي بلغها الشاعر دون أن يعترف بها.

قوة يصحُّ معها اكتساب الفجور واكتساب التقوى، وجواب القَسَم في قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾، والتقدير: لقد أفلح، والفاعل بـ «زكّى» يحتمل أن يكون هو الله تعالىٰ، وقاله ابن عباس وغيره، كأنه تعالىٰ قال: قد أفلحت الفرقة أو الطائفة التي زكاها الله تعالىٰ، و[مَنْ] تقع على جمع أو أفراد، ويحتمل أن يكون الفاعل بـ «زكّى» الإنسان وعليه تقع (مَنْ)، وقاله الحسن وغيره، كأنه تعالىٰ قال: قد أفلح من زكّى نفسه، أي اكتسب الزكاة التي قد خلقها الله تعالىٰ له، و﴿زَكَّىٰهَا﴾ معناه: طهّرها ونمّاها بالخيرات، و﴿دَسَّىٰهَا﴾ معناه: أخفاها وحقّرها، أي: احتقر قدرها بالمعاصي والبخل بما يحب، يقال: دسَا يدْسُو، ودسَّى ـ بشد السِّين ـ يُدَسِّي، وأصله دسَّسَ، ومنه قول الشاعر:

وَدَسَّسْتُ عَمراً في التُّرابِ فَأَصْبَحَتْ ... حَلائِلُهُ يَبْكِين للْفَقْدِ ضُعَّفَا[1]

ورُوي أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها، أنت وليُّها ومولاها»[2]، وهذا الحديث يُقوِّي أن المزكِّي هو الله تعالىٰ، وقال ثعلب: معنى الآية: وقد خاب من دسَّاها في أهل الخير بالرياءِ وليس منهم في حقيقته.

ولما ذكر الله تعالىٰ صفة من دسَّى ذكَر فرقة فعلت ذلك لِيُعْتبرَ بهم ويُنْتهى عن مثل فعلهم، و«الطَّغْوى» مصدر، وقرأ الحسن، وحمَّاد بن سلمة: [بِطُغْوَاها] بضم الطاءِ، مصدر كالعُقْبى والرُّجْعى، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «الطَّغوى» هنا: العذاب،

---

(١) البيت في اللسان ـ دسا ـ، وفي القرطبي، والبحر المحيط، وفتح القدير، وقد اختلف في ألفاظه، والذي في اللسان:

وَأَنْتَ الَّذي دَسَّيْتَ عَمْراً فَأَصْبَحَتْ ... نساؤهُمُ مِنْهُمْ أَرامِلُ ضُيَّعُ

و«عَمْرٌو» قبيلة، والبيت أنشده بن الأعرابي لرجل من طيئ يتحدث عن هذه القبيلة، ولهذا قال: «نَساؤهُمُ»، ومعنى «دسَّيْتَ»: أَغْوَيْتَ وأَفسدتَ، والحلائل: جمع حليلة، وهي زوج الرجل، لأنها تُحالُّه، أي تَحلُّ حيثُ يَحلُّ، أو لأنها حلالٌ له وهو حلالٌ لها، ومعنى «ضُعَّفاً»: ضعافاً، يقال: ضَعَّفْتُه بمعنى صَيَّرْته ضعيفاً، والضَّائع: الذي أُهمل. والأرامل: جمع أرملة، وهي التي فقدت زوجها، والشاهد أن دَسَّى ودسَّسَ بمعنى: أغوى وأفسد.

(٢) أخرجه النسائي في الاستعاذة، ومسلم في الذكر، وأحمد في مسنده (٤/ ٣٧١، ٦/ ٢٠٩) وأخرجه الطبراني، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ إذا مرَّ بهذه الآية ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ وقف ثم قال: «اللهم آتِ نفسي تقواها، أنت وليُّها ومولاها وخير من زكّاها». هكذا نقله ابن كثير في تفسيره.

كَذبوا به حتى نزل بهم، ويؤيد هذا التأويل قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾[١]، وقال جمهور المتأولين: الباءُ سببيَّةٌ، والمعنى: كذبت ثمودُ نَبيَّها بسبب طغيانها وكفرها. و﴿ٱنۢبَعَثَ﴾ عبارة عن خروجه إلى عقر الناقة بنشاط وحرص، و﴿أَشْقَىٰهَا﴾ هو قُدار بن سالف، وهو أَحد التسعة الرهط المفسدين، ويحتمل أَن يقع ﴿أَشْقَىٰهَا﴾ على جماعة حاولت العقر، ويروى أنه لم يفعل فعله بالناقة حتى مالأه على ذلك جميع الحيِّ، فلذلك قال تعالىٰ: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ لكونهم متفقين على ذلك.

و﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: صالحُ عليه السلام، وقوله تعالىٰ: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ نُصب بفعل مضمر تقديره: احفظوا أَو ذَرُوا أَو احْذروا، على معنى: احذروا الإِخلال بحق ذلك، وقد تقدم أَمر الناقة والسُّقْيَا في غير هذه السورة بما أَغنى عن إِعادته، وقد تَقَدَّم التكذيبُ على العقْر لأَنه كان سبب العقْر، ويُروى أنهم كانوا قد أَسلموا قبل ذلك وتابعوا صالحاً عليه السلام مدة ثم كذَّبوا وعقروا، والجمهور من المفسِّرين على أَنهم كانوا على كفرهم. و﴿دَمْدَمَ﴾ معناه: أَنزل العذاب مُقْلقاً لهم مُكرِّراً ذلك، وهي الدَّمْدَمة، وفي بعض المصاحف «فَدَهْدَمَ»، وهي قراءة ابن الزبير بالهاءِ بين الدالين، وفي بعضها «فدمَّر»، وفي مصحف ابن مسعود: «فَدَمْدمهَا عَلَيْهِمْ». وقوله تعالىٰ: ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ أَي: بسبب ذنبهم، وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ معناه: فَسوَّى القبيلة في الهلاك، لم يُنْجِ منهم أَحداً.

وقرأَ نافع، وابن عامر، والأعرج، وأَهل الحجاز، وأُبيُّ بن كعب [فَلاَ يَخافُ] بالفاءِ، وكذلك في مصاحف أَهل المدينة والشام، وقرأَ الباقون: (وَلا يَخاف) بالواو، وكذلك في مصاحفهم، وروي عن النبي ﷺ أَنه قرأَ: [ولمْ يَخَفْ عُقْباها]، والفاعل بـ [يخافُ] على من قرأَ: (فلاَ يخافُ) بالفاءِ يحتمل أَن يكون الله تعالىٰ، والمعنى: فلا دَرْكَ[٢] على الله تعالىٰ في فعله بهم، لا يُسأَل عما يفعل، وهذا قول ابن عباس والحسن، وفي هذا المعنى احتقار للقوم وتعفية لأَثرهم، ويحتمل أَن يكون صالحاً عليه السلام، أَي: لا يخاف عقبى الله تعالىٰ بهذه الفعلة بهم؛ إِذ قد كان أَنذرهم وحذَّرهم،

---

(١) الآية (٥) من سورة (الحاقة).

(٢) الدَّرَك والدَّرْك ـ بفتح الراءِ وبسكونها ـ: التَّبِعة، يقال: ما لحقك من دَرْك فعليَّ خلاصُه.

ومن قرأ ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ بالواو فيحتمل الوجهين اللَّذيْن ذكرنا، ويحتمل زائداً أَن يكون الفاعل بـ [يخافُ] أَشْقاها الْمُنْبعث، قاله الزجاج وأَبو عليٍّ، وهو قول السُّدي والضحاك ومقاتل، وتكون الواو واوَ الحال، كأَنه تعالىٰ قال: انبعث لعقرها وهو لا يخاف عُقْبى فعله لِكُفْره وطغيانه، و«العُقْبى»: جزاءُ الشيءِ وخاتمته وما يجيءُ من الأُمور بعقبه.

واختلف القراءُ في أَلِفَاتِ هذه السورة واللَّتين بعدها، ففتحها ابن كثير، وعاصم، وابن عامر، وقرأَ الكسائي ذلك كلَّه بالإِضجاع، وقرأَ نافع الكلَّ بين الفتح والإِمالة، وقرأَ حمزة: [وَضُحَاها] مكسورة، و[تَلاَهَا] و[طحاهَا] مفتوحتين، وكسر ما عدا ذلك، واختلف عن أَبي عمرو، فمرَّةً كسر الجميع، ومرَّةً كقراءة نافع، قال الزَّجاج: سمَّى الناسُ الإِمالة كسْراً وليس بكسر صحيح، والخليل وأَبو عمرو يقولان: إِمالة.

كمل تفسير سورة الشمس والحمد لله رب العالمين

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الليل

وهي مكية في قول الجمهور، وقال المهدوي: وقيل: هي مدنية، وقيل: فيها مدني، وعددها عشرون آية بإجماع(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾.

أَقسم الله تعالىٰ بالليل إذا غشي الأَرض وجميع ما فيها، وبالنهار إذا تجلَّى أَي ظهر وضوَّأَ الآفاقَ(٢)، ومنه قول الشاعر:

تجلَّى السُّرى مِنْ وجْهِهِ عَنْ صَبيحَةٍ ... عَلى السَّيْر مِشْرَاقٍ كريمٍ شُجُونُها(٣)

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ يحتمل أَن تكون [ما] بمعنى «الذي» كما قالت العرب: «سبحان ما سبَّح الرعد بحمده»، وقال أَبو عمرو وأَهل مكة: يقولون للرعد:

---

(١) هكذا في الأصول، وقال القرطبي: «وهي إحدى وعشرون آية بإجماع»، وهذا يوافق ما في المصحف الشريف.

(٢) ضَوَّأَ الشيءَ: أَضاءه، أي جعله مضيئاً.

(٣) تَجَلَّى الشيءُ: انكشف ووضح وظهر، وهو موضع الاستشهاد هنا، والسُّرى: السَّير ليلاً، وقيل: هو سير الليل كلِّه، تُذكِّره العرب وتؤنثه. والصبيحةُ هي الصباح، وهو نقيض المساء، ومثلهما الإصباح. والمشراقُ: الموضع الذي تشرق عليه الشمس فينير، والشَّجَنُ: هوى النفس وحاجاتُها أينما كانت، وجمعه أَشجان وشجون، ومن ذلك قول الشاعر:

ذَكَرْتُكِ حَيْثُ اسْتَأْمَنَ الْوَحْشُ والْتَقَتْ ... رِفَاقٌ بِهِ، والنَّفْسُ شَتَّى شُجُونُهَا

«سبحان ما سَبَّحْتَ له»، ويحتمل أَن تكون [ما] مصدرية، وهو مذهب الزجاج. وقرأ جمهور الصحابة: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ﴾، وقرأ علي بن أبي طالب، وابن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأَبو الدَّرْداءِ ـ وسمعها من النبي ﷺ ـ وعلقمة، وأَصحاب عبد الله: [والذَّكرَ والأُنثى]، وسقط عندهم ﴿وَمَا خَلَقَ﴾(١)، وذكر ثعلب أَن من السلف من قرأ: (وَمَا خَلَقَ الذَّكَرِ والأُنثى) بخفض [الذَّكرِ]، على البدل من [ما]، على أَن التقدير: وما خلق اللهُ، وقراءة عليٍّ رضي الله عنه: «وَمِنْ ذَكَرٍ» تشهد لهذه، وقال الحسن: المراد هنا بالذَّكَرِ والأُنثى آدم وحواءُ عليهما السلام، وقال غيره: هو عام.

و«السَّعْيُ»: العمل، فأَخبر تعالىٰ مقسماً أَن أَعمال العباد شتَّى، أَيْ مفترقة جداً، بعضها في رضى الله تعالىٰ، وبعضها في سَخطه. ثم قسَّم تعالىٰ الساعين، فذكر أَن من أَعْطَى ـ وظاهر ذلك إِعطاءُ المال، وهي أَيضاً تتناول إِعطاءَ الحق في كل شيءٍ، قول أَو فعل، وكذلك البخل المذكور بعد ـ يكون بالإِيمان وغيره من الأَقوال التي حقُّ الشريعة أَلاَّ يُبخل بها.

ويروى أَن هذه الآية نزلت في أَبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك أَنه كان يعتق ضعفة العبيد الذين أَسلموا، وكان ينفق في رضى رسول الله ﷺ ماله، وكان الكفار بِضِدِّ

---

(١) أخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر وابن مردويه، عن علقمة أنه قدم الشام فجلس إلى أَبي الدرداءِ، فقال له أَبو الدرداءِ: مِمَّن أنت؟ قال: من أَهل الكوفة، قال: كيف سمعتَ عبد الله يقرأُ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾؟ قال علقمة: «وَالذَّكَرَ والأنثى»، قال أَبو الدرداءِ: أَشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقرأُ هكذا، وهؤلاءِ يريدوني على أَني أَقرؤُها: «وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنثَى»، والله لا أُتابعهم. هكذا ذكره في الدر المنثور. وقد جاء في كتاب الأحكام لابن العربي: «هذا مما لا يلتفت إليه بشر إنما المعوَّل عليه ما في المصحف، فلا يجوز مخالفته لأَحد، ثم بعد ذلك يقع النظر فيما يوافق خطه، مما لم يثبت ضبطه حسب ما بيَّناه في موضعه، فإن القرآن لا يثبت بنقل الواحد وإن كان عَدلاً، وإنما يثبت بالتواتر الذي يقع به العلم، وينقطع معه العذر، وتقوم به الحجة على الخلق»، ونقل القرطبي عن أَبي بكر الأنباري أن هذا الحديث مردودٌ بخلاف الإجماع له، وأَن حمزة وعاصماً يرويان عن عبد الله بن مسعود ما عليه جماعةُ المسلمين، والبناء على سنَدَيْن يوافقان الإجماع أَوْلى من الأخذ بواحد يخالفه الإجماعُ والأُمة، وما يُبنى على رواية واحد إذا حاذاه رواية جماعة تخالفه، أُخذ برواية الجماعة، وأُبطل نقل الواحد لما يجوز عليه من النسيان والإغفال، ولو صحَّ الحديث عن أَبي الدرداءِ، وكان إسناده مقبولاً معروفاً، ثم كان أَبو بكر، وعمر، وعثمان وعلي، وسائر الصحابة رضي الله عنهم يخالفونه، لكان الحُكم بما روته الجماعة، ورفض ما يحكيه الواحد المنفرد، الذي يسرع إليه النسيان ما لا يُسرع إلى الجماعة».

ذلك(١)، وهذا قول من قال إن السورة كلها مكية، قال عبد الله بن أبي أوفى: هذه السورة في أَبي بكر الصديق رضي الله عنه وأَبي سفيان بن حرب، وقال مقاتل: مرَّ أَبو بكر رضي الله عنه على أَبي سفيان وهو يعذِّب بلالاً، فاشتراه منه، وقال السُّدي: نزلت هذه الآية بسبب أَبي الدَّحْداح الأَنصاري رضي الله عنه، وذلك أَن نخلة لبعض المنافقين كانت مُطلَّة على دار امرأَة من المسلمين لها أَيتام، فكان الثمر يسقط عليهم فيأكلونه فمنعهم المنافق من ذلك، واشتد عليهم، فقال رسول الله ﷺ: بِعْنِيها بنخلة في الجنة، فقال: لا أَفعل، فبلغ ذلك أَبا الدحداح، فذهب إِليه واشترى منه النخلة بحائط له، وجاءَ إِلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أَنا أَشتري النخلة التي في الجنة بهذه، ففعل ذلك رسول الله ﷺ، فكان رسول الله ﷺ يمرُّ على ذلك الحائط الذي أَعطى أَبو الدَّحداح، وقد تعلَّقت أَقْنَاؤه(٢) ويقول: وكم قِنْو تعلَّق لأَبي الدحداح في الجنة(٣)، وفي البخاري أَن هذا اللفظ كان رسول الله ﷺ يقوله في الأَقْناءِ التي كان أَبو الدحداح يُعَلِّقها في المسجد صدقة، وهذا كله قول من يقول: بعض السورة مدني.

واختلف الناس في ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ في هذه السورة ـ فقال أَبو عبد الرحمن السلمي وغيره: هي لا إِله إِلاَّ الله، وقال ابن عباس، وعكرمة، وجماعة هي الخَلَفُ الذي وعد الله به، وذلك نصٌّ في حديث الملكيْن، إِذْ يقول أَحدهما: اللهم أَعط منفقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهم أَعط ممسكاً تَلَفاً(٤). وقال مجاهد، والحسن، وجماعة:

---

(١) أَخرجه ابن جرير، وابن عساكر، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، قال: كان أَبو بكر يعتق على الإسلام بمكة، فكان يعتق عجائز ونساءً إذا أَسْلَمن، فقال له أَبوه: أَيْ بُنَيَّ أراك تعتق أُناساً ضعفاء، فلو أَنك تعتق رجالاً جلداً يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك؟ قال: أَيْ أَبَت إنَّما أُريد ما عند الله، قال: فحدثني بعض أَهل بيتي أن هذه الآية نزلت فيه ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

(٢) الأَقْناءُ: جمع قِنْو، وهو العِذْقُ بما فيه من الرُّطب.

(٣) ذكره ابن أَبي حاتم والواحدي في «أَسباب النزول»، من طريق حفص بن عمر العَدَني، عن الحكم بن أبان العدني، عن عكرمة عن ابن عباس، وهو حديث ضعيف لضعف حفص بن عمر، أما الحكم بن أبان فصدوق عابد، ولكن له أوهام، قال ذلك الحافظ ابن حجر في «التقريب»، وذكر ابن كثير هذا الحديث في تفسيره ثم قال: «وهو حديث غريب جداً»، وأورده السيوطي في الدرِّ المنثور بسند ضعيف، أَخرجه ابن أَبي حاتم عن ابن عباس، وقال الخازن: والصحيح أن الآية نزلت في أَبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٤) أَخرجه البخاري ومسلم في الزكاة، وأَحمد في مسنده (٢/٣٠٦، ٣٤٧، ٥/١٩٧)، ولفظه كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يُصبح العباد فيه إلاَّ وَمَلَكان ينزلان، فيقول أَحدهما: اللهم أَعْط منفقاً خَلَفاً، ويقول الآخر اللهم أَعْط مُمْسِكاً تَلَفاً».

الحُسْنى: الجنة، وقال كثير من المتأولين: الحسنى: الأَجر والثواب مجملاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ معناه: سيظهر تيْسيرُنا بما يتدرج فيه من أَعمال الخير، وحَتْم تَيْسيره قد كان في علم الله تعالىٰ أَزلاً، و﴿اليُسْرى﴾: الحالُ الحسنة المرضية في الدنيا والآخرة، و﴿العُسْرى﴾ الحال السيئة في الدنيا والآخرة ولا بُدَّ، ومن جعل [بَخِلَ] في المال خاصةً جعل [استغنى] في المال أَيضاً لتعظم المذمَّةُ، ومن جعل [بَخِلَ] عامًّا في جميع ما ينبغي أَن نبذل من قول وفعل قال: «استغنى» عن الله تعالىٰ ورحمته بزعمه. ثم وَقَف تعالىٰ عن موضع غَنَاءِ مالِهِ عنه وقت تَرَدِّيه، وهذا يدل على أَن الإِعطاءِ والبخل المذكوريْن إِنما هما في المال.

واختلف الناس في معنى [تردَّى] ـ فقال قتادة وأَبو صالح: معناه: تَرَدَّى في جهنم، أَي سقط من حافاتها، وقال مجاهد: [تردَّى] معناه: هلك من الرَّدى، وقال قوم: معناه: تردَّى بأَكْفانه من الرداءِ، ومنه قول مالك بن الريب:

وخُطَّـا بِـأَطْـرَافِ الأَسِنَّـةِ مضْجَعـي   وَرُدَّا عَلَـى عَيْنَـيَّ فَضْـلَ رِدائِيَـا[١]

ومنه قول الآخر:

نَصيبُـكَ مِمَّـا تَجْمـعُ الـدَّهْـرَ كُلَّـهُ   رِداءَانِ تُلْـوى فِيهِمـا وَحَنُـوط[٢]

ثم أَخبر تعالىٰ أَن عليه هدى الناس جميعاً، أَي تعريفهم بالسبل كلها، ومنحهم الإِدراك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾[٣]، ثم كلُّ أَحد بعد ذلك يتكسَّب ما قُدِّر له، وليست هذه الهداية بالإِرشاد إِلى الإِيمان، ولو كان ذلك لم يوجد كافر. ثم

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها مالك بن الريب التميمي حين حضرته الوفاة وهو غريب، وفيها يخاطب صاحبيه، ويقول:

فَيَا صاحِبَيْ رَحْلي دَنَا الْموتُ فانْزِلاَ   بِـرَابِيَـةٍ إِنِّـي مُقيـمٌ لَيَـالِيَـا

والأَسِنَّة: جمع سنان، وهو طرف الرمح، والمراد بالمضجع هنا القبر، والرداءُ: ما يرتديه الإنسان، يطالب صاحبيه بأن يحفرا قبره بأطراف رماحهما، وأن يغطياه بالثوب بعد الموت.

(٢) الرداءُ: الذي يلبس، وتثنيته رداءان، وتُلْوَى فيهما: تُلَفُّ فيهما، والحنوط: طيبٌ يخلط للميت خاصة، وهو مشتق من قولهم، حَنِط الرِّمْثُ وأَحنط: ابيضَّ واستوى وصارت له رائحة طيبة، يقول: إنك مهما جمعت من الدنيا فلن تأخذ منها إلا ثوبين تُلَفُّ فيهما، وبعض الطيب الذي يوضع عليك بعد موتك.

(٣) من الآية (٩) من سورة (النحل).

أخبر تعالىٰ أن له الآخرة والأُولى أي الدارين.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ إمَّا مخاطبة منه سبحانه، وإمَّا على معنى: قُل لهم يا محمد، وقرأ جمهور السبعة: ﴿تَلَظَّىٰ﴾ بتخفيف التاءِ، وقرأ البزي عن ابن كثير بشدِّ التّاءِ وإدغام الراءِ فيها، وقرأها كذلك عُبَيْد بن عُمَيْر، ورُوي عنه أيضاً [تَتَلَظّى] بتاءَيْن، وكذلك قرأ ابن الزبير وطلحة.

قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾، أَي: لا يَصْلاَها صُلِيَّ خلود، ومن هنا ضلَّت المرجئة لأنها أخذت نفي الصُّليِّ مطلقاً في قليله وكثيره. و﴿ٱلْأَشْقَى﴾ هنا ـ: الكافر؛ بدليل قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ﴾، والعرب تجعل «أفْعل» في موضع «فاعِل» مبالغة، كما قال طرفة:

تَمَنَّى رِجالٌ أَنْ أَموتَ وإِنْ أَمُتْ ... فتِلْكَ سَبيلٌ لَسْت فِيهَا بأَوْحَدِ(١)

---

(١) لم أجد هذا البيت في شعر طرفة، وقد استشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن، وكذلك استشهدبه الطبري، وقد ورد في أمالي القالي ضمن ثلاثة أبيات كتب بها يزيد بن عبد الملك إلى أخيه هشام، وكان الخليفةَ بعده، وهي:

تَمَنَّى رِجالٌ أَنْ أَموتَ وَإِنْ أَمُتْ ... فَتِلْك سَبِيلٌ لَسْتُ فيها بِأَوْحَدِ
فَمَا عَيْشُ مَنْ يَرْجو رَدَايَ بِضَائِري ... وَمَا عَيْشُ مَنْ يَرْجُو رَدَاي بِمُخْلِدِ
فَقُلْ لِلذي يَبْغي خِلافَ الَّذِي مَضَى ... تَجَهَّزْ لأُخْرَى مِثْلِها فَكَأَنْ قَدِ

قيل: فكتب إليه هشام:

وَمَنْ لاَ يُغَمِّضْ عَيْنَهُ عَنْ صَدِيقِهِ ... وَعَنْ بَعْضِ ما فيهِ يَمُتْ وَهْوَ عاتِبُ
وَمَنْ يَتَتَبَّعْ جاهِداً كُلَّ عَثْرَةٍ ... يَجِدْهَا وَلاَ يَسْلَمْ لَهُ الدَّهْرَ صاحِبُ

فكتب إليه يزيد بأبياتٍ لمَعْن بن أوس يقول أولها:

لَعَمْرُكَ ما أَدْري وَإِنِّي لأَوْجَلُ ... على أَيِّنَا تَغْدُو الْمَنِيَّةُ أَوَّلُ

وقيل: إن الذي كتب بالأبيات الثلاثة هو الوليد إلى أخيه سليمان ـ جاء ذلك في مروج الذهب للمسعودي ـ ومعنى «يبغي خلاف الذي مضى»: يبغي أن يخلف غيره على ميراثه. وقد حقق الأستاذ عبد العزيز الميمني البيت الذي يدور حوله الحديث عند شرحه لذيل الأمالي، ووصل إلى أن البيت لمالك بن القين الأنصاري.

والمؤلف هنا يستشهد بالبيت على أن (أَوحد) جاءت بمعنى (واحد)، وهذا كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ فإنَّ (أَهْوَن) جاءت بمعنى (هَيِّن)، والصيغة هنا لمجرد الوصف ولا تعطي معنى التفضيل، وقد ناقش البغدادي في خزانة الأدب هذه الصيغة وقال: إن هذا الشاهد وما يماثله يمكن أن=

ولم يختلف أَهل التأْويل أن المراد بـ ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ إلى آخر السورة أَبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم هي تتناول كل من دخل في هذه الصفات. وقوله تعالىٰ: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ معناه: يتطهَّر وَيَتَنَمَّى، وظاهر هذا الإِتيان أَنه في المندوبات، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ﴾ الآية. . . معناه: وليس إعطاؤه لِيَجْزيَ نِعَماً قد أُنزلت إليه، بل هو مبتدىءٌ ابتغاءَ وجه الله تعالىٰ.

ورُوي في سبب هذا أَن قريشاً قالوا ـ لما أَعْتق أَبو بكر رضي الله عنه بلالاً ـ: كانت لبلال يدٌ عنده، وذهب الطبري إلى أَن المعنى: وليس يُعطي لِيُثاب نِعماً يُجْزى بها يوماً وينتظر ثَوَابَها، وحوَّم في هذا المعنى وحلَّق بتطويل غير مُغْن، ويتَّجه المعنى الذي أَراد بأَيسر من قوله، وذلك أَن يكون التقدير: وما لأَحد عنده إعطاءٌ ليقع عليه من ذلك الأَحد جزاءٌ بَعْدُ، بل هو لمجرَّد ثواب الله تعالىٰ وجزائه.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ﴾ نصب بالاستثناءِ المنقطع، وفيه نظر، والابتغاءُ: الطلب، ثم وعده تعالىٰ بالرِّضا في الآخرة، وهذه عِدَةٌ لأَبي بكر رضي الله عنه. وقرىء: [يُرْضَى] بضم الياءِ على بناءِ الفعل للمفعول، وهذه الآية تشبه الرِّضا في قوله تعالىٰ: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾(١).

كمل تفسير سورة الليل والحمد لله رب العالمين

* * *

= يعطي معنى التفضيل لا مجرد الوصف.

(١) الآية (٢٨) من سورة (الفجر).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الضحى

وهي مكية، لا خلاف في ذلك بين الرواة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١ ﴾.

تقدم تفسير «الضُّحَى» بأنه سطوع الضوءِ وعِظَمُه، وقال قتادة: الضحى هنا النهارُ كلُّه[1]، و﴿ سَجَىٰ ﴾ معناه: سكن واستقر ليلاً تامًّا، وقال بعض المفسرين: ﴿ سَجَىٰ ﴾ معناه: أَقْبل، وقال آخرون: معناه: أدبر، والأول أَصحُّ، ومنه قول الشاعر:

يـا حبَّـذا القَمْـراءُ واللَّيْـلُ السَّـاجْ ... وَطُـرُقٌ مِثْـلُ مُـلاءِ النَّسَّـاجْ[2]

ويقال: «بحر ساج» أَي ساكن، ومنه قول الأَعشى:

ومـا ذنبُنـا أَنْ جـاش بَحْـرُ ابْـنُ عَمِّكُـمْ ... وَبحْـرُكَ ساجٍ لاَ يُـواري الـدَّعـامِصَـا[3]

---

(١) دليله على المقابلة في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾، فالليل يقابله النهارُ.

(٢) هذان بيتان من الرجز ذكرهما صاحب اللسان قائلاً: «وأنشد الزجاج للحارثيّ. . .»، وهما في الطبري، والقرطبي، والبحر المحيط، والكامل، والليلة القمراءُ: المُقْمِرة المضيئة، والسَّاج: الساكِنُ الهادىء، والمُلاءُ ـ بالضم والمد ـ: جمع مُلاءَة، وهي الإزارُ والملحفة، يقول: ما أَجمل القمر في هذا الليل الساكن، وعلى هذه الطرق الملساءِ التي لا حجارة فيها ولا حصباء.

(٣) البيت لأعشى بني قيس بن ثعلبة، وهو في اللسان، والطبري، والقرطبي، والبحر المحيط، ويروى: «فما» بدلاً من «وما»، ويروى «أتوعدني» في موضع «فما ذنبنا» أَيضاً، والدَّعامص: جمع دعموص، وهي دودة سوداءُ تعيش في المياه الضحلة، والأعشى يهجو علقمة بن عُلاثة ويقول له: أَتُهددني وتوعدني؟ وما ذنبي أنا إذا كان شرف ابن عمك كالبحر الثائر الفائر، وكان شرفك أنت ضعيفاً هزيلاً كالماءِ الساكن الواقف الذي لا يواري ما فيه من الديدان الحقيرة؟ والشاهد أن «ساج» بمعنى «ساكن».

و«طَرْفٌ ساج» إذا كان ساكناً غير مضطرب النظر.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَدَّعَكَ﴾ بشد الدَّال، من التوديع، وقرأ عروة بن الزبير وابنه هشام: [وَدَعَك] بتخفيف الدال، بمعنى تركك. و﴿قَلَىٰ﴾ معناه: أَبغض.

واختلف في سبب هذه الآية ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيرُه: أَبطأ الوحيُ مُدَّةً عن رسول الله ﷺ وهو بمكة ـ اختلفت في حدها الروايات ـ حتى شقَّ ذلك عليه، فجاءت امرأَة من الكفار ـ وهي أُمُّ جميل امرأَة أَبي لهب ـ فقالت: يا محمد، ما أَرى شيطانك إِلاَّ قد تركك، فنزلت الآية بسبب ذلك[١].

وقال ابن وهب عن رجاله عن عروة بن الزبير أَن خديجة رضي الله عنها قالت: ما أَرى الله إِلاَّ قد خلاك لإِفراط جزعك لِبُطءِ الوحي عنك، فنزلت الآية بسبب ذلك[٢]، وقال زيد بن أَسلم: إِنما احتبس عنه جبريل لِجرْو كان في بيته[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ يحتمل أَن يريد الدارين: الدنيا والآخرة، وهذا تأْويل ابن إِسحاق وغيره، ويحتمل أَن يريد حالَيْه في الدنيا قبل نزول السورة وبعدها، فوعده الله تعالىٰ ـ على هذا التأْويل ـ بالنصر والظهور، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾، قال جمهور الناس: ذلك في الآخرة، وقال بعض أَهل البيت: هذه أَرْجى آية في القرآن؛ لأَن رسول الله ﷺ لا يرضى وواحد من أُمته في النار، وقال ابن عباس: رضاهُ أَلاَّ يدخل أَحد من أَهل بيته النار، وقال ابن عباس أَيضاً: رضاه أَن الله تعالىٰ وعده بأَلف قصر في الجنة بما تحتاج إِليه من النعم والخدم، وقال

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، وأَحمد، والطبري، وأورده السيوطي في الدر المنثور، وزاد نسبته إِلى عبد بن حميد والترمذي، والنسائي، والبيهقي وأَبي نعيم معاً في «الدلائل»، وذكره الواحدي في أسباب النزول، عن جندب بن عبد الله بن سفيان البجلي رضي الله عنه، ولفظه كما ذكره السيوطي: «اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلتين أَو ثلاثاً، فأَتته امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلاَّ قد تركك، لم تره قربك ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بسنده، عن هشام بن عروة عن أَبيه، وأَخرجه ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل كذلك عن عروة، وأَخرج مثله ابن جرير عن عبد الله بن شداد. ذكر ذلك السيوطي في الدرِّ المنثور.

(٣) ذكر ذلك الواحدي في خبر طويل في كتابه «أسباب النزول»، عن حفص بن سعيد القرشي، عن أُمِّه، عن أُمِّها خولة، وكانت خادمة رسول الله ﷺ.

بعض العلماءِ: رضاه في الدنيا بفتح مكة وغيره، وفي مصحف ابن مسعود: [ولَسَيُعْطِيكَ].

ثم وقفه تعالىٰ على المراتب التي درجه فيها بإنعامه عليه فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾، والمعنى: أَلم يجدك تحفِّي الله وإِنْعامُهُ، ويُتْمُهُ كان فقد أَبيه وكونه في كنف عمِّه أَبي طالب، وقيل لجعفر بن محمد الصادق: لِمَ يُتِّم النبي ﷺ من أبويه؟ قال: لِئلاً يكون عليه حقٌّ لمخلوق. وقرأَ الأَشهب العقيلي: [فأَوَى] بالقصر بمعنى: رحم، يقال: أَويتُ لفلان، أَي رحمتُه. وقوله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ أَي: وجدك إِنْعامُه بالنُّبوة والرِّسالة على غير الطريق التي أَنت عليها في نبوتك، فهدَى، هذا قول الحسن والضحاك وفرقة.

و«الضَّلال» مختلف، فمنه البعيد ومنه القريب، فالبعيد ضلال الكفار الذين يعبدون الأَصنام، ويحتجُّون لذلك ويغتبطون به، وكان هذا الضلال الذي ذكره الله تعالىٰ لنبيِّه ﷺ أَقرب ضلال، وهو الكون واقفاً لا يُميِّزُ الْمَهْيعَ[1]، لا لأَنه تمسَّك بطريق آخر، بل كان يرتاد وينظر. وقال السُّدِّي: أَقام على أَمر قومه أَربعين سنة، وقيل: معنى ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾: تُنْسب إِلى الضلال، وقال الكلبي: وجدك في قوم ضُلاَّل، فكأَنك واحد منهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ورسول الله ﷺ لم يعبد صنماً قط، ولكنه أَكل ذبائحهم حسب حديث زيد بن عمرو في أَسفل بلْدَح[2]، وجرى على يسير من أَمرهم، وهو مع ذلك ينظر خطأَ ما هم عليه، ودفع من عرفات وخالفهم في أَشياءَ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو ضلاله وهو صغير في شعاب مكة، ثم ردَّه الله تعالىٰ إِلى جدِّه عبد المطلب، وقيل: هو ضلاله من حليمة مرضعته، وقال الترمذي، وعبد العزيز بن يحيى: ﴿ضَآلًّا﴾: خامِل الذِّكر لا يعرفك الناس، فهداهم إِليك ربُّك، والصوابُ أَنَّه ضلالُ منْ توقَّف لا يدري، كما

---

(١) المَهْيَع: الطريق الواسع المنبسط.

(٢) هو وادٍ قبل مكَّة من جهة الغرب، وفيه المثل «لكن على بَلْدَحَ قومٌ عَجْفَى»، قاله بيهس الملقَّب بنعامة لمَّا رأى قتلة إخوته وقد نحروا وأكلوا وشبعوا فقال أحدهم: ما أخصب يومنا هذا وأكثر خيره، فقال نعامة مثلَهُ، فضرب مثلاً في التَّحزن بالأقارب.

قال عز وجل: و﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾(١). وقال ثعلب: هو تزويجه عليه السلام بنته في الجاهلية، ونحو ذلك.

و«العائِلُ»: الفقير، وقرأ اليمانيُّ: [عَيِّلاً] بشدِّ الياءِ المكسورة، ومنه قول الشاعر:

وما يدري الفَقيرُ مَتى غِناهُ ... وما يدري الغَنِيُّ مَتى يَعيلُ(٢)

وأعال: كثُر عياله، وعَال: افتقر، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾(٣)، وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَغْنَىٰ﴾، قال مقاتل: معناه: رَضَّاك بما أعطاك من الرزق، وقيل: فقيراً إليه فأغناك به، والجمهور على أنه فقر المال وغناه، والمعنى في النبي ﷺ أنه أغنى الأغنياءِ بالصبر والقناعة، وقد حُبِّبا إليه، وقيل: أُغني بالكفاف لتصرفه في مال خديجة رضي الله عنها، ولم يكن النبي ﷺ قطُّ كثير المال، رفعه الله عن ذلك، وقال: «ليس الغِنَى عن كثرة العرَض، ولكن الغِنى غِنى النفس»(٤).

ولما عدَّد الله تعالىٰ عليه هذه النِّعم الثلاث وصَّاه بثلاث وصايا، في كل نعمة وصيَّةٌ مناسبة لها، فبإزاءِ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾، وبإزاءِ قوله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، هذا على قول من قال: إن السائِلَ هنا هو السائل عن العلم والدين، وليس بسائل المال، وهو قول الحسن وأَبي الدَّرْداءِ وغيرهما، وبإزاءِ قوله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، وأَما من قال إن السائل سائل المال المحتاج، وهو قول الفراءِ وجماعة فقد جعلها بإزاءِ قوله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا

---

(١) من الآية (٥٢) من سورة (الشورى).

(٢) هذا واحد من أبيات قالها أُحيحة بن الجلاح، وهو في معاني القرآن، والجمهرة، واللسان، ومجاز القرآن:

فَهَلْ مِنْ كاهِنٍ أَوْ ذي إلـهٍ ... إذا ما كانَ مِنْ رَبِّي قُفُولُ
أُراهِنُهُ فَيَرْهَنُني بَنِيهِ ... وَأَرْهَنُهُ بَنِيَّ بما أَقولُ
وما يَدْري الفَقيرُ مَتى غِناهُ ... وما يَدْري الغَنِيُّ مَتى يَعيلُ
وما تَدْري إذا أَزْمَعْتَ أَمْراً ... بِأَيِّ الأَرْضِ يُدْرِكُكَ المَقيلُ

(٣) من الآية (٢٨) من سورة (التوبة).

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق، ومسلم في الزكاة، والترمذي وابن ماجه في الزهد، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٤٣، ٢٦١، ٣١٥، ٣٩٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فَأَغْنَىٰ﴾، وجعلَ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ بإزاءِ قوله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾. وقال إبراهيم بن أدهم: نعم القوم السُّؤَّال، يحملون زادنا إلى الآخرة. وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ معناه: رُدَّ ردًّا جميلاً، إمَّا بعطاءٍ أو بقول حسن. وفي مصحف ابن مسعود: [وَوَجَدَكَ عَديماً فَأَغنى]، وقرأ ابن مسعود، والشعبي، وإبراهيم التيمي: [فأَمَّا الْيَتِيم فَلاَ تَكْهَرْ] بالكاف، قال الأخفش: وهي بمعنى القَهر، ومنه قول الأعرابي: «وقاكم الله سَطْوة القادر وملكة الكاهر» وقال أبو حاتم: لا أَظنُّها بمعنى القهر؛ لأنه قد قال الأعرابي الذي بال في المسجد: «فما كهرني النبي ﷺ»، فإنما هي بمعنى الانتهار.

وأَمره الله تعالىٰ بالتحدث بنعمته، فقال مجاهد، والكلبي: معناه: بُثَّ القرآنَ وبلِّغْ ما أُرسلتَ به، وقال آخرون: بل هو عموم في جميع النِّعم، وكان بعض الصَّالحين يقول: لقد أَعطاني الله كذا وكذا، ولقد صليت البارحة كذا وكذا، وذكرت الله تعالىٰ كذا، فقيل له: إن مثلك لا يقول هذا، فقال: إن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ وأَنتم تقولون لا تُحدِّث، وقال النبي ﷺ: «التَّحدُّثُ بالنِّعم شكرٌ»(١)، ومنه قول النبي ﷺ: «من أُسْدِيَتْ إِليه يدٌ فذكرها فقد شكرها، ومن سترها فقد كفرها»(٢)، ونصب ﴿ٱلْيَتِيمَ﴾ بـ ﴿تَقْهَرْ﴾، والتقدير: مهما يكن من شيءٍ فلا تقهر اليتيمَ.

كمل تفسير سورة الضُّحى والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) هذا جزءٌ من حديث أَخرجه عبد الله بن أَحمد في «زوائد المسند»، والبيهقي في «شعب الإيمان» بسند ضعيف عن أَنس بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ على المنبر: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة».

(٢) أخرج أَبو داود، عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ، قال: «من أبلى بلاءً فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلَّى بما لم يُعط فإنه كلابس ثوب زور»، وأخرج أحمد، وأبو داود عن جابر بن عبد الله قال: «من أُعْطي عطاءً فوجد فليخبر به، فإن لم يجد فَلْيَثْنَ به، فمن أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره». وأَخرج أَحمد، والطبراني في الأَوسط عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أُولي معروفاً فليكافىء به فإن لم يستطع فليذكره، فإن من ذكره فقد شكره».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الشرح

وهي مكية بإجماع من المفسرين، لا خلاف بينهم في ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾.

عدَّد الله تعالىٰ على نبيِّه ﷺ نعمه في أَن شرح له صدره للنُّبُوَّة وهيَّأَه لها، وذهب الجمهور إلى أَن شَرْح الصدر المذكور هو: تنويره بالحكمة وتوسيعه لتلقِّي ما يُوحَى إليه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وجماعة: هذه إشارة إلى شرحه بشق جبريل عليه السلام عنه في وقت صغره، وفي وقت الإسراءِ؛ إذ التشريح شقُّ اللحم. وقرأَ أَبو جعفر المنصور: [أَلم نَشْرحَ] بنصب الحاءِ، على نحو قول الشاعر:

اضْـرِبَ عنْـك الْهُمـوم طـارِقهـا ... ضربَك بِالسَّيْف قَوْنسَ الْفرسْ[1]

ومثله مما في نوادر أَبي زيد:

مِـنْ أَيِّ يـوْمَـيَّ مـنَ الْمَـوْتِ أَفـرْ ... أَيـوْمَ لـمْ يُقْـدَرَ أَم يـوْم قُـدرْ[2]

كأَنه تعالىٰ قال: «أَلَم نشرحَنَّ»، ثم أَبدل من النون أَلفاً، ثم حذفها تخفيفاً. وهي قراءة مردودة[3].

---

(١) هذا البيت ورد في نوادر أبي زيد كالذي بعده، وهو أَيضاً في اللسان، والمحتسب، والبحر المحيط، وقيل: هو من شعر طرفة، وقيل: هو مصنوعٌ عليه، والطَّارق: الذي يأتي ليلاً، وقَوْنَس الفَرَس: ما بين أُذنيه، والشاهد أَنَّه أراد: اضربَنْ، بنون التوكيد الخفيفة، فحذفها للضرورة، وهذا من الشاذِّ الذي لا يُقاسُ عليه، لأن نون التوكيد الخفيفة لا تُحذف إلاَّ إذا لقيها ساكن.

(٢) هذا الرَّجز للحارث بن منذر، وهو في «سر الصناعة» و«مُغني اللبيب» والبحر المحيط، وقيل: أراد: لم يُقْدرَنْ، بنون التوكيد الخفيفة، ثم حذفها للضرورة، قال أَبو الفتح بن جني، وهذا عندنا غير جائز.

(٣) سبب ذلك أن هذه النون للتوكيد، والتوكيد أَشبه شيءٍ به الإسهاب والإطناب، مما يقتضي عدم =

و«الْوِزْرُ» الذي وضعه الله تعالىٰ عنه هو عند بعض المتأَولين الثقل الذي كان على رسول الله ﷺ، وحيرته قبل المبعث؛ إذ كان يرى سوءَ ما قريش فيه من عبادة الأَصنام، وكان لم يتَّجه له من الله أَمر واضح، فوضع الله تعالىٰ عنه ذلك الثِّقل بنبوته وإرساله. وقال أَبو عبيدة وغيره: المعنى: خفَّفنا عليك أَثقال النُّبوة، وأَعنَّاكَ على الناس، وقال قتادة، وابن زيد، والحسن، وجمهور من المفسرين: الوزرُ ـ هنا: الذنوب، وأَصله الثقل، فشبهت الذنوب به، وهذه الآية نظير قوله تعالىٰ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾(١)، وكان رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل النُّبوة وِزْرُهُ صُحبة قومه، وأَكلُه من ذبائحهم، ونحو هذا، وقاله الضحاك، وفي كتاب النقاش: حضوره مع قومه المشاهد التي لا يحبها الله تعالىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه كلُّها جرَّها المنشأُ، كشهوده حرب الفجار، يُنَبِّلُ على أَعمامه(٢) وقلبه في ذلك منيب إلى الصواب، وأَما عبادة الأَصنام فلم يتلبَّس بها قط. وقرأَ أَنس بن مالك: [وحَطَطْنا عنْك وِزْرَك]، وفي حرف ابن مسعود: [وَحَلَلْنا عَنْكَ وِقْرَكَ]، وفي حرف أُبَيٍّ: [وَحططْنا عَنْكَ وِقْرك]، وذكر أَبو عمرو أَن النبي ﷺ صوَّبَ جميعها. وقال المحاسبي: إنما وصفت ذنوب الأَنبياءِ عليهم السلام بالثقل وهي صغائر مغفورة لهَمِّهِمْ بها وتحسُّرهم عليها.

= الحذف. وقد عزا الزمخشريُّ هذه القراءة إلى أَبي جعفر المنصور، وقال عنها: «لعلَّه بيَّن الحاءَ وأَشبعها في مخرجها، فظن السامع أنه فتحها»، وقد نقل أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط كلام بن عطية، وكلام الزمخشري، ثم قال: «ولهذه القراءة تخريج أحسن من هذا كلِّه، وهو أنه لغةٌ لبعض العرب حكاها اللحيانيُّ في نوادره، وهي الجزم بـ «لَنْ». والنصب بـ «لمْ» على عكس المعروف عند الناس، وأَنشد قول عائشة بنت الأعجم تمدح المختار بن أَبي عبيد، وهو القائم بثأر الحسين بن علي رضي الله عنهما:

قد كانَ سَمْكُ الهُدَى يَنْهَدُّ قائِمُهُ ... حتَّى أُتيح لَهُ الْمُخْتارُ فانْعَمَدَا
في كلِّ ما هَمَّ أَمْضَى رَأْيَهُ قُدُماً ... ولَمْ يُشاوِرَ في إِقْدامِهِ أَحَدَا

بنصب «يُشاورَ»، وهذا محتمل للتخريجين، وهو أَحسن مما تقدم». انتهى كلام أَبي حيان.

(١) من الآية (٢) من سورة (الفتح).

(٢) أي: يلقط لهم النَّبْل ثم يدفعها إليهم ليرموا بها، وفي حديث الفجار: «كنت أَيام الفجار أَنْبُل عَلَى عُمومتي»، وروي «كنت أُنبِّلُ عَلَى عمومتي يوم الفجار» ـ ومعنى هذا أننا يمكن أن نضبط الكلمة: يَنْبُلُ، ويمكن أن نجعلها بالتشديد: يُنَبِّلُ.

و﴿أَنقَضَ﴾ معناه: جعله نقْضاً، أَي هزيلاً مُعيباً من الثقل، وقيل: معناه: أَسمع له نقيضاً وهو الصوت، وهو مثل نقيض السُّفن، وكلُّ ما حمَّلْته ثقلاً فإِنه يُنْقضُ تحته، وقال عباس بن مرداس:

وَأَنْقَضَ ظهْري ما تطوَّقْتُ منهُمُ وَكُنْتُ عليْهِمْ مُشْفِقاً مُتَحَنِّنَا[١]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ معناه: نَوَّهنا باسمك، وذهبنا به كل مذهب في الأرض، هذا ورسول الله بمكة، وقال أَبو سعيد الخدري، والحسن، ومجاهد، وقتادة: معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، أَي: قرنَّا اسمك باسمنا في الأَذان والخُطب، وروي في هذا حديث «إِن الله تعالىٰ قال: إِذا ذُكِرتُ ذُكِرْتَ معي»[٢]، وهذا مُتَّجه إِلاَّ أَن الآية نزلت بمكة قديماً والأَذان شرع بالمدينة، ورَفْعُ الذكر نعمة على الرسول ﷺ، وكذلك هو جميل حَسَن للقائمين بأُمور الناس، وخمولُ الذكر والاسم حسَن للمنفردين للعبادة، وقد جعل الله تعالىٰ النِّعم أَقساماً بحسب ما يصلح لشخص شخص، وفي الحديث «إِن الله تعالىٰ يوقف عبداً يوم القيامة فيقول: أَلم أَفعل بك كذا وكذا ـ يُعَدِّدُ عليه نِعمه ـ، ويقول في جملتها: أَلَمْ أُخمل ذكرك في الناس»[٣]؟ والمعنى في هذا التعديد الذي على النبي ﷺ: أَي: يا محمد فقد جعلنا جميع هذا فلا تكترث بأَذى قريش، فإِن الذي فعل بك هذه النعم سيُظْفِرك بهم ويَنْصرك عليهم.

ثم قوَّى تعالىٰ رجاءَه بقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، أَي مع ما تراه من الأَذى فرج يأتيك، وكرر الله تعالىٰ ذلك مبالغة وتبييناً للخير، فقال بعض الناس: المعنى: إِن مع العُسْر يسراً في الدنيا، وإِن مع العُسْر يسراً في الآخرة، وذهب كثير من العلماءِ إِلى

---

(١) أَنقض ظهري: أَثقَلَهُ وَأَوْهَنه، وقيل: جعل له نقيضاً أي صوتاً من شدة الحمْل، ومعنى (تطوَّقتُ منهم): تحملتُ من إِنْعامهم. والإِشفاق عليه: شدة الخوف عليه. والتَّحَنُّن: الرحمة والعطف. وعباسُ بن مرداس هو السلَمِيُّ، من المؤلَّفة قلوبهم الذين أَعطاهم النبي ﷺ يوم حُنَين، وجعل نصيبه أَقل من غيره، فأَبَى، فأرضاه الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

(٢) رواه الطبري في تفسيره عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه، من طريق دَرَّاج عن أَبي الهيثم، ومع صدق دراج في حديثه فإِن في روايته عن أَبي الهيثم ضعف، ومع ذلك صححه بن حبان، وأورد السيوطي هذا الحديث في الدر المنثور، وزاد نسبته لابن المنذر، وابن مردويه، وأَبي نعيم في الدلائل، كذلك رواه بن أَبي حاتم عن يونس عن عبد الأعلى به، ورواه أبو يعلى عن دراج.

(٣) لم أَقف عليه.

أَن مع كل عُسْر يُسْرَيْن بهذه الآية، من حيث «العُسْر» مُعرَّف للعهد، و«اليُسْر» منكَّر، فالأَول غير الثاني، وقد رُوي في هذا التأويل حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يغلب عُسْرٌ يُسرين»(١)، وأَمَّا قول عمر به فنص في الموطأ في رسالته إِلى أَبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما. وقرأَ عيسى، ويحيى بن وثاب، وأَبو جعفر: (العُسُر، واليُسُر) بضمتين، وقرأَ ابن مسعود: «إِنَّ مَعَ العُسْر يُسْراً» واحدةً غير مكررة.

ثم أَمر نبيَّه عليه الصلاة والسلام إِذا فرغ من شغل من أَشغال النُّبوة والعبادة أَن يَنْصب في آخر، والنصب: التَّعب، فالمعنى أَن يدأَب على ما أُمِرَ به ولا يفتر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: فإِذا فرغت من فرضك فانصب في التَّنَفُّل عبادةً لربك، وقال ابن مسعود: فانصب في قيام الليل، وعن مجاهد: فإِذا فرغتَ من شغل دنياك فانصب في عبادة ربك، وقيل: المعنى: فإِذا فرغت من الركعات فاجلس في التشهد وانْصب في الدعاءِ، وقال ابن عباس، وقتادة: معنى الكلام: فإِذا فرغتَ من العبادة فانصب في الدعاءِ، وقال الحسن بن أَبي الحسن: فإِذا فرغتَ من الجهاد فانصب في العبادة، ويعترض هذا التأويل أَن الجهاد فُرض بالمدينة. وقرأَ أَبو السَّمَّال: [فرِغْت] بكسر الراءِ، وهي لغة، وقرأَ قومٌ: [فانْصَبَّ] بشدِّ الباءِ وفتحها، ومعناها: إِذا فرغت من الجهاد فانصبَّ إِلى المدينة، ذكرها النقَّاش منبِّهاً على أَنها خطأٌ، وقرأَ آخرون من الإِمامية: [فَانْصِبْ] بكسر الصاد، بمعنى إِذا فرغت من أَمر النُّبوة فانْصِب خليفة، وهي قراءة شاذة ضعيفة المعنى لم تثبت عن عالم، ومرَّ شريحٌ على رجلين يصطرعان فقال: ليس بهذا أَمر الفراغ، وتلا هذه الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ أَمْرٌ بالتوكل على الله عزَّ وجلَّ، وصَرْف وجه الرغبات إِليه لا إِلى سواه، وقرأَ ابن أَبي عبلة: «فَرَغِّب» بفتح الراءِ وشدِّ العين مكسورة.

كمل تفسير سورة الشرح والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) أَخرجه عبد الرزاق، وابن جرير، والحاكم، والبيهقي، عن الحسن، قال: خرج النبي ﷺ يوماً فرحاً مسروراً وهو يضحك ويقول: «لن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْن، ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة التين

وهي مكيّة، لا أعرف في ذلك خلافاً بين المفسرين(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾.

اختلف الناس في معنى «التِّينِ والزَّيْتُونِ» اللذين أَقسم الله تعالىٰ بهما ـ فقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وإبراهيم، وعطاءٌ، وجابر بن زيد، ومقاتل: هو التِّين الذي يؤكل والزيتون الذي يعتصر، وأَكل النبي ﷺ مع أَصحابه رضي الله عنهم تيناً أُهدي إِليه فقال: «لو قلتُ إِن فاكهة نزلت من الجنة قلتُ هذه؛ لأَن فاكهة الجنة بلا عَجَم(٢)، فكلوا فإِنه يقطع البواسير، وينفع من النقرس»(٣) وقال عليه الصلاة والسلام: «نعم السِّوَاكُ الزيتون من الشَّجرة المباركة، هي سواكي وسواكُ الأَنبياءِ من قبلي»(٤). وقال كعب وعكرمة: القسم بمنابتهما، وذلك أَن التِّين ينبت كثيراً بدمشق، والزيتون ينبت بإِيلاءَ، فأَقسم الله تعالىٰ بالأَرضَيْن، وقال قتادة: هما جبلان بالشام، على أَحدهما دمشق، وعلى الآخر بيت المقدس، وقال ابن زيد: التِّين مسجد نوح عليه

(١) قال الإمام القرطبي: «مكية في قول الأكثر، وقال ابن عباس وقتادة: هي مدنية».

(٢) العَجَم: النَّوى. (وهي بفتح العين والجيم).

(٣) نقله القرطبي في تفسيره قائلاً: «وقال أَبو ذرٍّ أُهدي للنبي ﷺ سلٌّ تين فقال... إلخ» ولم أقف عليه في غير القرطبي.

(٤) أيضاً لم أَقف على هذا الحديث بهذا النص، ولكن وجدت أَن رسول الله ﷺ قال: «كلوا الزيت فإنه مبارك، وائتدموا به، وادَّهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة»، أخرجه أحمد (٣/٣٩٧)، وكل من الترمذي والدارمي في الأطعمة.

السلام على الجودي، والزيتون مسجد بيت المقدس، وقيل: التِّين مسجد نوح، والزيتون مسجد إبراهيم عليهما السلام، وقيل: التِّين والزيتون وطور سينين ثلاثة مساجد بالشام، وقال محمد بن كعب القرظي: التِّين مسجد أَصحاب الكهف، والزيتون مسجد إِيلياءَ، وأَما طور سينين فلم يُختلف أنه جبل بالشام كلَّم الله تعالىٰ عليه موسى عليه السلام.

واختلف في معنى ﴿سِينِينَ﴾ ـ فقال عكرمة، ومجاهد: معناه: حَسَنٌ مبارك، وقيل: معناه: ذو الشجر. وقرأ الجمهور: ﴿سِينِينَ﴾، وقرأ ابن إِسحاق، وأَبو رجاءٍ: [سَيْنِينَ] بفتح السِّين، وهي لغة بكر وتميم، وقرأ عمر بن الخطاب، وطلحة، والحسن وابن مسعود: [سِيناً] بسين مكسورة وأَلِفٍ، وقرأ أَيضاً عُمر رضي الله عنه بفتحها.

و«البلدُ الأمينُ» مكَّةُ بلا خلاف، وقيل: معنى ﴿سِينِينَ﴾: المبارك، وقيل: معناه: شجر، واحدها سِينينةٌ، قاله الأَخفش، وسعيد بن مسْعدة. و«أَمِين» فعِيلٌ من الأَمْن، بمعنى: آمِنٌ، أَي: آمِنٌ منْ فيه ومَنْ دخله، وما فيه من طير وحيوان.

والقسم واقع على قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، ولا يدفع هذا أَن يكون غيره من المخلوقات ـ كالشمس وغيرها ـ أَحسن تقويماً منه بالمناسبة، وقال بعض العلماءِ بالعموم، أَي أَن الإِنسان أَحسن المخلوقات تقويماً، ولم ير قوم الحنث على من حلف بالطلاق أَن زوجته أَحسن من الشمس، واحتجوا بهذه الآية. واختلف الناس في تقويم الإِنسان ما هو؟ فقال النَّخعي، ومجاهد، وقتادة: حُسْن صورته وحواسِّه، وقال بعضهم: هو انتصاب قامته، وقال أَبو بكر بن طاهر ـ في كتاب الثعلبي ـ: هو عقله وإِدراكه اللَّذان زيَّناه بالتَّميُّز، وقال عكرمة: هو الشباب والقوة، والصواب أَن جميع هذا هو حُسْن التقويم، إِلاَّ قول عكرمة إِذ قد يفضل فيه بعضُ الحيوان، و﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ هنا اسم الجنس، وتقدير الكلام: في تقويم أَحسن تقويم؛ لأَن «أَحْسن» صفة لا بد أَن تجري على موصوف.

واختلف الناس في معنى قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾ ـ فقال عكرمةُ، وقتادة، والضحاك، والنَّخَعي: معناه: بالهرم وذهول العقل وتغلُّب الكِبَر حتى يصير لا يعلم شيئاً، أَما إِن المؤمن مرفوع عنه القلم، والاستثناءُ ـ على هذا ـ منقطع. وهذا قول حَسَن، وليس المعنى أَن كل إِنسان يعتريه هذا، بل في الجنس من يعتريه ذلك، وهذه عِبَرٌ منصوبة. وقرأ ابن مسعود: [السَّافِلِين] بالأَلف واللام.

ثم أخبر تعالىٰ أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ وإن نال بعضهم هذا في الدنيا ـ فلهم في الآخرة أجر عظيم غير ممنون، وقال الحسن، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد، وأبو العالية: المعنى: رددناه أسفل سافلين في النار على كفره، ثم استثنى تعالىٰ الذين آمنوا استثناءً متصلاً، فهم ـ على هذا ـ ليس فيهم من يُردّ أسفل سافلين، وفي حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا بلغَ المؤمن خمسين سنة خفف الله حسابه، وإذا بلغ السِّتين رزقه الله الإنابة إليه، فإذا بلغ السبعين أحبه أهل السماءِ، فإذا بلغ ثمانين كُتبت حسناته، وتجاوز الله عن سيئاته، فإذا بلغ تسعين غُفرت ذنوبه، وشفع في أهل بيته، وكان أسير الله في أرضه، فإذا بلغ مائة ـ ولم يعمل شيئاً ـ كُتِب له مثل ما كان يعمل في صحته، ولم تُكْتب عليه سيئة»(١)، وفي حديث: «إن المؤمن إذا رُدَّ إلى أرذل العمر، كُتب له خير ما كان يعمل في قومه، وذلك أجر غير ممنون»(٢)، و﴿مَمْنُونٍ﴾ معناه: محسوب مُصرَّد(٣) يُمنُّ عليهم به، قاله مجاهد وغيره، وقال كثير من المفسرين: معناه: مقطوع، من قولهم: «حبْلٌ مَنِينٌ» أي ضعيف منقطع.

واختلف في المخاطب بقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ ـ فقال قتادة، والفراءُ، والأخفش: هو محمد ﷺ، قال الله تعالىٰ له: فما الذي يُكذِّبك فيما تُخبر به من الجزاءِ والبعث ـ وهو الدِّين ـ بعد هذه العبرة التي يوجب النظر فيها صحَّة ما قلت؟ ويحتمل أن يكون «الدِّين» ـ على هذا التأويل ـ جميع دِينه وشَرْعِهِ. وقال جمهور من المتأولين: المخاطبُ الإنسانُ الكافر، أي: ما الذي يجعلك كذَّاباً بالدِّين، تجعل لله تعالىٰ أنداداً، وتزعم ألاَّ بعْث بعد هذه الدلائل؟ قال منصور: قلتُ لمجاهد: قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ يراد به النبي عليه الصلاة والسلام؟ فقال: معاذ الله، يعني به الشَّاكَّ.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢١٨) عن أنس رضي الله عنه، وفيه: «ما من مُعَمَّر يُعَمَّر في الإسلام أربعين سنة إلاَّ صرف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاءِ: الجنون، والجذام، والبرص، فإذا بلغ خمسين سنة ليَّن الله عليه الحساب، فإذا بلغ... إلخ».

(٢) أخرج البخاريُّ عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً»، كذلك أخرجه بن مردويه عن أبي موسى مع اختلاف في بعض الألفاظ، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة ـ ولم يرفعه إلى النبي ﷺ ـ حديثاً طويلاً «جاءَ في آخره وفي لفظ قال: من رُدَّ منهم إلى أرذل العُمر جرى له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته وشبابه، فذلك الأجر غير ممنون، قال: ولا يُمَنُّ به عليهم».

(٣) التَّصْريد في الأجر: تقليله.

ثم وقف تعالىٰ جميع خلقه على أنه سبحانه أَحكم الحاكمين، على جهة التقرير، ورُوي عن قتادة أَن رسول الله ﷺ كان إِذا قرأَ هذه السورة قال: «بَلى، وأَنا على ذلكم من الشاهدين»[1].

تم تفسير سورة التِّين والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) أخرجه عبد بن حميد عن قتادة، وأَخرج مثله عن صالح أَبي الخليل. (الدُّر المنثور).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة العلق (القلم)[١]

وهي مكيَّة بإجماع، وهي أول ما نزل من كتاب الله تعالىٰ، نزل صدرها في غار حراءَ حسب ما ثبت في صحيح البخاري، وغيره، ورُوي من طريق جابر بن عبد الله أن أول ما نزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[٢]، وقال أبو مَيْسرة عَمْرو بن شُرحبيل[٣]: إن أول ما نزل فاتحة الكتاب والقول الأول أصح، والترتيب في إخبار النبي ﷺ يقتضي ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾.

في صحيح البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما بدىء به

---

(١) هكذا في جميع الأصول، وهو أحد أسمائها.

(٢) الآية (١) من سورة (المدَّثِّر). أمَّا حديث جابر فقد أخرجه الطَّيالسي، وعبد الرَّزَّاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن الضريس، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن الأنباري في المصاحف، قال: سألتُ أبا سَلَمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، قلتُ: يقولون: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، فقال أبو سلمة: سألتُ جابر بن عبد الله عن ذلك، وقلتُ له مثل ما قلتَ، قال جابر: لا أحدثك إلاَّ ما حدثنا رسول الله ﷺ، قال: «جاورتُ بحراءَ، فلما قضيتُ جواري فنوديت، فنظرتُ عن يميني فلم أرَ شيئاً، ونظرتُ عن شمالي فلم أرَ شيئاً، ونظرت خلفي فلم أرَ شيئاً، فرفعتُ رأسي فإذا الملَك الذي جاءَني بحراءَ جالسٌ على كرسيٍّ بين السماءِ والأرض، فَجُئِثْتُ منه رعباً، فرجعتُ فقلت: دثِّروني، فدثروني، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ . . . إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾».

(٣) هو عمرو بن شرحبيل الهمداني، أبو مَيْسرة، الكوفي، ثقة عابد مخضرم، مات سنة ثلاث وستين. تقريب التهذيب.

رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلاَّ جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه التَّحنُّث[١] في غار حراءَ، فكان يخلو فيه يتحنث فيه الليالي ذوات العدد ثم ينصرف، حتى جاءَه الملك وهو في غار حراءَ فقال له: اقرأْ، قال: ما أَنا بقارىءٍ، قال: فأَخذني فغطَّني[٢]، ثم كذلك ثلاث مرات، فقال له في الثالثة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ . . . إلى قوله تعالىٰ: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، قالت: فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره»[٣] الحديث بطوله.

ومعنى هذه الآية: اقرأْ هذا القرآن باسم ربك، أَي: ابدأْ فعلك بذكر اسم الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وقال اركبوا فيها باسم الله﴾[٤]. هذا وجه، ووجه آخر في «كتاب الثعلبي» أَن المعنى: اقرأْ في أَول كلٍّ سورة وقراءة: (بسم الله الرحمن الرحيم)، ووجْهٌ آخر أَن يكون المقروءُ الذي أُمر بقراءته هو ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، كأَنه قال له: اقرأْ هذه اللفظة.

ولما ذكر تعالىٰ «الرَّبَّ»، وكانت العرب في الجاهلية تسمي الأَصنام أَرباباً، جاءَ بالصفة التي لا شركة للأَصنام فيها، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، ثم مثَّل لهم من المخلوقات ما لا مدافعة فيه، وما يجده كل مفطور في نفسه، فقال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وخِلْقَةُ الإِنسان من أَعظم العبر حتى أَنه ليس في المخلوقات التي لدينا أَكثر عبراً منه، في عقله وإدراكه ورباطات بدنه وعظمه. و«العَلَقُ» جمعُ عَلَقة، وهي القطعة اليسيرة من الدم. و«الإِنسان» ـ هنا ـ اسم الجنس، ويمشي الذهن معه إلى جميع الحيوان، وليست الإِشارة إِلى آدم عليه السلام لأَنه مخلوق من طين، ولم يكن ذلك مقرراً عند المخاطبين بهذه الآية، فلذلك تُرِكَ أَصلُ الخِلْقة وسيق لهم الفرعُ الذي هم به مُقِرُّون تقريباً لأَفهامهم.

---

(١) التَّحَنُّثُ: التَّعبد، يقال: فلان يَتَحَنَّثُ، أي يفعل فعلاً يخرج به من الإثم والحرج.

(٢) بمعنى: ضَمَّني وعصرني عصراً شديداً.

(٣) الذي في صحيح البخاري: «يرجف فؤاده». والحديث طويل، وبعض ألفاظه تختلف هنا عمَّا في صحيح البخاري، وقد أخرجه عبد الرزَّاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وابن جرير، وابن الأنباريّ في المصاحف، وابن مردويه، والبيهقي من طريق بن شهاب، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها، وذكر ذلك الواحدي في أول كتابه «أسباب النزول».

(٤) من الآية (٤١) م سورة (هود).

ثم قال تعالىٰ له: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ على جهة التأنيس، كأنه تعالىٰ يقول: امض لما أُمرت به، وربُّك ليس كهذه الأَرباب، بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص، فهو ينصركَ ويُظهرك.

ثم عدَّدَ تعالىٰ نعمة الكتاب بالقلم على الناس، وهي موضع عِبرة وأَعظم منفعة في المخاطبات وتخليد المعارف، وقوله تعالىٰ: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾، قيل: المراد محمد عليه الصلاة والسلام، وقيل: اسم الجنس، وهو الأَظهر، وعدَّد تعالىٰ نعمة اكتساب المعارف للإنسان بعد جهله بها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ الآية.. نزل بعد مُدَّة في شأن أَبي جهل بن هشام، وذلك أَنه طغى لغناه، ولكثرة من يغشى ناديه من الناس، فناصب رسول الله ﷺ العداوة، ونهاه عن الصلاة في المسجد، ويُروى أَنه قال: لئن رأَيتُ محمداً يسجد عند الكعبة لأَطأَنَّ على عنقه، فيروى أَن رسول الله ﷺ ردَّ عليه القول وانتهره، فقال أَبو جهل: أَيتوعدني محمد ووالله ما بالوادي أَعظم نَدِيًا مني[١]؟ وروي أَيضاً أَنه جاءَ والنبي ﷺ يصلِّي، وهمَّ بأَن يصل إِليه ويمنعه من الصلاة، ثم كعَّ عنه وانصرف، فقيل له: ما هذا؟ فقال: لقد اعترض بيني وبينه خندق من نار وهول وأَجْنِحة[٢] ويروى أَن رسول الله ﷺ قال: «لوْ دَنَا منِّي لأَخذته الملائكة عياناً»[٣]، فهذه السورة من قوله تعالىٰ: ﴿ كَلَّآ ﴾ إِلى آخرها نزلت في أَبي جهل. و﴿ كَلَّآ ﴾ هي ردٌّ على أَقوال أَبي جهل وأَفعاله، ويتَّجه أَن تكون بمعنى «حَقًا»، فهي تثبيت لما بعدها من القول. و«الطُّغيان» تجاوز الحدود الجميلة، و«الغِنى» مُطْغٍ إِلاَّ من عصم الله تعالىٰ، و«الضمير في ﴿ رَّءَاهُ ﴾

---

(١) أَخرج ابن أَبي شيبة، وأَحمد، والترمذي وصحَّحه، وابن المنذر، وابن جرير، والطبراني، وابن مردويه، وأَبو نعيم والبيهقي، عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يصلِّي، فجاءَ أَبو جهل فقال: أَلَمْ أَنْهك عن هذا؟ أَلَمْ أَنْهك عن هذا؟ فانصرف النبي ﷺ فزبره، فقال أَبو جهل: إِنَّك لتعلم ما بها رجل أَكثر نادياً مني، فأَنزل الله ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾، قال بن عباس: والله لو دعا ناديه لأَخذته زبانية الله.

(٢) أَخرجه أَحمد، ومسلم، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وأَبو نعيم والبيهقي، عن أَبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أَخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن مردويه، وابن المنذر، وأَبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

للإنسان المذكور، كأنه قال: أَن رأَى نفسه غنياً، وهي رؤية قَلْب تقرب من العلم، وكذلك جاز أَن يعمل فيها فعل الفاعل في نفسه، كما تقول: وجدتُني وظننتني، ولا يجوز أَن تقول: ضربتُني. وقرأَ الجمهور: ﴿أَن رَّءَاهُ﴾ بالمدِّ على وزن «رعاه»، واختلفوا في الإمالة وتركها، وقرأَ ابن كثير ـ من طريق قنبل ـ: [أَن رَأَهُ] دون مدٍّ، على وزن «رَعَه»، على حذف لام الفعل، وذلك تخفيف(١).

ثم حقَّر تعالىٰ غِنَى هذا الإنسان وحاله بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾، أَي الحشر والبعث يوم القيامة، و﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ مصدر كالرجوع، وهو على وزن العُقْبى ونحوه، وفي هذا الخبر وعيد للطاغين من الناس.

الناهي أَبو جهل، وأَن العبد المصلي محمد ﷺ. وقوله تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ توقيف، وهو فعل لا يتعدى إِلى مفعولين على حدِّ الرؤية من العلم، بل يقتصر به. وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ إكمالٌ للتوبيخ والوعيد بحسب التوقيفات الثلاثة يصلح مع كل واحد منها، فجاءَ بها في نَسَق، ثم جاءَ بالوعيد الكافي لجميعها اختصاراً واقتضاباً، ومع كل تقرير من الثلاثة تكملة مقدرة تتسع العبارات فيها، وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ دالٌّ عليها مُغْنٍ، وقوله تعالىٰ: ﴿إِن كَانَ﴾ يعني العبد المصلي، وقوله تعالىٰ: ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ يعني الإنسان الذي ينهى، ونسب تعالىٰ الرؤية إِلى الله تعالىٰ بمعنى: يدرك أَعمال الجميع بإِدراك سمَّاه رُؤْية، والله تعالىٰ مُنَزَّهٌ عن الجارحة وغير ذلك من مماثلة المحدثات، ثم توعده تعالىٰ ـ إِنْ لمْ يَنْتَه ـ بأَن يُؤْخذ بناصيته فيُجر إِلى جهنم ذليلاً، تقول العرب: «سَفَعْتُ بيدي ناصية الفرس والرجل» إِذا جذبتها مُذَلَّلاً له، قال عمرو بن معديكرب:

قَـوْمٌ إِذا سمِعـوا الصِّيـاحَ رأَيْتَهُـمْ ... مـا بَيْـنِ مُلْجِـمِ مُهْـره أَوْ سـافِـعِ(٢)

---

(١) قال أبو حيان: «وهي رواية ابن مجاهد عنه، قال: وهو غلط لا يجوز، وينبغي أَلا يغلِّطه بل يتطلب له وجهاً، وقد حُذفت الألف في نحو من هذا، قال: «وَصَّانِيَ العجَّاجُ فيما وصَّني»، يريد: وصَّاني، فحذف الألف وهي لام الفعل، وقد حذفت في مضارع (رأى) وهو حذف لا ينقاسُ، لكن إذا صحت الرواية وجب قبوله، والقراءات جاءت على لغة العرب قياسها وشاذها» اهـ.

(٢) ونسب هذا البيت إلى حميد بن ثور الهلالي، الصحابي المعروف، ويُروى كما في «اللسان»: «الصريخ» بدلاً من «الصِّياح»: والصَّريخ: صوت المستصرخ، ومعنى «سافع»: آخِذٌ بناصيته، وهذا كناية عن الاستعداد للقتال بسرعة، فهم قوم عرفوا بالنجدة والشهامة وسرعة العمل لإنقاذ المستغيث.

فالآية على نحو قوله تعالىٰ: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾[(١)]. وقال بعض العلماءِ: «لَنَسْفَعَن» معناه: لَنُحْرِقَنَّ، من قولهم: «سَفَعَتْهُ النارُ» إذا أَحرقته، واكتفى بذكر الناصية لدلالتها على الوجه والرأْس[(٢)]. وجاءَ ﴿لَنَسْفَعًا﴾ في خط المصحف بأَلف بدل النون، وقرأَ أَبو عمرو ـ في رواية هارون ـ: [لَنَسْفَعَنَّ] مُثقَّلة النون، وفي مصحف ابن مسعود «لأَسْفَعن بالناصية، ناصية كاذبة فاجرة»، وقرأَ أَبو حيوة: [نَاصِيَةً كَاذِبَةً خاطِئَةً] بالنصب في الثلاثة، وروي عن الكسائي أنه قرأَ بالرفع فيها كلها. و«النَّاصِيَةُ» مقدم شعر الرَّأس، ثم أَبدل تعالىٰ النكرة من المعرفة في قوله تعالىٰ: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ﴾، ووصفها بالكذب والخطأ من حيث هي صفات لصاحبها، كما تقول: يَدٌ سارقة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ إشارة إلى قول أَبي جهل: «وما بالوادي أَعظم ندِيًّا مني»، والنادي والندي: المجلس، ومنه: دار الندوة، ومنه قول زهير:

وَفيهِمْ مقامـاتٌ حِسـانٌ وُجـوهُهُـمْ وأَنْـدِيَـةٌ يَنْتَـابُهـا الْقَـوْلُ والْفِعْـلُ[(٣)]

ومنه قول الأَعرابية: «سيِّد ناديه، وثِمالُ عافيه»[(٤)].

و﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ ملائكة العذاب، واحدهم «زِبْنية»، وقال الكسائي: «زِبْنِي»، وقال عيسى بن عمرو الأخفش: «زَابِنٌ»، وهم الذين يدفعون الناس في النار، والزَّبْنُ: الدَّفْع، ومنه «حربٌ زبُونٌ»، أَي: تدفع الناس في نفسها، ومنه قول الشاعر:

وَمُسْتَعْجِـبٍ مِمَّـا يَـرَى مِـنْ أَنـاتِنَـا وَلَـوْ زَبَنَتْـهُ الْحَـرْبُ لَـمْ يَتـرَمْـرَم[(٥)]

---

(١) من الآية (٤١) من سورة (الرحمن).

(٢) هذا معنى آخر، وهو أن [لَنَسْفَعَنْ] بمعنى: لَنُسَوِّدَنَّ وجهه بالإحراق، فقال: لَنُسَوِّدن الناصية بدلاً من الوجه لأنها مقدم الوجه، والشاهد على ذلك قول الشاعر:

وَكُنْـتُ إِذَا نَفْـسُ الْغَـوِيِّ نَـزَتْ بِـهِ سَفَعْـتُ عَلَـى الْعِـرْنِيـنِ مِنْـهُ بِمِيسَـمِ

أي: وسَمْتُهُ عَلَى عِرْنينه، فهو كقوله تعالىٰ: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾.

(٣) البيت من قصيدة زهير التي قالها يمدح سنان بن أَبي حارثة المُرِّيّ (صَحَا القلبُ عن سَلْمَى وَقَد كادَ لاَ يَسْلُو). والمقامات: المجالس، ومفردها: مَقَامة. ويَنْتَابُها: يَقْصِدها، والقول والفعل معناهما: يُبَثُّ في هذه الأندية الجميل من القول ويعمل به. والشاهد أَن «الأندية» جمع «النادي»، وهو المجلس ما دام القوم مجتمعين فيه. وإذا تفرقوا لم يكن نادياً.

(٤) الثِّمال: الغياثُ، يقال: فلانٌ ثمالُ بني فلان، أي عمادهُم وغياثُهم. والعافي: الضَّيف وطالب المعروف. فمعنى التعبير أنه غياث من يلجؤون إليه طلباً للمعروف والمساعدة.

(٥) هذا البيت لأوس بن حَجَر، وهو من قصيدة طويلة بدأها بقوله: =

ومنه قول عتبة بن أَبي سفيان: «وقد زبنتنا الحربُ وَزَبَنَّاهَا، فنحن بَنُوها وهي أُمُّنا»، ومنه قول الشاعر:

عَـدَتْنـي عَـنْ زِيـارَتـكَ الْعَـوادي   وَحَـالَـتْ بَيْنَنَـا حَـرْبٌ زَبُـونُ[1]

وحذفت الواو من ﴿سَنَدْعُ﴾ في خط المصحف اختصاراً وتخفيفاً، والمعنى: سندعو الزبانية لعذاب هذا الذي يدعو ناديه، وقرأ ابن مسعود: [فَلْيَدْعُ إِلَى ناديهِ].

ثم قال تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿كَلَّآ﴾ ردًّا على قول هذا الكافر وأَفعاله، ﴿لَا تُطِعْهُ﴾، أَي: لا تلتفت إِلى نَهْيه وكلامه، ﴿وَٱسْجُدْ﴾ لِرَبِّك، ﴿وَٱقْتَرِب۩﴾ إِليه بسجودك وبالطاعة وبالأَعمال الصالحة، وفي الحديث أَن النبي ﷺ قال: «أَقرب ما يكون العبد من الله إِذا سجد، فأَكثروا من الدعاءِ في السجود، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجابَ لكم»[2] وقاله مجاهد، قال: أَلم تسمعوا ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب۩﴾، وروى ابن وهب عن جماعة من أَهل العلم أَن قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْجُدْ﴾ خطاب لمحمد ﷺ، وأَن ﴿وَٱقْتَرِب۩﴾ خطاب لأَبي جهل، أَيْ إِن كنت تجترىء حتى ترى كيف تهلك.

وهذه السورة فيها سجدة عند جماعة من أَهل العلم منهم ابن وهب من أَصحاب مالك.

كمل تفسير سورة القلم والحمد لله رب العالمين

= تَنَكَّـرَتِ مِنّـا بَعْـدَ مَعْـرِفَـةٍ لَمِـي   وَبَعْـدَ التَّصـابِـي والشَّبـابِ الْمُكَـرَّمِ

ولَمِي: ترخيم «لَمِيس»، والأناة: الحِلْم والصبر، وزَبَنَتْهُ: دفعته، وهو موضع الاستشهاد، ولم يترَمْرَم: لم يتحرك.

(١) هذا البيت في «الأمالي» لأبي عليٍّ القالي، ولم ينسبه، والرواية فيه:

عَـدَتْنـي عَـنْ زيـارَتِهَـا العـوادي   وَحَـالَـتْ دُونَهـا حَـرْبٌ زَبُـونُ

وعَدَتْني: صرفتني وشغلتني، والعوادي: الصَّوَارف والأُمور التي تشغلني، والزَّبون: التي يدفع الناسُ بعضهم بعضاً فيها، أو التي تدفع الناسَ، يقال للناقة التي تدفع الحالب عنها: ناقة زبون.

(٢) أَخرجه مسلم في الصلاة، والنسائي في المواقيت، والترمذي في الدعوات، وأَحمد في مسنده (٢/ ٤٢١)، ولفظه كما في مسند أَحمد «أَقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد، فأكثروا الدعاءَ»، أما الجملة الأخيرة فقد وردت في حديث آخر أَخرجه الإمام أَحمد أَيضاً في مسنده وهو عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد رفعه، أنه ﷺ نهي أَنْ يَقرَأَ القرآنَ وهو راكعٌ، وقال: «إذا ركعتم فعظِّموا الله، وإذا سجدتم فادعوا، فَقَمِنٌ أن يستجاب لكم» ومعنى «قَمَنٌ» و«قَمِنٌ»: جدير وخليق. والحديث ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» وزاد نسبته إِلى أَبي داود، ثم رمز له بأنه حديث صحيح.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة القدر

اختلف الناس في موضع نزول هذه السورة، فقال ابن عباس وغيره: هي مدنية، وقال قتادة: هي مكيّة(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾.

الضمير في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ للقرآن وإن لم يتقدم ذكره لدلالة المعنى عليه، فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أنزله الله تعالىٰ ليلة القدر إلى السماءِ الدنيا جُملة، ثمَّ نَجَّمه(٢) على محمد ﷺ في عشرين سنة، وقال الشَّعبي وغيره: المعنى: إنا ابتدأْنا إنزال هذا القرآن إليك ليلة القدر، وقد روي أَن نزول الملَك في حراءَ كان في العشر الأَواخر من رمضان، فيستقيم هذا التأْويل، وقد روي أَن نزول الملَك كان في الرابع عشر من رمضان، فلا يستقيم هذا التأْويل إلاَّ على قول من يقول: إن ليلة القدر تستدير الشهر كله ولا تختص بالعشر الأواخر من رمضان، وقال قوم: معنى قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾: إنَّا أَنزلنا هذه السورة في شأن ليلة القدر وفي فضلها، ولما كانت السورة من القرآن جاءَ الضمير للقرآن تفخيماً وتحسيناً.

وقوله تعالىٰ: ﴿فِى لَيْلَةِ﴾ هو على نحو قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لقد خشيت أَن ينزل فِيَّ قرآنٌ ليلة نزول سورة الفتح، ونحو قول عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك: لأَنا أَحقر في نفسي من أَن ينزل فيَّ قرآن، وليلة القدر هي لَيْلَةٌ خصَّها الله تعالىٰ بفضل عظيم، وجعلها أَفضل من أَلف شهر لا ليلة قدر فيها، قاله مجاهد وغيره،

---

(١) ذكر الواقديُّ أَنها أول سورة نزلت بالمدينة.

(٢) أَي: أنزله نَجْماً بعد نَجْم، وكانت تنزل منه الآية والآيتان.

وخُصَّت هذه الأُمَّة بهذه الفضيلة لَمَّا رأى محمد ﷺ أعمار أُمَّته فتقاصرها[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾ عبارة تفخيم لها، ثم أدراه تعالىٰ بعْدُ بقوله: ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾، قال ابن عُيَيْنَة في صحيح البخاري: ما كان في القرآن ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ فقد أعلمه الله تعالىٰ، وما كان فيه ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ فإنه لم يُعْلَم[٢]. وذكر ابن عباس وقتادة وغيرهما أنها سُمِّيت ليلة القدر لأن الله تعالىٰ يقدِّرُ فيها الآجال والأرزاق وحوادث العالم كلها ويدفع ذلك إلى الملائكة لتمتثله، وقد روي هذا في ليلة النصف من شعبان، ولهذا ظواهر من كتاب الله عزَّ وجلَّ، نحو قوله تعالىٰ: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾[٣] وأما الصحة المقطوع بها فغير موجودة، وقال الزهري: معناها: ليلة القدر العظيم والشرف وعِظم الشأنِ، من قولك: رجل له قَدْرٌ، وقال أبو بكر الورَّاق: سُمِّيت ليلة القدر لأنها تُكْسب من أحياها قدراً عظيماً لم يكن له قبل، وتردُّه عظيماً عند الله تعالىٰ، وقيل: سُمِّيت بذلك لأن كل العمل فيها له قدر خطير.

وليلة القدر مستديرة في أوتار[٤]، العَشْر الأواخر من رمضان، هذا هو الصحيح المعوَّل عليه، وهي في الأوتار بحسب الكمال والنقصان في الشهر، فينبغي لمرتقبها أن يرتقبها من ليلة عشرين في كلِّ ليلة إلى آخر الشهر؛ لأن الأوتار مع كمال الشهر ليست الأوتار مع نقصانه، وقد قال رسول الله ﷺ: «لثالثة تبقى، لخامسة تبقى، لسابعة تبقى»[٥]، وقال عليه الصلاة والسلام: «التمسوها في الثالثة والخامسة والسابعة

---

(١) كأنه ظن أنها لا تكفي أن يبلغوا من الأعمال مثل ما بلغ غيرهم من الأمم في أعمارهم الطويلة.

(٢) أمّا ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ فقد جاءت في القرآن في (١٣) ثلاثة عشر موضعاً هي: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ ٣ الحاقة، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴾ ٢٧ المدثر، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴾ ١٤ المرسلات، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ ١٧ الانفطار، ﴿ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ ١٨ الانفطار، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ٨ المطففين ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ ١٩ المطففين. ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴾ ٢ الطارق، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴾ ١٢ البلد، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾ القدر، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ ٣ القارعة، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾ ١٠ القارعة، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴾ ٥ الهُمَزَة. وأما (وَمَا يُدْرِيكَ) فقد جاءت في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، وهي: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ ٦٣ الأحزاب، ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ ١٧ الشورى، ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ ٣ عبس.

(٣) الآية (٤) من سورة (الدخان).

(٤) جمع (وِتْر) أو (وَتْر) ـ وهو هنا الفَرْدُ من الليالي، أي العدد الذي لا يقبل القسمة على اثنين.

(٥) أخرج البخاري، وأبو داود، وابن جرير، والبيهقي، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، في تاسعة تبقى، وفي سابعة تبقى، وفي خامسة تبقى»، وأخرج أحمد عن=

والتاسعة»[(١)]، وقال مالك: بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين، وقال ابن حبيب: يريد مالك: إذا كان الشهر ناقصاً فظاهر هذا أَنه عليه السلام احتاط في كمال الشهر ونقصانه، وهذا لا تتحصل معه الليلة إِلاَّ بعمارة العشر كله، ورُوي عن أَبي حنيفة وقوم أَن ليلة القدر رُفعت، وهذا قول مردود، وإنما رُفع تَعْيينها، وقال ابن مسعود: من يقم السنة كلَّها يصبها، وقال أَبو رزين: هي أَول ليلة من شهر رمضان، وقال الحسن: هي ليلة سبع عشرة، وهي التي كانت في صبيحتها وقعة بدر، وقال كثير من العلماءِ: هي ليلة ثلاث وعشرين، وهي ليلة عبد الله بن أُنيس الجُهَني، وقاله ابن عباس، وقال أَيضاً هو وجماعة من الصحابة: هي ليلة سبع وعشرين، واستدل ابن عباس على قوله بأَن الإِنسان خُلق من سبع، وجُعل رزقه في سبع، واسْتَحْسَنَ ذلك عمر رضي الله عنهم أَجمعين، وقال زيد بن ثابت، وبلال: هي ليلة أَربع وعشرين، وقال بعض العلماءِ: أَخفاها الله تعالىٰ عن عباده ليجدُّوا في العمل ولا يتكلوا على فضلها ويُقصِّروا في غيرها.

ثم عظَّم الله تعالىٰ أَمر ليلة القدر، على نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾، وغير ذلك. ثم أَخبر تعالىٰ أَنها أَفضل لمن عمل فيها عملاً من أَلف شهر، وهي ثمانون سنة

= أَنس أن النبي ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر، في تاسعة وسابعة وخامسة»، وأَخرج الطيالسي، وابن أَبي شيبة، وأَحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، والحاكم وصححه، والبيهقي عن عبد الرحمن بن جوشن، قال: ذُكرت ليلة القدر عند أَبي بكرة فقال: أَما أنا فلست بملتمسها إلاَّ في العشر الأواخر بعد حديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «التمسوها في العشر الأواخر، لتاسعة تبقى، أو سابعة تبقى، أو ثالثة تبقى، أو آخر ليلة»، فكان أبو بكرة رضي الله عنه يصلي في عشرين من رمضان كما كان يصلي في سائر السنة، فإذا دخل العشر اجتهد. (الدر المنثور).

(١) أخرجه أَحمد، ومسلم، وأبو داود، والبيهقي، من طريق أَبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»، قلت: يا أبا سعيد، إنكم أعلم بالعدد منا، قال: أجل، قلت: ما التاسعة والسابعة والخامسة؟ قال: إذا مضت واحدة وعشرون فالتي تليها التاسعة، وإذا مضى الثلاث والعشرون فالتي تليها السابعة، وإذا مضى خمس وعشرون فالتي تليها الخامسة.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والبيهقي، عن عبادة بن الصامت قال: خرج نبي الله ﷺ وهو يريد أن يخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، قال: «خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين ـ فلان وفلان ـ فَرُفعَتْ، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة».

وثلاثة أعوام وثلث عام. ورُوي عن الحسن بن علي بن أَبي طالب رضي الله عنهما أنه قال حين عوتب في تسليمه الأمر لمعاوية رضي الله عنه: إن الله تعالىٰ أرى نبيه ﷺ في المنام بَني أُمَيَّة ينزون على منبره نَزْوَ القردة، فاهتم لذلك، فأعطاه الله تعالىٰ ليلة القدر، وهي خير من مُدَّة مُلْك بني أُمَيَّة، وأعلمه أنهم يملكون هذا القدر من الزمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ثم كشف الغيب أَن كان من سنة الجماعة إلى قتل مروان الجعدي هذا القدر من الزمان بعينه، ثم إن القول يعارضه أنه قد مَلَك بنو أُمية في غرب الأرض مُدَّة غير هذه، وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»(١).

و﴿ٱلرُّوحُ﴾ هو جبريل عليه السلام، وقيل: هو صنف حفظة للملائكة عليهم السلام، وقوله تعالىٰ: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ اختلف الناس في معناه ـ فمن قال «إنَّ في هذه الليلة تُقدَّر الأُمور للملائكة» قال: إنَّ هذا التَّنَزُّل لذلك، و﴿مِّن﴾ لابتداءِ الغاية، أَي: نزولهم من أَجل هذه الأمور المقدَّرة وبسببها، ويجيء ﴿سَلَٰمٌ﴾ خبر ابتداءٍ مُسْتأْنَفاً، أَي: سلامٌ هي هذه الليلة إلى أَول يومها، وهذا قول نافع المقبري والفراءِ وأَبي العالية، وقال بعضهم: ﴿مِّن﴾ بمعنى «الباءِ»، أَي: بِكلِّ أَمر، ومَنْ لم يقل «تُقدَّر الأُمور في تلك الليلة» قال: معنى الآية: تنزل الملائكة والروح فيها بإِذن ربهم بالرحمة والغفران والفواضل، ثم جعل قوله تعالىٰ: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ متعلقاً بقوله سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾، أَي من كل أَمر مخوف ينبغي أَن يسلم منه فهي سلامٌ، وقال مجاهد: لا يُصيب أَحداً فيها داءٌ، وقال الشعبي ومنصور: ﴿سَلَٰمٌ﴾ بمعنى التحية، أَيْ تُسلِّم الملائكة على

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأخرج أحمد، وابن جرير، ومحمد بن نصر، والبيهقي، وابن مردويه، عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر فقال: في رمضان، في العشر الأواخر، فإنها في ليلة وتر، في إحدى وعشرين، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، أو سبع وعشرين، أو تسع وعشرين، أو آخر ليلة من رمضان، من قامها إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن أَماراتها أَنها ليلة بلجة صافية ساكنة ساجية، لا حارة ولا باردة، كأن فيها قمراً ساطعاً، ولا يحل النجم أَن يُرمى به تلك الليلة حتى الصباح، ومن أماراتها أَن الشمس تطلع صبيحتها لا شعاع لها، مستوية كأنها القمر ليلة البدر، وحرَّم الله على الشيطان أَن يخرج معها يومئذ). (الدر المنثور).

المؤمنين، وقرأ ابن عباس، وعكرمة، والكلبي: (مِنْ كُلِّ أمْرِىءٍ)، أَي: يسلم فيها من كل امرىء سَوْءٍ، فهذا على أن ﴿سَلَٰمٌ﴾ بمعنى «سلامة»، وروي عنه أَن «سَلاَماً» بمعنى «تحية»، و«كل امرىءٍ» يراد بهم الملائكة، أَي: من كلِّ مَلَك تحية على المؤمنين، وهذا للعاملين بالعبادة فيها، وذهب من يقول بانتهاءِ الكلام في قوله تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ﴾ إِلى أَن قوله تعالىٰ: ﴿هِيَ﴾ إنما هو إِشارة إِلى أَنها لَيْلَةُ سبع وعشرين من الشهر؛ إِذ هذه الكلمة هي السابعة والعشرون من كلمات السورة، وذكر هذا الغرض ابن بكير، وأَبو بكر الوراق، والنَّقَّاشُ عن ابن عباس.

وقرأ جمهور السبعة: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ﴾ بفتح اللام، وقرأ الكسائي، والأَعمش، وأَبو رجاءٍ، وابن محيصن، وطلحة (حَتَّى مَطْلِعِ) بكسر اللام، فقيل: هما مصدران بمعنى واحد في لغة بني تميم، وقيل: بالفتح مصدر وبالكسر موضع الطُّلوع عند أَهل الحجاز، والقراءة بالفتح أَوجه على هذا القول، والأُخرى تتخرج على تجوُّز، كأن الوقت ينحصر في ذلك الموضع ويتمُّ فيه، ويتجه الكسر على وجه آخر، وهو أَنه قد شذَّ من هذه المصادر ما كُسِر، كالمعجزة وقولهم: علاهُ المَكْبِرُ ـ بفتح الميم وكسر الباءِ ـ ومنه المَحِيضُ، فيجري «المَطْلِعُ» مصدراً مجرى ما شذَّ. وفي حرف أُبَيٍّ بن كعب: «سَلامٌ هِيَ إِلَى مَطْلَعِ الفَجْرِ».

كمل تفسير سورة القدر والحمد لله رب العالمين

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير «لم يكن»(١)

وهي مكية في قول جمهور المفسرين، وقال ابن الزبير، وعطاءٌ: هي مدنية، والأول أشهر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝٥﴾.

في حرف أُبَيٍّ: «مَا كَانَ الَّذِينَ»، وفي حرف ابن مسعود: [لم يكُنِ المُشْركونَ وأَهْلُ الكتابِ مُنْفَكِّينَ]، وقوله تعالىٰ: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ معناه: منفصلين متفرقين، تقول: «انْفكَّ الشيءُ عن الشيءِ» إذا انفصل عنه، و«ما انْفكَّ» التي هي من أَخوات «كان» لا مدخل لها في هذه الآية، ونفى في هذه الآية أَن تكون هذه الصِّيغة منفكة.

واختلف الناس، عن ماذا؟ فقال مجاهد وغيره: لم يكونوا منفكِّين عن الكفر والضلال حتى جاءتهم البينة، وأَوقع المستقبل موقع الماضي في ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾ لأن باقي الشريعة وعُظْمَهَا لم يرد بَعْدُ. وقال الفراءُ وغيره: لم يكونوا منفكِّين عن معرفة صحة نُبُوَّة محمد ﷺ والتَّوكُّف لأَمره(٢)، حتى جاءتهم البيِّنة فتفرقوا عند ذلك. وذهب بعض النحويِّين إِلى أَن هذا النفي المتقدم مع ﴿مُنفَكِّينَ﴾ يجعلها تلك التي هي مع «كان»، ويرى التقدير في خبرها: عارفين لأَمر محمد ﷺ أَو نحو هذا، ويتجه في معنى الآية قول ثالث بارع المعنى، وذلك أَن يكون المراد: لم يكن هؤلاءِ القوم منفكِّين من أَمر الله

---

(١) وتُسمَّى سورة البيِّنَة.

(٢) أَي: تَتَبُّعه وتَعَهُّده والنظر فيه.

تعالىٰ وقدرته ونظره لهم حتَّى يبعث إليهم رسولاً منذراً، تقوم عليهم به الحجة، وتتمُّ على من آمن النعمةُ، فكأنه تعالىٰ قال: ما كانوا ليُتْرَكوا سدًى، ولهذا نظائر في كتاب الله تعالىٰ. وقرأ بعض الناس: و﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ بالرفع، وقرأ الجمهور: [والمشركين] بالخفض، ومعناهما بيِّن[١].

و﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ معناه: القصةُ البيِّنةُ والجليَّة، والمراد محمد ﷺ، وقرأ الجمهور: ﴿رَسُولٌ﴾ بالرفع، وقرأ أُبَيُّ بن كعب: [رسولاً] بالنصب على الحال. و«الصُّحُفُ المطَّهرةُ»: القرآن في صحفه، قاله الضحاك وقتادة، وقال الحسن: الصحفُ المطهَّرة في السماءِ. وقوله تعالىٰ: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ فيه حذف مضاف، تقديره: فيها أحكام كُتُب قيِّمة[٢]، و﴿قَيِّمَةٌ﴾ معناه: قائمة معتدلة آخذة للناس بالعدل، وهو بناءُ مبالغة، فإلى [قَيِّمةٌ] هو ذكر من آمن من الطائفتين، ثم ذكر تعالىٰ مذمَّة من لم يؤمن من أَهل الكتاب من بني إسرائيل، من أَنهم لم يتفرقوا في أَمر محمد ﷺ إلاَّ من بعد ما رأَوا الآيات الواضحة، وكانوا من قبل مُصْفِقين[٣] على نُبُوَّته وصفته، فلما جاءَ من العرب حسدوه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ بكسر اللام، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن: [مُخْلَصينَ] بفتح اللام، وكأَن [الدِّينَ] ـ على هذه القراءة ـ منصوب بـ [يَعْبُدوا]، أَو بمعنى يدل عليه، على أَنه كالظرف أَو الحال، وفي هذا نظر، وقيل لعيسى عليه السلام: مَن المخلص لله تعالىٰ؟ قال: الذي يعمل العمل لله تعالىٰ ولا يُحب أَن يحمده الناس عليه. و﴿حُنَفَآءَ﴾ جمع «حنيف»، وهو المستقيم المائل إلى طريق الخير، قال ابن جبير: لا تسمي العرب حنيفاً إلاَّ من حجَّ واختتن، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿حُنَفَآءَ﴾: حجَّاجاً مسلمين، و﴿حُنَفَآءَ﴾ نصب على الحال، وكون الزكاة مع الصلاة في هذه الآية مع ذكر بني إسرائيل فيها يقوِّي قول من قال: السورة مدنية؛ لأَن الزكاة

---

(١) الرَّفع عطف على ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، والجرُّ عطف على ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وأَهل الكتاب هم اليهود والنصارى، والمشركون هم عَبَدَة الأصنام.

(٢) هذا إجابة عن سؤال تقديره: كيف قال: «في صحف فيها كُتُب» مع أَن الصحف هي الكتب؟ وأجيب أيضاً بأن الكتب هي الأحكام، قال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾، بمعنى حَكَمَ، وقال ﷺ: «لأقضينَّ بينكما بكتاب الله» ثم قضى بالرجم، وليس ذكر الرَّجم مسطوراً في الكتاب، فالمعنى: لأَقضينَّ بينكما بحُكم الله.

(٣) أَصْفقوا على الأمر: اجتمعوا عليه. (اللسان).

إنما فرضت بالمدينة، ولأن النبي ﷺ إنما دفع إلى مناقضة أهل الكتاب بالمدينة.

وقرأ الجمهور: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ على معنى: الجماعة القيمة، أو الفرقة القيمة، وقال محمد بن الأشعث الطالقاني: [القَيِّمة] هنا: الكتب التي جرى ذكرها، وقرأ بعض الناس: (وَذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمَةُ)، والهاءُ في «الْقَيِّمة» ـ على هذه القراءة ـ بناءُ مبالغة كعلاَّمة ونسَّابة، ويتجه ذلك أيضاً على أن تجعل ﴿ٱلدِّينِ﴾ بمنزلة المِلَّة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾.

حكم الله تعالىٰ في هذه الآية بتخليد الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ـ وهم عَبَدة الأوثان ـ في النار، وبأنهم شرُّ البريَّة، و«البَرِيَّةُ»: جميع الخلق؛ لأن الله تعالىٰ برأهم، أي أوجدهم بعد العدم. وقرأ نافع، وابن عامر، والأعرج: [الْبَرِيئَة] بالهمزة، من «بَرَأَ»، وقرأ الباقون والجمهور: [الْبَرِيَّةِ] بشد الياءِ بغير همز، على التسهيل، والقياسُ الهمز إلاَّ أن هذا مما تُرك همْزُه كالنبيِّ والذُّرِّية، وقال بعض النحويِّين: البَرِيَّةُ مأخوذ من الْبَرَي وهو التراب، وهذا الاشتقاق يجعل الهمز خطأً وغلطاً، وهو اشتقاق غير مرضيٍّ.

و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ شروط تَعُمُّ جميع أُمة محمد ﷺ، ومَنْ آمن بنبيِّه من الأُمم الماضية. وقرأ جمهور الناس: ﴿خَيْرُ﴾، وقرأ بعض قراءِ مكة: [خيارُ] بألِف، وروي حديث عن النبي ﷺ أنه قرأ هذه الاية: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، ثم قال لعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «أَنت يا عليُّ وشيعتك»[1]، ذكره الطبري، وفي الحديث أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا خير البرية، فقال له: «ذلك إبراهيم عليه السلام»[2].

---

(١) أخرجه ابن جرير عن محمد بن عليٍّ، من طريق فرقد عن أبي الجارود، وأخرج بن عدي عن ابن عباس قال: لمَّا نزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ قال رسول الله ﷺ لعليٍّ: «هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيِّين».

(٢) أخرجه أبو داود في السنة، وأحمد في مسنده (٣/ ١٧٨، ١٨٤)، عن أنس رضي الله عنه.

وقوله تعالىٰ: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: سُكْنى جنات، أَو دخولُ جناتٍ، و«العَدْنُ»: الإِقامةُ والدوامُ، عَدَنَ بالموضع: أَقام، ومنه المعدن لأَنه راسٍ ثابتٌ، قال ابن مسعود: جناتُ عَدْنٍ: بُطنان الجنة، أَي وسَطُها.

وقوله تعالىٰ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ قيل: ذلك في الدنيا، فرضاه عنهم هو ما أَظهر عليهم من أَمارات رحمته وغُفرانه، ورضاهم عنه هو رضاهم بجميع ما قَسَم لهم من جميع الأَرزاق والأَقدار، وقال بعض الصالحين: رِضَا العباد عن الله تعالىٰ رضاهم بما يَرِدُ من أَحكامه، ورضاهُ عنهم توفيقُهم للرضا عنه، وقال أَبو بكر بن طاهر: الرضا عن الله تعالىٰ خروج الكراهية من القلب حتى لا يكون إِلاَّ فرح وسرور، وقال سريٌّ السَّقطي: إِذا كنت لا ترضى عن الله فكيف تطلب منه أَن يرضى عنك؟ وقيل: ذلك في الآخرة، فرضاهم عنه هو رضاهم بما منَّ عليهم به من النعم، ورضاه عنهم هو ما رُوي من أَن الله تعالىٰ يقول لأَهل الجنة: «هل رضيتم بما أَعطيتكم؟» فيقولون نعم يا ربنا، وكيف لا نرضى وقد أَعطيتنا ما لم تُعط أَحداً من العالمين؟ فيقول: «أَفلا أُعطيكم أَفضل من كل ما أَعطيتكم؟ رضواني فلا أَسخط عليكم أَبداً»(١)، وخصَّ تعالىٰ بالذكر أَهل الخشية لأَنها رَأسُ كل بركة، الناهية عن المعاصي، الآمرة بالمعروف.

كمل تفسير سورة «لم يكن» والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) أَخرجه البخاري في كتاب الرقاق ـ باب صفة الجنة والنار ـ وفي كتاب التوحيد ـ باب كلام الرب مع أَهل الجنة ـ بسنده إلى أَبي سعيد الخدري، وأخرجه مسلم في صحيحه في باب: كتاب الجنة ونعيمها وأهلها، كذلك أخرجه الترمذي ج٢ صفحة (٩١) وقال حديث حسن صحيح. ولفظ الحديث كما جاء في البخاري في باب صفة الجنة والنار: عن أَبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أَهْل الجنة، يقولون لبَّيْك ربنا وسعدَيْك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أَعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك؟ فيقول: أنا أُعطيكم أَفضل من ذلك، قالوا: يا رب، وأَيُّ شيءٍ أَفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الزلزلة

وهي مكية، قاله ابن عباس وغيره، وقال قتادة ومقاتل: هي مدنية لأن آخرها نزل بسبب رجلين كانا بالمدينة(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾.

العامل في [إِذا] على قول جمهور النحاة ـ وهو الذي يقتضيه القياس ـ فعلٌ مضمر يقتضيه المعنى وتقديره: يُحشرون إذا، أو يُجازَوْن، ونحو هذا، ويمتنع أن يعمل فيه [زُلْزِلَت] لأن معنى الشرط لا يفارقها(٢)، وقد تقدمت نظائرها في غير سورة.

و﴿ زُلْزِلَتِ ﴾ معناه: حُرِّكت بعنف، ومنه الزلزال، وقوله تعالىٰ: ﴿ زِلْزَالَهَا ﴾ أبلغ من قوله: «زلزالاً» دون إضافة إليها، وذلك أن المصدر غير مضاف يقع على كل قدر من الزلزال وإن قلَّ، وإذا أضيف إليها وجب أن يكون على قدر ما يَسْتَحِقُّه ويَسْتَوحيه جِرْمها وعِظَمُها، وهذا كما تقول: «أكرمتُ زيداً كرامَةً»، فذلك يقع على كلِّ كرامة وإن

(١) قال القرطبي وتَابَعَهُ الشوكاني في فتح القدير ـ: «وهي مدنية في قول ابن عباس وقتادة، ومكية في قول ابن مسعود وعطاءٍ وجابر»، وزاد الشوكاني قوله: «أخرج بن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ بالمدينة». وفي البحر المحيط قال أبو حيان: «هذه السورة مكية في قول ابن عباس ومجاهد وعطاءٍ، ومدنية في قول قتادة ومقاتل لأن آخرها نزل بسبب رجلين كانا بالمدينة». وقد روى الترمذي عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: من قرأ: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ عدلت له بنصف القرآن، ومن قرأ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ عدلت له بربع القرآن، ومن قرأ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ عدلت له بثلث القرآن، قال: حديث غريب.

(٢) في بعض النسخ: «لأن (إِذَا) مضاف إلى (زُلْزِلَت)، ومعنى الشرط فيها ضعيف».

قلّت بحسب «زيد»، فإذا قلتَ: «كَرَامَتَهُ» أوجبت أنك قد وفَّيْته حقَّه. وقرأ الجمهور: ﴿زِلْزَالَهَا﴾ بكسر الزَّاي الأُولى، وقرأ بفتحها عاصم الجحدري، وهو أيضاً مصدر كالوَسْواس ونحوه.

و«الأَثْقَالُ»: الموتى الذين في بطنها، قاله ابن عباس، وهذه إشارة إلى البعث، وقال قوم من المفسرين ـ منهم منذر بن سعيد والزَّجاج والنَّقاش ـ: أَخرجت موادَّها وكنوزها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليست القيامة بموطن لإخراج الكنوز، وإنما تخرج كنوزها وقت الدجال. وقول الإنسان: ﴿مَا لَهَا﴾ هو قول على معنى التَّعجب من هول ما يرى، قال جمهور المفسرين: الإنسان هنا يراد به الكافر، وهذا متمكِّن لأنه يرى ما لم يظن به قط ولا صدَّقه، وقال بعض المتأولين: هو عامٌّ في المؤمن والكافر، فالكافر على ما قدمناه، والمؤمن ـ وإن كان قد آمن بالبعث ـ فإنه استهول المرأَي، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ليس الخبر كالمعاينة»(١).

و«إِخْبارُ الأَرْض» قال ابن مسعود والثوري وغيرهما: هو شهادتها بما عمل عليها من عمل صالح وفاسد، فالتحديث ـ على هذا ـ حقيقة وكلام بإدراك وحياة يخلقها الله تعالىٰ، وأَضاف تعالىٰ الأَخبار إليها من حيث وَعَتْها وحَصَّلتْها، وانتزع بعض العلماءِ من قوله تعالىٰ: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أن قول المحدث: «حدَّثنا وأَخبرنا» سواءٌ، وقال الطبري وقوم: التحديث في الآية مجاز، والمعنى أَن ما تفعله بأمر الله تعالىٰ من إخراج أَثقالها، وتَفَتُّت أَجزائها، وسائر أَحوالها، هو بمنزلة التحديث بأَنبائها وأَخبارها، ويؤيد القول الأَول قول النبي ﷺ: «فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جِنٌّ ولا إِنْس ولا شيءٌ إلاَّ شهد له يوم القيامة»(٢) وقرأ عبد الله بن مسعود: [تُنْبِىءُ أَخبارَهَا]، وقرأ سعيد بن جبير: [تُبَيِّنُ].

---

(١) أخرجه الإمام أَحمد في مسنده (١/ ٢٥١، ٢٧١)، والطبراني في الأَوسط، والحاكم في مستدركه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في الجامع الصغير: «ليس الخبر كالمعاينة، إن الله تعالىٰ أَخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يُلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت»، وقد رمز له الإمام السيوطي بأنه حديث صحيح.

(٢) أَخرجه البخاري في الأذان والتوحيد وبدء الخلق، والنسائي في الأذان، ومالك في موطئه في النداء، =

قوله تعالىٰ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾، الباءُ باءُ السبب. وقال ابن عباس، وابن زيد، والقرطبي: المعنى: أَوْحى إليها، وهذا الوحي ـ على هذا التأويل ـ يحتمل أَن يكون وحي إلهام، ويحتمل أَن يكون وحياً برسول من الملائكة، وقد قال الشاعر:

أَوْحَىٰ لَهَا الْقَرارَ فَاسْتَقَرَّتِ   وشَدَّهَا بالرَّاسِيَاتِ الثُّبَّتِ[1]

والوحي في كلام العرب: إلقاءُ المعنى إلقاءً خفياً. وقال بعض المتأولين: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ معناه: أَوحى إلى ملائكته المقربين أَن تفعل في الأَرض تلك الأفعال. وقوله تعالىٰ: ﴿لَهَا﴾ بمعنى: من أَجْلها، ومن حيث الأَفعال فيها فهي لها.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ بمعنى: ينصرفون من موضع وردهم مختلفي الأَحوال. وواحد «الأشتات» شَتٌّ، فقال جمهور الناس: الوِرْدُ هو الكون في الأَرض بالموت والدفن، والصَّدر هو القيام للبعث، و﴿أَشْتَاتًا﴾ معناه: قومٌ مؤمنون وقوم كافرون وقوم عُصاة مؤمنون، والكلُّ سائر إلى العَرْض ليرى عمله ويقف عليه، وقال النقاش: الوِرْدُ هو المحشر، والصَّدر أَشتاتاً هو صدر قوم إلى الجنة وقوم إلى النار.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ إما أَن يكون معناه: جزاءَ أَعمالهم يراه أَهل الجنة بالنعيم وأَهل النار بالعذاب، وإما أَن يكون قوله تعالىٰ: ﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ متعلقاً بقوله سبحانه: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾، ويكون قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾

= وأحمد في مسنده (٣/ ٣٥، ٤٣)، ولفظه كما في مسند أَحمد عن عبد الرحمن بن أَبي صعصعة المازني عن أَبيه أَنه أَخبره أَن أَبا سعيد قال له: إني أَراك تحب الغَنَم والبادية، فإذا كنت في غنمك أَو باديتك فأَذَّنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداءِ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إِنْس ولا شيءٌ إلاَّ شهد له يوم القيامة، سمعته من رسول الله ﷺ.

(١) هذان بيتان من الرجز قالهما العجاج يصف الأرض، وهما مع القصيدة في الديوان، وفي كتاب (شعراءُ النصرانية بعد الإسلام) وفي مجاز القرآن، والبحر المحيط، والقرطبي، وروح المعاني وفي الأغاني، لكن الألفاظ وترتيب الأبيات يختلف عما هنا، وقد ذكر صاحب الأغاني أن العجاج أَنشد أبا هريرة قوله الذي وصف فيه الخالق سبحانه وأَعماله ويوم الحساب وأَهواله، فقال له أَبو هريرة: أَشهد أَنك تؤمن بيوم الحساب، والأبيات هي:

الْحَمْدُ لله الَّذي تَعَلَّتِ   بِأَمْرِهِ السَّماءُ واسْتَقَلَّتِ
بِإِذْنِهِ الأَرْضُ وَمَا تعَنَّتِ   أَرْسَى عَلَيْهَا بِالجبالِ الثُّبَّتِ
وَحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتِ   رَبُّ الْبِلادِ والْعِبادِ الْقُنَّتِ

والشاهد هنا أن (وحى لها) و(أوحى لها) بمعنى: أَوحى إليها، لأن العرب تضع اللام موضع «إلى».

اعتراضاً بين أثناءِ الكلام. وقرأ جمهور الناس: ﴿لِّيُرَوۡاْ﴾ بضم الياءِ على بناءِ الفعل للمفعول، وقرأ الحسن، والأعرج، وقتادة، وحمَّاد بن سَلَمة، والزهري، وأبو حَيْوة: [لِيَرَوْا] بفتح الياءِ على بنائه للفاعل.

ثم أخبر تعالىٰ أنه من عَمِلَ عملاً رآه، قليلاً كان أو كثيراً، فخرجت العبارة عن ذلك بمثال التقليل، وهذا هو الذي يُسَمِّيه أهلُ الكلام مفهوم الخطاب، وهو أن يكون المذكور والمسكوت عنه في حكم واحد، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾[1]، وهذا كثير. وقال بعض الناس وبعض المفسرين: رؤية هذه الأعمال هي في الآخرة، وذلك لازم من لفظ السورة وسردها، فيرى الخيرَ كلَّه من كان مؤمناً، والكافر لا يرى في الآخرة خيراً لأن خيره قد عُجِّل له في دنياه، وكذلك المؤمن أيضاً تُعَجَّل له سيآته الصغار في دنياه في المصائب والأمراض ونحوها، فيجيءُ من مجموع هذا أن من عمل من المؤمنين مثقال ذرَّة من خيْرٍ أو شرٍّ رآه، فيخرج من ذلك ألاَّ يرى الكافر خيراً في الآخرة، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها، «قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت ما كان يفعل عبد الله بن جُدعان من البرِّ وصلة الرحم وإطعام الطعام، ألهُ في ذلك أجْرٌ؟ فقال: لا، إنه لم يقل قطٌّ: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[2] وكان رسول الله ﷺ يسمِّي هذه الآية.. «الجامعة الفَاذَّة»، وقد نصَّ على ذلك حين سُئل عن الحُمُر... الحديث[3]، وأعطى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه سائلاً تمرتين،

---

(١) من الآية (٢٣) من سورة (الإسراء)، والآية عامة فهي تنهى عن القليل والكثير، ولكن اكتفت بذكر القليل.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ومسلم في صحيحه، كما أخرجه البغوي، وجُدْعان بضم الجيم، وهو ابن عم والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومعنى الحديث أن ما كان يفعله من الصلة والإطعام وغيرهما لا ينفعه في الآخرة لكونه كافراً.

(٣) روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة، لرجل أجر، ولرجل سِتْر، وعلى رجل وِزر، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة، فما أصابت في طِيَلها ذلك في المرج والروضة كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستَنَّت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرَّت بنهر فشربت منه ولم يُرد أن يسقى به كان ذلك حسنات له، فهي لذلك الرجل أَجر، ورجلٌ ربطها تَغَنِّياً وتعفُّفاً ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له سِتْر، ورجل ربطها فخراً ورِيَاءً ونواءً فهي على ذلك وزر، فسئل رسول الله ﷺ عن الحُمُر، فقال: «ما أنزل الله فيها شيئاً إلاَّ هذه الآية الفَاذَّة الجامعة ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾. ورواه مسلم من حديث زيد بن أسلم، وذكره السيوطي في الدرِّ=

فقبض السائل يده، فقال له سعد: ما هذا؟ إن الله تعالىٰ قَبِل مثاقيل الذَّرِّ، وفَعَلَتْ نحوَ هذا عائشةُ رضي الله عنها في حبَّة عنب، وسمع هذه الآية صعصعة بن عقال التميمي عند النبي ﷺ فقال: حَسْبي، لا أُبالي أَنْ أَسمع غيرها[١]، وسمعها رجلٌ عند الحسن فقال: انتهت الموعظة، فقال الحسن: فَقُهَ الرَّجُلُ.

وقرأَ هشام عن ابن عامر، وأَبو بكر عن عاصم: [يَرَهْ] بسكون الهاءِ في الأُولى والآخرة، وقرأَ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، ونافع ـ فيما رَوَى عنه ورش ـ والحلواني عن قالون عنه في الأُولى: [يَرَهُ]، وأَما الآخرة فهو سكون وقف، وأَما من أَسكن الأُولى فهي على لُغة من يخفف، ومنه قول الشاعر:

. . . . وَمِطْـوَايَ مُشْتـاقَـانِ لَـهْ أَرِقَـانِ[٢]

وهذه لغة لم يحكها سيبويه لكن حكاها الأَخفش، وقرأَ أَبو عمرو وحده بضم الهاءِ فيهما مُشْبعتان، وقرأَ أَبان عن عاصم، وابنُ عباس، وأَبو حيوة، وحميد بن الربيع عن الكسائي: [يُرَهْ] بضم الياءِ، وهي رؤية بصر، بمعنى: يجعله يدركه ببصره، والمعنى:

= المنثور، وزاد نسبته إلى مالك، وأَحمد، والنسائي، وابن ماجه. ومعنى «الفاذَّة»: المنفردة.

هذا والطِّيَلُ: الحبل الطويل، واسْتَنَّتْ: عَدَتْ وجَرَتْ، والشَّرَف: الشوطُ، والنواءُ: العداءُ لأَهل الإسلام.

(١) أَخرجه ابن المبارك في الزهد، وأَحمد في مسنده، وعبد بن حميد، والنسائي، والطبراني، وابن مردويه، عن صَعْصَعَةَ بن معاوية عمِّ الفرزدق.

(٢) هذا عجز بيت ذكره النحويون شاهداً على أن بعض العرب يجوِّزون تسكين الهاءِ، كما في قوله هنا: (لَهْ)، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

أَرِقْـــتُ لِبَـــرْقٍ دُونَـــهُ شَـــدَوَانِ ... يَمـانٍ وَأَهْـوَى الْبَـرْقَ كُـل يَمَـانِ
فَظَلْـــتُ لَـــدَى الْبَيْـــتِ الْعَتِيـــقِ أُرِيغُـــهُ ... وَمَطْـــوَايَ مُشْتَـــاقَـــانِ لَـــهْ أَرِقَـــانِ

وهما من قصيدة قالها رجلٌ من أَزْد السَّراة، قيل: اسمه يَعْلَى الأَحْول الأزدي، وقيل: بل هو عمرو بن أَبي عمارة الأزدي، وقيل: بل هو جَوَّاسُ بن حيَّان، من أزد عُمان. والبيت العتيق: مكَّة، وظَلْتُ: قضيت يومي، ويروى بدلاً منها: فَبِتُّ، وَلَدَى بمعنى: عِند، وأُريغُه: أَطْلُبُه، ويروى بدلاً منها: أَخِيلُهُ، بمعنى: أَظُنُّه وأَتخيلَهُ، ويروى: أَشيمه، ومطْوَاي: مُثَنَّى مِطْو، وهو الصاحبُ والرفيق في السفر. ومُشْتاقان: خبر مِطْوَاي، وكذلك أَرقان خبر ثان. ويَروي صاحبُ الأغاني البيت: (ومِطْوَايَ في شَوْقٍ لَهُ أَرِقان)، وعَلَى هذا فلا شاهد فيه، والضمير في (لَهُ) يعود على (البرق) في البيت السابق. هذا والبيت في اللسان، وخزانة الأدب، والأغاني، والمحتسب، والخصائص، والمنصف.

يُرَى ثوابَه وجزاءَه لأَن الأَعمال الماضية لا تُرى بعين أَبداً، وهذا الفعل كله من «رَأَيْتُ» بمعنى أَدْركْتُ ببصري، فتعدِّيه إنما هو إلى مفعول واحد، وقرأَ عكرمة: [خَيْراً يراهُ] و[شَرًّا يَرَاهُ]، وقال النقاشُ: ليست برؤية بصر؛ وإنما المعنى: يُصيبه ويناله.

ويُروى أَن هذه السورة نزلت وأَبو بكر رضي الله عنه يأْكل مع رسول الله ﷺ، فترك أَبو بكر رضي الله عنه الأَكل وبكى، فقال له رسول الله ﷺ: يا أَبا بكر، ما يُبكيك؟ قال: يا رسول الله، أَو أُسْأَلُ عن مثاقيل الذَّرِّ؟ فقال رسول الله ﷺ: يا أَبا بكر، ما رأَيتَ في الدنيا مِمَّا تكره، فمثاقيل ذَرِّ الشَّر، ويدَّخر الله لك مثاقيل ذرِّ الخير[١].

و«الذَّرَّةُ» نملةٌ صغيرة حمراءُ رقيقة لا يرجح بها ميزان، ويقال: إِنَّها تجري إذا مضى لها حول، وقد تُؤُوِّل ذلك في قول امرىءِ القيس:

مِنَ الْقاصِراتِ الطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ   مِنَ الذَّرِّ فَوْقَ الإتْبِ مِنْها لأَثَّرَا[٢]

وحكى النقاش أَنهم قالوا: كان بالمدينة رجلان أَحدهما لا يبالي عن الصغائر يرتكبها، وكان الآخر يريد أَن يتصدَّق فلا يجد إلاَّ اليسير فيستحِي من الصدقة، فنزلت الآية فيهما، كأَنه يقال لأَحدهما: تصدَّق باليسير فإِن مثقال ذرَّة الخير تُرى، وقيل للآخَر: كُفَّ عن الصغائر فإِن مقادير ذرِّ الشَّرِّ تُرَى.

كمل تفسير سورة «الزلزلة» والحمد لله رب العالمين

---

(١) أَخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أَبي حاتم، والطبراني في الأوسط، والحاكم في تاريخه، وابن مردويه، والبيهقي في (شُعب الإيمان)، عن أَنس رضي الله عنه، وأَخرج مثلَه ابنُ أَبي الدنيا في كتاب البكاءِ، وابن جرير، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في (شعب الإيمان)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، كذلك أَخرجه ابن مردويه عن أَبي أَيوب الأَنصاري رضي الله عنه، كما أَخرجه عن أَبي إدريس الخولاني رضي الله عنه.

(٢) هذا البيت من قصيدة امرىء القيس التي نظمها وهو في طريقه إلى بلاد الروم، و«القاصرات الطَّرْف»: اللواتي يقصرن طرفهن على أزواجهن ولا ينظرن إلى غيرهم، ويريد حبيبته التي ذكرها في البيت السابق حين قال: إن كل ما يراه من برق ومطر لا ينسيه هذه الحبيبة، وهو يتمنى أن يسقط المطر على ديارها دون سواها:

نَسِيمُ بُرُوقِ الْمُزْنِ، أَيْنَ مَصَابُهُ   وَلاَ شَيءَ يَشْفي مِنْكِ يابْنَةَ عَفْزَرَا

والمُحْوِل: الذي مَضَى عليه حَولٌ: أَي سَنَةٌ، والذَّرُّ: النمل الصغير، والإِتْبَ: ثوب غير مخيط على الجانبين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة العاديات

وهي مكيّة في قول جماعة من أَهل العلم، وقال المهدوي عن أَنس بن مالك: هي مدنية[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾.

اختلف الناس في المراد بالعاديات ـ فقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وعكرمة: أَراد الخيل لأَنها تعدو بالفرسان وتضبح بأَصواتها، قال بعضهم: وسببها أَن رسول الله ﷺ بعث خيلاً إِلى بني كنانة سريَّة، فأَبطأَ أَمْرها عليه حتى أَرجف بعض المنافقين، فنزلت الآية معلمة أَن خيله عليه الصلاة والسلام قد فعلت جميع ما في الآيات. وقال آخرون: القَسَم هو بالخيل جملة لأَنها تعدو ضابحة قديماً وحديثاً، وهي حاصرة البلاد وهادمة الممالك وفي نواصيها الخير إِلى يوم القيامة. وقال عليٌّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، وابن مسعود، وإِبراهيم، وعبيد بن عمير: العاديات في هذه الآية الإِبلُ لأَنها تَضْبَح في عَدْوها، وقال عليٌّ: والقسم بالإِبل العاديات من عرفة ومن المزدلفة إِذا دفع الحاجُّ، وبإِبل غزوة بدر، فإِنه لم يكن في الغزوة غير فرسين، فرس المقداد وفرس الزبير.

و«الضَّبْحُ» تصويت جهير عند العدو الشديد، ليس بصهيل ولا رُغاءٍ ولا نُباح، بل هو غير المعتاد من صوت الحيوان الذي يضبح، وحكى ابن عباس رضي الله عنهما أَنه ليس يضبح من الحيوان غير الخيل والكلاب، وهذا عندي لا يصح عن ابن عباس[2]،

---

(١) في القرطبي أنها مكية في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاءٍ، ومدنية في قول ابن عباس وأَنس ومالك وقتادة. وذكر ذلك أيضاً أَبو حيان في البحر المحيط والشوكاني في فتح القدير.

(٢) روى ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: بينما أنا في الحِجْر جالس أَتاني رجلٌ=

وذلك أَن الإِبل تضبح، والأَسْودُ من الحيات، والبومُ والصَّدَى[(١)] والأَرنب والثعلبُ والفرسُ، هذه كلها قد اسْتَعْمَلَت العرب لها الضبح، أَنشد أَبو حنيفة في صفة قَوْسٍ:

حَنَّـانَـةٌ مِـنْ نَشَـمٍ أَوْ تَـأْلَـبِ ... تَضْبَحُ في الْكَفِّ ضُبَاحَ الثَّعْلَبِ[(٢)]

والظاهر في الآية أَن القسم بالخيل أَو بالإِبل أَو بهما.

قوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾، قال عليُّ بن أَبي طالب وابن مسعود رضي الله عنهما: هي الإِبل، وذلك أَنها في عَدْوها ترجمُ الحصى بالحصى فتتطاير منه النار، فذلك القَدْح، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي الخيل، وذلك بحوافرها في الحجارة، وذلك معروف، وقال عكرمة: الموريات قدحاً هي الأَلْسُن، فهذا على الاستعارة، أَي أَنها تقدح الحُجَجَ وتظهرها، وقال مجاهد: الموريات قدحاً يراد به مكْرُ الرجال، وقال قتادة: المورياتُ الخيل تشعل الحرب، فهي أَيضاً على الاستعارة البيِّنة، وقال ابن عباس أَيضاً وجماعة من العلماءِ: الكلام عامٌ يُدْخل في القسم كلَّ من يظهر بقدحه ناراً، وذلك شائع في الأُمم طول الدهر، وهو نفع عظيم من الله تعالىٰ في عباده، وقد وقف عليه في قوله سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾[(٣)]، ومعناه: تُظْهرون بالقدح، قال عَدِيُّ بن زيد:

فَقَـدَحْنـا زِنـادَنـا وَوَرَيْنَـا ... فَـوْقَ جُـرْثـومَـةٍ مِـنَ الأَرْضِ نـاراً[(٤)]

= يسأل عن (الْعادياتِ ضَبْحاً)، فقلت له: الخيل حين تُغير في سبيل الله ثم تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامهم، ويورون نارهم، فانفتل عني، فذهب إلى علي بن أَبي طالب رضي الله عنه وهو تحت سقاية زمزم، فسأله عن (الْعاديات ضَبْحاً)، فقال: سألت عنها أَحداً قَبْلي؟ قال: نعم، سألت عنها بن عباس فقال: الخيلُ حين تُغير في سبيل الله، قال: اذهب فادْعُه إليَّ، فلما وقفتُ على رأسه قال: تفتي الناسَ بما لا علْم لَكَ به؟ والله لكانت أَول غزوة في الإسلام لَبَدْر، وما كان معنا إلاَّ فرسان: فرس للزبير وفرس للمقْداد، فكيف تكون العاديات ضبحاً؟ إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى مزدلفة إلى منى، قال ابن عباس: فنزعتُ عن قولي، ورجعت إلى الذي قال عليٌّ رضي الله عنه.

(١) الصَّدى: الذَّكَرُ من البوم، وقيل: هو طائر خرافي زعموا أَنه يخرج من رأس المقتول، ولا يزال يقول: اسقوني حتَّى يُؤخذ بثأره.

(٢) حَنَّانَةٌ: لها صوتٌ، وهذه صفةٌ تغلب على القوس حتى قال أَبو حنيفة: إنه اسمٌ لها عَلَمٌ عليها. والنَّشَمُ: شجر كانت تُتَّخذ منه القِسيُّ، والواحدة نَشَمة، وكذلك التألب شجر تُصنعُ منه القِسي. وتضبح: تُصَوِّت، وهذا هو الشاهد.

(٣) الآية (٧١) من سورة (الواقعة).

(٤) الشاعر هو عَدِيُّ بن زيد العباديُّ، كثير من العلماءِ لا يرون شعره حجة، وقَدَحَ الزِّنادَ: ضربه بحجر =

قوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾، قال علي بن أَبي طالب وابن مسعود رضي الله عنهما: هي الإِبل من مزدلفة إِلى منى، أَو في بدر، والعرب تقول: «أَغار» إِذا عَدَا حرباً، ونحوه، وقال ابن عباس وجماعة كثيرة: هي الخيل، واللفظة من الغارة في سبيل الله وغير ذلك من سير الأُمم، وعُرْف الغارات أَنها مع الصباح لأَنها تسري ليلة الغارة.

و«النَّقْعُ»: الغُبار الساطع المثار. وقرأَ أَبو حيوة: [فَأَثَّرْنَ] بشد الثاءِ، والضمير في [به] ظاهره أَنه للصبح المذكور، ويحتمل أَن يكون للمكان والموضع الذي يقتضيه المعنى وإِن كان لم يجر له ذكر، ولهذا أَمثلة كثيرة، ومشهور «إِثارةُ النقع» هو للخيل، ومنه قول الشاعر:

يُخْرِجْـنَ مِـنْ فُـرُجَـاتِ النَّقْـعِ دَامِيَـةً   كَـأَنَّ آذَانَهَـا أَطْـرَافُ أَقْـلَامِ(١)

وقال عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه: هو هنا للإِبل تثير النَّقْع بِأَخفافها.

قوله تعالىٰ: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾، قال عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه وابن مسعود رضي الله عنه: هي الإِبلُ، و«جَمْعٌ» هي المزدلفة، وقال ابن عباس وجماعةٌ: هي الخيل، والمراد جَمْعٌ من الناس هم المغزُوُّون، وقرأَ عليٌّ وابن مسعود وقتادة: [فَوَسَّطْنَ] بشدِّ السين، وقال بشر بن أَبي خَازِم:

فَـوَسَطْـنَ جَمْعَهُـمُ وأَفْلَـتَ حَـاجِـبٌ   تَحْتَ الْعَجاجَةِ في الغُبارِ الأَقْتَمِ(٢)

= لإِخراج النار منه، وَوَرَيْنَا النار: أَوقدناها. والجرثومة: المكان المرتفع من الأرض، وقد تجمع من تراب أَو طين.

(١) قال هذا البيت عَديُّ بن الرقاع في وصف الخيل، وفي الأصول: (من مستطار النقع) وما أَثبتناه منقول من كتاب (العقد الفريد). والنَّقع: الغبار الساطع المستطار، والفُرُجَات: جمع فُرْجة وهي الفتحة بين الشيئين أو في الجدار ونحوه، وفي حديث صلاة الجماعة: «لا تذروا فُرُجات الشيطان»، يقول الشاعر: إن الخيل تخرج أطرافاً دامية من فُرجات تلوح بين الغبار المثار، وإن آذانها لتشبه أَطراف الأقلام.

(٢) بشر بن أَبي خازم الأسدي ـ بالخاءِ في خازم ـ، شاعر جاهلي قديم، كان كثير الهجاءِ لأوس بن حارثة بن لأم، فنذر أَوسٌ ليحرقنَّه إذا قدر عليه، ثم وقع بشر في أَسر بني نبهان، فطلبه منهم أَوس لينفِّذ وعيده فيه، لكن أُمَّه نهته عن ذلك وقالت له: أَكرِم الرجل وحلَّ عنه، فإنه لا يمحو ما قال غير لسانه، فلما أَطلقه جعل بشْر مكان كل قصيدة هجاءٍ قصيدةَ مدح في أَوس، والبيت من قصيدة قالها في يوم يسمَّى يوم الجفار. وَوَسَطَ جمعهم: صار في وسطهم، وفي المفضليات (فَفَضَضْنَ جمعهم)، وعلى هذا فلا شاهد فيه، وحاجبٌ هو حاجبُ بن زرارة، يقول الشاعر عنه: إنَّه فرَّ تحت الغبار، والعَجَاجَة: واحدة العَجَاج وهو الغبار، والأَقتم: الشديد السواد من الكثافة.

وذكر الطبري عن زيد بن أَسلم أَنه كان يكره تفسير هذه الأَلفاظ ويقول: هو قَسَم أَقسم الله تعالىٰ به، وجمهور العلماءِ والأُمة مفسِّرون لها كما ذكرنا.

والقَسَم واقع على قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ﴾، وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَتدرون ما الكنود»؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: «الكنود الذي يَأكل وحده، ويمنع رِفْده، ويضرب عبده»[1]، وقد يكون في المؤمنين الكفور بالنعمة، فتقدير الآية: إِن الإِنسان لنعمة ربِّه لكنود، و«أَرْضٌ كنود»: لا تنبت شيئاً، وقال الحسن بن أَبي الحسن: الكنود: اللائم لِرَبِّه سبحانه، يعدُّ السيئات وينسى الحسنات، والكنود: العاصي بلغة كندة، ويقال للبخيل: كنُودٌ، قال أَبو زُبَيْدٍ:

إِنْ تَفُتْني فَلَمْ أَطِبْ عَنْكَ نَفْساً غَيْرَ أَنِّي أُمْنَى بِدَهْرٍ كَنُودِ[2]

وقال الفضيل: الكنود هوْ الذي تنسيه سيئة واحدة حسناتٍ كثيرة، ويعامل الله على عقد عوض.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ﴾ يحتمل الضمير أَن يعود على الله تعالىٰ، وقاله قتادة، أَي: وربُّه شاهد عليه، ونفس هذا الخبر يقتضي الشهادة بذلك، ويحتمل أَن يعود على الإِنسان، أَي: أَفعالُه وأَقوالُه وحالُه المعلومة من هذه الأَخلاق تشهد عليه، فهو شاهد على نفسه بذلك، وهذا قول الحسن ومجاهد.

والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴾ عائد على الإِنسان لا غير، والمعنى: من أَجل حب الخير لشديد، أَي: بخيل بالمال ضابط له، ومنه قول الشاعر:

---

(١) رواه أَبو أُمامة عن رسول الله ﷺ، وقد أَخرجه الطبري وفي سنده جعفر بن الزبير وهو متروك الحديث، وقد ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره، وقال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رواه الطبراني بإسنادين، في أحدهما جعفر بن الزبير وهو ضعيف وفي الآخر من لا أَعرفه، وقال السيوطي في الدر المنثور: «أخرجه بن جرير، وابن أَبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي، وابن عساكر بسند ضعيف عن أَبي أُمامة، ورواه الطبري من حديث حريز بن عثمان، عن حمزة بن هانىء، عن أَبي أُمامة موقوفاً عليه».

(٢) هذا البيت من قصيدة قالها أَبو زُبَيْد الطائي مكثراً فيها من الحكمة والتأمل في أحداث الحياة والموت، وهي في جمهرة أشعار العرب، والرواية فيها: (بدَهْرٍ كَيُودِ) بالياءِ، من الكَيْد، وعلى هذا فلا شاهد فيه، وَتَفُتْني: تسبقني وتذهب عني، ولم أَطب عنك نَفْساً: لم أَرْضَ بذلك، وأُمْنَى: أُرْمَى وأُصاب، والدهر الكنود: الدهر البخيل الذي لا يُعطي الإنسان ما يريد، ولا يحقق له أَمانيه. وهذا هو موضع الاستشهاد.

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي   عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ(١)

و«الْخَيْرُ»: المالُ على عُرف ذلك في كتاب الله تعالىٰ، قال عكرمة: الخير حيث وقع في القرآن فهو المال. ويحتمل أَن يريد هنا الخير الدنيوي من مالٍ وصحةٍ وجاهٍ عند الملوك ونحوه؛ لأَن الكفار والجهال لا يعرفون غير ذلك، فأَما المحبُّ في خير الآخرة فممدوح مرجُوٌّ له الفوز.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ توقيف على المآل والمصير، أَي: أَفَلاَ يعلم مآله ومصيره فيستعد له؟ و«بَعْثَرَةُ ما في القبور»: نقضُه مما يستره والبحثُ عنه، وهي عبارة عن البعث، وفي مصحف ابن مسعود: [بُحِثَ مَا فِي القُبُور]، وفي حرف أُبَيٍّ [وَبُحْثِرَتِ الْقُبُورُ]. و«تَحْصيلُ ما في الصُّدور»: تَمْييزُهُ وكشْفُه ليقع الجزاءُ عليه من إِيمان وكفر وَنيَّة، ويفسِّرُه قوله عليه الصلاة والسلام: «فيبعثون على نيَّاتهم»(٢)، وقرأَ يحيى بن يَعْمر، ونصر بن عاصم بفتح الحاءِ والصاد. ثم استُؤْنف الخبر الصادق الجزْمُ بأَن الله تعالىٰ خبير بهم يومئذ، وهو تعالىٰ خبير دائماً، لكن خصَّص يومئذ لأَنه يَومُ المُجازاة فإِليه طمحت النفوس، وفي هذا وعيدٌ مُصَرَّح.

كمل تفسير «العاديات» والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) هذا البيت من قصيدة طرفة المعروفة (لِخَوْلَةَ أَطْلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ)، وهي المعلَّقة التي قالها بعد أن ملَّ حياة التشرُّد، وعاد نادماً إِلى أَهله.

ويعتامُ: يختار، والعقيلة: الكريمة من المال والنساءِ، والفاحش: البخيل. يقول: أرى الموت يختار الكرام فَيُفْنيهم، ويصطفي أفضل ما عند البخيل المتشدد من مالٍ فيأخذه، وبهذا لا ينفعه بخله ولا تشدده، فلا تخلُّص منه لواحد من الصنفين، فلا يجدي البخيل بخله، فالجود أَفضل لأَنه أَحمد، وقيل: بل المعنى: إن الموت يختار الكرام بالإِفناء، ويصطفي كريمة مال البخيل بالإِبقاء.

(٢) هذا جزء من حديث أَخرجه مسلم في الفِتَن، وأبو داود في المهدي، والبخاري في الصوم والبيوع، والترمذي وابن ماجه في الفتن، وأحمد في المسند (٦/ ٢٩٠)، عن عبيد الله بن القِبْطِيَّة، قال: دخل الحرث بن أَبي ربيعة وعبد الله بن صفوان ـ وأنا معهما ـ على أُمِّ سَلَمة أم المؤمنين، فسأَلها عن الجيش الذي يُخسف به، وكان ذلك في أَيام ابن الزبير، فقالت أُمُّ سَلَمة: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: يعوذ عائذٌ بالحجر، فيبعث الله جيشاً، فإِذا كانوا ببيداءَ من الأرض خُسف بهم، فقلت: يا رسول الله، فكيف بمن أُخرج كارهاً؟ قال: يُخسف به معهم، ولكنه يُبعث على نِيَّتِهِ يوم القيامة، فذكرت ذلك لأَبي جعفر فقال: هي بيداءُ المدينة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة القارعة

وهي مكِّيَّة بلا خلاف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

قرأ: [الْقَارِعةَ، مَا الْقَارِعةَ] بالنصب عيسى، قال جمهور المفسرين: القارعةُ: القيامة نفسها؛ لأنها تقرع القلوب بهولها، وقال قَوم من المتأوِّلين: القارعةُ: صيحةُ النفخة في الصور؛ لأنها تقرع الأَسماع وفي ضمن ذلك القلوب. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ تعظيم لأَمرها، وقد تقدم مثلُه[1].

و﴿يَوْمَ﴾ ظرف، والعامل فيه [الْقَارِعَةُ]، وأَمال أَبو عمرو [الْقَارِعَةُ]. و﴿الفَرَاش﴾ طير دقيق يتساقط في النار ويقصدها ولا يزال يتقحَّم على المصباح ونحوه حتى يحترق، ومنه قول النبي ﷺ: «وأَنا آخذ بِحُجَزِكم عن النار وأَنتم تتقحَّمون فيها تقاحُم الفَراش والجنادب»[2]، وقال الفراءُ: الفَراش في الآية غوغاءُ الجراد، وهو صغيره الذي ينتشر

---

(١) عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾، وأَمثالها.

(٢) أَخرجه البخاري في الرقاق، ومسلم في الفضائل، والترمذي في الأدب، وأحمد في مسنده في أكثر من موضع، ولفظه كما في صفحة (٢٤٤) من الجزء الثاني من مسند أحمد: عن أَبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «طعام الاثنين كافي الثلاثة، والثلاثة كافي الأربعة، إنما مَثَلي ومَثَلُ الناس كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أَضاءت ما حوله جعل الفَرَاش والدوابُّ تَتَقَحَّم فيها، فأَنا آخُذ بِحُجَزكم وأنتم تواقعون فيها، ومَثَل الأنبياءِ كمثل رجل بنى بيتاً فأَحسنه وأكمله وأَجمله، فجعل الناس يطيفون به يقولون: ما رأينا بنياناً أَحسن من هذا إلاَّ هذه الثَّلمة، فأنا تلك الثَّلمة»، وقيل لِسُفيان ـ راوي الحديث ـ:=

في الأَرض والهواءِ، و«المبثوث» معناه: المتفرِّق جمعه وجُملته موجودة متصلة، وقال بعض العلماءِ: الناسُ أَول قيامهم من القبور كالفراش المبثوث؛ لأَنهم يجيئون ويذهبون على غير نظام، ثم يدعوهم الداعي فيتوجهون إِلى ناحية المحشر، فهم حينئذ كالجراد المنتشر؛ لأَن الجراد إِنما تَوَجُّهه أَبداً إِلى ناحية مقصودة.

واختلف اللغويون في «العِهْنِ» ـ فقيل: هو الصوف عامًّا، وقيل: هو الصوف الأَحمر، وقيل: هو الصوف المُلَوَّن أَلواناً، واحتج هؤلاءِ بقول زهير:

كـأَن فُتَـاتَ الْعِهْـن فـي كُـلِّ مَنْـزِلٍ نـزَلْـن بـه حـبُّ الْفَنَـا لَـمْ يُحَطَّـمِ(١)

والفَنَا: عنب الثعلب، وحبُّه قبل التحطيم منه الأَخضر والأَحمر والأَصفر، وكذلك الجبال جُدد بيضٌ وحمرٌ وصفرٌ وسودٌ، فجاءَ التشبيه ملائماً، وكَوْنُ الجبال كالعهْن إِنما هو قبل وقت التَّفتيت وقبل النسف ومصيرها هنا، وهي درجات. و«النَّفْشُ»: خلخلة الأَجزاءِ وتفريقها عن تراصِّها، وفي قراءة ابن مسعود، وابن جبير: [كالصُّوفِ الْمَنفُوشِ].

و«الموازين» هي التي في القيامة، قال جمهور العلماءِ والفقهاءِ والمحدثين: ميزان القيامة بعمود وكفتين ليبيِّن الله تعالىٰ أَمر العباد بما عهدوه وتيقَّنوه، وقال مجاهد: ليس ثَمَّ ميزانٌ، إِنما هو العدلُ مثَّلَ ذكره بالميزان؛ إِذْ هو أَعدل ما يدري الناس، وجُمعت الموازين للإِنسان لمَّا كانت له موزونات كثيرة متغايرة، وثِقل هذا الميزان هو بالإِيمان والأَعمال، وخِفَّته بعدمها وقلَّتها، ولن يخفَّ خفة موبقة ميزان مؤمن.

و«عيشَةٌ راضيةٌ» معناه: ذاتُ رضىً، على النَّسب، هذا قول الخليل وسيبويه، وقوله تعالىٰ: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾، قال كثير من المفسرين: المراد بالأُمِّ نفس الهاوية، وهي دَرْك من أَدْراك النار، وهذا كما يقال للأَرض: «أُمُّ الناس» لأَنها تُؤْويهم، وكما

= من ذكر هذه ؟ قال: أَبو الزناد عن الأَعرج عن أَبي هريرة.

(١) البيت من معلَّقة زهير، والفُتاتُ: اسمٌ لما انفَت وتقطع من الشيءِ، والعِهْنُ: الصوف المصبوغ المُلَوَّنُ، وجمعه عُهُون، وحبُّ الْفَنَا: حبُّ عنب الثعلب، والتحطمُ: التكسُّر، والضمير في (نَزَلْنَ) يعود على «الظَّعائِن» اللاتي يتحدث عنهن، وقد ذكرهن في بيت سابق حين قال: (تَبَصَّر خَليلي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعائِنٍ)، ومعنى البيت: كأَنَّ قِطَع الصوف المصبوغ الذي زُيِّنت به الهوادج في كل منزل نزلت به هؤلاءِ النسْوة حبُّ عنب الثعلب الذي لم يتحطم، لأنه إذا تحطَّم ذهبت أَلوانه.

قال عتبة بن أَبي سفيان في الحرب: «فنحن بنوها وهي أُمُّنا» فجعل الله تعالىٰ الهاوية أُمَّ الكافر لمَّا كانت مأواه، وقال آخرون: هذا تفاؤلٌ بشَرٍّ فيه تجوُّز، كما قالوا: «أُمُّهُ ثاكلٌ» و«هَوَى نَجْمُه»، وقال أَبو صالح وغيره: المرادُ أُمُّ رأسه لأَنهم يهوون على رُؤوسهم. وقرأ طلحة: [فَإِمُّهُ] بكسر الهمزة وضم الميم مشددة.

ثم قرَّر تعالىٰ نبيَّه ﷺ على دراية أَمرها وتعظيمه، ثم أَخبره أَنها نارٌ حامية، وقرأ (مَا هِي) بطرح الهاءِ في الوصل ابنُ أَبي إِسحاق والأَعمش، وروى المبرد أَن النبي ﷺ قال لرجل: «لاَ أُمَّ لك»، فقال: يا رسول الله، تدعوني إِلى الهدى وتقول: لا أُمَّ لك؟ فقال: إِنما أُريد: لا نارَ لك، قال الله تعالىٰ: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾.

كمل تفسير «القارعة» والحمد لله رب العالمين

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سُورة التكاثر

وهي مكيَّة لا أَعلم فيها خلافاً[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾.

﴿أَلْهَاكُمُ﴾ معناه: شغلكم بلذَّاته، ومنه «لَهْوُ الحديث والأَصوات» واللهو بالنساءِ، وهذا خبرٌ فيه تقريع وتوبيخ وتحسر. وقرأَ ابن عباس وأَبو عمران الجوني، وأَبو صالح: [آلْهاكم] على الاستفهام.

و«التكاثرُ» هو المفاخرة بالأَموال والأَولاد والعدد جملة، وهذا هِجِّيرَى[٢] أَهل الدنيا وأَبنائها العربِ وغيرهم، لا يتخلَّص منه إلا العلماءُ المتقون، وقد قال الأَعشى:

وَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصىً ... وَإِنَّمَا العِزَّةُ لِلْكَاثِرِ[٣]

وقال النبيُّ ﷺ: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلاَّ ما أَكلتَ فأَفْنَيْتَ، أَو لبستَ فأَبليتَ، أَو تصدَّقتَ فأَمضيت»[٤]؟

---

(١) قال القرطبي: «روى البخاري أنها مدنية».

(٢) دَأْبُهم وعادتهم، ولا تستعمل إلاَّ في العادة الذميمة.

(٣) هذا بيت من قصيدة قالها الأَعشى يهجو علقمة بن عُلاثة ويمدح عامرَ بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما، وهو يخاطب في هذا البيت علقمة، و«الأكثر» هنا بمعنى «الكثير»، وليست للتفضيل، لأَن (الأَلف واللام ومِنْ) يتعاقبان في مثل هذا، وقد يجوز أن تكون للتفضيل ولكن تكون (مِنْ) غير متعلقة بـ (الأكثر)، و«الكاثرُ» هنا بمعنى «الكثير». يقول الشاعر لِعَلْقمة: إنك لست أَكثر عدداً من عامر وقومه، والعزة لا تكون إلاَّ لمن كثر عددهم.

(٤) أَخرجه البخاري في الطلاق، ومسلم في اللعان والزهد، وأَبو داود في الطلاق، والترمذي في الزهد=

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ ـ فقال بعضهم: حتى ذكرتم الموتى في تفاخركم بالآباءِ والسلف، وتكثَّرتم بالعظام الرميم، وقال آخرون: المعنى: حتى مُتُّم وزرتم بأجسادكم مقابركم، أي قطعتم بالتكاثر أعمارهم، وعلى هذا التأويل رُوي أن أعرابياً سمع هذه الآية فقال: بعث القوم للقيامة وربِّ الكعبة، فإن الزائر منصرف لا يقيم، وحكى النقاش هذه النزعة عن عمر بن عبد العزيز، وقال آخرون: هذا تأنيب على الإكثار من زيارة القبور، أي: جعلتم أشغالكم القاطعة لكم عن العلم والتعلم زيارة القبور تكثُراً بمن سلف وإشادة بذكره، وقال: ثم قال النبي عليه الصلاة والسلام: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هُجْراً»[(١)]. فكان نهيه عليه الصلاة والسلام في معنى الآية، ثم أباح بَعْدُ لمعنى الاتعاظ لا لمعنى المباهاة والافتخار كما يفعل الناس في ملازمتها وتَسْنيمها بالرخام والحجارة، وتَلْوينها سرفاً، وبنيان النواويس عليها[(٢)].

وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ زجر ووعيد، ثم كرر تعالىٰ: ﴿كَلَّا﴾ تأكيداً، ويأخذ الناس من هذا الزجر والوعيد المكرَّرَيْن كلٌّ أحد على قدر حظِّه من التوغُّل فيما يكره، هذا تأويل جمهور الناس، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كَلاَّ ستعلمون في القبور، كَلاَّ ستعلمون في البعث، وقال الضحاك: الزَّجر الأول ووعيده للكفار والثاني للمؤمنين. وقرأ مالك بن دينار: [كلاَّ سَيَعْلَمُونَ] فيهما.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ جواب «لَوْ» محذوف مقدر في القول، أي:

= وتفسير سورة التكاثر، والنسائي في الوصايا، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٦٨، ٤١٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي مسند أحمد زيادة في آخره «ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس»، وأخرجه الطيالسي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وأحمد، وابن جرير، والحاكم عن ابن الشِّخِّير.

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز، وأبو داود في الجنائز والأشربة، والنسائي وابن ماجه في الجنائز، وأحمد في أكثر من موضع في مسنده، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعن أبي سعيد الخدري، وفي رواية لمالك في موطئه زيادة: «ولا تقولوا هُجْراً»، والهُجْر: الهَذَيان والقبيح من القول.

(٢) تَسْنيم القبور: إعلاءُ بنائها وتعظيمُه. والناوُوسُ: صندوق من خشب أو نحوه يضع فيه النصارى جثة الميت، وهو أيضاً مقبرة النصارى، والجمع «نواويس» ـ راجع المعجم الوسيط، وقد جاءَ في بعض النسخ بدلاً من «وتلوينها سرفاً» ـ قوله: «وتكوينها شرفاً». وقد نقل أبو حيان كلام ابن عطية هذا ثم قال: «وابن عطية لم يَرَ إلا قبور أهل الأندلس، فكيف لو رأى ما تباهى به أهل مصر في مدافنهم بالقرافة الكبرى والقرافة الصغرى، وباب النصر وغير ذلك» وما يضيع فيها من الأموال: لتعجَّب من ذلك، ولرأى ما لم يخطر ببال». (راجع البحر المحيط).

لازدجرتم وبادرتم إنقاذ أنفسكم من الهلكة، و«اليقين» أعلى مراتب العلم. ثم أخبر تعالىٰ الناس أنهم يرون الجحيم. وقرأ ابن عباس، والكسائي: [لَتُرَوُنَّ] بضم التاءِ، وقرأ الباقون بفتحها، وهي الأرجح، وكذلك في الثانية، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بفتح التاءِ في الأُولى وضمها في الثانية، وروي ضمها عن ابن كثير وعاصم.

و﴿تَرَوُنَّ﴾ أصله: تَرْأَيُون، نقلت حركة الهمزة إلى الراءِ، وقلبت الياءُ أَلِفاً لحركتها بعد مفتوح ثم حذفت الأَلف لسكونها وسكون الواو بعدها، ثم جلبت النون المشدَّدة فحركت الواو بالضم لسكونها وسكون النون الأُولى من المشدَّدة؛ إذ قد حذفت نون الإعراب للبناءِ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا خطاب للمشركين، فالمعنى ـ على هذا ـ أنها رؤية دخول وصَلْي، وهو عين اليقين، وقال آخرون: الخطاب للناس كلهم، فهي كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾[١]، فالمعنى أن الجميع يراها، ويجوز الناجي ويتكردس فيها الكافر. وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ تأكيد في الخبر، و«عَيْنُ اليقين» حقيقته وغايته. وروي عن الحسن وأبي عمرو أنهما هَمَزَا [لَتَرَؤُنَّ] و[لَتَرَؤُنَّها] بخلاف عنهما، وروي عن ابن كثير: ﴿ثُمَّ لَتُرَوُنَّها﴾ بضم التاءِ.

ثم أخبر تعالىٰ أن الناس مَسْؤُولون يومئذ عن نعيمهم في الدنيا، كيف نالوه؟ ولِمَ آثروه؟ ويتوجه في هذا أَسْئِلَةٌ كثيرةٌ بحسب شخص شخص، هي منقادة لمن أُعطي فهما في كتاب الله تعالىٰ، وقال ابن مسعود، والشعبي، وسفيان، ومجاهد: النعيم هو الأَمْن والصحة، وقال ابن عباس: هو البَدَن والحواس، يسأَل المرءُ فيما استعملهما؟ وقال ابن جبير: هو كلُّ ما يُتَلَذَّذ به من طعام وشراب، وأَكل رسول الله ﷺ هو وبعض أَصحابه رطباً، وشربوا عليه ماءً فقال لهم: هذا من النعيم الذي تُسأَلون عنه[٢]، ومضى عليه الصلاة والسلام يوماً هو وأَبو بكر وعمر رضي الله عنهما ـ وقد جاءوا ـ إلى منزل

---

(١) من الآية (٧١) من سورة (مريم).

(٢) أَخرجه أَحمد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن جابر بن عبد الله، وفيه أنه سمَّى أبا بكر وعمر بدلاً من قوله هنا: «هو وبعض أَصحابه». (الدرُّ المنثور).

أَبي الهيثم بن التيهان، فذبح لهما شاةً، وأطعمهم خبزاً ورطباً، واستعذب لهم ماءً، وكانوا في ظِلٍّ، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتسأَلُن عن نعيم هذا اليوم»[(١)]. وروي عنه عليه الصلاة والسلام أَنه قال: «النعيم المسؤول عنه كسرةٌ تقوتهُ، وماءٌ يرويه، وثوب يواريه»[(٢)]. وروى أَبو هريرة عن النبي ﷺ أَن النعيم المسؤول عنه الماءُ البارد في الصيف[(٣)]، وقال عليه الصلاة والسلام: «من أَكل خبز البُرِّ، وشرب الماءَ البارد في ظِلٍّ، فذلك النعيم الذي يسأَل عنه»[(٤)]، وقال عليه الصلاة والسلام:

---

(١) أَخرجه البَزَّارُ، وابن المنذر، وابن أَبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، وفيه أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: إن رسول الله ﷺ خرج يوماً عند الظهيرة فوجد أبا بكر في المسجد جالساً، فقال: ما أَخرجك هذه الساعة؟ قال: أَخرجني الذي أَخرجك يا رسول الله، ثم إنَّ عمر جاء، فقال رسول الله ﷺ: يابن الخطاب ما أَخرجك هذه الساعة؟ قال: أَخرجني الذي أَخرجكما، فقال رسول الله ﷺ: هل بكما من قوة فتنطلقان إلى هذا النخل فتصيبان من طعام وشراب؟ فقلنا: نعم يا رسول الله، فانطلقنا حتى أَتَيْنا منزل مالك بن التَّيْهان أَبي الهيثم الأنصاري. ـ (الدرُّ المنثور).

وفي صحيح مسلم عن أَبي هريرة أنه ﷺ ومعه أَبو بكر وعمر أَتيا رجلاً من الأَنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأَهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: أَين فلان؟ قالت: يستعذب لنا من الماءِ، إذ جاء الأَنصاريُّ، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أَضيافاً مني، قال: فانطلق فجاءَ بعذْق فيه بُسْرٌ وتَمْر ورُطَب، فقال: كلوا من هذا، وأَخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: «إياكَ والحلوب»، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورَوَوْا قال رسول الله ﷺ لأَبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتسأَلن عن نعيم هذا اليوم، يومَ القيامة، أَخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أَصابكم هذا النعيم»، وقد خرجه الترمذي وقال فيه: «هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسأَلون عنه يوم القيامة، ظلٌّ باردٌ، ورُطَب طيِّب، وماءٌ بارد»، وكنَّى الرجل الذي من الأَنصار فقال: «أَبو الهيثم بن التَّيْهان»، وذكر قصته.

(٢) أَخرجه ابن جرير عن ثابت البناني عن النبي ﷺ.

(٣) رواه الترمذي والطبري عن أَبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يُسأَل عنه يوم القيامة ـ يعني العبد من النعيم ـ أَن يُقال له: أَلم نُصِحَّ لك جسمك وَنَرْوِيَكَ من الماءِ البارد؟. وأورده السيوطي في (الدر المنثور)، وزاد نسبته إلى أَحمد، وعبد بن حميد، وابن حبَّان، وابن مردويه، والبيهقي في (شعب الإيمان).

(٤) أورده السيوطي في (الدرّ المنثور) قائلاً: أَخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أَبي حاتم، وابن مردويه، عن علي بن أَبي طالب أنه سئل عن قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، قال: «من أكل خبز البُرِّ، وشرب ماءَ الفرات مُبَرَّداً، وكان له منزل يسكنه، فذاك هو النعيم الذي يسأَل عنه»، ولم يرفعه إلى النبي ﷺ.

«بيتٌ يُكِنُّكَ، وخِرْقَةٌ تواريك، وكِسْرَةٌ تشُدُّ قلبك، وما سوى ذلك فهو نعيم»[1]، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «كل نعيم فهو مسؤول عنه، إلاَّ نعيماً في سبيل الله عزَّ وجلَّ»[2].

كمل تفسير سورة «التكاثر» والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) ذكره السيوطي في الدر من رواية عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، عن الحسن مرسلاً، وهو ضعيف في المرفوع.

(٢) الجملة الأولى «كل نعيم فهو مسؤول عنه» تكاد تكون ضمن أكثر الأحاديث التي وردت في الموضوع، لكني لم أقف على الحديث بهذا النص كاملاً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة العصر

وهي مكيّة[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: العصْرُ: الدهرُ، يقال فيه: عَصْرٌ وعُصُر ـ بضم العين والصاد ـ قال امرؤ القيس:

. . . . وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كانَ في العُصُر الخالي؟[٢]

وقال قتادة: العَصْر: العشيُّ، وقال أُبَيُّ بن كعب: سألت النبي ﷺ عن العصر فقال: «أَقْسَم ربُّك بآخر النهار»[٣]، وقال بعض العلماءِ ـ وذكره أبو علي ـ العصر: اليوم، والعصر: الليلة، ومنه قول حُمَيْد:

وَلَـنْ يَلْبَـث العَصـرَانِ: يَـوْمٌ وَلَيْلَـةٌ إذا طَلَبَـا أَنْ يُـدْرِكـا مـا تَيَمَّمَـا[٤]

---

(١) وقال قتادة: هي مدنية، وروي هذا أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) هذا عجز بيت هو مطلع قصيدته: «الطَّلَلُ البالي»، والبيت بتمامه:

أَلاَ عِـمْ صَبـاحـاً أيُّهـا الطَّلَـلُ البَـالِـي وهَلْ يَعِمَن مَن كانَ في العُصُر الخالي؟

و«عِمْ صباحاً»: أَنعِمْ صباحاً. والخالي: الماضي القديم، يخاطب الطَّلل كأنه إنسان عاقل، ثم يرجع إلى نفسه ويستدرك لأن النعيم لا يكون أبداً لمن مضى عليه الزمن، وأتت عليه حوادث الأيام وصروف الدهر، وقد استشهد بالبيت صاحب اللسان.

(٣) ذكره أيضاً القرطبي لكنه لم يخرجه.

(٤) هذا البيت لحُمَيْد بن ثور الهلالي، وهو في اللسان، والقرطبي، والبحر المحيط، ومعنى تَيَمَّمَا: قَصَدَا، والشاهد أن العصر هو اليوم وهو الليلة.

وقال بعض العلماءِ: العصْرُ بُكرة، والعصر عشيَّة، وهما الأَبردانِ[١]، وقال مقاتل: العصر هي الصلاة الوسطى، أَقسم الله تعالىٰ بها[٢].

و«الإِنسان» اسم جنس، و«الْخُسْرُ»: النقصان وسوءُ الحال، وذلك بيِّن غاية البيان في الكافر، إِنه خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين، وأَما المؤمن ـ وإِن كان في خُسْر في دنياه في هَرَمه وما يقاسيه من شقاءِ هذه الدار ـ فذلك معفوٌّ عنه في جانب فلاحه في الآخرة، وربحه الذي لا يفنى، ومن كان في مدة عمره في التوصِّي بالحق والعمل بحسب الوصاة فلا خُسْر معه، وقد جُمع له الخَيْرُ كلُّه.

وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: «والعصر، ونوائب الدهر، إِن الإِنسان»، وفي مصحف عبد الله: «والعصر، لَقَدْ خَلَقْنا الإِنسانَ في خُسْر»، ورُوي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَنه قرأَ: [إِنَّ الإِنْسانَ لَفي خُسْر، وإِنَّهُ فيهِ إِلى آخر الدَّهْرِ، إِلاَّ الذين]، وقرأَ عاصم، والأَعرج: [لَفِي خُسُر] بضم السين، وقرأَ سلام أَبو المنذر: [والعَصِرِ] بكسر الصاد، و«الصَّبِر» بكسر الباءِ، وهذا لا يجوز إِلاَّ في الوقف، على نقل الحركة، وروي عن أَبي عمرو: [بِالصَّبِر] بكسر الباءِ إِشماماً، وهذا أَيضاً لا يكون إِلاَّ في الوقف.

كمل تفسير سورة العصر والحمد لله ربّ العالمين

* * *

(١) في اللسان: «البَرْدان والأَبْردان: الظِّلُّ والفَيْءُ، سُمِّيا بذلك لبردهما، وهما: العَصْرَان، وقيل: هما الغداةُ والعشي، وقيل: ظِلاَّهما».

(٢) قال العلماءُ: لأَنها أَفضل الصلوات، وفي الخبر الصحيح «الصلاةُ الوسطى صلاة العصر» وقال عليه الصلاة والسلام: «شغلونا عن الصلاة الوُسْطى صلاةِ العصر»، متفق عليه، وروى مسلم أَنه ﷺ قال: «من فاتَتْه صلاةُ العصر فكأَنما وُتر أَهْلَه ومالَه».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الهمزة

وهي مكيّة بلا خلاف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩ ﴾.

﴿ وَيْلٌ ﴾ يجمع الشَّر والخزي، وقيل: وَيْلٌ واد في جهنم، و«الْهُمَزَةُ»: الذي يهمز الناسَ بلسانه، أي يعيبهم ويغتابهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو المشَّاءُ بالنَّميم[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس به، لكنهما صفتان بتلازم، قال تعالىٰ: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴾[٢] وقال مجاهد: الهُمزة: الذي يأكل لحوم الناس، وقيل لأعرابي: أتهمز إسرائيل؟ قال: إنِّي إذاً لرجل سوءٍ، حسب أنه يقال له: أتقع في سبِّه؟ و«اللُّمَزةُ» قريب من المعنى في «الْهُمَزَةِ»، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾[٣]، وقرأ ابن مسعود، والأعمش: [وَيْلٌ لِلْهُمَزَةِ اللُّمَزَةِ]. وهذا البناءُ الذي هو «فُعَلَة» يقتضي المبالغة في معناه، وقال أبو العالية، والحسن: الهَمْزُ بالحضور واللَّمْزُ بالمغيب، وقال مقاتل ضدَّ هذا، وقال بن أبي نُجيح: الْهَمْزُ باليد والعين واللَّمْزُ باللسان، قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾[٤].

(١) النَّميم: مصدرَ «نَمَّ»، يقال: نمَّ نميمةً ونميماً، وقيل: بل هي جمع «نميمة».

(٢) الآية (١١) من سورة (القلم).

(٣) من الآية (١١) من سورة (الحجرات).

(٤) من الآية (٥٨) من سورة (التوبة).

وقيل: نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق، وقيل: في جميل بن عامر الجمحي، ثم هي تتناول كلَّ من اتصف بهذه الصفات.

وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، والحسن: [جَمَّعَ] بشد الميم، والباقون بالتخفيف، وقوله تعالىٰ: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ معناه: أَحصاه وحافظ على عَدَده أَلاَّ يُنْقص، فمنعه من الخيرات ونفقة البر، وقال مقاتل: المعنى استعدَّه وادَّخره. وقرأ الحسن: [وَعَدَدَهُ] بتخفيف الدالين، فقيل: المعنى: جمع مالاً وعدداً من عشيرة، وقيل: أَراد «عدَّدَ» مشدَّداً فحلَّ التضعيف. وهذا قَلِقٌ.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ معناه: يحسب أَن مالَه هو معنى حياته وقوامها، وأَنه حفظه مدة عمره ويحفظه، ثم ردَّ تعالىٰ على هذه المحسبة، وأَخبر إِخباراً مؤكداً أَنه يُنبذ في الحطمة، أَي التي تحطم ما فيها وتلتهمه. وقرأَ: [يَحْسَبُ] ـ بفتح السين ـ الأَعرج، وأَبو جعفر، وشيبة، وقرأَ ابن محيصن، والحسن ـ بخلاف عنه ـ: [لَيُنْبَذَانِّ] بنون مكسورة مُشَدَّدَةٍ قبلها أَلفٌ، يعني: هو ومالُه، ورُوي عنه ضم الذال على نبذ جماعة، هو ومالُه وعدده، أَو يريد جماعة الهُمزات.

ثم عظَّم الله تعالىٰ شأْنها، وأَخبر أَنها نار الله الموقدة التي يبلغ إِحراقُها القلوب ولا تخمد، و«الفؤاد» القلب، ويحتمل أَن يكون المعنى: إنها لا يتجاوزها أَحد حتى تأْخذه بواجب عقيدة قلبه ونيته، فكأَنها مطلعة على القلوب بإِطلاع الله تعالىٰ إِيَّاها، ثم أَخبر تعالىٰ أَنها عليهم مُؤْصدة، ومعناه: مطبقة أَو مغلقة، قال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: أَبواب النار بعضها فوق بعض. وقوله تعالىٰ: ﴿فِى عَمَدٍ﴾ جمع «عمود» مثل أَديم وأَدَم، وهي عند سيبويه أَسماءُ جمع لا جموع جارية على الفعل. وقرأَ ابن مسعود: [مُوصدةٌ بعُمُد مُمَدَّدةٍ]، وقال ابن زيد: المعنى: في عمد حديد مغلولين لها، والكلُّ من نار، وقال أَبو صالح: هذه النار هي في قبورهم. وقرأَ عاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ وحمزة، والكسائي: [عُمُدٍ] بضم العين والميم، وقرأَ الباقون وحفصٌ عن عاصم بفتحهما. وقرأَ الجمهور: [مُمَدَّدَةٍ] بالخفض، على نعت «العَمَد»، وقرأَ عاصم: [مُمَدَّدَةٌ] بالرفع على اتباع [مُؤْصَدَةٌ][1].

كمل تفسير سورة «الهمزة» والحمد لله ربّ العالمين

---

(١) هذه قراءة عاصم في رواية أَبي بكر عنه، أما قراءة حفص عنه فهي بخفض (مُمَدَّدَةٍ) كالجمهور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الفيل

وهي مكيَّة إجماعاً من الرواة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾.

﴿كَيْفَ﴾ نصب بـ [فَعَلَ]، والجمهور على أنه فيل واحد، وقال الضحاك: ثمانية، فهو اسم الجنس، وقوله مردود، وحكى النقاش ثلاثة عشر.

وهذه السورة تنبيه على اعتبار في أَخْذ الله عزَّ وجلَّ لأَبرهة مِلك الحبشة ولجيشه حين أَمَّ به الكعبة ليهدمها، وكان صاحب فيل يركبه.

وقصته مشهورة في السيرة طويلة، واختصارها أَنه بنى في اليمن بيتاً، وأَراد أَن يَرِدَ إِليه حجُّ العرب، فذهب عربي فأَحدث في البيت الذي بناه أَبرهة، فغضب لذلك واحتفل في جموعه، وركب الفيل وقصد مكة، وغلب من تعرضه في طريقه من قبائل العرب، فلما وصل ظاهر مكة، وفرَّ عبد المطلب وقريش إِلى الجبال والشعاب، وأَسلموا له البلد، وغلب طغيانه، ولم يكن للبيت من البشر من يعصمه، جاءَت قدرة الواحد القهَّار، وأَخْذ العزيز المقتدر الجبار، فأَصبح أَبرهة ليدخل مكة ويهدم الكعبة، فبرك فيله بذي المُغَمِّس[1] ولم يتوجه قِبَل مكة، فَبَضَعوه بالحديد[2] فلم يمش إِلى ناحية مكة، وكان إِذا وجهوه إِلى غيرها هرول، فبينما هم كذلك في أَمر الفيل بعث الله تعالىٰ عليهم طيراً جماعات سوداً من البحر ـ وقيل خضْراً ـ، عند كل طير ثلاثة أَحجار في منقاره ورجليه، كلُّ حجر فوق العدسة ودون الحُمُّصة، فرمتهم بتلك الحجارة،

(١) موضع قريب من مكة في طريق الطائف.
(٢) بضعه: شق جلده وقطعه.

وكان الحجر منها يقتل المرميَّ، وتتهرأ لحومهم جرباً وأَسقاماً، وانصرف أَبرهة بمن معه يريد اليمن، فماتوا في طريقهم متفرقين في كل مرحلة، وتقطع أَبرهة أُنملة أُنملة حتى مات، وحمى الله تعالىٰ بيته المرفَّع، فنزلت هذه السورة مُنَبِّهة على الاعتبار بهذه القصة، ليعلم الكلُّ أَن الأَمر كله لله تعالىٰ، ويستسلموا للإِله الذي ظهرت في ذلك قدرته حين لم تغن الأَصنام شيئاً. فأَصحاب الفيل هم أَبْرَهةُ المِلِكُ ورجاله. وقرأَ أَبو عبد الرحمن: (أَلَمْ ترْ) بسكون الراءِ، و«التَّضليلُ»: الخَسَار والتلف. و«الأَبابيلُ»: الجماعاتُ تجيءُ شيئاً بعد شيءٍ، وقال أَبو عبيدة: لا واحد له من لفظه، وهذا هو الصحيح، لا ما تكلَّفه بعض النحاة وقال كعب:

كـادَتْ تُهَـدُّ مِـنَ الأَصْـواتِ راحِلَتـي إِذْ سَالَتِ الأَرْضُ بِالْجُرْدِ الأَبابيلِ[1]

وقد تقدم تفسير «حجارة السِّجِّيل» غير مرة، وهو من «سَنْجٍ وَكِلٍّ»[2]، أي: ماءٍ وطين، كأنها الآجرُ ونحوه مما طُبِخ[3] وهي المسوَّمة عند الله تعالىٰ للكفَّار والظالمين.

و«العَصْفُ»: ورق الحِنْطة وتبْنُه، ومنه قول علقمة بن عَبْدة:

تسْقـي مَـذانِـبَ قَـدْ زالـتْ عَصيفَتُهَـا حَدورُهَا مِنْ أَتِيِّ ٱلْماءِ مَطمومُ[4]

---

(١) تُهَدُّ: تضعف وتعجز عن الحركة. والرَّاحِلَةُ من الإبل: الصالح للأسْفار والأحْمال، والجُرْدُ: جمع أَجرد وهو الذي خلا جسمه من الشعر، أو قصر شعر جسمه، وهي صفة محمودة في الخيْل، والأبابيل: جمعٌ لا واحد له من لفظه، والمراد بها الجماعات التي تأتي وراء بعضها. وقيل: بل له مفرد ثم اختلف اللغويون في هذا المفرد ـ راجع اللسان ـ، هذا والبيت في اللسان، والقرطبي، والبحر المحيط. ومعنى «سالت الأرض بالجُرْد»: امتلأت بها حتى صارت كالسَّيل ينطلق ويتدفّق في كل أنحاءِ الوادي.

(٢) في اللسان «هو حَجَرٌ من طين، معرَّبٌ دخيل، وهو سَنْكِ وَكِلْ، أَيْ حجارة وطين، وقيل: من جلٍّ وطين، وقيل: من جلٍّ وحجارة».

(٣) الطين المحروق بعد جمعه وصبِّه في قوالب.

(٤) قال علقمة هذا البيت من قصيدة له يتناول فيها حبيبته ثم ناقته قبل أن يتحدث عن شخصيته، والبيت واحد من الأَبيات التي يصف فيها الناقة فيكثر من ذكر التفاصيل. والمذانب: مدافع الماءِ إلى الأرض، والعَصيفَةُ: الورق المجتمع الذي يكون فيه السنبل، والحَدُور: ما انحدر من الأَرض واطمأنَّ، والأَتِيُّ: السَّيل المندفع، والمطموم الممتلىءُ. يقول: إن هذه الناقة ـ التي وصفها قبل ذلك بالقوة وضخامة الجسم ـ تسقي هذه المذانب التي زال عنها ما كان بها من عصيفة، وامتلأ ما انخفض منها بماءِ السَّيل المندفع إليه من أَعلى.

والمعنى: صاروا طحيناً ذاهباً كورق الحِنْطة أَكلته الدوابُ وراثته[١] فَجَمَع المهانة والخِسَّة والتَّلف. وقرأَ أَبو المليحِ الهذلي[٢]: [فتركَهُمْ كعَصْفٍ]، وقال أَبو حاتم: وقرَأ بعضهم: «فَجعلتْهُمْ» ـ يعنون الطير ـ بفتح اللام وتاءٍ ساكنة، وقال عكرمة: العصْفُ: حبُّ البُرِّ إِذا أُكل فصار أَجوف، وقال الفراءُ: هو أَطراف الزرع قبل أَن يُسَنْبل.

وهذه السورة متصلة في مصحف أُبَيِّ بن كعب بسورة «لإِيلافِ قُرَيْش»، لا فصل بينهما[٣]، وقال سفيان بن عيينة، كان لنا إِمام يقرأَ بهما متصلةً سورة واحدة.

كمل تفسير سورة «الفيل» والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) أَي أَخرجته روثاً.

(٢) هو أَبو المليح ابن أُسامة بن عمير ـ أو عامر ـ بن حنيف بن ناجية الهُذَلي، اسمه عامر، وقيل: زيد، وقيل: زيادٌ. قال عنه الحافظ العسقلاني في (تقريب التهذيب): «ثقة، مات سنة ثمان وتسعين، وقيل: ثمان ومائة، وقيل: بعد ذلك».

(٣) فيكون المعنى متصلاً، والتقدير: فعلتُ ذلك بأَصحاب الفيل حتى تألف قريشٌ ما أَنْعمت به عليها من رحلتي الشتاءِ والصيف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة قريش

وهي مكيَّة بلا خلاف(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾.

قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم، وحمزة، والكسائي: (لإيلافِ قُرَيْش، إِيلاَفِهِمْ)، على «إِفعالٍ» والهمزة الثانية ياءٌ. وقرأ ابن عامر: [لإِلافِ]، على «فِعال» (إِيلافِهِمْ)، على إفعالٍ بياءٍ في الثانيةِ، وقرأ أبو بكر عن عاصم بهمزتين فيهما، الثانيةُ ساكنة قال أبو علي: وتحقيق عاصم هاتين الهمزتين لا وجه له، وقرأ أبو جعفر [إِلْفهِمْ] بلام ساكنة.

و«قريش»: ولد النَّضر بن كنانة، والتَّقْريش: التَّكَسُّب، تقول العربُ: «أَلِفَ الرَّجُلُ الأَمْر وآلَفَهُ غيرُهُ إِيَّاه»، فالله تعالىٰ آلَفَ قريشاً، أي جعلهم يألفون رحلتين في العام، واحدة في الشتاءِ وأُخرى في الصيف، ويقال أيضاً: «أَلِفَ» بمعنى «آلَفَ»، وأنشد أبو زيد:

مِـن الْمُـؤْلفـاتِ الـرَّمْـلِ أَدْمـاءُ حُـرَّةٌ شُعاعُ الضُّحى في جيدها يَتوضَّحُ(٢)

فإِلْفٌ وإِلاَفٌ مصدر «أَلِف»، وإِيلافٌ مصدر «آلفَ»، قال بعض الناس: كانت

---

(١) في القرطبي أنها مكية في قول الجمهور، ومدنية في قول الضحاك والكلبي.

(٢) هذا البيت لذي الرُّمَّة، والرواية في اللسان: «في مَتْنِها يَتَوَضَّحُ» بدلاً من «جيدها»، وهو شاهد على أنَّ «آلَفَ» تأتي بمعنى «أَلِفَ». يقال: «أَلِفْتُ الشيءَ وآلَفْتُه» بمعنى: لَزِمْتُه، والأُلْفَةُ هي الأُنْسُ بالشيءِ والتزامه، والأَدْماءُ: شديدة السُّمْرة، يصفها بأنها ممن أَلفت الرمل وأَنِست إليه، وأَنها سمراءُ تعودت أن تعيش حرة، ويصف جيدها بأنه يلمع كأن شعاع الشمس يصدر عنه.

الرحلتان إلى الشام في التجارة ونيل الأرباح، ومنه قول الشاعر:

سَفَـرَيْـنِ سَنَّهُمَـا لَـهُ ولِغَيْـرِهِ ... سَفَـرُ الشِّتـاءِ ورِحْلَـةُ الأَصْيـافِ(١)

وقال ابن عباس: كانت رحلة الشتاءِ إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى بُصرى من أَرض الشام، وقال أَبو صالح: كانت جميعاً إلى الشام، وقال ابن عباس أَيضاً: كانوا يرحلون في الصيف إلى الطائف حيث الماءُ والظل، ويرحلون في الشتاءِ إلى مكَّة للتجارة وسائر أَغراضهم، فهاتان رحلتا الشتاءِ والصيف، وقال الخليل بن أَحمد: فمعنى الآية: لأَن الله تعالىٰ فعل بقريش هذا ومكنهم من إِلْفِهِم هذه النعمة فليعبدوا ربَّ هذا البيت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذِكْرُ «البيت» هنا متمكن لتقدم حمايته في السورة التي قبلها.

وقال الأخفش وغيره: قوله تعالىٰ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾ متعلق بقوله سبحانه: ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾. أي: لِيَفْعَل بقريش هذه الأَفاعيل الجميلة، وقال بعض المفسرين: معنى الآية: اعجبوا لإِيلاف قريش هذه الأَسفار وإِعراضهم عن عبادة الله تعالىٰ، ثم أَمرهم تعالىٰ بالعبادة بَعْدُ، وأَعلمهم أَن الله هو الذي أَطعمهم وآمنهم لا سفرهم، والمعنى: فليعبدوا الذي أَطعمهم بدعوة إِبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾(٢)، وآمَنهم بدعوته حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾(٣)، ولا تشتغلوا بالأَسفار فإِنها طلب كسْبٍ وعرضُ دُنْيا. وقال النقاش: كانت لهم أَربع رحَلٍ، وهذا قول مردود، وقال عكرمة: معنى الآية كما أَلِفوا هاتيْن الرحلتيْن لدنياهم فليعبدوا ربَّ هذا البيت لآخرتهم، وقال قتادة: إِنَّما عُدِّدت عليهم الرحلتان لأَنهم كانوا يأَمنون من الناس في سفرهم، والناسُ يُغير بعضهم على بعض، ولا تُمكِّن قبيلاً من العرب أَن يرحل آمناً كما تفعل قريش، فالمعنى: فليعبدوا الذي خصَّهم بهذه الحال فأَطعمهم وآمنهم.

---

(١) سَنَّ: وضع وبيَّن، وكلُّ من ابتدأ أَمْراً عمِل به قومٌ من بعده فهو الذي سنَّه. والأَصْياف: جمع صَيْف، وهو الفَصْل المعروف من فصول العام، يقال في جمعه: صيوفٌ وأَصياف. ونُرَجِّح أن البيت من قصيدة قالها مطرود بن كعب الخزاعي في رثاءِ عبد المطلب ومدح فيها آل عبد مناف.

(٢) من الآية (٣٧) من سورة (إبراهيم).

(٣) من الآية (٣٥) من سورة (إبراهيم).

وقوله تعالىٰ: ﴿مِن جُوعٍ﴾ معناه أَن أَهل مكة قاطنون بوَادٍ غير ذي زرع عُرْضةً للجوع والجدب لولا لُطْف الله تعالىٰ وأَنْ جعلها بدعوة إِبراهيم عليه السلام تُجبى إِليه ثمراتُ كل شيءٍ. وقوله تعالىٰ: ﴿مِّنْ خَوْفٍ﴾، أَيْ: جعلهم ـ لِحُرْمة البيت ـ مفضَّلين عند العرب، يأَمنون والناس خائفون، ولولا فضل الله تعالىٰ في ذلك لكانوا بمدرج المخاوف. وقال ابن عباس، والضحاك: (آمَنَهُمْ مِنْ خوْفٍ) معناه: من الجُذام، فلا ترى بمكة مجذوماً.

كمل تفسير سورة «قريش» والحمد لله رب العالمين

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة الماعون

وهي مكيَّة بلا خلاف علمته، وقال الثعلبي: هي مدنية(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾.

هذا توقيف وتنبيه لتذكر نفسُ السامع كلَّ من تعرفه بهذه الصفة، وهمَز أَبو عمرو [أَرَأَيت] ـ بخلاف عنه ـ، ولم يهمزها نافع وغيره. و«الدِّينُ»: الجزاءُ ثواباً وعقاباً، والحساب هنا قريب من الجزاءِ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾، أَي: راقب فيه هذه الخلال السيئة تجدها، و«دَعُّ اليتيم»: دَفْعُه بعنف، وذلك إِمَّا أَن يكون المعنى: عن إِطعامه والإِحسان إِليه، وإِمَّا أَن يكون: عن حقِّه وماله، فهذا أَشد، وقرأَ أَبو رجاءٍ: [يَدَعُ] بفتح الدال خفيفة، بمعنى: لا يُحسن إِليه، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أَيْ لا يأمر بِصَدَقَة، ولا يرى ذلك صواباً.

ويُروى أَن هذه السورة نزلت في بعض المضطرِّين في الإِسلام بمكة الذين لم يُحقِّقوا فيه، وفُتِنوا فَافْتتنوا، وكانوا على هذا الخُلُق من الغشم وغِلَظ العشرة والفظاظة على المساكين، وربما كان بعضهم يصلي أَحياناً مع المسلمين مدافَعةً وحيرة، فقال الله تعالىٰ فيهم ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، وقال ابن جريج: كان أَبو سفيان ينحر كل أُسبوع جزوراً، فجاءَه يتيم فقرعه بعصاً، فنزلت السورة فيه،

(١) الذي في الأصول: تفسير سورة (أرأيت)، وقد أثبتنا الاسم المختار في المصحف الشريف.

قال سعد بن أَبي وقاصٍ رضي الله عنه: سأَلتُ النبي ﷺ عن الذين هم عن صلاتهم ساهون، قال: «هم الذين يُؤخرونها عن وقتها»[١]، يريد ﷺ ـ والله تعالىٰ أَعلم ـ تأْخير تَرْكٍ وإهمالٍ، وإِلى هذا نَحَا مجاهد، وقال قتادة: [ساهُونَ] هم التاركون لها، أَو هم الغافلون الذين لا يبالي أَحدهم صلَّى أَمْ لم يُصَلِّ، وقال عطاءُ بن يسار: الحمد لله الذي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾، ولم يقل: «في صلاتهم»، وفي قراءة ابن مسعود: [لاهون] بدل «ساهون».

وفي قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ بيانُ أَنَّ صلاة هؤلاءِ ليست لله تعالىٰ بِنِيَّة إِيمان، وإِنما هي رياءٌ للبشر، فلا قبول لها، وقرأ ابن أَبي إِسحاق، وأَبو الأَشهب: [يُرَؤُّنَ] مهموزة مقصورة مشددة الهمزة[٢]، وروى ابن أَبي إِسحاق: [يُرَؤُنَ] بغير شدٍّ في الهمزة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ وصفٌ لهم بقلَّة النفع لعباد الله، وتلك شرُّ خَلَّة[٣]، وقال علي بن أَبي طالب وابن عمر رضي الله عنهم: الماعُون: الزكاة، قال الراعي:

قَــوْمٌ عَلَــى الإِسْــلامِ لمَّــا يَمْنَعــوا ... مــاعُــونَهُــمْ وَيُضَيِّعُــوا التَّهْليــلاَ[٤]

---

(١) أخرجه ابن المنذر، وابن مردويه، والطبراني في الأوسط، وأَخرجه ابن جرير، قال: حدثني زكريا بن أبان المصري، حدثنا عمرو بن طارق، حدثنا عكرمة بن إبراهيم، حدثني عبد الملك بن عُمير، عن مصعب بن سعد، عن سعد بن أَبي وقاص، قال سأَلت رسول الله ﷺ عن الذين هم عن صلاتهم ساهون، قال: «هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها»، قال ابن كثير، وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكلِّية، ويحتمل صلاتها بعد وقتها شرعاً أو تأخيراً عن أول الوقت، وكذلك روى الحديث الحافظ أبو يعلى عن أَبي الربيع عن جابر عن عاصم عن مصعب عن أبيه موقوفاً، وقد ضعّف البيهقي رفعه وصحح وقفه، وكذلك الحاكم.

(٢) على وزن (يُصَلُّونَ).

(٣) الخَلة: الصِّفة أَو الخَصْلة.

(٤) هذا واحد من أَبيات قالها عبيد بن حصين الراعي، وهي:

أَخَليفَــةَ الإِسْــلام إِنَّــا مَعْشَــرٌ ... حُنَفَــاءُ نَسْجُــدُ بُكْــرَةً وَأَصيــلاَ
عَــرَبٌ نَــرَى للهِ مِــنْ أَمْــوالِنَــا ... حَــقَّ الــزَّكــاةِ مُنَــزَّلاً تَنْــزيــلاَ
قَــوْمٌ عَلَــى الإِسْــلامِ لَمَّــا يَمْنَعُــوا ... مَــاعُــونَهُــمْ وَيُضَيِّعُــوا ٱلتَّهْلِيــلاَ

والبيت الأخير في اللسان، والرواية فيه: «قومٌ عَلَى التنْزيل»، «ويُبَدِّلوا التنْزيلاَ» وفي التهذيب: =

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: هو ما يتعاطاه الناسُ بينهم كالفأْس والدلْو والآنية والمقصّ ونحوه، وقاله الحسن، وقتادة، وابن الحنفية، وابن زيد، والضحاك، وابن عباس، وقال ابن المسيَّب: الماعون ـ بلغة قريش ـ المال، وسُئِل النبيُّ ﷺ: ما الشيءُ الذي لا يحِلُّ منعه؟ فقال: «الماءُ والنار والملح»، روته عائشة رضي الله عنها، وفي بعض الطرق زيادة «والإبرة والخمير»(١)، وحكى الفراءُ عن بعض العرب أَن الماعونَ الماءُ، وقال ابن مسعود: كنَّا نعدُّ الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية القِدْر والدلو ونحوها.

كمل تفسير سورة «الماعون» والحمد لله رب العالمين

* * *

= «ويُبَدِّلُوا تَبْديلاَ». والبيت شاهد على أَن الماعون هو الزكاة، قال صاحب اللسان: «وعليه العمل، وهو من السهولة والقلة لأنها جزءٌ من كلٍّ».

(١) خرَّجه ابن ماجه في سننه، وفي إسناده لين، وذكره الثعلبي في تفسيره، ولفظه أَن عائشة رضوان الله عليها قالت: قلت: يا رسول الله، ما الشيءُ الذي لا يحلُّ منعه؟ قال: «الماءُ والنار والملح»، قلت: يا رسول الله، هذا الماءُ، فما بال النار والملح؟ فقال: «يا عائشة من أَعطى ناراً فكأنما تصدق بجميع ما طبخ بتلك النار، ومن أَعطى ملحاً فكأنما تصدق بجميع ما طيِّب به ذلك المِلْح، ومن سقى شربةً من الماءِ حيث يوجد الماءُ فكأنما أَعتق ستِّين نسمة، ومن سقى شربةً من الماءِ حيث لا يوجد فكأنما أَحيا نفساً، ومن أَحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الكوثر

وهي مكيّة(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

قرأ الحسن: [إنا أَنْطَيْنَاكَ]، وهي لغة في «أَعطى»، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «واليَدُ الْمُنْطِيةُ خير من السُّفلى»(٢)، وقال الأعشى:

جيــادُك خَيْــرُ جيــادِ الْمُلُــوكِ   تُصــانُ الجِـلالَ وتُنْطَـى الشَّعِيـرا(٣)

---

(١) هذا قول ابن عباس والكلبي ومقاتل، وقال الحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة: إنها مدنية.

(٢) أخرجه الإمام أحمد، عن عروة بن محمد بن عطية، عن أبيه عن جده، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «اليد المعطية خير من اليد السفلى»، هكذا بالعين في (المعطية)، أما بالنون فقد قال القرطبي: «روته أُمُّ سلمة عن النبي ﷺ، وهي لغة في العطاءِ، أَنْطيته: أَعطيته»، على أنه قد ورد التعبير «أنطى» بدلاً من «أعطى» وفي بعض أحاديث أُخرى، منها ما أَخرجه أَبو داود والدارمي في الصلاة، وأحمد في مسنده (٥/ ١٣٣)، ولفظه: عن أُبَيِّ بن كعب قال: كان رجل بالمدينة، لا أَعلم رجلاً كان أَبعد منه منزلاً ـ أو قال: داراً ـ من المسجد منه، فقيل له: لو اشتريتَ حماراً فركبته في الرمضاءِ والظلمات، فقال: ما يَسُرُّني أَن داري ـ أو قال: منزلي ـ إلى جنب المسجد، فنمي الحديث إلى رسول الله ﷺ فقال: ما أَردت بقولك: ما يَسُرُّني أن منزلي ـ أو قال: داري ـ إلى جنب المسجد؟ قال: أردت أن يكتب إقبالي إذا أَقبلت إلى المسجد، ورجوعي إذا رجعتُ إلى أَهلي، قال: أَعطاك الله تعالىٰ ذلك كله، أَو: أَنطاك الله ما احتسبت أَجمع، أو: أنطاك الله تعالىٰ ذلك كله لما احتسبتَ أَجمع.

(٣) هذا البيت من قصيدة قالها الأعشى يمدح هَوذة بن علي الحنفي، والرواية في الديوان: (جيادك في الصيف في نعمة)، وذلك أَن الصيف وقت الجفاف وقلة الخير، والجلالُ: جمع جُلٍّ، وهو ما تلبسه الدابة لِتُصانَ به، يقول: إن خيلك هي خير الخيول وأَفضلها لأَنها تصان بالجلال وتأكل الشعير في الوقت الذي لا يجد فيه غيرها شيئاً من ذلك، على أن الرواية بالنون لم ترد لا في الديوان ولا في غيره مع أنها لغة معروفة، والشواهد عليها في اللغة كثيرة، وفي الحديث «وإنَّ مال الله مسؤول ومُنْطىً»، أي مُعْطىً، وروى الشعبي أن رسول الله ﷺ قال لرجل: أَنْطِه كذا وكذا، أَي أَعطه، وأَنشد ثعلب: =

قال أَنس، وابن عباس، وابن عمر ـ رضي الله عنهم ـ وجماعة من الصحابة والتابعين: الكوثرُ نهرٌ في الجنة، حافتاه قبابٌ من دُرٍّ مجوَّف، وطينه مسك، وحصباؤه ياقوت، ونحو هذا من صفاته وإِن اختلفت أَلفاظ الرواة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً: الكوثرُ: الخيرُ الكثير.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

«كوْثَر» بناءُ مبالغة من الكثرة، ولا محالة أَن الذي أَعطى الله تعالىٰ محمداً ﷺ من النبوة والحكمة والعلم بربه تعالىٰ والفوز برضوانه والشرف على عباده هو أَكثر الأَشياءِ وأَعظمها، فكأَنه يقال في هذه الآية: إِنَّا أَعطيناك الحظَّ الأَعظم، قال سعيد بن جبير: النهر الذي في الجنة هو من الخير الذي أَعطاه الله تعالىٰ إِيَّاهُ، فنعم ما ذهب إِليه ابن عباس، ونعم ما تمَّم ابن جبير رضي الله عنهما، وأَمر النهر ثابت في الآثار في حديث الإِسراءِ وغيره، صلى الله على محمد وسلم، ونفعنا بما منحنا من الهداية به. وقال الحسن: الكوثر: القرآن، وقال أَبو بكر بن عياش: هو كثرة الأَصحاب والأَشياع، وقال جعفر الصادق: نورٌ في قلبه دلَّه على الله تعالىٰ وقطعه عما سواه، وقال أَيضاً: هو الشفاعة، وقال هلال بن يِسَاف[1]: هو التوحيد.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أَمر بالصلاة على العموم، ففيه المكتوبات بشروطها، والنوافل على أَثرها، والنَّحر نحر الهدي والنسك في الضحايا في قول جمهور الناس، فكأَنه تعالىٰ قال: ليكن شغلك هذين، ولم يكن في ذلك الوقت جهاد، وقال أَنس بن مالك: كان رسول الله ﷺ ينحر يوم الأَضحى قبل الصلاة فأُمِر أَن يصلي ثم ينحر، وقاله قتادة، وقال القرطبي وغيره: في الآية طعن على كفار مكة، أَي أَنهم يصلُّون لغير الله تعالىٰ مُكاءً وَتَصْدية[2]، وينحرون للأَصنام، ونحوه، فافعل هذا أَنت لربك تكن على صراط مستقيم.

= مِنَ الْمُنْطِيَاتِ الْموْكَبَ الْمَعْجَ بَعْدَ مَا ... يُرَى فِي فُرُوعِ الْمُقْلَتَيْنِ نُضُوبُ

راجع اللسان والتاج والصحاح وغيرها من كتب اللغة.

(١) هو هلالُ بن يِسافٍ ـ بكسر الياءِ، ثم سين بدون نقط، ثم فاءٌ ـ ويقال: ابن إِساف ـ بالهمزة، الأَشجعي، مولاهم الكوفي، ثقة. (تقريب التهذيب).

(٢) المكاء: الصفير بالفم، أَو بعد وضع أَصابع اليد فيه. والتصديةُ: التصفيق باليدين.

وقال ابن جبير : نزلت هذه الآية يوم الحُدَيْبيَة وقت صلح قريش، قيل لمحمد ﷺ : صلِّ وانحر الهَدْي، وعلى هذا تكون الآية من المدني، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أَنه قال: معنى الآية: صلِّ لِرَبِّك، وضع يمينك على شمالك عند نَحرك في الصلاة، فالنَّحْر ـ على هذا ـ ليس بمصدر نَحَرَ، بل هو الصدر، وقال آخرون: المعنى: ارفع يديك في استفتاح صلاتك عند نحرك.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ ردٌّ على مقالة كان كثير من سفهاءِ قريش يقولها لمَّا لم يكن لرسول الله ﷺ وَلَد، فكانوا يقولون: هو أَبتر، يموت فنستريح منه، ويموتُ أَمره بموته، فقال الله تعالىٰ ـ وقوله الحق ـ: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾، أَي المقطوع المبتور من رحمة الله تعالىٰ، ولو كان له بنون فهم غير نافعيه. و«الشَّانىءُ»: المُبْغِضُ. وقال قتادة: الأَبْتر يراد به هنا الحقير الذليل، وقال عكرمة: مات ابن النبي ﷺ فخرج أَبو جهل يقول «بُتِرَ محمد»، فنزلت السورة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في العاص بن وائل، سمَّى النبيَّ ﷺ حين مات ابنه عبد الله: أَبْتر.

كمل تفسير سورة الكوثر والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الكافرون

وهي مكيّة إجماعاً[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾.

قرأ أُبَيُّ بن كعب وابن مسعود: «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَروا».

ورُوي في سبب هذه السورة عن ابن عباس وغيره أَن جماعة من عُتاة قريش ورجالاتها قالوا للنبي ﷺ: دع ما أَنتَ فيه ونحن نُمَوِّلُك ونُزَوِّجُك من شئت من كرائمنا، ونُمَلِّكُكَ علينا، وإن لم تفعل فلتعبد آلهتنا ونعبدُ إِلـٰهَكَ حتى نشترك، فحيث كان الخير نلناه جميعاً، هذا معنى قولهم ولفظهم، لكن لِلرُّواة زيادة ونقص. ورُوي أَن هذه الجماعة المذكورة هم: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأَسود بن المطلب، وأُمية بن خلف، وأُبَيُّ بن خلف، وأَبو جهل، وابنا الحجاج، ونظراؤهم ممن لم يُسلم بعد، ولرسول الله ﷺ معهم في هذه المعاني مقامات نزلت السورة في إِحداها بسبب قولهم: هلُمَّ نشترك في عبادة إِلـٰهك وآلِهَتِنَا، ورُوي أَنهم قالوا: اعبد إِلـٰهَنا عاماً ونعبد إِلـٰهك عاماً، فأَخبرهم عن أَمْره عزَّ وجلَّ أَنه لا يعبد ما يعبدون، وأَنهم غير عابدين ما يعبد، فلما كان قوله: ﴿ لَا أَعْبُدُ ﴾ محتملاً أَن يُراد به «الآن» ويبقى المستأَنف منتظراً ما يكون فيه من عبادته جاءَ البيان بقوله: ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ أَيْ أَبداً وما حيِيتُ، ثم جاءَ قوله: ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ حتماً عليهم أَنهم لا يؤمنون به أَبداً كالذي كشف الغيبُ، فهذا كما قيل لنوح عليه السلام: ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا

---

(١) في القرطبي أن ابن مسعود والحسن وعكرمة قالوا: هي مكية، وأن قتادة والضحاك قالا: هي مدنية، وهذا أَيضاً أَحد قولَيْ ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[1]، أما إِنَّ هذا في مُعَيَّنين، وقوم نوح عموا بذلك، فهذا معنى الترديد الذي في السورة، وهو بارع الفصاحة وليس بتكرار فقط، بل فيه ما ذكرتُه مع التأكيد والإبلاغ، وزاد الأَمْرَ بياناً وتبرِّياً منهم بقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾، وفي هذا المعنى الذي عرضت قريش نزل أَيضاً: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾[2].

وقرأَ أَبو عمرو: [وَلِيْ دِين] ساكنة الياءِ من [لي]، ونصبها الباقون ـ بخلاف عن كل واحد منهم ـ والقراءتان حسنتان، وأَمال قوم [عابِدٌ] و[عابِدُونَ]، وفتحها قوم، وهما حسنتان أَيضاً، ولم يختلف السبعةُ في حذف الياءِ من (دِينِ)، وأَثبتها سلام، ويعقوب في الوصل والوقف، وقال بعض العلماءِ: في هذه الأَلفاظ مُهادَنَةٌ مَّا، وهي منسوخة بآية القتال.

كمل تفسير سورة «الكافرون» والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) من الآية (٣٦) من سورة (هود).

(٢) من الآية (٦٤) من سورة (الزُّمَر).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة النصر

وهي مدنيَّةٌ إجماعاً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾.

قرأَ ابن عباس رضي الله عنهما: «إِذَا جاءَ النَّصْرُ والْفَتْحُ»، وسأَل عمر بن الخطاب رضي الله عنه جمعاً من الصحابة والأَشياخ وبالحضرة ابن عباس، رضي الله عنهم، عن معنى هذه السورة وسببها، فقالوا كلهم: مقتضى ظاهر أَلفاظها أَن رسول الله ﷺ أُمر عند الفتوح التي فُتحت عليه ـ مكة وغيرها ـ بأَن يسبِّح ربه ويحمده ويستغفره، فقال لابن عباس: فما تقول أَنت يا بن عباس؟ فقال: هو أَجَل رسول الله ﷺ، أَعلمه الله تعالىٰ بِقُرْبه إذا رأَى هذه الأَشياءَ، فقال عمر رضي الله عنه: ما أَعلم منها إلاَّ ما ذكرتَ[1]. وهذا المنزع الذي ذكره ابن عباس ذكره ابن مسعود وأَصحابه، ومجاهد وأَصحابه، وقتادة، والضحاك، وروت معناه عائشة رضي الله عنها عن النبي عليه

---

(١) أَخرجه سعيد بن منصور، وابن سعد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي وأَبو نعيم معاً في (الدلائل)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان عمر يدخلني وأَشياخ بدر، فقال له عبد الرحمن بن عوف: لِمَ تُدخل هذا النَّشْءَ معنا ولنا أَبناءٌ مثله؟ فقال: إنه مَنْ قد علمتم، فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، وما رأيته دعاني يومئذ إلاَّ لِيُرِيَهُم مني، فقال: ما تقولون في قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾؟ حتى خَتَم السورة. فقال بعضهم: أَمرنا الله أن نحمده ونستغفره إذا جاءَ نصر الله وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، وبعضُهم لم يقل شيئاً، فقال لي: يابن عباس، أَكذلك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلتُ: هو أَجلُ رسول الله ﷺ ـ أَعلمه الله إذا جاءَ نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون، والفتح فتح مكة، وذلك علامة أَجلك، فسبِّح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً، فقال عمر: ما أَعلم منها إلاَّ ما تعلم. (الدر المنثور).

الصلاة والسلام، وأَنه ﷺ لمَّا فُتحت مكة وأَسْلم العرب جعل يكثر أَن يقول: «سبحان الله وبحمده، اللهم إِنِّي أَستغفرك»، يتأَول القرآن في هذه السورة[١] وقال لها مرة: ما أَراه إِلا حضور أَجلي، وتأَوله عمر والعباس رضي الله عنهما بحضرة النبي ﷺ فصدقهما[٢].

و«النَّصْرُ» الذي رآه رسول الله ﷺ غلبتُه لقريش وهوازن وغير ذلك، و«الفَتْحُ» هو فتح مكة والطائف ومدن الحجاز وكثير من اليَمن، و«دخولُ الناس في دين الله أفواجاً»؛ كان من فتح مكة إِلى موت رسول الله ﷺ. قال أَبو عُمر بن عبد البرِّ رحمه الله في كتابه «الاستيعاب في الصحابة»، في باب أَبِي خراش الهذلي ـ: لم يمت رسول الله ﷺ وفي العرب رجل كافر، بل دخل الكلُّ في الإِسلام بعد حُنَين والطائف، منهم من قَدِمَ، ومنهم من قدم وافده، ثم كان بعده ﷺ من الرِّدَّة ما كان، ورجعوا كلهم إِلى الدين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمراد ـ والله أعلم ـ العربُ عبدة الأَوثان، وأَما نصارى بني تغلب فما أَراهم أَسلموا قط في حياة رسول الله ﷺ، لكن أَعطوا الجزية.

و«الأَفواج»: الجماعة إِثر الجماعة، وكما قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾[٣]. وقال مقاتل: المراد بـ «النَّاس» أَهلُ اليمن، وفد منهم سبعمائة رجل، وقاله عكرمة، وقال الجمهور: المراد جميع وفود العرب؛ لأَنهم قالوا: إِذ فتح الحرم لمحمد، وقد حماه الله تعالىٰ من الحبشة وغيرهم، فليس لكم به يدان. وذكر جابر بن عبد الله فُرْقة الصحابة فبكى، وقال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «دخل الناسُ في الدين أَفواجاً وسيخرجون منه أَفواجاً»[٤].

---

(١) أَخرجه عبد الرزاق، وأَحمد، والبخاري، ومسلم، وأَبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، عن عائشة رضي الله عنها. (الدر المنثور).

(٢) ذكره القرطبي بدون سند، قال: «وقيل: نزلت في منى بعد أيام التشريق في حجة الوداع، فبكى عمر والعباس، فقيل لهما: إن هذا يوم فرح، فقالا: بل فيه نَعْي النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «صدقتما، نعيت إلي نفسي».

(٣) من الآية (٨) من سورة (المُلْك).

(٤) أَخرجه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وأَخرج مثله الحاكم ـ وصححه عن أَبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ بعَقِب ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُۚ﴾ ترجيةٌ عظيمة للمستغفرين، جعلنا الله تعالىٰ منهم، وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن النَّصْرَ هو صلح الحُدَيْبية، وأَن الفتح هو فتح مكة، وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة على النبي ﷺ بمنى في وسط أَيام التشريق، في حجة الوداع، وعاش بعدها ثمانين يوماً أَو نحوها، ﷺ.

كمل تفسير سورة «النصر» والحمد لله رب العالمين

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة المسد(١)

وهي مكيَّة بإجماع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾.

رُوي في الحديث أن رسول الله ﷺ لما نزلت عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قال: يا صفية بنت عبد المطلب، يا فاطمة بنت محمد، لا أملك لكما من الله شيئاً، سلاني من مالي ما شئتما، ثم صعد الصَّفا ونادى بطون قريش: يا بني فلان، يا بني فلان، وروي أنه صاح بأعلى صوته: يا صباحاه، فاجتمعوا إليه من كلِّ وجه، فقال لهم: أرَأيتم لو قلت لكم: إنِّي أُنذركم خيلاً بسفح هذا الجبل، أكنتم مُصدِّقي؟ قالوا: نعم، فقال: إنِّي لكم نذير بين يديْ عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبًّا لك اليوم: ألهذا جمعتنا؟ فافترقوا عنه، ونزلت هذه السورة(٢).

و[تبَّتْ] معناه: خسِرتْ، والتَّبابُ: الخُسران والدمار، وأسند ذلك إلى اليدين من حيث اليد موضع الكسب والربح وضمِّ ما يملك، ثم أوجب تعالىٰ عليه أنه قد تبَّ، أيْ

---

(١) في الأصول: تفسير سورة (تبَّتْ)، وأثبتنا الاسم الموجود في المصحف الشريف.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور، والبخاري، ومسلم، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي في (الدلائل)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. (الدر المنثور)، زاد الحميدي وغيره: فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالسٌ في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر رضي الله عنه، وفي يدها فِهْرٌ من حجارة ـ حجرٌ مِلْءُ الكف ـ، فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلاَّ أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، إن صاحبك قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، ثم أنشدت شعراً وانصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ قال: ما رأتني، لقد أخذ الله بصرها عني.

حُتِم ذلك عليه، وفي قراءة عبد الله بن مسعود: [تَبَّتْ يدا أَبي لَهبٍ. وقَدْ تبَّ]. وأَبو لهب هو عبد العُزَّى بن عبد المطلب، وهو عم النبي ﷺ، ولكن سبقت له الشقاوة. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن: [أَبِي لهْبٍ] بسكون الهاءِ، وقرأ الباقون بتحريك الهاءِ، ولم يختلفوا في فتحها في ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ يحتمل أَن تكون [ما] نافية، ويكون الكلام خبراً عن أَن جميع أَحواله الدنيوية لم تُغْن عنه شيئاً حين حُتم عذابُه بعد موته، ويحتمل أَن تكون [ما] استفهاماً على وجه التقرير، أَيْ: أَيْن الغناءُ الذي لِمَالِهِ ولِكسْبه؟ و﴿مَا كَسَبَ﴾ يُراد به عرض الدنيا من عقار ونحوه، أَو ليكون الكلام دالاً على أَنه تعب في تكسُّبه، لم يجئه عفواً بميراث وهبة ونحوه. وقال كثير من المفسرين: المراد بـ ﴿مَا كَسَبَ﴾ بنوه، فكأَنه تعالىٰ قال: ما أَغنى عنه ماله وولده، وقد قال رسول الله ﷺ: «خير ما كسب الرجلُ من عمل يده، وإِن ولد الرجل من كسبه»[(١)]. ورُوي أَن أَولاد أَبي لهب اختصموا عند ابن عباس رضي الله عنهما فتنازعوا وتدافعوا، فقام ابن عباس يحجز بينهم فدفعه أَحدهم فوقع على فراشه، وكان قد كُفَّ بصره، فغضب وصاح: أَخرجوا عني الكسب الخبيث، وقرأ أُبيٌّ بن كعب، والأُعمش: [وما اكْتَسَبَ].

وقوله تعالىٰ: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ حَتْم عليه بالنار، وإِعلامٌ بأَنه يوافي على كفره، وانتزع أَهل العلم بالأُصول من هذه الآية جواز تكليف ما لا يطاق، وأَنه موجود في قصة أَبي لهب، وذلك أَنه مخاطب مكلَّف أَن يؤمن بمحمد ﷺ، ومكلَّف أَن يؤمن بهذه السورة وصحتها، فكأَنه قد كلِّف أَن يُؤمن، وأَنْ يُؤْمِن بأَنه لا يُؤْمِن، قال الأُصوليون: ومتى ورد تكليف ما لا يطاق فهي أَمارة من الله تعالىٰ أَنه قد حَتَم عذابه، أَي عذاب ذلك المكلف، لقصة أَبي لهب. وقرأ الجمهور: [سَيَصْلَى] بفتح الياءِ، وقرأ ابن كثير، والحسن، وابن مسعود بضمها.

---

(١) أخرج أحمد في مسنده أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: إن لي مالاً ووالداً وإن والدي يريد أن يجتاح مالي، قال: «أنتَ ومالك لوالدك، إن أولادكم من أطيب كسبكم، فكلوا من كسب أولادكم»، وأخرجه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه.

وقد خرَّج أَبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَطيب ما أَكل الرجل من كسبه، وإِن ولده من كسبه».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾، هي أُمُّ جميل، أُخت أَبي سفيان بن حرب، عمة معاوية بن أَبي سفيان. وعطف قوله تعالىٰ: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ على الضمير المرفوع دون أَن يؤكد الضمير بسبب الحائل الذي ناب مناب التأْكيد، وكانت أُمُّ جميل هذه مؤذيةً لرسول الله ﷺ وللمؤمنين بلسانها وغاية قدرتها، وقال ابن عباس: كانت تجيءُ بالشوك فتطرحه في طريق النبي ﷺ وطريق أَصحابه ليعقرهم، فبذلك سُمِّيت حمالة الحطب، وعلى هذا التأْويل فـ [حَمَّالة] معرفة يرادُ به الماضي. وقيل: إِن قوله تعالىٰ: ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ استعارة لذنوبها التي تَحْطِبُها على نفسها لآخرتها، فـ ﴿حَمَّالَةَ﴾ ـ على هذا ـ نكرةٌ يرادُ به الاستقبال، وقيل: هي استعارة لسعيها على الدين والمؤمنين، كما تقول: «فلان يحطب على فلان»(١)، فكانت هي تحطب على المؤمنين، وفي حبل المشركين، وقال الشاعر:

إِنَّ بَنــي الأَدْرَمِ حَمَّــالـوا الْحَطَــبْ   هُمُ الْوُشَاةُ في الرِّضا وفي الْغَضبْ(٢)

وقرأَ ابن مسعود: [وَمُرَيْئَتُهُ]. وقرأَ الجمهور: [حَمَّالَةُ] بالرفع(٣)، وقرأَ عاصم: (حَمَّالَةَ) بالنصب على الذم، وهي قراءة الحسن والأعرج وابن محيصن، وقرأَ ابن مسعود: «حَمَّالَةٌ لِلْحطبِ» بالرفع ولام الجر وقرأَ أَبو قُلَابة: [حَامِلَةَ] بكسر الميم بعد الأَلِفِ.

قوله تعالىٰ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾، قال ابن عباس، والضحاك، والسُّدي،

---

(١) أي: يسعى به ويمشي بالنميمة بينه وبين الناس.

(٢) استشهد بهذين البيتين القرطبيُّ، وصاحب البحر المحيط، والشوكاني في فتح القدير، وزاد بعضهم بيتاً ثالثاً بعدهما يقول:

عَلَيْهِــمُ اللَّعْنَــةُ تَتْــرَى والْحَــرَبْ

وبنو الأَدرم: حيٌّ من قريش، وفي الصحاح أنهم قبيلة، والحَرَبُ: نَهْب مال الإنسان كله وتركه بلا شيءٍ، يصفهم الشاعر بأنهم وشاة نَمَّامون، يمشون بالفساد بين الناس.

ومثل هذا قولُ الشاعر:

مِـنَ الْبِيـضِ لَـمْ تُصْطَـد عَلَـى ظَهْـرِ لأْمَـةٍ   وَلَمْ تَمْشِ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَطَبِ الرَّطْبِ

أَي أنها لم تمش بالنمائم بين الناس، وجعل الحطب رطباً ليدل على الدخان الذي هو زيادة في الشر، وقد قال ﷺ: «لا يدخل الجنةَ نمام»، وقال صلواتُ الله وسلامه عليه: «من شرِّ الناس ذو الوجهين: الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه».

(٣) فهو خبر (وَامْرَأَتُهُ).

وابن زيد: الإشارة إلى الحبل حقيقة، وهو الذي ربطت به الشوكَ وحَطبه، قال السُّدي: والمَسدُ: اللِّيف، وقيل: ليف الْمَقْلِ، ذكره أَبو الفتح، وقال ابن زيد: هو شجر باليمن يُسمَّى المَسد، تصنع منه الحبال، وقال النابغة:

مقذوفةٍ بِدخيسِ النَّحْضِ بازِلُها ... لهُ صَريفٌ صَريفَ الْقَعْوِ بالْمَسَدِ(١)

القعْو: البكرة، والمَسَد: الحبلُ. وقال عروة بن الزبير، ومجاهد، وغيرهما: هذا الكلام استعارة، والمراد: سلسلةٌ من حديد في جهنم، ذرْعها سبعون ذراعاً، ونحو هذا من العبارات، وقال قتادة: (حَبْلٌ منْ مسَدٍ): قلادَةٌ من وَدَع، قال ابن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة فقالت: لأُنْفقنَّها على عداوة محمد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فإنما عبَّر عن قلادتها بحبل من مسدٍ على جهة التفاؤل لها، وذكر تبرجها في هذا السعي الخبيث، ورُوي في الحديث أَن هذه السورة لمَّا نزلت وقرئت بلغت أُمَّ جميل، فجاءت أَبا بكر رضي الله عنه وهو مع النبي ﷺ في المسجد، فقالت: يا أَبا بكر، بلغني أَن صاحبك هجاني، ولأَفعلن ولأَفعلن، وإِني لشاعرة، وقد قلت فيه:

مُذَمَّماً قَلَيْنا ... وَدينَهُ أَبَيْنَا

فسكت أَبو بكر، ومضت هي، فقال رسول الله ﷺ: لقد حجبتني عنها ملائكة فما رأَتني، وكفى الله شرَّها(٢).

كمل تفسير سورة «المسد» والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) هذا البيت من دالية النابغة التي قالها يمدح النعمان بن المنذر ويعتذر إليه عما بلغه عنه في أمر المتجردة، والبيت في وصف الناقة، ومقذوفةٍ، مَرْميٌّ عليها، على سبيل الاستعارة، إذ استعار القذف لإعطاءِ الشيءِ، والدَّخيس: الممتلىء بالسَّمْن، والنَّحْضُ: اللَّحْمُ، والبازل: الذي كبر وظهرت أَنيابه، والصَّريف: الصوتُ القويُّ، وانتصب (صريفَ) على المفعول المطلق، والقَعْو ـ بفتح القاف وسكون العين ـ: بَكَرةُ السَّقي إذا كانت من الخشب، والمَسَدُ: الحبلُ. ويروى (صريفٌ، صريفُ القَعْو) بضم (صريف) الثانية، وهذا على البدل من الأُولى.

(٢) سبق أن أشرنا إلى هذا في تخريج أول حديث في هذه السورة. وكانت قريش تسمي النبي ﷺ مُذَمَّماً، يريدون بذلك سبَّه، وكان ﷺ يقول: «أَلا تعجبون لِمَا صرف الله عني من أذى قريش؟ يسبُّون ويهجون مُذَمَّماً، وأنا محمدٌ».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة الإخلاص

هذه السورة مكية، قاله مجاهد ـ بخلاف عنه ـ وعطاءٌ وقتادة، وقال ابن عباس، والقرطبي، وأَبو العالية: هي مدنية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

قرأَ عمر بن الخطاب، وابن مسعود، والربيع بن خثيم: «قلْ هوَ اللهُ الواحدُ الصَّمدُ»، وروى أُبيُّ بن كعب أَن المشركين سأَلوا رسول الله ﷺ عن نسب ربه ـ تعالىٰ عما يقول الجاهلون ـ فنزلت هذه السورة[١]، وروى ابن عباس أَن اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا له: يا محمد، صفْ لنا ربك وانْسُبه، فإِنه وصف نفسه في التوراة ونسبها، فارتعد رسول الله ﷺ حتَّى خرَّ مغشياً عليه، ونزل عليه جبريل عليهما السلام بهذه السورة[٢]، وقال أَبو العالية وقال قتادة: قالت الأَحزاب لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فأَتاه الوحي بهذه السورة[٣].

و﴿أَحَدٌ﴾ معناه: واحدٌ فردٌ من جميع جهات الوحدانية ليس كمثله شيءٌ، و﴿هُوَ﴾ ابتداءٌ، و﴿اللهُ﴾ ابتداءٌ ثان، و﴿أَحَدٌ﴾ خبره، والجملة خبر الأَول، وقيل: ﴿هُوَ﴾

---

(١) أَخرجه أحمد، والبخاري في تاريخه، والترمذي، وابن جرير، وابن خُزَيمة، وابن أَبي حاتم في السنَّة، والبغوي في معجمه، وابن المنذر في العظمة، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأَسماء والصفات، عن أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه. (الدرّ المنثور).

(٢) أَخرجه بن أبي حاتم، وابن عدي، والبيهقي في الأَسماءِ والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما. (الدر المنثور).

(٣) أما عن أَبي العالية فقد أَخرجه ابن الضريس وابن جرير، وأما عن قتادة فقد أَخرجه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر. (الدر المنثور).

ابتداءٌ، و﴿اللهُ﴾ خبره، و﴿أَحَدٌ﴾ بدل منه، وحذف أَبو عمرو التنوين من ﴿أَحَد﴾ لالتقاءِ الساكنين فقرأَ: [اللهُ أَحَدُ اللهُ]، وأَثبته الباقون مكسوراً للالتقاءِ، وأَمَّا وقفهم كلهم فبسكون الدال، وقد رُوي عن أَبي عمرو الوصل بسكون الدال، ورُوي عنه أَيضاً تنوينها.

و﴿ٱلصَّـمَدُ﴾ في كلام العرب: السيِّد الذي يُصْمَدُ إِليه في الأُمور ويستقِلُّ بها، وأَنشدوا:

أَلاَ بَكَّـرَ النَّـاعـي بِخيْـرَيْ بَنـي أَسَـدْ بعَمْرِو بنِ مَسْعودٍ وبِالسيِّد الصَّمَدْ[١]

وبهذا تتفسَّر هذه الآية؛ لأَن الله تعالىٰ جلَّت قدرتهُ هو مُوجِد الموجودات، وإِليه تصمد، وبه قوامها، ولا غَنِيَّ بنفسه إِلاَّ هو سبحانه تبارك وتعالىٰ. وقال كثير من المفسرين: الصَّمَدُ: الذي لا جوف له، كأَنه بمعنى: المُصْمَت، وقال الشعبي: هو الذي لا يأْكل ولا يشرب. وفي هذا التفسير كلِّه نظر؛ لأَن الجسم في غاية البعد عن الله تعالىٰ وعن صفاته، فما الذي يُعطينا هذه العبارات؟ و﴿ٱللَّهُ ٱلصَّـمَدُ﴾ ابتداءٌ وخبر وقيل: ﴿ٱلصَّـمَدُ﴾ نعتٌ والخبرُ فيما بعد.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَـلِدْ وَلَـمْ يُولَـدْ﴾ ردٌّ على إِشارة الكفار في النَّسب الذي سأَلوه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «تفكَّروا في كل شيءٍ، ولا تتفكروا في ذات الله عزَّ وجلَّ».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لأَن الأَفهام تقف دون ذلك حسيرة، والمؤمنون يعرفون الله تعالىٰ بواجب وجوده، وافتقار كل شيءٍ إِليه، واستغنائه عن كل شيءٍ، وينفي العقل عنه كلَّ ما لا يليق به عزَّ

---

(١) استشهد بهذا البيت أبو عبيدة في (مجاز القرآن)، وصاحب اللسان في ـ صمد ـ، والقرطبي، والطبري، والبحر المحيط، وفتح القدير، ولم ينسبه أحد منهم، ولكن قال أبو عبيدة: قال الأَسدي. . . والنَّاعي: الذي يأتي بخبر الميت، والجمع: ناعون ونعاةٌ، وبكَّر: جاءَ مبكراً وقبل الأوان. ويروى البيت: (بخَيْر بني أَسَد)، والبيت شاهد على أن الصَّمَد هو السيِّد الذي يُقْصد، وليس فوقه أَحدٌ، وقد اختلفت أَقوال اللغويين في معناها، ولكنهم جميعاً لم يخرجوا عن معنى السيادة والعُلوِّ وعدم الحاجة لغيره، والتناهي في السؤدد والشرف، والكامل الذي لا عيب فيه، قال الشاعر:

عَلَـوْتُـهُ بِحُسـامٍ ثُـمَّ قلْـتُ لَـهُ خُـذهَـا حُـذَيفَ فَـأَنْتَ السيِّدُ الصَّمَدُ

وجلَّ، وأَنْ ليس كمثله شيءٌ، وكل ما ذكرته فهو في ضمن هذه السورة الوجيزة البليغة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ معناه: ليس له ضِدٌّ ولا نِدٌّ ولا شبيه، والكُفُؤ والكُفْؤ والكِفاءُ: النظير، وقرأَ: [كُفُواً] ـ بضم الكاف وهمز مُسَهَّل ـ نافع، والأَعرج، وأَبو جعفر، وشيبة. وقرأَ بالهمز عاصم(١)، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ، وقرأَ حمزة، وأَبو عمرو: [كُفْؤاً] بالهمز وإِسكان الفاءِ، وروي عن نافع: [كُفاً] بفتح الفاءِ وبغير همز، وقرأَ سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس: [وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كِفَاءً] بكسر الكاف وفتح الفاء والمدِّ، و[كُفُواً] خبر [كان]، واسمها [أَحَدٌ]، والظرف مُلغى، وسيبويه رحمه الله تعالىٰ يستحسن أَن يكون الظرف ـ إِذا تقدم ـ خبراً، ولكن قد يجيءُ مُلْغى في أَماكن يَقْتَضيها المعنى كهذه الآية، وكما قال الشاعر ـ أَنشده سيبويه ـ:

ما دام فيهِنَّ فصيلٌ حَيَّا(٢)

ويحتمل أَن يكون [كُفُواً] حالٌ لما تقدم من كونه وصفاً لنكرة، كما قال:

لِعَزَّةَ مُوحِشاً طَلَلُ . . . . (٣)

---

(١) قال أَبو حيَّان الأندلسي في البحر المحيط: «وقرأ حمزة وحفصٌ بضم الكاف وإسكان الفاءِ، وهمز حمزة وأَبدلها حفصٌ واواً».

(٢) هذا الشعر لابن ميَّادة، وهو في الكتاب لسيبويه، والخزانة للبغدادي، واستشهد به صاحب اللسان مرتين في (جلذ) وفي (هيا). وذكر سيبويه معه بيتين آخرين هكذا:

لَتَقْرُبِنَّ قَرَباً جُلْذِيَّا ... ما دامَ فيهِنَّ فَصيلٌ حَيَّاً
فَقَدْ دَجَا اللَّيلُ فهَيَّا هَيَّا

والخطاب لِنَاقَتِهِ، ولَتَقْرُبِنَّ: لَتَسيرنَّ الليلَ لورود الغَدِ، والجُلْذيُّ: السريع، أي: لَتَسيرنَّ سيراً سريعاً، وقيل: جُلْذيًا هو مرخم جُلْذِيَّة، وهو اسم ناقة الشاعر التي يتحدث إليها، وقوله: «فيهنَّ» يعني في الإبل التي تسيرين معها، ولم يجر لها ذكر، والفصيل: ولَدُ الناقة، ودَجَا الليلُ: أَظْلَم، وهَيَّا هيا: زَجْرٌ لها وتصويت بهذا الزَّجْر، ويُنْطق بفتح الهاءِ وبكسرها، يقول لناقته: أَسرعي وسيري مع الإبل حتى نصل، وأَنا لا أَعذرك ما دام في الإبل فصيل يطيق السَّيْر، والشاهد هو تقدم «فِيهِنَّ»، وكان المفروض أن يكون خبراً ولكنه أُلغي.

(٣) هذا صدر بيت يستشهد به النحاة على أن الحال تتقدم على صاحبها إذا كان نكرة، والبيت بتمامه:

لِعَزَّةَ مُوحِشاً طَلَلُ ... يَلُوحُ كَأَنَّهُ خِلَلُ

والبيت بهذه الرواية (لِعَزَّةَ) لِكُثَيِّر عزَّة، وقد رواه بها أَبو عليٍّ في التذكرة القصرية، ومن رواه (لِمَيَّةَ مُوحشاً) قال: إنه لذي الرُّمَّة، فإن (مَيَّة) اسم محبوبة ذي الرُّمَّة، و(عَزَّة) اسم محبوبة كُثَيِّر، والخِلَلُ=

قال سيبويه: وهذا يقلُّ في الكلام، وبابه الشعر، وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدلُ ثلث القرآن»[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لما فيها من التوحيد.

كمل تفسير سورة «الإخلاص» والحمد لله رب العالمين

* * *

= بكسر الخاءِ: جمع خلة، والخِلَل: بطائن تُغشَّى بها أَجفان السيوف وهي منقوشة بالذهب وغيره. والطَّلَلُ: ما شَخَص من آثار الديار، والموحش: الخالي من قولهم: «أَوْحَشَ المنزلُ» إذا ذهب عنه الناسُ وصار ذا وحشة، أي خَلْوة، وهمٌّ.

والحال التي تقدمت هنا هي (مُوحِشاً)، وصاحبُها (طَلَلٌ)، وقال بعض النحويين: يجوز أن يكون (مُوحشاً) حال من الضمير في (عَزَّة) وهي معرفة، وجعل الحال من المعرفة أَولى من جعله من النكرة متقدماً عليها.

هذا ويروى البيت برواية أُخرى، وهي:

لِعَــزَّةَ مُــوحِشــاً طَلَــلٌ قَــديــمُ عَفــاهُ كُــلُّ أَسْحَــمَ مُسْتَــدِيــمُ

وعَفَاه بمعنى: غَيَّرَهُ وأَذهبه، والأَسحم، الأَسود، والمراد به السحاب، والمستديم: الدائم مدة طويلة.

(١) أَخرجه أَبو عبيد في فضائله عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأَخرج أَبو عبيد، وأَحمد في فضائله، والنسائي في اليوم والليلة، وابن منيع، ومحمد بن نصر، وابن مردويه، والضياءُ في المختارة، عن أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنَّما قرأ ثلث القرآن». وأخرج ابن الضريس والبزار، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أَنس أن النبي ﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مائتي مرة غفر له ذنوب مائتي سنة». وأَخرج أَحمد، والترمذي، وابن الضريس والبيهقي في سننه، عن أَنس رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أُحِبُّ هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «حُبُّك إياهَا أَدخلك الجنة». والأَحاديث في فضل هذه السورة كثيرة متعددة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الفلق(١)

هذه السورة قال ابن عباس: هي مدنية، وقال قتادة: هي مكية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

الخطاب للنبي ﷺ، والمراد هو وآحاد أُمته.

وقال بن عباس، وابن جبير، والحسن، والقرطبي، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: «الفَلَقُ»: الصبح، كقوله تعالىٰ: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾(٢)، وقال ابن عباس أيضاً وجماعة من الصحابة والتابعين: الفلَقُ: جُبٌّ في جهنم، ورواه أبو هريرة عن النبي ﷺ(٣).

وقوله تعالىٰ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يعمُّ كلَّ موجود له شرٌّ. وقرأ عمرو بن عبيد وبعض المعتزلة القائلين بأن الله تعالىٰ لم يخلق الشَرَّ: «مِنْ شرٍّ» بالتنوين «ما خَلَقَ» على النفي، وهذه قراءة مردودة، مبنية على مذهب باطل، فالله تعالىٰ خالق كل شيءٍ.

واختلف الناسُ في «الغاسِقِ إذا وقب» ـ فقال ابن عباس، ومجاهد والحسن: الغاسق: الليل، ووَقَبَ: أظلم ودخل على الناس، وقال الشاعر:

إنَّ هَـــذا اللَّيْـــلَ قَـــدْ غسقَـــا وشَكَـــوْتُ الْهَـــمَّ والأرَقَـــا(٤)

---

(١) في الأصول: «تفسير سورة المُعَوِّذَةِ الأولى»، واخترنا الاسم المشهور والمثبت في المصحف الشريف.

(٢) من الآية (٩٦) من سورة (الأنعام).

(٣) أخرجه ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة، وقال الإمام ابن كثير عنه: «ورد في ذلك حديث مرفوع منكر، إسناده غريب، ولا يصحُّ رفعه». وقال ابن جرير في تفسيره: والصواب القول الأول: إنه فلَقُ الصبح، وقال ابن كثير: وهذا هو الصحيح، وهو اختيار البخاري في صحيحه.

(٤) هذا البيت لابن قيس الرُّقيَات، وهو في اللسان، والقرطبي، وغَسَقَ الليْلُ: انصَبَّ وأَظلَمَ.

وقال محمد بن كعب: [غاسق]: النهارُ ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أيْ دخل في الليل، وقال ابن زيد عن العرب: الغاسق: سقوط الثُّريَّا، وكانت الأَسقام والطاعون تهيج عنده[١]، وقال عليه الصلاة والسلام: «النجمُ هو الغاسق»[٢]، فيحتمل أَن يريد الثُّريَّا، وقال عليه السلام لعائشة رضي الله عنها ـ وقد نظر إلى القمر ـ: «تعوذي بالله مِنْ شرِّ غاسق إذا وقب، فهذا هو»[٣]، وقال القتبي وغيره: هو البَدْرُ إذا دخل في ساهوره فخسف[٤]، وقال الزهري: الغاسق إذا وقب: الشمس إذا غربت، و«وقب» في كلام العرب: دخل (. . . . . .)[٥].

و﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾: السواحر، ويقال: إن الإشارة أَولاً إلى بنات لبيد بن الأَعصم اليهودي، كُنَّ ساحرات، وهنَّ اللواتي سحرن النبي ﷺ، وعقدن له إحدى عشرة عقدة، فأَنزل الله تعالىٰ إحدى عشرة آية بعدد العقد هي المعوّذتان، فشفي النبي ﷺ[٦]، و«النَّفْث»: شبه النفخ دون تفل ريق، وهذا النَّفث هو على عُقَد تُعقد في خيوط ونحوها على اسم المسحور فيُؤْذى بذلك، وهذا الشأن في زماننا موجود شائع في صحراءِ المغرب، وحدثني ثقة أَنه رأَى عند بعضهم خيطاً أَحمر قد عُقدت فيه عقد على فُصْلان، فمنعت بذلك رضاعَ أُمهاتها، فكان إذا حلَّ عقدة جرى ذلك الفصيل إلى

---

(١) أي عند سقوط الثريا.

(٢) أَخرجه ابن جرير، عن أَبي هريرة، وقال ابن كثير عن هذا الحديث: «قلت: وهذا الحديث لا يصح رفعُه إلى النبي ﷺ».

(٣) رواه الإمام أَحمد، عن الحارث بن أَبي سلمة، ورواه الترمذي والنسائي في كتابَي التفسير من سننيهما من حديث عبد الرحمن بن أَبي ذئب، عن خاله الحارث بن عبد الرحمن، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح» ولفظه: «تعوذي بالله من شر هذا، فإن هذا الغَاسِقُ إذا وقب»، ولفظ النسائي: «تعوذي بالله من شرِّ هذا، هذا الغاسق إذا وقب»، كذلك أَخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مردويه. عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) الساهورُ: دارةُ القمر.

(٥) تركنا هنا سطرين من الأصول لأن ما فيهما لا يتفق مع جلال هذا الكتاب.

(٦) روى البخاري في كتاب الطبِّ من صحيحه، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان رسول الله ﷺ سُحر، حتى كان يرى أَنه يأتي النساءَ ولا يأتيهن» وهو حديث طويل. . . جاءَ في آخره «فقال: أَمَّا الله فقد شفاني. . .»، ورواه مسلم من حديث أَبي أُسامة وعبد الله بن نمير، ورواه أَحمد عن عفان، عن وهب، عن هشام، ورواه أَحمد أَيضاً عن إبراهيم بن خالد، عن معمر، عن هشام، عن أَبيه، عن عائشة رضي الله عنها.

أُمه في الحين فرضع، أَعاذنا الله تعالىٰ من شرِّ السحرة بقدرته. وقرأ عبد الله بن القاسم، والحسن، وابن عمر: [النافثات].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، قال قتادة: من شرِّ عينه ونفسه، يريد السعي الخبيث والإِذاية كيف قدر؛ لأنه عدوٌّ مجدٌّ ممتحن، وقال الشاعر:

كـلُّ العَـدَاوَةِ قَـدْ تُـرْجَـى إِمـاتَتُهـا ... إِلاَّ عَـداوَة مَـنْ عَـادَاكَ مِـنْ حَسَـدِ[١]

وعين الحاسد في الغالب لاقفةٌ، نعوذ بالله عزَّ وجلَّ من شرِّها، قال الشاعر:

وَإِذا أَرادَ اللهُ نَشْـــرَ فَضيلَـــةٍ ... طُـوِيَتْ أَتـاحَ لهـا لِسَـان حَسُـودِ[٢]

والحَسَد في الاثنتين اللَّتين قال رسول الله ﷺ حسدٌ مُسْتحسن غير ضار، وإِنما هو باعث على خير[٣].

وهذه السورة خمس آيات، فقال بعض الحذَّاق هي مرادُ الناس بقولهم للحاسد إِذا نظر إِليهم: الخمس على عينيك وقد غلطت العامة في هذا فيشيرون بالأَصابع لكونها خمسة.

وأَمال أَبو عمرو [حاسِد]، والباقون يفتحون الحاءَ، وقال الحسن بن الفضل: ذكر الله تعالىٰ الشرور في هذه السورة ثم ختمها بالحسد ليظهر أَنه أَخسُّ طبع.

كمل تفسير سورة «الفلق» والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) بيت مشهور، ذكره ابن قتيبة في كتاب الطبائع من (عيون الأخبار)، ولم ينسبه.

(٢) قال هذا البيت حبيب بن أَوس الطائي ـ أبو تمام ـ من قصيدة يمدح بها عبد الله بن أَبي دؤاد، وهو من الأَمثال السائرة مع بيت آخر بعده يقول فيه:

لَـوْلاَ اشْتِعـالُ النَّـارِ فيمَـا جـاوَرَتْ ... مـا كـانَ يُعْـرَفُ طِيبُ عَـرْفِ الْعُـودِ

فالحسود يذيع أَمجاد المحسود بين الناس، وينشر أَخباره وفضائله، وإِن نار الحسد تنشر عَرف الأَخلاق كما تنشر النار الحقيقية عَرف العود الطيب. وبمثل هذه الآراء في شعره قيل عن أَبي تمام إنه حكيم.

(٣) الحديث الذي يشير إليه هو قوله ﷺ: «لا حسد إلاَّ في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناءَ الليل والنهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه في الحق آناءَ الليل والنهار»، أَخرجه البخاري في العلم والزكاة والأَحكام والتمني والاعتصام والتوحيد، وأَخرجه أَحمد في مسنده (٢/ ٩، ٣٦)، واللفظ له.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الناس[(١)]

قال ابن عباس وغيره: هي مدنية، وقال قتادة: هي مكية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾.

﴿الْوَسْوَاسِ﴾ اسم من أَسماء الشيطان[(٢)]، وهو أَيضاً ما تُوَسْوِس به شهوات النفس وتُسَوِّله[(٣)]، وذلك هو الهوى الذي نُهِي المرءُ عن اتِّباعه، وأُمر بمعصيته، والغضب الذي وصى رسولُ الله ﷺ بطرْحه وتَرْكه حين قال له رجلٌ: أَوصني، فقال: «لا تغضب»، قال: زدني، قال: «لا تغضب»[(٤)].

وقوله تعالىٰ: ﴿الْخَنَّاسِ﴾ معناه: الراجع على عقبه، المستتر أَحياناً، وذلك في الشيطان متمكن[(٥)] إذا ذَكَر العبدُ الله تعالىٰ وتعوَّذَ، وتَذَكَّر فأَبصر، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[(٦)]، وإذا فرضنا ذلك في الشهوات والغضب ونحوهما فَهو يَخْنِس بتذكُّر النفس اللَّوَّامَة، وبلَمَّةِ الملَك، وبأَن الحياءَ يردعُ والإِيمان يردع بقوة، فتَخْنِسُ تلك العوارضُ المتحركة، وتنقمع عند

---

(١) في الأصول «تفسير سورة المُعَوِّذة الثانية»، واخترنا الاسم المشهور والمثبت في المصحف.

(٢) الوَسْواسُ ـ بفتح الواو ـ بمعنى الاسم، أَي المُوَسْوِس، وبكسر الواو المصدر، يعني الوسوسة، مثل الزَّلْزال والزِّلزال، والوسوسة هي حديث النفس.

(٣) سوَّلت له نفسُه: زيَّنَتْ لَهُ، وسوَّل له الشيطانُ: أَغواهُ.

(٤) أَخرجه البخاري في الأدب، والترمذي في البر، ومالك في «حسن الخلق» من موطئه، وأَحمد في مسنده (٢/ ٣٦٢) عن أَبي هريرة.

(٥) في بعض النسخ: «وذلك في الشيطان ينكص».

(٦) من الآية (٢٠١) من سورة (الأعراف).

من أُعين بتوفيق الله، وقد اندرج هذان المعنيان من الوسْواس في قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، أَي من الشياطين ونفس الإِنسان.

ويظهر أَيضاً أَن يكون قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّاسِ﴾ يُراد به من يوسوس بخدعة من البشر، ويدعو إِلى الباطل، فهو في ذلك كالشيطان.

وكلهم قرأَ: ﴿النَّاس﴾ غير مُمالة، وروى الدوري عن الكسائي أَنه أَمال النون من ﴿النَّاس﴾ في حال الخفض، ولا يُميل في الرفع والنصب.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ إِذا أَوى إِلى فِراشِهِ جمع كفَّيه ونفث فيهما، وقرأَ: «قُلْ هُوَ اللهُ أَحدٌ، والْمُعَوِّذتَيْن»، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأُ برأَسه ووجهه وما أَقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاثاً»[1]. وقال قتادة رحمه الله تعالىٰ: إِنَّ من الناس شياطين، ومن الجن شياطين، فتعوذوا بالله عزَّ وجلَّ من شياطين الإِنس والجن.

كمل تفسير سورة «الناس» والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) أَخرجه البخاريُّ في (فضائل القرآن)، وأَبو داود في (الأدب)، والترمذي في (الدعاء)، وأَحمد في مسنده (٦/١١٦)، عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

خاتمة

الحمد لله حمد الشاكرين، والصلاةُ والسلام على سيِّد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فقد بدأ هذا العمل الجليل في غُرَّة المحرم منذ أربعة عشر عاماً وبفضل من الله ورعايته وصلنا إلى نهاية الطريق، بعد أن عشنا في رحاب القرآن الكريم هذا الزمن الطويل، نقطف من ثماره، وننعم بِظلاله، ونرتوي من رحيقه العذب النمير، وكان فضل الله عظيماً، فقد وفَّق وهدى، وسدَّد الخطى، ويسَّر كل عسير، وذلَّل كل صعب، حتى تمت نعمته، وانتهت الرحلة الطويلة على خير ما نحب ونرضى.

لقد كان هذا العمل الكبير فوق طاقتي، وأكبر من جهدي ومعرفتي، لكن إيماني بالله، وثقتي في توفيقه وتأييده، كانا أكبر حافز لي على العمل، ويعلم الله كم لاقيت من الصعاب، وكم عانيت من المشكلات، لكني في كل وقت كنت ألجأُ إلى الله وأَستعينه، فأرى الصعاب تزول، والمشكلات تجد طريقها إلى الحلّ، فأتوجَّه إلى الله سبحانه بالحمد والشكر، وأَعود إلى العمل بِعَزم جديد.

ولم أكن وحدي ـ علم الله ـ في هذا العمل، فقد ساعدني كثير من الفضلاءِ، أذكرهم جميعاً بالتقدير والثناء، وأحمد لهم ما قدموه من عون صادق مخلص.

اللهم يا ذا الفضل والإنعام، أسألك الرحمة والغفران، والتجاوز عن سيئاتي، وأن تتقبل مني هذا العمل بالرضى، وأن تجعله في ميزان حسناتي، وأن تلطف بي فيما بقي من عمري، إنك سميع قريب مجيب.

سبحان ربك ربِّ العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله ربِّ العالمين.

السيد عبد العال السيد

القاهرة في ٢٤ من جمادى الأولى ١٤١٢

٣٠ من نوفمبر ١٩٩١

المصارف الوقفية

انطلاقاً من النهضة الوقفية المعاصرة في العالم الإسلامي ورغبة في حسن توجيه العمل الخيري والوقفي سعت إدارة الأوقاف بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر إلى توسيع نطاق الوقف وتعدد مصارفه من خلال إنشاء "**المصارف الوقفية**" المتضمنة للمصارف الستة حيث صدر القرار الوزاري رقم (٢٩) سنة ١٩٩٤ بشأن إنشاء أقسام في الوحدات الإدراية وتعيين اختصاصاتها والذي تضمن إنشاء "**قسم تنمية الوقف ومصارفه**" الذي كان في حينه يحتضن "**المصارف الوقفية**" التي أصبحت قسماً مستقلاً في فترة لاحقة وذلك تحقيقاً لاختصاصاته وأهدافه حيث اشتملت المصارف على مختلف نواحي الحياة الثقافية والتربوية والصحية والاجتماعية ...الخ، وذلك تشجيعاً لأهل الخير وإرشاداً لهم لوقف أموالهم على المشاريع الخيرية التنموية وتنظيماً لقنوات الصرف والإنفاق المساهمة في بناء المجتمع الإسلامي الحضاري.

اختصاصات قسم المصارف الوقفية:

* إعداد الدراسات اللازمة للمشاريع الوقفية الخيرية وتصميمها بشكل يلبي احتياجات المجتمع ويحقق شروط الواقفين وفق الضوابط الشرعية.

* دراسة المشاريع الخيرية المقدمة من الجهات الأخرى وصياغتها بما يتناسب مع أهداف المصارف الوقفية.

* عرض المشاريع الوقفية الخيرية على الراغبين في الوقف أو التبرع واستقبالهم واتخاذ الوسائل الكفيلة بالتواصل معهم.

* التعريف بالوقف والعمل على رفع مستوى الوعي الوقفي لدى أفراد المجمع ومؤسساته.

* تنفيذ ومتابعة المشاريع الوقفية الخيرية والسعي لتطويرها.

وأما المصارف الستة فهي:

١- المصرف الوقفي لخدمة القرآن والسنة.

٢- المصرف الوقفي لرعاية المساجد.

٣- المصرف الوقفي لرعاية الأسرة والطفولة.

٤- المصرف الوقفي للتنمية العلمية والثقافية.

٥- المصرف الوقفي للرعاية الصحية.

٦- المصرف الوقفي للبر والتقوى.

في

تحقيق وتعليق